(١٧) سورة الإسراء مكية وآياتها إحدى عشرة ومائة

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة في إطارها العام من « التوحيد ، والرسالة ، والإيمان بالبعث والجزاء » وقد تناولت موضوعاتٍ شتى كان معظمها يدور حول العقيدة ، وبعضُها في قواعدِ السلوكِ الفردي والجماعي ، وبعضِ الآداب الاجتماعية القائمة على أصول العقيدة الإسلامية ، وفي هذه السورة شيءٌ من القَصَص عن بني إسرائيل ، وما يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء ، وجانباً من قصة « آدم وإبليس » وما جرى من المحاورة بين ربِّ العزة جل وعلا وبين إبليس اللعين نتيجةً لاستنكافه عن السجود لآدم ، وعصيانه لأمرِ الله ، ولكنَّ العنصر البارز في هذه السورة هو « شخصيةُ الرسول الأعظم » ﷺ ، وما أيدّه الله به من المعجزات الباهرة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على عظيم فضلِه ، وجليل قدره عند الله . سُميت السورةُ الكريمة « سورةَ الإسراء » تخليداً لتلك المعجزة الربانية التي أكرم بها الله سيّد البشر محمدَ بن عبد الله ، فقد خصَّه الله بالإسراء والمعراج دون سائر الأنبياء ، ليطلعه على ملكوت السموات والأرض ، ويريَه من آياته الكبرى ، والإسراءُ إحدى معجزاتِ الرسول ﷺ الحسيَّة ، فقد أيده الله تعالى بمعجزات كثيرة : عقليةٍ ، وعلميةٍ ، وماديةٍ ، وكان من أظهر معجزاته عليه السلام تلك المعجزة الحسية « معجزة الإسراء » وهي السفر ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم العروجِ به

إلى السموات العُلى ، حيث رأى من آيات ربه الكبرى ما رأى « ما زاغَ البَصَرُ وما طغى » وكانت معجزة الإسراء والمعراج مظهراً من مظاهر التكريم الرباني لرسول الهدى عليه السلام . ولقد أحسن القائل حيث يقول :

سريتَ من حَرَم ليلاً إلى حَـرَم : كما سَرَى البدرُ في دَاجٍ من الظُلَمِ
وبتَّ تَرْقى إلى أنْ نلتَ منزلـــةً : من قابِ قوسينِ لَمْ تَدْرَكْ ولم تُرَمِ

وتسمى السورة كذلك « سورةَ بني إسرائيل » لذكر طَرَفٍ من أخبار بني إسرائيل وتَعْداد بعض جرائمهم ، وما قُضِيَ عليهم من نكبةٍ وهلاكٍ وتشريدٍ مرتين ، بسبب طغيانهم وإفسادهم في الأرض . تبتدىء السورة الكريمة بتمجيد الله وتنزيهه عن صفات النقص ، فالله تعالى لا يعجزه شيء ، فقد أكرم رسوله بالإسراء وليس ذلك عجيباً على قدرة الله ، ولا بعيداً عن مقام الرسول المكرَّم عند ربه « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » وقد كشف تعالى عن حكمه الإسراء « لنُرِيَه من آياتنا إنه هو السميعُ البصير » فهي إذاً رحلةُ تكريم للنبي العظيم وبمناسبة المسجد الأقصى ذكر تعالى اليهودَ ، وما أفسدوه في الأرض ، وما سلَّط عليهم من العذاب بأيدي المجوس الذين أذاقوهم أشد أنواع البطش والتنكيل ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتُفْسِدُنَّ في الأرضِ مرتين ، ولَتَعْلُنَّ عُلُواً كبيراً . فإذا جاء وعدُ أُولاهُما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد فجاسُوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾ ثم تناولت السورةُ القرآن العظيمَ الذي أنزله الله لهداية البشرية وبه السعادةُ السرمدية ﴿إنَّ هذا القرآنَ يهدي للتي هي أقومُ ويُبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً كبيراً . وأنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرةِ أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ ومن الآيات القرآنية ، ينتقل الحديثُ إلى الآيات الكونية ، التي تدلُ على العظمة

والوحدانية ، وإلى النظام الكوني الكبير الذي يحكم الليلَ والنهارَ ، ويرتبطُ به سعيُ الناس من خيرٍ وشر ، فالكلُّ يسير وَفْقَ ناموسٍ ثابتٍ ، ونظامٍ لا يتبدل ، وسُنَنٍ لا تتحوَّل ﴿وجعلنا الليلَ والنهارَ آيتينِ ، فمحونا آيةَ الليلِ وجعلنا آيةَ النهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربكم ولِتعْلَموا عدَدَ السنينَ والحسابَ ، وكلَّ شيءٍ فصَّلْناهُ تفصيلاً . وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عُنقه ، ونخرجُ له يوم القيامةِ كتاباً يلقاه منشوراً . إقرأْ كتابك كفى بنفسك اليومَ عليك حسيباً﴾ وقد تناولتْ السورةُ الكريمةُ طائفةً من الأوامر والزواجر والتكاليف الإلهية التي ينبغي أن يتمسك بها الناس ليذوقوا طعم السعادة ، ويستظلوا بظلال الشريعة الوارفة ، بدءاً من طاعةِ الوالدين إلى النهي عن الخيلاء والكِبْر ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيّاه وبالوالدين إحساناً .. إلى قوله تعالى ﴿ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً إنك لن تَخْرِقَ الأرضَ ولن تَبْلُغَ الجبالَ طولاً﴾ .

وبعد تلك الآداب المرتكزة على قاعدة التوحيد ، يأتي الحديثُ عن ضلالاتِ المشركين الذين نسبوا إلى الله الصاحبةَ والوَلَد ، ومن العجيب في أمر هؤلاء المشركين أنهم يكرهون البناتِ ثم ينسبونها إلى اللهِ العلي الكبير ، الذي له ملكُ السموات والأرض ، وهو الغنيُّ عن الخلق ، المتعالي على الشبيه والنظير والمثيل ﴿أفأصفاكم ربكُمْ بالبنينَ واتَّخذَ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولونَ قولاً عظيماً . ولقدْ صَرَّفْنا في هذا القرآنِ ليذكَّروا وما يَزيدهُم إلا نُفُوراً . قُلْ لو كانَ معهُ آلهةٌ كما يقولونَ إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العَرْشِ سَبيلاً . سُبْحانه وتَعَالى عمَّا يقولُونَ عُلُوّاً كبيراً تُسبِّحُ له السَّمواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومَنْ فيهنَّ ، وإنْ مِنْ شَيْءٍ إلا يُسبّحُ بحمده ، ولكنْ لا تفقهونَ تسبيحَهُمْ إنّه كان حليماً غفوراً﴾ ثم يأتي الحديثُ عن قضية « البعث والنشور » التي كثر الجدل حولها ، ولم تستطعْ نفوسُ المشركين أن تستوعبها – مع بساطتها ووضوحها – وصعُبَ

عليهم تصوُّرُ البعث بعد البِلَى ، والحياة بعد الفناء ، وقد جاءت الآيات الكريمة تذكر شبهتهم وتردُّ عليهم بالحجة والبرهان ، فإنَّ الذي قدر على إحياء الإنسان من العَدَم ، قادر على إعادته بعد الفناء ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خَلْقاً جديداً ؟ قُلْ كُونوا حجارةً أو حَديداً. أو خَلْقاً مما يكبُر في صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذي فَطَركمْ أوَّلَ مرة ، فَسَيُنْغِضُونَ إليكَ رءوسهم ويقولون مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أن يكون قريباً﴾ وتنتقل السورة إلى الحديث عن القرآن العظيم معجزةِ محمد الخالدة ومع ذلك استنكفوا عن الإيمان به ، وطلبوا من الرسول ﷺ خوارقَ حسيَّة ومعجزاتٍ مادية غير هذا القرآن وتعنتَّوا في اقتراحاتهم فطلبوا منه أن يُفجِّر لهم الأنهار ، وأن يُخرج لهم النخيل والثمار ، ويجعل لهم مكة حدائقَ وجناتٍ ، أو يصعد إلى السماء فيأتيهم بالله والملائكة عياناً ليشهدوا له بالنبوة والرسالة ، وتلكَ لعَمْرُ الحقِّ مطالبُ الجاهل الأحمق ﴿وقالوا لنْ نُؤمن لكَ حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكونَ لكَ جنةٌ من نخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خلالَها تفجيراً . أو تُسقِطَ السماء كما زعمتَ علينا كِسَفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكونَ لكَ بيتٌ من زخرفٍ أو تَرْقى في السماء ، ولن نُؤمن لِرُقيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحانَ ربي هل كنتُ إلا بشراً رسولاً﴾ ؟ وتختم السورة الكريمة بتنزيه الله تعالى عن الشريك والولد ، وعن صفاتِ النقصِ التي هي ملازمة للإنسان ، فالله هو العلي الكبير ، وهو الغني الحميد ، المستحق لجميع صفات الكمال ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكنْ له شريكٌ في المُلْكِ ، ولم يكنْ له وليٌّ من الذلِّ ، وكبِّرْه تكبيراً﴾

سورة بني إسرائيل

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] الآية.

[٥٤٧] أخرج ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة(١) قالت: سألت خديجة رسول الله [ﷺ] عن أولاد المشركين فقال: «هم من آبائهم» ثم سألته بعد ذلك فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(٢) وقال: «هم على الفطرة» أو قال: «في الجنة».

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ [الإسراء: ٢٨] الآية.

[٥٤٨] أخرج سعيد بن منصور عن عطاء الخراساني قال جاء ناس من مزينة يستحملون رسول الله [ﷺ] فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ظنوا ذلك من غضب رسول الله [ﷺ] فأنزل: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ﴾(٣) الآية.

[٥٤٩] وأخرج له ابن جرير عن الضحاك قال: نزلت فيمن كان يسأل النبي [ﷺ] من المساكين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ﴾ [الإسراء: ٢٩].

[٥٥٠] ك. . أخرج سعيد بن منصور عن سيار أبي الحكم قال أتى رسول الله [ﷺ] بزّ وكان معطياً كريماً فقسمه بين الناس فأتاه قوم فوجدوه قد فرغ منه

---

[٥٤٧] (١) قلت وأصل الحديث صحيح فقد رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٥) ومسلم في صحيحه (٢٠٤٨)، والنسائي في سننه (٤/ ٥٨و ٦٠)، والترمذي (٢١٣٨) وأبو داود (٤٧١١)، والإمام أحمد في مسنده (١/ ٢١٥) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧٠)، والإمام مالك في الموطأ (٢٤١) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٧٨) والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٢) و (١٠٣)، وغيرهم.

(٢) سورة الإسراء: الآية(١٥).

[٥٤٨] (٣) سورة الإسراء: الآية(٢٨) ـ وأصل الحديث رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٥/ ٣١٨) وابن سعد في الطبقات (٢/ ١/ ١١٩) والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٢٦).

فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا﴾(١) الآية.

[٥٥١] وأخرج ابن مردويه وغيره(٢) عن ابن مسعود قال جاء غلام إلى النبي [ﷺ] فقال إن أمي تسألك كذا وكذا قال: «ما عندنا شيء اليوم» قال فتقول لك اكسني قميصك فخلع قميصه فدفعه إليه فجلس في البيت حاسراً فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾(٣).

[٥٥٢] ك.. وأخرج أيضاً عن أبي أمامة أن النبي [ﷺ] قال لعائشة: «أنفق ما على ظهر كفي» قالت إذن لا يبقى شيء فأنزل الله ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾(٤) الآية وظاهر ذلك أنها مدنيّة.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الإسراء: ٢٦] الآية.

[٥٥٣] أخرج الطبراني وغيره عن أبي سعيد الخدري قال لما أنزلت: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾(٥) دعا رسول الله [ﷺ] فاطمة فأعطاها فدك قال ابن كثير هذا مشكل فأنه يشعر بأن الآية مدنيّة والمشهور خلافه وروى ابن مردويه عن ابن عباس مثله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الإسراء: ٤٥] الآية.

[٥٥٤] أخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال كان رسول الله [ﷺ] إذا تلا القرآن على مشركي قريش ودعاهم إلى الكتاب قالوا يهزؤن به قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾(٦) الآيات.

ك.. **قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾ [الإسراء: ٥٦] الآية.**

[٥٥٥] أخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال كان ناس من الأنس

---

[٥٥٠] (١) سورة الإسراء: الآية (٢٩).
[٥٥١] (٢) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٦٥) من طريق قيس بن الربيع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص به مثله والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٣١)، والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٢٣).
(٣) سورة الإسراء: الآية (٢٩).
[٥٥٢] (٤) سورة الإسراء: الآية (٢٩).
[٥٥٣] (٥) سورة الإسراء: الآية (٢٦).
[٥٥٤] (٦) سورة الإسراء: الآية (٤٥).

يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجنيون واستمسك الآخرون بعبادتهم فأنزل الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾(١) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ [الإسراء: ٥٩] الآية.

[٥٥٦] أخرج الحاكم والطبراني وغيرهما(٢) عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي [ﷺ] أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعوا فقيل له إن شئت أن تستأني بهم وإن شئت تؤتهم الذي سألوا فأن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم قال: «بل استأني بهم» فأنزل الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾(٣) الآية. وأخرج الطبراني وابن مردويه عن الزبير نحوه أبسط منه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا﴾ [الإسراء: ٦٠] الآية.

[٥٥٧] أخرج أبو يعلى عن أم هانىء أنه [ﷺ] لما أسرى به أصبح يحدث نفراً من قريش يستهزؤن به فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس وذكر لهم قصة العير فقال الوليد بن المنيرة هذا ساحر فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(٤) وأخرج ابن المنذر عن الحسن نحوه.

[٥٥٨] وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي أن رسول الله [ﷺ] أصبح يوماً مهموماً فقيل له مالك يا رسول الله لا تهتم فأن رؤياك فتنة لهم فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(٥) وأخرج ابن جرير من حديث سهل بن سعد نحوه وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عمرو بن العاص ومن حديث يعلى بن مرة ومن مرسل سعيد بن المسيب نحوها وأسانيدها ضعيفة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠] الآية.

[٥٥٩] أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث(٦) عن ابن عباس قال لما

---

[٥٥٥] (١) سورة الإسراء: الآية (٥٦).

[٥٥٦] (٢) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٦٦) من طريق الأعمش عن جعفر بن ياسر عن سعيد بن جبير به مثله.

(٣) سورة الإسراء: الآية (٥٩).

[٥٥٧] (٤) سورة الإسراء: الآية (٦٠).

[٥٥٨] (٥) سورة الإسراء: الآية (٦٠).

[٥٥٩] (٦) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٦٦) من طريق محمد بن إسحاق عن حكيم بن عباد بن حنيف عن عكرمة به مثله.

ذكر الله الزقوم خوف به هذا الحي من قريش قال أبو جهل هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد قالوا لا قال الثريد بالزبد أما لئن أمكننا منها لنزقمنها زقماً فأنزل الله: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾(1) وأنزل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾(2).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] الآية.

[٥٦٠] أخرج ابن مردوية وابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: خرج أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ورجال من قريش فأتوا رسول الله [ﷺ] فقالوا يا محمد تعال تمسح بآلهتنا وندخل معك في دينك، وكان يحب إسلام قومه فرق لهم فأنزل الله ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إلى ﴿نَصِيرًا﴾(3) قلت هذا أصح ما ورد في سبب نزولها وهو إسناد جيد وله شاهد.

[٥٦١] أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال كان رسول الله [ﷺ] يستلم الحجر فقالوا لا ندعك تستلم حتى تستلم بآلهتنا فقال رسول الله [ﷺ]: **«وما علي لو فعلت والله يعلم مني خلافه»** فنزلت(4)، وأخرج نحوه عن ابن شهاب.

[٥٦٢] وأخرج عن جبير بن نفير أن قريشاً أتوا النبي [ﷺ] فقالوا إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم فنكون نحن أصحابك، فركن إليهم فنزلت.

[٥٦٣] وأخرج عن محمد بن كعب القرظي أنه [ﷺ] قرأ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ إلى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾﴾(5) فألقى عليه الشيطان تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى فنزلت فما زال مهموماً حتى أنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ﴾(6) الآية وفي هذا دليل على أن هذه الآيات مكية.

---

(1) سورة الإسراء: الآية (٦٠).
(2) سورة الدخان: الآية (٤٣ و٤٤).
[٥٦٠] (3) سورة الإسراء: الآية (٧٣و ٧٤و ٧٥).
[٥٦١] (4) انظر الدر المنثور (٤/ ١٩٤).
[٥٦٣] (5) سورة النجم: الآية (١٩).
(6) سورة الحج: الآية (٥٢).

[٥٦٤] ومن جعلها مدنيّة استدل بما أخرجه ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس أن شعباً قال للنبي [ﷺ] أجلنا سنة حتى يهدي إلى آلهتنا فإن قبضنا الذي يهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا فهم أن يؤجلهم فنزلت وإسناده ضعيف.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٦] الآية.

[٥٦٥] أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل من حديث شهر بن حوشب عن عبد الرحمٰن بن غنم أن اليهود أتوا النبي [ﷺ] فقالوا إن كنت نبياً فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدق رسول الله [ﷺ] ما قالوا فغزا غزوة تبوك يريد الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾(١) وأمره بالرجوع إلى المدينة وقال له جبريل سل ربك فإن لكل نبي مسئلة فقال: «ما تأمرني أن أسأل» قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾(٢) فهؤلاء نزلن في رجعته من تبوك هذا مرسل ضعيف الإسناد.

[٥٦٧] وله شاهد من مرسل سعيد بن جبير عند ابن أبي حاتم ولفظه قالت المشركون للنبي [ﷺ] كانت الأنبياء تسكن الشام فما لك والمدينة فهم أن يشخص فنزلت وله طريق أُخرى مرسلة عند ابن جرير أن بعض اليهود قال له.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ [الإسراء: ٨٠] الآية.

[٥٦٨] أخرج الترمذي عن ابن عباس قال كان النبي [ﷺ] بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾(٣) وهذا صريح في أن الآية مكيّة وأخرجه ابن مردويه بلفظ أصرح منه.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] الآية.

[٥٦٩] أخرج البخاري عن ابن مسعود قال كنت أمشي مع النبي [ﷺ] بالمدينة وهو متوكىء على عسيب فمرّ بنفر من يهود فقال بعضهم لو سألتموه فقالوا

---

[٥٦٥] (١) سورة الإسراء: الآية (٧٦).
(٢) سورة الإسراء: الآية (٨٠).
[٥٦٨] (٣) سورة الإسراء: الآية (٨٠).

حدثنا عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي ثم قال: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(١).

[٥٧٠] وأخرج الترمذي عن ابن عباس قال قالت قريش لليهود علمونا شيئاً نسأل هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فسألوه فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾(٢) قال ابن كثير يجمع بين الحديثين بتعدد النزول وكذا قال الحافظ ابن حجر أو يحمل سكوته حين سؤال اليهود على توقع مزيد بيان في ذلك وإلا فما في الصحيح أصح. قلت: ويرجح ما في الصحيح بأن راويه حاضر القصة بخلاف ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟﴾ [الإسراء: ٨٨] الآية.

[٥٧١] أخرج ابن إسحاق وابن جرير من طريق سعيداً وعكرمة عن ابن عباس قال: جاء النبي [ﷺ] سلاّم بن مشكم في عامة من يهود سماهم فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وإن هذا الذي جئت به لا نراه مناسقاً كما تناسق التوراة فأنزل علينا كتاباً نعرفه وإلا جئناك بمثل ما تأتي به فأنزل الله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾(٣) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ [الإسراء: ٩٠] الآية.

[٥٧٢] أخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلاً من بني عبد الدار وأبا البحتري والأسود بن المطلب وربيعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أمية وأُمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابنى الحجاج اجتمعوا فقالوا يا محمد ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد سببت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر مالاً وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد

---

[٥٦٩] (١) سورة الإسراء: الآية (٨٥) ـ والحديث رواه الواحدي أيضاً في أسباب النزول.

[٥٧٠] (٢) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

[٥٧١] (٣) سورة الإسراء: الآية (٨٨).

غلب بذلنا أموالنا في طلب العلم حتي نبرئك منه فقال رسول الله [ﷺ]: **«ما بي ما تقولون ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم مبشراً ونذيراً»** قالوا فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ولا أقل مالاً ولا أشد عيشاً منا فلتسأل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من قد مضى من آبائنا فإن لم تفعل فسل ربك ملكاً يصدقك بما تقول وأن يجعل لنا جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة نعينك بها على ما نراك تبتغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش فإن لم تفعل فاسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل فقام رسول الله [ﷺ] عنهم وقام معه عبدالله بن أبي أُمية فقال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ثم يسألوك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترتقي فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة منشورة ومعك أربعة من الملائكة فيشهدون لك إنك كما تقول فانصرف رسول الله [ﷺ] حزيناً فأنزل عليه ما قال له عبدالله بن أبي أُمية ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾(١).

[٥٧٣] وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾(٢) قال نزلت في أخي أم سلمة عبدالله بن أبي أُمية مرسل صحيح شاهد لما قبله يجبر المبهم في إسناده.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الإسراء: ١١٠] الآية.

[٥٧٤] أخرج ابن مردويه وغيره عن ابن عباس قام رسول الله [ﷺ] بمكة ذات يوم فدعا فقال في دعائه **«يا الله يا رحمن»** فقال المشركون انظروا إلى هذا الصابيء ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فأنزل الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾ [الإسراء: ١١٠] الآية.

---

[٥٧٢] (١) سورة الإسراء: الآيات (٩٠ ـ ٩٤).
[٥٧٣] (٢) سورة الإسراء: الآية (٩٠) ـ والحديث رواه الواحدي في أسباب النزول.
[٥٧٤] (٣) سورة الإسراء: الآية (١١٠).

[٥٧٥] أخرج البخاري وغيره عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[1] قال نزلت في رسول الله [ﷺ] فهتف بمكة وكان إذا صلّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فكان المشركون إذا سمعوا القرآن سبوه ومن أنزله ومن جاء به فنزلت.

[٥٧٦] وأخرج البخاري أيضاً عن عائشة أنها نزلت في الدعاء، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله ورجح الأولى لكونها أصح سنداً وكذا رجحها النووي وغيره، وقال الحافظ ابن حجر لكن يحتمل الجمع بينهما بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة.

[٥٧٧] وقد أخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله [ﷺ] إذا صلى عند البيت رفع صوته بالدعاء فنزلت.

[٥٧٨] وأخرج ابن جرير والحاكم عن عائشة قالت: نزلت هذه الآية في التشهد وهي مبينة لمرادها في الرواية السابقة.

[٥٧٩] ولابن منيع في مسنده عن ابن عباس كانوا يجهرون بالدعاء اللّهم ارحمني فنزلت فأمروا أن لا يخافتوا ولا يجهروا.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء: ١١١] الآية.

[٥٨٠] أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: إن اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولداً وقالت العرب لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك وقال الصابئون والمجوس لولا أولياء الله لذل فأنزل الله ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾[2].

* * *

---

[٥٧٥] (١) سورة الإسراء: الآية (١١٠) ـ والحديث رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٧٠) من طريق هشيم عن أبو بشر عن سعيد بن جبير به مثله.

[٥٨٠] (٢) سورة الإسراء: الآية (١١١).

سورة الإسراء

مكية. إلا الآيات: ٢٦ و٣٢ و٣٣ و٥٧ ومن آية ٧٣ إلى غاية آية ٨٠ فمدنية

وآياتها: ١١١ نزلت بعد القصص

عن ابن عباس أنها مكية، غير قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٧١] إلى قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠] فإنها مدنيات، نزلت حين جاء وفد ثقيف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال النحويون: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ اسم علم للتسبيح يقال: سبحت الله تسبيحًا وسبحانًا، فالتسبيح هو المصدر، وسبحان اسم علم للتسبيح كقولك: كفرت اليمين تكفيرًا وكفرانًا وتفسيره تنزيه الله تعالى من كل سوء. قال صاحب (النظم): السبح في اللغة التباعد، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا﴾ [المزمل: ٧] أي تباعدًا فمعنى: سبح الله تعالى، أي بعده ونزهه عما لا ينبغي وتمام المباحث العقلية في لفظ التسبيح قد ذكرناها في أول سورة الحديد، وقد جاء في لفظ التسبيح معان آخرى: أحدها: أن التسبيح يذكر بمعنى الصلاة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣] أي من المصلين، والسبحة الصلاة النافلة، وإنما قيل للمصلي مسبح، لأنه معظم لله بالصلاة ومنزه له عما لا ينبغي. وثانيها: ورد التسبيح بمعنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨] أي تستثنون وتأويله أيضًا يعود إلى تعظيم الله تعالى في الاستثناء بمشيئته. وثالثها: جاء في الحديث: «لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَتْ مِنْ شَيْءٍ» قيل معناه نور وجهه، وقيل: سبحات وجهه، نور وجهه الذي إذا رآه الرائي قال: سبحان الله، وقوله: ﴿أَسْرَىٰ﴾ قال أهل اللغة: أسرى وسرى لغتان: وقوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ أجمع المفسرون على أن المراد محمد عليه الصلاة والسلام، وسمعت الشيخ الإمام الوالد عمر بن الحسين رحمه الله قال: سمعت الشيخ الإمام أبا القاسم سليمان الأنصاري قال: لما وصل محمد صلوات الله عليه إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعارج أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم أشرفك؟ قال: «رَبِّ بِأَنْ تَنْسِبَنِي إِلَى نَفْسِكَ بِالْعُبُودِيَّةِ» فأنزل الله فيه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ نصب على الظرف.

فإن قيل: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل؟

قلنا: أراد بقوله: ﴿لَيۡلٗا﴾ بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية، واختلفوا في ذلك الليل قال مقاتل: كان ذلك الليل قبل الهجرة بسنة، ونقل صاحب (الكشاف) عن أنس والحسين أنه كان ذلك قبل البعثة. وقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ اختلفوا في المكان الذي أسرى به منه، فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الذي يدل عليه ظاهر لفظ القرآن، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «بَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحِجْرِ عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إِذْ أَتَانِي جِبْرِيلُ بِالْبُرَاقِ»(1) وقيل أسري به من دار أم هانيء بنت أبي طالب. والمراد على هذا القول بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس الحرم كله مسجد، وهذا قول الأكثرين وقوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ اتفقوا على أن المراد منه بيت المقدس وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام وقوله: ﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ قيل بالثمار والأزهار، وقيل بسبب أنه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة.

واعلم أن كلمة (إلى) لانتهاء الغاية فمدلول قوله: ﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ أنه وصل إلى حد ذلك المسجد فأما أنه دخل ذلك المسجد أم لا فليس في اللفظ دلالة عليه، وقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ يعني ما رأى في تلك الليلة من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى.

فإن قالوا: قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ يدل على أنه تعالى ما أراه إلا بعض الآيات، لأن كلمة ﴿مِن﴾ تفيد التبعيض، وقال في حق إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] فيلزم أن يكون معراج إبراهيم عليه السلام أفضل من معراج محمد ﷺ.

قلنا: الذي رآه إبراهيم ملكوت السموات والأرض، والذي رآه محمد ﷺ بعض آيات الله تعالى، ولا شك أن آيات الله أفضل.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أي أن الذي أسرى بعبده هو السميع لأقوال محمد، البصير بأفعاله، العالم بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الرياء، مقرونة بالصدق والصفاء، فلهذا السبب خصه الله تعالى بهذه الكرامات، وقيل: المراد سميع لما يقولون للرسول في هذا الأمر، بصير

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٦٤٨) حديث (رقم/ ٨٧٩٣)، من طريق عبيد الله بن محمد التيمي حدثنا حماد بن سلمة... به، وقال: هذا حديث تفرد به أبو حمزة ميمون الأعور وقد اختلفت أقاويل أئمتنا فيه وقد أتى بزيادات لم يخرجها الشيخان رضي الله عنهما في ذكر المعراج. وقال الذهبي: قلت ضعفه أحمد وغيره. وأبو يعلي في (مسنده) (٨/ ٤٤٩) حديث (رقم/ ٥٠٣٦)، من طريق حماد بن سلمة... به، والطبراني في (الكبير) (١٠/ ٦٩) حديث رقم/ ٩٩٧٦، من طريق حجاج بن المنهال حدثنا حماد بن سلمة... به، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٤/ ٢٣٤) من طريق حماد بن سلمة... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ٧٤) وقال: رواه البزار وأبو يعلي والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح. كيف وفي إسناده ميمون الأعور أبو حمزة: ضعيف وليس من رجال الصحيح وأورده الألباني في (السلسلة الضعيفه) (٤/ ٢٩٧) حديث (رقم/ ١٧٩٨).

بما يعملون في هذه الواقعة .

المسألة الثانية : اختلف في كيفية ذلك الإسراء فالأكثرون من طوائف المسلمين اتفقوا على أنه أسرى بجسد رسول الله ﷺ، والأقلون قالوا : إنه ما أسري إلا بروحه حكي عن محمد بن جرير الطبري في (تفسيره) عن حذيفة أنه قال ذلك رؤيا . وأنه ما فقد جسد رسول الله ﷺ، وإنما أسري بروحه ، وحكي هذا القول أيضًا عن عائشة رضي الله عنها ، وعن معاوية رضي الله عنه . واعلم أن الكلام في هذا الباب يقع في مقامين : أحدهما : في إثبات الجواز العقلي . والثاني : في الوقوع .

أما المقام الأول: وهو إثبات الجواز العقلي ، فنقول : الحركة الواقعة في السرعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها والله تعالى قادر على جميع الممكنات ، وذلك يدل على أن حصول الحركة في هذا الحد من السرعة غير ممتنع ، فنفتقر ههنا إلى بيان مقدمتين :

المقدمة الأولى: في إثبات أن الحركة الواقعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها ويدل عليه وجوه :

الوجه الأول: أن الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور وقد ثبت في الهندسة أن نسبة القطر الواحد إلى الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع ، فيلزم أن تكون نسبة نصف القطر إلى نصف الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع وبتقدير أن يقال أن رسول الله ﷺ ارتفع من مكة إلى ما فوق الفلك الأعظم فهو لم يتحرك إلا بمقدار نصف القطر فلما حصل في ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان ، فهذا برهان قاطع على أن الارتقاء من مكة إلى ما فوق العرش في مقدار ثلث من الليل أمر ممكن في نفسه ، وإذا كان كذلك كان حصوله في كل الليل أولى بالإمكان ، والله أعلم .

الوجه الثاني: وهو أنه ثبت في الهندسة أن قرص الشمس يساوي كرة الأرض مائة وستين وكذا مرة ثم إنا نشاهد أن طلوع القرص يحصل في زمان لطيف سريع ، وذلك يدل على أن بلوغ الحركة في السرعة إلى الحد المذكور أمر ممكن في نفسه .

الوجه الثالث: أنه كما يستبعد في العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش ، فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحاني من فوق العرش إلى مركز العالم ، فإن كان القول بمعراج محمد ﷺ في الليلة الواحدة ممتنعًا في العقول ، كان القول بنزول جبريل عليه الصلاة والسلام من العرش إلى مكة في اللحظة الواحدة ممتنعًا ، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعنًا في نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز أصل النبوة ، فثبت أن القائلين بامتناع حصول حركة سريعة إلى هذا الحد ، يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل عليه الصلاة والسلام في اللحظة من العرش إلى مكة ، ولما كان ذلك باطلاً كان ما ذكروه أيضًا باطلاً .

فإن قالوا: نحن لا نقول إن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم ينتقل من مكان إلى مكان، وإنما نقول المراد من نزول جبريل عليه السلام هو زوال الحجب الجسمانية عن روح محمد ﷺ حتى يظهر في روحه من المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضرًا متجليًا في ذات جبريل عليه الصلاة والسلام.

قلنا: تفسير الوحي بهذا الوجه هو قول الحكماء، فأما جمهور المسلمين فهم مُقِرُّون بأن جبريل عليه الصلاة والسلام جسم وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأفلاك إلى مكة، وإذاكان كذلك كان الإلزام المذكور قويًا، روي أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر قصة المعراج كذبه الكل وذهبوا إلى أبي بكر وقالوا له: إن صاحبك يقول كذا وكذا فقال أبو بكر: إن كان قد قال ذلك فهو صادق، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر الرسول له تلك التفاصيل، فكلما ذكر شيئًا قال أبو بكر صدقت فلما تمم الكلام قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله حقًا، فقال له الرسول: وأنا أشهد أنك الصديق حقًا، وحاصل الكلام أن أبا بكر رضي الله عنه كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أكذبه في هذا؟

الوجه الرابع: أن أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون وجود إبليس ويسلمون أنه هو الذي يتولى إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم، ويسلمون أنه يمكنه الانتقال من المشرق إلى المغرب لأجل إلقاء الوساوس في قلوب بني آدم، فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة في حق إبليس فلأن يسلموا جواز مثلها في حق أكابر الأنبياء كان أولى، وهذا الإلزام قوي على من يسلم أن إبليس جسم ينتقل من مكان إلى مكان، أما الذين يقولون إنه من الأرواح الخبيثة الشريرة وأنه ليس بجسم ولا جسماني، فهذا الإلزام غير وارد عليهم، إلا أن أكثر أرباب الملل والنحل يوافقون على أنه جسم لطيف متنقل.

فإن قالوا: هب أن الملائكة والشياطين يصح في حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لأنهم أجسام لطيفة، ولا يمتنع حصول مثل هذه الحركة السريعة في ذواتها، أما الإنسان فإنه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيه؟

قلنا: نحن إنما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على أن حصول حركة منتهية في السرعة إلى هذا الحد ممكن في نفس الأمر، وأما بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها كانت أيضًا ممكنة الحصول في جسم البدن الإنساني، فذاك مقام آخر سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

الوجه الخامس: أنه جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة قال تعالى في صفة مسير سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبا: ١٢] بل نقول: الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة، وذلك أيضًا يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة.

الوجه السادس: أن القرآن يدل على أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠] وإذاكان ممكنًا في حق بعض الناس، علمنا أنه في نفسه ممكن الوجود.

الوجه السابع: أن من الناس من يقول: الحيوان إنما يبصر المبصرات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمبصر ثم إنا إذا فتحنا العين ونظرنا إلى رجل رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى رجل في تلك اللحظة اللطيفة، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لا من الممتنعات، فثبت بهذه الوجوه أن حصول الحركة المنتهية في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه.

المقدمة الثانية: في بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها وجب أن لا يكون حصولها في جسد محمد ﷺ ممتنعًا، والذي يدل عليه أنا بينا بالدلائل القطعية أن الأجسام متماثلة في تمام ماهياتها، فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام، وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد ﷺ أمر ممكن الوجود في نفسه.

وإذا ثبت هذا فنقول: ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات، وثبت أن حصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد ﷺ ممكن، فوجب كونه تعالى قادرًا عليه وحينئذ يلزم من مجموع هذه المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه، أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب، إلا أن هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام، بل هو حاصل في جميع المعجزات، فانقلاب العصا ثعبانًا تبلع سبعين ألف حبل من الحبال والعصي، ثم تعود في الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب، وخروجَ الناقة العظيمة من الجبل الأصم، وإظلال الجبل العظيم في الهواء عجيب، وكذا القول في جميع المعجزات فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار والدفع، لزم الجزم بفساد القول بإثبات المعجزات وإثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال فكذا ههنا، فهذا تمام القول في بيان أن القول بالمعراج ممكن غير ممتنع، والله أعلم.

المقام الثاني: في البحث عن وقوع المعراج قال أهل التحقيق: الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد ﷺ وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر، أما القرآن فهو هذه الآية، وتقرير الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً لمجموع الجسد والروح.

واعلم أن هذا الاستدلال موقوف على أن الإنسان هو الروح وحده أو الجسد وحده أو مجموع الجسد والروح، أما القائلون بأن الإنسان هو الروح وحده، فقد احتجوا عليه بوجوه:

أحدها: أن الإنسان شيء واحد باق من أول عمره إلى آخره، والأجزاء البدنية في التبدل والتغير والانتقال والباقي غير متبدل، فالإنسان مغاير لهذا البدن.

وثانيها: أن الإنسان قد يكون عارفًا بذاته المخصوصة حال ما يكون غافلاً عن جميع أجزائه البدنية، والمعلوم مغاير للمغفول عنه، فالإنسان مغاير لهذا البدن.

وثالثها: أن الإنسان يقول بمقتضى فطرته السليمة يدي ورجلي ودماغي وقلبي، وكذا القول في سائر الأعضاء فيضيف كلها إلى ذاته المخصوصة والمضاف غير المضاف إليه فذاته المخصوصة وجب أن تكون مغايرة لكل هذه الأعضاء.

فإن قالوا: أليس أنه يضيف ذاته إلى نفسه، فيقول ذاتي ونفسي فيلزمكم أن تكون نفسه مغايرة لذاته، وهذا محال.

قلنا: نحن لا نتمسك بمجرد اللفظ حتى يلزمنا ما ذكرتموه، بل إنما نتمسك بمحض العقل، فإن صريح العقل يدل على أن الإنسان موجود واحد وذلك الشيء الواحد يأخذ بآلة اليد ويبصر بآلة العين، ويسمع بآلة الأذن فالإنسان شيء واحد، وهذه الأعضاء آلات له في هذه الأفعال، وذلك يدل على أن الإنسان شيء مغاير لهذه الأعضاء والآلات، فثبت بهذه الوجوه أن الإنسان شيء مغاير لهذه البنية ولهذا الجسد.

إذا ثبت هذا فنقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ المراد من العبد جوهر الروح وعلى هذا التقدير فلم يبق في الآية دلالة على حصول الإسراء بالجسد.

فإن قالوا: فالإسراء بالروح ليس بأمر مخالف للعادة، فلا يليق به أن يقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾.

قلنا: هذا أيضًا بعيد، لأنه لا يبعد أن يقال: إنه حصل لروحه من أنواع المكاشفات والمشاهدات ما لم يحصل لغيره ألبتة، فلا جرم كان هذا الكلام لائقًا به، فهذا تقرير وجه السؤال على الاستدلال بهذه الآية في إثبات المعراج بالروح والجسد معًا.

والجواب: أن لفظ العبد لا يتناول إلا مجموع الروح والجسد، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ [العلق: ٩، ١٠] ولا شك أن المراد من العبد ههنا مجموع الروح والجسد. وقال أيضًا في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩] والمراد مجموع الروح والجسد فكذا ههنا، وأما الخبر فهو الحديث المروي في الصحاح وهو مشهور وهو يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس، ثم منه إلى السموات، واحتج المنكرون له بوجوه: أحدها: بالوجوه العقلية وهي ثلاثة: أولها: أن الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة. وثانيها: أن صعود الجرم الثقيل إلى السموات غير معقول. وثالثها: أن صعوده إلى السموات يوجب انخراق الأفلاك، وذلك محال.

والشبهة الثانية: أن هذا المعنى لو صح لكان أعظم من سائر المعجزات وكان يجب أن يظهر

ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه في ادعاء النبوة، فأما أن يحصل ذلك في وقت لا يراه أحد ولا يشاهده أحد، فإنه يكون ذلك عبثًا، وذلك لا يليق بالحكيم.

والشبهة الثالثة: تمسكوا بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وما تلك الرؤيا إلا حديث المعراج، وإنما كان فتنة للناس؟ لأن كثيرًا ممن آمن به لما سمع هذا الكلام كذبه وكفر به فكان حديث المعراج سببًا لفتنة الناس، فثبت أن ذلك رؤيا رآه في المنام.

الشبهة الرابعة: أن حديث المعراج اشتمل على أشياء بعيدة، منها ما روي من شق بطنه وتطهيره بماء زمزم وهو بعيد، لأن الذي يمكن غسله بالماء هو النجاسات العينية ولا تأثير لذلك في تطهير القلب عن العقائد الباطلة والأخلاق المذمومة، ومنها ما روي من ركوب البراق وهو بعيد، لأنه تعالى لما سيره من هذا العالم إلى عالم الأفلاك، فأي حاجة إلى البراق، ومنها ما روي أنه تعالى أوجب خمسين صلاة ثم إن محمدًا ﷺ لم يزل يتردد بين الله تعالى وبين موسى إلى أن عاد الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليه الصلاة والسلام[١]. قال القاضي: وهذا يقتضي نسخ الحكم قبل حضوره، وأنه يوجب البداء وذلك على الله تعالى محال، فثبت أن ذلك الحديث مشتمل على ما لا يجوز قبوله فكان مردودًا.

والجواب عن الوجوه العقلية قد سبق فلا نعيدها.

والجواب عن الشبهة الثانية: ما ذكره الله تعالى وهو قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ وهذا كلام مجمل وفي تفصيله وشرحه وجوه: الأول: أن خيرات الجنة عظيمة، وأهوال النار شديدة، فلو أنه عليه الصلاة والسلام ما شاهدهما في الدنيا، ثم شاهدهما في ابتداء يوم القيامة فربما رغب في خيرات الجنة أو خاف من أهوال النار، أما لما شاهدهما في الدنيا في ليلة المعراج فحينئذ لا يعظم وقعهما في قلبه يوم القيامة فلا يبقى مشغول القلب بهما، وحينئذ يتفرغ للشفاعة. الثاني: لا يمتنع أن تكون مشاهدته ليلة المعراج للأنبياء والملائكة، صارت سببًا لتكامل مصلحته أو مصلحتهم. الثالث: أنه لا يبعد أنه إذا صعد الفلك وشاهد أحوال السموات والكرسي والعرش، صارت مشاهدة أحوال هذا العالم وأهواله حقيرة في عينه، فتحصل له زيادة قوة في القلب باعتبارها يكون في شروعه في الدعوة إلى الله تعالى أكمل وقلة التفاته إلى أعداء الله تعالى أقوى، يبين ذلك أن من عاين قدرة الله تعالى في هذا الباب، لا يكون حاله في قوة النفس وثبات القلب على احتمال المكاره في الجهاد وغيره إلا أضعاف ما يكون عليه حال من لم يعاين.

واعلم أن قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ كالدلالة على أن فائدة ذلك الإسراء مختصة به وعائدة إليه على سبيل التعيين.

والجواب عن الشبهة الثالثة: أنا عند الانتهاء إلى تفسير تلك الآية في هذه السورة نبين أن تلك

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (١/ ١٤٥/ ١٦٢) وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٤٨) حديث (رقم/ ١٢٥٢٧)، جميعا من طريق حماد بن سلمة. . . به.

الرؤيا رؤيا عيان لا رؤيا منام.

والجواب عن الشبهة الرابعة: لا اعتراض على الله تعالى في أفعاله فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، والله أعلم.

المسألة الرابعة: أما العروج إلى السموات وإلى ما فوق العرش، فهذه الآية لا تدل عليه، ومنهم من استدل عليه بأول سورة والنجم، ومنهم من استدل عليه بقوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] وتفسيرهما مذكور في موضعه، وأما دلالة الحديث فكما سلف، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الكلام في الآية التي قبل هذه الآية، وفيها انتقل من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة، لأن قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١] فيه ذكر الله على سبيل الغيبة وقوله: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] فيه ثلاثة ألفاظ دالة على الحضور وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] يدل على الغيبة وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الخ يدل على الحضور وانتقال الكلام من الغيبة إلى الحضور وبالعكس يسمى صنعة الالتفات.

المسألة الثانية: ذكر الله تعالى في الآية الأولى إكرامه محمدًا ﷺ بأن أسرى به، وذكر في هذه الآية أنه أكرم موسى عليه الصلاة والسلام قبله بالكتاب الذي آتاه فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ أي يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والدين الحق وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: قرأ أبو عمرو: (أَلاَّ يَتَّخِذُوا) بالياء خبرًا عن بني إسرائيل والباقون بالتاء على الخطاب، أي قلنا لهم لا تتخذوا.

البحث الثاني: قال أبو علي الفارسي: إن قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾.

فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون (أن) ناصبة للفعل فيكون المعنى: وجعلناه هدى لئلا تتخذوا.

وثانيها: أن تكون (أن) بمعنى أي التي للتفسير وانصرف الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قراءة العامة كما انصرف منها إلى الخطاب. والأمر في قوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ [ص: ٦] فكذلك انصرف من الغيبة إلى النهي في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾.

وثالثها: أن تكون (أن) زائدة ويجعل تتخذوا على القول المضمر والتقدير: وجعلناه هدى لبني إسرائيل فقلنا لا تتخذوا من دوني وكيلاً.

البحث الثالث: قوله: ﴿وَكِيلًا﴾ أي ربًا تكلون أموركم إليه. أقول حاصل الكلام في الآية: أنه تعالى ذكر تشريف محمد ﷺ بالإسراء، ثم ذكر عقيبه تشريف موسى عليه الصلاة والسلام بإنزال التوراة عليه، ثم وصف التوراة بكونها هدى، ثم بين أن التوراة إنما كان هدى لاشتماله على النهي عن اتخاذ غير الله وكيلاً، وذلك هو التوحيد، فرجع حاصل الكلام بعد رعاية هذه المراتب أنه لا معراج أعلى ولا درجة أشرف ولا منقبة أعظم من أن يصير المرء غارقًا في بحر التوحيد وأن لا يعول في أمر من الأمور إلا على الله، فإن نطق، نطق بذكر الله، وإن تفكر، تفكر في دلائل تنزيه الله تعالى، وإن طلب طلب من الله، فيكون كله لله وبالله، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ وفي نصب ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ وجهان:

الوجه الأول: أن يكون نصبًا على النداء يعني: يا ذرية من حملنا مع نوح وهذا قول مجاهد لأنه قال: هذا نداء قال الواحدي: وإنما يصح هذا على قراءة من قرأ بالتاء كأنه قيل لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا مع نوح في السفينة قال قتادة: الناس كلهم ذرية نوح لأنه كان معه في السفينة ثلاثة بنين: سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية أولئك، فكان قوله: يا ذرية من حملنا مع نوح، قائمًا مقام قوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ).

الوجه الثاني: في نصب قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ أن الاتخاذ فعل يتعدى إلى مفعولين كقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] والتقدير: لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً، ثم إنه تعالى أثنى على نوح فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] أي كان كثير الشكر، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أكل قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي وَلَوْ شَاءَ أَجَاعَنِي»[(1)] وإذا شرب قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَسْقَانِي وَلَوْ شاء أظمأني»[(2)] وإذا اكتسى قال: «الحمد الله الَّذِي كَسَانِي وَلَوْ شَاءَ أَعْرَانِي» وإذا احتذى قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَذَانِي وَلَوْ شَاءَ أَحْفَانِي» وإذا قضى حاجته قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَ عَنِّي أَذَاهُ فِي عَافِيَةٍ وَلَوْ شَاءَ حَبَسَهُ» وروي أنه كان إذا أراد الإفطار عَرَضَ طَعَامَهُ عَلَى مَنْ آمَنَ بِهِ فَإِنْ وَجَدَهُ مُحْتَاجًا آثَرَهُ بِهِ.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٦٢/ ٢٧٤) من طريق عبد الله بن صالح أخبرنا معاوية بن صالح عن عمران بن سليم قال إنما سمي نوح شكورًا... ثم ذكره، وإسناد مرسل ضعيف. وإنما الصواب كما جاء على لسان نبينا ﷺ، أخرجه أبو داود في كتاب (اللباس) باب (ما يقول إذا لبس ثوبا جديدا) (٤/ ١٧٢٧) حديث رقم/ ٤٠٢٣، والترمذي في كتاب (الدعوات) باب (ما يقول إذا فرغ من طعامه) (٥/ ٤٧٤) حديث رقم/ ٣٤٥٨، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه في كتاب (الأطعمة) باب (ما يقال إذا فرغ من طعام) (٢/ ١٠٩٣) حديث رقم/ ٣٢٨٥، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٤٣٩) جميعًا من طريق ابن أبي أيوب عن أبي مرحوم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه... به.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢) حديث رقم/ ٨، من طريق العوام، عن إبراهيم التيمي؛ أن نوحا النبي ﷺ كان إذا خرج من الغائط قال... فذكره، وهذا الإسناد مقطوع وإبراهيم التيمي هو بن يزيد بن شريك قال الحافظ ثقة إلا أنه يرسل ويدلس.

فإن قيل: قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ ما وجه ملائمته لما قبله؟

قلنا: التقدير كأنه قال: لا تتخذوا من دوني وكيلاً ولا تشركوا بي، لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام كان عبدًا شكورًا، وإنما يكون العبد شكورًا لو كان موحدًا لا يرى حصول شيء من النعم إلا من فضل الله وأنتم ذرية قومه فاقتدوا بنوح عليه السلام، كما أن آباءكم اقتدوا به، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر إنعامه على بني إسرائيل بإنزال التوراة عليهم، وبأنه جعل التوراة هدى لهم، بين أنهم ما اهتدوا بهداه، بل وقعوا في الفساد فقال: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: القضاء في اللغة عبارة عن قطع الأشياء عن إحكام، ومنه قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ [فصلت: ١٢] وقول الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاوُدُ ... ...

فقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ أي أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا إليهم. ولفظ ﴿إِلَىٰ﴾ صلة للإيحاء، لأن معنى قضينا أوحينا إليهم كذا. وقوله: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾ يريد المعاصي وخلاف أحكام التوراة وقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني أرض مصر وقوله: ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ يعني أنه يكون استعلاؤكم على الناس بغير الحق استعلاء عظيمًا، لأنه يقال لكل متجبر: قد علا وتعظم، ثم قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ يعني أولى المرتين: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ والمعنى: أنه إذا جاء وعد الفساق في المرة الأولى أرسلنا عليكم قومًا أولى بأس شديد، ونجدة وشدة، والبأس القتال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: ١٧٧] ومعنى ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ أرسلنا عليكم، وخلينا بينكم وبينهم خاذلين إياكم، واختلفوا في أن هؤلاء العباد من هم؟ قيل: إن بني إسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء، وذلك أول الفسادين فسلط الله عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفًا ممن يقرأ التوراة وذهب بالبقية إلى أرض نفسه فبقوا هناك في الذل إلى أن قيض الله ملكًا آخر غزا أهل بابل واتفق أن تزوج بامرأة من بني إسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يرد بني إسرائيل إلى بيت المقدس ففعل، وبعد

مدة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن ما كانوا، فهو قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ .

والقول الثاني: إن المراد من قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ أن الله تعالى سلط عليهم جالوت حتى أهلكهم وأبادهم وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ هو أنه تعالى قوى طالوت حتى حارب جالوت ونصر داود حتى قتل جالوت فذاك هو عود الكرة.

والقول الثالث: إن قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ هو أنه تعالى ألقى الرعب من بني إسرائيل في قلوب المجوس، فلما كثرت المعاصي فيهم أزال ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا في قتلهم وإفنائهم وإهلاكهم.

واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي سلط عليهم أقوامًا قتلوهم وأفنوهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ قال الليث: الجوس والجوسان التردد خلال الديار، والبيوت في الفساد، والخلال هو الانفراج بين الشيئين، والديار ديار بيت المقدس، واختلفت عبارات المفسرين في تفسير جاسوا فعن ابن عباس فتشوا وقال أبو عبيدة: طلبوا من فيها. وقال ابن قتيبة: عاثوا وأفسدوا. وقال الزجاج: طافوا خلال الديار هل بقي أحد لم يقتلوه. قال الواحدي: الجوس هو التردد والطلب وذلك محتمل لكل ما قالوه.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي كان قضاء الله بذلك قضاء جزمًا حتمًا لا يقبل النقض والنسخ، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي أهلكنا أعداءكم ورددنا الدولة والقوة عليكم: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ النفير العدد من الرجال وأصله من نفر مع الرجل من عشيرته وقومه، والنفير والنافر واحد، كالقدير والقادر، وذكرنا معنى نفر عند قوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾[التوبة: ١٢٢] وقوله: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا﴾[التوبة: ٤١].

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في مسألة القضاء والقدر من وجوه: الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وهذا القضاء أقل احتمالاته الحكم الجزم، والخبر الحتم، فثبت أنه تعالى أخبر عنهم أنهم سيقدمون على الفساد والمعاصي خبرًا جزمًا حتمًا لا يقبل النسخ، لأن القضاء معناه الحكم الجزم على ما شرحناه. ثم إنه تعالى أكد ذلك القضاء مزيد تأكيد فقال: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

إذا ثبت هذا فنقول: عدم وقوع ذلك الفساد عنهم يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبًا وانقلاب حكمه الجازم باطلاً، وانقلاب علمه الحق جهلاً، وكل ذلك محال، فكان عدم إقدامهم على ذلك الفساد محالاً، فكان إقدامهم عليه واجبًا ضروريًا لا يقبل النسخ والرفع، مع أنهم كلفوا بتركه ولعنوا على فعله، وذلك يدل على قولنا: إن الله قد يأمر بشيء ويصد عنه وقد ينهى عن شيء ويقضي بتحصيله، فهذا أحد وجوه الاستدلال بهذه الآية.

الوجه الثاني: في الاستدلال بهذه الآية قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ والمراد أولئك الذين تسلطوا على بني إسرائيل بالقتل والنهب والأسر، فبين تعالى أنه هو الذي بعثهم على بني إسرائيل، ولا شك أن قتل بني إسرائيل ونهب أموالهم وأسر أولادهم كان مشتملاً على الظلم الكثير والمعاصي العظيمة. ثم إنه تعالى أضاف كل ذلك إلى نفسه بقوله: ثم ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ وذلك يدل على أن الخير والشر والطاعة والمعصية من الله تعالى.

أجاب الجبائي عنه من وجهين: الأول: المراد من ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ هو أنه تعالى أمر أولئك الأقوام بغزو بني إسرائيل لما ظهر فيهم من الفساد، فأضيف ذلك الفعل إلى الله تعالى من حيث الأمر. والثاني: أن يكون المراد خلينا بينهم وبين بني إسرائيل، وما ألقينا الخوف من بني إسرائيل في قلوبهم. وحاصل الكلام أن المراد من هذا البعث التخلية وعدم المنع.

واعلم أن الجواب الأول ضعيف؛ لأن الذين قصدوا تخريب بيت المقدس وإحراق التوراة وقتل حفاظ التوراة لا يجوز أن يقال إنهم فعلوا ذلك بأمر الله تعالى. والجواب الثاني أيضًا ضعيف، لأن البعث على الفعل عبارة عن التقوية عليه وإلقاء الدواعي القوية في القلب، وأما التخلية فعبارة عن عدم المنع، والأول فعل، والثاني ترك، فتفسير البعث بالتخلية تفسير لأحد الضدين بالآخر وأنه لا يجوز، فثبت صحة ما ذكرناه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى حكى عنهم أنهم لما عصوا سلط عليهم أقوامًا قصدوهم بالقتل والنهب والسبي، ولما تابوا أزال عنهم تلك المحنة وأعاد عليهم الدولة، فعند ذلك ظهر أنهم إن أطاعوا فقد أحسنوا إلى أنفسهم، وإن أصروا على المعصية فقد أساؤا إلى أنفسهم، وقد تقرر في العقول أن الإحسان إلى النفس حسن مطلوب، وأن الإساءة إليها قبيحة، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾.

المسألة الثانية: قال الواحدي: لا بد هاهنا من إضمار، والتقدير: وقلنا إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، والمعنى: إن أحسنتم بفعل الطاعات فقد أحسنتم إلى أنفسكم من حيث إن ببركة تلك الطاعات يفتح الله عليكم أبواب الخيرات والبركات، وإن أسأتم بفعل المحرمات أسأتم إلى أنفسكم من حيث إن بشؤم تلك المعاصي يفتح الله عليكم أبواب العقوبات.

المسألة الثالثة: قال النحويون: إنما قال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ للتقابل والمعنى: فإليها أو فعليها مع أن حروف الإضافة يقوم بعضها مقام بعض، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٤، ٥] أي إليها.

المسألة الرابعة: قال أهل الإشارات هذه الآية تدل على أن رحمة الله تعالى غالبة على غضبه بدليل أنه لما حكى عنهم الإحسان أعاده مرتين فقال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ ولما حكى عنهم الإساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ ولولا أن جانب الرحمة غالب وإلا لما كان كذلك.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال المفسرون: معناه وعد المرة الأخيرة، وهذه المرة الأخيرة هي إقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام. قال الواحدي: فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه إليه فسبى بني إسرائيل وقتل وخرب بيت المقدس أقول: التواريخ تشهد بأن بختنصر كان قبل وقت عيسى عليه الصلاة والسلام ويحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام بسنين متطاولة، ومعلوم أن الملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له: قسطنطين الملك - والله أعلم بأحوالهم - ولا يتعلق غرض من أغراض تفسير القرآن بمعرفة أعيان هؤلاء الأقوام.

المسألة الثانية: جواب قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ﴾ محذوف تقديره: فإذا جاء وعد الآخرة بعثناهم ليسوؤا وجوهكم وإنما حسن هذا الحذف لدلالة ما تقدم عليه من قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ [الإسراء: ٥] ثم قال: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: ساءه يسوءه أي أحزنه، وإنما عزا الإساءة إلى الوجوه، لأن آثار الأعراض النفسانية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه، فإن حصل الفرح في القلب ظهرت النضرة والإشراق والإسفار في الوجه. وإن حصل الحزن والخوف في القلب ظهر الكلوح والغبرة والسواد في الوجه، فلهذا السبب عزيت الإساءة إلى الوجوه في هذه الآية، ونظير هذا المعنى كثير في القرآن.

المسألة الثانية: قرأ العامة: ليسوؤا على صيغة المغايبة، قال الواحدي: وهي موافقة للمعنى وللفظ. أما المعنى فهو أن المبعوثين هم الذين يسوؤنهم في الحقيقة، لأنهم هم الذين يقتلون ويأسرون وأما اللفظ فلأنه يوافق قوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة: (لِيَسُوءَ) على إسناد الفعل إلى الواحد، وذلك الواحد يحتمل أن يكون أحد أشياء ثلاثة: إما اسم الله سبحانه لأن الذي تقدم هو قوله: ثم رددنا وأمددنا، وكل ذلك ضمير عائد

إلى الله تعالى، وإما أن يكون ذلك الواحد هو البعث ودل عليه قوله: ﴿بَعَثْنَا﴾ والفعل المتقدم يدل على المصدر كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقال الزجاج: ليسوء الوعد وجوهكم، وقرأ الكسائي بالنون وهذا على إسناد الفعل إلى الله تعالى كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ وأمددنا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ يقال: تبر الشيء تبرًا إذا هلك وتبره أهلكه. قال الزجاج: كل شيء جعلته مكسرًا ومفتتًا فقد تبرته، ومنه قيل: تبر الزجاج وتبر الذهب لمكسره، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨] وقوله: ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ يحتمل ما غلبوا عليه وظفروا به، ويحتمل ويتبروا ما داموا غالبين، أي ما دام سلطانهم جاريًا على بني إسرائيل، وقوله: ﴿تَتْبِيرًا﴾ ذكر للمصدر على معنى تحقيق الخبر وإزالة الشك في صدقه كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] أي حقًا، والمعنى: وليدمروا ويخربوا ما غلبوا عليه.

ثم قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ والمعنى: لعل ربكم أن يرحمكم ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم يا بني إسرائيل.

ثم قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ يعني: أن بعثنا عليكم من بعثنا، ففعلوا بكم ما فعلوا عقوبة لكم وعظة لتنتفعوا به وتنزجروا به عن ارتكاب المعاصي، ثم رحمكم فأزال هذا العذاب عنكم، فإن عدتم مرة أخرى إلى المعصية عدنا إلى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة أخرى. قال القفال: وإنما حملنا هذه الآية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الأعراف خبرًا عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] ثم قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي وإنهم قد عادوا إلى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب بمحمد ﷺ وكتمان ما ورد في التوراة والإنجيل، فعاد الله عليهم بالتعذيب على أيدي العرب. فجرى على بني النضير وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء، ثم الباقون منهم مقهورون بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ والحصير فعيل فيحتمل أن يكون بمعنى الفاعل، أي وجعلنا جهنم حاصرة لهم، ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول، أي جعلناها موضعًا محصورًا لهم، والمعنى أن عذاب الدنيا وإن كان شديدًا قويًا إلا أنه قد يتفلت بعض الناس عنه، والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص عنه، إما بالموت وإما بطريق آخر، وأما عذاب الآخرة فإنه يكون حاصرًا للإنسان محيطًا به لا رجاء في الخلاص عنه، فهؤلاء الأقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب الآخرة ما يكون محيطًا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه أبدًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح ما فعله في حق عباده المخلصين وهو الإسراء برسول الله ﷺ، وإيتاء الكتاب لموسى عليه الصلاة والسلام، وما فعله في حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلاء عليهم، كان ذلك تنبيهًا على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ومعصيته توجب كل بلية وغرامة، لا جرم أثنى على القرآن فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١] يدل على كون هذا الدين مستقيمًا، وقوله في هذه الآية: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ يدل على أن هذا الدين أقوم من سائر الأديان. وأقول: قولنا هذا الشيء أقوم من ذاك، إنما يصح في شيئين يشتركان في معنى الاستقامة، ثم كان حصول معنى الاستقامة في إحدى الصورتين أكثر وأكملَ من حصوله في الصورة الثانية، وهذا محال لأن المراد من كونه مستقيمًا كونه حقًا وصدقًا، ودخول التفاوت في كون الشيء حقًا وصدقًا محال، فكان وصفه بأنه أقوم مجازًا، إلا أن لفظ الأفعل قد جاء بمعنى الفاعل كقولنا: الله أكبر أي الله كبير، وقولنا: الأشج والناقص أعدلا بني مروان، أي: عادلاً بني مروان، أو يحمل هذا اللفظ على الظاهر المتعارف، والله أعلم.

البحث الثاني: قوله: ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ نعت لموصوف محذوف، والتقدير: يهدي للملة أو الشريعة أو الطريقة التي هي أقوم الملل والشرائع والطرق، ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القرآن كقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] أي بالخصلة التي هي أحسن.

أما قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ فاعلم أنه تعالى وصف القرآن بثلاثة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: أنه يهدي للتي هي أقوم، وقد مر تفسيره.

والصفة الثانية: أنه يبشر الذين يعملون الصالحات بالأجر الكبير، وذلك لأن الصفة الأولى لما دلت على كون القرآن هاديًا إلى الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح، وجب أن يظهر لهذا الصواب والصلاح أثر، وذلك هو الأجر الكبير لأن الطريق الأقوم لا بد وأن يفيد الربح الأكبر والنفع الأعظم.

والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وذلك لأن الاعتقاد الأصوب والعمل الأصلح، كما يوجب لفاعله النفع الأكمل الأعظم، فكذلك تركه يوجب لتاركه الضرر الأعظم الأكمل.

واعلم أن قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ والمعنى أنه

تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم، ونظيره قوله: بشرت زيدًا أنه سيعطى وبأن عدوه سيمنع.

فإن قيل: كيف يليق لفظ البشارة بالعذاب؟

قلنا: مذكور على سبيل التهكم، أو يقال: إنه من باب إطلاق اسم الضدين على الآخر، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠].

فإن قيل: هذه الآية واردة في شرح أحوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الإيمان بالآخرة، فكيف يليق بهذا الموضع قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

قلنا عنه جوابان: أحدهما: أن أكثر اليهود ينكرون الثواب والعقاب الجسمانيين، والثاني: أن بعضهم قال: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾ [آل عمران: ٢٤] فهم في هذا القول صاروا كالمنكرين للآخرة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ۝١١﴾

وفي الآية مباحث:

البحث الأول: اعلم أن وجه النظم هو أن الإنسان بعد أن أنزل الله عليه القرآن وخصه بهذه النعمة العظيمة والكرامة الكاملة، قد يعدل عن التمسك بشرائعه والرجوع إلى بياناته، ويقدم على ما لا فائدة فيه فقال: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾.

البحث الثاني: اختلفوا في المراد من دعاء الإنسان بالشر على أقوال:

القول الأول: المراد منه: النضر بن الحارث حيث قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأجاب الله دعاءه وضربت رقبته، فكان بعضهم يقول: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. وآخرون يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]. وإنما فعلوا ذلك للجهل واعتقاد أن محمدًا كاذب فيما يقول.

والقول الثاني: المراد أنه في وقت الضجر يلعن نفسه وأهله وولده وماله، ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك. وروي أن النبي ﷺ دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرًا فأقبل يئن بالليل فقالت له: ما لك تئن؟ فشكى ألم القيد فأرخت له من كتافه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي عليه الصلاة والسلام دعا به فأعلم بشأنه، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ اقْطَعْ يَدَهَا» فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها، فقال النبي ﷺ: «إِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ دُعَائِي عَلَى مَنْ لاَ يَسْتَحِقُّ عَذَابًا مِنْ أَهْلِي رَحْمَةً لِأَنِّي بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا تَغْضَبُونَ، فَلْتَرُدَّ سَوْدَةُ يَدَهَا»[1].

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ ولكن جاء بلفظ آخر بإسناده صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة) باب (في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ) (٤/ ٢١٥) حديث رقم/ ٤٦٥٩، من طريق زائدة بن قدامة الثقفي حدثنا عمرو بن قيس الماصر... به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤٣٧) حديث رقم/ ٢٣٧٥٧، من طريق زائدة حدثنا عمر بن قيس=

والقول الثالث: أقول: يحتمل أن يكون المراد: أن الإنسان قد يبالغ في الدعاء طلبًا لشيء يعتقد أن خيره فيه، مع أن ذلك الشيء يكون منبع شره وضرره، وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء، وإنما يقدم على مثل هذا العمل لكونه عجولاً مغترًا بظواهر الأمور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها.

البحث الثالث: القياس: إثبات الواو في قوله: ﴿وَيَدْعُ﴾ إلا أنه حذف في المصحف من الكتابة، لأنه لا يظهر في اللفظ، أما لم تحذف في المعنى لأنها في موضع الرفع، ونظيره: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨] ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦] ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١] ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥] ولو كان بالواو والياء لكان صوابًا هذا كلام الفراء. وأقول: إن هذا يدل على أنه سبحانه قد عصم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فإن إثبات الياء والواو في أكثر ألفاظ القرآن وعدم إثباتهما في هذه المواضع المعدودة يدل على أن هذا القرآن نقل كما سمع، وأن أحدًا لم يتصرف فيه بمقدار فهمه وقوة عقله.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ وفي هذا الإنسان قولان:

القول الأول: آدم عليه السلام، وذلك لأنه لما انتهت الروح إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه فذهب لينهض فلم يقدر، فهو قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

والقول الثاني: أنه محمول على الجنس، لأن أحدًا من الناس لا يعرى عن عجلة، ولو تركها لكان تركها أصلح له في الدين والدنيا، وأقول: بتقدير أن يكون المراد هو القول الأول، كان المقصود عائدًا إلى القول الثاني، لأنا إذا حملنا الإنسان على آدم عليه الصلاة والسلام كان المعنى أن آدم الذي كان أصل البشر لما كان موصوفًا بهذه العجلة وجب أن تكون هذه صفة لازمة للكل، فكان المقصود عائدًا إلى القول الثاني، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في تقرير النظم وجوه:

=الماصر... به، والطبراني في (الكبير) (٦/ ٢٦٠) حديث رقم/ ٦١٥٧، من طريق أبي أسامة عن مسعر... به، والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٩١) حديث رقم/ ٢٣٤، من طريق مسعر قال حدثنا عمر بن قيس... به. وفيه زيادات، وأورده الألباني في (صحيح الجامع) (٤٤٩٤) عن سلمان وقال: صحيح. ولفظه: (فقال أيما رجل من أمتي سببته سبة أو لعنته لعنة في غضبي فإنما أنا من ولد آدم أغضب كما يغضبون وإنما بعثني رحمة للعالمين فاجعلها عليهم صلاة يوم القيامة) من سنن أبي داود بتصرف.

الوجه الأول: أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ما أوصل إلى الخلق من نعم الدين وهو القرآن أتبعه ببيان ما أوصل إليهم من نعم الدنيا فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ وكما أن القرآن ممتزج من المحكم والمتشابه، فكذلك الدهر مركب من النهار والليل. فالمحكم كالنهار، والمتشابه كالليل، وكما أن المقصود من التكليف لا يتم إلا بذكر المحكم والمتشابه، فكذلك الوقت والزمان لا يكمل الانتفاع به إلا بالنهار والليل.

والوجه الثاني: في تقرير النظم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وذلك الأقوم ليس إلا ذكر الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة، لا جرم أردفه بذكر دلائل التوحيد، وهو عجائب العالم العلوي والسفلي.

الوجه الثالث: أنه لما وصف الإنسان بكونه عجولاً أي منتقلاً من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة، بين أن كل أحوال هذا العالم كذلك، وهو الانتقال من النور إلى الظلمة وبالضد، وانتقال نور القمر من الزيادة إلى النقصان وبالضد، والله أعلم.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ قولان:

القول الأول: أن يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار. والمعنى: أنه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا. أما في الدين: فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير له، مع كونهما متعاقبين على الدوام، من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين لذاتهما، بل لا بد لهما من فاعل يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة، وأما في الدنيا: فلأن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وعلى هذا القول: تكون الإضافة في آية الليل والنهار للتبيين، والتقدير: فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي نفس النهار مبصرة، ونظيره قولنا: نفس الشيء وذاته، فكذلك آية الليل هي نفس الليل. ويقال أيضًا: دخلت بلاد خراسان أي دخلت البلاد التي هي خراسان، فكذلك ههنا.

القول الثاني: أن يكون المراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر، فمحونا آية الليل وهي القمر، وفي تفسير محو القمر قولان:

القول الأول: المراد منه ما يظهر في القمر من الزيادة والنقصان في النور، فيبدو في أول الأمر في صورة الهلال، ثم لا يزال يتزايد نوره حتى يصير بدرًا كاملاً، ثم يأخذ في الانتقاص قليلاً قليلاً، وذلك هو المحو، إلى أن يعود إلى المحاق.

والقول الثاني: المراد من محو القمر الكلف الذي يظهر في وجهه يروى أن الشمس والقمر كانا سواء في النور والضوء، فأرسل الله جبريل عليه الصلاة والسلام فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء. ومعنى المحو في اللغة: إذهاب الأثر، تقول: محوته أمحوه وانمحى

وامتحى إذا ذهب أثره، وأقول: حمل المحو في هذه الآية على الوجه الأول أولى، وذلك لأن اللام في قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ متعلق بما هو مذكور قبل، وهو محو آية الليل. وجعل آية النهار مبصرة ومحو آية الليل إنما يؤثر في ابتغاء فضل الله. إذا حملنا المحو على زيادة نور القمر ونقصانه، لأن سبب حصول هذه الحالة يختلف بأحوال نور القمر، وأهل التجارب بينوا أن اختلاف أحوال القمر في مقادير النور له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحه، مثل أحوال البحار في المد والجزر، ومثل أحوال التجربات على ما تذكره الأطباء في كتبهم، وأيضًا بسبب زيادة نور القمر ونقصانه يحصل الشهور، وبسبب معاودة الشهور يحصل السنون العربية المبنية على رؤية الأهلة كما قال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فثبت أن حمل المحو على ما ذكرناه أولى. وأقول أيضًا: لو حملنا المحو على الكلف الحاصل في وجه القمر، فهو أيضًا برهان عظيم قاهر على صحة قول المسلمين في المبدأ والمعاد، أما دلالته على صحة قولهم في المبدأ، فلأن جرم القمر جرم بسيط عند الفلاسفة، فوجب أن يكون متشابه الصفات، فحصول الأحوال المختلفة الحاصلة بسبب المحو يدل على أنه ليس بسبب الطبيعة، بل لأجل أن الفاعل المختار خصص بعض أجزائه بالنور القوي، وبعض أجزائه بالنور الضعيف، وذلك يدل على أن مدبر العالم فاعل مختار لا موجب بالذات. وأحسن ما ذكره الفلاسفة في الاعتذار عنه، أنه ارتكز في وجه القمر أجسام قليلة الضوء، مثل ارتكاز الكواكب في أجرام الأفلاك، فلما كانت تلك الأجرام أقل ضوءاً من جرم القمر، لا جرم شوهدت تلك الأجرام في وجه القمر كالكلف في وجه الإنسان، وهذا لا يفيد مقصود الخصم، لأن جرم القمر لما كان متشابه الأجزاء فلم ارتكزت تلك الأجرام الظلمانية في بعض أجزاء القمر دون سائر الأجزاء؟ وبمثل هذا الطريق يتمسك في أحوال الكواكب، وذلك لأن الفلك جرم بسيط متشابه الأجزاء فلم لم يكن حصول جرم الكواكب في بعض جوانبه أولى من حصوله في سائر الجوانب؟ وذلك يدل على أن اختصاص ذلك الكوكب بذلك الموضع المعين من الفلك لأجل تخصيص الفاعل المختار، وكل هذه الدلائل إنما يراد من تقريرها وإيرادها التنبيه على أن المؤثر في العالم فاعل بالاختيار لا موجب بالذات، والله أعلم.

أما قوله: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

ففيه وجهان:

الأول: أن معنى كونها مبصرة أي مضيئة وذلك لأن الإضاءة سبب لحصول الإبصار، فأطلق اسم الإبصار على الإضاءة إطلاقًا لاسم المسبب على السبب.

والثاني: قال أبو عبيدة يقال: قد أبصر النهار إذا صار الناس يبصرون فيه، كقوله: رجل مخبث إذا كان أصحابه خبثاء، ورجل مضعف إذا كانت ذراريه ضعافًا، فكذا قوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، أي أهله بصراء.

واعلم أنه تعالى ذكر في آيات كثيرة منافع الليل والنهار، قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠، ١١] وقال أيضًا: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣].

ثم قال تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي لتبصروا كيف تتصرفون في أعمالكم ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

واعلم أن الحساب مبني على أربع مراتب: الساعات والأيام والشهور والسنون، فالعدد للسنين، والحساب لما دون السنين، وهي الشهور والأيام والساعات، وبعد هذه المراتب الأربع لا يحصل إلا التكرار كما أنهم رتبوا العدد على أربع مراتب: الآحاد والعشرات والمئات والألوف، وليس بعدها إلا التكرار، والله أعلم.

ثم قال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ والمعنى: أنه تعالى لما ذكر أحوال آيتي الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد، ومن وجه آخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على أهل الدنيا، فلما شرح الله تعالى حالهما وفصل ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق، كان ذلك تفصيلاً نافعًا وبيانًا كاملاً، فلا جرم قال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي كل شيء بكم إليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم، فقد فصلناه وشرحناه، وهو كقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] وإنما ذكر المصدر وهو قوله: ﴿تَفْصِيلًا﴾ لأجل تأكيد الكلام وتقريره، كأنه قال: وفصلناه حقًا وفصلناه على الوجه الذي لا مزيد عليه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى لما قال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ كان معناه أن كل ما يحتاج إليه من دلائل التوحيد والنبوة والمعاد فقد صار مذكورًا. وكل ما يحتاج إليه من شرح أحوال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فقد صار مذكورًا. وإذا كان الأمر كذلك فقد أزيحت الأعذار، وأزيلت العلل فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فقد ألزمناه طائره في عنقه ونقول له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

الوجه الثاني: أنه تعالى لما بين أنه أوصل إلى الخلق أصناف الأشياء النافعة لهم في الدين والدنيا، مثل آيتي الليل والنهار وغيرهما كان منعمًا عليهم بأعظم وجوه النعم. وذلك يقتضي

وجوب اشتغالهم بخدمته وطاعته فلا جرم كل من ورد عرصة القيامة فإنه يكون مسؤولاً عن أعماله وأقواله.

الوجه الثالث: في تقرير النظم أنه تعالى لما بين أنه ما خلق الخلق إلا ليشتغلوا بعبادته كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فلما شرح أحوال الشمس والقمر والليل والنهار، كان المعنى: إني إنما خلقت هذه الأشياء لتنتفعوا بها فتصيروا متمكنين من الاشتغال بطاعتي وخدمتي، وإذا كان كذلك فكل من ورد عرصة القيامة سألته أنه هل أتى بتلك الخدمة والطاعة، أو تمرد وعصى وبغى، فهذا هو الوجه في تقرير النظم.

المسألة الثانية: في تفسير لفظ، الطائر، قولان:

القول الأول: أن العرب إذا أرادوا الإقدام على عمل من الأعمال وأرادوا أن يعرفوا أن ذلك العمل يسوقهم إلى خير أو إلى شر اعتبروا أحوال الطير وهو أنه يطير بنفسه، أو يحتاج إلى إزعاجه، وإذا طار فهل يطير متيامنًا أو متياسرًا أو صاعدًا إلى الجو إلى غير ذلك من الأحوال التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على أحوال الخير والشر والسعادة والنحوسة، فلما كثر ذلك منهم سمي الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه ونظيره قوله تعالى في سورة يس: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨] إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩] فقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ أي كل إنسان ألزمناه عمله في عنقه. وتدل على صحة هذا الوجه قراءة الحسن ومجاهد: (ألزمناه طيره فى عنقه).

القول الثاني: قال أبو عبيدة: الطائر عند العرب الحظ وهو الذي تسميه الفرس البخت، وعلى هذا يجوز أن يكون معنى الطائر ما طار له من خير وشر، والتحقيق في هذا الباب أنه تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص من العقل والعلم، والعمر والرزق، والسعادة والشقاوة. والإنسان لا يمكنه أن يتجاوز ذلك القدر وأن ينحرف عنه، بل لا بد وأن يصل إلى ذلك القدر بحسب الكمية والكيفية، فتلك الأشياء المقدورة كأنها تطير إليه وتصير إليه، فبهذا المعنى لا يبعد أن يعبر عن تلك الأحوال المقدرة بلفظ الطائر، فقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ كناية عن أن كل ما قدره الله تعالى ومضى في علمه حصوله، فهو لازم له واصل إليه غير منحرف عنه.

واعلم أن هذا من أدل الدلائل على أن كل ما قدره الله تعالى للإنسان وحكم عليه به في سابق علمه فهو واجب الوقوع ممتنع العدم، وتقريره من وجهين:

الوجه الأول: أن تقدير الآية: وكل إنسان ألزمناه عمله في عنقه، فبين تعالى أن ذلك العمل لازم له، وما كان لازمًا للشيء كان ممتنع الزوال عنه واجب الحصول له وهو المقصود.

والوجه الثاني: أنه تعالى أضاف ذلك الإلزام إلى نفسه، لأن قوله: ﴿أَلْزَمْنَـٰهُ﴾ تصريح بأن ذلك الإلزام إنما صدر منه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] وهذه الآية دالة

على أنه لا يظهر في الأبد إلا ما حكم الله به في الأزل، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ كناية عن اللزوم كما يقال: جعلت هذا في عنقك أي قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به، ويقال: قلدتك كذا وطوقتك كذا، أي صرفته إليك وألزمته إياك، ومنه قلده السلطان كذا. أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق، ومنه يقال: فلان يقلد فلانًا أي جعل ذلك الاعتقاد كالقلادة المربوطة على عنقه. قال أهل المعاني: وإنما خص العنق من بين سائر الأعضاء بهذا المعنى لأن الذي يكون عليه إما أن يكون خيرًا يزينه أو شرًا يشينه، وما يزين يكون كالطوق والحلي، والذي يشين فهو كالغل، فههنا عمله إن كان من الخيرات كان زينة له، وإن كان من المعاصي كان كالغل على رقبته.

ثم قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ قال الحسن: يا ابن آدم بسطنا لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وشمالك. فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة[(١)]. قوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ أي من قبره يجوز أن يكون معناه: نخرج له ذلك لأنه لم ير كتابه في الدنيا فإذا بعث أظهر له ذلك وأخرج من الستر، وقرأ يعقوب: (ويخرج له يوم القيامة كتابًا) أي يخرج له الطائر أي عمله كتابًا منشورًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠] وقرأ ابن عامر: (يُلَقَّاه) من قولهم: لقَّيت فلانًا الشيء أي استقبلته به. قال تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] وهو منقول بالتشديد من لقيت الشيء ولقانيه زيد.

ثم قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ والتقدير يقال له: وهذا القائل هو الله تعالى على ألسنة الملائكة ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ قال الحسن: يقرؤه أميًا كان أو غير أمي، وقال أبو بكر بن عبد الله: يؤتى بالمؤمن يوم القيامة بصحيفته وهو يقرؤها وحسناته في ظهرها يغبطه الناس عليها، وسيئاته في جوف صحيفته وهو يقرؤها، حتى إذا ظن أنها قد أوبقته قال الله تعالى: «اذْهَبْ فَقَدْ غَفَرْتُهَا لَكَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ» فيعظم سروره، ويصير من الذين قال في حقهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩] ثم يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وأما قوله: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي محاسبًا. قال الحسن: عدل والله في حقك من جعلك حسيب نفسك. قال السدي: يقول الكافر يومئذ إنك قضيت أنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي فيقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قال حكماء الإسلام: هذه الآية في غاية الشرف، وفيها أسرار عجيبة في أبحاث:

---

(١) **موقوف**: أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٥٢) من طريق سعيد عن قتادة... به، ورواه عبد الرزاق في تفسيره(٦/ ٤١٦) حديث رقم/ ٢٨٦٢، من كلام الحسن رضي الله عنه.

البحث الأول: أنه تعالى جعل فعل العبد كالطير الذي يطير إليه، وذلك لأنه تعالى قدر لكل أحد في الأزل مقدارًا من الخير والشر، فذلك الحكم الذي سبق في علمه الأزلي وحكمه الأزلي لا بد وأن يصل إليه، فذلك الحكم كأنه طائر يطير إليه من الأزل إلى ذلك الوقت، فإذا حضر ذلك الوقت وصل إليه ذلك الطائر وصولاً لا خلاص له ألبتة ولا انحراف عنه ألبتة. وإذا علم الإنسان في كل قول وفعل ولمحة وفكرة أنه كان ذلك بمنزلة طائر طيره الله إليه على منهج معين وطريق معين، وأنه لا بد وأن يصل إليه ذلك الطائر، فعند ذلك عرف أن الكفاية الأبدية لا تتم إلا بالعناية الأزلية.

والبحث الثاني: أن هذه التقديرات إنما تقدرت بإلزام الله تعالى. وذلك باعتبار أنه تعالى جعل لكل حادث حادثًا متقدمًا عليه لحصول الحادث المتأخر، فلما كان وضع هذه السلسلة من الله لا جرم كان الكل من الله، وعند هذا يتخيل الإنسان طيورًا لا نهاية لها ولا غاية لأعدادها، فإنه تعالى طيرها من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب، وأنها صارت وطارت طيرانًا لا بداية له ولا غاية له، وكان كل واحد منها متوجهًا إلى ذلك الإنسان المعين في الوقت المعين بالصفة المعينة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

البحث الثالث: أن التجربة تدل على أن تكرار الأعمال الاختيارية تفيد حدوث الملكة النفسانية الراسخة في جوهر النفس، ألا ترى أن من واظب على تكرار قراءة درس واحد صار ذلك الدرس محفوظًا، ومن واظب على عمل واحد مدة مديدة صار ذلك العمل ملكة له.

إذا عرفت هذا فنقول: لما كان التكرار الكثير يوجب حصول الملكة الراسخة وجب أن يحصل لكل واحد من تلك الأعمال أثر ما في جوهر النفس، فإنا لما رأينا أن عند توالي القطرات الكثيرة من الماء على الحجر حصلت الثقبة في الحجر، علمنا أن لكل واحد من تلك القطرات أثرًا ما في حصول ذلك الثقب وإن كان ضعيفًا قليلاً، وإن كانت الكتابة أيضًا في عرف الناس عبارة عن نقوش مخصوصة اصطلح الناس على جعلها معرفات لألفاظ مخصوصة، فعلى هذا، دلالة تلك النقوش على تلك المعاني المخصوصة دلالة كائنة جوهرية واجبة الثبوت، ممتنعة الزوال، كان الكتاب المشتمل على تلك النقوش أولى باسم الكتاب من الصحيفة المشتملة على النقوش الدالة بالوضع والاصطلاح.

وإذا عرفت هاتين المقدمتين فنقول: إن كل عمل يصدر من الإنسان كثيرًا كان أو قليلاً قويًا كان أو ضعيفًا، فإنه يحصل منه لا محالة في جوهر النفس الإنسانية أثر مخصوص، فإن كان ذلك الأثر أثرًا لجذب جوهر الروح من الخلق إلى حضرة الحق كان ذلك من موجبات السعادات والكرامات. وإن كان ذلك الأثر أثرًا لجذب الروح من حضرة الحق إلى الاشتغال بالخلق كان ذلك من موجبات الشقاوة والخذلان. إلا أن تلك الآثار تخفى ما دام الروح متعلقًا بالبدن، لأن اشتغال الروح بتدبير البدن يمنع من انكشاف هذه الأحوال وتجليها وظهورها، فإذا انقطع تعلق

الروح عن تدبير البدن فهناك تحصل القيامة لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ» ومعنى كون هذه الحالة قيامة أن النفس الناطقة كأنها كانت ساكنة مستقرة في هذا الجسد السفلي، فإذا انقطع ذلك التعلق، قامت النفس وتوجهت نحو الصعود إلى العالم العلوي، فهذا هو المراد من كون هذه الحالة قيامة، ثم عند حصول القيامة بهذا المعنى زال الغطاء وانكشف الوطاء، وقيل له ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ معناه: ونخرج له عند حصول هذه القيامة من عمق البدن المظلم كتابًا مشتملاً على جميع تلك الآثار الحاصلة بسبب الأحوال الدنيوية، ويكون هذا الكتاب في هذا الوقت منشورًا، لأن الروح حين كانت في البدن كانت هذه الأحوال فيه مخفية فكانت كالمطوية. أما بعد انقطاع التعلق الجسداني ظهرت هذه الأحوال وجلت وانكشفت فصارت كأنها مكشوفة منشورة بعد أن كانت مطوية، وظاهرة بعد أن كانت مخفية، وعند ذلك تشاهد القوة العقلية جميع تلك الآثار مكتوبة بالكتابة الذاتية في جوهر الروح فيقال له في تلك الحالة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ ثم يقال له: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ فإن تلك الآثار إن كانت من موجبات السعادة حصلت السعادة لا محالة، وإن كانت من موجبات الشقاوة حصلت الشقاوة لا محالة، فهذا تفسير هذه الآية بحسب الأحوال الروحانية.

واعلم أن الحق أن الأحوال الظاهرة التي وردت فيها الروايات حق وصدق لا مرية فيها، واحتمال الآية لهذه المعاني الروحانية ظاهر أيضًا، والمنهج القويم والصراط المستقيم هو الإقرار بالكل، والله أعلم بحقائق الأمور.

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] ومعناه: أن كل أحد مختص بعمل نفسه، عبر عن هذا المعنى بعبارة أخرى أقرب إلى الأفهام وأبعد عن الغلط فقال: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ يعني أن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله، ولا يتعدى منه إلى غيره، ويتأكد هذا بقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠] قال الكعبي: الآية دالة على أن العبد متمكن من الخير والشر، وأنه غير مجبور على عمل بعينه أصلاً لأن قوله: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ إنما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شاء وأراد، أما المجبور على أحد الطرفين، الممنوع من الطرف الثاني فهذا لا يليق به.

المسألة الثانية: أنه تعالى أعاد تقرير أن كل أحد مختص بأثر عمل نفسه بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ

﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال الزجاج: يقال وزر يزر فهو وازر ووزر وزرا وزرة، ومعناه: أثم يأثم إثمًا قال: وفي تأويل الآية وجهان:

الأول: أن المذنب لا يؤاخذ بذنب غيره، وأيضًا غيره لا يؤاخذ بذنبه بل كل أحد مختص بذنب نفسه.

والثاني: أنه لا ينبغي أن يعمل الإنسان بالإثم، لأن غيره عمله كما قال الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

واعلم أن الناس تمسكوا بهذه الآية في إثبات أحكام كثيرة.

الحكم الأول

قال الجبائي في الآية دلالة على أنه تعالى لا يعذب الأطفال بكفر آبائهم، وإلا لكان الطفل مؤاخذًا بذنب أبيه، وذلك على خلاف ظاهر هذه الآية.

الحكم الثاني

روى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ»[1] فعائشة طعنت في صحة هذا الخبر، واحتجت على صحة ذلك الطعن بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فإن تعذيب الميت بسبب بكاء أهله أخذ للإنسان بجرم غيره، وذلك خلاف هذه الآية.

الحكم الثالث

قال القاضي: دلت هذه الآية على أن الوزر والإثم ليس من فعل الله تعالى. وبيانه من وجوه: أحدها: أنه لو كان كذلك لامتنع أن يؤاخذ العبد به كما لا يؤاخذ بوزر غيره. وثانيها: أنه كان يجب ارتفاع الوزر أصلاً، لأن الوازر إنما يصح أن يوصف بذلك إذا كان مختارًا يمكنه التحرز، ولهذا المعنى لا يوصف الصبي بهذا.

الحكم الرابع

أن جماعة من قدماء الفقهاء امتنعوا من ضرب الدية على العاقلة، وقالوا: لأن ذلك يقتضي مؤاخذة الإنسان بسبب فعل الغير، وذلك على مضادة هذه الآية.

وأجيب عنه بأن المخطىء ليس بمؤاخذ على ذلك الفعل، فكيف يصير غيره مؤاخذًا بسبب ذلك الفعل، بل ذلك تكليف واقع على سبيل الابتداء من الله تعالى.

المسألة الثالثة: قال أصحابنا وجوب شكر المنعم لا يثبت بالعقل بل بالسمع، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وجه الاستدلال أن الوجوب لا تتقرر ماهيته إلا

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (المغازي) باب (قتل أبي جهل) (٧/ ٣٥١) حديث رقم/ ٣٩٧٨، ومسلم في كتاب (الجنائز) باب (الميت يعذب ببكاء أهله) (٢/ ٦٤٣/ ٢٦) كلاهما من طريق هشام... به.

بترتيب العقاب على الترك، ولا عقاب قبل الشرع بحكم هذه الآية، فوجب أن لا يتحقق الوجوب قبل الشرع. ثم أكدوا هذه الآية بقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥] وبقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

ولقائل أن يقول: هذا الاستدلال ضعيف، وبيانه من وجهين: الأول: أن نقول: لو لم يثبت الوجوب العقلي لم يثبت الوجوب الشرعي ألبتة، وهذا باطل فذاك باطل بيان الملازمة من وجوه: **أحدها:** أنه إذا جاء المشرع وادعى كونه نبيًا من عند الله تعالى وأظهر المعجزة، فهل يجب على المستمع استماع قوله والتأمل في معجزاته أو لا يجب؟ فإن لم يجب فقد بطل القول بالنبوة. وإن وجب، فإما أن يجب بالعقل أو بالشرع فإن وجب بالعقل فقد ثبت الوجوب العقلي، وإن وجب بالشرع فهو باطل، لأن ذلك الشرع إما أن يكون هو ذلك المدعي أو غيره، والأول باطل لأنه يرجع حاصل الكلام إلى أن ذلك الرجل يقول: الدليل على أنه يجب قبول قولي أني أقول إنه يجب قبول قولي، وهذا إثبات للشيء بنفسه، وإن كان ذلك الشارع غيره كان الكلام فيه كما في الأول، ولزم إما الدور أو التسلسل وهما محالان. **وثانيها:** أن الشرع إذا جاء وأوجب بعض الأفعال، وحرَّم بعضها فلا معنى للإيجاب والتحريم، إلا أن يقول: لو تركت كذا وفعلت كذا لعاقبتك فنقول: إما أن يجب عليه الاحتراز عن العقاب أو لا يجب، فلو لم يجب عليه الاحتراز عن العقاب لم يتقرر معنى الوجوب ألبتة، وهذا باطل فذاك باطل، وإن وجب عليه الاحتراز عن العقاب، فإما أن يجب بالعقل أو بالسمع، فإن وجب بالعقل فهو المقصود، وإن وجب بالسمع لم يتقرر معنى هذا الوجوب إلا بسبب ترتيب العقاب عليه، وحينئذ يعود التقسيم الأول ويلزم التسلسل وهو محال. **وثالثها:** أن مذهب أهل السنة أنه يجوز من الله تعالى أن يعفو عن العقاب على ترك الواجب وإذا كان كذلك كانت ماهية الوجوب حاصلة مع عدم العقاب، فلم يبق إلا أن يقال: إن ماهية الواجب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من العقاب، وهذا الخوف حاصل بمحض العقل، فثبت أن ماهية الوجوب إنما تحصل بسبب هذا الخوف، وثبت أن هذا الخوف حاصل بمجرد العقل، فلزم أن يقال: الوجوب حاصل بمحض العقل.

فإن قالوا: ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم؟

قلنا: إنه تعالى إذا عفا فقد سقط الذم، فعلى هذا ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم وذلك حاصل بمحض العقل، فثبت بهذه الوجوه أن الوجوب العقلي لا يمكن دفعه.

وإذا ثبت هذا فنقول: في الآية قولان: الأول: أن نجري الآية على ظاهرها. ونقول: العقل هو رسول الله إلى الخلق، بل هو الرسول الذي لولاه لما تقررت رسالة أحد من الأنبياء، فالعقل هو الرسول الأصلي، فكان معنى الآية وما كنا معذبين حتى نبعث رسول العقل. والثاني: أن نخصص عموم الآية فنقول: المراد وما كنا معذبين في الأعمال التي لا سبيل إلى معرفة وجوبها

إلا بالشرع إلا بعد مجيء الشرع، وتخصيص العموم وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه عند قيام الدلائل، وقد بينا قيام الدلائل الثلاثة، على أنا لو نفينا الوجوب العقلي لزمنا نفي الوجوب الشرعي، والله أعلم.

واعلم أن الذي نرتضيه ونذهب إليه أن مجرد العقل سبب في أن يجب علينا فعل ما ينتفع به، وترك ما يتضرر به، أما مجرد العقل لا يدل على أنه يجب على الله تعالى شيء. وذلك لأنا مجبولون على طلب النفع والاحتراز عن الضرر، فلا جرم كان العقل وحده كافيًا في الوجوب في حقنا والله تعالى منزه عن طلب النفع والهرب من الضرر، فامتنع أن يحكم العقل عليه بوجوب فعل أو ترك فعل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ في تفسير هذا الأمر قولان:

القول الأول: أن المراد منه الأمر بالفعل، ثم إن لفظ الآية لا يدل على أنه تعالى بماذا يأمرهم فقال الأكثرون: معناه أنه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات، ثم إنهم يخالفون ذلك الأمر ويفسقون وقال صاحب (الكشاف): ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون، إلا أن هذا مجاز ومعناه أنه فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه، أن المأمور به إنما حذف لأن قوله؛ ﴿فَفَسَقُوا۟﴾ يدل عليه يقال: أمرته فقام، وأمرته فقرأ لا يفهم منه، إلا أن المأمور به قيام أو قراءة فكذا ههنا لما قال: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ وجب أن يكون المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا بقولهم أمرته فعصاني أو فخالفني فإن هذا لا يفهم منه أني أمرته بالمعصية والمخالفة؛ لأنا نقول: إن المعصية منافية للأمر ومناقضة له، فكذلك أمرته ففسق يدل على أن المأمور به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقًا ينافي كونه مأمورًا به، كما أن كونها معصية ينافي كونها مأمورًا بها، فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق، وهذا الكلام في غاية الظهور فلا أدري لم أصر صاحب (الكشاف) على قوله مع ظهور فساده، فثبت أن الحق ما ذكره الكل وهو أن المعنى أمرناهم بالأعمال الصالحة وهي الإيمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الأمر عنادًا وأقدموا على الفسق.

القول الثاني: في تفسير قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي أكثرنا فساقها. قال الواحدي: العرب تقول أمر القوم إذا كثروا. وأمرهم الله إذ كثرهم، وآمرهم أيضًا بالمد، روى الجرمي عن أبي زيد أمر الله

القوم وآمرهم، أي كثرهم. واحتج أبو عبيدة على صحة هذه اللغة بقوله ﷺ: «خَيْرُ الْمَالِ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ وَسِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ»(١) والمعنى مهرة قد كثر نسلها يقولون: أمر الله المهرة أي كثر ولدها ومن الناس من أنكر أن يكون أمر بمعنى كثر وقالوا أمر القوم إذا كثروا وآمرهم الله بالمد أي كثرهم، وحملوا قوله عليه الصلاة والسلام: «مهرة مَأْمُورَةٌ» على أن المراد كونها مأمورة بتكثير النسل على سبيل الاستعارة. وأما المترف: فمعناه في اللغة المتنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي خرجوا عما أمرهم الله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ يريد: استوجبت العذاب، وهذا كالتفسير لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩] وقوله: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١] فلما حكم تعالى في هذه الآيات أنه تعالى لا يهلك قرية حتى يخالفوا أمر الله، فلا جرم ذكر هاهنا أنه يأمرهم فإذا خالفوا الأمر، فعند ذلك استوجبوا الإهلاك المعبر عنه بقوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ وقوله: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناها إهلاك الاستئصال. والدمار هلاك على سبيل الاستئصال.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم من وجوه: **الأول:** أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى أراد إيصال الضرر إليهم ابتداء ثم توسل إلى إهلاكهم بهذا الطريق. **الثاني:** أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما خص المترفين بذلك الأمر لعلمه بأنهم يفسقون، وذلك يدل على أنه تعالى أراد منهم الفسق، **والثالث:** أنه تعالى قال: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ بالتعذيب والكفر، ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الإيمان منهم، لأن ذلك يستلزم انقلاب خبر الله تعالى الصدق كذبًا وذلك محال، والمفضي إلى المحال محال. قال الكعبي: إن سائر الآيات دلت على أنه تعالى لا يبتدىء بالتعذيب والإهلاك لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] فكل هذه الآيات تدل على أنه تعالى لا يبتدىء بالإضرار، وأيضًا ما قبل هذه الآية يدل على هذا المعنى وهو قوله: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥] ومن المحال أن يقع

---

(١) إسناد ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ٤٦٨) والطبراني في (الكبير) (٧/ ٩١) حديث رقم/ ٦٤٧٠، والشيباني في (الآحاد والمثاني) (٢/ ٤٢٤) حديث رقم/ ١٢١٦، والقضاعي في (مسند الشهاب) (٢/ ٢٣١) حديث رقم/ ١٢٥١، والحارث في (مسنده) (١/ ٤٨٨) حديث رقم/ ٤٢٢، والبيهقي في (سننه الكبرى) (١٠/ ٦٤) جميعا من طريق مسلم بن بديل عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة. . . به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٥/ ٢٥٨) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات، سويد بن هبيرة تابعي قاله ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل) (٤/ ٢٣٣) وقال: تابعي وليست له صحبه كذا رواه عبد الوارث ومعاذ بن معاذ عن أبي نعامة عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة قال بلغني عن النبي أنه قال في السكة وغلط روح بن عبادة فروى عن أبي نعامة عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة قال سمعت النبي سمعت أبي يقول ذلك.

بين آيات القرآن تناقض، فثبت أن الآيات التي تلوناها محكمة، وكذا الآية التي نحن في تفسيرها، فيجب حمل هذه الآية على تلك الآيات هذا ما قاله الكعبي، واعلم أن أحسن الناس كلامًا في تأويل هذه الآية على وجه يوافق قول المعتزلة: القفال. فإنه ذكر فيه وجهين:

الوجه الأول: قال إنه تعالى أخبر أنه لا يعذب أحدًا بما يعلمه منه ما لم يعمل به، أي لا يجعل علمه حجة على من علم أنه إن أمره عصاه بل يأمره فإذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه فقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ معناه: وإذا أردنا إمضاء ما سبق من القضاء بإهلاك قوم أمرنا المتنعمين المتعززين الظانين أن أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا بالإيمان بي والعمل بشرائع ديني على ما بلغهم عني رسولي، ففسقوا فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق بإهلاكهم لظهور معاصيهم فحينئذ دمرناها، والحاصل أن المعنى: وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلا على المعصية لم نكتف في تحقيق ذلك الإهلاك بمجرد ذلك العلم، بل أمرنا مترفيها ففسقوا، فإذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به.

والوجه الثاني: في التأويل أن تقول: وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصي من أهلها لم نعاجلهم بالعذاب في أول ظهور المعاصي منهم، بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصي، وإنما خص المترفين بذلك الأمر، لأن المترف هو المتنعم ومن كثرت نعم الله عليه كان قيامه بالشكر أوجب، فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى مع أنه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالاً بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق، فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبًا، ثم قال القفال: وهذان التأويلان راجعان إلى أن الله تعالى أخبر عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة حتى يعذر إليهم غاية الإعذار الذي يقع منه اليأس من إيمانهم، كما قال في قوم نوح: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] وقال: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وقال في غيرهم: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤] فأخبر تعالى أولاً أنه لا يظهر العذاب إلا بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام. ثم أخبر ثانيًا في هذه الآية أنه إذا بعث الرسول أيضًا فكذبوا لم يعاجلهم بالعذاب، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ، فإن بقوا مصرين على الذنوب فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال، وهذا التأويل الذي ذكره القفال في تطبيق الآية على قول المعتزلة لم يتيسر لأحد من شيوخ المعتزلة مثله.

وأجاب الجبائي بأن قال: ليس المراد من الآية أنه تعالى يريد إهلاكهم قبل أن يعصوا ويستحقوا، وذلك لأنه ظلم وهو على الله محال، بل المراد من الإرادة قرب تلك الحالة فكان التقدير وإذا قرب وقت إهلاك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها وهو كقول القائل: إذا أراد المريض أن يموت ازدادت أمراضه شدة، وإذا أراد التاجر أن يفتقر أتاه الخسران من كل جهة، وليس المراد أن المريض يريد أن يموت، والتاجر يريد أن يفتقر وإنما يعنون أنه سيصير كذلك فكذا هاهنا.

واعلم أن جميع الوجوه الثلاثة التي ذكرناها في التمسك بهذه الآية، لا شك أن كلها عدول عن ظاهر اللفظ، أما الوجه الثاني والثالث فقد بقي سليمًا عن الطعن، والله أعلم.

المسألة الثالثة: المشهور عند القراء السبعة: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالتخفيف غير ممدودة الألف، وروي برواية غير مشهورة عن نافع وابن عباس: (آمَرْنَا) بالمد، وعن أبي عمرو (أَمَّرْنَا) بالتشديد فالمد على الكثير يقال: أَمِرَ القوم بكسر الميم إذا كثروا وآمرهم الله بالمد، أي كثرهم الله. والتشديد على التسليط، أي سلطنا مترفيها، ومعناه التخلية وزوال المنع بالقهر، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ فاعلم أن المراد أن الطريق الذي ذكرناه هو عادتنا مع الذين يفسقون ويتمردون فيما تقدم من القرون الذين كانوا بعد نوح. وهم عاد وثمود وغيرهم، ثم إنه تعالى خاطب رسوله بما يكون خطابًا لغيره وردعًا وزجرًا للكل فقال: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أنه تعالى عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات فلا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق، وثبت أنه قادر على كل الممكنات فكان قادرًا على إيصال الجزاء إلى كل أحد بقدر استحقاقه. وأيضًا أنه منزه عن العبث والظلم. ومجموع هذه الصفات الثلاث أعني العلم التام، والقدرة الكاملة، والبراءة عن الظلم بشارة عظيمة لأهل الطاعة. وخوف عظيم لأهل الكفر والمعصية.

البحث الثاني: قال الفراء: لو ألغيت الباء من قولك ﴿بِرَبِّكَ﴾ جاز، وإنما يجوز دخول الباء في المرفوع إذا كان يمدح به صاحبه أو يذم. كقولك: كفاك به. وأكرم به رجلاً. وطاب بطعامك طعامًا. وجاد بثوبك ثوبًا، أما إذا لم يكن مدحًا أو ذمًا لم يجز دخولها، فلا يجوز أن يقال: قام بأخيك وأنت تريد قام أخوك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال القفال رحمه الله: هذه الآية داخلة في معنى قوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] ومعناه: أن الكمال في الدنيا قسمان، فمنهم من يريد بالذي يعمله

الدنيا ومنافعها والرياسة فيها، فهذا يأنف من الانقياد للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدخول في طاعتهم والإجابة لدعوتهم، إشفاقًا من زوال الرياسة عنه، فهذا قد جعل طائر نفسه شؤمًا لأنه في قبضة الله تعالى فيؤتيه الله في الدنيا منها قدرًا لا كما يشاء ذلك الإنسان، بل كما يشاء الله إلا أن عاقبته جهنم يدخلها فيصلاها بحرها مذمومًا ملومًا مدحورًا منفيًا مطرودًا من رحمة الله تعالى. وفي لفظ هذه الآية فوائد.

الفائدة الأولى: أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة، فقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ إشارة إلى المضرة العظيمة، وقوله: ﴿مَذْمُومًا﴾ إشارة إلى الإهانة والذم، وقوله: ﴿مَّدْحُورًا﴾ إشارة إلى البعد والطرد عن رحمة الله، وهي تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص.

الفائدة الثانية: أن من الجهال من إذا ساعدته الدنيا اغتر بها وظن أن ذلك لأجل كرامته على الله تعالى، وأنه تعالى بين أن مساعدة الدنيا لا ينبغي أن يستدل بها على رضا الله تعالى، لأن الدنيا قد تحصل مع أن عاقبتها هي المصير إلى عذاب الله وإهانته، فهذا الإنسان أعماله تشبه طائر السوء في لزومها له وكونها سائقة له إلى أشد العذاب.

الفائدة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ يدل على أنه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد، بل كثير من الكفار والضلال يعرضون عن الدين في طلب الدنيا، ثم يبقون محرومين عن الدنيا وعن الدين، وهذا أيضًا فيه زجر عظيم لهؤلاء الكفار الضلال الذين يتركون الدين لطلب الدنيا، فإنه ربما فاتتهم الدنيا فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وأما القسم الثاني: وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فشرط تعالى فيه شروطًا ثلاثة:

الشرط الأول: أن يريد بعمله الآخرة أي ثواب الآخرة، فإنه إن لم تحصل هذه الإرادة، وهذه النية لم ينتفع بذلك العمل لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] ولقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»(١) ولأن المقصود من الأعمال استنارة القلب بمعرفة الله تعالى ومحبته، وهذا لا يحصل إلا إن نوى بعمله عبودية الله تعالى وطلب طاعته.

والشرط الثاني: قوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ وذلك هو أن يكون العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة من الأعمال التي بها ينال ثواب الآخرة، ولا يكون كذلك إلا إذا كان من باب

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأيمان والنذور) باب (النية في الأيمان) (١١/ ٥٨٠) حديث رقم/ ٦٦٨٩، ومسلم في كتاب (الإمارة) باب (قوله ﷺ إنما الأعمال بالنيات) (٣/ ١٥٥/ ١٥١٥) جميعًا من طريق يحيى ابن سعيد... به.

القرب والطاعات، وكثير من الناس يتقربون إلى الله تعالى بأعمال باطلة، فإن الكفار يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأوثان، ولهم فيه تأويلان:

التأويل الأول: يقولون: إله العالم أجل وأعظم من أن يقدر الواحد منا على إظهار عبوديته وخدمته فليس لنا هذا القدر والدرجة ولكن غاية قدرنا أن نشتغل بعبودية بعض المقربين من عباد الله تعالى، مثل أن نشتغل بعبادة كوكب أو عبادة ملك من الملائكة، ثم إن الملك والكوكب يشتغلون بعبادة الله تعالى، فهؤلاء يتقربون إلى الله تعالى بهذا الطريق، إلا أنه لما كان فاسدًا في نفسه لا جرم لم يحصل الانتفاع به.

والتأويل الثاني لهم: أنهم قالوا: نحن اتخذنا هذه التماثيل على صور الأنبياء والأولياء، ومرادنا من عبادتها أن تصير أولئك الأنبياء والأولياء شفعاء لنا عند الله تعالى. وهذا الطريق أيضًا فاسد، وأيضًا نقل عن الهند: أنهم يتقربون إلى الله تعالى بقتل أنفسهم تارة وبإحراق أنفسهم أخرى ويبالغون في تعظيم الله تعالى، إلا أنه لما كان الطريق فاسدًا لا جرم لم ينتفع به، وكذلك القول في جميع فرق المبطلين الذين يتقربون إلى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة وأعمالهم المنحرفة عن قانون الصدق والصواب.

والشرط الثالث: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا الشرط معتبر، لأن الشرط في كون أعمال البر موجبة للثواب تقدم الإيمان، فإذا لم يوجد الشرط لم يحصل المشروط، ثم إنه تعالى أخبر أن عند حصول هذه الشرائط يصير السعي مشكورًا والعمل مبرورًا.

واعلم أن الشكر عبارة عن مجموع أمور ثلاثة: اعتقاد كونه محسنًا في تلك الأعمال، والثناء عليه بالقول، والإتيان بأفعال تدل على كونه معظمًا عند ذلك الشاكر، والله تعالى يعامل المطيعين بهذه الأمور الثلاثة، فإنه تعالى عالم بكونهم محسنين في تلك الأعمال، وإنه تعالى يثني عليهم بكلامه وإنه تعالى يعاملهم بمعاملات دالة على كونهم معظمين عند الله تعالى، وإذا كان مجموع هذه الثلاثة حاصلاً كانوا مشكورين على طاعاتهم من قبل الله تعالى، ورأيت في كتب المعتزلة أن جعفر بن حرب حضر عنده واحد من أهل السنة وقال: الدليل على أن الإيمان حصل بخلق الله تعالى أنا نشكر الله على الإيمان، ولو لم يكن الإيمان حاصلاً بإيجاده لامتنع أن نشكره عليه، لأن مدح الإنسان وشكره على ما ليس من عمله قبيح. قال الله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨] فعجز الحاضرون عن الجواب، فدخل ثمامة بن الأشرس وقال: إنما نمدح الله تعالى ونشكره على ما أعطانا من القدرة والعقل. وإنزال الكتب وإيضاح الدلائل، والله تعالى يشكرنا على فعل الإيمان. قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ قال فضحك جعفر بن حرب وقال: صعب المسألة فسهلت.

واعلم أن قولنا: مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل كلام واضح، لأنه تعالى هو الذي أعطى الموجب التام لحصول الإيمان فكان هو المستحق للشكر، ولما حصل الإيمان للعبد

وكان الإيمان موجبًا للسعادة التامة صار العبد أيضًا مشكورًا ولا منافاة بين الأمرين.

المسألة الثانية: اعلم أن كل من أتى بفعل فإما أن يقصد بذلك الفعل تحصيل خيرات الدنيا، أو تحصيل خيرات الآخرة، أو يقصد به مجموعهما، أو لم يقصد به واحدًا منهما، هذا هو التقسيم الصحيح، أما إن قصد به تحصيل الدنيا فقط أو تحصيل الآخرة فقط، فالله تعالى ذكر حكم هذين القسمين في هذه الآية.

أما القسم الثالث: فهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام، لأنه إما أن يكون طلب الآخرة راجحًا أو مرجوحًا، أو يكون الطلبان متعادلين.

أما القسم الأول: وهو أن يكون طلب الآخرة راجحًا، فهل يكون هذا العمل مقبولاً عند الله تعالى فيه بحث، يحتمل أن يقال: إنه غير مقبول لما روي أن النبي ﷺ حكى عن رب العزة أنه قال: «أَنَا أَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ»(١) وأيضًا فطلب رضوان الله إما أن يقال: إنه كان سببًا مستقلاً بكونه باعثًا على ذلك الفعل أو داعيًا إليه، وإما أن يقال: ما كان كذلك، فإن كان الأول امتنع أن يكون لغيره مدخل في ذلك البعث والدعاء، لأن الحكم إذا حصل مسندًا إلى سبب تام كامل امتنع أن يكون لغيره مدخل فيه، وإن كان الثاني فحينئذ يكون الحامل على ذلك الفعل والداعي إليه ذلك المجموع، وذلك المجموع ليس هو طلب رضوان الله تعالى، لأن المجموع الحاصل من الشيء ومن غيره يجب كونه مغايرًا لكل واحد من جزئيه فهذا القسم التحق بالقسم الذي كان الداعي إليه مغايرًا لطلب رضوان الله تعالى فوجب أن يكون مقبولاً، ويمكن أن يقال لما كان طلب الآخرة راجحًا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فيبقى القدر الزائد داعية خالصة لطلب الآخرة فوجب كونه مقبولاً، وأما إذا كان طلب الدنيا وطلب الآخرة متعادلين، أو كان طلب الدنيا راجحًا فهذا قد اتفقوا على أنه غير مقبول إلا أنه على كل حال خير مما إذا كان طلب الدنيا خاليًا بالكلية عن طلب الآخرة.

وأما القسم الرابع: وهو أن يقال إنه أقدم على ذلك الفعل من غير داع فهذا بناء على أن صدور الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعي أم لا؟ فالذين يقولون إنه متوقف قالوا هذا القسم ممتنع الحصول، والذين قالوا: إنه لا يتوقف قالوا: هذا الفعل لا أثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لأنه عبث، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿كُلًّا﴾ أي كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه: ﴿نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي أنه تعالى يمد الفريقين بالأموال ويوسع عليهما في الرزق مثل الأموال والأولاد، وغيرهما من أسباب العز والزينة في الدنيا، لأن عطاءنا ليس يضيق عن أحد مؤمنًا كان أو كافرًا لأن الكل مخلوقون في دار العمل، فوجب إزاحة العذر وإزالة العلة عن الكل

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٥) وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٤٠٥) حديث رقم/ ٤٢٠٢، كلاهما من طريق العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب عن أبيه عن أبي هريرة... به.

وإيصال متاع الدنيا إلى الكل على القدر الذي يقتضيه الصلاح فبين تعالى أن عطاءه ليس بمحظور، أي غير ممنوع يقال حظره يحظره، وكل من حال بينك وبين شيء فقد حظره عليك.

ثم قال تعالى: ﴿أَنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. **وفيه قولان:**

القول الأول: المعنى: انظر إلى عطائنا المباح إلى الفريقين في الدنيا، كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلناه إلى مؤمن. وقبضناه عن مؤمن آخر، وأوصلناه إلى كافر، وقبضناه عن كافر آخر، وقد بين تعالى وجه الحكمة في هذا التفاوت فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال في آخر سورة الأنعام: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ثم قال: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ والمعنى: أن تفاضل الخلق في درجات منافع الدنيا محسوس، فتفاضلهم في درجات منافع الآخرة أكبر وأعظم، فإن نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإذا كان الانسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب فضيلة الآخرة أولى.

القول الثاني: أن المراد أن الآخرة أعظم وأشرف من الدنيا، والمعنى أن المؤمنين يدخلون الجنة، والكافرين يدخلون النار، فيظهر فضل المؤمنين على الكافرين، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في بيان وجه النظم. فنقول: إنه تعالى لما بين أن الناس فريقان منهم من يريد بعمله الدنيا فقط وهم أهل العقاب والعذاب، ومنهم من يريد به طاعة الله وهم أهل الثواب. ثم شرط ذلك بشرائط ثلاثة:

أولها: إرادة الآخرة. **وثانيها:** أن يعمل عملاً ويسعى سعيًا موافقًا لطلب الآخرة. **وثالثها:** أن يكون مؤمنًا لا جرم فصل في هذه الآية تلك المجملات فبدأ أولاً بشرح حقيقة الإيمان، وأشرف أجزاء الإيمان هو التوحيد ونفي الشركاء والأضداد فقال: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ثم ذكر عقيبه سائر الأعمال التي يكون المقدم عليها، والمشتغل بها ساعيًا سعيًا يليق بطلب الآخرة، وصار من الذين سعد طائرهم وحسن بختهم وكملت أحوالهم.

المسألة الثانية: قال المفسرون: هذا في الظاهر خطاب للنبي ﷺ، ولكن في المعنى عام لجميع المكلفين كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] ويحتمل أيضًا أن يكون الخطاب للإنسان كأنه قيل: أيها الإنسان لا تجعل مع الله إلهًا آخر، وهذا الاحتمال عندي أولى، لأنه تعالى عطف عليه قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ

﴿أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] وهذا لا يليق بالنبي عليه السلام، لأن أبويه ما بلغا الكبر عنده فعلمنا أن المخاطب بهذا هو نوع الإنسان.

المسألة الثالثة: معنى الآية أن من أشرك بالله كان مذمومًا مخذولاً، والذي يدل على أن الأمر كذلك وجوه: الأول: أن المشرك كاذب والكاذب يستوجب الذم والخذلان. الثاني: أنه لما ثبت بالدليل أنه لا إله ولا مدبر ولا مقدر إلا الواحد الأحد، فعلى هذا التقدير تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى، فمن أشرك بالله فقد أضاف بعض تلك النعم إلى غير الله تعالى، مع أن الحق أن كلها من الله، فحينئذ يستحق الذم، لأن الخالق تعالى استحق الشكر بإعطاء تلك النعم فلما جحد كونها من الله، فقد قابل إحسان الله تعالى بالإساءة والجحود والكفران فاستوجب الذم وإنما قلنا إنه يستحق الخذلان، لأنه لما أثبت شريكًا لله تعالى استحق أن يفوض أمره إلى ذلك الشريك، فلما كان ذلك الشريك معدومًا بقي بلا ناصر ولا حافظ ولا معين. وذلك عين الخذلان. الثالث: أن الكمال في الوحدة والنقصان في الكثرة، فمن أثبت الشريك فقد وقع في جانب النقصان واستوجب الذم والخذلان، واعلم أنه لما دل لفظ الآية على أن المشرك مذموم مخذول وجب بحكم الآية أن يكون الموحد ممدوحًا منصورًا، والله أعلم.

المسألة الرابعة: القعود المذكور في قوله: ﴿فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا﴾. **فيه وجوه:**

الأول: أن معناه: المكث أي فتمكث في الناس مذمومًا مخذولاً، وهذه اللفظة مستعملة في لسان العرب والفرس في هذا المعنى، فإذا سأل الرجل غيره ما يصنع فلان في تلك البلدة فيقول المجيب: هو قاعد بأسوأ حال معناه: المكث سواء كان قائمًا أو جالسًا.

الثاني: إن من شأن المذموم المخذول أن يقعد نادمًا متفكرًا على ما فرط منه. الثالث: أن المتمكن من تحصيل الخيرات يسعى في تحصيلها، والسعي إنما يتأتى بالقيام، وأما العاجز عن تحصيلها فإنه لا يسعى بل يبقى جالسًا قاعدًا عن الطلب فلما كان القيام على الرجل أحد الأمور التي بها يتم الفوز بالخيرات، وكان القعود والجلوس علامة على عدم تلك المكنة والقدرة لا جرم جعل القيام كناية عن القدرة على تحصيل الخيرات. والقعود كناية عن العجز والضعف.

المسألة الخامسة: قال الواحدي: قوله: (فتقعد) انتصب لأنه وقع بعد الفاء جوابًا للنهي وانتصابه بإضمار (أن) كقولك لا تنقطع عنا فنجفوك، والتقدير: لا يكن منك انقطاع فيحصل أن نجفوك فما بعد الفاء متعلق بالجملة المتقدمة بحرف الفاء التي هي حرف العطف. وإنما سماه النحويون جوابًا لكونه مشابهًا للجزاء في أن الثاني مسبب عن الأول، ألا ترى أن المعنى إن انقطعت جفوتك كذلك تقدير الآية إن جعلت مع الله إلهًا آخر قعدت مذمومًا مخذولاً.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا

كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أنه لما ذكر في الآية الأولى ما هو الركن الأعظم في الإيمان، أتبعه بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه وهي أنواع:

النوع الأول: أن يكون الإنسان مشتغلاً بعبادة الله تعالى، وأن يكون محترزًا عن عبادة غير الله تعالى، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: القضاء معناه الحكم الجزم البت الذي لا يقبل النسخ. والدليل عليه أن الواحد منا إذا أمر غيره بشيء فإنه لا يقال: إنه قضى عليه، أما إذا أمره أمرًا جزمًا وحكم عليه بذلك الحكم على سبيل البت والقطع، هاهنا يقال: قضى عليه ولفظ القضاء في أصل اللغة يرجع إلى إتمام الشيء وانقطاعه. وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال: في هذه الآية كان الأصل ووصى ربك فالتصقت إحدى الواوين بالصاد فقرىء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ثم قال: ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط، لأن خلاف قضاء الله ممتنع، هكذا رواه عنه الضحاك وسعيد بن جبير، وهو قراءة علي وعبد الله.

واعلم أن هذا القول بعيد جدًا لأنه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق إلى القرآن، ولو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك أنه طعن عظيم في الدين.

البحث الثاني: قد ذكرنا أن هذه الآية تدل على وجوب عبادة الله تعالى وتدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق، وذلك لأن العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، ونهاية الإنعام عبارة عن إعطاء الوجود والحياة، والقدرة والشهوة والعقل، وقد ثبت بالدلائل أن المعطي لهذه الأشياء هو الله تعالى لا غيره، وإذا كان المنعم بجميع النعم هو الله لا غيره، لا جرم كان المستحق للعبادة هو الله تعالى لا غيره، فثبت بالدليل العقلي صحة قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى أمر بعبادة نفسه، ثم أتبعه بالأمر ببر الوالدين وبيان المناسبة

بين الأمر بعبادة الله تعالى وبين الأمر ببر الوالدين من وجوه:

الوجه الأول: أن السبب الحقيقي لوجود الإنسان هو تخليق الله تعالى وإيجاده، والسبب الظاهري هو الأبوان، فأمر بتعظيم السبب الحقيقي، ثم أتبعه بالأمر بتعظيم السبب الظاهري.

الوجه الثاني: أن الموجود إما قديم وإما محدث، ويجب أن تكون معاملة الإنسان مع الإله القديم بالتعظيم والعبودية، ومع المحدث بإظهار الشفقة وهو المراد من قوله عليه السلام: «التَّعْظِيمُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَالشَّفَقَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ»[1] وأحق الخلق بصرف الشفقة إليه هو الأبوان لكثرة إنعامهما على الإنسان فقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله.

الوجه الثالث: أن الاشتغال بشكر المنعم واجب، ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى. وقد يكون أحد من المخلوقين منعمًا عليك، وشكره أيضًا واجب لقوله عليه السلام: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ»[2] وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين وتقريره من وجوه:

أحدها: أن الولد قطعة من الوالدين، قال عليه السلام: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي»[3].

وثانيها: أن شفقة الأبوين على الولد عظيمة وجدهما في إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعي واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعي، ومتى كانت الدواعي إلى إيصال الخير متوفرة، والصوارف عنه زائلة لا جرم كثر إيصال الخير، فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلى إنسان.

وثالثها: أن الإنسان حال ما يكون في غاية الضعف ونهاية العجز، يكون في إنعام الأبوين فأصناف نعمهما في ذلك الوقت واصلة إليه، وأصناف رحمة ذلك الولد واصلة إلى الوالدين في ذلك الوقت، ومن المعلوم أن الإنعام إذا كان واقعًا على هذا الوجه كان موقعه عظيمًا.

ورابعها: أن إيصال الخير إلى الغير قد يكون لداعية إيصال الخير إليه وقد يمتزج بهذا الغرض

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد) (١/ ٣٠٩) حديث رقم/ ٢١٨، وأبو داود في كتاب (الأدب) باب (في شكر المعروف) (٤/ ٢٠٥٥) حديث رقم/ ٤٨١١، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٩٥/ ٣٠٢/ ٤٦١) جميعًا من طريق الربيع بن مسلم... به، ورواه أيضا النعمان بن بشير.

إسناد حسن: أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٣٧٥) من طريق أبي وكيع الجراح... به، والقضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٢٣٩) حديث رقم/ ٣٧٧، والبزار في مسنده (٨/ ٢٢٦) حديث رقم/ ٣٢٨٢، جميعا من طريق أبي وكيع عن أبي عبد الرحمن عن الشعبي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله قال... فذكره، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٥/ ٢١٨) وقال: رواه عبد الله بن أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات، وأورده الألباني في (صحيح الجامع) (٥٣٢٥) وقال: حسن.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٣/ ١٣٦١) حديث رقم/ ٣٥١٠، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٠٣/ ٢٤٤٩) كلاهما من طريق بن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة... به.

سائر الأغراض، وإيصال الخير إلى الولد ليس لهذا الغرض فقط. فكان الإنعام فيه أتم وأكمل، فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد، فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق نعمة الوالدين.

فإن قيل: الوالدان إنما طلبا تحصيل اللذة لنفسيهما فلزم منه دخول الولد في الوجود وحصوله في عالم الآفات والمخافات، فأي إنعام للأبوين على الولد؟ حكي أن واحدًا من المتسمين بالحكمة كان يضرب أباه ويقول: هو الذي أدخلني في عالم الكون والفساد. وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة، وقيل لأبي العلاء المعري: ماذا نكتب على قبرك؟ قال اكتبوا عليه:

هَــذَا جَــنَــاهُ أَبِــي عَــلَــيَّ ... وَمَــا جَــنَــيْــتُ عَــلَــى أَحَــدِ

وقال في ترك التزوج والولد:

وتركت أولادي وهم في نعمة الـ ... ـعدم الَّتِي سَبَقَتْ نَعِيمَ الْعَاجِلِ
وَلَـوَ انَّـهُـمْ وُلِـدُوا لَـعَـانَـوْا شِـدَّةً ... تَرْمِي بِهِمْ فِي مُوبِقَاتِ الْأَجِلِ[1]

وقيل للإسكندر: أستاذك أعظم منة عليك أم والدك؟ فقال: الأستاذ أعظم منة، لأنه تحمل أنواع الشدائد والمحن عند تعليمي أرتعني في نور العلم، وأما الوالد فإنه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه، وأخرجني إلى آفات عالم الكون والفساد، ومن الكلمات المشهورة المأثورة، خير الآباء من علمك.

والجواب: هب أنهما في أول الأمر طلبا لذة الوقاع إلا أن الاهتمام بإيصال الخيرات، وفي دفع الآفات من أول دخوله في الوجود إلى وقت بلوغه الكبر أليس أنه أعظم من جميع ما يتخيل من جهات الخيرات والمبرات، فسقطت هذه الشبهات، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ قال أهل اللغة: تقدير الآية وقضى ربك ألا تعبدوا إلا الله وأن تحسنوا، أو يقال: وقضى ألا تعبدوا إلا إياه وأحسنوا بالوالدين إحسانًا. قال صاحب (الكشاف): ولا يجوز أن تتعلق الباء في ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ بالإحسان لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته ثم لم يذكر دليلاً على أن المصدر لا يجوز أن تتقدم عليه صلته. وقال الواحدي في (البسيط): الباء في ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ من صلة الإحسان وقدمت عليه كما تقول بزيد فامرر، وهذا المثال الذي ذكره الواحدي غير مطابق، لأن المطلوب تقديم صلة المصدر عليه، والمثال المذكور ليس كذلك.

المسألة الثالثة: قال القفال: لفظ الإحسان قد يوصل بحرف الباء تارة، وبحرف إلى أخرى،

---

(١) هذه الأبيات لأبي العلاء المعري وتقدمت ترجمته.

وكذلك الإساءة، يقال: أحسنت به وإليه. وأسأت به وإليه. قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقال القائل:

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةً لَدَيْنَا وَلاَ مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ[1]

وأقول لفظ الآية مشتمل على قيود كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الإحسان إلى الوالدين: أحدها: أنه تعالى قال في الآية المتقدمة: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٩] ثم إنه تعالى أردفه بهذه الآية المشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة فذكر من جملتها البر بالوالدين، وذلك يدل على أن هذه الطاعة من أصول الطاعات التي تفيد سعادة الآخرة. وثانيها: أنه تعالى بدأ بذكر الأمر بالتوحيد وثنى بطاعة الله تعالى، وثلث بالبر بالوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة عظيمة في تعظيم هذه الطاعة. وثالثها: أنه تعالى لم يقل: وإحسانًا بالوالدين، بل قال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام. ورابعها: أنه قال: ﴿إِحْسَٰنًا﴾ بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم، والمعنى: وقضى ربك أن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا عظيمًا كاملاً، وذلك لأنه لما كان إحسانهما إليك قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسانك إليهما كذلك، ثم على جميع التقديرات فلا تحصل المكافأة، لأن إنعامهما عليك كان على سبيل الابتداء، وفي الأمثال المشهورة أن البادي بالبر لا يكافأ.

ثم قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لفظ (إما) لفظة مركبة من لفظتين: إن، وما. أما كلمة إن فهي للشرط، وأما كلمة (ما) فهي أيضًا للشرط كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾[البقرة: ١٠٦] فلما جمع بين هاتين الكلمتين أفاد التأكيد في معنى الاشتراط، إلا أن علامة الجزم لم تظهر مع نون التأكيد، لأن الفعل يبنى مع نون التأكيد وأقول لقائل أن يقول: إن نون التأكيد إنما يليق بالموضع الذي يكون اللائق به تأكيد ذلك الحكم المذكور وتقريره وإثباته على أقوى الوجوه، إلا أن هذا المعنى لا يليق بهذا الموضع، لأن قول القائل: الشيء إما كذا وإما كذا، فالمطلوب منه ترديد الحكم بين ذينك الشيئين المذكورين، وهذا الموضع لا يليق به التقرير والتأكيد فكيف يليق الجمع بين كلمة إما وبين نون التأكيد؟

وجوابه: أن المراد أن هذا الحكم المتقرر المتأكد إما أن يقع وإما أن لا يقع، والله أعلم.

---

(١) هذا البيت وجدته لشاعرين لكثير عزة: وتقدم ترجمته، والقائل هو العباس بن الأحنف وهو العباس بن الأحنف بن الأسود، الحنفي (نسبة الى بني حنيفة)، اليمامي، أبو الفضل. ؟- ١٩٢ هـ/ ؟- ٨٠٧ م، شاعر غزل رقيق، قال فيه البحتري: أغزل الناس، أصله من اليمامة بنجد، وكان أهله في البصرة وبها مات أبوه ونشأ ببغداد وتوفي بها، وقيل بالبصرة.

المسألة الثانية: قرأ الأكثرون: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ فعل وفاعله هو قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ وقوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عطف عليه كقولك: ضرب زيد أو عمرو: ولو أسند قوله: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿كِلَاهُمَا﴾ جاز لتقدم الفعل، تقول قال رجل، وقال رجلان، وقالت الرجال، وقرأ حمزة والكسائي: (يبلغان) وعلى هذه القراءة فقوله: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين و ﴿كِلَاهُمَا﴾ عطف على ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ فاعلاً أو بدلاً.

فإن قيل: لو قيل (إما يبلغان كلاهما) كان (كلاهما) توكيدًا لا بدلاً، فلم زعمتم أنه بدل؟

قلنا: لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدًا للاثنين فانتظم في حكمه، فوجب أن يكون مثله في كونه بدلاً.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بدل، وقوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ توكيد، ويكون ذلك عطفًا للتوكيد على البدل.

قلنا: العطف يقتضي المشاركة فجعل ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ بدلاً والآخر توكيدًا خلاف الأصل، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال أبو الهيثم الرازي، وأبو الفتح الموصلي، وأبو علي الجرجاني: إن كلاً اسم مفرد يفيد معنى التثنية ووزنه فعل ولامه معتل بمنزلة لام حجى ورضى وهي كلمة وضعت على هذه الخلقة يؤكد بها الاثنان خاصة ولا تكون إلا مضافة. والدليل عليه أنها لو كانت تثنية لوجب أن يقال في النصب والخفض مررت بكلي الرجلين بكسر الياء كما تقول: بين يدي الرجل و﴿مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ [المزمل: ٢٠]. و﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ٣٩]. و﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤] ولما لم يكن الأمر كذلك، علمنا أنها ليست تثنية بل هي لفظة مفردة وضعت للدلالة على التثنية كما أن لفظة كل اسم واحد موضوع للجماعة، فإذن أخبرت عن لفظة كما تخبر عن الواحد كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] وكذلك إذا أخبرت عن كلا أخبرت عن واحد فقلت كلا إخوتك كان قائمًا قال الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣] ولم يقل آتتا، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ معناه: أنهما يبلغان إلى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك في آخر العمر كما كنت عندهما في أول العمر.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الجملة فعند هذا الذكر كلف الإنسان في حق الوالدين بخمسة أشياء:

النوع الأول: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: فيه سبع لغات: كسر الفاء وضمها وفتحها، وكل هذه الثلاثة

بتنوين وبغير تنوين فهذه ستة واللغة السابعة أفي بالياء قال الأخفش: كأنه أضاف هذا القول إلى نفسه فقال قولي هذا وذكر ابن الأنباري: من لغات هذه اللفظة ثلاثة زائدة على ما ذكره الزجاج: (إِفٌّ) بكسر الألف وفتح الفاء أُفَه بضم الألف وإدخال الهاء وأُفْ بضم الألف وتسكين الفاء.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وابن عامر: بفتح الفاء من غير تنوين، ونافع وحفص: بكسر الفاء والتنوين، والباقون: بكسر الفاء من غير تنوين وكلها لغات، وعلى هذا الخلاف في سورة الأنبياء ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٧] وفي الأحقاف: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ [الأحقاف: ١٧] وأقول: البحث المشكل هاهنا أنا لما نقلنا عشرة أنواع من اللغات في هذه اللفظة، فما السبب في أنهم تركوا أكثر تلك اللغات في قراءة هذه اللفظة، واقتصروا على وجوه قليلة منها؟

المسألة الثالثة: ذكروا في تفسير هذه اللفظة وجوهًا: الأول: قال الفراء: تقول العرب جعل فلان يتأفف من ريح وجدها، معناه يقول: أف أف. الثاني: قال الأصمعي: الأف وسخ الأذن. والتف وسخ الظفر. يقال ذلك عند استقذار الشيء، ثم كثر حتى استعملوا عند كل ما يتأذون به. الثالث: قال بعضهم أف معناه قلة، وهو مأخوذ من الأفيف وهو الشيء القليل وتف إتباع له، كقولهم: شيطان ليطان خبيث نبيث. الرابع: روى ثعلب عن ابن الأعرابي: الأف الضجر. الخامس: قال القتبي: أصل هذه الكلمة أنه إذا سقط عليك تراب أو رماد نفخت فيه لتزيله والصوت الحاصل عند تلك النفخة هو قولك أف، ثم إنهم توسعوا فذكروا هذه اللفظة عند كل مكروه يصل إليهم. السادس: قال الزجاج: أف معناه النتن وهذا قول مجاهد، لأنه قال معنى قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي لا تتقذرهما كما أنهما لم يتقذراك حين كنت تخرى أو تبول، وفي رواية أخرى عن مجاهد أنه إذا وجدت منهما رائحة تؤذيك فلا تقل لهما أف.

المسألة الرابعة: قول القائل: لا تقل لفلان أف، مثل يضرب للمنع من كل مكروه وأذية وإن خف وقل. واختلف الأصوليون في أن دلالة هذا اللفظ على المنع من سائر أنواع الإيذاء دلالة لفظية أو دلالة مفهومة بمقتضى القياس. قال بعضهم: إنها دلالة لفظية، لأن أهل العرف إذا قالوا: لا تقل لفلان أف عنوا به أنه لا يتعرض له بنوع من أنواع الإيذاء والايحاش، وجرى هذا مجرى قولهم فلان لا يملك نقيرًا ولا قطميرًا في أنه بحسب العرف يدل على أنه لا يملك شيئًا.

والقول الثاني: أن هذا اللفظ إنما يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء بحسب القياس الجلي، وتقريره أن الشرع إذا نص على حكم صورة وسكت عن حكم صورة أخرى، فإذا أردنا إلحاق الصورة المسكوت عن حكمها بالصورة المذكور حكمها فهذا على ثلاثة أقسام: أحدها: أن يكون ثبوت ذلك الحكم في محل السكوت أولى من ثبوته في محل الذكر مثل هذه الصورة، فإن اللفظ إنما دل على المنع من التأفيف، والضرب أولى بالمنع من التأفيف. وثانيها: أن يكون الحكم في محل السكوت مساويًا للحكم في محل الذكر، وهذا هو الذي يسميه الأصوليون القياس في معنى الأصل، وضربوا لهذا مثلاً وهو قوله عليه السلام: «مَنْ أَعْتَقَ نَصِيبًا لَهُ مِنْ عَبْدٍ

قُوِّمَ عَلَيْهِ الْبَاقِي» فإن الحكم في الأمة والعبد متساويان. وثالثها: أن يكون الحكم في محل السكوت أخفى من الحكم في محل الذكر وهو أكبر القياسات.

إذا عرفت هذا فنقول: المنع من التأفيف إنما يدل على المنع من الضرب بواسطة القياس الجلي الذي يكون من باب الاستدلال بالأدنى على الأعلى. والدليل عليه: أن التأفيف غير الضرب، فالمنع من التأفيف لا يكون منعًا من الضرب، وأيضًا المنع من التأفيف لا يستلزم المنع من الضرب عقلاً، لأن الملك الكبير إذا أخذ ملكًا عظيمًا كان عدوًا له، فقد يقول للجلاد إياك وأن تستخف به أو تشافهه بكلمة موحشة لكن اضرب رقبته، وإذا كان هذا معقولاً في الجملة علمنا أن المنع من التأفيف مغاير للمنع من الضرب وغير مستلزم أيضًا للمنع من الضرب عقلاً في الجملة، إلا أنا علمنا في هذه الصورة أن المقصود من هذا الكلام المبالغة في تعظيم الوالدين بدليل قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ فكانت دلالة المنع من التأفيف على المنع من الضرب من باب القياس بالأدنى على الأعلى، والله أعلم.

النوع الثاني: من الأشياء التي كلف الله تعالى العباد بها في حق الأبوين قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ يقال: نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠].

فإن قيل: المنع من التأفيف يدل على المنع من الانتهار بطريق الأولى، فلما قدم المنع من التأفيف كان ذكر المنع من الانتهار بعده عبثًا. أما لو فرضنا أنه قدم المنع من الانتهار ثم أتبعه بالمنع من التأفيف كان مفيدًا حسنًا، لأنه يلزم من المنع من الانتهار المنع من التأفيف، فما السبب في رعاية هذا الترتيب؟

قلنا: المراد من قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ المنع من إظهار الضجر بالقليل أو الكثير، والمراد من قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ المنع من إظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له.

النوع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ واعلم أنه تعالى لما منع الإنسان بالآية المتقدمة عن ذكر القول المؤذي الموحش. والنهي عن القول المؤذي لا يكون أمرًا بالقول الطيب، لا جرم أردفه بأن أمره بالقول الحسن والكلام الطيب فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ والمراد منه أن يخاطبه بالكلام المقرون بأمارات التعظيم والاحترام. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هو أن يقول له: يا أبتاه يا أماه، وسئل سعيد بن المسيب عن القول الكريم فقال: هو قول العبد المذنب للسيد الفظ، وعن عطاء أن يقال: هو أن تتكلم معه بشرط أن لا ترفع عليهما صوتك ولا تشد إليهما نظرك، وذلك لأن هذين الفعلين ينافيان القول الكريم.

فإن قيل: إن إبراهيم عليه السلام كان أعظم الناس حلمًا وكرمًا وأدبًا، فكيف قال لأبيه يا آزر على قراءة من قرأ: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرُ) [الأنعام: ٧٤] بالضم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] فخاطبه بالاسم وهو إيذاء، ثم نسبه ونسب قومه إلى الضلال وهو أعظم أنواع الإيذاء؟

قلنا: إن قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ يدل على أن حق الله تعالى مقدم على حق الأبوين، فإقدام إبراهيم عليه السلام على ذلك الإيذاء إنما كان تقديمًا لحق الله تعالى على حق الأبوين.

النوع الرابع: قوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ والمقصود منه المبالغة في التواضع، وذكر القفال رحمه الله في تقريره وجهين: الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية، فكأنه قال للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك. والثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه. فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه.

فإن قيل: كيف أضاف الجناح إلى الذل والذل لا جناح له؟

قلنا: فيه وجهان: الأول: أنه أضيف الجناح إلى الذل كما يقال: حاتم الجود فكما أن المراد هناك حاتم الجواد فكذلك هاهنا المراد، واخفض لهما جناحك الذليل، أي المذلول. والثاني: أن مدار الاستعارة على الخيالات فهاهنا تخيل للذل جناحًا وأثبت لذلك الجناح ضعفًا تكميلاً لأمر هذه الاستعارة كما قال لبيد:

إذا أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا[1]

فأثبت للشمال يدًا ووضع زمامها في يد الشمال فكذا ههنا وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ معناه: ليكن خفض جناحك لهما بسبب فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما بسبب كبرهما وضعفهما.

والنوع الخامس: قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قال القفال رحمه الله تعالى: إنه لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقوال بل أضاف إليه تعليم الأفعال وهو أن يدعو لهما بالرحمة فيقول: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا. ثم يقول: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ يعني رب افعل بهما هذا النوع من الإحسان كما أحسنا إلي في تربيتهما إياي، والتربية هي التنمية، وهي من قولهم ربا الشيء إذا انتفخ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

البحث الثاني: اختلف المفسرون في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] فلا ينبغي للمسلم أن يستغفر لوالديه إذا كانا مشركين، ولا يقول: رب ارحمهما.

والقول الثاني: أن هذه الآية غير منسوخة، ولكنها مخصوصة في حق المشركين، وهذا أولى

---

(١) تقدمت ترجمة لبيد.

من القول الأول لأن التخصيص أولى من النسخ .

والقول الثالث: أنه لا نسخ ولا تخصيص لأن الوالدين إذا كانا كافرين فله أن يدعو لهما بالهداية والإرشاد، وأن يطلب الرحمة لهما بعد حصول الإيمان .

البحث الثالث: ظاهر الأمر للوجوب فقوله : ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أمر وظاهر الأمر لا يفيد التكرار فيكفي في العمل بمقتضى هذه الآية ذكر هذا القول مرة واحدة، سئل سفيان : كم يدعو الإنسان لوالديه؟ أفي اليوم مرة أو في الشهر أو في السنة؟ فقال : نرجو أن نجزئه إذا دعا لهما في أواخر التشهدات كما أن الله تعالى قال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فكانوا يرون أن التشهد يجزي عن الصلاة على النبي ﷺ، وكما أن الله تعالى قال : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] فهم يكررون في أدبار الصلوات .

ثم قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ﴾ والمعنى أنا قد أمرناكم في هذه الآية بإخلاص العبادة لله تعالى وبالإحسان بالوالدين، ولا يخفى على الله ما تضمرونه في أنفسكم من الإخلاص في الطاعة وعدم الإخلاص فيها، فاعلموا أن الله تعالى مطلع على ما في نفوسكم بل هو أعلم بتلك الأحوال منكم بها، لأن علوم البشر قد يختلط بها السهو والنسيان وعدم الإحاطة بالكل، فأما علم الله فمنزه عن كل هذه الأحوال، وإذا كان الأمر كذلك كان عالمًا بكل ما في قلوبكم والمقصود منه التحذير عن ترك الإخلاص .

ثم قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ﴾ أي إن كنتم برآء عن جهات الفساد في أحوال قلوبكم كنتم أوابين، أي رجاعين إلى الله منقطعين إليه في كل الأعمال وسنة الله وحكمه في الأوابين أنه غفور لهم يكفر عنهم سيئاتهم، والأواب هو الذي من عادته وديدنه الرجوع إلى أمر الله تعالى والالتجاء إلى فضله ولا يلتجىء إلى شفاعة شفيع كما يفعله المشركون الذين يعبدون من دون الله جمادًا يزعمون أنه يشفع لهم، ولفظ الأواب على وزن فعال، وهو يفيد المداومة والكثرة كقولهم : قتال وضراب والمقصود من هذه الآية أن الآية الأولى لما دلت على وجوب تعظيم الوالدين من كل الوجوه ثم إن الولد قد يظهر منه نادرة مخلة بتعظيمهما فقال : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ يعني أنه تعالى عالم بأحوال قلوبكم فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من أعمال الخير والطاعة المذكورة في هذه الآيات .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَءَاتِ﴾ خطاب مع من؟

فيه قولان:

القول الأول: أنه خطاب للرسول ﷺ فأمره الله أن يؤتي أقاربه الحقوق التي وجبت لهم في الفيء والغنيمة، وأوجب عليه أيضًا إخراج حق المساكين وأبناء السبيل أيضًا من هذين المثالين.

والقول الثاني: أنه خطاب للكل والدليل عليه أنه معطوف على قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] والمعنى: أنك بعد فراغك من بر الوالدين، يجب أن تشتغل ببر سائر الأقارب الأقرب فالأقرب، ثم بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ مجمل وليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو؟ وعند الشافعي رحمه الله أنه لا يجب الإنفاق إلا على الولد والوالدين، وقال قوم: يجب الإنفاق على المحارم بقدر الحاجة واتفقوا على أن من لم يكن من المحارم كأبناء العم فلا حق لهم إلا الموادة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة في السراء والضراء. أما المسكين وابن السبيل فقد تقدم وصفهما في سورة التوبة في تفسير آية الزكاة. ويجب أن يدفع إلى المسكين ما يفي بقوته وقوت عياله، وأن يدفع إلى ابن السبيل ما يكفيه من زاده وراحلته إلى أن يبلغ مقصده.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ والتبذير في اللغة إفساد المال وإنفاقه في السرف. قال عثمان بن الأسود: كنت أطوف في المساجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه إلى أبي قبيس وقال: لو أن رجلاً أنفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن من المسرفين، ولو أنفق درهمًا واحدًا في معصية الله كان من المسرفين. وأنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر فقيل له لا خير في السرف فقال: لا سرف في الخير، وعن عبد الله بن عمر قال: مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ فقال: أو في الوضوء سرف؟ قال: نعم: وإن كنت على نهر جارٍ ثم نبه تعالى على قبح التبذير بإضافته إياه إلى أفعال الشياطين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ والمراد من هذه الأخوة التشبه بهم في هذا الفعل القبيح، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشيء أخًا له، فيقولون: فلان أخو الكرم والجود، وأخو السفر إذا كان مواظبًا على هذه الأعمال، وقيل قوله: ﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي قرناءهم في الدنيا والآخرة كما قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي قرناءهم من الشياطين، ثم إنه تعالى بين صفة الشيطان فقال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ ومعنى كون الشيطان كفورًا لربه، هو أنه يستعمل بدنه في المعاصي والإفساد في الأرض، والإضلال للناس. وكذلك كل من رزقه الله تعالى مالاً أو جاهًا فصرفه إلى غير مرضاة الله تعالى كان كفورًا لنعمة الله تعالى، والمقصود: أن المبذرين إخوان الشياطين، بمعنى كونهم موافقين للشياطين في الصفة والفعل، ثم الشيطان كفور لربه فيلزم كون المبذر

أيضًا كفورًا لربه، وقال بعض العلماء: خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب وذلك لأنهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب والغارة ثم كانوا ينفقونها في طلب الخيلاء والتفاخر، وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله، وإعانة أعدائه فنزلت هذه الآية تنبيهًا على قبح أعمالهم في هذا الباب.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ والمعنى: أنك إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي سهلاً لينًا وقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ كناية عن الفقر، لأن فاقد المال يطلب رحمة الله وإحسانه. فلما كان فقد المال سببًا لهذا الطلب ولهذا الابتغاء أطلق اسم السبب على المسبب فسمى الفقر بابتغاء رحمة الله تعالى، والمعنى: أن عند حصول الفقر والقلة لا تترك تعهدهم بالقول الجميل والكلام الحسن، بل تعدهم بالوعد الجميل وتذكر لهم العذر وهو حصول القلة وعدم المال، أو تقول لهم: الله يسهل، وفي تفسير القول الميسور وجوه: الأول: القول الميسور هو الرد بالطريق الأحسن. والثاني: القول الميسور اللين السهل قال الكسائي: يسرت أيسر له القول أي لينته له. والثالث: قال بعضهم: القول الميسور مثل قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣] قالوا: والميسور هو المعروف، لأن القول المتعارف لا يحوج إلى تكلف، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمره بالإنفاق في الآية المتقدمة علمه في هذه الآية أدب الإنفاق، واعلم أنه تعالى شرح وصف عباده المؤمنين في الإنفاق في سورة الفرقان فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] فهاهنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تمسك عن الإنفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات، والمعنى: لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعًا مفرطًا بحيث لا يبقى في يدك شيء. وحاصل الكلام: أن الحكماء ذكروا في كتب (الأخلاق) أن لكل خلق طرفي إفراط وتفريط وهما مذمومان، فالبخل إفراط في الإمساك، والتبذير إفراط في الإنفاق وهما مذمومان، والخلق الفاضل هو العدل والوسط كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ثم قال تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ أما تفسير تقعد، فقد سبق في الآية المتقدمة. وأما كونه

﴿مَلُومًا﴾ فلأنه يلوم نفسه. وأصحابه أيضًا يلومونه على تضييع المال بالكلية وإبقاء الأهل والولد في الضر والمحنة، وأما كونه ﴿مَّحۡسُورًا﴾ فقال الفراء: تقول العرب للبعير: هو محسور إذا انقطع سيره وحسرت الدابة إذا سيَّرها حتى ينقطع سيرها، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٤] وجمع الحسير حسرى مثل قتلى وصرعى، وقال القفال: المقصود تشبيه حال من أنفق كل ماله ونفقاته بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته، لأن ذلك المقدار من المال كأنه مطية يحمل الإنسان ويبلغه إلى آخر الشهر أو السنة، كما أن ذلك البعير يحمله ويبلغه إلى آخر المنزل فإذا انقطع ذلك البعير بقي في وسط الطريق عاجزًا متحيرًا فكذلك إذا أنفق الإنسان مقدار ما يحتاج إليه في مدة شهر بقي في وسط ذلك الشهر عاجزًا متحيرًا ومن فعل هذا لحقه اللوم من أهله والمحتاجين إلى إنفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم في مهمات معاشه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ والمقصود أنه عرف رسوله ﷺ كونه ربًا. والرب هو الذي يربي المربوب ويقوم بإصلاح مهماته ودفع حاجاته على مقدار الصلاح والصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض. والقدر في اللغة التضييق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦] أي ضيق وإنما وسع على البعض لأن ذلك هو الصلاح لهم قال تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: ٢٧].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ يعنى أنه تعالى عالم بأن مصلحة كل إنسان في أن لا يعطيه إلا ذلك القدر، فالتفاوت في أرزاق العباد ليس لأجل البخل، بل لأجل رعاية المصالح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾

هذا هو النوع الخامس من الطاعات المذكورة في هذه الآيات.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في تقرير النظم وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه هو المتكفل بأرزاق العباد حيث قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الإسراء: ٣٠] أتبعه بقوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾.

الوجه الثاني: أنه تعالى لما علم كيفية البر بالوالدين في الآية المتقدمة علم في هذه الآية كيفية البر بالأولاد، ولهذا قال بعضهم: إن الذين يسمون بالأبرار إنما سموا بذلك لأنهم بروا الآباء والأبناء وإنما وجب بر الآباء مكافأة على ما صدر منهما من أنواع البر بالأولاد. وإنما وجب البر

بالأولاد لأنهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين .

الوجه الثالث: أن امتناع الأولاد من البر بالآباء يوجب خراب العالم ، لأن الآباء إذا علموا ذلك قلت رغبتهم في تربية الأولاد ، فيلزم خراب العالم من الوجه الذي قررناه ، فثبت أن عمارة العالم إنما تحصل إذا حصلت المبرة بين الآباء والأولاد من الجانبين .

الوجه الرابع: أن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو سوء ظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعي في تخريب العالم ، فالأول ضد التعظيم لأمر الله تعالى ، والثاني : ضد الشفقة على خلق الله تعالى وكلاهما مذموم ، والله أعلم .

الوجه الخامس: أن قرابة الأولاد قرابة الجزئية والبعضية ، وهي من أعظم الموجبات للمحبة . فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد في الروح ، وقسوة في القلب ، وذلك من أعظم الأخلاق الذميمة ، فرغب الله في الإحسان إلى الأولاد إزالة لهذه الخصلة الذميمة .

المسألة الثانية : العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب ، وقدرة البنين عليه بسبب إقدامهم على النهب والغارة ، وأيضًا كانوا يخافون أن فقرها ينفر كفأها عن الرغبة فيها فيحتاجون إلى إنكاحها من غير الأكفاء ، وفي ذلك عار شديد فقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ وهذا لفظ عام للذكور والإناث ، والمعنى : أن الموجب للرحمة والشفقة هو كونه ولدًا ، وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور وبين الإناث . وأما ما يخاف من الفقر في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر ، وقد يخاف أيضًا في العاجزين من البنين .

ثم قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ يعني الأرزاق بيد الله تعالى فكما أنه تعالى فتح أبواب الرزق على الرجال ، فكذلك يفتح أبواب الرزق على النساء .

المسألة الثالثة : الجمهور قرؤا ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ ، أي إثمًا كبيرًا يقال خطىء يخطأ خطأ مثل أثم يأثم إثمًا قال تعالى : ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧] أي آثمين ، وقرأ ابن عامر (خطأ) بالفتح يقال : أخطأ يخطىء إخطاء وخطأ إذا أتى بما لا ينبغي من غير قصد ، ويكون الخطأ اسمًا للمصدر ، والمعنى : على هذه القراءة أن قتلهم ليس بصواب . قال القفال رحمه الله ، وقرأ ابن كثير : (خِطاء) بكسر الخاء ممدودة ولعلهما لغتان مثل دفع ودفاع ولبس ولباس . ٦

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر بالأشياء الخمسة التي تقدم ذكرها ، وحاصلها يرجع إلى شيئين : التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، أتبعها بذكر النهي عن أشياء . أولها : أنه تعالى نهى عن الزنا فقال : ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ قال القفال : إذا قيل للإنسان لا تقربوا هذا فهذا آكد من أن يقول له لا تفعله ثم إنه تعالى علل هذا النهي بكونه : ﴿فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ .

واعلم أن الناس قد اختلفوا في أنه تعالى إذا أمر بشيء أو نهى عن شيء فهل يصح أن يقال إنه

تعالى إنما أمر بذلك الشيء أو نهى عنه لوجه عائد إليه أم لا؟ فقال القائلون بتحسين العقل وتقبيحه الأمر كذلك. وقال المنكرون: لتحسين العقل وتقبيحه ليس الأمر كذلك، احتج القائلون بتحسين العقل وتقبيحه على صحة قولهم بهذه الآية قالوا إنه تعالى نهى عن الزنا، وعلل ذلك النهي بكونه فاحشة فيمتنع أن يكون كونه فاحشة عبارة عن كونه منهيًا عنه. وإلا لزم تعليل الشيء بنفسه وهو محال، فوجب أن يقال: كونه فاحشة وصف حاصل له باعتبار كونه زنا، وذلك يدل على أن الأشياء تحسن وتقبح لوجوه عائدة إليها في أنفسها، ويدل أيضًا على أن نهي الله تعالى عنها معلل بوقوعها في أنفسها على تلك الوجوه، وهذا الاستدلال قريب، والأولى أن يقال: إن كون الشيء في نفسه مصلحة أو مفسدة أمر ثابت لذاته لا بالشرع، فإن تناول الغذاء الموافق مصلحة، والضرب المؤلم مفسدة، وكونه كذلك أمر ثابت بالعقل لا بالشرع.

وإذا ثبت هذا فنقول: تكاليف الله تعالى واقعة على وفق مصالح العالم في المعاش والمعاد فهذا هو الكلام الظاهري، وفيه مشكلات هائلة ومباحث عميقة نسأل الله التوفيق لبلوغ الغاية فيها.

إذا عرفت هذا فنقول: الزنا اشتمل على أنواع من المفاسد: **أولها:** اختلاط الأنساب واشتباهها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره، فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده، وذلك يوجب ضياع الأولاد، وذلك يوجب انقطاع النسل وخراب العالم. **وثانيها:** أنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل، وذلك يفضي إلى فتح باب الهرج والمرج والمقاتلة، وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا. **وثالثها:** أن المرأة إذا باشرت الزنا وتمرنت عليه يستقذرها كل طبع سليم، وكل خاطر مستقيم، وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والإزدواج، ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق. **ورابعها:** أنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بامرأة، وكل رجل يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت. وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب. **وخامسها:** أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهماته من المطعوم والمشروب والملبوس، وأن تكون ربة البيت وحافظة للباب وأن تكون قائمة بأمور الأولاد والعبيد، وهذه المهمات لا تتم إلا إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد منقطعة الطمع عن سائر الرجال، وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا وسد هذا الباب بالكلية. **وسادسها:** أن الوطء يوجب الذل الشديد، والدليل عليه أن أعظم أنواع الشتم عند الناس ذكر ألفاظ الوقاع، ولولا أن الوطء يوجب الذل، وإلا لما كان الأمر كذلك، وأيضًا فإن جميع العقلاء لا يقدمون على الوطء إلا في المواضع المستورة، وفي الأوقات التي لا يطلع عليهم أحد، وأن جميع العقلاء يستنكفون عن

ذكر أزواج بناتهم وأخواتهم وأمهاتهم لما يقدمون على وطئهن، ولولا أن الوطء ذل، وإلا لما كان كذلك.

وإذا ثبت هذا فنقول: لما كان الوطء ذلاً كان السعي في تقليله موافقًا للعقول، فاقتصار المرأة الواحدة على الرجل الواحد سعى في تقليل ذلك العمل، وأيضًا ما فيه من الذل يصير مجبورًا بالمنافع الحاصلة في النكاح، أما الزنا فإنه فتح باب لذلك العمل القبيح ولم يصر مجبورًا بشيء من المنافع فوجب بقاؤه على أصل المنع والحجر، فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة تقضي على الزنا بالقبح.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى وصف الزنا بصفات ثلاثة كونه فاحشة، ومقتًا في آية أخرى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أما كونه فاحشة فهو إشارة إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم وإلى اشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج وهو أيضًا يوجب خراب العالم. وأما المقت: فقد ذكرنا أن الزانية تصير ممقوتة مكروهة، وذلك يوجب عدم حصول السكن والازدواج وأن لا يعتمد الإنسان عليها في شيء من مهماته ومصالحه. وأما أنه ساء سبيلاً، فهو ما ذكرنا أنه لا يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث، وأيضًا يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة من غير أن يصير مجبورًا بشيء من المنافع، فقد ذكرنا في قبح الزنا ستة أوجه؛ والله تعالى ذكر ألفاظًا ثلاثة، فحملنا كل واحد من هذه الألفاظ الثلاثة على وجهين من تلك الوجوه الستة، والله أعلم بمراده.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

هذا هو النوع الثاني مما نهى الله عنه في هذه الآية.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: إن أكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل، فما السبب في أن الله تعالى بدأ أولاً بذكر النهي عن الزنا وثانيًا بذكر النهي عن القتل.

وجوابه: أنا بينا أن فتح باب الزنا يمنع من دخول الإنسان في الوجود، والقتل عبارة عن إبطال الإنسان بعد دخوله في الوجود. ودخوله في الوجود مقدم على إبطاله وإعدامه بعد وجوده، فلهذا السبب ذكر الله تعالى الزنا أولاً ثم ذكر القتل ثانيًا.

المسألة الثانية: اعلم أن الأصل في القتل هو الحرمة المغلظة، والحل إنما يثبت بسبب عارضي، فلما كان الأمر كذلك لا جرم نهى الله عن القتل مطلقًا بناء على حكم الأصل، ثم استثنى عنه الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهو عند حصول الأسباب العرضية فقال: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فنفتقر هاهنا إلى بيان أن الأصل في القتل التحريم، والذي يدل عليه وجوه:

الأول: أن القتل ضرر والأصل في المضار الحرمة لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] «ولا ضَرَرَ وَلاَ ضِرَارَ».

الثاني: قوله عليه السلام: «الْآدَمِيُّ بُنْيَانُ الرَّبِّ مَلْعُونٌ مَنْ هَدَمَ بُنْيَانَ الرَّبِّ»(١).

الثالث: أن الآدمي خلق للاشتغال بالعبادة لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ولقوله عليه السلام: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»(٢) والاشتغال بالعبادة لا يتم إلا عند عدم القتل.

الرابع: أن القتل إفساد فوجب أن يحرم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا﴾ [الأعراف: ٨٥].

الخامس: أنه إذا تعارض دليل تحريم القتل ودليل إباحته فقد أجمعوا على أن جانب الحرمة راجح، ولولا أن مقتضى الأصل هو التحريم وإلا لكان ذلك ترجيحًا لا لمرجح وهو محال.

السادس: أنا إذا لم نعرف في الإنسان صفة من الصفات إلا مجرد كونه إنسانًا عاقلاً حكمنا فيه بتحريم قتله، وما لم نعرف شيئًا زائدًا على كونه إنسانًا لم نحكم فيه بحل دمه، ولولا أن أصل الإنسانية يقتضي حرمة القتل، وإلا لما كان كذلك فثبت بهذه الوجوه أن الأصل في القتل هو التحريم. وأن حله لا يثبت إلا بأسباب عرضية.

وإذا ثبت هذا فنقول: إنه تعالى حكم بأن الأصل في القتل هو التحريم فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ نهي وتحريم، وقوله: ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ إعادة لذكر التحريم على سبيل التأكيد، ثم استثنى عنه الأسباب العرضية الاتفاقية فقال: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

ثم هاهنا طريقان:

الطريق الأول: أن مجرد قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ مجمل لأنه ليس فيه بيان أن ذلك الحق ما هو وكيف هو؟ ثم إنه تعالى قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ أي في استيفاء القصاص من القاتل، وهذا الكلام يصلح جعله بيانًا لذلك المجمل، وتقريره كأنه تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وذلك الحق هو أن من قتل مظلومًا فقد جعلنا لوليه سلطانًا في

---

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بغير إسناد.

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (اللباس) باب (إرداف الرجل خلف الرجل) (٥/ ٢٢٢٤) حديث رقم/ ٥٦٢٢، قال: حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام حدثنا قتادة حدثنا أنس... به، وفي كتاب (الاستئذان) باب (من أجاب لبيك وسعديك) (٥/ ٢٣١٢) حديث رقم/ ٢٩١٢، قال: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا همام عن قتادة عن أنس... به، وفي كتاب (الرقاق) باب (من جاهد نفسه في طاعة الله) (٥/ ٢٣٨٤) حديث رقم/ ٦١٣٥، قال: حدثنا هدبة بن خالد حدثنا همام حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك... به، ومسلم في كتاب (الإيمان) باب (الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا) (١/ ٥٨/ ٣٠) قال حدثنا هدبة بن خالد الأزدي حدثنا همام حدثنا قتادة حدثنا أنس... به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢٢٨) حديث رقم/ ٢٢٠٤٦، قال: حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي سفيان... به، والطبراني في (الكبير) (٢٠/ ٥٠) حديث رقم/ ٨٧، من طريق أبي معاوية عن الأعمش... به.

استيفاء القصاص . وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الحق هذه الصورة فقط ، فصار تقدير الآية : ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا عند القصاص ، وعلى هذا التقدير فتكون الآية نصًا صريحًا في تحريم القتل إلا بهذا السبب الواحد ، فوجب أن يبقى على الحرمة فيما سوى هذه الصورة الواحدة .

والطريق الثاني: أن نقول : دلت السنة على أن ذلك الحق هو أحد أمور ثلاثة : وهو قوله عليه السلام : «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ : كُفْرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ ، وَزِنًا بَعْدَ إِحْصَانٍ ، وَقَتْلُ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ**» .

واعلم أن هذا الخبر من باب الآحاد . فإن قلنا : إن قوله : ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ تفسير لقوله : ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كانت الآية صريحة في أنه لا يحل القتل إلا بهذا السبب الواحد ، فحينئذ يصير هذا الخبر مخصصًا لهذه الآية ويصير ذلك فرعًا لقولنا : إنه يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد ، وأما إن قلنا : إن قوله : ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ليس تفسيرًا لقوله : ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فحينئذ يصير هذا الخبر مفسرًا للحق المذكور في الآية ، وعلى هذا التقدير لا يصير هذا فرعًا على مسألة جواز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد . فلتكن هذه الدقيقة معلومة ، والله أعلم .

المسألة الثالثة : ظاهر هذه الآية أنه لا سبب لحل القتل إلا قتل المظلوم ، وظاهر الخبر يقتضي ضم شيئين آخرين إليه : وهو الكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان ، ودلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٣] ودلت آية أخرى على حصول سبب خامس وهو الكفر . قال تعالى : ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] وقال : ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [النساء: ٨٩] والفقهاء تكلموا واختلفوا في أشياء أخرى فمنها : أن تارك الصلاة هل يقتل أم لا؟ فعند الشافعي رحمه الله يقتل ، وعن أبي حنيفة رحمه الله لا يقتل . وثانيها : أن فعل اللواط هل يوجب القتل؟ فعند الشافعي يوجب ، وعند أبي حنيفة لا يوجب . وثالثها : أن الساحر إذا قال : قتلت بسحري فلانًا فعند الشافعي يوجب القتل ، وعند أبي حنيفة لا يوجب . ورابعها : أن القتل بالمثقل هل يوجب القصاص؟ فعند الشافعي يوجب . وعند أبي حنيفة لا يوجب . وخامسها : أن الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل أم لا؟ اختلفوا فيه في زمان أبي بكر . وسادسها : أن إتيان البهيمة هل يوجب القتل ، فعند أكثر الفقهاء لا يوجب ، وعند قوم يوجب ، حجة القائلين بأنه لا يجوز القتل في هذه الصور هو أن الآية صريحة في منع القتل على الإطلاق ، إلا لسبب واحد وهو قتل المظلوم ، ففيما عدا هذا السبب الواحد ، وجب البقاء على أصل الحرمة ، ثم قالوا : وهذا النص قد تأكد بالدلائل الكثيرة الموجبة لحرمة الدم على الإطلاق ، فترك العمل بهذه الدلائل لا يكون إلا لمعارض ، وذلك المعارض إما أن يكون نصًا متواترًا أو

نصًا من باب الآحاد أو يكون قياسًا، أما النص المتواتر فمفقود، وإلا لما بقي الخلاف، وأما النص من باب الآحاد فهو مرجوح بالنسبة إلى هذه النصوص المتواترة الكثيرة، وأما القياس فلا يعارض النص. فثبت بمقتضى هذا الأصل القوي القاهر أن الأصل في الدماء الحرمة إلا في الصور المعدودة، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف﴾.

فيه بحثان:

البحث الأول: أن هذه الآية تدل على أنه أثبت لولي الدم سلطانًا، فأما بيان أن هذه السلطنة تحصل فيما ذا فليس في قوله: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ دلالة عليه ثم ههنا طريقان: الأول: أنه تعالى لما قال بعده: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ عرف أن تلك السلطنة إنما حصلت في استيفاء القتل، وهذا ضعيف لاحتمال أن يكون المراد: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ فلا ينبغي أن يسرف الظالم في ذلك القتل، لأن ذلك المقتول منصور بواسطة إثبات هذه السلطنة لوليه. والثاني: أن تلك السلطنة مجملة ثم صارت مفسرة بالآية والخبر، أما الآية فقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقد بينا في تفسير هذه الآية أنها تدل على أن الواجب هو كون المكلف مخيرًا بين القصاص وبين الدية. وأما الخبر فهو قوله عليه السلام يوم الفتح: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَأَهْلُهُ بَيْنَ خِيرَتَيْنِ إِنْ أَحَبُّوا قَتَلُوا وَإِنْ أَحَبُّوا أَخَذُوا الدِّيَةَ»(١) وعلى هذا الطريق فقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ معناه: أنه لما حصلت له سلطنة استيفاء القصاص إن شاء، وسلطنة استيفاء الدية إن شاء. قال بعده: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ معناه أن الأولى أن لا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفي بأخذ الدية أو يميل إلى العفو وبالجملة فلفظة (في) محمولة على الباء، والمعنى: فلا يصير مسرفًا بسبب إقدامه على القتل ويصير معناه الترغيب في العفو والاكتفاء بالدية كما قال: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

البحث الثاني: أن في قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ ذكر كونه مظلومًا بصيغة التنكير، وصيغة التنكير على ما عرف تدل على الكمال، فالإنسان المقتول ما لم يكن كاملاً في وصف المظلومية لم يدخل تحت هذا النص. قال الشافعي رحمه الله: قد دللنا على أن المسلم إذا قتل الذمي لم يدخل تحت هذه الآية، بدليل أن الذمي مشرك والمشرك يحل دمه، إنما قلنا: إنه مشرك لقوله

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الديات) باب (ولي العمد يرضى بالدية) (٤/ ١٩٢٩) حديث رقم/ ٤٥٠٤، والترمذي في كتاب (الديات) باب (ما جاء في حكم ولي القتيل) (٤/ ١٤) حديث رقم/ ١٤٠٦، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أحمد في (مسنده) (٦/ ٣٨٥) جميعًا من طريق يحيى بن سعيد... به، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ٥٢) والشافعي في (مسنده) (١/ ٢٠٠) كلاهما من طريق ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي شريح الكعبي... به.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦] حكم بأن ما سوى الشرك مغفور في حق البعض، فلو كان كفر اليهودي والنصراني شيئًا مغايرًا للشرك لوجب أن يصير مغفورًا في حق بعض الناس بمقتضى هذه الآية، فلما لم يصر مغفورًا في حق أحد دل على أن كفرهم شرك، ولأنه تعالى قال: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [البقرة: ٧٣] فهذا التثليث الذي قال به هؤلاء، إما أن يكون تثليثًا في الصفات وهو باطل، لأن ذلك هو الحق وهو مذهب أهل السنة والجماعة فلا يمكن جعله تثليثًا للكفر، وإما أن يكون تثليثًا في الذوات، وذلك هو الحق ولا شك أن القائل به مشرك، فثبت أن الذمي مشرك، وإنما قلنا: إن المشرك يجب قتله لقوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] ومقتضى هذا الدليل إباحة دم الذمي فإن لم تثبت الإباحة فلا أقل من حصول شبهة الإباحة. وإذا ثبت هذا فنقول: ثبت أنه ليس كاملاً في المظلومية فلم يندرج تحت قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ وأما الحر إذا قتل عبدًا فهو داخل تحت هذه الآية إلا أنا بينا أن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ [البقرة: ١٧٨] يدل على المنع من قتل الحر بالعبد من وجوه كثيرة وتلك الآية أخص من قوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ والخاص مقدم على العام، فثبت أن هذه الآية لا يجوز التمسك بها في مسألة أن موجب العمد هو القصاص ولا في مسألة أنه يجب قتل المسلم بالذمي، ولا في مسألة أنه يجب قتل الحر بالعبد، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾.

ففيه مباحث:

البحث الأول: فيه وجوه: **الأول:** المراد هو أن يقتل القاتل وغير القاتل، وذلك لأن الواحد منهم إذا قتل واحدًا من قبيلة شريفة فأولياء ذلك المقتول كانوا يقتلون خلقًا من القبيلة الدنيئة فنهى الله تعالى عنه وأمر بالاقتصار على قتل القاتل وحده. **الثاني:** هو أن لا يرضى بقتل القاتل فإن أهل الجاهلية كانوا يقصدون أشراف قبيلة القاتل ثم كانوا يقتلون منهم قومًا معينين ويتركون القاتل. **والثالث:** هو أن لا يكتفي بقتل القاتل بل يمثل به ويقطع أعضاؤه. قال القفال: ولا يبعد حمله على الكل، لأن جملة هذه المعاني مشتركة في كونها إسرافًا.

البحث الثاني: قرأ الأكثرون: ﴿فَلَا يُسۡرِف﴾ بالياء وفيه وجهان: **الأول:** التقدير: فلا ينبغي أن يسرف الولي في القتل. **الثاني:** أن الضمير للقاتل الظالم ابتداء، أي فلا ينبغي أن يسرف ذلك الظالم وإسرافه عبارة عن إقدامه على ذلك القتل الظلم، وقرأ حمزة والكسائي: (فَلَا تُسْرِفْ) بالتاء على الخطاب، وهذه القراءة تحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الخطاب للمبتدىء القاتل ظلمًا كأنه قيل له: لا تسرف أيها الإنسان، وذلك الإسراف هو إقدامه على ذلك القتل الذي هو ظلم محض، والمعنى: لا تفعل فإنك إن قتلته مظلومًا استوفى القصاص منك. والآخر: أن يكون الخطاب للولي فيكون التقدير: لا تسرف في القتل أيها الولي، أي اكتف باستيفاء

القصاص ولا تطلب الزيادة. وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ ففيه ثلاثة أوجه: الأول: كأنه قيل للظالم المبتدىء بذلك القتل على سبيل الظلم لا تفعل ذلك، فإن ذلك المقتول يكون منصورًا في الدنيا والآخرة، أما نصرته في الدنيا فبقتل قاتله، وأما في الآخرة فبكثرة الثواب له وكثرة العقاب لقاتله.

والقول الثاني: أن هذا الولي يكون منصورًا في قتل ذلك القاتل الظالم فليكتف بهذا القدر فإنه يكون منصورًا فيه ولا ينبغي أن يطمع في الزيادة منه، لأن من يكون منصورًا من عند الله يحرم عليه طلب الزيادة.

والقول الثالث: أن هذا القاتل الظالم ينبغي أن يكتفي باستيفاء القصاص وأن لا يطلب الزيادة.

واعلم أن على القول الأول والثاني ظهر أن المقتول وولي دمه يكونان منصورين من عند الله تعالى وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قلت لعلي بن أبي طالب عليه السلام وايم الله ليظهرن عليكم ابن أبي سفيان، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وقال الحسن: والله ما نصر معاوية على علي عليه السلام إلا بقول الله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الأشياء التي نهى الله عنها في هذه الآيات.

واعلم أنا ذكرنا أن الزنا يوجب اختلاط الأنساب. وذلك يوجب منع الاهتمام بتربية الأولاد وذلك يوجب انقطاع النسل، وذلك يوجب المنع من دخول الناس في الوجود، وأما القتل فهو عبارة عن إعدام الناس بعد دخولهم في الوجود، فثبت أن النهي عن الزنا والنهي عن القتل يرجع حاصله إلى النهي عن إتلاف النفوس، فلما ذكر الله تعالى ذلك أتبعه بالنهي عن إتلاف الأموال، لأن أعز الأشياء بعد النفوس الأموال، وأحق الناس بالنهي عن إتلاف أموالهم هو اليتيم، لأنه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره بإتلاف ماله، فلهذا السبب خصهم الله تعالى بالنهي عن إتلاف أموالهم فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦] وفي تفسير قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وجهان: الأول: إلا بالتصرف الذي ينميه ويكثره. الثاني: المراد هو أن تأكل منه إذا احتجت إليه، وروى مجاهد عن ابن عباس قال: إذا احتاج أكل بالمعروف فإذا أيسر قضاه، فإن لم يوسر فلا شيء عليه.

واعلم أن الولي إنما تبقى ولايته على اليتيم إلى أن يبلغ أشده وهو بلوغ النكاح، كما بينه الله تعالى في آية أخرى وهو قوله: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ

﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦] والمراد بالأشد بلوغه إلى حيث يمكنه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله، وعند ذلك تزول ولاية غيره عنه وذلك حد البلوغ، فأما إذا بلغ غير كامل العقل لم تزل الولاية عنه، والله أعلم. وبلوغ العقل هو أن يكمل عقله وقواه الحسية والحركية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى أمر بخمسة أشياء أولاً، ثم أتبعه بالنهي عن ثلاثة أشياء وهي النهي عن الزنا، وعن القتل إلا بالحق، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، ثم أتبعه بهذه الأوامر الثلاثة فالأول قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾.

واعلم أن كل عقد تقدم لأجل توثيق الأمر وتوكيده فهو عهد فقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ نظير لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] فدخل في قوله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] كل عقد من العقود كعقد البيع والشركة، وعقد اليمين والنذر، وعقد الصلح، وعقد النكاح.

وحاصل القول فيه: أن مقتضى هذه الآية أن كل عقد وعهد جرى بين إنسانين فإنه يجب عليهما الوفاء بمقتضى ذلك العقد والعهد، إلا إذا دل دليل منفصل على أنه لا يجب الوفاء به فمقتضاه الحكم بصحة كل بيع وقع التراضي به وبصحة كل شركة وقع التراضي بها، ويؤكد هذا النص بسائر الآيات الدالة على الوفاء بالعهود والعقود كقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨] وقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقوله عليه السلام: «**لاَ يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ عَنْ طِيبَةٍ مِنْ نَفْسِهِ**»(١) وقوله: «**إِذَا اخْتَلَفَ الْجِنْسَانِ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ يَدًا بِيَدٍ**»(٢) وقوله: «**مَنِ اشْتَرَى شَيْئًا لَمْ يَرَهُ فَهُوَ بِالْخِيَارِ إِذَا رَآهُ**»(٣) فجميع هذه الآيات والأخبار دالة على أن الأصل في

---

(١) البيهقي في (شعب الإيمان) (٤/ ٣٨٧) حديث رقم/ ٥٤٩٢، من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي حرة الرقاشي عن عمه... به، وأورده ابن الملقن في (خلاصة البدر المنير) (٢/ ٨٨) حديث رقم/ ١٥٩١، وقال: رواه الدارقطني من رواية أنس وابن عباس وأبي حرة الرقاشي عن عمه وعمرو بن يثربي ورواه البيهقي في خلافياته من رواية أبي حميد الساعدي وعبد الله بن السائب عن أبيه عن جده وقال إسناده هذا حسن قال وحديث أبي حرة يضم إليه حديث عكرمة وعمر بن يثربي فيقوى قلت ورواه الحاكم من حديث ابن عباس بلفظ لايحل لامرىء من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس ثم قال وقد احتج البخاري بأحاديث عكرمة ومسلم بأحاديث أبي أويس وسائر رواته متفق عليهم.

(٢) رواه الربيع في (مسنده) (١/ ٢٢٨)، من طريق جابر عن ابن عباس... به، ورواه أيضا في (١/ ٢٣٢) حديث رقم/ ٥٨٤، عن عبادة بن الصامت... به.

(٣) ضعيف: رواه البيهقي في (سننه الكبري) (٥/ ٢٦٨) حديث رقم/ ١٠٢٠٦، من طريق داهر بن نوح حدثنا عمر بن إبراهيم بن خالد عن وهب البشكري عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة... به، وأورده الذهبي في=

البيوعات والعهود والعقود الصحة ووجوب الالتزام.

إذا ثبت هذا فنقول: إن وجدنا نصًا أخص من هذه النصوص يدل على البطلان والفساد قضينا به تقديمًا للخاص على العام، وإلا قضينا بالصحة في الكل، وأما تخصيص النص بالقياس فقد أبطلناه، وبهذا الطريق تصير أبواب المعاملات على طولها وأطنابها مضبوطة معلومة بهذه الآية الواحدة، ويكون المكلف آمن القلب مطمئن النفس في العمل، لأنه لما دلت هذه النصوص على صحتها فليس بعد بيان الله بيان، وتصير الشريعة مضبوطة معلومة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ وفيه وجوه: أحدها: أن يراد صاحب العهد كان مسؤلاً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. وثانيها: أن العهد كان مسؤلا أي مطلوبًا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به. وثالثها: أن يكون هذا تخييلاً كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفي بك تبكيتًا للناكث كما يقال للموؤدة: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٩] وكقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية فالمخاطبة لعيسى عليه السلام والإنكار على غيره.

النوع الثاني: من الأوامر المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ والمقصود منه إتمام الكيل وذكر الوعيد الشديد في نقصانه في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣].

النوع الثالث: من الأوامر المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ فالآية المتقدمة في إتمام الكيل، وهذه الآية في إتمام الوزن، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩] وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل، والوزن قليل. والوعيد الحاصل عليه شديد

=(ميزان الاعتدال) (٨/ ٩٢) حديث رقم/ ٣٤١، من طريق داهر بن نوح الأهوازي تحت ترجمة وقال ليس بالقوي في الحديث وقال ابن القطان: داهر بن نوح لا يعرف ولعل الجناية منه ا. هـ.

والدارقطني في (سننه) (٣/ ٤) حديث رقم/ ٨، من طريق إسماعيل بن عياش عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن مكحول رفع الحديث إلى النبي ﷺ... فذكره، وقال: هذا مرسل وأبو بكر بن أبي مريم ضعيف.

وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٣٠٣) حديث رقم/ ٢٣٩٩، وقال: رواه القضاعي والبيهقي والديلمي عن أبي هريرة وفي سنده عمر بن إبراهيم الكردي وضاع وذكر الدارقطني أنه تفرد به وقال هو والبيهقي المعروف أنه من قول ابن سيرين وأخرجه ابن أبي شيبة والدارقطني والبيهقي من طريق اخري مرسلة عن مكحول رفعة بسند فيه ضعيف لكنها أمثل من الموصولة وعلق الشافعي القول به على ثبوته ونقل النووي اتفاق الحفاظ على تضعيفه وعند الطحاوي والبيهقي من طريق علقمة بن وقاص أن طلحة اشتري من عثمان مالا، فقيل لعثمان إنك غبنت فقال عثمان لي الخيار لأني نظير ما لم أره وقال طلحة لي الخيار لأني اشتريت ما لم أره فحكما بينهما جبير بن مطعم فقضى أن الخيار لطلحة ولا خيار لعثمان انتهى وقد أورده كثير من السادة الحنفية في كتبهم مستدلين به كصاحب الهداية بلفظ من اشترى ما لم ير فله الخيار إذا رأى وهو المشهور على الألسنة لكن نقل عن الحافظ ابن حجر أنه قال في تخريجه لأحاديث الهداية لا أصل له فليراجع والله أعلم.

عظيم، فوجب على العاقل الاحتراز منه، وإنما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء، وقد يكون الإنسان غافلاً لا يهتدي إلى حفظ ماله، فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان، سعيًا في إبقاء الأموال على الملاك، ومنعًا من تلطيخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير، والقسطاس في معنى الميزان إلا أنه في العرف أكبر منه، ولهذا اشتهر في ألسنة العامة أنه القبان. وقيل أنه بلسان الروم أو السرياني. والأصح أنه لغة العرب وهو مأخوذ من القسط، وهو الذي يحصل فيه الاستقامة والاعتدال، وبالجملة فمعناه المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الجانبين، وأجمعوا على جواز اللغتين فيه، ضم القاف وكسرها، فالكسر قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم والباقون بالضم.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي الإيفاء بالتمام والكمال خير من التطفيف القليل من حيث أن الإنسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ والتأويل ما يؤل إليه الأمر كما قال في موضع آخر: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦] ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤] ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] وإنما حكم تعالى بأن عاقبة هذا الأمر أحسن العواقب، لأنه في الدنيا إذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب إليه وحصل له الاستغناء في الزمان القليل، وكم قد رأينا من الفقراء لما اشتهروا عند الناس بالأمانة والاحتراز عن الخيانة أقبلت القلوب عليهم وحصلت الأموال الكثيرة لهم في المدة القليلة. وأما في الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العقاب الأليم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما شرح الأوامر الثلاثة، عاد بعده إلى ذكر النواهي فنهى عن ثلاثة أشياء: أولها: قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وقوله: ﴿تَقْفُ﴾ مأخوذ من قولهم: قفوت أثر فلان أقفو قَفْوًا وقُفُوًا إذا اتبعت أثره، وسميت قافية الشعر قافية لأنها تقفو البيت، وسميت القبيلة المشهورة بالقافة، لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس ويستدلون بها على أحوال الإنسان، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ [الحديد: ٢٧] وسمي القفا قفا لأنه مؤخر بدن الإنسان كأنه شيء يتبعه ويقفوه فقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي ولا تتبع ولا تقتف ما لا علم لك به من قول أو فعل، وحاصله يرجع إلى النهي عن الحكم بما لا يكون معلومًا، وهذه قضية كلية يندرج تحتها أنواع كثيرة، وكل واحد من المفسرين حمله على واحد من تلك الأنواع وفيه وجوه:

الوجه الأول: المراد نهي المشركين عن المذاهب التي كانوا يعتقدونها في الإلهيات والنبوات بسبب تقليد أسلافهم، لأنه تعالى نسبهم في تلك العقائد إلى اتباع الهوى فقال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ

سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] وقال في إنكارهم البعث: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] وحكي عنهم أنهم قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠] وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦] الآية وقال: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والقول الثاني: نقل عن محمد بن الحنفية أن المراد منه شهادة الزور، وقال ابن عباس: لا تشهد إلا بما رأته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك.

والقول الثالث: المراد منه: النهي عن القذف ورمي المحصنين والمحصنات بالأكاذيب، وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها في الهجاء ويبالغون فيه.

القول الرابع: المراد منه النهي عن الكذب. قال قتادة: لا تقل سمعت ولم تسمع ورأيت ولم تر وعلمت ولم تعلم.

والقول الخامس: أن القفو هو البهت وأصله من القفا، كأنه قول يقال خلفه وهو في معنى الغيبة وهو ذكر الرجل في غيبته بما يسوءه. وفي بعض الأخبار من قفا مسلمًا بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال، واعلم أن اللفظ عام يتناول الكل فلا معنى للتقليد، والله أعلم.

المسألة الثانية: احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: القياس لا يفيد إلا الظن والظن مغاير للعلم، فالحكم في دين الله بالقياس حكم بغير المعلوم، فوجب أن لا يجوز لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾.

أجيب عنه من وجوه:

الأول: أن الحكم في الدين بمجرد الظن جائز بإجماع الأمة في صور كثيرة:

أحدها: أن العمل بالفتوى عمل بالظن وهو جائز.

وثانيها: العمل بالشهادة عمل بالظن وأنه جائز.

وثالثها: الاجتهاد في طلب القبلة لا يفيد إلا الظن وأنه جائز.

ورابعها: قيم المتلفات وأروش الجنايات لا سبيل إليها إلا بالظن وأنه جائز.

وخامسها: الفصد والحجامة وسائر المعالجات بناء على الظن وأنه جائز.

وسادسها: كون هذه الذبيحة ذبيحة للمسلم مظنون لا معلوم، وبناء الحكم عليه جائز.

وسابعها: قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم.

وثامنها: الحكم على الشخص المعين بكونه مؤمنًا مظنون ثم نبني على هذا الظن أحكامًا كثيرة مثل حصول التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين وغيرهما.

وتاسعها: جميع الأعمال المعتبرة في الدنيا من الأسفار، وطلب الأرباح والمعاملات إلى الآجال المخصوصة والاعتماد على صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء كلها مظنونة وبناء الأمر على تلك الظنون جائز.

وعاشرها: قال عليه السلام: «نَحْنُ نَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ»(١) وذلك تصريح بأن الظن معتبر في هذه الأنواع العشرة فبطل قول من يقول: إنه لا يجوز بناء الأمر على الظن.

والجواب الثاني: أن الظن قد يسمى بالعلم. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] ومن المعلوم أنه إنما يمكن العلم بإيمانهن بناء على إقرارهن، وذلك لا يفيد إلا الظن، فههنا الله تعالى سمى الظن علمًا.

والجواب الثالث: أن الدليل القاطع لما دل على وجوب العمل بالقياس، وكان ذلك الدليل دليلاً على أنه متى حصل ظن أن حكم الله في هذه السورة يساوي حكمه في محل النص، فأنتم مكلفون بالعمل على وفق ذلك الظن، فههنا الظن وقع في طريق الحكم، فأما ذلك الحكم فهو معلوم متيقن.

أجاب نفاة القياس عن السؤال الأول فقالوا: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ عام دخله التخصيص في الصور العشرة المذكورة، فيبقى هذا العموم فيما وراء هذه الصور حجة، ثم نقول: الفرق بين هذه الصور العشر وبين محل النزاع أن هذه الصور العشر مشتركة في أن تلك الأحكام أحكام مختصة بأشخاص معينين في أوقات معينة، فإن الواقعة التي يرجع فيها الإنسان المعين إلى المعنى المعين واقعة متعلقة بذلك الشخص المعين، وكذلك القول في الشهادة وفي طلب القبلة وفي سائر الصور. والتنصيص على وقائع الأشخاص المعينين في الأوقات المعينة يجري مجرى التنصيص على ما لا نهاية له، وذلك متعذر، فلهذه الضرورة اكتفينا بالظن. أما الأحكام المثبتة بالأقيسة فهي أحكام كلية معتبرة في وقائع كلية وهي مضبوطة قليلة، والتنصيص عليها ممكن ولذلك فإن الفقهاء الذين استخرجوا تلك الأحكام بطريق القياس ضبطوها وذكروها في كتبهم.

وإذا عرفت هذا فنقول: التنصيص على الأحكام في الصور العشر التي ذكرتموها غير ممكن فلا جرم اكتفى الشارع فيها بالظن، أما المسائل المثبتة بالطرق القياسية التنصيص عليها ممكن فلم يجز الاكتفاء فيها بالظن فظهر الفرق.

وأما الجواب الثاني: وهو قولهم الظن قد يسمى علمًا فنقول: هذا باطل فإنه يصح أن يقال هذا مظنون وغير معلوم، وهذا معلوم وغير مظنون، وذلك يدل على حصول المغايرة، ثم الذي يدل

(١) أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٤/ ١٩٢) حديث (رقم/ ٢١٠٠).

عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١٤٨] نفي للعلم، وإثبات للظن، وذلك يدل على حصول المغايرة، وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] فالمؤمن هو المقر، وذلك الإقرار هو العلم.

وأما الجواب الثالث: فهو أيضًا ضعيف، لأن ذلك الكلام إنما يتم لو ثبت أن القياس حجة بدليل قاطع وذلك باطل لأن تلك الحجة إما أن تكون عقلية أو نقلية، والأول باطل لأن القياس الذي يفيد الظن لا يجب عقلاً أن يكون حجة، والدليل عليه أنه لا نزاع أن يصح من الشرع أن يقول: نهيتكم عن الرجوع إلى القياس ولو كان كونه حجة أمرًا عقليًا محضًا لامتنع ذلك. والثاني: أيضًا باطل، لأن الدليل النقلي في كون القياس حجة إنما يكون قطعيًا لو كان منقولاً نقلاً متواترًا وكانت دلالته على ثبوت هذا المطلوب دلالة قطعية غير محتملة النقيض ولو حصل مثل هذا الدليل لوصل إلى الكل ولعرفه الكل ولارتفع الخلاف، وحيث لم يكن كذلك علمنا أنه لم يحصل في هذه المسألة دليل سمعي قاطع، فثبت أنه لم يوجد في إثبات كون القياس حجة دليل قاطع ألبتة، فبطل قولكم كون الحكم المثبت بالقياس حجة معلوم لا مظنون، فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل. وأحسن ما يمكن أن يقال في الجواب عنه إن التمسك بهذه الآية التي عولتم عليها تمسك بعام مخصوص، والتمسك بالعام المخصوص لا يفيد إلا الظن، فلو دلت هذه الآية على أن التمسك بالظن غير جائز لدلت على أن التمسك بهذه الآية غير جائز، فالقول بكون هذه الآية حجة يفضي ثبوته إلى نفيه فكان تناقضًا فسقط الاستدلال به، والله أعلم. وللمجيب أن يجيب فيقول: نعلم بالتواتر الظاهر من دين محمد ﷺ أن التمسك بآيات القرآن حجة في الشريعة ويمكن أن يجاب عن هذا الجواب بأن كون العام المخصوص حجة غير معلوم بالتواتر، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

فيه بحثان:

البحث الأول: أن العلوم إما مستفادة من الحواس، أو من العقول. أما القسم الأول: فإليه الإشارة بذكر السمع والبصر، فإن الإنسان إذا سمع شيئًا ورآه فإنه يرويه ويخبر عنه، وأما القسم الثاني: فهو العلوم المستفادة من العقل وهي قسمان: البديهية والكسبية، وإلى العلوم العقلية الإشارة بذكر الفؤاد.

البحث الثاني: ظاهر الآية يدل على أن هذه الجوارح مسؤولة.

وفيه وجوه:

الوجه الأول: أن المراد أن صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤول لأن السؤال لا يصح إلا ممن كان عاقلاً، وهذه الجوارح ليست كذلك، بل العاقل الفاهم هو الإنسان، فهو كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] والمراد أهلها يقال له لم سمعت ما لايحل لك سماعه، ولم نظرت

إلى ما لا يحل لك النظر إليه، ولم عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه.

والوجه الثاني: أن تقرير الآية أن أولئك الأقوام كلهم مسؤولون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم استعملتم السمع فيماذا أفي الطاعة أو في المعصية؟ وكذلك القول في بقية الأعضاء، وذلك لأن هذه الحواس آلات النفس، والنفس كالأمير لها والمستعمل لها في مصالحها فإن استعملتها النفس في الخيرات استوجبت الثواب، وإن استعملتها في المعاصي استحقت العقاب.

والوجه الثالث: أنه ثبت بالقرآن أنه تعالى يخلق الحياة في الأعضاء ثم إنها تشهد على الإنسان والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤] ولذلك لا يبعد أن يخلق الحياة والعقل والنطق في هذه الأعضاء. ثم إنه تعالى يوجه السؤال عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من الأشياء التي نهى الله عنها في هذه الآيات.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المرح شدة الفرح يقال: مرح يمرح مرحًا فهو مَرِحٌ، والمراد من الآية النهي عن أن يمشي الإنسان مشيًا يدل على الكبرياء والعظمة. قال الزجاج: لا تمش في الأرض مختالاً فخورًا ونظيره قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال في سورة لقمان: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩] وقال أيضًا فيها: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

المسألة الثانية: قال الأخفش: ولو قرئ: (مَرِحًا) بالكسر كان أحسن في القراءة. قال الزجاج: مرحًا مصدر ومَرِحًا اسم الفاعل وكلاهما جائز، إلا أن المصدر أحسن ههنا وأوكد، تقول جاء زيد ركضًا وراكضًا فركضًا أوكد لأنه يدل على توكيد الفعل، ثم إنه تعالى أكد النهي عن الخيلاء والتكبر فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ والمراد من الخرق ههنا نقب الأرض، ثم ذكروا فيه وجوهًا: **الأول:** أن المشي إنما يتم بالارتفاع والانخفاض فكأنه قيل: إنك حال الانخفاض لا تقدر على خرق الأرض ونقبها، وحال الارتفاع لا تقدر على أن تصل إلى رؤوس الجبال، والمراد التنبيه على كونه ضعيفًا عاجزًا فلا يليق به التكبر. **الثاني:** المراد منه أن تحتك الأرض التي لا تقدر على خرقها. وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها فأنت محاط بك من فوقك وتحتك بنوعين من الجماد، وأنت أضعف منهما بكثير، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكأنه قيل له: تواضع ولا تتكبر فإنك خلق ضعيف من خلق الله المحصور بين حجارة وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوي:

ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى : الأكثرون قرؤا ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ بضم الهاء والهمزة وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (سَيِّئَةً) منصوبة أما وجه قراءة الأكثرين فظاهر من وجهين :

الوجه الأول: قال الحسن : إنه تعالى ذكر قبل هذا أشياء أمر ببعضها ونهى عن بعضها ، فلو حكم على الكل بكونه سيئة لزم كون المأمور به سيئة وذلك لا يجوز ، أما إذا قرأناه بالإضافة كان المعنى أن ما كان من تلك الأشياء المذكورة سيئة فهو مكروه عند الله واستقام الكلام .

والوجه الثاني: أنا لو حكمنا على كل ما تقدم ذكره بكونه سيئة لوجب أن يقال : إنها مكروهة وليس الأمر كذلك لأنه تعالى قال : ﴿مَكْرُوهًا﴾ أما إذا قرأناه بصيغة الإضافة كان المعنى أن سيىء تلك الأقسام يكون مكروهًا ، وحينئذ يستقيم الكلام . أما قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو : ففيها وجوه :

الأول: أن الكلام ، تم عند قوله : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء : ٣٥] ثم ابتدأ وقال : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء : ٣٦] ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء : ٣٧] . ثم قال : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ والمراد هذه الأشياء الأخيرة التي نهى الله عنها .

والثاني: أن المراد بقوله : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ أي كل ما نهى الله عنه فيما تقدم . وأما قوله : ﴿مَكْرُوهًا﴾ فذكروا في تصحيحه على هذه القراءة وجوهًا :

الأول: التقدير : كل ذلك كان سيئة وكان مكروهًا .

الثاني: قال صاحب (الكشاف) : السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ، ولا فرق بين من قرأ سيئة ومن قرأ سيئه . ألا ترى أنك تقول : الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة ، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومؤنث .

الثالث: فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : كل ذلك كان مكروهًا وسيئة عند ربك .

الرابع: أنه محمول على المعنى لأن السيئة هي الذنب وهو مذكر .

المسألة الثانية : قال القاضي : دلت هذه الآية على أن هذه الأعمال مكروهة عند الله تعالى ، والمكروه لا يكون مرادًا له ، فهذه الأعمال غير مرادة لله تعالى فبطل قول من يقول : كل ما دخل في الوجود فهو مراد لله تعالى . وإذا ثبت أنها ليست بإرادة الله تعالى وجب أن لا تكون مخلوقة له لأنها لو كانت مخلوقة لله تعالى لكانت مرادة له لا يقال : المراد من كونها مكروهة أن الله تعالى نهى عنها ، وأيضًا معنى كونها مكروهة أن الله تعالى كره وقوعها وعلى هذا التقدير فهذا لا يمنع أن الله تعالى أراد وجودها ، لأن الجواب عن الأول أنه عدول عن الظاهر ، وأيضًا فكونها سيئة عند ربك يدل على كونها منهيًا عنها فلو حملنا المكروه على النهي لزم التكرار .

والجواب عن الثاني: أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية في معرض الزجر عن هذه الأفعال ، ولا يليق

بهذا الموضع أن يقال: إنه يكره وقوعها هذا تمام هذا الاستدلال.

والجواب: أن المراد من المكروه المنهي عنه ولا بأس بالتكرير لأجل التأكيد، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال القاضي: دلت هذه الآية على أنه تعالى كما أنه موصوف بكونه مريدًا فكذلك أيضًا موصوف بكونه كارهًا. وقال أصحابنا: الكراهية في حقه تعالى محمولة إما على النهي أو على إرادة العدم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾

اعلم أنه تعالى جمع في هذه الآية خمسة وعشرين نوعًا من التكاليف. فأولها: قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢] وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] مشتمل على تكليفين: الأمر بعبادة الله تعالى، والنهي عن عبادة غير الله، فكان المجموع ثلاثة. وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] هو الرابع، ثم ذكر في شرح ذلك الإحسان خمسة أخرى وهي: قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤] فيكون المجموع تسعة، ثم قال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] وهو ثلاثة فيكون المجموع إثني عشر. ثم قال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦] فيصير ثلاثة عشر. ثم قال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨] وهو الرابع عشر ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] إلى آخر الآية وهو الخامس عشر، ثم قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١] وهو السادس عشر، ثم قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] وهو السابع عشر ثم قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣] وهو الثامن عشر، ثم قال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣] وهو التاسع عشر، ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ [الإسراء: ٣٤] وهو العشرون. ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ وهو الحادي والعشرون، ثم قال: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥] وهو الثاني والعشرون، ثم قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وهو الثالث والعشرون، ثم قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] وهو الرابع والعشرون، ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهو الخامس والعشرون، فهذه خمسة وعشرون نوعًا من التكاليف بعضها أوامر وبعضها نواه جمعها الله تعالى في هذه الآيات وجعل فاتحتها قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢] وخاتمتها قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

إذا عرفت هذا فنقول: هاهنا فوائد:

الفائدة الأولى: قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كل ما تقدم ذكره من التكاليف وسماها حكمة، وإنما سماها بهذا الاسم لوجوه: أحدها: أن حاصلها يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، والعقول تدل على صحتها. فالآتي بمثل هذه الشريعة لا يكون داعيًا إلى دين الشيطان بل الفطرة الأصلية تشهد بأنه يكون داعيًا إلى دين الرحمن، وتمام تقرير هذا ما نذكره في سورة الشعراء في قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وثانيها: أن الأحكام المذكورة في هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية في جميع الأديان والملل ولا تقبل النسخ والإبطال، فكانت محكمة وحمكة من هذا الاعتبار. وثالثها: أن الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به، فالأمر بالتوحيد عبارة عن القسم الأول وسائر التكاليف عبارة عن تعليم الخيرات حتى يواظب الإنسان عليها ولا ينحرف عنها، فثبت أن هذه الأشياء المذكورة في هذه الآيات عين الحكمة، وعن ابن عباس: أن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه الصلاة والسلام: أولها: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٩] قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

والفائدة الثانية: من فوائد هذه الآية أنه تعالى بدأ في هذه التكاليف بالأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك وختمها بعين هذا المعنى، والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب أن يكون ذكر التوحيد، وآخره يجب أن يكون ذكر التوحيد، تنبيهًا على أن المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والاستغراق فيه، فهذا التكرير حسن موقعه لهذه الفائدة العظيمة ثم إنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الشرك يوجب أن يكون صاحبه مذمومًا مخذولاً، وذكر في الآية الأخيرة أن الشرك يوجب أن يلقي صاحبه في جهنم ملومًا مدحورًا، فاللوم والخذلان يحصل في الدنيا، وإلقاؤه في جهنم يحصل يوم القيامة ويجب علينا أن نذكر الفرق بين المذموم المخذول، وبين الملوم المدحور. فنقول: أما الفرق بين المذموم وبين الملوم، فهو أن كونه مذمومًا معناه: أن يذكر له أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر، فهذا معنى كونه مذمومًا، وإذا ذكر له ذلك فبعد ذلك يقال له لم فعلت مثل هذا الفعل، وما الذي حملك عليه، وما استفدت من هذا العمل إلا إلحاق الضرر بنفسك، وهذا هو اللوم. فثبت أن أول الأمر هو أن يصير مذمومًا، وآخره أن يصير ملومًا، وأما الفرق بين المخذول وبين المدحور فهو أن المخذول عبارة عن الضعيف يقال: تخاذلت أعضاؤه أي ضعفت، وأما المدحور فهو المطرود. والطرد عبارة عن الاستخفاف والإهانة قال تعالى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩] فكونه مخذولاً عبارة عن ترك إعانته وتفويضه إلى نفسه، وكونه مدحورًا عبارة عن إهانته والاستخفاف به، فثبت أن أول الأمر أن يصير مخذولاً، وآخره أن يصير مدحورًا، والله أعلم بمراده.

وأما قوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ فاعلم أنه تعالى لما نبه على فساد

طريقة من أثبت لله شريكًا ونظيرًا نبه على طريقة من أثبت له الولد وعلى كمال جهل هذه الفرقة، وهي أنهم اعتقدوا أن الولد قسمان؛ فأشرف القسمين البنون، وأخسهما البنات. ثم إنهم أثبتوا البنين لأنفسهم مع علمهم بنهاية عجزهم ونقصهم وأثبتوا البنات لله مع علمهم بأن الله تعالى هو الموصوف بالكمال الذي لا نهاية له والجلال الذي لا غاية له، وذلك يدل على نهاية جهل القائل بهذا القول ونظيره قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] وقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] وقوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ يقال أصفاه بالشيء إذا آثر به، ويقال للضياع التي يستخصها السلطان بخاصية الصوافي. قال أبو عبيدة في قوله: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾ أفخصكم، وقال المفضل: أخلصكم. قال النحويون هذه الهمزة همزة تدل على الإنكار على صيغة السؤال عن مذهب ظاهر الفساد لا جواب لصاحبه إلا بما فيه أعظم الفضيحة.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ وبيان هذا التعظيم من وجهين: الأول: أن إثبات الولد يقتضي كونه تعالى مركبًا من الأجزاء والأبعاض، وذلك يقدح في كونه قديمًا واجب الوجود لذاته. وذلك عظيم من القول ومنكر من الكلام. والثاني: أن بتقدير ثبوت الولد فقد جعلتم أشرف القسمين لأنفسكم وأخس القسمين لله. وهذا أيضًا جهل عظيم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أن التصريف في اللغة عبارة عن صرف الشيء من جهة إلى جهة، نحو تصريف الرياح وتصريف الأمور هذا هو الأصل في اللغة، ثم جعل لفظ التصريف كناية عن التبيين، لأن من حاول بيان شيء فإنه يصرف كلامه من نوع إلى نوع آخر ومن مثال إلى مثال آخر ليكمل الإيضاح ويقوى البيان فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي بينا ومفعول التصريف محذوف وفيه وجوه: أحدها: ولقد صرفنا في هذا القرآن ضروبًا من كل مثل. وثانيها: أن تكون لفظة (في) زائدة كقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ [الأحقاف: ١٥] أي أصلح لي ذريتي. أما قوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ الجمهور (لِيَذَّكَّرُوا) بفتح الذال والكاف وتشديدهما، والمعنى: ليتذكروا فأدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما، وقرأ حمزة والكسائي (لِيَذْكُروا) ساكنة الذال مضمومة الكاف، وفي سورة الفرقان مثله من الذكر قال الواحدي: والتذكر ههنا أشبه من الذكر، لأن المراد منه التدبر والتفكر، وليس المراد منه الذكر الذي يحصل بعد النسيان. ثم قال: وأما

قراءة حمزة والكسائي ففيها وجهان: الأول: أن الذكر قد جاء بمعنى التأمل والتدبر كقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣] والمعنى: وافهموا ما فيه. والثاني: أن يكون المعنى صرفنا هذه الدلائل في هذا القرآن ليذكروه بألسنتهم فإن الذكر باللسان قد يؤدي إلى تأثر القلب بمعناه.

المسألة الثانية: قال الجبائي: قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أنزل هذا القرآن، وإنما أكثر فيه من ذكر الدلائل لأنه تعالى أراد منهم فهمها والإيمان بها، وهذا يدل على أنه تعالى يفعل أفعاله لأغراض حكمية، ويدل على أنه تعالى أراد الإيمان من الكل سواء آمنوا أو كفروا، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الأصم: شبههم بالدواب النافرة، أي ما ازدادوا من الحق إلا بعدًا وهو كقوله: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا﴾ [التوبة: ١٢٥].

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى ما أراد الإيمان من الكفار، وقالوا: إنه تعالى عالم بأن تصريف القرآن لا يزيدهم إلا نفورًا، فلو أراد الإيمان منهم لما أنزل عليهم ما يزيدهم نفرة ونَبْوَة عنه، لأن الحكيم إذا أراد تحصيل أمر من الأمور وعلم أن الفعل الفلاني يصير سببًا لمزيد النفرة والنبوة عنه، فإنه عندما يحاول تحصيل ذلك المقصود يحترز عما يوجب مزيد النفرة والنبوة. فلما أخبر تعالى أن هذا التصريف يزيدهم نفورًا، علمنا أنه ما أراد الإيمان منهم، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسيره وجهان:

الوجه الأول: أن المراد من قوله: ﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ هو أنا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضًا، وحاصله يرجع إلى دليل التمانع وقد شرحناه في سورة الأنبياء في تفسير قوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فلا فائدة في الإعادة.

الوجه الثاني: أن الكفار كانوا يقولون ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فقال الله لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى لطلبت لأنفسها أيضًا قربة إلى الله تعالى وسبيلاً إليه ولطلبت لأنفسها المراتب العالية، والدرجات الشريفة من الأحوال الرفيعة، فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سبيلاً إلى الله فكيف يعقل أن تقربكم إلى الله.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير (كَما يَقُولُونَ) و(عَمَّا يَقُولُونَ) و(يسبح) بالياء في هذه الثلاثة، والمعنى كما يقول المشركون من إثبات الآلهة من دونه فهو مثل قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ

سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] وقرأ حمزة والكسائي كلها بالتاء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم في الأول بالتاء على الخطاب، وفي الثاني والثالث بالياء على الحكاية، وقرأ حفص عن عاصم الأولين بالياء، والأخير بالتاء، وقرأ أبو عمرو الأول والأخير بالتاء والأوسط بالياء.

ثم قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لما أقام الدليل القاطع على كونه منزهًا عن الشركاء. وعلى أن القول بإثبات الآلهة قول باطل، أردفه بما يدل على تنزيهه عن هذا القول الباطل فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وقد ذكرنا أن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، ثم قال: ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ والمراد من هذا التعالي الارتفاع وهو العلو، وظاهر أن المراد من هذا التعالي ليس هو التعالي في المكان والجهة، لأن التعالي عن الشريك والنظير والنقائص والآفات لا يمكن تفسيره بالتعالي بالمكان والجهة، فعلمنا أن لفظ التعالي في حق الله تعالى غير مفسر بالعلو بحسب المكان والجهة.

المسألة الثانية: جعل العلو مصدر التعالي فقال تعالى: ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وكان يجب أن يقال تعاليًا كبيرًا إلا أن نظيره قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

فإن قيل: ما الفائدة في وصف ذلك العلو بالكبير؟

قلنا: لأن المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والأضداد والأنداد منافاة بلغت في القوة والكمال إلى حيث لا تعقل الزيادة عليها، لأن المنافاة بين الواجب لذاته والممكن لذاته، وبين القديم والمحدث، وبين الغني والمحتاج منافاة لا تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير.

ثم قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن الحي المكلف يسبح لله بوجهين: الأول: بالقول كقوله باللسان سبحان الله. والثاني: بدلالة أحواله على توحيد الله تعالى وتقديسه وعزته، فأما الذي لا يكون مكلفًا مثل البهائم، ومن لا يكون حيًا مثل الجمادات فهي إنما تسبح لله تعالى بالطريق الثاني، لأن التسبيح بالطريق الأول لا يحصل إلا مع الفهم والعلم والإدراك والنطق وكل ذلك في الجماد محال، فلم يبق حصول التسبيح في حقه إلا بالطريق الثاني.

واعلم أنا لو جوزنا في الجماد أن يكون عالمًا متكلمًا لعجزنا عن الاستدلال بكونه تعالى عالمًا قادرًا على كونه حيًا وحينئذ يفسد علينا باب العلم بكونه حيًا وذلك كفر فإنه يقال: إذا جاز في الجمادات أن تكون عالمة بذات الله تعالى وصفاته وتسبحه مع أنها ليست بأحياء فحينئذ لا يلزم من كون الشيء عالمًا قادرًا متكلمًا كونه حيًا فلم يلزم من كونه تعالى عالمًا قادرًا كونه حيًا وذلك جهل وكفر، لأن من المعلوم بالضرورة أن من ليس بحي لم يكن عالمًا قادرًا متكلمًا، هذا

هو القول الذي أطبق العلماء المحققون عليه، ومن الناس من قال: إن الجمادات وأنواع النبات والحيوان كلها تسبح الله تعالى، واحتجوا على صحة قولهم بأن قالوا: دل هذا النص على كونها مسبحة لله تعالى ولا يمكن تفسير هذا التسبيح بكونها دلائل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته لأنه تعالى قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فهذا يقتضي أن تسبيح هذه الأشياء غير معلوم لنا. ودلالتها على وجود قدرة الله وحكمته معلوم، والمعلوم مغاير لما هو غير معلوم فدل على أنها تسبح الله تعالى وأن تسبيحها غير معلوم لنا، فوجب أن يكون التسبيح المذكور في هذه الآية مغايرًا لكونها دالة على وجود قدرة الله تعالى وحكمته.

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أنك إذا أخذت تفاحة واحدة فتلك التفاحة مركبة من عدد كثير من الأجزاء التي لا تتجزأ، وكل واحد من تلك الأجزاء دليل تام مستقل على وجود الإله، ولكل واحد من تلك الأجزاء التي لا تتجزأ صفات مخصوصة من الطبع والطعم واللون والرائحة والحيز والجهة، واختصاص ذلك الجوهر الفرد بتلك الصفة المعينة من الجائزات فلا يحصل ذلك الاختصاص إلا بتخصيص مخصص قادر حكيم.

إذا عرفت هذا فقد ظهر أن كل واحد من أجزاء تلك التفاحة دليل تام على وجود الإله وكل صفة من الصفات القائمة بذلك الجزء الواحد فهو أيضًا دليل تام على وجود الإله تعالى، ثم عدد تلك الأجزاء غير معلوم، وأحوال تلك الصفات غير معلومة، فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

والوجه الثاني: هو أن الكفار وإن كانوا يقرون بألسنتهم بإثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا يتفكرون في أنواع الدلائل، ولهذا المعنى قال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] فكان المراد من قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ هذا المعنى.

والوجه الثالث: أن القوم وإن كانوا مقرين بألسنتهم بإثبات إله العالم إلا أنهم ما كانوا عالمين بكمال قدرته. ولذلك فإنهم استبعدوا كونه تعالى قادرًا على الحشر والنشر فكان المراد ذلك. وأيضًا فإنه تعالى قال لمحمد ﷺ: «قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً» فهم ما كانوا عالمين بهذا الدليل فلما ذكر هذا الدليل قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ فتسبيح السموات والأرض ومن فيهن يشهد بصحة هذا الدليل وقوته وأنتم لا تفقهون هذا الدليل ولا تعرفونه، بل نقول: إن القوم كانوا غافلين عن أكثر دلائل التوحيد والعدل، والنبوة والمعاد، فكان المراد من قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ذلك ومما يدل على أن الأمر كما ذكرناه قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فذكر الحليم والغفور ههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم وهذا إنما يكون جرمًا إذا كان المراد من ذلك

التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ثم إنهم لغفلتهم وجهلهم ما عرفوا وجه دلالة تلك الدلائل. أما لو حملنا هذا التسبيح على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرمًا ولا ذنبًا، وإذا لم يكن ذلك جرمًا ولا ذنبًا لم يكن قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ لائقًا بهذا الموضع، فهذا وجه قوي في نصرة القول الذي اخترناه.

واعلم أن القائلين بأن هذه الجمادات والحيوانات تسبح الله بألفاظها أضافوا إلى كل حيوان نوعًا آخر من التسبيح. وقالوا: إنها إذا ذبحت لم تسبح مع أنهم يقولون إن الجمادات تسبح الله، فإذا كان كونه جمادًا لا يمنع من كونه مسبحًا، فكيف صار ذبح الحيوان مانعًا له من التسبيح، وقالوا أيضًا: إن غصن الشجرة إذا كسر لم يسبح، وإذا كان كونه جمادًا لم يمنع من كونه مسبحًا فكسره كيف يمنع من ذلك، فعلم أن هذه الكلمات ضعيفة، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ تصريح بإضافة التسبيح إلى السموات والأرض وإلى المكلفين الحاصلين فيهن وقد دللنا على أن التسبيح المضاف إلى الجمادات ليس إلا بمعنى الدلالة على تنزيه الله تعالى وإطلاق لفظ التسبيح على هذا المعنى مجاز، وأما التسبيح الصادر عن المكلفين وهو قولهم: سبحان الله، فهذا حقيقة، فيلزم أن يكون قوله: ﴿تُسَبِّحُ﴾ لفظًا واحدًا قد استعمل في الحقيقة والمجاز معًا، وأنه باطل على ما ثبت دليله في أصول الفقه، فالأولى أن يحمل هذا التسبيح على الوجه المجازي في حق الجمادات لا في حق العقلاء لئلا يلزم ذلك المحذور، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم في الآية المتقدمة في المسائل الإلهية تكلم في هذه الآية فيما يتعلق بتقرير النبوة.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قولان:

القول الأول: أن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على الناس. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان، وعن يساره آخران من ولد قصي يصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار، وعن أسماء أنه ﷺ كان جالسًا ومعه أبو

بكر إذ أقبلت امرأة أبي لهب ومعها فهر تريد رسول الله ﷺ وهي تقول:

مُـذَمَّـمًـا أَتَـيـنَـا
وَدِيـنَـهُ قَـلَـيْـنَـا
وَأَمْـرَهُ عَـصَـيْـنَـا

فقال أبو بكر: يا رسول الله معها فهر أخشاها عليك، فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية فجاءت فما رأت رسول الله عليه الصلاة والسلام وقالت: إن قريشًا قد علمت أني ابنة سيدها وأن صاحبك هجاني فقال أبو بكر: لاَ وَرَبِّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكِ[1]. وروى ابن عباس: أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي ﷺ ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر يومًا: ما أدري ما يقول محمد غير أني أرى شفتيه تتحرك بشيء. وقال أبو سفيان: أني لأرى بعض ما يقوله حقًا، وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب هو كاهن. وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر، فنزلت هذه الآية، وكان رسول الله ﷺ إذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاثة آيات وهي قوله في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧] وفي النحل: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨] وفي حم الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] إلى آخر الآية فكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ وفيه سؤال: وهو أنه كان يجب أن يقال حجابًا ساترًا.

والجواب عنه من وجوه:

الوجه الأول: أن ذلك الحجاب حجاب يخلقه الله تعالى في عيونهم بحيث يمنعهم ذلك الحجاب عن رؤية النبي ﷺ وذلك الحجاب شيء لا يراه فكان مستورًا من هذا الوجه، احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في أنه يجوز أن تكون الحاسة سليمة ويكون المرئي حاضرًا مع أنه لا يراه ذلك الإنسان لأجل أن الله تعالى خلق في عينيه مانعًا يمنعه عن رؤيته بهذه الآية قالوا: إن النبي ﷺ كان حاضرًا وكانت حواس الكفار سليمة، ثم إنهم ما كانوا يرونه، وأخبر الله تعالى أن ذلك إنما كان لأجل أنه جعل بينه وبينهم حجابًا مستورًا، والحجاب المستور لا معنى له إلا المعنى الذي خلقه الله تعالى في عيونهم، وكان ذلك المعنى مانعًا لهم من أن يروه ويبصروه.

---

(١) إسناده حسن: الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٩٣) حديث رقم/ ٣٣٧٦، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والحميدي في (مسنده) (١/ ١٥٣) حديث رقم/ ٣٢٣، وأبو يعلى في (مسنده) (١/ ٥٣) حديث رقم/ ٥٣، والأصبهاني في (دلائل النبوة) (١/ ٧١) حديث رقم/ ٥٤، وابن بشكوال في (غوامض الأسماء المبهمة) (١/ ١٩١) والبيهقي في (دلائل النبوة) (٢/ ٧١) حديث رقم/ ٥٠٢، جميعا من طريق سفيان حدثنا الوليد بن كثير عن بن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها... به.

والوجه الثاني: في الجواب أنه كما يجوز أن يقال لابن وتامر بمعنى ذو لبن وذو تمر فكذلك لا يبعد أن يقال مستورًا معناه ذو ستر والدليل عليه قوله مرطوب أي ذو رطوبة ولا يقال رطيبة ويقال مكان مهول أي فيه هول ولا يقال: هلت المكان بمعنى جعلت فيه الهول، ويقال: جارية مغنوجة ذات غنج ولا يقال غنجتها.

والوجه الثالث: في الجواب قال الأخفش: المستور هاهنا بمعنى الساتر، فإن الفاعل قد يجيء بلفظ المفعول كما يقال: إنك لمشؤم علينا وميمون وإنما هو شائم ويامن، لأنه من قولهم شأمهم ويمنهم، هذا قول الأخفش: وتابعه عليه قوم، إلا أن كثيرًا منهم طعن في هذا القول، والحق هو الجواب الأول.

القول الثاني: أن معنى الحجاب الطبع الذي على قلوبهم والطبع والمنع الذي منعهم عن أن يدركوا لطائف القرآن ومحاسنه وفوائده، فالمراد من الحجاب المستور ذلك الطبع الذي خلقه الله في قلوبهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهذه الآية مذكورة بعينها في سورة الأنعام وذكرنا استدلال أصحابنا بها وذكرنا سؤالات المعتزلة ولا بأس بإعادة بعضها قال الأصحاب: دلت هذه الآية على أنه تعالى جعل قلوبهم في الأكنة. والأكنة جمع كنان وهو ما ستر الشيء مثل كنان النبل وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي لئلا يفقهوه. وجعل في آذانهم وقرًا. ومعلوم أنهم كانوا عقلاء سامعين فاهمين، فعلمنا أن المراد منعهم عن الإيمان ومنعهم عن سماع القرآن بحيث لا يقفون على أسراره ولا يفهمون دقائقه وحقائقه. قالت المعتزلة: ليس المراد من الآية ما ذكرتم بل المراد منه وجوه أخرى. الأول: قال الجبائي: كانوا يطلبون موضعه في الليالي لينتهوا إليه ويؤذونه، ويستدلون على مبيته باستماع قراءته فأمنه الله تعالى من شرهم، وذكر له أنه جعل بينه وبينهم حجابًا لا يمكنهم الوصول إليه معه، وبين أنه جعل في قلوبهم ما يشغلهم عن فهم القرآن وفي آذانهم ما يمنع من سماع صوته، ويجوز أن يكون ذلك مرضًا شاغلًا يمنعهم من المصير إليه والتفرغ له، لا أنه حصل هناك كنٌّ للقلب ووقر في الأذن. الثاني: قال الكعبي: إن القوم لشدة امتناعهم عن قبول دلائل محمد ﷺ صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب مانع وساتر، وإنما نسب الله تعالى ذلك الحجاب إلى نفسه لأنه لما خلاهم مع أنفسهم، وما منعهم عن ذلك الإعراض صارت تلك التخلية كأنها هي السبب لوقوعهم في تلك الحالة، وهذا مثل أن السيد إذا لم يراقب أحوال عبده فإذا ساءت سيرته فالسيد يقول: أنا الذي ألقيتك في هذه الحالة بسبب أني خليتك مع رأيك وما راقبت أحوالك. الثالث: قال القفال: إنه تعالى لما خذلهم بمعنى أنه لم يفعل الألطاف الداعية لهم إلى الإيمان صح أن يقال: إنه فعل الحجاب الساتر.

واعلم أن هذه الوجوه مع كلمات أخرى ذكرناها في سورة الأنعام وأجبنا عنها، فلا فائدة في الإعادة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ واعلم أن المراد أن القوم كانوا عند استماع القرآن على حالتين، لأنهم إذا سمعوا من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا مبهوتين متحيرين لا يفهمون منه شيئًا، وإذا سمعوا آية فيها ذكر الله تعالى وذم الشرك بالله ولوا نفورًا وتركوا ذلك المجلس، وذكر الزجاج في قوله: ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ وجهين: الأول: المصدر والمعنى ولوا نافرين نفورا، والثاني: أن يكون نفورًا جمع نافر مثل شهود وشاهد وركوع وراكع وسجود وساجد وقعود وقاعد.

ثم قال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أي نحن أعلم بالوجه الذي يستمعون به وهو الهزؤ والتكذيب. و(به) في موضع الحال، كما تقول: مستمعين بالهزؤ و﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ﴾ نصب بأعلم أي أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي وبما يتناجون به إذ هم ذو نجوى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

وفيه مباحث:

الأول: قال المفسرون: أمر رسول الله ﷺ عليًا أن يتخذ طعامًا ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين، ففعل علي عليه السلام ذلك ودخل عليهم رسول الله ﷺ وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد وقال: قولوا لا إله إلا الله حتى تطيعكم العرب وتدين لكم العجم فأبوا عليه ذلك، وكانوا عند استماعهم من النبي ﷺ القرآن والدعوة إلى الله تعالى يقولون: بينهم متناجين هو ساحر وهو مسحور وما أشبه ذلك من القول، فأخبر الله تعالى نبيه بأنهم يقولون: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

فإن قيل: إنهم لم يتبعوا رسول الله فكيف يصح أن يقولوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

قلنا: معناه أنكم إن اتبعتموه فقد اتبعتم رجلاً مسحورًا، والمسحور الذي قد سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء. هذا هو القول الصحيح، وقال بعضهم: المسحور هو الذي أفسد. يقال: طعام مسحور إذا أفسد عمله وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر مما ينبغي فأفسدها. قال أبو عبيدة: يريد بشرًا ذا سحر أي ذا رئة. قال ابن قتيبة: ولا أدري ما الذي حمله على هذا التفسير المستكره مع أن السلف فسروه بالوجوه الواضحة، وقال مجاهد: ﴿مَّسْحُورًا﴾ أي مخدوعًا لأن السحر حيلة وخديعة، وذلك لأن المشركين كانوا يقولون: إن محمدًا يتعلم من بعض الناس هذه الكلمات وأولئك الناس يخدعونه بهذه الكلمات وهذه الحكايات، فلذلك قالوا: إنه مسحور أي مخدوع، وأيضًا كانوا يقولون: إن الشيطان يتخيل له فيظن أنه ملك فقالوا: إنه مخدوع من قبل الشيطان.

ثم قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي كل أحد شبهك بشيء آخر، فقالوا: إنه كاهن وساحر وشاعر ومعلم ومجنون، فضلوا عن الحق والطريق المستقيم فلا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والحق.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم أولاً في الإلهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم في النبوات، ذكر في هذه الآية شبهات القوم في إنكار المعاد والبعث والقيامة، وقد ذكرنا كثيرًا أن مدار القرآن على المسائل الأربعة وهي: الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، وأيضًا أن القوم وصفوا رسول الله ﷺ بكونه مسحورًا فاسد العقل، فذكروا من جملة ما يدل على فساد عقله أنه يدعي أن الإنسان بعدما يصير عظامًا ورفاتًا فإنه يعود حيًا عاقلاً كما كان، فذكروا هذا الكلام رواية عنه لتقرير كونه مختل العقل. قال الواحدي رحمه الله: الرفت كسر الشيء بيدك، تقول: رفته أرفته بالكسر كما يرفت المدر والعظم البالي، والرفات الأجزاء المتفتتة من كل شيء يكسر. يقال: رفت عظام الجزور رفتًا إذا كسرها، ويقال للتبن: الرفت لأنه دقاق الزرع. قال الأخفش: رفت رفتًا، فهو مرفوت نحو حطم حطمًا فهو محطوم والرفات والحطام الاسم، كالجذاذ والرضاض والفتات، فهذا ما يتعلق باللغة. أما تقرير شبهة القوم: فهي أن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت في حوالي العالم فاختلط بتلك الأجزاء سائر أجزاء العالم. أما الأجزاء المائية في البدن فتختلط بمياه العالم، وأما الأجزاء الترابية فتختلط بتراب العالم، وأما الأجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم، وأما الأجزاء النارية فتختلط بنار العالم وإذا صار الأمر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى. وكيف يعقل عود الحياة إليها بأعيانها مرة أخرى، فهذا هو تقرير الشبهة.

والجواب عنها: أن هذا الإشكال لا يتم إلا بالقدح في كمال علم الله وفي كمال قدرته. أما إذا سلمنا كونه تعالى عالمًا بجميع الجزئيات فحينئذ هذه الأجزاء وإن اختلطت بأجزاء العالم إلا أنها متمايزة في علم الله تعالى ولما سلمنا كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات كان قادرًا على إعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل إلى تلك الأجزاء بأعيانها، فثبت أنا متى سلمنا كمال علم الله وكمال قدرته زالت هذه الشبهة بالكلية.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ فالمعنى أن القوم استبعدوا أن يردهم إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا. وهي وإن كانت صفة منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر لكن قدروا انتهاء هذه الأجسام بعد الموت إلى صفة أخرى أشد منافاة لقبول الحياة من كونها عظامًا ورفاتًا مثل أن تصير حجارة أو حديدًا، فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من

المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءًا من بدن الحي. أما الحجارة والحديد فما كانا ألبتة موصوفين بالحياة، فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفة بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت، فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حيًا عاقلاً كما كان، والدليل على صحة ذلك أن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل إذ لو لم يكن هذا القبول حاصلاً لما حصل العقل والحياة لها في أول الأمر. وإله العالم عالم بجميع الجزئيات فلا تشتبه عليه أجزاء بدن زيد المطيع بأجزاء بدن عمرو العاصي. وقادر على كل الممكنات، وإذا ثبت أن عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكن في نفسه وثبت أن إله العالم عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات، كان عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكنًا قطعًا، سواء صارت عظامًا ورفاتًا أو صارت شيئًا أبعد من العظم في قبول الحياة وهي أن تصير حجارة أو حديدًا، فهذا تقرير هذا الكلام بالدليل العقلي القاطع، وقوله: ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ليس المراد منه الأمر بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الإعادة، وذلك كقول القائل للرجل: أتطمع في وأنا فلان فيقول: كن من شئت كن ابن الخليفة، فسأطلب منك حقي.

فإن قيل: ما المراد بقوله: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾؟

قلنا: المراد أن كون الحجر والحديد قابلاً للحياة أمر مستبعد، فقيل لهم: فافرضوا شيئًا آخر أبعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث يستبعد عقلكم كونه قابلاً للحياة وعلى هذا الوجه فلا حاجة إلى أن يتعين ذلك الشيء، لأن المراد أن أبدان الناس وإن انتهت بعد موتها إلى أي صفة فرضت وأي حالة قدرت وإن كانت في غاية البعد عن قبول الحياة فإن الله تعالى قادر على إعادة الحياة إليها، وإذا كان المراد من الآية هذا المعنى فلا حاجة إلى تعيين ذلك الشيء، وقال ابن عباس: المراد منه الموت، يعني لو صارت أبدانكم نفس الموت فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها، واعلم أن هذا الكلام إنما يحسن ذكره على سبيل المبالغة مثل أن يقال: لو كنت عين الحياة فالله يميتك ولو كنت عين الغنى فإن الله يفقرك، فهذا قد ذكر على سبيل المبالغة، أما في نفس الأمر فهذا محال، لأن أبدان الناس أجسام والموت عرض والجسم لا ينقلب عرضًا ثم بتقدير أن ينقلب عرضًا فالموت لا يقبل الحياة لأن أحد الضدين يمتنع اتصافه بالضد الآخر، وقال مجاهد: يعني السماء والأرض.

ثم قال: ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والمعنى أنه لما قال لهم: كونوا حجارة أو حديدًا أو شيئًا أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين فإن إعادة الحياة إليه ممكنة فعند ذلك قالوا: من هذا الذي يقدر على إعادة الحياة إليه، قال تعالى قل يا محمد: الذي فطركم أول مرة يعني أن القول بصحة الإعادة فرع على تسليم أن خالق الحيوانات هو الله تعالى. فإذا ثبت ذلك فنقول: إن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل وإله العالم قادر لذاته عالم لذاته فلا يبطل علمه وقدرته ألبتة، فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرًا على الإعادة، وهذا كلام تام وبرهان قوي.

ثم قال تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال الفراء يقال: أنغض فلان رأسه ينغضه إنغاضًا إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل وسمي الظليم نغضًا لأنه يحرك رأسه، وقال أبو الهيثم: يقال للرجل إذا أخبر بشيء فحرك رأسه إنكارًا له قد أنغض رأسه فقوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يعني يحركونها على سبيل التكذيب والاستبعاد. ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ واعلم أن هذا السؤال فاسد لأنهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها، ثم إن الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنًا في نفسه، فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالبحث الأول، فإنه لما ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه، فأما أنه متى يوجد فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل، بل إنما يمكن إثباته بالدلائل السمعية فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف وإلا فلا سبيل إلى معرفته.

واعلم أنه تعالى بين في القرآن أنه لا يطلع أحدًا من الخلق على وقته المعين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] وقال: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] فلا جرم. قال تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ قال المفسرون عسى من الله واجب معناه أنه قريب.

فإن قالوا: كيف يكون قريبًا وقد انقرض ستمائة سنة ولم يظهر؟

قلنا: إذا كان ما مضى أكثر مما بقي كان الباقي قريبًا قليلًا، ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ وفيه قولان: الأول: أنه خطاب مع الكفار بدليل أن ما قبل هذه الآية كله خطاب مع الكفار، ثم نقول انتصب يومًا على البدل من قوله ﴿قَرِيبًا﴾، والمعنى عسى أن يكون البعث يوم يدعوكم أي بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الأخيرة كما قال: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١] يقال: إن إسرافيل ينادي أيتها الأجساد البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة عودي كما كنت بقدرة الله تعالى وبإذنه وتكوينه، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦] وقوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي تجيبون والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا إليه وهي الإجابة إلا أن الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي أوكد من الإجابة، وقوله: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ قال سعيد بن جبير: يخرجون من قبورهم وينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون: سبحانك وبحمدك، فهو قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ وقال قتادة بمعرفته وطاعته، وتوجيه هذا القول أنهم لما أجابوا بالتسبيح والتحميد كان ذلك معرفة منهم وطاعة ولكنهم لا ينفعهم ذلك في ذلك اليوم. فلهذا قال المفسرون: حمدوا حين لا ينفعهم الحمد، وقال أهل المعاني: تستجيبون بحمده. أي تستجيبون حامدين كما يقال: جاء بغضبه أي جاء غضبان وركب الأمير بسيفه أي وسيفه معه وقال صاحب (الكشاف): ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال منهم أي حامدين، وهذا مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك لمن تأمره بعمل يشق عليه ستأتي به وأنت حامد شاكر، أي ستنتهي إلى حالة تحمد الله وتشكره على أن اكتفي منك بذلك العمل وهذا يذكر في معرض التهديد.

ثم قال: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس يريد بين النفختين الأولى والثانية فإنه يزال عنهم العذاب في ذلك الوقت، والدليل عليه قوله في سورة يس: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] فظنهم بأن هذا لبث قليل عائد إلى لبثهم فيما بين النفختين، وقال الحسن: معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل فهذا يرجع إلى استقلال مدة اللبث في الدنيا وقيل المراد استقلال لبثهم في عرصة القيامة؛ لأنه لما كانت عاقبة أمرهم الدخول في النار استقصروا مدة لبثهم في برزخ القيامة.

القول الثاني: أن الكلام مع الكفار تم عند قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وأما قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ فهو خطاب مع المؤمنين لا مع الكافرين لأن هذا الكلام هو اللائق بالمؤمنين لأنهم يستجيبون لله بحمده، ويحمدونه على إحسانه إليهم، والقول الأول هو المشهور، والثاني ظاهر الاحتمال.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾.

فيه قولان:

القول الأول: أن المراد به المؤمنون، وذلك لأن لفظ العباد في أكثر آيات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٧-١٨] وقال: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى﴾ [الفجر: ٢٩] وقال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى لما ذكر الحجة اليقينية في إبطال الشرك وهو قوله: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] وذكر الحجة اليقينية في صحة المعاد وهو قوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] قال في هذه الآية وقل يا محمد لعبادي إذا أردتم إيراد الحجة على المخالفين فاذكروا تلك الدلائل بالطريق الأحسن. وهو أن لا يكون ذكر الحجة مخلوطًا بالشتم والسب، ونظير هذه الآية قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وذلك لأن ذكر الحجة لو اختلط به شيء من السب والشتم لقابلوكم بمثله كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ويزداد الغضب وتتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود، أما إذا وقع الاقتصار على ذكر الحجة بالطريق الأحسن الخالي عن الشتم

والإيذاء أثر في القلب تأثيرًا شديدًا فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ثم إنه تعالى نبه على وجه المنفعة في هذا الطريق فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ جامعًا للفريقين أي متى صارت الحجة مرة ممزوجة بالبذاءة صارت سببًا لثوران الفتنة.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ والمعنى: أن العداوة الحاصلة بين الشيطان وبين الإنسان عداوة قديمة قال تعالى حكاية عنه: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] وقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] وقال: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ثم قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ واعلم أنا إنما نتكلم الآن على تقدير أن قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ المراد به المؤمنون، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ خطاب مع المؤمنين، والمعنى: إن يشأ يرحمكم، والمراد بتلك الرحمة الإنجاء من كفار مكة وأذاهم أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم. ثم قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي حافظًا وكفيلاً فاشتغل أنت بالدعوة ولا شيء عليك من كفرهم فإن شاء الله هدايتهم هداهم، وإلا فلا.

والقول الثاني: أن المراد من قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ الكفار، وذلك لأن المقصود من هذه الآيات الدعوة، فلا يبعد في مثل هذا الموضع أن يخاطبوا بالخطاب الحسن ليصير ذلك سببًا لجذب قلوبهم وميل طباعهم إلى قبول الدين الحق، فكأنه تعالى قال: يا محمد قل لعبادي الذين أقروا بكونهم عبادًا لي يقولوا التي هي أحسن. وذلك لأنا قبل النظر في الدلائل والبينات نعلم بالضرورة أن وصف الله تعالى بالتوحيد والبراءة عن الشركاء والأضداد أحسن من إثبات الشركاء والأضداد، ووصفه بالقدرة على الحشر والنشر بعد الموت أحسن من وصفه بالعجز عن ذلك، وعرفهم أنه لا ينبغي لهم أن يصروا على تلك المذاهب الباطلة تعصبًا للأسلاف، لأن الحامل على مثل هذا التعصب هو الشيطان، والشيطان عدو، فلا ينبغي أن يلتفت إلى قوله ثم قال لهم: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بأن يوفقكم للإيمان والهداية والمعرفة. وإن يشأ يمتكم، على الكفر فيعذبكم، إلا أن تلك المشيئة غائبة عنكم فاجتهدوا أنتم في طلب الدين الحق، ولا تصروا على الباطل والجهل لئلا تصيروا محرومين عن السعادات الأبدية والخيرات السرمدية، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي لا تشدد الأمر عليهم ولا تغلظ لهم في القول، والمقصود من كل هذه الكلمات: إظهار اللين والرفق لهم عند الدعوة فإن ذلك هو الذي يؤثر في القلب ويفيد حصول المقصود.

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والمعنى أنه لما قال قبل ذلك: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ قال بعده: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى أن علمه غير مقصور عليكم ولا على

أحوالكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذوات الأرضين والسموات فيعلم حال كل واحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد، فلهذا السبب فضل بعض النبيين على بعض وآتى موسى التوراة وداود الزبور وعيسى الإنجيل، فلم يبعد أيضًا أن يؤتي محمدًا القرآن ولم يبعد أن يفضله على جميع الخلق.

فإن قيل: ما السبب في تخصيص داود عليه الصلاة والسلام في هذا المقام بالذكر؟

قلنا: فيه وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض. ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ يعني أن داود كان ملكًا عظيمًا، ثم إنه تعالى لم يذكر ما آتاه من الملك وذكر ما آتاه من الكتاب، تنبيهًا على أن التفضيل الذي ذكره قبل ذلك، المراد منه التفضيل بالعلم والدين لا بالمال.

والوجه الثاني: أن السبب في تخصيصه بالذكر أنه تعالى كتب في الزبور أن محمدًا خاتم النبيين وأن أمته خير الأمم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وهم محمد وأمته.

فإن قيل: هلا عُرِّفَ كما في فقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

قلنا: التنكير هاهنا يدل على تعظيم حاله، لأن الزبور عبارة عن المزبور فكان معناه الكتاب فكان معنى التنكير أنه كامل في كونه كتابًا.

والوجه الثالث: أن السبب فيه أن كفار قريش ما كانوا أهل نظر وجدل بل كانوا يرجعون إلى اليهود في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون: إنه لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله تعالى عليهم كلامهم بإنزال الزبور على داود، وقرأ حمزة: (زُبُورًا) بضم الزاي، وذكرنا وجه ذلك في آخر سورة [النساء: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية الرد على المشركين وقد ذكرنا أن المشركين كانوا يقولون ليس لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى فنحن نعبد بعض المقربين من عباد الله وهم الملائكة، ثم إنهم اتخذوا لذلك الملك الذي عبدوه تمثالاً وصورة واشتغلوا بعبادته على هذا التأويل والله تعالى احتج على بطلان قولهم في هذه الآية فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وليس المراد الأصنام لأنه تعالى قال في صفتهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ وابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يليق بالأصنام ألبتة.

إذا ثبت هذا فنقول: إن قومًا عبدوا الملائكة فنزلت هذه الآية فيهم، وقيل: إنها نزلت في الذين

عبدوا المسيح وعزيرًا، وقيل: إن قومًا عبدوا نفرًا من الجن فأسلم النفر من الجن، وبقي أولئك الناس متمسكين بعبادتهم فنزلت هذه الآية، قال ابن عباس: كل موضع في كتاب الله تعالى ورد فيه لفظ زعم فهو كذب، ثم إنه تعالى احتج على فساد مذهب هؤلاء أن الإله المعبود هو الذي يقدر على إزالة الضرر، وإيصال المنفعة، وهذه الأشياء التي يعبدونها وهي الملائكة والجن والمسيح وعزير لا يقدرون على كشف الضر ولا على تحصيل النفع، فوجب القطع بأنها ليست آلهة.

ولقائل أن يقول: هذا الدليل إنما يتم إذا دللتم على أن الملائكة لا قدرة لها على كشف الضر ولا على تحصيل النفع فما الدليل على أن الأمر كذلك حتى يتم دليلكم؟ فإن قلتم: لأنا نرى أن أولئك الكفار كانوا يتضرعون إليها فلا تحصل الإجابة. قلنا: معارضة لذلك قد نرى أيضًا أن المسلمين يتضرعون إلى الله تعالى فلا تحصل الإجابة، والمسلمون يقولون: إن القدر الحاصل من كشف الضر وتحصيل النفع إنما يحصل من الله تعالى لا من الملائكة، وأولئك الكفار يقولون إنه يحصل من الملائكة لا من الله تعالى، وعلى هذا التقدير فالدليل غير تام.

والجواب: أن الدليل تام كامل، وذلك لأن الكفار كانوا مقرين بأن الملائكة عباد الله. وخالق الملائكة، وخالق العالم لا بد وأن يكون أقدر من الملائكة، وأقوى منهم، وأكمل حالاً منهم.

وإذا ثبت هذا فنقول: كمال قدرة الله تعالى معلوم متفق عليه، وكمال قدرة الملائكة غير معلوم ولا متفق عليه، بل المتفق عليه أن قدرتهم بالنسبة إلى قدرة الله تعالى قليلة حقيرة، وإذا كان كذلك وجب أن يكون الاشتغال بعبادة الله تعالى أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة، لأن كون الله مستحقًا للعبادة معلوم، وكون الملائكة كذلك مجهول والأخذ بالمعلوم أولى، وأما أصحابنا المتكلمون من أهل السنة والجماعة فلهم في هذا الباب طريقة أخرى وهو أنهم يقيمون بالحجة العقلية على أنه لا موجد إلا الله تعالى ولا مخرج لشيء من العدم إلى الوجود إلا الله تعالى. وإذا ثبت هذا ثبت أنه لا ضار ولا نافع إلا الله تعالى، فوجب القطع بأنه لا معبود إلا الله تعالى، وهذه الطريقة لا تتم للمعتزلة لأنهم لما جوزوا كون العبد موجدًا لأفعاله امتنع عليهم الاستدلال على أن الملائكة لا قدرة لها على الإحياء والإماتة وخلق الجسم. وإذا عجزوا عن ذلك لم يتم لهم هذا الدليل فهذا هو ذكر الدليل القاطع على صحة قوله: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ والتحويل عبارة عن النقل من حال إلى حال ومكان إلى مكان يقال: حوله فتحول.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ **وفيه قولان:**

الأول: قال الفراء قوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ فعل الآدميين العابدين. وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ فعل المعبودين ومعناه أن أولئك المعبودين يبتغون إلى ربهم الوسيلة، فإنه لا نزاع أن الملائكة يرجعون إلى الله في طلب المنافع ودفع المضار ويرجون رحمته ويخافون عذابه وإذا كان كذلك كانوا موصوفين بالعجز والحاجة، والله تعالى أغنى الأغنياء فكان الاشتغال بعبادته أولى.

فإن قالوا: لا نسلم أن الملائكة محتاجون إلى رحمة الله وخائفون من عذابه، فنقول: هؤلاء الملائكة إما أن يقال: إنها واجبة الوجود لذواتها، أو يقال: ممكنة الوجود لذواتها، والأول باطل لأن جميع الكفار كانوا معترفين بأن الملائكة عباد الله ومحتاجون إليه، وأما الثاني فهو يوجب القول بكون الملائكة محتاجين في ذواتها وفي كمالاتها إلى الله تعالى، فكان الاشتغال بعبادة الله أولى من الاشتغال بعبادة الملائكة.

والقول الثاني: أن قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هم الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] وتعلق هذا الكلام بما سبق هو أن الذين عظمت منزلتهم وهم الأنبياء لا يعبدون إلا الله تعالى ولا يبتغون الوسيلة إلا إليه، فأنتم بالاقتداء بهم حق فلا تعبدوا غير الله تعالى. واحتج القائلون بهذا القول على صحته بأن قالوا: الملائكة لا يعصون الله فلا يخافون عذابه، فثبت أن هذا غير لائق بالملائكة وإنما هو لائق بالأنبياء.

قلنا: الملائكة يخافون عذاب الله لو أقدموا على الذنب والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

أما قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ فالمراد أن من حقه أن يحذر، فإن لم يحذره بعض الناس لجهله فهو لا يخرج من كونه بحيث يجب الحذر عنه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧] بين أن كل قرية مع أهلها فلا بد وأن يرجع حالها إلى أحد أمرين: إما الإهلاك وإما التعذيب قال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب، وقيل: المراد من قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ قرى الكفار، ولا بد أن تكون عاقبتها أحد أمرين: إما الاستئصال بالكلية وهو المراد من الإهلاك أو بعذاب شديد دون ذلك من قتل كبرائهم وتسليط المسلمين عليهم بالسبي واغتنام الأموال وأخذ الجزية، ثم بين تعالى أن هذا الحكم حكم مجزوم به واقع فقال: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ومعناه ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدليل على فساد قول المشركين وأتبعه بالوعيد أتبعه بذكر مسألة النبوة، وذلك لأن كفار قريش اقترحوا من رسول الله ﷺ إظهار معجزات عظيمة قاهرة كما

حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] وقال آخرون: المراد ما طلبوه بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] وعن سعيد بن جبير أن القوم قالوا: إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم: من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فأتنا بشيء من هذه المعجزات فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وفي تفسير هذا الجواب وجوه:

الوجه الأول: المعنى أنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم فحينئذ يصيرون مستحقين لعذاب الاستئصال، لكن إنزال عذاب الاستئصال على هذه الأمة غير جائز، لأن الله تعالى أعلم أن فيهم من سيؤمن أو يؤمن أولادهم، فلهذا السبب ما أجابهم الله تعالى إلى مطلوبهم وما أظهر تلك المعجزات القاهرة. روى ابن عباس أن أهل مكة سألوا الرسول ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا وأن يزيل لهم الجبال حتى يزرعوا تلك الأراضي، فطلب الرسول ﷺ ذلك من الله تعالى فقال الله تعالى: إن شئت فعلت ذلك لكن بشرط أنهم إن كفروا أهلكتهم، فقال الرسول ﷺ: «**لاَ أُرِيدُ ذَٰلِكَ بَلْ تَتَأَنَّى بِهِمْ**» فنزلت هذه الآية.

الوجه الثاني: في تفسير هذا الجواب أنا لا نظهر هذه المعجزات لأن آباءكم الذين رأوها لم يؤمنوا بها وأنتم مقلدون لهم، فلو رأيتموها أنتم لم تؤمنوا بها أيضًا.

الوجه الثالث: أن الأولين شاهدوا هذه المعجزات وكذبوا بها، فعلم الله منكم أيضًا أنكم لو شاهدتموها لكذبتم فكان إظهارها عبثًا، والعبث لا يفعله الحكيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: المعنى أن الآية التي التمسوها هي مثل آية ثمود، وقد آتيناها ثمود واضحة بينة ثم كفروا بها فاستحقوا عذاب الاستئصال فكيف يتمناها هؤلاء على سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى.

البحث الثاني: قوله تعالى: ﴿مُبْصِرَةً﴾ وفيه وجهان:

الأول: قال الفراء: ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي مضيئة. قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] أي مضيئًا.

الثاني: ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي ذات إبصار أي فيها إبصار لمن تأملها يبصر بها رشده ويستدل بها على صدق ذلك الرسول.

البحث الثالث: قوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بها، وقال ابن قتيبة: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي جحدوا بأنها من الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قيل: لا آية إلا وتتضمن التخويف بها عند التكذيب إما من العذاب المعجل أو من عذاب الآخرة.

فإن قيل: المقصود الأعظم من إظهار الآيات أن يستدل بها على صدق المدعي فكيف حصر المقصود من إظهارها في التخويف.

قلنا: المقصود أن مدعي النبوة إذا أظهر الآية فإذا سمع الخلق أنه أظهر آية فهم لا يعلمون أن تلك الآية معجزة أو مخوفة، إلا أنهم يجوزون كونها معجزة، وبتقدير أن تكون معجزة فلو لم يتفكروا فيها ولم يستدلوا بها على الصدق لاستحقوا العقاب الشديد، فهذا هو الخوف الذي يحملهم على التفكر والتأمل في تلك المعجزات، فالمراد من قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ هذا الذي ذكرناه، والله أعلم.

واعلم أن القوم لما طالبوا رسول الله ﷺ بالمعجزات القاهرة، وأجاب الله تعالى بأن إظهارها ليس بمصلحة صار ذلك سببًا لجرأة أولئك الكفار بالطعن فيه وأن يقولوا له: لو كنت رسولاً حقًا من عند الله تعالى لأتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها منك، كما أتى بها موسى وغيره من الأنبياء، فعند هذا قوى الله قلبه وبين له أنه تعالى ينصره ويؤيده فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾.

وفيه قولان:

القول الأول: المعنى أن حكمته وقدرته محيطة بالناس فهم في قبضته وقدرته، ومتى كان الأمر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الأمور إلا بقضائه وقدره، والمقصود كأنه تعالى يقول له: ننصرك ونقويك حتى تبلغ رسالتنا وتظهر ديننا. قال الحسن: حال بينهم وبين أن يقتلوه كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

والقول الثاني: أن المراد بالناس أهل مكة، وإحاطة الله بهم هو أنه تعالى يفتحها للمؤمنين فكان المعنى: وإذ بشرناك بأن الله أحاط بأهل مكة بمعنى أنه يغلبهم ويقهرهم ويظهر دولتك عليهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢] إلى قوله: ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ لما كان كل ما يخبر الله عن وقوعه فهذا واجب الوقوع، فكان من هذا الاعتبار كالواقع فلا جرم قال: ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ وروي أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله ﷺ في العريش مع أبي بكر كان يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ لِي»[1] ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وفي هذه الرؤيا أقوال:

القول الأول: أن الله أرى محمدًا في المنام مصارع كفار قريش فحين ورد ماء بدر قال: «وَاللَّهِ

---

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٣/ ١٤٥) حديث رقم/ ٢٧٤٦، من طريق خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس... به.

كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ» ثم أخذ يقول: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ»(١) فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية، وكانوا يستعجلون بما وعد رسول الله ﷺ.

والقول الثاني: أن المراد رؤياه التي رآها أنه يدخل مكة وأخبر بذلك أصحابه، فلما منع عن البيت الحرام عام الحديبية كان ذلك فتنة لبعض القوم، وقال عمر لأبي بكر أليس قد أخبرنا رسول الله ﷺ أنا ندخل البيت ونطوف به، فقال أبو بكر إنه لم يخبر أنا نفعل ذلك في هذه السنة فسنفعل ذلك في سنة أخرى، فلما جاء العام المقبل دخلها(٢)، وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] اعترضوا على هذين القولين فقالوا: هذه السورة مكية، وهاتان الواقعتان مدنيتان، وهذا السؤال ضعيف لأن هاتين الواقعتين مدنيتان أما رؤيتهما في المنام فلا يبعد حصولها في مكة.

والقول الثالث: قال سعيد بن المسيب رأى رسول الله ﷺ بَنِي أُمَيَّةَ يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِهِ نَزْوَ الْقِرَدَةِ فَسَاءَهُ ذلك(٣)، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء والإشكال المذكور عائد فيه لأن هذه الآية مكية وما كان لرسول الله ﷺ بمكة منبر، ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يبعد أن يرى بمكة أن له بالمدينة منبرًا يتداوله بنو أمية.

والقول الرابع: وهو الأصح وهو قول أكثر المفسرين أن المراد بها ما أراه الله تعالى ليلة الإسراء، واختلفوا في معنى هذه الرؤيا فقال الأكثرون: لا فرق بين الرؤية والرؤيا في اللغة، يقال رأيت بعيني رؤية ورؤيا، وقال الأقلون: هذا يدل على أن قصة الإسراء إنما حصلت في المنام، وهذا القول ضعيف باطل على ما قررناه في أول هذه السورة، وقوله: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ معناه: أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر لهم قصة الإسراء كذبوه وكفر به كثير ممن كان آمن به وازداد المخلصون إيمانًا فلهذا السبب كان امتحانًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ وهذا على التقديم والتأخير، والتقدير: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس وقيل المعنى: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك. واختلفوا في هذه الشجرة، فالأكثرون قالوا: إنها شجرة الزقوم المذكورة في

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الجهاد) باب (غزوة بدر) (٣/ ١٤٠٣/ ٨٣) وأبو داود في كتاب (الجهاد) باب (في الأسير ينال منه ويضرب ويقرر) (٣/ ١١٦٢) حديث رقم/ ٢٦٨١، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢١٩)، من طريق حماد بن سلمة... به.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الشروط) باب (الشروط في الجهاد والصالحة مع أهل الحرب) (٢/ ٩٧٤) حديث رقم/ ٢٥٨١، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣٢٨)، كلاهما من طريق عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث وصاحبه... فذكره.

(٣) إسناده حسن: أخرجه أبو يعلى في (مسنده) (١١/ ٣٤٨) حديث رقم/ ٦٤٦١، من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٥/ ٢٤٤) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح ومصعب بن عبد الله بن الزبير وهو ثقة.

القرآن في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤] وكانت هذه الفتنة في ذكر هذه الشجرة من وجهين:

الأول: أن أبا جهل قال: زعم صاحبكم بأن نار جهنم تحرق الحجر حيث قال: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] ثم يقول: بأن في النار شجرًا والنار تأكل الشجر فكيف تولد فيها الشجر.

والثاني: قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد فتزقموا منه، فأنزل الله تعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجر: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣] الآيات.

فإن قيل: ليس في القرآن لعن هذه الشجرة.

قلنا: فيه وجوه: الأول: المراد لعن الكفار الذين يأكلونها. الثاني: العرب تقول لكل طعام مكروه ضار إنه ملعون. والثالث: أن اللعن في أصل اللغة هو التبعيد فلما كانت هذه الشجرة الملعونة في القرآن مبعدة عن جميع صفات الخير سميت ملعونة.

القول الثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشجرة بنو أمية يعني الحكم بن أبي العاص قال ورأى رسول الله ﷺ في المنام أن ولد مروان يتداولون منبره فقص رؤياه على أبي بكر وعمر وقد خلا في بيته معهما فلما تفرقوا سمع رسول الله ﷺ الحكم يخبر برؤيا رسول الله ﷺ فاشتد ذلك عليه، واتهم عمر في إفشاء سره، ثم ظهر أن الحكم كان يتسمع إليهم فنفاه رسول الله ﷺ. قال الواحدي: هذه القصة كانت بالمدينة، والسورة مكية فيبعد هذا التفسير إلا أن يقال: هذه الآية مدنية ولم يقل به أحد، ومما يؤكد هذا التأويل قول عائشة لمروان لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض من لعنه الله.

والقول الثالث: أن الشجرة الملعونة في القرآن هي اليهود لقوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المائدة: ٧٨].

فإن قال قائل: إن القوم لما طلبوا من رسول الله ﷺ الإتيان بالمعجزات القاهرة فأجاب أنه لا مصلحة في إظهارها لأنها لو ظهرت ولم تؤمنوا نزل الله عليكم عذاب الاستئصال، وذلك غير جائز وأي تعلق لهذا الكلام بذكر الرؤيا التي صارت فتنة للناس وبذكر الشجرة التي صارت فتنة للناس.

قلنا: التقدير كأنه قيل: إنهم لما طلبوا هذه المعجزات ثم إنك لم تظهرها صار عدم ظهورها شبهة لهم في أنك لست بصادق في دعوى النبوة إلا أن وقوع هذه الشبهة لا يوهن أمرك ولا يصير سببًا لضعف حالك ألا ترى أن ذكر تلك الرؤيا صار سببًا لوقوع الشبهة العظيمة في القلوب ثم إن قوة تلك الشبهات ما أوجبت ضعفًا في أمرك ولا فتورًا في اجتماع المحقين عليك فكذلك هذه الشبهة الحاصلة بسبب عدم ظهور هذه المعجزات لا توجب فتورًا في حالك، ولا ضعفًا في أمرك، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ والمقصود منه ذكر سبب آخر في أنه تعالى

ما أظهر المعجزات التي اقترحوها، وذلك لأن هؤلاء خوفوا بمخاوف الدنيا والآخرة وبشجرة الزقوم فما زادهم هذا التخويف إلا طغيانًا كبيرًا، وذلك يدل على قسوة قلوبهم وتماديهم في الغي والطغيان، وإذا كان الأمر كذلك فبتقدير أن يظهر الله لهم تلك المعجزات التي اقترحوها لم ينتفعوا بها ولا يزدادون إلا تماديًا في الجهل والعناد، وإذا كان كذلك، وجب في الحكمة أن لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الآيات والمعجزات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم وجوه: **الأول**: اعلم أنه تعالى لما ذكر أن رسول الله ﷺ كان في محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه، بَيَّن أن حال الأنبياء مع أهل زمانهم كذلك، ألا ترى أن أول الأولياء هو آدم، ثم إنه كان في محنة شديدة من إبليس. **الثاني**: أن القوم إنما نازعوا رسول الله ﷺ وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين: الكِبْر والحسد، أما الكِبْر فلأن تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد، وأما الحسد فلأنهم كانوا يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة والدرجة العالية، فبَيَّن تعالى أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج من الإيمان والدخول في الكفر، فهذه بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق. **والثالث**: أنه تعالى لما وصفهم بقوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠] بَيَّن ما هو السبب لحصول هذا الطغيان وهو قول إبليس: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلأجل هذا المقصود ذكر الله تعالى قصة إبليس وآدم، فهذا هو الكلام في كيفية النظم.

المسألة الثانية: اعلم أن هذه القصة قد ذكرها الله تعالى في سور سبعة، وهي: البقرة والأعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص، والكلام المستقصى فيها قد تقدم في البقرة والأعراف والحجر، فلا فائدة في الإعادة ولا بأس بتعديد بعض المسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن المأمورين بالسجود لآدم أهُمْ جميع الملائكة أم ملائكة الأرض على التخصيص؟ فظاهر لفظ الملائكة يفيد العموم إلا أن قوله تعالى في آخر سورة الأعراف في صفة ملائكة السماوات: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] يوجب خروج ملائكة السموات من هذا العموم.

المسألة الثانية: أن المراد من هذه السجدة وضع الجبهة على الأرض أو التحية، وعلى التقدير الأول فآدم كان هو المسجود له أو يقال: كان المسجود له هو الله تعالى وآدم كان قبلة للسجود؟

المسألة الثالثة: أن إبليس هل هو من الملائكة أم لا؟ وإن لم يكن من الملائكة فأمر الملائكة بالسجود كيف يتناوله؟

المسألة الرابعة: هل كان إبليس كافرًا من أول الأمر أو يقال: إنما كفر في ذلك الوقت؟

المسألة الخامسة: الملائكة سجدوا لآدم من أول ما كملت حياته أو بعد ذلك؟

المسألة السادسة: شبهة إبليس في الامتناع من السجود أهو قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أو غيره؟

المسألة السابعة: دلت هذه الآيات على أن إبليس كان عارفًا بربه، إلا أنه وقع في الكفر بسبب الكبر والحسد، ومنهم من أنكر وقال: ما عرف الله ألبتة.

المسألة الثامنة: ما سبب حكمة إمهال إبليس وتسليطه على الخلق بالوسوسة؟

ولنرجع إلى التفسير فنقول: إنه تعالى حكى في هذه الآية عن إبليس نوعًا واحدًا من العمل ونوعين من القول: أما العمل فهو أنه لم يسجد لآدم وهو المراد من قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وأما النوعان من القول فأولهما: قوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وهذا استفهام بمعنى الإنكار معناه أن أَصْلي أشرف من أصله فوجب أن أكون أنا أشرف منه، والأشرف يقبح في العقول أمره بخدمة الأدنى. والنوع الثاني من كلامه: قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ قال الزجاج: قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ معناه أخبرني. وقد استقصينا في تفسير هذه الكلمة في سورة الأنعام.

وقوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ فيه وجوه: **الأول**: معناه: أخبرني عن هذا الذي فضَّلته عليَّ لمَ فضَّلته عليَّ وأنا خير منه؟ ثم اختصر الكلام لكونه مفهومًا. **الثاني**: يمكن أن يقال هذا مبتدأ محذوف منه حرف الاستفهام، والذي مع صلته خبر، تقديره أخبرني أهذا الذي كرمته عليَّ! وذلك على وجه الاستصغار والاستحقار، وإنما حذف حرف الاستفهام لأن حصوله في قوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أغنى عن تكراره. والوجه الثالث: أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ مفعول ﴿أَرَءَيْتَ﴾ لأن الكاف جاءت لمجرد الخطاب لا محل لها، كأنه قال على وجه التعجب والإنكار أبصرت أو علمت هذا الذي كرمت علي، بمعنى لو أبصرته أو علمته لكان يجب أن لا تكرمه عليَّ. هذا هو حقيقة هذه الكلمة. ثم قال تعالى حكاية (عنه): ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قرأ ابن كثير ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإثبات الياء في الوصل والوقف، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي بالحذف، ونافع وأبو عمرو بإثباته في الوصل دون الوقف.

البحث الثاني: في الاحتناك قولان: **أحدهما**: أنه عبارة عن الأخذ بالكلية، يقال: احتنك فلان ما عند فلان من مال: إذا استقصاه وأخذه بالكلية. واحتنك الجراد الزرع: إذا أكله بالكلية. **والثاني**: أنه من قول العرب: (حنك الدابة يحنكها) إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به، وقال أبو مسلم: الاحتناك افتعال من الحنك كأنهم يملكه كما يملك الفارس فرسه بلجامه. فعلى القول الأول معنى الآية: لأستأصلنهم بالإغواء. وعلى القول الثاني: لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحبلها.

البحث الثالث: قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. **فإن قيل:** كيف ظن إبليس هذا الظن الصادق بذرية آدم؟ **قلنا:** فيه وجوه: **الأول:** أنه سمع الملائكة يقولون: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] فعرف هذه الأحوال. **الثاني:** أنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عزمًا فقال: الظاهر أن أولاده يكونون مثله في ضعف العزم. **الثالث:** أنه عرف أنه مركب من قوة بهيمية شهوانية، وقوة سبعية غضبية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة عقلية مَلَكية، وعرف أن القوى الثلاث -أعني الشهوانية والغضبية والوهمية- تكون هي المستولية في أول الخلقة، ثم إن القوة العقلية إنما تكمل في آخر الأمر، ومتى كان الأمر كذلك كان ما ذكره إبليس لازمًا. واعلم أنه تعالى لما حكى عن إبليس ذلك حكى عن نفسه أنه تعالى قال له: (اذهب) وهذا ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء وإنما معناه: امضِ لشأنك الذي اخترته، والمقصود التخلية وتفويض الأمر إليه.

ثم قال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ ونظيره قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧] **فإن قيل:** أليس الأولى أن يقال: (فإن جهنم جزاؤهم جزاء موفورًا). ليكون هذا الضمير راجعًا إلى قوله: ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾؟ قلنا فيه وجوه: **الأول:** التقدير (فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤكم) ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم. **والثاني:** يجوز أن يكون هذا الخطاب مع الغائبين على طريقة الالتفات. **والثالث:** أنه ﷺ قال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١) فكل معصية توجد فيحصل لإبليس مثل وزر ذلك العامل، فلما كان إبليس هو الأصل في كل المعاصي صار المخاطب بالوعيد هو إبليس.

ثم قال: ﴿جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ وهذه اللفظة قد تجيء متعديًا ولازمًا، أما المتعدي فيقال: وفرته أفره وفرًا (و) وفرة فهو موفور (و) موفر، قال زهير:

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ وَمَنْ لاَ يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ(٢)

واللازم كقوله: وفر المال يفر وفورًا فهو وافر، فعلى التقدير الأول: يكون المعنى جزاء موفورًا موفرًا. وعلى الثاني يكون المعنى جزاء موفورًا وافرًا، وانتصب قوله ﴿جَزَاءً﴾ على المصدر.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الزكاة) باب (الحث على الصدقة ولو بشق تمرة) (٢/ ٦٩) حديث رقم/ ٧٠٤ والترمذي في كتاب (العلم) باب (فيمن دعا إلى هوى أو إلى ضلالة) (٥/ ٤٢) حديث رقم/ ٢٦٧٥ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الزكاة) باب (التحريض على الصدقة) (٥/ ٧٩) حديث رقم/ ٢٥٥٣ وابن ماجه في كتاب (المقدمة) باب (من سن سنة حسنة أو سيئة) (١/ ٧٤) حديث رقم/ ٢٠٣ من طريق أبي عوانة... به. وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣٥٧/ ٣٥٩) والدارمي في كتاب (المقدمة) باب (من سن سنة حسنة أو سيئة) (١/ ١٢٤) حديث رقم/ ٥١٢ جميعًا عن جرير بن عبد الله... به.

(٢) زهير بن أبي سلمى تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

اعلم أن إبليس لما طلب من الله الإمهال إلى يوم القيامة لأجل أن يحتنك ذرية آدم، فالله تعالى ذكر أشياء: **أولها**: قوله: ﴿ٱذْهَبْ﴾ [الإسراء: ٦٣] ومعناه: أمهلتك هذه المدة. **وثانيها**: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ يقال: أفزه الخوف واستفزه، أي أزعجه واستخفه. وصوته: دعاؤه إلى معصية الله تعالى، وقيل: أراد بصوتك الغناء واللهو واللعب، ومعنى صيغة الأمر هنا التهديد كما يقال: اجهد جهدك فسترى ما ينزل بك. **وثالثها**: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ في قوله: ﴿وَأَجْلِبْ﴾ وجوه: الأول: قال الفراء: إنه من الجلبة وهو الصياح، وربما قالوا الجلب كما قالوا: الغلبة والغلب والشفقة والشفق. وقال الليث وأبو عبيدة: أجلبوا وجلبوا من الصياح. الثاني: قال الزجاج في فعل وأفعل: أجلب على العدو إجلابًا إذا جمع عليه الخيول. الثالث: قال ابن السكيت: يقال هم يجلبون عليه بمعنى أنهم يعينون عليه. والرابع: روى ثعلب عن ابن الأعرابي: أجلب الرجل على الرجل، إذا توعده الشر وجمع عليه الجمع. فقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ معناه على قول الفراء: صح عليهم بخيلك ورجلك، وعلى قول الزجاج: أجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك. وتكون الباء في قوله: (بخيلك) زائدة على هذا القول. وعلى قول ابن السكيت معناه أعن عليهم بخيلك ورجلك ومفعول الإجلاب على هذا القول محذوف كأنه يستعين على إغوائهم بخيله ورجله، وهذا أيضًا يقرب من قول ابن الأعرابي. **واختلفوا في تفسير الخيل والرجل**: فروى أبو الضحى عن ابن عباس أنه قال: (كُلُّ رَاكِبٍ أَوْ رَاجِلٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مِنْ خَيْلِ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ)(١)، ويدخل فيه كل راكب وماشٍ في معصية الله تعالى، فعلى هذا التقدير: خيله ورجله كل من شاركه في الدعاء إلى المعصية. والقول الثاني: يحتمل أن يكون لإبليس جند من الشياطين بعضهم راكب وبعضهم راجل. والقول الثالث: أن المراد منه ضرب المثل، كما تقول للرجل المُجِد في الأمر: (جئتنا بخيلك ورجلك) وهذا الوجه أقرب، والخيل تقع على الفرسان، قال عليه الصلاة والسلام: «يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي»(٢) وقد تقع على الأفراس خاصة، والمراد هاهنا الأول،

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٥/ ١١٩) من طريق معاوية عن علي عن ابن عباس... به.

(٢) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٠/ ٢٤٦) من طريق أبي حمزة عن عبد الحكيم عن سعيد بن جبير... به. وفيه أبو حمزة الأعور ضعيف جدًا مع إرساله فهو من مراسيل سعيد بن جبير، وأورده السخاوي في (المقاصد الحسنة) (١/ ٧٣٥) حديث رقم/ ١٣٣٢ وقال أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ من طريق أبي حمزة السكري عن عبد الكريم: حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين قال: كان ناس أتوا رسول الله فقالوا: نبايعك على الإسلام. فذكر القصة وفيها فأمر النبي فنودي في الناس: (يا خيل الله اركبي) فركبوا لا ينتظر فارس فارسًا. وللعسكري من حديث=

والرجل جمع راجل كما قالوا: تاجر وتَجْر وصاحب وصَحْب وراكب ورَكْب. وروى حفص عن عاصم ورجلك بكسر الجيم وغيره بالضم، قال أبو زيد: يقال: رَجُل ورَجِل بمعنى واحد ومثله حَدُث وحَدِث ونَدُس ونَدِس، قال ابن الأنباري: أخبرنا ثعلب عن الفراء قال: يقال رَجُل ورَجِل ورجلان بمعنى واحد. **والنوع الرابع: من الأشياء التي ذكرها الله تعالى لإبليس:** قوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ نقول: أما المشاركة في الأموال فهي عبارة عن كل تصرف قبيح في المال، سواء كان ذلك القبيح بسبب أخذه من غير حقه أو وضعه في غير حقه، ويدخل فيه الربا والغصب والسرقة والمعاملات الفاسدة، وهكذا قاله القاضي وهو ضبط حسن، وأما المفسرون فقد ذكروا وجوهًا: قال قتادة: المشاركة في الأموال هي أن جعلوا بحيرة وسائبة. وقال عكرمة: هي عبارة عن تبتيكهم آذان الأنعام، وقيل: هي أن جعلوا من أموالهم شيئًا لغير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] والأصوب ما قاله القاضي. وأما المشاركة في الأولاد فذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** أنها الدعاء إلى الزنا، وزَيَّف الأصم ذلك بأن قال: إنه لا ذم على الولد، ويمكن أن يجاب عنه بأن المراد وشارِكهم في طريق تحصيل الولد وذلك بالدعاء إلى الزنا. **وثانيها:** أن يسموا أولادهم بعبد اللات وعبد العزى. **وثالثها:** أن يُرغبوا أولادهم في الأديان الباطلة كاليهودية والنصرانية وغيرهما. **ورابعها:** إقدامهم على قتل الأولاد ووأدهم. **وخامسها:** ترغيبهم في حفظ الأشعار المشتملة على الفحش وترغيبهم في القتل والقتال والحرف الخبيثة الخسيسة. والضابط أن يقال: إن كل تصرف من المرء في ولده على وجه يؤدي إلى ارتكاب منكر أو قبيح فهو داخل فيه.

=عبد الله بن المثنى عن ثمامة عن أنس في حديث ذكره قال: فنادى منادي رسول الله: (يا خيل الله اركبي) ومن حديث يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي قال لحارثة بن النعمان: (كيف أصبحت . . .) الحديث وفيه أنه قال: يا نبي الله ادع الله لي بالشهادة فدعا له قال: فنودي يوما بالخيل: (يا خيل الله اركبي) قال: فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد. ولابن عائذ في المغازي عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: بعث رسول الله يومئذ يعني يوم قريظة يوم الأحزاب مناديًا ينادي: (يا خيل الله اركبي) وعزا السهيلي في غزوة حنين من الروض هذه اللفظة لصحيح مسلم فيحرر. نعم عند ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي في الدلائل حدثني عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم وغيرهما قالوا: لما قدم رسول الله إلى بني لحيان. . . فذكر حديث إغارة بني فزارة على لقاح النبي صرخ في المدينة: (يا خيل الله اركبوا). وجاءت أحاديث عن علي وخالد بن الوليد ففي المستدرك للحاكم في قصة أويس من حديث أبي نضرة عن أسير بن جابر. . . فذكر القصة وقال في آخرها فنادى علي: يا خيل الله اركبي وفي الردة للواقدي من رواية عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لأصحابه يوم اليمامة: يا خيل الله اركبي. فركبوا وساروا إلى بني حنيفة. وقال أبو داود في السنن باب النداء عن النفير (يا خيل الله اركبي) وساق في الباب حديث سمرة بن جندب أن النبي سمى خيلنا خيل الله. وللعسكري من حديث موسى بن نفيع الحارثي عن مشيخة من قومه أن النبي قال (الاناة في كل شيء خير إلا في ثلاث إذا صيح في خيل لله فكونوا أول من يشخص) وذكر حديثا قال العسكري قوله: (يا خيل الله اركبي) هذا على المجاز والتوسع أراد (يا فرسان خيل الله اركبي) فاختصر لعلم المخاطب بما أراد.

والنوع الخامس: من الأشياء التي ذكرها الله تعالى لإبليس في هذه الآية: قوله: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾.

واعلم أنه لما كان مقصود الشيطان الترغيب في الاعتقاد الباطل والعمل الباطل والتنفير عن الاعتقاد الحق والعمل الحق، ومعلوم أن الترغيب في الشيء لا يمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لا ضرر ألبتة في فعله ومع ذلك فإنه يفيد المنافع العظيمة، والتنفير عن الشيء لا يمكن إلا بأن يقرر عنده أنه لا فائدة في فعله، ومع ذلك فيفيد المضار العظيمة، **إذا ثبت هذا فنقول:** إن الشيطان إذا دعا إلى المعصية فلا بد وأن يقرر أولاً أنه لا مضرة في فعله ألبتة، وذلك إنما يمكن إذا قال: لا معاد ولا جنة ولا نار، ولا حياة بعد هذه الحياة. فبهذا الطريق يقرر عنده أنه لا مضرة ألبتة في فعل هذه المعاصي، وإذا فرغ عن هذا المقام قرر عنده أن هذا الفعل يفيد أنواعًا من اللذة والسرور ولا حياة للإنسان في هذه الدنيا إلا به، فتفويتها غبن وخسران، كما قال الشاعر:

خُذُوا بِنَصِيبٍ مِنْ سُرُورٍ وَلَذَّةٍ فَكُلٌّ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى يَتَصَرَّمُ(١)

فهذا هو طريق الدعوة إلى المعصية، وأما طريق التنفير عن الطاعة فهو أن يقرر أولاً عنده أنه لا فائدة فيه، وتقريره من وجهين. **الأول:** أن يقول: لا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عذاب. **والثاني:** أن هذه العبادات لا فائدة فيها للعابد والمعبود، فكانت عبثًا محضًا. فبهذين الطريقين يقرر الشيطان عند الإنسان أنه لا فائدة فيها، وإذا فرغ عن هذا المقام قال: إنها توجب التعب والمحنة وذلك أعظم المضار، فهذه مجامع تلبيس الشيطان، فقوله: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ يتناول كل هذه الأقسام، قال المفسرون: قوله: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ أي بأنه لا جنة ولا نار. وقال آخرون: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ بتسويف التوبة، وقال آخرون: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ بالأماني الباطلة مثل قوله لآدم: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] وقال آخرون: وَعِدهم بشفاعة الأصنام عند الله تعالى وبالأنساب الشريفة وإيثار العاجل على الآجل، وبالجملة فهذه الأقسام كثيرة وكلها داخلة في الضبط الذي ذكرناه، وإن أردت الاستقصاء في هذا الباب فطالع كتاب ذم الغرور من كتاب إحياء علوم الدين للشيخ الغزالي حتى يحيط عقلك بمجامع تلبيس إبليس، واعلم أن الله تعالى لما قال: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ أردفه بما يكون زاجرًا عن قبول وعده فقال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ والسبب فيه أنه إنما يدعو إلى أحد أمور ثلاثة: قضاء الشهوة وإمضاء الغضب وطلب الرياسة وعلو الدرجة، ولا يدعو ألبتة إلى معرفة الله تعالى ولا إلى خدمته، وتلك الأشياء الثلاثة معنوية من وجوه كثيرة. **أحدها:** أنها في الحقيقة ليست لذات بل هي خلاص عن الآلام. **وثانيها:**

---

(١) هذا البيت من البحر الطويل للشاعر يزيد بن معاوية وهو يزيد بن أبي سفيان الأموي. (٢٥- ٦٤ هـ/ ٦٤٥- ٦٨٣ م) ثاني ملوك الدولة الأموية في الشام، وُلد بالماطرون، ونشأ في دمشق. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة (٦٠ هـ) وأبى البيعة له عبد الله بن الزبير والحسين بن علي، فانصرف الأول إلى مكة والثاني إلى الكوفة، وفي أيام يزيد كانت فاجعة الشهيد (الحسين بن علي) إذ قتله رجاله في كربلاء سنة (٦١ هـ). أ. هـ بتصرف.

وإن كانت لذات لكنها لذات خسيسة مشترك فيها بين الكلاب والديدان والخنافس وغيرها. **وثالثها:** أنها سريعة الذهاب والانقضاء والانقراض. **ورابعها:** أنها لا تحصل إلا بمتاعب كثيرة ومشاق عظيمة. **وخامسها:** أن لذات البطن والفرج لا تتم إلا بمزاولة رطوبات عفنة مستقذرة. وسادسها: أنها غير باقية بل يتبعها الموت والهرم والفقر والحسرة على الفوت والخوف من الموت. فلما كانت هذه المطالب وإن كانت لذيذة بحسب الظاهر إلا أنها ممزوجة بهذه الآفات العظيمة والمخالفات الجسيمة، كان الترغيب فيها تغريرًا، ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

واعلم أنه تعالى لما قال له افعل ما تقدر عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ وفيه قولان:

الأول: أن المراد كل عباد الله من المكلفين. وهذا قول أبي علي الجبائي، قال: والدليل عليه أن الله تعالى استثنى منه في آيات كثيرة من يتبعه بقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الحجر: ٤٢] ثم استدل بهذا على أنه لا سبيل لإبليس وجنوده على تصريع الناس وتخبيط عقولهم وأنه لا قدرة له إلا على قدر الوسوسة، وأكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وأيضًا: فلو قدر على هذه الأعمال لكان يجب أن يتخبط أهل الفضل وأهل العلم دون سائر الناس ليكون ضرره أعظم. ثم قال: وإنما يزول عقله لا من جهة الشيطان لكن لغلبة الأخلاط الفاسدة، ولا يمتنع أن يكون أحد أسباب ذلك المرض اعتقاد أن الشيطان يقدم عليه فيغلب الخوف فيحدث ذلك المرض.

والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ أهل الفضل والعلم والإيمان لما بينا فيما تقدم أن لفظ العباد في القرآن مخصوص بأهل الإيمان، والدليل عليه أنه قال في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ١٠٠].

ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾

وفيه بحثان:

البحث الأول: أنه تعالى لما مكن إبليس من أن يأتي بأقصى ما يقدر عليه في باب الوسوسة، وكان ذلك سببًا لحصول الخوف الشديد في قلب الإنسان قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ومعناه أن الشيطان وإن كان قادرًا فالله تعالى أقدر منه وأرحم بعباده من الكل، فهو تعالى يدفع عنه كيد الشيطان ويعصمه من إضلاله وإغوائه.

البحث الثاني: هذه الآية تدل على أن المعصوم من عصمه الله تعالى وأن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه عن مواقع الضلالة؛ لأنه لو كان الإقدام على الحق والإحجام عن الباطل إنما يحصل للإنسان من نفسه لوجب أن يقال: (وكفى الإنسان نفسه في الاحتراز عن الشيطان)، فلما لم يقل ذلك بل قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ علمنا أن الكل من الله؛ ولهذا قال المحققون: لا حول عن

معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله. بقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: أن إبليس هل كان عالمًا بأن الذي تكلم معه بقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾ هو إله العالم أو لم يعلم ذلك؟

فإن عَلِم ذلك ثم إنه تعالى قال: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾[الإسراء: ٦٣] فكيف لم يصر هذا الوعيد الشديد مانعًا له من المعصية مع أنه سمعه من الله تعالى من غير واسطة؟ وإن لم يعلم أن هذا القائل هو إله العالم، فكيف قال: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾[الإسراء: ٦٢] ؟

والجواب: لعله كان شاكًا في الكل أو كان يقول في كل قسم ما يخطر بباله على سبيل الظن.

والسؤال الثاني: ما الحكمة في أنه تعالى أنظره إلى يوم القيامة ومكنه من الوسوسة؟ والحكيم إذا أراد أمرًا وعلم أن شيئًا من الأشياء يمنع من حصوله، فإنه لا يسعى في تحصيل ذلك المانع؟

والجواب: أما مذهبنا فظاهر في هذا الباب، وأما المعتزلة فلهم قولان: قال الجبائي: علم الله تعالى أن الذين كفروا عند وسوسة إبليس يكفرون بتقدير أن لا يوجد إبليس، وإذا كان كذلك لم يكن في وجوده مزيد مفسدة. وقال أبو هاشم: لا يبعد أن يحصل من وجوده مزيد مفسدة، إلا أنه تعالى أبقاه تشديدًا للتكليف على الخلق ليستحقوا بسبب ذلك التشديد مزيد الثواب. وهذان الوجهان قد ذكرناهما في سورة الأعراف والحجر، وبالغنا في الكشف عنهما، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ۝٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ۝٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ۝٦٩﴾

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على قدرته وحكمته ورحمته، وقد ذكرنا أن المقصود الأعظم في هذا الكتاب الكريم تقرير دلائل التوحيد، فإذا امتد الكلام في فصل من الفصول عاد الكلام بعده إلى ذكر دلائل التوحيد، والمذكور هاهنا الوجوه المستنبطة من الإنعامات في أحوال ركوب البحر.

فالنوع الأول: كيفية حركة الفلك على وجه البحر وهو قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ والإزجاء سَوْق الشيء حالاً بعد حال، وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله: ﴿بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾[يوسف: ٨٨] والمعنى: ربكم الذي يُسير الفلك على وجه البحر لتبتغوا من فضله في طلب

التجارة، إنه كان بكم رحيمًا، والخطاب في قوله: ﴿رَّبُّكُمُ﴾ وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ﴾ عام في حق الكل، والمراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها.

والنوع الثاني: قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ والمراد من الضر: الخوف الشديد كخوف الغرق: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ والمراد أن الإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والشمس والقمر والملك والفلك، وإنما يتضرع إلى الله تعالى، فلما نجاكم من الغرق والبحر وأخرجكم إلى البر، أعرضتم عن الإيمان والإخلاص ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ لنعم الله بسبب أن عند الشدة يتمسك بفضله ورحمته، وعند الرخاء والراحة يُعْرِض عنه ويتمسك بغيره.

والنوع الثالث: قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ قال الليث: الخسف والخسوف هو دخول الشيء في الشيء. يقال: عين خاسفة وهي التي غابت حدقتها في الرأس، وعين من الماء خاسفة أي غائرة الماء، وخسفت الشمس، أي احتجبت وكأنها وقعت تحت حجاب أو دخلت في جحر. فقوله: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي نغيبكم من جانب البر وهو الأرض. وإنما قال ﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ لأنه ذكر البحر في الآية الأولى فهو جانب، والبر جانب، خَبَّر الله تعالى أنه كما قدر على أن يغيبهم في الماء فهو قادر أيضًا على أن يغيبهم في الأرض، فالغرق تغييب تحت الماء كما أن الخسف تغييب تحت التراب، وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أنهم كانوا خائفين من هول البحر، فلما نجاهم منه آمنوا، فقال: هب أنكم نجوتم من هول البحر فكيف أمنتم من هول البر؟ فإنه تعالى قادر على أن يسلط عليكم آفات البر من جانب التحت أو من جانب الفوق، أما من جانب التحت فبالخسف، وأما من جانب الفوق فبإمطار الحجارة عليهم، وهو المراد من قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ فكما لا يتضرعون إلا إلى الله تعالى عند ركوب البحر، فكذلك يجب أن لا يتضرعوا إلا إليه في كل الأحوال. ومعنى الحصب في اللغة: الرمي، يقال: حصبت أحصب حصبًا، إذا رميت، والحصب المرمي، ومنه قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[الأنبياء: ٩٨] أي يُلْقَون فيها، ومعنى قوله: ﴿حَاصِبًا﴾ أي عذابًا يحصبهم، أي يرميهم بحجارة، ويقال للريح التي تحمل التراب والحصباء: حاصب، والسحاب الذي يرمي بالثلج والبَرَد يسمى حاصبًا لأنه يرمي بهما رميًا. وقال الزجاج: الحاصب التراب الذي فيه حصباء والحاصب على هذا ذو الحصباء مثل اللابن والتامر. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يعني لا تجدوا ناصرًا ينصركم ويصونكم من عذاب الله. ثم قال: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي في البحر تارة أخرى وقوله: ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا﴾ من الريح القاصف الكاسر يقال: قصف الشيء يقصفه قصفًا، إذا كسره بشدة، والقاصف من الريح التي تكسر الشجر، وأراد هاهنا ريحًا شديدة تقصف الفلك وتغرقهم: وقوله: ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي بسبب كفركم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا. قال الزجاج: أي لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم بأن يصرفه عنكم، وتبيع بمعنى تابع.

واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ خمسة: وهي قوله: (أَنْ نَخْسِفَ. أَوْ نُرْسِلَ. أَوْ نُعِيدُكُمْ. فَنُرْسِلَ. فَنُغْرِقَكُمْ) قرأ ابن كثير وأبو عمرو جميع هذه الخمسة بالنون، والباقون بالياء، فمن قرأ بالياء فلأن ما قبله على الواحد الغائب وهو قوله: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ ومن قرأ بالنون فلأن هذا البحر من الكلام قد ينقطع بعضه من بعض وهو سهل لأن المعنى واحد. ألا ترى أنه قد جاء ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢] فانتقل من الجمع إلى الإفراد وكذلك هاهنا يجوز أن ينتقل من الغيبة إلى الخطاب، والمعنى واحد والكل جائز، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية ذكر نعمة أخرى جليلة رفيعة من نعم الله تعالى على الإنسان وهي الأشياء التي بها فُضل الإنسان على غيره، وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أربعة أنواع:

النوع الأول: قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ واعلم أن الإنسان جوهر مركب من النفس والبدن، فالنفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم السفلي، وبدنه أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي: وتقرير هذه الفضيلة في النفس الإنسانية هي أن النفس الإنسانية قواها الأصلية ثلاث، وهي الاغتذاء والنمو والتوليد، والنفس الحيوانية لها قوتان: الحساسة سواء كانت ظاهرة أو باطنة، والحركة بالاختيار، فهذه القوى الخمسة أعني الاغتذاء والنمو والتوليد والحس والحركة حاصلة للنفس الإنسانية، ثم إن النفس الإنسانية مختصة بقوة أخرى وهي القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء كما هي، وهي التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويشرق فيها ضوء كبريائه وهو الذي يطلع على أسرار عالمي الخلق والأمر، ويحيط بأقسام مخلوقات الله من الأرواح والأجسام كما هي، وهذه القوة من تلقيح الجواهر القدسية والأرواح المجردة الإلهية، فهذه القوة لا نسبة لها في الشرف والفضل إلى تلك القوى النباتية والحيوانية، وإذا كان الأمر كذلك ظهر أن النفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في هذا العالم، وإن أردت أن تعرف فضائل القوة العقلية ونقصانات القوى الجسمية، فتأمل ما كتبناه في هذا الكتاب في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] فإنا ذكرنا هناك عشرين وجهًا في بيان أن القوة العقلية أجَلّ وأعلى من القوة الجسمية فلا فائدة في الإعادة. وأما بيان أن البدن الإنساني أشرف أجسام هذا العالم، فالمفسرون إنما ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ هذا النوع من الفضائل وذكروا أشياء: أحدها: روى ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ قال: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم فإنه يأكل بيديه. وقيل: إن الرشيد أُحضرت عنده أطعمة فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف، فقال له: جاء في التفسير عن جدك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فردّ

الملاعق وأكل بأصابعه. **وثانيها:** قال الضحاك: بالنطق والتمييز، وتحقيق الكلام أن من عرف شيئًا، فإما أن يعجز عن تعريف غيره كونه عارفًا بذلك الشيء أو يقدر على هذا التعريف.

أما القسم الأول: فهو حال جملة الحيوانات سوى الإنسان، فإنه إذا حصل في باطنها ألم أو لذة فإنها تعجز عن تعريف غيرها تلك الأحوال تعريفًا تامًّا وافيًا.

وأما القسم الثاني: فهو الإنسان، فإنه يمكنه تعريف غيره كل ما عرفه ووقف عليه وأحاط به، فكونه قادرًا على هذا النوع من التعريف هو المراد بكونه ناطقًا، وبهذا البيان ظهر أن الإنسان الأخرس داخل في هذا الوصف؛ لأنه وإن عجز عن تعريف غيره ما في قلبه بطريق اللسان، فإنه يمكنه ذلك بطريق الإشارة وبطريقة الكتابة وغيرهما، ولا يدخل فيه الببغاء؛ لأنه وإن قدر على تعريفات قليلة، فلا قدرة له على تعريف جميع الأحوال على سبيل الكمال والتمام. **وثالثها:** قال عطاء: بامتداد القامة، واعلم أن هذا الكلام غير تام لأن الأشجار أطول من قامة الإنسان بل ينبغي أن يشترط فيه شرط، وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية، والقوى الحسية والحركية. **ورابعها:** قال بيان بحسن الصورة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤] لما ذكر الله تعالى خلقة الإنسان قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾ [البقرة: ١٣٨] وإن شئت فتأمل عضوًا واحدًا من أعضاء الإنسان وهو العين فخلق الحدقة سوداء، ثم أحاط بذلك السواد بياض العين، ثم أحاط بذلك البياض سواد الأشفار، ثم أحاط بذلك السواد بياض الأجفان، ثم خلق فوق بياض الجفن سواد الحاجبين، ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة، ثم خلق فوق بياض الجبهة سواد الشعر، وليكن هذا المثال الواحد أنموذجًا لك في هذا الباب. **وخامسها:** قال بعضهم: من كرامات الآدمي أن آتاه الله الخط. وتحقيق الكلام في هذا الباب أن العلم الذي يقدر الإنسان على استنباطه يكون قليلاً. أما إذا استنبط الإنسان علمًا وأودعه في الكتاب، وجاء الإنسان الثاني واستعان بذلك الكتاب، وضم إليه من عند نفسه أشياء أخرى، ثم لا يزالون يتعاقبون، ويضم كل متأخر مباحث كثيرة إلى علم المتقدمين كثرت العلوم وقويت الفضائل والمعارف، وانتهت المباحث العقلية والمطالب الشرعية إلى أقصى الغايات وأكمل النهايات، ومعلوم أن هذا الباب لا يتأتى إلا بواسطة الخط والكتبة، ولهذه الفضيلة الكاملة قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣-٥]. **وسادسها:** أن أجسام هذا العالم إما بسائط وإما مركبات: أما البسائط فهي الأرض والماء والهواء والنار: والإنسان ينتفع بكل هذه الأربع، أما الأرض فهي لنا كالأم الحاضنة، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] وقد سماها الله تعالى بأسماء بالنسبة إلينا، وهي الفراش والمهد والمهاد. وأما الماء فانتفاعنا به في الشرب والزراعة والحراثة ظاهر، وأيضًا سخر البحر لنأكل منه لحمًا طريًّا، ونستخرج منه حلية نلبسها ونرى الفلك مواخر فيه. وأما الهواء فهو مادة حياتنا، ولولا هبوب الرياح لاستولى النتن

على هذه المعمورة، وأما النار فبها طبخ الأغذية والأشربة ونضجها، وهي قائمة مقام الشمس والقمر في الليالي المظلمة، وهي الدافعة لضرر البرد كما قال الشاعر:

وَمَنْ يُرِدْ فِي الشِّتَاءِ فَاكِهَةً فَإِنَّ نَارَ الشِّتَاءِ فَاكِهَتُهُ

وأما المركبات فهي إما الآثار العلوية، وإما المعادن والنبات، وأما الحيوان والإنسان كالمستولي على هذه الأقسام والمنتفع بها والمستسخر لكل أقسامها، فهذا العالم بأسره جار مجرى قرية معمورة أو خان معد وجميع منافعها ومصالحها مصروفة إلى الإنسان والإنسان فيه كالرئيس المخدوم، والمَلِك المطاع، وسائر الحيوانات بالنسبة إليه كالعبيد، وكل ذلك يدل على كونه مخصوصًا من عند الله بمزيد التكريم والتفضيل، والله أعلم. **وسابعها**: أن المخلوقات تنقسم إلى أربعة أقسام: إلى ما حصلت له القوة العقلية الحكمية ولم تحصل له القوة الشهوانية الطبيعية وهم الملائكة، وإلى ما يكون بالعكس وهم البهائم، وإلى ما خلا عن القسمين وهو النبات والجمادات، وإلى ما حصل النوعان فيه وهو الإنسان، ولا شك أن الإنسان لكونه مستجمعًا للقوة العقلية القدسية المحضة، وللقوى الشهوانية البهيمية والغضبية والسبعية يكون أفضل من البهيمية ومن السبعية، ولا شك أيضًا أنه أفضل من الأجسام الخالية عن القوتين مثل النبات والمعادن والجمادات، وإذا ثبت ذلك ظهر أن الله تعالى فضَّل الإنسان على أكثر أقسام المخلوقات. بقي هاهنا بحث في أن المَلَك أفضل أم البشر؟ والمعنى أن الجوهر البسيط الموصوف بالقوة العقلية القدسية المحضة أفضل أم البشر المستجمع لهاتين القوتين؟ وذلك بحث آخر. **وثامنها**: الموجود إما أن يكون أزليًا وأبديًا معًا وهو الله سبحانه وتعالى، وإما أن يكون لا أزليًا ولا أبديًا وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات والحيوان، وهذا أخس الأقسام، وإما أن يكون أزليًا لا أبديًا وهو الممتنع الوجود لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه، وإما أن لا يكون أزليًا ولكنه يكون أبديًا، وهو الإنسان والمَلَك، ولا شك أن هذا القسم أشرف من القسم الثاني والثالث، وذلك يقتضي كون الإنسان أشرف من أكثر مخلوقات الله تعالى. **وتاسعها**: العالم العلوي أشرف من العالم السفلي، وروح الإنسان من جنس الأرواح العلوية والجواهر القدسية فليس في موجودات العالم السفلي شيء حصل فيه شيء من العالم العلوي إلا الإنسان، فوجب كون الإنسان أشرف موجودات العالم السفلي. **وعاشرها**: أشرف الموجودات هو الله تعالى، وإذا كان كذلك فكل موجود كان قربه من الله تعالى أتم، وجب أن يكون أشرف، لكن أقرب موجودات هذا العالم من الله هو الإنسان بسبب أن قلبه مستنير بمعرفة الله تعالى ولسانه مشرف بذكر الله وجوارحه وأعضاؤه مكرمة بطاعة الله تعالى، فوجب الجزم بأن أشرف موجودات هذا العالم السفلي هو الإنسان، ولما ثبت أن الإنسان موجود ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، ثبت أن كل ما حصل للإنسان من المراتب العالية والصفات الشريفة فهي إنما حصلت بإحسان الله تعالى وإنعامه، فلهذا المعنى قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ومن تمام كرامته على الله تعالى أنه تعالى لما خلقه في أول الأمر وَصَف نفسه بأنه أكرم فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ١-٤] ووصف نفسه بالتكريم عند تربيته للإنسان فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ووصف نفسه بالكرم في آخر أحوال الإنسان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الإنفطار: ٦] وهذا يدل على أنه لا نهاية لكرم الله تعالى ولفضله وإحسانه مع الإنسان، والله أعلم.

والوجه الحادي عشر: قال بعضهم: هذا التكريم معناه أنه تعالى خلق آدم بيده وخلق غيره بطريق كن فيكون. ومن كان مخلوقًا بيد الله كانت العناية به أتم وأكمل، وكان أكرم وأكمل، ولما جعَلَنا من أولاده وجب كون بني آدم أكرم وأكمل، والله أعلم.

النوع الثاني من المدائح المذكورة في هذه الآية: قوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال ابن عباس: في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل، وفي البحر على السفن. وهذا أيضًا من مؤكدات التكريم المذكور أولاً؛ لأنه تعالى سَخَّر هذه الدواب له حتى يركبها ويحمل عليها ويغزو ويقاتل ويذب عن نفسه، وكذلك تسخير الله تعالى المياه والسفن وغيرها ليركبها وينقل عليها ويتكسب بها مما يختص به ابن آدم، كل ذلك مما يدل على أن الإنسان في هذا العالم كالرئيس المتبوع والملك المطاع وكل ما سواه فهو رعيته وتبع له.

النوع الثالث من المدائح: قوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وذلك لأن الأغذية إما حيوانية وإما نباتية، وكلا القسمين إنما يتغذى الإنسان منه بألطف أنواعها وأشرف أقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج البالغ، وذلك مما لا يحصل إلا للإنسان.

النوع الرابع: قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .

وهاهنا بحثان:

البحث الأول: أنه قال في أول الآية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وقال في آخرها: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ ولا بد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار، والأقرب أن يقال: إنه تعالى فضَّل الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خِلقية طبيعية ذاتية، مثل العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة، ثم إنه تعالى عَرَّضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل.

البحث الثاني: أنه تعالى لم يقل: (وفضلناهم على الكل) بل قال: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فهذا يدل على أنه حصل في مخلوقات الله تعالى شيء لا يكون الإنسان مفضلاً عليه، وكل من أثبت هذا القسم قال: إنه هو الملائكة. فلزم القول بأن الإنسان ليس أفضل من الملائكة بل المَلَك أفضل من الإنسان. وهذا القول مذهب ابن عباس واختيار الزجاج على ما رواه الواحدي في البسيط. **واعلم أن هذا الكلام مشتمل على بحثين:**

البحث الأول: أن الأنبياء عليهم السلام أفضل أم الملائكة؟ وقد سبق ذكر هذه المسألة

بالاستقصاء في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٤].

والبحث الثاني: أن عوام الملائكة وعوام المؤمنين أيهما أفضل؟ منهم من قال بتفضيل المؤمنين على الملائكة. واحتجوا عليه بما روي عن زيد بن أسلم أنه قال: قالت الملائكة: ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا ذاك في الآخرة، فقال: وعزتي وجلالي لا أجعل ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان[(١)]. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده[(٢)]. هكذا أورده الواحدي في (البسيط)، وأما القائلون بأن الملك أفضل من البشر على الإطلاق فقد عولوا على هذه الآية، وهو في الحقيقة تمسُّك بدليل الخطاب لأن تقرير الدليل أن يقال: إن تخصيص الكثير بالذكر يدل على أن الحال في القليل بالضد، وذلك تمسُّك بدليل الخطاب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواع كرامات الإنسان في الدنيا، ذكر أحوال درجاته في الآخرة في هذه الآية، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (يدعو) بالياء والنون و(يدعى كُلُّ أُنَاسٍ) على البناء للمفعول، وقرأ الحسن (يَدْعُو كُلُّ أُنَاسٍ) قال الفراء: وأهل العربية لا يعرفون وجهًا لهذه القراءة المنقولة عن

---

(١) ضعيف: الذهبي في (العلو) (١/ ٨٢/ ١٨٣) من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن عبد الله بن عمرو... فذكره. ابن بطة في (الإيمان) (٣/ ٣٠٨) حديث رقم/ ٢٣٦. من طريق خارجة بن مصعب قال: أنبأنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال قالت الملائكة... فذكره. وإسناد ضعيف مقطوع. عبد الله بن أحمد في (السنة) (٢/ ٤٦٩) حديث رقم/ ١٠٦٥ من طريق عثمان بن علاق وهو عثمان بن محصين بن علاق قال سمعت عروة بن رديم يقول أخبرني الأنصاري عن النبي ﷺ... به. وفي (سنده) عثمان بن علاق ونقض الدارمي (١/ ٢٥٧) من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ان عبد الله بن عمر... به. وابن الجوزي في (العلل المتناهية) (١/ ٤٨) حديث رقم/ ٣٢ من طريق عبد المجيد بن أبي رواد عن معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر... به. وقال ابن الجوزي: قال المصنف: هذا حديث لا يصح وكان الحميدي يتكلم في عبد المجيد وقال ابن حبان: يقلب الخبار ويروي المنكرات عن المشاهير فاستحق الترك. قال الدارقطني: وقد رواه سريج بن يونس عن عبد المجيد فوقفه والموقوف اصح. وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ٨٢) وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي وهو كذاب متروك، وفي الأوسط طلحة بن زيد وهو كذاب أيضًا.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٣٠١) حديث رقم/ ٣٩٤٧ من طريق حماد بن سلمة حدثنا أبو المهزم يزيد بن سفيان سمعت أبا هريرة يقول... فذكره وفيه (بعض ملائكته) وفي إسناده أبو المهزم يزيد بن سفيان وهو ضعيف. ورواه البيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ١٧٤) حديث رقم/ ١٥٢ من طريق حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة... به. وقال: كذا رواه أبو المهزم عن أبي هريرة موقوفًا، وأبو المهزم متروك. ورواه وكيع في (الزهد) (١/ ٩٦) حديث رقم/ ٨٢ من طريق أبي المهزم عن أبي هريرة قال... فذكره موقوفًا.

الحسن، ولعله قرأ (يُدْعَى) بفتحة ممزوجة بالضم فظن الراوي أنه قرأ (يَدْعُو).

المسألة الثانية: قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ﴾ نصب بإضمار (اذكر) ولا يجوز أن يقال: العامل فيه قوله: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ [الإسراء: ٧٠] لأنه فعل ماضٍ، ويمكن أن يجاب عنه فيقال: المراد: ونفضلهم بما نعطيهم من الكرامة والثواب.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ الإمام في اللغة كل من ائتم به قوم كانوا على هدى أو ضلالة، فالنبي إمام أمته، والخليفة إمام رعيته، والقرآن إمام المسلمين، وإمام القوم هو الذي يُقتدي به في الصلاة. **وذكروا في تفسير الإمام ههنا أقوالاً القول الأول:** إمامهم نبيهم، روي ذلك مرفوعًا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ويكون المعنى أنه ينادى يوم القيامة يا أمة إبراهيم يا أمة موسى يا أمة عيسى يا أمة محمد. فيقوم أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بإيمانهم، ثم ينادي يا أتباع فرعون يا أتباع نمروذ يا أتباع فلان وفلان من رؤساء الضلال وأكابر الكفر [(١)] وعلى هذا القول فالباء في قوله ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ فيه وجهان. الأول: أن يكون التقدير: يدعو كل أناس بإمامهم تبعًا وشيعة لإمامهم كما تقول ادعوك باسمك. والثاني: أن يتعلق بمحذوف وذلك المحذوف في موضع الحال كأنه قيل: يدعو كل أناس مختلطين بإمامهم، أي يدعون وإمامهم فيهم، نحو ركِب بجنوده. **والقول الثاني:** وهو قول الضحاك وابن زيد ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي بكتابهم الذي أنزل عليهم. وعلى هذا التقدير ينادى في القيامة: يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل. **والقول الثالث:** قال الحسن: بكتابهم الذي فيه أعمالهم. وهو قول الربيع وأبي العالية. والدليل على أن هذا الكتاب يسمى إمامًا قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] فسمى الله تعالى هذا الكتاب إمامًا، وتقدير الباء على هذا القول بمعنى (مع) أي ندعو كل أناس ومعهم كتابهم، كقولك: (ادفعه إليه برمته) أي ومعه رمته. **القول الرابع:** قال صاحب (الكشاف): ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم، وأن الناس يُدعون يوم القيامة بأمهاتهم وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى وإظهار شرف الحسن والحسين وأن لا يفتضح أولاد الزنا ثم قال صاحب (الكشاف): وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بيان حكمته. **والقول الخامس:** أقول: في اللفظ احتمال آخر وهو أن أنواع الأخلاق الفاضلة والفاسدة كثيرة والمستولي على كل إنسان نوع من تلك الأخلاق، فمنهم من يكون الغالب عليه الغضب، ومنهم من يكون الغالب عليه شهوة النقود أو شهوة الضياع، ومنهم من يكون الغالب عليه الحقد والحسد، وفي جانب الأخلاق الفاضلة منهم من يكون الغالب عليه العفة أو الشجاعة أو الكرم أو طلب العلم والزهد. **إذا عرفت هذا فنقول:** الداعي إلى الأفعال الظاهرة من تلك الأخلاق الباطنة فذلك الخلق الباطن كالإمام له والملك المطاع والرئيس المتبوع، فيوم القيامة إنما يظهر الثواب والعقاب بناء على الأفعال الناشئة من تلك الأخلاق،

---

(١) عند أهل التفسير بدون إسناد.

فهذا هو المراد من قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ فهذا الاحتمال خطر بالبال، والله أعلم بمراده **ثم قال تعالى:** ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قال صاحب (الكشاف): إنما قال: (أولئك) لأن من أوتي في معنى الجمع. والفتيل: القشرة التي في شق النواة، وسمي بهذا الاسم لأنه إذا أراد الإنسان استخراجه انفتل، وهذا يُضرب مثلاً للشيء الحقير التافه، ومثله القطمير والنقير في ضرب المثل به، والمعنى لا يُنقصون من الثواب بمقدار فتيل، ونظيره قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾[مريم: ٦٠]، ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[طه: ١١٢] وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: الفتيل هو الوسخ الذي يظهر بفتل الإنسان إبهامه بسبابته، وهو فعيل من الفتل بمعنى مفتول **فإن قيل:** لَمَ خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع أن أصحاب الشمال يقرؤونه أيضًا؟ **قلنا:** الفرق أن أصحاب الشمال إذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملاً على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة والمخازي الشديدة، فيستولي الخوف والدهشة على قلوبهم ويثقل لسانهم فيعجزوا عن القراءة، وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك، لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم على أحسن الوجوه وأثبتها، ثم لا يكتفون بقراءتهم وحدهم، بل يقول القارئ لأهل الحشر: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾[الحاقة: ١٩] فظهر الفرق، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ونصر عن الكسائي: (ومن كان في هذه أعمى) بالإمالة والكسر (فهو في الآخرة أعمى) بالفتح، وقرأ بالفتح والتفخيم فيهما ابن كثير ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم في رواية بالإمالة فيهما، قال أبو علي الفارسي: الوجه في تصحيح قراءة أبي عمرو أن المراد بالأعمى في الكلمة الأولى كونه في نفسه أعمى، وبهذا التقدير تكون هذه الكلمة تامة فتقبل الإمالة، وأما في الكلمة الثانية فالمراد من الأعمى أفعل التفضيل، فكانت بمعنى (أفعل مِن) وبهذا التقدير لا تكون لفظة أعمى تامة فلم تقبل الإمالة، والحاصل أن إدخال الإمالة في الأولى دل على أنه ليس المراد أفعل التفضيل وتَرْكها في الثانية يدل على أن المراد منها أفعل التفضيل، والله أعلم[1].

المسألة الثانية: لا شك أنه ليس المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ عمى البصر، بل المراد منه عمى القلب، أما قوله: (فهو في الآخرة أعمى) ففيه قولان: **القول الأول:** أن المراد منه أيضًا عمى القلب، وعلى هذا التقدير ففيه وجوه: **الأول:** قال عكرمة: جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الآية فقال: اقرأ ما قبلها.

---

(١) لم يجوز النحاة أفعل التفضيل من (أعمى) لأن الوصف رباعي والعمى مما لاتفاوت فيه، وألزموا أن يقال أشد أو أكثر فأعمى الأولى يتصف بالعمى كالثانية، لكن التفاوت في الثانية يُفهم من قوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

فقرأ: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٦] إلى قوله: ﴿تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] قال ابن عباس: من كان أعمى في هذه النعم التي قد رأى وعاين، فهو في أمر الآخرة التي لم ير ولم يعاين أعمى وأضل سبيلاً. وعلى هذا الوجه فقوله (في هذه) إشارة إلى النعم المذكورة في الآيات المتقدمة. **وثانيها**: روى أبو ورق عن الضحاك عن ابن عباس قال: من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي في خلق السماوات والأرض والبحار والجبال والناس والدواب، فهو عن أمر الآخرة أعمى وأضل سبيلاً وأبعد عن تحصيل العلم به وعلى هذا الوجه فقوله: (فمن كان في هذه) إشارة إلى الدنيا. وعلى هذين القولين فالمراد: من كان في الدنيا أعمى القلب عن معرفة هذه النعم والدلائل، فبأن يكون في الآخرة أعمى القلب عن معرفة أحوال الآخرة أَوْلى، فالعمى في المرتين حصل في الدنيا. **وثالثها**: قال الحسن: من كان في الدنيا ضالاً كافرًا فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً؛ لأنه في الدنيا تُقبل توبته وفي الآخرة لا تُقبل توبته، وفي الدنيا يهتدي إلى التخلص من أبواب الآفات وفي الآخرة لا يهتدي إلى ذلك ألبتة. **ورابعها**: أنه لا يمكن حمل العمى الثاني على الجهل بالله لأن أهل الآخرة يعرفون الله بالضرورة، فكان المراد منه العمى عن طريق الجنة، أي: ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن معرفة الله فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة. **وخامسها**: أن الذين حصل لهم عمى القلب في الدنيا إنما حصلت هذه الحالة لهم لشدة حرصهم على تحصيل الدنيا وابتهاجهم بلذاتها وطيباتها، فهذه الرغبة تزداد في الآخرة وتعظم هناك حسرتها على فوات الدنيا وليس معهم شيء من أنوار معرفة الله تعالى، فيبقون في ظلمة شديدة وحسرة عظيمة، فذاك هو المراد من العمى. **القول الثاني**: أن يُحمل العمى الثاني على عمى العين والبصر، فمن كان في هذه الدنيا أعمى القلب حُشر يوم القيامة أعمى العين والبصر، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦] وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٧] وهذا العمى زيادة في عقوبتهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما عَدَّد في الآيات المتقدمة أقسام نعمه على خلقه، وأتبعها بذكر درجات الخلق في الآخرة، وشَرَح أحوال السعداء، أردفه بما يجري مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس فقال: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت هذه الآية في وفد ثقيف، أتوا رسول الله ﷺ فسألوه شططًا، وقالوا: متِّعنا باللات سنة وحَرِّم وادينا كما حرمت مكة شجرها وطيرها ووحشها. فأبى ذلك رسول الله ﷺ ولم يجبهم، فكرروا ذلك الالتماس، وقالوا: إنا نحب أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فإن كرهت ما نقول وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا، فقل: الله أمرني بذلك. فأمسك رسول الله ﷺ عنهم وداخلهم الطمع، فصاح عليهم عمر وقال: أما ترون رسول الله ﷺ قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه؟ فأنزل الله هذه الآية (١)، وروى صاحب (الكشاف) أنهم جاءوا بكاتبهم فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله إلى ثقيف لا يعشرون ولا يحشرون، فقالوا: ولا يجبون. فسكت رسول الله، ثم قالوا للكاتب: اكتب (ولا يجبون) والكاتب ينظر إلى رسول الله ﷺ فقام عمر بن الخطاب وسل سيفه، وقال: أسعرتم قلب نبينا يا معشر قريش، أسعر الله قلوبكم نارًا!! فقالوا: لسنا نكلمك إنما نكلم محمدًا. فنزلت هذه الآية (٢). واعلم أن هذه القصة إنما وقعت بالمدينة فلهذا السبب قالوا: إن هذه الآيات مدنية. وروى أن قريشًا قالوا له: اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة، حتى نؤمن بك. فنزلت هذه الآية. وقال الحسن: الكفار أخذوا رسول الله ﷺ ليلة بمكة قبل الهجرة فقالوا: كُف يا محمد عن ذم آلهتنا وشتمها، فلو كان ذلك حقًّا كان فلان وفلان بهذا الأمر أحق منك. فوقع في قلب رسول الله ﷺ أن يكف عن شتم آلهتهم (٣). وعلى هذا التقدير فهذه الآية مكية، وعن سعيد بن جبير أنه عليه السلام كان يستلم الحجر فتمنعه قريش ويقولون لا ندعك حتى تستلم آلهتنا (٤) فوقع في نفسه أن يفعل ذلك مع كراهية، فنزلت هذه الآية.

المسألة الثانية: قال الزجاج: معنى الكلام: كادوا يفتنونك، ودخلت إن واللام للتأكيد و(إن) مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والمعنى إن الشأن (أَنَّهُمْ) قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين (و) أصل الفتنة الاختبار، يقال: فتن الصائغ الذهب، إذا أدخله النار وأذابه لتميز جيده من رديئه، ثم استعملوه في كل من أزال الشيء عن حده وجهته فقالوا: فتنه. فقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي يزيلونك ويصرفونك عن الذي أوحينا إليك، يعني القرآن، والمعنى عن حكمه، وذلك لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن،

---

(١) لم أجده.

(٢) ذكره أهل التفسير بدون إسناد.

(٣) أورده النيسابوري في (تفسيره) (٥/ ١٢٧) وقال: وقال الحسن. . . فذكره.

(٤) أورده ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٩/ ١٧٥) حديث رقم/ ١٣٧٢٣ قال: عن سعيد بن جبير قال. . . فذكره. وهذا مرسل.

وقوله: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ أي غير ما أوحينا إليك. وهو قولهم: قل: الله أمرني بذلك ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على كونهم وراضٍ بشركهم ثم قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ أي على الحق بعصمتنا إياك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أي تميل إليهم شيئًا قليلاً. وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ عبارة عن المصدر، أي ركونًا قليلاً، قال ابن عباس: يريد حيث سكت عن جوابهم. قال قتادة: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»(١) ثم توعده في ذلك أشد التوعد فقال: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، يريد عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، والضعف عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله، فإن الرجل إذا قال لوكيله: أعط فلانًا شيئًا. فأعطاه درهمًا فقال أضعفه كان المعنى ضُم إلى ذلك الدرهم مثله. إذا عرفت هذا فنقول: إنما حسُن إضمار العذاب في قوله: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ لما تقدم في القرآن من وصف العذاب بالضعف في قوله: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١] وقال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] وحاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركون إليه همتك، لاستحققت بذلك تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة، ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا ومثلي عذابه في الآخرة. والسبب في تضعيف هذا العذاب أن أقسام نعم الله تعالى في حق الأنبياء عليهم السلام أكثر، فكانت ذنوبهم أعظم فكانت العقوبة المستحقة عليها أكثر، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. **فإن قيل:** قال عليه السلام: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٢) فموجب هذا الحديث أنه عليه السلام لو رضي بما قالوه، لكان وزره مثل وزر كل أحد من أولئك الكفار، وعلى هذا التقدير يكون عقابه زائدًا على الضعف. **قلنا:** إثبات الضعف لا يدل على نفي الزائد عليه إلا بالبناء على دليل الخطاب وهو حجة ضعيفة ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يعني إذا أذقناك العذاب المضاعف لم تجد أحدًا يخلصك من عذابنا وعقابنا، والله أعلم.

المسألة الثالثة: احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية فقالوا: هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم عنهم من وجوه.

الأول: أن الآية دلت على أنه عليه السلام قرب من أن يفتري على الله، والفرية على الله من أعظم الذنوب.

والثاني: أنها تدل على أنه لولا أن الله تعالى ثبته وعصمه، لقرب من أن يركن إلى دينهم ويميل

---

(١) حسن: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد) حديث رقم/ ٧٠١ وأبو داود في كتاب (الأدب) باب (ما يقول إذا أصبح) (٤/ ٢١٦٧) حديث رقم/ ٥٠٩٠ والنسائي في كتاب (عمل اليوم والليلة) (١٤٦/ ٣٨٢/ ٤١٣)

(٢) تقدم تخريجه في أول المجلد.

إلى مذهبهم. **والثالث:** أنه لولا سبق جرم وجناية، وإلا فلا حاجة إلى ذكر هذا الوعيد الشديد.

والجواب عن الأول: أن (كاد) معناه المقاربة فكان معنى الآية أنه قرب وقوعه في الفتنة، وهذا القدر لا يدل على الوقوع في تلك الفتنة، فإنا إذا قلنا كاد الأمير أن يضرب فلانًا. لا يفهم منه أنه ضربه.

والجواب عن الثاني: أن كلمة (لولا) تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره، تقول: لولا علي لهلك عمر، معناه أن وجود علي منع من حصول الهلاك لعمر، فكذلك ههنا قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ معناه أنه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد ﷺ فكان حصول ذلك التثبيت مانعًا من حصول ذلك الركون.

والجواب عن الثالث: أن ذلك التهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها، والدليل عليه آيات منها قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦] ومنها قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] ومنها قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، والله أعلم.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا على صحة قولهم بأنه لا عصمة عن المعاصي إلا بتوفيق الله تعالى - بقوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ قالوا: إنه تعالى بيَّن أنه لولا تثبيت الله تعالى له لمال إلى طريقة الكفار، ولا شك أن محمدًا ﷺ كان أقوى من غيره في قوة الدين وصفاء اليقين، فلما بيَّن الله تعالى أن بقاءه معصومًا عن الكفر والضلال لم يحصل إلا باعانة الله تعالى وإغاثته، كان حصول هذا المعنى في حق غيره أَولى. **قالت المعتزلة:** المراد بهذا التثبيت الألطاف الصارفة له عن ذلك، وهي ما خطر بباله من ذكر وعده ووعيده، ومن ذكر أن كونه نبيًّا من عند الله تعالى يمنع من ذلك.

والجواب: لا شك أن هذا التثبيت عبارة عن فعل فعله الله يمنع الرسول من الوقوع في ذلك العمل المحذور، فنقول: لو لم يوجد المقتضى للإقدام على ذلك العمل المحذور في حق الرسول، لما كان إلى إيجاد هذا المانع حاجة، وحيث وقعت الحاجة إلى تحصيل هذا المانع عَلِمنا أن المقتضى قد حصل في حق الرسول ﷺ وأن هذا المانع الذي فعله الله منع ذلك المقتضى من العمل، وهذا لا يتم إلا إذا قلنا: إن القدرة مع الداعي توجب الفعل، فإذا حصلت داعية أخرى معارضة للداعية الأولى اختل المؤثر فامتنع الفعل، ونحن لا نريد إلا إثبات هذا المعنى، والله أعلم.

المسألة الخامسة: قال القفال رحمه الله: قد ذكرنا في سبب نزول هذه الآية الوجوه المذكورة، ويمكن أيضًا تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه؛ لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون في إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه، فتارة كانوا يقولون: إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا

تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢] وقوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنسوان الجميلة ليترك ادعاء النبوة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ [طه: ١٣١] ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: ٥٢] فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب، وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه وأن يزيلوه عن منهجه، فبيَّن تعالى أنه يثبته على الدين القويم والمنهج المستقيم، وعلى هذا الطريق فلا حاجة في تفسير هذه الآيات إلى شيء من تلك الروايات، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

في هذه الآية قولان: الأول: قال قتادة: هم أهل مكة هموا بإخراج النبي ﷺ من مكة، ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا، ولكن الله منعهم من إخراجه، حتى أمره الله بالخروج، ثم إنه قل لبثهم بعد خروج النبي ﷺ من مكة حتى بعث الله عليهم القتل يوم بدر وهذا قول مجاهد. **والقول الثاني:** قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فقالوا: يا أبا القاسم إن الأنبياء إنما بُعثوا بالشام، وهي بلاد مقدسة وكانت مسكن إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام آمنا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم. فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة، قيل بذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازمًا على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين اللّهِ، فنزلت هذه الآية فرجع(١). فالقول الأول اختيار الزجاج، وهو الوجه لأن السورة مكية، فإن صح القول الثاني كانت الآية مدنية، والأرض في قوله: ﴿لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ على القول الأول مكة وعلى القول الثاني المدينة، وكثر في التنزيل ذكر الأرض، والمراد منها مكان مخصوص كقوله: ﴿أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: ٣٣] يعني من مواضعهم وقوله: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [يوسف: ٨٠] يعني الأرض التي كان قصدها لطلب الميرة. **فإن قيل:** قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ [محمد: ١٣] يعني مكة، والمراد أهلها، فذكر أنهم أخرجوه وقال في هذه الآية: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾ فكيف (يمكن) الجمع بينهما على قول من قال الأرض في هذه الآية مكة؟ **قلنا:** إنهم هموا بإخراجه وهو عليه السلام ما خرج بسبب إخراجهم، وإنما خرج بأمر الله تعالى، فزال التناقض.

---

(١) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو عن عاصم (خَلْفَكَ) بفتح الخاء وسكون اللام والباقون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ زعم الأخفش أن (خلافك) في معنى (خلفك) وروى ذلك يونس عن عيسى، وهذا كقوله: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] وقال الشاعر:

عَفَتِ الدِّيَارُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا ... بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرَا[1]

قال صاحب (الكشاف): قرئ (لاَ يَلْبَثُونَ) وفي قراءة أُبي (لا يلبثوا) على إعمال (إذًا)، فإن قيل: ما وجه القراءتين؟ **قلنا:** أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل، وهو مرفوع لوقوعه خبر (كاد) والفعل في خبر (كاد) واقع موقع الاسم، وأما قراءة أُبي ففيها الجملة برأسها التي هي قوله: ﴿وَإِذَا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ عطف على جملة قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ يعني أن كل قوم أخرجوا نبيهم من ظهرانيهم، فسنة الله أن يهلكهم، فقوله: ﴿سُنَّةَ﴾ نُصب على المصدر المؤكد، أي سَنَنا ذلك سنة فيمن قد أرسلنا قبلك. ثم قال: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ والمعنى أن ما أجرى الله تعالى به العادة لم يتهيأ لأحد أن يقلب تلك العادة، وتمام الكلام في هذا الباب أن اختصاص كل حادث بوقته المعين وصفته المعينة - ليس أمرًا ثابتًا له لذاته، وإلا لزم أن يدوم أبدًا على تلك الحالة وأن لا يتميز الشيء عما يماثله في تلك الصفات، بل إنما يحصل ذلك الاختصاص بتخصيص المخصص، وذلك التخصيص هو أنه تعالى يريد تحصيله في ذلك الوقت، ثم تتعلق قدرته بتحصيله في ذلك الوقت ثم يتعلق علمه بحصوله في ذلك الوقت، ثم نقول: هذه الصفات الثلاثة التي هي المؤثرة في حصول ذلك الاختصاص إن كانت حادثة افتقر حدوثها إلى تخصيص آخر ولزم التسلل وهو محال، وإن كانت قديمة فالقديم يمتنع تغيره لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه، ولما كان التغير على تلك الصفات المؤثرة في ذلك الاختصاص ممتنعًا، كان التغير في تلك الأشياء المقدرة ممتنعًا، فثبت بهذا البرهان صحة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ .

---

(١) هذا البيت للشاعر الحارث المخزومي، والبيت هكذا:

عَقَبَ الرذاذُ خِلافَهُم فَكَأَنَّما ... بَسَطَ الشَواطِبُ بَينَهُنَّ حَصيرا

والحارث المخزومي هو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي، من قريش. ٨٠ هـ/ ٦٩٩ م. شاعر غزل، من أهل مكة، نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة وكان يذهب مذهبه، لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء. وكان يهوى عائشة بنت طلحة ويشبب بها، وله معها أخبار كثيرة. ولاه يزيد بن معاوية إمارة مكة، فظهرت دعوة عبد الله بن الزبير، فاستتر الحارث خوفاً، ثم رحل إلى دمشق وافداً على عبد الملك بن مروان فلم ير عنده ما يحب، فعاد إلى مكة وتوفي بها. والرذاذُ: المطرُ الضعيف، وهو فوقِ القِطْقِطِ. يقال: أَرَذَّتِ السماءُ، وأرضٌ مُرَذَّةٌ. وقال أبو عبيد: أرض مُرَذٌّ عليها، ولايقال مرذة ولامرذوذة. الأموي: يوم مُرِذٌّ: ذو رذاذ.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في النظم وجوه. **الأول:** أنه تعالى لما قرر أمر الإلهيات والمعاد والنبوات، أردفها بذكر الأمر بالطاعات بعد الإيمان، وأشرف الطاعات بعد الإيمان الصلاة فلهذا السبب أمر بها. **الثاني:** أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٧٦] أمره تعالى بالإقبال على عبادته لكي ينصره عليهم، فكأنه قيل له لا تبال بسعيهم في إخراجك من بلدتك ولا تلتفت إليهم، واشتغل بعبادة الله تعالى وداوم على أداء الصلوات، فإنه تعالى يدفع مكرهم وشرهم عنك ويجعل يدك فوق أيديهم ودينك غالبًا على أديانهم. ونظيره قوله في سورة طه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠] وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩]. **والوجه الثالث:** في تقرير النظم: أن اليهود لما قالوا له: اذهب إلى الشام فإنه مسكن الأنبياء. عزَم ﷺ على الذهاب إليه فكأنه قيل له: المعبود واحد في كل البلاد وما النصرة والدولة إلا بتأييده ونصرته، فداوم على الصلوات وارجع إلى مقرك ومسكنك، وإذا دخلته ورجعت إليه فقل: رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي في هذا البلد سلطانًا نصيرًا في تقرير دينك وإظهار شرعك. والله أعلم.

المسألة الثانية: اختلف أهل اللغة والمفسرون في معنى دلوك الشمس على قولين: **أحدهما:** أن دلوكها غروبها. وهذا القول مروي عن جماعة من الصحابة، فنقل الواحدي في البسيط عن علي عليه السلام أنه قال: دلوك الشمس غروبها. وروى زر بن حبيش أن عبد الله بن مسعود قال: دلوك الشمس غروبها، وروى سعيد بن جبير هذا القول عن ابن عباس. وهذا القول اختيار الفراء وابن قتيبة من المتأخرين.

والقول الثاني: أن دلوك الشمس هو زوالها عن كبد السماء. وهو اختيار الأكثرين من الصحابة والتابعين. واحتج القائلون بهذا القول على صحته بوجوه:

الحجة الأولى: روى الواحدي في البسيط عن جابر أنه قال: (طَعِمَ عِنْدِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ ثُمَّ خَرَجُوا حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا حِينَ دَلَكَتِ الشَّمْسُ) [1].

(١) لم أجد له إسنادًا.

الحجة الثانية: روى صاحب (الكشاف) عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى بِيَ الظُّهْرَ**»(١).

الحجة الثالثة: قال أهل اللغة: معنى الدلوك في كلام العرب الزوال، ولذلك قيل للشمس إذا زالت نصف النهار: دالكة، وقيل لها إذا أفلت: دالكة لأنها في الحالتين زائلة.

هكذا قاله الأزهري وقال القفال: أصل الدلوك الميل، يقال: مالت الشمس للزوال، ويقال: مالت للغروب. **إذا عرفت هذا فنقول:** وجب أن يكون المراد من الدلوك ههنا الزوال عن كبد السماء وذلك لأنه تعالى علق إقامة الصلاة بالدلوك، والدلوك عبارة عن الميل والزوال، فوجب أن يقال: إنه أول ما حصل الميل والزوال تعلق به هذا الحكم، فلما حصل هذا المعنى حال ميلها من كبد السماء، وجب أن يتعلق به وجوب الصلاة، وذلك يدل على أن المراد من الدلوك في هذه الآية ميلها عن كبد السماء. وهذه حجة قوية في هذا الباب استنبطتها بناء على ما اتفق عليه أهل اللغة: أن الدلوك عبارة عن الميل والزوال، والله أعلم.

الحجة الرابعة: قال الأزهري: الأَوْلى حمل الدلوك على الزوال في نصف النهار، والمعنى ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدمها من وقت زوال الشمس إلى غسق الليل، وعلى هذا التقدير فيدخل فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم قال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فإذا حملنا الدلوك على الزوال دخلت الصلوات الخمس في هذه الآية، وإن حملناه على الغروب لم يدخل فيه إلا ثلاث صلوات وهي المغرب والعشاء والفجر، وحَمْل كلام الله تعالى على ما يكون أكثر فائدة أَوْلى، فوجب أن يكون المراد من الدلوك الزوال.

واحتج الفراء على قوله (الدلوك هو الغروب) بقول الشاعر:

هَـذَا مَـقَـامُ قَـدَمَـي رَبَـاحِ وَقَـفَـتْ حَـتَّـى دَلَـكَـتْ بَـرَاحُ

وبراح اسم الشمس، أي حتى غابت. واحتج ابن قتيبة بقول ذي الرمة:

مَصَابِيحُ لَيسَتْ بِاللَّوَاتِي يَقُودُهَا نُجُومٌ وَلاَ أَفلاَكُهُنَّ الدَّوَالِكُ(٢)

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لأن عندنا الدلوك عبارة عن الميل والتغير، وهذا المعنى حاصل في الغروب، فكان الغروب نوعًا من أنواع الدلوك، فكان وقوع لفظ الدلوك على الغروب لا ينافي وقوعه على الزوال، كما أن وقوع لفظ الحيوان على الإنسان لا ينافي وقوعه على الفرس. ومنهم من احتج أيضًا على صحة هذا القول بأن الدلوك اشتقاقه من الدلك لأن الإنسان يدلك عينيه عند النظر إليها. وهذا إنما يصح في الوقت الذي يمكن النظر إليها، ومعلوم أنها عند كونها في وسط السماء لا يمكن النظر إليها، أما عند قربها من الغروب فيمكن النظر إليها

---

(١) أورده الزمخشري في (الكشاف) (٣/ ٤٧٢) وقال: وروي عن النبي ﷺ... فذكره بغير إسناد. وكذلك أورده الثعلبي في (الكشف والبيان) (٨/ ٥١) وقال: عن أبي مسعود عقبة بن عمرو... فذكره ولم يدركه إسنادًا.

(٢) تقدمت ترجمة الشاعر ذي الرمة.

(و) عندما ينظر الإنسان إليها في ذلك الوقت يدلك عينيه، فثبت أن لفظ الدلوك مختص بالغروب. والجواب أن الحاجة إلى ذلك التبيين عند كونها في وسط السماء أتم، فهذا الذي ذكرته بأن يدل على أن الدلوك عبارة عن الزوال من وسط السماء أَوْلى، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال الواحدي: اللام في قوله (لدلوك الشمس) لام الأجل والسبب، وذلك لأن الصلاة إنما تجب بزوال الشمس، فيجب على المصلي إقامتها لأجل دلوك الشمس.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ غسق الليل سواده وظلمته، قال الكسائي: غسق الليل غسوقًا، والغسق: الاسم، بفتح السين. وقال النضر بن شميل: غسق الليل دخول أوله، وأتيته حين غسق الليل، أي حين يختلط ويسد المناظر، وأصل هذا الحرف من السيلان، يقال: غسقت العين تغسق. وهو هملان العين بالماء، والغاسق السائل، ومن هذا يقال لما يسيل من أهل النار: الغساق، فمعنى غَسَقَ الليل أي انصب بظلامه، وذلك أن الظلمة كأنها تنصب على العالم، وأما قول المفسرين، قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما غسق الليل؟ قال: أوله حين يدخل. وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس: ما الغسق؟ قال دخول الليل بظلمته، وقال الأزهري: غسق الليل عند غيبوبة الشفق عند تراكم الظلمة واشتدادها، يقال: غسقت العين، إذا امتلأت دمعًا، وغسقت الجراحة، إذا امتلأت دمًا. قال لأنا لو حملنا الغسق على هذا المعنى دخلت الصلوات الأربع فيه وهي الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ولو حملنا الغسق على ظهور أول الظلمة لم يدخل فيه إلا الظهر والمغرب، فوجب أن يكون الأول أَوْلى. واعلم أنه يتفرع على هذين القولين بحث شريف، فإن فسرنا الغسق بظهور أول الظلمة كان الغسق عبارة عن أول المغرب، وعلى هذا التقدير يكون المذكور في الآية ثلاثة أوقات: وقت الزوال ووقت أول المغرب ووقت الفجر، وهذا يقتضي أن يكون الزوال وقتًا للظهر والعصر، فيكون هذا الوقت مشتركًا بين هاتين الصلاتين وأن يكون أول المغرب وقتًا للمغرب والعشاء، فيكون هذا الوقت مشتركًا أيضًا بين هاتين الصلاتين، فهذا يقتضي جواز الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء مطلقًا، إلا أنه دل الدليل على أن الجمع في الحضر من غير عذر لا يجوز، فوجب أن يكون الجمع جائزًا بعذر السفر وعذر المطر وغيره، أما إن فسرنا الغسق بالظلمة المتراكمة فنقول: الظلمة المتراكمة إنما تحصل عند غيبوبة الشفق الأبيض وكلمة (إلى) لانتهاء الغاية، والحكم الممدود إلى غاية يكون مشروعًا قبل حصول تلك الغاية، فوجب جواز إقامة الصلوات كلها قبل غيبوبة الشفق الأبيض، وهذا إنما يصح إذا قلنا: إنها تجب عند غيبوبة الشفق الأحمر، والله أعلم.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ أجمعوا على أن المراد منه صلاة الصبح، وانتصابه بالعطف على الصلاة في قوله ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والتقدير: أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر. **وفيه فوائد:**

الأولى: أن هذه الآية تدل على أن الصلاة لا تتم إلا بالقراءة.

الفائدة الثانية: أنه تعالى أضاف القرآن إلى الفجر والتقدير أقم قرآن الفجر، فوجب أن تتعلق

القراءة بحصول الفجر، وفي أول طلوع الصبح قد حصل الفجر لأن الفجر سُمي فجرًا لانفجار ظلمة الليل عن نور الصباح، وظاهر الأمر للوجوب، فمقتضى هذا اللفظ وجوب إقامة صلاة الفجر من أول طلوعه، إلا أنا أجمعنا على أن هذا الوجوب غير حاصل، فوجب أن يبقى الندب لأن الوجوب عبارة عن رجحان مانع من الترك، فإذا منع مانع من تحقق الوجوب وجب أن يرتفع المنع من الترك، وأن يبقى أصل الرجحان حتى تنقل مخالفة الدليل، فثبت أن هذه الآية تقتضي أن إقامة الفجر في أول الوقت أفضل، وهذا يدل على صحة مذهب الشافعي في أن التغليس أفضل من التنوير، والله أعلم.

الفائدة الثالثة: أن الفقهاء بينوا أن السنة أن تكون القراءة في هذه الصلاة أطول من القراءة في سائر الصلوات فالمقصود من قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ الحث على أن تطويل القراءة في هذه الصلاة مطلوب؛ لأن التخصيص بالذكر يدل على كونه أكمل من غيره.

الفائدة الرابعة: أنه وصف قرآن الفجر بكونه مشهودًا. قال الجمهور: معناه أن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح خلف الإمام، تنزل ملائكة النهار عليهم وهم في صلاة الغداة وقبل أن تعرج ملائكة الليل، فإذا فرغ الإمام من صلاته عرجت ملائكة الليل ومكثت ملائكة النهار ثم إن ملائكة الليل إذا صعدت قالت: يا رب إنا تركنا عبادك يصلون لك. وتقول ملائكة النهار: ربنا أتينا عبادك وهم يصلون. فيقول الله تعالى للملائكة: اشهدوا أني قد غفرت لهم. **وأقول:** هذا أيضًا دليل قوي في أن التغليس أفضل من التنوير؛ لأن الإنسان إذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية، فتكون ملائكة الليل حاضرين، ثم إذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار، فبهذا الطريق تحضر في هذه الصلاة ملائكة الليل وملائكة النهار، أما إذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت التنوير فهناك ما بقيت الظلمة، فلم يبق في ذلك الوقت أحد من ملائكة الليل، فلا يحصل المعنى المذكور، فثبت أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ دليل قوي على أن التغليس أفضل وعندي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ احتمال آخر: وذلك لأنه كلما كانت الحوادث الحادثة أعظم وأكمل كان الاستدلال بها على كمال قدرة الله تعالى أكمل، فالإنسان إذا شرع في أداء صلاة الصبح من أول هذا الوقت كانت الظلمة القوية باقية في العالم، فإذا امتدت القراءة في أثناء هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة إلى الضوء، والظلمة مناسبة للموت والعدم، والضوء مناسب للحياة والوجود. وعلى هذا التقدير فالإنسان لما قام من منامه فكأنه انتقل من الموت إلى الحياة ومن العدم إلى الوجود، ثم إنه مع ذلك يشاهد في أثناء صلاته انقلاب كلية هذا العالم من الظلمة إلى الضوء ومن الموت إلى الحياة ومن السكون إلى الحركة ومن العدم إلى الوجود. وهذه الحالة حالة عجيبة تشهد العقول والأرواح بأنه لا يقدر على هذا التقليب والتحويل والتبديل إلا الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقوة الغير المتناهية، وحينئذٍ

يستنير العقل بنور هذه المعرفة وينفتح على العقل والروح أبواب المكاشفات الروحانية الإلهية، فتصير الصلاة التي هي عبارة عن أعمال الجوارح مشهودًا عليها بهذه المكاشفات الإلهية المقدسة؛ ولذلك فكل من له ذوق سليم وطبع مستقيم إذا قام من منامه وأدى صلاة الصبح في أول الوقت واعتبر اختلاف أحوال العالم من الظلمة الحاصلة إلى النور ومن السكون إلى الحركة، فإنه يجد في قلبه رَوْحًا وراحة ومزيدًا في نور المعرفة وقوة اليقين، فهذا هو المراد من قوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ وظهر أن هذا الاعتبار لا يحصل إلا عند أداء صلاة الفجر على سبيل التغليس، فهذا ما خطر بالبال والله أعلم بمراده.

وفي الآية احتمال ثالث: وهو أن يكون المراد من قوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الترغيب في أن تؤدي هذه الصلاة بالجماعة، ويكون المعنى كونه مشهودًا بالجماعة الكثيرة، ومزيد التحقيق فيه أنا بينا أن تأثير هذه الصلاة في تصفية القلب وفي تنويره أكثر من تأثير سائر الصلوات، فإذا حضر جمع من المسلمين في المسجد لأداء هذه العبادة استنار قلب كل واحد منهم، ثم بسبب ذلك الاجتماع كأنه ينعكس نور معرفة الله تعالى ونور طاعته في ذلك الوقت من قلب كل واحد إلى قلب الآخر، فتصير أرواحهم كالمرايا المشرقة المتقابلة إذا وقعت عليها أنوار الشمس فإنه ينعكس النور من كل واحدة من تلك المرايا إلى الأخرى، فكذا في هذه الصورة، ولهذا السبب فإن كل من له ذوق سليم وأدى هذه الصلاة في هذا الوقت بالجماعة، وجد من قلبه فسحة ونورًا وراحة.

الفائدة الخامسة: قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يحتمل أن يكون السبب في كونه مشهودًا هو أن الإنسان لما نام طول الليل، فصار كالغافل في هذه المدة عن مراقبة أحوال الدنيا فزالت صورة الحوادث الجسمانية عن لوح خياله وفكره وعقله، وصارت هذه الألواح كألواح سُطرت فيها نقوش فاسدة ثم غُسلت وأزيلت تلك النقوش عنها، ففي أول وقت القيام من المنام صارت ألواح عقله وفكره وخياله مطهرة عن النقوش الفاسدة الباطلة. فإذا تسارع الإنسان في ذلك الوقت إلى عبادة الله تعالى وقراءة الكلمات الدالة على تنزيهه والإقدام على الأفعال الدالة على تعظيم الله تعالى، انتقش في لوح عقله وفكره وخياله هذه النقوش الطاهرة المقدسة، ثم إن حصول هذه النقوش يمنع من استحكام النقوش الفاسدة، وهي النقوش المتولدة من الميل إلى الدنيا وشهواتها، فبهذا الطريق يترشح الميل إلى معرفة الله تعالى ومحبته وطاعته، ويضعف الميل إلى الدنيا وشهواتها. **إذا عرفت هذا فنقول:** هذه الحكمة إنما تحصل إذا شرع الإنسان في الصلاة من أول قيامه من النوم عند التغليس، وذلك يدل على المقصود، واعلم أن أكثر الخلق وقعوا في أمراض القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر، وهذه الدنيا مثل دار المرضى إذا كانت مملوءة من المرضى، والأنبياء كالأطباء الحاذقين، والمريض ربما قد قوي مرضه فلا يعود إلى الصحة إلا بمعالجات قوية، وربما كان المريض جاهلاً فلا ينقاد للطبيب ويخالفه في أكثر الأمر، إلا أن الطبيب إذا كان مشفقًا حاذقًا فإنه يسعى

في إزالة ذلك المرض بكل طريق يقدر عليه، فإن لم يقدر على إزالته فإنه يسعى في تقليله وتخفيفه. **إذا عرفت هذا فنقول:** مرض حب الدنيا مستولٍ على الخلق، ولا علاج له إلا بالدعوة إلى معرفة الله تعالى وخدمته وطاعته، وهذا علاج شاق على النفوس، وقلَّ من يقبله وينقاد له. لا جرم (أن) الأنبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض وحَمْل الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من أول وقت القيام من النوم، مما ينفع في إزالة هذا المرض من الوجه الذي قررناه، فوجب أن يكون مشروعًا، والله أعلم بأسرار كلامه.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ فاعلم أنه تعالى لما أمر بالصلوات الخمس على سبيل الرمز والإشارة، أردفه بالحث على صلاة الليل.

وفيه مباحث:

البحث الأول: التهجد عبارة عن صلاة الليل فقوله: ﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، كما قال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ إلى قوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ٢-٤].

البحث الثاني: قال الواحدي الهجود في اللغة النوم، وهو معروف كثير في الشعر، يقال: أهجدته وهجدته أي أنمته، ومنه قول لبيد:

هَجَّدْنَا فَقَدْ طَالَ السُّرَى[١]

كأنه قال: نوِّمنا فإن السُّرى قد طال علينا حتى غَلَبَنا النوم وروى أبو عبيد عن أبي عبيدة: الهاجد النائم والهاجد: المصلي بالليل. وروى ثعلب عن ابن الأعرابي مثل هذا القول كأنه قال: هجد الرجل إذا صلى من الليل وهجد إذا نام بالليل. فعند هؤلاء هذا اللفظ من الأضداد. وأما الأزهري فإنه توسط في تفسير هذا اللفظ وقال: المعروف في كلام العرب أن الهاجد هو النائم، ثم رأينا أن في الشرع يقال لمن قام من النوم إلى الصلاة إنه متهجد، فوجب أن يُحمل هذا على أنه سمي متهجدًا لإلقائه الهجود عن نفسه، كما قيل للعابد متحنث لإلقائه الحنث عن نفسه وهو الإثم. ويقال. فلان رجل متحرج ومتأثم ومتحوب، أي يُلقي الحرج والإثم والحوب عن نفسه.

وأقول: فيه احتمال آخر وهو أن الإنسان إنما يترك لذة النوم، ويتحمل مشقة القيام إلى الصلاة ليطيب رقاده وهجوده عند الموت، فلما كان غرضه من ترك هذا الهجود أن يصل إلى الهجود اللذيذ عند الموت، كان هذا القيام طلبًا لذلك الهجود، فسمي تهجدًا لهذا السبب.

وفيه وجه ثالث: وهو ما روي أن الحجاج بن عمرو المازني قال: أيحسب أحدكم إذا قام من الليل فصلى حتى يصبح أنه قد تهجد؟! إنما التهجد الصلاة بعد الرقاد، ثم صلاة أخرى بعد رقدة، ثم صلاة أخرى بعد رقدة، هكذا كانت صلاة رسول الله ﷺ. **إذا عرفت هذا فنقول:** كلما صلى الإنسان طلب هجودًا ورقادًا، فلا يبعد أنه سُمي تهجدًا لهذا السبب.

---

(١) تقدمت ترجمة لبيد.

البحث الثالث: قوله: ﴿وَمِنَ﴾ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ لا بد له من متعلق، والفاء في قوله: ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾ لا بد له من معطوف عليه والتقدير: قم من الليل، أي في بعض الليل فتهجد به. وقوله: ﴿بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، والمراد منه الصلاة المشتملة على القرآن.

البحث الرابع: معنى النافلة في اللغة ما كان زيادة على الأصل، ذكرناه في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ [الأنفال: ١] ومعناها أيضًا في هذه الآية الزيادة، وفي تفسير كونها زيادة قولان مبنيان على أن صلاة الليل هل كانت واجبة على النبي ﷺ أم لا: فمن الناس من قال: إنها كانت واجبة عليه ثم نُسخت فصارت نافلة، أي تطوعًا وزيادة على الفرائض، وذكر مجاهد والسدي في تفسير كونها (نَافِلَةً) وجهًا حسنًا قالا: إنه تعالى غفر للنبي ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكل طاعة يأتي بها سوى المكتوبة فإنه لا يكون تأثيرها في كفارة الذنوب ألبتة، بل يكون تأثيرها في زيادة الدرجات وكثرة الثواب، وكان المقصود من تلك العبادة زيادة الثواب فلهذا سميت نافلة بخلاف الأمة، فإن لهم ذنوبًا محتاجة إلى الكفارات، فهذه الطاعة محتاجون إليها لتكفير الذنوب والسيئات، فثبت أن هذه الطاعات إنما تكون زوائد ونوافل في حق النبي ﷺ لا في حق غيره، فلهذا السبب قال: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ يعني أنها زوائد ونوافل في حقك لا في حق غيرك وتقريره ما ذكرناه. وأما الذين قالوا: إن صلاة الليل كانت واجبة على النبي ﷺ قالوا: معنى كونها نافلة له على التخصيص أنها فريضة عليك زائدة على الصلوات الخمس خُصصت بها من بين أمتك. ويمكن نصرة هذا القول بأن قوله (فتهجد) أمر وصيغة الأمر للوجوب، فوجب كون هذا التهجد واجبًا فلو حملنا قوله (نافلة لك) على عدم الوجوب لزم التعارض وهو خلاف الأصل، فوجب أن يكون معنى كونها نافلة له ما ذكرناه من كون وجوبها زائدًا على وجوب الصلوات الخمس، والله أعلم.

البحث الخامس: قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ وإن كان ظاهر الأمر فيه مختصًا بالرسول ﷺ إلا أنه في المعنى عام في حق الأمة، والدليل عليه أنه قال ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ فبيَّن أن الأمر بالتهجد مخصوص بالرسول، وهذا يدل على أن الأمر بالصلوات الخمس غير مخصوص بالرسول عليه السلام، وإلا لم يكن لتقييد الأمر بالتهجد بهذا القيد فائدة أصلاً، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ اتفق المفسرون على أن كلمة (عسى) من الله واجب، قال أهل المعاني لأن لفظة (عسى) تفيد الإطماع ومن أطمع إنسانًا في شيء ثم حرمه كان عارًا والله تعالى أكرم من أن يُطمع أحدًا في شيء ثم لا يعطيه ذلك.

وقوله: ﴿مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ فيه بحثان:

البحث الأول: في انتصاب قوله (محمودًا) وجهان. الأول: أن يكون انتصابه على الحال من قوله (يبعثك) أي يبعثك محمودًا. والثاني: أن يكون نعتًا للمقام وهو ظاهر.

البحث الثاني: في تفسير المقام المحمود أقوال: **الأول**: أنه الشفاعة، قال الواحدي: أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما قال النبي ﷺ في هذه الآية **«هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي»** وأقول: اللفظ مُشعر به، وذلك لأن الإنسان إنما يصير محمودًا إذا حمده حامد، والحمد إنما يكون على الإنعام فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقامًا أنعم رسول الله ﷺ فيه على قوم فحمدوه على ذلك الإنعام، وذلك الإنعام لا يجوز أن يكون هو تبليغ الدين وتعليم الشرع؛ لأن ذلك كان حاصلاً في الحال، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ تطميع وتطميع الإنسان في الشيء الذي وعده في الحال محال، فوجب أن يكون ذلك الإنعام الذي لأجله يصير محمودًا إنعامًا سيصل منه حصل له بعد ذلك إلى الناس، وما ذاك إلا شفاعته عند الله، فدل هذا على أن لفظ الآية وهو قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ يدل على هذا المعنى، وأيضًا التنكير في قوله (مقامًا محمودًا) يدل على أنه يحصل للنبي عليه السلام في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل، ومن المعلم أن حمد الإنسان على سعيه في التخليص عن العقاب أعظم من حمده في السعي في زيادة من الثواب لا حاجة به إليها؛ لأن احتياج الإنسان إلى دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل المنافع الزائدة التي لا حاجة به إلى تحصيلها، وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ هو الشفاعة في إسقاط العقاب، على ما هو مذهب أهل السنة، ولما ثبت أن لفظ الآية مُشعر بهذا المعنى إشعارًا قويًا، ثم وردت الأخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى وجب حمل اللفظ عليه، ومما يؤكد هذا الوجه الدعاء المشهور (وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يغبطه به الأولون والآخرون) واتفق الناس على أن المراد منه الشفاعة.

والقول الثاني: قال حذيفة، يجمع الناس في صعيد فلا تتكلم نفس فأول مدعو محمد ﷺ فيقول: **«لبيك وسعديك والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت»** (١) فهذا هو المراد من قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾. **وأقول**: القول الأول أَوْلى لأن سعيه في الشفاعة يفيده إقدام الناس على حمده فيصير محمودًا، وأما ذكر هذا الدعاء فلا يفيد إلا الثواب، أما الحمد فلا. فإن

---

(١) **إسناد صحيح**: أخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٣٨١) حديث رقم/ ١١٢٩٤ من طريق خالد حدثنا شعبة عن أبي إسحاق... به. والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٩٥) حديث رقم/ ٢٣٨٤ من طريق عبيد الله بن موسى أنبأنا إسرائيل حدثنا أبو إسحاق عن صلة بن زر... به. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود الطيالسي في (مسنده) (١/ ٥٥) حديث رقم/ ٤١٤ قال: حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت صلة بن زخر يحدث عن حذيفة... به. والبزار في (مسنده) (٧/ ٣٢٩) حديث رقم/ ٢٩٢٦ من طريق أبي إسحاق عن صلة عن حذيفة... به. وابن منده في (الإيمان) (٢/ ٨٧٢) حديث رقم/ ٩٢٩ من طريق أبي داود عن شعبة.... به. وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (١/ ٢٧٨) من طريق أبي داود حدثنا شعبة عن أبي إسحاق... به. وابن أبي عاصم في (السنة) (٢/ ٣٦٧) حديث رقم/ ٧٨٩ من طريق حماد بن سلمة عن عبد الله بن المختار عن أبي إسحاق عن صلة... به. وقال الشيخ الألباني: حديث صحيح.

قالوا: لِمَ لا يجوز أن يقال: إنه تعالى يحمده على هذا القول؟ **قلنا:** لأن الحمد في اللغة مختص بالثناء المذكور في مقابلة الإنعام فقط، فإن ورد لفظ الحمد في غير هذا المعنى فعلى سبيل المجاز. **القول الثالث:** المراد مقام تُحمد عاقبته. وهذا أيضًا ضعيف للوجه الذي ذكرناه في القول الثاني. **القول الرابع:** قال الواحدي: روي عن ابن مسعود أنه قال: (يُقْعِدُ اللَّهُ مُحَمَّدًا عَلَى الْعَرْشِ) وعن مجاهد أنه قال: (يجلسه معه على العرش)، ثم قال الواحدي: وهذا قول رذل موحش فظيع، ونص الكتاب ينادي بفساد هذا التفسير، ويدل عليه وجوه: **الأول:** أن البعث ضد الإجلاس يقال بعثت النازل والقاعد فانبعث. ويقال: بعث الله الميت أي أقامه من قبره فتفسير البعث بالإجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد. **والثاني:** أنه تعالى قال (مقامًا محمودًا) ولم يقل مقعدًا، والمقام موضع القيام لا موضع القعود. **والثالث:** لو كان تعالى جالسًا على العرش بحيث يجلس عنده محمد عليه الصلاة والسلام لكان محدودًا متناهيًا، ومن كان كذلك فهو محدث. **والرابع:** يقال: إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز لأن هؤلاء الجهال والحمقى يقولون في كل أهل الجنة: إنهم يزورون الله تعالى وإنهم يجلسون معه، وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التي كانوا فيها في الدنيا، وإذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين لم يكن لتخصيص محمد ﷺ بها مزيد شرف ورتبة. **والخامس:** أنه إذا قيل: السلطان بعث فلانًا فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه. فثبت أن هذا القول كلام رذل ساقط لا يميل إليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ . **وفيه مباحث:**

البحث الأول: أنا ذكرنا في تفسير قوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ٧٦] قولين: أحدهما: المراد منه سعي كفار مكة في إخراجه منها. والثاني: المراد منه أن اليهود قالوا له: الأَوْلى لك أن تخرج من المدينة إلى الشام. ثم إنه تعالى قال له: أقم الصلاة واشتغل بعبادة الله تعالى، ولا تلتفت إلى هؤلاء الجهال؛ فإنه تعالى ناصرك ومعينك. ثم عاد بعد هذا الكلام إلى شرح تلك الواقعة، فإن فسرنا تلك الآية أن المراد منها أن كفار مكة أرادوا إخراجه من مكة كان معنى هذه الآية أنه تعالى أمره بالهجرة إلى المدينة وقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وهو المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وهو مكة. وهذا قول الحسن وقتادة. وإن فسرنا تلك الآية بأن المراد منها أن اليهود حملوه على الخروج من المدينة والذهاب إلى الشام فخرج رسول الله ﷺ منها ثم أمره الله بأن يرجع إليها، كان المراد أنه عليه الصلاة والسلام عند العود إلى المدينة قال: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وهو المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني أخرجني منها إلى مكة مخرج صدق أي افتحها لي. **والقول الثاني:** في تفسير هذه الآية وهو أكمل مما سبق: أن المراد ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ في الصلاة ﴿وَأَخْرِجْنِي﴾ منها مع الصدق والإخلاص وحضور ذكرك والقيام بلوازم شكرك. **والقول الثالث:** وهو أكمل مما سبق: أن المراد: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ - في

القيام بمهمات أداء دينك وشريعتك - (وَأَخْرِجْنِي) منها بعد الفراغ منها إخراجًا لا يبقى عليَّ منها تبعة ربقية. **والقول الرابع:** وهو أعلى مما سبق: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ في بحار دلائل توحيدك وتنزيهك وقدسك، ثم أخرجني من الاشتغال بالدليل إلى ضياء معرفة المدلول، ومن التأمل في آثار حدوث المحدثات إلى الاستغراق في معرفة الأحد الفرد المنزه عن التكثيرات والتغيرات.

والقول الخامس: أدخلني في كل ما تدخلني فيه مع الصدق في عبوديتك والاستغراق بمعرفتك، وأخرجني عن كل ما تخرجني عنه مع الصدق في العبودية والمعرفة والمحبة. والمقصود منه أن يكون صدق العبودية حاصلاً في كل دخول وخروج وحركة وسكون. **والقول السادس:** أدخلني القبر مدخل صدق وأخرجني منه مخرج صدق.

البحث الثاني: (مُدخل) بضم الميم مصدر كالإدخال يقال: أدخلته مدخلاً، كما قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٩] ومعنى إضافة المُدخل والمُخرج إلى الصدق مدحهما كأنه سأل الله تعالى إدخالاً حسنًا وإخراجًا حسنًا لا يرى فيهما ما يكره.

ثم قال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ أي حجة بينة ظاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني. وبالجملة فقد سأل الله تعالى أن يرزقه التقوية على من خالفه بالحجة وبالقهر والقدرة، وقد أجاب الله تعالى دعاءه وأعلمه بأنه يعصمه من الناس فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] ولما سأل الله النصرة بيَّن الله له أنه أجاب دعاءه فقال: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ وهو دينه وشرعه ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وهو كل ما سواه من الأديان والشرائع، وزهق بطل واضمحل، وأصله من زهقت نفسه تزهق، أي هلكت، وعن ابن مسعود: (أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلاَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ. فَجَعَلَ الصَّنَمُ يَنْكَبُّ عَلَى وَجْهِهِ). وقوله: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ يعني أن الباطل وإن اتفقت له دولة وصولة إلا أنها لا تبقى بل تزول على أسرع الوجوه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الإلهيات والنبوات والحشر والمعاد والبعث وإثبات القضاء والقدر، ثم أتبعه بالأمر بالصلاة، ونبه على ما فيها من الأسرار، وإنما ذكر كل ذلك في القرآن، أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ ولفظة ﴿مِنَ﴾ ها هنا ليست للتبعيض بل هي للجنس كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] والمعنى: وننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء. فجميع القرآن شفاء للمؤمنين.

واعلم أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية، وشفاء أيضًا من الأمراض الجسمانية، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر، وذلك لأن الأمراض الروحانية نوعان: الاعتقادات الباطلة والأخلاق المذمومة: أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادًا الاعتقادات الفاسدة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، والقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة فيها، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة، لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني.

وأما الأخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية. وأما كونه شفاء من الأمراض الجسمانية فلأن التبرك بقراءته يدفع كثيرًا من الأمراض. ولما اعترف الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثارًا عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاسد، فلأن تكون قراءة هذا القرآن العظيم المشتمل على ذكر الله وكبريائه وتعظيم الملائكة المقربين وتحقير المردة والشياطين سببًا لحصول النفع في الدين والدنيا كان أَوْلى، ويتأكد ما ذكرنا بما روي أن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يَسْتَشْفِ بِالْقُرْآنِ، فَلَا شَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى»[(١)]. وأما كونه رحمة للمؤمنين فاعلم أنا بينا أن الأرواح البشرية مريضة بسبب العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة، والقرآن قسمان بعضهما يفيد الخلاص عن شبهات الضالين وتمويهات المبطلين وهو الشفاء. وبعضهما يفيد تعليم كيفية اكتساب العلوم العالية والأخلاق الفاضلة التي بها يصل الإنسان إلى جوار رب العالمين والاختلاط بزمرة الملائكة المقربين وهو الرحمة، ولما كان إزالة المرض مقدمة على السعي في تكميل موجبات الصحة، لا جرم بدأ الله تعالى في هذه الآية بذكر الشفاء ثم أتبعه بذكر الرحمة، واعلم أنه تعالى لما بَيَّن كون القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين بَيَّن كونه سببًا للخسار والضلال في حق الظالمين، والمراد به المشركون، وإنما كان كذلك لأن سماع القرآن يزيدهم غيظًا وغضبًا وحقدًا وحسدًا، وهذه الأخلاق الذميمة تدعوهم إلى الأعمال الباطلة وتزيد في تقوية تلك الأخلاق الفاسدة في جواهر نفوسهم، ثم لا يزال الخُلُق الخبيث النفساني يحمل على الأعمال الفاسدة والإتيان بتلك الأعمال يقوي تلك الأخلاق فبهذا الطريق يصير القرآن سببًا لتزايد هؤلاء المشركين الضالين في درجات الخزي والضلال والفساد والنكال.

---

(١) ذكره الثعلبي في (الكشف والبيان) (٨/ ٦٢) وقال: وروت ساكنة بنت الجارود قالت: سمعت رجاء الغنوي يقول: قال رسول الله ﷺ... فذكره. وذكره ابن الأثير في (أسد الغابة) (١/ ٣٦٣). تحت ترجمة رجاء الغنوي وقال: روت عنه سلامة بنت الجعد وذكر حديثا ثم ذكر الحديث بعده وقال أبو عمر: لايصح حديثه.

ثم إنه تعالى ذكر السبب الأصلي في وقوع هؤلا الجاهلين الضالين في أودية الضلال ومقامات الخزي والنكال، وهو حب الدنيا والرغبة في المال والجاه، واعتقادهم أن ذلك إنما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ .

وفيه مباحث:

الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الإنسان ها هنا هو الوليد بن المغيرة. وهذا بعيد، بل المراد أن نوع الإنسان من شأنه أنه إذا فاز بمقصوده ووصل إلى مطلوبه، اغتر وصار غافلاً عن عبودية الله تعالى متمردًا عن طاعة الله كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝﴾ [العلق: ٦-٧] .

البحث الثاني: قوله ﴿أَعْرَضَ﴾ أي ولَّى ظهره أي عرضه إلى ناحية، ونأى بجانبه، أي تباعد، ومعنى النأي في اللغة البعد والإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه والنأي بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره: وأراد الاستكبار لأن ذلك عادة المتكبرين. وفي قوله ﴿وَنَـَٔا﴾ قراءات. **إحداها**: وهي قراءة العامة بفتح النون والهمزة، وفي حم السجدة مثله، وهي اللغة الغالبة، والنأي البعد يقال نأى أي بعد. **وثانيها**: قراءة ابن عامر (ناء) وله وجهان تقديم اللام على العين كقولهم راء في رأى، ويجوز أن يكون من نأى بمعنى نهض. **وثالثها**: قراءة حمزة والكسائي بإمالة الفتحتين، وذلك لأنهم أمالوا الهمزة من نأى ثم كسروا النون إتباعًا للكسرة مثل رأى. **ورابعها**: قرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ونصير عن الكسائي وحمزة نئى بفتح النون وكسر الهمزة على الأصل في فتح النون وإمالة الهمزة. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي إذا مسه فقر أو مرض أو نازلة من النوازل، كان يؤوسًا شديد اليأس من رحمة الله و﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] والحاصل أنه إن فاز بالنعمة والدولة اغتر بها فنسي ذكر الله، وإن بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الأسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله تعالى، فهذا المسكين محروم أبدًا عن ذكر الله. ونظيره قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥] إلى قوله: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦] وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١] .

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال الزجاج: الشاكلة الطريقة والمذهب. والدليل عليه أنه يقال هذا طريق ذو شواكل، أي يتشعب منه طرق كثيرة. ثم الذي يقوي عندي أن المراد من الآية ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ وفيه وجه آخر وهو أن المراد أن كل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه، فإن كانت نفسه نفسًا مشرقة خيرة طاهرة علوية صدرت عنه أفعال فاضلة كريمة، وإن كانت نفسه نفسًا كدرة نذلة خبيثة مضلة ظلمانية صدرت عنه أفعال خسيسة فاسدة.

وأقول: العقلاء اختلفوا في أن النفوس الناطقة البشرية هل هي مختلفة بالماهية أم لا؟ منهم

من قال: إنها مختلفة بالماهية، وإن اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهياتها، ومنهم من قال: إنها متساوية في الماهية، واختلاف أفعالها لأجل اختلاف أمزجتها. والمختار عندي هو القسم الأول والقرآن مُشعر بذلك، وذلك لأنه تعالى بَيَّن في الآية المتقدمة أن القرآن بالنسبة إلى البعض يفيد الشفاء والرحمة وبالنسبة إلى أقوام آخرين يفيد الخسارة والخزي، ثم أتبعه بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ ومعناه أن اللائق بتلك النفوس الطاهرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الذكاء والكمال، وبتلك النفوس الكدرة أن يظهر فيها من القرآن آثار الخزي والضلال، كما أن الشمس تعقد الملح وتلين الدهن وتبيض ثوب القصار وتُسود وجهه. وهذا الكلام إنما يتم المقصود منه إذا كانت الأرواح والنفوس مختلفة بماهياتها، فبعضها مشرقة صافية يظهر فيها من القرآن نور على نور، وبعضها كدرة ظلمانية يظهر فيها من القرآن ضلال على ضلال ونكال على نكال.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ختم الآية المتقدمة بقوله: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ وذكرنا أن المراد منه مشاكلة الأرواح للأفعال الصادرة عنها، وجب البحث ها هنا عن ماهية الروح وحقيقته فلذلك سألوا عن الروح **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال، أظهرها أن المراد منه الروح الذي هو سبب الحياة، روي أن اليهود قالوا لقريش: اسألوا محمدًا عن ثلاث فإن أخبركم باثنتين وأمسك عن الثالثة فهو نبي، اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح. فسألوا رسول الله ﷺ عن هذه الثلاثة فقال عليه السلام: «غدًا أخبركم» ولم يقل إن شاء الله فانقطع عنه الوحي أربعين يومًا ثم نزل الوحي بعده: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ثم فسر لهم قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين وأبهم قصة الروح ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ وبَيَّن أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة حقيقة الروح فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه. **أولها:** أن الروح ليس أعظم شأنًا ولا أعلى مكانًا من الله تعالى، فإذا كانت معرفة الله تعالى ممكنة بل حاصلة فأي مانع يمنع من معرفة الروح. **وثانيها:** أن اليهود قالوا: إن أجاب عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ولم يجب عن الروح فهو نبي. وهذا كلام بعيد عن العقل لأن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين ليست إلا حكاية من الحكايات، وذكر الحكاية يمتنع أن يكون دليلاً على النبوة، وأيضًا فالحكاية التي يذكرها إما أن تعتبر قبل العلم بنبوته أو بعد العلم بنبوته: فإن كان قبل العلم بنبوته كذبوه فيها، وإن كان بعد العلم بنبوته

فحينئذٍ صارت نبوته معلومة قبل ذلك، فلا فائدة في ذكر هذه الحكاية. وأما عدم الجواب عن حقيقة الروح فهذا يبعد جعله دليلاً على صحة النبوة. وثالثها: أن مسألة الروح يعرفها أصاغر الفلاسفة وأراذل المتكلمين، فلو قال الرسول ﷺ: إني لا أعرفها لأورث ذلك ما يوجب التحقير والتنفير فإن الجهل بمثل هذه المسألة يفيد تحقير أي إنسان كان، فكيف الرسول الذي هو أعلم العلماء وأفضل الفضلاء؟! ورابعها: أنه تعالى قال في حقه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢] ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وقال في صفة القرآن: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وكان عليه السلام يقول: «أَرِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ»(١) فمن كان هذا حاله وصفته كيف يليق به أن يقول: أنا لا أعرف هذه المسألة مع أنها من المسائل المشهورة المذكورة بين جمهور الخلق، بل المختار عندنا أنهم سألوه عن الروح وأنه ﷺ أجاب عنه على أحسن الوجوه، وتقريره أن المذكور في الآية أنهم سألوه عن الروح، والسؤال عن الروح يقع على وجوه كثيرة: أحدها: أن يقال ماهية الروح أهو متحيز أو حال في المتحيز أو موجود غير متحيز ولا حال في التحيز. وثانيها: أن يقال: الروح قديمة أو حادثة. وثالثها: أن يقال: الأرواح هل تبقى بعد موت الأجسام أو تفنى. ورابعها: أن يقال: ما حقيقة سعادة الأرواح وشقاوتها؟ وبالجملة فالمباحث المتعلقة بالروح كثيرة، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ ليس فيه ما يدل على أنهم عن هذه المسائل سألوا أو عن غيرها، إلا أنه تعالى ذكر له في الجواب عن هذا السؤال قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وهذا الجواب لا يليق إلا بمسألتين من المسائل التي ذكرناها: إحداهما السؤال عن ماهية الروح، والثانية عن قدمها وحدوثها.

أما البحث الأول: فهم قالوا: ما حقيقة الروح وماهيته؟ أهو عبارة عن أجسام موجودة في داخل هذا البدن متولدة من امتزاج الطبائع والأخلاط، أو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب أو هو عبارة عن عَرَض آخر قائم بهذه الأجسام، أو هو عبارة عن موجود يغاير هذه الأجسام والأعراض؟ فأجاب الله عنه بأنه موجود مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأعراض، وذلك لأن هذه الأجسام أشياء تحدث من امتزاج الأخلاط والعناصر، وأما الروح فإنه ليس كذلك بل هو جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] فقالوا: لم كان شيئًا مغايرًا لهذه الأجسام ولهذه الأعراض. فأجاب الله عنه بأنه موجود يحدث بأمر الله وتكوينه وتأثيره في إفادة الحياة لهذا الجسد، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه، فإن أكثر حقائق الأشياء وماهياتها مجهولة. فإنا نعلم أن السكنجبين له خاصية تقتضي قطع الصفراء، فأما إذا أردنا أن نعرف ماهية تلك الخاصية وحقيقتها المخصوصة، فذاك غير معلوم، فثبت أن أكثر

(١) لم اجده. وقال ابن الجوزي في (صيد الخاطر) (١/ ١٤٠): وقد جاء في الأثر... ثم ذكره وقال: وهذا كلام حسن غاية الحسن.

الماهيات والحقائق مجهولة ولم يلزم من كونها مجهولة نفيها، فكذلك ها هنا، وهذا هو المراد من قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

وأما المبحث الثاني: فهو أن لفظ الأمر قد جاء بمعنى الفعل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٦٦] أي فِعلنا، فقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي من فعل ربي وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه أن الروح قديمة أو حادثة فقال: بل هي حادثة وإنما حصلت بفعل الله وتكوينه وإيجاده ثم احتج على حدوث الروح بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني أن الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم والمعارف ثم يحصل فيها العلوم والمعارف، فهي لا تزال تكون في التغيير من حال إلى حال وفي التبديل من نقصان إلى كمال، والتغيير والتبديل من أمارات الحدوث، فقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ يدل على أنهم سألوه أن الروح هل هي حادثة؟ فأجاب بأنها حادثة واقعة بتخليق الله وتكوينه، وهو المراد من قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ثم استدل على حدوث الأرواح بتغيرها من حال إلى حال وهو المراد من قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهذا ما نقوله في هذا الباب، والله أعلم.

المسألة الثانية: في ذكر سائر الأقوال المقولة في نفس الروح المذكورة في هذه الآية. اعلم أن الناس ذكروا أقوالاً أخرى سوى ما تقدم ذكره: **فالقول الأول**: أن المراد من هذا الروح هو القرآن، قالوا: وذلك لأن الله تعالى سمى القرآن في كثير من الآيات روحًا، واللائق بالروح المسؤول عنه في هذا الموضع ليس إلا القرآن، فلا بد من تقرير مقامين: المقام الأول: تسمية الله القرآن بالروح، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢] وأيضًا السبب في تسمية القرآن بالروح أن بالقرآن تحصل حياة الأرواح والعقول لأن به تحصل معرفة الله تعالى ومعرفة ملائكته ومعرفة كتبه ورسله، والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف، وتمام تقرير هذا الموضع ذكرناه في تفسير قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢]، وأما بيان المقام الثاني وهو أن الروح اللائق بهذا الموضع هو القرآن لأنه تقدمه قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] والذي تأخر عنه قوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] إلى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] فلما كان قبل هذه الآية في وصف القرآن وما بعدها كذلك، وجب أيضًا أن يكون المراد من هذا الروح القرآن حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة، وذلك لأن القوم استعظموا أمر القرآن فسألوا أنه من جنس الشعر أو من جنس الكهانة، فأجابهم الله تعالى بأنه ليس من جنس كلام البشر، وإنما هو كلام ظهر بأمر الله ووحيه وتنزيله فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي القرآن ظهر بأمر ربي وليس من جنس كلام البشر. **والقول الثاني**: أن الروح المسؤول عنه في هذه الآية مَلَك من ملائكة السماوات وهو أعظمهم قدرًا وقوة، وهو المراد من قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨] ونقلوا عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هو ملك له سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها ويخلق الله من كل تسبيحة ملكًا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة. قالوا: ولم يخلق الله تعالى خلقًا أعظم من الروح غير العرش، ولو شاء أن يبتلع السماوات السبع والأرضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل.

ولقائل أن يقول: هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه: الأول: أن هذا التفصيل لما عرفه علي، فالنبي أولى أن يكون قد عرفه فلم لم يخبرهم به، وأيضًا أن عليًا ما كان ينزل عليه الوحي، فهذا التفصيل ما عرفه إلا من النبي ﷺ فلمَ ذكر النبي ﷺ ذلك الشرح والبيان لعلي ولم يذكره لغيره؟! الثاني: أن ذلك المَلَك إن كان حيوانًا واحدًا وعاقلاً واحدًا لم يكن في تكثير تلك اللغات فائدة، وإن كان المتكلم بكل واحدة من تلك اللغات حيوانًا آخر لم يكن ذلك ملكًا واحدًا بل يكون ذلك مجموع ملائكة. والثالث: أن هذا شيء مجهول الوجود فكيف يُسأل عنه؟! أما الروح الذي هو سبب الحياة فهو شيء تتوفر دواعي العقلاء على معرفته فصَرْف هذا السؤال إليه أَوْلى. **والقول الرابع:** وهو قول الحسن وقتادة أن هذا الروح جبريل، والدليل عليه أنه تعالى سمى جبريل بالروح في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وفي قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] ويؤكد هذا أنه تعالى قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ (فِي جِبْرِيلَ) وقال (حِكَايَةً عَنْ) جبريل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] فسألوا الرسول كيف جبريل في نفسه وكيف قيامه بتبليغ الوحي إليه. **والقول الخامس:** قال مجاهد: الروح خلق ليسوا من الملائكة على صورة بني آدم يأكلون ولهم أيدٍ وأرجل ورؤوس وقال أبو صالح: يشبهون الناس وليسوا بالناس. ولم أجد في القرآن ولا في الأخبار الصحيحة شيئًا يمكن التمسك به في إثبات هذا القول. وأيضًا فهذا شيء مجهول فيبعد صرف هذا السؤال إليه، فحاصل ما ذكرناه في تفسير الروح المذكور في هذه الآية هذه الأقوال الخمسة، والله أعلم بالصواب.

المسألة الثالثة: في شرح مذاهب الناس في حقيقة الإنسان، اعلم أن العلم الضروري حاصل بأن ها هنا شيئًا إليه يشير الإنسان بقوله (أنا) وإذا قال الإنسان: علمت وفهمت وأبصرت وسمعت وذقت وشممت ولمست وغضبت. فالمشار إليه لكل أحد بقوله (أنا) إما أن يكون جسمًا أو عَرَضًا أو مجموع الجسم والعَرَض أو شيئًا مغايرًا للجسم والعرض أو من ذلك الشيء الثالث، فهذا ضبط معقول: أما القسم الأول: وهو أن يقال: إن الإنسان جسم، فذلك الجسم إما أن يكون هو هذه البنية أو جسمًا داخلاً في هذه البنية أو جسمًا خارجًا عنها، أما القائلون بأن الإنسان عبارة عن هذه البنية المحسوسة وعن هذا الجسم المحسوس، فهم جمهور المتكلمين، وهؤلاء يقولون: الإنسان لا يحتاج تعريفه إلى ذكر حد أو رسم، بل الواجب أن يقال: الإنسان هو الجسم المبني بهذه البنية المحسوسة.

واعلم أن هذا القول عندنا باطل، وتقريره أنهم قالوا: الإنسان هو هذا الجسم المحسوس، فإذا أبطلنا كون الإنسان عبارة عن هذا الجسم وأبطلنا كون الإنسان محسوسًا، فقد بطل كلامهم بالكلية والذي يدل على أنه لا يمكن أن يكون الإنسان عبارة (عن) هذا الجسم وجوه:

الحجة الأولى: أن العلم البديهي حاصل بأن أجزاء هذه الجثة متبدلة بالزيادة والنقصان تارة بحسب النمو والذبول وتارة بحسب السمن والهزال، والعلم الضروري حاصل بأن المتبدل المتغير مغاير للثابت الباقي، ويحصل من مجموع هذه المقدمات الثلاثة العلم القطعي بأن الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه الجثة.

الحجة الثانية: أن الإنسان حال ما يكون مشتغل الفكر متوجه الهمة نحو أمر معين مخصوص، فإنه في تلك الحالة يكون غافلاً عن جميع أجزاء بدنه وعن أعضائه وأبعاضه، مجموعها ومفصلها، وهو في تلك الحالة غير غافل عن نفسه المعينة، بدليل أنه في تلك الحالة قد يقول: غضبت واشتهيت وسمعت كلامك وأبصرت وجهك، وتاء الضمير كناية عن نفسه، فهو في تلك الحالة عالم بنفسه المخصوصة وغافل عن جملة بدنه وعن كل واحد من أعضائه وأبعاضه، و(يكون) المعلوم غير معلوم، فالإنسان يجب أن يكون مغايرًا لجملة هذا البدن ولكل واحد من أعضائه وأبعاضه.

الحجة الثالثة: أن كل أحد يحكم عقله بإضافة كل واحد من هذه الأعضاء إلى نفسه فيقول: رأسي وعيني ويدي ورجلي ولساني وقلبي، والمضاف غير المضاف إليه، فوجب أن يكون الشيء الذي هو الإنسان مغايرًا لجملة هذا البدن ولكل واحد من هذه الأعضاء. فإن قالوا: قد يقول: نفسي وذاتي فيضيف النفس والذات إلى نفسه فيلزم أن يكون الشيء وذاته مغايرة لنفسه، وهو محال. قلنا: قد يراد به هذا البدن المخصوص وقد يراد بنفس الشيء وذاته الحقيقة المخصوصة التي يشير إليها كل أحد بقوله (أنا) فإذا قال (نفسي وذاتي) فإن كان المراد البدن فعندنا أنه مغاير لجوهر الإنسان، أما إذا أريد بالنفس والذات المخصوصة المشار إليها بقوله: (أنا) فلا نسلم أن الإنسان يمكنه أن يضيف ذلك الشيء إلى نفسه بقوله (إنساني) وذلك لأن عين الإنسان ذاته فكيف يضيفه مرة أخرى إلى ذاته؟

الحجة الرابعة: أن كل دليل على أن الإنسان يمتنع أن يكون جسمًا، فهو أيضًا يدل على أنه يمتنع أن يكون عبارة عن هذا الجسم، وسيأتي تقرير تلك الدلائل.

الحجة الخامسة: أن الإنسان قد يكون حيًّا حال ما يكون البدن ميتًا، فوجب كون الإنسان مغايرًا لهذا البدن، والدليل على صحة ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فهذا النص صريح في أن أولئك المقتولين أحياء، والحس يدل على أن هذا الجسد ميت.

الحجة السادسة: أن قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] وقوله: ﴿أُغْرِقُوا۟

﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] يدل على أن الإنسان يحيا بعد الموت، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «أَنْبِيَاءُ اللَّهِ لاَ يَمُوتُونَ، وَلَكِنْ يُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ» وكذلك قوله عليه السلام «الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ» وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ» كل هذه النصوص تدل على أن الإنسان يبقى بعد موت الجسد، وبديهة العقل والفطرة شاهدان بأن هذا الجسد ميت. ولو جوزنا كونه حيًّا جاز مثله في جميع الجمادات، وذلك عين السفسطة. وإذا ثبت أن الإنسان شيء وكان الجسد ميتًا لزم أن الإنسان شيء غير هذا الجسد.

الحجة السابعة: قوله عليه السلام في خطبة طويلة له: «حَتَّى إِذَا حُمِلَ الْمَيِّتُ عَلَى نَعْشِهِ رَفْرَفَ رُوحُهُ فَوْقَ النَّعْشِ، وَيَقُولُ: يَا أَهْلِي وَيَا وَلَدِي لاَ تَلْعَبَنَّ بِكُمُ الدُّنْيَا كَمَا لَعِبَتْ بِي، جَمَعْتُ الْمَالَ مِنْ حِلِّهِ وَغَيْرِ حِلِّهِ، فَالْغِنَى لِغَيْرِي وَالتَّبِعَةُ عَلَيَّ، فَاحْذَرُوا مِثْلَ مَا حَلَّ بِي»(١) وجه الاستدلال أن النبي ﷺ صرح بأن حال ما يكون الجسد محمولاً على النعش بقي هناك شيء ينادي ويقول: يا أهلي ويا ولدي جمعت المال من حله وغير حله. ومعلوم أن الذي كان الأهل أهلاً له وكان جامعًا للمال من الحرام والحلال والذي بقي في رقبته الوبال - ليس إلا ذلك الإنسان، فهذا تصريح بأن في الوقت الذي كان فيه الجسد ميتًا محمولاً كان ذلك الإنسان حيًّا باقيًا فاهمًا، وذلك تصريح بأن الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد ولهذا الهيكل.

الحجة الثامنة: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] والخطاب بقوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ﴾ إنما هو متوجه عليها حال الموت، فدل هذا على أن الشيء الذي يرجع إلى الله بعد موت الجسد يكون حيًّا راضيًا عن الله ويكون راضيًا عنه الله والذي يكون راضيًا ليس إلا الإنسان، فهذا يدل على أن الإنسان بقي حيًّا بعد موت الجسد والحي غير الميت، فالإنسان مغاير لهذا الجسد.

الحجة التاسعة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢] أثبت كونهم مردودين إلى الله الذي هو مولاهم حال كون الجسد ميتًا، فوجب أن يكون ذلك المردود إلى الله مغايرًا لذلك الجسد الميت.

الحجة العاشرة: نرى جميع فِرق الدنيا من الهند والروم والعرب والعجم وجميع أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين وسائر فرق العالم وطوائفهم - يتصدقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون إلى زياراتهم، ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصدق عنهم عبثًا، والدعاء لهم عبثًا، ولكان الذهاب إلى زيارتهم عبثًا، فالإطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة - يدل على أن فطرتهم الأصلية السليمة شاهدة بأن الإنسان شيء غير هذا الجسد وأن ذلك الشيء لا يموت، بل (الذي) يموت هذا الجسد.

---

(١) لم أجده.

الحجة الحادية عشرة: أن كثيرًا من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته في المنام ويقول له: اذهب إلى الموضع الفلاني فإن فيه ذهبًا دفنته لك. وقد يراه فيوصيه بقضاء دَين عنه، ثم عند اليقظة إذا فتش كان كما رآه في النوم من غير تفاوت، ولولا أن الإنسان يبقى بعد الموت لما كان كذلك، ولما دل هذا الدليل على أن الإنسان يبقى بعد الموت ودل الحس على أن الجسد ميت، كان الإنسان مغايرًا لهذا الجسد الميت.

الحجة الثانية عشرة: أن الإنسان إذا ضاع عضو من أعضائه مثل أن تُقطع يداه أو رجلاه أو تُقلع عيناه أو تُقطع أذناه إلى غيرها من الأعضاء، فإن ذلك الإنسان يجد من قلبه وعقله أنه هو عين ذلك الإنسان ولم يقع في عين ذلك الإنسان تفاوت حتى أنه يقول أنا ذلك الإنسان الذي كنت موجودًا قبل ذلك إلا أنه يقول: إنهم قطعوا يدي ورجلي. وذلك برهان يقيني على أن ذلك الإنسان شيء مغاير لهذه الأعضاء والأبعاض، وذلك يبطل قول من يقول: الإنسان عبارة عن هذه البنية المخصوصة.

الحجة الثالثة عشرة: أن القرآن والأحاديث يدلان على أن جماعة من اليهود قد مسخهم الله وجعلهم في صورة القردة والخنازير، فنقول: إن ذلك الإنسان هل بقي حال ذلك المسخ أو لم يبق؟ فإن لم يبق كان هذا إماتة لذلك الإنسان وخلقًا لذلك الخنزير، وليس هذا من المسخ في شيء. وإن قلنا: إن ذلك الإنسان بقي حال حصول ذلك المسخ فنقول على ذلك التقدير: ذلك الإنسان باقٍ وتلك البنية وذلك الهيكل غير باقٍ، فوجب أن يكون ذلك الإنسان شيئًا مغايرًا لتلك البنية.

الحجة الرابعة عشرة: أن رسول الله ﷺ كان يرى جبريل عليه الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي، وكان يرى إبليس في صورة الشيخ النجدي، فها هنا بنية الإنسان وهيكله وشكله حاصل مع أن حقيقة الإنسان غير حاصلة، وهذا يدل على أن الإنسان ليس عبارة عن هذه البنية وهذا الهيكل. والفرق بين هذه الحجة والتي قبلها أنه حصلت صورة هذه البنية مع عدم هذه البنية وهذا الهيكل.

الحجة الخامسة عشرة: أن الزاني يزني بفرجه فيضرب على ظهره، فوجب أن يكون الإنسان شيئًا آخر سوى الفرج وسوى الظهر، ويقال: إن ذلك الشيء يستعمل الفرج في عمل والظهر في عمل آخر، فيكون المتلذذ والمتألم هو ذلك الشيء، إلا أنه تحصل تلك اللذة بواسطة ذلك العضو ويتألم بواسطة الضرب على هذا العضو.

الحجة السادسة عشرة: أني إذا تكلمت مع زيد وقلت له افعل كذا أو لا تفعل كذا، فالمخاطب بهذا الخطاب والمأمور والمنهي ليس هو جبهة زيد ولا حدقته ولا أنفه ولا فمه ولا شيئًا من أعضائه بعينه، فوجب أن يكون المأمور والمنهي والمخاطب شيئًا مغايرًا لهذه الأعضاء، وذلك يدل على أن ذلك المأمور والمنهي غير هذا الجسد. فإن قالوا: لم لا يجوز أن يقال:

المأمور والمنهي جملة هذا البدن لا شيء من أعضائه وأبعاضه؟ قلنا بوجه التكليف على الجملة: إنما يصح لو كانت الجملة فاهمة عالمة فنقول: لو كانت الجملة فاهمة عالمة فإما أن يقوم بمجموع البدن علم واحد أو يقوم بكل واحد من أجزاء البدن علم على حدة، والأول يقتضي قيام العرض بالمحال الكثيرة وهو محال، والثاني يقتضي أن يكون كل واحد من أجزاء البدن عالمًا فاهمًا مدركًا على سبيل الاستقلال، وقد بينا أن العلم الضروري حاصل بأن الجزء المعين من البدن ليس عالمًا فاهمًا مدركًا بالاستقلال، فسقط هذا السؤال.

الحجة السابعة عشرة: أن الإنسان يجب أن يكون عالمًا، والعلم لا يحصل إلا في القلب، فيلزم أن يكون الإنسان عبارة عن الشيء الموجود في القلب، وإذا ثبت هذا بطل القول بأن الإنسان عبارة عن هذا الهيكل، وهذه الجثة إنما قلنا: إن الإنسان يجب أن يكون عالمًا لأنه فاعل مختار، والفاعل المختار هو الذي يفعل بواسطة القلب والاختيار، وهما مشروطان بالعلم لأن ما لا يكون مقصودًا امتنع القصد إلى تكوينه، فثبت أن الإنسان يجب أن يكون عالمًا بالأشياء، وإنما قلنا: إن العلم لا يوجد إلا في القلب للبرهان والقرآن: أما البرهان فلأنا نجد العلم الضروري بأنا نجد علومنا من ناحية القلب، وأما القرآن فآيات نحو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]وقوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢]وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]وإذا ثبت أن الإنسان يجب أن يكون عالمًا، وثبت أن العلم ليس إلا في القلب ثبت أن الإنسان شيء في القلب، أو شيء له تعلق بالقلب، وعلى التقديرين فإنه يبطل قول من يقول: الإنسان هو هذا الجسد وهذا الهيكل.

وأما البحث الثاني: وهو بيان أن الإنسان غير محسوس وهو أن حقيقة الإنسان شيء مغاير للسطح واللون، وكل ما هو مرئي فهو إما السطح وإما اللون، وهما مقدمتان قطعيتان وينتج هذا القياس أن حقيقة الإنسان غير مرئية ولا محسوسة، وهذا برهان يقيني.

المسألة الرابعة: في شرح مذاهب القائلين بأن الإنسان جسم موجود في داخل البدن، اعلم أن الأجسام الموجودة في هذا العالم السفلي إما أن تكون أحد العناصر الأربعة أو ما يكون متولدًا من امتزاجها، ويمتنع أن يحصل في البدن الإنساني جسم عنصري خالص، بل لا بد وأن يكون الحاصل جسمًا متولدًا من امتزاجات هذه الأربعة فنقول: أما الجسم الذي تغلب عليه الأرضية فهو الأعضاء الصلبة الكثيفة، كالعظم والغضروف والعصب والوتر والرباط والشحم واللحم والجلد، ولم يقل أحد من العقلاء الذين قالوا: (الإنسان شيء مغاير لهذا الجسد) بأنه عبارة عن عضو معين من هذه الأعضاء، وذلك لأن هذه الأعضاء كثيفة ثقيلة ظلمانية، فلا جرم لم يقل أحد من العقلاء بأن الإنسان عبارة عن أحد هذه الأعضاء، وأما الجسم الذي تغلب عليه المائية فهو الأخلاط الأربعة ولم يقل أحد في شيء منها إنه الإنسان إلا في الدم فإن منهم من قال: إنه هو الروح بدليل أنه إذا خرج لزم الموت، أما الجسم الذي تغلب عليه الهوائية والنارية فهو الأرواح

وهي نوعان: أحدهما: أجسام هوائية مخلوطة بالحرارة الغريزية متولدة إما في القلب أو في الدماغ وقالوا: إنها هي الروح وإنها هي الإنسان. ثم اختلفوا فمنهم من يقول: الإنسان هو الروح الذي في القلب، ومنهم من يقول: إنه جزء لا يتجزأ في الدماغ، ومنهم من يقول: الروح عبارة عن أجزاء نارية مختلطة بهذه الأرواح القلبية والدماغية، وتلك الأجزاء النارية وهي المسماة بالحرارة الغريزية وهي الإنسان، ومن الناس من يقول: الروح عبارة عن أجسام نورانية سماوية لطيفة، والجوهر على طبيعة ضوء الشمس، وهي لا تقبل التحلل والتبدل ولا التفرق ولا التمزق، فإذا تكَوَّن البدن وتم استعداده وهو المراد بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ [ص: ٧٢] نفذت تلك الأجسام الشريفة السماوية الإلهية في داخل أعضاء البدن نفاذ النار في الفحم ونفاذ دهن السمسم في السمسم، ونفاذ ماء الورد في جسم الورد، ونفاذ تلك الأجسام السماوية في جوهر البدن هو المراد بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] ثم إن البدن ما دام يبقى سليمًا قابلاً لنفاذ تلك الأجسام الشريفة بقي حيًّا، فإذا تولدت في البدن أخلاط غليظة منعت تلك الأخلاط الغليظة من سريان تلك الأجسام الشريفة فيها، فانفصلت عن هذا البدن، فحينئذٍ يعرض الموت، فهذا مذهب قوي شريف يجب التأمل فيه؛ فإنه شديد المطابقة لما ورد في الكتب الإلهية من أحوال الحياة والموت، فهذا تفصيل مذاهب القائلين بأن الإنسان جسم موجود في داخل البدن.

وأما أن الإنسان جسم موجود خارج البدن فلا أعرف أحدًا ذهب إلى هذا القول.

أما القسم الثاني: وهو أن يقال: الإنسان عرض حالٌّ في البدن، فهذا لا يقول به عاقل لأن من المعلوم بالضرورة أن الإنسان جوهر لأنه موصوف بالعلم والقدرة والتدبر والتصرف، ومن كان كذلك كان جوهرًا والجوهر لا يكون عرضًا، بل الذي يمكن أن يقول به كل عاقل هو أن الإنسان يشترط أن يكون موصوفًا بأعراض مخصوصة، وعلى هذا التقدير فللناس فيه أقوال:

القول الأول: أن العناصر الأربعة إذا امتزجت وانكسرت سورة كل واحدة منها بسورة الآخر حصلت كيفية معتدلة هي المزاج، ومراتب هذا المزاج غير متناهية فبعضها هي الإنسانية وبعضها هي الفرسية، فالإنسانية عبارة عن أجسام موصوفة متولدة عن امتزاجات أجزاء العناصر بمقدار مخصوص، هذا قول جمهور الأطباء ومنكري بقاء النفس وقول أبي الحسين البصري من المعتزلة.

والقول الثاني: أن الإنسان عبارة عن أجسام مخصوصة بشرط كونها موصوفة بصفة الحياة والعلم والقدرة والحياة عرض قائم بالجسم، وهؤلاء أنكروا الروح والنفس وقالوا ليس ها هنا إلا أجسام مؤتلفة موصوفة بهذه الأعراض المخصوصة وهي الحياة والعلم والقدرة، وهذا مذهب أكثر شيوخ المعتزلة.

والقول الثالث: أن الإنسان عبارة عن أجسام موصوفة بالحياة والعلم والقدرة، والإنسان إنما يمتاز عن سائر الحيوانات بشكل جسده وهيئة أعضائه وأجزائه، إلا أن هذا مشكل فإن الملائكة

قد يتشبهون بصور الناس فها هنا صورة الإنسان حاصلة مع عدم الإنسانية وفي صورة المسخ معنى الإنسانية حاصل مع أن هذه الصورة غير حاصلة، فقد بطل اعتبار هذا الشكل في حصول معنى الإنسانية طردًا وعكسًا.

أما القسم الثالث: وهو أن يقال: الإنسان موجود ليس بجسم ولا جسمانية. فهو قول أكثر الإلهيين من الفلاسفة القائلين ببقاء النفس المثبتين للنفس معادًا روحانيًّا وثوابًا وعقابًا وحسابًا روحانيًّا وذهب إليه جماعة عظيمة من علماء المسلمين مثل الشيخ أبي القاسم الراغب الأصفهاني والشيخ أبي حامد الغزالي رحمهما الله، ومن قدماء المعتزلة معمر بن عباد السلمي، ومن الشيعة الملقب عندهم بالشيخ المفيد، ومن الكرامية جماعة. واعلم أن القائلين بإثبات النفس فريقان: **الأول**: وهم المحققون منهم من قال: الإنسان عبارة عن هذا الجوهر المخصوص وهذا البدن، وعلى هذا التقدير فالإنسان غير موجود في داخل العالم ولا في خارجه وغير متصل في داخل العالم ولا في خارجه وغير متصل بالعالم ولا منفصل عنه، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف كما أن إله العالم لا تعلق له بالعالم إلا على سبيل التصرف والتدبير. **والفريق الثاني**: الذين قالوا: النفس إذا تعلقت بالبدن اتحدت بالبدن فصارت النفس عين البدن، والبدن عين النفس ومجموعهما عند الاتحاد هو الإنسان، فإذا جاء وقت الموت بطل هذا الاتحاد وبقيت النفس وفسد البدن. فهذه جملة مذاهب الناس في الإنسان، وكان ثابت بن قرة يثبت النفس ويقول: إنها متعلقة بأجسام سماوية نورانية لطيفة غير قابلة للكون والفساد والتفرق والتمزق وأن تلك الأجسام تكون سارية في البدن، وما دام يبقى ذلك السريان بقيت النفس مدبرة للبدن، فإذا انفصلت تلك الأجسام اللطيفة عن جوهر البدن انقطع تعلق النفس عن البدن.

المسألة الخامسة: في دلائل مثبتي النفس من ناحية العقل، احتج القوم بوجوه كثيرة بعضها قوي وبعضها ضعيف، والوجوه القوية بعضها قطعية وبعضها إقناعية فلنذكر الوجوه القطعية:

الحجة الأولى: لا شك أن الإنسان جوهر، فإما أن يكون جوهرًا متحيزًا أو غير متحيز، والأول باطل فتعين الثاني، والذي يدل على أنه يمتنع أن يكون جوهرًا متحيزًا أنه لو كان كذلك لكان كونه متحيزًا غير تلك الذات، ولو كان كذلك لكان كل ما علم الإنسان ذاته المخصوصة وجب أن يعلم كونه متحيزًا بمقدار مخصوص، وليس الأمر كذلك، فوجب أن لا يكون الإنسان جوهرًا متحيزًا: **فنفتقر في تقرير هذا الدليل إلى مقدمات ثلاثة:**

المقدمة الأولى: لو كان الإنسان جوهرًا متحيزًا لكان كونه متحيزًا عين ذاته المخصوصة، والدليل عليه أنه لو كان تحيزه صفة قائمة لكان ذلك المحل من حيث هو مع قطع النظر عن هذه الصفة إما أن يكون متحيزًا أو لا يكون، والقسمان باطلان، فبطل القول بكون التحيز صفة قائمة بالمحل، إنما قلنا: إنه يمتنع أن يكون محل التحيز لأنه يلزم كون الشيء الواحد متحيزًا مرتين، ولأنه يلزم اجتماع المثلين، ولأنه ليس جعل أحدهما ذاتًا والآخر صفة أَوْلى من العكس، ولأن

التحيز الثاني إن كان عين الذات فهو المقصود، وإن كان صفة لزم التسلسل وهو محال. وإنما قلنا: إنه يمتنع أن يكون محل التحيز غير متحيز لأن حقيقة التحيز هو الذهاب في الجهات والامتداد فيها، والشيء الذي لا يكون متحيزًا لم يكن له اختصاص بالجهات، وحصوله فيها ليس بمتحيز محال، فثبت بهذا أنه لو كان الإنسان جوهرًا متحيزًا لكان تحيزه غير ذاته المخصوصة.

المقدمة الثانية: لو كان تحيز ذاته المخصوصة عين ذاته المخصوصة لكان متى عرف ذاته المخصوصة فقد عرف كونها متحيزة، والدليل عليه أنه لو صارت ذاته المخصوصة معلومة وصار تحيزه مجهولاً، لزم اجتماع النفي والإثبات في الشيء الواحد، وهو محال.

المقدمة الثالثة: أنا قد نعرف ذاتنا حال كوننا جاهلين بالتحيز والامتداد في الجهات الثلاثة، وذلك ظاهر عند الاختبار والامتحان، فإن الإنسان حال كونه مشتغلاً بشيء من المهمات مثل أن يقول لعبده لِمَ فعلت كذا ولِمَ خالفت أمري وإني أبالغ في تأديبك وضربك. فعندما يقول: لِمَ خالفت أمري يكون عالمًا بذاته المخصوصة، إذ لو لم يعلم ذاته المخصوصة لامتنع أن يعلم أن ذلك الإنسان خالفه، ولامتنع أن يخبر عن نفسه بأنه على عزم أن يؤدبه ويضربه، ففي هذه الحالة يعلم ذاته المخصوصة مع أنه في تلك الحالة لا يخطر بباله حقيقة التحيز والامتداد في الجهات والحصول في الحيز، فثبت بما ذكرنا أنه لو كان ذات الإنسان جوهرًا متحيزًا لكان تحيزه عين ذاته المخصوصة، ولو كان كذلك لكان كل ما علم ذاته المخصوصة فقد علم التحيز وثبت أنه ليس كذلك فيلزم أن يقال: ذات الإنسان ليس جوهرًا متحيزًا، وذلك هو المطلوب، فإن قالوا: هذا معارض بأنه لو كان جوهرًا مجردًا لكان كل من عرف ذات نفسه عرف كونه جوهرًا مجردًا وليس الأمر كذلك. قلنا: الفرق ظاهر لأن كونه مجردًا معناه أنه ليس بمتحيز ولا حالاً في المتحيز وهذا السلب ليس عين تلك الذات المخصوصة لأن السلب ليس عين الثبوت، وإذا كان كذلك لم يبعد أن تكون تلك الذات المخصوصة معلومة وأن لا يكون ذلك السلب معلومًا، بخلاف كونه متحيزًا فإنا قد دللنا على أن تقدير كون الإنسان جوهرًا متحيزًا يكون تحيزه عين ذاته المخصوصة، وعلى هذا التقدير يمتنع أن تكون ذاته معلومة ويكون تحيزه مجهولاً فظهر الفرق.

الحجة الثانية: النفس واحدة ومتى كانت واحدة وجب أن تكون مغايرة لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه، فهذه الحجة مبنية على مقدمات: المقدمة الأولى: هي قولنا: النفس واحدة ولنا ها هنا مقامان تارة ندعي العلم البديهي فيه وأخرى نقيم البرهان على صحته. أما المقام الأول وهو ادعاء البديهية فنقول: المراد من النفس هو الشيء الذي يشير إليه كل أحد بقوله (أنا) وكل أحد يعلم بالضرورة أنه إذا أشار إلى ذاته المخصوصة بقوله (أنا) كان ذلك المشار إليه واحدًا غير متعدد فإن قيل: لِمَ لا يجوز أن يكون المشار إليه لكل أحد بقوله (أنا) وإن كان واحدًا إلا أن ذلك الواحد يكون مركبًا من أشياء كثيرة؟ قلنا: إنه لا حاجة لنا في هذا المقام إلى دفع هذه

السؤال بل نقول: المشار إليه بقول (أنا) معلوم بالضرورة أنه شيء واحد فأما أن ذلك الواحد هل هو واحد مركب من أشياء كثيرة أو هو واحد في نفسه واحد في حقيقته؟ فهذا لا حاجة إليه في هذا المقام. أما المقام الثاني وهو مقام الاستدلال فالذي يدل على وحدة النفس وجوه:

الحجة الأولى: أن الغضب حالة نفسانية تحدث عند إرادة دفع المنافر. والشهوة حالة نفسانية تحدث عند طلب الملايم مشروطًا بالشعور بكون الشيء ملايمًا ومنافرًا، فالقوة الغضبية التي هي قوة دافعة للمنافر إن لم يكن لها شعور بكونه منافرًا امتنع انبعاثها لدفع ذلك المنافر على سبيل القصد والاختيار لأن القصد إلى الجذب تارة وإلى الدفع أخرى مشروط بالشعور بالشيء، فالشيء المحكوم عليه بكونه دافعًا للمنافر على سبيل الاختيار لا بد وأن يكون له شعور بكونه منافرًا، فالذي يغضب لا بد وأن يكون هو بعينه مدركًا، فثبت بهذا البرهان اليقيني مباينة حاصلة في ذوات متباينة.

الحجة الثانية: أنا إذا فرضنا جوهرين مستقلين يكون كل واحد منهما مستقلاً بفعله الخاص، امتنع أن يصير اشتغال أحدهما بفعله الخاص مانعًا للآخر من اشتغاله بفعله الخاص به. وإذا ثبت هذا فنقول: لو كان محل الإدراك والفكر جوهرًا ومحل الغضب جوهرًا آخر ومحل الشهوة جوهرًا ثالثًا، وجب أن لا يكون اشتغال القوة الغضبية بفعلها مانعًا للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس لكن الثاني باطل، فإن اشتغال الإنسان بالشهوة وانصبابه إليها يمنعه من الاشتغال بالغضب وانصبابه إليه وبالعكس، فعلمنا أن هذه الأمور الثلاثة ليست مبادئ مستقلة بل هي صفات مختلفة بجوهر واحد، فلا جرم كان اشتغال ذلك الجوهر بأحد هذه الأفعال عائقًا له عن الاشتغال بالفعل الآخر.

الحجة الثالثة: أنا إذا أدركنا أشياء فقد يكون الإدراك سببًا لحصول الشهوة وقد يصير سببًا لحصول الغضب، فلو كان الجوهر المدرك مغايرًا للذي يغضب والذي يشتهي، فحين أدرك الجوهر المدرك لم يحصل عند الجوهر المشتهي من ذلك الإدراك أثر ولا خبر، فوجب أن لا يترتب على ذلك الإدراك لا حصول الشهوة ولا حصول الغضب، وحيث حصل هذا الترتيب والاستلزام علمنا أن صاحب الإدراك بعينه هو صاحب الشهوة بعينها وصاحب الغضب بعينه.

الحجة الرابعة: أن حقيقة الحيوان أنه جسم ذو نفس حساسة متحركة بالإرادة، فالنفس لا يمكنها أن تتحرك بالإرادة إلا عند حصول الداعي، ولا معنى للداعي إلا الشعور بخير يرغب في جذبه أو بشر يرغب في دفعه وهذا يقتضي أن يكون المتحرك بالإرادة هو بعينه مدركًا للخير والشر والملذ والمؤذي والنافع والضار فثبت بما ذكرنا أن النفس الإنسانية شيء واحد، وثبت أن ذلك الشيء هو المبصر والسامع والشامّ والذائق واللامس والمتخيل والمتفكر والمتذكر والمشتهي والغاضب، وهو الموصوف بجميع الإدراكات وهو الموصوف بجميع الأفعال الاختيارية والحركات الإرادية. وأما المقدمة الثانية: في بيان أنه لما كانت النفس شيئًا واحدًا

وجب أن لا تكون النفس في هذا البدن ولا شيئًا من أجزائه فنقول: أما بيان أنه متى كان الأمر كذلك امتنع كون النفس عبارة عن جملة هذا البدن وكذا القوة السامعة وكذا سائر القوى كالتخيل والتذكر والتفكر والعلم بأن هذه القوى غير سارية في جملة أجزاء البدن علم بديهي، بل هو من أقوى العلوم البديهية، وأما بيان أنه يمتنع أن تكون النفس جزءًا من أجزاء هذا البدن فإنا نعلم بالضرورة أنه ليس في البدن جزء واحد وهو بعينه موصوف بالإبصار والسماع والفكر والذكر، بل الذي يتبادر إلى الخاطر أن الإبصار مخصوص بالعين لا بسائر الأعضاء، والسماع مخصوص بالأذن لا بسائر الأعضاء والصوت مخصوص بالحلق لا بسائر الأعضاء، وكذلك القول في سائر الإدراكات وسائر الأفعال، فأما أن يقال: إنه حصل في البدن جزء واحد موصوف بكل هذه الإدراكات وبكل هذه الأفعال، فالعلم الضروري حاصل بأنه ليس الأمر كذلك، فثبت بما ذكرنا أن النفس الإنسانية شيء واحد موصوف بجملة هذه الإدراكات وبجملة هذه الأفعال، وثبت بالبديهية أن جملة البدن ليست كذلك، وثبت أيضًا أن شيئًا من أجزاء البدن ليس كذلك فحينئذٍ يحصل اليقين بأن النفس شيء مغاير لهذا البدن ولكل واحد من أجزائه وهو المطلوب.

ولنقرر هذا البرهان بعبارة أخرى فنقول: إنا نعلم بالضرورة أنا إذا أبصرنا شيئًا عرفناه وإذا عرفناه اشتهيناه وإذا اشتهيناه حركنا أبداننا إلى القرب منه، فوجب القطع بأن الذي أبصر هو الذي عرف، وأن الذي عرف هو الذي اشتهى، وأن الذي اشتهى هو الذي حرك إلى القرب منه، فيلزم القطع بأن المبصر لذلك الشيء والعارف به والمشتهي والمتحرك إلى القرب منه شيء واحد، إذ لو كان المبصر شيئًا والعارف شيئًا ثانيًا والمشتهي شيئًا ثالثًا والمتحرك شيئًا رابعًا، لكان الذي أبصر لم يعرف، والذي عرف لم يشته والذي اشتهى لم يتحرك، ومن المعلوم أن كون الشيء مبصرًا لشيء لا يقتضي صيرورة شيء آخر عالمًا بذلك الشيء وكذلك القول في سائر المراتب، وأيضًا فإنا نعلم بالضرورة أن الرائي للمرئيات لما كان رآها فقد عرفها ولما عرفها فقد اشتهاها ولما اشتهاها طلبها وحرك الأعضاء إلى القرب منها، ونعلم أيضًا بالضرورة أن الموصوف بهذه الرؤية وبهذا العلم وبهذه الشهوة وبهذا التحرك هو لا غيره، وأيضًا العقلاء قالوا: الحيوان لا بد أن يكون حساسًا متحركًا بالإرادة فإنه إن لم يحس بشيء لم يشعر بكونه ملائمًا أو بكونه منافرًا، وإذا لم يشعر بذلك امتنع كونه مريدًا للجذب أو الدفع، فثبت أن الشيء الذي يكون متحركًا بالإرادة فإنه بعينه يجب أن يكون حساسًا، فثبت أن المدرك لجميع المدركات يدرك بجميع أصناف الإدراكات وأن المباشر لجميع التحريكات الاختيارية شيء واحد، وأيضًا فلأنا إذا تكلمنا بكلام نقصد منه تفهيم الغير (عَقَلْنَا) معاني تلك الكلمات ثم لما عقلناها أردنا تعريف غيرنا تلك المعاني، ولما حصلت هذه الإرادة في قلوبنا حاولنا إدخال تلك الحروف والأصوات في الوجود لنتوسل بها إلى تعريف غيرنا تلك المعاني.

إذا ثبت هذا فنقول: إن كان محل العلم والإرادة ومحل تلك الحروف والأصوات جسمًا واحدًا

لزم أن يقال: إن محل العلوم والإرادات هو الحنجرة واللهاة واللسان، ومعلوم أنه ليس كذلك، وإن قلنا محل العلوم والإرادات هو القلب لزم أيضًا أن يكون محل الصوت هو القلب وذلك أيضًا باطل بالضرورة، وإن قلنا: محل الكلام هو الحنجرة واللهاة واللسان، ومحل العلوم والإرادات هو القلب، ومحل القدرة هو الأعصاب والأوتار والعضلات، كنا قد وزعنا هذه الأمور على هذه الأعضاء المختلفة، لكنا أبطلنا ذلك وبينا أن المدرك لجميع المدركات والمحرك لجميع الأعضاء بكل أنواع التحريكات يجب أن يكون شيئًا واحدًا، فلم يبق إلا أن يقال في الإدراك والقدرة على التحريك (أَنَّهُ) شيء سوى هذا البدن وسوى أجزاء هذا البدن وأن هذه الأعضاء جارية مجرى الآلات والأدوات، فكما أن الإنسان يعقل أفعالاً مختلفة بواسطة آلات محتلفة، فكذلك النفس تبصر بالعين وتسمع بالأذن وتتفكر بالدماغ وتعقل بالقلب، فهذه الأعضاء آلات النفس وأدوات لها، والنفس جوهر مغاير لها مفارق عنها بالذات متعلق بها تعلق التصرف والتدبير وهذا البرهان برهان شريف يقيني في ثبوت هذا المطلوب، والله أعلم.

المقدمة الثالثة: لو كان الإنسان عبارة عن هذا الجسد لكان إما أن يقوم بكل واحد من الأجزاء حياة وعلم وقدرة على حدة، وإما أن يقوم بمجموع الأجزاء حياة وعلم وقدرة، والقسمان باطلان، فبطل القول بكون الإنسان عبارة عن هذا الجسد. وأما بطلان القسم الأول فلأنه يقتضي كون كل واحد من أجزاء الجسد حيًا عالمًا قادرًا على سبيل الاستقلال، فوجب أن لا يكون الإنسان الواحد حيوانًا واحدًا بل أحياء عالمين قادرين وحينئذٍ لا يبقى فرق بين الإنسان الواحد وبين أشخاص كثيرين من الناس وربط بعضهم بالبعض بالتسلسل، لكنا نعلم بالضرورة فساد هذا الكلام لأني أجد ذاتي ذاتًا واحدة لا حيوانات كثيرين، وأيضًا فبتقدير أن يكون كل واحد من أجزاء هذا الجسد حيوانًا واحدًا على حدة فحينئذٍ لا يكون لكل واحد منهما خبر عن حال صاحبه فلا يمتنع أن يريد هذا أن يتحرك إلى هذا الجانب ويريد الجزء الآن أن يتحرك إلى الجانب الآخر، فحينئذٍ يقع التدافع بين أجزاء بدن الإنسان الواحد كما يقع بين شخصين. وفساد ذلك معلوم بالبديهة. وأما بطلان القسم الثاني فلأنه يقتضي قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة، وذلك معلوم البطلان بالضرورة، ولأنه لو جاز حلول الصفة الواحدة في المحال الكثيرة لم يبعد أيضًا حصول الجسم الواحد في الأحياز الكثيرة، ولأن بتقدير أن تحصل الصفة الواحدة في المحال المتعددة فحينئذٍ يكون كل واحد من تلك الأجزاء حيًا عاقلاً عالمًا فيتجرد الأمر إلى كون هذه الجثة الواحدة أناسًا كثيرين، ولما ظهر فساد القسمين ثبت أن الإنسان ليس هو هذه الجثة.

فإن قالوا: لِمَ لا يجوز أن تقوم الحياة الواحدة بالجزء الواحد، ثم إن تلك الحياة تقتضي صيرورة جملة الأجزاء أحياء؟ قلنا: هذا باطل لأنه لا معنى للحياة إلا الحيية، ولا معنى للعلم إلا العالمية، وبتقدير أن نساعد على أن الحياة معنى يوجب الحيية والعلم معنى يوجب العالمية إلا أنا نقول: إن حصل في مجموع جثة مجموع حياة واحدة وعالمية واحدة فقد حصلت الصفة

الواحدة في المحال الكثيرة وهو محال، وإن حصل في كل جزء وجثة حياة على حدة وعالمية على حدة عاد ما ذكرنا من كون الإنسان الواحد أناسًا كثيرين وهو محال.

المقدمة الرابعة: أنا لما تأملنا في أحوال النفس رأينا أحوالها بالضد من أحوال الجسم، وذلك يدل على أن النفس ليست جسمًا. **وتقرير هذه المنافاة من وجوه. الأول:** أن كل جسم حصلت فيه صورة فإنه لا يقبل صورة أخرى من جنس الصورة الأولى إلا بعد زوال الصورة الأولى زوالاً تامًّا، مثاله: أن الشمع إذا حصل فيه شكل التثليث امتنع أن يحصل فيه شكل التربيع والتدوير إلا بعد زوال الشكل الأول عنه، نعم إنا وجدنا الحال في تصور النفس بصور المعقولات بالضد من ذلك، فإن النفس التي لم تقبل صورة عقلية ألبتة يبعد قبولها شيئًا من الصور العقلية فإذا قبلت صورة واحدة صار قبولها للصورة الثانية أسهل، ثم إن النفس لا تزال تقبل صورة بعد صورة من غير أن تضعف ألبتة، بل كلما كان قبولها للصور أكثر صار قبولها للصور الآتية بعد ذلك أسهل وأسرع، ولهذا السبب يزداد الإنسان فهمًا وإدراكًا كلما ازداد تخرجًا وارتباطًا في العلوم، فثبت أن قبول النفس للصور العقلية على خلاف قبول الجسم للصورة وذلك يوهم أن النفس ليست بجسم. **والثاني:** أن المواظبة على الأفكار الدقيقة لها أثر في النفس وأثر في البدن: أما أثرها في النفس فهو تأثيرها في إخراج النفس من القوة إلى الفعل في التعقلات والإدراكات، وكلما كانت الأفكار أكثر كان حصول هذه الأحوال أكمل وذلك غاية كمالها ونهاية شرفها وجلالتها، وأما أثرها في البدن فهو أنها توجب استيلاء اليبس على البدن واستيلاء الذبول عليه، وهذه الحالة لو استمرت لانتقلت إلى الماليخوليا وسوق الموت، فثبت بما ذكرنا أن هذه الأفكار توجب حياة النفس وشرفها وتوجب نقصان البدن وموته، فلو كانت النفس هي البدن لصار الشيء الواحد سببًا لكماله ونقصانه معًا ولحياته وموته معًا، وأنه محال. **والثالث:** أنا إذا شاهدنا أنه ربما كان بدن الإنسان ضعيفًا نحيفًا، فإذا لاح له نور من الأنوار القدسية وتجلى له سر من أسرار عالم الغيب، حصل لذلك الإنسان جراءة عظيمة وسلطنة قوية، ولم يعبأ بحضور أكابر السلاطين ولم يقم لهم وزنًا، ولولا أن النفس شيء سوى البدن لما كان الأمر كذلك. **الرابع:** أن أصحاب الرياضات والمجاهدات كلما أمعنوا في قهر القوى البدنية وتجويع الجسد قويت قواهم الروحانية وأشرقت أسرارهم بالمعارف الإلهية، وكلما أمعن الإنسان في الأكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدانية صار كالبهيمة وبقي محرومًا عن آثار النطق والعقل والمعرفة، ولولا أن النفس غير البدن لما كان الأمر كذلك. **الخامس:** أنا نرى أن النفس تفعل أفاعيلها بآلات بدنية فإنها تبصر بالعين وتسمع بالأذن وتأخذ باليد وتمشي بالرجل، أما إذا آل الأمر إلى العقل والإدراك فإنها مستقلة بذاتها في هذا الفعل من غير إعانة شيء من الآلات، ولذلك فإن الإنسان لا يمكنه أن يبصر شيئًا إذا أغمض عينيه وأن لا يسمع صوتًا إذا سد أذنيه، كما لا يمكنه ألبتة أن يزيل عن قلبه العلم بما كان عالمًا به، فعَلِمنا أن النفس غنية بذاتها في العلوم والمعارف عن شيء من الآلات البدنية، فهذه الوجوه

الخمسة أمارات قوية في أن النفس ليست بجسم، وفي المسألة الأولى كثير من دلائل المتقدمين ذكرناها في كتبنا الحكمية فلا فائدة في الإعادة.

المسألة السادسة: في إثبات أن النفس ليست بجسم من الدلائل السمعية:

الحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] ومعلوم أن أحدًا من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد، فدل ذلك على أن النفس التي ينساها الإنسان عند فرط الجهل شيء آخر غير هذا البدن.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وهذا صريح أن النفس غير البدن وقد استقصينا في تفسير هذه فليرجع إليه.

الحجة الثالثة: أنه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسمانية فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى قوله: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤] ولا شك أن جميع هذه المراتب اختلافات واقعة في الأحوال الجسمانية، ثم إنه تعالى لما أراد أن يذكر نفخ الروح قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وهذا تصريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة في الأحوال الجسمانية، وذلك يدل على أن الروح شيء مغاير للبدن، فإن قالوا: هذه الآية حجة عليكم لأنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وكلمة (مِن) للتبعيض، وهذا يدل على أن الإنسان بعض من أبعاض الطين قلنا: كلمة (مِن) أصلها لابتداء الغاية كقولك: (خرجت من البصرة إلى الكوفة) فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] يقتضي أن يكون ابتداء تخليق الإنسان حاصلاً من هذه السلالة، ونحن نقول بموجبه لأنه تعالى يسوي المزاج أولاً ثم ينفخ فيه الروح، فيكون ابتداء تخليقه من السلالة.

الحجة الرابعة: قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] مَيَّز تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح، فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء وتعديل المزاج والأشباح، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء ثم أضاف الروح إلى نفسه بقوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] دل ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨] وهذه الآية صريحة في وجود شيء موصوف بالإدراك والتحريك حقًا لأن الإلهام عبارة عن الإدراك، وأما الفجور والتقوى فهو فعل، وهذه الآية صريحة في أن الإنسان شيء واحد، وهو موصوف أيضًا بالإدراك والتحريك وموصوف أيضًا بفعل الفجور تارة وفعل التقوى تارة أخرى، ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين، فلا بد من إثبات جوهر آخر يكون موصوفًا بكل هذه الأمور.

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا

بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد وذلك الشيء هو المبتلى بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية، وهو الموصوف بالسمع والبصر، ومجموع البدن ليس كذلك وليس عضوًا من أعضاء البدن كذلك فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ومغاير لأجزاء البدن وهو موصوف بكل هذه الصفات. واعلم أن الأحاديث الواردة في صفة الأرواح قبل تعلقها بالأجساد وبعد انفصالها من الأجساد -كثيرة، وكل ذلك يدل على أن النفس شيء غير هذا الجسد، والعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة ويروي هذه الأخبار الكثيرة ثم يقول: توفي رسول الله ﷺ وما كان يعرف الروح وهذا من العجائب، والله أعلم.

المسألة السابعة: في دلالة الآية التي نحن في تفسيرها على صحة ما ذكرناه أن الروح لو كان جسمًا منتقلاً من حالة إلى حالة ومن صفة إلى صفة، لكان مساويًا للبدن في كونه متولدًا من أجسام اتصفت بصفات مخصوصة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى، فإذا سئل رسول الله ﷺ عن الروح وجب أن يبين أنه جسم كان كذا ثم صار كذا حتى صار روحًا، مثل ما ذكر في كيفية تولد البدن أنه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة، فلما لم يقُل ذلك بل قال إنه: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ بمعنى أنه لا يحدث ولا يدخل في الوجود إلا لأجل أن الله تعالى قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] دل ذلك على أنه جوهر ليس من جنس الأجسام بل هو جوهر قدسي مجرد، واعلم أن أكثر العارفين المكاشفين من أصحاب الرياضات وأرباب المكاشفات والمشاهدات - مصرون على هذا القول جازمون بهذا المذهب، قال الواسطي: خلق الله الأرواح من بين الجمال والبهاء، فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر، وأما بيان أن تعلقه الأول بالقلب ثم بواسطته يصل تأثيره إلى جملة الأعضاء فقد شرحناه في تفسير قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. **واحتج المنكرون بوجوه.**

الأول: لو كانت مساوية لذات الله في كونه ليس بجسم ولا عرض، لكانت مساوية له في تمام الماهية، وذلك محال.

الثاني: قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧- ٢٢] وهذا تصريح بأن الإنسان شيء مخلوق من النطفة، وأنه يموت ويدخل القبر ثم إنه تعالى يُخرجه من القبر، ولو لم يكن الإنسان عبارة عن هذه الجثة لم تكن الأحوال المذكورة في هذه الآية صحيحة.

الثالث: قوله: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] وهذا يدل على أن الروح جسم لأن الأرزاق والفرح من صفات الأجسام. **الجواب عن الأول:** أن المساواة في أنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز مساواة في صفة سلبية، والمساواة في الصفة السلبية لا توجب المماثلة، واعلم أن جماعة من الجهال يظنون أنه لما كان الروح موجودًا ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز وجب أن يكون مثلاً للإله أو جزءًا للإله، وذلك جهل فاحش وغلط قبيح،

وتحقيقه ما ذكرناه من أن المساواة في السلوب لو أوجبت المماثلة لوجب القول باستواء كل المختلفات، وأن كل ماهيتين مختلفتين فلا بد أن يشتركا في سلب كل ما عداهما، فلتكن هذه الدقيقة معلومة فإنها مغلطة عظيمة للجهال. **والجواب عن الثاني:** أنه لما كان الإنسان في العرف والظاهر عبارة عن هذه الجثة أطلق عليه اسم الإنسان في العرف. **والجواب عن الثالث:** أن الرزق المذكور في الآية محمول على ما يقوي حالهم ويكمل كمالهم وهو معرفة الله ومحبته، بل نقول: هذا من أدل الدلائل على صحة قولنا لأن أبدانهم قد بليت تحت التراب، والله تعالى يقول: إن أرواحهم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش. وهذا يدل على أن الروح غير البدن.

وليكن هذا آخر كلامنا في هذا الباب ولنرجع إلى علم التفسير: ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وعلى قولنا قد ذكرنا فيه احتمالين، أما المفسرون فقالوا: إن النبي ﷺ لما قال لهم ذلك قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «بَلْ نَحْنُ وَأَنْتُمْ لَمْ نُؤتَ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً» فقالوا: ما أعجب شأنك يا محمد ساعة تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وساعة تقول هذا. فنزل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] إلى آخره وما ذكروه ليس بلازم لأن الشيء قد يكون قليلاً بالنسبة إلى شيء كثيرًا بالنسبة إلى شيء آخر، فالعلوم الحاصلة عند الناس قليلة جدًّا بالنسبة إلى علم الله وبالنسبة إلى حقائق الأشياء، ولكنها كثيرة بالنسبة إلى الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بَيَّن في الآية الأولى أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلاً بَيَّن في هذه الآية أنه لو شاء أن يأخذ منهم ذلك القليل أيضًا لقدر عليه، وذلك بأن يمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب، وهذا وإن كان أمرًا مخالفًا للعادة إلا أنه تعالى قادر عليه.

المسألة الثانية: احتج الكعبي بهذه الآية على أن القرآن مخلوق فقال: والذي يقدر على إزالته والذهاب به يستحيل أن يكون قديمًا بل يجب أن يكون محدثًا. وهذا الاستدلال بعيد لأن المراد بهذا الإذهاب إزالة العلم به عن القلوب وإزالة النقوش الدالة عليه عن المصحف، وذلك لا يوجب كون ذلك المعلوم المدلول محدثًا. وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي لا تجد من تتوكل عليه في رد شيء منه. ثم قال: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك. أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى (ولكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به) وهذا امتنان من الله ببقاء القرآن على أنه تعالى منَّ على جميع العلماء بنوعين من المنة: أحدهما: تسهيل ذلك العلم عليه. الثاني: إبقاء حفظه عليه. وقوله: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ فيه قولان: الأول: المراد أن فضله كان عليك كبيرًا بسبب إبقاء العلم والقرآن عليك. الثاني: المراد

أن فضله كان عليك كبيرًا بسبب أنه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود، فلما كان كذلك لا جرم أنعم عليك أيضًا بإبقاء العلم والقرآن عليك.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] بالغنا في بيان إعجاز القرآن، وللناس فيه قولان: منهم من قال: القرآن معجز في نفسه، ومنهم من قال: إنه ليس في نفسه معجزًا إلا أنه تعالى لما صرف دواعيهم عن الإثيات بمعارضته مع أن تلك الدواعي كانت قوية، كانت هذه الصرفة معجزة. والمختار عندنا في هذا الباب أن نقول: القرآن في نفسه إما أن يكون معجزًا أو لا يكون: فإن كان معجزًا فقد حصل المطلوب، وإن لم يكن معجزًا بل كانوا قادرين على الإتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفرة على الإتيان بهذه المعارضة وما كان لهم عنها صارف ومانع. وعلى هذا التقدير كان الإتيان بمعارضته واجبًا لازمًا، فعدم الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضًا للعادة، فيكون معجزًا، فهذا هو الطريق الذي نختاره في هذا الباب.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: هب أنه قد ظهر عجز الإنسان عن معارضته فكيف عرفتم عجز الجن عن معارضته؟ وأيضًا فلمَ لا يجوز أن يقال: إن هذا الكلام نظم الجن ألقوه على محمد ﷺ وخصوه به على سبيل السعي في إضلال الخلق فعلى هذا إنما تعرفون صدق محمد ﷺ إذا عرفتم أن محمدًا صادق في قوله أنه ليس من كلام الجن، بل هو من كلام الله تعالى فحينئذٍ يلزم الدور وليس لأحد أن يقول: كيف يعقل أن يكون هذا من قول الجن لأنا نقول: إن هذه الآية دلت على وقوع التحدي مع الجن، وإنما يحسن هذا التحدي لو كانوا فصحاء بلغاء، ومتى كان الأمر كذلك كان الاحتمال المذكور قائمًا. أجاب العلماء عن الأول بأن عجز البشر عن معارضته يكفي في إثبات كونه معجزًا. وعن الثاني أن ذلك لو وقع لوجب في حكمة الله أن يظهر ذلك التلبيس وحيث لم يظهر ذلك دل على عدمه، وعلى أنه تعالى قد أجاب عن هذا السؤال بالأجوبة الشافية الكافية في آخر سورة الشعراء في قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] وقد شرحنا هذه الأجوبة هناك فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: الآية دالة على أن القرآن مخلوق لأن التحدي بالقديم. وهذه المسألة قد ذكرناها أيضًا بالاستقصاء في سورة البقرة فلا فائدة في الإعادة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩﴾

وهذا الكلام يحتمل وجوهًا: أحدها: أنه وقع التحدي بكل القرآن كما في هذه الآية، ووقع التحدي أيضًا بعشر سور منه كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣] ووقع التحدي بالسورة الواحدة كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] ووقع التحدي بكلام من سورة واحدة كما في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه التحدي كما شرحناه، ثم إنهم مع ظهور عجزهم في جميع هذه المراتب بقوا مصرين على كفرهم. **وثانيها:** أن يكون المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أنا أخبرناهم بأن الذين بقوا مصرين على الكفر مثل قوم نوح وعاد وثمود، كيف ابتلاهم بأنواع البلاء وشرحنا هذه الطريقة مرارًا وأطوارًا، ثم إن هؤلاء الأقوام يعني أهل مكة لم ينتفعوا بهذا البيان بل بقوا مصرين على الكفر. **وثالثها:** أن يكون المراد أنه تعالى ذكر دلائل التوحيد ونفي الشركاء والأضداد في هذا القرآن مرارًا كثيرة، وذكر شبهات منكري النبوة والمعاد مرارًا وأطوارًا، وأجاب عنها ثم أردفها بذكر الدلائل القاطعة على صحة النبوة والمعاد، ثم إن هؤلاء الكفار لم ينتفعوا بسماعها بل بقوا مصرين على الشرك وإنكار النبوة، يريد (أبى) أكثر أهل مكة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي جحودًا للحق، وذلك أنهم أنكروا ما لا حاجة إلى إظهاره، فإن قيل: كيف جاز: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ولا يجوز أن يقال: ضربت إلا زيدًا؟ قلنا: لفظ (أبى) يفيد النفي كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفورًا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن بالدليل كون القرآن معجزًا وظهر هذا المعجز على وفق دعوى محمد ﷺ فحينئذٍ تم الدليل على كونه نبيًا صادقًا لأنا نقول: إن محمدًا ادعى النبوة وظهر المعجزة على وفق دعواه وكل من كان كذلك فهو نبي صادق، فهذا يدل على أن محمدًا ﷺ صادق، وليس من شرط كونه نبيًا صادقًا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها؛ لأنا لو فتحنا هذا الباب للزم أن لا ينتهي الأمر فيه إلى مقطع، وكلما أتى الرسول بمعجز اقترحوا عليه معجزًا آخر،

ولا ينتهي الأمر فيه إلى حد ينقطع عنده عناد المعاندين وتغلب الجاهلين؛ لأنه تعالى حكى عن الكفار أنهم بعد أن ظهر كون القرآن معجزًا التمسوا من الرسول ﷺ ستة أنواع من المعجزات القاهرة كما حكى عن ابن عباس (أن رؤساء أهل مكة أرسلوا إلى الرسول ﷺ وهم جلوس عند الكعبة فأتاهم فقالوا: يا محمد إن أرض مكة ضيقة فسير جبالها لننتفع فيها وفجر لنا فيها ينبوعًا أي نهرًا وعيونًا نزرع فيها فقال: لا أقدر عليه. فقال قائل منهم: أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا. فقال: لا أقدر عليه، فقيل: أو يكون لك بيت من زخرف أي من ذهب فيغنيك عنا. فقال: لا أقدر عليه، فقيل له أما تستطيع أن تأتي قومك بما يسألونك فقال لا أستطيع، قالوا فإذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فأسقِط السماء كما زعمت علينا كسفًا أي قطعًا بالعذاب. وقوله (كما زعمت) إشارة إلى قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] فقال عبد الله بن أمية المخزومي وأمه عمة رسول الله ﷺ: لا والذي يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلمًا فتصعد فيه ونحن ننظر إليك فتأتي بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ثم بعد ذلك لا أدري أنؤمن بك أم لا![1] فهذا شرح هذه القصة كما رواها ابن عباس.

المسألة الثانية: اعلم أنهم اقترحوا على رسول الله ﷺ أنواعًا من المعجزات: **أولها**: قولهم: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي (تَفْجُر) بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم مخففة واختاره أبو حاتم قال: لأن الينبوع واحد. والباقون بالتشديد واختاره أبو عبيدة ولم يختلفوا في الثانية مشددة لأجل الأنهار، لأنها جمع، يقال: فجرت الماء فجرًا وفجرته تفجيرًا، فمن ثَقَّل أراد به كثرة الأشجار من الينبوع وهو وإن كان واحدًا فلكثرة الانفجار فيه يحسن أن يثقل كما تقول ضرب زيد إذا كثر الضرب منه فيكثر فعله وإن كان الفاعل واحدًا ومن خفف فلأن الينبوع واحد، وقوله ﴿يَنۢبُوعًا﴾ يعني: عينًا ينبع الماء منه، تقول نبع الماء ينبع نَبعًا ونبوعًا ونَبْعًا ذكره الفراء، قال القوم: أزل عنا جبال مكة، وفجِّر لنا الينبوع ليسهل علينا أمر الزراعة والحراثة. **وثانيها**: قولهم: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ والتقدير كأنهم قالوا: هب أنك لا تفجر هذه الأنهار لأجلنا ففجِّرها من أجلك. **وثالثها**: قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾. **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر (كسَفًا) بفتح السين ها هنا وفي سائر القرآن بسكونها، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ها هنا، وفي الروم بفتح السين، وفي باقي القرآن بسكونها، وقرأ حفص في سائر القرآن بالفتح إلا في الروم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي في الروم بفتح السين، وفي سائر القرآن بسكون السين، قال الواحدي رحمه الله: ﴿كِسَفًا﴾، فيه وجهان

---

(١) رواه ابن إسحاق في (السيرة) (١/ ٦٨) قال: حدثني شيخ من أهل مكة قديم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس... به. وفي إسناده مجهول.

من القراءة سكون السين وفتحها، قال أبو زيد: يقال: كسفت الثوب أكسفه كسفًا إذا قطعته قطعًا. وقال الليث: الكسف، قطع العرقوب، والكسفة: القطعة، وقال الفراء: سمعت أعرابيًا يقول لبزاز: أعطني كسفة. يريد قطعة. فمن قرأ بسكون السين احتمل قوله وجوهًا، **أحدها**: قال الفراء أن يكون جمع كسفة مثل: دمنة ودمن وسدرة وسدر. **وثانيها**: قال أبو علي: إذا كان المصدر الكسف، فالكسف الشيء المقطوع كما تقول في الطحن والطبخ السقي، ويؤكد هذا قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ [الطور: ٤٤]. **وثالثها**: قال الزجاج: من قرأ: (كِسفًا) كأنه قال: أو يسقطها طبقًا علينا واشتقاقه من كسفت الشيء إذا غطيته، وأما فتح السين فهو جمع كسفة مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر، وهو نصب على الحال في القراءتين جميعًا كأنه قيل: أو تسقط السماء علينا مقطعة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ فيه وجوه: **الأول**: قال عكرمة: كما زعمت يا محمد أنك نبي فأسقط السماء علينا. **والثاني**: قال آخرون: كما زعمت أن ربك إن شاء فعل. **الثالث**: يمكن أن يكون المراد ما ذكره الله تعالى في هذه السورة في قوله: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الإسراء: ٦٨] فقيل: اجعل السماء قطعًا متفرقة كالحاصب وأسقطها علينا. **ورابعها**: قولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ وفي لفظ القبيل وجوه: **الأول**: القبيل بمعنى المقابل كالعشير بمعنى المعاشر، وهذا القول منهم يدل على جهلهم حيث لم يعلموا أنه لا يجوز عليه المقابلة، ويقرب منه قوله: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ [الأنعام: ١١١]. **والقول الثاني**: ما قاله ابن عباس: يريد فوجًا بعد فوج. قال الليث: وكل جند من الجن والإنس قبيل. وذكرنا ذلك في قوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٢٧]. **القول الثالث**: إن قوله ﴿قَبِيلًا﴾ معناه ها هنا ضامنًا وكفيلاً، قال الزجاج: يقال: قبلت به أقبل كقولك كفلت به أكفل، وعلى هذا القول فهو واحد أريد به الجمع كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. **والقول الرابع**: قال أبو علي: معناه المعاينة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]. **وخامسها**: قولهم: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال مجاهد: كنا لا ندري ما الزخرف حتى رأيت في قراءة عبد الله: (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ) قال الزجاج: الزخرف: الزينة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] أي أخذت كمال زينتها ولا شيء في تحسين البيت وتزيينه كالذهب. **وسادسها**: قولهم: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ قال الفراء: يقال: رقيت وأنا أرقى رقيًا ورقيًا وأنشد:

أَنْتَ الَّذِي كَلَّفْتَنِي رُقَى الدَّرَجْ عَلَى الْكَلَالِ وَالْمَشِيبِ وَالْعَرَجْ[1]

وقوله ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ أي في معارج السماء فحذف المضاف، يقال: رقى السلم ورقي الدرجة

---
(١) تقدم ترجمة الفراء.

ثم قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لن نؤمن لأجل رقيك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ من السماء فيه تصديقك قال عبد الله بن أمية: لن نؤمن حتى تضع على السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أن الأمر كما تقول. ولما حكى الله تعالى عن الكفار اقتراح هذه المعجزات قال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾. **وفيه مباحث:**

المبحث الأول: أنه تعالى حكى من قول الكفار قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وكل ذلك كلام القوم وإنا لا نجد بين تلك الكلمات وبين سائر آيات القرآن تفاوتًا في النظم، فصح بهذا صحة ما قاله الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا. والجواب: أن هذا القرآن قليل لا يظهر فيه التفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة فزال هذا السؤال.

البحث الثاني: هذه الآيات من أدل الدلائل على أن المجيء والذهاب على الله محال؛ لأن كلمة (سبحان) للتنزيه عما لا ينبغي، وقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تنزيه لله تعالى عن شيء لا يليق به أو نسب إليه مما تقدم ذكره، وليس فيما تقدم ذكره شيء لا يليق بالله إلا قولهم ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ﴾ فدل هذا على أن قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تنزيه لله عن الإتيان والمجيء، وذلك يدل على فساد قول المشبهة في أن الله تعالى يجيء ويذهب، فإن قالوا: لمَ لا يجوز أن يكون المراد تنزيه الله تعالى عن أن يتحكم عليه المتحكمون في اقتراح الأشياء؟ قلنا: القوم لم يتحكموا على الله، وإنما قالوا للرسول ﷺ: إن كنت نبيًّا صادقًا فاطلب من الله أن يشرفك بهذه المعجزات. فالقوم تحكموا على الرسول وما تحكموا على الله، فلا يليق حمل قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ على هذا المعنى فوجب حمله على قولهم: (أو تأتي بالله).

البحث الثالث: تقرير هذا الجواب أن يقال: إما أن يكون مرادكم من هذا الاقتراح أنكم طلبتم الإتيان من عند نفسي بهذه الأشياء أو طلبتم مني أن أطلب من الله تعالى إظهارها على يدي لتدل على كوني رسولاً حقًّا من عند الله. والأول باطل لأني بشر والبشر لا قدرة له على هذه الأشياء. والثاني أيضًا باطل لأني قد أتيتكم بمعجزة واحدة وهي القرآن والدلالة على كونها معجزة، فطلب هذه المعجزات طلب لما لا حاجة إليه ولا ضرورة، فكأن طلبها يجري مجرى التعنت والتحكم، وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على الله. فسقط هذا السؤال فثبت أن قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ جواب كافٍ في هذا الباب، وحاصل الكلام أنه سبحانه بيَّن بقوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ كونهم على الضلال في الإلهيات، وفي النبوات. أما في الإلهيات فيدل على ضلالهم قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أي سبحانه عن أن يكون له إتيان ومجيء وذهاب. وأما في النبوات فيدل على ضلالهم قوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ وتقريره ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى شبهة القوم في اقتراح المعجزات الزائدة وأجاب عنها، حكى عنهم شبهة أخرى وهي أن القوم استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولاً من البشر، بل اعتقدوا أن الله تعالى لو أرسل رسولاً إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وتقرير هذا الجواب أن بتقدير أن يبعث الله ملكًا رسولاً إلى الخلق، فالخلق إنما يؤمنون بكونه رسولاً من عند الله لأجل قيام المعجز الدال على صدقه، وذلك المعجز هو الذي يهديهم إلى معرفة ذلك الملك في ادعاء رسالة الله تعالى، فالمراد من قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ هو المعجز فقط فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك أو على يد البشر وجب الإقرار برسالته، فثبت أن يكون قولهم بأن الرسول لا بد وأن يكون من الملائكة تحكما فاسدا وتعنتا باطلا.

الوجه الثاني: من الأجوبة التي ذكرها الله في هذه الآية عن هذه الشبهة: هو أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة لأن الجنس إلى الجنس أميل، أما لو كان أهل الأرض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر، وهو المراد من قوله: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

الوجه الثالث من الأجوبة المذكورة في هذه الآية: قوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وتقريره أن الله تعالى لما أظهر المعجزة على وفق دعواي كان ذلك شهادة من الله تعالى على كوني صادقًا، ومن شهد الله على صدقه فهو صادق، فبعد ذلك قول القائل بأن الرسول يجب أن يكون ملكًا لا إنسانًا تحكُّم فاسد لا يُلتفت إليه.

ولما ذكر الله تعالى هذه الأجوبة الثلاثة أردفها بما يجري مجرى التهديد والوعيد فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعني يعلم ظواهرهم وبواطنهم، ويعلم من قلوبهم أنهم لا يذكرون هذه الشبهات إلا لمحض الحسد وحب الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ

زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات القوم في إنكار النبوة وأردفها بالوعيد الإجمالي وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦] ذكر بعده الوعيد الشديد على سبيل التفصيل، أما قوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ فالمقصود تسلية الرسول وهو أن الذين سبق لهم حكم الله بالإيمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين، ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال واستحال أن يوجد من يصرفهم عن ذلك الضلال. واحتج أصحابنا بهذه الآية على صحة مذهبهم في الهدى والضلال، والمعتزلة حملوا هذا الإضلال تارة على الإضلال عن طريق الجنة وتارة على منع الألطاف وتارة على التخلية وعدم التعرض له بالمنع، وهذه المباحث قد ذكرناها مرارًا فلا فائدة في الإعادة. أما قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ فإن قيل: كيف يمكنهم المشي على وجوههم؟ قلنا: الجواب من وجهين: **الأول:** إنهم يسحبون على وجوههم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]. **الثاني:** روى أبو هريرة قيل: يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «**إن الذي إِنَّ الَّذِي يُمْشِيهِمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهِمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ**»(١). قال حكماء الإسلام: الكفار أرواحهم شديدة التعلق بالدنيا ولذاتها، وليس لها تعلق بعالم الأبرار وحضرة الإله سبحانه وتعالى، فلما كانت وجوه قلوبهم وأرواحهم متوجهة إلى الدنيا لا جرم كان حشرهم على وجوههم. وأما قوله: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ فاعلم أن واحدًا قال لابن عباس رضي الله عنه: أليس أنه تعالى يقول: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣] وقال: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وقال: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] وقال حكاية عن الكفار: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال هاهنا: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾ أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه: **الأول:** قال ابن عباس: عميًا لا يرون شيئًا يسرهم صمًّا لا يسمعون شيئًا يسرهم بكمًا لا ينطقون بحجة. **الثاني:** قال في رواية عطاء: عميًا عن النظر إلى ما جعله الله لأوليائه بكمًا عن مخاطبة الله ومخاطبة الملائكة المقربين صمًّا عن ثناء الله تعالى على أوليائه. **الثالث:** قال مقاتل: إنه حين يقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] يصيرون عميًا بكمًا صمًّا، أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون. **الرابع:** أنهم يكونون رائين

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٠٥) حديث رقم/ ٣١٤٢ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن. وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٥٤) حديث رقم/ ٨٦٣٢ كلاهما من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة. . . به. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

سامعين ناطقين في الموقف ولولا ذلك لما قدروا على أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا إلزام حجة الله عليهم، إلا أنهم إذا أخذوا يذهبون من الموقف إلى النار جعلهم الله عميًا وبكمًا وصمًّا. **والجواب**: أن الآيات السابقة تدل على أنهم في النار يبصرون ويسمعون ويصيحون، أما قوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ فظاهر.

وأما قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾. **ففيه مباحث**:

البحث الأول: قال الواحدي الخبو سكون النار، يقال: خبت النار تخبو، إذا سكن لهبها، ومعنى خبت سكنت وطفئت، يقال في مصدره الخبو، وأخبأها المخبئ إخباء أي أخمدها. ثم قال: ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ قال ابن قتيبة: زدناهم سعيرًا أي تلهبًا.

البحث الثاني: لقائل أن يقول: إنه تعالى لا يخفف عنهم العذاب وقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ يدل على أن العذاب يخف في ذلك الوقت قلنا: (كلما خبت) يقتضي سكون لهب النار، ولا يدل هذا على أنه يخف العذاب في ذلك الوقت.

البحث الثالث: قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ ظاهره يقتضي وجوب أن تكون الحالة الثانية أزيد من الحالة الأولى، وإذا كان كذلك كانت الحالة الأولى بالنسبة إلى الحالة الثانية تخفيفًا. **والجواب**: الزيادة التي حصلت في الحالة الأولى أخف من حصولها في الحالة الثانية فكان العذاب شديدًا، ويحتمل أن يقال: لما عظم العذاب صار التفاوت الحاصل في أوقاته غير مشعور به نعوذ بالله منه ولما ذكر تعالى أنواع هذا الوعيد قال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ والباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ باء السببية، وهو حجة لمن يقول: العمل علة الجزاء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات منكري النبوة، عاد إلى حكاية شبهة منكري الحشر والنشر ليجيب عنها، وتلك الشبهة هي أن الإنسان بعد أن يصير رفاتًا ورميمًا يبعد أن يعود هو بعينه، وأجاب الله تعالى عنه بأن من قدر على خلق السماوات والأرض لم يبعد أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم، وفي قوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ قولان: الأول: المعنى قادر على أن يخلقهم ثانيًا فعبر عن خلقهم ثانيًا بلفظ المثل، كما يقول المتكلمون: إن الإعادة مثل الابتداء. القول الثاني: المراد قادر على أن يخلق عبيدًا آخرين يوحدونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة. وعلى هذا التفسير فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٩] وقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩] قال الواحدي: والقول هو الأول لأنه

أشبه بما قبله. ولما بَيَّن الله تعالى بالدليل المذكور أن البعث والقيامة أمر ممكن الوجود في نفسه، أردفه بأن لوقوعه ودخوله في الوجود وقتًا معلومًا عند الله وهو قوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي بعد هذه الدلائل الظاهرة أبوا إلا الكفر والنفور والجحود.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن الكفار لما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] طلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدتهم لتكثر أموالهم وتتسع عليهم معيشتهم، فبَيَّن الله تعالى لهم أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم وشحهم ولَمَا أقدموا على إيصال النفع إلى أحد، وعلى هذا التقدير فلا فائدة في إسعافهم بهذا المطلوب الذي التمسوه. فهذا هو الكلام في وجه النظم، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿لَّوْ أَنتُمْ﴾ فيه بحث يتعلق بالنحو وبحث آخر يتعلق بعلم البيان: أما البحث النحوي: فهو أن كلمة (لَوْ) من شأنها أن تختص بالفعل لأن كلمة (لَوْ) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، والاسم يدل على الذوات والفعل هو الذي يدل على الآثار والأحوال، والمنتفى هو الأحوال والآثار لا الذوات فثبت أن كلمة (لَوْ) مختصة بالأفعال وأنشدوا قول المتلمس:

لَوْ غَيْرُ أَخْوَالِي أَرَادُوا نَقِيصَتِي   نَصَبْتُ لَهُمْ فَوْقَ الْعَرَانِينِ مَأْتَما[1]

والمعنى: لو أراد غير أخوالي. وأما البحث المتعلق بعلم البيان فهو أن التقديم بالذكر يدل على التخصيص فقوله: ﴿أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ دلالة على أنهم هم المختصون بهذه الحالة الخسيسة والشح الكامل.

المسألة الثالثة: خزائن فضل الله ورحمته غير متناهية، فكان المعنى أنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها لبقيتم على الشح، وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشيء.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي بخيلاً، يقال: قتر يقتر قترًا وأقتر إقتارًا وقَتَّر تقتيرًا، إذا قصر في الإنفاق فإن قيل: فقد دخل في الإنسان الجوادُ الكريم. فالجواب من وجوه: الأول: أن الأصل في الإنسان البخل لأنه خُلق محتاجًا، والمحتاج لا بد أن يحب ما به يدفع الحاجة وأن يمسكه لنفسه؛ إلا أنه قد يجود به لأسباب من خارج، فثبت أن الأصل في الإنسان البخل. الثاني: أن الإنسان إنما يبذل لطلب الثناء والحمد وللخروج عن عهدة الواجب، فهو في الحقيقة ما أنفق إلا ليأخذ العوض فهو في الحقيقة بخيل. الثالث: إن المراد بهذا الإنسان المعهود السابق: وهم الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠].

---

(١) هذا البيت من البحر الطويل للشاعر المتلمس وهو المتلمس الضبعي وهو: جرير بن عبد العزى، أو عبد المسيح، من بني ضُبيعة، من ربيعة. ٤٣ ق. هـ/ ٥٨٠ م شاعر جاهلي، من أهل البحرين، وهو خال طرفة بن العبد. كان ينادم عمرو بن هند ملك العراق، ثم هجاه فأراد عمرو قتله ففر إلى الشام ولحق بآل جفنة، ومات ببصرى، اهـ بتصرف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المقصود من هذا الكلام أيضًا الجواب عن قولهم: (لن نؤمن لك حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة) فقال تعالى: إنا آتينا موسى معجزات مساوية لهذه الأشياء التي طلبتموها بل أقوى منها وأعظم، فلو حصل في علمنا أن جعلها في زمانكم مصلحة لفعلناها كما فعلنا في حق موسى، فدل هذا على إنا إنما لم نفعلها في زمانكم لعلمنا أنه لا مصلحة في فعلها.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى ذكر في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه الصلاة والسلام: أحدها: أن الله تعالى أزال العقدة من لسانه، قيل في التفسير: ذهبت العجمة وصار فصيحًا. وثانيها: انقلاب العصا حية. وثالثها: تلقف الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها. ورابعها: اليد البيضاء وخمسة أُخر وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. والعاشر: شق البحر وهو قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠] والحادي عشر: الحجر وهو قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]. الثاني عشر: إظلال الجبل وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١]. والثالث عشر: إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه. والرابع عشر والخامس عشر: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]. والسادس عشر: الطمس على أموالهم من النحل والدقيق والأطعمة والدراهم والدنانير، روي أن عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب عن قوله: ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فذكر محمد بن كعب في مسألة التسع حل عقدة اللسان والطمس، فقال عمر بن عبد العزيز: هكذا يجب أن يكون الفقيه!! ثم قال: يا غلام أخرج ذلك الجراب. فأخرجه فنفضه فإذا فيه بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفول وحمص وعدس كلها حجارة. **إذا عرفت هذا فنقول**: إنه تعالى ذكر في القرآن هذه المعجزات الست عشره لموسى عليه الصلاة والسلام وقال في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وتخصيص التسعة بالذكر لا يقدح فيه ثبوت الزائد عليه؛ لأنا بينا في أصول الفقه أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد بل نقول: إنما يتمسك في هذه المسألة بهذه الآية ثم نقول: أما هذه التسعة فقد اتفقوا على سبعة منها وهي العصا واليد

والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وبقي الاثنان ولكل واحد من المفسرين قول آخر فيهما، ولما لم تكن تلك الأحوال مستندة إلى حجة ظنية فضلاً عن حجة يقينية، لا جرم تركت تلك الروايات.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أقوال أجودها: ما روى صفوان بن عسال أنه قال: إن يهوديًّا قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات فذهبا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها فقال: «**هن أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا المحصنة ولا تولوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن تعدوا في السبت**» فقام اليهوديان فقبلا يديه ورجليه وقالا: نشهد أنك نبي ولولا نخاف القتل وإلا اتبعناك[(١)].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾.

فيه مباحث:

البحث الأول: فيه وجوه: الوجه الأول: أنه اعتراض دخل في الكلام والتقدير: ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات إذ جاء بني إسرائيل فاسألهم. وعلى هذا التقدير فليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد هذا العلم منهم بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول، فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد. والوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي سلهم عن فرعون. وقل له: أرسِل معي بني إسرائيل. والوجه الثالث: سل بني إسرائيل أي سلهم أن يوافقوك والتمس منهم الإيمان الصالح. وعلى هذا التأويل فالتقدير: فقلنا له: سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك.

البحث الثاني: أمر رسول الله ﷺ بأن يسأل بني إسرائيل معناه الذين كانوا موجودين في زمان النبي ﷺ والذين جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام هم الذين كانوا في زمانه، إلا أن الذين كانوا في زمان محمد ﷺ لما كانوا أولاد أولئك الذين كانوا في زمان موسى حسنت هذه الكناية. ثم أخبر تعالى أن فرعون قال لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ وفي لفظ المسحور وجوه: الأول: قال الفراء: إنه بمعنى الساحر كالمشؤوم والميمون. وذكرنا هذا في قوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]. الثاني: أنه مفعول من السحر أي أن الناس سحروك وخبلوك فتقول هذه الكلمات لهذا السبب. الثالث: قال محمد بن جرير الطبري: معناه أُعطيت علم السحر، فهذه العجائب التي تأتي بها من ذلك السحر.

ثم أجابه موسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

(١) أورده النيسابوري في (تفسيره) (٥/ ١٤٧) ذكره بغير إسناد.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قرأ الكسائي (عَلِمْتُ) بضم التاء أي علمت أنها من علم الله فإن علمت وأقررت وإلا هلكت. والباقون بالفتح، وضم التاء قراءة علي وفتحها قراءة ابن عباس، وكان علي رضي الله عنه يقول: والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذي علم فبلغ ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فاحتج بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] على أن فرعون وقومه كانوا قد عرفوا صحة أمر موسى عليه السلام. قال الزجاج: الأجود في القراءة الفتح لأن علم فرعون بأنها آيات نازلة من عند الله أوكد في الحجة، فاحتجاج موسى عليه الصلاة والسلام على فرعون بعلم فرعون أوكد من الاحتجاج بعلم نفسه. وأجاب الناصرون لقراءة علي عليه السلام عن دليل ابن عباس فقالوا: قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] يدل على أنهم استيقنوا شيئًا ما، فأما أنهم استيقنوا كون هذه الآيات نازلة من عند الله فليس في الآية ما يدل عليه، وأجابوا عن الوجه الثاني بأن فرعون قال ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] قال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ فكأنه نفى ذلك وقال: لقد علمت صحة ما أتيت به علمًا صحيحًا علم العقلاء. واعلم أن هذه الآيات من عند الله ولا تشك في ذلك بسبب سفاهتك.

البحث الثاني: التقدير: ما أنزل هؤلاء الآيات ونظيره قوله: والعيش بعد أولئك الأقوام.

وقوله: ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي حججًا بينة كأنها بصائر العقول، وتحقيق الكلام أن المعجزة فعل خارق للعادة فَعَله فاعله لغرض تصديق المدعى، ومعجزات موسى عليه الصلاة والسلام كانت موصوفة بهذين الوصفين لأنها كانت أفعالاً خارقة للعادة، وصرائح العقول تشهد بأن قلب العصا حية معجزة عظيمة لا يقدر عليها إلا الله، ثم إن تلك الحية تلقفت حبال السحرة وعصيهم على كثرتها ثم عادت عصا كما كانت، فأصناف تلك الأفعال لا يقدر عليها أحد إلا الله، وكذا القول في فرق البحر وإظلال الجبل، فثبت أن تلك الأشياء ما أنزلها إلا رب السماوات. الصفة الثانية: أنه تعالى إنما خلقها لتدل على صدق موسى في دعوى النبوة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حال كونها بصائر أي دالة على صدق موسى في دعواه، وهذه الدقائق لا يمكن فهمها من القرآن إلا بعد إتقان علم الأصول، وأقول: يبعد أن يصير غير علم الأصول العقلي قاهرًا في تفسير كلام الله. ثم حكى تعالى أن موسى قال لفرعون: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ واعلم أن فرعون قال لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ فعارضه موسى وقال له: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قال الفراء: المثبور: الملعون المحبوس عن الخير، والعرب تقول: ما ثبرك عن هذا؟ أي ما منعك منه وما صرفك؟ وقال أبو زيد: يقال: ثبرتُ فلانًا عن الشيء أثبره أي رددته عنه. وقال مجاهد وقتادة: هالكًا. وقال الزجاج: يقال: ثبر الرجل فهو مثبور، إذا هلك، والثبور: الهلاك، ومن معروف الكلام: فلان يدعو بالويل والثبور عند

مصيبة تناله، وقال تعالى: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣-١٤]. واعلم أن فرعون لما وصف موسى بكونه مسحورًا أجابه موسى بأنك مثبور يعني هذه الآيات ظاهرة، وهذه المعجزات قاهرة، ولا يرتاب العاقل في أنها من عند الله وفي أنه تعالى إنما أظهرها لأجل تصديقي وأنت تنكرها، فلا يحملك على هذا الإنكار إلا الحسد والعناد والغي والجهل وحب الدنيا، ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أراد فرعون أن يخرجهم، يعني موسى وقومه بني إسرائيل، ومعنى تفسير الاستفزاز تقدم في هذه السورة (من الأرض) يعني أرض مصر، قال الزجاج: لا يبعد أن يكون المراد من استفزازهم إخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية.

ثم قال: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ المعنى ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] أراد فرعون أن يُخرج موسى من أرض مصر لتخلص له تلك البلاد، والله تعالى أهلك فرعون وجعل ملك مصر خالصة لموسى ولقومه وقال لبني إسرائيل: اسكنوا الأرض خالصة لكم خالية من عدوكم. **قال تعالى:** ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَٓخِرَةِ﴾ يريد القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ من ها هنا وها هنا، واللفيف الجمع العظيم من أخلاط شتى، من الشريف والدنيء والمطيع والعاصي والقوي والضعيف. وكل شيء خلطته بشيء آخر فقد لففته، ومنه قيل: لففت الجيوش، إذا ضربت بعضها ببعض وقوله: التفت الزحوف. ومنه، ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩] والمعنى جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر أخلاطًا، يعني جميع الخلق المسلم والكافر والبر والفاجر.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٠٩﴾

اعلم أنه تعالى لما بَيّن أن القرآن معجز قاهر دال على الصدق في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ [الإسراء: ٨٨] ثم حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا سائر المعجزات، ثم أجاب الله بأنه لا حاجة إلى إظهار سائر المعجزات، وبَيَّن ذلك بوجوه كثيرة، منها أن قوم موسى عليه الصلاة والسلام آتاهم الله تسع آيات بينات فلما جحدوا بها أهلكهم الله، فكذا ها هنا، ثم إنه تعالى لو آتى قوم محمد تلك المعجزات التي اقترحوها ثم كفروا بها، وجب إنزال عذاب الاستئصال بهم، وذلك غير جائز في الحكمة لعِلمه تعالى أن منهم من يؤمن والذي لا يؤمن فسيظهر من نسله من يصير مؤمنًا.

ولما تم هذا الجواب عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ والمعنى أنه ما أردنا بإنزاله إلا تقرير الحق والصدق، وكما أردنا هذا المعنى فكذلك وقع هذا المعنى وحصل.

وفي هذه الآية فوائد.

الفائدة الأولى: أن الحق هو الثابت الذي لا يزول، كما أن الباطل هو الزائل الذاهب، وهذا الكتاب الكريم مشتمل على أشياء لا تزول، وذلك لأنه مشتمل على دلائل التوحيد وصفات الجلال والإكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الأنبياء وإثبات الحشر والنشر والقيامة، وكل ذلك مما لا يقبل الزوال، ومشتمل أيضًا على شريعة باقية لا يتطرق إليها النسخ والنقض والتحريف، وأيضًا فهذا الكتاب كتاب تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائغين وتبديل الجاهلين كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فكان هذا الكتاب حقًّا من كل الوجوه.

الفائدة الثانية: أن قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ يفيد الحصر، ومعناه أنه ما أُنزل لمقصود آخر سوى إظهار الحق. وقالت المعتزلة: وهذا يدل على أنه ما قصد بإنزاله إضلال أحد من الخلق ولا إغواؤه ولا منعه عن دين الله.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ يدل على أن الإنزال غير النزول، فوجب أن يكون الخلق غير المخلوق، وأن يكون التكوين غير المكون على ما ذهب إليه قوم.

الفائدة الرابعة: قال أبو علي الفارسي: الباء في قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ بمعنى (مع) كما تقول: نزل بُعدته وخرج بسلاحه، والمعنى أنزلنا القرآن مع الحق. وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ فيه احتمالان: أحدهما: أن يكون التقدير: نزل بالحق. كما تقول: نزلت بزيد. وعلى هذا التقدير الحق محمد ﷺ لأن القرآن نزل به أي عليه. الثاني: أن تكون بمعنى (مع) كما قلنا في قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك - لا شيء عليك من كفرهم فإني ما أرسلتك إلا مبشرًا للمطيعين ونذيرًا للجاحدين، فإن قبلوا الدين الحق انتفعوا به، وإلا فليس عليك من كفرهم شيء.

ثم قال: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: أن القوم قالوا: هب أن هذا القرآن معجز إلا أنه بتقدير أن يكون الأمر كذلك، فكان من الواجب أن يُنزله الله عليك دفعة واحدة ليظهر فيه وجه الإعجاز. فجعلوا إتيان الرسول بهذا القرآن متفرقًا شبهة في أنه يتفكر في فصل فصل ويقرأه على الناس، فأجاب الله عنه بأنه إنما فرقه ليكون حفظه أسهل ولتكون الإحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل.

البحث الثاني: قال سعيد بن جبير: نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء السفلى، ثم فُصل في السنين التي نزل فيها. قال قتادة: كان بين أوله وآخره عشرون سنة. والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ننزله جملة لتقرأه على الناس على مكث (بالفتح والضم) على مهل وتؤدة أي لا على فورة. قال الفراء: يقال: مكَث ومكُث يمكث، والفتح قراءة عاصم في قوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢].

البحث الثالثة: الاختيار عند الأئمة (فرقناه) بالتخفيف وفسره أبو عمرو: (بيناه) قال أبو عبيد: التخفيف أعجب إليَّ لأن تفسيره بيناه، ومن قرأ بالتشديد لم يكن له معنى إلا أنه أُنزل متفرقًا فالفرق يتضمن التبيين، ويؤكده ما روى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال: فرقت أفرق بين الكلام، وفرقت بين الأجسام. ويدل عليه أيضًا قوله ﷺ: «الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا» (١) ولم يقل يفترقا والتفرق مطاوع التفريق والافتراق مطاوع الفرق. ثم قال: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ أي على الحد المذكور والصفة المذكورة ثم قال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ يخاطب الذين اقترحوا تلك المعجزات العظيمة على وجه التهديد والإنكار، أي إنه تعالى أوضح البينات والدلائل وأزاح الأعذار، فاختاروا ما تريدون. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي من قبل نزول القرآن، قال مجاهد: هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل على محمد ﷺ خروا سجدًا، منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام. ثم قال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وفيه أقوال: القول الأول: قال الزجاج: الذقن مجمع اللحيين وكلما يبتدئ الإنسان بالخرور إلى السجود فأقرب الأشياء من الجبهة إلى الأرض الذقن. والقول الثاني: أن الأذقان كناية عن اللحى والإنسان إذا بالغ عند السجود في الخضوع والخشوع ربما مسح لحيته على التراب، فإن اللحية يبالغ في تنظيفها فإذا عفرها الإنسان بالتراب فقد أتى بغاية التعظيم. والقول الثالث: أن الإنسان إذا استولى عليه خوف الله تعالى فربما سقط على الأرض في معرض السجود كالمغشي عليه، ومتى كان الأمر كذلك كان خروره على الذقن في موضع السجود. فقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته.

ثم بقي في الآية سؤالان: السؤال الأول: لمَ قال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ولم يقل يسجدون؟ والجواب المقصود من ذكر هذا اللفظ مسارعتهم إلى ذلك حتى أنهم يسقطون. السؤال الثاني: لمَ قال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ ولم يقل على الأذقان؟ والجواب: العرب تقول إذا خر الرجل فوقع على وجهه خر للذقن، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ والمعنى أنهم يقولون في سجودهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي ينزهونه ويعظمونه: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي بإنزال القرآن

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (البيوع) باب (إذا بين البيعان ولم يكتما ونصحا) (٤/ ٣٦٢) حديث رقم/ ٢٠٧٩ / ومسلم في كتاب (البيوع) باب (الصدق في البيع والبيان) (٣/ ٤٧/ ١١٦٤) جميعًا من طريق شعبة . . . به

وبعث محمد. وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا من أهل الكتاب لأن الوعد ببعثة محمد سبق في كتابهم فهم كانوا ينتظرون إنجاز ذلك الوعد. ثم قال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهما خرورهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن، ويدل عليه قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ويجوز أن يكون تكرار القول دلالة على تكرار الفعل منهم. وقوله: ﴿يَبْكُونَ﴾ معناه الحال: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي تواضعًا.

واعلم أن المقصود من هذه الآية تقرير تحقيرهم والازدراء بشأنهم وعدم الاكتراث بهم وبإيمانهم وامتناعهم منه، وأنهم وإن لم يؤمنوا به فقد آمن به من هو خير منهم.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): المراد بهما الاسم لا المسمى و(أو) للتخيير بمعنى: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ أي سموا بهذا الاسم أو بهذا أو اذكروا إما هذا وإما هذا، والتنوين في ﴿أَيًّا﴾ عوض عن المضاف إليه و ﴿مَّا﴾ صلة للإبهام المؤكد لما في (أي) والتقدير أي هذين الاسمين سميتم وذكرتم فله الأسماء الحسنى. والضمير في قوله: ﴿فَلَهُ﴾ ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين ولكن إلى مسماهما وهو ذاته عز وعلا والمعنى: أيًّا ما تدعوا فهو حسن. فوضع موضعه قوله: ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ لأنه إذا حسنت أسماؤه فقد حسن هذان الاسمان لأنهما منها ومعنى حُسْن أسماء الله كونها مفيدة لمعاني التحميد والتقديس، وقد سبق الاستقصاء في هذا الباب في آخر سورة الأعراف في تفسير قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

واحتج الجبائي بهذه الآية فقال: لو كان تعالى هو الخالق للظلم والجور لصح أن يقال: يا ظالم وحينئذٍ يبطل ما ثبت في هذه الآية من كون أسمائه بأسرها حسنة. **والجواب:** أنا لا نسلم أنه لو كان خالقًا لأفعال العباد لصح وصفه بأنه ظالم وجائر، كما أنه لا يلزم من كونه خالقًا للحركة والسكون والسواد والبياض أن يقال: يا متحرك ويا ساكن ويا أسود ويا أبيض. فإن قالوا: فيلزم جواز أن يقال: يا خالق الظلم والجور. قلنا: فيلزمكم أن تقولوا: يا خالق العذرات والديدان والخنافس. وكما أنكم تقولون أن ذلك حق في نفس الأمر ولكن الأدب أن يقال يا خالق السموات والأرض. فكذا قولنا هنا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾. وفيه مباحث:

البحث الأول: قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيه أقوال: الأول: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال: كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة، فإذا سمعه المشركون سبوه

وسبوا من جاء به فأوحى الله تعالى إليه: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمع المشركون فيسبوا الله عدوًا بغير علم: ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا تُسمع أصحابك وابتغ بين ذلك سبيلاً. القول الثاني: روي أن النبي ﷺ طاف بالليل على دور الصحابة، وكان أبو بكر يخفي صوته بالقراءة في صلاته وكان عمر يرفع صوته، فلما جاء النهار وجاء أبو بكر وعمر فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لِمَ تخفي صوتك؟» فقال أناجي ربي، وقد علم حاجتي. وقال لعمر: «لم ترفع صوتك؟» فقال: أزجر الشيطان وأوقظ الوسنان. فأمر النبي ﷺ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يَرْفَعَ صَوْتَهُ قَلِيلاً وَعُمَرَ أَنْ يُخْفِضَ صَوْتَهُ قَلِيلاً [(١)]. القول الثالث: معناه: ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار. والقول الرابع: أن المراد بالصلاة الدعاء. وهذا قول عائشة رضي الله عنها وأبي هريرة ومجاهد قالت عائشة رضي الله عنها: هي في الدعاء. وروي هذا مرفوعًا أن النبي ﷺ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الدُّعَاءِ والمسألة» [(٢)] لا ترفع صوتك فتذكر ذنوبك فيسمع ذلك فتعير بها، فالجهر بالدعاء منهي عنه والمبالغة في الإسرار غير جائزة، والمستحب من ذلك التوسط وهو أن يُسمع نفسه، كما روي عن ابن مسعود أنه قال: لم يخافت من أسمع أذنيه. والقول الخامس: قال الحسن: لا تُراءِ بعلانيتها ولا تسئ بسريتها.

البحث الثاني: الصلاة عبارة عن مجموع الأفعال والأذكار والجهر والمخافتة من عوارض الصوت، فالمراد هاهنا من الصلوات بعض أجزاء ماهية الصلاة وهو الأذكار والقرآن وهو من باب إطلاق اسم الكل لإرادة الجزء.

البحث الثالث: يقال خفت صوته يخفت خفتًا وخفوتًا، إذا ضعف وسكن، وصوت خفيت أي خفيض، ومنه يقال للرجل إذا مات قد خفت أي انقطع كلامه، وخفت الزرع إذا ذبل، وخفت الرجل يخافت بقراءته إذا لم يبين قراءته برفع الصوت، وقد تخافت القوم إذا تساروا بينهم وأقول: ثبت في كتب الأخلاق أن كلا طرفي الأمور ذميم والعدل هو رعاية الوسط؛ ولهذا المعنى مدح الله هذه الأمة بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال في مدح المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] وأمرَ الله رسوله فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] فكذا هاهنا نهى عن الطرفين وهو الجهر والمخافتة وأمَر بالتوسط بينهما فقال: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ومنهم من قال: الآية منسوخة بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وهو بعيد. واعلم أنه تعالى لما أمر أن لا يُذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى علَّمه كيفية التحميد فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٥٨٦) من طريق ابن علية عن سلمة عن علقمة عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر . . . فذكره.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الدعوات) باب (الدعاء في الصلاة) (٥/ ٢٣٣١) حديث رقم/ ٥٩٦٨ ومسلم في (صحيحه) (١/ ٣٩/ ٤٤٧) كلاهما من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة . . . به.

﴿لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ .

فذكر هاهنا من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب **ثلاثة أنواع من الصفات.**

النوع الأول: من الصفات: أنه لم يتخذ ولدًا والسبب فيه وجوه: الأول: أن الولد هو الشيء المتولد من جزء من أجزاء شيء آخر، فكل من له ولد فهو مركب من الأجزاء، والمركب محدث والمحدث محتاج لا يقدر على كمال الإنعام فلا يستحق كمال الحمد. الثاني: أن كل من له ولد فإنه يمسك جميع النعم لولده، فإذا لم يكن له ولد أفاض كل تلك النعم على عبيده. الثالث: أن الولد هو الذي يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه، فلو كان له ولد لكان منقضيًا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الإنعام في كل الأوقات، فوجب أن لا يستحق الحمد على الإطلاق.

والنوع الثاني: من الصفات السلبية: قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك فحينئذٍ لا يُعرف كونه مستحقًّا للحمد والشكر.

والنوع الثالث: قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولي من الذل لم يجب شكره؛ لتجويز أن غيره حمله على ذلك الإنعام أو منعه منه، أما إذا كان منزهًا عن الولد وعن الشريك وكان منزهًا عن أن يكون له ولي يلي أمره، كان مستوجبًا لأعظم أنواع الحمد ومستحقًّا لأجل أقسام الشكر. **ثم قال تعالى:** ﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ ومعناه أن التحميد يجب أن يكون مقرونًا بالتكبير ويحتمل أنواعًا من المعاني: أولها: تكبيره في ذاته وهو أن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته وأنه غني عن كل ما سواه. وثانيها: تكبيره في صفاته وذلك من ثلاثة أوجه: أولها: أن يعتقد أن كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال وهو منزه عن كل صفات النقائص. وثالثها: أن يعتقد أن كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات. ورابعها: أن يعتقد أنه كما تقدست ذاته عن الحدوث وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال، فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال.

النوع الثالث: من تكبير الله: تكبيره في أفعاله. وعند هذا تختلف أهل الجبر والقدر: فقال أهل السنة: إنا نحمد الله ونكبره ونعظمه عن أن يجري في سلطانه شيء لا على وفق حكمه وإرادته، فالكل واقع بقضاء الله وقدرته ومشيئته وإرادته. وقالت المعتزلة: إنا نكبر الله ونعظمه عن أن يكون فاعلاً لهذه القبائح والفواحش بل نعتقد أن حكمته تقتضي التنزيه والتقديس عنها وعن إرادتها. وسمعت أن الأستاذ أبا إسحاق الإسفراييني كان جالسًا في دار الصاحب بن عباد فدخل القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني فلما رآه قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء! فقال الأستاذ أبو إسحاق: سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

النوع الرابع: تكبير الله في أحكامه وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع وله الأمر والنهي والرفع والخفض، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه يُعز من يشاء ويُذل من يشاء.

النوع الخامس: تكبير الله في أسمائه، وهو أن لا يُذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية المنزهة.

النوع السادس: من التكبير: هو أن الإنسان بعد أن يبلغ في التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره - يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله، ولسانه لا يفي بشكره، وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته، فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافيًا بكنه مجده وعزته. وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم، ونسأل الله تعالى الرحمة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت، إنه الكريم الرحيم وبالله العصمة والتوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (تَمَّ تَفْسِيرُ هَذِهِ السُّورَةِ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ يَوْمَ الْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ الْمُحَرَّمِ فِي بَلْدَةِ غِزْنِينَ سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّمِائَةٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ عَلَى نبيه محمد وآله وصحبه وسلم تسليما).

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ [الآية:٧٦] نزلت حين جاء رسولَ الله ﷺ وَفْدُ ثَقيف، وحين قالتِ اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الآية:٨٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ الآية [٦٠]. وقال مقاتل: وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ الآية [١٠٧]. وقال ابن مسعود ﷺ في بني إسرائيل والكهف: إنهنَّ من العِتاق الأول، وهُنَّ مِن تِلادي؛ يريد: من قديم كسبه[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾

فيه ثمان[٢] مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ «سبحان»: اسمٌ موضوعٌ موضِعَ المصدر، وهو غير مُتمكِّن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ولم يَجْرِ منه فِعْلٌ، ولم ينصرفْ؛ لأنَّ في آخره زائدتين، تقول: سبَّحتُ تسبيحاً وسُبحاناً، مثل: كفَّرتُ اليمين تكفيراً وكُفراناً[٣]. ومعناه: التنزيهُ والبراءة لله عزَّ وجلَّ من كلِّ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤ ، وأثر ابن مسعود أخرجه البخاري (٤٧٣٩) وفيه زيادة: ومريم وطه والأنبياء.

(٢) كذا في جميع النسخ، والملاحظ أن المسائل ست.

(٣) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٥ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ١٤٥ .

نقص. فهو ذكرُ تعظيمٍ[١] لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأمّا قول الشاعر:

أقول لمّا جاءني فَخْرُهُ   سبحانَ مِن عَلْقَمةَ الفاخِرِ

فإنما ذكره على طريق النادر[٢]. وقد روى طلحة بنُ عبيد الله الفيَّاض أحدُ العشرة أنه قال للنبيِّ ﷺ: ما معنى سبحانَ الله؟ فقال: «تنزيهُ اللهِ من كلِّ سوء»، والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذي من معناه لا من لفظه، إذ لم يَجْرِ من لفظه فِعْلٌ، وذلك مثل: قَعَدَ القُرْفُصاءَ، واشتملَ الصَّمَّاء، فالتقدير عنده: أُنزِّهُ اللهَ تنزيهاً، فوقع «سبحان الله» مكانَ قولِكَ: تنزيهاً[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ «أسرى» فيه لغتان: سرى وأسرى[٤]، كسقى وأسقى، كما تقدّم[٥]. قال:

أسْرتْ عليه من الجَوْزاء ساريَةٌ   تُزْجِي الشَّمالَ عليه جامِدَ البَرَدِ

وقال آخر:

حَيِّ النَّضِيرةَ ربَّةَ الخِدْرِ   أسْرَتْ إليَّ ولم تكن تَسْري

فجمع بين اللغتين في البيتين[٦]. والإسراء: سير الليل؛ يقال: سَرَيت مَسْرًى وسُرًى، وأسريتُ إسراءً؛ قال الشاعر:

وليلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ   ولم يَلِتْني من سُراها لَيْتُ[٧]

---

(١) في جميع النسخ: عظيم، والتصويب من النكت والعيون.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٢٣ ، والبيت قائله الأعشى الكبير، وقد سلف ١/ ٤١٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٥ ، والحديث سلف ١/ ٤١٢ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣١ .

(٥) ٢/ ١٣٥ .

(٦) سلف هذا الكلام ١١/ ١٨٢ ، والبيت الأول قائله النابغة الذبياني، والبيت الثاني قائله حسان بن ثابت.

(٧) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٢٤ ، والبيت نسبه ابن السكيت في إصلاح المنطق ص١٥٣ إلى رؤبة بن العجاج، ولم نقف عليه في ديوانه، ونسبه أبو علي القالي في أماليه ٢/ ٢٤٤ إلى ابن الأعرابي.

وقيل: أسرى: سار من أوّل الليل، وسرى: سار من آخره، والأوّل أعرف[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ قال العلماء: لو كان للنبيّ ﷺ اسمٌ أشرفُ منه لسمَّاه به في تلك الحالة العلِيَّة. وفي معناه أنشدوا:

يا قومِ قلبي عند زهراءِ ... يعرِفُه السامعُ والرَّائي

لا تَدْعُني إلَّا بيا عبدَها ... فإنَّه أشرفُ أسمائي

وقد تقدَّم[٢]. قال القُشَيْرِيُّ: لمَّا رفعه الله تعالى إلى حضرته السَّنيَّة، وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسمَ العبودية تواضعاً للأمة.

الرابعة: ثبت الإسراء في جميع مصنَّفات الحديث، ورُوي عن الصحابة في كلِّ أقطار الإسلام، فهو من المتواتر بهذا الوجه، وذكر النقَّاش ممن رواه عشرين صحابياً[٣]. روى الصحيح عن أنس بن مالك، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أُتيتُ بالبُراقِ وهو دابَّةٌ أبيَضُ [طويلٌ] فوق الحمار ودون البغل، يضع حافِرَه عند منتهى طَرْفِه - قال - فركبتُه حتى أتيتُ بيت المقدس - قال - فربطتُه بالحَلْقةِ التي تَرْبط بها الأنبياء - قال - ثم دخلتُ المسجدَ فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريلُ عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللَّبنَ، فقال جبريل: اخترتَ الفِطْرَة - قال - ثم عَرَجَ بنا إلى السماء...» وذكر الحديث[٤]. ومما ليس في الصحيحين ما خرَّجه الآجُرِّيُّ والسَّمَرْقَنْديُّ[٥]، قال الآجُرِّيُّ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ في قوله تعالى:

---

(١) سلف هذا الكلام ١١/ ١٨٢ .

(٢) ١/ ٣٤٩ من غير نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤ .

(٤) صحيح مسلم (١٦٢) (٢٥٩) وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أحمد (١٢٥٠٥).

(٥) الآجري في الشريعة (١٠٢٧)، وأبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢/ ٢٥٨ ، ولم يذكر إسناده، أما الآجري فرواه من طريق أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري؛ به. أبو هارون العبدي: اسمه عمارة بن جُوين، وهو متروك، ومنهم من كذَّبه. تهذيب التهذيب ٣/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ قال أبو سعيد: حدثنا رسول الله ﷺ عن ليلةَ أُسْرِيَ به، قال النبيُّ ﷺ: «أُتِيتُ بدابَّةٍ هي أشبَهُ الدوابِّ بالبغل، له أُذُنانِ مضطربتان[١]، وهو البُراق الذي كانتِ الأنبياءُ تركبُه قبلُ، فركبتُه، فانطلقَ تقعُ يداه عند منتهى بصَرِه، فسمعتُ نداءً عن يميني: يا محمد، على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ عليه، ثم سمعتُ نداءً عن يساري: يا محمد، على رِسْلِكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ عليه، ثم استقبلَتْني امرأةٌ عليها من كلِّ زينة الدنيا، رافعةً يدَيها تقول: على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ، ثم أتيتُ بيت المقدس الأقصى، فنزلتُ عن الدابة، فأوثقتُه في الحَلْقة التي كانتِ الأنبياء تُوثِقُ بها، ثم دخلتُ المسجدَ وصلَّيتُ فيه، فقال لي جبريل عليه السلام: ما سمعتَ يا محمد؟ فقلتُ: سمعتُ نداءً عن يميني: يا محمد، على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ، فقال: ذلك داعي اليهود، ولو وقفتَ لتهوَّدَتْ أمَّتُكَ - قال - ثم سمعتُ نداءً عن يساري: على رِسْلِكَ حتى أسألَكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّج عليه، فقال: ذلك داعي النصارى، أمَا إنَّكَ لو وقفتَ لتنصَّرتْ أمَّتُكَ - قال - ثم استقبلَتْني امرأةٌ عليها من كلِّ زينة الدنيا، رافعةً يدَيها تقول: على رِسْلِكَ، فمضَيتُ ولم أُعَرِّجْ عليها، فقال: تلكَ الدنيا لو وقفتَ لاخترتَ الدنيا على الآخرة - قال - ثم أُتِيتُ بإناءين أحدُهما فيه لبنٌ والآخرُ فيه خمرٌ، فقيل لي: خُذْ فاشرَبْ أيَّهما شئتَ، فأخذتُ اللبنَ فشربْتُه، فقال لي جبريل: أصبْتَ الفِطْرة، ولو أنَّكَ أخذْتَ الخمرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ، ثم جاء بالمعراج الذي تعرُجُ فيه أرواح بني آدم فإذا هو أحسنُ ما رأيتُ، ألم[٢] تروا إلى الميت كيف يُحِدُّ بصرَه إليه؟ فعُرِجَ بنا حتى انتهينا إلى[٣] باب السماء الدنيا، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومَنْ معك؟

---

(١) في النسخ الخطية: يخطرفان، وفي (م): يضطربان، والمثبت من الشريعة للآجري.

(٢) في (م): أو لم.

(٣) في (م): أتينا، وفي النسخ الخطية سقطت كلمة إلى، والمثبت من الشريعة.

قال: محمد. قيل[١]: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. ففتحوا لي، وسلَّموا عليَّ، وإذا مَلَكٌ يحرسُ السماءَ يُقال له: إسماعيل، معه سبعون ألف مَلَك، مع كلِّ مَلَكٍ مئة ألف ـ قال ـ ﴿وما يعلم جُنُودَ رَبِّك إلا هو...﴾ [المدثر: ٣١] ـ وذكر الحديث إلى أن قال ـ ثم مضينا إلى السماء الخامسة، فإذا أنا بهارون بن عمران المُحَبِّ في قومه، وحولَه تَبَعٌ كثيرٌ من أمته ـ فوصفَه النبيُّ ﷺ وقال ـ طويلُ اللِّحية، تكاد لِحيتُه تضرِبُ في سُرَّته، ثم مضينا إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى، فسلم عليَّ ورحَّب بي ـ فوصفه النبيُّ ﷺ فقال ـ رجلٌ كثير الشعر لو[٢] كان عليه قميصان خرجَ شعرُه منهما...» الحديث.

وروى البزَّار[٣] أنَّ رسول الله ﷺ أُتِيَ بفرسٍ فحملَ عليه، كلُّ خُطوةٍ منه أقصى بَصرِه... وذكر الحديث.

وقد جاء في صفة البُراق من حديث ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائمٌ في الحِجْر إذ أتاني آتٍ فحرَّكني برِجْلِه، فأتبعتُ الشخصَ فإذا هو جبريل عليه السلام قائمٌ على باب المسجد معه دابَّةٌ دون البغل وفوق الحمار، وجهُها وجهُ إنسان، وخُفُّها خُفُّ حافر، وذَنَبُها ذنبُ ثور، وعُرْفُها عُرْفُ الفرس، فلما أدناها مني جبريل عليه السلام نفرَتْ ونفشَتْ عُرْفَها، فمسحها جبريل عليه السلام وقال: يا بُرْقةُ، لا تَنْفِري من محمد، فواللهِ ما ركبَكِ مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ أفضلُ من محمدٍ ﷺ ولا أكرمُ على الله منه. قالت: قد علمتُ أنه كذلك، وأنه صاحبُ الشفاعة، وإني أُحِبُّ أن أكون في شفاعته. فقلت: أنتِ في شفاعتي إن شاء الله تعالى...» الحديث[٤].

---

(١) في (م): قالوا، وفي النسخ الخطية: قال، والمثبت من الشريعة.

(٢) في (م): ولو.

(٣) كما في «كشف الأستار» (٥٥) من طريق أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية أو غيره، عن أبي هريرة، مرفوعاً. أبو جعفر الرازي سيئ الحفظ. تهذيب التهذيب ٤/٥٠٣ . ثم إن الربيع رواه على الشك، فيحتمل أن يكون عن رجلٍ مبهم.

(٤) ذكر الطبرسي في مجمع البيان ١٦/٩ بعضه، وذكر صاحب السيرة الحلبية ٢/٧٨ بأن الثعلبي رواه في تفسيره بسند ضعيف.

وذكر أبو سعيد عبد الملك بن محمد النَّيْسابوري[١] عن أبي سعيد الخُدريِّ قال: لمَّا مرَّ النبيُّ ﷺ بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة قال: «مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح الذي وُعِدْنا أن نراه فلم نَرَهُ إلَّا الليلة ـ قال ـ فإذا فيها مريمُ بنت عمران لها سبعون قصراً من لؤلؤٍ، ولِأُمِّ موسى بن عمران سبعون قصراً من مرجانةٍ حمراءَ مُكلَّلةٍ باللؤلؤ، أبوابُها وأسِرَّتُها من عِرْقٍ واحد، فلما عرَجَ المعراج إلى السماء الخامسة ـ وتسبيحُ أهلها: سُبحانَ مَنْ جمَعَ بين الثلج والنار، من قالها مرةً واحدةً كان له مثلُ ثوابِهم ـ استفتحَ البابَ جبريلُ عليه السلام، ففُتِحَ له، فإذا هو بكهلٍ لم يُرَ قَطُّ كَهْلٌ أجملَ منه، عظيمُ العينين، تضرِبُ لحيتُه قريباً من سُرَّته، قد كاد أن تكون شَمْطةً[٢]، وحوله قومٌ جلوسٌ يقصُّ عليهم، فقلتُ: يا جبريل، من هذا؟ قال: هارون المُحَبُّ في قومه...» وذكر الحديث.

فهذه نبذةٌ مختصرةٌ من أحاديث الإسراء خارجةٌ عن الصحيحين، ذكرها أبو الربيع سليمان بن سَبُع بكمالها في كتاب «شفاء الصدور»[٣] له. ولا خلافَ بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فُرضَتْ على النبيِّ ﷺ بمكةَ في حين الإسراء حين عُرِجَ به إلى السماء. واختلفوا في تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراءً بروحه أو جسده، فهذه ثلاث مسائل تتعلَّق بالآية، وهي مما ينبغي الوقوف عليها والبحث عنها، وهي أهمُّ من سَرْد تلك الأحاديث، وأنا أذكر ما وقفتُ عليه فيها من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعون الله تعالى:

فأما **المسألة الأولى**: وهي هل كان إسراءً بروحه أو جسده؛ اختَلفَ في ذلك

---

(١) هو أبو سعيد الواعظ الحافظ، صاحب كتاب «شرف المصطفى»، توفي سنة ٤٠٦هـ. كشف الظنون ٢/ ١٠٤٥.

(٢) من الشَّمَط: وهو بياض شعر الرأس يخالطه سواده. الصحاح (شمط).

(٣) قال صاحب مشارع الأشواق: وقفت عليه ـ يعني كتاب «شفاء الصدور» ـ في نحو أربعة أسفار، يشتمل على أحاديث في فضائل الأعمال، وضع فيه مؤلفه من عجائب الغرائب أصولاً وفروعاً، جمع فيه وادَّعى، وأودع أحاديث عريةً عن الإسناد. كشف الظنون ٢/ ١٠٥٠.

السلفُ والخلف، فذهبت طائفةٌ إلى أنه إسراءٌ بالروح، ولم يفارِقْ شخصُه مضجَعَه، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الأنبياء حقٌّ. ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحُكيَ عن الحسن وابن إسحاق. وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يقظةً إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ فجعل المسجدَ الأقصى غاية الإسراء. قالوا: ولو كانوا الإسراء بجسده إلى زائدٍ على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغَ في المدح. وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراءً بالجسد وفي اليقظة، وأنه ركب البراقَ بمكة، ووصل إلى بيت المقدس وصلَّى فيه ثم أُسْرِيَ بجسده. وعلى هذا تدلُّ الأخبارُ التي أشرنا إليها والآية. وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعدَلُ عن الظاهرِ والحقيقةِ إلى التأويلِ إلا عند الاستحالة، ولو كان مناماً لقال: بروح عبده، ولم يقُلْ: بعبده. وقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] يدلُّ على ذلك، ولو كان مناماً لما كانت فيه آيةٌ ولا معجزة، ولَما قالت له أمُّ هانئ: لا تُحدِّثِ الناسَ فيُكذِّبوك، ولا فُضِّلَ أبو بكر بالتصديق، ولَما أمكنَ قريشاً التشنيعُ والتكذيب، وقد كذبه قريش فيما أخبر به حتى ارتدَّ أقوامٌ كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر[١]، وقد قال له المشركون: إن كنتَ صادقاً فخبِّرنا عن عِيرنا أين لقِيتَها؟ قال: «بمكان كذا وكذا مررتُ عليها، ففزِعَ فلانٌ، فقيل له: ما رأيتَ يا فلان؟ قال: ما رأيتُ شيئاً، غيرَ أنَّ الإبل قد نفرت». قالوا: فأخبِرْنا متى تأتنا العير؟ قال: «تأتيكم يومَ كذا وكذا». قالوا: أيَّةَ ساعة؟ قال: «ما أدري، طلوعُ الشمس من هاهنا أسرع أم طلوعُ العِيرِ من ها هنا». فقال رجلٌ: ذلك اليوم، هذه الشمس قد طلعت. وقال رجلٌ: هذه عِيركم قد طلعت. واستخبروا النبيَّ ﷺ عن صفة بيت المقدس، فوصفَه لهم، ولم يكن رآه قبل ذلك[٢]. روى الصحيح عن أبي هريرة قال: قال

---

(١) الشفا للقاضي عياض ١/٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٦٢ و ٣٦٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤ - ٤٣٥ مع تقديم وتأخير وإدخال كلام بعضهما في بعض. وقول أم هانئ أخرجه ابن سعد ١/ ٢١٥.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (٧١٤٢)، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٥٥-٣٥٧ من حديث شداد بن أوس، وقال: إسناده صحيح.

رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُني في الحِجْرِ وقريشٌ تسألني عن مَسْرايَ، فسألَتْني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثْبِتْها، فكُرِبْتُ كَرْباً ما كُرِبتُ مثلَه قطُّ ـ قال ـ فرفعه اللهُ لي أنظرُ إليه، فما سألوني عن شيءٍ إلا أنبأتُهم به» الحديث[١]. وقد اعتُرِضَ قولُ عائشة ومعاوية: «إنما أُسرِيَ بنَفْس رسول الله ﷺ» بأنها كانت صغيرةً لم تُشاهِد، ولا حدَّثَتْ عن النبيِّ ﷺ. وأما معاوية فكان كافراً في ذلك الوقت غيرَ مشاهِدٍ للحال، ولم يُحدِّث عن النبيِّ ﷺ[٢]. ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على كتاب «الشفاء»[٣] للقاضي عياض يجد من ذلك الشفاء. وقد احتجَّ لعائشة بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الآية ٦٠ من هذه السورة] فسمَّاها رؤيا. وهذا يردُّه قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ ولا يُقال في النوم: أسرى[٤]. وأيضاً فقد يقال لرؤية العين: رؤيا، على ما يأتي بيانُه في هذه السورة. وفي نصوص الأخبار الثابتة دِلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الإسراء كان بالبدن، وإذا ورد الخبرُ بشيءٍ هو مُجوَّزٌ في العقل في قدرة الله تعالى فلا طريقَ إلى الإنكار، ولا سيما في زمن خرق العوائد، وقد كان للنبيِّ ﷺ معارجُ، فلا يبعُدُ أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يُحمل قوله عليه الصلاة والسلام في الصحيح: «بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان» الحديث[٥]. ويَحتمِلُ أن يُرَدَّ من الإسراء إلى نوم. والله أعلم.

المسألة الثانية: في تاريخ الإسراء، وقد اختلف العلماء في ذلك أيضاً، واختُلِفَ في ذلك على ابن شهاب؛ فروى عنه موسى بن عُقبة أنَّه أُسرِيَ به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة. وروى عنه يونس عن عروة عن عائشة قالت: تُوفِّيت

(١) صحيح مسلم (١٧٢).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٥ .

(٣) ١/ ٣٤٣ - ٣٧٤ .

(٤) الشفاء ١/ ٣٦٨ .

(٥) صحيح البخاري (٣٢٠٧)، وصحيح مسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة، وأخرجه أحمد (١٧٨٣٣).

خديجةُ قبل أن تُفرَضَ الصلاة. قال ابن شهاب: وذلك بعد مبعث النبيِّ ﷺ بسبعة أعوام. وروى عنه الوَقَّاصيُّ قال: أُسْرِيَ به بعد مبعثه بخمس سنين[١]. قال ابن شهاب: وفُرِضَ الصيام بالمدينة قبل بدر، وفُرِضَتِ الزكاةُ والحجُّ بالمدينة، وحُرِّمَتِ الخمرُ بعد أُحُد. وقال ابن إسحاق: أُسريَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، وقد فشا الإسلام بمكة وفي[٢] القبائل. وروى عنه يونس ابن بكير قال: صلَّتْ خديجةُ مع النبيِّ ﷺ[٣]. وسيأتي. قال أبو عمر[٤]: وهذا يدلُّك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام؛ لأنَّ خديجةَ قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: بثلاث، وقيل: بأربع. وقول ابن إسحاق مخالفٌ لقول ابن شهاب، على أنَّ ابن شهاب قد اختُلِفَ عنه كما تقدَّم.

وقال الحَرْبِيُّ: أُسرِيَ به ليلة سبعٍ وعشرين من[٥] ربيع الأول[٦] قبل الهجرة بسنة[٧]. وقال أبو بكر محمد بن عليّ بن القاسم الذهبي في تاريخه: أُسريَ به من مكة إلى بيت المقدس، وعُرِجَ به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهراً. قال أبو عمر[٨]: لا أعلم أحداً من أهل السير قال ما حكاه الذهبي، ولم يُسْنِدْ قولَه إلى أحدٍ ممَّن يُضافُ إليه هذا العِلمُ منهم، ولا رَفعه إلى من يُحتَجُّ به عليهم.

---

(١) التمهيد لابن عبد البر ٨/ ٥٠ - ٥١ ، وقد أسند رواية موسى بن عقبة، وأما رواية يونس فقد تابعه عليها معمر بن راشد فيما أخرجه ابن سعد ٨/ ١٨ .

(٢) في (م) و(د)و(ز): في.

(٣) التمهيد ٨/ ٥١ - ٥٢ ، وأسند قول الزهري.

(٤) في التمهيد ٨/ ٥٢ - ٥٣ .

(٥) بعدها في (م) كلمة شهر، وهي ليست في النسخ الخطية.

(٦) في (م): الآخرة، وفي (د) و(ز) و(ف): الآخر، والمثبت من (ظ) ومن التمهيد، وينظر طبقات ابن سعد ١/ ٢١٤ .

(٧) التمهيد ٨/ ٤٩ .

(٨) في التمهيد ٨/ ٤٨ .

المسألة الثالثة: وأما فرض الصلاة وهيئتُها حين فرضت، فلا خلافَ بين أهل العلم وجماعةِ أهل السِّيَر أنَّ الصلاة إنما فُرِضتْ بمكةَ ليلةَ الإسراء حين عُرِجَ به إلى السماء، وذلك منصوصٌ في الصحيح وغيره، وإنما اختلفوا في هيئتها حين فُرِضَتْ؛ فرُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أنها فُرِضَتْ ركعتين ركعتين، ثم زِيدَ في صلاة الحضر فأُكمِلَتْ أربعاً، وأُقِرَّتْ صلاةُ السفر على ركعتين. وبذلك قال الشَّعْبِيُّ وميمون ابن مِهْران ومحمد بن إسحاق[١].

قال الشَّعبيُّ: إلا المغرب[٢].

قال يونس بن بكير: وقال ابن إسحاق: ثم إن جبريل عليه السلام أتى النبيَّ ﷺ حين فُرِضَتْ عليه الصلاةُ - يعني في الإسراء - فهمزَ له بعقِبه في ناحية الوادي فانفجرت عينُ ماءٍ، فتوضَّأ جبريلُ ومحمدٌ ينظر عليهما السلام، فوَضَّأ وجهَه، واستنشقَ، وتمضمض، ومسح برأسه وأُذنيه ورجليه إلى الكعبين، ونضحَ فرجَه، ثم قام يُصلِّي ركعتين بأربع سجدات، فرجع رسول الله ﷺ وقد أقرَّ اللهُ عينَه، وطابَتْ نفسُه، وجاءه ما يُحِبُّ من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة، ثم أتى بها العين، فتوضأ كما توضَّأ جبريل، ثم ركع ركعتين وأربع سجداتٍ هو وخديجة، ثم كان هو وخديجة يُصلِّيان سواء[٣].

ورُوِيَ عن ابن عباس أنها فُرِضَتْ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين. وكذلك قال نافع بن جُبَير والحسن بن أبي الحسن البصري، وهو قولُ ابنِ جُرَيج، ورويَ عن النبيِّ ﷺ ما يوافِقُ ذلك[٤]. ولم يختلفوا في أنَّ جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة

---

(١) التمهيد ٨/ ٣٣ ، وحديث عائشة أخرجه بنحوه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥).

(٢) التمهيد ٨/ ٤٧ .

(٣) التمهيد ٨/ ٥٢ .

(٤) وهو قوله ﷺ: «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة» وأخرجه أحمد (١٩٠٤٧)، والترمذي (٧١٥) واللفظ له، وابن ماجه (١٦٦٧) من حديث أنس بن مالك رجل من بني عبد الله بن كعب.

الإسراء عند الزوال، فعلَّم النبيَّ ﷺ الصلاة ومواقيتها[(١)].

وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبي المُهاجِر قال: سمعتُ ميمون بن مِهْرانَ يقول: كان أوَّل الصلاة مثنى، ثم صلَّى رسول الله ﷺ أربعاً فصارت سُنَّة، وأُقِرَّتِ الصلاةُ للمسافر، وهي تمام. قال أبو عمر[(٢)]: وهذا إسنادٌ لا يُحتَجُّ بمثله، وقوله: «فصارت سُنَّة» قولٌ منكر، وكذلك استثناءُ الشعبيِّ المغربَ وحدَها ولم يذكُرِ الصبح قولٌ لا معنى له. وقد أجمعَ المسلمون أنَّ فرض الصلاة في الحضر أربعٌ إلا المغربَ والصُّبحَ، ولا يَعرِفون غيرَ ذلك عملاً ونقلاً مستفيضاً، ولا يضرُّهمُ الاختلافُ فيما كان أصلُ فرضِها.

الخامسة: قد مضى الكلام في الأذان في «المائدة»[(٣)] والحمد لله. ومضى في «آل عمران»[(٤)] أنَّ أوَّلَ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض المسجدُ الحرام، ثم المسجدُ الأقصى، وأنَّ بينهما أربعين عاماً من حديث أبي ذَرّ، وبناءُ سليمان عليه السلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو، ووجهُ الجمع في ذلك، فتأمَّلْه هناك فلا معنى للإعادة. ونذكر هنا قوله ﷺ: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجد: إلى المسجد الحرام، وإلى مسجدي هذا، وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس». خرَّجه مالك من حديث أبي هريرة[(٥)]. وفيه ما يدلُّ على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء: من نذرَ صلاةً في مسجد لا يَصِلُ إليه إلا برحلةٍ وراحلةٍ فلا يفعل، ويصلِّي في مسجده، إلا في الثلاثة المساجد المذكورة، فإنه من نذرَ صلاةً

---

(١) التمهيد ٨/ ٣٣ - ٣٤.

(٢) في التمهيد ٨/ ٤٧ - ٤٨ بعد أن ذكر تلك الرواية.

(٣) ٨/ ٥٩ - ٧٤.

(٤) ٥/ ٢٠٦ وما بعدها.

(٥) الموطأ ١/ ١٠٨ - ١٠٩، وأخرجه من طريقه أحمد (٢٣٨٤٨)، ولفظه: «لا تُعمَلُ المَطيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد»، ووقع في رواية مالك هذه أن أبا هريرة رواه عن بصرة بن أبي بصرة الغِفاري، فتعقَّبها ابن عبد البر في الاستيعاب ٢/ ٣٩ - ٤٠ فقال: إنما الحديث لأبي هريرة، وأظنُّ الوهم جاء فيه من يزيد بن الهاد ـ يعني شيخ مالك ـ والله أعلم.

فيها خرج إليها. وقد قال مالك وجماعةٌ من أهل العلم فيمن نذر رِباطا في ثَغْرٍ يَسُدُّه: فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط؛ لأنه طاعةٌ لله عزَّ وجلَّ[(١)]. وقد زاد أبو البَخْتَرِيِّ في هذا الحديث: مسجد الجند، ولا يصِحُّ وهو موضوع[(٢)]، وقد تقدَّم في مقدِّمة الكتاب[(٣)].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ سُمِّيَ الأقْصى لِبُعْدِ ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعدَ مسجدٍ عن أهل مكة في الأرض يُعظَّمُ بالزيارة، ثم قال: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار. وقيل: بمن دُفِنَ حولَه من الأنبياء والصالحين؛ وبهذا جعله مقدَّساً. وروى معاذ بن جبل عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: يا شامُ، أنتِ صفْوَتي من بلادي، وأنا سائقٌ إليكِ صفوتي من عبادي»[(٤)]. ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب. والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها الناس، وإسراؤه من مكة إلى المسجد الأقصى في ليلةٍ وهو مسيرة شهر، وعروجُه إلى السماء، ووصفُه الأنبياء واحداً واحداً[(٥)]، حسبما ثبت في «صحيح مسلم» وغيره[(٦)]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقدم[(٧)].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾

أي: كَرَّمْنا محمداً ﷺ بالمعراج، وأكرَمْنا موسى بالكتاب: وهو التوراة[(٨)].

---

(١) الاستذكار ٢/ ٤١ .

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ٣٨ وليس في إسناده أبو البختري، وإنما فيه محمد بن خالد الجندي والمثنى بن الصباح، ثم قال ابن عبد البر: هذا حديث منكر لا أصل له، ومحمد بن خالد الجندي والمثنى بن الصباح متروكان، ولا يثبت من جهة النقل.

(٣) ١/ ١٢٥ - ١٢٦ ، والذي تقدم ليس الحديث، وإنما الكلام على أبي البختري.

(٤) أخرجه الديلمي في فردوس الأخبار (٨١٢٥).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٦) وقد تقدم في أول السورة.

(٧) ٢/ ٢٦٢ و ٣٩٦ .

(٨) الوسيط ٣/ ٩٦ ، وزاد المسير ٥/ ٦ .

﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: ذلك الكتاب. وقيل: موسى[١]. وقيل: معنى الكلام: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً وآتى موسى الكتاب، فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جلَّ وعزَّ[٢]. وقيل: إنَّ معنى سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، معناه: أسرينا، يدلُّ عليه ما بعده من قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ فحمل ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ على المعنى. ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ قرأ أبو عمرو: «يتخذوا» بالياء. الباقون بالتاء[٣]. فيكون من باب تلوين الخطاب. ﴿وَكِيلًا﴾ أي: شريكاً. عن مجاهد. وقيل: كفيلاً بأمورهم. حكاه الفراء. وقيل: ربًّا يتوكَّلون عليه في أمورهم. قاله الكلبي[٤]. وقال الفراء[٥]: كافياً. والتقدير: عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلاً. وقيل: التقدير: لئلا تتَّخذوا[٦]. والوكيل: من يُوكَل إليه الأمر[٧].

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

أي: يا ذرية من حملنا، على النداء. قاله مجاهد، ورواه عنه ابن أبي نَجيح[٨]. والمراد بالذرية كلُّ من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع مَن على الأرض؛ ذكره المهدوِيُّ. وقال المَاوَرْدِيُّ[٩]: يعني: موسى وقومه من بني إسرائيل. والمعنى: يا ذريةَ من حملنا مع نوحٍ لا تُشركوا. وذكر نوحاً ليذكِّرهم نِعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم[١٠].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٢٧ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٦ .

(٢) ينظر الوسيط ٣/ ٩٦ ، وزاد المسير ٥/ ٦ .

(٣) السبعة ص٣٧٨ ، والتيسير ص١٣٩ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٢٧ ، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٠ .

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ١١٦ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٤ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٤ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٢٠ .

(٩) في النكت والعيون ٣/ ٢٢٨ .

(١٠) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٠ .

وروى سفيان، عن حُميد، عن مجاهد أنه قرأ: «ذَرِّيَّة» بفتح الذال وتشديد الراء والياء. وروى هذه القراءة عامر بن عبد الواحد، عن زيد بن ثابت. ورُوي عن زيد بن ثابت أيضاً «ذِرِّية» بكسر الذال وشَدِّ الراء[١].

ثم بيَّن أن نوحاً كان عبداً شكوراً يشكر الله على نعمه، ولا يرى الخير إلا من عنده. قال قتادة: كان إذا لبِسَ ثوباً قال: بسم الله، فإذا نزعه قال: الحمد لله. كذا روى عنه معمر[٢]. وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال: شُكْرُهُ إذا أكلَ قال: بسم الله، فإذا فرغَ من الأكل قال: الحمد لله[٣]. قال سلمان الفارسي: لأنه كان يحمَدُ الله على طعامه[٤]. وقال عمران بن سليم[٥]: إنما سُمِّي نوحاً عبداً شكوراً؛ لأنه كان إذا أكل قال: الحمدُ لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء لأعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء لأحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني الأذى ولو شاء لحبسه فيّ[٦]. ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوحٍ وقد كان عبداً شكوراً، فأنتم أحقُّ بالاقتداء به دون آبائكم الجُهَّال. وقيل: المعنى: أنَّ موسى كان عبداً شكوراً إذْ جعلَه اللهُ تعالى من ذرية نوح[٧]. وقيل: يجوز أن يكون «ذرية» مفعولاً ثانياً لـ «تتخذوا»، ويكون قولُه: «وكيلاً» يُرادُ به الجمعُ، فيسوغُ ذلك في القراءتين جميعاً، أعني الياءَ والتاءَ في «تتخذوا». ويجوز أيضاً في القراءتين جميعاً أن يكون «ذريةَ» بدلاً من قوله: «وكيلاً»؛ لأنه بمعنى

---

(١) سلف ٢/ ٣٦٨ من قراءتي زيد بن ثابت، ووقع هنا في (م): عامر بن الواحد.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٣ - ٣٧٤، والطبري ١٤/ ٤٥٤، وعندهما: «أخلقه» بدل «نزعه».

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد ص٦١.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٢ - ٤٥٣، والحاكم ٢/ ٣٦٠، والبيهقي في الشعب (٤٤٧١).

(٥) هو قاضٍ من قضاة حمص، قال فيه مكحول الشامي: ما نزل الشام قاضٍ مثله. التاريخ الكبير ٦/ ٤١٢.

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٢٨.

الجمع، فكأنه قال: لا تتَّخِذوا ذريةَ من حملنا مع نوح. ويجوزُ نصبُها بإضمار أعني وأمدَحُ، والعرب قد تنصِبُ على المدحِ والذَّمِّ. ويجوز رفعُها على البدل من المضمر في «تتَّخذوا» في قراءة من قرأ بالياء، ولا يحسُنُ ذلك لمن قرأ بالتاء؛ لأنَّ المخاطبَ لا يُبدَلُ منه الغائب[١]. ويجوزُ جَرُّها على البدل من بني إسرائيل في الوجهين. فأما «أنْ» من قوله: «ألا تتخذوا» فهي على قراءة من قرأ بالياء في موضعِ نصبٍ بحذف الجار، التقدير: هديناهم لئلَّا يتَّخذوا. ويصلُحُ على قراءة التاء أن تكون زائدةً، والقولُ مضمَرٌ كما تقدَّم. ويصلُحُ أن تكون مفسِّرةً بمعنى أي، لا موضع لها من الإعراب، وتكون «لا» للنهي، فيكون خروجاً من الخبر إلى النهي[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وقرأ سعيد بن جُبير وأبو العالية: «فِي الكتب» على لفظ الجمع[٣]. وقد يرِدُ لفظ الواحد ويكون معناه الجمع، فتكون القراءتان بمعنًى واحد. ومعنى «قَضينا»: أعلمنا وأخبرنا. قاله ابن عباس[٤]. وقال قتادة: حكمنا[٥]. وأصل القضاء الإحكام للشيء والفراغ منه[٦]. وقيل: قضينا أوحينا[٧]؛ ولذلك قال: «إلى بني إسرائيل». وعلى قول قتادة يكون «إلى» بمعنى

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٤ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٧-٤٢٨ ، والبيان ٢/ ٨٦ ، وزادوا وجهاً آخر، وهو النصب على النداء لمن قرأ: «تتخذوا» بالتاء.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٨ - ٤٢٩ ، وزاد وجهاً ثالثاً لمن قرأ: «تتخذوا» بالتاء، وهو أن تكون (أن) في موضع نصب، و(لا) زائدة، والمعنى: كراهة أن تتخذوا.

(٣) القراءات الشاذة ص٧٤ - ٧٥ .

(٤) زاد المسير ٥/ ٧ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٢٨ .

(٦) ينظر تهذيب اللغة ٩/ ٢١٣ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٧ ، والوسيط ٣/ ٩٧ .

على، أي: قضينا عليهم وحكمنا. وقاله ابن عباس أيضاً. والمعنِيُّ بالكتاب: اللوحُ المحفوظُ[١].

﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾ وقرأ ابن عباس: «لَتُفْسَدُنَّ». عيسى الثَّقفي: «لَتَفْسُدُنَّ». والمعنى في القراءتين قريب؛ لأنَّهم إذا أُفسِدوا فسدوا[٢]. والمراد بالفساد: مخالفةُ أحكام التوراة[٣]. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يريدُ أرضَ الشام وبيتَ المقدس وما والاها[٤]. ﴿مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ﴾ اللام في «لتُفسِدُنَّ ولتَعْلُنَّ» لام قسمٍ مُضمَرٍ كما تقدَّم[٥]. ﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ أراد التكبرَ والبَغْيَ والطغيانَ والاستطالةَ والغَلَبَةَ والعدوان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أُولَى المرَّتين من فسادهم[٦]. ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾: هم أهل بابل، وكان عليهم بُخْتَنَصَّر في المرة الأولى حين كذَّبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه. قاله ابن عباس وغيره[٧]. وقال قتادة: أرسلَ عليهم جالوتَ فقتلهم، فهو وقومُه أولو بأسٍ شديد[٨]. وقال مجاهد: جاءهم جندٌ من فارس يتجسَّسون أخبارهم ومعهم بُختَنَصَّر، فوَعَى حديثَهم من بين أصحابه، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهذا في المرة الأولى[٩]، فكان منهم جَوْسٌ

(١) زاد المسير ٥/ ٧.

(٢) المحتسب ٢/ ١٤. وهما قراءتان شاذتان.

(٣) الوسيط ٣/ ٩٧، وزاد المسير ٥/ ٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٠٦.

(٥) ١٢/ ١١٦.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٢٩.

(٧) تفسير الطبري ١٤/ ٤٧٢ - ٤٧٥ من رواية سعيد بن جبير.

(٨) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/ ٤٧٢.

(٩) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٧٦.

خلال الديار لا قتل. ذكره القشيريُّ أبو نصر. وذكر المهدوِيُّ عن مجاهد أنه جاءهم بُختَنَصَّر فهزمه بنو إسرائيل، ثم جاءهم ثانيةً فقتلهم ودمَّرهم تدميراً. ورواه ابن أبي نَجيح عن مجاهد. ذكره النحاس[(١)]. وقال محمد بن إسحاق في خبرٍ فيه طول: إنَّ المهزوم سَنْحَاريب ملك بابل، جاء ومعه ستُّ مئة ألف راية، تحت كلِّ رايةٍ مئة ألف فارس، فنزل حول بيت المقدس، فهزمه الله تعالى، وأماتَ جميعهم إلا سَنْحاريب وخمسةَ نفَرٍ من كُتَّابِه، وبعثَ ملكُ بني إسرائيل - واسمه صِدِّيقة - في طلب سَنْحاريب، فأُخِذ مع الخمسة، أحدُهم بُختَنَصَّر، فطرحَ في رقابهم الجوامع، وطاف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس وإيلياء، ويرزقهم كلَّ يومٍ خُبزتينِ من شعيرٍ لكلِّ رجلٍ منهم، ثم أطلقَهم، فرجعوا إلى بابل، ثم مات سَنْحاريب بعد سبع سنين، واستُخلِفَ بُختَنَصَّر، وعظُمتِ الأحداثُ في بني إسرائيل، واستَحلُّوا المحارمَ، وقتلوا نبيَّهم شَعْيَا، فجاءهم بُختَنَصَّر ودخل هو وجنوده بيت المقدس، وقتلَ بني إسرائيل حتى أفناهم[(٢)]. وقال ابن عباس وابن مسعود: أوَّل الفساد قتلُ زكريا[(٣)]. وقال ابن إسحاق: فسادُهم في المرة الأولى قتلُ شَعْيا نبيِّ الله في الشجرة؛ وذلك أنه لمَّا مات صِدِّيقة مَلِكُهم مَرِجَ أمرُهم وتنافسوا على المُلْك وقَتلَ بعضُهم بعضاً، وهم لا يسمعون من نبيِّهم؛ فقال الله تعالى له: قُمْ في قومِكَ أُوحِ على لسانك، فلمَّا فرغَ ممَّا أوحى الله إليه عَدَوْا عليه ليقتلوه، فهرب، فانفلقَتْ له شجرةٌ فدخلَ فيها، وأدركَه الشيطانُ، فأخذ هُدْبةً من ثوبه فأراهم إيَّاها، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها[(٤)]. وذكر ابن إسحاق أنَّ بعض العلماء أخبره أنَّ زكريا مات موتاً

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ١٢٢ .

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٩ - ٤٦٨ . والجوامع جمع جامعة: وهي الغُلُّ؛ لأنها تجمع اليدين إلى العنق. الصحاح (جمع).

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٤) هو تتمة رواية ابن إسحاق السابقة. مَرِجَ الأمر: اختلط. الصحاح (مرج).

ولم يُقتَلْ، وإنما المقتول شَعْيَا[١].

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿ثم بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾: هو سَنْحاريبُ من أهل نِينَوَى بالمَوْصل ملكُ بابل. وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فالله أعلم. وقيل: إنهم العمالقة وكانوا كُفَّاراً. قاله الحسن[٢].

ومعنى جاسوا: عاثوا وقتلوا، وكذلك جاسوا وهاسوا وداسوا. قاله ابن عَزيز، وهو قول القُتَبِيِّ[٣]. وقرأ ابن عباس: «حاسوا» بالحاء المهملة[٤]. قال أبو زيد: الحَوْس والجَوْس والعَوْس والهَوْس: الطواف بالليل. وقال الجوهري[٥]: الجَوْسُ مصدرُ قولِكَ: جاسوا خلال الديار، أي: تخلَّلوها فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجلُ الأخبار، أي: يطلبها، وكذلك الاجتياس. والجَوَسان ـ بالتحريك ـ: الطَّوَفان بالليل. وهو قول أبي عبيدة[٦]. وقال الطبري[٧]: طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين. فجمع بين قولَي[٨] أهل اللغة. قال ابن عباس: مشَوا وتردَّدوا بين الدُّور والمساكن[٩]. وقال الفراء: قتلوكم بين بيوتكم[١٠]. وأُنشِدَ لحسَّان:

---

(١) أخرجه أيضاً الطبري ١٤/ ٤٦٩ .

(٢) زاد المسير ٥/ ٩ .

(٣) في غريب القرآن ص٢٥١ ، وعنده: أي: عاثوا بين الديار وأفسدوا، يقال: جاسوا وحاسوا، فهم يجوسون ويحوسون.

(٤) ذكر في المحتسب ٢/ ١٥ هذه القراءة لأبي السَّمَّال. وهي قراءة شاذة.

(٥) في الصحاح (جوس).

(٦) نقل الماوردي في النكت و العيون ٣/ ٢٣٠ عن أبي عبيدة أنه قال: معناه: فتَّشوا وطلبوا خلال الديار. وذهب الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٢٧ إلى مثل قول الجوهري.

(٧) في تفسيره ١٤/ ٤٧١ .

(٨) في (م) و(د): قول.

(٩) تفسير الطبري ١٤/ ٤٧٠ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٢٩ .

(١٠) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٦ .

ومنَّا الذي لاقى بسيفِ محمدٍ فجاسَ به الأعداءَ عَرْضَ العساكرِ

وقال قطرب: نزلوا؛ قال:

فجُسْنا ديارَهُمُ عَنوةً وأُبْنا بساداتهم مُوثَقينا[١]

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي: قضاءً كائناً لا خُلْفَ فيه[٢].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الدَّولة والرجعة؛ وذلك لمَّا تُبتُم وأطعتُم[٣]. ثم قيل: ذلك بقتل داودَ جالوتَ أو بقتل غيره، على الخلاف في من قتلهم[٤]. ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ حتى عاد أمركم كما كان. ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: أكثر عدداً ورجالاً من عدوِّكم[٥]. والنَّفير: مَنْ ينفِرُ مع الرجل من عشيرته؛ يقال: نفير ونافر، مثل: قدير وقادر[٦]. ويجوز أن يكون النَّفير جمع نَفْر كالكَليبِ والمَعيزِ والعَبيد[٧]؛ قال الشاعر:

فأكْرِمْ بقحطانَ من والدٍ وحِمْيرَ أكرِمْ بقومٍ نَفيرا[٨]

والمعنى: أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثرَ انضماماً وأصلحَ أحوالاً، جزاءً من الله تعالى لهم على عَوْدِهم إلى الطاعة.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٠٦ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٦ ، وزاد المسير ٥/ ١٠ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٠ ، وزاد المسير ٥/ ١٠ .

(٥) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٧٢ .

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥١ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٨ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٢٤ .

(٨) قائله تبع بن بكر الحميري كما في النكت والعيون ٣/ ٢٣٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠ .

قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـࣳٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ أي: نَفْعُ إحسانكم عائدٌ عليكم. ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ أي: فعليها[(١)]، نحو: سلامٌ لك، أي: سلامٌ عليك. قال:

* فخَرَّ صريعاً لليدين وللفمِ[(٢)] *

أي: على اليدين وعلى الفم. وقال الطبري[(٣)]: اللام بمعنى إلى، يعني: وإن أسأتم فإليها، أي: فإليها ترجع الإساءة؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] أي: إليها. وقيل: فلها الجزاء والعقاب[(٤)]. وقال الحسين بن الفضل: فلها رَبٌّ يغفر الإساءة.

ثم يحتمل أن يكون هذا خطاباً لبني إسرائيل في أول الأمر؛ أي: أسأتم فحلَّ بكم القتلُ والسَّبْيُ والتخريبُ، ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُلُوّ وانتظامُ الحال. ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيل في زمن محمدٍ ﷺ[(٥)]، أي: عرفتم استحقاقَ أسلافِكم للعقوبة على العصيان فارتقبوا مثله. أو يكون خطاباً لمشركي قريش على هذا الوجه.

---

(١) مجمع البيان ١٥/١٦ .

(٢) عجز لبيت، صدره: وهتكت بالرمح الطويل إهابه. ينظر أدب الكاتب لابن قتيبة ص٥١١ ، وعجز البيت اختُلف على صدره اختلافاً كبيراً، وكذلك اختُلف على قائله، فيقال: هو لجابر بن حُني كما في المفضليات ص٢١٢ ، ويقال: للمقشعر بن جديع النصري كما في الحماسة البصرية ١/ ٦٩ ، ويقال: لربيعة بن مُكدَّم كما في زهر الأكم ١/ ١٠٤ ، ويقال: لعصام بن مقشعر البصري، أو لشداد بن معاوية العبسي، أو لكعب بن مدلج الأسدي، أو للأشتر النخعي كما في معجم الشعراء ص١١٤ ، ويقال: لكعب بن حدير كما في شرح أدب الكاتب للجواليقي ص٣٥٩ ، ويقال: للمكعبر الأسدي، أو للمكعبر الضبي، أو لشريح بن أوفى، أو للأشعث بن قيس كما في الاقتضاب ص٤٣٩ ، ويقال غير ذلك.

(٣) في تفسيره ١٤/ ٤٧٨ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٠٦ .

(٥) مجمع البيان ١٥/ ١٦ .

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ من إفسادكم، وذلك أنهم قتلوا في المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما السلام، قتله مَلِكٌ من بني إسرائيل يقال له لاخت. قاله القُتَبِيُّ. وقال الطبري: اسمه هيردوس. ذكره في التاريخ[1]، حمله على قتله امرأةٌ اسمُها أزبيل[2]. وقال السُّدِّي: كان ملكُ بني إسرائيل يُكرِمُ يحيى بن زكريا ويستشيره في الأمر، فاستشاره الملكُ أن يتزوَّجَ بنت امرأةٍ له، فنهاه عنها وقال: إنها لا تحِلُّ لك، فحقدت أمُّها على يحيى عليه السلام، ثم ألبَستِ ابنتَها ثياباً حُمراً رقاقاً، وطيَّبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرابه، وأمرَتْها أن تتعرَّضَ له، وإن أرادها أبَتْ حتى يُعطيَها ما تسألهُ، فإذا أجاب سألتْ أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا في طَسْتٍ من ذهب، ففعلت ذلك، حتى أُتي برأس يحيى بن زكريا والرأسُ يتكلَّم، حتى وُضِعَ بين يديه وهو يقول: لا تحِلُّ لك، لا تحِلُّ لك، فلمَّا أصبح إذْ دَمُه يَغْلي، فألقى عليه الترابَ فغلى فوقه، فلم يزل يلقي عليه التراب حتى بلغَ سُوْرَ المدينة وهو في ذلك يَغْلي. ذكره الثعلبي وغيره[3]. وذكر ابن عساكر الحافظ في «تاريخه» عن الحسين بن عليّ قال: كان ملكٌ من هذه الملوك ماتَ وتركَ امرأتَه وابنتَه، فورِث مُلْكَه أخوه، فأراد أن يتزوَّجَ امرأةَ أخيه، فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك ـ وكانت الملوكُ في ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء ـ فقال له: لا تتزوَّجْها فإنها بَغِيٌّ، فعَرفَتْ ذلك المرأةُ أنه قد ذكرها وصرَفَه عنها، فقالت: من أين هذا؟ حتى بلغها أنه من قِبَلِ يحيى، فقالت: لَيُقتلَنَّ يحيى أو لَيُخرَجَنَّ من ملكه، فعمَدت إلى ابنتها وصنَّعتها، ثم قالت: اذهبي إلى عمِّكِ عند الملأ فإنه إذا رآكِ سيدعوكِ ويُجلِسُكِ في حَجْرِه، ويقول: سليني ما شئتِ، فإنك لن تسأليني شيئاً إلا أعطيتُكِ، فإذا قال لكِ ذلك فقولي: لا أسألُ إلا رأسَ يحيى. قال: وكانت الملوكُ إذا تكلَّمَ أحدُهم بشيءٍ على رؤوس الملأ ثم لم يُمْضِ له

(١) ١/ ٥٩٠ ، وفي (م) و(د): هردوس، والمثبت من تاريخ الطبري، ومن باقي النسخ الخطية.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٣٦ .

(٣) الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٨٢ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٤٨٠ - ٤٨١ .

نُزِعَ من ملكه، ففعلت ذلك. قال: فجعل يأتيه الموتُ من قتله يحيى، وجعل يأتيه الموتُ من خروجه من ملكه، فاختار ملكَه فقتله. قال: فساخَتْ بأمِّها الأرضُ. قال ابن جُدْعان: فحدَّثتُ بهذا الحديث ابنَ المُسيِّبِ فقال: أفما أخبرَكَ كيف كان قَتْلُ زكريا؟ قلت: لا. قال: إنَّ زكريا حيث قُتِلَ ابنُه انطلقَ هارباً منهم، واتَّبعوه حتى أتى على شجرةٍ ذاتِ ساقٍ، فدَعَتْه إليها، فانطوَتْ عليه، وبقيَتْ من ثوبه هُدْبةٌ تكفَّتها الرياح، فانطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثَرَه بعدها، ونظروا بتلك الهُدْبة، فدَعَوا بالمِنشار، فقطعوا الشجرة فقطعوه معها[١].

قلت: وقع في «التاريخ الكبير» للطبري[٢]: فحدثني أبو السائب قال: حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المِنْهال، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: بعَثَ عيسى ابنُ مريم يحيى بنَ زكريا في اثني عشر من الحواريِّين يُعلِّمون الناس. قال: كان فيما نَهَوْهم عنه نكاحُ ابنةِ الأخ. قال: وكان لملِكهم ابنةُ أخٍ تُعجبه... وذكر الخبر بمعناه.

وعن ابن عباس قال: بُعِثَ يحيى بنُ زكريا في اثني عشر من الحواريِّين يُعلِّمون الناس، وكان فيما يُعلِّمونهم ينهونهم عن نكاح بنتِ الأخت، وكان لملِكِهم بنتُ أُختٍ تعجبه، وكان يريد أن يتزوَّجها، وكان لها كلَّ يوم حاجةٌ يقضيها، فلما بلغ ذلك أمَّها أنهم نهَوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها: إذا دخلتِ على الملكِ فقال: ألكِ حاجةٌ؟ فقولي: حاجتي أن تذبح يحيى بن زكريا، فقال: سليني سوى هذا. قالت: ما أسألُكَ إلا هذا. فلمَّا أبَتْ عليه دعا بِطَسْتٍ ودعا به فذبحه، فندَرت قطرةٌ من دمِه على وجه الأرض، فلم تزل تَغْلي حتى بعثَ اللهُ عليهم بُخْتَنصَّر، فأُلقيَ في نفسه أن يَقتُلَ على ذلك الدَّم منهم حتى يسكن ذلك الدم، فقَتل عليه منهم سبعين ألفاً، وفي رواية: خمسةً وسبعين ألفاً[٣]. قال سعيد بن المُسيِّب: هي دِيَةُ كل نبيٍّ[٤]. وعن ابن عباس

---

(١) تاريخ دمشق ٦٤/ ٢٠٦، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف. تهذيب التهذيب ٣/ ١٦٢ - ١٦٤.

(٢) ١/ ٥٨٦.

(٣) أخرجه ابن عساكر ٦٤/ ٢٠٧، وهو من نفس الطريق الذي رواه الطبري.

(٤) أخرجه ابن عساكر ٦٤/ ٢١٠، وفيه: سعيد بن عبد العزيز بدل ابن المسيب.

قال: أوحى اللهُ إلى محمدٍ ﷺ أني قتلتُ بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتلٌ بابنِ ابنَتِكَ سبعين ألفاً وسبعين ألفاً[(١)]. وعن شِمْر بن عطية قال: قُتِلَ على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبياً منهم يحيى بن زكريا[(٢)]. وعن زيد بن واقد[(٣)] قال: رأيتُ رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أُخرِجَ من تحت ركنٍ من أركان القُبَّةِ التي تَلي المحراب مما يلي الشرق، فكانتِ البشرةُ والشعرُ على حاله لم يتغيَّر[(٤)]. وعن قُرَّة بن خالد[(٥)] قال: ما بكتِ السماءُ على أحدٍ إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن عليّ؛ وحُمرتُها بكاؤها[(٦)]. وعن سفيان بن عُيَيْنة قال: أوحَشُ ما يكونُ ابنُ آدمَ في ثلاثة مواطن: يومَ وُلِدَ فيخرجُ إلى دارِ هَمٍّ، وليلةَ يبيتُ مع الموتى فيُجاورُ جيراناً لم يَرَ مثلَهم، ويومَ يُبعَثُ فيَشْهدُ مشهَداً لم يَرَ مثلَه؛ قال الله تعالى ليحيى في هذه الثلاثة المواطن: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[(٧)] [مريم: ١٥]. كلُّه من التاريخ المذكور.

واختُلِفَ فيمن كان المبعوث عليهم في المرة الآخرة، فقيل: بُخْتَنصَّر. وقاله القشيري أبو نصر، لم يذكر غيره[(٨)].

قال السُّهَيْليُّ: وهذا لا يصح؛ لأنَّ قَتْلَ يحيى كان بعدَ رَفْعِ عيسى، وبُختَنصَّر كان قبل عيسى ابن مريم عليهما السلام بزمانٍ طويل، وقبل الإسكندر، وبين الإسكندر

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٢٩٠ و ٥٩٢ و ٣/ ١٧٨، والخطيب في تاريخه ١/ ١٤٢، وابن عساكر ٤/ ٢٢٥ و ٦٤/ ٢١٦، وابن الجوزي في المنتظم ٥/ ٣٤٦.

(٢) أخرجه ابن عساكر ٦٤/ ٢١٧، وتحرف اسم شمر في جميع النسخ إلى سمير.

(٣) أبو عمر - ويقال: أبو عمرو - القرشي مولاهم، الدمشقي الفقيه. توفي سنة (١٣٨هـ). السير ٦/ ٢٩٦.

(٤) أخرجه ابن عساكر ٢/ ٢٤١ و ٦٤/ ٢١٨.

(٥) الحافظ، أبو خالد، ويقال: أبو محمد السدوسي البصري. توفي سنة (١٥٤هـ). السير ٧/ ٩٥.

(٦) أخرجه ابن عساكر ٦٤/ ٢١٧.

(٧) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٥٩٨)، وابن عساكر ٦٤/ ١٧٤.

(٨) ونقله في النكت والعيون ٣/ ٢٣٠، وفي زاد المسير ٥/ ١١ عن مجاهد.

وعيسى نحوٌ من ثلاث مئة سنة، ولكنه أُريدَ بالمرة الأخرى حين قتلوا شَعْيا، فقد كان بُختَنصَّر إذ ذاكَ حيًّا، فهو الذي قتلهم وخرَّبَ بيتَ المقدس، وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها[١].

وقال الثعلبي[٢]: ومن روى أنَّ بُختَنصَّر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا فغلَطٌ عند أهل السِّيَرِ والأخبار؛ لأنَّهم مُجمعون على أن بُختَنصَّر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شَعْيا وفي عهد إرْمِياء. قالوا: ومن عهد إرْمِياء وتخريبِ بُختَنصَّر بيتَ المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا عليهما السلام أربعُ مئة سنة وإحدى وستون سنة، وذلك أنهم يعدُّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته في عهد كوسك[٣] سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانيةً وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلاثَ مئةٍ وثلاثاً وستين سنة[٤].

قلت: ذكر جميعَه الطبري في التاريخ[٥] رحمه الله. قال الثعلبي[٦]: والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال: لمَّا رفعَ اللهُ عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى ـ وبعض الناس يقول: لمَّا قتلوا زكريا ـ بعثَ اللهُ إليهم ملكاً من ملوك بابل يُقال له: خردوس، فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشام، ثم قال لرئيس جنوده: كنتُ حلفتُ بإلهي لَئِنْ أظهرني اللهُ على بيت المقدس لأقتلنَّهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، وأمرَ أن يقتلَهم حتى يبلُغَ ذلك منهم، فدخل الرئيسُ بيتَ المقدس فوجد

(١) زاد المسير ٥/١١، وتفسير الرازي ٢٠/١٥٨.
(٢) في عرائس المجالس ص٣٤٣ - ٣٤٤.
(٣) في مطبوع العرائس: كربن.
(٤) في مطبوع العرائس: ثلاث مئة وثلاثون سنة.
(٥) ١/٥٧١ - ٥٧٩.
(٦) ص٣٤٤.

فيها دماءَ تَغْلي، فسألهم فقالوا: دَمُ قُربانٍ قرَّبناه فلم يُتقبَّلْ مِنَّا منذ ثمانين[١] سنة. قال: ما صَدَقتموني. فذبَحَ على ذلك الدم سبعَ مئةٍ وسبعين رجلاً من رؤسائهم فلم يهدأ، فأمر[٢] بسبعة آلاف من سَبْيِهم[٣] وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يَبْرُد، فقال: يا بني إسرائيل، أُصدُقوني قبل ألا أترك منكم نافخَ نارٍ من أنثى ولا من ذكرٍ إلا قتلتُه. فلمَّا رأوا الجَهد قالوا: إنَّ هذا دمُ نبيٍّ منَّا كان ينهانا عن أمورٍ كثيرةٍ مِن سَخَط الله فقتلناه، فهذا دمه، كان اسمه يحيى بن زكريا، ما عصى اللهَ قطُّ طرفة عينٍ ولا هَمَّ بمعصية. فقال: الآن صدَقتُموني. وخرَّ ساجداً، ثم قال: لمِثْلِ هذا يُنتقَم منكم. وأمر بغلق الأبواب وقال: أخرِجوا من كان هاهنا من جيش خردوس. وخلا في بني إسرائيل وقال: يا نبيَّ الله، يا يحيى بن زكريا، قد عَلِمَ ربي وربُّكَ ما قد أصاب قومَك من أجلك، فاهدأ بإذن الله قبل ألا أُبقي منهم أحداً. فهدأ دمُ يحيى بن زكريا بإذن الله عزَّ وجلَّ، ورفع عنهم القتل وقال: ربِّ، إني آمنتُ بما آمن به بنو إسرائيل وصدَّقتُ به. فأوحى الله تعالى إلى رأسٍ من رؤوس الأنبياء: إنَّ هذا الرئيس مؤمنٌ صدوق. ثم قال: إنَّ عدوَّ الله خردوس أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لا أعصيه، فأمرهم فحفروا خَنْدَقاً وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قُتِلوا قبل ذلك فطُرِحوا على ما قُتِلَ من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يُفني بني إسرائيل.

قلت: قد ورد في هذا الباب حديث مرفوع فيه طولٌ من حديث حُذيفة، وقد كتبناه في كتاب «التذكرة»[٤] مقطَّعاً في أبوابٍ في أخبار المَهْدِيِّ، نذكر منها هنا ما

(١) في مطبوع العرائس: ثمان مئة.

(٢) قبلها في (م): «فأتى بسبع مئة غلام من غلمانهم فذُبحوا فلم يهدأ».

(٣) في مطبوع العرائس: بنيهم.

(٤) ص٦٢٠ - ٦٢١.

يُبيِّن معنى الآية ويُفسِّرها حتى لا يحتاج معه إلى بيان، قال حذيفة: قلتُ: يا رسول الله، لقد كان بيتُ المقدس عند الله عظيماً جسيمَ الخطرِ عظيمَ القدر. فقال رسول الله ﷺ: «هو من أجَلِّ البيوت، ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهبٍ وفضَّةٍ ودُرٍّ وياقوتٍ وزُمرُّدٍ» وذلك أنَّ سليمان بن داود لمَّا بناه سَخَّرَ اللهُ له الجِنَّ فأتَوه بالذهب والفضَّة من المعادن، وأتوه بالجواهر والياقوت والزُّمرُّد، وسخَّرَ اللهُ تعالى له الجِنَّ حتى بنَوه من هذه الأصناف. قال حذيفة: فقلتُ: يا رسول الله، وكيفَ أُخِذَتْ هذه الأشياءُ من بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ بني إسرائيل لمَّا عصَوا اللهَ وقتلوا الأنبياء سلَّطَ اللهُ عليهم بُختَنصَّر وهو من المجوس، وكان ملكُه سبع مئة سنة، وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾ فدخلوا بيت المقدس، وقتلوا الرجال وسَبوا النساءَ والأطفالَ، وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس من هذه الأصناف، فاحتملوها على سبعين ألفاً ومئة ألف عجَلَة حتى أودعوها أرض بابل، فأقاموا يستخدمون بني إسرائيل ويستملكونهم بالخزي والعقاب والنكال مئة عام، ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ رحِمَهم، فأوحى إلى ملكٍ من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس في أرض بابل، وأن يستنقِذَ مَنْ في أيديهم من بني إسرائيل، فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل، فاستنقذ مَنْ بقي من بني إسرائيل من أيدي المجوس، واستُنقِذَ ذلك الحُليُّ الذي كان من بيت المقدس، وردَّه الله إليه كما كان أول مرة، وقال لهم: يا بني إسرائيل إن عُدتُم إلى المعاصي عُدْنا عليكم بالسَّبْي والقتل، وهو قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ فلما رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصي، فسلَّط الله عليهم ملك الروم قَيصر، وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ فغزاهم في البرِّ والبحر، فسباهم وقتلهم، وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذَ حُليَّ جميعِ بيت المقدس، واحتمله على سبعين ألفاً ومئة ألف عَجلة حتى أودعه في كنيسة الذهب ـ فهو فيها

الآن ـ حتى يأخذه المهدِيُّ فيردّه إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة وسبع مئة سفينة يُرْسَى بها على يافا، حتى تُنقل إلى بيت المقدس. وبها يجمع اللهُ الأوّلين والآخرين...» وذكر الحديث[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: من المرَّتين[٢]، وجواب «إذا» محذوف، تقديره: بعثناهم، دلَّ عليه «بعثنا» الأوَّل. ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي: بالسَّبْي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم؛ فـ«ليسوؤوا» متعلّقٌ بمحذوف، أي: بعثنا عباداً ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم[٣]. قيل: المراد بالوجوه السادة، أي: ليُذِلُّوهم[٤]. وقرأ الكسائي: «لنسوءَ» بنون وفتح الهمزة، فعلُ مُخبرٍ عن نفسه مُعظَّم؛ اعتباراً بقوله: «وقضينا» و«بعثنا» و«رددنا» ونحوه عن عليٍّ. وتصديقها قراءة أُبيٍّ: «لَنَسوءنْ» بالنون وحرف التوكيد[٥]. وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وَثَّاب وحمزة وابن عامر: «ليسوءَ» بالياء على التوحيد وفتح الهمزة[٦]، ولها وجهان: أحدهما: ليسوء اللهُ

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٤/٤٥٧ - ٤٥٩ عن عصام بن رواد، عن أبيه رواد بن الجراح، عن سفيان الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة. عصام بن رواد ليَّنه أبو أحمد الحاكم فيما ذكره الذهبي في الميزان ٣/ ٦٦ . وروَّاد بن الجراح قال فيه ابن حجر في التقريب: اختلط بأخرة فتُرك، وفي حديثه عن الثوري ضعف شديد. وقال ابن كثير متعقِّباً الطبري: هو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث، والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته، وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠ .

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ٩٧ - ٩٨ .

(٤) ينظر مجمع البيان ١٤/ ١٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠ ، وينظر الوسيط ٣/ ٩٨ ، وقراءة الكسائي في السبعة ص٣٧٨ ، والتيسير ص١٣٩ ، وأما قراءة أُبي فقد ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٥ ، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٥ : «لنسوءاً» بالتنوين. وقال النحاس في المعاني ٤/ ١٢٥ : بالنون الخفيفة واللام المفتوحة والوقف عليه مثل: «لنسفعاً».

(٦) النشر ٢/ ٣٠٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤١٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠ .

وجوهَكم. والثاني: ليسوءَ الوعدُ وجوهَكم[١]. وقرأ الباقون: «ليسوؤوا» بالياء وضمِّ الهمزة على الجمع، أي: ليسوء العبادُ الذين هم أولو بأسٍ شديدٍ وجوهَكم[٢].

﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ أي: ليُدمِّروا ويُهلكوا. وقال قُطْرُب: يهدموا؛ قال الشاعر:

فما الناسُ إلا عاملانِ فعاملٌ ... يُتَبِّرُ ما يَبْني وآخرُ رافِعُ[٣]

﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ أي: غلبوا عليه من بلادكم ﴿تَتۡبِيرًا﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ وهذا مما أخبروا به في كتابهم. و«عسى» وعدٌ من الله أن يكشف عنهم، و«عسى» من الله واجبة. ﴿أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ بعد انتقامه منكم، وكذلك كان؛ فكثَّر عددَهم وجعل منهم الملوك. ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ قال قتادة: فعادوا، فبعثَ الله عليهم محمداً ﷺ، فهم يُعطون الجزية بالصَّغار. ورُوي عن ابن عباس[٥]. وهذا خلاف ما تقدَّم في الحديث وغيره. وقال القُشَيْرِيُّ: وقد حلَّ العقاب ببني إسرائيل مرتين على أيدي الكفار، ومرةً على أيدي المسلمين. وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم، وعلى هذا يصِحُّ قولُ قتادة.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٦ - ١١٧ وعنده في الوجه الثاني: ليسوء العذابُ وجوهَكم. والوسيط ٣/ ٩٨، وزاد المسير ٥/ ١١، وعندهما: ليسوء البعثُ وجوهكم.

(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٤٧٨ - ٤٧٩، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٦، وينظر السبعة ص٣٧٨، والتيسير ص١٣٩.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٣١، والبيت قائله لبيد، وهو في ديوانه ص٨٩.

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٥٠٤، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٣١، والوسيط ٣/ ٩٨، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٧، ومجمع البيان ١٤/ ١٨، وزاد المسير ٥/ ١١ - ١٢. وقول ابن عباس مختصر، أخرجه الطبري ١٤/ ٥٠٦، وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٣، وفي مصنفه (٩٨٨٢)، والطبري ١٤/ ٥٠٦.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مَحْبِساً وسِجْناً، من الحَصْر وهو الحبس[١]. قال الجوهري: يُقال: حصرَه يحصرُه حصراً: ضيَّقَ عليه وأحاط به. والحصير: الضيِّقُ البخيل. والحصير: البارِيَّة. والحصير: الجَنْب، قال الأصْمَعِيُّ: هو ما بين العِرْقِ الذي يظهر في جنب البعير والفرس معترِضاً فما فوقه إلى مُنقَطَعِ الجَنْب. والحصير: الملِك؛ لأنه محجوب. قال لبيد:

وقماقِمٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنَّهمْ ... جِنٌّ لدى بابِ الحصيرِ قيامُ

ويُروى:

* ومَقامةٍ غُلْبِ الرقاب[٢] ... ... *

على أن يكون «غُلْب» بدلاً من «مَقامة» كأنه قال: ورُبَّ غُلْبِ الرقاب. وروى غير[٣] أبي عُبيدة:

* ... لدى طرَفِ الحصيرِ قيامُ *

أي: عند طرف البساط للنعمان بن المنذر. والحصير: المَحْبِس؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[٤]. قال القُشَيْرِيُّ: ويقال للذي يُفترش: حصير؛ لحَصْرِ بعضِه على بعضٍ بالنسج. وقال الحسن: أي: فراشاً ومهاداً[٥]. ذهب إلى الحصير الذي يُفرش؛ لأنَّ العربَ تُسمِّي البساطَ الصغير حصيراً[٦]. قال الثعلبي: وهو وجهٌ حسن[٧].

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٦١، والنكت والعيون ٣/ ٢٣١، والوسيط ٣/ ٩٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٠، وزاد المسير ٥/ ١٢، وهو قول ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم، وأخرجه عنهم الطبري ١٤/ ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٢) وهكذا في ديوانه ص١٦١.

(٣) في (م) و(د) و(ز): عن.

(٤) الصحاح (حصر)، ومن قوله: «الحصير: الملك» إلى نهاية البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٧١.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٤، والطبري ١٤/ ٥٠٨.

(٦) تفسير الطبري ١٤/ ٥٠٩.

(٧) وكذا قال الطبري.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ لمَّا ذكر المِعراجَ ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل، وكان ذلك دِلالةً على نبوَّة محمدٍ ﷺ، ثم بيَّن أنَّ الكتاب الذي أنزله الله عليه سبب اهتداء. ومعنى ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: الطريقة التي هي أسدُّ وأعدلُ وأصوب، فـ«التي» نعتٌ لموصوفٍ محذوف، أي: الطريقة إلى نصِّ أقوم[1]. وقال الزجاج[2]: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله، والإيمان برسله. وقاله الكلبي والفرَّاء[3].

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تقدَّم[4]. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: الجنة. ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ويبشِّرهم بأنَّ لأعدائهم العقاب. والقرآن مُعظَمُه وعدٌ ووعيد. وقرأ حمزة والكسائيُّ: «ويَبْشُر» مخفَّفاً بفتح الياء وضمِّ الشين، وقد ذُكر[5].

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو دعاءُ الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يُحِبُّ أن يُستجابَ له: اللَّهُمَّ أهلِكْه، ونحوه. ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: كدعائه ربَّه أن يَهَبَ له العافية، فلو استجابَ اللهُ دعاءَه على نفسه بالشرِّ هلكَ، لكن بفضله لا يستجيبُ له في ذلك[6]. نظيره: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ

---

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ١٦١.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٧، ونقله في النكت والعيون ٣/ ٢٣٢ عن الكلبي.

(٤) ١/ ٣٥٨ - ٣٥٩.

(٥) ٥/ ١١٣.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥١٢.

﴿ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ وقد تقدّم[١].

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول: «اللهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم»[٢]. وقيل: هو أن يدعو في طلب المحظور كما يدعو في طلب المباح[٣]، قال الشاعر وهو ابن جامع:

أطوفُ بالبيتِ فيمَنْ يطوفُ وأرفَعُ من مِئْزَرِي الْمُسْبَلِ
وأسجدُ بالليلِ حتى الصباحِ وأتْلُو من الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
عسى فارجُ الْهَمِّ عن يوسفٍ يُسَخِّرُ لي رَبَّةَ المَحْمِلِ[٤]

قال الجوهري[٥]: يُقال: ما على فلانٍ مَحْمِلٌ، مثالُ مجلس، أي: مُعتمَد. والمَحْمِل أيضاً: واحدُ محامِلِ الحاجِّ. والمِحْمَلُ مثال المِرْجَل: عِلاقة السيف.

وحُذفَتِ الواو من «ويَدْعُ الإنسان» في اللفظ والخطِّ ولم تحذف في المعنى؛ لأنَّ موضعها رَفْعٌ، فحُذِفَتْ لاستقبالها اللام الساكنة، كقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦]، ﴿يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١]، ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[٦] [القمر: ٥].

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي: طبعُه العَجَلة[٧]، فيَعْجَل بسؤال الشرِّ كما يعجَلُ بسؤال الخير[٨]. وقيل: أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تُركَّبَ فيه الروح على

---

(١) ١٠/ ٤٦١.

(٢) نقله في زاد المسير ٥/ ١٣ عن مقاتل.

(٣) مجمع البيان ١٥/ ٢٠.

(٤) الأبيات في عيون الأخبار ٤/ ٩١ - ٩٢، والعقد الفريد ٦/ ٩ - ١٠.

(٥) في الصحاح (حمل).

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٧ - ١١٨، وليس عنده آية الشورى.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤.

(٨) الوسيط ٣/ ٩٩.

الكمال[1]. قال سلمان: أوَّلُ ما خلقَ اللهُ تعالى من آدم رأسَه، فجعلَ ينظر وهو يُخلَقُ جسدُه، فلما كان عند العصر بقيت رِجلاه لم يُنفَخْ فيهما الرُّوحُ، فقال: يا ربِّ عَجِّلْ قبل الليل؛ فذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[2]. وقال ابن عباس: لما انتهتِ النفخةُ إلى سُرَّتِه نظر إلى جسده، فذهبَ لينهضَ فلم يقْدِر، فذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[3]. وقال ابن مسعود: لمَّا دخل الرُّوحُ في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلمَّا دخلَ في جوفِه اشتهى الطعام، فوثَبَ قبل أن يبلغَ الرُّوحُ رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك حين يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ذكره البيهقي[4]. وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لمَّا صوَّرَ اللهُ تعالى آدمَ في الجنة تركَه ما شاء الله أن يترُكَه، فجعلَ إبليسُ يُطيفُ به ينظرُ ما هو، فلما رآه أجوَفَ عرَفَ أنه خُلِقَ خلقاً لا يتمالك» وقد تقدّم[5]. وقيل: سلَّمَ عليه الصلاة والسلام أسيراً إلى سَوْدة، فباتَ يئِنُّ، فسألَتْه فقال: أنيني لِشدَّة القِدِّ والأسر. فأرخَتْ من كتافه، فلما نامت هرب، فأخبرتِ النبيَّ ﷺ، فقال: «قطعَ اللهُ يدَيكِ» فلما أصبحت كانت تتوقَّع الآفة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني سألتُ اللهَ تعالى أن يجعلَ دعائي على من لا يستحِقُّ من أهلي رحمةً؛ لأني بشرٌ أغضَبُ كما يغضَبُ البشر» ونزلت الآية. ذكره القشيري أبو نصر رحمه الله[6]. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إنَّما محمدٌ بشرٌ يغضَبُ كما يغضَبُ البشرُ، وإني قدِ اتَّخذْتُ عندكَ عهداً لن تُخْلِفَنِيه، فأيُّما مؤمنٍ آذيتُه أو سببتُه أو جلدتُه فاجعَلْها

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٣٣ ، ومجمع البيان ١٥/ ٢١ .
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٤/ ١١٠ - ١١١ ، والطبري ١٤/ ٥١٤ .
(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥١٤ .
(٤) في الأسماء والصفات (٧٧٣)، وقد تقدم مطولاً ١/ ٤١٧ - ٤١٩ .
(٥) صحيح مسلم (٢٦١١)، وسلف ١٢/ ٢٠٧ .
(٦) وذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٢٩ ، والرازي في تفسيره ٢٠/ ١٦٢ ، وفي رواية أن المستودعة هي عائشة رضي الله عنها كما في المسند (٢٤٢٥٩) ومسند إسحاق بن راهويه (١١٢٥)، وسنن البيهقي ٩/ ٨٩ ، وفي رواية أخرى أنها حفصة كما في المسند (١٢٤٣١)، والأحاديث المختارة (١٦٢٠).

له كفارةً وقُرْبةً تُقرِّبُه بها إليك يوم القيامة»[١]. وفي الباب عن عائشة وجابر[٢].

وقيل: معنى ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي: يؤثر العاجل وإن قلَّ، على الآجِلِ وإن جَلَّ[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي: علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا، والآية فيهما: إقبالُ كلٍّ واحدٍ منهما من حيثُ لا يعلمُ، وإدبارُه إلى حيث لا يعلم، ونقصانُ أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آيةٌ أيضاً، وكذلك ضوءُ النهار وظلمةُ الليل. وقد مضى هذا[٤].

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ ولم يقل: فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دلَّ على أنَّ الآيتين المذكورتين لهما لاهما[٥]. و«مَحَوْنَا» معناه: طمسنا[٦]. وفي الخبر: أنَّ اللهَ تعالى أمرَ جبريل عليه السلام فأَمَرَّ جناحَه على وجه القمر فطمس عنه الضوء، وكان كالشمس في النور، والسوادُ الذي يُرى في القمر من أثر المحو. قال ابن عباس: جعلَ الله الشمس سبعين جزءاً والقمر سبعين جزءاً، فمحا من نور القمر تسعةً وستين جزءاً، فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مئةٍ وتسعٍ[٧] وثلاثين جزءاً والقمرُ على جزءٍ واحد. وعنه أيضاً: خلقَ اللهُ شمسين من نور عرشه، فجعل ما سبق

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٠١)، وأخرجه أحمد (٧٣١١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤١٧٩)، ومسلم (٢٦٠٠) عن عائشة، وأحمد (١٤٧٥٠)، ومسلم (٢٦٠٢) عن جابر.

(٣) ينظر تفسير الرازي ٢٠/ ١٦٢ .

(٤) ٢/ ٤٩٠ - ٤٩٤ .

(٥) ينظر الكشاف ٢/ ٤٤٠ .

(٦) الوسيط ٣/ ٩٨ .

(٧) كلمة (وتسع) ليست في النسخ، وأثبتت من المصادر؛ إذ لا يستقيم المعنى إلا بإثباتها.

في علمه أن يكون شمساً مثل الدنيا على قَدْرِها ما بين مشارقها إلى مغاربها، وجعل القمرَ دون الشمس، فأرسل جبريلَ عليه السلام فأَمَرَّ جناحَه على وجهه ثلاث مرات ـ وهو يومئذٍ شمسٌ ـ فطُمِسَ ضوؤُه وبقي نورُه؛ فالسواد الذي ترونه في القمر أثرُ المحو، ولو تركه شمساً لم يُعْرفِ الليلُ من النهار. ذكر عنه الأوّل الثعلبيُّ[(١)] والثاني المَهدَوِيّ، وسيأتي مرفوعاً. وقال عليٌّ ﷺ وقتادة: يريد بالمحو اللطخةَ السوداءَ التي في القمر؛ ليكون ضوءُ القمر أقلَّ من ضوء الشمس، فيتميزَ به الليل من النهار[(٢)].

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: جعلنا شمسَه مضيئةً للأبصار[(٣)]. قال أبو عمرو ابن العَلاء: أي: يُبْصَرُ بها[(٤)]. قال الكسائيّ: وهو من قول العرب: أبصرَ النهارَ إذا أضاء، وصار بحالةٍ يُبْصَرُ بها، وقيل: هو كقولهم خبيثٌ مُخْبِثٌ إذا كان أصحابُه خُبَثاء. ورجلٌ مُضْعِفٌ إذا كانت دوابُّه ضِعافاً؛ فكذلك النهار مُبْصِراً إذا كان أهله بُصَراء[(٥)].

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد التصرُّف في المعاش. ولم يذكُرِ السكونَ في الليل اكتفاءً بما ذكر في النهار. وقد قال في موضعٍ آخر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧].

﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لو لم يفعل ذلك لما عُرِفَ الليلُ من النهار، ولا كان يُعرَفُ الحساب والعدد[(٦)].

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي: من أحكام التكليف؛ وهو كقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ

---

(١) وذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٠٧، وذكره أيضاً السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٦٧ لكن نسبه إلى عكرمة.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٣٢، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥١٥ من قول علي ﷺ.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٣٢.

(٤) وهو قول ابن قتيبة في الغريب ص٢٥٢، وتأويل المشكل ص٢٢٨.

(٥) وهو قول أبي عبيدة كما ذكر الرازي في تفسيره ٢٠/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٦) الوسيط ٣/ ٩٩، وزاد المسير ٥/ ١٤.

شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وعن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لما أبرمَ اللهُ خلقَه فلم يبقَ من خلقه غيرُ آدم خلق شمساً من نور عرشه وقمراً، فكانا جميعاً شمسَين، فأما ما كان في سابق علم الله أن يَدَعها شمساً فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها، وأما ما كان في علم الله أن يخلقَها قمراً فخلقها دون الشمس في العِظَم، ولكن إنما يُرى صِغَرُهما من شدة ارتفاع السماء وبُعدِها من الأرض، فلو تركَ اللهُ الشمسَ والقمرَ كما خلقهما لم يُعرَفِ الليلُ من النهار، ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل، ولا الصائمُ إلى متى يصوم، ولا المرأةُ كيف تَعْتَدُّ، ولا تُدْرَى أوقاتُ الصلوات والحج ولا تحِلُّ الديون، ولا حين يبذرون ويزرعون، ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم، وكأنَّ اللهَ نظرَ إلى عباده ـ وهو أرحم بهم من أنفسهم ـ فأرسل جبريلَ فأمَرَّ جناحَه على وجه القمر ثلاثَ مراتٍ ـ وهو يومئذٍ شمسٌ ـ فطمسَ عنه الضوء، وبقي فيه النور، فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ الآية[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ قال الزَّجَّاج[(٢)]: ذِكرُ العُنقِ عبارةٌ عن اللزوم كلزوم القِلادة للعنق.

وقال ابن عباس: «طائره»: عمله وما قُدِّر عليه من خيرٍ وشر، وهو ملازمه أينما كان[(٣)]. وقال مقاتل والكلبي: خيرُه وشرُّه معه لا يفارقه حتى يُحاسَبَ به[(٤)]. وقال

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٦٥ - ٦٦ ، وفي إسناده أبو نعيم عمر بن صبح، وهو متروك، وقد اتُّهم بالوضع. الميزان ٣/ ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥١٩ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٠٨ .

مجاهد: عمله ورزقه[١]. وعنه: ما من مولودٍ يولد إلا وفي عُنقه ورقةٌ فيها مكتوب: شَقِيٌّ أو سعيد[٢]. وقال الحسن: «ألزمناه طائره» أي: شقاوته وسعادته، وما كُتِبَ له من خيرٍ وشرٍّ وما طار له من التقدير[٣]، أي: صار له عند القسمة في الأزل. وقيل: أراد به التكليف، أي: قدرناه إلزام الشرع، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمِر به وينزجر عما زُجر به أمكنه ذلك.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾ يعني: كتابَ طائرِه الذي في عنقه[٤]. وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد: «طيره» بغير ألف[٥]؛ ومنه ما روى في الخبر: «اللَّهُمَّ لا خيرَ إلا خيرُكَ، ولا طَيْرَ إلا طيرُكَ، ولا ربَّ غيرُكَ»[٦].

وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيْصِن وأبو جعفر ويعقوب: «ويَخْرُج» بفتح الياء وضمِّ الراء[٧]، على معنى: ويَخرجُ له الطائرُ كتاباً؛ ف «كتاباً» منصوبٌ على الحال. ويَحتمِلُ أن يكون المعنى: ويخرجُ الطائرُ فيصيرُ كتاباً. وقرأ يحيى بن وَثَّاب: «ويُخْرِج» بضمِّ الياء وكسر الراء، ورُوي عن مجاهد[٨]، أي: يُخرِجُ الله. وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمَيْفَعِ، ورُويَ أيضاً عن أبي جعفر: «ويُخْرَج» بضمِّ الياء وفتح الراء

(١) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٢٠، والبيهقي في الشعب (٢١٦١)، ولم يُذكر: رزقه، وهو كذلك في تفسير مجاهد ١/ ٣٥٩.

(٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٢٠، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٥٩.

(٣) زاد المسير ٥/ ١٥.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٣.

(٥) الشواذ ص٧٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٢، وزاد المسير ٥/ ١٦.

(٦) أخرجه أحمد (٧٠٤٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٨، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣١، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٢٢، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣، وزاد المسير ٥/ ١٦، والنشر ٢/ ٣٠٦، ولم يذكروا هذه القراءة عن أبي جعفر.

(٨) هذه القراءة في معاني القرآن للفراء ٢/ ١١٨، وفي النشر ٢/ ٣٠٦ عن أبي جعفر، وهي من العشرة. وهي في زاد المسير ٥/ ١٦ عن قتادة وأبي المتوكل.

على الفعل المجهول[١]، ومعناه: ويُخرِجُ له الطائرُ كتاباً. الباقون: «ونُخرِجُ» بنونٍ مضمومةٍ وكسرِ الراء، أي: ونحن نخرج. واحتجَّ أبو عمرو في هذه القراءة بقوله: «ألزمناه».

وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر «يُلَقَّاه» بضمِّ الياء وفتح اللام وتشديد القاف[٢]، بمعنى: يؤتاه[٣]. الباقون: بفتح الياء خفيفة، أي: يراه منشوراً. وقال: «منشوراً»: تعجيلاً للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة[٤]. وقال أبو السَّوَّار العدوي[٥] وقرأ هذه الآية: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال: هما نشرتان وَطَيَّة، أما ما حييتَ يا بن آدم فصحيفتُكَ المنشورةُ فأَمْلِ فيها ما شئت، فإذا متَّ طُويتْ حتى إذا بُعِثْتَ نُشِرَتْ[٦]. ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ قال الحسن: يقرأ الإنسانُ كتابَه أُمِّيًّا كان أو غير أُمِّيٍّ[٧]. ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي: محاسباً[٨]. وقال بعض الصلحاء: هذا كتابٌ، لسانُك قلمُه، وريقُك مِدادُه، وأعضاؤك قرطاسُه، أنتَ كنتَ المُمْلي على حَفَظتِكَ، ما زِيد فيه ولا نُقِصَ منه، ومتى أنكرتَ منه شيئاً يكون فيه الشاهد منكَ عليكَ.

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: إنما كلُّ

(١) زاد المسير ٥/ ١٦، والنشر ٢/ ٣٠٦ عن أبي جعفر، وهي من العشرة.

(٢) السبعة ص٣٧٨، والتيسير ص١٣٩ عن ابن عامر، والنشر ٢/ ٣٠٦ عن أبي جعفر وابن عامر، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣ عن ابن عامر والحسن.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٠٨.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٣.

(٥) البصري، وقد اختُلف في اسمه، فقيل: حسان بن حريث، وقيل: حريث بن حسان، وقيل غير ذلك، وهو من التابعين الثقات، وله روايةٌ في الصحيحين. تهذيب التهذيب ٤/ ٥٣٥.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٨٣، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٥٠.

(٧) الوسيط ٣/ ١٠٠، وزاد المسير ٥/ ١٦.

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٢، وزاد المسير ٥/ ١٦.

أحدٍ يُحاسَبُ عن نفسه لا عن غيره، فمن اهتدى فثوابُ اهتدائه له، ومن ضلَّ فعقابُ كفره عليه[١].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تقدَّم في الأنعام[٢]. وقال ابن عباس: نزلت في الوليد ابن المغيرة، قال لأهل مكة: اتبعونِ واكفروا بمحمدٍ وعليَّ أوزاركم، فنزلت هذه الآية، أي: إن الوليد لا يحمِلُ آثامَكم، وإنما إثمُ كلٍّ واحدٍ عليه[٣]. يُقال: وَزَرَ يزِر وِزْراً ووِزْرَةً، أي: أثِم[٤]. والوِزْر: الثِّقْل المثقِل والجمع أوزار، ومنه: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١] أي: أثقال ذنوبهم[٥]. وقد وَزَر إذا حَمَل فهو وازر؛ ومنه وزير السلطان الذي يحمل ثِقْل دولته[٦]. والهاء في قوله كناية عن النفس، أي: لا تؤخَذُ نفسٌ آثمةٌ بإثم أخرى[٧]، حتى إنَّ الوالدة تَلْقَى ولدَها يوم القيامة فتقول: يا بنيَّ، ألم يكن حَجْري لكَ وِطاءً؟ ألم يكن ثديي لكَ سِقاءً؟ ألم يكن بطني لكَ وعاءً؟ فيقول: بلى يا أُمَّهْ. فتقول: يا بنيَّ، فإن ذنوبي أثقلَتْني فاحمِلْ عني منها ذنباً واحداً. فيقول: إليكِ عني يا أُمَّهْ، فإني بذنبي عنكِ اليومَ مشغول[٨].

مسألة: نزعت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية في الردِّ على ابن عمر حيث قال: «إنَّ الميتَ لَيُعَذَّبُ ببكاءِ أهله»[٩]. قال علماؤنا: وإنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه، وأنه معارِضٌ للآية. ولا وجه لإنكارها، فإنَّ الرُّواةَ لهذا المعنى كثير، كعمر

(١) الوسيط ٣/ ١٠٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣، وزاد المسير ٥/ ١٦.
(٢) ٩/ ١٤٥ - ١٤٧.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣، وسبب النزول في الوسيط ٣/ ١٠٠، وزاد المسير ٥/ ١٦.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣١.
(٥) ينظر ما تقدم ٨/ ٣٥٩.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣.
(٧) ينظر مجاز القرآن ١/ ٣٧٢.
(٨) سيورده المؤلف من كلام الفضيل بن عياض عند تفسير الآية (١٨) من سورة فاطر.
(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٣، وقول ابن عمر إنما هو مرفوعٌ إلى النبي ﷺ كما أخرجه أحمد (٤٩٥٩)، والبخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٧): (١٦).

وابنه والمغيرة بن شعبة وقَيْلة بنت مخرمة(١)، وهم جازمون بالرواية، فلا وجه لتخطِئتهم، ولا معارضَةَ بين الآية والحديث؛ فإن الحديث مَحمَلُه على ما إذا كان النوح من وصيَّةِ الميت وسُنَّته، كما كانت الجاهلية تفعله، حتى قال طَرَفة:

إذا مِتُّ فانعيني بما أنا أهلُهُ وشُقِّي عليَّ الجيبَ يا بنتَ مَعْبَدِ(٢)

وقال آخر(٣):

إلى الحَوْلِ ثمَّ اسمُ السلامِ عليكما ومن يَبْكِ حولاً كاملاً فقدِ اعتذَرْ(٤)

وإلى هذا نحا البخاري(٥). وقد ذهب جماعةٌ من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يُعذَّب بنَوْحِهم؛ لأنه أهملَ نهيَهم عنه قبل موته وتأديبَهم بذلك، فيُعذَّب بتفريطه في ذلك، وبترك ما أمره الله به من قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦] لا بذنبِ غيرِه، والله أعلم(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ أي: لم نتركِ الخلقَ سُدًى، بل أرسلنا الرسل. وفي هذا دليلٌ على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن العقل يُقبِّحُ ويُحسِّنُ ويُبيحُ ويُحظِّر. وقد تقدَّم في البقرة القول فيه(٧). والجمهور على أن هذا في حكم الدنيا، أي: أنَّ الله لا يُهلك أمةً بعذابٍ إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار. وقالت فرقة: هذا عامٌّ في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى:

(١) حديث عمر أخرجه أحمد (١٨٠)، والبخاري (١٢٨٧)، ومسلم (٩٢٧). وحديث ابن عمر ذكره المؤلف. وحديث المغيرة أخرجه أحمد (١٨١٤٠)، والبخاري (١٢٩١)، ومسلم (٩٣٣). وحديث قيلة أخرجه ابن سعد ١/ ٢٣٠ في حديث طويل.

(٢) ينظر إكمال المعلم للقاضي عياض ٣/ ٣٧٠ - ٣٧١ ، والبيت في ديوان طرفة ص٣٩ .

(٣) كلمة «آخر» من (ظ)، وهي ليست في باقي النسخ.

(٤) قائله لبيد، وهو في ديوانه ص٧٩ . ونُسب في خزانة الأدب ٤/ ٣٤٢ إلى زوجة الحسن بن الحسن بن علي، وإلى أرطاة بن سُهيَّة المري.

(٥) فقال بعد الحديث (١٢٨٢): باب قول النبي ﷺ: «يُعذَّب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته.

(٦) إكمال المعلم ٣/ ٣٧٢ .

(٧) ١/ ٣٧٧ - ٣٧٨ .

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا﴾ [الملك: ٨-٩]. قال ابن عطية[1]: والذي يعطيه النظرُ أنَّ بِعثةَ آدمَ عليه السلام بالتوحيد وبَثِّ المعتقدات في بنيه مع نصب الأدلَّة الدالَّة على الصانع مع سلامة الفِطَر توجِبُ على كلِّ أحدٍ من العالَم الإيمانَ واتباعَ شريعة الله، ثم تجدَّد ذلك في زمن نوحٍ عليه السلام بعد غرق الكفار، وهذه الآيةُ أيضاً يُعطي احتمالُ ألفاظها نحوَ هذا في الذين لم تصِلْهم رسالة، وهم أهل الفَتَرات الذين قد قدَّرَ وجودَهم بعضُ أهل العلم، وأما ما رُويَ من أنَّ الله تعالى يبعثُ إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديثٌ لم يصِحَّ، ولا يقتضي ما تعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف.

قال المهدويُّ: ورُوي عن أبي هريرة أنَّ الله عزَّ وجلَّ يبعثُ يومَ القيامة رسولاً إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصمِّ، فيُطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه في الدنيا، وتلا الآية. رواه معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبي هريرة. ذكره النحاس[2].

قلت: هذا موقوف، وسيأتي مرفوعاً في آخر سورة طه[3] إن شاء الله تعالى، ولا يصِحُّ. وقد استدلَّ قومٌ في أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى، وهذا صحيح، ومن لم تبلُغْه الدعوةُ فهو غيرُ مستحِقٍّ للعذاب من جهة العقل، والله أعلم[4].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٤ .

(٢) في معاني القرآن ١/ ١٣٢ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٤ عن معمر، به.

(٣) عند تفسير الآية (١٣٤)، وينظر الكلام عليه هناك.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٢ .

الأولى: أخبر الله تعالى في الآية التي قبلُ أنه لم يُهلكِ القرى قبل ابتعاث الرسل، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل، ولكنه وعدٌ منه، ولا خُلْفَ في وعده، فإذا أراد إهلاك قريةٍ مع تحقيق وعدِه على ما قاله تعالى أمرَ مترفيها بالفِسق والظلم فيها، فحقَّ عليها القولُ بالتدمير. يُعلِمُكَ أنَّ من هلكَ فإنما هلكَ بإرادته، فهو الذي يسببُ الأسبابَ ويسوقُها إلى غاياتها، ليَحُقَّ القولُ السابقُ من الله تعالى[1].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا﴾ قرأ أبو عثمان النَّهْدِيُّ وأبو رجاء وأبو العالية والربيع ومجاهد والحسن: «أمَّرْنا» بالتشديد، وهي قراءة عليٍّ ﷺ[2]، أي: سلَّطنا شرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم[3]. وقال أبو عثمان النهدِيُّ: «أمَّرْنا» بتشديد الميم: جعلناهم أمراء مسلَّطين[4]. وقاله ابن عَزيز[5]. وتأمَّر عليهم: تسلَّط عليهم[6]. وقرأ الحسن أيضاً وقتادة وأبو حَيْوة الشامي ويعقوب، وخارجة عن نافع، وحماد بن سَلَمة عن ابن كَثير، وعليٌّ وابنُ عباس باختلافٍ عنهما «آمرنا» بالمدِّ والتخفيف[7]، أي: أكثَرْنا جبابرتَها وأُمراءها. قاله الكسائي[8]. وقال أبو عبيدَة: آمرته بالمد وأمرته، لغتان بمعنى كثَّرته؛ ومنه الحديث «خير المال مُهْرَةٌ مأمُورة، أو سِكَّةٌ مأبورة» أي: كثيرة النِّتاج والنَّسل[9]. وكذلك قال ابن عزيز: آمرنا وأمرنا بمعنًى واحد، أي: أكثرنا[10]. وعن الحسن أيضاً ويحيى بن يَعْمَر: «أمِرْنا» بالقصر وكسر

---

(١) المصدر السابق.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣، والمحتسب ٢/ ١٦، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٤، وهي قراءة شاذة.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٢٩، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٢٣) من قول ابن عباس ﷺ.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٣٥.

(٥) في نزهة القلوب ص٨٣.

(٦) الصحاح (أمر).

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٠٩، وزاد المسير ٥/ ١٩، والنشر ٢/ ٣٠٦، وقراءة يعقوب من العشرة.

(٨) وقاله أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢/ ٢٦٣.

(٩) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٧٣ بمعناه، والحديث سلف ١٢/ ١٣٤.

(١٠) نزهة القلوب ص٨٣.

الميم على فَعِلنا، ورُويَتْ عن ابن عباس[١] قال قتادة والحسن: المعنى: أكثرنا، وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال: لا يُقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد. قال: وأصلها «أأمرنا» فخفف، حكاه المهدويّ[٢]. وفي «الصحاح»: وقال أبو الحسن: أَمِر مالُه (بالكسر) أي: كثر. وأَمِرَ القومُ، أي: كَثُروا؛ قال الشاعر:

أَمِـرونَ لا يَـرِثـون سَـهْـمَ الـقُـعْـدُدِ

وآمَرَ اللهُ مالَه (بالمد)[٣]. الثعلبي: ويُقال للشيء الكثير: أَمِرٌ، الفعل منه: أَمِرَ القومُ يأمَرون أمراً إذا كثروا. قال ابن مسعود: كنَّا نقول في الجاهلية للحيِّ إذا كَثُروا: أَمِرَ أَمْرُ بني فلان؛ قال لَبيد:

كُـلُّ بَـنـي حُـرَّةٍ مَـصـيـرُهُـمُ ... قُـلٌّ وإن أكـثـرَتْ مـن الـعـددِ

إن يُـغْـبَـطُـوا يَـهْـبِـطُـوا وإن أَمِـرُوا ... يـومـاً يـصـيـروا لـلـهُـلْـكِ والـنَّـكَـدِ[٤]

قلت: وفي حديث هِرَقل الحديثِ الصحيح: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كَبشة، إنه ليخافه مَلِكُ بني الأصفر[٥]. أي: كثُرَ. وكلُّه غير متعدٍّ، ولذلك أنكره الكسائي، والله أعلم. قال المهدوي: ومن قرأ: «أَمِرَ» فهي لغة، ووجه تعدية «أمِرَ» أنه شبَّهه بِعَمِرَ من حيث كانت الكثرةُ أقربَ شيءٍ إلى العمارة، فعدَّى كما عدَّى عَمِرَ.

الباقون: «أَمَرْنا» من الأمر؛ أي: أمرناهم بالطاعة[٦] إعذاراً وإنذاراً وتخويفاً ووعيداً. ﴿فَفَسَقُوا۟﴾ أي: فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾: فوجب

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣، والقراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٦.

(٢) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٥.

(٣) الصحاح (أمر)، وصدر البيت: طرفون ولّا دون كل مبارك، وقائله الأعشى كما في الصحاح واللسان (أمر). والقعدد: القليل الآباء إلى الجد الأكبر. اللسان (قعد).

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٧٢ - ٣٧٣، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٣١ - ٥٣٢، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٩١ - ٢٩٢، والبيتان في ديوان لبيد ص٥٠.

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٧٠)، والبخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) وهو من كلام أبي سفيان لأصحابه.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣١، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٤.

عليها الوعيد. عن ابن عباس[١]. وقيل: «أَمَّرْنا» جعلناهم أمراء؛ لأن العرب تقول: أمير غير مأمور[٢]، أي: غير مؤمر. وقيل: معناه: بعثنا مستكبريها؛ قال هارون: وهي قراءة أُبَيٍّ: «بعثنا أكابِرَ مُجرميها ففسقوا» ذكره الماورديّ[٣]. وحكى النحاس: وقال هارون في قراءة أُبَيٍّ: «وإذا أردنا أن نُهلِكَ قريةً بعثنا فيها أكابِرَ مُجرميها فمكروا فيها فحقَّ عليها القول»[٤].

ويجوز أن يكون «أمرنا» بمعنى أكثرنا؛ ومنه: «خير المال مُهْرَةٌ مأمورة» على ما تقدَّم.

وقال قوم: مأمورةٌ اتباع لمأبورة؛ كالغدايا والعشايا[٥]، وكقوله: «اِرْجِعْنَ مأزوراتٍ غيرَ مأجورات»[٦]. وعلى هذا لا يُقال: أَمَرهم الله، بمعنى كثرهم، بل يُقال: آمره وأمره. واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة[٧]. قال أبو عبيد: وإنما اخترنا «أمرنا» لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة[٨]. والمُتْرَف: المُنعَّم؛ وخُصّوا بالأمر لأنَّ غيرَهم تَبَعٌ لهم[٩].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا﴾ أي: استأصلناها بالهلاك[١٠]. ﴿تَدۡمِيرٗا﴾ ذكر المصدر للمبالغة في العذاب الواقع بهم. وفي الصحيح من حديث زينب بنت جَحْش زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: خرجَ رسولُ الله ﷺ يوماً فَزِعاً مُحْمَرًّا وجهُه يقول: «لا إله إلا الله، ويْلٌ للعرب من شَرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه»

---

(١) ينظر الوسيط ٣/ ١٠١، ومجمع البيان ١٥/ ٣٠.
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٥٢٨.
(٣) في النكت والعيون ٣/ ٢٣٥ وهي قراءة شاذة.
(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٣٧، وهي قراءة شاذة أيضاً.
(٥) مجمع البيان ١٥/ ٢٩.
(٦) ينظر تفسير الطبري ١٤/ ٥٢٨، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٩٢. والحديث سلف ٦/ ٤٩.
(٧) وكذلك الطبري في تفسيره ٤/ ٥٣٢.
(٨) نقله عنه البغوي ٣/ ١٠٩ لكن وقع في مطبوعه: أبو عبيدة.
(٩) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٧٥، وزاد المسير ٥/ ١٩.
(١٠) الوسيط ٣/ ١٠١.

وحلَّق بأصبعِه الإبهام والتي تليها. قالت: فقلتُ: يا رسول الله، أنَهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخبث». وقد تقدَّم الكلام في هذا الباب[١]، وأنَّ المعاصي إذا ظهرتْ ولم تُغيَّرْ كانت سبباً لهلاك الجميع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي: كم من قومٍ كفروا حلَّ بهم البَوار. يخوِّف كفَّار مكة[٢]. وقد تقدَّم القول في القرون في أوّل سورة الأنعام[٣]، والحمد لله. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ «خبيراً»: عليماً بهم. «بَصِيراً»: يُبصر أعمالهم. وقد تقدّم[٤].

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدنيا، والمراد: الدارُ العاجلة، فعبَّر بالنعت عن المنعوت. ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أي: لم نُعطِه منها إلا ما نشاء، ثم نؤاخذه بعمله، وعاقبتُه دخولُ النار[٥]. ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي: مُطرَداً مُبعَداً من رحمة الله[٦]. وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المُداجين، يلبِسون الإسلام والطاعة؛ لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يُقبَلُ ذلك العملُ منهم

---

(١) ٩/ ٤٨٧.

(٢) الوسيط ٣/ ١٠١.

(٣) ٨/ ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٤) ٨/ ٣٣٦ معنى الخبير، و٢/ ٢٦١ معنى البصير.

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٠.

(٦) الوسيط ٣/ ١٠١، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٩.

في الآخرة، ولا يُعطَون في الدنيا إلا ما قُسم لهم. وقد تقدَّم في «هود»[١] أنَّ هذه الآية تُقيِّدُ تلك الآيات المُطلَقة، فتأمَّله.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: الدار الآخرة. ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: عمِلَ لها عملَها من الطاعات. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الطاعات لا تُقبَلُ إلا من مؤمن. ﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولاً غير مردود[٢]. وقيل: مضاعَفاً[٣]؛ أي: تُضاعف لهم الحسنات إلى عشر، وإلى سبعين، وإلى سبع مئة ضعف، وإلى أضعافٍ كثيرة؛ كما رُوي عن أبي هريرة وقد قيل له: أسمعتَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألفَ ألفِ حسنة»؟ فقال سمعته يقول: «إنَّ الله ليَجْزي على الحسنة الواحدة ألفَي ألفِ حسنة»[٤].

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ﴾ أعلمَ اللهُ تعالى أنه يرزق المؤمنين والكافرين[٥]. ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: محبوساً ممنوعاً؛ من حَظَر يَحْظُر حَظْراً وحِظاراً[٦].

ثم قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ في الرزق والعمل؛ فمِنْ مُقِلٍّ ومكثر[٧]. ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: للمؤمنين؛ فالكافر وإن وُسِّعَ

---

(١) ١١/ ٨٥ - ٨٦.
(٢) زاد المسير ٥/ ٢٠.
(٣) الوسيط ٣/ ١٠١.
(٤) لم نقف عليه.
(٥) نقله في الوسيط ١/ ١٠١ - ١٠٢ عن الزجاج، ولفظ الجلالة أثبتت من (ظ)، والوسيط.
(٦) الوسيط ١/ ١٠٢.
(٧) زاد المسير ٥/ ٢١.

عليه في الدنيا مرة، وقُتِّر على المؤمن مَرَّةً، فالآخرة لا تُقسم إلا مرةً واحدةً بأعمالهم، فمن فاتَه شيءٌ منها لم يستدرِكْه فيها.

وقوله: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته[1]. وقيل: الخطاب للإنسان[2]. ﴿فَتَقۡعُدَ﴾ أي: تبقى[3]. ﴿مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾ لا ناصرَ لكَ ولا وَلِيًّا[4].

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾

فيه ستّ عشرة مسألة:

الأولى: ﴿قَضَىٰ﴾ أي: أمرَ وألزمَ وأوجب[5]. قال ابن عباس والحسن وقتادة: وليس هذا قضاء حُكْمٍ، بل هو قضاء أمر[6]. وفي مصحف ابن مسعود: «ووصَّى» وهي قراءة أصحابه وقراءةُ ابنِ عباس أيضاً وعليٍّ وغيرهما، وكذلك عند أُبَيِّ بن كعب[7]. قال ابن عباس: إنما هو «ووصَّى ربُّكَ» فالتصقت إحدى الواوين فقُرِئتْ: «وقضى ربك» إذ لو كان على القضاء ما عصى اللهَ أحدٌ[8]. وقال الضحاك: تصحَّفت

---

(١) الوسيط ٣/ ١٠٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢١ .

(٢) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٧٦ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٦٤ .

(٤) الوسيط ٣/ ١٠٢ ، وزاد المسير ٥/ ٢١ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ .

(٦) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٣٧ ، ومجمع البيان ١٥/ ٣٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ ، وعنده «النخعي» بدل «علي»، لكن الرازي نقل هذه القراءة في تفسيره ٢٠/ ١٨٤ عن علي، وهي قراءة شاذة.

(٨) تفسير الرازي ٢٠/ ١٨٤ .

على قومٍ «وصى بقضى» حين اختلطتِ الواوُ بالصادِ وقْتَ كَتْبِ المصحف. وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثلَ قول الضحاك. وقال عن ميمون بن مهْران أنه قال: إنَّ على قول ابن عباس لنوراً؛ قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابنُ عباس قال ذلك، وقال: لو قلنا هذا لطعَنَ الزنادقةُ في مصحفنا[1]. ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ معناه أمر. والقضاء بمعنى الخلق، كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] يعني: خلقهن. والقضاء بمعنى الحكم، كقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] يعني: احكم ما أنت تحكم. والقضاء بمعنى الفراغ، كقوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أي: فُرِغَ منه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠]. والقضاء بمعنى الإرادة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. والقضاء بمعنى العهد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[2] [القصص: ٤٤].

فإذا كان القضاء يَحتمِلُ هذه المعاني فلا يجوز إطلاقُ القول بأنَّ المعاصي بقضاء الله؛ لأنه إن أُريدَ به الأمرُ فلا خلافَ أنه لا يجوز ذلك؛ لأنَّ الله تعالى لم يأمرْ بها، فإنه لا يأمر بالفحشاء. وقال زكريا بن سلام: جاء رجلٌ إلى الحسن فقال: إنَّه طلَّقَ امرأتَه ثلاثاً. فقال: إنك قد عصيتَ ربَّكَ وبانَتْ منك زوجتُك. فقال الرجل: قضى اللهُ ذلك عليَّ. فقال الحسن وكان فصيحاً: ما قضى اللهُ ذلك. أي: ما أمرَ اللهُ به، وقرأ هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3].

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٧ .

(٢) ينظر معنى القضاء في مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص٦٧٤ - ٦٧٥ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٢ ، وكلمة «زوجتك» أثبتت منه ومن نسخة (ظ).

الثانية: أمر اللهُ سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بِرَّ الوالدين مقروناً بذلك، كما قَرَن شُكرَهما بشكره فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾(١) [لقمان: ١٤]. وفي «صحيح البخاري» عن عبد الله قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «الصلاةُ على وقتها» قال: ثم أيّ؟ قال: «ثم بِرُّ الوالدين» قال: ثم أيّ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»(٢) فأخبر ﷺ أنَّ بِرَّ الوالدين أفضلُ الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام. ورتَّب ذلك بـ «ثُمَّ» التي تُعطي الترتيب والمهلة.

الثالثة: من البِرِّ بهما والإحسانِ إليهما ألَّا يتعرَّضَ لسَبِّهما ولا يَعُقُّهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة، ففي «صحيح مسلم» عن عبد الله ابن عمرو أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إن من الكبائر شَتْمَ الرجلِ والديه» قالوا: يا رسول الله، وهل يَشْتُم الرجلُ والديه؟ قال: «نعم؛ يَسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ، فيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّه، فيسُبُّ أُمَّه»(٣).

الرابعة: عقوق الوالدين مخالفتُهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن بِرَّهما موافقتُهما على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أو أحدُهما ولدَهما بأمرٍ وجبت طاعتُهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب. وقد ذهب بعض الناس إلى أنَّ أَمْرَهما بالمباح يُصيِّره في حقِّ الولد مندوباً إليه، وأَمْرَهما بالمندوب يزيده تأكيداً في نَدْبيَّته.

الخامسة: روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأةٌ أُحِبُّها، وكان أبي يكرهُها، فأمرني أن أُطلِّقَها، فأبَيْتُ، فذكرتُ ذلك للنبيِّ ﷺ فقال: «يا عبد الله بن

---

(١) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٤ ، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٩٦ .

(٢) صحيح البخاري (٥٢٧)، وأخرجه أحمد (٣٨٩٠)، ومسلم (٨٥).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ ، والحديث في صحيح مسلم (٩٠)، وأخرجه أحمد (٦٥٢٩).

عمر، طَلِّقِ امرأتَكَ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح(١).

السادسة: روى الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: مَنْ أحَقُّ الناسِ بحُسْنِ صحابتي؟ قال: «أمُّك» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «ثم أمُّك» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «ثمَّ أمك» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «ثمَّ أبوك»(٢). فهذا الحديث يدلُّ على أنَّ محبةَ الأم والشفقةَ عليها ينبغي أن تكون ثلاثةَ أمثال محبة الأب؛ لذكر النبيِّ ﷺ الأمَّ ثلاث مرات، وذِكْرِ الأب في الرابعة فقط. وإذا تُوُصِّل هذا المعنى شهد له العِيان؛ وذلك أنَّ صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب. ورُوي عن مالكٍ أنَّ رجلاً قال له: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إليَّ أن أقدَم عليه، وأمِّي تمنعني من ذلك، فقال له: أطِعْ أباك، ولا تَعْصِ أُمَّك. فدلَّ قول مالك هذا أن بِرَّهما متساوٍ عنده. وقد سُئِلَ الليثُ عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم، وزعم أنَّ لها ثُلثي البر(٣). وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر، وهو الحجة على من خالف(٤). وقد زعم المحاسِبي في «كتاب الرعاية» له أنه لا خلاف بين العلماء أنَّ للأم ثلاثةَ أرباع البرِّ، وللأب الربع(٥)؛ على مقتضى حديث أبي هريرة ﷺ. والله أعلم.

السابعة: لا يختصُّ بِرُّ الوالدين بأن يكونا مُسلِمَين، بل إن كانا كافِرَين يَبَرُّهما ويُحسنُ إليهما إذا كان لهما عهد؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾(٦) [الممتحنة: ٨]. وفي «صحيح البخاري» عن

---

(١) سنن الترمذي (١١٨٩)، وأخرجه ـ أيضاً ـ بهذا اللفظ أحمد (٥٠١١).

(٢) صحيح البخاري (٥٩٧١)، وصحيح مسلم (٢٥٤٨). وأخرجه أحمد (٨٣٤٤).

(٣) ينظر إكمال المعلم ٨/ ٥ .

(٤) ينظر المفهم ٦/ ٥٠٨ .

(٥) قول المحاسبي في الرعاية ص١٠٢ : فليبدأ العبد بحاجة والدته؛ لأن برَّها مقدَّمٌ في سنة النبي ﷺ، واجتماع العلماء على تقديمها في البر والطاعة على الوالد.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ .

أسماء قالت: قَدِمتْ أمّي وهي مشركةٌ في عهد قريشٍ ومُدَّتهم إذ عاهدوا النبيَّ ﷺ مع أبيها، فاستفتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلتُ: إنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ أفأَصِلُها؟ قال: «نعم صِلي أُمَّكِ». وروى أيضاً عن أسماء قالت: أتتني أمّي راغبةً في عهد النبيِّ ﷺ، فسألتُ النبيَّ ﷺ: أأصِلُها؟ قال: «نعم». قال ابن عُيينة: فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾. الأوّل معلَّق والثاني مسند[١].

الثامنة: من الإحسان إليهما والبِرِّ بهما إذا لم يتعيَّنِ الجهادُ ألّا يُجاهِدَ إلّا بإذنهما. روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يستأذِنُه في الجهاد فقال: «أحَيٌّ والداك؟» قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهِدْ». لفظ مسلم[٢]. في غير الصحيح قال: نعم، وتركتُهما يبكيان. قال: «اذهَبْ فأضحِكْهما كما أبكيتَهما»[٣]. وفي خبرٍ آخر أنه قال: «نومُكَ مع أبويك على فراشهما يُضاحِكانك ويُلاعبانك أفضلُ لكَ من الجهاد معي». ذكره ابن خُوَيْزمنداد. ولفظ البخارِي في كتاب بِرِّ الوالدين[٤]: أخبرنا أبو نُعَيم، أخبرنا سفيان، عن عطاء بن السَّائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عَمرو قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يُبايعه على الهجرة، وتَرَكَ أبويه يبكيان، فقال: «ارجِعْ إليهما فأضحِكْهما كما أبكيتَهما». قال ابن المنذر: في هذا الحديث النَّهيُ عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقَعِ النَّفير، فإذا وقعَ وجبَ الخروجُ على الجميع، وذلك بَيِّنٌ في حديث أبي قَتادة أنَّ رسول الله ﷺ بعث جيش الأمراء...؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رَوَاحة، وأنَّ مُنادي رسول الله ﷺ نادى بعد ذلك: أنِ الصلاةُ جامعة، فاجتمع الناسُ فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، اخرجوا فأمِدُّوا إخوانكم ولا يتخلَّفَنَّ أحدٌ» فخرج الناسُ مُشاةً وركباناً في حَرٍّ

---

(١) صحيح البخاري (٥٩٧٨) مسنداً، و(٥٩٧٩) معلَّقاً. وأخرجه مسنداً أحمد (٢٦٩١٥)، ومسلم (١٠٠٣).

(٢) صحيح البخاري (٣٠٠٤)، وصحيح مسلم (٢٥٤٩): (٥)، وأخرجه أحمد (٦٧٦٥).

(٣) أخرجه أحمد (٦٤٩٠)، وأبو داود (٢٥٢٨)، والنسائي ٧/ ١٤٣ ، وابن ماجه (٢٧٨٢).

(٤) من كتاب الأدب المفرد (١٣).

شديد[١]. فدلَّ قوله: «اخرجوا فأمِدُّوا إخوانكم» أنَّ العذر في التخلُّف عن الجهاد إنما هو ما لم يقَعِ النَّفير، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «فإذا استُنْفِرتُم فانفِروا»[٢].

قلت: وفي هذه الأحاديث دليلٌ على أنَّ المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قُدِّمَ الأهمُّ منها. وقد استوفى هذا المعنى المحاسبيُّ في كتاب الرعاية.

التاسعة: واختلفوا في الوالِدَين المشرِكَيْن هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية، فكان الثَّوري يقول: لا يغزو إلا بإذنهما. وقال الشافعي: له أن يغزو بغير إذنهما[٣]. قال ابن المنذر: والأجداد آباء، والجدَّات أمهاتٌ فلا يغزو المرء إلا بإذنهم، ولا أعلم دلالةً تُوجِبُ ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات. وكان طاوس يرى السَّعيَ على الأخوات أفضلَ من الجهاد في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

العاشرة: من تمام بِرِّهما صِلة أهل وُدِّهما، ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ من أبَرِّ البِرِّ صلَةُ الرجلِ أهلَ وُدِّ أبيه بعد أن يُوَلِّيَ». وروى أبو أُسَيد ـ وكان بَدْرِيًّا ـ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ جالساً فجاءه رجلٌ من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي من برِّ والدَيَّ من بعد موتهما شيءٌ أبَرُّهما به؟ قال: «نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإنفاذُ عهدِهما بعدَهما، وإكرامُ صديقِهما، وصلةُ الرَّحِمِ التي لا رَحِمَ لك إلا من قبلهما، فهذا الذي بقيَ عليك». وكان ﷺ يُهدي لصدائقِ خديجة بِرًّا بها ووفاءً لها وهي زوجته، فما ظنُّكَ بالوالدين[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٥٥١)، والنسائي في الكبرى (٨١٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩١)، والبخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣): (٨٥) ٣/ ١٤٨٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأحمد (١٥٣٠٦) من حديث صفوان بن أمية ﷺ، ومسلم (١٨٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) إكمال المعلم ٨/ ٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٩ - ١١٩٠ ، وحديث ابن عمر في صحيح مسلم (٢٥٥٢)، وأخرجه أحمد (٥٦١٢). وأما حديث أبي أسيد فقد أخرجه أحمد (١٦٠٥٩)، وأبو داود (٥١٤٢)، وابن ماجه (٣٦٦٤) من طريق أسيد بن علي، عن أبيه علي بن عبيد، عن أبي أسيد، به. إسناده ضعيف؛ =

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ خصَّ حالةَ الكِبَر لأنها الحالةُ التي يحتاجان فيها إلى بِرِّه؛ لتغيُّرِ الحال عليهما بالضَّعف والكِبَر؛ فألزمه في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثرَ مما ألزمه من قبل؛ لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلًّا عليه، فيحتاجان أن يَليَ منهما في الكِبَر ما كان يحتاج في صِغَره أن يَلِيا منه؛ فلذلك خَصَّ هذه الحالة بالذكر[1].

وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستثقالَ للمرء عادةً، ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبُه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالَّة البُنُوَّة وقِلَّة الديانة، وأقلُّ المكروه ما يُظهره بتنفسه المتردَّد من الضجر، وقد أُمِرَ أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب[2]، فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنْفُه، رغِمَ أنفه، رغِمَ أنفُه» قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أدركَ والديه عند الكِبَر أحدَهما أو كلَيْهما ثم لم يَدخُلِ الجنة»[3]. وقال البخاري في كتاب بر الوالدين: حدثنا مُسدَّد، حدثنا بشر بن المُفَضَّل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد[4] المَقْبُرِيّ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عليَّ، رَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك أبويه عند الكِبَرِ أو أحدَهما فلم يُدخِلاه الجنة، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ دخل عليه رمضانُ ثم انسلخَ قبل أن يُغْفَرَ له». حدثنا ابن أبي أُوَيْس، حدثني أخي، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن هلال، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة السالمي، عن أبيه ﷺ قال: إنَّ كعبَ بنَ عُجْرة ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ:

= قال الذهبي في الميزان ٣/ ١٤٤ : علي بن عبيد لا يُعرف. وأما حديث الإهداء لصدائق خديجة، فقد أخرجه أحمد (٢٤٣١٠)، والبخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) أحكام القرآن للكيا الطبري ٢/ ٢٥٣ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ .

(٣) صحيح مسلم (٢٥٥١)، وأخرجه أحمد (٨٥٥٧).

(٤) قبلها في (م) زيادة كلمة «أبي».

«أحضروا المنبر» فلمَّا خرجَ رَقيَ إلى المنبر، فرقيَ في أول درجةٍ منه قال: آمين، ثم رقيَ في الثانية فقال: آمين، ثم لمَّا رقيَ في الثالثة قال: آمين، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا: يا رسول الله، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كُنَّا نسمعه منك؟ قال: «وسمِعْتُموه؟» قلنا: نعم. قال: «إنَّ جبريل عليه السلام اعترض قال: بَعُدَ من أدركَ رمضان فلم يُغْفَرْ له، فقلتُ: آمين، فلما رَقِيتُ في الثانية قال: بَعُدَ من ذُكِرتَ عنده فلم يُصَلِّ عليكَ، فقلتُ: آمين، فلمَّا رقيتُ في الثالثة قال: بَعُدَ من أدركَ عنده أبواه الكِبَرَ أو أحدُهما فلم يُدخِلاه الجنةَ، قلتُ: آمين». حدثنا أبو نُعيم، حدثنا سلمة بن وَرْدان، سمعتُ أنساً ﷺ يقول: ارتقى رسولُ الله ﷺ على المنبرِ درجةً فقال: آمين، ثم ارتقى درجةً فقال: آمين، ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال: آمين، ثم استوى وجلس، فقال أصحابه: يا رسول الله، علامَ أَمَّنْتَ؟ قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: رَغِمَ أنفُ من ذُكِرتَ عنده فلم يُصَلِّ عليك، فقلتُ: آمين، ورَغِمَ أنفُ من أدركَ أبويه أو أحدَهما فلم يدخُلِ الجنةَ، فقلتُ: آمين» الحديث[١].

فالسعيد الذي يُبادر اغتنام فرصة بِرِّهما؛ لئلا تفوتَه بموتهما فيندم على ذلك. والشقيُّ من عقَّهما، لا سيما مَنْ بلغه الأمرُ ببرِّهما.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي: لا تقُلْ لهما ما يكون فيه أدنى تبرُّم[٢]. وعن أبي رجاء العُطارِدي قال: الأُفُّ: الكلامُ القَذَع الرديء الخفيّ. وقال مجاهد: معناه: إذا رأيتَ منهما في حالِ الشَّيَخ الغائطَ والبولَ الذي رأياه منك في الصغر فلا تَقْذَرْهما وتقول: أُف. والآية أعمُّ من هذا[٣]. والأُفُّ والتُّفُّ: وسخ

(١) لم نقف على هذه الأحاديث في المطبوع من كتاب الأدب المفرد للبخاري، وقد أخرج حديث كعب بن عجرة في كتابه التاريخ الكبير ٧/ ٢٢٠ بهذا الإسناد. وأما حديث أبي هريرة فقد أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي (١٦) عن مسدد، به. وأخرجه أحمد (٧٤٥١) من طريق آخر عن عبد الرحمن بن إسحاق، به. وأما حديث أنس فأخرجه إسماعيل القاضي أيضاً (١٥) عن عبد الله بن مسلمة، عن سلمة بن وردان، به.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/٤٤٨ ، وأثر مجاهد أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٥ .

الأظفار[١]. ويُقال لكل ما يُضجر ويُستثقل: أُفّ له[٢]. قال الأزهري: والتُّفُّ أيضاً: الشيء الحقير[٣]. وقُرِئ: «أُفٍّ» منوَّناً مخفوضاً، كما تُخفض الأصواتُ وتُنَوَّن، تقول: صَهٍ ومَهٍ. وفيه عشر لغات: أُفَّ، وأُفُّ، وأُفِّ، وأُفًّا وأُفٌّ، وأُفٍّ، وأُفَّهْ، وإِفْ لك (بكسر الهمزة)، وأُفْ (بضم الهمزة وتسكين الفاء)، وأُفاً (مخففة الفاء)[٤]. وفي الحديث: «فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال: أف أف»[٥]. قال أبو بكر: معناه: استقذارٌ لما شَمَّ. وقال بعضهم: معنى أُفّ: الاحتقار والاستقلال، أُخِذَ من الأَفَف: وهو القليل[٦]. وقال القُتَبِيُّ: أصله نَفْخُكَ الشيءَ يَسقط عليك من رمادٍ وترابٍ وغيرِ ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مُستثقَلٍ[٧]. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأُفُّ: وسخٌ بين الأظفار، والتُّفُّ: قُلامتها. وقال الزجّاج[٨]: معنى أُفّ: النَّتْن. وقال الأصمعيُّ: الأُفُّ: وسخ الأذن، والتُّفُّ: وسخ الأظفار؛ فكثر استعمالُه حتى ذُكِرَ في كلِّ ما يُتأذَّى به[٩]. ورُوِيَ من حديث علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو علمَ اللهُ من العقوق شيئاً أردأَ من «أُفٍّ» لذَكَره، فليعمَلِ البارُّ ما شاء أن يعمل، فلن يَدخُلَ النار، وليعمَلِ العاقُّ ما شاء أن

---

(١) ينظر زاد المسير ٥/ ٢٤ - ٢٥ . وقد فرَّق أهل اللغة بينهما، ومن ذلك قول الليث والأصمعي: الأُفّ: وسخ الأذن، والتُّف: وسخ الأظفار. تهذيب اللغة ١٤/ ٢٥٥ و ١٥/ ٥٨٩ .

(٢) قاله ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص١١١ .

(٣) لم نقف عليه في تهذيب اللغة، وقد قاله الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٣٤ ، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ١٤٠ .

(٤) نقلها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٣ - ٢٤ عن ابن الأنباري.

(٥) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٢٠ من حيث أم سلمة رضي الله عنها. وفي إسناده عمار بن علثم، قال البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٧ : لا يُتابع على حديثه.

(٦) نقله ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٤ عن ابن الأنباري.

(٧) تأويل مشكل القرآن ص١١١ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٤ .

(٩) نقله عنه الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٥٨٩ .

يعمل فلن يَدخُلَ الجنة»(١). قال علماؤنا: وإنما صارت قولة «أف» للأبوين أردأ شيءٍ؛ لأنه رفضَهما رفْضَ كفرِ النعمة، وجَحْدِ التربية، وردِّ الوصية التي أوصاه في التنزيل. و«أفّ» كلمةٌ مقولةٌ لكلِّ شيءٍ مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء:٦٧] أي: رَفْضٌ لكم ولهذه الأصنام معكم.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النَّهْر: الزجر والغِلظة(٢). ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لَيِّناً لطيفاً(٣)، مثل: يا أبتاه ويا أُمَّاه، من غير أن يُسمِّيهما ويُكَنِّيهما قاله عطاء(٤). وقال أبو الهدَّاج(٥) التُّجيبيّ: قلتُ لسعيد بن المسيِّب: كلُّ ما في القرآن من برِّ الوالدين قد عرفتُه إلا قولَه: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ما هذا القول الكريم. قال ابن المسيِّب: قولُ العبد المذنبِ للسيدِ الفَظِّ الغليظ(٦).

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما، والتذلُّلُ لهما تذلُّلَ الرعيةِ للأمير، والعبيدِ للسادة ـ كما أشار إليه سعيد بن المُسيِّب ـ وضَرَبَ خَفْضَ الجناح ونصبَه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده. والذُّلُّ: هو اللين(٧).

وقراءة الجمهور بضمِّ الذال، من ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وذِلَّةً ومَذَلَّةً فهو ذالٌّ وذليلٌ. وقرأ

---

(١) أخرجه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥ من حديث الحسين بن علي رضي الله عنهما، وفي إسناده أصرم بن حوشب، وهو متروك، واتهمه بعضهم بالوضع. ميزان الاعتدال ١/ ٢٧٢ .

(٢) ينظر الوسيط ٣/ ١٠٤ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٠٤ ، وزاد المسير ٥/ ٢٥ .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١١٠ لكن عزاه إلى مجاهد، وذكره الرازي في تفسيره ٢٠/ ١٩٠ وعزاه إلى عمر بن الخطاب ﷺ.

(٥) في النسخ: ابن البداح، والتصويب من المصادر وكتب التراجم.

(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٩ ، أبو الهداج مجهول، تفرد بالرواية عنه حرملة بن عمران، وترجم له البخاري في الكنى ص٨١ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٤٥٥ ، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في ثقاته ٦/ ٦٦٧ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ .

سعيد بن جُبير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذِّلَ» بكسر الذال، ورُويت عن عاصم[١]؛ من قولهم: دابَّةٌ ذَلول بينة الذِّل، والذِّلُ في الدوابِّ المنقادُ السهلُ دون الصعب، فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسانُ نفسَه مع أبويه في خير ذِلَّة، في أقواله وسكناته ونظره، ولا يُحِدَّ إليهما بصرَه، فإن تلك هي نظرة الغاضب.

الخامسة عشرة: الخطاب في هذه الآية للنبيِّ ﷺ والمرادُ به أُمَّتُه؛ إذ لم يكن له عليه الصلاة والسلام في ذلك الوقت أبوان. ولم يذكر الذُّلَّ في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وذكره هنا بحسب عِظَم الحقِّ وتأكيده.

و«مِن» في قوله: «مِنَ الرَّحْمةِ» لبيان الجنس، أي: إنَّ هذا الخفض يكون من الرحمة المستكِنَّة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ويصِحُّ أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عبادَه بالترحُّم على آبائهم والدعاء لهم[٢]، وأنْ ترحَمهما كما رَحِماك، وتَرْفُقَ بهما كما رَفَقا بك؛ إذ وَلِياك صغيراً جاهلاً محتاجاً، فآثراك على أنفسِهما، وأسهرا ليلَهما، وجاعا وأشبعاك، وتعرَّيا وكَسَواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكِبَر الحدَّ الذي كنتَ فيه من الصِّغَر، فتَلي منهما ما وَلِيا منك، ويكون لهما حينئذٍ فضل التقدُّم[٣]. قال ﷺ: «لا يَجْزِي ولدٌ والداً إلا أن يجِدَه مملوكاً فيشترِيَه فيُعْتِقَه»[٤]. وسيأتي في سورة «مريم»[٥] الكلام على هذا الحديث.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى﴾ خصَّ التربية بالذكر ليتذكرَ العبدُ شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيدَه ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما، وهذا كلُّه في الأبوين المؤمنين. وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٩ ، والقراءات الشاذة ص٧٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٨٦ - ١١٨٧ .

(٤) أخرجه أحمد (٧١٤٣)، ومسلم (١٥١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) عند تفسير الآية (٩٣).

قُرْبَى، كما تقدم[١]. وذُكِرَ عن ابن عباس وقتادة أنَّ هذا كلَّه منسوخٌ بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[٢] فإذا كان والدا المسلم ذِمِّيَّيْن استعمل معهما ما أمره الله به هاهنا، إلا الترحُّمَ لهما بعد موتهما على الكفر؛ لأن هذا وحده نُسِخَ بالآية المذكورة. وقيل: ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيَّين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خُصَّ بتلك، لا رحمة الآخرة، لا سيما وقد قيل: إنَّ قولَه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ نزلت في سعد بن أبي وَقَّاص، فإنه أسلم، فألقت أمُّه نفسَها في الرَّمْضاء متجرِّدة، فذُكِرَ ذلك لسعد، فقال: لِتَمُتْ، فنزلت الآية. وقيل: الآية خاصةٌ في الدعاء للأبوين المسلمين. والصواب أنَّ ذلك عمومٌ كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبيّ ﷺ: «من أمسى مُرْضِياً لوالدَيْه وأصبح، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة، وإن واحداً فواحداً، ومن أمسى وأصبح مُسْخِطاً لوالديه، أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار، وإن واحداً فواحداً» فقال رجل: يا رسول الله، وإن ظلماه؟ قال: «وإن ظلماه، وإن ظلماه، وإن ظلماه»[٣]. وقد روينا بالإسناد المتَّصل عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي. فقال النبيُّ ﷺ للرجل: «فأْتِني بأبيك» فنزل جبريل عليه السلام على النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ

---

(١) ١٠/٣٩٨ - ٤٠١ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/٤٤٩ .

(٣) أخرجه هناد في الزهد (٩٩٣) من طريق سعيد بن سنان، عن رجل، عن ابن عباس مرفوعاً. وفي إسناده رجل مبهم.

وأخرجه ابن أبي حاتم في العلل ٢/٢١١ من طريق المغيرة بن مسلم، عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً. ثم قال: قال أبو زرعة: المغيرة لم يسمع من عطاء شيئاً، وهو مرسل. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠١٢٨) من طريق أبان، عن سعد بن مسعود القيسي أو غيره، عن ابن عباس مرفوعاً. أبان: هو ابن أبي عياش، وهو متروك الحديث. ميزان الاعتدال ١/١٠ - ١١ ، وسعد بن مسعود فيه جهالة، فقد ذكروا في الرواة عنه اثنين، وذكره ابن حبان في ثقاته ٤/٢٩٦ على عادته في توثيق المجاهيل. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧) من طريق سليمان التيمي، عن سعد بن مسعود أيضاً، عن ابن عباس موقوفاً. وتحرف اسم سعد في مطبوعه إلى سعيد.

الله عزَّ وجلَّ يُقرِئُكَ السلام ويقول لك: إذا جاءك الشيخ فاسأَلْه عن شيءٍ قاله في نفسه ما سمِعَتْه أُذُناه. فلما جاء الشيخ قال له النبيّ ﷺ: «ما بالُ ابنِكَ يشكوك أتريد أن تأخذَ مالَه؟» فقال: سَلْه يا رسول الله، هل أُنفِقُه إلا على إحدى عمَّاته أو خالاته أو على نفسي؟! فقال له رسول الله ﷺ: «إيهِ، دَعْنا من هذا، أخبرني عن شيءٍ قُلتَه في نفسك ما سمِعَتْه أُذناك» فقال الشيخ: واللهِ يا رسول الله، ما زال الله عزَّ وجلَّ يزيدنا بِكَ يقيناً، لقد قلتُ في نفسي شيئاً ما سمِعَتْه أُذُناي. قال: «قُلْ وأنا أسمع» قال: قلتُ:

غَذَوتُكَ مولوداً ومُنْتُكَ يافِعاً ... تُعَلُّ بما أجْني عليكَ وتُنْهَلُ

إذا ليلةٌ ضافَتْكَ بالسُّقمِ لم أَبِتْ ... لِسُقْمِكَ إلا ساهراً أتملْمَلُ

كأنِّي أنا المطروقُ دونَكَ بالذي ... طُرِقْتَ به دوني فَعَيْنيَ تَهْمُلُ

تخافُ الرَّدى نفسي عليكَ وإنَّها ... لَتعلَمُ أنَّ الموتَ وقتٌ مؤجَّلُ

فلمَّا بلغتَ السِّنَّ والغايةَ التي ... إليها مَدَى ما كنتُ فيك أؤمِّلُ

جعلتَ جزائي غِلظةً وفَظاظةً ... كأنَّكَ أنتَ المُنْعِمُ المتفضِّلُ

فليتَكَ إذ لم تَرْعَ حقَّ أُبوَّتي ... فعلتَ كما الجارُ المُصَاقِبُ يفعلُ

فأوْليتَني حقَّ الجِوار ولم تكُنْ ... عليَّ بمالٍ دون مالِكَ تَبْخَلُ

قال: فحينئذٍ أخذَ النبيُّ ﷺ بتلابيب ابنِه وقال: «أنتَ ومالُكَ لأبيك»[1]. قال

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٥٦٦)، وفي الصغير (٩٤٧) من طريق عبيد بن خلصة، عن عبد الله بن نافع المدني، عن المنكدر بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله، به. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٥٥ : رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه من لم أعرفه، والمنكدر بن محمد ضعيف وقد وثقه أحمد، والحديث بهذا التمام منكر.

وأخرج ابن ماجه (٢٢٩١) من طريق يوسف بن إسحاق، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ لي مالاً وولداً، وإنَّ أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «أنت ومالك لأبيك». قال البوصيري: إسناده صحيح، ورجاله ثقات على شرط البخاري. قلنا: ولهذا الحديث شواهد عدة تنظر في مسند أحمد (٦٦٧٨).

وأما الأبيات فقائلها امرؤ القيس وهي في ديوانه ص١٨٠ - ١٨١ ، وفيه في البيت الأول: «وعِلْتُكَ» بدل «ومِنْتُكَ»، وفي البيت الثاني: «نابتْكَ بالشَّكوِ» بدل «ضافتْكَ بالسقم»، و«لشكواك» بدل «لسقمك»، وفي البيت الرابع: «وإني لأعلم» بدل «وإنها لتعلم»، و«حتمٌ» بدل «وقتٌ».

الطبرانيُّ اللَّخمِيُّ: لا يُروى ـ يعني هذا الحديث ـ عن ابن المُنكدِر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد، وتفرَّدَ به عُبيد[١] بن خَلَصة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: من اعتقاد الرحمة بهما والحُنوِّ عليهما، أومن غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر بِرِّهما رياء[٢]. وقال ابن جُبير: يريد البادرة التي تبدُر، كالفَلْتة والزَّلَّة، تكون من الرجل إلى أبويه أو أحدهما، لا يريد بذلك بأساً[٣]؛ قال الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أي: صادقين في نية البرِّ بالوالدين فإنَّ الله يغفر البادرة.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ وعدٌ بالغفران مع شرط الصلاح والأَوْبة بعد الأَوْبة إلى طاعة الله سبحانه وتعالى[٤]. قال سعيد بن المُسيِّب: هو العبد يتوبُ ثم يُذنِبُ ثم يتوبُ ثم يُذنِبُ. وقال ابن عباس ﷺ: الأوَّاب: الحفيظُ الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها. وقال عُبيد بن عُمير: هم الذين يذكرون ذنوبهم في الخلاء، ثم يستغفرون الله عزَّ وجلَّ. وهذه الأقوال متقاربة[٥]. وقال عَوْن العُقَيْليُّ: الأوَّابون: هم الذين يُصلُّون صلاة الضُّحى[٦]. وفي الصحيح: «صلاةُ الأوَّابين حين تَرْمَضُ

(١) في النسخ: عبيد الله.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٩ .
(٣) أخرجه بمعناه الطبري ١٤/ ٥٥٦ .
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٩ .
(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤٣ ، وقول سعيد بن المسيب أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٦ ، والطبري ١٤/ ٥٥٨ - ٥٥٩ . وقول عبيد بن عمير أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٤٠)، والطبري ١٤/ ٥٦٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٦٨ .
(٦) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٥٨ .

الفِصال»[١]. وحقيقة اللفظ من آبَ يؤوبُ إذا رجع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي: كما راعيتَ حقَّ الوالدَيْن فصِلِ الرحم، ثم تصدَّقْ على المسكين وابن السبيل[٣]. وقال عليُّ بن الحسين في قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾: هم قرابة النبيِّ ﷺ، أُمِرَ ﷺ بإعطائهم حقوقَهم من بيت المال[٤]. أي: من سهم ذَوِي القربى من الغَزْوِ والغنيمة، ويكون خطاباً لِلوُلاةِ أو من قام مقامهم[٥]. والحقَ في هذه الآية ما يتعيَّنُ من صلة الرحم، وسَدِّ الخَلَّة، والمواساة عند الحاجة بالمال، والمعونة بكلِّ وجه[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾ أي: لا تُسرف في الإنفاق في غير حق[٧]. قال الشافعيُّ ﷺ: والتبذير: إنفاق المال في غير حقِّه، ولا تبذير في عمل الخير[٨]. وهذا قول الجمهور. وقال أشهب عن مالك: التبذير: هو أخذ المال من حقِّه ووضعُه في غير حقِّه، وهو الإِسراف، وهو حرامٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٨) من حديث زيد بن أرقم ﷺ. رمض الفصال: أن تحترق الرمضاء ـ وهي الرمل ـ فتبرك الفصال من شدة حرها وإحراقها أخفافها. إكمال المعلم ٣/ ٩٩ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ١٩٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ ، وأخرجه بمعناه الطبري ١٤/ ٥٦٣ .

(٥) تفسير الرازي ٢٠/ ١٩٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٧) أخرجه بمعناه ابن أبي شيبة ٩/ ٩٥ ، والبخاري في الأدب المفرد (٤٤٤)، والطبري ١٤/ ٥٦٥ - ٥٦٧ عن ابن مسعود ﷺ، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٤٥)، والطبري ١٤/ ٥٦٧ عن ابن عباس ﷺ.

(٨) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٥ .

﴿ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[١] .وقوله «إخوان» يعني أنهم في حكمهم؛ إذِ المبذِّرُ ساعٍ في فسادٍ كالشياطين، أو أنهم يفعلون ما تُسوِّله لهم أنفسهم، أو أنهم يُقرَنون بهم غداً في النار. ثلاثة أقوال[٢]. والإخوان هنا جمع أخٍ من غير النسب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: احذروا متابعته والتشبُّه به في الفساد. والشيطان اسم الجنس. وقرأ الضحاك: «إخوان الشيطان» على الانفراد، وكذلك ثبت في مصحف أنس بن مالك ﷺ[٣].

الثالثة: مَنْ أنفقَ مالَه في الشهوات زائداً على قدر الحاجات وعَرَّضه بذلك للنَّفاد فهو مبذِّر، ومَنْ أنفقَ رِبْحَ مالِه في شهواته وحَفِظَ الأصلَ أو الرَّقبةَ فليس بمبذِّر، ومَنْ أنفقَ درهماً فِي حرامٍ فهو مبذِّر، ويُحجر عليه في نفقتِه الدرهمَ في الحرام، ولا يُحجَر عليه إن بذَلَه فِي الشهوات إلا إذا خِيفَ عليه النَّفاد[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: وهو أنه سبحانه وتعالى خصَّ نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ وهو تأديبٌ عجيبٌ وقولٌ لطيفٌ بديع، أي: لا تُعرِضْ عنهم إعراضَ مُستهينٍ عن ظهر الغنى والقدرة فتَحْرِمَهم، وإنما يجوز أن تُعرِضَ عنهم عند عجزٍ يَعْرِضُ وعائقٍ يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله سبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحالُ فقُلْ لهم قولاً ميسوراً[٥].

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩١ .

(٢) القول الأول ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ ، والقول الثاني ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٠٥ ، والقول الثالث ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٥/ ٤٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩١ .

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٦ .

الثانية: في سبب نزولها؛ قال ابن زيد: نزلت الآية في قومٍ كانوا يسألون رسولَ الله ﷺ فيأبى أن يُعطيَهم؛ لأنه كان يعلم منهم نفقةَ المال في فساد، فكان يُعرِضُ عنهم رغبةً في الأجر في منعهم؛ لئلا يُعينَهم على فسادهم[١]. وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ قال: ليس هذا في ذكر الوالدين، جاء ناسٌ من مُزَيْنَة إلى النبيِّ ﷺ يستحملونه، فقال: «لا أجِدُ ما أحمِلُكم عليه» فتولَّوْا وأعينُهم تَفيضُ من الدمع حَزَناً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ والرحمة الفَيْءُ[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أمره بالدعاء لهم، أي: يَسِّر فقرَهم عليهم بدعائك لهم. وقيل: ادْعُ لهم دعاءً يتضمنُ الفتحَ لهم والإصلاح[٣]. وقيل: المعنى: «وإما تُعرِضَنَّ» أي: إن أعرضتَ يا محمد عن إعطائهم لضيقِ يدٍ فقُلْ لهم قولاً ميسوراً، أي: أحسِنِ القولَ وابسُطِ العذر، وادعُ لهم بسَعة الرزق، وقل: إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ؛ فإنَّ ذلك يعمل في مَسَرَّة نفسِه عملَ المواساة[٤]. وكان عليه الصلاة والسلام إذا سُئِلَ وليس عنده ما يُعطي سكت انتظاراً لرزقٍ يأتي من الله سبحانه وتعالى كراهةَ الرَّدِّ، فنزلت هذه الآية، فكان ﷺ إذا سُئِلَ وليس عنده ما يُعطي قال: «يرزقُنا اللهُ وإياكم من فضله»[٥]. فالرحمة على هذا التأويل: الرزق المنتظر. وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة. والضمير في «عنهم» عائدٌ على من تقدَّم ذِكْرُهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل[٦]. و﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: ليِّناً لطيفاً

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٢) زاد المسير ٥/ ٢٨ ، وينظر ما تقدم ١٠/ ٣٣٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠/ ١٩٤ بمعناه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٥ - ٢٣٦ ، والحديث أورده الديلمي في الفردوس ١/ ٣٢٢ من حديث عائشة، و ٥/ ٢٦ من حديث أنس.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠ ، وتفسير الرحمة هنا بأنها الرزق المنتظر أخرجه الطبري ١٤/ ٥٧٠ - ٥٧١ عن مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٦١ .

طيباً، مفعول بمعنى الفاعل، من لفظ اليسر كالميمون، أي: وعداً جميلاً[١]، على ما بيَّنَّاه. ولقد أحسن من قال:

إلَّا تكن وَرِقٌ يوماً أجودُ بها ... للسائلين فإني ليِّنُ العُودِ

لا يَعْدَمُ السائلون الخيرَ من خُلقي ... إمّا نوالي وإمَّا حسنُ مردودي[٢]

تقول: يَسَّرتُ لك كذا إذا أعددته[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ هذا مَجازٌ عبَّر به عن البخيل الذي لا يقدِرُ من قلبه على إخراج شيءٍ من ماله، فضربَ له مثلَ الغُلِّ الذي يمنع من التصرف باليد. وفي «صحيح البخاري» ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: ضرب رسولُ الله ﷺ مَثَلَ البخيلِ والمتصدِّقِ كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديدٍ قد اضْطَرَّت أيدِيَهما إلى ثُدِيِّهما وتَراقيهما، فجعلَ المتصدِّق كلَّما تصدَّقَ بصدقةٍ انبسطت عنه حتى تَغْشَى أنامِلَه وتَعْفُوَ أثرَه، وجعل البخيلُ كلَّما هَمَّ بصدقةٍ قَلَصت وأخذت كلُّ حَلْقةٍ بمكانها. قال أبو هريرة ﷺ: فأنا رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقول بأصبعيه هكذا في جيْبه، فلو رأيتَه يُوَسِّعها ولا تتوسَّع[٤].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٣٩، والوسيط للواحدي ٣/ ١٠٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠، وزاد المسير ٥/ ٢٩.

(٢) البيتان في الكامل ٣/ ١٠٧٢ دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٠.

(٤) صحيح البخاري (٥٧٩٧) واللفظ له، وصحيح مسلم (١٠٢١). وأخرجه أحمد (٩٠٥٧). ووقع في بعض الروايات لهذا الحديث عند مسلم وغيره: «جُنَّتان» بدل «جُبَّتان» ووقع في بعضها الآخر بالوجهين على أنه شك من بعض الرواة؛ قال السندي في حاشية على مسند أحمد ١٢/ ٤٥٤: الجُبَّة بالباء: هو ثوب مخصوص، والجُنَّة بالنون: هي الدرع، وصُوِّب النون؛ لقوله: «من حديد»، ولقوله: «اتسعت =

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ ضربَ بَسْطَ اليد مثلاً لذهاب المال، فإنَّ قَبْضَ الكفِّ يحبِسُ ما فيها، وبَسْطَها يُذهِبُ ما فيها، وهذا كلُّه خطابٌ للنبيِّ ﷺ والمرادُ أُمَّتُه، وكثيراً ما جاء في القرآن؛ فإن النبيَّ ﷺ لمَّا كان سيِّدَهم وواسِطتَهم إلى ربِّهم عَبَّر به عنهم على عادة العرب في ذلك[١]. وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدَّخِرُ شيئاً لغد، وكان يجوع حتى يشُدَّ الحجرَ على بطنه من الجوع، وكان كثيرٌ من الصحابة ينفقون في سبيل الله جميع أموالهم، فلم يُعنِّفْهُمُ النبيُّ ﷺ ولم يُنكِرْ عليهم؛ لصحة يقينهم وشِدَّة بصائرهم، وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط في الإنفاق، وإخراجِ ما حَوَتْه يدُه من المال مَنْ خِيفَ عليه الحسرةُ على ما خرج من يده، فأما مَنْ وَثِقَ بموعودِ الله عزَّ وجلَّ وجزيلِ ثوابه فيما أنفقه فغيرُ مُرادٍ بالآية، والله أعلم[٢]. وقيل: إنَّ هذا الخطاب للنبيِّ ﷺ في خاصَّة نفسه، علَّمه فيه كيفية الإنفاق، وأمره بالاقتصاد[٣]. قال جابر وابن مسعود: جاء غلامٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ أمي تسألُكَ كذا وكذا. فقال: «ما عندنا اليوم شيء». قال: فتقولُ لكَ: اكْسُني قميصَك. فخلع قميصَه فدفعه إليه، وجلس في البيت عرياناً. وفي رواية جابر: فأذَّنَ بلالٌ للصلاة وانتظروا رسولَ الله ﷺ فلم[٤] يخرج، واشتغلتِ القلوب، فدخل بعضُهم فإذا هو عارٍ؛ فنزلت هذه الآية[٥]. وكلُّ هذا في إنفاق الخير، وأما إنفاق الفساد فقليلُه وكثيرُه حرام، كما تقدَّم[٦].

الثالثة: نهت هذه الآية عن استفراغ الوُجْدِ فيما يطرأ أولاً من سؤال المؤمنين؛

= الحلقة»، نعم، إطلاق الجُبَّة على الجُنَّة بالنون مجازاً غير بعيد. وقوله: تعفو أثره: تستر أثره. قلصت: تضامَّت واجتمعت. فتح الباري ٣/٣٠٦.

(١) من بداية المسألة الأولى إلى هنا من أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٩٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/١٩٩، وأحكام القرآن للكيا الطبري ٣/٢٥٧.

(٣) أحكام القرآن للطبري ٣/٢٥٨.

(٤) كلمة «فلم» من (ظ).

(٥) زاد المسير ٥/٢٩ – ٣٠، والروايتان لم نقف على من أخرجهما.

(٦) المحرر الوجيز ٣/٤٥١، وقد تقدم عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

لئلا يبقى مَنْ يأتي بعد ذلك لا شيءَ له، أو لئلا يُضيِّعَ المُنفِقُ عيالَه. ونحوُه من كلام الحكمة: ما رأيتُ قطُّ سَرَفاً إلا ومعه حقٌّ مُضَيَّعٌ. وهذه من آيات فقه الحال، فلا يُبيِّنُ حكمُها إلا باعتبار شخصٍ من الناس(١).

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ قال ابن عرفة: يقول: لا تُسرِفْ ولا تُتلِفْ مالَكَ فتبقى محسوراً منقطعاً عن النفقة والتصرف، كما يكون البعير الحسير، وهو الذي ذهبت قوَّتُه فلا انبِعاثَ به؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] أي: كليل منقطع(٢). وقال قتادة: أي: نادماً على ما سلف منك(٣). فجعله من الحسرة، وفيه بُعْدٌ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِرٌ وحسران، ولا يُقال: محسور. والملوم: الذي يُلام على إتلاف ماله، أو يلومُه مَنْ لا يُعطيه(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قد مضى الكلام في هذه الآية في الأنعام(٥)، والحمد لله. والإملاق: الفقر وعدم الملك. أملقَ الرجلُ أي: لم يبق له إلا الملَقات؛ وهي الحجارةُ العِظامُ المُلْس(٦). قال الهُذَليُّ يصف صائداً:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١، والحكمة التي ذُكرت قائلها معاوية بن أبي سفيان كما ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٢٦٧.

(٢) وبنحوه قال الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٢٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٧، والطبري ١٤/ ٥٧٥ - ٥٧٦.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١١٣ بمعناه.

(٥) ٩/ ١٠٧.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١.

أُتِيحَ لها أُقَيْدِرُ ذو حَشِيفٍ إذا سامَتْ على المَلَقَاتِ ساما

الواحدة مَلَقة[١]. والأُقَيْدر تصغير الأقدر، وهو الرجل القصير. والحَشِيف من الثياب: الخَلَق. وسامت: مرَّت[٢]. وقال شَمِر: أملَقَ لازمٌ ومتعدٍّ، أملق إذا افتقر، وأملق الدهر ما بيده. قال أوس:

وأَمْلَقَ ما عندي خطوبٌ تَنَبَّلُ[٣]

الثانية: قوله تعالى: ﴿خِطْئًا﴾ قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمزة والقصر. وقرأ ابن عامر: «خَطَأً» بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهي قراءة أبي جعفر يزيد[٤]. وهاتان قراءتان مأخوذتان من «خطئ» إذا أتى الذنب على عمد[٥]. قال ابن عرفة: يُقال: خَطِئ في دينه[٦] خَطَأً إذا أثِمَ فيه، وأخطأ: إذا سلكَ سبيلَ خَطَإٍ عامداً أو غيرَ عامد[٧]. قال: ويقال: خَطِئَ في معنى أخطأ[٨]. وقال الأزهري: يقال خَطِئَ يخطأ خِطْئاً إذا تعمَّد الخطأ؛ مثلُ أثِم يَأثم إثماً، وأخطأ إذا لم يتعمَّد، إخْطاءً وخَطَأً[٩]؛ قال الشاعر:

دَعِيني إنما خَطْئي وصَوْبي عليَّ وإنَّ ما أهلكتُ مالُ[١٠]

---

(١) تهذيب اللغة ٩/ ١٨٢ ، والهذلي هو صخر الغي، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٦٣ .

(٢) اللسان (قدر).

(٣) تهذيب اللغة ٩/ ١٨٢ ، وهذا عجزُ بيتٍ صدرُه:

«ولما رأيتُ العُدْمَ قَيَّدَ نائلي» وهو في ديوان أوس بن حجر ص٩٤ .

(٤) السبة ص٣٧٩ - ٣٨٠ ، والتيسير ص١٣٩ - ١٤٠ ، والنشر ٢/ ٣٠٧ ، وسيذكر المصنف أن ابن كثير ـ وهو من السبعة ـ كان يقرؤها: «خِطاءً».

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٤٧ .

(٦) في (م) و(د): ذنبه.

(٧) نقله عن ابن عرفة الصغانيُّ في العباب الزاخر واللباب الفاخر (خطأ).

(٨) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: ١/ ٣٧٦ : خطِئتَ وأخطأتَ لغتان.

(٩) تهذيب اللغة ٧/ ٤٩٦ - ٤٩٧ بمعناه.

(١٠) قائله أوس بن غَلفاء كما في طبقات فحول الشعراء ١/ ١٦٧ ، وخزانة الأدب ٨/ ٣١٣ ، وعندهما: «ذريني» بدل «دعيني»، وفي الخزانة: «أنفقت» بدل «أهلكت».

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضدُّ الصواب[(١)]. وفيه لغتان: القصر وهو الجيد، والمدُّ وهو قليل. ورُويَ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «خَطْأً» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة[(٢)]. وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدِّ الهمزة[(٣)]. قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً[(٤)]، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطاً. قال أبو عليّ: هي مصدرٌ من خاطَأَ يُخاطِئُ، وإن كُنَّا لا نجِدُ خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوِعُ خاطأ، فدلَّنا عليه؛ ومنه قول الشاعر:

تَخَاطَأتِ النَّبْلُ أحشاءَهُ وأخَّرَ يومي فلم أعْجَلِ

وقول الآخر في وصف مَهاةٍ:

تخاطأهُ القَنَّاصُ حتى وجدتُهُ وخرطومُه في مَنْقِعِ الماءِ راسبُ[(٥)]

الجوهري: تخاطأه أي: أخطأه؛ وقال أوفى بن مطر المازني:

ألَا أبْلِغا خُلَّتي جابراً بأنَّ خليلَكَ لم يُقتَلِ

تخاطأتِ النَّبْلُ أحشاءَهُ وأخَّرَ يومي فلم يَعْجَلِ[(٦)]

وقرأ الحسن: «خَطَاءً» بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يُعرف هذا في اللغة، وهي غلطٌ غيرُ جائز[(٧)]. وقال أبو الفتح[(٨)]: الخطأ من أخطأتُ بمنزلة العطاء من أعطيتُ، هو اسم بمعنى المصدر. وعن الحسن أيضاً: «خَطًى» بفتح

---

(١) تقدم عند المصنف ٨/٧ - ٩.

(٢) هذه القراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ١٩/٢ عن ابن عامر.

(٣) السبعة ص٣٧٩، والتيسير ص١٣٩.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١٤٧/٤ بمعناه.

(٥) الحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ٩٦/٥ - ٩٧ بمعناه، ومن قوله قرأ ابن كثير إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٤٥٢/٣، والبيت الأول قائله أوفى بن مطر كما سيأتي، والبيت الثاني قائله رجلٌ من بني بكر كما نسبه الراغب الأصبهاني في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ٦١٢/٢.

(٦) الصحاح (خطأ)، والبيتان في كتاب الأمثال للمفضل الضبي ص٦٨.

(٧) المحرر الوجيز ٤٥٢/٣.

(٨) في المحتسب ٢٠/٢.

الخاء والطاء منوّنةً من غير همز[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

فيه مسألة واحدة:

قال العلماء: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أبلَغُ من أن يقول: ولا تزنوا؛ فإنَّ معناه: لا تدنوا من الزنى.

والزنى يُمَدُّ ويُقصر، لغتان. قال الشاعر:

كانت فريضةَ ما تقول كما ... كان الزِّناءُ فريضةَ الرَّجْمِ[٢]

و﴿سَبِيلًا﴾ نصب على التمييز؛ التقدير: وساء سبيلُه سبيلاً. أي: لأنه يؤدّي إلى النار[٣]. والزنى من الكبائر، ولا خلافَ فيه وفي قُبحه ولا سيما بحليلة الجار، وينشأ عنه استخدام ولد الغير واتخاذُه ابناً وغيرُ ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه. وفي الصحيح أنَّ النبيَّ ﷺ أتَى بامرأةٍ مُجِحٍّ على باب فُسطاطٍ فقال: «لعلَّه يريد أن يُلِمّ بها» فقالوا: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لقد هَمَمْتُ أن ألْعَنه لَعْناً يدخل معه قبرَه، كيف يُوَرِّثُه وهو لا يَحِلُّ له؟! كيف يستخدمه وهو لا يَحِلُّ له؟!»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قد مضى الكلام فيه في

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٢ .

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٧٧ - ٣٧٨ ، والبيت قاله النابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢٣٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥١ .

(٤) صحيح مسلم (١٤٤١) من حديث أبي الدرداء ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٧٥١٩). قال السندي في حاشيته على المسند: قوله: «مُجِحٍّ»: هي القريبة الولادة. «يُلِمُّ بها» من الإلمام، أي: يجامعها قبل الاستبراء. «كيف يورثه» من التوريث، أي: كيف يجعل ما في بطنها وارثاً له، أي: ربما تأتي بمولود في مدة يشتبه أن الولد له، أو للزوج السابق، وحينئذ لا يحل التوريث لاحتمال أن لا يكون منه، ولا الاستخدام لاحتمال أنه منه، والحاصل أنه إذا اشتبه الأمر فلا يحلُّ له أن يدعوه ابناً ولا عبداً.

الأنعام[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير سببٍ يوجب القتل[٢]. ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي: لمستحِقِّ دمِه[٣].

قال ابن خُوَيْزمَنْداد: الوليُّ يجب أن يكون ذكراً؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير.

وذكر إسماعيل بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ ما يدلُّ على خروج المرأة عن مطلق لفظ الوليِّ، فلا جَرَم، ليس للنساء حقٌّ في القصاص لذلك ولا أثرَ لعَفْوِها، وليس لها الاستيفاء[٤].

وقال المخالف: إنَّ المراد هاهنا بالولي الوارث؛ وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقال: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] فاقتضى ذلك إثباتَ القَوَدِ لسائر الورثة[٥]، وأمَّا ما ذكروه من أنَّ الوليَّ في ظاهره على التذكير وهو واحد، كأنَّ ما كان بمعنى الجنس يستوي المذكر والمؤنث فيه[٦]، وتتمته في كتب الخلاف.

﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: تسليطاً، أي: إن شاءَ قتل، وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدِّية.

---

(١) ٩/ ١٠٩ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٤٠ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣٧ ، وزاد المسير ٥/ ٣٢ .

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٩ .

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠١ ، وأحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٦) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٦٠ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٥ .

قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعي. وقال ابن وهب: قال مالك: السلطانُ أمر الله. ابن عباس: السلطان: الحُجَّة. وقيل: السلطان: طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله، ثم إنَّ أمرَ الله عزَّ وجلَّ لم يقَعْ نَصًّا، فاختلف العلماء فيه، فقال ابن القاسم عن مالك وأبي حنيفة: القتل خاصَّةً. وقال أشهب [عنه]: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفاً، وبه قال الشافعيُّ[١]. وقد مضى في سورة البقرة[٢] هذا المعنى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يَقتلْ غيرَ قاتله. قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثاني: لا يَقتلْ بدل وَلِيِّه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث: لا يُمثِّل بالقاتل. قاله طَلْق بن حبيب. وكلُّه مرادٌ؛ لأنه إسرافٌ منهيٌّ عنه[٣]. وقد مضى في «البقرة» القول في هذا مستوفًى.

وقرأ الجمهور «يُسْرِف» بالياء[٤]، يريد الولي[٥]، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: «تسرف» بالتاء من فوق، وهي قراءة حُذيفة[٦]. وروى العلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأوّل، والمعنى عنده[٧]: فلا تسرف أيها

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٦ - ١١٩٧ ، ولم يعزُ القول الأول لابن عباس، وما بين حاصرتين منه. والقول الأول أخرجه الطبري ١٤/ ٥٨٣ عن ابن عباس والضحاك.

(٢) ٣/ ٦٤ وما بعدها.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٧ ، وعزا القول الأول إلى الحسن وحده، والقول الثاني إلى مجاهد. وقد أخرج ابن أبي شيبة ٩/ ٤٢٣ ، والطبري ١٤/ ٥٨٥ - ٥٨٦ القول الأول والثالث عن طلق ابن حبيب، وأخرجهما أيضاً عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٧ ، والطبري ١٤/ ٥٨٧ عن قتادة. وأما القول الثاني فأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٧٧ ، وابن أبي شيبة ٩/ ٤٢٣ ، والطبري ١٤/ ٥٨٦ عن سعيد بن جبير.

(٤) السبعة ص٣٨٠ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٣ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٤٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٣ ، وينظر السبعة ص٣٨٠ ، والنشر ٢/ ٣٠٧ وذكر أنها قراءة خلف ولم يذكر ابن عامر، وقد ذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٢٣ هذه القراءة بإسنادها عن حذيفة.

(٧) في (م) و(د): عندنا.

القاتل[(١)]. وقال الطبريُّ: هو على معنى الخطاب للنبيِّ ﷺ والأئمة من بعده. أي: لا تقتلوا غير القاتل[(٢)]. وفي حرف أُبَيٍّ: «فلا تُسرِفوا في القتل»[(٣)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: مُعاناً، يعني الوليَّ. فإن قيل: وكم من وَلِيٍّ مخذولٍ لا يصلُ إلى حقِّه. قلنا: المعونةُ تكون بظهور الحجة تارةً وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثةً، فأيُّها كان فهو نصرٌ من الله سبحانه وتعالى[(٤)].

وروى ابن كثير عن مجاهد قال: إن المقتول كان منصوراً. النحاس: ومعنى قوله: إن الله نصره بوليّه. وروى أنه في قراءة أبَيٍّ «فلا تسرِفوا فِي القتلِ إن وَلِيّ المقتول كان منصوراً». قال النحاس: الأبْيَنُ بالياء ويكون للوليّ؛ لأنه إنما يقال: «لا يُسرِفْ» لمن[(٥)] كان له أن يقتلُ، فهذا للوليّ. وقد يجوز بالتاء ويكون للوليِّ أيضاً، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة[(٦)].

قال الضحاك: هذا أوَّلُ ما نزلَ من القرآن في شأن القتل، وهي مكية[(٧)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قد مضى الكلام فيه في الأنعام[(٨)].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ١٥١ .

(٢) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٣ ، وينظر تفسير الطبري ١٤/ ٥٨٥ - ٥٨٦ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٣ ، وهي قراءة شاذة.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٩٧ .

(٥) في (م) و(د): إن.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٥١ - ١٥٢ .

(٧) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٨٦ .

(٨) ٩/ ١١١ - ١١٣ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ قد مضى الكلام فيه في غير موضع[١]. قال الزَّجَّاج: كلُّ ما أمر الله به ونَهى عنه فهو من العهد[٢]. ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ عنه، فحذف؛ كقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ به. وقيل: إنَّ العهدَ يُسأَلُ تبكيتاً لناقضه، فيُقال: نُقِضْتَ، كما تُسأَلُ المَوْؤُودة تبكيتاً لوائدها[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ تقدَّم الكلام فيه أيضاً في الأنعام[٤]. وتقتضي هذه الآية أنَّ الكيل على البائع، وقد مضى في سورة «يوسف»[٥] فلا معنى للإعادة. والقُسطاس (بضم القاف وكسرها): الميزان بلغة الروم. قاله ابن عَزيز[٦]. وقال الزَّجَّاج: القسطاس: الميزان صغيراً كان أو كبيراً. وقال مجاهد: القسطاس: العدل، وكان يقول: هي لغة رومية، وكأنَّ الناس قيل لهم: زِنوا بمَعْدِلَةٍ في وزنكم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: «القُسطاس» بضمِّ القاف، وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم بكسر القاف، وهما لغتان[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وفاءُ الكيل وإقامةُ الوزن خيرٌ

---

(١) ينظر ٢/ ٨ و ٩/ ١١٥ .

(٢) نقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ١٠٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٠٦ .

(٤) ٩/ ٢١٤ .

(٥) ١١/ ٤٤٠ .

(٦) وذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٦٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٥ ، لكنه لم ينسب القول الأول في معنى القسطاس إلى الزجاج، والذي قاله الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٣٨ : القسطاس: ميزان العدل، أيُّ ميزانٍ كان من موازين الدراهم أو غيرها. وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٦٢ . وتنظر القراءتان في السبعة ص٣٨٠ ، والتيسير ص١٤٠ .

عند ربك وأبرك. «وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً» أي: عاقبة[١]. قال الحسن: ذُكِرَ لنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يقدِرُ رجلٌ على حرامٍ ثم يَدَعُه ليس به[٢] إلا مخافةُ الله تعالى إلا أبدلَه اللهُ في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خيرٌ له من ذلك»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أي: لا تتبَعْ ما لا تعلم ولا يَعنِيكَ[٤]. قال قتادة: لا تقُلْ: رأيتُ، وأنتَ لم ترَ، وسمعتُ، وأنت لم تسمع، وعلمتُ، وأنت لم تعلم[٥]. وقاله ابن عباس رضي الله عنهما[٦]. وقال مجاهد: لا تَرْمِ أحداً بما ليس لك به علم[٧]. وقاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً[٨]. وقال محمد ابن الحنفية: هي شهادة الزور[٩]. وقال القُتَبيُّ: المعنى: لا تُتبعه الحَدْسَ والظُّنون[١٠]. وكلها متقاربة. وأصل القَفْو البَهْتُ والقذفُ بالباطل[١١]؛ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «نحن بنو النضر

---

(١) عزاه في الدر المنثور ٤/ ١٨٢ إلى سعيد بن جبير.

(٢) في (م) و(د): لديه.

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٣ ولكن من طريق قتادة، عن ابن عباس، مرفوعاً. وإسناده منقطع؛ لأن قتادة لم يسمع من أحدٍ من الصحابة سوى أنس بن مالك. المراسيل ص١٣٩ .

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(٥) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(٦) زاد المسير ٥/ ٣٥ .

(٧) تفسير مجاهد ١/ ٣٦٣ ، وذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ - ٥٩٥ .

(٨) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(٩) ذكره النحاس أيضاً ٤/ ١٥٥ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٥٩٤ .

(١٠) غريب القرآن ص٢٥٤ .

(١١) تفسير الطبري ١٤/ ٥٩٥ بمعناه.

ابن كنانة لا نَقفو أُمَّنا، ولا ننتفي من أبينا»[١] أي: لا نَسُبُّ أُمَّنا. وقال الكُمَيت:

فـلا أرمـي الـبـريء بـغـيـر ذنـبٍ ولا أَقْـفُـو الـحـواصِنَ إن قُـفـينـا[٢]

يقال: قَفَوْتُه أَقْفُوه، وقُفْتُه أَقُوفُه، وقَفَّيْتُه إذا اتَّبعتُ أثره[٣]. ومنه القافة؛ لتتبعهم الآثار[٤]. وقافية كلِّ شيء آخره، ومنه قافية الشِّعر؛ لأنها تقفو البيت[٥]. ومنه اسمُ النبيِّ ﷺ المُقَفِّي؛ لأنه جاء آخر الأنبياء. ومنه القائف، وهو الذي يتبع أثر الشَّبَه. يقال: قاف القائف يقوف إذا فعل ذلك[٦]. وتقول: فَقَوْتُ الأثر، بتقديم الفاء على القاف. ابنُ عطية: ويشبه أن يكون هذا من تلعُّبِ العرب في بعض الألفاظ، كما قالوا: رَعَمْلي في لَعَمْري. وحكى الطبريُّ عن فرقةٍ أنها قالت: قَفا وقافَ مثل عَثا وعاثَ. وذهب منذر بن سعيد إلى أنَّ قَفا وقافَ مثلُ جَبَذَ وجَذَبَ. وبالجملة فهذه الآية تنهى عن قول الزُّور والقذف، وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة. وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائي «تَقُفْ» بضم القاف وسكون الفاء، وقرأ الجراح: «والفَآد» بفتح الفاء، وهي لغةٌ لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره[٧].

الثانية: قال ابن خُوَيْزِمنداد: تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لمَّا قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ دلَّ على جواز ما لنا به علم، فكلُّ ما عَلِمه الإنسان أو غلب على ظنِّه جاز أن يحكم به، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخَرْص؛ لأنه ضربٌ من غَلَبة الظنِّ، وقد يُسَمَّى علماً اتساعاً. فالقائف يُلحِقُ الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما، كما يُلحِقُ الفقيهُ الفرعَ بالأصل من طريق الشَّبَه. وفي الصحيح عن

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث بن قيس ﷺ.

(٢) ذيل ديوان الكميت ص٤٦٦ . الحواصن جمع حَصان: وهي المرأة العفيفة المتزوجة. اللسان (حصن).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١١٤ .

(٥) تهذيب اللغة ٩/ ٣٢٧ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٦ ، وهي قراءة شاذة. وقول الطبري في تفسيره ١٤/ ٥٩٦ .

عائشة: أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليَّ مسروراً تَبْرُقُ أساريرُ وجْهِه، فقال: «ألم تَرَيْ أنَّ مُجَزِّزاً نظرَ إلى زيد بن حارثة وأسامةَ بن زيد عليهما قَطيفةٌ قد غَطَّيا رؤوسَهما وبَدَتْ أقدامُهما فقال: إنَّ بعضَ هذه الأقدامِ لَمِنْ بعض»[١]. وفي حديث يونس بن يزيد: وكان مُجَزِّزٌ قائفاً[٢].

الثالثة: قال الإمام أبو عبد الله المازَرِيُّ: كانت الجاهلية تقدح في نسب أسامة لكونه أسود شديد السواد، وكان زيد أبوه أبيضَ من القطن، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح. قال القاضي عِياض: وقال غيرُ أحمد: كان زيدٌ أزهرَ اللون، وكان أسامةُ شديدَ الأُدْمة، وزيد بن حارثة عربيٌّ صريحٌ من كَلْب، أصابه سِباء[٣]، حسبما يأتي في سورة الأحزاب[٤] إن شاء الله تعالى.

الرابعة: استدلَّ جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع في الولد بسرور النبيِّ ﷺ بقول هذا القائف، وما كان عليه السلام بالذي يُسَرُّ بالباطل ولا يُعجِبُه. ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة وإسحاق والثَّوريُّ وأصحابُهم، متمسِّكين بإلغاء النبيِّ ﷺ الشَّبَه في حديث اللِّعان[٥]؛ على ما يأتي في سورة النور[٦] إن شاء الله تعالى.

الخامسة: واختلف الآخذون بأقوال القافة، هل يؤخَذُ بذلك في أولاد الحرائر والإماء أو يختصُّ بأولاد الإماء، على قولين: فالأوّل: قول الشافعيِّ ومالكٍ رضي الله عنهما في رواية ابن وهب عنه، ومشهورُ مذهبه قَصْرُه على ولد الأَمَة، والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعيُّ ﷺ؛ لأن الحديث الذي هو الأصل في الباب إنما وقع في الحرائر، فإن أسامة وأباه حُرَّان فكيف يُلْغَى السببُ الذي خَرَّج

(١) صحيح البخاري (٦٧٧١)، وصحيح مسلم (١٤٥٩): (٣٩). وأخرجه أحمد (٢٤٠٩٩).

(٢) صحيح مسلم بإثر الرواية (١٤٥٩): (٤٠).

(٣) إكمال المعلم ٤/ ٦٥٦.

(٤) عند تفسير الآية (٤).

(٥) المفهم ٤/ ٢٠٠.

(٦) عند تفسير الآية (١٠).

عليه دليلُ الحكم وهو الباعثُ عليه، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين. وكذلك اختلف هؤلاء، هل يُكتفَى بقول واحدٍ من القافة أو لابُدَّ من اثنين لأنها شهادة، وبالأوّل قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصُّه. وبالثاني قال مالكٌ والشافعيُّ رضي الله عنهما[١].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ أي: يُسألُ كلُّ واحدٍ منهم عما اكتسب، فالفؤاد يُسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع[٢]. وقيل: المعنى أنَّ الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعُه وبصرُه وفؤادُه[٣]؛ ونظيره قوله ﷺ: «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته»[٤] فالإنسان راعٍ على جوارحه، فكأنَّه قال: كلُّ هذه كان الإنسان عنه مسؤولاً، فهو على حذف مضاف. والمعنى الأول أبلَغُ في الحُجَّة؛ فإنه يقع تكذيبُه من جوارحه، وتلك غاية الخزي، كما قال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

وعبَّر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك؛ لأنها حواسُّ لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسؤولة، فهي حالةُ من يعقل؛ فلذلك عبَّر عنها بأولئك. وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]: إنما قال: «رأيتهم» في نجوم؛ لأنه لمَّا وصفها بالسجود وهو من فِعْلِ مَنْ يعقِلُ عبَّر عنها بكناية مَن يعقل[٥]. وقد تقدَّم. وحكى الزَّجَّاج[٦] أنَّ العرب تُعبِّر عمَّا يعقِلُ وعمَّا لا يعقِلُ بأولئك، وأنشد هو

(١) المفهم ٤/ ٢٠١ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٦ .

(٤) سلف ٦/ ٤٢٧ .

(٥) ينظر معناه في كتاب سيبويه ٢/ ٤٧ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣٩ .

والطبري[١]:

ذُمَّ المنازلَ بعد منزلةِ اللِّوى والعيشَ بعد أولئكَ الأيامِ[٢]

وهذا أمرٌ يوقف عنده، وأما البيت فالرواية فيه «الأقوام»[٣]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا نَهْيٌ عن الخُيَلاء وأمرٌ بالتواضع. والمَرَح: شِدَّة الفرح. وقيل: التكبُّر في المشي. وقيل: تجاوز الإنسان قَدْره. وقال قتادة: هو الخُيَلاء في المشي. وقيل: هو البطر والأَشَر. وقيل: هو النشاط[٤]. وهذه الأقوال متقاربةٌ، ولكنَّها منقسمةٌ قسمين: أحدهما مذمومٌ والآخر محمود؛ فالتكبُّر والبَطَر والخُيَلاء وتجاوُزُ الإنسانِ قَدْرَه مذمومٌ، والفرح والنشاط محمود. وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما، ففي الحديث الصحيح: «لَلهُ أفرَحُ بتوبة العبد من رجل...» الحديث[٥]. والكسل مذمومٌ شرعاً والنشاط ضِدُّه. وقد يكون التكبُّر وما في معناه محموداً، وذلك على أعداء الله والظَّلَمة[٦].

أسند أبو حاتم محمد بن حِبَّان عن ابن جابر بن عَتيك، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ

(١) في تفسيره ١٤/٥٩٦ .

(٢) قائله جرير، وهو في شرح ديوانه ٢/ ٩٩٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/٤٥٦ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٤٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

(٥) أخرجه أحمد (٣٦٢٧)، والبخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ. وأحمد (١٣٢٢٧)، والبخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك ﷺ. وأحمد (١٨٤٢٣)، ومسلم (٢٧٤٥) من حديث النعمان بن بشير ﷺ. وأحمد (١٨٤٩٢)، ومسلم (٢٧٤٦) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

أنه قال: «إنَّ مِن الغَيْرة ما يُبغِضُ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومنها ما يُحِبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومن الخُيَلاء ما يُحِبُّ اللهُ عزَّ وجلَّ، ومنها ما يُبغِضُ اللهُ، فأما الغَيْرةُ التي يُحِبُّ اللهُ الغَيْرةُ في الدِّين، والغَيْرةُ التي يُبغِضُ اللهُ الغَيْرةُ في غير دينه، والخُيَلاءُ التي يُحِبُّ اللهُ اختيالُ الرجلِ بنفسه عند القتال وعند الصدقة، والاختيالُ الذي يُبغِضُ اللهُ الخُيَلاءُ في الباطل» وأخرجه أبو داود في مصنَّفه وغيره[١]. وأنشدوا:

ولا تمشِ فوقَ الأرضِ إلا تواضُعاً ... فكم تحتَها قومٌ هُمُ منكَ أرفَعُ
وإن كنتَ في عزٍّ وحِرْزٍ ومَنْعةٍ ... فكم ماتَ من قومٍ هُمُ منكَ أمنَعُ[٢]

الثانية: إقبال الإنسان على الصيد ونحوه تنزُّهاً[٣] دون حاجةٍ إلى ذلك داخلٌ في هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنًى. وأما الرجل يستريح في اليوم النادر والساعة من يومه، يُجمُّ فيها نفسَه في التطرُّح والراحة؛ ليستعين بذلك على شُغلٍ من البِرِّ، كقراءة علمٍ أو صلاةٍ، فليس بداخلٍ في هذه الآية[٤].

قوله تعالى: ﴿مَرَحًا﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء. وقرأت فرقةٌ فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بناء اسم الفاعل[٥]. والأول أبلَغُ، فإنَّ قولك: جاء زيدٌ رَكْضاً أبلَغُ من قولك: جاء زيدٌ راكضاً، فكذلك قولُكَ: مَرَحاً. والمَرَحُ المصدَرُ أبلَغُ من أن يُقال: مَرِحاً[٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: لن تتولَّج باطنَها فتعلمَ ما فيها

(١) صحيح ابن حبان (٢٩٥)، وسنن أبي داود (٢٦٥٩)، وسنن النسائي ٥/ ٧٨ - ٧٩، ومسند أحمد (٢٣٧٤٧).

(٢) ذكرهما ابن حبان في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص٦١، وذكر أن الكريزي أنشده إياهما.

(٣) في (م): ترفعاً.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧ دون قوله: وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنى.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٠ بمعناه.

﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لن تساويَ الجبالَ بطولك ولا تطاولك[١]. ويقال: خرق الثوبَ أي: شقَّه، وخرق الأرض: قطعها، والخَرْقُ: الواسع من الأرض[٢]. أي: لن تخرق الأرض بكِبْرِكَ ومشيِكَ عليها، ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بعظمتك[٣]، أي: بقدرتك لا تبلغ هذا المبلَغَ، بل أنت عبدٌ ذليل، مُحاطٌ بِكَ من تحتك ومن فوقك، والمُحاط محصورٌ ضعيف، فلا يليقُ بك التكبر. والمرادُ بخرق الأرض هنا نقبُها لا قطعها بالمسافة[٤]، والله أعلم. وقال الأزهري: معناه: لن تقطعها[٥]. النحاس[٦]: وهذا أبْيَنُ؛ لأنه مأخوذٌ من الخرق: وهي الصحراء الواسعة. ويُقال: فلانٌ أخْرَقُ من فلان، أي: أكثر سفراً وغزواً منه[٧].

ويُروى أن سَبَأَ دوَّخَ الأرض بأجناده شرقاً وغرباً وسَهْلاً وجبلاً، وقتل سادةً وسبى ـ وبه سُمِّيَ سبأ ـ ودانَ له الخلق، فلمَّا رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام، ثم خرج إليهم فقال: إني لمَّا نِلْتُ ما لم ينَلْ أحدٌ رأيتُ الابتداء بشكر هذه النِّعم، فلم أرَ أوقَعَ في ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت، فسجدوا لها، وكان ذلك أوّلَ عبادة الشمس، فهذه عاقبة الخُيَلاء والتكبر والمرَح[٨]، نعوذُ بالله من ذلك.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ «ذلك» إشارة إلى جملة ما تقدَّم ذِكْرُه مما أمر به ونَهَى عنه[٩]. و«ذلك» يصلح للواحد والجمع والمؤنث

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

(٢) تهذيب اللغة ٧/ ٢١ - ٢٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٠٨ ، وزاد المسير ٥/ ٣٦ عن ابن عباس.

(٤) وردَّ هذا القول أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٨٠ .

(٥) تهذيب اللغة ٧/ ٢١ بمعناه.

(٦) في معاني القرآن له ٤/ ١٥٧ .

(٧) في (م) و(د): وعزةً ومنعةً.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠١ .

(٩) الوسيط للواحدي ٣/ ١٠٨ .

والمذكر.

وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي ومسروق: «سيئُهُ» على إضافة سَيِّئ إلى الضمير؛ ولذلك قال: «مَكْروهاً» نصب على خبر كان[١]. والسيِّئ: هو المكروه، وهو الذي لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ ولا يأمر به[٢]. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآي من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ مأموراتٍ بها ومنهياتٍ عنها، فلا يُخبِرُ عن الجميع بأنه سيِّئة فيدخل المأمور به في المنهيّ عنه[٣]. واختار هذه القراءة أبو عبيد[٤]. ولأن في قراءة أُبيٍّ: «كلُّ ذلِك كان سيئاته»[٥] فهذه لا تكون إلا للإضافة.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «سيئةً» بالتنوين، أي: كلُّ ما نهى الله ورسوله عنه سيئة. وعلى هذا انقطع الكلام عند قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، ﴿وَلَا تَمْشِ﴾، ثم قال: ﴿كُلُّ ذلك كان سيّئةً﴾ بالتنوين[٦].

وقيل: إن قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ إلى هذه الآية كان سيئةً لا حسنةَ فيه، فجعلوا «كُلًّا» محيطاً بالمنهيّ عنه دون غيره. وقوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾ ليس نعتاً لسيئة، بل هو بدلٌ منه، والتقدير: كان سيئةً وكان مكروهاً[٧]. وقد قيل: إنَّ «مكروهاً» خبرٌ ثانٍ لكان حُمِلَ على لفظة كلٍّ، و«سيئةً» محمولٌ على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبلُ. وقال بعضهم: هو نعتٌ لسيئة؛ لأنه لمَّا كان تأنيثُها غيرَ حقيقيٍّ جاز أن تُوصَفَ بمُذكَّر. وضعَّف أبو علي الفارسيُّ هذا وقال: إن المؤنث إذا ذُكِّر فإنما ينبغي

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧، والقراءة عن الأربعة دون مسروق في السبعة ص٣٨٠، والتيسير ص١٤٠.
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٦٠٠.
(٣) الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٥/ ١٠٢ - ١٠٣.
(٤) تفسير أبي الليث، ووقع في مطبوعه: أبو عبيدة.
(٥) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٧٦ - ٧٧ ونسبها إلى أبي إسحاق.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٠ - ٢٤١، والقراءة في السبعة ص٣٨٠، والتيسير ص١٤٠.
(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١٠٨.

أن يكون ما بعده مذكَّراً، وإنما التساهل أن يتقدَّم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يُسند إلى المذكَّر، ألا ترى قولَ الشاعر:

فــلا مُــزنــةٌ ودَقَــتْ وَدْقَــهــا ولا أرضَ أبــقَــلَ إبــقــالَــهــا[١]

مستقبَحٌ عندهم. ولو قال قائلٌ: «أبقَلَ أرضَ» لم يكن قبيحاً. قال أبو عليّ: ولكن يجوز في قوله: «مكروهاً» أن يكون بدلاً من «سيئة». ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي في «عند ربك» ويكون «عند ربك» في موضع الصفة لسيئة[٢].

الخامسة: استدلَّ العلماء بهذه الآية على ذمِّ الرَّقْصِ وتعاطيه. قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل: قد نصَّ القرآن على النَّهي عن الرقص فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وذمَّ المختال. والرقصُ أشدُّ المرح والبطر، أوَلسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسُّكْر؟ فما بالُنا لا نقيسُ القضيبَ وتلحينَ الشِّعر معه على الطُّنبور والمِزمار والطَّبل لاجتماعهما؟! فما أقبح من ذي لِحْية، وكيف إذا كان شيبةً، يرقص ويُصفِّق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصاً إن كانت أصواتٌ لنسوانٍ ومُردان، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسؤال والحشر والصراط، ثم هو إلى إحدى الدّارين، يَشْمُس[٣] بالرقص شمس البهائم، ويُصفِّق تصفيق النسوان، ولقد رأيتُ مشايخَ في عمري ما بان لهم سِنٌّ من التبسُّم فضلاً عن الضحك مع إدمان مخالطتي لهم. وقال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: ولقد حدَّثني بعض المشايخ عن الإمام الغزالي ﷺ أنه قال: الرقص حماقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب[٤].

---

(١) قائله عامر بن جوين الطائي، وهو في كتاب سيبويه ٢/ ٤٦، والكامل ٢/ ٨٤١، والخصائص ٢/ ٤١١، والخزانة ١/ ٤٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٧ - ٤٥٨، وينظر كلام أبي علي الفارسي بمعناه في الحجة للقراء السبعة ٥/ ١٠٢ - ١٠٣.

(٣) يقال: شَمَسَتِ الدابة: إذا شردت وجمحت ومنعت ظهرها. اللسان (شمس).

(٤) تلبيس إبليس ص٢٥٠ - ٢٥١.

وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في الكهف[١] وغيرها[٢] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

الإشارة: بـ «ذلك» إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل عليه السلام، أي: هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله عزَّ وجلَّ في عباده، وخَلْقِه لهم من محاسن الأخلاق، والحكمة: قوانين المعاني المُحكمة والأفعال الفاضلة. ثم عطف قوله: «ولا تجعل» على ما تقدَّم من النواهي. والخطاب للنبيِّ ﷺ والمرادُ كلُّ مَنْ سمع الآية من البشر. والمدحور: المُهان المُبعَدُ المُقْصَى[٣]. وقد تقدَّم في هذه السورة[٤]. ويُقال في الدعاء: اللهم ادْحَرْ عنَّا الشيطان؛ أي: أبعِدْه[٥].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾

هذا يردٌّ على من قال من العرب: الملائكةُ بنات الله، وكان لهم بناتٌ أيضاً مع البنين، ولكنه أراد: أفأخْلَصَ لكم البنين دونه، وجعل البناتِ مشتركةً بينكم وبينه[٦]. ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾ أي: في الإثم عند الله عزَّ وجلَّ[٧].

---

(١) عند تفسير الآية (١٤) في الكلام على المسألة الثانية.

(٢) عند تفسير الآية (٦) من سورة لقمان.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٥٨ ، وفي النسخ: «وخلقها» بدل «وخلقه»، و«وقوانين» بدل «قوانين».

(٤) ١٣/ ٤٨ .

(٥) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٥ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٥٨ .

(٦) زاد المسير ٥/ ٣٧ ، ومجمع البيان ١٥/ ٥١ .

(٧) الوسيط ٣/ ١٠٨ ، ومجمع البيان ١٥/ ٥١ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بيَّنا. وقيل: كرَّرنا. ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ قيل: «في» زائدة، والتقدير: ولقد صرَّفنا هذا القرآن[1]؛ مثلُ: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: ١٥] أي: أصلح ذريتي. والتصريف: صرف الشيء من جهة إلى جهة[2]. والمراد بهذا التصريف البيان والتكرير. وقيل: المغايرة، أي: غايرنا بين المواعظ ليذَّكروا ويعتبروا ويتَّعظوا[3]. وقراءة العامة: «صَرَّفنا» بالتشديد على التكثير حيث وقع. وقرأ الحسن بالتخفيف[4]. وقوله: ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ يعني الأمثال والعِبَر والحِكَم والمواعظ والأحكام والإعلام[5]. قال الثعلبي: سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبي الطيب: لقوله تعالى: «صرفنا» معنيان؛ أحدهما: لم يجعله نوعاً واحداً، بل وعداً ووعيداً، ومُحْكَماً ومتشابهاً، ونهياً وأمراً، وناسخاً ومنسوخاً، وأخباراً وأمثالاً، مثلُ تصريف الرياح من صَباً ودَبُور وجنوبٍ وشمال، وتصريف الأفعال من الماضي والمستقبل والأمر والنَّهي والفعل والفاعل والمفعول ونحوها. والثاني: أنه لم ينزل مرةً واحدةً بل نجوماً، نحو قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦] ومعناه: أكثَرْنا صرفَ جبريل عليه السلام إليك. ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «لِيَذْكُروا» مخفَّفاً، وكذلك في الفرقان [الآية: ٥٠]: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾. الباقون بالتشديد[6]. واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ معناه: ليتذكَّروا وليتَّعظوا. قال المَهْدِوِيُّ: من شدَّد «لِيَذَّكَّروا» أراد التدبر. وكذلك من قرأ «لِيَذْكُروا». ونظير

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٨ ، وضعَّفه.

(٢) تفسير الرازي ٢٠/ ٢١٦ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٤ .

(٤) المحتسب ٢/ ٢١ ، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير الطبري ١٤/ ٦٠٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٨ .

(٦) السبعة ص٣٨٠ ، والتيسير ص١٤٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٥٨ .

الأول ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] والثاني: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣]. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: التصريف والتذكير ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: تباعداً عن الحقِّ وغفلةً عن النظر والاعتبار؛ وذلك لأنهم اعتقدوا في القرآن أنه حيلةٌ وسحرٌ وكَهانةٌ وشعر.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ هذا متصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهو ردٌّ على عُبَّاد الأصنام. ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأ ابن كَثير وحفص: «يقولون» بالياء. الباقون: «تقولون» بالتاء على الخطاب[1]. ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ يعني الآلهة. ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ قال ابن العباس رضي الله تعالى عنهما: لَطلبوا مع الله منازعةً وقتالاً كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض[2]. وقال سعيد بن جُبير رضي الله تعالى عنه: المعنى: إذاً لطلبوا طريقاً إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه؛ لأنهم شركاؤه[3]. وقال قَتادة: المعنى: إذاً لابْتغَتِ الآلهةُ القُرْبَةَ إلى ذي العرش سبيلاً، والتمستِ الزُّلْفَةَ عنده؛ لأنهم دونه[4]، والقوم اعتقدوا أنَّ الأصنام تُقرِّبهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجةٌ إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة. ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ نزَّه سبحانه نفسَه وقدَّسه ومجَّده عما لا يليق به. والتسبيح: التنزيه. وقد تقدّم[5].

---

(١) السبعة ص٣٨١، والتيسير ص١٤٠.

(٢) مجمع البيان ٢٠/ ٥٣، وذكره أبو الليث ٢/ ٢٦٩ عن مقاتل.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٥.

(٤) مجمع البيان ١٥/ ٥٣.

(٥) ١/ ٤١٢.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ أعاد على السماوات والأرض ضميرَ من يعقل، لمَّا أسند إليها فِعْلَ العاقل وهو التسبيح. وقوله: ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ يريد الملائكةَ والإنسَ والجِنَّ، ثم عمَّ بعد ذلك الأشياء كلَّها في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[١]. واختلف في هذا العموم، هل هو مخصَّصٌ أم لا، فقالت فرقة: ليس مخصوصاً، والمراد به تسبيح الدلالة، وكلُّ مُحدَثٍ يشهد على نفسه بأنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقٌ قادر[٢]. وقالت طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكلُّ شيءٍ على العموم يُسبِّح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه، ولو كان ما قاله الأوَّلون[٣] من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمراً مفهوماً[٤]، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفقه. وأُجيبوا بأن المراد بقوله: «لا تفقهون» الكفارُ الذين يُعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى في الأشياء. وقالت فرقة: قوله «مِنْ شَيْء» عموم، ومعناه الخصوص في كل حَيٍّ ونامٍ، وليس ذلك في الجمادات. ومن هذا قول عكرمة: الشجرة تُسبِّح والأسطوان لا يُسبِّح. وقال يزيد الرَّقَاشِيُّ للحسن وهما في طعام وقد قُدِّم الخِوان: أَيُسبِّح هذا الخِوانُ يا أبا سعيد؟ فقال: قد كان يُسبِّحُ مرَّةً. يريد أنَّ الشجرة في زمن ثمرها واعتدالها كانت تُسبِّح، وأما الآن فقد صار خِواناً مدهوناً[٥].

قلت: ويُستَدلُّ لهذا القول من السُّنَّة بما ثبت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبيَّ ﷺ مرَّ على قبرين فقال: «إنهما لَيُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير، أما

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٩.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٢، والوسيط للواحدي ٣/ ١٠٩.

(٣) في المحرر الوجيز: الآخرون.

(٤) في المحرر الوجيز: مفقوهاً.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٥٩، وأثر عكرمة أخرجه الطبري ١٤/ ٦٠٥، وأثر الحسن أخرجه الطبري ١٤/ ٦٠٦.

أحدُهما فكان يمشي بالنَّميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول» قال: فدعا بعَسِيبٍ رَطْبٍ فشقَّه اثنين، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً، ثم قال: «لعلَّه يُخفِّفُ عنهما ما لم يَيْبَسَا»[1]. فقوله عليه الصلاة والسلام: «ما لم ييبسا» إشارةٌ إلى أنهما ما داما رطبين يُسبِّحان، فإذا يبِسا صارا جماداً. والله أعلم. وفي «مسند أبي داود الطيالسي»: فوضع على أحدهما نصفاً وعلى الآخر نصفاً، وقال: «لعلَّه أن يُهوِّن عليهما العذابَ ما دام فيهما من بلولتهما شيء»[2]. قال علماؤنا: ويُستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خُفِّفَ عنهم بالأشجار، فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن؟! وقد بيَّنَّا هذا المعنى في كتاب «التذكرة»[3] بياناً شافياً، وأنه يصل إلى الميت ثوابُ ما يُهْدَى إليه. والحمد لله على ذلك. وعلى التأويل الثاني لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كلَّ شيءٍ من الجماد وغيره يُسبِّح.

قلت: ويستدلّ لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٧-١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٧٤] ـ على قول مجاهد ـ وقوله: ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٠-٩١]. وذكر ابن المبارك في «رقائقه»: أخبرنا مِسْعَر، عن عبد الله بن واصل، عن عون[4] بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إنَّ الجبل ليقول للجبل: يا فلان، هل مرَّ بِكَ اليومَ ذاكرٌ لله عزَّ وجلَّ؟ فإن قال: نعم، سُرَّ به. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨] الآيات. قال: أفتراهنَّ يَسمَعْنَ الزُّور ولا يَسمَعْنَ الخير[5]. وفيه عن أنس

(١) أخرجه أحمد (١٩٨٠)، والبخاري (٦٠٥٢)، ومسلم (٢٩٢).

(٢) مسند الطيالسي (٨٦٧) من حديث أبي بكرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٠٤١١).

(٣) ص١٥٠ .

(٤) تصحف اسم عون في النسخ سوى (ظ) إلى عوف.

(٥) الزهد لابن المبارك (٣٣٣)، عبد الله بن واصل مجهول تفرد بالرواية عنه مسعر بن كدام كما في التاريخ الكبير ٥/ ٢١٩ ، والجرح والتعديل ٥/ ١٩٢ ، وذكره ابن حبان في الثقات ٧/ ٥٧ على عادته في توثيق المجاهيل. وعون بن عبد الله لم يدرك عبد الله بن مسعود. قاله الترمذي في سننه عقب الحديث (١٢٧٠).

ابن مالك ﷺ قال: ما من صباحٍ ولا رواحٍ إلا تُنادي بقاعُ الأرض بعضُها بعضاً: يا جاراه، هل مَرَّ بِكِ اليومَ عبدٌ فصلَّى للهِ أو ذكر اللهَ عليكِ؟ فمِن قائلةٍ: لا، ومن قائلةٍ: نعم، فإذا قالت: نعم، رأت لها بذلك فضلاً عليها[(١)]. وقال رسول الله ﷺ: «لا يَسمَعَ صوتَ المؤذن جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شجرٌ ولا حَجَرٌ ولا مَدَرٌ ولا شيءٌ إلا شهد له يوم القيامة». رواه ابن ماجه في «سننه»، ومالك في «موطَّئه» من حديث أبي سعيد الخُدْريِّ ﷺ[(٢)]. وخرَّج البخاريُّ عن عبد الله ﷺ قال: لقد كُنَّا نسمع تسبيحَ الطعام وهو يؤكل[(٣)]. في غير هذه الرواية عن ابن مسعود ﷺ: كنَّا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحَه[(٤)]. وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن سَمُرَة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأَعرِفُ حجراً بمكة كان يُسلِّمُ عليَّ قبل أن أُبعَثَ، إني لأعرِفُه الآن»[(٥)]. قيل: إنه الحجر الأسود، والله أعلم. والأخبار في هذا المعنى كثيرة؛ وقد أتينا على جملةٍ منها في اللُّمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية للفاداري رحمه الله، وخبر الجذع أيضاً مشهورٌ في هذا الباب خرَّجه البخاري في مواضع من كتابه[(٦)]. وإذا ثبت ذلك في جمادٍ واحدٍ جاز في جميع الجمادات، ولا استحالة في شيءٍ من ذلك، فكلُّ شيءٍ يُسبِّح للعموم. وكذا قال النَّخَعِيُّ وغيره: هو عامٌّ فيما فيه روحٌ وفيما لا روح فيه حتى صرِير الباب[(٧)]. واحتجُّوا بالأخبار التي ذكرنا. وقيل: تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول: سبحان الله! لعدم الإدراك منها. وقال الشاعر:

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٥) عن صالح المري، عن جعفر بن زيد، عن أنس. صالح المري: هو ابن بشير، وهو ضعيف جداً. الميزان ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) سنن ابن ماجه (٧٢٣)، والموطأ ١/ ٦٩ . وأخرجه أحمد (١١٣٠٥)، والبخاري (٦٠٩).

(٣) صحيح البخاري (٣٥٧٩). وأخرجه أحمد (٤٣٩٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٣٣)، وابن خزيمة (٢٠٤)، والطبراني في الأوسط (٤٤٩٨).

(٥) صحيح مسلم (٢٢٧٧).

(٦) صحيح البخاري (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أحمد (٥٨٨٦).

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٤٥ ، وزاد المسير ٥/ ٣٩ .

تُلْقَى بتسبيحةٍ من حيثُ ما انصرفَتْ   وتَستقِرُّ حَشَا الرائي بتَرْعادِ[١]

أي: يقول من رآها: سبحانَ خالقِها. فالصحيح أنَّ الكلَّ يُسبِّح؛ للأخبار الدالَّة على ذلك، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأيُّ تخصيصٍ لداود، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا. وقد نصَّتِ السُّنَّةُ على ما دلَّ عليه ظاهر القرآن من تسبيح كلِّ شيءٍ، فالقول به أوْلى. والله أعلم.

وقرأ الحسن وأبو عمرو ويعقوب وحفص وحمزة والكسائي وخَلَف: «تفقهون» بالتاء لتأنيث الفاعل. الباقون بالياء[٢]، واختاره أبو عبيد، قال: للحائل بين الفعل والتأنيث. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن ذنوب عباده في الدنيا ﴿غَفُورًا﴾ للمؤمنين في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾

عن أسماء بنت أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنهما قالت: لمَّا نزلت سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أقبلتِ العَوْراءُ أمُّ جميل بنت حرب ولها وَلْوَلَةٌ وفي يدها فِهْرٌ وهي تقول:

* مُذَمَّماً أبَيْنا * وَدِينَه قَلَيْنا * وأمرَه عصَيْنا *

والنبيُّ ﷺ قاعدٌ في المسجد ومعه أبو بكر ﷺ، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلتْ وأنا أخافُ أن تراك! قال رسول الله ﷺ: «إنَّها لن تراني» وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال. وقرأ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٤٥، والبيت قائله بشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٢٣١ بلفظ:

تُلقى بتسبيحةٍ من حُسنِ ما خُلِقَتْ   وتستفِزُّ حشا الرائي بإرعادِ

(٢) لم نقف على من قرأ «تفقهون» بالياء، والظاهر أن المصنف وهم في ذلك، والصحيح أن كلامه هذا ينبغي أن يعود على قوله: «تسبح»، فقد قرأها هكذا أبو عمرو وعاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر: «يُسبِّح» بالياء. ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٠.

بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ فوقفت على أبي بكر ﷺ ولم ترَ رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، أُخبِرتُ أنَّ صاحبكَ هجاني. فقال: لا وربِّ هذا البيت ما هجاكِ. قال: فولَّت وهي تقول: قد علِمَتْ قريشٌ أني ابنةُ سيِّدِها[1]. وقال سعيد بن جُبير ﷺ: لمَّا نزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ جاءتِ امرأةُ أبي لهبٍ إلى النبيِّ ﷺ ومعه أبو بكرٍ ﷺ، فقال أبو بكر: لو تَنَحَّيْتَ عنها لئلا تُسمِعَكَ ما يؤذيك، فإنها امرأةٌ بذِيَّة. فقال النبيُّ ﷺ: «إنه سيُحال بيني وبينها» فلم ترَه. فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبُكَ. فقال: واللهِ ما ينطِقُ بالشعر ولا يقولُه. فقالت: وإنَّكَ لمُصدِّقه. فاندفعت راجعة. فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، أمَا رأتْكَ؟ قال: «لا، ما زال ملَكٌ بيني وبينها يسترني حتى ذهبت»[2]. قال كعب ﷺ في هذه الآية: كان النبيُّ ﷺ يستتر من المشركين بثلاث آيات: الآية التي في الكهف [٥٧] ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ﴾، والآية التي في النحل [١٠٨] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ﴾، والآية التي في الجاثية [٢٣] ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ الآية. فكان النبيُّ ﷺ إذا قرأهُنَّ يستتِرُ من المشركين. قال كعب رضي الله تعالى عنه: فحدَّثتُ بهنَّ رجلاً من أهل الشأم، فأتى أرضَ الروم فأقام بها زماناً، ثم خرج هارباً، فخرجوا في طلبه، فقرأ بهنَّ، فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه. قال الثعلبي: وهذا الذي يروُونه عن كعب حدَّثتُ به رجلاً من أهل الريِّ فأُسِرَ بالدَّيْلَم، فمكث فيهم زماناً، ثم خرج هارباً، فخرجوا في طلبه، فقرأ بهنَّ حتى جعلت ثيابُهنَّ لتلمِسُ ثيابه فما يبصرونه.

---

(١) أخرجه الحميدي (٣٢٣)، والأزرقي في أخبار مكة ٣١٦/١، وأبو يعلى (٥٣)، والحاكم ٣٦١/٢. وفي المصادر بعد قوله: «ودينه قلينا» «وأمره عصينا». الولولة: صوت متتابع بالويل والاستغاثة. والفهر: هو الحجر ملء الكف، أو الحجر مطلقاً. اللسان (ولول) و(فهر).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٤٩٨/١١ - ٤٩٩، وأبو نعيم في الدلائل (١٤٠) من طريق محمد بن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير.

وأخرجه البزار (١٥)، وأبو يعلى (٢٥)، وابن حبان (٦٥١١) من طريق عبد السلام بن حرب، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

قلت: ويُزاد إلى هذه الآي أوّلُ سورة يس إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. فإنَّ في السيرة في هجرة النبيِّ ﷺ ومقامِ عليٍّ ﷺ في فراشه قال: وخرج رسول الله ﷺ فأخذ حَفْنةً من تراب في يده، وأخذ الله عزَّ وجلَّ على أبصارهم عنه فلا يَرَوْنه، فجعل ينثرُ ذلك الترابَ على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس: ﴿يسٓ . وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ حتى فرغ رسول الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبقَ منهم رجلٌ إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيثُ أراد أن يذهب[(١)].

قلت: ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن منثور[(٢)] من أعمال قرطبة مثل هذا، وذلك أني هربت أمام العدوِّ وانحزتُ إلى ناحيةٍ عنه، فلم ألبَثْ أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض قاعدٌ ليس يسترني عنهما شيء، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن، فعبرا عليَّ ثم رجعا من حيث جاءا، وأحدهما يقول للآخر: هذا دِيَبْلُه، يعنون شيطاناً. وأعمى الله عزَّ وجلَّ أبصارَهم فلم يروني، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك.

وقيل: الحجاب المستور: طَبْعُ اللهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يُدركوا ما فيه من الحكمة. قاله قتادة. وقال الحسن: أي: إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلِهم عنك كمن بينك وبينه حجابٌ في عدم رؤيته لك حتى كأنَّ على قلوبهم أغطية[(٣)].
وقيل: نزلت في قومٍ كانوا يؤذون رسولَ الله ﷺ إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأمُّ جميل - امرأة أبي لهب - وحُوَيطب، فحجبَ الله سبحانه وتعالى رسولَه ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرُّون به ولا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٣ .

(٢) كذا في جميع النسخ، ولم نقف على مكانٍ بهذا الاسم، ولعله «حصن المدور» كما في معجم البلدان ٥/ ٧٧ ، والكامل ٥/ ١٢٦ ، ونفح الطيب ١/ ٥٥ و ٣/ ٣٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٦ .

يرونه[١]. قاله الزَّجّاج وغيره[٢]. وهو معنى القول الأوَّل بعينه، وهو الأظهر في الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿مَّسْتُورًا﴾ فيه قولان: أحدهما ـ أنَّ الحجاب مستور عنكم لا ترونه. والثاني ـ أنَّ الحجاب ساترٌ عنكم ما وراءه، ويكون مستوراً بمعنى ساتر[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ «أكِنة» جمع كِنان، وهو ما ستر الشيء. وقد تقدم في «الأنعام»[٤]. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفقهوه، أو كراهية أن يفقهوه[٥]، أي: أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والحِكم والمعاني. وهذا ردٌّ على القدرية. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ أي: صمماً وثقلاً[٦]. وفي الكلام إضمار، أي: أن يسمعوه. ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي: قلتَ: لا إله إلا الله وأنتَ تتلو القرآن[٧]. وقال أبو الجَوْزاء أوْس بن عبد الله: ليس شيء أطْرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾[٨]. وقال علي بن الحسين: هو قوله: بسم الله الرحمن الرحيم. وقد تقدم هذا في البسملة[٩]. ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ قيل: يعني: بذلك المشركين. وقيل: الشياطين[١٠]. و«نُفوراً» جمع نافر،

---

(١) زاد المسير ٥/ ٤١ .

(٢) قول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٢٤٣ بلفظ : الحجاب: منع الله إيَّاهم من النبي عليه الصلاة والسلام.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٤٦ .

(٤) ٨/ ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١١٧ ، وينظر ٨/ ٣٤٥ .

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٠ .

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٠ .

(٨) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ١٦٠ بمعناه.

(٩) ١/ ١٤٣ .

(١٠) زاد المسير ٥/ ٤١ ، وذكر الأول عن ابن زيد والثاني عن ابن عباس.

مثل: شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوبٌ على الحال. ويجوز أن يكون مصدراً على غير الصدر، إذ كان قوله: «وَلَّوْا» بمعنى نفروا، فيكون معناه: نفروا نفوراً[(١)].

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ قيل: الباء زائدة في قوله: «به» أي: يستمعونه[(٢)]. وكانوا يستمعون من النبيِّ ﷺ القرآن، ثم ينفرون فيقولون: هو ساحر ومسحور، كما أخبر الله تعالى به عنهم. قاله قتادة وغيره. ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أي: مُتناجون في أمرك[(٣)]. قال قتادة: وكانت نجواهم قولهم: إنه مجنون، وإنه ساحر، وإنه يأتي بأساطير الأوّلين، وغير ذلك[(٤)]. وقيل: نزلت حين دعا عُتْبَةُ أشرافَ قريشٍ إلى طعامٍ صنعه لهم، فدخل عليهم النبيُّ ﷺ وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله؛ فتناجوا، يقولون: ساحر ومجنون. وقيل: أمرَ النبيُّ ﷺ عليًّا أن يتَّخِذَ طعاماً ويدعوَ إليه أشرافَ قريشٍ من المشركين، ففعل ذلك عليٌّ، ودخل عليهم رسولُ الله ﷺ، وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى التوحيد، وقال: «قولوا لا إله إلا الله؛ لِتُطيعَكمُ العَربُ وتدينَ لكم العجم» فأبَوْا، وكانوا يستمعون من النبيِّ ﷺ ويقولون بينهم مُتناجين: هو ساحرٌ وهو مسحور، فنزلت الآية[(٥)].

وقال الزَّجَّاج: النَّجْوَى اسم للمصدر، أي: وإذ هم ذَوو نجوى[(٦)]، أي: سرار[(٧)].

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٣، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٦، وزاد المسير ٥/ ٤١. وقول النصب على الحال قاله مكي بن أبي طالب في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٣٢.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١١١، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٤٢.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١١٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٤/ ٦١٢.

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ١١١، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٤٢، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٢٣.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٣.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦١.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أبو جهل والوليد بن المُغِيرة وأمثالهما. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: مَطْبُوباً قد خبلَه السِّحرُ فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس[١]. وقال مجاهد: «مسحوراً» أي: مخدوعاً، مثلُ قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] أي: من أين تُخدَعون[٢].

وقال أبو عبيدة: «مسحوراً» معناه أنَّ له سَحْراً، أي رِئة، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب، فهو مِثْلُكم وليس بمَلَك. وتقول العرب للجبان: قد انتفخَ سَحْرُه. ولكلِّ مَنْ أكل من آدميٍّ وغيرِه أو شربَ: مسحورٌ ومُسَحَّر؛ قال لبيد[٣]:

فإن تسألينا فِيمَ نحنُ فإنَّنا   عصافيرُ من هذا الأنامِ المُسَحَّرِ

وقال امرؤ القيس:

أرانا مُوضِعينَ لأمرِ غَيْبٍ   ونُسْحَرُ بالطعامِ وبالشَّرابِ[٤]

أي: نُغَذَّى ونُعَلَّل[٥]. وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: مَن هذه التي تُساميني من أزواج النبيِّ ﷺ، وقد تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ بين سَحْري ونَحْري[٦]؟!

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١١٨ .

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٦ ، وقول مجاهد ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ١٦١ ، والبغوي ٣/ ١١٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٢ .

(٣) في ديوانه ص٥٦ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص٩٧ . قال شارحه: «نرى أنفسنا موضعين» أي: مسرعين. «لأمر غيبٍ» أي: للموت المُغيَّب، أي: نسرع في آجالنا وقد غُيِّب عنا وقت انقضائها.

(٥) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٨١-٣٨٢ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٦١ ، وزاد المسير ٥/ ٤٢-٤٣ . واستدلَّ ابن قتيبة في الغريب ص٢٥٦ ، والنحاس في المعاني ٤/ ١٦١ بهذا البيت لقول مجاهد، والمعنى: نُخدع. وتعقَّب ابنُ قتيبة أبا عبيدة في تفسيره فقال: ولستُ أدري ما اضطرَّه إلى هذا التفسير المُستكرَه؟! وقد سبق التفسير من السلف بما لا استكراه فيه.

(٦) لم نقف على من خرَّجه بهذا اللفظ، وقولها: «توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري» أخرجه أحمد (٢٤٩٠٥)، والبخاري (١٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ عجَّبه من صنعهم كيف يقولون تارةً ساحرٌ وتارةً مجنون وتارةً شاعر[١]. ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: حِيلةً في صدِّ الناس عنك[٢]. وقيل: ضَلُّوا عن الحقِّ فلا يجدون سبيلاً، أي إلى الهدى[٣]. وقيل: مخرجاً؛ لتناقض كلامهم في قولهم: مجنون، ساحر، شاعر[٤].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي: قالوا وهم يتناجَوْن لـمَّا سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث: لو لم يكن مسحوراً مخدوعاً لما قال هذا. قال ابن عباس: الرُّفات: الغبار[٥]. مجاهد: التراب[٦]. والرُّفات: ما تكسَّر وبَليَ من كل شيء، كالفُتات والحُطام والرُّضاض. عن أبي عبيدة والكسائيّ والفَرَّاء والأخفش[٧]. تقول منه: رُفِتَ الشيء رَفْتاً، أي حُطِم؛ فهو مرفوت[٨]. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ «أئِنَّا» استفهام والمراد به الجَحْد والإنكار[٩]. و«خلقاً» نُصِبَ لأنه مصدر[١٠]؛ أي: بعثاً جديداً. وكان هذا غايةَ الإنكار منهم.

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٦١٣ .

(٢) مجمع البيان ١٥/ ٥٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٢ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧١ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٦١٣ عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري ١٤/ ٦١٤ .

(٦) وهو في تفسيره ١/ ٣٦٣ ، وأخرجه عنه الطبري ١٤/ ٦١٤ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٥ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٨٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٢ - ١٦٣ ، وهو قول الزجاج في المعاني ٣/ ٢٤٤ .

(٨) تفسير الطبري ١٤/ ٦١٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٦٢ .

(٩) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ١١١ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٧ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أي: قل لهم يا محمد: كونوا ـ على جهة التعجيز ـ حجارةً أو حديداً في الشدَّة والقوة[١]. قال الطبري: أي: إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحماً فكونوا أنتم حجارةً أو حديداً إن قَدرتم. وقال عليٌّ بن عيسى: معناه: أنكم لو كنتم حجارةً أو حديداً لم تفوتوا اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أرادكم، إلا أنَّه خرج مخرج الأمر؛ لأنه أبلَغُ في الإلزام. وقيل: معناه: لو كنتم حجارةً أو حديداً لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم[٢]. وقال مجاهد: المعنى: كونوا ما شئتم فستُعادون[٣]. النحاس[٤]: وهذا قولٌ حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة، وإنما المعنى أنهم قد أقرُّوا بخالقهم وأنكروا البعث، فقيل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حجارةً أو حديداً لبُعِثْتُم كما خُلِقْتُم أوّل مرة.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد: يعني السماوات والأرض والجبال[٥]؛ لعِظَمِها في النفوس. وهو معنى قول قتادة، يقول: كونوا ما شئتم، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم[٦]. وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن جُبير ومجاهد أيضاً وعكرمة وأبو صالح والضحاك: يعني الموت[٧]؛ لأنه ليس شيءٌ أكبرَ في نفس ابن آدم منه؛ قال أُمَيّة بن أبي الصَّلت:

---

(١) مجمع البيان ١٥/٥٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/٢٤٨ ، وينظر قول الطبري في تفسيره ١٤/ ٦١٥ بمعناه.

(٣) وهو في تفسيره ١/ ٣٦٣ ، وأخرجه عنه الطبري ١٤/٦١٨ .

(٤) في معاني القرآن له ٤/١٦٣ .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٧٩ .

(٦) أخرجه الطبري ١٤/٦١٨ .

(٧) أخرجه الطبري ١٤/٦١٦ - ٦١٧ عن جميعهم سوى مجاهد وعكرمة.

وللـمَوْتُ خَلْقٌ في النفوسِ فَظيعُ[١]

يقول: إنكم لو خُلقتم من حجارةٍ أو حديدٍ أو كنتم الموتَ لأُميتَنَّكم ولأبعثنكم؛ لأن القدرة التي بها أنشأتكم بها نعيدكم[٢]. وهو معنى قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وفي الحديث أنه «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كَبْشٍ أمْلَحَ، فيُذبحُ بين الجنة والنار»[٣]. وقيل: أراد به البعث؛ لأنه كان أكبرَ في صدورهم. قاله الكلبي[٤]. ﴿فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم وأنشأكم. ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحرِّكون رؤوسهم استهزاءً[٥]، يقال: نَغَض رأسُه يَنْغُضُ ويَنْغِضُ نَغْضاً ونُغوضاً، أي: تحرَّك. وأنغَضَ رأسَه أي: حرَّكه، كالمتعجِّبِ من الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾[٦].

قال الراجز:

أنـغـضَ نـحـوي رأسَـه وأقـنَـعـا[٧]

ويقال أيضاً: نغضَ فلانٌ رأسَه أي: حرَّكه، يتعدَّى ولا يتعدَّى. حكاه الأخفش[٨]. ويقال: نَغضتْ سِنُّه، أي: تحرَّكت وانقلعت.

قال الراجز:

ونـغـضَـتْ مـن هَـرَمٍ أسـنـانُـهـا

---

(١) من أول الفقرة إلى هنا في النكت والعيون ٣/ ٢٤٨ ، وصدر البيت: «نادَوا إلههم ليُسرعَ خلْقَهم».

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٢ بمعناه.

(٣) سلف ١٠/ ١٩٢ .

(٤) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٤٨ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٢ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٤٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ١١٩ . وأخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٠ عن ابن عباس وقتادة.

(٦) الصحاح (نغض).

(٧) تتمته: «كأنما أبصر شيئاً أطمعا»، وقد سلف ١٢/ ١٥٩ .

(٨) الصحاح (نغض).

وقال آخر:

لـمَّا رأتْـنـي أنـغـضَـتْ لـيَ الـرأسـا(١)

وقال آخر:

لا مـاءَ فـي الـمَـقْـراةِ إن لـم تـنـهـضِ بـمَـسَـدٍ فـوقَ الـمَـحـالِ الـنُّـغَّـضِ(٢)

المحال والمحالة: البكرة العظيمة التي تَستقي بها الإبل(٣).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: البعث والإعادة. وهذا الوقت ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي: هو قريب؛ لأنَّ عسى واجب(٤)، نظيره: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. و﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. وكلُّ ما هو آتٍ فهو قريب.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ الدعاء النداء إلى المحشر بكلامٍ تسمعه الخلائق، يدعوهم اللهُ تعالى فيه بالخروج. وقيل: بالصيحة التي يسمعونها، فتكون داعيةً لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة(٥). قال ﷺ: «إنكم تُدْعَون يوم القيامة بأسمائكم وأسماءِ آبائكم فأحسنوا أسماءكم»(٦). ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: باستحقاقه الحمد على الإحياء، وقال أبو سهل: أي: والحمد لله، كما قال:

فـإنـي بـحـمـد الـلـه لا ثـوبَ فـاجـرٍ لـبِـسْـتُ ولا مـن غَـدْرةٍ أتـقـنَّـعُ(٧)

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٢٠.

(٢) الصحاح (نغض).

(٣) الصحاح (محل).

(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٦٢١، والوسيط للواحدي ٣/ ١١١.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٤٨.

(٦) أخرجه أحمد (٢١٦٩٣)، وأبو داود (٤٩٤٨) من طريق عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي، عن أبي الدرداء مرفوعاً. إسناده منقطع؛ عبد الله بن أبي زكريا لم يسمع من أبي الدرداء. المراسيل ص٩٨.

(٧) قائله غيلان بن سلمة الثقفي كما في تفسير البغوي ٤/ ١٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٨/ ٤٠٠.

وقيل: حامدين لله تعالى بألسنتكم[١]. قال سعيد بن جُبير: يخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون: سبحانك وبحمدك، ولكن لا ينفعهم اعترافٌ ذلك اليوم[٢]. وقال ابن عباس: «بحمده»: بأمره[٣]، أي: تُقِرُّون بأنه خالِقُكم[٤]. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته[٥]. وقيل: المعنى: بقدرته. وقيل: بدعائه إيَّاكم[٦]. قال علماؤنا: وهو الصحيح؛ فإنَّ النفخ في الصور إنما هو سببٌ لخروج أهل القبور، وبالحقيقة إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ فيقومون يقولون: سبحانك اللهمَّ وبحمدك. قال: فيوم القيامة يوم يُبدأ بالحمد ويُختم به؛ قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ وقال في آخره: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني بين النفختين؛ وذلك أنَّ العذاب يُكَفُّ عن المعذَّبين بين النفختين، وذلك أربعون عاماً فينامون، فذلك قوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] فيكون خاصًا للكفار. وقال مجاهد: للكافرين هَجْعةٌ قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صِيحَ بأهل القبور قاموا مذعورين[٧]. وقال قتادة: المعنى: أنَّ الدنيا تحاقرت في أعينهم وقلَّتْ حين رأوا يوم القيامة. الحسن: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في الدنيا؛ لطول لبثكم في الآخرة[٨].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٤٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٧ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١١٢ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٤٥ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٢ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٥ .

(٥) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٢ .

(٦) ذكرهما الطبري في تفسيره ١٤/ ٦٢٢ قولا واحداً.

(٧) أخرجه هناد في الزهد (٣١٧).

(٨) النكت والعيون ٣/ ٢٤٩ ، وأخرج قول قتادة الطبري ١٤/ ٦٢٣ .

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ تقدَّم إعرابه[(١)]. والآية نزلت في عمر بن الخطاب، وذلك أنَّ رجلاً من العرب شتمه، وسبَّه عمر وهَمَّ بقتله، فكادت تثير فتنة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ وابن عطية والواحدي[(٢)]. وقيل: نزلت لمَّا قال المسلمون: إيذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طالَ إيذاؤهم إيَّانا. فقال: «لم أُومَرْ بعدُ بالقتال» فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾. قاله الكلبي[(٣)]. وقيل: المعنى: قل لعبادي الذين اعترفوا بأنِّي خالِقُهم وهم يعبدون الأصنام، يقولوا التي هي أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة. وقيل: المعنى: وقل لعبادي المؤمنين إذا جادلوا الكفار في التوحيد، أن يقولوا الكلمة التي هي أحسن. كما قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(٤)] [الأنعام:١٠٨]. وقال الحسن: هو أن يقول للكافر إذا تشطط: هداك الله! يرحمك الله! وهذا قبل أن أُمِروا بالجهاد[(٥)]. وقيل: المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه[(٦)]؛ وعلى هذا تكون الآيةُ عامّةً في المؤمن والكافر، أي: قل للجميع. والله أعلم. وقالت طائفة: أمر الله تعالى في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصَّةً بحسن الأدب، وإلانة القول، وخفض الجناح، واطِّراح نزغات الشيطان، وقد قال ﷺ: «وكونوا عباد الله إخوانا»[(٧)]. وهذا أحسن،

(١) ١٢/ ١٤٣ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٤٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤ ، ولم نقف عليه عند الواحدي.

(٣) ونقله عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ١١٢ .

(٤) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٢٨ بمعناه.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١١٩ ، وقول الحسن في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١١٢ ، وزاد المسير ٥/ ٤٧ ، وأخرجه الطبري بنحوه ١٤/ ٦٢٣ - ٦٢٤ .

(٦) مجمع البيان ١٥/ ٦١ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤ . والحديث أخرجه أحمد (٧٧٢٧)، والبخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وتكون الآيةُ محكمةً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء. وقد تقدَّم في آخر الأعراف ويوسف[١]. يقال: نزغ بيننا أي: أفسد. قاله اليزيدي. وقال غيره: النزغ: الإغراء. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: شديد العداوة. وقد تقدَّم في البقرة[٢]. وفي الخبر «أنَّ قوماً جلسوا يذكرون الله عزَّ وجلَّ، فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم، فمنعته الملائكة، فجاء إلى قومٍ جلسوا قريباً منهم لا يذكرون الله، فحرَّشَ بينهم، فتخاصموا وتواثبوا، فقال هؤلاء الذاكرون: قوموا بنا نُصلِحْ بين إخواننا، فقاموا وقطعوا مجلِسَهم، وفرح بذلك الشيطان». فهذا من بعض عداوته.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ هذا خطابٌ للمشركين، والمعنى: إن يشأ يوفِّقكم للإسلام فيرحمكم، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم. قاله ابن جُريج[٣].

و«أعلم» بمعنى عليم، نحو قولهم: الله أكبر، بمعنى كبير[٤].

وقيل: الخطاب للمؤمنين، أي: إن يشأ يرحمكم بأن يحفظَكم من كفار مكة، أو إن يشأ يُعذِّبكم بتسليطهم عليكم، قاله الكلبي. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: وما وكَّلناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم. وقيل: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخَذ بهم. قاله الكلبي. وقال الشاعر:

---

(١) ٩/ ٤٢٢ - ٤٢٥ و ١١/ ٤٦٠ .

(٢) ٣/ ١٣ .

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٢٤ - ٦٢٥ .

(٤) سلف هذا المعنى ٦/ ٤٠٠ .

ذكـرتُ أبـا أرْوَى فـبـتُّ كـأنَّـنـي بـردُّ الأمـورِ الـمـاضـيـاتِ وكـيـلُ

أي: كفيل[١].

قـولـه تـعـالـى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

قـولـه تـعـالـى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ﴾ أعاد بعد أن قال: «ربكم أعلم بكم» ليبيِّن أنه خالقُهم وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومآلهم[٢]؛ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]. وكذا النبيُّون فضَّل بعضَهم على بعضٍ عن علمٍ منه بحالهم. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»[٣]. ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ الزَّبور: كتابٌ ليس فيه حلالٌ ولا حرام، ولا فرائضُ ولا حدود، وإنما هو دعاءٌ وتحميدٌ وتمجيد[٤]. أي: كما آتينا داود الزبور فلا تُنكروا أن يُؤتى محمدٌ القرآن[٥]. وهو في مُحاجَّةِ اليهود.

قـولـه تـعـالـى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ لما ابتُليتْ قريشٌ بالقَحْط وشَكوا إلى رسول الله ﷺ أنزل الله هذه الآية، أي: ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتُم أنهم آلهة[٦]. وقال الحسن: يعني الملائكة وعيسى وعُزيراً. ابن مسعود: يعني

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٠ ، والبيت نُسب إلى شقران العلامي كما في بهجة المجالس ٣/ ١١٢ . وذكر المبرد في التعازي والمراثي ص٢٠٥ أنَّ عليًّا ﷺ تمثل هذا البيت عند قبر فاطمة عليها السلام بعد دفنها.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١١٩ ، وفي مطبوعه: «ومللهم» بدل «ومآلهم» كما هو المثبت من نسخة (ظ)، وفي بقية النسخ: «ومالهم».

(٣) ٤/ ٢٥٢ - ٢٥٧ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٢ ونسبه إلى قتادة، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٠ من غير نسبة.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٥ .

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٢ . وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٨ . وتفسير البغوي ٣/ ١٢٠ .

الجن[١]. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أي: القحط سبع سنين، على قول مقاتل[٢]. ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ من الفقر إلى الغنى، ومن السَّقَم إلى الصحة[٣].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ «أولئك» مبتدأ، «الذين» صفة «أولئك» وضمير الصلة محذوف، أي: يدعونهم. يعني: أولئك المدعوُّون. و﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبر[٤]، أو يكون حالاً، و«الّذِين يَدْعُون» خبر، أي: يدعون إليه عباداً إلى عبادته. وقرأ ابن مسعود «تدعون» بالتاء على الخطاب[٥]. الباقون بالياء على الخبر. ولا خلاف في «يبتغون» أنه بالياء. وفي «صحيح مسلم»[٦] من كتاب التفسير عن عبد الله ابن مسعود في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ قال: نفرٌ من الجنِّ أسلموا وكانوا يُعْبَدون، فبَقِيَ الذين كانوا يَعبدون على عبادتهم، وقد أسلم النفر من الجنِّ. وفي روايةٍ قال: نزلت في نفرٍ من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجنِّ، فأسلم الجِنِّيون، والإنسُ الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون، فنزلت: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

وعنه أيضاً أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائلُ من العرب. ذكره الماوردي[٧]. وقال ابن عباس ومجاهد: هم عُزيرٌ وعيسى[٨]. و«يبتغون»: يطلبون من الله الزُّلفةَ

---

(١) مجمع البيان ١٥/ ٦٢ .

(٢) زاد المسير ٥/ ٤٩ .

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٣ ونسبه إلى ابن عباس.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٨ ، والبيان ٢/ ٩٢ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٥ ، وهي قراءة شاذة.

(٦) (٣٠٣٠): (٢٨) و(٣٠).

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٢٥١ .

(٨) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٣٠ - ٦٣١ عنهما.

والقربة، ويتضرَّعون إلى الله تعالى في طلب الجنة، وهي الوسيلة[١] أعلمهم اللهُ تعالى أنَّ المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم، والهاء والميم في «ربهم» تعود على العابدين أو على المعبودين أو عليهم جميعاً، وأما «يدعون» فعلى العابدين، «ويبتغون» على المعبودين[٢]. ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ ابتداء وخبر، ويجوز أن يكون «أيُّهم أقرب» بدلاً من الضمير في «يبتغون»، والمعنى يبتغي أيهم أقرب الوسيلة إلى الله[٣]. ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: مَخُوفاً لا أمانَ لأحدٍ منه، فينبغي أن يُحذر منه ويُخاف[٤]. وقال سهل بن عبد الله: الرجاء والخوف مِيزانان[٥] على الإنسان، فإذا استوَيا استقامت أحواله، وإن رجح أحدُهما بطل الآخر[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي: مُخربوها[٧]. ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال مقاتل: أما الصالحة فبالموت، وأما الطالحة فبالعذاب[٨]. وقال ابن مسعود: إذا ظهر الزنى والربا في قريةٍ أذِنَ اللهُ في هلاكهم[٩]. فقيل: المعنى: وإن من قريةٍ ظالمة، يقوّي ذلك قولُه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٥ - ٤٦٦ بمعناه.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٨ ، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٤٣٢ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٣ .

(٥) في جميع النسخ: زمانان، والتصويب من النكت والعيون.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٥٢ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٠ .

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٣ .

(٩) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٣٤ ، وهو في الوسيط ٣/ ١١٣ .

إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]. أي: فليتَّقِ المشركون، فإنَّه ما من قريةٍ كافرةٍ إلا سيحِلُّ بها العذاب. ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللَّوح. ﴿مَسْطُورًا﴾ أي: مكتوباً[(١)]. والسَّطْرُ: الخط والكتابة، وهو في الأصل مصدر. والسَّطَرُ ـ بالتحريك ـ مثلُه. قال جرير:

مَنْ شاءَ بايعتُه مالي وخُلْعَتَهُ ... ما تُكْمِلُ التَّيْمُ في ديوانهم سَطَرا

الخُلْعة بضمِّ الخاء: خيار المال. والسَّطَر جمع أسطار، مثل سبب وأسباب، ثم يُجمع على أساطير، وجَمْعُ السطرِ أسطُرٌ وسُطور، مثل أفلُسٍ وفلوس[(٢)]. والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في الكلام حذف، والتقدير: وما منعنا أن نُرسِلَ بالآيات التي اقترحوها إلا أن يُكذِّبوا بها فيهلكوا كما فُعِلَ بمن كان قبلهم[(٤)]. قال معناه قَتادة وابن جُريج وغيرُهما[(٥)]. فأخَّرَ الله تعالى العذابَ عن كفار قريش؛ لعلمه أنَّ فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً[(٦)]. وقد تقدَّم في «الأنعام»[(٧)] وغيرها أنهم طلبوا أن يُحوِّلَ اللهُ لهم الصَّفا ذهباً وتتنحَّى الجبالُ عنهم، فنزل جبريل وقال: إن شئتَ كان ما سألَ قومُك، ولكنهم إن لم يؤمنوا

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٣، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٧.

(٢) الصحاح (سطر) و(خلع)، والبيت في إصلاح المنطق ص١٠٩.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٦٣٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٧.

(٥) أخرجه عنهما الطبري ١٤/ ٦٣٦ - ٦٣٧.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٠.

(٧) ٨/ ٤٩٤.

لم يُمْهَلوا، وإن شئتَ استأنيتُ بهم. فقال: «لا، بل استَأْنِ بهم»[١]. و«أن» الأولى في محلٍّ نصب بوقوع المنع عليهم، و«أن» الثانية في محل رفع[٢]. والباء في «بالآيات» زائدة. ومجاز الكلام: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأوّلين[٣]، والله تعالى لا يكون ممنوعاً عن شيء، فالمعنى المبالغة في أنه لا يفعل، فكأنه قد منع عنه.

ثم بيَّن ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمِنْ بها فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: آيةً دالَّةً مضيئةً نيِّرةً على صدق صالح، وعلى قدرة الله تعالى[٤]. وقد تقدَّم ذلك[٥]. ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: ظلموا بتكذيبها[٦]. وقيل: جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله، فاستأصلهم الله بالعذاب[٧].

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فيه خمسة أقوال: الأوّل ـ العِبَر والمعجزات التي جعلها الله على أيدي الرسل من دلائل الإنذار تخويفاً للمكذِّبين. الثاني ـ أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي. الثالث ـ أنها تقلُّبُ الأحوال من صغرٍ إلى شبابٍ، ثم إلى تكهُّلٍ، ثم إلى مشيبٍ؛ لتعتبِرَ بتقلُّبِ أحوالك فتخاف عاقبة أمرك. وهذا قول أحمد بن حنبل ﷺ. الرابع ـ القرآن. الخامس ـ الموت الذَّريع. قاله الحسن[٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس: الناس هنا أهل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٢٩ ، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٣٧ .

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٦٣٧ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٦٧ .

(٥) ٩/ ٢٦٦ - ٢٦٧ و ١١/ ١٥٤ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤٧ .

(٧) تأويل مشكل القرآن ص٣٥٩ .

(٨) زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٥٢ ، وذكر الماوردي ٣/ ٢٥٢ الأقوال الثلاثة الأولى، وأخرج أحمد في الزهد ص٣٢٨ ، والطبري ١٤/ ٦٣٩ قول الحسن. ومعنى الذريع: السريع. الصحاح (ذرع).

مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم، أي: أنَّ الله سيهلكهم. وذكره بلفظ الماضي؛ لتحقق كونه. وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح.

وقيل: معنى «أحاط بالناس» أي: أحاطت قدرته بهم، فهم في قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته. قاله مجاهد وابن أبي نَجيح. وقال الكلبيّ: المعنى: أحاط علمُه بالناس. وقيل: المرادُ عصمتُه من الناس أن يقتلوه حتى يبلِّغ رسالة ربه[١]، أي: وما أرسلناك عليهم حفيظاً، بل عليك التبليغ، فبلِّغ بجِدِّك فإنا نعصِمُكَ منهم ونحفظك، فلا تَهَبْهم، وامْضِ لما آمُركَ به من تبليغ الرسالة، فقدرتُنا محيطةٌ بالكل. قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ لمَّا بيَّن أنَّ إنزال آياتِ القرآن تتضمَّنُ التخويف ضَمَّ إليه ذِكْرَ آية الإسراء، وهي المذكورة في صدر السورة. وفي البخاريِّ والترمذيِّ عن ابن عباسٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عَيْن، أُرِيها النبيُّ ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس. قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾: هي شجرة الزَّقُّوم. قال أبو عيسى الترمذيّ: هذا حديثٌ صحيح[٣]. وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقَتادة وسعيد بن جُبير والضحاك وابن أبي نَجيح وابن زيد. وكانت الفتنة ارتدادَ قومٍ كانوا أسلموا حين أخبرهم النبيّ ﷺ أنه أُسْرِيَ به[٤]. وقيل: كانت رؤيا نوم. وهذه الآية تقضي بفساده؛ وذلك أنَّ رؤيا المنام لا فتنةَ فيها، وما كان أحدٌ لِيُنكِرها. وعن ابن عباس قال: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة في سنة الحُدَيْبِيَة، فَرُدَّ، فافتتنَ المسلمون لذلك، فنزلت الآية[٥]، فلما كان العام المقبل

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٣، وذكر أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٧٤ قول الكلبي.

(٢) وأخرجه عنهم الطبري ١٤/ ٦٣٨ - ٦٣٩.

(٣) صحيح البخاري (٣٨٨٨)، وسنن الترمذي (٣١٣٤).

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٥٣ دون ذكر عائشة ومعاوية.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨. وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٤/ ٦٤٦.

دخلها، وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]. وفي هذا التأويل ضعف؛ لأنَّ السورة مكيةٌ وتلك الرؤيا كانت بالمدينة[١]. وقال في رواية ثالثة: إنه عليه السلام رأى في المنام بني مروان يَنْزُونَ على منبره نَزْوَ القِرَدة، فساءه ذلك، فقيل: إنما هي الدنيا أُعطوها، فسُرِّيَ عنه[٢]. وما كان له بمكة منبرٌ ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة[٣]. وهذا التأويل الثالث قاله أيضاً سهل بن سعد ﷺ. قال سهل: إنما هذه الرؤيا هي أنَّ رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نَزْوَ القِرَدة، فاغتمَّ لذلك، وما استجمع ضاحكاً من يومئذٍ حتى مات ﷺ. فنزلتِ الآيةُ مخبرةً أنَّ ذلك من ملكهم[٤] وصعودهم يجعلها الله فتنةً للناس وامتحاناً. وقرأ الحسن ابن عليّ في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]. قال ابن عطية: وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه تقديم وتأخير، أي: ما جعلنا الرؤيا التي أريناكَ والشجرةَ الملعونةَ في القرآن إلا فتنةً للناس[٦]، وفتنتُها أنهم لمَّا خُوِّفوا بها قال أبو جهلٍ استهزاءً: هذا محمد يتوعَّدكم بنارٍ تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنارُ تأكل الشجر، وما نعرف الزَّقُّوم إلا التمر والزُّبْد، ثم أمر أبو جهلٍ جاريةً

(١) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٦ بمعناه.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٥٤ .

(٣) تفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٦ .

(٤) في (م): تملكهم.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨ ، وخبر سهل بن سعد أخرجه الطبري ١٤/ ٦٤٦ عن محمد بن الحسن بن زبالة، عن عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد، عن أبيه، عن جده سهل بن سعد، فذكر الخبر. وقد نقله ابن كثير في تفسيره عن الطبري بإسناده ومتنه ثم قال: وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن محمد بن زبالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٤ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٦ .

فأحضرت تمراً وزُبداً وقال لأصحابه: تزقَّموا[١]. وقد قيل: إنَّ القائل: ما نعلمُ الزَّقُّومَ إلا التمرَ والزُّبدَ ابنُ الزِّبَعْرَى[٢]، حيث قال: كثَّر الله من الزَّقُّوم في داركم؛ فإنه التمرُ بالزُّبدِ بِلُغة اليمن[٣]. وجائزٌ أن يقول كلاهما ذلك. فافتتن أيضاً لهذه المقالة بعضُ الضعفاء، فأخبر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام أنه إنما جعل الإسراء وذكر شجرة الزَّقُّوم فتنةً واختباراً ليَكْفر مَنْ سبق عليه الكفرُ ويُصدِّقَ من سبقَ له الإيمان، كما رُوِيَ أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ قيل له صبيحة الإسراء: إنَّ صاحبكَ يزعم أنه جاء البارحةَ من بيت المقدس! فقال: إن كان قال ذلك فلقد صَدَقَ. فقيل له: أتُصدّقُه قبل أن تسمعَ منه؟ فقال: أين عقولُكم؟ أنا أُصدِّقه بخبر السماء، فكيف لا أُصدّقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعَدُ منها بكثير[٤].

قلت: ذكر هذا الخبر ابنُ إسحاق، ونصُّه: قال: كان من الحديث فيما بلغني عن مَسراه ﷺ عن عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخُدْرِيِّ وعائشة ومعاوية بن أبي سفيان والحسن بن أبي الحسن وابن شهاب الزُّهْرِيِّ وقتادة وغيرِهم من أهل العلم وأمِّ هانئ بنت أبي طالب، ما اجتمع في هذا الحديث، كُلٌّ يُحدِّث عنه بعضَ ما ذكر من أمره حين أُسري به ﷺ، وكان في مسراه وما ذُكِرَ عنه بلاءٌ وتمحيصٌ وأمرٌ من أمر الله عزَّ وجلَّ في قدرته وسلطانه فيه عبرةٌ لأولي الألباب، وهدًى ورحمةٌ وثباتٌ لمن آمن وصدَّقَ وكان من أمر الله تعالى على يقين، فأسرى به ﷺ كيف شاء وكما شاء؛ ليُرِيَه

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨ . وأخرج أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا جهلٍ قال: يخوِّفنا محمد بشجرة الزقوم! هاتوا تمراً وزبداً فتزقَّموا.

(٢) كما في الوسيط ٣/ ١١٤ ، وتفسير الرازي ٢٠/ ٢٣٦ .

(٣) لم نقف عليه هكذا، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٥٤ أن ابن الزِّبعرى قال: إن الزقوم بلسان البربر التمر والزبد. وذكر الخطابي في غريب الحديث ١/ ٤٨٧ ، والزمخشري في الفائق ٢/ ١١٧ أن ذلك بلغة إفريقيا.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٨ ، والخبر أخرجه الحاكم ٣/ ٦٢ ، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٦٠ - ٣٦١ عن عائشة رضي الله عنها.

من آياته ما أراد، حتى عاينَ ما عاينَ من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد. وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغني عنه يقول: أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بالبراق - وهي الدابة التي كانت تُحمَلُ عليها الأنبياء قبله تضع حافرها في منتهى طرفها - فحُمِلَ عليها، ثم خرج به صاحبُه يُرى الآياتِ فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء قد جُمِعوا له، فصلَّى بهم، ثم أُتِيَ بثلاثة آنية: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول الله ﷺ: «فسمعتُ قائلاً يقول حين عُرِضتْ عليَّ: إن أخذ الماء فغَرِقَ وغَرِقَتْ أمَّتُه، وإن أخذ الخمر فغَوِيَ وغَوَتْ أمته، وإن أخذ اللبن فهُدِيَ وهُدِيَتْ أمَّتُه. قال: فأخذتُ إناءَ اللبن فشربتُ، فقال لي جبريل: هُدِيتَ وهُدِيتْ أمتُك يا محمد».

قال ابن إسحاق: وحُدِّثتُ عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائمٌ في الحِجْر جاءني جبريل عليه السلام فهمزني بقدمه، فجلستُ فلم أرَ شيئاً، ثم عُدْتُ لمضجَعي، فجاءني الثانية فهمزني بقدمه، فجلست فلم أرَ شيئاً، فعُدْتُ لمضجَعِي، فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه فجلستُ، فأخذ بعَضُدي، فقمتُ معه، فخرج إلى باب المسجد، فإذا دابةٌ أبيضُ، بين البغل والحمار، في فخذيه جناحان يَحْفِز بهما[1] رجليه، يضع حافرَه في منتهى طَرْفِه، فحملني عليه، ثم خرج معي لا يفوتُني ولا أفوتُه».

قال ابن إسحاق: وحُدِّثتُ عن قتادة أنه قال: حُدِّثت أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لمَّا دنوتُ منه لأركبَه شَمَسَ[2]، فوضع جبريلُ يدَه على مَعْرَفَتِه[3]، ثم قال: ألا تستحي يا بُراقُ مما تصنع، فواللهِ ما ركبكَ عبدٌ للهِ قبلَ محمدٍ أكرمُ عليه منه. قال: فاستحيا

(١) أي: يدفع بهما. الصحاح (حفز).

(٢) يقال: شمست الدابة: إذا شردت وجمحت ومنعت ظهرها. اللسان (شمس).

(٣) المعرَفة: الموضع الذي ينبت عليه العُرف. الصحاح (عرف).

حتى ارفَضَّ عَرَقاً[١]، ثم قَرَّ حتى ركبتُه».

قال الحسن في حديثه: فمضى رسولُ الله ﷺ ومضى معه جبريل حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء، فأمَّهم رسولُ الله ﷺ فصلَّى بهم، ثم أُتِيَ بإناءين: في أحدهما خمرٌ، وفي الآخر لبن، قال: فأخذَ رسولُ الله ﷺ إناءَ اللبن فشرب منه وتركَ إناءَ الخمر. قال: فقال له جبريل: هُدِيتَ الفِطْرةَ وهُدِيَتْ أمَّتُك، وحُرِّمتْ عليكم الخمر. ثم انصرفَ رسول الله ﷺ إلى مكة، فلمَّا أصبح غَدا على قريشٍ فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس: هذا واللهِ الإمرُ[٢] البَيِّنُ! واللهِ إنّ العِيرَ لتُطْرَدُ شهراً من مكة إلى الشام، مُدْبِرةً شهراً ومُقبِلةً شهراً، فيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة! قال: فارتدَّ كثيرٌ ممَّن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبي بكرٍ فقالوا: هل لكَ يا أبا بكرٍ في صاحبك؟! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيتَ المقدس، وصلَّى فيه، ورجع إلى مكة. قال: فقال أبو بكر الصديق ﷺ: إنَّكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى، هاهو ذا في المسجد يُحدِّث به الناس. فقال أبو بكر: واللهِ لئِنْ كان قاله لقد صدق، فما يُعَجِّبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني أنَّ الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ فأُصدِّقُه، فهذا أبعَدُ مما تعجبون منه. ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، أحدَّثتَ هؤلاء أنك جئتَ بيتَ المقدس هذه الليلة؟ قال «نعم» قال: يا نبيَّ الله، فصِفْه لي فإني قد جئتُه؟ فقال الحسن: فقال رسول الله ﷺ: «رُفِعَ لي حتى نظرتُ إليه» فجعلَ رسولُ الله ﷺ يصِفُه لأبي بكرٍ ويقول أبو بكر ﷺ: صدقْتَ، أشهدُ أنَّكَ رسولُ الله. كلَّما وصف له منه شيئاً قال: صدقْتَ، أشهدُ أنَّكَ رسولُ الله. قال: حتى إذا انتهى قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ ﷺ: «وأنتَ يا أبا بكر الصِّدِّيق» فيومئذ سمَّاه الصِّدِّيق. قال الحسن: وأنزل الله تعالى فيمن ارتدَّ عن الإسلام لذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا

(١) أي: جرى عرقه وسال. النهاية (رفض).

(٢) أي: العجب. النهاية (أمر).

﴿ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾ .فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله ﷺ وما دخل فيه من حديث قتادة[١]. وذِكْرُ باقي الإسراء عمن تقدَّم في السيرة.

وقال ابن عباس: هذه الشجرة بنو أميَّة، وأنَّ النبيَّ ﷺ نفى الحَكَم[٢]. وهذا قول ضعيفٌ مُحدَث[٣]، والسورة مكية، فيبعُد هذا التأويل، إلا أن تكون هذه الآية مدنية، ولم يثبت ذلك. وقد قالت عائشة لمروان: لعنَ اللهُ أباكَ وأنت في صلبه، فأنتَ قطعةٌ[٤] من لعنةِ الله[٥]. ثم قال: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ ولم يجْرِ في القرآن لَعْنُ هذه الشجرة، ولكنَّ الله لعن الكفار وهم آكلوها. والمعنى: والشجرة الملعونة في القرآن آكلوها، ويمكن أن يكون هذا على قول العرب لكلِّ طعامٍ مكروهٍ ضارٍّ: ملعون[٦]. وقال ابن عباس: الشجرة الملعونة: هي هذه الشجرة التي تلتوي على الشجر فتقتلُه، يعني الكَشُوث[٧]. ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾ أي: بالزَّقوم ﴿فَمَا يَزِيدُهُمۡ﴾ التخويف إلا الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ۝٦١ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ تقدّم ذِكْرُ كَوْنِ الشيطان عدوَّ

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٩٦ - ٣٩٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠/٢٣٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/٤٦٨ .

(٤) في (م): «بعض»، وفي (د) و(ز): «قطط»، والمثبت من (ظ)، فقد وقعت في رواية النسائي والخطابي «فضض»: وهي القطعة. النهاية (فضض)، وتصحفت في مطبوع الحاكم إلى «قصص».

(٥) تفسير الرازي ٢٠/٢٣٧ ، وقول عائشة أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٢٧)، والخطابي في غريب الحديث ٢/٥١٧ ، والحاكم ٤/٤٨١ من طريق محمد بن زياد، عن عائشة. وصححه الحاكم! لكن تعقبه الذهبي بقوله: فيه انقطاع، محمد لم يسمع من عائشة.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٤٨ .

(٧) النكت والعيون ٣/٢٥٤ ، وأخرجه الطبري ١٤/٦٥٢ .

الإنسان، فانجرَّ الكلام إلى ذكر آدم. والمعنى: اذكر بتمادي هؤلاء المشركين وعتوِّهم على ربهم قصةَ إبليس حين عصى ربَّه وأبى السجود، وقال ما قال، وهو ما أخبر الله تعالى في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ أي: من طين[١]. وهذا استفهام إنكار[٢]. وقد تقدَّم القول في خلق آدم في البقرة والأنعام[٣] مستوفًى. ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ﴾ أي: قال إبليس[٤]. والكاف لتوكيد المخاطبة. ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ أي: فضَّلته عليَّ[٥]. ورأى جوهر النار خيراً من جوهر الطين ولم يعلم أنَّ الجواهر متماثلة. وقد تقدَّم هذا في الأعراف[٦]. و«هذا» نُصِبَ بأرأيت، «الذي» نعتُه[٧]. والإكرام: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحمد[٨]. وفي الكلام حذفٌ تقديره: أخبِرْني عن هذا الذي فضَّلْته عليَّ، لِمَ فضَّلْتَه وقد خلقتني من نارٍ وخلقته من طين؟ فحُذِف لعلم السامع[٩]. وقيل: لا حاجة إلى تقدير الحذف، أي: أترى هذا الذي كرَّمته عليَّ لأفعلنَّ به كذا وكذا. ومعنى ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ﴾ في قول ابن عباس: لأستولِيَنَّ عليهم[١٠]. وقاله الفراء[١١]. مجاهد: لأحتوِيَنَّهم[١٢]. ابن زيد: لأُضِلَّنَّهم[١٣]. والمعنى متقارب،

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٦٥٣ .

(٢) مجمع البيان ١٥/ ٧٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٣ .

(٣) ١/ ٤١٧ - ٤١٨ و ٨/ ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٢٢ ، وفي النسخ سوى (ظ): توكيد للمخاطبة.

(٦) ٩/ ١٦٥ .

(٧) إملاء ما منَّ به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٣/ ٤٨٨ ، وإعراب «هذا» ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩ .

(٨) في اللسان (كرم): الكريم: اسمٌ جامع لكل ما يحمد.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧١ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٢ .

(١١) في معاني القرآن له ٢/ ١٢٧ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٦٥٥ .

(١٢) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٥٤ - ٦٥٥ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٦٥ .

(١٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٦٥٥ .

أي: لأستأصلنَّ ذريته بالإغواء والإضلال، ولأجتاحنَّهم[١]. ورُوي عن العرب: اِحْتَنَكَ الجرادُ الزرعَ إذا ذهب به كلِّه. وقيل: معناه: لأسوقنَّهم حيث شئتُ وأقودنَّهم حيث أردتُ[٢]. من قولهم: حَنَكْتُ الفرسَ أحنِكه وأحنُكه حنكاً إذا جعلتُ في فيه الرَّسن. وكذلك احتنكه[٣]. والقول الأوّل قريبٌ من هذا؛ لأنه إنما يأتي على الزرع بالحَنَك. وقال الشاعر:

أشكو إليك سَنَةً قد أجحفَتْ ... جَهْداً إلى جَهْدٍ بنا وأضعفَتْ
واحتنكَتْ أموالَنا واجتلفَتْ[٤]

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني المعصومين، وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[٥] [الحجر: ٤٢] وإنما قال إبليس ذلك ظنًّا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠] أو علم من طبع البشر تركُّبَ الشهوة فيهم[٦]، أو بنى على قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾[٧] [البقرة: ٣٠]. وقال الحسن: ظنَّ ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عَزْماً[٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ هذا أمر إهانة، أي: اجهَدْ جَهْدكَ فقد أنظرناك. ﴿فَمَن تَبِعَكَ﴾ أي: أطاعك من ذرية آدم[٩]. ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي: وافراً.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ .
(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧١ .
(٣) الصحاح (حنك) وعنده: إذا جعلت فيه الرسن.
(٤) الرجز في مجاز القرآن ١/ ٣٨٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٧٠ من غير نسبة.
(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٢ .
(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٤ .
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٢ .
(٨) مجمع البيان ١٥/ ٧٠ .
(٩) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٥ ، وزاد المسير ٥/ ٥٧ .

عن مجاهد وغيره. وهو نصبٌ على المصدر، يقال: وفَرتُه أفِرُه وَفْراً، ووَفَر المالُ بنفسه يَفِرُ وُفوراً فهو وافر، فهو لازمٌ ومُتَعدٌ[١]

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي: استزِلَّ واستخِفَّ[٢]، وأصله القطع، ومنه تفزَّزَ الثوب إذا انقطع[٣]. والمعنى استزِلَّه بقَطْعِكَ إيَّاه عن الحق. واستفَزَّه الخوفُ أي: استَخَفَّه. وقعد مُسْتَوْفِزاً أي: غير مطمئن[٤]. «واسْتَفْزِز» أمر تعجيز، أي: أنت لا تقدر على إضلال أحد، وليس لك على أحدٍ سلطان فافعل ما شئت.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ وصوتُه كلُّ داعٍ يدعو إلى معصية الله تعالى. عن ابن عباس. مجاهد: الغِناء والمزامير واللهو. الضحاك: صوت المزمار[٥]. وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل، وأولاد قابيل أسفله، وفيهم بناتٌ حِسان، فزَمَر اللعين فلم يتمالكوا أن انحدروا فزَنَوْا. ذكره الغزنويّ. وقيل: «بصوتك»: بوسوستك[٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبةٍ

---

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٥٥ ، وزاد المسير ٥/ ٥٨ .

(٣) هذا المعنى لم نجده في معاجم اللغة في «تفزز» بزايين، وإنما وجدناه في «تفزر» بزايٍ بعدها راء. ينظر الصحاح (تفزر).

(٤) الصحاح (فزز)، وفي مطبوعه: «مستفزاً» بدل «مستوفزاً»، وهو خطأ، ينظر الصحاح (وفز).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٥٥ ، وأخرج الطبري ١٤/ ٦٥٧ قولي ابن عباس ومجاهد.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٥ .

من السائق[(١)]؛ يقال: أجلبَ إجلاباً.

والجَلَب والجَلَبة: الأصوات، تقول منه: جلَّبوا بالتشديد. وجَلَبَ الشيء يجلِبُه ويجلُبُه جلَباً وجَلْباً. وجلبتُ الشي إلى نفسي واجتلبته بمعنًى[(٢)]. وأجلب على العدوّ إجلاباً، أي: جمَّع عليهم[(٣)]. فالمعنى: أجمِعْ عليهم كلَّ ما تقدر عليه من مكايدك[(٤)]. وقال أكثر المفسرين: يريد كلَّ راكبٍ وماشٍ في معصية الله تعالى. وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: إنَّ له خيلاً ورَجْلاً من الجنِّ والإنس، فما كان من راكبٍ وماشٍ يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجَّالته[(٥)]. وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال: كلُّ خيلٍ سارت في معصية الله، وكلُّ رجلٍ مَشَتْ في معصية الله، وكلُّ مالٍ أُصيب من حرام، وكلُّ ولد بَغِيَّةٍ فهو للشيطان[(٦)]. والرَّجْل جمع راجل، مثلُ صَحْبٍ وصاحب[(٧)]. وقرأ حفص: «ورَجِلِكَ» بكسر الجيم وهما لغتان[(٨)]، يقال: رَجْلٌ ورَجِلٌ بمعنى راجل[(٩)]. وقرأ عكرمة وقتادة: «ورجالك» على الجمع[(١٠)].

الرابعة: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي: اجعل لنفسك شركةً في ذلك. فشركته في الأموال إنفاقها في معصية الله. قاله الحسن. وقيل: هي التي أصابوها من غير حِلِّها. قاله مجاهد. ابن عباس: ما كانوا يحرِّمونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٥٥ .

(٢) الصحاح (جلب).

(٣) تفسير الرازي عن الزجاج ٢١/٦ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٠ .

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٥ ، وأخرجه عنهم الطبري ١٤/ ٦٥٨ - ٦٥٩ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٣ .

(٧) مجاز القرآن ٣/ ٣٨٤ ، وغريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥٨ ، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٥ .

(٨) تفسير البغوي ٣/ ١٢٤ ، وينظر السبعة ص٣٨٣ ، والتيسير ص١٤٠ .

(٩) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٦ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٣/ ١١٦ .

(١٠) المحتسب ٢/ ٢٢ ، والقراءات الشاذة ص٧٧ .

والحام. وقاله قتادة. الضحاك: ما كانوا يذبحونه لآلهتهم. والأولاد قيل: هم أولاد الزنى. قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس. وعنه أيضاً: هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم. وعنه أيضاً: هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العُزّى وعبد اللّات وعبد الشمس ونحوه.وقيل: هو صِبغة أولادهم في الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم، كصُنع النصارى بأولادهم بالغمس في الماء الذي لهم. قاله قتادة[١].

وقول خامس - رُويَ عن مجاهد قال: إذا جامع الرجلُ ولم يُسَمِّ انطوى الجانُّ على إحْلِيله فجامَعَ معه[٢]، فذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦و٧٤] وسيأتي. ورُويَ من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: «إن فيكم مُغَرِّبين» قلت: يا رسول الله، وما المغرِّبون؟ قال: «الذين يشترك فيهم الجِنُّ». رواه الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول»[٣]. قال الهَرَويُّ: سُمُّوا مغرِّبين لأنه دخل فيهم عِرْقٌ غريب[٤]. قال الترمذي الحكيم: فللجِنِّ مساماةٌ[٥] بابن آدم في الأمور والاختلاط؛ فمنهم من يتزوَّج فيهم، وكانت بِلْقِيسُ ملكة سَبَأ أحدُ أبويها من الجِنّ. وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى[٦].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: مَنِّهم الأمانيَّ الكاذبة، وأنه لا قيامة ولا حساب، وأنه إن كان حسابٌ وجنةٌ ونارٌ فأنتم أوْلى بالجنة من غيركم. يقوِّيه قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢] أي: باطلاً[٧].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٢، وزاد المسير ٥/ ٥٨ - ٥٩، وأخرج هذه الأقوال كلَّها الطبري ١٤/ ٦٦٠ - ٦٦٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٢٣ بمعناه عن جعفر بن محمد.

(٣) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول، وقد ذكره البغوي ٣/ ١٢٣.

(٤) قاله الأزهري في تهذيب اللغة ٨/ ١١٩.

(٥) أي: مفاخرة. اللسان (سما).

(٦) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة النمل، في المسألة التاسعة.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٦.

وقيل: «وَعِدْهُمْ» أي: عِدْهم النُّصرة على من أرادهم بسوء[١]. وهذا الأمر للشيطان تهدُّدٌ ووعيدٌ له[٢]. وقيل: استخفافٌ به وبمن اتبعه.

السادسة: في الآية ما يدلُّ على تحريم المزامير والغناء واللَّهو؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ على قول مجاهد. وما كان من صوت الشيطان أو فِعْلِه وما يستحسنه فواجبٌ التنزُّه عنه. وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوتَ زَمَّارةٍ فوضع أصبعيه في أُذنيه، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول: يا نافع، أتسمع؟ فأقول: نعم. فمضى حتى قلتُ له: لا. فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ سمعَ صوتَ زَمَّارة راعٍ فصنع مثلَ هذا[٣]. قال علماؤنا: إذا كان هذا فِعْلُهم في حقِّ صوتٍ لا يخرج عن الاعتدال، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزَمْرِهم. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة لقمان إن شاء الله تعالى[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قال ابن عباس: هم المؤمنون. وقد تقدَّم الكلام فيه[٥]. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي: عاصماً من القبول من إبليس، وحافظاً من كيده وسوء مكره[٦].

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الإزجاء: السَّوق[٧]،

---

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٦٦٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥١.

(٣) أخرجه أحمد (٤٥٣٥)، وأبو داود (٤٩٢٤).

(٤) عند تفسير الآية (٦).

(٥) ١٢/ ٢١٣.

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥١، والوسيط للواحدي ٣/ ١١٦، وتفسير الرازي ٢١/ ٩.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]. وقال الشاعر:

يا أيها الراكبُ المُزْجِي مَطيَّتَهُ سائِلْ بني أسَدٍ ما هذه الصَّوْتُ[(١)]

وإزجاء الفلك: سوقه بالريح اللينة[(٢)]. والفلك هنا جمع، وقد تقدَّم[(٣)]. والبحر: الماء الكثير عذباً كان أو مالحاً، وقد غلب هذا الاسم على المشهور. وهذه الآية توقيفٌ على آلاء الله وفضله عند عباده[(٤)]، أي: ربكم الذي أنعمَ عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئاً.

﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: في التجارات[(٥)]. وقد تقدَّم[(٦)]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ «الضُّرُّ» لفظٌ يعمُّ خوفَ الغرقِ والإمساكِ عن الجَرْي، وأهوَلُ[(٧)] حالاته: اضطرابُه وتموُّجه. ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ «ضلَّ» معناه تَلِفَ وفُقد، وهي عبارةُ تحقيرٍ لمن يُدعى إلهاً من دون الله. والمعنى في هذه الآية: أنَّ الكفارَ إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأنَّ لها فضلاً، وكلُّ واحدٍ منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعته أنَّ الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فوقَّفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحِيل[(٨)].

---

(١) البيت قائله رويشد بن كثير الطائي، وقد سلف ٣/ ٩١.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧١.

(٣) ٢/ ٤٩٤.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧١.

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٧، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٦٠.

(٦) ٢/ ٣٣١.

(٧) في (ظ): أحوال، وفي بقية النسخ: أهوال، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧١.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: عن الإخلاص. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ الإنسان هنا الكافر[(١)]. وقيل: وطبع الإنسان كفوراً للنِّعم إلا مَنْ عَصَمه الله، فالإنسان لفظ الجنس.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ بيَّن أنه قادرٌ على هلاكهم في البرِّ وإنْ سَلِموا من البحر[(٢)]. والخَسْفُ: أن تنهار الأرض بالشيء؛ يقال: بئرٌ خسِيفٌ إذا انهدم أصلها[(٣)]. وعينٌ خاسِفٌ أي: غارت حدَقَتُها في الرأس. وعَيْنٌ من الماء خاسفةٌ أي: غار ماؤها. وخَسَفتِ الشمسُ أي: غابت عن الأرض[(٤)]. وقال أبو عمرو: والخَسِيفُ: البئر التي تُحفَرُ في الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرةً، والجمع خُسُف[(٥)]. وجانب البر: ناحية الأرض، وسمَّاه جانباً لأنه يصير بعد الخسف جانباً، وأيضاً فإن البحرَ جانبٌ والبَرَّ جانب. وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر، فحذَّرهم ما أمنوه من البرِّ كما حذَّرهم ما خافوه من البحر[(٦)]. ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يعني: ريحاً شديدة، وهي التي تَرْمِي بالحصباء، وهي الحصى الصغار. قاله أبو عبيدة والقُتَبِيّ[(٧)]. وقال قتادة: يعني: حجارة من السماء تَحصِبهم، كما فُعل بقوم لوط[(٨)]. ويقال للسحابة التي ترمي

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٧ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٦٠ .
(٢) الوجيز على هامش مراح لبيد ١/ ٤٨٤ .
(٣) ينظر جمهرة اللغة (خسف).
(٤) تفسير الرازي ٢١/ ١١ .
(٥) الصحاح (خسف).
(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ ، ومجمع البيان ١٥/ ٧٣ .
(٧) مجاز القرآن ١/ ٣٨٥ ، وغريب القرآن ص٢٥٩ .
(٨) النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ ، وأخرجه الطبري ١٤/ ٦٦٩ .

بالبَرَد: حاصب، وللريح التي تحمل التراب والحصباء: حاصِبٌ وحَصِبةٌ أيضاً[(١)].

قال لَبيد:

جرَّتْ عليها أن خَوَتْ من أهلِها أذيالَها كلُّ عَصُوفٍ حَصِبَهْ[(٢)]

وقال الفَرزدق:

مستقبلينَ شَمالَ الشامِ يضربُنا بحاصبٍ كنَديفِ القطنِ منثورِ[(٣)]

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ونصيراً يمنعكم من بأس الله[(٤)].

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يعني: في البحر[(٥)]. ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ القاصف: الريح الشديدة التي تَكْسر بشدة؛ من قَصَف الشيءَ يَقْصِفه، أي: كسره بشدة[(٦)]. والقصف: الكسر؛ يقال: قصَفتِ الريحُ السفينة. وريحٌ قاصِفٌ: شديدة. ورعدٌ قاصف: شديد الصَّوت. يقال: قَصَف الرعدُ وغيرُه قصِيفاً. والقَصِيف: هشيمُ الشَّجر. والتقصُّفُ التكسُّر. والقصفُ أيضاً: اللَّهو واللعب، يقال: إنها مُوَلَّدة[(٧)].

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بكفركم.

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢) ديوان لبيد (دار صادر) ص٣٩ . خَوَتْ: أمحلت. العَصوف: الريح الشديدة. الصحاح (خوى) و(عصف).

(٣) ديوان الفرزدق (دار صادر) ١/ ٢١٣ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٧ بمعناه.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٦ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ١١ .

(٧) الصحاح (قصف).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «نَخْسِفَ بِكم» «أو نُرْسِل عليكم» «أن نُعِيدكم» «فنُرْسِل عليكم» «فنُغرقكم» بالنون في الخمسة على التعظيم؛ ولقوله: «علينا». الباقون بالياء؛ لقوله في الآية قبل: «إياه»[1]. وقرأ أبو جعفر وشيبة ورُوَيْس ومجاهد: «فتُغْرِقكم» بالتاء نعتاً للريح[2]. وعن الحسن وقتادة: «فيغرِّقكم» بالياء مع التشديد في الراء[3]. وقرأ أبو جعفر: «الرياح» هنا وفي كل القرآن.

وقيل: إن القاصف المهلكةُ في البر، والعاصفَ المغرقةُ في البحر. حكاه الماورديّ[4].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ قال مجاهد: ثائراً. النحاس: وهو من الثأر. وكذلك يُقال لكلِّ من طلب بثأرٍ أو غيرِه: تبيعٌ وتابع؛ ومنه ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٧٨] أي: مطالبة[5].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل[6]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية. لمَّا ذكر من الترهيب ما ذكر بيَّنَ النعمةَ عليهم أيضاً. «كرَّمنا» تضعيف كرَم، أي: جعلنا لهم كرماً، أي: شرفاً وفضلاً. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال[7]. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقُهُم

(١) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ١١١ ، وينظر السبعة ص٣٨٣ ، والتيسير ص١٤٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٢ ، والنشر ٢/ ٣٠٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٢ عن الحسن وأبي رجاء، وهي قراءة شاذة.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٥ - ١٧٦ وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٤/ ٦٧٢ ، وهو في تفسيره ١/ ٣٦٦ .

(٦) هكذا في جميع النسخ، والمسائل التي سيذكرها المصنف أربع.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٢ .

على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة[١]، وحملُهم في البرِّ والبحر مما لا يصلح لحيوانٍ سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره، وتخصيصُهم بما خصَّهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتَّسع فيه حيوانٌ اتساعَ بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصَّةً دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركَّبات من الأطعمة. وغايةُ كلِّ حيوانٍ يأكل لحماً نِيئاً أو طعاماً غيرَ مركَّب. وحكى الطبريُّ عن جماعةٍ أنَّ التفضيل هو أن يأكل بيده، وسائرُ الحيوان بالفم[٢]. ورُوِيَ عن ابن عباس: ذكره المَهدويُّ والنحاس[٣]، وهو قول الكلبيِّ ومقاتل. ذكره الماورديُّ[٤]. وقال الضحَّاك: كرَّمهم بالنطق والتمييز. عطاء: كرَّمهم بتعديل القامة وامتدادها. يمان: بحسن الصورة. محمد بن كعب: بأن جعل محمداً ﷺ منهم. وقيل: أكرمَ الرجالَ باللِّحى والنساء بالذوائب. وقال محمد بن جرير الطبريّ: بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم[٥].و قيل: بالكلام والخط[٦]. وقيل: بالفهم والتمييز[٧]. والصحيح الذي يُعوَّل عليه أنَّ التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرَفُ اللهُ ويُفهَمُ كلامُه، ويوصل إلى نعيمه[٨] وتصديق رسله، إلا أنَّه لمَّا لم ينهض بكل المراد من العبد بُعِثَتِ الرسلُ وأُنزلتِ الكتب، فمثالُ الشرعِ الشمسُ، ومثالُ العقلِ العينُ، فإذا فُتحت وكانت سليمةً رأتِ الشمسَ[٩]، وأدركت

(١) تفسير الرازي ٢١/ ١٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣ ، وكلام الطبري في تفسيره ٥/ ١٥ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ١٧٦ .

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ .

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٦٣ ، وقول الطبري في تفسيره ١٥/ ٥ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٥٧ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٦ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣ .

(٩) تلبيس إبليس ص٥ .

تفاصيل الأشياء. وما تقدَّم من الأقوال بعضُه أقوى من بعض. وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالاً يَفْضُلُ بها ابنَ آدم أيضاً، كَجري الفرس وسمعِه وإبصارِه، وقوَّةِ الفيل، وشجاعةِ الأسد، وكرم الديك. وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيَّناه[١]. والله أعلم.

الثانية: قالت فرقة: هذه الآية تقتضي تفضيلَ الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. وهذا غيرُ لازمٍ من الآية، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن؛ فإن هذه الآية إنما عدَّد الله فيها على بني آدم ما خصَّهم به من سائر الحيوان، والجِنُّ هو الكثير المفضول، والملائكةُ هم الخارجون عن الكثير المفضول، ولم تتعرَّضِ الآيةُ لذكرهم، بل يَحتمِلُ أنَّ الملائكةَ أفضل، ويَحتمِلُ العكس، ويَحتمِلُ التساوي[٢]. وعلى الجملة فالكلام لا ينتهي في هذه المسألة إلى القطع، وقد تحاشى قومٌ من الكلام في هذا كما تحاشَوا من الكلام في تفضيل بعض الأنبياء على بعض؛ إذ في الخبر «لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تُفضِّلُوني على يونس بن مَتَّى»[٣]. وهذا ليس بشيء؛ لوجود النصِّ في القرآن في التفضيل بين الأنبياء، وقد بيَّناه في «البقرة»[٤] ومضى فيها الكلام في تفضيل الملائكة والمؤمن[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: لذيذ المطاعم والمشارب؛ قال مقاتل: السمن والعسل والزبد والتمر والحَلْوَى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها[٦]. ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) سلف ٤/ ٢٥٣ و ٢٥٤ .

(٤) ٤/ ٢٥٣ - ٢٥٨ .

(٥) ١/ ٤٣٠ - ٤٣٢ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٢٥ .

على البهائم والدواب والوحش والطير[١]، بالغلبة والاستيلاء، والثواب والجزاء، والحفظ والتمييز، وإصابة الفِراسة[٢].

الرابعة: هذه الآية تردُّ ما رُويَ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «اِحْرِمُوا أنفُسَكم طَيِّبَ الطعام، فإنما قوي الشيطان أن يجري في العروق منها»[٣]. وبه يستدِلُّ كثيرٌ من الصُّوفية في ترك أكل الطيبات، ولا أصل له؛ لأنَّ القرآن يردُّه، والسنة الثابتة بخلافه، على ما تقرَّر في غير موضع.

وقد حكى أبو حامد الطُّوسِيُّ قال: كان سهلٌ يقتاتُ ورق النَّبِق[٤] مدةً، وأكل دُقاقَ ورق التين ثلاث سنين. وذكر إبراهيم بن البنا قال: صحبتُ ذا النُّون من إخميم[٥] إلى الإسكندرية، فلما كان وقتُ إفطاره أخرجتُ قرصاً ومِلْحاً كان معي، وقلت: هَلُمَّ. فقال لي: ملحُكَ مدقوق؟ قلت: نعم. قال: لستَ تُفلح! فنظرتُ إلى مِزْوَده[٦] وإذا فيه قليل سَوِيقِ شعير يَسَفُّ منه. وقال أبو يزيد: ما أكلتُ شيئاً مما يأكله بنو آدم أربعين سنة. قال علماؤنا: وهذا مما لا يجوز حملُ النفسِ عليه؛ لأن الله تعالى أكرم الآدميَّ بالحنطة، وجعل قشورها لبهائمهم، فلا يصِحُّ مزاحمةُ الدوابِّ في أكل التبن، وأما سَويق الشعير فإنه يورث القُولَنْج[٧]، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجَريش[٨] فإنه ينحرف مِزاجه؛ لأن خبز الشعير باردٌ مجفِّف، والملح

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٨ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٥٨ .

(٣) أخرجه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص٢٠٤ . قال ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٢٤٠ : رواه ابن الجوزي، وفيه بزيع أبو الخليل البصري، وهو المتهم به.

(٤) النَّبِق: ثمر السدر. اللسان (نبق).

(٥) بلد بالصعيد في مصر. معجم البلدان ١/ ١٢٩ .

(٦) المِزْود: وعاء يُحمل فيه الزاد. تهذيب اللغة ٣/ ٢٣٦ .

(٧) هو مرض معوي مؤلم، يعسر معه خروج الثُّفْل والريح. القاموس المحيط (القولنج).

(٨) أي: المجروش، كأنه حَكَّ بعضه بعضاً فتفتَّت. تهذيب اللغة ١٠/ ٥٢٧ .

يابسٌ قابضٌ يضرُّ الدِّماغ والبصر، وإذا مالتِ النفسُ إلى ما يصلحها فمُنعت فقد قوومت حكمة الباريء سبحانه بردِّها، ثم يؤثِّر ذلك في البدن، فكان هذا الفعل مخالفاً للشرع والعقل. ومعلومٌ أنَّ البدنَ مَطيَّةُ الآدميِّ، ومتى لم يرْفَقْ بالمطيَّة لم تُبَلِّغ. ورُوي عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبداً وعسلاً وخُبزَ حُوَّارَى، فقيل له: هذا كله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدِمنا صَبَرنا صبر الرجال. وكان الثوريُّ يأكل اللحم والعنب والفالوذج ثم يقوم إلى الصلاة[1]. ومثل هذا عن السلف كثير. وقد تقدم منه ما يكفي في المائدة[2] والأعراف[3] وغيرهما. والأول غُلُوٌّ في الدِّين إن صحَّ عنهم ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ روى الترمذِيُّ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال: «يُدعى أحدُهم فيُعطى كتابَه بيمينه، ويُمَدُّ له في جسمه ستون ذراعاً، ويُبَيَّضُ وجهُه، ويُجعَلُ على رأسه تاجٌ من لؤلؤٍ يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرَوْنه من بعيد، فيقولون: اللهمَّ ائتِنا بهذا، وبارِكْ لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا، لكلِّ منكم مثلُ هذا» قال: «وأما الكافر فيُسَوَّد وجهُه ويُمَدُّ له في جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم، ويلبَسُ تاجاً فيراه أصحابُه فيقولون: نعوذُ بالله من شرِّ هذا، اللهمَّ لا تأتِنا بهذا» قال: «فيأتيهم فيقولون: اللَّهُمَّ أخْزِه. فيقول: أبعَدَكمُ اللهُ، فإن لكل رجلٍ منكم مثلَ هذا». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريب[4]. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا

(١) تلبيس إبليس ص٢٠١ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢١٠.
(٢) ٨/ ١١٦.
(٣) ٩/ ٢٠٢.
(٤) سنن الترمذي (٣١٣٦).

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]. والكتاب يسمى إماماً؛ لأنه يُرجَعُ إليه في تعرّف أعمالهم. وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: «بإمامهم» أي: بكتابهم[١]، أي: بكتاب كلِّ إنسانٍ منهم الذي فيه عمله، دليله ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾[٢]. وقال ابن زيد: بالكتاب المنزَّل عليهم[٣]. أي: يُدعَى كلُّ إنسانٍ بكتابه الذي كان يتلوه؛ فيُدعى أهلُ التوراة بالتوراة، وأهلُ القرآن بالقرآن، فيقال: يا أهل القرآن، ماذا عملتم؟ هل امتثلتُم أوامره؟ هل اجتنبتم نواهيه؟ وهكذا[٤]. وقال مجاهد: «بإمامهم»: بنبيِّهم[٥]، والإمام من يؤتَمُّ به. فيقال: هاتوا متَّبِعِي إبراهيم عليه السلام، هاتوا متَّبعي موسى عليه السلام، هاتوا متَّبعي الشيطان، هاتوا متَّبعي الأصنام. فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم[٦]. وقاله قتادة[٧]. وقال عليٌّ ﷺ: بإمام عصرهم[٨]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ فقال: «كلٌّ يدعى بإمام زمانهم، وكتابِ ربِّهم، وسنَّةِ نبيِّهم، فيقول: هاتوا متَّبعي إبراهيم، هاتوا متَّبعي موسى، هاتوا متَّبعي عيسى، هاتوا متَّبعي محمداً ـ عليهم أفضل الصلوات والسلام ـ فيقوم أهل الحقِّ فيأخذون كتابهم بأيمانهم، ويقول: هاتوا متَّبعي الشيطان، هاتوا متَّبعي رؤساء الضلالة إمامَ هدًى وإمامَ ضلالة»[٩]. وقال الحسن وأبو العالية: «بِإمامهِم» أي: بأعمالهم[١٠]. وقاله ابن عباس.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٧ عن الحسن والضحاك.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٧ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٦ .

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٨ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٨ بمعناه.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٦ .

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٨ بمعناه.

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ٧ بلفظ مجاهد.

(٨) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٩٦ عن علي، وذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٢٦ عن ابن عباس.

(٩) أورده السيوطي في الدر المنثور ٩/ ٤٠٤ مختصراً ونسبه لابن مردويه عن علي ﷺ.

(١٠) أخرجه الطبري ١٥/ ٧ - ٨ عنهما.

فيُقال: أين الراضون بالمقدور؟ أين الصابرون عن المحذور؟. وقيل: بمذاهبهم، فيُدْعَوْن بمن كانوا يأتمُّون به في الدنيا: يا حنفيُّ، يا شافعيُّ، يا معتزليُّ، يا قدَرِيُّ، ونحوه، فيتبعونه في خيرٍ أو شرٍّ، أو على حقٍّ أو باطل، وهذا معنى قول أبي عبيدة(١). وقد تقدّم(٢). وقال أبو هريرة: يُدعى أهل الصدقة من باب الصدقة، وأهلُ الجهاد من باب الجهاد...، الحديث بطوله(٣). أبو سهل: يقال: أين فلانٌ المصلِّي والصوَّام، وعكسه الزَّفَّاف(٤) والنمَّام. وقال محمد بن كعب: «بِإمامِهم» بأُمَّهاتهم، وإمام جمع آمّ. قالت الحكماء: وفي ذلك ثلاثة أوجُهٍ من الحكمة؛ أحدها ـ لأجل عيسى. والثاني ـ إظهارٌ لشرف الحسن والحسين. والثالث ـ لئلا يفتضح أولاد الزنى(٥).

قلت: وفي هذا القول نظر؛ فإن في الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمعَ اللهُ الأوّلين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادرٍ لواءٌ فيقال: هذه غَدْرةُ فلانِ بنِ فلان» خرَّجه مسلم والبخاري(٦). فقوله: «هذه غَدْرة فلان ابن فلان» دليلٌ على أن الناس يُدْعَوْن في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يردُّ على من قال: إنما يُدْعَوْن بأسماء أمَّهاتهم؛ لأن في ذلك سَتْراً على آبائهم(٧). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ هذا يقوّي قول من قال: «بِإمامِهم» بكتابهم. ويقوِّيه أيضاً قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. ﴿فَأُولَئِكَ

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٣٨٦ ، ولفظه: أي بالذي اقتدوا به وجعلوه إماماً.

(٢) ٢/ ٣٦٧ .

(٣) أخرجه أحمد (٧٦٣٣)، والبخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧) مرفوعاً.

(٤) هكذا في النسخ، ولعلها الدفَّاف: وهو الذي يضرب بالدف.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٢٦ ، والكشاف ٢/ ٤٥٩ .

(٦) صحيح مسلم (١٧٣٥) واللفظ له، وصحيح البخاري (٦١٧٧)، وأخرجه أحمد (٤٨٣٩).

(٧) تفسير الرازي ٢١/ ١٧ .

﴿يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الفتيل: الذي في شقِّ النواة[١]. وقد مضى في «النساء»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ أي: في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق. ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: في أمر الآخرة ﴿أَعْمَىٰ﴾[٣]. وقال عكرمة: جاء نفرٌ من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية، فقال: اقرؤوا ما قبلها: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ إلى ﴿تَفْضِيلًا﴾. قال ابن عباس: مَنْ كان في هذه النِّعم والآيات التي رأى أعمى فهو عن الآخرة التي لم يُعاين أعمى وأضلُّ سبيلاً[٤]. وقيل: المعنى: مَنْ عمي عن النِّعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى[٥]. وقيل: المعنى: من كان في الدنيا التي أُمْهِلَ فيها وفُسِّحَ له ووُعِدَ بقبول التوبة أعمى فهو في الآخرة التي لا توبةَ فيها أعمى[٦]. وقال الحسن: مَنْ كان في هذه الدنيا كافراً ضالًّا فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً[٧]. وقيل: مَنْ كان في الدنيا أعمى عن حُجج الله يبعثه الله يوم القيامة أعمى[٨]، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] الآيات. وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾[٩] [الإسراء: ٩٧]. وقيل: المعنى في قوله: ﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ في

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٧، وإعراب القرآن له ٢/ ٤٣٤.
(٢) ٦/ ٤١٠.
(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٥٩ بنحوه.
(٤) تفسير الرازي ٢١/ ١٨ - ١٩.
(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٨ عن مقاتل.
(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٣، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨.
(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١١٩، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٦.
(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٧٨ عن مجاهد.
(٩) تفسير الرازي ٢١/ ١٩.

جميع الأقوال: أشدُّ عَمًى[١]؛ لأنه من عَمَى القلب، ولا يُقال مثلُه في عَمَى العين. قال الخليل وسيبويه: لأنه خِلقةٌ بمنزلة اليد والرِّجْل، فلم يقل: ما أعماه، كما لا يُقال: ما أيداه. الأخفش: لم يقل فيه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى[٢]. وقد أجاز بعض النَّحويين ما أعماه وما أعشاه؛ لأنَّ فعله عَمِيَ وعَشِيَ. وقال الفراء: حدثني بالشام شيخٌ بصريٌّ أنه سمع العرب تقول: ما أسوَدَ شعره[٣]. قال الشاعر:

ما في المعالي لكم ظِلٌّ ولا ثمرُ ... وفي المخازي لكم أشباحُ أشياخِ
أما الملوكُ فأنتَ اليوم ألأَمُهُمْ ... لؤماً وأبيضُهم سِرْبالَ طبَّاخِ[٤]

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائي وخَلفَ الحرفين «أعمى» و«أعمى»، وفتَحَ الباقون، وأمالَ أبو عمرو الأوّل وفتحَ الثاني[٥]. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعني أنه لا يجد طريقاً إلى الهداية[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾

قال سعيد بن جبير: كان النبيُّ ﷺ يستلم الحجرَ الأسودَ في طوافه، فمنعته قريشٌ وقالوا: لا ندَعُكَ تستلم حتى تُلِمَّ بآلهتنا. فحدَّث نفسه وقال: «ما عليَّ أن أُلِمَّ بها بعدَ أن يَدَعُوني أستلمُ الحجرَ، واللهُ يعلم أني لها كاره» فأبى اللهُ تعالى ذلك، وأنزل عليه هذه الآية. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس في رواية عطاء: نزلت في وفد ثَقيف،

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٤ - ٤٣٥. وينظر كتاب سيبويه ٤/ ٩٧ - ٩٨.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٢٨.

(٤) قائلهما طرفة بن العبد، والبيت الأول في ديوانه ص١٨. والبيت الثاني في اللسان (بيض).

(٥) السبعة ص٣٨٣، وتحبير التيسير ص١٣٦.

(٦) مجمع البيان ١٥/ ٧٩.

أتوا النبيَّ ﷺ فسألوه شَططاً، وقالوا: متِّعنا بآلهتنا سنةً حتى نأخذ ما يُهْدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحَرِّمْ وادينا كما حرَّمت مكة، حتى تعرِفَ العربُ فضلنا عليهم. فهَمَّ رسولُ الله ﷺ أن يُعطِيَهم ذلك، فنزلت هذه الآية[(١)]. وقيل: هو قول أكابر قريشٍ للنبيِّ ﷺ: اطرُدْ عنَّا هؤلاء السُّقَّاط والموالي حتى نجلسَ معك ونسمعَ منك. فهمَّ بذلك حتى نُهِيَ عنه[(٢)]. وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ قريشاً خلَوْا برسول الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ إلى الصبح يُكلِّمونه ويُفخِّمونه، ويُسوِّدونه ويُقاربونه، فقالوا: إنك تأتي بشيءٍ لا يأتي به أحدٌ من الناس، وأنتَ سيِّدُنا يا سيِّدَنا، وما زالوا به حتى كاد يُقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية[(٣)]. ومعنى ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ أي: يزيلونك. يُقال: فتنتُ الرجل عن رأيه إذا أزلتُه عما كان عليه. قاله الهَروي[(٤)]. وقيل: يصرفونك، والمعنى واحد. ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي: حكم القرآن؛ لأن في إعطائهم ما سألوه مخالفةٌ لحكم القرآن. ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ أي: لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك[(٥)]، وهو قول ثقيف: وحَرِّم وادِينا كما حرَّمتَ مكة، شجرَها وطيرَها ووحشَها، فإن سألتكَ العربُ لِمَ خصَّصتهم، فقل: اللهُ أمرني بذلك، حتى يكون عذراً لك. ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي: لو فعلتَ ما أرادوا لاتخذوك خليلاً[(٦)]، أي: والَوكَ وصافَوك[(٧)]، مأخوذٌ من الخلة - بالضم - وهي الصداقة

---

(١) النكت والعيون ٣/٢٥٩ - ٢٦٠، وزاد المسير ٥/٦٧، وتعقب ابن الجوزي هذين القولين بقوله: وهذا باطل لا يجوز أن يُظنَّ برسول الله ﷺ، وكلُّ ذلك مُحالٌ في حقه وفي حقِّ الصحابة أنهم رووا عنه. قلنا: والقول الأول أخرجه الطبري ١٥/١٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/١٥٤.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/٢٧٨، وزاد المسير ٥/٦٨. وأخرجه الطبري ١٥/١٣ - ١٤.

(٤) وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٤/٢٩٧ - ٢٩٨.

(٥) تفسير الرازي ٢١/٢١.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/٢٥٤.

(٧) تفسير البغوي ٣/١٢٧، وزاد المسير ٥/٦٨.

لممايلته لهم. وقيل: ﴿لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: فقيراً. مأخوذاً من الخَلَّة ـ بفتح الخاء ـ وهي الفقر؛ لحاجته إليهم(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ﴾ أي: على الحقِّ وعصمناك من موافقتهم. ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تميل. ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي: ركوناً قليلاً(٢). قال قتادة: لمَّا نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ لا تَكِلْني إلى نفسي طرفةَ عين»(٣). وقيل: ظاهرُ الخطاب للنبيِّ ﷺ، وباطنُه إخبارٌ عن ثقيف. والمعنى: وإن كادوا ليركنونك، أي: كادوا يخبرون عنك بأنك مِلتَ إلى قولهم، فنسب فِعْلَهم إليه مجازاً واتساعاً، كما تقول لرجل: كِدْتَ تقتلُ نفسك، أي: كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت. ذكره المهدَويّ.و قيل: ما كان منه همٌّ بالركون إليهم، بل المعنى: ولولا فضلُ الله عليكَ لكان منك مَيلٌ إلى موافقتهم، ولكن تمَّ فضلُ الله عليك فلم تفعل. ذكره القشيري.

وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ معصوماً، ولكن هذا تعريفٌ للأمة؛ لئلا يركن أحدٌ منهم إلى المشركين في شيءٍ من أحكام الله تعالى وشرائعه(٤).

وقوله: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: لو ركنتَ لأذقناك مِثْلَي عذاب الحياة في الدنيا ومثلَي عذاب الممات في الآخرة. قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا غاية الوعيد، وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم. قال الله تعالى: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾(٥) [الأحزاب:٣٠] وضِعْفُ الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضِّعف

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٦٠ .

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٢١ .

(٣) تفسير الرازي ٢١/ ٢١ . إسناده منقطع.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠ ، وزاد المسير ٥/ ٦٩ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٤ . وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٦٠ .

النصيب، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: نصيب. وقد تقدَّم في الأعراف[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾

هذه الآية قيل: إنها مدنية، حسبما تقدَّم في أوّل السورة. قال ابن عباس: حَسدتِ اليهود مقامَ النبيِّ ﷺ بالمدينة، فقالوا: إنَّ الأنبياء إنما بُعثوا بالشام، فإن كنتَ نبيًّا فألحَقْ بها، فإنك إنْ خرجتَ إليها صدَّقناك وآمنَّا بك. فوقع ذلك في قلبه؛ لِما يُحِبُّ من إسلامهم، فرحَل من المدينة على مرحلةٍ، فأنزل الله هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن غَنْم: غزا رسول الله ﷺ غزوة تُبوك لا يريد إلا الشام، فلما نزل تبوك نزل ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ بعد ما ختمت السورة، وأمر بالرجوع[٢]. وقيل: إنها مكية. قال مجاهد وقتادة: نزلت في هَمِّ أهلِ مكة بإخراجه، ولو أخرجوه لما أُمهِلوا ولكنَّ الله أمره بالهجرة فخرج[٣]. وهذا أصح؛ لأنَّ السورة مكية، ولأن ما قبلها خبرٌ عن أهل مكة، ولم يجْرِ لليهود ذكر[٤]. وقوله: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ يريد أرض مكة. كقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ [يوسف: ٨٠] أي: أرض مصر؛ دليله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] يعني مكة. معناه: همَّ أهلُها بإخراجه؛ فلهذا أضاف إليها[٥] وقال: «أخرجتك»[٦]. وقيل: همَّ الكفار كلُّهم أن يستخِفُّوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه، فمنعه الله، ولو أخرجوه من أرض العرب لم يُمْهَلُوا، وهو معنى قوله: ﴿وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٧].

---

(١) ٩/ ٢١٧ .

(٢) زاد المسير ٥/ ٦٩ ، وحديث عبد الرحمن بن غنم أخرجه البيهقي في الدلائل ٥/ ٢٥٤ .

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٢٣ . وقول مجاهد أخرجه عنه الطبري ١٥/ ١٩-٢٠ . وقول قتادة أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٨٣ - ٣٨٤ ، والطبري ١٥/ ١٩ .

(٤) تفسير الطبري١٥/ ٢٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢٧ .

(٥) في النسخ: إليهم.

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٢٣ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٢٧ .

وقرأ عطاء بن أبي رَباح: «لا يُلَبَّثون» الباء مشددة[١]. «خلفك» نافع وابن كَثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه: بعدك. وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي: ﴿خِلَٰفَكَ﴾[٢] واختاره أبو حاتم؛ اعتباراً بقوله: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١] ومعناه أيضاً: بعدك؛ قال الشاعر:

عَفَتِ الدِّيارُ خِلافَهم فكأنَّما ... بسطَ الشَّواطِبُ بينهنَّ حَصيرا[٣]

«بسط البواسط» في الماوردي[٤]. يقال: شَطَبتِ المرأةُ الجريد إذا شقَّته لتعملَ منه الحصر. قال أبو عبيد: ثم تُلقيه الشاطبة إلى المُنَقِّية[٥]. وقيل: «خلفك» بمعنى بعدك. «وخلافك» بمعنى مخالفتك. ذكره ابن الأنباري. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه وجهان: أحدهما أنَّ المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر. وهذا قول من ذَكر أنهم قريش. الثاني: ما بين ذلك وقَتْلِ بني قُريظة وجلاءِ بني النضير. وهذا قول من ذَكر أنهم اليهود[٦].

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ﴾ أي: يُعذَّبون كسُنَّةِ مَنْ قد أرسلنا؛ فهو نصبٌ بإضمارِ يعذبون، فلما سقط الخافض عمِلَ الفعل. قاله الفرّاء[٧]. وقيل: انتصب على معنى سننَّا سنةَ مَنْ قد أرسلنا[٨]. وقيل: هو منصوبٌ على تقدير

(١) القراءات الشاذة ص٧٧ .

(٢) السبعة ص٣٨٤ ، والتيسير ص١٤١ .

(٣) قائله الحارث بن خالد المخزومي كما في العين واللسان (خلف). ومن قوله: وقرأ عطاء إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٦ .

(٤) في مطبوع النكت والعيون ٣/ ٢٦١ للماوردي بمثل رواية المصنف: بسط الشواطب.

(٥) الصحاح (شطب).

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ١٢٩ .

(٨) مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٣٤ .

حذف الكاف[١]؛ التقدير: لا يلبثون خلفك إلا قليلاً كسنةِ مَنْ قد أرسلنا، فلا يوقف على هذا التقدير على قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ويوقف على الأول والثاني .﴿قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ وقفٌ حسن .﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: لا خُلْفَ في وعدها[٢].

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ لمَّا ذكر مكايد المشركين أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء. ومثله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾[٣] [الحجر: ٩٧-٩٨]. وتقدَّم القول في معنى إقامة الصلاة في أول سورة البقرة[٤]. وهذه الآية بإجماعٍ من المفسرين إشارةٌ إلى الصلوات المفروضة[٥]. واختلف العلماء في الدُّلوك على قولين: أحدهما: أنه زوال الشمس عن كبِد السماء قاله عمر وابنه وأبو هريرة وابن عباس وطائفةٌ سواهم من علماء التابعين وغيرهم. الثاني: أنَّ الدلوك هو الغروب. قاله عليٌّ وابن مسعود وأُبَيُّ بن كعب، ورُوي عن ابن عباس[٦]. قال الماوردي: من جعل الدُّلوك اسماً لغروبها فلأنَّ الإنسان يدلُك عينيه براحته لتبيِّنها حالة المغيب، ومن جعله اسماً لزوالها فلأنَّه يدلكُ عينيه لشدة شعاعها[٧]. وقال أبو

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٢٨ .

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٠ .

(٣) تفسير الرازي ٢١/ ٢٥ .

(٤) ١/ ٢٥٣ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٧ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٧ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٦٣ .

عبيد: دلوكها غروبها. ودلكَتْ براحِ يعني الشمس، أي: غابت[١]. وأنشد قُطْرب:

هــذا مُــقــامُ قَــدَمَــيْ رَبــاحِ ذَبَّــبَ حــتــى دَلــكــتْ بَــراحِ

بَراح - بفتح الباء - على وزن حَزام وقَطام ورَقَاش، اسمٌ من أسماء الشمس. ورواه الفرَّاء - بكسر الباء - وهو جمع راحة وهي الكف[٢]، أي: غابت وهو ينظر إليها، وقد جعل كفَّه على حاجبه. ومنه قول العَجَّاج:

والـشـمـسُ قـد كـادَتْ تـكـون دَنَـفـا أدفـعُـهـا بـالـراحِ كـي تَـزَحْـلَـفـا[٣]

قال ابن الأعرابيّ: الزُّحلوفة مكانٌ منحدرٌ أملس؛ لأنهم يتزحلفون فيه. قال: والزَّحْلفةُ كالدَّحرجة والدفع؛ يقال: زحلفتُه فَتَزَحْلَف[٤]. ويقال: دلكتِ الشمسُ إذا غابت[٥]. قال ذو الرُّمَّة[٦]:

مـصـابـيحُ لـيـست بـالـلَّواتـي تـقُـودهـا نــجــومٌ ولا بــالآفــلاتِ الــدَّوالــكِ

قال ابن عطية: الدلوك هو الميل - في اللغة - فأوّل الدلوك هو الزوال، وآخره هو الغروب. ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكاً؛ لأنها في حالة مَيل. فذكر الله تعالى الصلوات التي تكون في حالة الدلوك وعنده، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلةً في غَسَق الليل[٧]. وقد ذهب قومٌ إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتها من الزوال إلى الغروب؛ لأن الله سبحانه علَّق وجوبها على الدلوك، وهذا دلوكٌ كله قاله الأوزاعيُّ وأبو حنيفة في تفصيل. وأشار إليه مالك

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٧٠ - ٣٧١ .

(٢) الصحاح (دلك)، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٢٩ . رباح: اسم ساق. وذبَّبَ النهار: إذا لم يبق منه إلا بقية: اللسان (ربح) و(ذبب).

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٧١ .

(٤) الصحاح (زحلف).

(٥) الفائق ١/ ٤٣٦ .

(٦) في ديوانه ٤/ ١٧٣٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٧ .

والشافعيُّ في حالة الضرورة[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال: دلوك الشمس: ميلُها، وغسقُ الليل: اجتماعُ الليل وظلمته[٢]. وقال أبو عبيدة: الغسق: سواد الليل. قال ابن قَيْس الرُّقَيَّات[٣]:

إنَّ هـذا الـلـيـل قـد غـسَـقـا   واشـتـكـيْـتُ الـهَـمَّ والأَرَقـا[٤]

وقد قيل: غسق الليل: مغيب الشفق[٥]. وقيل: إقبال ظُلمته. قال زهير:

ظـلَّـتْ تـجـودُ يـداهـا وهـي لاهـيـةٌ   حتـى إذا جنـحَ الإظـلامُ والـغَـسَـقُ[٦]

يقال: غسقَ الليلُ غَسوقا[٧]. والغَسَق اسمٌ بفتح السين. وأصل الكلمة من السيلان؛ يقال: غَسَقتِ العين إذا سالت، تَغْسِق[٨]. وغَسَق الجرح غَسَقاناً، أي: سال منه ماءٌ أصفر. وأغسق المؤذِّن، أي: أخَّرَ المغرب إلى غَسَق الليل[٩]. وحكى الفراء: غَسَقَ الليل وأغسق، وظَلِمَ وأظلم، ودجا وأدجى، وغَبَس وأغبس، وغَبِش وأغبش[١٠]. وكان الربيع بن خُثَيم يقول لمؤذنه في يومٍ غَيْم: أغسِقْ أغسِقْ. يقول: أخِّر المغرب حتى يَغسِقَ الليل، وهو إظلامه[١١].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٠٩ .

(٢) أحكام لابن العربي ٣/ ١٢٠٧ ، وهو في الموطأ ١/ ١١ .

(٣) في ديوانه ص١٨١ .

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٨٨ .

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٠٦ عن ابن مسعود.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٦٢ .

(٧) اللسان (غسق).

(٨) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٦٨ .

(٩) الصحاح (غسق).

(١٠) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٦٨ .

(١١) تهذيب اللغة ١٦/ ١٢٧ .

الثالثة: اختلف العلماء في آخر وقت المغرب، فقيل: وقتُها وقتٌ واحدٌ لا وقتَ لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بيِّنٌ في إمامة جبريل؛ فإنه صلَّاها باليومين لوقتٍ واحد وذلك غروب الشمس، وهو الظاهر من مذهب مالك عند أصحابه. وهو أحد قولي الشافعيِّ في المشهور عنه أيضاً، وبه قال الثوري. وقال مالك في «الموطأ»[(١)]: فإذا غاب الشفقُ فقد خرجْتَ من وقت المغرب ودخلَ وقت العشاء. وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن حَيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثَور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفقِ غسقٌ كلُّه، ولحديث أبي موسى، وفيه: أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى بالسائلِ المغربَ في اليوم الثاني، فأخَّر حتى كان عند سقوط الشفق. خرَّجه مسلم[(٢)]. قالوا: وهذا أولى أخبار إمامة جبريل؛ لأنه متأخرٌ بالمدينة، وإمامةُ جبريلَ بمكة، والمتأخر أولى من فعله وأمره؛ لأنه ناسخٌ لما قبله[(٣)]. وزعم ابن العربي[(٤)] أنَّ هذا القول هو المشهور من مذهب مالك، وقوله في «موطَّئه» الذي أقرأه طولَ عمره وأملاه في حياته.

والنكتةُ في هذا أنَّ الأحكام المتعلِّقةَ بالأسماء هل تتعلَّق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها؟ والأقوى في النظر أنْ يرتبط الحكم بأوائلها؛ لئلا يكون ذكرُها لغواً، فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظرُ في تعلقه بالكلِّ إلى الآخر.

قلت: القول بالتَّوسعةِ أرجح، وقد خرَّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغني بن سعيد من حديث الأجلح بن عبد الله الكندي عن أبي الزبير عن جابر قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ من مكةَ قريباً من غروب الشمس، فلم يُصَلِّ المغربَ حتى أتى سَرِفَ، وذلك تسعة أميال[(٥)]. وأما القول بالنسخ فليس بالبيِّن، وإن كان التاريخ معلوماً؛ فإن

---

(١) ١/ ١٣ .

(٢) في صحيحه (٦١٤). وأخرجه أحمد (١٩٧٣٣).

(٣) من بداية المسألة إلى هذا الموضع في الاستذكار ١/ ١٩٧ - ٢٠٠ ، والتمهيد ٨/ ٧٩ و ٨١ و ٨٣ و ٨٤ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٠٧ .

(٥) وأخرجه أحمد (١٤٢٧٤) من طريق الأجلح، به.

الجمع ممكن. قال علماؤنا: تُحمل أحاديثُ جبريل على الأفضلية في وقت المغرب، ولذلك اتفقتِ الأمةُ فيها على تعجيلها والمبادرة إليها في حين غروب الشمس[١]. قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: ولا نعلم أحداً من المسلمين تأخّر بإقامة المغرب في مسجدِ جماعةٍ عن وقت غروب الشمس[٢]. وأحاديث التَّوسعة تُبيِّن وقت الجواز، فيرتفع التعارضُ ويصحُّ الجمع، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين؛ لأنَّ فيه إعمالَ كلٍّ واحدٍ من الدليلين، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاطُ أحدهما. والله أعلم[٣].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ انتصب «قرآن» من وجهين: أحدهما أن يكون معطوفاً على الصلاة، المعنى: وأقم قرآن الفجر أي: صلاة الصبح. قاله الفراء. وقال أهل البصرة: انتصب على الإغراء، أي: فعليك بقرآن الفجر[٤]. قاله الزجّاج[٥]. وعبَّر عنها بالقرآن خاصةً دون غيرها من الصلوات؛ لأنَّ القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلةٌ مجهورٌ بها حسبما هو مشهورٌ مسطور. عن الزَّجَّاج أيضاً[٦].

قلت: وقد استقرَّ عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة في الصبح قَدْراً لا يضرُّ بمن خلفه ـ يقرأ فيها بطوال المفصَّل، ويليها في ذلك الظهر والجمعة ـ وتخفيف القراءة في المغرب وتوسُّطها في العصر والعشاء. وقد قيل في العصر: إنها تخفَّف كالمغرب. وأما ما ورد في «صحيح مسلم» وغيره من الإطالة فيما استقرَّ فيه التقصير،

---

(١) المفهم ٢/ ٢٣٧ بمعناه.

(٢) الاستذكار ١/ ٢٠١، والتمهيد ٨/ ٨٤.

(٣) المفهم ٢/ ٢٣٧ - ٢٣٨.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٢٨. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٢٩.

(٥) لم نقف على نسبة هذا القول إلى الزجاج في أيّ من المصادر.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦، ولفظ كلامه: في هذا الموضع فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة؛ لأن قوله: «أقم الصلاة، أقم قرآن الفجر» قد أمر أن نقيم الصلاة، حتى سميت الصلاة قرآناً، فلا تكون صلاةٌ إلا بقراءة.

أو من التقصير فيما استقرَّتْ فيه الإطالة، كقراءته في الفجر بالمعوِّذتين كما رواه النَّسائيّ[١]، وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور في المغرب[٢]، فمتروكٌ بالعمل، ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمَّ قومَه في العشاء فافتتَحَ سورة البقرة. خرَّجه الصحيح[٣]. وبأمره الأئمةَ بالتخفيف فقال: «أيها الناس، إنَّ منكم مُنفِّرين، فأيُّكم أمَّ الناسَ فليُخفِّفْ فإنَّ فيهم الصغيرَ والكبيرَ والمريضَ والسقيمَ والضعيفَ وذا الحاجة»[٤]، وقال: «فإذا صلَّى أحدُكم وحدَه فليطوِّلْ ما شاء»[٥]. كلُّه مسطورٌ في صحيح الحديث.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ﴾ دليلٌ على أنه لا صلاةَ إلا بقراءة؛ لأنه سَمَّى الصلاة قرآناً[٦].

وقد اختلف العلماء في القراءة في الصلاة، فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفَذِّ في كلِّ ركعة، وهو مشهورُ قولِ مالك. وعنه أيضاً أنها واجبةٌ في جُلِّ الصلاة. وهو قول إسحاق. وعنه أيضاً تجب في ركعةٍ واحدة. قاله المُغِيرة وسُحْنُون. وعنه أنَّ القراءة لا تجب في شيء من الصلاة. وهو أشذُّ الروايات عنه. وحُكي عن مالك أيضاً أنها تجب في نصف الصلاة وإليه ذهب الأوزاعيُّ. وعن الأوزاعيِّ أيضاً وأيوب أنها تجب على الإمام والفَذِّ والمأموم على كلِّ حال. وهو أحد

(١) سنن النسائي ٢/ ١٥٨ من حديث عقبة بن عامر ﷺ.

(٢) حديث قراءته بالأعراف أخرجه أحمد (٢١٦٤٦) من حديث زيد بن ثابت ﷺ. وحديث قراءته بالمرسلات أخرجه أحمد (٢٦٨٦٨)، والبخاري (٤٤٢٩)، ومسلم (٤٦٢) من حديث أم الفضل رضي الله عنها. وحديث قراءته بالطور أخرجه أحمد (١٦٧٣٥)، والبخاري (٧٦٥)، ومسلم (٤٦٣) من حديث جبير بن مطعم ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٧٠٥)، وصحيح مسلم (٤٦٥) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤١٩٠).

(٤) أخرجه أحمد (١٧٠٦٥)، والبخاري (٩٠)، ومسلم (٤٦٦) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

(٥) أخرجه أحمد (١٠٣٠٦)، والبخاري (٧٠٣)، ومسلم (٤٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦ .

قولي الشافعي[١]. وقد مضى في الفاتحة مستوفًى[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ روى الترمذيُّ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهدُه ملائكةُ الليل وملائكةُ النهار» هذا حديث حسن صحيح[٣]. ورواه عليّ بن مُسْهِر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبيّ ﷺ[٤]. وروى البخاريُّ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجة، وتجتمع ملائكةُ الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح». يقول أبو هريرة: اِقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[٥]. ولهذا المعنى يُبَكَّر بهذه الصلاة، فمن لم يُبكِّرْ لم تشهَدْ صلاتَه إلا إحدى الفئتين من الملائكة[٦]. ولهذا المعنى أيضاً قال مالك والشافعيُّ: التغليس بالصبح أفضل. وقال أبو حنيفة: الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار، فإن فاتَه ذلك فالإسفار أَوْلَى من التغليس. وهذا مخالفٌ لما كان عليه الصلاة والسلام يفعله من المداومة على التغليس[٧]. وأيضاً فإن فيه تفويتَ شهود ملائكة الليل[٨]. والله أعلم.

السابعة: استدلَّ بعض العلماء بقوله ﷺ: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار[٩].

---

(١) المفهم ٢/ ٢٤ - ٢٥ .

(٢) ١/ ١٨٠ - ١٩٣ .

(٣) سنن الترمذي (٣١٣٥) من طريق أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، به. وأخرجه من هذه الطريق أحمد (١٠١٣٣).

(٤) أخرجه الترمذي بإثر الحديث (٣١٣٥) من طريق علي بن مسهر، به.

(٥) صحيح البخاري (٦٤٨). وأخرجه أحمد (٧١٨٥)، ومسلم (٦٤٩): (٢٤٦).

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٢٨ .

(٧) المفهم ٢/ ٢٤٠ .

(٨) تفسير الرازي ٢١/ ٢٨ .

(٩) النكت والعيون ٣/ ٢٦٤ .

قلت: وعلى هذا فلا تكون صلاةُ العصر أيضاً لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار؛ فإن في الصحيح عن النبيِّ الفصيح عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر» الحديث[١]. ومعلومٌ أنَّ صلاة العصر من النهار، فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل، وليس كذلك، وإنما هي من النهار كالعصر، بدليل الصيام والأيمان، وهذا واضح.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ «من» للتبعيض[٢]. والفاء في قوله: «فتهجَّد» ناسقةٌ على مضمر، أي: قم فتهجد. ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن. والتَّهَجُّد من الهجود وهو من الأضداد. يقال: هجد نام، وهجد سهر؛ على الضِّدِّ. قال الشاعر:

ألا زارَتْ وأهلُ مِنًى هُجودُ وليْتَ خيالها بمنًى يعودُ[٣]

آخر:

ألَا طرقَتْنا والرِّفاق هُجودُ فباتَتْ بِعُلَّات النوالِ تجودُ[٤]

يعني نِياماً[٥]. وهجد وتهجَّد بمعنًى. وهجَّدته أي: أنمتُه، وهجَّدته أي: أيقظتُه[٦]. والتهجُّد التيقُّظ بعد رَقْدة، فصار اسماً للصلاة؛ لأنه يُتَنَبَّهُ لها. فالتهجد

(١) صحيح البخاري (٥٥٥)، وصحيح مسلم (٦٣٢). وأخرجه أحمد (١٠٣٠٩).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨ .

(٣) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ٣١٨ .

(٤) قائله خارجة بن فليح كما في أمالي أبي علي القالي ١/ ١٤ . وقوله: «بُعلَّات» من التَّعِلَّة والعُلالة: وهو ما يُتعلَّلُ به. اللسان (علل).

(٥) من قوله: والفاء في قوله إلى هذا الموضع في النكت والعيون ٣/ ٢٦٤ بمعناه.

(٦) تهذيب اللغة ٦/ ٣٦ .

القيام إلى الصلاة من النوم. قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم[١]. وروى إسماعيل بن إسحاق القاضي من حديث الحجاج بن عمر صاحب النبيِّ ﷺ أنه قال: «أيحسب أحدُكم إذا قامَ من الليل كلِّه أنه قد تهجَّد؟! إنما التهجُّدُ الصلاةُ بعد رَقْدةٍ، ثم الصلاةُ بعد رَقْدةٍ، ثم الصلاة بعد رقدة» كذلك كانت صلاة رسول الله ﷺ[٢]. وقيل: الهُجود: النوم. يقال: تهجَّد الرجل إذا سَهِر[٣]، وألقى الهجود وهو النوم. ويُسمَّى من قام إلى الصلاة متهجداً؛ لأنَّ المتهجِّدَ هو الذي يُلقي الهجود الذي هو النوم عن نفسه[٤]. وهذا الفعل جارٍ مجرى تحوَّب وتحرَّج وتأثَّم وتحنَّث وتقذَّر وتنجَّس؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه، ومثله قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥] معناه: تندَّمون، أي: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وهي انبساط النفوس وسرورها؛ يقال: رجلٌ فَكِهٌ إذا كان كثيرَ السرور والضحك. والمعنى في الآية: ووقتاً من الليل اسْهَرْ به في صلاةٍ وقراءة[٥].

الثانية: قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: كرامةً لك. قاله مقاتل.

واختلف العلماء في تخصيص النبيِّ ﷺ بالذِّكر دون أمته، فقيل: كانت صلاةُ الليل فريضةً عليه؛ لقوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: فريضةً زائدةً على الفريضة الموظفة على الأمة[٦].

قلت: وفي هذا التأويل بُعْدٌ لوجهين: أحدهما ـ تسمية الفرض بالنفل، وذلك مَجازٌ لا حقيقة. الثاني ـ قوله ﷺ: «خمس صلواتٍ فرضهنَّ اللهُ على العباد»[٧]، وقوله

---

(١) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٦٤ ، والآثار عن هؤلاء أخرجها الطبري ١٥/ ٣٩ .

(٢) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ١/ ١٩٤ - ١٩٥ ، والطبراني في الكبير (٣٢١٦)، وفي الأوسط (٨٦٦٥).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٤ .

(٤) تهذيب اللغة ٦/ ٣٧ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٣٠ .

(٧) أخرجه أحمد (٢٢٦٩٣) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

تعالى: «هنَّ خمسٌ وهُنَّ خمسون، لا يُبَدَّلُ القولُ لَدَيَّ»[١] وهذا نص. فكيف يُقال: افترض عليه صلاةً زائدة على الخمس؟! هذا ما لا يصح، وإن كان قد رُوي عنه عليه الصلاة والسلام: «ثلاثٌ عليَّ فريضةٌ ولأمتي تطوُّعٌ: قيام الليل، والوتر، والسِّواك»[٢]. وقيل: كانت صلاة الليل تطوعاً منه، وكانت في الابتداء واجبةً على الكل، ثم نُسِخَ الوجوبُ، فصار قيامُ الليل تطوعاً بعد فريضة[٣]، كما قالت عائشة، على ما يأتي مبيَّناً في سورة «المُزَّمِّل»[٤] إن شاء الله تعالى. وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبيِّ ﷺ[٥]؛ لأنه مغفورٌ له، فهو إذا تطوَّع بما ليس بواجبٍ عليه كان ذلك زيادةً في الدرجات، وغيره من الأمة تطوُّعهم كفاراتٌ وتداركٌ لخللٍ يقع في الفرض. قال معناه مجاهد وغيره[٦].

وقيل: عطية؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاءً أفضلَ من التوفيق في العبادة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ اختُلِفَ في المقام المحمود على أربعة أقوال:

الأوّل ـ وهو أصحها ـ الشفاعةُ للناس يوم القيامة. قاله حُذيفة بن اليمان[٧]. وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر قال: إنَّ الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً كلُّ أمةٍ تتبع نبيَّها تقول: يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيِّ ﷺ، فذلك يومَ يبعثه الله

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر ﷺ. وأخرجه عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٢١٢٨٨) من حديث أبي بن كعب ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٩٠)؛ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٤ : فيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، وهو كذاب.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٢٩ .

(٤) عند المسألة السادسة من تفسير الآيات (١-٤) منها.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٣٠ بمعناه.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٦٥ .

المقامَ المحمود[1]. وفي «صحيح مسلم» عن أنسٍ قال: حدَّثنا محمدٌ ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامة ماجَ الناسُ بعضُهم إلى بعض، فيأتون آدمَ فيقولون له: اشفَعْ لذرِّيتِك. فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليلُ الله، فيأتون إبراهيمَ فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله. فيُؤتى موسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمتُه. فيؤتى عيسى فيقول: لستُ لها، ولكن عليكم بمحمدٍ ﷺ. فأُوتَى فأقول: أنا لها» وذكر الحديث[2]. وروى الترمذيُّ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ سئل عنها قال: «هي الشفاعة» قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[3].

الرابعة: إذا ثبت أنَّ المقام المحمود هو أمرُ الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهي الأمر إلى نبيِّنا محمدٍ ﷺ، فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف، ليعجِّل حسابهم ويُراحوا من هول موقفهم، وهي الخاصة به ﷺ، ولأجل ذلك قال: «أنا سيدُ ولد آدم ولا فخر». قال النقاش: لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعةٌ في السبق إلى الجنة، وشفاعةٌ في أهل الكبائر. ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون ويشفع العلماء[4].

وقال القاضي أبو الفضل عِياض: شفاعات نبيِّنا ﷺ يوم القيامة خمسُ شفاعات: العامة. والثانية في إدخال قومٍ الجنةَ دون حساب. الثالثة في قومٍ من موحِّدي أمته استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع فيهم نبيُّنا ﷺ ومَن شاء اللهُ أن يشفع، ويدخلون الجنة ـ وهذه الشفاعة هي التي أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم

(١) صحيح البخاري (٤٧١٨).

(٢) صحيح مسلم (١٩٣). وأخرجه البخاري (٧٥١٠).

(٣) سنن الترمذي (٣١٣٧). وأخرجه أحمد (٩٧٣٥).

(٤) المحرر الوجيز ٣/٤٧٨ - ٤٧٩ . وحديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» سلف ٤/ ٢٥٤ و ٥/ ١٢٩ .

الفاسدة، وهي الاستحقاق العقليُّ المبنيُّ على التحسين والتقبيح ـ الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين، فيخرجون بشفاعة نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء والملائكة وإخوانهم المؤمنين. الخامسة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأوّل.

الخامسة: قال القاضي عياض: وعُرِفَ بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبيِّ ﷺ ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يُلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل اللهَ أن يرزقك شفاعة النبيِّ ﷺ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدَّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كلُّ عاقلٍ معترفٌ بالتقصير محتاجٌ إلى العفو، غيرُ معتدٍّ بعمله، مشفقٌ أن يكون من الهالكين، ويلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضاً، وهذا كلُّه خلاف ما عُرِفَ من دعاء السلف والخلف[١].

روى البخاريُّ عن جابر بن عبد الله، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداءَ: اللهمَّ ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمداً ـ ﷺ ـ الوسيلةَ والفضيلة، وابعَثْه مقاماً محموداً الذي وعدْتَه، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة»[٢].

القول الثاني ـ أنَّ المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة[٣].

قلت: وهذا القول لا تنافُرَ بينه وبين الأوّل؛ فإنه يكون بيده لواء الحمد ويشفع. روى الترمذيُّ عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامة ولا فخر، وبيدي لواءُ الحمدِ ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدمَ فمن سواه إلا تحت لوائي» الحديث[٤].

---

(١) إكمال المعلم ١/٥٦٦ .

(٢) صحيح البخاري (٦١٤). وأخرجه أحمد (١٤٨١٧).

(٣) النكت والعيون ٣/٢٦٦ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٤٨).

القول الثالث ـ ما حكاه الطبريُّ عن فرقة ـ منها مجاهد ـ أنها قالت: المقام المحمود هو أن يُجلِسَ اللهُ تعالى محمداً ﷺ معه على كرسيه. وروَتْ في ذلك حديثاً[١]. وعَضَدَ الطبريُّ جوازَ ذلك بشططٍ من القول، وهو لا يخرج إلا على تلطُّفٍ في المعنى، وفيه بُعْدٌ. ولا يُنْكَر مع ذلك أن يروى، والعلم يتأوَّله. وذكر النقَّاش عن أبي داود السِّجِسْتَانيّ أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا مُتَّهَم، ما زال أهل العلم يتحدَّثون بهذا، من أنكر جوازه على تأويله[٢]. قال أبو عمر: ومجاهدٌ وإن كان أحدَ الأئمة بتأوُّلِ القرآن، فإنَّ له قولين مهجورين عند أهل العلم: أحدهما هذا، والثاني في تأويل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] قال: تنتظر الثواب؛ ليس من النظر[٣].

قلت: ذكر هذا في باب: ابنُ شهاب في حديث التنزيل. ورُوي عن مجاهدٍ أيضاً في هذه الآية قال: يُجلِسه على العرش[٤]. وهذا تأويلٌ غير مستحيل؛ لأنَّ الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلَّها والعرشَ قائماً بذاته، ثم خلق الأشياء من غير حاجةٍ إليها، بل إظهاراً لقدرته وحكمته، وليُعرف وجودُه وتوحيدُه وكمالُ قدرته وعلمُه بكلِّ أفعاله المحكمة، وخلق لنفسه عرشاً استوى عليه كما شاء من غير أن صار له مماسًّا، أو كان العرش له مكاناً. قيل: هو الآن على الصفة التي كان عليها من قبل أن يُخلَقَ المكانُ والزمان، فعلى هذا القول سواءٌ في الجواز أقعَدَ محمدٌ على العرش أو على

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٣، والخلال في السنة (٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٣٠٧ و ٣٠٨ و ٣٠٩) من طريق سيف السدوسي، عن عبد الله بن سلام قال: إن محمداً ﷺ يوم القيامة على كرسيِّ الرب بين يدي الربِّ تبارك وتعالى. سيف السدوسي لم نقف له على ترجمة، لكن البخاري قال في التاريخ الكبير ٤/ ١٥٨ : لا يُعرف لسيف سماعٌ من عبد الله بن سلام.

(٢) من بداية القول إلى هذا الموضع في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩ . وينظر كلام الطبري في تفسيره ١٥/ ٥١ - ٥٤ .

(٣) التمهيد ٧/ ١٥٧ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٤٣٦ ، والطبري ١٥/ ٤٧ ، والخلال (٢٤١ و ٢٤٤ و ٢٤٦ و ٢٦٧ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٩٦ و ٢٩٨ و ٣٠١).

الأرض؛ لأنَّ استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التي تشغل العرش، بل هو مستوٍ على عرشه كما أخبر عن نفسه بلا كَيْفٍ. وليس إقعادُه محمداً على العرش موجِباً له صفةَ الربوبية أو مُخرجاً له عن صفة العبودية، بل هو رفعٌ لمحلِّه وتشريفٌ له على خلقه. وأما قوله في الإخبار: «معه» فهو بمنزلة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، و﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم:١١]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] ونحو ذلك. كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظْوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان(١).

الرابع ـ إخراجه من النار بشفاعته من يخرج. قاله جابر بن عبد الله. ذكره مسلم(٢). وقد ذكرناه في كتاب التذكرة(٣) والله الموفق.

السادسة: اختلف العلماء في كون القيام بالليل سبباً للمقام المحمود على قولين: أحدهما ـ أنَّ الباريَ تعالى يجعل ما شاء من فعله سبباً لفضله من غير معرفةٍ بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة. الثاني ـ أنَّ قيام الليل فيه الخلوة مع الباريَ والمناجاة دون الناس، فأعطى الخلوَة به ومناجاته في قيامه وهو المقام المحمود، ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم، فأجلُّهم فيه درجةً محمدٌ ﷺ؛ فإنه يُعْطَى ما لا يُعطى أحدٌ، ويشفع ما لا يشفع أحد(٤). و«عسى» من الله عزَّ وجلَّ واجبة. و«مَقاماً» نصب على الظرف(٥). أي: في مقام أو إلى مقام. وذكر الطبري عن أبي هريرة، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفَعُ فيه لأمتي»(٦). فالمقام

(١) هذا تأويل غير صحيح، والصواب إثبات صفة العِندية لله عز وجل، واستحقاق بعضٍ أشراف مخلوقاته مكاناً عنده، والله أعلم.

(٢) في صحيحه (١٩١).

(٣) ص٢٤٨ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١١ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٤٧ - ٤٨ . وأخرجه أحمد (٩٦٨٤).

الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدي الملوك.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾

قيل: المعنى: أمِتْني إماتةَ صدق، وابعثني يوم القيامة مَبعثَ صدق[١]؛ ليتصل بقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ كأنه لما وعده ذلك أمره أن يدعو ليُنْجِز له الوعد. وقيل: أدخلني في المأمور وأخرجني من المنهيّ[٢]. وقيل: علَّمه ما يدعو به في صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين وإدخاله موضع الأمن، فأخرجه من مكة وصيَّره إلى المدينة[٣]. وهذا المعنى رواه الترمذي عن ابن عباس قال: كان النبيُّ ﷺ بمكة ثم أُمِرَ بالهجرة، فنزلت: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح[٤]. وقال الضحَّاك: هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمناً[٥]. أبو سهل: حين رجع من تبوك وقد قال المنافقون: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] يعني: إدخال عزٍّ وإخراج نصرٍ إلى مكة.

وقيل: المعنى: أدخلني في الأمر الذي أكرمتني به من النبوَّة مدخل صدقٍ، وأخرجني منه مخرج صدقٍ إذا أمَتَّني. قال معناه مجاهد[٦]. والمدخل والمخرج ـ بضمِّ الميم ـ بمعنى الإدخال والإخراج، كقوله: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [المؤمنون:٢٩] أي:

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٦٧، وتفسير البغوي ٣/ ١٣٢.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٥٤ بمعناه.

(٤) سنن الترمذي (٣١٣٩) من طريق قابوس أبي ظبيان، عن أبيه، عن ابن عباس. وأخرجه كذلك أحمد (١٩٤٨)، والحاكم ٣/ ٣ وصححه، لكن الذهبي ضعَّفه بقابوس.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٥، والنكت والعيون ٣/ ٢٦٦، وأخرجه الطبري ١٥/ ٥٧.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢.

إنزالاً لا أرى فيه ما أكره[١]. وهي قراءةُ العامة. وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم: «مَدخل» و«مخرج» بفتح الميمين بمعنى الدخول والخروج[٢]؛ فالأوّل رباعي وهذا ثلاثي. وقال ابن عباس: أدخلني القبر مدخلَ صدق عند الموت وأخرجني مخرج صدق عند البعث[٣]. وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق، أي: لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإنَّ ذا الوجهين لا يكون وجيهاً عندك[٤]. وقيل: الآية عامةٌ في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، ويُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة. فهي دعاء، ومعناه: ربِّ أصلِحْ لي وِرْدِي في كل الأمور وصَدَرِي[٥]. وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قال الشَّعبيُّ وعكرمة: أي: حجةً ثابتة. وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر وإظهار دينه على الدين كله[٦]. قال: فوعده الله لَيَنْزِعنَّ مُلك فارس والروم وغيرها فيجعله له[٧].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: روى البخاريُّ والترمذيُّ عن ابن مسعودٍ قال: دخل النبيُّ ﷺ مكةَ عام الفتح وحول الكعبة ثلاث مئةٍ وستون نُصُباً، فجعلَ النبيُّ ﷺ يطعنها بِمِخصَرةٍ في يده ـ وربما قال: بعود ـ ويقول: «جاء الحقُّ وزهق الباطلُ، إنَّ الباطلَ كان زهوقاً، جاء

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٣٣ .

(٢) إتحاف فضلاء البشر ص٣٦٠ عن الحسن، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠ عن أبي حيوة وقتادة وحميد، وهي قراءة شاذة.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٦٧ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٦ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٣٢ . وأخرجه الطبري ١٥/ ٥٨ .

الحقُّ وما يُبدئ الباطلُ وما يعيد» لفظ الترمذيِّ. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. وكذا في حديث مسلم: «نُصُباً». وفي رواية: «صنماً»[٢]. قال علماؤنا: إنما كانت بهذا العدد؛ لأنهم كانوا يُعظِّمون في يومٍ صنماً ويخصُّون أعظمَها بيومين. وقوله: «فجعل يطعنها بعودٍ في يده» يقال: إنها كانت مثبتةً بالرَّصاص، وأنه كلما طعن منها صنماً في وجهه خرَّ لقفاه، أو في قفاه خرَّ لوجهه، وكان يقول: «جاء الحقُّ وزهَقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً» حكاه أبو عمر[٣] والقاضي عِياض. وقال القشيريُّ: فما بقي منها صنمٌ إلا خرَّ لوجهه، ثم أَمَر بها فكُسِرت.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على كسر نُصب المشركين وجميع الأوثان إذا غُلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسرُ آلة الباطل كلِّه، وما لا يصلح إلا لمعصية الله، كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصُّوَرُ المتَّخَذةُ من المَدَر والخشب وشبهها، وكلُّ ما يتَّخذه الناسُ ممَّا لا منفعةَ فيه إلا اللهوَ المنهيَّ عنه. ولا يجوز بيع شيءٍ منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غُيِّرت عما هي عليه وصارت تُشرَح نُقراً[٤] أو قطعاً فيجوز بيعها والشِّراء بها. قال المهلَّب: وما كُسِرَ من آلات الباطل وكان في حبسها بعد كسرها منفعةٌ فصاحبها أوْلَى بها مكسورة، إلا أن يرى الإمام حَرْقَها بالنار على معنى التشديد والعقوبة في المال.

وقد تقدَّم حرق ابن عمر ﷺ[٥]. وقد همَّ النبيُّ ﷺ بتحريق دُورِ من تخلَّفَ عن صلاة الجماعة[٦]. وهذا أصلٌ في العقوبة في المال مع قوله عليه السلام في الناقة

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٧٨)، وسنن الترمذي (٣١٣٨). وأخرجه أحمد (٣٥٨٤).
(٢) صحيح مسلم (١٧٨١).
(٣) في الدرر في اختصار المغازي والسير ٢/ ٢٦٢ .
(٤) أي: مُذابةً. تهذيب اللغة ٩/ ٨٩ .
(٥) كذا في النسخ، والذي سلف ٥/ ٣٩٤ أن الذي حرق هو الوليد بن هشام.
(٦) سلف ٤/ ١٧٩ .

التي لعنَتْها صاحبتُها: «دعوها فإنَّها ملعونة»[١] فأزال ملكها عنها تأديباً لصاحبتها، وعقوبةً لها فيما دعَتْ عليه بما دعَتْ به. وقد أراق عمر بن الخطاب ﷺ لَبَناً شِيبَ بماءٍ على صاحبه[٢].

الثالثة: ما ذكرنا من تفسير الآية يُنظر إلى قوله ﷺ: «والله لينزِلنَّ عيسى بنُ مريم حكماً عادلاً، فَلَيَكْسِرَنَّ الصليبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الخنزيرَ وَلَيَضَعنَّ الجِزْية وَلَتُتْرَكَنَّ القِلاصُ فلا يُسعى عليها» الحديث. خرَّجه الصحيحان[٣]. ومن هذا الباب هَتْكُ النبيِّ ﷺ الستر الذي فيه الصور، وذلك أيضاً دليلٌ على إفساد الصور وآلات الملاهي كما ذكرنا. وهذا كلُّه يحظر المنع من اتخاذها ويوجب التغيير على صاحبها. إن أصحاب هذه الصور يُعذَّبون يوم القيامة ويُقال لهم: أحيوا ما خلقتم، وحسبك! وسيأتي هذا المعنى في «النمل»[٤] إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الإسلام. وقيل: القرآن. قاله مجاهد. وقيل: الجهاد. ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قيل: الشرك. وقيل: الشيطان. قاله مجاهد. والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير: جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه[٥]. ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: بطل الباطل[٦]. ومن هذا زُهوقُ النفس وهو بطلانها. يقال: زَهَقَتْ نفسُه تَزهَق زُهوقاً، وأزهقتُها[٧]. ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: لا بقاءَ له، والحقُّ الذي يثبت[٨].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٨٧٠)، ومسلم (٢٥٩٥) من حديث عمران بن حصين ﷺ.

(٢) سلف ٥/ ٣٩٦.

(٣) لم يخرجه البخاري، وإنما خرجه مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وقد سلف ٥/ ١٥٥.

(٤) ١٧/ ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠.

(٦) مجمع البيان ١٥/ ٨٩.

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٥/ ٣٩٢.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٣٧.

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ قرأ الجمهور بالنون[١]. وقرأ مجاهد: «ويُنْزِل» بالياء خفيفة، ورواها المروزيُّ عن حفص[٢]. و«مِن» لابتداء الغاية، ويصحُّ أن تكون لبيان الجنس؛ كأنه قال: وننزل ما فيه شفاء من القرآن. وفي الخبر: «من لم يَسْتَشْفِ بالقرآن فلا شفاه الله»[٣]. وأنكر بعض المتأولين أن تكون «مِن» للتبعيض؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه أنَّ بعضَه لا شفاء فيه. ابن عطية: وليس يلزمه هذا، بل يصِحُّ أن تكون للتبعيض بحسب أنَّ إنزاله إنما هو مُبعَّض، فكأنَّه قال: وننزل من القرآن شيئاً شفاءً، ما فيه كلُّه شفاء.

الثانية: اختلف العلماء في كونه شفاءً على قولين: أحدهما ـ أنه شفاءٌ للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الرَّيب، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى. الثاني ـ شفاءٌ من الأمراض الظاهر بالرُّقَى والتعوُّذ ونحوه[٤]. وقد روى الأئمة ـ واللفظ للدارقطنيِّ ـ عن أبي سعيد الخُدْريِّ قال: بعثَنا رسول الله ﷺ في سَرِيَّةٍ ثلاثين راكباً. قال: فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبَوْا. قال: فلُدِغَ سيدُ الحيِّ، فأتونا فقالوا: فيكم أحدٌ يَرْقي من العقرب؟ ـ في رواية ابن قَتَّة: إنَّ الملِكَ يموت ـ قال: قلتُ أنا: نعم، ولكن لا أفعل

---

(١) وتشديد الزاي، وقرأ أبو عمرو ويعقوب: «ونُنْزِلُ» بالنون وتخفيف الزاي. إتحاف فضلاء البشر ص٣٦٠، والنشر ٢/ ٣٠٨.

(٢) وهي قراءة شاذة، والمشهور عن حفص بمثل قراءة الجمهور.

(٣) عزاه في كنز العمال (٢٨١٠٦) إلى الدارقطني في الأفراد، وأورده الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ٢٨٨ وعزاه إلى الثعلبي وساق إسناده من طريق أحمد بن الحارث الغساني، عن ساكنة بنت الجعد، عن رجاء الغنوي مرفوعاً. أحمد بن الحارث الغساني متروك، وساكنة بنت الجعد مجهولة. الميزان ١/ ٨٨ و ٢/ ٤٤ . وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ص٢٣٧ : رجاء الغنوي لا يصح حديثه ولا تصح له صحبة.

(٤) من بداية المسألة الأولى إلى هذا الموضع ـ دون ذكر الحديث ـ في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠ .

حتى تعطونا. فقالوا: فإنا نُعطيكم ثلاثين شاةً. قال: فقرأت عليه: «الحمد لله ربِّ العالمين» سبعَ مرات، فبرَأ. - في رواية سليمان بن قَتَّة عن أبي سعيد: فأفاقَ وبرَأ - فبعث إلينا بالنُّزل، وبعث إلينا بالشاء، فأكلنا الطعام أنا وأصحابي، وأبَوْا أن يأكلوا من الغنم، حتى أتينا رسول الله ﷺ فأخبرتُه الخبر، فقال: «وما يُدريكَ أنَّها رُقية» قلت: يا رسول الله، شيءٌ أُلقي في رُوعِي. قال: «كلوا وأطعمونا من الغنم» خرَّجه في كتاب السنن[1]. وخرَّج في كتاب «المُدَبَّج»[2] من حديث السَّرِيِّ بن يحيى قال: حدثني المعتمر بن سليمان، عن ليث بن أبي سُليم، عن الحسن، عن أبي أُمامة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينفَعُ بإذن الله تعالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّلِّ والحُمَّى والنَّفْس أن تُكتبَ بزعفرانٍ أو بِمشْقٍ - يعني المَغْرة - أعوذ بكلمات الله التامة، وأسمائه كلِّها عامةً، من شرِّ السَّامَّة والغامَّة، ومن شرِّ العين اللامَّة، ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسد، ومن أبي فَروةَ وما ولد». كذا قال، ولم يقُلْ: من شرِّ أبي قِترة[3]. العين اللامَّة: التي تصيب بسوء. تقول: أُعِيذه من كلِّ هامَّةٍ لامَّةٍ. وأما قوله: أُعيذه من حادثات اللَّمة فيقول: هو الدهر. ويقال: الشدة. والسَّامَّة: الخاصَّة. يقال: كيف السَّامَّة والعامة. والسَّامَّة: السُّمّ. ومن أبي فروة وما ولد. وقال: «ثلاثةٌ وثلاثون من الملائكة أتَوْا ربَّهم عزَّ وجلَّ فقالوا: وَصَبٌّ بأرضنا. فقال: خذوا تربةً من أرضكم فامسحوا نواصيَكم - أو قال: بِوَصَبِكم[4] - رقية محمدٍ ﷺ، لا أفلَحَ من كتمها أبداً،

(١) سنن الدارقطني (٣٠٣٤) و(٣٠٣٥) من طريق أبي نضرة، و(٣٠٣٦) من طريق أبي المتوكل، و(٣٠٣٧) من طريق سليمان بن قتة، ثلاثتهم عن أبي سعيد الخدري، به. وأخرجه أحمد (١١٠٧٠) من طريق أبي نضرة، و(١١٤٧٢) من طريق سليمان بن قتة، و(١٠٩٨٥)، والبخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١) من طريق أبي المتوكل.

(٢) تصحف في (م) إلى المديح. وقد سلف اسمه على الصواب ٨/ ٦١ . والحديث المدبَّج: هو أن يروي أحد القرينين عن الآخر، ولا يروي الآخر عنه. مقدمة ابن الصلاح ص٣١٠ .

(٣) وهي كنية إبليس. العين (قتر).

(٤) في (م): نوصيكم، وهو خطأ. والوصب: المرض. الصحاح (وصب).

أو أخذَ عليها صَفَداً»[١]. ثم يكتبُ فاتحةَ الكتابِ وأربعَ آياتٍ من أول البقرة، والآيةَ التي فيها تصريفُ الرياح، وآيةَ الكرسي، والآيتين اللتين بعدها، وخواتيمَ سورة البقرة من موضع ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخرها، وعشراً من أوّل آل عمران، وعشراً من آخرها، وأوّلَ آيةٍ من النساء، وأوّلَ آيةٍ من المائدة، وأوّلَ آيةٍ من الأنعام، وأوّلَ آيةٍ من الأعراف، والآيةَ التي في الأعراف [٥٤]: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ حتى تختم الآية، والآية التي في يونس [٨١] من موضع ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، والآيةَ التي في طه [٦٩] ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، وعشراً من أوّلِ الصافات، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوِّذتين. تُكتبُ في إناءٍ نظيفٍ، ثم تُغسَلُ ثلاثَ مراتٍ بماءٍ نظيفٍ، ثم يحثو منه الوَجِعُ ثلاثَ حَثَواتٍ، ثم يتوضَّأُ منه كوضوئه للصلاة، ويتوضَّأُ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به، ثم يصُبُّ على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجي به، ثم يُصلي ركعتين، ثم يستشفي اللهَ عزَّ وجَلَّ، يفعل ذلك ثلاثة أيام، قدر ما يكتب في كلِّ يومٍ كتاباً[٢]. ـ في رواية: ومن شرِّ أبي قِتْرة وما ولد ـ وقال: «فامسحوا بِوَصَبِكم»[٣] ولم يشك[٤].

وروى البخاريُّ عن عائشة، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَنْفِثُ على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوِّذات، فلما ثَقُلَ كنتُ أنفُثُ عليه بهنَّ، وأمسَحُ بيد نفسِه لبركتها. فسألت

---

(١) أي: عطاءً. الصحاح (صفد).

(٢) في إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف. الميزان ٣/ ٤٢٠ - ٤٢١ . والحسن لم يثبت سماعه من أبي أمامة.

(٣) المثبت من (ز) ومن المصادر، وفي بقية النسخ: نواصيكم.

(٤) وقد أخرج هذه الرواية ـ بالمرفوع منها فقط ـ أبو يعلى (٢٤١٦)، والطبراني في الأوسط (٦٠٨٩)، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٨٧) من طريق معتمر، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي فزارة، عن سعيد بن جبير أو مقسم، عن ابن عباس مرفوعاً. وفي رواية أخرى لأبي يعلى (٢٤١٧): عن أبي فزارة، عن مقسم، عن سعيد، عن ابن عباس، وفي رواية لابن أبي الدنيا: عن أبي فزارة، عن مقسم، عن ابن عباس. قلنا: ومدار الإسناد على ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف كما تقدم آنفاً.

الزُّهريَّ كيف كان ينفِثُ؟ قال: كان يَنْفِثُ على يديه ثم يمسَحُ بهما وجهَه[١]. وروى مالك عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة، أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه المعوِّذتين وتَفَل أو نَفَث[٢]. قال أبو بكر بن الأنباري: قال اللغويون: تفسير «نفث» نفخ نفخاً ليس معه ريق. ومعنى «تَفَل» نفخ نفخاً معه ريق[٣]. قال الشاعر:

فإن يَبْرأْ فلم أنْفِثْ عليهِ ... وإن يُفْقَدْ فَحُقَّ له الفُقودُ[٤]

وقال ذو الرُّمَّة:

ومِن جَوْفِ ماءٍ عَرْمَضُ الحَولِ فوقَهُ ... متى يَحْسُ منه مائحُ القوم يَتْفُلِ[٥]

أراد: ينفخ بريق. وسيأتي ما للعلماء في النفث في سورة الفلق إن شاء الله تعالى.

الثالثة: روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يكره الرُّقى إلا بالمعوِّذات[٦]. قال الطبري: وهذا حديثٌ لا يجوز الاحتجاج بمثله في الدِّين؛ إذ في نقَلَتِه من لا يُعرف. ولو كان صحيحاً لكان إما غلطاً وإما منسوخاً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في الفاتحة «ما أدراك أنها رُقية». وإذا جاز الرُّقى بالمعوِّذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلَهما في الجواز؛ إذ كلُّه قرآن. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «شفاءُ أمتي في ثلاثٍ: آيةٍ من كتاب الله، أو لعقةٍ من عسل، أو شرطةٍ من مِحجم»[٧]. وقال رجاء الغَنَوِيُّ: ومن لم يستشْفِ بالقرآن فلا شفاءَ له[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٣٥)، والسائل الذي سأل الزهري هو معمر بن راشد الراوي عنه. فتح الباري ١٠/ ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) الموطأ ٢/ ٩٤٢ - ٩٤٣ . وأخرجه من طريقه أحمد (٢٤٧٢٨)، والبخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢): (٥١).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٩/ ٢٧٥ .

(٤) قائله عنترة، وهو في ديوانه ص٤٢ .

(٥) ديوان ذي الرمة ٣/ ١٤٨٧ . وقال شارحه: الجوف: المطمئن من الأرض. والعرمَضُ: الخضرة على رأس الماء، وعرمضُ الحولِ: أتى عليه حولٌ. والمائح: الذي يغرف بيده.

(٦) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٥٧٣).

(٧) سلف ١٢/ ٣٧١ .

(٨) سلف قريباً في الصفحة ١٥٦ مرفوعاً، ولا يصح.

الرابعة: واختلف العلماء في النُّشْرة، وهي أن يكتب شيئاً من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالماء، ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيِّب؛ قيل له: الرجلُ يؤخَذُ عن امرأته، أيُحَلُّ عنه ويُنْشر؟ قال: لا بأس به، وما ينفع لم يُنْهَ عنه[١]. ولم يَرَ مجاهدٌ أن تُكتبَ آياتٌ من القرآن، ثم تُغسَلَ، ثم يُسقاه صاحبُ الفزع. وكانت عائشة تقرأ بالمعوِّذتين في إناءٍ، ثم تأمر أن يُصبَّ على المريض[٢]. وقال المازَرِيُّ أبو عبد الله: النُّشرةُ أمرٌ معروفٌ عند أهل التعزيم، وسُمّيت بذلك لأنها تنشر عن صاحبها، أي: تَحُلُّ. ومنعها الحسن[٣] وإبراهيم النَّخَعيُّ؛ قال النَّخَعِيُّ: أخاف أن يصيبه بلاء. وكأنه ذهب إلى أنه ما يجيء به القرآن فهو إلى أن يعقب بلاءً أقربَ منه، إلى أن يفيد شفاءً. وقال الحسن: سألتُ أنَساً فقال: ذكروا عن النبيِّ ﷺ أنها من الشيطان[٤]. وقد روى أبو داود من حديث جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن النُّشْرة فقال: «من عمل الشيطان»[٥]. قال ابن عبد البر: وهذه آثارٌ لينةٌ ولها وجوهٌ مُحتمِلة[٦]، وقد قيل: إنَّ هذا محمولٌ على ما إذا كانت خارجةً عما في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وعن المداواة المعروفة. والنُّشرة من جنس الطب[٧]. فهي غُسالةُ شيءٍ له فضل، فهي كوضوء رسول الله ﷺ.

---

(١) المفهم ٥/ ٥٩٠ .

(٢) أخرجهما ابن أبي شيبة ٨/ ٢٨ .

(٣) المفهم ٥/ ٥٩٠ .

(٤) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٣٠٣٤)، والحاكم ٤/ ٤١٨ من طريق مسكين بن بكير، عن أبي رجاء، عن الحسن، به موصولاً.
وأخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٢٩ ، وأبو داود في المراسيل (٤٥٣) من طرق عن شعبة، عن أبي رجاء، عن الحسن، عن النبي ﷺ مرسلاً.
ورجح المرسل أبو حاتم فيما نقل عنه ابنه في العلل ٢/ ٢٩٥ ، لكن يشهد له حديث جابر الآتي.

(٥) سنن أبي داود (٣٨٦٨)، وأخرجه أحمد (١٤١٣٥).

(٦) التمهيد ٥/ ٢٧٣ .

(٧) المفهم ٥/ ٥٩٠ .

وقال ﷺ: «لا بأس بالرُّقَى ما لم يكن فيه شرك» و«منِ استطاعَ منكم أن ينفعَ أخاه فليفعَلْ»[١].

قلتُ: قد ذكرنا النصَّ في النُّشرة مرفوعاً، وأنَّ ذلك لا يكون إلا من كتاب الله، فَلْيُعتمدْ عليه.

الخامسة: قال مالك: لا بأسَ بتعليق الكتب التي فيها أسماءُ الله عزَّ وجلَّ على أعناق المرضى على وجه التبرُّكِ بها، إذا لم يُرِدْ معلِّقُها بتعليقها مُدافعةَ العين. وهذا معناه قبل أن ينزل به شيءٌ من العين. وعلى هذا القول جماعةُ أهل العلم، لا يجوز عندهم أن يُعلَّق على الصحيح من البهائم أو بني آدم شيءٌ من العلائق خوفَ نزول العين، وكلُّ ما يُعلَّقُ بعد نزول البلاء من أسماءِ الله عزَّ وجلَّ وكتابِه رجاءَ الفرج والبُرْء من الله تعالى، فهو كالرُّقَى المباحِ الذي وردت السُّنَّةُ بإباحتِه من العين وغيرها[٢].

وقد روى عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فَزِعَ أحدُكم في نومه فليقُلْ: أعوذُ بكلماتِ الله التامَّةِ غضبِه وسوءِ عقابه، ومن شرِّ الشياطين وأن يَحْضُرون» وكان عبدُ الله يُعلِّمها ولدَه مَنْ أدركَ منهم ومَنْ لم يُدرِكْ، كتبها وعلَّقها عليه[٣]. فإن قيل: فقد رُوِيَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «من علَّقَ شيئاً وُكِلَ إليه»[٤]، ورأى ابنُ مسعودٍ على أمِّ ولده تميمةً مربوطةً، فجَبذَها جَبْذاً شديداً فقطعها، وقال: إنَّ آلَ ابنِ مسعودٍ لأغنياءُ عن الشِّرك، ثم قال: إنَّ التمائم والرُّقى والتِّوَلَةَ من الشِّرك. قيل: ما التِّوَلَة؟ قال: ما تحبَّبت به لزوجها[٥]. ورُوِيَ عن عقبة بن عامر الجُهنيِّ قال:

---

(١) الحديث الأول أخرجه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك ﷺ، والثاني أخرجه مسلم أيضاً (٢١٩٩) عن جابر بن عبد الله ﷺ.

(٢) التمهيد ١٧/ ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٩٦)، وأبو داود (٣٨٩٣)، والترمذي (٣٥٢٨)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (١٨٧٨١)، والترمذي (٢٠٧٢) من حديث عبد الله بن عكيم.

(٥) أخرجه أحمد (٣٦١٥)، وأبو داود (٣٨٨٣) دون قوله: ما التولة...

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من علَّق تميمةً فلا أتَمَّ اللهُ له، ومن علَّقَ وَدَعةً فلا وَدَّعَ الله له»[١]. قلنا[٢]: قال الخليل بن أحمد: التميمة: قِلادةٌ فيها عُوَذٌ، والوَدَعة: خرزٌ. وقال أبو عمر: التميمة في كلام العرب: القِلادة، ومعناه عند أهل العلم: ما عُلِّقَ في الأعناق من القلائد خشيةَ العين أو غيرها أن تنزل أو لا تنزل قبل أن تنزل. فلا أتمَّ اللهُ عليه صحَّتَه وعافيتَه، ومن تعلَّق وَدَعةً - وهي مثلها في المعنى - فلا ودَعَ الله له، أي: فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية. والله أعلم. وهذا كلُّه تحذيرٌ مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرِف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو المعافي والمبتلي، لا شريك له. فنهاهم رسول الله ﷺ عما كانوا يصنعون من ذلك في جاهليتهم. وعن عائشة قالت: ما تعلَّقَ بعد نزول البلاء فليس من التمائم. وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كلِّ حالٍ قبل نزول البلاء وبعده. والقولُ الأوَّلُ أصحُّ في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى[٣].

وما رُويَ عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كرِه تعليقَه غيرَ القرآن أشياءَ مأخوذةً عن العرَّافين والكُهَّان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن مُعلَّقاً وغيرَ مُعلَّقٍ لا يكون شِرْكاً، وقوله عليه الصلاة والسلام: «من علَّق شيئاً وُكِلَ إليه» فمن علَّق القرآن ينبغي أن يتولَّاه اللهُ ولا يَكِلَه إلى غيره؛ لأنه تعالى هو المرغوبُ إليه والمُتوكَّلُ عليه في الاستشفاء بالقرآن. وسُئِلَ ابنُ المسيِّب عن التعويذ: أيُعلَّق؟ قال: إذا كان في قصبةٍ أو رقعةٍ يُحرَزُ فلا بأس به. وهذا على أن المكتوب قرآن. وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأساً أن يُعلِّقَ الرجلُ الشيءَ من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط. ورخَّصَ أبو جعفر محمد بن عليّ في التعويذ يُعلَّقُ على الصبيان. وكان ابن سِيرين لا يرى بأساً

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤٠٤). ونصَّ السندي على أن كلمة «وَدَّعَ» ضُبطت بالتشديد.

(٢) في (م): قلباً. واعتُبرت هناك على أنها من الحديث!

(٣) التمهيد ١٧/ ١٦٢ - ١٦٤ .

بالشيء من القرآن يُعلِّقه الإنسان[١].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريج الكروب، وتطهير العيوب، وتكفير الذنوب، مع ما تفضَّل به تعالى من الثواب في تلاوته؛ كما روى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنةٌ، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الٓم حرف، بل ألِفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ ومِيمٌ حرفٌ». قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[٢]. وقد تقدَّم[٣]. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لتكذيبهم[٤]. قال قتادة: ما جالسَ أحدٌ القرآنَ إلا قام عنه بزيادةٍ أو نقصان، ثم قرأ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية[٥]. ونظير هذه الآية قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]. وقيل: شفاءٌ في الفرائض والأحكام لما فيه من البيان[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خَساراً صفتُهم الإعراضُ عن تدبُّر آياتِ الله والكفران لنعمه. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. ومعنى «نأى بجانبه» أي: تكبر وتباعد. وناء مقلوبٌ منه، والمعنى: بَعُدَ عن القيام بحقوق الله عزَّ وجلَّ؛ يقال: نأى الشيءُ، أي: بَعُدَ[٧]. ونأيتُه ونأيتُ

(١) المنهاج في شعب الإيمان ٢/ ٣٩ .

(٢) سنن الترمذي (٢٩١٠).

(٣) ١/ ١٢ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٦٨ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٣٣ - ١٣٤ ، لكن أخرجه الحاكم ٢/ ٣٦٥ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٢٣ عن أويس القرني.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٦٨ .

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٤ بمعناه.

عنه بمعنًى، أي: بَعُدْتُ. وأنأيتُه فانتأى، أي: أبعدتُه فبَعُد. وتناءَوْا تباعدوا. والمُنْتأى: الموضع البعيد. قال النابغة:

فإنكَ كالليلِ الذي هو مُدْرِكي وإن خِلْتُ أنَّ المُنتأى عنك واسِعُ[١]

وقرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان: «ناء» مثل باع، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى، كما يقال: راء ورأى[٢]. وقيل: هو من النَّوء وهو النهوض والقيام[٣]. وقد يقال أيضاً للوقوع والجلوس: نوء، وهو من الأضداد[٤]. وقرئ «ونَئِي» بفتح النون وكسر الهمزة[٥]. والعامة: «نأى» في وزن رأى[٦]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي: إذا ناله شدةٌ من فقرٍ أو سقمٍ أو بؤسٍ يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى[٧].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال ابن عباس: ناحيته. وقاله الضحاك. مجاهد: طبيعته. وعنه: حِدَته. ابن زيد: على دينه. الحسن وقتادة: نيَّته. مقاتل: جِبِلَّته. الفراء: على طريقته ومذهبه الذي جُبِل عليه[٨]. وقيل: قل كلٌّ يعمل على ما هو أشكَلُ عنده وأوْلى بالصواب في اعتقاده[٩]. وقيل: هو مأخوذٌ من الشَّكْل؛

---

(١) الصحاح (نأى)، والبيت في ديوان النابغة ـ وهو الذبياني ـ ص٨١ .

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٤ . وينظر السبعة ص٣٨٤ ، والتيسير ص١٤١ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٣٤ .

(٤) اللسان (نوأ).

(٥) وهي قراءة حمزة في روايتي خلاد وأبي عمر عن سليم. السبعة ص٣٨٤ ، والتيسير ص١٤١ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٤ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٨٨ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٨١ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٣٤ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٨ .

يقال: لستَ على شَكْلي ولا شاكلتي[١]. قال الشاعر:

كلُّ امرئٍ يُشبهه فِعْلُه ما يفعل المرءُ فهو أهلُه[٢]

فالشَّكل هو المثل والنظير والضَّرب، كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨]. والشِّكل (بكسر الشين): الهيئة؛ يُقال: جارية حسنة الشِّكل. وهذه الأقوال كلُّها متقاربة.

والمعنى: أنَّ كلَّ أحدٍ يعمل على ما يُشاكل أصلَه وأخلاقَه التي أَلِفَها[٣]، وهذا ذمٌّ للكافر ومدحٌ للمؤمن. والآية والتي قبلها نزلتا في الوليد بن المغيرة ذكره المهدوِيُّ.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كلِّ واحدٍ منهم. وقيل: ﴿أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: أسرعُ قبولاً. وقيل: أحسَنُ ديناً.

وحُكيَ أنَّ الصحابةَ رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن، فقال أبو بكر الصديق ﷺ: قرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ فيه آيةً أرجى وأحسنَ من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: قرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ فيه آيةً أرجى وأحسنَ من قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر:١-٣] قدَّم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارةٌ للمؤمنين. وقال عثمان بن عفان ﷺ: قرأتُ جميعَ القرآن من أوله إلى آخره فلم أرَ آيةً أحسنَ وأرجى من قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩]. وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: قرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ آيةً أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٠ .

(٢) التمثيل والمحاضرة ص١٧ دون نسبة.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٥٤ .

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قلت: وقرأتُ القرآنَ من أوله إلى آخره فلم أرَ آيةً أحسنَ وأرجى من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

روى البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ عن عبد الله قال: بينا أنا مع النبيِّ ﷺ في حَرْثٍ وهو متَّكئٌ على عَسِيبٍ إذ مَرَّ اليهود، فقال بعضُهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال: ما رابكم[(١)] إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه. فقالوا: سلوه. فسألوه عن الروح، فأمسكَ النبيُّ ﷺ فلم يرُدَّ عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يوحَى إليه، فقمتُ مقامي، فلما نزل الوحيُ قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لفظ البخاري. وفي مسلم: فأسكتَ النبيُّ ﷺ. وفيه: وما أوتوا[(٢)].

وقد اختلف الناس في الروح المسؤول عنه أيُّ الروح هو؟ فقيل: هو جبريل. قاله قتادة. قال: وكان ابن عباس يكتمه. وقيل: هو عيسى[(٣)]. وقيل: القرآن، على ما يأتي بيانه في آخر الشُّورى[(٤)]. وقال عليُّ بن أبي طالب: هو مَلَكٌ من الملائكة له سبعون ألف وجه، في كلِّ وجهٍ سبعون ألف لسان، في كلِّ لسانٍ سبعون ألف لغة، يُسبِّحُ الله تعالى بكل تلك اللغات، يخلق الله تعالى من كل تسبيحةٍ مَلَكاً يطير مع الملائكة إلى

---

(١) من الرَّيب: وهو الشك. النهاية (ريب).

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٤)، وسنن الترمذي (٣١٤١). وأخرجه أحمد (٣٦٨٨).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨١ .

(٤) عند تفسير الآية (٥٢) منها.

يوم القيامة. ذكره الطبريُّ[١]. قال ابن عطية[٢]: وما أظنُّ القولَ يصِحُّ عن عليٍّ ﷺ.

قلت: أسند البيهقيُّ: أخبرنا أبو زكريا، عن أبي إسحاق، أخبرنا أبو الحسن الطرائفي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا عبد الله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن عليِّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ يقول: الروح مَلَك. وبإسناده عن معاوية بن صالح حدَّثني أبو هِران ـ بكسر الهاء ـ يزيد بن سمُرة، عمَّن حدَّثه عن عليِّ بن أبي طالب أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ قال: هو ملَكٌ من الملائكة، له سبعون ألف وجه... الحديث بلفظه ومعناه[٣]. وروى عطاء عن ابن عباس قال: الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه، يسبح الله إلى يوم القيامة. ذكره النحاس[٤]. وعنه: جندٌ من جنود الله لهم أيدٍ وأرجلٌ يأكلون الطعام. ذكره الغَزْنَويُّ. وقال الخطابي: وقال بعضهم: هو ملَكٌ من الملائكة بصفةٍ وضعوها من عِظَمِ الخِلْقة. وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد. وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الرُّوح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف امتزاجُه بالجسمِ واتصالُ الحياة به، وهذا شيءٌ لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلَّ[٥]. وقال أبو صالح: الرُّوح خَلْقٌ كخلق بني آدم وليسوا ببني آدم، لهم أيدٍ وأرجل[٦]. والصحيح الإبهام؛ لقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡـرِ رَبِّي﴾[٧] أي: هو أمرٌ عظيمٌ

---

(١) في تفسير ١٥/ ٧١ بمثل إسناد البيهقي الآتي، وفيه رجل مبهم. وقال ابن كثير في تفسيره: هذا أثر غريب عجيب.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٢ .

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (٧٨٠) و(٧٨١)، وفي إسناد الأول علي بن أبي طلحة، وهو ضعيف، وهو لم يسمع من ابن عباس. التهذيب ٣/ ١٧١ . وفي إسناد الثاني رجل مبهم.

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ١٨٩ .

(٥) أعلام الحديث ٣/ ١٨٧٤ .

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٨٢).

(٧) وقع بعدها في النسخ عبارة: «دليل على خلق الروح»، والظاهر أنها مقحمة؛ إذ لا معنى لها هنا، ثم إنها لم ترد في المصدر الذي نقل منه المصنف.

وشأنٌ كبيرٌ من أمر الله تعالى، مُبْهِماً له وتاركاً تفصيلَه؛ ليعرف الإنسان على القطعِ عَجْزَه عن عِلم حقيقةِ نفسِه مع العلم بوجودها، وإذا كان الإنسان في معرفة نفسِه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقةِ الحقِّ أولى[1]. وحكمةُ ذلك تعجيزُ العقل عن إدراك معرفة مخلوقٍ مجاورٍ له، دلالةً على أنه عن إدراك خالقه أعجَزُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اختُلِف فيمن خُوطب بذلك؛ فقالت فرقة: السائلون فقط. وقال قوم: المرادُ اليهود بجُملتهم. وعلى هذا هي قراءة ابن مسعود: «وما أوتوا»[2]، ورواها عن النبيِّ ﷺ. وقالت فرقة: المرادُ العَالم كلُّه. وهو الصحيح، وعليه قراءة الجمهور: «وما أوتيتم». وقد قالت اليهود للنبيِّ ﷺ: كيف لم نُؤتَ من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فغُلِبوا. وقد نصَّ رسولُ الله ﷺ بقوله في بعض الأحاديث: «كُلًّا» يعني أنَّ المراد بـ «ما أوتِيتم» جميع العالم. وذلك أنَّ يهودَ قالت له: نحنُ عَنيتَ أم قَومك؟ فقال: «كُلًّا». وفي هذا المعنى نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان:٢٧]. حكى ذلك الطبريُّ رحمه الله[3] وقد قيل: إنَّ السائلين عن الروح هم قريش، قالت لهم اليهود: سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فإن أخبركم عن اثنين وأمسكَ عن واحدةٍ فهو نبيٌّ. فأخبرهم خبرَ أصحاب الكهف وخبرَ ذي القرنين على ما يأتي. وقال في الروح: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله. ذكره المهدويُّ وغيرُه من المفسِّرين عن ابن عباس[4].

---

(١) المفهم ٧/٣٥٦ - ٣٥٧.

(٢) وهي قراءة شاذة.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٢ ، وكلام الطبري في تفسيره ١٥/ ٧٢ وهو من قوله: وذلك أن يهود...إلخ.

(٤) وذكره ابن الجوزي أيضاً في زاد المسير ٥/ ٨١ عن عطاء عن ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن. أي: كما قَدَرنا على إنزاله نقدِرُ على إذهابه حتى ينساه الخلق. ويتَّصل هذا بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ولو شئتُ أن أذهبَ بذلك القليلِ لقَدَرتُ عليه. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: ناصراً يردُّه عليك.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ يعني: لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك؛ فهو استثناءٌ ليس من الأوّل[(١)]. وقيل: إلا أن يرحمك ربُّكَ فلا يذهَبُ به[(٢)].

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ إذ جعلكَ سيِّدَ ولدِ آدم، وأعطاك المقامَ المحمود وهذا الكتاب العزيز[(٣)]. وقال عبد الله بن مسعود: أوّل ما تَفْقِدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تَفْقِدون الصلاة، وأنَّ هذا القرآنَ كأنَّه قد نُزِعَ منكم، تُصبِحون يوماً وما معكم منه شيء. فقال رجل: كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن وقد ثبَّتناه في قلوبنا، وأثبتناه في مصاحفنا، نُعلِّمه أبناءَنا، ويعلِّمه أبناؤنا أبناءَهم إلى يوم القيامة؟! قال: يُسرى به في ليلةٍ فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب، فتصبح الناس كالبهائم. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ الآية[(٤)]. أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال: أخبرنا أبو الأحْوص، عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن شدَّاد بن مَعْقِلٍ قال: قال عبد الله ـ يعني ابنَ مسعود ـ: إنَّ هذا القرآنَ الذي بين أظهُرِكم يوشِكُ أن يُنزَعَ منكم. قال: قلتُ: كيف يُنزَعُ منَّا وقد أثبتَه اللهُ في قلوبنا وثبَّتناه في مصاحفنا؟! قال: يُسرى عليه في ليلةٍ واحدةٍ، فيُنزَعُ ما في القلوب، ويذهب ما في

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٣٥ .

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٤٣٩ .

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٦ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٥٩٨٠)، والطبراني في «الكبير» (٨٦٩٨).

المصاحف، ويصبحُ الناسُ منه فقراء. ثم قرأ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾[1] وهذا إسناد صحيح. وعن ابن عمر: لا تقوم الساعة حتى يرجعَ القرآنُ من حيث نزل، له دَوِيٌّ كدويِّ النحل، فيقول الله: ما بالك؟ فيقول: يا ربِّ منك خرجتُ وإليكَ أعود، أُتْلَى فلا يُعمَلُ بي، أُتْلَى ولا يُعمَلُ بي[2].

قلت: قد جاء معنى هذا مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص[3] وحذيفة؛ قال حذيفة: قال رسول الله ﷺ: «يُدرَسُ الإسلامُ كما يُدرَسُ وَشْيُ الثوبِ، حتى لا يُدْرَى ما صيامٌ ولا صلاةٌ ولا نُسكٌ ولا صدقةٌ، فيُسرى على كتاب الله تعالى في ليلةٍ فلا يبقى منه في الأرض آيةٌ، وتبقى طوائفُ من الناس الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ يقولون: أدركْنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها»[4]. قال له صلة[5]: ما تغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نُسكٌ ولا صدقة؟! فأعرضَ عنه حذيفة، ثم ردَّدها ثلاثاً، كلُّ ذلك يُعرِضُ عنه حذيفة، ثم أقبل عليه حذيفةُ فقال: يا صِلة، تُنجيهم من النار. ثلاثاً. خرَّجه ابن ماجه في السنن[6]. وقال عبد الله بن عمر: خرجَ النبيُّ ﷺ وهو معصوبُ الرأس من وجعٍ، فضحك، فصعِد المنبرَ، فحمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، ما هذه الكتُبُ التي تكتبون؟ أكِتابٌ غيرُ كتاب الله؟! يوشِكُ أنْ يغضبَ اللهُ لكتابه، فلا يَدَعَ ورقاً ولا قلباً إلا أخذ منه» قالوا: يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ؟ قال: «مَنْ أرادَ اللهُ به خيراً أبقى في قلبه لا إله إلا الله» ذكره الثعلبيُّ والغَزْنَوِيُّ وغيرهما

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٣٥ ، وفيه: عن ابن عمرو.

(٣) هكذا وقع في النسخ: والحديث إنما هو عن عبد الله بن عمرو كما سيأتي.

(٤) في جميع النسخ: «وهم لا يدرون ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نسكٌ» بدلاً من «فنحن نقولها».

(٥) وهو ابن زُفر، وهو أحد الرواة للأحاديث.

(٦) سنن ابن ماجه (٤٠٤٩). وأخرجه الحاكم ٤/ ٤٧٣ و ٥٤٥ .

في التفسير[١].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

أي: عوناً ونصيراً، مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعرٍ فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاءُ لَقُلنا مثلَ هذا، فأكذبهم الله تعالى[٢]. وقد مضى القول في إعجاز القرآن في أوّل الكتاب[٣]، والحمد لله. و﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم في «لئن» وقد يُجزَمُ على إرادة الشرط؛ قال الشاعر:

لئِنْ كانَ ما حُدِّثْتِهِ اليومَ صادقاً ... أَقِمْ في نهارِ القَيْظِ للشمسِ بادِيَا[٤]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: وجَّهنا القولَ فيه بكلِّ مَثَلٍ يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر، والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي، وأقاصيص الأوّلين، والجنة والنار والقيامة. ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يريد أهلَ مكة؛ بيَّن لهم الحقَّ، وفتح لهم وأمهلهم حتى تبيَّن لهم أنه الحق، فأبَوْا إلا الكفر وقتَ تَبيُّنِ الحق. قال المهدَويُّ: ولا حجةَ للقدريّ في قولهم: لا يُقال أبى إلا لمن أبَى فِعْلَ ما هو قادرٌ عليه؛ لأنَّ الكافرَ وإن كان غير قادرٍ على الإيمان بحُكم الله عليه بالإعراض عنه وطبْعِه على قلبه، فقد كان قادراً وقتَ الفُسحةِ

(١) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٥١٠)، والدعاء (١٤٨٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٥٠: في إسناده عيسى بن ميمون الواسطي، وهو متروك، وقد وثقه حماد بن سلمة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٣٥.

(٣) ١/ ٣٥١ - ٣٥٢.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٠ - ١٣١ بمعناه. والبيت قائلته امرأةٌ من بني عقيل، وهو في خزانة الأدب ١١/ ٣٢٨. وفيهما «أَصُمْ» بدل «أقِمْ».

والمُهلة على طلب الحقِّ وتمييزه من الباطل.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ الآية نزلت في رؤساء قريشٍ مثل عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي سفيان والنضر بن الحارث، وأبي جهل وعبد الله بن أبي أمية، وأميَّة بن خلف وأبي البَخْتَريِّ، والوليد بن المغيرة وغيرهم. وذلك أنهم لمَّا عجزوا عن معارضة القرآن ولم يرضَوْا به معجزةً، اجتمعوا ـ فيما ذكر ابن إسحاق وغيره ـ بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمدٍ ـ ﷺ ـ فكلِّموه وخاصِموه حتى تُعْذَرُوا فيه، فبعثوا إليه: إنَّ أشرافَ قومك قد اجتمعوا لك[1] ليكلموك فأْتِهم، فجاءهم رسولُ الله ﷺ وهو يظنُّ أن قد بدا لهم فيما كلَّمهم فيه بُدُوٌّ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً يحبُّ رشدَهم ويَعِزُّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم فقالوا له: يا محمد، إنَّا قد بعثنا إليك لنكلِّمَكَ، وإنَّا واللهِ ما نعلمُ رجلاً من العرب أدخلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعِبْتَ الدين، وشتمتَ الآلهة، وسفَّهتَ الأحلامَ، وفرَّقتَ الجماعة، فما بَقيَ أمرٌ قبيحٌ إلا وقد جئتَه فيما بيننا وبينك ـ أو كما قالوا له ـ فإن كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ إنما تطلبُ به الشرفَ فينا فنحن نُسوِّدُكَ علينا، وإن كنتَ تريد به مُلكاً ملَّكناكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتيكَ رَئِيًّا تراه قد غَلَب عليك ـ وكانوا يُسمُّون التابعَ من الجنِّ رَئِيًّا،

(١) في (م): إليك.

فربما كان ذلك ـ بذلنا أموالنا في طلب الطبِّ لك حتى نُبْرِئكَ منه أو نُعذرَ فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملكَ عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتُكُم رسالاتِ ربي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتُكم به فهو حَظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» أو كما قال ﷺ. قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غيرَ قابلٍ منَّا شيئاً مما عرضناه عليك، فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلداً ولا أقلَّ ماءً ولا أشدَّ عيشاً مِنَّا، فسَلْ لنا ربَّك الذي بعثك بما بعثك به، فليُسيِّرْ عنا هذه الجبال التي قد ضُيِّقتْ علينا، ولْيَبْسُطْ لنا بلادَنا، وليخْرِقْ لنا فيها أنهاراً كأنهار الشأم، وليبعث لنا مَنْ مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصيَّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخَ صِدْقٍ فنسألهم عما تقول، أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدَّقوكَ وصنعتَ ما سألناكَ صدَّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولاً كما تقول. فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه: «ما بهذا بُعِثتُ إليكم، إنما جئتُكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلَّغْتُكم ما أُرسِلْتُ به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإنْ ترُدُّوه عليَّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم». قالوا: فإذ لم تفعل هذا لنا فخُذْ لنفسِكَ، سَلْ ربَّكَ أن يبعثَ معك مَلَكاً يُصدِّقُكَ بما تقول، ويُراجعُنا عنك، واسأله فليجعَلْ لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهبٍ وفضةٍ يُغنيكَ بها عمَّا نراك تبتغي، فإنك تقومُ بالأسواق وتلتمِسُ المعاشَ كما نلتمِسُه، حتى نعرِفَ فضلَك ومنزلتَك من ربِّكَ إن كنت رسولاً كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعلٍ، وما أنا بالذي يسألُ ربَّه هذا، وما بُعِثتُ بهذا إليكم، ولكنَّ اللهَ بعثني بشيراً ونذيراً ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا مني ما جئتُكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن ترُدُّوه عليَّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم» قالوا: فأسْقِطِ السماءَ علينا كِسَفاً كما زعمتَ أنَّ ربَّكَ إن شاء فعل؛ فإنَّا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. قال: فقال رسول الله ﷺ: «ذلك

إلى الله عزَّ وجلَّ، إن شاء أن يفعلَه بكم فعل» قالوا: يا محمد، أفما عَلِمَ ربُّكَ أنَّا سنجلسُ معك ونسألُك عما سألناك عنه، ونطلبُ منكَ ما نطلب، فيتقدَّمَ إليك فيُعلمَكَ بما تُراجعُنا به، ويخبرَكَ ما هو صانعٌ في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟! إنه قد بلَغَنا أنك إنما يُعلِّمك هذا رجلٌ من اليمامة يُقال له: الرحمن، وإنَّا واللهِ لا نؤمنُ بالرحمن أبداً، فقد أعذَرْنا إليك يا محمد، وإنَّا واللهِ لا نتركُكَ وما بلغتَ منا حَتى نُهلِكَك أو تُهلِكَنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمِنَ لكَ حتى تأتي بالله والملائكة قَبِيلاً. فلمَّا قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكةَ بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد، عرضَ عليكَ قومُكَ ما عرضوا فلم تقبَلْه منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويُصدِّقوك ويتَّبعوك فلم تفعل! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلَكَ عليهم ومنزلتَكَ من الله فلم تفعل! ثم سألوك أن تُعجِّلَ لهم بعضَ ما تُخوِّفُهم به من العذاب فلم تفعل! ـ أو كما قال له ـ فواللهِ لا أُومِنُ بكَ أبداً حتى تتَّخِذَ إلى السماء سُلَّماً، ثم تَرْقَى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصَكٍّ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وَايْمُ اللهِ لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أني أُصَدِّقُكَ! ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسِفاً لِما فاتَه مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوه، ولِما رأى من مباعدتهم إياه. كلُّه لفظ ابن إسحاق[١].

وذكر الواحديُّ عن عكرمة، عن ابن عباس: فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾[٢]. ﴿يَنبُوعًا﴾ يعني العيون عن مجاهد[٣]. وهي يَفعول، من نَبَع يَنْبَع[٤]. وقرأ عاصم وحمزة والكسائيُّ: «تَفْجُرَ لنا» مخفَّفة، واختاره

---

(١) كما في سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥ - ٢٩٨ . وأخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٨٧ - ٩٠ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٢ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٣ . وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٧٨ ، وهو في تفسيره ١/ ٣٧٠ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ١٦٥ .

أبو حاتم؛ لأنَّ اليَنبوع واحد. ولم يختلفوا في «تُفجِّرَ الأنهار» أنه مُشدَّد. قال أبو عبيد: والأُولى مثلها. قال أبو حاتم. ليست مثلها؛ لأنَّ الأُولى بعدها يَنبوعٌ وهو واحد، والثانية بعدها الأنهار وهي جمع، والتَّشديد يدلُّ على التكثير[١]. أُجيبَ بأنَّ «يَنبوعا» وإن كان واحداً فالمراد به الجمع، كما قال مجاهد. اليَنبوع: عين الماء، والجمع الينابيع[٢]. وقرأ قتادة: «أو يكونَ لكَ جنة»[٣]. ﴿خِلَٰلَهَا﴾ أي: وسطها[٤].

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ قراءة العامة. وقرأ مجاهد: «أو تَسْقُطَ السماءُ» على إسناد الفعل إلى السماء[٥]. ﴿كِسَفًا﴾ قِطَعاً. عن ابن عباس وغيره[٦]. والكِسَف ـ بفتح السين ـ جمع كِسْفة، وهي قراءة نافع وابن عامر وعاصم. الباقون: «كِسْفاً» بإسكان السين[٧]. قال الأخفش: من قرأ كسْفاً من السماء جعله واحداً، ومن قرأ كِسَفاً جعله جمعاً[٨]. قال المهدَويُّ: ومن أسكن السين جاز أن يكون جمع كِسْفة، وجاز أن يكون مصدراً؛ مِنْ كسفتَ الشيء إذا غطَّيتَه. فكأنهم قالوا: أسقطها طبقاً علينا[٩]. وقال الجوهرِيّ[١٠]: الكِسْفة: القطعة من الشيء؛ يُقال: أعطني كِسْفةً من ثوبك، والجمع كِسْف وكِسَف. ويقال: الكِسْفُ والكِسْفةُ واحد. ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٥٧ بمعناه. وينظر السبعة ص٣٨٥ ، والتيسير ص١٤١ .

(٢) تهذيب اللغة ٣/ ٨ .

(٣) لم نقف على من ذكرها سوى المصنف، وهي قراءة شاذة.

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٣ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٨٧ .

(٥) القراءات الشاذة ص٧٧ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٧٣ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٣٧ . وينظر السبعة ص٣٨٥ ، والتيسير ص١٤١ .

(٨) نقله عنه الجوهري في الصحاح (كسف).

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٥ بمعناه.

(١٠) في الصحاح (كسف).

﴿قَبِيلًا﴾ أي: معاينة. عن قَتادة وابن جُريج[١]. وقال الضحاك وابن عباس: كفيلاً[٢]. قال مقاتل: شهيداً. مجاهد: هو جمع القبيلة؛ أي: بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً[٣]. وقيل: ضمناء يضمنون لنا إتيانك به.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب. عن ابن عباس وغيره. وأصله الزينة[٤]. والمُزَخْرَف: المُزَيَّن. وزخارف الماء: طرائقه[٥]. وقال مجاهد: كنت لا أدري ما الزُّخْرُف حتى رأيتُه في قراءة ابن مسعود: «بيتٌ مِن ذَهَبٍ»[٦] أي: نحن لا نَنقاد لك مع هذا الفقر الذي نرى.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: تصعَد[٧]؛ يقال: رَقِيتُ في السُّلَّم أرْقَى رَقْياً ورُقِيًّا إذا صعِدتُ، وارتقيتُ مثله[٨]. ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: من أجل رُقيِّك[٩]، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضي مُضِيًّا، وهوى يهوي هُوِيًّا، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا.

﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ أي: كتاباً من الله تعالى إلى كلِّ رجلٍ منا؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾[١٠] [المدثر: ٥٢]. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرأ أهل مكة والشام: «قال سُبحانَ ربي» يعني النبيَّ ﷺ[١١]؛ أي: قال ذلك

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٧٣ ، وزاد المسير ٥/ ٨٧ .
(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٣٧ عن ابن عباس.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) الصحاح (زخرف).
(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٥ . وأخرجه الطبري ١٥/ ٨٥ ، وهي قراءة شاذة.
(٧) زاد المسير ٥/ ٨٨ .
(٨) الصحاح (رقي).
(٩) مجمع البيان ١٥/ ٩٩ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٥٨ .
(١٠) مجمع البيان ١٥/ ٩٩ .
(١١) تفسير البغوي ٣/ ١٣٧ . وينظر السبعة ص٣٨٥ ، والتيسير ص١٤١ .

تنزيهاً لِله عزَّ وجلَّ عن أن يعجِزَ عن شيءٍ وعن أن يُعترَضَ عليه في فعل. وقيل: هذا كلُّه تعجُّبٌ عن فرط كفرهم واقتراحاتهم. الباقون «قل» على الأمر؛ أي: قل لهم يا محمد ﴿هَلْ كُنتُ﴾ أي: ما أنا ﴿إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1] أتَّبع ما يوحَى إليَّ من ربِّي، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بهذه الآيات؟! وقال بعض الملحدين: ليس هذا جواباً مُقنِعاً، وغَلِطوا؛ لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشرٌ لا أقدر على شيءٍ مما سألتموني، وليس لي أن أتخيَّر على ربي، ولم تكن الرسل قَبْلي يأتون أممَهم بكلِّ ما يريدونه ويبغونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالَّة على صحة نبوَّتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكلِّ ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكلِّ إنسانٍ أن يقول: لا أُومِنُ حتى أُوتىَ بآيةٍ خلاف ما طلب غيري. وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس. وإنما التدبير إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعني الرسل والكتب من عند الله بالدعاء إليه. ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ جهلاً منهم[2]: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي: الله أجَلُّ من أن يكون رسولُه من البشر[3]. فبيَّن الله تعالى فَرْطَ عنادهم؛ لأنهم قالوا: أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد، وغفلوا عن المعجزة. فـ «أنْ» الأولى في محلِّ نصبٍ بإسقاط حرف الخفض. و«أنْ» الثانية في محلِّ رفع بـ «منع» أي: وما منع الناسَ من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم: أبعَثَ اللهُ بشراً رسولاً[4].

(١) المصادر السابقة.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٩١ .

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٢٩ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦١ .

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

أعلمَ اللهُ تعالى أنَّ المَلَك إنما يُرسَلُ إلى الملائكة؛ لأنه لو أرسل ملكاً إلى الآدميِّين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خُلِقَ عليها، وإنما أقدرَ الأنبياءَ على ذلك وخَلقَ فيهم ما يقدرون به؛ ليكون ذلك آيةً لهم ومعجزة[١]. وقد تقدَّم في «الأنعام» نظيرُ هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ وقد تقدَّم الكلام فيه[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

يُروى أنَّ كفار قريشٍ قالوا حين سمعوا قولَه: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾: فمن يشهد لكَ أنك رسولُ الله؟ فنزل: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي: لو هداهم الله لاهتدَوا. ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ أي: لا يهديهم أحد.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما ـ أنَّ ذلك عبارةٌ عن الإسراع بهم إلى جهنم؛ من قول العرب: قَدِم القوم على وجوههم إذا أسرعوا. الثاني ـ

---

(١) قاله الطبرسي في مجمع البيان ١٥/ ١٠١ بمعناه.

(٢) ٨/ ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٤، وفيه أن ذلك بعد أن سمعوا قوله: «لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً».

أنهم يُسحَبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يُفعل في الدنيا بمن يُبالَغ في هَوانه وتعذيبه[(١)]. وهذا هو الصحيح؛ لحديث أنسٍ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، الذين يُحشرون على وجوههم، أيُحشَرُ الكافرُ على وجهه؟ قال رسول الله ﷺ: «أليسَ الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يُمْشِيَه على وجهه يوم القيامة؟». قال قتادة حين بلغه: بَلَى وعِزَّةِ رَبِّنا. أخرجه البخاريُّ ومسلم[(٢)]. وحسبُكَ.

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قال ابن عباس والحسن: أي: عُمْيٌ عمَّا يسرُّهم، بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صُمٌّ عما ينفعهم. وعلى هذا القول حواسُّهم باقيةٌ على ما كانت عليه. وقيل: إنهم يُحشرون على الصفة التي وصفَهم الله بها؛ ليكون ذلك زيادةً في عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم في النار، فأبصروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] وتكلموا؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١٣]، وسمعوا؛ لقوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢]. وقال مقاتل بن سليمان: إذا قيل لهم: «اِخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» [المؤمنون:١٠٨] صاروا عُمْياً لا يبصرون، صُمًّا لا يسمعون، بُكْماً لا يفقهون[(٣)]. وقيل: عموا حين دخلوا النار لشدّة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلِّمون. وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئاً.

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مستقرُّهم ومقامهم. ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي: سكنت، عن الضحاك. وغيره. مجاهد: طَفِئت[(٤)]: يقال: خبَتِ النارُ تخبو خبواً، أي: طَفِئت، وأخبيتُها أنا[(٥)]. ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً تتلهَّب[(٦)]. وسكونُ التهابِها من غير نقصانِ

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) صحيح البخاري (٤٧٦٠)، وصحيح مسلم (٢٨٠٦).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥ . وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٥/ ٩٦ ، وأخرجه أيضاً ١٥/ ٩٥ عن ابن عباس ومجاهد.

(٥) الصحاح (خبا).

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ١٩٨ ، وزاد المسير ٥/ ٩١ .

في آلامهم ولا تخفيفٍ عنهم من عذابهم[١]. وقيل: إذا أرادت أن تَخْبُو. كقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الآية ٤٥ من هذه السورة].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ذلك العذاب جزاءُ كفرهم. ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي: تراباً[٢]. ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ قيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: أو لم يروا أنَّ الله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل لهم أجلاً لا ريبَ فيه قادرٌ على أن يخلق مثلهم. والأجل: مدَّة قيامهم في الدنيا ثم موتهم، وذلك ما لا شكَّ فيه إذ هو مشاهد. وقيل: هو جواب قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾. وقيل: هو يوم القيامة.

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي المشركون إلا جحوداً بذلك الأجل وبآيات الله. وقيل: ذلك الأجل هو وقت البعث[٣]، ولا ينبغي أن يُشَكَّ فيه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أي: خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النِّعم، وهذا أعَمُّ[٤]. ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ من البخل، وهو جواب

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٧٥ .

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٥ بمعناه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣٠ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٦ .

قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[١] حتى نتوسَّع في المعيشة. أي: لو توسَّعتم لبخِلتم أيضاً. وقيل: المعنى: لو ملَكَ أحدُ المخلوقين خزائنَ اللهِ لما جادَ بها كجود الله تعالى؛ لأمرين: أحدهما ـ أنه لابُدَّ أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته. الثاني ـ أنه يخاف الفقر ويخشى العدم، واللهُ تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين[٢]. والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر؛ قاله ابن عباس وقتادة[٣]. وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قلّ ماله.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي: بخيلاً مُضيِّقاً[٤]. يقال: قَتَر على عياله يَقْتِرُ ويَقْتُرُ قَتْراً وقُتوراً إذا ضيَّقَ عليهم في النفقة، وكذلك التقتير والإقتار، ثلاث لغات[٥]. واختُلِفَ في هذه الآية على قولين: أحدهما ـ أنها نزلت في المشركين خاصَّةً. قاله الحسن. والثاني ـ أنها عامة. وهو قول الجمهور، وذكره الماوردي[٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ اختُلِفَ في هذه الآيات، فقيل: هي بمعنى آيات الكتاب، كما روى الترمذيُّ والنسائيُّ عن صَفوان بن عَسَّال المُراديّ أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: اِذْهَبْ بنا إلى هذا النبيِّ نسأله. فقال: لا تقُلْ له: نبيٌّ، فإنه إن سمِعَنا كان له أربعةُ أعيُنٍ. فأتيا النبيَّ ﷺ، فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦١ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٧٦ .

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٩٨ .

(٤) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٥١ .

(٥) الصحاح (قتر).

(٦) في النكت والعيون ٣/ ٢٧٦ .

تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، ولا تَسْرِقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببريء إلى سلطانٍ فيقتله، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنةً، ولا تَفِرُّوا من الزحف ـ شك شعبة ـ وعليكم يا معشر[١] اليهود خاصّةً ألا تعدوا في السبت» فقبَّلا يدَيه ورجلَيه وقالا: نشهدُ أنَّكَ نبيٌّ. قال: «فما يمنعُكُما أن تُسلِما؟» قالا: إن داودَ دعا اللهَ ألَّا يزال في ذُرِّيته نبيٌّ، وإنَّا نخاف إن أسلمنا أن تقتُلَنا اليهود. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[٢]. وقد مضى في البقرة[٣]. وقيل: الآيات بمعنى المعجزات والدلالات. قال ابن عباس والضحاك: الآيات التسع: العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم؛ آياتٌ مفصَّلات. وقال الحسن والشعبيُّ: الخمس المذكورة في «الأعراف»[٤]، يعنيان الطوفانَ وما عُطِفَ عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات. ورُويَ نحوُه عن الحسن، إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة: تلقُّفُ العصا ما يأفكون. وعن مالك كذلك، إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات: البحر والجبل. وقال محمد بن كعب: هي الخمس التي في «الأعراف» والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم[٥]. وقد تقدَّم شرح هذه الآيات مستوفًى والحمد لله. ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ أي: سَلْهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات، حسبما تقدَّم بيانه في يونس[٦]. وهذا سؤال استفهامٍ؛ ليعرف اليهودُ صحةَ ما يقول محمدٌ ﷺ. ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ

---

(١) قوله: «يا معشر» ليس في النسخ، وقد أثبت من سنن الترمذي.

(٢) سنن الترمذي (٢٧٣٣)، والمجتبى ٧/ ١١١، وسنن النسائي الكبرى (٣٥٢٧).

(٣) ٢/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٤) عند تفسير الآية (١٣٣).

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٨، وتفسير البغوي ٣/ ١٣٩ - ١٤٠، وزاد المسير ٥/ ٩٢. وقول ابن عباس أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٩٠، والطبري ١٥/ ١٠١ - ١٠٢. وقول الشعبي أخرجه الطبري ١٥/ ١٠١، وقول الحسن الثاني أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٩١، والطبري ١٥/ ١٠٢.

(٦) ١١/ ٥٢.

﴿يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي: ساحراً بغرائب أفعالك. قاله الفراء وأبو عبيدة. فوضع المفعول موضِعَ الفاعل، كما تقول: هذا مشؤوم وميمون، أي: شائم ويامن[١]. وقيل: مخدوعاً[٢]. وقيل: مغلوباً. قاله مقاتل. وقيل غير هذا؛ وقد تقدَّم. وعن ابن عباسٍ وأبي نَهِيك أنهما قرأا: «فَسألَ بني إسرائيل» على الخبر، أي: سأل موسى فرعونَ أن يُخلِّي بني إسرائيل ويُطلِقَ سبيلَهم ويرسلَهم معه[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الآيات التسع. و«أنزل» بمعنى أوجد. ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: دلالاتٍ يُستدَلُّ بها على قدرته ووحدانيته. وقراءة العامة: «علِمتَ» بفتح التاء، خطاباً لفرعون. وقرأ الكسائيُّ بضَمِّ التاء، وهي قراءة عليٍّ ﷺ، وقال: واللهِ ما علِمَ عدوُّ الله ولكنَّ موسى هو الذي عَلِمَ، فبلغَتِ ابنَ عباس فقال: إنها «لقد عَلِمْتَ»، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ونَسبَ فرعونَ إلى العناد[٤]. وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصحُّ للمعنى الذي احتجَّ به ابن عباس؛ ولأن موسى لا يَحتجُّ بقوله: علمتُ أنا، وهو الرسول الداعي، ولو كان مع هذا كلِّه تصِحُّ به القراءة عن عليٍّ لكانت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كُلثوم المرادِيِّ وهو مجهولٌ لا يُعْرَف، ولا نعلم أحداً قرأ بها غير الكسائي[٥]. وقيل: إنما أضاف موسى

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣١ ، وزاد المسير ٥/ ٩٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٤٠ ، وزاد المسير ٥/ ٩٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٩ بنحوه. وهذه القراءة في القراءات الشاذة ص٧٧ عن ابن عباس وحده.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣١ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٤٠ ، وزاد المسير ٥/ ٩٤ . وينظر السبعة ص٣٨٥-٣٨٦ ، والتيسير ص١٤١ .

(٥) قاله النحاس في معاني القرآن ٤/ ٢٠١ - ٢٠٢ بمعناه. وقد ذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٣٢ إسناد القراءة عن عليٍّ، وفيه الرجل المجهول الذي ذكره المصنف.

إلى فرعون العلم بهذه المعجزات؛ لأنَّ فرعون قد علم مقدار ما يتهيَّأ للسحرة فِعْلُه، وأنَّ مثل ما فعل موسى لا يتهيَّأ لساحر، وأنه لا يقدِرُ على فعلِه إلا من يفعل الأجسام ويملك السماوات والأرض. وقال مجاهد: دخل موسى على فرعون في يوم شاتٍ وعليه قطيفة له، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان، فرأى فرعون جانبي البيت بين فُقْمَيْها[١]، ففزع وأحدث في قطيفته.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ الظنُّ هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران أيضاً. قال الكُمَيْت:

ورأتْ قُضاعةُ في الأيا مِنِ رأيَ مَثْبُورٍ وثابِرِ

أي: مخسورٍ وخاسرٍ، يعني في انتسابها إلى اليمن[٢]. وقيل: ملعوناً. رواه المِنْهال عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس[٣]. وقاله أبان بن تَغْلِب، وأنشد:

يا قومَنا لا تَرُومُوا حَرْبَنا سَفَهاً إنّ السَّفاه وإن البَغْيَ مثبورُ

أي: ملعون[٤]. وقال ميمون بن مِهْران عن ابن عباس: «مثبوراً»: ناقص العقل[٥]. ونظر المأمون رجلاً فقال له: يا مثبور، فسُئِلَ عنه، قال فقال الرشيد: قال المنصور لرجل: مثبور؛ فسألتُه فقال: حدثني ميمون بن مِهران... فذكره. وقال قتادة: هالكاً[٦]. وعنه أيضاً والحسن ومجاهد: مُهلَكاً[٧]. والثُّبُور: الهلاك؛ يقال: ثَبَر الله

---

(١) الفُقْمُ، بالضمِّ والفتح: اللَّحى. النهاية (فقم).

(٢) الصحاح (ثبر).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٣، وأخرجه الطبري ١٥/ ١٠٨ - ١٠٩.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٨.

(٥) زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ٩٤ - ٩٥.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٢٧٨.

(٧) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٢٠٣ عن قتادة، وأبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٨٦ عن قتادة والحسن، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٧١.

العدوَّ ثُبوراً أهلكه[١]. وقيل: ممنوعاً من الخير. حكى أهل اللغة: ما ثبرَكَ عن كذا، أي: ما منعكَ منه[٢]. وثبرَهُ اللهُ يَثْبُره ثَبراً[٣]. قال ابنُ الزِّبَعْرَى[٤]:

إذ أُجارِي الشيطانَ في سَنَنِ الغَـ ـيِّ ومن مالَ مَيْلَهُ مثبورُ

الضحاك: «مثبوراً»: مسحوراً. ردَّ عليه مثلَ ما قال له باختلاف اللفظ. وقال ابن زيد: «مثبوراً»: مخبولاً لا عقلَ له[٥].

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أراد فرعون أن يُخرِجَ موسى وبني إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد، فأهلكه الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد إغراقه ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الشام ومصر. ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: من قبوركم مختلطين من كلِّ موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر، لا يتعارفون، ولا ينحاز أحدٌ منكم إلى قبيلته وحَيِّه[٦]. وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعاً من جهاتٍ شتَّى[٧]. والمعنى واحد. قال الجوهريُّ: واللَّفيفُ: ما اجتمعَ من الناس من قبائل شتَّى؛ يقال: جاء القوم بلَفِّهم ولَفِيفهم، أي: وأخلاطهم. وقوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: مجتمعين مُختَلِطين. وطعامٌ لَفِيفٌ: إذا كان مخلوطاً من جنسين فصاعداً. وفلانٌ لفيفُ

---

(١) تاج العروس (ثبر).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٢ .

(٣) الصحاح (ثبر).

(٤) في ديوانه ص٣٦ .

(٥) مجمع البيان ١٥/ ١٠٧ .

(٦) المصدر السابق، لكن بمعناه

(٧) النكت والعيون ٣/ ٢٧٨ .

فلانٍ، أي: صديقه[١]. قال الأصمعيُّ: اللفيف: جمعٌ وليس له واحد، وهو مثل الجميع[٢]. والمعنى: أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر، مختلطين لا يتعارفون. وقال الكلبي: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء[٣].

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ هذا متصلٌ بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن. والكناية ترجع إلى القرآن[٤]. ووجه التكرير في قوله: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يجوز أن يكون معنى الأوّل: أوجبنا إنزاله بالحق. ومعنى الثاني: ونزل وفيه الحق، كقوله: خرج بثيابه، أي: وعليه ثيابه.

وقيل: الباء في «وبالحق» الأوّل بمعنى مع، أي: مع الحق؛ كقولك: ركبَ الأميرُ بسيفه، أي: مع سيفه. ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: بمحمدٍ ﷺ، أي: نزل عليه؛ كما تقول: نزلتُ بزيد[٥]. وقيل: يجوز أن يكون المعنى: وبالحقِّ قدَّرنا أن ينزل، وكذلك نزل.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ مذهب سيبويه أنَّ «قرآناً» منصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ يُفسِّره الظاهر. وقرأ جمهور الناس: «فَرَقناه» بتخفيف الراء، ومعناه: بيَّنَّاه وأوضحناه[٦]، وفرقنا فيه بين الحق والباطل. قاله الحسن[٧]. وقال ابن

---

(١) الصحاح (لفف).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٤ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٤١ .

(٤) زاد المسير ٥/ ٩٦ .

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ٦٨ بمعناه.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٠ .

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ١١٥ .

عباس: فصَّلناه[١].

وقرأ ابن عباس وعليٌّ وابن مسعود وأُبَيٌّ بن كعب وقَتادة وأبو رجاء والشَّعْبيُّ: «فرَّقناه» بالتشديد[٢] أي: أنزلناه شيئاً بعد شيءٍ لا جملةً واحدة، إلا أنَّ في قراءة ابن مسعود وأُبَيٍّ: «فَرَّقناه عليك»[٣].

واختُلِفَ في كم نزل القرآن من المدَّة، فقيل: في خمسٍ وعشرين سنة. ابن عباس: في ثلاث وعشرين. أنس: في عشرين. وهذا بحسب الخلاف في سِنِّ رسولِ الله ﷺ[٤]، ولا خلافَ أنه نزل إلى السماء الدنيا جملةً واحدة، وقد مضى هذا في «البقرة»[٥].

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: تطاوُلٍ في المدَّة شيئاً بعد شيء، ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود[٦]، أي: أنزلناه آيةً آيةً، وسورةً سورة[٧]. وأمَّا على القول الأوّل فيكون «عَلَى مُكْثٍ» أي: على ترسُّلٍ في التلاوة وترتيل. قاله مجاهد وابن عباس وابن جُريج[٨]. فيُعطي القارئ القراءةَ حقَّها من ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحينٍ ولا تطريبٍ مُؤدٍّ إلى تغيير لفظ القرآن بزيادةٍ أو نقصانٍ، فإن ذلك حرامٌ على ما تقدَّم أوَّل الكتاب. وأجمع القُرَّاء على ضَمِّ الميم من «مُكْثٍ»[٩] إلا ابن مُحَيْصِن فإنه قرأ: «مَكْثٍ» بفتح الميم[١٠]. ويقال. مَكْثٍ ومُكْثٍ ومِكْثٍ؛ ثلاث

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ١١٤.

(٢) وهذه القراءة في الشاذة ص٧٧.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٠ - ٤٩١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١، لكن وقع في مطبوعه وفي الوسيط ٣/ ١٣٢: «قتادة» بدلاً من «أنس».

(٥) ٣/ ١٦١.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

(٧) مجمع البيان ١٥/ ١٠٩.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

(٩) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

(١٠) زاد المسير ٥/ ٩٧ عن ابن محيصن وغيره، وهي قراءة شاذة.

لغات[١]. قال مالك: «على مُكث»: على تثبُّتٍ وترسُّلٍ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ مبالغةٌ وتأكيدٌ بالمصدر للمعنى المتقدم[٣]، أي: أنزلناه نَجْماً بعد نجم[٤]؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقتٍ واحدٍ لنفروا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ يعني القرآن. وهذا من الله عزَّ وجلَّ على وجه التبكيت لهم والتهديد، لا على وجه التخيير[٥]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل نزول القرآن وخروج النبيِّ ﷺ، وهم مؤمنو أهل الكتاب[٦]. في قول ابن جُريجٍ وغيره. قال ابن جُريج: معنى «إذا يُتلى عليهم» كتابهم[٧]. وقيل: القرآن[٨]. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾. وقيل: هم قومٌ من ولد إسماعيل تمسَّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيَّ عليه الصلاة والسلام، منهم: زيد بن عمرو بن نُفيل وورقة بن نَوْفل. وعلى هذا ليس يريد: أوتوا الكتاب، بل يريد: أوتوا عِلْمَ الدِّين[٩]. وقال الحسن: الذين أوتوا العلم أمةُ محمدٍ ﷺ. وقال مجاهد: إنهم ناس من اليهود. وهو أظهر؛ لقوله: ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾. ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني القرآن في قول مجاهد. كانوا إذا سمعوا

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٧٩ لكن نسبه إلى مجاهد.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ١٣٢.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٨٠.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٤١.

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ١٢١.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ١٤٢.

(٩) قال الواحدي في الوسيط ٣/ ١٣٢: يعني طلاب الدين مثل: أبي ذر وسلمان وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو. وعلى هذا فإن هؤلاء ليس كلُّهم من ولد إسماعيل.

ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا: «سبحان ربّنا إن كان وعد ربّنا لمفعولا»[١]. وقيل: كانوا إذا تلَوْا كتابهم وما أنزل عليه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبَّحوا، وقالوا: هذا هو المذكور في التوراة، وهذه صفته، ووعدُ الله به واقعٌ لا محالة، وجنحوا إلى الإسلام، فنزلت الآية فيهم. وقالت فرقةٌ: المراد بالذين أوتوا العلم من قبله محمدٌ ﷺ، والضمير في «قَبْله» عائدٌ على القرآن حسب الضمير في قوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾. وقيل: الضميران لمحمدٍ ﷺ، واستأنف ذكر القرآن في قوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾

دليلٌ على جواز التسبيح في السجود. وفي «صحيح مسلم» وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ ﷺ يُكثِرُ أن يقول في سجوده وركوعه: «سبحانكَ اللَّهُمَّ وبحمدِكَ اللَّهُمَّ اغفِرْ لي»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ هذه مبالغةٌ في صفتهم ومدحٌ لهم. وحقٌّ لكلِّ من توسَّم بالعلم وحصَّل منه شيئاً أن يجري إلى هذه المرتبة[٤]، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويَذِلَّ. وفي «مسند الدّارمي أبي محمد» عن التَّيْمِيِّ قال: من أوتيَ من العلم ما لم يُبَكِّهِ لَخَليقٌ ألا يكون أوتي علماً؛ لأنَّ الله تعالى نَعَتَ العلماء، ثم تلا هذه الآية. ذكره الطبري أيضاً[٥]. والأذقان: جمع ذقن،

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٢٨٠ . وأخرجه بنحوه الطبري ١٥/ ١٢١ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ .

(٣) صحيح مسلم (٧٨٤). وأخرجه البخاري ـ أيضاً ـ (٨١٧)، وهو في مسند أحمد (٢٤١٦٣).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ .

(٥) سنن الدارمي (٢٩١)، وتفسير الطبري ١٥/ ١٢٢ .

وهو مجتمع اللِّحْيين[١]. وقال الحسن: الأذقان عبارة عن اللِّحَى[٢]، أي: يضعونها على الأرض في حال السجود، وهو غاية التواضع.

واللام بمعنى على[٣]؛ تقول: سقط لِفِيه، أي: على فيه. وقال ابن عباس: ﴿ويخرون للأذقان سُجْداً﴾ أي: للوجوه[٤]، وإنما خصَّ الأذقان بالذِّكر؛ لأنَّ الذَّقنَ أقربُ شيءٍ من وجه الإنسان[٥]. قال ابن خُوَيْزمَنداد: ولا يجوز السجود على الذقن؛ لأنَّ الذقن هاهنا عبارةٌ عن الوجه، وقد يُعبَّر بالشيء عما جاوره وببعضه عن جميعه، فيقال: خرَّ لوجهه ساجداً وإن كان لم يسجُدْ على خدِّه ولا عينه. ألا ترى إلى قوله:

فخرَّ صَرِيعاً لليدينِ ولِلفَمِ[٦]

فإنما أراد: خرَّ صريعاً على وجهه ويديه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَبْكُونَ﴾ دليلٌ على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى، أو على مصيبةٍ[٧] في دين الله، وأنَّ ذلك لا يقطعُها ولا يضرُّها. ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة، عن ثابت البُنانيِّ، عن مُطَرِّف بن عبد اللهِ بن الشِّخِّير، عن أبيه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يُصلِّي ولِجَوْفِه أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ من البكاء. وفي كتاب أبي داود: و في صدره أزيزٌ كأزيز الرَّحى من البكاء[٨].

الثالثة: واختلف الفقهاء في الأنين، فقال مالك: الأنين لا يقطَعُ الصلاةَ للمريض، وأكرهُه للصحيح. وبه قال الثوري. وروى ابن الحكم عن مالك: التنحنحُ

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٢ .
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٨٠ .
(٣) زاد المسير ٥/ ٩٧ .
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٨٠ ، وزاد المسير ٥/ ٩٧ .
(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٤ .
(٦) سلف ١٣/ ٢٤ .
(٧) في (د) و(م) و(ز): معصيته.
(٨) الزهد لابن المبارك (١٠٩)، وسنن أبي داود (٩٠٤). وهو في مسند أحمد (١٦٣١٢).

والأنين والنفخ لا يقطع الصلاة. وقال ابن القاسم: يقطع. وقال الشافعيُّ: إن كان له حروفٌ تُسمَعُ وتُفهَمُ يقطَعُ الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف الله لم يقطَعْ، وإن كان من وجَعٍ قَطَعَ. ورُويَ عن أبي يوسف أنَّ صلاتَه في ذلك كلِّه تامةٌ؛ لأنه لا يخلو مريضٌ ولا ضعيفٌ من أنين[١].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ تقدَّم القول في الخشوع في «البقرة»[٢] ويأتي.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ سبب نزول هذه الآية أنَّ المشركين سمعوا رسولَ الله ﷺ يدعو: «يا اللهُ يا رحمن» فقالوا: كان محمدٌ يأمرنا بدعاءِ إلهٍ واحدٍ وهو يدعو إلهين. قاله ابن عباس. وقال مكحول: تهجَّد رسولُ الله ﷺ ليلةً فقال في دعائه: «يا رحمنُ يا رحيم» فسمعه رجلٌ من المشركين، وكان باليمامة رجلٌ يُسمَّى الرحمن، فقال ذلك السامع: ما بالُ محمدٍ يدعو رحمان اليمامة. فنزلتِ الآيةُ مبيِّنةً أنهما اسمان لمسمًّى واحد، فإن دعوتُموه بالله فهو ذاك، وإن دعوتُموه بالرحمن فهو ذاك[٣]. وقيل: كانوا يكتبون في صدر الكتب: باسمك اللهمَّ، فنزلت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] فكتبَ رسولُ الله ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم»[٤]، فقال المشركون: هذا الرحيم نعرِفُه، فما الرحمن؟ فنزلت الآية. وقيل: إن اليهود قالت: ما لنا لا نسمَعُ في القرآن اسماً هو في التوراة كثيرٌ ـ يعنون الرحمن ـ فنزلت الآية[٥]. وقرأ طلحة بن

(١) هاتان المسألتان الثانية والثالثة في التمهيد ٢٢/ ١٣٤ .

(٢) ٢/ ٧٠ - ٧٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ . وأخرجه عنهما الطبري ١٥/ ١٢٣ - ١٢٤ .

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٩٩ عن ميمون بن مهران.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٨٠ عن الكلبي.

مُصَرِّف: «أيًّا مَنْ تدعو فله الأسماء الحسنى» أي: التي تقتضي أفضلَ الأوصاف وأشرفَ المعاني[١]. وحُسْنُ الأسماء إنما يتوجَّه بتحسين الشرع؛ لإطلاقها والنصِّ عليها. وانضاف إلى ذلك أنها تقتضي معانيَ حساناً شريفةً، وهي بتوقيفٍ لا يصِحُّ وضْعُ اسمٍ لله بنظرٍ إلا بتوقيفٍ من القرآن أو الحديث أو الإجماع، حسبما بيَّناه في الكتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: اختلفوا في سبب نزولها على خمسة أقوال:

الأوّل: ما روى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلَتْ ورسولُ اللهِ ﷺ مُتَوارٍ بمكة، وكان إذا صلَّى بأصحابه رفَعَ صوتَه بالقرآن، فإذا سمعَ ذلك المشركون سَبُّوا القرآن ومَنْ أنزلَه ومن جاء به؛ فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمعَ المشركون قراءتَكَ ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك، أسمِعْهُم القرآنَ، ولا تَجهَرْ ذلك الجهر ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: يقول بين الجهر والمخافتة. أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وغيرهم، واللفظ لمسلم[٣].

والمخافتة: خفضُ الصوتِ والسكون؛ يقال للميت إذا بَرَد: خَفَت[٤]. قال الشاعر:

لم يَبْقَ إلا نَفَسٌ خافِتُ ومُقْلَةٌ إنسانُها باهِتُ

رَثَى لها الشامِتُ مما بها يا وَيْحَ من يَرْثِي له الشَّامِتُ

الثاني: ما رواه مسلم أيضاً عن عائشة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قالت: أُنزِلَ هذا في الدعاء[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ . وهذه قراءة شاذة.

(٢) ص٣٥ .

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٢)، وصحيح مسلم (٤٤٦)، وسنن الترمذي (٣١٤٦). وهو في مسند أحمد (١٥٥).

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ٣٠٤ - ٣٠٥ بنحوه.

(٥) صحيح مسلم (٤٤٧).

الثالث: قال ابنُ سِيرين: كان الأعراب يجهرون بتشهُّدهم، فنزلت الآية في ذلك[١]. قلت: وعلى هذا فتكون الآية متضمنةً لإخفاء التشهد، وقد قال ابن مسعود: مِنَ السُّنَّةِ أن تُخفيَ التشهدَ. ذكره ابن المنذر.

الرابع: ما رُوي عن ابن سِيرين أيضاً: أنَّ أبا بكرٍ ﷺ كان يُسِرُّ قراءته، وكان عمر يجهَرُ بها، فقيل لهما في ذلك، فقال أبو بكر: إنما أُناجي ربي، وهو يعلم حاجتي إليه. وقال عمر: أنا أطردُ الشيطانَ، وأوقِظُ الوَسْنان. فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر: ارفَعْ قليلاً. وقيل لعمر: اخفِضْ أنتَ قليلاً. ذكره الطبريُّ وغيره[٢].

الخامس: ما رُويَ عن ابن عباس أيضاً أن معناها: ولا تجهَرْ بصلاة النهار، ولا تُخافِتْ بصلاة الليل. ذكره يحيى بن سلام والزهراويّ[٣]. فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة في النوافل والفرائض، فأما النوافل فالمصلي مخيَّرٌ في الجهر والسرِّ في الليل والنهار، وكذلك رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه كان يفعل الأمرين جميعاً. وأما الفرائض فحُكْمُها في القراءة معلومٌ ليلاً ونهاراً.

وقولٌ سادس: قال الحسن: يقول الله: لا ترائي بصلاتك تُحسِّنُها في العلانية، ولا تُسيئُها في السِّرِّ. وقال ابن عباس: لا تُصَلِّ مرائياً للناس، ولا تَدَعْها مخافةَ الناس[٤].

الثانية: عبَّر تعالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبَّر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما مرتبطٌ بالآخر؛ لأنَّ الصلاة تشتمل على قراءةٍ وركوعٍ وسجودٍ، فهي من جملة أجزائها؛ فعبَّر بالجزء

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٢ .

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ١٣٢ ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٦١٢).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٢ .

(٤) ذكرهما ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٠٠ ، وأخرجهما الطبري ١٥/ ١٣٤ - ١٣٥ .

عن الجملة، وبالجملة عن الجزء، على عادة العرب في المجاز، وهو كثير[١]؛ ومنه الحديث الصحيح: «قَسمتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي» أي: قراءة الفاتحة على ما تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ هذه الآية رادَّةٌ على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: عزيرٌ وعيسى والملائكةُ ذريةُ الله سبحانه، تعالى الله عن أقوالهم![٣] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ لأنه واحدٌ لا شريكَ له في ملكه ولا في عبادته. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال مجاهد: المعنى: لم يُحالِفْ أحداً، ولا ابتغى نصرَ أحدٍ[٤]، أي: لم يكن له ناصرٌ يُجيره من الذُّلِّ فيكون مدافعاً. وقال الكلبي: لم يكن له وليٌّ من اليهود والنصارى؛ لأنهم أذَلُّ الناس[٥]؛ ردًّا لقولهم: نحن أبناء الله وأحِبَّاؤه[٦]. وقال الحسن بن الفضل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يعني: لم يُذَلَّ فيحتاج إلى وَليٍّ، ولا ناصِرَ لعزَّته وكبريائه.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ أي: عظِّمه عظَمةً تامة[٧]. ويقال: أبلَغُ لفظةٍ للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر[٨]. أي: صِفْه بأنه أكبرُ من كلِّ شيء. قال الشاعر:

رأيتُ اللهَ أكبرَ كلِّ شيءٍ ... محاولةً وأكثرهم جنودا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١٥ .

(٢) ١/ ١٤٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ١٣٨ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٧٢ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٨٢ .

(٦) مجمع البيان ١٥/ ١١٢ بمعناه.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٥ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣ .

وكان النبيُّ ﷺ إذا دخل في الصلاة قال: «الله أكبر» وقد تقدَّم أوّل الكتاب[١].

وقال عمر بن الخطاب. قول العبد: «الله أكبر» خيرٌ من الدنيا وما فيها.

وهذه الآية هي خاتمة التوراة؛ روى مُطَرِّفٌ عن عبد الله بن كعب قال: افتُتِحَتِ التوراةُ بفاتحة سورة الأنعام، وخُتِمَتْ بخاتمة هذه السورة[٢]. وفي الخبر أنها آية العِزِّ. رواه معاذ بن أنس[٣] عن النبيِّ ﷺ[٤]. وروى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أفصَحَ الغلامُ من بني عبد المطلب علَّمه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى﴾ الآية[٥]. وقال عبد الحميد بن واصل: سمعتُ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من قرأ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾» الآية، كتبَ اللهُ له من الأجر مثلَ الأرض والجبال، لأنَّ الله تعالى يقول فيمن زعم أنَّ له ولداً: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾[٦] [مريم: ٩٠]. وجاء في الخبر: أنَّ النبيَّ ﷺ أمر رجلاً شكا إليه بالدَّين بأن

(١) ١/ ٢٧٠ ، والبيت قائله خداش بن زهير، وقد ورد هناك بلفظ: «وأعظمه» بدل «وأكثرهم».

(٢) هكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٣ ، لكن الأثر أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٥٥ ، والدارمي (٣٤٠٢)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧٨ من طريق عبد الله بن رباح عن كعب بلفظ: فاتحة التوراة فاتحة سورة الأنعام، وخاتمة التوراة خاتمة سورة هود. وقد سلف ٨/ ٣١١ .

وورد في روايةٍ أخرى عند أبي نعيم بأن خاتمة التوراة خاتمة الإسراء، دون ذكر فاتحتها.

(٣) وقع في جميع النسخ: معاذ بن جبل، وهو خطأ.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٦٢٤) من طريق زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه مرفوعاً. زَبَّان بن فائد ضعيف.

(٥) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٢٤) من طريق عبد الكريم أبي أمية، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ موصولاً.

وأخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٣٤٨ و ١٠/ ٥٥٦ من طريق عبد الكريم، عن عمرو، عن النبي ﷺ معضلاً.

وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٧٩٧٦) من طريق عبد الكريم، عن النبي ﷺ معضلاً دون ذكر عمرو بن شعيب.

(٦) لم نقف على من أخرجه بهذا الإسناد، وفيه إبهام الراوي الذي روى عنه عبد الحميد بن واصل. وأخرجه بنحوه الطبراني (٦٧٦) عن أبي هريرة ﷺ بإسناد مسلسلٍ بالعلل، ففيه مجهولان، وضعيف وهو محمد بن سلمة، ومدلس وهو محمد بن إسحاق، وفيه انقطاع، فقد رواه موسى بن يسار عن أبي هريرة وهو لم يدركه.

يقرأ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾... إلى آخر السورة، ثم يقول: توكَّلتُ على الحيِّ الذي لا يموت. ثلاث مرات[1].

تمَّت سورةُ الإسراء، والحمد لله وحده،
والصلاةُ والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعدَه.

(١) أورده بهذا اللفظ أبو الليث في تفسيره ٢/ ٢٨٧ .

وأخرجه بنحوه أبو يعلى (٦٦٧١)، وابن السني (٥٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٢ : فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف.

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

مكيَّةٌ، وقيل: إلا قولَه: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ... ﴾ إلى آخرِ ثمانِ آياتٍ[1]

وهي مئةٌ وعشر آيات[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾، ﴿سُبْحَٰنَ﴾ اسمٌ بمعنى التَّسبيحِ الذي هو التَّنزيهُ، وقد يستعملُ عَلَمًا له فيُقطعُ عن الإضافةِ ويُمنَعُ الصَّرفَ، قال:

قَــدْ قُلْــتُ لَمَّــا جَــاءَنِي فَـخْـرُهُ ... سُــبْحانَ مِــنْ عَلْقَمَــةَ الفَاخِــرِ[3]

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٧) عن قتادة. وروي عن قتادة خلافه، وأنها نزلت بمكة، رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٥٩٧)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٤). وقد صح استثناء آخر من مكيتها، وهو قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الآية؛ لما أخرج البخاري (١٢٥)، ومسلم (٢٧٩٤) عن ابن مسعود أنها نزلت بالمدينة في جواب سؤال اليهود عن الروح.

(٢) وفيها قول آخر: مئة وإحدى عشرة آية، واختلافهم في آية ﴿لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ عدَّها الكوفي ولم يعدَّها الباقون. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٧٧).

(٣) انظر: «ديوان الأعشى» (ص: ١٤١)، «الكتاب» (١/ ٣٢٤)، و«مجاز القرآن» (١/ ٣٦) و(٢/ ١٢٣)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٦٤)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص:٨)، و«المقتضب» (٣/ ٢١٨)، و«تفسير الطبري» (١/ ٥٠٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ١١٠) و(٣/ ١٩٠) و(٥/ ١١٩)، و«جمهرة اللغة» (١/ ٢٧٨)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٤٩). والرواية في «الديوان» وجميع المصادر: «أقول لما جاءني...».

وانتصابُـه بفعـلٍ مَتـروكٍ إظهـارُهُ، وتَصديرُ الـكَلامِ بـه للتَّنزيهِ عَـن العجزِ عمَّا ذكـرَ بَعدُ.

وأَسْرَى وسَرَى بمعنًى، و﴿لَيْلًا﴾ نصبٌ على الظَّرفِ، وفائدَتُه: الدَّلالةُ بتَنكيرِه على تقليلِ مُدَّةِ الإسراءِ، ولذلك قُرِئَ: (مِن الليلِ)[1]؛ أي: بعضَه، كقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ﴾ [الإسراء: ٧٩].

﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ بعينِه؛ لِمَا رُوِيَ أَنَّه عليهِ السَّلامُ قال: «بينا أنا في المسجدِ الحرامِ في الحِجْرِ عندَ البيتِ بينَ النَّائمِ واليَقظانِ إذ أتاني جبرئيلُ بالبراقِ»[2].

أو مِن الحرمِ، وسَمَّاهُ المسجدَ الحرامَ لأنَّ كلَّهُ مَسجِدٌ، أو لأنَّه مُحيطٌ به ليطابِقَ المبدأُ المُنتهَى؛ لِمَا رُوِيَ: أنَّه كانَ نائمًا في بيتِ أمِّ هانئٍ بعدَ صلاةِ العِشاءِ، فأُسرِيَ

---

(١) رواها الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤١٣) عن عبد الله وحذيفة رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه بلفظ: «بَيْنَا أَنَا عند البيت بينَ النَّائم واليقظان...»، وفي رواية عند البخاري (٣٨٨٧) من حديثه: «بينما أنا نائم في الحطيم ـ وربما قال: في الحِجْرِ ـ مضطَجِعًا إذ أَتاني آتٍ...». قال في «الفتح» (٧/ ٢٠٤): المراد بالحطيم هنا الحجر.

وفيهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه: «فُرِج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل».

وفي غير الصحيحين روايات أُخر، وقد أورد الروايات بذلك الحافظ في «الفتح» (٧/ ٢٠٤) محاولاً الجمع بينها لأنها كما قال: لم تتعدد لأن القصة متحدة لاتحاد مخرجها، قال: وقد تقدم في أول بدء الخلق بلفظ: «بينا أنا عند البيت» وهو أعم، ووقع في رواية الزهري عن أنس عن أبي ذر: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة»، وفي رواية الواقدي بأسانيده أنه أسري به من شعب أبي طالب، وفي حديث أم هانئ عند الطبراني أنه بات في بيتها قالت: ففقدتُه من الليل فقال: «إن جبريل أتاني...»، والجمع بين هذه الأقوال: أنه نام في بيت أم هانئ، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه.

بِهِ ورجعَ مِن ليلَتِه وقصَّ القصَّةَ عليها وقال: «مُثِّلَ لي النَّبِيُّونَ فصَلَّيْتُ بهم»[١].

ثمَّ خرجَ إلى المسجدِ وأخبرَ بِهِ قريشًا، فتَعَجَّبُوا منه استحالةً، وارتدَّ ناسٌ ممَّنْ آمنَ به، وسعى رجالٌ إلى أبي بكرٍ فقال: إنْ كانَ قالَ لقَدْ صدَقَ، فقالوا: أتُصَدِّقُه على ذلك؟ قال: إنِّي لأُصَدِّقُه على أبعدَ مِن ذلك، فسُمِّيَ الصِّدِّيقَ، واستَنْعَتَه[٢] طائفةٌ سافَرُوا إلى بيتِ المَقدسِ، فجُلِّيَ له وطَفِقَ يَنظُرُ إليه ويَنعتُه لهم فقالوا: أمَّا النَّعتُ فقَدْ أصابَ، فقالوا: أخبِرْنا عن عِيرِنا، فأخبرَهُم بعددِ جِمالِها وأَحوالِها، وقال: «تَقْدَمُ يومَ كذا مع طلوعِ الشَّمسِ، يَقدُمُها جملٌ أورَقُ»، فخرجوا يَشتَدُّونَ إلى الثَّنِيَّةِ فصادفوا العيرَ كما أخبرَ، ثمَّ لم يُؤمِنُوا وقالوا: ما هذا إلا سِحرٌ مُبينٌ، وكان ذلك قبلَ الهِجرةِ بسَنةٍ[٣].

---

(١) إلى هنا رواه بنحوه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٠٢)، ومن طريقه الطبري في «التفسير» (١٤/ ٤١٤)، عن الكلبي عن أبي صالح عن أم هانئ، وذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥١٦) مع ما سيأتي، والكلبي ومقاتل متروكان، وجاء في كلا الطريقين أنه صلى الصبح والعشاء معهم، وفي هذا نكارة نبَّه عليها الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٨/ ١٣٧)، وهي أن الصلاة إنما فرضت ليلة المعراج.

ورواه الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٧٩) من طريق آخر عن الكلبي عن أبي صالح عن أم هانئ بذكر صلاة العشاء فقط.

(٢) أي: طلبوا منه الوصفَ.

(٣) ذكر هذه القطعة الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٢٨ ـ ٢٣٢) عن ابن عباس وعائشة.

وروى الخبر بتمامه بنحو هذا السياق أبو يعلى في «معجمه» (١٠)، والطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٤٣٢)، من حديث أم هانئ رضي الله عنها. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٧٦): رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه عبد الأعلى بن أبي المساور، متروك كذاب.

وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١/ ٢٠٠) عن رواية أبي يعلى: «حديث غريب، الوساوسي ضعيف تفرد به».

وكونه قبل الهجرة بسنة فيه اختلاف سيأتي.

واختلفَ في أنَّه كان في المنامِ أو في اليَقظةِ، بروحِه أو بجسدِه، والأكثرُ على أنَّه أُسريَ بجسدِهِ إلى بيتِ المقدسِ، ثمَّ عُرِجَ بـه إلى السَّماواتِ حتَّى انتهى إلى سِدرَةِ المُنتهى، ولذلك تعجَّبَ قُريشٌ واستحالُوه، والاستحالةُ مَدفوعةٌ بما ثبتَ في الهندسةِ: أنَّ ما بين طَرَفَيْ قُرصِ الشَّمسِ ضعفُ ما بينَ طَرفي كرةِ الأرضِ مئةً ونيفًا وستينَ مرةً، ثمَّ إنَّ طَرَفَها الأسفلَ يصلُ مَوضِعَ طَرَفِها الأعلى في أقلَّ مِن ثانيةٍ، وقد بُرهنَ في الكلامِ أنَّ الأجسامَ مُتساويةٌ في قبولِ الأعراضِ، وأنَّ اللهَ قادِرٌ على كلِّ المُمكناتِ، فيقدِرُ أن يخلقَ مثلَ هذه الحركةِ السَّريعةِ في بدنِ النبيِّ عليهِ السَّلامُ، أو فيما يحمِلُه، والتَّعجُّبُ مِن لَوازمِ المعجزاتِ.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾: بيتِ المَقدسِ؛ سمِّي به لأنَّه لم يَكُن حينئذٍ وراءَه مسجدٌ.

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركاتِ الدِّينِ والدُّنيا؛ لأنَّه مَهبِطُ الوَحيِ ومُتعبَّدُ الأنبياءِ مِن لَدُن موسى، ومحفوفٌ بالأنهارِ والأَشجارِ.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ كذَهابِه في برهةٍ مِن الليلِ مسيرةَ شهرٍ، ومُشاهدتِه بيتَ المقدسِ، وتمثُّلِ الأنبياءِ له، ووقوفِه على مقاماتِهم، وصرفُ الكَلامِ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ لتعظيمِ تلك البركاتِ والآياتِ. وقُرِئَ (ليُرِيَه) بالياءِ[1].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقـوالِ محمَّـدٍ عليـهِ السَّـلام ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعالِـه، فيكرمُـه ويُقرِّبُـه علـى حسـبِ ذلك.

(٢) ـ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ على: أي[2] لا تتَّخذوا، كقولك: كتبت إليه أنِ افعل.

---

(١) نسبت للحسن. انظر: «الكشاف» (٥/ ١٢)، و«البحر المحيط» (١٤/ ١٣).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «على أن». وأشار الشهاب في «الحاشية» (٦/ ٨) لهذا الفرق فقال: قوله: «على =

وقرأَ أبو عمرٍو بالياءِ[1] على: لئلَّا يتَّخِذُوا.

﴿مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾: ربًّا تَكِلونَ إليه أمورَكُم غيرِي.

(٣) ـ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ نصبٌ على الاختصاصِ، أو النِّداءِ إنْ قُرِئ: ﴿تَتَّخِذُواْ ﴾ بالتَّاءِ، أو على أنَّه أحدُ مَفعولَيْ ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ ﴾، و﴿مِن دُونِي ﴾ حالٌ مِن ﴿وَكِيلًا ﴾، فيكونُ كقَوْلِه: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلَٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾ [آل عمران: ٨٠].

وقُرِئَ بالرَّفعِ[2] على أنَّه خبرُ مَحذوفٌ، أو بدلٌ مِن واوِ ﴿يَتَّخِذُوا﴾.

و: (ذِرِّيَّةَ) بكسرِ الذَّالِ[3].

وفيه تذكيرٌ بإنعامِ اللهِ عليهِم في إنجاءِ آبائِهِم مِن الغَرقِ بحَملِهِم مع نوحٍ في السَّفينَةِ.

﴿إِنَّهُۥ﴾: إنَّ نوحًا عليه السَّلام ﴿كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ يَحمَدُ اللهَ تعالى في مجامعِ حالاته، وفيه إيماءٌ بأنَّ إنجاءَهُ ومَن معَه كانَ ببركةِ شكرِه، وحثٌّ للذُّرِّيَّةِ على الاقتداءِ به.

وقيل: الضَّميرُ لِمُوسى عليهِ السَّلامُ.

= أن لا تتخذوا...» إلخ، وفي نسخة: «على أي لا تتخذوا» فهي بيان لأنَّ (أنْ) تفسيرية بمعنى: أي، وهو الموافق لما في «الكشاف»، و(لا) على هذا ناهية جازمة، وهي تفسير لما تضمنه الكتاب من الأمر والنهي، والكتاب: المكتوب، وان كان في الأصل مصدراً، وعلى الأولى فالمعنى على أن يكون ﴿أَلَّا﴾ بمعنى: أن لا، وهي مفسرةٌ أيضاً، وليس المراد أنه بمعنى: لئلا، بحذف الجار كما في القراءة بالغيبة.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٨) عن مجاهد.

(٣) نسبت لزيد بن ثابت رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٨)، و«المحتسب» (١/ ١٥٦)، و«الكشاف» (٥/ ١٣).

(٤) ـ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: وأَوحينا إليهِمْ وَحْيًا مَقضِيًّا مَبتوتًا ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: في التَّوراةِ ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ، أو: قَضَينا، على إجراءِ القضاءِ المَبتوتِ مجرى القسمِ[١].

﴿مَرَّتَيْنِ﴾: إفسادَتينِ:

أُولاهُما: مخالفةُ أَحكامِ التَّوراةِ وقتلُ شِعيَا[٢].

وثانيتهما: قتلُ زَكريَّا ويحيى وقصدُ قتلِ عيسى عليهم السَّلام[٣].

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: ولتَسْتكبِرُنَّ عَن طاعةِ اللهِ، أو: لتظلمُنَّ النَّاسَ.

(٥) ـ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾: وعدُ عقابِ أولاهما ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ بُخْتَنَصَّر ـ عاملُ لهراسفَ على بابلَ ـ وجُنودَه، وقيل: جالوتُ الخَزَريُّ[٤]، وقيل: سِنْحاريبُ[٥] مِن أهلِ نِيْنُوى.

---

(١) قوله: «أو قضينا...»؛ أي: ليس القسم محذوفاً، بل هو على أن يُجرَى القضاءُ المبتوتُ مُجرَى القَسَم فيكون ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ جواباً له؛ كأنه قال: وأقسمنا لتُفسدن.

(٢) شعيا: نبيٌّ بُعث بعد موسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ.

(٣) اختلف العلماء في هاتين المرتين، حتى قال الشيخ الذهبي في «التفسير والمفسرون» (١/ ٢٩٣): إن الاختلاف الذي كثر بين المفسّرين أقدمين ومحدثين كان في قوله سبحانه: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فلقد اختلفوا أولًا في هاتين المرتين من حيث زمانهما: أمَضَتْ هاتان المرتان كلتاهما أم لا؟ ثمَّ اختلفوا ثانيًا في تعيين هاتين المرّتين على الفرضَيْن: المضيّ أو عدمه، ولشدَّة هذا الاختلاف وكثرته نقَلَ الشيخ حسنين محمَّد مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق رحمه الله في تفسيره «صفوة البيان» عن الجبّائي أنّ الله لم يعيّن هاتين المرّتين، فليجتهد كلٌّ بما يترجَّح لديه.

(٤) كذا ضبطه الشيخ زكريا الأنصاري في «حاشيته» (٣/ ٤٨٨) نسبةً إلى الخزر وهو ضيق العين وصغرها، أو جيل من الناس. وضبطه الخفاجي في «حاشيته» بالجيم والزَّاي المُعْجمَةِ نسبَة إلى جزيرَةِ بابل.

(٥) يروى بالجيمِ وهو المعروف، ورُوِيَ بالحاءِ المُهملَةِ. قاله الخفاجي.

﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: ذوي قوَّةٍ وبَطشٍ في الحربِ شديدٍ.

﴿فَجَاسُواْ﴾: تردَّدُوا لطَلَبِكُم، وقُرِئَ بالحاءِ[1]، وهما أَخَوانِ.

﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾: وسطَها للقَتلِ والغارةِ، قتلوا كبارَهُم، وسَبَوا صِغارَهُم، وحرَّقُوا التَّوراةَ، وخرَّبُوا المسجدَ.

والمعتزلةُ لَمَّا منعوا تَسليطَ اللهِ الكافرَ على ذلك = أوَّلوا البعثَ بالتَّخليةِ وعدمِ المنعِ.

﴿وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾: وكان وعدُ عقابهم لا بدَّ أنْ يُفعل.

(٦) ـ ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ﴾؛ أي: الدَّولةَ والغلبَةَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: على الذين بُعِثُوا عليكُم، وذلك بأَنْ أَلْقَى اللهُ في قلبِ بهمنَ بنِ إسفنديارَ لَمَّا ورثَ الملكَ مِن جَدِّهِ كشتاسفَ بن لهراسفَ شفقةً عليهِم، فردَّ أَسْراهُم إلى الشَّامِ وملَّكَ دانيالَ عليهم، فاستَوْلَوْا على مَن كانَ فيها من أتباعِ بُخْتَنَصَّر.

أو: بأَنْ سَلَّطَ داودَ على جالوتَ فقتلَه.

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا﴾ ممَّا كُنْتُم، والنَّفيرُ: مَن ينفرُ مع الرَّجُلِ من قومِه، وقيل: جمعُ نَفَرٍ، وهم المجتمعونَ للذَّهابِ إلى العَدُوِّ.

(٧) ـ ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ لأنَّ ثَوابَه لها ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾ فإنَّ وَبالَها عَلَيْهَا، وإنَّما ذُكرَ باللامِ ازدواجًا.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: وعدُ عُقوبَةِ المرَّةِ الآخرةِ ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾؛ أي: بَعَثْناهُم ليَسُوءوا وجوهَكُم؛ ليَجعَلُوها باديةً آثارُ المساءةِ فيهَا، فحذفَ لدلالةِ ذكره أولًا عليه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٥)، كلاهما عن أبي السمال، لكن وقع في مطبوع «المختصر»: «(فحاشوا) بالحاء والشين».

وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ وأبو بكرٍ: ﴿لِيَسُوءَ﴾ على التَّوحيدِ، والضَّميرُ فيه للوعدِ أو البعثِ أو للهِ، ويَعضُدُه قراءَةُ الكِسائيِّ بالنُّونِ(١).

وقُرِئَ: (لِنَسُوأن) بالنُّونِ والياءِ، والنُّونِ المُخفَّفَةِ والمُثقَّلَةِ، و(لَيَسوأن) بفتحِ اللامِ على الأَوجُهِ الأربعةِ على أنَّه جوابُ (إذا)(٢).

واللامُ في قَولِه: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ هو: بَعَثْناهُم.

﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾: ليُهلِكُوا ﴿مَا عَلَوْا۟﴾: ما غَلَبوه واستَوْلَوا عليه، أو: مُدَّةَ علوِّهِم ﴿تَتْبِيرًا﴾ وذلك بأَنْ سلَّطَ اللهُ عليهِم الفُرسَ مَرَّةً أُخرى فغَزاهُم ملكُ بابلَ مِن ملوكِ الطَّوائفِ، اسمهُ: جُدْرُزُ، وقيل: خردوسُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٢) الذي وقفت عليه في هذه الكلمة ثلاث قراءات: (لَنَسُوأَنَّ) و: (لَيَسُوأَنَّ) و: (لِنسوأَنْ) نسبت الأوليان لعلي رضي الله عنه كما في «الكشاف» (٥/ ١٨)، و«البحر» (١٤/ ٢٣). والثالثة لأبيٍّ رضي الله عنه كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٨)، و«المحتسب» (٢/ ١٥)، و«البحر» (١٤/ ٢٣). وقد صرح أبو حيان أن اللام في قراءتي عليٍّ للقسم، فهي مفتوحة كما قال المصنف، لكنها ليست في اللفظ جواب (إذا) بل جواب قسم مقدر؛ قال الجاربردي: والأولى أن يقال: المعنى على قسم مقدر، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وإذا كان القسم مقدراً يكون (لنسوأن) جواب القسم المقدر لفظاً، وجواب القسم والشرط معاً معنًى. انظر: «حاشية الجاربردي» (ج٢/ و٧٢ب). أما الثالثة فاللام فيها للأمر كما قال أبو حيان، وهو المفهوم من كلام ابن جني حيث قال: طريق القول عليه: أن يكون أراد الفاء فحذفها ـ كما قال في موضع آخر ـ أي: «فَلْنَسُوءَا وُجُوهَكُمْ» على لفظ الأمر، كما تقول: إذا سألتَني فلأُعْطِكَ، كأنك تأمُرُ نفسَكَ، ومعناه: فلأُعْطينَّكَ. واللامان بعده للأمر أيضا، وهما: (ولْيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ... ولْيُتَبِّروا)، ويقوِّي ذلك أنه لم يأت لـ(إذا) جوابٌ فيما بعد، فدلَّ على أن تقديره: «فَلْنَسُوءَا وُجُوهَكُمْ»؛ أي: فَلْنَسُوءَنَّ وُجُوهَكُمْ.

قلت: وعليه فاللام مكسورة، وقول ابن جني: «كما قال في موضع آخر»، لعله يريد قوله تعالى: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]. انظر: «البحر» (١٤/ ٢٣).

قيل: دخلَ صاحِبُ الجيشِ مذبحَ قَرابينِهِم فوجدَ فيه دَمًا يغلي، فسألهم عنه فقالوا: دمُ قربانٍ لم يُقبَل منَّا، فقال: ما صَدَقُوني، فقتلَ عليه ألوفًا منهم فلَم يَهدَأِ الدَّمُ، ثمَّ قال: إن لم تَصْدُقوني ما تركتُ مِنْكُم أحدًا، فقالوا: إنَّه دَمُ يَحيَى، فقال: لمثلِ هذا ينتقِمُ رَبُّكُم مِنْكُم، ثمَّ قال: يا يحيى! قَدْ عَلِمَ ربِّي وربُّكَ ما أصابَ قومَكَ مِن أَجلِكَ، فاهدَأْ بإذنِ اللهِ قبلَ أَنْ لا أُبْقِيَ أَحدًا مِنهم فهَدأَ[1].

(٨) ـ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعدَ المرةِ الآخرةِ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ نوبةً أُخرى ﴿عُدْنَا﴾ مَرَّةً ثالثةً إلى عقوبَتِكُم، وقد عادوا بتكذيبِ محمَّدٍ عليهِ السَّلامُ وقصدِ قَتْلِه، فعادَ اللهُ بتَسليطِهِ عليهِم، فقتلَ قريظَةَ وأَجْلى بني النَّضيرِ وضربَ الجزيةَ على الباقينَ، هذا في الدُّنيا.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ محبِسًا لا يقدرونَ الخروجَ مِنْها أبدَ الآبادِ، وقيل: بساطًا كما يبسَطُ الحَصيرُ.

(٩) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾: للحالةِ أو الطَّريقَةِ التي هي أقومُ الحالاتِ أو الطُّرُقِ ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾. وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿ويَبْشُرُ﴾ بالتَّخفيفِ[2].

(١٠) ـ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطفٌ على: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، والمعنى: أنَّه يبشِّرُ المؤمنينَ ببشَارتينِ: ثوابَهُم وعقابَ أعدائِهِم، أو على (يبشِّرُ) بإضمارِ: (يخبر).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠) عن ابن إسحاق. وفيه أن الداخل هو أحد قواد خردوس ملك بابل.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٠٦)، و«التيسير» (ص: ٨٧).

(١١) ـ ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾: ويدعو اللهَ عندَ غضبهِ بالشرِّ على نفسِه وأهلِه ومالِه، أو يدعوه بما يحسَبُه خيرًا وهو شرٌّ ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ مثلَ دعائِه بالخيرِ.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ يُسارعُ إلى كلِّ ما يخطُرُ ببالِه لا يَنظرُ عاقبتَه.

وقيـل: المـرادُ آدمُ عليهِ السَّـلامُ، فإنَّه لَمَّا انتَهـى الرُّوحُ إلى سـرَّتِه ذهبَ لينهضَ فسَقطَ(١).

رُوِيَ: أنَّه عليهِ السَّلامُ دفعَ أسيرًا إلى سودةَ بنتِ زمعةَ، فرَحِمَتْهُ لأنينِه فأرْخَتْ أكتافَهُ فهربَ، فدعا عليها بقطعِ اليَدِ ثمَّ نَدِمَ، فقال: «اللهمَّ إنما أنا بشرٌ، فمَن دَعَوتُ عليه فاجعَلْ دُعائي رحمةً له» فنزلَتْ(٢).

ويجوزُ أن يريدَ بالإنسانِ الكافرَ، وبالدُّعاءِ: استِعجالَه بالعَذابِ استهزاءً، كقولِ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٥١٤) من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قال السيوطي في «حاشيته على البيضاوي» (٨/ ٢٨٤): قال الشَّيخُ وَلِيُّ الدِّينِ العِراقيِّ: لم أَقِفْ عليهِ لسَوْدَةَ، وإنَّما وَقَفْتُ عليه لعائشَةَ رواهُ الواقِديُّ في «المغازي» [٢/ ٥٥٤] مِن طريقِ مولاها عنها: أن النبيَّ ﷺ دخلَ عليها بأسيرٍ وقالَ لها: «احتفظِي به»، قالت: فلَهَوْتُ مع امرأةٍ فخرجَ ولم أَشعُرْ، فدخلَ النَّبيُّ ﷺ فسألَ عنه، فقلتُ: واللهِ لا أدري غَفَلْتُ عنه فخرجَ، فقال: «قطعَ اللهُ يدكِ»، ثمَّ خرجَ عليهِ السَّلامُ فصاحَ به فخرَجُوا في طلبِه حتَّى وَجدوهُ، ثمَّ دخلَ عليَّ فرآني وأنا أُقلِّبُ يَدَيَّ، فقال: «ما لكِ؟» قلتُ: أَنتَظِرُ دعوتَكَ، فرفعَ يديهِ فقال: «اللهمَّ إنَّما أنا بَشرٌ آسَفُ وأغضَبُ كما يغضَبُ البشرُ، فأيُّما مؤمنٍ أو مؤمنةٍ دعوتُكَ عليه بدَعوَةٍ فاجعَلْهَا له زكاةً وطُهْرًا». انتهى.

قلت: والحديث رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٤٢٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، ورواه أيضاً الإمام أحمد في «مسنده» (١٢٤٣١) من حديث أنس رضي الله عنه، وفيه أنه دفعه إلى حفصة رضي الله عنها. والحديثان إسنادهما صحيح كما ذكر محققو «المسند» لكن ليس في شيء من هذه الروايات ذكر النزول.

النَّضرِ بنِ الحارثِ: اللهمَّ انصُرْ خيرَ الحِزبَيْنِ، ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فأُجيبَ له فضُربَ عُنقُهُ صَبْرًا يومَ بدرٍ[1].

(١٢) ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ تَدُلَّانِ على القادرِ الحَكيمِ بتَعاقُبِهما على نسقٍ واحدٍ بإمكانِ غيرِه.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: الآيَةَ التي هي الليلُ بالإشراقِ، والإضافةُ فيها للتَّبيينِ كإضافةِ العددِ إلى المعدودِ.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: مُضيئةً، أو: مُبصِرَةً للنَّاسِ، مِن أَبْصَرَهُ فبَصُر، أو: مُبْصِرًا أهلُهُ، كقولهم: أجبنَ الرَّجلُ: إذا كانَ أَهلُهُ جُبَناءَ.

وقيل: الآيتانِ: القمرُ والشَّمسُ، وتقديرُ الكلام: وجعلنا نيِّري الليلِ والنَّهارِ آيتينِ، أو: جعلنا الليلَ والنَّهارَ ذَوَيْ آيتَيْنِ، ومحوُ آيةِ الليلِ التي هي القَمرُ: جعلُها مُظلِمَةً في نَفسِهَا مَطموسَةَ النُّورِ، أو نقصُ نُورِها شيئًا فشيئًا إلى الـمُحاقِ، وجَعلُ آيةِ النَّهارِ التي هي الشَّمسُ مُبصرةً: جعلُها ذاتَ شُعاعٍ تُبصَرُ الأشياءُ بضَوئِها.

﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾: لتَطلبُوا في بياضِ النَّهارِ أسبابَ مَعاشِكُم وتَتوسَّلُوا به إلى استبانَةِ أعمالِكُم ﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ باختلافِهما أو بحَركاتِهما ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾: وجنسَ الحِسابِ.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تفتقرونَ إليه في أمرِ الدِّينِ والدُّنيا ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾: بَيَّنَّاهُ بيانًا غيرَ مُلتَبِسٍ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٣/ ٢٧١) من طريق عطاء عن ابن عباس. وذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥٢٤).

(١٣) ـ ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ ﴾: عملَهُ وما قدِّرَ له كأنَّهُ طُيِّر إليهِ من عشِّ الغيبِ ووكرِ القَدَرِ، لمَّا كانوا يَتيَمَّنُون ويتشاءَمونَ بسُنوحِ الطَّائرِ وبروحِه استُعيرَ لِمَا هو سَببُ الخَيرِ والشَّرِّ مِن قَدَرِ اللهِ وعملِ العبدِ.

﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ لزومَ الطَّوقِ في عُنقِه.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ هي صَحِيفَةُ عملِه، أو نفسُه المُنتقِشةُ بآثارِ أَعمالِه، فإنَّ الأفعالَ الاختياريَّةَ تُحدِثُ في النَّفسِ أَحوالًا، ولذلك يُفيدُ تَكريرُها لها ملكاتٍ.

ونصبُه بأنَّه مفعولٌ، أو حالٌ مِن مَفعولٍ مَحذوفٍ، وهو ضميرُ الطَّائرِ، ويعضدهُ قراءةُ يعقوبَ[١]: ﴿ويَخْرُجُ﴾ مِن خَرَجَ[٢]. وقُرِئَ (ويُخْرِجُ) أي: اللهُ عزَّ وجَلَّ[٣].

﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ لكشفِ الغطاءِ، وهما صِفتانِ للكِتابِ، أو ﴿يَلْقَىٰهُ﴾ صفةٌ و﴿مَنشُورًا﴾ حالٌ مِن مَفعولِه.

وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿يُلَقَّاهُ﴾ على البناءِ للمَفعولِ[٤]، مِن لَقَّيتُه كذا.

(١٤) ـ ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ على إرادةِ القَولِ ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾؛ أي: كفى نفسُك، والباءُ مزيدَةٌ و﴿حَسِيبًا﴾ تمييزٌ، و(على) صِلَتُه لأنَّه: إما بمعنى الحاسبِ،

---

(١) كذا جاء في جميع النسخ المعتمدة عندنا، ووقع عند الخفاجي في «حاشيته» هنا زيادة (وغيرِه)، قال: بالجرِّ معطوفٌ على (يعقوب)، ووقعَ في نسخةٍ إسقاط لفظِ (غيره). قال: والنُّسخَة الأولى أشهر وأظهر، ولا إشكالَ فيها.

(٢) أي: بالياء وفتحِها وضمِّ الراء، وقرأ أبو جعفرٍ بالياء وضمِّها وفتحِ الراء، والباقون بالنون وضمِّها وكسر الراء. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٦).

(٣) أي: بضم الياء، عزاها الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٢٩٩) ليحيى بن وثاب، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١٤) لقتادة وأبي المتوكل، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤٣) دون نسبة.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

كالصَّريمِ بمَعْنَى الصَّارمِ، وضَريبِ القِداحِ[1] بمَعنى ضَارِبِهَا، مِن حَسَبَ عليه كذا، أو بمعنى الكافِي، فوُضعَ مَوضِعَ الشَّهيدِ؛ لأنَّه يَكفِي المُدَّعِيَ ما أهمَّهُ، وتذكيرُه على أنَّ الحِسابَ والشَّهادةَ مما يَتولَّاهُ الرِّجَالُ، أو على تأويلِ النَّفسِ بالشَّخصِ.

(١٥) ـ ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لا يُنْجِي اهتداؤُه غيرَه، ولا يُردي ضلالُهُ سِواه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾: ولا تحمِلُ نفسٌ حاملةٌ وِزرًا وزرَ نفسٍ أخرى، بل إنَّما تحمِلُ وِزرَها ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ يبيِّنُ الحُججَ ويمهِّدُ الشَّرائعَ فيُلزِمُهُم الحُجَّةَ. وفيه دليلٌ على أنْ لا وجوبَ قبلَ الشَّرعِ.

(١٦) ـ ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾: وإذا تَعلَّقَت إرادَتُنا بإهلاكِ قَومٍ لإنفاذِ قَضائِنا السَّابقِ.

أو: دنا وقتُه المقدَّرُ[2]، كقولهم: إذا أرادَ المريضُ أن يموتَ ازدادَ مَرضُه شِدَّةً.

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: مُتنعِّميهَا بالطَّاعةِ على لسانِ رسولٍ بعثْناهُ إلَيْهِم، ويدلُّ على ذلك ما قبلَهُ وما بعدَهُ، فإنَّ الفسقَ هو الخروجُ عَن الطَّاعةِ والتمرُّدُ في العصيانِ، فيدلُّ على الطَّاعةِ مِن طريقِ المقابلةِ.

وقيل: أمرنَاهُم بالفسقِ؛ لقوله: ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ كقولك: «أمرتُه فقرأ» فإنَّه لا يُفهَمُ

---

(١) الضَّريبُ: الذي يَضربُ بالقِداحِ، وهو الموكَّلُ بها، والقِدحُ بالكسرِ: السَّهمُ قبلَ أنْ يُراشَ ويركَّبَ نَصْلُه، وقِدْحُ الميسرِ أيضًا، والجَمعُ: قِداحٌ. «الصحاح» (مادة: ضرب، قدح).

(٢) قوله: «أو دنا وقته...» فسر الإرادة بدنو الوقت، فكأنه قيل: وإذا دنا وقت إهلاك قرية أمرنا مترفيها، ثم استشهد على مجيء أراد بمعنى دنو الوقت بقولهم: «أراد المريض أن يموت» بمعنى: دنا وقت موته إذا ازداد مرضه. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١١/ ٤٦٤).

منه إلا الأمرُ بالقراءةِ، على أنَّ الأمرَ مجازٌ مِن الحَملِ عليه أو التَّسبُّبِ له بأَنْ صَبَّ عليهِم مِن النِّعَمِ ما أبطرَهُم وأَفْضَى بهم إلى الفُسوقِ.

ويحتمِلُ أَنْ لا يكونَ له مفعولٌ مَنْوِيٌّ، كقولهم: أَمَرْتُه فعَصاني.

وقيل: معناه: كثَّرنا، يقال: أَمَرْتُ الشَّيءَ وآمرتُه فأَمِرَ: إذا كثَّرتَه، وفي الحديثِ: «خيرُ المالِ سِكَّةٌ مَأبورَةٌ ومُهرَةٌ مَأمورَةٌ»[١]؛ أي: كثيرةُ النِّتاجِ، وهو أيضًا مجازٌ مِن معنى الطَّلبِ.

ويؤيِّدُه[٢] قراءةُ يَعقوبَ: ﴿آمَرْنا﴾[٣]، ورِوايةُ: (أَمَّرْنا) عن أبي عمرٍو[٤].

ويحتملُ أَنْ يكونَ مَنْقولًا مِن أَمُرَ بالضمِّ إمارةً؛ أي: جعلناهُم أمراءَ، وتَخصيصُ المُترفينَ لأنَّ غيرَهُم يَتبَعُهُم، ولأنَّهم أَسرَعُ إلى الحماقَةِ وأقدَرُ على الفُجورِ.

﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ يعني: كلمةَ العَذابِ السَّابقةَ بحلولِه، أو بظهورِ مَعاصيهِم، أو بانهِمَاكِهِم في المعاصي.

﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾: أهلكناها بإهلاكِ أَهلِهَا وتَخريبِ دِيارِهِم.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٧٩)، والإمام أحمد في «المسند» (١٥٨٤٥)، والطبراني في «الكبير» (٦٤٧٠) و(٦٤٧١). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٥٨): رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات! وضعف إسناده محققو «المسند».

(٢) أي: يُؤيِّدُ القولَ بأَنَّهُ من (أمر) بمعنى: كثر.

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٦).

(٤) نسبت لابن عباس بخلاف، وأبي العالية بخلاف، وأبي عثمان النهدي، ورويت عن أبي عمرو وعاصم في غير المشهور عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«المحتسب» (٢/ ١٦).

(١٧) ـ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا ﴾: وكثيرًا أهلَكْنا ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيانٌ لـ﴿كم﴾ وتمييزٌ له ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ كعادٍ وثمودَ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يُدرِك ظواهرَها وبواطنَها فيُعاقِبُ عَلَيها، وتَقديمُ الخبيرِ لتَقدُّمِ مُتعلّقِه.

(١٨) ـ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ مقصورًا عليها همُّه ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ قيَّدَ المُعجَّلَ والمُعجَّلَ له بالمَشيئةِ والإرادةِ؛ لأنَّه لا يَجِدُ كلُّ مُتمَنٍّ ما يَتمنَّاه، ولا كلُّ واجدٍ جميعَ ما يَهواه، وليُعلمَ أنَّ الأمرَ بالمشيئةِ، والهمُّ فضلٌ، و﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدلٌ مِن ﴿لَهُۥ﴾ بدلَ البعضِ.

وقرئ: (يشاء)[1]، والضَّميرُ فيهِ للهِ حتَّى يُطابِقَ المَشهورةَ.

وقيل: لِـ(مَن) فيكونُ مخصوصًا بمَن أرادَ اللهُ به ذلك.

وقيل: الآيةُ في المنافقينَ، كانوا يراؤونَ المُسلمينَ ويَغزونَ مَعَهم، ولم يكن غَرَضُهم إلا مُساهَمَتَهم في الغنائمِ ونحوِها.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾: مطرودًا مِن رحمةِ اللهِ.

(١٩) ـ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾: حقَّها مِن السَّعي، وهو الإتيانُ بما أَمَر والانتهاءُ عمَّا نَهى، لا التَّقرُّبُ بما يخترِعونَ بآرائِهم، وفائدةُ اللامِ اعتبارُ النيَّةِ والإخلاصِ.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيمانًا صحيحًا لا شركَ معه ولا تكذيبَ فإنَّه العُمدَةُ.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الجامعونَ للشَّرائطِ الثَّلاثةِ ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مِن اللهِ؛ أي: مقبولًا عنده مُثابًا عليه، فإنَّ شُكرَ اللهِ الثَّوابُ على الطَّاعةِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩) عن سلام، و«البحر» (١٤/ ٤٤) عن نافع في غير المشهور عنه.

(٢٠) ـ ﴿ كُلًّا ﴾: كلَّ واحدٍ مِن الفَريقينِ، والتَّنوينُ بدلٌ مِن المضافِ إليه.

﴿نُّمِدُّ﴾ بالعطاءِ مرَّةً بعدَ أُخرى، ونجعلُ آنِفَه مددًا لسالفِه.

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ بدلٌ مِن ﴿ كُلًّا ﴾[1].

﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾: مِن مُعطاه، مُتعلِّقٌ بـ﴿نُّمِدُّ ﴾.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾: ممنوعًا، لا يمنعُه في الدُّنيا مِن مُؤمنٍ ولا كافرٍ تفضُّلًا.

(٢١) ـ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ في الرِّزقِ، وانتصابُ ﴿كَيْفَ﴾ بـ﴿فَضَّلْنَا﴾ على الحالِ ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾؛ أي: التَّفاوُتُ في الآخرةِ أكثرُ؛ لأنَّ التَّفاوُتَ فيها بالجنَّةِ ودَرجاتِها والنَّارِ ودرَكاتِها.

(٢٢) ـ ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطابُ للرَّسولِ عليه السَّلامُ، والمرادُ به أُمَّتُه، أو لكلِّ أحدٍ.

﴿فَتَقْعُدَ﴾: فتصيرَ، مِن قولِهم: «شَحَذَ الشَّفرةَ حتى قعدَتْ كأنَّها حَرْبةٌ».

أو: فتعجزَ، مِن قولهم: قعدَ عن الشَّيءِ: إذا عَجَزَ عنهُ.

﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾: جامعًا على نفسِكَ الذمَّ مِن الملائِكَةِ والمُؤمنين، والخُذلانَ مِن اللهِ، ومَفهومُه: أنَّ المُوحِّدَ يَكونُ مَمدوحًا مَنْصورًا.

(٢٣) ـ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾: وأمرَ أمرًا مقطوعًا به ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ ﴾: بأَنْ لا تَعْبُدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ لأنَّ غايةَ التَّعظيمِ لا تحقُّ إلَّا لِمَن له غايةُ العَظمَةِ ونهايةُ الإنعامِ، وهو كالتَّفصيلِ لسعيِ الآخرةِ، ويجوزُ أَنْ تكونَ (أن) مُفسِّرةً و(لا) ناهيةً.

---

(١) قال أبو حيَّان: لا يَصِحُّ أن يكونَ بدلاً مِن ﴿ كُلًّا ﴾ على تَقديرِ: «كلُّ واحدٍ من الفريقينِ» الذي قدرَه الزَّمخشريُّ؛ لأنه يكونُ إذ ذاك بدلَ كلٍّ مِن بعضٍ، فينبغي أن يكونَ التَّقديرُ: كلُّ الفريقينِ، فيكونُ بدلَ كلٍّ مِن كلٍّ على جهَةِ التَّفصيلِ. «البحر المحيط» (١٤/ ٤٦).

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: وبأَنْ تُحسِنُوا، أو: وأَحسِنُوا بالوالدينِ إحسانًا؛ لأَنَّهُما السَّببُ الظَّاهرُ للوجودِ والتَّعيُّشِ، ولا يجوزُ أَنْ تَتعلَّقَ الباءُ بالإحسانِ؛ لأنَّ صِلتَهُ لا تتقدَّمُ عليه.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ﴿إِمَّا﴾ هي (إنْ) الشَّرطيَّةُ زيدَتْ عليها (ما) تأكيدًا، ولذلك صَحَّ لُحوقُها النُّونَ المؤكِّدةَ للفعلِ.

و﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعلُ ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ وبدلٌ على قراءَةِ حمزةَ والكسائيِّ مِن أَلِفِ ﴿يَبْلُغانِّ﴾[(١)] الرَّاجعِ إلى ﴿الوَالِدَينِ﴾، و﴿كِلَاهُمَا﴾ عطفٌ على ﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعلًا أو بدلًا، ولذلك لم يَجُز أن يكونَ تَأكيدًا للألفِ، ومعنى ﴿عِندَكَ﴾: أن يكونا في كَنَفِهِ[(٢)] وكَفالتِهِ.

﴿فلا تَقُلْ لَهُما أفٍّ﴾: فلا تَضْجَر بما يُستقذرُ مِنهُما وتَستَثْقِلْ مِن مؤنَتِهما، وهو صوتٌ يَدلُّ على تَضجُّرٍ، وقيل: اسمُ الفعلِ الذي هو أَتَضَجَّرُ. وهو مَبنيٌّ على الكسرِ لالتقاءِ السَّاكنينِ، وتنوينُه في قراءةِ نافعٍ وحفصٍ للتَّنكيرِ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ بالفَتحِ على التَّخفيفِ[(٣)]، وقُرِئَ به مُنوَّنًا، وبالضَّمِّ للإتباعِ كـ(مُنْذُ) منوَّنًا وغيرَ مُنوَّنٍ[(٤)].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٢) أي: في منزلِهِ.

(٣) أي: بفتح الفاء من غير تنوين، وباقي السبعة بكسرها من غير تنوين. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٩)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«المحتسب» (٢/ ١٨)، وفيهما: (أفُّ) بالضم من غير تنوين عن أبي السمال. وزاد ابن خالويه: (أفًّا) بالنصب والتنوين شبل عن أهل مكة. وزاد ابن جني: (أفٌّ) بالضم والتنوين عن هارون النحوي، و: (أفَ) خفيفة عن ابن عباس رضي الله عنهما. =

والنَّهـيُ عن ذلك يدلُّ على المنعِ مِن سـائرِ أنـواعِ الإيذاءِ قياسـاً بطريقِ الأَولى، وقيـل: عُرفًا كقولك: فـلانٌ لا يملِكُ النَّقيـرَ والقِطْميرَ(١)، ولذلك منعَ رسـولُ اللهِ ﷺ حذيفـةَ مِـن قتـلِ أبيـهِ وهو فـي صـفِّ المُشـركينَ(٢). نهـى عمَّـا يؤذيهِمَا بعـدَ الأمرِ بالإحسانِ بهما.

﴿وَلَا نَنْهَرْهُمَا﴾: ولا تَزجُرْهُما عمَّا لا يُعجِبُك بإغلاظٍ.

وقيل: النَّهيُ والنَّهرُ والنَّهمُ أخواتٌ.

﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدلَ التَّأفيفِ والنَّهرِ ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾: جميلًا لا شراسةَ فيه.

(٢٤) ـ ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾: تذلَّلْ لَهُما وتواضَعْ فيهِمَا، جعلَ للذُّلِّ جَناحًا كما جعلَ لَبيدٌ في قولِه:

وَغَـدَاةِ رِيـحٍ قَـدْ كَـشَـفْـتُ وَقِـرَّةٍ إِذْ أَصْبَحَـتْ بِيَـدِ الشَّـمالِ زِمَامُهَـا(٣)

للشِّمالِ يدًا وللقِرَّةِ زِمامًا. وأَمرَهُ بخَفضِهَا مُبالغَةً.

= وقد لخص الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٣٦) ما ورد فيها من قراءات بقوله: «وقرئ (أفّ) بالحركات الثلاثة منوناً وغير منون»، ولعل المصنف رحمه الله فصَّلها ليميز المتواتر من الشاذ. وفي الكلمة لغات جمة؛ فقد نقل أبو حيان في «البحر» (١٤/ ٥٠) عن الزناتي في «الحلل»: أن في (أف) لغات تقارب الأربعين، ثم سردها أبو حيان كاملة مع الضبط. أما صاحب «التاج» فقد أوصلها للخمسين.

(١) في نسخة الخيالي: «ولا القطمير».

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٩٨): لم أجده، ولا يصح عن والد حذيفة أنه كان في صف المشركين، فإنه استُشهد بأحد مع المسلمين بأيدي المسلمين خطأً وهم يحسبونه من الكفار، كما في «صحيح البخاري» [(٣٢٩٠)]، لكنْ نحوُ القصة المذكورة وردت لأبي عبيدة بن الجراح.

(٣) انظر: «ديوان لبيد» (ص: ١١٤)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٢٦١)، وفيهما: «وزعت» بدل «كشفت».

أو: أراد جناحَهُ؛ كـقـولِه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وإضافَتُه إلى ﴿ٱلذُّلِّ﴾ للبَيانِ والمُبالغَةِ، كما أضيفَ حاتِمٌ إلى الجودِ، والمعنى: واخفِضْ لهما جناحَكَ الذَّليلَ.

وقُرِئَ: (الذِّلِّ) بالكسرِ(١)، وهو الانقيادُ، والنَّعتُ مِنه: ذَلولٌ.

﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾: مِـن فَـرْطِ رَحمَتِـكَ عليهِمـا لافتِقارِهِمـا إلـى مَـن كانَ أفقـرَ خلـقِ اللهِ إليهِمـا.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾: وادعُ اللهَ أَنْ يرحَمَهُما برَحْمَتِه الباقيَةِ، ولا تكتَفِ برَحمَتِكَ الفانيَةِ وإن كانا كافرَيْنِ؛ لأنَّ مِن الرَّحمَةِ أَنْ يَهدِيَهُما ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾: رحمةً مِثلَ رَحْمَتِهِما عليَّ وتَربيَتِهِما وإرشادِهِما لي فـي صِغَرِي، وفاءً بوَعدِكَ للرَّاحمينَ.

رُوِيَ: أنَّ رَجُلًا قال لرَسُولِ اللهِ: إنَّ أَبَويَّ بَلَغَا مِـن الكِبَرِ أنِّي أَلِي مِنهُما ما وَلِيَا مِنِّي في الصِّغَرِ، فهَلْ قَضَيتُهُما؟ قال: «لا، فإنَّهما كانا يَفعَلانِ ذلك وهما يُحبَّانِ بَقاءَكَ، وأنتَ تفعَلُ ذلك وأنتَ تُريدُ مَوتَهُما»(٢).

(٢٥) - ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ مِن قَصدِ البرِّ إلَيْهِمَا واعتقادِ ما يَجِبُ لَهُما مِـن التَّوقيرِ، وكأنَّه تَهديدٌ على أن يُضمرَ لَهُما كراهةً واستِثقالًا.

﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾: قاصِـدينَ للصَّـلاحِ ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾: للتَّوَّابيـنَ ﴿غَفُورًا﴾ مـا فـرَطَ مِنْهُم عندَ حـرجِ الصَّدرِ مِن أَذِيَّـةٍ أَوْ تَقصيرٍ، وفيه تَشـديدٌ عَظيمٌ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ عامًّا لكلِّ تائبٍ، ويَندرِجُ فيه الجاني على أبويه التائبُ من جنايتِه اندراجاً أوليًّا لورودِه على إثرِه.

---

(١) نسبت لابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير والجحدري وجماعة غيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«المحتسب» (٢/ ١٨).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٩٨): لم أجده.

(٢٦) ـ ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ مِن صِلَةِ الرَّحِمِ وحسنِ المُعاشرةِ والبرِّ عليهم، وقال أبو حنيفةَ: حَقُّهم إذا كانوا محارمَ فُقراءَ أن يُنفِقَ عليهِمْ[١].

وقيل: المرادُ بذِي القُرْبى: أقاربُ الرَّسولِ عليهِ السَّلام.

﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ بصَرفِ المالِ فيما لا يَنبَغِي وإنفاقِه على وَجهِ الإسرافِ، وأصلُ التَّبذيرِ: التَّفريقُ.

وعن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال لسَعدٍ وهو يَتوضَّأُ: «ما هذا السَّرَفُ؟» فقال: أفي الوُضوءِ سَرَفٌ؟ قال: «نَعم، وإن كنتَ على نَهرٍ جارٍ»[٢].

(٢٧) ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾: أمثالَهُم في الشَّرارةِ، فإنَّ التَّضييعَ والإتلافَ شَرٌّ، أو: أصدقاءَهُم وأتباعَهُم لأنَّهم يُطيعونَهُم في الإسرافِ والصَّرفِ في المَعاصِي.

رُوِيَ: أنَّهم كانوا يَنحرونَ الإبلَ ويَتياسَرونَ عَلَيها، ويبذِّرُونَ أَموالَهُم في السُّمعةِ، فنَهاهُم اللهُ عن ذلك وأمرَهُم بالإنفاقِ في القُرُباتِ[٣].

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ مُبالِغاً في الكُفرِ به، فيَنبَغِي أن لا يُطاعَ.

(٢٨) ـ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ﴾: وإنْ أَعرَضْتَ عَن ذِي القُربى والمِسكينِ وابنِ السَّبيلِ حَياءً مِن الرَّدِّ، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بالإعراضِ عَنْهُم: أن لا ينفعَهُم، على سَبيلِ الكِنايَةِ.

---

(١) انظر: «التجريد» للقدوري (١٠/ ٥٤٠٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٧٠٦٥)، وابن ماجه (٤٢٥)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. قال البوصيري في «الزوائد»: إسناده ضعيف لضعف حُيَيِّ بن عبد الله وابن لهيعة.

(٣) ذكر نحوه الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٢٠).

﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾: لانتظارِ رزقٍ مِن اللهِ تَرجوهُ أَنْ يأتِيَكَ فتُعطِيَهُ، أو: مُنتظرينَ له.

وقيل: معناه: لفقدِ رزقٍ مِن ربِّكَ تَرجوهُ أن يُفتحَ لك، فوُضِعَ الابتغاءُ موضِعَهُ لأنَّه مُسبَّبٌ عنه.

ويجوزُ أن يتعلَّقَ بالجَوابِ الذي هو قولُه: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾؛ أي: فقُلْ لهم قولًا ليِّنًا ابتغاءَ رحمةِ اللهِ برَحمَتِكَ علَيْهِم بإجمالِ القَولِ لَهُم. والميسورُ مِن يُسِرَ الأَمرُ، مثل سُعِدَ الرَّجلُ ونُحِسَ.

وقيل: القولُ المَيسورُ: الدُّعاءُ لهم بالميسورِ، وهو اليُسْرُ، مثل: أغناكُم اللهُ، رَزَقنا اللهُ وإيَّاكُم.

(٢٩) ـ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ تَمثيلانِ لِمَنعِ الشَّحيحِ وإسرافِ المُبَذِّرِ، نَهَى عَنْهُما آمِرًا بالاقتصادِ بينَهُما الذي هو الكرمُ.

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾: فتصيرَ مَلُومًا عندَ اللهِ وعندَ النَّاسِ بالإسرافِ وسُوءِ التَّدبيرِ.

﴿مَّحْسُورًا﴾: نادِمًا، أو: مُنقَطَعًا بك لا شيءَ عِندَكَ، مِن حسرَهُ السَّفرُ: إذا بلغَ مِنْه.

وعن جابرٍ: بَيْنَا رَسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ إذ أتاه صبيٌّ فقال: إنَّ أُمِّي تَسْتكسيكَ دِرْعًا، فقال: «مِن ساعَةٍ إلى ساعَةٍ يَظْهَرُ فعُدْ إلينا»، فذهبَ إلى أُمِّهِ فقالت: قُلْ له: إنَّ أُمِّي تَستَكْسِيكَ الدِّرعَ الذي عليك، فدخلَ دارَهُ ونزعَ قميصَهُ وأعطاهُ وقعدَ عُريانًا، وأذَّنَ بلالٌ وانتَظَرُوا الصَّلاةَ[1] فلَمْ يَخْرُج، فأنزلَ اللهُ ذلك[2].

---

(١) في نسخة الخيالي: «وانتظروه للصلاة»، وفي نسخة التفتازاني: «وانتظروا للصلاة»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(٢) ذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٠٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٩٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٨٧)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٩٠). قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ٩٩): لم أجده. =

ثمَّ سَلَّاه بقولِه: (٣٠) ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾: يوسِّعُه ويُضيِّقُه بمَشيئَتِهِ التَّابعَةِ للحكمَةِ البالغَةِ، فليس ما يَرْهَقُكَ[1] مِن الإضاقَةِ إلا لِمَصلحَتِكَ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعلَمُ سِرَّهُم وعَلَنَهُم، فيعلَمُ مِن مَصالِحِهم ما يَخفَى عليهم.

ويجوزُ أن يريدَ: أنَّ البسطَ والقَبْضَ مِن أَمرِ اللهِ العالمِ بالسَّرائرِ والظَّواهرِ، فأمَّا العِبادُ فعَلَيهم أَنْ يقتصِدوا، أو أنَّه تعالى يبسطُ تارةً ويَقبِضُ أخرى، فاستَنُّوا بسُنَّتِه ولا تَقبِضُوا كلَّ القَبضِ ولا تبسُطُوا كُلَّ البَسطِ، وأن يكونَ تَمهيدًا لقوله:

(٣١) ـ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾: مخافةَ الفاقَةِ، وقتلُهُم أولادَهُم هو وَأْدُهُم بناتِهِم مخافةَ الفقرِ، فنهاهُم عنه وضمِنَ لَهُم أَرزاقَهُم فقال:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾: ذنبًا كبيرًا؛ لِمَا فيهِ مِن قَطعِ التَّناسُلِ وانقِطاعِ النَّوعِ.

والخطَأُ: الإثمُ، يقال: خَطِئَ خِطْئاً كأَثِمَ إِثْمًا، وقرأ ابنُ عامرٍ بروايةِ ابن ذكوان: ﴿خَطَأً﴾، وهو اسمٌ مِن أخطَأَ لضدِّ الصَّوابِ، وقيل: لغَةٌ فيه، كمَثَلٍ ومِثْلٍ، وحَذَرٍ وحِذْرٍ.

= وقال الآلوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٤٩١): وأنت تعلم أنه يأبى هذا كونُ السورة مكية والآية ليست من المستثنيات، ولعل الخبر لم يثبت، فعن ولي الدين العراقي: أنه لم يجده في شيء من كتب الحديث؛ أي: بهذا اللفظ، وإلا فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال: إن أمي تسألك كذا وكذا، فقال: «ما عندنا اليوم شيء»، قال: فتقول لك: اكسني قميصك، فخلع عليه الصلاة والسلام قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت حاسراً فنزلت، وأخرج ابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو نحوه، وليس في شيء منهما حديث أذان بلال وما بعده.

(١) أي: يغشاكَ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿خِطاءً﴾ بالمدِّ والكَسرِ[1]، وهو إمَّا لُغَةٌ فيه، أو مَصدرُ خاطَأَ، وهو وإنْ لَمْ يُسمَع لكنَّه جاءَ تَخاطَأَ في قولِه:

تَخَاطَأَهُ القَنَّاصُ حَتَّى وَجَدْتُهُ وَخُرْطُومُهُ فِي مِنْقَعِ المَاءِ رَاسِبُ[2]

وهو مَبنيٌّ عليه.

وقُرِئَ: (خَطَاءً) بالفتحِ والمَدِّ، و: (خطًا) بحذفِ الهمزةِ مَفتوحًا ومَكسورًا[3].

(٣٢) ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ بالعَزمِ[4] والإتيانِ بالمُقدِّماتِ[5] فضلًا أن تُباشروهُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾: فَعْلةً[6] ظاهرةَ القُبحِ زائدتَهُ ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾: وبئسَ طَريقًا طريقُه، وهو الغصبُ على الإبضاعِ[7] المُؤدِّي إلى قطعِ الأنسابِ وهَيجِ الفِتَنِ.

(٣٣) ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾: إلَّا بإحدَى ثلاثٍ: كُفرٍ بعدَ إيمانٍ، وزِنًى بعدَ إحصانٍ، وقتلِ مُؤمنٍ مَعصومٍ عَمْدًا.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾: غيرَ مُستوجبٍ للقَتلِ ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾: للَّذي يَلِي أمرَهُ بعدَ وفاتِه وهو الوارِثُ ﴿سُلْطَٰنًا﴾ تَسَلُّطًا بالمؤاخذَةِ بمُقتضى القَتلِ على مَن عليه[8]،

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٣٩ ـ ١٤٠).

(٢) البيت بلا نسبة في «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٩٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٢). وفي «الحجة»: «القعاص» بدل «القناص».

(٣) قرأ (خَطَاءً) و(خَطاً) الحسن، و(خِطاً) أبو رجاء والزهري. انظر: «المحتسب» (٢/ ١٩).

(٤) في نسخة الخيالي: «بالقصد».

(٥) في نسخة الخيالي: «وإتيان المقدمات».

(٦) بفتحِ الفاء إشارةً إلى وجهِ تأنيثِه.

(٧) أي: الإكراه على المجامعَة.

(٨) كذا في نسخة الخيالي، وفي نسخة الطبلاوي: «على من قتله» وكذا في حاشيتي ابن التمجيد والقونوي، ووقع في نسخة التفتازاني وعلى هامش نسخة الطبلاوي: «على من غلبه». =

أو بالقصاصِ على القاتلِ، فإنَّ قولَه: ﴿مَظْلُومًا﴾ يدلُّ على أنَّ القتلَ عمداً عدوانٌ، فإنَّ الخَطأَ لا يُسمَّى ظُلْمًا.

﴿فَلَا يُسْرِف﴾؛ أي: القاتلُ ﴿فِي ٱلْقَتْلِ﴾ بأنْ يَقتلَ مَن لا يَحِقُّ قتلُه، فإن العاقلَ لا يفعَلُ ما يَعودُ عليه بالهلاكِ، أو الوليُّ بالمُثْلةِ، أو قتلِ غيرِ القاتلِ.

ويؤيِّدُ الأوَّلَ قراءةُ أُبيٍّ: (فَلا تُسرِفُوا)[1].

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿فَلَا تُسْرِف﴾[2] على خطابِ أَحدِهما.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ عِلَّةُ النَّهيِ علـى الاستئنافِ، والضَّميرُ إمَّا للمَقتولِ فإنَّه مَنصورٌ في الدُّنيا بثبوتِ القصاصِ بقَتلِه، وفي الآخرةِ بالثَّوابِ، وإما لوليِّهِ فإنَّ اللهَ نصرَهُ حيثُ أوجبَ القصاصَ لَهُ وأمرَ الوُلاةَ بمَعونَتِه، وإمَّا للَّذي يَقتُلُه الوَلِيُّ إسرافًا، بإيجابِ القصاصِ أو التَّعزيرِ والوِزرِ على المُسرفِ.

= قال الشهاب الخفاجي: قوله: «بالمؤاخذة» يعمُّ القصاص والدية، وقوله: «بمقتضى» متعلق بـ«المؤاخذة»، وقوله: «على مَن» متعلق بـ«تسلطاً»، وقوله: «مَن عليه» بتقدير: مَن هو عليه، وضمير (هو) المحذوفُ يعود على «مقتضى»، وضمير «عليه» يعود على «مَن». انظر: «حاشية الشهاب»: «على مَن قتله».

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠).

(٢) القراءة في «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٤٥٣)، عن حمزة والكسائي وابن عامر، وفي «حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٤٠٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٤٠)، و«الإقناع في القراءات السبع» لابن الباذش، عن حمزة والكسائي ولم يذكروا ابن عامر، وفي «المبسوط في القراءات العشر» لأبي بكر النيسابوري (ص: ٢٦٩)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧)، عن حمزة والكسائي وخلف. وقال في «البحر المحيط» (١٤/ ٧٢): في نسخة من «تفسير ابن عطية»: (وابن عامر، وهو وهم).

(٣٤) ـ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ فَضْلًا أَنْ تَتصرَّفُوا فيه ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: إلا بالطَّريقَةِ التي هيَ أحسَنُ ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لجوازِ التَّصرُّفِ الذي دلَّ عليه الاستثناءُ.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾: بما عاهدَكُم اللهُ مِن تَكاليفِه، أو: ما عاهَدْتُموه وغيرَه ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾: مطلوبًا يُطلَبُ من العاهدِ أن لا يُضيِّعَهُ ويَفِيَ به، أو: مَسؤولًا عنه يُسأَلُ النَّاكثُ ويُعاتَبُ عليه، أو يُسأَلُ العهدُ: لمَ نُكِثْتَ؟ تبكيتًا للنَّاكثِ، كما يقالُ للمَوؤدَةِ: (بأيِّ ذنبٍ قُتِلْتِ)[1] [التكوير: ٩] فيكونُ تَخييلًا.

ويجوزُ أَنْ يُرادَ: إنَّ صاحبَ العهدِ كانَ مسؤولًا.

(٣٥) ـ ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾: ولا تَبخَسُوا فيه ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: بالميزانِ السَّويِّ، وهو رُوميٌّ عُرِّبَ، ولا يَقدَحُ ذلك في عربيَّةِ القرآنِ؛ لأن العَجَميَّ إذا استعملَتْهُ العَربُ وأجرَتْهُ مُجرى كلامِهم في الإعرابِ والتَّعريفِ والتَّنكيرِ ونحوِها صارَ عَرَبيًّا.

وقرأَ حَمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بكَسرِ القَافِ هنا وفي (الشعراء)[2].

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: وأحسَنُ عاقبَةً، تَفعيلٌ مِن آلَ: إذا رَجَعَ.

(٣٦) ـ ﴿وَلَا تَقْفُ﴾: ولا تَتَّبعْ، وقُرِئَ: (ولا تَقُفْ)[3] مِن قافَ أثرَهُ: إذا قفاهُ، ومنه القافَةُ.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾: ما لم يَتعلَّقْ بهِ عِلمُكَ تَقليدًا أو رجمًا بالغيبِ.

---

(١) بسكون اللام وكسر التاء. انظر: «البحر» (١٤/ ٧٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠)، عن بعضهم، ونسبت في «زاد المسير» (٣/ ٢٤)، و«البحر» (١٤/ ٧٧)، لمعاذ القارئ.

واحتَجَّ به مَن مَنعَ اتِّباعَ الظنِّ، وجوابُه: أنَّ المُرادَ بالعلمِ هو الاعتقادُ الرَّاجِحُ المُستفادُ مِن سندٍ، سَواءٌ كانَ قَطْعًا أو ظنًّا، واستعمالُه لهذا المَعنى شائِعٌ.

وقيل: إنَّه مَخصوصٌ بالعَقائدِ.

وقيل: بالرَّمي وشَهادةِ الزُّورِ، ويُؤيِّدُه قولُه عليه السَّلامُ: «مَن قفا[1] مُؤمِنًا بما ليسَ فيه حَبَسَهُ اللهُ في رَدْغَةِ الخَبَالِ[2] حتى يَأتِيَ بالمَخْرَجِ»[3]، وقولُ الكُمَيتِ:

وَلَا أَرْمِـي البَرِيءَ بِـغَيْرِ ذَنْـبٍ وَلَا أَقْفُو الحواصِـنَ إنْ قُفِينَا[4]

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ أي: كلُّ هذهِ الأَعضاءِ، فأَجراهَا مُجرَى العُقَلاءِ لَمَّا كانَتْ[5] مَسؤولةً عَن أَحوالِها شاهِدَةً على صَاحِبِها.

هذا وإنَّ (أولاء) وإن غلبَ في العُقَلاءِ، لكنَّه مِن حَيثُ إنَّه اسمُ جمعٍ لـ(ذا) ـ وهو يعمُّ القَبِيلَيْنِ ـ جاءَ لغيرِهِم كقولِه:

والعَيْـشَ بَعْـدَ أُولئِـكَ الأَيَّـامِ[6]

---

(١) أي: اغتاب وقذف.

(٢) رَدْغَةِ الخَبَالِ: ما يخرجُ من أبدان أهل النَّار من القيح والدم والصديد ونحوه.

(٣) رواه أبو داود (٣٥٩٧)، والإمام أحمد في «المسند» (٥٣٨٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) انظر: «ذيل ديوان الكميت بن زيد الأسدي» (ص:٤٦٦).

(٥) بعدها في نسخة التفتازاني: «عفيفات».

(٦) البيت لجرير، وصدرُه:

ذُمَّ المَنـازِلَ بعـدَ منزلَـةِ اللِّـوَى

انظر: «ديوان جرير» (٢/ ٩٩٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣٩)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٥٩٦)، و«البحر» (١٤/ ٧٧). ورواية الديوان: (أولئك الأقوام).

﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ في ثلاثَتِها ضَميرُ ﴿كُلُّ﴾؛ أي: كانَ كلُّ واحدٍ مِنْها مَسؤُولًا عن نَفسِه؛ يعني: عمَّا فعلَ به صاحبُهُ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ الضَّميرُ في ﴿عَنْهُ﴾ لمصدرِ ﴿لا تقف﴾ أو لصاحبِ السَّمعِ والبَصَرِ.

وقيل: ﴿مَسْئُولًا﴾ مُسنَدٌ إلى ﴿عَنْهُ﴾، كقولِه: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، والمعنى: يُسأَلُ صاحبُهُ عَنْه. وهو خَطَأٌ؛ لأنَّ الفاعِلَ وما يَقومُ مَقامَهُ لا يَتقدَّمُ.

وفيه دَليلٌ على أنَّ العبدَ مؤاخذٌ بعَزمِهِ على المَعصِيَةِ.

وقُرِئَ: (والفَوَادَ) بقلبِ الهَمزَةِ واوًا بعدَ الضمَّةِ ثمَّ إبدالِها بالفَتحة[1].

(٣٧) ـ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾؛ أي: ذا مرحٍ، وهو الاختيالُ.

وقُرِئَ: (مَرِحًا)[2]، وهو باعتبارِ الحُكمِ أبلَغُ وإنْ كانَ المصدَرُ آكدَ مِن صَريحِ النَّعتِ[3].

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾: لن تجعلَ فيها خَرقًا بشِدَّةِ وَطأَتِكَ ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بتَطاوُلك، وهو تَهكُّمٌ بالمُختالِ، وتعليلٌ للنَّهيِ بأَنَّ الاختيالَ حماقَةٌ مجرَّدَةٌ لا تَعودُ بجَدْوى ليس في التَّذلُّلِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢١)، عن الجراح قاضي البصرة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠) عن يحيى بن يعمر.

(٣) يعني القراءة بالوصفِ هُنا أبلغ من قراءَة المصدر المُفيد للمُبالَغَةِ بجعلِهِ عين المرح، كما يُقالُ: رجل عدل؛ لأنَّهُ واقع في حيِّزِ النَّهيِ الَّذي هو في معنى النَّفي، ونفي أصلِ الاتِّصاف أبلغ من نفي زيادتِهِ ومبالغته. «حاشية الخفاجي».

(٣٨) ـ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخصالِ الخَمسةِ والعِشرينَ المَذكورةِ مِن قولِه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: أنَّها المَكتوبةُ في أَلواحِ مُوسَى عليه السَّلامُ[١].

﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ يعني: المنهيَّ عنه، فإنَّ المَذكوراتِ مَأموراتٌ ومَناهٍ.

وقرَأَ الحِجازِيَّانِ والبَصريَّانِ: ﴿سيئةً﴾[٢] على أنَّها خبرُ ﴿كَانَ﴾، والاسمُ ضَميرُ ﴿كُلُّ﴾، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما نَهى عنه خاصَّةً، وعلى هذا قولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدلٌ مِن ﴿سيئةً﴾، أو صِفَةٌ[٣] لها مَحمولةٌ على المعنى فإنَّه بمَعنى: (سيِّئًا)، وقد قُرِئَ به[٤].

ويجوزُ أَنْ يَنتصِبَ ﴿مَكْرُوهًا﴾ على الحالِ مِن المُستكِنِّ في ﴿كَانَ﴾، أو في

---

(١) ذكره عن ابن عباس أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٠٦)، والزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٥٧)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٤١) عن الكلبي. ولفظ الزمخشري: «هذه الثماني عشرةَ آيةً كانت في ألواحِ موسى عليه السلام، أوَّلُها: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وهي عشرُ آيات في التوراة». والذي رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٣٨) عن ابن عباس هو قوله: إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل، ثم تلا: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. قال الآلوسي في «روح المعاني» (١٤/ ٥١٦): وهذا أعظم مدحاً للقرآن الكريم مما في «الكشاف».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٠)، و«النشر» (٢/ ٣٠٧). الحجازيان: نافع المدني وابن كثير المكي، والبصريان: أبو عمرو ويعقوب.

(٣) قوله: «بدل من (سيئة) أو صفة لها»؛ أي: ﴿مَكْرُوهًا﴾، و﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلق به مقدَّم من تأخير. انظر: «حاشية الشهاب».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠)، وفيه: (سيئاً) في بعض المصاحف، وفي بعضها: (سيئات).

الظَّرفِ على أنَّه صِفَةُ ﴿سيئةً﴾، والمرادُ به: المبغوضُ المُقابِلُ للمَرضيِّ، لا ما يُقابلُ المُرادَ؛ لقيامِ القاطعِ على أنَّ الحوادِثَ كلَّها واقِعَةٌ بإرادَتِه تَعالى[1].

(٣٩) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الأحكامِ المُتقدِّمَةِ ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ التي هي مَعرِفَةُ الحقِّ لذاتِه، والخيرِ للعَملِ بِهِ.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كرَّرَه للتَّنبيهِ على أنَّ التَّوحيدَ مَبدأُ الأَمرِ ومُنتهاه، فإنَّ مَن لا قَصْدَ له بَطَلَ عَمَلُه، ومَن قَصَدَ بفعلِه أو تركِه غيرَهُ ضاعَ سَعيُه، وأنَّه رأسُ الحكمَةِ ومِلاكُها، ورتَّبَ عليه أوَّلًا ما هو عائِدةُ الشِّركُ في الدُّنيا، وثانيًا ما هو نتيجَتُه في العُقبَى[2]، فقال: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلومُ نَفسَكَ ﴿مَّدْحُورًا﴾: مُبعَدًا مِن رَحمَةِ اللهِ.

(٤٠) ـ ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ خِطابٌ لِمَن قال[3]: الملائِكَةُ بَناتُ اللهِ، والهمزةُ للإنكارِ، والمعنى: أَفَخصَّكُم[4] رَبُّكُم بأَفضلِ الأَولادِ وهُم البَنُونَ ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾: بناتٍ لنفسِهِ، هذا خلافُ ما عليهِ عُقولُكُم وعادتُكُم.

---

(١) قوله: «والمراد به المبغوض»؛ أي: المراد بالمكروه هنا، وهو جواب عن قول المعتزلة: أنَّ القبائح لا تتعلق بها الإرادة وإلا اجتمع الضدان: الإرادةُ المرادفة أو الملازمة للرضا عندهم، والكراهةُ، فدلت الآية على أن القبيح لا تتعلق به الإرادة، ونحن لا نقول بذلك لما ذكره المصنف رحمه الله، لكن الجواب تحقيقي لا إلزامي؛ لأنه إنما يتم بأن الإرادة ليست عين الرضا ولا مستلزمة له.

وقوله: «لقيام القاطع..» دفع لقولهم: لا يعدل عن الظاهر بلا دليل ولا ضرورة. انظر: «حاشية الشهاب»، و«حاشية القونوي» (١١/ ٥٠٩).

(٢) قوله: «ورتب عليه...» يعني قوله: ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ وقوله: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) في نسخة التفتازاني: «يقول»، وفي نسخة الطبلاوي: «يقولوا».

(٤) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «أيخصكم».

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بإضافةِ الأَولادِ إليه، وهنَّ خاصَّةُ بعضِ الأجسامِ لسُرعَةِ زَوالِها، ثمَّ بتفضيلِ أنفُسِكُم عليه حيثُ تجعلونَ له ما تَكرهونَ، ثمَّ بجعلِ المَلائكةِ الذين هُمْ من أشرَفِ خلقِ اللهِ أدوَنَهُم.

(٤١) ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾: ولقد كرَّرْنا هذا المعنى بوجوهٍ مِن التَّقريرِ ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾: في مَواضِعَ مِنه، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بـ﴿هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾: إبطالُ إضافةِ البَناتِ إليه بتَقديرِ: ولقَدْ صَرَّفنا القَولَ في هذا المعنى، أو أوقَعْنَا التَّصريفَ فيه.

وقُرِئَ: (صَرَفْنَا) بالتَّخفيفِ[١].

﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾: ليَتذكَّرُوا، وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ هنا وفي الفرقان: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾[٢] من الذِّكرِ الذي هو بمَعنى التَّذكُّرِ.

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عَن الحقِّ وقلَّةَ طُمأنينةٍ إليه.

(٤٢) ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ﴾ أَيُّها المُشركونَ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وحَفصٌ باليَاءِ فيه وفيما بعدَهُ على أنَّ الكلامَ مع الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ، ووافَقَهُما نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو عمرٍو وأبو بكرٍ ويعقوبُ في الثَّانيَةِ[٣] على أنَّ الأُولى ممَّا أُمِرَ الرَّسولُ أن يخاطبَ به المشركينَ، والثَّانيةَ ممَّا نَزَّهَ بِهِ نَفسَهُ عَن مَقالِهِم.

﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ جـوابٌ عَن قولِهِم وجزاءٌ لـ﴿لَّوْ﴾، والمعنى: اطلُبوا إلى مَن هو مالكُ الملكِ سَبيلًا بالمَفازَةِ كمَا يفعَلُ الملوكُ بعضُهُم مَع بعضٍ، أو بالتَّقرُّبِ إليه والطَّاعةِ لعِلْمِهِم بقُدرَتِه وعَجْزِهِم، كقولِهِ: ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢١)، عن الحسن.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨١)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٤٣) ـ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ يُنزَّهُ تنزيهًا ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا﴾: تعاليًا ﴿كَبِيرًا﴾ مُتباعِدًا غايةَ البُعدِ عمَّا يَقولونَ، فإنَّه في أَعْلَى مَراتبِ الوُجودِ، وهو كونُه واجبَ الوُجودِ والبقاءِ لذاتِه، واتِّخاذُ الولدِ مِن أدنَى مَراتبِه، فإنَّه مِن خواصِّ ما يَمتَنِعُ بَقاؤُه.

(٤٤) ـ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾: يُنَزِّهُهُ ممَّا هو مِن لَوازمِ الإمكانِ وتَوابعِ الحُدوثِ بلِسانِ الحالِ[1]، حيثُ تَدلُّ بإمكانِها وحُدوثِها على الصَّانعِ القَديمِ الواجبِ لِذاتِه ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أيُّـها المُشرِكُونَ لإخلالِكُم بالنَّظرِ الصَّحيحِ الذي به يُفهَمُ تَسبيحُهُم.

ويجـوزُ أَنْ يُحمَـلَ التَّسـبيحُ علـى المُشـتركِ بينَ اللفـظِ والدَّلالةِ لإسـنادِهِ إلى مـا يُتصـوَّرُ مِنْـهُ اللفـظُ وإلـى مـا لا يُتصـوَّرُ مِنْـهُ، وعليهِمَـا عنـدَ مَـن جـوَّزَ إطلاقَ اللَّفـظِ علـى مَعنَيَيهِ.

وقرَأَ ابنُ كَثيرٍ ونافِعٌ وابنُ عامرٍ وأبو بَكرٍ: ﴿يُسبِّحُ﴾ بالياءِ[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ حينَ لَمْ يُعاجِلْكُم بالعُقوبَةِ على غَفْلَتِكُم وشِرْكِكُمْ ﴿غَفُورًا﴾ لِمَن تابَ مِنكُم.

(٤٥) ـ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا﴾ يحجُبُهُم عن فهمِ مَا تَقرؤُهُ عليهِم ﴿مَّسْتُورًا﴾: ذا سِترٍ، كقَولِه: ﴿وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١]، وقولِهِم: سيلٌ مُفْعَمٌ، أو: مَسْتُورًا عن الحسِّ، أو بحجابٍ آخرَ لا يَفهَمُونَ ولا

---

(١) قال السيوطي: قلتُ: كلَّا، بل هو بلسانِ القالِ كما ورَدَتْ به الأحاديثُ، وكفَاه بظهورِ ذلك صريحًا في أحاديثِ تَسبيحِ الحَصى في كفِّه ﷺ. وإذا شئتَ أَنْ تَتضلَّعَ مِن ذلك فانظُرْ إلى ما أوردناهُ في كتابنا «التفسير المأثور» في هذه الآية، وفي كتابِ «المعجزات النبوية» من الأحاديثِ والآثارِ، غايَةُ الأمرِ أنَّا حُجِبْنا عَن سماعِه وهو مَعنى قولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. «حاشية البيضاوي» (٨/ ٣٢٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨١)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

يَفْهَمُونَ أنهم لا يَفْهَمُونَ، نفى عنهم أَنْ يَفهَمُوا ما أُنزِلَ عليهِمْ مِن الآياتِ بَعدَما نَفَى عَنْهُم التَّفقُّهَ للدَّلالاتِ المَنصوبَةِ في الأَنفُسِ والآفاقِ تَقريرًا له وبيانًا لكونِهم مَطبوعِينَ على الضَّلالَةِ؛ كمَا صَرَّحَ بقَولِه:

(٤٦) ـ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تُكِنُّها وتحولُ دونَها عَـن إدراكِ الحقِّ وقَبولِه ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: كراهةَ أَنْ يَفْقَهُوهُ، ويجوزُ أَنْ يكونَ مَفْعُولًا لِمَا دَلَّ عليهِ قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾؛ أي: مَنَعناهُم أن يفقهوهُ.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يَمنَعُهُم عن استماعِه[1]، ولَمَّا كان القُرآنُ مُعجِزًا مِـن حيثُ اللفظُ والمعنى أثبتَ لِمُنكريهِ ما يمنَعُ عَن فَهمِ المَعنى[2] وإدراكِ اللَّفظِ[3].

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾: واحِدًا غيرَ مَشفوعٍ بهِ آلهتُهُم، مصدرٌ وقعَ موقِعَ الحالِ، وأصلُهُ: تَحِدُ وَحْدَهُ، بمعنى: واحدًا وحدَه.

﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾: هربًا مِن استماعِ التَّوحيدِ ونفرةً، أَوْ: تَوْلِيةً، ويجوزُ أَنْ يكونَ جمعَ نافِرٍ كقاعِدٍ وقُعودٍ.

(٤٧) ـ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾: بسببِهِ ولأَجلِهِ مِن الهزءِ بكَ وبالقُرآنِ ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرفٌ لـ﴿أَعْلَمُ﴾، وكذا: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾؛ أي: نَحنُ أعلَمُ بغَرَضِهم مِن الاستِماعِ حينَ هُمْ مُستَمِعونَ إليكَ مُضمِرونَ لَهُ وحينَ هُمْ ذَوُو نَجْوَى يَتناجَوْنَ بهِ.

و﴿نَجْوَىٰٓ﴾ مَصدرٌ، ويحتمِلُ أن يكونَ جمعَ نَجِيٍّ.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ مُقـدَّرٌ بـ: اذكـر، أو بـدلٌ مِن ﴿إِذْ

---

(١) في نسخة الخيالي: «عن استماع ذلك».

(٢) بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥].

(٣) بقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

هُـم نَجْـوَى﴾ على وضـعِ (الظَّالِميـنَ) مَوضِـعَ الضَّميـرِ للدَّلالَـةِ علـى أنَّ تَناجِيَهم بقَولِهـم هذا.

والمسحورُ: الذي سُحرَ به فزالَ عَقلُهُ.

وقيل: الذي له سَحرٌ، وهو الرِّئَةُ؛ أي: إلَّا رَجُلًا يتنفَّسُ ويأكلُ ويَشرَبُ مِثلَكُم.

(٤٨) ـ ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ مَـثَّـلُوكَ بـالشَّـاعرِ والسَّاحرِ والكاهنِ والمَجنونِ.

﴿فَضَلُّواْ﴾ عن الحقِّ في جَميعِ ذلك ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ إلى طَـعـنٍ موجَّهٍ، فيَتهافَتونَ ويَخبِطُونَ كالمُتحيِّرِ في أَمْرِهِ لا يَدرِي ما يصنَعُ. أو: إلى الرَّشادِ.

(٤٩) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا﴾: حُطامًا ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ علـى الإنكارِ والاستبعادِ؛ لِمَا بينَ غَضاضةِ الحيِّ ويُبوسَةِ الرَّميمِ مِن المباعدةِ والمُنافاةِ، والعاملُ في (إذا) ما دلَّ عليه (مَبعوثون) لا نفسُهُ؛ لأنَّ ما بعدَ (إنَّ) لا يعمَلُ فيما قبلَها، و﴿خَلۡقٗا﴾ مصدرٌ أو حالٌ.

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿قُل﴾ جوابًـا لهـم: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾؛ أي: ممَّـا يكبُـرُ عندكُـم عَن قَبـولِ الحياةِ لكَونِـه أبعَدَ شَـيءٍ مِنْها، فإنَّ قُدرتَـهُ تَعالى لا تَقصُرُ عَن إحيائِكُم؛ لاشـتراكِ الأَجسـامِ في قَبـولِ الأَعراضِ، فكيفَ إذا كُنتُـم عِظامًـا مَرفوتـةً وقد كانَـتْ غَضَّةً موصوفَـةً بالحياةِ قبـلُ؟ والشَّـيءُ أَقبَلُ لِمَا عُهِدَ فيـهِ ممَّا لَـمْ يُعهَد.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ وكنتُمْ تُرابًا، وما[1] هو أبعَدُ مِنه مِن الحَياةِ؟

---

(١) كتب فوقها في نسخة الخيالي: «استفهام».

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: فسُيحرِّكُونَها نحوَكَ تعجُّبًا واستهزاءً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فإنَّ كُلَّ ما هو آتٍ قَريبٌ، وانتصابُه على الخبرِ، أو الظَّرفِ؛ أي: يكونَ في زَمانٍ قَريبٍ، و﴿أَن يَكُونَ﴾ اسمُ ﴿عَسَىٰٓ﴾، أو خبرُه والاسمُ مُضمَرٌ.

(٥٢) ـ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ﴾؛ أي: يوم يَبْعَثُكُم فتنبعِثُونَ، استعارَ لَهُما الدُّعاءَ والاستجابةَ للتَّنبيهِ على سُرعَتِهما وتَيسُّرِ أَمرِهما، وأنَّ المَقصودَ مِنْهُما الإحضارُ للمُحاسبةِ والجزاءِ.

﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حالٌ مِنْهُم؛ أي: حامدينَ للهِ على كمالِ قُدرَتِه؛ كما قيل: إنَّهُم ينفضونَ التُّرابَ عَن رُؤوسِهِم ويَقولونَ: سُبحانكَ اللهمَّ وبحمدِكَ[1].

أو: مُنقادِينَ لبَعثِه انقيادَ الحامِدينَ عليه.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾: وتَستقصرونَ مُدَّةَ لُبثِكُم في القُبورِ كالذي مرَّ على قَريَةٍ، أَوْ: مُدَّةَ حياتِكُم لِمَا تَرَوْنَ مِن الهَوْلِ.

(٥٣) ـ ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ يعني: المؤمنينَ ﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: الكلمَةَ التي هيَ أحسَنُ، ولا يُخاشِنُوا المُشركينَ.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ يَهيجُ بينَهُم المِراءَ والشَّرَّ، فلعلَّ المُخاشنَةَ بِهِمْ تُفضِي إلى العِنادِ وازديادِ الفسادِ.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهرَ العَداوةِ.

(٥٤) ـ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ تفسيرٌ لـ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، وما بينَهُما اعتراضٌ؛ أي: قولوا لهم هذه الكلمةَ ونَحوَها ولا تُصرِّحُوا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٤) عن سعيد بن جبير.

بأنَّهُم مِن أَهلِ النَّارِ، فإنَّه يَهيجُهُم على الشرِّ مع أنَّ ختامَ أَمرِهِم غيبٌ لا يَعلَمُهُ إلَّا اللهُ.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾: موكولًا إليك أمرُهُم بقَسْرِهِم على الإيمانِ، وإنَّما أَرسلناكَ مُبشِّرًا ونذيرًا، فدارِهِم ومُرْ أَصحابَكَ بالاحتمالِ مِنْهُم.

رُوِيَ: أنَّ المُشركينَ أفرَطُوا في إيذائِهِم، فشَكَوْا إلى رَسولِ اللهِ ﷺ فنزَلَتْ(١).

وقيل: شتَمَ عُمَرَ رَجُلٌ فهمَّ بهِ فأمرَهُ اللهُ بالعفْوِ(٢).

(٥٥) ـ ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وبِأحوالِهِم، فيختارُ مِنْهُم لنُبوَّتِه وولايتِهِ مَن يَشاءُ، وهو ردٌّ لاستبعادِ قريشٍ أَنْ يكونَ يتيمُ أبي طالبٍ نَبِيًّا، وأن يكونَ العُراةُ الجُوَّعُ أصحابَه.

﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ بالفَضائلِ النفسانيَّةِ والتَّبرِّي عَن العَلائقِ الجسمانيَّةِ، لا بكثرةِ الأَموالِ والأَتباعِ، حتَّى داودُ فإنَّ شرَفَهُ بما أُوحِيَ إليهِ مِن الكتابِ لا بما أُوتِيَ مِن الملكِ.

وقيل: هو إشارةٌ إلى تَفضيلِ رَسولِ اللهِ عليهِ السَّلامُ.

وقولـه: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ تَنبيـهٌ علـى وجهِ تَفضيلِـه ـ وهو أنَّه خاتـمُ الأنبياءِ، وأمَّتَـه خيـرُ الأُمَـمِ ـ المدلـولِ عليـه بمـا كتـبَ فـي الزَّبـورِ مِـن أنَّ الأرضَ يَرِثُهـا عبـادِيَ الصَّالحـونَ، وتَنكيـرُهُ هاهنا وتعريفُـهُ في قَولِـه: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ [الأنبيـاء: ١٠٥] لأنَّـه فـي الأَصـلِ فَعولٌ للمَفعـولِ كالحَلُـوبِ، أو المَصـدرِ كالقَبولِ،

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣١٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولعله من طريق الكلبي كما عزاه إليه الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٦١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٨٨).

(٢) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥٣٥)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٦١)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٢٤٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (١/ ٢٨٨).

ويؤيِّدُه قراءَةُ حمزةَ بالضَّمِّ[1]، وهوَ كالعَبَّاسِ أو الفَضْلِ، أو لأنَّ المُرادَ: وآتَيْنا داودَ بعضَ الزُّبُرِ، أو: بَعْضًا مِن الزَّبورِ فيه ذكرُ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ.

(٥٦) ـ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنَّها آلِهَةٌ ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ كالملائكةِ والمَسيحِ وعُزَيرٍ.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾: فلا يَستطيعونَ ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ كالمرضِ والفقرِ والقَحْطِ ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾: ولا تحويلَ ذلك مِنْكُم إلى غيرِكُم.

(٥٧) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هؤلاءِ الآلهةُ يَبتغونَ إلى اللهِ القُربةَ بالطَّاعةِ ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلٌ مِن واو ﴿يَبْتَغُونَ﴾؛ أي: يَبتَغِي مَن هو أقرَبُ مِنْهُم إلى اللهِ الوَسيلةَ، فكيفَ بغَيرِ الأَقرَبِ؟

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ كسائرِ العِبادِ، فكيفَ تَزعُمونَ أنَّهم آلهةٌ؟

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾: حقيقاً بأَنْ يَحذَرَهُ كلُّ أحدٍ حتَّى الرُّسُلُ والمَلائِكَةُ.

(٥٨) ـ ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالموتِ والاستئصالِ ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالقتلِ وأنواعِ البَلِيَّةِ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: في اللوحِ المَحفوظِ ﴿مَسْطُورًا﴾: مكتوبًا.

(٥٩) ـ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾: وما صَرَفَنا عَن إرسالِ الآياتِ التي اقترحَتها قريشٌ ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾: إلا تكذيبُ الأوَّلِينَ الذينَ هم أمثالُهُم في الطَّبعِ كعادٍ وثمودَ، وأنَّها لو أُرسِلَت لكَذَّبُوا بها تكذيبَ أُولئكَ واستَوْجَبُوا الاستئصالَ على ما مَضَتْ بهِ سُنَّتُنا، وقَدْ قَضَيْنا أَنْ لا نَستَأْصِلَهُم؛ لأنَّ فيهِمْ مَن يُؤمِنُ أو يَلِدُ مَن يُؤمِنُ.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٢)، و«التيسير» (ص: ٩٨).

ثمَّ ذكرَ بعضَ الأُمَمِ المُهلَكةِ بتكذيبِ الآياتِ المقترحَةِ فقال:

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ بسُؤالِهم ﴿مُبْصِرَةً﴾: بيِّنةً ذاتَ إبصارٍ أو بصائِرَ[1]، أو: جاعِلَتَهُم ذَوِي بَصائِرَ. وقُرِئَ بالفَتحِ.

﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾: فكفَرُوا بها، أو: فظَلَمُوا أنفُسَهُم بسببِ عَقرِها.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾؛ أي: بالآياتِ المقترحةِ ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ مِن نُزولِ العَذابِ المُستَأصِلِ، فإنْ لَمْ يَخافوا نزلَ.

أو: بغيرِ المُقترحَةِ كالمُعجزاتِ وآياتِ القُرآنِ ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ بعذابِ الآخرَةِ، فإنَّ أمرَ مَن بُعِثَتْ إليهِمْ مُؤخَّرٌ إلى يومِ القِيامَةِ.

والباءُ مَزيدَةٌ، أو في مَوقعِ الحالِ والمَفعولُ مَحذوفٌ[2].

(٦٠) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾: واذكُرْ إذ أَوْحَيْنا إليكَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ فهُمْ في قَبْضَةِ قُدرَتِه، أو: أحاطَ بقُرَيشٍ بمَعنى: أَهلَكَهُم، مِن: أحاطَ بِهم العَدُوُّ، فهو بِشارَةٌ بوقعَةِ بَدرٍ، والتَّعبيرُ بلفظِ الماضي لتَحقُّقِ وُقوعِه.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ﴾ ليلةَ المِعراجِ، وتَعلَّقَ بهِ مَن قال: إنَّه كانَ في المنامِ. ومَن قال: إنَّه كان في اليَقَظَةِ، فسَّرَ الرُّؤيَا بالرُّؤيَةِ[3].

---

(١) قوله: «بصائر» معطوف على «إبصار»؛ أي: أو ذات بصائر؛ إشارة إلى أنها إما من الإبصار بمعنى الرؤية، أو من البصيرة بمعنى الإدراك بالقلب، والمعنى: يبصرها المقترح أو يتبصر بها. انظر: «حاشية القونوي» (١١/ ٥٣٦).

(٢) والتقدير: وما نرسل نبيًّا ملتبساً بالآيات. انظر: «روح المعاني» (١٤/ ٥٧٣).

(٣) تفسير الرُّؤيا بالرؤية رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤١ ـ ٦٤٥) عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومسروقٍ وأبي مالك وإبراهيم النخعي وقتادة ومجاهدٍ وغيرِهم. وقول ابن عباس عند البخاري (٣٨٨٨) و(٤٧١٦).

أو: عامَ الحُدَيبيَةِ حينَ رَأى أنَّه دخلَ مَكَّةَ[١]، وفيه أنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، إلا أنْ يقال: رآها بمَكَّةَ وحَكاها حينئذٍ.

ولعلَّـهُ رُؤيـا رآهـا في وقعـةِ بَـدرٍ؛ لقولِـه: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: ٤٣].

ولِمَا رُوِيَ: أنَّه لَمَّا وردَ ماءَهُ قال: «لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ القَوْمِ، هَذَا مَصرَعُ فلانٍ هذا مَصرَعُ فلانٍ»، فتسامَعَتْ بهِ قُرَيشٌ واستَسْخَرُوا مِنه[٢].

وقيل: رَأى قَوْمًا مِن بَنِي أُمَيَّةَ يَرْقَونَ مِنبرَهُ ويَنْزُونَ عليه نَزْوَ القِرَدَةِ فقال: «هو حَظُّهُم مِن الدُّنيا يُعطَونَهُ بإِسْلَامِهِم»[٣]، وعلى هذا كانَ المُرادُ بقولِه: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ما حدثَ في أيَّامِهِم.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ عطفٌ عَـلى ﴿ٱلرُّءْيَا﴾، وهي شَجرَةُ الزَّقُّومِ، لَمَّا سَمِعَ المُشركونَ ذِكرَهَا قالوا: إنَّ مُحمَّدًا يزعمُ أنَّ الجَحِيمَ تُحرقُ الحِجارةَ ثمَّ يقول: يَنْبُتُ فيها الشَّجرُ[٤].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٥ ـ ٦٤٦) عن ابن عباس لكن إسناده ضعيف.

(٢) رواه مسلم (١٧٧٩) في المغازي في قصَّة الطَّائف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا مصرعُ فلان» ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا، قال: فما ماطَ أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.

(٣) عَن سهل بن سعدٍ قال: رأى رسولُ اللهِ ﷺ بني فلانٍ يَنْزُونَ على مِنبَرِهِ نزوَ القِرَدةِ فساءَه ذلك، فأنزلَ اللهُ الآيةَ. رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٦)، قال ابن كثير في «تفسيره» عند تفسير هذه الآية بعد أن ساق هذا الخبر عن الطبري: «وهذا السند ضعيف جدا فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك، وشيخه أيضا ضعيف بالكلية، ولهذا اختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٤٨) عن الحسن.

ولم يعلَمُوا أنَّ مَن قدِرَ أَنْ يَحمِيَ وبرَ السَّمَنْدَلِ[١] مِن أَنْ تَأكُلَهُ النَّارُ، وأحشاءَ النَّعامةِ مِن أذى الجَمرِ وقِطَعِ الحديدِ المحمَّاةِ الحمرِ التي تَبتَلِعُها، قَدِرَ أَنْ يخلُقَ في النَّارِ شجرَةً لا تَحرِقُها.

ولعْنُها في القُرآنِ: لَعْنُ طاعِميها، وُصِفَت به على المجازِ للمُبالغَةِ، أو وَصفُها بأنَّها تَنبتُ في أَصلِ الجَحِيمِ فإنَّه أَبعَدُ مَكانٍ مِن الرَّحمَةِ، أو بأنَّها مَكروهَةٌ مُؤذيَةٌ، مِن قَولِهِم: «طعامٌ مَلعونٌ» لِمَا كانَ ضَارًّا.

وقد أُوِّلَتْ بالشَّياطينِ، وأَبي جهلٍ، والحكمِ بنِ أَبِي العاصِ.

وقُرِئَتْ بالرَّفعِ[٢] على الابتداءِ والخبرُ مَحذوفٌ؛ أي: والشَّجرةُ المَلعونةُ في القُرآنِ كذلك.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواعِ التَّخويفِ ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾: إلا عُتُوًّا مُجاوِزَ الحَدِّ[٣].

(٦١) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾: لِمَن خلقتَهُ مِن طينٍ، فنُصِبَ بنزعِ الخافضِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالًا مِن الرَّاجعِ إلى المَوصولِ؛ أي: خلقتَهُ وهو طِينٌ، أو مِنه؛ أي: أأسجُدُ لَهُ وأَصلُهُ طِينٌ، وفيهِ على الوُجوهِ إيماءٌ بعِلَّةِ الإنكارِ.

---

(١) السمندل: طائر بالهند لا يحترق بالنار، وسماه بعض أهل اللغة: سندل بغير ميم، ومنهم من سماه: سمند بغير لام، وقيل: إنه حيوان كالفأر، ولك أن تقول: إنه فارسيّ بالراء ـ كما وقع في أشعارهم ـ وعرب باللام. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٨٨) عن ابن أبي عبلة.

(٣) في نسخة التفتازاني: «متجاوزًا».

(٦٢) ـ ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ الكافُ لتأكيدِ الخِطابِ لا مَحلَّ لَهُ مِن الإعرابِ، و﴿هَٰذَا﴾ مَفعولٌ أوّلُ، و﴿ٱلَّذِى﴾ صِفَتُه، والمفعولُ الثَّاني مَحذوفٌ لدلالةِ صِلَتِه عليه، والمعنى: أَخبِرْنِي عن هذا الذي كرَّمْتَهُ عليَّ بأَمْرِي بالسُّجودِ لَهُ لِمَ كرَّمْتَهُ عَلَيَّ؟!

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلامٌ مُبتدأٌ، واللامُ مُوَطِّئَةٌ للقَسَمِ، وجوابُه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: لَأَسْتَأْصِلَنَّهُم بالإغواءِ إلا قليلًا لا أقدرُ أن أقاوِمَ شَكيمَتَهُم، مِن: احْتَنَكَ الجَرَادُ الأرضَ: إذا جردَ ما علَيْهَا أَكْلًا، مأخوذٌ مِن الحَنَكِ.

وإنَّما علمَ أنَّ ذلكَ يَتسَهَّلُ له: إمَّا استِنْبَاطًا مِن قولِ الملائكَةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] مع التَّقريرِ، أو تَفَرُّسًا مِن خلقِه ذا وهمٍ وشَهوَةٍ وغَضَبٍ.

(٦٣) ـ ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾: امضِ لِمَا قَصَدْتَه، وهو طردٌ وتَخْلِيَةٌ بينَهُ وبينَ ما سَوَّلَتْه لَهُ نَفْسُه.

﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾: جَزاؤُكَ وجَزاؤُهُم، فغُلِّبَ المُخاطَبُ على الغَائِبِ، ويَجوزُ أَنْ يكونَ الخِطابُ للتَّابعينَ على الالتفاتِ.

﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ مُكمَّلًا، مِن قَولِهِم: فِرْ لصاحِبِكَ عِرْضَهُ، وانتصابُ ﴿جَزَآءً﴾ على المصدَرِ بإضمارِ فعلِه، أو بما في ﴿جَزَآؤُكُمْ﴾ مِن مَعنى: تُجازَوْنَ، أو حالٌ مُوَطِّئَةٌ لقولِه: ﴿مَّوْفُورًا﴾.

(٦٤) ـ ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾: واستَخِفَّ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ أن تَستَفِزَّهُ، والفَزُّ: الخَفيفُ ﴿بِصَوْتِكَ﴾: بدُعائِكَ إلى الفَسادِ ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ وصِحْ عليهِمْ، مِن الجَلَبَةِ، وهي الصِّياحُ ﴿بِخَيْلِكَ ورَجْلِكَ﴾ بأعوانكَ مِن راكبٍ وراجلٍ، والخيلُ: الخَيَّالَةُ، ومِنه قولُه عليه السَّلام: «يا خيلَ اللهِ اركَبِي»[1].

---

(١) رواه هناد في «الزهد» (٢٥)، والكلاباذي في «بحر الفوائد» (١/ ١٠١)، والبيهقي في «الشعب» =

والرَّجْلُ اسمُ جمعٍ للرَّاجلِ، كالصَّحْبِ والرَّكْبِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ تَمثِيلًا لتَسلُّطِه على مَن يغويهِ بمِغْوارٍ[1]صوَّتَ على قومٍ فاستفَزَّهُم مِن أماكنِهم وأجلبَ عليهِمْ بجُنْدِه حتى استَأْصَلَهُم.

وقرأَ حفصٌ: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ بالكسرِ[2]، وقرئ بالضمِّ[3]، وهما لُغتانِ كنَدِسٍ ونَدُسٍ[4]، ومعناه: وجمعِكَ الرَّجِـلَ[5]، و: (ورِجَالِك)[6]، و: (ورُجَّالك)[7].

= (١٠١٠٦)، من حديث أنس بن مالك. وتقدَّمَ في (سُورةِ يوسُف) الآية (٧٠). ورواه أيضاً ابن المبارك في «الجهاد» (١٦١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٨٦) من حديث أسير بن جابر.

(١) أي: مقاتل.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٢ ـ ٣٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٣) انظر: «الكشاف» (٥/ ٧٥ ـ ٧٦).

(٤) والنَّدس: الفَطِن.

(٥) قوله: «ومعناه: وجمعك الرجل» يريد توجيه القراءتين، فإنه مفرد، والمناسب للمقام وما عطف عليه الجمعيةُ، فأشار إلى أنه مفرد أريد به الجمع؛ أي: وأجلب عليهم بجمعِكَ الرجُـلَ؛ أي: الرجال، و«الرَّجِـُل» مفعول «جمعك» لأنه مصدر. قال الشهاب: ومن العجيب أن بعضهم قال: إنه مضافٌ إليه، ولم يجعل الكافَ في «جمعك» مانعاً للإضافة؛ لجَعْلِها في حكم كلمة واحدة. انظر: «حاشية الشهاب».

قلت: ولعل من ذهب إلى الإضافة بناه على ما وقع في نسخ «الكشاف» من ضبط «الرجلِ» بالكسر، وقد نبهنا عليه في حواشيه، لكن وجهناه ثمة بأن «الرجلِ» صفة لـ«جمعِك» وهو أسلم مما ذهب إليه أولئك البعض من الإضافة وإهمال الكاف، ولعله أجمل معنى أيضاً. انظر: «الكشاف» (٥/ ٧٥).

(٦) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢) عن عكرمة وقتادة.

(٧) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠) عن ابن جابر، ودون نسبة في «الكشاف» (٥/ ٦٣٣)، و«البحر» (١٤/ ١٢٧). وضبطت في مطبوع «الشواذ» بفتح الراء، لكن قيدها أبو حيان بالضم، وكذا ضبطت في نسخ «الكشاف».

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملِهم على كَسْبِها وجمعِها مِن الحرامِ والتَّصرُّفِ فيها على ما لا يَنبَغِي ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بالحثِّ على التَّوصُّلِ إلى الولدِ بالسَّببِ المحرَّمِ، والإشراكِ فيه بتَسمِيَتِه[1] عبدَ العُزَّى، والتَّضليلِ بالحملِ على الأديانِ الزَّائغَةِ والحِرَفِ الذَّميمَةِ والأفعالِ القَبيحَةِ.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيدَ الباطِلَةَ؛ كشفاعةِ الآلهةِ، والاتِّكالِ على كرامةِ الآباءِ، وتأخيرِ التَّوبةِ لطُولِ الأملِ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراضٌ لبيانِ مَواعيدِه، والغرورُ: تَزيينُ الخطأِ بما يُوهمُ أنَّه صوابٌ.

(٦٥) ـ ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ يعني: المُخلِصينَ، وتعظيمُ الإضافةِ والتَّقييدُ في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] يُخصِّصُهُم ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾؛ أي: على إغوائِهِم قدرةٌ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ يَتوكَّلونَ به في الاستعاذةِ مِنكَ على الحقيقةِ.

(٦٦) ـ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾: هو الذي يُزْجِي ﴿لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: الرِّيحَ وأنواعَ الأمتعَةِ التي لا تكونُ عِندَكُم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيثُ هَيَّأَ لَكُم ما تَحتاجونَ إليه، وسَهَّلَ عليكُمْ ما تَعسَّرَ مِن أَسبابِه.

(٦٧) ـ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾: خوفُ الغَرقِ ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾: ذهبَ عَن خواطِرِكُم كلُّ مَن تَدعونَهُ في حَوادِثِكُم ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحدَهُ، فإنَّكُم حينئذٍ لا يخطرُ ببالِكُم سِواه، ولا تَدْعونَ لكَشفِهِ إلا إيَّاهُ، أو: ضلَّ كلُّ مَن تَعبدونَهُ عَن إعانَتِكُم إلَّا اللهُ.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من الغرقِ ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عَن التَّوحيدِ.

وقيل: اتَّسعْتُم في كفرانِ النِّعمةِ، كقولِ ذي الرُّمَّةِ:

---

(١) في نسخة التفتازاني: «كتسميته».

عَطَـاءُ فَتًـى تَمَكَّـنَ فِــي المَعَــالِي فَأَعْرَضَ فِـي المَكَارِمِ وَاسْـتَطَالَا[1]

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ كالتَّعليلِ للإعراضِ.

(٦٨) ـ ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزةُ فيه للإنكارِ، والفاءُ للعَطفِ على مَحذوفٍ تَقديرُه: أَنَجَوْتُم فأَمِنْتُم فحَمَلَكُم ذلك على الإعراضِ، فإنَّ مَن قدرَ أَنْ يُهلِكَكُم في البَحرِ بالغَرقِ قدرَ أَنْ يُهلِكَكُم في البرِّ بالخسفِ وغيرِه.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾: أن يَقلبَهُ اللهُ وأنتُمْ عليه، أو: يقلبَهُ بسبَبِكُم، فـ﴿بِكُمْ﴾ حالٌ أو صِلَةٌ.

وقرأ ابنُ كَثيرٍ وأَبو عمرٍو بالنُّونِ فيه وفي الأَربعَةِ التي بَعدَه[2].

وفي ذكرِ الجانبِ تَنبيهٌ عَلى أَنَّهُم كمَا وَصَلُوا السَّاحِلَ كفرُوا وأَعْرَضُوا، وأَنَّ الجَوانِبَ والجِهاتِ في قُدرَتِه سَواءٌ لا مَعقِلَ يُؤمَنُ فيهِ مِن أسبابِ الهَلاكِ.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: ريحًا تَحْصِبُ؛ أي: تَرْمِي بالحَصباءِ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يَحفَظُكُم مِن ذلك فإنَّه لا رادَّ لِفعلِه.

(٦٩) ـ ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾: في البَحرِ ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بخَلْقِ دَواعٍ تُلجِئُكُم إلى أن تَرجِعُوا فتركبوهُ ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ لا تمرُّ بشَيءٍ إلا قَصَفَتْهُ؛ أي: كَسَرَتْهُ ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ وعن يَعقوبَ بالتَّاءِ[3] على إسنادِه إلى ضَميرِ ﴿ٱلرِّيحِ﴾.

﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾: بسببِ إِشراكِكُم وكُفرانِكُم نعمةَ الإِنجاءِ.

---

(١) انظر: «ديوان ذي الرمة بشرح الباهلي» (٣/ ١٥٤٩)، وصدر البيت فيه:

تبــوأ فابتنـــى وبنـــى أبـــوه

(٢) أي: ﴿أو نرسل﴾ ﴿أن نعيدكم﴾ ﴿فنرسل﴾ ﴿فنغرقكم﴾ بالنُّون فيها، وقرأ باقي السبعة بالياء. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٣) هي رواية رويس عن يعقوب من العشرة، وقرأ بها أيضاً أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٨).

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾: مُطالبًا يتبعُنا[1] بانتصارٍ أو صرفٍ.

(٧٠) ـ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بحُسنِ الصُّورَةِ، والمزاجِ الأعدَلِ، واعتِدالِ القامَةِ، والتَّمييزِ بالعَقلِ، والإفهامِ بالنُّطقِ والإشارةِ والخَطِّ، والتَّهدِّي إلى أسبابِ المَعاشِ والمَعادِ، والتَّسلُّطِ على ما في الأرضِ، والتَّمكُّنِ مِن الصِّناعاتِ، وانسياقِ الأَسبابِ والمُسبَّباتِ العُلْويَّةِ والسُّفليَّةِ إلى ما يعودُ عَلَيهم بالمَنافِعِ، إلى غيرِ ذلكَ مما يَقِفُ الحَصرُ دونَ إحصائِهِ.

ومِن ذلك ما ذكرَهُ ابنُ عَبَّاسٍ: وهو أَنَّ كُلَّ حيوانٍ يتناوَلُ طعامَهُ بِفيهِ، إلَّا الإنسانَ فإنَّه يرفَعُه إليه بيدِه[2].

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ على الدَّوابِّ والسُّفُنِ، مِن: حَمَلْتُه حَمْلًا: إذا جعلْتَ لَه ما يَرْكَبُه، أو: حَمَلْنَاهم فيهِمَا حتَّى لم تُخْسَفْ بِهم الأَرْضُ ولَمْ يُغْرِقْهُم الماءُ.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: المُستلذَّاتِ ممَّا يَحصُلُ بفِعلِهم وبغيرِ فِعْلِهِم.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بالغَلَبَـةِ والاسـتيلاءِ، أو بالشَّـرَفِ والكَرامَـةِ، والمُسـتَثْنَى جنسُ المَلائِكَـةِ أو الخواصُّ مِنْهُم، ولا يَلـزَمُ مِن عَدَمِ تَفضيلِ الجنـسِ عَـدَمُ تَفضيلِ بَعـضِ أَفرادِه، والمَسـأَلَةُ موضِعُ نَظـرٍ، وقـد أُوِّلَ الكثيرُ بالكلِّ، وفيه تَعسُّـفٌ.

(٧١) ـ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟﴾ نصـبٌ بإضمـارِ: اذكُـر، أو ظـرفٌ لِمَـا دلَّ عليـهِ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾.

---

(١) في نسخة الخيالي: «تبيعًا».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٣٩٢).

وقُرِئَ: (يَدْعُو كلَّ)[1]، و: (يُدْعَى كلُّ)[2]، و: (يُدْعَوْ كلُّ)[3] على قلبِ الأَلِفِ واوًا في لغَةِ مَن يقولُ: «أَفْعَوْ» في أَفْعَى، أو على أنَّ الواوَ علامَةُ الجمعِ، كما في قولِه: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣]، أو ضميرُه و(كلُّ) بدلٌ مِنه، والنُّونُ مَحذوفَةٌ لقلَّةِ المُبالاةِ بها، فإنَّها ليسَتْ إلَّا علامةَ الرَّفعِ، وهو قَدْ يقدَّرُ كما في (يُدْعى).

﴿كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ بمَنْ ائتمُّوا به: مِن نبيٍّ، أو مُقدَّمٍ في الدِّينِ، أو كتابٍ، أو دينٍ.

وقيل: بكتابِ أَعمالِهِم التي قدَّمُوها فيقالُ: يا صاحبَ كتابِ كذا؛ أي: تَنقَطِعُ عُلقَةُ الأَنسابِ وتَبْقَى نِسبَةُ الأَعمالِ.

وقيل: بالقُوَى الحامِلَةِ لَهُم عَلى عَقائِدِهِم وأَفعالِهِم.

وقيل: بأُمَّهَاتِهِم، جمعُ أُمٍّ، كخُفٍّ وخِفَافٍ[4]، والحكمةُ في ذلك: إجلالُ عيسَى، وإظهارُ شَرفِ الحسنِ والحُسَينِ، وأن لا يُفتضَحَ أولادُ الزِّنَا[5].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠) عن مجاهد وقتادة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠) عن بعض المصاحف.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢)، عن الحسن.

(٤) أي: على أن الإمام جمع أُمٍّ، كخفافٍ في جمع خف.

(٥) وقد جعل الزمخشري هذا القول من بدع التفاسير، ثم عقبه بقوله: «وليتَ شعري أيُّهما أَبدعُ أصحَّةُ لفظه أم بَهَاءُ حكمته؟!!». انظر: «الكشاف» (٥/ ٨٣).

قلت: وهو مردود بما رواه البخاري (٦١٧٧)، ومسلم (١٧٣٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه، ولفظ مسلم: «إذا جَمَعَ الله الأوَّلِين والآخِرِين يومَ القيامة يُرْفَعُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ فيقالُ: هذه غَدْرةُ فلانِ بنِ فلانٍ»، قال القرطبي: «فقولُه: «هذه غدرة فلان ابن فلان» دليلٌ على أنَّ الناس يُدْعَون في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يَرُدُّ على مَن قال: إنما يُدْعَوْن بأسماء أمَّهاتهم لأن في ذلك سَترًا على آبائهم». انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٣١). =

﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ مِن المَدعُوِّينَ ﴿كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ أي: كتابَ عَملِه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ ابتهاجًا وتَبجُّحًا بما يرونَ فيه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: ولا يُنقصونَ مِن أُجورِهِم أَدْنَى شيءٍ.

وجَمْعُ اسمِ الإشارةِ والضَّميرِ لأنَّ (مَن أُوتِيَ) في مَعنى الجمعِ، وتعليقُ القِراءَةِ بإيتاءِ الكِتابِ باليَمينِ يَدُلُّ على أنَّ مَن أُوتِيَ كتابَهُ بشِمالِه إذا اطَّلعَ على ما فيهِ غَشِيَهُم مِن الخَجَلِ والحيرَةِ ما يحبسُ أَلسِنَتَهُم عَن القِراءَةِ، ولذلك لم يَذْكُرْهُم مَع أنَّ قولَه: (٧٢) ـ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أيضًا مُشعِرٌ بذلك، فإنَّ الأَعْمَى لا يَقرَأُ الكتابَ.

والمعنى: ومَن كانَ في هذه الدُّنْيَا عَمِيَّ القَلْبِ لا يُبصِرُ رُشدَهُ كانَ في الآخرةِ أَعْمَى لا يَرى طَريقَ النَّجاةِ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ منه في الدُّنيا؛ لزَوالِ الاستعدادِ وفقدانِ الآلةِ والمُهلَةِ، وقيل: لأنَّ الاهتِداءَ بعدُ لا يَنفَعُه.

والأعمى مُستَعارٌ مِن فاقدِ الحاسَّةِ.

وقيل: الثَّاني للتَّفضيلِ مِن عَمِيَ بقَلْبِه كالأَجْهَلِ والأَبْلَهِ، ولذلك لَمْ يُمِلْهُ أبو عَمرٍو ويَعقوبُ[1]، فإنَّ أفعلَ التَّفضيلِ تمامُه بـ(مِن)، فكانَتْ أَلِفُه في حُكمِ المُتوسِّطَةِ كمَا في أعمالِكُم، بخلافِ النَّعتِ فإنَّ أَلِفَهُ واقِعَةٌ في الطَّرَفِ لَفظًا وحُكْمًا، فكانَتْ مُعرَّضَةً للإمالةِ مِن حيثُ إنَّها تَصيرُ ياءً في التَّثنِيَةِ، وقَدْ أَمالَهُما حمزةُ والكِسائِيُّ وأبو بَكرٍ، وقرأ ورشٌ بينَ بينَ فيهما[2].

= قلت: وأوضح منه ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٦٩٣)، وأبو داود (٤٩٤٨)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تُدْعَون يومَ القيامة بأسمائكم وأسماءِ آبائكم فأَحْسِنوا أسماءكم» لكن إسناده ضعيف لانقطاعه.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٠)، و«النشر» (٢/ ٤٣).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٠)، وفيه: أبو بكر وحمزة والكسائي (أعمى) في الحرفين بالإمالة، وأبو =

(٧٣) ـ ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ نَزَلَتْ في ثَقيفٍ قالوا: لا نَدخُل في أَمرِكَ حتَّى تُعْطِيَنا خِصالًا نَفتَخِرُ بها على العربِ: لا نُعْشَرُ ولا نُحْشَرُ ولا نُجَبِّي[1] في صلاتِنا، وكلُّ رِبًا لنا فهو لَنا، وكلُّ رِبًا علينا فهوَ مَوضوعٌ عَنَّا، وأن تُمتِّعَنا باللَّاتِ سنةً، وأن تحرِّمَ وادِيَنا كمَا حَرَّمْتَ مَكَّةَ، فإنْ قالَت العَربُ: لِمَ فَعَلْتَ ذلك؟ فقل: إنَّ اللهَ أَمَرَني[2].

= عمرو بالإمالة في الأول فقط، وورش بين بين على أصله فيهما، والباقون بالفتح.

(١) قوله: «لا نُعشر، ولا نحشر، ولا نجبي»، «لا نعشر»؛ أي: لا يؤخذ عُشر أموالنا. وقيل: أرادوا به الصدقة الواجبة، وإنما فسح لهم في تركها لأنها لم تكن واجبة يومئذ عليهم، وإنما تجب بتمام الحول، «ولا نحشر»؛ أي: لا نندب إلى المغازي ولا تُضرب علينا البعوث، وسُئل جابر عن اشتراط ثقيف أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، فقال: علِم أنهم سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا.

وقوله: «ولا نُجبي» أصل التجبية: أن يقوم الإنسان قيام الراكع، وقيل: هو أن يضع يديه على ركبتيه وهو قائم، وقيل: هو السجود، والمراد: لا يُصلون، ولفظ الحديث يدل على الركوع، لقوله في جوابهم: «لا خير في دين ليس فيه ركوع»، فسمى الصلاة ركوعاً لأنه بعضها. انظر: «فتوح الغيب» (٩/ ٣٤٩)، وجاء في بعض المصادر: «ولا نُحنى». والمعنى متقارب.

(٢) ذكره بأطول من هنا: الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤٠٨ ـ ٤١٠)، وعبد القاهر الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٢٢٢) عن ابن عباس، وذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥٤٣)، وأورده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٦٧) في نزول هذه الآية، وقال: رواه عطاء عن ابن عباس. ثم ذكر نحوه عن عطية عن ابن عباس. وذكره أيضاً (١/ ٤٦٩) في نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ [النساء: ١١٣] وقال: هذا قول ابن عباس في رواية الضحاك.

قال ابن حجر في «تخريج أحاديث الكشاف» (ص: ١٠٠): ذكره الثعلبي عن ابن عباس من غير سند. وقال العراقي كما في «روح المعاني» (١٥/ ٣٢): لم نجده في كتب الحديث.

قلت: رواه ابن شبة في «أخبار المدينة» (٨٨٤) عن الكلبي.

وهذه الأخبار كلها لا تصح، لكن روي بعضه بإسناد رواته ثقات، فقد روى الإمام أحمد في «المسند» (١٧٩١٣)، وأبو داود (٣٠٢٦)، من طريق الحسن عن عثمان بن أبي العاص رضي الله =

وقيل: في قُرَيشٍ قالوا: لا نُمَكِّنُك مِن استلامِ الحجرِ حتى تُلِمَّ بآلِهَتِنا وتُمسَّها يدَكَ[1].

و(إن) هي المخفَّفَةُ واللامُ هي الفارِقَةُ، والمعنى: إنَّ الشَّأنَ قارَبُوا بمُبالَغَتِهِم أن يوقِعوكَ في الفتنةِ بالاستنزالِ.

﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مِن الأحكامِ ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ﴾: غيرَ ما أَوْحَيْنا إليك.

﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾: ولو اتَّبَعْتَ مُرادَهُم لاتَّخذوكَ بافتِتانِكَ وَلِيًّا لهم بريئًا مِن وِلايَتِي.

(٧٤) ـ ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾: ولو لا تَثبيتُنَا إيَّاك ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾: لقارَبْتَ أَنْ تَميلَ إلى اتِّباعِ مُرادِهِم، والمعنى: أنَّكَ كُنتَ على صَددِ الرُّكونِ إليهِمْ لقُوَّةِ خَدْعِهِم وشِدَّةِ احتِيالِهِم، لكِنْ أَدْرَكَتْكَ عِصمَتُنَا فمُنعتَ أَنْ تقربَ مِن الرُّكونِ فَضْلًا مِن أَنْ تركنَ إليهِم، وهو صَريحٌ في أنَّه عليهِ السَّلامُ ما همَّ بإِجابَتِهِم مع قُوَّةِ الدَّاعِي إليهَا، ودَليلٌ على أنَّ العِصمَةَ بتَوفيقِ اللهِ وحِفظِهِ.

= عنه: أن وَفْدَ ثَقيفٍ لَمَّا قدِموا على رسولِ الله ﷺ أنزلَهم المسجدَ ليكون أرقَّ لقلوبهم، فاشترطوا عليه أن لا يُحْشَروا ولا يُعْشَرُوا ولا يُجَبُّوا، فقال رسولُ الله ﷺ: «لكم أن لا تُحشَروا ولا تُعشَروا، ولا خيرَ في دِين ليس فيه ركوعٌ». ورجاله ثقات، إلا أن في سماع الحسن ـ وهو البصري ـ من عثمان بن أبي العاص اختلافاً، ويُثبت سماعه منه ما أورده البخاري في «التاريخ الكبير» (٦/ ٢١٢) عن الحسن قوله: كنا ندخل على عثمان بن أبي العاص.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤٠) عن سعيد بن جبير.

(٧٥) ـ ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ﴾؛ أي: لو قاربتَ لأَذَقْنَاك ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾؛ أي: عذابَ الدُّنيا وعَذابَ الآخرَةِ، ضعفَ ما نُعَذِّبُ به في الدَّارينِ بمثلِ هذا الفعلِ غيرَكَ؛ لأنَّ خطأَ الخَطيرِ أخطَرُ، وكانَ أَصلُ الكَلامِ: عذابًا ضِعفًا في الحياةِ وعَذابًا ضِعفًا في المَماتِ؛ يعني: مُضاعَفًا، ثمَّ حُذِفَ المَوصوفُ وأُقيمَت الصِّفَةُ مُقامَه، ثمَّ أُضيفَتْ كَما يُضافُ مَوْصوفُها.

وقيل: الضِّعفُ مِن أسماءِ العذابِ.

وقيل: المرادُ بـ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ ﴾ عذابُ الآخرةِ، وبـ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ عذابُ القَبرِ.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ يدفعُ العَذابَ عنك.

(٧٦) ـ ﴿وَإِن كَادُواْ ﴾: وإن كادَ أهلُ مَكَّةَ ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ ﴾ ليُزعِجُونَكَ بمُعادَاتِهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾: أرضِ مَكَّةَ ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَاۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾: ولو خرجتَ لا يَبْقَونَ بعدَ خُروجِكَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴾: إلا زمانًا قليلًا، وقد كان كذلك، فإنَّهم أُهلِكُوا ببدرٍ بعدَ هِجرَتِه.

وقيل: الآيةُ نَزَلَت في اليهودِ، حَسَدُوا مُقامَ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ بالمدينةِ فقالوا: الشَّامُ مُقامُ الأنبياءِ، فإن كنتَ نَبيًّا فالْحَقْ بها حتى نُؤمِنَ بك، فوقعَ ذلك في قلبِهِ، فخرجَ مرحَلَةً فنزلَتْ، فرجَعَ[1].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١١) عن الكلبي.
ورواه بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٥٤)، والثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٤١٢)، عن عبد الرحمن بن غَنْم رضي الله عنه.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٨) من طريق سليمان التيمي عن حضرمي.
وذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٥٤٥).

ثمَّ قتَلَ مِنهُم بني قريظَةَ وأَجلَى بَني النَّضيرِ بقَليلٍ.

وقُرِئَ: (لا يَلْبَثُوا)(١) منصوبًا بـ(إذًا) على أنَّه مَعطوفٌ على جملةِ قولِه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ لا على خبرِ (كاد)، فإنَّ (إذًا) لا يعمل إذا كان ما بعدَها مُعتَمِدًا على ما قبلَها.

وقَرَأَ ابنُ عامرٍ وحَمزَةُ والكِسائِيُّ ويَعقوبُ وحَفصٌ: ﴿خِلَٰفَكَ﴾(٢)، وهو لغةٌ فيه، قال:

عَفَتِ الدِّيَارُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا ... بَسَطَ الشَّوَاطِبُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرَا(٣)

(٧٧) ـ ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ نصبٌ على المَصدَرِ؛ أي: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً، وهو أَنْ يُهلكَ كُلَّ أُمَّةٍ أخرجُوا رَسولَهُم مِن بينِ أَظْهُرِهِم، فالسنَّةُ للهِ وإضافَتُها إلى الرُّسُلِ لأنَّها مِن أَجْلِهِم، ويَدُلُّ عليه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾؛ أي: تَغْييرًا.

(٧٨) ـ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾: لزَوالِها، ويدلُّ عليهِ قولُه عليهِ السَّلامُ: «أَتَاني جِبريلُ لدُلوكِ الشَّمسِ حينَ زَالَتْ فصَلَّى بي الظُّهْرَ»(٤)، وقيل: لِغُروبِها.

---

(١) نسبت لأبي رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٣)، و«التيسير» (ص: ١٤١)، و«النشر» (٢/ ٣٠٨).

(٣) نسبه صاحب «العين» (١/ ١٧٩)، والأزهري في «تهذيب اللغة» (١/ ١٨٦)، لجرير وليس في ديوانه، ونسبه صاحب «العين» أيضاً (٤/ ٢٦٦)، وأبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٢٦٤)، للحارث بن خالد المخزومي، وفي صدره بعض الاختلاف بين المصادر دون أن يضر ذلك بالاستدلال بالبيت. و«الشَّوَاطِبُ»: النِّساءُ اللواتي يَشْقُقْنَ الجريدَ ليُعملَ منه الحصيرُ، والشَّطْبُ: سَعَفُ النَّخلِ الأخضَرُ، يصفُ دروسَ ديارِ الأحبابِ بعدَهُم وأنَّها غيرُ مَنكوسةٍ كأنَّما بُسِطَ فيها سَعَفُ النَّخلِ. «فتوح الغيب» (٩/ ٣٥٦).

(٤) رواه إسحاق في «مسنده» كما في «المطالب العالية» (٢٥٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٣٦١)، وابن مردويه كما في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٢٨١)، ورواه أيضاً الطبري في =

وأَصْلُ التَّركيبِ للانتِقالِ، ومنه: الدَّلْكُ، فإنَّ الدَّالكَ[1] لا تَسْتَقِرُّ يَدُه، وكذا ما تركَّبَ مِن الدَّالِ واللَّامِ كدَلَجَ ودَلَحَ ودَلَعَ ودَلَفَ ودَلَهَ.

وقيل: الدُّلُوكُ مِن الدَّلْكِ؛ لأنَّ النَّاظرَ إليها يَدْلُكُ عينيهِ ليدفعَ شُعاعَهَا، واللامُ للتَّأقيتِ مِثْلُها في: لثَلاثٍ خَلَوْنَ.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾: إلى ظُلمَتِه، وهو وَقتُ صَلاةِ العِشاءِ الأَخيرةِ.

﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ﴾: وصلاةَ الصُّبحِ، سُمِّيَتْ قُرآنًا لأنَّه ركنُها، كما سُمِّيَتْ رُكوعًا وسُجودًا، واستُدلَّ بهِ على وجوبِ القِراءةِ فيها، ولا دليلَ فيه لجوازِ أَنْ يكونَ التَّجوُّزُ لكونِها مَندوبَةً فيها، نعم لو فُسِّرَ بالقِراءةِ في صَلاةِ الفَجرِ دلَّ الأَمرُ بإقامَتِهَا على الوُجوبِ فيها نَصًّا وفي غيرِهَا قِياسًا.

﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾: يشهدُه مَلائِكَةُ الليلِ ومَلائِكَةُ النَّهارِ، أو بشواهدِ القُدرَةِ مِن تبدُّلِ الظُّلمةِ بالضِّياءِ، والنَّومِ الذي هو أخُو الموتِ بالانتباهِ.

أو: كثيرٌ مِن المُصلِّينَ.

أو: من حقِّهِ أَنْ يشهدَهُ الجمُّ الغَفيرُ.

= «تفسيره» (١٥/ ٢٩)، جميعهم من طريق يحيى بن سعيد حدثني أبو بكر بن حزم عن أبي مسعود قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال له: قم فصل، وذلك لدلوك الشمس حين مالت، فقام فصلى الظهر أربعاً. قال البيهقي: أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم لم يسمعه من أبي مسعود وإنما هو بلاغ بلغه.

ورواه البيهقي في «معرفة السنن» (٥١٨) من طريق أيوب بن عتبة عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عروة عن أبي مسعود قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ حين دلكت الشمس ـ يعني: حين زالت ـ فقال: قم فصل، فقام فصلى الظهر». وقال: أيوب بن عتبة ليس بالقوي.

(١) في نسخة الخيالي: «الدلاَّك».

والآيةُ جامِعَةٌ للصَّلواتِ الخمسِ إن فُسِّرَ الدُّلوكُ بالزَّوالِ، ولصلواتِ الليلِ وحدَهَا إِنْ فُسِّرَ بالغُروبِ.

وقيل: المرادُ بـ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: صلاةُ المَغربِ، وقولُه: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ بيانٌ لِمَبدأِ الوقتِ ومُنتهاهُ، واستُدِلَّ بهِ على أنَّ الوقتَ يمتَدُّ إلى غروبِ الشَّفَقِ.

(٧٩) ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾: وبعضَ الليلِ فاترُكِ الهُجودَ للصَّلاةِ، والضَّميرُ للقُرآنِ.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: فريضةً زائدَةً لكَ على الصَّلواتِ المفروضَةِ، أو: فضلةً لكَ؛ لاختصاصِ وجوبِه بك.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾: مقامًا يحمَدُه القائِمُ فيه وكلُّ مَن عرَفَه، وهو مُطلَقٌ في كلِّ مَقامٍ يَتضمَّنُ كرامَةً، والمَشهورُ أنَّه مَقامُ الشَّفاعَةِ؛ لِمَا رَوَى أبو هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أنَّه عليهِ السَّلامُ قال: «هو المقامُ الذي أشفَعُ فيه لأُمَّتِي»[1]، ولإشعارِهِ أنَّ النَّاسَ يحمَدُونَه لِقيامِهِ فيهِ، وما ذاك إلا مَقامُ الشَّفاعةِ.

وانتصابُهُ على الظَّرفِ بإضمارِ فعلِهِ؛ أي: فيقيمَكَ مَقامًا، أو بتَضمينِ ﴿يَبْعَثَكَ﴾ مَعناه، أو الحالِ بمَعنى: أن يبعثَكَ ذا مقامٍ.

(٨٠) ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾؛ أي: في القبرِ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾: إدخالًا مَرْضيًّا ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾؛ أي: منه عندَ البَعثِ ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾: إخراجًا مُلقًّى بالكرامةِ.

وقيل: المرادُ: إدخالُ المدينةِ والإخراجُ مِن مَكَّةَ[2].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٣٧) وحسنه، ولفظه: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وسئل عنها قال: «هي الشفاعة».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٤ ـ ٥٥) عن ابن عباس والحسن وقتادة وابن زيد. وخبر ابن عباس رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٩٤٨)، والترمذي (٣١٣٩)، وقال: حسن صحيح.

وقيل: إدخالُهُ مَكَّةَ ظاهرًا عليها وإخراجُه منها آمنًا من المُشركينَ.

وقيل: إدخالُهُ الغارَ وإخراجُهُ مِنه سالمًا.

وقيل: إدخالُه فيما حملَهُ مِن أعباءِ الرِّسالَةِ وإخراجُه منه مؤدِّيًا حقَّه.

وقيل: إدخالُه في كلِّ ما يُلابِسُهُ مِن مَكانٍ أو أَمْرٍ وإخراجُهُ مِنه.

وقُـرِئَ: (مَدخَل) و(مَخـرج) بالفَتحِ[1] على معنـى: أَدْخِـلْنِي فأدخُلَ دُخولًا، وأخرجني فأَخـرُجَ خروجًا.

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾: حُجَّـةً تَنْصُرني على مَـن خالَفَنِي، أو مُلْكًا ينصـرُ الإسـلامَ على الكفرِ، فاسـتجابَ لَـهُ بقولِـه: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبـة: ٣٣]، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

(٨١) ـ ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾: الإسلامُ ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾: وذهبَ وهلكَ الشِّركُ، مِن زهَقَ روحُهُ: إذا خرجَ ﴿إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾: مُضمَحِلًّا غيرَ ثابتٍ.

عن ابنِ مَسعودٍ: أنَّه عليهِ السَّلامُ دخلَ مَكَّةَ يومَ الفَتحِ وفيها ثلاثُ مئةٍ وسِتُّونَ صَنَمًا، فجعلَ ينكتُ بمِخْصَرَةٍ في عينِ واحدٍ واحدٍ منها فيقول: «جاءَ الحَقُّ وزهقَ الباطِلُ»، فينكبُّ لِوَجهِهِ، حتى ألقَى جميعَها وبَقِيَ صَنَمُ خُزاعةَ فوقَ الكعبَةِ، وكان مِن صُفْرٍ فقال: «يا عليُّ ارمِ به»، فصعدَ فرَمى به فكسَرَه[2].

---

(١) نسبت لعلي بن أبي طالب وأُبيٍّ رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٢): لم أجده. وروى النسائي [في «الكبرى» (٨٤٥٣)] والحاكم [في «المستدرك» (٣٣٨٧)] من طريق ابن أبي مريم عن علي قال: «انطلقت مع النبي ﷺ حتى أتينا الكعبة، فقال لي: «اجلس» فجلست، وصعد على منكبي فنهضت به. فذكر الحديث وليس فيه أن ذلك كان في فتح مكة ولا تلاوة الآية.

قلت: في رواية الحاكم: أن النبي ﷺ تلا الآية.

(٨٢) ـ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾: ما هو في تَقويمِ دينِهم واستِصلاحِ نُفوسِهم كالدَّواءِ الشَّافي للمَرْضَى، و﴿مِنَ﴾ للبيانِ فإنَّ كُلَّه كذلك.

وقيل: إنَّه للتَّبعيض، والمعنى: أن منه ما يَشفي مِن المرضِ، كالفاتحةِ وآياتِ الشِّفاءِ.

وقرأ البَصريَّانِ: ﴿ونُنْزِلُ﴾ بالتَّخفيفِ[١].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لتكذيبِهم وكُفرِهم بهِ.

(٨٣) ـ ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ بالصِّحَّةِ والسَّعَةِ ﴿أَعْرَضَ ﴾ عَن ذكرِ اللهِ ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: لَوَى عِطفَهُ وبَعُدَ بنَفسِهِ عنه كأنَّه مُستَغْنٍ مُستَبِدٌّ بأَمرِهِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ كِنايَةً عَن الاستكبارِ؛ لأنَّه مِن عادةِ المُستكبرينَ.

وقرأ ابنُ عامرٍ بروايةِ ابن ذَكْوانَ عنه هنا وفي فصِّلت: ﴿وناءَ﴾[٢] على القَلْبِ، أو على أنَّه بمَعنى: نهضَ.

وأمالَ الكسائيُّ وخَلفٌ فتحةَ النونِ والهمزةِ في السورتين، وأمالَ خلفٌ فتحةَ الهمزةِ فيهما فقط، وأمالَ أبو بكرٍ فتحةَ الهمزةِ هنا وأَخْلصَ فتحَها هناك، وورشٌ على أصلِه في ذواتِ الياء[٣].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ مِن مَرَضٍ أو فَقْرٍ ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾: شَديدَ اليأسِ مِن رَوحِ اللهِ.

(٨٤) ـ ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾: قُلْ كُلُّ أحدٍ يعمَلُ على طَريقَتِه التي تُشاكِلُ حالَهُ في الهُدَى والضَّلالَةِ، أو جوهرَ رُوحِهِ وأَحوالِه التَّابعةِ لمزاجِ بَدَنِه.

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ٧٥)، و«النشر» (٢/ ٣٠٨).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٤١).

(٣) من قوله: «وأمال الكسائي...» إلى هنا من نسخة التفتازاني فقط.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾: أَسَدُّ طَرِيقًا وأَبينُ مِنهاجًا، وقد فُسِّرَت الشَّاكِلَةُ بالطَّبيعَةِ، والعَادَةِ، والدِّينِ.

(٨٥) ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الذي يَحْيَا بهِ بَدَنُ الإنسانِ ويُدبِّره ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾: مِن الإبداعيَّاتِ الكائنَةِ بـ﴿كُن﴾ مِن غيرِ مادَّةٍ وتَوَلُّدٍ مِن أَصلٍ، كأعضاءِ جسَدِه.

أو: وُجدَ بأمرِهِ وحدثَ بتكوينِهِ على أنَّ السُّؤالَ عن قِدَمِه وحُدوثِه.

وقيل: مما استأثرَ بعلمِهِ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّ اليَهودَ قالوا لقُرَيشٍ: سَلُوهُ عَن أصحابِ الكَهفِ، وعَن ذي القَرْنَيْنِ، وعَن الرُّوحِ، فإنْ أجابَ عَنْها أو سكتَ فليسَ بنَبِيٍّ، وإن أجابَ عَن بعضٍ وسَكَتَ عَن بعضٍ فهوَ نَبِيٌّ، فبيَّنَ لَهُم القِصَّتينِ وأبهَمَ أمرَ الرُّوحِ، وهو مُبهَمٌ في التَّوراةِ(١).

وقيل: الرُّوحُ جِبريلُ.

وقيل: خَلْقٌ أعظَمُ مِن المَلَكِ.

وقيل: القرآنُ، و﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ معناه: مِن وَحيِه.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تَستَفِيدُونَهُ بتوسُّطِ(٢) حَواسِّكُم، فإنَّ اكتسابَ العَقلِ للمَعارفِ النَّظَريَّةِ إنَّما هوَ مِن الضَّروريَّاتِ المُستفادَةِ مِن إحساسِ الجُزئيَّاتِ، ولذلك قيل: مَن فقدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا، ولعلَّ أكثرَ الأَشياءِ لا يدرِكُه الحِسُّ ولا شَيْئًا مِن

(١) رواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص: ٢٠١ ـ ٢٠٢)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٤٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وشيخ ابن إسحاق فيه مبهم لم يسمه. وفيه: أن قريشاً هم الذين أرسلوا إلى اليهود يطلبون منهم أسئلة، فأرسلوا إليهم بذلك في خبر طويل.

(٢) في نسخة الخيالي: «بطريق».

أَحْوالِه المعرِّفةِ لذاتِه، وهو إشارةٌ إلى أنَّ الرُّوحَ ممَّا لا يُمكِنُ مَعرفَةُ ذاتِه إلا بعَوارِضَ تُمَيِّزُه عمَّا يَلتَبِسُ به، فلذلك اقتصرَ على هذا الجوابِ كمَا اقتصَرَ مُوسَى عليهِ السَّلامُ في جوابِ ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] بذكرِ بَعضِ صِفاتِه.

روي: أنَّه عليهِ السَّلامُ لَمَّا قالَ لَهُم ذلك قالوا: أَنَحْنُ مُختَصُّونَ بهذا الخطابِ؟ فقال: «بَلْ نَحْنُ وأنتُم» فقالوا: ما أعجبَ شأنكَ، ساعةً تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] وساعةً تقولُ هذا! فنزلَتْ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧][(١)].

وما قالوهُ لسُوءِ فَهْمِهم؛ لأنَّ الحِكمةَ الإنسانيَّةَ أن يَعلمَ مِن الخيرِ والحقِّ ما تَسَعُهُ الطَّاقَةُ البَشريَّةُ، بل ما يَنْتَظِمُ به مَعاشُه ومَعادُه، وهو بالإضافَةِ إلى مَعلوماتِ الله التي لا نهايةَ لها قليلٌ يُنالُ بهِ خيرُ الدَّارَيْنِ، وهو بالإضافةِ إليهِ كَثيرٌ.

(٨٦ ـ ٨٧) ـ ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ اللامُ الأُولَى مُوطِّئَةٌ للقَسَمِ، و﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جوابُه النَّائِبُ مَنابَ جزاءِ الشَّرطِ، والمعنى: إنْ شِئْنَا ذَهَبْنَا بالقُرآنِ ومَحَوْنَاهُ عَن المَصاحِفِ والصُّدورِ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾: مَن يَتوكَّلُ علينا استردادَهُ مَسطورًا مَحفوظًا ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فإنَّها إنْ نالَتْكَ فلَعَلَّها تَستَرِدُّهُ عليكَ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ استِثناءً مُنقَطِعًا بمعنى: ولكِنَّ رَحمَةً مِن رَبِّكَ تَرَكَتْهُ غيرَ مَذهوبٍ به، فيكونُ امتنانًا بإبقائِهِ بعدَ المِنَّةِ في تَنزيلِه.

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ كإرسالِهِ، وإنزالِ الكِتابِ عليهِ، وإبقائِه في حِفظِه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٧٢) عن عطاء بن يسار مرسلًا.

(٨٨) ـ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ في البَلاغَةِ وحُسنِ النَّظمِ وكَمالِ المعنى ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ وفيهِم العَربُ العَرْباءُ وأَربابُ البَيانِ وأهلُ التَّحقيقِ، وهو جوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه اللامُ المُوطِّئَةُ، ولولا هيَ لكانَ جَوابَ الشَّرطِ بلا جزمٍ لكونِ الشَّرطِ ماضيًا كقولِ زُهَيرٍ:

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ ... يَقُولُ: لَا غَائِبٌ مَالِي وَلَا حَرِمُ[1]

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾: ولو تَظاهَرُوا على الإتيانِ بهِ، ولعلَّه لَمْ يَذْكُرِ المَلائِكَةَ لأنَّ إِتيانَهُم بمثلِه لا يُخرِجُه عَن كونِه مُعجِزَةً، ولأنَّهُم كانوا وَسائِطَ في إِتيانِه.

ويَجوزُ أَنْ تكونَ الآيَةُ تَقريرًا لقولِه: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾.

(٨٩) ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾: كرَّرْنا بوجوهٍ مُختَلِفَةٍ زيادةً في التَّقريرِ والبَيانِ ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: مِن كُلِّ مَعنًى هو كالمَثَلِ في غرابَتِهِ ووُقوعِهِ مَوقِعًا في الأَنفُسِ.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾: إلا جُحُودًا، وإنَّما جازَ ذلك ولَمْ يَجُزْ: «ضَرَبْتُ إلا زَيْدًا» لأنَّه مُتأوَّلٌ بالنَّفيِ.

(٩٠) ـ ﴿وقالوا لَنْ نؤمِنَ لك حتَّى تُفجِّرَ لنا من الأرضِ يَنبوعًا﴾ تَعنُّتًا واقتِرَاحًا بعدَمَا لَزِمَتْهُم الحُجَّةُ ببيانِ إعجازِ القُرآنِ وانضِمامِ غيرِه مِن المُعجِزَاتِ إليه.

وقَرَأَ الكُوفِيُّون ويَعقوبُ: ﴿تَفْجُرَ﴾ بالتَّخفيفِ[2].

و﴿ٱلْأَرْضِ﴾: أرضُ مكَّةَ، واليَنْبُوعُ: عينٌ لا يَنضَبُ ماؤُها، يَفْعُولٌ مِن نَبعَ الماءُ، كيَعْبُوبٍ مِن عبَّ الماءُ: إذا زخَرَ.

---

(١) انظر: «ديوان زهير» بشرح الشنتمري (ص: ١٥٣)، و«الكتاب» (٣/ ٦٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٤ ـ ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١)، و«النشر» (٢/ ٣٠٨).

(٩١) ـ ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾: أو يكونَ لك بُستانٌ يشتمِلُ على ذلك.

(٩٢) ـ ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ مِن السَّماءِ، يعنونَ قولَهُ تعالى: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سبا: ٩]، وهو كقِطَعٍ لفظًا ومَعْنًى.

وقد سَكَّنَه ابنُ كَثيرٍ وأبو عمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ ويَعقوبُ في جميعِ القُرآنِ إلا في الرُّومِ، وابنُ عامرٍ إلَّا في هذهِ السُّورةِ، وأبو بكرٍ ونافعٌ في غيرِهما، وحفصٌ فيما عدا الطُّورِ[١]، وهو إمَّا مُخَفَّفٌ مِن المفتوحِ كسِدْرٍ وسِدَرٍ، أو فِعْلٌ بمَعنى مفعولٍ كالطِّحْنِ.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾: كفيلًا بمَا تَدَّعيهِ؛ أي: شاهدًا على صِحَّتِه ضامنًا لدَرْكِه، أو: مقابلًا؛ كالعَشيرِ بمَعنى المُعاشرِ.

وهو حالٌ مِن (الله)، وحالُ المَلائكةِ محذوفةٌ لدَلالَتِها عليها، كمَا حُذِفَ الخَبَرُ في قوله:

فمَن يكُ أمسى بالمدينةِ رحلُهُ   فإنِّي وقَيَّارٌ بها لغَريبُ[٢]

أو: جماعةً، فيكونُ حالًا من (الملائكةِ).

(٩٣) ـ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾: مِن ذهبٍ، وقَد قُرِئَ به[٣]، وأصلُه: الزِّينَةُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١)، و«النشر» (٢/ ٣٠٩).

(٢) لضابئ بن الحارث البرجمي، كما في «الكتاب» (١/ ٧٥)، و«الأصمعيات» (ص: ١٨٤)، و«شرح نقائض جرير والفرزدق» لأبي عبيدة (٢/ ٣٩٤)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٢٥٣). وقد تقدم عند تفسير الآية (٣٥) من سورة المائدة، والآية (٣٤) من سورة التوبة.

(٣) انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٨٣).

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: في مَعارِجِها ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ وحدَه ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ وكان فيه تَصديقُكَ.

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تَعجُّبًا من اقتراحاتِهِم، أو تَنزيهًا لله مِن أَن يأتيَ، أو يتحَكَّمَ عليهِ أو يُشارِكَهُ أحدٌ في القُدرةِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ: ﴿قالَ سبحانَ ربِّي﴾[1]؛ أي: قال الرسولُ.

﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائرِ النَّاسِ ﴿رَّسُولًا﴾ كسائرِ الرُّسُلِ، وكانوا لا يأتونَ قومَهُم إِلَّا بما يُظهِرُه اللهُ عليهِم على ما يُلائِمُ حالَ قومِهِم، ولَمْ يَكُن أمرُ الآياتِ إِلَيْهِم، ولا لَهُم أَنْ يَتحكَّمُوا على اللهِ حتَّى تَتخيَّروها عليَّ، هَذا هو الجَوابُ المجمَلُ، وأمَّا التَّفصيلُ فقَدْ ذُكِرَ في آياتٍ أُخَرَ كقولِه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: ٧]، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا﴾ [الحجر: ١٤].

(٩٤) ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ أي: وما مَنَعَهم الإيمانَ بعدَ نُزولِ الوَحيِ وظهورِ الحقِّ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾: إِلَّا قولُهُم هذا، والمعنى: أنَّه لم يبقَ لَهُم شُبهَةٌ تَمْنَعُهُم عَنِ الإيمانِ بمُحَمَّدٍ والقُرآنِ إلا إِنكارُهُم أَنْ يرسلَ اللهُ بَشَرًا.

(٩٥) ـ ﴿قُل﴾ جوابًا لشبهَتِهِم: ﴿لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يَمْشِي بَنُو آدمَ ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾: ساكنينَ فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ لتَمَكُّنِهِم مِنَ الاجتماعِ به والتَّلقِّي مِنه، وأمَّا الإنسُ فعامَّتُهُم عُماةٌ عَن إدراكِ الملَكِ والتَّلقُّفِ منه، فإنَّ ذلك مَشروطٌ بنَوعٍ مِن التَّناسُبِ والتَّجانُسِ.

و﴿مَلَكًا﴾ يحتمِلُ أَنْ يَكونَ حالًا مِن ﴿رَّسُولًا﴾ وأن يكونَ مَوصوفًا به، وكذلك ﴿بشرًا﴾، والأوَّلُ أوفَقُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١).

(٩٦) ـ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ على أنِّي رَسولُ اللهِ إلَيكُم بإظهارِ المُعجزَةِ على وَفْقِ دَعوايَ، أو: على أنِّي بلَّغْتُ ما أُرسِلْتُ به إليكُمْ وأنَّكم عانَدْتُم.

و﴿شَهِيدًۢا﴾ نصبٌ على الحالِ أو التَّمييزِ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعلَمُ أحوالَهُم الباطنةَ مِنْهَا والظَّاهرةَ فيُجازيهِمْ عَلَيها، وفيه تَسليَةٌ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ وتَهديدٌ للكُفَّارِ.

(٩٧) ـ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يَهدونَه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: يُسحَبُونَ علَيْها، أو يُمشَونَ عليها، رُوِيَ أنَّه قيلَ لرَسولِ اللهِ ﷺ: كيفَ يُمْشَونَ عَلى وُجوهِهِم؟ قال: «إنَّ الذي أَمْشَاهُم على أَقْدامِهِم قادرٌ على أَنْ يُمشيَهُمْ عَلى وُجوهِهِم»[1].

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لا يُبصِرونَ ما يَقَرُّ أَعيُنَهُم، ولا يَسمَعُونَ ما يَلَذُّ مَسامِعَهُم، ولا يَنطِقُونَ بما يُقبلُ مِنْهُم؛ لأنَّهُم في دُنياهُم لم يَسْتَبصِرُوا بالآياتِ والعِبَرِ، وتَصامُّوا عَن استِماعِ الحَقِّ، وأَبَوْا أَنْ ينطِقُوا بالصِّدقِ، ويجوزُ أَنْ يُحشَرُوا بعدَ الحِسابِ مِن المَوقفِ إلى النَّارِ مَؤُوفِي القُوَى والحَواسِّ.

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سكَنَ لَهَبُها بأَنْ أكلَتْ جُلودَهُم ولُحومَهُم ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ تَوقُّدًا بأَنْ نبدِّلَ جُلودَهُم ولُحومَهُم فتَعودَ مُلتَهِبَةً مُستَعِرَةً، كأَنَّهُم لَمَّا كَذَّبُوا بالإعادةِ بعدَ الإفناءِ جَزاهُم اللهُ بأَنْ لا يَزالُوا على الإعادةِ والإفناءِ، وإليه أشارَ بقَوْلِه:

---

(١) رواه الترمذي (٣١٤٢)، ورواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦) عن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟» قال قتادة: بلى، وعزة ربنا.

(٩٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ لأنَّ الإشارة إلى ما تَقدَّمَه مِن عَذابِهِم.

(٩٩) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾: أولم يَعلَمُوا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فإنَّهم لَيسُوا أَشَدَّ خَلْقًا مِنهنَّ، ولا الإعادَةُ أصعَبُ عليهِ مِن الإبداءِ[1].

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الموتُ أو القِيامَةُ ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ مَع وُضوحِ الحَقِّ ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾: إلا جُحودًا.

(١٠٠) ـ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾: خزائنَ رِزقِه وسائرَ نِعَمِه، و﴿أَنتُمْ﴾ مرفوعٌ بفعلٍ يُفسِّرُه ما بعدَهُ؛ كقولِ حاتمٍ: لو ذاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي[2]، وفائدَةُ هذا الحَذفِ والتَّفسيرِ: المُبالغَةُ مع الإيجاز، والدَّلالَةُ عَلى الاختِصاصِ.

﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾: لبَخِلْتُم مخافةَ النَّفادِ بالإنفاقِ؛ إذ لا أحدَ إلا ويَختارُ النَّفعَ لنَفسِهِ، ولو آثرَ غيرَهُ بشَيءٍ فإنَّما يؤثِرُه لعِوَضٍ يَفوقُهُ، فهو إِذَنْ بَخيلٌ بالإضافَةِ إلى جُودِ اللهِ وكرمِهِ، هذا وإنَّ البُخلاءَ أغلَبُ فيهم.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «الابتداء».

(٢) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ٢٦٨)، و«الكامل» للمبرد (١/ ٢٢١)، و«المقتضب» له (٣/ ٧٧)، و«الأصول في النحو» لابن السراج (١/ ٢٦٩)، و«الصحاح» (مادة: لطم)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (٢/ ١٩٣)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ١٧٤)، وفيه:: أي: لو لَطَمَتْنِي ذاتُ سِوَارٍ؛ لأن (لو) طالبة للفعل داخلة عليه.

قال العسكري: يقوله الكريم إذا ظلمه اللَّئِيم. وقال الجوهري: قالته امرأةٌ لطَمَتْها مَن ليست بكفوٍ لها.

ونقل الميداني فيه قولاً آخر فقال: وقيل: أراد: لو لَطَمَتْنِي حُرَّة، فجعل السوار علامة للحرية؛ لأن العرب قلما تُلْبِسُ الإماء السِّوَار، فهو يقول: لو كانت اللاطمة حرة لكان أخف علي.

أما نسبته لحاتم فصوب بعضهم أنه: «لو غير ذات سوار لطمتني» كما سيأتي.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾: بخيلًا[1]؛ لأنَّ بناءَ أَمرِهِ على الحاجَةِ، والضِّنَّةِ بمَا يَحتاجُ إليه، وملاحظةِ العِوَضِ فيما يبذُلُ.

(١٠١) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ هي العَصَا، واليَدُ، والجَرَادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، وانفِجارُ الماءِ مِن الحجرِ، وانفلاقُ البَحرِ، ونَتْقُ الطُّورِ على بني إسرائيلَ.

وقيل: الطُّوفانُ والسِّنونَ ونقصُ الثَّمراتِ مكانَ الثَّلاثةِ الأخيرةِ[2].

وعن صفوانَ: أنَّ يَهودِيًّا سألَ النَّبيَّ ﷺ فقال: «أَنْ لا تُشرِكُوا باللهِ شيئًا، ولا تَسرِقُوا ولا تَزْنُوا ولا تقتُلوا النَّفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلَّا بالحَقِّ، ولا تَسحَرُوا ولا تَأكُلُوا الرِّبَا، ولا تَمشُوا ببريءٍ إلى ذي سُلطانٍ ليَقتُلَهُ، ولا تَقذِفُوا مُحصنَةً، ولا تَفِرُّوا مِن الزَّحفِ، وعليكُمْ خاصَّةً اليهودُ أَنْ لا تَعْدُوا في السَّبتِ»، فقبَّلَ اليَهودِيُّ يدَهُ ورِجلَهُ[3].

---

(١) بعدها في نسخة التفتازاني: «نفوراً».

(٢) روى عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٣٢)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٠٢)، عن ابن عباس قال: ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ وهي متتابعات، وهي في سورة الأعراف ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قال: السنين في أهل البوادي، ونقص من الثمرات لأهل القرى، فهاتان آيتان، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، هذه خمس، ويد موسى إذ أخرجها بيضاء للناظرين من غير سوء: البرص، وعصاه إذ ألقاها فإذا هي ثعبان مبين.

وروى الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٠٢)، عن الحسن في قوله: ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قال: هذه آية واحدة، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ويد موسى، وعصاه إذ ألقاها فإذا هي ثعبان مبين، وإذ ألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون.

(٣) رواه الترمذي (٢٧٣٣)، والنسائي (٤٠٧٨)، وابن ماجه (٣٧٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠)، وصحح النووي أسانيده في «رياض الصالحين» (٨٨٩). قال ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ١٢٥) عند =

فعَلى هذا المرادُ بالآياتِ: الأحكامُ العامَّةُ للمِلَلِ الثَّابَتةُ في كلِّ الشَّرائعِ، سُمِّيَت بذلك لأنَّها تدلُّ على حـالِ مَن يَتعاطى مُتعلَّقَها في الآخرةِ مِن السَّعادَةِ والشَّقاوَةِ، وقولُه: «وعليكُمْ خاصَّةً اليَهودُ أن لا تَعْدُوا» حكمٌ مستأنَفٌ زائدٌ على الجوابِ، ولذلك غيَّرَ فيه سِياقَ الكَلامِ.

﴿فَسْـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ فقلنا له: سَلْهُم مِن فِرعَونَ ليُرسِلَهُم معكَ، أو: سَلْهُم مِن حالِ دينِهم، ويؤيِّدُه قراءةُ رَسولِ اللهِ ﷺ: (فسَالَ) على لفظِ المضيِّ بغيرِ همزٍ[1]، وهو لغةُ قريشٍ، و﴿إِذۡ﴾ متعلِّقٌ بـ(قلنا) أو (سال) على هذه القراءةِ.

أو: فسَـلْ يـا مُحمَّدُ بني إِسـرائيلَ عمَّـا جرى بينَ مُوسـى وفِرعـونَ إذ جاءَهُم، أو عَـن الآيـاتِ ليظهرَ للمُشـركينَ صدقُكَ، أو لتَتسـلَّى نفسُـكَ، أو لتعلَـمَ أنَّه تَعالى لـو أتى بمـا اقترحُوا لأصرُّوا علـى العنـادِ والمُكابرةِ كمَـنْ قبلَهُم، أو ليـزدادَ يَقينُكَ لأنَّ تَظاهُـرَ الأدِلَّـةِ يوجِـبُ قـوَّةَ اليَقيـنِ وطمأنينـةَ القَلـبِ، وعلـى هـذا كانَ ﴿إِذۡ﴾ نصبًـا بــ﴿ءَاتَيۡنَا﴾، أو بإضمـارِ: «يخبـروكَ» علـى أنَّـه جـوابُ الأمـرِ، أو بإضمـارِ: «اذكُـر» على الاسـتئنافِ.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾: سُحِرْتَ فتَخبَّطَ عَقلُكَ.

= تفسير هذه الآية بعد أن أورد هذا الحديث: «وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها، وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم».

(١) انظر: «الكشاف» (٥/ ١١٣)، ورواها ابن أبي داود في «المصاحف» (ص: ٢٦٠) عن عكرمة. وذكر ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١) عن ابن عباس أنه قرأ: (فسأل) بفتح السين كما قال، ولم يذكر في الهمزة شيئاً.

(١٠٢) ـ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فِرعونُ، وقرأ الكسائيُّ بالضمِّ[١] على إخبارِه عَن نفسِه.

﴿مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: الآياتِ ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾: بيناتٍ تُبَصِّرُكَ صِدْقي، ولكنَّكَ تعانِدُ. وانتصابُه على الحالِ.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾: مَصروفًا عَن الخيرِ مَطبوعًا على الشرِّ، مِن قَولِهِم: ما ثَبَركَ عَن هذا؟ أي: ما صرفكَ، أو: هالِكًا، قارَعَ ظنَّهُ بظنِّهِ، وشتَّانَ ما بينَ الظَّنَّينِ، فإنَّ ظَنَّ فِرعونَ كَذِبٌ بَحْتٌ، وظنَّ مُوسى يحومُ حولَ اليَقينِ مِن تَظاهُرِ أماراتِه.

وقُرِئ: (وإنْ إخالُك يا فرعونُ لمثبوراً) على (إنْ) المُخفَّفَةِ واللامُ هي الفارِقَةُ[٢].

(١٠٣) ـ ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعونُ ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾: أن يَستَخِفَّ مُوسى وقومَه ويَنفِيَهُم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مِصرَ، أو الأرضِ مطلقًا بالقتلِ والاستئصالِ.

﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ فعكَسْنَا عليه مَكْرَه، فاستَفْزَزْنَاهُ وقومَهُ بالإغراقِ.

(١٠٤) ـ ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: مِن بَعدِ فِرعونَ وإغراقِه ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أرادَ أَنْ يَستفِزَّكُم مِنها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: الكرَّةِ أو الحياةِ أو السَّاعةِ أو الدَّارِ الآخرةُ؛ يعني: قيامَ القيامةِ ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾: مُختلطِينَ إيَّاكُم وإيَّاهُم، ثم نَحكُمُ بينكُم ونَميزُ سُعداءَكُم مِن أَشقِيائِكُم.

واللَّفيفُ: الجَماعاتُ مِن قَبائِلَ شَتَّى.

(١٠٥) ـ ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾؛ أي: ومَا أنزَلْنَا القُرآنَ إلا مُلتَبِسًا بالحقِّ المُقتَضِي لإنزالِه، ومَا نزلَ إلا مُلتَبِسًا بالحقِّ الذي اشتمَلَ عليهِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٥)، و«التيسير» (ص: ١٤١).

(٢) نسبت لأبي بن كعب. انظر: «الكشاف» (٥/ ١١٥)، و«البحر» (١٤/ ١٩٣).

وقيل: وما أنزلناهُ مِن السَّماءِ إلَّا مَحفُوظًا بالرَّصَدِ مِن الملائكةِ، وما نزل على الرَّسولِ إلا محفوظًا بهم مِن تَخليطِ الشَّياطينِ، ولعلَّه أرادَ بهِ نفيَ اعتراءِ البُطلان له أوَّلَ الأمرِ وآخرَهُ.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ للمُطيعِ بالثَّوابِ ﴿وَنَذِيرٗا﴾ للعَاصي مِن العِقابِ، فلا عليكَ إلا التَّبشيرُ والإنذارُ.

(١٠٦) ـ ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾: نَزَّلْناهُ مُفرَّقًا مُنَجَّمًا.

وقيل: فَرَّقْنَا فيهِ الحَقَّ مِن الباطلِ، فحُذِفَ الجَارُّ كمَا في قولِه:

ويَــومٍ شَــهِدْنَاهُ...........(١)

وقُرِئَ بالتَّشديدِ(٢) لكَثْرَةِ نجومِه، فإنَّه نزلَ في تَضاعيفِ عِشرينَ سنَةً.

﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾: علـى مَهَـلٍ وتُـؤَدَةٍ، فإنَّه أيسَـرُ للحفـظِ وأعوَنُ في الفَهْمِ.

وقُرِئَ بالفَتحِ(٣)، وهو لُغَةٌ فيه.

﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ على حسبِ الحَوادثِ.

---

(١) تمامُه:

.... سُلَيمًا وعامرًا   قليـلٍ سِـوَى الطَّعـنِ النِّهـالِ نوافِلُـهْ

والبيت لرجل من بني عامر كما في «الكتاب» (١/ ١٧٨)، و«شرح المفصل» لابن يعيش (١/ ٤٣٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١)، و«المحتسب» (٢/ ٢٣)، عن أبيٍّ وابن عباس ومجاهد. وزاد ابن جني نسبتها لعلي وابن مسعود وجمع من أئمة التابعين.

(٣) نسبت لقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١).

(١٠٧) ـ ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ فإنَّ إيمانكُم بالقُرآنِ لا يَزيدُهُ كَمالًا وامتِناعَكُم عنه لا يورِثُه نَقْصًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ تعليلٌ لَه؛ أي: إنْ لَمْ تُؤمِنُوا به فقَدْ آمَنَ بِهِ مَن هو خَيرٌ مِنْكُم، وهُم العُلَماءُ الذين قَرَؤُوا الكُتبَ السَّابقَةَ وعَرَفُوا حَقيقَةَ الوَحيِ وأَمَاراتِ النُّبوَّةِ، وتمكَّنُوا من المَيْزِ بينَ المحقِّ والمُبطلِ، أو رأوا نعتَكَ وصِفَةَ ما أُنزِلَ إليكَ في تلكَ الكُتبِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ تَعليلًا لـ﴿قُلْ﴾ على سبيلِ التَّسلِيَةِ كأنَّه قيل: تَسَلَّ بإيمانِ العُلَماءِ عَن إيمانِ الجَهَلَةِ، ولا تَكْتَرِثْ بإيمانِهِم وإعراضِهِم.

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآنُ ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾: يَسقطونَ على وُجوهِهِم تَعظيمًا لأمرِ اللهِ، أو شُكرًا لإنجازِهِ وَعدَهُ في تلكَ الكُتبِ ببعثَةِ مُحمَّدٍ عليه السَّلامُ على فترةٍ مِن الرُّسلِ وإنزالِ القُرآنِ عليه.

(١٠٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عن خُلْفِ الموعدِ ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ إنَّه كانَ وَعدُه كائِنًا لا محالةَ.

(١٠٩) ـ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ كرَّرَه لاختِلافِ الحَالِ أو السَّببِ، فإنَّ الأَوَّلَ للشُّكرِ عندَ إنجازِ الوَعدِ، والثَّاني لِمَا أثَّرَ فيهِم مِن مَواعظِ القُرآنِ حالَ كونِهِم باكينَ مِن خَشيَةِ اللهِ، وذكرُ الذَّقنِ لأنَّهُ أَوَّلُ ما يَلقَى الأرضَ مِن وَجهِ السَّاجِدِ، واللامُ فيهِ لاختِصاصِ الخُرورِ به.

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سماعُ القُرآنِ ﴿خُشُوعًا﴾ كما يَزيدُهُم عِلْمًا ويَقينًا باللهِ.

(١١٠) ـ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ نزلَت حينَ سَمِعَ المُشركونَ رَسولَ اللهِ يقول: «يا اللهُ يا رحمنُ» فقالوا: إنه يَنهانَا أَنْ نَعبُدَ إلهينِ وهو يَدعُو إلهًا آخرَ[1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٣). وبنحوه البخاري في «خلق أفعال العباد» (ص: ٨٢).

وقالت اليَهودُ: إنَّك لتُقِلُّ ذِكرَ الرَّحمنِ وقَدْ أكثرَهُ اللهُ في التَّوراةِ[(١)].

والمرادُ على الأوَّلِ: التَّسويةُ بينَ اللَّفظينِ بأنَّهما يُطلَقانِ على ذاتٍ واحِدَةٍ وإن اختلفَ اعتِبارُ إطلاقِهِمَا، والتَّوحيدُ إنَّما هو للذَّاتِ الذي هو المعبودُ.

وعلى الثَّاني: أنَّهما سِيَّانِ في حُسنِ الإطلاقِ والإفضاءِ إلى المقصودِ، وهو أجوَدُ لقولِه: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

والدُّعاءُ في الآيةِ بمَعنى التَّسمِيَةِ، وهو يَتعدَّى إلى مَفعولَيْنِ حُذِفَ أَوَّلُهُما استغناءً عنه، و(أو) للتَّخييرِ، والتَّنوينُ في ﴿أَيًّا﴾ عِوَضٌ عَن المضافِ إليه، و(ما) صِلَةٌ لتأكيدِ ما في ﴿أَيًّا﴾ مِن الإبهامِ، والضَّميرُ في (له) للمُسمَّى؛ لأنَّ التَّسمِيَةَ لهُ لا للاسمِ، وكانَ أَصلُ الكَلامِ: أيًّا ما تدعُو فهُوَ حَسَنٌ، فوُضِعَ مَوضِعَه: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ للمُبالغَةِ والدَّلالَةِ على ما هوَ الدَّليلُ عليه، وكونُها حُسْنَى لدَلالَتِها على صِفاتِ الجَلالِ والإكرام

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: بقراءةِ صَلاتِكَ حتى تُسمِعَ المُشركينَ، فإنَّ ذلك يَحمِلُهُم عَلى السبِّ واللغوِ فيها ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ حتى لا تُسمِعُ مَن خلفَكَ مِن المُؤمنيَن ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾: بينَ الجهرِ والمُخافتَةِ سَبيلًا وَسَطًا؛ فإنَّ الاقتصادَ في جَميعِ الأُمورِ مَحبوبٌ.

رُوِيَ: أنَّ أبا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنه كانَ يَخفتُ ويقول: أُناجِي رَبِّي وقَدْ عَلِمَ حاجَتِي، وعُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه كان يجهَرُ ويقول: أَطرُدُ الشَّيطانَ وأُوقِظُ الوَسْنانَ، فلَمَّا نزلَتْ أمَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ أبا بَكرٍ أَنْ يرفَعَ قَلِيلًا وعُمَرَ أَن يخفضَ قليلًا[(٢)].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ٥٠٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٥)، عن الضحاك.

(٢) رواه بهذا اللفظ: الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٣٢) عن محمد بن سيرين. ورواه أبو داود (١٣٢٩)، والترمذي (٤٤٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٣)، والحاكم في «المستدرك» (١١٦٨) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه. قال النووي في «خلاصة الأحكام» (١/ ٣٩٢): رواه أبو داود بإسناد صحيح.

وقيل: مَعناه: لا تجهَرْ بصَلاتِكَ كلِّها ولا تُخافِتْ بها بأَسْرِهَا، وابتَغِ بيـنَ ذلكَ سَبِيلًا بالإخفاتِ نهارًا والجهرِ ليلًا.

(١١١) ـ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾: فـي الألوهيَّةِ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾: وَلِيٌّ يُواليه من أجلِ مذلَّةٍ به ليَدْفَعَها بمُوالاتِه.

نفى عنه أَنْ يكونَ له ما يُشارِكُه مِن جنسِهِ ومِن غيرِ جنسِهِ اختيارًا أو اضطرارًا وما يعاونُه ويُقوِّيه، ورتَّبَ الحمدَ عليهِ للدَّلالةِ على أنَّه الذي يَستَحِقُّ جنسَ الحَمدِ؛ لأنَّه كامِلُ الذَّاتِ المُنفَرِدُ بالإيجادِ المنعِمُ على الإطلاقِ، وما عَداهُ ناقِصٌ مَملوكُ نِعمةٍ أو مُنعَمٌ عليهِ[1]، ولذلك عطفَ عليه قولَه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾.

وفيهِ تَنبيهٌ على أنَّ العبدَ وإنْ بالغَ في التَّنزيهِ والتَّحميدِ واجتهدَ في العِبادَةِ والتَّمجيدِ يَنبَغِي أَنْ يعترفَ بالقُصورِ عَن حقِّهِ في ذلك.

رُوِيَ: أنَّه عليهِ السَّلامُ إذا أَفْصح الغُلامُ مِن بَنِي عبدِ المُطَّلبِ علَّمَه هذه الآيَةَ[2].

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورةَ بَني إسرائيلَ فرَقَّ قَلبُهُ عندَ ذكرِ الوالِدَينِ كانَ له قِنطارٌ في الجنَّةِ، والقِنطارُ: ألفُ أوقيَّةٍ ومئتا أُوقيَّةٍ»[3].

---

(١) قوله: «مملوك نعمة» من إضافة الصفة للموصوف؛ أي: ما عداه ناقص لأنه إمّا نفس النعمة المملوكة له المسندة إليه، أو منعَم عليه. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٢٤) من طريق سفيان بن وكيع، عن سفيان بن عيينة، عن عبد الكريم أبي أمية، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ. ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٩٨) قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب، عن النبي ﷺ معضلاً. ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٧٩٧٦) عن ابن عيينة، عن عبد الكريم، عن النبي ﷺ وهو معضل أيضاً.

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٦/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٩٣)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١٧) سُورَةُ الإِسْرَاءِ مَكِّيَّة
وآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه، ﴿ الذي أسرى بعبده ﴾ يعني محمداً ﷺ، ﴿ ليلاً ﴾: أي في جنح الليل، ﴿ من المسجد الحرام ﴾: وهو مسجد مكة ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾[1] وهو بيت المقدس الذي بإيلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى ﴿ الذي باركنا حوله ﴾: أي في الزروع والثمار، ﴿ لنريه ﴾: أي محمداً ﴿ من آياتنا ﴾: أي العظام، كما قال تعالى: ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾، ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ أي السميع لأقوال عباده البصير بهم، فيعطي كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

« ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء »

قال الإمام البخاري، عن أنَس بن مالك، يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة، إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال

---

(١) قال الحافظ السهيلي: قوله عزّ وجلّ ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾: يعني بيت المقدس. وهو إيليا، ومعنى إيليا - بيت الله - ﴿ وباركنا حوله ﴾ - يعني الشام - والشام بالسريانية: الطيب، فسميت بذلك لطيبها وخصبها، وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتدأ مبناه فأكمله ابنه سليمان عليه السلام، واسمه: إيلياء، وتفسيره بالعربية: بيت الله، ذكره البكري، وقال الطبري: كان داود عليه السلام قد همّ ببنيانه فأوحى الله تعالى إليه « إنما ينبيه ابن لك طاهر اليد من الدماء »، وفي الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام، بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بني أيضاً في زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام.

آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم، حتى أتوه ليلة أُخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه، فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا بـه صدره ولغاديده - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه، ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا؟ فقال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد، قالوا: وقـد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا فرحباً به وأهلاً، يستبشر بـه أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بمـا يريد الله بـه في الأرض حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم، فقال لـه جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلم عليه ورد عليه آدم، فقال: مرحباً وأهلاً بابني، نعم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: «ما هذان النهران يا جبريل؟» قال: هذان النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هـذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك، ثم عرج به إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى من هذا؟ قال جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحباً به وأهلاً. ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء قـد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى، فقال موسى: رب لم أظن أن ترفع علي أحداً.

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: يا محمد، ماذا عهد إليك ربك؟ قال: «عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة». قال إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس، فقال وهو في مكانه: «يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا»، فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعـاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب إن أمتي ضعفاء، أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم، فخفف عنا، فقـال الجبار تبارك وتعالى: يا محمد! قال: «لبيك وسعديك»، قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك، فرجع إلى موسى، فقال: كيف فعلت؟ فقال: «خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها»، قال موسى: قـد والله راودت بني إسرائيل على

أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً، قال رسول الله ﷺ: « يا موسى قد والله استحييت من ربي عزّ وجلّ مما اختلف إليه » . قال فاهبط باسم الله. قال واستيقظ وهو في المسجد الحرام، هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد .

وقد قال الحافظ البيهقي: في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عزّ وجلّ، يعني قوله: ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى. قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح . وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق، فإن أبا ذر قال: يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال: « نور أنى أراه » . وفي رواية: « رأيت نوراً » أخرجه مسلم، وقوله: ﴿ ثم دنا فتدلى﴾ إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين،وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا .

وقال الإمام أحمد، عن أنَس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « أتيت بالبراق وهو دابة، أبيض، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة، قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل، فقيل له من أنت ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل، فقيل : من أنت ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بي ودعوا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد، فقيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم يقول تعالى ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد، فقيل: قد أرسل إليه ؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل، فقيل : من أنت ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام ، فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل ، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها، قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى، وقد فرض عليّ في كل يوم وليلة، خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي فقلت: أي رب خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: ما فعلت، فقلت: قد حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فلم أزل أرجع إلى ربي وبين موسى، ويحط عني خمساً خمساً حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عشراً، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت».

عن أنَس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حركت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق فوالله ما ركبك مثله، وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد. قال، فسار ما شاء الله أن يسير فإذا شيء يدعوه متنحياً عن الطريق، فقال: هلم يا محمد، فقال له جبريل: سر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، قال فلقيه خلق من خلق الله، فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد، فرد السلام، ثم لقيه الثانية، فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الخمر والماء واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولوشربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام، فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام(١)

(رواية عن أنَس بن مالك عن مالك بن صعصعة)

قال الإمام أحمد، عن أنَس بن مالك: ان مالك بن صعصعة حدثه، أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال قتادة في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة، قال: فأتاني فشقّ ما بين هذه إلى هذه»، إي من ثغرة نحره إلى شعرته، «فاستخرج قلبي، قال: فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة، فغسل قلبي ثم حشا ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال، فقال الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟

(١) أخرجه ابن جرير ورواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة، وفي بعض ألفاظه غرابة.

قال: نعم يقع خطوه عند أقصى طرفه، قال: « فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا، قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه ؟ قال: نعم، فقيل: مرحباً بـه ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنـا، فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه السلام، قال: هـذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصـالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنـا، فلما خلصت فإذا عيسى ويحيى وهمـا ابنا الخالة، قال: هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما، قال: فسلمت فردا السلام، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحباً بـه ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنـا، فلما خلصت إذا يوسف عليه السلام، قال: هذا يوسف، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحباً بـه ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال مرحباً بالأخ الصـالح والنبي الصالح، قـال: ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أوقد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قال: مرحباً بك ولنعم المجيء جاء، ففتح لنـا، فلما خلصت فإذا هارون عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هـذا ؟ قال: جبريل، قيـل : ومن معك ؟ قال: محمد، قيل : أوقد أرسل إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحباً بـه ولنعم المجيء جـاء، ففتح لنا، فلما خلصت فإذا أنا بموسى عليه السلام، قال: هذا موسى عليه السلام فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: فلما تجاوزته بكى، قيل له: ما يبكيك ؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممـا يدخلها من أمتي، قال: ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا ؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك ؟ قال: محمد، قيل: أو قد بعث إليه ؟ قال: نعم، قيل: مرحباً بـه ولنعم المجيء جـاء، قال: ففتح لنـا، فلما خلصت فإذا إبراهيم عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم فسلم عليـه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قـال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، قـال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى، قال: وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل ؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيـل والفرات، قال: ثم رفع إليّ البيت المعمور .

قال قتادة: وحدثنا الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون فيه، ثم رجع إلى حديث أنَس، قال: « ثم أتيت بإناء من خمر وإناء مـن لـبن وإناء من عسـل قال: فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك، قال: ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم،

قال: فنزلت حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قال، قلت: خمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أُمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً أُخر، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت، فقلت: أمرت بثلاثين صلاة، قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً أُخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بعشرين صلاة كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع العشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع العشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت، فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال، قلت: قد سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم. فنفذت، فنادى مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»[1]

(رواية أنَس عن أبي ذر)

قال البخاري، عن أنَس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد ﷺ، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، ثم عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ففتح»، قال أنَس: فذكر أنه قد وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنَس: فلما مر جبريل والنبي ﷺ بإدريس، قال: مرحباً بالنبي الصالح

(١) أخرجه أحمد ورواه الشيخان من حديث قتادة بنحوه.

والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: إدريس، ثم مر بموسى فقال: مرحباً: بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا، قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم، قال الزهري: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حية الأنصاري كانا يقولان، قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال موسى: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت قد استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»[1]..

عن جابر بن عبدالله، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلّى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[2] عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتي بقدحين قدح من لبن وقدح من خمر، فنظر إليهما ثم أخذ قدح اللبن، فقال جبريل: أصبت هديت للفطرة، لو أخذت الخمر لغوت أمتك، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة فأخبر أنه أسري به فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه، . وقال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبدالرحمن: فتجهز - أو كلمة نحوها - ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس، ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة. فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء، قال أبو سلمة: فبها سمي أبو بكر الصدّيق. قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما يحدث، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[3]

(رواية شداد بن أوس)

روى الإمام الترمذي، عن جبير بن نفير، عن شداد بن أوس قال، قلنا: يا رسول الله، كيف أسري بك؟ قال: «صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتماً، فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيض - أو قال بيضاء -

(١) هذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة، ورواه مسلم في كتاب الإيمان بنحوه.

(٢) رواه أحمد وأخرجه الشيخان. (٣) أخرجه البيهقي عن سعيد بن المسيب.

فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب، فاستصعب علي، فرازها بأذنها، ثم حملني عليها، فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث انتهى طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخل فأنزلني، فقال صلِّ، فصليت، ثم ركبت، فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت بيثرب، صليت بطيبة، فانطلقت تهوي بنا، يقع حافرها عند منتهى طرفها، ثم بلغنا أرضاً، قال: انزل، ثم قال: صلِّ، فصلَّيت، ثم ركبنا، فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت بمدين عند شجرة موسى، ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور، فقال: انزل فنزلت، فقال: صلِّ، فصلَّيت، ثم ركبنا، فقال: أتدري أين صليت؟ قلت: الله أعلم، قال: صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى بن مريم، ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني، فأتى قبلة المسجد فربط فيه دابته ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل أرسل إليّ بهما جميعاً، فعدلت بينهما ثم هداني الله عزّ وجلّ فأخذت اللبن فشربت حتى عرقت به جبيني، وبين يدي شيخ متكئ على مثوات له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدى، ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة فإذا جهنم تنكشف عن مثل الروابي، قلت: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: وجدتها مثل الحمة السنخة، ثم انصرف بي فررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة، فأتاني أبو بكر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك في مناما، فقد علمت أنك أتيت بيت المقدس الليلة، فقال يارسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي، قال: ففتح لي صراط كأني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته، فقال ابو بكر: أشهد أنك لرسول الله، وقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة! قال، فقال: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعير لكم في مكان كذا وكذا، وقد أضلوا بعيراً لهم فجمعه لهم فلان، وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حين كان قريباً من نصف النهار، حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ(١)

قال البيهقي، عن قتادة عن أبي العالية، قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس»، وأري مالكاً خازن جهنم، والدجال في آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾، فكان قتادة يفسرها أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام، ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ قال: جعل موسى هدى لبني إسرائيل(٢) عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة، عرفت أن الناس مكذبي». فقعد معتزلاً حزيناً، فمرّ به

---

(١) رواه الترمذي والبيهقي وقال: إسناده صحيح، قال ابن كثير: وهذا الحديث مشتمل على ما هو صحيح كما قال البيهقي، وعلى ما هو منكر كالصلاة في بيت المقدس، وسؤال الصدّيق عن نعت بيت المقدس.

(٢) رواه البيهقي ومسلم وأخرجاه عن قتادة مختصراً.

عدوّ الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: وما هو؟ قال: «إني أسري بي الليلة»، قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس». قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: «نعم»، قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، قال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال: يا معشر بني كعب ابن لؤي، قال، فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدّث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة»، فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم». قال، فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب، قالوا: وتستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل، فنعته وأنا أنظر إليه، قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، قال، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه»[1]

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «حين أسري بي لقيت موسى عليه السلام – فنعته فإذا رجل حسبته قال: مضطرب، رَجِلُ الرأس، كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى – فنعته النبي ﷺ قال: ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس – يعني حمام، قال: ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، قال: وأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة، – أو أصبت الفطرة – أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك». وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله إلي أنظر إليه، ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبهاً به صاحبكم – يعني نفسه – فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد هذا مالك خازن جهنم، فالتفت إليه فبدأني بالسلام»[2]

قال ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي لما انتهيت إلى السماء السابعة، فنظرت فوق، فإذا رعد وبرق وصواعق، قال: وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء آكلو الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم لا يتفكرون في ملكوت السماوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب»[3].

(١) أخرجه أحمد والبيهقي والنسائي. (٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) ورواه الإمام أحمد وابن ماجة.

فصــل

وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، قال الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة والحق أنه عليه السلام أسري به (يقظة) لا (مناماً) من مكة إلى بيت المقدس راكباً على البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتي بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتيهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر، بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق. ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع به هو وإخوته من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط؟ **على قولين، فالأكثرون** من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعد ذلك يقظة لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾. فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة مما كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال: ﴿أسرى بعبده ليلاً﴾. وقال تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم[1]. وقال تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾، والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان وإنما يكون هذا للبدن لا للروح لأنها

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه والله أعلم . وقال آخرون : بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن .

فائدة

وقد ذكر حديث الإسراء، من طريق أنس، وقد تواترت الروايات في حديث الاسراء، عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة، وأسماء رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة، ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب، ﴿ هدى ﴾ أي هادياً ﴿ لبني إسرائيل ألا تتخذوا ﴾ أي لئلا تتخذوا، ﴿ من دوني وكيلاً ﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح ! فيه تهييج وتنبيه على المنة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ فاذكروا نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ، وقد ورد في الأثر: أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سمي عبداً شكوراً. قال الطبراني ، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله. وفي الحديث: « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها »(١). وفي حديث الشفاعة، عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: « فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك »(٢).

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي .

(٢) أخرجه البخاري في حديث الشفاعة عن أبي هريرة مرفوعاً

ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس، كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به. وقوله: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد، أي قوة وعدة وسلطنة شديدة، ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أي بينها ووسطها ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً، ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾. وقد اختلف المفسرون في هؤلاء المسلطين عليهم من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه (جالوت) وجنوده سلط عليهم أولاً ثم أديلوا عليه بعد ذلك، وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ الآية. وعن سعيد بن جبير وعن غيره أنه (بختنصر) ملك بابل. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوّهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾، فإنهم كانوا قد تمردوا، وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كبا، فسألهم ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن. وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب وهذا هو المشهور. وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾ أي فعليها، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾، وقوله: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾[1] أي الكرة الآخرة، أي إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾: أي يهينوكم ويقهروكم، ﴿وليدخلوا المسجد﴾ أي بيت المقدس ﴿كما دخلوه أول مرة﴾: أي في التي جاسوا فيها خلال الديار، ﴿وليتبروا﴾: أي يدمروا ويخربوا ﴿ما علوا﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿تتبيراً * عسى ربكم أن يرحمكم﴾: أي فيصرفهم عنكم، ﴿وإن عدتم عدنا﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد عدنا إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد عنه. قال ابن عباس ﴿حصيراً﴾ أي سجناً. وقال الحسن: فراشاً ومهاداً، وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

(١) قال مجاهد: بعث عليهم بختنصر في الآخرة، كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿عباداً لنا﴾ قال ابن عباس وقتادة: =

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجراً كبيراً أي يوم القيامة، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة: أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة، أن لهم عذاباً أليماً، أي يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ الآية. وكذا فسره ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقد تقدم في الحديث: «لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها[1]» وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك، ولهذا قال ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾: أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾، فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً﴾، وقال تعالى: ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾، وقال: ﴿يكوّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾، ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أي علامة يعرف بها، وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور وطلوع

= بعث الله عليهم جالوت، أخرجه ابن أبي حاتم. وفي العجائب للكرماني: قيل هم (سنحاريب) وجنوده. وقيل: العمالقة، وقيل: قوم مؤمنون.

(١) أخرجه أبو داود عن جابر، بتغيير وزيادة.

الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾، وقال تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ الآية. قال ابن جريج عن عبد الله بن كثير في قوله ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ قال: ظلمة الليل وسدف النهار، وعن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل. وقال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، فمحونا آية الليل السواد الذي في القمر. وقال قتادة: كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة أي منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم، وقال ابن عباس ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله عزّ وجلّ.

﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه﴾، وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: من خير وشر، ويلزم به ويجازى عليه، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ٭ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، وقال تعالى: ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ٭ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾، وقال: ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساء، وقال الإمام أحمد عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لطائر كل إنسان في عنقه». وقوله: ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب، يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً ﴿ منشوراً﴾ أي مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ أي إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي، وقوله: ﴿ ألزمناه طائره في عنقه﴾ إنما ذكر العنق لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد حبسته، فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت»[1]، وقال معمر عن قتادة ﴿ ألزمناه طائره في عنقه﴾ قال: عمله، ﴿ ونخرج له يوم القيامة﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿ كتاباً يلقاه منشوراً﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصري ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر وإسناده قوي جيد كذا قال ابن كثير.

عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿ اقرأ كتابك ﴾ الآية. فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك، هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله .

مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، ﴿ ومن ضل ﴾ أي عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[1] أي لا يحمل أحد ذنب أحد؟ ولا يجني جان إلا على نفسه. كما قال تعالى: ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿ ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾، وقوله: ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا ، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، وكذا قوله تعالى: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ إخبار عن عدله تعالى؛ وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، بإرسال الرسول إليه كقوله تعالى: ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا: بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

مسألة

بقي ههنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديماً وحديثاً، هي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم! وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته. وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان. (**فالحديث الأول**) : رواه الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال: « أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة. فأما الأصم فيقول رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول : رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر ، وأما الهرم فيقول لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفطرة فيقول: رب ما أتاني لك رسول.فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً ».

(١) أخرج ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قالت: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: هم من آبائهم، ثم سألته بعد ذلك، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت الآية: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وقال: هم على الفطرة – أو قال في الجنة – كما في اللباب .

(الحديث الثاني) : عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين، قال: « هم مع آبائهم »، وسئل عن أولاد المشركين فقال: « هم مع آبائهم »، فقيل: يا رسول الله ما يعملون ؟ قال: « الله أعلم بهم »[١] . **(الحديث الثالث)** عن ثوبان أن النبي ﷺ عظَّم شأن المسألة قال: « إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوزارهم على ظهورهم فيسألهم ربهم فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولاً، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولاً لكنا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم: أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيقولون: نعم، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيظاً وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم، فيقولون: ربنا أخرجنا أو أجرنا منها، فيقول لهم: ألم تزعموا أني إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم، فيقول: اعمدوا إليها فادخلوها، فينطلقون، حتى إذا رأوها فرقوا منها ورجعوا، وقالوا: ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها، فيقول: ادخلوها داخرين »، فقال نبي الله ﷺ: « لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً »[٢] . **(الحديث الرابع)**: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء »، وفي رواية قالوا: يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً، قال: « الله أعلم بما كانوا عاملين »، وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم عليه السلام ». وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ عن الله عزّ وجلّ أنه قال: « إني خلقت عبادي حنفاء ». **(الحديث الخامس)** : عن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « كل مولود يولد على الفطرة »، فناداه الناس: يا رسول الله وأولاد المشركين، قال: « وأولاد المشركين »[٣] . وقال الطبراني عن أبي رجاء عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: « هم خدم أهل الجنة » . **(الحديث السادس)** : عن خنساء بنت معاوية ، من بني صريم قالت: حدّثني عمي قال، قلت: يا رسول الله من في الجنة ؟ قال: « النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة »[٤] فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال: « نعم، وأولاد المشركين ». ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام: « هم مع آبائهم » . ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة . وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها . وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض . وهذا القول الذي حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن أهل السنّة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في « كتاب الاعتقاد » . وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد . وقد ذكر الشيخ ابن عبد البر أن أحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة ، وأهل العلم ينكرونها لأن الآخرة دار جزاء وليست

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي .

(٢) أخرجه الحافظ البزار في مسنده .

(٣) رواه الحافظ البرقاني في المستخرج على البخاري .

(٤) أخرجه الإمام أحمد .

بدار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار، وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

(**والجواب**) عما قال: ان أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها. وأما قوله: إن الدار الآخرة دار جزاء فلا شك أنها دار جزاء ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنّة والجماعة من امتحان الأطفال. وقد قال تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود﴾ الآية. وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقاً واحداً، كلما أراد السجود خر لقفاه. وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم ما أغدرك! ثم يأذن له في دخول الجنة، وأما قوله: فكيف يكلفهم الله دخول النار وليس ذلك في وسعهم، فليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم. وأيضاً فقد ثبتت السنّة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذاك؛ وأيضاً فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم.

فصل

إذا تقرر هذا، فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال، (**أحدها**): انهم في الجنة، واحتجوا بحديث سمرة أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين، (**والقول الثاني**): انهم مع آبائهم في النار: واستدل عليه بما روي عن عبدالله بن أبي قيس، أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت، قال رسول الله ﷺ: «هم تبع لآبائهم». فقلت: يا رسول الله بلا أعمال؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[1]. (**والقول الثالث**): التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وهو في الصحيحين، ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف، وهذا القول يرجع إلى من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة، لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة، كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف، والله أعلم، وليعلم أن

(١) أخرجه الإمام أحمد.

هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء أنهم من أهل الجنة، وهذا هو المشهور بين الناس وهو الذي نقطع بــه إن شاء الله عزّ وجلّ.

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

اختلف القرّاء في قراءة قوله: ﴿أمرنا﴾، فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقيل معناه: أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً، كقوله تعالى: ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾ ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ قالوا معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب، وقيل معناه: أمرهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة[1]. وقال ابن جرير: يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء، **قلت**: إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ ﴿أمَّرنا مترفيها﴾، قال ابن عباس قوله ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو قوله: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾ الآية، وعنه قال: أكثرنا عددهم.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، بأنه قــد أهلك أمما من المكذبين للرسل بعد نوح، ودل هــذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس. كان بــين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له، بل إنمــا يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواهــا من الآيات، فإنه قال: ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم﴾ أي في الدار الآخرة ﴿يصلاها﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه، ﴿مذموماً﴾ أي في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي، ﴿مدحوراً﴾ مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً. وفي الحديث: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولهــا يجمع من لا عقل له»[2]، وقوله: ﴿ومن أراد الآخرة﴾

---

(١) روي هذا القول عن سعيد بن جبير وابن عباس وهو قول حسن ورأي سديد.

(٢) أخرجه أحمد عن عائشة مرفوعاً.

وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وسعى لهـا سعيها ﴾ أي طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿ وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ﴿ كلا ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما فيه ﴿ من عطاء ربك ﴾ أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، ولهذا قـال: ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ أي لا يمنعه أحـد ولا يرده راد، قال قتادة ﴿ محظوراً ﴾، أي منقوصاً، وقال الحسن وغيره: أي ممنوعاً، ثم قال تعالى: ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ أي في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلـك ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾: أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء»، ولهذا قال تعالى: ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ .

* لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيهـا المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿ فتقعد مذموماً ﴾ إي على إشراكك به ﴿ مخذولاً ﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك ضراً ولا نفعاً، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله. فيوشك الله له برزق عاجل، أو آجل»[1].

* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، فان القضاء ههنا بمعنى الأمر. قال مجاهـد ﴿ وقضى ﴾ يعني

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

وصّى، ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾، وقوله: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيء، ﴿ولا تنهرهما﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء ﴿ولا تنهرهما﴾ أي لا تنفض يدك عليهما، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ أي ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم، ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي تواضع لهما بفعلك، ﴿وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ أي في كبرهما وعند وفاتهما. وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، (منها) الحديث المروي من طرق عن أنَس وغيره أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال: «آمين آمين آمين»، قيل: يا رسول الله علام أمنت؟ قال: «أتاني جبريل، فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل آمين فقلت آمين، ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل آمين، فقلت آمين»[1]. (حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أبي مالك القشيري قال، قال النبي ﷺ: «من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه»[2]. (حديث آخر): روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف: رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عنده الكبر ولم يدخل الجنة». (حديث آخر): عن مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله هل بقي علي من بر أبويّ شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما»[3]. (حديث آخر): عن معاوية بن جاهمة السلمي، أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت الغزو، وجئتك أستشيرك، فقال: «فهل لك من أم؟» قال: نعم، قال: «فالزمها فإن الجنة عند رجليها»[4]. (حديث آخر): قال الحافظ البزار في مسنده عن سليمان ابن بريدة، عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل ﷺ هل أديت حقها؟ قال «لا، ولا بزفرة واحدة»[5]

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به، وفي رواية لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين﴾، وقوله: ﴿فإنه كان للأوابين غفوراً﴾

(١) أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة.
(٢) ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة وفيه زيادات أخر.
(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة.
(٤) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة.
(٥) قال ابن كثير: في سنده الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف.

قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة، وعن ابن عباس: المطيعين المحسنين. وعن ابن المسيب: الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون، وعن عطاء بن يسار، وسعيد ابن جبير، ومجاهد: هم الراجعون إلى الخير. وعن عبيد بن عمير قال: كنا نعد الأوَّاب من يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال هو التائب من الذنب، الرجّاع من المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهذا الذي قاله هو الصواب، لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم﴾. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «آيبون تائبو ن عابدون لربنا حامدون».

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، وفي الحديث: «أمك وأباك ثم أدناك أدناك»، وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب». وفي الحديث: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه». وقوله: ﴿ولا تبذر تبذيراً﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً كما قال في الآية الأخرى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ الآية، ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾: أي أشباههم في ذلك، قال ابن مسعود: التبذير الإنفاق في غير حق، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق والفساد، وقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾: أي في التبذير والسفه، وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وكان الشيطان لربه كفوراً﴾: أي جحوداً، لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته، وقوله: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك﴾ الآية: أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾: أي عدهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله»[1]

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ أي لا تكن بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله (يد الله مغلولة) أي نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب، وقوله: ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾، وهذا من باب اللف والنشر، أي فتقعد إن

(١) هكذا فسره مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة فسروا القول الميسور بالوعد.

بخلت ملوماً يلومك النـاس ويذمونك، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه[1] فتكون كالحسير، وهو الدابة التي قـد عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير. وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ أي كليل عن أن يرى عيباً، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت، أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانة وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع »[2]. وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر قالت، قال رسول الله ﷺ: « أنفقي هكذا وهكذا وهكذا، ولا توعي فيوعي الله عليك، ولا توكي فيوكي الله عليك »، وفي لفظ: « ولا تحصي فيحصي الله عليك ». وفي صحيح مسلم، قال رسول رسول الله ﷺ: « إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك ». وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً »، وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: « ما نقص مالٌ من صدقة، وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله ». وفي حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً: « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا »[3]. وروى البيهقي عن الأعمش، عن أبيه قال، قال رسول ﷺ: « ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحي سبعين شيطـاناً ». وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: « ما عال من اقتصد »، وقوله: ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القـابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء ويفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر. كما جاء في الحديث: « إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ». وقد يكون الغنى في حق بعض النـاس استدراجاً، والفقر عقوبة عياذاً بالله من هذا وهذا.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربمـا قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أي خوف أن تفتقروا في ثاني الحال، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾. وفي الأنعام: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾: أي من فقر ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾، وقوله: ﴿ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾: أي ذنباً عظيماً، وفي الصحيحين عن عبد الله

(١) فسر ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج الآية بأن المراد هنا البخل والسرف.

(٢) هذا لفظ البخاري في الزكاة.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود والحاكم عن ابن عمرو.

ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك».

وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا، وعن مقاربته، ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة﴾ أي ذنباً عظيماً، ﴿وساء سبيلاً﴾ أي وبئس طريقاً ومسلكاً، روى الإمام أحمد، عن أبي أمامة، أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه. فقال: «ادنه»، فدنا منه قريباً، فقال: «اجلس» فجلس، فقال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه»، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1]. وعن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له»[2].

وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفي السنن: «لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم». وقوله: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾: أي سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه، إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقوله: ﴿فلا يسرف في القتل﴾ أي فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل بـه أو يقتص من غير القاتل، وقوله: ﴿إنه كان منصوراً﴾: أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وقدراً.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند. (٢) أخرجه ابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً.

يقول تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة، ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾. وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم». وقوله: ﴿وأوفوا بالعهد﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه، ﴿إن العهد كان مسئولاً﴾ أي عنه. وقوله: ﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم﴾ أي من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ﴿وزنوا بالقسطاس﴾ وهو الميزان، قال مجاهد هو العدل بالرومية، وقوله: ﴿المستقيم﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا اضطراب: ﴿ذلك خير﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وأحسن تأويلاً﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم، قال قتادة: أي خير ثواباً وأحسن عاقبة، وكان ابن عباس يقول: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال. وهذا الميزان.

۞ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

قال ابن عباس: لا تقل، وقال العوفي: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، وقال قتادة: لا تقل رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله، ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾. وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وفي سنن أبي داود: «بئس مطية الرجل زعموا». وفي الحديث الآخر: «إن أفرى الفرى أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا». وفي الصحيح: «من تحلم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل». وقوله: ﴿كل أولئك﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كان عنه مسئولاً﴾ أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتسأل عنه.

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي متبختراً متمايلاً مشي الجبارين، ﴿إنك لن تخرق الأرض﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك، ﴿ولن تبلغ الجبال طولاً﴾: أي بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير»، ورأى البختري العابد رجلاً من آل (علي) يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: يا هذا! إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته، قال: فتركها الرجل بعد. ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً، وقال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتي المطيطاء

وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض »(١). وقوله: ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾، أي كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى هنا، (فسيئه) أي فقبيحه مكروه عند الله.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

يقول تعالى هذا الذي أمرناك بـه من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس، ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً﴾ أي تلومك نفسك، ويلومك الله والخلق ﴿ مدحوراً﴾: أي مبعداً من كل خير، قال ابن عباس وقتادة: مطروداً، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل من المقامات الثلاث خطأً عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ أي خصصكم بالذكور ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ أي في زعمكم أن لله ولداً ثم جعلكم ولده الإناث التي تأنفون أن يكن لكم وربما قتلتموهن بالوأد، فتلك إذاً قسمة ضيزى، وقال تعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ۞ لقد جئتم شيئاً إداً ۞ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ۞ أن دعوا للرحمن ولداً ۞ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ۞ إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ۞ لقد أحصاهم وعدهم عداً ۞ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى: ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾: أي صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ؛ فينزجرون عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿ وما يزيدهم﴾ أي الظالمين منهم ﴿ إلا نفوراً﴾ أي عن الحق وبعداً عنه.

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا عن سعيد عن محسن.

زلفاً: لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحـده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها، فقال: ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿ علواً كبيراً﴾: أي تعالياً كبيراً، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى تقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

ففي كل شيء له آية   تدل على أنه واحـد

كما قال تعالى: ﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ۔ أن دعوا للرحمن ولداً﴾. وقوله: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي لا تفهمون تسبيحهم لأنها بخلاف لغـاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم[1]. وقال الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله منه». وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتـل الضفدع، وقال: نقيقها تسبيح. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً عليه السلام قال لابنه: يا بني آمرك أن تقول سبحان الله فإنها صلاة الخلق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق»، قال الله تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾[2]. وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح. وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه.

وقال آخرون: إنما يسبح من كان فيه روح من حيوان ونبات، قال قتادة في قوله ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ قال: كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه، وقال الحسن والضحّاك: كل شيء فيه الروح. وقد يستأنس

(١) قال ابن كثير: وهو حديث مشهور في المسانيد.

(٢) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: في إسناده ضعف.

لهذا القول بحديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة ثم قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»[1]، قال بعض من تكلم عن هذا الحديث من العلماء، إنما قال ما لم ييبسا: لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم. وقوله: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ أي إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة﴾ الآية. وقال: ﴿وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة﴾: الآيتين، ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله﴾ الآية. وقال ههنا: ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ إلى أن قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس﴾ إلى آخر السورة.

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن[2]: جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً، قال قتادة وابن زيد: هو الأكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾: أي مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شيء وقوله: ﴿حجاباً مستوراً﴾ بمعنى ساتر، وقيل مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى. عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها قالت: لما نزلت ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ جاءت العوراء أم جميل، ولها ولولة وفي يدها فهر، وهي تقول: مذمماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآناً اعتصم به منها: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾، قال، فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبي ﷺ، فقالت يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك هجاني، فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت، ما هجاك، قال فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أني بنت سيدها[3]. وقوله: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾

(١) أخرجه الشيخان عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) أخرج ابن المنذر عن ابن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن على مشركي قريش ودعاهم إلى الكتاب قالوا – يهزؤن به –: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وإذا قرأت القرآن﴾ الآية.

(٣) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أسماء بنت أبي بكر.

وهي جمع كنان: الذي يغشى القلب ﴿أن يفقهوه﴾: أي لئلا يفهموا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون بـه. وقوله تعالى: ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده﴾ إي إذا وحدت الله في تلاوتك وقلت: لا إلّه إلا الله ﴿ولوا﴾ أي أدبروا راجعين ﴿على أدبارهم نفوراً﴾، كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ الآية، قال قتادة: إن المسلمين لما قالوا: لا إلّه إلا الله، أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم فضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها.

* ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى بـه رؤساء كفار قريش، حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم بما قالوا: من أنه رجل مسحور له رئي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ولهذا قال تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً، قال محمد بن إسحاق في السيرة: إن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخـذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقـال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخـذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت بـه، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحـن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أئذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي تراباً، ﴿أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي يوم القيامة بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة * أئذا كنا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذاً كرة خاسرة﴾، وقوله تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ الآية، فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم، فقال: ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات، ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت، وعن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية لو كنتم موتى لأحييتكم[1]، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده. وقال مجاهد ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾: يعني السماء والأرض والجبال، وفي رواية: ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم، وقوله تعالى ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾: أي من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾. قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاءً، والإنغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، يقال نغضت سنه: إذا تحركت وارتفعت من منبتها. وقال الراجز ونغضت من هرم أسنانها

وقوله: ﴿ويقولون متى هو﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك كما قال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾، وقال تعالى: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾، وقوله: ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي احذروا ذلك فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت قريب، وقوله تعالى: ﴿يوم يدعوكم﴾ أي الرب تبارك وتعالى، ﴿إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾: أي إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كُنْ فيكون﴾، وقوله ﴿فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة﴾: أي إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾: أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته، قال ابن عباس ﴿فتستجيبون بحمده﴾: أي بأمره، وقال قتادة: بمعرفته وطاعته، وقال بعضهم ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾: أي وله الحمد في كل حال، وقد جاء في الحديث: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، كأني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون لا إله إلا الله». وفي رواية يقولون: «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن»[2]، وقوله تعالى ﴿وتظنون﴾: أي يوم تقومون من قبوركم، ﴿إن لبثتم﴾ أي في الدار الدنيا، ﴿إلا قليلاً﴾ كقوله تعالى:

(١) وكذلك قال سعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحّاك وغيرهم.
(٢) الرواية الثانية: أخرجها الطبراني عن ابن عمر.

﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾. وقال تعالى: ﴿ نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾، وقال تعالى: ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ .

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

يأمر تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدوّ لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان ينزغ في يده فربما أصابه بها، ففي الحديث: « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار »[1]. وفي الحديث: « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، التقوى ههنا »، قال حماد: وقال بيده إلى صدره: « وما تواد رجلان في الله ففرق بينهما إلا حدثٌ يحدثه أحدهما، والمحدث شر، والمحدث شر، والمحدث شر »[2]

۞ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى: ﴿ ربكم أعلم بكم﴾ أيها الناس، أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق، ﴿إن يشأ يرحمكم﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه، ﴿أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك يا محمد عليهم وكيلاً﴾ أي إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿وربك أعلم بمن في السماوات والأرض﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية، ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾، كما قال تعالى: ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾، وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « لا تفضلوا بين الأنبياء »، فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم﴾ . وفي الشورى في قوله: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾، ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام على المشهور،وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع والله الموفق. وقوله تعالى: ﴿ وآتينا داود زبوراً﴾ تنبيه على فضله وشرفه، عن النبي ﷺ قال: « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فكان يقرؤه قبل أن يفرغ »[3] يعني القرآن .

(١) رواه أحمد وأخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً .

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

يقول تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿ لا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي بالكلية، ﴿ ولا تحويلاً ﴾ أي بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر، قال ابن عباس: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة، والمسيح وعزيراً، وروى البخاري عن عبدالله بن مسعود في قوله ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ قال ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا، وفي رواية قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم. وقال قتادة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ الآية قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفي رواية عن ابن مسعود : كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن فذكره، وقال ابن عباس: هم عيسى وعزير والشمس والقمر، وقال مجاهد: عيسى والعزير والملائكة، واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله: ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة، وقال: والوسيلة هي القربة، كما قال قتادة، ولهذا قال: ﴿ أيهم أقرب ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات، وقوله تعالى: ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله عياذاً بالله منه.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

هذا إخبار من الله عزّ وجلّ بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿ عذاباً شديداً ﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾، وقال: ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾ الآيات.

۞ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا، كما هلكت من كان

قبلهم من الأمم. قال: «لا، بل استأن بهم»، وأنزل الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾[1] الآية. وعن ابن عباس قال، قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمن بك، قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم، قال، فدعا فأتاه جبريل، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: «بل باب التوبة والرحمة».

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس: «يا آل عبد مناف إني نذير» فجاءته قريش فحذرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبي يوحى إليك وإن سليمان سخر له الريح والجبال، وإن موسى سخر له البحر، وإن عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنتخذ محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا لنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم. قال، فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي فلما سري عنه قال: «والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فلا يؤمن منكم أحد. فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين»، ونزلت: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾، وقرأ ثلاث آيات، ولهذا قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات﴾ أي نبعث الآيات ونأتي بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال تعالى في المائدة: ﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾، وقال تعالى عن ثمود حين سألوا الناقة: ﴿قال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾: أي دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله ﴿فظلموا بها﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون، ويذكرون ويرجعون،[2] ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقال:

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي عن ابن عباس.

(٢) أخرج أبو يعلى عن أم هانئ: أنه ﷺ، لما أسري به أصبح يحدث نفراً من قريش يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر، فأنزل الله: ﴿وما جعلنا الرؤيا﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن الحسن نحوه. وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي: أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً مهموماً، فقيل له: ما لك يا رسول الله؟ لا تهتم فإن رؤياك فتنة لهم فأنزل الله: ﴿وجعلنا﴾ الآية. وأخرج ابن جرير من حديث سهل بن سعد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عمرو بن العاص، ومن حديث يعلى بن قرة، ومن مرسل سعيد بن المسيب نحوها. قال السيوطي: وأسانيدها ضعيفة.

يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات، فقال عمر أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن، وفي الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عزّ وجلّ يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره – ثم قال – يا أمة محمد والله ما أحد أغيرَ من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته. قال مجاهد والحسن وقتادة في قوله: ﴿إن ربك أحاط بالناس﴾ أي عصمك منهم. قال البخاري، عن ابن عباس ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ شجرة الزقوم.[1] ﴿إلا فتنة﴾: أي اختباراً وامتحاناً، وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم[2]، لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك، حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا[3]، وكل من قال إنها ليلة الإسراء فسره كذلك بشجرة الزقوم، واختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي في الرؤيا والشجرة، وقوله ﴿ونخوفهم﴾: أي الكفار، بالوعيد والعذاب والنكال، ﴿فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾: أي تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم وذريته وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له، افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قال أأسجد لمن خلقت طيناً﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، وقال أيضاً: أرأيتك، يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ﴾ الآية، قال

(١) أخرجه البخاري والإمام أحمد.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: لما ذكر الله هذا الزقوم، خوف به هذا الحي من قريش، قال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي خوفكم به محمد؟ قالوا: لا. قال: الثريد بالزبد، أما لئن أمكننا منها لنزقمنها زقماً، فأنزل الله تعالى: ﴿والشجرة الملعونة﴾ الآية، وأنزل: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾.

(٣) روي ذلك عن ابن عباس ومسروق والحسن البصري وغير واحد.

ابن عباس ﴿لأحتنكن﴾ يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً. وقال مجاهد: لأحتوين، وقال ابن زيد: لأضلنهم، وكلها متقاربة، والمعنى أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته عليّ، لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم.

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له ﴿اذهب﴾ فقد أنظرتك، كما قال في الآية الأخرى ﴿فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾، ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ أي على أعمالكم ﴿جزاء موفوراً﴾ قال مجاهد: وافراً، وقال قتادة: موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه، وقوله تعالى: ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أي استخفهم بذلك، وقال ابن عباس في قوله ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك﴾ قال: كل داع دعا إلى معصية الله عزّ وجلّ، واختاره ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم، فإن الرجل جمع راجل، كما أن الركب جمع راكب، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه، وهذا أمر قدري، كقوله تعالى: ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾ أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً وتسوقهم إليها سوقاً. وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه، تقول العرب: أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه، ومنه نهى في المسابقة عن الجلب والجنب، ومنه اشتقاق الجلبة، وهي ارتفاع الأصوات، وقوله تعالى: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى، وقال عطاء: هو الربا، وقال الحسن: هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام، والآية تعم ذلك كله، وقوله: ﴿والأولاد﴾ يعني أولاد الزنا[1]، وقال ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم، وقال الحسن البصري: قد والله شاركهم في الأموال والأولاد، مجّسوا وهوّدوا ونصّروا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وجزأوا من أموالهم جزءاً للشيطان، وقال أبو صالح عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه لأن الله لم يخصص بقوله: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ معنى الشركة فيه، بمعنى دون معنى، فكل ما عصي الله فيه أو به، أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة،

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والضحّاك.

وهذا الذي قاله متجه. وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً»، وقوله تعالى: ﴿وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول، إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال تعالى: ﴿وكفى بربك وكيلاً﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً. وفي الحديث: «إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر»[1] ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره.

* رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده، لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم، ولهذا قال: ﴿إنه كان بكم رحيماً﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم.

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً فركب في البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه، والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه، وقوله تعالى: ﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾ أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾ أي سجيته هذا، ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله.

* أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى أفحسبتم بخروجكم إلى البر، أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر، أو يرسل عليكم حاصباً، وهو المطر الذي فيه حجارة[2]، كما قال تعالى: ﴿إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾، وقال: ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من طين﴾، وقوله: ﴿ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾ أي ناصراً يرد ذلك عنكم وينقذكم منه.

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) قاله مجاهد وغير واحد من السلف.

* ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

يقول تبارك وتعالى: أم أمنتم أيها المعرضون عنا، بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر، أن يعيدكم في البحر مرة ثانية، ﴿فيرسل عليكم قاصفاً من الريح﴾ أي يقصف الصواري ويغرق المراكب، قال ابن عباس وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها، وقوله ﴿فيغرقكم بما كفرتم﴾: أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى، وقوله: ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا بـه تبيعاً﴾، قال ابن عباس: نصيراً، وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أي يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

* ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقـه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي يمشي قائمـاً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقـه بذلك كله وينتفع بـه، ويفرق بين الأشياء وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية، ﴿وحملناهم في البر﴾ أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار، ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها ممـا يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي، ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة. عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا! أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبّح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان»[1]

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط﴾ الآية، وقـال بعض

---

(١) رواه الحافظ الطبراني وأخرجه عبد الرزاق عن زيد بن مسلم موقوفاً وابن عساكر عن أنس بن مالك مرفوعاً.

السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث، لأن إمامهم النبي ﷺ، وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم واختاره ابن جرير، وروي عن مجاهد أنه قال: بكتبهم، فيحتمل أن يكون أراد ما روي عن ابن عباس في قوله ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ أي بكتاب أعمالهم[1] ، وهذا القول هو الأرجح، لقوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾، وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ الآية، ويحتمل أن المراد ﴿بإمامهم﴾ أي كل قوم بمن يأتمون به، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم، كما قال: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾. وفي الصحيحين: «لِتَتَّبِعْ كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث، وقال تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾. وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بدّ أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها، كقوله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾، ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته، كقوله: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ الآيات، وقوله تعالى: ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ الفتيل: هو الخيط المستطيل في شق النواة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾، قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم أتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافرون فيسود وجهه ويمد له في جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا، اللهم لا تأتنا به، فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه، فيقول: أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا»[2] . وقوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿أعمى﴾ أي عن حجة الله وآياته وبيناته، ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ أي كذلك يكون ﴿وأضل سبيلاً﴾ أي وأضل منه كما كان في الدنيا، عياذاً بالله من ذلك.

وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجّار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

---

(١) وهو قول أبي العالية والحسن والضحّاك. (٢) أخرج الحافظ أبو بكر البزار.

وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قيل: نزلت في اليهود حين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر، وأرض الأنبياء، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث[1] . وقيل: نزلت في كفار قريش لما هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم، ولهذا قال تعالى: ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ الآية أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به، قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ الآية .

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ قيل: لغروبها[2] ، وقال ابن عباس: دلوكها زوالها[3] ، فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس، فمن قوله ﴿لدلوك الشمس إلى غسق الليل﴾ وهو ظلامه؛ أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله: ﴿وقرآن الفجر﴾ يعني صلاة الفجر؛ وقد ثبتت السنّة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً عن سلف وقرناً بعد قرن كما هو مقرر في مواضعه ولله الحمد، ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ قال: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر» . يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾[4] . وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»[5]

---

(١) أخرجه البيهقي عن عبدالله بن غنم ، قال ابن كثير : وفي إسناده نظر ، لأن النبي ﷺ غزا تبوك عن أمر الله لا عن أمر اليهود .

(٢) قاله ابن مسعود ومجاهد وابن زيد .

(٣) رواه نافع عن ابن عمر ، وبه قال الحسن والضحاك وقتادة وهو الأظهر

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه . (٥) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون »[1]. وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء. وقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد بــه نافلة لك﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: « صلاة الليل »[2]، ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد نوم[3]، وهو المعروف في لغة العرب، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنــه كان يتهجد بعد نومه، وقال الحسن البصري: هو ما كان بعد العشاء، ويحمل على ما كان بعد النوم، واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿نافلة لك﴾، فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحــدك، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة، رواه العوفي عن ابن عباس واختاره ابن جرير، وقيل: إنمـا جعل قيــام الليل في حقه نافلة على الخصوص، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وغيره من أمته إنما يكفر عن صلواته النوافل الذنوب التي عليه

وقوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك فيه الخلائق كلهم، وخالقهم تبارك وتعالى، قال ابن جرير: قال أكثر أهل التــأويل، ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم، عن حذيفــة قال: يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، حفاة عراة كما خلقوا، قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه، ينادى: يا محمد « فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بــين يديك ومنك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعــاليت سبحانك رب البيت ». فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجلّ، وقال ابن عباس: المقام المحمود مقام الشفاعة، وكذا قال مجاهد والحسن البصري، وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود. **قلت:** لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: لست لهـا، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: « أنا لها، أنا لها »، كما سنذكر ذلك مفصلاً في هذا الموضع إن شاء الله تعالى، ومن ذلك، أنه يشفع في أقوام قــد أمر بهم إلى النار فيردون عنها، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وهو أول شفيع في الجنة، وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعــة للعصاة

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم. (٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

(٣) قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعي وغير واحد.

شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك. ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان.

روى البخاري، عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً. وفي رواية: «إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست بصاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقه باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم. وعن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»(١) وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر»(٢)

حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك، فيقولون: لو شفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذي أصاب، فيستحيي ربه عزّ وجلّ من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتوه، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة، فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا عيسى، عبدالله وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني - قال الحسن هذا الحرف - فأقوم فأمشي بين سماطين من المؤمنين، قال أنس: حتى استأذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما يشاء الله أن يدعني، قال، ثم يقال: ارفع محمد، قل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه؛ فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، قال: ثم أعود الثالثة، فإذا رأيت ربي وقعت - أو خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطيه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فقال: يا رب ما بقي إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله

(١) أخرجه البخاري عن جابر بن عبدالله.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي بن كعب.

إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة »[١]

(الثاني) حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: عن كعب بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي عزّ وجلّ حلة خضراء، ثم يؤذن لي، فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود »[٢]

(الثالث) حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: عن أبي الدرداء، قال، قال رسول الله ﷺ: « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك»، فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: « هم غر محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم »[٣]

(الرابع) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: « أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممَّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله قط، وإنه قد كان لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم؛ فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى؛ فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها،

---

(١) أخرجاه في الصحيحين ورواه أحمد واللفظ له.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن كعب بن مالك.

(٣) أخرجه أحمد أيضاً عن أبي الدرداء.

نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى؛ فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبياً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ؛ فيأتون محمداً ﷺ، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عزّ وجلّ، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب؟ فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»[1]

وفي صحيح مسلم رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة، وأول شافع وأول مشفع». وعن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه». وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مدّ الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه — قال النبي ﷺ — فأكون أول من يدعى وجبريل عن يمين الرحمن تبارك وتعالى — والله ما رآه قبلها — فأقول: أي رب إن هذا أخبرني أنك أرسلته إليّ، فيقول الله عزَّ وجلَّ صدق، ثم أشفع فأقول يا رب عبادك عبدوك في أطراف الأرض، قال فهو المقام المحمود»[2]

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾، وقال الحسن البصري: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ الآية. وقال قتادة: ﴿أدخلني مدخل صدق﴾ يعني المدينة ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ يعني مكة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد، وهذا القول هو أشهر الأقوال، وهو اختيار ابن جرير، وقوله: ﴿واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً﴾ قال الحسن البصري: وعده ربه لينتزعن ملك فارس وعز فارس، وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له. وقال قتادة: إن نبي

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وهو حديث مرسل.

الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله، جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم، قال مجاهد: ﴿سلطاناً نصيراً﴾ حجة بينة، واختار ابن جرير الأول، لأنه لا بدّ مع الحق من قهر، لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات - إلى قوله - وأنزلنا الحديد﴾ الآية. وفي الحديث: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع، وقوله: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ تهديد ووعيد لكفّار قريش. فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم بـه، وهو ما بعثه الله بـه من القرآن والإيمان، والعلم النافع وزهق باطلهم: أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾. عن عبدالله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»(١). وقال الحافظ أبو يعلى، عن جابر رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنماً تُعبد من دون الله، فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها، وقال: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

* ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين، أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة، يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه، واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك؛ فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾. وقال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾، قال قتادة: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾: أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

* ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته، ونأى بجانبه. قال مجاهد:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

بَعُد عنا، وهذا كقوله تعالى: ﴿فلما نجاكم إلى البر أعرضتم﴾، وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب والحوادث والنوائب ﴿كان يئوساً﴾ أي قنط أن يعود، يحصل له بعد ذلك خير، كقوله تعالى: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ۞ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته، ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾، وقوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ قال ابن عباس: على ناحيته، وقال مجاهد: على حدته وطبيعته، وقال قتادة: على نيته، وقال ابن زيد: على دينه، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، وهذه الآية – والله أعلم – تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم﴾ الآية. ولهذا قال: ﴿قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي منا ومنكم، وسيجزي كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

۞ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

عن عبدالله هو ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة وهو متوكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قال، فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه[1]. وهذا السياق يقتضي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية ﴿ويسألونك عن الروح﴾، ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة، ما قال الإمام أحمد، عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا سلوه عن الروح، فسألوه فنزلت: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيرا، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، قال، وأنزل الله: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر﴾ الآية. وقد روى ابن جرير عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح، فأنزل الله ﴿ويسألونك عن الروح﴾ الآية، فقالوا: تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾. قال: فنزلت: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ الآية.

وقال محمد بن إسحاق، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود، وقالوا: يا محمد! ألم يبلغنا عنك أنك تقول ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك؟ فقال: «كلاً قد عنيت»، فقالوا: إنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل وقد أتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم». وأنزل الله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾،

(١) أخرجه البخاري ورواه أحمد واللفظ له عن عبدالله بن مسعود.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال : (أحدها) أن المراد أرواح بني آدم ، عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد ؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فأتاه جبريل فقال له: ﴿قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾. فأخبرهم النبي ﷺ بذلك. فقالوا: من جاءك بهذا ؟ قال: «جاءني بـه جبريل من عند الله»، فقالوا له: والله ما قاله لك إلا عدونا، فأنزل الله : ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه﴾، وقيل: المراد بالروح ههنا جبريل، قاله قتادة، وقيل : المراد به ههنا ، ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها .

وقوله تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾: أي من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحـد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى، والمعنى أن علمكم في علم الله قليل، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر بـه تعالى ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى. وسيأتي إن شاء الله في قصـة موسى والخضر، أن الخضر قال: يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخـذ هذا العصفور من هذا البحر، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ . وقال السهيلي، قال بعض الناس: لم يجبهم عما سألوا لأنهم سألوا على وجه التعنت، وقيل أجابهم، ثم ذكر السهيلي: الخلاف بـين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها، وقرر: أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر، وحاصل القول: إن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي هي من وجه ، لا من كل وجه، وهذا معنى حسن، والله أعلم .

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ثم نبه تعالى على شرف هـذا القرآن العظيم فأخبر أنـه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لمـا أطاقوا ذلك ولمـا استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال ولا عديل ؟ وقوله: ﴿ولقد صرفنا للنـاس﴾ الآية، أي بينا لهم الحجج، والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي جحوداً للحق، ورداً للصواب .

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ

بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

قال ابن جرير عن ابن عباس : إن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، وأبا البختري، والوليد ابن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب بـه مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي – فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال رسول الله ﷺ : « ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم بـه أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونـذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم بـه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ». فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحـد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنـا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسيّر عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنـا بلادنا، وليفجّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنـا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا، منهم (قصي بن كلاب) فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنـه بعثك رسولاً، كما تقول، فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني بـه، فقد بلغتكم ما أرسلت بـه إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » . قالوا: فإن لم تفعل لنـا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسـواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم ! فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم بـه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » . قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك »، فقالوا: يا محمد ! أما علم ربك أنا سنجلس معك،

ونسألك عمـا سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا .

فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً، لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم إياه[1] . ولو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقيل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا، فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: « بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة » .

وقوله تعالى: ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾. وقوله تعالى: ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهي وتدلي أطرافها فعجلْ ذلك في الدنيا، وأسقطها كسفاً، أي قطعاً، كذلك سأل قوم شعيب فقالوا: ﴿ أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾، فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم، وأما نبي الرحمة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً، وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى (عبدالله بن أبي أمية) الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأناب إلى الله عزّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾. قال ابن عباس ومجاهد: هو الذهب، أي يكون لك بيت من ذهب، ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ أي تصعد في سلم، ونحن ننظر إليك، ﴿ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾، قال مجاهد: أي مكتوب فيه، إلى كل واحد واحد صحيفة، هذا كتاب من الله لفلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه، وقوله تعالى: ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ أي سبحانه وتعالى وتقدس، أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وأمركم فيما سألتم إلى الله عزّ وجلّ، وعن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: « عرض علي ربي عزّ وجلّ ليجعل لي بطحاء مكة

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ذهباً، فقلت: لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً – أو نحو ذلك – فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك »(١)

* وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

يقول تعالى: ﴿وما منع الناس﴾ أي أكثرهم، ﴿أن يؤمنوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾؟ وقال تعالى: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا﴾ الآية. وقال فرعون وملؤه: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾؟ وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾، والآيات في هذا كثيرة، ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾ أي كما أنتم فيها ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ أي من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة.

* قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يقول تعالى مرشداً نبيّه ﷺ إلى الحجة على قومه، في صدق ما جاءهم به إنه شاهد علي وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾. وقوله ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾: أي عليماً بهم، بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاغة، ولهذا قال:

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، أي يهدونهم، كما قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾، وقوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾، عن أنس بن مالك: قيل يا رسول الله كيف يحشر

(١) رواه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن.

الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»[1]. وعن حذيفة بن أسيد، قال، قام أبو ذر فقال: يا بني غفار قولوا ولا تحلفوا فإن الصادق المصدوق حدثني: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج، فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار[2]. وقوله ﴿عمياً﴾ أي لا يبصرون ﴿وبكما﴾ يعني لا ينطقون ﴿وصماً﴾ لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا، بكما وعمياً وصماً عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه، ﴿مأواهم﴾ أي منقلبهم ومصيرهم ﴿جهنم كلما خبت﴾ قال ابن عباس: سكنت، وقال مجاهد: طفئت ﴿زدناهم سعيراً﴾ أي لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾.

ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

يقول تعالى هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه، لأنهم كذبوا ﴿بآياتنا﴾ أي بأدلتنا وحجتنا، واستبعدوا وقوع البعث، ﴿وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾، أي بالية نخرة ﴿أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه، من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض، نعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السماوات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقال: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض، ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى﴾ الآية، وقال: ﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾، وقال ههنا: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، كما بدأهم، وقوله: ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾، وقوله: ﴿فأبى الظالمون﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿إلا كفوراً﴾: إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

۞ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، قل لهم يا محمد: لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس: أي الفقر، أي خشية أن تُذْهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً،

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ قال ابن عباس وقتادة. أي بخيلاً منوعاً، وقال الله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين﴾ ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه. وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه؟».

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه، فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهي «العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم» آيات مفصلات، قاله ابن عباس، وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا والخمس في الأعراف والطمس والحجر، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد: (هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم)، وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصري: السنين ونقص الثمرات واحدة؛ وعنده أن التاسعة هي تلقف العصا ما يأفكون، ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً وما نجعت فيهم؛ فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى – وقد شاهد منه ما شاهد من هذه **الآيات** – ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأئمة هي المرادة ههنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف – إلى قوله في تسع آيات – إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾، فذكر هاتين الآيتين العصا واليد، وبيّن الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصّلها، وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة: منها ضربه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتيه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم، فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً.

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ أي حججاً وأدلة

على صدق ما جئتك به، ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ أي هالكاً، قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس: ملعوناً، وقال الضحاك ﴿مثبوراً﴾: أي مغلوباً[١]، والهالك كما قال مجاهد، يشمل هذا كله. ويدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا واليد والسنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله، وقوله: ﴿فأراد أن يستفزهم من الأرض﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض﴾، وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية، نزلت قبل الهجرة وكذلك وقع فإن أهل مكة همّوا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى: ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ الآيتين، ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة وقهر أهلها ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: كذلك وأورثناها بني إسرائيل، وقال ههنا: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾ أي جميعكم أنتم وعدوكم، قال ابن عباس: ﴿لفيفاً﴾ أي جميعاً[٢]

* وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد، إنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون﴾ أي متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه، وقوله ﴿وبالحق نزل﴾ أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً، لم يشب بغيره ولا زيد فيه، ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى، وقوله: ﴿وما أرسلناك﴾ أي يا محمد ﴿إلا مبشراً ونذيراً﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين، وقوله: ﴿وقرآناً فرقناه﴾ بالتخفيف، ومعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً منجماً في ثلاث وعشرين سنة، قاله ابن عباس، وعن ابن عباس ﴿فرّقناه﴾ بالتشديد أي أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً، ولهذا قال ﴿لتقرؤه على الناس﴾ أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿على مكث﴾ أي مهل ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ شيئاً بعد شيء.

قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾

(١) وهو قول لابن عباس أيضاً.

(٢) وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك.

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ ﴿ قل﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أي سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه أنزله الله، ونوّه بذكره في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾ أي من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿ إذا يتلى عليهم﴾ هذا القرآن ﴿ يخرون للأذقان﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿ سجداً﴾ أي لله عزّ وجلّ، شكراً على ما أنعم به عليهم، ولهذا يقولون ﴿ سبحان ربنا﴾ أي تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد، ولهذا قالوا: ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾، وقوله: ﴿ ويخرون للأذقان يبكون﴾ أي خضوعاً لله عزّ وجلّ، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿ ويزيدهم خشوعاً﴾ أي إيماناً وتسليماً، كما قال: ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ .

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

يقول تعالى: ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عزّ وجلّ، المانعين من تسميته بالرحمن، ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم ﴿ الله﴾ أو باسم ﴿ الرحمن﴾ فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿ له الأسماء الحسنى، يسبّح له ما في السموات والأرض﴾ الآية. وقد روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: «يا رحمن يا رحيم»، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية، وكذا روي عن ابن عباس رواهما ابن جرير(١)، وقوله﴿ ولا تجهر بصلاتك﴾، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار بمكة، ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾: قال كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال، فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ ولا تجهر بصلاتك﴾: أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن، ﴿ ولا تخافت بها﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾(٢). وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي، استرق

(١) أخرج البخاري عن ابن عباس قال: نزلت ورسول الله مختف بمكة، وكان إذا صلّى بأصحابه ورفع صوته بالقرآن، فكان المشركون إذا سمعوا القرآن سبوه ومن أنزله ومن جاء به فنزلت. وأخرج البخاري أيضاً عن عائشة: أنها نزلت في الدعاء، وأخرج ابن جرير مثله، ثم رجح الأول لأنها أصح سنداً، وكذا رجحها النووي وغيره، وقال الحافظ ابن حجر: لكن يحتمل الجمع بينهما بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة. وأخرج ابن جرير والحاكم عن عائشة: أنها نزلت في التشهد، وهي مبينة لمرادها في الرواية السابقة.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس

السمع منهم دونهم فرقاً منهم، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع، فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ فيتفرقوا عنك ﴿ولا تخافت بها﴾ أي فلا يسمع من أراد أن يسمع فينتفع به، ﴿وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾.

قال ابن جرير، عن محمد بن سيرين، قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي عزّ وجلّ وقد علم حاجتي، فقيل: أحسنت، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، قيل: أحسنت، فلما نزلت: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء، وقوله: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص، فقال: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي، أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له، قال مجاهد في قوله: ﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾: لم يحالف أحداً، ولم يبتغ نصر أحد، ﴿وكبره تكبيراً﴾ أي عظمه وأجلّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

[آخر تفسير سورة الإسراء، ولله الحمد والمنة]

* * *

[بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم][(١)]

تفسير سورة الإسراء[(٢)]

وهى مكية

قال الإمام [الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل][(٣)] البخارى: حدّثنا آدم بن أبى إياس، حدّثنا شعبة، عن أبى إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد، سمعت ابن مسعود، رضى اللّه عنه، قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادى[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن مروان، عن أبى لبابة، سمعت عائشة تقول: كان رسول اللّه ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: مايريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بنى إسرائيل» ،و«الزمر» [(٥)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾.

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ﴿الَّذى أَسْرَىٰ بعَبْده﴾ يعنى محمداً، صلوات الله وسلامه عليه[(٦)] ﴿ لَيْلاً﴾ أى فى جنح الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ وهو بيت المقدس الذى هو إيلياء[(٧)]، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هنالك كلهم، فَأَمّهم فى مَحِلّتهم[(٨)]، ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات اللّه وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله : ﴿ الَّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أى: فى الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أى: محمداً ﴿ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أى: العظام كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[النجم:١٨].

وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه، صلوات الله عليه وسلامه.

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت، ف، أ: « سورة سبحان». (٣) زيادة من ت، ف، أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٨).

(٥) المسند(٦/ ١٨٩) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم(١١٦٣) وقال: «إن كان أبو لبابة هذا يجوز الاحتجاج بخبره وفإنى لا أعرفه بعدالة ولا جرح». وقد وثقه ابن معين.

(٦) فى ف: « صلى الله عليه وسلم». (٧) فى ت، ف، أ :«بإيلياء». (٨) فى ت: « محلهم».

ومكذبهم ، البصير بهم فيعطى كلاً ما يستحقه فى الدنيا والآخرة .

ذكر الأحاديث الواردة فى الإسراء

رواية أنس بن مالك:

قال الإمام أبو عبد اللَّه البخارى: حدثنى عبد العزيز بن عبد اللَّه، حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شريك بن عبد اللَّه[١] قال: سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول اللَّه ﷺ من مسجد الكعبة: إنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو ؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عيناه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل مابين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم، بيده حتى أنقي جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشواً إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاديده - يعنى عروق حلقه - ثم أطبقه. ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء: من هذا ؟ فقال: جبريل. قالوا: ومن معك ؟ قال: معى محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً به، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد اللَّه به فى الأرض حتى يُعْلِمهم.

ووجد فى السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلَّم عليه، وردّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابنى، نعم[٢] الابن أنت، فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال: «ما هذان النهران ياجبريل؟» قال: هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به فى[٣] السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك أذْفر فقال: «ماهذا ياجبريل ؟» قال: هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك.

ثم عرج إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: مَنْ هذا ؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك ؟ قال: محمد . قالوا: وقد بعث إليه ؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً[٤] وأهلاً وسهلاً.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك. كل سماء فيها أنبياء قد سماهم، قد وعيت[٥] منهم إدريس فى الثانية وهارون فى الرابعة، وآخر فى الخامسة لم احفظ اسمه، وإبراهيم فى السادسة، وموسى فى السابعة بتفضيل كلام اللَّه. فقال موسى: «رب لم أظن أن يرفع علىّ أحد»[٦] ثم علا به فوق ذلك، بما لا يعلمه إلا اللَّه، عز وجل، حتى جاء سدْرَة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى اللَّه إليه فيما

(١) فى ف: «عبد الله يعنى بن أبى نمر أنه». (٢) فى ف: « فنعم». (٣) فى ت، ف: « إلى».
(٤) فى ف: «مرحبا به». (٥) فى أ: « عينهم». (٦) فى ت: « أنه علىَّ أحد».

يوحى: خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة. ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: «يامحمد، ماذا عهد إليك ربك؟» قال: «عهد إليّ خمسين صلاة كل يوم وليلة» قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم». فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار إليه جبريل: أن نعم، إن شئت. فعلا[١] به إلى الجبار تعالى، فقال وهو فى مكانه: «يارب، خفف عنا، فإن أمتى لا تستطيع هذا» فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات. ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: « يامحمد، واللّه لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك» كل ذلك يلتفت النبى ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يارب، إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم[٢] وأبدانهم فخفف عنا» فقال الجبار: يامحمد، قال: «لبيك وسعديك» قال: إنه لا يبدل القول لدىّ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب: «كل حسنة بعشر أمثالها، فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك»، فرجع إلى موسى فقال: «كيف فعلت؟» فقال: «خفف عنا، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها» قال موسى: « قد واللّه راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً». قال رسول اللّه ﷺ: «ياموسى قد ـ واللّه ـ استحييت من ربى مما أختلف إليه[٣]» قال: «فاهبط باسم اللّه»، فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام.

هكذا ساقه البخارى فى «كتاب التوحيد»[٤]، ورواه فى «صفة النبى ﷺ»، عن إسماعيل بن أبى أُوَيْس عن أخيه أبى بكر عبد الحميد، عن سليمان بن بلال[٥].

ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وَهْب، عن سليمان [٦] قال: « فزاد ونقص، وقدم وأخر»[٧].

وهو كما قاله[٨] مسلم، رحمه الله، فإن شريك بن عبد اللّه بن أبى نَمِر اضطرب فى هذا الحديث، وساء حفظه ولم يضبطه، كما سيأتى بيانه فى الأحاديث الأخر.

ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وقع بعد ذلك، واللّه أعلم.

[وقال][٩] البيهقي: فى[١٠] حديث «شريك» زيادة تفرد بها، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى ربه، يعنى قوله: « ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى » قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل ـ أصح[١١].

---

(١) فى ف: « ثم علا». (٢) فى ف، أ: «وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم». (٣) فى ف: «عليه».

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٥١٧).

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٥٧٠).

(٦) فى ف، أ: «سليمان به».

(٧) صحيح مسلم برقم (١٦٢).

(٨) فى أ: «قال». (٩) زيادة من ت. (١٠) فى ف، أ: «وفى».

(١١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٨٥).

وهذا الذى قاله البيهقي هو الحق فى هذه المسألة، فإن أبا ذر قال: يارسول اللّه، هل رأيت ربك ؟ قال: «نور أنى أراه » .وفى رواية «رأيت نورا». أخرجه مسلم، رحمه الله[(١)].

وقوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾[النجم:٨]، إنما هو جبريل، عليه السلام، كما ثبت ذلك فى الصحيحين، عن عائشة أمّ المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو فى صحيح مسلم عن أبى هريرة، رضى الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة فى تفسير هذه الآية بهذا [(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البُنانى، عن أنس بن مالك،رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط[(٣)] فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فأتانى[(٤)] جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. قال جبريل: أصبت الفطرة» قال: «ثم عرج بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل[(٥)] : ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ [قال: قد أرسل إليه][(٦)] .ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بى ودعوا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل:من أنت ؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال:جبريل. فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل :قد أرسل إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح الباب، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لى بخير. ثم قال: يقول اللّه :﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[مريم:٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال: جبريل. فقيل:[و][(٧)] من معك ؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال: جبريل. قيل[(٨)]: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. قيل[(٩)]: ومن

(١) صحيح مسلم برقم (١٧٨).
(٢) حديث عائشة: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٣٥) ومسلم فى صحيحه برقم(١٧٧) وحديث ابن مسعود: رواه البخارى فى صحيحه برقم(٤٨٥٦) ومسلم فى صحيحه برقم(١٧٤) وحديث أبى هريرة: رواه مسلم فى صحيحه برقم(١٧٥).
(٣) فى ت، ف، أ: «تربط». (٤) فى ف، أ: «فجاءنى». (٥) فى ت، ف، أ: «قيل».
(٦) زيادة من ت، ف، أ، هـ المسند. (٧) زيادة من ت، ف، أ. (٨) فى ف، أ:«فقيل».
(٩) فى ف: «فقيل».

معك ؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم[١]، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر اللّه ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق اللّه، تعالى، يستطيع أن يصفها من حسنها. قال: «فأوحى اللّه إلىّ ما أوحى، وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى». قال: «ما فرض ربك على أمّتك ؟[٢]» قال: «قلت: خمسين صلاة فى كل يوم وليلة». قال: ارجع[٣] إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمّتك لا تطيق ذلك، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم». قال[٤]: «فرجعت إلى ربى، فقلت: أى رب، خفف عن أمّتى، فحطّ عنى خمساً. فرجعت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ قلت[٥]: قد حطّ عنى خمساً». قال: «إن أمّتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك» قال: « فلم[٦] أزل أرجع بين ربى وبين موسى، ويحطّ عنى خمساً خمساً حتى قال: يامحمد، هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت [له][٧] حسنة، فإن عملها كتبت عشراً. ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك، فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك». فقال رسول اللّه ﷺ: «لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت».

ورواه مسلم عن شَيْبَان بن فَرُّوخ، عن حماد بن سلمة بهذا السياق[٨]، وهو أصح من سياق شَريك.

قال البيهقي: وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به، عليه الصلاة والسلام، من مكة إلى بيت المقدس[٩] . وهذا الذى قاله هو الحق الذى لاشك فيه ولا مرية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به مُسْرَجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فواللّه ما ركبك قط أكرم على اللّه منه . قال: فارفضَّ عرقاً.

ورواه الترمذى عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرزاق، وقال: غريب لانعرفه إلا من حديثه[١٠].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنى راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لما عرج بى ربى، عز وجل، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون

(١) فى ت: « بإبراهيم عليه وسلم» وفى ف: « بإبراهيم عليه السلام».
(٢) فى ت: «ما فرض عليك على أمتك». (٣) فى ت: « فارجع». (٤) فى أ: «ثم قال».
(٥) فى ف، أ: « فقلت». (٦) فى ف: « فقال لم». (٧) فى ف، أ: «كتبت له».
(٨) المسند(٣/ ١٤٨)، وصحيح مسلم برقم (١٦٢).
(٩) دلائل النبوة للبيهقى(٢/ ٣٨٥).
(١٠) المسند(٣/ ١٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٣١).

لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم».

وأخرجه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو، به[١]. ومن وجه آخر ليس فيه أنس[٢]، فاللَّه أعلم.

وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سليمان التَّيْمى، عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مررت ليلة أسرى بى على موسى، عليه السلام، قائماً يصلِّى فى قبره»[٣].

ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن سليمان بن طرخان التيمى وثابت البنانى، كلاهما عن أنس[٤].

قال النسائى: وهذا أصح من رواية من قال: سليمان عن ثابت، عن أنس.

وقال [الحافظ][٥] أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا وهب بن بقيَّة، حدثنا خالد، عن التيمى، عن أنس قال: أخبرنى بعض أصحاب النبى ﷺ: أن النبى ﷺ ليلة أسرى به مرّ على موسى وهو يصلى فى قبره[٦].

وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرة، حدثنا معتمر، عن أبيه قال: سمعت أنساً: أن النبى ﷺ ليلة أسرى به مرّ بموسى[٧] وهو يصلى فى قبره ـ قال أنس: ذكر أنه حمل على البراق ـ فأوثق الدابة ـ أو قال: الفرس ـ قال أبو بكر: صفها لى. فقال رسول اللَّه ﷺ، وذكر كلمة[٨] فقال: أشهد أنك رسول اللَّه، وكان أبو بكر، رضى الله عنه، قد رآها[٩].

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار فى مسنده: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبى عمران الجونى، عن أنس بن مالك، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «بينا أنا قاعد[١٠] إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوكز بين كتفى، فقمت إلى شجرة فيها كوكرى الطير، فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر فسمت[١١] وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفى، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إلى جبريل، عليه السلام، كأنه حِلْس[١٢] لاط، فعرفت فضل علمه باللَّه على، وفتح لى باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت، وأوحى إلىَّ ماشاء اللَّه أن يوحى» ثم قال: هذا الحديث لا نعلم رواه إلا أنس، ولا نعلم رواه عن أبى عمران الجونى إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة[١٣].

---

(١) المسند(٣/ ٢٢٤) وسنن أبى داود برقم (٤٨٧٨).
(٢) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٨).
(٣) المسند(٣/ ١٢٠).
(٤) صحيح مسلم برقم(٢٣٧٥).
(٥) زيادة من أ.
(٦) مسند أبى يعلى(٧/ ١١٧).
(٧) فى ف: «مر على موسى».
(٨) فى هـ: «هى كذه وذه» والتصويب من مسند البزار و«ت».
(٩) مسند أبى يعلى (٧/ ١٢٦).
(١٠) فى هـ: «نائم» والتصويب من مسند البزار.
(١١) فى أ: «فسميت».
(١٢) فى ت، أ: «جلس».
(١٣) مسند البزار برقم(٥٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم(٥٩) عن محمد بن على الصائغ عن سعيد بن منصور به. وقال الهيثمى فى المجمع(١/ ٧٥): «رجاله رجال الصحيح». وقال الحافظ ابن حجر فى زوائد البزار (١/ ٩٥): «الحارث أخرج له الشيخان، وهو مع ذاك له مناكير هذا منها».

ورواه الحافظ البيهقى فى «الدلائل» عن أبى بكر القاضى، عن أبى جعفر محمد بن على بن دُحَيْم، عن محمد بن الحسين بن أبى الحُنَيْن، عن سعيد بن منصور، فذكر بسنده مثله، ثم قال: وقال غيره فى هذا الحديث فى آخره: «ولُطّ دونى ـ أو قال: دون الحجاب ـ رفرف الدر والياقوت». ثم قال: هكذا[١] رواه الحارث بن عبيد. ورواه حماد[٢] بن سلمة، عن أبى عمران الجَوْنى، عن محمد ابن عمير بن عطارد: أن النبى ﷺ كان فى ملأ من أصحابه، فجاءه[٣] جبريل، فنكت فى ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وَكْرى الطير، فقعد فى أحدهما وقعد جبريل فى الآخر، فنشأت بنا حتى بلغت[٤] الأفق، فلو بسطت يدى إلى السماء لنلتها، فدلى بسبب وهبط النور، فوقع جبريل مغشياً عليه كأنه حلْس، فعرفت فضل خشيته على خشيتى. فأوحى إلى: نبياً ملكاً أو نبياً عبداً؟ وإلى الجنة ما أنت؟ فأومَأ[٥] إلى جبريل وهو مضطجع: أن تواضع. قال: قلت: لا. بل نبياً عبداً[٦].

قلت: وهذا إن صح يقتضى أنها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يذكر فيها بيت المقدس، ولا الصعود إلى السماء، فهى كائنة غير مانحن فيه، واللَّه أعلم.

وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، أن محمداً ﷺ رأى ربه، عز وجل، هذا غريب.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبداللَّه بن وهب، حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن الزهرى، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول اللَّه ﷺ بالبراق فكأنها أَمَرَّت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق، فواللَّه إن ركبك[٧] مثله. وسار رسول اللَّه ﷺ، فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد. قال: فسار ما شاء اللَّه أن يسير، فإذا شىء يدعوه متنحياً عن الطريق يقول: هلم يامحمد فقال له جبريل: سر يامحمد فسار ما شاء اللَّه أن يسير، قال: فلقيه خلق من الخلق فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يامحمد. فرد السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول رسول اللَّه ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت[٨] أمتك. ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء، عليهم السلام، فأمَّهم رسول اللَّه ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التى[٩] رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذى أراد أن تميل إليه، فذاك عدو اللَّه إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام.

وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى «دلائل النبوة» من حديث ابن وهب[١٠]، وفى بعض ألفاظه نكارة

---

(١) فى ت: «هذا». (٢) فى ت «ابن حماد» وهو خطأ. (٣) فى ف، أ: «فجاء».
(٤) فى ت: «بلغنا». (٥) فى أ: «فأوحى».
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٦٩).
(٧) فى ت، أ: «فو الله ما ركبك». (٨) فى ف: «وغويت». (٩) فى ت، أ: «الذى».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٥)، ودلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٦٢).

وغرابة.

طريق أخرى عن أنس بن مالك:

وفيها غرابة ونكارة جداً، وهى فى سنن النسائى المجتبى، ولم أرها فى الكبير قال: أخبرنا عمرو[١] بن هشام، حدثنا مَخْلَد ـ هو ابن الحسين ـ عن سعيد بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبى مالك، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: « أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل، خطوها عند منتهى طرفها، فركبت ومعى جبريل، عليه السلام، فسرت فقال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدرى أين صليت؟ [صليت بطيبة وإليها المهاجر، ثم قال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدرى أين صليت ؟][٢] صليت بطور سيناء، حيث كلم الله موسى، ثم قال: انزل فصل. فصليت ، فقال: أتدرى أين صليت. صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى، عليه السلام، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لى الأنبياء عليهم السلام، فقدمنى جبريل حتى أممتهم [ثم صعد بى إلى السماء الدنيا، فإذا فيها آدم، عليه السلام][٣]. ثم صعد بى إلى السماء الثانية، فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ويحيى، عليهما السلام. ثم صعد بى إلى السماء الثالثة، فإذا فيها يوسف عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء الرابعة، فإذا فيها هارون، عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء الخامسة، فإذا فيها إدريس عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء السادسة، فإذا فيها موسى، عليه السلام . ثم صعد بى إلى السماء السابعة، فإذا فيها إبراهيم عليه السلام ، ثم صعد بى فوق سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى، فغشيتنى ضبابة فخررت[٤] ساجداً فقيل لى: إنى يوم خلقت السموات والأرض، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك [فرجعت إلى إبراهيم فلم يسألنى عن شىء. ثم أتيت موسى فقال: كم فرض الله عليك وعلى؟][٥] قلت: خمسين صلاة. قال: فإنك لا تستطيع أن تقوم بها، لا أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف[٦]. فرجعت إلى ربى فخفف عنى عشراً. ثم أتيت موسى فأمرنى بالرجوع، فرجعت فخفف عنى عشراً، ثم ردت إلى خمس صلوات. قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه فرض على بنى إسرائيل صلاتين، فما قاموا بهما. فرجعت إلى ربى، عز وجل، فسألته التخفيف، فقال: إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعرفت أنها من اللَّه عز وجل[٧] صِرًّى، فرجعت إلى موسى، عليه السلام[٨] فقال: ارجع، فعرفت أنها من اللَّه صِرًّى - يقول: أى حتم - فلم أرجع»[٩] .

طريق أخرى:

وقال ابن أبى حاتم: حدثنى أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبى مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك، رضى اللَّه عنه، قال: لما كان ليلة أسرى برسول اللَّه ﷺ إلى بيت المقدس، أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، حمله جبريل عليها، ينتهى خفها حيث ينتهى

---

(١) فى ت: «عمر».
(٢، ٣) زيادة من ت، ف، أ، والنسائى.
(٤) فى ت: « خررت».
(٥) زيادة من ت، ف، أ، والنسائى.
(٦) فى ف: «تخفيفها».
(٧) فى ف،أ: «من الله تعالى» .
(٨) فى ت:« فرجعت إليه عليه السلام».
(٩) سنن النسائى (١/ ٢٢١).

طرفها . فلما بلغ بيت المقدس وبلغ[١] المكان الذى يقال له: «باب محمد ﷺ» أتى إلى الحجر الذى ثمة، فغمزه جبريل بأصبعه فثقبه، ثم ربطها. ثم صعد فلما استويا فى صَرْحَة المسجد، قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ فقال: نعم. فقال: فانطلق إلى أولئك النسوة، فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة ، قال: فأتيتهن فسلمت عليهن، فرددن علىّ السلام، فقلت: من أنتن؟ فقلن: نحن خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا». قال: «ثم انصرفت[٢]، فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن، وأقيمت الصلاة». قال: «فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدى جبريل، عليه السلام، فقدمنى فصليت بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يامحمد، أتدرى من صلى خلفك؟» قال: « قلت: لا. قال :صلى خلفك كل نبى بعثه اللّه عز وجل ».

قال: «ثم أخذ بيدى جبريل فصعد بى إلى السماء، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا: من أنت؟ قال: أنا جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم». قال: «ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك». قال: «فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم، فقال لى جبريل: يامحمد، ألا تسلم على أبيك آدم؟» قال: «قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد علىّ وقال: مرحباً بابنى والنبى الصالح». قال: «ثم عرج بى إلى السماء الثانية فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم»: «ففتحوا[٣] له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام[٤]». قال :«ثم عرج بى إلى السماء الثالثة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم»[٥] . «ففتحوا[٦] وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها يوسف، عليه السلام، ثم عرج بى إلى السماء الرابعة فاستفتح، قالوا: من أنت ؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها إدريس، عليه السلام». قال: «فعرج بى إلى السماء الخامسة، فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟قال: نعم. قال: ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها هارون، عليه السلام». قال: «ثم عرج بى إلى السماء السادسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك ؟قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها موسى، عليه السلام. ثم عرج بى إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقالوا[٧] :من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها إبراهيم، عليه السلام. فقال جبريل: يامحمد، ألا تسلم على أبيك إبراهيم؟ قال: قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد علىّ السلام وقال: مرحباً بك يابنى[٨] والنبى الصالح.

ثم انطلق بى على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى بى إلى نهر عليه خيام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر أنعم طير رأيت. فقلت: ياجبريل، إن هذا الطير لناعم قال[٩]: يامحمد، آكله أنعم منه ثم قال: يامحمد، أتدرى أى نهر هذا ؟ قال: «قلت: لا. قال: هذا الكوثر الذى أعطاك

---

(١) فى ت: « فبلغ».
(٢) فى ف: « قال : وانصرفت».
(٣) فى ف: «قال: ففتحوا».
(٤) فى ت: «عليهما الصلاة والسلام».
(٥) فى ف، أ: «قال: ففتحوا».
(٦) فى ت، ف، أ: «ففتحوا له».
(٧) فى ف: « قالوا».
(٨) فى ف: « مرحبا بابنى».
(٩) فى ف: فقال».

اللَّه إياه. فإذا فيه آنية الذهب والفضة، يجرى[(١)] على رَضْرَاض من الياقوت والزمرد، ماؤه[(٢)] أشد بياضاً من اللبن» قال: «فأخذت منه آنية[(٣)] من الذهب، فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل، وأشد[(٤)] رائحة من المسك. ثم انطلق بى حتى انتهيت[(٥)] إلى الشجرة، فغشيتنى سحابة فيها من كل لون، فرفضنى جبريل، وخررت ساجداً لله، عز وجل، فقال اللَّه لى: يامحمد، إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك» . قال: «ثم انجلت عنى السحابة وأخذ بيدى جبريل، فانصرفت سريعاً فأتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال: ما صنعت يامحمد ؟ فقلت: فرض ربى علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة. قال: فلن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك. فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة، فغشيتنى السحابة، ورفضنى جبريل، وخررت ساجداً، وقلت: رب، إنك فرضت علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة، ولن أستطيعها أنا ولا أمتى، فخفف عنا . قال: قد وضعت عنكم عشراً . قال: ثم انجلت عنى السحابة، وأخذ[(٦)] بيدى جبريل وانصرفت[(٧)] سريعاً، حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً، ثم أتيت على موسى، فقال لى: ماصنعت يامحمد ؟ فقلت: وضع ربى عنى عشراً فقال: أربعون صلاة! لن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم ـ فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات، وخمس بخمسين ثم أمره[(٨)] موسى أن يرجع فيسأل التخفيف ،فقلت :«إنى قد استحييت منه تعالى».

قال: ثم انحدر، فقال رسول اللَّه ﷺ لجبريل: «ما لى لم آت على[(٩)] سماء إلا رحبوا بى وضحكوا إلىّ، غير رجل واحد، فسلمت عليه فردّ علىّ السلام فرحب بى ولم يضحك إلىّ. قال: يامحمد، ذاك مالك خازن جهنم لم يضحك منذ خلق [(١٠)]،ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك».

قال: ثم ركب منصرفاً، فبينا هو فى بعض طريقه مرّ بعير لقريش تحمل طعاماً، منها جمل عليه غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت، وصرع ذلك البعير وانكسر.

ثم إنه مضى فأصبح، فأخبر عما كان، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا: ياأبا بكر، هل لك فى صاحبك؟ يخبر[(١١)]أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر، ثم رجع فى ليلته. فقال أبو بكر، رضى اللَّه عنه: إن كان قاله فقد صدق ،وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا، نصدقه على خبر السماء.

فقال المشركون لرسول اللَّه ﷺ: ما علامة ماتقول؟ قال: « مررت بعير لقريش، وهى فى مكان كذا وكذا، فنفرت العير[(١٢)] منا واستدارت، [وفيها بعير عليه] [(١٣)] غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء ، فصرع فانكسر».

فلما قدمت العير سألوهم، فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم النبى ﷺ[(١٤)] ومن[(١٥)] ذلك سمى أبو[(١٦)] بكر الصديق.

---

(١) فى ف، أ: «تجرى».
(٢) فى ف، أ: « وماؤه».
(٣) فى ف، أ: « من آنيته».
(٤) فى ت: «وألذ».
(٥) فى ت، ف، أ: « انتهى».
(٦) فى ت: «فأخذ».
(٧) فى ت، ف، أ: « فانصرفت».
(٨) فى ت: « أمر».
(٩) فى أ: « أهل».
(١٠) فى ت: « خلقت».
(١١) فى ت: «يزعم».
(١٢) فى ف: «الإبل».
(١٣) زيادة من ف، أ، وفى ت: «جمل عليه».
(١٤) فى ف: « رسول الله ﷺ».
(١٥) فى ف، أ: « وفى».
(١٦) فى ف: « أبا».

وسألوه وقالوا[١]: هل كان معك فيمن حضر موسى وعيسى ؟ قال:«نعم». قالوا: فصفهم . قال: «نعم»، أما موسى فرجل آدم، كأنه من رجال أزْدِ عمان ، وأما عيسى فرجل ربعة، سَبْط، تعلوه[٢] حمرة كأنما يتحادر من شعره الجُمَان»[٣].

هذا سياق فيه غرائب عجيبة .

رواية أنس، رضى الله عنه، عن مالك بن صَعْصَعَة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا هَمَّام، قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه: أن نبى اللّه ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال:«بينما أنا فى الحطيم[٤] ـ وربما قال قتادة: فى الحجر ـ مضطجعاً إذ أتانى آت» فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال:«فأتانى فقدّ ـ وسمعت قتادة يقول: فشق ـ مابين هذه إلى هذه». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبى: ما يعنى؟ قال: من ثغرة نحره إلى شِعْرته، وقد سمعته يقول: من قَصَّته إلى شِعْرَته قال:«فاستخرج قلبى» قال: «فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبى ثم حشى، ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض» . قال: فقال الجارود :وهو البراق يا أبا حمزة ؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه. قال:« فحملت عليه، فانطلق بى جبريل، عليه السلام، حتى أتى بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجىء جاء». قال:«ففتح[٥] فلما خلصت، فإذا فيها آدم، عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال[٦]: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد قيل[٧] :أو قد[٨] أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجىء جاء»، قال:«ففتح، فلما خلصت، فإذا يحيى[٩] وعيسى وهما ابنا الخالة. قال: هذا[١٠] يحيى وعيسى، فسلم عليهما. قال :فسلمت فردا السلام ثم قالا[١١] :مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجىء جاء». قال: ففتح[١٢] فلما خلصت، فإذا يوسف[١٣] ،عليه السلام، قال: هذا يوسف[١٤] قال: «فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟

---

(١) فى ت، ف:« فقالوا». (٢) فى ت: « يعلوه».

(٣) وفى إسناده خالد بن يزيد بن أبى مالك ضعفه أحمد وابن معين والنسائى والدارقطنى ولم يوثقه إلا أبو زرعه الدمشقى.

(٤) فى ف: « بالحطيم». (٥) فى ت، أ: «ففتح لنا». (٦) فى ت، ف: «فقال».

(٧) فى ت: «قال». (٨) فى ت: «وقد». (٩) فى ف، أ:« بيحيى».

(١٠) فى ف، أ: «وهذان». (١١) فى ف، أ: « وقالا». (١٢) فى ف، أ: «ففتح الباب».

(١٣) فى ت: «فإذا إدريس»، وفى ف، أ:« إذا بيوسف». (١٤) فى ت: « إدريس».

قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء» قال: «ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه. فرد السلام[١]، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح».

قال: « ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا هارون، عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام[٢]، ثم قال: مرحباً بالأخ والنبي الصالح».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى قال: هذا موسى، عليه السلام، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح». قال: «فلما تجاوزته بكى. قيل له: مايبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم، فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام[٣]، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح».

قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قِلال هَجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى». قال: «وإذا أربعة أنهار: نهرانِ باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ماهذا ياجبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات».

قال: ثم رفع إلى البيت المعمور.

قال قتادة: وحدثني الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه.

ثم رجع إلى حديث أنس [قال: « ثم][٤] أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». قال: «فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة وأنت[٥] عليها وأمّتك».

قال: «ثم فرضت الصلاة خمسين صلاة كل يوم». قال: «فنزلت حتى انتهيت إلى[٦] موسى، قال[٧]: ما فرض ربك على أمتك ؟ »قال: «قلت[٨]: خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى

(١ ـ ٣) في ف، أ: «فرد على السلام».
(٤) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٥) في ت، ف، أ: « أنت». (٦) في أ: « أتيت». (٧) في أ: «فقال».
(٨) في ف، أ: « فقلت».

ربك فاسأله التخفيف عن أمتك[١] ». قال: «فرجعت فوضع عنى عشراً، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت ؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال: فرجعت فوضع عنى عشراً أخر. فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بثلاثين صلاة. قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«فرجعت فوضع عنى عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت ؟ قلت: بعشرين[٢] صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«فرجعت فوضع عنى عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت ؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات فى كل يوم. فقال: إن أمتك[٣] لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك[٤] لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«قلت: لقد[٥] سألت ربى [عز وجل][٦] حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. فنفذت ،فنادانى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى ».

وأخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة، بنحوه [٧].

رواية أنس عن أبى ذر:

قال البخارى: حدثنا يحيى بن بُكَيْر، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر، رضى الله عنه، يحدث أن رسول اللّه ﷺ قال: « فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج [صدرى ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه][٨] فى صدرى، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء، فلما جئت إلى السماء [الدنيا][٩] قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد. قال: أرسل إليه ؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أَسْوِدَة وعلى يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَم[١٠] بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى.

«ثم عرج بى إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال له الأول،

---

(١) فى ف، أ: « لأمتك». (٢) فى ف: « فقلت أمرت بعشرين». (٣، ٤) فى ف: « قال أمتك».
(٥) فى ف، أ:« قد». (٦) زيادة من: أ.
(٧) المسند(٤/٢٠٨) وصحيح البخارى برقم(٣٣٩٣) ومعلقا برقم (٧. ٣٢) وصحيح مسلم برقم (١٦٤).
(٨، ٩) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى. (١٠) فى ت:« نطف».

ففتح». قال أنس: فذكر أنه وجد فى السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم ،ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا، وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل بالنبى ﷺ بإدريس قال:«مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ فقال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت[(١)]: من هذا؟ قال: موسى[(٢)]. ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: عيسى[(٣)] ابن مريم. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال الزهرى: فأخبرنى ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حَبَّة[(٤)] الأنصارى كانا يقولان: قال النبى ﷺ: «ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول اللّه ﷺ: « ففرض اللّه على أمتى خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض اللّه على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت [فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك . فرجعت فوضع شطرها. فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته][(٥)] فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لدىّ. فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحييت من ربى. ثم انطلق بى حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان[(٦)] لا أدرى ما هى، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جَنَابذ[(٧)] اللؤلؤ وإذا ترابها المسك».

هذا لفظ البخارى فى «كتاب الصلاة»[(٨)]، ورواه فى ذكر بنى إسرائيل، وفى الحج، وفى أحاديث الأنبياء من طرق أخر، عن يونس، به[(٩)]. ورواه مسلم فى صحيحه فى «كتاب الإيمان» منه، عن حَرْملة، عن ابن وهب، عن يونس به نحوه [(١٠)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن عبد اللّه بن شَقيق قال: قلت لأبى ذر: لو رأيت رسول اللّه ﷺ لسألته. قال: وماكنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إنى قد سألته فقال :«إنى قد رأيته[(١١)] نوراً أنى أراه »[(١٢)].

هكذا قد وقع فى رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم فى صحيحه، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد اللّه بن شقيق، [عن أبى ذر قال: سألت رسول اللّه ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: « إنى نور أنى أراه ».

وعن محمد بن بَشَّار، عن معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن عبد اللّه بن شقيق][(١٣)] قال: قلت لأبى ذر: لو رأيت رسول اللّه ﷺ لسألته. فقال[(١٤)]: عن أى شىء كنت تسأله؟ قال:

---

(١) فى ف: «فقلت». (٢) فى ف، أ: «هذا موسى». (٣) فى ف، أ: «هذا عيسى».
(٤) فى ت: «حية». (٥) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى. (٦) فى ف: « الألوان».
(٧) فى ف : « جبال»، وفى أ: «حبائل».
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٤٩).
(٩) صحيح البخارى برقم (١٦٣٦، ٣٣٤٢).
(١٠) صحيح مسلم برقم (١٦٣).
(١١) فى ت، ف، أ: « رأيت».
(١٢) المسند (٥/١٤٧).
(١٣) زيادة من ت، ف، أ، ومسلم. (١٤) فى ف: « قال».

كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: « رأيت نوراً» [١].

رواية أنس عن أبى بن كعب الأنصارى، رضى الله عنه :

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد بن المسيبى [٢]، حدثنا أنس بن عياض، عن يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أبى بن كعب يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: « فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها [٣] فى صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء. فلما جاء السماء [فافتتح فقال : من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فافتح. فلما علونا السماء الدنيا] [٤] إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى قال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح». قال: «قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة [٥] عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله هم أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى». قال: «ثم عرج بى جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له». قال أنس: فذكر أنه وجد فى السموات: آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت لى كيف منازلهم؟ غير أنه ذكر أنه وجد آدم، عليه السلام، فى السماء الدنيا، وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبى الصالح والأخ والصالح». قال: «قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس»، قال: «ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا. قال: هذا عيسى ابن مريم» قال: «ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال ابن شهاب: وأخبرنى ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصارى كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام» قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتى خمسين صلاة» قال: «فرجعت بذلك حتى أمر [٦] على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. فقال لى موسى: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك» قال: «فراجعت ربى. فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك [٧] فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت [٨] فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لدى». قال: «فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت [٩]: قد استحييت من ربى» قال: «ثم انطلق بى حتى أتى سدرة المنتهى». قال: «فغشيها ألوان ما أدرى [١٠] ماهى؟» قال : «ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك».

هكذا رواه عبد الله بن[الإمام] [١١] أحمد فى مسند أبيه [١٢]. وليس هو فى شىء من الكتب

(١) صحيح مسلم برقم(١٧٨).
(٢) فى ف، أ: « بن محمد بن المثنى».
(٣) فى ت: « ففرغهما».
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٥) فى ت، ف :«الأسودة التى».
(٦) فى ت، ف، أ: «حتى أتى».
(٧) فى ف: « راجع ربك».
(٨) فى ف، أ: «فرجعت ربى».
(٩) فى ت: «قلت».
(١٠) فى ف: « لا أدرى».
(١١) زيادة من: ف، أ.
(١٢) زوائد المسند(٥/ ١٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٦٦): « رجاله رجال الصحيح».

الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهرى[(١)]، عن أبى ذر، مثل هذا السياق سواء، فاللّه أعلم[(٢)].

رواية بريدة بن الحصيب الأسلمى:

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم ـ واللفظ له ـ قالا: حدثنا أبو نُميلَة، أخبرنا الزبير بن جنادة، عن عبد اللّه بن بُرَيْدة، عن أبيه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لما كان ليلة أسرى به[(٣)] قال: فأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس، فوضع إصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق ».

ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو نُميلَة، ولا نعلم[(٤)] هذا الحديث [يروى][(٥)] إلا عن بريدة. وقد رواه الترمذى فى التفسير من جامعه، عن يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقِى به[(٦)] وقال: غريب.

رواية جابر بن عبد اللّه، رضى اللّه عنه[(٧)]:

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة: سمعت جابر بن عبد اللّه يحدث: أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول[(٨)]: «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر فَجَلَّى اللّه لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

أخرجاه فى الصحيحين من طرق، عن الزهرى، بـه[(٩)].

وقال البيهقى: أخبرنا أحمد بن الحسن[(١٠)] القاضى، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس ابن محمد الدورى، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبى، عن صالح بن كَيْسَان، عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول اللّه ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس، لقى فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بقدحين: قدح من لبن وقدح خمر، فنظر إليهما، ثم أخذ قدح اللبن. فقال جبريل[(١١)]: أصبت، هديت للفطرة[(١٢)]، لو اخترت الخمر لغوت أمتك. ثم رجع رسول اللّه ﷺ إلى مكة، فأخبر أنه أسرى به، فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه.

قال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز ـ أو كلمة نحوها ـ ناس من قريش إلى أبى بكر فقالوا: هل لك فى صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة فى ليلة واحدة! فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه بأن يأتى الشام فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إنى أصدقه بأبعد من ذلك[(١٣)] أصدقه بخبر السماء. قال أبو سلمة: فبها سمى أبو بكر: الصديق.

(١) فى ت، ف، أ: «عن الزهرى عن أنس». (٢) فى ت: «والله أعلم». (٣) فى ف: «أسرى بى».
(٤) فى ت: «يعلم». (٥) زيادة من أ.
(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٣٢).
(٧) فى ف، أ: «عنهما». (٨) فى ت، ف، أ: «قال».
(٩) المسند (٣/ ٣٧٧)، وصحيح البخارى برقم (٤٧١٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٠).
(١٠) فى ت، ف: «الحسين». (١١) فى ف، أ: «فقال له جبريل عليه السلام». (١٢) فى ف: «الفطرة».
(١٣) فى ت: «من هذا».

قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبد اللّه يحدث أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: « لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر، فجلى اللّه لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »[١].

رواية حذيفة بن اليمان، رضى اللّه عنه :

قال الإمام أحمد: ثنا أبو النضر، ثنا شيبان، عن عاصم، عن زرٍّ بن حُبَيْش قال: أتيت على حذيفة بن اليمان وهو يحدث عن ليلة أسرى بمحمد ﷺ، وهو يقول: «فانطلقنا[٢] حتى أتينا[٣] بيت المقدس». فلم يدخلاه. قال: قلت: بل دخله رسول اللّه ﷺ ليلتئذ وصلى فيه. قال: ما اسمك يا أصلع ؟ فإنى أعرف وجهك ولا أدرى ما اسمك؟ قال: قلت: أنا زر بن حُبَيْش. قال: فما علمك بأن رسول اللّه ﷺ صلى فيه ليلتئذ؟ قال: قلت: القرآن يخبرنى بذلك. قال: من تكلم بالقرآن فلج[٤]، اقرأ. قال فقلت: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾ قال: يا أصلع، هل تجد «صلى فيه»؟ قلت: لا. قال: واللّه ما صلى فيه رسول اللّه ﷺ ليلتئذ، ولو صلى فيه لكتب عليكم صلاة فيه، كما كتب عليكم صلاة فى البيت العتيق، واللّه ما زايلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء، فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع، ثم عادا عودهما على بدئهما. قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجذه . قال: وتحدثوا[٥] أنه ربطه لا يفر منه، وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة. قلت :أبا عبد اللّه[٦] ،أى دابة البراق ؟ قال :دابة أبيض طويل هكذا، خطوه مد البصر.

ورواه أبو داود الطيالسى، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، به. ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث عاصم ـ وهو ابن أبى النجود ـ به[٧]، وقال الترمذى: حسن صحيح .

وهذا الذى قاله حذيفة ،رضى اللّه عنه، نفى، وما أثبته غيره عن رسول اللّه ﷺ من ربط الدابة بالحلقة ومن الصلاة بالبيت المقدس ،مما سبق وما سيأتى مقدم على قوله، واللّه أعلم بالصواب.

رواية أبى سعيد ـ سعد بن مالك بن سنان الخدرى :

قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب «دلائل النبوّة»:

أخبرنا أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبى طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا أبو محمد راشد الحمانى، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى اللّه عنه، عن النبى ﷺ أنه قال له أصحابه: يارسول اللّه، أخبرنا عن ليلة أسرى بك فيها، قال: قال اللّه عز وجل :﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾،

---

(١) دلائل النبوة(٢/ ٣٥٩).

(٢) فى ف: « فانطلقا». (٣) فى ف: « أتيا». (٤) فى ت، ف، أ : «فلح».

(٥) فى ت: « ويحدثون» وفى ف، أ: « وتحدثون». (٦) فى ت: «ياعبد الله».

(٧) المسند (٥/ ٣٨٧)، ومسند الطيالسى برقم(٤١١)، وسنن الترمذى برقم (٣١٤٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٨٠).

قال: فأخبرهم فقال: «فبينا أنا نائم عشاء فى المسجد الحرام، إذ أتانى آت فأيقظنى، فاستيقظت فلم أر شيئاً، وإذا أنا بكهيئة خيال، فأتبعته بصرى حتى خرجت من المسجد[١]، فإذا أنا بدابة أدنى فى شبهه بدوابكم هذه، بغالكم هذه، مضطرب[٢] الأذنين يقال له: البراق. وكانت الأنبياء تركبه قبلى، يقع حافره عند مَدِّ بصره، فركبته، فبينما أنا أسير عليه، إذ دعانى داع عن يمينى: يامحمد، انظرنى أسألك يامحمد، انظرني أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه، [فبينما أنا أسير عليه، إذ دعانى داع عن يسارى: يامحمد انظرنى أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه][٣]، فبينما أنا أسير، إذ أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها اللَّه، فقالت: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم ألتفت إليها ولم أقم عليها. حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتى بالحلقة التى كانت الأنبياء توثقها بها. فأتانى[٤] جبريل، عليه السلام، بإناءين: أحدهما خمر، والآخر لبن، فشربت اللبن، وتركت الخمر، فقال جبريل: أصبت الفطرة[٥] فقلت: اللَّه أكبر، اللَّه أكبر. فقال جبريل: ما رأيت فى وجهك هذا؟» قال: «فقلت: بينما أنا أسير، إذ دعانى داع عن يمينى: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم أجبه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعى اليهود، أما إنك لو أجبته ـ أو: وقفت عليه ـ لتهودت أمتك» قال[٦]: «فبينما أنا أسير، إذ دعانى داع عن يسارى قال: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم ألتفت إليه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعى النصارى، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك». قال: «فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها عليها من كل زينة خلقها اللَّه تقول: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم أجبها ولم أقم عليها». قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها أو أقمت عليها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة».

قال: «ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين.

ثم أتيت بالمعراج الذى تعرج[٧] عليه أرواح بنى آدم[٨]، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، فإنما يشق بصره طامحاً إلى السماء عجبه بالمعراج». قال: «فصعدت أنا وجبريل، فإذا أنا بملك يقال له: إسماعيل. وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك، مع كل ملك جُنْده مائة ألف ملك». قال: «وقال اللَّه[عز وجل][٩] ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١] فاستفتح[١٠] جبريل باب السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد بعث إليه؟ قال: نعم. فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه اللَّه، عز وجل على صورته[١١]، هو تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول: روح طيبة، ونفس طيبة، اجعلوها فى عليين، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول: روح خبيثة، ونفس خبيثة، اجعلوها فى سجين.

---

(١) فى ت، ف، أ: «المسجد الحرام».
(٢) فى ف، أ: «غير أنه مضطرب».
(٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٤) فى ت: أتانى»، و فى ف: «ثم أتانى»،
(٥) فى ف، أ: «أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك».
(٦) فى ف: «قلت».
(٧) فى ت: «يعرج».
(٨) فى أ: «الأنبياء».
(٩) زيادة من: ف، أ.
(١٠) فى ف، أ: «قال: فاستفتح».
(١١) فى أ: «على صورته لم يتغير منه شىء».

ثم مضيت هنية[١] ، فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد، وإذا أنا بأخْوِنَة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن، عندها أناس يأكلون منها، قلت: ياجبريل، من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون[٢] الحرام».

قال: «ثم مضيت هنية[٣] ، فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، كلما نهض أحدهم خرّ يقول: اللهم، لا تقم الساعة»، قال: «وهم على سابلة آل فرعون». قال: «فتجيء السابلة فتطؤهم». قال: «فسمعتهم يضجون إلى اللّه عز وجل». قال: «قلت: ياجبريل، من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ** ﴾» [البقرة: ٢٧٥].

قال: «ثم مضيت هنية[٤] ، فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل». قال: « فتفتح على أفواههم ويلقمون من ذلك الجمر، ثم يخرج من أسافلهم. فسمعتهم يضجون إلى اللّه، عز وجل، فقلت[٥]: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾» [النساء: ١٠].

قال: «ثم مضيت هنية، فإذا أنا بنساء يعلقن بثديهن[٦] فسمعتهن يضججن إلى اللّه، عز وجل، قلت: ياجبريل، من هؤلاء النساء ؟ قال: هؤلاء الزناة من أمتك ».

قال: «ثم مضيت هنية[٧] فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم، فيلقمونه، فيقال له: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك . قلت: ياجبريل، من هؤلاء ؟ قال :هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون».

قال: « ثم صعدنا إلى السماء الثانية، فإذا أنا برجل أحسن ما خلق اللّه، عز وجل، قد فضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قلت: ياجبريل، من هذا ؟ قال: هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ .

ثم صعدت[٨] إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيحيى وعيسى، عليهما السلام، ومعهما نفر من قومهما، فسلمت عليهما وسلما عليّ.

ثم صعدت[٩] إلى السماء الرابعة، فإذا أنا بإدريس قد رفعه اللّه مكاناً علياً، فسلمت عليه وسلم عليّ» .

قال: «ثم صعدت[١٠] إلى السماء الخامسة، فإذا [أنا][١١] بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء، تكاد لحيته تصيب سرته من طولها، قلت: ياجبريل، من هذا؟ قال: هذا المحبب فى قومه، هذا هارون بن عمران، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ .

ثم صعدت[١٢] إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى بن عمران، رجل آدم كثير الشعر، لو كان

---

(١) فى ف، أ: « هنيهة».
(٢) فى أ: « ويأكلون». (٣، ٤) فى ف، أ: « هنيهة».
(٥) فى ف: « قلت». (٦) فى ت ، أ : «بأيديهن». (٧) فى ف، أ: « هنيهة».
(٨، ٩، ١٠) فى ف، أ: « صعدنا». (١١) زيادة من: ت، ف، أ. (١٢) فى ت : «صعد بى».

عليه قميصان لنفذ شعره دون القميص، فإذا[١] هو يقول: يزعم الناس أنى أكرم على اللَّه من هذا، بل هذا أكرم على اللَّه تعالى منى». قال: « قلت: ياجبريل، من هذا ؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران، عليه السلام، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم على.

ثم صعدت إلى السماء السابعة، فإذا أنا بأبينا إبراهيم[٢] خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال، قلت: ياجبريل، من هذا ؟ قال: هذا أبوك [٣] خليل الرحمن ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه فسلم علىّ، وإذا [أنا][٤] بأمتى شطرين: شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس. وشطر عليهم ثياب رُمْد». قال: « فدخلت البيت المعمور ودخل معى الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم ثياب رمد، وهم على خير. فصليت أنا ومن معى فى البيت المعمور، ثم خرجت أنا ومن معى». قال: « والبيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك، لا[٥] يعودون فيه إلى يوم القيامة».

قال: « ثم دفعت لى سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تكاد أن تغطى هذه الأمة ، وإذا فيها عين تجرى يقال لها: سلسبيل، فينشق منها نهران، أحدهما: الكوثر ،والآخر: يقال له: نهر الرحمة. فاغتسلت فيه، فغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر .

ثم إنى دفعت إلى الجنة، فاستقبلتنى جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت[٦]: لزيد بن حارثة، وإذا [أنا][٧] بأنهار من [ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من][٨] عسل مصفى، وإذا رمانها كأنه الدلاء عظماً، وإذا أنا بطيرها كأنها بختيكم هذه». فقال عندها ﷺ: « إن اللَّه تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

قال: « ثم عرضت على النار، فإذا فيها غضب اللَّه وزجره ونقمته، لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها ،ثم أغلقت [٩]دونى.

ثم إنى دفعت[١٠] إلى سدرة المنتهى، فتغشانى فكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى». قال: «ونزل على كل ورقة ملك من الملائكة». قال: «وفرضت على خمسون [١١] وقال: لك بكل حسنة عشر، إذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة، فإذا عملتها كتبت لك عشراً ، وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء، فإن[١٢] عملتها كتبت عليك سيئة واحدة.

ثم دفعت إلى موسى فقال: بم أمرك ربك؟ قلت: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، ومتى لا [تطيقه][١٣]تكفر[١٤]. فرجعت إلى ربى [عزوجل][١٥] فقلت: يارب، خفف عن أمتى، فإنها أضعف الأمم. فوضع عنى عشراً، وجعلها

---

(١) فى ت، ف: «وإذا».
(٢) فى ت: « فإذا أنا بإبراهيم».
(٣) فى ف، أ: «أبوك إبراهيم».
(٤) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٥) فى ت، ف، أ: «ثم لا».
(٦) فى ف: «قالت».
(٧، ٨) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٩) فى ف: « غلقت».
(١٠) فى ف: « رفعت».
(١١) فى أ: «خمسون صلاة».
(١٢) فى ف: « فإذا».
(١٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(١٤) فى ت: «يكفر».
(١٥) زيادة من ف، أ.

أربعين. فما زلت أختلف بين موسى وربى[١] كلما أتيت عليه قال لى مثل مقالته، حتى رجعت إليه فقال لى: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك[عز وجل][٢] فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعت إلى ربى [سبحانه وتعالى][٣] فقلت: أى رب، خفف عن أمتى، فإنها أضعف الأمم. فوضع عنى خمساً، وجعلها خمساً. فنادانى ملك عندها: تمت فريضتى، وخففت عن عبادى، وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها.

ثم رجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه لا يؤوده شىء، فاسأله التخفيف لأمتك». «فقلت[٤]: رجعت إلى ربى حتى استحييته» ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب: «إنى أتيت البارحة بيت المقدس، وعرج بى إلى السماء، ورأيت كذا وكذا[٥]». فقال أبو جهل ـ يعنى ابن هشام ـ: ألا تعجبون مما يقول محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فينا. وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهراً، ومقفلة شهراً، فهذا مسيرة شهرين فى ليلة واحدة! قال: فأخبرهم بعير لقريش: «لما كنت[٦] فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا، وأنها نفرت، فلما رجعت رأيتها عند العقبة». وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا. فقال أبو جهل: يخبرنا[٧] بأشياء. فقال رجل من المشركين: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ [فإن يك محمد صادقا فسأخبركم، وإن يك كاذباً فسأخبركم. فجاء ذلك المشرك فقال: يامحمد، أنا أعلم الناس ببيت المقدس، فأخبرنى كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل][٨]. قال: فرفع لرسول اللَّه ﷺ بيت المقدس من مقعده، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته: بناؤه كذا وكذا، وهيئته كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صدقت. فرجع إلى أصحابه فقال: صدق محمد فيما قال أو نحو هذا [٩] الكلام[١٠].

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبى هارون العبدى ، وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبى هارون العبدى، به. ورواه، أيضًا، من حديث محمد بن إسحاق: حدثنى روح بن القاسم، عن أبى هارون، به نحو سياقه المتقدم[١١].

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أحمد بن عبدة، عن أبى عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، فذكره[١٢] بسياق طويل حسن أنيق، أجود مما ساقه غيره، على غرابته وما فيه من النكارة.

---

(١) فى ف، أ: « بين موسى وبين ربى عز وجل». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) زيادة من : ت.
(٤) فى ف، أ: «قال: فقلت». (٥) فى ف، أ: «ورأيت كذا ورأيت كذا». (٦) فى ت، ف، أ: «كانت».
(٧) من ف، أ: « تخبرنا». (٨) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٩) فى ت: « أو نحوه من هذا».
(١٠) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٠).
(١١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠).
(١٢) فى ف، أ: « فذكر».

ثم ذكره[١] البيهقى، أيضاً، من رواية نوح بن قيس الحُدَّانى وهُشَيم ومعمر، عن أبى هارون العبدى ـ واسمه عمارة بن جوين[٢] وهو مضعف عند الأئمة[٣].

وإنما سقنا حديثه ههنا لما فى حديثه[٤] من الشواهد لغيره ، ولما رواه البيهقى:

أخبرنا[الإمام][٥] أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن[٦]،أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد[٧] بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبى حكيم قال: رأيت فى النوم رسول اللَّه ﷺ قلت: يا رسول اللَّه، رجل من أمتك يقال له:« سفيان الثورى» لا بأس به؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «لا بأس به»، حدثنا عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، عنك[٨] ليلة أسرى بك، قلت[٩]:«رأيت فى السماء» فحدثته بالحديث؟ فقال لى: «نعم». فقلت له: يارسول اللَّه، إن ناساً من أمتك يحدثون عنك فى السرى بعجائب؟ فقال لى:«ذلك[١٠]حديث القصاص»[١١].

رواية شداد بن أوس:

قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك الزَّبيدى، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد اللَّه بن سالم[١٢] الأشعرى، عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدى، حدثنا الوليد[١٣] بن عبد الرحمن، عن جبير[١٤] بن نفير: حدثنا[١٥] شداد ابن أوس قال: قلنا: يارسول اللَّه، كيف أسرى بك ؟ قال: «صليت لأصحابى صلاة العتمة بمكة معتماً». قال:« فأتانى جبريل، عليه السلام، بدابة أبيض ـ أو قال: بيضاء ـ فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب. فاستصعبت على، فرازها[١٦] بأذنها، ثم حملنى عليها. فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخل[١٧] فأنزلنى فقال: صل. فصليت، ثم ركبنا[١٨] فقال: أتدرى أين صليت ؟ قلت: اللَّه أعلم. قال: صليت بيثرب صليت بطيبة. فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها. ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل. [فنزلت][١٩] ثم قال: صل. فصليت، ثم ركبنا، فقال: أتدرى أين صليت؟ قلت: اللَّه أعلم. قال: صليت بمدين، صليت عند شجرة موسى . ثم انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً، بدت لنا قصور، فقال: انزل. فنزلت، فقال[٢٠] :صل فصليت ثم ركبنا فقال: أتدرى أين صليت؟ قلت: اللَّه أعلم. قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم. ثم انطلق بى حتى دخلنا المدينة من بابها اليمانى، فأتى قبلة المسجد، فربط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء اللَّه، وأخذنى من العطش أشد ما أخذنى، فأتيت بإناءين[٢١] ،فى أحدهما لبن وفى الآخر

(١) فى ت، ف، أ: «ذكر».
(٢) فى ت، أ: « جرين»، وفى ف:« جرير».
(٣) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٦).
(٤) فى أ: « سياقه».
(٥) زيادة من: ت، ف، أ.
(٦) فى ف،أ:«أبو عثمان على بن عبدالرحمن».
(٧) فى ف: « حدثنا أحمد».
(٨) فى ف، أ: «عنك يا رسول الله».
(٩) فى أ: «أنك قلت».
(١٠) فى ت، ف، أ:« ذاك».
(١١) دلائل النبوة (٢/ ٤٠٥).
(١٢) فى ت: « سلام».
(١٣) فى ت، ف «أبو الوليد».
(١٤) فى ت،ف:« أن جبير».
(١٥) فى ت، ف، أ: «قال: حدثنا».
(١٦) فى أ: « مزارها».
(١٧) فى ت: « نخيل».
(١٨) فى ف، أ:« ركبت».
(١٩) زيادة من الدلائل.
(٢٠) فى ت: «قال».
(٢١) فى ت: « بإناءات».

عسل، أرسل إلىّ بهما جميعاً، فعدلت بينهما، ثم هدانى اللَّه عز وجل[(١)]، فأخذت اللبن فشربت[(٢)] حتى قَرَعت به جبينى، وبين يدى شيخ متكئ على مثواة له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة، إنه ليهدى. ثم انطلق بى حتى أتينا الوادى الذى فيه المدينة، فإذا جهنم [تنكشف][(٣)] عن مثل الزرابى، قلت: يارسول اللَّه، كيف وجدتها؟ قال: مثل الحمة السخنة. ثم انصرف بى[(٤)] فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيراً لهم، قد جمعه فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة»، فأتانى أبو بكر، رضى اللَّه عنه، فقال: يارسول اللَّه، أين كنت الليلة؟ فقد التمستك فى مظانك[(٥)]. فقال: «علمت أنى أتيت بيت المقدس الليلة؟». فقال: يارسول اللَّه، إنه مسيرة شهر، فصفه لى. قال: «ففتح لى صراط كأنى أنظر إليه لا يسألنى عن شىء إلا أنبأته عنه». قال أبو بكر: أشهد أنك رسول اللَّه. فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبى كَبْشَة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة!. قال: فقال: «إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيراً لهم، فجمعه فلان، وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم، عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان». فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون[(٦)] حتى كان قريب من نصف النهار حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول اللَّه ﷺ.

هكذا رواه البيهقى من طريقين عن أبى إسماعيل الترمذى، به[(٧)]. ثم قال بعد تمامه: «هذا إسناد صحيح، وروى ذلك مفرقاً فى أحاديث غيره، ونحن نذكر من ذلك إن شاء اللَّه ما حضرنا». ثم ساق أحاديث كثيرة فى الإسراء كالشاهد لهذا الحديث. وقد روى هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم فى تفسيره، عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدى، به. ولا شك أن هذا الحديث ـ أعنى الحديث المروى عن شداد بن أوس ـ مشتمل[(٨)] على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقى، ومنها ما هو منكر، كالصلاة فى بيت لحم، وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس، وغير ذلك. واللَّه أعلم.

رواية عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه قال: حدثنا ابن عباس قال: ليلة أسرى بنبى اللَّه ﷺ دخل الجنة، فسمع فى جانبها وَجْساً[(٩)] فقال: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: «هذا بلال المؤذن». فقال رسول الله ﷺ حين جاء إلى الناس: «قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا». قال: فلقيه موسى، عليه السلام، فرحب به، وقال: «مرحباً بالنبى الأمى»، قال: «وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: «من هذا ياجبريل؟» قال: «هذا موسى. [قال: فمضى، فلقيه عيسى فرحب به، وقال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا عيسى». قال][(١٠)] فمضى فلقيه شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه، قال: «من هذا ياجبريل؟». قال: «هذا أبوك إبراهيم»، قال: ونظر فى النار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: «من هؤلاء ياجبريل؟» قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحم[(١١)] الناس»، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: «من هذا ياجبريل؟».

---

(١) فى أ: «تعالى». (٢) فى ت: «فشربت اللبن». (٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٤) فى أ: «بنا». (٥) فى ف، أ: «منامك». (٦) فى ت: «ينتظرون».
(٧) دلائل النبوة (٢/ ٣٥٥).
(٨) فى ف، أ: «يشتمل». (٩) فى ت، ف، أ: «وخشًا». (١٠) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١١) فى أ: «لحوم».

قال: «هذا عاقر الناقة»، قال: فلما أتى رسول اللَّه ﷺ المسجد الأقصى قام يصلى، [فالتفت ثم التفت][١] فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. فلما انصرف جيء بقدحين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذى كان معه القدح: أصبت الفطرة. إسناد صحيح ولم يخرجوه[٢].

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حدثنى عكرمة، عن ابن عباس قال: أسرى بالنبى ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول! فارتدوا كفاراً، فضرب اللَّه رقابهم مع أبى جهل[٣] وقال أبو جهل[٤]: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمرا وزبدا فتزقموا، ورأى الدجال فى صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم. فسئل النبى ﷺ عن الدجال فقال: «رأيته فيلمانياً أقمر هجانا، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى، كأن شعر رأسه أغصان شجرة. ورأيت عيسى أبيض، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق. ورأيت موسى أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم فلم أنظر إلى إرب منه إلا نظرت إليه منى، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سلم على مالك فسلمت عليه».

ورواه النسائى من حديث أبى زيد ثابت بن يزيد[٥] عن هلال ـ وهو ابن خباب ـ به، وهو[٦] إسناد صحيح.

طريق أخرى:

وقال البيهقى: أنبأنا أبو عبد اللَّه الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعى، أنبأنا إسحاق بن الحسن، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، عن أبى العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأرى مالكاً خازن جهنم والدجال، فى آيات أراهن اللَّه إياه، قال: ﴿ **فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ** ﴾ [السجدة: ٢٣] فكان قتادة يفسرها: أن نبى اللَّه [ﷺ][٧] قد لقي موسى [عليه السلام][٨] ﴿ **وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ قال: جعل اللَّه موسى هدى لبنى إسرائيل[٩].

رواه مسلم فى الصحيح عن عبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن شيبان[١٠]. وأخرجاه من حديث شعبة عن قتادة مختصراً[١١].

---

(١) زيادة من المسند مستفاد من هامش ط. الشعب.

(٢) المسند(١/ ٢٥٧) وفيه قابوس بن أبى ظبيان وقد تكلم فيه خاصة روايته عن أبيه، وقال ابن عدى: «أحاديثه متقاربة، وأرجو أنه لا بأس» فمثل حديثه أقرب درجاته التحسين.

(٣) فى ف، أ: «أبى جهل قبحهم الله». (٤) فى ف، أ: «أبو جهل قبحه الله». (٥) فى ت، ف: «أبى يزيد ثابت بن زيد».

(٦) المسند (١/ ٣٧٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٤٨٤).

(٧) زيادة من ت، أ. (٨) زيادة من أ.

(٩) دلائل النبوة (٢/ ٣٨٦).

(١٠) صحيح مسلم برقم(١٦٥).

(١١) صحيح البخارى برقم (٣٢٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٦٥).

طريق أخرى:

قال [البيهقى: أخبرنا على بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفَّار، حدثنا دُبَيْس المُعدَّل، حدثنا عفان قال: حدثنا][١] حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لما أسرى بى، مرت بى رائحة طيبة، فقلت: ماهذه الرائحة ؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقط مُشْطُهَا من يدها فقالت: باسم اللَّه: فقالت ابنة فرعون: أبى؟ قالت: ربى وربك ورب أبيك. قالت: أو لك رب غير أبى ؟ قالت: نعم، ربى وربك ورب أبيك اللَّه». قال: « فدعاها فقال: ألك رب غيرى ؟ قالت: نعم، ربى وربك الله، عز وجل» . قال: « فأمر بنقرة[٢] من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها، قالت: إن لى [إليك][٣] حاجة. قال: ماهى ؟ قالت: تجمع عظامى وعظام ولدى فى موضع، قال[٤]: ذاك لك، لما لك علينا من الحق»، قال: «فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً، حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: يا أمه، قعى ولا تقاعسى، فإنك[٥] على الحق». قال: «وتكلم أربعة وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم، عليه السلام»[٦].

إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه .

طريق أخرى:

وقال الإمام أحمد [أيضاً][٧] :حدثنا محمد بن جعفر وروح المعنى[٨] قالا: حدثنا عوف، عن زُرَارة بن أوفى، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لما كان ليلة أسرى بى وأصبحت بمكة، فظعت[بأمرى][٩] وعرفت أن الناس مكذبى» فقعد[١٠] معتزلاً حزيناً، فمرّ به عدو الله أبو جهل[١١] فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شىء ؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ: «نعم» قال: وماهو؟ قال «إنى أسرى بى الليلة»: قال إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: «نعم». قال: فلم يره أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه ، فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى؟ فقال رسول اللَّهﷺ: «نعم». قال: هيا [١٢]معشر بنى كعب بن لؤى، قال: فانتفضت[١٣] إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتنى. فقال رسول اللَّهﷺ: « إنى أسرى بى الليلة». فقالوا: إلى أين ؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: « نعم». قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب ـ زعم ـ قالوا: وتستطيع أن تنعت [لنا][١٤] المسجد ـ وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ـ قال[١٥] رسول اللَّه ﷺ: « فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس علىّ بعض النعت» قال: « فجىء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل ـ أو عقال ـ فَنَعَتُه

(١) زيادة من ف، أ، والدلائل. (٢) فى ت، ف، أ: « بقرة». (٣) زيادة من، أ، والدلائل.
(٤) فى ف: « فقال». (٥) فى ف: « فأنا».
(٦) دلائل النبوة (٢/ ٣٨٩) ورواه البزار فى مسنده برقم(٥٤) « كشف الأستار» من طريق عفان به وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ف، أ: «وروح بن المعين». (٩) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١٠) فى ت ف: « فقعدت»، وفى أ: « فعدت». (١١) فى ف، أ: «أبو جهل قبحه الله». (١٢) فى ف، أ: « فيا».
(١٣) فى ت، ف: « فانقضت». (١٤) زيادة من ت، ف، أ، والمسند. (١٥) فى ف: «فقال».

وأنا أنظر إليه». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه ـ يقول عوف ـ :قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب .

وأخرجه[١] النسائى من حديث عوف بن أبى جميلة ـ وهو الأعرابى، به. ورواه البيهقى من حديث النضر بن شميل وهوذة، عن عوف وهو ابن أبى جميلة الأعرابى، أحد الأئمة الثقات، به[٢].

رواية عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه:

قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد اللَّه الحافظ، أخبرنا أبو عبد اللَّه محمد بن يعقوب، حدثنا السرى بن خزيمة، حدثنا يوسف بن بُهلول، حدثنا عبد اللَّه بن نمير، عن مالك بن مغْوَل، عن الزبير بن عدى، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن مرة الهَمْدَانى، عن عبد اللَّه بن مسعود قال: لما أسرى برسول اللَّه ﷺ، فانتهى إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السادسة، وإليها ينتهى ما يصعد به حتى يقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط [به][٣] من فوقها حتى يقبض[منها][٤]، ﴿**إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ**﴾ [النجم:١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطى رسول اللَّه ﷺ[٥] الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك باللَّه [٦] المقحمات ،يعنى الكبائر .

ورواه مسلم فى صحيحه، عن محمد بن عبد اللَّه بن نمير وزهير بن حرب، كلاهما عن عبد اللَّه ابن نمير، به[٧] . ثم قال البيهقى: « وهذا الذى ذكره عبد اللَّه بن مسعود طرف من حديث المعراج ، وقد رواه أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعَة، عن النبى ﷺ، ثم عن أبى ذر، عن النبى ﷺ، ثم رواه مرة مرسلاً دون ذكرهما» [٨] ،ثم إن البيهقى ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدّم .

قلت: وقد روى عن ابن مسعود بأبسط من هذا، وفيه غرابة، وذلك فيما رواه «الحسن بن عرفة» فى جزئه المشهور. حدثنا مروان بن معاوية، عن قنان بن عبد اللَّه النهمى[٩] ،حدثنا أبو ظبيان الجنبى قال: كنا جلوساً عند أبى عبيدة بن عبد اللَّه ـ يعنى ابن مسعود ـ ومحمد بن سعد بن أبى وقاص، وهما، جالسان، فقال محمد بن سعد لأبى عبيدة: حدثنا عن أبيك ليلة أسرى بمحمد ﷺ. فقال أبو عبيدة: لا، بل حدثنا أنت عن أبيك. فقال محمد: لو سألتنى قبل أن أسألك لفعلت! قال: فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعنى عن أبيه كما سئل قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أتانى جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، فحملنى عليه، ثم انطلق يهوى بنا كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه، وإذا هبط استوت يداه مع رجليه، حتى مررنا برجل طوال سبط آدم، كأنه من رجال أزد شنوءة، وهو يقول ـ فيرفع[١٠] صوته يقول ـ أكرمته وفضلته». قال: « فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال: من هذا معك يا جبريل ؟ قال: هذا أحمد[١١] ، قال: مرحباً بالنبى الأمى العربى، الذى بلغ رسالة ربه، ونصح لأمته». قال: « ثم اندفعنا فقلت: من هذا ياجبريل؟ قال: هذا موسى بن عمران». قال:

(١) فى ت: « أخرجه».
(٢) المسند(١/ ٣٠٩) وسنن النسائى الكبرى برقم(١١٢٨٥) ودلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٦٣).
(٣، ٤) زيادة من، ف، أ، والدلائل. (٥) فى ت: «ﷺ تسليماً». (٦) فى ت:« بالله من أمتى»، وفى ف: « بالله شيئًا».
(٧) دلائل النبوة (٢/ ٣٧٢) وصحيح مسلم برقم(١٧٣).
(٨) دلائل النبوة (٢/ ٣٧٣).
(٩) فى ت، ف، أ:« التيمى». (١٠) فى ف: « فرفع». (١١) فى ت: « محمد».

«قلت: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه فيك! قلت: فيرفع صوته على ربه؟! قال: إن اللَّه [عز وجل][١] قد عرف له حدته» . قال: « ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السُّرُج تحتها شيخ وعياله». قال: «فقال لى جبريل: اعمد إلى أبيك إبراهيم. فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال إبراهيم: من هذا معك ياجبريل ؟ قال: هذا ابنك أحمد». قال: « فقال: مرحباً بالنبى الأمى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، يابنى، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها فى أمتك فافعل» . قال: « ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة بالحلقة التى فى باب المسجد التى كانت الأنبياء تربط بها. ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين راكع وقائم وساجد». قال: « ثم أتيت بكأسين من عسل ولبن فأخذت اللبن فشربت فضرب جبريل عليه السلام، منكبى وقال: أصبت الفطرة ورب محمد». قال: «ثم أقيمت الصلاة فأممتهم، ثم انصرفنا فأقبلنا »[٢].

إسناد غريب ولم يخرجوه، فيه من الغرائب[٣]: سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداء، ثم سؤاله عنهم[٤] بعد انصرافه. والمشهور فى الصحاح كما تقدم: أن جبريل [عليه السلام][٥] كان يعلمه بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة. وفيه[٦] أنه اجتمع بالأنبياء عليهم[٧] السلام قبل دخوله المسجد [٨]، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم فى السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصلى بهم فيه، ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة، واللَّه أعلم .

طريق أخرى :

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم،أخبرنا العوام، عن جبلة بن سُحَيم، عن مُؤثر[٩] بن عفارة، عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة» قال: « فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام[١٠] فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى. فقال: لا علم لى بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا اللَّه عز وجل، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج». قال: « ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص». قال: « فيهلكه اللَّه إذا رآنى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً، فتعال فاقتله». قال: « فيهلكهم اللَّه، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم[١١] ». قال: «فعند[١٢] ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه» قال: « ثم يرجع الناس إلىّ فيشكونهم. فأدعو اللَّه عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم ـ أى: تنتن» قال: «فينزل اللَّه المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر. ففيما عهد إلى ربى: أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم، لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها، ليلاً أو نهاراً» .

وأخرجه ابن ماجه، عن بُنْدار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب[١٣].

---

(١) زيادة من: ف، أ.
(٢) جزء الحسن بن عرفة برقم(٦٩).
(٣) فى ت، ف: « من الغرابة».
(٤) فى ت: « ثم سؤالهم له».
(٥) زيادة من ف،أ.
(٦) فى ف: « وقيل».
(٧) فى ت: «عليه».
(٨) فى ف، أ: «المسجد الأقصى».
(٩) فى ت، ف: « مرثد».
(١٠) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».
(١١) فى ت: « وأقطانهم».
(١٢) فى ت: «فبعد».
(١٣) المسند(١/ ٣٧٥)، وسنن ابن ماجة برقم(٤٠٨١) وقال البوصيرى فى الزوائد(٣/ ٢٦١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، مؤثر ابن عفارة ذكره ابن حبان فى الثقات، وباقى رجال الإسناد ثقات».

رواية عبد الرحمن بن قرط، أخى عبد الله بن قرط الثمالى:

قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون ـ مؤذن[(١)] مسجد الرملة ـ حدثنى عُروة بن رُوَيْم، عن عبد الرحمن بن قُرط، أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بين زمزم[(٢)] والمقام، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلى، فلما رجع قال: «سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع تسبيح كثير[(٣)]، سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات من ذى العلو بما علا، سبحان العلى الأعلى، سبحانه وتعالى»[(٤)].

ويذكر هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾الآية [الإسراء: ٤٤].

رواية عمر بن الخطاب، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى سنان، عن عبيد بن آدم وأبى مريم وأبى شعيب؛ أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدثنى أبو سنان، عن عبيد بن آدم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلى؟ قال[(٥)]: إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر، رضى الله عنه: ضاهيت اليهودية، [لا][(٦)] ولكن أصلى حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة، فصلى ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة فى ردائه، وكنس الناس[(٧)].

فلم يعظم الصخرة تعظيما يصلى وراءها وهى بين يديه، كما أشار كعب الأحبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم. ولكن منّ الله عليه بالإسلام، فهُدى إلى الحق؛ ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين : ضاهيت اليهودية، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط الأذى، وكنس عنها الكناس بردائه. وهذا شبيه بما جاء فى صحيح مسلم عن أبى مرثد الغَنَوِى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها »[(٨)].

رواية أبى هريرة، رضى الله عنه:

وهى مطولة جداً، وفيها غرابة. قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى تفسير «سورة سبحان»: حدثنا على بن سهل، حدثنا حجاج، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية الرياحى، عن أبى هريرة أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ فى قول الله عز وجل: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** قال: جاء جبريل [إلى النبى ﷺ ومعه ميكائيل، فقال جبريل][(٩)] لميكائيل: ائتنى بطَسْت من ماء زمزم، كيما أطهر قلبه وأشرح له صدره. قال: فشق عنه بطنه، فغسله ثلاث مرات. واختلف إليه

---

(١) فى ت، أ: « مؤدب». (٢) فى ت، ف:« من بين زمزم». (٣) فى ت: « كبير».

(٤) سيأتى من رواية الطبرانى من طريق سعيد بن منصور، وانظر تخريجه هناك عند الآية: ٤٤ من هذه السورة.

(٥) فى ف: «فقال». (٦) زيادة من ت، ف، والمسند.

(٧) المسند (١/٣٨).

(٨) صحيح مسلم برقم (٩٧٢).

(٩) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.

ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم، فشرح صدره ونزع ماكان فيه من غل، وملأه حلمًا وعلماً، وإيماناً ويقيناً وإسلاماً، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة.

ثم أتاه بفرس فحمل[١] عليه، كل خطوة منه منتهى بصره ـ أو: أقصى بصره ـ قال: فسار وسار معه جبريل عليهما[٢] السلام قال: فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبى[٣] ﷺ: « ياجبريل، ما هذا ؟ » قال: هؤلاء المجاهدون فى سبيل اللّه، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين.

ثم أتى على قوم تُرضَخ رؤوسهم بالصخر، كلما رُضِخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شىء، فقال: « ما هؤلاء ياجبريل ؟ » قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الإبل والنعم، ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها، قال[٤]: «ما هؤلاء ياجبريل؟» قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم اللّه شيئاً وما اللّه بظلام للعبيد.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر[٥] ولحم آخر نيئ فى قِدر خبيث، فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضيج الطيب، فقال: «ما هؤلاء ياجبريل ؟ » فقال: هذا الرجل من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيبة، فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ،[والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح][٦].

قال: ثم أتى على خشبة على الطريق، لا يمر بها ثوب إلا شقته، ولا شىء إلا خرقته، قال: «ماهذا ياجبريل؟» قال: هذا مثل أقوام من أمتك، يقعدون على الطريق يقطعونه[٧]، ثم تلا ﴿ **وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ [وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ]**[٨] ﴾ [الأعراف: ٨٦].

قال: ثم أتى على رجل قد جمع[٩] حزمة [حطب][١٠] عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: « ما هذا ياجبريل؟» فقال[١١] :هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها.

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شىء، قال: « ما هؤلاء ياجبريل ؟ » قال: هؤلاء خطباء الفتنة.

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من [حيث][١٢] خرج، فلا يستطيع، فقال: « ما هذا ياجبريل؟» فقال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها.

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: «ياجبريل، ما هذه[١٣] الريح الطيبة الباردة؟ وما هذا المسك؟ وما هذا الصوت؟» قال: هذا صوت الجنة، تقول: يارب آتنى ما وعدتنى، فقد كثرت غرفى، وإستبرقى وحريرى وسندسى، وعبقريى ولؤلؤى ومرجانى، وفضتى

(١) فى ف، أ: « فحمله». (٢) فى ت، ف، أ: «عليه». (٣) فى ف : « فقال رسول الله».
(٤) فى ف: « فقال». (٥) فى ت، ف :«قدور». (٦) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.
(٧) فى ت، ف: « فيقطعونه». (٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت: «حمل».
(١٠) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى. (١١) فى ف: « قال». (١٢) فى ت، هـ : «موضع» والمثبت من الطبرى.
(١٣) فى ت، ف، أ: « ما هذا».

وذهبى وأكوابى وصحافى، وأباريقى ومراكبى، وعسلى ومائى، وخمرى ولبنى فآتنى ما[(١)] وعدتنى. فقال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحاً ولم يشرك بى، ولم يتخذ من دونى أنداداً، ومن خشينى فهو آمن، ومن سألنى أعطيته، ومن أقرضنى جزيته، ومن توكل علىّ كفيته، إنى أنا اللَّه لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك اللَّه أحسن الخالقين، قالت: قد رضيت.

قال: « ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً منتنة، فقال: « ما هذه[(٢)] الريح يا جبريل؟ وما هذا الصوت؟ » فقال: هذا صوت جهنم تقول: يارب آتنى ما وعدتنى، فقد كثرت سلاسلى وأغلالى، وسعيرى وحميمى، وضريعى، وغساقى وعذابى، وقد بعد قعرى، واشتد حرى، فآتنى كل ما وعدتنى، فقال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وكل خبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رضيت.

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: ياجبريل، من هذا معك؟ قال: محمد ﷺ. قالوا: أو قد أرسل محمد؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء.

قال: ثم لقى أرواح الأنبياء، فأثنوا على ربهم، فقال إبراهيم: الحمد للّه الذى اتخذنى خليلاً، وأعطانى ملكاً عظيماً، وجعلنى أمة قانتاً يؤتم بى، وأنقذنى من النار، وجعلها علىّ برداً وسلاماً. ثم[(٣)] إن موسى، عليه السلام[(٤)]، أثنى على ربه، عز وجل، فقال: الحمد للّه الذى كلمنى تكليماً، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى، وجعل من أمتى قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون. ثم إن داود، عليه السلام[(٥)]، أثنى على ربه[عز وجل][(٦)] فقال: الحمد للّه الذى جعل لى ملكاً عظيماً، وعلمنى الزبور، وألان لى الحديد، وسخر لى الجبال يسبحن والطير، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب. ثم إن سليمان، عليه السلام، أثنى على ربه[عز وجل][(٧)] فقال: الحمد للّه الذى سخر لى الرياح، وسخر لى الشياطين يعملون لى ماشئت من محاريب وتماثيل، وجفان كالجواب وقدور راسيات، وعلمنى منطق الطير، وآتانى من كل شىء فضلاً، وسخر لى جنود الشياطين والإنس والطير، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين، وآتانى ملكاً عظيماً لا ينبغى لأحد من بعدى، وجعل ملكى ملكاً طيباً ليس فيه حساب. ثم إن عيسى، عليه السلام، أثنى على ربه، عز وجل، فقال: الحمد للّه الذى جعلنى كلمته، وجعل مثلى مثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: «كن» فيكون، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلنى أخلق من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللَّه، وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذنه[(٨)]، ورفعنى وطهرنى، وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل. قال: ثم إن محمداً[(٩)] ﷺ أثنى على ربه، عز وجل، فقال: « فكلكم أثنى على ربه، وإنى مثن على ربى [عز وجل][(١٠)] فقال: الحمد للّه الذى أرسلنى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل علىّ الفرقان[(١١)] فيه بيان لكل شىء، وجعل

---

(١) فى ت: «بما».
(٢) فى أ: «ما هذا».
(٣) فى ف، أ: «قال: ثم».
(٤، ٥) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».
(٦، ٧) زيادة من أ.
(٨) فى ف، أ: « بإذن الله».
(٩) فى أ: «محمدا رسول الله».
(١٠) زيادة من ف، أ.
(١١) فى ت، ف: « القرآن».

أمتى خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتى أمة وسطاً، وجعل أمتى هم الأولين وهم الآخرين، وشرح لى صدرى، ووضع عنى وزرى، ورفع لى ذكرى، وجعلنى فاتحاً وخاتماً » فقال إبراهيم [عليه السلام](١) :بهذا فضلكم محمد ﷺ .

قال أبو جعفر الرازى: خاتم النبوة، فاتح بالشفاعة يوم القيامة.

ثم أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها، فأتى بإناء منها فيه ماء فقيل: اشرب. فشرب منه يسيراً ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن، فقيل له: اشرب، فشرب منه حتى روى. ثم دفع إليـه إناء آخـر فيـه خـمر فقيــل لـه: اشرب فقال: «لا أريده قد رويت» . فقال له جبريل [عليه السلام](٢) :أما إنها ستحرم على أمتك، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل .

قال: ثم صعد به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا ياجبريل؟ فقال: محمد ، قالوا: أوقـد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللّٰه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء. فدخل فإذا هو برجل تام الخلق(٣) لم ينقص من خلقه شىء كما ينقص من خلق الناس، عن(٤) يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة ، إذا نظر إلى الباب الذى عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذى عن يساره بكى وحزن، فقلت: « ياجبريل، من هذا الشيخ التام الخلق الذى لم ينقص من خلقه شىء؟ وما هذان البابان؟» فقال: هذا أبوك آدم [عليه السلام](٥)، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة، إذا نظر إلى من يدخل(٦) من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذى عن شماله باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن.

ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا معك؟ فقال: محمد رسول اللّٰه. قالوا: أو قد أرسل محمد ؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللّٰه من أخ ومن خليفة، فلنعم الأخ ولنعم الخليفة ونعم المجىء جاء. قال: فدخل فإذا هو بشابين فقال: «يا جبريل، من هذان الشابان؟» قال: هذا عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، ابنا الخالة عليهما السلام.

قال: فصعد به إلى السماء الثالثة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل ؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللّٰه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل قد فضل على الناس فى الحسن، كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قال: « من هذا ياجبريل الذى قد فضل على الناس فى الحسن؟» قال: هذا أخوك يوسف، عليه السلام(٧) .

قال: ثم صعد به إلى السماء(٨) الرابعة فاستفتح، فقالوا(٩): من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل؟ (١٠) قال: نعم. قالوا: حياه اللّٰه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء. قال: فدخل، فإذا هو برجل، قال: «من هذا ياجبريل؟» قال: هذا إدريس، رفعه اللّٰه [تعالى](١١)مكاناً علياً.

(١، ٢) زيادة من ف ، أ.
(٣) فى ف: « تام الخلقة».
(٤) فى ف: «على».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت، ف: «يدخله».
(٧) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».
(٨) فى ف: « ثم صعدت إلى السماء».
(٩) فى ف: «فقيل ».
(١٠) فى ف، أ: «أرسل إليه».
(١١) زيادة من ت.

ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل[١] إليه؟ قال: نعم. قالوا:حياه[٢] اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. ثم دخل فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم، قال: «من هذا يا جبريل؟ ومن هؤلاء حوله؟» قال: هذا هارون المحبب [فى قومه][٣]وهؤلاء بنو إسرائيل.

ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح، قيل:[٤] من هذا؟ قال: جبريل. قالوا:ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: أو قد أرسل؟ [٥] قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء[٦] .فإذا هو برجل جالس، فجاوزه فبكى الرجل، فقال:« يا جبريل، من هذا؟» قال: موسى ، قال:« فما باله [٧] يبكى ؟» قال: زعم[٨] بنو إسرائيل أنى أكرم بنى آدم على اللَّه، عز وجل، وهذا رجل من بنى آدم قد خلفنى فى دنيا، وأنا فى أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبال، ولكن مع كل نبى أمته.

قال: ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح، فقيل له: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسى، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس ، وقوم فى ألوانهم شىء، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد[٩] خلص من ألوانهم شىء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص [من][١٠] ألوانهم [شىء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم][١١] فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجاؤوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: «ياجبريل من هذا الأشمط؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء؟ وما هذه الأنهار التى دخلوا فيها فجاؤوا وقد صَفَت ألوانهم؟» قال: هذا أبوك إبراهيم [عليه السلام][١٢] أول من شمط على الأرض. وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم. وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء، فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا فتاب اللَّه عليهم. وأما الأنهار فأولها رحمة اللَّه، والثانى نعمة اللَّه، والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً .

قال: ثم انتهى إلى السدرة فقيل له: هذه السدرة ينتهى إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك ، فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذّة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى، وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. والورقة منها مغطية للأمة كلها. قال: فغشيها نور الخلاق، عز وجل، وغشيتها[١٣] الملائكة أمثال الغربان حين يقعن[١٤] على الشجرة قال: فكلمه اللَّه تعالى عند ذلك[١٥]،

(١) فى ف، أ: «أرسل إليه».
(٢) فى ف، أ: «قالوا: مرحبا به حياه».
(٣) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.
(٤) فى ف:« فقيل».
(٥) فى ف، أ: «أرسل إليه».
(٦) فى ت، ف، أ: «المجيء جاء».
(٧) فى ت: «فماله».
(٨) فى ت، أ:« يزعم».
(٩) فى ت:« قد».
(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(١١) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) فى ت: « وغشيها».
(١٤) فى ت، ف، أ: « حتى تقع».
(١٥) فى ت: « فكلمه يعنى عند ذلك» .

قال له: سل[١]، قال: «إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له[الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيمًا، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له][٢] الرياح، وأعطيت له ملكاً عظيمًا لا ينبغى لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل». فقال له ربه عزوجل: وقد اتخذتك خليلاً - وهو مكتوب فى التوراة: حبيب الرحمن[٣] - وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معى، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين و الآخرين، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً، وآخرهم بعثاً، وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثانى لم يعطها نبى قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، والصلاة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعلتك فاتحاً وخاتماً. فقال النبى ﷺ: « فضلنى ربى بست: أعطانى فواتح الكلام[٤] وخواتيمه وجوامع الحديث، وأرسلنى إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وقذف فى قلوب عدوى الرعب من مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض كلها طهوراً ومسجداً».

قال: وفرض عليه خمسين صلاة. فلما رجع إلى موسى قال: بم أمرت يامحمد؟ قال: «بخمسين صلاة» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبى ﷺ إلى ربه، عز وجل، فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. ثم رجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: « بأربعين» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبى ﷺ إلى ربه[عز وجل][٥] فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: « أمرت بثلاثين»، فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه[عز وجل][٦] فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى فقال[٧]: بكم أمرت؟ قال: «أمرت بعشرين». قال: ارجع إلى ربك [عز وجل][٨] فاسأله التخفيف فإن أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه[عز وجل][٩] فسأله التخفيف فوضع عنه عشرًا. فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: « أمرت بعشر»، قال: ارجع إلى ربك[عز وجل][١٠] فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع على حياء إلى ربه[عز وجل][١١] فسأله التخفيف فوضع عنه خمساً. فرجع إلى موسى، عليه السلام، فقال[١٢]: بكم أمرت؟ قال: «بخمس»، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن

(١) فى ف: «فقال». (٢) زيادة من ف، أ، والطبرى. (٣) فى ت: «محمد حبيب الرحمن».
(٤) فى ف: «الكلم». (٥) زيادة من ف. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ت: «قال». (٨ ـ ١١) زيادة من ف، أ. (١٢) فى ف: «قال».

أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة ، قال: «قد رجعت إلى ربى حتى استحييت، فما أنا براجع إليه»، قيل: أما إنك كما صبرت نفسك على خمس صلوات، فإنهن يجزين عنك خمسين صلاة، فإن كل حسنة بعشر أمثالها. قال: فرضى محمد ﷺ كل الرضا ، قال: وكان موسى، عليه السلام، من أشدهم عليه حين مرّ به وخيرهم له حين رجع إليه[١].

ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبيد اللَّه، عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن أبى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فذكره بمعناه[٢].

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقى، عن أبى سعيد المالينى، عن ابن عدى، عن محمد بن الحسن السَّكُونى البالسى بالرملة، حدثنا على بن سهل، فذكر مثل مارواه ابن جرير عنه[٣]، وذكر البيهقى أن الحاكم أبا عبد اللَّه رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعرانى، عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزبيرى، عن حاتم بن إسماعيل، حدثنى عيسى بن ماهان ـ يعنى أبا جعفر الرازى ـ عن الربيع بن أنس ،عن أبى العالية، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره[٤].

وقال ابن أبى حاتم: ذكر أبو زُرْعَة، حدثنا محمد بن عبد اللَّه بن نمير، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عيسى بن عبد اللَّه التميمى[٥] ـ يعني: أبا جعفر الرازى ـ عن الربيع بن أنس البكرى، عن أبى العالية أو غيره ـ شك عيسى ـ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ[إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا]**[٦] ﴾» فذكر الحديث بطوله كنحو مما سقناه.

قلت: «أبو جعفر الرازى» قال فيه الحافظ أبو زرعة: «الرازى يهم فى الحديث كثيراً» وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم، والأظهر أنه سيئ الحفظ ففيما تفرد به نظر . وهذا الحديث فى بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة، وفيه[٧] شىء من حديث المنام من رواية سمرة بن جندب فى المنام الطويل عند البخارى، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى، أو منام أو قصة أخرى غير الإسراء، واللَّه أعلم.

وقد روى البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الزهرى، أخبرنى سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ حين أسرى به: « لقيت موسى» قال: فنعته فإذا رجل ـ حسبته قال: ـ مضطرب، رَجْل الرأس، كأنه من رجال شنوءة. قال: «ولقيت عيسى» ـ فنعته النبى ﷺ ـ ربعة[٨] أحمر كأنما خرج من ديماس - يعنى حمام. قال: «ورأيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به». قال: « وأتيت بإناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر خمر، قيل لى: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن، فشربت، فقيل لى: هديت الفطرة ـ أو: أصبت الفطرة ـ أما إنك لو

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ٦).
(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠).
(٣) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٦ ، ٣٩٧).
(٤) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٧).
(٥) فى ت: « اليمنى».
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «فيه».
(٨) فى ت، أ: «قال: ربعة».

أخذت الخمر غوت أمتك». وأخرجاه من وجه آخر. عن الزهرى ـ به نحوه[١].

وفى صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن حُجَيْن بن المثنى، عن عبد العزيز بن أبى سلمة، عن عبد اللّه بن الفضل الهاشمى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى[٢]، فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه اللّه لى أنظر إليه، ما سألونى عن شىء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلى، وإذا هو رجل ضربٌ جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت قال قائل: يامحمد، هذا مالك صاحب النار،[فسلم عليه][٣] فالتفت إليه فبدأنى بالسلام»[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى الصلت، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوق[٥] فإذا رعد وبرق وصواعق». قال: «وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برَهَج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا ياجبريل؟ قال: هذه الشياطين يحرفون على أعين بنى آدم ألا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب».

ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة، به. ورواه ابن ماجه من حديث حماد، به[٦].

رواية جماعة من الصحابة[رضى الله عنهم][٧] ممن تقدم وغيرهم:

قال الحافظ البيهقى: أخبرنا أبو عبد اللّه ـ يعنى الحاكم ـ أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهمذان، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمذانى، حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفزارى، حدثنا عمر بن سعد النصرى[٨] من بنى نصر[٩] بن قُعَين، حدثنى عبد العزيز، وليث بن أبى سليم[١٠] وسليمان الأعمش، وعطاء بن السائب ـ بعضهم يزيد فى الحديث على بعض ـ عن على بن أبى طالب و عبد اللّه[١١] بن عباس ـ و محمد بن إسحاق بن يسار، عمن حدثه عن ابن عباس ـ

---

(١) صحيح البخارى برقم(٣٣٩٤) وصحيح مسلم برقم(١٦٨).

(٢) فى ت: «عن أمرى».

(٣) زيادة من ف، أ، ومسلم.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٧٢).

(٥) فى ف، أ: «فوق رأسى».

(٦) المسند(٢/ ٣٥٣ ـ ٣٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٧٣). وسبق الحديث من رواية أحمد عند تفسير الآية: ١٨٥ من سورة الأعراف، وعقب عليه الحافظ ابن كثير بقوله: «على بن زيد بن جدعان له منكرات».

(٧) زيادة من أ.

(٨) فى ف:« النضرى».

(٩) فى ف: « من بنى نضرة».

(١٠) فى أ: « سلمة».

(١١) فى ت، ف: «وعن عبد الله».

وعن سليم بن مسلم العقيلى، عن عامر الشعبى، عن عبد اللَّه بن مسعود ـ وجويبر، عن الضحاك، ابن مزاحم قالوا: كان رسول اللَّه ﷺ فى بيت أم هانئ راقداً، وقد صلى العشاء الآخرة. قال أبو عبد اللَّه الحاكم: قال لنا هذا الشيخ . . . وذكر الحديث، فكتب[١] المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً، يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شىء منها فى قدرة اللَّه إن صحت الرواية .

قال البيهقى: فيما ذكرنا قبل فى حديث أبى هارون العبدى فى إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وباللَّه التوفيق[٢] .

قلت: وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين، رحمة اللَّه عليهم أجمعين.

رواية عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها:

قال[الإمام][٣] البيهقى: أخبرنا أبو عبد اللَّه الحافظ، أخبرنى مكرم بن أحمد القاضى، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى[٤] ،حدثنا محمد بن كثير الصَّنْعانى، حدثنا معمر بن راشد، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس! فقال: أو قال ذلك ؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح ؟ قال: نعم، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء فى غَدْوة أو رَوْحة. فلذلك سمى أبو بكر: الصديق ، رضى الله عنه[٥].

رواية أم هانئ بنت أبى طالب ، رضى الله عنها:

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن السائب الكلبى، عن أبى صالح باذان، عن أم هانئ بنت أبى طالب [رضى الله عنها][٦] فى مسرى رسول اللَّه ﷺ أنها كانت تقول: ما أسرى برسول اللَّه ﷺ إلا وهو فى بيتى، نائم عندى تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول اللَّه ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: «يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين»[٧] .

الكلبى: متروك بمرة ساقط، لكن رواه أبو يعلى فى مسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصارى، عن ضَمْرَة بن ربيعة، عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى[٨] ،عن أبى صالح،عن أم هانئ بأبسط من هذا

(١) فى ت: « فثبت».
(٢) دلائل النبوة (٢/ ٤٠٤).
(٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ت: «البكرى».
(٥) دلائل النبوة (٢/ ٣٦٠) وهو فى المستدرك (٣/ ٦٢) وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
(٦) زيادة من أ.
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٣) من طريق محمد بن إسحاق.
(٨) فى ت، ف، أ :« الشيبانى».

السياق، فليكتب ههنا[١].

وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث عبد الأعلى بن أبى المُسَاور، عن عكرمة، عن أم هانئ قالت: بات رسول اللَّه ﷺ ليلة أسرى به فى بيتى، ففقدته من الليل، فامتنع منى النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش، فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن جبريل، عليه السلام، أتانى فأخذ بيدى فأخرجنى، فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار، فحملنى عليها، ثم انطلق حتى انتهى بى إلى بيت المقدس، فأرانى إبراهيم يشبه خلقه خلقي، ويشبه خلقي خلقه، وأرانى موسى آدم طويلاً سبط الشعر، شبهته برجال أزد شنوءة ، وأرانى عيسى ابن مريم رَبْعة أبيض يضرب إلى الحمرة، شبهته بعروة بن مسعود الثقفى، وأرانى الدجال ممسوح العين اليمنى، شبهته بِقَطَن بن عبد العزى»

(١) كذا ولم أجد فى النسخ إثباته، وقد رواه أبو يعلى فى معجم شيوخه برقم (١٠) قال: « حدثنا محمد بن إسماعيل الوساوسى، حدثنا ضمرة بن ربيعة، حدثنا يحيى بن أبى عمرو السيبانى، عن أبى صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ قالت: دَخَلَ عليّ رسول الله ﷺ بغَلَس، فجلس، وأنا على فراشي، فقال: «شَعُرت أنى بت الليلَة فى المسجد الحرام، فأتانى جبريل، فذهب بى إلى باب المسجد، فإذا بدابة أبيض، فوقَ الحمارِ، ودونَ البغل، مضطرب الأذنين، فركبت وكان يضع حافره مدَّ بصره، إذا أخذنى فى هبوطٍ طالت يداه وقَصُرت رجلاه، وإذا أخذنى فى صعودٍ طالت رجلاه وقَصُرت يداه، وجبريلُ لا يفوتنى، حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فأوثقتُه بالحَلْقة التى كانت الأنبياء توثق بها، فنُشر لى رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، فصليت بهم، وكلّمتهم، وأُتيت بإناءين أحمر وأبيض، فشربت الأبيض، فقال لى جبريل: شربت اللبن، وتركت الخمر، لو شربت الخمر لارتدَّت أمتك. ثم ركبته، فأتيت المسجد الحرام وصليت به الغَداة» قالت: فعلقتُ بردائه: أنشدك الله يا ابن عمى! أن تحدثَ بهذا قريشاً، فيكذّبك من صدّقك. فضرب بيده على ردائه، فانتزعه من يدى، فارتفع عن بطنه، فنظرت إلى عُكَنه، فوق إزاره كأنها طى القراطيس، فإذا نورٌ ساطعٌ عند فؤاده، كاد يخطف بصرى، فخررت ساجدة، فلما رفعتُ رأسى إذا هو قد خرج، فقلت لجاريتى نَبْعَة: ويحكِ اتبعيه، فانظرى ماذا يقول، وماذا يقال له؟ فلما رجعت نَبْعَةُ، أخبرتنى أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من قريش، فى الحطيم، فيهم المطعم بن عَدِى، وعَمْرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، فقال: «إنى صليت الليلة العشاء فى هذا المسجد، وصليت به الغَداة، وأتيتُ فيما دون ذلك بيت المقدس، فنُشر لى رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، وصليت بهم وكلّمتهم».

فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به: صِفْهم لى، فقال: «أما عيسى، ففوق الرَّبْعَة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد، أشعر تعلوه صُهبة، كأنه عروة بن مسعود الثَّقفى. وأما موسى، فضخم آدم، طُوالٌ، كأنه من رجال شَنوءة، متراكب الأسنان، مقلّص الشفة، خارج اللثة، عابس. وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بى، خَلْقاً، وخُلقاً». قال: فضجّوا، وأعظموا ذلك، فقال المطعم بن عدى: كل أمرك كان قبل اليوم، كان أَمَماً غير قولك اليوم، أمّا أنا، فأشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، نصعد شهراً، ونحدر شهراً، تزعم أنك أتيته فى ليلة، واللات والعُزَّى لا أُصدّقك، وما كان الذى تقول قَطُّ. وكان للمطعم بن عدى حوض على زمزم أعطاه إياه عبدُ المطلب، فهدمه وأقسم باللاتِ والعُزَّى لا يسقى قطرة أبداً، فقال أبو بكر: يا مطعم، بئسَ ما قلتَ لابن أخيك جبهتَه وكذبته، أنا أشهد أنه صادق، فقالوا: يا محمد، فصِفْ لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلاً وخرجت منه ليلاً». فأتاه جبريل بصورته فى جناحه، فجعل يقول: «باب منه كذا، فى موضِعِ كذا، وباب منه كذا، فى موضع كذا»، وأبو بكر يقول: صدقت، قالت نَبْعة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ: «يا أبا بكر، إنى قد سمّيتك (الصديق)». قالوا: يا مطعم، دعنا نسأله عَمّا هو أغنى لنا من بيت المقدس. يا محمد، أخبرنا عن عيرنا، فقال: «أتيت على عير بنى فلان بالروحاء، قد أضلوا ناقةً لهم، فانطلقوا فى طلبها، فانتهيتُ إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء، فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية. «ثم انتهيتُ إلى عير بنى فلان، فنفرتْ منى الإبلُ، وبرك منها جمل أحمر، عليه جوالق محيط ببياض، لا أدرى أكسر البعير، أم لا، فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية «ثم انتهيتُ إلى عير بنى فلان فى التنعيم، يقدُمها جمل أورق، وها هى ذه يطلع عليكم من الثَّنِيّة». فقال الوليد بن المغيرة: ساحر، فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال. فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. قلت لأم هانئ: ما الشجرة الملعونة فى القرآن؟ قالت: الذين خُوِّفوا فلم يزدهم التخويف إلا طغياناً وكفراً».

قال: «وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت». فأخذت بثوبه فقلت: إني أذكرك[١] الله، إنك تأتي قوما يكذبونك وينكرون مقالتك، فأخاف أن يسطوا بك. قالت: فضرب ثوبه من يدي، ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس، فأخبرهم ما أخبرني، فقام جبير بن مطعم فقال: يامحمد لو كنت شابا[٢] كما كنت، ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا. فقال رجل من القوم: يامحمد، هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا؟ قال: « نعم، والله قد وجدتهم أضلوا بعيراً لهم فهم في طلبه». قال: فهل مررت بإبل لبني فلان ؟ قال: « نعم، وجدتهم في مكان كذا وكذا ، وقد انكسرت[٣] لهم ناقة حمراء، وعندهم قصعة من ماء، فشربت ما فيها». قالوا: فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة [قال: «قد كنت عن عدتها مشغولاً» .فنام فأوتي بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة][٤] ثم أتى قريشاً فقال لهم: «سألتموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان، وسألتموني عن إبل بني فلان، فهي كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابن أبي قحافة وفلان وفلان، وهي مصبحتكم من الغداة[٥] على الثنية». قال: فقعدوا[٦] على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبل فسألوهم: هل ضل لكم بعير ؟ قالوا: نعم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة؟ قال أبو بكر: أنا والله وضعتها فما شربها أحد، ولا أهراقوه في الأرض. فصدقه أبو بكر [رضي الله عنه][٧] وآمن به، فسمي يومئذ الصديق[٨].

فصل

وإذا[٩] حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام . ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ولم يحصل على مطلب .

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام[١٠] ،أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقلته[١١] الناس على التعدد والتكرر .

قال موسى بن عقبة ،عن الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة.

وقال السدي: بستة عشر شهراً.

والحق أنه، عليه السلام[١٢] ،أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق،

---

(١) في ت: «أذكر». (٢) في ت، ف: « أن لو كنت لك شابا». (٣) في ت: « وقد كسرت».
(٤) زيادة من الخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ٤٣٩).
(٥) في ف: « بالغداة». (٦) في ت، ف: « فغدوا». (٧) زيادة من ف، أ.
(٨) المعجم الكبير (٢٤/ ٤٣٢) وعبد الأعلى بن أبي المساور كذاب.
(٩) في ف :« فإذا». (١٠) في ف: « بأنه صلى الله عليه وسلم». (١١) في ت: « ولتعلمه».
(١٢) في ف: « أنه صلى الله عليه وسلم».

فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج[١] ـ وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها ـ فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء[عليهم السلام][٢] الذين فى السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم فى السادسة، وإبراهيم الخليل فى السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع[٣] فيه صريف الأقلام، أى: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر اللّه، تعالى، عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور[٤] وإبراهيم الخليل بانى الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . ورأى الجنة والنار، وفرض اللّه[عز وجل][٥] عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولطفاً بعباده. وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها . ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أمهم فى السماء. والذى تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن فى بعضها أنه كان أول[٦] دخوله إليه . والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مرّ بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته مايشاء اللّه، تعالى. ثم لما فرغ من الذى أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين[صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين][٧] ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه فى الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام[٨] له فى ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء، أو الجميع ـ فقد ورد أنه فى بيت المقدس، وجاء أنه فى السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيافة للقادم، واللّه أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام[٩] وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكر أن يكون رسول اللّه ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام[١٠] كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدليل على هذا قوله [عز وجل][١١] : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبير شىء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدّ جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد،

---

(١) فى ت، ف: «بالمعراج». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: « سمع»، وفى ف، أ: «فسمع».
(٤) فى ت، ف، أ: «المعمور الذى». (٥) زيادة من ف. (٦) فى ف، أ: «كان فى أول».
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ت: «عليه الصلاة والسلام». (٩) فى ف: « صلى الله عليه وسلم».
(١٠) فى أ: « صلى الله عليه وسلم» . (١١) زيادة من: ف، أ.

وقد قال[عز شأنه][١] : ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء : ٦٠]، قال ابن عباس[رضى الله عنهما][٢] :هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ[ليلة أسرى به، والشجرة الملعونة: شجرة الزقوم][٣]. رواه البخارى. وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج فى حركتها إلى مركب تركب[٤] عليه، والله أعلم.

وقال آخرون: بل أسرى برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده. قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس؛ أن معاوية بن أبى سفيان [رضى الله عنهما][٥] كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة.

وحدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن أسرى بروحه.

قال ابن إسحاق: فلم ينكر ذلك من قولها، لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، ولقول[٦] الله فى الخبر عن إبراهيم: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[الصافات: ١٠٢]، ثم مضى على ذلك. فعرفت أن الوحى يأتى للأنبياء من الله أيقاظاً ونياما.

فكان[٧] رسول الله ﷺ يقول: « تنام عيناى، وقلبى يقظان » فالله أعلم أى ذلك كان قد جاءه، وعاين فيه من الله ما عاين، على أى حالاته كان، نائماً أو يقظان، كل ذلك حق وصدق. انتهى كلام ابن إسحاق[٨].

وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير فى تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف[٩] ظاهر سياق القرآن، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم [١٠]، والله أعلم.

فائدة حسنة جليلة:

روى الحافظ أبو نُعَيم الأصبهانى فى كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدى: حدثنى مالك بن أبى الرجال، عن عمرو بن عبد الله، عن محمد بن كعب القرظى، قال: بعث رسول الله ﷺ دَحْية بن خليفة إلى قيصر ـ فذكر وروده عليه وقدومه إليه. وفى السياق دلالة عظيمة على وُفُور عقل هرقل ـ ثم استدعى من بالشام من التجار، فجىء بأبى سفيان صخر بن حرب

(١، ٢) زيادة من ف، أ. (٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) فى ف: «يركب». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ف: «وكقول».
(٧) فى ف: « وكان».
(٨) ذكره الطبرى فى تفسيره(١٥/١٣) بإسناده إلى ابن إسحاق.
(٩) فى ف: « اختلاف».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/١٣، ١٤).

وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التى رواها البخارى ومسلم، كما سيأتى بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال فى هذا السياق عن أبى سفيان: والله ما يمنعنى أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أنى أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علىّ، ولا يصدقنى بشىء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا ـ أرض الحرم ـ فى ليلة فجاء مسجدكم هذا ـ مسجد إيلياء، ورجع[1] إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبَطْرِيقُ إيلياء عند رأس قيصر، فقال: بَطْرِيق إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر [2] قيصر، وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إنى كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى، فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم فعالجته فغلبنى، فلم نستطع أن نحركه، كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجرة، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى . قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذى فى زاوية الباب[3] مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة قال: فقلت لأصحابى: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبى ، وقد صلى الليلة فى مسجدنا. وذكر تمام الحديث [4].

فائدة :

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دَحْيَة فى كتابه «التنوير فى مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد ـ ثم قال: وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلى[بن أبى طالب][5] وابن مسعود، وأبى ذر، ومالك بن صعصعة، وأبى هريرة، وأبى سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبى بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرْط، وأبى حبة وأبى ليلى الأنصاريين[6]، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبى أيوب، وأبى أمامة، وسمرة بن جُنْدُب، وأبى الحمراء، وصهيب الرومى، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق، رضى الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع فى المسانيد ، وإن لم تكن[7] رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملحدون[8] ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف:٨].

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾ .

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد، صلوات الله وسلامه عليه[9]، عطف بذكر موسى عبده

---

(١) فى ف: «فرجع». (٢) فى ف، أ: «فنظر إليه». (٣) فى ف، هـ: « المسجد».
(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور(٥/ ٢٢٤) وعزاه لأبى نعيم فى الدلائل، ولم أجده فى المطبوع من الدلائل.
(٥) زيادة من ف. (٦) فى ت، ف: «الأنصارى». (٧) فى ف: «يكن».
(٨) فى ف: « والملحدون». (٩) فى ف: « صلى الله عليه وسلم».

وكليمه [عليه السلام][١] أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام[٢] وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعنى التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى الكتاب ﴿هُدًى﴾ أى هادياً ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ يَتَّخِذُوا﴾ أى لئلا يتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ أى ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دونى؛ لأن اللَّه تعالى أنزل على كل نبى أرسله[٣] أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهييج وتنبيه على المنة، أى: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح فى السفينة، تشبهوا بأبيكم، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتى عليكم بإرسالى إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد فى الحديث وفى الأثر عن السلف: أن نوحاً، عليه السلام، كان يحمد اللَّه [تعالى][٤] على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمى عبداً شكوراً .

قال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبى حُصَين، عن عبد اللَّه بن سنان، عن سعد بن مسعود الثقفى قال: إنما سمى نوح عبداً شكوراً؛ لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد اللَّه[٥].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبى زائدة، عن سعيد بن أبى بُرْدَة، عن أنس بن مالك، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد اللَّه عليها».

وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من طريق أبى أسامة، به[٦].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد اللَّه على كل حال.

وقد ذكر البخارى هنا حديث أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة[رضى الله عنه][٧] ،عن النبى ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة ـ بطوله ، وفيه ـ: فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت[٨] أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك اللَّه عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكماله[٩].

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ

---

(١) زيادة من ف،أ.
(٢) فى ت: «عليهما الصلاة والسلام». وفى ف، أ: «عليهما من الله الصلاة والسلام».
(٣) فى ت: «أرسل».
(٤) زيادة من أ.
(٥) المعجم الكبير (٦/ ٣٢).
(٦) المسند (٣/ ١١٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٣٤) وسنن الترمذى برقم (١٨١٦) وسنن النسائى الكبرى برقم(٦٨٩٩).
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف، أ: «يا نوح، إنك أنت».
(٩) صحيح البخارى برقم(٤٧١٢).

نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) ﴾.

يقول تعالى: إنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب، أى: تقدم إليهم وأخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون[1] علواً كبيراً، أى: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كما قال تعالى: ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ** ﴾[الحجر: ٦٦] أى: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.

وقوله: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا** ﴾ أى: أولى الإفسادتين ﴿**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾ أى: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى بأس شديد، أى: قوة وعدة وسلطة[2] شديدة ﴿**فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ** ﴾ أى: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أى: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً ﴿**وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً**﴾ .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم: من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزرىّ وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا**﴾ .

وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل .

وقد ذكر ابن أبى حاتم له قصة عجيبة فى كيفية ترقيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مقعداً ضعيفاً يستعطى الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقاً كثيراً من بنى إسرائيل.

وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً[3] ، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب فى ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث! والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزى، رحمه الله، بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب .

وقد وردت فى هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع [بعض][4] زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن فى غُنْيَة عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله تعالى علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بَيْضَتَهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء .

---

(١) فى ف، أ: « ولتعلن». (٢) فى ف: «وسلطنة».

(٣) تفسير الطبرى(١٥/ ١٧).

(٤) زيادة من ف، أ.

وقد روى ابن جرير: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بُختنَصَّر على الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلى على كِبًا، فسألهم: ماهذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن[١].

وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه خلقاً منهم أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ماهو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، واللَّه أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أى: فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أى: المرة الآخرة[٢]، أى: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ أى بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أى: يدمروا ويخربوا ﴿ مَا عَلَوْا﴾ أى: ما ظهروا عليه ﴿ تَتْبِيرًا. عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ أى: فيصرفهم عنكم ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أى: متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم فى الدنيا مع ماندخره لكم فى الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال[تعالى][٣]: ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أى: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه.

قال ابن عباس [رضى الله عنهما][٤]: ﴿حَصِيرًا ﴾ أى: سجناً.

وقال مجاهد: يحصرون فيها. وكذا قال غيره.

وقال الحسن: فراش ومهاد.

وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط اللَّه عليهم هذا الحى، محمد ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) ﴾.

يمدح تعالى كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدى لأقوم الطرق، وأوضح السبل ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ أى: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

---

(١) تفسير الطبرى(١٥/ ٢٤).

(٢) فى ت: « الأخرى». (٣) زيادة من ت. (٤) زيادة من ف، أ.

﴿ وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ .

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ أى: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقد تقدم فى هذا الحديث: « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من اللّه ساعة إجابة يستجيب فيها ».

وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً﴾.

وقد ذكر سلمان الفارسى وابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ههنا قصة آدم، عليه السلام، حين همّ بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد للّه. فقال اللّه: يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه، فهمّ بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع[(١)]، وقال: يارب عجل [(٢)] قبل الليل .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾ .

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا فى الليل وينتشروا فى النهار للمعايش والصناعات[(٣)] والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: فى معايشكم[(٤)] وأسفاركم ونحو ذلك ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شىء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ . وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١ ـ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان: ٦١ ، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ[(٥)] اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾[الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[الأنعام: ٩٦]، وقال

(١) فى ت: « قبل أن يستطيع». (٢) فى ت، ف: « اعجل». (٣) فى ت، ف، أ: « والصنائع».
(٤) فى ت، ف: « معاشكم». (٥) فى ت: « ويكور» وهوخطأ.

تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أى: علامة يعرف بها[1] وهى الظلام وظهور القمر فيه ، وللنهار علامة، وهى النور وظهور[2] الشمس النيرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ لآيَاتٍ [3] لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥ ، ٦]، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩] .

قال ابن جُرَيج، عن عبد اللَّه بن كثير فى قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة[4] النهار .

وقال ابن جريج عن مجاهد :الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ قال: السواد الذى فى القمر ،وكذلك [5] خلقه اللَّه تعالى.

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضىء كما تضىء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: السواد الذى فى القمر.

وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكوَّاء سأل [أمير المؤمنين][6] على ابن أبى طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التى فى القمر ؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن؟ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه .

وقال قتادة فى قوله :﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾: كنا نحدث أن[7] محو آية الليل سواد القمر الذى فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة، أى: منيرة، خلق الشمس أنور من القمر وأعظم.

وقال ابن أبى نجيح عن ابن عباس :﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما اللَّه، عز وجل [8].

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾.

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: من خير وشر، يُلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٥ ، ٦]، وقال تعالى :﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٧ ،

(١) فى ت: « يعرفونها». (٢) فى ت، ف: «وطلوع». (٣) فى ف، أ: ﴿إن فى ذلك لآيات﴾ وهو خطأ.
(٤) فى ت، ف، أ: « وسدف». (٥) فى ف: « ولذلك». (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ت: « ما نجد كان». (٨) فى ف: « الله تعالى».

١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٤]، قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن أبى الزبير، عن جابر: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « لَطَائر كل إنسان فى عنقه ». قال ابن لهيعة: يعنى الطيرة[(١)].

وهذا القول من ابن لهيعة فى تفسير هذا الحديث، غريب جداً، واللّه أعلم.

وقوله[تعالى][(٢)]: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أى: نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً ﴿مَنشُورًا﴾ أى: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أى: إنك[(٣)] تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى.

وقوله [تعالى][(٤)]: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو لا نظير له فى[(٥)] الجسد، ومن ألزم بشىء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر[(٦)]:

اذهب بها اذهب بها طوقتها طوق الحمامة

قال قتادة، عن جابر بن عبد اللّه، رضى الله عنه[(٧)]، عن نبى الله ﷺ أنه قال: « لا عَدْوَى ولا طيرَة وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ». كذا رواه ابن جرير[(٨)].

وقد رواه الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، فى مسنده متصلاً، فقال: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى الزبير، عن جابر [رضى الله عنه][(٩)] قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «طير كل عبد فى عنقه»[(١٠)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، حدثنا عبد اللّه، حدثنا ابن لهيعة، حدثنى يزيد: أن أبا الخير حدثه: أنه سمع عقبة بن عامر [رضى اللّه عنه][(١١)] يحدث عن النبى ﷺ قال: « ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: ياربنا، عبدك فلان، قد حبسته؟ فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت»[(١٢)].

---

(١) المسند (٣/ ٣٦٠)، وقال الهيثمى فى المجمع(٧/ ٤٩): « فيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح».
(٢) زيادة من ت. (٣) فى ت، ف: « أى أنت». (٤) زيادة من ت. (٥) فى ت، أ: « من».
(٦) هو أبو أحمد بن جحش، والأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٠٠).
(٧) فى ف، أ: « عنهما».
(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ٣٩).
(٩) زيادة من ف، أ.
(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم(١٠٥٣).
(١١) زيادة من ف، أ.
(١٢) المسند (٤/ ١٤٦).

إسناده جيد قوى، ولم يخرجوه.

وقال مَعْمَر، عن قتادة: ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِه ﴾ قال: عمله. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصرى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧] يا ابن آدم، بسطت لك صحيفتك[١]، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل[٢] ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ قد عدل ـ واللَّه [٣] ـ عليك من جعلك حسيب نفسك.

هذا من حسن[٤] كلام الحسن، رحمه اللَّه.

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾.

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة[٥] لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أى: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجنى على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه.

ثم قال: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجنى جانٍ إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾[فاطر:١٨].

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله[تعالى][٦]، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم فى أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عدل اللَّه ورحمته بعباده.

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٨، ٩]، وكذا قوله[تعالى][٧]: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

---

(١) فى ت، ف، أ: «صحيفة». (٢) فى ت، ف، أ: «فاملك». (٣) فى ت، ف، أ: «الله»
(٤) فى ف: « أحسن». (٥) فى ف: « الحمد». (٦، ٧) زيادة من ت.

نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن اللَّه تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ، ومن ثم طعن جماعة من العلماء فى اللفظة التى جاءت مقحمة فى صحيح البخارى عند قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٦].

حدثنا عبيد اللَّه بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن صالح بن كَيْسَان، عن الأعرج بإسناده إلى[١] أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم اللَّه من خلقه أحداً، وأنه ينشئ للنار خلقاً فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟[٢]» ثلاثا ، وذكر تمام الحديث[٣].

فإن هذا إنما جاء فى الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ فى هذه اللفظة[٤] وقالوا: لعله انقلب على الراوى بدليل ما أخرجاه فى الصحيحين واللفظ للبخارى من حديث عبد الرزاق[٥] ،عن مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة قال: قال النبى[٦] ﷺ :« تحاجت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط ،قط، فهنالك تمتلئ ويزوى[٧] بعضها إلى بعض، ولا يظلم اللَّه من خلقه أحداً ، وأما الجنة فينشئ الله لـها خلقاً » [٨].

بقى ههنا مسألة قد اختلف الأئمة[٩] ،رحمهم اللَّه تعالى، فيها[١٠] قديماً وحديثاً وهى: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات فى الفَتْرة ولم تبلغه[١١] الدعوة. وقد ورد فى شأنهم أحاديث أنا ذاكرها لك بعون اللَّه [تعالى][١٢] وتوفيقه ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة فى ذلك، واللَّه[١٣] المستعان .

فالحديث الأول : عن الأسود بن سَرِيع:

قال الإمام أحمد: حدثنا على بن عبد اللَّه، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع[رضى الله عنه][١٤] أن نبى الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هَرَم ، ورجل مات فى فترة ، فأما الأصم فيقول: رب، قد[١٥] جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونى[١٦] بالبعر ، وأما الهَرَمُ فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً،

---

(١) فى ت ، ف، أ: « عن».
(٢) فى ت، ف، أ: «هل من مزيد؟ ويلقون فيها فتقول: هل من مزيد».
(٣) صحيح البخارى برقم (٧٤٤٩).
(٤) فى ت: « الفظلة» وهو خطأ.
(٥) فى ت: « وعبد الرزاق».
(٦) فى ف: « قال رسول الله».
(٧) فى ف: « وينزوى».
(٨) صحيح البخارى برقم(٤٨٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٦).
(٩) فى أ: « العلماء».
(١٠) فى ف: « اختلف العلماء فيها».
(١١) فى ت: « ومن لم تبلغه».
(١٢) زيادة من ت، ف.
(١٣) فى ت، ف، أ: « و بالله».
(١٤) زيادة من ف، أ.
(١٥) فى ف: « لقد».
(١٦) فى ت: «يقذفونى».

وأما الذى مات فى الفترة فيقول: رب، ما أتانى لك رسول . فيأخذ مواثيقهم لُيطعنّه[١] فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً »[٢].

وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبى رافع، عن أبى هريرة ،مثل هذا الحديث غير أنه قال فى آخره :« من[٣] دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها»[٤].

وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقى فى كتاب الاعتقاد، من حديث حنبل[٥] بن إسحاق، عن على بن عبد اللّه المدينى،به[٦] .وقال: هذا إسناد صحيح ، وكذا رواه حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى رافع، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أربعة كلهم يدلى على اللّه بحجة » فذكر نحوه[٧] .

ورواه ابن جرير، من حديث مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة، فذكره موقوفاً ، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٨].

وكذا رواه معمر عن عبد اللّه بن طاوس ،عن أبيه ،عن أبى هريرة موقوفاً .

الحديث الثانى: عن أنس بن مالك:

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا الربيع، عن يزيد بن أبان[٩] قال: قلنا لأنس: يا أبا حمزة، ما تقول فى أطفال المشركين ؟ فقال: قال رسول اللّه ﷺ: «لم يكن لهم سيئات فيعذبوا[١٠] بها فيكونوا من أهل النار ، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من ملوك أهل الجنة هم من خدم أهل الجنة»[١١] .

الحديث الثالث : عن أنس أيضاً:

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا جرير، عن لَيْث، عن عبد الوارث، عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، والمعتوه، ومن مات فى الفَتْرَة، والشيخ الفانى الهم، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: ابرز. ويقول لهم: إنى كنت أبعث إلى عبادى رسلاً من أنفسهم، وإنى رسول نفسى إليكم ادخلوا هذه. قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يارب، أنى ندخلها ومنها كنا نفر ؟ قال: ومن كتبت عليه السعادة يمضى فيقتحم فيها مسرعاً، قال: فيقول اللّه تعالى: أنتم لرسلى أشد تكذيباً ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار».

---

(١) فى ت، ف: « لتطيعنه».

(٢) المسند (٤/ ٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٦): « رجاله رجال الصحيح».

(٣) فى ف : «فمن».

(٤) المسند(٤/ ٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٦): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) فى ف، أ: « أحمد». (٦) الاعتقاد (ص ١٦٩).

(٧) رواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٤٠٤) من طريق الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة به .

(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ٤١)

(٩) فى ف: « زيد هو أبان». (١٠) فى ت: « ليعذبوا».

(١١) رواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ٣٠٨) من طريق سفيان الثورى، عن الربيع بن صبيح به، وضعفه الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣/ ٢٤٦) وله شواهد من حديث أبى سعيد الخدرى، وسمرة بن جندب رضى الله عنهما. وكأن فى متن الحديث نكارة لمخالفته ما ورد فى الصحيحين أولاً، ولأن الله وصف خدم أهل الجنة بالخلود فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان:١٩] وسيأتى تضعيف الحافظ ابن كثير له، والله تعالى أعلم.

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، بإسناده مثله[١].

الحديث الرابع : عن البراء بن عازب، رضى اللَّه عنه:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده أيضاً: حدثنا قاسم بن أبى شيبة، حدثنا عبد الله ـ يعنى ابن داود ـ عن عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن البراء قال: سُئل رسول اللَّه ﷺ عن أطفال المسلمين قال: «هم مع آبائهم». وسئل عن أولاد المشركين فقال: « هم مع آبائهم ». فقيل: يارسول اللَّه، ما يعملون ؟ قال :«اللَّه أعلم بهم»[٢].

ورواه عمر بن ذر ،عن يزيد بن أمية ،عن رجل، عن البراء، عن عائشة، فذكره[٣].

الحديث الخامس : عن ثوبان:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا ريحان بن سعيد، حدثنا عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبى قلاَبة، عن أبى أسماء، عن ثوبان؛ أن النبى ﷺ عظَّم شأن المسألة، قال: « إذا كان يوم القيامة، جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم فيسألهم ربهم، فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولاً، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولاً لكنا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم: أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعونى ؟ فيقولون: نعم ، فيأمرهم[٤] أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيظاً وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم فيقولون: ربنا أخرجنا ـ أو: أجرنا ـ منها ، فيقول لهم: ألم تزعموا أنى إن أمرتكم بأمر تطيعونى ؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم. فيقول: اعمدوا إليها، فادخلوها. فينطلقون حتى إذا رأوها فَرِقوا ورجعوا، فقالوا: ربنا فَرِقنا منها، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخلوها داخرين». فقال نبى اللَّه ﷺ: « لو دخلوها أولَ مرة كانت عليهم برداً وسلاماً ». ثم قال البزار: ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يروه عن أيوب إلا عباد، ولا عن عباد إلا ريحان بن سعيد[٥].

قلت: وقد ذكره ابن حبان فى ثقاته ، وقال يحيى بن معين والنسائى: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود. وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به .

الحديث السادس: عن أبى سعيد ـ سعد بن مالك بن سنان الخدرى:

قال الإمام محمد بن يحيى الذُّهَلى: حدثنا سعيد بن سليمان، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود: يقول الهالك

---

(١) مسند أبى يعلى(٧/ ٢٢٥) ومسند البزار برقم (٢١٧٧) «كشف الأستار» وليث بن أبى سليم ضعيف، وعبد الوارث قال عنه البخارى:« منكر الحديث».

(٢) وذكره المؤلف فى جامع المسانيد والسنن (٣٧/ ٨٧) من مسند أبى يعلى ،ولم أقع عليه فى المطبوع من المسند.

(٣) لم أقع على هذا الطريق، ولعلى أستدركه فيما بعد ـ إن شاء الله. وروى الإمام أحمد فى مسنده (٦/ ٨٤) من طريق بهية عن عائشة نحوه.

(٤) فى ت: « فأمرهم».

(٥) مسند البزار برقم (٣٤٣٣) «كشف الأستار».

فى الفترة: لم يأتنى كتاب ، ويقول المعتوه: رب، لم تجعل لى عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً ، ويقول المولود: رب لم أدرك العقل فترفع[١] لهم نار فيقال لهم[٢] :ردوها» ، قال: فيردها من كان فى علم اللَّه سعيداً لو أدرك العمل ، ويمسك عنها من كان فى علم اللَّه شقياً لو أدرك العمل ، فيقول: إياى عصيتم، فكيف لو أن رسلى أتتكم ؟ ».

وكذا رواه البزار، عن محمد بن عمر بن هَيَّاج الكوفى، عن عبيد اللَّه[٣] بن موسى، عن فضيل ابن مرزوق، به[٤] .ثم قال: لا يعرف من حديث أبى سعيد إلا من طريقه، عن عطية عنه ، وقال فى آخره :« فيقول اللَّه: إياى عصيتم فكيف برسلى بالغيب؟ » .

الحديث السابع: عن معاذ بن جبل، رضى اللَّه عنه:

قال هشام بن عَمَّار ومحمد بن المبارك الصورى[٥] :حدثنا عمر بن واقد، عن يونس بن حلبس، عن أبى إدريس[٦] الخولانى، عن معاذ بن جبل، عن نبى اللَّه ﷺ قال: « يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلاً، وبالهالك فى الفترة، وبالهالك صغيراً. فيقول الممسوخ: يارب، لو آتيتنى عقلاً ماكان[٧] من آتيته عقلاً بأسعد منى ـ وذكر فى الهالك فى الفترة والصغير نحو ذلك ـ فيقول الرب عز وجل: إنى آمركم بأمر فتطيعونى ؟ فيقولون: نعم، فيقول: اذهبوا فادخلوا النار ـ قال: ولو دخلوها ما ضرّتهم ـ فتخرج عليهم قوابص، فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق اللَّه من شىء، فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الرب عزّ وجل: قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمى خلقتكم، وإلى علمى تصيرون ، ضميهم ، فتأخذهم النار»[٨].

الحديث الثامن : عن أبى هريرة ، رضى اللَّه عنه:

قد تقدم روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريع، رضى اللَّه عنه:

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرَانه ويُمَجِّسانه، كما تنتج[٩] البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ »[١٠].

وفى رواية قالوا: يارسول اللَّه،أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «اللَّه أعلم بما كانوا عاملين»[١١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود،حدثنا عبد الرحمن بن ثابت،عن عطاء بن قُرَّة،عن عبد اللَّه بن ضمرة،عن أبى هريرة،رضى اللَّه عنه،عن النبى ﷺ ـ فيما أعلم، شك موسى ـ قال:

---

(١) فى ف : «فرفع». (٢) فى ت: « فيقول لهم». (٣) فى ت: «عبد الله».

(٤) مسند البزار برقم (٢١٧٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٦) « فيه عطية وهو ضعيف».

(٥) فى ت: « الغورى». (٦) فى ت: « عن أبى ذر». (٧) فى ت: « ما مات».

(٨) ورواه ابن عدى فى الكامل (٥/ ١١٨) من طريق عبد الصمد بن عبد الله، عن هشام بن عمار، عن عمرو بن واقد به. وقال بعد أن ساق أحاديث عمرو بن واقد عن يونس:« كلها غير محفوظة إلا من رواية عمرو بن واقد عن يونس، عن أبى إدريس، عن معاذ ابن جبل وهو من الشاميين ممن يكتب حديثه ولا يحتج به».

(٩) فى ت، ف: «تولد».

(١٠) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم(٢٦٥٨).

(١١) الرواية فى صحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

«ذرارى المسلمين فى الجنة ، يكفلهم إبراهيم عليه السلام[١]»[٢].

وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، عن رسول اللَّه ﷺ، عن اللَّه، عز وجل، أنه قال: «إنى خلقت عبادى حنفاء»[٣]. وفى رواية لغيره «مسلمين».

الحديث التاسع: عن سمرة ، رضى اللَّه عنه:

رواه الحافظ أبو بكر البرقانى فى كتابه «المستخرج على البخارى» من حديث عوف الأعرابى، عن أبى رجاء العطاردى، عن سَمُرَة ، رضى اللَّه عنه، عن النبى ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة» فناداه الناس: يارسول اللَّه ، وأولاد المشركين؟ قال : «وأولاد المشركين»[٤].

وقال الطبرانى: حدثنا عبد اللَّه بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم الضَّبِّى، عن عيسى بن شعيب، عن عباد بن منصور، عن أبى رَجَاء، عن سمرة قال: سألنا رسول اللَّه ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «هم خدم أهل الجنة»[٥].

الحديث العاشر : عن عم حسناء[٦]:

قال: [الإمام][٧] أحمد: [حدثنا إسحاق، يعنى الأزرق][٨]، أخبرنا رَوْح، حدثنا عوف، عن حسناء[٩] بنت معاوية من بنى صريم قالت: حدثنى عمى قال: قلت: يارسول اللَّه، من فى الجنة ؟ قال : «النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والوئيد فى الجنة »[١٠].

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف[١١] فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة، لحديث سَمُرة بن جندب فى صحيح البخارى: أنه عليه الصلاة والسلام[١٢] قال فى جملة ذلك المنام، حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم، عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا: يارسول اللَّه، وأولاد المشركين؟ . قال «نعم، وأولاد المشركين »[١٣].

ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام[١٤] : « هم مع آبائهم ».

ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة فى العَرَصَات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم اللَّه فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم اللَّه فيه بسابق[١٥] الشقاوة.

---

(١) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».

(٢) المسند(٢/٣٢٦) وقال الهيثمى فى المجمع(٧/٢١٩): « فيه عبد الرحمن بن ثابت وثقه ابن المدينى وجماعة، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٤) أصله فى صحيح البخارى برقم (٧٠٤٧) من طريق عوف به نحوه.

(٥) المعجم الكبير (٧/ ٢٤٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٩): «وفيه عبادة بن منصور وثقة يحيى القطان وفيه ضعف».

(٦) فى ت، ف، أ: « خنساء».

(٧) زيادة من ت، أ.

(٨) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٩) فى ت، ف، أ: « خنساء».

(١٠) المسند(٥/٥٨) وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣/ ٢٤٦): « إسناده حسن».

(١١) فى ت، ف، أ: «الوقف».

(١٢) فى ف، أ: «صلى الله عليه وسلم».

(١٣) صحيح البخارى برقم (٧٠٤٧).

(١٤) فى ت: « عليه الصلاة والسلام» ، وفى ف، أ: « صلى الله عليه وسلم».

(١٥) فى ت، ف، أ: « بتقدم».

وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذى حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى، رحمه الله، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذى نصره الحافظ أبو بكر البيهقى فى «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققى العلماء والحفاظ النقاد.

وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النَّمَرى بعد ماتقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقوم بها حجة وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك فى وسع المخلوقين، واللّه لا يكلف نفساً إلا وسعها ؟!

والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما قد نص على ذلك غير واحد من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ماهو ضعيف يقوى[١] بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها ، وأما قوله: «إن الآخرة دار جزاء»، فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافى التكليف فى عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعرى عن مذهب أهل السنة والجماعة، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُود ﴾[ن:٤٢]، وقد ثبتت السنة فى الصحاح[٢] وغيرها: أن المؤمنين يسجدون للّه يوم القيامة، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهره طبقاً واحداً كلما أراد السجود[٣] خَرَّ لقفاه [٤].

وفى الصحيحين فى الرجل الذى يكون آخر أهل النار خروجاً منها أن اللّه يأخذ عهوده ومواثيقه ألاّ يسأل غير ماهو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول اللّه تعالى: يا ابن آدم، ما أغدرك! ثم يأذن له فى دخول الجنة[٥].

وأما قوله: «وكيف يكلفهم[٦] دخول النار، وليس ذلك فى وسعهم؟» فليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإن اللّه يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم، كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعى ومنهم الماشى، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه فى النار ، وليس ماورد فى أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم ، وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذى يرى أنه نار، فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك ، وأيضاً فإن اللّه تعالى[قد][٧] أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل فى غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم فى عماية غمامة أرسلها اللّه عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لايتقاصر [٨]عما ورد فى الحديث المذكور، واللّه أعلم .

---

(١) فى ف، أ: « يتقوى». (٢) فى ت: « والصحاح». (٣) فى ف: « سجودًا».
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩١٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.
(٥) صحيح البخارى برقم (٨٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٢) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٦) فى ت، ف: « كلفهم الله»، وفى أ: «يكفهم الله النار». (٧) زيادة من ت، ف، أ. (٨) فى ف: «لاتتقاصر».

فصل

فإذا تقرر هذا، فقد اختلف الناس فى ولدان المشركين على أقوال:

أحدها: أنهم فى الجنة، واحتجوا بحديث سَمُرَة أنه، عليه السلام[١]، رأى مع إبراهيم أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم فى[٢] رواية أحمد عن حسناء[٣]، عن عمها أن رسول الله ﷺ قال: «والمولود فى الجنة». وهذا استدلال صحيح، ولكن أحاديث الامتحان أخص منه. فمن علم الله[عز وجل][٤] منه أنه يطيع جعل[٥] روحه فى البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة، ومن علم منه أنه لا يجيب، فأمره إلى الله تعالى، ويوم القيامة يكون فى النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان، ونقله الأشعرى عن أهل السنة [والجماعة][٦]، ثم من هؤلاء القائلين بأنهم فى الجنة من يجعلهم مستقلين فيها، ومنهم من يجعلهم خدماً لهم، كما جاء فى حديث على بن زيد، عن أنس، عند أبى داود الطيالسى[٧]. وهو ضعيف، والله أعلم.

القول الثانى: أنهم مع آبائهم فى النار، واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبى المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة[٨] بن حبيب، حدثنى عبد الله بن أبى قيس مولى غُطَيْف، أنه أتى عائشة فسألها عن ذرارى الكفار فقالت: قال رسول الله ﷺ: «هم تبع لآبائهم». فقلت: يارسول الله، بلا عمل؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[٩].

وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب، عن محمد بن زياد الألهانى، سمعت عبد الله بن أبى قيس سمعت، عائشة تقول: سألت رسول الله ﷺ عن ذرارى المؤمنين قال[١٠]: «هم من آبائهم». قلت: فذرارى المشركين؟ قال: «هم مع آبائهم» قلت: بلا عمل؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[١١].

ورواه [الإمام][١٢] أحمد أيضاً، عن وكيع، عن أبى عَقيل يحيى بن المتوكل ـ وهو متروك ـ عن مولاته بُهَيَّة عن عائشة؛ أنها ذكرت لرسول الله ﷺ أطفال المشركين فقال: «إن شئت أسمعتك تضاغيهم فى النار»[١٣].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، عن محمد بن فضيل بن[١٤] غزوان، عن محمد بن عثمان، عن زاذان عن على، رضى الله عنه، قال: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا فى الجاهلية فقال: «هما فى النار». قال: فلما رأى الكراهية فى وجهها [قال][١٥]: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: فولدى منك؟ قال: [قال: «فى الجنة». قال: ثم قال رسول الله

(١) فى ف، أ: «صلى الله عليه وسلم».
(٢) فى ت، ف: «من».
(٣) فى ت، ف، أ: «خنساء».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ت، ف، أ: «جعل الله».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) سبق الحديث والكلام عليه عند هذه الآية.
(٨) فى ف: «حمزة».
(٩) المسند(٦/ ٨٤).
(١٠) فى ف، أ: «فقال».
(١١) سنن أبى داود برقم (٤٧١٢).
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) المسند(٦/ ٢٠٨).
(١٤) فى ت: «عن».
(١٥) زيادة من ف، أ، والمسند.

ﷺ][1] : « إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة، وإن المشركين وأولادهم فى النار» ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ [أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ][2]﴾ [الطور: ٢١] [3].

وهذا حديث غريب؛ فإن محمد بن عثمان هذا مجهول الحال، وشيخه زاذان لم يدرك علياً، واللَّه أعلم .

وروى أبو داود من حديث ابن أبى زائدة، عن أبيه، عن الشعبى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الوائدة والموؤودة فى النار ». ثم قال الشعبى :حدثنى به علقمة، عن أبى وائل، عن ابن مسعود[4].

وقد رواه جماعة عن داود بن أبى هند، عن الشعبى، عن علقمة، عن سلمة بن قيس الأشجعى قال : أتيت أنا وأخى النبى ﷺ فقلنا: إن أمنا ماتت فى الجاهلية، وكانت تقرى الضيف وتصل الرحم، وأنها وأدت أختاً لنا فى الجاهلية لم تبلغ الحنث. فقال: « الوائدة والموؤودة فى النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام، فتسلم ». وهذا إسناد حسن [5].

والقول الثالث: التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ : « اللَّه أعلم بما كانوا عاملين ». وهو فى الصحيحين من حديث جعفر بن أبى إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: سئل رسول اللَّه ﷺ عن أولاد المشركين قال[6] :« اللَّه أعلم بماكانوا عاملين»[7] .وكذلك هو فى الصحيحين ،من حديث الزهرى، عن عطاء بن يزيد ، وعن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: أنه سئل عن أطفال المشركين ،فقال :« اللَّه أعلم بماكانوا عاملين»[8].

ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف. وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة؛ لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدم تقرير ذلك فى «سورة الأعراف»، واللَّه أعلم .

فصل

وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضى أبو يعلى بن الفرّاء الحنبلى، عن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذى نقطع[9] به إن شاء اللَّه، عز وجل . فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء: أنهم توقفوا فى ذلك، وأن الولدان كلهم تحت شيئة[10] الله، عز وجل[11] .قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث

(١، ٢) زيادة من ف، أ.
(٣) زوائد المسند (١/ ١٣٤).
(٤) سنن أبى داود برقم (٤٧١٧).
(٥) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٧٨) من طريق ابن أبى عدى، عن داود بن أبى هند به.
(٦) فى ت، ف: «فقال».
(٧) صحيح البخارى برقم (١٣٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٠).
(٨) صحيح البخارى برقم (١٣٨٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٩).
(٩) فى ف: « يقطع». (١٠) فى ت، ف، أ: « مشيئة». (١١) فى أ: « تعالى».

منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك فى موطئه فى أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث فى ذلك ، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين فى الجنة وأطفال المشركين خاصة فى المشيئة [(١)] .انتهى كلامه وهو غريب جداً .

وقد ذكر أبو عبد اللّه القرطبى فى كتاب «التذكرة»[(٢)] نحو ذلك أيضاً، واللّه أعلم .

وقد ذكروا فى ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت : دعى النبى[(٣)] ﷺ إلى جنازة صبى من الأنصار، فقلت: يارسول اللّه، طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة ، إن اللّه خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم». رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه [(٤)].

ولما كان الكلام فى هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها ، روى ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم. وأخرج ابن حبان فى صحيحه، عن جرير بن حازم سمعت أبا رجاء العُطَاردى، سمعت ابن عباس وهو على المنبر يقول : قال رسول اللّه ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً ـ أو مقارباً ـ ما لم يتكلموا فى الوِلْدان والقَدَر».

قال ابن حبان: يعنى أطفال المشركين.

وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم، به[(٥)] .ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبى رجاء، عن ابن عباس موقوفاً .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ .

اختلف القراء فى قراءة قوله: ﴿ أَمَرْنَا ﴾ فالمشهور قراءة التخفيف،واختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً ،كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا ﴾ [يونس: ٢٤]، فإن اللّه لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب.

وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة .رواه ابن جريج[(٦)] ،عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضاً.

(١) فى ف: « وأطفال الكفار تحت المشيئة».

(٢) التذكرة: (ص ٥١١ ــ ٥١٧).

(٣) فى ف، أ:« رسول الله ».

(٤) المسند(٦/ ٤١) وصحيح مسلم برقم(٢٦٦٢) وسنن أبى داود برقم (٤٧١٣) وسنن النسائى (٤/ ٥٧) وسنن ابن ماجة برقم (٨٢).

(٥) صحيح ابن حبان برقم (١٨٢٤) «موارد»، ومسند البزار برقم (٢١٨٠) « كشف الأستار».

(٦) فى أ:« ابن جرير».

وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء.

قلت: إنما يجىء هذا[١] على قراءة من قرأ ﴿ أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ قال على بن طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم[٢] بالعذاب، وهو قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.

وقال العَوْفى عن ابن عباس: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهرى: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

وقد استشهد بعضهم بالحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو نعامة العدوى، عن مسلم بن بُدَيْل، عن إياس بن زهير، عن سُوَيْد بن هُبَيْرة، عن النبى ﷺ قال: «خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة».

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، فى كتابه «الغريب»: المأمورة: كثيرة النسل. والسكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة: من التأبير، وقال بعضهم: إنما جاء هذا متناسباً كقوله: «مأزورات غير مأجورات»[٣].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾.

يقول تعالى منذراً كفار قريش فى تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودل هذا على[٤] أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله[٥] ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة[٦] قرون كلهم على الإسلام.

ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى.

وقوله[تعالى][٧]: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية [سبحانه وتعالى][٨].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله

(١) فى ت، ف: «هذا إنما يجىء». (٢) فى أ: «أهلكناهم».
(٣) ذكره الزيلعى فى تخريج الكشاف (٢/ ٢٦٢) وزاد: «لأنه من التأبيد وهو ما يصلح النخل من سقى وغيره».
(٤) فى ت: «ودل على هذا». (٥) فى ت: «كما قال». (٦) فى ت، ف: «عشر».
(٧) زيادة من ت. (٨) زيادة من ف، أ.

ما يشاء.

وهذه مقيدة لإطلاق ماسواها من الآيات[١] فإنه قال: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا ﴾ أى: فى الآخرة ﴿يَصْلاهَا﴾ أى: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أى: فى حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه[٢]، إذ اختار الفانى على الباقى ﴿مَّدْحُورًا﴾: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً .

قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا ذويد[٣] ،عن أبى إسحاق، عن زُرْعَة، عن عائشة، رضى اللّه عنها، قالت : قال رسول اللّه ﷺ: « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له »[٤].

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ ﴾ أى: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أى: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: وقلبه مؤمن، أى: مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ .

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) ﴾ .

[يقول تعالى: ﴿ كُلاًّ ﴾ أى كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أى: هو المتصرف الحاكم الذى لا يجور، فيعطى كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد ؛ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أى: ممنوعا، أى: لا يمنعه أحد ولا يرده راد.

قال قتادة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أى: منقوصاً .

وقال الحسن وابن جريج وابن زيد : ممنوعاً.

ثم قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ فى الدنيا، فمنهم الغنى والفقير وبين ذلك ، والحسن والقبيح وبين ذلك ، ومن يموت صغيراً ، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً ، وبين ذلك ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ أى: ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون فى الدركات فى جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العُلَى ونعيمها وسرورها ، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفى الصحيحين: « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء»[٥] ؛ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَلآخِرَةُ

(١) فى ت: «الإيمان». (٢) فى ت: « وصنعه». (٣) فى ت، ف: « حسين بن دويل».

(٤) المسند(٦/ ٧١) وقال الهيثمى فى المجمع(١٠/ ٢٨٨): « رجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة».

(٥) تقدم تخريجه عند تفسير الآية:٦٩ من سورة النساء من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه، وفى لفظه اختلاف عن هذا اللفظ. ورواه بهذا اللفظ الحميدى فى مسنده برقم(٧٧٥) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.

أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلا﴾](١).

﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) ﴾.

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف فى عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك (٢) ﴿مَّخْذُولاً﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذى عبدت معه، وهو لا يملك لك(٣) ضراً ولا نفعاً ؛ لأن مالك الضر والنفع(٤) هو اللَّه وحده لاشريك له . وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا بشير بن سلمان، عن سَيَّار أبى الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد اللَّه ـ هو ابن مسعود ـ قال : قال رسول اللَّه ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها باللَّه أوشك الله له بالغنى، إما أجَلٌ [عاجل](٥) وإما غنى عاجل».

ورواه أبو داود، والترمذى من حديث بشير بن سلمان، به(٦)، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾.

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لاشريك له؛ فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر.

قال مجاهد : ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعنى: وصى، وكذا قرأ أبىّ بن كعب ، وعبد الله بن مسعود، والضحاك بن مزاحم: «ووصى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه » ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: وأمر بالوالدين إحساناً ،كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾أى: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح،كما قال عطاء بن أبى رباح فى قوله: ﴿ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى: لا تنفض(٧) يدك على والديك.

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ أى: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم.

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ أى: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا ﴾أى: فى كبرهما وعند وفاتهما ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: « شركك». (٣) فى ت: «له».

(٤) فى ف: « النفع والضر » . (٥) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٦) سنن أبى داود برقم(١٦٤٥) وسنن الترمذى برقم (٢٣٢٦).

(٧) فى ف: « ولا تنفض».

قال ابن عباس: ثم أنزل اللّه [تعالى][١] : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره: أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: « آمين آمين آمين »: فقالوا: يارسول اللّه، علام أمنت ؟ قال: «أتانى جبريل فقال: يامحمد، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل: آمين . فقلت: آمين»[٢].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا على بن زيد، أخبرنا زُرَارَة بن أَوْفَى، عن مالك بن الحارث ـ رجل منهم ـ أنه سمع النبى ﷺ يقول: « من ضَمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه، وجبت له الجنة البتة ، ومن أعتق امرأ[٣] مسلماً كان فكَاكه من النار، يجزى بكل عضو منه عضواً منه».

ثم قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت على بن زيد ـ فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجل من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: « ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار، فأبعده اللّه»[٤].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا على بن زيد، عن زرارة بن أوفى[٥] ،عن مالك بن عمرو القشيرى: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « من أعتق رقبة مسلمة فهى فداؤه من النار، مكان كل عَظْم من عظامه مُحَرَّره بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له، فأبعده اللّه عز وجل ، ومن ضم يتيماً بين[٦] أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه اللّه، وجبت له الجنة » [٧].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت زرارة بن أوفى[٨] يحدث عن أبى بن مالك القشيرى قال : قال النبى ﷺ: « من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده اللّه وأسحقه ».

ورواه أبو داود الطيالسى عن شعبة به[٩]. وفيه زيادات أخر .

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) رواه البزار فى مسنده برقم (٣١٦٨) «كشف الأستار» من طريق جعفر بن عون، عن سلمة بن وردان، عن أنس، رضى الله عنه، وقال: وسلمة صالح وله أحاديث يستوحش منها ولا نعلم روى أحاديث بهذه الألفاظ غيره. وجاء من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، أخرجه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥١) وسيأتى. ومن حديث كعب بن عجرة رضى الله عنه، رواه الحاكم فى المستدرك (١٥٣/٤). ومن حديث عمار بن ياسر وجابر بن سمرة وابن مسعود وعبد الله بن الحارث رواها البزار فى مسنده برقم (٣١٦٤ـ ٣١٦٧).

(٣) فى ت: « رجلا».

(٤) المسند(٣٤٤/٤).

(٥) فى ت: « زرارة بن أبى أوفى».

(٦) فى ف، أ: « من».

(٧) المسند(٣٤٤/٤).

(٨) فى ت:« زرارة بن أبى أوفى».

(٩) المسند (٣٤٤/٤) .

حديث آخر: قال الإمام أحمد :حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل[١] بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة ».

صحيح من هذا الوجه، ولم يخرجه سوى مسلم، من حديث أبى عوانة وجرير وسليمان بن بلال ،عن سهيل، به [٢].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا رِبعىّ بن إبراهيم ـ قال أحمد: وهو أخو إسماعيل بن عُلَيَّة، وكان يفضل على أخيه ـ عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علىّ !ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، فانسلخ قبل أن يغفر له! ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه[٣] الكبر فلم يدخلاه الجنة » قال ربعى :لا أعلمه [٤] إلا قال :«أحدهما ».

ورواه الترمذى، عن أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقى، عن ربعى بن إبراهيم، ثم قال: غريب من هذا الوجه[٥].

حديث آخر: وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، حدثنا أسيد بن على، عن أبيه على بن عبيد، عن أبى أسيد وهو مالك بن ربيعة الساعدى، قال: بينما أنا جالس عند رسول اللّه ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يارسول اللّه، هل بقى علىّ من برّ أبوىّ شىء بعد موتهما أبرهما به ؟ قال: « نعم، خصال أربع : الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذى بقى عليك بعد موتهما من برهما»[٧].

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن سليمان ـ وهو ابن الغسيل ـ به[٨].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرنى محمد بن طلحة بن عبد اللّه[٩] بن عبد الرحمن،عن أبيه، عن معاوية بن جاهمة السلمى؛ أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال: يارسول اللّه، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك ؟ فقال: « فهل لك من أم ؟» قال[١٠] : نعم. فقال:« الزمها. فإن الجنة تحت رجليها[١١]» ثم الثانية، ثم الثالثة فى مقاعد شتى،كمثل هذا القول.

ورواه النسائى وابن ماجه ،من حديث ابن جريج، به [١٢].

---

(١) فى ت: «إسماعيل».
(٢) المسند(٢/ ٣٦٤) وصحيح مسلم برقم(٢٥٥١).
(٣) فى ت: « أدرك أبواه عنده». (٤) فى ف: «ولا علم».
(٥) المسند (٢/ ٢٥٤) وسنن الترمذى برقم (٣٥٤٥).
(٦) فى ت: «قال». (٧) فى ف: « من برهما بعد موتهما».
(٨) المسند (٣/ ٤٩٧) وسنن أبى داود برقم (٥١٤٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٦٤).
(٩) فى أ: « عبيد الله» . (١٠) فى ت، ف: «فقال». (١١) فى ف: « عند رجلها».
(١٢) المسند(٣/ ٤٢٩) وسنن النسائى (٦/ ١١) وسنن ابن ماجة برقم (٢٧٨١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن بَحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن المقدام بن معد يكرب[(١)] الكندى، عن النبى ﷺ قال: «إن اللَّه يوصيكم بآبائكم، إن اللَّه يوصيكم بأمهاتكم، إن اللَّه يوصيكم بأمهاتكم، إن اللَّه يوصيكم بأمهاتكم، إن اللَّه يوصيكم بالأقرب فالأقرب» .

وقد أخرجه ابن ماجه، من حديث [عبد اللَّه][(٢)] بن عياش، به[(٣)].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا أبو عوَانة، عن الأشعث بن سليم، عن أبيه، عن رجل من بنى يربوع قال: أتيت النبى ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطى[العليا][(٤)] أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»[(٥)].

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا إبراهيم ابن المستمر العرُوقى، حدثنا عمرو بن سفيان، حدثنا الحسن بن أبى جعفر، عن ليث بن أبى سليم، عن علقمة بن مرثد[(٦)]، عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه؛ أن رجلاً كان فى الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبى ﷺ: هل[(٧)] أديت حقها ؟ قال: « لا، ولا بزفرة واحدة » أو كما قال. ثم قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه[(٨)].

قلت: والحسن بن أبى جعفر ضعيف، واللَّه أعلم .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) ﴾ .

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون[(٩)] منه البادرة إلى أبويه، وفى نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ـ وفى رواية: لا يريد إلا الخير بذلك ـ فقال: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾.

وقوله[تعالى][(١٠)]: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة.

وعن ابن عباس: المسبحين. وفى رواية عنه: المطيعين المحسنين.

وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى[(١١)].

وقال شعبة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب فى قوله: ﴿[فَإِنَّهُ][(١٢)] كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال: الذي يصيب الذنب ثم يتوب، ويصيب الذنب ثم يتوب.

وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثورى ومعمر، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب نحوه، وكذا رواه الليث وابن جريج، عن يحيى بن سعيد، عن ابن][(١٣)] المسيب، به. وكذا قال عطاء بن يسار.

(١) فى ت، ف: « معدى كرب». (٢) زيادة من ف، أ.
(٣) المسند(٤/ ١٣٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٦١).
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند .
(٥) المسند(٤/ ٦٤).
(٦) فى ف، أ: «يزيد». (٧) فى ت: «فسأل النبى ﷺقال: هل».
(٨) مسند البزار برقم (١٨٧٢) «كشف الأستار» ووقع فيه: « ولابركزة» وفى مجمع الزوائد: « ولابركة».
(٩) فى ت،ف: « يكون». (١٠) زيادة من ت. (١١) فى ت: « الصبح».
(١٢) فى ت، ف : « إنه »وهو خطأ. (١٣) زيادة من ف.

وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: هم الراجعون إلى الخير.

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ قال: هو الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر اللَّه منها. ووافقه على ذلك مجاهد[1].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، فى قوله: ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لى ما أصبت[2] فى مجلسى هذا[3].

وقال ابن جرير: والأولى فى ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره اللَّه إلى ما يحبه ويرضاه[4].

وهذا الذى قاله هو الصواب؛ لأن الأوّاب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾[الغاشية:٢٥]، وفى الحديث الصحيح، أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا رجع من سفر قال[5]: « آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون »[6].

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) ﴾.

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، كما تقدم فى الحديث: « أمك وأباك، ثم أدناك أدناك » وفى رواية: « ثم الأقرب فالأقرب ».

وفى الحديث: « من أحب أن يبسط له رزقه[7] وينسأ له فى أجله، فليصل رحمه»[8].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التيمى[9]، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبى سعيد قال لما نزلت، هذه الآية ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ دعا رسول اللَّه ﷺ فاطمة فأعطاها «فدك». ثم قال: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمى[10]، وحميد بن حماد بن أبى الخوار[11] [12].

---

(١) فى ف: « ووافقه مجاهد فى ذلك». (٢) فى ت: « ما أحببت».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٢٠).

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٢).

(٥) فى ف، أ: « يقول».

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٧٩٧) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.

(٧) فى ت، ف، أ: «له فى رزقه».

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٩٨٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٧).

(٩) فى ت: أبو نجى التمى»، وفى ف: «التميمى». (١٠) فى ت: « أبو نجى التميمى».

(١١) فى ت، ف، أ: « الجوزاء».

(١٢) مسند البزار برقم (٢٢٢٣)« كشف الأستار» وعطية العوفى متروك.

وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، وفَدَك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة فكيف يلتئم هذا مع هذا ؟!

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل في «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ههنا.

قوله[تعالى][١] :﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: أشباههم في ذلك.

وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق في غير حق .وكذا قال ابن عباس.

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حقه كان تبذيرًا.

وقال قتادة :التبذير: النفقة[٢] في معصية اللَّه تعالى، وفي غير الحق وفي الفساد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا لَيْث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يارسول اللَّه، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين[٣] ». فقال: يارسول اللَّه، أقلل[٤] لي ؟ فقال :﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾. فقال[٥] :حسبي يارسول اللَّه، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى اللَّه وإلى رسوله؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: « نعم، إذا أديتها إلى رسولي فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها »[٦].

وقوله [تعالى][٧] :﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: في التبذير والسفه وترك طاعة اللَّه وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال :﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ أي: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة اللَّه عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته .

وقوله[تعالى][٨] : ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ أي: وإذا سألك أقاربك ومن أمرنا بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ أي: عدهم وعداً بسهولة، ولين إذا جاء رزق اللَّه فسنصلكم إن شاء اللَّه ، هكذا فسر قوله ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ بالوعد : مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة وغير واحد.

---

(١) زيادة من ت. (٢) في ف، أ: « الإنفاق». (٣) في ت: « حق المسكين السائل والجار والمسكين».
(٤) في ت: « أتلك». (٥) في ف: «قال».
(٦) المسند (٣/ ١٣٦).
(٧، ٨) زيادة من ت.

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد فى العيش ذامّا للبخل ناهياً عن السَّرَف: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أى: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطى أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن اللَّه: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤] أى نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ أى: ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملوماً محسوراً.

وهذا من باب اللف والنشر أى: فتقعد إن بخلت ملوماً، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبى سُلمى فى المعلقة :

ومن كان ذا مال ويبخل بماله على قومه يستغن عنه ويذمم[(١)]

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شىء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التى قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفاً وعجزاً[(٢)] ،فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فسر هذه الآية ـ بأن المراد هنا البخل والسرف ـ ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

وقد جاء فى الصحيحين، من حديث أبى الزنَّادَ، عن الأعرج، عن أبى هريرة؛ أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما[(٣)] إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغَت ـ أو: وفرت ـ على جلده، حتى تُخفى بنانه وتعفو[(٤)] أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا[(٥)] تتسع».

هذا لفظ البخارى فى الزكاة[(٦)].

وفى الصحيحين من طريق هشام بن عُرْوَةَ، عن زوجته فاطمة بنت المنذر، عن جدتها أسماء بنت أبى بكر قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «أنفقى هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعى فَيُوعى اللَّه عليك، ولا توكى فيوكى اللَّه عليك » وفى لفظ: «ولا تُحصى فيحصى اللَّه عليك»[(٧)].

وفى صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن اللَّه قال لى :أنفق أنفق عليك»[(٨)].

وفى الصحيحين من طريق معاوية بن أبى مُزَرِّد ،عن سعيد بن يسار، عن أبى هريرة، رضى

---

(١) البيت فى ديوانه (ص ٣٠). (٢) فى ت، ف:« عجزًا وضعفاً». (٣) فى أ: « من يديهما».
(٤) فى ت، ف: « يخفى بنانه ويعفو». (٥) فى ف: « ولا».
(٦) صحيح البخارى برقم(١٤٤٣) وليس فى صحيح مسلم من طريق أبى الزناد، وإنما هو فيه من طريق الحسن بن مسلم وعبد الله بن طاوس، عن طاوس، عن أبى هريرة برقم (١٠٢١).
(٧) صحيح البخارى برقم (١٤٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٩).
(٨) صحيح مسلم برقم (٩٩٣).

اللَّه عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما :اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر :اللهم أعط ممسكاً تلفاً »[١].

وروى مسلم، عن قتيبة، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء[٢] ،عن أبيه، عن أبي هريرة مرفوعاً: « ما نقص مال من صدقة، وما زاد اللَّه عبداً بعفو إلا عزاً [٣] ،ومن تواضع للّه رفعه اللَّه»[٤].

وفي حديث أبي كثير، عن عبد اللَّه بن عمرو مرفوعاً: « إياكم والشُّح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا ،وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »[٥].

وروى البيهقي من طريق سعدان بن نصر، عن أبي معاوية، عن الأعمش، [عن ابن بريدة][٦] عن أبيه قال :قال رسول اللَّه ﷺ :« ما يخرج رجل صدقة، حتى يفك لَحيَي سبعين شيطانا»[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سُكَين[٨] بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم الهجري، عن أبي الأحوص، عن عبد اللَّه بن مسعوده قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما عال من اقتصد»[٩].

وقوله[تعالى][١٠] : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له في ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال :﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر[١١]، كما جاء في الحديث: « إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه».

وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً ، والفقر عقوبة عياذاً باللَّه من هذا وهذا .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾.

هذه الآية الكريمة دالة على أن اللَّه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه ينهى [تعالى][١٢]

---

(١) صحيح البخاري برقم (١٤٤٢) وصحيح مسلم برقم(١٠١٠).

(٢) في ف: «عن العلاء بن عبد الرحمن». (٣) في ت، ف، أ: « إلا غنى».

(٤) صحيح مسلم برقم(٢٥٨٨).

(٥) رواه أحمد في المسند(٢/١٥٩) وأبو داود في السنن برقم (١٦٩٨) وابن حبان في صحيحه برقم (١٥٨٠) «موارد» من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن الحارث، عن أبي كثير الزبيدي به.

(٦) زيادة من ف، أ، والسنن الكبرى، وصحيح ابن خزيمة.

(٧) السنن الكبرى (٤/١٨٧) ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم (٢٤٥٧) من طريق محمد المخزومي، عن أبي معاوية، به، وقال:« إن صح الخبر، فإني لا أقف هل سمع الأعمش من ابن بريدة أم لا».

(٨) في ت:« مسكين»، وفي ف، أ: «سكن» .

(٩) المسند (١/٤٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٢٥٢):« فيه إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف».

(١٠) زيادة من ت. (١١) في ف، أ : « بمن يستحق الفقر ومن يستحق الغنى» . (١٢) زيادة من ت، ف، أ.

عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد فى الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى اللّه [تعالى][١] عن ذلك فقال: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ أى: خوف أن تفتقروا فى ثانى الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وفى الأنعام[٢]: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ من إِمْلاقٍ ﴾أى: من فقر﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ[٣]﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً﴾ أى: ذنباً عظيماً.

وقرأ بعضهم: «كان خَطَأً كبيراً» وهو بمعناه.

وفى الصحيحين عن عبد اللّه بن مسعود: قلت: يارسول اللّه، أى الذنب أعظم ؟ قال: « أن تجعل للّه نداً وهو خلقك». قلت: ثم أى ؟ قال:«أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك». قلت: ثم أى ؟ قال:« أن تزانى بحليلة [٤]جارك » [٥].

﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه[٦] ودواعيه ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ أى: ذنباً عظيماً ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ أى: وبئس طريقاً ومسلكاً .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا جرير،حدثنا سليم بن عامر، عن أبى أمامة قال:إن فتى شاباً أتى النبى[٧] ﷺ فقال : يارسول اللّه، ائذن لى بالزنا .فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا : مَهْ مَهْ. فقال: «ادنه». فدنا منه قريباً[٨] ،فقال[٩] :« اجلس». فجلس، قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا واللّه، جعلنى اللّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال:«أفتحبه لابنتك؟». قال: لا واللّه يارسول اللّه، جعلنى اللّه فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أتحبه لأختك؟» قال: لا واللّه، جعلنى اللّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا واللّه،جعلنى اللّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال:«أفتحبه لخالتك؟» قال: لا واللّه، جعلنى اللّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن[١٠] فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء[١١].

وقال[١٢] ابن أبى الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أبى بكر بن أبى مريم، عن الهيثم بن مالك الطائى، عن النبى ﷺ قال: « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند اللّه من نطفة

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ت، ف، أ: « وقال فى سورة الأنعام». (٣) فى ت:« نرزقهم وإياكم» وهو خطأ.

(٤) فى ف: « خليلة»، وفى أ:« حليلة».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم(٦٨).

(٦) فى ت: « أشباهه». (٧) فى ت: «أتى إلى النبى». (٨) فى ف: « قريبًا منه» .

(٩) فى ت: «فقال له». (١٠) فى ف: « وأحصن».

(١١) المسند(٥/٣٥٦).

(١٢) فى ف ، أ: « قال».

وضعها رجل فى رحم لا يحل له»[(١)].

﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) ﴾.

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعى، كما ثبت فى الصحيحين؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزانى المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[(٢)].

وفى السنن: « لزوال الدنيا أهون عند اللّه من قتل مسلم[(٣)] » .

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ أى: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك. وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك؛ لأنه كان ولى عثمان، وقد قتل عثمان مظلوماً، رضى اللّه عنه، وكان معاوية يطالب علياً، رضى اللّه عنه، أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم؛ لأنه أموى، وكان على، رضى اللّه عنه، يستمهله فى الأمر[(٤)] حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب على من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى[(٥)] معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاءل[(٦)] ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمر العجيب، وقد روى ذلك الطبرانى فى معجمه حيث قال:

حدثنا يحيى بن عبد الباقى، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضَمْرَةُ بن ربيعة، عن ابن شَوْذَب، عن مطر الوراق، عن زَهْدَم الجَرْمى قال: كنا فى سمر ابن عباس فقال: إنى محدثكم حديثا ليس بسر ولا علانية؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان ـ يعنى عثمان ـ قلت لعلى: اعتزل، فلو كنت فى جحر طلبت حتى تستخرج، فعصانى، وايم اللّه ليتأمرن عليكم معاوية، وذلك أن اللّه تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ الآية[(٧)] وليحملنكم[(٨)] قريش على سنة فارس والروم وليقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس، فمن أخذ منكم يومئذ بما يُعْرَف نجا، ومن ترك وأنتم تاركون، كنتم كقرن من القرون، هلك فيمن هلك[(٩)].

وقوله[تعالى][(١٠)]: ﴿ فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ﴾ قالوا: معناه: فلا يسرف الولى فى قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل.

---

(١) الورع لابن أبى الدنيا برقم(١٣٧) وفيه ثلاث علل: الأولى: تدليس بقية. الثانية: ابن أبى مريم ضعيف. الثالثة: الإرسال. ا. هـ. مستفادًا من حاشية الأستاذ محمد الحمود، وسيأتى الحديث عند تفسير الآية: ٦٨ من سورة الفرقان.

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود، رضى الله عنه.

(٣) فى أ: « المسلم». (٤) فى ت: « الأمور». (٥) فى ف: « فابى».

(٦) فى ت، ف، أ: «قال». (٧) فى ت، ف، أ: « ﴿إنه كان منصوراً﴾». (٨) فى ت: « يتحملنكم».

(٩) المعجم الكبير (١٠/ ٣٢٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٣٥): «وفيه من لم أعرفهم».

(١٠) زيادة من ت.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أى أن الولى منصور على القاتل شرعاً ،وغالباً قدراً .

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى: لا تتصرفوا له إلا بالغبطة ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾[النساء:٢] و ﴿لا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٦] .

وقد جاء فى صحيح مسلم؛ أن رسول اللَّه ﷺ قال لأبى ذر: « يا أبا ذر، إنى أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى: لا تَأَمَّرَن على اثنين، ولا تولين مال يتيم(١) »(٢).

وقوله[تعالى](٣) : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ أى: الذى تعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ أى: عنه.

وقوله[تعالى](٤) : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أى: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم.

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها، كالقرطاس وهو الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية .

وقوله : ﴿ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أى: الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب.

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أى: لكم فى معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال :﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أى: مآلاً ومنقلباً فى آخرتكم .

قال سعيد، عن قتادة: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أى: خير ثواباً وعاقبة . وأما ابن عباس كان يقول: يا معشر الموالى، إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان. قال وذكر لنا أن نبى اللَّه ﷺ كان يقول: « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه، ليس به إلا مخافة اللَّه، إلا أبدله اللَّه فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك »(٥).

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ .

---

(١) فى ت: «بخيل».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٢٦).

(٣، ٤) زيادة من ت.

(٥) وقد جاء فى مسند أحمد (٥/٧٨) عن أبى قتادة وأبى الدهماء عن رجل من أهل البادية، أن النبى ﷺ أخذ بيده وقال: « إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله، عز وجل، إلا أعطاك الله خيرًا منه» .

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يقول: لاتقل.

وقال العوفى عنه: لاتَرْم أحدًا بما ليس لك به علم.

وقال محمد بن الحَنَفية: يعنى شهادة الزور.

وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله.

ومضمون ماذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذى هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفى الحديث: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذبُ الحديث»[١]. وفى سنن أبى داود: « بئس مطيةُ الرجل: زعموا»[٢]، وفى الحديث الآخر: « إن أفرى الفِرَى أن يُرِى [٣] عينيه ما لم تريا»[٤]. وفى الصحيح: « من تحلم حلما كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شَعيرتين، وليس بعاقد[٥]»[٦].

وقوله: ﴿كُلُّ أُوْلَئِكَ﴾ أى: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ أى: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل[٧] عنه وعما عمل فيها. ويصح استعمال«أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر[٨]:

ذُمَّ المَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلة اللِّوَى ... وَالْعَيْش بَعْدَ أولئكَ الأيّام

﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ﴾.

يقول تعالى ناهيًا عباده عن التَّجبّر والتبختر فى المشية: ﴿وَلا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى: متبخترًا متمايلاً مشى الجَبَّارين﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ أى: لن تقطع الأرض بمشيتك[٩]، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رُؤبة بن العَجَّاج:

وقَاتِم الأعْمَاق خَاوى المُخترقْ[١٠]

وقوله [تعالى][١١]: ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا﴾ أى: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم(٦٠٦٦) ومسلم فى صحيحه برقم(٢٥٦٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه .
(٢) برقم (٤٩٧٢).
(٣) فى ف، أ: «يرى الرجل».
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٤٣) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما .
(٥) فى ف: «بفاعل».
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٤٢) معلقًا، ووصله النسائى فى السنن (٨/ ٢١٥) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٧) فى ت: « ويسأل».
(٨) هو جرير بن عطية، والبيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ٦٢).
(٩) فى ت ، ف : « بمشيك».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٣).
(١١) زيادة من ت.

يجازى فاعل ذلك بنقيض[١] قصده. كما ثبت فى الصحيح: « بينا رجل يمشى فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدَان يتبختر فيهما، إذ خُسِف به الأرض، فهو يتجلجل[٢] فيها إلى يوم القيامة»[٣].

وكذلك[٤] أخبر الله[تعالى][٥] عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفى الحديث: « من تواضع لله رفعه الله، فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله، فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب أو الخنزير»[٦].

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب «الخمول والتواضع»: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد، عن أبى بكر الهذلى قال: بينما نحن مع الحسن، إذ مَر عليه ابن الأهتم[٧] ـ يريد المنصور ـ وعليه جبَابُ خزّ قد نُضّد[٨] بعضها فوق بعض على ساقه، وانفرج عنها قباؤه، وهو يمشى ويتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف، شامخ بأنفه، ثان عطفه، مصعر خده، ينظر فى عطفيه، أىّ حُمَيْق ينظر فى عطفه فى نِعَم غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها، ولا المؤدّى حقّ الله منها! والله إن يمشى أحدهم طبيعته يتلجلج تلجلج المجنون، فى كل عضو منه نعمة، وللشيطان به لعنة ، فسمعه ابن الأهتم[٩] فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إلى، وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: **﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾**[١٠].

ورأى البخترىّ العابدُ رجلاً من آل على يمشى وهو يخطِر فى مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذى أكرمك به لم تكن هذه مشيته! قال: فتركها الرجل بعد.

ورأى ابن عمر رجلا يخطر فى مشيته ، فقال : إن للشياطين إخواناً.

وقال خالد بن مَعْدان: إياكم والخَطْر، فإن الرّجل يَدُه من سائر [١١]جسده. رواهما ابن أبى الدنيا.

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا حماد بن زيد، عن[١٢] يحيى، عن سعيد، عن يُحَنَّس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتى المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم،

(١) فى ت: « ببعض». (٢) فى ت: «يتخلل».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٧٨٩) وصحيح مسلم برقم(٢٠٨٨) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.

(٤) فى أ: « ولذلك». (٥) زيادة من ف.

(٦) رواه أبو نعيم فى الحلية(٧/ ١٢٩) والخطيب فى تاريخ بغداد(٢/ ١١٠) من طريق سعيد بن سلام، عن الثورى عن الأعمش، عن إبراهيم بن عابس، عن ربيعة، عن عمر بن الخطاب بنحوه وقال: « غريب من حديث الثورى، تفرد به سعيد بن سلام، وهو كذاب».

(٧) فى هـ ،ت، ف: « ابن الأهيم»، والصواب ما أثبتناه من الخمول والتواضع لابن أبى الدنيا.

(٨) فى ت، ف: « فضل».

(٩) فى هـ، ت، ف:« ابن الأهيم»، والصواب ما أثبتناه من الخمول والتواضع.

(١٠) الخمول والتواضع برقم (٢٣٧).

(١١) فى ت، ف، أ:« من دون سائر». (١٢) فى ف : «بن».

سلط بعضهم على بعض»(١).

وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ أما من قرأ: ﴿سَيِّئَةً﴾ أى: فاحشة. فمعناه عنده: كل هذا الذى نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ إلى ههنا، فهو سيئة مؤاخذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه.

وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُ﴾ على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذى ذكرناه من قوله: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى ههنا فسيئه، أى: فقبيحه مكروه(٢) عند الله، هكذا وجَّه ذلك ابن جرير، رحمه الله(٣).

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) ﴾.

يقول تعالى: هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس.

﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أى: تلومك نفسك [ويلومك الله](٤) والخلق. ﴿مَّدْحُورًا ﴾. قال ابن عباس وقتادة: مطرودًا.

والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (٤٠) ﴾.

يقول تعالى رادًا على المشركين الكاذبين(٥) الزاعمين ـ عليهم لعائن الله ـ أن الملائكة بناتُ الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، ثم ادّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا فى كل من المقامات الثلاث(٦) خطأ عظيماً، قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ ﴾ أى: خصصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا﴾ أى: اختار لنفسه على زعمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ أى: فى زعمكم لله ولدًا، ثم جعلْكم ولده الإناث التى تأنفون(٧) أن يكُنّ لكم، وربما قتلتموهُن بالوأد، فتلك إذا قسْمة ضيزَى. قال [الله](٨) تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ

---

(١) الخمول والتواضع برقم(٢٤٩) وهو مرسل، وجاء من حديث ابن عمر رضى الله عنهما، رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٢٦١) من طريق زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عنه، ولفظ آخره« سلط الله شرارها على خيارها» وقال الترمذى: «هذا حديث غريب».

(٢) فى ت، ف، أ: « قبيحه مكروها».

(٣) تفسير الطبرى(١٥/ ٦٣).

(٤) زيادة من ت، ف،أ.

(٥) فى ف: « المكذبين».

(٦) فى ت، ف: « الثلاث المقامات».

(٧) فى ت: « تألفون».

(٨) زيادة من ف.

عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤١) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا[١] فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا[٢] ﴾ أى: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا[٣] عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أى: الظالمين منهم ﴿ إِلاَّ نُفُورًا ﴾ أى: عن الحق، وبعدًا منه.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تُعْبد لتقرّب إليه وتشفع لديه ـ لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تَدْعُونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه .

ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أى: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أى: تعالياً كبيرا، بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُوًا أحد.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أى: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجلّه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وإلهيته:

فَفى كُلّ شَىءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلَ عَلَىَ أنَّه واحد

كما قال تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ[٤] مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . [وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا][٥]﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩٢].

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين[٦] ابن ميمون مؤذّن مسجد الرملة، حدثنا عروة بن رُوَيم، عن عبد الرحمن بن قرط؛ أن رسول الله ﷺ

(١) فى ت، ف،أ: «صرفنا للناس»وهو خطأ. (٢) فى ت ،ف: «القرآن من كل مثل» وهو خطأ. (٣) فى ف: « فينزجرون».
(٤) فى ت، ف: « ينفطرن» وهو خطأ. (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت: «أن».

ليلة أسرى إلى المسجد الأقصى، كان[(١)] بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطار به حتى بلغ السموات السبع[(٢)]، فلما رجع قال: سمعت تسبيحًا فى السموات العلى مع تسبيح كثير: سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا، سبحان العلىّ الأعلى، سبحانه وتعالى[(٣)].

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أى: وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله[(٤)] ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أى: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام فى الحيوانات[(٥)] والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل[(٦)].

وفى حديث أبى ذر: أن النبى[(٧)] ﷺ أخذ فى يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا يد أبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم [أجمعين][(٨)]، وهو حديث مشهور فى المسانيد[(٩)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا زَبَّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه مرّ على قوم وهم وقوف على دوابّ لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرا لله تعالى منه»[(١٠)].

وفى سنن النسائى عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «نقيقها تسبيح»[(١١)].

وقال قتادة، عن عبد الله بن بَابى[(١٢)]، عن عبد الله بن عمرو: أن الرجل إذا قال: « لا إله إلا الله»، فهى كلمة الإخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: «الحمد لله» فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها، وإذا قال: « الله أكبر» فهى تملأ[(١٣)] مابين السماء والأرض، وإذا قال: « سبحان الله»، فهى صلاة الخلائق التى لم يَدْعُ الله أحداً من خلقه إلا قَرّره بالصلاة والتسبيح. وإذا قال: « لاحول ولا قوة إلا بالله [(١٤)]»، قال: أسلم عبدى واستسلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبى، سمعت الصَّقْعَبَ بن زُهير[يحدث][(١٥)] عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى النبى ﷺ أعرابىّ عليه جبة

---

(١) فى ت، ف، أ: «الأقصى، فلما رجع كان». (٢) فى ت: « السبع السموات».

(٣) المعجم الأوسط برقم(٥٨)« مجمع البحرين» وقال: « لايروى عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد، تفرد به سعيد». وذكر الذهبى هذا الحديث فى الميزان (٤/ ١٠١) فى ترجمة مسكين بن أبى ميمون وقال:« منكر».

(٤) فى ف : «بحمده». (٥) فى ت، ف: « الحيوان ».

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٥٧٩).

(٧) فى ت، ف، أ: « أن رسول الله». (٨) زيادة من ف.

(٩) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٤١٥).

(١٠) المسند (٣/ ٤٣٩).

(١١) سنن النسائى(٧/ ٢١٠) من حديث عبد الرحمن بن عثمان، رضى الله عنه.

(١٢) فى ت: « بانى »، وفى ف: « أبى». (١٣) فى ت: « الله أكبر ملأ». (١٤) فى أ:«بالله العلى العظيم».

(١٥) زيادة من ف، أ، والمسند.

من طيالسة مكفوفة[١] بديباج ـ أو: مزورة بديباج ـ فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع، ويضع كل رأس ابن رأس. فقام إليه النبى ﷺ مغضبًا، فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه، فقال: «لا أرى عليك ثياب من لا يعقل». ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس فقال: «إن نوحاً، عليه السلام، لما حضرته الوفاة، دعا ابنيه [٢]فقال: إنى قاص عليكما الوصية: آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك بالله والكبر، وآمركما بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض وما بينهما لو وضعت فى كفة الميزان، ووضعت« لا إله إلا الله» فى الكفة الأخرى، كانت أرجح، ولو أن السموات والأرض كانتا[٣] حلقة، فوضعت « لا إله إلا الله» عليهما لفصمتهما أو لقصمتهما. وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شىء، وبها يرزق كل شىء»[٤].

ورواه الإمام أحمد، أيضا، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصَّقْعَب[٥] بن زهير، به أطول من هذا. تفرد به[٦].

وقال ابن جرير: حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأوْدِىّ، حدثنا محمد بن يَعْلى، عن موسى بن عبيدة، عن زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: « ألا أخبركم بشىء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحا، عليه السلام، قال لابنه: يابنى، آمرك أن تقول:« سبحان الله »، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾»[٨]. إسناده فيه ضعف، فإن الربّذى[٩] ضعيف عند الأكثرين.

وقال عكرمة فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح[١٠] ـ الأسطوانة: السارية.

وقال بعض السلف: إن صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾.

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن إبراهيم قال : الطعام يسبح.

ويشهد لهذا القول آية السجدة أول [سورة][١١] الحج.

وقال آخرون: إنما يسبح ماكان فيه روح. يعنون من حيوان أو نبات.

وقال قتادة فى قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قال: كل شىء فيه الروح يسبح من شجر[١٢] أو شىء فيه.

---

(١) فى ت، ف:« ملفوفة». (٢) فى ت: «بنيه». (٣) فى ت: «كانت».

(٤) المسند(٢/ ٢٢٥).

(٥) فى ف: «الصعقب».

(٦) المسند(٢/ ١٦٩).

(٧) فى ف: « عنهما».

(٨) تفسير الطبرى(١٥/ ٦٥).

(٩) فى ت: « الزيدى»، وفى ف:« الأودى». (١٠) فى ت، ف:«والشجر يسبح». (١١) زيادة من ف.

(١٢) فى ف:«من شجرة».

وقال الحسن، والضحاك في قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قالا: كل شيء فيه الروح.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالا: حدثنا جرير أبو الخطاب قال: كنا مع يزيد الرَّقاشي، ومعه الحسن في طعام، فقدموا الخوان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد، يسبح هذا الخِوَان؟ فقال: كان يسبح مرة[(١)].

قلت: الخِوَان هو المائدة من الخشب. فكأن الحسن، رحمه الله، ذهب إلى أنه لما كان حيا فيه خضرة، كان يسبح، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه. وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير[(٢)]، أما أحدهما فكان لا يَسْتَتِر من البول، وأما الآخر فكان يمشي[(٣)] بالنميمة». ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: « لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا». أخرجاه في الصحيحين[(٤)].

قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال: « ما لم ييبسا» لأنهما يسبحان مادام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم.

وقوله[تعالى][(٥)]: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ أي: أنه [تعالى][(٦)] لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ الآية [هود: ١٠٢][(٧)]، وقال[الله][(٨)] تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]. ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال ههنا: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ إلى أن قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾[فاطر: ٤١ ــ ٤٥].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٦٥).
(٢) في ت: « كثير».
(٣) في ت: « وأما الآخر فيمشي»، وفي أ: « وكان الآخر يمشي».
(٤) صحيح البخاري برقم (٢١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢).
(٥) زيادة من ت.
(٦) زيادة من ت.
(٧) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم(٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنهما.
(٨) زيادة من ف، أ.

﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦)﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت ـ يامحمد ـ على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابا مستوراً.

قال قتادة، وابن زيد: هو الأكنّة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[فصلت: ٥] أي: مانع حائل[1] أن يصل إلينا مما تقول شيء.

وقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي: بمعنى ساتر، كميمون ومشؤوم، بمعنى: يامن وشائم؛ لأنه من يَمنهم وشأمَهم.

وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رحمه الله.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو موسى الهروى إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبى بكر[الصديق][2] رضى الله عنها[3]، قالت: لما نزلت. ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[سورة المسد] جاءت العوراء أم جميل ولها ولوَلة، وفى يدها فِهْر وهى تقول: مُذَمَّما أتينا ــ أو: أبينا، قال أبو موسى: الشك منى ــ ودينه قَلَيْنَا، وأمره عصينا. ورسول الله جالس، وأبو بكر إلى جنبه ــ أو قال: معه ـ قال: فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن ترانى»، وقرأ قرآنا اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾. قال: فجاءت حتى قامت على أبى بكر، فلم تر النبىّ ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغنى أن صاحبك هجانى. فقال أبو بكر: لاورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهى تقول: لقد[4] علمت قريش أنى بنت سيدها[5].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: جمع «كنان»، الذى يغشى القلب﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾أى: لئلا يفهموا القرآن﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذى يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به.

وقوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ أى: إذا وحَّدت الله فى تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿وَلَّوْا﴾ أى: أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ ونفور: جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[الزمر: ٤٥].

قال قتادة فى قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾: إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله»، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها وينصرها ويُفْلجها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها

(١) فى ف: «مانع وحائل». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ف، أ: « عنهما».
(٤) فى ف: «قد».
(٥) مسند أبى يعلى (١/ ٥٣) وحسنه الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ١٦٩).

نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التى يقطعها الراكب فى ليال قلائل، ويسير الدهر فى فئام من الناس، لا يعرفونها ولا يقرّون بها.

قول آخر فى الآية:

وروى[١] ابن جرير: حدثنى الحسين بن محمد الذارع[٢]، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبى، حدثنا عمرو بن مالك ، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾: هم الشياطين .

هذا غريب جدًا فى تفسيرها، وإلا فالشياطين[٣] إذا قرئ القرآن، أو نودى بالأذان، أو ذكر الله، انصرفوا[٤].

﴿ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨)** ﴾.

يخبر تعالى نبيه ــ صلوات الله [وسلامه][٥] عليه ــ بما تناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السّحر على المشهور، أو من « السَّحْر»، وهو الرئة، أى: إن تتبعون ـ إن اتبعتم محمدًا ــ ﴿**إلا بشرًا**﴾ يأكل [ويشرب][٦]، كما قال الشاعر[٧]:

فَإن تَسألينا فيم نَحْنُ فَإنَّنا ... عصافيرُ مِنْ هَذا الأنَام المُسَحَّر

وقال الراجز[٨]:

ونُسْحَر [٩] بالطَّعام وبالشراب

أى: نُغذى: وقد صوب هذا القول ابنُ جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رئى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**﴾ أى: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال محمد بن إسحاق فى السيرة: حدثنى محمد بن مسلم[١٠] بن شهاب الزهرى، أنه حُدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَرِيق بن عمرو بن وهب الثقفى، حليف ابن[١١] زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى بالليل فى بيته، فأخذ كل واحد

(١) فى ت، ف: «قال». (٢) فى ت، ف، أ: « الذراع». (٣) فى ف: « فالشيطان».
(٤) فى ف: «انصرف». (٥) زيادة من ت، ف، أ. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) هو لبيد بن ربيعة، والبيت فى ديوانه (ص٥٧).
(٨) هو امرؤ القيس، والرجز فى اللسان مادة «سحر» .
(٩) فى ت: «تسحر»، وفى أ: « تسحرنا». (١٠) فى ت: «سلام». (١١) فى أ: «بنى».

منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئًا، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم[١] الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل[٢] منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجَمعهم[٣] الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لانعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته، فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف مايُراد بها، وسمعتُ أشياء ماعرفتُ معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذى حَلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، مارأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعتُ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُّكب، وكنا كفَرَسى رِهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لانؤمن به[٤] أبدا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه[٥].

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أى: تراباً. قاله مجاهد.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: غباراً.

﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أى: يوم القيامة ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أى: بعد ما بلينا وصرنا عدماً لايذكر. كما أخبر عنهم فى الموضع الآخر: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ. أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً. قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾[النازعات: ١٠ـ١٢]، قال تعالى[٦]: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[يس: ٧٨، ٧٩].

(١) فى ف، أ: «تفرقوا فجمعتهم». (٢) فى ت: «كل واحد». (٣) فى ت، ف، أ: «حتى إذا اجمعتهم».
(٤) فى ف: «بهذا».
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣١٥).
(٦) فى ف: «وقال تعالى».

وهكذا أمر رسوله ههنا[١] أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ وهما[٢] أشد امتناعا من العظام والرفات﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾.

قال ابن إسحاق عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت.

وروى عطية، عن ابن عمر أنه قال فى تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك.

ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو[٣] صِرتُم مَوْتاً الذى هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع[٤] عليه شىء إذا أراده.

وقد ذكر بن جرير [هاهنا][٥] حديث: « يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كَبْش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. ثم يقال: ياأهل النار، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: ياأهل الجنة، خلود بلا موت، ويا أهل النار، خلود بلا موت»[٦].

وقال مجاهد: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعنى: السماء والأرض والجبال.

وفى رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقد وقع فى التفسير المروى عن الإمام مالك، عن الزهرى فى قوله: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال: النبى ﷺ، قال مالك: ويقولون: هو الموت.

وقوله[تعالى][٧]: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ أى: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا آخر شديدًا﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: الذى خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكوراً، ثم صرتم بشرًا تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أى حال ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧].

وقوله[تعالى][٨]: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء.

وهذا الذى قالاه هو الذى تفهمه العرب من لغاتها؛ لأن[٩] الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظليم ـ وهو ولد النعامة ـ: نغضًا؛ لأنه إذا مشى عَجل[١٠] فى مشيته وحَرَك رأسه. ويقال: نَغَضَت[١١] سنُه إذا تحركت وارتفعت من مَنْبَتها؛ قال الراجز[١٢]:

ونَغَضَتْ مِنْ هَرَم أسنانها

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ إخبار عنه بالاستبعاد منهم لوقوع[١٣] ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ

---

(١) فى ف: « هنا». (٢) فى ف: «إذا هما». (٣) فى ف: «قد».
(٤) فى ت: « إذا شاء فلا». (٥) زيادة من أ.
(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٩) من طريق العوفيين عن ابن عمر، رضى الله عنه، وإسناده مسلسل بالضعفاء وأصله فى صحيح مسلم برقم(٢٨٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.
(٧، ٨) زيادة من ت. (٩) فى ت، ف: «فإن».
(١٠) فى ت، ف: « أعجل». (١١) فى ت: «نغض».
(١٢) الرجز فى تفسير الطبرى (١٥/ ٧٠).
(١٣) فى ت: « وقوع».

مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله[تعالى](١): ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أي: الرب تعالى﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالَف ولا يُمانع، بل كما قال[تعالى](٢): ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] أي: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها(٣)، كما قال: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي: تقومون(٤) كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: بأمره. وكذا قال ابن جريج.

وقال قتادة: بمعرفته وطاعته.

وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أي: وله الحمد في كل حال، وقد جاء في الحديث: «ليس على أهل« لا إله إلا الله» وحشة في قبورهم، وكأني(٥) بأهل«لا إله إلا الله» يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، يقولون: لا إله إلا الله». وفي رواية يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤] وسيأتي في سورة فاطر [إن شاء الله تعالى](٦).

وقوله: ﴿ وَتَظُنُّونَ ﴾ أي: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ [أي](٧) : في الدار الدنيا ﴿إِلاَّ قَلِيلاً ﴾، وكما قال: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾[الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ . قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) ﴾.

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام

(١، ٢) زيادة من ت. (٣) في ت: «ظهرها». (٤) في ت، ف: «تقولون».
(٥) في ت، ف: « فكأني». (٦) زيادة من ف، أ. (٧) زيادة من ف.

الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ فى يده، أى: فربما أصابه بها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لايشيرنّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزع فى يده، فيقع فى حفرة من نار[(١)]».

أخرجاه من حديث عبد الرزاق[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا على بن زيد، عن الحسن قال: حدثنى رجل من بنى سَلِيط قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى أزْفَلَة من الناس، فسمعته يقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، التقوى هاهنا ـ [قال حماد: وقال بيده إلى صدره ـ ماتواد رجلان فى الله فتفرّق بينهما إلا بحدث يحدثه أحدهما][(٣)]، والمحدث شَر، والمحدث شر، والمحدث شر»[(٤)].

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (٥٥) ﴾.

يقول الله تعالى: **﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾** أيها الناس، من يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق **﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾** بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه **﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾** [يامحمد][(٥)] **﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾** أى: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

وقوله: **﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** أى: بمراتبهم فى الطاعة والمعصية **﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ﴾** كما قال: **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾** [البقرة: ٢٥٣].

وهذا لا ينافى ما [ثبت][(٦)] فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا تفضلوا بين الأنبياء»[(٧)]؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهى والعصبية[(٨)]، لا بمقتضى الدليل، [فإنه إذا دل الدليل][(٩)] على شىء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصا[(١٠)] فى آيتين من القرآن فى سورة الأحزاب: **﴿وَإِذْ**

(١) فى ف، أ: «النار».

(٢) المسند(٢/٣١٧) وصحيح البخارى برقم (٧٠٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦١٧).

(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٤) المسند(٥/ ٧١).

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) زيادة من ف.

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٤١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٣) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.

(٨) فى ت: « والمعصية».

(٩) زيادة من ف، وفى ت: « فإنه إذا كان».

(١٠) فى ت: «قصا».

أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب:٧]، وفى الشورى[فى قوله](١): ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣]. ولا خلاف أن محمدًا ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله فى غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه.

قال البخارى: حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمر، عن هَمَّام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «خُفِّف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته لتُسْرج، فكان يقرأ قبل أن يَفْرغ». يعنى القرآن(٢).

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾أى: بالكلية، ﴿وَلا تَحْوِيلاً﴾ أى: أن يحولوه إلى غيركم.

والمعنى : أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذى له الخلق والأمر.

قال العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا، وهم الذين يدعون، يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً.

وقوله: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. روى البخارى، من حديث سليمان بن مهْران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى مَعْمر، عن عبد الله فى قوله: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا. وفى رواية قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم(٣).

وقال قتادة، عن معبد (٤)بن عبد الله الزِّمَّانى(٥)، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ قال: نزلت فى نفر من العرب، كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجِنِّيُّون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم،

---

(١) زيادة من ف.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧١٣) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧١٤، ٤٧١٥).

(٤) فى ت: « سعيد».

(٥) فى ت، ف: «الرمانى».

فنزلت هذه الآية.

وفى رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن، فذكره.

وقال السدى، عن أبى صالح، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ قال: عيسى وأمه، وعُزير.

وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول فى هذه الآية: هم عيسى، وعُزير، والشمس، والقمر.

وقال مجاهد: عيسى، والعُزير، والملائكة.

واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، وهذا لا يعبر به[1] عن الماضى، فلا يدخل فيه عيسى والعُزير. قال: والوسيلة هى القربة، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لاتتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف[2] عن المناهى، وبالرجاء ينبعث على[3] الطاعات.

وقوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أى: ينبغى أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾.

هذا إخبار من الله بأنه قد حتَمَ وقضى بما قد كتبه عنده فى اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعَهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال عن الأمم الماضين: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧، ٨].

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾.

قال سُنَيْد، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جُبَيْر قال: قال المشركون: يا محمد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فمنهم من سُخّرت له الريح، ومنهم من كان يحيى الموتى، فإن سرّك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً. فأوحى الله إليه: « إنى قد سمعت الذى

(١) فى ت: «لا يغن به».
(٢) فى ف، أ: «ينكشف».
(٣) فى ف: «إلى».

قالوا، فإن شئت أن نفعل الذى قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب؛ فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن نَستأنى بقومك استأنيتُ بهم؟» قال: «يارب، استأن بهم».

وكذا قال قتادة، وابن جريج، وغيرهما.

قال[(١)] الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس[(٢)]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأنى بهم، وإن شئت أن نُؤتيهم الذى سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم: قال: «لا، بل استأن بهم». وأنزل الله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾. رواه[(٣)] النسائى من حديث جرير، به[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سَلَمة بن كُهيل، عن عمران أبى الحكم[(٥)]، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبى ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك. قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عَذّبته عذاباً لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. فقال: « بل باب التوبة والرحمة»[(٦)].

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن على الأنصارى، حدثنا خلف ابن تميم المصيصى، عن عبد الجبار بن عمار الأيلىّ، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير يقول: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صاح رسول الله ﷺ على أبى قَبيس: «يا آل عبد مناف، إنى نذير! » فجاءته قريش فحذرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبى يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيى الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر[(٧)] لنا الأرض أنهاراً، فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التى تحتك ذهباً، فننحت منها، وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم! قال: فبينا نحن حوله، إذ نزل عليه الوحى، فلما سرى عنه قال: «والذى نفسى بيده، لقد أعطانى ما سألتم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرنى بين أن تدخلوا باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم، فتضلوا عن باب الرحمة، فلا يؤمن منكم أحد، فاخترت باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم. وأخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم، أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين » ونزلت: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن

---

(١) فى ف: «وقال». (٢) فى ف، أ: « ابن أبى إياس». (٣) فى أ: «قد رواه».
(٤) المسند (١/٢٥٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٠).
(٥) فى هـ: « عمران بن حكيم»، والتصويب من أطراف المسند وكتب الرجال.
(٦) المسند(١/ ٢٤٢).
(٧) فى ف: «وتفجر».

كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُون ﴾ وحتى قرأ ثلاث آيات ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١][١] .

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ ﴾ أى: نبعث الآيات ونأتى بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفى أمثالهم أنهم لايؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال اللَّه تعالى فى المائدة: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية: ناقة تخرج[٢] من صخرة عَيَّنُوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿فَظَلَمُوا بِهَا ﴾[٣] أى: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ أى: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذى أجيب دعاؤه فيها ﴿فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى: كفروا بها ومنعوها شِربها وقتلوها، فأبادهم اللَّه عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ قال قتادة: إن اللَّه خوف الناس بما يشاء[٤] من آياته لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه.

وهكذا رُوى أن المدينة زُلزلت على عهد عمر بن الخطاب مرات، فقال عمر: أحدثتم، واللَّه لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . وكذا قال رسول اللَّه ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن اللَّه، عز وجل، يرسلهما يخوف بهما[٥] عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: « يا أمة محمد، واللَّه ما أحد أغير من اللَّه أن يزنى عبده أو تزنى أمته ، يا أمة محمد، واللَّه لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » [٦] .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبته .

قال مجاهد، وعروة بن الزبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم فى قوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ

(١) مسند أبى يعلى (٢/ ٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٨٥): «رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلى، عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم، وكلاهما وثق، وقد ضعفهما الجمهور».

(٢) فى ف، أ: « أن يخرج لهم ناقة». (٣) فى أ: « فلما ظلموا بها» وهو خطأ. (٤) فى ف: « بأشياء».

(٥) فى ف، أ: «ولكن يخوف الله بهما».

(٦) صحيح البخارى برقم (١٠٤٤) وصحيح مسلم برقم (٩٠١).

بِالنَّاسِ﴾ أى: عصمك منهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال البخارى: حدثنا على بن عبد اللَّه، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: هى رؤيا عين أريها رسول اللَّه ﷺ[١] ليلة أسرى به ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم[٢].

وكذا رواه أحمد، وعبد الرزاق، وغيرهما، عن سفيان بن عيينة به[٣]، وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس، وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد. وقد تقدمت أحاديث الإسراء فى أول السورة مستقصاة، ولله[٤] الحمد والمنة. وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل اللَّه ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين؛ ولهذا[٥] قال: ﴿إِلاَّ فِتْنَةً﴾ أى: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهى شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول اللَّه ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله[٦] [بقوله][٧]: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تَزَقَّموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا.

حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصرى، وغير واحد، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك[٨] بشجرة الزقوم.

وقد قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بنو أمية. وهو غريب ضعيف.

قال ابن جرير: حدثت عن محمد بن الحسن بن زَبَالة، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل ابن سعد، حدثنى أبى عن جدى قال: رأى رسول اللَّه ﷺ بنى فلان ينزون على منبره نَزو القرود[٩]، فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات. قال: وأنزل[١٠] اللَّه فى ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية[١١].

وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن «محمد بن الحسن بن زَبَالة» متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية. ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هى شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أى: فى الرؤيا والشجرة.

وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أى: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أى: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خذلان اللَّه لهم.

(١) فى ف: «النبى ﷺ».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧١٦).
(٣) المسند(١/ ٢٢١).
(٤) فى ت: «فلله». (٥) فى ت: «فلهذا». (٦) فى ف، أ: «عليه لعائن الله».
(٧) زيادة من ت. (٨) فى ف: «فسر ذلك». (٩) فى أ: «القردة». (١٠) فى ف: «فأنزل».
(١١) تفسير الطبرى (١٥/ ٧٧).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾.

يذكر تعالى عَدَاوَةَ إبليس ـ لعنه اللّه ـ لآدم، عليه السلام، وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾، يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم[1] وينظر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً.

وقال مجاهد: لأحتوين. وقال ابن زيد: لأضلنهم.

وكلها متقاربة، والمعنى: أنه يقول: أرأيتك هذا الذى شرفته وعظمته علىّ، لئن أنظرتنى لأضلن ذرّيته إلا قليلاً منهم!

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾.

لما سأل إبليس[عليه اللعنة][2] النظرة قال اللّه له: ﴿اذْهَبْ﴾ فقد أنظرتك. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر ٣٧، ٣٨] ثم أوعده ومن تَبِعه من ذرية آدم جهنم، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ أى: على أعمالكم ﴿جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾.

قال مجاهد: وافراً. وقال قتادة: مُوَفّرا عليكم، لا ينقص لكم منه.

وقوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أى: استخفهم بذلك.

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: كل داع دعا إلى معصية اللّه، عز وجل، وقاله قتادة، واختاره ابن جرير.

(١) فى ت، أ: «يحكم».
(٢) زيادة من ف، أ.

وقوله : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خيَّالتهم ورَجْلتَهم[١]؛ فإن «الرَّجْل» جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و «صحب» جمع «صاحب».

ومعناه: تسلط عليهم لكل ما تقدر عليه. وهذا أمر قدرى، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] أى: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً، وتسوقهم إليها[٢] سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد فى قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال: كل راكب وماش فى معصية اللَّه.

وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه.

وتقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه: «نهى فى المسابقة عن الجَلَب والجَنَب» ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهى ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال فى معاصى اللَّه.

وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: [هو][٣] جمعها من خبيث، وإنفاقها فى حرام. وكذا قال قتادة.

وقال العوفى، عن ابن عباس، رضى اللَّه عنهما: أما مشاركته إياهم فى أموالهم، فهو ما حرموه من أنعامهم، يعنى: من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاك وقتادة.

[ثم][٤] قال ابن جرير : والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله .

وقوله : ﴿وَالأَوْلادِ﴾ قال العوفى عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: يعنى أولاد الزنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم.

وقال قتادة، عن الحسن البصرى: قد واللَّه شاركهم فى الأموال والأولاد مَجَّسُوا وهودوا ونَصّروا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وجَزَّؤوا من أموالهم جزءاً للشياطين[٥] ، وكذا قال قتادة سواء.

وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم «عبد الحارث» و«عبد شمس» و«عبد فلان».

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصى اللَّه فيه، بتسميته ما[٦] يكرهه اللَّه، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه اللَّه، أو بالزنا بأمه، أو بقتله ووأده، وغير ذلك من الأمور التى يعصى[٧] اللَّه بفعله به أو فيه، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأن اللَّه لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ماعصى اللَّه فيه ـ أو به، و أطيع فيه الشيطان ـ أو به، فهو مشاركة.

---

(١) فى ت، ف: «ورجالتهم». (٢) فى ت: « إلينا». (٣، ٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى ف: «الشيطان». (٦) فى ف: «بما».

(٧) فى ت: «يعفى».

وهذا الذى قاله مُتَّجه،وكل[(١)] من السلف، رحمهم اللَّه، فسر بعض المشاركة، فقد ثبت فى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار[(٢)] ،أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يقول اللَّه عز وجل: إنى خلقت عبادى حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم[(٣)] عن دينهم، وحَرّمت عليهم ما أحللت لهم»[(٤)].

وفى الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال: « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال: بسم اللَّه، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدّر بينهما ولد فى ذلك، لم يضره الشيطان أبداً»[(٥)].

وقوله: ﴿**وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا**﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ**﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿**وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً**﴾ أى: حافظاً ومؤيداً وناصرًا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن موسى بن وَرْدَان، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن المؤمن ليُنْضى شياطينه[(٦)] ،كما ينضى أحدكم بَعيَره فى السفر»[(٧)].

ينضى، أى: يأخذ بناصيته ويقهره.

﴿**رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)**﴾.

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه فى تسخيره لعباده الفلك فى البحر، وتسهيلها[(٨)] لمصالح عباده، لابتغائهم من فضله[(٩)] فى التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿**إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**﴾ أى: إنما فعل هذا بكم، من فضله عليكم، ورحمته بكم.

﴿**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧)**﴾.

---

(١) فى ت، ف: «فكل». (٢) فى ف، أ: « عن ابن عباس عن عياض بن حمار». وفى ت:« حماد» بدل«حمار».

(٣) فى ت: « واجتالتهم».

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٥) صحيح البخارى برقم (١٤١) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٤).

(٦) فى ت: «شيطانه».

(٧) المسند (٢/ ٣٨٠).

(٨) فى ت، ف، أ:« وتسهيله لها». (٩) فى ف، أ: «فضله لهم».

يخبر تعالى أنه إذا مس الناس ضرّ، دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فاراً من رسول اللّه ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب فى البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم[1] ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لايغنى عنكم إلا أن تدعوا اللّه وحده. فقال عكرمة فى نفسه: واللّه لئن كان لا ينفع فى البحر غيره، فإنه لا ينفع فى البر غيره، اللهم لك علىّ عهد، لئن أخرجتنى منه لأذهبن فأضعن[2] يدى فى يديه[3]، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول اللّه ﷺ فأسلم وحسن[4] إسلامه، رضى اللّه عنه وأرضاه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أى: نسيتم ماعرفتم من توحيده فى البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لاشريك له.

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾ أى: سَجِيَّتُه هذا، ينسى النعم ويجحدها، إلا من عصم اللّه.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨)﴾.

يقول تعالى: أفحسبتم أن نخرجكم[5] إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه!

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهو: المطر الذى فيه حجارة. قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ[6] حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[7]﴾ [هود: ٨٢]، وقال: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ أى: ناصراً يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه [والله سبحانه وتعالى أعلم][8].

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا فى البحر، وخرجوا إلى البر[9] ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ فى البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أى: يقصف الصوارى

---

(١) فى ف: «فجاءهم». (٢) فى ت: «فأضع»، وفى ف: «فلأضعن». (٣) فى أ: «يدى محمد».
(٤) فى ت: «ﷺ فأحسن». (٥) فى ت: «أن يخرجوكم»، وفى ف، أ: «أن يخرجكم». (٦) فى ف: «عليكم» وهو خطأ.
(٧) فى ت، ف، أ: «من طين» وهو خطأ. (٨) زيادة من ف. (٩) فى ت: «إلى التراب».

ويغرق المراكب.

قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار[١] التى تكسر المراكب وتغرقها[٢].

وقوله: ﴿ فَيُغْرِقَكُم [٣]بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أى: بسبب كفركم وإعراضكم عن اللّه تعالى.

وقوله: ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ قال ابن عباس: نصيراً.

وقال مجاهد: نصيراً ثائرًا، أى: يأخذ بثأركم بعدكم.

وقال قتادة: ولانخاف أحداً يتبعنا بشىء من ذلك.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) ﴾.

يخبر تعالى عن تشريفه لبنى آدم، وتكريمه إياهم، فى خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها[٤]، كما قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين: ٤] أى: يمشى قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه ـ وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه ـ وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدنيوية والدينية.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ [٥] ﴾أى: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفى ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ أيضًا على السفن الكبار والصغار.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم[٦] والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة[٧] من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحى.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أى: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استُدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة، قال عبد الرزاق:

أخبرنا مَعْمَر، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة: يا ربنا، إنك أعطيت بنى آدم الدنيا، يأكلون منها ويتنعمون، ولم تعطنا ذلك فأعطناه فى الآخرة. فقال اللّه:«وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى، كمن قلت له: كن فكان»[٨].

وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه، وقد روى من وجه آخر متصلاً.

وقال[٩] الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن محمد بن صَدَقَة البغدادى، حدثنا إبراهيم

---

(١) فى ... البحارة». (٢) فى ف: « يكسر المراكب ويغرقها». (٣) فى ت: «فتغرقكم». وفى ف: « فيغرقكم».
(٤) فى أ: « وأجملها». (٥) فى ت، ف: «البر والبحر». (٦) فى ت: «الأطعمة».
(٧) فى ت، ف، أ: «المرتفعة».
(٨) تفسير عبد الرزاق(١/ ٣٢٥).
(٩) فى ف: «فقال».

ابن عبد اللَّه بن خالد المِصِّيصِيّ، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غَسَّان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سُليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد اللَّه بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: « إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بنى آدم الدنيا، يأكلون فيها[١] ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى، كمن قلت له: كن، فكان»[٢].

وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازى، حدثنا الحسن بن على بن خلف الصيدلانى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثنى عثمان بن حصن بن عبيدة بن عَلَّاق، سمعت عروة بن رُوَيْم اللخمى، حدثنى أنس بن مالك، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقت بنى آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويتزوجون النساء، ويركبون الدواب، ينامون[٣] ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال اللَّه عز وجل: لا أجعل من خلقته بيدى، ونفخت فيه من روحى، كمن قلت له: كن، فكان»[٤].

وقال الطبرانى: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا عمر[٥] بن سهل، حدثنا عبيد اللَّه بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شغَاف[٦] عن أبيه، عن عبد اللَّه بن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما شيء أكرم على اللَّه يوم القيامة من ابن آدم». قيل: يارسول اللَّه، ولا الملائكة؟ قال: «ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر» [٧]. وهذا حديث غريب جداً.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾.

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم.

وقد اختلفوا فى ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أى بنبيهم. وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[يونس: ٤٧].

---

(١) فى ت: «منها».

(٢) وفى إسناده إبراهيم بن عبد الله المصيصى وهو كذاب، ورواه فى المعجم الأوسط برقم (٨٧) «مجمع البحرين» من طريق طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم به، وقال: «لم يروه عن صفوان إلا طلحة، وأبو غسان محمد بن مطرف» وفى إسناده طلحة بن زيد وهو كذاب.

(٣) فى ت: «وينامون».

(٤) وذكره الهندى فى كنز العمال (١٢/ ١٩١) وعزاه لابن عساكر من حديث أنس، وقد جاء من وجه آخر؛ فرواه الطبرانى فى مسند الشاميين من طريق أحمد بن يعلى، عن هشام بن عمار، عن عثمان بن علاق قال: سمعت عروة بن رويم يحدث عن جابر فذكره، ورواه البيهقى فى الأسماء والصفات من طريق جنيد بن حكيم، عن هشام بن عمار، عن عبد ربه بن صالح قال: سمعت عروة بن رويم يحدث عن جابر فذكره. ا. هـ. مستفاداً ذلك الزيلعى فى كتابه تخريج الكشاف.

(٥) فى ت، ف: «معمر». (٦) فى ف: «شعاب».

(٧) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ٨٢): « رواه الطبرانى فى الكبير، وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف».

وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبى ﷺ.

وقال ابن زيد: بكتابهم الذى أنزل على نبيهم، من التشريع.

واختاره ابن جرير، وروى عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد مارواه العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿يوم ندعو كلَّ أُناسٍ بإمامهم﴾ أى: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وكلَّ شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مُّبين﴾ [يس:١٢]. وقال تعالى: ﴿ووُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممَّا فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرًا ولا يظلم ربُّك أحدًا﴾ [الكهف:٤٩].

وقال تعالى: ﴿وترى كلَّ أُمَّةٍ جاثيةً كلُّ أُمَّةٍ تُدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ إنَّا كنَّا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

وهذا لاينافى[١] أن يجاء بالنبى إذا حكم اللَّه بين أمته، فإنه لابد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووُضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾، [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿فكيف إذا جئنا من كلِّ أُمَّةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾ [النساء:٤١].

ولكن المراد ههنا بالإمام[٢] هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يوم ندعو كلَّ أُناسٍ بإمامهم فمن أُوتي كتابه بيمينه فأُولئك يقرءون كتابهم﴾ أى: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: ﴿فأمَّا من أُوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه . إنِّي ظننت أنِّي ملاقٍ حسابيه﴾ إلى أن قال: ﴿وأمَّا من أُوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أُوت كتابيه. ولم أدر ما حسابيه﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٦].

وقوله: ﴿ولا يُظلمون[٣] فتيلاً﴾ قد تقدم أن «الفتيل» هو الخيط المستطيل فى شق النواة.

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً فى هذا فقال: حدثنا محمد بن يَعْمَر[٤]، ومحمد بن عثمان ابن كرامة قالا: حدثنا عبيد اللَّه بن موسى، عن إسرائيل، عن السُّدِّىّ، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، عن النبى ﷺ فى قول اللَّه: ﴿يوم ندعو كلَّ أُناسٍ بإمامهم﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له فى جسمه، ويُبيَّض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تَتَلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا[٥] بهذا، وبارك لنا فى هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر فَيُسْود وجهه، ويمدّ له فى جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ باللَّه من هذا ـ أو: من شر هذا ـ اللهم لاتأتنا به. فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه[٦]. فيقول: أبعدكم اللَّه، فإن لكل رجل منكم مثل هذا».

---

(١) فى ت، ف: «لا ينفى». (٢) فى ف: «بالإمام هاهنا». (٣) فى ف: «تظلمون».
(٤) فى ت، ف، أ: «معمر». (٥) فى هـ، ت: «اعترينا»، والمثبت من ف. (٦) فى ت: «أجرنا».

ثم قال البزار: لا يروى إلا من هذا الوجه [(١)].

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن حجج اللّه وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي: وأضل منه كما كان في الدنيا، عياذاً باللّه من ذلك.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾.

يخبر تعالى عن تأييد[(٢)] رسوله، صلوات اللّه عليه وسلامه[(٣)]، وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لايكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر[(٤)] دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧)﴾.

قيل: نزلت في اليهود، إذ أشاروا على رسول اللّه ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وترك سكني المدينة.

وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك.

وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صحته نظر.

قال البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العُطاردي، عن يونس بن بُكَيْر، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم؛ أن اليهود أتوا رسول اللّه ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام؛ فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق[(٥)] ماقالوا، فغزا غزوة تبوك، لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك، أنزل اللّه عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ماختمت السورة: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلاً﴾ فأمره اللّه بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث[(٦)].

(١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١٣٦) من طريق عبد الله بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن موسى به، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) في ف: «تأييده».

(٣) في ت: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٤) في ت: «فيظهر».

(٥) في ت، ف: «قال: فصدق».

(٦) دلائل النبوة (٥/ ٢٥٤).

وفى هذا الإسناد نظر. والأظهر أن هذا ليس[١] بصحيح؛ فإن النبى ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، إنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله[٢] تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة، من أصحابه، واللَّه أعلم. ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذى رواه الوليد بن مسلم، عن عُفَير بن مَعْدان، عن سُلَيم بن عامر، عن أبى أمامة، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة: مكة، والمدينة، والشام»[٣]. قال الوليد: يعنى بيت المقدس. وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس واللَّه أعلم.

وقيل: نزلت فى كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم اللَّه بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه[٤] لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف. حتى جمعهم اللَّه وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم[٥]، وسبى سراتهم[٦]؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أى: هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم: ويأتيهم العذاب. ولولا أنه عليه [الصلاة و][٧] السلام رسول الرحمة، لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات فى أوقاتها: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ قيل[٨]: لغروبها. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد.

وقال هُشَيْم، عن مغيرة، عن الشعبى، عن ابن عباس: «دلوكها»: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك فى تفسيره، عن الزهرى، عن ابن عمر. وقاله أبو بَرْزَة الأسلمى وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود. ومجاهد. وبه قال الحسن، والضحاك، وأبو جعفر الباقر، وقتادة. واختاره ابن جرير، ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد، عن الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبى ليلى، [عن رجل][٩]، عن جابر بن عبد اللَّه قال: دعوت رسول اللَّه ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندى، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبى ﷺ فقال: «اخرج يا أبا بكر، فهذا حين دلكت الشمس»[١٠].

---

(١) فى ت: «ليس هذا». (٢) فى ف: «ولقوله».
(٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٠١) من طريق هشام بن عمار، عن الوليد بن مسلم به، وعفير بن معدان ضعيف.
(٤) فى ت: «خرجوه». (٥) فى ت: «أشرارهم». (٦) فى ف، أ: «ذراريهم».
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ت: «قبل». (٩) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٩٣).

ثم رواه عن سهل بن بكار، عن أبى عَوَانة، عن الأسود بن قيس، عن نبيح العنْزى، عن جابر عن رسول اللَّه ﷺ، نحوه. فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله[تعالى][1]: ﴿و قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعنى: صلاة الفجر.

وقد ثبتت السنة عن رسول اللَّه ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله[2]، بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه عمل أهل الإسلام[3] اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر فى مواضعه، ولله الحمد.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود ـ وعن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه[4]، عن النبى ﷺ فى هذه الآية: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»[5].

وقال البخارى: حدثنا عبد اللَّه بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن أبى سلمة ـ وسعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر». ويقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [6].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ ـ وحدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ قال: « تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار».

ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، ثلاثتهم عن عُبَيْد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به[7]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وفى لفظ فى الصحيحين، من طريق مالك، عن أبى الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار[8] ،ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر، فَيَعْرُجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم ـ وهو أعلم بكم ـ كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون ،وتركناهم وهم يصلون»[9].

وقال عبد اللَّه بن مسعود: يجتمع الحرسان[10] فى صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء.

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت: «أقواله وأفعاله». (٣) فى ت: «السلام».
(٤) فى ت، ف، أ: «عنهما».
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٩٤).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧١٧).
(٧) المسند (٢/ ٤٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٣) وسنن ابن ماجة برقم (٦٧٠) وهو عند أهل السنن من رواية الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٨) فى ت: « بالليل وملائكة بالنهار».
(٩) صحيح البخارى برقم (٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).
(١٠) فى ت، ف: « الحرستان».

وكذا قال إبراهيم النَّخَعى، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد فى تفسير هذه الآية.

وأما الحديث الذى رواه ابن جرير ههنا ـ من حديث الليث بن سعد، عن زيادة، عن محمد بن كعب القرظى، عن فضالة بن عُبيد، عن أبى الدرداء، عن رسول اللَّه ﷺ، فذكر حديث النزول وأنه تعالى يقول: «من يستغفرنى أغفر له، من يسألنى أعطه[١]، من يدعنى فأستجيب له حتى يطلع الفجر». فلذلك يقول: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فيشهده اللَّه، وملائكة الليل، وملائكة النهار[٢] ـ فإنه تفرد به زيادة، وله بهذا حديث فى سنن أبى داود[٣].

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾: أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ، أنه سئل: أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل»[٤].

ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد: ما كان بعد نوم. قاله علقمة، والأسود، وإبراهيم النخعى، وغير واحد وهو المعروف فى لغة العرب. وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول اللَّه ﷺ: أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة، رضى اللَّه عنهم، كما هو مبسوط فى موضعه[٥]، ولله الحمد والمنة.

وقال الحسن البصرى: هو ماكان بعد العشاء. ويحمل[٦] على ما بعد النوم.

واختلف فى معنى قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجباً فى حقه دون الأمة. رواه العوفى عن ابن عباس، وهو أحد قولى العلماء، وأحد قولى الشافعى، رحمه اللَّه، واختاره ابن جرير.

وقيل: إنما جعل قيام الليل[٧] فى حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، وغيرهُ من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التى عليه، قاله مجاهد، وهو فى المسند عن أبى أمامة الباهلى، رضى اللَّه عنه[٨].

وقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أى: افعل هذا الذى أمرتك به، لنقيمك يوم القيامة مقاماً يحسدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم، تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذى يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة ذلك اليوم.

ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن[٩] أبى إسحاق، عن

---

(١) فى ف: «أعطيه».

(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٩٤).

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٨٩٢) وأوله: «من اشتكى منكم شيئًا أو اشتكاه أخ له فليقل». وزيادة منكر الحديث.

(٤) صحيح مسلم برقم (١١٦٣).

(٥) فى ف: «مواضعه». (٦) فى ت: «ويحتمل». (٧) فى ف، أ: «قيام الليل واجبا».

(٨) المسند(٥/ ٢٥٦).

(٩) فى ت: «ابن».

صلة بن زُفَر، عن حذيفة قال: يجمع الناس فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر، حفاة عُراة كما خلقوا قياماً، لا تكلم نفس إلا بإذنه، ينادى: يامحمد، فيقول: « لبيك وسعديك، والخير فى يديك، والشر ليس إليك ، والمهدىّ من هَدَيْت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت». فهذا المقام المحمود الذى ذكره اللّه عزوجل[1] [2].

ثم رواه عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن أبى إسحاق، به[3] . وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثورى، عن أبى إسحاق، به[4].

وقال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد. وقاله الحسن البصرى.

وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض[5]، وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذى قال اللّه : ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

قلت: لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم تسليماً تشريفات [يوم القيامة][6] لا يشركه فيها[7] أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض[8]، ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذى آدم فمن دُونَه تحت لوائه، وله الحوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند اللّه ليأتى لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد[9] ﷺ فيقول: « أنا لها، أنا لها » كما سنذكر ذلك مفصلاً فى هذا الموضع، إن شاء اللّه تعالى. ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع فى الجنة، كما ثبت فى صحيح مسلم. وفى حديث الصور: أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته. وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع فى رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن اللّه تعالى فى الشفاعة للعصاة[10] شفع[11] الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو فى خلائق لا يعلم عدتهم[12] إلا اللّه، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك. وقد بسطت ذلك مستقصى فى آخر كتاب «السيرة» فى باب الخصائص، وللّه الحمد والمنة.

---

(١) فى أ، ف: «الله تعالى».

(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٩٧).

(٣) تفسير الطبرى(١٥/ ٩٧) والرواية كما هى عند الطبرى: حدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا محمد بن جعفر «غندر» فلعله سبق نظر.

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ٩٨).

(٥) فى ت: «تنشق الأرض عنه».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) فى ت: « فينا».

(٨) فى ت: «الأرض عنه».

(٩) فى أ، ف: « يأتوا محمداً».

(١٠) فى ت، ف: « فى العصاة».

(١١) فى أ: «تشفع».

(١٢) فى ت: «عددهم».

ولنذكر الآن[١] الأحاديث الواردة فى المقام المحمود، وبالله المستعان:

قال البخارى: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن على، سمعت ابن عمر [يقول][٢]: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً[٣].

ورواه حمزة بن عبد الله، عن أبيه، عن النبى ﷺ.

قال ابن جرير: حدثنى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا[٤] شعيب بن الليث، حدثنى[٥] الليث، عن عبيد الله بن أبى جعفر أنه قال: سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لَتدنو حتى يبلغ[٦] العَرَقُ نصفَ الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا[٧] بآدم، فيقول: لست صاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد فيشفع بين الخلق[٨]، فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محمودا». [يحمده أهل الجنة كلهم][٩].

وهكذا رواه البخارى فى «الزكاة» عن يحيى بن بُكَيْر، وعبد الله بن صالح، كلاهما عن الليث بن سعد، به[١٠]. وزاد: «فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم».

قال البخارى: وحدثنا على بن عَيَّاش، حدثنا شعيب بن أبى حَمْزة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حَلَّت له شفاعتى يوم القيامة ». انفرد به دون مسلم[١١].

حديث أبىّ:

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدى، حدثنا زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبى بن كعب، عن أبيه، عن النبى ﷺ قال: « إذا كان يوم القيامة، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير فَخْر»[١٢].

وأخرجه الترمذى، من حديث أبى عامر عبد الملك بن عَمْرو العَقَدىّ، وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل به. وقد قدمنا فى حديث: « أبى بن كعب» فى قراءة القرآن على سبعة أحرف، قال رسول الله ﷺ فى آخره: « فقلت: اللهم، اغفر لأمتى، اللهم اغفر لأمتى، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىّ فيه الخلق، حتى إبراهيم عليه السلام»[١٣].

---

(١) فى ت: «الآية».
(٢) زيادة من ت، ف،أ، والبخارى.
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧١٨).
(٤) فى ت: «قال: حدثنا».
(٥) فى ت: «قال: حدثنى».
(٦) فى ت: «تبلغ».
(٧) فى ت: « استغاث».
(٨) فى ت: «الخلائق».
(٩) زيادة من أ.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/٩٨) وصحيح البخارى برقم (١٤٧٥).
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧١٩).
(١٢) المسند (٥/١٣٧).
(١٣) سنن الترمذى برقم (٣٦١٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣١٤).

حديث أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة، حدثنا قتادة، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: « يجتمع[1] المؤمنون يوم القيامة، فيلهمون ذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو[2] البشر، خلقك اللّه بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كلّ شيء، فاشفع لنا إلى ربك[3] حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذى أصاب، فيستحيى ربه، عز وجل، من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه اللّه إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئة[4] سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيى ربه من ذلك، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى، عبداً كلمه اللّه، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس[5]، فيستحيى ربه من ذلك، ولكن ائتوا عيسى عبد اللّه ورسوله، وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً عبداً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونى». قال الحسن هذا الحرف[6]: « فأقوم فأمشى بين سِماطين من المؤمنين» . قال أنس: « حتى أستأذن على ربى، فإذا رأيت ربى وقعت له - أو: خررت - ساجداً لربى، فيدعنى ماشاء اللّه أن يدعنى». قال: « ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسى، فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحدّ لى حداً، فأدخلهم الجنة»: «ثم[7] أعود[8] إليه الثانية، فإذا رأيت ربى وقعت [9] ـ أو: خررت ـ ساجداً لربى، فيدعنى ماشاء اللّه أن يدعنى. ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحدّ لى حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود فى الثالثة؛ فإذا رأيت ربى وقعت - أو: خررت - ساجداً لربى، فيدعنى ماشاء اللّه أن يدعنى، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة. ثم أعود الرابعة فأقول: يارب، ما بقى إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: « فيخرج من النار من قال: « لا إله إلا اللّه» وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا اللّه» وكان فى قلبه من الخير ما يزن بُرَّة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا اللّه» وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة ».

أخرجاه[فى الصحيح][10] من حديث سعيد، به[11]. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله[12].

(١) فى ف، أ: «يجمع». (٢) فى ت: «أول». (٣) فى ت: «ربنا».
(٤) فى ت، ف، أ: « خطيئته». (٥) فى ف: « بغير حق». (٦) فى ت: «الخوف».
(٧) فى ف، أ: «قال: ثم». (٨) فى ت: « أدعو». (٩) فى أ: «وقعت له».
(١٠) زيادة من أ.
(١١) المسند (٣/ ١١٦) وصحيح البخارى برقم (٤٤٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٣).
(١٢) المسند(٣/ ٢٤٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الأنصارى، عن النضر بن أنس، عن أنس قال: حدثنى نبى اللَّه ﷺ قال: «إنى لقائم أنتظر أمتى تعبر الصراط، إذ جاءنى عيسى، عليه السلام، فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يامحمد يسألون ـ أو قال: يجتمعون إليك ـ ويَدْعُون اللَّه أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء اللَّه، لغمّ [١] ماهم فيه، فالخلق مُلجَمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكْمَة، وأما الكافر فيغشاه الموت، فقال: انتظر حتى أرجع إليك. فذهب نبى اللَّه ﷺ فقام تحت العرش، فلقى ما لم يلق مَلَك مصطفى ولا نبى مرسل. فأوحى اللَّه، عز وجل، إلى جبريل: أن اذهب إلى محمد، وقل له: ارفع رأسك، وسل تُعطه، واشفع تشفع. فشفَعتُ[٢] فى أمتى: أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً. فما زلت أتردد إلى ربى، عز وجل، فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت، حتى أعطانى اللَّه من ذلك، أن قال: يامحمد، أَدْخِلْ [من أمتك][٣] من خلق اللَّه، عز وجل، من شهد أن لا إله إلا اللَّه يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك»[٤].

حديث بريدة، رضى اللَّه عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حَصِيرة، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه: أنه دخل على معاوية، فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يامعاوية، تأذن لى فى الكلام؟ فقال: نعم ـ وهو يرى أنه يتكلم بمثل[٥] ما قال الآخر ـ فقال بريدة: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقول: « إنى لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرة». قال: فترجوها أنت يا معاوية، ولا يرجوها علىّ، رضى اللَّه عنه؟![٦].

حديث ابن مسعود:

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا على بن الحكم البُنَانى، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء ابنا مُلَيْكَة إلى النبى ﷺ فقالا: إن أمَّنا [كانت][٧] تكرم الزوج، وتعطف على الولد ـ قال: وذكر الضيف ـ غير أنها كانت وأدت فى الجاهلية؟ فقال: « أمكما فى النار». قال: فأدبرا والسوء يرى فى وجوههما، فأمر بهما فَرُدا، فَرَجَعَا والسرور[٨] يرى فى وجوههما؛ رجاء أن يكون قد حدث شىء، فقال: «أمى مع أمكما». فقال رجل من المنافقين: وما يغنى هذا عن أمه شيئاً! ونحن نطأ عقبيه. فقال رجل من الأنصار ـ ولم أر رجلاً قط أكثر سؤالاً منه ـ : يارسول اللَّه، هل وعدك ربك فيها أو فيهما؟. قال: فظن أنه من شىء قد سمعه، فقال: «ما شاء اللَّه ربى، وما أطمعنى[٩] فيه، وإنى لأقوم المقام المحمود يوم القيامة». فقال الأنصارى: يارسول اللَّه، وما ذاك المقام المحمود ؟ قال: « ذاك إذا

(١) فى ت: «نعم». (٢) فى ت: «فتشفعت». (٣) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٤) المسند (٣/ ١٧٨) و قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٧٤): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) فى ت: «يميل».

(٦) المسند (٥/ ٣٤٧)، وأبو إسرائيل الملائى ضعيف.

(٧) زيادة من ت، ف، أ، والمسند. (٨) فى ت: « والسوء». (٩) فى ت: « وما طمعنى».

جيء بكم حفاة عراة غرلاً، فيكون أول من يكسى إبراهيم، عليه السلام، فيقول: اكسوا خليلى. فيؤتى بريطتين بيضاوين، فيلبسهما ثم يقعده مستقبل العرش، ثم أوتى بكسوتى فألبسها، فأقوم عن يمينه مقاماً لا يقومه أحد، فيغبطنى فيه الأولون والآخرون. ويفتح نهر[١] من الكوثر إلى الحوض». فقال المنافقون: إنه ماجرى ماء قط إلا على حال أو رضراض. فقال رسول اللَّه ﷺ: « حاله المسك، ورضراضه التُّوم». [قال المنافق: لم أسمع كاليوم. قلَّما جرى ماء قط على حال أو رضراض، إلا كان له نبتة. فقال الأنصارى: يارسول اللَّه، هل له نبت؟ قال: «نعم، قضبان الذهب»][٢]. قال المنافق: لم أسمع كاليوم، فأنه قلما ينبت قضيب إلا أورق، وإلا كان له ثمر! قال الأنصارى: يارسول اللَّه، هل له ثمرة ؟ قال: « نعم، ألوان الجوهر، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، من شرب منه شربةً [٣] لا يظمأ بعده، ومن حرمه لم يَرْوَ بعده»[٤].

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا يحيى بن سَلَمَة بن كُهَيْل، عن أبيه، عن أبى الزّعْرَاء، عن عبد اللَّه قال: ثم يأذن اللَّه، عز وجل، فى الشفاعة، فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل اللَّه، ثم يقوم عيسى أو موسى ـ قال أبو الزعراء: لا أدرى أيهما ـ قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً، فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود الذى قال اللَّه عز وجل: ﴿**عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾[٥].

حديث كعب بن مالك، رضى اللَّه عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا الزبيدى، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه [بن كعب][٦] بن مالك، عن كعب بن مالك أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتى على تل، ويكسونى ربى، عز وجل، حلة خضراء[٧]. ثم يؤذن لى فأقول ماشاء اللَّه أن أقول، فذلك المقام المحمود »[٨].

حديث أبى الدرداء، رضى اللَّه عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا يزيد بن أبى حبيب، عن عبد الرحمن ابن جُبَير، عن أبى الدرداء، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدى، فأعرف أمتى من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يمينى مثل ذلك، وعن شمالى مثل ذلك ». فقال رجل: يارسول اللَّه، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غرّ مُحَجَّلُون، من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يُؤتَونَ كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى[٩] بين أيديهم ذريتهم»[١٠].

---

(١) فى ت: «لهم» (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت، أ: «شرابا».
(٤) المسند (١/ ٣٩٨).
(٥) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٩٦) من طريق بندار، عن غندر، عن شعبة، عن سلمة بن كهيل بنحوه.
(٦) زيادة من ف، أ، والمسند. (٧) فى ت: «حمراء».
(٨) المسند(٣/ ٤٥٦).
(٩) فى ت، أ: « يسعى».
(١٠) المسند (٥/ ١٩٩).

حديث أبى هريرة، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا أبو حَيَّان، حدثنا أبو زُرْعَة بن عمرو بن جرير، عن أبى هريرة، قال: أتَى رسول الله ﷺ بلحم، فَرُفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فَنَهَسَ منها نَهْسة[١]، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد، يُسْمعهم الداعى وَيَنفذُهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم[٢] والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض:[ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم عز وجل؟ فيقول بعض الناس لبعض][٣]: أبوكم آدم!.

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يانوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة[٥] على قومى، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبى اللّه وخليله من أهل الأرض،[اشفع لنا إلى ربك][٦] ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغـــضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسى، نفسى، نفسى [اذهبوا إلى غيرى][٧] اذهبوا إلى موسى .

فيأتون موسى فيقولون: ياموسى، أنت رسول اللّه، اصطفاك اللّه برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: ياعيسى، أنت رسول اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ـ قال: هكذا هو ـ وكلمت الناس فى المهد ، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد.

---

(٢) فى أ: « فنهش منها نهشة». (٣) فى ت: «الهم». (٤) زيادة من المسند.
(٥) فى ت، أ: «دعوة دعوتها». (٦، ٧) زيادة من ف، أ، والمسند.

فيأتونى فيقولون: يامحمد، أنت رسول اللَّه، وخاتم الأنبياء، غفر اللَّه لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فآتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربى، عز وجل، ثم يفتح اللَّه علىّ، ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلى. فيقال: يامحمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يارب، أمتى أمتى، يارب أمتى أمتى، يارب، أمتى أمتى! فيقال: يامحمد: أَدْخِل من أمتك من لاحساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب». ثم قال: « والذى نفس محمد بيده لما بين مِصْراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وَهَجَر، أو كما بين مكة وبُصْرَى». أخرجاه فى الصحيحين [١].

وقال مسلم، رحمه اللَّه: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هِقْلُ بن زياد، عن الأوزاعى، حدثنى أبو عمار، حدثنى عبد اللَّه بن فرُّوخ، حدثنى أبو هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشَفَّع»[٢].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكيع، عن داود بن يزيد الزّعافرى، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، سئل عنها فقال: «هى الشفاعة»[٣].

رواه الإمام أحمد عن وكيع وعن محمد[٤] بن عبيد، عن داود، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، قال: «هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه »[٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن على بن الحسين قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، مدّ اللَّه الأرض مدّ الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدمه[٦]». قال النبى ﷺ: « فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمن[٧] واللَّه مارآه قبلها، فأقول[٨]: رب، إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلىّ. فيقول اللَّه تبارك وتعالى: صدق، ثم أشفع. فأقول: يارب عبادك عبدوك فى أطراف الأرض»، قال: «فهو المقام المحمود»[٩]، وهذا حديث مرسل.

---

(١) المسند (٢/٤٣٥) وصحيح البخارى برقم (٤٧١٢) وصحيح مسلم برقم (٨٩٤).
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٨).
(٣) تفسير الطبرى (١٥/٩٨).
(٤) فى هـ:« عن وكيع عن محمد بن عبيد»، والمثبت من ت.
(٥) المسند (٢/٤٤١، ٤٤٤).
(٦) فى ت، ف: «قدميه».
(٧) فى ت: « الرحمن عز وجل»، وفى ف، أ: « الرحمن تبارك وتعالى».
(٨) فى ت، ف، أ: «فاقول: أى».
(٩) تفسير عبد الرزاق (١/٣٢٨).

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس بن[1] أبى ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل اللَّه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[2].

وقال الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول اللَّه ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، وأراد اللَّه قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى[3] المدينة، فهو الذى قال اللَّه عزوجل: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعنى: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعنى: مكة.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال.

وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعنى: الموت ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعنى: الحياة بعد الموت. وقيل غير ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قال الحسن البصرى فى تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس، وعز[4] فارس، وليجعلنه له، وملك الروم، وعز الروم، وليجعلنه له.

وقال قتادة فيها إن نبى اللَّه ﷺ، علم ألاَّ طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب اللَّه، ولحدود اللَّه، ولفرائض اللَّه، ولإقامة دين اللَّه؛ فإن السلطان رحمة من اللَّه جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم.

قال مجاهد: ﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾: حجة بينة.

واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا قال[سبحانه و][5] تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفى الحديث: «إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن» أى: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، مالا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد

---

(١) فى ف: «عن».
(٢) المسند (١/ ٢٢٣).
(٣) فى ت: «على». (٤) فى ت: «وغير». (٥) زيادة من ف، أ.

جاءهم من اللَّه الحق الذى لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه اللَّه به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزَهَق باطلهم، أى: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال البخارى: حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن أبى[(١)] مَعْمر، عن عبد اللَّه بن مسعود قال: دخل النبى ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود فى يده، ويقول: «﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»[(٢)].

وكذا رواه البخارى أيضاً فى غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذى، والنسائى، كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة به [(٣)]. [وكذا رواه عبد الرزاق عن الثورى عن ابن أبى نجيح][(٤)].

وكذا رواه الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا شَبَابة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو الزبير، عن جابر، رضى اللَّه عنه، قال: دخلنا مع رسول اللَّه ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً[(٥)] يعبدون من دون اللَّه. فأمر بها رسول اللَّه ﷺ فأكبت لوجهها، وقال: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»[(٦)].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ ـ وهو القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ـ إنه: ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: يذهب ما فى القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات فى ذلك[(٧)] كثيرة.

---

(١) فى ت: «ابن».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٠).

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٧٨، ٤٢٨٧)، وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٧).

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت: «نصبًا».

(٦) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٤/٤٨٧): حدثنا شبابة بن سوار به.

(٧) فى ت، ف: «هذا».

قال قتادة في قوله: ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه[1] ولا يعيه، فإن اللَّه جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين.

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤) ﴾.

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم اللَّه تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة اللَّه وعبادته ونأى بجانبه.

قال مجاهد: بَعُد عنا.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وبأنه إذا مسه الشر ـ وهو المصائب والحوادث والنوائب ـ ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ أي: قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وقال قتادة: على نيَّته. وقال ابن زيد: دينه.

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى. وهذه الآية ـ واللَّه أعلم ـ تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ أي: منا ومنكم، وسيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمة، عن عبد اللَّه ـ هو ابن مسعود رضى اللَّه عنه ـ قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرث فى المدينة، وهو متوكئ على عَسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا[2]: يامحمد، ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

---

(١) فى ف: «لا يحفظه ولا ينتفع به».
(٢) فى ت: «فقال بعضهم».

فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه .

وهكذا رواه البخارى ومسلم من حديث الأعمش، به[١] .ولفظ البخارى عند تفسير هذه الآية، عن عبد اللّه بن مسعود قال : بينا أنا مع النبى[٢] ﷺ فى حَرْث، وهو متوكئ[٣] على عسيب، إذ مر اليهود[٤]، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم[٥] إليه. وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشىء تكرهونه. فقالوا: سلوه فسألوه عن الروح، فأمسك النبى ﷺ فلم يرد عليه شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامى، فلما نزل الوحى قال: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ[٦] عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ الآية[٧] .

وهذا السياق يقتضى[٨] فيما يظهر بادى الرأى: أن هذه الآية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا: بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهى هذه الآية: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ**﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد:

حدثنا قتيبة، حدثنا يحيى بن زكريا ، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فنزلت: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً. قال: وأنزل اللّه: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ [الكهف: ١٠٩][٩].

وقد روى ابن جرير، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن داود، عن عكرمة قال: سأل أهلُ الكتاب رسولَ اللّه ﷺ عن الروح، فأنزل اللّه: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ فقالوا: يزعم[١٠] أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة، وهى الحكمة ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾؟ [البقرة: ٢٦٩] قال: فنزلت: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ [لقمان: ٢٧]. قال: ما أوتيتم من علم، فنجاكم اللّه به من النار، فهو كثير طيب وهو فى علم اللّه قليل[١١] .

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ فلما هاجر رسول اللّه ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود. وقالوا: يامحمد، ألم

---

(١) المسند (١/ ٣٨٩) وصحيح البخارى برقم (١٢٥، ٧٤٦٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٤).
(٢) فى ف: «مع رسول اللّه».
(٣) فى ت، ف: «متكئ».
(٤) فى ت، ف: «باليهود».
(٥) فى ت، ف: «ما رأيكم».
(٦) فى ت، ف: « يسألونك».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٢١).
(٨) فى ت: «تقضى».
(٩) المسند(١/ ٢٥٥).
(١٠) فى ت، ف: «تزعم».
(١١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠٤).

يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أفعَنَيْتَنَا أم عنيت قومك؟ فقال: «كلا قد عنيت». قالوا: إنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «هي في علم اللَّه قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به استقمتم»، وأنزل اللَّه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[لقمان: ٢٧].

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال:

أحدها: أن المراد [بالروح][1]: أرواح بني آدم.

قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن[2] الروح؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من اللَّه؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يُحرِ إليهم شيئاً. فأتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ فأخبرهم النبي ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ فقال: «جاءني به جبريل من عند اللَّه؟» فقالوا له: واللَّه ما قاله لك إلا عدو لنا. فأنزل اللَّه: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ [مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ][3]﴾ الآية [البقرة: ٩٧].

وقيل: المراد بالروح ههنا: جبريل. قاله قتادة، قال: وكان ابن عباس يكتمه.

وقيل: المراد به ههنا: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها. قال[4] علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ يقول: الروح: ملك.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد اللَّه بن عُرْس[5] المصري، حدثنا وهب بن رزق أبوهريرة[6]، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثنا عطاء، عن عبد اللَّه بن عباس قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن للّه ملكاً، لو قيل له: التقم السموات السبع والأرضين[7] بلقمة واحدة، لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت»[8].

وهذا حديث غريب، بل منكر.

وقال أبو جعفر بن جرير، رحمه اللَّه: حدثني علي، حدثنا عبد اللَّه، حدثني أبو نمْران يزيد بن سَمُرَة صاحب قيسارية، عمن حدثه عن علي بن أبي طالب، رضي اللَّه عنه، أنه قال في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ قال: هو مَلَك من الملائكة، له سبعون ألف وجه، لكل وجه منها سبعون ألف لسان، لكل لسان منها [سبعون][9] ألف لغة، يسبح اللَّه تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق اللَّه من كل تسبيحة مَلَكًا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة[10].

---

(١) زيادة، من ت، ف، أ. (٢) في ت، ف، أ: «ما». (٣) زيادة من ف، أ.

(٤) في ت، ف: «قاله». (٥) في ت: «ابن عباس».

(٦) في هـ، ف، أ: « روق أبو هبيرة»، والمثبت من الطبراني. (٧) في ف: «والأرض».

(٨) المعجم الكبير (١١/ ١٩٥) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٠): «وهب بن رزق لم أر من ذكر له ترجمة».

(٩) زيادة من ت، ف، أ، والطبري.

(١٠) تفسير الطبري (١٥/ ١٠٥).

وهذا أثر غريب عجيب، واللَّه أعلم.

وقال السهيلى: روى عن علىّ أنه قال: هو ملك، له مائة ألف رأس، لكل رأس مائة ألف وجه، فى كل وجه مائة ألف فم، فى كل فم مائة ألف لسان، يسبح اللَّه تعالى بلغات مختلفة.

قال السهيلى: وقيل المراد بذلك: طائفة من الملائكة على صور بنى آدم.

وقيل: طائفة يرون الملائكة ولا تراهم[1]، فهم للملائكة كالملائكة لبنى آدم.

وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أى: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى.

والمعنى: أن علمكم فى علم اللَّه قليل، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى. وسيأتى إن شاء اللَّه فى قصة موسى والخضر: أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر فى البحر نقرة، أى: شرب منه بمنقاره، فقال: ياموسى، ماعلمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم اللَّه إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر. أو كما قال صلوات اللَّه وسلامه عليه؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا﴾.

وقال السهيلى: قال بعض الناس: لم يجبهم عما سألوا؛ لأنهم سألوا على وجه التعنت. وقيل: أجابهم، وعول السهيلى على أن المراد بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أى: من شرعه، أى: فادخلوا فيه، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة، وإنما ينال من جهة الشرع. وفى هذا المسلك الذى طرقه وسلكه نظر، واللَّه أعلم.

ثم ذكر السهيلى الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس، أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر. وقرّر أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكسب[2] بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مُصْطَاراً أو خمراً، ولا يقال له: «ماء» حينئذ إلا على سبيل المجاز، وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح: نفس[3] إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصل ما يقول أن الروح أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهى هى من وجه لا من كل وجه[4]. وهذا معنى حسن، واللَّه أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس فى ماهية الروح وأحكامها وصنفوا فى ذلك كتباً. ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده، فى كتاب سمعناه فى: الروح[5].

(١) فى أ: «ولا تراهم الملائكة». (٢) فى ت، ف: «يكتسب». (٣) فى ت، ف: « نفسًا» وهو خطأ.

(٤) الروض الأنف (١/١٩٨، ١٩٩).

(٥) وللإمام ابن القيم، رحمه الله، كتاب الروح مطبوع بتحقيق بسام العموش، أكثر النقل فيه عن كتاب ابن مندة هذا وذكر خلاصته فيه.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) ﴾.

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

قال ابن مسعود، رضى اللَّه عنه: يطرق الناس ريح حمراء ـ يعنى فى آخر الزمان ـ من قبل الشام، فلا يبقى فى مصحف رجل ولا فى قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية .

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا[١] على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين [٢] كلام الخالق، الذى لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد [بن جبير][٣] أو عكرمة، عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت فى نفر من اليهود، جاؤوا رسول اللَّه ﷺ فقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، فأنزل اللَّه هذه الآية.

وفى هذا نظر؛ لأن هذه السورة مكية، وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة. فاللَّه أعلم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ أى: جحوداً ورداً للصواب .

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾.

---

(١) فى ت: «والقول». (٢) فى أ: «المخلوقين إلى». (٣) زيادة من ف، أ، والطبرى (١٥/١٠٦).

قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بُكَيْر، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنى شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بنى عبد الدار، وأبا البَخْتَرى أخا بنى أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام[١]، وعبد اللّه بن أبى أمية، وأمية ابن خلف، والعاص بن وائل، ونُبَيها ومُنَبِّها ابنى الحجاج السَّهْمِيَّيْن، اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه[٢]. فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم رسول اللّه ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رُشْدَهم، ويعز عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يامحمد، إنا قد بعثنا إليك لنُعْذَرَ فيك، وإنا واللّه ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه[٣] ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء، وعِبتَ الدين، وسَفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقى من أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد[٤] غلب عليك - وكانوا[٥] يسمون التابع من الجن: الرئى - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا فى طلب الطب، حتى نبرئك منه، أو نُعذر فيك .

فقال رسول اللّه ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثنى[٦] إليكم رسولاً، وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر[٧] لأمر اللّه، حتى يحكم اللّه بينى وبينكم». أو كما قال رسول اللّه ﷺ تسليماً.

فقالوا: يامحمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيَّقت علينا، ولْيبسُط لنا بلادنا، ولْيُفَجر[٨] فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يُبْعثَ لنا قُصىّ بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول[٩]، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك، وعرفنا منزلتك عند اللّه، وأنه بعثك رسولاً كما تقول!

فقال لهم رسول اللّه ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند اللّه بما بعثنى به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللّه، حتى يحكم

---

(١) فى ت: «هاشم» وهو خطأ. (٢) فى ت: «إليه». (٣) فى ت: «قومك».
(٤) فى ف: «وقد». (٥) فى ت: «فكانوا». (٦) فى ت: «بعثنى الله».
(٧) فى ت: «أصير». (٨) فى ت: «وليخرج»، وفى ف: «وليجر».
(٩) فى ت: «ليسألهم عما يقول».

اللَّه بينى وبينكم ».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول[١] ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جناناً، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف[٢] فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن اللَّه بعثنى بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللَّه حتى يحكم اللَّه بينى وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « ذلك إلى اللَّه إن شاء فعل بكم ذلك».

فقالوا: يامحمد، أما [٣]علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ماهو صانع فى ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنا واللَّه لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يامحمد، أما واللَّه لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات اللَّه. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتى[٤] باللَّه والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسول اللَّه ﷺ عنهم، وقام معه عبد اللَّه بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد اللَّه ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يامحمد، عرض عليك قومك ماعرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من اللَّه، فلم[٥] تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فواللَّه لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتى معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وايم اللَّه، لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول اللَّه ﷺ، وانصرف رسول اللَّه ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[٦].

وهكذا رواه زياد بن عبد اللَّه البكّائى، عن ابن إسحاق، حدثنى بعض أهل العلم، عن سعيد ابن جبير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء.

وهذا المجلس الذى اجتمع هؤلاء له، لو[٧] علم اللَّه منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا

---

(١) فى ت: « يقول». (٢) فى ت : «تعرف». (٣) فى ت: « لما».
(٤) فى ف: «تأتينا». (٥) فى ت: «ثم لم».
(٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٦).
(٧) فى ف: «فلو».

إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقيل للرسول : إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك فى حديثى[١] ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾[الإسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً. تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا . بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ١١].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجرى لهم عيناً معيناً فى أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك[٢] سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ .وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أى: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهى، وتدلى أطرافها، فعجل ذلك فى الدنيا، وأسقطها كسفاً [أى: قطعاً، كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا][٣] مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]. فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبىّ الرحمة، ونبىّ التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل اللّه أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه[٤] حتى «عبد اللّه ابن أبى أمية» الذى تبع النبى ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأناب إلى اللّه عز وجل .

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب . وكذلك هو فى قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب»، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أى: تصعد[٥] فى سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ قال مجاهد: أى مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من اللّه لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه[٦].

---

(١) فى ف: «حديث».
(٢) فى ت، ف: «وهذا».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف: «وحسن إسلامه بعد ذلك».
(٥) فى ت: «يصعد».
(٦) فى ف: « يصبح عند رأسه موضوع».

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ أى: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل .

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا على بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زَحْر، عن على بن يزيد، عن القاسم[١]، عن أبى أمامة، عن النبى ﷺ قال: «عرض ربى عز وجل ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يوماً، وأجوع يوماً - أو نحو ذلك ـ فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك ».

ورواه الترمذى فى «الزهد» عن سُوَيْد بن نصر[٢]، عن ابن المبارك، به[٣] .وقال: هذا حديث حسن. وعلى بن يزيد يُضَعَّفُ فى الحديث .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أى: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثته[٤] البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦]، وقال فرعون وملؤه: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وكذلك قالت[٥] الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات فى هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال ههنا : ﴿لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أى: كما أنتم فيها ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ أى: من جنسهم ، ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلنا[٦] منكم لطفاً ورحمة.

---

(١) فى ت: «التم». (٢) فى أ: « زهير».

(٣) المسند (٥/ ٢٤٥) وسنن الترمذى برقم (٢٣٤٧) وعبد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم ضعفاء.

(٤) فى ت: «بعثة». (٥) فى ت: «قالوا». (٦) فى ت: «رسلا».

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾.

يقول تعالى مرشداً نبيه إلى الحجة على قومه، فى صدق ما جاءهم به: أنه شاهد عليّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً [عليه][1] انتقم منى أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ .ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى: عليم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال [2]والإزاغة؛ ولهذا قال:

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه فى خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضلّ له ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: يهدونهم، كما قال: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[الكهف: ١٧].

وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ قال الإمام أحمد:

حدثنا ابن نمير، حدثنا إسماعيل عن نُفَيْع قال[3]: سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يارسول اللَّه، كيف يحشر[4] الناس على وجوههم؟ قال: «الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم». وأخرجاه فى الصحيحين[5].

وقال الإمام أحمد أيضاً: [حدثنا يزيد][6]، حدثنا الوليد بن جُمَيْع القرشى، عن أبيه، حدثنا أبو الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد قال: قام أبو ذر فقال: يابنى غفار، قولوا ولا تحلفوا، فإن الصادق المصدوق حدثنى: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج[7] يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار. فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما، فما بال الذين يمشون ويسعون[8]؟ قال: يلقى اللَّه، عز وجل، الآفة على[9] الظهر حتى لا يبقى ظهر، حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة، فيعطيها بالشارف ذات القتب، فلا يقدر عليها[10].

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «الضلال». (٣) فى ت: «نفيع كذا قال».
(٤) فى ف: «تحشر».
(٥) المسند (٣/ ١٦٧) وصحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦).
(٦) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٧) فى ف: «وقوم». (٨) فى ت: «ويسقون». (٩) فى ت: «الأئمة هل»، وفى ف: «الأئمة على».
(١٠) المسند (٥/ ١٦٤).

وقوله: ﴿عُمْيًا﴾ أى: لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ يعنى: لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾: لا يسمعون. وهذا يكون فى حال دون حال جزاء لهم كما كانوا فى الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا فى محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أى: منقلبهم[1] ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: سكنت[2]. وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أى: لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا (٩٩)﴾.

يقول تعالى: هذا الذى جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذى يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أى: بأدلتنا[3] وحججنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ بالية نخرة ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أى: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب فى الأرض نعاد مرة ثانية؟. فاحتج[4] تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١، ٨٣]. .

وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، ويعيدهم كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لابد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].

وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أى: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلاَّ كُفُورًا﴾: إلا تمادياً فى باطلهم وضلالهم.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠)﴾.

---

(١) فى أ: «مقبلهم». (٢) فى ت: «ستكتب». (٣) فى ت: «بآياتنا».

(٤) فى ف: «واحتج».

يقول تعالى لرسوله صلوات اللَّه عليه وسلامه[١] قل لهم يامحمد: لو أنكم ـ أيها الناس ـ تملكون التصرف فى خزائن اللَّه، لأمسكتم خشية الإنفاق.

قال ابن عباس، وقتادة: أى الفقر أى: خشية أن تذهبوها[٢]، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة[٣]: أى بخيلاً منوعاً. وقال اللَّه تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ [النساء: ٥٣] أى: لو أن لهم نصيباً فى ملك اللَّه لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، واللَّه تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه اللَّه وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا .إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا .وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه[٤] وجوده وإحسانه، وقد جاء فى الصحيحين: «يد اللَّه ملأى لا يَغيُضها نفقة، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغض ما فى يمينه »[٥].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا(١٠٤) ﴾.

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهى: العصا، واليد، والسنين[٦]، والبحر، والطوفان[٧]، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس.

وقال محمد بن كعب: هى اليد، والعصا، والخمس فى الأعراف، والطَّمْسَة والحجر.

وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة والشعبى، وقتادة: هى يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى. وجعل الحسن البصرى «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هى: تلقف العصا ما يأفكون. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]

(١) فى ف: «ﷺ». (٢) فى أ: «تنهبوها». (٣) فى ف، أ: «ومجاهد».
(٤) فى ف: «كرم الله».
(٥) صحيح البخارى برقم (٧٤١٩) وصحيح مسلم برقم (٩٩٣).
(٦) فى ت، ف، أ: ولسانه». (٧) فى ف، أ: « والطوفان والبحر».

أى: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت[(١)] فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك[(٢)] سألوا، وقالو: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى ـ وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات ـ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم.

فهذه الآيات التسع التى ذكرها هؤلاء الأئمة هى المرادة ههنا، وهى المعنية فى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠ ـ ١٢]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات فى «سورة الأعراف» وفصلها.

وقد أوتى موسى، عليه السلام، آيات أخرَ كثيرة، منها ضربُه الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم الغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً. فأما الحديث الذى رواه الإمام [أحمد][(٣)]:

حدثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مُرَّة قال: سمعت عبد الله بن سلمة[(٤)] يحدث، عن صفوان بن عَسّال المرادى، رضى الله عنه، قال: قال يهودى لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبى [ﷺ][(٥)] حتى نسأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فقال: لا تقل له: نبى فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين. فسألاه، فقال النبى ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة - أو قال: لا تفروا من الزحف ـ شعبة الشاك - وأنتم يايهود، عليكم[(٦)] خاصة ألا تعدوا فى السبت». فقبلا يديه ورجليه، وقالا: نشهد أنك نبى. [قال: «فما يمنعكما أن تتبعانى ؟» قالا: لأن داود، عليه السلام، دعا ألا يزال من ذريته نبى][(٧)]، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود.

فهذا الحديث رواه هكذا الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن جرير فى تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج، به[(٨)]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة فى حفظه شىء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها، وصايا فى التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم.

(١) فى ت: «وما نجوت». (٢) فى ت: «مثل». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف: «مسلم». (٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: «أيكم». (٧) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٨) المسند (٤/ ٢٣٩) وسنن الترمذى برقم (٣١٤٤) وسنن النسائى (٧/ ١١١) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٠٥) وتفسير الطبرى (١٥/ ١١٥).

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أي: حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ أي: هالكاً. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس ملعوناً . وقال أيضاً هو والضحاك: ﴿مَثْبُوراً ﴾ أي: مغلوباً. والهالك ـ كما قال مجاهد ـ يشمل[١] هذا كله، قال عبد اللَّه بن الزبعرى :

إِذْ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الغَـ ـيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُور[٢]

[بمعنى هالك][٣].

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: ﴿ عَلِمْتُ ﴾ وروى ذلك عن على بن أبى طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب[٤] لفرعون، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٣ ، ١٤] .

فهذا كله مما يدل على[٥] أن المراد بالتسع الآيات إنما هى مما تقدّم ذكره[٦] من العصا، واليد، والسنين، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم. التى فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذى أرسله. وليس المراد منها كما ورد فى هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه، وأى مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل «عبد اللَّه بن سلمة[٧]» فإن له بعض ما يُنْكر. واللَّه أعلم . ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوى بالتسع الآيات، فحصل وَهْم فى ذلك، واللَّه أعلم.

وقوله: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أى: يخليهم منها ويزيلهم[٨] عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا .وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً . سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا﴾ [الإسراء: ٧٦ ، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله[٩] مكة، فدخلها عَنْوَة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم

(١) فى ت: «يشتمل».
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/١١٧).
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى ف: « على الخطاب فتح التاء».
(٥) فى أ: «عليه».
(٦) فى ت، ف: «ذكرها».
(٧) فى ف: « مسلم».
(٨) فى ت: « ويرسلهم».
(٩) فى ت: «ورسوله».

وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال ههنا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أى: جميعكم أنتم وعدوكم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿لَفِيفًا﴾ أى: جميعاً.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أى: متضمنًا للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] أى: متضمنا علم الله الذى أراد أن يُطْلعكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه.

وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أى: ووصل إليك ـ يامحمد ـ محفوظاً محروساً، لم يُشَب بغيره، ولا زيدَ فيه ولا نُقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القُوى، [القوى][(١)] الأمين المكين المطاع فى الملأ الأعلى.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أى: يا محمد ﴿إِلاَّ مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرقًا منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس.

وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بالتشديد، أى: أنزلناه آية آية، مبيناً مفسراً؛ ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أى: مَهَل ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ أى: شيئًا بعد شىء.

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يامحمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾ أى: سواء آمنتم به أم لا، هو حق فى نفسه، أنزله اللّه ونوه بذكره فى سالف الأزمان[(٢)] فى كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أى: من صالح أهل الكتاب الذين يُمسَّكون بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا

(١) زيادة من ت، ف، أ.

(٢) فى أ: «الزمان».

القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾ جمع ذَقْن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أى: لله، عز وجل، شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، إن أدركوا هذا الرسول الذى أنزل عليه [هذا][١] الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أى: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذى وعدهم على ألسنة الأنبياء [المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾][٢].

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أى: خضوعاً لله عز وجل وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعاً، أى: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر:

إلَى المَلِك القَرْم وابن الهُمام ... ولَيْث الكَتِيبَة فى المُزْدَحَم

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله، عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم[٣] «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إلى أن قال: ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وقد روى مكحول[٤]: أن رجلاً من المشركين سمع النبى ﷺ وهو يقول فى سجوده: «يارحمن يارحيم»، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين. فأنزل الله هذه الآية. وكذا روى عن ابن عباس، رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ﴾ الآية، قال الإمام أحمد:

حدثنا هُشَيْم، حدثنا أبو بشر، عن[٥] سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نزلت[٦] هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا [وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً][٧]﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه: ﷺ ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ﴾ أى: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن

---

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ت، ف. (٣) فى ت: «واسم».
(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢١) وكان الحافظ اختصره هنا.
(٥) فى ف: «حدثنا». (٦) فى ت: «قرأت». (٧) زيادة من أ.

﴿ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾.

أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى بشر جعفر بن إياس، به [(١)]. وكذا روى[(٢)] الضحاك عن ابن عباس، وزاد: «فلما هاجر إلى المدينة، سقط ذلك، يفعل أىّ ذلك شاء»[(٣)].

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلى، تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يستمع[(٤)] من رسول اللَّه ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلى، استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع[(٥)]، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع[(٦)]، فإن خفض صوته ﷺ[(٧)] لم يستمع الذين[(٨)] يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل اللَّه: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا تُسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع، فينتفع به ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾.

وهكذا قال عكرمة، والحسن البصرى، وقتادة: نزلت هذه الآية فى القراءة فى الصلاة.

وقال شعبة عن أشعث بن أبى سليم[(٩)] عن الأسود بن هلال، عن ابن مسعود: لم يُخافتْ بها مَنْ أسمع أذنيه.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبى بكر: لم تصنع هذا؟ قال: أناجى ربى، عز وجل، وقد علم حاجتى. فقيل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان، وأوقظ الوَسْنَان. قيل: أحسنت. فلما نزلت: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ قيل لأبى بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً[(١٠)].

وقال أشعث بن سَوَّار، عن عكرمة، عن ابن عباس: نزلت فى الدعاء. وهكذا روى الثورى، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: نزلت فى الدعاء. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو عياض، ومكحول، وعروة بن الزبير.

وقال الثورى عن [ابن][(١١)] عياش العامرى، عن عبد اللَّه بن شداد قال: كان أعراب من بنى تميم إذا سلم النبى[(١٢)] ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا إبلاً وولداً. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ .

(١) المسند (١/ ٢٣) وصحيح البخارى برقم (٢٧٢٢) وصحيح مسلم برقم (٤٤٦).
(٢) فى ف: «رواه».
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٢٣).
(٤، ٥) فى ت، ف: «يسمع».
(٦) فى ت: «يسمع».
(٧) فى ف: «وإن خفض رسول الله ﷺ صوته».
(٨) فى ت: «ولم يسمع الذى».
(٩) فى هـ، ت: «عن أبى سليم» والمثبت من الطبرى.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢٤).
(١١) زيادة من ف.
(١٢) فى ف، أ: «رسول الله».

قول آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى اللَّه عنها، نزلت[1] هذه الآية فى التشهد: ﴿**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا**﴾.

وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، مثله.

قول آخر: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ قال: لا تصل مراءاة الناس، ولا تدعها مخافة الناس. وقال الثورى، عن منصور، عن الحسن البصرى: ﴿**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ قال: لا تحسن علانيتها وتسىء سريرتها. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن، به. وهُشَيْم، عن عوف، عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قول آخر: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿**وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به، ويصيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يخافت كما يخافت القوم، ثم كان السبيل الذى بين ذلك، الذى سن له جبريل من الصلاة.

وقوله: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾: لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نَزَّه نفسه عن النقائص فقال: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ**﴾ بل هو اللَّه الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ**﴾ أى: ليس بذليل فيحتاج[2] أن يكون له ولى أو وزير أو مشير، بل هو تعالى[شأنه][3] خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومقدرها ومدبرها[4] بمشيئته وحده، لا شريك له.

قال مجاهد فى قوله: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ**﴾: لم يحالف أحداً ولا يبتغى[5] نصر أحد.

﴿**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ أى: عظِّمه وأجِلَّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

قال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى أبو صخر، عن القرظى أنه كان يقول فى هذه الآية: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾ الآية، قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ اللَّه ولداً، وقال[6] العرب: [لبيك][7] لبيك، لا شريك لك؛ إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء اللَّه لذل. فأنزل اللَّه هذه الآية: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِى مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾.

وقال أيضاً: حدثنا بشر، [حدثنا يزيد][8]، حدثنا سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن النبى ﷺ كان

---

(١) فى ت: «أنزلت». (٢) فى أ: «فلايحتاج». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، ف: «ومدبرها ومقدرها». (٥) فى ف: «ولم يبتغ». (٦) فى ت، ف، أ: «وقالت».
(٧) زيادة من ف. (٨) زيادة من ت، ف، أ.

يعلم أهله هذه الآية ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ الصغير من أهله[١] والكبير .

قلت: وقد جاء فى حديث أن رسول اللَّه ﷺ سماها آية العز[٢]. وفى بعض الآثار: أنها ما قرئت فى بيت فى ليلة فيصيبه سرق أو آفة. واللَّه أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن سيحان البصرى، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى ابن عبيدة الربَّذى، عن محمد بن كعب القُرَظى، عن أبى هريرة قال: خرجت أنا ورسول اللَّه ﷺ، ويدى فى يده، فأتى على رجل رث الهيئة، فقال: « أى فلان[٣] ،ما بلغ بك ما أرى؟». قال: السقم والضرّ يارسول اللَّه. قال: « ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ » قال: لا، قال: مايسرنى بها[٤] أن شهدت معك بدراً أو أحداً . قال: فضحك رسول اللَّه ﷺ وقال: « وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع ؟ ». قال: فقال[٥] أبو هريرة: يا رسول اللَّه، إياى فعلمنى قال: فقل يا أبا هريرة: «توكلت على[٦] الحى الذى لا يموت، الحمد للَّه الذى لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك فى الملك، ولم يكن له ولى من الذل، وكبره تكبيراً». قال: فأتى علىّ رسول اللَّه وقد حَسُنَت حالى، قال: فقال لى: « مَهْيم ». قال: قلت: يارسول اللَّه، لم أزل[٧] أقول الكلمات التى علمتنى [٨].

إسناده ضعيف وفى متنه نكارة. [واللَّه أعلم][٩].

---

(١) فى ف «منهم».

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٤٠) من حديث معاذ بن أنس مرفوعًا: « آية العز: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾. الآية كلها».

(٣) فى ت: « أنى تلك». (٤) فى ت: «لا يرى بها». (٥) فى ت: «فقال قال».

(٦) فى ت: «صلى» . (٧) فى ت: « لم أنزل».

(٨) مسند أبى يعلى (١٢/ ٢٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٥٢): «وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف».

(٩) زيادة من ف، أ.

ووقع فى ت: «آخر تفسير سورة الإسراء، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة، غفر الله لكاتبه ولمن قرأ فيه ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين أجمعين آمين».

/ سورة بني إسرائيل [٣٥٨و]

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما إنّها مكيّة غير قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ [الإسراء، ٧٣/١٧] إلى قوله تعالى ﴿سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ [الإسراء، ٨٠/١٧].[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ عَلَم للتسبيح كـ"عُثمان" للرجل، وحيث كان المسمّى معنًى لا عَينًا وجنسًا لا شخصًا لم تكن إضافته مِن قبيل ما في "زيدُ المَعاركِ" أو "حاتمُ طيّئ"، وانتصابه بفعل متروكِ الإظهار، تقديرُه: أسبّح الله سبحانَ... إلخ. وفيه ما لا يخفى مِن الدلالة على التنزيه البليغ مِن حيث الاشتقاقُ مِن السَّبْح الذي هو: الذهاب والإبعاد في الأرض، ومنه "فرسٌ سَبوح"، أي: واسعُ الجَرْي، ومِن جهة النقل إلى التفعيل، ومِن جهة العدول مِن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصّة لاسيّما وهو عَلَم يُشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن ومِن جهة قيامه مَقام المصدر مع الفعل.

وقيل: هو مصدر كـ"غُفران" بمعنى التنزّه، ففيه مبالغة مِن حيث إضافةُ التنزّه إلى ذاته المقدَّسة ومناسبة تامّة بين المحذوف وبين ما عُطف عليه في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾،[٢] كأنّه قيل: تنزَّه بذاته وتعالى.

والإسراء: السَّير بالليل خاصّة كـ"السُّرى"، وقوله تعالى: ﴿لَيۡلٗا﴾ لإفادة قِلّة زمان الإسراء لِما فيه مِن التنكير الدالّ على البعضيّة مِن حيث الأجزاءُ دلالتَه على البعضيّة مِن حيثُ الأفراد، فإنّ قولك: "سِرتُ ليلًا" كما يفيد بعضيّة زمان سَيرك

---

[١] ط س: سورة بني إسرائيل، مكيّة، وهي مائة وعشرون آية.

[٢] الإسراء، ٤٣/١٧.

مِن الليالي يفيد بعضيّته مِن فرد واحد منها، بخلاف ما إذا قلتَ: "سرتُ الليلَ"، فإنّه يفيد استيعابَ السَّير له جميعًا، فيكون مِعيارًا للسَّير لا ظرفًا له، ويؤيِّده قراءة: "مِنَ اللَّيْلِ"،[١] أي: بعضِه.

وإيثارُ لفظ "العبد" للإيذان بتمحُّضه عليه السلام في عبادته سبحانه وبلوغه في ذلك غايةَ الغايات القاصية ونهايةَ النهايات النائية حسبما يلوِّح به مبدأ الإسراء ومنتهاه. / وإضافة التنزيه أو التنزّه إلى الموصول المذكور للإشعار [٣٥٨ظ] بعلّيّة ما في حيّز الصلة للمضاف، فإنّ ذلك مِن أدلّة كمالِ قدرته وبالغِ حكمته ونهايةِ تنزُّهه عن صفات المخلوقين.

﴿مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ اختُلف في مبدأ الإسراء: فقيل: هو المسجد الحرام بعينه. وهو الظاهر؛ فإنّه رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «بَيْنا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريلُ عليه السلام بالبُراق»؛[٢] وقيل: هو دار أمّ هانئ بنت أبي طالب،[٣] والمراد بالمسجد الحرام الحرمُ لإحاطته بالمسجد والتباسه به، أو لأنّ الحرَم كلَّه مسجد، فإنّه رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه عليه الصلاة السلام كان نائمًا في بيت أمّ هانئ بعد صلاة العِشاء فكان ما كان فقصّه عليها، فلمّا قام ليخرُج إلى المسجد تشبّثتْ بثوبه عليه السلام لتمنعه خشيةَ أن يكذِّبه القوم، قال عليه السلام: «وإن كذّبوني». فلمّا خرج جلس إليه أبو جهل فأخبره عليه السلام بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: «يا معشر كعب بن لؤيّ بن غالب! هلُمّ فحدِّثْهم»،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٦.

٢ بلفظ قريب في **صحيح البخاري**، ١٠٩/٤ (٣٢٠٧)؛ و**صحيح مسلم**، ١٤٩/١ (٢٦٤)؛ و**جامع البيان** للطبري، ٤١٥/١٤؛ وهو بلفظه ههنا في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٥/٢.

٣ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٤١٣/١٤؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٥٧/٥. | هي فاختة بنت أبي طالب بنت عبد المطلب الهاشميّة القرشيّة، وقيل: اسمها هند، وقيل: فاطمة والأصحّ الأوّل، المشهورة بأمّ هانئ (ت. بعد ٤٠هـ/ بعد ٦٦١م). أخت أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، وابنة عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. أسلمت عام الفتح بمكّة وهرب زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي إلى نجران، وفرّق الإسلام بينهما وعاشت أيّمًا. روت أحاديثَ عن النبيّ عليه الصلاة والسلام، وماتت بعد أخيها عليًا، حدّث عنها ابنها جُعدة وابنه يحيى وغيرهم. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٣١٧/٨؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣١١/٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٢٦/٥.

فمِن مُصفِّق وواضعٍ يدَه على رأسه تعجُّبًا وإنكارًا، وارتدّ ناس ممّن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: «إن كان قال ذلك لقد صدَق»، قالوا: «أتُصدِّقه على ذلك؟» قال: «إنّي أُصدِّقه على أبعدَ مِن ذلك»، فسُمِّيَ الصدِّيق. وكان فيهم. مَن يعرف بيت المَقدِس فاستنعتوه المَسجِدَ فجُلّي له بيت المَقدِس فطفِق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: «أمّا النعت فقد أصاب». فقالوا: «أخبِرْنا عن عِيرِنا»، فأخبرهم بعدد جِمالها وأحوالها، وقال: «تقدَم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدُمها جمل أورَقُ»،[1] فخرجوا يشتدُّون ذلك اليومَ نحو الثنيّة، فقال قائل منهم: «هذه والله الشمس قد أشرقت»، فقال آخرُ: «هذه والله العِيرُ قد أقبلت يقدُمها جمل أورقُ كما قال محمّد»، ثمّ لم يؤمنوا.[2] قاتلهم الله أنّى يؤفَكون!

/ واختُلف في وقته أيضًا، فقيل: كان قبل الهجرة بسنة،[3] وعن أنس والحسن أنّه كان قبل البعثة.[4] [٣٥٩و]

واختُلف أيضًا أنّه في اليقظة أو في المنام: فعن الحسن أنّه كان في المنام،[5] «وأكثرُ الأقاويل بخلافه».[6] والحقّ أنّه كان في المنام قبل البعثة وفي اليقظة بعدها.

واختُلف أيضًا أنّه كان جسمانيًا أو روحانيًا، فعن عائشةَ رضي الله عنها أنّها قالت: «ما فُقِد جسدُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم ولكن عُرج بروحه».[7] وعن معاويةَ أنّه قال: «إنّما عُرج بروحه».[8] والحقُّ أنّه كان جسمانيًا على ما يُنبئ عنه التصدير بالتنزيه وما في ضمنه مِن التعجّب، فإنّ الرُّوحاني ليس في الاستبعاد والاستنكار وخَرْق العادة بهذه المثابة، ولذلك تعجَّبت منه قريش وأحالوه،

---

[1] الأورَق: الأسمر. لسان العرب لابن منظور، «ورق».

[2] الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩٠/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٥٥/٢-٢٥٩.

[3] عن مقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٥٨/٥؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

[5] عنه بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٤٦/١٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

[6] الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢. ورجّح ذلك الطبريُّ في جامع البيان، ٤٤٦/١٤؛ والبغويُّ في معالم التنزيل، ٥٨/٥.

[7] عنها بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤٤٥/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٨/٥؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

[8] عنه بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٤٥/١٤؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٢.

ولا استحالةَ فيه، فإنّه قد ثبَت في الهندسة أنّ قُطر الشمس ضِعف قُطر الأرض مائة ونيّفًا وستّين مرّة، ثمّ إنّ طرَفها الأسفل يصل إلى موضع طرفها الأعلى بحركة الفَلك الأعظم مع معاوَقة حركة فلَكها لها في أقلّ مِن ثانية، وقد تقرّر أنّ الأجسام متساوية في قَبول الأعراض التي مِن جُملتها الحركة، وأنّ الله سبحانه قادر على كلّ ما يحيط به حيطةَ الإمكان فيقدِر على أن يخلُق مِثل تلك الحركة؛ بل أسرعَ منها في جسد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو فيما يحمِله، ولو لم يكن مستبعَدًا لم يكن معجِزة.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ أي: بيتِ المَقدس، سُمّيَ به إذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد، وفي ذلك مِن تربية معنى التنزيه والتعجّب ما لا يخفى. ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركات الدِّين والدنيا؛ لأنّه مَهبِط الوحي ومُتعبَّد الأنبياء عليهم السلام.

﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ غاية للإسراء، ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ العظيمة التي مِن جُملتها ذهابه في بُرهة مِن الليل مسيرةَ شهر، ولا يقدَح في ذلك[1] كونه قبل الوصول إلى المَقصِد ومشاهدةِ بيت المَقدِس وتمثُّل الأنبياء له ووقوفِه على مقاماتهم العليّة عليهم السلام. والالتفاتُ إلى التكلّم لتعظيم تلك البركات والآيات، وقُرئ: "لِيُرِيَهُ"[2] بالياء.

[٣٥٩ظ] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقواله عليه السلام بلا أذُن / ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعاله بلا بصَر، حسبما يؤذِن به القَصْر، فيُكرِمه ويقرِّبه بحسب ذلك. وفيه إيماء إلى أنّ الإسراء المذكور ليس إلّا لتكرِمته عليه السلام ورفعِ منزلته، وإلّا فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة مِن غير حاجة إلى التقريب. والالتفاتُ إلى الغَيبة لتربية المَهابة.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة. وفيه إيماء إلى دعوته عليه السلام إلى الطُّور وما وقَع فيه مِن المناجاة جمعًا بين الأمرين المتّحدَين في المعنى، ولم يُذكر ههنا العُروج بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى السماء وما كان فيه

---

[1] وفي هامش م: في كون الذهاب المذكور من جملة الآيات. «منه».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٦.

ممّا لا يُكتنه كُنهه حسبما نطقت به سورة النجم تقريبًا للإسراء إلى قَبول السامعين، أي: آتيناه التوراةَ بعد ما أسرَينا به إلى الطُّور.

﴿وَجَعَلْنَـٰهُ﴾ أي: ذلك الكتابَ ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدون بما في مَطاويه: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ بالتاء[١] على "أي[٢] لا تتّخذوا" نحو "كتبتُ إليه أن افعلْ كذا"، وقرئ بالياء[٣] على أنّ "أنْ" مصدريّة، والمعنى: آتينا موسى الكتاب لهِداية بني إسرائيلَ لئلّا يتّخذوا ﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي: ربًّا تكِلون إليه أموركم، والإفرادُ لِما أنّ "فعيلًا" مفرَد في اللفظ جَمْع في المعنى.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ③﴾

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء على قراءة النهي، والمرادُ تأكيد الحَمْل على التوحيد بتذكير إنعامه تعالى عليهم في ضمن إنجاء آبائهم مِن الغرق في سفينة نوحٍ عليه السلام،[٤] أو على أنّه أحد مفعولَي "لَا يَتَّخِذُوا" على قراءة النفي،[٥] و﴿مِن دُونِى﴾[٦] حال مِن ﴿وَكِيلًا﴾،[٧] فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران، ٣/٨٠].

وقُرئ بالرفع[٨] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أو بدل مِن واو ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾[٩] بإبدال الظاهرِ مِن ضمير المخاطَب كما هو مذهب بعض البغادِدَة،[١٠] وقرئ: "ذِرِّيَّةَ"[١١] بكسر الذال.

---

١ ط س – بالتاء. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ ط س: بأن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س. | ويريد المُصنّف أنّ "أن" مفسّرة، ولذلك جاء بـ"أيّ" المفسّرة ههنا.

٣ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٤ وفي هامش م: فإنّ عيسى وعُزيرًا من ذرّيّة المحمولين مع نوحٍ في الفُلك. «منه».

٥ يعني قراءة الغيبة، وليس فيها نفي؛ بل نهي كقراءة الخِطاب. انظر: الحُجّة لأبي عليّ، ٨٣/٥-٨٥.

٦ في الآية السابقة.

٧ في الآية السابقة.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨.

٩ في الآية السابقة.

١٠ وفي هامش م: ومن ضمير الغائب على قراءة "لَا يَتَّخِذُوا" بالياء التحتانيّة. «منه». | انظر: اللباب لابن عادل، ٢٠٧/١٢.

١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن ثابت والأعمش وأبان بن عثمان. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٢١.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إنّ نوحًا عليه السلام ﴿كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ كثيرَ الشُّكر في
مَجامع حالاته. وفيه / إيذانٌ بأنّ إنجاء مَن معه كان ببركة شُكره عليه السلام، [٣٦٠و]
وحثٌّ للذرّيّة على الاقتداء به، وزجرٌ لهم عن الشِّرك الذي هو أعظم مراتب
الكُفران. وقيل: الضمير لموسى عليه السلام.[١]

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤﴾

﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ أي: أتممنا وأحكمنا مُنزلين ﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أو مُوحين إليهم ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في التوراة، فإنّ الإنزال والوحيَ إلى موسى عليه السلام إنزال ووحيٌ إليهم، ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جوابُ قسَم محذوف. ويجوز إجراء القضاء المحتوم مُجرى القسَم، كأنّه قيل: وأقسمنا لتُفسِدُنّ ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ مصدر، والعاملُ فيه مِن غير جنسه. أُولاهما: مخالفة حُكم التوراة وقَتْل شعيا عليه السلام وحبسُ أرميا حين أنذرهم سخط الله تعالى، والثانية: قَتْل زكريّا ويحيى وقَصْد قَتْل عيسى عليهم السلام.[٢]

﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ لتَستكبِرُنّ عن طاعة الله سبحانه، أو لتَغلِبُنّ الناس بالظلم والعدوان وتُفرِطُنّ في ذلك إفراطًا مُجاوِزًا للحدود.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أُولى كرَّتَي الإفساد، أي: حان وقت حلول العقاب الموعود ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ لمؤاخذتكم بجناياتكم ﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾، وقرئ: "عَبِيدًا لَنَا"،[٣] ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ ذوي قوّة وبطش في الحروب، هم سنجاريبُ

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩١.
٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٧.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وعليّ بن الحسين وزيد بن عليّ والحسن البصري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٧.

مِن أهل نينوى وجنودُه.[١] وقيل: بُخْتَ نَصَّرُ عاملُ لُهْرَاسب.[٢] وقيل: جالوتُ.[٣]

﴿فَجَاسُواْ﴾ أي: تردّدوا لطلبكم بالفساد. وقرئ بالحاء[٤] والمعنى واحد، وقرئ: "وَجَوَّسُوا"[٥] ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ في أوساطها للقتل والغارة، وقرئ: "خَلَلَ الدِّيَارِ"،[٦] فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراةَ وخرّبوا المسجد وسَبَوا منهم سبعين ألفًا، وذلك مِن قبيل تَولية بعضِ الظالمين بعضًا ممّا جرت به السُّنّة الإلهيّة. ﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿وَعۡدٗا / مَّفۡعُولٗا﴾ لا محالةَ، بحيث لا صارفَ عنه ولا مبدِّلَ. [٣٦٠ظ]

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ﴾ أي: الدولةَ والغلَبة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تُبتُم ورجعتُم عمّا كنتُم عليه مِن الإفساد والعلُوّ. قيل: هي قتل بُخْتَ نَصَّرَ واستنقاذ بني إسرائيلَ أُساراهم وأموالَهم ورجوعُ المُلْك إليهم،[٧] وذلك أنّه لمّا ورِث بهمنُ بنُ إسفنديارَ المُلكَ مِن جدّه كشتاسف بن لهراسف ألقى الله تعالى في قلبه الشفقة عليهم فردّ أُساراهم إلى الشام

---

١ مَرويّ عن سعيد بن جبير في **جامع البيان** للطبري، ٤٧٢/١٤؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٧٩/٥؛ وبلا نسبة في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٢.

٢ مَرويّ عن سعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب في **جامع البيان** للطبري، ٤٧٢/١٤-٤٧٥؛ وعن ابن إسحاق في **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٩/٥؛ وبلا نسبة في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٢. | لُهْرَاسب بن قنوج بن كيمس بن كيناس بن كيناسة بن كيقباذ، مِن ملوك الفرس، حين وضع التاج اتّخذ سريرًا مِن ذهب مكلّلًا بأنواع الجواهر للجلوس عليه، وأمر فبُنيت له بأرض خراسان مدينة بلخ وسمّاها الحسناء، ودوّن الدواوين وقوّى ملكه، وأحسن السيرة لرعيّته، وشملهم عدله، وكان ملكه مائة وعشرين سنةً، وفي أيّامه ظهر زرادشت بن سقيمان الذي ادّعى النبوّة وتبعه المجوس. انظر: **الكامل** لابن الأثير، ٢٥٨/١؛ و**مروج الذهب** للمسعودي، ٢٥١/١.

٣ مَرويّ عن ابن عبّاس وقتادة في **جامع البيان** للطبري، ٤٧١/١٤-٤٧٢؛ وعن قتادة في **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٩/٥؛ وعن ابن عبّاس في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وطلحة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٧؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١١٢٣.

٥ لم أجِدها فيما وقفتُ عليه من كتب القراءات والتفسير. وفيها قراءة قريبة: "فَجَوَّسُوا"، وهي قراءة شاذّة، غير منسوبة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٧.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٧.

٧ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٨/٢.

وملّك عليهم دانيال عليه السلام فاستولَوا على مَن كان فيها مِن أتباع بُخْتَ نَصَّرَ. وقيل: هي قتلُ داودَ عليه السلام لجالوت.[١]

﴿وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ كثيرة بعدما نُهبت أموالكم، ﴿وَبَنِينَ﴾ بعدما سُبيَت أولادكم،[٢] ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ممّا كنتم مِن قبل، أو مِن عدوّكم. والنفيرُ: مَن ينفِر مع الرجُل مِن قومه، وقيل: جمعُ "نفَر" وهم القوم المجتمعون للذهاب إلى العدو كـ"العَبيد" و"المَعيز".[٣]

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أعمالكم سواء كانت لازمةً لأنفسكم أو متعدِّية إلى الغير، أي: عمِلتموها على الوجه اللائق ولا يُتصوَّر ذلك إلّا بعد أن تكون الأعمال حسنةً في أنفسها، وإن فعلتُم الإحسان ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾؛ لأنّ ثوابها لها. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أعمالَكم بأن عمِلتموها لا على الوجه اللائق، ويلزَمه السوء الذاتي، أو فعلتم الإساءة ﴿فَلَهَا﴾ إذ عليها وبالُها، وعن عليّ كرّم الله تعالى وجهه: «ما أحسنتُ إلى أحد ولا أسأتُ إليه»، وتلاها.[٤]

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ حان وقت ما وُعد مِن عقوبة المَرّة الآخرة ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ متعلِّق بفعل حُذف لدلالة ما سبَق عليه، أي: بعثناهم ليسوءوا، ومعنى ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾: ليجعلوا آثار المَساءة والكآبة بادية في وجوهكم، كقوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك، ٦٧/٢٧] / وقرئ: "لِيَسُوءَ"[٥] [٣٦١و]
على أنّ الضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث، و"لِنَسُوءَ"[٦] بنون العظمة، وفي قراءة عليّ رضي الله تعالى عنه: "لَنَسُوأَنَّ"[٧] على أنّه جوابُ ﴿إِذَا﴾، وقُرئ:

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.
٢ وفي هامش م: فيه كلام في تقديم الأموال على البنين كما في سورة الكهف.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.
٤ له في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢. ولم أقف عليه في مظانّه.
٥ قرأ بها ابن عامر وحمزة وأبو بكر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.
٦ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وأُبيّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩.

"لنَسُوأنْ"[١] بالنون الخفيفة، و"لَيَسُوأَنّ".[٢] و"اللام" في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ عطفٌ على ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾ متعلِّق بما تعلَّق هو به. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أي: في أوّل مرّة.

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ أي: يُهلِكوا ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ ما غلبوه واستولَوا عليه، أو مدّةَ علُوّهم، ﴿تَتۡبِيرًا﴾ فظيعًا لا يُوصَف، بأن سلّط الله عزّ سلطانه عليهم الفُرس فغزاهم مَلِك بابِلَ مِن ملوك الطوائف اسمُه جودرد، وقيل: جردوس. وقيل: دخل صاحب الجيش فذبح قرابينهم فوجد فيه دمًا يغلي فسألهم عنه، فقالوا: «دم قُربان لم يُقبَل منّا»، فقال: «لم تصْدُقوني»، فقتَل على ذلك ألوفًا فلم يهدأ الدم، ثمّ قال: «إن لم تصْدُقوني ما تركتُ منكم أحدًا»، فقالوا: «إنّه دم يحيى بن زكريّا عليهما السلام»، فقال: «لمِثل هذا ينتقم منكم ربُّكم»، ثمّ قال: «يا يحيى قد علِم ربّي وربُّك ما أصاب قومَك مِن أجلك، فاهدأ بإذن الله قبل ألّا أُبقيَ منهم أحدًا»، فهدأ.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡ﴾ بعد المرّة الآخرة إن تبتُم توبةً أخرى وانزجرتُم عمّا كنتم عليه مِن المعاصي. ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ﴾ إلى ما كنتم فيه مِن الفساد مرّة أخرى ﴿عُدۡنَا﴾ إلى عقوبتكم، ولقد عادوا فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلّط عليهم الأكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا مِن ضَرْب الإتاوة ونحو ذلك. وعن الحسن: «عادوا فبعث الله تعالى محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم، فهم يُعطُون الجزيةَ عن يد وهم صاغرون».[٣] وعن قتادة مثلُه.[٤]

﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مَحبِسًا لا يستطيعون الخروج منها أبدَ الآبدين. وقيل: بِساطًا كما يُبسَط الحصير.[٥] وإنّما عُدل عن أن يقال: وجعلنا جهنّمَ لكم؛ تسجيلًا على كفرهم بالعَود وذمًّا لهم بذلك وإشعارًا بعِلّة الحُكم.

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٧.

٣ عنه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.

٤ عنه في جامع البيان للطبري، ٥٠٦/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨٠/٥.

٥ مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ٥٠٨/١٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٢.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي آتيناكَهُ ﴿يَهْدِى﴾ أي: الناسَ كافّة لا فِرقة مخصوصة منهم / كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى. ﴿لِلَّتِى﴾ للطريقة التي ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: [٣٦١ظ] أقومُ الطرائق وأسدُّها، أعني ملّة الإسلام والتوحيد. وتركُ ذِكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخَصلة ونحوِها ممّا يُعبَّر به عن المَقصِد المذكور؛ بل للإيذان بالغِنى عن التصريح بها لغاية ظهورها، لاسيّما بعد ذِكر الهداية التي هي مِن رَوادفها. والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدي إليها مَن يتمسَّك به، لا تحصيلُ الاهتداء بالفعل، فإنّه مخصوص بالمؤمنين حينئذ.

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه مِن الأحكام والشرائع، وقُرئ بالتخفيف.[١] ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي شُرِحت فيه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بحسب الذات وبحسب التضعيف عشرَ مرّات فصاعدًا.[٢]

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وأحكامِها المشروحة فيه مِن البعث والحساب والجزاء. وتخصيصُها بالذِّكر مِن بين سائر ما كفروا به لكونها مُعظمَ ما أُمِروا بالإيمان به، ولمراعاة التناسُب بين أعمالهم وجزائها الذي أنبأ عنه قولُه عزّ وجلّ: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو عذاب جهنّم، أي: أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده مِن الآخرة عذابًا أليمًا، وهو أبلغ في الزجر؛ لِما أنّ إتيانَ العذاب مِن حيث لا يُحتسَب أفظعُ وأفجعُ. والجملة معطوفة على جملة ﴿يُبَشِّرُ﴾[٣] بإضمار "يُخبِر"، أو على قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾،[٤] داخلةٌ معه تحت التبشير المرادِ به مجازًا مطلقُ الإخبار المنتظمِ للإخبار بالخبر السارّ،

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

[٢] س - فصاعدًا.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] في الآية السابقة.

وبالنبأ الضارّ حقيقةً، فيكون ذلك بيانًا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب، ويجوز كون التبشير بمعناه، والمرادُ تبشير المؤمنين ببشارتين: ثوابِهم وعقابِ أعدائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ بيان لحال المَهديّ إثرَ بيان حال الهادي، وإظهارٌ لِما بينهما مِن التباين، والمرادُ بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الجنس، أُسنِد إليه حالُ بعض أفراده أو حُكي عنه حالُه في بعض أحيانه:

فالمعنى / على الأوّل: أنّ القرآن يدعو الإنسان إلى الخير الذي لا خيرَ فوقه [٣٦٢و] مِن الأجر الكبير، ويُحذِّره مِن الشرّ الذي لا شرَّ وراءه مِن العذاب الأليم، وهو، أي: بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشرّ مِن العذاب المذكور: إمّا بلسانه حقيقةً، كدأب مَن قال منهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، ومَن قال: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود، ٣٢/١١] إلى غير ذلك ممّا حُكيَ عنهم؛ وإمّا بأعمالهم السيّئة المُفضية إليه الموجِبة له مجازًا، كما هو ديدن كلِّهم.

﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: مثلَ دعائِه بالخير المذكور فرضًا لا تحقيقًا، فإنّه بمَعزِل مِن الدعاء به، وفيه رمز إلى أنّه اللائق بحاله.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: مَن أُسنِد إليه الدعاء المذكور مِن أفراده ﴿عَجُولٗا﴾ يُسارع إلى طلب كلّ ما يخطر بباله متعاميًا عن ضرره، أو مبالغًا في العجلة يستعجل العذابَ وهو آتيه لا محالةَ، ففيه نوعُ تهكُّم به. وعلى تقدير حَمْل الدعاء على أعمالهم تُحمَل العَجوليّة على اللَّجّ والتمادي في استيجاب العذاب بتلك الأعمال.

وعلى الثاني: أنّ القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير، وهو في بعض أحيانه كما عند الغضبِ يدعُه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شرّ، وكان الإنسان بحسب جِبِلّته عجولًا ضَجِرًا لا يتأنّى إلى أن يزول عنه ما يعتريه. رُوي أنّه عليه السلام دفع إلى سَوْدةَ أسيرًا فأَرْخَت كِتافه رحمة لأنينه بالليل مِن ألم القِدّ فهرَب، فلمّا أخبرَت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «اللّٰهمّ اقطع يديها»، فرفعت سَوْدةُ يديها تتوقَّع الإجابة، فقال عليه السلام: «إني سألتُ الله تعالى

أن يجعَل دعائي على مَن لا يستحقّ مِن أهلي عذابًا رحمةً».[١] أو يدعو بما هو شرّ[٢] وهو يحسبه خيرًا، وكان الإنسان عجولًا غيرَ متبصّر لا يتدبّر في أموره حقَّ التدبّر ليتحقَّق ما هو خير حقيق بالدعاء به، وما هو شرّ جدير بالاستعاذة منه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾

[٣٦٢ظ] ﴿وَجَعَلْنَا / ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ شروع في بيان بعض وجوه ما ذُكر مِن الهداية بالإرشاد إلى مَسلَك الاستدلال بالآيات والدلائل الآفاقيّة التي كلّ واحدة منها برهانٌ نيّر لا ريبَ فيه ومنهاجٌ بيّن لا يضِلّ مَن ينتحيه، فإنّ الجعل المذكور وما عُطف عليه مِن مَحْو آية الليل وجَعْل آية النهار مبصرة وإن كانت مِن الهدايات التكوينيّة لكنّ الإخبار بذلك مِن الهدايات القرآنيّة المنبِّهة على تلك الهدايات.

وتقديمُ ﴿ٱلَّيْلَ﴾ لمراعاة الترتيب الوجوديّ؛ إذ منه ينسلِخ النهار وفيه تظهَر غُرَر الشهور، ولو أنّ الليلة أضيفت إلى ما قبلها مِن النهار لكانت مِن شهر وصاحبُها مِن شهر آخرَ، ولترتيبِ غاية آية النهار[٣] عليها بلا واسطة، أي: جعلنا المَلَوَين[٤] بهَيآتهما وتعاقُبهما واختلافهما في الطُّول والقِصَر على وتيرة عجيبة يحار في فهمها العقولُ آيتين تدلّان على أنّ لهما صانعًا حكيمًا قادرًا عليمًا، وتهديان إلى ما هدى إليه القرآن الكريم مِن ملّة الإسلام والتوحيد.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ الإضافة إمّا بيانيّة كما في إضافة العدد إلى المعدود، أي: محَوْنا الآية التي هي الليل. وفائدتها تحقيق مضمون الجملة السابقة، ومحوُها جَعْلها ممحُوّة الضوء مطموسَته، لكن لا بَعدَ أن لم تكن كذلك؛ بل إبداعها على ذلك كما في قولهم: "سبحان مَن صغّر البعوضَ وكبّر الفيل"، أي:

---

١ بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٧٩؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩٤. ولم أجده في مظانّه.

٢ السياق: يدعو الله تعالى لنفسه... أو يدعو...

٣ وفي هامش م: وهي قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُواْ﴾ الآية.

٤ الملوان: الليل والنهار. لسان العرب لابن منظور، «ملا».

أنشأهما كذلك. و"الفاء" تفسيريّةٌ؛ لأنّ المحو المذكور وما عُطف عليه ليسا ممّا يحصل عَقيبَ جعل الجديدين آيتين؛ بل هما مِن جملة ذلك الجَعْل ومُتمِّماته.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: الآية التي هي النهار على نحو ما مرّ، ﴿مُبْصِرَةً﴾ مُضيئة يُبصَر فيها الأشياءُ وصفًا لها بحال أهلها، أو مبصِرةً للناس مِن "أبصَره فَبَصُر".

وإمّا حقيقيّة،[١] وآية الليل والنهار نيّراهما، ومَحْوُ القمر إمّا خَلْقُه مطموسَ النور في نفسه فـ"الفاء" / كما ذُكر، وإمّا نقصُ ما استفاده مِن الشمس شيئًا [٣٦٣و] فشيئًا إلى المِحاق[٢] على ما هو معنى المحو، و"الفاء" للتعقيب، وجعلُ الشمس مُبصِرةً إبداعُها مضيئة بالذات ذاتَ أشعّة تظهَر بها الأشياء المظلمة.

﴿لِّتَبْتَغُواْ﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ كما أشيرَ إليه، أي: وجعلناها مضيئة لتطلُبوا لأنفسكم في بياض النهار ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رزقًا، إذ لا يتسنّى ذلك في الليل. وفي التعبير عن الرزق بـ"الفضل" وعن الكسب بـ"الابتغاء" والتعرّضِ لصفة الربوبيّة المنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئًا فشيئًا دلالةٌ على أن ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثيرٌ سوى الطلب، وإنّما الإعطاء إلى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه؛ بل تفضّلًا بحُكم الربوبيّة.

﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ متعلِّق بكلا الفعلين، أعني مَحْو آية الليل وجعلَ آية النهار مُبصِرة لا بأحدهما فقط، إذ لا يكون ذلك بانفراده مدارًا للعِلم المذكور، أي: لتعلموا بتفاوت الجديدَين[٣] أو نيّرَيهما ذاتًا مِن حيث الإظلامُ والإضاءة مع تعاقُبهما أو حركاتهما وأوضاعهما وسائر أحوالِهما ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي يتعلّق بها غرض عِلمي لإقامة مصالحكم الدينيّة والدنيويّة، ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: الحسابَ المتعلِّق بما في ضمنها مِن الأوقات، أي: الأشهرَ والليالِيَ والأيّامَ وغير ذلك ممّا نِيط به شيء مِن المصالح المذكورة. ونفسُ السَّنة مِن حيث تحقّقها ممّا ينتظِمه الحساب، وإنّما الذي تعلّق به العدّ طائفة منها، وتعلُّقه في ضمن ذلك

---

١ السياق: الإضافة إمّا بيانيّة... وإمّا حقيقيّة...

٢ المِحاق والمُحاق: آخر الشهر، إذا امّحق الهلال فلم يُرَ. لسان العرب لابن منظور، «محق».

٣ الجديدان: الليل والنهار؛ لأنهما لا يبليان أبدًا. لسان العرب لابن منظور، «جدد».

بكلّ واحدة منها ليس مِن الحيثيّة المذكورة، أعني حيثيّةَ تحقّقها وتحصّلها مِن عدّة أشهر قد يحصُل كلّ واحد منها مِن عدّة أيّام قد حصل كلّ منها بطائفة مِن الساعات مثلًا، فإنّ ذلك وظيفة الحساب؛ بل مِن حيث إنّها فرد مِن تلك الطائفة المعدودة / يعدّها، أي: يُفنيها مِن غير أن يعتبر في ذلك تحصُّل شيء معيَّن. [٣٦٣ظ]

وتحقيقه ما مرّ في سورة يونسَ،[١] مِن أنّ الحِساب: إحصاء ما له كمّيّة منفصلة بتكرير أمثاله مِن حيث يتحصَّل بطائفة معيَّنة منها حدٌّ معيَّن منه له اسم خاصّ وحُكم مستقلّ، كما أُشيرَ إليه آنفًا، والعَدّ: إحصاؤه بمجرَّد تكرير أمثاله مِن غير أن يتحصَّل منه شيء كذلك. ولِما أنّ السنين لم يُعتبَر فيها حدّ معيَّن له اسم خاصّ وحُكم مستقلّ أضيفَ إليها العدد وعُلِّق الحساب بما عداها ممّا اعتُبر فيه تحصُّل مراتبَ معيَّنة لها أسام خاصّة وأحكام مستقلّة، وتحصّلُ مراتب الأعداد مِن العشرات والمئات والألوف اعتباري لا يجدي في تحصّل المعدودات.

وتقديم "العدد" على ﴿ٱلْحِسَابَ﴾، مع أنّ الترتيب بين متعلَّقَيهما وجودًا وعِلمًا على العكس، للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّ متعلِّق الحساب ما في تضاعيف السنين مِن الأوقات، أو لأنّ العِلم المتعلِّق بعدد السنين عِلم إجمالي بما تعلَّق به الحساب تفصيلًا، أو لأنّ العدد مِن حيث إنّه لم يُعتبَر فيه تحصُّل شيء آخرَ منه، حسبما ذُكر، نازلٌ مِن الحساب المُعتبَر فيه ذلك منزلةَ البسيط مِن المركَّب، أو لأنّ العِلم المتعلِّق بالأوّل أقصى المراتب، فكان جديرًا بالتقديم في مقام الامتنان، والله سبحانه أعلمُ.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد سوى ما ذُكر مِن جَعْل الليل والنهار آيتين وما يتبعه مِن المنافع الدينيّة والدنيويّة، وهو منصوب بفعل يفسّره قوله تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي: بيَّناه في القرآن الكريم بيانًا بليغًا لا التباسَ معه، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل، ١٦/٨٩]، فظهر كونه هاديًا للتي هي أقوم ظهورًا بيّنًا.

---

[١] في تفسير الآية الخامسة منها.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ مكلَّف ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي: عملَه الصادر عنه باختياره حسبما قُدِّر له كأنّه طار إليه مِن عُشّ الغيب ووَكْر القدَر، / أو ما وقَع له في [٣٦٤و] القِسمة الأزليّة الواقعة حسب استحقاقه في العِلم الأزلي مِن قولهم: "طار له سهمٌ كذا". ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ تصوير لشِدّة اللزوم وكمالِ الارتباط، أي: ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبدًا بل يلزَمه لزومَ القِلادة أو الغُلّ للعنق لا ينفكّ عنه بحال، وقرئ بسكون النون.[١]

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ بنون العظمة، وقد قُرئ بالياء مبنيًّا للفاعل[٢] على أنّ الضمير لله عزّ وجلّ، وللمفعول[٣] والضمير لـ"الطائر"، كما في قراءة: "يَخْرُجُ"[٤] مِن "الخروج". ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والبعث للحساب ﴿كِتَٰبًا﴾ مسطورًا فيه ما ذُكر مِن عمله نقيرًا وقِطميرًا، وهو مفعول لـ﴿نُخْرِجُ﴾ على القراءتين الأُوليين، أو حال مِن المفعول المحذوف الراجع إلى الطائر، وعلى الأخيرَتين حال مِن المستتِر في الفعل مِن ضمير "الطائر".

﴿يَلْقَىٰهُ﴾ أي: يلقى الإنسانَ أو يلقاه الإنسانُ ﴿مَنشُورًا﴾ وهما صفتان للكتاب، أو الأوّل صفة والثاني حال منها. وقرئ: "يُلَقَّاهُ"[٥] مِن "لقَّيتُه كذا"، أي: يُلقَّى الإنسان إيّاه. قال الحسن: «بُسِطت لك صحيفة ووُكِّل بك ملَكان فهما عن يمينك وعن شمالك، فأمّا الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأمّا الذي عن شمالك فيحفظ سيّئاتك، حتّى إذا مُتَّ طُويت صحيفتُك، وجُعلت معك في قبرك حتّى تُخرَجَ لك يوم القيامة».[٦]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمد بن موسى واللؤلئي عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩، شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وهارون عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٢٦.

٣ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٥ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٦ جامع البيان للطبري، ٥٢٤/١٤؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٢٧٩/١٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٢٧/١٢.

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ أي: قائلين ذلك، عن قتادة: «يقرأ ذلك اليومَ مَن لم يكن في الدنيا قارئًا».[١] وقيل: المراد بـ"الكتاب" نفسُه المنتقشةُ بآثار أعماله،[٢] فإنّ كلّ عمل يصدُر مِن الإنسان خيرًا أو شرًّا يحدُث منه في جوهر روحِه أمرٌ مخصوص، إلّا أنّه يخفى ما دام الروحُ متعلِّقًا بالبدن مشتغِلًا بواردات الحواسّ والقُوى، فإذا انقطعت علاقتُه عن البدن قامت قيامته؛ لأنّ النفس كانت ساكنة مستقرّة في الجسد، وعند ذلك قامت وتوجّهت نحو الصعود / إلى العالم [٣٦٤ظ] العُلوي، فيزول الغطاء وتنكشِف الأحوال ويظهر على لَوح النفس نقش كلِّ شيء عمِلَه في مدّة عمره، وهذا معنى الكتابة والقراءة.

﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ أي: كفى نفسُك، و"الباء" زائدة، و﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرف لـ﴿كَفَىٰ﴾، و﴿حَسِيبٗا﴾ تمييز و"على" صلتُه؛ لأنّه بمعنى الحاسب، كـ"الصريم" بمعنى "الصارم"، مِن "حسَب عليه كذا"، أو بمعنى الكافي، وُضِع موضعَ الشهيد؛ لأنّه يكفي المُدّعيَ ما أهمّه. وتذكيره لأنّ ما ذُكر مِن الحساب والكفاية ممّا يتولّاه الرجال، أو لأنّه مبنيّ على تأويل "النفس" بـ"الشخص" على أنّها عبارة عن نفس المذكّر، كقول جَبَلَةَ بن حُرَيث:

يا نفسُ إنّك باللذّات مسرورُ   فاذكُر فهل يَنفعَنْكَ اليومَ تذكيرُ[٣]

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ فَذلكَة لِما تقدّم مِن بيان كون القرآن هاديًا لأقوَم الطرائق ولزومِ الأعمال لأصحابها، أي: مَن اهتدى بهدايته وعمِل بما في تضاعيفه مِن الأحكام وانتهى عمّا نهاه عنه فإنّما يعود منفعةُ اهتدائه إلى نفسه،

---

[١] جامع البيان للطبري، ٥٢٥/١٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٨٢/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٠/٢؛

[٢] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩٤/٢.

[٣] البيت لجَبَلة في شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي، ٣٦١/١؛ وشرح أبيات المغني للبغدادي، ١٦٨/٢، ورواية صدره فيهما:
يا قلبُ إنّك في أسماءَ مغرورُ
وما وجدته بالرِّواية التي أوردَها المؤلِّف ههنا.

لا تتخطّاه إلى غيره ممّن لم يهتدِ. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فإنّما وبال ضلاله عليها لا على مَن عداه ممّن لم يباشره حتّى يمكن مفارقةُ العمل صاحبَه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تأكيد للجملة الثانية، أي: لا تحمل نفس حاملةٌ للوِزر وِزرَ نفس أخرى حتّى يمكن تخلُّص النفس الثانية عن وِزرها ويختلَّ ما بين العامل وعمَله مِن التلازم؛ بل إنّما تحمل كلّ منها وِزرها، وهذا تحقيق لمعنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء، ١٣/١٧].

وأمّا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء، ٨٥/٤]، وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل، ٢٥/١٦] مِن حَمْل الغير وِزر الغير وانتفاعِه بحسنته وتضرُّره بسيّئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسِه وتضرُّر بسيّئته، / فإنّ جزاء الحسنة والسيّئة اللتين يعمَلهما العامل [٣٦٥و] لازمٌ له. وإنّما الذي يصِل إلى مَن يشفع جزاءُ شفاعته لا جزاءُ أصل الحسنة والسيّئة، وكذلك جزاءُ الضلال مقصور على الضالّين، وما يحمِله المُضلُّون إنّما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال.

وإنّما خُصّ التأكيد بالجملة الثانية قطعًا للأطماع الفارغة، حيثُ كانوا يزعُمون أنّهم لم يكونوا على الحقّ، فالتبِعة على أسلافهم الذين قلّدوهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ بيان للعناية الربانيّة إثرَ بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حِرمان المهتدي مِن ثمرات هدايته وعدمِ مؤاخذة النفس بجِناية غيرها، أي: وما صحّ وما استقام منّا، بل استحال في سنّتنا المبنيّة على الحِكَم البالغة، أو ما كان في حُكمنا الماضي وقضائِنا السابقِ أن نعذِّب أحدًا مِن أهل الضلال والأوزار اكتفاءً بقضيّة العقل ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ إليهم ﴿رَسُولًا﴾ يهديهم إلى الحقّ ويردَعهم عن الضلال، ويُقيم الحُجج ويمهِّد الشرائع حسبما في تضاعيف الكتاب المنزَل عليه.

والمراد بالعذاب المنفيّ إمّا عذابُ الاستئصال، كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدي[١] رحمه الله،[٢] وهو المناسِب لِما بعده، أو الجنسُ الشامل للدنيوي والأخروي وهو مِن أفراده. وأيًّا ما كان فالبعثُ غاية لعدم صحّة وقوعه في وقته المقدَّر له لا لعدم وقوعه مطلقًا، كيف لا، والأخرويُّ لا يمكن وقوعه عَقيبَ البعث، والدنيويُّ أيضًا لا يحصُل إلّا بعد تحقّق ما يوجِبه مِن الفسق والعصيان، ألا يُرى إلى قوم نوحٍ كيف تأخَّر عنهم ما حلّ بهم زُهاءَ ألف سنة.

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً﴾ بيان لكيفيّة وقوع التعذيب بعد
[٣٦٥ظ] البعثة التي جُعلت غاية لعدم صحّته، وليس المراد بالإرادة / تحقُّقها بالفعل إذ لا يتخلّف عنها المراد، ولا الإرادة الأزليّة المتعلِّقة بوقوع المراد في وقته المقدَّر له، إذ لا يقارنها[٣] الجزاء الآتي؛ بل دنوّ وقتها كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل، ١/١٦]، أي: وإذا دنا وقت تعلُّق إرادتنا بإهلاك قرية بأن نعذِّب أهلها بما ذكرنا[٤] مِن عذاب الاستئصال الذي بيّنّا أنّه لا يصحّ منّا قبل البعثة، أو بنوع[٥] ممّا ذكرنا شأنه مِن[٦] مطلَق العذاب، أعني: عذاب الاستئصال،[٧] لِما لهم مِن الظلم والمعاصي دنوًّا يقتضيه الحكمة مِن غير أن يكون له حدٌّ معيَّن.

﴿أَمَرۡنَا﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿مُتۡرَفِيهَا﴾ متنعِّميها وجبّاريها وملوكها، خصّهم بالذِّكر مع توجّه الأمر إلى الكلّ؛ لأنّهم الأصول في الخطاب والباقي أتباع لهم، ولأنّ توجّه الأمر إليهم آكَد. وعدمُ التعرّض للمأمور به

---

١ هو محمّد بن محمّد بن محمود الماتُريدي السمرقندي، أبو منصور (ت. ٣٣٣هـ/٩٤٤م). مِن أئمّة علماء الكلام. نسبته إلى ماتُريد محلّة بسمرقند، ومات بها. مِن مؤلّفاته: كتاب التوحيد، وتأويلات القرآن، وهما مطبوعان، وبيان وهم المعتزلة، والجدل في أصول الفقه. انظر: الأعلام للزركلي، ١٩/٧.

٢ انظر: تأويلات القرآن للماتريدي، ٢٤٣/٨.

٣ ط س: يقارنه.

٤ وفي هامش م: على الوجه الأوّل.

٥ وفي هامش م: على الوجه الثاني.

٦ وفي هامش م: بيان لـ"ما".

٧ وفي هامش م: تفسير للنوع.

إمّا لظهور أنّ المراد به الحقّ والخير؛ لأنّ الله لا يأمُر بالفحشاء، لاسيّما بعد ذِكر هداية القرآن لِما يهدي إليه، وإمّا لأنّ المراد "وُجِد منّا الأمر"، كما يقال: "فلان يعطي ويمنع". ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ أي: خرجوا عن الطاعة وتمرّدوا.

﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: ثبَت وتحقّق موجبه بحلول العذاب إثرَ ما ظهر منهم ما ظهر مِن الفِسق والطغيان[١] ﴿فَدَمَّرۡنَٰهَا﴾ بتدمير أهلها ﴿تَدۡمِيرٗا﴾ لا يُكتنَه كُنهه ولا يُوصَف. هذا هو المناسب لِما سبَق.

وقيل: "الأمر" مجاز عن الحَمْل على الفسق والتسبّبِ له بأن صَبَّ عليهم ما أبطَرهُم وأفضى بهم إلى الفسوق.[٢] وقيل: هو بمعنى التكثير، يقال: "أَمَرتُ الشيءَ فأَمِرَ"، أي: كثّرتُه فكثُر، وفي الحديث: «خير المال سِكّة مأبورة ومُهْرة مأمورة»،[٣] أي: كثيرة النِّتاج،[٤] ويعضدُه قراءة "آمَرْنَا"[٥] و"أَمَّرْنَا"[٦] مِن الإفعال والتفعيل، وقد جُعلتا مِن الإمارة، أي: جعلناهم أمراء. وكلُّ ذلك / لا يساعده [٣٦٦و] مقام الزجر عن الضلال والحثِّ على الاهتداء، فإنّ مؤدّى ذلك أنّ طغيانهم مَنُوط بإرادة الله سبحانه وإنعامه عليهم بنِعَم وافرة أبطَرَتهم وحمَلَتهم على الفِسق حَمْلًا حقيقًا بأن يُعبَّر عنه بالأمر به.

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ أي: وكثيرًا ما أهلكنا ﴿مِنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ بيان لـ﴿كَمۡ﴾ وتمييز له، والقَرن: مدّة مِن الزمان يُخترَم فيها القوم، وهي عِشرون أو ثلاثون أو أربعون

---

١ ط س – ثبَت وتحقّق موجَبه بحلول العذاب إثرَ ما ظهر منهم ما ظهر مِن الفِسق والطغيان؛ ط س + كلمة العذاب السابق بحلوله، أو بظهور معاصيهم، أو بانهماكهم فيها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٨١/٢.

٣ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٧٢/٢٥ (١٥٨٤٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٢٨/١٤؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٩١/٧ (٦٤٧٠).

٤ القول بمعناه في مجاز القرآن لأبي عُبيدة، ٣٧٢/١، نقله عن بعضهم الزمخشري في الكشّاف، ٤٨٢/٢.

٥ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عثمان النهدي وليث عن أبي عمرو وأبان عن عاصم وأبي بَحريّة والحسن وأبي السَّمّال وابن مِقسَم والجَحدري وأبي العالية الرياحي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٢٧.

أو ثمانون أو مائة -وقد أُيّد ذلك بأنّه صلّى الله عليه وسلّم دعا لرجل فقال: «عِشْ قرنًا»،[١] فعاش مائة سنة- أو مائة وعشرون. ﴿مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖ﴾ مِن بعد زمنه عليه السلام كعادٍ وثمودَ ومَن بعدهم ممّن قُصّت أحوالهم في القرآن العظيم ومَن لم تُقَصّ، وعدمُ نَظْم قومه عليه السلام في تلك القرون المُهلَكة لظهور أمرهم، على أنّ ذِكره عليه السلام رمز إلى ذِكرهم.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أي: كفى ربُّك ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ يحيط بظواهرها وبواطنها فيُعاقب عليها، وتقديمُ "الخبير" لتقدُّم متعلَّقه مِن الاعتقادات والنيّات التي هي مبادي الأعمال الظاهرة، أو لعمومه حيث يتعلّق بغير المُبصَرات أيضًا. وفيه إشارة إلى أنّ البعث والأمر وما يتلوهما مِن فِسقهم ليس لتحصيل العِلم بما صدر عنهم مِن الذنوب، فإنّ ذلك حاصل قبل ذلك، وإنّما هو لقَطْع الأعذار وإلزامِ الحُجّة مِن كلّ وجه.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨﴾

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بأعماله التي يعمَلها، سواء كان ترتُّب المراد عليها بطريق الجزاءِ كأعمال البِرّ، أو بطريق ترتُّبِ المعلولات على العِلَل كالأسباب، أو بأعمال الآخرة، فالمراد بـ"المريد" على الأوّل الكفَرة وأكثر الفَسَقة، وعلى الثاني أهلُ الرياء والنفاق والمهاجِرُ للدنيا والمجاهدُ لمَحْض الغنيمة.

﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ فقط مِن غير أن يريد معها الآخرةَ كما ينبئ عنها الاستمرار المستفاد مِن زيادة ﴿كَانَ﴾ ههنا مع الاقتصار على مطلق الإرادة في قسيمه، / والمراد بـ﴿ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ الدار الدنيا، وبـ"إرادتها" إرادةُ ما فيها مِن فنون مطالبها، [٣٦٦ظ]
كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الشورى، ٢٠/٤٢].

ويجوز أن يراد الحياة العاجلة، كقوله عزّ وجلّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود، ١٥/١١] لكنّ الأوّل أنسب بقوله تعالى: ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي:

---

[١] لم أجده في مظانّه. وهو في الفائق للزمخشري، ١٧٢/٣؛ والنهاية لابن الأثير، ٥١/٤.

في تلك العاجلة، فإنّ الحياة واستمرارها مِن جملة ما عُجّل له، فالأنسبُ بذلك كلمة "مِن" كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران، ١٤٥/٣].

﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي: ما نشاء تعجيله له مِن نعيمها لا كلَّ ما يريد. ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ تعجيلَ ما نشاء له، وهو بدل مِن الضمير في ﴿لَهُۥ﴾ بإعادة الجارّ بدلَ البعض، فإنّه راجع إلى الموصول المنبئ عن الكثرة، وقرئ: "لِمَنْ يَشَاءُ"[1] على أنّ الضميرَ لله سبحانه، وقيل: هو لـ﴿مَن﴾ فيكون مخصوصًا بمَن أراد به ذلك، وهو واحد مِن الدَّهماء.[2]

وتقييد المعجَّل والمعجَّل له بما ذُكر مِن المشيئة والإرادة لِما أنّ الحِكمة التي عليها يدور فلَك التكوين لا يقتضي وصول كلّ طالب إلى مَرامه ولا استيفاءَ كلّ واصل لِما يطلُبه بتمامه، وأمّا ما يتراءى مِن قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود، ١٥/١١] مِن نَيل كلّ مؤمِّل لجميع آماله ووصولِ كلّ عامل إلى نتيجة أعماله، فقد أُشيرَ إلى تحقيق القول فيه في سورة هود بفضل الله تعالى.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ مكانَ ما عجّلنا له ﴿جَهَنَّمَ﴾ وما فيها مِن أصناف العذاب ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخُلها، وهو حال مِن الضمير المجرور، أو مِن جهنّم، أو استئناف، ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا مِن رحمة الله تعالى. وقيل: الآية في المنافقين كانوا يُراءون المسلمين ويغزون معهم، ولم يكن غرضهم إلّا مساهمتَهم في الغنائم ونحوها.[3] ويأباه ما يقال: إنّ السورة مكّيّة سوى آياتٍ معيّنة.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ١٩﴾

﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ بأعماله ﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾ الدارَ الآخرة وما فيها مِن النعيم المقيم ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: السعيَ اللائق بها، وهو الإتيان بما أُمر والانتهاء عما نُهي،

---

[1] ما وقفتُ عليها فيما بين يديّ من كتب التفسير والقراءات. وفيها قراءة قريبة: "ما يَشَاءُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن سلام والزعفراني وابن المُنادي عن نافع. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٢٨.

[2] دهماء الناس: جماعتهم وكثرتهم. لسان العرب لابن منظور، «دهم».

[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩٦/٢.

[٣٦٧و] لا التقرّبُ بما يخترعون بآرائهم. وفائدةُ "اللام" اعتبار النيّة والإخلاص. / ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيمانًا صحيحًا لا يخالطه شيء قادح فيه. وإيراد الإيمان بالجملة الحاليّة للدلالة على اشتراط مقارنته لِما ذُكر في حيّز الصلة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول بعنوان اتّصافه بما في حيّز الصلة، وما في ذلك مِن معنى البعد للإشعار بعُلوّ درجتهم وبُعد منزلتهم، والجمعيّةُ لمراعاة جانب المعنى إيماءً إلى أنّ الإثابة المفهومة مِن الخبر تقع على وجه الاجتماع، أي: أولئك الجامعون لِما مرّ مِن الخِصال الحميدة، أعني إرادة الآخرة والسعيَ الجميل لها والإيمان، ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولًا عند الله تعالى بحسن القَبول مُثابًا عليه، وفي تعليق المشكوريّة بالسعي دون قرينَيه إشعارٌ بأنّه العمدةُ فيها.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿كُلًّا﴾ التنوين عِوَض عن المضاف إليه، أي: كلَّ واحد مِن الفريقين لا الفريقِ الأخير المريد للخير الحقيقِ بالإسعاف فقط، ﴿نُّمِدُّ﴾ أي: نزيد مرّة بعد مرّة[١] بحيث يكون الآنِفُ مدَدًا للسالف، وما به الإمداد ما عُجّل لأحدهما مِن العطايا العاجلة وما أُعِدّ للآخر مِن العطايا الآجلة المشار إليها بمشكوريّة السعي، وإنّما لم يُصرِّح به تعويلًا على ما سبَق تصريحًا وتلويحًا واتّكالًا على ما لحِق عبارة وإشارة، كما ستقف عليه.

وقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل مِن ﴿كُلًّا﴾، ﴿وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ عطفٌ عليه، أي: نُمدّ هؤلاء المعجَّلَ لهم وهؤلاء المشكورَ سعيُهم، فإنّ الإشارة متعرِّضة لذات المشار إليه بما له مِن العنوان لا للذات فقط كالإضمار، ففيه تذكيرٌ لِما به الإمداد وتعيين للمضاف إليه المحذوف دفعًا لتوهُّم كونه أفرادَ الفريق الأخير، وتأكيدٌ للقصر المستفاد مِن تقديم المفعول. وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: مِن معطاه الواسع الذي لا تناهيَ له، متعلّق بـ﴿نُّمِدُّ﴾ ومُغنٍ عن ذِكر ما به الإمداد

---

١ س: أخرى.

ومنبّهٌ على أنّ الإمداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعي والعمل؛ بل بمَحْض التفضّل.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ أي: دُنيويًا كان أو أخرويًا، وإنّما أُظهر إظهارًا لمزيد الاعتناء بشأنه وإشعارًا بعلّيّته للحُكم، ﴿مَحْظُورًا﴾ ممنوعًا ممّن يريده؛ بل هو فائض على مَن قُدِّر له بموجَب المشيئة المبنيّة على الحكمة وإن وُجد منه ما يقتضي الحَظْر كالكافر، وهو في معنى التعليل لشمول الإمداد للفريقين. والتعرّض لعنوان الربوبيّة / في الموضعين للإشعار بمبدئيّتها لِما ذُكر مِن الإمداد وعدمِ الحَظْر. [٣٦٧ظ]

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كيف في محلّ النصب بـ﴿فَضَّلْنَا﴾ على الحاليّة، والمرادُ توضيح ما مرّ مِن الإمداد وعدمِ محظوريّة العطاء بالتنبيه على استحضار مراتبِ أحد العطاءين والاستدلالِ بها على مراتب الآخر، أي: انظر بنظَر الاعتبار كيف فضّلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به مِن العطايا العاجلة، فمِن وضيع ورفيع وظالع وضليع ومالك ومملوك ومُوسِر وصُعلوك تعرِفُ بذلك مراتبَ العطايا الآجلةِ ودرجاتِ تفاضل أهلِها على طريقة الاستشهاد بحال الأدنى على حال الأعلى، كما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أي: هي وما فيها أكبرُ مِن الدنيا، وقرئ: "أكثرُ"[١] ﴿دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ لأنّ التفاوت فيها بالجنّة ودرجاتها العالية التي لا يقادر قَدْرها ولا يُكتنَه كُنهها، كيف لا، وقد عُبّر عنه بما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطَر على قلب بشر.

هذا، ويجوز أن يُراد بما به الإمداد العطايا العاجلة فقط، ويُحمَل القَصْر المذكور على دَفْع توهّم اختصاصها بالفريق الأوّل، فإنّ تخصيص إرادتهم لها ووصولهم إليها بالذِّكر مِن غير تعرّض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثاني إرادة ووصولًا ممّا يُوهِم اختصاصها بالأوّلِين، فالمعنى: كلُّ واحد مِن الفريقين

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمدَ بن أبي معاذ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٩.

نُمِدّ بالعطايا العاجلة -لا مَن ذكرنا إرادتَه لها فقط مِن الفريق الأوّل- مِن عطاء ربّك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوي محظورًا مِن أحد ممّن يريده وممّن يريد غيره.[١] انظر كيف فضّلنا في ذلك العطاء بعضَ كلّ مِن الفريقين على بعض آخرَ منهما وللآخِرةُ... الآية.

واعتبارُ عدم المحظوريّة بالنسبة إلى الفريق الأوّل تحقيقًا لشمول الإمداد له، كما فعله الجمهور حيث قالوا: "لا يمنعه مِن عاصٍ لعصيانه"، يقتضي كون القَصْر لدَفْع توهّم اختصاص الإمداد الدنيوي بالفريق الثاني، مع أنّه لم يسبِق في الكلام ما يُوهِم ثبوتَه له فضلًا عن إيهام اختصاصه به.[٢]

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

[٣٦٨و] ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ / الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم. والمراد به أُمّته، وهو مِن باب التهييج والإلهاب، أو لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، ﴿فَتَقْعُدَ﴾ بالنصب جوابًا للنهي. والقعود بمعنى الصيرورة مِن قولهم: "شحَذ الشفرةَ حتّى قعَدتْ كأنّها حَرْبة"، أو بمعنى العَجْز، مِن "قعَد عنه"، أي: عجَز عنه، ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ خبران أو حالان، أي: جامعًا على نفسك الذمَّ مِن الملائكة والمؤمنين والخِذلانَ مِن الله تعالى، وفيه إشعارٌ بأنّ الموحِّد جامع بين المدح والنُّصرة.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: أمَر أمرًا مُبرمًا، وقُرئ: "وَأَوْصَى رَبُّكَ"[٣] و"وَصَّى رَبُّكَ"[٤] ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ أي: بألّا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ على أنّ "أن" مصدريّة و"لا" نافية،

---

[١] وفي هامش م: أي الآخرة.

[٢] ط س - به. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ بن أبي طالب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٢٨-١١٢٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود وأصحابه وأُبيّ والضحّاك وإبراهيم النخَعي وسعيد بن جُبير. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٧٩؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٧٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٢٨.

أو أي: لا تعبدوا، على أنّها مُفسِّرةٌ و"لا" ناهية؛ لأنّ العبادة غاية التعظيم فلا تحِقُّ إلّا لمَن له غاية العظمة ونهايةُ الإنعام، وهو كالتفصيل للسعي للآخرة. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي: وبأن تُحسِنوا[1] بهما، أو وأحسنوا[2] بهما ﴿إِحْسَٰنًا﴾ لأنّهما السبب الظاهر للوجود والتعيّش.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إمّا مركّبة مِن "إن" الشرطيّة و"ما" المَزيدة لتأكيدها ولذلك دخَل الفعلَ نونُ التأكيد، ومعنى ﴿عِندَكَ﴾ في كنفك وكفالتك، وتقديمُه على المفعول مع أنّ حقّه التأخّر عنه للتشويق إلى وروده، فإنّ مدار تضاعُف الرعاية الإحسانُ، و﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلّا يطول الكلام به وبما عُطف عليه. وقُرئ: "يَبْلُغَانِّ"،[3] فـ﴿أَحَدُهُمَا﴾ بدل مِن ضمير التثنية و﴿كِلَاهُمَا﴾ عطفٌ عليه، ولا سبيلَ إلى جَعْل ﴿كِلَاهُمَا﴾ تأكيدًا للضمير. وتوحيدُ ضمير الخطاب في ﴿عِندَكَ﴾ وفيما بعده -مع أنّ ما سبق على الجمع- للاحتراز عن التباس المراد، فإنّ المقصود نهيُ كلّ أحد عن تأفيف والديه ونهرِهما، ولو قُوبل الجمع بالجمع، أو بالتثنية لم يحصُل هذا المَرام.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا﴾ أي: لواحد منهما حالتَي الانفراد والاجتماع: / ﴿أُفٍّ﴾ وهو صوت ينبئ عن تضجُّر، أو اسمُ فعل هو "أتضجَّرُ"، وقُرئ بالكسر بلا تنوين[4] وبالفتح[5] والضمّ منوّنًا[6] وغيرَ مُنوّن،[7] أي: لا تتضجَّرْ بما تستقذِر منهما وتستثقِل مِن مُؤَنهما، وبهذا النهي يُفهَم النهيُ عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النصّ. وقد خُصّ بالذِّكر بعضُه إظهارًا للاعتناء بشأنه فقيل: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تزجُرهما عمّا لا يعجِبك بإغلاظ. قيل: النهيُ والنهرُ والنهْمُ أخواتٌ.[8] [٣٦٨ظ]

---

١ وفي هامش م: على الأوّل.

٢ وفي هامش م: على الثاني.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢.

٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٥ قرأ بالفتح من غير تنوين ابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٠٦/٢-٣٠٧. والفتح مع التنوين قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وحُميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٧٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة واليماني. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٠.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٧٩.

٨ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٤/٢.

﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدلَ التأفيف والنهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ذا كرَم، أو هو وصف له بوصف صاحبه، أي: قولًا صادرًا عن كرَم ولطف، وهو القول الجميلُ الذي يقتضيه حُسن الأدب ويستدعيه النزول على المروءة، مثل أن يقول: "يا أبتاه" و"يا أمّاه"، كدأب إبراهيمَ عليه السلام إذ قال لأبيه: "يا أبتِ" مع ما به مِن الكفر، ولا يدعوهما بأسمائهما فإنّه مِن الجفاء وسوء الأدب وديدنِ الدُعّار.[١]

وسئل الفُضَيل بن عِياض عن برّ الوالدين فقال: ألّا تقوم إلى خدمتهما عن كسَل. وقيل: ألّا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظُر إليهما شزْرًا، ولا يَرَيا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحّم عليهما ما عاشا وتدعوَ لهما إذا ماتا، وتقومَ بخدمة أوِدّائهما مِن بعدهما،[٢] فعن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ مِن أبَرّ البِرّ أن يصِل الرجُل أهل ودِّ أبيه».[٣]

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ عبارة عن إلانة الجانب والتواضعِ والتذلُّل لهما، فإنّ إعزازهما لا يكون إلّا بذلك فكأنّه قيل: واخفض لهما جناحَك الذليل، أو جُعل لذُلّه جَناح، كما جَعل لبيدٌ في قوله:

وغـــداةِ ريـح قـد كـشـفـتُ وقِـرّةٍ ... إذ أصبحتْ بيد الشَّمال زمامُها[٤]

للقِرّة[٥] زِمامًا وللشَّمال يدًا، تشبيهًا له بطائر يخفِض جناحه لأفراخه تربية لها وشفقة عليها، وأمّا جعلُ خَفْض الجناح عبارةً عن ترك الطيران كما فعله القفّال[٦] فلا يناسب المقام.

---

١ الدُّعّار جمع داعر: وهو الخبيث المُفسِد. لسان العرب لابن منظور، «دعر».
٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٦/٢.
٣ مسند أحمد، ٤٣٥/٩ (٥٦١٢)؛ صحيح مسلم، ١٩٧٩/٤ (٢٥٥٢)؛ سنن أبي داود، ٤٥٦/٧ (٥١٤٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٦/٢.
٤ البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه ٣١٥. وهو له في أسرار البلاغة للجرجاني، ص ٤٥، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٩٨/٢، على ما نحن فيه.
٥ القِرّة والقُرّ: البرد، أو هي ما أصاب الإنسان وغيرَه من البرد. لسان العرب لابن منظور، «قرر».
٦ قوله في تفسير الرازي، ٣٢٦/٢٠، واللباب لابن عادل، ٢٥٩/١٢.

﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ مِن فَرْط رحمتك وعطفك عليهما / ورِقّتك لهما، لافتقارهما [٣٦٩و]
اليوم إلى مَن كان أفقَر خَلْق الله تعالى إليهما، ولا تكتفِ برحمتك الفانية؛ بل ادعُ الله تعالى لهما برحمته الواسعة الباقية.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ برحمتك الدنيويّة والأخرويّة التي مِن جملتها الهداية إلى الإسلام، فلا ينافي ذلك كفرَهما.

﴿كَمَا رَبَّيَانِى﴾ "الكاف" في محلّ النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف، أي: رحمة مِثلَ تربيتهما لي،[1] أو مِثلَ رحمتهما لي،[2] على أنّ التربية رحمة. ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معًا، وقد ذُكر أحدُهما في أحد الجانبين والآخرُ في الآخر كما يُلوّح به التعرّض لعنوان الربوبيّة في مطلَع الدعاء، كأنّه قيل: ربّ ارحمهما وربِّهما كما رحِماني وربّياني ﴿صَغِيرًا﴾. ويجوز أن يكون "الكاف" للتعليل، أي: لأجل تربيتهما لي كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة، ١٩٨/٢].

ولقد بالغ عزّ وجلّ في التوصية بهما حيثُ افتتحها بأن شفَع الإحسانَ إليهما بتوحيده سبحانه ونظمَهما في سِلك القضاء بهما معًا، ثمّ ضيّق الأمر في باب مراعاتهما حتّى لم يرخِّص في أدنى كلمة تنفلِت مِن المتضجِّر مع ما له مِن موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر، وختمَها بأن جعل رحمتَه التي وسعت كلَّ شيء مُشبّهة بتربيتهما.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رِضا الله في رضا الوالدين وسخطُه في سخطهما»،[3] ورُوي «يفعل البارُّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخُل النارَ، ويفعل العاقُّ ما يشاء أن يفعَل فلن يدخُل الجنّة»،[4] وقال رجل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

---

١ وفي هامش م: ابن عطيّة. | انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة ٤٤٩/٣.

٢ وفي هامش م: أبو البقاء. | انظر: التبيان للعُكبري، ٨١٨/٢.

٣ هو بلفظ «رضا الربّ في رضا الوالد، وسخط الربّ في سخط الوالد» في الأدب المفرد، ص ١٤ (٢)؛ وسنن الترمذي، ٣١٠/٤ (١٨٩٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٢٤٧/١٠ (٧٤٤٧)، وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٦٣/٢-٢٦٤.

٤ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٦/١٦، وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٦٤/٢.

إنّ أبوَيَّ بلغا مِن الكِبَر أنّي أَلي منهما ما وَلِيا منّي في الصغر، فهل قضيتُهما حقّهما؟ قال: «لا؛ فإنّهما كانا يفعلان ذلك وهما يُحبّان بقاءَك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما»،[1] ورُوي أن شيخًا أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: إنّ ابني هذا له مال كثير وإنّه لا ينفق عليّ مِن ماله، فنزل جبريلُ عليه السلام وقال: إنّ هذا الشيخ / قد أنشأ في ابنه أبياتًا ما قُرع سَمْع بمثلها، فاستنشَدها [٣٦٩ظ]
فأنشدها الشيخَ فقال:

غـذَوتُـك مـولـودًا ومُـنْـتُـك يافعًا ... تَـعُـلُّ بمـا أَحـنـى عليك وتنهلُ
إذا ليلةٌ ضافتْك بالسُّقم لم أبِتْ ... لسُقـمِـك إلّا بـاكـيًـا أتـمَـلـمَـلُ
كـأنّي أنـا الـمطروق دونـك بالذي ... طُـرِقَـتْ بـه دونـي وعـينـيَ تَـهـمُلُ
فـلـمّا بـلغـتَ الـسـنَّ والـغـايـةَ التي ... إلـيـها مـدى مـا كـنـتُ فـيك أؤمِّـلُ
جعلـتَ جـزائي غِـلـظةً وفـظاظةً ... كـأنّـك أنـتَ الـمُـنـعِـم الـمـتـفـضِّـلُ
فـليـتَـكَ إذ لـم تـرْعَ حـقَّ أُبـوّتـي ... فعلتَ كما الـجارُ الـمجاوِر يفعَلُ[2]

فغضب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال: «أنتَ ومالُكَ لأبيك».[3]

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾﴾

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ﴾ مِن البرّ والعُقوق ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين الصلاح والبِرّ دون العقوق والفساد ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ أي: الرجّاعين إليه تعالى عمّا فرَط منهم ممّا لا يكاد يخلو عنه البشر ﴿غَفُورٗا﴾ لِما وقَع منهم مِن نوع تقصير أو أذِيّة فعليّة أو قوليّة. وفيه ما لا يخفى مِن التشديد في الأمر بمراعاة حقوقهما، ويجوز أن يكون عامًّا لكلّ تائب ويدخُل فيه الجاني على أبويه دخولًا أوّليًّا.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٢. ولم أجده في مظانّه.

٢ الأبيات في المعجم الصغير للطبراني، ١٥٢/٢ (٩٤٧). وهي لأميّة بن أبي الصلت في ديوانه، ص ٤٣٠-٤٣١؛ وشرح الحماسة للمرزوقي، ص٧٥٣-٧٥٤؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ١٤٩/٣.

٣ المصنَّف لابن أبي شيبة، ٥١٧/٤ (٢٢٧٠٠)؛ مسند أحمد، ٥٠٣/١١ (٦٩٠٢)؛ سنن ابن ماجه، ٣٩١/٣ (٢٢٩١).

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ذا القرابة ﴿حَقَّهُۥ﴾ توصيةٌ بالأقارب إثرَ التوصية ببرّ الوالدين، ولعلّ المرادَ بهم المحارم وبحقّهم النفقة، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فإنّ المأمورَ به في حقّهما المواساة الماليّة لا محالةَ، أي: وآتِهما حقَّهما ممّا كان مفترَضًا بمكّةَ بمنزلة الزكاة، وكذا النهيُ عن التبذير وعن الإفراط في القبض والبسْط، فإنّ الكلّ مِن التصرُّفات الماليّة.

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ نهيٌ عن صَرْف المال إلى مَن سواهم ممّن لا يستحقّه، فإنّ التبذير تفريق في غير موضعه، مأخوذ مِن تفريق حبّات وإلقائها كيفما كان مِن غير تعهُّد لمواقعه، لا عن الإكثار في صَرْفه إليهم وإلّا لناسَبه الإسراف الذي هو / تجاوُز الحدّ في صَرْفه، وقد نُهي عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ [٣٧٠و]
[الإسراء، ٢٩/١٧]، وكلاهما مذموم.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تعليل للنهي عن التبذير ببيان أنّه يجعل صاحبه ملزوزًا في قَرَن الشياطين، والمراد بـ"الأخوّة": المماثلة التامّة في كلّ ما لا خيرَ فيه مِن صفات السوء التي مِن جملتها التبذير، أي: كانوا بما فعلوا مِن التبذير أمثالَ الشياطين؛ أو الصداقةُ والملازمة، أي: كانوا أصدقاءهم وأتباعهم فيما ذُكر مِن التبذير والصرفِ في المعاصي، فإنّهم كانوا ينحَرون الإبل ويتياسَرون عليها، ويبذّرون أموالَهم في السُّمعة وسائر ما لا خيرَ فيه مِن المَناهي والمَلاهي؛ أو المقارنةُ، أي: قرناءَهم في النار على سبيل الوعيد.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ مِن تتمّة التعليل، أي: مبالِغًا في كفران نِعَمه تعالى؛ لأنّ شأنه أن يصرِف جميع ما أعطاه الله تعالى مِن القُوى والقُدَر إلى غير ما خُلقت هي له مِن أنواع المعاصي والإفساد في الأرض، وإضلالِ الناس وحَمْلِهم على الكفر بالله وكفران نِعَمه الفائضة عليهم وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به. وتخصيص هذا الوصف بالذِّكر مِن بين سائر أوصافه القبيحة

للإيذان بأنّ التبذير الذي هو عبارة عن صَرْف نِعَم الله تعالى إلى غير مَصرِفها مِن باب الكفران المقابل للشكر الذي هو عبارة عن صَرْفها إلى ما خُلقت هي له. والتعرّض لوصف الربوبيّة للإشعار بكمال عُتوّه، فإنّ كفران نعمة الربّ مع كون الربوبيّة مِن أقوى الدواعي إلى شُكرها غاية الكُفران ونهايةُ الضلال والطغيان.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي: إن اعتراك أمر اضطرّك إلى أن تُعرِض عن أولئك المستحقِين ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: لفقْد رزق مِن ربّك، إقامةٌ للمسبَّب مُقام السبب، فإنّ الفقد سبب للابتغاء، ﴿تَرْجُوهَا﴾ مِن الله تعالى لتُعطيَهم، وكان صلّى الله عليه وسلّم إذا سُئل شيئًا وليس عنده أعرَض عن السائل وسكَت حياء، فأُمر بتعهُّدهم بالقول الجميل لئلّا يعتريَهم الوَحشة بسكوته عليه السلام، فقيل: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ / سهلًا ليّنًا وعِدْهم وعدًا جميلًا، مِن "يُسِر الأمرُ" نحو "سُعِد"، [٣٧٠ظ]
أو قل لهم: رزَقَنا الله وإيّاكم مِن فضله على أنّه دعاء لهم ييسِّر عليهم فَقْرهم.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ تمثيلان لمنع الشحيح وإسرافِ المبذِّر زجرًا لهما عنهما وحَمْلًا على ما بينهما مِن الاقتصاد:

كلا طَرفَي قَصْدِ الأمور ذميمُ[١]

وحيث كان قُبح الشحّ مقارنًا له معلومًا مِن أوّل الأمر رُوعيَ ذلك في التصوير بأقبح الصور؛ ولمّا كان غائلة الإسراف في آخره بُيِّن قُبحُه في إثره فقيل: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ أي: فتصيرَ ملومًا عند الله تعالى وعند الناس وعند نفسك إذا احتجتَ وندِمتَ على ما فعلتَ ﴿مَّحْسُورًا﴾ نادمًا أو منقطعًا بك لا شيءَ عندك، مِن "حسَره السَّفَرُ" إذا بلغ منه.

---

[١] عجز بيت، صدره:
ولا تكُ فيها مُفرطًا أو مُفرِطًا
وما عرفت قائله. وهو بلا نسبة في النهاية لابن الأثير، ٣/٣٨٢؛ وشرح الرضيّ على الكافية ١/٣٤١؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٢/١٢٢.

وما قيل مِن أنّه رُوِيَ عن جابر رضيَ الله عنه أنّه قال: بينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قاعدٌ إذ أتاه صبيّ فقال: «إنّ أمّي تستكْسِيك دِرعًا»، فقال عليه السلام: «مِن ساعة إلى ساعة فَعُد إلينا»،[1] فذهب إلى أمّه فقالت له: «قل: إنّ أمّي تستكْسِيك الدرعَ الذي عليك»، فدخل عليه السلام داره ونزَع قميصه وأعطاه وقعد عُرْيانًا، وأذّن بلال، وانتظروا فلم يخرُج للصلاة، فنزلت، فيأباه[2] أنّ السورة مَكّيّة خلا آياتٍ في آخرها. وكذا ما قيل إنّه عليه السلام أعطى الأقرع بن حابس مائة مِن الإبل، وكذا عُيَينةَ بن حِصْن الفزاريَّ فجاء عبّاسُ بن مِرداس فأنشأ يقول:

أتجعَل نَهبي ونهبَ العُبَيـ ... ـد بين عُيَينةَ والأقرَعِ
وما كان حِصْنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مِرداسَ في مَجمَعِ
وما كنتُ دون امرئٍ منهما ... ومَن تَضَعِ اليومَ لا يُرفعِ[3]

فقال عليه السلام: «يا أبا بكر اقطعْ لسانه عنّي، أعطِه مائة مِن الإبل»،[4] وكانوا جميعًا مِن المؤلَّفة القلوب، فنزلت.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ٣٠ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ٣١﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ تعليل لِما مرّ، أي: يوسّعه على بعض ويضيّقه / على آخرين، حسبما يتعلّق به مشيئتُه التابعة للحِكمة، فليس ما [٣٧١و] يَزهقُك مِن الإضافة التي تُحوجُك إلى الإعراض عن السائلين أو نفاد ما في يدك إذا بسطتها كلّ البسط إلّا لمصلحتك.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تعليل لِما سبَق، أي: يعلم سِرَّهم وعلَنَهم فيعلم مِن مصالحهم ما يخفى عليهم. ويجوز أن يراد أنّ البسط والقبض مِن أمر الله العالم بالسرائر والظواهر الذي بيده خزائنُ السماوات والأرض، فأمّا العبادُ

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٥/١٦؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٢٩٤-٢٩٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٩٠/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٢.

٢ السياق: وما قيل... فيأباه...

٣ الأبيات في ديوان العبّاس بن مِرداس السُّلمي، ص ١١١-١١٢، وفيه «فأصبح» مكان «أتجعل»؛ وهي له في صحيح مسلم، ٧٣٧/٢ (١٠٦٠)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٢.

٤ بمعناه في صحيح مسلم، ٧٣٧/٢ (١٠٦٠)، وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/٢.

فعليهم أن يقتصدوا، وأن يُراد أنّه تعالى يبسُط تارةً ويقبِض أخرى، فاستنُّوا بسنّته، فلا تقبِضوا كلَّ القبض ولا تبسُطوا كلَّ البسط، وأن يُراد أنّه تعالى يبسُط ويقدِر حسب مشيئتِه فلا تبسُطوا على مَن قُدِر عليه رزقه، وأن يكون تمهيدًا لقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ أي: مخافةَ فَقْر، وقرئ بكسر الخاء،[١] كانوا يئِدون بناتِهم مخافة الفقر فنُهوا عن ذلك.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ لا أنتم، فلا تخافوا الفاقة بناء على عِلمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم، وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور بإبطال موجبه في زعمهم. وتقديم ضمير الأولاد على المخاطَبين على عكس ما وقع في سورة الأنعام للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق، أو لأنّ الباعث على القتل هناك الإملاق الناجز، ولذلك قيل: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام، ١٥١/٦]، وههنا الإملاقُ المتوقَّع، ولذلك قيل: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، فكأنّه قيل: نرزقُهم مِن غير أن يُنتقَص مِن رزقكم شيءٌ فيعتريكم ما تخشَونه وإيّاكم أيضًا رزقًا إلى رزقكم.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ تعليل آخرُ ببيان أنّ المَنهي عنه في نفسه مُنكَر عظيم. والخِطءُ: الذنب والإثم يقال: "خطِئ خِطئًا" كـ"أثِم إثمًا"، وقرئ بالفتح والسكون[٢] وبفتحتين[٣] بمعناه كـ"الحِذْر" و"الحَذَر". وقيل: بمعنى ضدّ الصواب، وبكسر الخاء والمدّ،[٤] وبفتحها ممدودًا،[٥] وبفتحها وحذف الهمزة[٦] وبكسرها كذلك.[٧]

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلًا عن مباشرته، وإنّما نهى عن قُربانه على خلاف ما سبَق ولحِق مِن القتل للمبالغة في النهي عن نفسه،

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعُبيد بن عُمير. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٣٢.

٣ قرأ بها أبو جعفر وابن ذكوان وهشام بخلاف. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٤ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والعمري وشيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٣٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد والزُّهري. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٣٢.

ولأنّ قُربانه داعٍ إلى مباشرته. / وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قَتْل الأولاد [٣٧١ظ]
والنهي عن قَتْل النفس المحرّمة على الإطلاق باعتبار أنّه قَتْل للأولاد لِما أنّه تضييع للأنساب، فإنّ مَن لم يثبُتْ نسبه ميّت حُكمًا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فعلةً ظاهرةَ القبح متجاوِزةً عن الحدّ، ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: بئس طريقًا طريقُه، فإنّه غَضب الأبضاع المؤدّي إلى اختلال أمر الأنساب وهيَجان الفِتَن، كيف لا، وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا زنى العبد خرَج منه الإيمان فكان على رأسه كالظُّلّة فإذا انقطع رجَع إليه»،[1] وقال عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمِن»،[2] وعن حذيفةَ رضي الله عنه أنّه قال عليه السلام: «إيّاكم والزِنا فإنّ فيه ستَّ خصال، ثلاثٌ في الدنيا وثلاثٌ في الآخرة، فأمّا التي في الدنيا فذهاب البهاء ودوامُ الفقر وقِصَرُ العمر، وأمّا التي في الآخرة فسخط الله تعالى وسوءُ الحساب والخلودُ في النار».[3]

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قَتْلها بأن عصَمها بالإسلام أو بالعهد ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلّا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزِنًا بعد إحصان، وقَتْل نفس معصومة عمدًا، فالاستثناءُ مفرَّغ، أي: لا تقتلوها بسبب مِن الأسباب إلّا بسبب الحقّ أو ملتبِسين أو ملتبِسةً بشيء مِن الأشياء، ويجوز أن يكون نعتًا لمصدر محذوف، أي: لا تقتلوها قتلًا ما إلّا قتلًا متلبِسًا بالحقّ.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حقّ يوجب قَتْله أو يُبيحه للقاتل حتّى إنّه لا يُعتبر إباحتُه لغير القاتل، فإنّ مَن عليه القصاص إذا قتَله غير مَن له القصاص يُقتصّ له، ولا يفيده قول الوليّ: "أنا أمرتُه بذلك" ما لم يكن الأمر ظاهرًا.

---

١ سنن الترمذي، ١٥/٥ (٢٦٢٥)؛ المستدرك للحاكم، ٧٢/١ (٥٦).
٢ مسند أحمد، ٢٦٩/١٢ (٧٣١٨)؛ صحيح البخاري، ١٣٦/٣ (٢٤٧٥)؛ صحيح مسلم، ٧٦/١ (١٠٠).
٣ شعب الإيمان للبيهقي، ٣٣٢/٧ (٥٠٩١)؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ١٢٨/٣ (المائدة، ٨٠/٥).

﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ لِمَن يلي أمره مِن الوارث، أو السلطان عند عدم الوارث ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ تسلّطًا واستيلاء على القاتل يؤاخِذه بالقصاص أو بالدِّية حسبما يقتضيه جنايتُه، أو حجّةً غالبة.

﴿فَلَا يُسۡرِف﴾ وقرئ: "لَا تُسْرِفْ"[1] ﴿فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾ أي: لا يُسرِف الوليّ في أمر القتل بأن يتجاوز الحدّ المشروع، بأن يزيد عليه المُثْلة، أو بأن يقتُل غير القاتل مِن أقاربه، أو بأن يقتُل الاثنين مكانَ الواحد / كما يفعله أهل الجاهليّة، أو بأن [٣٧٢و]
يقتل القاتلَ في مادّة الدِّية، وقرئ بصيغة النفي[2] مبالغةً في إفادة معنى النهي.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ تعليل للنهي، والضميرُ للوليّ على معنى أنّه تعالى نصره بأن أوجَب له القصاص أو الدِّية وأمَر الحكّام بمعونته في استيفاء حقّه، فلا يبْغِ ما وراء حقِّه ولا يستزِدْ عليه ولا يخرُجْ مِن دائرة أمر الناصر أو للمقتول ظلمًا، على معنى أنّه تعالى نصَره بما ذُكر فلا يُسرِف وليُّه في شأنه، أو للذي يقتله الوليُّ ظلمًا وإسرافًا، ووجهُ التعليل ظاهر.

وعن مجاهد أنّ الضمير في ﴿لَا يُسۡرِف﴾ للقاتل الأوّل،[3] ويعضُده قراءة "فَلَا تُسْرِفُوا"،[4] والضميران في التعليل عائدان إلى الوليّ أو المقتول، فالمراد بالإسراف حينئذ إسراف القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجل لا الإسرافُ وتجاوز الحدّ في قتل،[5] أي: لا يُسرف على نفسه في شأن القتل، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الزمر، ٣٩/٥٣].

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ نهيٌ عن قُربانه لِما ذُكر مِن المبالغة في النهي عن التعرّض له ومِن إفضاء ذلك إليه، وللتوسّل إلى الاستثناء بقوله تعالى:

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مسلم العِجلي صاحب الدولة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠.

[3] قوله في جامع البيان للطبري، ١٤/٥٨٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٩١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٤٨٩.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٠.

[5] ط س: القتل. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: إلّا بالخَصلة والطريقة التي هي أحسنُ الخِصال والطرائق، وهي حفظُه واستثماره ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لجواز التصرّف على الوجه الأحسن المدلول عليه بالاستثناء، لا للوجه المذكور فقط.

﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِ﴾ سواء جرى بينكم وبين ربّكم أو بينكم وبين غيركم مِن الناس، والإيفاءُ بالعهد والوفاء به: هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يُستعمل إلّا بالباء فرقًا بينه وبين الإيفاء الحسّي كإيفاء الكيل والوزن.

﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ﴾ أُظهِر في مقام الإضمار إظهارًا لكمال العناية بشأنه، أو لأنّ المراد مطلق العهد المنتظِم للعهد المعهود، ﴿كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ / أي: مسئولًا عنه [٣٧٢ظ]
على حذف الجارّ وجَعْل الضمير بعد انقلابه مرفوعًا مستكِنًّا في اسم المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود، ١٠٣/١١] أي: مشهود فيه، ونظيرُه ما في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس، ١/١٠]، على أنّ أصله "الحكيمُ قائلُه"، فحُذف المضاف وجُعل الضمير مستكِنًّا في ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ بعد انقلابه مرفوعًا. ويجوز أن يكون تخييلًا، كأنّه يقال للعهد: لِمَ نُكِثتَ وهلّا وُفيَ بك؟ تبكيتًا للناكث، كما يقال للموءودة: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير، ٩/٨١].

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥﴾

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أتِمّوه ولا تُخسِروه ﴿إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ أي: وقت كيلِكم للمشترين. وتقييد الأمر بذلك لِما أنّ التطفيف هناك يكون، وأمّا وقت الاكتيال على الناس فلا حاجةَ إلى الأمر بالتعديل، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ الآية [المطففين، ٢/٨٣].

﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ هو القَرَسْطون، وقيل: كلّ ميزان صغيرًا كان أو كبيرًا.[١] روميٌّ معرَّب، ولا يقدح ذلك في عربيّة القرآن لانتظام المعرَّبات في سِلك الكلِم العربيّة. وقرئ بضمّ القاف.[٢]

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٢.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: العَدْل السويّ. ولعلّ الاكتفاءَ باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن لِما أنّ عند استقامتِه لا يُتصوَّر الجَور غالبًا، بخلاف الكَيل فإنّه كثيرًا ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة، كما أنّ الاكتفاء بإيفاء الكيل عن الأمر بتعديله لِما أنّ إيفاءه لا يُتصوَّر بدون تعديل المِكيال، وقد أُمِر بتقويمه أيضًا في قوله تعالى: ﴿أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [هود، ٨٥/١١].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيفاء الكَيل والوَزن بالميزان السويّ ﴿خَيْرٌ﴾ في الدنيا إذ هو أمانةٌ توجِب الرغبة في معاملته والذِكرَ الجميل بين الناس، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ عاقبةً، تفعيلٌ مِن "آل" إذا رجع، والمرادُ ما يئول إليه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ ولا تتبعْ مِن "قفا أثرَه"، أي: تبِعه، وقرئ: "وَلَا تَقُفْ"[١] مِن "قاف أثرَه"، أي: قفاه، ومنه "القَافة" في جمع "القائف". ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾
[٣٧٣و] أي: لا تكن في اتّباع ما لا علمَ لك به / مِن قول أو فعل كمَن يتّبع مَسلَكًا لا يدري أنّه يُوصِله إلى مقصِده. واحتجّ به مَن منَع اتّباع الظنّ. وجوابه أنّ المراد بالعِلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد مِن سند قطعيًا كان أو ظنيًا، واستعمالُه بهذا المعنى ممّا لا يُنكَر شيوعه. وقيل: إنّه مخصوص بالعقائد. وقيل: بالرمي وشهادة الزُّور.[٢] ويؤيّده قوله عليه السلام: «مَن قفا مؤمنًا بما ليس فيه حبَسه الله تعالى في رَدْغة الخَبال حتّى يأتيَ بالمخرَج»،[٣] ومنه قول الكُميت:[٤]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الكلبي وإسحاق بن الحجّاج عن يحيى عن أبي بكر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٠؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٣٣.

٢ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٠١/٢.

٣ بلفظ قريب في **مسند أحمد**، ٣٨٠/٩ (٥٥٤٤)؛ وبلفظه ههنا في **شعب الإيمان** للبيهقي، ٩٦/٩ (٦٣١٠)؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤٩٠/٢.

٤ هو الكُميت بن زيد بن خنس الأسدي، أبو المستهلّ (ت. ١٢٦هـ/٧٤٤م). شاعر الهاشميّين مِن أهل الكوفة، مِن أعلام الشعراء في العصر الأموي، وهو عالم بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، وهو خطيب بني أسد وفقيه الشيعة وفارس شجاع سخيّ ورامٍ لم يكن في قومه أرمى منه، وقيل: كان أصمّ لا يسمع شيئًا. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٥٦٦/٢؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٣٣/٥.

ولا أرمي البريء بغير ذَنْب   ولا أقفو الحواصِنَ إن رُمينا[١]

﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ وقرئ بفتح "الفاء" و"الواو" المقلوبةِ مِن الهمزة عند ضمّ "الفاء".[٢] ﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: كلُّ واحد مِن تلك الأعضاء، فأُجريت مُجرى العقلاء لمّا كانت مسئولة عن أحوالها شاهدةً على أصحابها. هذا وإنّ "أُولاءِ"، وإن غلب في العقلاء، لكنّه مِن حيث إنّه اسمُ جمع لـ"ذا" الذي يعُمّ القَبيلين، جاء لغيرهم أيضًا، قال:

ذُمَّ[٣] المَنازلَ بعد مَنزِلة اللِّوى   والعيشَ بعد أولئك الأيّامِ[٤]

﴿كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ أي: كان كلّ مِن تلك الأعضاء مسئولًا عن نفسه، على أنّ اسم ﴿كَانَ﴾ ضمير يرجِع إلى ﴿كُلُّ﴾ وكذا الضميرُ المجرور. وقد جُوّز أن يكون الاسم ضمير القافي بطريق الالتفات، إذ الظاهرُ أن يقال: كنتَ عنه مسئولًا. وقيل: الجارُّ والمجرور في محلّ الرفع قد أُسند إليه ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾[٥] معلّلًا بأنّ الجارّ والمجرور لا يلتبس بالمبتدأ، وهو السبب في مَنْع تقديم الفاعل وما يقوم مقامَه. ولكنّ النحّاس[٦] حكى الإجماعَ على عدم جواز تقديم القائم مقامَ الفاعل إذا كان جارًّا ومجرورًا.[٧] ويجوز أن يكون مِن باب الحذف على شريطة التفسير، ويُحذف الجارّ مِن المفسِّر ويعود الضمير مستكِنًّا كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود، ١٠٣/١١].

---

١ ليس في ديوانه ولا في ذيله. وهو له في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٩٠/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ٢٨٠/١٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجرّاح بن عبد الله العُقيلي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨١.

٣ وفي هامش م: أمرٌ مِن "ذَمّ يذُمُّ".

٤ البيت لجرير في ديوانه، ص ٩٩٠، وفيه «الأقوام» مكان «الأيّام»؛ وهو بلا نسبة في **جامع البيان** للطبري، ٥٩٦/١٤؛ وله في **التفسير البسيط** للواحدي، ٣٣٣/١٣، على ما نحن فيه.

٥ كما في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٩١/٢.

٦ هو أحمد بن محمّد بن إسماعيل بن يونس المرادي المصري، أبو جعفر النحّاس (ت. ٣٣٨هـ/٩٥٠م). مفسّر ونحوي ولغوي وأديب مولده ووفاته بمصر، وهو مِن أهل الفضل الشائع والعلم الذائع. زار العراق واجتمع بعلمائه، وكان يناقش أهل العلم فيما أشكل عليه في مصنّفاته. وكان الناس يحبُّون الأخذ عنه وانتفع به خلق كثير، مِن مصنّفاته المطبوعة: **إعراب القرآن**، **ومعاني القرآن الكريم**، **وتفسير أبيات سيبويه**، **وشرح القصائد التسع**، **والقطع والائتناف**، **وأدب الكتّاب**، وغيرها. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٣٦٢/١؛ **والأعلام** للزركلي ٢٠٨/١.

٧ نقله ابن عادل في **اللباب**، ٢٨٥/١٢.

وجُوِّز أن يكون ﴿مَسْـُٔولًا﴾ مُسنَدًا إلى المصدر المدلول عليه بالفعل،[١] وأن يكون فاعله المصدرَ وهو "السؤال" و﴿عَنْهُ﴾ / في محلّ النصب. وسأل ابن جنّي [٣٧٣ظ] أبا عليّ عن قولهم: "فيك يُرغَب"، وقال: لا يرتفع بما بعده، فأين المرفوع؟ فقال: المصدرُ، أي: فيك يُرغَب الرَّغَبُ،[٢] بمعنى: يُفعَل الرغبةُ، كما في قولهم: "يُعطي ويمنع"، أي: يفعَل الإعطاءَ والمنعَ. وجُوِّز أن يكون اسمُ ﴿كَانَ﴾ أو فاعلُه ضميرَ ﴿كُلُّ﴾ بحذف المضاف، أي: كان صاحبه عنه مسئولًا أو مسئولًا صاحبُه.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التقييد لزيادة التقرير والإشعار بأنّ المشيَ عليها ممّا لا يليق بالمرَح. ﴿مَرَحًا﴾ تكبّرًا وبطَرًا واختيالًا، وهو مصدر وقَع موقعَ الحال، أي: ذا مرح، أو تمرَح مرَحًا، أو لأجل المرَح، وقرئ بالكسر.[٣]

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ تعليل للنهي، وفيه تهكُّم بالمختال وإيذانٌ بأنّ ذلك مفاخرة مع الأرض وتكبُّر عليها، أي: لن تخرِق الأرض بدَوسك وشدّة وطأتك، وقرئ بضمّ الراء.[٤] ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ التي هي بعض أجزاء الأرض ﴿طُولًا﴾ حتّى يمكن لك أن تتكبّر عليها، إذ التكبّرُ إنّما يكون بكثرة القوّة وعِظَم الجثّة، وكلاهما مفقود، وفيه تعريضٌ بما عليه المختال مِن رَفْع رأسه ومشيه على صدور قدميه.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما عُلم في تضاعيف ذِكر الأوامر والنواهي مِن الخِصال الخمس والعشرين. ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ الذي نُهيَ عنه وهي اثنتا عشرة خَصلة، ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ مبغَضًا غيرَ مَرضيّ، أو غيرَ مراد بالإرادة الأوّليّة، لا غيرَ مرادٍ مطلقًا لقيام الأدلّة القاطعة على أنّ جميع الأشياء واقعة بإرادته سبحانه،

---

١ وفي هامش م: ﴿لَا تَقْفُ﴾. «منه».

٢ الكلام عنهما بلفظ قريب في فتوح الغيب للطِّيبي، ٢٩٦/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر وأبي حاتم عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٣٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجرّاح قاضي البصرة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

وهو تتمّة لتعليل الأمور المنهيّ عنها جميعًا. ووصفُ ذلك بمطلق الكراهة مع أنّ البعض مِن الكبائر للإيذان بأنّ مجرّد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عن ذلك.

وتوجيه الإشارة إلى الكلّ ثمّ تعيينُ البعض دون توجيهها إليه ابتداءً لِما أنّ البعض المذكور ليس بمذكور جملةً؛ / بل على وجه الاختلاط، وفيه إشعار [٣٧٤و] بكون ما عداه مَرضيًا عنده تعالى، وإنّما لم يصرَح بذلك إيذانًا بالغنى عنه. وقيل: الإضافة بيانيّة كما في آية الليل وآية النهار.

وقرئ: "سَيِّئَةً"[١] على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما نُهي عنه مِن الأمور المذكورة، و﴿مَكْرُوهًا﴾ بدل مِن "سيِّئةً" أو صفةٌ لها محمولة على المعنى، فإنّه بمعنى "سَيِّئًا" وقد قُرئ به،[٢] أو مُجرى على موصوف مذكّر، أي: أمرًا مكروهًا، أو مُجرًى مُجرى الأسماء زالٌ عنه معنى الوصفيّة، ويجوز كونه حالًا مِن المستكِنّ في ﴿كَانَ﴾ أو في الظرف على أنّه صفةُ "سيِّئةً"، وقرئ: "سَيِّئَاتُهُ"،[٣] وقرئ: "شَأْنُهُ".[٤]

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي تقدَّم مِن التكاليف المفصَّلة ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ أي: بعض منه أو مِن جنسه ﴿مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ التي هي عِلم الشرائع، أو معرفة الحقّ لذاته والعملُ به، أو مِن الأحكام المحكَمة التي لا يتطرّق إليها النسخ والفساد. وعن ابن عبّاس رضي الله عنه[٥] أنّ هذه الآيات الثمانيَ عشرةَ كانت في ألواح موسى عليه السلام أوّلها: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر الصدّيق وأُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٤.

٥ س – رضيَ الله عنه.

﴿فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ [الأعراف، ١٤٥/٧]، وهي عشرُ آيات في **التوراة**.[١] و﴿مِنَ﴾ إمّا متعلِّقة بـ﴿أَوْحَىٰٓ﴾ على أنّها تبعيضيّة، أو ابتدائيّة، وإمّا بمحذوف وقَع حالًا مِن الموصول أو مِن ضميره المحذوف في الصلة، أي: كائنًا مِن الحِكمة، وإمّا بدل مِن الموصول بإعادة الجارّ.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم والمرادُ غيره ممّن يُتصوَّر منه صدور المنهيّ عنه عنه، وقد كُرِّر للتنبيه على أنّ التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، وأنّه رأس كلّ حكمة وملاكُها، ومَن عدِمه لم يَنفَعه علومُه وحِكَمُه وإن بذّ فيها أساطينَ الحُكماء وحَكّ بِيَافوخِه عَنانَ السماء، / وقد رُتِّب عليه ما هو عائدةُ الإشراك أوّلًا، حيث قيل: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾،[٢] ورُتِّب عليه ههنا نتيجتُه في العُقبى فقيل: ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ مِن جهة نفسِك ومِن جهة غيرك ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعَدًا مِن رحمة الله تعالى. وفي إيراد الإلقاء مبنيًّا للمفعول جَرْيٌ على سَنن الكبرياء، وازدراءٌ بالمشرِك، وجَعْلٌ له مِن قبيل خشَبة يأخذها آخذٌ بكفّه فيطرحها في التنُّور. [٣٧٤ظ]

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ خطاب للقائلين بأنّ الملائكة بنات الله سبحانه. والإصفاء بالشيء جَعْله خالصًا، و"الهمزةُ" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يفسِّره المذكور، أي: أفَضَّلكم على جَنابه فخصّكم بأفضل الأولاد على وجه الخُلوص وآثرَ لذاته أخسَّها وأدناها، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم، ٢١/٥٣]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور، ٣٩/٥٢]. وقد قُصِد ههنا بالتعرّض لعنوان الربوبيّة تشديدُ النكير وتأكيده، وأشيرَ بذِكر الملائكة عليهم السلام وإيرادِ "الإناث" مكانَ "البنات" إلى كَفْرة لهم أخرى، وهي وصفهم لهم عليهم السلام بالأنوثة التي هي أخسُّ صفات الحيوان، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف، ١٩/٤٣].

---

[١] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٩١/٢.
[٢] الإسراء، ٢٢/١٧.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ بمقتضى مذهبكم الباطل الذي هو إضافة الولد إليه سبحانه ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادَر قَدْرُه في استتباع الإثم وخَرْقه لقضايا العقول بحيث لا يجترئ عليه أحد، حيث يجعلونه تعالى مِن قبيل الأجسام المتجانسة السريعةِ الزوال، وليس كمثله شيء وهو الواحد القهّار الباقي بذاته، ثمّ تضيفون إليه ما تكرهون مِن أخسّ الأولاد، وتفضِّلون عليه أنفسَكم بالبنين، ثمّ تصِفون الملائكة الذين هم مِن أشرف الخلائق بالأنوثة التي هي أخسُّ أوصاف الحيوان، فيا لها مِن ضَلّة ما أقبحَها وكَفْرةٍ ما أشْنَعَها وأفْظَعَها!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾

/ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ هذا المعنى وكرّرناه ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ على وجوه مِن التصريف في مواضعَ منه. وإنّما تُرك الضمير تعويلًا على الظهور. وقرئ بالتخفيف.[1] ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ما فيه ويقِفوا على بُطلان ما يقولونه. والالتفات إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء الحال أن يُعرَض عنهم ويُحكى للسامعين هَناتُهم. وقرئ بالتخفيف[2] مِن الذِّكر بمعنى التذكّر. ويجوز أن يراد بـ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ ما نطق ببُطلان مقالتهم المذكورة مِن الآيات الكريمةِ الواردة على أساليبَ مختلفة. ومعنى التصريفِ فيه: جعلُه مكانًا له، أي: أوقعنا فيه التصريفَ كقوله: [٣٧٥و]

يــجــرَحْ فــي عــراقــيــبــهــا نَــصْــلــي[3]

وقد جُوّز أن يراد به إبطال إضافتهم إليه تعالى البنات، وأنت تعلم أنّ إبطالها مِن آثار القرآن ونتائجها. ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: والحال أنّه ما يزيدهم ذلك

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإبراهيم النخَعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

٣ جزء مِن عجز بيت، وهو بتمامه:

وإن تعتذر بالمَحل عن ذي ضُروعِها
على الضيف يجرَح في عَراقيبها نَصْلي

والبيت لذي الرُّمّة في ديوانه بشرح الباهلي، ص ١٥٦، وفي شرحه: إن لم يجُد ضَرع إبلي باللبن للضيف زمن الجَدب ذبحتها بسيفي له. وهو له في شرح المفصَّل لابن يعيش، ٢/٣٩، على ما نحن فيه، وانظر في تخريجه أقوالًا أخرى في شرح الرضيّ على الكافية، ٤/٣٢٩.

التصريف البالغ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحقّ وإعراضًا عنه، فضلًا عن التذكّر المؤدّي إلى معرفة بُطلان ما هم عليه مِن القبائح.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿قُل﴾ في إظهار بطلان ذلك مِن جهة أخرى ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ تعالى ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: المشركون قاطبةً، وقرئ بالتاء[1] خطابًا لهم مِن قِبَل النبي صلّى الله عليه وسلّم، و"الكافُ" في محلّ النصب على أنّها نعت لمصدر محذوف، أي: كونًا مشابهًا لِما يقولون، والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة.

﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ جواب عن مقالتهم الشنعاء وجزاء لـ﴿لَّوْ﴾، أي: لطلبوا ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: إلى مَن له المُلك والربوبيّة على الإطلاق ﴿سَبِيلًا﴾ بالمغالبة والممانعة، كما هو دَيدن الملوك بعضِهم مع بعض، على طريقة قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء، ٢١/٢٢]. وقيل: بالتقرّب إليه تعالى كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء، ١٧/٥٧].[2]

[٣٧٥ظ] والأوّل هو الأظهر الأنسب لقوله: / ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ فإنّه صريح في أنّ المراد بيان أنّه يلزم ممّا يقولونه محذورٌ عظيم مِن حيث لا يحتسبون. وأمّا ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرّب فليس ممّا يختصّ بهذا التقرير، ولا هو ممّا يلزمهم مِن حيث لا يشعرون؛ بل هو أمر يعتقدونه رأسًا، أي: تنزّه بذاته تنزُّهًا حقيقًا به. ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ متباعدًا ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ مِن العظيمة التي هي أن يكون معه آلهة، وأن يكون له بناتٌ، ﴿عُلُوًّا﴾ تعاليًا، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح، ٧١/١٧]، ﴿كَبِيرًا﴾ لا غايةَ وراءه.

كيف لا، وإنّه سبحانه في أقصى غايات الوجود، وهو الوجوب الذاتي، وما يقولونه مِن أنّ له تعالى شركاءَ وأولادًا في أبعد مراتب العدم أعني الامتناع،

---

[1] قرأ بها نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٧.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٢.

لا لأنّه تعالى في أعلى مراتب الوجود -وهو كونه واجب الوجودِ لذاته- واتّخاذُ الولد مِن أدنى مراتبه -فإنّه مِن خواصّ ما يمتنع بقاؤه- كما قيل، فإنّ ما يقولونه ليس مجرَّد اتّخاذ الولد؛ بل اتّخاذه تعالى له وأن يكون معه آلهةٌ، ولا ريبَ في أنّ ذلك ليس بداخل في حدّ الإمكان فضلًا عن دخوله تحت الوجود، وكونُه مِن أدنى مراتب الوجود إنّما هو بالنسبة إلى مَن مِن شأنه ذلك.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾

﴿تُسَبِّحُ﴾ بالفَوقانيّة، وقُرئ بالتحتانيّة،[1] وقُرئ: "سَبَّحَتْ"[2] ﴿لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ مِن الملائكة والثقلين، على أنّ المراد بالتسبيح معنًى منتظِم لِما ينطِق به لسان المقال ولسان الحال بطريق عموم المجاز.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ مِن الأشياء حيوانًا كان أو نباتًا أو جمادًا ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ ملتبِسًا ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: ينزّهه تعالى بلسان الحال عمّا لا يليق بذاته الأقدس مِن لوازم الإمكان ولواحق الحدوث، إذ ما مِن موجود إلّا وهو بإمكانه وحدوثه يدلّ دلالة واضحة على أنّ له صانعًا عليمًا قادرًا حكيمًا واجبًا لذاته قطعًا للسلسلة، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ أيها المشركون لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يُفهَم ذلك، وقرئ: "لا تُفَقَّهُونَ"[3] على صيغة المبنيّ للمفعول مِن باب التفعيل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه مِن موجباتها مِن الإعراض عن التدبّر في الدلائل الواضحة الدالّة على التوحيد، والانهماكِ في الكفر والإشراك ﴿غَفُورٗا﴾ لمَن تاب منكم.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٧/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

٣ ما وجدتها فيما بين يديّ من كتب القراءات والتفسير. وفيها قراءة شاذّة بالبناء للفاعل وتشديد القاف "تَفَقَّهُون"، مَروية عن مالك بن دينار. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨١.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾

[٣٧٦و] / ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الناطقَ بالتسبيح والتنزيه ودعوتَهم إلى العمل بما فيه مِن التوحيد ورفضِ الشِّرك وغيرِ ذلك مِن الشرائع، ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنيّة على دواعي الحِكَم الخفيّة ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أوثرَ الموصول على الضمير ذمًّا لهم بما في حيّز الصلة، وإنّما خُصّ بالذِّكر كفرهم بالآخرة مِن بين سائر ما كفروا به مِن التوحيد ونحوه دلالة على أنها مُعظَم ما أُمروا بالإيمان به في القرآن، وتمهيدًا لِما سيُنقل عنهم مِن إنكار البعث واستعجاله ونحو ذلك.

﴿حِجَابًا﴾ يحجبهم مِن أن يدركوك على ما أنت عليه مِن النبوّة ويفهموا قَدْرك الجليل، ولذلك اجترأوا على تفوّه العظيمة التي هي قولُهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء، ٤٧/١٧].

وحملُ "الحِجاب" على ما رُوي عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنه مِن أنّه لمّا نزلت سورةُ تبّتْ أقبلت العوراء أمُّ جميل امرأةُ أبي لهَب وفي يدها فِهْر[١] والنبيُّ صلّى الله عليه وسلّم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلمّا رآها قال: يا رسول الله، لقد أقبلتْ هذه وأخاف أن تراك، قال عليه السلام: «إنّها لن تراني»، وقرأ قرآنًا فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم ترَ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، ممّا لا يقبله الذوق السليم[٢] ولا يساعده النظم الكريم.

﴿مَّسْتُورًا﴾ ذا سَتر كما في قولهم: "سَيل مُفعَم"، أو مستورًا عن الحسّ بمعنى غيرَ حسّي، أو مستورًا في نفسه بحجاب آخرَ أو مستورًا كونُه حجابًا حيث لا يدرون أنّهم لا يدرون.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية كثيرة جمع "كِنان". ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول

---

١ الفِهْر: هو الحَجر ملء الكفّ. لسان العرب لابن منظور، «فهر».

٢ السياق: وحَملُ "الحِجاب"... ممّا لا يقبله...

لأجله، أي: كراهةَ أن يفقهوه، أو مفعول لِما دلّ عليه الكلام، أي: منعناهم أن يقِفوا على كُنهه ويعرِفوا أنّه مِن عند الله تعالى، ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صمَمًا وثِقلًا مانعًا مِن سماعه اللائق به، وهذه تمثيلات مُعرِبة عن كمال جهلهم بشئون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم / وفرطِ نُبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومَجّ أسماعِهم له، جيء بها بيانًا لعدم فِقْههم لتسبيح لسان المقال إثرَ بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال، وإيذانًا بأنّ هذا التسبيح مِن الظهور بحيث لا يُتصوَّر عدم فهمه إلّا لمانع قويّ يعتري المشاعر فيُبطلها، وتنبيهًا على أنّ حالهم هذا أقبحُ مِن حالهم السابق، لا حكاية لِما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت، ٤١/٥]. [٣٧٦ظ]

كيف لا، وقَصْدهم بذلك إنّما هو الإخبار بما اعتقدوه في حقّ القرآن والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم جهلًا وكُفرًا مِن اتّصافهما بأوصاف مانعة مِن التصديق والإيمان، ككون القرآن سِحرًا وشِعرًا وأساطيرَ، وقِسْ عليه حال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لا الإخبارُ بأن هناك أمرًا وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين إدراكه حائل مِن قِبَلهم. ولا ريبَ في أنّ ذلك المعنى ممّا لا يكاد يلائم المقام.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ واحدًا غيرَ مشفوعٍ به آلهتُهم، وهو مصدر وقع موقعَ الحال، أصلُه يَحِدُ وَحْدَه. ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ أي: هربوا ونفروا ﴿نُفُورًا﴾ أو ولّوا نافرين.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ متلبِسين به مِن اللغو والاستخفاف والهُزْء بك وبالقرآن، يُروى أنّه كان يقوم عن يمينه عليه السلام رجلان مِن عبد الدار وعن يساره رجلان فيُصفِّقون ويصفِرون ويخلِّطون عليه بالأشعار. ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرف لـ﴿أَعْلَمُ﴾، وفائدتُه تأكيد الوعيد بالإخبار بأنّه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلّق به العِلم، لا أنّ العِلمَ يستفاد هناك مِن أحد.

[٣٧٧و] وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ لكن لا مِن حيث تعلُّقه / بما به الاستماع؛ بل بما به التناجي المدلول عليه بسياق النظم، والمعنى نحن أعلمُ بالذي يستمعون ملتبِسين به ممّا لا خيرَ فيه مِن الأمور المذكورة وبالذي يتناجَون به فيما بينهم، أو الأوّلُ ظرف لـ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ والثاني لـ"يتناجَون"، والمعنى نحن أعلمُ بما به الاستماعُ وقت استماعهم مِن غير تأخير وبما به التناجي وقت تناجيهم. و﴿نَجْوَىٰ﴾ مرفوع على الخبريّة بتقدير المضاف، أي: ذوو نجوى، أو هو جَمْع "نَجيّ" كـ"قتلى" جمع "قتيل"، أي: متناجُون.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدل مِن ﴿إِذْ هُمْ﴾، وفيه دليل على أنّ ما يتناجَون به غيرُ ما يستمعون به، وإنّما وُضع الظالمون موضعَ المُضمَر إشعارًا بأنّهم في ذلك ظالمون مجاوزون للحدّ، أي: يقول كلّ منهم للآخرين عند تناجيهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتّبعون إن وُجد منكم الإتّباع فرضًا، أو ما تتّبعون باللغو والهُزء ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: سُحِر فجُنّ، أو رجلًا ذا سَحْر، أي: رئةٍ يتنفّس، أي: بشرًا مثلَكم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: مثّلوك بالشاعر والساحر والمجنون ﴿فَضَلُّواْ﴾ في جميع ذلك عن منهاج المُحاجّة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى طَعْن يمكن أن يقبله أحد، فيتهافتون ويخبِطون ويأتون بما لا يرتاب في بطلانه أحد، أو إلى سبيل الحقّ والرشاد، وفيه مِن الوعيد وتسلية الرسول صلّى الله عليه وسلّم ما لا يخفى.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ استفهام إنكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل الحال إلى هذا المآل لِما بين غضاضة الحيّ ويُبوسة الرميم مِن التنائي، كأنّ استحالة الأمر مِن الظهور بحيث لا يقدر المخاطَب

على التكلّم به. والرُّفات: ما بُولغ في دقِّه وتفتيته،[١] وقال الفرّاء: هو التراب،[٢] وهو قولُ مجاهدٍ،[٣] وقيل: هو الحُطام.[٤]

و﴿أَءِذَا﴾ متمحِّضة للظرفيّة، وهو الأظهر، والعاملُ فيها ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لا نفسُه، لأنّ ما بعد "إنّ" و"الهمزة" و"اللام" لا يعمل فيما قبلها، وهو "نبعث" أو "نعاد" وهو المرجِع للإنكار، وتقييدُه بالوقت المذكور ليس لتخصيص[٥] إنكاره[٦] به، فإنّهم منكرون الإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله؛ بل لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له.

وتكرير الهمزة في قولهم: ﴿أَءِنَّا﴾ لتأكيد النكير، وتحليةُ الجملة بـ"إنّ" و"اللام" لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد، كما عسى يُتوَّهم مِن ظاهر النظم، فإنّ تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة، كما في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] ونظائرِه على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكارُ التعقيب كما هو المشهور، وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في المبعوثيّة بالفعل في حال كونهم عظامًا ورفاتًا كما يتراءى مِن ظاهر الجملة الاسميّة؛ بل كونِهم بعَرَضيّة ذلك / واستعدادِهم له، ومرجعُه إلى إنكار البعث بعد تلك الحالة، وفيه [٣٧٧ظ] مِن الدلالة على غُلوّهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيدَ عليه.

﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾ نصب على المصدر مِن غير لفظه، أو الحاليّةِ على أنّ "الخَلْق" بمعنى المخلوق.

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ جوابًا لهم وتقريبًا لِما استبعدوه: ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

---

١ اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.
٢ معاني القرآن للفرّاء، ١٢٥/٢، اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.
٣ جامع البيان للطبري، ٦١٤/١٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٩٨/٥؛ اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.
٤ أورده الواحدي في التفسير الوسيط، ١١١/٣؛ وهو عنه في اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٢.
٥ ط س: لتخصيصه.
٦ ط س - إنكاره.

﴿أَوْ خَلْقًا﴾ آخرَ ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: يعظُم عندكم مِن قَبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه، فإنكم مبعوثون ومُعادُون لا محالةَ، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ مع ما بيننا وبين الإعادةِ مِن مِثل هذه المباعدة والمباينة، ﴿قُلْ﴾ لهم تحقيقًا للحقّ وإزاحة للاستبعاد وإرشادًا لهم إلى طريقة الاستدلال ﴿الذى﴾ أي: يعيدكم القادر العظيم الذي ﴿فَطَرَكُمْ﴾ اخترَعكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ مِن غير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه، وكنتم ترابًا ما شمّ رائحة الحياة، أليس الذي يقدِر على ذلك بقادر على أن يعيد العِظام البالية إلى حالتها المعهودة؟ بلى إنّه على كلّ شيء قدير.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: سيحرِّكونها نحوك تعجُّبًا وإنكارًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: ما ذكرتَه مِن الإعادة. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا﴾ نصب على أنّه خبر لـ﴿يَكُونَ﴾ أو ظرف على أنّ "كان" تامّة، أي: أن يقع في زمان قريب، ومحلُّ ﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها إمّا نصب على أنّه خبر لـ﴿عَسَىٰ﴾، وهي ناقصة واسمها ضمير عائد إلى ما عاد إليه هو، أي: عسى البعثُ أن يكون قريبًا، أو عسى البعثُ يقع في زمان قريب، أو رفع على أنّه فاعل لـ﴿عَسَىٰ﴾، وهي تامّة، أي: عسى كونه قريبًا، أو وقوعه في زمان قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ منصوب بفعل مضمَر، أي: اذكروا، أو على أنّه بدل مِن ﴿قَرِيبًا﴾[1] على أنّه ظرف، أو بـ﴿يَكُونَ﴾[2] تامّةً بالاتّفاق، أو ناقصةً عند مَن يجوّز إعمالَ الناقصة في الظروف، أو بضمير المصدر المستكِنّ في ﴿عَسَىٰ﴾[3] أو ﴿يَكُونَ﴾،[4] أعني البعث عند مَن يجوّز إعمالَ ضمير المصدر / كما في قول زهير: [٣٧٨و]

وما الحربُ إلّا ما علِمتُمْ وذُقتمُ وما هو عنها بالحديث المُرجَّمِ[5]

فهو ضميرُ المصدر وقد تعلّق به ما بعده مِن الجارّ.

---

١ في الآية السابقة.
٢ في الآية السابقة.
٣ في الآية السابقة.
٤ في الآية السابقة.
٥ البيت من معلّقة زهير، وهو في ديوانه، ص ٢٦؛ وهو له في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٧٠/٧؛ واللباب لابن عادل، ٣٠٨/١٢، على ما نحن فيه.

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي: يوم يبعثكم فتبعثون، وقد استُعير لهما الدعاء والإجابة إيذانًا بكمال سهولة التأتّي وبأنّ المقصود منهما الإحضار للمحاسبة والجواب ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال مِن ضمير ﴿تَسْتَجِيبُونَ﴾، أي: منقادين له حامدين لِما فعَل بكم غيرَ مستعصين، أو حامدين له تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها. ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ عطفٌ على ﴿تَسْتَجِيبُونَ﴾، أي: تظنُّون عندما ترَون ما ترَون مِن الأمور الهائلة، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ كالذي مرّ على قرية أو ما لبثُم في الدنيا.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ أي: المؤمنين ﴿يَقُولُوا۟﴾ عند محاورتهم مع المشركين ﴿ٱلَّتِى﴾ أي: الكلمةَ التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولا يُخاشنوهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٤٦].

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يُفسِد ويَهيّج الشرّ والمِراء ويُغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المُشاقّة والمُشارّة والمُعارّة والمُضارّة، فلعلّ ذلك يؤدّي إلى تأكُّد العِناد وتمادي الفساد، فهو تعليل للأمر السابق. وقرئ بكسر الزاء.[1] ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ﴾ قِدمًا ﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهرَ العداوة، وهو تعليل لِما سبق مِن أنّ الشيطان ينزَغ بينهم.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالإماتة على الكفر، وهذا تفسيرُ ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وما بينهما اعتراض، أي: قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها ولا تصرِّحوا بأنّهم مِن أهل النار، فإنّه ممّا يَهيجهم على الشرّ، مع أنّ العاقبة ممّا لا يعلمه إلّا الله سبحانه فعسى يهديهم إلى الإيمان.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ موكولًا إليك أمورُهم تقسِرُهم على الإيمان [٣٧٨ظ] / وإنّما أرسلناك بشيرًا ونذيرًا فدارِهم ومُرْ أصحابَك بالمُداراة والاحتمال وترك المُحَاقّة والمُشَاقّة، وذلك قبل نزول آيةِ السيف. وقيل: نزل في عُمرَ رضي الله تعالى عنه، شتمه رجلٌ فأُمر بالعفو. وقيل: أفرط أذيّةُ المشركين بالمؤمنين فشكَوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت. وقيل: الكلمة التي هي أحسنُ أن يقولوا: يهديكم الله، يرحمكم الله.[١]

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۝﴾

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التي بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء، فيختار منهم لنبوّته وولايته مَن يشاء ممّن يشاء ممّن يستحقه، وهو ردّ عليهم، إذ قالوا: بعيد أن يكون يتيمُ أبي طالب نبيًّا، وأن يكون العُراة الجُوَّع أصحابَه دون أن يكون ذلك مِن الأكابر والصناديد. وذِكرُ مَن في السماوات لإبطال قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان، ٢١/٢٥]، وذِكرُ مَن في الأرض لردّ قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣].

﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ بالفضائل النفسانيّة والتنزّه عن العلائق الجسمانيّة لا بكثرة الأموال والأتباع. ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ بيان لحيثيّة تفضيلِه عليه السلام، فإنّ ذلك إيتاء الزَّبور لا إيتاء المُلك والسلطنة، وفيه إيذانٌ بتفضيل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فإنّ نعوته الجليلة وكونه خاتمَ النبيّين مسطورة في الزَّبور، وأنّ المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء، ١٠٥/٢١] هو النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأمّته.

وتعريف "الزَّبور" تارة وتنكيرُه أخرى إمّا لأنّه في الأصل "فَعول" بمعنى "المفعول" كـ"الحَلوب"، أو مصدر بمعناه كـ"القَبول"؛ وإمّا لأنّ المراد آتينا داودَ

[١] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٥/٢.

زَبورًا مِن الزُّبُر، أو بعضًا مِن الزَّبور فيه ذكرُه صلّى الله عليه وسلّم. وقرئ بضمّ الزاء[1] على أنّه جمع "زِبْر" بمعنى "مزبور".

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنّها آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى مِن الملائكة والمسيح وعُزيرٍ ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون / ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ بالمرّة كالمرض [٣٧٩و]
والفقر والقَحطِ ونحو ذلك ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: ولا تحويلَه إلى غيركم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: أولئك الآلهةُ الذين يدعوهم المشركون مِن المذكورين ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ ومالكِ أمورهم ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ القربةَ بالطاعة والعبادة، ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلٌ مِن فاعل ﴿يَبْتَغُونَ﴾، و"أيُّ" موصولة، أي: يبتغي مَن هو أقربُ إليه تعالى الوسيلةَ فكيف بمَن دونه؟ أو ضُمِّن الابتغاءُ معنى الحِرص، فكأنّه قيل: يحرِصون أيُّهم يكون أقربَ إليه تعالى بالطاعة والعبادة.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ بها ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ بتركها كدأب سائر العباد فأين هم مِن كَشف الضُّرّ فضلًا عن الإلهيّة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ حقيقًا بأن يحذَره كلّ أحد حتّى الملائكةُ والرسل عليهم السلام، وهو تعليل لقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، وتخصيصُه بالتعليل لِما أنّ المقام مَقام التحذير مِن العذاب وإنّ بينهم[2] وبين العذاب بَونًا بعيدًا.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ بيان لتحتُّم حلول عذابه تعالى بمَن لا يحذَره إثرَ بيان أنّه حقيق

---

[1] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٣.

[2] وفي هامش م: حالتة.

بالحذَر وأنّ أساطين الخَلْق مِن الملائكة والنبيّين عليهم السلام على حذَر مِن ذلك. وكلمةُ ﴿إن﴾ نافية و﴿مِن﴾ استغراقيّة، والمراد بـ"القرية" القرية الكافرة، أي: ما مِن قرية مِن قرى الكفّار ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي: مخرِّبوها البتّةَ بالخَسْف بها أو بإهلاك أهلها بالمرّة لِما ارتكبوا مِن عظائم المُوبِقات المستوجِبة لذلك، وفي صيغة الفاعل وإن كانت بمعنى المستقبَل ما ليس فيه مِن الدلالة على التحقّق والتقرّر، وإنّما قيل: ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لأنّ الإهلاك يومئذ غيرُ مختصّ بالقرى الكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، وإنّما هو لانقضاء عُمر الدنيا.

﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ أي: مُعذِّبو أهلِها على الإسناد المجازي ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لا بالقتل والسَّبْي ونحوهما مِن البلايا الدنيويّة فقط؛ بل بما لا يُكتَنه كُنهُه مِن فنون العقوبات الأخرويّة أيضًا، حسبما يُفصِح عنه إطلاق التعذيب عمّا قُيِّد به الإهلاك مِن قَبْليّة يوم القيامة، كيف لا، وكثير مِن القرى العاتية العاصية قد أُخِّرت عقوباتها إلى يوم القيامة.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِر مِن الإهلاك والتعذيب ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبًا لم يغادَر منه شيء / إلّا بُيِّن فيه بكيفيّاته وأسبابه [٣٧٩ظ]
الموجبة له ووقتِه المضروب له. هذا وقد قيل: الهلاكُ للقُرى الصالحة والعذابُ للطالحة.[١] وعن مقاتل: «وجدتُ في كتاب الضحّاك بن مُزاحِم في تفسيرها أمّا مكّةُ فُيخرِبها الحبشة، وتهلِك المدينة بالجوع، والبصرةُ بالغرَق، والكوفةُ بالتُّرك، والجبالُ بالصواعق والرواجف، وأمّا خراسانُ فهلاكُها ضُروبٌ، ثمّ ذكرها بلدًا بلدًا».[٢]

وقال الحافظ أبو عمرو الداني[٣] في كتاب الفتن: أنّه رُوي عن وهْب بن مُنبِّه

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/٤٩٦.

٣ هو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني، أبو عمرو (ت. ٤٤٤هـ/١٠٥٢م). مِن موالي بني أميّة، المعروف في زمانه بابن الصيرفي، مِن أهل دانيا بالأندلس، مِن حفّاظ الحديث ومِن الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره. قيل: هو أستاذ الأستاذين وشيخ مشايخ المقرئين ومالكيّ المذهب، له أكثر مِن مائة تصنيف منها: التيسير في القراءات السبع، وطبقات القرّاء، وجامع البيان في القراءات، وغيرها. انظر: غاية النهاية لابن الجزري، ١/٥٠٣؛ والأعلام للزركلي، ٤/٢٠٦.

أنّ «الجزيرة آمنةٌ مِن الخرابِ حتّى تخرَب أرمينيّة،[١] وأرمينيّةُ آمنة حتّى تخرَب مصرُ، ومصرُ آمنة حتّى تخرَب الكوفة ولا تكون المَلحمَة الكبرى حتّى تخرَب الكوفة، فإذا كانت المَلحمَة الكبرى فُتحت قُسطنطينيّةُ على يَدي رجلٍ مِن بني هاشم، وخرابُ الأندلس مِن قِبَل الزّنْج،[٢] وخرابُ إفريقيّة مِن قِبَل الأندلس، وخرابُ مصرَ مِن انقطاع النّيل واختلافِ الجيوش فيها، وخرابُ العراق مِن الجوع، وخرابُ الكوفة مِن قِبل عدوّ مِن ورائهم يحصُرهم حتّى لا يستطيعون أن يشربوا مِن الفُرات قطرةً، وخرابُ البَصرة مِن قِبَل الغرَق، وخرابُ الأَيْلة مِن قبل عدوّ يحصُرهم برًّا وبحرًا، وخرابُ الرَّيّ[٣] مِن الدَّيلم،[٤] وخرابُ خُراسانَ مِن قبل التُّبت،[٥] وخرابُ التُّبت مِن قبل الصِّين، وخرابُ الهندِ واليمن مِن قبل الجرَاد والسلطان، وخرابُ مكّةَ مِن الحبشة، وخرابُ المدينة مِن قِبَل الجُوع».[٦]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «آخرُ قريةٍ مِن قرى الإسلام خرابًا المدينةُ»،[٧] وقد أخرجه العُمري مِن هذا الوجه. وأنت خبير بأنّ تعميم "القرية" لا يساعده السِّباق ولا السِّياق.

---

١ أرْمِينِيّة: بفتح الهمزة وكسرها، وهي اسم لصقع عظيم واسع مِن جهة الشمال والنسبة إليها أرمني. وقيل: هما أرمينيّتان الكبرى والصغرى، وحدّهما مِن برذعة إلى باب الأبواب ومِن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب السرير. وقيل: الكبرى خلاط ونواحيها، والصغرى تفليس ونواحيها. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ١٥٩/١.

٢ الزّنج: جيلٌ مِن السودان يتميّز بالجلد الأسود، يسكن حول خطّ الاستواء، وتمتدُّ بلادهم مِن المغرب إلى الحبشة، وبعض بلادهم على نيل مصر، وانظر لِما قيل فيهم في المصادر: **أنساب الأشراف للبلاذُري**، ٢٩٩/٧-٣٠٠؛ **وقلائد الجمان للقلقشندي**، ٣٠/١.

٣ الرّيّ: بفتح أوّله وتشديد ثانيه، مدينة مشهورة مِن أمّهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محطّ الحاجّ على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا، وإلى قزوين سبعة وعشرون، وإلى أبهر اثنا عشر، وإلى زنجان خمسة عشر. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ١١٦/٣.

٤ الدَّيلم: كان الديلم في أيّام الأكاسرة إذا خرجوا للغارة عسكروا فيها، وخلّفوا سوادهم لديها وانتشروا في الأرض غائبين، فإذا فرغوا مِن غاراتهم عادوا إليها، ورحلوا إلى مستقرّهم. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ٥٤٤/٢.

٥ التُّبت: مملكة متاخمة لمملكة الصين ومتاخمة مِن إحدى جهاتها لأرض الهند، ومِن المشرق لبلاد الهياطلة، ومِن المغرب لبلاد الترك، ولهم مدن وعمائرُ كثيرة ذوات سَعة. انظر: **معجم البلدان للحموي**، ١٠/٢.

٦ **السُّنن الواردة للداني**، ٨٨١/٤ (٤٥٥).

٧ **سنن الترمذي**، ٧٢٠/٥ (٣٩١٩)؛ **مسند البزّار**، ٣٤٩/١٤ (٨٠٤٥)؛ **السُّنن الواردة للداني**، ٨٩٠/٤ (٤٦٠).

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الآياتِ التي اقترحتها قريش مِن إحياء الموتى وقلب الصَّفا ذهبًا ونحو ذلك ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأشياء، أي: وما منعنا إرسالَها شيء مِن الأشياء إلّا تكذيبُ الأوّلين بها حين جاءتهم باقتراحهم، / وعدمُ إرساله تعالى بها وإن كان بمشيئته المبنيّة على [٣٨٠و] الحِكَم البالغة، لا لمَنْع مانع عن ذلك مِن التكذيب أو غيره لاستحالة العجز عليه تعالى، لكنّ تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحُكم السُّنّة الإلهيّة، واستلزامِه لتكذيب الآخرين بحُكم الاشتراك في العتوّ والعِناد، وإفضائِه إلى أن يحِلّ بهم مثلُ ما حلّ بهم بحُكم الشِّرْكة في الجَريرة، لمّا كان منافيًا لإرسال ما اقترحوه مِن الآيات لتعيُّن التكذيب المستدعي للاستئصال المخالِفِ لِما جرى به قلَم القضاء مِن تأخير عقوبات هذه الأمّة إلى الآخرة لحِكَم باهرة مِن جملتها ما يُتوَهم مِن إيمان بعض أعقابِهم،[١] عُبّر عن تلك المنافاة بالمَنْع[٢] على نهج الاستعارة إيذانًا بتعاضد مبادي الإرسال، لا كما زعَموا مِن عدم إرادته تعالى لتأييده عليه السلام بالمعجِزات، وهو السرُّ في إيثار "الإرسال" على "الإيتاء" لِما فيه مِن الإشعار بتداعي الآيات إلى النزول لولا أن تُمسِكها يدُ التقدير.

وإسناد هذا المَنْع إلى تكذيب الأوّلين لا إلى عِلمه تعالى بما سيكون مِن الآخِرين كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال، ٢٣/٨] لإقامة الحجّة عليهم بإبراز الأُنموذج، وللإيذان بأنّ مدار عدم الإجابة إلى إيتاء مقترحِهم ليس إلّا صنيعَهم.

﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ عطفٌ على ما يُفصِح عنه النظم الكريم كأنّه قيل: وما منعنا أن نُرسِل بالآيات إلّا أن كذّب بها الأوّلون حيث آتيناهم ما اقترحوا

---

[١] وفي هامش م: وأمّا إيمان بعضهم، كما قيل، فلا يلائم مَقام بيان تماديهم في الكفر والعِناد. «منه».

[٢] السياق: لكنّ تكذيبهم... لمّا كان منافيًا... عُبّر عن تلك...

مِن الآيات الباهرة فكذّبوها، وآتينا ثمودَ[١] الناقةَ[٢] باقتراحهم[٣] ﴿مُبْصِرَةً﴾ على صيغة الفاعل، أي: بَيّنةً ذاتَ إبصار، أو بصائرَ يدرِكها الناس، أو أسنِدَ إليها حال مَن يشاهدها مجازًا،[٤] أو جاعلتَهم ذوي بصائرَ مِن "أبصَرَه" جعَله بصيرًا، وقُرئ على صيغة المفعول،[٥] وبفتح الميم والصاد[٦] وهي نصب على الحاليّة، وقرئ بالرفع[٧] على أنّها خبرُ مبتدأ محذوف.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ فكفروا بها ظالمين، أي: لم يكتفوا بمجرّد الكفر بها؛ بل فعلوا بها ما فعلوا مِن العَقر، أو ظلموا أنفسهم وعرّضوها للهلاك بسبب عَقرها. ولعلّ تخصيصَها بالذِّكر لِما أنّ ثمودَ عرب مثلهم وأنّ لهم مِن العلم بحالهم ما لا مزيدَ عليه حيث يشاهدون آثارَ / هلاكِهم ورودًا وصُدورًا، أو لأنّها مِن جهة [٣٨٠ظ] إنّها حيوان أُخرِج مِن الحَجر أوضحُ دليل على تحقّق مضمونِ قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.[٨]

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ المقترَحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ لمَن أُرسِلت هي عليهم ممّا يعقُبها مِن العذاب المستأصِل كالطليعة له، وحيث لم يخافوا ذلك فُعل بهم ما فُعل فلا مَحلّ للجملة حينئذ مِن الإعراب، ويجوز أن يكون حالًا مِن ضمير ﴿ظَلَمُواْ﴾، أي: فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته، والحالُ أنّا ما نُرسِل بالآيات التي هي مِن جملتها إلّا تخويفًا مِن العذاب الذي يعقُبها، فنزَل بهم ما نزَل.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي: عِلمًا، كما نقله الإمامُ الثعلبيُّ

---

[١] ط س: باقتراحهم. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف في هذه واللتين بعدها، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٢] ط س: ثمود.

[٣] ط س: الناقة.

[٤] وفي هامش م: للمبالغة إذ فيه إيماء إلى أنّ مدار الإبصار ليس مِن قبل المشاهِدين؛ بل مِن المشاهَد. «منه».

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٠.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وابن أبي عبلة وعليّ بن الحسين. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٢؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٣٧.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. **اللباب** لابن عادل، ٣١٩/١٢.

[٨] الإسراء، ٥٠/١٧.

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما،[١] فلا يخفى عليه شيء مِن أفعالهم الماضية والمستقبَلة مِن الكفر والتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية تنبيهٌ على تحقّقها[٢] بالاستدلال عليها بما صدَر عنهم عند مجيء بعض الآيات لاشتراك الكلّ في كونها أمورًا خارقة للعادات منزَّلة مِن جناب الله سبحانه لتصديق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فتكذيبهم لبعضها مستلزِم لتكذيب الباقي، كما أنّ تكذيب الآخرين بغير المقترَحة يدلّ على تكذيبهم بالآيات المقترَحة.

والمراد بـ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ ما عاينه صلّى الله عليه وسلّم ليلة المِعراج مِن عجائب الأرضِ والسماء حسبما ذُكر في فاتحة السورة الكريمة. والتعبير عن ذلك بـ﴿ٱلرُّءْيَا﴾ إمّا لأنّه لا فرقَ بينها وبين الرؤية، أو لأنّها وقعت بالليل، أو لأنّ الكفرة قالوا: لَعلّها رؤيا، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها عِيانًا، مع كونها آيةً عظيمة وأيّةُ آيةٍ! حقيقةً بأن لا يتلعثَم في تصديقها أحدٌ ممّن له أدنى بصيرة إلّا فتنةً افتُتن بها الناس حتّى ارتدّ بعضهم.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ عطفٌ على الرؤيا، والمرادُ بلَعْنها فيه لَعْن طاعمها على الإسناد المجازي أو إبعادُها عن الرحمة، فإنّها تنبُت في أصل الجحيم في أبعدِ مكان مِن الرحمة، أي: وما جعلناها إلّا فتنة لهم حيث أنكروا ذلك، وقالوا: إنّ محمّدًا يزعُم أنّ الجحيم يحرُق الحجارة، ثمّ يقول:
[٣٨١و] ينبُت فيها الشجرُ / ولقد ضلّوا في ذلك ضلالًا بعيدًا، حيث كابروا قضيّة عقولهم، فإنّهم يرَون النعامة تبتلع الجَمْر وقِطَع الحديد المُحماة فلا تضرّها، ويشاهِدون المناديلَ المتّخَذة مِن وبَر السَّمَندَر[٣] تُلقى في النار فلا تؤثّر فيها،

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٩/١٦.

٢ وفي هامش م: أي: تحقُّق أفعالهم، أي: عِلمِها يقينًا، مِن "تحقَّقتُ الأمر" إذا تيقّنتَه. «منه».

٣ في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢: أنّه «دُوَيبّة ببلاد الترك تتّخذ منه مناديل، وإذا اتّسختْ طُرِحت في النار، فذهب الوسخ وبقِيَ المنديل سالمًا لا تعمل فيه النار»، وذكروا أنّه السَّمَندَر أو السَمندَل، وأنّه دابّة أو طائر. انظر: تاج العروس للزّبيدي، «سمند»؛ وتكملة المعاجم العربيّة لدوزي، «سمند».

ويرون أنّ في كلّ شجر نارًا.[١] وقرئ بالرفع[٢] على حَذْف الخبر كأنّه قيل: والشجرةُ الملعونةُ في القرآن كذلك.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بذلك وبنظائرها مِن الآيات فإنّ الكلّ للتخويف. وإيثارُ صيغة الاستقبال للدلالة على التجدّد والاستمرار. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويفُ ﴿إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ متجاوزًا عن الحدّ، فلو أنّا أُرسِلنا بما اقترحوه مِن الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها، وفُعِل بهم ما فُعِل بأشياعهم، وقد قضينا بتأخير العقوبة العامّة لهذه الأمّة إلى الطامّة الكبرى. هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم.

وقد حمَل أكثر المفسّرين الإحاطة على الإحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا عسى يعتريه مِن عدم الإجابة إلى إنزال الآيات التي اقترحوها؛ لأنّ إنزالها ليس بمصلحة مِن نوع حزن مِن طَعْن الكفَرة حيث كانوا يقولون: لو كنتَ رسولًا حقًّا لأتيتَ بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره مِن الأنبياء عليهم الصلاة السلام، فكأنّه قيل: اذكر وقتَ قولنا لك: إنّ ربّك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهمْ في قبضة قدرته، لا يقدرون على الخروج مِن مشيئته فهو يحفَظك منهم، فلا تهتمَّ بهم وامضِ لِما أمرتُك به مِن تبليغ الرسالةِ، ألا ترى أنّ الرؤيا التي أريناك[٣] مِن قبلُ جعلناها فتنةً للناس مُورثةً للشبهة، مع أنّها ما أورثت ضَعفًا لأمرك وفُتورًا في حالك.

وقد فُسِّر الإحاطة بإهلاك قريش يوم بدر،[٤] وإنّما عُبِّر عنه بالماضي مع كونه منتظَرًا حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر، ٤٥/٥٤] وقولُه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران، ١٢/٣] وغيرُ ذلك، جريًا على عادته سبحانه في إخباره. وأُوِّلت الرؤيا بما عسى رآه عليه السلام في المنام مِن مصارعهم،[٥] لِما رُوي أنّه عليه السلام لمّا ورد ماءَ بدر قال: / «واللهِ لكأنّي أنظُر إلى مصارع القوم، وهو يُومئ إلى الأرض، [٣٨١ظ]

---

[١] الكلام بلفظ قريب في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٩٧/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٢.

[٣] ط س: أرينا.

[٤] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٩٦/٢؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

[٥] انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

هذا مصرَع فلان وهذا مصرع فلان»،[١] فتسامعت به قريش فاستسخروا منه، وبما رآه عليه السلام[٢] أنّه سيدخل مكّةَ وأخبر به أصحابَه فتوجّه إليها فصدّه المشركون عامَ الحديبية، واعتُذِر عن كون ما ذُكر مدنيًا بأنّه يجوز أن يكون الوحيُ بإهلاكهم وكذا الرؤيا واقعًا بمكّة، وذِكرُ الرؤيا وتعيينُ المَصارعِ واقعَين بعد الهجرة.[٣]

وأنت خبير بأنّه يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعًا بعد الهجرة، وأن يكون ازديادهم طغيانًا متوقَّعًا غيرَ واقع عند نزول الآية.

وقد قيل: الرؤيا ما رآه عليه السلام في وقعة بدر مِن مضمون قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ [الأنفال، ٤٣/٨].[٤] ولا ريبَ في أنّ تلك الرؤيا مع وقوعها في المدينة ما جُعلت فتنة للناس.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تذكير لِما جرى منه تعالى مِن الأمر ومِن الملائكة مِن الامتثال والطاعة مِن غير تردّد، وتحقيقٌ لمضمون ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء، ٥٧/١٧]. ويُعلَم مِن حال الملائكة حالُ غيرهم مِن عيسى وعُزيرٍ عليهما السلام في الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب، ومِن حال إبليسَ حالُ مَن يعاند الحقّ ويُخالِف الأمر، أي: واذكر وقتَ قولنا لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ تحيّة وتكريمًا لِما له مِن الفضائل المستوجِبة لذلك، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ له مِن غير تلعثُم امتثالًا للأمر وأداءً لحقِّه عليه السلام، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وكان داخلًا في زُمرتهم مندرِجًا تحت الأمر بالسجود.

﴿قَالَ﴾ أي: عندما وُبِّخ بقوله عزّ سلطانه: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ٣٢/١٥]، وقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف، ١٢/٧]،

---

[١] بلفظ قريب في صحيح مسلم، ١٤٠٣/٣ (١٧٧٩)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ١٤٧/١٠ (١٠٢٧٠)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

[٢] السياق: وأُوِّلت الرؤيا بما عسى... وبما رآه...

[٣] الكلام بمعناه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

[٤] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٨/٢.

وقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا[١] خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص، ٧٥/٣٨]، كما أشير إليه في سورة الحِجر.[٢] ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ / وأنا مخلوق مِن العنصر العالي ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [٣٨٢و] نصب على نزع الخافض، أي: مِن طين، أو حالٌ مِن الراجع إلى الموصول، أي: خلقتَه وهو طين، أو مِن نفس الموصول، أي: أأسجُد له وأصلُه طين؟ والتعبيرُ عنه عليه السلام بالموصول لتعليل إنكاره بما في حيّز الصلة.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبليسُ لكن لا عَقيبَ كلامه المحكيّ؛ بل بعد الإنظار المترتِّب على استنظاره المتفرّع على الأمر بخروجه مِن بين الملأ الأعلى باللعن المؤبَّد، وإنّما لم يُصرَّح بذلك اكتفاءً بما ذُكِر في مواضعَ أُخرَ، فإنّ توسيطَ ﴿قَالَ﴾ بين كلامَي اللعين للإيذان بعدم اتّصال الثاني بالأوّل وعدم ابتنائه عليه؛ بل على غيره، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ [الحجر، ٥٧/١٥] بعد قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر، ٥٦/١٥].

﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ "الكاف" لتأكيد الخطاب لا محلّ لها مِن الإعراب، و﴿هَٰذَا﴾ مفعول أوّلُ والموصولُ صفته، والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه، أي: أخبِرْني عن هذا الذي كرّمته عليّ بأن أمَرتَني بالسجود له لِمَ كرّمتَه عليّ؟ وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ حُذف عنه حرف الاستفهام والموصولُ مع صلته خبره، ومقصودُه الاستصغار والاستحقار، أي: أخبِرْني أهذا مَن كرّمتَه عليّ؟ وقيل: معنى أرأيتَك "أتأمّلتَ"، كأنّ المتكلِّم ينبّه المخاطَب على استحضار ما يخاطبه به عَقيبه.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ حيًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلام مبتدأ، و"اللام" موطِّئة للقسَم وجوابُه قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: لَأستأصِلَنّهم، مِن قولهم: "احتنَك الجرادُ الأرض" إذا جرّد ما عليها أكلًا، أو لأقودنّهم حيثما شئتُ ولأستولِيَنّ عليهم

---

[١] م س: لمَن.

[٢] في تفسير الآية الثانية والثلاثين منها.

استيلاء قويًا، مِن قولهم: "حنكْتُ الدابّةَ" و"احتنكتُها" إذا جعلتَ في حنكها الأسفل حبلًا تقودُها به، / وهذا كقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٣٨٢ظ]
[الحجر، ٣٩/١٥]. وإنّما عَلِم تسَنّيَ ذلك المطلَب له تلقّيًا مِن جهة الملائكةِ عليهم السلام، أو استنباطًا مِن قولهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة، ٣٠/٢]، أو توسُّمًا مِن خَلْقه.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ منهم، وهم المخلَصون الذين عصمهم الله تعالى.

﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ﴾ أي: امضِ لشأنك الذي اخترتَه، وهو طرد له وتخلية بينه وبين ما سوّلت له نفسه. ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ﴾ أي: جزاؤك وجزاؤهم فغُلّب المخاطَب على الغائب رعايةً لحَقّ المتبوعيّة ﴿جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ أي: جزاءً مكمَّلًا مِن قولهم: "فِرْ لصاحبِك عِرضَه فِرَةً"، أي: وفّر، وهو نصب على أنّه مصدر مؤكِّد لِما في قوله: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ﴾ مِن معنى "تُجازَون"، أو للفعل المقدَّر، أو حال موطِّئة لقوله: ﴿مَّوۡفُورٗا﴾.

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ أي: استخفَّ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾ أن تستفِزَّه ﴿بِصَوۡتِكَ﴾ بدعائك إلى الفساد ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم﴾ أي: صِحْ عليهم مِن "الجَلَبة" وهي: الصِّياح، ﴿بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: بأعوانك وأنصارك مِن راكِب وراجِل مِن أهل العبث والفساد. قال ابن عبّاس رضيَ الله عنهما ومجاهدٌ وقتادةُ: إنّ له خيلًا ورَجِلًا مِن الجنّ والإنس، فما كان مِن راكِب يقاتل في معصية الله تعالى فهو مِن خَيل إبليسَ، وما كان مِن راجِل يقاتل في معصية الله تعالى فهو مِن رَجِل إبليس.[1]

---

[1] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٦٥٨/١٤-٦٥٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٠٥/٥.

والخيلُ: الخيّالة، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «يا خيلَ الله اركبي».[١] والرَّجْلُ: اسمُ جمع للراجل كـ"الصَّحْب" و"الرَّكْب"، وقرئ بكسر الجيم وهي قراءةُ حفصٍ على أنّه فَعِلٌ بمعنى فاعل كـ"تعِب" و"تاعب"، وبضمّه[٢] مثل "حدِث" و"حدُث"، و"ندِس" و"ندُس"، ونظائرِهما، أي: جمعك الراجل ليطابق الخيل، وقرئ: "رِجَالِكَ"[٣] و"رُجَّالِكَ".[٤] ويجوز أن يكون استفزازه بصوته وإجلابه بخيله ورَجْله تمثيلًا لتسلّطه على مَن يُغويه، فكأنّه مِغوارٌ أَوقَع على قوم فصوَّت بهم / صوتًا يزعجهم مِن أماكنهم ويُقلِقهم عن مراكزهم، وأجْلَب عليهم بجُنده مِن خَيّالة ورَجّالة حتّى استأصلهم. [٣٨٣و]

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على كَسْبها وجَمْعها مِن الحرام والتصرّف فيها على ما لا ينبغي، ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بالحثّ على التوصّل إليهم بالأسباب المحرَّمة والإشراكِ، كتسميتهم بـ"عبد العُزّى" والتضليل بالحَمْل على الأديان الزائغة والحِرَف الذميمة والأفعال القبيحة.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيدَ الباطلة، كشفاعة الآلهة، والاتّكالِ على كرامة الآباء، وتأخيرِ التوبة بتطويل الأمل. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراض لبيان شأن مواعيده، والالتفاتُ إلى الغَيبة لتقوية معنى الاعتراض، مع ما فيه مِن صَرْف الكلام عن خطابه وبيانِ شأنه للناس، ومِن الإشعار بعلّيّة شيطنته للغرور، وهو تزيينُ الخطأ بما يُوهِم أنّه صواب.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الإضافة للتشريف، وهم المخلَصون، وفيه أنّ مَن تبِعه ليس منهم، وأنّ الإضافة[٥] لثبوت الحُكم في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾

---

[١] جامع البيان للطبري، ٣٦٣/٨ (المائدة، ٣٣/٥)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ١٥٨/١٣ (١٠١٠٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٢.
[٢] قرأ بها العشرة إلّا حفصًا. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.
[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وقتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.
[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن جابر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.
[٥] ط س + عليه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

أي: تسلُّط وقُدرة على إغوائهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل، ٩٩/١٦].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ لهم يتوكّلون عليه ويستمِدّون به في الخلاص عن إغوائك. والتعرّض لوصف الربوبيّة المنبئة عن المالكيّة المطلقة والتصرّفِ الكلّي مع الإضافة إلى ضمير إبليسَ للإشعار بكيفيّة كفايته تعالى لهم، أعني سَلْب قدرته على إغوائهم.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ مبتدأ وخبر، والإزجاء: السَّوق حالًا بعد حال، أي: هو القادر الحكيم الذي يسوق لمنافعكم الفُلك ويُجريها في البحر ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ مِن رزقه الذي هو فَضْل مِن قِبَله أو مِن الربح الذي هو مُعطيه. و﴿مِن﴾ مزيدة أو تبعيضيّة. وهذا تذكير لبعض النِّعم التي هي دلائل التوحيد وتمهيدٌ لذِكر توحيدهم عند مِساس الضرّ تكملةً لِما مرّ / مِن قوله تعالى: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾، الآية.[١] [٣٨٣ظ]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ﴾ أزلًا وأبدًا ﴿رَحِيمًا﴾ حيث هيّأ لكم ما تحتاجون إليه وسهّل عليكم ما يَعسُر مِن مباديه، وهذا تذييل فيه تعليل لِما سبق مِن الإزجاء لابتغاء الفَضل. وصيغة "الرحيم" للدلالة على أنّ المراد بالرحمة الرحمةُ الدنيويّة والنعمةُ العاجلة المنقسمة إلى الجليلة والحقيرة.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ خوفُ الغرقِ فيه ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ أي: ذهب عن خواطركم ما كنتُم تَدْعون مِن دون الله مِن الملائكة أو المسيح أو غيرهم ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحدَه مِن غير أن يخطُر ببالكم أحد منهم وتدعُوه لكشفه استقلالًا أو اشتراكًا، أو ضلّ كلُّ مَن تدعُونه عن إغاثتكم وإنقاذكم ولم يقدِر على ذلك إلّا الله، على الاستثناء المنقطِع.

---

[١] الإسراء، ٥٦/١٧.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ مِن الغرق وأوصلكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن التوحيد، أو اتّسعتم في كُفران النعمة. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ تعليل لِما سبَق مِن الإعراض.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزة للإنكار و"الفاء" للعطف على محذوف تقديره: أَنجوتُم فأمِنتُم ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الذي هو مأمنكم، أي: يَقلِبه مُلتبِسًا بكم أو بسبب كونكم فيه. وفي زيادة "الجانب" تنبيهٌ على تساوي الجوانب والجهات بالنسبة إلى قدرته سبحانه وقهره وسلطانه، وقرئ بنون العظمة.[1]

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ مِن فوقكم، وقرئ بالنون،[2] ﴿حَاصِبًا﴾ ريحًا ترمي بالحَصْباء. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفَظكم مِن ذلك أو يصرِفه عنكم، فإنّه لا رادَّ لأمره الغالب.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر، أُوثرت كلمةُ "في" على كلمة "إلى" المنبئةِ عن مجرَّد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه. ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ إسناد الإعادة إليه تعالى مع أنّ العَود باختيارهم باعتبار خَلْق الدواعي المُلجئة لهم إلى ذلك، وفيه إيماءٌ إلى كمال شِدّة هَولِ ما لاقَوه في التارة الأولى، بحيث لولا الإعادةُ / لَما عادوا. [٣٨٤و]

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم في البحر، وقرئ بالنون،[3] ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ وهي التي لا تمرّ بشيء إلّا كسرَتْه وجعلتْه كالرميم، أو التي لها قصيف: وهو الصوت الشديد، كأنّها تتقصّف، أي: تتكسّر. ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ بعد كَسْر فُلْككم كما ينبئ عنه

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

عنوان القَصْف، وقرئ بالنون[١] وبالتاء[٢] على الإسناد إلى ضمير ﴿ٱلرِّيحِ﴾. ﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب إشراككم، أو كفرانِكم لنعمة الإنجاء.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي: ثائرًا يطالبنا بما فعلنا انتصارًا منّا ودَرَكًا للثأر مِن جهتنا، كقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس، ١٥/٩١].

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ قاطبةً تكريمًا شاملًا لبَرّهم وفاجرِهم، أي: كرّمناهم بالصورة والقامة المعتدِلة والتسلّط على ما في الأرض والتمتّع به والتمكّن مِن الصناعات وغير ذلك ممّا لا يكاد يُحيط به نِطاق العبارة. ومِن جملته ما ذكَره ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّ كلّ حيوان يتناول طعامه بفيه إلّا الإنسان، فإنّه يرفعه إليه بيده.[٣] وما قيل مِن شِرْكة القِرد له في ذلك مبنيّ على عدم الفرق بين اليد والرِّجل، فإنّه متناول له برجله التي يطأ بها القاذورات لا بيده.

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ على الدوابّ والسُّفن، مِن "حملتُه" إذا جعلتَ له ما يركَبه، وليس مِن المخلوقات شيء كذلك. وقيل: حملناهم فيهما حيث لم يخسِف بهم الأرض ولم يُغرِقهم الماء، وأنت خبير بأنّ الأوّل هو الأنسب بالتكريم، إذ جميع الحيوانات كذلك. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: فنون النِّعم وضُروب المستلَذّات ممّا يحصُل بصُنعهم وبغير صُنعِهم.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ﴾ في العلوم والإدراكات بما ركّبنا فيهم مِن القُوى المدرِكة التي بها يتميّز الحقّ مِن الباطل والحسَن مِن القبيح، ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ وهم مَن عدا الملائكةِ عليهم السلام ﴿تَفْضِيلًا﴾ عظيمًا فحَقّ عليهم / أن يشكروا هذه النِّعم ولا يكفروها، ويستعملوا قُواهم في تحصيل العقائد الحَقّة، [٣٨٤ظ]

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

٢ قرأ بها أبو جعفر ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

٣ مرويّ بمعناه عن ابن جُريج في جامع البيان للطبري، ٥/١٥؛ وعن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٠٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٣٩/١٢.

ويرفضوا ما هم عليه مِن الشِّرك الذي لا يقبَله أحد ممّن له أدنى تمييز فضلًا عمّن فُضِّل على مَن عدا الملأ الأعلى الذين هم العقول المَحضة، وإنّما استُثنيَ جنس الملائكة مِن هذا التفضيل؛ لأنّ علومَهم دائمةٌ عارية عن الخطأ والخَلَل، وليس فيه دلالة على أفضليّتهم بالمعنى المتنازَع فيه، فإنّ المراد[1] بيان التفضيل في أمر مشترَك بين جميع أفراد البشر صالحِها وطالِحِها، ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضلَ في عِظَم الدرجة وزيادةِ القُربة عند الله سبحانه.

إن قيل: أيُّ حاجةٍ إلى تعيين ما[2] فيه التفضيل بعد بيان ما هو المراد بالمفضَّلين؟ فإنّ استثناء الملائكة عليهم السلام مِن تفضيل جميع أفراد البشر عليهم لا يستلزِم استثناءهم مِن تفضيل بعض أفراده عليهم. قلنا: لا بدّ مِن تعيينه البتّةَ، إذ ليس مِن الأفراد الفاجرة للبشر أحد يُفضَّل على أحد مِن المخلوقات فيما هو المتنازَع فيه أصلًا؛ بل هم أدنى مِن كلّ دنيء، حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[3] [الأعراف، ١٧٩/٧]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال، ٥٥/٨].

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ٧١﴾

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ﴾ نصب على المفعوليّة بإضمار "اذكر"، أو ظرفٌ لِما دلّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾، وقرئ بالياء[4] على البناء للفاعل وللمفعول،[5] و"يُدْعَوْ"[6] بقلب الألف واوًا على لغة مَن يقول في "أَفْعَى": أَفْعَوْ. وقد جُوِّز كون "الواو" علامةَ الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [طه، ٦٢/٢٠]،

---

١ وفي هامش م: هنا.

٢ وفي هامش م: مِن العلوم والإدراكات التي هي مَناط تمييز الحقّ مِن الباطل والحسَن من القبيح، كما مرّ. «منه».

٣ م س + سبيلًا.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وقتادة والعمري عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٣٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٢.

أو ضميرَه، و﴿كُلَّ﴾ بدلًا منه، و"النونُ" محذوفة لقلّة المبالاة بها، فإنّها ليست إلّا علامة الرفع، وقد يُكتفى بتقديره كما في "يُدْعَي".

﴿كُلَّ أُنَاسِۭ﴾ مِن بني آدمَ الذين فعلنا بهم في الدنيا ما فعلنا مِن التكريم والتفضيل. وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخِرة بحسب أحوالهم وأعمالهم في الدنيا. ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي: بمَن ائتمّوا به مِن نبيّ، أو مقدَّم في الدِّين، أو كتابٍ، أو دِين.
[٣٨٥و] وقيل: بكتاب أعمالِهم التي قدّموها، فيقال: / يا أصحاب كتاب الخير، يا أصحابَ كتاب الشرّ، أو يا أهل دِين كذا، يا أهلَ كتاب كذا.[١] وقيل: "الإمَام" جمعُ "أُمّ" كـ"خُفّ" و"خِفاف"،[٢] والحكمةُ في دعوتهم بأمّهاتهم إجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضي الله تعالى عنهما، والسَّتر على أولاد الزِّنا.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ يومئذ مِن أولئك المدعوّين ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ صحيفةَ أعماله ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ إبانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفًا لصاحبه وتبشيرًا له مِن أوّل الأمر بما في مطاويه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَنْ﴾ باعتبار معناه إيذانًا بأنّهم حزب مجتمِعون على شأن جليل، أو إشعارًا بأنّ قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما في حال الإيتاء.

وما فيه مِن الدلالة على البعد للإشعار برفعة درجاتهم، أي: أولئك المختصُّون بتلك الكرامة التي يُشعِر بها الإيتاء المزبور ﴿يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ الذي أوتوه على الوجه المبيَّن تبجّحًا بما سُطِّر فيه مِن الحسنات المستتبِعة لفنون الكرامات. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يُنقَصون مِن أجور أعمالهم المرتسِمة في كتبهم؛ بل يؤتَونها مضاعَفةً. ﴿فَتِيلًا﴾ أي: قدْرَ فتيل: وهو القِشرة التي في شقّ النواة، أو أدنى شيء، فإنّ الفَتيل مثَل في القِلّة والحَقارة.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾

﴿وَمَن كَانَ﴾ مِن المَدعوّين المَذكورين ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ الدنيا التي فُعِل بهم فيها

---

[١] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٢/٢.

[٢] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٢/٢، وذكر أنّه مِن بِدع التفاسير.

ما فُعِل مِن فنون التكريم والتفضيل ﴿أَعۡمَىٰ﴾ فاقدَ البصيرة[1] لا يهتدي إلى رُشده ولا يعرِف ما أوليناه مِن نعمة التكرِمة والتفضيل فضلًا عن شكرها والقيام بحقوقها، ولا يستعمِل ما أودعنا فيه مِن العقول والقُوى فيما خُلِقنَ له مِن العلوم والمعارِف الحقّة، ﴿فَهُوَ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ التي عُبّر عنها بـ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ﴾[2] ﴿أَعۡمَىٰ﴾ كذلك، أي: لا يهتدي إلى ما يُنجيه ولا يَظفَر بما يُجديه؛ لأنّ العمى الأوّلَ موجِب للثاني، وقد جُوِّز كون الثاني بمعنى التفضيل / على أنّ عماه في الآخرة [٣٨٥ظ] أشدّ مِن عماه في الدنيا، ولذلك قرأ أبو عمرو الأوّل مُمَالًا والثاني مفخَّمًا.[3]

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ أي: مِن الأعمى لزوال الاستعداد الممكِن وتعطُّل الآلات بالكلّيّة، وهذا بعينه هو الذي أوتيَ كتابه بشماله بدلالة حال ما سبَق مِن الفريق المقابِل له. ولعلّ العدولَ عن ذِكره بذلك العنوان مع أنّه الذي يستدعيه حُسن المقابلة حسبما هو الواقع في سورة الحاقّة[4] وسورة الانشقاق[5] للإيذان بالعِلّة المُوجِبة له، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة، ٥٦/٩٢] بعد قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ[6] إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة، ٥٦/٩٠]، وللرمز إلى عِلّة حال الفريق الأوّل.

وقد ذُكر في أحد الجانبين المسبَّب وفي الآخر السبب، ودُلّ بالمذكور في كلّ منهما على المتروك في الآخر تعويلًا على شهادة العقل، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس، ١٠/١٠٧].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ نزلت في ثقيف إذ قالوا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

---

[1] س: البصر.

[2] في الآية السابقة.

[3] انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٤٣.

[4] يعني المقابلة بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة، ٦٩/١٩]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة، ٦٩/٢٥].

[5] يعني المقابلة بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق، ٨٤/٧]، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ [الانشقاق، ٨٤/١٠].

[6] م س: فأمّا.

«لا ندخُل في أمرك حتّى تُعطيَنا خِصالًا نفتخر بها على العرب لا نُعشَر ولا نُحشَر ولا نحبّي[1] في صلاتنا، وكلُّ رِبًا لنا فهو لنا وكلُّ رِبًا علينا فهو موضوع عنّا، وأن تُمتّعنا باللات سنةً وأن تُحرِّم وادِيَنا وَجَّ كما حرَّمتَ مكّة، فإذا قالت العرب: "لِمَ فعلتَ؟" فقل: "إنّ الله أمرني بذلك"».[2] وقيل: في قريش حيث قالوا: «اجعل لنا آيةَ رحمةٍ آيةَ عذابٍ وآيةَ عذابٍ آيةَ رحمةٍ».[3] أو قالوا: «لا نُمكِّنك مِن استلام الحَجر حتّى تُلمّ بآلهتنا».[4] فـ﴿إن﴾ مخفَّفة مِن المشدَّدة، وضميرُ الشأن الذي هو اسمها محذوف، و"اللام" هي الفارقة بينها وبين النافية، أي: الشأن قارَبوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فاتنين ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مِن أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا.

[٣٨٦و] ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥ﴾ لتتقوَّل / علينا غيرَ الذي أوحينا إليك ممّا اقترحَتْه ثقيفٌ أو قريشٌ حسبما نُقل. ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أي: لو اتّبعت أهواءهم لكنتَ لهم وليًا ولخرجتَ مِن ولايتي.

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ﴾ على ما أنت عليه مِن الحقّ بعِصمتنا لك ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ مِن الركون الذي هو أدنى مَيلٍ، أي: لولا تثبيتُنا لك لَقاربت أن تميل إليهم شيئًا يسيرًا مِن المَيل اليسير لقوّة خُدَعِهم وشدّة احتيالهم، لكن أدركَتْك العصمة فمنعَتْك مِن أن تقرَب مِن أدنى مراتب الركون إليهم فضلًا عن نفس الركون، وهذا صريح في أنّه عليه السلام ما همّ بإجابتهم مع قوّة الداعي إليها، ودليلٌ على أنّ العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته.

---

[1] كذا في الأصول، وهي في المصادر الآتية: "نحني" أو "ننحني".

[2] بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٢٩٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢.

[3] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٤٨/١٢.

[4] مرويّ عن سعيد بن جُبير بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٣/١٥؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٩٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١١/٥.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾

﴿إِذًا﴾ لو قاربتَ أن تركنَ إليهم أدنى رَكْنة ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: عذابَ الدنيا وعذابَ الآخرة ضعفَ ما يُعذَّب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرُك؛ لأنّ خطأ الخطير خطير. وكان أصل الكلام عذابًا ضِعفًا في الحياة وعذابًا ضِعفًا في الممات، بمعنى: مضاعَفًا، ثمّ حُذف الموصوف وأُقيمت الصفةُ مُقامَه، ثمّ أُضيفت إضافةَ موصوفِها. وقيل: الضِّعف مِن أسماء العذاب. وقيل: المراد بـ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ عذابُ الآخرة، وبـ﴿ضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ عذابُ القبر. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنك العذاب.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ الكلام فيه كما في الأوّل، أي: كاد أهل مكّة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي: ليُزعِجونك بعداوتهم ومكرِهم ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الأرضِ التي أنت فيها وهي أرض مكّة، ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ بالرفع عطفًا على خبر "كاد"، وقُرئ: "لَا يَلْبَثُوا"[1] بالنصب بإعمال ﴿إِذًا﴾ على أنّ الجملة معطوفة على جملة ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾.

/ ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أي: بعدك، قال: [٣٨٦ظ]

خلتِ الديار خِلافَهم فكأنّما بَسَط الشواطِبُ بينهنّ حصيرا[2]

أي: ولو خرجتَ لا يبقَون بعد خروجك، وقُرئ: "خَلْفَكَ".[3]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٠.

[2] البيت مختلف في نسبته: فهو للحارث بن خالد المخزومي في ديوانه، ص ٦٣، وفيه «عَقَب الرَّذاذُ» مكان «خلتِ الديارُ»؛ وهو له في مجاز القرآن لأبي عُبيدة، ٢٦٤/١، وفيه «عَقَب الربيعُ» مكان «خلتِ الديارُ». وهو للأحوص في التفسير البسيط للواحدي، ٥٧٧/١٠ (التوبة، ٨١/٩)، وليس في ديوان الأحوص ولا في ملحقاته. وهو لجرير في العين للفراهيدي، ١٧٩/١، وليس في ديوان جرير. وهو بلا نسبة في جامع البيان للطبري، ٢١/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٢، وفي مطبوعه «عفَت» مكان «خلَت». والشواطب: النساء اللواتي يُشقِّقن الخُوص ويقشِرنَ العُسُب ليتّخذْنَ منه الحُصُر. لسان العرب لابن منظور، «شطب».

[3] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلّا زمانًا قليلًا، وقد كان كذلك فإنّهم أُهلِكوا ببدر بعد هجرته عليه السلام. وقيل: نزلت الآية في اليهود حيث حسدوا مُقامَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة، فقالوا: «الشام مُقام الأنبياء عليهم السلام، فإنّ كنتَ نبيًّا فالحَقْ بها حتّى نُؤمِن بك»، فوقَع ذلك في قلبه عليه السلام، فخرَج مرحلةً، فنزلت فرجع. ثمّ قُتل منهم بنو قريظةَ وأُجليَ بنو النضير بقليلٍ.[1]

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ نصب على المصدريّة، أي: سنّ الله تعالى سُنّةً، وهي أن يُهلك كلّ أمّة أخرجَت رسولهم مِن بين أظهُرهم، فالسُّنّة لله تعالى، وإضافتُها إلى الرسل؛ لأنّها سُنّتْ لأجلهم، على ما ينطِق به قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي: تغييرًا.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لزوالها،[2] كما ينبئ عنه قولُه عليه السلام: «أتاني جبريلُ عليه السلام لدُلوك الشمس حين زالت فصلّى بي الظهر»،[3] واشتقاقه مِن الدَّلْك؛ لأنّ مَن نظر إليها حينئذ يدلُك عينه. وقيل: لغروبها، مِن "دلَكَتِ الشمسُ"، أي: غرَبت.[4] وقيل: أصل الدُّلوك المَيل، فينتظِم كلا المعنيين. و"اللام" للتأقيت مِثلُها في قولك: "لثلاثٍ خلَوْن".[5]

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى اجتماع ظلمته، وهو وقت صلاة العِشاء، وليس المراد إقامتَها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار؛ بل إقامةَ كلّ صلاة في وقتها

---

[1] بلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣١٤.

[2] مرويٌّ عن ابن عبّاس وابن عمرَ وجابر وأكثر التابعين. انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٢٥-٣٠، ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١١٤.

[3] جامع البيان للطبري، ١٥/٢٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٠٣،

[4] مرويٌّ عن ابن مسعود والنخَعي وغيرهما. انظر: جامع البيان للطبري، ١٥/٢٢-٢٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١١٤، واختاره الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥٠٥.

[5] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣١٤.

الذي عُيِّن لها ببيان جبريلَ عليه السلام، كما أنّ أعداد ركعات كلّ صلاة موكولة إلى بيانه عليه السلام. ولعلّ الاكتفاءَ ببيان المبدأ والمنتهى في أوقات الصلوات / مِن غير فَصْل بينها، لِما أنّ الإنسان فيما بين هذه الأوقات على اليقظة، [٣٨٧و] فبعضُها متَّصل ببعض بخلاف أوّل وقت العشاء والفجر، فإنّها باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر، ولذلك فُصل وقت الفجر عن سائر الأوقات.[١] والتحديد المذكور بيانٌ لمبدئه ومنتهاه واستُدِلّ به على امتداد وقته.[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: صلاةَ الفجر.[٣] نصب عطفًا على مفعول ﴿أَقِمِ﴾، أو على الإغراء، قاله الزجّاج.[٤] وإنّما سُمِّيت قرآنًا؛ لأنّه رُكنها، كما تُسمّى رُكوعًا وسُجودًا. واستُدلّ به على الركنيّة، ولكن لا دلالةَ له على ذلك لجواز كون مدار التجوّز كون القراءة مندوبة فيها. نعَم لو فُسِّر بالقراءة في صلاة الفجر لدلّ الأمر بإقامتها على الوجوب فيها نصًّا وفيما عداها دلالةً.[٥] ويجوز أن يكون ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ حثًّا على تطويل القراءةِ في صلاة الفجر.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أُظهِر في مقام الإضمار إبانةً لمزيد الاهتمامِ به ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، أو شواهدُ القدرة مِن تبدُّل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذي هو أخو الموت، أو يشهَده كثير مِن المصلّين أو مِن حقّه أن يشهَده الجمّ الغفير. فالآية على تفسير الدُّلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس، وعلى تفسيره بالغروب لِما عدا الظهرَ والعصرَ.

---

١ ط س + وقيل: المراد بالصلاة صلاة المغرب. | وكانت مُثبتةً في م ثمّ ضُرِب عليها، فكأنّ ذلك وقع بعد نسخ ط س. هذا والقول المذكور مرويٌّ عن قتادة. انظر: جامع البيان للطبري، ٣١/١٥-٣٢، ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٥.

٢ ط س + إلى غُروب الشفق. | وكانت مُثبتةً في م ثمّ ضُرِب عليها، فكأنّ ذلك وقع بعد نسخ ط س.

٣ مرويٌّ عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وغيرهم. انظر: جامع البيان للطبري، ٣٥/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٥.

٤ لم أجده للزّجّاج. والمذكور في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٩٨/٧؛ واللباب لابن عادل، ٣٥٩/١٢، أنّه قول الأخفش تبعه عليه أبو البقاء، وذكرا أنّ أصول البصريّين تأباه. وانظر: معاني القرآن للأخفش، ٤٢٦/٢؛ والتبيان للعكبري، ٨٣٠/٢.

٥ هذا الاستدلال وما عليه من كلام مذكور بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٥/٢؛ وبعضه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/٢.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ قيل: هو نصب على الإغراء، أي: الزَم بعضَ الليل.[١] وقيل: لا يكون / المُغرى به حرفًا، ولا يجدي نفعًا كون معناها التبعيضَ، فإنّ واو "مع" ليست اسمًا بالإجماع، وإن كانت بمعنى الاسم الصريح؛[٢] بل هو منصوب على الظرفيّة بمضمَر، أي: قُم بعضَ الليل. [٣٨٧ظ]

﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ أي: أزِلْ وألقِ الهجود، أي: النوم، فإنّ صيغة التفعُّل تجيء للإزالة كـ"التحرُّج" و"التحنُّث" و"التأثُّم" ونظائرِها. والضمير المجرور لـ"القرآن" مِن حيث هو، لا بقيد إضافته إلى الفجر أو للبعض المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: تهجّد في ذلك البعض، على أنّ "الباء" بمعنى "في". وقيل: منصوب بـ﴿تَهَجَّدۡ﴾، أي: تهجَّدْ بالقرآن بعضَ الليل، على طريقة ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة، ٤٠/٢].[٣]

﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ فريضةً زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصّةً بك دون الأمّة، ولعلّه هو الوجه في تأخير ذِكرها عن ذِكر صلاة الفجر مع تقدّم وقتها على وقتها، أو تطوّعًا،[٤] لكن لا لكونها زيادة على الفرائض؛ بل لكونها زيادة له صلّى الله عليه وسلّم في الدرجات، على ما قال مجاهدٌ والسدّي،[٥] فإنّه عليه السلام مغفور له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر فيكون تطوُّعه زيادةً في درجاته، بخلاف مَن عداه مِن الأمّة، فإنّ تطوُّعهم لتكفير ذنوبهم وتدارُكِ الخَلَل الواقع في فرائضهم.

وانتصابُها إمّا على المصدريّة بتقدير "تَنَفَّلْ"، أو بجَعْل ﴿تَهَجَّدۡ﴾ بمعناه، أو بجَعْل ﴿نَافِلَةٗ﴾ بمعنى تهجُّدًا، فإنّ ذلك عبادة زائدة، وإمّا على الحاليّة مِن الضمير الراجع إلى القرآن، أي: حالَ كونها صلاة نافلة، وإمّا على المفعوليّة لـ﴿تَهَجَّدۡ﴾،

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/٢.

٢ هذا الردُّ مذكور في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٩٨/٧؛ واللباب لابن عادل، ٣٦٠/١٢.

٣ يعني: من ناحية التقدير، فهو في الآية: وإيّايَ ارهبوا فارهبون. انظر: مفتاح العلوم للسكّاكي، ص ٣٥٩.

٤ السياق: فريضة... أو تطوُّعًا...

٥ انظر: جامع البيان للطبري، ٤١/١٥.

إذا جُعل بمعنى "صلِّ" وجُعل الضمير المجرور للبعض، أي: فَصَلِّ في ذلك البعض نافلةً لك.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ﴾ / الذي يُبلِّغك إلى كمالك اللائق بك مِن بعد [٣٨٨و]
الموت الأكبر لِما انبعثْتَ مِن النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة، ﴿مَقَامًا﴾ نصب على الظرفيّة على إضمار "فيُقيمَك"، أو تضمينِ "البعث" معنى الإقامة، إذ لا بدّ مِن أن يكون العامل في مِثل هذا الظرف فعلًا فيه معنى الاستقرار، ويجوز أن يكون حالًا بتقدير مضاف، أي: يبعثك ذا مَقام. ﴿مَّحۡمُودًا﴾ عندك وعند جميع الناس.[١] وفيه تهوينٌ لمشقّة قيام الليل.

وروى أبو هريرةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفَع فيه لأمّتي»،[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: مقامًا يحمَدك فيه الأوّلون والآخرون وتُشرف فيه على جميع الخلائق، تسأل فتُعطى، وتشفَع فتُشفَّع، ليس أحد إلّا تحت لوائك.[٣] وعن حذيفةَ رضي الله تعالى عنه: يُجمَع الناس في صَعيد واحد فلا تتكلّم فيه نفس، فأوّلُ مَدعُوٍّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم فيقول: «لبّيكَ وسَعْدَيكَ، والشرُّ ليس إليك، والمَهديُّ مَن هَديتَ، وعبدُك بين يديك، وبك وإليك، لا ملجأَ ولا مَنجى منك إلّا إليك، تباركتَ وتعاليتَ، سبحانك ربَّ البيت».[٤]

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ۝٨٠﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي﴾ أي: القبرَ ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ أي: إدخالًا مَرضيًّا ﴿وَأَخۡرِجۡنِي﴾ أي: منه عند البعث ﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ أي: إخراجًا مَرضيًّا مُلقًّى بالكرامة، فهو تلقين للدعاء بما وعده مِن البعث المقرون بالإقامة المعهودة التي لا كرامةَ فوقها.

---

١ وفي هامش م: الخلق.
٢ مسند أحمد، ٤٢٧/١٥ (٩٦٨٤)؛ جامع البيان للطبري، ٤٨/١٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٦/٢.
٣ التفسير البسيط للواحدي، ٤٤/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٦/٢. ولم أجده في مظانّه.
٤ مسند الطيالسي، ٣٣٠/١ (٤١٤)؛ مسند البزّار، ٣٢٩/٧ (٢٩٢٦)؛ جامع البيان للطبري، ٤٣/١٥-٤٤، ٤٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٦/٢.

وقيل: المراد إدخال المدينة والإخراج مِن مكّةَ.[١] وتغيير ترتيب الوجود لكون الإدخال هو المقصدَ، وقيل: إدخالُه عليه السلام مكّةَ ظاهرًا عليها، / وإخراجُه [٣٨٨ظ] منها آمنًا مِن المشركين. وقيل: إدخاله الغارَ وإخراجُه منه سالمًا. وقيل: إدخاله فيما حُمّله مِن أعباء الرسالة، وإخراجُه منه مؤدّيًا حَقَّه. وقيل: إدخاله في كلّ ما يلابسه مِن مكان أو أمر وإخراجُه منه.[٢] وقرئ: "مَدْخَلَ" و"مَخْرَجَ" بالفتح[٣] على معنى: أدخلني فأدخُلَ دخولًا وأخرجني فأخرُجَ خروجًا، كقوله:

وعَضّةُ دهرٍ يا بنَ مروانَ لم يدَع   مِن المال إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[٤]

أي: لم يدَع فلم يبْقَ.

﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ حجّةً تنصُرني على مَن يخالفني، أو مُلكًا وعِزًّا ناصرًا للإسلام مُظهِرًا له على الكفر، فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عزّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة، ٦٧/٥]، ﴿فَإِنَّ[٥] حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة، ٥٦/٥]، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف، ٩/٦١]، ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور، ٥٥/٢٤].

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الإسلام والوحيُ الثابت الراسخ ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أي: ذهب وهلَك الشِّرك والكفر وتسويلات الشيطان، مِن "زهَق روحُه" إذا خرَج. ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ كائنًا ما كان ﴿كَانَ زَهُوقٗا﴾ أي: شأنه أن يكون مضمحِلًا غيرَ ثابت، وهو عِدَة كريمة بإجابة الدعاء بالسلطان النصير الذي لُقّنه.

---

١ مرويٌّ عن ابن عبّاس والحسن وقتادة. انظر: مسند أحمد، ٤١٧/٣ (١٩٤٨)؛ وسنن الترمذي، ٣٦٢/٥ (٣١٣٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٤/١٥-٥٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٢٢/٥.

٢ الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة والمفضّل وحُميد والرفاعي عن يحيى عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٤١.

٤ البيت للفرزدق في ديوانه، ص ٣٨٦؛ وهو له في جامع البيان للطبري، ٤٣٥/٨ (المائدة، ٤٢/٥)؛ وجمهرة اللغة لابن دريد، ١٢٥٩/٣، وذكر فيه المعنى الذي أورده المؤلِّف. والرِّواية فيها جميعًا وفي غيرها:

وعضُّ زمان يا بن مروانَ لم يَدَع
من المال إلّا مُسحتًا أو مُجلّفُ

٥ م س: ألا إنّ.

عن ابن مسعود رضيَ الله عنه أنّه عليه السلام دخل مكّةَ يوم الفتح وحول البيت ثلاثُمائة وستّون صنمًا فجعل ينكُت بمِخْصَرة[١] كانت بيده في عين واحدٍ واحدٍ فيقول: «جاء الحقُّ وزهق الباطلُ»، فينكبّ لوجهه حتّى أَلْقَى جميعَها، وبقيَ صنم خُزاعةَ فوق الكعبة، وكان مِن صُفر،[٢] فقال: «يا عليُّ ارمِ به»، فصعِد فرمى به فكسره.[٣]

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وقرئ: "نُنْزِلُ"[٤] مِن الإنزال ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ لِما في الصدور مِن أدواء الرِّيب وأسقام الأوهام ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به العاملين بما في تضاعيفه، أي: ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي / للمرضى. [٣٨٩و]

و﴿مِن﴾ بيانيّة قُدِّمت على المُبيَّن اعتناءً، فإنّ كلّ القرآن كذلك، وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن لم يستَشفِ بالقرآن فلا شفاه الله»،[٥] أو تبعيضيّة لكن لا بمعنى أنّ بعضه ليس كذلك؛ بل بمعنى أنّا نُنزِّل منه في كلّ نَوبة ما يستدعي الحكمة نزوله حينئذ، فيقع ذلك ممّن نزل عليهم بسبب موافقته لأحوالهم الداعية إلى نزوله موقعَ الدواء الشافي المصادِف، لا بأنّه مِن المرضى المحتاجين إليه بحسب الحال مِن غير تقديم ولا تأخير، فكلُّ بعضٍ منه متّصف بالشفاء لكن لا في كلّ حين؛ بل عند تنزيله.

وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسماني كما في "الفاتحة" وآياتِ الشفاء لا يساعده قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: لا يزيد القرآن كلّه أو كلُّ بعضٍ منه الكافرين المكذِّبين به الواضعين للأشياءِ في غير مواضعِها، مع كونه في نفسه شفاءً مِن الأسقام، إلّا خَسارًا، أي: هلاكًا بكفرهم وتكذيبهم،

---

١ المِخصرة: ما يأخذه الرجُل بيده ليتوكّأ عليه مِن عصًا ونحوها. لسان العرب لابن منظور، «خصر».

٢ الصُّفر: النُّحاس. لسان العرب لابن منظور، «صفر».

٣ بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٢. وبعضه عن ابن مسعود في جامع البيان للطبري، ٦١/١٥؛ وصحيح ابن حبّان، ١٧٢/١٣ (٥٨٦٢)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ١٩١/١٠ (١٠٤٢٧).

٤ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢، ٣٠٨.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٦١/١٦؛ التفسير البسيط للواحدي، ٤٥٣/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٢-٥٠٨.

لا نقصانًا كما قيل،[١] فإنّ ما بهم مِن داء الكفرِ والضلال حقيقٌ بأن يُعبَّر عنه بالهلاك، لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادي الإسلام فيهم، وزيادتُهم في مراتب الهلاك مِن حيث إنّهم كلّما جدّدوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجًا ازدادوا بذلك هلاكًا. وفيه إيماء إلى أنّ ما بالمؤمنين مِن الشُّبَه والشُّكوك المعترية لهم في أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الأمراض، وما بالكفَرة مِن الجهل والعِناد بمنزلة الموت والهلاك.

وإسنادُ الزيادة المذكورة إلى القرآن مع أنّهم هم المُزدادون في ذلك بسوء صنيعهم باعتبار كونه سببًا لذلك، وفيه تعجيب مِن أمره حيث يكون مَدارًا للشفاء والهلاك.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ٨٣﴾

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالصحّة والنعمة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا فضلًا عن
[٣٨٩ظ] القيام بمواجب الشكر ﴿وَنَـَٔا﴾ تباعدَ عن طاعتنا ﴿بِجَانِبِهِۦ﴾ النأيُ بالجانب: / أن يَلويَ عن الشيء عِطفَه ويُوليَه عُرضَ وجهه، فهو تأكيد للإعراض أو عبارة عن الاستكبار؛ لأنّه مِن ديدن المستكبرين.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ مِن فقر أو مرض أو نازلة مِن النوازل. وفي إسناد المِساس إلى الشرّ بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذانٌ بأنّ الخير مراد بالذات، والشرّ ليس كذلك.

﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ شديدَ اليأس مِن رَوْحنا. وهذا وَصْف للجنس باعتبار بعض أفراده ممّن هو على هذه الصفة، ولا يُنافيه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت، ٥١/٤١] ونظائرُه، فإنّ ذلك شأن بعض آخرين منهم. وقيل: أريدَ به الوليد بن المغيرة. وقرئ: "نَاءَ"[٢] إمّا على القلب، كما يقال: "راءَ" في "رأى"، وإمّا على أنّه بمعنى "نَهَض".

---

[١] في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٨/٢.

[٢] قرأ بها أبو جعفر وابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: كلّ أحد منكم وممّن هو على خلافكم ﴿يَعْمَلُ﴾ عمَله ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة أو جوهرِ رُوحه وأحوالِه التابعة لمِزاج بدنه، ﴿فَرَبُّكُمْ﴾ الذي برأكم على هذه الطبائع المتخالفة ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي: أسدُّ طريقًا وأبينُ مِنهاجًا، وقد فُسِّرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدِّين.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الظاهر أنّ السؤال كان عن حقيقة الروح الذي هو مدبِّر البدن الإنساني ومبدأ حياته، رُوي أنّ اليهود قالوا لقريش: سلُوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القَرنين وعن الرّوح، فإن أجاب عنها جميعًا أو سكت فليس بنبيّ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبيّ. فبيَّن لهم القصّتين، وأبهَم أمر الرُّوح، وهو مُبهَم في التوراة.[1]

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ أُظهِر في مقام الإضمار إظهارًا لكمال الاعتناء بشأنهم ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ كلمة ﴿مِن﴾ بيانيّة، و"الأمر" بمعنى الشأن، والإضافةُ للاختصاص العِلْمي لا الإيجادي لاشتراك الكلّ فيه، وفيها مِن تشريف المضاف ما لا يخفى، كما في الإضافة الثانية مِن تشريف المضاف إليه، أي: هو مِن جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه مِن الأسرار الخفيّة التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يمكن تعلّقه بأمثال ذلك. رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا قال لهم ذلك قالوا: / «أنحن مختصّون بهذا الخطاب؟» قال [٣٩٠و] عليه السلام: «بل نحن وأنتم». فقالوا: «ما أعجبَ شأنَك! ساعةً تقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة، ٢٦٩/٢]، وتارة تقول هذا»، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ الآية [لقمان، ٢٧/٣١].[2]

---

[1] بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٣٠٠، وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٨/٢. ولم أجِده في مظانّه.

[2] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٨/٢، واللباب لابن عادل، ٣٨٠/١٢. ولم أجِده في مظانّه.

وإنّما قالوا ذلك لركاكة عقولهم، فإنّ الحكمة الإنسانيّة أن يعلَم مِن الخير ما تسَعه الطاقة البشريّة؛ بل ما نِيط به المعاش والمعاد، وذلك بالإضافة إلى ما لا نهايةَ له مِن معلوماته سبحانه قليل يُنال به خير كثير في نفسه أو بالنسبة إلى الإنسان، أو هو مِن الإبداعيّات الكائنة بمَحض الأمر التكويني مِن غير تحصُّل مِن مادّة وتولُّد مِن أصل كأعضاء الجسد حتّى يمكن تعريفه ببعض مباديه، ومآلُه أنّه مِن عالم الأمر لا مِن عالم الخَلق.

وليس هذا مِن قَبيل قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس، ٨٢/٣٦]، فإنّ ذلك عبارة عن سرعة التكوين، سواءٌ كان الكائن مِن عالم الأمر أو مِن عالم الخَلْق، وفيه تنبيهٌ على أنّه ممّا لا يُحيط بكنهه دائرة إدراك البشر، وإنّما الممكن هذا القدر الإجمالي المندرِج تحت ما استُثنيَ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: إلّا علمًا قليلًا تستفيدونه مِن طرُق الحواسّ، فإنّ تعقّل المعارف النظريّة إنّما هو مِن إحساس الجزئيّات، ولذلك قيل: «مَن فقَدَ حِسًّا فقَدْ فَقَد عِلمًا».[1]

ولعلّ أكثرَ الأشياء لا يُدرِكه الحسُّ ولا شيئًا مِن أحواله التي يدور عليها معرفةُ ذاته، وأمّا حَمْل ما ذُكر على السؤال عن قِدَمه وحدوثه وجعلُ الجواب إخبارًا بحدوثه، أي: كائن بتكوينه حادث بإحداثه بالأمر التكويني، فمع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرّض لبيان قلّة عِلمهم، فإنّ ما سألوا عنه ممّا يفي به عِلمهم حينئذ وقد أُخبر عنه.

وقيل: المراد بالروح خَلْق عظيم روحاني أعظمُ مِن المَلَك. وقيل: جبريلُ عليه السلام. وقيل: القرآنُ.[2] ومعنى ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ مِن وحيه وكلامه لا مِن كلام البشر.

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مِن القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين ومنبَع للعلوم التي أوتيتموها، وثبّتناك عليه حين كادوا يفتِنونك عنه،

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٧/٢؛ فتوح الغيب للطِّيبي، ٣٦٨/٩.

[2] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٨/٢.

ولولاه لكِدتَ تركَن إليهم شيئًا قليلًا. وإنّما عُبِّر عنه بالموصول تفخيمًا لشأنه ووصفًا له بما في حيّز الصلة ابتداء / إعلامًا بحاله مِن أوّل الأمر وبأنه ليس مِن قبيل كلام المخلوق. و"اللام" موطِّئة للقسَم، و﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جوابه النائب منابَ جزاء الشرط، وبذلك حسُن حَذْف مفعول المشيئة. [٣٩٠ظ]

والمراد مِن "الذهاب به" المَحْو عن المصاحف والصدور، وهو أبلغُ مِن الإذهاب. عن ابن مسعود رضيَ الله عنه: «أنّ أوّل ما تفقِدون مِن دينكم الأمانةُ وآخرَ ما تفقِدون الصلاةُ، وليُصَلّين قوم ولا دينَ لهم، وأنّ هذا القرآنَ تُصبحون يومًا وما فيكم منه شيء»، فقال رجل: «كيف ذلك، وقد أثبتْناه في قلوبنا وأثبتْناه في مصاحفنا، نُعلِمه أبناءنا ويُعلِمه أبناؤنا أبناءَهم؟» فقال: «يُسرى عليه ليلًا فيُصبِح الناس منه فقراءَ تُرفع المصاحفُ ويُنزَع ما في القلوب».[١]

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ مَن يتوكّل علينا استردادَه مسطورًا محفوظًا.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۝٨٧﴾

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ فإنّها إن نالَتْك لعلّها تستردّه عليك، ويجوز أن يكون استثناء منقطِعًا بمعنى: ولكن رحمةً مِن ربّك تركَتْه غيرَ مذهوب به، فيكون امتنانًا بإبقائه بعد المِنّة بتنزيله، وترغيبًا في المحافظة على أداء حقوقه، وتحذيرًا مِن أن لا يُقدر قَدْره الجليل ويُفرَّط في القيام بشُكره وهو أجلّ النِّعم وأعظمُها.

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ كإرسالك وإنزال الكتاب عليك وإبقائه في حفظك وغير ذلك.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾

﴿قُل﴾ للذين لا يعرِفون جلالة قدر التنزيل ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل؛

---

[١] بعضه عن ابن مسعود في جامع البيان للطبري، ٧٤/١٥؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٣٩٩/٣ (١٨٦٩)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٢٧/٥؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٩/٢.

بل يزعُمون أنّه مِن كلام البشر: ﴿لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ أي: اتّفقوا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوت بما لا تُدرِكه العقول مِن النعوت الجليلة في البلاغة وحسنِ النظم وكمالِ المعنى. وتخصيص الثقلين بالذِّكر لأنّ المنكِر لكونه مِن عند الله تعالى منهما لا مِن غيرهما، لا لأنّ غيرهما قادر على المعارَضة.

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أوثِر الإظهار على إيراد الضمير الراجع إلى المِثل المذكور احترازًا عن أن يُتوَهم أنّ له مِثلًا معيَّنًا، وإيذانًا بأنّ المراد نفيُ الإتيان [٣٩١و] / بمِثلٍ ما، أي: لا يأتون بكلام مُماثِل له فيما ذُكر مِن الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة أربابُ البراعة والبيان. وهو جواب للقَسَم الذي تنبئ عنه "اللام" الموطِّئة، وسادّ مَسدّ جزاء الشرط، ولولاها لكانَ جوابًا له بغير جزم لكون الشرط ماضيًا، كما في قول زهير:

وإن أتـــاه خـلـيـل يـــومَ مـسـألـةٍ يقول لا غـائـبٌ مـالـي ولا حَـرِمُ[١]

وحيث كان المراد بالاجتماع على الإتيان بمِثل القرآن مطلقَ الاتّفاق على ذلك، سواءٌ كان التصدّي للمعارضة مِن كلّ واحد منهم على الانفراد، أو مِن المجموع بأن يتألّبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحُق الأفكار وتعاضُدِ الأنظار، قيل: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي: في تحقيق ما يَتوَخّونه مِن الإتيان بمِثله، وهو عطف على مقدَّر، أي: لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرًا لبعض ولو كان... إلخ، وقد حُذف المعطوفُ عليه حذفًا مطَّردًا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة، فإنّ الإتيان بمِثله حيث انتفى عند التظاهُر فلَأن ينتفيَ عند عدمه أَولى. وعلى هذه النُّكتة يدور ما في "إن" و"لو" الوَصليتَين مِن التأكيد، كما مرّ غيرَ مرة.

ومحلُّه النصبُ على الحاليّة حسبما عُطف عليه، أي: لا يأتون بمِثله على كلّ حال مفروض، ولو في هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلًا عن غيرها. وفيه حَسمٌ لأطماعهم الفارغة في رَوْم تبديل بعض آياته ببعض.

---

[١] البيت لزهير بن أبي سُلمى في ديوانه، ص ١٢٠؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٦٦/٣؛ والمفصّل للزمخشري، ص ٣٢٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٨/٢. وعجزه بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٩/٢.

ولا مساغَ لكون الآية تقريرًا لِما قبلها مِن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[1] كما قيل،[2] لكن لا لِما قيل مِن أنّ الإتيان بمِثله أصعب مِن استرداد عينه، ونفيُ الشيء إنّما يقرّره[3] نفي ما دونه لا نفيَ ما فوقه، فإنّ أصعبيّة الاسترداد بغير أمره تعالى مِن الإتيان بمِثله ممّا لا شُبهةَ فيه؛ بل لأنّ الجملة القَسَمية ليست مَسوقة إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؛ بل إلى المكابِرين مِن قِبَله عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كرّرنا وردّدنا على أنحاء مختلفة توجب زيادةَ تقرير وبيانٍ ووَكادةَ رسوخ واطمئنان ﴿لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوت بما ذُكر مِن النعوت الفاضلة / ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِن كلّ معنى بديع هو في الحُسن والغرابة واستجلاب النفس كالمَثل ليتلقَّوه بالقَبول. [٣٩١ظ]

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أوثرَ الإظهار على الإضمار تأكيدًا وتوضيحًا ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: إلّا جُحودًا، وإنّما صحّ الاستثناء مِن المُوجَب مع أنّه لا يصِحّ "ضربتُ إلّا زيدًا"، لأنّه متأوّل بالنفي، كأنّه قيل: ما قَبِل أكثرهم إلّا كفورًا. وفيه مِن المبالغة ما ليس في "أبَوا الإيمان"؛ لأنّ فيه دلالة على أنّهم لم يرضَوا بخَصلة سوى الكُفور مِن الإيمان والتوقّف في الأمر ونحو ذلك، وأنّهم بالغوا في عدم الرضا حتّى بلغوا مرتبة الإباء.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟﴾ عند ظهور عجَزهم ووضوح مغلوبيّتهم بالإعجاز التنزيلي وغيره مِن المعجزات الباهرة متعلِّلين بما لا يمكن في العادة وجوده، ولا تقتضي الحكمة وقوعه مِن الأمور، كما هو دَيدَن المبهوت المحجوج: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ وقرئ بالتشديد[4] ﴿لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مكّة ﴿يَنۢبُوعًا﴾ عينًا لا ينضُب ماؤها، "يفعول" مِن "نَبَع الماء" كـ"يعْبوب" مِن "عَبّ الماء" إذا زخَر.

---

[1] الإسراء، ٨٦/١٧.

[2] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٩/٢.

[3] ط س: يُقرّر.

[4] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٨/٢.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أي: بستان يستر أشجارُه ما تحته مِن العَرْصة[1] ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: تُجريها بقوّة ﴿خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾ كثيرًا. والمراد إمّا إجراء الأنهار خلالَها عند سَقْيها، أو إدامةُ إجرائها، كما ينبئ عنه "الفاء" لا ابتداؤه.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ جَمْع "كِسْفة" كـ"قِطْعة" و"قِطَع" لفظًا ومعنًى، وقرئ بالسكون[2] كـ"سِدْرة" و"سِدْر"، وهي حال مِن ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾. و"الكاف" في كما في محلّ النصب على أنّه صفةُ مصدرٍ محذوف، أي: إسقاطًا مماثِلًا لِما زعمتَ، يعنُون بذلك قولَه سبحانه: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ، ٩/٣٤].

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي: مقابِلًا كـ"العَشير" و"المُعاشِر"، أو كفيلًا يشهَد بصِحّة ما تدّعيه، وهو حال مِن الجلالة، وحالُ الملائكة محذوفة لدلالتها عليها، أي: والملائكةِ قُبَلاء، كما حُذف الخبر في قوله:

فـإنّـي وقـيّـارٌ بـهـا لَـغـريـبُ[3]

أو جماعةً[4] فيكون حالًا مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

---

١ العَرْصة: كلّ موضِع واسع لا بناءَ فيه. لسان العرب لابن منظور، «عرص».

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

٣ عَجُز بيت لضابئ بن الحارث البُرجُمي، قاله وهو محبوس بالمدينة في زمن عثمانَ رضي الله عنه، وصدره:

فمن يكُ أمسى بالمدينة رَحلُهُ

وهو له في الأصمعيّات للأصمعي، ص ١٨٤؛ والنوادر لأبي زيد، ص ١٨٢؛ وكتاب سيبويه ٧٥/١، ٩٠٩؛ والعجُز بلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٥١٠/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١٩/٢.

٤ السياق: أي: مقابلًا... أو كفيلًا... أو جماعةً...

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ مِن ذهَب وقد قُرئ به،[١] وأصلُه الزينة، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ / أي: في معارجها، فحُذف المضاف، يقال: رقيَ في السُّلَّم وفي الدَّرَجة. [٣٩٢و]

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: لأجل رُقيّك فيها وحدَه، أو لن نصدِّق رقيَّك فيها ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ﴾ منها ﴿عَلَيْنَا كِتَـٰبًا﴾ فيه تصديقُك ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ نحن مِن غير أن نتلقّى مِن قِبلك.

عن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما: قال عبد الله بن أبي أميّة: «لن نؤمن لك حتّى تتّخذ إلى السماء سُلَّمًا، ثمّ ترقى فيه وأنا أنظُر حتّى تأتيَها وتأتِيَ معك بصكٍّ منشورٍ معه أربعة مِن الملائكة يشهدون أنّك كما تقول».[٢] وما كانوا يقصِدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة إلّا العِنادَ واللَّجاج، ولو أنّهم أُوتوا أضعاف ما اقترحوا مِن الآيات ما زادهم ذلك إلّا مكابَرة، وإلّا فقد كان يكفيهم بعض ما شاهدوا مِن المعجزات التي تخِرُّ لها صُمّ الجبال.

﴿قُلْ﴾ تعجّبًا مِن شدّة شكيمتهم، وتنزيهًا لساحة السُّبحان عمّا لا يكاد يليق بها مِن مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التي تكاد السماوات يتفطّرن منها، أو عن طلبك[٣] ذلك وتنبيهًا على بطلان ما قالوه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾ وقرئ: "قَالَ سُبْحَانَ رَبِيْ"،[٤] ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ لا ملَكًا حتّى يُتصوّر منّي الرقيُّ في السماء ونحوُه ﴿رَّسُولًا﴾ مأمورًا مِن قِبل ربّي بتبليغ الرسالة مِن غير أن يكون لي خِيَرة في الأمر كسائر الرسل، وكانوا لا يأتون قومهم إلّا بما يُظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم، ولم يكن أمر الآيات إليهم ولا لهم أن يتحكّموا على الله سبحانه بشيء منها، وقولُه: ﴿بَشَرًا﴾ خبر لـ﴿كُنتُ﴾ و﴿رَّسُولًا﴾ صفتُه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٣.

[٢] طرف حديث طويل عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ١٥/٨٧-٩٠؛ وبعضه في التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٤٨٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٢٩؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١١.

[٣] م ط س: طلب النبيّ عليه السلام. [صُحّح في هامش م].

[٤] قرأ بها ابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٠٩.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: الذين حُكيت أباطيلهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿مَنَعَ﴾، وقوله: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: الوحيُ ظرفٌ لـ﴿مَنَعَ﴾ أو ﴿يُؤْمِنُوٓاْ﴾، أي: وما منَعهم وقت مجيء الوحي المقرون بالمعجزات المستدعية للإيمان أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوّتك، أو ما منَعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجيء ما ذكَر، ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ في محلّ الرفع على أنّه فاعلُ ﴿مَنَعَ﴾، أي: إلّا قولُهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ منكِرين أن يكون رسول الله تعالى مِن جنس البشر.

وليس المراد أن هذا القول صدَر عن بعضهم فمنع بعضًا آخرَ منهم؛ بل المانعُ هو الاعتقاد الشامل للكلّ المستتبعُ لهذا القول منهم. وإنّما عُبّر عنه بـ"القول" إيذانًا بأنّه مجرّد قول يقولونه بأفواههم مِن غير أن يكون له مفهوم ومِصداق. وحصرُ المانع مِن الإيمان فيما ذُكِر مع أنّ لهم موانعَ شتّى / لِما أنّه معظمها، أو لأنّه هو [٣٩٢ظ]
المانع بحسب الحال، أعني عند سماع الجواب بقوله تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[١] إذ هو الذي يتشبّثون به حينئذ مِن غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى مِن شُبههم الواهية. وفيه إيذانٌ بكمال عِنادهم حيث يشير إلى أنّ الجواب المذكور مع كونه حاسمًا لموادّ شُبَهِهم مُلجِئًا إلى الإيمان يعكُسون الأمر ويجعلونه مانعًا منه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿قُل﴾ لهم أوّلًا مِن قِبَلنا تبيينًا للحكمة وتحقيقًا للحقّ المُزيح للرَّيب: ﴿لَّوْ كَانَ﴾ أي: لو وُجد واستقرّ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلَ البشر ﴿مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ قارّين فيها مِن غير أن يعرُجوا في السماء ويعلَموا ما يجب أن يُعلَم، ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ يهديهم إلى الحقّ ويُرشِدهم إلى الخير لتمكّنهم مِن الاجتماع والتلقّي مِنه، وأمّا عامة البشر فهم بمَعزِل مِن استحقاق المفاوَضة الملَكية، كيف لا، وهي منوطة بالتناسُب والتجانُس، فبَعْثُ المَلَك إليهم مزاحِم للحكمة التي عليها مبنى التكوين والتشريع.

---

[١] في الآية السابقة.

وإنّما يُبعث المَلَك مِن بينهم إلى الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكيّة المؤيّدين بالقوّة القُدسيّة المتعلِّقين بكلا العالَمين الرُّوحاني والجسماني، ليتلقَّوا مِن جانب ويُلقُوا إلى جانب.

وقوله: ﴿مَلَكًا﴾ يحتمل أن يكون حالًا مِن ﴿رَسُولًا﴾ وأن يكون موصوفًا به، وكذلك ﴿بَشَرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾.[١] والأوّل أولى.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم ثانيًا مِن جهتك بعد ما قلتَ لهم مِن قِبَلنا ما قلتَ وبيَّنتَ لهم ما يقتضيه الحكمةُ في البعثة، ولم يرفعوا إليه رأسًا: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ وحدَه ﴿شَهِيدًا﴾ على أنّي أدّيتُ ما عليّ مِن مواجب الرسالة أكملَ أداء، وأنّكم فعلتُم ما فعلتُم مِن التكذيب والعِناد. وتوجيه الشهادة إلى كونه عليه السلام رسولًا بإظهار المعجِزة على وَفق دعواه كما اختيرَ،[٢] لا يساعده قوله تعالى: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وما بعده مِن التعليل. وإنّما لم يقل: "بيننا" تحقيقًا للمفارَقة وإبانةً للمبايَنة. و﴿شَهِيدًا﴾ إمّا حال أو تمييز.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ مِن الرسل والمرسَل إليهم ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ محيطًا بظواهر أحوالهم وبواطنها فيُجازيهم على ذلك، وهو تعليل للكفاية. وفيه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتهديدٌ للكفار.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾

[٣٩٣و] ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ كلام مبتدأ يفصِّل ما أشار إليه الكلام السابق / مِن مُجازاة العبادِ إشارةً إجماليّة، أي: مَن يهدِه الله إلى الحقّ بما جاء مِن قبله مِن الهدى ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ إليه وإلى ما يؤدّي إليه مِن الثواب، أو المهتدي إلى كلّ مطلوب.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٢٠.

﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ أي: يخلُقْ فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ﴾ أوثرَ ضمير الجماعة اعتبارًا لمعنى ﴿مَن﴾ غِبَّ ما أوثرَ في مقابِله الإفرادُ نظرًا إلى لفظها تلويحًا بوَحدة طريق الحقّ وقلّة سالكيه وتعدُّد سُبل الضلال وكثرة الضُلّال.

﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ مِن دون الله تعالى، أي: أنصارًا يهدونهم إلى طريق الحقّ، أو إلى طريق يوصِلهم إلى مطالبهم الدنيويّة أو الأخرويّة، أو إلى طريق النجاة مِن العذاب الذي يستدعيه ضلالهم، على معنى لن تجِد لأحد منهم وليًّا على ما تقتضيه قضيّة مقابلةِ الجَمْع بالجَمْع مِن انقسام الآحادِ إلى الآحاد.

﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ﴾ التفات مِن الغَيبة إلى التكلّم إيذانًا بكمال الاعتناء بأمر الحشر ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ حال مِن الضمير المنصوب، أي: كائنين عليها سَحْبًا، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ [القمر، ٤٨/٥٤] أو مَشيًا، فقد رُوي أنّه قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «كيف يمشون على وجوههم؟» قال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يُمشِيَهم على وجوههم».[١]

﴿عُمۡيٗا﴾ حال مِن الضمير المجرور في الحال السابقة ﴿وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ لا يُبصِرون ما يُقِرّ أعينَهم، ولا ينطِقون ما يُقبل منهم، ولا يسمَعون ما يُلِذّ مسامعَهم، لِما قد كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعِبر، ولا ينطِقون بالحقّ ولا يستمعونه. ويجوز أن يُحشَروا بعد الحساب مِن الموقف إلى النار مُوفي القُوى والحواسّ، وأن يحشروا كذلك ثمّ يعاد إليهم قُوَاهم وحواسُّهم، فإنّ إدراكاتِهم بهذه المشاعر في بعض المواطن ممّا لا ريبَ فيه.

﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ إمّا حال أو استئناف، وكذا قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ أي: كلّما سكَن لهبُها بأن أكَلت جلودَهم ولحومهم، ولم يبقَ فيهم ما تتعلّق به النار وتُحرِقه،[٢] زدناهم توقّدًا بأن بدّلناهم جلودًا غيرَها فعادت مُلتهِبةً ومُستعِرةً.

---

١ الحديث بمعناه عن أنس بن مالك في صحيح البخاري، ١٠٩/٨ (٦٥٢٣)؛ وصحيح مسلم، ٢١٦١/٤ (٢٨٠٦)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٢/٢.

٢ ط س: وتحرقها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

ولعلّ ذلك عقوبة لهم على إنكارهم الإعادةَ بعد الفناء بتكريرها مرّة بعد أخرى ليرَوها عِيانًا حيث لم يعلموها برهانًا، كما يفصِح عنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ / أي: ذلك العذاب ﴿جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ العقليّة والنقليّة الدالّة على صحّة الإعادة دلالةً واضحة، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأٌ و﴿جَزَآؤُهُم﴾ خبرُه. ويجوز أن يكون مبتدًا ثانيا و﴿بِأَنَّهُمْ﴾ خبرُه والجملة خبر لـ﴿ذَٰلِكَ﴾، وأن يكون ﴿جَزَآؤُهُم﴾ بدلًا مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أو بيانًا له والخبرُ هو الظرف. [٣٩٣ظ]

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ منكرِين أشدَّ الإنكار ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد مِن غير لفظه، أي: لَمَبعوثون بعثًا جديدًا، وإمّا حال، أي: مخلوقين مستأنَفين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: ألم يتفكّروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مِن غير مادّة مع عِظَمها ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في الصِغَر، على أنّ "المِثل" مقحَم، والمراد بالخَلْق الإعادة، كما عُبّر عنها بذلك حيث قيل: خلقًا جديدًا.

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ عطفٌ على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ فإنّه في قوّة "قد رأوا"، والمعنى قد علموا أنّ مَن قدَر على خلقِ السماوات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم مِن الإنس وجَعَل لهم ولبعثهم أجلًا محقَّقًا لا ريبَ فيه هو القيامة.

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وُضع موضعَ الضمير تسجيلًا عليهم بالظلم وتجاوُز الحدّ بالمرّة ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جُحودًا.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ خزائن رزقه التي أفاضها على كافّة الموجودات، و﴿أَنتُمْ﴾ مرتفِع بفعل يفسّره المذكور، كقول حاتم: «لو ذاتُ سِوار

لَطَمَتْني»،[١] وفائدة ذلك المبالغةُ والدلالةُ على الاختصاص. ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ لبخِلتم ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ مخافة النَّفَاد بالإنفاق، إذ ليس في الدنيا أحد إلّا وهو يختار النفع لنفسه، ولو آثَر غيرَه بشيء فإنّما يُؤثره لعِوَض يفوقه، فإذن هو بخيل بالإضافة إلى جُود الله سبحانه.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ مبالِغًا في البُخل؛ لأنّ مبنى أمره على الحاجة والضِّنّة بما يحتاج إليه وملاحظةِ العِوَض بما يبذُله.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على نبوّته وصِحّة
[٣٩٤و] ما جاء به / مِن عند الله، وهي العَصا واليد والجَراد والقُمّل والضفادع والدم والطوفان والسِّنون ونقص الثمرات. وقيل: انفجار الماء مِن الحَجر ونتْقُ الطُّور على بني إسرائيلَ وانفلاقُ البحر بدلَ الثلاث الأخيرة.[٢] ويأباه أنّ هذه الثلاث لم تكن مُنزَلة إذ ذاك، وأنّ الأوّلَين لا تعلُّقَ لهما بفرعونَ وإنّما أوتيهما بنو إسرائيلَ.

وعن صفوانَ بن عسّال[٣] أنّ يهوديًا سأل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عنها، فقال: «ألّا تشركوا به شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتُلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحقّ، ولا تسحَروا، ولا تأكُلوا الرِّبا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتُله، ولا تقذِفوا مُحصَنة، ولا تفِرّوا مِن الزحف، وعليكم خاصّة اليهود ألّا تعْدوا في السبت»،[٤] فقبّل اليهودي يدهُ ورِجله عليه السلام. ولا يُساعده أيضًا ما ذُكر،

---

١ مَثَل للعرب، ويُروى أيضًا: «لو غير ذات سِوار لطمتني»، والمعنى لو ظلمني مَن كان كفئًا لي لهان عليّ. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ١٧٢/٢، ٢٠٢، وهو في الكشّاف للزمخشري، ٥١٣/٢، على ما نحن فيه.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٢/٢.

٣ هو صفوان بن عسّال مِن بني الربض بن زاهر بن عويثان بن زاهر المرادي، سكن الكوفة، أسلم وصحب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وروى عنه أحاديث، اشتهر ممّا رواه حديث المسح على الخفّين وفضل العلم والتوبة. يُذكَر أنّه غزا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم اثنتي عشرة غزوةً. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٦٥/٦؛ والاستيعاب لابن عبد البرّ، ٧٢٤/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٤٣٦/٣.

٤ مسند أحمد، ١٢/٣٠ (١٨٠٩٢)؛ سنن الترمذي، ٣٦/٥ (٢٧٣٣)؛ سنن النسائي، ١١١/٧ (٤٠٧٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٣/٢.

ولعلّ جوابَه عليه السلام بذلك لِما أنّه المُهمّ للسائل، وقبولَه لِما أنّه كان في التوراة مسطورًا، وقد عُلِم أنّه ما علِمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلّا مِن جهة الوحي.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وقرئ: "فَسَلْ"،[١] أي: فقلنا له: سلْهم مَن فرعون؟ وقل له: أرسِل معي بني إسرائيلَ أو سَلْهم عن إيمانهم، أو عن حال دينهم، أو سَلْهم أن يعاضدوك. ويؤيّده قراءة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على صيغة الماضي.[٢] وقيل: الخطاب للنبيّ عليه السلام، أي: فاسألهم عن تلك الآياتِ لتزدادَ يقينًا وطُمَأنينة أو ليَظهَر صِدقك.[٣] ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ متعلِّق بـ"قلنا" وبـ"سأل" على القراءة المذكورة وبـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، أو بمضمر هو "يخبِروك" أو" اذكُر" على تقدير كون الخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم.

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾ "الفاء" فصيحة أي: فأظهَر عند فرعونَ ما آتيناه مِن الآيات البيّنات وبلّغه ما أُرسِل به، فقال له فرعونُ: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ / سُحِرتَ فتخبّط عقلك. [٣٩٤ظ]

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني الآياتِ التي أظهرها ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقُهما ومدبِّرهما، والتعرّض لربوبيّته تعالى لهما للإيذان بأنّه لا يقدِر على إيتاء مثلِ هاتيك الآيات العِظام إلّا خالقُهما ومدبِّرهما. ﴿بَصَآئِرَ﴾ حال مِن الآيات، أي: بيّنات مكشوفات تُبصِّرك صدقي، ولكنّك تعاند وتكابر، نحوُ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل، ١٤/٢٧]، ومِن ضرورة ذلك العلمِ العلمُ بأنّه عليه السلام على كمال رصانة العقل فضلًا عن توهّم المسحوريّة.

---

[١] قرأ بها الكسائي وابن كثير. النشر لابن الجزري، ١٥١/٢-١٥٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٣.

[٣] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٢/٢.

وقرئ: "عَلِمْتُ"[١] على صيغة التكلّم، أي: لقد علمتُ بيقين أنّ هذه الآياتِ الباهرةَ أنزلها الله عزّ سلطانه فكيف يُتوهَّم أن يحوم حولي سِحر؟

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ مصروفًا عن الخير مطبوعًا على الشرّ، مِن قولهم: ما ثَبرك عن هذا؟ أي: ما صرَفك؟ أو هالكًا. ولقد قارع عليه السلام ظنَّه بظنّه وشتّان بينهما، كيف لا، وظنُّ فرعونَ إفك مُبين، وظنُّه عليه السلام يُتاخِم اليقين.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾

﴿فَأَرَادَ﴾ أي: فرعونُ ﴿أَن يَسۡتَفِزَّهُم﴾ أي: يستخِفَّهم ويُزعجَهم ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضِ مصرَ أو مِن الأرض مطلقًا بالقتل، كقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف، ١٢٧/٧]، ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ فعكسنا عليه مَكْره، واستفززناه وقومَه بالإغراق.

﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ١٠٤﴾

﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ مِن بعد إغراقِهم ﴿لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ التي أراد أن يستفزّكم منها ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الكرّةُ الآخرة، أو الحياة، أو الساعة، أو الدار الآخرة، أي قيامُ القيامة ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ مختلطِين إيّاكم وإيّاهم، ثمّ نحكُم بينكم ونُميّز سعداءكم مِن أشقيائكم. واللفيف: الجماعاتُ مِن قبائلَ شتّى.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: وما أنزلنا القرآنَ إلّا ملتبِسًا بالحقّ
[٣٩٥و] المقتضي لإنزاله، وما نزَل إلّا ملتبِسًا بالحقّ الذي اشتمل عليه، أو / ما أنزلناه مِن السماء إلّا محفوظًا وما نزَل على الرسول إلّا محفوظًا مِن تخليط الشياطين، ولعلّ المرادَ بيان عدم اعتراء البطلان له أوّلَ الأمر وآخره.

---

[١] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٠٩/٢.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ للمطيع بالثواب ﴿وَنَذِيرٗا﴾ للعاصي مِن العقاب، وهو تحقيق لحقيّة بعثته عليه السلام إثرَ تحقيق حقّيّة إنزال القرآن.

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾

﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ منصوب بمضمر يفسِّره قوله تعالى: ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ وقُرئ بالتشديد[1] دلالة على كثرة نجومِه. ﴿لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ على مَهل وتثبّت، فإنّه أيسرُ للحفظ وأعونُ على الفهم، وقرئ بالفتح،[2] وهو لغة فيه. ﴿وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ حسبما يقتضيه الحكمةُ والمصلحة ويقع مِن الحوادث والواقعات.

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧﴾

﴿قُلۡ﴾ للذين كفروا ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ فإنّ إيمانكم به لا يزيده كمالًا وامتناعَكم عنه لا يورثه نقصًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾ أي: العلماءَ الذين قرأوا الكتب السالفة مِن قبل تنزيله وعرَفوا حقيقة الوحي وأماراتِ النبوّة وتمكّنوا مِن التمييز بين الحقِّ والباطل والمُحقِّ والمبطِل، أو رأوا فيها نعتك ونَعْت ما أنزل إليك ﴿إِذَا يُتۡلَىٰ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ أي: يسقطون على وجوههم ﴿سُجَّدٗا﴾ تعظيمًا لأمر الله تعالى، أو شكرًا لإنجاز ما وعَد به في تلك الكتب مِن بعثتك.

وتخصيص "الأذقان" بالذِّكر للدلالة على كمال التذلّل، إذ حينئذ يتحقّق الخُرور عليها، وإيثارُ "اللام" للدلالة على اختصاص الخُرور بها، كما في قوله:

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن عبّاس ومجاهد وابن مِقسَم والحسن وقتادة والزَّعفراني وابن محيصن وحُميد وأبان عن عاصم والشافعي عن ابن كثير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٤٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة والزعفراني والضحّاك وأبان عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٤٦.

فخرّ صريعًا لليدين وللفم[١]

وهو تعليل لِما يُفهَم مِن قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ مِن عدم المبالاة بذلك، أي: إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسنَ إيمانٍ مَن هو خير منكم. ويجوز أن يكون تعليلًا لـ﴿قُلۡ﴾ على سبيل التسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كأنّه قيل: تسلَّ بإيمان العلماء عن إيمان الجهلة ولا تكترث بإيمانهم وإعراضهم.

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ في سجودهم ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَا﴾ عمّا يفعل الكفَرة مِن التكذيب، أو عن خُلْف وعده ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾ ﴿إِن﴾ مخفَّفة مِن المثقَّلة، و"اللام" فارقة، أي: إنّ الشأن هذا.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾

[٣٩٥ظ] ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ﴾ / كرّر الخُرور للأذقان لاختلاف السبب فإنّ الأوّل لتعظيم أَمر الله تعالى أو الشكر لإنجاز الوعد، والثاني لِما أثّر فيهم مِن مواعظ القرآن حالَ كونهم باكين مِن خشية الله. ﴿وَيَزِيدُهُمۡ﴾ أي: القرآنُ بسماعهم ﴿خُشُوعٗا۩﴾ كما يزيدهم عِلمًا ويقينًا بالله تعالى.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ نزل حين سمع المشركون رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا الله يا رحمنُ»، فقالوا: إنّه ينهانا عن عبادة إلهين،

---

١ عجز بيت، صدره:

تناوله بالرمح ثمّ اتّنى له

البيت لجابر بن حُنَيّ التغلبي في المفضّليّات للضّبّي، ص ٢١٢؛ والعجز بلا نسبة في التفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٠٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٥. وانظر تفصيل الكلام عليه في شرح أبيات المغني للبغدادي، ٤/٢٨٦-٢٩١.

وهو يدعو إلهًا آخرَ. وقالت اليهود: إنّك لتُقِلّ ذِكر "الرحمن" وقد أكثره الله تعالى في التوراة. والمراد على الأوّل هو التسوية بين اللفظين بأنّهما عبارتان عن ذات واحدة وإن اختلف الاعتبار، والتوحيدُ إنّما هو للذات الذي هو المعبود، وعلى الثاني أنّهما سِيّان في حُسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود، وهو أوفَق لقوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

والدعاء بمعنى التسمية، وهو يتعدّى إلى مفعولين حُذف أوّلهما استغناءً عنه. و﴿أَوِ﴾ للتخيير. والتنوينُ في ﴿أَيًّا﴾ عِوض عن المضاف إليه، و﴿مَّا﴾ مزيدةٌ لتأكيد ما في "أيّ" مِن الإبهام. والضمير في ﴿لَهُ﴾ للمسمّى؛ لأنّ التسميةَ له لا للاسم. وكان أصلُ الكلام أيًّا ما تدعوا فهو حسَن، فوُضع موضعَه ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه، إذ حُسْن جميع أسمائه يستدعي حُسْن ذينك الاسمين، وكونُها حُسنى لدلالتها على صفات الكمال مِن الجلال والجمال والإكرام.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءة صلاتك، بحيث تُسمع المشركين، فإنّ ذلك يحمِلهم على السبّ واللّغو فيها، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي: بقراءتها بحيث لا تُسمِع مَن خلفك مِن المؤمنين، ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الجهر والمخافَتة على الوجه المذكور ﴿سَبِيلًا﴾ أمرًا وسَطًا قَصْدًا، فإنّ خير الأمور أوساطها. والتعبير عن ذلك بـ"السبيل" باعتبار أنّه أمر يتوجّه إليه المتوجِّهون ويؤمّه المقتدون ويُوصِلهم إلى المطلوب.

ورُوي أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان يخفِت ويقول: «أناجي ربّي وقد علِم حاجتي»، وعمرُ رضي الله عنه / كان يجهَر بها ويقول: «أطرُد الشيطان [٣٩٦و]
وأوقظ الوَسْنان». فلمّا نزلت أمَر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبا بكر أن يرفعَ قليلًا وعمرَ أن يخفِض قليلًا.[1] وقيل: المعنى لا تجهَر بصلاتك كلِّها ولا تُخافت بها بأسرها وابتغِ بين ذلكِ سبيلًا بالمُخافتة نهارًا والجهر ليلًا. وقيل:

---

[1] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٣٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٢٤-٣٢٥.

بصلاتك بدعائك.[١] وذهب قوم إلى أنّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف، ٧/٥٥].[٢]

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما تزعم اليهود والنصارى وبنو مليح، حيث قالوا: عزيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله، والملائكةُ بنات الله، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي: الألوهيّة، كما يقوله الثَّنَويّة القائلون بتعدّد الآلهة. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ ناصر ومانع منه لاعتزازه به، أو لم يُوالِ أحدًا مِن أجل مَذلّة ليدفعها به.

وفي التعرّض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذانٌ بأنّ المستحقَّ للحمد مَن هذه نُعوته دونَ غيره؛ إذ بذلك يتمّ الكمال والقُدرة التامّة على الإيجاد. وما يتفرّع عليه مِن إفاضة أنواع النِّعم وما عداه ناقص مملوكُ نعمة أو منعَمٌ عليه، ولذلك عُطف عليه قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾، وفيه تنبيه على أنّ العبد وإن بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في الطاعة والتحميد ينبغي أن يعترِف بالقصور في ذلك.

رُوي أنّه عليه السلام كان إذا فصُح[٣] الغلامُ مِن بني عبد المطّلب علّمه هذه الآية.[٤] وعنه صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة بني إسرائيلَ فرَقّ قلبه عند ذِكر الوالدَين كان له قنطار في الجنّة».[٥] والقنطار: ألف أُوقيّة ومائتا أُوقيّة.

الحمدُ لله سبحانه، وله الكبرياء والعظمة والجبروت.[٦]

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٦.

٣ كذا في الأصول، وفي المصادر: أفصح.

٤ عمل اليوم والليلة لابن السُّنّي، ص ٣٧٤ (٤٢٤)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦/٥١٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٦.

٥ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ١٦/١٧٤ (الإسراء، ١٧/١)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣/٩٣ (الإسراء، ١٧/١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٦. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٦ وفي هامش م: إلى هنا انتهتِ المطالعة بفضله عزّ سلطانه، في ٨ ربيع الأوّل لسنة سبع وخمسين وتسعمائة، حامدًا ومُكبِّرًا ومُصلّيًا.

١٧

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

مكية إلاّ «وإن كادوا ليفتنونك» الآياتِ الثمانَ، مِائَةٌ وعشرُ آيات أو إحدى عشْرةَ.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿سُبحانَ﴾ أي: تنزيهَ ﴿الَّذِي أسرَى بِعَبدِهِ﴾ مُحمّد ﴿لَيلاً﴾ ـ نصبٌ على الظرف. والإسراء: سير الليل، وفائدةُ ذكره الإشارةُ بتنكيره إلى تقليل مُدّته ـ ﴿مِنَ المَسجِدِ الحَرامِ﴾ أي: مكّةَ ﴿إِلَى المَسجِدِ الأقصَى﴾: بيت المَقدس لبُعده منه ﴿الَّذِي بارَكْنا حَولَهُ﴾ بالثمار والأنهار، ﴿لِنُرِيَهُ مِن آياتِنا﴾:

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

قولُهُ: (تنزِيه) يعني: ﴿سبحانَ﴾ اسمٌ بمعنى التَّسبيحِ الَّذي هو التَّنزيهُ، وانتصابُه بفعلٍ متروكٌ إظهارُه، صدرَ به للتَّنزيهِ عن العَجزِ عمَّا ذُكرَ بعدُ.

قولُهُ: (مدَّتِه) أي: الإسراءِ، قالَ الفاضلُ[١]: الظَّرفُ المنصوبُ ظاهرُهُ الاستيعابُ إلَّا بدليلٍ، وهو هنا إخبارُ النبيِّ ﷺ، والتَّنكيرُ للتَّعظيم.

قولُهُ: (أي مكَّةَ): أو الحرمِ، أو المسجدِ بعينِه وهو الأظهرُ.

قولُهُ: (لِبُعْدِهِ) أو لأنَّهُ لم يكُنْ حينئذٍ وراءَهُ مسجدٌ.

قولُهُ: (بالثِّمَارِ) الأَولى: ببركاتِ الدِّينِ والدُّنيا؛ لأنَّهُ مهبِطُ الوَحْيِ ومتعبَّدُ الأنبياءِ من لدُنْ موسَى، ومحفوفٌ بالأنهارِ والأشجارِ[٢].

---

(١) في (ص): «القاضي». والنص ليس عند القاضي، وهذا الفاضل لعله الفاضل اليمني يحيى بن القاسم بن عمر عز الدين الصنعاني، له «درر الأصداف في حل عقد الكشاف»، و«تحفة الأشراف في كشف غوامض الكشاف» توفي سنة (٧٥٠هـ). انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٤٧٥).

(٢) وانظر: «الكشاف» (٢/ ٦٤٨).

عجائب قُدرتنا! ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: العالِمُ بأقوال النبيّ وأفعاله، فأنعم عليه بالإسراءِ المُشتمل على اجتماعه بالأنبياء وعُروجِه إلى السماء ورؤيةِ عجائب الملكوت ومناجاتِه له تعالى. فإنه ﷺ قال:

«أُتِيتُ بالبُراق ـ وهو دابّةٌ أبيضُ فَوقَ الحِمارِ ودُونَ البَغلِ، يَضعُ حافِرَهُ عِندَ مُنتهَى طَرْفِهِ ـ فرَكبتُهُ فسارَ بِي حَتَى أَتَيتُ بَيتَ المَقدِسِ، فرَبَطتُ الدابّةَ بالحَلقةِ الّتِي تَربطُ فِيها الأنبياءُ، ثُمّ دَخلتُ فصَلَّيتُ فِيهِ رَكعتَينِ، ثُمّ خَرَجتُ فجاءنِي جِبرِيلُ بإناءٍ مِن خَمرٍ وإناءٍ مِن لَبَنٍ، فاختَرتُ اللَّبنَ. قالَ جِبريلُ: أصَبتَ الفِطرةَ.

قالَ: ثُمّ عرَجَ بي إلى السَّماءِ الدُّنيا، فاستَفتحَ جِبرِيلُ. قِيلَ: مَن أنتَ؟ قالَ: جِبرِيلُ. قِيلَ: ومَن مَعَكَ؟ قالَ: مُحمّدٌ. قِيل:..

قولُهُ: (عَجَائِب قُدْرَتنَا) كذهابِهِ في برهةٍ مِن اللَّيلِ مسيرةَ شهرٍ، ومشاهدتِهِ بيتَ المقدسِ، وتمثُّلِ الأنبياءِ له، ووقوفِهِ على مقاماتِهِم، وصَرفُ الكلامِ من الغيبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لتعظيمِ تلك البركاتِ والآياتِ.

قولُهُ: (بالبُرَاقِ) بضمِّ الباءِ مأخوذٌ مِن البَرقِ؛ للمَعانِهِ ولسرعةِ سيرِهِ.

قولُهُ: (أَبيَضُ) الظَّاهرُ: بيضاءُ، ولعلَّهُ خبرٌ ثانٍ.

قولُهُ: (طَرْفِهِ) بسكونِ الرَّاءِ؛ أي: نظرِهِ.

قولُهُ: (بالحَلْقةِ) وهي بإسكانِ اللَّامِ على الأشهَرِ، والمرادُ: حلقَةُ بابِ مسجدِ بيتِ المقدسِ.

قولُهُ: (بهَا) وفي نسخةٍ: «فيها»، والأوَّلُ أولى.

قولُهُ: (الأنبياءُ) أي: دوابَّهُم، أو البُراقَ، والجمهورُ على أنَّهُ كانَ معدًّا لركوبِ الأنبياءِ[1].

قولُهُ: (الفِطرَةَ) لمناسَبةٍ بينَها وبينَهُ، قالَ القرطبيُّ[2]: يحتملُ أن يكونَ سببُ تسميَةِ اللَّبنِ فطرةً لكونِهِ أوَّلَ شيءٍ يدخلُ جوفَ المولودِ.

وقالَ النَّوويُّ: المرادُ بالفطرةِ هنا: الإسلامُ والاستقامَةُ.

قال: ومعناهُ ـ واللهُ أعلَمُ ـ: اخترتَ علامةَ الإسلامِ والاستقامَةِ.

قالَ: وجعلَ اللَّبنَ علامةً لكونِهِ سهلاً طيِّباً طاهراً سائغاً للشَّاربينَ سليمَ العاقِبةِ، وأمَّا الخمرُ فإنَّها أمُّ الخبائِثِ، وجالبةٌ لأنواعِ الشَّرِّ في الحالِ والمآلِ[3].

---

(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٢٠٧).

(٢) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» لابي العباس القرطبي (١/ ٣٨٨)، و«فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٢١٥).

(٣) انظر: «شرحه على مسلم» (٢/ ٢١٢).

وقَد أُرسِلَ إلَيهِ؟ قالَ: أُرسِلَ إليهِ. ففُتِحَ لَنا فإذا أنا بآدمَ، فرَحَّبَ بي ودَعا لي بخَيرٍ. ثُمّ عُرِجَ بنا إلى السّماءِ الثّانيةِ فاستَفتَح جِبريلُ، فقِيلَ: مَن أنتَ؟ فقال: جبريلُ. قِيلَ: ومَن مَعَكَ؟ قالَ: مُحمّدٌ. قِيلَ: وقَد بُعِثَ إليهِ؟ قالَ: قَد بُعِثَ إلَيهِ. ففُتِحَ لنا فإذا أنا بابنَي الخالةِ: يحيَى وعِيسَى، فرَحَّبا بي ودَعَوَا لي بخَيرٍ. ثُمّ عُرِجَ بنا إلى السّماءِ الثّالثةِ فاستَفتحَ جِبرِيلُ، فقِيلَ: مَن أنتَ؟ قالَ: جِبرِيلُ. فقِيلَ: ومَن مَعَكَ؟ قالَ: مُحمّدٌ. فقِيلَ: وقَد أُرسِلَ إليهِ؟ قالَ: قَد أُرسِلَ إليهِ. ففُتِحَ لنا فإذا أنا بيُوسُفَ، وإذا هُو قَد أُعطِيَ شَطرَ الحُسنِ، فرَحّبَ بي ودَعا لي بخَيرٍ. ثمّ عُرِجَ بنا إلى السّماءِ الرّابعةِ فاستَفتَحَ جِبرِيلُ، فقِيلَ: مَن أنتَ؟ قالَ: جِبرِيلُ. فقِيلَ: ومَن مَعَكَ؟ قالَ: مُحمّدٌ. فقِيلَ: وقَد أُرسِلَ إليهِ؟ قالَ: قَد بُعِثَ إليهِ. ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإدرِيسَ، فرَحّبَ بي ودَعا لي بخَيرٍ.

ثُمّ عُرِجَ بنا إلى السّماءِ الخامِسةِ فاستَفتَحَ جِبرِيلُ، فقِيلَ: مَن أنتَ؟ قالَ: جِبرِيلُ. فقِيلَ: ومَن مَعَكَ؟ قالَ: مُحمّدٌ. فقيل: وقَد أرسِلَ إليهِ؟ قالَ: قَد بُعِثَ إليهِ. ففُتِحَ لنا فإذا أنا بهارُونَ، فرَحّبَ بي ودَعا لي بخَيرٍ. ثُمّ عُرِجَ بنا إلى السّماءِ السّادِسةِ فاستَفتَحَ جِبرِيلُ، فقِيلَ: مَن أنتَ؟ فقالَ: جِبرِيلُ. فقِيلَ: ومَن مَعَكَ؟ قالَ: مُحمّدٌ. فقِيلَ: وقَد بُعِثَ إليه؟ قالَ: قد بُعِثَ إليهِ. ففُتِحَ لنا فإذا أنا بمُوسَى، فرَحّبَ بي ودَعا لي بخَيرٍ. ثُمّ عُرِجَ بنا إلى السّماءِ السّابِعةِ فاستَفتَح جبرِيلُ، فقِيلَ: مَن أنتَ؟ قالَ: جِبرِيلُ. فقِيلَ: ومَن مَعَكَ؟ قالَ: مُحمّدٌ. قِيلَ: وقَد بُعِثَ إليهِ؟ قال: قَد بُعِثَ إليه. ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهِيمَ، فإذا هو مُستَندٌ إلى البَيتِ المَعمُورِ، وإذا هو يَدخُلُه كُلَّ يومٍ سَبعُونَ ألفَ مَلَكٍ، ثُمّ لا يَعُودُونَ إليهِ.

قولُهُ: (أُرسِلَ إليهِ) أي: بالعُروجِ؛ لأنَّ أصلَ بعثَتِهِ قد اشتُهِرَ في الملكُوتِ الأعلى.

قولُهُ: (فرحَّبَ) أي: قالَ: مرحباً.

قولُهُ: (شطْرَ الحُسْنِ) الأقربُ: أنّهُ شطرُ حسْنِ أهلِ زمانِه، وقالَ ابنُ المنيِّرِ: شطرُ الحسنِ الّذي أُوتيهُ نبيُّنا ﷺ[1].

وقيل: المرادُ غيرُ النبيِّ ﷺ.

قولُهُ: (البَيْتِ المَعْمُورِ) مسجدٌ في السَّماءِ بحِذاءِ الكَعْبةِ لو خَرَّ لخرَّ عليها[2].

قولُهُ: (يَدْخلُهُ) رواهُ الطَّبريُّ مرفوعاً[3]، وفيهِ دليلٌ على عَظيمِ قدرتِهِ تعالى وكثرةِ ملائكتِهِ.

---

(١) وانظر: «فتح الباري» (٧/ ٢١٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٥٦) عن قتادة مرسلًا.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٤٥٥) من حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.
وهو عند البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) مطولاً.

ثُمّ ذَهَبَ بي إلى سِدرةِ المُنتهَى، فإذا أوراقُها كآذانِ الفِيَلةِ، وإذا ثَمرُها كالقِلالِ. فلَمّا غَشِيَها مِن أمرِ اللهِ ما غَشِيَها تَغَيّرتْ، فما أحَدٌ مِن خَلقِ اللهِ ـ تعالَى ـ يَستَطِيعُ أن يَصِفَها مِن حُسنها.

قال: فأوحَى اللهُ إليّ ما أوحَى، وفَرَضَ عليّ في كُلِّ يَومٍ ولَيلةٍ خَمسِينَ صَلاةً، فنزَلتُ حتّى انتَهَيتُ إلى مُوسَى، فقالَ: ما فَرَضَ رَبُّكَ على أُمّتِكَ؟ قلتُ: خَمسِينَ صَلاةً في كُلِّ يومٍ ولَيلةٍ. قالَ: ارجِعْ إلى رَبِّكَ فاسألْهُ التَّخفِيفَ. فإنّ أُمّتَكَ لا تُطِيقُ ذلِكَ، وإنّي قَد بَلَوتُ بَنِي إسرائيلَ وخَبرتُهُم. قالَ: فرَجَعتُ إلى رَبِّي فقُلتُ: أيْ رَبِّ، خَفِّفْ عَن أُمّتِي. فحَطَّ عَنّي خَمسًا. فرَجَعتُ إلى مُوسَى. قالَ: ما فَعَلتَ؟ فقُلتُ: قَد حَطَّ عَنّي خَمسًا. قالَ: إنّ أُمّتَكَ لا تُطِيقُ ذلِكَ. فارجِعْ إلى رَبِّكَ فاسألْهُ التَّخفِيفَ لِأمّتِكَ.

قالَ: فلَم أزَلْ أرجِعُ بَينَ رَبِّي وبَينَ مُوسَى، ويَحُطُّ عَنّي خَمسًا خَمسًا، حتَّى قالَ: يا مُحمّدُ، هِيَ خمسُ صَلَواتٍ في كُلِّ يَومٍ ولَيلةٍ بكُلِّ صَلاةٍ عَشرٌ. فتلكَ خَمسُونَ صلاةً. ومَن هَمَّ بحَسَنةٍ فلَم يَعمَلْها كُتِبتْ لَهُ حَسَنةً، فإنْ عَمِلَها كُتبَتْ لَهُ عَشرًا، ومَن هَمَّ بسَيّئةٍ ولَم يَعمَلْها لَم تُكتَبْ، فإنْ عَمِلَها كُتبَتْ سَيّئةً واحِدةً.

فنَزَلتُ حَتّى انتَهَيتُ إلى مُوسَى، فأخبَرتُهُ فقالَ: ارجِعْ إلى رَبِّكَ، فاسألْهُ التَّخفِيفَ لِأُمّتِكَ. فإنّ أُمّتَكَ لا تُطِيقُ ذلِكَ. فقُلتُ: قَد رجَعتُ إلى ربِّي حَتَّى استَحْيَيتُ».

رواه الشيخان واللفظ لمسلم، وروى الحاكم في «المُستدرك» عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ رَبِّي عَزَّ وجَلَّ».

قولُهُ: (الفِيَلَةِ) كعِنبَةٍ، جمعُ: الفيلِ.

قولُهُ: (كالقِلَالِ) جمعُ قُلَّةٍ، الجرَّةُ العظيمةُ.

قولُهُ: (غشَّاها)(١) بالتَّشديد.

قولُهُ: (وخبَرْتُهُم) عطفُ تفسيرٍ؛ أي: اختبرتُهُم وامتحنتُهُم وجرَّبتُهُم.

قولُهُ: (حَسَنَةً) بالنَّصبِ.

قولُهُ: (رَأَيتُ رَبِّي) بالعينِ أو بالقلبِ، ثمَّ اختُلِفَ: هل كانَ الإسراءُ في المنامِ أو اليقظَةِ، بروحِهِ أو جسَدِهِ؟ فقيل بالتَّعدُّدِ، والأكثرُ على أنَّه أُسريَ بجسَدِهِ إلى بيتِ المقدِسِ ثمَّ عُرِجَ به إلى السَّماواتِ حتَّى انتهى إلى سِدرةِ المنتَهَى، ولذلك تعجَّبَ قريشٌ، والتَّعجُّبُ من لوازمِ المعجِزاتِ.

= ورواه مسلم (١٦٢) من حديث أنس رضي الله عنه. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٤٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(١) في (م): «غشيها».

٢ ـ قال تعالى: ﴿وآتينا مُوسَى الكِتابَ﴾: التوراة، ﴿وجَعَلْناهُ هُدًى لِبَنِي إسرائيلَ﴾، لِـ ﴿ألاّ يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾: يُفوّضون إليه أمرهم ـ وفي قراءة: «تَتَّخِذُوا» بالفَوقانيّة التفاتًا. فـ «أن» زائدة والقول مضمر. ٣ ـ يا ﴿ذُرِّيَّةَ مَن حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة. ﴿إنَّهُ كانَ عَبدًا شَكُورًا﴾: كثيرَ الشكر لنا حامدًا في جميع أحواله ـ ٤ ـ ﴿وقَضَينا﴾: أوحَينا ﴿إلَى بَنِي إسرائيلَ في الكِتابِ﴾: التوراةِ ﴿لَتُفسِدُنَّ في الأرضِ﴾ أرض الشام بالمعاصي ﴿مَرّتَينِ، ولَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: تبغُونَ بغيًا عظيمًا.

٥ ـ ﴿فإذا جاءَ وَعدُ أُولاهُما﴾: أُولى مَرّتَيِ الفسادِ ﴿بَعَثْنا علَيكُم عِبادًا لَنا أُولِي بأسٍ شَدِيدٍ﴾: أصحابَ قُوّةٍ في الحرب وبطشٍ، ﴿فجاسُوا﴾: تردّدوا لطلبكم ﴿خِلالَ الدِّيارِ﴾: وسْطَ دياركم ليقتلوكم أو يَسبُوكم، ....

قَالَ تعَالى: (﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا﴾) أي: «لئلَّا يتَّخذوا» كما في نسخةٍ، إشارةٌ إليه بزيادةِ اللَّامِ، أو التَّقديرُ: كراهةَ أن يتَّخذوا.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ البصريِّ[١].

قولُهُ: (فـ «أَنْ» زائِدةٌ والقَوْلُ مُضْمرٌ) وفيه: أنَّه إذا قيلَ بالالتِفاتِ فلا يحتاجُ إلى القولِ بالزِّيادةِ وإضمارِ القَولِ، أو: مفسِّرةٌ كقولك: كتبتُ إليه أنِ افعَلْ.

قولُهُ: (يَا ﴿ذرِّيَّةَ﴾) يعني: منصوباً بالنِّداءِ، وقيل: على الاختِصاصِ[٢]، وفيهِ تذكيرٌ بإنعامِ اللهِ عليهم في إنجاءِ آبائِهم من الغرقِ.

قولُهُ: (أَوْحَينَا) وحياً مقضِيًّا مَبتوتاً، ففيهِ تضمينٌ لتعديَتِهِ بـ ﴿إلى﴾، أو التقديرُ: قضَينا وحكَمْنا مُنهِينَ.

قولُهُ: (أَرْضِ الشَّامِ) جوابُ قسمٍ محذوفٍ[٣].

وقولُهُ تعالى: (﴿مَرَّتَيْنِ﴾) أي: إفسادتَينِ.

قولُهُ: (تَبْغُونَ) بالاستِكبارِ عن طاعَةِ اللهِ، أو بالظُّلمِ على النَّاسِ.

قولُهُ: (أُولَى) أي: عقابُ أُولَى، والوعدُ هنا بمعنى الوَعيدِ.

وقولُهُ: (الفَسَادِ) الظَّاهرُ: الإفسادِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩٦).

(٢) انظر: «الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد» (٤/ ١٥٩)، و«الإعراب المفصل» (٦/ ٢٤٠).

(٣) أي: قوله تعالى: ﴿لتفسدن في الأرض﴾ جوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ، ويجوز ان يكون القسم بـ: (قَضَينَا)؛ أي: ليس القسم محذوفاً، بل هو على أن يُجرَى القضاءُ المبتوتُ مُجرَى القَسَم فيكون ﴿لتفسدن﴾ جواباً له؛ كأنه قال: وأقسمنا لتُفسدن.

﴿وكانَ وَعدًا مَفعُولاً﴾ ـ وقد أفسدوا الأُولى بقتلِ زكرياءَ، فبُعث عليهم جالوتُ وجنوده، فقتلوهم وسبَوا أولادهم وخرّبوا بيت المَقدس ـ ٦ ـ ﴿ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الكَرّةَ﴾: الدَّولة والغَلَبة ﴿علَيهِم﴾ بعد مِائة سنة بقتل جالوت، ﴿وأمدَدْناكُم بِأموالٍ وبَنِينَ، وجَعَلْناكُم أكثَرَ نَفِيرًا﴾: عشيرة.

٧ ـ وقلنا: ﴿إن أحسَنتُم﴾ بالطاعة ﴿أحسَنتُم لِأنفُسِكُم﴾ لأنّ ثوابه لها، ﴿وإن أسأتُم﴾ بالفساد ﴿فلَها﴾ إساءتُكم. ....

قولُهُ: (الأُولَى) أي: المرَّة الأُولَى.

قولُهُ: (بِقَتْلِ زَكَرِيَّا)[١] أو قتْلِ شَعْياءَ[٢]، ومخالفَةِ أحكامِ التَّوراةِ.

قولُهُ: (جَالُوتُ) أو بختنصَّرُ[٣] عاملُ كشاسفَ[٤] على بابلَ (وجُنُودُهُ).

قولُهُ: (بَعدَ مئةٍ) أي: على الَّذين بُعِثوا عليكُم.

قولُهُ: (بقَتلِ جَالُوتَ) أي: بأن سلَّطَ داودَ على جالوتَ فقتلَهُ، أو بأن ألْقَى اللهُ في قلبِ بَهْمَن بنِ أسفَنْدِيار لمَّا ورِثَ الملْكَ من جدِّهِ كشاسفَ شفقةً عليهم فردَّ أسراهُم إلى الشَّامِ، وملَّكَ دانيالَ عليهِم فاستَولَوا على مَن كانَ فيها مِن أتباعِ بختنصَّرَ[٥].

قولُهُ: (عَشِيرَةً) ممَّا كنتُم[٦]، والنَّفيرُ: مَن ينفرُ مع الرَّجلِ من قومِهِ[٧].

قولُهُ: (إسَاءَتُكُم) فاللَّام للاختِصاصِ، قالَ القاضِي: فإنَّ وبالَها عليها، وإنَّما ذُكِرَ باللَّامِ ازدِواجاً[٨].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٥٦) عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، وفيه: فكان أول الفسادين: قتل زكريا... إلخ.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٦٢) عن ابن إسحاق بلاغاً.

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٥٧) عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما اعتدوا وعلوا، وقتلوا الأنبياء، بعث الله عليهم ملك فارس بختنصر، وكان الله ملكه سبع مئة سنة، فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس فحاصرها وفتحها، وقتل على دم زكريا سبعين ألفا... ».

(٤) كان ملكاً من ملوك الفرس، وسماه في «تاريخ الطبري» (٣/ ١٧٢): كشتاسب. وانظر: «قصص الأنبياء» لابن كثير (٢/ ٣٢٩).
وقال في «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٤٨): بختنصر عامل لهراسف على بابل.

(٥) انظر: «تاريخ الطبري» (١/ ٥٦٨)، و«أنوار التنزيل» (٣/ ٢٤٨).

(٦) أي: أكثر مما كنتم.

(٧) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٢٤).

(٨) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٤٩).

﴿فإذا جاءَ وَعدُ﴾ المرّةِ ﴿الآخِرةِ﴾ بعثناهم ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُم﴾: يُحزِنوكم بالقتل والسبي حُزنًا يظهر في وجوهكم، ﴿ولِيَدخُلُوا المَسجِدَ﴾ بيتَ المَقدس فيُخرّبوه ﴿كَما دَخَلُوهُ﴾ وخرّبوه ﴿أوّلَ مَرّةٍ، ولِيُتَبِّرُوا﴾: يُهلِكوا ﴿ما عَلَوا﴾: غلبوا عليه ﴿تَتبِيرًا﴾: إهلاكًا. وقد أفسدوا ثانيًا بقتل يحيى، فبُعث عليهم بُختَنَصَّرُ، فقتل منهم ألوفًا وسبَى ذرّيّتهم وخرّب بيت المَقدس. وقلنا في الكتاب: ٨ ـ ﴿عَسَى رَبُّكُم أن يَرحَمَكُم﴾ بعد المرّة الثانية إن تُبتم، ﴿وإن عُدتُم﴾ إلى الفساد ﴿عُدْنا﴾ إلى العُقوبة. وقد عادوا بتكذيب مُحمّد، فسُلّط عليهم بقتل قُريظةَ ونفي النَّضير وضرب الجِزية عليهم، ﴿وجَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلكافِرِينَ حَصِيرًا﴾: مَحبِسًا وسِجنًا.

٩ ـ ١٠ ـ ﴿إنَّ هذا القُرآنَ يَهدِي لِلَّتِي﴾ أي: للطريقة التي ﴿هِيَ أقوَمُ﴾: أعدَلُ وأصوَبُ، ﴿ويُبَشِّرُ المُؤمِنِينَ الَّذِينَ يَعمَلُونَ الصّالِحاتِ أنَّ لَهُم أجرًا كَبِيرًا، و﴾ يُخبرُ.......................

قولُه تعَالى: (﴿وَعْدُ الآخِرَةِ﴾) أي: وعيدُ عقُوبةِ المرَّةِ الآخرةِ.

قولُهُ: (بعَثْنَاهُم) حُذِفَ لدلالةِ ذكرِه أوّلاً عليه[1].

قولُهُ: (يُحزِنُوكُمْ) وابنُ عامرٍ وحمزةُ وأبو بكرٍ: (ليسوءَ) على التَّوحيدِ، والضَّميرُ فيه للوعدِ أو البعثِ أو للهِ، ويعضدُه قراءةُ الكسائيِّ بالنون[2].

قولُهُ: (غَلَبُوا) أو مدَّةَ علوِّهِم.

قولُهُ: (بِقَتْلِ يَحيَى) أو بقتلِ زكريَّا ويحيى وهو الأظهرُ، وقَصْدِ قتلِ عيسَى عليهم السَّلامُ.

قولُهُ: (فبُعِثَ) أو سلَّطَ اللهُ عليهم الفُرسَ مرَّةً أُخرى.

قولُهُ: (بتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ) وقصْدِ قتلِهِ.

قولُهُ: (فَسُلِّطَ) أي: سلَّطَ اللهُ نبيَّهُ.

قولُهُ: (عَلَيهِم) أي: الباقينَ.

قولُهُ: (مَحبِساً) لا يقدرونَ الخروجَ منها أبدَ الآبادِ.

قولُهُ: (للطَّرِيقَةِ) أو الحالَةِ.

قولُهُ: (﴿و﴾ يُخبِرُ) يعني: أنَّه من بابِ:

---

(١) أي: في قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا... ﴾.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩٧، ٣٩٨).

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا﴾: أعددنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: مؤلمًا، هو النار. ١١ ـ ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ على نفسه وأهله إذا ضجر ﴿دُعَاءَهُ﴾ أي: كدعائه له ﴿بِالْخَيْرِ، وَكَانَ الإِنسَانُ﴾ الجنس ﴿عَجُولًا﴾ بالدعاء على نفسه وعدم النظر في عاقبته.

١٢ ـ ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ دالتين على قدرتنا، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: طمسنا نورها بالظلام لتسكنوا فيه ـ والإضافة للبيان ـ ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: مبصرًا فيها بالضوء ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ فيه ﴿فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ﴾ بالكسب.........

عَلَفْتُهَــا تِبْنــاً ومَــاءً بَــارِداً(١)

أو يقالُ: فيه تهكُّمٌ، أو ﴿يُبَشِّرُ﴾ بمعنَى: يخبرُ، على التَّجريدِ، أو المعنَى: أنَّه يُبَشِّرُ المؤمنينَ بشارتَينِ: ثوابِهم وعقابِ أعدائِهم، وهذا ألطفُ معنًى.

وفي قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ: (يَبْشُرُ) بفتحِ الياءِ وضمِّ الشِّينِ(٢).

قولُهُ: (إذا ضَجِرَ) وغضِبَ، أو يدعوهُ بما يحسبُهُ خيراً وهو شرٌّ، فإنَّ الإنسانَ ربَّما يدعُو ويسألُ ما فيه هلاكُهُ، ولذا قالَ سهلٌ: أسلَمُ الدَّعواتِ الذِّكرُ وتركُ الاختيارِ في السُّؤالِ(٣).

قولُهُ: (بالدُّعاءِ) أو يسارعُ إلى كلِّ ما يخطُرُ ببالِهِ، لا ينظرُ عاقبتَهُ.

قولُهُ: (للبيانِ) أي: الآيةَ الَّتي هي اللَّيلُ.

قولُهُ: (أي: مُبْصَراً فيهَا) أو مُضِيئةً، وقيلَ: الآيتانِ القمرُ والشَّمسُ؛ أي: جعلنَا نيِّرَيهِما، أو جعلناهُما ذَوَي آيتينِ، ومحوُ آيةِ اللَّيلِ: جعلُها مظلمَةً في نفسِها مَطْمُوسَةَ النُّورِ، أو نقصُ نُورِها شيئاً فشيئاً إلى المحاقِ، وجعلُ آيةِ النَّهارِ مُبصِرةً: جعلُها ذاتَ شُعاعٍ تُبصَرُ الأشياءُ بضَوئِها.

قولُهُ: (فيهِ) أي: في بياضِ النَّهارِ.

قولُهُ: (بالكَسْبِ) أسبابَ معاشِكُم.

---

(١) صدر بيت أنشده الفراء لبعض بني دُبَير ـ قبيلة من أسد ـ يصف فرسه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤)، و«تفسير الطبري» (١/ ٢٦٤)، وعجزه:

حَتَّــى شَــتَتْ هَمَّالَــةً عَيْنَاهَــا

قال البغدادي في «خزانة الأدب» (٣/ ١٤٠): لا يعرف قائله. ورأيت في حاشية نسخة صحيحة من «الصحاح» أنه لذي الرمة ففتشت ديوانه فلم أجده فيه.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) انظر: «تفسير التستري» (ص: ٩٤).

﴿ولِتَعلَمُوا﴾ بهما ﴿عَدَدَ السِّنِينَ والحِسابَ﴾ للأوقات، ﴿وكُلَّ شَيءٍ﴾ يُحتاج إليه ﴿فَصَّلْناهُ تَفصِيلاً﴾: بيّنّاه تبيينًا، ١٣ ـ ﴿وكُلَّ إنسانٍ أَلزَمْناهُ طائِرَهُ﴾: عمله ﴿في عُنُقِهِ﴾. خُصّ بالذكر لأنّ اللزوم فيه أشدّ. وقال مُجاهد: ما من مولود يُولد إلاّ وفي عُنقه ورقة، مكتوب فيها شقيٌّ أو سعيد. ﴿ونُخرِجُ لَهُ يَومَ القِيامةِ كِتابًا﴾ مكتوبًا فيه عمله ﴿يَلقاهُ مَنشُورًا﴾: صفتان لـ «كتابًا»، ويقال له: ١٤ ـ ﴿اقرَأْ كِتابَكَ، كَفَى بِنَفسِكَ اليَومَ علَيكَ حَسِيبًا﴾: مُحاسِبًا!

١٥ ـ ﴿مَنِ اهتَدَى فإنَّما يَهتَدِي لِنَفسِهِ﴾ لأنّ ثواب اهتدائه له، ﴿ومَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ علَيها﴾ لأنّ إثمه عليها، ﴿ولا تَزِرُ﴾ نفسٌ ﴿وازِرةٌ﴾: آثمةٌ، أي: لا تحملُ ﴿وِزرَ﴾ نفسٍ ﴿أُخرَى، وما كُنّا مُعَذِّبِينَ﴾ أحدًا ﴿حَتَّى نَبعَثَ رَسُولاً﴾ يُبيّنُ له ما يجب عليه، ....

قولُهُ: (بهِمَا) أي: باختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ، أو بحرَكاتِ الشَّمسِ والقمرِ.

قولُهُ: (للأَوقَاتِ) أي: وجِنْسِ الحِسابِ.

قولُهُ: (يُحتَاجُ) في أمرِ الدِّينِ والدُّنيا.

قولُهُ: (تَبْيِيناً) غيرَ مُلتَبسٍ.

قولُهُ: (عَمَلَهُ) وما قُدِّرَ له مِن خيرٍ وشرٍّ وسعادَةٍ وشقاوةٍ لزومَ الطَّوقِ في عُنقِهِ؛ أي: لا ينفكُّ عنه أبداً.

قولُهُ: (مَكتُوباً) قيل: كتاباً كتبتَهُ على نفسِكَ في أيَّامِكَ وساعاتِكَ، وكتاباً كُتِبَ عليكَ في الأزَلِ لا يخالِفُ هذا ذاكَ، ولا ذاكَ هذا.

قولُهُ: (صِفَتَانِ) وابنُ عامرٍ بالضمِّ والتَّشديدِ[١].

قولُهُ: (مُحاسِباً) أو: حاسباً، تمييزٌ، و(على) صفته[٢]، والباءُ زائدةٌ، والتَّذكيرُ على تأويلِ النَّفسِ بالشَّخصِ، وعن عُمرَ: «حاسِبُوا أنفسَكُم قبلَ أن تُحاسَبوا»[٣]، قيل: محاسَبةُ الأبرارِ في الدُّنيا، ومحاسَبةُ الفجَّارِ في العُقْبى[٤].

قولُهُ: (أَحَداً) في «المدارِكِ»: أي: وما صحَّ منَّا أن نُعذِّبَ قوماً عذابَ استئصالٍ في الدُّنيا إلَّا بعدَ أن نبعَثَ إليهم رسولاً فنُلزِمَهم الحجَّةَ[٥].

---

(١) أي: (يُلَقَّاه) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩٨).

(٢) في (ن): «صلته».

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٤٥٩)، وأحمد في «الزهد» (٦٣٣)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (٢).

(٤) ذكره الثعلبي في «عرائس البيان» (٢/ ٣٥٤) عن بعض السلف.

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٢٤٩).

١٦ ـ ﴿وإذا أَرَدْنا أن نُهلِكَ قَرْيةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها﴾: مُنعَّميها بمعنى رؤسائها بالطاعة على لسان رسلنا، ﴿ففَسَقُوا فِيها﴾: فخرجوا عن أمرنا، ﴿فحَقَّ علَيها القَولُ﴾ بالعذاب، ﴿فدَمَّرْناها تَدمِيرًا﴾: أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها.

١٧ ـ ﴿وكَم﴾ أي: كثيرًا ﴿أهلَكْنا مِنَ القُرُونِ﴾: الأُممِ ﴿مِن بَعدِ نُوحٍ! وكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾: عالمًا ببواطنها وظواهرها! وبه يتعلّق: بذنوب.

١٨ ـ ﴿مَن كانَ يُرِيدُ﴾ بعمله ﴿العاجِلةَ﴾ أي: الدنيا ﴿عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَن نُرِيدُ﴾ التعجيلَ له: بدلٌ من «له» بإعادة الجارّ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ﴾ في الآخِرة ﴿جَهَنَّمَ، يَصلاها﴾: يدخلها ﴿مَذمُومًا﴾: ملومًا ﴿مَدحُورًا﴾: مطرودًا عن الرحمة، ١٩ ـ ﴿ومَن أرادَ الآخِرةَ، وسَعَى لَها سَعيَها﴾: عمل عملها اللائق بها،..

قولُهُ: (مُنَعَّمِيهَا) وتخصيصُهُم لأنَّ غيرَهم يتبعُهم، ولأنَّهُم أسرَعُ إلى الحماقَةِ وأقدَرُ على الفُجورِ.

قولُهُ: (بالطَّاعَةِ) وقيل: بالفسقِ، وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ وسعيدِ بنِ جُبيرٍ[1] وغيرِهما، فالأمرُ مجازٌ من الحملِ عليه، أو التَّسبُّبِ له بأن صبَّ عليهم مِن النِّعَمِ ما أبطَرَهُم، وأفضَى بهم إلى الفُسوقِ؛ فإنَّ اللهَ لا يأمرُ بالفحشاءِ.

قولُهُ: (بالعَذَابِ) أي: بحلولِهِ، أو بظُهورِ معاصيهِم، أو بانهماكِهِم في المعاصِي.

قولُهُ: (وتَخْرِيبِهَا) أي: تخريبِ ديارِها.

قولُهُ: (الأُمَمِ) بيانٌ لـ ﴿كَم﴾ وتمييزٌ له.

قولُهُ: (وظَوَاهِرِهَا) فيُعاقِبُ عليها، وتقديمُ الخبرِ لتقدُّمِ متعلَّقِهِ.

قولُهُ: (وَبِهِ) أي: بـ ﴿خبير﴾ الظَّاهرُ أنَّه يتعلَّقُ بكلٍّ منهما على سبيلِ التَّنازعِ.

قولُهُ: (بعَمَلِهِ) فتكونُ الآيةُ في المنافقينَ والمرائينَ، أو المعنى: من كانَ يريدُ العاجِلةَ مقصُوراً عليها همُّهُ، وقيَّدَ المعجَّلَ والمعجَّلَ له بالمشيئةِ والإرادةِ لأنَّه لا يجدُ كلُّ مُتمَنٍّ ما يتمنَّاهُ، ولا كلُّ واحدٍ جميعَ ما يهواهُ، وليُعلَمَ أنَّ الأمرَ بالمشيئةِ، والهمُّ زائدٌ لا حاجةَ إليه ولا معوَّلَ في شيءٍ عليه.

قولُهُ: (عَمِلَ عَمَلَهَا) أي: حَقَّها من السَّعي، وهو الإتيانُ بما أمرَ والانتهاءُ عمَّا نَهى، لا التَّقرُّبُ بما يخترعُونَ من آرائِهم الفاسدَةِ، وفائدةُ اللَّامِ: اعتبارُ النِّيَّةِ والإخلاصِ.

---

(١) أما بالفسق فلم أقف عليه، والذي جاء عن ابن عباس وسعيد بن جبير: ﴿أمرنا مترفيها﴾ أي: بطاعة الله، فعصوا، رواهما الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٠٣).

﴿وهُوَ مُؤمِنٌ﴾: حالٌ، ﴿فأُولئِكَ كانَ سَعيُهُم مَشكُورًا﴾ عند الله، أي: مقبولاً مُثابًا عليه. ٢٠ ـ ﴿كُلًّا﴾ من الفريقينِ ﴿نُمِدُّ﴾: نُعطي، ﴿هؤُلاءِ وهؤُلاءِ﴾: بدلٌ، ﴿مِن﴾: متعلّقٌ بـ «نُمدّ» ﴿عَطاءِ رَبِّكَ﴾ في الدنيا، ﴿وما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ﴾ فيها ﴿مَحظُورًا﴾: ممنوعًا عن أحد.

٢١ ـ ﴿انظُرْ: كَيفَ فَضَّلْنا بَعضَهُم علَى بَعضٍ﴾ في الرِّزق والجاه؟ ﴿ولَلآخِرةُ أكبَرُ﴾: أعظم ﴿دَرَجاتٍ وأكبَرُ تَفضِيلاً﴾ من الدنيا. فينبغي الاعتناء بها دونها. ٢٢ ـ ﴿لا تَجعَلْ مَعَ اللهِ إلـٰهًا آخَرَ، فتَقعُدَ مَذمُومًا مَخذُولاً﴾: لا ناصر لك.

٢٣ ـ ﴿وقَضَى﴾: أمَرَ ﴿رَبُّكَ أن﴾ أي: بأن...

قولُهُ: (حَالٌ) أي: إيماناً صحيحاً لا شركَ معه ولا تكذيبَ لرسولِه فإنَّه العمدَةُ.

قولُهُ: (مُثَاباً) فإنَّ شُكرَ اللهِ: الثَّوابُ على الطَّاعةِ.

قولُهُ: (مِن الفَرِيقَينِ) أي: كلَّ واحدٍ، والتَّنوينُ بدلٌ من المضافِ إليه.

قولُهُ: (نُعطِي) أي: نُمِدُّ بالعطاءِ مرَّةً بعد أُخرى، وجعلِ الآنفةِ مددَ السَّالفةِ[1].

قولُهُ: (بَدَلٌ) من ﴿كُلًّا﴾.

قولُهُ: (مُتَعلِّقٌ) أي: مِن معطاهُ.

قولُهُ: (فِيهَا) أي: الدُّنيا.

قولُهُ: (عَنْ أَحَدٍ) لا يمنعُهُ من مؤمنٍ ولا كافرٍ تفضُّلاً.

قولُهُ: (مِنَ الدُّنيَا) أو التَّفاوتُ في الآخرةِ أكبرُ؛ لأنَّ التَّفاوتَ فيها بالجنَّةِ ودرجاتِها، والنَّارِ ودرَكاتِها.

قولُهُ: (بِهَا) أي: بالآخِرةِ (دُونَهَا) أي: دونَ الدُّنيا، أو: بالدَّرجاتِ دونَ الدَّركاتِ[2].

قولُهُ: (لا نَاصِرَ لَكَ) أو جامِعاً على نفسِكَ الذَّمَّ من الملائكةِ والمؤمنينَ، والخِذلانَ من اللهِ، ومفهومُه: أنَّ الموحِّدَ يكونُ ممدوحاً منصوراً، والخطابُ للرَّسولِ والمرادُ به أُمَّتُه، أو لكلِّ أحدٍ، و﴿تقعد﴾ بمعنى: تصيرَ، أو تستمرَّ.

قولُهُ: (أَمَرَ) أمراً مقطوعاً به.

قولُهُ: (بِأَنْ) فـ ﴿أنْ﴾ مصدريَّةٌ، و﴿لا﴾ نافيةٌ.

ويجوزُ أن تكونَ مفسِّرةً و﴿لا﴾ ناهيةً، و﴿قَضَى﴾ بمَعنى حكَمَ؛ لأنَّ فيه مَعنى القَولِ.

---

(١) أي: ونجعلُ آنِفَه مددًا لسالفِه.

(٢) دركات النار: منازل أهلها، والنار دركات والجنة درجات. «الصحاح» (٤/ ١٥٨٣).

﴿لا تَعبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ و﴾ أن تُحسنوا ﴿بِالوالِدَينِ إحسانًا﴾ بأن تبرُّوهما. ﴿إمَّا يَبلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما﴾: فاعل ﴿أو كِلاهُما﴾ ـ وفي قراءة: «يَبلُغانِّ» فأحدُهما: بدل من ألفه ـ ﴿فلا تَقُلْ لَهُما: أُفٍّ﴾، بفتح الفاء، وكسرِها مُنوّنًا وغيرَ منوّن: مصدرٌ بمعنى: تَبًّا وقُبحًا، ﴿ولا تَنهَرْهُما﴾: تَزجُرْهما، ﴿وقُلْ لَهُما قَولاً كَريمًا﴾: جميلاً ليِّنًا، ٢٤ ـ ﴿واخفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ﴾: أَلِن لهما جانبَكَ الذليلَ ﴿مِنَ الرَّحْمةِ﴾ أي: لرقّتك عليهما، ....

قولُهُ: (﴿و﴾ أنْ تُحْسِنُوا) أو: وأحسِنُوا[1]، ولا يجوزُ أن يتعلَّقَ الباءُ بالإحسانِ؛ لأنَّ صلةَ المصدَرِ لا تتقدَّمُ عليه.

قولُهُ: (بأنْ تَبَرُّوهُما) لأنَّهما السَّببُ الظَّاهرُ للوجُودِ والتَّعيُّشِ، وهذا في غايةِ التَّوكيدِ لاقترانهِ بالتَّوحيدِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكسائيِّ[2].

قولُهُ: (مِن أَلِفِهِ) أي: ألفِ (يَبْلُغَانِّ) الرَّاجعِ إلى الوالدَينِ، و﴿كلاهُما﴾ عطفٌ على ﴿أحدُهُما﴾ فاعلاً أو بدلاً، ومعنى ﴿عندكَ﴾ أن يكونا في كنفِهِ وكفالتِهِ.

قولُهُ: (بفَتحِ الفَاءِ) مكيٌّ وشاميٌّ[3].

قولُهُ: (مُنَوَّناً) نافعٌ وحفصٌ[4].

قولُهُ: (مَصْدَرٌ) أو صَوتٌ يدلُّ على تضجُّرٍ، وقيل: اسمُ الفعلِ الَّذي هو أتضَجَّرُ؛ أي: لا تتضَجَّر ممَّا يُستَقذرُ منهما ويُستثْقلُ من مؤنتِهما، والنَّهيُ عن ذلك يدلُّ على المنعِ من سائرِ أنواعِ الإيذاءِ قياساً بطريقِ الأَوْلى، نهَى عمَّا يؤذِيهما بعد الأمرِ بالإحسانِ بهما؛ إذْ لا يكفِي أحدُهُما بل لا بدَّ من الجمعِ بينَهُما.

وقد يقالُ: الإحسانُ شملَهُما، فيكونُ تخصِيصاً للاهتمامِ.

قولُهُ: (تَزْجُرْهُمَا) عمَّا لا يعجبُكَ بإغلاظٍ.

قولُهُ: (جَمِيلاً) بدلَ التَّأفِيفِ والنَّهرِ.

قولُهُ: (أَلِنْ) أي: تذلَّل لهُما وتواضَعْ فيهما.

قولُهُ: (لِرِقَّتِكَ) أو من فرطِ رحمتِكَ عليهما لافتقارِهِما إلى مَن كانَ أفقرَ خلقِ اللهِ إليهما.

---

(١) في الأصول: «أووأن أحسنوا» والمثبت من «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٥٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٩٩).

(٣) انظر المصدرين السابقين.

(٤) انظر المصدرين السابقين.

﴿وقُلْ: رَبِّ، ارحَمْهُما كَما﴾ رحِماني حين ﴿رَبَّياني صَغِيرًا﴾.

٢٥ ـ ﴿رَبُّكُم أعلَمُ بِما في نُفُوسِكُم﴾ من إضمار البرّ والعُقوق. ﴿إن تَكُونُوا صالِحِينَ﴾: طائِعِينَ لله ﴿فإنَّهُ كانَ لِلأوّابِينَ﴾: الرجّاعِينَ إلى طاعته ﴿غَفُورًا﴾ لِما صدر منهم في حقّ الوالدَينِ من بادرة، وهم لا يُضمرون عقوقًا.

٢٦ ـ ﴿وآتِ﴾: أعطِ ﴿ذا القُربَى﴾: القرابةِ ﴿حَقَّهُ﴾ من البرّ والصِّلة ﴿والمِسكِينَ وابنَ السَّبِيلِ، ولا تُبَذِّرْ تَبذِيرًا﴾ بالإنفاق في غير طاعة الله ـ ٢٧ ـ ﴿إنَّ المُبَذِّرِينَ كانُوا إخْوانَ الشَّياطِينِ﴾ أي: على طريقتهم، ﴿وكانَ الشَّيطانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾: شديد الكُفر لنِعمه. فكذلك أخوه المُبذِّر ـ ٢٨ ـ ﴿وإمّا تُعرِضَنَّ عَنهُمُ﴾ أي: المذكورِينَ، من ذِي القُربَى ومَن بعدَه فلم تُعطهم، ﴿ابتِغاءَ رَحمةٍ مِن رَبِّكَ تَرجُوها﴾ أي: لطلب رِزق تنتظره يأتيك فتُعطيهم منه، ﴿فقُلْ لَهُم قَولاً مَيسُورًا﴾: ليِّنًا سهلاً بأن تَعِدَهم بالإعطاء عند مجيء الرزق.

قولُهُ: (﴿كَمَا﴾ رَحِمَانِي) أي: رحمةً مثلَ رحمتِهما عليَّ وتربيتِهما وإرشادِهما لي في صِغَرِي وفاءً بوعدِكَ للرَّاحِمِينَ؛ يعني: ادعُ اللهَ أن يرحمَهُما برحمتِهِ الباقِيَةِ، ولا تكتفِ برحمتِكَ الفانيَةِ وإن كانَا كافرَينِ موجودَينِ؛ لأنَّ مِن الرَّحمةِ أن يهدِيَهُما، رُوِيَ: أنَّ رجلاً قالَ لرسولِ اللهِ ﷺ: إنَّ أبويَّ بلَغا من الكِبَرِ أنِّي أَلِي منهما ما وَلِيا منِّي في الصِّغَرِ فهل قضيتُهُما؟ قال: «لا، فإنَّهُما كانَا يفعلانِ ذلكَ وهُما يُحِبَّانِ بقاءَكَ، وأنتَ تفعلُ ذلكَ وأنتَ تُرِيدُ موتَهُما»(١).

قولُهُ: (مِن بَادِرَةٍ) أو تقصيرٍ عندَ ضيقِ الصَّدرِ، وفيه تشديدٌ عظيمٌ.

قولُهُ: (والصِّلَةِ) وحُسنِ المعاشَرةِ، وقالَ أبو حنيفَةَ: حقُّهُم إذا كانوا محارِمَ فُقراءَ أن يُنفِقَ عليهم(٢)؛ يعني: إذا كانَ غنيًّا.

قولُهُ: (عَلَى طَرِيقَتِهِم) ومتابعتِهِم، حيثُ يُطيعونَهُم في الإسرافِ والصَّرفِ في المعاصي.

قولُهُ: (لِنِعَمِهِ) أو مُبالغاً في الكفرِ به، فما ينبَغِي أن يُطاعَ.

قولُهُ: (فَلَمْ تُعطِهِم) فالمرادُ بالإعراضِ: عدمُ النَّفعِ على سَبيلِ الكفايَةِ، أو: أعرضْتَ عنهم حياءً مِن الرَّدِّ.

قولُهُ: (تَنتَظِرُه) وترجوهُ.

قولُهُ: (مِنهُ) أي: الرِّزقِ بأن تعدَهُم أو تَدعوَ لهم، بأن تقولَ مثلَ: أغناكُم اللهُ، ورزَقَنا اللهُ وإيَّاكُم، ويفتحُ اللهُ علينا وعليكُم.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ٩٨): لم أجده. وذكره الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٢٦٥) وسكت عنه.

(٢) انظر: «البناية شرح الهداية» للعيني (٥/ ٧٠٤).

٢٩ ـ ﴿ولا تجعَلْ يَدَكَ مَغلُولةً إلَى عُنُقِكَ﴾ أي: لا تُمسكها عن الإنفاق كُلَّ الإمساك، ﴿ولا تَبسُطْها﴾ في الإنفاق ﴿كُلَّ البَسطِ، فتَقعُدَ مَلُومًا﴾ ـ راجعٌ للأوّل ـ ﴿مَحسُورًا﴾: مُنقطعًا لا شيء عندك. راجعٌ للثاني. ٣٠ ـ ﴿إنَّ رَبَّكَ يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ ويَقْدِرُ﴾: يُضيّقه لمن يشاء. ﴿إنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾: عالمًا ببواطنهم وظواهرهم فيرزقهم على حسَب مَصالحهم.

٣١ ـ ﴿ولا تَقتُلُوا أولادَكُم﴾ بالوأد ﴿خَشيَةَ﴾: مخافةَ ﴿إملاقٍ﴾: فقر ـ ﴿نَحنُ نَرزُقُهُم وإيّاكُم. إنَّ قَتلَهُم كانَ خِطئًا﴾: إثمًا ﴿كَبِيرًا﴾: عظيمًا ـ..........................

قولُهُ: (كلَّ المَسْكِ) الظَّاهرُ: كلَّ الإمساكِ[1].

قولُهُ: (فِي الإِنْفَاقِ) تمثيلانِ لمنعِ الشَّحيحِ وإسرافِ المبذِّرِ، نهيٌ عنهما وأمرٌ بالاقتصادِ بينهما الَّذي هو الكرمُ.

قولُهُ: (لِلأَوَّلِ) أو: فتصيرَ ملوماً عندَ اللهِ وعندَ النَّاسِ بالإسرافِ، فيقولُ الفقيرُ: أعطَى فلاناً ومنَعني، وبسوءِ التَّدبيرِ عند الأغنياءِ.

قولُهُ: (مُنقطعاً) بكَ[2]، أو نادماً.

قولُهُ: (﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾) أو: له.

قولُهُ: (مَصَالِحِهِم) وفي الحديثِ: «إنَّ مِن عبَادِي لَمَن لا يُصلِحُه[3] إلَّا الفقرُ، ولو أغنيْتُه لأفسدْتُ عليهِ دينَهُ، وإنَّ مِن عبادِي لَمَن لا يُصلِحُه إلَّا الغِنَى، ولو أفقرتُه لأفسدْتُ عليه دينَهُ»[4].

قولُهُ: (بالوَأْدِ) وهو دفنُ البناتِ حيَّةً.

قوله: (إثماً) يقالُ: خَطِئَ خِطْئاً كأَثِمَ إِثْماً، وقرأ ابنُ ذكوانَ: (خَطَأً) بالتَّحريكِ، وهما لغتانِ كمِثْلٍ ومَثَلٍ، وابنُ كثيرٍ بالكسرِ والمدِّ كمِثالٍ[5].

قولُهُ: (عَظِيماً) لما فيه من قطعِ التَّناسُلِ وانقطاعِ النَّوعِ.

---

(١) وكذا هي في النسخ المعتمدة في متن «الجلالين».

(٢) أي: «منقطعاً بك» بفتح الطاء، يقال: انقُطِعَ بالمسافر ـ على بناء المفعول ـ: إذا أُعطبت دابته أو نفد زاده، فانقطع به السفر دون طيته، فهو منقطَع به. انظر: «أساس البلاغة» (مادة: قطع).

(٣) في (م): «لا يصلح له».

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٣١) من حديث أنس، عن النبي، عن جبريل، عن رب العزة تبارك وتعالى.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٧٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٠)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٤٠).

٣٢ ـ ﴿ولا تَقرَبُوا الزِّنَى﴾. أبلغُ مِن: لا تأتوه. ﴿إنَّهُ كانَ فاحِشَةً﴾: قبيحًا، ﴿وساءَ﴾: بِئسَ ﴿سَبِيلًا﴾: طَرِيقًا هو!

٣٣ ـ ٣٤ ـ ﴿ولا تَقتُلُوا النَّفسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بالحَقِّ ـ ومَن قُتِلَ مَظلُومًا فقَد جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ﴾: لوارثه ﴿سُلطانًا﴾: تسلُّطًا على القاتل. ﴿فلا يُسرِفْ﴾: يتجاوزِ الحدَّ ﴿في القَتلِ﴾ بأن يقتل غيرَ قاتله أو بغير ما قُتل به. ﴿إنَّهُ كانَ مَنصورًا ـ ولا تَقرَبُوا مالَ اليَتيمِ إلاّ بالَّتي هِيَ أحسَنُ حَتَّى يَبلُغَ أشُدَّهُ. وأَوفُوا بالعَهدِ﴾

قولُهُ: (أَبلَغُ) أي: لا تقرَبُوا بالعَزمِ والإتيانِ بالمقدِّماتِ، فَضلاً أن تباشِروهُ.

قولُهُ: (قَبِيحاً) أي: فعلَةً ظاهِرةَ القُبحِ زائدتَه.

قولُهُ: (هُوَ) أي: طَرِيقُهُ، وهو الغَصْبُ على الإبضاعِ المؤدِّي إلى قطعِ الأنسابِ وتهييجِ الفِتنِ.

قولُه تعالى: (﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾) إلَّا بإحدى ثلاثٍ: كفرٍ بعد إيمانٍ، وزِنًى بعد إحصانٍ، وقتلِ مؤمنٍ على عُدوانٍ[1].

قولُه تعالى: (﴿مَظْلُوماً﴾) أي: غيرَ مُستوجِبٍ للقتلِ.

قولُهُ: (لِوَارِثِه) الَّذي يلي أمرَهُ بعدَ وفاتِهِ.

قولُهُ: (تَسَلُّطاً) بالمؤاخذَةِ بمقتَضى القتلِ، أو بالقِصاصِ.

قولُهُ: (يَتَجَاوَزْ) أي: القَاتِلُ ـ يعني: مريدَ القتلِ ـ بأن يقتُلَ مَن لا يحلُّ قتلُهُ، فإنَّ العاقلَ لا يفعلُ ما يعودُ عليه بالهلاكِ، أو الوليُّ بالمُثْلةِ و«أنْ يقتلَ... » إلخ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ قراءةُ أُبيٍّ: (فَلَا تُسرِفُوا)[2] وقراءةُ حمزةَ والكسائيِّ بالتَّاءِ على خطابِ أحدِهما[3].

وقولُهُ تعالى: (﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾) استئنافٌ فيه معنَى التَّعليلِ، والضَّميرُ للمَقتولِ؛ فإنَّه منصُورٌ في الدُّنيا بثبوتِ القَصاصِ بقتلِهِ وفي الآخرةِ بالثَّوابِ، أو لوليِّهِ فإنَّ اللهَ نصرَهُ حيث أوجَبَ القَصاصَ له وأمرَ الوُلاةَ بمعونَتِهِ.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، وأبو داود (٤٣٥٢)، والترمذي (١٤٠٢)، والنسائي (٤٠١٦)، وابن ماجه (٢٥٣٤)، وأحمد في «مسنده» (٣٦٢١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ورواه أبو داود (٤٥٠٢)، والترمذي (٢١٥٨)، والنسائي (٤٠١٩)، وابن ماجه (٢٥٣٣)، وأحمد في «مسنده» (٤٣٧) من حديث عثمان رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) هي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨٠).

(٣) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٠٢).

إذا عاهدتم الله أو الناس ـ ﴿إِنَّ العَهدَ كانَ مَسؤُولاً﴾ عنه ـ ٣٥ ـ ﴿ وأَوفُوا الكَيلَ﴾: أتِمُّوه ﴿إذا كِلتُم، وزِنُوا بِالقِسطاسِ المُستَقِيمِ﴾: الميزان السويّ. ﴿ذلِكَ خَيرٌ وأحسَنُ تأوِيلاً﴾: مآلاً.

٣٦ ـ ﴿ولا تَقْفُ﴾: تَتبَعْ ﴿ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ. إنَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفُؤادَ﴾: القلب ﴿كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنهُ مَسؤُولاً﴾ صاحبُه: ماذا فَعل به؟..

قولُهُ: (إِذَا عَاهَدْتُم) أو: بما عاهَدكُمُ اللهُ من تكاليفِهِ.

قولُهُ: (عَنهُ) يُسأَلُ النَّاكِثُ ويُعاتَبُ عليه، أو: مَطلوبًا يُطلبُ من المعاهِدِ أن لا يُضيِّعَه ويفِي به، أو التَّقديرُ: إنَّ صاحِبَهُ كانَ مسؤولاً.

قولُهُ: (المِيزَانِ) وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ بكسرِ القافِ[١].

قولُهُ: (مَآلاً) تفعيلٌ من «آلَ» إذا رجعَ.

قولُهُ: (تَتبَعْ) مأخوذٌ من قولِهِم: قفوتُ أثَرَهُ؛ أي: تبعتُه، ومنهُ: القفا؛ لأنَّهُ مؤخَّرُ البدنِ كأنَّهُ يتبَعُه[٢].

قالَ تعالى: (﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾) أي: كلُّ هذه الأعضاءِ، فأجراها مُجرى العُقلاءِ لمَّا كانت مسؤولَةً عن أحوالِها شاهدةً على صاحبِها.

هذا وإنَّ «أولاءِ» وإن غلبَ في[٣] العُقلاءِ لكنَّه من حيثُ إنَّه اسمُ جمْعٍ لـ «ذا» يعني: الإشارَةَ إلى المفرَدِ وهو يعُمُّ العُقلاءَ وغيرَهُم [جاء لغيرهم][٤] كقولِه:

ذُمَّ المنَـازِلَ بعْـدَ مَنْزِلَـةِ اللِّوَى   والعَيْـشَ بَعْـدَ أُولَئِـكَ الأَيَّـامِ[٥]

قولُهُ: (صَاحِبُهُ) إن أرادَ أنَّ الضَّميرَ في ﴿عنهُ﴾ راجعٌ إلى صاحِبِهِ فلهُ وجهٌ، وإن أرادَ أنَّ ﴿مسؤولًا﴾ مسندٌ إلى ﴿عنهُ﴾ ـ والمعنى: يُسأَلُ صاحبُهُ عنه ـ فهو خَطأٌ؛ لأنَّ الفاعِلَ وما يقومُ مقامَهُ لا يتقدَّمُ.

قالَ أبو البَقاءِ: ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿كَانَ﴾ لصاحِبِ هذهِ الجوارحِ لِدلالتِها عليهِ[٦]. فعلى هذا لا إشكالَ، لكن كانَ حقُّهُ أن يُذكَرَ صاحبُه بعدَ ﴿كانَ﴾ أو ﴿عنهُ﴾، والأظهرُ: أنَّ في ثلاثتِها من ﴿كانَ﴾ و﴿عنهُ﴾ و﴿مسؤولاً﴾ ضميرُ ﴿كلُّ﴾؛ أي: كانَ كلُّ واحدٍ منها مسؤولاً عن نفسِهِ؛ أي: عمَّا فعلَ به صاحبُه.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٢).

(٢) انظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ١١٢).

(٣) في (ص): «على».

(٤) من «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٥٥).

(٥) قائله جرير، انظر: «ديوانه» (ص: ٤٥٢). اللوى: موضعٌ بعينه. بعد منزلة اللوى: أي: بعد مفارقتها.

(٦) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ٨٢١).

٣٧ ـ ﴿ولا تَمشِ في الأرضِ مَرَحًا﴾ أي: ذا مرح بالكِبْر والخُيلاء. ﴿إنَّكَ لَن تَخرِقَ الأرضَ﴾: تثقُبَها حتّى تبلغَ آخِرها بكِبْرك، ﴿ولَن تَبلُغَ الجِبالَ طُولاً﴾. المعنى: إنك لا تبلغ هذا المبلغ. فكيف تختال؟

٣٨ ـ ٣٩ ـ ﴿كُلُّ ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿كانَ سَيِّئَةً عِندَ رَبِّكَ مَكرُوهًا. ذلِكَ مِمّا أوحَى إلَيكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿رَبُّكَ مِنَ الحِكْمةِ﴾: المواعظ. ﴿ولا تَجعَلْ مَعَ اللهِ إلـٰهًا آخَرَ، فتُلقَى في جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدحُورًا﴾: مطرودًا عن رحمة الله.

٤٠ ـ ٤١ ـ ﴿أفأصفاكُم﴾: أخلصكم ـ يا أهل مكّة ـ ﴿رَبُّكُم بِالبَنِينَ، واتَّخَذَ مِنَ المَلائكةِ إناثًا﴾: بناتًا لنفسه بزعمكم؟ ﴿إنَّكُم لَتَقُولُونَ﴾ بذلكَ ﴿قَولاً عَظِيمًا. ولَقَد صَرَّفْنا﴾:..........

قولُهُ: (تَنقُبَهَا) بالنُّونِ أو الثَّاءِ.

قولُهُ: (بكِبْرِكَ) أو: لن تجعَلَ فيها خرْقاً بشدَّةِ وطأتِكَ.

قولُهُ: (المَذكُورِ) من الخِصالِ الخَمسِ والعِشرينَ المذكورةِ من قولِه: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.

قالَ تعَالى: (﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾) يعني: المنهيَّ عنه، فإنَّ المذكوراتِ مأمُوراتٌ ومنهيَّاتٌ، وقرأَ الحجازيَّانِ والبصريُّ: (سيئةً)[1] على أنَّها خبرُ ﴿كانَ﴾، والاسمُ ضميرُ ﴿كلُّ﴾ و﴿ذلكَ﴾ إشارةٌ إلى ما نهي عنه خاصَّةً، وعلى هذا ﴿مكروهاً﴾ بدلٌ مِن (سيئة) والمرادُ بالمكرُوهِ: المبغوضُ المقابِلُ للمرضيِّ.

قالَ تعَالى: (﴿ذلك﴾) إشارَةٌ إلى ما ذكرَ من الأحكامِ المتقدِّمةِ.

قولُهُ: (المَوَاعِظِ) أو: الحكمةِ الَّتي هي معرفةُ الحقِّ لذاتِهِ والخيرِ للعَملِ به.

قولُهُ: (مَطْرُودًا) كرَّرهُ للتَّنبيهِ على أنَّ التَّوحيدَ مبدأُ الأمرِ ومنتهاهُ، وأنَّه رأسُ الحكمَةِ ومِلاكُها، ورتَّبَ عليها أوَّلاً ما هو غايتُه[2] الشِّركُ في الدُّنيا، وثانياً ما هو نتيجتُه في العُقبَى.

قولُهُ: (أَخلَصَكُم) وخصَّكُم.

قولُهُ: (بَنَاتٍ) هذا خلافُ ما عليه عقولُكُم وعادتُكُم، وقولُهُ: (بِزَعْمِكُمْ) متعلِّقٌ بـ﴿اتَّخذَ﴾. وفي أكثرِ النُّسخِ: «بناتاً» بألفٍ في آخرِهِ، وهو سهوٌ.

قولُهُ: (بِذَلِكَ) أي: بإضافَةِ الأولادِ وهي خاصَّةٌ ببعضِ الأجسامِ لسُرعَةِ زَوالِها، ثمَّ بتفضيلِ أنفسِكُم حيثُ تجعلونَ له ما تكرهُونَ، ثمَّ بجعلِ الملائكةَ الَّذينَ هم من أشرفِ خلقِ اللهِ أدونَهُم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٣).

(٢) في (م) و(ن): «عائده».

بيّنّا ﴿في هذا القُرآنِ﴾ من الأمثال والوعد والوعيد ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾: يتّعظوا، ﴿وما يَزِيدُهُم﴾ ذلك ﴿إلاّ نُفُورًا﴾ عن الحقّ.

٤٢ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَو كانَ مَعَهُ﴾ أي: اللهِ ﴿آلِهةٌ كَما تَقولُونَ إذًا لابتَغَوا﴾: طلبُوا ﴿إلَى ذِي العَرشِ﴾ أي: اللهِ ﴿سَبِيلاً﴾ ليُقاتلوه. ٤٣ ـ ٤٤ ـ ﴿سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له ﴿وتَعالَى عَمّا يَقُولُونَ﴾ من الشُّركاء ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا! تُسَبِّحُ لَهُ﴾: تُنزِّهُه ﴿السَّماواتُ السَّبعُ والأرضُ ومَن فِيهِنَّ، وإن﴾: ما ﴿مِن شَيءٍ﴾ من المخلوقات ﴿إلاّ يُسَبِّحُ﴾ مُلتبسًا ﴿بِحَمدِهِ﴾، أي: يقول: سُبحانَ اللهِ وبحمده، ﴿ولكِن لا تَفقَهُونَ﴾: لا تفهمون...

قولُهُ: (يَتَّعِظُوا) وحمزةُ والكسائيُّ بالتَّخفيفِ وضمِّ الكافِ[١]، من الذِّكرِ الَّذي هو بمعنى التَّذكرِ.

قولُهُ: (عَنِ الحَقِّ) كانَ الثَّوريُّ إذا قرأَها يقولُ: زادَني لك خُضوعاً ما زادَ أعداءَكَ نُفوراً[٢].

قالَ تعالى: (﴿كَمَا تَقُولُونَ﴾) أيُّها المشرِكونَ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ بالياءِ فيه وفيما بعدَهُ[٣] على أنَّ الكلامَ مع الرَّسولِ، ووافقَهُما نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو عَمرٍو وأبو بكرٍ في الثَّانيةِ[٤].

قولُهُ: (طَلَبُوا) جوابٌ عن قولِهِم وجزاءٌ لـ ﴿لو﴾، والمعنى: لطَلَبوا طريقاً بالمغالبَةِ كما يفعَلُ الملوكُ بعضُهُم مع بعضٍ، أو بالتَّقرُّبِ إليه والطَّاعةِ لعلمِهِم بقدرتِهِ وعجزِهِم.

قولُهُ: (أي: اللهِ) مالكِ الملكِ[٥].

قولُهُ: (لِيُقَاتِلُوهُ) أو ليتقرَّبوا إليه.

قولُهُ: (مِنَ الشُّرَكَاءِ) والبنينَ.

قالَ تعالى: (﴿عُلُوًّا كَبِيراً﴾) أي: تَعالياً مُتباعِداً غايةَ البُعدِ.

قولُهُ: (تُنزِّهُهُ) قرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وشعبةُ بالتَّذكيرِ[٦].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨١)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٣).

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٦٦٩).

وروى أحمد في «الزهد» (٩٣٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٨٨) عن عبد الأعلى التيمي أنه كان يقول هذا الدعاء في سجوده.

(٣) أي قوله: (كما يقولون) و(عما يقولون) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨١)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٤).

(٤) انظر المصدرين السابقين.

(٥) «قوله أي الله مالك الملك»: ليس في (د).

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨١)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٥).

﴿تَسبِيحَهُم﴾ لأنه ليس بلُغتكم. ﴿إِنَّهُ كانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيثُ لم يُعاجلكم بالعُقوبة.

٤٥ ـ ﴿وإذا قَرأْتَ القُرآنَ جَعَلْنا بَينَكَ وبَينَ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرةِ حِجابًا مَستُورًا﴾ أي: ساترًا لك عنهم فلا يرونك ـ نزل فيمن أراد الفتك به ﷺ ـ ٤٦ ـ ﴿وجَعَلْنا على قُلُوبِهِم أكِنَّةً﴾: أغطية ﴿أن يَفقَهُوهُ﴾: من أن يفهموا القُرآن، أي: فلا يفهمونه، ﴿وفي آذانِهِم وَقْرًا﴾: ثِقَلاً فلا يسمعونه، ﴿وإذا ذَكَرتَ رَبَّكَ في القُرآنِ وَحدَهُ وَلَّوا على أدبارِهِم نُفُورًا﴾ عنه.

٤٧ ـ ﴿نَحنُ أعلَمُ بِما يَستَمِعُونَ بِهِ﴾: بسببه من الهُزء، ﴿إذ يَستَمِعُونَ إلَيكَ﴾: إلى قراءتك، ﴿وإذ هُم نَجْوَى﴾: يتناجَون بينهم أي: يتحدّثون، ﴿إذ﴾: بدلٌ من «إذ» قبله..........

قولُهُ: (لأنَّهُ لَيسَ بلُغَتِكُمْ) أجمع[1] السَّلفُ أنَّ للأشياءِ تسبيحاتٍ لا يسمَعُ إلَّا مَن يسمَعُ، وقالَ المتأخِّرونَ: لكلِّ شيءٍ تسبيحٌ بِلِسانِ حالِهِ، وهو دلالتُه على صانعٍ قديمٍ واجبٍ لذاتِه[2]، وعلى هذا قولُه: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ [الإسراء: ٤٤] خطابٌ للمُشركينَ لأنَّهم لمَّا جعَلوا مع اللهِ إلهاً لم ينظُروا ولم يفهَموا دلالَةَ الأشياءِ.

قولُهُ: (بالعُقُوبَةِ) على غفلتِكُم وشركِكُم.

قولُهُ: (سَاتِراً) يعني: أنَّ ﴿مستوراً﴾ بمعنى: ذي سترٍ؛ كقولِه: ﴿وعده مأتياً﴾ [مريم: ٦١] والمرادُ بـ﴿حجاباً﴾: يحجبُهُم عن فهمِ ما تقرَؤه عليهم.

وقيل: مستوراً عن الحسِّ، أو لحِجابٍ آخرَ لا يفهمونَ ولا يفهَمونَ أنَّهُم لا يفهمُونَ.

قولُهُ: (الفَتْكَ) أي: القتلَ خديعَةً.

قولُهُ: (مِن أنْ يَفهَمُوا) يعني: أنَّه مفعولٌ لما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ أي: منَعناهُم أنْ يفهَمُوهُ، والأظهرُ: كراهَةَ أن يفهَموهُ.

قولُهُ: (عَنهُ) أي: عن استماعِ القُرآنِ، أو عن التَّوحيدِ.

قولُهُ: (مِنَ الهُزءِ) بكَ وبالقُرآنِ.

قولُهُ: (قراءَتِكَ) ظرفٌ لـ﴿أعلمُ﴾ وكذلك ﴿وإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾؛ أي: نحنُ أعلمُ بغرضِهِم مِن الاستماعِ حين هُم مستمِعونَ إليك مُضمِرونَ للغرَضِ، وحينَ هم ذوو نجوَى.

[قوله]: (بدلٌ)[3] على وضعِ الظَّاهرِ موضعَ الضَّميرِ.

(١) في النسخ عدا (ص): «إجماع».

(٢) انظر: «تفسير الإيجي» (٢/ ٣٩٢).

(٣) في النسخ: «يدل»، فغيرناها إلى المثبت وزدنا ما بين معكوفتين ليستقيم الكلام، واستفادةً من قول البيضاوي في إعراب ﴿إذ يقول﴾: بدلٌ مِن ﴿إذ هم نجوى﴾ على وضعِ (الظَّالِمينَ) مَوضِعَ الضَّميرِ للدَّلالَةِ على أنَّ تَناجِيَهم بقَولِهم هذا.

﴿يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ في تناجيهم: ﴿إِن﴾: ما ﴿تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾: مخدوعًا مغلوبًا على عقله.
٤٨ ـ قال تعالى: ﴿انظُرْ: كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمثالَ﴾ بالمسحور والكاهن والشاعر، ﴿فَضَلُّوا﴾ بذلك عن الهُدى، ﴿فلا يَستَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾: طريقًا إليه؟

٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ ـ ﴿وقالُوا﴾ منكرينَ للبعث: ﴿أإذا كُنّا عِظامًا ورُفاتًا أإنّا لَمَبعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا؟ قُلْ﴾ لهم: ﴿كُونُوا حِجارةً أو حَدِيدًا أو خَلْقًا مِمّا يَكبُرُ في صُدُورِكُم﴾: يعظم عن قَبول الحياة، فضلاً عن العِظام والرُّفات. فلا بُدّ من إيجاد الروح فيكم. ﴿فَسَيَقُولُونَ: مَن يُعِيدُنا﴾ إلى الحياة؟ ﴿قُلِ: الَّذِي فَطَرَكُم﴾: خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ولم تكونوا شيئًا لأنّ القادر على البدء قادر على الإعادة، بل هي أهون. ﴿فَسَيُنغِضُونَ﴾: يُحرّكون ﴿إِلَيكَ رُؤُوسَهُم﴾ تعجّبًا، ﴿ويَقُولُونَ﴾ استهزاءً: ﴿مَتَى هُوَ﴾ أي: البعثُ؟ ﴿قُلْ: عَسَى أن يَكُونَ قَرِيبًا، يَومَ يَدعُوكُم﴾: يُناديكم من القُبور على لسان إسرافيل، ﴿فَتَستَجِيبُونَ﴾: فتجيبون دعوته من القُبور ﴿بِحَمدِهِ﴾: بأمره ـ وقيل: وله الحمد ـ ﴿وتَظُنُّونَ: إن﴾ ما ﴿لَبِثتُم﴾ في الدنيا ﴿إلاّ قَلِيلاً﴾ لهول ما تَرَون.

قولُهُ: (مَغلُوباً) أي: سُحِرَ به فزالَ عقلُه.

قولُهُ: (بذَلِكَ) الأظهرُ: في جميعِ ذلك.

قولُهُ: (إِلَيهِ) أي: إلى الهُدى.

قولُهُ: (لَهُم) أي: جَواباً.

قولُهُ: (بَل هيَ أَهوَنُ) أي: بزعمِكُم، أو عادةً، أو بالنِّسبةِ إلى غيرِه تعالى، أو أهوَنُ على المعادِ، فإنَّ الإعادَةَ آنيَّةٌ والابتِداءَ تدريجيَّةٌ.

قولُهُ: (يُحَرِّكُونَ) أي: نحوَكَ.

قولُهُ: (بأَمرِهِ) أي: مُنقادِينَ لبعثِهِ انقيادَ الحامِدِينَ عليه، والأظهرُ أنَّ معناه: حامدينَ للهِ على كمالِ قدرتِهِ كما وردَ: أنَّهم ينفُضونَ التُّرابَ عن رؤوسِهِم ويقولونَ: سبحانَكَ اللّهمَّ وبحمدِكَ(١).

---

(١) لم أقف عليه هكذا، وروى الدولابي في «الكنى والأسماء» (٢٠٩٤) عن سعيد بن جبير، قال: يخرجون من قبورهم، فيقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، وذلك قوله تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾.

وروى ابن أبي الدنيا في «الأهوال» (٢٢٢)، وأبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٢٨٦٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٤٧٨)، وابن بشران في «أماليه/ ج١» (٧٤٣)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٨٢) من حديث ابن عمر، مرفوعاً، وفيه: «وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله وهم ينفضون التراب عن رءوسهم، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن».

قال البيهقي: هذا مرسل عن سلمة بن كهيل، وابن عمر، وبهلول بن عبيد تفرد به وليس بالقوي.

٥٣ ـ ﴿وقُلْ لِعِبادِي﴾ المُؤمنين، ﴿يَقُولُوا﴾ للكُفّار الكلمةَ ﴿الَّتي هِيَ أحسَنُ ـ إنَّ الشَّيطانَ يَنزَغُ﴾: يُفسد ﴿بَينَهُم. إنَّ الشَّيطانَ كانَ لِلإنسانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾: بيِّنَ العداوة ـ والكلمة التي هي أحسن هي: ٥٤ ـ ﴿رَبُّكُم أعلَمُ بِكُم. إن يَشَأْ يَرحَمْكُم﴾ بالتوبة والإيمان، ﴿أو إن يَشَأْ﴾ تعذيبَكم ﴿يُعَذِّبْكُم﴾ بالموت على الكُفر. ﴿وما أرسَلْناكَ علَيهِم وَكِيلاً﴾ فتُجبرَهم على الإيمان. وهذا قبل الأمر بالقتال.

٥٥ ـ ﴿ورَبُّكَ أعلَمُ بِمَن في السَّماواتِ والأرضِ﴾، فيخصّهم بما شاء على قدْر أحوالهم، ﴿ولَقَد فَضَّلْنا بَعضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعضٍ﴾ بتخصيص كُلّ منهم بفضيلة، كمُوسى بالكلام وإبراهيمَ بالخِلّة ومُحمّدٍ بالإسراء، ﴿وآتَينا داوُدَ زَبُورًا﴾.

٥٦ ـ ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿ادعُوا الَّذِينَ زَعَمتُم﴾ أنهم آلهةٌ ﴿مِن دُونِهِ﴾ كالملائكة وعِيسى وعُزير. ﴿فلا يَملِكُونَ كَشفَ الضُّرِّ عَنكُم ولا تَحوِيلاً﴾ له إلى غيركم.

٥٧ ـ ٥٨ ـ ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَـ﴾ ـهم آلهةً ﴿يَبتَغُونَ﴾: يطلبون ﴿إلَى رَبِّهِمِ الوَسِيلَةَ﴾: القُربة بالطاعة، ﴿أيُّهُم﴾: بدل من واو «يبتغون»، ....

قولُهُ: (هُوَ ﴿ربُّكم﴾) وما بينَهُما اعتِراضٌ؛ أي: قولوا لهم هذهِ الكلمَةَ ونحوَها، ولا تُصرِّحوا بأنَّهُم من أهلِ النَّارِ فإنَّهُ يُهيِّجُهُم على الشَّرِّ، مع أنَّ ختامَ أمرِهِم غيبٌ لا يعلمُهُ إلَّا اللهُ.

قولُهُ: (فتُجبِرَهُمْ) وإنَّما أرسَلْناكَ مُبشِّراً ونذيراً، فدارِهِم ومُر أصحابَكَ بالاحتِمالِ منهُم، ولذا قالَ الشَّيخُ: (وَهَذَا قَبْلَ الأَمْرِ بالقِتَالِ) وإلَّا فليسَ معنًى من المعَاني المتقدِّمةِ قابلاً للنَّسخِ.

قولُهُ: (بمَا شَاءَ) من نبوَّةٍ وولايَةٍ، وهو ردٌّ لاستِبعادِ قريشٍ أن يَكونَ يتيمُ أبي طالِبٍ نبيًّا، وأن يكونَ العُراةُ الجُوَّعُ أصحابَهُ.

قولُهُ: (بفَضِيلَةٍ) من الفَضائِلِ النَّفسانيَّةِ والتَّبرِّي عن العلائِقِ الجِسمانيَّةِ، وبمَزيدِ العلمِ اللَّدنِّيِّ لا بوُفورِ المالِ اللَّدنيِّ[1]، حتَّى داودُ فإنَّ شرفَهُ بما أوحيَ إليه من الكِتابِ لا بما أوتِيَ من الملْكِ، وقرأَ حمزةُ بضمِّ الزَّاي[2]، مصدَرانِ بمَعنَى المفعولِ.

قولُهُ: (لَهُ) أي: للضُّرِّ عنكُم.

قولُهُ: (آلِهَةً) فـ﴿أولئكَ﴾ مبتدأٌ والموصولُ صفتُهُ، وخبرُهُ: ﴿يبتغونَ﴾.

(١) كذا، ولعل الصواب: «الدنيّ».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٢).

أي: يبتغيها الذي هو ﴿أَقرَبُ﴾ إليه، فكيف بغيره؟ ﴿وَيَرجُونَ رَحْمَتَهُ، وَيَخافُونَ عَذابَهُ﴾ كغيرهم. فكيف يدعونهم آلهة؟ ﴿إنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحذُورًا، وإنْ﴾: ما ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ - أُريدَ أهلُها - ﴿إلاّ نَحنُ مُهلِكُوها قَبلَ يَومِ القِيامةِ﴾ بالموت ﴿أو مُعَذِّبُوها عَذابًا شَدِيدًا﴾ بالقتل وغيره. ﴿كانَ ذلِكَ في الكِتابِ﴾: في اللوح المحفوظ ﴿مَسطُورًا﴾: مكتوبًا.

٥٩ - ﴿وما مَنَعَنا أن نُرسِلَ بِالآياتِ﴾ التي اقترحها أهل مكّة ﴿إلاّ أن كَذَّبَ بِها الأوَّلُونَ﴾ لمّا أرسلناها، فأهلكناهم. ولو أرسلناها إلى هؤلاء لكذّبوا بها واستحقّوا الإهلاك. وقد حكمنا بإمهالهم لإتمام أمر مُحمّد، ﴿وآتينا ثَمُودَ النّاقةَ﴾ آيةً ﴿مُبصِرةً﴾: بيّنة واضحة، ﴿فظَلَمُوا﴾: كفروا ﴿بِها﴾ فأُهلِكوا. ﴿وما نُرسِلُ بِالآياتِ﴾: بالمُعجزات ﴿إلاّ تَخوِيفًا﴾ للعباد ليُؤمنوا.

٦٠ - ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قُلنا لَكَ: إنَّ رَبَّكَ أحاطَ بِالنّاسِ﴾ علمًا وقُدرة، فهم في قبضته. فبلّغهم ولا تخف أحدًا، فهو يعصمك منهم. ﴿وما جَعَلْنا الرُّؤْيا الَّتِي أرَيناكَ﴾ عِيانًا ليلة الإسراء،.............

قولُهُ: (يَبتَغِيهَا) أي: الوَسيلَةَ.

قولُهُ: (إِلَيهِ) أي: إلى اللهِ منهم.

قولُهُ: (بغَيرِهِ) أي: الأقرَبِ.

قالَ تعالى: (﴿محذوراً﴾) حقيقاً بأن يحذرَهُ كلُّ أحدٍ حتَّى الرُّسلُ والملائكةُ.

قولُهُ: (بالقتل)[1] والاستِئصالِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) من أنواعِ البَلِيَّةِ.

قولُهُ: (لإتمَامِ أَمرِ مُحمَّدٍ) لأنَّ فيهم مَن يؤمنُ، أو يلدُ من يؤمِنُ.

قولُهُ: (آيَةً) بسؤالِهم.

قولُهُ: (بَيِّنَةً) ذاتَ إبصارٍ أو بصائرَ[2]، أو: جاعلتَهُم ذَوِي بصائرَ.

قولُهُ: (كَفَرُوا) أو: ظَلَموا أنفسَهُم بسبَبِ عقرِها.

قولُهُ: (المُعجِزَاتِ) وآياتِ القُرآنِ، والباءُ مزيدَةٌ.

قولُهُ: (للعِبَادِ) بعَذابِ الآخرةِ.

---

(١) في النسخ عدا (ص): «بالموت».

(٢) قوله: «بصائر» معطوف على «إبصار»؛ أي: أو ذات بصائر؛ إشارة إلى أنها إما من الإبصار بمعنى الرؤية، أو من البصيرة بمعنى الإدراك بالقلب، والمعنى: يبصرها المقترح أو يتبصر بها. انظر: «حاشية القونوي على البيضاوي» (١١/ ٥٣٦).

﴿إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾: أهل مكة، إذ كذبوا بها وارتدّ بعضهم لمّا أخبرهم بها، ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ ـ وهي الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم ـ جعلناها فتنة لهم، إذ قالوا: النار تُحرق الشجر، فكيف تُنبته؟ ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ، فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تخويفُنا ﴿إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

٦١ ـ ﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ: اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ سُجودَ تحية بالانحناء. ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ، قَالَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؟ نصبٌ بنزع الخافض أي: من طين. ٦٢ ـ ﴿قَالَ: أَرَأَيْتَكَ﴾ أي: أخبِرْني ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ﴾: فضّلت ﴿عَلَيَّ﴾ بالأمر بالسجود له، «وأنا خيرٌ منهُ خلقتني من نارٍ». ﴿لَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ﴾: لأستأصلنّ ﴿ذُرِّيَّتَهُ﴾ بالإغواء ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ منهم ممّن عصمتَه.

قولُهُ: (بِهَا) وبغيرِها، من أنواعِ التَّخويفِ.

قولُهُ: (تُنبتُهُ) ولم يعلَمُوا أنَّ من قَدِرَ أن يحميَ وبرَ السَّمندَلِ[1] من أن تأكلَهُ النَّارُ، وأحشاءَ النَّعامةِ من أذى الجَمْرِ وقِطَعِ الحَديدِ المحمَّاةِ الحمراءِ التي تبلعُها؛ قادرٌ أن يخلقَ في النَّارِ شجرةً لا تحرقُها، ولعنُها في القرآنِ لعنُ طاعِمِيها، وُصِفَت به على المجازِ للمُبالغَةِ، أو وصَفَها بأنَّها في أصلِ الجحيمِ، فإنَّه أبعدُ مكانٍ من الرَّحمةِ، أو بأنَّها مكروهةٌ مُؤذيةٌ من قولِهِم: طعامٌ ملعونٌ، لما كانَ ضارًّا، ففي الحديثِ: «لو أنَّ قطرةً مِنَ الزَّقُّومِ قطرَتْ في الدُّنيا لأمرَّتْ على أهلِ الأرضِ عيشَهُم، فكيفَ بمَنْ ليسَ له طعامٌ إلَّا الزَّقومَ؟!»[2] ذكرَهُ في «الدُّرِّ»[3].

قولُهُ: (أي: أخبِرْني) الكافُ لتأكيدِ الخطابِ لا محلَّ لهُ من الإعرابِ، و﴿هَذَا﴾ مفعولٌ، و﴿الَّذِي﴾ صفتُهُ، والمفعولُ الثَّاني محذُوفٌ لدلالَةِ صلتِهِ عليه، وهو: مكرَّماً عَليَّ، والمعنى: أخبِرْني عن هذا الَّذي كرَّمتَهُ عليَّ بأمري بالسُّجودِ له، لم كرَّمتَهُ عليَّ؟.

قولُهُ: (لَامُ قَسَمٍ) أي: موطِّئةٌ، وهو كلامٌ مبتدأٌ، وأثبتَ ياءَ (أَخَّرْتَنِي) نافعٌ وأبو عَمرٍو وصلاً، والمكيُّ مطلقاً[4].

---

(١) قال الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٦٧٥): هو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لا تعمل فيه النار.

(٢) رواه الترمذي (٢٥٨٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٠٤)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وأحمد في «مسنده» (٢٧٣٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٤٧٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: «الدر المنثور» (٢/ ٢٨٤).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٢).

٦٣ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى له: ﴿اذهَبْ﴾ مُنظَرًا إلى وقت النفخة الأُولى ـ ﴿فمَن تَبِعَكَ مِنهُم فإنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُم﴾ أنت وهم ﴿جَزاءً مَوفُورًا﴾: وافرًا كاملاً ـ ٦٤ ـ ﴿واستَفزِزْ﴾: استخِفَّ ﴿مَنِ استَطَعتَ مِنهُم بِصَوتِكَ﴾: بدُعائك بالغِناء والمزامير وكُلّ داع إلى المعصية، ﴿وأجلِبْ﴾: صِحْ ﴿علَيهِم بِخَيلِكَ ورَجْلِكَ﴾ ـ وهم الرُّكّاب والمُشاة في المعاصي ـ ﴿وشارِكْهُم في الأمْوالِ﴾........

قولُهُ: (مُنْظَرَاً)(١) والظَّاهرُ أنَّ الأمرَ فيه وما بعدَهُ إذنيٌّ لظُهورِ المطيعِ والعاصِي، كما قالَهُ المحَليُّ في الشُّعراءِ عند قولِهِ: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [٤٣](٢).

وفي «التَّوضيحِ»: جعلَهُ للاحتِقارِ والإهانَةِ(٣)، ويشيرُ البَيضاويُّ بقولِهِ: وهو طردٌ وتخليةٌ بينه وبينَ ما سوَّلَت له نفسُه(٤).

وقالَ الطَّحاويُّ: معناهُ عندَنا على الوَعيدِ الَّذي ظاهرُه الأمرُ وباطنُه النَّهيُ(٥).

قولُهُ: (وَهم) فغلَّبَ المخاطَبُ.

قولُهُ: (وافِراً كَامِلاً) أو مكمَّلاً، من قولِهِم: فِرْ لصاحِبِكَ عرضَهُ، وانتصابُ ﴿جَزَاءً﴾ على المصدَرِ بإضمارِ فعلِه، أو بما في ﴿جَزَاؤُكُمْ﴾ من معنى تُجازَونَ.

قولُهُ: (اسْتَخِفَّ) والفَزُّ: الخفيفُ(٦)؛ أي: احمِلهُم على الخفَّةِ والطَّيشِ بتركِ الصَّبرِ.

قولُهُ: (صِحْ) من الجلَبةِ، وهي الصِّياحُ.

قولُهُ: (وهُم الرُّكَّابُ) الظَّاهرُ أنَّ لإبليسَ خيلاً ورجالاً مِن الجنِّ، والمعنى: رخَّصَ له(٧) التَّسلُّط بكلِّ ما يقدِرُ، والأمرُ أمرٌ قَدَريٌّ، أو تهديدٌ قضائيٌّ، كذا في بعضِ الحواشِي(٨)، وقيل: الأوامرُ بمعنى: الأخبارِ، وقرأَ حفصٌ: ﴿رَجِلِكَ﴾ بالكَسرِ(٩).

---

(١) في (د): «منتظرًا».

(٢) والذي قاله المحلي: فالأمر منه للإذن بتقديم إلقائهم توسلًا به إلى إظهار الحق.

(٣) انظر: «شرح التلويح على التوضيح» (١/ ٢٩٢)

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٦٠).

(٥) انظر: «شرح معاني الآثار» (٤/ ٣٢٠).

(٦) انظر: «لسان العرب» (٥/ ٣٩١).

(٧) في (م) و(د): «رخصة».

(٨) وانظر: «تفسير الإيجي» (٢/ ٤٠١).

(٩) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٥).

المُحرّمة كالربا والغصب ﴿والأولادِ﴾ من الزنى، ﴿وعِدْهُم﴾ أن لا بعثَ ولا جزاء - ﴿وما يَعِدُهُمُ الشَّيطانُ﴾ بذلك ﴿إلاّ غُرُورًا﴾: باطلاً - ٦٥ - ﴿إنَّ عِبادِي﴾ المُؤمنين ﴿لَيسَ لَكَ عليهم سُلطانٌ﴾: تسلّطٌ وقُوّة، ﴿وكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾: حافظًا لهم منك!

٦٦ - ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزجِي﴾: يُجري ﴿لَكُمُ الفُلكَ﴾: السُّفن ﴿في البَحرِ لِتَبتَغُوا﴾: تطلبوا ﴿مِن فَضلِهِ﴾ تعالى بالتجارة - ﴿إنَّهُ كانَ بِكُم رَحِيمًا﴾ في تسخيرها لكم - ٦٧ - ﴿وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾: الشّدّة ﴿في البَحرِ﴾ خوفَ الغرق ﴿ضَلَّ﴾: غاب عنكم ﴿مَن تَدعُونَ﴾: تعبدون من الآلهة فلا تدعونه، ﴿إلاّ إيّاهُ﴾ تعالى - فإنكم تدعونه وحده لأنكم في شِدّة لا يكشفها إلاّ هو - ﴿فلَمّا نَجّاكُم﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿إلَى البَرِّ أعرَضتُم﴾ عن التوحيد. ﴿وكانَ الإنسانُ كَفُورًا﴾: جَحودًا للنِّعم.

٦٨ - ﴿أفأَمِنتُم أن نَخسِفَ بِكُم جانِبَ البَرِّ﴾ أي: الأرضِ كقارونَ،..........

قولُهُ: (المُحَرَّمَةِ) بحملِهم على كَسبِها وجمعِها مِن الحرامِ، والتَّصرُّفِ فيها على ما لا يَنبغِي.

قولُهُ: (مِنَ الزِّنَا) بالحثِّ على التَّوصُّلِ إلى الولدِ بالسَّببِ المحرَّمِ، وعلى الإشراكِ فيه بتسميتِهِ عبدَ العُزَّى مثلاً، وبالحَملِ على العقائدِ الزَّائغةِ، والحِرَفِ الذَّميمةِ، والأفعالِ القبيحَةِ.

قولُهُ: (أنْ لا بَعْثَ) وغيرَهُ مِن المواعِيدِ الباطلَةِ كشفاعَةِ الآلهةِ والاتِّكالِ على كرامَةِ الآباءِ وتَأخيرِ التَّوبةِ بطولِ الأمَلِ.

قولُهُ: (بَاطِلاً) الغرورُ: تَزيينُ الخطأ بما يوهِمُ أنَّه صوابٌ[1].

قولُهُ: (المُؤمِنِينَ) المخلِصينَ.

قولُهُ: (تَسَلُّطٌ) على إغوائِهِم.

قولُهُ: (بالتِّجارَةِ) أي: الرِّبحِ وأنواعِ الأمتعَةِ الَّتي لا تكونُ عندَكُم.

قولُهُ: (خَوْفَ) تفسيرٌ لـ﴿الضُّرُّ﴾.

قولُهُ: (غَابَ) ذهبَ عن خَواطِرِكم.

قولُهُ: (تَعبُدُونَ) عن إغاثَتِكُم، أو: كلُّ مَن تَدْعونَهُ في حوادِثِكُم.

قولُهُ: (أي: الأَرْضِ) وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو بالنُّونِ فيه وفي الأربعةِ التي بعدَهُ[2].

---

(١) انظر: «الكليات» (ص: ٦٧٢)، و«لسان العرب» (٥/ ١٢).

(٢) أي: (نخسف) و(نرسل) و(نعيدكم) و(فنرسل) و(فنغرقكم)، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٦).

﴿أو نُرسِلَ علَيكُم حاصِبًا﴾ أي: نرميَكم بالحصباء كقوم لُوط، ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُم وَكِيلاً﴾: حافظًا منه؟ ٦٩ ـ ﴿أم أمِنتُم أن نُعِيدَكُم فِيهِ﴾ أي: في البحر ﴿تارةً﴾: مرّة ﴿أُخرَى، فنُرسِلَ علَيكُم قاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أي: ريحًا شديدة لا تمرّ بشيء إلاّ قصفتْه فتكسِرَ فُلْكَكُم، ﴿فنُغرِقَكُم بِما كَفَرتُم﴾: بكفركم، ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُم علَينا بِهِ تَبِيعًا﴾: ناصرًا وتابعًا يُطالبنا بما فعلنا بكم؟

٧٠ ـ ﴿ولَقَد كَرَّمْنا﴾: فضّلنا ﴿بَنِي آدَمَ﴾ بالعِلم والنُّطق واعتدال الخَلق وغير ذلك، ومنه طهارتُهم بعد الموت، ﴿وحَمَلْناهُم في البَرِّ﴾ على الدوابّ ﴿والبَحرِ﴾ على السُّفن، ﴿ورَزَقْناهُم مِنَ الطَّيِّباتِ، وفَضَّلْناهُم علَى كَثِيرٍ مِمَّن خَلَقْنا﴾ كالبهائم والوحوش ﴿تَفضِيلاً﴾. فـ «مَن» بمعنى: ما، أو على بابها

قولُهُ: (أي: تَرْمِيَكُم) يعني: ريحاً تحصُبُ؛ أي: تَرمِي بالحصْباءِ.

قولُهُ: (مِنْهُ) أي: الحاصِبِ.

قولُهُ: (قَصَفَتْهُ) كسَرَتهُ.

قولُهُ: (بكُفْرِكُم) أو كُفرانِكُم نعمَةَ الإنجاءِ[1].

قولُهُ: (يُطَالِبُنَا) يتبَعُنا بانتِصارٍ أو صَرفٍ.

قولُهُ: (بالعِلْمِ) والتَّمْييزِ بالعَقلِ والتَّمكُّنِ من الصِّناعاتِ.

قولُهُ: (اعْتِدَالِ الخَلْقِ) مِن المزاجِ والقامَةِ.

قولُهُ: (وغَيرِ ذَلِكَ) مِن حُسنِ الصُّورةِ والخطِّ والتَّهَدِّي إلى أسبابِ المعاشِ والمعادِ، والتَّسلُّطِ على ما في الأرضِ، ونحوِها ممَّا يَقِفُ الحصرُ دونَ إحصائِهِ، ومن ذلك ما ذكرَهُ ابنُ عبَّاسٍ[2]: أنَّ كلَّ حَيوانٍ يتناوَلُ طعامَهُ بفِيهِ إلَّا الإنسانَ فإنَّه يرفعُهُ إليه بيدِهِ[3]. وهو أعمُّ مِن أن يكونَ بمِلعَقَةٍ أو غيرِها.

قولُهُ: (ومِنهُ طَهَارَتُهم) وكذا دَفْنُهم.

قولُهُ: (أو عَلَى بَابِهَا) أي: بالغَلَبةِ والاستِيلاءِ، أو بالشَّرفِ والكرامةِ، والمستَثنَى جِنسُ الملائكَةِ.

---

(١) في (ص): «الإيجاد».

(٢) روى الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٧١٩) عن ابن عباس رضي الله عنه: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم يأكل بيده.
وروى البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٥٥) نحوه.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٩)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (١٧١٩)، وبنحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٤٥٥).

وتشمل الملائكة والمراد تفضيل الجنس، ولا يلزم تفضيلَ أفراده إذ هم أفضل من البشر غيرَ الأنبياء.

٧١ ـ اذكرْ ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ﴾: بنبيّهم، فيقال: يا أُمَّةَ فُلانٍ، أو بكتاب أعمالهم، فيقال: يا صاحب الخير، يا صاحب الشرّ ـ وهو يوم القيامة ـ ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ﴾ منهم ﴿كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، وهم السُّعداء أولو البصائر في الدنيا، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾: يُنقصون من أعمالهم ﴿فَتِيلٗا﴾: قدْرَ قِشرة النواة، ٧٢ ـ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: الدنيا ﴿أَعۡمَىٰ﴾ عن الحقّ ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ عن طريقِ النجاة وقراءةِ الكتاب، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾: أبعدُ طريقًا عنه.

ونزل في ثقيفٍ، وقد سألوه ﷺ أن يُحرّم واديَهم وألحّوا عليه: ٧٣ ـ ٧٤ ـ ﴿وَإِن﴾: مُخفّفةٌ ﴿كَادُواْ﴾: قاربوا ﴿لَيَفۡتِنُونَكَ﴾: لَيَستزِلّونكَ........................

قولُهُ: (وتَشمَلُ المَلائِكَةَ) فالمستَثنى الخَواصُّ منهم.

قولُهُ: (ولا يَلزَمُ) أي: مِن عدَمِ تفضيلِ الجِنسِ.

قولُهُ: (تَفضِيل أفرَادِهِ) أي: بعضِ أفرادِهِ، والمسألةُ مَوضِعُ نظرٍ، وقد أوّلَ الكثيرَ بالكُلِّ، وفيه تعسُّفٌ.

قولُهُ: (إِذ هُم) أي: خواصُّهُم كجبريلَ.

قولُهُ: (مِنَ البَشَرِ) أي: عوامِّ المؤمِنينَ كالصِّدِّيقِ وبقيَّةِ الأولياءِ والعُلَماءِ الصَّالحينَ، وهم أفضلُ مِن عوامِّ الملائكَةِ.

قولُهُ: (مِنْ نَبِيٍّ) أو مقدَّمٍ في الدِّينِ.

قولُهُ: (يا أُمَّةَ فُلانٍ) قالَ السَّريُّ: إلَّا أولياءَ اللهِ فإنَّهُم يُنادَونَ: يا أولياءَ اللهِ؛ هلُمُّوا إلى اللهِ سبحانه، فتكادُ قلوبُهُم تنخَلِعُ فَرَحاً. كذا في «تذكرةِ القرطبيِّ»[1].

قلتُ: وقلوبُ غيرِهِم تنقلِعُ حُزناً.

قولُهُ: (أو بكِتَابِ أعمَالِهِم) ويؤيِّدُه ما بعدَهُ؛ أي: تنقطعُ عُلقةُ الأنسابِ وتَبقى نِسبةُ الأعمالِ.

قولُهُ: (قِشْرَةِ النَّوَاةِ) تقدَّمَ أنَّ هذا معنَى القِطْميرِ[2]، وأمَّا الفَتيلُ: فهو الخيطُ الَّذي في شقِّ النَّواةِ، يُضرَبُ به المثَلُ في الحقارَةِ.

قولُهُ: (عَنهُ) الظَّاهرُ: منه؛ أي: في الدُّنيا؛ لزَوالِ الاستِعدادِ.

قولُهُ: (قَارَبُوا) بمبالَغتِهِم أن يوقِعوكَ في الفتنَةِ.

---

(١) انظر: «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص: ٥٥٨)، وانظر: «إحياء علوم الدين» (٤/ ٢٩٥).

(٢) وذلك عند قوله: ﴿فتيلا﴾ [النساء: ٤٩].

﴿عَنِ الَّذِي أَوحَينا إلَيكَ لِتَفتَرِيَ علَينا غَيرَهُ، وإذًا﴾ لو فعلتَ ذلك ﴿لاتَّخذُوكَ خَلِيلاً، ولَولا أن ثَبَّتْناكَ﴾ على الحقّ بالعِصمة ﴿لَقَد كِدتَ﴾: قاربتَ ﴿تَركَنُ﴾: تميل ﴿إلَيهِم شَيئًا﴾: رُكونًا ﴿قَلِيلاً﴾ لشِدّة احتيالهم وإلحاحهم. وهو صريح في أنه ﷺ لم يركَن ولا قارب. ٧٥ ـ ﴿إذًا﴾ لو ركنتَ ﴿لَأذَقْناكَ ضِعفَ﴾ عذابِ ﴿الحَياةِ وضِعفَ﴾ عذابِ ﴿المَماتِ﴾ أي: مِثلَي ما يُعذَّب به غيرُك في الدنيا والآخِرة، ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ علَينا نَصِيرًا﴾: مانعًا منه.

ونزل لمّا قال له اليهود: «إن كنتَ نبيًّا فالحقْ بالشام، فإنها أرضُ الأنبياء»: ٧٦ ـ ﴿وإنْ﴾: مُخفّفةٌ ﴿كادُوا لَيَستَفِزُّونَكَ مِنَ الأرضِ﴾ أرض المدينة ﴿لِيُخرِجُوكَ مِنها، وإذًا﴾ لو أخرجوك ﴿لا يَلبَثُونَ خَلفَكَ﴾ فيها ﴿إلاّ قَلِيلاً﴾، ثمّ يُهلَكون،.........................

قولُهُ: (تَمِيلُ) أدنى مَيلٍ.

قولُهُ: (لَو رَكَنْتَ) الأحسنُ: لو قاربْتَ.

قولُهُ: (مِثْلَي ما نُعَذِّبُ) لأنَّ خطأَ الخَطيرِ أخطَرُ.

قولُهُ: (مِنهُ) أي: العَذابِ، ولمَّا كانت القوَّةُ بعدَ هذه الإذاقَةِ في غايةِ البُعدِ عبَّرَ بـ﴿ثُمَّ﴾.

قولُهُ: (أَرْضِ المَدِينةِ) قيل: الآيةُ نزلَتْ في اليهودِ؛ حسَدوا مقامَ النبيِّ بالمدينَةِ فقالوا: الشَّامُ مقامُ الأنبياءِ، فإن كنتَ نبيًّا فالحَقْ بها حتَّى نؤمنَ بك، فوقَعَ ذلك في قَلبِه[١].

وقالَ مجاهدٌ وقتادَةُ: الأرضُ أرضُ مكَّةَ، هَمَّ المشركونَ أن يُخرِجوهُ منها فكَفَّهم اللهُ عنه حتَّى أمرَهُ بالهجرَةِ، فخَرَجَ بنفسِهِ[٢]، قالَ البغويُّ: وهذا أليَقُ بالآيةِ؛ لأنَّ ما قبلَها خبرٌ عن أهلِ مكَّةَ، والسُّورةُ مكِّيَّةٌ. والاستفزازُ: الإزعاجُ بسُرعةٍ[٣].

قولُهُ: (فِيهَا) أي: الأرضِ، والشَّاميُّ وحفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿خِلَافَكَ﴾[٤]، وهو لغةٌ؛ أي: بعدَ خروجِكَ منها.

قولُهُ: (يُهلَكُونَ) بفتحِ الياءِ أو ضمِّها، وهو الأَوْلى.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٠) من قول ابن عباس رضي الله عنه.

وضعف ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ١٠٠) ذلك؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥١٠) عن قتادة، ورواه (١٧/ ٥١٠) عن مجاهد مختصراً.

وذكره عنهما الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٠).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ١٤٨).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٨).

٧٧ ـ ﴿سُنَّةَ مَن قَد أرسَلْنا قَبلَكَ، مِن رُسُلِنا﴾ أي: كسُنّتنا فيهم من إهلاك من أخرجهم، ﴿ولا تَجِدُ لِسُنّتِنا تَحوِيلاً﴾: تبديلاً.

٧٨ ـ ﴿أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمسِ﴾ أي: من وقت زوالها ﴿إلَى غَسَقِ اللَّيلِ﴾: إقبال ظُلمته، أي: الظُّهرَ والعصرَ والمغرِبَ والعِشاءَ، ﴿وقُرآنَ الفَجرِ﴾: صلاةَ الصُّبح ـ ﴿إنَّ قُرآنَ الفَجرِ كانَ مَشهُودًا﴾: تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ـ ٧٩ ـ ﴿ومِنَ اللَّيلِ فتَهَجَّدْ﴾: فصَلِّ ﴿بِهِ﴾: بالقُرآن ﴿نافِلَةً لَكَ﴾: فريضةً زائدة لك دُون أُمّتك، أو فضيلةً على الصلوات المفروضة. ﴿عَسَى أن يَبعَثَكَ﴾: يُقيمَك ﴿رَبُّكَ﴾ في الآخرة ﴿مَقامًا مَحمُودًا﴾: يَحمَدك فيه الأوّلون والآخِرون. وهو مُقام الشفاعة في فصل القضاء.

ونزل لمّا أُمر بالهجرة: ٨٠ ـ ﴿وقُلْ: رَبِّ، أدخِلْنِي﴾ المدينةَ ﴿مُدخَلَ صِدقٍ﴾: إدخالاً مَرضيًّا، لا أرى فيه ما أكره، ﴿وأخرِجْنِي﴾ من مكّةَ...

قولُهُ: (كَسُنَّتِنَا فِيهِم) أي: المخرَجينَ، أو نصبٌ على المصدَرِ؛ أي: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً، وهو أن يُهلِكَ كلَّ أمّةٍ أخرَجوا رسولَهُم من بين أظهُرِهِم، فالسُّنَّةُ للهِ، وإضافَتُها إلى الرُّسلِ لأنَّها مِن أجلِهِم.

قولُهُ: (صَلاةَ الصُّبحِ) سُمِّيَت قرآناً لأنَّه رُكنُها، كما سُمِّيت رُكوعاً وسُجوداً، ولأنَّ القراءَةَ يستحَبُّ الإطالَةُ فيها.

قولُهُ: (فَصَلِّ) أي: وبعضَ اللَّيلِ فاترُكِ الهُجودَ للصَّلاةِ.

قولُهُ: (لكَ) على الصَّلواتِ المفروضَةِ.

قولُهُ: (أَوْ فَضِيْلَةً) لك؛ لاختصَاصِ وجوبِهِ بك، أو: نافعةً لك، أو: لكَ فيها التَّخييرُ.

قولُهُ: (يَحْمَدُكَ فِيهِ) أو يحمدُهُ القائمُ فيه وكلُّ من عرفَهُ.

قولُهُ: (وهُوَ) على المشهورِ، وانتِصابُ ﴿مقاماً﴾ على الظَّرفِ بإضمارِ فعلِهِ؛ أي: فيقيمَكَ مَقاماً، أو بتَضمينِ ﴿يبعثَكَ﴾ معنى القيامِ، كما أشارَ إليه الشَّيخُ.

قولُهُ: (مِنْ مَكَّةَ) وقيل: إدخالُه مكَّةَ ظاهراً عليها وإخراجُه منها آمناً مِن المشركينَ.

وقيل: إدخالُه الغارَ وإخراجُه منه سالماً.

وقيل: أدخِلني في القَبرِ وأخرِجني منه عندَ البعْثِ إدخالاً مَرضيًّا وإخراجاً مُلقًّى بالكرامَةِ.

وقيلَ: إدخالُه فيما حمَّلَهُ من أعباءِ الرِّسالَةِ وإخراجُه منها مؤدِّياً حقَّه.

وقيل: إدخالُهُ في كلِّ ما يلابسُهُ مِن أمرٍ أو مكانٍ وإخراجُه منه.

﴿مُخرَجَ صِدقٍ﴾: إخراجًا لا ألتفت بقلبي إليها، ﴿واجعَلْ لِي مِن لَدُنكَ سُلطانًا نَصِيرًا﴾: قُوّة تنصرني بها على أعدائك. ٨١ ـ ﴿وقُلْ﴾ عِند دُخولك مكّة: ﴿جاءَ الحَقُّ﴾: الإسلامُ، ﴿وزَهَقَ الباطِلُ﴾: بَطَلَ الكُفر. ﴿إنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقًا﴾: مُضمحلًّا زائلاً. وقد دَخلَها ﷺ، «وحَولَ البَيتِ ثلاثُمائةٍ وسِتُّونَ صَنَمًا، فجَعَلَ يَطعُنُها بعُودٍ في يَدِهِ، ويَقُولُ» ذلك، حَتّى سَقَطَتْ. رواه الشيخان.

٨٢ ـ ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ﴾: للبيان ﴿القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ﴾..............................

قولُهُ: (قُوَّةً) أو حجَّةً.

قولُهُ: (عِندَ دُخُولِ مَكَّةَ) أي: بعدَ الفَتحِ.

قولُهُ: (بَطَلَ) وذهبَ، مِن زَهَقَ روحُه: إذا خرَجَ[1].

قولُهُ: (رَوَاهُ الشَّيخَانِ)[2] وبقيَ صنمُ خُزاعَةَ فوقَ الكعبةِ، وكانَ مِن صُفْرٍ[3] فقالَ: «يا عليُّ، ارمِ بِهِ» فصعدَ فرمَى به فكسَرَهُ[4].

قولُهُ: (للبَيَانِ) تقدَّمَ؛ أي: لبَيانِ ﴿ما﴾؛ فإنَّ كلَّهُ كذلك.

وقيل: إنَّه للتَّبعيضِ، والمعنى: أنَّ منه ما يشفي مِن المرَضِ كالفاتحةِ[5] وآياتِ الشِّفاءِ[6].

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١٠/ ١٤٧).

(٢) رواه البخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨١) من حديث عبد بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أي: من النحاس. «القاموس المحيط» (ص: ٤٢٥).

(٤) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٤٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٤)، والبزار في «مسنده» (٧٦٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٩٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٨٧) عن علي رضي الله عنه: «انطلقت مع رسول الله ﷺ حتى أتينا الكعبة، فصعد رسول الله ﷺ على منكبي، فنهض به علي، فلما رأى رسول الله ﷺ ضعفه قال له: «اجلس» فجلس، فنزل نبي الله ﷺ فقال: «اصعد على منكبي» فنهض به رسول الله ﷺ فقال علي: إنه ليخيل إلي أني لو شئت لنلت أفق السماء، فصعد علي الكعبة وعليها تمثال من صفر أو نحاس، فجعلت أعالجه لأزيله يميناً وشمالاً، وقداماً ومن بين يديه، ومن خلفه، حتى إذا استمكنت منه» قال نبي الله ﷺ: «اقذفه» فقذفت به، فكسرته كما تكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله ﷺ نستبق حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. وقال الذهبي: إسناده نظيف والمتن منكر.

(٥) انظر ما رواه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٦) لم أقف على نص ذكر فيه آيات الشفاء، وإنما نقل عن القشيري أنها ست آيات كما في رؤية رآها. انظر: «المدخل» لابن الحاج (٤/ ١٢١).

من الضلالة ﴿ورَحْمةٌ لِلمُؤمِنِينَ﴾ به، ﴿ولا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿إلاّ خَسارًا﴾ لكُفرهم به، ٨٣ ـ ﴿وإذا أنعَمْنا علَى الإنسانِ﴾: الكافر ﴿أعرَضَ﴾ عن الشُّكر، ﴿ونأَى بِجانِبِهِ﴾: ثنى عِطفه مُتبخترًا، ﴿وإذا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾: الفقر والشِّدّة ﴿كانَ يَؤُوسًا﴾: قَنوطًا من رحمة الله. ٨٤ ـ ﴿قُلْ: كُلٌّ﴾ منّا ومنكم ﴿يَعمَلُ علَى شاكِلتِهِ﴾: طريقته. ﴿فرَبُّكُم أعلَمُ بِمَن هُوَ أهدَى سَبِيلاً﴾: طريقًا فيُثيبه.

٨٥ ـ ﴿ويَسألُونَكَ﴾ أي: اليهودُ ﴿عَنِ الرُّوحِ﴾ الذي يحيا به البدن. ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿الرُّوحُ مِن أمرِ رَبِّي﴾ أي: عِلمِه لا تعلمونه، ﴿وما أُوتِيتُم مِنَ العِلمِ إلاّ قَلِيلاً﴾ بالنسبة إلى عِلمه تعالى. ٨٦ ـ ٨٧ ـ ﴿ولَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿شِئْنا لَنَذهَبَنَّ بِالَّذِي أوحَينا إلَيكَ﴾ أي: من القُرآنِ بأن نمحوه من الصدور والمصاحف، ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ علَينا وَكِيلاً، إلّا﴾.........................

قولُهُ: (مِنَ الضَّلالَةِ) أي: ما هوَ في تقويمِ دينِهم واستِصلاحِ نفوسِهم كالدَّواءِ الشَّافي للمَرضى.

قولُهُ: (الكَافِرِ) بالصِّحةِ والسَّعةِ.

قولُهُ: (عَنِ الشُّكْرِ) والذِّكرِ.

قولُهُ: (ثَنَى) لوى، والعِطفُ: الجانبُ مِن يَمينٍ أو شمالٍ، أو بعَّدَ بنفسِهِ عن اللهِ كأنَّه مُستَغنٍ مُستَبدٌّ بأمرِهِ، ويجوزُ أن يكونَ كنايةً عن الاستكبارِ؛ لأنَّه من عادةِ المستكبِرينَ.

وقرأَ ابنُ ذكوانَ: (ناءَ)[1] على القلبِ، أو بمعنَى: نهَضَ.

قولُهُ: (والشِّدَّةُ) والمرَضُ.

قولُهُ: (طَرِيقتِهِ) التي تُشاكِلُ حالَهُ في الهُدى والضَّلالةِ، وفي الحديثِ: «كلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لهُ»[2]، وفي كلامِهِم: سبحانَ مَن أقامَ العبادَ فيما أرادَ، وفُسِّرتِ المشاكَلةُ بالطَّبيعةِ والعادةِ والدِّينِ.

قولُهُ: (أي: عِلْمِهِ) أي: ممَّا استأثَرَ اللهُ بعلمِهِ.

قولُهُ: (لامُ قَسَمٍ) أي: موطِّئةٌ.

قالَ تعالى: (﴿وَكِيلًا﴾) مَن يتوكَّلُ علينا استردادَهُ مسطُوراً محفوظاً ﴿إلَّا رحمةً﴾ فإنَّها إن نالَتْكَ فلعلَّها تستردُّهُ عليك، والأظهرُ: أنَّ الاستِثناءَ منقَطِعٌ بمعنَى: ولكن رحمةً مِن ربِّكَ تركتُه غيرَ مَذهوبٍ به، فيكونُ امتِناناً بإبقائهِ بعد المنَّةِ في تنزيلِهِ، وأشارَ الشَّيخُ إليه لفظاً ومعنًى.

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٦٩).

(٢) رواه البخاري (٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٩) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

لكن أبقيناه ﴿رَحْمةً مِن رَبِّكَ. إنَّ فَضلَهُ كانَ علَيكَ كَبِيرًا﴾: عظيمًا حيثُ أنزله عليك، وأعطاك المَقام المحمود وغير ذلك من الفضائل.

٨٨ ـ ﴿قُلْ: لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإنسُ والجِنُّ علَى أن يأتُوا بِمِثلِ هذا القُرآنِ﴾ في الفصاحة والبلاغة، ﴿لا يأتُونَ بِمِثلِهِ، ولَو كانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيرًا﴾: مُعينًا. نزل ردًّا لقولهم: «لَو نَشاءُ لَقُلنا مِثلَ هذا».

٨٩ ـ ﴿ولَقَد صَرَّفنا﴾: بيّنّا ﴿لِلنّاسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: صفةٌ لمحذوف، أي: مَثلاً من جِنس كُلِّ مَثل ليتّعظوا، ﴿فأبَى أكثَرُ النّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿إلاّ كُفُورًا﴾: جُحودًا للحق، ٩٠ ـ ﴿وقالُوا﴾ عطفٌ على «أبى»: ﴿لَن نُؤمِنَ لَكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنا مِنَ الأرضِ يَنبُوعًا﴾: عينًا ينبَعُ منها الماء، ٩١ ـ ٩٢ ـ ﴿أو تَكُونَ لَكَ جَنّةٌ﴾: بُستانٌ ﴿مِن نَخِيلٍ وعِنَبٍ، فتُفَجِّرَ الأنهارَ خِلالَها﴾: وَسْطَها ﴿تَفجِيرًا، أو تُسقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمتَ علَينا كِسَفًا﴾: قِطَعًا، ﴿أو تأتِيَ بِاللهِ والمَلائكةِ قَبِيلاً﴾: مُقابلَةً وعِيانًا فنراهم، ٩٣ ـ ﴿أو يَكُونَ لَكَ بَيتٌ مِن زُخرُفٍ﴾: ذهب، ﴿أو تَرقَى﴾: تصعدَ ﴿في السَّماءِ﴾ بسلّم، ﴿ولَن نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ ـ لو رقِيتَ فيها ـ ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ علَينا﴾ منها ﴿كِتابًا﴾، فيه تصديقك ﴿نَقرَؤُهُ. قُلْ﴾ لهم: ﴿سُبحانَ رَبِّي﴾! تعجّبٌ. ﴿هَل﴾: ما ﴿كُنتُ إلاّ بَشَرًا رَسُولاً﴾ كسائر الرسل؟ ولم يكونوا يأتون بآية إلاّ بإذن الله.

قولُهُ: (أَنْزَلَهُ) وأبقاهُ.

قولُهُ: (والبَلاغَةِ) وتعريفُها يُعرَفُ مِن علمِ المعاني.

قولُهُ: (بَيَّنَّا) أي: كرَّرنا بوجُوهٍ مختَلفةٍ؛ زيادةً في التَّقريرِ والبَيانِ.

قولُهُ: (مِنْ جِنْسِ كُلِّ مَثَلٍ) أي: مِن كلِّ معنًى، هو كالمثَلِ في غرابتِهِ ووقوعِهِ موقعَهُ في الأنفُسِ.

قولُهُ: (يَنْبُعُ) ولا ينقطِعُ، وقرأَ الكوفيُّ: (تَفْجُرَ) بالتَّخفيفِ[1].

قولُهُ: (قِطَعاً) نافعٌ وشاميٌّ وعاصمٌ بالفَتحِ[2].

قولُهُ: (ذَهَبٍ) وقُرِئَ بِهِ[3]، وأصلُه: الزِّينةُ.

قولُهُ: (تَعَجُّبٌ) مِنِ اقتراحاتِهِم، والأَولى: تعجِيْبٌ.

قولُهُ: (يَأْتُوا) الظَّاهرُ: يأتونَ[4]، ولعلَّهُ يدلُّ على صِدقي في أنِّي رسولٌ إليكم، أو على أنِّي بلَّغتُ ما أرسِلتُ به إليكم وأنّكم عانَدتُم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٠٩).

(٢) أي: فتح السين في ﴿كسفا﴾ وقرأ الباقون بإسكان السين. انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤١٠).

(٣) ونسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٨٣). (٤) وهكذا في المتن.

٩٤ ـ ﴿وما مَنَعَ النّاسَ أن يُؤمِنُوا إذ جاءَهُمُ الهُدَى إلاّ أن قالُوا﴾ أي: قولُهم منكرين: ﴿أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً﴾، ولم يَبعث ملَكًا؟ ٩٥ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَو كانَ في الأرضِ﴾ بدلَ البشر ﴿مَلائكةٌ، يَمشُونَ مُطمَئِنِّينَ، لَنَزَّلْنا علَيهِم مِنَ السَّماءِ مَلَكًا رَسُولاً﴾، إذ لا يُرسَل إلى قوم رسول إلاّ من جِنسهم ليُمكِنَهم مُخاطبتُه والفهم عنه. ٩٦ ـ ﴿قُلْ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيني وبَينَكُم﴾ على صِدقي! ﴿إنَّهُ كانَ بِعبادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾: عالمًا ببواطنهم وظواهرهم.

٩٧ ـ ﴿ومَن يَهدِ اللهُ فهُوَ المُهتَدِي، ومَن يُضلِلْ فلَن تَجِدَ لَهُم أَولِياءَ﴾ يهدونهم ﴿مِن دُونِهِ، ونَحشُرُهُم يَومَ القِيامةِ﴾ ماشين ﴿علَى وُجُوهِهِم عُميًا وبُكمًا وصُمًّا، مأواهُم جَهَنَّمُ، كُلَّما خَبَتْ﴾: سكن لهبها ﴿زِدْناهُم سَعِيرًا﴾: تلهّبًا واشتعالاً. ٩٨ ـ ٩٩ ـ ﴿ذلِكَ جَزاؤُهُم بِأَنَّهُم كَفَرُوا بِآياتِنا، وقالُوا﴾ منكرين للبعث: ﴿أَإذا كُنّا عِظامًا ورُفاتًا أإنا لَمَبعُوثُونَ خَلقًا جَدِيدًا؟ أَوَلَم يَرَوا﴾: يعلموا ﴿أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ﴾ مع عِظمهما ﴿قادِرٌ علَى أن يَخلُقَ مِثلَهُم﴾ أي: الأناسيّ في الصِّغر؟ ﴿وجَعَلَ لَهُم أجَلاً﴾ للموت والبعث، ﴿لا رَيبَ فِيهِ، فأَبَى الظّالِمُونَ إلاّ كُفُورًا﴾: جُحودًا له.

١٠٠ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَو أنتُم تَملِكُونَ خَزائنَ رَحمةِ رَبِّيَ﴾ من الرِّزق والمطر ﴿إذًا لأَمسَكتُم﴾: لبخلتم ﴿خَشْيةَ الإنفاقِ﴾: خوفَ نفادها بالإنفاق فتفتقروا. ﴿وكانَ الإنسانُ قَتُورًا﴾: بخيلاً.

قولُهُ: (وظَوَاهِرِهِم) فيُجازيهم، وفيه تسليةٌ لنبيِّهِ وأحبَّائهِ وتهديدٌ لأعدائِهِ.

قولُهُ: (مَاشِيْنَ) أو مسحوبينَ.

قولُهُ: (سَكَنَ لهبُهَا) بأن أكلَتْ جلودَهُم ولحومَهُم.

قولُهُ: (تَلَهُّباً) بأن تُبدَلَ جلودُهُم ولحومُهُم [فتعودَ][1] ملتهبةً، كأنَّهم لمَّا كذَّبوا بالإعادةِ بعد الإفناءِ جُوْزوا بأن لا يَزالوا على الإفناءِ والإعادةِ، وأشارَ إليه بقولِه: ﴿ذلكَ جزاؤهم﴾ لأنَّ الإشارَةَ إلى ما تقدَّمَ مِن عذابِهِم.

قولُهُ: (والبَعْثِ) الظَّاهِرُ: أو.

قوله: (المَطَرِ) وسائرِ نعمِهِ.

قولُهُ: (بَخِيلاً) لأنَّ بناءَ أمرِهِ على الحاجةِ والضِّنَّةِ بما يَحتاجُ إليه، وملاحظَةِ الغرضِ[2] فيما يبذُلُ، هذا وإنَّ البُخَلاءَ أغلبُ فيهِم، وفي الحديثِ: «لو كانَ لابنِ آدمَ واديانِ مِن ذهَبٍ لابتَغَى ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ

---

(١) من «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٦٨).

(٢) كذا في النسخ، وفي «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٦٨): «العوض» وهو أولى.

١٠١ ـ ﴿ولَقَد آتينا مُوسَى تِسعَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾: واضحات. وهي اليد والعصا والطوفان، والجراد والقُمّل والضفادع، والدم أو الطمس، والسِّنينُ ونقص الثمرات. ﴿فاسأل﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿بَني إسرائيلَ﴾ عنه سُؤالَ تقريرٍ للمُشركين على صِدقك ـ أو فقلنا له: اسأل. وفي قراءة بلفظ الماضي ـ ﴿إذ جاءَهُم، فقالَ لَهُ فِرعَونُ: إنِّي لَأظُنُّكَ ـ يا مُوسَى ـ مَسحُورًا﴾: مخدوعًا مغلوبًا على عقلك.

١٠٢ ـ ﴿قالَ: لَقَد عَلِمتَ: ما أنزَلَ هؤُلاءِ﴾..

إلَّا التُّرابُ، ويتوبُ اللهُ على مَن تابَ»[1] ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ بطبعِهِ بخيلٌ إلَّا أن يتوبَ اللهُ عليه فيُخرِجَهُ عن هذه الصِّفةِ الذَّميمَةِ.

قوله: (والطَّمْسُ) أي: طمسُ أموالِهِم، والأظهرُ: الفَلْقُ، بدلَه.

قولُهُ: (والسِّنِينُ) أي: القَحطُ ونقصُ الثَّمراتِ، عدَّهُما واحِدةً؛ لأنَّهما في المعنى واحِدٌ، وكانَ حقُّه أن يذكرَهُما قبلَ الطُّوفانِ.

قولُهُ: (عَنهُ) أي: عن التِّسعِ.

قولُهُ: (سُؤَالَ تَقرِيرٍ) أي: سُؤالاً يحصلُ بجوابهِ تقريرٌ.

قولُهُ: (أو قلْنَا لَهُ) أي: لموسى (اسْأَلْ) أي: اطلُبْ بني إسرائيلَ مِن فرعونَ، وقل له: أرسلْ معيَ بني إسرائيلَ، وعلى هذا ضميرُ: ﴿إِذْ جَاءَهُم﴾ راجعٌ إلى فرعونَ وقومِهِ، وهو متعلِّقٌ بـ﴿قلْنَا﴾، وعلى الأوَّلِ إلى ﴿بني إسرائيل﴾ وهو متعلِّقٌ بـ﴿آتينَا﴾.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) شاذَّةٍ تحتملُ الهمزَ[2] والألفَ، وعبارةُ البيضاويِّ: ويؤيِّدُهُ قراءةُ رسولِ اللهِ ﷺ: «(فسَالَ)» على لفظِ المضيِّ بغيرِ همزٍ[3]. محمولةٌ على أنَّها نُسِبَت إليه ﷺ ثمَّ انقطعَ تواتُرُها فصارَتْ شاذَّةً.

قولُهُ: (مَغْلُوبًا) أي: سُحِرْتَ فتخبَّطَ عقلُكَ.

قالَ تعَالى: (﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾) أي: يا فرعَونُ، والكسائيُّ بالضمِّ[4] على إخبارِهِ عن نفسِهِ.

(١) رواه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ للبخاري.

ورواه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه، واللفظ لمسلم.

(٢) أي: (فَسَأَلَ) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨١) ونسبت لابن عباس رضي الله عنهما. رواها عنه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/ ٥٦٨)

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٦٨). وقد نقلها البيضاوي عن «الكشاف» (٥/ ١١٣)، ورواها ابن أبي داود في «المصاحف» (ص: ٢٦٠) عن عكرمة.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤١١).

الآياتِ ﴿إلاّ رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ بَصائرَ﴾: عِبَرًا، ولكنّك تعاند، وفي قراءة بضمّ التاء، ﴿وإنّي لأظُنُّكَ ـ يا فِرعَونُ ـ مَثبُورًا﴾: هالكًا أو مصروفًا عن الخير. ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ﴿فأرادَ﴾ فرعون ﴿أن يَستَفِزَّهُم﴾: يُخرجَ مُوسى وقومَه ﴿مِنَ الأرضِ﴾: أرض مصر، ﴿فأغرَقْناهُ ومَن مَعَهُ جَمِيعًا، وقُلْنا مِن بَعدِهِ لِبَني إسرائيلَ: اسكُنُوا الأرضَ. فإذا جاءَ وَعدُ الآخِرةِ﴾ أي: الساعةِ ﴿جِئنا بِكُم لَفِيفًا﴾: جميعًا أنتم وهم.

١٠٥ ـ ﴿وبِالحَقِّ أنزَلْناهُ﴾ أي: القُرآنَ، ﴿وبِالحَقِّ﴾ المُشتمل عليه ﴿نَزَلَ﴾ كما أُنزل لم يعترِه تبديل، ﴿وما أرسَلْناكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿إلاّ مُبَشِّرًا﴾ مَن آمن بالجنة ﴿ونَذِيرًا﴾ مَن كفر بالنار، ١٠٦ ـ ﴿وقُرآنًا﴾: منصوب بفعل يُفسّره: ﴿فَرَقْناهُ﴾: نزّلناه مُفرّقًا في عشرين سنة أو وثلاثٍ ﴿لِتَقرأَهُ علَى النّاسِ علَى مُكثٍ﴾: مَهل وتُؤَدةٍ ليفهموه، ﴿ونَزَّلْناهُ تَنزِيلاً﴾ شيئًا بعد شيء على حسَب المصالح.

١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ﴿قُلْ﴾ لكُفّار مكّة: ﴿آمِنُوا بِهِ أو لا تُؤمِنُوا﴾. تهديدٌ لهم. ﴿إنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ مِن قَبلِهِ﴾: قبلِ نُزوله ـ وهم مُؤمنو أهل الكِتاب ـ ....

قولُهُ: (عِبراً) أي: بَيِّناتٍ تبصرُكَ صِدْقِي، وانتصابُهُ على الحالِ.

قولُهُ: (مَصْرُوفاً عنِ الخَيرِ) مَطبوعاً على الشَّرِّ، قارَعَ ظَنَّه بظنِّهِ، وشتَّانَ ما بين الظَّنَّينِ، فظنُّ فرعونَ كَذِبٌ بَحتٌ، وظنُّ موسى يحومُ حولَ اليقينِ مِن تظاهُرِ أماراتِهِ.

قولُهُ: (أَرْضِ مِصْرَ) أو الأرضِ مطلقاً بالقتلِ والاستئصالِ.

قولُهُ: (السَّاعَةِ) أو الكَرَّةِ، أو الحياةِ، أو الدَّارِ الآخرةِ؛ يعني: قيامَ القيامَةِ.

قولُهُ: (جَمِيعاً) اللَّفيفُ: الجماعاتُ مِن قبائلَ شتَّى؛ أي: مختَلطينَ إيَّاكُم وإيَّاهُم، ثمَّ نحكُم بينكم ونميِّزُ سُعَداءَكم مِن أشقيائِكُم.

قولُهُ: (تَبْدِيلٌ) لا أوَّلاً ولا آخِراً.

قولُهُ: (مَهْلٍ) بفتحِ الهاءِ وسكونِهِ (وتُؤَدَةٍ) بضمِّ التاءِ وفتحِ الهمزةِ؛ أي: تأنٍّ.

قولُهُ: (لِيَفْهَمُوهُ) فإنَّه أيسَرُ للحفظِ وأعوَنُ في الفتحِ؛ وقُرِئَ بالفتحِ[1].

قولُهُ: (تَهْدِيدٌ) راجِعٌ إلى الأخيرِ بحسبِ اللَّفظِ، وأمَّا بحسبِ المعنى فلهما[2]؛ إذِ المعنى: أنَّ إيمانَكُم بالقرآنِ لا يزيدُه كمالًا، وامتناعَكُم عنه لا يورثُهُ نُقصاناً.

---

(١) أي: (مَكث) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨١) ونسبت لقتادة.

(٢) في النسخ: «فيهما»، والصواب المثبت.

﴿إذا يُتلَى علَيهِم يَخِرُّونَ لِلأذقانِ سُجَّدًا، ويَقُولُونَ: سُبحانَ رَبِّنا﴾: تنزيهًا له عن خُلف الوعد! ﴿إنْ﴾: مُخفَّفةٌ ﴿كانَ وَعدُ رَبِّنا﴾ بنزوله وبعث النبيّ ﴿لَمَفعُولاً. ويَخِرُّونَ لِلأذقانِ، يَبكُونَ﴾: عطفٌ بزيادة صفة، ﴿ويَزِيدُهُم﴾ القُرآنُ ﴿خُشُوعًا﴾: تواضعًا لله.

وكان ﷺ يقول: «يا أللهُ يا رَحمنُ»، فقالوا: ينهانا أن نعبد إلـٰهَين، وهو يدعو إلـٰهًا آخَر معه. فنزلَ: ١١٠ ـ ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿ادعُوا اللهَ، أوِ ادعُوا الرَّحمنَ﴾ أي: سمّوه بأيّهما، أو نادُوه بأن تقولوا: يا أللهُ يا رحمن. ﴿أيًّا﴾: شرطيّةٌ ﴿ما﴾: زائدةٌ أي: أيَّ هذَينِ ﴿تَدعُوا﴾ فهو حسنٌ، دلّ على هذا: ﴿فلَهُ﴾ أي: فلمُسمّاهما ﴿الأسماءُ الحُسنَى﴾ وهذان منها.

قالَ تعالى: (﴿يَخِرُّونَ﴾) أي: يسقُطونَ على الوَجهِ تعظيماً لأمرِ اللهِ، أرادَ مبالغَةً في الخُشوعِ، وهو تَعْفيرُ اللِّحى على التُّرابِ، أو ربَّما خرُّوا على الذَّقَنِ كالمغشيِّ عليه لخشيَةِ اللهِ، ونُقِلَ عن صاحبِ «الفرائدِ»: أنَّه مبالغةٌ في التَّحامُلِ على الجبهَةِ والأنفِ حتَّى كأنَّه يُلصِقُ الذَّقنَ بالأرضِ، وهذا حسَنٌ جدًّا، كذا في «الكشفِ»[1].

قولُهُ: (بزِيَادَةِ صِفَةٍ) وهي البُكاءُ، فتكرارُهُ لاختلافِ الحالِ أو السَّببِ، فإنَّ الأوَّلَ للشُّكرِ عند إنجازِ الوَعدِ، والثَّاني بما أثَّرَ فيهم مِن مَواعظِ القرآنِ حالَ كُفرِهِم باكينَ مِن خَشيةِ اللهِ.

قولُهُ: (القُرآنُ) سماعُه.

قولُهُ: (تَواضُعاً للهِ) لما يزيدُهُم عِلماً ويقيناً باللهِ.

قولُهُ: (أي: سَمُّوهُ بأيِّهِمَا) فالمرادُ: التَّسويَةُ بين اللَّفظينَ بأنَّهما يُطلقانِ على ذاتٍ واحِدةٍ وإن اختلفَ اعتبارُ إطلاقِهما، والتَّوحيدُ إنَّما هو للذَّاتِ الَّذي هو المعبودُ، والدُّعاءُ بمعنى التَّسميةِ يتعدَّى إلى مفعولينِ حُذِفَ أوَّلُهما استغناءً عنه و﴿أو﴾ للتَّخييرِ.

قولُهُ: (﴿ما﴾ زائِدَةٌ) لتَأكيدِ ما في «أيّ» مِن الإبهامِ.

قولُهُ: (أيْ: أيَّ هَذَينِ) والتَّنوينُ[2] عِوَضٌ عن المضافِ إليه.

قولُهُ: (أيْ: لمُسَمَّاهُمَا) لأنَّ التَّسميةَ له لا للاسمِ، وكونُ الأسماءِ حُسنى لدلالَتِها على الصِّفاتِ العُلى.

---

(١) انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٩/ ٣٩٥). ومر التعريف بـ«الكشف» في أول الكتاب، أما الفرائد فهو «فرائد التفسير» لفصيح الدين محمد بن عمر المابرنابازي اختصر «الكشاف» مع زيادات نحوية وكلامية وأدبية. انظر: «كشف الظنون» (٢/ ١٢٤٢).

(٢) في قوله تعالى: ﴿أيًّا﴾.

فإنها كما في الحديث: «اللهُ الَّذِي لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ الرَّحمنُ الرَّحِيمُ، المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤمِنُ المُهَيمِنُ، العَزِيزُ الجَبّارُ المُتكبِّرُ.............................

قولُهُ: (كَمَا فِي الحَدِيثِ) عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ للهِ تعالى تِسعَةً وتِسعِينَ اسمًا منْ أحْصَاهَا دَخَلَ الجنَّةَ»[1] أي: دخلَها دُخولاً أوَّليًّا، أو دخلَ أعلى منازِلِها، ومعنى «أحْصَاهَا» قيل: عَدَّها وقرَأَها كَلِمةً كلمةً، وعَلِمَها وحَفِظَها وتدبَّرَ معانِيَها وتخلَّقَ بها.

قولُهُ: (اللهُ) المنقولُ: «هوَ اللهُ»[2] (الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هوَ) لكنَّ الاسمَ المعدودَ في هذه الجملةِ من أسماءِ اللهِ تعالى هو «اللهُ»، لا غيرُه من هو وإله، والجمهورُ على أنَّ الاسمَ الأعظَمَ هو اللهُ، قالَ القطبُ الرَّبَّانيُّ والغوثُ الصَّمدانيُّ الشَّيخُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ: الاسمُ الأعظمُ هو اللهُ لكن بشرطِ أن تقولَ: اللهُ، ولا يكونَ في قلبِكَ سواهُ.

(الرَّحمَنُ): أي: المنعِمُ الحقيقيُّ، تامُّ الرَّحمةِ عامُّ الإحسانِ، ولذا لا يُطلَقُ على غيرِهِ تعالى.

(الرَّحِيمُ): الَّذي خَصَّ رحمتَهُ الخاصَّةَ بخواصِّ عبادِهِ من المؤمنينَ.

(المَلِكُ): أي: ذو المُلكِ، وهو القُدرَةُ والتَّصرُّفُ.

(القُدُّوسُ): المنزَّهُ في نفسِهِ عن سِماتِ النُّقصانِ.

(السَّلامُ): أي: ذُو السَّلامةِ مِن كُلِّ آفةٍ ونَقيصَةٍ.

(المُؤمِنُ): الَّذي يصدُقُ عبادَهُ يومَ القيامةِ وَعدَهُ.

(المُهَيمِنُ): الرَّقيبُ المبالِغُ في المراقبَةِ والحِفظِ.

(العَزِيزُ): الغالبُ على أمرِهِ والَّذي تعذَّرَ الإحاطَةُ بوصفِهِ.

(الجَبَّارُ): الَّذي يقهرُ العِبادَ على ما أرادَ.

(المُتكبِّرُ): الَّذي يَرَى غيرَهُ حَقيراً بالإضافَةِ إلى ذاتِهِ، ولذلك لا يُطلَقُ على غيرِهِ إلَّا في معرِضِ الذَّمِّ.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٠٨)، والطبراني في «الدعاء» (١١١)، والحاكم في «المستدرك» (٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقال الحاكم: هذا حديث قد خرجاه في «الصحيحين» بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه، والعلة فيه عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله، وذكر الأسامي فيه ولم يذكرها غيره، وليس هذا بعلة فإني لا أعلم اختلافًا بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب. ووافقه الذهبي.

الخالِقُ البارِئُ المُصَوِّرُ، الغَفّارُ القَهّارُ الوَهّابُ الرَّزّاقُ الفَتّاحُ العَلِيمُ، القابِضُ الباسِطُ الخافِضُ الرّافِعُ المُعِزُّ المُذِلُّ، السَّمِيعُ البَصِيرُ الحَكَمُ العَدلُ، اللَّطِيفُ الخَبِيرُ الحَلِيمُ العَظِيمُ الغَفُورُ.................

(الخَالِقُ): أي: المبدِعُ والموجِدُ من غَيرِ أصلٍ.

(البَارِئُ): الَّذي خلَقَ الخلقَ بُرَآء من التَّفاوتِ.

(المُصَوِّرُ): مُبدِعُ صُورِ المختَرَعاتِ ومُزَيِّنُها ومُرَتِّبُها.

(الغَفَّارُ): كثيرُ الغُفرانِ باعتبارِ الكمِّيَّةِ.

(القَهَّارُ): هو الَّذي لا مَوجودَ إلَّا وهو مَقهورٌ تحت قُدرتِهِ ومُسخَّرٌ لقضائِهِ وقَدرِهِ.

(الوَهَّابُ): دائمُ العطاءِ والهبَةِ الحقيقيَّةِ الخاليَةِ عن الأعراضِ والأغراضِ.

(الرَّزَّاقُ): أي: خالقُ الأرزاقِ ومُعْطيها(1)، والأسبابِ الَّتي يُتمتَّعُ بها.

(الفَتَّاحُ): الَّذي يفتَحُ خزائنَ الرَّحمةِ.

(العَلِيمُ): المحيطُ عِلمُهُ بالأشياءِ ظاهِرِها وباطِنِها.

(القَابِضُ البَاسِطُ): مُضيِّقُ الرِّزقِ وموسعُهُ.

(الخَافِضُ الرَّافِعُ): يخفِضُ أعداءَهُ بالإبعادِ، ويرفعُ أولياءَهُ بالإسعادِ.

(المُعِزُّ المُذِلُّ): يُعِزُّ من يشاءُ بالطَّاعةِ، ويُذِلُّ من يريدُ بالمعصيَةِ.

(السَّمِيْعُ): مُدرِكُ المسمُوعاتِ حالَ حُدوثِها.

(البَصِيرُ): مدرِكُ المبصَراتِ حالَ وجودِها.

(الحَكَمُ): الَّذي لا مُعقِّبَ لحكمِهِ.

(العَدْلُ): البالِغُ في العَدلِ.

(اللَّطِيفُ): البرُّ بعبادِهِ باللُّطفِ الخَفيِّ.

(الخَبِيرُ): العالِمُ ببواطِنِ الأشياءِ.

(الحَلِيمُ): الَّذي لا يعجِّلُ بالعُقوبَةِ.

(العَظِيمُ): كبيرُ القَدرِ عليُّ الرُّتبةِ.

(الغَفُورُ): كثيرُ المغفرَةِ بحسَبِ الكيفيَّةِ.

---

(١) في (م) و(د): «ومعظمها».

الشَّكُورُ، العَلِيُّ الكَبِيرُ الحَفِيظُ المُقِيتُ الحَسِيبُ الجَلِيلُ الكَرِيمُ الرَّقِيبُ المُجِيبُ، الواسِعُ الحَكِيمُ الوَدُودُ المَجِيدُ، الباعِثُ الشَّهِيدُ الحَقُّ الوَكِيلُ القَوِيُّ المَتِينُ الوَلِيُّ الحَمِيدُ،...................

(الشَّكُورُ): الَّذي يُعطي الجزيلَ على القَليلِ.

(العَلِيُّ): البالِغُ في عُلوِّ الرُّتبةِ بحيثُ لا رتبَةَ إلَّا وهي منحطَّةٌ عن رتبتِهِ.

(الكَبِيرُ): عن مشاهدَةِ الحَواسِّ وإدراكِ العُقولِ.

(الحَفِيظُ): يحفظُ الموجوداتِ عن الزَّوالِ والاختلالِ مدَّةَ ما شاءَ من الأحوالِ.

(المُقِيتُ): خالِقُ الأقواتِ الصُّوريَّةِ والمعنَويَّةِ وموصِلُها إلى الأشباحِ والأرواحِ.

(الحَسِيبُ): الكافي، أو المحاسِبُ للخَلائقِ.

(الجَلِيلُ): المنعوتُ بنُعوتِ الجلالِ، والحاوي لجَميعِها.

(الكَرِيمُ): هو الجَوادُ المُعطي الَّذي لا ينفَدُ عطاؤُهُ.

(الرَّقِيبُ): الذي يعلَمُ أحوالَ العبادِ.

(المُجِيبُ): الَّذي يُجيبُ من دَعاهُ.

(الوَاسِعُ): الَّذي وَسِعَ غِناهُ كلَّ فَقيرٍ، ورحمتُهُ وسعَت كلَّ شيءٍ.

(الحَكِيمُ): مبالغَةُ الحاكِمِ، أو: ذو الحكمَةِ، وهي عبارَةٌ عن كَمالِ العلمِ وإحسانِ العمَلِ.

(الوَدُودُ): محبوبٌ في القُلوبِ ومُحِبٌّ لأوليائِهِ.

(المَجِيدُ): الموصوفُ بشرفِ الذَّاتِ وحُسنِ الفِعالِ.

(البَاعِثُ): للرُّسلِ، أو: من في القُبورِ.

(الشَّهِيدُ): مِن أبنيَةِ المبالغَةِ في فاعلٍ، من الشُّهودِ وهو الحضورُ.

(الحَقُّ): هو الَّذي تحقَّقَ وتيقَّنَ وجودُهُ من غيرِ شكٍّ.

(الوَكِيلُ): العالمُ بأمورِ العبادِ، مَن توكَّلَ عليه كفاهُ، ومَن استغنى به أغناهُ عمَّا سواهُ.

(القَوِيُّ): الكامِلُ في القوَّةِ لا يعجَزُ بحالٍ من الأحوالِ.

(المَتِينُ): شديدُ القوَّةِ لا يضعُفُ عمَّا يُريدُ.

(الوَلِيُّ): المحِبُّ النَّاصِرُ.

(الحَمِيدُ): المحمودُ على كُلِّ حالٍ.

المُحصِي المُبدِئُ المُعِيدُ المُحيِي المُمِيتُ الحَيُّ القَيُّومُ، الواجِدُ الماجِدُ الواحِدُ الأحَدُ الصَّمَدُ، القادِرُ المُقتَدِرُ المُقدِّمُ المُؤخِّرُ، الأوَّلُ الآخِرُ الظاهِرُ الباطِنُ........................

(**المُحْصِي**): العالِمُ الَّذي يُحصِي المعلوماتِ.

(**المُبْدِئُ**): المظهِرُ للأشياءِ من العدمِ إلى الوُجودِ.

(**المُعِيدُ**): هو الَّذي يُعِيدُ الخلقَ بعد الحياةِ إلى المماتِ في الدُّنيا، وبعدَهُ إلى الحياةِ في الآخِرةِ.

(**المُحْيِي المُمِيتُ**): يُحيي الأشياءَ ويميتُها.

(**الحَيُّ**): الباقي أزلاً وأبداً.

(**القَيُّومُ**): القائمُ بنفسِهِ، المقيمُ لغيرِهِ.

(**الوَاجِدُ**): الَّذي يجدُ كلَّ ما يريدُه ولا يفوتُه شيءٌ.

(**المَاجِدُ**): من المجدِ وهو سعَةُ الكرمِ.

(**الوَاحِدُ**): هو المتفرِّدُ بالذَّاتِ لا شريكَ له.

(**الأَحَدُ**): المتفرِّدُ بالصِّفاتِ لا مشارِكَ له.

واعلم: أنَّ في «جامعِ الأصُولِ»: لفظُ «الأحدِ» بعدَ «الواحِدِ» موجودٌ[1]، ولم يوجَد في «جامعِ التِّرمذيِّ»[2]، فكانَ حقُّ الشَّيخِ أن لا يذكرَهُ كما في بعضِ النُّسخِ؛ لأنَّهُ نسَبَ الحديثَ إلى التِّرمذيِّ، وأيضاً بدونِه يصِحُّ العددُ، اللَّهمَّ إلَّا أن يُعدَّا اسماً واحداً.

(**الصَّمَدُ**): الَّذي يُصمَد إليه في الرَّغائبِ ويقصَدُ إليه في المراتبِ.

(**القَادِرُ المُقْتَدِرُ**): معناهُما: ذو القُدرَةِ، إلَّا أنَّ الثَّانيَ أبلَغُ.

(**المُقَدِّمُ المُؤَخِّرُ**): الَّذي يقدِّمُ ويؤخِّرُ، ومن قرَّبَهُ فقد قدَّمَهُ، ومن بعَّدَهُ فقد أخَّرهُ.

(**الأَوَّلُ**): القديمُ بلا ابتِداءٍ.

(**الآخِرُ**): الباقِي بلا انتِهاءٍ.

(**الظَّاهِرُ**): بصفاتِهِ ومصنوعاتِهِ.

(**البَاطِنُ**): بحقيقَةِ ذاتِه.

---

(١) انظر: «جامع الأصول» (٤/ ١٧٣).

(٢) أي: لفظ الأحد. «سنن الترمذي» (٣٥٠٧).

الوالي المُتعالِي، البَرُّ التَّوّابُ المُنتَقِمُ العَفُوُّ الرَّؤُوفُ، مالِكُ المُلكِ ذُو الجَلالِ والإكرامِ، المُقسِطُ الجامِعُ الغَنِيُّ المُغنِي المانِعُ الضّارُّ النّافِعُ، النُّورُ الهادِي البَدِيعُ الباقِي الوارِثُ..................

(الوَالِي): الَّذي تولَّى[1] الأمورَ.

(المُتَعالِي): البالِغُ في العُلا المرتَفِعُ عن النَّقصِ.

(البَرُّ): المحسِنُ بالبِرِّ إلى البَرِّ والفاجِرِ.

(التَّوَّابُ): الَّذي يقبَلُ توبةَ عبادِهِ مرَّةً بعد أُخرى.

(المُنتَقِمُ): المعاقِبُ للعُصاةِ.

(العَفُوُّ): الماحي للسَّيِّئاتِ.

(الرَّؤُوفُ): ذو الرَّأفَةِ، وهو أبلَغُ من الرَّحمَةِ.

(مَالِكُ المُلْكِ): الَّذي يُنفِذُ مشيئتَهُ في ملكِهِ.

(ذُو الجَلالِ والإِكْرَامِ): الَّذي لا شَرَفَ ولا كمالَ إلَّا وهو له، ولا كرامَةَ ولا مكرُمَةَ إلَّا وهي منه.

(المُقسِطُ): الذي ينتَصِفُ للمَظلومينَ من الظَّالمينَ.

(الجَامِعُ): الَّذي يجمَعُ الخلائقَ ليومِ الحِسابِ، أو الجامِعُ لأوصافِ الحمْدِ.

(الغَنِيُّ): المستَغني عن كلِّ شيءٍ في كلِّ شيءٍ.

(المُغْنِي): يغني من شاءَ بغِناهُ عمَّا سِواهُ.

(المَانِعُ): يمنعُ مَن يستَحِقُّ المنعَ، لا مُعطيَ لما مَنعَ ولا مانعَ لما أعطَى.

(الضَّارُّ النَّافِعُ): خالِقُ الضُّرِّ والنَّفعِ.

(النُّورُ): الظَّاهرُ بنفسِهِ المظهِرُ لغيرِهِ.

(الهَادِي): هو الَّذي أعطَى كلَّ شيءٍ خلْقَهُ ثمَّ هَدى خاصَّتَهُ إلى معرفةِ ذاتِهِ، فاطَّلعُوا بها على معرفَةِ مصنُوعاتِهِ، وهدى عامَّةَ خلقِهِ إلى مخلوقاتِهِ فاستَشْهَدوا بها على معرفةِ ذاتِهِ وصفاتِهِ.

(البَدِيعُ): الَّذي لا مِثلَ له في ذاتِهِ ولا نَظيرَ له في صفاتِهِ.

(البَاقِي): الدَّائمُ الوجودِ الَّذي لم يقبلِ الفَناءَ.

(الوَارِثُ): الباقي بعدَ فناءِ الخَلقِ.

---

(١) في (ص) زيادة: «جميع».

الرَّشِيدُ الصَّبُورُ». رواه التِّرمذيّ.

قال تعالى: ﴿ولا تَجهَرْ بِصَلاتِكَ﴾: بقِراءتك فيها، فيسمعَك المُشركون فيسبّوك ويسبّوا القُرآن ومَن أنزله، ﴿ولا تُخافِتْ﴾: تُسِرَّ ﴿بِها﴾ لينتفع أصحابك، ﴿وابتَغِ﴾: اقصِدْ ﴿بَينَ ذلِكَ﴾: الجهرِ والمُخافتةِ ﴿سَبِيلاً﴾: طريقًا وسَطًا.

١١١ ـ ﴿وقُلِ: الحَمدُ للهِ الَّذي لَم يَتَّخِذْ وَلَدًا، ولَم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلكِ﴾: في الألوهيّة، ﴿ولَم يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ﴾ ينصره ﴿مِنَ﴾ أجل ﴿الذُّلِّ﴾ أي: لم يَذِلَّ فيحتاجَ إلى ناصر. ﴿وكَبِّرْهُ تَكبِيرًا﴾: عظِّمْه عظمة تامّة عن اتّخاذ الولد والشريك والذلّ وكُلّ ما لا يليق به. وترتيبُ الحمد على ذلك للدلالة على أنه المُستحقّ لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرّده في صِفاته.

روى الإمام أحمد في «مُسنده» عن مُعاذ الجُهنيّ عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «آيةُ العِزِّ: الحَمدُ للهِ الَّذي لَم يَتَّخِذْ وَلَدًا، ولَم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلكِ» إلى آخر السورة. والله ـ تعالى ـ أعلم.

***

قال مُؤلّفه: هذا آخِرُ ما كمّلتُ به تفسير القُرآن الكريم الذي ألّفه الشيخ الإمام العلاّمة المُحقّق جلال الدين المحلّيّ الشافعيّ رحمه الله، وقد أفرغتُ فيه جُهدي وبذلت فكري فيه في نفائسَ أراها

(الرَّشِيدُ): الَّذي أرشَدَ الخَلقَ إلى مصالِحِهم وهَداهُم ودلَّهُم عليها.

(الصَّبُورُ): الَّذي لا يستَعجِلُ في مؤاخَذةِ العُصاةِ.

واللهُ أعلمُ بمعاني أسمائِهِ الحُسنَى وصفاتِهِ العُلَى، ومن أرادَ الاستِقصاءَ فعليهِ بمثلِ «مقصدِ الأسنى»[1]، وإنَّما ذَكَرنا هذه النُّبذَةَ؛ لأنَّ ما لا يُدرَكُ كلُّه[2] لا يُترَكُ كلُّه.

قولُهُ: (بِقِرَاءَتِكَ فيهَا) الأظهرُ: بقراءَةِ صَلاتِكَ.

قولُهُ: (فَيَسُبُّوكَ) أو يحملَهُم على اللَّغوِ.

قولُهُ: (وَسَطاً) فإنَّ الاقتِصادَ في جميعِ الأمرِ محبوبٌ.

قولُهُ: (أفرَغتُ جُهْدِي) بالضَّمِّ أو الفتحِ؛ أي: بالغتُ.

قولُهُ: (أُرَاهَا) بضمِّ الهمزةِ أو فَتحِها.

---

(١) انظر: «المقصد الأسنى» للغزالي (ص: ٦٠ ـ ١٤٩).

(٢) في (ص): «جله».

ـ إن شاء الله تعالى ـ تُجدي، وألّفتُه في مُدّةٍ قدرِ مِيعاد الكليم، وجعلتُه وسيلة للفوز بجنّات النعيم. وهو في الحقيقة مُستفاد من الكتاب المُكمَّل، وعليه في الآي المُتشابهة الاعتمادُ والمُعوَّل. فرحم الله امرأً نظر بعين الإنصاف إليه، ووقف فيه على خطأ فأطلعني عليه. وقد قلتُ:

حَمِدتُ اللهَ رَبِّي، إذْ هَدانِي ... لِما أبدَيتُ مَعْ عَجزِي وضَعفِي

فمَن لِي بالخَطا، فأُرَدَّ عَنهُ؟ ... ومَن لِي بالقَبُولِ، ولَو بِحَرفِ؟

هذا، ولم يكن قطّ في خَلَدي أن أتعرّض لذلك، لعِلمي بالعجز عن الخوض في هذه المسالك. وعسى الله أن ينفعَ به نفعًا جمًّا، ويفتحَ به قُلوبًا غُلْفًا وأعيُنًا عُميًا وآذانًا صُمًّا. وكأنّي بمن اعتاد بالمطوّلات، ....

قولُهُ: (تُجْدِي) أي: تنفَعُ.

قولُهُ: (مِيعَادِ الكَلِيمِ) أربعينَ، وقدِ اتّفقَ لي الوصولُ إلى هذا المقامِ في هذا القَدرِ من الأيّامِ من جُملَتِها أيّامُ رمضانَ المعظَّمةُ بمكّةَ المشرّفةِ المكرّمةِ.

قولُهُ: (المُكَمَّلِ) يعني: مُؤلّفَ المحلّيِّ.

قولُهُ: (فَأَطْلَعَنِي) أو نبّهَ بالتّحْشيةِ عليه.

قولُهُ: (فأُرَدَّ) أي: أرجِعَ وأعودَ.

قولُهُ: (خَلَدِي) بالتّحريكِ: البالُ والقلبُ والنّفسُ.

قولُهُ: (لِذَلِكَ) التّأليفِ.

قولُهُ: (لعِلْمِي بالعَجْزِ) إمّا تواضُعٌ أو نَظَرٌ إلى الحقيقةِ وكُنهِ هذا العِلمِ.

قولُهُ: (جَمًّا) أي: كثيراً، وقدِ استَجابَ اللهُ دعاءَهُ في هذا المقامِ فانتفَعَ به الخاصُّ والعامُّ.

قولُهُ: (وَكَأَنّي بمَنِ اعتَادَ) أي: بمن ابتُلي[1] به.

قولُهُ: (بالمُطَوَّلاتِ) بتطويلِ غرائِبِ الإعراباتِ، والقِراءاتِ الشّاذّاتِ، والرِّواياتِ غيرِ الثّابتاتِ، والخلافيّاتِ في العقائدِ والفقهيّاتِ، ممّا محلُّهُ الكتبُ المبسوطاتُ، والحكميّاتُ والفلكيّاتُ الّتي فيها تضييعُ الأوقاتِ.

---

(١) في النسخ عدا (ص): «أي مبتلى».

وقد أضرب عن هذه التكملة وأصلِها حسمًا، وعدل إلى صريح العِناد ولـم يوجّه إلى دقائقها فهمًا: (ومَن كانَ في هذِهِ أعمَى فهْوَ في الآخِرةِ أعمَى).

رزقنا الله به هداية إلى سبيل الحقّ وتوفيقًا، واطّلاعًا على دقائق كلماته وتحقيقًا، وجعلنا به (مَعَ الَّذينَ أنعَمَ اللهُ علَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَداءِ والصّالِحِينَ. وحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقًا)!

وفُرغ من تأليفه يومَ الأحد عاشرِ شوّالِ سنة سبعين وثمانِيمِائَةٍ، وكان الابتداء فيه يوم الأربعاء مُستهلِّ رمضانَ من السنة المذكورة، وفُرغ من تبييضه يومَ الأربعاء سادسِ صفر سنة إحدى وسبعين وثمانِيمِائَةٍ، على يد مؤلفه العلاّمة جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر السُّيوطي[٢].

قولُهُ: (أَضْرَبَ) أي: أعرَضَ.

قولُهُ: (حَسْماً) أي: إعراضاً كلِّيًا بقَطعِ الالتِفاتِ ولو إجماليًا.

قولُهُ: (وعَدَلَ) عن الإنصَافِ.

قولُهُ: (إلى صَرِيْحِ العِنَادِ) بالطَّعنِ فيه بعدمِ تحقيقِ مَعانيهِ وتدقيقِ مبَانيهِ[١].

قولُهُ: (ولَم يُوَجِّه) الأظهرُ: ولم يتَوَجَّه؛ ليكونَ (فَهْماً) تمييزاً.

قولُهُ: (فِي هَذِهِ) إشارةٌ بطريقِ الإشارَةِ إلى التَّكمِلةِ.

قولُهُ: (فِي الآخِرَةِ) أي: في المطوَّلاتِ؛ لأنَّ المدارَ على الأساس، وبتَضييعِ الأصُولِ وتحصيلِ الفضولِ ضاعَ أكثرُ النَّاس.

قولُهُ: (بِهِ) أي: بالقُرآنِ.

قولُهُ: (إِلَى سَبِيْلِ الحَقِّ) اعتِقادًا وعِلماً وعَملاً.

---

(١) في (د): «مبانيه وتدقيق معانيه».

(٢) كذا وقع في النسخة المحققة لفضيلة الأستاذ المحقق الدكتور فخر الدين قباوة، والذي وقفنا عليه في جملة من الأصول الخطية هو الآتي بين معكوفتين، ثم نتبعه بما كتبه عليه الملا علي القاري في حاشيته هذه المسماة بـ«الجمالين»:
[قال مؤلفه: هذا آخر ما كملت به تفسير القرآن الكريم الذي ألفه الشيخ الإمام العالم المحقق جلال الدين المحلى الشافعي رضي الله عنه وقد أفرغت لمكملٍ وعليه في الآي المتشابهة الاعتماد والمعول فرحم الله امرءاً نظر بعين الإنصاف إليه ووقف فيه على خطأ فأطلعني عليه وقد قلت حمدت الله ربي إذ هداني لما أبديت مع عجزي وضعفي فمن لي بالخطأ فأرد عنه ومن لي بالقبول ولو بحرف هذا ولم يكن قط في خلدي أن أتعرض لذلك لعلمي بالعجز عن الخوض في هذه المسالك وعسى الله أن ينفع به نفعًا جمًّا ويفتح به قلوبًا غلفًا وأعينًا وآذانًا صمًّا وكأني بمن اعتاد المطولات وقد أضرب عن هذه التكملة وأصلها حسمًا وعدل إلى صريح العناد ولم يوجه إلى دقائقها فهمًا ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ رزقنا الله به هداية إلى سبيل الحق وتوفيقًا واطلاعًا على دقائق =

= كلماته وتحقيقًا وجعلنا به ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا﴾ وفرغ من تأليفه يوم الأحد عاشر شوال سنة سبعين وثمانمائة وكان الابتداء في يوم الأربعاء مستهل رمضان من السنة المذكورة وفرغ من تبييضه يوم الأربعاء سادس صفر سنة إحدى وسبعين وثمانمائة والله أعلم.

قال الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر الخطيب الطوخي: أخبرني صديقي الشيخ العلامة كمال الدين المحلي أخو شيخنا الشيخ جلال الدين المحلي رحمهما الله تعالى أنه رأى أخاه الشيخ جلال الدين المذكور في النوم وبين يديه صديقنا الشيخ العلامة المحقق جلال الدين السيوطي مصنف هذه التكملة وقد أخذ الشيخ هذه التكملة في يده وتصفحها ويقول لمصنفها المذكور: أيهما أحسن وضعي أو وضعك؟ فقال: وضعي، فقال: انظر، وعرض عليه مواضع فيها، وكأنه يشير إلى اعتراض فيها بلطفٍ، ومصنف هذه التكملة كلما أورد عليه شيئًا يجيبه والشيخ يتبسم ويضحك. قال شيخنا الإمام العلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي مصنف هذه التكملة: الذي أعتقده وأجزم به أن الوضع الذي وضعه الشيخ جلال الدين المحلي رحمه الله تعالى في قطعته أحسن من وضعي أنا بطبقاتٍ كثيرة كيف وغالب ما وضعته هنا مقتبس من وضعه ومستفاد منه لا مرية عندي في ذلك، وأما الذي رؤي في المنام المكتوب أعلاه فلعل الشيخ أشار به إلى المواضع القليلة التي خالفت وضعه فيها لنكتةٍ وهي يسيرةٌ جدًّا ما أظنها تبلغ عشرة مواضع منها: أن الشيخ قال في سورة ص: والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه وكنت تبعته أولًا فذكرت هذا الحد في سورة الحجر ثم ضربت عليه لقوله تعالى ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾ الآية، فهي صريحة أو كالصريحة في أن الروح من علم الله تعالى لا نعلمه فالإمساك عن تعريفها أولى، ولذا قال الشيخ تاج الدين بن السبكي في «جمع الجوامع»: والروح لم يتكلم عليها محمد ﷺ فنمسك عنها، ومنها أن الشيخ قال في سورة الحج: الصابئون فرقة من اليهود فذكرت ذلك في سورة البقرة وزدت: أو النصارى بيانًا لقولٍ ثانٍ فإنه المعروف خصوصًا عند أصحابنا الفقهاء، وفي «المنهاج»: وإن خالفت السامرة اليهود والصابئة النصارى في أصل دينهم، وفي شرحه: أن الشافعي رضي الله عنه نص على أن الصابئين فرقة من النصارى ولا أستحضر الآن موضعًا ثالثًا فكأن الشيخ رحمه الله تعالى يشير إلى مثل هذا، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب].

قال العلامة الملا علي القاري:

قولُهُ: (فَنُمْسِكُ) بالنُّونِ معلوماً، أو الياءِ مجهولاً، وفيه أنَّه قد ورَدَ في الأحاديثِ خروجُ الرُّوحِ ودخولُها، وبهذا يثبُتُ ما ذكرَهُ الشَّيخُ، وأمَّا حقيقَةُ الرُّوحِ فلا يعلمُها إلَّا اللهُ.

قولُهُ: (فِرقَةٌ مِن النَّصَارَى) وغفلَ المصنِّفُ عن هذه الفائدةِ في المائدةِ، واقتصَرَ على أنَّهم طائفةٌ مِن اليهودِ ونبَّهنا عليها هناك أيضاً.

ثم جاء في حاشية الملا علي القاري زيادة لعلها وقعت في نسخته الخطية من كتاب الجلالين التي اعتمدها الشرح:

قولُهُ: (يَتْلُوهُ) تفسيرُ المحلِّيِّ، وبتمامِهِ يكونُ التَّفسيرُ جلالينِ؛ أي: مؤلِّفُهُما، على حذفِ المضافِ، أو يُتِمُّ الجلالينِ؛ أي: تفسيرَهُما.

وجاء بعدها في النسختين (ن) و(د): «واللهُ تعالى أعلمُ بالصَّوابِ، وإليهِ المرجعُ والمآبُ، والحمدُ للهِ على كلِّ حالٍ، وحسبُنَا اللهُ ونعمَ الوكيلِ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ، وصلَّى اللهُ على سيِّدِنا ومولانا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تسليمًا كثيراً دائماً أبداً إلى يومِ الدِّينِ، وهذا انتهاءُ النِّصفِ الأوَّلِ وأوَّلُ النِّصفِ الثَّاني».

وفي (ص): «تم النصف الأول بحمده وعونه وحسن توفيقه وصلاة وسلاماً على النبي وآله».

سورة بني إسرائيل

وتسمَّى «الإسراء» و«سبحان» أيضاً. وهي ـ كما أَخرج ابنُ مردويه عن ابن عباسٍ وابنِ الزُّبير ﷺ ـ مكِّية[1]، وكونُها كذلك بتمامها قولُ الجمهور. وقال صاحبُ «الغنيان»: بإجماع. وقيل: إلَّا آيتين: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الآية: ٧٣] ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ [الآية: ٧٦] وقيل: إلَّا أربعاً: هاتان وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الآية: ٦٠] وقولُه سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الآية: ٨٠] وزاد مقاتلٌ قولَه سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ [الآية: ١٠٧] وعن الحسن إلَّا خمسَ آيات: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ﴾ [الآية: ٣٣] ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ﴾ [الآية: ٣٢] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ [الآية: ٥٧] ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ﴾ [الآية: ٧٨] ﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الآية: ٢٦]. وقال قتادة: إلَّا ثماني آيات، وهي قولُه تعالى: (وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ) إلى آخرهن. وقيل غيرُ ذلك.

وهي مئةٌ وعشرُ آيات عند الجمهور، وإحدى عشْرةَ عند الكوفيين.

وكان ﷺ ـ كما أَخرج أحمدُ، والترمذيُّ وحسَّنه، والنَّسائي[2]، وغيرُهم عن عائشةَ ـ يقرؤها و«الزمرَ» كلَّ ليلة.

وأخرج البخاريُّ، وابن الضُّرَيس، وابنُ مردويه عن ابن مسعود أنَّه قال في هذه السورةِ و«الكهفِ» و«مريمَ» و«طهَ» و«الأنبياءِ»: هنَّ من العِتاق الأُوَل، وهنَّ من تِلادي[3]. وهذا وجهٌ في ترتيبها.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٣٦.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٣٦، ومسند أحمد (٢٤٣٨٨)، وسنن الترمذي (٢٩٢٠) و(٣٤٠٥)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٨٠).

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٣٦، وصحيح البخاري (٤٧٣٩)، وفضائل القرآن ص٩٨.

ووجهُ اتصال هذه بـ «النحل» ـ كما قال الجلال السيوطيُّ[١] ـ أنه سبحانه لمَّا قال في آخرها: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [الآية: ١٢٤] ذكر في هذه شريعةَ أهلِ السَّبت التي شرعها سبحانَه لهم في التوراة، فقد أخرج ابن جَريرٍ[٢] عن ابن عباسٍ ﵄ أنَّه قال: إنَّ التوراة كلَّها في خمسَ عشرةَ آيةً من سورة «بني إسرائيل». وذكر تعالى فيها عصيانَهم وإفسادَهم، وتخريبَ مسجِدهم، واستفزازَهم النبيَّ ﷺ، وإرادتَهم إخراجَه من المدينة، وسؤالَهم إيَّاه عن الرُّوح، ثم ختمها جلَّ شأنُه بآيات موسى عليه السلام التسعِ، وخطابِه مع فرعون، وأخبر تعالى أنَّ فرعونَ أراد أن يستفزَّهم من الأرض، فأُهلك ووَرِث بنو إسرائيل مِن بعده، وفي ذلك تعريضٌ بهم أنَّهم سينالهم ما نال فرعونَ، حيث أرادوا بالنبيِّ ﷺ ما أراد هو بموسى عليه السلام وأصحابِه. ولمَّا كانت هذه السورةُ مصدَّرةً بقصَّة تخريبِ المسجدِ الأقصى، افتُتحت بذِكر إسراءِ المصطفى ﷺ، تشريفاً له بحلول رِكابه الشريفِ جبراً لما وقع من تخريبه.

وقال أبو حيَّان في ذلك[٣]: إنَّه تعالى لمَّا أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالصَّبر ونهاه عن الحزن على الكفرة وضيقِ الصَّدر من مكرهم، وكان مِن مكرهم نسبتُه ﷺ إلى الكَذِب والسِّحر والشِّعر، وغير ذلك ممَّا رمَوه ـ وحاشاه ـ به، عقَّب ذلك بذِكر شرفِه وفضلِه وعلوِّ منزلتِه عنده عزَّ شأنه.

وقيل: وجهُ ذلك اشتمالُها على ذِكر نِعَم، منها خاصَّة ومنها عامَّة، وقد ذكر في سورة النَّحل من النِّعم ما سمِّيت لأجله سورةَ النِّعم، واشتمالُها على ذِكر شأنِ القرآنِ العظيم كما اشتملت تلك، وذَكَرَ سبحانه هناك في «النحل»: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ [الآية: ٦٩] وذَكَرَ هاهنا في القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَۙ﴾ [الآية: ٨٢] وذَكَرَ سبحانه في تلك أمرَه بإيتاء ذي القربى[٤]، وأمَرَ هنا بذلك مع زيادةٍ في قوله سبحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ

(١) في تناسق الدرر ص٦٣-٦٤.
(٢) في تفسيره ١٥/١٣٨.
(٣) في البحر المحيط ٦/٤.
(٤) في الآية: ٩٠.

حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الآية: ٢٦] وذلك بعد أن أَمَرَ جلَّ وعلا بالإحسان بالوالدين اللذَين هما منشأُ القرابة، إلى غير ذلك ممَّا لا يُحصَى، فليُتَأمَّل، والله تعالى الموفِّق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ «سبحان» هنا ـ على ما ذهب إليه بعضُ المحقِّقين ـ مصدرُ: سبَّح تسبيحاً، بمعنى: نزَّه تنزيهاً، لا بمعنى: قال: سبحانَ الله. نعم جاءَ التسبيحُ بمعنى القولِ المذكورِ كثيراً، حتى ظنَّ بعضُهم أنَّه مخصوصٌ بذلك، وإلى هذا ذهب صاحبُ «القاموس» في شرح ديباجةِ «الكشَّاف» وجَعَلَ «سبحان» مصدرَ سَبَحَ مخفَّفاً. وليس بذاك.

وقد يُستعمل عَلَماً للتنزيه، فيُقطع عن الإضافة؛ لأنَّ الأعلام لا تضاف قياساً، ويُمنَع من الصَّرف للعَلَمية والزيادة، واستُدلَّ على ذلك بقول الأعشى:

قد قلت لما جاءني فخره   سبحانَ مِن علقمةَ الفاخرِ[1]

وقال الرَّضيُّ: لا دليلَ على عَلَميته؛ لأنه أكثرُ ما يستعمل مضافاً، فلا يكون عَلَماً، وإذا قُطع فقد جاء منوَّناً في الشِّعر، كقوله:

سبحانَه ثم سبحاناً نعوذ به   وقبلَنا سبَّح الجوديُّ والجَمَدُ[2]

وقد جاء باللَّام، كقوله:

سبحانَك اللهمَّ ذو السُّبحانِ[3]

ولا مانع من أن يقالَ في البيت الذي استدلُّوا به: حُذف المضافُ إليه وهو مرادٌ للعِلم به، وأُبقي المضافُ على حاله مراعاةً لأغلب أحواله، أي: التجرُّد عن التنوين، كقوله:

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٩٤، وسلف ٢/ ١٠٣.
(٢) البيت في الكتاب ١/ ٣٢٦، والخزانة ٣/ ٣٨٩، وسلف ٢/ ١٠٣. والجودي والجمد جبلان.
(٣) الرجز في أمالي ابن الشجري ٢/ ١٠٨، والخزانة ٣/ ٢٥٠ (دار صادر) دون نسبة، وسلف ٢/ ١٠٣.

خَالَطَ مِن سلمى خياشيمَ وَفَا[(1)]

انتهى.

وظاهرُ كلامِ الزمخشريِّ[(2)] أنه عَلَمٌ للتسبيح دائماً، وهو عَلَم جنس؛ لأنَّ علم الجنس كما يوضع للذَّوات يوضع للمعاني، فلا تفصيلَ عنده. وانتصر له صاحبُ «الكشف» فقال: إنَّ ما ذهب إليه العلَّامة هو الوجه؛ لأنَّه إذا ثبتت العَلَمية بدليلها، فالإضافة لا تنافيها، وليست من باب: زيد المعارك، لتكونَ شاذَّة، بل من باب: حاتِم طيِّئ، وعنترة عبسٍ. وذَكَرَ أنه يدلُّ على التنزيه البليغ، وذلك من حيث الاشتقاق من السَّبح، وهو الذهابُ والإبعاد في الأرض، ثم ما يُعطيه نقلُه إلى التفعيل، ثم العدولُ عن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصَّة، لا سيَّما وهو عَلَم يشير إلى الحقيقة الحاضرةِ في الذِّهن، وما فيه من قيامه مَقامَ المصدرِ مع الفعل، فإنَّ انتصابه بفعل متروكِ الإظهار، ولهذا لم يَجُز استعماله إلَّا فيه تعالى أسماؤه وعَظُمَ كبرياؤه، وكأنَّه قيل: ما أبعدَ الذي له هذه القدرةُ عن جميع النقائص، فلا يكون اصطفاؤه لعبده الخَصيصِ به إلَّا حكمةً وصواباً. انتهى.

وأُورد على ما ذكره أوَّلاً أنَّ مَن منع إضافةَ العلمِ قياساً، لم يفرِّق بين إضافةٍ وإضافة، فإن ادَّعى أنَّ بعض الأعلامِ اشتهرت بمعنًى، كحاتم بالكرم، فيجوزُ في نحوه الإضافةُ لقصد التخصيص ودفعِ العمومِ الطارئ، فما نحن فيه ليس من هذا القبيل كما لا يخفَى. وما ذَكَرَ من دلالته على التَّنزيه من جميع النقائصِ هو الذي يشهد له المأثور، ففي «العِقد الفريد»: عن طلحةَ قال: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن تفسير «سبحان الله» فقال: «تنزيهٌ لله تعالى عن كلِّ سوء»[(3)].

وقال الطِّيبي في قول الزمخشريِّ: إنه دلَّ على التنزيه البليغِ عن جميع القبائحِ

---

(١) قائله العجاج، وهو في ديوانه ص٤٢٤، وصدره: حتى تناهى في صهاريج الصفا. يقول: حتى تناهى في صهاريج - أحواض - من صفا وحجارة، فهو صاف، ليس فيه كدر، كأن ريح فيها وخياشيمها هذه الخمر.

(٢) في الكشاف ٢/ ٤٣٦.

(٣) أخرجه البزار (٩٥٠)، والطبراني في الدعاء (١٧٥١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٩٤-٩٥: رواه البزار، وفيه: عبد الرحمن بن حماد الطلحي، وهو ضعيف بسبب هذا وغيره. اهـ. وأورده الدارقطني في العلل ٤/ ٢٠٨ مرسلاً وموصولاً، وقال: والمرسل أصح.

التي يُضيفها إليه أعداءُ اللهِ تعالى: إنَّ ذلك مما يأباه مقامُ الإسراء إباءَ العَيوفِ[١] الورودَ، وهو مزيَّف، بل معناه التعجُّب كما قال في «النُّور»: الأصل في ذلك أن يسبِّحَ الله تعالى عند رؤيةِ العجيبِ من صنائعه، ثم كَثُر حتى استُعمل في كلِّ متعجَّب منه[٢]. وليس بشيءٍ، ففي «الكشف»: أنَّ التنزيه لا ينافي التعجُّبَ كما توهَّم واعترض، وجَعْلُه مداراً والتعجُّب تبعاً هاهنا هو الوجهُ بخلاف آيةِ «النور».

وذكر بعضُهم أنَّ الظاهرَ من كلام «الكشَّاف» في مواضعَ أنَّه لا يرتضي الجمعَ بين التنزيهِ والتعجُّب؛ للمنافاة بينهما، بل لأنَّ كلًّا منهما معنًى مستقلٌّ، فالجمعُ بينهما جمعٌ بين معنيَي المشترك، وعلى الجمع فالوجهُ ما ذُكر أنَّه الوجه، فافْهَمْ.

وقيل: إنَّ «سبحان» ليس عَلَماً أصلاً بلا تفصيل، ففيه ثلاثةُ مذاهب.

وذكر بعضُهم أنَّه في الآية على معنى الأمر، أي: نزِّهوا الله تعالى وبرِّئوه من جميع النَّقائص، ويدخل فيها العجزُ عما بعد. أو: من العجز عن ذلك. والمتبادرُ اعتبارُ المضارع.

والإسراء: السيرُ بالليل خاصَّة، كالسُّرى، فأَسرَى وسَرَى بمعنًى. وليست همزةُ أَسرى للتعدية، كما قال أبو عبيدة.

وقال ابنُ عطية[٣]: الهمزةُ للتعدية، والمفعولُ محذوف، أي: أَسرى ملائكتَه بعبده. قال في «البحر»[٤]: وإنَّما احتاج إلى هذه الدَّعوى اعتقاد أنَّه إذا كان أسرى بمعنى سرى، لزم من كون الباءِ للتعدية مشاركةُ الفاعلِ للمفعول، وهذا شيءٌ ذهب إليه المبرِّد، فإذا قلت: قمتُ بزيد، يَلزم منه قيامُك وقيامُ زيدٍ عنده، وإذا جعلتَ الباءَ كالهمزة، لا يلزمُ ذلك كما لا يخفَى. وقال أيضاً: يحتمل أن يكونَ أسرى بمعنى سَرَى، على حذف مضافٍ وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه، والأصلُ: أسرى ملائكتُه، وهو مبنيٌّ على ذلك الاعتقادِ أيضاً.

وقال الليثُ: يقال: أَسرى، لأوَّل الليل، وسَرَى، لآخِره.

---

(١) العيوف من الإبل: الذي يشم الماء فيدعه وهو عطشان. القاموس (عيف).
(٢) الكشاف ٣/ ٥٥، عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية: ١٦].
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٤.
(٤) ٦/ ٥.

وأمَّا سار، فالجمهورُ على أنه عامٌّ لا اختصاصَ له بليلٍ أو نهار. وقيل: إنه مختصٌّ بالنهار، وليس مقلوباً مِن سرى.

وإيثارُ لفظةِ العبدِ للإيذان بتمحُّضه ﷺ في عبادته سبحانه، وبلوغِه في ذلك غايةَ الغايات القاصية، ونهايةَ النهاياتِ النائية، حسبما يلوح به مبدأُ الإسراءِ ومنتهاه. والعبوديةُ ـ على ما نصَّ عليه العارفون ـ أشرفُ الأوصاف، وأعلى المراتب، وبها يفتخر المحبُّون، كما قيل:

لا تدعُني إلَّا بيا عبدها فإنَّه أشرف أسمائي[1]

وقال آخر[2]:

بالله إنْ سألوك عنِّي قل لهم عبدي وملكُ يدي وما أعتقْتُه

وعن أبي القاسم سليمانَ الأنصاريِّ أنَّه قال: لمَّا وصل النبيُّ ﷺ إلى الدَّرجات العالية والمراتبِ الرفيعة، أَوحى اللهُ تعالى إليه: يا محمد، بمَ نشرِّفك؟ قال: بنسبتي إليك بالعبوديّة، فأنزل اللهُ تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ)[3]. وجاء: «قولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه»[4].

وقيل: إنَّ في التعبير به هنا دون: حبيبِه، مَثَلاً سدًّا لباب الغلوِّ فيه ﷺ، كما وقع للنَّصارى في نبيِّهم عليه السلام. وذكروا أنَّه لم يعبِّر اللهُ تعالى عن أحدٍ بالعبد مضافاً إلى ضمير الغَيبةِ المشارِ به إلى الهُويَّة إلَّا النبيّ ﷺ، وفي ذلك مِن الإشارة ما فيه. ومَن تأمَّل أدنَى تأمُّل ما بين قولِه تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ) وقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣] ظهر له الفرقُ التامُّ بين مقامِ الحبيب ومقامِ الكليم صلى الله عليهما وسلَّم. وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى قريباً في هذه السورةِ ما يُفهَم منه الفرق أيضاً، فلا تغفُل.

---

(١) سلف ٢/ ٣٠.

(٢) هو عبد الله بن علي تقي الدين السروجي، والبيت في فوات الوفيات ٢/ ١٩٧، والوافي بالوفيات ١٧/ ٣٤٢، وثمرات الأوراق ص٢٠٨.

(٣) قال الإمام الرازي في تفسيره ٢٠/ ١٤٦: وسمعت الشيخ الإمام الوالد عمر بن الحسين رحمه الله قال: سمعت الشيخ الإمام أبا القاسم سليمان الأنصاري... ثم ذكره.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر ﷺ.

وإضافةُ «سبحان» إلى الموصول المذكورِ؛ للإشعارِ بعِلِّية ما في حيِّز الصلةِ للمضاف، فإنَّ ذلك من أدلَّة كمالِ قدرته، وبالغِ حكمته، وغاية تنزُّهه تعالى عن صفات النقص.

وقولُه تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ ظرفٌ لـ «أسرى»، وفائدته الدلالةُ بتنكيره على تقليل مدَّة الإسراءِ، وأنَّها بعضٌ من أجزاء الليل؛ ولذلك قرأ عبدُ الله وحذيفة: «من الليل»[1] أي: بعضه، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ﴾ [الإسراء: ٧٩].

واعتُرض بأنَّ البعضيةَ المستفادَة مِن «مِن» التبعيضية هي البعضيةُ في الأجزاء، والبعضيةَ المستفادَة من التنكير البعضيةُ في الأفراد والجزئيَّات، فكيف يُستفاد من التنكير أنَّ الإسراءَ كان في بعضٍ من أجزاءِ الليل؟ فالصواب أنَّ تنكيره لدفع توهُّم أن الإسراء كان في ليال، أو لإفادة تعظيمه، كما هو المناسبُ للسِّياق والسِّباق، أي: ليلاً أيَّ ليلٍ دنا فيه المحبُّ إلى المحبوب، وفاز في مقام الشهودِ بالمطلوب.

وأجاب عن ذلك بعضُ الكاملين بما لا يخفَى نقصُه. وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ ما ذكر قد نصَّ عليه الشيخُ عبد القاهرِ في «دلائل الإعجاز»[2] ولا يَرِد عليه الاعتراضُ ابتداءً.

وتحقيقُه على ما صرَّح به الفاضلُ اليمنيُّ نقلاً عن سيبويه وابنِ مالك: أنَّ الليلَ والنهار إذا عرِّفا كانا معياراً للتعميم وظرفاً محدوداً، فلا تقولُ: صحبتُه الليلةَ، وأنت تريد ساعةً منها، إلَّا أن تقصدَ المبالغة، كما تقول: أتاني أهلُ الدنيا، لناسٍ منهم، بخلاف المنكَّر؛ فإنَّه لا يفيد ذلك، فلمَّا عدل عن تعريفه هنا، عُلِمَ أنَّه لم يقصد استغراقَ السُّرى له، وهذا هو المرادُ من البعضيَّة المذكورة، ولا حاجةَ إلى جعل الليلِ مجازاً عن بعضه، كما أنك إذا قلت: جلستُ في السوق، وجلوسُك في بعض أماكنِه، لا يكون السوق فيه مجازاً كما لا يخفَى. وقد أشار إلى هذا المدقِّقُ في «الكشف».

وقيل: المرادُ بتنكيره أنه وقع في وسطه ومعظمِه، كما يقال: جاءني فلانٌ

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٣٦، والبحر ٦/ ٥.

(٢) انظر ص٢٨٨-٢٩٠.

بليل، أي: في معظم ظلمتِه، فيفيد البعضيةَ أيضاً. وينافيه ما سيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى في الحديث. وزَعْمُ أنَّ ذِكر «ليلاً» للتأكيد، أو تجريدِ الإسراء وإرادةِ مطلق السيرِ منه = ناشىءٌ من قلَّة البضاعةِ كما لا يخفَى.

وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى بيانُ حكمةِ كون الإسراءِ ليلاً.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الظاهر أنَّ المرادَ به المسجدُ المشهورُ بين الخاصِّ والعامِّ بعينه، وكان ﷺ إذ ذاك في الحِجْر منه، فقد أخرج الشيخان والترمذيُّ والنَّسائي[1] من حديث أنسِ بن مالك، عن مالك بنِ صعصعةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بينا أنا في الحِجْر - وفي رواية: في الحطيم - بين النائم واليقظان، إذ أتاني آتٍ، فشقَّ ما بين هذه إلى هذه، فاستخرج قلبي فغسله، ثم أُعيد، ثم أُتيت بدابَّة دون البغلِ وفوقَ الحمار أبيضَ، يقال له: البُراق، فحُملت عليه. .» الحديث.

وفي بعض الرِّوايات أنَّه جاءه جبريلُ وميكائيلُ عليهما السلام وهو مضطجعٌ في الحِجر بين عمِّه حمزةَ وابنِ عمِّه جعفر[2]، فاحتملته الملائكةُ عليهم السلام وجاؤوا به إلى زمزمَ، فألقَوه على ظهره، وشقَّ جبريلُ صدرَه من ثُغرة نحرِه إلى أسفل بطنه بغير آلةٍ ولا سيلانِ دمٍ ولا وجودِ ألم، ثم قال لميكائيل: ائتني بطَستٍ من ماءِ زمزم، فأتاه به، فاستخرج قلبَه الشريفَ، وغسله ثلاثَ مراتٍ، ثم أعاده إلى مكانه، وملأه إيماناً وحكمةً، وختَمَ عليه، ثم خرج به إلى باب المسجد، فإذا بالبُراق مُسرَجاً مُلجَماً، فركبه. . . الخبر.

ويُعلَم منه الجمعُ بين ما ذُكر من أنَّه عليه الصلاة والسلام كان إذ ذاك في الحِجر وما قيل: إنَّه كان بين زمزمَ والمقام. وقيل: المراد به الحَرَمُ، وأُطلق عليه لإحاطته به، فهو مجازٌ بعلاقة المجاورة الحِسِّية والإحاطة، أو لأنَّ الحرم كلَّه محلٌّ للسجود ومحرَّم ليس بحِلٍّ، فهو حقيقةٌ لغوية، والنكتةُ في هذا التعبيرِ مطابقةُ المبدأ المنتهى.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧)، وصحيح مسلم (١٦٤)، وجامع الترمذي (٣٣٤٦)، وسنن النسائي ١/ ٢١٧.

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٥٧٩ بصيغة التمريض.

وكان ﷺ إذ ذاك في دار فاختةَ أمِّ هانئٍ بنتِ أبي طالب؛ فقد أخرج النَّسائيُّ عن ابن عباسٍ[1]، وأبو يعلَى في «مسنده»، والطبرانيُّ في «الكبير»[2] من حديثها: أنَّه ﷺ كان نائماً في بيتها بعد صلاة العشاء، فأُسري به ورجع من ليلته وقصَّ القصةَ عليها، وقال: «مُثِّل لي النبيُّون فصلَّيت بهم» ثم خرج إلى المسجد وأَخبر به قريشاً، فمن مصفِّق، وواضعٍ يدَه على رأسه تعجُّباً وإنكاراً، وارتدَّ أُناس ممَّن آمن به عليه الصلاة والسلام، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر، فقال: إنْ كان قال ذلك لقد صَدَقَ، قالوا: تصدِّقه على ذلك؟ قال: إني أصدِّقه على أبعدَ من ذلك، أصدِّقه بخبر السماءِ غَدوةً أو رَوحةً، فسمِّي: الصِّدِّيق. وكان في القوم مَن يعرف بيتَ المقدس، فاستنعتوه إيَّاه، فجُلِّي له، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أمَّا النعتُ فقد أصاب فيه، فقالوا: أَخْبِرنا عن عِيرنا فهي أهمُّ إلينا، هل لقيتَ منها شيئاً؟ قال: «نعم، مررت بعِيْر بني فلان، وهي بالرَّوحاء، وقد أضلُّو بعيراً لهم وهم في طلبه، وفي رِحالهم قدحٌ من ماء، فعطشت فأخذتُه وشربته ووضعته كما كان، فاسألوا: هل وجدوا الماءَ في القَدَح حين رجعوا»؟ قالوا: هذه آية. قال: «ومررت بعِيْر بني فلان، وفلانٌ وفلانٌ راكبان قعوداً، فنفر بعيرُهما منِّي فانكسر، فاسألوهما عن ذلك» قالوا: هذه آيةٌ أخرى، ثم سألوه عن العُدَّة والأحمال والهيئات، فمثلت له العِيرُ، فأخبرهم عن كلِّ ذلك وقال: «تَقدَم يومَ كذا مع طلوعِ الشمسِ وفيها فلانٌ وفلان، يَقدُمها جملٌ أَورق عليه غِرارتان[3] مَخيطتان» قالوا: وهذه آيةٌ أخرى، فخرجوا يشتدُّون ذلك اليوم نحوَ الثنيَّة، فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمسُ فيكذِّبوه، إذ قال قائلٌ: هذه الشمسُ قد طلعت، وقال آخَر: هذه العِير قد أقبلت، يَقدُمها بعيرٌ أَورقُ فيها فلانٌ وفلانٌ كما قال، فلم يؤمنوا وقالوا: هذا سِحرٌ مبين. قاتلهم اللهُ أنَّى يؤفكون.

وفي بعض الآثارِ أنَّ أمَّ هانئ قالت: فَقَدْتُه ﷺ وكان نائماً عندي، فامتنع مني النومُ مخافةَ أن يكونَ عرض له بعضُ قريشٍ، ويقال: إنَّه تفرَّقت بنو عبدِ المطلب

---

(١) في الكبرى (١١٢١٩) و(١١٢٢١) وليس فيه ذِكر لأم هانئ أصلاً.

(٢) برقم (١٠٥٩).

(٣) الغرارة: وعاء من الخيش ونحوه، وهو أكبر من الجُوالق. المعجم الوسيط (غرر).

يلتمسونه، ووصل العبَّاس إلى ذي طوى وهو ينادي: يا محمدُ يا محمد، فأجابه ﷺ، فقال: يا ابنَ أخي، أعييتَ قومَك أين كنت؟ قال: «ذهبتُ إلى بيت المقدس» قال: مِن ليلتك، قال: «نعم»، قال: هل أصابك إلَّا خير؟ قال: «ما أصابني إلَّا خير» وقيل غيرُ ذلك.

وكما اختُلف في مبدأ الإسراء اختُلف في سَنته، فذكر النوويُّ في «الروضة» أنَّه كان بعد النبوَّة بعشر سنين وثلاثةِ أشهر، وفي «الفتاوى»[1] أنَّه كان سنةَ خمسٍ أو ستٍّ من النبوَّة، ونقل عنه الفاضلُ الملَّا أمين العمريُّ في شرح «ذات الشفاء»[2] الجزمَ بأنَّه كان في السنة الثانيةَ عشرةَ من المبعث، وعن ابن حزمٍ دعوى الإجماعِ على ذلك، وضعف ما في «الفتاوى» بأنَّ خديجةَ ﵂ لم تصلِّ الخَمسَ وقد ماتت قبل الهجرةِ بثلاث سنين. وقيل: كان قبل الهجرةِ بسنةٍ وخمسةِ أشهر، وقيل: ثلاثة أشهر، ووقع في حديث شريكِ بن أبي نَمِر[3] عن أنسٍ أنَّه كان قبل أن يوحَى إليه ﷺ، وقد خطَّأه غيرُ واحدٍ في ذلك.

ونقل الحافظُ عبد الحقِّ في كتابه «الجمعُ بين الصحيحين»[4] حديثَ شريكٍ الواقعَ فيه ذلك بطوله، ثم قال: هذا الحديثُ بهذا اللفظِ من رواية شريكٍ عن أنسٍ قد زاد فيه زيادةً مجهولةً، وأتى فيه بألفاظ غيرِ معروفة. وقد روَى حديثَ الإسراءِ عن أنسٍ جماعةٌ من الحفَّاظ المتقنين والأئمَّةِ المشهورين، كابن شِهاب، وثابتٍ البُناني، وقتادة، فلم يأتِ أحدٌ منهم بما أتى به شريك، وشريكٌ ليس بالحافظ عند أهلِ الحديث. وأجاب عن ذلك محيي السُّنةِ وغيرُه بما ستسمعه إن شاءَ الله تعالى.

وكذا اختُلف في شهره وليلتِه، فقال النوويُّ في «الفتاوى»[5]: كان في شهر ربيعٍ الأوَّل، وقال في «شرح مسلم» تبعاً للقاضي عياض: إنَّه في شهر ربيعٍ

(١) ص٣٦.
(٢) في سيرة النبي والخلفاء، لابن الجزري.
(٣) في الأصل و(م): نمرة، وهو خطأ. وحديثه عند البخاري (٣٥٧٠) ومسلم (١٦٢).
(٤) ١/١٢٧-١٢٨. وهو أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الأندلسي الإشبيلي، الإمام الحافظ العلامة. توفي سنة (٥٨١هـ). سير أعلام النبلاء ٢١/١٩٨.
(٥) ص٣٦.

الآخِر[1]، وجزم في «الروضة» بأنَّه في رجب. وقيل: في شهر رمضانَ. وقيل: في شوَّال. وكان ـ على ما قيل ـ الليلةَ السابعةَ والعشرين من الشهر، وكانت ليلةَ السبت كما نقله ابنُ الملقِّن[2] عن رواية الواقديِّ.

وقيل: كانت ليلةَ الجمعة؛ لمكان فضلِها وفضل الإسراء. ورُدَّ بأنَّ جبرائيلَ عليه السلام صلَّى بالنبيِّ ﷺ أوَّلَ يومٍ بعد الإسراء الظهرَ، ولو كانَ يومَ الجمعة لم يكن فرضُها الظهرَ. قاله محمدُ بن عمَرَ السَّفيري[3]، وفيه أنَّ العمريَّ ذكر في شرح «ذات الشِّفاء» أنَّ الجُمُعة والجنازةَ وجبتا بعد الصَّلواتِ الخمس، وفي شرح «المنهاج» للعلَّامة ابنِ حجر: أنَّ صلاةَ الجمعةِ فُرضت بمكَّة، ولم تُقَم بها لفقد العدد، أو لأنَّ شِعارها الإظهار، وكان ﷺ بها مستخفياً، وأوَّل مَن أقامها بالمدينة قبلَ الهجرةِ أسعدُ بن زرارةَ بقرية على ميلٍ من المدينة.

ونقلَ الدَّميري عن ابن الأثيرِ أنَّه قال: الصحيحُ عندي أنَّها كانت ليلةَ الاثنين. واختاره ابنُ المنير. وفي «البحر»[4]: قيل: إنَّ الإسراء كان في سبعَ عشرةَ من شهر ربيعِ الأوَّل، والرسولُ ﷺ ابن إحدى وخمسين سنة وتسعةِ أشهرٍ وثمانيةٍ وعشرين يوماً، وحَكَى أنَّها ليلة السابعِ والعشرين من شهر ربيعِ الآخِر عن الحربيِّ[5].

وهي ـ على ما نقل السفيريُّ عن الجمهور ـ أفضلُ الليالي حتى ليلةِ القَدْر

---

(١) كذا قال المصنف رحمه الله، والذي في إكمال المعلم ١/ ٤٩٧ـ وتبعه عليه النووي ١/ ٢٠٩-٢١٠ ـ: إن الإسراء أقل ما قيل فيه: إنه كان بعد مبعثه بخمسة عشر شهراً، وقال الحربي: كان ليلة سبع وعشرين من ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، وقال الزهري: كان ذلك بعد مبعث النبي ﷺ بخمس سنين، وقال ابن إسحاق: أُسري به وقد فشا الإسلام بمكة والقبائل. وأشبه هذه الأقاويل قول الزهري وابن إسحاق.

(٢) هو أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الأندلسي المصري الشافعي المعروف بابن الملقن. الفقيه الإمام المحدث الحافظ. له: البدر المنير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، وطبقات الأولياء، وغير ذلك. توفي سنة (٨٠٤هـ). الضوء اللامع ٦/ ١٠٠.

(٣) هو شمس الدين محمد بن زين الدين عمر السفيري الحلبي الشافعي، الإمام العلامة، ولد بحلب سنة (٨٧٧هـ) ولازم العلاء الموصلي والبدر السيوفي في فنون شتى، توفي سنة (٩٥٦هـ). الكواكب السائرة ٢/ ٥٦، وشذارت الذهب ٨/ ٣١١.

(٤) ٦/ ٥.

(٥) في الأصل و(م): الجرمي، وهو خطأ، انظر البحر وشرحَي القاضي عياض والنووي.

مطلقاً. وقيل: هي أفضلُ بالنِّسبة إلى النبيِّ ﷺ، وليلةُ القدرِ أفضلُ بالنِّسبة إلى أمَّته عليه الصلاة والسلام. ورُدَّ بأنَّ ما كان أفضلَ بالنسبة إليه ﷺ فهو أفضلُ بالنسبة إلى أمَّته عليه الصلاة والسلام، فهي أفضلُ مطلقاً، نعم لم يُشرَع التعبُّد فيها، والتعبُّد في ليلة القدرِ مشروعٌ إلى يوم القيامة. واللهُ تعالى أعلم.

واختُلف أيضاً أنَّه في اليقظة أو في المنام: فعن الحسنِ أنَّه في المنام. ورُوي ذلك عن عائشةَ ومعاويةَ رضي الله عنهما، ولعلَّه لم يصحَّ عنهما كما في «البحر»[1]، وكانت رضي الله عنها إذا ذاك صغيرةً، ولم تكن زوجتَه عليه الصَّلاة والسلام، وكان معاويةُ كافراً يومئذ، واحتجَّ لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] لأنَّ الرؤيا تختصُّ بالنوم لغة، ووقع في حديث شريكٍ المتقدِّمِ ما يؤيِّده.

وذهب الجمهورُ إلى أنَّه في اليقظة ببدنه وروحِه ﷺ، والرُّؤيا تكون بمعنى الرؤيةِ في اليقظة، كما في قول الراعي يصف صائداً:

وكَبَّر للرؤيا وهشَّ فؤاده ... وبشَّر قلباً كان جمَّا بَلابِلُهْ[2]

وقال الواحديُّ: إنها رؤية اليقظةِ ليلاً فقط، وخبرُ شريكٍ لا يعوَّل عليه، على ما نُقل عن عبد الحقِّ.

وقال النوويُّ[3]: وأمَّا ما وقع في روايةٍ عن شريكٍ: وهو نائم، وفي أُخرى عنه: «بينا أنا عندَ البيتِ بين النائم واليقظان»، فقد يحتجُّ به مَن يجعلها رؤيا نوم، ولا حجَّةَ فيه؛ إذ قد يكون ذلك أوَّلَ وصولِ المَلَك إليه، وليس في الحديث ما يدلُّ على كونه ﷺ نائماً في القصَّة كلِّها.

واحتجَّ الجمهورُ لذلك بأنَّه لو كان مناماً، ما تعجَّب منه قريشٌ ولا استحالوه؛ لأنَّ النائمَ قد يرى نفسَه في السماء ويذهبُ من المشرق إلى المغرب، ولا يستبعده أحدٌ، وأيضاً العبدُ ظاهرٌ في الرُّوح والبدن.

---

(١) ٦/٥.
(٢) في الأصل و(م): بلاله، والمثبت من الروض الأُنُف للسُّهيلي ٢/١٤٩. والبيت في ديوان الراعي النميري ص٢٥٩، واللسان (هشش) برواية: وبشَّر نفساً كان قبلُ يلومها.
(٣) في شرح صحيح مسلم ١/ ٢١٠ نقلاً عن القاضي عياض.

وذهبت طائفةٌ، منهم القاضي أبو بكرٍ والبغويُّ[١]، إلى تصديق القائلين بأنَّه في المنام والقائلين بأنَّه في اليقظة، وتصحيحِ الحديثَين في ذلك بأنَّ الإسراء كان مرَّتين، إحداهما في نومه ﷺ قبل النبوَّة، فأُسري بروحه توطئةً وتيسيراً لما يَضعُف عنه قُوى البشر، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ثم أُسري بروحه وبدنه بعد النبوَّة. قال في «الكشف»: وهذا هو الحقُّ، وبه يحصل الجمعُ بين الأخبار.

وحكى المازريُّ في «شرح مسلم»[٢] قولاً رابعاً جمع به بين القولَين، فقال: كان الإسراء بجسده ﷺ في اليقظة إلى بيت المقدس، فكانت رؤيةَ عَين، ثم أُسري بروحه الشريفةِ عليه الصلاة والسلام منه إلى ما فوقه، فكانت رؤيا قلب؛ ولذا شنَّع الكفَّار عليه عليه الصلاة والسلام قولَه: «أتيتُ بيتَ المقدس في ليلتي هذه»، ولم يشنِّعوا عليه قولَه فيما سوى ذلك، ولم يتعجَّبوا منه؛ لأنَّ الرؤيا ليست محلَّ التعجُّب.

وليس معنى الإسراءِ بالروح الذهابَ يقظةً كالانسلاخ الذي ذهب إليه الصوفيةُ والحكماء، فإنَّه وإن كان خارقاً للعادة ومحلًّا للتعجُّب أيضاً، إلَّا أنَّه أمرٌ لا تعرفه العربُ، ولم يذهب إليه أحدٌ من السلف.

والأكثرُ على أنَّ المعراج كالإسراء بالرُّوح والبدن، ولا استحالة في ذلك، فقد ثبتَ بالهندسة أنَّ مساحةَ قطرِ جِرم الأرضِ ألفان وخمسُ مئةٍ وخمسةٌ وأربعون فرسخاً ونصفُ فرسخ، وأنَّ مساحة قطرِ كرةِ الشَّمس خمسةُ أمثال ونصفُ مثل لقطر جِرم الأرض، وذلك أربعةَ عشرَ ألفِ فرسخ، وأنَّ طرفَ قطرِها المتأخِّر يصل موضع طرفِه المتقدِّم في ثُلُثي دقيقة، فتقطع الشمسُ بحركة الفَلَك الأعظم أربعةَ عشرَ ألفِ فرسخ في ثلثَي دقيقةٍ من ساعة مستوية.

وذكر الإمامُ في «الأربعين»[٣] أنَّ الأجسامَ متساويةٌ في الذَّوات والحقائق، فوجب أن يصحَّ على كلِّ واحدٍ منها ما يصحُّ على غيره من الأعراض؛ لأنَّ قابلية

---

(١) في تفسيره ٣/ ١٣٤ على هامش الخازن.

(٢) ١/ ٢٢٠.

(٣) في أصول الدين.

ذلك العَرض إن كان من لوازم تلك الماهيةِ فأينما حصلت لَزِمَ[١] حصولُ تلك القابلية، فوجب أن يصحَّ على كلٍّ منها ما يصحُّ على الآخَر، وإن لم يكن من لوازمها كان من عوارضها، فيعود الكلامُ، فإن سَلِمَ، وإلَّا دارَ أو تسلسل، وذلك محال، فلا بدَّ من القول بالصحَّة المذكورة، والله تعالى قادرٌ على جميع الممكنات، فيقدرُ على أن يخلقَ مثل هذه الحركةِ السريعةِ في بدن النبيِّ ﷺ أو فيما يَحمله.

وقال العلَّامة البيضاويُّ[٢]: الاستحالة مدفوعةٌ بما ثبت في الهندسة أنَّ ما بين طرَفَي قرصِ الشمس ضِعفُ ما بين طرفي كرةِ الأرض مئةً ونيِّفاً وستِّين مرة، ثم إنَّ طرفها الأسفلَ يصل موضعَ طرفها الأعلى في أقلَّ من ثانية... إلى آخِر ما قال.

وما ذكرناه هو الصوابُ في التعبير، فإنَّ المقدِّمتين اللتين ذكرهما ممنوعتان، أمَّا الأولى، بأنَّ النِّسبة التي ذكرها إنَّما هي نسبةُ جِرم الشمسِ إلى جرم الأرض، كما برهنوا عليه في باب مقادير الأجرام والأبعاد من كتب الهيئة، لكنَّهم قالوا: جرمُ الشمس مثلُ جرمِ الأرض مئةً وستةً وستين مرة وربعَ مرة وثُمُنَ مرة. والعلَّامة جعل ذلك نسبةَ القطرِ إلى القطر؛ لأنَّه المتبادرُ مما بين الطرفين، وإرادةُ الجِرم منه خلافُ الظاهر جداً، وكان يكفيه لو أَراد ذلك أن يقولَ: قرصُ الشمسِ ضعفُ كرةِ الأرض، فأيُّ معنًى لما زاده؟!

وأمَّا الثانية، فإن أَراد بالثانية الثانيةَ من دقيقة الدرجةِ الفَلَكية التي هي ستُّون دقيقة، فمَنْعُها بما حرَّره العلَّامة القطب الشيرازيُّ في «نهاية الإدراك»[٣] حيث قال: مقدارُ الدرجةِ الواحدةِ من مقعَّر الفلك الأطلس بالأميال (٩٣٤٣٥٩٣) ميلاً، فالفلكُ الأعلى يقطع فيما مِقداره من الزمان جزءٌ واحد من خمسةَ عشرَ جزءاً من ساعة مستويةٍ ـ وهو ثُلث خمسِها ـ هذا المقدارَ من الأميال، فإذا تحرَّك مقدارَ دقيقة، وهي جزءٌ من تسع مئة جزءٍ من ساعة مستوية، كان قَدْرُ قطعِه من المسافة (١٥٥٧١٨) ميلاً وسدسَ ميلٍ وخُمسَ ربع أو رُبعَ خُمسِ ميل، ولأنَّ حينما يبدو

(١) في الأصل و(م): حصلت حصل لزم.. والمثبت من حاشية الشهاب ٦/ ٧.
(٢) في تفسيره ٣/ ١٩٦.
(٣) في دراية الأفلاك.

قَرنُ الشمس إلى أن تطلعَ بالتَّمام يكون بقدر ما يعدُّ واحدٌ من واحد إلى ثلاث مئة، فبمقدار ما يعدُّ ثلاثين يتحرَّك الفلك (١٥٥٧١٨) ميلاً، وهو ألفٌ وسبع مئةٍ واثنان وثلاثون فرسخاً من مقعَّره، واللهُ تعالى أعلم بما يتحرَّك محدَّبه حينئذ، فسبحان اللهِ تعالى ما أعظمَ شأنَه. اهـ.

وحاصلُ ذلك أنَّ الفَلَك الأَعظم يتحرَّك من ابتداءِ طلوع جِرم الشمسِ إلى أن يطلعَ بتمامه سُدُسَ درجة، وهو عَشرُ دقائقَ من ستِّين دقيقةً من درجة فَلَكية، ومقدارُ مساحة هذه الدقائق (٥١٩٦٠٠) أي: خمسُ مئةِ ألفٍ وتسعةَ عشرَ ألفاً وستّ مئةِ فرسخ، وإذا جعلنا هذه الدقائقَ ثوانيَ، كانت ستّ مئةِ ثانية، فأين الأقلُّ من ثانية؟

وإن أراد بالثانية الثانيةَ من دقيقة الساعةِ التي هي رُبعُ الدرجةِ الفَلَكية، فسُدُسُ الدرجةِ هاهنا يكون ثلثي دقيقة، وإذا جعلنا ثُلُثَي الدقيقة ثواني، كانا أربعين ثانيةً، وهذه الثَّواني هي الثواني الستُّ مئة بعينها، إلَّا أنَّ المنجِّمين لمَّا جعلوا الساعةَ ستِّين دقيقةً تسهيلاً للحساب، والساعةَ عبارةً عن خمسةَ عشرَ درجةً فلكية، اقتضى أن تكونَ الدرجةُ الفلكية وكلُّ ثانيةٍ من ثواني دقيقةِ الساعة بخمسةَ عشرَ ثانيةً من ثواني دقيقةِ الدرجات الفلكية، فالخلافُ بين ثواني دقائق الدرجةِ الفلكية وثواني دقيقة الساعة اعتبارٌ لفظي.

وأجاب عبدُ الرحمن الكرديُّ الشهيرُ بالفاضل بأنَّ الثانية جزءٌ من ستِّين جزءاً من دقيقة، والدقيقةُ قد تطلَق على جزءٍ من ستين جزءاً من درجة، وقد تطلق على جزءٍ من ستِّين جزءاً من ساعة، وقد تطلق على جزءٍ من ستِّين جزءاً من يومٍ بليلته.

ومراد العلَّامة البيضاويِّ من الثانية الثانيةُ الثالثة لا الثانيةُ الأولى، وهو ظاهرٌ، ولا الثانيةُ الثانية، كما ذهب إليه سعدي چلبي وتبعه ابنُ صدرِ الدِّين، وفيه أنَّه يُفهَم منه أنَّ الفلكيين قد يقسمون اليومَ بليلته إلى ستِّين دقيقة، كما يقسمونها إلى السَّاعات والدَّرجات والدقائقِ قسمةً يتميَّز بها أجزاءُ الزمان، ولم يقل بذلك أحدٌ منهم، وإنَّما ذكر ذلك بعضُهم تسهيلاً لمعرفة الكسرِ الزائدِ على الأيام التامَّة من السَّنة لتُعرَفَ منه السَّنةُ الكبيسة في ثلاث سنين أو أربع سنين، وهو بمعزلٍ عمَّا نحن فيه من قطع المسافةِ البعيدةِ بالزمان القليل، ولو سلَّمنا ما زعمه، كان ناقصاً من مدَّة حركةِ الفَلَك الأعظمِ من ابتداء طلوعِ قُرص الشمسِ إلى انتهائه، وهو ثُلُثا دقيقةٍ

هما أربعون ثانية، وذلك جزءٌ من تسعين جزءاً من ساعةٍ مستوية، كما حرَّره العلَّامة الشيرازي.

وما ذكره من أنَّ الثانيةَ من دقيقة اليوم بليلته عبارةٌ عن أربعةٍ وعشرين ثانيةً من ثواني دقيقةِ الساعة، وهي أقلُّ من ثلثي دقيقة بستةَ عشرَ ثانية، خطأٌ على خطأ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٢]. نعم قد أصاب في الردِّ على الفاضلين، وقد أخطأ الفاضلُ الأوَّل في غير ذلك في هذا المقام، كما لا يخفَى على مَن وقف على كلامه وكان له أدنَى اطِّلاعٍ على كتب القوم؛ ولتداوُل هذا المبحثِ بين الطَّلبة وعدم وجدانهم مَن يبلُّ غليلهم تعرَّضنا له بما نرجو أن يُبَلَّ به الغليل، هذا والعلماءُ درجات، واللهُ تعالى الموفِّق لفهم الدقائق، فتأمَّل مرةً وثانيةً وثالثة، فلعل اللهَ سبحانه أن يفتحَ عليك غيرَ ذلك.

وما ذكر من تساوي الأجسامِ مبنيٌّ ـ على ما قيل ـ على تركُّبها من الجواهر الفردة، وفيه خلافُ النَّظَّامِ والفلاسفة، والبحثُ في ذلك طويل، ولا يستدلُّ على الاستحالة بلزوم الخَرقِ والالتئام، وقد برهنوا على استحالة ذلك؛ لأنَّا نقول: إنَّ برهانهم على ذلك أوهنُ من بيت العنكبوتِ كما بيِّن في محلِّه.

ولم تتعرَّض الآية لأنَّه ﷺ كان في الإسراء به محمولاً على شيءٍ، لكن صحَّت الأخبار بأنَّه عليه الصلاة والسلام أُسري به على البراق.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وهو بيتُ المقدس. ووَصْفُه بالأقصى، أي: الأبعد، بالنِّسبة إلى مَن بالحجاز. وقال غيرُ واحدٍ: إنه سمِّي به لأنه أبعدُ المساجد التي تُزار من المسجد الحرام، وبينهما نحوٌ من أربعين ليلة. وقيل: لأنَّه ليس وراءه موضعُ عبادة، فهو أبعدُ مواضِعها. وقال ابنُ عطية(١): يحتمل أن يرادَ بـ «الأقصى» البعيدُ، دون مفاضلةٍ بينه وبين ما سواه، وهو بعيدٌ في نفسه للزائرين، وقيل: المرادُ بُعدُه عن الأقذار والخبائث.

واختُلف في ركوب جبريلَ عليه السلام معه، فقيل: ركب خلفه عليه الصلاة والسلام. والصحيحُ أنَّه لم يركب، بل أخذ بركابه وميكائيلُ يقود البراق.

---

(١) في تفسيره ٣/٤٣٦.

واختُلف أيضاً في استمراره عليه الصلاة والسلام في عروجه إلى السماء، فقيل: عَرَجَ عليه. والصحيحُ أنه نُصب له معراجٌ فعرج عليه، وجاء في وصفه وعِظَمه ما جاء، ووهَّم الحافظُ ابن كثيرٍ[(١)] ـ كما قال الحلبيُّ[(٢)] ـ القائلين ـ ومنهم صاحبُ الهَمْزية[(٣)] ـ: إنَّ عروجَه ﷺ على البراق.

ومن الأكاذيب المشهورةِ أنَّه ﷺ لمَّا أراد العروج، صَعِدَ على صخرة بيتِ المقدس ورَكِبَ البراق، فمالت الصخرةُ وارتفعت لتلحقَه، فأمسكتها الملائكةُ، ففي طرفٍ منها أَثَرُ قدمِه الشَّريف، وفي الطرف الآخَر أثرُ أصابعِ الملائكة عليهم السلام، فهي واقفةٌ في الهواء قد انقطعت من كلِّ جهة، لا يُمسكها إلَّا الذي يُمسك السماءَ أن تقعَ على الأرض سبحانَه وتعالى.

وذكر العلائيُّ[(٤)] «في تفسيره» أنَّه كان للنبيِّ عليه الصلاة والسلام ليلةَ الإسراء خمسةُ مراكب: الأوَّل: البراق إلى بيت المقدس، الثاني: المعراجُ منه إلى السماءِ الدنيا، الثالث: أجنحةُ الملائكةِ منها إلى السَّماء السابعة، الرابع: جناحُ جبريلَ عليه السلام منها إلى سِدرة المنتهَى، الخامس: الرَّفرف منها إلى قابِ قوسَين.

ولعل الحكمةَ في الرُّكوب إظهارُ الكرامة، وإلَّا فاللهُ سبحانه وتعالى قادرٌ على أن يوصلَه إلى أيِّ موضعٍ أراد في أقلَّ من طرفةِ عين.

وقيل: لم يكن إلَّا البراقُ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراجُ منه إلى حيث شاءَ الله تعالى، وقد كان له عشرُ مراقٍ: سبعةٌ إلى السماوات،

---

(١) في البداية والنهاية ٤/ ٢٧٦.

(٢) هو نور الدين علي بن إبراهيم الحلبي القاهري الشافعي صاحب السيرة الحلبية، كان غاية في التحقيق، حادَّ الفهم، قوي الفكرة. توفي سنة (١٠٤٤هـ). خلاصة الأثر ٣/ ١٢٢.

(٣) حيث قال في همزيته:

فصف الليلة التي كان للمخـ ـتار فيها على البراق استواءُ
وترقَّى به إلى قابِ قوسيـ ـن وتلك السيادة القعساءُ

وهو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري، صاحب البردة والقصيدة المضرية وغير ذلك. توفي سنة (٦٩٦هـ). الوافي بالوفيات ٣/ ١٠٥، وفوات الوفيات ٣/ ٣٦٢.

(٤) في الأصل: العلامى، والعلائي هو علاء الدين محمد بن عبد الرحمن البخاري المعروف بالعلاء الزاهد، المتوفى سنة (٥٤٦هـ). كشف الظنون ١/ ٤٥٤.

والثامنُ إلى السِّدرة، والتاسعُ إلى المستوى الذي سمع فيه صريفَ الأقلام، والعاشرُ إلى العرش، واللهُ تعالى أعلم.

ومن العجائب ما سمعتُه عن الطائفة الكشفيَّة ـ والعُهدةُ على الراوي ـ أنَّ للروح جسدين: جسدٌ من عالَم الغيبِ لا دخلَ للعناصر فيه، وجسدٌ من عالَم الشهادة كثيفٌ مركَّب من العناصر، والنبيُّ ﷺ حين عُرج به، أُلقي كلُّ عنصرٍ من عناصر الجسد العنصريِّ في كرته، فما وصل إلى فَلَك القمر حتى ألقى جميعَ العناصر، ولم يبقَ معه إلَّا الجسدُ اللطيف، فرَقِيَ به حيث شاءَ الله تعالى، ثم لمَّا رجع عليه الصلاة والسلام، رجع إليه ما أَلقاه، واجتمع فيه ما تفرَّق منه، ولَعَمري إنه حديثُ خُرافة، لا مستندَ له شرعاً ولا عقلاً.

وذكر مولانا عبدُ الرحمن الدشتيُّ ثم الجاميُّ أنَّ المعراجَ إلى العرش بالرُّوح والجسد، وإلى ما وراءَ ذلك بالرُّوح فقط، وأنشد بالفارسية:

چُو رَفْرَفْ شُدْ مُشرَّف أز وُجودَشْ ... گِرفْتْ أز دَسْت رَفْرَفْ عَرْشِ زُودَش

بَدَسْتِ عَرْش تَنْ چُون خِرْقَه بكذاشت ... عَلَم بَرْ لا مَكان بي خرقه أفْرَاشت

گِلي بَرْدَند ازين دهليزه بَسْت ... بَدَان دَرْگاه وَالَا دَسْتْ بَرْدَسْتْ

جِهَت را مُهْره أز شَشْدَرْ رهانيد ... مَكَان رَا مَرْكب أزتنگي جَهَانيد

مكاني يَافْتْ خَالي أزمَكان نيز ... كه تَنْ محرَمْ نَبُود آنْجاوجان نيز(١)

ولم أقف على مستندٍ له من الآثار، وكأنَّه لاحَظَ أنَّ العروج فوق العرشِ بالجسد يستدعي مكاناً، وقد تقرَّر عند الحكماءِ أنَّ ما وراء العرشِ لا خَلاءٌ ولا مَلاء، وبه تنتهي الأمكنةُ وتنقطع الجهات.

---

(١) ترجمة الأبيات:

حينما تشرفت مرتقى رفرف لحمله وارتقائه ... سرعان ما وصل وارتقى العرش إلى عليائه

وحينما اقترب الجسد من قوائم العرش مرتدياً ... خرقته رفع هناك لا مكان مستغنياً عنها

وقد ساروا به من الممر الضيق الدنيا ... حتى ارتقى نحو العلا في رونق

قطع الجهات كلها بومضة عين ... مخترقاً آفاقها كلمح البصر

حيث ارتقى مكاناً لا مكان ... والروح تبقى في عالم الأجساد.

وقال بعضُهم: أَمْرُ المعراج أجلُّ من أن يكيَّف، وماذا عسى يقال سوى أنَّ المحبَّ القادرَ الذي لا يُعجزه شيٌ دعا حبيبَه الذي خَلَقه من نوره إلى زيارته، وأَرسل إليه مَن أرسل من خواصِّ ملائكتِه، فكان جبريلُ هو الآخذ بركابه، وميكائيلُ الآخذ بزِمام دابَّته، إلى أن وصل إلى ما وصل، ثم تولَّى أمرَه سبحانه بما شاء حتى حصل، فأيُّ مسافةٍ تطول على ذلك الحبيبِ الربَّانيِّ، وأيُّ جسمٍ يمتنع عن الخرق لذلك الجسدِ النُّوراني؟!

جزْ بحزوَى فثمَّ عالمُ لطفٍ ... من بقايا أجساده الأرواحُ

ومَن تأمَّل في العين وإحساسِها بالقريب والبعيد ـ ولو كان فاقدَها وذُكر له حالُها لأنكر ذلك إنكاراً ما عليه مزيدٌ ـ وكذا في غير ذلك من آثارِ قدرةِ الله تعالى الظاهرةِ في الأنفس والآفاق، والواقعِ على جلالة قَدْرها الاتفاقُ = لم يَسَعه إلَّا تسليمُ ما نطقت به الآياتُ، وصحَّت به الروايات. ويُشبه كلامُ هذا البعضِ ما قاله بعضُ شعراءِ الفرس، إلَّا أنَّ فيه ميلاً إلى مذهب أهلِ الوحدة، وهو قولُه:

قصه بيرنگ معراج أزمَنِ بيدِل مَپرُسْ ... قطره دريا گشت وپيغمبر نميدَانَم چه شُدْ[1]

والظاهرُ أنَّ المسافةَ التي قطعها عليه الصلاة والسلام في مسيره كانت باقيةً على امتدادها. ويؤيِّد ذلك ما ذكره الثعلبيُّ في تفسيره في وصف البُراق أنَّه إذا أتى وادياً طالت يداه وقَصُرت رجلاه، وإذا أتى عَقَبةً طالت رجلاه وقصرت يداه، وكانت المسافةُ في غاية الطول، ففي «عقائق الحقائق»[2]: كانت المسافةُ من مكةَ إلى المقام الذي أوحى اللهُ تعالى فيه إلى نبيِّه عليه الصلاة والسلام ما أَوحى قَدْرَ ثلاثِ مئةَ ألفِ سنة، وقيل: خمسين ألفاً، وقيل غيرُ ذلك.

وأنَّه ليس هناك طيُّ مسافةٍ على نحو ما يُثبته الصوفيةُ وبعضُ الفقهاءِ للأولياء كرامةً، وجهَّل بعضُ الحنفية مثبتيه لهم، وكفَّرهم آخرون، وليس له وجهٌ ظاهر،

---

(١) ترجمته:

لا تسلني أنا الولهان عن قصة المعراج العجيبة
إذ صارت القطرة بحراً ولست أدري إلام صار فيها الرسول.

(٢) قال في كشف الظنون ٢/ ١١٤٩: لأبي النجم ركن الدين الخطيب المغربي، وهو كتاب في الموعظة، إلا أنه غير مصون عن الحشو.

وربما يَلزم مثبتيه القولُ بتداخل الجواهر، والفلاسفةُ والمتكلِّمون سوى النظَّام يُحيلونه ويبرهنون على استحالته، وادَّعى بعضُهم الضرورةَ في ذلك، وقالوا: المنعُ مكابرة، وقد أثبت الصوفيةُ للأولياء نشرَ الزمان، ولهم في ذلك حكاياتٌ عجيبة، واللهُ تعالى أعلمُ بصحَّتها، ولم أرَ مَن تعرَّض لذلك من المتشرِّعين، وهو أمرٌ وراء عقولِنا المشوبة بالأوهام، ومثلُه في ذلك قولُ مَن قال: الأزلُ والأبد نقطةٌ واحدة، الفرقُ بينهما بالاعتبار، وليس لفهم ذلك عندي إلَّا المتجرِّدون من جلابيب أبدانِهم، وقليلٌ ما هم. وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى في باب الإشارةِ حكايةُ إنكار طيِّ المسافةِ أيضاً وذِكرُ ما فيه، واللهُ تعالى الموفِّق.

وإنما أُسري به ﷺ ليلاً لمزيد الاحتفالِ به عليه الصلاة والسلام؛ فإنَّ الليلَ وقتُ الخلوةِ والاختصاص ومجالسةِ الملوك، ولا يكاد يدعو المَلِكُ لحضرته ليلاً إلَّا مَن هو خاصٌّ عنده، وقد أكرم اللهُ تعالى فيه قوماً من أنبيائه عليهم السلام بأنواع الكرامات، وهو كالأصل للنَّهار، وأيضاً الاهتداءُ فيه للمقصد أبلغُ من الاهتداءِ في النهار، وأيضاً قالوا: إنَّ المسافرَ يقطع في الليل ما لا يقطع في النَّهار، ومِن هنا جاء: «عليكم بالدُّلْجة؛ فإنَّ الأرض تُطوَى بالليل ما لا تُطوَى بالنهار»[1] وأيضاً أُسري به ليلاً؛ ليكونَ ما يعرُج إليه من عالَم النورِ المحضِ أبعدَ عن الشَّبه بما يعرُج منه من عالَم الظُّلمة، وذلك أبلغُ في الإعجاب.

وقال ابنُ الجوزيِّ في ذلك: إنَّ النبيَّ ﷺ سِراج، والسراجُ لا يوقَد إلَّا ليلاً، وبدرٌ، وكذا مسيرُ البدر في الظُّلَم، إلى غير ذلك من الحِكَم التي لا يعلمها إلَّا اللهُ تعالى.

ثم إنَّ الآية ليست نصًّا في دخوله عليه الصلاة والسلام المسجدَ الأقصى، إلَّا أنَّ الأخبار الصحيحةَ نصٌّ في ذلك.

وقولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ صفةُ مدح، وفيها إزالةُ اشتراكٍ عارض، وبركتُه بما خُصَّ به من كونه متعبَّدَ الأنبياءِ عليهم السلام وقِبلةً لهم، وكثرةِ الأنهارِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٧١) من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٧٢٥) من حديث جابر رضي الله عنه. وليس فيهما: «ما لا تطوى بالنهار».

والأشجارِ حوله، وفي الحديث أنَّه تعالى باركَ فيما بين العريش إلى الفرات وخصَّ فلسطين بالتقديس[١]. وقيل: بركتُه أن جَعَلَ سبحانه مياهَ الأرض كلَّها تنفجر من تحتِ صخرته، واللهُ تعالى أعلمُ بصحَّة ذلك.

وهو أحدُ المساجدِ الثلاثةِ التي تُشدُّ إليها الرِّحال، والأربعةِ التي يُمنع من دخولها الدجَّال؛ فقد أخرج أحمدُ في «المسند»[٢] أنَّ الدجَّال يطوف الأرضَ إلَّا أربعةَ مساجد: مسجد المدينة، ومسجد مكَّة، والأقصى، والطُّور.

والصلاةُ فيه مضاعَفة؛ فقد أخرج أحمدُ أيضاً[٣]، وأبو داود[٤]، وابن ماجه[٥] عن ميمونةَ مولاةِ رسول الله ﷺ أنَّها قالت: يا نبيَّ الله، أَفتِنا في بيت المقدس، قال: «أرضُ المحشرِ والمنشر، ائتوه وصلُّوا فيه؛ فإنَّ صلاةً فيه بألفِ صلاة». وفي روايةٍ لأحمدَ[٦] عن بعض نسائه عليه الصلاة والسلام أنَّها قالت: يا رسولَ الله، فإن لم تستطع إحدانا أن تأتيَه؟ قال: «إذا لم تستطع إحداكنَّ أن تأتيَه، فلْتبعث إليه زيتاً يُسرَج فيه؛ فإنَّ مَن بعث إليه بزيت يُسرَج فيه، كان كمن صلَّى فيه» وروى بعضَه أبو داود.

وهو ثاني مسجدٍ وضع في الأرض؛ لخبر أبي ذرٍّ[٧]: قلت: يا رسولَ الله، أيُّ مسجدٍ وضع في الأرضِ أوَّلاً؟ قال: «المسجدُ الحرام» قلت: ثم أيّ؟ قال: «المسجدُ الأقصى» قلت: كم بينَهما، قال: «أربعون سنةً، ثمَّ أينما أدركتك الصلاةُ فصلِّ؛ فإنَّ الفضلَ فيه».

وقد أسَّسه يعقوبُ عليه السلام بعد بناءِ إبراهيمَ عليه السلام الكعبةَ بما ذكر في الحديث، وجدَّده سليمانُ، أو أتمَّ تجديدَ أبيه عليهما السلام بعد ذلك بكثير، والكلامُ فيما يتعلَّق بذلك مفصَّل في محلِّه[٨].

---

(١) أخرجه بنحوه ابن عساكر موقوفاً على معاذ ﷺ، كما في الدر المنثور ٢/ ٢٧٠.
(٢) برقم (٢٣٠٩٠).
(٣) في المسند برقم (٢٧٦٢٦).
(٤) في سننه (٤٥٧) مختصراً كما سيشير إليه المصنف.
(٥) في سننه (١٤٠٧).
(٦) هي الرواية السالفة، وهي عند أبي داود وابن ماجه.
(٧) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).
(٨) انظر ٤/ ٤-٥.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: لنرفعَه إلى السماءِ حتى يرى ما يرى من العجائب العظيمة، فقد صحَّ أنَّه ﷺ عُرج به من صخرة بيتِ المقدس كما تقدَّم، واجتمع في كلِّ سماءٍ مع نبيٍّ من الأنبياءِ عليهم السلام، كما في «صحيح البخاري» وغيرِه[1]، واطَّلع عليه الصلاة والسلام على أحوال الجنةِ والنَّار، ورأى من الملائكة ما لا يَعلم عِدتهم إلَّا اللهُ تعالى.

ونُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه عليه الصلاة والسلام رأى ليلةَ المعراجِ في مملكة اللهِ تعالى خلقاً كهيئة الرِّجال على خيلٍ بُلْقٍ شاكين السلاحَ، طولُ الواحدِ منهم ألفُ عام، والفرسُ كذلك، يَتْبع بعضُهم بعضاً، لا يُرى أوَّلُهم ولا آخِرهم، فقال: «يا جبريل، مَن هؤلاء»؟ فقال: ألم تسمع قولَه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] فأَنا أَهبط وأَصعد أراهم هكذا يمرُّون، لا أدري مِن أين يجيئون، ولا إلى أين يذهبون[2].

وقد صلَّى ﷺ بالأنبياء عليهم السلام في بيت المقدسِ، قال في «العقائق»: وكانت صلاتُه عليه الصلاة والسلام بهم ركعتين، قرأ في الأُولى: (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ) وفي الثانية «الإخلاص». وقال بعضُهم: كانت دعاءً. وذكر أنَّ الأنبياء كانوا سبعةَ صفوف، ثلاثةٌ منهم مرسَلون، وأنَّ الملائكةَ عليهم السلام صلَّت معهم، وهذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام، كما قال القاضي زكريا في شرح «الرَّوض»، والحكمةُ في ذلك أنْ يظهرَ أنَّه إمامُ الكلِّ عليه الصلاة والسلام.

وهل صلَّى بأرواحهم خاصَّة، أو بها مع الأَجساد؟ فيه خلافٌ. وكذا اختُلف في أنَّه ﷺ صلَّى بهم قبل العروجِ أو بعدَه، فصحَّح الحافظ ابنُ كثير[3] أنَّه بعده، وصحَّح القاضي عياضٌ وغيرُه أنه قبلَه. وجاء في روايةٍ أنَّه عليه الصلاة والسلام صلَّى في كلِّ سماء ركعتين يؤمُّ أَملاكَها، وكان الإسراءُ والعروجُ في بعض ليلةٍ واحدة، وكان رجوعُه ﷺ على ما كان ذهابُه عليه، ولم يعيَّن مقدارُ ذلك البعض، وكيفما كان، فوقوعُ ما وقع فيه من أَعجبِ الآيات، وأغربِ الكائنات.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧)، وصحيح مسلم (١٦٤). وسلف تخريجه ص٣٦٨ من هذا الجزء.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) في تفسيره عند تفسير الآية.

وفي بعض الآثارِ أنَّه ﷺ لمَّا رجع وجد فراشَه لم يَبرُد من أثر النَّوم. وقيل: إنَّ غصنَ شجرةٍ أصابه بعِمامته في ذهابه، فلمَّا رجع وجده بعدُ يتحرك.

وزعم بعضُهم أنَّ ليلة الإسراء غيرُ ليلةِ المعراج، وظاهرُ الآية ـ على ما سمعتَ ـ يقتضي أنَّهما في ليلة واحدة.

وإنما أُسري به ﷺ أوَّلاً إلى بيت المقدس وعُرج به ثانياً منه؛ ليكونَ وصولُه إلى الأماكن الشَّريفة على التدريج؛ فإنَّ شرفَ بيتِ المقدس دون شرفِ الحضرة التي عَرَجَ إليها على ما قيل، وقيل: توطيناً له عليه الصلاة والسلام لما في المعراج من الغرابة العظيمةِ التي ليست في الإسراء وإنْ كان غريباً أيضاً. وقيل: لتتشرَّفَ به أرضُ المحشر ذهاباً وإياباً. وقيل: لأنَّ باب السماءِ الذي يقال له مصعدُ الملائكة عليهم السلام، على مقابلة صخرةِ بيتِ المقدس، فقد نُقل عن كعب الأحبارِ أنه قال: إنَّ لله تعالى باباً مفتوحاً من سماءِ الدنيا إلى بيت المقدس، ينزل منه كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، يستغفرون لمن أتَى بيتَ المقدس وصلَّى فيه، فأُسري به ﷺ إلى هناك أوَّلاً، ثم عُرج به ليكونَ صعودُه على الاستواء. وقيل: إنَّ أُسطواناتِ المسجدِ قالت: ربَّنا حَصَلَ لنا من كلِّ نبيٍّ حظٌّ، وقد اشتقنا إلى محمدٍ ﷺ، فارزقنا لقاءَه، فبدئ بالإسراء به إلى المسجد تعجيلاً للإجابة. وقيل غيرُ ذلك.

وعبَّر بـ «من» الدالَّةِ على التبعيض؛ لأنَّ إراءة جميعِ آيات الله تعالى ـ لعدم تناهيها ـ ممَّا لا تكاد تقع، ولو قيل: آياتِنا، لتبادرَ الكلُّ، وربَّما يستعان بالمقام على إرادته، واستُشكل بأنَّه كيف يرى نبيُّنا ﷺ بعضَ الآيات ويرى إبراهيمُ عليه السلام ملكوتَ السماواتِ والأرض كما نطق به قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] وفرقٌ بين الحبيبِ والخليل؟ وأُجيب بأنَّ بعض الآياتِ المضافةِ إليه تعالى أشرفُ وأعظمُ من ملكوت السماواتِ والأرض، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨].

وقال الخَفَاجيُّ(١): السؤال غيرُ وارد؛ لأنَّ ما رآه إبراهيم عليه السلام ما فيها من الدَّلائل والحُجج، وليس ذلك مقاوِماً للمعراج، فتأمَّل.

---

(١) في حاشيته ٦/ ٨.

وقال ابنُ عطية[1]: يحتمل أن يكونَ معنى الآية: لِنُريَ محمداً ﷺ للناس آيةً من آياتِنا، أي: ليكونَ عليه الصلاة والسلام آيةً في أنَّه يصنع اللهُ تعالى ببشرٍ هذا الصنعَ، ويندفع بهذا السؤالُ المذكور، إلَّا أنه احتمالٌ في غاية البُعد.

ثم لا يخفَى أنه ليس في الآية إشارةٌ إلى أنَّه ﷺ رأى ربَّه ليلة الإسراء؛ إذ لا يَصْدق عليه تعالى أنَّه من آياته، بل لا يصدق سبحانه أنَّه آية. نعم مثبتو الرؤيةِ يحتجُّون بغير ذلك، وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى.

وكذا ليست الآيةُ نصًّا في المعراج، بل هي نصٌّ في الإسراء دونه؛ إذ يجوز حملُ بعض الآيات على ما حصل له ﷺ في الإسراء فقط، بل قال بعضُهم: ليس في الآيات مطلقاً ما هو نصٌّ في ذلك، ومِن هنا قالوا: إنَّ الإسراءَ إلى بيت المقدسِ قطعيٌّ ثبت بالكتاب، فمَن أنكره فهو كافر، والمعراجُ ليس كذلك، فمن أَنكره فليس بكافر، بل مبتدعٌ. وكأنَّه سبحانه إنَّما لم يصرِّح به كما صرَّح بالإسراء رحمةً بالقاصرين على ما قيل.

وفي «التفسير الخازني»[2] أنَّ فائدة ذِكر المسجدِ الأقصى فقط دونَ السماء، أنَّه لو ذكر صعودَه عليه الصلاة والسلام لاشتدَّ إنكارُهم لذلك، فلمَّا أَخبر أنَّه أسرى به إلى بيت المقدس، وبان لهم صِدقُه فيما أَخبر به من العلامات التي فيه وصدَّقوه عليها، أَخبر بعد ذلك بمعراجه إلى السماءِ، فكان الإسراءُ كالتَّوطئة للمعراج. اهـ.

وهذا ظاهرٌ في الخبر الوارد في هذا الباب، لا في الآية؛ لأنَّه لم يُخبِر فيها بالمعراج كما أَخبر فيها بالإسراء دلالةً. وقيل: إنَّ الإشارةَ بعد ذلك التصريحِ كافية، فتدبَّر.

وصرفُ الكلام من الغَيبة التي في قوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ إلى صيغة المتكلِّم المعظم في «باركنا» و«نريه» و«آياتنا» لتعظيم البركاتِ والآيات؛ لأنَّها كما تدلُّ على تعظيم مدلولِ الضميرِ تدل على عِظَم ما أُضيف إليه وصدر عنه، كما قيل: إنَّما يفعلُ العظيم العظيم.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٦.
(٢) ٣/ ١٢٨

وقد ذكروا لهذا التلوينِ نكتةً خاصَّة، وهي: أنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ يدلُّ على مسيره عليه الصلاة والسلام من عالَم الشهادةِ إلى عالم الغيب، فهو بالغَيبة أنسب، وقولَه تعالى: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ دلَّ على إنزال البركات، فيناسب تعظيمَ المنزل، والتعبيرُ بضمير العظمةِ متكفِّل بذلك، وقوله سبحانه: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ على معنى: بعدَ الاتِّصال وعزِّ الحضور، فيناسب التكلُّمَ معه، وأما الغَيبة؛ فلكونه ﷺ إذ ذاك ليس من عالَم الشهادة، ولذا قيل: إنَّ فيه إعادةً إلى مقام السِّرِّ والغيبوبةِ من هذا العالَم، والغيبةُ بذلك أليَقُ، وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ عودٌ إلى التعظيم كما سبقت الإشارة إليه.

وأما الغيبةُ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ على تقدير كونِ الضميرِ له تعالى، كما هو الأظهر، وعليه الأكثر؛ فليطابقَ قولَه تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ويرشِّح ذلك الاختصاصُ بما يوقع هذا الالتفاتَ أحسنَ مواقعِه، وينطبق عليه التعليلُ أتمَّ انطباق؛ إذ المعنى: قرَّبه وخصَّه بهذه الكرامة؛ لأنَّه سبحانه مطَّلع على أحواله، عالمٌ باستحقاقه لهذا المقام.

قال الطِّيبي: «إنَّه هو السميعُ» لأقوال ذلك العبد، «البصيرُ» بأفعاله، بكونها مهذَّبة خالصةً عن شوائب الهوى، مقرونةً بالصِّدق والصَّفا، مستأهلةً للقُرب والزُّلفى. وأمَّا على تقديرِ كون الضمير للنبيِّ ﷺ - كما نقله أبو البقاء[(١)] عن بعضهم، وقال: أي: «السميعُ» لكلامنا «البصيرُ» لذاتنا، وقال الجلبي: إنَّه لا يَبعد، والمعنى عليه: إنَّ عبدي الذي شرَّفته بهذا التشريفِ هو المستأهلُ له، فإنَّه «السميعُ» لأوامري ونواهيَّ، العاملُ بهما، «البصيرُ» الذي ينظر بنظرة العِبرة في مخلوقاتي فيعتبر، أو «البصيرُ» بالآيات التي أريناه إيَّاها، كقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] - فقيل: لمطابقة الضمائر العائدةِ عليه، وكذا لِما عبَّر به عنه من قوله سبحانه: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾. وقيل: للإشارة إلى اختصاصه ﷺ بالمِنَح والزُّلفى، وغَيبوبةِ شهوده في عَين «بي يسمع وبي يبصر»[(٢)]. ولا يمتنع إطلاقُ السميعِ والبصيرِ على غيره تعالى كما تُوهِّم، لا مطلقاً ولا هنا.

---

(١) في الإملاء ٣/٤٦٨.
(٢) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في الأصل الثاني والستين بعد المئة ص٣٠٥.

قال الطِّيبي: ولعل السرَّ في مجيءِ الضميرِ محتملاً للأمرين الإشارة إلى أنَّه ﷺ إنَّما رأى ربَّ العزَّة وسمع كلامَه به سبحانه، كما في الحديث المشار إليه آنفاً، فافهم تَسمعْ وتُبصِر.

وتوسيطُ ضميرِ الفصل إمَّا لأنَّ سماعه تعالى بلا أُذن، وبصره بلا عَين، على نحوٍ لا يشاركه فيه تعالى أحدٌ، وإمَّا للإشعار باختصاصه ﷺ بتلك الكرامة.

وزعم ابنُ عطية[١] أنَّ قولَه تعالى: (إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) وعيدٌ للكفار على تكذيبهم النبيَّ ﷺ في أمر الإسراء، أي: «إنَّه هو السميعُ» لما تقولون أيها المكذِّبون، «البصيرُ» بما تفعلون، فيعاقبكم على ذلك.

وقرأ الحسن: «لِيُرِيَه» بياء الغَيبة[٢]، ففي الآية حينئذٍ أربعُ التفاتات.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ، وهو الظاهرُ، أو موسى عليه السلام ﴿هُدًى﴾ عظيماً ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ متعلِّق بهُدًى، أو بجَعَلَ، واللامُ تعليلية، والواوُ استئنافية، أو عاطفةٌ على جملة (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ) لا على (أَسْرَىٰ) كما نقله في «البحر»[٣] عن العُكبَريِّ، وحَكَى نظيرَه عن ابن عطيةَ؛ لبُعده وتكلُّفه.

وعقب آيةَ الإسراءِ بهذه استطراداً؛ تمهيداً لذِكر القرآن، والجامعُ أنَّ موسى عليه السلام أُعطي التوراةَ بمسيره إلى الطُّور، وهو بمنزلة معراجِه؛ لأنَّه مُنح ثَمَّتَ التكليم، وشرِّف باسم الكليم، وطَلَبَ الرؤية، مدمَجاً فيه تفاوتُ ما بين الكتابَين ومَن أُنزلا عليه، وإن شئتَ فوازن بينَ (أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ) و(وَءَاتَيْنَا مُوسَى) وبين (هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) و﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الآية: ٩].

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أي: أن لا تتَّخذوا، على أنَّ «أنْ» تفسيرية و«لا» ناهية، والتفسيرُ ـ كما قال أبو البقاء[٤] ـ لما تضمَّنه الكتابُ من الأمر والنَّهي، وقيل: لمحذوف، أي: آتينا موسى كتابةَ شيءٍ هو: لا تتَّخذوا، والكتابُ وإن كان المرادُ

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٦.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٣٧، والبحر ٦/ ٦.
(٣) ٦/ ٧.
(٤) في الإملاء ٣/ ٤٦٨.

به التوراة، فهو مصدرٌ في الأصل، ولا يخفَى أنَّه خلافُ الظاهر.

وجوَّز في «البحر»(١) أن تكونَ «أنْ» مصدريةً، والجارُّ قبلَها محذوف، و«لا» نافية، أي: لئلَّا تتَّخذوا، وقيل: يجوز أن تكونَ «أن» وما بعدها في موضع البدلِ من «الكتاب».

وجوَّز أبو البقاءِ(٢) أن تكونَ زائدة، و﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ معمولٌ لقولٍ محذوف، و«لا» فيه للنَّهي، أي: قلنا: لا تتَّخذوا. وتعقَّبه أبو حيَّان(٣) بأنَّ هذا الموضعَ ليس من مواضع زيادة «أنْ».

وكذا جوِّز أن تكونَ «لا» زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] والتقدير: كراهةَ أن تتَّخذوا. ولا يخفَى ما فيه.

وقرأ ابن عباسٍ، ومجاهدٌ، وعيسى، وأبو رجاءٍ، وأبو عَمرٍو من السبعة: «أنْ لا يتَّخذوا» بياء الغَيبة(٤)، وجعل غيرُ واحدٍ «أنْ» على ذلك مصدريةً، ولم يذكروا فيها احتمالَ كونِها مفسِّرة.

وقال شيخ زاده(٥): لا وجهَ لأن تكونَ «أن» مفسِّرة على القراءة بياء الغَيبة؛ لأنَّ ما في حيِّز المفسِّرة مقولٌ من حيث المعنى، والذي يُلقَى إليه القولُ لا بدَّ أن يكونَ مخاطَباً، كما لا وجهَ لكونها مصدريةً على قراءة الخطاب؛ لأنَّ بني إسرائيل غيَّب، فتأمَّل.

والجارُّ عندهم على كونها مصدريةً محذوفٌ، أي: لأن لا يتَّخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلًا ۝﴾ أي: ربًّا تَكِلون إليه أمورَكم غيري، فالوكيل فعيلٌ بمعنى مفعول، وهو الموكولُ إليه، أي: المفوَّض إليه الأمورُ، وهو الربُّ.

---

(١) ٦/ ٧.
(٢) في الإملاء ٣/ ٤٦٨.
(٣) في البحر ٦/ ٧.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٧، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٦.
(٥) هو محيي الدين محمد بن مصطفى القوجوي الحنفي الإمام العلامة. له: حواش على البيضاوي، وشرح الوقاية، وشرح المفتاح، وغير ذلك. توفي سنة (٩٥١هـ). شذرات الذهب ٨/ ٢٨٦.

قال ابنُ الجوزي[١]: قيل للربِّ وكيل؛ لكفايته وقيامِه بشؤون عباده، لا على معنى ارتفاعِ منزلةِ الموكِّل وانحطاطِ أمر الوكيل، و«من» سيف خطيب[٢]، و«دون» بمعنى «غير»، وقد صرَّح بمجيئها كذلك في غير موضع، وهي مفعولٌ ثانٍ لـ «تتخذوا»، و«وكيلاً» الأوَّل.

وجوَّز أن تكونَ «من» تبعيضية، واستُظهر الأول، والمرادُ النهيُ عن الإشراك به تعالى.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص، أو على النِّداء، والمراد الحملُ على التوحيد بذِكر إنعامه تعالى عليهم في ضمن إنجاءِ آبائهم من الغرق في سفينة نوحٍ عليه السلام، حين ليس لهم وكيلٌ يتوكَّلون عليه سِواه تعالى.

وخصَّ مكيٌّ النداءَ بقراءة الخطاب، قال[٣]: مَن قرأ: «يتخذوا» بياء الغَيبة، يَبعد معه النداءُ؛ لأنَّ الياءَ للغيبة، والنداء للخطاب، فلا يجتمعان إلَّا على بُعد، ونِعمَ ما قال. وقولُ بعضِهم: ليس كما زعم؛ إذ يجوز أن يُنادي الإنسانُ شخصاً ويُخبرَ عن أحدٍ فيقول: يا زيدُ ينطلق بكرٌ، و: فعلتَ كذا يا زيدُ ليفعلْ عَمرو كيتَ وكيت، إنْ كما زعم = لا يدفع البُعدَ الذي ادَّعاه مَكيّ.

وجوِّز أن يكونَ أحدَ مفعولَي «تتخذوا»، و«وكيلاً» الآخَر، وهو لكونه فعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه الواحدُ المذكَّر وغيرُه، فلا يَرِدُ أنَّه كيف يجوز أن يكونَ مفعولاً ثانياً والمفعولُ الثاني خبرٌ معنًى وهو غيرُ مطابقٍ هنا؟ و«من دوني» حالٌ منه، و«من» يجوز أن تكونَ ابتدائية.

وجوِّز أيضاً أن يكونَ بدلاً من «وكيلاً» لأنَّ المبدَل منه ليس في حكم الطَّرح من كلِّ الوجوه، أي: لا تتَّخذوا من دوني ذريةَ مَن حملنا، والمراد نهيُهم عن اتِّخاذ عُزيرٍ وعيسى عليهما السلام ونحوِهما أرباباً.

وفي التعبير بما ذُكر إيماءٌ إلى عِلَّة النهي من أوجُه: أحدها: تذكيرُ النعمة في

(١) في زاد المسير ٥/٦ نقلاً عن ابن الأنباري.
(٢) أي: زائدة للتوكيد، انظر حاشية الشهاب ٦/٨.
(٣) في مشكل إعراب القرآن ١/ ٤٢٧-٤٢٨.

إنجاء آبائهم كما ذُكر. والثاني: تذكيرُ ضعفِهم، وحالِهم المُحوِجِ إلى الحمل. والثالث: أنَّهم أضعفُ منهم؛ لأنَّهم متولِّدون منهم. وفي إيثار لفظِ الذُّرية الواقعةِ على الأطفال والنساءِ في العرف الغالبِ مناسبةٌ تامَّة لما ذُكر.

وجوَّز أبو البقاءِ[1] كونَه بدلاً من «موسى»، وهو بعيد جدًّا.

وقرأت فِرقة: «ذريةُ»[2] بالرفع على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو ذرية، ولا بُعدَ فيه كما توهِّم، أو على البدل من ضمير «يتخذوا» قال أبو البقاءِ[3]: على القراءة بياء الغَيبة.

وقال ابنُ عطية[4]: ولا يجوز هذا على القراءة بتاء الخطاب؛ لأنَّ ضمير المخاطَب لا يبدَل منه الاسمُ الظاهر.

وتعقبه أبو حيَّان في «البحر»[5] بأنَّ المسألةَ تحتاج إلى تفصيل، وذلك أنَّه إن كان في بدل بعضٍ من كلٍّ وبدلِ اشتمال، جاز بلا خلاف، وإنْ كان في بدل شيءٍ من شيءٍ وهما لعين واحدة، إن كان يفيد التوكيدَ، جاز بلا خلافٍ أيضاً، نحو: مررتُ بكم صغيرِكم وكبيرِكم، وإنْ لم يفد التوكيدَ، فمذهبُ جمهورِ البصريين المنعُ، ومذهبُ الأخفشِ والكوفيين الجوازُ، وهو الصحيحُ؛ لوجود ذلك في لسان العرب، وقد استَدلَّ على صحَّته في«شرح التسهيل».

وقرأ زيد بن ثابت وأبان بن عثمان وزيد بن علي ومجاهد في رواية بكسر ذال«ذرية». وفي روايةٍ أخرى عن مجاهدٍ أنَّه قرأ بفتحها، وعن زيد بن ثابتٍ أيضاً أنَّه قرأ: «ذَرِيَّة» بفتح الذالِ وتخفيف الراءِ وتشديد الياء، على وزن فَعِيلة كمَطِيَّة[6].

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: نوحٌ عليه السلام ﴿كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ كثيرَ الشكر في مجامع حالاته.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٤٦٩.

(٢) القراءات الشاذة ص٧٤.

(٣) في الإملاء ٣/ ٤٦٩.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٧.

(٥) ٦/ ٧.

(٦) البحر المحيط ٦/ ٧، وانظر القراءات الشاذة ص٧٤، والمحتسب ١/ ١٥٦.

وأخرج ابن جَرير[١]، وابنُ المنذر، والبيهقيُّ في «الشُّعب»[٢]، والحاكم[٣] وصحَّحه، عن سلمانَ الفارسيِّ قال: كان نوحٌ عليه السلام إذا لبس ثوباً أو طعم طعاماً، حَمِدَ اللهَ تعالى، فسمِّي عبداً شكوراً.

وأخرج عبدُ الله بن أحمدَ في زوائد «الزُّهد» عن إبراهيمَ قال: شُكْرُه عليه السلام أن يسمِّيَ إذا أكل، ويحمدَ اللهَ تعالى إذا فرغ.

وأخرج ابنُ مردويه عن معاذِ بن أنسٍ الجهنيِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّما سمَّى اللهُ تعالى نوحاً عبداً شكوراً؛ لأنَّه كان إذا أمسى وأصبح، قال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾»[٤] [الروم: ١٧-١٨].

وأخرج البيهقيُّ[٥] وغيرُه عن عائشةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ نوحاً لم يَقم عن خَلاءٍ قطُّ إلَّا قال: الحمدُ لله الذي أذاقني لذَّتَه، وأبقَى فيَّ منفعتَه، وأذهب عنِّي أذاه» وهذا من جُملة شُكره عليه السلام.

وفي هذه الجملةِ إيماءٌ بأن إنجاءَ مَن معه عليه السلام كان ببركة شكره، وحثٌّ للذُّرية على الاقتداء به، وزجرٌ لهم عن الشِّرك الذي هو أعظمُ مراتبِ الكفر. وهذا وجهُ ملائمتِها لما تقدَّم، وقال الزمخشريُّ[٦]: يجوز أن يقالَ ذلك عند ذِكره على سبيل الاستطراد، وحينئذٍ فلا يُطلَب ملاءمتُه مع ما سيق له الكلام، إلَّا من حيث إنَّه كان من شأن مَن ذُكر، أَعني نوحاً عليه السلام.

وقيل: ضميرُ «إنه» عائدٌ على موسى عليه السلام، والجملة مسوقةٌ على وجه التعليل، إمَّا لإيتاء الكتاب، أو لجعله عليه السلام هدًى، بناءً على أنَّ ضمير «جعلناه» له، أو للنَّهي عن الاتِّخاذ، وفيه بُعد، فتدبَّر.

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٤٥٢.
(٢) برقم (٤٤٧١).
(٣) في مستدركه ٢/ ٣٦٠.
(٤) الدر المنثور ٤/ ١٦٢.
(٥) في الشعب (٤٤٦٩).
(٦) في الكشاف ٢/ ٤٣٨.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أخرج ابن جَرير[١] وغيرُه عن ابن عباسٍ: أي: أعلمناهم. وزاد الراغبُ[٢]: وأَوحينا إليهم وحياً جزماً، وصرَّح غيرُ واحد بتضمين القضاءِ معنى الإِيحاء؛ ولهذا عدِّي بـ «إلى»، والوحيُ إليهم إعلامُهم ولو بالواسطة.

وقيل: «إلى» بمعنى «على»، ورُوي ذلك أيضاً عن ابن عباس، قال: أي: قضينا عليهم ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: التوراة، أو الجنس؛ بدليل قراءةِ أبي العالية وابن جُبَير: «الكُتُبِ» بصيغة الجمع[٣]، والظاهرُ الأوَّل على الأوَّل، أو اللوحُ المحفوظُ على الأخير.

وأخرج ابنُ المنذرِ والحاكمُ[٤] عن طاوسٍ قال: كنت عندَ ابنِ عباس ومعنا رجلٌ من القَدَرية، فقلت: إنَّ أُناساً يقولون: لا قَدَرَ، قال: أَوَفي القوم أحدٌ منهم؟ قلت: لو كان ما كنتَ تصنع به؟ قال: لو كان فيهم أحدٌ منهم، لأَخذتُ برأسه ثم قرأت عليه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾.

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جوابُ قَسَم محذوف، وحُذف متعلَّق القضاءِ أيضاً للعلم به، والتقدير: وقضينا إلى بني إسرائيلَ بفسادهم وعلوِّهم: واللهِ لَتُفْسدن.. إلخ، ويكون هذا تأكيداً لتعلُّق القضاءِ، ويجوز جعلُه جوابَ «قضينا» بإجراء القضاءِ مُجرَى القَسَم، فيُتلقَّى بما يتلقَّى به، نحو: قضاء اللهِ تعالى لأفعلنَّ كذا.

والمرادُ بالأرض الجنسُ، أو أرضُ الشام وبيتُ المقدس.

وقرأ ابنُ عباس، ونصر بن عليٍّ، وجابر بنُ زيد: «لَتُفسَدُنَّ» بضمِّ التاءِ وفتحِ السين مبنيًّا للمفعول[٥]، أي: يُفسدكم غيرُكم، فقيل: من الضَّلال، وقيل: من الغلبة.

وقرأ عيسى: «لَتَفسُدُنَّ» بفتح التاءِ وضمِّ السين[٦] على معنى: لَتفسُدنَّ بأَنفسكم بارتكاب المعاصي.

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٤٥٥.

(٢) في المفردات (قضى).

(٣) القراءات الشاذة ص٧٤.

(٤) في المستدرك ٢/ ٣٦٠.

(٥) البحر المحيط ٦/ ٨، وانظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٤.

(٦) القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٤.

﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ منصوبٌ على أنَّه مصدرُ «لتفسدن» من غير لفظِه.

والمراد: إفسادَتين: أُولاهما ـ على ما نقل السُّدِّيُّ عن أشياخه ـ قتلُ زكريا عليه السلام، ورُوي ذلك عن ابن عباسٍ وابنِ مسعود، وذلك أنَّه لـمَّا مات صديقه مَلِكُهم، تنافسوا على المُلك وقتل بعضُهم بعضاً، ولم يسمعوا مِن زكريا، فقال اللهُ تعالى له: قُم في قومك أُوحِ على لسانك. فلمَّا فرغ ممَّا أَوحى عليه، عَدَوا عليه ليقتلوه، فهرب، فانفلقت له شجرةٌ، فدخل فيها، وأدركه الشيطانُ، فأخذ هُدْبةً من ثوبه فأَراهم إيَّاها، فوضعوا المنشارَ في وسط الشجرةِ حتى قطعوه في وسطها.

وقيل: سببُ قتله أنَّهم اتَّهموه بمريمَ عليها السلام، قيل: قالوا حين حملت: ضيَّع بنتَ سيِّدنا حتى زنت، فقطعوه بالمنشار في الشَّجرة.

وقال ابنُ إسحاق: هي قتلُ شَعيا عليه السلام، وقد بُعث بعد موسى عليه السلام، فلمَّا بلَّغهم الوحيَ أرادوا قتله، فهرب، فقُتل، وهو صاحبُ الشجرة، وزكريا عليه السلام مات موتاً ولم يُقتَل.

وفي «الكشاف»[(١)]: أُولاهما: قتلُ زكريا وحبس أرميا، والآخِرة: قتلُ يحيى وقصدُ قتلِ عيسى عليهما السلام.

وهذا فيمن جعل هلاكَ زكريا قبل يحيى عليهما السلام، وهو روايةُ ابنِ عساكر في «تاريخه» عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه[(٢)]. ثم ضمُّ ذلك مع حبس أرميا في قَرن غيرُ سديد؛ لأنَّ أرميا كان في زمن بُخْتَنَصَّر، وبينه وبين زكريا أكثرُ من مئتي سنة.

واختار بعضُهم ـ وقيل: إنه الحقُّ ـ أنَّ الأُولى تغييرُ التوراة وعدمُ العمل بها، وحَبسُ أرميا وجَرحُه إذ وعظهم وبشَّرهم بنبيِّنا ﷺ، وهو أوَّل مَن بشَّر به عليه الصلاة والسلام بعد بشارةِ التوراة. والأُخرى قتلُ زكريا ويحيى عليهما السلام.

ومَن قال: إنَّ زكريا مات في فراشه، اقتصرَ على يحيى عليه السلام. واختُلف في سبب قتلِه، فعن ابن عباسٍ وغيرِه أنَّ سبب ذلك أنَّ مَلِكاً أراد أن يتزوَّج مَن لا يجوز له تزوُّجُها، فنهاه يحيى عليه السلام، وكان الملكُ قد عوَّد تلك المرأةَ أن

---

(١) ٢/ ٤٣٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦٤/ ٢١١.

يقضيَ لها كلَّ عيدٍ ما تريد منه، فعلَّمتها أمُّها أن تسألَه دمَ يحيى في بعض الأعياد، فسألته، فأبى، فألحَّت عليه، فدعا بطَستٍ فذبحه فيه، فبدرت قطرةٌ على الأرض، فلم تزل تَغلي حتى قُتل عليها سبعون ألفاً.

وقال الرَّبيعُ بن أنس: إنَّ يحيى عليه السلام كان حسناً جميلاً جدًّا، فراودته امرأةُ الملك عن نفسه، فأبى، فقالت لابنتها: سلي أباك رأسَ يحيى، فسألته، فأعطاها إيَّاه.

وقال الجبَّائي: إنَّ الله تعالى ذكر فسادَهم في الأرض مرَّتين ولم يبيِّن ذلك، فلا يُقطَع بشيءٍ مما ذُكر.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾ لَتستكبرُنَّ عن طاعة اللهِ تعالى، أو لَتَغلِبُنَّ الناس بالظُّلم والعدوان، وتُفرِّطن في ذلك إفراطاً مجاوزاً للحدّ، وأصلُ معنى العلوِّ الارتفاعُ، وهو ضدُّ السُّفل، وتجوِّز به عن التكبُّر والاستيلاءِ على وجه الظُّلم.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ ﵄: «عِلِيًّا كبيراً» بكسر العين واللام والياءِ المشدَّدة[1]، قال في «البحر»: والتصحيح في فُعولِ المصدرِ أكثرُ، بخلاف الجمع، فإنَّ الإعلال فيه هو المقيسُ، وشذَّ التصحيحُ نحو: لُهوّ ومُهوّ، خلافاً للفرَّاءِ إذ جعل ذلك قياساً.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: أُولى مرَّتي الإفساد. والوعدُ بمعنى الموعود مرادٌ به العقاب كما في «البحر»[2]، وفي الكلام تقديرٌ: أي: فإذا حان وقتُ حلولِ العقاب الموعود.

وقيل: الوعدُ بمعنى الوعيد، وفيه تقديرٌ أيضاً.

وقيل: بمعنى الوعدِ الذي يراد به الوقتُ، أي: فإذا حان موعدُ عقابِ أُولاهما ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أَرسلنا لمؤاخذتكم بتلك الفَعلة ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ وقال الزمخشريُّ[3]: خلَّينا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعْهم. وفيه دسيسةُ اعتزال.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٩، والدر المصون ٧/ ٣١٣.
(٢) ٦/ ٩.
(٣) في الكشاف ٢/ ٤٣٨.

وقال ابنُ عطيَّة[(١)]: يحتمل أن يكونَ اللهُ تعالى أرسل إلى مَلِك أولئك العبادِ رسولاً يأمره بغزوِ بني إسرائيل، فتكون البعثةُ بأمرٍ منه تعالى.

وقرأ الحسنُ وزيد بن عليٍّ ﵁: «عَبيداً»[(٢)].

﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي قوَّة وبطشٍ في الحروب.

وقال الراغبُ[(٣)]: البؤسُ والبأسُ والبأساء: الشدَّة والمكروه، إلَّا أنَّ البؤس في الفقر والحربِ أكثر، والبأسَ والبأساءَ في النِّكاية، ومن هنا قيل: إنَّ وصف البأسِ بالشديد مبالغةٌ، كأنه قيل: ذوي شديدةٍ، كظِلٍّ ظليل. ولا بأسَ فيه، وقيل: إنه تجريد، وهو صحيحٌ أيضاً.

واختُلف في تعيين هؤلاءِ العباد، فعن ابنِ عباس وقتادةَ: هم جالوت الجزري وجنودُه، وقال ابن جُبَير وابنُ إسحاق: هم سنجاريب[(٤)] مَلِكُ بابل وجنودُه.

وفي «الإعلام» للسُّهيلي: هم بُخْتنَصَّر ـ عاملُ لهراسف أحدِ ملوك الفرسِ الكيانية على بابل والرُّوم ـ وجنودُه، بُعثوا عليهم حين كذَّبوا أرميا وجرحوه وحبسوه[(٥)]، قيل: وهو الحقُّ.

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي: تردَّدوا وَسَطها لطلبكم. قال الرَّاغب[(٦)]: جاسوا الدِّيار: توسَّطوها وتردَّدوا بينها، ويقاربه: حاسوا وداسوا، وقرأ: «حاسوا» بالحاء أبو السمَّال وطلحةُ، وقُرئ أيضاً: «تجوَّسوا» بالجيم على وزن: تكسَّروا[(٧)]. وقال أبو زيد: الجَوس والحَوس: طلب الشيء باستقصاء.

و«خلال» اسمٌ مفرد؛ ولذا قرأ الحسن: «خلل»[(٨)]، ويجوز أن يكونَ خِلال

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٩.
(٢) البحر ٦/ ٩، وينظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٤.
(٣) في المفردات (بأس).
(٤) كذا في الأصل و(م)، والذي في تاريخ اليعقوبي ١/ ٨٢ في ذكر ملوك بابل: سنحاريب. وكذا ورد في أغلب المصادر.
(٥) التعريف والإعلام فيما أبهم من الأسماء والأعلام في القرآن الكريم ص ٩٨-٩٩.
(٦) في المفردات (جوس).
(٧) البحر المحيط ٦/ ١٠، وينظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٥.
(٨) القراءات الشاذة ص٧٥.

جمعَ خَلَل، كجبال جمع جَبَل، ويُشير كلامُ أبي السُّعودِ[١] إلى اختياره، وكلامُ البيضاويِّ[٢] إلى اختيار الأوَّل.

﴿وَكَانَ﴾ أي: وعدُ أُولاهما ﴿وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾ محتَّمَ الفعلِ، فضميرُ «كان» للوعد السَّابق، وقيل: للجَوس المفهومِ من «جاسوا».

والجمهورُ على أنَّ في هذه البعثةِ خرَّب هؤلاء العبادُ بيتَ المقدس، ووقع القتلُ الذَّريع والجلاءُ والأَسر في بني إسرائيل، وحرِّقت التوراة. وعن ابن عباس ومجاهدٍ أنَّه لم يكن ذلك، وإنَّما جاس الغازون خلالَ الدِّيار وانصرفوا بدون قتال.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ أي: الدَّولةَ والغلبة. وأصلُ معنى الكرِّ العطفُ والرجوع، وإطلاقُ الكَرَّة على ما ذُكر مجازٌ شائع، كما يقال: تراجعَ الأَمر. ولامُ «لكم» للتَّعدية، وقيل: للتعليل.

وقولُه تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: الذين فعلوا بكم ما فعلوا، متعلِّق بالكَرَّة؛ لما فيها من معنى الغلبةِ، أو حالٌ منها، وجوِّز تعلُّقه بـ «رَدَدْنا»، وهذا ـ على ما في «البحر»[٣] ـ إخبارٌ منه تعالى في التَّوراة لبني إسرائيل، إلَّا أنَّه جَعل «رددنا» موضع نردُّ؛ لتحقُّق الوقوع، وكان بين البعثِ والردِّ ـ على ما قيل ـ مئةُ سنة، وذلك بعد أن تابوا ورجعوا عمَّا كانوا عليه.

واختُلف في سبب ذلك، فرُوي أنَّ أزدشير بهمن بن أسفنديار بن كشتاسف بن لهراسف لمَّا ورث الملكَ من جدِّه كشتاسف، ألقى اللهُ تعالى في قلبه الشفقةَ على بني إسرائيل، فردَّ أُسراءَهم الذين أتى بهم بُخْتنَصَّر إلى بابل، وسيَّرهم إلى أرض الشام وملَّك عليهم دانيال، فاستولَوا على مَن كان فيها من أَتباع بختنصر، وجعل بعضُهم من آثار هذه الكَرَّةِ قتلَ بختنصر، ولم يَثبُت.

وفي «البحر»[٤] أنَّ مَلِكاً غزا أهلَ بابل، وكان بُخْتنَصَّر قد قتل من بني إسرائيل

(١) في تفسيره ٥/١٥٦.
(٢) في تفسيره ٣/١٩٦.
(٣) ٦/١٠.
(٤) ٦/١٠.

أربعين ألفاً ممَّن يقرأ التوراة، وأبقَى عنده بقيةً في بابل، فلمَّا غزاهم ذلك الملكُ وغلب عليهم، تزوَّج امرأةً من بني إسرائيل، فطلبت منه أن يردَّ بني إسرائيلَ إلى ديارهم، ففعل، وبعد مدَّة قامت فيهم الأنبياءُ ورجعوا إلى أحسنِ ما كانوا.

وقيل: ردُّ الكرَّةِ بأن سلَّط اللهُ تعالى داودَ عليه السلام فقتل جالوتَ. وتُعقِّب بأنَّه يَردُّه قولُه تعالى: (وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ)... إلخ فإنَّ المراد به بيتُ المقدس، وداودُ عليه السلام ابتدأ بنيانَه بعد قتلِ جالوت وإيتائه النبوَّةَ، ولم يتمَّه، وأتمَّه سليمانُ عليه السلام، فلم يكن قبلَ داودَ عليه السلام مسجدٌ حتى يدخلوه أوَّلَ مرَّة. ودُفع بأنَّ حقيقة المسجدِ الأرضُ لا البناءُ، ويُحمل قولُه تعالى: (دَخَلُوهُ) على الاستخدام. وهو كما ترى. والحقُّ أن المسجد كان موجوداً قبل داودَ عليه السلام كما قدَّمنا.

﴿وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ كثيرةٍ بعد ما نُهبت أموالكم ﴿وَبَنِينَ﴾ بعد ما سُبيت أولادُكم ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ ممَّا كنتم من قبل، أو من أعدائكم.

والنفيرُ ـ على ما قال أبو مسلم ـ كالنافر: مَن ينفر مع الرَّجل مِن عشيرته وأهل بيته. وقال الزجَّاج(١): يجوز أن يكونَ جمعَ نَفْر، ككلب وكَلِيب، وعبد وعبيد، وهم المجتمعون للذَّهاب إلى العدوّ.

وقيل: هو مصدر، أي: أكثرَ خروجاً إلى الغزو، كما في قول الشَّاعر(٢):

فأكرم بقحطانَ من والدٍ وحِميرَ أكرِم بقومٍ نفيرا

ويُروى:

[و] بالحميريين أكرِم نفيرا(٣)

وصحَّح السهيليُّ أنَّه اسمُ جمع؛ لغلبته في المفردات وعدم اِطِّراد مفردِه.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ أعمالَكم، سواءٌ كانت لازمةً لأنفُسكم أو متعدِّية للغير، أي:

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٢٨.

(٢) هو تبع بن بكر الحميري، كما في المحرر الوجيز ٣/ ٤٣٩، والنكت والعيون ٣/ ٢٣٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٠. وما بين حاصرتين لضرورة الوزن.

عملتموها على الوجه المستحسَنِ اللائق، أو فعلتم الإحسانَ ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: لنفعها بما يترتَّب على ذلك من الثَّواب ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ أعمالَكم، لازمةً كانت أو متعدِّية، بأنْ عملتموها على غير الوجهِ اللائق، أو فعلتم الإساءةَ ﴿فَلَهَا﴾ أي: فالإساءةُ عليها؛ لما يترتَّب على ذلك من العقاب، فاللامُ بمعنى «على»، كما في قوله:

فخرَّ صريعاً لليدين وللفمِ[1]

وعبَّر بها لمشاكلة ما قبلَها.

وقال الطبريُّ[2]: هي بمعنى «إلى»، على معنى: فإساءتُها راجعةٌ إليها. وقيل: إنَّها للاستحقاق، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

وفي «الكشَّاف»[3] أنَّها للاختصاص، وتعقِّب بأنَّه مخالفٌ لما في الآثار من تعدِّي ضررِ الإساءة إلى غير المذنب، اللهمَّ إلَّا أن يقال: إنَّ ضرر هؤلاءِ القومِ من بني إسرائيلَ لم يتعدَّهم، وفيه أنَّه تكلُّف لا يُحتاج إليه؛ لأنَّ الثواب والعقابَ الأُخرويين لا يتعدَّيان، وهما المرادُ هنا.

وقيل: اللامُ للنفع كالأُولى، لكن على سبيل التهكُّم.

وتعميمُ الإحسان ومقابلِه بحيث يَشملان المتعدِّيَ واللازمَ هو الذي استظهره بعضُ المحقِّقين، وفسَّر الإحسانَ بفعل ما يُستحسن له ولغيره، والإساءةَ بضدِّ ذلك، وقال: إنَّه أنسبُ وأتمُّ؛ ولذا قيل: إنَّ تكرير الإحسانِ في النَّظم الكريمِ دون الإساءةِ إشارةٌ إلى أنَّ جانب الإحسان أغلب، وأنَّه إذا فُعل ينبغي تكرارُه، بخلاف ضدِّه، وجاء عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهه أنَّه قال: ما أحسنتُ إلى أحدٍ ولا أسأت إليه، وتلا الآية.

ووجهُ مناسبتِها لما قبلها ـ على ما قال القطبُ ـ أنَّهم لمَّا عصَوا، سلَّط اللهُ

---

(١) قائله جابر بن حُنَيّ كما في المفضليات ص٢٠٨، ٢١٢. وصدره:

تَنَاوَلَه بالرُّمح ثم اتَّنى له

(٢) في تفسيره ١٤/ ٤٧٨.

(٣) ٢/ ٤٣٩.

تعالى عليهم مَن قَصَدَهم بالنهب والأَسر، ثم لمَّا تابوا وأطاعوا، حَسُنت حالهم، فظهر أنَّ إحسان الأعمال وإساءتَها مختصٌّ بهم. والآية تضمَّنت ذلك، وفيها من التَّرغيب بالإحسان والترهيبِ من الإساءة ما لا يخفى، فتأمَّل.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ﴾ المرَّةِ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ من مرَّتَي إفسادكم ﴿لِيَسُـٔۥا﴾ متعلِّق بفعل محذوفٍ لدلالة ما سبق عليه، وهو جوابُ «إذا»، أي: بعثناهم ليسوؤا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أي: ليجعلَ العبادُ المبعثون آثارَ المساءةِ والكآبة باديةً في وجوهكم، فإنَّ الأَعراض النفسانيةَ تظهر فيها، فيظهر بالفرح النَّضارةُ والإشراق، وبالحزن والخوفِ الكُلوحُ والسواد، فالوجوهُ على حقيقتها.

قيل: ويحتمل أن يعبَّر بالوجه عن الجملة، فإنَّهم ساؤوهم بالقتل والنهبِ والسَّبي، فحصلت الإساءة للذَّوات كلِّها، ويؤيِّده قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الآية: ٧] ويحتمل أن يرادَ بالوجوه ساداتُهم وكبراؤهم. اهـ. وهو كما ترى. واختير هذا على ليسوؤكم، مع أنَّه أخصرُ وأظهرُ؛ إشارةً إلى أنَّه جُمع عليه ألمُ النفسِ والبدنِ المدلول عليه بقوله تعالى: (وَلِيُتَبِّرُوا۟) إلخ.

وقيل: (فَإِذَا جَآءَ) هنا مع كونِه من تفصيل المجملِ في قوله سبحانه: (لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ) فالظاهر: فإذا جاء وإذا جاء، للدَّلالة على أنَّ مجيءَ وعدِ عقابِ المرَّة الآخرةِ لم يتراخَ عن كثرتهم واجتماعِهم، دلالةً على شدَّة شكيمتِهم في كفران النِّعم، وأنَّهم كلَّما ازدادوا عُدَّة وعِدة، زادوا عدواناً وعزَّة، إلى أن تكاملت أسبابُ الثروةِ والكثرة، فاجأهم الله عزَّ وجلَّ على الغِرَّة، نعوذ بالله سبحانه من مباغتة عذابِه.

وقرأ أبو بكرٍ وابنُ عامر وحمزةُ: «ليسوءَ»(١) على التوحيد، والضميرُ لله تعالى، أو للوعد، أو للبعث المدلولِ عليه بالجزاء المحذوف، والإسنادُ مجازيٌّ على الأَخيرَين، وحقيقيٌّ على الأول، ويؤيِّده قراءةُ عليٍّ كرم الله تعالى وجهَه، وزيدِ بن عليٍّ، والكِسائي: «لِنسوءَ»(٢) بنون العظمة، فإنَّ الضميرَ لله تعالى، لا يحتمل غيرَ ذلك.

---

(١) التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/٣٠٦.

(٢) البحر المحيط ٦/١١، وقراءة الكسائي في التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/٣٠٦.

وقرأ أُبَيّ: «لِنَسوأنْ» بلام الأمرِ ونونِ العظمة أوَّله، ونونِ التوكيدِ الخفيفة آخرَه، ودخلت لامُ الأمر على فعل المتكلِّم كما في قوله تعالى: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢] وجوابُ «إذا» على هذه القراءةِ هو الجملةُ الإنشائيةُ على تقدير الفاءِ؛ لأنَّها لا تقع جواباً بدونها.

وعن عليٍّ كرَّم اللهُ وجهَه أيضاً: «لَنسوأنَّ» و«لَيسوأنَّ» بالنون والياءِ أولاً ونونِ التوكيدِ الشديدة آخراً[1]، واللامُ في ذلك لامُ القَسَم، والجملة جوابُ القسم سادَّة مسدَّ جواب «إذا».

واللامُ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ لامُ كي، والجارُّ والمجرور معطوفٌ على الجارِّ والمجرور قبله، وهو متعلِّق ببعثنا المحذوفِ أيضاً. وجوِّز أن يتعلَّق بمحذوفٍ غيره، فيكون العطفُ من عطف جملةٍ على أخرى. وعلى القراءة بلام الأمر أو لامِ القَسَم فيما تقدَّم يجوز أن تكونَ اللامُ لامَ الأمر، وأن تكونَ لامَ كي.

والمراد بـ «المسجد» بيتُ المقدس، وهو مفعولُ «يدخلوا». وفي «الصِّحاح»[2] أنَّ الصحيحَ في نحو: دخلتُ البيتَ، أنَّك تريد: دخلتُ إلى البيت، فحُذف حرفُ الجرِّ، فانتصب البيتُ انتصابَ المفعولِ به، وتحقيقُه في محلِّه.

﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ أي: دخولاً كائناً كدخولهم إيَّاه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فهو في موضع النعتِ لمصدرٍ محذوف، وجوِّز أن يكونَ حالاً، أي: كائنين كما دخلوه، و«أول» منصوبٌ على الظرفيةِ الزمانية.

والمراد من التشبيه ـ على ما في «البحر»[3] ـ أنَّهم يدخلونه بالسَّيف والقهرِ والغَلَبة والإذلال، وفيه أيضاً أنَّ هذا يُبعد قولَ مَن ذهب إلى أنَّ أُولى المرَّتين لم يكن فيها قتالٌ ولا قتلٌ ولا نهب.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ أي: يهلكوا، وقال قُطرب: يَهدموا، وأنشد قولَ الشاعر[4]:

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١١، وفيه قراءة أُبي، وانظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٥.
(٢) مادة (دخل).
(٣) ٦/ ١١.
(٤) هو لبيد، والبيت في ديوانه ص١٧٠.

وما النـاسُ إلَّا عـامـلان فـعـامـلٌ يـتـبِّـر مـا يـبـنـي وآخَـرُ رافـعُ

وقال بعضُهم: الهدم إهلاكٌ أيضاً، وأَخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن سعيد بن جُبَير أنَّ التتبيرَ كلمةٌ نَبَطية.

﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: الذي غلبوه واستولَوا عليه، فـ«ما» اسمٌ موصول، والعائدُ محذوف، وهو إمَّا مفعول، أو مجرورٌ، على ما قيل.

وجوِّز أن تكونَ «ما» مصدريةً ظرفية، أي: ليتبِّروا مدةَ دوامِهم غالبين قاهرين ﴿تَتْبِيرًا ۝٧﴾ فظيعاً لا يوصَف.

واختُلف في تعيين هؤلاءِ العبادِ المبعوثين بعد أنْ ذكروا قتلَ يحيى عليه السلام في الإفساد الأخير، فقال غيرُ واحد: إنَّهم بُخْتنَصَّر وجنودُه. وتعقَّبه السُّهيلي[1] بأنه لا يصحُّ؛ لأنَّ قتل يحيى بعد رفع عيسى عليهما السلام، وبُخْتنَصَّر كان قبل عيسى عليه السلام بزمنٍ طويل.

وقيل: الإسكندرُ وجنوده. وتعقَّبه أيضاً بأنَّ بين الإسكندرِ وعيسى عليه السلام نحواً من ثلاث مئةِ سنة، ثم قال: لكنَّه إذا قيل: إنَّ إفسادهم في المرَّة الأخيرةِ بقتل شَعيا، جاز أن يكونَ المبعوثُ عليهم بختنصر ومَن معه؛ لأنَّه كان حينئذٍ حيًّا.

ورُوي عن عبد الله بن الزُّبير ﵄ أنَّ الذي غزاهم ملك خردوش[2]، وتولَّى قتلَهم على دم يحيى عليه السلام قائدٌ له، فسَكَنَ.

وفي بعض الآثارِ أنَّ صاحب الجيشِ دخل مذبحَ قرابينهم فوجد فيه دماً يغلي، فسألهم عنه، فقالوا: دمُ قربانٍ لم يُقبَل منَّا، فقال: ما صَدَقتموني، فقَتل عليه ألوفاً منهم، فلم يهدأ الدمُ، ثم قال: إن لم تَصْدقوني ما تركتُ منكم أحداً، فقالوا: إنَّه دمُ يحيى عليه السلام، فقال: بمثل هذا ينتقم ربُّكم منكم، ثم قال: يا يحيى، قد علم ربِّي وربُّك ما أصاب قومَك من أجلك، فاهدأ بإذن اللهِ تعالى قبل ألّا أُبقيَ أحداً منهم، فهدأ.

---

(١) في التعريف والإعلام ص٩٨.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي الإعلام بأصول الأعلام ص٨٨: خردوس، ويقال: حردوس وجودرس وكردوس.

واختار في «الكشف» ـ وقال: هو الحقُّ ـ أنَّ المبعوث عليهم في المرَّة الثانيةِ بيردوس من ملوك الطوائف، وكأنَّه هو خردوش الذي مرَّ آنفاً، فقد ذكر أنَّه ملك بابل من ملوك الطَّوائف. وقيل: اسمُه جوزور.

وهؤلاء الملوكُ ظهروا بعد قتل الإسكندر دارا واستيلائه على ملك الفُرس، وكان ذلك بصنع الإسكندرِ متَّبعاً فيه رأيَ معلِّمه أرسطو، وعدتُهم تزيد على سبعين ملكاً، ومدةُ ملكهِم ـ على ما في بعض التواريخ ـ خمسُ مئة واثنتا عشرةَ سنة، وحصل اجتماعُ الفرسِ بعد هذه المدةِ على أزدشير بن بابك طوعاً وكرهاً، وكان أحدَ ملوكِ الطوائف على إصطخر.

وعلى هذا يكون المَلِكُ المبعوث لفساد بني إسرائيل بقتل يحيى عليه السَّلام مِن أواخر ملوكِ الطوائف كما لا يخفَى، ويكون بين هذا البعثِ والبعثِ الأوَّل ـ على القول بأنَّ المبعوث بُخْتنَصَّر وأتباعُه ـ مدةٌ متطاولة، ففي بعض التواريخِ أنَّ قتل الإسكندرِ دارا بعد بختنصر بأربع مئةٍ وخمس وثلاثين سنة، وبعد مُضيِّ نحوٍ من ثلاث مئة سنة من غَلَبة الإسكندرِ وُلِدَ المسيحُ عليه الصلاة والسلام، ولا شكَّ أنَّ قتل يحيى عليه الصَّلاة والسَّلام بعد الولادةِ بزمان، والبعثُ بعد القتل كذلك، فيكون بين البعثَين ما يزيد على سبع مئةٍ وخمسٍ وثلاثين سنة.

والذي ذهب إليه اليهودُ أنَّ المبعوثَ أولاً بختنصر، وكان في زمن أرميا عليه السلام، وقد أَنذرهم مجيئَه صريحاً بعد أنْ نهاهم عن الفساد وعبادةِ الأصنام، كما نطق به كتابُه، فحبسوه في بئرٍ وجرحوه، وكان تخريبُه لبيت المقدسِ في السَّنة التاسعةَ عشرةَ من حكمه، وبين ذلك وهبوطِ آدمَ ثلاثةُ آلافٍ وثلاث مئة وثمانٍ وثلاثين سنة، وبقيَ خراباً سبعين سنة، ثم إنَّ أسبيانوس قيصرَ الروم وجَّه وزيرَه طوطوز إلى خرابه، فخربه سنةَ ثلاثةِ آلافٍ وثمان مئةٍ وثمانيةٍ وعشرين، فيكون بين البعثين عندهم أربعُ مئة وتسعون سنة. وتفصيلُ الكلامِ في ذلك في كتبهم، واللهُ تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

ونِعمَ ما قيل: إنَّ معرفةَ الأقوامِ المبعوثين بأعيانهم وتاريخِ البعث ونحوِه ممَّا لا يتعلَّق به كبيرُ غرض؛ إذ المقصودُ أنَّه لما كثرت معاصيهم، سلَّط اللهُ تعالى عليهم مَن ينتقم منهم مرّة بعد أخرى.

وظاهرُ الآية يقتضي اتِّحادَ المبعوثين أوّلاً وثانياً، ومَن لا يقول بذلك، يجعل رجوعَ الضمائر للعباد على حدِّ رجوعِ الضمير للدِّرهم في قولك: عندي درهمٌ ونصفُه[1]، فافهم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد البعثِ الثاني إنْ تبتم وانزجرتم عن المعاصي. ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ للإفساد بعد الذي تقدَّم منكم ﴿عُدْنَا﴾ للعقوبة، فعاقبناكم في الدُّنيا بمثل ما عاقبناكم به في المرَّتين الأُوليين.

وهذا مِن المقضيِّ لهم في الكتاب أيضاً، وكذا الجملةُ الآتية، وقد عادوا بتكذيب النبيِّ ﷺ وقصدِهم قتلَه، فعاد اللهُ تعالى بتسليطه عليه الصَّلاة والسَّلام عليهم، فقتل قريظةَ وأَجلَى بني النَّضير، وضرب الجزيةَ على الباقين. وقيل: عادوا فعاد اللهُ تعالى بأن سلَّط عليهم الأكاسرةَ، ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الإتاوةِ ونحوِ ذلك. والأوَّلُ مرويٌّ عن الحسن وقتادة. والتعبيرُ بـ «إنْ»؛ للإشارة إلى أنَّه لا ينبغي أنْ يعودوا.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ قال ابن عباسٍ وغيرُه: أي: سجناً، وأنشد في «البحر»[2] قولَ لَبيد:

ومَقامةٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنهمْ جِنٌّ على باب الحَصيرِ قيامُ[3]

فإنْ كان اسماً للمكان المعروف، فهو جامدٌ لا يَلزم تأنيثُه وتذكيرُه، وإنْ كان بمعنى حاصر، أي: محيطٌ بهم، وفَعيل بمعنى فاعل يَلزم مطابقتُه، فعدمُ المطابقةِ هنا إمَّا لأنَّه على النَّسب، كـ: لابن وتامر، أي: ذاتُ حَصْر، وعلى ذلك خُرِّج قولُه تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨] أي: ذاتُ انفطار، أو لحمله على فَعيل بمعنى مفعول.

وقيل: التذكيرُ على تأويل جهنَّم بمذكَّر. وقيل: لأنَّ تأنيثها ليس بحقيقيٍّ. نقل ذلك أبو البقاءِ[4]، وهو كما ترى.

---

(١) أي: ونصف درهم آخر.
(٢) ٦/ ١١.
(٣) ديوان لبيد ص٢٩٠. والمقامة: الجماعة يجتمعون في المجلس. وغلب الرقاب: غلاظها.
(٤) في الإملاء ٣/ ٤٧٢.

وأَخرج ابنُ المنذرِ وغيرُه عن الحسن أنه فسَّر ذلك بالفِراش والمِهاد. قال الرَّاغب(١): كأنَّه جعل الحصيرَ المرمول، وأَطلق عليه ذلك لحَصْر بعضِ طاقاته على بعض، فحصيرٌ على هذا بمعنى محصور، وفي الكلام التشبيهُ البليغ.

وجاء الحصيرُ بمعنى السُّلطان، وأَنشد الراغبُ(١) في ذلك البيتَ السابقَ، ثم قال: وتسميتُه بذلك، إمّا لكونه محصوراً، نحو محجَّب، وإمَّا لكونه حاصراً، أي: مانعاً لمن أراد أن يمنعَه من الوصول إليه. اهـ.

وحَمْلُ ما في الآية على ذلك ممَّا لم أرَ مَن تعرَّض له، والحَملُ عليه في غاية البُعد، فلا ينبغي أن يحملَ عليه وإنْ تضمَّن معنًى لطيفاً يُدرَك بالتأمُّل.

وكان الظاهرُ أن يقالَ: لكم، بدل: «للكافرين»، إلَّا أنه عُدل عنه تسجيلاً على كفرهم بالعَود، وذمًّا لهم بذلك، وإشعاراً بعلَّة الحكم.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي آتيناكَه، و«هذا» متعلِّق بصدر السورة كما مرَّت الإشارةُ إليه، وفي الإشارة بـ «هذا» تعظيمٌ لما جاء به النبيُّ المجتبى ﷺ.

﴿يَهْدِى﴾ أي: الناسَ كافَّة، لا فِرقةً مخصوصةً منهم كدأب الكتابِ الذي آتيناه موسى عليه السلام ﴿لِلَّتِى﴾ أي: للطريقة التي ﴿هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: أقومُ الطرقِ وأسدُّها، أعني ملَّةَ الإسلام والتوحيد، فـ «للتي» صفةٌ لموصوف حُذف اختصاراً، وقدَّره بعضُهم الحالةَ أو الملَّة، وأيُّما قدَّرت لم تَجِدْ مع الإثبات ذوقَ البلاغةِ الذي تجده مع الحذف؛ لما في الإبهام من الدَّلالة على أنَّه جرى الوادي وطمَّ على القُرى.

و«أقوم» أفعلُ تفضيلٍ على ما أَشار إليه غيرُ واحد.

وقال أبو حيَّان(٢): الذي يظهر من حيث المعنى أنَّه لا يُراد به التفضيلُ؛ إذ لا مشاركةَ بين الطريقةِ التي يَهدي لها القرآنُ وغيرِها من الطُّرق في مبدأ الاشتقاقِ لتفضَّلَ عليه، فالمعنى: للتي هي قيِّمة، أي: مستقيمة، كما قال الله تعالى: ﴿فِيهَا

(١) في المفردات (حصر).
(٢) في البحر ٦/ ١٣.

كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٣،٥]. اهـ. وإلى ذلك ذهب الإمامُ الرازي(١).

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما في تضاعيفه من الأحكام والشرائع.

وقرأ عبدُ الله، وطلحةُ، وابن وثَّاب، والأخوان: «وَيَبْشُرُ» بالتخفيف(٢)، مضارعُ بَشَرَ المخفَّف، وجاء: بَشَرْته وبشَّرته وأبشرته.

﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾ الأعمالَ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي شُرحت فيه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم بمقابلة أعمالِهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ بحسب الذَّات وبحسب التضعيفِ عشراً فصاعداً، وفسَّر ابنُ جُرَيج الأجرَ الكبيرَ وكذا الرزقَ الكريمَ في كلِّ القرآن بالجنَّة.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ وأحكامِها المشروحةِ فيه، من البعث والحسابِ والجزاءِ من الثواب والعقابِ الروحانيِّين والجسمانيِّين.

وتخصيصُ الآخرةِ بالذِّكر من بين سائر ما لم يؤمن به الكفرةُ؛ لكونها معظمَ ما أُمروا بالإيمان به، ولمراعاة التناسبِ بين أعمالِهم وجزائها الذي أنبأ عنه قولُه تعالى: ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ وهو عذابُ جهنَّم، أي: أعددنا وهيَّأنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجودَه من الآخرة عذاباً مؤلماً، وهو أبلغُ في الزجر؛ لِمَا أنَّ إتيان العذابِ من حيث لا يُحتَسب أفظعُ وأفجع.

ولعل أهلَ الكتابِ داخلون في هذا الحكم؛ لأنَّهم لا يقولون بالجزاء الجسمانيِّ، ويعتقدون في الآخرة أشياءَ لا أصلَ لها، فلم يؤمنوا بالآخرة وأحكامِها المشروحةِ في هذا القرآنِ حقيقةَ الإيمانِ، فافهم.

والعطفُ على: «أنَّ لهم أجراً كبيراً»، فيكون إعدادُ العذابِ الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة مبشَّراً به كثبوت الأجرِ الكبيرِ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، ومصيبةُ العدوِّ سرورٌ يبشَّر به، فكأنه قيل: يبشِّر المؤمنين بثوابهم وعقابِ أعدائهم.

---

(١) في تفسيره ٢٠/ ١٦١.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٣، وقراءة الأخوين حمزة والكسائي في التيسير ص٨٧، والنشر ٢/ ٢٣٩.

ويجوز أن تكونَ البِشارةُ مجازاً مرسلاً، بمعنى مطلَقِ الإخبار الشاملِ للإخبار بما فيه سرورٌ، وللإخبار بما ليس كذلك، وليس فيه الجمعُ بين معنيَي المشترك أو الحقيقةِ والمجاز حتى يقالَ: إنَّه من عموم المجاز، وإنْ كان راجعاً لهذا، أو العطف على «يبشر» أو «يهدي» بإضمار: يُخبر، فيكون من عطف الجملةِ على الجملة. ولا يخفَى ما في الآية من ترجيح الوعدِ على الوعيد.

ونبَّه سبحانه ـ على ما في «البحر»[1] ـ بوصف المؤمنين بالَّذين يعملون الصالحاتِ على الحالة الكاملةِ لهم؛ ليتحلَّى المؤمنُ بذلك، وأنت تعلم أنَّه إن فُسِّر الأجرُ الكبير بالجنة، فهو ثابتٌ للمؤمن العاملِ وللمؤمن المفرِّط؛ إذ أصلُ الإيمان متكفِّل بدخول الجنةِ فضلاً من الله تعالى ورحمةً. نَعَم ما أُعدَّ للعامل في الجنة أعظمُ مما أُعدَّ للمفرِّط، وإن فسِّر بما أعدَّه الله تعالى في الآخرة من الجنة والدرجاتِ العُلى وأنواعِ الكراماتِ فيها التي لا يتكفَّل بها مجرَّد الإيمان، فظاهرٌ أنَّ ذلك غيرُ ثابتٍ للمؤمن المفرِّط، فلا بدَّ من التوصيف، ولا يَلزم منه عدمُ دخولِ المفرِّط الجنةَ. نَعَم يلزم منه ألَّا يَثبتَ له الأجرُ الكبيرُ بالمعنى السابق، والآياتُ التي يُفهَم منها دخولُه الجنةَ كثيرة، ولعل هذه الآيةَ يُفهَم منها ذلك، واقتضى المقامُ عدمَ التصريحِ بحكمه.

وفي «الكشَّاف»[2] أنَّه تعالى ذكر المؤمنين الأبرارَ والكفارَ ولم يذكر الفَسَقة؛ لأنَّ الناس حينئذٍ إمَّا مؤمنٌ تقيّ، وإمَّا مشرك، وأصحابُ المنزلةِ بين المنزلتين إنَّما حدثوا بعد ذلك.

وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّه مكابرة، فقد وقع في زمان الرسولِ ﷺ من بعض المؤمنين هَفَواتٌ وسقطات، بعضُها مذكورٌ في القرآن، وبعضُها مذكورٌ في الأحاديث الصحيحة. اهـ.

والمقرَّر في الأصول أنَّ الأكثرَ على عدالة الصحابة، ومَن طرأ له منهم قادحٌ، كسرقة وزنًى، عُمِل بمقتضاه، ثمَّ ما ذكره من المنزلة بين المنزلتين، الظاهرُ أنَّه أراد

(١) ٦/ ١٣.
(٢) ٢/ ٤٣٩-٤٤٠.

بما ذهب إليه إخوانُه المعتزلة من أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ ليس بمؤمن ولا كافرٍ، وإذا مات من غير توبةٍ خلِّد في النار، وقد رُدَّ ذلك في علم الكلام، فتدبَّر.

وقوله تعالى ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ قال شيخُ الإسلام[1]: بيانٌ لحال المهديِّ إثرَ بيان حالِ الهادي، وإظهارٌ لما بينهما من التبايُن.

والمرادُ بـ «الإنسان» الجنسُ، أُسند إليه حالُ بعضِ أفراده، وهو الكافرُ، وإليه يُشير كلامُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما. أو حُكي عنه حالُه في بعض أحيانه، كما يقتضيه ما رُوي عن الحسن ومجاهدٍ.

فالمعنى على الأول أنَّ القرآن يدعو الإنسانَ إلى الخير الذي لا خيرَ فوقه من الأجر الكبير، ويُحذِّره من الشرِّ الذي لا شرَّ وراءه من العذاب الأليم، وهو ـ أي: بعضُ أفراده، أعني الكافرَ ـ يدعو لنفسه بما هو الشرُّ من العذاب المذكور، إمَّا بلسانه حقيقةً، كدأب مَن قال منهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ومَن قال: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] إلى غير ذلك مما حُكي عنهم. وإمَّا بأعمالهم السيئةِ المفضيةِ إليه، الموجبةِ له مجازاً، كما هو ديدنُ كلِّهم. وبعضُهم جعل الدعاءَ باللسان مجازاً أيضاً عن الاستعجال استهزاءً.

﴿دُعَآءَهُۥ﴾ أي: دعاءً كدعائه، فحُذف الموصوفُ وحرفُ التشبيه، وانتصب المجرورُ على المصدريَّة، وهو مرادُ مَن قال: مِثلَ دعائه ﴿بِٱلْخَيْرِ﴾ المذكورِ فَرْضاً لا تحقيقاً؛ فإنَّه بمعزلٍ عن الدعاء به، وفيه رمزٌ إلى أنَّه اللائقُ بحاله.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: مَن أُسند إليه الدعاءُ المذكورُ من أفراده ﴿عَجُولًا ۝١١﴾ يسارع إلى طلب كلِّ ما يخطرُ بباله، متعامياً عن ضرره، أو مبالغاً في العجلة، يستعجل الشرَّ والعذابَ، وهو آتيه لا محالةَ، ففيه نوعُ تهكُّم به. وعلى تقدير حملِ الدعاءِ على أعمالهم تُجعل العَجوليةُ على اللَّجِّ والتمادي في استيجاب العذابِ بتلك الأعمال.

والمعنى على الثاني أنَّ القرآنَ يدعو الإنسانَ إلى ما هو خيرٌ، وهو في بعض

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/١٥٨-١٥٩.

أحيانِه ـ كما عند الغضب ـ يَدَعهُ ويدعو اللهَ تعالى لنفسه وأهلِه ومالِه بما هو شرٌّ، وكان الإنسانُ بحسب جِبلَّته عجولاً ضَجِراً، لا يتأنَّى إلى أن يزولَ عنه ما يعتريه.

أخرج الواقديُّ في «المغازي»[(١)] عن عائشةَ ﵂ أن النبيَّ ﷺ دخل عليها بأسيرٍ وقال لها: «احتفظي به» قالت: فلهوتُ مع امرأة، فخرج ولم أشعر، فدخل النبيُّ ﷺ فسأل عنه، فقلت: واللهِ لا أدري، وغفلتُ عنه فخرج، فقال: «قطع اللهُ يدَكِ» ثم خرج عليه الصَّلاة والسَّلام فصاح به، فخرجوا في طلبه حتى وجدوه، ثم دخل عليَّ فرآني وأنا أُقلِّب يدي، فقال: «ما لكِ»؟ قلت: أنتظر دعوتَك، فرفع يديه وقال: «اللهمَّ إنَّما أنا بشرٌ، آسَفُ وأغضب كما يغضب البشر، فأيُّما مؤمنٍ أو مؤمنةٍ دعوتُ عليه بدعوة فاجعلها له زكاةً وطُهراً».

أو يدعو بما هو شرٌّ ويحسبه خيراً، وكان الإنسان عجولاً غيرَ مستبصر، لا يتدبَّر في أموره حقَّ التدبُّر ليتحقَّقَ ما هو خيرٌ حقيقٌ بالدعاء به، وهو شرٌّ جديرٌ بالاستعاذة منه. اهـ مع بعضِ زيادةٍ وتغيير.

واختار إرادةَ الكافرِ من الإنسان الأوَّلِ بعضُ المحقِّقين، وذَكَرَ في وجه ربطِ الآيات أنَّه تعالى لمَّا شرح ما خصَّ به نبيَّه ﷺ من الإسراء وإيتاءِ موسى عليه السلام التوراةَ، وما فعله بالعصاة المتمرِّدين من تسليط البلاءِ عليهم، كان ذلك تنبيهاً على أنَّ طاعةَ اللهِ تعالى توجِب كلَّ خيرٍ وكرامة، ومعصيتَه سبحانه توجب كلَّ بليَّةٍ وغرامة، لا جَرَمَ قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ إلخ، ثم عطف عليه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ إلخ بجامع دليلِ العقلِ والسمع، أو نعمتَي الدِّين والدنيا، وأما اتِّصال قولِه تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلخ، فهو أنَّه سبحانه لمَّا وصف القرآنَ حتى بلغ به الدرجةَ القصوى في الهداية، أتى بذِكر مَن أفرط في كفران هذه النعمةِ العظمى قائلاً: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ إلخ.

ومثلُ هذا ما قيل: إنَّه تعالى بعد أن وصف القرآنَ بما وصف، ذمَّ قريشاً بعدمِ سؤالِهم الهدايةَ به، وطلبِهم إنزالَ الحجارةِ عليهم، أو إيتاءَ العذابِ الأليم إنْ كان حقًّا.

وفي «الكشف» أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلخ بيانُ أنَّ القرآنَ يهديهم للتي هي أقوم، ويأبَون إلَّا التي هي ألوم، وهو وجهٌ للربط مطلقاً.

---

(١) وأحمد في المسند (٢٤٢٥٩).

وكلُّ ما ذكروه في ذلك متقارِب. ويَرِد على حَمْل الدُّعاءِ على الدعاء بالأعمال، والعَجوليةِ على اللَّجِّ والتمادي في استيجاب العذابِ بتلك الأعمالِ خلافُ المتبادرِ كما لا يخفَى.

وفسَّر بعضُهم الإنسانَ الثاني بآدمَ عليه السلام؛ لِما أخرج ابنُ جَرير[١] وابنُ المنذر وغيرُهما عن سلمانَ الفارسيِّ قال: أوَّلُ ما خلق اللهُ تعالى من آدمَ عليه السلام رأسُه، فجعل ينظر وهو يُخلَق، وبقيت رجلاه، فلما كان بعدَ العصر قال: يا ربِّ أعجِل قبلَ الليل، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾. ورُوي نحوُه عن مجاهدٍ، وروى القرطبيُّ[٢] ـ والعُهدةُ عليه ـ أنه لمَّا وصلت الرُّوحُ لعينيه، نظر إلى ثمار الجنَّة، فلمَّا دخلت جوفَه اشتهاها، فوثب عَجِلاً إليها فسقط.

ووجهُ ارتباطِ «وكان الإنسان...» إلخ على هذا القولِ إفادتُه أنَّ عجلته بالدُّعاء لضجره، أو لعدم تأمُّله مِن شأنه، وأنَّه موروثٌ له من أصله، وشِنشنةٌ يعرفها من أخزم. فهو اعتراضٌ تذييليٌّ، وكلام تعليليٌّ، والأَوْلى إرادةُ الجنسِ وإن كان ألفاظُ الآيةِ لا تنبو عن إرادة آدمَ عليه السلام كما زعم أبو حيَّان[٣].

ثم إنَّ الباءَ في الموضعين على ظاهرها صِلةُ الدُّعاء. وقيل: إنَّها بمعنى «في»، والمعنى: يدعو في حالة الشرِّ والضُّرِّ كما كان يدعو في حالة الخيرِ، فالمدعوُّ به ليس الشرَّ والخير. وقيل: إنَّها للسببية، أي: يدعو بسبب ذلك. وكلا القولَين مخالفان[٤] للظاهر لا يعوَّل عليهما.

واستُدلَّ بالآية ـ على بعضِ الاحتمالات ـ على المنع من دعاءِ الرَّجل على نفسه، أو على ماله، أو على أهله، وقد جاء النهيُ عن ذلك صريحاً في بعض الأخبار، فقد أخرج أبو داود[٥] والبزَّارُ عن جابرٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٥١٤.

(٢) أورده في تفسيره ١٣/ ٣٦ عن ابن مسعود ﷺ. وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٧٧٣) مطولاً.

(٣) في البحر ٦/ ١٣-١٤.

(٤) في الأصل و(م): مخالفين.

(٥) الدر المنثور ٤/ ١٦٦، وسنن أبي داود (١٥٣٢)، ولم نقف عليه عند البزار، وهو عند مسلم (٣٠٠٩).

«لا تَدْعوا على أنفسكم، لا تَدْعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم؛ لئلَّا توافقوا من الله تعالى ساعةً فيها إجابةٌ فيستجيب لكم» وبه يُرَدُّ على ما قيل من أنَّ الدعاءَ بذلك لا يُستجاب فضلاً من الله تعالى وكرماً.

واستُشكل بأنَّ النبيَّ ﷺ دعا على أهله كما سمعتَ في حديث الواقديِّ. وأُجيب عن ذلك بأنَّه كان للزَّجر وإنْ كان وقتَ الغضب، وقد اشترط ﷺ على ربِّه سبحانه في مِثل ذلك أن يكونَ رحمة، فقد صحَّ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «إنِّي اشترطت على ربِّي فقلت: إنَّما أنا بَشَر، أرضى كما يرضى البشر، وأَغضب كما يغضب البَشَر، فأيُّما أحدٍ دعوتُ عليه من أُمَّتي بدعوةٍ ليس لها بأهل، أن تجعلَها له طَهوراً وزكاةً وقُربة»[1].

وذكر النوويُّ[2] في جواب ما يقال: إنَّ ظاهر الحديثِ أنَّ الدعاءَ ونحوَه كان بِسَبب الغضب، ما قال المازريُّ[3] من أنَّه يحتمل أنَّه ﷺ أراد أنَّ دعاءَه وسبَّه ونحوَهما كان مما يخيَّر فيه بين أمرين: أحدهما: هذا الذي فعله، والثاني: زَجْرُه بأمر آخَر، فحمله الغضبُ لله تعالى على أحد الأَمرين المخيَّرِ فيهما، وليس ذلك خارجاً عن حكم الشَّرع، والمرادُ من قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس لها بأهل» ليس لها بأهلٍ عند اللهِ تعالى وفي باطن الأمرِ، ولكنَّه في الظَّاهر مستوجِبٌ لذلك، وقد يُستدلُّ على ذلك بأَمارات شرعية، وهو مأمورٌ ﷺ بالحكم بالظَّاهر، واللهُ تعالى يتولَّى السرائر.

وقيل: إنَّ ما وقع منه عليه الصلاة والسلام من الدُّعاء ونحوِه ليس بمقصود، بل هو ممَّا جرت به عادةُ العربِ في وصل كلامِها بلا نيَّة، كـ : «تَرِبَت يمينُك»[4]، و«عَقْرَى حَلْقَى»[5]، لكن خاف ﷺ أن يصادِفَ شيءٌ من ذلك إجابةً، فسأل ربَّه

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٦٠٠) و(٢٦٠١) و(٢٦٠٢) و(٢٦٠٣) من حديث عائشة وأبي هريرة وجابر وأنس رضي الله عنهم.
(٢) في شرح صحيح مسلم ١٦/ ١٥٣.
(٣) في المعلم ٣/ ١٦٨.
(٤) أخرجه البخاري (٦١٥٦)، ومسلم (١٤٤٥) (٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٥) أخرجه البخاري (٦١٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها، والخبر المذكور أعلاه قاله ﷺ لصفية رضي الله عنها حين أراد أن ينفر في الحج، فرأى صفية على باب خبائها كئيبة حزينة لأنها حاضت، فقال لها ذلك، ومعنى عقرى حلقى: أي عقرها الله وأصابها بعقر في جسدها. . . النهاية (عقر).

سبحانه وتعالى ورَغِبَ إليه في أَن يجعلَ ذلك زكاةً وقُربة، نَعَم في ذِكر حديث الواقديِّ ونحوِه، كالحديث الذي ذكره البيضاويُّ[1] في المقام الذي ذكر فيه، لا يخلو عن شيء، فتأمَّل.

ثم إنَّ القياس إثباتُ الواوِ في «يدع الإنسان» إذ لا جازمَ تُحذَف له، لكن نُقل القرآنُ العظيم كما سُمع، ولم يتصرَّف فيه الناقلُ بمقدار فهمِه وقوَّةِ عقله.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ هذا ـ على ما قيلَ ـ شروعٌ في بيان بعضِ ما ذُكر من الهداية بالإرشاد إلى مسلك الاستدلالِ بالآيات والدَّلائلِ الآفاقية، التي كلُّ واحدةٍ منها برهانٌ نيِّر لا ريبَ فيه، ومنهاجٌ بيِّن لا يَضلُّ مَن ينتحيه؛ فإنَّ الجعل المذكورَ وما عُطف عليه وإنْ كانا من الهدايات التكوينية، لكنَّ الإخبارَ بذلك من الهدايات القرآنيةِ المنبِّهة على تلك الهدايات.

وذكر الإمامُ[2] في وجه الربطِ وجوهاً:

الأوَّل: أنَّه تعالى لمَّا بيَّن في الآية المتقدِّمةِ ما أَوصل إلى الخَلق من نِعَم الدِّين وهو القرآنُ، أَتبعه ببيان ما أَوصل إليهِم من نِعَم الدُّنيا، فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ إلخ، وكما أنَّ القرآن ممتزجٌ من المحكَم والمتشابه، كذلك الزمانُ مشتملٌ على الليل والنَّهار، وكما أنَّ المقصودَ من التكليف لا يتمُّ إلَّا بذكر المحكمِ والمتشابه، فكذلك الزمانُ لا يَكمل الانتفاعُ به إلَّا بالنَّهار والليل.

الثاني: أنَّه تعالى وصف الإنسانَ بكونه عجولاً، أي: منتقلاً من صفةٍ إلى صفة، ومن حالةٍ إلى حالة، بيَّن أنَّ كلَّ أحوالِ العالَم كذلك، وهو الانتقالُ من النُّور إلى الظلمة، وبالضِّدّ، وانتقالُ نورِ القمر من الزيادة إلى النُّقصان، وبالضِّد.

الثالث: نحوُ ما نقلناه أوَّلاً، ولعله الأَوْلى.

وتقديمُ الليل لمراعاة الترتيبِ الوجوديّ؛ إذ منه ينسلخُ النهار، وفيه تظهر غُررُ الشهورِ العربية، ولترتيب غايةِ النَّهار عليها بلا واسطة، وممَّا يزيد تقديمَ الليل حُسناً افتتاحُ السورة بقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

---

(١) في تفسيره ٣/ ١٩٧.

(٢) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٦٣-١٦٤.

والجعلُ - على ما نُقل عن السَّمين[١] - بمعنى التصيير، مُتَعَدٍّ لاثنين، أو بمعنى الخلقِ متعدٍّ لواحد، و«آيتين» حالٌ مقدَّرة.

واستشكل الأوَّلَ الكرمانيُّ بأنَّه يستدعي أن يكونَ الليلُ والنهار موجودَين على حالةٍ ثم انتقلا منها إلى أخرى، وليس كذلك.

ودُفع بأنَّه من باب: ضيِّق فمَ الرَّكية، وهو مجازٌ معروف، واستظهر هذا أبو حيَّان[٢]، والمعنى: جعلنا المَلَوين بهيآتهما وتعاقبهما واختلافِهما في الطُّول والقِصَر على وتيرةٍ عجيبة آيتين تدلَّان على أنَّ لهما صانعاً حكيماً قادراً عليماً، ويَهديان إلى ما هدى إليه القرآنُ الكريم من الإسلام والتوحيد.

﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ الإضافةُ هنا وفيما بعدُ إمَّا بيانيّة، كما في إضافة العددِ إلى المعدود، نحو: أربع نسوة، أي: محونا الآيةَ التي هي الليلُ، أي: جعلنا الليلَ ممحوَّ الضوءِ مطموسَه، مظلماً لا يستبينُ فيه شيءٌ كما لا يستبين ما في اللوح الممحوِّ. وإلى ذلك ذهب صاحبُ «الكشَّاف»[٣]، ورُوي عن مجاهد، وهو على نحو: ضيِّق فمَ الرَّكية، والفاءُ تفسيرية؛ لأنَّ المحو المذكورَ وما عُطف عليه ليسا ممَّا يحصل عقيبَ جعلِ الجديدين آيتين، بل هما من جملة ذلك الجعلِ ومتمِّماته.

وقيل: معنى محوِ اللَّيل إزالةُ ظلمتِه بالضَّوء. ورجِّح بأنَّ فيه إبقاءَ المحوِ على حقيقته، وهو إزالة الشيءِ الثابت، وليس فيما ذكره الزمخشريُّ ذلك، ولا ينبغي العدولُ عن الحقيقة بلا ضرورة.

وتعقِّب بأنَّه يكفي ما بعده قرينةً على تلك الإرادة، فإنَّ محوَ الليلِ في مقابلة جعلِ النهارِ مبصراً. وعلى ما ذُكر من المعنى الحقيقيِّ لا يتعلَّق بمحو الليلِ فائدةٌ زائدةٌ على ما بعده، وقيل عليه: إنَّ الظلمةَ هي الأصل، والنور طارئ، فكونُ الليلِ مخلوقاً مطموسَ الضوءِ مفروغٌ عنه، فالمرادُ بيانُ أنَّ الله تعالى خلق الزمانَ ليلاً مظلماً، ثم جعل بعضَه نهاراً بإحداث الإشراق لفائدةٍ ذكرها سبحانه، وكونُ محو

(١) الدر المصون ٧/ ٣٢١.
(٢) في البحر ٦/ ١٤.
(٣) ٢/ ٤٤٠.

الليلِ في مقابلة جعلِ النَّهار مضيئاً لا يوجِب حملَه على المجاز؛ لفائدة بيانِ إبقاءِ بعض الزَّمان على إظلامه وجعلِ بعضِه مضيئاً. اهـ. ولا يخفَى ما فيه من التكلُّف، وأنَّ المقامَ لا يلائمه، فالمعوَّل عليه ما في «الكشَّاف».

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: الآيةَ التي هي النهارُ ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: مضيئةً، فهو مجازٌ بعلاقة السَّببية، أو الإسنادُ مجازيٌّ كما في: نهارُه صائم، والمرادُ: يُبصِر أهلُها، أو الصيغةُ للنسب، أي: ذات إبصار، أو هي من: أبصره، المتعدِّي، أي: جعله مبصِراً ناظراً، والإسنادُ إلى النهار مجازيٌّ أيضاً، من الإسناد إلى السَّبب العاديِّ، والفاعل الحقيقيُّ هو اللهُ تعالى، أو من باب: أفعل، المرادِ به غيرُ مَن أُسند إليه، كأضعفَ الرجل، إذا كانت دوابُّه ضعافاً، وأجبنَ، إذا كان أهلُه جبناءَ، فأبصرت الآيةُ، بمعنى: صار أهلُها بصراءَ. وروي ذلك عن أبي عبيدة، وهو معنًى وضعيٌّ لا مجازيٌّ.

وقرأ قتادةُ وعليُّ بن الحسين رضي الله عنهما: «مَبْصَرةً» بفتح الميمِ والصَّاد[1]، وهو مصدر أُقيم مُقامَ غيرِه، وكَثُر مثلُ ذلك في صفات الأَمكنة، كأَرضٍ مَسبَعة، ومكان مَضَبَّة.

وإما إضافة لامية، وآيتا الليلِ والنهارِ نيِّراهما القمرُ والشمس، ويُحتاج حينئذٍ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ إلى تقدير مضافٍ في الأول أو الثاني، أي: جعلنا نيِّرَي الليلِ والنهار آيتين، أو: جعلنا الليلَ والنهارَ ذَوَي آيتين، إن جُعِل «جعل» متعدِّياً إلى مفعولَين، والليلُ والنهارُ هو المفعولَ الأوَّل، وآيتين الثاني، فإن عُكِس، كما استظهره أبو حيَّان، وجُعل الليلُ والنهارُ نصباً على الظرفية في موضع المفعولِ الثاني، أي: جعلنا في الليل والنهارِ آيتين، وهما النيِّران، لا يُحتاج إلى تقدير، كما إذا جعل الجعلُ متعدِّياً لواحد، والليلُ والنهارُ منصوبان على الظرفية كما جوَّزه المعربون.

ومحوُ آيةِ الليل ـ وهي القمرُ على ما تدلُّ عليه الآثار ـ إزالةُ ما ثبت لها من النُّور يوم خُلِقت، فقد أَخرج ابن جَرير وابنُ المنذر[2] عن ابن عباسٍ في الآية أنَّه

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٤، وينظر القراءات الشاذة ص٧٥.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٦٦، وتفسير الطبري ١٤/ ٥١٦-٥١٧.

قال: كان القمرُ يضيءُ كما تضيءُ الشمس، وهو آيةُ الليلِ فمُحي، فالسَّوادُ الذي في القمر أثرُ ذلك المحو.

وأخرج عبدُ بن حُمَيد وغيرُه عن عكرمةَ أنَّه قال: خلق اللهُ تعالى نورَ الشمس سبعين جزءاً، ونورَ القمرِ سبعين جزءاً، فمحَى من نور القمرِ تسعةً وستِّين جزءاً، فجعله مع نور الشَّمس، فالشمسُ على مئةٍ وتسعةٍ وثلاثين جزءاً، والقمرُ على جزءٍ واحدٍ[1].

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن محمد بن كعبٍ القرظيِّ أنَّه قال: كانت شمسٌ بالليل وشمسٌ بالنهار، فمحَى اللهُ تعالى شمسَ الليل، فهو المحوُ الذي في القمر[1].

وأخرج البيهقيُّ في «دلائل النبوَّة» وابنُ عساكرٍ عن سعيدٍ المَقْبُري: أنَّ عبد الله بنَ سَلامٍ سأل النبيَّ ﷺ عن السَّواد الذي في القمر، فقال: «كانا شمسين» وقال: «قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ فالسَّوادُ الذي رأيتَ هو المحو»[2].

وفي حديثٍ طويل أَخرجه ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه بسند واهٍ عن ابن عباسٍ مرفوعاً: «إنَّ اللهَ تعالى خلق شمسَين من نورِ عرشِه، فأَرسل جبريلَ عليه السلام، فأمرَّ جناحَه على وجه القمر وهو يومئذٍ شمسٌ ثلاثَ مرَّات، فطُمس عنه الضوءُ، وبقي فيه النورُ، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ الآية[3]. إلى غير ذلك من الآثار.

وقيل: والفاءُ على هذا للتعقيب، وجَعْلُ آيةِ النهار - وهي الشمسُ - مبصرةً، على نحو ما تقدَّم، فتبصَّر.

وقيل: محو القمر إمَّا خَلْقُه كَمِداً مطموسَ النور غيرَ مشرقٍ بالذات، على ما ذكره أَهلُ الهيئةِ من أنَّه غيرُ مضيءٍ في نفسه، بل نورُه مستفادٌ من ضوء الشَّمس، فالفاءُ تفسيرية كما مرَّ، وإمَّا نقصُ ما استفاده من الشَّمس شيئاً فشيئاً بحسب الرُّؤية والإحساس، إلى أن ينمحقَ على ما هو معنى المحوِ، فالفاءُ للتعقيب.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٦٤.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٦٦، ودلائل النبوة ٦/ ٢٦١-٢٦٢، وتاريخ مدينة دمشق ٢٩/ ١١١.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٦٦.

وذكر الإمامُ[1] في نحوه قولَين: أحدهما: نقصُ نورِه قليلاً قليلاً إلى المُحاق، وثانيهما: جعلُه ذا كَلَف، ثم قال: حَمْله على الوجه الأوَّل أَوْلى؛ لأنَّ اللام في الفعلين بعدُ متعلِّق بما هو المذكورُ قبل، وهو محوُ آيةِ الليل وجَعْلُ آيةِ النهار مبصِرة، ومحوُ آيةِ اللَّيل إنَّما يؤثِّر في ابتغاء فضلِ اللهِ تعالى إذا حملنا محوَ القمرِ على زيادة نورِ القمر ونقصانِه؛ لأنَّ سبب حصولِ هذه الآيةِ مختلفٌ باختلاف أحوالِ نورِ القمر، وأهلُ التجاربِ أثبتوا أنَّ اختلاف أحوالِ القمرِ في مقادير النورِ له أثرٌ عظيمٌ في أحوال هذا العالَم ومصالِحه، مثلُ أحوالِ البحارِ في المدِّ والجزر، ومثلُ أحوالِ البحراناتِ على ما يذكره الأطباءُ في كتبهم[2]. وأيضاً بسبب زيادةِ نورِ القمر ونقصانِه يحصل الشهورُ، وبسبب معاودةِ الشهور يحصل السِّنونَ العربيةُ المبنيةُ على رؤية الهلال، كما قال سبحانه: ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ إلخ. اهـ.

وأنت تعلم أنَّه متى دلَّ أثرٌ صحيح عن رسول الله ﷺ - على ما ذكرناه أوَّلاً - لا ينبغي أن يُدَّعى أنَّ غيره أولى، وهو لَعمري وجهٌ لا كَلَفَ فيه عند مَن له عينٌ مبصرة.

وللفلاسفة في هذا المحوِ المرئيِّ في وجه القمرِ كلامٌ طويل، لا بأسَ بأن تحيطَ به خُبراً، فنقول:

ذكر الإمامُ في «المباحث المشرقية» أنَّ امتناعَ بعضِ المواضعِ في وجه القمرِ عن قَبول الضوءِ التامِّ، إمَّا أن يكونَ بسبب خارجٍ عن جِرم القمر، أو غيرِ خارجٍ عنه:

فإن كان بسببٍ خارج، فإمَّا أن يكونَ لمثل ما يَعرِض للمرايا من وقوع أشباحِ الأشياءِ فيها، فإذا رُئيت تلك الأشياءُ، لم تُرَ برَّاقة، فكذلك القمرُ لمَّا تصوَّرت فيه أَشباحُ الجبالِ والبحار، وجب ألَّا تُرى تلك المواضعُ في غاية الاستنارة.

وإمَّا أن يكونَ ذلك بسبب ساتر، والأوَّل باطل، أما أولاً؛ فلأنَّ الأشباحَ لا تنحفظ هيئاتها مع حركة المِرآة، وبتقدير سكونِها لا تستقرُّ تلك الأشباحُ فيها عند

---

(١) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٦٤-١٦٥.

(٢) البحران تغيّر يكون دفعه إما إلى جانب الصحة وإما إلى جانب المرض، وله دلائل يصل الطبيب منها إلى ما يكون منه. ينظر القانون لابن سينا ٣/ ٧٧ فما بعد.

اختلافِ مقاماتِ الناظرين، والآثارُ التي في وجه القمرِ ليست كذلك. وأمَّا ثانياً؛ فلأنَّ القمر ينعكس الضوءُ عنه إلى البصر، وما كان كذلك لم يصلحْ للتخييل. وأمَّا ثالثاً؛ فلأنَّه كان يجب أن تكونَ تلك الآثارُ كالكرات؛ لأنَّ الجبال في الأرض كتضريس أو خشونةٍ في سطحِ كرة، وليس لها من المقدار قَدْرُ ما يؤثِّر في كُرَية الأرض، فكيف لأشباحها المرئيةِ في المرآة؟

وأمَّا إنْ كان ذلك بسببِ ساتر، فذلك الساترُ إمَّا أن يكونَ عنصريًّا أو سماويًّا، والأوَّلُ باطل، أما أولاً؛ فلأنَّه كان يجب أن يكونَ المواضعُ المتستِّرة من جِرم القمر مختلفةً باختلاف مقاماتِ الناظرين، وأما ثانياً؛ فلأنَّ ذلك الساترَ لا يكون هواءً صِرفاً، ولا ناراً صرفةً؛ لأنَّهما شفَّافان، فلا يَحجبان، بل لا بدَّ وأن يكونَ مركَّباً، إمَّا بخاراً وإما دخاناً، وذلك لا يكون مستمرًّا.

وأمَّا إن كان الساترُ سماويًّا، فهو الحقُّ، وذلك إنَّما يكون لقيام أجسامٍ سماويةٍ قريبة المكانِ جدًّا من القمر، وتكون من الصِّغَر بحيث لا يُرى كلٌّ واحدٍ منها، بل جملتها على نحو مخصوصٍ من الشَّكل، وتكون إمَّا عديمةَ الضوءِ، أو لها ضوءٌ أضعفُ من ضوءِ القمر، فتُرَى في حالةِ إضاءته مظلمة.

وأمَّا إن كان ذلك بسببٍ عائدٍ إلى ذات القمر، فلا يخلو: إمَّا أن يكونَ جوهرُ ذلك الموضعِ مساوياً لجواهر المواضعِ المستنيرة من القمر في الماهيَّة، أو لا يكون، فإنْ لم يكن، كان ذلك لارتكاز أَجرامٍ سماويةٍ مخالفةٍ بالنوع للقمر في جِرمه كما ذكرناه قبلُ، وهو قريبٌ منه.

وإمَّا أن تكونَ تلك المواضعُ مساويةَ الماهيَّة لجِرم القمر، فحينئذٍ يمتنع اختصاصُها بتلك الآثارِ إلَّا بسببٍ خارجيٍّ، لكنه قد ظهر لنا أنَّ الأجرامَ السماوية لا تتأثَّر بشيءٍ عنصري، وبذلك أُبطل قولُ مَن قال: إنَّ ذلك المحوَ بسبب انسحاقِ عَرض القمرِ من مماسَّة النار: أمَّا أولاً؛ فلأنَّ ذلك يوجِب أن يتأدَّى ذلك في الأَزمان الطويلةِ إلى العدم والفسادِ بالكلِّية، والأرصادُ المتواليةُ مكذِّبة لذلك، وأيضاً القمرُ غيرُ مماسٍّ للنار؛ لأنه مفرَّق في فلك تدويرِه الذي هو في حامله الذي بينه وبين النار بُعدٌ بعيد، بدليل أنَّ النارَ لو كانت ملاقيةً لحامله، لتحرَّكت بحركته إلى المشرق، وليس كذلك؛ لأنَّ حركاتِ الشُّهب في الأكثرِ لا تكون إلَّا إلى جهة

المغرب، وتلك الحركةُ تابعةٌ لحركة النار، والحركةُ المستديرةُ ليست للنَّار بذاتها؛ فإنَّها مستقيمةُ الحركة، فذلك لها بالعرض تَبَعاً لحركة الكلِّ، فبطل ما قالوه. اهـ.

وذكر الآمديُّ في «أبكار الأفكار» زيادةً على ما يُفهَم ممَّا ذُكر من الأقوال، وهي أنَّ منهم مَن قال: إنَّ ما يُرى خيالٌ لا حقيقةَ له. وردَّه بأنَّه لو كان كذلك، لَاختلفَ الناظرون فيه، ومنهم مَن قال: إنَّه السوادُ الكائنُ في القمر في الجانب الذي لا يَلي الشمسَ. وردَّه بأنَّه لو كان كذلك لما رُئي متفرِّقاً. ومنهم مَن قال: إنَّه وجهُ القمر، فإنَّه مصوَّر بصورة وجهِ الإنسان، وله عينانِ وحاجبانِ وأنفٌ وفم. وردَّه بأنَّه مع بُعده يوجب أن يكونَ فِعلُ الطبيعة عندهم معطَّلاً عن الفائدة؛ لأنَّ فائدة الحاجبَين عندهم دفعُ أذى العرقِ عن العينين، وفائدة الأنفِ الشَّمُّ، وفائدة الفم دخولُ الغذاءِ، وليس للقمر ذلك. وقد ردَّ عليهم رحمةُ الله تعالى عليه سائرَ ما ذكروه[١].

وذكر الإمامُ في «التفسير»[٢] أنَّ آخر ما ذكره الفلاسفةُ في ذلك: أنَّه ارتكز في وجه القمرِ أجسامٌ قليلةُ الضوء، مثل ارتكازِ الكواكبِ في أجرام الأفلاك، ولمَّا كانت تلك الأجرامُ أقلَّ ضوءاً من جِرم القمر، لا جَرَمَ شوهدت في وجهه كالكَلَف في وجه الإنسان، وفي ارتكازها في بعض أجزائه دون بعضٍ مع كونه متشابهَ الأجزاءِ عندهم دليلٌ على الصانع المختار، كما أنَّ في تخصيص بعضِ أجزائهِ بالنُّور القويِّ وبعضِها بالنُّور الضعيفِ مع تشابه الأجزاءِ دليلاً على ذلك.

ومِثلُ هذا التخصيصِ في الدَّلالة تخصيصُ بعضِ جوانب الفلكِ الذي هو عندهم أيضاً جِرمٌ بسيط متشابهُ الأجزاء بارتكاز الكواكبِ فيه دون البعضِ الآخر.

وزعم بعضُ أهلِ الآثار أنَّه مكتوبٌ في وجه القمر: لا إلهَ إلَّا الله، وقيل: لفظ: جميل، وقيل غيرُ ذلك، وأنَّ المحو المرئيَّ هو تلك الكتابةُ. ولا يعوَّل على شيءٍ من ذلك. نَعَم مكتوبٌ على كل شيءٍ: لا إله إلا الله، وكذا: جميلٌ، ولكنَّ ذلك بمعنًى آخَرَ كما لا يخفَى.

ونُقل لي عن أهل الهيئةِ الجديدةِ أنَّهم يزعمون أنَّ القمرَ كالأرض فيه الجبالُ

---

(١) أبكار الأفكار ٣/ ١٢٦-١٢٩.

(٢) ٢٠/ ١٦٥.

والوِهاد والأشجارُ والبحار، وأنَّهم شاهدوا ذلك في أَرصادهم، وأنَّ المواضعَ التي لا يُرى فيها محوٌ هي البحار، والتي فيها محوٌ هي أرضٌ غيرُ مستوية، وزعموا أنَّه لو وصل أحدٌ إلى القمر لَرأى الأرضَ كذلك، ومِن هنا قالوا: لا يَبعد أن يكونَ معموراً بخلائقَ نحوَ عمارةِ الأرض، بل قالوا: إنَّ جميع الكواكبِ مثلُه في ذلك، قياساً عليه، وإن كانت لا يُرى فيها لمزيد بُعدِها ما يُرى فيه، وبعيدٌ من الحكمة أن يعمرَ الله تعالى الأرضَ بالخلق على صِغَرها، ويتركَ أجساماً عظيمة أكثرُها أعظمُ من الأرض خاليةً بلا خَلق على كِبَرها، وهم منذ غرَّهم القمرُ، تشبَّثوا بحباله في عمل الحيلِ للعُروج إليه، فصنعوا سُفُناً زئبقيةً، فعرجوا فيها، فقَبْلَ أن يَصِلوا إلى كرة البخارِ انتفختْ أَجسامُهم، وضلَّت كما ضلَّت من قبلُ أفهامُهم، فانقلبوا صاغرين وهبطوا خاسئين.

وأنت تعلم أنَّ كلامَهم في هذا البابِ مخالفٌ لأُصول الفلسفة، ولا برهانَ لهم عليه سِوَى السَّفهِ، ومنشؤه محضُ أنَّهم رأوا شيئاً في القمر، ولم يتحقَّقوه، وظنُّوه ما ظنُّوه، وأيُّ مانعٍ من أن يكونَ قد جعل اللهُ تعالى المحوَ على وجهٍ يُتخيَّل فيه ذلك، بل لا مانعَ على أُصولنا من أن يقالَ: قد جعل اللهُ تعالى في القمر أجراماً تُشبه ما حسبوه، لكن لم يَرِد في ذلك شيءٌ عن الصَّادق ﷺ، وهو الذي عُرج به إلى قابِ قوسين أو أدنَى.

وما ذكروه من أنَّه بعيدٌ من الحِكمة أن يعمرَ اللهُ تعالى الأرضَ... إلخ، يَلزم عليه أن يكونَ ما بين الكواكبِ ـ ككواكب الدُّبِّ الأكبرِ مثلاً ـ معموراً بالخلائق كالأرضِ أيضاً، فإنَّه أوسعُ منها بأضعافٍ مضاعفة، وهم لا يقولون به، على أنَّا نقول: قد جاء: «أَطَّت السماءُ وحقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ قدمٍ إلَّا وفيه مَلَكٌ راكعٌ أو ساجد»(١)، فيجوز أن يكونَ على جِرم القمرِ ملائكةٌ يعبدون اللهَ تعالى بما شاءَ وكيف شاء، بل يجوز أن يكونَ عند كلِّ ذرَّةٍ من ذرَّاته مَلَكٌ كذلك، وهذا نوعٌ من العِمارة بالخلق.

والأحسنُ عند مَن عزَّ عليه وقتُه عدمُ الالتفاتِ إلى مثل هذه الخرافاتِ وتضييعِ الوقت في ردِّها، واللهُ سبحانه الموفِّق.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢) عن أبي ذرّ ﷺ، وسلف ٢/ ٨٧.

ثم ما تقدَّم من أنَّ المحو نقصُ ما استفاده القمرُ من الشمس شيئاً فشيئاً فيه القولُ بأنَّ نور القمرِ مستفادٌ من نور الشمس، وقد عدَّ الجُلُّ من العلماءِ ذلك في الحَدْسيات، وذكروا أنَّ الشمس مضيئةٌ بنفسها، وكلا الأمرين ممَّا ذكره الفلاسفةُ، وليس له في الشَّرع مستندٌ يعوَّل عليه، وقد نقله الآمديُّ، وتعقَّبه فقال: ذكروا أنَّ الشمس نيِّرة بنفسها، وما المانعُ من كونها سوداءَ الجِرم، والله تعالى يخلقُ فيها النورَ في أوقات مشاهدتِنا لها، أو أن تكونَ مستنيرةً من كواكبَ أخرى فوقَها، وهي مستورةٌ عنا ببعض الأجرام السماويةِ المظلمة، كما يحدث للشَّمس في حالة الكسوف، وإن سلَّمنا أنَّها نيِّرة بنفسها، فلا نسلِّم أنَّ نور القمرِ مستفادٌ منها، وما المانعُ من كون الربِّ تعالى يخلق فيه النورَ في وقتٍ دون وقت، أو أن يكونَ مع كونه مركوزاً في فَلَكه دائراً على مركز نفسِه، وأحدُ وجهَيه نيِّرٌ والآخَر مظلم، كما كان بعضُ أجزاءِ الفلكِ شفَّافاً وبعضُها نيِّراً، وهو متحرِّك بحركة مساويةٍ لحركة فَلَكه، ويكونُ وجهُه المضيءُ عند مقابلة الشمسِ، وهو الذي يَلينا، وتكون الزيادةُ والنقصانُ فيما يظهر لنا على حسب بُعده وقربِهِ من الشمس، فلا يكون مستنيراً من الشَّمس[1]. اهـ.

وأُورد أنَّه إذا ضمَّ الخسوف إلى الزيادة والنقصانِ قرباً وبعداً، لا يتمُّ ما ذكره، وصحَّ ما ذكروه من الاستفادة.

وأُجيب بأنَّه ما المانعُ من أن يكونَ الخسوفُ لحيلولة جِرم علويٍّ بيننا وبينه، لا لحيلولة الأرضِ بينَه وبين الشَّمس، فلا بدَّ لنفي ذلك من دليلٍ فافهم، والله تعالى أعلمُ، وهو المتصرِّف في ملكه كيفما يشاء.

﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ متعلِّق بقوله تعالى: (وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ) وفي الكلام مقدَّر، أي: جعلنا آيةَ النهارِ مبصرةً لتطلبوا لأنفسكم فيه ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رزقاً؛ إذ لا يتسنَّى ذلك في اللَّيل.

وفي التعبير عن الرِّزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء، والتعرُّضِ لصفة الرُّبوبية المنبئةِ عن التبليغِ إلى الكمال شيئاً فشيئاً، دلالةٌ ـ كما قال شيخُ الإسلام[2] ـ على

---

(١) أبكار الأفكار ٣/ ١٢٧-١٢٨.

(٢) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٠.

أنْ ليس للعبد في تحصيل الرزق تأثيرٌ سوى الطَّلب، وإنَّما الإعطاءُ إلى الله سبحانه، لا بطريق الوجوبِ عليه تعالى، بل تفضُّلاً بحكم الرُّبوبية، ومعنى تأثيرِ الطلبِ على نحو تأثيرِ الأَسباب العادية، فإنَّه مِن جملتها، ولا توقُّفَ حقيقة للرزق عليه، وفي الخبر: «يطلبك رزقُك كما يطلبك أجلُك»، ولله تعالى دَرُّ القائل:

لقد علمتُ وما الإِشرافُ من خُلُقي ... أنَّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيُعْييني تطلُّبهُ ... ولو قعدتُ أتاني لا يعنِّيني[1]

﴿وَلِتَعْلَمُواْ﴾ متعلِّق - كما قيل - بكلا الفعلَين، أعني: محوَ آيةِ الليل، وجعلَ آيةِ النهار مبصرةً، لا بأَحدهما فقط؛ إذ لا يكونُ ذلك بانفراده مداراً للعِلم المذكور، أي: لتعلموا بتفاوت الجديدَين أو نيِّرَيهما ذاتاً من حيث الإِظلامُ والإِضاءة، مع تعاقبهما أو حركاتِهما وأوضاعِهما وسائرِ أحوالهما ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي يتعلَّق بها غرضٌ علميٌّ لإِقامة مصالحِكم الدينيةِ والدنيويَّة ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: الحسابَ المتعلِّق بما في ضمنها من الأوقات، أي: الأَشْهُرَ والليالِيَ والأيام، وغيرَ ذلك مما نيط به شيٌ من المصالح المذكورة.

ونفسُ السَّنةِ من حيث تحقُّقها ممَّا ينتظمه الحسابُ، وإنما الذي يتعلَّق به العدُّ طائفةٌ منها، وتعلُّقه في ضمن ذلك بكلٍّ واحدةٍ منها ليس من حيثية التحقُّق والتحصُّل من عدَّة أشهر، حَصَلَ كلٌّ واحدٍ منها من عدَّة أيام، حصل كلٌّ واحدٍ منها من طائفةٍ من السَّاعات مثلاً، فإنَّ ذلك من وظيفة علمِ الحساب، بل من حيث إنَّها فردٌ من طائفة السنينَ المعدودةِ بعدها، أي: نفسها من غير أن يعتبرَ في ذلك تحصيلُ شيءٍ معيَّن، كما حقَّق ذلك شيخُ الإِسلام[2].

وقيل: المعنى: «لتعلموا» باختلافهما وتعاقُبهما على نسقٍ واحدٍ أو بحركاتهما «عددَ السِّنين». . . إلخ.

والمرادُ بالحساب جنسُه، أي: الجاري في المعاملات، كالإجارات والبيوعِ المؤجَّلة وغيرِ ذلك. وذكر بعضُهم أنَّ الظاهر المناسبَ أنَّ المراد: لتعلموا باللَّيل،

---

(١) البيتان لعروة بن أذنية كما في الأغاني ١٨/ ٣٢٢، وسلف ١١/ ٣٤٣.
(٢) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٠.

فإنَّ عدد السنينَ الشرعيةِ والحسابِ الشرعيِّ يُعلمان به غالباً، أو بالقمر؛ لقوله تعالى في الأهلَّة: ﴿قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وأنت تعلمُ أنَّ السنينَ شمسيةٌ وقمرية، وبكلٍّ منهما العملُ، فلو قيل: إحدى الآيتَين مبيِّنة لأحدهما، والأخرى للآخَر، لا محذورَ فيه، وكونُ الشرعِ معوِّلاً على أحدهما لا يضرّ.

وتقديمُ العددِ على الحساب من أنَّ الترتيبَ بين متعلَّقَيهما على ما سمعتَ أولاً وجوداً وعدماً على العكس؛ للتَّنبيه من أوَّل الأمر على أنَّ متعلَّق الحسابِ ما في تضاعيف السنينَ من الأوقات، أو لأنَّ العلم المتعلِّق بعدد السنينَ علمٌ إجماليٌّ بما تعلَّق به الحسابُ تفصيلاً، أو لأنَّ العلمَ المتعلِّق بالأوَّل أقصى المراتب، فكان جديراً بالتَّقديم في مقام الامتنان، أو لأنَّ العددَ نازلٌ من الحساب منزلةَ البسيطِ من المركب، بناءً على ما حقِّق من أنَّ الحسابَ إحصاءُ ما لَه كميةٌ منفصلةٌ بتكرير أمثالِه، من حيث يتحصَّل بطائفة معيَّنةٍ منها حدٌّ معيَّن منه له اسمٌ خاصٌّ وحكم مستقلٌّ، والعددُ إحصاؤه بمجرَّد تكريرِ أمثاله، من غير أن يتحصَّلَ شيءٌ كذلك؛ ولهذا وكونِ السنينَ ممَّا لم يُعتبَر فيها حدٌّ معيَّن له اسمٌ خاصٌّ وحكم مستقلٌّ، أُضيف إليها العددُ وعلِّق الحساب بما عداها، فتدبَّر.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ تفتقرون إليه في معاشكم ومعادِكم سوى ما ذُكر مِن جَعْل الليلِ والنَّهار آيتين، وما يَتْبعه من المنافع الدينيةِ والدنيوية. وهو منصوبٌ بفعلٍ يفسِّره قولُه تعالى: ﴿فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ وهذا من باب الاشتغال، ورجِّح النصبُ لتقدُّم جملةٍ فعلية. وجوِّز أن يكونَ معطوفاً على «الحساب»، وجملةُ «فصلناه» صفةَ «شيء»، وهو بعيدٌ معنًى.

والتفصيلُ من الفَصل، بمعنى القطع، والمرادُ به الإبانةُ التامَّة، وجيءَ بالمصدر للتأكيد. فالمعنى: بيَّنا كلَّ شيءٍ في القرآن الكريم بياناً بليغاً لا التباسَ معه، كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] فظهر كونُه هادياً للتي هي أقومُ ظهوراً بيِّناً.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ﴾ منصوبٌ على حدِّ «كل شيء» أي: وألزمنا كلَّ إنسانٍ مكلَّفٍ ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي: عملَه الصادرَ منه باختياره حَسبما قدِّر له، خيراً كان أو شرًّا، كأنه طار إليه من عُشِّ الغيبِ ووَكرِ القَدَر.

وفي «الكشَّاف»[١] أنَّهم كانوا يتفاءلون بالطَّير ويسمُّونه زجراً، فإذا سافروا ومرَّ بهم طيرٌ زجروه، فإنْ مرَّ بهم سانحاً، بأن مرَّ من جهة اليسارِ إلى اليمين، تيمَّنوا، وإن مرَّ بارحاً، بأن مرَّ من جهة اليمينِ إلى الشَّمال، تشاءموا؛ ولذا سمِّي تطيُّراً، فلمَّا نَسبوا الخيرَ والشرَّ إلى الطائر، استُعير استعارةً تصريحيةً لما يُشبههما من قَدَر اللهِ تعالى وعملِ العبد؛ لأنَّه سببٌ للخير والشرّ. ومنه: طائرُ اللهِ تعالى لا طائرُك، أي: قَدَرُ اللهِ جلَّ شأنه الغالبُ الذي يُنسب إليه الخيرُ والشرُّ، لا طائرُك الذي تتشاءم به وتتيمَّن، وقد كَثُر فعلُهم ذلك، حتى فعلوه بالظِّباء أيضاً وسائر حيوانات الفَلَا، وسمَّوا كلَّ ذلك تطيُّراً كما في «البحر»[٢].

وتفسيرُه بالعمل هنا مرويٌّ عن ابن عباس، ورواه البيهقيُّ في «شُعب الإيمان»[٣] عن مجاهد، وذهب إليه غيرُ واحد.

وفسَّره بعضُهم بما وقع للعبد في القِسمة الأزليةِ الواقعةِ حسبَ استحقاقِه في العلم الأزليِّ، من قولهم: طار إليه سهمُ كذا، ومن ذلك: فطار لنا من القادمين عثمانُ بن مظعون[٤]، أي: ألزمنا كلَّ إنسانٍ نصيبَه وسهمَه الذي قَسَمناه له في الأَزَل ﴿فِي عُنُقِهِۦ﴾ تصويرٌ لشدَّة اللزومِ وكمالِ الارتباط، وعلى ذلك جاء قولُه: إنَّ لي حاجةً إليك، فقال: بين أُذني وعاتقي ما تريد.

وتخصيصُ العنقِ لظهور ما عليه مِن زائن كالقلائد والأَطواق، أو شائنٍ كالأغلال والأَوهاق[٥]؛ ولأنَّه العضوُ الذي يبقى مكشوفاً يظهر ما عليه، ويُنسب إليه التقدُّم والشَّرف، ويعبَّر به عن الجملة وسيِّدِ القوم. فالمعنى: أَلزمناه غُلَّه بحيث لا يفارقه أبداً، بل يلزمه لزومَ القِلادة والغُلِّ لا ينفكُّ عنه بحال.

---

(١) ٣/ ١٥١.
(٢) ٦/ ١٥.
(٣) برقم (٢١٦١).
(٤) هذا كلام أم العلاء امرأة من الأنصار، قالته عند اقتسام الأنصار للمهاجرين، كما في صحيح البخاري (١٢٤٣).
(٥) الوَهَق: حبل يلقى في عنق الشخص يؤخذ به ويوثق، وأصله للدواب. المصباح المنير (وهق).

وأخرج ابنُ مَردويه عن حذيفةَ بنِ أُسَيد: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ النُّطفة التي يُخلَق منها النسمةُ تطير في المرأة أربعين يوماً وأربعين ليلةً، فلا يبقَى منها شعرٌ ولا بَشَرٌ ولا عِرقٌ ولا عظم إلَّا دخلته، حتى إنَّها لَتدخل بين الظُّفر واللحم، فإذا مضى أربعون ليلةً وأربعون يوماً، أَهبطها اللهُ تعالى إلى الرَّحم، فكانت علقةً أربعين يوماً وأربعين ليلةً، ثم تكون مُضغةً أربعين يوماً وأربعين ليلةً، فإذا تمَّت لها أربعةُ أشهر، بعث اللهُ تعالى إليها مَلَكَ الأرحام، فيخلق على يده لحمَها ودمَها وشعرَها وبَشَرَها، ثم يقول سبحانه: صوِّر، فيقول: يا ربِّ، أُصوِّر؟ أزائدٌ أم ناقص، أذَكَر أم أنثى، أجميلٌ أم ذميم، أَجَعد أم سِبط، أقصيرٌ أم طويل، أأبيضُ أم آدَم، أسويٌّ أم غيرُ سويٍّ؟ فيكتبُ من ذلك ما يأمر اللهُ تعالى به، ثم يقول: أيْ ربِّ، أشقيٌّ أم سعيد؟ فإن كان سعيداً، نَفَخَ فيه بالسَّعادة في آخر أجَلِه، وإنْ كان شقيًّا، نفخ فيه بالشَّقاوة في آخِر أجله، ثم يقول: اكتب أَثَرَها ورزقَها ومصيبتها وعملَها بالطَّاعة والمعصية، فيكتب من ذلك ما يأمره اللهُ تعالى، ثم يقول المَلَك: يا ربِّ، ما أَصنع بهذا الكتاب؟ فيقول سبحانه: علِّقْه في عنقه إلى قضائي عليه. فذلك قولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾»[(١)].

ولا يخفَى أنَّ الظاهرَ من هذا الخبرِ أنَّ ذِكر العنقِ ليس للتصوير المذكور، وأنَّ الطائر عبارةٌ عن الكتاب الذي كُتب فيه ما كُتب.

وأخرج ابنُ أبي شيبة وابنُ المنذر عن أنسٍ أنَّه فسَّره بذلك صريحاً[(٢)]، وبابُ المجازِ واسعٌ، ونحن نؤمن بالحديث إذا صحَّ، ونفوِّض كيفيةَ ما دلَّ عليه إلى اللَّطيف الخبيرِ جلَّ جلالُه.

والظاهرُ منه أيضاً عدمُ تقييدِ الإنسان بالمكلَّف، ويؤيِّد ذلك ما أخرجه أبو داودَ في كتاب «القدر»، وابن جَرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم عن مجاهدٍ أنَّه قال في الآية: ما من مولودٍ يولَد إلَّا وفي عنقه ورقةٌ مكتوبٌ فيها شقيٌّ أو سعيد[(٣)]. وآخِر الآيةِ ظاهرٌ في التقييد.

(١) الدر المنثور ٤/ ١٦٧.
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٦٧، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٦٧.
(٣) الدر المنثور ٤/ ١٦٧، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٢٠.

وقرأ مجاهدٌ والحسنُ وأبو رجاءٍ: «طَيْرَه»[١]. وقُرئ: «عُنْقِه» بسكون النون[٢].

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والبعثِ للحساب ﴿كِتَٰبًا﴾ هي صحيفةُ عمله، ونَصْبه على أنَّه مفعولُ «نخرج»، وجوَّز أن يكون حالاً من مفعولٍ لـ «نخرج» محذوفٍ، وهو ضميرٌ عائد على الطَّائر، أي: نخرجه له حالَ كونِه كتاباً. ويعضُدُ ذلك قراءةُ يعقوبَ ومجاهدٍ وابنِ محيصن: «ويَخرُج»[٣] بالياء مبنيًّا للفاعل، من: خَرَجَ يَخرُج، ونصبِ «كتاباً» فإنَّ فاعله حينئذٍ ضميرُ الطائر، و«كتاباً» حالٌ منه، والأصلُ توافقُ القراءتين، وكذا قراءةُ أبي جعفر: «ويُخرَج»[٤] بالياء مبنيًّا للمفعول، من: أَخرج، ونصبِ «كتاباً» أيضاً.

ووجهُ كونها عاضدةً أنَّ في «يُخرَج» حينئذٍ ضميراً مستتراً هو ضميرُ الطائر، وقد كان مفعولاً، واحتمالُ أن يكونَ «له» نائبَ الفاعلِ فلا تعضد، لا يُلتفت إليه؛ لأنَّ إقامة غيرِ المفعولِ مع وجوده مُقامَ الفاعل ضعيفة، وليس ثمَّة ما يكون «كتاباً» حالاً منه، فيتعيَّن ما ذُكر كما قاله ابنُ يعيش في «شرح المفصَّل».

وعنه أيضاً[٥] أنَّه قرأ: «يُخرَج» بالبناء للمفعول أيضاً ورفعِ «كتاب» على أنَّه نائبُ الفاعل. وقرأ الحسن: «يَخرُج»[٦] بالبناء للفاعل من الخروج، ورفع «كتاب» على الفاعليَّة، وقرأت فِرقة: «ويُخرِج»[٧] بالياء، من الإخراج مبنيًّا للفاعل، وهو ضميرُ اللهِ تعالى، وفيه التفاتٌ من التكلُّم إلى الغَيبة.

وأَخرج أبو عُبَيد وابنُ المنذر عن هارون قال: في قراءة أُبيِّ بن كعب: «وكلَّ إنسانٍ أَلزمناه طائرَه في عُنُقه يقرأه يومَ القيامةِ كتاباً»[٨].

﴿يَلْقَىٰهُ﴾ أي: يلقَى الإنسانَ، أو يلقاه الإنسانُ ﴿مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ غيرَ مطويٍّ؛

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٥، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٧٥.
(٢) البحر ٦/ ١٥، والقراءات الشاذة ص٧٥.
(٣) البحر ٦/ ١٥، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٠٦.
(٤) النشر ٢/ ٣٠٦.
(٥) أي: عن أبي جعفر، كما في البحر ٦/ ١٥.
(٦) البحر ٦/ ١٥.
(٧) البحر ٦/ ١٥.
(٨) الدر المنثور ٤/ ١٦٨.

لتُمكِنَ قراءتُه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك أمرٌ مهيَّأٌ له غيرُ مغفولٍ عنه.

وجملةُ «يلقاه» صفةُ «كتاباً»، و«منشوراً» حالٌ من ضميره. وجوِّز أن يكونا صفَتين له، وفيه تقدُّمُ الوصفِ بالجملة على الوصف بالمفرَد، وهو خلافُ الظاهر.

وقرأ ابنُ عامر، وأبو جعفرٍ، والجحدريُّ، والحسنُ بخلاف عنه: «يُلَقَّاه»[1] بضمِّ الياءِ وفتح اللام وتشديدِ القاف، من لقَّيته كذا، أي: يلقَّى الإنسان إيَّاه.

وأخرج ابن جَريرٍ عن الحسن أنَّه قال: يا ابنَ آدم، بُسطَت لك صحيفة، ووكِّل بك مَلَكان كريمان، أحدُهما عن يمينك والآخَرُ عن شِمالك، حتى إذا متَّ، طُويَت صحيفتُك فجُعلت في عُنُقك في قبرك، حتى تجيءَ يومَ القيامةِ فتخرج لك[2].

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ بتقدير: يقالُ له ذلك، وهذه الجملةُ إمَّا صفةٌ أو حالٌ أو مستأنفة.

والظاهرُ أنَّ جملة قولِه تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ من جملة مقولِ القولِ المقدَّر، و«كفى» فعلٌ ماض، و«بنفسك» فاعلُه، والباءُ سيفُ خطيب، وجاء إسقاطها ورفعُ الاسم، كما في قوله[3]:

كفى الشَّيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا

وقولِه[4]:

ويُخبرني عن غائب المرءِ هَدْيُهُ ... كفى الهَدْيُ عمَّا غيَّبَ المرءُ مُخبِرا

ولم تلحق الفعلَ علامةُ التأنيثِ وإن كان مثله تَلحقه، كقوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ﴾ [الأنبياء: ٦]، ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ﴾ [الأنعام: ٤] قيل: لأنَّ الفاعلَ مؤنَّث مجازيٌّ. ولا يَشفي الغَليل؛ لأنَّ فاعلَ ما ذُكر من الأفعال مؤنَّث مجازيٌّ مجرورٌ بحرف زائدٍ أيضاً، وقد لحق فِعْلَه علامةُ التأنيث، وغايةُ الأمرِ في مثل ذلك

---

(١) البحر ٦/ ١٥، وقراءة ابن عامر في التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٦، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٠٦.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٦٨، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٢٣-٥٢٤.

(٣) قائله سحيم عبد بني الحسحاس كما في البيان والتبيين ١/ ٧١، والخزانة ١/ ٢٦٧. وصدره:

عُميرةَ ودِّع إن تجهزتَ غاديا

(٤) قائله زيادة بن زياد كما في البيان والتبيين ٣/ ٢٤٤، واللسان (هدي)، والخزانة ١١/ ١٧٤.

جوازُ الإلحاق وعدمُه، ولم يُحفَظ ـ كما في «البحر»[1] ـ الإلحاقُ في كفى إذا كان الفاعلُ مؤنَّثاً مجروراً بالباء الزائدة، ومن هنا قيل: إنَّ فاعلَ كفى ضميرٌ يعود على الاكتفاء، أي: كفَى هو، أي: الاكتفاءُ بنفسك. وقيل: هو اسمُ فعلٍ بمعنى: اكتفِ، والفاعلُ ضميرُ المخاطَب، والباءُ على القولَين ليست بزائدة، ومَرضيُّ الجمهورِ ما قدَّمناه، والتزامُ التذكيرِ عندهم على خلاف القياس.

ووجَّه بعضُهم ذلك بكثرة جرِّ الفاعلِ بالباءِ الزائدة، حتى إنَّ إسقاطها منه لا يوجد إلَّا في أمثلةٍ معدودة، فانحطَّت رتبتُه عن رتبة الفاعِلِين، فلم يؤنَّث الفعلُ له، وهذا نحوُ ما قيل في: مرَّ بهند. وقيل غيرُ ذلك.

و«اليوم» ظرفٌ لـ «كفى»، و«حسيباً» تمييزٌ، كقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وقولِهم: للهِ تعالى درُّه فارساً. وقيل: حالٌ، و«عليك» متعلِّق به، قدِّم لرعاية الفواصل، وعدِّي بـ «على» لأنَّه بمعنى الحاسبِ والعادِّ، وهو يتعدَّى بعلى، كما تقول: عدَّد عليه قبائحَه. وجاء فعيلٌ الصفةُ من: فَعَلَ يَفعِل، بكسر العين في المضارع، كالصَّريم بمعنى الصارم، وضَريب القِداح بمعنى ضاربها، إلَّا أنَّه قليل.

أو بمعنى الكافي، فتجوِّز به عن معنى الشهيد؛ لأنَّه يكفي المدَّعي ما أهمَّه، فعدِّي بـ «على» كما يعدَّى الشهيد.

وقيل: هو بمعنى الكافي مِن غير تجوُّز، لكنه عُدِّي تعديةَ الشهيد لِلُزوم معناه له، كما في: أسدٌ عليّ، وهو تكلُّف بارد.

وتذكيرُه وهو فعيلٌ بمعنى فاعلٍ وصف للنفس المؤنَّثة معنًى؛ لأنَّ الحسابَ والشهادةَ ممَّا يغلب في الرجال، فأُجري ذلك على أغلبِ أحواله، فكأنَّه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيباً، أو لأنَّ النفس مؤوَّلة بالشخص، كما يقال: ثلاثة أنفُس، أو لأنَّ فعيل المذكورَ محمولٌ على فعيل بمعنى فاعل.

والظاهر أنَّ المرادَ بالنفس الذاتُ، فكأنَّه قيل: كفى بك حسيباً عليك. وجعل بعضُهم في ذلك تجريداً، فقيل: إنَّه غلطٌ فاحشٌ. وتعقِّب بأنَّ فيه بحثاً، فإنَّ الشاهدَ

---

(1) ٦/١٦.

يغاير المشهود عليه، فإن اعتُبر كون الشخص في تلك الحال كأنه شخصٌ آخَر، كان تجريداً، لكنه لا يتعلَّق به غرضٌ هنا.

وعن مقاتل أنَّ المرادَ بالنفس الجوارحُ، فإنَّها تشهد على العبد إذا أنكر. وهو خلافُ الظاهر.

وعن الحسن أنَّه كان إذا قرأ الآية قال: يا ابنَ آدم، أنصفكَ واللهِ مَن جعلك حسيبَ نفسِك. والظاهرُ أنَّه يقال ذلك للمؤمن والكافر. وما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن السُّدِّي من أنَّ الكافر يُخرَج له يومَ القيامةِ كتاب، فيقول: ربِّ إنك قضيتَ أنَّك لست بظلَّام للعبيد، فاجعلني أُحاسب نفسي، فيقال له: «اقرأ كتابك كفى بنفسك» الآية، لا يدلُّ على أنَّه خاصٌّ بالكافر كما لا يخفَى. ويَقرأ في ذلك اليومِ - كما رُوي عن قتادة - مَن لم يكن قارئاً في الدُّنيا.

وجاء أنَّ المؤمنَ يقرأ أوَّلاً سيئاتِه، وحسناتُه في ظهر كتابه يراها أهلُ الموقفِ ولا يراها هو، فيَغبِطونه عليها، فإذا استوفى قراءةَ السيئاتِ وظنَّ أنَّه قد هلك، رأى في آخرها: هذه سيئاتُك قد غفرناها لك، فيتبلَّج وجهُه ويَعظُم سرورُه، ثم يقرأ حسناتِه فيزداد نوراً، وينقلب إلى أهله مسروراً، ويقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠]. وأما الكافرُ، فيقرأ أوَّلاً حسناتِه، وسيئاتُه في ظهر كتابه يراها أهلُ الموقفِ فيتعوَّذون من ذلك، فإذا استوفى قراءةَ الحسنات، وجد في آخِرها: هذه حسناتُك قد رددناها عليك، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فيسودُّ وجهُه، ويَعظُم كَربُهُ، ثم يقرأ سيئاتِه فيزداد بلاءً على بلاء، وينقلب بمزيد خيبةٍ وشقاء، ويقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ * وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٦] جعَلَنا اللهُ تعالى ممَّن يقرأ فيرْقَى، لا ممَّن يقرأ فيشقَى، بمنِّه وكرمه.

هذا وفسَّر بعضُهم الكتابَ بالنَّفْس المنتقشةِ بآثار الأعمال، ونشرَه وقراءتَه بظهور ذلك له ولغيره. وبيانُه: أنَّ ما يصدر عن الإنسان خيراً أو شرًّا يحصل منه في الرُّوح أثرٌ مخصوص، وهو خفيٌّ ما دامت متعلِّقةً بالبدن، مشتغلةً بواردات الحواسِّ والقُوى، فإذا انقطعت علاقتُها قامت قيامتُه؛ لانكشاف الغطاءِ باتِّصالها بالعالَم العلويّ، فيظهر في لوح النفسِ نقشُ أثرِ كلِّ ما عمله في عمره، وهو معنى الكتابةِ والقراءة.

ولا يخفَى أنَّ هذا منزعٌ صوفيٌّ حِكميٌّ، بعيدٌ من الظهور، قريبٌ من البطون، وفيه حملُ القيامةِ على القيامة الصُّغرى، وهو خلافُ الظاهر أيضاً، والرواياتُ ناطقةٌ بما يُفهم من ظاهر الآية، نَعَم ليس فيها نفيُ انتقاش النفْس بآثار الأعمال وظهورِ ذلك يومَ القيامة، فلا مانعَ من القول بالأمرَين. ومن هنا قال الإمامُ[1]: إنَّ الحق أنَّ الأحوال الظاهرةَ التي وردت فيها الرواياتُ حقٌّ وصدق لا مِريةَ فيها، واحتمالُ الآيةِ لهذه المعاني الروحانيةِ ظاهرٌ أيضاً، والمنهجُ القويم والصِّراطُ المستقيم هو الإقرارُ بالكلِّ. ونِعمَ ما قال، غيرَ أنَّ كونَ ذلك الاحتمالِ ظاهراً غيرُ ظاهر.

وقال الخفَاجي[2]: ليس في هذا ما يخالف النقلَ، وقد حُمل عليه ما رُوي عن قتادةَ من أنَّه يقرأ في ذلك اليومِ مَن لم يكن قارئاً، ولا وجهَ لعدِّه مؤيِّداً له. وأنت تعلم أنَّ حملَ كلامِ قتادةَ على ذلك تأويلٌ له أيضاً، ولعل قتادةَ وأمثاله من سلف الأمَّة لا يخطرُ لهم أمثالُ هذه التأويلاتِ ببال، والكلام العربيُّ كالجمل الأنوف، واللهُ تعالى أعلمُ بحقائق الأمور.

وفي كيفية النَّظمِ ثلاثةُ أَوجهٍ ذكرها الإمام[3]:

الأوَّل: أنَّه تعالى لمَّا قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ تضمَّن أنَّ كلَّ ما يُحتاج إليه من دلائل التوحيدِ والنبوَّة والمعادِ قد صار مذكوراً، وإذا كان كذلك فقد أُزيحت الأعذارُ وأُزيلت العِلل، فلا جَرَمَ كلُّ مَن ورد عَرْصةَ القيامة فقد أَلزمناه طائرَه في عُنُقه.

الثاني: أنَّه تعالى لمَّا بين أنَّه سبحانه أَوصل إلى الخلق أصنافَ الأشياءِ النافعةِ لهم في الدِّين والدنيا، مثل آيتي الليلِ والنهار وغيرِهما، كان مُنعِماً عليهم بوجوه النِّعم، وذلك يقتضي وجوبَ اشتغالِهم بخدمته تعالى وطاعتِه، فلا جَرَمَ كلُّ مَن ورد عَرْصَةَ القيامةِ يكون مسؤولاً عن أقواله وأعمالِه.

---

(١) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٧١.
(٢) في حاشيته ٦/ ١٦.
(٣) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٦٦-١٦٧.

الثالث: أنَّه تعالى بيَّن أنه ما خلق الخلقَ إلَّا لعبادته، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فلمَّا شرحَ أحوالَ الشمسِ والقمر والنهارِ والليلِ، كان [المعنى][1]: إنَّما خلقتُ هذه الأشياءَ لتنتفعوا بها فتصيروا متمكِّنين من الاشتغال بطاعتي، وإذا كان كذلك، فكلُّ مَن ورد عرصةَ القيامة سألته: هل أتى بتلك الطاعةِ أو تمرَّد وعصى. اهـ.

وقد يقال: وجهُ الربطِ أنَّ فيما تقدَّم شرحَ حالِ كتابِ الله تعالى المتضمِّنِ بيانَ النافعِ والضارِّ من الأعمال، وفي هذا شرحُ حالِ كتاب العبدِ الذي لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً من تلك الأعمالِ إلَّا أحصاها، وحسنُه وقبحُه تابعٌ للأخذ بما في الكتاب الأوَّل وعدمِه، فمَن أخذ به فقد هُدي، ومَن أعرضَ عنه فقد غَوَى.

وقولُه تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فذلكةٌ لما تقدَّم من كون القرآنِ هادياً للتي هي أقوم، وللزوم الأعمالِ لأصحابها. أي: اهتدى بهدايته، وعمل بما في تضاعيفه من الأحكام، وانتهى عمَّا نهاه عنه، فإنَّما تعود منفعةُ الاهتداءِ به إلى نفسهِ، لا تتخطَّاه إلى غيره ممَّن لم يهتدِ.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عمَّا يهديه إليه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فإنَّما وبالُ ضلالِه عليها، لا على مَن لم يباشره. حتى يُمكِنَ مفارقةُ العملِ صاحبَه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تأكيدٌ للجملة الثانية، أي: لا تحمل نفسٌ حاملةٌ للوزر وزرَ نفسٍ أخرى حتى يمكنَ تخلُّصُ النفسِ الثانيةِ عن وزرها ويختلَّ ما بين العاملِ وعملِه من التلازم. وخُصَّ التأكيدُ بالجملة الثانيةِ قطعاً للأطماع الفارغة، حيث كانوا يزعمون أنَّهم إنْ لم يكونوا على الحقِّ فالتَّبِعةُ على أسلافهم الذين قلَّدوهم.

ورُوي عن ابن عباسٍ أنَّها نزلت في الوليد بنِ المغيرة لمَّا قال: اكفروا بمحمدٍ وعليَّ أوزارُكم.

ولا ينافي هذه الآيةَ ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: ٨٥] وقولُه تعالى:

---

(١) زيادة من التفسير الكبير.

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] مِن حَمل الغيرِ وزرَ الغيرِ وانتفاعِه بحسنته وتضرُّره بسيئته؛ لأنَّه في الحقيقة انتفاعٌ بحسنة نفسِه وتضرُّرٌ بسيئته، فإنَّ جزاءَ الحسنة والسيئةِ اللَّتين يعملهما العاملُ لازمٌ له، وإنَّما يصل إلى مَن يشفع جزاءُ شفاعته، لا جزاءُ أصلِ الحسنةِ والسيئة، وكذلك جزاءُ الضَّلال مقصورٌ على الضالِّين، وما يحمله المضِلُّون إنَّما هو جزاءُ الإضلال لا جزاءُ الضلال. قاله شيخُ الإسلام(١).

ولهذه الآيةِ طعنت عائشةُ رضي الله عنها في صحَّة خبرِ ابن عمرَ رضي الله عنهما أنَّه ﷺ قال: «إنَّ الميِّت يعذَّب ببكاءِ أهلِه عليه»(٢)، فإنَّ فيه أَخذَ الإنسان بجُرم غيرِه، وهو خلافُ ما نطقت به الآية.

وأُجيب بأنَّ الحديث محمولٌ على ما إذا أَوصى الميِّتُ بذلك، فيكونُ ذلك التعذيبُ من قبيل جزاءِ الإضلال. وقيل: المرادُ بالميِّت المحتضرُ مجازاً، وبالتعذيب التعذيبُ في الدنيا، أي: إنَّ المحتضر يتألَّم ببكاء أهلِه عليه، فلا ينبغي أنْ يبكوا.

ولها أيضاً مَنَعَ جماعةٌ من قدماء الفقهاءِ صرفَ الدِّية على العاقلة؛ لما فيه من مؤاخذة الإنسان بفعل غيرِه.

وأُجيب بأنَّ ذلك تكليفٌ واقعٌ على سبيل الابتداءِ، وإلَّا فالمخطئُ نفسُه ليس بمؤاخَذٍ على ذلك الفعل، فكيف يؤاخَذ غيرُه عليه؟

واستدلَّ بها الجبائيُّ على أنَّ أطفالَ المشركين لا يعذَّبون، وإلَّا كانوا مؤاخذين بذنب آبائهم، وهو خلافُ ظاهرِ الآية. وزعم بعضُهم أنَّها نزلت فيهم، وليس بصحيح، نَعَم أخرج ابنُ عبد البرِّ في «التمهيد»(٣) بسند ضعيفٍ عن عائشةَ قالت: سألتْ خديجةُ رسولَ اللهِ ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «هم مِن آبائهم» ثم سأَلَته بعدَ ذلك، فقال: «اللهُ تعالى أعلمُ بما كانوا عاملين» ثم سأَلَته بعدما استحكم

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٢.
(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨).
(٣) ١٨/ ١١٧.

الإِسلامُ، فنزلت: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فقال: «هُم على الفِطرة» أو قال: «في الجنة».

والمسألةُ خلافية، وفيها مذاهبُ، فقال الأكثرون: هم في النَّار تَبَعاً لآبائهم، واستُدلَّ لذلك بما أَخرجه الحكيمُ الترمذيُّ في «نوادر الأُصول»[(١)] عن عائشةَ أيضاً قالت: سألتُ النبيَّ ﷺ عن وِلدان المسلمين: أين هم؟ قال: «في الجنَّة» وسألته عن وِلدان المشركين: أين هم؟ قال: «في النار» قلت: يا رسولَ الله، لم يُدركوا الأعمال، ولم تَجرِ عليهم الأقلام؟! قال: «ربُّكِ أعلمُ بما كانوا عاملين، والذي نفسي بيده إنْ شئتِ أَسمعتُكِ تضاغيَهم في النَّار» وفيه أنَّ هذا الخبرَ قد ضعَّفه ابنُ عبد البرِّ[(٢)]، فلا يُحتجُّ به، نعم صحَّ أنَّه ﷺ سئل عن أَولاد المشركين، فقال: «اللهُ تعالى أعلمُ بما كانوا عاملين»[(٣)] وليس فيه تصريحٌ بأنَّهم في النار، وحقيقةُ لفظِه: الله تعالى أعلمُ بما كانوا عاملين لو بلغوا. ولم يبلغوا، والتكليفُ لا يكون إلَّا بالبلوغ.

وأَخرج الشيخانِ وأصحابُ السُّنن[(٤)] وغيرُهم عن ابن عباسٍ قال: حدَّثني الصعبُ بنُ جثَّامة: قلت: يا رسولَ اللهِ، إنَّا نُصيب في البَيَات مِن ذَراري المشركين، قال: «هم منهم». وهو عند المخالفين محمولٌ على أنَّهم منهم في الأحكام الدُّنيوية، كالاسترقاق.

وتوقَّفت طائفةٌ فيهم، ومن هؤلاء أبو حنيفةَ رضي الله عنه.

وقيل: فيهم مَن يدخل الجنةَ ومَن يدخل النَّار، لِمَا أَخرج الحكيمُ الترمذيُّ في «النَّوادر»[(٥)] عن عبد اللهِ بن شدَّاد: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أتاه رجلٌ فسأله عن ذَراري المشركينَ الذين هلكوا صغاراً، فوضع رأسَه ساعةً ثم قال: «أين السائل»؟ فقال:

---

(١) ص٨٧.

(٢) في التمهيد ١٨/ ١٢٢.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٣) و(١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩) و(٢٦٦٠) من حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهم.

(٤) صحيح البخاري (٣٠١٢)، وصحيح مسلم (١٧٤٥)، وسنن أبي داود (٢٦٧٢)، والترمذي (١٥٧٠)، والسنن الكبرى للنسائي (٨٥٦٨)، وابن ماجه (٢٨٣٩).

(٥) ص٨٨.

ها أنذا يا رسولَ الله، فقال: «إنَّ اللهَ تبارك وتعالى إذا قضى بين أهل الجنَّة والنارِ ولم يبقَ غيرُهم، عجُّوا فقالوا: اللهمَّ ربَّنا لم تأتنا رسلُك، ولم نَعلم شيئاً، فأرسل إليهم مَلَكاً، واللهُ تعالى أعلمُ بما كانوا عاملين، فقال: إني رسولُ ربِّكم إليكم فانطلِقوا، فاتَّبعوا حتى أتَوا النارَ، فقال: إنَّ الله تعالى يأمركم أنْ تقتحموا فيها، فاقتحمت طائفةٌ منهم، ثم خرجوا من حيث لا يَشعر أَصحابُهم، فجُعلوا في السابقين المقرَّبين، ثم جاءهم الرسولُ فقال: إنَّ الله تعالى يأمركم أنْ تقتحموا في النَّار، فاقتحمت طائفةٌ أخرى، ثم أُخرجوا من حيث لا يشعرون، فجُعلوا في أصحاب اليمين، ثم جاء الرسولُ فقال: إنَّ الله تعالى يأمركم أنْ تقتحموا في النَّار، فقالوا: ربَّنا لا طاقَة لنا بعذابك، فأمر بهم، فجُمعت نواصيهم وأقدامُهم ثم أُلقوا في النَّار».

وذهب المحقِّقون إلى أنَّهم من أهل الجنَّة، وهو الصَّحيح، ويُستدلُّ له بأشياءَ، منها الآيةُ على ما سمعتَ عن الجبَّائي.

ومنها حديثُ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام حين رآه النبيُّ ﷺ في الجنَّة وحولَه أولادُ الناس، قالوا: يا رسولَ الله، وأولادُ المشركين؟ قال: «وأولادُ المشركين» رواه البخاريُّ في «صحيحه»[١].

ومنها ما أَخرجه الحكيمُ الترمذيُّ أيضاً في «النَّوادر»[٢]، وابنُ عبد البرِّ[٣] عن أنسٍ قال: سألنا رسولَ الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: «هم خدَّام أهلِ الجنة».

ومنها الآيةُ الآتيةُ حيث أفادت أنْ لا تعذيبَ قبل التكليف، ولا يتوجَّه على المولود التكليفُ ويَلزمُه قولُ الرسولِ عليه الصَّلاة والسلام حتى يَبلغ.

ولم يخالف أحدٌ في أنَّ أولادَ المسلمين في الجنة، إلَّا بعض مَن لا يُعتدُّ به، فإنَّه توقَّف فيهم؛ لحديث عائشة[٤]: توفِّي صبيٌّ من الأنصار، فقلت: طوبَى له،

---

(١) برقم (٧٠٤٧).

(٢) ص٨٨.

(٣) في التمهيد ١٨/ ١١٨.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٢).

عُصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعملِ السوءَ ولم يُدرِكه، فقال ﷺ: «أوَغيرَ ذلك يا عائشة، إنَّ اللهَ تعالى خلق للجنَّة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنَّار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلابِ آبائهم».

وأجاب العلماءُ عنه بأنَّه لعلَّه عليه الصلاة والسلام نهاها عن المسارعة إلى القَطع من غيرِ أن يكونَ لها دليلٌ قاطع، كما أَنكر على سعد بن أبي وقَّاص في قوله: أَعطِه إني لَأراه مؤمناً، قال: «أوْ مسلماً...» الحديث[1]. ويحتمل أنَّه ﷺ قال ذلك قبل أنْ يعلمَ أنَّ أطفال المسلمين في الجنَّة، فلمَّا عَلِمَ قال ذلك في قوله ﷺ: «ما مِن مسلم يموت له ثلاثةٌ من الولد لم يَبلغوا الحِنث، إلَّا أَدخله اللهُ تعالى الجنةَ بفضله ورحمتِه إيَّاهم»[2] إلى غيرِ ذلك من الأَحاديث.

وقال القاضي: دلَّت الآيةُ على أنَّ الوِزر ليس مِن فعله تعالى؛ لأنَّه لو كان كذلك، لامتنع أن يؤاخَذَ العبدُ به، كما لا يؤاخَذ بوِزر غيرِه، ولأنَّه كان يجب ارتفاعُ الوزرِ أصلاً، لأنَّ الوازرَ إنَّما يوصَف بذلك إذا كان مختاراً يمكنه التحرُّز؛ ولهذا المعنى لا يوصَف الصبيُّ بذلك. وأنت تعلم أنَّ هذا إنَّما ينتهض على الجبرية، لا على الجماعةِ القائلين: لا جبرَ ولا تفويض.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ بيانٌ للعناية الربَّانية إثرَ بيانِ اختصاصِ آثارِ الهداية والضَّلال بأصحابها، وعدمِ حرمان المهتدي من ثَمرات هدايته، وعدم مؤاخذةِ النَّفس بجناية غيرِها، أي: وما صحَّ وما استقام منَّا بل استحال في سنَّتنا المَبنيَّةِ على الحِكَم البالغة، أو: ما كان في حكمنا الماضي وقضائنا السابقِ أن نعذِّبَ أحداً بنوعٍ ما من العذاب، دنيويًّا كان أو أخرويًّا، على فعل شيءٍ أو تركِ شيء، أصليًّا كان أو فرعيًّا ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ﴾ إليه ﴿رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ يَهدي إلى الحقِّ ويَردع عن الضَّلال ويُقيم الحُجَجَ ويمهِّد الشرائع، أو: حتى نبعثَ رسولاً كذلك تَبلغه دعوتُه، سواءٌ كان مبعوثاً إليهِ أم لا، على ما ستعلمه إنْ شاءَ اللهُ تعالى من الخلاف.

وهذا غايةٌ لعدم صحَّةِ وقوع العذابِ في وقته المقدَّر له، لا لعدم وقوعِه مطلقاً،

(١) أخرجه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠) من حديثه رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (١٢٤٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

كيف والأُخرويُّ لا يمكن وقوعُه عقيبَ البعث، والدنيويُّ لا يحصل إلَّا بعد تحقُّق ما يوجِبه من الفِسق والعصيان؟ أَلا يرى إلى قومِ نوحٍ عليه السلام كيف تأخَّر عنهم ما حلَّ بهم زهاءَ ألفِ سَنَة؟

وألزم المعتزلةُ القائلون بالوجوب العقليِّ قبل البعثةِ بهذه الآية؛ لأنَّه تعالى نفَى فيها التعذيبَ مطلقاً قبل البعثة، وهو من لوازم الوجوبِ بشرط تركِ الواجب عندهم، إذ لا يجوِّزون العفوَ، فينتفي الوجوبُ قبل البعثةِ لانتفاء لازمِه، ومحصولُه أنَّه لو كان وجوبٌ عقليٌّ لَثبت قبلَ البعثة، ولا شبهةَ في أنَّ العقلاءَ كانوا يتركون الواجباتِ حينئذ، فيَلزم أن يكونوا معذَّبين قبلها، وهو باطلٌ بالآية.

وتعقِّب بأنه إنَّما يتمُّ إذا أُريد بالعذاب ما يشمل الدنيويَّ والأخرويَّ كما أُشير إليه، لكن المناسب لِما بعدُ أن يرادَ عذابُ الاستئصالِ في الدنيا، ولا يَلزم من انتفاء العذابِ الدنيويِّ قبل البعثِ انتفاءُ الوجوب؛ لأنَّ لازم الوجوبِ عندهم هو العذابُ الأخرويّ.

وأُجيب بعد تسليم أنَّ المناسب لما بعدُ أن يرادَ العذابُ الدنيويُّ: بأنَّ الآية لمَّا دلَّت على أنَّه لا يليقُ بحكمته إيصالُ العذابِ الأدنَى على تركِ الواجبِ قبل التنبيهِ ببعثة الرسول، فدلالتُها على عدم إيصالِ العذابِ الأكبرِ على تركه قبلَ ذلك أَولى.

وأَورد الأَصفهانيُّ(١) في شرح «المحصول» على مَن استدلَّ بالآية على نفي الوجوبِ العقليِّ قبل البعثةِ أموراً: الأوَّل: أنَّ المراد بالرَّسول فيها العقل. الثاني: أنَّا سلَّمنا أنَّ المراد النبيُّ المرسَل، لكن الآيةَ دلَّت على نفي تعذيبِ المباشرةِ قبل البعثة، ولا يَلزمُ منه نفيُ مطلقِ التعذيب. الثالث: أنَّا سلَّمنا ذلك، لكن ليس في الآية دلالةٌ على نفي التعذيبِ قبلها عن كلِّ الذنوب. الرابع: أنا سلَّمنا الدلالةَ، لكن لا يلزمُ من نفي المؤاخذةِ انتفاءُ الاستحقاق؛ لجواز سقوطِ المؤاخذةِ بالمغفرة.

ثمَّ أجاب عن الأوَّل بأنَّ حقيقة الرسولِ هو النبيُّ المرسَل، والأصلُ في الكلام الحقيقةُ. وعن الثاني بأنَّ مِن شأن عظيمِ القَدْر التعبيرُ عن نفي التعذيبِ مطلقاً بنفي

---

(١) هو شمس الدين محمد بن محمود الأصفهاني المتوفى سنة (٦٧٨هـ). وشرحه على كتاب المحصول حافل، ومات ولم يكمله، ذكره السبكي. كشف الظنون ٢/ ١٦١٥.

المباشرة. وعن الثالث بما أشرنا إليه من أنَّ تقديرَ الكلام: وما كنَّا معذِّبين أحداً، ويَلزم من ذلك انتفاءُ تعذيبِ كلٍّ واحدٍ من الناس، وذلك هو المطلوبُ؛ لأنَّ الخصمَ لا يقول به. وعن الرابع بأنَّ الآية تدلُّ على انتفاء التعذيبِ قبلَ البعثة، وانتفاؤه قبلَها ظاهراً يدلُّ على عدم الوجوبِ قبلها، فمَن ادَّعى أنَّ الوجوب ثابتٌ وقد وقع التجاوزُ بالمغفرة فعليه البيانُ. اهـ.

وأنت تعلم أنَّه إذا كان الاستدلالُ إلزاميًّا كما قال به غيرُ واحد، لا يَرِد الأمرُ الرابع أصلاً؛ لأنَّ المعتزلة لا يجوِّزون العفوَ عن تارك الواجبِ العقليِّ، وقد أشرنا إلى ذلك، نَعَم قال المراغيُّ في شرح «منهاج الأُصول» للقاضي: لا حاجةَ إلى جعل الدليلِ إلزاميًّا بل يجوز إتمامُه على تقدير جوازِ العفوِ أيضاً بأن يقالَ: وقوعُ العذابِ وإنْ لم يكن لازماً للوجوب، لكن عدمَ الأمنِ من وقوعه لازمٌ له ضرورةً؛ إذ يجوز العقابُ على ترك الواجبِ عندنا وإنْ لم يجب، وهذا اللازمُ، أعني عدمَ الأمنِ، منتفٍ؛ لدلالة الآيةِ على عدم وقوعِه، فينتفي الملزوم.

ورُدَّ ذلك أوَّلاً: بمنعِ أنَّ عدمَ الأمنِ من وقوع العذابِ من لوازم تركِ الواجبِ مطلقاً، بل عدمُ الأمن إذا لم يتيقَّن عدمُ وقوعِ العذاب بدليلٍ آخر.

وأمَّا ثانياً: فبأنَّ انتفاءَ عدمِ الأَمن إنَّما هو بالآية؛ إذ قبلَ ورودِها كان العقابُ جائزاً، ولا شكَّ أنَّ انتفاءه بها انتفاءٌ بالعفو؛ لأنَّ معنى العفوِ عدمُ العقاب، والآيةُ تدلُّ عليه، فلم يتمَّ الدليلُ على تقدير جوازِ العفو. وهو كما ترى.

وقيل: نجعل اللازمَ جوازَ العقاب، فيتمُّ الدليل تحقيقاً؛ لأنَّ جواز العفوِ لا ينافي جوازَ العقاب.

وردَّ بأنَّ الملازمةَ القائلةَ بأنَّه لو كان الوجوبُ ثابتاً قبل الشرعِ لَعذِّب تاركُ الواجب وإن كانت مسلَّمة حينئذ، لكنَّ بطلانَ التالي ممنوعٌ؛ لأنَّ الآية إنَّما تدلُّ على نفيِ وقوعِ العذابِ لا على نفي جوازِه.

وفيه أنَّ معنى: «ما كنَّا معذِّبين» ما سمعتَ، وهو يدلُّ على نفي الجواز. وقد كثر استعمالُ هذا التركيبِ في ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٩]

«وما كنا لاعبين»[(١)] إلى غير ذلك، ولو أُريد نفيُ الوقوعِ لَقيل: وما نعذِّب حتى نبعثَ رسولاً.

وضعَّف الإمامُ[(٢)] الاستدلالَ بالآية بأنَّه لو لم يَثبت الوجوبُ العقليُّ لم يثبت الوجوبُ الشرعيُّ البتَّة، وهذا باطلٌ، فذاك باطل، قال: بيانُ الملازمةِ من وجوه:

أحدها: أنَّه إذا جاءَ الشارعُ وادَّعى كونَه نبيًّا من عند اللهِ تعالى وأظهرَ المعجزة، فهل يجبُ على المستمع استماعُ قولِه والتأمُّلُ في معجزته أو لا يجب؟ فإنْ لم يجب، فقد بطل القولُ بالنبوَّة، وإن وجب، فإمَّا أن يجبَ بالشَّرع أو بالعقل، فإن وجب بالعقل فقد ثبت الوجوبُ العقليُّ، وإنْ وجب بالشَّرع فهو باطلٌ؛ لأنَّ ذلك الشارعَ إمَّا أن يكونَ هو ذلك المدَّعي أو غيرَه، والأوَّل باطل؛ لأنَّه يرجع حاصلُ الكلامِ إلى أن يقولَ ذلك الرجل: الدليل على أنَّه يجب قَبولُ قولي أنّي أَقول: يجب قبولُ قولي. وهذا إثباتٌ للشيء بنفسه. وإنْ كان غيره، كان الكلامُ فيه كما في الأوَّل، ولزم إمَّا الدَّور أو التسلسلُ، وهما محالان.

وثانيها: أنَّ الشرع إذا جاء وأَوجبَ بعضَ الأفعالِ وحرَّم بعضَها، فلا معنى للإيجاب والتحريم إلَّا أن يقول: لو تركتَ كذا أو فعلتَ كذا لَعاقبتُك، فنقول: إمَّا أن يجبَ عليه الاحترازُ عن العقاب أو لا يجب، فإن لم يجب، لم يتقرَّر معنى الوجوبِ البتَّةَ، وإنْ وجب، فإمَّا أن يجبَ بالعقل أو بالسَّمع، فإنْ وجب بالعقل فهو المقصودُ، وإنْ وجب بالسَّمع، لم يتقرَّر معنى الوجوبِ إلَّا بسبب ترتيبِ العقابِ عليه، وحينئذٍ يعود التقسيمُ الأولُ ويلزم التسلسلُ، وهو محال.

وثالثها: أنَّ مذهب أهلِ السُّنة أنَّه يجوز من الله تعالى العفوُ عن العقاب على تركِ الواجب، وإذا كان كذلك، كانت ماهيَّةُ الوجوبِ حاصلةً مع عدم العقاب، فلم يبقَ إلَّا أن يقالَ: إنَّ ماهيةَ الوجوبِ إنما تتقرَّر بسبب حصولِ الخوفِ من العقاب، وهذا الخوفُ حاصلٌ بمحض العقل، فثبت أنَّ ماهيةَ الوجوبِ إنَّما تحصلُ بسبب

---

(١) لا توجد آية بهذا اللفظ، وإنما جاء في سورة الأنبياء [١٦]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾.

(٢) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٧٢-١٧٣.

هذا الخوف، وأنَّ هذا الخوفَ حاصلٌ بمجرَّد العقل، فلزم أنْ يقال: الوجوبُ حاصلٌ بمجرَّد العقل، فإنْ قالوا: ماهيةُ الوجوبِ إنَّما تتقرَّر بسبب حصولِ الذَّمّ، قلنا: إنَّه تعالى إذا عفا فقد سقط الذَّمّ، فعلى هذا ماهيةُ الوجوبِ إنَّما تتقرَّر بسبب حصولِ الخوفِ من الذمِّ، وذلك حاصلٌ بمحضِ العقل، فثبت بهذه الوجوهِ أنَّ الوجوب العقليَّ لا يمكن دفعُه. اهـ.

وتعقَّبه العباديُّ بأنه يمكنُ الجوابُ عن الأوَّل بأنَّه إذا أَظهر المعجزةَ على دعواه أنَّه رسول، ثبت صدقُه كما تقرَّر في محلِّه، فيجب قبولُ قولِه في كلِّ ما يُخبر به عن الله تعالى، من غير لزومِ محذورٍ من إثبات الشيءِ بنفسه أو الدَّورِ أو التسلسل، وإنْ كان ثبوتُ ما أَخبر به بالشَّرع، بمعنى أنَّ ثبوته بإخبار مَن ثبتت رسالتُه بالمعجزة عن الله تعالى بذلك، وليس حاصلُ الكلام على هذا أنَّه يقول: الدليلُ على أنَّه يجب قبولُ قولي أنِّي أقول: يجب [قبولُ][1] قولي، حتى يلزمَ ما يلزمُ، بل حاصلُه أنَّه يقول: يجب قبولُ قولي لأنَّه ثبت أنِّي رسولُ اللهِ تعالى، فيجبُ صدقي وتصديقي في كلِّ ما أدَّعيه. وليس في هذا شيءٌ من المحاذير السَّابقة.

وقد صرَّح السيدُ السندُ في شرح «المواقف»[2] بأنَّه يَثبت الشرعُ وتجب المتابعةُ بمجرَّد دعوى الرسالةِ مع اقتران المعجزةِ وتمكُّنِ المبعوث إليه العاقلِ من النَّظر وإنْ لم ينظر، وذَكَرَ أنه حينئذٍ لا يجوز للمكلَّف الاستمهال، ولو استَمهلَ لم يجب الإِمهال؛ لجريان العادةِ بإيجاب[3] العلمِ عقيبَ النظرِ الذي هو متمكِّن منه.

فعُلم أنَّه بمجرَّد دعوى الرسالةِ مع ما ذكر يثبت الوجوبُ بإخباره، وهو ثبوتُ الشَّرع؛ لأنَّ معنى الثبوتِ به هو الثبوتُ بالإخبار عن الله تعالى حقيقةً أو حكماً، وعلى هذا لا يتأتَّى الترديدُ الذي ذكره بقوله: لأنَّ ذلك الشرعَ إمَّا أن يكونَ. .إلخ، فلْيتأمَّل.

وعن الثاني بأنَّ وجوبَ الاحترازِ عن العقاب ليس أمراً أجنبيًّا عن وجوبِ كذا حتى يتوجَّهَ عليه الترديدُ الذي ذكره، بل هو نفسُ وجوبِ كذا، أو لازمُه؛ إذ

---

(١) ما بين حاصرتين لم يرد في الأصل و(م)، وهي زيادة يقتضيها السياق.
(٢) ٨/ ٢٣٢.
(٣) في شرح المواقف: بإيجاد.

الاحترازُ ليس إلَّا بالإتيان بكذا الذي هو الواجبُ، فوجوبُ الاحترازِ إمَّا وجوبُ كذا أو لازمُه، فوجوبُه بوجوبه، فلا يَلزم الترديدُ المذكور.

وعن الثالث بأنَّه إن أراد بقوله: إنَّ ماهيةَ الواجبِ إنَّما تتقرَّر بسبب حصولِ الخوفِ من العقاب، أنَّ حصولَ الواجبِ في الخارج بالإتيان به إنَّما هو بسبب حصولِ الخوف، فليس الكلامُ فيه، ومع ذلك إنَّا لا نسلِّم أنَّ الإتيان بالواجب متوقِّف على حصول الخوف، وإنْ أراد أن تحقُّق وجوبِ الواجب ـ أي: تعلُّقَ وجوبِه بالمكلَّف الذي هو التكليفُ التنجيزيُّ ـ متوقِّف على حصول الخوفِ المذكور، فهو ممنوعٌ كما هو ظاهر. اهـ، فتدبَّر.

وأنت تعلم أنَّ الاستدلالَ بالآية على تقدير تمامِه لا يختصُّ بالمعتزلة، بل يشاركهم في ذلك أحدُ فريقَي الحنفيةِ من أهلِ السُّنَّة، وهم الماتريديةُ وعامةُ مشايخِ سمرقند؛ لأنَّهم وإنْ لم يقولوا كالمعتزلة بأنَّ العقلَ حاكمٌ بالحُسن والقُبح اللَّذين أثبتوهما جميعاً، لكنَّهم قالوا: إنَّ العقل آلةٌ للعلم بهما، فيخلقه اللهُ تعالى عقيبَ نظرِ العقل نظراً صحيحاً. وأوجبوا الإيمانَ بالله تعالى وتعظيمَه، وحرَّموا نسبةَ ما هو شنيعٌ إليه سبحانه، حتى رُوي عن أبي حنيفةَ رضي الله عنه أنَّه قال: لو لَم يَبعث اللهُ تعالى رسولاً، لوَجبَ على الخلق معرفتُه. وقد صرَّح غيرُ واحدٍ من علمائهم بأنَّ العقل حجَّةٌ من حُجج اللهِ تعالى، ويجب الاستدلالُ به قبلَ ورودِ الشَّرع، واحتجُّوا في ذلك بما أَخبر اللهُ تعالى به عن إبراهيمَ عليه السلام من قوله لأبيه وقومِه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤] حيث قال ذلك ولم يَقُل: أُوحي إليَّ، ومن استدلاله بالنُّجوم ومعرفةِ اللهِ تعالى بها وجعلِها حجَّةً على قومه، وكذاك كلُّ الرسلِ حاجُّوا قومهم بحُجَج العقل، كما ينبئ عنه قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [إبراهيم: ١٠] وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ الآية [المؤمنون: ١١٧] حيث لم يقل: ومَن يدعُ مع اللهِ إلهاً آخَرَ بعد ما أُوحي إليه أو بلغته الدَّعوة، وبقوله سبحانه خبراً عن أهل النَّار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] حيث أخبروا أنَّهم صاروا في النَّار لتركهم الانتفاعَ بالسَّمع والعقل.

وفيه أنَّهم لو انتفعوا بالعقول في معرفة الصانعِ قبلَ ورودِ الشَّرع، لم يصيروا في

النَّار، وبأنَّ الحُجج السمعيةَ لم تكن حججاً إلَّا باستدلال عقليٍّ، وبأنَّ المعجزة بعد الدَّعوة لا تُعرف إلَّا بدليل عقليٍّ، وآياتُ الأنفسِ والآفاقِ أدلُّ على الصانع من دلالة المعجزةِ على أنَّها من الله تعالى، فلمَّا كان بالعقل كفايةُ معرفةِ المعجزة، كان به كفايةُ معرفةِ اللهِ تعالى من طريق الأولى، وبأنَّ دعاء جميع الكَفَرة إلى دين الإسلام واجبٌ على الأمَّة، ومعلومٌ أن الدَّهرية لا يُحتجُّ عليهم بكلامِ اللهِ تعالى ورسولِه عليه الصلاة والسلام، فلم يبقَ إلَّا حُجَجُ العقولِ، إلى غير ذلك، وحينئذٍ يقال لهم: لو وَجَبَ على الخلق معرفةُ اللهِ تعالى والإيمانُ به قبلَ بعثةِ رسول، لَزِمَ تعذيبُ الكافرِ قبلها؛ لإخباره تعالى بأنَّه لا يَغفر الشركَ به، وقد نفى التعذيبَ في الآية، فلا وجوبَ، ضرورةَ انتفاءِ الملزوم بانتفاء اللازم، على نهج ما فُعل مع المعتزلة.

والإمام الرازيُّ بعد أن ضعَّف الاستدلالَ بالآية وأثبت الوجوبَ العقليَّ، ذكر في الآية وجهين: الأوَّل: حملُ الرسولِ على العقل. والثاني: تخصيصُ العمومِ بأن يقال: المرادُ: وما كنَّا معذِّبين في الأعمال التي لا سبيلَ إلى معرفتها إلَّا بالشَّرع إلَّا بعد مجيء الشَّرع، ثم قال: والذي نرتضيه ونذهب إليه أنَّ مجرَّد العقل سببٌ في أن يجبَ علينا فعلُ ما يُنتفعَ به وتركُ ما يتضرَّر به، ويمتنع أن يحكمَ العقلُ عليه تعالى بوجوب فعلٍ أو تركِ فعل(١). اهـ.

وأنت تعلم ما قيل مِن حَمل الرَّسولِ على العقل، وهو خلافُ استعمالِ القرآنِ الكريم، ويُبعده توبيخُ الخزنةِ الكفارَ بقولهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٥٠] ولم يقولوا: أوَلم تكونوا عقلاءَ، وحملُ الرسولِ فيه على العقل ممَّا لا يرتضيه العقلُ، واعتذر هو عن التخصيصِ بأنَّه وإنْ كان عدولاً عن الظَّاهر، إلَّا أنَّه يجب المصيرُ إليه إذا قام الدليلُ عليه، وقد قام بزعمه.

وأبو منصورٍ الماتُريديُّ ومتَّبعوه حملوا الآيةَ على نفي تعذيبِ الاستئصالِ في الدُّنيا، وذهب هؤلاء إلى تعذيب أهل الفترةِ بترك الإيمانِ والتوحيد، وهم: كلُّ مَن كان بين رسولَين ولم يكن الأولُ مرسَلاً إليهم ولا أدركوا الثاني.

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ١٧٢-١٧٤.

واعتمد القولَ بتعذيبهم النوويُّ في «شرح مسلم»(١) فقال: إنَّ مَن مات في الفترة على ما كانت عليه العربُ من عبادة الأوثانِ في النَّار، وليس في هذا مؤاخذةٌ قبل بلوغِ الدَّعوة، فإنَّ هؤلاء كانت بلغتهم دعوةُ إبراهيمَ وغيرِه من الرُّسل عليهم السلام.

والظاهرُ أن النوويَّ يكتفي في وجوب الإيمان على كلِّ أحدٍ ببلوغه دعوةَ مَن قبله من الرُّسل وإنْ لم يكن مرسَلاً إليه، فلا منافاةَ بين حكمه بأنَّهم أهلُ فترةٍ بالمعنى السابق وحكمِه بأنَّ الدعوةَ بلغتهم، خلافاً للأُبِّيِّ في زعمه ذلك(٢)، نَعَم إنَّما تلزم المنافاةُ لو ادَّعى أنَّ مَن تقدَّمهم من الرُّسل مرسلٌ إليهم، وليس فليس.

وإلى ذلك ذهب الحليميُّ، فقال في «منهاجه»(٣): إنَّ العاقلَ المميِّز إذا سمع أيةَ دعوةٍ كانت إلى الله تعالى، فترك الاستدلالَ بعقله على صحَّتها وهو من أهل الاستدلالِ والنَّظر، كان بذلك مُعرِضاً عن الدَّعوة، فكفر، ويَبعد أن يوجَد شخصٌ لم يبلُغْه خبرُ أحدٍ من الرُّسل على كثرتهم، وتطاولِ أزمانِ دعوتهم، ووفورِ عددِ الذين آمنوا بهم واتَّبعوهم، والذين كفروا بهم وخالفوهم؛ فإنَّ الخبرَ قد يَبلغ على لسان المخالفِ كما يبلغُ على لسان الموافق، ولو أمكن أن يكونَ لم يسمع قطُّ بدينٍ ولا دعوةِ نبيٍّ، ولا عَرَفَ أنَّ في العالَم مَن يُثبت إلهاً، ولا نرى أنَّ ذلك يكون، فأَمرُه على الاختلاف في أنَّ الإيمان هل يجب بمجرَّد العقلِ أو لا بدَّ من انضمام النقل.

وهذا صريحٌ في ثبوت تكليفِ كلِّ أحدٍ بالإيمان بعد وجودِ دعوةِ أحدٍ من الرُّسل وإنْ لم يكن رسولاً إليه، وبالغ بعضُهم في اعتماد ذلك حتى قال: فمَن بلغته دعوةُ أحدٍ من الرُّسل عليهم السلام بوجهٍ من الوجوه فقصَّر في البحث عنها، فهو كافرٌ من أهل النَّار، فلا تغترَّ بقول كثيرٍ من النَّاس بنجاة أهلِ الفَترة مع إخبار النبيِّ ﷺ بأنَّ آباءهم الذين مضَوا في الجاهلية في النَّار. اهـ.

---

(١) ٣/ ٧٩.

(٢) في إكمال إكمال المعلم ١/ ٣٦٩-٣٧١. وهو أبو عبد الله محمد بن خِلْفة المعروف بالأبي الوشتاتي، وصفه ابن حجر بأنه عالم المغرب بالمعقول. وله شرح المدونة. مات سنة (٨٢٧هـ). شجرة النور الزكية ص٢٤٤، والبدر الطالع ٢/ ١٦٩، والأعلام ٦/ ١١٥.

(٣) ١/ ١٧٥.

والذي عليه الأشاعرةُ من أهل الكلام والأُصولِ والشافعيةُ من الفقهاء أنَّ أهلَ الفترةِ لا يعذَّبون، وأطلقوا القولَ في ذلك، وقد صحَّ تعذيبُ جماعةٍ من أهل الفَترة. وأُجيب بأنَّ أحاديثَهم آحادٌ لا تعارض القطعَ بعدم التعذيبِ قبلَ البعثة، وبأنَّه يجوزُ أن يكونَ تعذيبُ مَن صحَّ تعذيبُه منهم لأمرٍ مختصٍّ به يقتضي ذلك عَلِمَه اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ، نظير ما قيلَ في الحكمِ بكفر الغلامِ الذي قتله الخَضِرُ عليه السلام مع صِباه.

وقيل: إنَّ تعذيبَ هؤلاء المذكورين في الأحاديث مقصورٌ على مَن غيَّر وبدَّل من أهل الفترةِ بما لا يُعذَر به، كعبادة الأوثانِ وتغييرِ الشرائع، كما فعلَ عَمرو بن لُحيّ.

ولا يخفَى أنَّ هذا لا يوافق إطلاقَ هؤلاء الأئمة، ولا القولَ بأنَّه لا وجوبَ إلَّا بالشرع، ولو أمكنَ أن يكون مَن ثبت تعذيبُه من أَتباع مَن بقي شرعُه إذ ذاك، كعيسى عليه السلام، لم يبقَ إشكالٌ أصلاً.

واستَدلَّ بعضُ مَن يقول بتعذيبهم مطلقاً بما أَخرج الحكيمُ الترمذيُّ في «نوادر الأُصول»[(١)] والطبرانيُّ[(٢)]، وأبو نُعيم[(٣)] عن معاذ بن جبلٍ، عن رسولِ الله ﷺ قال: «يؤتَى يومَ القيامة بالممسوخ عقلاً، وبالهالك في الفَترة، وبالهالك صغيراً، فيقول الممسوخُ عقلاً: يا ربِّ، لو آتيتَني عقلاً، ما كان مَن آتيتَه عقلاً بأسعدَ بعقله منِّي، ويقول الهالكُ في الفترة: يا ربِّ، لو أتاني منك عهدٌ، ما كان مَن أتاه منك عهدٌ بأسعدَ بعهدك منِّي، ويقول الهالكُ صغيراً: يا ربِّ، لو آتيتَني عُمراً، ما كان مَن آتيتَه عُمراً بأسعدَ بعُمره منِّي، فيقولُ لهم الربُّ تبارك وتعالى: فاذهبوا فادخُلوا جهنَّم، ولو دخلوها ما ضرَّتهم شيئاً، فتخرج عليهم قوابصُ[(٤)] من نارٍ يظنُّون أنَّها قد أَهلكتْ ما خلق اللهُ تعالى من شيءٍ، فيرجعون سِراعاً ويقولون: يا ربَّنا خرجنا وعزَّتك نريد دخولَها فخرجت علينا قوابصُ من نارٍ ظننَّا أنْ قد أهلكتْ ما خلق اللهُ

(١) ص٨٧-٨٨.
(٢) في الأوسط (٧٩٥٥).
(٣) في الحلية ٥/ ١٢٧.
(٤) أي: طوائف وجماعات. النهاية (قبص).

تعالى مِن شيءٍ، ثم يأمرهم ثانيةً، فيرجعون لذلك ويقولون كذلك، فيقول الربُّ تعالى: خلقتُكم على عِلمي وإلى عِلمي تصيرون، يا نارُ ضمِّيهم، فتأخذهم النَّار».

وبعضُ الأخبار يَقتضي أنَّ منهم مَن يعذَّب ومنهم مَن لا يعذَّب. فقد أخرج أحمدُ[1]، وابنُ راهويه[2]، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ[3] عن أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أربعة يحتجُّون يومَ القيامة: رجلٌ أصمُّ لا يسمع شيئاً، ورجلٌ أحمقُ، ورجل هَرِم، ورجلٌ مات في فترة. فأمَّا الأصمُّ فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلامُ وما أسمعُ شيئاً، وأمَّا الأحمقُ فيقول: ربِّ جاء الإسلامُ والصِّبيان يَحذفونني بالبَعر، وأما الهَرِمُ فيقول: ربِّ لقد جاء الإسلامُ وما أَعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربِّ ما أتاني لك رسولٌ. فيأخذُ سبحانه مواثيقَهم لَيطيعُنَّه، فيُرسل إليهم رسولاً أن ادخُلوا النَّار، فمَن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومَن لم يدخلْها سُحب إليها».

وأَخرج قاسمُ بن أصبغ، والبزَّار[4]، وأبو يَعلى[5]، وابنُ عبد البرِّ في «التمهيد»[6] عن أنسٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يؤتَى يومَ القيامةِ بأربعة: بالمولود، والمعتوه، ومَن مات في الفَترة، والشيخ الهَرِم الفاني، كلُّهم يتكلَّم بحجَّته، فيقول الربُّ تبارك وتعالى لعُنُقٍ من جهنَّم[7]: ابرُزي، ويقول لهم: إنِّي كنت أبعث إلى عبادي رسلاً مِن أنفسهم وإني رسولُ نفسي إليكم، فيقول لهم: ٱدخلوا هذه، فيقول مَن كُتب عليه الشَّقاء: يا ربِّ، أتُدخِلُناها ومنها كنَّا نفرُّ؟ وأمَّا مَن كُتب له السعادةُ، فيَمضي فيقتحمُ فيها، فيقول الربُّ تعالى: قد عاينتموني فعصيتموني، فأنتم لرُسلي أشدُّ تكذيباً ومعصيةً، فيدخلُ هؤلاء الجنةَ وهؤلاء النَّار».

---

(١) في المسند (١٦٣٠٢).

(٢) في مسنده (٤٢).

(٣) في الاعتقاد ص١١١.

(٤) كشف الأستار ٧/٢١٦.

(٥) في مسنده (٤٢٢٤).

(٦) ١٨/١٢٨.

(٧) أي: طائفة منها. النهاية (عنق).

إلى غير ذلك من الأخبار، ويحتجُّ بها مَن قال بانقسام ذراري المشركين، بل وذراري المؤمنين، وفي القلب من صحَّتها شيءٌ، وإنْ قال في «الإصابة»(١): إنَّها وردت من عدَّة طُرُق، وعلى تقدير صحَّتها فمعارِضُها أصحُّ منها.

والذي يميلُ إليه القلبُ أنَّ العقل حجَّة في معرفة الصانعِ تعالى ووحدتِه، وتنزُّهِه عن الولد سبحانه قبلَ ورودِ الشَّرع؛ للأدلَّة السابقةِ وغيرِها وإنْ كان في بعضها ما يقال، وإرسالُ الرسلِ وإنزالُ الكتبِ رحمةٌ منه تعالى، أو أنَّ ذلك لبيان ما لا يُنال بالعقول من أنواع العباداتِ والحدود، فلا يَرِد أنَّه لو كان العقلُ حجَّةً، ما أرسل الله تعالى رسولاً ولاكتفَى به.

وقيل في جوابه: لمَّا كان أمرُ البعثِ والجزاءِ مما يُشكل على العقلِ وحدَه إلَّا بعظيم تأمُّلٍ فيه حرجٌ يُعذَر الإنسانُ بمثله ولا إيمانَ بدونه، بَعَثَ اللهُ تعالى الرسلَ عليهم السلام لبيان ما به تتمَّةُ الدِّين، لا لنفس معرفةِ الخالق؛ فإنَّها تُنال ببداية العقول، فالبَعرة تدلُّ على البعير، والأثَرُ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذات فِجاج، وبحارٌ ذات أمواج، ألا تدلُّ على اللطيف الخبير؟

وأيضاً إنَّ اللهَ لم يَدَعْنا ورسولاً من أوَّل الأمر إلى آخره، والحجَّةُ كانت قائمةً بالواحد كما بقيت بمحمَّد ﷺ إلى يوم القيامة، ولم يدلَّ ذلك على أنَّ الأولَ لم يكن حجَّةً كافيةً، وكذلك لم يَدَعْنا سبحانه والبيانَ بآيةٍ واحدة، بل منَّ علينا جلَّ شأنُه بآيات متكرِّرة، ولا يدلُّ ذلك أنَّ الآيةَ الواحدة لم تكن حجَّةً كافية.

وقولُه تعالى خبراً عن قول الخزنةِ لأهل النار: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٥٠] توبيخٌ بالأظهر، وهو لا يدلُّ على أنَّ الآخر ليس بحجَّة، وقولُه تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] على معنى: لئلَّا يكونَ لهم احتجاجٌ بزعمهم بأنْ يقولوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤]، وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١] محمولٌ على الإهلاك بعذاب الاستئصالِ في الدنيا على تكذيب الرُّسل، وأمَّا جزاءُ الكفرِ فالنار في العُقبى.

(١) ١١/ ٢٢٤.

وكذا يُقال في الآية التي نحن فيها؛ لكثرة ما يدعو إليه، فلا عذرَ لمن لم يعرف ربَّه سبحانه من أهل الفَترةِ إذا كان عاقلاً مميِّزاً متمكِّناً من النَّظر والاستدلال، لا سيَّما إذا بلغته دعوةُ رسولٍ من الرُّسل عليهم السلام، ولا يكادُ يوجَدَ مَن لم تبلغه، كما سمعتَ عن الحليميِّ، وقيل: بوجوده في أمريقا، وهي المسمَّاة بـ: ينكي دنيا[١]، قبلَ أن يَظفرَ بها في حدود الألفِ بعد الهجرةِ كرشتوفيل المشهور بقلونبو[٢]؛ فإنَّ أهلَها ـ على ما بلغنا ـ إذ ذاك لم يسمعوا بدعوة رسولٍ أصلاً.

ثم المفهومُ من كلام الأجلَّة أنَّ النزاع إنَّما هو بالنِّسبة لأحكام الإيمان بالله تعالى، بخلاف الفُروع، فلا خلافَ في أنَّها لا تَثبت إلَّا في حقِّ مَن بلغته دعوةُ مَن أُرسل إليه، وهو الظَّاهر، نَعَم ما اتفق عليه المِلَلُ من الفروع هل هو كالإيمان حتى يجريَ فيه النِّزاع المتقدِّم؟ فيه نظر. وأمَّا الإيمانُ بنبيِّنا ﷺ فليس بواجبٍ على مَن لم تبلغه دعوتُه؛ إذ ليس للعقل في ذلك مجالٌ كما لا يخفَى على ذي عقل، بل قال حجَّة الإسلام الغزاليُّ: الناسُ بعد بعثتِه عليه الصلاة والسلام أصناف: صنفٌ لم تبلغهم دعوتُه ولم يسمعوا به أصلاً، فأولئك مقطوعٌ لهم بالجنَّة، وصنفٌ بلغتهم دعوتُه وظهورُ المعجزةِ على يده، وما كان عليه ﷺ من الأخلاق العظيمة، والصِّفاتِ الكريمة، ولم يؤمنوا به، كالكَفَرة الذين بين ظهرانَينا، فأولئك مقطوعٌ لهم بالنَّار، وصنفٌ بلغتهم دعوتُه عليه الصلاة والسلام وسمعوا به، لكن كما يسمعُ أحدُنا بالدجَّال، وحاشا قَدْرَه الشَّريفَ ﷺ عن ذلك، فهؤلاء أرجو لهم الجنةَ؛ إذ لم يسمعوا ما يرغِّبهم في الإيمان به. اهـ.

ولعل القطعَ بالجنَّة للأوَّلين ورجاءَها للآخِرين إنَّما يكونان إذا كانوا مؤمنين بالله تعالى، أمَّا إذا لم يكونوا كذلك، فهم على الخلاف.

ثم إنَّ مسألةَ عدمِ الوجوبِ قبل ورودِ الشَّرع إنَّما يتمُّ الاستدلالُ عليه بالآية عند المستدلِّين بها ـ كما قال الأصفهانيُّ ـ إذا كان المقصودُ تحصيلَ غلبةِ الظنِّ فيها، فإن كانت عِلمية، فلا يمكن إثباتُها بالدَّلائل الظنية.

---

(١) في(م): يكي دنيا. والمثبت من الأصل، وهي الدنيا الجديدة، أي أمريكا ـ أو: أمريقا كما قال المصنف ـ المعجم الفارسي ص٦٢٣.

(٢) كذا في الأصل و(م)، أي: كريستوف كولومبوس.

وفيها عندهم نوعُ اكتفاءٍ، أي: وما كنا معذِّبين ولا مثيبين حتى نبعثَ رسولاً. قالوا: واستغنى عن ذِكر الثَّواب بذكر مقابِلِه من العذاب ولم يعكس؛ لأنَّه أَظهرُ منه في تحقُّق معنى التكليف، فتأمَّل.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ بيانٌ لكيفية وقوعِ العذابِ بعدَ البعثة، وليس المرادُ بالإرادة الإرادة الأزلية المتعلِّقة بوقوع المرادِ في وقته المقدَّر له أصلاً، إذ لا يقارنها الجزاءُ الآتي، ولا تحقُّقها بالفعل؛ إذ لا يتخلَّف عنه المرادُ، بل دنوُّ وقتِه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] أي: إذا دنا وقتُ تعلُّق إرادتِنا بإهلاكها بأن نعذِّبَ أهلَها بما ذُكر من عذاب الاستئصالِ الذي بيَّنا أنه لا يصحُّ منا قبلَ البعثة، أو بنوعٍ ممَّا ذكرنا شأنَه من مطلَق العذاب، أعني: عذابَ الاستئصالِ لما لهم من الظُّلم والمعاصي، دنوًّا تقتضيه الحكمةُ مِن غير أن يكونَ له حدٌّ معيَّن.

﴿أَمَرْنَا﴾ بالطاعة، كما أَخرجه ابن جَرير[1] وغيرُه عن ابن عباسٍ وسعيد بنِ جُبَير، على لسان الرَّسولِ المبعوثِ إلى أهلها ﴿مُتْرَفِيهَا﴾ متنعِّميها وجبَّاريها وملوكَها. وخصَّهم بالذِّكر مع توجُّه الأمر إلى الكلِّ؛ لأنَّهم أئمَّة الفسقِ ورؤساءُ الضلال، وما وقع مِن سواهم باتِّباعهم، ولأنَّ توجُّه الأمرِ إليهم آكَد.

ويدلُّ على تقدير الطاعةِ أنَّ: فَسَقَ وعصَى، متقاربان بحسَب اللُّغة، وإنْ خُصَّ الفسقُ في الشَّرع بمعصية خاصَّة، وذِكرُ الضدِّ يدلُّ على الضدِّ، كما أنَّ ذِكر النظيرِ يدلُّ على النَّظير، فذِكرُ الفسقِ والمعصيةِ يدلُّ على تقدير الطاعة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] فيكون نحو: أَمرتُه فأساءَ إليّ، أي: أمرتُه بالإحسان، بقرينة المقابلةِ بينهما المعتضدةِ بالعقل الدالِّ على أنَّه لا يؤمَرُ بالإساءة كما لا يؤمَر بالفِسق، والنقلِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وجوِّز أن ينزَّلَ الفعلُ منزلةَ اللازمِ كما في: يعطي ويمنع، أي: وجَّهنا الأمر.

﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ أي: خرجوا عن الطَّاعة وتمرَّدوا.

(١) في تفسيره ١٤/ ٥٢٧-٥٢٨.

واختار الزمخشريُّ(١) أنَّ الأصل: أَمرناهم بالفِسق ففسقوا، إلَّا أنَّه يمتنع إرادةُ الحقيقةِ للدليل، فيُحمل على المجاز، إمَّا بطريق الاستعارةِ التمثيلية، بأن يُشبَّه حالُهم في تقلُّبهم في النِّعم مع عصيانهم وبَطَرهم بحال مَن أُمر بذلك، أو بطريق الاستعارةِ التصريحيَّة التبعية، بأنْ يُشبَّه إفاضةُ النعم المبطرةِ لهم وصبُّها عليهم بأمرهم بالفِسق، بجامع الحَملِ عليه والتسبُّبِ له، ويتمّم أَمرُ الاستعارةِ في الصُّورتين بما لا يخفَى.

وقيل: الأمرُ استعارةٌ للحمل والتسبُّبِ لاشتراكهما في الإفضاءِ إلى الشيء.

وآثَرَ أنَّ تقدير: أَمرناهم بالطَّاعة ففسقوا، غيرُ جائز؛ لزعمه أنَّه حَذفُ ما لا دليلَ عليه، بل الدليلُ قائمٌ على خلافه؛ لأنَّ قولهم: أمرتُه فقام، و: أمرتُه فقعد، لا يُفهَم منه إلَّا الأمرُ بالقيام والقعود، ولو أردتَ خلافَ ذلك، كنت قد رُمتَ من مخاطَبك علمَ الغيب، ولا نقضَ بنحو قولِهم: أمرتُه فعصاني، أو فلم يمتثلْ أمري؛ لأنَّه لمَّا كان منافياً للأمر، عُلم أنَّه لا يصلحُ قرينةً للمحذوف، فيكون الفعلُ في ذلك مِن باب: يُعطي ويمنع.

واعتُرض بأنَّه لِمَ لا يجوزُ أن يكونَ من قَبيل: أَمرته فعصاني، لِمَا سمعتَ من تقارُب: فَسَقَ وعصى، وبأنَّ قرينة «إن الله لا يأمر بالفحشاء» لِمَ لا تكفي في تقدير: وجَّهْنا الأمر فوُجِدَ منهم الفِسق، لا أن يقدَّر متعلَّق الأمر؛ ثم لِمَ لا يجوزُ أن يكونَ التعقيبُ بالضدِّ قرينةً للضدِّ الآخَر، ونحوُه أكثرُ من أن يُحصَى.

وأَجابَ في «الكشف» عن ذلك فقال: الجوابُ عن الأولَين أنَّ صاحب «الكشَّاف» منع أن يرادَ: أَمرنا بالطَّاعة، وأمَّا أن يرادَ توجيهُ الأمر، فلم يمنعْه من هذا المسلكِ، بل المانعُ أنَّ تخصيصَ المترَفين حينئذٍ يبقى غيرَ بيِّن الوجه، وكذلك التقييدُ بزمان إرادة الإهلاك، فإنَّ أمره تعالى واقعٌ في كلِّ زمان ولكلِّ أحد، ولظهوره لم يتعرَّض له.

وعن الثَّالث أنَّ شهرةَ الفسقِ في أحدِ معنيَيه تمنعُ مِن عدِّه مقابلاً بمعنى العِصيان، على أنَّ ما ذكرنا من نبوِّ المقامِ عن الإطلاق قائمٌ في التقييد بالطَّاعة، وفيه قولٌ بسلامة الأمير، ونظرٌ بعين الرضا، وغفلةٌ عن وجه التخصيصِ الذي ذكرناه، وهو بيِّن لا غبارَ عليه، وكذا وجهُ التقييدِ بالزَّمان المذكور.

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٤٢.

والحقُّ أنَّ ما ذكره الزمخشريُّ مِن الحمل وجهٌ جميل، إلَّا أنَّ عدمَ ارتضائه ما روته الثقاتُ عن ترجُمان القرآنِ وغيرِه من تقدير الطاعة، مع ظهور الدليلِ ومساعدةِ مقام الزَّجر عن الضَّلال والحثِّ على الاهتداء، لا وجهَ له، كما لا يخفى على مَن له قلب.

وحكى أبو حاتم عن أبي زيدٍ أنَّ «أمرنا» بمعنى كثَّرنا، واختاره الفارسيُّ[1]، واستدلَّ أبو عبيدة[2] على صحَّة هذه اللغةِ بما أخرجه أحمدُ[3]، وابنُ أبي شيبةَ في «مسندَيهما» والطبرانيُّ في «الكبير»[4] من حديث سُوَيد بن هُبَيرة: «خيرُ المالِ سِكَّة مأبورة، ومُهرَة مأمورة» أي: كثيرةُ النِّتاج، وأَمرَ - كما قيل - من باب ما لزم وعدِّي باختلافِ الحركة، فيقال: أَمَرته - بفتح الميم - فأَمِر، بكسرها، وهو نظيرُ: شَتَرَ اللهُ تعالى عينَه فشَتِرت[5]، وجَدَع أنفَه فجَدِع، وثَلَمَ سنَّه فثَلِمت.

وقيل: إنَّ المكسورَ يكون متعدِّياً أيضاً، وأنَّه قرأ به الحسنُ، ويحيى بنُ يَعْمَر، وعِكرمة[6]، وحكى ذلك النحَّاس[7] وصاحبُ «اللوامح» عن ابن عبَّاس، وأنَّ ردَّ الفراءِ[8] له غيرُ ملتفتٍ إليه؛ لصحَّة النقل.

وفي «الكشف» أنَّ أَمَرَ بمعنى كثُر كثيرٌ، وأمَّا أمرته المتعدِّي، فقال الزمخشريُّ في «الفائق»[9] ما معناه: ما عوَّل هذا القائلُ إلَّا على ما جاء في الخبر، أعني: «مهرة مأمورة»[10] وما هو إلَّا من الأمر الذي هو ضدُّ النهي، وهو مجازٌ أيضاً كما في الآية، كأنَّ اللهَ تعالى قال لها: كوني كثيرةَ النتاجِ، فكانت، فهي إذن مأمورةٌ

---

(١) في الحجة ٥/ ٩١-٩٣.
(٢) انظر مجاز القرآن ١/ ٣٧٣.
(٣) في مسنده (٥٨٤٥).
(٤) برقم (٦٤٧٠) و(٦٤٧١).
(٥) الشَّتَر: انقلاب في جفن العين. الصحاح (شتر).
(٦) البحر المحيط ٦/ ٢٠. وينظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٦.
(٧) في معاني القرآن ٤/ ١٣٣.
(٨) في معاني القرآن ٢/ ١١٩.
(٩) الفائق في غريب الحديث ٣/ ١٨٩.
(١٠) وتمامه: «خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة» وهو عند أحمد (١٥٨٤٥) من حديث سويد بن هبيرة ﷺ، وهو حديث ضعيف.

على خلاف مَنهيَّة. وقيل: أَصلُه: مؤمرة، فعدل عنه إلى مأمورة لطلب الازدواجِ، مثل قولِه ﷺ: «مأزوراتٍ غيرَ مأجورات»(١) حيثُ لم يقل: مَوزورات.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وابنُ أبي إسحاق، وأبو رجاءٍ، وعيسى بن عَمرو(٢)، وعبدُ الله بن أبي زيد(٣)، والكلبيُّ: «آمرنا» بالمدِّ، وكذلك جاءَ عن ابن عباسٍ، والحسن، وقتادةَ، وأبي العالية، وابن هُرْمُز، وعاصم، وابن كثيرٍ، وأبي عَمرو، ونافع، وهو اختيارُ يعقوب(٤) ومعناه عند الجميع: كثَّرنا، وبذلك أُيِّد التفسيرُ السابق على القراءة المشهورة.

وقرأ ابنُ عباس، وأبو عثمانَ النَّهدي، والسُّدي، وزيدُ بن عليٍّ، وأبو العالية: «أَمَّرنا» بالتشديد، ورُوي ذلك أيضاً عن عليٍّ، والحسنِ، والباقرِ رضي الله عنهم، وعاصم، وأبي عَمرو(٥). ومعناه على هذه القراءة قيل: كثَّرنا، أيضاً، وقيل: بمعنى ولَّيناهم وجعلناهم أمراءَ، واللازمُ من ذلك أَمُرَ، بالضمِّ، إلحاقاً له بالسَّجايا، أي: صار أميراً، والمرادُ به مَن يؤمَّرُ ويؤتمَر به، سواءٌ كان مَلِكاً أم لا، على أنَّه لا محذورَ لو أُريد به الملكُ أيضاً، خلافاً للفارسيِّ(٦)؛ لأنَّ القرية إذا ملك عليها مُترَفٌ ففسق، ثم آخَرُ ففسق، وهكذا، كَثُرَ الفساد، وتوالَى الكفرُ، ونزل بهم العذابُ على الآخِر من ملوكهم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: كلمةُ العذابِ السابقِ بحلوله، أو بظهور معاصيهم، أو بانهماكِهم فيها ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ لا يُكتنَه كُنهه ولا يوصَف، والتدميرُ هو الإِهلاكُ مع طمس الأثر وهدمِ البناء.

والآيةُ تدلُّ على إهلاك أهلِ القريةِ على أتمِّ وجه، وإهلاكِ جميعِهم لصدور الفسقِ منهم جميعاً، فإنَّ غير المترَفِ يَتبعه عادةً، لا سيَّما إذا كان المترفُ من علماء

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٧٨) من حديث علي رضي الله عنه، وأبو يعلى (٤٠٥٦) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) في البحر المحيط ٦/ ٢٠ ـ والكلام منه ـ: عيسى بن عمر.
(٣) في البحر: يزيد.
(٤) النشر ٢/ ٣٠٦. وينظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٥.
(٥) البحر ٦/ ٢٠، وينظر القراءات الشاذة ص٧٥، والمحتسب ٢/ ١٦.
(٦) في الحجة ٥/ ٩٣.

السُّوءِ، ومِن هنا قيل: المعنى: «وإذا أردنا أن نُهلكَ قريةً أمرنا مترَفيها ففسقوا فيها» واتَّبعهم غيرُهم «فحقَّ عليها القولُ».. الآية.

وقيل: هلاكُ الجميعِ لا يتوقَّف على التَّبعية، فقد قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وصحَّ عن أمِّ المؤمنين زينبَ بنتِ جحش أنَّ النبيَّ ﷺ دخل عليها فَزِعاً يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليومَ من رَدم يأجوجَ ومأجوج مثلُ هذه» وحلَّق بأُصبُعَيه الإبهامِ والتي تليها، قالت زينبُ: قلتُ: يا رسولَ الله أنهلِك وفينا الصَّالحون؟ قال: «نعم إذا كَثُرَ الخَبَث»[1].

هذا والظاهرُ أنَّ «أمرنا» جوابُ «إذا»، ولا تقديمَ ولا تأخيرَ في الآية، والإشكالُ المشهورُ فيها على هذا التقديرِ من أنَّها تدلُّ على أنَّه سبحانه يريد إهلاكَ قومٍ ابتداءً، فيتوسَّل إليه بأن يأمرَهم فيفسُقون فيهلكهم، وإرادةُ ضررِ الغير ابتداءً من غيرِ استحقاقِ الإضرار كالإضرار كذلك مما ينزَّه عنه تعالى لمنافاته للحِكمة، قد مرَّت الإشارةُ إلى جوابه[2].

وأجاب عنه بعضُهم بأنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً، والأصلُ: إذا أمرنا مترفي قريةٍ ففسقوا فيها، أَردنا إهلاكَها فحقَّ عليها القول، ونظيرُه ـ على ما قيل ـ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢].

وآخرون بأنَّ قولَه تعالى: (أَمَرْنَا) إلخ في موضع الصفةِ لـ «قرية»، وجوابُ «إذا» محذوفٌ؛ للاستغناءِ عنه بما في الكلام مِن الدَّلالة عليه، كما قيل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤] وقولِ الهُذَليِّ، وهو آخِرُ قصيدة:

حتى إذا أَسلكوهم في قُتائدةٍ ... شَلًّا كما تطرد الجمّالةُ الشُّرُدا[3]

وقيل في الجوابِ عن ذلك غيرُ ذلك، فتدبَّر.

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٦)، وصحيح مسلم (٢٨٨٠)، وسلف ١٣/ ٧٤.

(٢) قوله: قد مرت الإشارة.. خبر لقوله: والإشكال المشهور...

(٣) قائله عبد مناف بن رِبع الجُربي، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٤٢. قوله: قتائدة، هي الثنية، والجمالة: أصحاب الجِمال.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: كثيراً ما أهلكنا ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ تمييز لـ «كم»، والقَرن ـ على ما قال الرَّاغب[1] ـ القومُ المقترِنون في زمانٍ واحد. وعن عبد الله بنِ أبي أَوفَى: هو مدَّة مئةٍ وعشرين سَنة. وعن محمد بنِ القاسم المازنيِّ[2] ـ ورُوي مرفوعاً ـ أنَّه مئةُ سنة، وجاء أنَّه ﷺ دعا لرجلٍ فقال: «عِش قَرناً»، فعاش مئةَ سنة[3]، أو مئةً وعشرين. وعن الكلبيِّ أنَّه ثمانون سنة. وعن ابن سِيرين أنَّه أربعون سَنة.

﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ من بعد زمنِه عليه السلام، كعادٍ وثمودَ ومَن بعدهم ممن قُصَّت أحوالُهم في القرآن العظيم ومَن لم تقصَّ، وخصَّ نوحٌ عليه السلام بالذِّكر ولم يقل: مِن بعدِ آدم؛ لأنَّه أوَّل رسولٍ آذاه قومُه فاستأصلهم العذابُ، ففيه تهديدٌ وإنذارٌ للمشركين، ولظهور حالِ قومِه لم يُنظَموا في القرون المهلَكة، على أنَّ ذِكره عليه السلام رمزٌ إلى ذِكرهم.

و«من» الأُولى للتَّبيين لا زائدة، والثانيةُ لابتداء الغاية؛ فلذا جاز اتِّحادُ متعلَّقهما، وقال الحوفيُّ: «من» الثانيةُ بدلٌ من الأولى. وليس بجيِّد.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أي: كفى ربُّك. وقد تقدَّم الكلامُ مفصَّلاً آنفاً في مِثل هذا التركيب ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ محيطاً بظواهرها وبواطِنها، فيعاقبُ عليها. وتقديمُ الخبيرِ لتقدُّم متعلَّقه من الاعتقاداتِ والنيَّات، التي هي مبادئُ الأعمالِ الظَّاهرة، تقدُّماً وجوديًّا، وقيل: تقدُّماً رُتَبيًّا؛ لأنَّ العِبرة بما في القلب، كما يدلُّ عليه: «إنَّ اللهَ تعالى لا ينظر إلى صُوَركم وأعمالِكم، وإنَّما ينظرُ إلى قلوبكم ونيَّاتِكم»[4]، و: «إنَّما الأعمالُ بالنيَّات»[5]، و: «نيةُ المؤمنِ خيرٌ من عمله»[6] إلى غير ذلك. أو لعمومه مِن حيث يتعلَّق بغير المبصَرات أيضاً.

---

(١) في المفردات (قرن).

(٢) هو راوي الحديث الآتي عن عبد الله بن بُسر المازني رضي الله عنه، وهو ختنه أيضاً كما في تفسير الطبري ١٤/ ٥٣٤-٥٣٥.

(٣) أخرجه الطبري والحاكم ٢/ ٥٤٩ من حديث عبد الله بن بسر، وهو الرجل المدعو له.

(٤) أخرج مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»، وسلف تخريجه ٧/ ١٠٧.

(٥) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه، وسلف ١١/ ٣٩٣.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٤٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، وأخرجه ابن

والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «خبيراً بصيراً»، على سبيل التَّنازع. وقال الحوفيُّ: متعلِّق بـ «كفى». وهو وَهَم.

وفي تذييل ما تقدَّم بما ذُكر إشارةٌ ـ على ما قيل ـ إلى أنَّ البعثَ والأمرَ وما يتلوهما مِن فسقهم ليس لتحصيل العلمِ بما صدرَ عنهم من الذُّنوب؛ فإنَّ ذلك حاصلٌ قبل ذلك، وإنَّما هو لقَطع الأعذار وإلزامِ الحجَّة من كلِّ وجه.

وفي «الكشَّاف»[1]: إنَّه سبحانه نبَّه بقوله تعالى: (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ) إلخ على أنَّ الذنوبَ هي الأسبابُ المهلِكة لا غير.

وبيانُه ـ كما في «الكشف» ـ أنَّه جلَّ شأنُه لمَّا عقَّب إهلاكَهم بعلمه بالذُّنوب علماً أتمَّ، دلَّ على أنَّه تعالى جازاهم بها، وإلَّا لم ينتظم الكلامُ، وأما الحصرُ؛ فلأنَّ غيرها لو كان له مدخلٌ، كان الظاهرُ ذِكرَه في معرض الوعيد، ثم لا يكون السببُ تامًّا، ويكونُ الكلامُ ناقصاً عن أداءِ المقصود، فلزم الحصرُ، وهو المطلوب. ولا أرى كلامَه خالياً عن دسيسة اعتزالٍ تظهر بالتأمُّل، ولعله لذلك لم يتعرَّض له العلَّامة البيضاويُّ.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ أي: بعمله، كما أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عن الضحَّاك ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فقط مِن غيرِ أن يريدَ معها الآخرةَ، كما يُنبئُ عنه الاستمرارُ المستفادُ من زيادة «كان» هنا، مع الاقتصارِ على مطلَق الإرادة في قَسيمه. وقيل: لو لم يقيَّد، صدقَ على مريد العاجلةِ والآخِرة، والقسمةُ تنافي الشَّرِكة، ودلالةُ الإرادة على ذلك لأنَّها عَقدُ القلبِ بالشيء وخلوصُ همِّه فيه، ليس بذاك.

والمرادُ بالعاجلة الدارُ الدنيا، كما رُوي عن الضحَّاك أيضاً، وبإرادتها إرادةُ ما فيها من فنون مطالِبها، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٢٠] وجوِّز أن يرادَ الحياةُ العاجلةُ، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥].

= عبد البر في التمهيد ١٢/ ٢٦٥ من حديث علي رضي الله عنه. وأخرجه البيهقي في الشعب ٩/ ١٧٥ (٦٤٤٥) مكتبة الرشد، من حديث أنس رضي الله عنه.

(١) ٢/ ٤٤٣.

ورجّح الأولُ بأنه أنسبُ بقوله تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: في تلك العاجلة، فإنَّ تلك الحياةَ واستمرارَها من جملة ما عجِّل، فالأنسبُ في ذلك كلمةُ «من» كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿مَا نَشَآءُ﴾ أي: ما نشاءُ تعجيلَه له من نعيمها، لا كلَّ ما يريد. ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ تعجيلَ ما نشاءُ له. وقال أبو إسحاقَ الفَزاري[١]: أي: لمن نريد هَلَكته. ولا يدلُّ عليه لفظٌ في الآية.

والجارُّ والمجرور بدلٌ من الجارِّ والمجرورِ السابق، أعني «له» فلا يُحتاج إلى رابط، لأنَّه في بدل المفرَدات، أو المجرورُ بدلٌ من الضمير المجرورِ بإعادة العامل، وتقديره: لمن نريدُ تعجيلَه له منهم، والضميرُ راجعٌ إلى «من» وهي موصولةٌ، أو شرطية، وعلى التقديرَين هي منبئةٌ عن الكثرة، فهو بدلُ بعضٍ من كلٍّ.

وعن نافع أنَّه قرأ: «ما يشاء» بالياء[٢]، فقيل: الضميرُ فيه لله تعالى، فيتطابقُ القراءتان، وقيل: هو لـ «من» فيكون مخصوصاً بمَن أراد اللهُ تعالى به ذلك، كنمروذ وفرعونَ ممَّن ساعده اللهُ تعالى على ما أَراده استدراجاً له. واستُظهر هذا بأنَّه يلزم أن يكونَ على الأوَّل التفات، ووقوعُ الالتفاتِ في جملةٍ واحدة إنْ لم يكن ممنوعاً فغيرُ مستحسَن، كما فصَّله في «عروس الأفراح»[٣].

وتقييدُ المعجَّل والمعجَّلِ له بما ذُكر من المشيئة والإرادة؛ لِمَا أنَّ الحكمةَ التي يدورُ عليها فلكُ التكوينِ لا تقتضي وصولَ كلِّ طالبٍ إلى مرامه، ولا استيفاءَ كلِّ واصلٍ لما يطلبه بتمامه. وليس المرادُ بأعمالهم في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] أعمالَ كلِّهم، ولا كلَّ أعمالهم، وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك، فتذكَّر. وذِكرُ المشيئةِ في أحدهما والإرادةِ في الآخَر ـ إنْ قيل بترادفهما ـ تفنُّن.

---

(١) هو إبراهيم بن محمد الفزاري الشامي. كان من أئمة الحديث، وهو أخو عيينة بن حصن. حدث عنه الأوزاعي والثوري وهما من شيوخه. مات سنة (١٨٥ أو ١٨٦ هـ). السير ٨/ ٥٣٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١.

(٣) في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة (٧٧٣هـ).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ مكانَ ما عجَّلنا له ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ يقاسي حرَّها، كما قال الخليلُ[(١)]، أو يدخلُها، كما قيل. والجملةُ ـ كما قال أبو البقاءِ[(٢)] ـ حالٌ من الهاءِ في «له»، وقال أبو حيَّان[(٣)]: إنها حالٌ من «جهنم» وهي مفعولٌ أولُ لـ «جعلنا»، و«له» الثاني. وجوَّز أن تكونَ الجملةُ مستأنفة، وقال صاحبُ «الغنيان»: مفعولُ «جعلنا» الثاني محذوفٌ، والتقدير: مصيراً، أو جزاءً. ولا حاجةَ إلى ذلك.

﴿مَذْمُومًا﴾ حالٌ من فاعلِ «يصلى»، وهو من الذمِّ ضدِّ المدح، وفعله: ذَمَّ، وذُمته ذيماً وذأمته ذأماً بمعناه ﴿مَّدْحُورًا ۝١٨﴾ أي: مطروداً مُبعداً من رحمةِ اللهِ تعالى.

قال الإمامُ[(٤)]: إنَّ العقاب عبارةٌ عن مضرَّة مقرونةٍ بالإهانة والذمِّ، بشرط أن تكونَ دائمةً وخاليةً عن المنفعة، فقولُه تعالى: (جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا) إشارةٌ إلى المضرَّة العظيمة، و«مذموماً» إشارةٌ إلى الإهانة والذمِّ، و«مدحوراً» إشارةٌ إلى البعد والطَّرد من رحمته تعالى، فيفيد ذلك أنَّ تلك المضرةَ خاليةٌ عن شَوب النفعِ والرحمة، وتفيد كونَها دائمةً وخاليةً عن التبدُّل بالراحة والخلاص. اهـ.

ولا يخفَى أنَّ هذا ظاهرٌ في أنَّ الآية تدلُّ على الخلود، وحينئذٍ يتعيَّن عندنا أن يكونَ ذلك المريدُ من الكفرة. وفي «إرشاد العقل السليم»[(٥)]: «مَن كان يريد» أي: بأعماله التي يعملها، سواءٌ كان ترتُّب المرادِ عليها بطريق الجزاء، كأعمال البرِّ، أو بطريق ترتُّب المعلولاتِ على العِلل، كالأسباب، أو بأعمال الآخرة، فالمرادُ بالمريد على الأوَّل الكفرةُ وأكثرُ الفسقة، وعلى الثاني أهلُ الرياءِ والنِّفاقِ، والمهاجرُ للدنيا والمجاهدُ للغنيمة.

وأنت تعلم أنَّ إدراج الفاسقِ والمهاجرِ للدنيا والمجاهدِ للغنيمة إذا كان مؤمناً في التمثيل على القول بدلالة الآيةِ على الخلود، ممَّا لا يستقيم على أُصولنا، نعم

---

(١) في العين ٧/ ١٥٤.

(٢) قال في الإملاء ٣/ ٤٧٥: حال من «جهنم» أو من الهاء في «له».

(٣) في البحر ٦/ ٢١.

(٤) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٧٨.

(٥) ٥/ ١٦٣.

يصحُّ على أُصول المعتزلة. وقد أدرج الزمخشريُّ[1] الفاسقَ في ذلك، ودسائسُ الاعتزال منه ـ عامله الله تعالى بعدله ـ أكثرُ من أن تحصَى.

وظاهرُ كلامِ أبي حيَّان اختيارُ كونِ المريدِ من الكفرة، حيث قال[2]: العاجلةُ هي الدنيا، ومعنى إرادتِها إيثارُها على الآخرة، ولا بدَّ من تقدير محذوفٍ دلَّ عليه المقابلُ في قوله تعالى: «ومن أراد الآخرة» إلخ، أي: مَن كان يريد العاجلةَ وسعى لها سعيَها وهو كافر، عجَّلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريد. وقيل: المرادُ: مَن كان يريد العاجلةَ بعمل الآخِرة، كالمنافق والمرائي والمجاهدِ للغنيمة والذِّكر والمهاجرِ للدنيا... إلى آخر ما قال.

فحكَى غيرَ القولِ الأوَّل الذي يكون يتعيَّن عليه كونُ المريدِ من الكَفَرة بعد أن قدَّمه بـ: قيل. ويؤيِّده تفسيرُ كثيرٍ «مَن كان يريد العاجلةَ» بمن كان همُّه مقصوراً عليها لا يريد غيرَها أصلاً؛ فإنَّ ذلك ممَّا لا يكاد يَصدقُ على مؤمنٍ فاسق، فإنَّه لو لم يكن له إرادةٌ للآخِرة ما آمن بها، وعلى القول بدخول الفاسقِ ونحوِه ممَّن لا يُحكم له عندنا بالخلود، يمنع القول بدلالة الآيةِ على الخلود، ويقال لمن أُدخل النَّار: مبعَدٌ عن رحمةِ الله تعالى ما دام فيها، فيصدقُ على الفاسق ما دام فيها، كما يَصدُق على الكافر المخلَّد.

وزعم بعضُهم أنَّ المريدَ هو المنافقُ الذي يغزو مع المسلمين للغنيمة لا للثَّواب، فإنَّ الآيةَ نزلت فيه، وفيه أنَّه يأبى ذلك ما سبق من أنَّ السورةَ مكِّية غيرَ آياتٍ معيَّنة ليست هذه منها، على أنَّ العِبرة بعموم اللفظِ لا بخصوص السبب، فافهم.

﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ الظاهرُ ـ على طبق ما مرَّ عن الضحَّاك ـ أن يرادَ بعمله أيضاً ﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾ أي: الدارَ الآخرةَ وما فيها من النَّعيم المقيم ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: الذي يحقُّ ويَليق بها، كما تنبئُ عنه الإضافة الاختصاصيةُ سواءٌ كان السعيُ مفعولاً به على أنَّ المعنى: عَمِلَ عَمَلَها، أو مصدراً مفعولاً مطلقاً، ويتحقَّق ذلك بالإتيان

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٤٣.

(٢) في البحر ٦/ ٢٠-٢١.

بما أَمر اللهُ تعالى والانتهاءِ عما نهَى سبحانه عنه، فيخرج مَن يتعبَّد من الكَفَرة بما يخترعه من الآراءِ ويزعم أنَّه يسعَى لها.

وفائدةُ اللامِ ـ سواءٌ كانت للأَجْل أو للاختصاص ـ اعتبارُ النيَّة والإخلاصِ لله تعالى في العمل.

واختار بعضُهم ـ ولا يخلو عن حُسن ـ أنَّه لا حاجَة إلى ما اعتبره الضحَّاك، بل الأَوْلى عدمُ اعتبارِهِ؛ لمكان: «وسعى لها سعيها» وحينئذٍ لا يُعتبر فيما سبق أيضاً، ويكون في الآية على هذا مِن تحقير أمرِ الدنيا وتعظيم شأنِ الآخرة ما لا يخفَى على مَن تأمَّل.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صحيحاً لا يخالطه قادحٌ، وإيرادُ الإيمان بالجملة الحالية؛ للدَّلالة على اشتراط مقارَنتِه لما ذُكر في حيِّز «مَن» فلا تنفع إرادةٌ ولا سعيٌ بدونه، وفي الحقيقة هو الناشئُ عنه إرادةُ الآخرة والسعيُ للنجاة فيها وحصولُ الثواب.

وعن بعض المتقدِّمين: مَن لم يكن معه ثلاثٌ، لم ينفعْه عمله: إيمانٌ ثابت، ونيَّة صادقة، وعملٌ مُصيب، وتلا هذه الآية.

﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ إشارةٌ إلى «مَن» بعنوان اتِّصافه بما تقدَّم. وما في ذلك من معنى البُعد؛ للإشعار بعلوِّ درجتِهم وبُعدِ منزلتهم، والجمعيةُ لمراعاة جانبِ المعنى، إيماءً إلى أنَّ الإثابة المفهومةَ من الخبر تقعُ على وجه الاجتماع، أي: فأولئك الجامعون لما مرَّ من الخصال الحميدة، أعني إرادةَ الآخرة والسعيَ الجميلَ لها والإيمانَ ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ مثاباً عليه مقبولاً عنده تعالى بحُسن القَبول.

وفسَّر بعضُهم السعيَ هاهنا بالعمل الذي يعبَّر عنه بفعل، فيشمل جميعَ ما تقدَّم، وهذا غيرُ السَّعي السابق، وقال بعضُهم: هو هو، وعلَّق المشكوريةَ به دون قرينَيه؛ إشعاراً بأنه العمدةُ فيها.

وأصلُ السعي ـ كما قال الراغبُ[1] ـ المشي السريعُ، وهو دون العَدْو،

(١) في المفردات (سعي).

ويُستعملُ للجدِّ في الأمر، خيراً كان أو شرًّا، وأكثرُ ما يُستعمل في الأفعال المحمودة، قال الشاعر(١):

إنْ أَجزِ علقمةَ بنَ سعدٍ(٢) سعيَه لا أَجزِه ببلاءِ يومٍ واحدِ

﴿كُلًّا﴾ التنوينُ فيه ـ على المشهور عند النُّحاة ـ عوضٌ عن المضاف إليه، لا تنوينُ تمكين، أي: كلَّ الفريقَين، وهو مفعولُ ﴿نُّمِدُّ﴾ مقدَّم عليه، أي: نَزيد مرَّةً بعد مرَّة، بحيث يكونُ الآنفُ مدداً للسَّالف، وما به الإمدادُ ما عجِّل لأحدهما من العطايا العاجلة، وما أُعدَّ للآخَر من العطايا الآجلة المشارِ إليها بمشكوريَّة السَّعي، وإنَّما لم يصرَّح به، تعويلاً على ما سبق تصريحاً وتلويحاً، واتِّكالاً على ما لحق عبارةً وإشارة.

وقولُه تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدلٌ من «كلًّا» بدلَ كلٍّ على جهة التفصيل، أي: نمدُّ هؤلاء المعجَّلَ لهم وهؤلاء المشكور سعيُهم، فإنَّ الإشارة متعرِّضة لذات المشارِ إليه بما لَه من العُنوان، لا للذَّات فقط، كالإضمار، ففيه تذكيرٌ لما به الإمداد، وتعيينٌ للمضاف إليه المحذوف، دفعاً لتوهُّم كونِه أفرادَ الفريقِ الأخير المريدِ للخير الحقيقِ بالإسعاف فقط، وتأكيدٌ للقصر المستفادِ من تقديم المفعول.

وقولُه تعالى: ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ أي: مِن معطاه الواسعِ الذي لا تناهيَ له، فهو اسمُ مصدرٍ واقعٍ موقعَ اسمِ المفعول، متعلِّق بـ «نُمِدُّ»، مُغنٍ عن ذِكر ما به الإمدادُ، ومنبِّه على أنَّ الإمداد المذكورَ ليس بطريق الاستيجابِ بالسَّعي والعمل، بل بمحض التفضُّل، كما قيل: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ أي: دنيويًّا كان أو أُخرويًّا.

والإظهارُ في موضع الإضمار لمزيد الاعتناءِ بشأنه، والإشعار بعِلِّيته للحكم.

﴿مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ ممنوعاً عمَّن يريده، بل هو فائضٌ على من قدِّر له بموجب المشيئةِ المبنيَّة على الحِكمة وإنْ وُجد فيه ما يقتضي الحظرَ، كالكفر، وهذا في معنى التعليلِ لشمول الإمداد للفريقَين.

---

(١) هو فدكي بن أعبد الطائي، رجل من بهراء.

(٢) كذا في مفردات الراغب، وفي البيان والتبيين ٣/ ٢٣٣، ومعجم الشعراء ص٤٤٦، وشرح المرزوقي ٤/ ١٥٩٠، وشرح التبريزي ٤/ ٧٠: علقمة بن سيف. وانظر الصحاح واللسان (لمم).

والتعرُّض لعنوان الرُّبوبية للإشعار بمبدئيَّتها لكلٍّ من الإمداد وعدم الحظر.

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ «كيف» في محلِّ النصب بـ «فضَّلنا» على الحال، وليست مضافةً للجملة كما تُوهِّم، والجملةُ بتمامها في محلِّ نصبٍ بـ «انظر»، وهو معلَّق هنا.

والمرادُ ـ كما قال شيخ الإسلام[1] ـ توضيحُ ما مرَّ من الإمداد وعدمِ محظوريةِ العطاء، بالتَّنبيه على استحضار مراتبِ أحدِ العطاءَين، والاستدلالُ بها على مراتبِ الآخَر، أي: انظر بنظر الاعتبارِ كيف فضَّلنا بعضَهم على بعضٍ فيما أَمددناهم مِن العطايا العاجلة، فمن وضيعٍ ورفيعٍ، وظالعٍ[2] وضَليعٍ، ومالكٍ ومملوكٍ، وموسرٍ وصُعلوكٍ، تعرف بذلك مراتبَ العطايا الآجلةِ، وتفاوتَ أهلِها، على طريقة الاستدلال بحال الأدنَى على حال الأعلى، كما أَفصح عنه قولُه تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ أي: أكبرُ من درجات الدنيا وتفضيلها؛ لأنَّ التفاوت فيها بالجنَّة ودرجاتِها العالية لا يُقادَر قَدْرُها، ولا يُكتنه كُنْهُها.

وفي بعض الآثارِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ بين أَعلى أهل الجنَّة وأسفلِهم درجةً كالنَّجم يُرى في مشارق الأرضِ ومغاربِها، وقد أَرضى اللهُ تعالى الجميعَ، فما يَغبِط أحدٌ أحداً»[3].

وعن الضحَّاك: الأَعلى يرى فضلَه على مَن هو أسفلُ منه، والأسفلُ لا يرى أنَّ فوقه أحداً. وصحَّ أنَّ اللهَ تعالى أعدَّ لعباده الصَّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر[4].

وروى ابنُ عبد البرِّ في «الاستيعاب»[5] عن الحسنِ قال: حضر جماعةٌ من الناس بابَ عمرَ رضي الله عنه وفيهم سُهيلُ بن عَمرو القرشي، وكان أحدَ الأَشرافِ في

---

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٥.

(٢) الظالع: الذي يغمز في مشيه. الصحاح (ظلع).

(٣) أخرجه الطبري ١٤/ ٥٤٠ عن قتادة مرسلاً دون قوله: وقد أرضى الله الجميع...

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسلف ص٣٦ من هذا الجزء.

(٥) ٤/ ٢٨٩ على هامش الإصابة.

الجاهلية، وأبو سفيانَ بنُ حرب، وأولئك المشايخُ من قريش، فأَذن لصُهَيب وبلالٍ وأهل بدر، وكان يحبُّهم، وكان قد أَوصَى بهم، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ كاليوم قطُّ، إنَّه ليؤذن لهؤلاء العبيدِ ونحن جلوسٌ لا يلتفت إلينا، فقال سُهيل وكان أعقلَهم: أيُّها القوم، إني واللهِ قد أَرى الذي في وجوهكم، فإنْ كنتم غضاباً، فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القومُ ودُعيتم، فأَسرعوا وأبطأتم، أَمَا واللهِ لَمَا سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تنافسون عليه.

وفي «الكشَّاف»[1] أنَّه قال: إنَّما أُتينا من قِبَلنا، إنهم دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبطأنا، وهذا بابُ عمرَ، فكيف التفاوتُ في الآخرة، ولَئن حسدتموهم على باب عمرَ، لَمَا أعدَّ اللهُ تعالى لهم في الجنَّة أكبر.

وقُرئ: «أكثرُ تفضيلاً» بالثَّاء المثلَّثة[2].

وجوِّز أن يرادَ بما به الإمدادُ العطايا العاجلةُ فقط، وحَملُ القصرِ المذكورِ على دفعِ توهُّم اختصاصِها بالفريق الأوَّل، فإنَّ تخصيصَ إرادتِهم لها ووصولِهم إليها بالذِّكر من غير تعرُّضٍ لبيان النِّسبةِ بينها وبين الفريقِ الثاني إرادةً ووصولاً ممَّا يوهم اختصاصَها بالأوَّلين، فالمعنى: كلَّ الفريقين نمدُّ بالعطايا العاجلة، لا مَن ذكرنا إرادتَه لها فقط من الفريق الأوَّل، من عطاء ربِّك الواسع، وما كان عطاؤه الدنيويُّ محظوراً من أحدٍ ممَّن يريد[3] وممن يريد غيرَه، انظر كيف فضَّلنا في ذلك العطاءِ بعضَ كلٍّ من الفريقين على بعضٍ آخَرَ منهما، ولَلآخرةُ.. إلخ.

وإلى نحو هذا ذهب الحسنُ وقتادةُ، فقد رُوي عنهما أنَّهما قالا في معنى الآية: إنَّ اللهَ تعالى يرزق في الدنيا مريدي العاجلة الكافرين ومريدي الآخرةِ المؤمنين ويمدُّ الجميعَ بالرزق.

وذِكرُ الرزق من بين ما به الإمداد، قيل: على سبيل التَّمثيل، وقيل: تخصيصٌ لدَلالة السِّياق. وجوِّز أن يكونَ المرادُ به معناه اللغويُّ، فيتناول الجاهَ ونحوَه،

---

(١) ٢/ ٤٤٤.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٢.

(٣) في تفسير أبي السعود ٥/ ١٦٤ (والكلام منه): يريده.

كما يقال: السعادةُ أرزاق. واعتبر الجمهورُ عدمَ المحظوريةِ بالنِّسبة إلى الفريق الأوَّل تحقيقاً لشمول الإمداد له، حيث قالوا: لا يمنعُه من عاصٍ لعصيانه. واعترض بأنَّه يقتضي كونَ القصرِ لدفع توهُّم اختصاص الإمداد الدنيويِّ بالفريق الثاني، مع أنّه لم يسبقْ في الكلام ما يوهمُ ثبوتَه له، فضلاً عن إيهام اختصاصِه، وفيه تأمُّل.

وعن ابن عباسٍ ﵄ أنَّ معنى «من عطاء ربك» من الطَّاعات، ويمدُّ بها مريدَ الآخرة، والمعاصي، ويمدُّ بها مريدَ العاجلة. فيكون العطاءُ عبارةً عمَّا قسم الله تعالى للعبد من خيرٍ أو شرٍّ.

وأنت تعلم أنَّه يَبعد غايةَ البعدِ إرادةُ المعاصي من العطاء، ولعل نسبةَ ذلك للحبر غيرُ صحيحة، فلا تغفُل.

واعلَم أنَّ التقسيمَ الذي تضمَّنته الآيةُ غيرُ حاصر، وذلك غيرُ مضرٍّ، والتقسيمُ الحاصر أنَّ كلَّ فاعلٍ إمَّا أن يريدَ بفعله العاجلةَ فقط، أو يريدَ الآخرةَ فقط، أو يريدَهما معاً، أو لم يُرِد شيئاً، والقسمان الأوَّلان قد عُلم حكمُهما من الآية، والقسمُ الثالثُ ينقسم إلى ثلاثةِ أقسام؛ لأنَّه إمَّا أن تكونَ إرادةُ الآخرةِ أرجح، أو تكونَ مرجوحة، أو تكونَ الإرادتان متعادلتَين، وفي قَبول العملِ في القسم الأوَّل بحثٌ عند الإمام، قال[1]: يحتمل عدمَ القبول؛ لما رُوي عن ربِّ العزَّة جلَّ شأنه: «أنا أغنَى الشُّركاء عن الشِّرك، مَن عمل عملاً أَشركَ فيه غيري تركتُه وشِركَه»[2].

ويمكن أن يقالَ: إذا كانت إرادةُ الآخِرة راجحةً على إرادة الدُّنيا، تعارض المِثلُ بالمثل، فيبقى القَدْرُ الزائدُ خالصاً للآخِرة، فيجب كونُه مقبولاً.

وإلى عدم القَبول ذهب العزُّ بن عبدِ السلام[3]، ومالَ إلى القول بأصل الثَّواب حجَّةُ الإسلام الغزاليُّ، حيث قال[4]: لو كان اطّلاع الناسِ مرجِّحاً أو مقوِّياً لنشاطه

---

(١) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٨٠.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٣) انظر قواعد الأحكام ١/ ١١٧-١١٨.

(٤) في إحياء علوم الدين ٣/ ٣٠٢.

ولو فُقد لم تُترك العبادة، ولو انفرد قَصْدُ الرياءِ لَما أقدم، فالذي نظنُّه ـ والعلمُ عند اللهِ تعالى ـ أنَّه لا يحبَط أصلُ الثواب، ولكنه يُعاقَب على مِقدار قصدِ الرِّياء، ويثابُ على مقدار قصدِ الثَّواب.

وهذا ظاهرٌ في أنَّ الرِّياء ولو محرَّماً لا يمنع أصلَ الثَّوابِ عنده إذا كان باعثُ العبادةِ أغلب.

وذكر ابنُ حجرٍ أنَّ الذي يتَّجه ترجيحُه أنَّه متى كان المصاحِبُ لقصد العبادةِ رياءً مباحاً، لم يقتضِ إسقاطَ ثوابها من أصله، بل يثابُ على مقدار قصدِ العبادة وإنْ ضَعُف، أو محرَّماً، اقتضى سقوطَه من أصله؛ للأخبار، وقولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] قد لا يعكِّر على ذلك؛ لأنَّ تقصيرَه بقصد المحرَّم اقتضى سقوطَ قصدِ الأجرِ، فلم تبقَ له ذرَّة من خير، فلم تشملْه الآية.

واتَّفقوا على عدم قَبول ما ترجَّح فيه باعثُ الدنيا، أو كان الباعثانِ فيه متساويين، وخصَّ الغزاليُّ الأحاديثَ الدالَّة بظاهرها على عدم القبولِ مطلقاً بهذين القِسمين. وتمامُ الكلام في هذا المَقام في «الزَّواجر عن اقتراف الكبائر»[1].

وأمَّا القسمُ الرابع عند القائلين بأنَّ صدورَ الفعلِ من القادر يتوقَّف على حصول الدَّاعي، فهو ممتنعُ الحصول، والذين قالوا: إنَّه لا يتوقَّف، قالوا: ذلك الفعلُ لا أثرَ له في الباطن، وهو محرَّم في الظاهر؛ لأنَّه عبث، واللهُ تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارةِ في الآيات: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ فيه أربعُ إشارات: إشارةُ التقديسِ بـ «سبحان»، فهو تنزيهٌ له تعالى عن اللَّواحق الماديةِ والنقائصِ التشبيهية، وعن جميع ما يَرتسم في الأذهان. وإشارةُ الغَيرة بعدم ذِكر الاسمِ الظاهرِ من أسمائه الحسنى عزَّت أسماؤه، وكذا بعدم ذِكر اسمِه ﷺ. وإشارةُ الغيبِ بذِكر ضميرِ الغائب. وإشارة السرِّ بذكر الليل؛ فإنه محلُّ السرِّ والنجوى. وعن بعض الأكابر: لولا الليلُ ما أحببتُ البقاءَ في الدنيا.

(١) الزواجر ١/ ٤١.

وذكرَ غيرُ واحدٍ أنَّ في اختيار عنوانِ العبوديَّة إشارةً إلى أنَّها أعلى المقاماتِ، وقد أُشير إلى ذلك فيما سلف. وأصلُها الذلُّ والخضوع، وحيث إنَّ الذلَّ لشيءٍ لا يكون إلَّا بعد معرفته، دلَّت العبوديةُ لله تعالى على معرفته سبحانه، وكمالُها على كمالها.

ومن هنا فسَّر ابنُ عباس قولَه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] بقوله: إلَّا ليعرفون، وهي تسعةٌ وتسعون سهماً، بعدد الأسماءِ الإلهية التي مَن أحصاها دخل الجنَّة، لكلِّ اسمٍ إلهيٍّ عبوديةٌ مختصَّة به، يتعبَّد له مَن يتعبَّد من المخلوقين.

ولم يتحقَّق بهذا المقامِ على كماله مثلُ رسولِ الله ﷺ، فكان عبداً محضاً زاهداً في جميع الأحوالِ التي تُخرجه عن مرتبة العبوديَّة، وشهد اللهُ تعالى له بأنه عبدٌ مضاف إليه من حيث هُويتُه هنا، واسمُه الجامعُ في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن: ١٩] ولمَّا أُمر ﷺ بتعريف مَقامِه يوم القيامة، قيَّد ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: «أنا سيِّد ولدِ آدمَ ولا فخر» بالراء أو الزاي[١]، على اختلاف الرِّوايتين، وهي لِمَا علمتَ مِن معناها لا يمكنُ أن تكونَ نعتاً إلهيًّا أصلاً، بل هي صفةٌ خاصَّة لا اشتراكَ فيها، فقد قال أبو يزيدَ البِسطاميُّ: ما وجدتُ شيئاً يُتقرَّب به إليه تعالى؛ إذ رأيتُ كلَّ نعتٍ يُتقرَّب به للألوهية فيه مدخلٌ، فقلت: يا ربِّ، بماذا أتقرَّب إليك؟ قال: تقرَّبْ إليَّ بما ليس لي، قلتُ: يا ربِّ، وما الذي ليس لك؟ قال: الذِّلَّة والافتقار.

وذُكر أنَّ العبدَ مع الحقِّ في حال عبوديَّته كالظِّل مع الشَّخص في مقابلة السِّراج، كلَّما قَرُبَ إلى السِّراج عَظُمَ الظِّلُّ، ولا قُربَ من الله تعالى إلَّا بما هو لك وصفٌ أخصُّ، لا له سبحانه، وكلَّما بعد عن السِّراج صَغُرَ الظِّلُّ، فإنَّه ما يُبعدك عن الحقِّ إلَّا خروجُك عن صفتك التي تستحقُّها، وطمعُك في صفته تعالى، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] وهما صفتانِ لله تعالى، و﴿ذُقْ

(١) الرواية بالراء أخرجها ابن حبان (٦٢٤٢) من حديث واثلة بن الأسقع ﷺ، وسلفت ١٢/ ٣٧٨، والرواية بالزاي نقلها العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٢٣٥ عن الفتوحات المكية.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وهما كذلك، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله: «أعوذُ بك منك»[1].

وأوَّل بعضُهم الليلَ بظُلمة الغواشي البدنية والتعلُّقات الطبيعية، وقال: إنَّ الترقِّي والعروجَ لا يكون إلَّا بواسطة البدن، وقد صرَّحوا بأنَّه ﷺ أُسري به وكذا عُرج يقظةً لم يفارق بدنَه، إلَّا أن العارف الجاميَّ قال: إنَّ ذلك إلى المحدَّد، ثم ألقَى البدنَ هناك، وقد تقدَّم ذلك.

وفي «أسرار القرآن» أنَّه عليه الصلاة والسلام أُسري به من رؤية أفعالِه إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاتِه إلى رؤية ذاتِه، فرأى الحقَّ بالحقِّ، وكانت صورتُه روحَه، وروحُه عقلَه، وعقلُه قلبَه، وقلبُه سرَّه، وكأنَّه أراد أنه ﷺ حصل له هذا الإسراءُ، وإلَّا فإرادةُ أنَّ الإسراءَ الذي في الآية هو هذا ممَّا لا ينبغي.

ولا يخفَى أنَّ الإسراءَ غيرُ المعراج، نعم قد يطلقون الإسراءَ على المعراج، بل قيل: إنَّهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

وقد ذكروا أنَّ لجميع الوارثين معراجاً، إلَّا أنَّه معراجُ أرواحٍ لا أشباح، وإسراءُ أسرارٍ لا أسوار، ورؤيةُ جَنان لا عِيان، وسلوك ذَوقٍ وتحقيق لا سلوكُ مسافةٍ وطريق، إلى سماوات معنًى لا مغنًى، وهذا المعراجُ متفاوتٌ حسب تفاوتِ مراتبِ الرِّجال.

وقد ذكر الشيخُ الأكبر قدِّس سرُّه في معراجه ما يحيِّر الألباب، ويقضى منه العجب العجاب، ولم يُستبعَد ذلك منه، بناءً على أنَّه ختمُ الولايةِ المحمَّدية عندهم. ومِن عجائب ما اتَّفق في زماننا أنَّ رجلاً يُدعَى بـ: عبد السلام نائبِ القاضي في بغداد، وكان جَسوراً على الحكم بالباطل، شَرَعَ في ترجمة معراجِ الشيخِ قدِّس سره بالتُّركية، مع شرح بعض مغلَقاته، ولم يكن من خبايا هاتيكَ الزَّوايا، فقبل أن يتمَّ مرامُه ابتُلي ـ والعياذُ بالله تعالى ـ بأَكِلَة في فمه، فأكلته إلى أذُنَيه، فمات وعُرج بروحه إلى حيث شاءَ اللهُ تعالى، نسأل اللهَ سبحانه العفوَ والعافية، في الدِّين والدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٧)، والترمذي (٣٥٦٦) وحسنه من حديث علي ﷺ، وسلف ١/ ١١٤.

ونُقل عن الشيخ قدِّس سرُّه أنَّ الإسراءَ وقع له ﷺ ثلاثين مرَّة. وفي كلام الشيخ عبد الوهَّاب الشعرانيِّ أن إسراءاتِهِ عليه الصلاة والسلام كانت أربعاً وثلاثين، واحدٌ منها بجسمه، والباقي بروحه، وقد صرَّحوا أنَّ الأوَّل من خصائصه ﷺ.

وفي «الخصائص الصُّغرى»: وخصَّ عليه الصلاة والسلام بالإسراء، وما تضمَّنه من خرق السَّماوات السبعِ والعلوِّ إلى قابِ قوسين، ووطئه مكاناً ما وطئه نبيٌّ مرسَل ولا مَلَك مقرَّب، وأنَّ قطع المسافةِ الطويلة في الزَّمن القصيرِ ممَّا يكون كرامةً للوليِّ، والمشهورُ تسميةُ ذلك بطيِّ المسافة، وهو من أعظم خوارقِ العادات، وأنكر ثبوتَه للأولياءِ الحنفيةُ، ومنهم ابنُ وهبان، قال:

ومَن لوليٍّ قال طيُّ مسافةٍ يجوز جهولٌ ثم بعضٌ يكفِّرُ

وهذا منهم مع قولِهم: إذا وُلد لمغربيٍّ ولدٌ من امرأته المشرقيةِ مثلاً يُلحق به وإنْ لم يلتقيا ظاهراً، غريب، والكتبُ ملأى من حكايات الثقاتِ هذه الكرامةَ لكثيرٍ من الصالحين، وكأنَّ مجهِّل قائلِها بنَى تجهيلَه على أنَّ في ذلك قولاً بتداخُل الجواهر، وقد أحاله المتكلِّمون خلافاً للنظَّام، وبرهنوا على استحالته بما لا مزيدَ عليه، وادَّعى بعضُهم الضرورةَ في ذلك.

وأنت تعلمُ أنَّ قطعَ المسافةِ الطويلة في الزَّمن القصيرِ لا يتوقَّف على تداخلِ الجواهر؛ لجواز أن يكونَ بالسُّرعة، كما قالوا في الإسراء، فليثبت للأولياءِ على هذا النَّحو، على أنَّ الكراماتِ ـ كالمعجزات ـ مجهولةُ الكيفية، فنؤمنُ بما صحَّ منها، ونفوِّض كيفيتَه إلى مَن لا يُعجزه شيءٌ سبحانه وتعالى، ومثلُ طيِّ المسافةِ ما يحكونه من نشر الزَّمان، وأنا مؤمنٌ ـ ولله تعالى الحمدُ ـ بما يصحُّ نقله من الأمرين، والمكفِّر جَهول، والمجهِّل ليس برسول، واللهُ تعالى الموفِّق للصواب، وإليه المرجعُ والمآب.

وأُوِّل المسجدُ الحرام بمقام القلبِ المحترَم عن أن يطوفَ به مشركو القُوى البدنية، ويرتكبَ فيه فواحشها وخطاياها، والمسجدُ الأقصى بمقام الروحِ الأبعد من العالَم الجسماني.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: آياتِ صفاتنا، من جهة أنَّها منسوبةٌ إلينا ونحن المشاهدون بها، وإلَّا فأصلُ مشاهدةِ الصفات في مقام القلب.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ قال سهلٌ: أي: إنْ عُدتم إلى المعصية عُدنا إلى المغفرة، وإنْ عدتم إلى الإعراض عنَّا عدنا إلى الإقبال عليكم، وإنْ عُدتم إلى الفِرار منّا عدنا إلى أخذ الطريقِ عليكم لترجعوا إلينا. وقال الورَّاق: إنْ عدتم إلى الطاعةِ عدنا إلى التَّيسير والقَبول. وقيل غيرُ ذلك.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الآية، أي: إنَّ هذا القرآنَ يَعرف أهلَه بنوره أقومَ الطُّرق إلى الله تعالى، وهو طريقُ الطاعة والاقتداءِ بمَن أُنزل عليه عليه الصلاة والسلام، فإنه لا طريقَ يوصل إلّا ذلك، ولله تعالى درُّ مَن قال:

وأنت بابُ الله أيُّ امرئٍ ... أتاه من غيرك لا يدخلُ[1]

وذكروا أنَّ القرآن يُرشد بظاهره إلى معاني باطنِه، وبمعاني باطنه إلى نورِ حقيقته، وبنور حقيقتِه إلى أصل الصِّفة، وبالصِّفة إلى الذَّات، فطوبَى لمن استرشد بالقرآن، فإنَّه يدلُّه على الله تعالى، وقد أَحسنَ مَن قال[2]:

إذا نحن أَدلجنا وأنت أمامَنا ... كفَى لمطايانا بنوركَ هاديا

﴿وَيُبَشِّرُ﴾ أهلَه الذين يتَّبعونه أنَّ لهم أجرَ المشاهدةِ وكشفَها بلا حجاب.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أدبٍ من آداب الدُّعاء، وهو عدمُ الاستعجال، فينبغي للسَّالك أن يصبرَ حتى يعرفَ ما يَليق بحاله فيدعو به. وقال سَهل: أَسلَمُ الدَّعوات الذِّكرُ وتركُ الاختيار؛ لأنَّ في الذِّكر الكفايةَ، وربَّما يسأل الإنسانُ ما فيه هلاكُه ولا يشعر. وفي الأثر: يقول الله تعالى شأنُه: «من شغله ذِكري عن مسألتي، أعطيه أفضلَ ما أعطي السائلين»[3].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ أي: ليلَ الكونِ وظلمة البدن ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: نهارَ الإبداع والرُّوح ﴿ءَايَتَيْنِ﴾ يتوصَّل بهما إلى معرفة الذاتِ والصِّفات ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ بالفساد والفَناء ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ منيرةً باقيةً بكمالها، تُبصَر بنورها الحقائقُ ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو كمالُكم الذي تستعدُّونه ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ

---

(١) البيت للشيخ محمد البكري كما في خلاصة الأثر ٢/ ٤١٠، وسلف ٧/ ٣٧٣.

(٢) هو عمرو بن شأس. معجم الشعراء ص ٢٢، والحماسة البصرية ٢/ ١٤٥.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ بلفظ: «من شغله القرآن وذكري...» ينظر ما سلف ١١/ ٤٣.

﴿ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لتُحصوا عددَ المراتبِ والمقامات من بدايتكم إلى نهايتكم بالترقِّي فيها، وحسابَ أعمالِكم وأخلاقِكم وأحوالكم، فتُبدلوا السيئَ من ذلك بالحسن ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من العلوم والحِكَم ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بنور عقولِكم الفرقانيةِ الحاصلةِ لكم عند الكمالِ ﴿تَفْصِيلًا﴾ لا إجمال فيه، كما في مرتبة العقلِ القرآنيِّ الحاصل عند البداية.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.. الآيةُ، تقدَّم ما يصلحُ أن يكونَ من باب الإشارة فيها.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ للصُّوفية في هذا الرسولِ ـ كغيرهم ـ قولان، فمنهم مَن قال: إنَّه رسولُ العقل، ومنهم مَن قال: رسولُ الشَّرع.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ الآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّه سبحانه إذا أراد أن يخربَ قلبَ المريد، سلَّط عليه عساكرَ هوى نفسِه، وجنودَ شياطينه، فيخرب بسنابك[(١)] خيولِ الشَّهوات، وآفات الطَّبْعيات، نعوذُ بالله تعالى من ذلك.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ لكدورة استعدادِه، وغَلَبة هواه وطبيعتِه ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا﴾ عن ذوي العقول ﴿مَّدْحُورًا﴾ في سخط اللهِ تعالى وقهرِه.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ لصفاء استعدادِه، وسلامةِ فِطرته ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ اللائقَ بها، وهو السعيُ على سبيل الاستقامةِ وما ترتضيه الشَّريعة. وقال بعضُهم: السعيُ إلى الدنيا بالأبدان والسعيُ إلى الآخرة بالقلوب، والسعيُ إلى الله تعالى بالهِمَم ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ثابتُ الإيمان لا تزعزعه عواصفُ الشُّبه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ مقبولاً مثاباً عليه.

وعن أبي حفصٍ[(٢)]: أنَّ السعيَ المشكورَ ما لم يكن مَشوباً برياءٍ ولا بسمعة، ولا برؤية نفسٍ ولا بطلب عِوَض، بل يكون خالصاً لوجهه تعالى لا يشاركه في ذلك شيءٌ، فلا تغفُل.

---

(١) السُّنْبُك: طرف الحافر. القاموس (السنبك).
(٢) هو شهاب الدين السهروردي، والله أعلم.

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ لا تأثيرَ لإرادتهم وسعيِهم في ذلك، وإنما هي معرفاتٌ وعلاماتٌ لما قدَّرنا لهم من العطاء، ورأيتُ في «الفتوحات المكية»[(١)] أنَّ هذه الآيةَ نحوُ قولهِ تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨] وهو نحوُ ما تقدَّم عن ابن عباسٍ ﵄، وقد سمعتَ ما فيه.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ عن أحد، مطيعاً كان أو عاصياً؛ لأنَّ شأنه تعالى شأنُه الإفاضةُ حسبما تقتضيه الحِكمة.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا، بمقتضى المشيئةِ والحِكمة ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فهناك ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلبِ بشر، رَزَقنا اللهُ تعالى وإيَّاكم ذلك، إنَّه سبحانه الجوادُ المالك.

❁ ❁ ❁

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطابُ للرَّسول ﷺ، والمرادُ به أمَّتُه، على حدِّ: إياكِ أعني فاسمعي يا جارة، أو لكلِّ أحدٍ ممَّن يصلح للخطاب، على حدِّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾ [الأنعام: ٣٠، ٢٧].

﴿فَتَقْعُدَ﴾ بالنَّصب على النهي، والقعودُ، قيل: بمعنى المُكث، كما تقول: هو قاعدٌ في أسوأ حال، أي: ماكثٌ ومقيم، سواءٌ كان قائماً أم جالساً. وقيل: بمعنى العَجز، والعربُ تقول: ما أقعدَك عن المكارِم، أي: ما أَعجزَك عنها. وقيل: بمعنى الصَّيرورة، من قولهم: شحذَ الشفرةَ حتى قعدت كأنَّها حربة، أي: صارت.

وتعقَّب هذا أبو حيَّان[(٢)] بأنَّ مجيءَ قعد بمعنى صار مقصورٌ عند الأصحابِ على هذا المَثَل، ولا يطَّرد. وقال بعضُهم: إن اطَّرد فإنَّما يطَّرد في مثل الموضعِ الذي استعملته العربُ فيه أوَّلاً، يعني القولَ المذكور، فلا يقال: قعد كاتباً، بمعنى صار، بل: قعد كأنَّه سلطان، لكونه مثلَ: قَعَدت كأنَّها حربة.

ولعل مَن فسَّر القعودَ هنا بمعنى الصَّيرورة ذهب مذهبَ الفرَّاء؛ فإنه ـ كما قال

---

(١) في الباب الخامس ١/ ١١٣.

(٢) في البحر ٦/ ٢٢.

أبو حيَّان[1] وغيرُه ـ يقول باطِّراد ذلك، وجعل منه قولَ الراجزِ المذكورِ في «البحر» و«الحواشي الشِّهابية»[1] ولا حجَّةَ فيه. وحكى الكِسائي: قَعَدَ لا يسأل حاجةً إلَّا قضاها، واستعمالُ البغداديِّين على هذا.

ثم إنَّهم اختلفوا في القُعود بمعنى العجز، فقيل: هو مجازٌ من القعود ضدِّ القيام، كالمُقعَد بمعنى العاجزِ عن القيام، ثم تجوِّز به عن مُطلَق العجز. وقيل: هو كنايةٌ عن العجز؛ فإنَّ مَن أراد أخذَ شيءٍ يقوم له، ومَن عجز قعد. وأمَّا القعودُ بمعنى الزَّمانة فحقيقة، والإقعادُ مجاز، كأنَّ مرضه أقعده وجُعل هذا القعودُ بمعنى المكثِ حقيقةً. وتعقِّب بأنَّ فيه نظراً، إلَّا أن يريدَ حقيقةً عرفيةً لا لغوية؛ لأنَّه ضدُّ القيام. وإذا جُعل القعودُ هنا بمعنى العجز، فالفعلُ لازم، ومتعلَّقه محذوف، أي: فتعجزَ عن الفوز بالمقصود، مثلاً.

و: ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ إمَّا خبران لـ «تقعد»، على القول الأخير، وإمَّا حالان مترادفان، أي: فتقعدَ جامعاً على نفسك الخِذلانَ من الله تعالى، والذمَّ من الملائكة والمؤمنين، أو من ذَوِي العقول، حيث اتَّخذت محتاجاً مفتقِراً مثلَك لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا إلهاً، ونسبتَ إليه ما لا يصلحُ له، وجعلتَه شريكاً لمن له الكمالُ الذاتيُّ، وهو الذي خلقكَ ورزقكَ وأنعم عليك، على ما عداه.

وجوَّز أبو حيَّان[2] أن يرادَ بالقعود حقيقتُه؛ لأنَّ مِن شأن المذموم المخذولِ أن يقعدَ حائراً متفكِّراً، وهو من باب التعبيرِ بالحال الغالبة. وفي الآية إشعارٌ بأنَّ الموحِّد جامعٌ بين المدح والنُّصرة.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أخرج ابن جَريرٍ وابنُ المنذر من طريق عليِّ بن أبي طلحةَ عن ابن عباسٍ أنَّه قال: أي: أمَرَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3] أي: بألَّا تعبدوا. .إلخ، على أنَّ «أنْ» مصدرية، والجارَّ قبلها مقدَّر، و«لا» نافيةُ، والمراد النَّهي. ويجوز أن تكونَ ناهيةً كما مرَّ، ولا ينافيه التأويلُ بالمصدر كما أَسلفناه.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٢، وحاشية الشهاب ٦/ ٢١، وينظر الرجز المذكور فيه، ولم نذكره لفحشه.

(٢) في البحر ٦/ ٢٢.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٧١، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٤٢.

أو: أيْ: لا تعبدوا . . إلخ، على أنَّ «أنْ» مفسِّرة؛ لتقدُّم ما تضمَّن معنى القولِ دون حروفِه، و«لا» ناهيةٌ لا غير.

وجوَّز بعضُهم أن تكونَ «أن» مخفَّفة، واسمُها ضمير شأنٍ محذوف، و«لا» ناهيةٌ أيضاً. وهو كما ترى.

وجوَّز أبو البقاءِ[١] أن تكونَ «أن» مصدريةً، و«لا» زائدةً، والمعنى: اِلزَم ربَّك عبادته. وفيه أنَّ الاستثناءَ يأبى ذلك.

وفي «الكشَّاف»[٢] تفسيرُ «قضى» بـ : أمر أمراً مقطوعاً به. وجعل ذلك غيرُ واحدٍ من باب التَّضمين، وجعل المضمنَ أصلاً والمتضمنَ قيداً. وقال بعضُهم: أراد أن القضاءَ مجازٌ عن الأمر المبتوتِ الذي لا يحتمل النسخَ، ولو كان ذلك من التَّضمين لَكان متعلَّق القضاءِ الأمرَ دون المأمورِ به، وإلَّا لزم ألَّا يعبدَ أحدٌ غيرَ الله تعالى، فيحتاجُ إلى تخصيص الخطابِ بالمؤمنين، فيَرِد عليه بأنَّ جميع أوامرِ الله تعالى بقضائه، فلا وجهَ للتخصيص.

وتعقَّب بأنَّ ما ذكر متوجِّه لو أُريد بالقضاء أخو القَدَرِ، أمَّا لو أُريد به معناه اللغويُّ الذي هو البتُّ والقطع المشارُ إليه، فلا يَرِد ما ذكره.

ثم إنَّ لزوم ألَّا يعبدَ أحدٌ غيرَ اللهِ تعالى ادَّعاه ابنُ عباس ـ فيما يروى ـ للقضاءِ من غيرِ تفصيل، فقد أخرج أبو عُبيدٍ، وابنُ مَنيع، وابن المنذرِ، وابنُ مردويه من طريق ميمون بن مِهران عنه رضي الله عنهما أنَّه قال: أنزل اللهُ تعالى هذا الحرفَ على لسان نبيِّكم: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» فلصقت إحدى الواوَين بالصَّاد، فقرأ الناسُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ولو نزلت على القضاءِ ما أَشركَ به أحد[٣].

وأَخرج مثلَ ذلك عنه جماعةٌ من طريق سعيد بن جُبير وابنُ أبي حاتمٍ من طريق الضحَّاك، ورُويت هذه القراءةُ عن ابن مسعودٍ وأُبَيِّ بن كعب رضي الله عنهما أيضاً[٤]. وهذا ـ إن

(١) في الإملاء ٣/ ٤٧٦.
(٢) ٢/ ٤٤٤.
(٣) الدر المنثور ٤/ ١٧٠.
(٤) رواها عنهما الطبري في تفسيره ١٤/ ٥٤٢-٥٤٣، وينظر الدر المنثور ٤/ ١٧٠.

صحَّ ـ عجيبٌ من ابن عباس؛ لاندفاع المحذورِ بحمل القضاءِ على الأمر ـ ولا أقلّ ـ كما هو مرويٌّ عنه أيضاً، نعم قيل: إنَّ ذلك معنًى مجازيٌّ للقضاء، وقيل: إنَّه حقيقيٌّ.

وفي «مفرَدات» الرَّاغب[١]: القضاء: فصلُ الأمر، قولاً كان أو فعلاً، وكلٌّ منهما إلهيٌّ وبشري، فمن القولِ الإلهيِّ قولُه تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) أي: أَمَرَ ربُّك. إلى آخِرِ ما قال. ثم إنَّ هذا الأمرَ عند البعضِ بمعنى مطلَقِ الطلب، ليتناول طلبَ تركِ العبادةِ لغيره تعالى، ويُغني عن هذا التجوُّزُ، كما قيل: إنَّ معنى لا تعبدوا غيرَه: ٱعبدوه وحده، فهو أمرٌ باعتبار لازمِه، وإنَّما اختير ذلك للإشارة إلى أنَّ التخليةَ بترك ما سواه مقدِّمة مهمَّة هنا، وأمر سبحانه ألَّا يعبدوا غيرَه تعالى؛ لأن العبادةَ غايةُ التعظيم، وهي لا تَليق إلَّا لمَن كان في غاية العظمة منعِماً بالنِّعَم العظام، وما غيرُ اللهِ تعالى كذلك. وهذا وما عُطف عليه من الأعمال الحسنةِ كالتفصيل للسَّعي للآخرة.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وبأن تُحسنوا بهما، أو: أَحسِنوا بهما إحساناً، ولعلَّه إذا نُظر إلى توحيد الخطابِ فيما بعدُ، قُدِّر: وأَحسن بالتوحيد أيضاً.

والجارُّ والمجرور متعلِّق بالفعل المقدَّر، وهو الذي ذهب إليه الزمخشريُّ[٢]، ومنع تعلُّقَه بالمصدر؛ لأنَّ صلته لا تتقدَّم عليه، وعلَّقه الواحديُّ به، فقال الحلبيُّ[٣]: إن كان المصدرُ منحلًّا بـ: «أنْ» والفعل، فالوجهُ ما ذهب إليه الزمخشريُّ، وإن جُعل نائباً عن الفعل المحذوف، فالوجهُ ما قاله الواحديُّ، ومذهبُ الكثيرِ من النُّحاة جوازُ تقديمِ معموله إذا كان ظرفاً مطلقاً؛ لتوسُّعهم فيه، والجارُّ والمجرورُ أخوه.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ «إمَّا» مركَّبة من «إن» الشرطيةِ و«ما» المزيدةِ لتأكيدها.

---

(١) مادة (قضى).

(٢) في الكشاف ٢/ ٤٤٤.

(٣) في الدر المصون ٧/ ٣٣٤.

قال الزمخشريُّ[١]: ولذا صحَّ لحوقُ النونِ المؤكِّدة للفعل، ولو أُفردت «إنْ» لم يصحَّ لحوقُها، واختُلف في لَحاقها بعد الزِّيادة، فقال أبو إسحاقَ بوجوبه، وعن سيبويه[٢] القولُ بعدم الوجوب، ويُستشهد له بقول أبي حيَّةَ النميري:

فإمَّا تَرَي لِمَّتي هكذا ... فقد أدركُ الفتياتِ الخفارا[٣]

وعليه قولُ ابنِ دريد[٤]:

أما تَرَي رأسي حاكى لونُه ... طُرَّةَ صبحٍ تحت أذيالِ الدُّجى

ومعنى «عندك» في كَنَفك وكفالتِك، وتقديمُه على المفعول مع أنَّ حقَّه التأخيرُ عنه؛ للتَّشويق إلى وُروده، فإنَّه مدارُ تضاعفِ الرِّعاية والإحسان. و«أحدهما» فاعلٌ للفعل، وتأخيرُه عن الظَّرف والمفعول، لئلَّا يطولَ الكلام به وبما عُطف عليه، و«كلاهما» معطوفٌ عليه.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «إما يَبْلُغانِّ»[٥]، فـ«أحدهما» - على ما في «الكشَّاف»[٦] - بدلٌ من أَلِف الضميرِ لا فاعلٌ، والألفُ علامةُ التثنية على لغة: أكلوني البراغيث، فإنه رُدَّ بأنَّ ذلك مشروطٌ بأن يُسندَ الفعلُ للمثنَّى، نحو: قاما أخواك، أو لمفرَّق بالعطف بالواو خاصَّة، على خلافٍ فيه، نحو: قاما زيدٌ وعَمرٌو، وما هنا ليس كذلك.

واستُشكلت البدليةُ بأن «أحدهما» على ذلك بدلُ بعضٍ من كلٍّ، لا كلٍّ من كلّ؛ لأنَّه ليس عينَه، و«كلاهما» معطوفٌ عليه، فيكون بدلَ كلٍّ من كلٍّ، لكنه خالٍ عن الفائدة، على أنَّ عطف بدلِ الكلِّ على غيره ممَّا لم نجده.

وأُجيب بأنَّا نسلِّم أنه لم يُفِد البدلُ زيادةً على المبدَل منه، لكنه لا يضرُّ؛ لأنَّه

(١) في الكشاف ٢/ ٤٤٤.
(٢) الكتاب ٣/ ٥١٤-٥١٥.
(٣) البيت في منتهى الطلب ٧/ ٢٣٣، والشطر الثاني فيه:
فأكثرتِ مما رأيت النِّفارا
(٤) مقصورة ابن دريد لمحمد بن أحمد بن هشام اللخمي ص١١٥، وسلف ٨/ ٢٢٩.
(٥) التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٦.
(٦) ٢/ ٤٤٤.

شأنُ التأكيد، ولو سلِّم أنَّه لا بدَّ من ذلك ففيه فائدةٌ؛ لأنه بدلٌ مقسم كما قاله ابنُ عطية[١]، فهو كقوله[٢]:

فكنتُ كذي رِجْلَين رِجْلٍ صحيحةٍ وأُخرى رمى فيها الزمانُ فشلَّتِ

وتعقِّب بأنَّه ليس من البدل المذكور؛ لأنَّه شرطُه العطفُ بالواو، وألَّا يَصدقَ المبدلُ منه على أَحد قسمَيه، وهنا قد صَدَقَ على أحدهما. وبالجملة هذا الوجهُ لا يخلو عن القيلِ والقال.

وعن أبي عليٍّ الفارسي[٣] أنَّ «أحدهما» بدلٌ من ضمير التَّثنية، و«كلاهما» تأكيدٌ للضمير.

وتعقِّب بأنَّ التأكيدَ لا يُعطَف على البدل كما لا يُعطَف على غيره، وبأنَّ أحدهما لا يصلحُ تأكيداً للمثنَّى ولا غيره، فكذا ما عُطف عليه، وبأنَّ بين إِبدال بدلِ البعض منه وتوكيدِه تدافعاً؛ لأنَّ التأكيد يدفع إِرادةَ البعضِ منه.

ومِن هنا قال في «الدُّرّ المصون»[٤]: لابدَّ من إصلاحه بأن يجعلَ «أحدهما» بدلَ بعضٍ من كلٍّ، ويضمرَ بعده فعلٌ رافعٌ لضمير تثنية، و«كلاهما» توكيدٌ له، والتقدير: أو يبلغان كلاهما، وهو من عطف الجملِ حينئذ، لكن فيه حذفُ المؤكَّد وإِبقاءُ تأكيدِه، وقد منعه بعضُ النُّحاة، وفيه كلامٌ في مفصَّلات العربية.

ولعل المختارَ إِضمارُ فعل لم يتَّصل به ضميرُ التثنية، وجَعلُ «كلاهما» فاعلاً له، فإنَّه سالمٌ عما سمعتَ في غيره، ولذا اختاره في «البحر»[٥].

وتوحيدُ ضميرِ الخطابِ في «عندك» وفيما بعدَه، مع أنَّ ما صرِّح به فيما سبقَ على الجمع؛ للاحتراز عن التباس المراد، وهو نهيُ كلِّ أحدٍ عن تأفيف والدَيه ونهرِهما، فإنَّه لو قوبل الجمعُ بالجمع أو التثنيةُ بالتثنية، لم يحصل ذلك. وذكر أنَّه

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٨.
(٢) هو كثير عزة، والبيت في ديوانه ص٧٨.
(٣) الحجة ٥/ ٩٦.
(٤) ٧/ ٣٣٧.
(٥) ٦/ ٢٧.

وحّد الخطابُ في «ولا تجعل» للمبالغة، وجُمع في «أن لا تعبدوا إلا إياه» لأنَّه أوفقُ لتعظيم أمر القضاء.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ﴾ أي: لواحدٍ منهما حالتَي الانفرادِ والاجتماع ﴿أُفٍّ﴾ هو اسمُ صوتٍ ينبئُ عن التضجُّر، أو اسمُ فعلٍ هو: أتضجَّر، واسمُ الفعلِ بمعنى المضارع ـ وكذا بمعنى الماضي ـ قليل، والكثيرُ بمعنى الأمر. وفيه نحوٌ من أربعين لغة، والواردُ من ذلك في القراءات سبع: ثلاثٌ متواترة، وأربعٌ شاذة[1]. فقرأ نافعٌ وحفصٌ بالكسر والتنوين[2]، وهو للتَّنكير، فالمعنى: أتضجَّر تضجُّراً ما، وإذا لم ينوَّن، دلَّ على تضجُّر مخصوص.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ بالفتح دونَ تنوين، والباقونَ بالكسر دونَ تنوين[2]، وهو على أصل التقاءِ السَّاكنَين، والفتحُ للخفَّة، ولا خلافَ بينهم في تشديد الفاءِ.

وقرأ نافعٌ في روايةٍ عنه بالرفع والتنوين، وأبو السمَّال بالضمِّ للإتْباع من غير تنوين، وزيدُ بن عليٍّ رضي الله عنه بالنَّصب والتنوين، وابنُ عباس رضي الله عنهما بالسُّكون[3].

ومحصَّلُ المعنى: لا تتضجَّرْ ممَّا يُستقذَر منهما وتستثقلُ من مؤَنهما. والنهيُ عن ذلك يدلُّ على المنع من سائر أنواعِ الإيذاءِ قياساً جليًّا؛ لأنَّه يُفهم بطريق الأَولى، ويسمَّى مفهومَ الموافقة، ودلالَةَ النصِّ، وفحوى الخطاب. وقيل: يدلُّ على ذلك حقيقةً ومنطوقاً في عرف اللغة، كقولك: فلانٌ لا يملك النقيرَ والقطمير، فإنه يدلُّ كذلك على أنَّه لا يملك شيئاً قليلاً أو كثيراً.

وخصَّ بعض أنواع الإيذاءِ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ للاعتناءِ بشأنه. والنَّهرُ ـ كما قال الراغبُ[4] ـ الزجرُ بإغلاظ. وفي «الكشَّاف»[5]: النهيُ والنَّهْر والنَّهم أخوات، أي: لا تزجرْهما عمَّا يتعاطيانه مما لا يُعجبك.

وقال الإمام[6]: المرادُ من قوله تعالى: (فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ) المنعُ من إظهار

(١) ذكرها في البحر ٦/ ٢٧.
(٢) التيسير ص١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٦-٣٠٧.
(٣) ينظر القراءات الشاذة ص٧٦، والمحتسب ٢/ ١٨، والبحر المحيط ٦/ ٢٧.
(٤) في المفردات (نهر).
(٥) ٢/ ٤٤٤.
(٦) في التفسير الكبير ٢٠/ ١٩٠.

الضَّجَرِ القليلِ والكثير، والمرادُ من قوله سبحانه: «ولا تنهرهما» المنعُ من إظهار المخالفةِ في القول على سبيل الردِّ عليهما والتكذيبِ لهما؛ ولذا رُوعيَ هذا الترتيب، وإلَّا فالمنعُ من التأفيف يدلُّ على المنع من النَّهر بطريق الأَولى، فيكون ذِكرُه بعده عبثاً، فتأمَّل.

﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدلَ التأفيفِ والنَّهر ﴿قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: جميلاً لا شراسةَ فيه. قال الرَّاغب[1]: كلُّ شيءٍ يشرف في بابه فإنَّه يوصف بالكرم.

وجَعَلَ ذلك بعضُ المحقِّقين من وصف الشيءِ باسم صاحبِه، أي: قولاً صادراً عن كرمٍ ولُطف، ويعودُ بالآخرة إلى القول الجميلِ الذي يقتضيه حسنُ الأَدب، ويستدعيه النزولُ على المروءة، مثل أن يقولَ: يا أَبتاه، ويا أُمَّاه، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنَّه من الجَفاء وسوءِ الأدب، وليس القولُ الكريم مخصوصاً بذلك، كما يوهمه اقتصارُ الحسنِ - فيما أَخرجه عنه ابنُ أبي حاتم - عليه؛ فإنَّه من باب التمثيل[2]، وكذا ما أَخرج عن زهير بنِ محمد أنَّه قال فيه: إذا دعواك فقل: لبَّيكما وسَعديكما.

وأخرج هو وابنُ جَريرٍ وابنُ المنذر[3] عن أبي الهدَّاج[4] أنَّه قال: قلتُ لسعيد بن المسيَّب: كلُّ ما ذكر اللهُ تعالى في القرآن من بِرِّ الوالدين فقد عرفتُه، إلَّا قولَه سبحانه: (وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) ما هذا القولُ الكريم؟ فقال ابن المسيَّب: قولُ العبدِ المذنب للسيِّد الفظِّ.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: تواضعْ لهما وتذلَّل. وفيه وجهان: الأوَّل: أن يكونَ على معنى: جناحَك الذَّليل، ويكون «جناح الذل» بل خفضُ الجناحِ تمثيلاً في التواضع، وجاز أن يكونَ استعارةً في المفرد، وهو الجَناح، ويكون الخفضُ ترشيحاً تبعيًّا أو مستقلًّا. الثاني: أن يكونَ من قَبيل قولِ لبيد[5]:

---

(١) في المفردات (كرم).
(٢) يقصد قول الحسن: يقول: يا أبت، يا أمه، ولا يسميهما بأسمائهما. الدر المنثور ٤/ ١٧١.
(٣) الدر المنثور ٤/ ١٧١، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٤٩.
(٤) هو سليمان بن الهداج التُّجيبي. روى عن سعيد بن المسيب، وروى عنه حرملة بن عمران. الجرح والتعديل ٤/ ١٤٨.
(٥) ديوانه ص٣١٥، وقد سلف ٧/ ٢٩٢.

وغـداةِ ريـحٍ قـد كـشـفـتُ وقَـرَّةٍ إذ أصـبـحـتْ بيـد الـشِّـمـال زِمـامُـهـا

فيكونُ في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ وتخييلية، بأن يشبَّه الذُّلّ بطائر منحطٌّ من علوٍّ تشبيهاً مضمراً، ويثبتَ له الجناحُ تخييلاً، والخفضُ ترشيحاً؛ فإنَّ الطائرَ إذا أراد الطيرانَ والعلوَّ، نشر جناحَيه ورفعهما ليرتفعَ، فإذا ترك ذلك خَفَضَهما، وأيضاً هو إذا رأى جارحاً يخافه لَصِق بالأرض وألصق جناحيه، وهي غايةُ خوفِه وتذلُّله. وقيل: المرادُ بخفضهما ما يفعله إذا ضمَّ فراخَه للتربية، وأنَّه أنسبُ بالمقام.

وفي «الكشف» أنَّ في الكلام استعارةً بالكناية ناشئةً من جعل الجَناح الذُّلَّ، ثم المجموع كما هو مثلٌ في غاية التَّواضع، ولمَّا أثبت لذلِّه جناحاً، أَمَرَه بخفضه تكميلاً، وما عسى يختلجُ في بعضِ الخواطرِ من أنَّه لمَّا أثبت لذلِّه جناحاً، فالأمرُ برفع ذلك الجَناحِ أبلغُ في تقوية الذُّلِّ من خفضه؛ لأن كمالَ الطائرِ عند رفعِه، فهو ظاهرُ السقوطِ إذا جعل المجموعُ تمثيلاً؛ لأنَّ الغَرضَ تصويرُ الذلِّ كأنه مشاهَدٌ محسوس، وأمَّا على الترشيح، فهو وَهَم؛ لأنَّ جعل الجناحِ المخفوضِ للذلِّ يدلُّ على التواضع، وأمَّا جعلُ الجناحِ وحده فليس بشيءٍ؛ ولهذا جعل تمثيلاً فيما سلف.

وقرأ سعيد بن جُبَير: «من الذِّلِّ» بكسر الذَّال[1]، وهو الانقيادُ، وأصله في الدوابِّ، والنعتُ منه: ذَلول، وأما الذُّلُّ بالضمِّ، فأصلُه في الإنسان، وهو ضدُّ العزِّ، والنعتُ منه: ذَليل.

﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ أي: من فَرط رحمتِك عليهما، فـ «مِن» ابتدائيةٌ على سبيل التعليل، قال في «الكشف»: ولا يَحتمل البيانَ حتى يقال: لو كان كذا لرَجعت الاستعارةُ إلى التشبيه؛ إذ جناحُ الذُّلِّ ليس من الرحمة أبداً، بل خفضُ جناحِ الذُّل جاز أن يقالَ: إنَّه رحمة، وهذا بيِّن. واستفادةُ المبالغةِ مِن جَعل جنسِ الرحمةِ مبدأً للتذلُّل؛ فإنَّه لا ينشأ إلَّا من رحمةٍ تامةٍ، وقيل: من كون التعريفِ للاستغراق. وليس بذاك، وإنَّما احتاجا إلى ذلك؛ لافتقارهما إلى مَن كان أفقرَ الخلق إليهما، واحتياجُ المرءِ إلى مَن كان محتاجاً إليه غايةُ الضَّراعةِ والمسكنة، فيحتاج إلى أشدَّ

(١) القراءات الشاذة ص٧٦. وانظر المحتسب ٢/ ١٨.

رحمة، ولله تعالى درُّ الخفاجيِّ حيث يقول(١):

يـا مَـن أَتـى يـسـأل عـن فـاقـتـي ... مـا حـالُ مَـن يـسـأل مِـن سـائـلِـهْ
مـا ذِلَّـةُ الـسـلـطـانِ إلّا إذا ... أصـبـح مـحـتـاجـاً إلـى عـامـلـه

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ وادعُ الله تعالى أن يرحمَهما برحمته الباقية، وهي رحمةُ الآخرة، ولا تكتفِ برحمتك الفانية، وهي ما تضمَّنها الأمرُ والنهيُ السالفان. وخُصَّت الرحمةُ الأخرويةُ بالإرادة؛ لأنَّها الأعظمُ المناسبُ طلبُه من العظيم، ولأنَّ الرحمةَ الدنيويةَ حاصلةٌ عموماً لكلِّ أحد. وجوِّز أن يرادَ ما يعمُّ الرحمتين. وأيًّا ما كان، فهذه الرحمةُ التي في الدعاء، قيل: إنَّها مخصوصةٌ بالأبوين المسلمَين. وقيل: عامَّةٌ منسوخةٌ بآية النهيِ عن الاستغفار، وقيل: عامَّة ولا نسخَ؛ لأنَّ تلك الآيةَ بعد الموتِ، وهذه قبلَه، ومن رحمة اللهِ تعالى لهما أن يهديَهما للإيمان، فالدعاءُ بها مستلزمٌ للدُّعاء به، ولا ضيرَ فيه.

والقولُ بالنَّسخ أخرجه البخاريُّ في «الأدب المفرَد»، وأبو داودَ، وابن جَرير، وابنُ المنذر من طرقٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما(٢).

﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ الكافُ للتشبيه، والجارُّ والمجرور صفةُ مصدرٍمقدَّر، أي: رحمةً مثلَ تربيتهما لي، أو مثلَ رحمتِهما لي، على أنَّ التربيةَ رحمة. وجوِّز أن يكونَ لهما الرحمةُ والتربيةُ معاً وقد ذُكر أحدُهما في أحد الجانبين والآخَرُ في الآخَر، كما يلوِّح به التعرُّضُ لعنوان الرُّبوبية في مطلع الدعاءِ، كأنَّه قيل: ربِّ ارحمهما وربِّهما كما رحماني وربَّياني ﴿صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾. وفيه بُعدٌ.

وجوِّز أن تكونَ الكافُ للتعليل، أي: لأجل تربيتِهما لي. وتعقِّب بأنَّه مخالفٌ لمعناها المشهورِ مع إفادة التشبيهِ ما أفاده التعليل.

وقال الطِّيبي: إنَّ الكافَ لتأكيد الوجود، كأنَّه قيل: ربِّ ارحمهما رحمةً محقَّقةً مكشوفةً لا ريبَ فيها، كقوله تعالى: ﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] قال في

---

(١) في حاشيته ٦/ ٢٥.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٧١ ولم يُذكر فيه أبو داود بل ذكر ابن أبي حاتم، والأدب المفرد (٢٣)، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٥٤.

«الكشف»: وهو وجهٌ حسن، وأمَّا الحملُ على أنَّ «ما» المصدريةَ جُعلت حيناً، أي: ارحمهما في وقتٍ أَحوج ما يكونان إلى الرحمة، كوقت رحمتِهما عليَّ في حال الصِّغر وأنا كلحمٍ على وَضَم، وليس ذلك إلَّا في القيامة، والرحمةُ هي الجنة، والبتُّ بأنَّ هذا هو التَّحقيقُ، فليت شِعري أَلِاستقامةِ وجهِه في العربية ارتضاه، أم لِطباقه للمقام وفخامةِ معناه؟ اهـ.

وهو ـ كما أشار إليه ـ ليس بشيءٍ يعوَّل عليه، والظاهر أنَّ الأمرَ للوجوب، فيجب على الولد أنْ يدعوَ لوالدَيه بالرَّحمة، ومقتضى عدمِ إفادة الأمرِ التكرارَ أنَّه يكفي في الامتثال مرَّةً واحدة، وقد سئل سفيانُ: كم يدعو الإنسانُ لوالديه، في اليوم مرة، أو في الشَّهر، أو في السَّنة؟ فقال: نرجو أن يَجزيَه إذا دعا لهما في آخِر التشهُّدات، كما أنَّ الله تعالى قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فكانوا يرون أنَّ التشهُّد يكفي في الصَّلاة على النبيِّ ﷺ، وكما قال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٠٣] ثم يكبِّرون في أدبار الصَّلوات.

هذا وقد بالغ عزَّ وجلَّ في التوصية بهما من وجوهٍ لا تخفَى، ولو لم يكن سوى أنْ شَفَعَ الإحسانَ إليهما بتوحيده سبحانه ونَظَمهما في سِلك القضاءِ بهما معاً، لَكفى. وقد روَى ابن حِبَّان، والحاكمُ ـ وقال: صحيحٌ على شرط مسلم ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «رضا اللهِ تعالى في رضا الوالدَين، وسَخَطُ اللهِ تعالى في سَخَط الوالدين»(١).

وصحَّ أنَّ رجلاً جاء يستأذن النبيَّ ﷺ في الجهاد معه، فقال: «أحيٌّ والداك»؟ قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهِدْ»(٢).

وجاءَ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «لو عَلِمَ اللهُ تعالى شيئاً أدنَى من الأُفِّ، لَنهَى عنه، فلْيعمل العاقُّ ما شاء أن يعملَ، فلن يدخلَ الجنةَ، ولْيعمل البارُّ ما شاءَ أن يعملَ، فلن يدخلَ النَّار»(٣).

---

(١) صحيح ابن حبان (٤٢٩)، والمستدرك ٤/ ١٥١-١٥٢ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وهو عند الترمذي (١٨٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٤)، ومسلم (٢٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) هو في الفردوس(٥٠٦٣) من حديث الحسن بن علي مرسلاً. قال ابن عراق في تنزيه الشريعة =

ورأى ابنُ عمرَ رضي الله عنهما رجلاً يطوف بالكعبة حاملاً أمَّه على رقبته، فقال: يا ابنَ عمر، أَتراني جزيتُها؟ قال: لا، ولا بطلقةٍ واحدةٍ، ولكنَّك أحسنتَ، واللهُ تعالى يُثيبك على القليل كثيراً.

وروى مسلمٌ[1] وغيرُه: «لا يَجزي ولدٌ والدَه إلَّا أن يجدَه مملوكاً فيشتريَه فيُعتقَه».

وروى البيهقيُّ في «الدَّلائل»، والطبرانيُّ في «الأوسط» و«الصغير»[2] بسندٍ فيه مَن لا يُعرف عن جابرٍ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنَّ أبي أَخذ مالي، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «فاذهبْ فأتني بأبيك» فنزل جبريلُ عليه السلامُ على النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ اللهَ تعالى يُقرئك السلامَ ويقول: «إذا جاءك الشيخُ، فسَلْه عن شيءٍ قاله في نفسه ما سمعتْه أُذناه» فلمَّا جاء الشيخُ، قال له النبيُّ ﷺ: «ما بالُ ابنِك يشكوك تريد أن تأخذ مالَه»؟ قال: سَلْه يا رسولَ الله، هل أنفقتُه إلَّا على عمَّاته وخالاتِه، أو على نفسي، فقال النبيُّ ﷺ: «ايهِ، دَعْنا من هذا، أَخبرني عن شيءٍ قلتَه في نفسك ما سمعتْه أُذناك» فقال الشيخُ: واللهِ يا رسولَ الله ما يزال اللهُ تعالى يَزيدنا بك يقيناً، لقد قلتُ في نفسي شيئاً ما سمعتْه أذناي، فقال: «قلْ وأنا أسمع» فقال: قلت:

غذوتُك مولوداً ومُنتُك يافعاً ... تعلُّ بما أَجني عليك وتَنهَلُ
إذا ليلةٌ ضاقتك بالسُّقم لم أَبِت ... لِسُقمك إلَّا ساهراً أتملَّل
كأنِّي أنا المطروقُ دونك بالذي ... طُرقتَ به دوني فعينيَ تَهمُل
تخاف الرَّدَى نفسي عليك وإنها ... لتَعلم أن الموت وقتٌ مؤجَّل
فلمَّا بلغتَ السنَّ والغايةَ التي ... إليها مدَى ما كنتُ فيها أؤمِّل
جعلتَ جزائي غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعِم المتفضِّل

= المرفوعة ٢/ ٢٣٣: وفيه عيسى بن عبيد الله، وعنه أصرم بن حوشب. اهـ. وأصرم بن حوشب متروك، واتهمه بعضهم بالوضع. انظر ميزان الاعتدال ١/ ٢٧٢.

(١) في صحيحه (١٥١٠).

(٢) دلائل النبوة ٦/ ٣٠٤-٣٠٥، والأوسط (٦٥٧٠)، والصغير(٩٤٧).

فليتكَ إذ لم ترعَ حقَّ أبوَّتي فعلت كما الجارُ المجاورُ يفعل
تراه معدًّا للخلاف كأنه بردٍّ على أهل الصواب موكَّل

قال: فحينئذٍ أخذ النبيُّ ﷺ بتلابيب ابنهِ وقال: «أنت ومالُك لأبيك»[(١)].

والأمُّ مقدَّمة في البرِّ على الأب؛ فقد روى الشَّيخانِ[(٢)]: يا رسولَ الله، مَن أحقُّ الناس بحُسن صَحابتي؟ قال: «أمُّك» قال: ثم مَن؟ قال: «أمك» قال: ثم مَن؟ قال: «أمُّك» قال: ثم مَن؟ قال: «أبوك».

ولا يختصُّ البرُّ بالحياة، بل يكون بعد الموتِ أيضاً. فقد روى ابنُ ماجه[(٣)]: يا رسول الله، هل بقي مِن برِّ أبويَّ شيءٌ أبَرُّهما به بعد موتِهما؟ فقال: «نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإيفاءُ عهدهِما من بعدهما، وصلةُ الرَّحم التي لا توصَل إلَّا بهما، وإكرامُ صديقِهما» ورواه ابن حبَّان في «صحيحه»[(٤)] بزيادة: قال الرجل: ما أكثرَ هذا يا رسولَ اللهِ وأطيبَه، قال: «فاعمَلْ به».

وأخرج البيهقيُّ[(٥)] عن أنسٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ العبد لَيموت والداه أو أحدهما وإنَّه لهما لَعاقٌّ، فلا يزالُ يدعو لهما ويستغفر لهما حتى يكتبَه اللهُ تعالى بارًّا» وأخرج[(٦)] عن الأوزاعيِّ قال: بلغني أنَّ مَن عقَّ والديه في حياتهما، ثم قضى دَيناً إنْ كان عليهما، واستغفرَ لهما ولم يستسبَّ لهما، كُتب بارًّا. ومَن برَّ والدَيه في حياتهما، ثم لم يقضِ دَيناً إنْ كان عليهما، ولم يستغفرْ لهما، واستسبَّ لهما، كُتب عاقًّا» وأَخرج[(٧)] هو أيضاً، وابنُ أبي الدُّنيا عن محمد بنِ النُّعمان يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: «مَن زار قبرَ أبويه أو أحدهما في كلِّ جُمُعة، غُفر له وكتب بَرًّا».

---

(١) وقوله: «أنت ومالك لأبيك»، سيأتي تخريجه عند تفسير الآية(٦١) من سورة النور.
(٢) صحيح البخاري (٥٩٧١)، وصحيح مسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) في سننه (٣٦٦٤) من حديث أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه. وهو عند أبي داود (٥١٤٢).
(٤) برقم (٤١٨).
(٥) في الشعب (٧٩٠٢).
(٦) في الشعب ٦/ ٢٠٤ إثر حديث (٧٩٠٧).
(٧) الدر المنثور ٤/ ١٧٤، وشعب الإيمان (٧٩٠١).

وروى مسلمٌ[١] أنَّ ابن عمرَ ﷺ لَقِيه رجلٌ بطريق مكّة، فسلَّم عليه ابنُ عمرَ وحمله على حمارٍ كان يركبه، وأعطاه عمامةً كانت على رأسه، فقال ابنُ دينار: فقلت له: أَصلحك اللهُ تعالى، إنَّهم الأعراب، وهم يرضَون باليسير، فقال: إنَّ أبا هذا كان ودًّا لعمرَ بنِ الخطاب، وإني سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ أبرَّ البرِّ صلةُ الولدِ أهلَ وِدِّ أبيه».

وأخرج ابنُ حبَّان في «صحيحه»[٢] عن أبي بُردةَ ﷺ قال: قَدِمت المدينةَ، فأتاني عبدُ الله بن عمرَ فقال: أتدري لم أتيتُك؟ قال: قلت: لا، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن أحبَّ أن يصلَ أباه في قبره، فلْيَصِل إخوانَ أبيه مِن بعده» وإنَّه كان بين أبي عمرَ وبين أبيك إخاءٌ ووُدّ، فأَحببتُ أن أصلَ ذلك.

وقد ورد في فضل البرِّ ما لا يُحصَى كثرةً من الأحاديث، وصحَّ عدُّ العقوقِ من أَكبر الكبائر، وكونُه منها هو ما اتَّفقوا عليه، وظاهرُ كلامِ الأكثرين ـ بل صريحُه ـ أنَّه لا فرقَ في ذلك بين أن يكونَ الوالدان كافرَين وأن يكونا مسلمَين، والتقييدُ بالمسلمَين في الحديث الحسنِ أنَّه ﷺ سُئل عن الكبائر فقال: «تِسعٌ، أعظمُهنَّ الإشراكُ، وقتلُ النفسِ المؤمنةِ بغير حقٍّ، والفرارُ من الزَّحفِ، وقذفُ المحصَنة، والسِّحر، وأكلُ مالِ اليتيم، وأكلُ الرِّبا، وعقوقُ الوالدين المسلمين»[٣]، إمَّا لأنَّ عقوقهما أقبحُ، والكلامُ هناك في ذِكر الأعظم، على أحد التقديرَين في عطفِ «وقتل المؤمن» وما بعدَه، وإمَّا لأنَّهما ذُكرا للغالب كما في نظائرَ أُخَر.

وللحليميِّ هاهنا تفصيلٌ مبنيٌّ على رأيٍ له ضعيف، وهو أنَّ العقوقَ كبيرة، فإنْ كان معه نحوُ سبٍّ، ففاحشةٌ، وإنْ كان عقوقُه هو استثقالَه لأمرهما ونهيِهما والعبوسَ في وجههما والتبرُّمَ بهما مع بذل الطاعةِ ولزومِ الصمت، فصغيرةٌ، فإن كان ما يأتيه من ذلك يُلجئهما إلى أن يَنقبضا فيتركا أمرَه ونهيَه ويلحقَهما من ذلك ضررٌ، فكبيرة[٤].

وبينهم في حدِّ العقوقِ خلافٌ، ففي «فتاوى» البُلقيني: مسألة قد ابتلي الناسُ بها

---

(١) في صحيحه (٢٥٥٢).

(٢) برقم (٤٣٢).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٩.

(٤) ينظر المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٢٤١-٢٥٠.

واحتيجَ إلى بسط الكلامِ عليها وإلى تفاريعها؛ ليحصلَ المقصودُ في ضمن ذلك، وهي السؤالُ عن ضابط الحدِّ الذي يُعرَف به عقوقُ الوالدين، إذ الإحالةُ على العُرف من غير مثالٍ لا يحصل المقصود، إذ الناسُ تَحملهم أغراضُهم على أن يجعلوا ما ليس بعرفٍ عرفاً، فلابدَّ من مثالٍ يُنسَج على منواله، وهو أنَّه ـ مثلاً ـ لو كان له على أبيه حقٌّ شرعيّ، فاختار أن يرفعَه إلى الحاكم ليأخذَ حقَّه منه ولو حبسه، فهل يكونُ ذلك عقوقاً أو لا؟ أجاب: هذا الموضعُ قال فيه بعضُ الأكابر: إنه يَعسُر ضبطُه، وقد فتح اللهُ تعالى بضابطٍ أرجو من فضل الفتَّاح العليمِ أن يكونَ حسناً، فأقول: العقوقُ لأحد الوالدَين هو أن يؤذيَه بما لو فعله مع غيره كان محرَّماً من جملة الصَّغائر، فينتقل بالنِّسبة إليه إلى الكبائر، أو أن يخالفَ أمرَه أو نهيَه فيما يدخل منه الخوفُ على الولد من فَوت نفسِه أو عضوٍ من أعضائه مالم يتَّهم الوالدُ في ذلك، أو أن يخالفَه في سفرٍ يشقُّ على الوالد وليس بفرضٍ على الولد، أو في غَيبة طويلةٍ فيما ليس بعلم نافعٍ ولا كسبَ فيه، أو فيه وقيعةٌ في العِرض لها وَقع.

وبيانُ هذا الضابطِ أنَّ قولنا: أن يؤذيَ الولدُ أحدَ والدَيه بما لو فعله مع غير والدَيه كان محرّماً، فمثالُه: لو شتم غيرَ أحدِ والديه أو ضربه بحيث لا ينتهي الشتمُ أو الضربُ إلى الكبيرة، فإنَّه يكون المحرَّم المذكورُ إذا فعله الولدُ مع أحدِ والديه كبيرةً، وخرج بقولنا: أن يؤذيَ، ما لو أخذ فَلساً أو شيئاً يسيراً من مال أحدِ والديه، فإنَّه لا يكون كبيرةً، وإن كان لو أخذه مِن مال غيرِ والديه بغير طريقٍ معتبَر كان حراماً؛ لأنَّ أحدَ الوالدين لا يتأذَّى بمثل ذلك، لِمَا عنده من الشَّفقة والحنوِّ، فإنْ أخذ مالاً كثيراً بحيث يتأذَّى المأخوذُ منه من الوالدَين بذلك، فإنَّه يكون كبيرةً في حقِّ الأجنبيِّ، فكذلك هنا، لكن الضابطَ فيما يكون حراماً صغيرةً بالنِّسبة إلى غير الوالدَين. وخرج بقولنا: ما لو فعله مع غير أحدِ الوالدين كان محرَّماً، نحوُ ما إذا طالب بدَين، فإنَّ هذا لا يكون عقوقاً؛ لأنَّه إذا فعله مع غير الوالدينِ لا يكون محرَّماً، فافهمْ ذلك فإنَّه من النَّفائس.

وأمَّا الحبس، فإن فرَّعناه على جواز حبس الوالدِ بدَين الولدِ كما صحَّحه جماعةٌ، فقد طلب ما هو جائزٌ، فلا عقوقَ، وإن فرَّعنا على منع حبسِه المصحَّحِ عند آخَرين، فالحاكمُ إذا كان معتقدَه ذلك، لا يُجيب إليه، ولا يكون الولدُ بطلب

ذلك عاقًّا إذا كان معتقداً الوجهَ الأوَّل، فإن اعتقد المنعَ وأقدمَ عليه، كان كما لو طلب حبسَ مَن لا يجوز حبسُه من الأجانب لإعسار ونحوِه، فإذا حبسه الولدُ واعتقادُه المنعُ، كان عاقًّا؛ لأنَّه لو فعله مع غير والدِه حيث لا يجوزُ، كان حراماً، وأما مجرَّد الشَّكوى الجائزةِ والطلب الجائز، فليس من العقوق في شيءٍ، وقد شكا بعضُ ولدِ الصحابةِ إلى رسول اللهِ ﷺ، ولم ينهَه عليه الصلاة والسلام، وهو الذي لا يُقرُّ على باطل.

وأمَّا إذا نهر أَحدَ والديه، فإنَّه إذا فعل ذلك مع غير الوالدَين وكان محرَّماً، كان في حقِّ أحد الوالدين كبيرةً، وإنْ لم يكن محرَّماً، وكذا أُفٌّ، فإنَّ ذلك يكون صغيرةً في حقِّ أحد الوالدين، ولا يَلزم من النَّهي عنهما والحالُ ما ذُكر أن يكونا من الكبائر.

وقولُنا: أو أن يخالفَ أمرَه ونهيَه فيما يدخل منه الخوفُ. .إلخ، أَردنا به السفرَ للجهاد ونحوِه من الأَسفار الخَطِرة؛ لما يُخافُ من فوات نفسِ الولدِ أو عضوٍ من أعضائه؛ لشدَّة تفجُّعِ الوالدين على ذلك. وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ من حديث عبدِ الله بن عَمرٍو في الرَّجل الذي جاء يستأذن النبيَّ ﷺ للجهاد أنَّه عليه الصلاة والسلام قال له: «أحيٌّ والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»، وفي رواية: «اِرجع إليهما ففيهما المجاهدةُ»[1] وفي أخرى[2]: جئت أُبايعكَ على الهجرة، وتركت أبويَّ يبكيان، فقال: «ارجع فأَضحِكْهما كما أبكيتَهما» وفي إسناده: عطاءُ بن السائب، لكن من رواية سفيانَ عنه. وروى أبو سعيدٍ الخدريُّ أنَّ رجلاً هاجر إلى رسول اللهِ ﷺ، فقال: «هل لك أحدٌ باليمن»؟ قال: أبواي، قال: «أَذِنا لك؟» قال: لا، قال: «فارجْع فاستأذِنْهما، فإن أَذِنا لك فجاهد، وإلا فبِرَّهما» ورواه أبو داود[3] وفي إسناده من اختُلف في توثيقه.

وقولنا: ما لم يتَّهم الوالدُ في ذلك، أَخرجنا به ما لو كان الوالدُ كافراً، فإنَّه

(١) أخرجها البيهقي ٩/ ٢٥-٢٦، وفي رواية لمسلم (٢٥٤٩): «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما».
(٢) أخرجها أبو داود (٢٥٢٨)، والنسائي ٧/ ١٤٣، وابن ماجه (٢٧٨٢).
(٣) في سننه (٢٥٣٠).

لا يحتاج الولدُ إلى إذنه في الجهاد ونحوِه، وحيث اعتبرنا إذنَ الوالد، فلا فرقَ بين أن يكونَ حرًّا أو عبداً.

وقولنا: أو أن يخالفَه في سفر. . .إلخ، أردنا به السفرَ لحجِّ التطوُّع حيث كان فيه مشقَّة، وأخرجنا بذلك حجَّ الفرض، وإذا كان فيه ركوبُ البحرِ يجب ركوبُه عند غَلَبة السَّلامة، فظاهرُ الفقهِ أنَّه لا يجب الاستئذانُ، ولو قيل بوجوبه لِمَا عند الوالدِ من الخوف في رُكوب البحرِ وإن غلبت السَّلامة، لم يكن بعيداً. وأمَّا سفرُه للعلم المتعيِّن، أو لفَرْض الكفاية، فلا منعَ فيه وإن كان يُمكنه التعلُّم في بلده، خلافاً لمن اشترط ذلك؛ لأنه قد يتوقَّع في السفر فراغَ قلب، وإرشادَ أستاذ، ونحوَ ذلك، فإن لم يتوقَّع شيئاً من ذلك، احتاج إلى الاستئذان.

وحيث وجبت النفقةُ للوالد على الولدِ وكان في سفره تضييعٌ للواجب، فللوالد المنعُ، وأمَّا إذا كان الولدُ بسفره يحصِّل وقيعةً في العِرض لها وَقْع، بأن يكونَ أمردَ ويخاف من سفره تُهَمة، فإنَّه يمنع من ذلك، وذلك في الأُنثى أَوْلى، وأمَّا مخالفةُ أمرِه ونهيِهِ فيما لا يدخل على الولد فيه ضررٌ بالكلِّية، وإنَّما هو مجرَّد إرشادٍ للولد، فلا تكون عقوقاً، وعدمُ المخالفةِ أَولى. اهـ كلامُ البُلقينيّ.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ العقوق فعلُ ما يحصل منه لهما أو لأَحدهما إيذاءٌ ليس بالهيِّن عرفاً، ويحتمل أنَّ العِبرة بالمتأذِّي، لكن لو كان الوالدُ مثلاً في غاية الحمقِ أو سفاهةِ العقل، فأَمَرَ أو نهَى ولدَه بما لا يعدُّ مخالفتُه فيه في العرف عقوقاً، لا يفسق ولدُه بمخالفته حينئذٍ؛ لعذره، وعليه فلو كان متزوِّجاً بمن يحبُّها، فأمره بطلاقها ولو لعدم عفَّتها، فلم يمتثل أمرَه، لا إثمَ عليه، نعم الأفضلُ طلاقُها امتثالاً لأمر والدِه، فقد روى ابن حبَّان في «صحيحه»[1] أنَّ رجلاً أتى أبا الدَّرداءِ فقال: إنَّ أبي لم يزل بي حتى زوَّجني امرأةً، وإنَّه الآن يأمرني بفراقها، قال: ما أنا بالذي آمرُك أن تعقَّ والدَيك، ولا بالذي آمرُك أن تطلقَ زوجتك، غير أنك إن شئتَ حدَّثتُك بما سمعتُ عن رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «الوالدُ أَوسطُ أبوابِ الجنة» فحافِظْ على ذلك إن شئتَ أو دَعْ.

---

(١) برقم (٤٢٥)، وهو عند الترمذي (١٩٠٠)، وابن ماجه (٢٠٨٩) بنحوه.

وروى أصحاب السُّنن الأَربعة[١]، وابنُ حبَّان في «صحيحه»[٢]، وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيح، عن ابن عمرَ ﵄ قال: كان تحتي امرأةٌ أحبُّها، وكان عمرُ يكرهها، فقال لي: طلِّقها، فأبيتُ، فأتى عمرُ رسولَ الله ﷺ، فذكر ذلك له، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «طلِّقها».

وكذا سائرُ أوامره التي لا حاملَ لها إلَّا ضعفُ عقلِهِ وسفاهةُ رأيه، ولو عُرضت على أرباب العقولِ لعَدُّوها متساهلاً فيها، ولَرأوا أنَّه لا إيذاءَ بمخالفتها، ثم قال: هذا هو الذي يتَّجه في تقرير الحدّ.

وتعقب ما نُقل عن البلقينيِّ بأنَّ تخصيصه العقوقَ بفعل المحرَّم الصغيرة بالنِّسبة للغير فيه وَقفة، بل ينبغي أنَّ المدار ـ على ما ذكر ـ من أنَّه لو فعل معه ما يتأذَّى به تأذِّياً ليس بالهيِّن عرفاً، كان كبيرةً وإن لم يكن محرَّماً لو فعله مع الغير، كأَن يلقاه فيقطِّبَ في وجهه، أو يَقدَمَ عليه في ملأٍ فلا يقومُ إليه ولا يعبأ به، ونحوِ ذلك مما يَقضي أهلُ العقلِ والمروءةِ من أهل العرفِ بأنّه مؤذٍ إيذاءً عظيماً، فتأمَّل.

ثم إنَّ السببَ في تعظيم أمرِ الوالدَين أنَّهما السببُ الظاهريُّ في إيجاده وتعيُّشه، ولا يكاد تكونُ نعمةُ أحدٍ من الخَلق على الولدِ كنعمة الوالدين عليه.

لا يُقال عليه: إنَّ الوالدين إنَّما طلبا تحصيلَ اللذَّة لأنفسهما، فلَزِمَ منه دخولُ الولدِ في الوجود، ودخولُه في عالَم الآفات والمخافات، فأيُّ إنعامٍ لهما عليه. وقد حُكي أنَّ واحداً من المتَّسمين بالحِكمة كان يضربُ أباه ويقول: هو الذي أدخَلني في عالَم الكونِ والفساد، وعرَّضني للموت والفقرِ والعمَى والزَّمانة، وقيل لأبي العلاءِ المعرِّي ولم يكن ذا ولدٍ: ما نكتبُ على قبرك؟ فقال: اكتُبوا عليه:

هذا جناه أبي عليَّ ... وما جنيتُ على أحدْ[٣]

وقال في ترك التزوُّج وعدمِ الولد:

وتركتُ فيهم نعمةَ العدم التي ... سبقتْ وصدَّت عن نعيم العاجلِ

---

(١) سنن أبي داود (٥١٣٨)، والترمذي (١١٨٩)، وابن ماجه (٢٠٨٨)، والنسائي كما في تحفة الأشراف ٥/ ٣٣٩.

(٢) برقم (٤٢٦) و(٤٢٧).

(٣) معاهد التنصيص ١/ ١٤٥.

ولَوَ انَّهم وُلدوا لَنالوا شدَّةً ترمي بهم في موبقات الآجل[1]

وقال ابنُ رَشيق[2]:

قبَّح اللهُ لذَّةً لشَقانا نالها الأُمَّهاتُ والآباءُ

نحن لولا الوجودُ لم نألم الفقـ ـدَ فإيجادنا علينا بلاء

وقيل للإسكندر: أستاذُك أعظم مِنَّةً عليك أم والدُك؟ فقال: الأستاذ أعظمُ مِنَّة؛ لأنَّه تحمَّل أنواعَ الشدائدِ والمِحنَ عند تعليمي، حتى أوقفني على نور العِلم، وأمَّا الوالدُ، فإنَّه طلب تحصيلَ لذَّة الوِقاع لنفسه، فأخرجني إلى عالَم الكونِ والفساد.

لأنَّا نقول[3]: هَبْ أنَّه في أوَّل الأمرِ كان المطلوبُ لذَّة الوِقاع، إلَّا أن الاهتمامَ بإيصال الخيراتِ ودفعِ الآفات من أوَّل دخولِ الولدِ في الوجود إلى وقت بلوغهِ الكبَر، أعظمُ من جميع ما يتخيَّل من جهات الخيراتِ والمبرَّات.

وقد يقال: لو كان الإدخالُ في عالَم الكونِ والفساد، والتعريضُ للأكدارِ والأنكادِ دافعاً لحقِّ الوالدين، لَزِم أن يكونَ دافعاً لحقِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّه سبحانه الفاعلُ الحقيقيّ، وأيضاً يعارض ذلك التعريضَ التعريضُ للنَّعيم المقيم، والثوابِ العظيم، كما لا يخفَى على ذي العقلِ السَّليم، ولَعَمري إنَّ إنكار حقِّهما إنكارٌ لأجلَى الأُمور، ومَن لم يجعل اللهُ له نوراً فما له من نور.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ مِن قصد البِرِّ إليهما، وانعقادِ ما يجب من التوقير لهما. وهو ـ على ما قيل ـ تهديدٌ على أن يُضمرَ لهما كراهةً واستثقالاً. وفي «الكشف» أنَّه كالتعليل لما أكَّد عليهم من الإحسان إلى الوالدين، بأنَّ الله تعالى أعلمُ بما في ضمائرهم من ذلك، فمجازيهم على حَسَبه. والظاهرُ أنه وعدٌ لمن أضمر البرَّ، ووعيدٌ لغيره، لكن غلَّب ذلك الجانبُ لأنَّ الكلامَ بالأصالة فيه.

---

(١) لزوم ما لا يلزم ٣/ ١٣٣٦ وفيهما اختلاف عن رواية المصنف.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله، والبيتان في معجم الأدباء ١٠/ ٤١، والوافي بالوفيات ٣/ ١٣ ضمن قصيدة منسوبة لابن الشبل محمد بن الحسين أبي علي البغدادي.

(٣) جواب لقوله: لا يقال عليه... .

﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ قاصدين الصلاحَ والبرَّ دون العقوقِ والفساد ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ تعالى شأنه ﴿كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ أي: الراجعين إليه تعالى، التائبين عما فَرَطَ منهم مِّما لا يكاد يخلو منه البشرُ ﴿غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ لِمَا وقع منهم من نوعِ تقصيرٍ أو أذيّة.

وهذا ـ كما في «الكشف» ـ تيسيرٌ بعد التأكيدِ والتعسيرِ مع تضييقٍ وتحذير، وذلك أنَّه شرط في البادرة التي تقع على النُّدرة قصدَ الصلاح، وعبَّر عنه بنفس الصَّلاح، ولم يصرِّح بصدورها، بل رمز إليه بقوله تعالى: «فإنه كان للأوابين غفوراً» لدلالة المغفرةِ على الذنب والأوَّابِ أيضاً، فإنَّ التوبةَ عن ذنبٍ يكون، فشرط[1] قصدَ الصَّلاح، وأن يتوبَ عنه مع ذلك التوبةَ البالغة، وهو استئنافٌ ثانٍ يقتضيه مقامُ التأكيدِ والتشديد، كأنَّه قيل: كيف نقوم بحقِّهما وقد يَندر بوادرُ؟ فقيل: إذا بنيتم الأمرَ على الأساس، وكان المستمرُّ ذلك، ثم اتَّفق بادرةٌ من غير قصدٍ إلى المساءة فلُطفُ اللهِ تعالى يحجز دون عذابِهِ قائماً بالكلاءة.

وكونُ الآيةِ في البادرة تكونُ من الرَّجل إلى والديه مرويٌّ عن ابن جُبَير، وجوَّز أن تكونَ عامَّةً لكلِّ تائب، ويندرجُ الجاني على أبويه التائبُ من جنايته اندراجاً أوَّليًّا.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ذا القرابةِ منك ﴿حَقَّهُۥ﴾ الثابتَ له.

قيل: ولعلَّ المرادَ بذي القُربى المحارمُ، وبحقِّهم النفقةُ عليهم إذا كانوا فقراءَ عاجزين عن الكسب، كما يُنبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فإنَّ المأمورَ به في حقِّهما المساواةُ المالية، أي: وآتِهما حقّهما ممَّا كان مفترَضاً بمكةَ بمنزلة الزَّكاة، وكذا النهيُ عن التبذير وعن الإفراط في القبض والبسط، فإنَّ الكلَّ من التصرُّفات المالية.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على إيجاب نفقةِ المحارمِ المحتاجين وإن لم يكونوا أصلاً كالوالدَين، ولا فرعاً كالولد.

والكلامُ من باب التعميم بعدَ التخصيص، فإنَّ ذا القربَى يتناول الوالدين لغةً وإنْ لم يتناوله عرفاً؛ فلذا قالوا في باب الوصيَّةِ المبنيةِ على العُرف: لَو أَوصَى

---

(١) في (م): بشرط.

لذوي قرابتِهِ، لا يدخلان. وفي «المعراج»(١) عن النبيِّ ﷺ: «مَن قال لأبيه: قريبي، فقد عقَّه» والغرضُ من ذلك تناولُ غيرِهما من الأقارب والتوصيةُ بشأنه.

وفي «الكشف» أنَّ الحقَّ أن إيتاءَ الحقِّ عامٌّ، والمقام يقتضي الشمولَ، فيتناول الحقَّ الماليَّ وغيرَه، من الصِّلة وحُسنِ المعاشرة، فلا تنتهض الآيةُ دليلاً على إيجاب نفقةِ المحارم.

وتعقَّب أنَّ قوله تعالى: «حقه» يُشعر باستحقاق ذلك؛ لاحتياجه، مع أنَّه إذا عمَّ دخل فيه الماليُّ وغيرُه، فكيف لا تنتهض الآيةُ دليلاً؟!

وأنا ممَّن يقول بالعموم وعدمِ اختصاص ذي القربى بذي القرابة الولاديَّة، والعطفُ وكذا ما بعده لا يدلُّ على تخصيصٍ قطعاً، فتدبَّر.

وقيل: المرادُ بذي القربى أقاربُ الرسولِ ﷺ، ورُوي ذلك عن السُّدِّي، وأخرج ابن جَريرٍ(٢) عن عليِّ بن الحسينِ رضي الله عنهما أنَّه قال لرجلٍ من أهل الشَّام: أقرأتَ القرآن؟ قال: نعم، قال: أفما قرأتَ في «بني إسرائيل»: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾؟ قال: وإنَّكم القرابةُ الذي أَمَرَ اللهُ تعالى أن يؤتَى حقَّه؟ قال: نعم. ورواه الشيعةُ عن الصَّادق رضي الله عنه. وحقُّهم توقيرُهم وإعطاؤهم الخُمسَ.

وضعِّف بأنَّه لا قرينةَ على التخصيص. وأُجيب بأنَّ الخطاب قرينةٌ. وفيه نظرٌ، وما أَخرجه البزَّار، وأبو يَعلَى، وابنُ أبي حاتم، وابنُ مردويه عن أبي سعيدٍ الخدريِّ من أنَّه لمَّا نزلت هذه الآيةُ دعا رسولُ الله ﷺ فاطمةَ فأعطاها فَدَكاً(٣) = لا يدلُّ على تخصيص الخطابِ به عليه الصلاة والسلام، على أنَّ في القلب من صحَّة الخبرِ شيءٌ(٤)، بناءً على أنَّ السُّورة مكِّية، وليست هذه الآيةُ من المستثنَيات، وفدك لم تكن إذ ذاك تحت تصرُّف رسولِ الله ﷺ، بل طَلَبُها رضي الله عنها ذلك إرثاً بعد وفاتِهِ عليه الصلاة والسلام كما هو المشهورُ = يأبى القولَ بالصحَّة كما لا يخفَى.

---

(١) لعله معراج الدراية إلى شرح الهداية لقوام الدين محمد بن محمد البخاري الكاكي، المتوفى سنة (٧٤٩هـ).

(٢) في تفسيره ١٤/ ٥٦٣.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٧٧، وكشف الأستار (٢٢٢٣)، ومسند أبي يعلى (١٠٧٥).

(٤) وهذا شيء صحيح؛ ففي سنده عطية العوفي، وهو متروك على ما في مجمع الزوائد ٧/ ٤٩.

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾ نهيٌ عن صرف المالِ إلى مَن لا يستحقُّه؛ فإنَّ التبذير إنفاقٌ في غير موضعهِ، مأخوذٌ من تفريق البِذر وإلقائه في الأرض كيفما كان من غير تعهُّدٍ لمواقعه. وقد أخرج ابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، والطبرانيُّ، والحاكمُ وصحَّحه، والبيهقيُّ في «الشُّعب»[1] عن ابن مسعودٍ أنَّه قال: التبذيرُ: إنفاق المالِ في غير حقِّه.

وفي «مفردات» الرَّاغب[2] وغيره أنَّ أصلَه إلقاءُ البذرِ وطرحُه، ثم استُعير لتضييع المال، وعَدَّ من ذلك بعضُهم تشييدَ الدارِ ونحوه.

وفرَّق الماورديُّ بينه وبين الإِسراف بأنَّ الإسرافَ تجاوزٌ في الكمية، وهو جهلٌ بمقادير الحقوق، والتبذير تجاوزٌ في موقع الحقِّ، وهو جهلٌ بالكيفية وبمواقعها، وكلاهما مذمومٌ، والثاني أَدخلُ في الذَّمّ.

وفسَّر الزمخشريُّ[3] التبذيرَ هنا بتفريق المالِ فيما لا ينبغي، وإنفاقِه على وجه الإِسراف، وذكر أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ التبذيرَ شاملٌ للإسراف في عرف اللغة، ويراد منه حقيقةٌ[4]، وإنْ فرِّق بينهما بما فرِّق.

وفي «الكشف» بعد نقلِ الفرقِ والنصِّ على أنَّ الثانيَ أدخلُ في الذمّ: إنَّ الزمخشريَّ لم يَغِب ذلك عليه؛ لأنَّ الاشتقاق يُرشد إليه، وإنَّما أراد أنَّه في الآية يتناول الإسرافَ أيضاً بطريق الدَّلالة؛ إذ لا يفترقان في الأحكام، لاسيَّما وقد عقَّبه سبحانه بالحثِّ على الاقتصاد المناسبِ لاعتبار الكمِّيَّة، المرشدِ إلى إرادته من النصِّ.

وتعقِّب بأنه إذا كان التبذيرُ أَدخلَ في الذمِّ من الإِسراف، كيف يتناولُه بطريق الدَّلالة، والنهيُ عن الإِسراف فيما بعدُ يُبعد إرادتَه هاهنا؟ فتأمَّل.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٧٧، والمعجم الكبير (٩٠٠٥) و(٩٠٠٦) و(٩٠٠٧) و(٩٠٠٨) و(٩٠٠٩)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٣٦١، وشعب الإيمان ٥/ ٢٥٠.

(٢) مادة (بذر).

(٣) في الكشاف ٢/ ٤٤٦.

(٤) في حاشية الشهاب ٦/ ٦٢ـ والكلام منه ـ: حقيقته.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تعليلٌ للنهيِ عن التبذير ببيانِ أنَّه يجعل صاحبَه مَلزُوزاً في قَرن الشَّياطين.

والإخوانُ جمعُ: أخ، والمرادُ به المماثلُ مجازاً، أي: أنَّهم مماثلون لهم في صفات السوءِ، التي من جملتها التبذيرُ. أو الصديقُ والتابعُ مجازاً أيضاً، أي: أنَّهم أصدقاؤهم وأَتْباعهم فيما ذُكر من التبذير والصَّرفِ في المعاصي، فإنَّهم كانوا يَنْحرون الإبل ويتياسرون عليها، ويبذرون أموالَهم في السُّمعة وسائرِ مالا خيرَ فيه من المناهي والملاهي. أو القرينُ كما سبق أيضاً، أي: أنَّهم قرناؤهم في النَّار على سبيل الوعيد.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝٢٧﴾ من تتمَّة التعليل، أي: مبالغاً في كُفران نِعَمِه تعالى؛ لأنَّ شأنه صرفُ جميعِ ما أعطاه اللهُ تعالى من القُوى والقُدَر إلى غير ما خُلقت له، من أنواع المعاصي والإفسادِ في الأرض، وإضلالِ الناسِ وحَمْلهم على الكفر بالله تعالى، وكفرانِ نِعَمِه الفائضةِ عليهم، وصرفِها إلى غير ما أَمر اللهُ تعالى به.

وفي تخصيص هذا الوصفِ بالذِّكر من بين صفاتِه القبيحةِ إيذانٌ بأنَّ التبذيرَ الذي هو عبارةٌ عن صرف نِعَم اللهِ تعالى إلى غير مصرفِها من باب الكُفرانِ المقابلِ للشُّكر الذي هو صرفُها إلى ما خُلقت له.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبيةِ إشعارٌ بكمال عتوِّه كما لا يخفَى. ويُشعر كلامُ بعضِهم بجواز حملِ الكفرِ هنا على ما يقابل الإيمانَ. وليس بذاك.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي: عن ذي القُربى والمسكينِ وابن السَّبيل، على ما هو الظَّاهر. وقيل: عن السَّائلين مطلقاً. والإعراضُ في الأصل إظهارُ العُرْض، أي: الناحية، فمعنى أَعرضَ عنه: ولَّى مُبدياً عُرضَه. والمرادُ به هنا حقيقتُه على ما قيل، بناءً على ما رُوي من أنَّه ﷺ كان إذا سئل شيئاً ليس عنده، صرفَ وجهَه الشريفَ وسكت، فنزلت: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ والخطاب عامٌّ له ﷺ ولغيره.

والمرادُ بالرَّحمة ـ على ما أخرج ابنُ جَرير[1] عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ والضحَّاك ـ الرِّزق. ونصب «ابتغاء» على أنَّه مفعولٌ له.

قال في «الكشف»: قد أُقيم ابتغاءُ الرزقِ مُقامَ فُقدانه، وفيه لُطف، فكان ذلك

(١) في تفسيره ١٤/ ٥٧٠-٥٧١.

الإعراض لأجل السعي لهم، وهو من وضع المسبَّب موضعَ السببِ كما أوضحه في «الكشَّاف»[١]، وقد يفسَّر الابتغاءُ بالانتظار، ويجوز جعلُه في موضع الحالِ من ضمير «تعرضن» أي: مبتغياً. وجَعلُه حالاً من الضمير المجرورِ بعيدٌ.

وجوَّز أن يكونَ الإعراضُ كنايةً عن عدم النَّفع وتركِ الإعطاء؛ لأنه لازِمُه عرفاً، والابتغاءُ مجازاً عن عدم الاستطاعة، والتعلُّق أيضاً بالشَّرط. وأيَّد ذلك بما أخرَجه سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذر عن عطاءٍ الخراسانيِّ قال: جاء ناسٌ من مُزَينةَ يستحملون رسولَ اللهِ ﷺ، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولَّوا[٢] وأعينهم تفيض من الدمع حزناً، ظنُّوا ذلك من غضب رسولِ اللهِ عليه الصلاة والسلام عليهم، فأنزل الله سبحانه: (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ) الآية.

وفسَّر الرحمةُ بالفيء، لكن أنت تعلم أنَّ هذا غيرُ ظاهرٍ، بناءً على ما سمعتَ من أنَّ هذه السورةَ مكِّية، والآيةُ المذكورةُ ليست من المستثنَيات، وكأنَّه لهذا قيل: إنَّ المعنى: إنْ ثبت وتحقَّق في المستقبل أنَّك أعرضتَ عنهم في الماضي ابتغاءَ رحمةٍ من ربِّك ترجوها، فقل. .إلخ، والمرادُ سببيةُ الثبوتِ للأمر بالقول، فتأمَّل.

وجوَّز أن يتعلَّق «ابتغاء» بجواب الشَّرط، أعني قولَه تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨﴾ أي: إمَّا تُعرضنَّ عنهم، فقل لهم ذلك ابتغاءَ رحمةٍ من ربِّك. وقدَّم هذا الوجهَ على سائر الأوجهِ الزمخشريُّ[٣].

واعتُرض بأنَّ ما بعد الفاءِ لا يعمل فيما قبلَها في غير بابِ «إمَّا» وما يلحق بها.

وأُجيب بأنَّه ذكره على المذهب الكوفيِّ المجوِّز للعمل مطلقاً. أو أراد التعلُّق المعنويَّ، فيُضمَر ما يَنصبه ويُجعلُ المذكورُ جارياً مَجرى التفسير. والإعراضُ ـ على هذا ـ على حقيقته، واحتمالُ كونهِ كنايةً مختصٌّ بتعلُّقه بالشَّرط على ما زعمه الطِّيبيُّ، والحقُّ عدم الاختصاصِ كما لا يخفَى.

وجملةُ «ترجوها» على سائر الأوجُه يحتمل أن تكونَ وصفاً لـ «رحمة»، وأن تكونَ

---

(١) ٢/ ٤٤٧.

(٢) في الأصل(م): تولوا، وكذا وردت في الدر المنثور ٤/ ١٧٧-١٧٨، والمثبت من أسباب النزول للسيوطي ص٢٢٧.

(٣) في الكشاف ٢/ ٤٤٧.

حالاً من الفاعل، و«من ربك» متعلِّق بـ «ترجوها». وجوِّز أن يكونَ صفةً لـ «رحمة».

والميسورُ اسمُ مفعول، من يُسِر الأمرُ، بالبناء للمجهول، مثل: سُعِد الرجل، ومعناه: السَّهل، أي: فقل لهم قولاً سهلاً ليِّناً وعِدهم وعداً جميلاً. قال الحسن: أُمر أن يقولَ لهم: نَعَم وكرامة، وليس عندنا اليومَ، فإنْ يأتِنا شيءٌ نَعرِفْ حقَّكم.

وقيل: الميسورُ مصدر، وجُعل صفةَ مبالغة، أو بتقديرِ مضاف، أي: قولاً ذا ميسور، أي: يُسر، والمرادُ به القولُ المشتمِل على الدُّعاء باليسر، مثل: أغناكم اللهُ تعالى ويسَّر لكم. وفسَّره ابنُ زيد بِرَزَقنا اللهُ تعالى وإيَّاكم، بارك اللهُ تعالى فيكم.

وتعقِّب ذلك بأنَّ الميسورَ معناه ذا يُسر؛ ولهذا وقع صفةً لقول، فأيُّ ضرورةٍ في أن يجعلَ مصدراً ثم يؤوَّلَ بذا ميسور.

ودُفع بأنَّه إذا أُريد القولُ المشتملُ على الدُّعاء، لا يكون القولُ حينئذٍ ميسوراً، بل ميسِّر[1] لِمَا أرادوه. وميسورٌ مصدراً مما ثبت في اللُّغة من غير تكلُّف، فجعله صفةَ مبالغة، أو بتقدير مضافٍ، له وجهٌ وجيه، وفيه تأمُّل.

والحقُّ أنَّ اعتبارَه مصدراً خلافُ الظاهر، وفي الآية على القول الأخير دلالةٌ على أنَّ الدعاءَ للسائل ممَّا لا بأسَ به، وعن الإمام مالكٍ رحمه الله تعالى أنَّه كان لا يرى أن يقالَ للسَّائل إذا لم يُعطَ شيئاً: رزقك اللهُ تعالى، ونحوُه، قائلاً: إنَّ ذلك ممَّا يَثقل عليه ويَكره سماعَه، ولا ينبغي أن يذكرَ اسمُ اللهِ تعالى لمن لا يهشُّ له. ولَعمري إنَّه مغزًى بعيد.

وأفاد بعضُهم أنَّ في الآية دليلاً على النَّهي عن الإعراض بالمعنى الأوَّل، فإنَّ المعنى: إن أردتَ الإعراضَ عنهم، فقل لهم قولاً ميسوراً ولا تُعرض. وله وجهٌ وجيه، لا يخفَى على مَن له بصرٌ حديد.

واستشكل العزُّ بن عبدِ السلام جعلَ «ابتغاء» من متعلِّقات الشرطِ بأنَّا مأمورون بالردِّ الجميل إنِ انتظرنا شيئاً يحصلُ لنا أو لم ننتظر. وأجاب بأنَّ المرادَ بالقول الميسورِ الوعدُ بالعطاء، فيكون مفادُ الآية: لا تَعِدوا إلَّا إذا كنتم على رجاءٍ من حصول ما تَعِدون به، فالتقييدُ بالابتغاء في غاية المناسبةِ للشَّرط؛ لأنَّه لا يَحسن الوعدُ عند عدمِ الرَّجاء، لِمَا أنه يؤدِّي إلى الإخلاف. وهو كما ترى.

---

(١) في حاشية الشهاب: ٦/ ٢٧: ميسِّراً.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ تمثيلانِ لمنع الشَّحيح وإسرافِ المبذِّر، زجراً لهما عنهما، وحملاً على ما بينَهما من الاقتصاد والتوسُّطِ بين الإفراطِ والتفريط، وذلك هو الجودُ الممدوح، فخيرُ الأمورِ أوساطُها. وأخرج أحمدُ وغيرُه عن ابن عباسٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما عالَ مَن اقتصد»[1]، وأخرج البيهقيُّ[2] عن ابن عمرَ قال: قال رسول الله ﷺ: «الاقتصادُ في النفقة نصفُ المعيشة»، وفي روايةٍ عن أنسٍ مرفوعاً: «التدبيرُ نصفُ المعيشة، والتودُّد نصفُ العقل، والهمُّ نصفُ الهرم، وقلَّة العيالِ أحدُ اليسارَين»[3]، وكان يقال: حسنُ التدبيرِ مع العفاف، خيرٌ من الغنى مع الإسراف.

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ أي: فتصيرَ ملوماً عند اللهِ تعالى وعندَ الناس ﴿مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ نادماً مغموماً، أو منقطعاً بك لا شيءَ عندك. مِن: حَسَره السفرُ: أعياه وأوقفه حتى انقطعَ عن رُفقته.

قال الراغبُ[4]: يقال للمُعْيي: حاسرٌ ومحسور، أمَّا الحاسر، فتصور أنَّه قد حَسَرَ بنفسه قُواه، وأما المحسورُ، فتصور أنَّ التعبَ قد حسره. وهذا بيانُ قبحِ الإسرافِ المفهومِ من النَّهي الأخير، وبيِّنٌ في أَثَره؛ لأنَّ غائلةَ الإسراف في آخِره، وحيث كان قبحُ الشحِّ المفهومِ من النهي الأوَّل مقارِناً له معلوماً من أوَّل الأمر، رُوعي ذلك في التصوير بأقبحِ الصُّوَر، ولم يُسلَك فيه مسلكُ ما بعده. كذا قيل، وفي أَثرٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما - أخرجه عنه ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتمٍ[5] - ما يقتضيه.

وقال بعضُ المحقِّقين: الأَوْلى أن يكونَ ذلك بياناً لقبح الأمرين ويُعتبر التوزيعُ: «فتقعد» منصوبٌ في جواب النَّهيَين، والملومُ راجعٌ إلى قوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ) كما قيل:

---

(١) أخرجه أحمد (٤٢٦٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وأخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما الطبراني في الكبير (١٢٦٥٦).

(٢) في الشعب ٥/ ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٣٢) عن علي رضي الله عنه.

(٤) في المفردات (حسر).

(٥) الدر المنثور ٤/ ١٧٨، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٧٤-٥٧٥.

إنَّ البخيلَ ملومٌ حيثما كانا[(١)]

والمحسورُ راجعٌ إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ وليس ببعيد.

وفي «الكشاف»: عن جابر: بينا رسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ، إذ أتاه صبيٌّ فقال: إنَّ أمِّي تستكسيك درعاً، فقال: «من ساعةٍ إلى ساعةٍ يظهر، فعُد إلينا» فذهب إلى أمِّه فقالت: قل له: إنَّ أمِّي تستكسيكَ الدِّرعَ الذي عليك، فدخل ﷺ دارَه، ونزع قميصَه وأعطاه وقعد عُرياناً، وأذَّن بلالٌ وانتظر، فلم يخرج عليه الصلاة والسلام إلى الصَّلاة، فنزلت[(٢)].

وأنت تعلمُ أنه يأبى هذا كونُ السورةِ مكِّية، والآيةُ ليست من المستثنَيات، ولعل الخبرَ لم يَثبت، فعن وليِّ الدين العراقيِّ أنَّه لم يجده في شيءٍ من كتب الحديث. أي: بهذا اللَّفظ، وإلَّا فقد أخرج ابنُ مردويه عن ابن مسعودٍ قال: جاء غلامٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: إن أمِّي تسألكَ كذا وكذا، فقال: «ما عندنا اليومَ شيء» قال: فتقولُ لك: أكسُني قميصَك، فخلع عليه الصَّلاة والسلام قميصَه فدفعه إليه، وجلسَ في البيت حاسراً، فنزلت[(٣)]. وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن المِنهال بن عَمرٍو نحوَه[(٤)]، وليس في شيءٍ منهما حديثُ أذانِ بلالٍ وما بعده.

وقيل: إنَّه عليه الصلاة والسلام أعطى الأقرعَ بن حابسٍ مئةً من الإبل وعيينةَ بن حصن الفَزاري، فجاء عباسُ بن مِرداس، فأنشأ يقول:

أتجعلُ نهبي ونهبَ العُبيـ ... ـدِ بين عيينةَ والأقرعِ
وما كان حِصنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مرداسَ في مَجمَعِ
وما كنتُ دون امرئٍ منهما ... ومَن يُخفَضِ اليومَ لم يُرفعِ

---

(١) البيت بتمامه ـ كما في ديوان زهير بن أبي سلمى ص١٥٢ ـ:
إن البخيل ملوم حيث كان ولـ ... ـكنَّ الجواد على عِلَّاته هَرِمُ
(٢) الكشاف ٢/ ٤٤٧.
(٣) أسباب النزول للسيوطي ص٢٢٨، وأورده أيضاً في الدر المنثور ٤/ ١٧٨ لكن عزاه لابن جرير.
(٤) الدر المنثور ٤/ ١٧٨.

فقال ﷺ: «يا أبا بكرٍ، اِقطَع لسانَه عني، أَعطِه مائةً من الإبلِ» وكانوا جميعاً من المؤلَّفة قلوبُهم، فنزلت[1].

وفيه الإباءُ السابقُ كما لا يخفَى. وكذا ما أخرجه سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذر عن سيار أبي الحكم قال: أتى رسولَ اللهِ ﷺ بَزٌّ من العراق، وكان مِعطاءً كريماً، فقسمه بين الناس، فبلغ ذلك قوماً من العرب، فقالوا: نأتي النبيَّ ﷺ نسأله، فوجدوه قد فرغَ منه، فأنزل اللهُ تعالى الآيةَ[2].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ تعليلٌ لقوله سبحانه: (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ) إلخ، كأنَّه قيل: إن أَعرضتَ عنهم لفقد الرِّزق، فقل لهم قولاً ميسوراً، ولا تهتمَّ لذلك؛ فإنَّ ذلك ليس لهوانٍ منك عليه تعالى، بل لأنَّ بيده جَلَّ وعلا مقاليدَ الرِّزق، وهو سبحانه يُوسِّعه على بعضٍ ويضيِّقه على بعض، حَسبما تتعلَّق به مشيئتُه التابعةُ للحكمة، فما يَعرضُ لك في بعض الأَحيانِ من ضيق الحالِ الذي يُحوجك إلى الإعراض ليس إلَّا لمصلحتك، فيكون قولُه تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ) إلخ معترِضاً، تأكيداً لمعنى ما تقتضيه حكمتُه عزَّ وجلَّ من القبض والبسط.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿كَانَ﴾ لم يَزَل ولا يزال ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ جميعِهم ﴿خَبِيرًۢا﴾ عالماً بسرِّهم ﴿بَصِيرًا ٣٠﴾ عالماً بعَلَنهم، فيعلمُ من مصالحهم ما يخفَى عليهم = تعليلٌ لسابقه.

وجوَّز أن يكونَ ذلك تعليلاً للأمر بالاقتصاد المستفادِ من النَّهيَين؛ إمَّا على معنى أنَّ البسطَ والقبضَ أمران مختصَّان بالله تعالى، وأمَّا أنت فاقتصِد واترُك ما هو مختصٌّ به جلَّ وعلا. أو على معنى أنَّكم إذا تحقَّقتم شأنَه تعالى شأنُه، وأنَّه سبحانه يَبسط ويَقبض، وأَمعنتم النظرَ في ذلك، وجدتموه تعالى مقتصِداً، فاقتصدوا أنتم واستنُّوا بسنَّته.

وجعله بعضُهم تعليلاً لجميع ما مرَّ، وفيه خفاءٌ كما لا يخفى.

وجوَّز كونُه تعليلاً للنَّهي الأخير، على معنى: إنَّه تعالى يَبسط ويَقبض حَسَبَ مشيئته، فلا تبسطوا على مَن قَدَرَ عليه رزقَه. وليس بشيءٍ.

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (١٠٦٠) من حديث رافع بن خديج ﷺ، وينظر الكافي الشاف ص٩٩.
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٧٨.

وجوّز أيضاً كونُه تمهيداً لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ واستُبعد بأنَّ الظاهرَ حينئذٍ: فلا.

والإملاق: الفقرُ، كما رُوي عن ابن عباسٍ وأنشد له قولَ الشاعر:

وإنِّي على الإملاق يا قوم ماجدٌ أُعدُّ لأضيافي الشِّواءَ المُضَهَّبا[1]

وظاهرُ اللفظِ النهيُ عن جميع أنواعِ قتل الأولاد، ذكوراً كانوا أو إناثاً، مخافةَ الفقرِ والفاقة، لكن رُوي أنَّ من أهل الجاهليةِ مَن كان يَئد البناتِ مخافةَ العجزِ عن النفقة عليهنَّ، فنُهي في الآية عن ذلك، فيكون المرادُ بالأولاد البنات وبالقتل الوأد.

والخشيةُ في الأَصل خوفٌ يَشوبه تعظيم، قال الرَّاغب[2]: وأكثر ما يكونُ ذلك عن علمٍ بما يخشَى منه.

وقُرئ بكسر الخاءِ[3].

والظاهرُ أنَّ هذا النهيَ معطوفٌ على ما تقدَّم من نظيره. وجوَّز الطبرسيُّ[4] أن يكونَ عطفُه على قوله سبحانه: (أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ) وحينئذٍ فيحتملُ أن يكونَ الفعلُ منصوباً بـ «أنْ» كما في الفعل السَّابق.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ضمانٌ لرزقهم، وتعليلٌ للنَّهي المذكور بإبطال موجِبه في زعمهم، أي: نحن نرزقهم لا أنتم، فلا تخافوا الفقرَ بناءً على عِلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقِهم. وتقديمُ ضميرِ الأولاد على ضمير المخاطَبين على عكس ما وقع في سورة الأنعام؛ للإشعار بأَصالتهم في إفاضة الرِّزق، وعارَضَ هذه النُّكتةَ هناك تقدُّمُ ما يستدعي الاعتناءَ بشأن المخاطَبين من الآيات. كذا قيل.

وجوَّز المولى شيخُ الإسلام[5] كونَ ذلك لأنَّ الباعثَ على القتل هناك الإملاقُ

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٧٩، واللحم المُضَهَّب: الذي قد شوي على جمر محمّى. اللسان (ضهب).

(٢) في المفردات (خشي).

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٢.

(٤) في مجمع البيان ١٥/ ٤٥.

(٥) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٦٩.

الناجز، ولذلك قيل: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام:١٥١] وهاهنا الإملاقُ المتوقَّع؛ ولذلك قيل: «خشية إملاق» فكأنَّه قيل: «نرزقُهم» من غير أن يَنقصَ من رزقكم شيءٌ فيعتريكم ما تخشَونه «وإيَّاكم» أيضاً رزقاً إلى رزقكم.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾ تعليلٌ آخر ببيان أنَّ المنهيَّ عنه في نفسه منكرٌ عظيم؛ لِمَا فيه من قطع التناسلِ وقطعِ النوع. والخِطْءُ كالإثم، لفظاً ومعنًى، وفعلُهما من باب عَلِمَ.

وقرأ أبو جعفرٍ، وابنُ ذكوان عن عامر: «خَطَأً» بفتح الخاءِ والطاءِ من غير مدٍّ[١]. وخرَّج ذلك الزجَّاجُ[٢] على وجهين: الأوَّل: أن يكونَ اسمَ مصدرٍ من: أَخطأ يُخطئ، إذا لم يُصِب، أي: إنَّ قتلَهم كان غيرَ صواب. والثاني: أن يكونَ لغةً في الخِطْء، بمعنى الإثم، مثل: مِثل ومَثَل، وحِذْر وحَذَر، فمَن استشكل هذه القراءةَ بأنَّ الخطأ ما لم يتعمَّد ـ وليس هذا محلَّه ـ فقد نادَى على نفسه بقلَّة الاطِّلاع.

وقرأ ابنُ كَثير: «خِطَاءً» بكسر الخاءِ وفتحِ الطاء والمدِّ[٣]. وخُرِّج على وجهَين أيضاً: الأوَّل: أن يكونَ لغةً في الخِطءِ بمعنى الإثم، مثل: دِبْغ ودِباغ، ولِبْس ولباس. والثاني: أن يكونَ مصدرَ: خاطَأَ يخاطئُ خِطاءً، مثل: قاتَلَ يقاتل قِتالاً.

قال أبو عليٍّ الفارسيُّ[٤]: وإنْ كنَّا لم نجد: خاطَأَ، لكن وُجد: تخاطأَ[٥] مطاوعُه، فدلَّنا عليه، وذلك في قولهم:

تخطَّأت[٦] النَّبلُ أحشاءَه

---

(١) التيسير ص ١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٣٦.

(٣) التيسير ص ١٣٩، والنشر ٢/ ٣٠٧.

(٤) في الحجة ٥/ ٩٦-٩٧.

(٥) في (م): تخطأ.

(٦) كذا في اللسان (خطأ)، وفي الحجة ٥/ ٩٧، والصحاح (خطأ)، وتفسير القرطبي ١٣/ ٧١، والبحر ٦/ ٣٢: تخاطأت. والبيت لأوفى بن مطر، وعجزه: وأخَّر يومي فلم يُعجَل.

وأنشد محمدُ بن السري في وصف كمأةٍ كما في «مَجْمَع البيان»[1]:

وأشعثَ قد ناولتُه أحرشَ القَرَا أدرَّت عليه المُدْجِناتُ الهواضبُ[2]
تخطَّأه[3] القنَّاص حتَّى وجدته وخُرطومه في منقع الماءِ راسبُ

والمعنى على هذا: إنَّ قتلَهم كان عُدولاً عن الحقِّ والصواب، فقولُ أبي حاتمٍ: إنَّ هذه القراءةَ غلطٌ، غلط.

وقرأ الحسن: «خَطَاءً» بفتح الخاءِ والطاءِ مع المدِّ[4]، وهو اسمُ مصدر: أَخطَى، كالعطاء اسمُ مصدر: أَعطَى.

وقرأ الزُّهريُّ وأبو رجاءٍ: «خِطًا» بكسر الخاءِ وفتحِ الطاء وألفٍ في آخره مُبدَلةٍ من الهمزة[5]، وليس من قَصْر الممدود؛ لأنَّه ضرورةٌ لا داعيَ إليه.

وفي روايةٍ عن ابن عامرٍ أنَّه قرأ: «خَطًا» كعَصًا[6].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ﴾ بمباشرة مباديه القريبةِ أو البعيدة، فضلاً عن مباشرته. والنهيُ عن قُربانه على خلافِ ما سبقَ ولحق؛ للمبالغة في النَّهي عن نفسه، ولأنَّ قُربانه داعٍ إلى مباشرته. وفسَّره الراغبُ[7] بوطء المرأةِ من غير عقدٍ شرعيٍّ. وجاءَ فيه المدُّ والقصرُ، وإذا مدَّ، يصحُّ أن يكونَ مصدرَ المفاعلة.

وتوسيطُ النهيِ عنه بين النَّهي عن قتل الأولادِ والنهي عن قتل النفسِ المحرَّمة مطلقاً ـ كما قال شيخُ الإسلام[8] ـ باعتبار أنَّه قتلٌ للأولاد؛ لِمَا أنَّه تضييعٌ للأنساب، فإنَّ مَن لم يَثْبُت نسبُه ميِّت حكماً.

---

(١) ١٥/٤٣، وهو في الحجة ٥/٩٧، ورسالة الصاهل والشاحج ص ١٤٩.
(٢) أحرش القرا: خشن الظهر، المدجنات الهواضب: السحب الممطرة الدائمة.
(٣) في المصادر: تخاطأه.
(٤) المحتسب ٢/١٩، والبحر ٦/٣٢.
(٥) المحتسب ٢/١٩، والبحر ٦/٣٢.
(٦) البحر ٦/٣٢.
(٧) في المفردات (زنى).
(٨) في إرشاد العقل السليم ٥/١٦٩-١٧٠.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ فِعْلةً ظاهرةَ القبحِ زائدتَه ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ أي: وبئسَ السبيلُ سبيلاً؛ لِمَا فيه من اختلال أمرِ الأنساب وهيجانِ الفِتَن.

وقد روى الشَّيخان[1] وغيرُهما عن أبي هريرةَ، عن رسول اللهِ ﷺ أنَّه قال: «لا يَزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمنٌ» وجاء في غير روايةٍ أنَّه «إذا زنى الرجلُ، خرج منه الإيمانُ، فكان فوقَ رأسِه كالظُّلَّة، فإن تاب ونزع، رجع إليه»[2]، وهو من الكبائر، وفاحشةٌ مطلقاً، على ما أجمع عليه المحقِّقون، بل في الحديث الصحيحِ أنَّه بحليلة الجارِ من أكبر الكبائر[3].

وزعم الحليميُّ[4] أنَّه فاحشةٌ إن كان بحليلة الجار، أو بذات الرَّحم، أو بأجنبيةٍ في شهر رمضان، أو في البلد الحرام، وكبيرةٌ إنْ كان مع امرأةِ الأب، أو حليلة الابن، أو مع أجنبيةٍ على سبيل القهرِ والإكراه، وإذا لم يُوجِب حدًّا يكون صغيرةً.

ولا يخفَى ردُّه وضعفُ مبناه، والآيةُ ظاهرةٌ في أنه فاحشةٌ مطلقاً، نعم أفحشُ أنواعِه الزِّنى بحليلة الجار، وقال بعضُهم: أعظمُ الزِّنى على الإطلاق الزنى بالمحارم، فقد صحَّح الحاكمُ[5] أنَّه ﷺ قال: «مَن وقعَ على ذات محرمٍ فاقتلوه» وزنى الثيِّب أقبحُ من زنى البِكر، بدليل اختلافِ حدَّيهما، وزنى الشيخ ـ لكمال عقله ـ أقبحُ من زنى الشابِّ، وزنى الحُرِّ والعالِم ـ لكمالهما ـ أقبحُ من زنى القِنِّ والجاهل.

وهل هو أكبرُ من اللِّواط أم لا؟ فيه خلاف، وفي «الإحياء»[6] أنَّه أكبرُ منه؛ لأنَّ الشهوة داعيةٌ إليه من الجانبين، فيَكثُرُ وقوعُه ويَعظُم الضَّرر، ومنه اختلاطُ الأنسابِ بكثرته.

وقد يعارَض بأنَّ حدَّه أَغلظ، بدليل قولِ مالكٍ وآخَرين برجم اللوطيِّ ولو غيرَ محصَن، بخلاف الزَّاني.

---

(١) صحيح البخاري (٢٤٧٥)، وصحيح مسلم (٥٧).
(٢) سنن أبي داود (٤٦٩٠).
(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٤) المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٣٦-٣٧.
(٥) في المستدرك ٤/ ٣٥٦.
(٦) إحياء علوم الدين ٤/ ٢٠.

وقد يجاب بأنَّ المفضولَ قد يكون فيه مَزِيَّة. وفيه ما فيه.

وبالَغَ بعضُهم فقال: إنَّه مطلقاً يلي الشِّركَ في الكِبر، والأصحُّ أنَّ الذي يلي الشِّركَ هو القتلُ، ثم الزنى.

وخبرُ: «الغِيبةُ أشدُّ من ثلاثين زنيةً في الإسلام» الظاهرُ ـ كما قال ابنُ حجرٍ الهيتميُّ[١] ـ أنَّه لا أصلَ له. نَعَم روى الطبرانيُّ والبيهقيُّ[٢] وغيرُهما: «الغِيبةُ أشدُّ من الزنى» إلَّا أنَّ له ما يبيِّن معناه، وهو ما رواه ابنُ أبي الدُّنيا[٣] وأبو الشَّيخ عن جابرٍ وأبي سعيدٍ ﵄: «إيَّاكم والغيبةَ، فإنَّ الغيبةَ أشدُّ من الزنى، إنَّ الرجل لَيزني فيتوبُ اللهُ تعالى عليه، وإنَّ صاحبَ الغيبةِ لا يُغفر له حتى يغفرَ له صاحبُه» فعُلم منه أنَّ أشدِّية الغيبةِ من الزِّنى ليست على الإطلاق، بل من جهة أنَّ التوبةَ الباطنةَ المستوفيةَ لجميع شروطها، من النَّدم من حيث المعصية، والإقلاعِ، وعزمِ ألَّا يعودَ مع عدم الغرغرةِ وطلوعِ الشَّمس مِن مغربها = مكفِّرةٌ لإثم الزِّنى بمجرَّدها، بخلاف الغِيبة، فإنَّ التوبةَ وإنْ وُجدت فيها هذه الشروطُ لا تكفِّرها، بل لا بدَّ وأن ينضمَّ إليها استحلالُ صاحبِها مع عفوه، فكانت الغيبةُ أشدَّ من هذه الحيثيةِ لا مطلقاً، فلا يعكِّر الحديثُ على الأصحِّ.

وعُلم منه أيضاً أنَّ الزِّنى لا يحتاج في التوبةِ منه إلى استحلال، وهو ما صرَّح به غيرُ واحدٍ من المحقِّقين، وهو مع ذلك من الحقوق المتعلِّقة بالآدميِّ، كيف لا وهو من الجناية على الأعراض والأنساب؟! ومعنى قولِهم: إنَّ الزِّنى لا يتعلَّق به حقُّ آدميٍّ، أي: من المال ونحوِه، وعدمُ اشتراطِ الاستحلالِ لا يدلُّ على أنَّه ليس من الحقوق المتعلِّقة بالآدميِّ مطلقاً، وإنَّما لم يُشترط الاستحلالُ لِمَا يترتَّب على ذِكره من زيادة العار، والظنُّ الغالبُ بأنَّ نحوَ الزوجِ أو القريبِ إذا ذُكر له ذلك، يبادر إلى قتل الزّاني، أو المزنيِّ بها، أو إلى قتلهما معاً، ومع ما ذُكر كيف يمكن القولُ باشتراطه؟!

---

(١) في الفتاوى الكبرى ٤/ ٢٤٢.

(٢) المعجم الأوسط (٦٥٩٠)، وشعب الإيمان ٥/ ٣٠٥ من حديث أبي سعيد وجابر ﵄.

(٣) في كتاب الصمت (١٦٤).

وقد صرَّح بنحو ذلك حُجَّةُ الإسلام الغزاليُّ في «منهاج العابدين» فقال في ضمن تفصيلٍ ـ قال الأذرعيُّ[1]: إنَّه في غاية الحسنِ والتحقيق ـ: أَمَّا الذنبُ في الحُرَم، فإنْ خُنتَه في أهله وولدِه، فلا وجهَ للاستحلال والإظهار؛ لأنه يولِّد فتنةً وغيظاً، بل تتضرَّع إلى الله سبحانه ليُرضيَه عنك، ويجعلَ له خيراً كثيراً في مقابلته، فإنْ أُمنت الفتنةُ والهيج، وهو نادرٌ، فتستحلُّ منه، وقد قال الأَذرعيُّ في مواضعَ في الحسد والتوبةِ منه: ويُشبه أن يَحرُم الإخبارُ به إذا غلب على ظنِّه ألَّا يحلِّله، وأنَّه يتولد منه عداوةٌ وحقدٌ وأذًى للمخبِر. ثم قال: ويجوز أن ينظرَ إلى المحسود، فإنْ كان حَسَنَ الخُلقِ بحيث يظنُّ أنه يحلِّله، تعيَّن إخباره؛ ليخرجَ من ظُلامته بيقين، وإنْ غلب على ظنِّه أنَّ إخباره يجرُّ شرًّا وعداوة، حَرُمَ إخباره قطعاً، وإنْ تردَّد، فالظاهرُ ما ذكره النوويُّ من عدم الوجوبِ والاستحباب، فإنَّ النفس الزَّكية نادرةٌ، وربما جرَّ ذلك شرًّا وعداوةً وإنْ حلَّله بلسانه. اهـ.

فإذا كان هذا في الحسد مع سهولته عندَ أكثرِ النَّاس وعدمِ مبالاتهم به، ومن ثَمَّ أَطلق النوويُّ عدمَ الإخبار فقال: المختارُ بل الصوابُ أنَّه لا يجب إخبارُ المحسودِ، بل لا يستحبُّ، ولو قيل: يكره، لم يَبْعد، فما بالُك في الزِّنى المستلزمِ أنَّ الزوجَ والقريبَ يقتل فيه بمجرَّد التوهُّم، فكيف مع التحقُّق؟

ويُعلم من الأخبار أنَّ ثمراتِ الزنى قبيحةٌ، منها أنَّه يورد النارَ والعذابَ الشديد، وأنَّه يورث الفقرَ وذهابَ البهاءِ، وقِصَرَ العمر، وأنَّه يؤخذ بمثله من ذريَّة الزاني.

ولمَّا قيل لبعض الملوكِ ذلك، أراد تجربتَه بابنةٍ له، وكانت غايةً في الحُسن، فأَنزلها مع امرأةٍ وأَمرها ألَّا تمنعَ أحداً أراد التعرُّضَ لها بأيِّ شيءٍ شاء، وأَمرها بكشف وجهِها، فطافت بها في الأَسواق، فما مرَّت على أحدٍ إلَّا وأطرق حياءً وخجلاً منها، فلمَّا طافت بها المدينةَ كلَّها ولم يمدَّ أحدٌ نظرَه إليها، رجعت بها إلى دار الملك، فلمَّا أرادت الدخولَ، أمسكها إنسانٌ وقبَّلها، ثم ذهب عنها، فأدخَلَتْها على الملك وذَكَرت له القصةَ، فسجد شكراً وقال: الحمدُ لله تعالى، ما وقع مني

(١) هو أحمد بن حمدان شهاب الدين أبو العباس الأذرعي، ولد بأذرعات الشام، ومات سنة (٧٨٣هـ)، وله شرحان على المنهاج في كل منهما ما ليس في الآخر. الدرر الكامنة ١/ ١٤٥.

في عُمُري قطُّ إلَّا قُبلةٌ، وقد قوصِصتُ بها. نسأل الله سبحانه أن يعصمَنا وذراريَنا ومَن يُنسَب إلينا من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، بحرمة النبيِّ ﷺ.

وقرأ أُبيُّ بن كعبٍ ـ كما أخرجه عنه ابنُ مردويه ـ: «ولا تَقربوا الزِّنى إنَّه كان فاحشةً ومقتاً وسَاءَ سبيلاً، إلَّا مَن تاب فإنَّ اللهَ كان غفوراً رحيماً» فذُكر لعمرَ رضي الله عنه، فأَتاه فسأله، فقال: أخذتُها من رسول اللهِ ﷺ، وليس لك عملٌ إلَّا الصفقُ بالنَّقيع[1]. وهذا إنْ صحَّ كان قبل العَرْضةِ الأخيرة.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: حرَّمها اللهُ تعالى، والمرادُ: حرَّم قتلَها بأنْ عصمها بالإسلام أو بالعهد ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّق بـ «لا تقتلوا»، والباءُ للسببية، والاستثناءُ مفرَّغ، أي: لا تقتلوها بسببٍ من الأسباب إلَّا بسبب الحقِّ. ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل أو المفعول، أي: لا تقتلوا إلا ملتبسين بالحقِّ، أو: لا تقتلوها إلا ملتبسةً بالحقّ. وجوِّز أن يكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوف، أي: لا تقتلوها قتلاً ما إلَّا قتلاً ملتبساً بالحقّ. والأوَّلُ أظهر. وأما تعلُّقه بـ «حرَّم» فبعيدٌ وإنْ صحَّ.

وفسِّر الحقُّ بما رواه الشيخان[2] وغيرُهما عن ابن مسعود: «لا يحلُّ دمُ امرىءٍ يشهد أن لا إله إلَّا اللهُ وأنِّي رسولُ اللهِ إلَّا بإحدى ثلاث: النَّفْس بالنفس، والثيِّب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

ونُقض الحصرُ بدفع الصَّائل، فإنَّ ذلك ربَّما أدَّى إلى القتل. ودُفع بأنَّ المرادَ ما يكون بنفسه مقصوداً به القتلُ، وما ذُكر المقصودُ به الدفعُ، وقد يُفضي إليه في الجملة.

والحقُّ عدم انحصار الحقِّ فيما ذُكر، وهو في الخبر ليس بحقيقيٍّ، وقد ذهب الشافعيةُ إلى أنَّ ترك الصلاةِ كسلاً مبيحٌ للقتل، وكذا اللِّواطة عند جمعٍ من الأَجِلَّة.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حقٍّ يوجب قتلَه أو يُبيحه للقاتل، حتى إنَّه لا يُعتبر إباحتُه لغير القاتل، فقد نصَّ علماؤنا أنَّ مَن عليه القصاصُ إذا قتله غيرُ مَن له القصاص، يُقتصُّ له، ولا يُفيده قولُ الوليِّ: أنا أَمرته بذلك، إلَّا أن يكونَ الأمرُ ظاهراً.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٧٩.

(٢) صحيح البخاري (٦٨٧٨)، وصحيح مسلم (١٦٧٦).

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ﴾ لمن يَلي أمرَه، من الوارث أو السُّلطانِ عند عدمِ الوارث. واقتصارُ البعضِ على الأوَّل رعايةٌ للأغلب. ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: تسلُّطاً واستيلاءً على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين: القصاص أو الدِّية، وقد تتعيَّن الديةُ كما في القتل الخطأ، والمقتولُ خطأً مقتول ظلماً بالمعنى الذي أُشير إليه وإنْ قلنا: لا إثمَ في الخطأ؛ لحديث: «رُفع عن أُمَّتي الخطأُ»[1] وشرع الكفَّارة فيه لعدم التثبُّت واجتنابِ ما يؤدِّي إليه، فليتأمَّل.

واستُدلَّ بتفسير الوليِّ بالوارث على أنَّ للمرأة دخلاً في القصاص. وقال القاضي إسماعيل: لا تدخل؛ لأنَّ لفظه مذكَّر.

﴿فَلَا يُسْرِف﴾ أي: الوليُّ ﴿فِّي الْقَتْلِ﴾ أي: فلا يتجاوز الحدَّ المشروعَ فيه، بأن يقتلَ اثنين مثلاً والقاتلُ واحد، كعادة الجاهلية، فإنَّهم كانوا إذا قُتل منهم واحدٌ قتلوا قاتلَه وقتلوا معه غيرَه، ومن هنا قال مهلهل:

كلُّ قتيلٍ في كُلَيب غُرَّه حتى ينالَ القتلُ آلَ مُرَّه[2]

وإلى هذا ذهب ابنُ جُبَير، وأخرجه ابنُ المنذر من طريق أبي صالحٍ عن ابن عباس[3].

أو بأن يقتلَ غيرَ القاتل ويتركَ القاتل. ورُوي هذا عن زيد بن أسلَم؛ فقد أخرج البيهقيُّ في «سُنَنه»[4] عنه أن الناس في الجاهلية إذا قَتل مَن ليس شريفاً شريفاً، لم يقتلوه به، وقتلوا شريفاً من قومه، فنُهي عن ذلك.

أو بأن يزيدَ على القتل المُثلةَ كما قيل. وأَخرج ابن جَريرٍ[5] وغيرُه عن طَلْق بن حبيب أنَّه قال: لا يَقتلْ غيرَ قاتله ولا يمثِّل به.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس ﷺ بلفظ «إن الله وضع عن أمتي الخطأ...»، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٩٥، وابن حبان (٧٢١٩)، والبيهقي ٧/ ٣٥٦، وغيرهم بلفظ «إن الله تجاوز لي عن أمتي...».

(٢) الأغاني ٥/ ٤٧.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨١.

(٤) ٨/ ٢٥.

(٥) في تفسيره ١٤/ ٥٨٥-٥٨٦.

وقيل: بأن يَقتُلَ القاتلَ والمشروعُ عليه الدِّية. وأخرج ابنُ أبي حاتم وغيرُه عن قتادةَ أنَّه قال في الآية: مَن قَتل بحديدة قُتل بحديدة، ومَن قتل بخشبةٍ قُتل بخشبة، ومَن قتل بحجرٍ قُتل بحجر، ولا يُقتل غيرُ القاتل[1]. وفيه القولُ بأنَّ القتل بالمثقَّل يوجِب القصاص، وهو خلافُ مذهبنا.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «فلا تُسرِفْ»[2] بالخطاب للوليِّ التفاتاً، وقرأ أبو مسلمٍ صاحبُ الدولة[3]: «فلا يُسرِفُ» بالرَّفع على أنَّه خبرٌ في معنى الأمر، وفيه مبالغةٌ ليست في الأمر.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ۝٣٣﴾ تعليلٌ للنهي، والضمير للوليِّ أيضاً، على معنى أنَّه تعالى نصره بأن أَوجب القصاصَ أو الدِّية وأمر الحكَّام بمعونته في استيفاء حقِّه، فلا يبلغ ما وراءَ حقِّه، ولا يخرج من دائرة إِمرة النَّاصر.

وأخرج ابن جَريرٍ وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتمٍ عن مجاهدٍ أنَّ الضميرَ للمقتول[4]، على معنى أنَّ الله تعالى نصره في الدنيا بأخذ القِصاص أو الدِّية، وفي الأُخرى بالثَّواب، فلا يُسرفْ وليُّه في شأنه.

وجوَّز أن يعودَ على الذي أَسرف به الوليُّ، أي: إنَّه تعالى نصره بإيجاب القصاصِ والتعزيرِ والوِزر على مَن أَسرف في شأنه.

وقيل: ضميرُ «يُسرف» للقاتل، أي: مريدُ القتل ومباشرُه ابتداءً؛ ونسبه في «الكشَّاف»[5] إلى مجاهد، والضَّميران في التعليل عائدان على الوليِّ أو المقتول، وأُيِّد بقراءة أُبَي: «فلا تسرفوا»[6] لأن القاتلَ متعدِّد في النَّظم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ﴾، والأصلُ توافقُ القراءتين، ولم تعيِّنه لأنَّ الوليَّ عامٌّ في الآية، فهو في معنى

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨١، وزاد نسبته لابن جرير وهو في تفسيره ١٤/ ٥٨٧.
(٢) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.
(٣) هو عبد الرحمن بن مسلم، أبو مسلم الخراساني، هازم جيوش الدولة الأموية والقائم بإنشاء الدولة العباسية. قتل في شعبان سنة (١٣٧هـ) وعمره (٣٧) سنة. السير ٦/ ٤٨. وقراءته في المحتسب ٢/ ٢٠، والبحر ٦/ ٣٤.
(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨١.
(٥) ٢/ ٤٤٨.
(٦) الكشاف ٢/ ٤٤٨، والبحر ٦/ ٣٤.

الأولياءِ، فيجوز جمعُ ضميرِه بهذا الاعتبار، ويكون التفاتاً، وتوافقُ القراءتين ليس بلازم، والمعنى: فلا يُسرف على نفسه في شأن القتلِ بتعريضها للهلاك العاجلِ والآجل.

وفي «الكشف» أنَّه ردعٌ للقاتل على أسلوبِ ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩] والنهيُ عن الإسراف لتصوير أنَّ القتلَ بغير حقٍّ كيفما قدِّر إسراف، ومعناه: فلا يقتل بغير حقٍّ. وأنت تعلم أنَّ هذا الوجهَ غيرُ وجيه، فلا ينبغي التعويلُ عليه.

وهذه الآيةُ ـ كما أَخرج غيرُ واحدٍ عن الضحَّاك ـ أوَّل آيةٍ نزلت في شأن القتل، وقد علمتَ أنَّ الأصحَّ أنه أكبرُ الكبائرِ بعد الشِّرك، وكونُ القتلِ العمدِ العدوانِ من الكبائر مجمَعٌ عليه، وعدُّ شِبهِ العمدِ منها هو ما صرَّح به الهرويُّ وشريح الرُّوياني، وأمَّا الخطأ، فالصوابُ أنَّه ليس بمعصية، فضلاً عن كونه ليس بكبيرة، فليُحفَظ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ نهي عن قِربانه لِمَا ذُكر سابقاً من المبالغة في النَّهي عن التعرُّض له، وللتوسُّل إلى الاستثناءِ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلَّا بالخصلة والطريقةِ التي هي أَحسنُ الخصالِ والطَّرائق، وهي حفظُه واستثماره.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لجواز التصرُّف على الوجه الأَحسنِ المدلولِ عليه بالاستثناء، لا للوجه المذكورِ فقط.

والأَشُدُّ قيل: جمع شدٍّ، كالأَضُرِّ جمع ضَرٍّ. والشدُّ القوَّة، وهو استحكامُ قوةِ الشبابِ والسنِّ، كما أنَّ شدَّ النهار ارتفاعُه، قال عنترة:

عهدي به شدَّ النهار(١) كأنما خُضب البنَانُ ورأسُه بالعِظْلمِ(٢)

وقيل: هو جمع شِدَّة، مثلُ نِعمة وأَنعُم. وقال بعضُ البصريِّين: هو واحدٌ مثل الآنُك.

والمرادُ ببلوغه الأشدَّ بلوغُه إلى حيث يُمكنه بسبب عقلِه ورُشدِه القيامُ بمصالح مالِه.

---

(١) في الديوان ص٢٧: مدَّ النهار.

(٢) العظلم: نبت يختضب به.

ثم التصرُّفُ بمال اليتيمِ بنحو الأكلِ على غير الوجهِ المأذونِ فيه من الكبائر. وتردَّد ابنُ عبدِ السلام بتقييده بنصاب السَّرقة، فقال في «القواعد»[1]: قد نصَّ الشرعُ على أنَّ شهادة الزُّور وأكلَ مالِ اليتيم من الكبائر، فإنْ وقعا في مالٍ خطير فهو ظاهرٌ، وإنْ وقعا في مالٍ حقير، كزبيبةٍ وتمرة، فيجوز أن يُجعلا من الكبائر فطاماً عن جِنس هذه المفسدة، كالقطرة من الخمر، وإن لم تتحقَّق المفسدةُ، ويجوز أن يُضبَطَ ذلك بنصاب السَّرقة. اهـ.

وقد يفرَّق بينهما بأنَّ في شهادة الزُّور مع الجراءة على انتهاك حرمةِ المالِ المعصومِ جراءةً على الكذب في الشَّهادة، بخلاف القليلِ من مال اليتيمِ فلا يُستبعَد التقييدُ به بخلافها. كذا قيل.

والحقُّ أن الآياتِ والأخبارَ الواردةَ في وعيد أكلِ مال اليتيم مطلقة، فتتناول القليلَ والكثير، فلا يجوز تخصيصُها إلَّا بدليل سمعيٍّ، وحيث لا دليلَ كذلك، فالتخصيصُ غيرُ مقبول، فالوجهُ أنَّه لا فرقَ بين أكلِ القليل وأكلِ الكثير في كونه كبيرةً يستحقُّ فاعلُه الوعيدَ الشَّديد، نَعَم الشيءُ التافه الذي تقتضي العادةُ المسامحةَ به لا يَبعد كونُ أكلهِ ليس من الكبائر، واللهُ تعالى أعلم. وقد توصَّل القضاةُ اليومَ إلى أكل مالِ اليتيمِ في صورة حِفظِه، عامَلَهم اللهُ تعالى بعدله، وأَذاقَ خائنهم في الدَّارين جزاءَ فعله.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ ما عاهدتم اللهَ تعالى عليه من التزام تكاليفِه، وما عاهدتم عليه غيرَكم من العباد، ويدخل في ذلك العقودُ. وجوَّز أن يكونَ المرادُ: ما عاهدكم اللهُ تعالى عليه وكلَّفكم به.

والإيفاءُ بالعهد والوفاءُ به: هو القيامُ بمقتضاه والمحافظةُ عليه وعدمُ نقضه، واشتقاقُ ضدِّه ـ وهو الغدرُ ـ يدلُّ على ذلك، وهو التركُ، ولا يكادُ يُستعمَل إلَّا بالباء، فرقاً بينه وبين الإيفاءِ الحسيِّ، كإيفاء الكيلِ والوزن.

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ﴾ أظهرَ في مقام الإضمارِ إظهاراً لكمال العنايةِ بشأنه. وقيل: دفعاً لتوهُّم عودِ الضمير إلى الإيفاء المفهومِ من «أوفوا».

---

(١) ١/ ١٩-٢٠.

﴿كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ أي: مسؤولاً عنه، على حذف الجارِّ وجعلِ الضميرِ بعد انقلابهِ مرفوعاً مستكنًّا في اسم المفعول، ويسمَّى الحذفَ والإيصال، وهو شائع.

وجوِّز أن يكونَ الكلامُ على حذفِ مضاف، أي: إنَّ صاحبَ العهدِ كان مسؤولاً.

وقيل: لا حذفَ أصلاً، والكلامُ على التخييل، كأنَّه يقال للعهد: لم نُكثت وهلَّا وُفي بك، تبكيتاً للنَّاكث، كما يقال للموؤدة: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٩] وقد يعتبر فيه الاستعارةُ المكنيةُ والتخييلية.

وزعم بعضُهم أنَّه يجوز أن يُجعلَ العهد متمثّلاً على هيئةِ مَن يتوجَّه عليه السؤال، كما تُجسَّم الحسناتُ والسيئاتُ لتوزَن.

وجوِّز أن يكونَ «مسؤولاً» بمعنى: مطلوباً، من: سألتُ كذا، إذا طلبت، وإسنادُ المطلوبيةِ إليه مجاز، والمراد: مطلوبٌ عدمُ إضاعته.

ويجوز أن يكونَ في الكلام مضافٌ محذوفٌ ارتفع الضميرُ واستتر بعد حذفِه. والأَصلُ ما أشرنا إليه، وقد سمعتَ آنفاً أنَّ مِثلَ ذلك شائع، وليس في ذلك تعليلُ الشيءِ بنفسه، فإنَّ المآلَ إلى أن يقال: أَوفوا بالعهد؛ فإنَّ عدمَ إضاعته لم تزل مطلوبةً من كلِّ أحد، فتُطلب منكم أيضاً.

ثم إنَّ الإِخلال بالوفاءِ بالعهد على ما تقتضيه الأحاديثُ الصحيحةُ قيل: كبيرةٌ، وقد جاء عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّه عدَّ من الكبائر نكثَ الصَّفقة، أي: الغدر بالمعاهد، بل صرَّح شيخُ الإِسلام العلائيُّ بأنَّه جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنَّه سمَّاه كبيرة[(١)].

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ في إطلاق كونِ الإِخلال المذكورِ كبيرةً نظراً، بناءً على أنَّ العهدَ هو التكليفاتُ الشرعية، فإنَّ من الإِخلال ما يكون كبيرةً، ومنه

---

(١) الزواجر ٢/١٦٩، ثم قال: لكن اعترضه الجلال البلقيني بأنه لم يرد في الأحاديث المنصوص فيها على الكبائر النصُّ على أن ذلك كبيرة، قال: وإنما فيه وعيد شديد كما تقدم. اهـ. والظاهر أنه أراد بما تقدم حديث أحمد (٨٦٩٢) والبخاري (٢٢٢٧): «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر...». انتهى كلام ابن حجر الهيتمي.

ما يكون صغيرةً، ويُنظَر في ذلك إلى حال المكلَّف به. ولعلَّ مَن قال: إنَّ الإخلال بالعهد كبيرةٌ، أراد بالعهد مبايعةَ الإمام، وبالإخلال بذلك نقضَ بيعته والخروجَ عليه لغير موجِبٍ ولا تأويل، ولا شبهةَ في أنَّ ذلك كبيرة، فليتأمَّل.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أتمُّوه ولا تُخسروه ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: وقتَ كيلِكم للمشترين، وتقييدُ الأمرِ به لِمَا أنَّ التطفيفَ يكون هناك، وأمَّا وقت الاكتيالِ على الناسِ فلا حاجةَ إلى الأمر بالتعديل، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ الآية [المطففين: ٢].

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ هو القَبَّان على ما رُوي عن الضحَّاك، ويقال له: القَرَسْطُون، بلغة أهلِ الشَّامِ كما قال الأزهريُّ[١]. وقال الزجَّاج[٢]: هو الميزان، صغيراً كان أو كبيراً، من موازين الدَّراهم وغيرها. وقال الليث: هو أقومُ الموازين. وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن قتادةَ أنَّه العدل، وعن الحسنِ أنَّه الحديد. وهو روميٌّ معرَّب كما قال ابنُ دريد؛ لفقد مادَّته في العربية. وقيل: إنَّه عربيٌّ، ورُوي القولُ بتعريبه وأنَّه الميزانُ في اللغة الروميةِ عن ابن جُبَير وجماعة. وقيل: هو مركَّب من كلمتين: القِسط، وهو العدل، وطاس، وهو كِفَّة الميزان، لكنه حُذف أحدُ الطائين لأنَّ التركيب محلُّ تخفيف. وهو كما ترى.

وعلى القول بأنَّه روميٌّ معرَّب ـ وهو الصحيحُ ـ لا يقدحُ استعمالُه في القرآن في عربيَّته المذكورةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] لأنَّه بعد التعريبِ والسَّماعِ في فصيح الكلام يصير عربيًّا، فلا حاجةَ إلى إنكار تعريبه، أو ادِّعاءِ التغليب، أو أنَّ المراد عربيُّ الأُسلوب.

وقد قرأه الكوفيُّون بكسر القاف، والباقون بضمِّها[٣]، وقد تُبدَل السِّين الأُولى صاداً، كما أُبدلت الصادُ سيناً في الصِّراط.

﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: العدل السَّويِّ، وهو يُبعد تفسيرَ القسطاسِ بالعدل.

---

(١) قال في تهذيب اللغة ٩/٣٨٩: وقال الزجاج: قيل للقسطاس: القرسطون، وقيل: هو القبان.

(٢) في معاني القرآن ٣/٢٣٨.

(٣) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/٣٠٧.

ولعلَّ الاكتفاءَ باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن ـ كما قال شيخُ الإسلام[1] ـ لِمَا أنَّ عند استقامتهِ لا يتصوَّر الجَور غالباً، بخلاف الكيل، فإنَّه كثيراً ما يقع التطفيفُ مع استقامة الآلة، كما أنَّ الاكتفاءَ بإيفاء الكيلِ عن الأمر بتعديله لِمَا أنَّ إيفاءَه لا يتصوَّر بدون تعديلِ المكيال، وقد أُمر بتقويمه أيضاً في قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٥].

﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيفاءُ الكيل والوزنِ بالقسطاس المستقيم ﴿خَيْرٌ﴾ في الدنيا؛ لأنَّه سببٌ لرغبة الناسِ في معاملة فاعلهِ وجلبِ الثناءِ الجميلِ عليه ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: عاقبةً؛ لِمَا يترتَّب عليه من الثَّواب في الآخرة. والتأويلُ تفعيلٌ من: آل إذا رجع، وأصلُه رجوع الشيءِ إلى الغاية المرادةِ منه عِلماً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] أو فعلاً، كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: ٥٣] وقولِ الشاعر[2]:

ولـلـنَّـوى قـبـل يـوم الـبَـيْـن تـأويـل

وقيل: المراد: ذلك خيرٌ في نفسه؛ لأنَّه أمانة، وهي صفةُ كمال، وأحسنُ عاقبةً في الدنيا؛ لأنه سببٌ لميل القلوبِ والرغبةِ في المعاملة والذِّكر الجميلِ بين الناس، ويُفضي ذلك إلى الغنى، وفي الآخرة؛ لأنه سببٌ للخلاص من العذاب، والفوزِ بالثَّواب. وقيل: أحسنُ تأويلاً، أي: أحسنُ معنًى وترجمة.

ثم إنَّ إيفاءَ الكيلِ والوزن واجبٌ إجماعاً، ونقصُ ذلك من الكبائر مطلقاً، على ما يقتضيه الوعيدُ الشديدُ لفاعله الواردُ في الآيات والأحاديثِ الصَّحيحة، ولا فرقَ بين القليلِ والكثير، نعم قال بعضُهم: إنَّ التطفيفَ بالشيءِ التافهِ الذي يسامح به أكثرُ الناسِ ينبغي أن يكونَ صغيرةً، فإن قلتَ: ذكروا في الغصب أنَّ غصبَ ما دون رُبع دينار لا يكونُ كبيرةً، وقضيَّته أن يكونَ التطفيفُ كذلك، قلتُ: قيل: ذلك مشكلٌ، فلا يقاس عليه، بل حُكي الإجماعُ على خلافه. وقال الأذرعيُّ: إنَّه تحديدٌ لا مستندَ له. انتهى.

وعلى التنزُّل فقد يفرَّق بأنَّ الغصبَ ليس مما يدعو قليلُه إلى كثيره؛ لأنَّه

---

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧١.

(٢) شطر بيت لعبدة بن الطبيب كما في المفضليات ص١٣٦، وسلف ٤/ ٢٦.

إنَّما يكون على سبيل القهرِ والغَلَبة، بخلاف التَّطفيف، فتعيَّن التنفيرُ عنه بأنَّ كلًّا من قليله وكثيرِه كبيرةٌ، أخذاً ممَّا قالوه في شرب القطرةِ من الخمر من أنَّه كبيرةٌ وإنْ لم يوجَد فيها مفسدةُ الخمر؛ لأنَّ قليلَه يدعو إلى كثيره، ومثلُ التطفيفِ في الكيل والوزنِ النقصُ في الذَّرع، ولا يكاد يسلمُ كيَّال أو وزَّان أو ذرَّاع في هذه الأعصارِ من نقص، إلَّا مَن عصمه اللهُ تعالى.

﴿وَلَا نَقْفُ﴾ ولا تَتَّبع. وأصلُ معنى قفا اتَّبع قفاه، ثم استُعمل في مطلق الاتِّباع، وصار حقيقةً فيه.

وقُرِئ: «ولا تقفو»[١] بإثبات حرفِ العلَّة مع الجازم، وهو شاذٌّ. وقُرِئ أيضاً: «ولا تَقُفْ»[١] بضمِّ القافِ وسكونِ الفاء، كتَقُل، على أنَّه أجوفُ مجزومٌ بالسكون، وماضيه: قافَ، يقال: قاف أَثرَه يَقوفه، إذا قصَّه واتَّبعه، ومنه القِيافة، وأصلُها ما يُعلم من الأقدام وأثرِها. وعن أبي عبيدةَ أنَّ قافَ مقلوبُ قفا، كجَذَبَ وجبذ. وتُعقِّب بأنَّ الصحيح خلافُه.

﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبع ما لا علمَ لك به من قولٍ أو فعل. وحاصلُه يرجع إلى النَّهي عن الحكم بما لا يكون معلوماً، ويندرج في ذلك أمور، وكلٌّ من المفسِّرين اقتصرَ على شيءٍ، فقيل: المراد نهيُ المشركين عن القول في الإلهيَّات والنبوَّاتِ تقليداً للأسلاف واتِّباعاً للهوى.

وأَخرج ابن جَرير وابنُ المنذر عن محمد بن الحنفيةِ أنَّ المرادَ النهيُ عن شهادة الزُّور[٢].

وقيل: المراد النهيُ عن القذف ورميِ المحصَنين والمحصَنات، ومن ذلك قولُ الكُميت:

ولا أرمي البريءَ بغير ذنبٍ ... ولا أَقفو الحواصنَ إن رُمينا[٣]

وروى البيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» وأبو نُعَيم في «الحِلية» من حديث

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٨٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٥٩٤.

(٣) ديوانه ص٤٦٦. الحواصن جمع حَصان: وهي المرأة العفيفة المتزوجة.

معاذِ بن أنس: «مَن قفا مؤمناً بما ليس فيه يريد شَينَه به، حَبَسَه اللهُ تعالى على جسر جهنَّمَ حتى يخرجَ مما قال»(١).

وقيل: المراد النهيُ عن الكذب، أَخرج ابن جَرير(٢) وغيرُه عن قتادةَ أنَّه قال في الآية: لا تقل: سمعتُ، ولم تسمع، و: رأيت، ولم تَرَ.

واختار الإمامُ العمومَ، قال(٣): إنَّ اللفظ عامٌّ يتناول الكلَّ، فلا معنى للتقييد.

واحتجَّ بالآية نفاةُ القياس؛ لأنَّه قفوٌ للظنِّ وحكمٌ به.

وأُجيب بأنَّهم أَجمعوا على الحكم بالظنِّ والعملِ به في صورٍ كثيرة، فمن ذلك: الصلاةُ على الميِّت، ودفنُه في مقابر المسلمين، وتوريثُ المسلمِ منه بناءً على أنَّه مسلم، وهو مظنونٌ، والتوجُّه إلى القِبلة في الصلاة، وهو مبنيٌّ على الاجتهاد بأماراتٍ لا تفيد إلَّا الظنَّ، وأكلُ الذبيحةِ بناءً على أنَّها ذبيحةُ مسلم، وهو مظنونٌ، والشهادة، فإنَّها ظنية، وقيمُ المتلَفات، وأُروشُ الجنايات، فإنَّها لا سبيلَ إليها إلَّا الظن. ومَن نظر ولو بمُؤْخِر العين، رأى أنَّ جميع الأعمال المعتبرةِ في الدنيا، من الأَسفار، وطلبِ الأَرباح، والمعاملاتِ إلى الآجال المخصوصة، والاعتمادِ على صَداقة الأَصدقاء وعداوة الأعداء، كلَّها مظنونة، وقد قال ﷺ: «نحن نحكم بالظَّاهر، واللهُ تعالى يتولَّى السرائر»(٤) فالنهيُ عن اتِّباع ما ليس بعلم قطعيٍّ مخصوصٌ بالعقائد.

وبأنَّ الظنَّ قد يسمَّى عِلماً، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] فإنَّ العلم بإيمانهنَّ إنَّما يكون بإقرارهنَّ، وهو لا يفيد إلَّا الظن.

---

(١) الشعب ٦/ ١٠٩، والحلية ٨/ ١٨٨-١٨٩، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٨٨٣).

(٢) في تفسيره ١٤/ ٥٩٤.

(٣) في التفسير الكبير ٢٠/ ٢٠٨.

(٤) قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص١٦٢: لا وجود له في كتب الأحاديث المشهورة، ولا الأجزاء المنثورة، وجزم العراقي بأنه لا أصل له، وكذا المزي وغيره. نعم في صحيح البخاري [٢٦٤١] عن عمر: إنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم. بل وفي مسلم [(١٠٦٤):(١٤٤)] من حديث أبي سعيد رفعه: «إني لم أومر أن أنقُبَ عن قلوب الناس». اهـ. وينظر كشف الخفاء ١/ ٢٢١-٢٢٣.

وبأنَّ الدليل القاطعَ لمَّا دلَّ على وجوب العمل بالقياس، كان ذلك الدليلُ دليلاً على أنَّه متى حصل ظنٌّ أنَّ حكمَ اللهِ تعالى في هذه الصورةِ يساوي حكمَه في محلِّ النص، فأنتم مكلَّفون بالعمل على وَفق ذلك الظن، فهاهنا الظنُّ واقعٌ في طريق الحكم، وأمَّا ذلك الحكمُ، فهو معلومٌ متيقَّن.

وأجاب النُّفاةُ عن الأوَّل بأنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا نَقْفُ﴾ الآية، عامٌّ دخله التخصيصُ فيما يذكرون فيه العملَ بالظن، فيبقى العمومُ فيما وراءه، على أنَّ بين ما يذكرونه من الصُّور وبين محلِّ النِّزاع فرقاً؛ لأنَّ الأحكام المتعلِّقة بالأول مختصَّة بأشخاصٍ معيَّنين في أوقاتٍ معينة، فالتنصيصُ على ذلك متعذِّر، فاكتُفي بالظنِّ للضَّرورة، بخلاف الثاني، فإنَّ الأحكام المثبَتة بالأقيسة كلِّية معتبَرة في وقائعَ كلِّية، وهي مضبوطةٌ، والتنصيصُ عليها ممكن، فلم يَجز الاكتفاءُ فيها بالظنّ.

وعن الثاني بأنَّ المغايرةَ بين العلم والظنِّ ممَّا لا شبهةَ فيه، ويدلُّ عليها قولُه تعالى: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام:١٤٨] والمؤمنُ هو المقرُّ، وذلك الإقرارُ هو العلمُ، فليس في الآية تسميةُ الظنِّ عِلماً.

وعن الثالث بأنَّه إنما يتمُّ لو ثبت حجيةُ القياس بدليلٍ قاطع، وليس فليس.

وأَحسن ما يُمكن أن يقالَ في الجواب ـ على ما قال الإمامُ[1] ـ أنَّ التمسُّك بالآية تمسُّكٌ بعامٍّ مخصوص، وهو لا يفيد إلَّا الظن، فلو دلَّت على أنَّ التمسُّك بالظنِّ غيرُ جائز، لدلَّت على أنَّ التمسكَ بها غيرُ جائز، فالقولُ بحجِّيتها يُفضي إلى نفيه، وهو باطل.

وللمُجيب أن يقولَ: نعلم بالتواتر الظاهرِ مِن دِين النبيِّ ﷺ أنَّ التمسكَ بآيات القرآنِ حجَّة في الشَّريعة.

ويمكن أن يجابَ عن هذا بأنَّ كون العامِّ المخصوصِ حجةً غيرُ معلومٍ بالتواتر، فتأمَّل.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: كلُّ هذه الأعضاءِ. وأُشير إليها

---

(١) في التفسير الكبير ٢٠/٢٠٨.

بـ «أولئك» على القول بأنَّها مختصَّة بالعقلاء تنزيلاً لها منزلتهم، لمَّا كانت مسؤولةً عن أحوالها شاهدةً على أصحابها.

وقال بعضُهم: إنَّها غالبةٌ في العقلاء، وجاءت لغيرهم من حيث إنَّها اسمُ جمع لذا، وهو يعمُّ القبيلَين، ومن ذلك قولُ جريرٍ على ما رواه غيرُ واحد:

ذمَّ المنازلَ بعد منزلةِ اللِّوى ... والعيشَ بعد أولئك الأيامِ[1]

وعلى هذا لا حاجةَ إلى التَّنزيل وارتكابِ الاستعارةِ فيما تقدَّم.

﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦﴾ كلُّ الضمائرِ ضمائرُ «كل» أي: كان كلٌّ من ذلك مسؤولاً عن نفسه، فيقال له: هل استعملك صاحبُك فيما خُلقت له أم لا؟ وذلك بعد جعلِه أهلاً للخطاب والسُّؤال. وجوِّز أن يكونَ ضميرُ «عنه» لـ «كلّ»، وما عداه للقافي، فهناك التفاتٌ، إذ الظاهرُ: كنتَ عنه مسؤولاً.

وقال الزمخشريُّ[2]: «عنه» نائبُ فاعل «مسؤولاً» فهو مسنَدٌ إليه، ولا ضميرَ فيه، نحو: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وردَّه أبو البقاءِ[3] وغيرُه بأنَّ القائم مقامَ الفاعلِ حكمُه حكمُه في أنَّه لا يجوز تقدُّمه على عامله كأصله. وذكر أنَّه حكى ابن النحَّاس الإجماعَ على عدم جوازِ تقديم القائم مقامَ الفاعلِ إذا كان جارًّا ومجروراً، فليس ذلك نظيرَ (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) وليس لقائلٍ أن يقولَ: إنَّه على رأي الكوفيِّين في تجويزهم تقديمَ الفاعل، إلَّا أن ينازَعَ في صحَّة الحكاية، ونُقل عن صاحب «التقريب» أنَّه إنما جاز تقديمُ «عنه» مع أنَّه فاعلٌ؛ لمحاً لأصالة ظرفيتِه، لا لعروض فاعليَّته، ولأنَّ الفاعل لا يتقدَّم لالتباسه بالمبتدأ، ولا التباسَ هاهنا، ولأنَّه ليس بفاعلٍ حقيقةً. اهـ. والإنصافُ أنَّه مع هذا لا يُقال لما ذهب إليه شيخُ العربية: إنَّه غلط.

وذكر في شرح نحوِ «المفتاح» أنَّه مرتفعٌ بمضمَر يفسِّره الظاهر، وجوِّز إخلاءُ

(١) ذيل الديوان ٢/ ٩٩٠. وروايته: أولئك الأقوام.

(٢) في الكشاف ٢/ ٤٤٩.

(٣) في الإملاء ٣/ ٤٨١-٤٨٢.

المفسّر عن الفاعل إذا لم يكن فعلاً معلَّلاً بأصالة الفعلِ في رفع الفاعل، فلا يجوز خلوُّه عنه، بخلاف اسمَي الفاعلِ والمفعول، تشبيهاً بالجوامد.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ فيه نظراً، نقلاً وقياساً. أما الأوَّل فلتفرُّده به. وأمَّا الثاني، فلأنَّ الاحتياجَ إليه من حيث إنَّه إذا جرى على شيءٍ لا بدَّ من عائدٍ إليه ليرتبطَ به ويكونَ هو الذاتَ القائمَ هو بها إن كان فاعلاً أو ملابساً لتلك الذَّات، وليس كالجوامد في ارتباطها بالسَّوابق بنفس الحَمل؛ لأنَّها لا تدلُّ على معنًى متعلِّقٍ بذات، فالوجهُ أن يقال: حُذف الجارُّ واستتر الضميرُ بعده في الصِّفة، وقد سمعتَ عن قربٍ أنَّ هذا من باب الحذفِ والإِيصال، وأنَّه شائع.

وجوَّز أن يكونَ مرفوعُ «مسؤولاً» المصدرَ، وهو السؤالُ، و«عنه» في محلِّ النصب. وسأل ابنُ جِنِّي أبا عليٍّ عن قولهم: فيك يُرغَب، وقال: لا يرتفع بما بعده فأين المرفوعُ؟ فقال: المصدرُ، أي: فيك يُرغب الرَّغْبُ، بمعنى: تُفعل الرغبةُ، كما في قولهم: يُعطي ويمنع، أي: يفعل الإِعطاءَ والمنع.

وجوَّز أن يكونَ اسمُ «كان» أو فاعلُه ضميرَ «كل» محذوفَ المضاف، أي: كان صاحبُه عنه مسؤولاً، أو: كان عنه مسؤولاً صاحبُه، فيقال له: لم استعملتَ السمعَ فيما لا يَحلُّ، ولِمَ صرفت البصرَ إلى كذا، والفؤادَ إلى كذا؟

وقرأ الجرَّاح العقيليُّ: «والفَوَادَ» بفتح الفاءِ وإبدالِ الهمزة واواً(١). وتوجيهُها أنَّه أُبدلت الهمزةُ واواً لوقوعها مع ضمَّةٍ في المشهور، ثم فُتحت الفاءُ تخفيفاً، وهي لغةٌ في ذلك، ولا عِبرةَ بإنكار أبي حاتمٍ لها.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ العبد يؤاخَذ بفعل القلب، كالتَّصميم على المعصية والأدواءِ القلبيَّة، كالحقد والحسدِ والعُجب، وغيرِ ذلك. نعم صرَّحوا بأن الهمَّ بالمعصية من غير تصميمٍ لا يؤاخَذ به؛ للخبر الصحيحِ في ذلك(٢). ثم إنَّ اتِّباع الظنِّ يكون كبيرةً ويكون صغيرةً، حَسَب أنواعِه وأصنافِه، ومنه ما هو أكبرُ الكبائر كما لا يخفى، نسأل اللهَ تعالى أن يَعصمَنا عن جميع ذلك.

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٦، والمحتسب ٢/ ٢١، والبحر ٦/ ٣٦.

(٢) يقصد قوله ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه...» أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ أي: فخراً وكِبْراً. قاله قتادة. وقال الرَّاغب[1]: المرح: شدَّة الفرحِ والتوسُّعُ فيه. والأوَّل أنسب.

وهو مصدرٌ وقع موقعَ الحال، والكلامُ في مِثله إذا وقع حالاً أو خبراً أو صفةً شائعٌ. وجوِّز أن يكونَ منصوباً على المصدريَّة لفعلٍ محذوف، أي: تمرحُ مرحاً. وأن يكونَ مفعولاً له، أي: لأَجْل المرح.

وقُرئ: «مَرِحاً» بكسر الراءِ[2] على أنَّه صفة مشبَّهة، ونصبُه على الحاليَّة لا غير.

قيل: وهذه القراءةُ باعتبار الحكم أَبلغُ من قراءة المصدرِ المفيد للمبالغة بجعله عينَ المَرَح، نظيرُ ما قيل في: زيدٌ عدلٌ؛ لأنَّ الوصف واقعٌ في حيِّز النهيِ الذي هو في معنى النَّفي، ونفيُ أصلِ الاتِّصاف أبلغُ من نفي زيادتهِ ومبالغته؛ لأنه ربَّما يُشعر ببقاء أصلِه في الجملة، وجَعْلُ المبالغةِ راجعةً إلى النفي دون المنفيِّ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] بعيدٌ هنا، والقولُ بأنَّ الصفة المشبَّهة تدلُّ على الثبوت فلا يقتضي نفيُ ذلك نفيَ أصله كما قيل في المصدر = مغالطةٌ نشأت من عدم معرفةِ معنى الثبوتِ في الصِّفة، فإنَّ المرادَ به أنَّها لا تدلُّ على تجدُّدٍ وحدوث، لا أنَّها تدلُّ على الدوام.

والأخفشُ فضَّل القراءةَ بالمصدر لِمَا فيه من التأكيد[3]، ولم ينظر إلى أنَّ ذلك في الإِثبات لا في النفي أو ما في حكمه. وأورد على ما قيل أنَّ فيه تفضيلَ القراءةِ الشاذَّة على المتواترة. وهو كما ترى. ولذا فضَّل بعضُهم القراءةَ بالمصدر كالأخفش، وجعل المبالغةَ المستفادةَ منه راجعةً إلى النَّهي، ومنع كونَ ذلك بعيداً.

وقيل: إذا جُعل التقديرُ في المتواترة: ذا مَرَح، تتَّحد مع الشاذَّة. وتُعقِّب بأنَّ: ذا مرح، أبلغُ مِن: مَرِحاً، صفةً؛ لِمَا فيه من الدِّلالة على أنَّه صاحبُ مَرَح وملازمٌ له، كأنَّه مالكٌ إياه، وفيه توقُّف كما لا يخفَى.

---

(١) في المفردات (مرح).

(٢) القراءات الشاذة ص٧٦.

(٣) كذا قال المصنف رحمه الله تعالى، ونقلها عن الشهاب في حاشيته ٦/ ٣٣، والذي في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٢: والمكسورة أحسنهما.

والتقييدُ بالأرض لا يصحُّ أن يقالَ: للاحتراز عن المشي في الهواءِ أو على الماء؛ لأنَّ هذا خارقٌ، ولا يحترز عنه، بل للتَّذكير بالمبدأ والمعَاد، وهو أَردعُ عن المشي مِشيةَ الفاخرِ المتكبِّر، وأدعَى لقَبول الموعظة، كأنَّه قيل: لا تمشِ فيما هو عنصرُك الغالبُ عليك الذي خُلقت منه وإليه تعود، والذي قد ضمَّ مِن أمثالك كثيراً مشيةَ الفاخرِ المتكبِّر.

وقيل: للتنصيص على أنَّ النهيَ عن المشي مرحاً في سائر البُقَع والأماكن لا يختصُّ به أرضٌ دون أرض. والأوَّلُ أَلطف.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ تعليلٌ للنهي، وفيه تهكُّم بالمختال، أي: إنَّك لن تقدرَ أن تجعلَ فيها خَرْقاً بدَوسك وشدَّة وطأتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ﴾ التي عليها ﴿طُولًا ۝٣٧﴾ بتعاظُمك ومَدِّ قامتِك فأين أنت والتكبُّرُ عليها؟! إذ التكبُّر إنَّما يكون بكثرة القوَّة وعِظَم الجُثَّة، وكلاهما مفقودٌ فيك، أو: إنَّك لن تقدرَ على ذلك، فأنت أضعفُ من كلِّ واحدٍ من هذين الجمادين، فكيف يَليق بك التكبُّر؟!

وقال بعضُ المحقِّقين: مآلُ النَّهي والتعليل: لا تفعلْ ذلك؛ فإنَّه لا جدوَى فيه. وهو وجهٌ حسن.

ونصب «طولاً» على أنَّه تمييز، وجوِّز أن يكونَ مفعولاً له. وقيل: يُشير كلامُ بعضِهم إلى أنَّه منصوبٌ على نزع الخافض، وهو بمعنى التطاوُل، أي: لن تبلغَ الجبالَ بتطاوُلك. ولا يخفَى بُعدُه.

وإيثارُ الإظهارِ على الإضمار حيث لم يقل: لن تَخرِقَها؛ لزيادة الإيقاظِ والتقريع.

ثم إنَّ الاختيالَ في المشي كبيرةٌ كما تدلُّ عليه الأحاديثُ الصحيحة[1]، وهذا فيما عدا بين الصفَّين، أمَّا بينهما فهو مباحٌ لخبرٍ صحَّ فيه[2]. ويكفي ما في الآية من

---

(١) من ذلك قوله ﷺ «بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». أخرجه البخاري (٣٤٨٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) يقصد قوله ﷺ لأبي دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه: «إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع». أخرجه الطبراني في الكبير (٦٥٠٨) عن خالد بن سليمان بن عبد الله بن خالد بن =

التهكُّم والتقريع زاجراً لمن اعتاده حيث لا يباح، ككثيرٍ من النَّاس اليوم.

وفي «الانتصاف»[(١)]: قد حفظ اللهُ تعالى عوامَّ زمانِنا من هذه المِشية، وتورَّط فيها قرَّاؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدُهم قد عرف مسألتين، أو أَجلسَ بين يديه طالبَين، أو نال طرفاً من رياسة الدنيا، إذ هو يمشي خُيلاءَ، ولا يرى أنَّه يطاول الجبالَ، ولكن يرى أنَّه يحكُّ بيافوخه عَنانَ السماءِ، كأنَّهم على هذه الآية لا يمرُّون، أو يمرُّون عليها وهم عنها مُعرِضون. اهـ.

وإذا كان هذا حالَ قرَّاءِ زمانه وفقهائه، فماذا أقول أنا في قرَّاء زماني وفقهائهم سوى: لا كثَّر اللهُ تعالى أمثالَهم، ولا ابتلانا بشيءٍ من أفعالهم، وجعلها أَفعَى لهم؟

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكورِ في تضاعيف الأَوامرِ والنَّواهي السابقةِ من الخصال المنحلَّة إلى نيِّف وعشرين ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ وهو ما نُهي عنه منها من الجَعل مع الله سبحانه إلهاً آخَرَ، وعبادةِ غيرِه تعالى، والتأفيف، والنَّهر، والتبذير، وجعلِ اليد مغلولةً إلى العنق، وبسطِها كلَّ البسط، وقتلِ الأولاد خشيةَ إملاق، وقتلِ النفس التي حرَّم اللهُ تعالى إلَّا بالحقِّ، وإسرافِ الوليِّ في القتل، وقفوِ ما ليس بمعلوم، والمشي في الأرض مَرَحاً. فالإضافةُ لامية من إضافة البعضِ إلى الكلِّ. ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: مبغَضاً وإنْ كان مراداً له تعالى بالإرادة التكوينيَّة، وإلَّا لَمَا وقع، كما يدلُّ عليه قولُه ﷺ: «ما شاء اللهُ تعالى كان، وما لم يشأ لم يكن»[(٢)] وغيرُ ذلك. وليست هذه الإرادةُ مرادفةً أو ملازمة للرِّضا ليلزمَ اجتماعُ الضِّدَّين: الإرادة المذكورة، والكراهة، كما يزعمه المعتزلة.

وهذا تتميمٌ لتعليل الأمورِ المنهيِّ عنها جميعاً. ووصفُ ذلك بمطلق الكراهةِ مع أنَّ أكثرَه من الكبائر؛ للإيذان بأنَّ مجرَّد الكراهةِ عنده تعالى كافيةٌ في وجوب الكفِّ عن ذلك.

وتوجيهُ الإشارة إلى الكلِّ ثم تعيينُ البعضِ دون توجيهِها إليه ابتداءً؛ لِمَا قيل

= سماك بن خرشة، عن أبيه، عن جده. قال الهيثمي في المجمع ٦/ ١٠٩: فيه من لم أعرفه.

(١) ٢/ ٤٤٩-٤٥٠.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٧٥٦) عن بعض بنات النبي ﷺ.

من أنَّ البعضَ المذكورَ ليس بمذكورٍ جملةً، بل على وجه الاختلاطِ لنكتةٍ اقتضته. وفيه إشعارٌ بكون ما عداه مرضيًّا عنده سبحانه، وإنَّما لم يصرِّح بذلك إيذاناً بالغنَى عنه، وقيل: اهتماماً بشأن التنفيرِ عن النَّواهي؛ لِمَا قالوا من أنَّ التخليةَ أولى من التحلية، ودرءَ المفاسدِ أهمُّ من جلب المصالح.

وجوِّز أن تكونَ الإضافةُ بيانيةً، و«ذلك» إمَّا إشارةٌ إلى جميع ما تقدَّم، ويؤخَذ من المأمورات أضدادُها، وهي منهيٌّ عنها كما في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١] بعد قولِه سبحانه: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)، وإمَّا إشارةٌ إلى ما نُهي عنه صريحاً فقط.

وقرأ الحجازيَّان والبصريان: «سيِّئةً»[1] بفتح الهمزةِ وهاءِ التأنيث، والنصبِ على أنَّه خبرُ «كان»، والإشارةُ إلى ما نُهي عنه صريحاً وضمناً، أو صريحاً فقط، و«مكروهاً» قيل: بدلٌ من «سيِّئةً» والمطابقةُ بين البدلِ والمبدَل منه غيرُ معتبرة. وضعِّف بأنَّ بدل المشتقِّ قليل.

وقيل: صفةُ «سيِّئةً» محمولةً على المعنى، فإنَّها بمعنى سيِّئاً، وقد قُرئ به[2]، أو أنَّ السيئةَ قد زال عنها معنى الوصفيةِ وأُجريت مُجرى الجوامد، فإنَّها بمعنى الذَّنْب، أو تجري الصفةُ على موصوف مذكَّر، أي: أمراً مكروهاً.

وقيل: إنه خبرٌ لـ «كان» أيضاً، ويجوز تعدُّد خبرِها على الصحيح.

وقيل: حالٌ من المستكِنِّ في «كان» أو في الظَّرف، بناءً على جعله صفةَ «سيئة» لا متعلِّقاً بـ «مكروهاً» فيستترَ فيه ضميرُها، والحالُ على هذا مؤكِّدة.

وأنت تعلم أنَّ ضميرَ السيئةِ المستترَ مؤنَّث، فجَعْلُ «مكروهاً» حالاً منه كجعله صفةَ «سيئة» في الاحتياج إلى التأويل. وإضمارُه مذكَّراً كما في قوله:

ولا أرضَ أبقَلَ إبقالَها[3]

لا يخفَى ما فيه.

---

(١) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٧.
(٣) شطر بيت لعامر بن جوين الطائي، وهو في الكتاب ٢/ ٤٦، وسلف ٢/ ٢٣٩.

وعن أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه أنَّه قرأ: «شأنُه»[١].

﴿ذَلِكَ﴾ المتقدِّمُ في التكاليف المفصَّلة ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ﴾ أي: بعضٌ منه، أو من جِنسه ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ التي هي علمُ الشَّرائع، أو معرفةُ الحقِّ سبحانه لذاته، والخيرِ للعمل به، أو الأحكامُ المحكَمة التي لا يتطرَّق إليها النسخُ والفساد.

وفي «الكشَّاف»[٢] عن ابن عبَّاس: هذه الثماني عشرةَ آيةً، يعني مِن «لا تجعل» فيما مرَّ إلى «ملوماً مدحوراً» بعدُ، كانت في ألواح موسى عليه السلام، وهي عشرُ آياتٍ في التوراة.

وفي «الدُّرّ المنثور»[٣]: أَخرج ابن جَريرٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ التوراة كلَّها في خمسَ عشرةَ آيةً من بني إسرائيل، ثم تلا: (وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ) وهذا أَعظمُ مدحاً للقرآن الكريم ممَّا في «الكشَّاف».

و«من» إمَّا متعلقة بـ «أَوحى»، على أنَّها تبعيضيةٌ أو ابتدائية، وإمَّا بمحذوفٍ وقع حالاً من الموصول، أو عائدِه المحذوف، أي: من الذي أَوحاه إليك ربُّك كائناً من الحكمة. وجوِّز أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ بدلاً من «ما».

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطابُ نظيرُ الخطابِ السَّابق، كرِّر للتَّنبيه على أنَّ التوحيد مبدأُ الأمرِ ومنتهاه، وأنَّه رأسُ كلِّ حكمةٍ ومِلاكُها، ورتَّب عليه أوَّلاً ما هو عائدةُ الشِّركِ في الدنيا حيث قال: «فتقعد مذموماً مخذولاً» ورتَّب عليه هاهنا نتيجتَه في العُقبى فقيل: ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ من جهة نفسِك ومن جهة غيرِك ﴿مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ مبعداً من رحمة اللهِ تعالى.

وفي «التفسير الكبير»[٤]: الفرقُ بين المذموم والملومِ أنَّ المذمومَ هو الذي يُذكر أنَّ الفعلَ الذي أَقدم عليه قبيحٌ ومنكر، والملومَ هو الذي يقال له: لِمَ فعلت مِثلَ هذا الفعل؟ وما الذي حملك عليه؟ وما استفدتَ منه إلَّا إلحاقَ الضَّررِ بنفسك؟

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٥٠.
(٢) ٢/ ٤٥٠.
(٣) ٤/ ١٨٢.
(٤) ٢٠/ ٢١٤.

ومن هذا يُعلم أنَّ الذمَّ يكون أوَّلاً واللومَ آخراً. والفرقُ بين المخذولِ والمدحورِ أنَّ المخذولَ عبارةٌ عن الضعيفِ يقال: تخاذلت أعضاؤه، أي: ضَعُفت، والمرادُ به مَن تُركت إعانته وفوِّض إلى نفسه، والمدحورَ المطرودُ، والمرادُ به المهانُ والمستخفُّ به. انتهى.

وفي إيراد الإلقاءِ مبنيًّا للمفعول جَرْيٌ على سَنَن الكبرياء، وازدراءٌ بالمشرك، وجعلٌ له كخشبةٍ يأخذها مَن كان فيُلقيها في التَّنُّور.

هذا وقد وحِّد الخطابُ في بعض هذه الأوامرِ والنَّواهي، وجُمع في بعضٍ آخرَ منها، ولم يظهر لي سِرُّ اختيارِ كلٍّ من التوحيد والجمعِ فيما اختير فيه على وجهٍ يَسلم من القيل والقال، ويَهَشُّ له كُمَّلُ الرِّجال. وقد ذكرتُ ذلك لبعض أَحبابي من أجِلَّة المحقِّقين ورؤساءِ المدرِّسين، وطلبتُ منه أن يحرِّرَ ما يظهر له، حيث إنِّي محقِّق كمالَه وفضلَه، فكتب ما نصُّه: أقول معترفاً بالقصور، محترزاً عن الغرور، معتذراً بالقول المأثور: المأمورُ معذور: يخطر على خاطر الفقيرِ: لتغيير أسلوب الخطاب وجوهٌ تسعةٌ لا تدخل في الحساب:

الأوَّل: الإشعارُ بانقسام هذه التكاليفِ إلى أقسامٍ ثلاثة:

قسم أهلِ الكلِّ خوطب به الأُمَّةُ مرتين: مرةً تصريحاً بخطاب أنفسِهم، ومرةً تعريضاً بخطاب رسولِهم ﷺ، وهذا الأهمُّ هو التوحيد.

وقسم مهمٌّ جدًّا، لكن دون الأوَّل، خوطبوا به واحدةً تصريحاً، وهو أمورٌ سبعة: الأوَّل: مطلقُ الإحسان بالوالدين، فإنَّ انتفاءه ـ بألَّا يُحسِنَ إليهما أصلاً ـ من أشدِّ مراتبِ العقوق. والثاني: تركُ قتلِ الأولاد. والثالث: الزِّنى. والرابع: تركُ قتلِ النفس المحرَّمة إلَّا بالحقِّ. والخامس: تركُ التصرُّف في مال اليتيمِ إلَّا بالتي هي أحسن. والسادس: الإيفاءُ بالعهد. والسابع: الوزنُ بالقِسطاس المستقيم.

وقسمٌ ثالثٌ دون الأوَّلَين في المهمية، خوطبوا به واحدةً تعريضاً، وهو أيضاً أمورٌ أحدَ عشر: الأوَّل: تركُ قولِ أفٍّ للوالدين. والثاني: تركُ النَّهر؛ فإنَّ التأفيفَ والنهرَ من أهون مراتبِ العقوق، بخلاف تركِ الإحسان مطلقاً. والثالث: قولُ القولِ الكريمِ لهما. والرابع: خفضُ الجَناح من الرَّحمة. والخامس: الدعاءُ برحمة اللهِ

تعالى. وهذه الثلاثةُ تَرْكها ليس كترك مطلقِ الإحسان مثلاً. والسادس: تركُ إيتاءِ حقِّ ذي القربى والمساكينِ وابنِ السبيل. وظاهرٌ أنَّ عدم القيامِ بإيتاء مجموعِ الحقوقِ الثلاثة أهونُ من ترك الأمورِ المذكورةِ في القِسم الثاني. والسابع: تركُ التبذير. والثامن: قولُ القولِ الميسور. والتاسع: العدلُ في المنع والعطاء. والعاشر: تركُ القَفو لما ليس به علمٌ، الصادق على القول بموجب الظنِّ مثلاً. والحادي عشر: تركُ المشي مَرَحاً. وتركُ واحدٍ من هذه الخمسة أيَّها كان لا يبلغ تركَ واحدٍ من الأمور المكلَّف بها المذكورةِ في القِسم الثاني كما لا يخفَى.

والثاني من تلك الوجوه: الإيماءُ باقتران خطابِ الأمَّة في النَّهي عن كبائرَ خطيرةٍ مثلاً بخطابه ﷺ عمَّا ليس في خطرها إلى أنَّ الذنوبَ تزداد عِظَماً بعظم مرتكبِها فرضاً، كما يدلُّ عليه آية: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥] وكريمة: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. وكما اشتهر أنَّ حسناتِ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين، وأنَّ المقرَّبين على خطرٍ عظيم، لكن لن تُراعَ هذه النكتةُ في النَّهي عن الشِّرك إشارةً إلى أنَّه في غاية العِظَم، بحيث لا ينبغي أن يتصوَّرَ في عظمه ازديادٌ وتفاوت الأفراد. أو نقول: لمَّا عارضت هذه النُّكتةَ نكتةٌ أخرى؛ رجِّحت لكونها بالرِّعاية أحرَى، وهي الإشارةُ إلى أنَّ الشِّرك كان عند اللهِ سبحانه عظيماً، فكُرِّر الخطابُ بالنهي عنه تخصيصاً وتعميماً. وهكذا نقول في عدم رعايةِ نكتةِ الوجوه الآتيةِ في التكليف بالتوحيد، ولا نُعيد.

والثالثُ من تلك الوجوه: التنبيهُ بتعميم الخطابِ في النَّهي عن بعض المعاصي والأمرِ ببعض الطاعاتِ على أنَّ فتنةَ فعلِ تلك المعاصي وتركِ تلك الطاعاتِ لا تُصيب الذين ظلموا خاصَّة.

والرابعُ منها: الإشارةُ بتعميم الخطاب فيما عمِّم فيه من المنهيَّات والمأموراتِ إلى أنَّ تلك المنهياتِ كما يجب على كلِّ مكلَّفٍ الانكفافُ عنها يجب عليه كفُّ الغير، بحيث لو تركه لَكان كفاعلها في أنَّه اقترف كبيرةً نُهي عنها نهيَ تلك المنهيَّات، وإلى أنَّ تلك المأموراتِ كما يجب على الكلِّ أداؤها يجب إجبارُ التاركِ

على أدائها، بحيث لو لم يُجبَر لَكان كتاركها في أنَّه ترك واجباً أُمر به أمرَ تلك المأمورات، وبتخصيص الخطابِ فيما خصِّص فيه إلى أنَّه ليس بتلك المثابة، فإنَّه وإنْ وجب إجبارُ الغيرِ على بعض تكاليفه، لكن عسى ألَّا يكونَ تركُه كبيرة.

والخامس: الرمزُ بتوحيد الخطابِ فيما وحِّد فيه أنَّ تلك الطاعةَ لا تَصدر إلَّا من الآحاد، لأنَّها لا يوفي حقَّها إلَّا المتورِّعون الصالحون، وقليلٌ ما هم، بخلاف غيرِها فإنَّه مضبوط.

والسادس: الإشعارُ بأنَّ التكاليفَ التي خوطب بها النبيُّ ﷺ والمرادُ أمَّتُه لا يقوم بها حقَّ القيامِ إلَّا هو، أو مَن يقتدي بأنواره، ويقتفي لآثاره، ويسعَى في اتِّباع سَننه القويم، ويجتهد في التخلُّق بخُلقه الكريم، بخلاف غيرِها ممَّا خوطبوا به صريحاً، فإنَّها تأتي من أغلبهم.

والسابع: أنه صُرِف الخطابُ عنه ﷺ في النهي عن قتل الأولادِ والزِّنى وقتلِ النفس المحرَّمة إلَّا بالحقِّ والتصرفِ في مال اليتيمِ إلَّا بالتي هي أحسنُ، إشارةً إلى أنَّ تلك الشنائعَ لا يأتيها النبيُّ عليه الصلاة والسلام وإنْ لم يُنهَ عنها؛ لأنَّ فِطرته وفِطنته، وسلامةَ طبعهِ اللطيف، واستقامةَ مزاجِه الشَّريف، كانت كافيةً في كفِّه عنها. وكذا صُرِف عنه الخطابُ في الأمر بالإحسان بالوالدَين والإيفاءِ بالعهد والوزنِ بالقسطاس المستقيم، إشارةً إلى أنَّه ﷺ يأتي بهذه الأمورِ وإنْ لم يؤمَر بها؛ لأنَّ تركَ مطلقِ الإحسان بالوالدَين لو بلغا لديه الكِبَرَ مثلاً، يَلزمه من الفظاظة وغِلظةِ القلب وجَفاءِ الطبعِ ما كان يأباه طبيعتُه ﷺ، وكذا الغدرُ والتطفيفُ، كانا تأباهما أخلاقُه الكريمة، لكن خوطب بالنَّهي عن الشِّرك؛ لأنَّه ليس للطبع والخُلق في التوحيد والشِّرك دَخْل.

والثامن: أنَّه تعالى إجلالاً لحبيبه ﷺ لم يخاطبْه بنهيه عن فواحشِ قتل الولدِ والزِّنى وقتلِ النَّفس بغير حقٍّ؛ لئلَّا يوهِمَ أنه كان ـ وحاشاه ـ يأتيها قبل النَّهي، وكذا لم يخاطبْه بأمره بالإيفاء بالعهد والوزنِ بالقسطاس المستقيم؛ لئلَّا يوهم أنَّه كان ـ وحاشاه ـ يتركها قبلَ هذا، وهذا الإيهامُ أدعَى للاعتناء بدفعه من الإيهام فيما خوطب به وحدَه، وخوطب بالنَّهي عن الشِّرك؛ لأنَّ معهوديةَ دعوتهِ ﷺ للخاصِّ والعامِّ، مدى الليالي والأيام، كفته هذا الإيهامَ.

والتاسع: لعل التكاليفَ التي خوطب ﷺ بها، كترك القَفو لِمَا ليس له به علم، وتركِ المشي في الأرض مرحاً، لم تكن في غير دِينهِ من سائر الأديان، أو لم تكن مصرَّحاً بها منصوصاً عليها في الكتب السماويةِ ما عدا القرآن، فوجِّه الخطابُ إليه وحده تلويحاً بأنَّها من خصائص دينهِ، أو بأنَّ التصريحَ بها والتنصيصَ عليها من خصائص كتابِه. ويؤيِّد هذا الوجهَ قولُه تعالى بعد النَّهي عن القَفو بلا علمٍ والمشي مرحاً: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

ثم إنِّي لا أدَّعي في هذا بل وفي سائر الوجوهِ البتَّ والجزم، ولا أَقفو ما ليس لي به عِلم، بل أقول: هذا خطر ببالي الكَسير، والعلمُ عند اللطيفِ الخبير. اهـ.

ويَرِد على قوله في الأوَّل: فإنَّ انتفاءه ـ بألَّا يُحسِنَ إليهما أصلاً ـ من أشدِّ مراتبِ العقوق، أنَّ العقوق الذي هو كبيرةٌ فِعل ما يتأذَّى به من فعل معه من الوالدين تأذِّياً ليس بالهيِّن عرفاً كما سمعتَ، وعدمُ الإحسان أصلاً قد لا يكون من ذلك. قال العلَّامة ابن حجرٍ(١) في أثناء الكلامِ على الفرق بين العقوقِ وقطعِ الرَّحم: إنَّه لو فُرض أنَّ قريبه لم يصل إليه إحسانٌ ولا إساءة قط، لم يفسَّق بذلك؛ لأنَّ الأبوين إذا فُرض ذلك في حقِّهما من غير أن يفعلَ معهما ما يقتضي التأذِّيَ العظيمَ لغناهما مثلاً، لم يكن كبيرةً، فأولَى بقيةُ الأقارب. اهـ.

وكأنه ـ أَحسنَ اللهُ تعالى إليه ـ ظنَّ أنَّه إذا تحقَّق عدمُ الإحسان تحقَّقت الإساءة، وهو بمعزلٍ عن الصَّواب.

ويرد أيضاً على قوله: وظاهرٌ أنَّ عدم القيام بإيتاء مجموعِ الحقوق الثلاثةِ أهونُ من ترك الأمورِ المذكورةِ في القسم الثاني، أنَّه إن أراد أنَّه أهونُ من ترك مجموعِ تلك الأُمور، فلا شكَّ أنَّ بعضَ ما عدَّه في القسم الثالثِ كالوزن بالقسطاس المستقيمِ تركُ القيامِ به أهونُ من ترك مجموعِ التكليفات، فما معنى هذا التخصيصِ؟ وإنْ أراد أنَّه أهونُ من ترك كلٍّ واحدٍ من تركِ الأمورِ المذكورة، فهو ممنوعٌ، كيف لا ويكون في ذلك قطيعةُ رحمٍ وقاطعُها ملعونٌ في كتاب اللهِ تعالى في ثلاثة مواضعَ؟ وروى أحمدُ(٢) بإسنادٍ صحيحٍ: «إنَّ من أربى الرِّبا الاستطالةُ بغير حقٍّ،

---

(١) في الزواجر ٢/ ٧٤.

(٢) برقم (١٦٥١) عن سعيد بن زيد ﷺ، وسلف ٥/ ٢٦٩.

وإنَّ هذه الرحمَ شُجْنةٌ[1] من الرَّحمن، فمن قطعها حرَّم اللهُ تعالى عليه الجنَّةَ». ومنعُ زكاةٍ أيضاً، وقد قال تعالى في ﴿حم﴾ السَّجدة، وهي مكية كهذه السُّورة: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت:٦-٧].

وإنْ نوقش فيما ذكر قلنا: إنَّ عدم القيام بإيتاء ما ذكر صادقٌ على منع حقوقِ ثلاثةِ أصناف، ولا شكَّ أنَّ منعَ ذي الحقِّ حقَّه ظلمٌ له، فيتعدَّد الظلمُ فيما نحن فيه، ولا أظنُّ أنَّ ذلك أهونُ من التطفيف وإنْ كان ظلماً أيضاً:

وظلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً ... على القلب من وقع الحسامِ المهنَّدِ[2]

وممَّا ذكرنا يُعلَم أنَّ قولَه: ظاهر، غيرُ ظاهر.

ويرد أيضاً على قوله: وتركُ واحدٍ من هذه الخمسةِ... إلخ، أنَّ قولَه سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ نهيٌ - على ما اختاره الإمام - عن كبائرَ لا شكَّ في أنَّ بعضها أعظمُ بكثير من بعضِ ما في القسم الثاني، كالقول في الإلهيَّات والنبوَّات نحوَ ما يقوله المشركون، تقليداً للأسلاف واتِّباعاً للهوى.

وإن أبيتَ إلَّا تخصيصَه ببعض ما قاله المفسِّرون ونقله الإمام ممَّا هو أهونُ أَفرادِه كالكذب، قيل لكَ: إنَّ في كونه أهونَ من انتفاء الإحسان مطلقاً مع كونه قد لا يكون كبيرةً، منعاً ظاهراً كما لا يخفَى. وكذا في كون المشيِ مَرَحاً دون كلِّ واحدٍ من الأمور السابقة بحثٌ. وقد أخرج الشَّيخان[3]: «بينما رجلٌ يمشي في حُلَّة تُعجبه نفسُه، مرجِّل مختالٌ في مِشيته، إذ خسف اللهُ تعالى به، فهو يتجلجلُ في الأرض إلى يوم القيامة» وروى أحمدُ وابنُ ماجه والحاكم: «ما من رجلٍ يتعاظم في نفسه ويختال في مِشيته، إلَّا لقي اللهَ تعالى وهو عليه غضبان»[4]، وصحَّ: «لا يدخل الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرَّة من كِبْر»[5] إلى غير ذلك من الأحاديث التي لم يجئْ مثلُها

---

(١) الشجنة: القرابة المشتبكة كاشتباك العروق. النهاية (شجن).

(٢) من معلقة طرفة، وهو في الديوان ص٣٦.

(٣) صحيح البخاري (٥٧٨٩)، وصحيح مسلم (٢٠٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) مسند أحمد (٥٩٩٥) والمستدرك ١/ ٦٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عند ابن ماجه.

(٥) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وسلف ٦/ ٤٤٨.

فيمن لم يُحسِن إلى والديه، نعم جاء ذلك فيمن عقَّ والديه، وبين عقوقِهما وعدمِ الإحسان إليهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق، وعلى هذا فلا يخفَى حالٌ كما لا يخفَى.

ويَرِد على الوجه الثاني ـ على ما فيه ـ أنَّه غير وافٍ بالغرض.

وعلى الثالث أنَّه مجرَّد دعوى لم تساعدها الآثار. نعم ورد في بعض ما ذَكَرَ أنَّ فتنته لا تُصيب الظالمَ فقط ما يؤيِّده، ومن ذلك ما أخرجه البيهقيُّ(١) وغيرُه: «يا معشرَ المهاجرين، خصالٌ خمسٌ إن ابتُليتم بهنَّ ونزلت بكم، أعوذُ بالله تعالى أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعلنوا بها، إلَّا فشا فيهم الأوجاعُ التي لم تكن في أسلافهم. ولم يَنقصوا المكيالَ والميزان، إلَّا أُخذوا بالسِّنين وشدَّةِ المؤنة وجَورِ السُّلطان. ولم يَمنعوا زكاةَ أموالهم، إلَّا مُنعوا المطرَ من السماء، ولولا البهائمُ لم يُمطَروا. ولا نقضوا عهدَ اللهِ تعالى وعهدَ رسولِه ﷺ إلَّا سلَّط اللهُ تعالى عليهم عدوًّا من غيرهم فيأخذوا بعضَ ما في أيديهم. وما لم تَحكم أئمَّتُهم بكتاب اللهِ تعالى إلَّا جعل اللهُ تعالى بأسَهم بينهم».

وإنْ كان في عدم إيتاءِ المسكين وابنِ السَّبيل حقَّهما منعُ الزكاة، فأمرُ الإيماءِ المذكورِ لا يخفَى حالُه؛ فإنَّ الأخبار قد تضافرت بعموم شؤمِ ذلك، فقد صحَّ: «ما منع قومٌ الزكاةَ إلَّا حبس اللهُ تعالى عنهم القَطر»(٢) وفي روايةٍ صحيحة: «إلَّا ابتلاهم اللهُ تعالى بالسِّنين»(٣) إلى غير ذلك.

ويَرِد على الوجه الرابعِ أنَّ بعضَهم قد أَطلق القولَ بأنَّ تركَ الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر كبيرة، وصرَّح صاحبُ «العُدَّة» بأنَّ الغِيبة نفسَها صغيرة، وتركَ النَّهيِ عنها كبيرة، وقال بعضُ المتأخِّرين ـ ونقله الجلال البُلقيني ـ: ينبغي أن يفصَّل في النَّهي عن المنكَر فيقال: إن كان كبيرةً فالسكوتُ عليه مع إمكان دفعِه كبيرةٌ،

---

(١) في شعب الإيمان ٣/ ١٩٦-١٩٧ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وهو عند ابن ماجه (٤٠١٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٩٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٦٥: فيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي، ليّنه الحاكم، وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٥٧٧) من حديث بريدة رضي الله عنه. قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٦٥-٦٦: رجاله ثقات.

وإن كان صغيرةً، فالسكوتُ عليه صغيرة، ويقاس تركُ المأمور بهذا إذا قلنا: إنَّ الواجباتِ تتفاوت، وهو الظَّاهر. اهـ.

وقد علمتَ أنَّ فيما وحِّد الخطابُ فيه من الأوامر ما تَرْكُه كبيرة، ومن النَّواهي ما فِعلُه كذلك، فلم يتحقَّق ما رَجَا سلَّمه الله تعالى، على أنَّ في تعبيره بالإِجبار فيما عبَّر فيه ما لا يخفَى.

ويَرِد على الخامس أنَّ في كون الطاعاتِ التي وحِّد فيها الخطابُ لا تَصدر إلَّا من الآحاد لأنَّها لا يوفي حقَّها إلَّا المتورِّعون، منعاً ظاهراً؛ فإنَّ أكثر الناسِ ـ صالِحهم وطالِحهم ـ لا يمشي في الأرض مَرَحاً، ومثلُ ذلك الدعاءُ للوالدين بالرَّحمة، فإنَّا نسمعه على أتمِّ وجهٍ من كثيرٍ ممَّن لا يعرف الورعَ أيُّ شيءٍ هو، وكذا في قوله: بخلاف غيرِها فإنَّه مضبوط، فإنَّ ترك التصرُّف في مال اليتيم إلَّا بالتي هي أحسنُ ممَّن له ولايةٌ عليه أمرٌ شاقٌّ، لا يكاد يقوم به إلَّا الأفراد، قال في «ردِّ المحتار حاشيةِ الدُّرِّ المختار»[1]: لا ينبغي للموصَى إليه أن يقبلَ؛ لصعوبة العدلِ جدًّا، ومن هنا قال أبو يوسف: الدخولُ في الوِصاية أولَ مرةٍ غلط، وثانيَ مرةٍ خيانة، وثالثَ مرةٍ سرقة. ومن هذا يُعلَم ما في الوجه السادس.

ويَرِد على السابع أيضاً أنَّ المشيَ في الأرض مرحاً كالأمور التي صُرِف الخطابُ في النَّهي عنها عنه ﷺ في أنَّ فطرته وفِطنته وسلامةَ طبعه اللطيفِ، واستقامةَ مِزاجه الشريف، كافيةٌ في الكفِّ عنه؛ فإنَّ الكِبْر من البشر لا ينشأ إلَّا عن جهلٍ وبلادة، وقد جُبِل عليه الصلاة والسلام على أكملِ ما يكون من التَّواضع، بل وسائرِ الصِّفات التي هي كمالٌ في النَّوع الإنسانيِّ، ويؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] مع أنَّه لم يُصرَف الخطابُ فيه، وأنَّه حيث اعتُبر الفطنةُ في الكافي عن الكفِّ، لم ينفعْه الاعتذارُ عن توحيد الخطابِ في النَّهي عن الشِّرك بما اعتذر به؛ فإنَّ للفِطنة دخلاً تامًّا في التوحيد كما لا يخفَى على فَطِن.

ويَرِد على قوله في الثامن: وهذا الإيهام... إلخ، منعٌ ظاهر، فلا يخفَى حالُه كما لا يخفَى.

---

(١) ٦/ ٧٠٠.

ويَرِد على التاسع أنَّه لا يساعده نقلٌ ولا عقل، بل جاءَ في النَّقل ما يخالفه، كما سمعت عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، وإن اعتُبر النهيُ عن الشِّرك من تلك التكليفات، فهو كافٍ في تزييف هذا الوجه؛ لأنَّ النهيَ عن الشِّرك جاء به كلُّ رسول، ونطق به كلُّ كتاب، وما ذكره مؤيِّداً لغرضه بمعزلٍ عن التأييد.

هذا وبقيت إيراداتٌ أُخَرُ على هذه الوجوه، أعرضنا عنها وتركناها للذَّكيِّ الفطن حذراً من التَّطويل، فتأمَّل ذاك، واللهُ يتولَّى هداك.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا﴾ خطابٌ للقائلين بأنَّ الملائكة بناتُ اللهِ سبحانه. والإصفاءُ بالشيء جعلُه خالصاً، والهمزةُ للإنكار، وهي داخلةٌ على مقدَّر على أحد الرَّأيين، والفاءُ للعطف على ذلك المقدَّر، أي: أفضَّلكم على جنابه فخصَّكم بأفضلِ الأولادِ على وجه الخلوصِ وآثَرَ لِذَاته أخسَّها وأدناها؟!

والتعرُّض لعنوان الرُّبوبيةِ لتشديد النكيرِ وتأكيدِه، وعبَّر بالإناث إظهاراً للخِسَّة.

وقال شيخُ الإسلام(١): أُشير بِذكر الملائكةِ عليهم السلام وإيرادِ الإناث مكانَ البناتِ إلى كَفْرَةٍ لهم أخرى، وهي وصفُهم لهم عليهم السلام بالأُنوثة التي هي أخسُّ صفاتِ الحَيَوان، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩].

وفي «الكشف» أنَّه تعالى لمَّا نهى عن الشِّرك ودلَّ على فساده، أتى بالفاء الواصلة، وأنكر عليهم ذلك دليلاً على مكانِ التعكيس، وأنَّهم بعد ما عرفوا أنَّه سبحانه بريءٌ من الشَّريك بدليل العقلِ والسمع، نسبوا إليه تعالى ما هو شركٌ ونقص، وازدراءٌ بمن اصطفاه من عباده، فيا لَه من كَفْرةٍ شنيعة؛ ولذا قيل: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ بمقتضى مذهبِكم الباطلِ ﴿قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ لا يقادَر قدرُه في استتباع الإثم وخرقِه لقضايا العقول، بحيث لا يجترئُ عليه ذو عقل، حيث تجعلونه سبحانه من قَبيل الأجسام السَّريعة الزوالِ المحتاجةِ إلى بقاءِ النَّوع بالتوالُد، وليس كمِثله شيءٌ، وهو الواحدُ القهَّارُ الباقي بذاته، ثم تُضيفون إليه تعالى ما تكرهون من أخسِّ

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧٣.

الأولاد، وتفضِّلون عليه سبحانه أنفسَكم بالبنينَ، ثم تَصِفون الملائكةَ عليهم السلام بما تَصِفون.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ من التَّصريف، وهو كثرةُ صرف الشيءِ من حالٍ إلى حال، ومفعولُه هنا محذوفٌ للعلم به، أي: صرَّفناه، أي: هذا المعنى، والمراد: عبَّرنا عنه بعباراتٍ، وقرَّرناه بوجوهٍ من التقريرات. ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ العظيم، أي: في مواضعَ منه، فالمرادُ بالقرآن مجموعُ التنزيل.

وجوِّز أن يرادَ به البعضُ المشتملُ على إبطال إضافةِ البناتِ إليه سبحانه، ومفعولُ «صرفنا» محذوفٌ أيضاً، أي: صرَّفنا القولَ المشتملَ على إبطال الإضافة المذكورةِ في هذا المعنى.

وإيقاعُ القرآنِ على المعنى وجَعْلُه ظرفاً للقول: إمَّا بإطلاق اسمِ المحلِّ على الحالِّ؛ لِمَا اشتهر أنَّ الألفاظ قوالبُ المعاني، أو بالعكس، كما يقال: البابُ الفلانيُّ في كذا، وهذه الآيةُ في تحريم كذا، أي: في بيانه. ويجوز تنزيلُ الفعل منزلةَ اللازمِ وتعديتهُ بـ «في»، كما في قوله:

... يـجـرحْ فـي عـراقـيـبـهـا نَـصْـلـي[1]

أي: أوقعنا التصريفَ فيه.

وقُرئ: «صَرَفنا» بالتَّخفيف[2]، والصَّرفُ كالتصريف إلَّا في التكثير.

﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليتذكَّروا ويتَّعظوا ويطمئنُّوا له؛ فإنَّ التكرارَ يقتضي الإذعانَ واطمئنانَ النفس ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ذلك التصريفُ ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ عن الحقِّ وإعراضاً عنه، وهو تعكيس.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ هنا وفي «الفرقان»: «ليذْكُروا»[3] من الذِّكر الذي هو بمعنى التذكُّر ضدِّ النِّسيان والغفلة. والتذكُّر على القراءة الأُولى بمعنى الاتِّعاظِ

---

(١) قطعة من بيت لذي الرمّة. وهو في ديوانه ١/١٥٦، وسلف ١٠/١٦١.

(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والمحتسب ٢/٢١.

(٣) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/٣٠٧.

كما أُشير إليه، والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء الحالِ أن يُعرضَ عنهم ويُحكى للسَّامعين هَناتُهم.

﴿قُل﴾ في إظهار بطلانِ ذلك من جهةٍ أخرى: ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ سبحانَه وتعالى في الوجود ﴿ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: المشركون قاطبةً.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ بالتاء ثالثِ الحروفِ خطاباً لهم[1]، والأمران في مثل هذا المقامِ شائعان، وذلك أنَّه إذا أُمر أحدٌ بتبليغ كلامٍ لأحد، فالمبلَّغُ له في حال تكلُّم الآمرِ غائب، ويصير مخاطباً عند التبليغ، فإذا لوحظ الأولُ حقُّه الغَيبة، وإذا لوحظ الثاني حقُّه الخطاب.

وكذا قرؤوا فيما بعد، وقرأ نافعٌ وابن عامرٍ وأبو بكرٍ عن عاصمٍ هنا بالتاء، وهناك بالياء آخرِ الحروف[2]، على أنَّه تنزيهٌ منه سبحانَه لنفسه ابتداءً من غير أمرِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام بقوله لهم، والكافُ في محلِّ النصبِ على أنَّها نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: كوناً مشابهاً لما يقولون، والمرادُ بالمشابهة ـ على ما قيل ـ الموافقةُ والمطابقة.

﴿إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ﴾ جوابٌ عن قولهم: إنَّ مع اللهِ سبحانه آلهةً، وجزاءٌ لـ «لو»، أي: لَطلَبَ الآلهةُ ﴿إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: إلى مَن له الملكُ والربوبيةُ على الإطلاق ﴿سَبِيلٗا ٤٢﴾ بالمغالبة والممانعة، كما اطَّردت العادةُ بين الملوك. وهي إشارةٌ إلى برهان التمانُع، كقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وذلك بتصوير قياسٍ استثنائيٍّ استُثني فيه نقيضُ التالي لينتجَ نقيضُ المقدَّم المطلوب. وسيأتي إن شاء اللهُ تعالى تقريرُه في محلِّه. وإلى هذا ذهب سعيدُ بن جُبَير كما أخرجه عنه ابنُ أبي حاتم.

وعن مجاهدٍ وقتادةَ أنَّ المعنى: إذاً لطلبوا الزُّلفى إليه تعالى والتقرُّبَ بالطاعة؛

(١) قرأ ابن كثير وحفص: «كما يقولون» بالياء، والباقون بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «عما تقولون» [الآية: ٤٣] بالتاء، والباقون بالياء. التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.

(٢) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.

لِعلمهم بعلوِّه سبحانه عليهم وعظمتِه، وهذا كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] وهو إشارةٌ إلى قياس اقترانيٍّ: هكذا لو كان كما زعمتم آلهةٌ لتقرَّبوا إليه تعالى، وكلُّ مَن كان كذلك ليس إلهاً، فهم ليسوا بآلهة.

قيل: و«لو» على الأوَّل امتناعيةٌ، وعلى هذا شرطيةٌ، والقياسُ مركَّب من مقدِّمتين: شرطية اتِّفاقية، وحَمْلية.

واختار المحقِّقون الوجهَ الأوَّل؛ لأنَّه الأظهرُ الأنسبُ بقوله سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ المرادَ بيانُ أنَّه يَلزم ما يقولونه محذورٌ عظيم من حيث لا يحتسبون.

وأمَّا ابتغاءُ السبيلِ إليه تعالى بالتقرُّب، فليس ممَّا يختصُّ بهذا التقدير، ولا ممَّا يَلزمهم من حيث لا يشعرون، بل هو أمرٌ يعتقدونه رأساً، أي: ينزِّه بذاته تنزيهاً حقيقاً به سبحانه ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ متباعداً ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من العظيمة التي هي أن يكونَ معه تعالى آلهةٌ، وأن يكونَ له بناتٌ ﴿عُلُوّٗا﴾ أي: تعالياً، فهو مصدرٌ من غير فعلِه، كقوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧] ﴿كَبِيرٗا ٤٣﴾ بعيدَ الغاية، بل لا غايةَ وراءه، كيف لا وإنَّه تعالى في أقصى غاياتِ الوجود، وهو الوجوبُ الذاتيُّ، وما يقولونه من أنَّ معه آلهةً وأنَّ له أولاداً، في أدنَى مراتب العدم، وهو الامتناعُ الذاتيُّ.

وقيل: لأنَّه تعالى في أَعلى مراتبِ الوجود، وهو كونُه واجبَ الوجود، والبقاءُ لذاته، واتِّخاذُ الولدِ من أدنَى مراتبه، فإنَّه من خواصِّ ما يمتنع بقاؤه.

وتعقِّب بأنَّ ما يقولونه ليس مجرَّدَ اتخاذِ الولد، بل مع ما سمعتَ، ولا ريبَ في أنَّ ذلك ليس بداخلٍ في حدِّ الإمكان، فضلاً عن دخوله تحتَ الوجود، وكونُه من أدنَى مراتبِ الوجود إنَّما هو بالنِّسبة إلى مَن مِن شأنه ذلك. واعتُذر بأنَّه من باب التنبيهِ بحال الأدنَى على حال الأعلى، ولا يخفَى أنَّ ذِكرَ العلوِّ بعد عنوانِه بذي العرشِ في أعلَى مراتبِ البلاغة.

﴿تُسَبِّحُ﴾ بالفوقانية، وهي قراءةُ أبي عَمرٍو والأَخوينِ وحفصٍ، وقرأ الباقون

بالتحتانيَّة[١]؛ لأنَّ تأنيثَ الفاعلِ مجازيٌّ، مع الفصل، وقُرئ: «سَبَّحتْ»[٢] ﴿لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ أي: مِن الملائكة والثَّقلَين.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ من الأشياء، حيواناً كان أو نباتاً أو جماداً ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ﴾ ملتبِساً ﴿بِحَمۡدِهِۦ﴾ تعالى.

والمرادُ من التسبيح الدلالةُ بلسان الحال، أي: تدلُّ بإمكانها وحدوثِها دلالةً واضحةً على وجوب وجودِه تعالى ووحدتِه وقدرتِه، وتنزُّهِه من لوازم الإمكان وتوابعِ الحدوث، كما يدلُّ الأثرُ على مؤثِّره، ففي الكلام استعارةٌ تبعيَّة كما في: نَطَقت الحالُ.

وجوِّز أن يعتبرَ فيه استعارةٌ تمثيلية، ولا يأبى حملَ التسبيح على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ بناءً على أنَّ كثيراً من العقلاء فَهِمَ تلك الدلالة؛ لِمَا أنَّ الخطابَ للمشركين والكَفَرة، لا للنَّاس على العموم؛ لأنَّه تقدَّم ذِكرُ قبائحِهم من نسبتهم إليه تعالى شأنُه ما لا يَليق بجلاله، فإنَّ الله سبحانه وصف ذاتَه بالنَّزاهة عنه، وبالغَ فيه ما بالغ، ثم عقبه بما ذكر دلالةً على أنَّ كلَّ الأكوانِ شاهدةٌ بتلك النَّزاهة، مبالغةً على مبالغة، فلو كان الخطابُ مع غير هؤلاءِ المنكرين وأضرابِهم، لم يتلاءم الكلامُ، ويَخرج عن النِّظام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾ تذييلٌ من تتمَّة الإنكار على الوجه الأبلغ، أي: إنَّه سبحانَه حليم؛ ولذلك لم يعاجلْكم بالعقوبة لإخلالكم بالنظر الصحيحِ الموصلِ إلى التوحيد، ولو تبتم ونظرتم لغَفر لكم ما صدر منكم من التَّقصير؛ فإنَّه غفورٌ لمن يتوب.

وظنَّ ابن المنيرِ أنَّ هذا التذييلَ يأبى كونَ الخطابِ للمشركين، قال[٣]: لأنَّه سبحانه لا يغفرُ لهم ولا يتجاوزُ عن جهلهم وإشراكهم، والظاهرُ أن المخاطَبَ المؤمنون، وعدمُ فقههِم للتَّسبيح الصادرِ من الجمادات كنايةٌ - والله تعالى أعلم - عن عدم العملِ بمقتضَى ذلك؛ فإنَّ الإنسانَ لو تيقَّظ حقَّ التيقُّظِ إلى أنَّ النملة والبعوضةَ

(١) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٧.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٤١.
(٣) في الانتصاف ٢/ ٤٥١.

وكلَّ ذرَّةٍ من ذرَّات الكونِ يقدِّس اللهَ تعالى وينزِّهه، ويشهد بجَلاله وكبريائه وقَهره، وعَمَرَ خاطرَه بهذا الفهم، لَشغله ذلك عن الطعام، فضلاً عن فُضول الأفعال والكلام، والعاكفُ على الغِيبة ـ التي هي فاكهتُنا في زماننا ـ لو استشعر حالَ إفاضتِهِ فيها أنَّ كلَّ ذرَّة من ذرَّات لسانِه الذي يلقلقه في سَخَط اللهِ تعالى عليه مشغولةٌ مملوءةٌ بتقديس اللهِ تعالى وتسبيحِه، وتخويفِ عقابه وإنذار جبروتِه، وتيقَّظ لذلك حقَّ التيقُّظ، لَكاد يَبكِم بقيةَ عُمُره. فالظاهرُ أنَّ الآية إنَّما وردت خطاباً على الغالب من أحوال الغافلين وإنْ كانوا مؤمنين. اهـ.

وليس بسديد؛ لخروج الكلامِ على ذلك من النِّظام، ووجهُ التذييلِ ما سمعت، فلا إباءَ كما لا يخفَى على ذوي الأفهام.

وجوِّز أن يرادَ بالتَّسبيح الدلالةُ على تنزيه الباري سبحانه عن لوازم الإمكانِ وتوابع الحدوثِ مطلقاً، سواءٌ كانت حاليةً أو مقاليةً، على أنَّه مِن عموم المجاز، أو بالجمع بين المعنى الحقيقيِّ والمجازيِّ، على رأي مَن يجوِّزه، فتسبيحُ بعضٍ قاليٌّ، وتسبيحُ بعضٍ آخرَ حاليّ.

وتعقِّب بأنَّه لا يلائمه «لا تفقهون» لأنَّ مِن ذلك التسبيحِ ما يفقهه المشركون وغيرُهم، وهو التسبيحُ القاليّ.

وأُجيب بأنَّ المشركين لعدم تدبُّرِهم له وانتفاعِهم به كان فهمُهم بمنزلة العدم، أو أنَّهم لعدم فهمِهم بعضَ المرادِ من التسبيح جُعلوا ممَّن لا يفهم الجميعَ تغليباً.

وذهب بعضُ الظاهريةِ ـ وارتضاه الراغبُ[١]، وقال في «تفسير الخازن»[٢]: إنَّه الأصحُّ ـ إلى أنَّ التسبيحَ على معناه الحقيقيِّ، فالكلُّ يسبِّح بلسان القال، حتى الجمادات.

ولم يرتضِ ذلك الإمامُ[٣]؛ لأنَّ هذا التسبيحَ لا يحصل إلَّا مع العلم، وهو ممَّا لا يتصوَّر في الجماد؛ لفقد شرطِه العقليِّ، وهو الحياةُ، ولو لم يكن ذلك شرطاً

(١) في المفردات (سبح).
(٢) ٤/ ١٦٢.
(٣) في التفسير الكبير ٢٠/ ٢١٨-٢١٩.

عقليًّا، لانسدَّ بابُ العلمِ بكونه سبحانه وتعالى حيًّا، وأيضاً التذييلُ السابقُ يأبى ذلك؛ لدَلالته على أنَّ عدَمَ فقهِ التسبيح المذكورِ جُرمٌ، ولا شكَّ أنَّ عدمَ فقهِ تسبيح الجماداتِ بألفاظها ليس بجُرم، وإنَّما الجرمُ عدمُ فقهِ دلالتها للغفلة وقُصورِ النظر.

ومَن تتبَّع الأحاديثَ والآثارَ، رأى فيها ما يشهدُ بما ذهب إليه هذا البعضُ شهادةً لا تكاد تقبل التأويلَ، فقد صحَّ سماعُ تسبيحِ الحصا في كفِّه ﷺ[1].

وأخرج أبو الشَّيخ[2] عن أنسٍ قال: أُتي رسولُ الله ﷺ بطعام ثريدٍ فقال: «إنَّ هذا الطعامَ يسبِّح» فقالوا: يا رسولَ الله، وتفقه تسبيحَه؟ قال: «نعم» ثم قال لرجل: «أدنِ هذه القصعةَ من هذا الرجل» فأدناها، فقال: نعم يا رسولَ الله، هذا الطعامُ يسبِّح، فقال: «أدنِها من آخَر» فأدناها منه، فقال: يا رسولَ الله، هذا الطعامُ يسبِّح، ثم قال: «رُدَّها» فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، لو أُمرَّت على القوم جميعاً، فقال: «لا، إنَّها لو سكتت عند رجلٍ لَقالوا: من ذنب، رُدَّها» فردَّها.

وأخرج ابنُ مردويه عن ابن مسعودٍ قال: كنَّا أصحابَ محمدٍ ﷺ نعدُّ الآياتِ بركة، وأنتم تعدُّونها تخويفاً، بينما نحن مع رسولِ الله ﷺ ليس معنا ماءٌ فقال لنا: «اطلبوا مَن معه فضلُ ماء» فأُتي بماءٍ، فوضعه في إناءٍ، ثم وضع يدَه فيه، فجعل الماءُ يخرج من بين أصابِعه، ثم قال: «حيَّ على الطَّهور المباركِ والبركةُ من الله تعالى» فشربنا منه، قال عبدُ الله: كنَّا نسمع صوتَ الماءِ وتسبيحَه وهو يشرب[3].

وأخرج أحمدُ وابنُ مردويه عن ابن عمرَ[4] أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ نوحاً عليه السلام لَمَّا حضرته الوفاةُ قال لابنَيه: آمرُكما بسبحان اللهِ وبحمده؛ فإنَّها صلاةُ كلِّ شيء، وبها يُرزق كلُّ شيء».

---

(١) أخرجه البزار (٢٤١٣-٢٤١٤ كشف الأستار)، والطبراني في الأوسط (١٢٤٤) و(٤٠٩٧) من حديث أبي ذر ﷺ. قال ابن حجر في الفتح ٦/ ٥٩٢: ليس له إلا طريق واحدة ضعيفة.

(٢) في العظمة (١٢١٥).

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨٥، وهو عند البخاري (٣٥٧٩) بنحوه.

(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨٣، وأخرجه أحمد (٦٥٨٣) و(٧١٠١) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ. وأخرجه البزار (٣٠٦٩ كشف الأستار) من حديث ابن عمر كما أورده المصنف. وانظر التعليق على مسند أحمد.

وأَخرج أحمدُ[(١)] عن معاذِ بن أنس، عن رسول اللهِ ﷺ أنَّه مرَّ على قومٍ وهم وقوفٌ على دوابَّ لهم ورواحلَ، فقال لهم: «اِركبوها سالمةً، ودعوها سالمة، ولا تتَّخذوها كراسيَّ لأحاديثكم في الطُّرق والأسواق، فربَّ مركوبةٍ خيرٌ من راكبها وأكثرُ ذِكراً لله تعالى منه».

وأخرج النَّسائيُّ وأبو الشَّيخ وابنُ مردويه عن ابن عمرَ[(٢)] قال: نهى النبيُّ ﷺ عن قتل الضِّفدِع، وقال: «نقيقُها تسبيح».

وأَخرج ابنُ أبي الدُّنيا[(٣)]، وابن أبي حاتمٍ، والبيهقيُّ في «الشُّعب» عن أنس بن مالكٍ قال: ظنَّ داودُ عليه السلام في نفسه أنَّ أحداً لم يَمدح خالقَه بما مدحه، وإنَّ مَلَكاً نزل وهو قاعدٌ في المحراب والبِركةُ إلى جانبه فقال: يا داودُ، اِفهم إلى ما تصوِّت به الضِّفدِعُ، فأنصت داودُ، فإذا الضفدعُ تمدحه بِمدحةٍ لم يَمدحْه بها، فقال له المَلَكُ: كيف ترى يا داود، أفهمتَ ما قالت؟ قال: نعم، قال: ماذا قالت؟ قال: قالت: سبحانَك وبحمدك، منتهى عِلمِك يا ربّ، قال داود: لا والذي جعلني نبيَّه إنِّي لم أمدحْه بهذا.

وأَخرج أحمدُ في «الزُّهد» وأبو الشَّيخ عن شَهْر بن حَوْشب مِن حديثٍ طويل أنَّ داودَ عليه السلام أتى البحرَ في ساعة فصلَّى، فنادته ضِفدِعة: يا داود، إنك حدَّثت نفسَك أنَّك قد سبَّحت في ساعةٍ ليس يَذكر اللهَ تعالى فيها غيرُك، وإنِّي في سبعين ألفِ ضفدعٍ كلُّها قائمةٌ على رِجل نسبِّح اللهَ تعالى ونقدِّسه[(٤)].

وأَخرج الخطيبُ[(٥)] عن أبي حمزةَ[(٦)] قال: كنَّا عند عليِّ بن الحسين رضي الله عنهما، فمرَّ بنا عصافيرُ يَصِحْن، فقال: أتدرون ما تقول هذه العصافيرُ؟ قلنا: لا، قال: أَمَا إنِّي

---

(١) في مسنده (١٥٦٢٩).

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٨٣، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (١٢٤٨) و(١٢٤٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وأخرج النسائي ٧/ ٢١٠ شطره الأول عن عبد الرحمن بن عثمان.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨٤، والشكر (٣٦)، والشعب (٤٥٨١).

(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨٤، والعظمة (١٢٥٤).

(٥) الدر المنثور ٤/ ١٨٥، وتاريخ بغداد ١١/ ٩٧-٩٨.

(٦) في (م): ضمرة.

ما أقول إنَّا نعلم الغيبَ، ولكن سمعتُ أبي يقول: سمعت أميرَ المؤمنين عليَّ بن أبي طالب كرَّم اللهُ تعالى وجهَه يقول: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ الطيرَ إذا أصبحت سبَّحت ربَّها وسأَلَتْه قُوتَ يومِها» وإنَّ هذه تسبِّح ربَّها وتسأله قُوتَ يومِها.

وأَخرج ابن راهُوْيه في «مسنده» من طريق الزُّهريِّ قال: أُتي أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه بغرابٍ وافرِ الجناحين، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما صِيدَ صَيدٌ، ولا عُضِدت عِضاه، ولا قُطعت وشيجة، إلَّا بِقِلَّة التسبيح»[1].

وأَخرج أبو نُعَيم في «الحِلية» وابنُ مردويه عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله عليه الصلاة والسلام: «ما صِيدَ مِن صيد ولا وُشج من وشج إلَّا بتضييعه التسبيحَ»[2].

وأَخرج أبو الشَّيخ[3] عن أبي الدَّرداء، وابنُ مردويه عن ابن مسعودٍ مثلَ ذلك مرفوعاً أيضاً[4].

وأَخرج أبو الشَّيخ[5] عن الحسن: لولا ما غُمَّ عليكم من تسبيح ما معكم من البيوتِ ما تقارَرْتم.

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن لوط بن أبي لوطٍ قال: بلغني أنَّ تسبيحَ سماءِ الدنيا: سبحانَ ربِّي الأعلى، والثانيةِ: سبحانَه وتعالى، والثالثة: سبحانَه وبحمده، والرابعةِ: سبحانه لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا به، والخامسة: سبحان مُحيي الموتى وهو على كلِّ شيءٍ قدير، والسادسة: سبحانَ المَلِكِ القُدُّوس، والسابعة: سبحانَ الذي ملأ السماوات السبعَ والأَرَضينَ السبعَ عزَّةً ووقاراً[6]. إلى مالا يكاد يُحصَى من الأخبار والآثار، وهي بمجموعها متعاضدةٌ في الدَّلالة على أنَّ التسبيحَ قاليٌّ كما لا يخفى، وهو مذهبُ الصوفية، وذكروا أنَّ السالكَ عند وصولِه إلى بعض

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٤.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٨٤، والحلية ٧/ ٢٤٠ وقال: غريب تفرد به القشيري عن مسعر.

(٣) في كتاب العظمة (١٢٣١).

(٤) الدر المنثور ٤/ ١٨٤.

(٥) برقم (١٢٢٥).

(٦) الدر المنثور ٤/ ١٨٣.

المقاماتِ يسمع تسبيحَ الأشياءِ بلُغاتٍ شتَّى، وقد رُوي عن بعض السلفِ سماعُه لتسبيح بعضِ الجمادات.

واختلف القائلون بهذا التسبيحِ، فقال بعضُهم بثُبوته للأشياء مطلقاً.

وقيل: إنَّ التراب يسبِّح ما لم يبتلَّ، فإذا ابتلَّ ترك التسبيحَ، وإنَّ الخرزةَ تسبِّح ما لم تُرفع من موضعها، فإذا رُفعت تركت، وإنَّ الورقةَ تسبِّح ما دامت على الشَّجرة، فإذا سقطت تركت، وإنَّ الثوبَ يسبِّح ما لم يتَّسخ، فإذا اتَّسخ ترك، وإنَّ الوحشَ والطيرَ تسبِّح إذا صاحت، وإذا سكتت تركت.

وعلى هذا ما أخرج ابنُ ابي حاتمٍ عن ابن شَوْذَبٍ قال: جلس الحسنُ مع أصحابِه على مائدة، فقال بعضُهم: هذه المائدةُ تسبِّح الآن، فقال الحسن: كلَّا، إنَّما ذاك كلُّ شيء على أصله.

وأخرج عن السُّدِّي أنه قال: ما مِن شيءٍ على أصله الأوَّلِ لم يمت إلَّا وهو يسبِّح بحمده تعالى(١). ولعلَّه أراد بالموت خروجَه عن أصله الأوَّل.

وأخرج عبدُ الرزاق(٢) وابنُ جَرير(٣) وابنُ المنذر وغيرُهم عن قتادةَ أنَّه قال في الآية: كلُّ شيءٍ فيه الروحُ يسبِّح، من شجرةٍ وحَيَوان. وكونُ الشجرةِ ذاتَ روحٍ مبنيٌّ على قول الناسِ فيها إذا يبست: ماتت.

واستثنى بعضُهم بعضَ الحيوانات من عموم كلِّ شيءٍ؛ لمَا أخرجه أبو الشَّيخ(٤) عن ابن عباسٍ أنَّه قال: كلُّ شيءٍ يسبِّح إلَّا الحمارَ والكلب.

ولا أَرى لاستثناء ما ذكر وجهاً، وفي القلب من صحَّة الروايةِ عن الحبر شيءٌ، وكذا للتَّقييد بعدَ أنْ لم تكن الجماديةُ مانعةً عن التسبيح، والأَخبارُ الظاهرةُ في عدم التقييدِ أكثرُ، ولا أظنُّ أنَّ لِمَا يخالفها امتيازاً عليها في الصحَّة.

ويُشكل على هذا القولِ ما تقدَّم عن الإمام من إِباء التذييلِ عنه، وعدمِ وجود

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٤.

(٢) في تفسيره ٢/ ٣٧٩.

(٣) في تفسيره ١٤/ ٦٠٦.

(٤) في العظمة (١٢٦٢).

العلمِ الذي يستدعيه التسبيحُ القاليُّ في الجمادات. وتَفصَّى بعضُهم[1] عن هذا بالتزامِ أنَّ لكل شيءٍ حياةً وعلماً لائقَين به، ولا يطَّلع على حقيقة ذلك إلّا اللهُ تعالى اللطيف الخبير، فكلُّ ما في العالَم عند هذا الملتزمِ حيٌّ عالم، لكنَّه متفاوتُ المراتبِ في العلم والحياة. ونقل الشعرانيُّ عن الخوَّاص أنَّه قال: كلُّ جمادٍ يفهم الخطابَ ويتألَّم كما يتألَّم الحيوان.

وقال الشيخُ الأكبرُ قدِّس سرُّه[2]: إنَّ المسمَّى بالجماد والنباتِ له عندنا أرواحٌ بَطَنت عن إدراك غيرِ الكشف إيَّاها في العادة، فالكلُّ عندنا حيٌّ ناطق، غيرَ أنَّ هذا المزاجَ الخاصَّ يسمَّى إنساناً لا غير بالصورة، ووقع التفاضلُ بين الخلائقِ في المزاج، والكلُّ يسبِّح اللهَ تعالى كما نطقت الآيةُ به، ولا يسبِّح إلا حيٌّ عاقل عالم عارفٌ بمسبَّحه، وقد ورد أنَّ المؤذِّن يشهد له مدى صوتهِ مِن رَطْبٍ ويابس[3]. والشرائعُ والنبوَّات مشحونةٌ بما هو من هذا القَبيل، ونحن زدنا مع الإيمان بالأخبار الكشفَ إلى آخر ما قال.

واستدلَّ بعضُهم في هذا المقامِ بما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال في دعائه للحمَّى: «يا أمَّ مِلْدَم، إن كنتِ آمنتِ بالله تعالى، فلا تأكلي اللحمَ، ولا تشربي الدَّمَ، ولا تفوري من الفم، وانتقلي إلى مَن يزعم أنَّ مع اللهِ تعالى آلهةً أخرى، فإنِّي أشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسوله»[4].

وجاء عن السجَّاد[5] رضي الله عنه في الصَّحيفة في مخاطبة القمرِ ما هو ظاهرٌ في أنَّ له شعوراً. واستفاض عن عمرَ رضي الله عنه أنَّه كتب للنِّيل كتاباً يخاطبه فيه بما يخاطبه[6]، وضرب الأرضَ بالدِّرَّة حين تزلزلت وقال لها: إني أَعْدِلُ عليك[7].

---

(١) التفصِّي: التخلص من المضيق والبلية. مختار الصحاح (فصا).

(٢) في الفتوحات المكية ١/ ١٤٧.

(٣) ورد ذلك في أحاديث، منها حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند البخاري(٦٠٩).

(٤) أورده بتمامه الديلمي في الفردوس(١٩٦٢) من حديث الحسن بن علي، وأخرجه عبد الغني المقدسي في الترغيب في الدعاء (١١٣) من حديث عائشة رضي الله عنها بنحوه..

(٥) هو علي بن الحسين رضي الله عنهما.

(٦) أخرج الخبر اللالكائي في كرامات أولياء الله (٦٦). والأثر ضعيف لانقطاعه.

(٧) ذكره السبكي في طبقات الشافعية ١/ ٣٢٤ وعزاه لإمام الحرمين في كتابه الشامل.

وكم وكم في الأخبار نحوُ ذلك، قيل: ولا داعيَ لتأويلها؛ إذ لا أحدَ يقول: إنَّ شعورَ الجماداتِ كشعور الحيواناتِ الظاهرةِ بحيث يُدركه كلُّ أحدٍ حتى يكونَ العملُ بظاهر اللفظِ خلافَ حسِّ العقلاء، فيجب ارتكابُ التأويل والتجوُّز. ومَن علم عِظَمَ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأنَّه سبحانه لا يُعجزه شيءٌ، وأنَّ المخلوقين على اختلاف مراتبِهم، لاسيَّما المنغمسين في أَوحال العلائقِ والعوائق الدُّنيوية، والمسجونين في سِجِّين الطبيعة الدَّنية، لم يقفوا على عُشر العُشر ممَّا أُودع في عالم الإمكان، ونُقش بيد الحِكمة على بُرود الأعيان = سلَّم ما جاء به الصادقُ عليه الصلاة والسلام، وإنْ خالف ما عنده، نسب القُصورَ إلى نفسه، فربَّ فكرٍ يظنُّه المرءُ حقًّا وهو من الأوهام، كما لا يخفَى على من أَنصف ولم يتعسَّف.

وعلى هذا الذي ذكروه لا تحتاج إعادةُ ضميرِ ذوي العلم في«تسبيحهم» على ما تقدَّم إلى توجيه.

وتفصَّى آخَرُ عن الأوّل بأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ متعلِّق بقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ولا يخفَى ما في هذا التفصِّي.

ولعل الأَوْلى فيه أن يلتزمَ حملُ التسبيحِ على ما هو الأعمُّ من الحاليِّ والقاليّ، ويثبتَ كلا النوعين لكلِّ شيءٍ، والتذييلُ باعتبار القصورِ في فقه الحاليِّ لا باعتبار القصورِ في فقه الآخر.

ويُشكل أيضاً أنَّ مِن أفراد مَن نُسب إليه التسبيحُ الجحدُ فضلاً عن السَّاكت، فالحمل على المجاز واجب. وأجيب بأنَّ استثناء أولئك معلوم بقرينة السِّباق واللَّحاق، وزَعَمَ مَن زعم أنَّ الجاحدَ مقدِّس أيضاً، وأَنشدوا للحلَّاج:

جُحودي لك تقديسٌ ... وعقلي فيك منهوسُ
فما آدمُ إلَّاك ... وما في الكون إبليسُ

وأنتَ تعلم أنَّ مثل هذا الحَلْجِ والنَّدْف صار سبباً لِمَا لاقى من الحتف، فماذا عسى أَقول سوى: حسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيل.

وقُرئ:«لايُفقَّهون» على صيغة المبنيِّ للمفعول من باب التفعيل[1].

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٧٥.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الناطقَ بالتسبيح والتنزيهِ، ودعوتَهم إلى العمل بما فيه ﴿جَعَلْنَا﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنيَّةِ على الحِكَم الخفية ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ وهم المشركون المتقدِّمُ ذِكرهم.

وأُوثر الموصولُ على الضمير ذمًّا لهم بما في حيِّز الصلة، ويتمُّ به مع ما سبق الإشارةُ إلى كفرهم بالمبدأ والمعاد.

وفي «إرشاد العقلِ السليم»[1]: إنَّما خصَّ بالذِّكر كفرَهم بالآخرة من بين سائرِ ما كفروا به من التوحيد ونحوِه؛ دَلالةً على أنَّها معظمُ ما أُمروا بالإيمان به في القرآن، وتمهيداً لِمَا سينقل عنهم من إنكار البعثِ واستعجالهِ ونحوِ ذلك. اهـ.

وفي كون الآخرةِ معظمَ ما أُمروا بالإيمان به في القرآن تردُّد، وربَّما يدَّعى أنَّ ذلك هو التوحيدُ، فالأَولى الاقتصارُ على أنَّه للتمهيد.

﴿حِجَابًا﴾ يَحجبهم مِن أن يُدركوك على ما أنتَ عليه من النبوَّة وجلالةِ القدر؛ ولذلك اجترؤوا على التفوُّه بالعظيمة، وهي قولُهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الآية:٤٧].

وأصلُ الحجابِ كالحجب: المنعُ من الوصول، فهو مصدرٌ، وقد أُريد به الوصفُ، أي: حاجباً ﴿مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ أي: ذا سَتر، فهو للنَّسب كـ: رجلٍ مرطوب، ومكانٍ مَهول، وجاريةٍ مغنوجة، ومنه: ﴿وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم:٦١] وكذا: سيلٌ مفعَم، بفتح العين، والأكثرُ مجيءُ فاعل لذلك، كـ: لابن وتامر.

وجوِّز أن يكونَ الإِسنادُ مجازيًّا كما اشتهر في المثال الأخير.

وعن الأخفش[2] أنَّ مفعول يَرِد بمعنى فاعل، كـ: ميمون ومشؤوم؛ بمعنى يامن وشائم، كما أنَّ فاعل يَرِد بمعنى مفعول، كـ: ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق ٦]، فمستورٌ بمعنى ساتر، أو مستوراً عن الحسِّ، فهو على ظاهره، ويكون بياناً؛ لأنَّه حجابٌ معنويٌّ لا حسيٌّ، أو مستوراً في نفسه بحجابٍ آخَرَ، فيكون إيذاناً بتعدُّد الحُجُب، أو مستوراً كونُه حجاباً، حيث لا يدرون أنَّهم لا يدرون.

---

(١) ٥/ ١٧٥.

(٢) في معاني القرآن٢/ ٦١٣.

وقيل: إنَّه على الحذف والإيصال، أي: مستوراً به الرسولُ ﷺ.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطيةً، جمع: كِنان، والمرادُ ـ بمعونة المقام ـ التكثيرُ، أي: أَكِنَّةً كثيرة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعولٌ له بتقديرِ مضاف، أي: كراهةَ أن يقفوا على كُنهه ويَعرفوا أنَّه من عند الله تعالى. أو مفعولٌ به لفعل مقدَّر مفهومٍ من الجملة، أو من«أكنة»، لا أنَّ «جعلنا» أو شيئاً ممَّا ذُكر قد ضُمِّنه كما يتوهَّم، أي: منعناهم فِقهَه والوقوفَ على كُنهه.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صَمَماً وثِقلاً عظيماً مانعاً من سَماعه اللائقِ به، فإنَّهم كانوا يسمعونه من غير تدبُّر. وهذه ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ تمثيلاتٌ مُعرِبة عن كمال جهلِهم بشؤون النبيِّ ﷺ، وفَرطِ نُبوِّ قلوبِهم عن فهم القرآنِ الكريم، ومجِّ أسماعِهم له، جِيءَ بها بياناً لعدم فِقههم فصيحَ المقال إِثرَ بيانِ عدم فقهِهم دلالةَ الحال. وفيه إيذانٌ بأنَّ ما تضمَّنه القرآنُ من التسبيح في غاية الظُّهور، بحيث لا يتصوَّر عدمُ فهمه إلَّا لمانع قويٍّ يعتري المشاعرَ فيُبطلها، وتنبيهٌ على أنَّ حالَهم هذه أقبحُ من حالهم السَّابقة.

وحَمَلَ الآيةَ على ما ذُكر مَن لم يجعل التسبيحَ فيما سبق لفظيًّا، وعلى جَعْله لفظيًّا لا يَحسُن حملُها على ذلك كما لا يخفَى.

هذا وقال بعضُهم: المرادُ بالحجاب ما يَحجبهم عن فهم ما يقرؤه عليه الصَّلاة والسلام، فقد أَخرج ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتمٍ عن قتادةَ أنَّه قال: الحجابُ المستور: أكنَّة على قلوبهم أنْ يفقهوه وأنْ ينتفعوا به[1]. وإلى ذلك ذهب الزجَّاجُ[2].

وتعقِّب بأنَّه لا يلائم «بينك وبين الذين» إلخ إلَّا بتقدير مضافَين، أي: جعلنا بين فهمِ قراءتك، وأيضاً يلزم عليه التكرارُ من غير فائدةٍ جديدة.

وأُجيب بأنَّ الظاهرَ أنه لا يقدَّر فيه، وإنَّما يَلزم لو كان حقيقةً، وهذا تمثيلٌ لهم في عدم إسماع الحقِّ بمَن كان وراءَ جدارٍ وحجاب كما أنَّ الأكِنَّة كذلك، وأمَّا حديثُ التَّكرارِ من غير فائدة، فمدفوعٌ بأنَّ قولَه تعالى: (وَجَعَلْنَا) إلخ تصريحٌ

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٦، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٠٨.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٢.

بما اقتضاه نفيُ فصيحِ المقال، بعد نفي فهم دَلالة الحال، من كونهم مطبوعين على الضَّلال. ولا يخفَى على المنصف أولويةُ ما تقدَّم.

وعن الجبَّائي أنَّ المرادَ بالحجاب ما يَحجبهم عن إيذاء الرسولِ ﷺ، وذلك أنَّهم كانوا يَقصدونه إذا قرأ ليؤذوه، فآمنه اللهُ تعالى، وذَكَرَ له عليه الصلاة والسلام أنَّه جلَّ شأنُه جعل بينه وبينهم حجاباً عند القراءةِ فلا يُمكنهم الوصولُ إليه.

وهو عندي ممَّا لا بأسَ به وإنْ ذكره في مَعرِض التفصِّي عن استدلال أصحابِنا بالآية على أنَّ الله تعالى يمنع عن الإيمان مَن شاء كما يَهدي إليه مَن شاء، نعم هو دون الأوَّلِ عند مَن يتأمَّل.

وقيل: المرادُ حجابُ منعهم رؤيةَ شخص النبيِّ ﷺ وذاتهِ الكريمة؛ فقد أخرج أَبو يعلَى[(١)]، وابنُ أبي حاتم، والحاكمُ وصحَّحه[(٢)]، وابنُ مردويه، [وأبو نعيم] والبيهقيُّ معاً في«الدلائل»[(٣)] عن أسماءَ بنت أَبي بكرٍ رضي الله عنهما قالت: لمَّا نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ أَقبلت العوراءُ أُمُّ جميل ولها وَلولةٌ وفي يدها فِهرٌ[(٤)] وهي تقول:

مذمَّماً أَبينا
ودينَه قَلَينا
وأمرَه عصينا

ورسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ وأبو بكرٍ إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أَقبلَتْ هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنَّها لن تراني»، وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تَرَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام، فقالت: يا أَبا بكر، بلغني أنَّ صاحبَك هجاني، فقال أبو بكر: لا وربِّ هذا البيتِ ما هجاك، فانصرفت وهي تقول: قد عَلِمتْ قريشٌ أني بنتُ سيِّدِها.

---

(١) في مسنده (٥٣).

(٢) في المستدرك ٢/ ٣٦١.

(٣) ٢/ ١٩٥، والخبر في الدر المنثور ٤/ ١٨٦ وما بين حاصرتين استدرك منه، ولم نقف عليه عند أبي نعيم في الدلائل.

(٤) الفهر: الحجر ملء الكف، أو الحجر مطلقاً. اللسان (فهر).

وجاءَ في رواية أنَّها حين ولَّت ذاهبةً قال أبو بكر: يا رسولَ الله، إنَّها لم تَرَك، فقال النبيُّ ﷺ: «حالَ بيني وبينها جبريلُ عليه السلام»(١).

وذكر الإمامُ(٢) أنَّه كان ﷺ إذا أراد تلاوةَ القرآن تلا قبلَها ثلاث آيات: قولَه تعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الآية: ٥٧] وقولَه سبحانه في «النحل»: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الآية: ١٠٨] وقولَه جلَّ وعلا في سورة حم الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فكان اللهُ تعالى يَحجبه ببركات هذه الآياتِ عن عيون المشركين، وهو المرادُ من قوله سبحانه: (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا) إلخ.

واحتجَّ أصحابُنا بذلك على أنَّه يجوز أن تكونَ الحاسَّةُ سليمةً ويكونَ المرئيُّ حاضراً مع أنَّه لا يرى، بسبب أنَّ الله تعالى يخلق في العين مانعاً يمنع من الرُّؤية، قالوا: إنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان حاضراً وحواسُّ الكفارِ سليمة وكانوا لا يرونه، وقد أخبر سبحانه أنَّ ذلك لأجل أنَّه جعل بينه عليه الصلاة والسلام وبينَهم حجاباً مستوراً، ولا معنى للحجاب المستورِ إلَّا المعنى الذي يَخلقه في عيونهم ويكونُ مانعاً لهم من الرُّؤية. انتهى.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ حملَ الحجابِ على ما رُوي من حديث أسماء ممَّا لا يقبله الذوقُ السَّليم، ولا يساعده النَّظمُ الكريم. وكأنَّه أراد أنَّ حملَه في الآية على الحجاب المانعِ من الرُّؤية كذلك، فهو واردٌ على ما نُقل عن الإمام أيضاً، ويُعلَم منه حالُ احتجاجِ الأصحاب مع ما يَرِد على قولهم فيه: ولا معنى للحجاب... إلخ، من أنَّه مخالفٌ لِمَا في الرِّواية السابقةِ التي ذُكر فيها حيلولةُ جبريلَ عليه السلام، والخبرِ الذي أَخرجه الدارقطنيُّ وغيرُه عن ابن عباسٍ أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال: «كان بيني وبينها مَلَكٌ يسترني بجناحَيه حتى ذهبت»(٣) فإنَّ كِلَا الخبرَين ظاهرٌ في أنَّ المانع

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٦، وعزاه لابن مردويه من حديث أبي بكر، وأخرجه البزار (٢٢٩٤-٢٢٩٥ كشف الأستار)، وأبو يعلى(٢٥)، وابن حبّان(٦٥١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «لم يزل ملك يسترني منها بجناحه».

(٢) في التفسير الكبير ٢٠/ ٢٢١.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨٦، وعزاه لابن أبي شيبة، والدارقطني في الأفراد، وأبي نعيم في الدلائل. وينظر الحديث السالف.

لم يكن في عيونهم، بل هو إمَّا جبريلُ عليه السلام، أو مَلَكٌ آخَرُ حال بينه ﷺ وبينهم فلم يَرَوه. لكن يبقى الكلامُ في أنَّ منع اللطيفِ الرؤيةَ خلافُ العادة أيضاً، وهو بحثٌ آخرَ فليتدبَّر. ثم إنَّ ما رُوي عن أسماءَ ليس نصًّا في أنَّ الحجابَ في الآية هو الحجابُ المانعُ عن الرُّؤية، كما لا يخفَى على مَن أمعن النظر.

وهذا القولُ إنَّما يُحتاج إليه إن اعتُبر تصحيحُ الحاكم، أو نصَّ على صحَّته مَن اعتُبر تصحيحُه من المحدِّثين، أمَّا إذا لم يكن ذلك، فأمرُه سهل.

وجَعَلَ الزمخشريُّ[1] ما تقدَّم حكايةً لِمَا قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] على معنى: جَعَلنا على زعمهم. ولم يرتضِه شيخُ الإسلام[2]؛ لأنَّ قصدهم بذلك إنَّما هو الإخبارُ بما اعتقدوه في حقِّ القرآنِ والنبيِّ ﷺ جهلاً وكفراً، من اتِّصافهما بأوصافٍ مانعةٍ من التصديق والإيمان، ككون القرآنِ سحراً وشعراً وأساطير، وقِس عليه حالَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، لا الإخبارُ بأنَّ هناك أمراً وراءَ ما أدركوه وقد حال بينَهم وبين إدراكه حائلٌ من قِبَلهم. ولا ريبَ في أنَّ ذلك المعنى ممَّا لا يكاد يلائم المقام. انتهى.

وقد يقال: حيث كان الكلامُ مسوقاً لتعداد قبائحِهم والإنكار عليهم، فالملاءمةُ مما لا ريبَ فيها. نعم اختيارُ الزمخشريِّ هذا الوجهَ ممَّا لا يخلو عن دسيسةٍ اعتزالية، ولا أظنُّها تخفَى عليك.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي: غيرَ مقرونٍ بذِكره ذكرُ شيءٍ من آلهتهم التي يزعمونها كما كانوا يقولون: بالله تعالى واللاتِ، مثلاً، ويَصدق هذا بذِكره سبحانَه مع نفي الآلهة.

و«وحده» عند الزمخشريِّ[3] مصدرُ الثلاثيِّ، يقال: وَحَدَه يَحِده وَحْداً وَحِدَةً، كوعده يَعِده وعداً وعِدَةً، وهو سادٌّ مسدَّ الحال بمعنى واحداً. وقيل: هو مصدرُ: أَوحدَ، على حذف الزَّوائد، وأصلُه: إيحاد، ومذهب سيبويه[4] أنَّه ليس بمصدر، بل

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٥٢.
(٢) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧٦.
(٣) في الكشاف ٢/ ٤٥٢.
(٤) انظر الكتاب ١/ ٣٧٦-٣٧٨.

هو اسمٌ موضوعٌ موضعَ المصدر، وهو: إيحادٌ، الموضوعُ موضعَ الحال، وهو موحِّد. ومذهب يونس أنَّه منصوبٌ على الظرفية، وتحقيقُ الأقوالِ فيه في «الرفدة»[1] كما قدَّمنا.

وذكر أنه على الحاليَّة إذا وقع بعد فاعلٍ ومفعولٍ كما هنا، جاز كونُه حالاً من كلٍّ منهما، أي: وإذا ذكرتَ ربَّك موحِّداً له، أو موحِّداً بالذِّكر ﴿وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ هربوا ونفروا ﴿نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ فهو مفعولٌ مطلقٌ منصوب بـ «ولَّوا»؛ لتقارُب معناهما.

وجوِّز أن يكونَ مفعولاً لأجله، أي: ولَّوا لأَجل النفورِ والانزعاج.

وأَن يكونَ حالاً على أنَّه جمعُ نافر، أي: ولَّوا نافرين من ذلك.

والضميرُ للمشركين الذين لا يؤمنون بالآخِرة. وأَخرج ابن جَريرٍ[2] وغيرُه عن ابن عباسٍ ما ظاهرُه أنَّه للشياطين. ولا يكاد يصحُّ عن الحَبر إلَّا بتأويل.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: ملتبسين به من اللَّغو والاستخفافِ والهُزءِ بك وبالقرآن. يُروى أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يقوم عن يمينه رجلان من عبد الدَّار، وعن يساره رجلان منهم، فيصفِّقون ويصفِّرون ويخلطون عليه بالأشعار[3]. ويجوز أن تكونَ الباءُ للسببية، أو بمعنى اللَّام، أي: نحن أَعلمُ بما يستمعون بسببه أو لأجله من الهُزء، وهي متعلِّقة بـ «يستمعون»، وجَعْلُها على ظاهرها على معنى: أَيستمعون بقلوبهم أم بظاهر أسماعِهم، غيرُ ظاهر.

والباءُ الأولى متعلِّقة بـ «أعلم»، وأَفعلُ التفضيلِ في العلم والجهلِ يتعدَّى بالباء، وفي سوى ذلك يتعدَّى باللام، فيقال: هو أَكسَى للفقراء، مثلاً. والمرادُ من كونه تعالى أعلمَ بذلك الوعيدُ لهم.

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرفٌ لـ «أَعلم» لا مفعولٌ به، وفائدتُه ـ كما قال شيخُ الإسلام[4] ـ تأكيدُ الوعيدِ بالإخبار بأنَّه كما يقع الاستماعُ المزبورُ منهم يتعلَّق به

---

(١) لعله «الرفدة في معنى الوحدة» للشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي. انظر كشف الظنون ١/ ٩٠٩.

(٢) في تفسيره ١٤/ ٦١٠.

(٣) أخرجه الطبري ١١/ ١٦٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٤) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧٦.

العِلم، لا أنَّ العلمَ المستفادَ هناك من أَحد. وليس المرادُ تقييدَ علمِه تعالى بذلك الوقت، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ لكن من حيث تعلُّقه بما به التناجي المدلولُ عليه بسياق النَّظم. والمعنى: نحن أَعلمُ بما يستمعون به ممَّا لا خيرَ فيه ممَّا سمعت، وبما يتناجَون به فيما بينهم. وجوِّز أن يكونَ الأولُ ظرفاً لـ «يستمعون»، والثاني ظرفاً لـ «يتناجَون»، والمعنى: نحن أعلمُ بما به الاستماعُ وقتَ استماعِهم من غير تأخير، وبما به التَّناجي وقتَ تناجيهم. والأوَّل أَظهر.

و«نجوى» مصدرٌ مرفوعٌ على الخبرية، وفي ذلك ما في: زيدٌ عدل.

ويجوز أن يُعتبرَ جمعَ نَجِيٍّ، كقتلَى وقتيل، أي: إذ هم متناجُون.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدلٌ من «إذ» الثانية، وبيانٌ لِمَا يتناجَون به، فهو غيرُ ما يستمعون به، لا معمولٌ لـ : اذكُرْ محذوفاً كما قيل.

و«الظالمون» من المُظهَر الذي أُقيم مُقامَ المضمر، للدَّلالة على أنَّ تناجيَهم بابٌ من الظلم، أي: يقول كلٌّ منهم للآخَرين عند تناجيهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتَّبعون إنْ وُجِد منكم الاتِّباعُ فَرْضاً.

وجوِّز أن يكونَ المعنى: ما تتَّبعون باللَّغو والهزءِ ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: سُحِر فجنَّ، فهو كقولهم: إنْ هو إلَّا رجلٌ مجنون.

وقيل: جُعل له سِحرٌ يَتوصَّل بلطفه ودقَّته إلى ما يأتي به ويدَّعيه، فهو في معنى قولِهم: ساحر. وجَعَلَ بعضُهم «مسحوراً» بمعنى ساحراً، كمستور بمعنى ساتر.

وعن أبي عُبيدة[1] أنَّ مسحوراً بمعنى: جُعِل له سَحر، أو ذا سَحرٍ، أي: رِئة، ومن هذا قولُ امرئ القيس[2]:

أرانا موضِعِين لأمرِ غيبٍ ... ونُسْحَرُ بالطعام وبالشرابِ

وأراد: نُغذَى، وقولُ لبيدٍ أو أميةَ بن أبي الصَّلت:

فإنْ تسألينا فيمَ نحن فإنَّنا ... عصافيرُ من هذا الأنام المسحَّرِ[3]

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٨١.

(٢) ديوانه ص ٩٧.

(٣) ديوان لبيد ص٥٦، وعصافير: صِغار ضعاف.

وكَنَّوا بذلك عن كونه بشراً يتنفَّس ويأكل ويشرب، لا يمتاز عنهم بشيءٍ يقتضي اتِّباعَه على زعمهم الفاسد.

ولا يخفَى ما فيه من البُعد، حتى قال ابنُ قتيبة[1]: لا أدري ما الذي حمل أبا عبيدةَ على هذا التفسير المستكرَه، مع أنَّ السلفَ فسَّروه بالوجوه الواضحة.

وقال ابنُ عطية[2]: إنَّه لا يناسب قولَه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: مثَّلوك، فقالوا تارةً: شاعر، وتارةً: ساحر، وتارةً: مجنون، مع عِلمهم بخلافه.

﴿فَضَلُّوا۟﴾ في جميعِ ذلك عن منهاج المحُاجَّة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ طريقاً ما إلى طعنٍ يُمكن أن يقبلَه أحدٌ بل يتهافتون[3] ويَخبطون ويأتون بما لا يَرتاب في بطلانه مَن سمعه، أو إلى سبيل الحقِّ والرَّشاد. وفيه من الوعيد وتسليةِ الرَّسول ﷺ مالا يخفَى.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ عطفٌ على «ضربوا» ولـمَّا عجَّب من ضربهم الأمثال، عطف عليه أمراً آخرَ يعجب منه أيضاً. وفي «الكشف»: الأظهرُ أن يكونَ هذا إلى تمام المقالاتِ الثلاثِ تفسيراً لـ «ضربوا لك الآمثالَ»، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ [الكهف: ٣٢] وتفسيرُه بمثَّلوك غيرُ ظاهر، بل الظاهرُ: مثَّلوا لك. ولا خفاءَ أنَّ تجاوُبَ الكلامِ على ما ذكرنا أتمُّ، وذلك أنَّه لـمَّا ذكر استهزاءهم به ﷺ وبالقرآن، عجَّبه من استهزائهم بمضمونه من البعث، دلالةً على أنه أَدخلُ في التعجُّب؛ لأنَّ العقل أيضاً يدلُّ عليه، ولكن على سبيل الإجمال، وأمَّا على تفسيرِ «ضربوا لك الأمثال» بمثَّلوك، فوجهُه أن يكونَ معطوفاً على قوله سبحانه: (فَضَلُّوا۟) لأنَّه بابٌ من أبواب الضَّلال، أو على مقدَّر دلَّ عليه «كيف ضربوا» لأنَّ معناه: مثَّلوك وقالوا: شاعرٌ، ساحرٌ، مجنونٌ، وقالوا: «أئذا كنا..» إلخ. اهـ.

---

(١) في تفسير غريب القرآن ص ٢٥٦.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦١.

(٣) في (م): فيتهافتون.

ولا يخفى أنَّه على التفسير الذي اختاره يكون «قالوا» معطوفاً على «ضربوا» أيضاً عطفاً تفسيريًّا، لكنَّ الظاهرَ فيه حينئذٍ الفاءُ، وأنَّه لا يحتاج ـ على ما ذكرنا ـ إلى تكلُّف العطفِ على مقدَّر، والارتباطُ عليه لا يقصر عن الارتباطِ الذي ذكره، وعطفُه على «فضلُّوا» ممَّا لا يَحسُن؛ لعدم ظهورِ دخولِه معه في حيِّز الفاء. والاعتراضُ على التفسير بمثَّلوك بأنَّهم ما مثَّلوه عليه الصلاة والسلام بالشَّاعر والساحرِ مثلاً، بل قالوا تارةً كذا وأُخرى كذا، وأيضاً كان الظاهرُ أن يقالَ: فيك، بدل: لك = ليس بشيء؛ لأنَّ ما ذكروه على طريق التشبيهِ لتقريعه ﷺ وعجزِهم عن معارضته، و«لك» أَظهرُ من: فيك؛ لأنَّه عليه الصلاةُ والسلام الممثَّل له.

هذا وأقول: انظر هل ثَمَّ مانعٌ من عطف «قالوا» على «يقول الظالمون»، وجَعْلُ هذا القولِ ممَّا يتناجَون به أيضاً وإعلانُهم به أحياناً لا يمنع من هذا الجعل، وكذا اختلافُ المتعاطفَين ماضَويةً ومضارعيةً لا يمنعُ من العطف، نعم يحتاج إلى نُكتة، ولا أظنُّها تخفى، فتدبَّر.

والرُّفات ما تكسَّر وبَلِيَ من كلِّ شيء، وكثر بناءُ فُعَال في كلِّ ما تحطَّم وتفرَّق، كدُقاق وفُتات.

وأَخرج ابن جَريرٍ[١] وغيرُه عن مجاهدٍ أنَّه التراب، وهو قولُ الفرَّاء[٢]. وأخرج ابنُ المنذرِ وغيرُه عن ابن عباسٍ أنَّه الغبار[٣]. وقال المبرِّد: هو كلُّ شيءٍ مدقوقٍ مبالَغٍ في دَقِّه. وهي أقوالٌ متقاربة.

والهمزةُ للاستفهام الإنكاريِّ، مفيدةٌ لكمال الاستبعادِ والاستنكارِ للبعث بعد ما آلَ الحالُ إلى هذا المآل، كأنَّهم قالوا: إنَّ ذلك لا يكون أصلاً.

ومنشؤه أنَّ بين غضَاضةِ الحيِّ وطراوتِهِ المقتضيةِ للاتِّصال المقتضي للحياة، وبين يبوسةِ الرَّميم المقتضيةِ للتفرُّق المقتضي لعدم الحياةِ تنافياً.

---

(١) في تفسيره ١٤/ ٦١٤.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٢٥.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨٧، وتفسير الطبري ١٤/ ٦١٤.

و«إذا» هنا ـ كما في«الدّرّ المصون»[1] ـ متمحِّضة للظرفية، والعاملُ فيها ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ لا نفسُه؛ لأنَّ «إنَّ» لها الصَّدر، فلا يعملُ ما بعدَها فيما قبلَها، وكذا الاستفهامُ وإنْ كان تأكيداً، مع كونِ الاستفهامِ بالفعل أولى، وهو: نُبعَث أو نعاد، وهو مصبُّ الإنكار. وتقييدُه بالوقت المذكور؛ لتقوية إنكار البعثِ بتوجيهه إليه في حالةٍ منافيةٍ له، وإلَّا فالظاهرُ من حالهم أنَّهم منكرون للإحياء بعد الموتِ وإنْ كان البدنُ على حاله.

وجوِّز أن تكونَ شرطيةً وجوابُها مقدَّر، أي: نُبعَث، أو نحوُه، وهو العاملُ فيها، وقيل: الشرطُ، والمعنى: أَنُبعَث وقد كنَّا رُفاتاً في وقت، وهو مذهبٌ لبعض النحويِّين غيرُ مشهورٍ ولا معوَّلٍ عليه.

وتحليةُ الجملة بـ «إنَّ» واللام؛ لتأكيد الإنكار، لا لإنكارِ التأكيد كما عسى يُتوهَّم من ظاهر النَّظم. وليس مدارُ إنكارِهم كونَهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونِهم عظاماً ورُفاتاً كما يتراءى من ظاهر الجملةِ الاسمية، بل كونَهم بعَرَضية ذلك واستعدادِهم له، ومرجعُه إلى إنكار البعثِ بعد تلك الحالة. وفيه من الدَّلالة على غلوِّهم في الكفر وتماديهم في الضَّلال ما لا مزيدَ عليه. قاله بعضُ المحقِّقين.

﴿خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ نصب بمبعوثين على أنَّه مفعولٌ مطلَق له من غير لفظِ فعلِه، أو حالٌ على أنَّ الخلقَ بمعنى المخلوق، ووُحِّد لاستواء الواحدِ في المصدر وإنْ أُريد منه اسمُ المفعول، أي: مخلوقين.

﴿قُلْ﴾ جواباً لهم وتقريباً لما استبعدوه: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ ردَّ سبحانه قوله: «كونوا» على قولهم: «كنا»، فهو من باب المشاكلةِ والمقابلةِ بالجِنس.

ومعنى الأمرِ ـ كما قيل ـ الاستهانةُ، كما في قول موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠] وجَعَلَه صاحبُ«الإيضاح»أمرَ إهانة، والفاضلُ الطِّيبيُّ أمرَ تسخير، كما في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥] لكنَّه قال: إنَّه على الفرض.

---

(١) ٧/ ٣٦٧.

وفي «الكشف» أنَّه غيرُ ظاهر، ولو جُعل من بابِ كن فلاناً، على معنى: أنتَ فلانٌ، مِن استعمال الطالبِ في معنى الخبر، أي: أنتم حجارةٌ ولستم عظاماً ومع ذلك تُبعَثون لا محالةَ، لَكان وجهاً قويماً.

وبحث فيه الشِّهاب[1] بأنَّه كيف يقال: أنتم حجارة، على أنَّه خبرٌ وهو غيرُ مطابقٍ للواقع؟ فلابدَّ مِن قصد الإهانة وعدمِ المبالاة، وجعلِ الأمرِ مجازاً عن الخبر، والخبرُ خبرٌ فَرْضي، وليس فيه ما يدلُّ على الفَرْض كـ : «إن» و«لو» الشرطيتَين، فهو ممَّا لا يخفَى بُعدُه، وليس بأقربَ ممَّا استبعده، فالصوابُ أنَّه للإهانة كما جنح إليه صاحبُ «الإيضاح» فتدبَّر.

والحجارةُ جمع حَجَر، كأحجار، وهو معروفٌ، وكذا الحديدُ، وهو مفرَد: وجمعه: حدائدُ وحديدات.

والظاهرُ أَنَّ المرادَ: كونوا من هذين الجِنسين ﴿أَوْ خَلْقًا﴾ أي: مخلوقاً آخَرَ ﴿مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: ممَّا يُستبعَد عندكم قبولُه الحياةَ؛ لكونه أبعدَ شيءٍ منها، وتعيينُه مُفوَّضٌ إليكم، فإنَّ اللهَ تعالى لا يُعجزه إحياؤكم؛ لتساوي الأجسامِ في قبول الأعراض، فكيف إذا كنتم عِظاماً باليةً وقد كانت موصوفةً بالحياة قبل؟ والشيءُ أَقبلُ لِمَا عُهد فيه مما لم يُعَهد.

وقال مجاهدٌ: الذي يَكبُر: السماواتُ والأرضُ والجبالُ.

وأخرج ابن جَرير[2] وجماعةٌ عن ابن عباسٍ وابن عمرَ والحسنِ وابن جُبيرٍ أنَّهم قالوا: ما يَكبُر في صدورهم الموتُ، فإنَّه ليس شيءٌ أكبرَ في نفس ابنِ آدمَ من الموت، والمعنى: لو كنتم مجسَّمين من نفس الموت، لأعادكم، فضلاً عن أصلٍ لا يضادُّ الحياةَ إنْ لم يقتضِها. وفيه مبالغةٌ حسنةٌ وإنْ كان اللفظُ غيرَ ظاهرٍ فيه.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ لك: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ مع ما بينَنا وبين الإعادة من مثل هذه المباعدةِ والمباينة.

---

(١) في حاشيته ٦/ ٣٩.

(٢) في تفسيره ١٤/ ٦١٦-٦١٧.

﴿قُلِ﴾ لهم تحقيقاً للحقِّ، وإزاحةً للاستبعاد، وإرشاداً إلى طريقة الاستدلال: ﴿الَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ أي: القادرُ العظيمُ الذي اخترعكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ من غير مثالٍ يحتذيه، ولا أسلوبٍ يَنتحيه، وكنتم تراباً ما شمَّ رائحةَ الحياة، أليس الذي يَقدر على ذلك بقادرٍ على أن يُفيضَ الحياةَ على العظام البالية ويُعيدَها إلى حالها المعهودة؟ بلى إنَّه سبحانه على كلِّ شيءٍ قدير.

والموصولُ مبتدأ، خبرُه: يُعيدكم، المحذوفُ؛ لدَلالة السؤالِ عليه، أو فاعلٌ به، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، على اختلافٍ في الأَوْلى كما فصِّل في محلِّه. و«أول مرة» ظرفُ «فطركم».

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: سيحرِّكونها نحوَك استهزاءً، كما رُوي عن ابن عباسٍ وأَنشدَ عليه قولَ الشاعر:

أَتُنغض لي يومَ الفخارِ وقد ترى ... خيولاً عليها كالأُسود ضواريا[1]

ومثلُه قولُ الآخَر:

أَنغضَ نحوي رأسَه وأقنعا ... كأنَّه يطلب شيئاً أطمَعَا[2]

وفي «القاموس»[3]: نَغَضَ: كنصر وضرب، نَغضاً، ونُغوضاً، ونَغَضاناً ونَغْضاً، محرَّكتين: تحرَّك واضطرب، كأَنْغَضَ، وحرَّك كأَنغض.

وفسَّر الفرَّاءُ[4] الإنغاضَ بتحريك الرأسِ بارتفاعٍ وانخفاض.

وقال أبو الهيثم: مَن أُخبر بشيءٍ فحرَّك رأسَه إنكاراً له، فقد أَنغض رأسَه، فكأنَّه: سيحرِّكون رؤوسهَم إنكاراً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: ما ذكرتَه من الإعادة. وجوِّز أن يكونَ الضميرُ للعود أو البعثِ المفهومِ من الكلام.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ﴾ ذلك ﴿قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ فإنَّ ما هو محقَّق إتيانُه

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٧-١٨٨.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٣٤٤، والنكت والعيون٣/ ١٤١، والمحرر الوجيز٣/ ٣٦٢، والبحر المحيط ٦/ ٤٥ دون نسبة.

(٣) مادة (نغض).

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٢٥.

قريب. ولم يعيِّن زمانُه؛ لأنَّه من المغيَّبات التي لا يطَّلع عليها غيرُه تعالى، ولا يُطلِع عليها سبحانَه أحداً. وقيل: قُربه لأنَّ ما بقي من زمان الدُّنيا أقلُّ ممَّا مضى منه.

وانتصابُ «قريباً» على أنَّه خبرُ «كان» الناقصة، واسمُها ضميرٌ يعود على ما أشير إليه.

وجوِّز أن يكون منصوباً على الظرفية، والأصل: زماناً قريباً، فحُذِف الموصوف، وأقيمت صفته مقامَه، فانتصب انتصابَه، و«كان» على هذا تامَّة، وفاعلُها ذلك الضميرُ، أي: عسى أن يقعَ ذلك في زمانٍ قريب.

وأن يكونَ في تأويل مصدر منصوبٍ وقع خبراً لـ «عسى»، واسمها ضميرٌ يعود على ما عاد عليه اسم يكون، وجوز أن يكون مرفوعاً بـ «عسى»، وهي تامَّةٌ لا خبرَ لها، أي: عسى كونُه قريباً، أو في وقتٍ قريب.

واعتُرض بأنَّ «عسى» للمقاربة، فكأنَّه قيل: قَرُبَ أن يكون قريباً، ولا فائدةَ فيه.

وأُجيب بأنَّ نجمَ الأئمَّةِ لم يُثبت معنى المقاربةِ في «عسى»، لا وضعاً ولا استعمالاً. ويدلُّ له ذِكرُ «قريباً» بعدَها في الآية، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّها جرِّدت عنه، فالمعنى: يُرجَى ويتوقَّع كونُه قريباً.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مضمَر، أي: اذكروا، أو بدلٌ من «قريباً» على أنَّه ظرف، أو متعلِّق بـ «يكون» تامَّةً بالاتفاق، وناقصةً عند مَن يجوِّز إعمالَ الناقصةِ في الظُّروف، أو بـ : تُبعثون، محذوفاً، أو بضمير المصدرِ المستتر في «يكون» أو «عسى» العائدِ على العود مثلاً، بناءً على مذهبِ الكوفيين المجوِّزين إعمالَ ضميرِ المصدر، كما في قوله[1]:

وما الحربُ إلَّا ما علمتمْ وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ

وجَعلُه بدلاً من الضمير المستترِ بدلَ اشتمالٍ ولم يُرفَع لأنَّه إذا أُضيف إلى مِثل هذه الجملةِ قد يُبنَى على الفتح = تكلُّفٌ، وادِّعاءُ ظهورِه مكابرة.

---

(١) قائله زهير، والبيت في ديوانه ص١٨.

والدعاءُ قيل: مجازٌ عن البعث، وكذا الاستجابةُ في قوله تعالى: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ مجازٌ عن الانبعاث، أي: يومَ يبعثكم فتنبعثون، فلا دعاءَ ولا استجابة، وهو نظيرُ قولِه تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] في أنَّه لا خطابَ ولا مخاطَبَ في المشهور، وتُجوِّز بالدُّعاء والاستجابةِ عن ذلك؛ للتنبيه على السُّرعة والسُّهولة؛ لأنَّ قول: قُمْ يا فلان، أمرٌ سريعٌ لا بطءَ فيه، ومجرَّد النداءِ ليس كمزاولة الإيجادِ بالنسبة إلينا، وعلى أنَّ المقصودَ الإحضارُ للحساب والجزاءِ، فإنَّ دعوةَ السيِّد لعبده إنَّما تكون لاستخدامه، أو للتفحُّص عن أمره، والأوَّلُ منتفٍ؛ لأنَّ الآخرةَ لا تكليفَ فيها، فتعيَّن الثاني.

وقال الإمامُ وأبو حيَّان(١): «يدعوكم» بالنِّداءِ الذي يسمعكم، وهو النفخةُ الأخيرةُ، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ الآية [ق: ٤١].

ويقال: إنَّ إسرافيلَ عليه السلام، وفي رواية: جبرائيل عليه السلام ينادي على صخرة بيتِ المقدس: أيَّتها الأجسامُ البالية، والعظامُ النَّخِرة، والأجزاء المتفرِّقة، عودي كما كنتِ.

وأخرج أبو داودَ وابنُ حِبَّان(٢) عن أبي الدرداءِ أنَّه قال: قال ﷺ: «إنَّكم تُدعَون يومَ القيامةِ بأسمائكم وأسماءِ آبائكم، فحسِّنوا أسماءَكم» ولعل هذا عندَ الدعاءِ للحساب، وهو بعد البعثِ من القبور.

واقتصر كثيرٌ على التجوُّز السابق، فقيل: إنَّ فيه إشارةً إلى امتناع الحملِ على الحقيقة؛ لِمَا يَلزم من الحمل عليها خطابُ الجماد، وهو الأجزاءُ المتفرِّقة، ولو لم تمتنع إرادةُ الحقيقة، لَكان ذلك كنايةً عن البعث والانبعاث، لا مجازاً، والمجوِّزُ لإرادتها يقول: إنَّ الدعوةَ بالأمر التكوينيِّ، وهو ممَّا يوجَّه إلى المعدوم، وقد قال جمعٌ به في قولِ «كن»، ولم يتجوَّزوا في ذلك، وأمَّا أنَّه لو لم تمتنع إرادةُ الحقيقةِ لَكان كنايةً لا مجازاً، فأمرٌ سهلٌ كما لا يخفَى، فتدبَّر.

﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حالٌ من ضمير المخاطَبين، وهم الكفَّار كما هو الظَّاهر، والباءُ

---

(١) التفسير الكبير ٢٠/ ٢٢٧، والبحر المحيط٦/ ٤٧.
(٢) سنن أبي داود (٤٩٤٨)، وصحيح ابن حبان(٥٨١٨).

للملابسة، أي: فتستجيبون ملتبسين بحمده، أي: حامدين له تعالى على كمال قدرته.

وقيل: المراد: معترفين بأنَّ الحمدَ له على النِّعم لا تُنكرون ذلك؛ لأنَّ المعارفَ هناك ضروريَّة.

وأخرج عبد بن حميد وغيرُه عن ابن جُبَير أنَّه قال: يَخرجون من قبورِهم وهم يقولون: سبحانك اللهمَّ وبحمدك. ولا بُعدَ في صدور ذلك من الكافر يومَ القيامةِ وإنْ لم ينفعْه[1].

وحَمَلَ الزمخشريُّ[2] ذلك على المجاز، والمرادُ المبالغةُ في انقيادهم للبعث، كقولك لمَن تأمره برُكوب ما يشقُّ عليه فيتأبَّى ويمتنع: ستركبه وأنت حامدٌ شاكر، يعني أنَّك تُحمَل عليه وتُقسَر قسراً، حتى إنَّك تلين لينَ المسمح الراغبِ فيه الحامدِ عليه، فكأنَّه قيل: منقادين لبعثه انقيادَ الحامدين له.

وتعلُّق الجارِّ بـ: «يدعوكم» ليس بشيءٍ. وعن الطبريِّ[3] أنَّ «بحمده» معترِضٌ بين المتعاطفَين اعتراضَه بين اسمِ «إنَّ» وخبرِها في قوله:

فإني بحمد اللهِ لا ثوبَ فاجرٍ لبستُ ولا من غَدرةٍ أتقنَّعُ[4]

ويكونُ الكلام على حدِّ قولِك لرجلٍ وقد خصمتَه في مسألة: أخطأتَ بحمد اللهِ تعالى، فكأنَّ الرسولَ عليه الصلاة والسلام قال: عسى أن يكونَ البعثُ قريباً يومَ تُدعَون فتقومون بخلاف ما تعتقدون اليوم، وذلك بحمد اللهِ سبحانه على صِدق خبري، وملخَّصُه: يكون ذلك على خلاف اعتقادِكم والحمدُ لله تعالى.

ولا يخفَى أنَّه معنًى متكلَّف لا يكاد يُفهَم من الكلام، ونحن في غنًى عن ارتكابه والحمدُ لله.

وقيل: الخطابُ للمؤمنين، وانقطع خطابُ الكافرين عند قولِه تعالى: ﴿قَرِيبًا﴾

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٨.

(٢) في الكشاف ٢/ ٤٥٣.

(٣) في تفسيره ١٤/ ٦٢٢-٦٢٣.

(٤) تفسير الطبري١٤/ ٦٢٣ دون نسبة، ونسبه المرزباني في معجمه ص٤٣٦ لأوفى بن مطر، وصاحب اللسان (طهر) لغيلان، وصاحب الأغاني ١٦/ ٢٣٥-٢٣٦ لبرذع بن عدي.

فيستجيبون حامدين له سبحانه على إحسانه إليهم وتوفيقِه إيَّاهم للإيمان بالبعث.

وأخرج الترمذيُّ(١) والطبرانيُّ(٢) وغيرُهما عن ابن عمرَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليس على أهلِ لا إله إلا اللهُ وحشةٌ في قبورهم ولا في منشرهم، وكأنِّي بأهلِ لا إله إلا الله يَنفضون الترابَ عن رؤوسهم ويقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]».

وفي روايةٍ عن أنسٍ مرفوعاً(٣): «ليس على أهلِ لا إله إلا الله وحشةٌ عند الموت، ولا في القبور، ولا في الحشر، وكأنّي بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورِهم ينفضون رؤوسَهم من التُّراب، يقولون: الحمدُ لله الذي أَذهب عنَّا الحَزَن».

وقيل: الخطابُ للفريقين، وكلُّهم يقولون ما رُوي عن ابن جُبَير.

﴿وَتَظُنُّونَ﴾ الظاهرُ أنَّه عطفٌ على «تستجيبون» وإليه ذهب الحوفيُّ وغيرُه. وقال أبو البقاءِ(٤): هو بتقديرِ مبتدأ، والجملةُ في موضعِ الحال، أي: وأنتم تظنُّون ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ كالذي مرَّ على قريةٍ، أو ما لبثتم في الدنيا، كما روَى غيرُ واحدٍ عن قتادة.

وعن ابن عباسٍ ﵄: يستقلُّون لَبثَهم بين النفختَين، فإنَّه يُزال عنهم العذابُ في ذلك البَين؛ ولذا يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢].

وقيل: يستقلُّون لبثَهم في عَرْصة القيامة؛ لِمَا أنَّ عاقبةَ أمرِهم الدخولُ إلى النار. وهذا في غاية البعدِ كما لا يخفَى.

والظنُّ يحتمل أن يكونَ على بابه، ويحتمل أن يكونَ بمعنى اليقين، وهو معلَّق عن العمل بـ «إنْ» النافية، وقلَّ مَن ذكرها من أدوات التعليق، قاله أبو حيَّان(٥).

---

(١) هو الحكيم الترمذي، والحديث في نوادر الأصول ص ٢٤٧-٢٤٨.
(٢) في الأوسط(٩٤٧٨).
(٣) أخرجها ابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ١٨٨.
(٤) في الإملاء٣/ ٤٨٥.
(٥) في البحر٦/ ٤٨.

وانتصابُ «قليلاً» على أنَّه نعتٌ لزمانٍ محذوف، أي: إلَّا زماناً قليلاً. وجوِّز أن يكونَ نعتاً لمصدرٍ محذوف، أي: لبثاً قليلاً، ودلالةُ الفعلِ على مصدره دلالةٌ قوية.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ أي: المؤمنين، فالإضافةُ لتشريف المضاف ﴿يَقُولُوا۟﴾ عند محاورتِهم مع المشركين ﴿ٱلَّتِى﴾ أي: الكلمةَ أو العبارةَ التي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولا يخاشنوهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومقولُ فعلِ الأمرِ محذوف، أي: قل لهم: قولوا التي هي أحسن، يقولوا ذلك، فجزم يقولوا لأنَّه جوابُ الأمر، وإلى هذا ذهب الأخفش[(١)]، ولكون المقولِ لهم هم المؤمنون المسارعون لامتثال أمرِ اللهِ تعالى وأمرِ رسوله ﷺ بمجرَّد ما يقالُ لهم، لم يكن غبارٌ في هذا الجزم.

وقال الزجَّاج: إنَّ«يقولوا» هو المقول، وجزمُه بلام الأمرِ محذوفةً، أي: قل لهم ليقولوا التي. . . إلخ.

وقال المازنيّ: إنَّه المقولُ أيضاً، إلَّا أنَّه مضارعٌ مبنيٌّ لحلوله محلَّ المبنيّ، وهو فعلُ الأمر، والمعنى: قل لعبادي: قولوا التي هي أحسن. وهو كما ترى.

ومقولُ يقولوا «التي» وإذا أُريد به الكلمة، حُمِلت على معناها الشاملِ للكلام.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفسد ويهيِّج الشرَّ بين المؤمنين والمشركين بالمخاشنة، فلعلَّ ذلك يؤدِّي إلى تأكُّد العناد، وتمادي الفساد، فالجملةُ تعليلٌ للأمر السابق.

وقرأ طلحة: «يَنْزِغ» بكسر الزاي[(٢)]. قال أبو حاتم: لعلَّها لغة، والقراءةُ بالفتح. وقال صاحبُ«اللوامح»: الفتحُ والكسرُ لغتان، نحو: يَمنَح ويَمنِح.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ﴾ قِدْماً ﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ ظاهرَ العداوة، فهو من أبانَ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦١٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر ٦/ ٤٩.

اللازم، والجملة تعليلٌ لمَا سبق من أنَّ الشيطانَ ينزغ بينهم.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ بالإماتة على الكفر. وهذا تفسيرُ «التي هي أحسن»، والجملتان اعتراضٌ بينهما، والخطابُ فيه للمشركين، فكأنَّه قيل: قولوا لهم هذه الكلمةَ وما يشاكلها، وعلِّقوا أمرَهم على مشيئة اللهِ تعالى، ولا تصرِّحوا بأنَّهم من أهل النَّار، فإنَّه مما يهيِّجهم على الشرّ، مع أنَّ الخاتمة مجهولةٌ لا يعلمها غيرُه تعالى، فلعلَّه سبحانه يَهديهم إلى الإيمان.

والظاهرُ أنَّ «أو» للانفصال الحقيقي. وقال الكَرماني: هي للإضراب؛ ولذا كُرِّرت معها «إنْ»، وقال ابنُ الأنباريّ: دَخَلَت «أو» هنا لسعة الأمرين عند اللهِ تعالى، ويقال لها: المُبيحة، كالتي في قولهم: جالِس الحسنَ أو ابنَ سيرين، فإنَّهم يَعنُون: قد وسَّعنا لك الأمر. وهو كما ترى.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: موكولاً ومفوَّضاً إليك أمرُهم تَقسِرهم على الإسلام وتُجبرهم عليه، وإنَّما أرسلناك بشيراً ونذيراً، فدارِهم ومُرْ أصحابَك بمداراتهم، وتحمُّلِ أذيَّتهم، وتَرْكِ المشاقَّة مِعهم. وهذا قبل نزولِ آيةِ السيف.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبأحوالهم الظاهرةِ والباطنة، فيختار منهم لنبوَّته وولايته مَن يشاء ممَّن تراه حكمتُه أهلاً لذلك، وهو ردٌّ عليهم إذ قالوا: بعيدٌ أن يكونَ يتيمُ ابن أبي طالب نبيًّا، وأن يكون العراةُ الجوَّعُ ـ كصهيب وبلال وخبَّاب وغيرهم ـ أصحابَه، دون أن يكون ذلك من الأكابر والصَّناديد.

وذِكْرُ مَن في السماوات لإبطال قولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: ٢١] وذِكْرُ مَن في الأرض لردِّ قولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فلا يدلُّ تخصيصُهما بالذِّكر وتعلُّقهما بـ «أعلم» على اختصاص أعلميَّتِهِ تعالى بما ذُكر، فما قاله أبو عليٍّ من أنَّ الجارَّ متعلِّق بعَلِمَ محذوفاً ولا يجوز تعلُّقه بأعلم لاقتضائه أنَّه سبحانه ليس بأعلمَ بغير ذلك = ناشِئٌ عن عدم العلم بما ذكرنا، على أنَّ أبا حيَّانَ[1] أنكر تعدِّي عَلِمَ بالباء، وإنَّما يتعدَّى لواحدٍ بنفسه في مِثل هذا الموضع.

---

(١) في البحر ٦/ ٥٠.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالفضائل النفسانيَّة، والمزايا القُدسية، وإنزالِ الكتبِ السماوية، لا بكثرة الأموالِ والأتباع ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ بيانٌ لحيثية تفضيلِهِ عليه الصلاة والسلام، وأنَّه بإيتائه الزَّبورَ لا بإيتائه الملكَ والسَّلطنة، وفيه إيذانٌ بتفضيل نبيِّنا ﷺ، فإنَّ كونه عليه الصلاة والسلام خاتمَ الأنبياء وأمَّتِهِ خيرَ الأُمم ممَّا تضمَّنه الزَّبور، وقد أخبر سبحانه عن ذلك بقوله عزَّ قائلاً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يعني محمداً ﷺ وأمَّته.

ونصَّ بعضهم أنَّ هذا من باب التلميحِ، نحو قصَّة المنصورِ وقد وعد الهُذليَّ بعدَةٍ فنسيها، فلمَّا حجَّا وأتيا المدينة، قال له يوماً وهو يسايره: يا أميرَ المؤمنين، هذا بيتُ عاتكةَ الذي يقول فيه الأحوص:

يـا بـيـتَ عـاتـكـةَ الـذي أتـغـزَّلُ[1]

ففَطِن لمراده حيث قال ذلك، ولم يسأله، وعلم أنَّه يشير إلى قولِه في هذه القصيدة:

وأراكَ تـفـعـل مـا تـقـول وبـعـضُـهـمْ مَـذِقُ الـلـسـان يـقـول مـا لا يـفـعـلُ

فأنجز عِدَتَه.

والزَّبور في الأصل وصفٌ للمفعول كالحَلوب، أو مصدرٌ كالقَبول. نعم هذا الوزنُ في المصادر قليل، والأكثرُ ضمُّ الفاء، وبه قرأ حمزة[2]، وجَعَله بعضُهم على هذه القراءةِ جمعَ زِبْر، بكسر الزَّاي، بمعنى مزبور، ثم جُعل عَلَماً للكتاب المخصوص، وليس فيه من الأحكام شيء، أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن الربيع بنِ أنسٍ قال: الزَّبور ثناءٌ على الله عزَّ وجلَّ ودعاءٌ وتسبيح. وأخرج هو وابنُ جَرير[3] عن

(١) ديوانه ص ١٥٢، وعجزه: حَذَرَ العِدى وبه الفؤاد موكَّلُ.
والخبر مذكور في ثمرات الأوراق ص١١٣، والأحوص هو ابن محمد بن عبد الله بن عاصم بن ثابت. وقيل: إن اسمه عبد الله، وإنَّه لقِّب الأحوص لحَوَص [وهو ضيق في مؤخر العينين أو في إحداهما] كان في عينيه. مات سنة (١٠٥ هـ). الشعر والشعراء ١/ ٥١٨، والأغاني ٤/ ٢٢٤، والأعلام ٤/ ١١٦.

(٢) التيسير ص٩٨، والنشر٢/ ٢٥٣.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٨٨، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٢٥-٦٢٦.

قتادةَ قال: كنَّا نحدّث أنَّ الزبور دعاءٌ علّمه داود عليه السلام وتحميدٌ وتمجيدٌ لله عزَّ وجلّ، ليس فيه حلالٌ ولا حرام، ولا فرائضُ ولا حدود.

والذي تدلُّ عليه بعضُ الآثار اشتمالُه على بعض النَّواهي والأوامر، فقد روى ابنُ أبي شيبة[1] أنَّه مكتوبٌ فيه: إنِّي أنا اللهُ لا إله إلا أنا، ملكُ الملوك، قلوبُ الملوكِ بيدي، فأيُّما قوم كانوا على طاعة، جعلتُ الملوكَ عليهم رحمة، وأيُّما قومٍ كانوا على معصية، جعلتُ الملوكَ عليهم نِقمة، فلا تَشغلوا أنفسَكم بسبِّ الملوك، ولا تتوبوا إليهم وتوبوا إليّ، أَعطِفْ قلوبَهم عليكم. والمزاميرُ التي يُفهَم منها الأمرُ والنهيُ كثيرةٌ فيه كما لا يخفَى على من رآه. ومع هذا الفرقُ بينه وبين التَّوراةِ ظاهر.

ودخولُ «أل» عليه في بعض الآياتِ لِلَمح الأصل، وذلك لا ينافي العَلَمية، كما في العبَّاس والفضل. وجوِّز أن يكونَ نكرةً غيرَ عَلَم، ونُكِّر ليفيدَ أنَّه بعضٌ من الكتب الإلهية، أو من مُطلق الكتب، ولا إشكالَ أيضاً في دخول «أل» عليه، أي: آتيناه زَبوراً من الزُّبر. وجوِّز أن يكونَ مختصًّا بكتاب داودَ عليه السلام، وليس بعَلَم، بل من غلبة اسمِ الجنس، وهو كالقرآن يُطلَق على المجموعِ وعلى الأجزاء، وتقدَّم إفادةُ التنكيرِ للبعضية في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾ فيجوز أن يكونَ المرادُ هنا: آتيناه بعضاً من الزَّبور فيه ذِكرُه ﷺ.

هذا ووجهُ ربطِ الآياتِ بما تقدَّم على هذا التفسير ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّه تعالى لمَّا أَرشد نبيَّه ﷺ إلى جواب الكفارِ بجدِّه في استهزائهم وتوقُّرِه في استخفافهم؛ ليكونَ أغيظَ لهم وأشجَى لحلوقهم، أرشده إلى أن يَحمل أصحابَه أيضاً على ذلك، وأن يستنُّوا بسنَّته، وعلَّل ذلك بما اعترض به من أنَّ الشيطانَ بنزغه يَحمل على المخاشنة، فعلى العاقلِ الحازمِ ألَّا يغترَّ بوساوسه، كيف وقد تبيَّن له أنَّه عدوٌّ مبين؟

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ متعلِّق بجميع السابقِ من قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟﴾ المشتملِ على مجادَلَته بالتي هي أحسن «وقل لعبادي» المشتملِ على حَملهم عليها إلى قوله سبحانه: ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من تتمَّة: «إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً» فإنَّهم طعنوا فيه ـ وحاشاه ـ تارةً

(١) في مصنفه ١٣/ ١٨٧.

بأنَّه شاعر، ساحر، مجنون، وأُخرى بنحو: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، و: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] فأجيب عن الأوَّل بما أُجيب، وعن الثاني بقولِهِ سبحانه: (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ)، وربك أعلم.

وجوِّز أن يكونَ الخطابُ في قوله تعالى: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ) إلخ للمؤمنين، ورُوي ذلك عن الكلبيّ، وأخرج الأوَّلَ ابنُ جَرير وابنُ المنذر عن ابن جُرَيج(١)، والمعنى: إنَّه تعالى إنْ يشأ يرحمْكم أيُّها المؤمنون في الدنيا بإنجائكم من الكَفَرة ونصرِكم عليهم، أو إنْ يشأ يعذِّبْكم بتسليطهم عليكم.

والمرادُ بـ «التي هي أحسنُ» المجادلةُ الحسنةُ، فكأنَّه تعالى لمَّا ذكر الحجَّة اليقينية في صحَّة المعاد، أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يقولَ للمؤمنين: إذا أردتم إيرادَ الحجَّة على المخالفين، فاذكروا الدَّلائلَ بالطريق الأحسن، وهو ألَّا يكونَ ذلك ممزوجاً بالشَّتم والسَّبّ؛ لأنَّه لو اختلط به لا يَبعُد أن يقابَلَ بمثله، فيزداد الغضبُ ويهيج الشَّرّ، فلا يحصُلُ المقصود، وأشار سبحانه إلى ذلك بقوله عزَّ قائلاً: (إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ) إلخ.

وضميرُ «بينهم» إمَّا للكفار، أو للفريقين. ورُوي أنَّ المشركين أفرطوا في إيذاء المؤمنين، فشَكَوا إلى رسول الله ﷺ، فنزلت. وقيل: شتم عمرَ رجلٌ، فهمَّ رضي الله عنه به، فأمره اللهُ تعالى بالعفو.

قال في «الكشف»: إنَّه على هذين القولَين الكلمةُ «التي هي أحسنُ» نحو: يَهديكم اللهُ تعالى، وليست مفسَّرةً بـ «ربُّكم أعلمُ بكم»، وقولُه سبحانه: (إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ) تعليلٌ للأمر بالاحتمال بأنَّ المخاشنةَ من فِعل الشيطان، والخطابُ في قوله تعالى: (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ) للمؤمنين، وفيه حثٌّ على المداراة، أي: فداروهم؛ لأنَّ ربَّكم أعلمُ بكم، وبما يصلُحُ لكم من أوامر، إنْ يشأ يرحمْكم بقَبول أوامرِه ونواهيه، أو إن يشأ يعذِّبْكم بإبائكم، أو إن يشأ يرحمكم بالملاينة والتراحم؛ لأنه سبب السلامة عن أذى الكفار، أو إن يشأ يعذبْكم بمخاشنتكم في غير إبَّانها «وما أرسلناك عليهم وكيلاً» فهؤلاء المؤمنون وهم أَتباعُك أَولى وأَولى بألَّا يكونوا وكيلاً عليهم.

(١) الدر المنثور ٤/ ١٨٨، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٢٤-٦٢٥.

ثم قال: والأوّل أوفقُ لتأليف النَّظم، وفي إفادة «ربكم أعلم بكم» الحثَّ ـ على ما قرِّر ـ تكلُّف ما. اهـ.

وقيل: المرادُ من «عبادي» الكفارُ، وحيث كان المقصودُ من الآيات الدعوةَ، لا يَبعُد أن يعبَّرَ عنهم بذلك؛ ليصيرَ سبباً لجذب قلوبِهم وميلِ طباعِهم إلى قَبول الدِّين الحقّ، فكأنَّه قيل: قل يا محمدُ لعبادي الذين أقرُّوا بكونهم عباداً لي: يقولوا التي هي أحسن، وهي الكلمةُ الحقَّة الدالَّة على التوحيد وإثباتِ القدرةِ على البعث، وعرِّفْهم أنَّه لا ينبغي لهم أن يُصرُّوا على المذهب الباطل تعصُّباً للأَسلاف، فإنَّ ذلك من الشَّيطان، وهو للإنسان عدوٌّ مبين، فلا ينبغي أن يُلتفتَ إلى قوله.

والمرادُ من الأمر بالقول الأمرُ باعتقاد ذلك، وذَكَرَ القولَ لِمَا أنَّه دليلُ الاعتقادِ ظاهراً، ثمَّ قال لهم سبحانه: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ بالهداية ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْۚ﴾ بالإماتة على الكفر، إلَّا أنَّ تلك المشيئةَ غائبةٌ عنكم، فاجتهِدوا أنتم في طلب الدِّين الحقّ، ولا تصرُّوا على الباطل؛ لئلَّا تصيروا محرومين عن السَّعادات الأَبدية، والخيراتِ السَّرمدية.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: لا تشدِّد الأمرَ عليهم، ولا تُغلِظ لهم بالقول. والمقصودُ من كلٍّ ذلك إظهارُ اللِّين والرِّفق لهم عند الدَّعوة؛ لأنَّه أقربُ لحصول المقصود.

ثم إنَّه تعالى عمَّم عِلمَه بقوله: «وربك أعلم..» إلخ، ويَحسُن ـ على هذا ـ ما رُوي عن ابن عباسٍ وأخرجه ابنُ أبي حاتم عن ابن سِيرين من تفسير «التي هي أحسن» بـ: لا إله إلا الله. ونقل ذلك ابنُ عطيَّةَ[1] عن فِرقةٍ من العلماء، ثم قال: ويَلزم عليه أنْ يرادَ بعبادي جميعُ الخلق؛ لأنَّ جميعَهم مدعوٌّ إلى قول: لا إله إلا الله، ويجيءُ قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ﴾ غيرَ مناسبٍ إلَّا على معنى: ينزغ خلالَهم وأثناءهم، ويفسَّر النزغُ بالوسوسة والإملال.

ولا يخفَى أنَّه في حيِّز المنع، وما ذَكَرَ من الدليل لا يتمُّ إلَّا إذا لم يكن للتخصيص نكتة، وهي هاهنا ظاهرة.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٤.

ويكون قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ إلخ كالاستدلال على حقِّية ما دعاهم إليه من التوحيد. ورَبْطُه بما تقدم ـ على ما ذكرناه أوّلاً ـ لا أظنُّه يخفى.

والزَّعم بتثليث الزاي قريبٌ من الظنّ، ويقال: إنَّه القولُ المشكوكُ فيه، ويُستعمل بمعنى الكَذِب، حتى قال ابنُ عباس: كلُّ ما ورد في القرآن زعم فهو كَذِب. وقد يُطلَق على القول المحقَّق والصدقِ الذي لا شكَّ فيه، فقد أخرج مسلمٌ[1] من حديث أنسٍ أنَّ رجلاً من أهل البادية ـ واسمُه: ضِمَام بنُ ثعلبة ـ جاء إلى رسول اللهِ ﷺ فقال: يا محمد، أتانا رسولُك فزعم أنَّك تزعم أنَّ اللهَ تعالى أرسلك، قال: «صدق..» الحديثَ، فإنَّ تصديق النبيِّ عليه الصلاة والسلام إيَّاه مع قولِه: زعم، وتَزْعُم، دليلٌ على ما قلنا. وورد عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «زعم جبريلُ عليه السلام كذا»[2]. وقد أكثر سيبويه ـ وهو إمامُ العربية ـ في «كتابه» من قوله: زَعَمَ الخليل، زعم أبو الخطَّابِ، يريد بذلك القولَ المحقَّق، وقد نقل ذلك جماعاتٌ من أهل اللغةِ وغيرِهم، ونقله أبو عمرَ الزاهدُ[3] في شرح «الفصيح» عن شيخه أبي العباسِ ثعلب، عن العلماء باللُّغة من الكوفيين والبصريين.

وهو ممَّا يتعدَّى إلى مفعولَين، وقد حُذفا هاهنا، أو ما يسدُّ مسدَّهما، أي: زعمتم أنَّهم آلهة، أو: زعمتموهم آلهة، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ وحَذْفُ المفعولَين معاً أو حذفُ ما يسدُّ مسدَّهما جائز، والخلافُ في حذف أحدهما.

والظاهرُ أنَّ المرادَ من الموصول كلُّ مَن عُبد من دون اللهِ سبحانه من العقلاء، وأخرج عبدُ الرزاق[4]، وابنُ أبي شيبة، والبخاريّ[5]، والنَّسائي[6]، والطبراني[7]، وجماعةٌ عن ابن مسعودٍ قال: كان نفرٌ من الإنس يعبدون نفراً من الجِنّ، فأسلم النفرُ من الجنِّ وتمسَّك الإنسيُّون بعبادتهم، فنزلت هذه الآية. وكان هؤلاء الإنسُ

(١) برقم (١٢)، وسلف ٦/ ١٠٦.
(٢) أخرجه عبد بن حميد (١٩٢) عن أبي قتادة رضي الله عنه، وسلف ٦/ ١٠٦.
(٣) هو غلام ثعلب.
(٤) في تفسيره ٢/ ٣٧٩-٣٨٠.
(٥) في صحيحه (٤٧١٤) و(٤٧١٥).
(٦) في الكبرى (١١٢٢٣) و(١١٢٢٤) و(١١٢٢٥).
(٧) في الكبير (٩٠٧٧) و(٩٧٩٨)، والخبر في الدر المنثور ٤/ ١٨٩.

من العرب كما صرَّح به في رواية البيهقيِّ[١] وغيرِه عنه. وفي أخرى التصريحُ بأنَّهم من خزاعة[٢]. وفي رواية ابن جَرير[٣] أنَّه قال: كان قبائلُ من العرب يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجِنّ، ويقولون: هم بناتُ اللهِ سبحانه، فنزلت الآية.

وعن ابن عباسٍ أنَّها نزلت في الذين أشركوا بالله تعالى، فعبدوا عيسى وأمَّه وعُزَيراً والشمسَ والقمرَ والكواكب.

وعلى هذا ففي الآية ـ على ما في «البحر»[٤] ـ تغليبُ العاقلِ على غيره، ومتى صحَّ إدراجُ الشمسِ والقمرِ والكواكبِ على سبيل التغليب، بناءً على أنَّها ليست من ذوي العلم، فليُدرَج سائرُ ما عُبد بالباطل من الأصنام ويُرتكبِ التغليب.

وتعقِّب بأنَّ ما سيأتي قريباً إنْ شاء اللهُ تعالى من ابتغاء الوسيلةِ ورجاءِ الرحمةِ والخوفِ من العذاب يؤيِّد إرادةَ العقلاءِ، كعيسى وعُزَيرٍ عليهما السلام، بناءً على أنَّ الأصنامَ لا يُعقَل منها ذلك، وارتكابُ التغليبِ هناك أيضاً خلافُ الظاهرِ جدًّا.

والدعاءُ كالنِّداء، لكنَّ النداءَ قد يقال إذا قيل: يا، أو: أَيَا، أو نحوُهما، من غيرِ أن يضمَّ إليه الاسمُ، والدُّعاءُ لا يكاد يقال إلَّا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان، وقد يُستعمَل كلٌّ منهما موضعَ الآخَر، والمراد: ٱدعوهم لكشف الضُّرِّ الذي هو أَولى من جلب النفعِ وأهمّ، وتوجُّهُ القلبِ إلى مَن يكشفه أكملُ وأتمّ.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾ فلا يستطيعون بأنفسهم ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ كالمرض والفقرِ والقحطِ وغيرِها ﴿وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ ولا نقلَه منكم إلى غيرِكم ممَّن لم يعبدهم. أو: ولا تبديلَه بنوعٍ آخر، ومَن لا يملك ذلك لا يستحقُّ العبادة؛ إذ شرطُ استحقاقِها القدرةُ الكاملةُ التامَّة على دفع الضُّرِّ وجلبِ النفع، ولا تكونُ كذلك إذا كانت مُفاضةً من الغير.

وكأنَّ المرادَ من نفي ملكِهم ذلك نفيُ قدرتهم التامَّةِ الكاملةِ عليه، وكونُ قدرةِ الآلهة الباطلةِ مفاضةً منه تعالى مسلَّم عند الكفرة؛ لأنَّهم لا يُنكرون أنَّها مخلوقةٌ لله

---

(١) في دلائل النبوة كما عزاه إليه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ١٨٩، ولم نقف عليه عنده، وأخرجه أيضاً الطبري ١٤/ ٦٢٩، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٥١)، ولعله المراد.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٧٣ عن ابن عباس ﵄.

(٣) في تفسيره ١٤/ ٦٣٠.

(٤) ٦/ ٥١.

تعالى بجميع صفاتِها، وأنَّ اللهَ سبحانه أقوى وأكملُ صفةً منها. وبهذا يتمُّ الدليل ويحصل الإفحام، وإلَّا فنفيُ قدرةِ نحو الجنِّ والملائكةِ الذين عُبدوا من دون الله تعالى مطلقاً على كشف الضُّرِّ ممَّا لا يظهر دليلُه، فإنَّه إنْ قيل: هو أنَّا نرى الكفرةَ يتضرعون إليهم ولا تحصلُ لهم الإجابة، عورضَ بأنَّا نرى أيضاً المسلمين يتضرَّعون إلى الله تعالى ولا تحصُلُ لهم الإجابة. وقد يقال: المرادُ نفيُ قدرتِهم على ذلك أصلاً، ويحتجُّ له بدليل الأشعريِّ على استناد جميعِ الممكناتِ إليه عزَّ وجلَّ ابتداء.

وفسَّر بعضُهم الضُّرَّ هنا بالقحط، بناءً على ما رُوي أنَّ المشركين أَصابهم قحطٌ شديدٌ أكلوا فيه الكلابَ والجِيفَ، فاستغاثوا بالنبيِّ ﷺ ليدعوَ لهم، فنزلت. وأنت تعلم أنَّ هذا لا يوجب التخصيص. واستُدلَّ بهذه الروايةِ على أنَّ نفيَ الاستطاعةِ مطلقاً عن آلهتهم كان إذ ذاك مسلَّماً عندهم، وإلَّا لَمَا تركوها واستغاثوا بالنبيِّ ﷺ ليدعوَ لهم. وفيه نظر، فانظر وتدبَّر.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي: أولئك الآلهةُ الذين يدعونهم ويسمُّونهم آلهة، أو يَدْعونهم وينادونهم لكشف الضُّرِّ عنهم ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ يطلبون باجتهادٍ لأنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ﴾ ومالكِ أمرهم ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ القُربةَ بالطَّاعة والعبادة.

فضمير «يدعون» للمشركين، وضمير «يبتغون» للمشار إليهم. وقال ابنُ فُورَك: الضميرانِ للمشار إليهم، والمرادُ بهم الأنبياءُ الذين عُبدوا من دون اللهِ تعالى، ومفعولُ «يدعون» محذوف، أي: يدعون الناسَ إلى الحقّ، أو يدعون اللهَ سبحانه ويتضرَّعون إليه جلَّ وعلا. وعلى هذا لا يتعيَّن كونُ المرادِ بهم الأنبياءَ عليهم السلام كما لا يخفَى. وهو كما ترى.

وقرأ ابنُ مسعودٍ وقتادة: «تَدعون» بالتاءِ ثالثةِ الحروف. وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «يُدْعَون» بالياءِ آخرِ الحروف مبنيًّا للمفعول. وقرأ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «إلى ربِّك» بكاف الخطاب[1].

واسمُ الإشارةِ مبتدأ، والموصولُ نعتٌ أو بيان، والخبرُ جملة «يبتغون»، أو الموصولُ هو الخبر، و«يبتغون» حال، أو بدلٌ من الصِّلة.

---

(١) البحر المحيط ٦/٥١-٥٢.

وقولُه تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ فيه وجوهٌ من الإعراب، فالزمخشريُّ ذكر وجهَين[١]:

الأوَّل: كونُ «أيٍّ» موصولةً بدلاً من ضمير «يبتغون» بدلَ بعضٍ من كلٍّ، وهي إمَّا معرَبةٌ أو مبنيَّة على اختلاف الرأيين، أي: أولئك المعبودون يَطلب مَن هو أقربُ منهم الوسيلةَ إلى الله تعالى بطاعته، فكيف بالأبعد. وليس فيه إلَّا حذفُ صدرِ الصِّلة، والتقدير: أيُّهم هو أقرب، وهو ممَّا لا بأسَ به، ولا ينافي ذلك جمعُ «يرجون» و«يخافون» فيما بعدُ؛ لعدم اختصاصِ ما ذُكر بالأقرب، أو لكون الأقربِ متعدِّداً.

والثاني: كونُ «أيٍّ» استفهاميةً، وهي مبتدأ، و«أقرب» خبرُها، والجملةُ في محلِّ نصبٍ بـ «يبتغون»، وضمِّن معنى يحرصون، فكأنَّه قيل: يَحرصون أيُّهم يكون أقربَ إلى الله تعالى، وذلك بالطاعة وازديادِ الخيرِ والصلاح، قيل: واعتُبر التضمينُ ليصحَّ التعليق، فإنَّه مختصٌّ بأفعال القلوبِ خلافاً ليونُس.

وقال الطِّيبيّ: لا بدَّ من تقدير حرفِ الجرّ؛ لأنَّ حَرَصَ يتعدَّى بـ: على، كقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ [النحل:٣٧] ولا بدَّ من تأويل الإنشاء بأنْ يقال: يحرصون على ما يقال فيه: أيُّهم أقربُ إلى اللهِ تعالى بسببه من الطَّاعة، ويتعلَّق حينئذٍ قولُه تعالى: «إلى ربهم» بـ «أقرب». وهو كما ترى.

وقال صاحبُ «الكشف» في تحقيق هذا الوجه: إنَّ المطالبَ إذا كانت مشترَكة، اقتضت التسارعَ إليها في العادة، وهو نفسُ الحرص، أو ما لا ينفكُّ عنه، فناسبَ أن يضمَّن الابتغاءُ معنى الحرص، لا سيَّما وبعده استفهامٌ لا يَحسُن موقعُه دون تضمينِه؛ لأنَّ قولك: أيُّهم أقربُ إلى فلانٍ بكذا، سؤالٌ عن مميِّز أحدِهم عن الباقين بما يتقرَّب به زيادةَ فضيلةٍ مع الاستواءِ في أصل التقرُّب، فإذا ورد استئنافاً بعد فعلٍ صالحٍ لأن يكونَ معلولَه، وجب تقديرُه، ذلك لأنَّك إذا قلت: هؤلاء يَحرصون على الهدى، كان كلاماً جارياً على الظاهر، وإذا قلت: هؤلاء يَحرصون أيُّهم يكون أهدَى، أفاد أنَّ حرصَهم ذلك على الهدى مع مغالبة بعضِهم بعضاً فيه، فيكونُ أتمَّ في وصفهم بالحِرص عليه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٥٤.

ووجه الإفادة أنَّه تعقيبُه على وجهِ التعليل، وكأنَّ كلَّ واحدٍ يسأل نفسَه: أهو أهدَى أم غيرُه؟ أي: هو أشدُّ حرصاً عليه أم غيرُه؟ إذ لا معنى لهذا السؤالِ عن النفس إلَّا الحثُّ وتعرُّفُ أنَّ ثمَّتَ تقصيراً في ذلك أو لا، وعلى هذا لو قلت: يحرصون على الهدى أيُّكم يكون أهدى، عُدَّ مستهجناً؛ لأنَّ الاستئناف سدَّ مسدَّ صلتِه، كما في: أمرته فقام، و: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ﴾ [يونس:٩٩] و: ودَّ لو أنَّه أحسن، وكم وكم. فعلى هذا الطلبُ واقعٌ على الوسيلة، وهي الطاعة، والحرصُ على الأقربية بها والازديادِ منها، ولا يمكن أن يُستغنَى عن يحرصون بإجراء «أيهم أقرب» مُجرى التعليلِ لـ «يبتغون» على ما أُشير إليه؛ لأنَّ «أيهم أقرب» لا يصلُح جواباً فارقاً بين الطالبين وغيرِهم، إنَّما هو فارقٌ بين الطالبين ـ أعني المتقرِّبين ـ بعضهم مع بعض، وهو يناسب الحرصَ والشَّغَف، ولأن صلَةَ الطلب ـ أعني الوسيلةَ ـ مذكورة، وقد عرفتَ أنَّ الاستئنافَ مغنٍ عن ذلك، والجمعُ مستهجَن. اهـ.

ولَعَمري لم يُبقِ في القوس مَنزِعاً في تحقيقه، لكنَّ الوجهَ مع هذا متكلَّف. وجوَّز الحوفيُّ والزجَّاج[1] أن يكونَ «أيهم أقرب» مبتدأ وخبر، والجملةُ في محلِّ نصبٍ بينظرون، أي: يفكرون، والمعنى: ينظرون أيُّهم أقربُ فيتوسَّلون به، وكأنَّ المرادَ: يتوسَّلون بدعائه، وإلَّا ففي التوسُّل بالذَّوات ما فيه.

وتعقَّب ذلك في «البحر»[2] بأنَّ في إضمار الفعلِ المعلَّق نظراً، ومع ذا هو وجهٌ غيرُ ظاهر.

وجوَّز أبو البقاءِ[3] كونَ «أيهم أقرب» جملةً استفهاميةً في موضع نصبٍ بـ «يدعون»، وكونَ «أيُّ» موصولةً بدلاً من ضمير «يدعون».

وتعقَّب الأوَّلُ بأنَّ فيه تعليقَ ما ليس بفعل قلبيّ، والجمهورُ على منعه، وأما الثاني فقال أبو حيَّان[4]: فيه الفصلُ بين الصِّلة ومعمولِها بالجملة الحاليَّة،

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٦.
(٢) ٦/ ٥٢.
(٣) في الإملاء ٣/ ٤٨٦.
(٤) في البحر ٦/ ٥٢.

لكنه لا يَضُرّ؛ لأنَّها معمولةٌ للصلة. وأنت إذا نظرتَ في المعنى على هذا لم ترضَ أن تحملَ الآيةَ عليه.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ﴾ عطفٌ على «يبتغون»، أي: يبتغون القُربةَ بالعبادة ويتوقَّعون ﴿رَحْمَتَهُۥ﴾ تعالى ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ كدأب سائرِ العباد، فأين هم مِن مُلك كشفِ الضُّرِّ فضلاً عن كونهم آلهة؟

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ حقيقاً بأن يحذرَه ويحترزَ عنه كلُّ أحدٍ من الملائكة والرُّسلِ عليهم السلام وغيرِهم. والجملةُ تعليلٌ لقوله سبحانه: (وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ) وفي تخصيصه بالتعليل زيادةُ تحذيرٍ للكَفَرة من العذاب.

وتقديمُ الرجاءِ على الخوف لِمَا أنَّ متعلَّقه أسبقُ من متعلَّقه، ففي الحديث القدسيّ: «سَبَقَت رحمتي غضبي»[١]، وفي اتِّحاد أسلوبَي الجملتين إيماءٌ إلى تساوي رجاءِ أولئك الطالبين للوسيلة إليه تعالى بالطاعة والعبادةِ وخوفِهم، وقد ذكر العلماءُ أنَّه ينبغي للمؤمن ذلك ما لم يحضُرْه الموت، فإذا حضره الموتُ ينبغي أن يغلِّب رجاءه على خوفه.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ رجاءَ الرحمةِ وخوفَ العذاب ممَّا لا يُخلُّ بكمال العابد، وشاع عن بعضِ العابدين أنَّه قال: لست أَعبدُ اللهَ تعالى رجاء جنَّتِهِ ولا خوفاً من ناره. والناسُ بين قادحٍ لمن يقول ذلك ومادح، والحقُّ التفصيل، وهو أنَّ مَن قاله إظهاراً للاستغناء عن فضل اللهِ تعالى ورحمتِهِ، فهو مخطئٌ كافر، ومَن قاله لاعتقاد أنَّ الله عزَّ وجلَّ أهلٌ للعبادة لذاته، حتى لو لم يكن هناك جنةٌ ولا نارٌ لَكان أهلاً لأن يُعبَد، فهو محقِّق عارفٌ كما لا يخفى.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ الظاهرُ العموم؛ لأنَّ «إنْ» نافية، و«مِن» زائدةٌ لاستغراقِ الجنس، أي: وما مِن قريةٍ من القرى ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإماتة أهلِها حتفَ أنوفهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالقتل وأنواعِ البلاء. ورُوي هذا عن مقاتلٍ، وهو ظاهرُ ما رُوي عن مجاهد، وإليه ذهب الجبَّائيُّ وجماعة. ورُوي عن الأوَّل أنه قال: الهلاكُ للصالحة، والعذابُ للطالحة. وقال أيضاً: وجدتُ في

(١) سلف ١/ ١١٤.

كتاب الضحَّاك بنِ مزاحم في تفسيرها : أمَّا مكةُ فتخرِّبها الحبشة، وتهلك المدينةُ بالجوع، والبصرةُ بالغرق، والكوفةُ بالتُّرك، والجبالُ بالصواعق والرَّواجف، وأمَّا خراسانُ فهلاكُها ضروب، ثمَّ ذكر بلداً بلداً.

ورُوي عن وهب بن منبِّه أنَّ الجزيرةَ آمنةٌ من الخراب حتى تخربَ إرمينية، وإرمينيةُ آمنةٌ حتى تخربَ مِصر، ومصرُ آمنةٌ حتى تخربَ الكوفة، ولا تكون الملحمةُ الكبرى حتى تخربَ الكوفة، فإذا كانت الملحمةُ الكبرى فُتحت قُسطَنطِينية على يد رجلٍ من بني هاشم، وخرابُ الأندلسِ من قِبلَ الزّنج، وخراب إفريقيةَ من قِبَل الأندلس، وخرابُ مصرَ من انقطاع النيلِ واختلافِ الجيوشِ فيها، وخرابُ العراقِ من الجوع، وخرابُ الكوفةِ من قبل عدوٍّ يَحصرهم ويمنعهم الشُّربَ من الفرات، وخرابُ البصرةِ من قِبَل العراق[1]، وخرابُ الأُبُلَّة من عدوٍّ يَحصرهم برًّا وبحراً، وخراب الرِّيِّ من الديلم، وخرابُ خراسانَ من قِبَل النبت[2]، وخراب النبت[2] من قبل الصِّين، وخراب الهندِ واليمنِ من قِبَل الجرادِ والسُّلطان، وخرابُ مكةَ من الحبشة، وخراب المدينةِ من قِبَل الجوع.

وعن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «آخِرُ قريةٍ من قرى الإسلام خراباً المدينة» كذا نقله العلَّامة أبو السُّعود[3]، وما في كتاب الضحَّاك، وكذا ما رُوي عن وهبٍ لا يكاد يُعوَّل عليه، وما رُوي عن أبي هريرَة مقبول، وقد رواه عنه بهذا اللفظِ النَّسائيُّ، ورواه أيضاً الترمذيُّ بنحوه وقال: حسنٌ غريب[4]، ورواه أبو حيَّان[5] بلفظ: «آخِرُ قريةٍ في الإسلام خراباً المدينة».

وفي «البحور الزاخرة» أنَّ سببَ خرابِها أنَّ بعضَ أهلِها يخرجون مع المهديِّ إلى الجهاد، ثم تَرجُف بمنافقيها وتَرميهم إلى الدجَّال، ويهاجر بعضُ المخلصين

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب الغرق، كما في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٨٠، ونسخة في هامش السنن الواردة في الفتن(٤٥٦)، والخبر مخرج فيه.

(٢) كذا في (م)، وفي الأصل: المنبت، والصواب: التبت، كما في إرشاد العقل السليم، والسنن الواردة في الفتن.

(٣) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٨٠.

(٤) سنن الترمذي (٣٩١٩)، ولم نقف عليه عند النسائي.

(٥) لعله أراد أن يكتب ابن حبان فسها به قلمه، فالحديث في صحيحه (٦٧٧٦) بلفظ المصنف.

إلى بيت المقدسِ عند إِمامهم، ومَن بقي منهم تَقبِضُ الريحُ الطيِّبة روحَه، فتبقَى خاوية.

ويأبى كونَها سببُ خرابها الجوعُ ـ حَسبما سمعتَ عن الضحَّاك وابنِ منبِّه ـ ظاهرُ ما أَخرجه الشيخان[١]: «لتُترَكنَّ المدينةُ على خيرِ ما كانت، مذَلَّلة ثمارُها، لا يغشاها إلَّا العوافي ـ الطيرُ والسِّباع ـ وآخِر مَن يُحشر راعيان من مُزَينة..» الحديثَ.

وأَخرج الإمام أحمدُ[٢] بسندٍ رجالُه ثقات: «المدينةُ يتركها أهلُها وهي مُرطِبة» قالوا: فمَن يأكلها؟ قال: «السِّباعُ والعوافي».

وما ذُكر من أنَّ مكةَ تخرِّبها الحبشةُ ثابتٌ في الصحيحين وغيرِهما، لكن بلفظ: «يخرِّب الكعبةَ ذو السَّويقتين من الحبشة»[٣]، وفي حديثِ حذيفةَ مرفوعاً: «كأنِّي أَنظر إلى حبشيٍّ أحمرِ الساقين، أزرقِ العينين، أَفطسِ الأنف، كبيرِ البطن، وقد صفَّ قدميه على الكعبةِ هو وأصحابٌ له، يَنقضونها حجراً حجراً، ويتداولونها بينهم حتى يطرحوها في البحر»، وفي حديثِ أحمدَ[٤] عن أبي هريرةَ أنَّه تجيءُ الحبشةُ فيخرِّبونه، أي: البيت، خراباً لا يعمر بعده أبداً.

نعم اختُلف في أنَّه متى يكون ذلك؟ فقيل: زمنَ عيسى عليه السلام. وقيل: حينَ لا يبقى على الأرض مَن يقول: الله، وهو آخرُ الآيات. ومال إلى ذلك السَّفاريني، وظاهرُ ما تقدَّم في المدينة من الأَخبار بأَنَّها آخرُ قرى الإسلام خراباً يقتضي أنَّ خرابَ مكةَ قبلها، واللهُ تعالى أعلم.

وما ذُكر في خبر ابنِ منبِّه من أنَّ مصرَ آمنةٌ حتى تخربَ الكوفةُ ـ إن صحَّ ـ يقتضي أنَّ الكوفةَ تُعمَر ثم تخرب، وإلَّا فهي قد خربت منذ مئاتٍ من السنين وبقيت إلى الآن خراباً، ومصرُ آمنةٌ عامرةٌ على أحسنِ حالِ اليوم، وبِعمارتها ـ حَسبما يقتضيه

---

(١) صحيح البخاري (١٨٧٤)، وصحيح مسلم (١٣٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في مسنده (١٤٥٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٣) صحيح البخاري (١٥٩١)، وصحيح مسلم (٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) في مسنده (٧٩١٠).

الخبرُ ـ جاءت آثارٌ عديدةٌ، كما لا يخفَى على مَن طالع الكتبَ المؤلَّفة في أَمارات الساعةِ وأخبارِ المهديِّ والسُّفياني، إلَّا أنَّ في أكثرها للمنقِّر مقالاً. وزعم البونيُّ وأَضرابُه أنَّها تعمر في أواخر القرنِ الثالثَ عشر، وقد أخذوا ذلك من كلام الشيخِ محيي الدين قدِّس سرُّه. وأنتَ تعلم أنه أشبهُ شيءٍ بالهندية، ولا يكاد يُعدُّ من اللغة العربية.

وما ذُكر من أنَّ خرابَ العراقِ من الجوع يعمُّ بغدادَ؛ فإنَّها قاعدته.

وقال القاضي عياضٌ في «الشِّفا»[1]: رُوي أنَّه ﷺ قال: «تُبنَى مدينةٌ بين دجلة ودُجَيل وقُطْرُبُلَّ والصَّرَاة، تنتقل إليها الخزائن، يُخسَف بها»[2] يعني بغداد. وهذا صريحٌ في أنَّ هلاكَها بالخسف لا بالجوع، لكن ذكر المحدِّثون أنَّ في سند الخبرِ مجهولاً.

ثم الظاهرُ ـ على هذا التفسير ـ أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ إلخ مقيَّد بمثل ما قيِّد به المعطوفُ عليه، فيكون كلٌّ من الإهلاك والتعذيبِ قبل يومِ القيامة، أي: في الزمان القريبِ منه. وقد شاع استعمالُ ذلك بهذا المعنى، وستسمعه قريباً إن شاء اللهُ تعالى في الحديث، وإنكارُه مكابرةٌ غيرُ مسموعة، وكأنَّه سبحانه بعد أنْ ذكر من شأن البعثِ والتوحيدِ ما ذكر، ذكر بعضَ ما يكون قبلَ يومِ البعث ممَّا يدلُّ على عظمتِه سبحانه، وفيه تأييدٌ لما ذكر قبله، وقد صحَّ أنَّه بعد موتِ عيسى عليه السلام تجيءُ ريحٌ باردة من قِبَل الشام، فلا تُبقي على وجه الأرضِ أحداً في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من إيمانٍ إلَّا قبضته، فيبقى شرارُ الناسِ، وعليهم تقومُ الساعة[3].

وجاء في غيرِ ما خبرٍ ما يصيب الناسَ قبل قيامِها من العذاب، فمن ذلك ما أَخرجه الطبرانيُّ وابنُ عساكرٍ[4] عن حذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه: «لتَقصدنَّكم نارٌ هي اليومَ خامدةٌ في وادٍ يقال له: بَرَهُوت، يغشى الناسَ فيها عذابٌ أليم، تأكل الأنفسَ

---

(١) ١/ ٧٠٣.

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه ١/ ٢٨، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٢٦ وقال: هذا حديث منكر.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٤) بنحوه.

(٤) في تاريخه ٦٤/ ٢٦٧، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٩٢، ولم نقف عليه عند الطبراني.

والأموال، تدور الدنيا كلَّها في ثمانيةِ أيام، تطير طيرانَ الريحِ والسَّحاب، حرُّها بالليل أشدُّ مِن حرِّها بالنهار، ولها بين السماءِ والأرض دويٌّ كدويِّ الرعدِ القاصف» قيل: يا رسول الله، أسليمةٌ يومئذٍ على المؤمنين والمؤمنات؟ قال: «وأين المؤمنون والمؤمنات؟ الناسُ يومئذٍ شرٌّ من الحُمُر، يتسافدون كما يتسافد البهائمُ، وليس فيهم رجلٌ يقول: مَه مَه» إلى غير ذلك من الأخبار.

ولا يَبعُد بَعْدَ أن اعتُبر العمومُ في القرية حملُ الإهلاك والتعذيبِ على ما تضمَّنته تلك الأخبارُ مِن إماتة المؤمنين بالرِّيح وتعذيبِ الباقين من شِرار الناسِ بالنار المذكورة، وصحَّ أنَّها تسوقهم إلى المحشر، وورد أنَّهم يتَّقون بوجوههم كلَّ حدبٍ وشوك، وأنَّه تُلقَى الآفةُ على الظَّهر حتى لا تبقَى ذاتُ ظهر، حتى إنَّ الرجل لَيعطي الحديقةَ المعجبةَ بالشارف ذاتِ القَتَب ليفرَّ عليها.

وكونُ ذلك قبلَ يومِ القيامة هو المعوَّلُ عليه، وقد اعتمده الحافظُ ابن حجر[1]، وصوَّبه القاضي عِياض، وذهب إليه القرطبيُّ والخطَّابي، وجاء مصرَّحاً به في بعض الأحاديث، فقد أخرج الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[2] ـ وقال: حسنٌ صحيح ـ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما مرفوعاً: «ستخرج نارٌ من حَضْرَمَوت، أو من بحرِ حضرموت، قبلَ يومِ القيامةِ تحشر الناس...» الحديثَ. ولا يَبعُد أن يعذَّبوا بغير ذلك أيضاً، بل في الآثار ما يقتضيه.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الإهلاكِ والتعذيب ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللَّوح المحفوظ، كما رُوي عن إبراهيمَ التيميِّ وغيرِه ﴿مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ مكتوباً. وذكر غيرُ واحدٍ أنَّه ما من شيءٍ إلا بيِّن فيه بكيفيَّاته وأسبابِه الموجِبة له ووقتِه المضروبِ له.

واستُشكل العمومُ بأنَّه يقتضي عدمَ تناهي الأبعاد، وقد قامت البراهينُ النقليةُ والعقليةُ على خلافِ ذلك، فلا بدَّ أن يقالَ بالتخصيص، بأن يحملَ الشيءُ على ما يتعلَّق بهذه النشأةِ أو نحوِ ذلك.

وقال بعضُهم بالعموم، إلَّا أنَّه التزم كونَ البيانِ على نحوٍ يجتمع مع التَّناهي،

---

(١) في فتح الباري ١١/ ٣٨١.

(٢) مسند أحمد (٥٥٣٦)، وسنن الترمذي (٢٢١٧).

فاللوحُ المحفوظ في بيانه جميع الأشياءِ الدنيويةِ والأُخروية وما كان وما يكون، نظيرُ الجفرِ الجامعِ في بيانه لما يبيِّنه، وقد رأيتُ أنا صحيفةً للشيخ الأكبرِ قدِّس سرُّه ادَّعى أنَّه يعلم منها ما يقع في أرض المحشرِ يومَ القيامة، وأخرى ادَّعى أنَّه يعلم منها أسماءَ أهلِ الجنةِ والنارِ وأسماءَ آبائهم، وأخرى ادَّعى أنَّه يعلم منها الحوادثَ التي تكون في الجنة. وقَبولُ هذه الدعاوى وردُّها مفوَّض إليك.

وفسَّر بعضُهم «الكتابَ» بالقضاء السابق، ففي الكلام تجوُّز لا يخفى.

هذا وذهب أبو مسلم إلى أنَّ المراد: ما من قريةٍ من قرى الكفَّار، واختاره المولى أبو السُّعود[1]، وجَعَلَ الآيةَ بياناً لتحتُّم حلولِ عذابِه تعالى بمَن لا يحذره إثرَ بيانِ أنَّه حقيقٌ بالحذر، وأنَّ أساطينَ الخلقِ من الملائكة والنبيِّين عليهم السلام على حَذَرٍ من ذلك. وذَكَرَ أنَّ المعنى: ما مِن قريةٍ من قرى الكفَّارِ إلَّا نحن مخربوها البتَّةَ بالخسف بها، أو بإهلاك أهلِها بالمرَّة لِمَا ارتكبوا من عظائم الموبقاتِ المستوجبةِ لذلك، أو معذِّبو أهلِها عذاباً شديداً لا يُكتنَه كُنهُه، والمراد به ما يعمُّ البلايا الدنيويةَ من القتل والسَّبي ونحوهما، والعقوباتِ الأخرويةَ ممَّا لا يعلمه إلَّا اللهُ تعالى، حَسبما يُفصح عنه إطلاقُ التعذيب عمَّا قيِّد به الإهلاكُ من قَبْلية يومِ القيامة، ولا يخصُّ بالبلايا الدنيوية، كيف وكثيرٌ من القرى العاتيةِ العاصيةِ قد أُخِّرت عقوبتُها إلى يوم القيامة؟ ثم إنَّه يحتمل أن يقال في وجه الرّبطِ على تقدير التخصيص: إنَّه سبحانه بعد أن أشار إلى أنَّ الكفرةَ المخاطَبين في بلاءٍ وضُرّ، وأنَّ آلهتهم لا يملكون كشفَ ذلك عنهم ولا تحويلَه، أشار إلى أنَّ مثلَ ذلك لا بدَّ وأن يصيبَ الكفرة، ولا يملك أحدٌ كشفَه ولا تحويلَه عنهم. وهذا ظاهرٌ بناءً على ما تقدَّم عن البعض في سبب النزولِ الذي بسببه فسِّر الضُّرُّ بالقحط، فتأمَّل.

وفي اختيار صيغةِ الفاعل في الموضعين ـ وإنْ كانت بمعنى المستقبل ـ من الدَّلالة على التحقُّق والتقرُّر ما فيه. والتقييدُ بيوم القيامة؛ لأنَّ الإهلاكَ يومئذٍ غيرُ مختصٍّ بالقرى الكافرة، ولا هو بطريق العقوبة، وإنَّما هو لانقضاء عُمْرِ الدنيا.

ثم قال: إنَّ تعميمَ القريةِ لا يساعده السِّياق ولا السِّباق. اهـ. وفيه تأمُّل.

---

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧٩.

ومن الناس مَن رجَّحه على ما سبق بأنَّ فيه حملَ الإهلاك على ما يتبادر منه، وهو ما يكونُ عن عقوبة، ولا كذلك فيما سبق.

وأُجيب بأنَّ ذلك سهل، فقد استُعمل في مقام التخويفِ فيما لم يكن عن عقوبة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الآياتِ التي اقترحتها قريش، فقد أخرج أحمدُ، والنسائيّ، والحاكمُ وصحَّحه، والطبرانيّ[1]، وغيرُهم عن ابن عباسٍ قال: سأل أهلُ مكةَ النبيَّ ﷺ أن يجعلَ لهم الصَّفا ذهباً، وأن ينحِّيَ عنهم الجبالَ فيزرعوا، فقيل له: إن شئتَ أن تستأنيَ بهم، وإن شئت أن تؤتيَهم الذي سألوا، فإنْ كفروا أُهلكوا كما أُهلكت مَن قبلهم من الأمم، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا، بل أستأني بهم» فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية.

و«أنْ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ منصوبٍ على أنَّه مفعولُ منع، على ما صرَّح به الطَّبرسي[2].

أو منصوبٌ بنزع الخافض ـ كما قيل ـ لتعدِّي الفعلِ إلى مفعوله الثاني بالحرف، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ [النساء: ١٤١] أي: وما منعنا الإرسالَ أو من الإرسال بالآيات ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا﴾ أي: بجنسها ﴿ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ من الأمم السابقةِ المقترِحة.

والاستثناءُ مفرَّغ من أعمِّ الأشياء، و«أنْ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ فاعل منع، أي: ما منعنا شيءٌ من الأشياء إلَّا تكذيبُ الأوَّلين. وزعم أبو البقاءِ[3] أنَّه على تقديرِ مضاف، أي: إلَّا إهلاكُ تكذيبِ الأوَّلين، ولا حاجةَ إليه عند الآخرين.

والمنعُ لغةً: كفُّ الغير وقَسْرُه عن فعلٍ يريد أن يفعلَه، ولاستحالة ذلك في حقِّه سبحانه لاستلزامه العجزَ المحالَ المنافيَ للرُّبوبية قالوا: إنَّه هنا مستعارٌ للصَّرف، وأنَّ المعنى: وما صرفنا عن إرسال الآياتِ المقترَحة إلَّا تكذيبُ الأوَّلين المقترِحين المستتبعُ لاستئصالهم، فإنَّه يؤدِّي إلى تكذيب الآخِرين المقترحين بحكم اشتراكِهم

(١) مسند أحمد (٢٣٣٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٢٦)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٣٦٢، والمعجم الكبير (١٢٧٣٦).
(٢) في مجمع البيان ١٥/ ٦٤.
(٣) في الإملاء ٣/ ٤٨٧.

في العُتوِّ والعناد، وهو مُفضٍ إلى أن يَحلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بهم بحكم الشَّركة في الجريرة والفساد، وجريانِ السنَّة الإلهية والعادةِ الربَّانية بذلك، وفعلُ ذلك بهم مخالفٌ لِمَا كُتب في لوح القضاءِ بمداد الحكمةِ من تأخير عقوبتهم، وحاصلُه: إنَّا تركنا إرسالَ الآياتِ لسبق مشيئتنا تأخيرَ العذابِ عنهم لحِكَمٍ نعلمها.

واستشعر بعضُهم من الصَّرف نوعَ محذورٍ، فجعل المنعَ مجازاً عن التَّرك.

وتعقِّب بأنَّه لا يصحُّ مع كون الفاعلِ التكذيب؛ لأنَّ التاركَ هو اللهُ تعالى.

وأُجيب بأنَّ دعوى لزومِ اتِّحاد الفاعلِ في المعنى الحقيقيِّ والمستعارِ له ممَّا لم يَقُمْ عليه دليل، بل الظاهرُ خلافه.

وذكر بعض المحقِّقين ـ ولله تعالى أبوه وإنْ نوقش ـ أنَّ تكذيبَ الأوَّلين المستتبعَ للاستئصال، والمستلزمَ لتكذيب الآخِرين المفضي لحلول الوبال، منافٍ لإرسال الآياتِ المقترَحة؛ لتعيُّن التكذيبِ المستدعي لِمَا ينافي الحكمةَ في تأخير عقوبةِ هذه الأمَّة، فعبَّر عن تلك المنافاةِ بالمنع على نهجِ الاستعارة، إيذاناً بتعاضُد مبادي الإرسال، لا كما زعموا من عدم إرادته تعالى لتأييد رسولِه ﷺ بالمعجزات، وهو السرُّ في إيثار الإرسال على الإيتاء؛ لمَا فيه من الإشعار بتداعي الآياتِ إلى النزول لولا أن تُمسكَها يدُ التقدير.

وإسنادُ المنعِ إلى تكذيب الأوَّلين لا إلى عِلمه تعالى بما سيكون من المقترِحين الآخِرين كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] لإقامة الحجَّة عليهم بإبراز الأُنموذج، وللإيذان بأنَّ مدارَ عدم الإجابة إلى إيتاءِ مقترَحهم ليس إلَّا صنيعُهم.

ثم حكمةُ التأخيرِ، قيل: إظهارُ مزيدِ شرف النبيِّ ﷺ. وقيل: العنايةُ بمَن سيولد من بعضِهم من المؤمنين وبمَن سيؤمن منهم. وينبغي أن يزادَ في كل إلى غير ذلك مثلاً، وإلَّا فلا حصر.

وقيل: معنى الآية: إنَّا لا نرسلُ الآياتِ المقترحةَ لِعلمنا بأنَّهم لا يؤمنون عندَها كما لم يؤمن بها مَن اقترحوها قبلَهم، فيكون إرسالُها عبثاً لا فائدةَ فيه، والحكيمُ لا يفعله.

وأنتَ تعلم أنَّه إذا كان إرسالُ المقترَح إذا لم يؤمِنْ عنده المقترِح عبثاً لا يفعله الحكيمُ، أَشكلَ فِعلُه من أوَّل مرَّة، على أنَّ ما رُوي في سبب النزولِ يقتضي التفسيرَ الأوَّل كما لا يخفَى، وفسِّرت الآياتُ بالمقترَحة؛ لأنَّ ما بها إثباتُ دعوى الرسالةِ من مقتضيات الإرسال، وما زاد على ذلك ولم يكن عن اقتراحٍ لطفٌ من المَلِك المتعال.

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ عطفٌ على ما يُفصح عنه النظمُ الكريم، كأنَّه قيل: وما منعنا أن نُرسلَ بالآيات إلَّا أن كذَّب بها الأوَّلون حيث آتيناهم ما اقترحوا على أنبيائهم عليهم السلامُ من الآيات الباهرةِ فكذَّبوها، وآتينا ثمودَ الناقةَ باقتراحهم على نبيِّهم صالحٍ عليه السلام، وأَخرجناها لهم من الصَّخرة ﴿مُبْصِرَةً﴾ على صيغة اسمِ الفاعل، حالٌ من الناقة. والمراد: ذاتَ إبصار، أو ذات بصيرةٍ يُبصِرها الغير ويتبصَّر بها، فالصيغةُ للنَّسب. أو جاعلةً الناسَ ذوي بصائر، على أنَّه اسمُ فاعل مِن أَبصَرَه، والهمزةُ للتعدية، أي: جعله ذا بصيرةٍ وإدراك، ويحتمل أن يكونَ إسنادُ الإبصار إليها مجازاً، وهو في الحقيقة حالُ مَن يشاهدها.

وقرأ قوم: «مُبْصَرَةً» بزنة اسم المفعول(١)، أي: يُبصرها الناس. ولا خفاءَ في ذلك.

وقرأ قتادة: «مَبْصَرةً» بفتح الميم والصاد(٢)، أي: محلَّ إبصار، بجعل الحاملِ على الشيءِ بمنزلة محلِّه، نحو: «الولدُ مَبخَلَة مَجبَنَة»(٣).

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «مُبصِرةٌ» بزنة اسم الفاعلِ والرفعِ(٤) على إضمار مبتدأ، أي: هي مُبصِرة.

وقرأ الجمهور: «ثمود» ممنوعاً من الصرف. وقال هارون: أهل الكوفة ينوِّنون في كلِّ وجه، وقال أبو حاتم: لا تنوِّن العامَّة والعلماء بالقرآن «ثمود» في وجهٍ من الوجوه، وفي أربعة مواطنَ أَلِفٌ مكتوبة، ونحن نقرؤه بغير ألف. اهـ.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٥٣.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر المحيط ٦/ ٥٣.
(٣) سلف ٤/ ٦١.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٥٣.

وهو- كما قال الراغب[1] - عجمي. وقيل: عربي، وتركُ صرفِه لكونه اسمَ قبيلة. وهو فعولٌ من الثَّمد، وهو الماءُ القليلُ الذي لا مادَّةَ له، ومنه قيل: فلانٌ مثمودٌ ثَمَدَتْه النساءُ، أي: قطعن مادةَ مائه لكثرة غشيانِه لهنَّ، ومثمود، إذا كَثُرَ عليه السُّؤَّالُ حتى نفدت مادَّةُ مالِه.

وصحَّح كثيرٌ عربيَّته، أي: آتينا تلك القبيلةَ الناقةَ ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ أي: فكفروا بها وجحدوا كونَها من عند اللهِ تعالى لتصديق رسولِه. أو: فكفروا بها ظالمين، أي: لم يكتفوا بمجرَّد الكفرِ بها، بل فعلوا بها ما فعلوا من العَقر. أو ظلموا أنفسَهم وعرَّضوها للهلاك بسبب عَقرِها.

ولعلَّ تخصيصَ إيتائها بالذِّكر لِمَا أنَّ ثمودَ عربٌ مثلُ أهلِ مكَّة المقترِحين، وأنَّ لهم من العلم بحالهم ما لا مزيدَ عليه، حيث يشاهدون آثارَ هلاكِهم؛ لقُرب ديارِهم منهم وروداً وصدوراً. وجوَّز أن يكونَ ذلك لأنَّ الناقةَ من جهة أنَّها حيوانٌ أُخرج من الحجر أوضحُ دليلٍ على تحقُّق مضمونِ قولِه تعالى: (قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا) إلخ. والأوَّل أقرب.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ أي: لمن أُرسلت عليهم، والمرادُ بها إمَّا المقترَحة، فالتخويفُ بالاستئصال لإنذارها به في عادة اللهِ تعالى، أي: ما نُرسلها إلَّا تخويفاً من العذاب المستأصِل كالطَّليعة له، فإنْ لم يخافوا فُعل بهم ما فُعل، وإمَّا غيرُها، كآيات القرآنِ والمعجزات، فالتخويفُ بعذاب الآخرةِ دون العذابِ الدنيويِّ بالاستئصال، أي: ما نُرسلها إلَّا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة.

واستظهر أبو حيَّان[2] كونَ المرادِ بها الآياتِ التي معها إمهال، كالخسوف والكسوفِ، وشدَّةِ الرعد والبرقِ، والرِّياح والزَّلازل، وغَور ماءِ العيون وزيادتِها على الحدِّ حتى يغرقَ منها بعضُ الأَرَضين. وعدَّ الحسنُ من ذلك الموتَ الذَّريع، أي: ما نُرسلها إلَّا تخويفاً مما هو أعظمُ منها.

أَخرج ابن جَرير[3] عن قتادةَ قال: إنَّ اللهَ تعالى يخوِّف الناسَ بما شاء من آياته لعلَّهم يُعتِبون، أو يذَّكَّرون ويرجعون.

---

(١) في المفردات (ثمد).

(٢) في البحر ٦/ ٥٣.

(٣) في تفسيره ١٤/ ٦٣٨.

وذكر ابنُ عطيةَ[1] أنَّ آياتِ اللهِ تعالى المعتَبَر بها ثلاثةُ أقسام: قسمٌ عامٌّ في كلِّ شيءٍ:

فـفـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـة تـدلُّ عـلـى أنَّـه واحـدُ[2]

وهناك فِكرةُ العلماء. وقسمٌ معتاد، كالرَّعد والكسوف، وهناك فكرةُ الجَهَلة. وقسمٌ خارقٌ للعادة، وقد انقضى بانقضاءِ النبوَّة، وإنَّما يُعتبر اليومَ بتوهُّم مثلِه وتصوُّره. اهـ.

وفيه غفلةٌ عن الكرامة، فإنَّ أهل السنَّة يُثبتونها للوليِّ في كلِّ عصر.

والجملةُ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب. وجوِّز على الوجه الأوَّل أن تكونَ حالاً من ضميرِ «ظلموا»، أي: فظلموا بها ولم يخافوا العاقبةَ والحالُ أنَّا ما نُرسل بالآيات التي هي مِن جملتها إلَّا تخويفاً من العذاب الذي يعقبها، فنزل بهم ما نزل.

ونصب «تخويفاً» على أنه مفعولٌ له. وجوِّز أن يكونَ حالاً، أي: مخوِّفين، والباءُ في الموضعَين سيفُ خطيب[3]، و«الآيات» مفعولُ «نرسل»، أو للملابسة والمفعولُ محذوف، أي: ما نرسل نبيًّا ملتبساً بها، وقيل: إنَّها للتعدية، وإنَّ «أرسل» يتعدَّى بنفسه وبالباء. ورُدَّ بأنَّه لم يُنقَل عن أحدٍ من الثِّقات، قال الخفاجي[4]: ولا حجَّةَ في قولِ كثيِّر[5]:

لقد كذب الواشون ما بُحتُ عندهم بـسـرٍّ ولا أرسـلـتـهـم بـرسـولِ

لاحتمال الزيادةِ فيه أيضاً، مع أنَّ الرسولَ فيه بمعنى الرِّسالة، فهو مفعولٌ مطلق، والكلامُ في دخولها على المفعول به، ولا يخفَى أنَّ جعلَ الرسولِ مفعولاً به وزيادة الباءِ فيه ممَّا لا يُقدِم عليه فاضل.

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكُر زمانَ قولِنا بواسطة الوحيِ ﴿لَكَ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِۚ﴾ أي: علماً، كما رواه غيرُ واحدٍ عن ابن عباس ﵄، فلا يخفَى عليه

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٧.

(٢) سلف ١/ ٢٧١.

(٣) أي: زائدة للتوكيد.

(٤) في حاشيته ٦/ ٤٤.

(٥) ديوانه ص٢٧٨، وسلف ٢/ ٣٤١.

سبحانه شيءٌ من أحوالهم وأفعالِهم الماضيةِ والمستقبلةِ من الكفر والتكذيب.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية، تنبيهٌ على تحقُّقها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجيءِ بعض الآيات؛ لاشتراك الكلِّ في كونها أموراً خارقةً للعادات، منزلةً من جناب ربِّ العزَّة جلَّ مجدُه لتصديق رسولِه عليه الصلاة والسلام، فتكذيبُهم ببعضها يدلُّ على تكذيب الباقي، كما أنَّ تكذيبَ الأوَّلين بغير المقترَحة يدلُّ على تكذيبهم بالمقترَحة.

والمرادُ بـ «الرؤيا» ما عاينه ﷺ ليلةَ أُسري به من العجائب السماويةِ والأرضية، كما أَخرجه البخاريُّ والترمذيُّ والنسائيُّ وجماعةٌ عن ابن عباس[1]، وهي عند كثيرٍ بمعنى الرؤيةِ مطلقاً، وهما مصدرُ رأى، مثل: القُربى والقَرابة.

وقال بعض: هي حقيقةٌ في رؤيا المنامِ ورؤيا اليقظةِ ليلاً.

والمشهورُ اختصاصُها لغةً بالمناميَّة، وبذلك تمسَّك مَن زعم أنَّ الإسراءَ كان مناماً، وفي الآية ما يردُّ عليه، والقائلون بهذا المشهورِ الذاهبون إلى أنَّه كان يقظة ـ كما هو الصحيح ـ قالوا: إنَّ التعبيرَ بها إمَّا مشاكلةً لتسميتهم له رؤيا، أو جارٍ على زعمهم كتسميةِ الأصنامِ آلهة؛ فقد رُوي أنَّ بعضَهم قال له ﷺ لمَّا قصَّ عليهم الإسراء: لعله شيءٌ رأيتَه في منامك. أو على التشبيه بالرؤيا لِمَا فيها من العجائب، أو لوقوعها ليلاً، أو لسرعتها، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناكَها عياناً مع كونها آيةً عظيمة، وأيَّةُ آية، وقد أقمتُ البرهانَ على صحَّتها إلَّا فتنةً افتتن بها الناس، حتى ارتدَّ بعضُ مَن أسلم منهم.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ﴾ عطفٌ على «الرؤيا» أي: وما جعلنا الشجرةَ ﴿ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ إلَّا فتنةً لهم أيضاً.

والمرادُ بها ـ كما روى البخاريُّ[2] وخلقٌ كثيرٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ شجرةُ الزقُّوم. والمرادُ بلعنها لعنُ طاعميها من الكفرة، كما رُوي عنه أيضاً، ووصفُها بذلك من المجازِ في الإسناد، وفيه من المبالغةِ ما فيه. أو لعنها نفسَها، ويراد

(١) انظر أحاديث الإسراء في بداية الجزء.
(٢) في صحيحه (٣٨٨٨).

باللَّعن معناه اللغويّ، وهو البُعد، فهي في أَبعدِ مكانٍ من الرحمة ـ وهو أصلُ الجحيم الذي تنبت فيه ـ ملعونةٌ حقيقة.

وأَخرج ابنُ المنذر عن الحَبر أنَّها وُصفت بالملعونة لتشبيه طلعِها برؤوس الشياطين، والشياطينُ ملعونون[(١)]. وقيل: تقول العربُ لكلِّ طعامٍ مكروهٍ ضارٍّ: ملعون.

ورُوي في جعلها فتنةً لهم أنَّه لمَّا نزل في أمرها في «الصافَّات»[(٢)] وغيرِها ما نزل، قال أبو جهلٍ وغيرُه: هذا محمدٌ يتوعَّدكم بنارٍ تحرق الحجارة، ثم يقول: ينبت فيها الشَّجر، وما نعرف الزُّقومَ إلَّا التمرَ بالزُّبد، وأمر أبو جهلٍ جاريةً له فأحضرت تمراً وزُبداً، وقال لأصحابه: تزقَّموا[(٣)].

وافتتن بهذه المقالةِ أيضاً بعضُ الضعفاءِ، ولقد ضلُّوا في ذلك ضلالاً بعيداً، حيث كابروا قضيةَ عقولِهم؛ فإنَّهم يرَون النعامةَ تبتلع الجمرَ وقِطَعَ الحديد المحمَّاة الحُمْرَ فلا تضرُّها، والسَّمَنْدلَ[(٤)] يُتَّخذ من وَبَره مناديلُ تُلقى في النار إذا اتَّسخت، فيذهب الوسخُ وتبقَى سالمة، ومن أمثالهم: في كلِّ شجرٍ نار، واستمجدَ المَرْخُ والعَفَار[(٥)].

وعن ابن عباسٍ أنَّها الكَشوث[(٦)] المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦] ولعنُها في القرآن وصفُها فيه بما سمعتَ في هذه الآية، ومرَّ آنفاً ما مرَّ عن العرب، والافتتانُ بها أنَّهم قالوا عند سماعِ الآية: ما بالُ الحشائشِ تُذكَر في القرآن. والمعوَّل عليه عند الجمهورِ روايةُ الصحيحِ عن الحَبر.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٢.

(٢) في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ إلخ [الآيات: ٦٢-٦٧].

(٣) أخرجه أحمد (٣٥٤٦)، والنسائي في الكبرى (١١٤٢٠)، وأبو يعلى (٢٧٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه.

(٤) طائر بالهند لا يحترق بالنار.

(٥) مجدت الإبل تمجد مجوداً: إذا نالت من الخَلَى قريباً من الشبع، واستمجد المرخ والعفار: استكثرا وأخذا من النار ما هو حسبهما، شبها بمن يكثر العطاء طلباً للمجد. يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض. مجمع الأمثال ٢/ ٧٤.

(٦) نبات مجتث مقطوع الأصل. اللسان (كشث).

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «والشجرةُ» بالرفعِ[(١)] على الابتداءِ وحذفِ الخبر، أي: والشجرةُ الملعونةُ في القرآن كذلك.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بذلك ونظائرِه من الآيات، فإنَّ الكلَّ للتخويف، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال للدَّلالة على الاستمرار التجدُّدي.

وقرأ الأعمش: «ويخوِّفهم» بالياءِ آخرِ الحروف[(٢)].

﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويفُ ﴿إِلَّا طُغْيَنًا﴾ تجاوزاً عن الحدّ ﴿كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ لا يقادَر قَدْرُه، فلو أَرسلنا بما اقترحوه من الآيات، لَفعلوا بها فِعلَهم بأَخواتها، وفُعِل بهم ما فُعل بأَمثالهم، وقد سبقت كلمتُنا بتأخير العقوبةِ العامَّة إلى الطَّامَّة الكبرى. هذا فيما أَرى هو الأَوفقُ بالنَّظم الكريم، واختاره في «إرشاد العقل السليم»[(٣)].

وعن الحسنِ ومجاهدٍ وقتادةَ وأكثرِ المفسِّرين تفسيرُ الإِحاطة بالقدرة، والكلامُ مسوقٌ لتسلية رسولِ الله ﷺ عمَّا عسى يعتريه من عدم الإِجابة إلى إنزال الآياتِ المقترَحة لمخالفتها للحكمة مِن نوعِ حزنٍ مِن طَعْنِ الكفرة، حيث كانوا يقولون: لو كنتَ رسولاً حقًّا لأَتيت بهذه المعجزةِ كما أَتى بها مَن قبلك مِن الأنبياءِ عليهم السلام. فكأنَّه قيل: اذكر وقتَ قولِنا لك: إنَّ ربَّك اللطيفَ بك قد أَحاط بالناس، فهم في قبضة قدرتِه، لا يَقدرون على الخروج من ربقة مشيئته، فهو يحفظُك منهم، فلا تهتمَّ بهم، وامضِ لِمَا أمرتُك به من تبليغ الرِّسالة، ألا ترى أنَّ الرؤيا التي أريناك من قبلُ جعلناها فتنةً للناس مورثةً للشُّبهة، مع أنَّها ما أَورثت ضعفاً لأمرك وفتوراً في حالك؟

وبعضُهم حمل الإحاطةَ على الإحاطة بالعلم، إلَّا أنَّه ذَكَرَ في حاصل المعنى ما يَقرُب ممَّا ذكر، فقال: أي: إنَّه سبحانه عالمٌ بالناس على أتمِّ وجه، فيعلم قصدَهم إلى إيذائك إذا لم تأتِهم بما اقترحوا ويَعصمُك منهم، فامضِ على ما أنت فيه من التبليغ والإنذار، ألا ترى. . . إلخ.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٥٦.

(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر ٦/ ٥٦.

(٣) ٥/ ١٨١.

ولا يخفَى أنَّ ذكر الربِّ مضافاً إلى ضميره ﷺ، وأَمْرَه عليه الصلاة والسلام بذِكر ذلك القولِ أَنسبُ بكون الآيةِ مسوقةً لتسليته على الوجه الذي نُقل، وذِكْرَ التخويفِ وأنَّه ما يَزيدهم إلَّا طغياناً كبيراً أوفقُ بما فسِّرت به الآيةُ أولاً. وادَّعى بعضُهم أنَّه لا يخلو عن نوعِ تسلية.

وقيل: الإحاطةُ هنا الإهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف:٤٢] والناسُ قريش، ووقتُ ذلك الإهلاكِ يومُ بدر، وعبّر عنه بالماضي مع كونه منتظراً حَسبما ينبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥] وقولُه سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ١٢] وغيرُ ذلك؛ لتحقُّق الوقوع.

وأوِّلت الرؤيا بما رآه ﷺ في المنامِ من مصارعهم، كما صرِّح به في بعض الرِّوايات وصحَّ أنَّه ﷺ لمَّا ورد ماءَ بدرٍ كان يقول: «واللهِ لَكأني أَنظر إلى مصارعِ القوم» وهو يضع يدَه الشريفةَ على الأرضِ هاهنا وهاهنا ويقول: «هذا مصرعُ فلان، هذا مصرع فلان»[(١)]. وهو ظاهرٌ في كون ذلك مناماً.

ويُروى أنَّ قريشاً سمعت بما أُوحي إلى رسول اللهِ ﷺ في شأن بدرٍ وما أُري في منامه من مصارِعهم، فكانوا يضحكون ويسخرون، وهو المرادُ بالفتنة، وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنَّه سيدخل مكةَ وأخبر أصحابَه فتوجَّه إليها فصدَّه المشركون عامَ الحديبية. وإليه ذهب أبو مسلمٍ والجبَّائي، واعتذر عن كون ما ذُكر مدنيًّا بأنَّه يجوز أن يكونَ الوحيُ بإهلاكهم ـ وكذا الرُّؤيا ـ واقعاً بمكَّة، وذِكرُ الرُّؤيا وتعيينُ المصارعِ واقعَين بعد الهجرة، ويلزمُ منه أن يكونَ الافتتانُ بذلك بعد الهجرة، وأن يكونَ ازديادُهم طغياناً متوقَّعاً غيرَ واقعٍ عند نزولِ الآية، وكلُّ ذلك خلافُ الظاهر.

وأخرج ابن جريرٍ[(٢)] عن سهلِ بن سعد قال: رأى رسولُ الله ﷺ بني أمية يَنْزُون على مِنبره نَزْوَ القِردة، فساءَه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات عليه الصلاة والسلام، وأنزل اللهُ تعالى هذه الآية: (وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا) إلخ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩).

(٢) في تفسيره ١٤/٦٤٦، وذكره ابن كثير في تفسيره بإسناد الطبري وقال: وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن محمد بن الحسن بن زبالة متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية.

وأَخرج ابنُ أبي حاتم، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ في «الدَّلائل»، وابنُ عساكرٍ عن سعيد بن المسيّب قال: رأى رسولُ الله ﷺ بني أميةَ على المنابر فساءه ذلك، فأَوحى اللهُ تعالى إليه: إنَّما هي دنيا أُعطوها، فقرَّت عينُه، وذلك قولُه تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا)[1] إلخ.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن يعلى بن مرَّة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ بني أميةَ على منابر الأرض، وسيملكونكم، فتجدونهم أربابَ سوء» واهتمَّ عليه الصلاة والسلام لذلك، فأنزل اللهُ سبحانه: (وَمَا جَعَلْنَا) الآية[2].

وأَخرج عن ابن عمرَ أنَّ النبي ﷺ قال: «رأيتُ ولدَ الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنَّهم القِرَدة» وأنزل اللهُ تعالى في ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ إلخ. والشجرةُ الملعونةُ: الحَكَمُ وولدُه[2]. وفي عبارة بعض المفسِّرين: بنو أمية.

وأَخرج ابنُ مردويه عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّها قالت لمروان بنِ الحكم: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لأبيك وجدِّك: «إنَّكم الشجرةُ الملعونةُ في القرآن»[2].

فعلى هذا معنى إحاطته تعالى بالناس إحاطةُ أقداره بهم، والكلامُ - على ما قيل - على حذفِ مضاف، أي: وما جعلنا تعبيرَ الرُّؤيا، أو الرؤيا فيه مجازٌ عن تعبيرها. ومعنى جعلِ ذلك فتنةً للناس جعلُه بلاءً لهم ومختبَراً، وبذلك فسَّره ابن المسيَّب، وكان هذا بالنِّسبة إلى خلفائهم الذين فعلوا ما فعلوا، وعَدَلوا عن سَنَن الحقِّ وما عدلوا، وما بعده بالنِّسبة إلى ما عدا خلفاءهم منهم ممَّن كان عندهم عاملاً، وللخبائث عاملاً، أو ممَّن كان من أعوانهم كيفما كان. ويحتمل أن يكون المرادُ: ما جعلنا خلافتَهم وما جعلناهم أنفسَهم إلَّا فتنة، وفيه من المبالغة في ذمِّهم ما فيه. وجَعْل ضميرِ «نخوفهم» على هذا لِمَا كان له أولاً، أو للشَّجرة باعتبار أنَّ المرادَ بها بنو أمية، ولعنُهم لِمَا صدر منهم من استباحة الدماءِ المعصومة، والفروجِ المحصَنة، وأخذ الأموالِ من غير حلِّها، ومنعِ الحقوقِ عن أهلها، وتبديلِ الأحكام، والحُكمِ بغير ما أنزل اللهُ تعالى على نبيِّه عليه الصلاة والسلام، إلى غير

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩١، والدلائل ٦/ ٥٠٩، وتاريخ مدينة دمشق ٥٧/ ٣٤١.
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٩١.

ذلك من القبائح العِظام، والمخازي الجِسام، التي لا تكاد تُنسَى ما دامت الليالي والأيَّام.

وجاء لعنُهم في القرآن إمَّا على الخصوصِ كما زعمته الشِّيعة، أو على العموم كما نقول، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٢-٢٣] إلى آياتٍ أُخَر. ودخولُهم في عموم ذلك يكاد يكون دخولاً أوليًّا، لكن لا يخفَى أنَّ هذا لا يَسوغ عند أكثرِ أهل السُّنَّة لعنُ واحدٍ منهم بخصوصه، فقد صرَّحوا أنَّه لا يجوز لعنُ كافرٍ بخصوصه ما لم يتحقَّق موتُه على الكفر، كفِرعون ونمروذ، فكيف مَن ليس كافراً؟

وادَّعى السِّراج البُلقينيُّ جوازَ لعنِ العاصي المعيَّن، ونوَّر دعواه بحديث الصَّحيحين[1]: «إذا دعا الرجلُ امرأتَه إلى فراشه فأبت أن تجيءَ، فبات غضبان، لعنتها الملائكةُ حتى تُصبِح». وقال ولدُه الجلال: بحثتُ مع والدي في ذلك باحتمالِ أن يكونَ لعنُ الملائكةِ لها بالعموم بأن يقول: لعن اللهُ تعالى مَن باتت مهاجرةً فراشَ زوجها.

ولو استدلَّ لذلك بخبر مسلم[2] أنَّه ﷺ مرَّ بحمارٍ وُسِم بوجهه فقال: «لعن اللهُ تعالى مَن فعل هذا» لَكان أظهرَ؛ إذ الإشارةُ بهذا صريحةٌ في لعن معيَّن، إلَّا أن يؤوَّلَ بأنَّ المرادَ فاعلُ جنسِ ذلك لا فاعلُ هذا المعيَّن. وفيه ما فيه.

واستدلَّ بعضُ مَن وافقه لذلك أيضاً بما صحَّ أنَّه ﷺ قال: «اللهمَّ العَنْ رِعلاً وذَكوان وعُصَيَّة؛ عَصَوا اللهَ تعالى ورسولَه»[3] فإنَّ فيه لعنَ أقوامٍ بأعيانهم.

وأُجيب بأنَّه يجوز أنَّه عليه الصلاة والسلام علم موتَهم أو موتَ أكثرِهم على الكفر، فلم يلعن إلَّا مَن علم موتَه عليه. وهو كما ترى.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٧)، وصحيح مسلم (١٤٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) برقم (٢١١٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وسلف ٤/ ٣١٤.
(٣) أخرجه مسلم (٦٧٩) من حديث خُفاف بن إيماء الغفاري بنحوه.

ولا يخفى أنَّ تفسيرَ الآيةِ بما ذُكر غيرُ ظاهر الملاءمةِ للسِّياق، واللهُ تعالى أعلمُ بصحَّة الأحاديث.

وقيل: الشجرةُ الملعونةُ مجازٌ عن أبي جهل، وكان فتنةً وبلاءً على المسلمين لعنه اللهُ تعالى، وقيل: مجازٌ عن اليهودِ الذين تظاهروا على رسول اللهِ ﷺ، ولعنُهم في القرآن ظاهر، وفتنتُهم أنَّهم كانوا ينتظرون بعثتَه عليه الصلاة والسلام، فلما بُعث كفروا به، وقالوا: ليس هو الذي كنَّا ننتظره، فثبَّطوا كثيراً من الناس بمقالتهم عن الإسلام.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تذكيرٌ لما جَرَى منه تعالى من الأمر، ومن الملائكةِ من الامتثال والطاعةِ من غير تثبُّط، وتحقيقٌ لمضمون قولِه تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ) إلخ. أمَّا إن كان المرادُ من الموصول الملائكةَ فظاهر، وأمَّا إن كان غيرَهم فللمقايسة.

وفيه إشارةٌ إلى عاقبة أولئك الذين عاندوا الحقَّ واقترحوا الآياتِ وكذَّبوا الرسولَ عليه الصلاة والسلام، فإنَّهم داخلون في الذُّرِّية الذين احتنكهم إبليسُ عليه اللعنةُ واتَّبعوه اتِّباعَ الظلِّ لذويه دخولاً أوليًّا، ومشاركون له في العناد أتمَّ مشاركة، حتى قالوا: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فوجهُ مناسبةِ الآية لما قبلَها ظاهر.

وقيل: الوجه مشابهةُ قريشٍ الذين كذَّبوا النبيَّ ﷺ لإبليسَ في أنَّ كلًّا منهما حَمَله الحسدُ والكِبْر على ما صدر منه، أي: واذكُر وقتَ قولِنا للملائكة: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ تحيةً وتكريماً له عليه السلام. وقيل: المعنى: اجعلوه قبلةَ سجودِكم لله تعالى ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ من غيرِ تلعثمٍ امتثالاً لأمره تعالى ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لم يكن من السَّاجدين، وكان معدوداً في عِدادهم، مندرجاً تحت الأمرِ بالسجود.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيّ، كأنَّه قيل: فما كان منه بعد التخلُّف؟ فأُجيب بأنَّه قال - أي: بعد أن وبِّخ بما وبِّخ مما قصَّه اللهُ سبحانه في غير هذا الموضعِ على سبيل الإنكار والتعجُّب -: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ وقد خلقتَني من نارٍ ﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ نصب على نزعِ الخافض، أي: مِن طين، كما صرَّح به في آيةٍ أخرى.

وجوَّز الزجَّاج[1] كونَه حالاً من العائدِ المحذوف، والعاملُ «خلقت» فيكون المعنى: أأَسجد لمن كان في وقت خلقِه طيناً؟ فالطينيةُ وإنْ كانت مقدَّمةً على خلقه إنساناً لكنَّها مقارِنةٌ لابتداء تعلُّقِه به.

والزمخشريُّ[2] أيضاً كونَه حالاً من نفسِ الموصول، والعاملُ حينئذٍ «أأسجد» على معنى: أأَسجُد له وهو طين؟ أي: أصلُه طين.

قال في «الكشف»: وهو أَبلغ؛ لأنَّه مؤيِّد لمعنى الإنكار، وفيه تحقيرٌ له عليه السلام ـ وحاشاه ـ بجعله نفسَ ما كان عليه لم تَزُل عنه تلك الذِّلَّة، وليس في جعله حالاً من العائدِ هذه المبالغة.

وأنت تعلم أنَّ الحاليةَ على كلِّ حالٍ خلافُ الظاهر؛ لكون الطينِ جامداً؛ ولذا أوَّله بعضُهم بمتأصِّلاً.

وجوَّز الزجَّاج[3] أيضاً ـ وتَبِعه ابنُ عطية[4] ـ كونَه تمييزاً. ولا يظهر ذلك.

وذِكرُ الخلقِ مع أنَّه يكفي في المقصود أن يقال: لمن كان مِن طين، أَدخلُ في المقصود، مع أنَّه فيه ـ على ما قيل ـ إيماءٌ إلى عِلَّة أخرى، وهي أنَّه مخلوق، والسجود إنَّما هو للخالق تعالى مَجده.

﴿قَالَ﴾ أي: إبليس. وفي إعادة الفعلِ بين كلامَي اللعين إيذانٌ بعدم اتِّصال الثاني بالأوَّل، وعدمِ اِبتنائه عليه، بل على غيره، وقد ذكر ذلك في مواضعَ أُخرَ، أي: قال بعد طردِه من المحلِّ الأعلى ولعنِه واستنظارِه وإنظاره: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ الكافُ حرفُ خطابٍ مؤكِّدٌ لمعنى التاءِ قبله، وهو من التأكيد اللغويّ، فلا محلَّ له من الإعراب. ورأى عِلمية، فتتعدَّى إلى مفعولين، و«هذا» مفعولُها الأوَّل، والموصولُ صفته، والمفعولُ الثاني محذوفٌ لدلالة الصلةِ عليه. وهذا الإنشاءُ مجازٌ عن إنشاءٍ آخرَ، ومِن هنا تسمعُهم يقولون: المعنى: أَخبرني عن

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٥٦.
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩.
(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٩.

هذا الذي كرَّمتَه عليّ، لِمَ كرَّمته عليَّ وأنا أكرمُ منه؟ والعلاقةُ ما بين العلم والإخبار من السَّببية والمسبَّبية واللازميةِ والملزومية، وجملةُ لِمَ كرَّمته، واقعةٌ ـ على ما نصَّ عليه أبو حيَّان[١] ـ موقعَ المفعولِ الثاني.

وذهب بعضُ النُّحاة إلى أنَّ رأى بَصَرية، فتتعدَّى إلى واحد، واختاره الرَّضيّ، ويجعلون الجملةَ الاستفهاميةَ المذكورةَ مستأنفة.

وقال الفرَّاء: الكافُ ضميرٌ في محلِّ نصب، أي: أرأيت نَفسَك، وهو كما تقول: أتدبَّرت آخرَ أمرِك، فإني صانعٌ كذا، و«هذا الذي كرمت عليَّ» مبتدأٌ وخبر، وقد حُذف منه الاستفهام أي: أهذا.. إلخ. وقال بعضُهم بهذا إلَّا أنَّه جعل الكافَ حرفَ خطابٍ مؤكِّد، أي: أَخبِرني أهذا مَن كرَّمتَه عليّ؟

وقال ابنُ عطية[٢]: الكافُ حرفٌ كما قيل، لكن معنى «أَرأيتَكَ»: أتأمَّلت، كأنَّ المتكلِّم ينبِّه المخاطَب على استحضارِ ما يخاطبه به عَقِيبَه.

وكونُه بمعنى أخبِرني قولُ سيبويه[٣] والزجَّاج[٤]، وتَبِعهما الحوفيُّ والزمخشريُّ[٥] وغيرُهما، وزعم ابنُ عطيةَ[٦] أنَّ ذلك حيث يكون استفهام، ولا استفهامَ في الآية.

وأنت تعلم أنَّ المقرَّر في أرأيتَ بمعنى أَخبرني أن تدخلَ على جملةٍ ابتدائيةٍ يكون الخبرُ فيها استفهاماً مذكوراً أو مقدَّراً، فمجرَّد عدمِ وجودِه لا يأبى ذلك. وأيًّا ما كان فاسمُ الإشارةِ للتحقير، والمرادُ من التكريمِ التفضيل.

وجملةُ: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ استئنافٌ وابتداءُ كلام، واللامُ موطِّئة للقَسَم، وجوابُه: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾.

---

(١) في البحر ٦/ ٥٧.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٩.
(٣) في الكتاب ١/ ٢٣٩.
(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٤٩.
(٥) في الكشاف ٢/ ٤٥٦.
(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٦٩.

وفي «البحر»[(١)]: لو ذهب ذاهبٌ إلى أنَّ هذا مفعولٌ أوَّلُ لـ «أرأيتك» بمعنى أَخبِرني، والمفعولُ الثاني الجملةُ القَسَميةُ المذكورة؛ لانعقادهما مبتدأً وخبراً قبل دخولِ «أرأيتَكَ»، لَذهب مذهباً حسناً؛ إذ لايكونُ في الكلام على هذا إضمار. وهو كما ترى.

والمرادُ من «أَخَّرتني»: أبقيتَني حيًّا، أو: أخَّرت موتي.

ومعنى «لأحتنكن ذريته»: لأَستوليَّن عليهم استيلاءً قويًّا، من قولهم: حنك الدابَّةَ واحتنكها، إذا جعل في حَنَكها الأَسفلِ حبلاً يقودها به. وأخرج هذا ابنُ جَريرٍ[(٢)] وغيرُه عن ابن عباسٍ ﷺ، وإليه ذهب الفرَّاء[(٣)].

أو: لَأستأصلنَّهم وأُهلِكنَّهم بالإغواء، من قولهم: احتنك الجرادُ الأرض، إذا أَهلك نباتَها وجرَّد ما عليها، واحتنك فلانٌ مالَ فلان، إذا أَخذه وأكله، وعلى ذلك قولُه:

نشكو إليك سَنَةً قد أَجحفت جهداً إلى جهدٍ بنا فأَضعفت
واحتنكت أموالَنا وأَجلفت[(٤)]

وكأنه مأخوذٌ من الحَنَك، وهو باطنُ أَعلى الفمِ من داخل المِنقار، فهو اشتقاقٌ من اسمِ عين، واختار هذا الطبريُّ[(٥)] والجبائيُّ وجماعة.

وأَخرج ابنُ أبي حاتم عن ابنِ زيدٍ أنَّه قال: يقول: لأُضلنَّهم. وهو بيانٌ لخلاصة المعنى، وهذا كقولِ اللعين: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

---

(١) ٦/ ٥٧.
(٢) في تفسيره ١٤/ ٦٥٥.
(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٢٧.
(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٨٤، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٥٤ دون نسبة. وقوله: أجلفت: ذهبت السنون بأمواله. القاموس (جلف).
(٥) انظر تفسيره ١٤/ ٦٥٤.

﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ منهم، وهو العباد المخلَصون الذين جاءَ استثناؤهم في آيةٍ أخرى، جَعَلَنا اللهُ تعالى وإيَّاكم منهم.

وعَلِمَ اللعينُ تسنِّيَ هذا المطلبِ له حتى ذكره مؤكَّداً، إمَّا بواسطة التلقِّي من الملائكة سماعاً وقد أخبرهم اللهُ تعالى به، أو رأوه في اللوح المحفوظ، أو بواسطة استنباطِه من قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] مع تقريرِ اللهِ تعالى له، أو بالفراسة لِمَا رأى فيه من قوَّة الوهمِ والشهوةِ والغضبِ المقتضية لذلك، ولا يَبعُد أن يكونَ استثناءُ القليل بالفراسة أيضاً، وكأنَّه لمَّا رأى أنَّ المانعَ من الاستيلاءِ في القليل مشتركاً بينه وبين آدمَ عليه السلام ذكره من أول الأمر.

وعن الحسن أنَّه ظنَّ ذلك لأنَّه وسوس إلى آدمَ وغرَّه حتى كان ما كان، فقاس الفرعَ على الأَصل. وهو مُشكِل؛ لأنَّ هذا القولَ كان قبل الوسوسةِ التي كان بسببها ما كان، ومَن زعم أنَّه كان هناك وسوستان، فعليه البيان، ولا يأتي به حتى يؤوبَ القارظان(١)، أو يسجدَ لآدمَ عليه السلام الشيطانُ. ﴿قَالَ﴾ اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿ٱذْهَبْ﴾ ليس المرادُ به حقيقةَ الأمرِ بالذَّهاب ضدِّ المجيء، بل المرادُ تخليتُه وما سوَّلته نفسُه إهانةً له، كما تقولُ لمن يخالفك: اِفعلْ ما تريد.

وقيل: يجوز أن يكونَ من الذَّهاب ضدِّ المجيء، فمعناه حينئذٍ كمعنى قولِه تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤].

وقيل: هو طردٌ وتخلية. ويَلزم على ظاهره الجمعُ بين الحقيقةِ والمجاز، والقائلُ ممَّن يرى جوازَه.

ويدلُّ على أنَّه ليس المرادُ منه ضدَّ المجيءِ تعقيبُه بالوعيد في قولِه سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ وضلَّ عن الحقِّ ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: جزاؤك وجزاؤهم. فغلَّب المخاطَبَ على الغائبِ رعايةً لحقِّ المتبوعية.

(١) القارظان: يَذْكُرُ بن عَنَزَة وعامر بن رُهْم، خرجا في طلب القَرَظ فلم يرجعا. والقرظ: ورق السلم. القاموس (قرظ).

وجوَّز الزمخشريُّ(١) - وتَبِعه غيرُ واحد - أن يكونَ الخطابُ للتابعين على الالتفاتِ من غَيبة المُظهَر إلى الخطاب.

وتعقَّبه ابنُ هشام في «تذكرته» فقال: عندي أنَّه فاسد؛ لخلوِّ الجوابِ أو الخبرِ عن الرابط، فإنَّ ضميرَ الخطابِ لا يكون رابطاً.

وأُجيب بأنَّه مؤوَّل بتقدير: فيقال لهم: إنَّ جهنَّم جزاؤكم. ورُدَّ بأنَّه يخرج حينئذٍ عن الالتفات.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ ضمير الخطابِ إن سلِّم أنَّه لا يكون عائداً، لا نسلِّم أنَّه إذا أُريد به الغائبُ التفاتاً لا يُربَط به؛ لأنَّه ليس بأبعدَ من الرَّبط بالاسمِ الظاهر، فاحفظ.

﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣﴾ أي: مكمَّلاً لا يدَّخر منه شيء، كما قال ابنُ جبير مِن: فِرْ - كعِدْ - لصاحبك عِرضَه فِرَةً، أي: كمِّل لصاحبك عِرضَه، وعلى ذلك قولُه:

ومَن يجعلِ المعروفَ من دونِ عِرضه يَفِرْه ومَن لا يتَّقِ الشَّتمَ يُشتَم(٢)

وجاء وَفَرَ لازماً، نحو: وفر المالُ يَفِر وفوراً، أي: كَمُلَ وكَثُر.

وانتصب «جزاء» على المصدر بإضمار تُجزَون، أو تجازون؛ فإنَّهما بمعنًى، وهذا المصدرُ لهما.

وجوَّز أبو حيَّان(٣) وغيرُه كونَ العاملِ فيه «جزاؤكم» بناءً على أنَّ المصدرَ ينصب المفعولَ المطلق، وجوَّز كونَه حالاً موطِّئة لصفتها التي هي حالٌ في الحقيقة؛ ولذا جاءت جامدةً كقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] ولا حاجة لتقدير: ذوي، فيه حينئذ، وصاحبُ الحال مفعولُ تُجزَونه محذوفاً، والعاملُ الفعل. وقيل: إنَّه حالٌ من فاعله بتقدير: ذوي جزاء.

وقال الطِّيبي: قيل: المعنى: ذوي جزاء؛ ليكونَ حالاً عن ضمير المخاطَبين،

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٥٦.

(٢) البيت من معلقة زهير، وهو في ديوانه ص٣٠.

(٣) في البحر ٦/ ٥٨.

ويكون المصدرُ عاملاً، وإلّا فالعاملُ مفقود. ثم قال: الأظهرُ أنَّه حالٌ مؤكِّدة لمضمونِ الجملة، نحو: زيدٌ حاتمٌ جواداً.

وفي «الكشف» أنَّ هذا متعيّن، وليس الأوَّلُ بالوجه، ومثلُه جعلُه حالاً عن الفاعل. وقيل: هو تمييز. ولا يُقبَل عند ذَويه.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾ أي: واستَخِفَّ، يقال: استفزَّه، إذا استخفَّه فخدعه وأوقعه فيما أراده منه، وأصلُ معنى الفزِّ: القَطْع، ومنه: تفزَّز الثوب، إذا انقطع، ويقال للخفيف: فَزّ؛ ولذا سمِّي به ولدُ البقرةِ الوحشية، كما في قول زهير:

إذا استغاث بشيءٍ[1] فَزُّ غيطلةٍ خاف العيونَ فلم تُنظَر به الحَشَكُ[2]

والواو ـ على ما في «البحر»[3] ـ للعطفِ على «اذهب»، والمرادُ من الأمرِ التهديد، وكذا من الأوامر الآتية، ويَمنع من إرادة الحقيقةِ أنَّ اللهَ تعالى لا يأمرُ بالفحشاء.

﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ أي: الذي استطعتَ أن تستفزَّه ﴿مِنْهُم﴾ ف «مِن» موصولٌ مفعولُ «استفزز»، ومفعولُ «استطعت» محذوف، هو ما أشرنا إليه.

واختار أبو البقاءِ[4] كونَ «مَن» استفهاميةً في موضع نصبٍ ب «استطعت». وهو خلافُ الظاهرِ جدًّا، ولا داعيَ إلى ارتكابه.

﴿بِصَوْتِكَ﴾ أي: بدعائك إلى معصية اللهِ تعالى ووسوستِك. وعبَّر عن الدُّعاء بالصوت تحقيراً له، حتى كأنَّه لا معنى له كصوتِ الحمار.

وأخرج ابنُ المنذر وابن جَريرٍ وغيرُهما عن مجاهدٍ تفسيرَه بالغناءِ والمزاميرِ واللهوِ والباطل[5].

(١) في الديوان ص١٧٧: بسيءٍ. قال شارحه: هو اللبن الذي يكون في الضَّرع قبل نزول الدِّرَّة.
(٢) الغيطلة: شجر ملتف، والحشك: الاجتهاد والدفع باللبن.
(٣) ٦/ ٥٨.
(٤) في الإملاء ٣/ ٤٨٨.
(٥) الدر المنثور ٤/ ١٩٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٥٧.

وذَكَرَ الغزنويُّ أنَّه آدم عليه السلام أسكن ولدَ هابيلَ أعلى جبل، وولدَ قابيل أسفلَه، وفيهم بناتٌ حِسَان، فزمر الشيطان، فلم يتمالكوا أن انحدروا واقترنوا.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ أي: صِحْ عليهم، من الجَلَبة، وهي الصياح. قاله الفرَّاءُ وأبو عبيدة، وذكر أنَّ جلب وأجلب بمعنى. وقال الزجَّاج: أجلب على العدوّ: جمع عليه الخيل. وقال ابن السِّكِّيت: جلب عليه: أعان عليه. وقال ابن الأعرابيّ: أجلب على الرَّجل: إذا توعَّده الشرَّ وجمعَ عليه الجمع.

وفسَّر بعضُهم «أجلب» هنا اجمعْ، فالباءُ في قوله تعالى: ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ مزيدةٌ، كما في:

.... لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَر[1]

وقرأ الحسن: «واجلُب» بوصل الألفِ وضمِّ اللام[2]، من: جَلَبَ، ثلاثيًّا.

والخيلُ يطلق على الأفراس حقيقة، ولا واحدَ له من لفظِه. وقيل: إنَّ واحدَه: خائل؛ لاختياله في مَشيه. وعلى الفُرسان مجازاً وهو المرادُ هنا، ومنه قولُه ﷺ في بعض غزواته لأصحابِه ﷺ: «يا خيلَ اللهِ اركبي»[3].

والرَّجِل بكسر الجيمِ فَعِلٌ بمعنى فاعل، فهو صفة، كحَذِر بمعنى حاذر، يقال فلانٌ يمشي رَجِلاً، أي: غيرَ راكب. وقال صاحبُ «اللَّوامح»: هو بمعنى الرِّجال، يعنى أنَّه مفردٌ أُريد به الجمع؛ لأنَّه المناسبُ للمقام وما عُطف عليه. وبهذا قرأ حفص، وأبو عَمرو في رواية، والحسن[4].

وظاهرُ الآيةِ يقتضي أنَّ للَّعِين خيلاً ورَجلاً، وبه قال جمع، فقيل: هم من الجِنّ. وقيل: منهم ومن الإنس، وهو المرويُّ عن ابن عباس ﷺ ومجاهدٍ وقتادة، قالوا: إنَّ له خيلاً ورَجلاً من الجِنِّ والإنس، فما كان مِن راكبٍ يقاتل في معصية اللهِ

---

(١) قطعة بيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص١٢٢، وسلف ٩/ ٣٦٢.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٥٨.
(٣) سلف ١٣/ ٢٤.
(٤) المحتسب ٢/ ٢١، والبحر ٦/ ٥٨، وقراءة حفص في التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٨.

تعالى، فهو من خيلِ إبليس، وما كان مِن راجلٍ يقاتل في معصية اللهِ تعالى، فهو من رَجل إبليس.

وقال آخَرون: ليس للشيطان خيلٌ ولا رجَّالة، وإنَّما هما كنايةٌ عن الأعوان والأَتباع، من غير ملاحظةٍ لكون بعضِهم راكباً وبعضِهم ماشياً.

وجوَّز بعضُهم أن يكونَ استفزازُه بصوته وإجلابُه بخيله ورَجلهِ تمثيلاً لتسلُّطه على مَن يُغويه، فكأنَّ مِغواراً وقع على قوم، فصوَّت بهم صوتاً يُزعجهم من أماكنهم، وأجلبَ عليهم بجنده من خيَّالة ورجَّالة حتى استأصلهم. ومرادُه أن يكون في الكلام استعارةٌ تمثيلية، ولا يضرُّ فيها اعتبارُ مجازٍ أو كنايةٍ في المفردات، فلا تغفُل.

وقرأ الجمهور: «رَجْلِكَ» بفتح الراءِ وسكونِ الجيم، وهو اسمُ جمعِ راجل، كرَكْب وراكب، لا جمعٌ؛ لغلبة هذا الوزنِ في المفردات.

وقُرئ: «رَجُلِكَ» بفتح الراءِ وضمِّ الجيم[١]، وهو مفردٌ كما في قراءةِ حفص، وقد جاءت ألفاظٌ من الصِّفة المشبَّهة على فَعِل وفَعُل، كسراً وضمًّا، كَحدْث ونَدْس[٢] وغيرِهما.

وقرأ عكرمةُ وقتادة: «رِجالِك» كنِبَالك[٣]. وقُرئ: «رُجَّالِك» ككفَّارك[٤]. وكلاهما جمعُ رَجْلانَ وراجل، كما في «الكشف»، وفي بعض نُسخ «الكشَّاف» أنَّه قُرئ: «رَجَّالِك» بفتح الراءِ وتشديدِ الجيم، على أنَّ أصلَه رجَّالة، فحُذف تاؤه تخفيفاً[٥]، وهي نسخةٌ ضعيفة.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على كسبها ممَّا لا ينبغي وصرفِها فيما لا ينبغي. وقيل: بحملهم على صَرفها في الزِّنى. وعن الضحَّاك: بحملهم على الذَّبح للآلهة. وعن قتادة: بحملهم على تسييب السوائب، وبحرِ البحائر. والتعميمُ أولى.

---

(١) البحر ٦/ ٥٩.

(٢) الندس: الفَهِم. القاموس (ندس).

(٣) القراءات الشاذة ص٧٧، والمحتسب ٢/ ٢٢، والبحر ٦/ ٥٩.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٧، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٧.

(٥) الكشاف ٢/ ٤٥٦، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٧.

﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ بالحثِّ على التوصُّل إليهم بالأسباب المحرَّمة، وارتكابِ ما لا يُرضي اللهَ تعالى فيهم. وأَخرج ابن جَريرٍ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: المشاركةُ في الأولاد حَملُهم على تسميتهم بـ: عبد الحارث، وعبدِ شمس[(١)]. وفي رواية: حملهم على أن يرغِّبوهم في الأديان الباطلة ويَصبَغوهم بغير صِبغة الإِسلام. وفي أخرى: حَملُهم على تحصيلهم بالزِّنى. وفي أخرى: تزيينُ قتلِهم إيَّاهم خشيةَ الإِملاق أو العار. وقيل: حَملُهم على أن يرغِّبوهم في القتال وحفظِ الشِّعر المشتملِ على الفُحش والحِرَف الخسيسةِ الخبيثة. وعن مجاهدٍ أنَّ الرجل إذا لم يسمِّ عند الجِماع، فالجانُّ ينطوي على إحليله فيجامعُ معه، وذلك هي المشاركةُ في الأولاد. والأَوْلى ما ذكرنا.

﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ المواعيدَ الباطلة، كشفاعةِ الآلهة، ونفعِ الأنسابِ الشريفة مَن لم يُطع اللهَ تعالى أصلاً، وعدمِ خلود أحدٍ في النار لمنافاة ذلك عِظَمَ الرَّحمة، وطولِ أمل البقاءِ في الدنيا. ومِن الوعد الكاذبِ وعدُه إياهم أنَّهم إذا ماتوا لا يُبعثون، وغيرُ ذلك ممَّا لا يحصى كثرة. ثمَّ هذا من قَبيل المشاركةِ في النَّفس كما في «البحر»[(٢)].

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ اعتراضٌ بين ما خوطب به الشيطانُ لبيان حالِ مواعيدِه. والالتفاتُ إلى الغَيبة لتقويةِ معنى الاعتراض، مع ما فيه من صرف الكلامِ عن خطابه وبيان حالِه للناس، ومن الإِشعار بعلِّية شيطنتِه للغرور، وهو تزيينُ الخطأ بما يوهِم أنَّه صواب. ويقال: غرَّ فلاناً، إذا أصاب غِرَّتَه، أي: غفلتَه، ونال منه ما يريد. وأصلُ ذلك ـ على ما قال الراغب[(٣)] ـ من الغَرّ، وهو الأثرُ الظاهرُ من الشيء.

ونصبُه على أنَّه وصفٌ لمصدرٍ محذوف، أي: وعداً غُروراً، على الأوجُه التي في: رَجُلٌ عَدْلٌ. وجوِّز أن يكونَ مفعولاً من أجله، أي: وما يعدهم ويمنِّيهم ما لا يتمُّ ولا يقع إلَّا لأن يغرَّهم. والأولُ أَظهر. وذكر الإِمامُ[(٤)] في سبب كونِ

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٢، وتفسير الطبري ١٤/ ٦٦٥.

(٢) ٦/ ٥٩.

(٣) في المفردات (غرر).

(٤) في التفسير الكبير ٢١/ ٨.

وعدِ الشيطان غروراً لا غير أنَّه إنَّما يدعو إلى أحدِ ثلاثةِ أمور: قضاء الشهوة، وإمضاء الغضب، وطلب الرياسةِ والرِّفعة. ولا يدعو البتةَ إلى معرفة اللهِ تعالى وخدمته. وتلك الأشياءُ الثلاثة ليست لذائذَ في الحقيقة، بل دفعُ آلام. وإنْ سلمَ أنَّها لذائذ، لكنَّها خسيسةٌ يشترك فيها الناقصُ والكامل، بل الإنسانُ والكلب، ومع ذلك هي وشيكةُ الزوال، ولا تحصل إلَّا بمتاعبَ كثيرة، ومشاقَّ عظيمة، ويَتْبعها الموتُ والهرم، واشتغالُ البالِ بالخوف من زوالها، والحرص على بقائها، ولذَّاتُ البطنِ والفرجِ منها لا تتمُّ إلَّا بمزاولة رطوباتٍ متعفِّنة مستقذَرة، فتزيينُ ذلك لا يكاد يكون إلَّا بما هو أكذبُ من دعوى اجتماعِ النقيضَين، وهو الغرور.

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ الإضافةُ للتعظيم، فتدلُّ على تخصيص العبادِ بالمخلَصين كما وقع التصريحُ به في الآيةِ الأخرى(١)، ولقرينة كونِ اللهِ تعالى وكيلاً لهم يحميهم من شرِّ الشيطان، فإنَّ مَن هو كذلك لا يكون إلَّا عبداً مكرَّماً مختصًّا به تعالى، وكثيراً ما يقال لمن يستولي عليه حبُّ شيءٍ فينقادُ له: عبدُ ذلك الشيء، ومنه: عبدُ الدِّينار والدِّرهم، وعبدُ الخميصةِ وعبدُ بطنِه، ومِن هنا يقال لمن يتبعُ الشيطان: عبدُ الشيطان، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ في الكلام صفةً محذوفة، أي: إنَّ عبادي المخلَصين.

وزعم الجبائيُّ أنَّ «عبادي» عامٌّ لجميع المكلَّفين، وليس هناك صفةٌ محذوفة، لكن تُرِك الاستثناءُ اعتماداً على التصريح به في موضعٍ آخَر. وليس بشيء.

وفي هذه الإضافة إيذانٌ بعلَّة ثبوتِ الحكم في قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: تسلُّط وقدرةٌ على إغوائهم، وتأكيدُ الحكمِ مع اعترافِ الخصمِ به لمزيد الاعتناء.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ لهم يتوكَّلون عليه جلَّ وعلا، ويستمدُّون منه تعالى في الخلاص عن إغوائك، فيحميهم سبحانه منه.

والخطابُ في هذه الجملةِ قيل: للشَّيطان، كما في الجملةِ السابقة، ففي التعرُّض لوصفِ الرُّبوبية المنبئةِ عن المالكية المطلقةِ والتصرُّف الكليِّ مع الإضافةِ

---

(١) أي في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠].

إلى ضميره إشعارٌ بكيفية كفايتِه تعالى لهم وحمايتِه إيَّاهم منه، أعني سلبَ قدرتِه على إغوائهم.

وقيل: للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، أو للإنسان. كأنَّه لمَّا بيَّن سبحانه مِن حالِ الشيطان ما بيَّن، صار ذلك لحصول الخوفِ في القلوب، فقال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ أيُّها النبيُّ، أو أيُّها الإنسانُ ﴿وَكِيلًا﴾، فهو جلَّ جلالُه يدفع كيدَ الشيطانِ ويحفظ منه.

والقلبُ يميلُ إلى عدم كونِه خطاباً للشيطانِ وإنْ كان في السابق له.

واستُدلَّ بالآية على أَنَّ المعصومَ مَن عصمه اللهُ تعالى، وأنَّ الإنسانَ لا يُمكنه أن يحترزَ بنفسه عن مواقع الضَّلال، وإلَّا لَقيل: وكفى بالإنسان وكيلاً لنفسه.

هذا وهاهنا سؤالانِ ذكرهما الإمام[1] مع جوابَيهما؛ الأوَّل: أنَّ إبليسَ هل كان عالماً بأنَّ الذي تكلَّم معه بهذه التهديداتِ هو إلهُ العالَم، أو لم يكن عالماً، فإنْ كان الأوَّل، فكيف لم يَصِر الوعيد الشديدُ بقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ مانعاً له من المعصية مع أنَّه سمعه من الله جلَّ جلالُه من غيرِ واسطة؟ وإنْ كان الثاني، فكيف قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾؟

والجواب: لعلَّه كان شاكًّا في الكلِّ، وكان يقولُ في كلِّ قِسمٍ ما يخطر ببالِه على سبيل الظنِّ.

وأقول: لا يخفَى ما في هذا الجواب، والحقُّ فيه أنَّه كان جازماً بأنَّ الذي تكلَّم معه بذلك هو إلهُ العالَم جلَّ وعلا، إلَّا أنَّه غلبت عليه شِقوتُه التي استعدَّت لها ذاتُه، فلم يَصِر الوعيدُ مانعاً له؛ ولذا حين تُنصَب لهلاكه الحبائلُ إذا جاء وقتُه، ويعاينُ من العذاب ما يعاين، وتضيق عليه الأرضُ بما رَحُبت، فيقال له: ٱسجد اليومَ لآدم عليه السلام لتنجو، لا يسجد، ويقول: لمْ أَسجدْ له حيًّا، فكيف أَسجد له ميتاً؟ كما ورد في بعض الآثار[2]. وليس هذا بأعجبَ من حال الكفَّارِ الذين

---

(١) في تفسيره ٢١/٩.

(٢) منها ما أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان كما في الدر المنثور ١/٥١ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

يعذَّبون يومَ القيامةِ أشدَّ العذابِ على كفرهم، ويطلبون العودَ ليؤمنوا، حيث أَخبر اللهُ تعالى بأنَّهم لو رُدُّوا لَعادوا لما نُهوا عنه.

وربَّما يقال: إنَّ اللعينَ مع هذا الوعيدِ له أملٌ بالنَّجاة، فقد حُكي أنَّ مولانا عبدَ الله التُّستَريَّ سأل اللهَ تعالى أن يُريَه إبليس، فرآه، فسأله: هل تطمعُ في رحمة اللهِ تعالى؟ فقال: كيف لا أَطمعُ فيها واللهُ سبحانه يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وأنا شيءٌ من الأشياء، فقال التُّستَري: ويلَك إنَّ الله تعالى قيَّد في آخِر الآية، فقال إبليسُ له: ويحكَ ما أَجهلَك، القيدُ لك لا له. ولعلَّه يزعمُ أنَّ آياتِ الوعيدِ مطلقاً مقيَّدة بالمشيئة وإنْ لم تُذكَر، كما يقوله بعضُ الأشاعرةِ في آيات الوعيدِ للعُصاة من المؤمنين.

السؤال الثاني: ما الحكمةُ في أنَّ اللهَ تعالى أَنظره إلى يوم القيامةِ ومكَّنه من الوسوسةِ، والحكيمُ إذا أراد أمراً وعلم أنَّ له مانعاً يمنع من حصولِه، لا يسعَى في تحصيلِ ذلك المانع؟

والجواب: أمَّا على مذهبنا فظاهر، وأمَّا المعتزلة، فقال الجبَّائي منهم: إنَّ اللهَ تعالى علم أنَّ الذين يكفرون عند وسوسةِ إبليسَ يكفرون بتقديرِ أَلَّا يوجد، وحينئذٍ لم يكن في وجوده مزيدُ مفسدة. وقال أبو هاشم: لا يَبعُد أن يحصُلَ من وجوده مزيدُ مفسدة، إلَّا أنَّه تعالى أَبقاه تشديداً للتكليفِ على الخلق؛ ليستحقُّوا بذلك مزيدَ الثواب.

وأنا أقول: إنَّ إبليس ليس مانعاً ممَّا يريده اللهُ جلَّ مجدُه وتعالى جدُّه، فما شاء اللهُ سبحانه كان وما لم يشأ لم يكن، واللهُ تبارك وتعالى خلق الخلقَ طِبقَ عِلمِه، وعَلِمَ به طبقَ ما هو عليه في نفسه، فافهمْ، والله تعالى أعلم.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ مبتدأٌ وخبر. وقيل: الموصولُ صفةُ «ربكم» وهو صفةٌ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ [الآية:٥١] أو بدلٌ منه، وذلك جائزٌ وإنْ تباعد ما بينهما. اهـ. وفيه ما فيه.

وأصل الإزجاءِ السَّوقُ حالاً بعد حال، والمرادُ به الإجراء، وكأنَّ اختيارَه عليه لِمَا أنَّه أدلُّ منه على القَسْر، وهو أوفقُ بالمقام، وأعظمُ في الإنعام. أي: هو سبحانَه وتعالى القادرُ الحكيمُ الذي يُجري لنفعكم السفنَ في البحر بالرِّيح الليِّنة وبالآلات، حَسبَما جرت به عادتُه تعالى.

﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ تصريحٌ بالنفع، أي: لتطلبوا مِن رزقه الذي هو فضلٌ من قِبَله سبحانه، أو من الرِّبح الذي هو جلَّ شأنُه معطيه. و«مِن» تبعيضية[1]، وتفسيرُ الفضلِ بالحجِّ أو الغزوِ غيرُ مناسب. وهذا تذكيرٌ لبعض النِّعمِ التي هي دلائلُ التوحيدِ الذي هو المرادُ الأصليُّ من البعثة، وتمهيدٌ لذِكر توحيدِهم عند مَساس الضُّرِّ؛ تكملةً لما مرَّ من قوله سبحانه: «فلا يملكون» الآية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أزلاً وأبداً ﴿بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾ حيث هيَّأ لكم ما تحتاجون إليه، وسهَّل عليكم ما يَعسُر من مباديه. وهذا تذييلٌ فيه تعليلٌ لما سبق من الإزجاء والابتغاءِ للفضل. وصيغةُ الرحيم ـ كما في «إرشاد العقلِ السليم»[2] ـ للدَّلالة على أنَّ المرادَ بالرَّحمة الرحمةُ الدنيوية، والنعمةُ العاجلةُ المنقسمةُ إلى الجليلةِ والحقيرة، وهو مبنيٌّ على اختصاص الرَّحيمِ بالدنيا كما هو المشهور، وعليه:

---

(١) في الأصل: ومن ربح أو تبعيضية. وفي تفسير أبي السعود ٥/ ١٨٤: ومن مزيدة أو تبعيضية.

(٢) ٥/ ١٨٥.

«يا رحمنَ الدنيا والآخرة، ورحيمَ الدنيا»، وقيل بعدم الاختصاص، وعليه: «يا رحمن الدنيا والآخرةِ ورحيمَهما[١]».

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ خوفُ الغرقِ بعصف الرِّيح وتقاذفِ الأمواج ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾ أي: ذهب عن خواطركم كلُّ مَن تدعونه وترجون نفعَه، فلا تَذكُرونه ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ جلَّ وعلا، فإنَّكم تذكرونه وحدَه سبحانه، ولا تذكرون سِواه، ولا يَخطُر ببالكم غيرُه تعالى لكشفِ ما حلَّ بكم من الضُّرّ، استقلالاً أو اشتراكاً. فالمرادُ بضلالهم غَيبتُهم عن الفِكر، لا عن النظر والحِسّ؛ لأنَّه أمرٌ معلومٌ من قولهم: ضلَّ عنه كذا، إذا نسيه.

وفي «الكشف»: هو من: ضلَّ عنه كذا، إذا ضاع، ولا حاجةَ إلى تضمين، أو مِن: ضلَّه فلانٌ: ذهب عنه فلم يقدر عليه، ذكره الأزهريُّ وأنشد:

والسائلُ المبتغي كرائمَها يعلم أني تَضِلُّني عِلَلي[٢]

أي: تفارقني وتذهب عني فلا أَتعلَّل بعِلَّة، وهذا أظهر، نَعَم الضلالُ راجعٌ إلى الذِّكر لا بمعنى إِضمارِه، فإنَّه ركيك، يقال: ضلَّ عن خاطري كذا: إذا لم تذكرْه، فإنَّه ضلالٌ له لا أنَّه ضلالُ ذِكرُه، ولا تقول: ضلَّ عن خاطري ذِكره، وكذلك: ضلَّني الأمر. اهـ.

والدعاءُ في هذا على ظاهرِه، والاستثناءُ متصل، بناءً على أنَّ «ما»[٣] عبارةٌ عن المدعوِّين مطلقاً، وأنَّهم كانوا يَدعون اللهَ تعالى وغيرَه في الحوادث، وإنْ كانت ما[٣] عبارةً عن آلهتهم الباطلةِ فقط، وأنَّهم كانوا في حالة السرَّاءِ يدعونها وحدَها كما يدلُّ عليه ظاهرُ ما بعد، فالاستثناءُ منقطع، وفسِّر الدعاءُ على هذا بدعاء العبادةِ واللَّجَأ. وقال أبو حيان[٤]: الظاهرُ الانقطاع؛ لأنَّه تعالى لم يندرجْ في «مَن تدعون»، إذ المعنى: ضلَّت آلهتهم، أي: معبوداتُهم، وهم لا يعبدون اللهَ تعالى.

(١) ورد ضمن حديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ١٥٩ عن معاذ بن جبل، والحاكم ١/ ٥١٥ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) تهذيب اللغة ١١/ ٤٦٢-٤٦٣ والبيت لإبراهيم بن هرمة كما في التاج (ضلل).

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: من.

(٤) في البحر ٦/ ٦٠.

وتعقِّب بأنَّ مقتضَى كونِهم مشركين أنَّهم يعبدونه سبحانَه أيضاً، لكن على طريق الإشراك، بل قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كما قصَّ سبحانه عنهم يقتضي أنَّه جلَّ مجدُه المعبودُ الحقيقيُّ عندهم. وقد يقال: إنَّ الشارع أسقط مثلَ هذه العبادةِ عن درجة الاعتبار، فهم غيرُ عابدِين الله جلَّ وعلا شرعاً، بل قيل: إنَّهم غيرُ عابدِين لغةً؛ لأنَّ العبادة لغةً غايةُ الخضوعِ والتذلُّل، ولا يتحقَّق ذلك مع الشَّركة ولو على الوجهِ الذي زعموه، فتأمَّل.

وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يكونَ المعنى: ضلَّ مَن تدعونه عن إغاثتكم إلَّا إيَّاه تعالى. والضلالُ فيه إمَّا بمعنى الغَيبة، أو بمعنى عدمِ الاهتداءِ منه[1]، كأنَّه قيل: ضلَّ عن محجَّة الصوابِ في إنقاذكم ولم يَقدِر على ذلك، وأمرُ الاستثناءِ من الاتِّصال والانقطاع، ومبنَى كلٍّ على حاله.

والزمخشريُّ[2] جوَّز أن يكونَ المعنى: ضلَّ مَن تدعون من الآلهةِ عن إغاثتكم، ولكنَّ الله تعالى هو الذي ترجونه، وجعل الاستثناءَ عليه منقطعاً، فقيل: إنَّ ذلك لتخصيصه المدعوِّين بالآلهةِ.

وفي «الكشف»: لعلَّ الوجهَ فيه أنَّه تعالى ما كانوا يدعونه ـ أي: دعاءَ العبادةِ واللَّجأ ـ إلَّا في تلك الحالة، وأمَّا في حالة السَّرَّاء، فيخصُّون آلهتَهم بالدُّعاء، والتحقيقُ أنَّ الضلالَ بهذا المعنى لم يتناول الحقَّ سبحانه؛ لأنَّ معناه: ضلَّ المدعوُّون وغابوا عن إغاثتهم، ولا يُراد: غابوا وحضر جلَّ وعلا، بل المراد: ولكن رجَوا أن يغيثَهم ولا يخذُلَهم فعلُ المدعوِّين على حسبانهم، وهذا هو الوجهُ إنْ شاء اللهُ تعالى. اهـ.

ومبنى التحقيقِ لا يخفى على المتدرِّب في علم النَّحو.

هذا ومن اللطائفِ أنَّ بعضَ الناسِ قال لبعض الأئمَّة: أَثبِتْ لي وجودَ اللهِ تعالى ولا تذكرْ لي الجوهرَ والعَرَض، فقال له: هل ركبتَ البحر؟ قال: نعم، قال: فهل عَصَفت الرِّيح؟ قال: نعم، قال: فهل أشرفت بك السفينةُ على الغرق؟ قال: نعم،

---

(١) لفظة: منه، ليست في الأصل.

(٢) في الكشاف ٢/ ٤٥٧.

قال: فهل يئستَ مِن نفعِ مَن في السفينة ونحوِهم من المخلوقين لك وإنجائهم ممَّا أنت فيه إيَّاك؟ قال: نعم، قال: فهَل بقي قلبُك متعلِّقاً بشيء غيرِ أولئك؟ قال: نعم، قال: ذلك هو اللهُ عزَّ وجلَّ، فاستحسنَ ذلك.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾ من الضُّرِّ وأَوصلكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن ذِكره تعالى بعد أنْ كنتم غيرَ ذاكرين إلَّا إياه سبحانه. أو أَعرضتم عن توحيده جلَّ وعلا، أو عن شكره عزَّ وجلَّ بتوحيده وطاعتِه سبحانه، أو توغَّلتم في التوسُّع في كُفران النِّعمة، على أنَّه من العَرْض مقابل الطول، وجُعل كنايةً عن ذلك كما في قول ذي الرُّمَّة:

عطاءُ فتًى تمكَّن في المعالي فأعرضَ في المكارمِ واستطالا[1]

وكأنه أُريد: أَعرضتم واستطلتم في الكُفران، إلَّا أنَّه استُغني بذِكر العَرْض عن ذِكر الطولِ للزومه له.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ كالتعليل للإعراض، وهو بيانٌ لحكم الجِنس، ويُعلَم منه حكمُ أولئك المخاطَبين. وفيه لطافة، حيث أَعرض سبحانه عن خِطابهم بخصوصِهم وذكر أنَّ جنسَ الإنسانِ مجبولٌ على الكُفران، فلمَّا أَعرضوا أَعرض اللهُ سبحانه عنهم.

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزةُ للإنكار، على معنى أنَّه لا ينبغي الأمن، والفاءُ للعطف على محذوفٍ متوسِّط بينها وبينَ الهمزة، أي: أَنجوتم فأَمنتم؟ وهو مذهبُ بعضِ النحويِّين. واختار بعضُهم أنَّ الهمزةَ مقدَّمة من تأخير؛ لأَصالتها في الصَّدارة، والعطف على ماقبلَه، وجملةُ «كان الإنسان...» إلخ معترِضةٌ بين المتعاطِفَين، ولا حذفَ في مثل ذلك. وهو مذهبُ الأكثرين، لكن لا يظهر تسبُّب الإنكار للأَمن على ما قبلُ على ما يقتضيه هذا المذهب، بل الظاهرُ ترتُّبه على النَّجاة فقط، ولا مدخلَ للإعراض في تسبُّب الإنكار.

والحقُّ عندي في أَمثالِ ذلك ما فيه استقامةُ المعنى من غير تكلُّف، ولا يتعيَّن التزامُ أحدِ المذهبَين، وإنْ أدَّى إلى التكلُّف فإنَّه تعصُّب محض.

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤٨، والبيت في الديوان ٣/ ١٥٤٩، والشطر الأول فيه: تبوَّأ فابتنى وبنى أبوه. وهو في أمالي القالي ١/ ١٢١ برواية: عطاء فتى بنى وبنى أبوه. . .

والخطابُ لمن تقدَّم: أفأَمنتم أيُّها المعرِضون عند النجاةِ ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الذي هو مأمنُكم، أي: أن يغيِّبَه اللهُ تعالى ويذهبَ به في أعماق الأرضِ مصاحباً بكم، أي: وأنتم عليه، على أنَّ الباءَ للمصاحبة والجارَّ والمجرورَ في موضعِ الحال.

وجوِّز أن تكونَ الباءُ للسببية والجارُّ والمجرورُ متعلِّق بما عنده، أي: أن يغيِّبَه سبحانَه بسببكم.

وتعقِّب بأنَّه لا يَلزم مِن قلبه بسببهم أن يكونوا مهلَكين مخسوفاً بهم.

وأُجيب بأنَّه حيث كان المرادُ من «جانب البر» جانبَه الذي هم فيه، استلزم خسفُه هلاكَهم، ولولا هذا لم يكن في التوعُّد به فائدة.

ونصب «جانب» في الوجهَين على أنَّه مفعولٌ به لـ «يخسف». وفي «الدُّرِّ المصون» أنه منصوبٌ على الظرفية[1]، وحينئذٍ يجوز كونُ الباءِ للتعدية، على معنى: أفأمنتم أن يغيِّبَكم في ذلك.

وفي «القاموس»[2]: خسف اللهُ تعالى بفلانٍ الأرض: غيَّبه فيها. والظاهرُ أنَّه بيانٌ للمعنى اللغويِّ للَّفظ.

وفي ذكر الجانبِ تنبيهٌ على أنَّهم عندما وصلوا الساحلَ أعرضوا، أو ليكونَ المعنى أنَّ الجوانبَ والجهاتِ متساويةٌ بالنسبة إلى قدرتِه سبحانه وقهرِه وسلطانِه، فله في كلِّ جانب برًّا كان أو بحراً سببٌ مُرصَدٌ من أَسباب الهَلَكة، فليس جانبُ البحرِ وحده مختصًّا بذلك، بل إنْ كان الغرقُ في جانبِ البحر، ففي جانبِ البرِّ ما هو مثلُه، وهو الخسف؛ لأنَّه تغييبٌ تحت التُّراب، كما أنَّ الغرقَ تغييبٌ تحت الماء، فعلى العاقلِ أن يخافَ من اللهِ تعالى في جميع الجوانبِ وحيث كان.

والأوَّل على تقديرِ أن يرادَ بجانب البرِّ طرفُه ممَّا يلي البحر، وهو السَّاحل، وهذا على احتمالِ أن يرادَ به ما يشمل جميعَ جوانِبه.

---

(١) قال في الدر المصون ٧/ ٣٨٤: فيه وجهان، أظهرهما أنه مفعول به.. والثاني: أنه منصوب على الظرف.

(٢) مادة (خسف).

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرو: «نَخسِفَ» بنون العَظَمة، وكذا في الأربعةِ التي بعده[١].

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ مِن فوقِكم ﴿حَاصِبًا﴾ أخرج ابنُ المنذر عن ابن عباس أنَّه قال: هو مطرُ الحجارة. أي: مطراً يَحصِبكم، أي: يرميكم بالحصباء، وهي صغارُ الحجارة. وأخرج ابن جَريرٍ وابنُ أبي حاتم عن قتادةَ أنَّه فسَّر الحاصبَ بالحجارة نفسِها[٢]، ولعلَّه حينئذٍ صيغةُ نسبة، أي: ذا حصب، ويراد منه الرَّمي. وقال الفرَّاء: الحاصب: الرِّيح التي ترمي بالحصباء. وقال الزَّجاج[٣]: هو الترابُ الذي فيه الحصباء، والصيغةُ عليه صيغةُ نسبةٍ أيضاً. وجاءَ بمعنى ما تناثر من دُقاق الثلجِ والبَرَد، ومنه قولُ الفرزدق:

مستقبلين شمالَ الشامِ تَضربهمْ بحاصبٍ كنَديف القطن مِنثورِ[٤]

وبمعنى السَّحابِ الذي يرمي بهما.

واختار الزمخشريُّ[٥] ومَن تبعه تفسيرَ الفرَّاء، والظاهرُ أنَّ الكلامَ عليه على حقيقته، فالمعنى: أو إنْ لم يُصِبْكم بالهلاك من تحتكم بالخسف، أصابكم به مِن فوقِكم بريحٍ يُرسلها عليكم فيها الحصباءُ يَرجمكم بها، فيكون أشدَّ عليكم من الغرقِ في البحر. ويقال نحوُ هذا على سائر تفاسيرِ الحاصب.

وقال الخَفاجيُّ[٦] في وصف الريحِ بالرَّمي بالحصباء: إنَّه عبارةٌ عن شدَّتها، وذِكرُها إشارةٌ إلى أنَّهم خافوا إهلاكَ الريحِ في البحر، فقيل: إنْ شاءَ أهلككم بالرِّيح في البرِّ أيضاً.

ولا أدري ما المانعُ من إرادة الظاهرِ والشدَّةُ تلزم الرميَ المذكورَ عادة، والإشارةُ هي الإشارة.

---

(١) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٠٨.
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٦٦٩، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ١٩٣.
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٥١.
(٤) ديوان الفرزدق ١/ ٢١٣.
(٥) في الكشاف ٢/ ٤٥٨.
(٦) في حاشيته ٦/ ٤٨.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨﴾ تكِلون إليه أُمورَكم فيحفظكم من ذلك أو يَصرفه عنكم، غيرَه جلَّ وعلا، فإنَّه لا رادَّ لأمره الغالبِ جلَّ جلالُه.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أي: بل أأمنتم ﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي: في البحر الذي نجَّاكم منه فأعرضتم برُكوب الفُلك، لا في الفلك؛ لأنَّها مؤنَّثة. وأُوثرت كلمةُ «في» على كلمة إلى المنبئةِ عن مجرَّد الانتهاء؛ للدَّلالة على استقرارِهم فيه.

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: مرةً غيرَ المرةِ الأُولى. وهو منصوبٌ على الظرفية، ويُجمع على: تارات وتِيَر، كما في قوله:

يــقــوم تــاراتٍ ويــمــشــي تِــيَــرا(١)

وربَّما حذفوا منه الهاء، كقوله:

بــالــويــل تــاراً والــثــبــورِ تــارا(٢)

وإسنادُ الإعادةِ إليه تعالى مع أنَّ العودَ باختيارهم وممَّا يُنسَب إليهم ـ وإنْ كان مخلوقاً له سبحانه كسائر أفعالِهم ـ باعتبار خلقِ الدَّواعي فيهم الملجئةِ إلى ذلك. وفيه إيماءٌ إلى كمال شدَّةِ هولِ ما لاقَوه في التارة الأولى، بحيث لولا الإعادةُ ما عادوا.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ وأنتم في البحرِ ﴿قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي الريحُ الشديدةُ التي تقصف ما تمرُّ به من الشجر ونحوِه، أو التي لها قَصيف، وهو الصوتُ الشديد، كأنها تتقصَّف، أي: تتكسَّر.

وأَخرج ابنُ جَريرٍ(٣) وابنُ المنذر عن ابن عباسٍ ﷺ أنَّه قال: القاصفُ من الرِّيح الريحُ التي تُغرق. وقيل: الريحُ المهلِكةُ في البرِّ حاصب، والريحُ المهلكةُ في البحر قاصف، والعاصفُ كالقاصف، كما رُوي عن عبد الله بنِ عَمرو. وفي روايةٍ عن ابن عباسٍ تفسيرُ القاصفِ بالعاصف.

---

(١) الصحاح (تير) واللسان (تور) دون نسبة.
(٢) الصحاح واللسان (تير) دون نسبة.
(٣) تفسير الطبري ١٤/ ٦٧١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ١٩٣.

وقرأ أبو جعفر: «من الرِّياح» بالجمع[1].

﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ اللهُ سبحانه بواسطةِ ما ينال فُلْكَكم من القاصف.

وقرأ أبو جعفر: «فتُغرِقَكم» بالتاء ثالثةِ الحروف[2]، على أنَّ الفعل مسنَدٌ إلى الرِّيح. والحسنُ وأبو رجاء: «فيُغَرِّقَكم» بالياء آخرِ الحروفِ وفتحِ الغين وشدِّ الراء[3]. وفي روايةٍ عن أبي جعفرٍ كذلك، إلَّا أنَّه بالتاءِ لا الياء[4]. وقرأ حميدٌ بالنون وإسكان الغينِ وإدغام القافِ في الكاف، ورُويت عن أبي عمرٍو وابنِ مُحَيصن[5].

﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: بسبب كفرِكم السابق، وهو إعراضُهم عند الإنجاء في المرَّة الأولى. وقيل: بسبب كفرِكم الذي هو دأبُكم دائماً.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ أي: نصيراً، كما رُوي عن ابن عباس، أو ثائراً يطلبنا بما فعلنا انتصاراً منَّا أو دَرْكاً للثأر من جهتِنا، فهو كقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا ۞ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥] كما رُوي عن مجاهد.

وضميرُ «به» قيل: للإرسال. وقيل: للإغراق. وقيل: لهما، باعتبار ما وقع ونحوِه، كما أُشير إليه.

وكأنَّه سبحانه لمَّا جعل الغرقَ حين الإعادة إلى البحر انتقاماً في مقابلةِ الكفر، عقَّبه تعالى بنفي وجدانِ التَّبيع، فكأنَّه قيل: ننتقم من غيرِ أن يقومَ لنصركم، فهو وعيدٌ على وعيد، وجعَلَ ما قبلُ من شِقِّ العذاب كمسِّ الضُّرِّ في البحر، عقَّبه بنفي وجدانِ الوكيل، فكأنَّه قيل: لا تجدون مَن تتَّكلون عليه في دفعه غيرَه تعالى؛ لقوله سبحانه: (ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ) وهذا اختيارُ صاحبِ «الكشف» فلا تغفُل.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي: جعلناهم قاطبةً، برَّهم وفاجرَهم، ذوي كَرَم، أي: شرفٍ ومحاسنَ جمَّة لا يُحيط بها نطاقُ الحصر.

---

(١) النشر ٢/ ٢٢٣.

(٢) النشر ٢/ ٣٠٨.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٦١.

(٤) النشر ٢/ ٣٠٨.

(٥) البحر ٦/ ٦١.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كرَّمهم سبحانَه بالعقل. وفي رواية: بتناولهم الطعامَ بأيديهم، لا بأفواهِهم كسائرِ الحيوانات.

وعن الضحَّاك: بالنُّطق. وعن عطاء: بتعديل القامةِ وامتدادِها. وعن زيد بنِ أَسلَم: بالمطاعم واللذَّات. وعن يمان: بحسن الصُّورة. وعن ابن جَرير[1]: بالتسلُّط على غيرهم من الخلقِ وتسخيرِه لهم. وعن محمد بنِ كعب: بجعل محمدٍ ﷺ منهم.

وقيل: بخلق اللهِ تعالى أباهم آدمَ بيديه. وقيل: بتدبير المعاشِ والمعاد. وقيل: بالخطّ. وقيل: باللِّحية للرَّجل والذُّؤابةِ للمرأة. وقيل وقيل، والكلُّ في الحقيقةِ على سبيلِ التمثيل، ومَن ادَّعى الحصرَ في واحد ـ كابن عطيةَ حيث قال[2]: إنَّما التكريمُ بالعقل لا غير ـ فقد ادَّعى غلطاً، ورام شَطَطاً، وخالف صريحَ العقل، وصحيحَ النقل. ولذا استدلَّ الإمام الشافعيُّ بالآية على عدم نجاسةِ الآدميِّ بالموت.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على أكبادٍ رطبةٍ وأعوادٍ يابسةٍ من الدوابِّ والسفن. فهو من: حملتُه على كذا، إذا أعطيتَه ما يركبه ويَحمله، فالمحمولُ عليه مقدَّر بقرينة المقام. وقيل: المرادُ من حملِهم في البرِّ والبحرِ جعلُهم قارِّين فيهما بأن لم يَخسف بهم الأرضَ ولم يُغرِقهم بالماء. والأولُ أنسبُ بالتكريم؛ إذ لا يثبتُ لشيءٍ من الحَيَوانات سواهم، بخلافِ الثاني.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: فنونِ النِّعم وضروبِ المستلَذَّات ممَّا يحصُل بصُنعهم وبغير صنعِهم، من المأكولاتِ والملبوساتِ والمفروشاتِ والمقتنَيات وغيرِ ذلك.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ قيل: أي: بالتكريم المذكورِ ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)﴾ عظيماً. والمرادُ أنَّ ذلك مخصوصٌ بهم بالنِّسبة إلى الكثير، فلم يكرَّم الكثيرُ كما كُرِّموا.

وبحث الإمامُ[3] في هذا المقامِ بأنَّه تعالى قال أوَّلاً: «ولقد كرمنا بني آدم» وقال سبحانَه هنا: «وفضلناهم» فلا بدَّ من فرقٍ بين التكريمِ والتفضيل؛ لئلَّا يلزمَ

(١) في تفسيره ١٤/ ٦٧٢-٦٧٣.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.
(٣) في التفسير الكبير ٢١/ ١٥-١٦.

التَّكرار. والأقربُ في ذلك أن يقال: إنَّه تعالى فضَّل الإنسان على سائرِ الحيواناتِ بأمور خَلقية طبيعيةٍ ذاتية، مثلِ العقلِ، والنُّطق، والخطّ، والصورةِ الحسنة، والقامةِ المديدة، ثم إنه عزَّ وجلَّ عرَّضه بواسطة العقلِ والفهمِ لاكتساب العقائدِ الحقَّة والأخلاق الفاضلة، فالأولُ هو التكريم، والثاني هو التفضيل، فكأنَّه قيل: فضَّلناهم بالتعريض لاكتسابِ ما فيه النجاةُ والزُّلفى بواسطة ما كرَّمناهم به من مبادي ذلك، فعليهم أنْ يشكروا ويَصرِفوا ما خُلِق لهم لما خُلق له، فيوحِّدوا اللهَ تعالى ولا يُشركوا به شيئاً، ويَرفضوا ما هم عليه من عبادة غيرِه عزَّ وجلّ. ويقال نحوُ هذا على ما سبق أيضاً بقليلِ تغيير.

وقال الطِّيبي: قد كرَّر في الآية ما يُنبئُ عن غاية المدحِ من ذِكر الكرامةِ والتَّفضيل، وتسخيرِ الأشياءِ على سبيل الترقِّي، كأنَّه قيل: ولقد كرَّمنا بني آدم بكرامةِ أبيهم عليه السلام، ثم سخَّرنا لهم الأشياءَ ورزقناهم من الطيِّبات، ثم فضَّلناهم تفضيلاً أيَّ تفضيل؛ ولذا عقَّب بها قولَه سبحانه: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا...» إلخ، وهو لبيان كرامةِ أبيهم، وما توسَّط بينهما من الآياتِ كالاستطرادِ والاعتراض... إلى آخرِ ما قال.

ويُعلَم منه دفعُ التكرارِ وإنْ لم يَسُقْه لذلك الغرض. وفيه تخصيصُ التكريم، وكذا فيما قيل: إنَّ التكريمَ بالنِّعم التي يصحُّ بها التكليفُ، والتفضيلَ بالتكليف الذي عرَّضهم به للمُنازَلة الرفيعة.

والمرادُ بالكثير مَن عدا الملائكةَ عليهم السلام عندَ الكثير، ومنهم الزمخشريُّ[1]، وزعم أنَّ الآيةَ صريحةٌ في تفضيل المَلَكِ على البشر، وشنَّع على أهل السُّنَّة تشنيعاً أقذعَ فيه.

والحقُّ أنَّها لا تصلُح للاحتجاج على التفضيلِ المتنازَعِ فيه، ففي «الكشف» أنَّ الظاهرَ من سياق الآيةِ أنَّه حثٌّ للإنسان على الشُّكر، وعلى ألَّا يشركَ به تعالى، حيث ذكر ما في البرِّ والبحرِ من حسن كلاءتِه سبحانه له، وضمَّن فيه أنَّه جلَّ وعلا هداهم إلى الفُلك وصَنعته وما يترتَّب عليه من الفوائدِ في قوله سبحانه: «ربكم الذي يزجي لكم الفلك» الآياتِ، فقال عزَّ وجلّ: «ولقد كرمنا بني آدم» أي: هذا

(١) في الكشاف ٢/ ٤٥٨.

النوعَ من بين سائرِ الأنواع باصطناعاتٍ خصصناهم بها، فذَكَرَ تعالى منها حملَهم في البرِّ والبحر، ورزقَهم من الطيِّبات، وتفضيلَهم على كثيرٍ من المخلوقات، وهذا التفضيلُ لا يراد منه عِظَمُ الدرجةِ وزيادةُ القُربة عند الله تعالى، وهو المتنازَعُ فيه؛ لأنَّ الحكمَ للنَّوع من حيث هو، وذَكَرَ اللهُ تعالى لذلك موجباتٍ تَعمُّ الصالحَ والطالح، فسواءٌ دخل في هذا الكثيرِ الملائكةُ أو لم يدخلْ لم يدلَّ على الأفضلية بالمعنى المذكور، فلا يصلُح لاحتجاج إحدى الطائفتَين. اهـ.

ثم إنَّه على فَرْض أنَّ التفضيلَ بالمعنى المتنازَعِ فيه، لاتدلُّ الآيةُ على أنَّ المَلَكَ أفضلُ من البشر إلَّا بطريق المفهوم، وفي حجِّيته خلاف، وأبو حنيفةَ ﷺ لا يقولُ به، على أنَّه يدلُّ على أنَّهم فضِّلوا على الكثير ولم يفضَّلوا على مقابِله، وهو يحتمل المساواةَ وتفضيلَ المقابل، فليس نصًّا في مذهبِ الزمخشريّ.

وجعل الطِّيبيُّ «مِن» بيانية؛ كما في قولِك: بذلتُ له العريضَ مِن جاهي، أي: فضَّلناهم على الكثيرين الذين خلقناهم مِن ذوي العقول، كما هو الظاهرُ مِن «مَن» وهم منحصرونَ في المَلَك والجِنِّ والبشر، فحيث خرج البشر؛ لأنَّ الشيءَ لا يفضَّل على نفسه، بقي المَلَكُ والجِنّ، فيكون المرادُ بيانَ تفضيلِ البشرِ عليهم جميعاً، وهو الذي يقتضيه مقامُ المدح، فإنَّ الآيةَ مسوقةٌ له، وإذا جُعلت للتبعيض كان «ممن خلقنا» بدلاً، أي: فضَّلناهم على بعضِ المخلوقين.

وذِكرُ البعضِ في هذا المقامِ يدلُّ على تعظيم المفضَّلِ عليه، كما قرِّر في قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وأيُّ مدحٍ لبني آدمَ وإثباتٍ للفضل والكرامةِ بالجملة القَسَمية إذا جُعلوا مفضَّلين على الجِنِّ والشَّياطين، على أنَّ صفةَ الكثرةِ إذا جُعلت مخصِّصةً لإخراج البعض، كانت الملائكةُ أَوْلى من الجِنِّ والشياطين؛ لأنَّهم هم الموصوفون بالكثرة، كما تدلُّ عليه الأخبارُ الكثيرة، كخبر أَطيطِ السماء[1]، وخبرِ نزولِ قَطَرات المطر[2]، وخبرِ ما يدخل البيتَ المعمورَ في

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٣١٢) عن أبي ذرّ ﷺ، وسلف ٢/ ٨٧.

(٢) أخرج ابن جرير ١٤/ ٤٠-١٤، وأبو الشيخ في العظمة (٤٩٥) عن الحكم بن عتيبة: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم يُحْصُون كلَّ قطرة حيث تقع وما تنبت.

كلِّ يومٍ من الملائكة[1]، إلى غير ذلك، وإليه ينظر قولُ صاحبِ «التقريب»: إنَّه يحتملُ أن يرادَ بـ «كثيرٍ ممَّن خلقنا» الملائكةُ؛ إذ هم كثيرٌ من العقلاءِ المخلوقين. اهـ.

وتعقِّب بأنَّ ما ذكره مِن حَمل «مَن خلقنا» على تعميمِ ذوي العقولِ مقبول، فإنَّ تفضيلَهم على غيرِ ذوي العقولِ حينئذٍ آتٍ من طريق مفهومِ الموافقة، فلا حاجةَ إلى ارتكابِ خلاف الظاهرِ واعتبارِ تغليبِهم ليعمَّهم وغيرَهم، لكنَّ حَمل «مِن» على البيانِ غيرُ مقبول؛ فإنَّه بعيدٌ جدًّا؛ لأنَّ قيدَ الكثرةِ يضيِّع عليه حملَ «مِن» على التعميم التغليبيِّ أو الوضعيّ، ولأنَّ استعمالَه في التبعيض شائعٌ أينما وقع في التنزيلِ واستعمالاتِ الفصحاء، وهو أكثرُ تعسُّفاً من حمله على ابتداء[2] الغاية في قوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[3] [المائدة: ٦] على ما ذكره الزمخشريُّ[4] فيه، وأنَّه إذا قوبل بشيءٍ آخَرَ دلَّ على القلَّة في المقابل، كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦] فإنَّه صرَّح بأنه يدل على أنَّ الغلبةَ للفسَّاق للمقابلة، أمَّا ما ورد ابتداءً فربَّما كان الأكثرُ خلافَ ذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥] فقولُه: إنَّ صفةَ الكثرةِ إذا جُعلت مخصِّصة... إلخ، كلامٌ لم يَصدر عن ثبت، ولهذه النُّكتةِ قال صاحبُ «التقريب»: يحتمل...، دلالةً على أنَّه مرجوح.

هذا ثم إنَّ مسألة التفضيلِ مختلَفٌ فيها بين أهل السُّنة، فمنهم مَن ذهب إلى تفضيلِ الملائكة، وهو مذهبُ ابنِ عباس رضي الله عنهما، واختيارُ الزجَّاجِ[5] على ما رواه الواحديُّ في «البسيط».

ومنهم مَن فصَّل فقال: إنَّ الرُّسل من البشر أفضلُ مطلقاً، ثم الرُّسل من الملائكةِ على مَن سواهم من البشرِ والملائكة، ثم عموم الملائكةِ على عموم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه.
(٢) لفظة: ابتداء. ليست في (م).
(٣) في الأصل و(م): فامسحوا برؤوسكم وأرجلكم منه. ولا توجد آية بهذا اللفظ.
(٤) في الكشاف ١/ ٥٢٩.
(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٢.

البشر. وهذا ما عليه أصحابُ الإمامِ أبي حنيفةَ عليه الرحمةُ وكثيرٌ من الشافعيةِ والأشعرية.

ومنهم مَن عمَّم تفضيلَ الكُمَّلِ من نوع الإنسان نبيًّا كان أو وليًّا.

ومنهم مَن فضَّل الكَروبيِّين[(١)] من الملائكةِ مطلقاً، ثم الرسلَ من البشر، ثم الكمَّلَ منهم، ثم عمومَ الملائكةِ على عمومِ البشر. وهذا ما عليه الإمامُ الرازيّ، وبه يُشعر كلامُ الغزاليِّ في مواضعَ عديدةٍ في كتبه.

ومن هذا يُعلَم أنَّ إطلاق القولِ بأنَّ أهلَ السُّنةِ يفضِّلون البشرَ على المَلَك ليس على ما ينبغي. وهذه المسألةُ ومسألةُ تفضيلِ الأئمَّة ليستا مما يُبدَّع الذاهبُ إلى أحدِ طرفَيهما على ما في «الكشف»؛ إذ لا يرجع إلى أصلٍ في الاعتقاد، ولا يستند إلى قطعيٍّ بعد أن يسلمَ من الطَّعن، وما يخلُّ بتعظيمٍ في المسألتين، لكنَّ المشهورَ في مسألة تفضيلِ الأئمَّة أنَّ القولَ بخلاف ما استقرَّ عليه رأيُ أهلِ السُّنة ابتداع، ومَن أنصف قال بما في «الكشف»، فهَذَرُ الزمخشريِّ على مَن خالفه محضُ جهالة إذا لم يكن بتلك الغايةِ، فكيف وهو قد بلغ فيه من السَّفاهة غايتَها، ومن البذاذةِ نهايتَها؟ وسيرى جزاءَ ذلك.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ شروعٌ في بيان تفاوتِ أَحوال بني آدمَ في الآخرة بعد بيانِ حالِهم في الدنيا. و«يوم» مفعولٌ به لفعلٍ محذوف، أي: اذكر يومَ ندعوا. . . إلخ.

وجوَّز ابن عطيةَ[(٢)] وغيرُه أن يكونَ ظرفاً لفعلٍ يدلُّ عليه «لا يُظلمون» ولم يُجعل ظرفاً له بناءً على أنَّ الفاءَ لا يعمل ما بعدَها فيما قبلَها ولو ظرفاً.

وجوَّز أيضاً أن يكون مبتدأً، وهو مبنيٌّ لإضافته إلى غير متمكِّن، والخبرُ جملةُ «فمن أوتي. .» إلخ[(٣)]، ويقدَّر للرَّبط فيها «فيه» وفيه. أنَّ المنقسمَ إلى متمكِّن وغير متمكِّنٍ هو الاسمُ لا الفعل، وما في حيِّزه هنا فعلٌ مضارع، على أنَّ بناءَ أسماءِ

---

(١) هم المقربون من الملائكة. المعجم الوسيط (كرب).
(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.

الظروفِ المضافةِ إلى جملةٍ هو أحدُ ركنَيها، بناءً على مذهبِ الكوفيين، والبصريُّون لا يجوِّزون ذلك، ومع هذا هو تخريجٌ متكلَّف.

وجوَّز أيضاً كونَه ظرفاً لـ «فضلناهم»، قال: وتفضيلُ البشرِ على سائر الحَيَواناتِ يومَ القيامة بيِّن[1]، وبه قال بعضُ النُّحاة، إلَّا أنَّه قال: فضَّلناهم بالثَّواب. وفيه أنَّه أيُّ تفضيلٍ للبشر ذلك اليومَ والكفَّارُ منهم أخسُّ من كلِّ شيء؟ إلَّا أن يقال: يكفي في تفضيل الجنسِ تفضيلُ بعضِ أفراده، أَلَا ترى صحَّةَ: الرِّجالُ أفضلُ من النِّساء، مع أنَّ مِن النساءِ مَن هي أفضلُ من بعض الرجالِ بمراتب. وأيضاً إذا أُريد التفضيلُ بالثَّواب، لا يصحُّ إخراجُ الملائكة؛ لأنَّ جنسَ البشرِ يُثابون، والملائكةُ عليهم السلام لا يُثابون، كما هو مقرَّر في محلِّه. ثم إنَّهم يشاركهم في الثوابِ الجنّ؛ لأنَّ مؤمنيهم يُثابون كما يثاب البشرُ عند بعض. وقيل: إنَّ ثوابَهم دون ثوابِهم؛ لأنَّهم لا يرون اللهَ تعالى في الجنةِ عند مَن قال: إنَّ الله تعالى يُرى فيها، فالبشرُ مفضَّلون عليهم في الثَّواب من هذه الجهة.

وقيل: ظرف «يقرؤون» أو ما دلَّ عليه. وفيه أنَّهم لا يقرؤون كتابَهم وقتَ الدعوة. وأُجيب بأنَّ المرادَ بيومَ يدعون وقتٌ طويل، وهو اليومُ الآخِر الذي يكون فيه ما يكون، ويبقى في جَعلِه ظرفاً للمذكور حديثُ الفاء.

وقال الفرَّاء: وهو ظرفٌ لِنعيدكم محذوفاً. وقيل: ظرفٌ ليستجيبون. وقيل: هو بدلٌ من «يوم يدعوكم». وقيل: العاملُ فيه ما دلَّ عليه قولُه سبحانه: «متى هو» [الآية:٥١]. وهي أقوالٌ في غاية الضَّعف، وأقربُ الأقوالِ وأقواها ما ذكرناه أوَّلاً.

والإمام: المقتدَى به والمتَّبع، عاقلاً كان أو غيرَه. والجارُّ والمجرورُ متعلِّق بـ «ندعو»، أي: ندعو كلَّ أناسٍ من بني آدمَ الذين فعلنا بهم في الدُّنيا ما فعلنا من التكريمِ وما عُطف عليه بمَن ائتمُّوا به، من نبيّ، أو مقدَّم في الدِّين، أو كتاب، أو دين، فيقال: يا أَتباعَ فلان، يا أهلَ دِين كذا أو كتابِ كذا.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.

وأَخرج ابنُ مردويه عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: «يُدعَى كلُّ قومٍ بإمام زمانِهم وكتابِ ربِّهم وسُنَّةِ نبيِّهم»[١].

وأَخرج ابن أبي شيبةَ وابنُ المنذر وغيرُهما عن ابن عباسٍ أنَّه قال: إمامُ هدًى وإمامُ ضلالة[٢]. وأخرج ابن جَريرٍ[٣] من طريق العوفيِّ عنه رضي الله عنه أنَّه قال: بإمامهم: بكتاب أَعمالهم، فيقال: يا أصحابَ كتابِ الخير، يا أصحابَ كتاب الشَّرّ. ورُوي ذلك عن أبي العالية والرَّبيعِ والحسن.

وقُرئ: «بكتابِهم»[٤] ولعل وجهَ كون ذلك إمامَهم أنَّهم متَّبِعون لِمَا يحكم به من جنةٍ أو نار.

وقال الضَّحاك وابنُ زيد: هو كتابُهم الذي نُزِّل عليهم.

وأَخرج ابنُ أبي حاتم، وابنُ مردويه، والخطيبُ في «تاريخه» عن أنسٍ أنَّه قال: هو نبيُّهم الذي بُعث إليهم[٥]. واختار ابنُ عطيةَ[٦] ـ كغيره ـ عمومَ الإمام لِمَا ذُكِر في الآثار.

وقيل: المراد القُوى الحاملةُ لهم على عقائدِهم وأفعالِهم، كالقوَّة النظريةِ والعملية، والقوةِ الغضبيَّة والشَّهْوية، سواءٌ كانت الشهوةُ شهوةَ النُّقود، أو الضِّياع، أو الجاهِ والرِّياسة؛ ولاتِّباعهم لها دُعيت إماماً. وهو مع كونِه غيرَ مأثورٍ بعيدٌ جدًّا، فلا يقتدَى بقائله وإنْ كان إماماً.

وفي «الكشَّاف»[٧] أنَّ مِن بِدَع التفاسيرِ أنَّ الإمامَ جمعُ أُمّ، كخُفٍّ وخِفَاف، وأنَّ الناسَ يُدعون يومَ القيامةِ بأُمهاتهم، وأنَّ الحكمةَ في الدُّعاء بهنَّ دون الآباءِ

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٤، وهو حديث موضوع، ينظر الفردوس للديلمي ٥/ ٥٢٨، والميزان ٢/ ٨ ترجمة داود بن سليمان الجرجاني.
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٩٣-١٩٤.
(٣) في تفسيره ١٥/ ٧.
(٤) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٦.
(٥) الدر المنثور ٤/ ١٩٤، وهو في تاريخ بغداد ١/ ٣١٧.
(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٣.
(٧) ٢/ ٤٥٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

رعايةُ حقِّ عيسى عليه السلام وشرفِ الحسنِ والحسين و[أن]لا يُفضحَ أولادُ الزِّنى، وليت شعري أيُّهما أبدع: أصحَّةُ تفسيرِه أم بهاءُ حكمتِه؟ انتهى. وهو مرويٌّ عن محمد بنِ كعب. ووجهُ عدمِ قبوله ـ على ما في «الكشف» ـ أمَّا أوَّلاً: فلأنَّ «إمام» جمعَ أُمٍّ غيرُ شائع، وإنَّما المعروفُ الأمَّهات. وأمَّا ثانياً: فلأنَّ رعايةَ حقِّ عيسى عليه السلام في امتيازه بالدُّعاء بالأمِّ، فإنَّ خلقَه من غيرِ أبٍ كرامةٌ له، لا غضٌّ منه ليُجبَرَ بأنَّ الناسَ أُسوته في انتسابِهم إلى الأمَّهات. وإظهارُ شرفِ الحسنين بدون ذلك أتمّ؛ فإنَّ أباهما خيرٌ من أمِّهما، مع أنَّ أهلَ البيتِ كحلقةٍ مُفرَغة. وأمَّا افتضاحُ أولادِ الزِّنى، فلا فضيحةَ إلَّا للأُمهات، وهي حاصلةٌ دُعيَ غيرُهم بالأمَّهات أو بالآباء، ولا ذنبَ لهم في ذلك حتى يترتَّبَ عليه الافتضاح. انتهى.

وما ذُكر من عدم شيوعِ الجمعِ المذكور بيِّن، وأمَّا الطعنُ في الحكمةِ فقد تعقِّب، فإنَّ حاصلَها أنَّه لو دُعي جميعُ الناسِ بآبائهم ودُعي عيسى عليه السلام بأمِّه، لَربَّما أشعر بنقص، فرُوعي تعظيمُه عليه السلام، ودُعي الجميعُ بالأمَّهات، وكذا رُوعي تعظيمُ الحسنَين رضي الله عنهما، لِمَا أنَّ في ذلك بيانَ نسبِهما من رسول اللهِ ﷺ، ولو نُسبا إلى أبيهما كرَّم الله تعالى وجهَه لم يفهم هذا، وإنْ كان هو هو رضي الله عنه، وفي ذلك أيضاً سَترٌ على الخلق حتى لا يفتضحَ أولادُ الزِّنى، فإنه لو دُعي الناسُ بآبائهم ودُعوا هم بأُمهاتهم، عُلم أنَّهم لا نسبةَ لهم إلى آباءٍ يُدعَون بهم، وفيه تشهيرٌ لهم، ولو دُعوا بآباءٍ لم يُعرَفوا بهم في الدنيا وإنْ لم يُنسَبوا إليهم شرعاً كان كذلك، وعلى هذا يسقط ما في «الكشف».

وعندي أنَّ القائلَ بذلك لا يكادُ يقول به من غيرِ أن يتمسَّكَ بخبر؛ لأنَّه خلافُ ما ينساق إلى الأذهان على اختلافِ مراتبها، ولا تكاد تَسلم حكمةٌ[1] عن وَهْن، ولا يُصلِح العطارُ ما أفسد الدهر، ولعل الخبرَ ـ إنْ كان ـ ليس بالصَّحيح، ويعارضه ما قدَّمناه غيرَ بعيدٍ من قوله ﷺ: «إنَّكم تُدعَون يومَ القيامةِ بأسمائكم وأسماءِ آبائكم، فأَحسِنوا أسماءكم»[2] واللهُ تعالى أعلم.

---

(١) في (م): حكمته.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٤٨) عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وسلف ١٤/ ٥٤٩.

وما ذُكر من تعلُّق الجارِّ بما عنده هو الظاهرُ الذي ذهب إليه الجمهور، وجوَّز أن يكونَ متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً، أي: مصحوبين بإمامهم.

ثم إنَّ الداعي إمَّا اللهُ عزَّ وجلّ، وإمَّا المَلَك، وهو الذي تُشعر به الآثار، فإسنادُ الفعلِ إليه تعالى مجاز.

وقرأ مجاهد: «يَدعو» بالياءِ آخرِ الحروف[1]، أي: يدعو اللهُ تعالى أو المَلَك.

والحسنُ في روايةٍ: «يُدْعَى»[2] بالبناءِ للمفعول ورفعِ «كل» على النِّيابة عن الفاعل.

وفي روايةٍ أخرى: «يُدعَوا» بضمِّ الياءِ وفتحِ العين بعدَها واو[3]، ورفعِ «كل»، وخرِّجت على وجهين، فإنَّ الظاهرَ: يُدعَون، بإثبات النونِ التي هي علامةُ الرفع:

الأوَّل: أنَّ الواو ليست ضميرَ جمعٍ ولا علامتَه، وإنَّما هي حرفٌ من نفسِ الكلمة، وكانت ألفاً، والأصل: يُدعَى، كما في القراءة الأُخرى، وقُلبت الألفُ واواً على لغةِ مَن يقول في أفعى وهي الحية: أفعو، وهذه اللغةُ مخصوصةٌ بالوقفِ على المشهور، فيكون قد أُجري هنا الوصلُ مُجرَى الوقف. ونُقل عن سيبويه أنَّ قلبَ الألفِ في الآخِر واواً لغةٌ مطلقاً[4].

والثاني: أنَّ الواو ضميرٌ أو علامةٌ كما في: «يتعاقبونَ فيكم ملائكة»[5] والنونُ محذوفةٌ كما في قوله ﷺ: «لا تُؤمنوا حتى تحابُّوا»[6] و: «كما تكونوا يولَّى عليكم»[7] في قول، وكذا في قولِ الشاعر:

أَبِيتُ أَسري وتَبيتي تَدلُكي ... وجهَك بالعنبرِ والمسكِ الذَّكي[8]

(١) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر المحيط ٦/ ٦٢.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٦٢، وانظر القراءات الشاذة ص٧٧.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٢، والبحر المحيط ٦/ ٦٢، وانظر القراءات الشاذة ص٧٧.
(٤) الكتاب ٤/ ٢٤١.
(٥) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وسلف ١٣/ ٦٧.
(٦) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٧) أخرجه الصيداوي في معجم الشيوخ ١/ ١٤٩، وفي إسناده وضاع. ينظر ما سلف ٢/ ٣١٨.
(٨) البحر المحيط ٦/ ٣٦، والخزانة ٨/ ٣٣٩ وقال: لم أقف على قائله.

وكأنَّها لكونها علامةَ إعرابٍ عوملت معاملةَ حركتِه في إظهارها تارةً وتقديرِها أخرى.

ولا فرقَ في كونِها علامةَ إعرابٍ بين أن تكون الواو ضميراً وأن تكونَ علامة جمعٍ على الصَّحيح، والظاهر أن حذفها في مثل ما ذُكر شاذٌّ لا ضرورة، وإلَّا فلا يَصحُّ هذا التخريجُ في الآية.

وفي توجيهِ رفع «كل» على هذه القراءةِ الأقوالُ في توجيه الرفعِ في أمثاله، وهي مشهورةٌ في كتب النَّحو.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ يومئذٍ من أولئك المدعوِّين ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ صحيفة أعمالِهم، والله سبحانه أعلمُ بحقيقتها ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ إبانةً لخطر الكتابِ المؤتَى، وتشريفاً لصاحبه، وتبشيراً له من أوَّل الأمرِ بما في مطاويه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى «مَن» باعتبار معناه، وكأنَّه أُشير بذلك إلى أنَّهم حزبٌ مجتمعون على شأنٍ جليل.

وقيل: فيه إشعارٌ بأنَّ قراءتهم لكُتبهم على وجه الاجتماعِ لا على وجهِ الانفرادِ كما في حالِ الإيتاء. وأكثرُ الأخبارِ ظاهرةٌ في أنَّ حالَ القراءةِ كحال الإيتاء، نعم جاءَ من حديثِ عائشةَ رضي الله عنها أنَّه يؤتَى العبدُ كتابَه بيمينه، فيقرأ سيئاتِه ويقرأ الناسُ حسناتِه، ثم يحوِّل الصحيفة، فيحوِّل اللهُ تعالى حسناتِه، فيقرؤها الناسُ فيقولون: ما كان لهذا العبدِ من سيِّئة(١).

ويحتمل أن يكونَ كلُّ مَن يؤتَى كتابَه بيمينه بعد أن يقرأَه منفرداً يأتي أصحابَه ويقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] فيجتمعون عليه ويقرؤونه، ويقرؤه هو أيضاً معهم تلذُّذاً به، لكن لم نجدْ في ذلك أثراً، ومع هذا لا يُجدي نفعاً فيما أراد القائل.

وفي إلحاق اسم الإشارةِ علامةَ البُعد إشارةٌ إلى رفعة درجاتِ المشارِ إليهم، أي: أولئك المختصُّون بتلك الكرامةِ التي يُشعر بها إيتاءُ الكتابِ باليمين ﴿يَقْرَءُونَ﴾ ولو لم يكونوا قارئين في الدُّنيا ﴿كِتَٰبَهُمْ﴾ الذي أُوتوه باليمين؛ ليذكروا أعمالَهم ويقفوا على تفاصيلِها فيحاسبوا عليها.

---

(١) لم نقف عليه.

وقيل: يقرؤونه تبجُّحاً بما سُطر فيه من الحسناتِ المستتبِعة لفنون الكرامات. والإظهارُ في مقام الإضمارِ لمزيد الاعتناء.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يُنقصَون من أُجور أعمالِهم المرتسمةِ في كتبهم، بل يؤتَونها مضاعفة.

﴿فَتِيلًا ۝٧١﴾ أي: قدرَ فتيل، وهو القِشرُ الذي في شَقِّ النَّواة، سمِّي بذلك لأنَّه على هيئة الشيءِ المفتول. وقيل: هو ما تَفتِله بين أصابعِك من خيطٍ أو وسخ، ويُضرَب به المثلُ في الشيءِ الحقير.

ثم إنَّ الذي يُسرِع إلى الذِّهن أنَّ فاعلَ الإيتاءِ الملائكةُ عليهم السلام يُعطُون السعيدَ بعد أن يُدعى كتابَه بيمينه، فيقرؤه، فيُحاسَب حساباً يسيراً، وينقلبُ إلى أهله مسروراً.

لكن أَخرج العُقيليُّ عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «الكتبُ كلُّها تحت العرش، فإذا كان يومُ القيامة، يبعث اللهُ تعالى ريحاً فتُطيرها إلى الأيمان والشَّمائل، وأوَّل خطٍّ فيها ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]»(١). وهو ظاهرٌ في أنَّ فاعلَ الإيتاءِ ليس المَلَك، إلَّا أنَّ الخبرَ يحتاج إلى تنقير، فإنِّي لست من صحَّته على يقين.

نعم جاءَ في حديثٍ أَخرجه الإمام أحمدُ(٢) عن عائشةَ الصِّدِّيقةِ ﵂ أنَّها قالت: قلت: يارسولَ الله، هل يذكر الحبيبُ حبيبَه يومَ القيامة؟ قال: «أمَّا عند ثلاثٍ فلا.. إلى أن قال: وعند تطايرِ الكُتُب» وهو مؤيِّد بظاهره الخبرَ السابق، والله تعالى أعلم.

وجاءَ في بعض الآثارِ أنَّ أوَّل مَن يؤتَى كتابَه بيمينه مِن هذه الأمَّةِ أبو سلمةَ عبدُ الله بنُ عبدِ الأسد، وأوَّل مَن يؤتَى كتابَه بشماله أخوه الأسودُ(٣) سوَّد اللهُ تعالى

---

(١) الضعفاء للعقيلي ٤/٤٦٦، وفي إسناده يغنم بن سالم، قال عنه أبو حاتم: ضعيف. وقال ابن حبان: كان يضع على أنس بن مالك. الميزان ٤/٤٥٩.

(٢) في مسنده (٢٤٧٩٣).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في الأوائل ص٣٤، والطبراني في الأوائل (٨٢) من حديث ابن =

وجهه، بعد أن يمدَّ يمينَه ليأخذَه بها فيخلعُها مَلَك. وسببُ ذلك مذكورٌ في السِّيَر.

﴿وَمَن كَانَ﴾ من المدعوِّين المذكورين ﴿فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ الدنيا التي فُعل بهم فيها من التكريمِ والتفضيلِ ما فُعل ﴿أَعْمَىٰ﴾ لا يهتدي إلى طريق نجاتِه من النَّظر إلى ما أولاه مولاه جلَّ عُلاه، والقيامِ بحقوقه، وشكرِه سبحانه بما ينبغي له عزَّ شأنه من الإيمان والعمل.

﴿فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ التي عبَّر عنها بـ «يوم ندعو» ﴿أَعْمَىٰ﴾ لا يهتدي أيضاً إلى ما يُنجيه، ولا يَظفر بما يُجديه؛ لأنَّ العَمَى الأوَّل موجبٌ للثاني، وهو في الموضعَين مستعارٌ من آفة البصر.

وجوِّز أن يكونَ «أعمى» الثاني أفعلَ تفضيلٍ من عَمَى البصيرة، وهو من العيوبِ الباطنةِ التي يجوز أن يصاغَ منها أفعلُ التفضيل، كالأحمقِ والأبله، وبُني على ذلك إمالةُ أبي عَمرٍو الأولَ وتفخيمُه الثاني[1]، وبيانُه أنَّ الألفَ في الأوَّل آخرُ الكلمةِ كما ترى، وتَحسُن الإمالة في الأواخر، وهي في الثاني على تقدير كونِه أفعلَ تفضيلٍ كأنَّها في وسطِ الكلمة؛ لأنَّ أفعل المذكورَ غيرَ معرَّفٍ باللام ولا مضافٍ لا يُستعمَل بدون «مِن» الجارَّة للمفضَّل عليه، ملفوظةً أو مقدَّرة، وهو معها في حكم الكلمةِ الواحدة، ولا تَحسُن الإمالةُ فيها ولا تَكثُر كما في المتطرِّفة.

وقد صرَّح بذلك أبو عليٍّ في «الحجَّة»[2] فلا يَرِد إمالةُ «أدنى من ذلك» و«الكافرين» وأنَّ حمزةَ والكسائيَّ وأبا بكرٍ يُميلون الأعمى في الموضعين[3]، ولا حاجةَ إلى أن يقال: إنَّهم لا يرونه أفعلَ تفضيل، أو أنَّ الإمالةَ فيما يرونه كذلك للمشاكلة.

= عباس رضي الله عنهما، وجاء بدل: الأسود، في الأول: سفيان، وفي الثاني: أبو سفيان. والخبر في إسناده حبيب بن زريق، قال عنه ابن عدي: أحاديثه كلها موضوعة. الكامل ٢/ ٨١٨، والميزان ١/ ٤٥٢.

(١) التيسير ص١٤٠، والنشر ٢/ ٣٥ فما بعد.

(٢) ٥/ ١١٢-١١٣.

(٣) انظر التيسير ص١٤٠، وص٤٦ فما بعد، والنشر ٢/ ٣٥ فما بعد.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّه لمَّا أُريد افتراقُ معنيَي الأعمى في الموضعين، افترق اللفظان إمالةً وتفخيماً، وفخِّم الثاني لأنَّ ما يدلُّ على زيادةِ المعنى أَوْلى بالتفخيم، مع عدمِ حُسنِ الإمالة فيه حُسنَها في الأوَّل، ولا يُظَنُّ بأبي عليٍّ أنَّه يقول بامتناع الإمالة، وإنَّما يقول بأولويَّة التفخيم.

وقال بعضُهم: إنْ كان العمى فيما يكون للبصرِ وما يكون للبصيرةِ حقيقةً، فلا إشكال، وإنْ كان حقيقةً في الأوَّل وتجوِّز به عن الثاني، ففيه إشكال، إلَّا أن يقال: إنَّه أُلحق بما وُضع لذلك، وقد منعه آخرون؛ لأنَّ العِلَّة ـ وهي الإلباسُ بالوصف ـ موجودةٌ فيه، فتدبر.

وقوِّي هذا التأويلُ بعطف قولِه تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ منه في الدنيا؛ لزوالِ الاستعداد، وعدمِ إمكانِ تداركِ ما فات. وهذا بعينه هو الذي أُوتي كتابه بشِماله، بدلالة حالِ ما سبق من الفريق المقابلِ له. ولعل العُدولَ إلى هذا العنوانِ للإيذان بالعلَّة الموجبةِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الواقعة: ٩٢] بعد قولِه سبحانه: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾﴾ وللرمز إلى عِلَّة حالِ الفريقِ الأوَّل، وفي ذلك ما هو من قَبيل الاحتباك، حيث ذكر في أحدِ الجانبَين المسبَّبَ وفي الآخَر السبب، ودلَّ بالمذكور في كلٍّ منهما على المتروكِ في الآخَر، تعويلاً على شهادةِ العقل.

وجعله ابنُ المنير(١) مقابلاً للقسم الأوَّل، على معنى: فمَن أُوتي كتابَه بيمينه فهو الذي يتبصَّره ويقرؤه، ومن كان في الدُّنيا أعمى غيرَ متبصِّر في نفسه، ولا ناظرٍ في معاده، فهو في الآخرة كذلك غيرُ متبصِّرٍ في كتابه، بل أعمى عنه، أو أشدُّ عمًى ممَّا كان في الدُّنيا، على اختلافِ التأويلين.

وهو خلافُ الظاهر، ويُشعر أيضاً بأنَّ مَن كان في الدُّنيا أَعمى عن السُّلوك في طريق نجاتِه، لا يقرأ في الآخرة كتابَه. وهو خلافُ المصرَّح به في الآياتِ والأحاديث. نعم فرِّق بين القراءتين، ولعل الآيةَ تُشعر بالفرق وإنْ لم تقرِّر المقابلةَ بما ذُكر.

---

(١) في الانتصاف ٢/ ٤٦٠.

هذا وعن أبي مسلم تفسيرُ «أعمى» الثاني بأعمَى العينِ ولا تجوُّز، أي: مَن كان في الدُّنيا أعمى القلب، فهو في الآخرةِ أعمَى العين، أي: يُحشَر كذلك عقوبةً له على ضلالتِه في الدنيا، وهو كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] الآية، وتأوَّل ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] بالعِلم والمعرفة.

وعنه أيضاً تجويزُ أنْ يكونَ العمَى عبارةً عمَّا يَلحقه من الغمِّ المفرِط، كأنَّه قيل: مَن كان في الدُّنيا ضالًّا فهو في الآخرةِ مغمومٌ جدًّا، فإنَّ مَن لا يرى إلَّا ما يسوءُه والأعمى سواءٌ، وهذا كما يقال: فلانٌ سخينُ العين. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ «هذه» إشارةٌ إلى النِّعم المذكورةِ قبلُ، على معنى: مَن كان أعمَى غيرَ متبصِّر في هذه النِّعم وقد عايَنَها، فهو في شأن الآخرةِ التي لم يعاينْها أعمَى وأضلُّ سبيلاً. واستند في ذلك إلى ما أخرجه الفريابيُّ وابنُ أبي حاتمٍ عن عِكرمةَ قال: جاء نفرٌ من أهل اليمنِ إلى ابن عبَّاس، فسأله رجلٌ منهم: أرأيتَ قولَه تعالى: «ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى» فقال ابنُ عباس: لم تَصِل المسألةَ، اقرأ ما قبلَها: «هو الذي يزجي لكم الفلك في البحر» حتَّى بلغ «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» ثم قال: مَن كان أعمَى عن هذه النِّعم التي قد رأى وعايَن، فهو في أمر الآخرةِ التي لم يَرَ ولم يعاينْ أعمى وأضلُّ سبيلاً[(١)].

وفي روايةٍ أخرى أَخرجها عنه ابنُ أبي حاتمٍ وأبو الشيخِ في «العظمة»[(٢)] من طريق الضحَّاك أنَّه قال في الآية: يقول تعالى: مَن كان في الدُّنيا أعمى عمَّا رأى من قدرتي من خلق السماءِ والأرضِ والجبالِ والبحارِ والناس والدوابِّ وأشباهِ هذا، فهو عمَّا وصفتُ له في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً، يقول سبحانه: أبعدُ حجَّة. وروى أبو الشَّيخ عن قتادةَ نحوَه[(٣)].

ولا يخفَى أنَّ كلا التأويلَين بعيدٌ جدًّا، وإن كان الثاني دون الأوَّل في البُعد، ولا أظنُّ الحَبرَ يقول ذلك، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٤.
(٢) برقم (٢٦)، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ١٩٤.
(٣) العظمة (٦٩).

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قالت الوجودية من الصُّوفية: إنَّه تعالى سبق قضاؤه ألَّا يُعبَد سواه، فكلُّ عابدٍ إنَّما يعبد اللهَ سبحانه من حيث يدري ومن حيث لا يدري، فإنَّه جلَّ شأنه الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطن، والأعيانُ الثابتة ما شمَّت رائحةَ الوجود، ولا تشمُّه أبداً. وممَّا ينسبونه إلى زينِ العابدين رضي الله عنه ويزعمون أنَّه مشيرٌ إلى مدَّعاهم قولُه:

إنِّي لأكتم مِن علمي جواهرَهُ ... كيلا يرى الحقَّ ذو جهلٍ فيفتتنا
وقد تقدَّم في هذا أبو حسنٍ ... إلى الحسينِ وأوصَى قبله الحسنا
فربَّ جوهرِ علمٍ لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممَّن يعبد الوثنا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمون دمي ... يرون أقبحَ ما يأتونه حَسَنا

قالوا: إنَّه رضي الله عنه عنَى بهذا الجوهرِ الذي لو باح به لَقيل له: أنت ممَّن يعبد الوثن: علمَ الوحدة؛ إذ منه يُعلم أنَّ الوثنَ ـ وكذا غيرُه ـ مَظهرٌ له جلَّ وعلا، وليس في الدَّار غيرُه ديَّار.

وقد مرَّ عن قُربٍ ما نُقل عن الحلَّاج، ومثلُه كثيرٌ للشيخ الأكبر قدِّس سرُّه ولغيرِه عرباً وعجماً، وهو عفا اللهُ تعالى عنه قد فتح باباً في هذا المطلبِ لا يُسدُّ إلى أن يأتيَ أمرُ اللهِ عزَّ وجلّ، وكأنَّه أُوصي إليه بأن يبوحَ وينثرَ هاتيك الجواهر، بين الأصاغرِ والأكابر، كما أُوصي إلى الحسنين بأنْ يكتما من ذلك ما عَلِما.

وفي بعض كتبِه قدِّس سرُّه ما هو صريحٌ في أنَّه مأمور، فإنْ صحَّ ذلك فهو معذور. وأنا لا أرى عُذراً لمن يقفو أثرَه في المقال، مع مباينتِه له في الحال، فإنَّ هذا المطلبَ أجلُّ من أن يحصُلَ لغريق الشهوات، وأسيرِ المألوفات، ورهينِ العادات، ولله تعالى دَرُّ مَن قال:

تقول نساءُ الحيِّ تطمع أن ترى ... محاسنَ ليلى مُتْ بداء المَطامعِ
وكيف ترى ليلى بعينٍ ترى بها ... سواها وما طهَّرتَها بالمدامع
وتطمعُ منها بالحديث وقد جرَى ... حديثُ سواها في خروقِ المسامع(١)

(١) الأبيات في وفيات الأعيان ٤/ ٣٥٤-٣٥٥ منسوبةً ليزيد بن معاوية، وهي في الكشكول ٢/ ٢٣٠ منسوبة لمجنون ليلى.

ولا يخفى أنَّه على تأويل الصوفيةِ هذه الآيةَ لا يكون قولُه تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ داخلاً فيما قضى؛ إذ لا يسعهم أن يقولوا: إنَّ كلَّ أحدٍ محسنٌ بوالديه مِن حيث يدري ومِن حيث لا.

ويُفهَم من كلام بعضِ المتصوِّفة أنَّ هذا إيصاءٌ بالإحسانِ إلى الشيخ أيضاً، وعليه فيحتمل أن يكونَ تثنيةُ الوالدَين كما في قولهم: القلمُ أحدُ اللِّسانين.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيل: ذو القربى إشارةٌ إلى الرُّوح؛ لأنَّها كانت قبلُ في القربةِ والمشاهدة، ثم هبطت حيثُ هبطت، والمسكينُ إشارةٌ إلى العقل؛ لأنَّه عاجزٌ عن تحصيل العلم بحقيقة ربِّه سبحانه، وابنُ السبيلِ إشارةٌ إلى القلب؛ لأنه يتقلَّب في سُبُل السلوكِ إلى مَلِك الملوك، وحقُّ الروحِ المشاهدة، والعقلِ الفكرُ، والقلبِ الذِّكر.

وقيل: الأوَّل إشارةٌ إلى إخوان المعرفةِ الذين وصلوا معاليَ المقامات، وحقُّهم ذِكرُ ما يزيد تمكينَهم، والثاني إشارةٌ إلى العاشقين الذين سَكَّنهم عشقُ مولاهم عن طلبِ ما سواه، وحقُّهم ذِكرُ ما يَزيد عشقَهم، والثالثُ إشارةٌ إلى السَّالكين سُبُلَ الطلب، الممتطين نجائبَ الهِمَّة، وحقُّهم ذكرُ ما يزيد رغبتَهم ويهوِّن مشقَّتَهم.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فيه إشارةٌ للمشايخ كيف يكونون مع المريدين، أي: لا تبخلْ على المريد بنشر فضائلِ المعرفة وحقائقِ القُربة، ولا تذكر شيئاً لا يتحمَّلُه فيَهلِكَ، وكن بينَ بين.

﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ الذي أُخذ منكم قبلَ خلقِ الأشباح، وهو أن توحِّدوه تعالى ولا تُشركوا به شيئاً.

وقال يحيى بنُ معاذ: لربِّك عليك عهودٌ ظاهراً وباطناً، فعَهد على الأسرار ألَّا تشاهدَ سواه جلَّ جلالُه، وعَهد على الرُّوح ألَّا تفارقَ مقامَ القُربة، وعَهد على القلب ألَّا يفارقَ الخوف، وعَهد على النفْس ألَّا تتركَ شيئاً من الفرائض، وعَهد على الجوارح أن تلازمَ الأدبَ وتتركَ المخالفات.

﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ قيل: فيه إشارةٌ للمشايخ أيضاً ألَّا ينقُصوا المستعدِّين ما يقتضيه استعدادُهم من الفيوضاتِ القلبية، وفي قوله تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ

ٱلْمُسْتَقِيمِۚ﴾ إشارةٌ لهم أن يَعرِضوا أعمالَ المريدين القلبيةَ والقالَبيةَ على الشَّريعة، فهي القِسطاسُ المستقيم، وكِفَّتاها الحظرُ والإباحة.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ الآيةَ، فيه إشارةٌ إلى بعض ما يَلزم السالكَ من التثبُّت والاحتياطِ والكفِّ عن الدَّعاوي العاطلة.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ﴾ الآية، وقد علمت ما عند الصوفيةِ في تسبيح الأشياءِ من أنَّه قاليّ، إلَّا أنَّه لا يسمعه إلَّا مَن فاز بقُرب النوافلِ أو مَن أَشرق عليه شيءٌ من أنواره، كالذين سمعوا تسبيحَ الحصى في مجلسِ سيِّد الكاملين ﷺ، والتسبيحُ الحاليُّ مما لا يُنكره أحدٌ من المسلمين، وقرَّره بعضُ الصوفيةِ بأنَّ لكلِّ شيءٍ خاصِّيةً ليست لغيره، وكما لا يخصُّه دون ما عداه فهو يشتاقه ويطلبُه إذا لم يكن حاصلاً له، ويحفظه ويحبُّه إذا حصل، فهو بإظهار خاصِّيته ينزِّه الله تعالى من الشَّريك، وإلَّا لم يكن متوحِّداً فيها، فلسانُ حالِه يقول: أوحِّده على ما وحَّدني، وبطلب كمالِه ينزِّهه سبحانه عن صفاتِ النَّقص، كأنَّه يقول: يا كاملُ كمِّلني، وبإظهار كمالِه كأنَّه يقول: كمَّلني الكاملُ المكمِّل، وعلى هذا القياسُ، وحينئذٍ يقال: تسبِّحه السماواتُ بالكمال والتأثيرِ والرُّبوبية، وبأنه كلَّ يومٍ هو في شأن، ونحوِ ذلك، والأرضُ بالخلَّاقية والرزَّاقية والرَّحمةِ إلى غير ذلك، والملائكةُ بالعلم والقدرةِ والتجرُّد عن المادَّة، على القول بأنَّهم أرواحٌ مجرَّدة، وهكذا.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ من الجهلِ وعَمَى القلب، فلا يرون حقيقتَك القُدسية، ولا يُدركون منك إلَّا الصورةَ البشرية، وإنَّما خصَّ ذلك بوقت قراءةِ القرآنِ مع أنَّهم في كلِّ وقتٍ هم أجهلُ الخلقِ به ﷺ؛ لأنَّ في ذلك الوقتِ يظهر إشراقُ أنوارِ الصفاتِ عليه عليه الصلاة والسلام، فإذا كانوا محجوبين إذ ذاك، كانوا في غيرِه من الأوقاتِ أحجبَ وأَحجب.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ من الغِشاوات الطبيعيةِ والهيئاتِ البدنية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ فإنَّ القرآنَ كلامُه تعالى، وهو أحدُ صفاته، وإذا لم يعرفوا نبيَّه ﷺ لم يعرفوه عزَّ وجلّ، وإذا لم يعرفوه سبحانَه لم يعرفوا صفاتِه تعالى، فلم يعرفوا كلامَه سبحانه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ﴾ لرسوخ أوساخِ التعلُّقات فيها يمنعهم عن سماعِ القراءة، وهذا ناشئٌ من جهلهم بأفعالِه تعالى.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ لتشتُّت أهوائهم وتفرُّقِ همِّهم في عبادة آلهتِهم المتنوِّعة، فلا تُناسب الوحدةُ بواطنهم.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للقيام من القبور ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ حامدين له تعالى مجدُه بلسان القالِ أو بلسانِ الحال، حيث أَظهر فيكم الحياةَ بعد الموتِ ونحوَ ذلك. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ في القبورِ أو في الدُّنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لذُهولكم عن ذلك الزَّمان، أو لاستقصاركم الدُّنيا بالنِّسبة إلى الآخرة.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المشيئةَ تابعةٌ للعلم، فمَن عَلِمَ سبحانه أهليَّتَه للرَّحمة، شاءَ تعالى رحمتَه فرَحِمه، ومَن عَلِمَ جلَّ وعلا أهليَّته للعذاب، شاء عذابَه فعذَّبه. ولا يخفَى ما في تقديم شِقِّ مشيئةِ الرَّحمة من تقويةِ الأمل.

﴿أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يدعونهم الكفارُ ويعبدونهم ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: يطلب الأَقربُ منهم الوسيلةَ إلى الله تعالى، فكيف بغير الأقرب؟

والوسيلةُ في الأصل الواسطةُ التي يتوسَّل ويتقرَّب بها إلى الشيء، وهي هنا الطاعةُ كما تقدَّم. وقيل: هي كرمُه تعالى القديم، وإحسانُه عزَّ وجلَّ العميم. وقيل: هي الشفاعةُ يومَ القيامة.

ولمَّا كان مقامُ الوسيلةِ بهذا المعنى خاصًّا بنبيِّنا ﷺ، أطلقوا الوسيلةَ عليه عليه الصلاة والسلام، وفسَّرها بذلك هنا بعضُ الصُّوفية. فكلُّ مَن عُبد مِن دون اللهِ تعالى من عيسى وعُزَير والملائكةِ عليهم السلام وسيلتُهم إلى اللهِ تعالى نبيُّنا ﷺ، بل هو عليه الصلاة والسلام وسيلةُ سائرِ الموجودات، والواسطةُ بينهم وبين اللهِ تعالى في إفاضته سبحانه الوجودَ، وكذا سائرُ ما أُفيض عليهم، وأحظَى الخلقِ بوساطته الأنبياءُ عليهم السلام، فإنَّهم أشعةُ أنوارِه، وعكوساتُ آثارِه، وهو النورُ الحقّ، والنبيُّ المطلق، وكان نبيًّا وآدمُ بين الماءِ والطين[1]، وقد تلقَّى الأنبياءُ منه من وراء حجابِ الأرحامِ والأَصلاب، وظهروا إذ كان محتجباً ظهورَ الكواكبِ في

(١) لفظه في كتب الحديث: «وآدم بين الروح والجسد» وينظر ما سلف ٨/ ١٤٠.

الليل، فلمَّا بزغت شمسُ النبوَّة المطلقةِ من أُفق الظُّهور، غابوا ونُسخت أحكامُهم، على نحو غيبوبةِ الكواكبِ وانمحاقِ أنوارها وأضوائها عند طلوع الشمسِ من تحت الحجاب، منخلعةً عن الجلباب.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ لِعلمهم بجماله وجلاله. والرجاءُ والخوفُ جناحا مَن يطيرُ إلى حضرة القُدس، وروضةِ الأُنس، ومَن عطَّل أحدَهما تعطَّل عن الطيران.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ فيه إشارةٌ إلى اختلاف مراتبِ تمكُّن الشيطانِ من إغواء بني آدم، فمن كان منهم ضعيفَ الاستعداد، استفزَّه واستخفَّه بصوته، فأغواه بوسوسةٍ وهمس، بل هاجسةٍ ولَمَّة، ومن كان قويَّ الاستعداد، فإنْ كان خالصاً عن شوائبِ الغيرية، أو عن شوائب الصفاتِ النفسانية، لم يتمكَّن من إغوائه، وهذا هو المرادُ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ وإنْ لم يكن خالصاً، فإنْ كان منغمساً في الشواغل الحِسِّية، منهمكاً في الأمور الدُّنيوية، شاركه في أموالِه وأولادِه، وحرَّضه على إشراكهم بالله تعالى في المحبَّة، وسوَّل له التمتُّع والتكاثرَ والتفاخرَ بهم، ومنَّاه الأمانيَ الكاذبة، وزيَّن له الآمالَ الفارغة، وإنْ لم ينغمس، فإن كان عالماً بتسويلاته، أجلبَ عليه بخَيله ورَجِله، أي: مَكَرَ بأنواع الحِيلَ، وكاده بصنوفِ الفتن، وأفتاه بأنَّ تحصيل أنواعِ الحُطام والملاذِّ من جملة مصالحِ المعاش، وغرَّه بعلمه، وحمله على الإعجاب به، وأمثالِ ذلك، حتى أضلَّه على علم، وإن لم يكن عالماً بل كان عابداً متنسِّكاً، أغواه بالوعد، وغرَّه برؤية الطاعةِ وتزكيةِ النفس.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الآية. قيل: كرَّمهم تعالى بأنْ خَلَق أباهم آدمَ على صورة الرَّحمن(١)، وجعل لهم ذلك بحكم الوراثةِ وأنَّ الولد سرُّ أبيه، وفضَّلهم على الكثير بأنْ جعل لهم من النِّعم ما يستغرق العدّ. وجوِّز أن يقال: تكريمُهم بأن بسط موائدَ الإنعام لهم وجعل مَن عداهم طُفيليًّا، وتفضيلُهم بما ذُكر في التكريم أولاً. وفيه احتمالاتٌ أُخَر.

---

(١) إشارة إلى حديث سلف ٢/ ٩١.

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ أي: نناديهم بنِسبتهم إلى مَن كانوا يقتدون به في الدُّنيا؛ لأنَّه المستعلي محبَّتُهم إياه على سائر محبَّاتهم ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: من جهة العقلِ الذي هو أقوى جانبَيه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ ويأخذون أجورَ أعمالِهم المكتوبةِ فيه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ أدنى شيءٍ حقيرٍ من ذلك ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ عن الاهتداء إلى الحقِّ ﴿فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أيضاً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ لبطلان الكسبِ هناك، وهذا الذي يؤتَى كتابَه بشِماله، أي: من جهة النفسِ التي هي أضعفُ جانبَيه، إلَّا أنَّه عبَّر عنه بما ذكر لِمَا قدَّمنا، واللهُ تعالى هو الهادي إلى سواءِ السبيل.

❁ ❁ ❁

ثـم إنَّه عزَّ وجلَّ لـمَّا عدَّد نعمَه على بني آدم، ثـم ذكر حالَـهم في الآخرة وانقسامَهم إلى قسمَين: سعداء وأشقياء، أَتْبع ذلك بذِكر بعضِ مساوي بعضِ الأشقياءِ في الدنيا، من المكرِ والخِداع والتلبيسِ على سيِّد أهل السَّعادةِ المقطوعِ له بالعِصمة ﷺ. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم داخلون فيمن عَمِيَ عن الاهتداء في الدُّنيا دخولاً أوليًّا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ قيل: نَزَلَت في ثَقيف، قالوا للنبيِّ ﷺ: لا ندخلُ في أمرك حتى تُعطيَنا خصالاً نفتخر بها على العرب: لا نُعشَر ولا نُحشَر، ولا نُجَبِّي في الصلاة، وكلُّ ربًا لنا فهو لنا، وكلُّ ربًا علينا فهو موضوعٌ عنا، وأن تمتِّعَنا باللَّات سَنَة، وأن تحرِّمَ واديَنا وَجًّا كما حرَّمت مكة، فإنْ قالت العرب: لم فعلتَ ذلك؟ فقل: إنَّ اللهَ تعالى أمرني. وروى ذلك الثعلبيُّ عن ابن عباسٍ ولم يذكرْ له سنداً، وقال العراقيُّ فيه: إنَّا لم نجده في كتبِ الحديث. ونقله الزمخشريُّ بزيادة[1].

ونقل غيرُه أنَّهم طلبوا ثلاثَ خصال: عدم التجبيةِ في الصلاة، وكسر أصنامِهم بأيديهم، وتمتيعهم باللَّات سَنَةً من غيرِ أن يعبُدوها، بل ليأخذوا ما يُهدَى لها،

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٦٠، وقوله: لا نُعشر، هو أخذ العشر، وقوله: ولا نحشر، أي: لا نبعث ونساق إلى غزاةٍ وجهاد، ونجبِّي بضم النون وفتح الجيم وكسر الباء الموحدة، والياء آخر الحروف، من التجبية وهي وضع اليدين على الركبتين أو على الأرض أو الانكباب على الوجه، والمراد: لا نصلي. انظر حاشية الخفاجي ٦/ ٥١.

فقال ﷺ: «لا خيرَ في دينٍ لا ركوعَ فيه ولا سجود. وأمَّا كسرُ أصنامِكم بأيديكم فذلك لكم. وأمَّا الطاغيةُ اللات، فإني غيرُ ممتِّعكم بها» وقام رسولُ اللهِ ﷺ، فقال عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه: ما بالُكم آذيتم رسولَ اللهِ عليه الصلاة والسلام، وإنَّه لا يدعُ الأصنامَ في أرض العرب، فما زالوا به حتى أنزل اللهُ تعالى الآية.

وأخرج ابنُ إسحاقَ وابنُ مردويه وغيرُهما عنه رضي الله عنه أنَّ أُميةَ بن خَلَف وأبا جهل ورجالاً من قريشٍ أتَوا رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا: تعال فتمسَّحْ بآلهتنا وندخلُ معك في دينك، وكان رسولُ الله ﷺ يشتدُّ عليه فراقُ قومه، ويحبُّ إسلامَهم، فرقَّ لهم، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ إلى قولِه سبحانه: (نَصِيرًا)(١).

وأخرج ابنُ مردويه من طريق الكلبيِّ، عن باذان، عن جابر بنِ عبدِ الله مثلَه(٢).

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن جُبَير بن نُفَير أنَّ قريشاً أتَوا النبيَّ ﷺ فقالوا له: إنْ كنتَ أُرسلتَ إلينا، فاطرُد الذين اتَّبعوك من سقَّاط الناسِ ومواليهم لنكونَ نحن أصحابَك، فنزلت(٣).

وقيل: إنَّهم قالوا له عليه الصلاة والسلام: اِجعلْ لنا آيةَ رحمةٍ آيةَ عذاب، وآيةَ عذابٍ آيةَ رحمةٍ حتى نؤمنَ بك، فنزلت.

وفي ذلك رواياتٌ أُخَرُ مختلفةٌ أيضاً، وفي بعضها مالا يصحُّ نسبتهُ إلى الرَّسول ﷺ ولا يكاد يؤوَّل، وذلك يدلُّ على الوضع، والتفسيرُ لا يتوقَّف على شيءٍ من ذلك.

وأيًّا ما كان، فضميرُ الجمعِ للكفار، وهم إمَّا ثقيفٌ أو قريش، و«إنْ» مخفَّفة من المثقَّلة، واسمُها ضميرُ شأنٍ مقدَّر، واللامُ هي الفارقةُ بين المخفَّفة وغيرِها، أي: إنَّ الشأن قاربوا في ظنِّهم أنْ يوقعوك في الفتنة صارِفيكَ ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ

---

(١) الإتقان ١/ ١٠٤، وفي إسناده محمد بن أبي محمد، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٢٦: لا يُعرف. وذكره ابن الجوزي في زاد السير ٥/ ٢٦ وقال: هذا باطل، لا يجوز أن يُظنَّ برسول الله ﷺ، وهو محال في حقِّه وفي حق الصحابة أنهم رووا ذلك عنه.

(٢) الدر المنثور ٤/ ١٩٤، والكلبي متروك.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٩٤.

﴿إِلَيْكَ﴾ من الأوامر والنَّواهي والوعدِ والوعيدِ ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ لتتقوَّل علينا غيرَ الذي أوحيناه إليك ممَّا اقترح عليك ثقيفٌ من تحريم وَجٍّ مثلاً، أو قريشٌ مِن جعل آيةِ الرحمةِ آيةَ عذابٍ وبالعكس.

وقيل: المعنى: لتحلَّ محلَّ المفتري علينا؛ لأنَّك إن اتَّبعت أهواءهم أوهمتَ أنَّك تفعل ذلك عن وحينا؛ لأنَّك رسولُنا، فكنتَ كالمفتري.

﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: لو فعلتَ لَيتخذُنَّك صديقاً لهم. وكأنَّ المراد: ليكونَنَّ بينك وبينهم مخالَّةٌ وصداقة، وهم أعداءُ اللهِ تعالى، مخالَّتهم تقتضي الانقطاعَ عن ولايته عزَّ وجلَّ، كما قيل:

إذا صافَى صديقُك من تعادي فقد عاداك وانقطع الكلامُ[1]

وقيل: الخليلُ هذا من الخَلَّة، بمعنى الحاجة، أي: لاتَّخذوك فقيراً محتاجاً إليهم. وهو كما ترى.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ أي: لولا تثبيتُنا إيَّاك على ما أنت عليه من الحقِّ بعِصمتنا لك ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ من الرُّكون الذي هو أدنى الميل، وأصلُه الميلُ إلى ركن، وذكروا أنَّه إذا أُطلق يقع على أدنى الميل، ونصبُ «شيئاً» على المصدرية، أي: لولا ذلك لَقاربتَ أن تميلَ إليهم شيئاً يسيراً من الميلِ اليسير؛ لقوَّة خَدعِهم وشدَّة احتيالهم، لكن أَدركتك العصمةُ فمنعتك من أن تقرُبَ أدنى الأدنى من المَيل إليهم، فضلاً عن نفس الميلِ إليهم.

وهذا صريحٌ في أنَّه ﷺ لم يهمَّ بإجابتهم ولم يكد، وبه يُرَدُّ على مَن زعم أنَّه عليه الصلاة والسلام همَّ فمنعه نزولُ الآية، وكأنه غرَّه ظواهرُ بعضِ الرِّوايات في بيان سببِ النزول، ك: رقَّ، في رواية ابن إسحاقَ ومَن معه عن الحَبر. ولا يخفَى أنَّ في قوله سبحانه: «إليهم» دون «إلى إجابتهم» ما يقوِّي الدَّلالة على أنَّه عليه الصلاة والسلام بمَعزلٍ عن الإجابة في أقصَى الغايات.

وهذا الذي ذُكر في معنى الآيةِ هو الظاهرُ المتبادرُ للأفهام، وذهب ابن الأنباريِّ إلى أنَّ المعنى: لقد كادوا أن يُخبروا عنك أنك ركنتَ إليهم، ونُسب

---

(١) سلف ٨/ ٧٤.

فِعلُهم إليه عليه الصلاة والسلام مجازاً واتِّساعاً، كما تقول للرجل: كدتَ تقتلُ نفسَك، أي: كاد الناسُ يقتلونك بسببِ ما فعلت. وهو من الإلغاز المستغنَى عنه.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ العصمةَ بتوفيق اللهِ تعالى وعنايتِه.

وقرأ قتادةُ وابنُ أبي إسحاقَ وابن مصرِّف: «تَرْكُن» بضمِّ الكافِ[1] مضارعُ رَكَنَ بفتحها، وهو على قراءة الجمهورِ مضارعُ رَكِنَ بكسر الكاف، وقيل: بفتحها أيضاً، وجُعِلَ ذلك من تداخل اللُّغتَين.

﴿إِذًا﴾ أي: لو قاربتَ أن تركنَ إليهم أدنَى رَكنة ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ أي: مضاعَفَ الحياة، وهو صفةُ محذوف، والإضافةُ على معنى في، أو للملابسة، أي: عذاباً مضاعفاً في الحياة، والمرادُ بها الحياةُ الدنيا؛ لأنَّه المتبادر عند إطلاق لفظِها، وكذا يقال في قولِه تعالى: ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: وعذاباً ضِعفاً في الممات. والمرادُ به ما يشمل العذابَ في القبر وبعدَ البعث.

واستسهل بعضُ المحقِّقين أن يكونَ التقديرُ من أوَّل الأمر: لأذقناك ضعفَ عذابِ الحياة وضعفَ عذابِ الممات، وتكون الإضافةُ لامية، والقرينةُ على تقديرِ العذاب «لأذقناك» والمعنى: لو قاربتَ ما ذكرنا، لَنضاعفنَّ لك العذابَ المعجَّل للعصاة في الحياة الدنيا والعذابَ المؤجَّلَ لهم بعد الموت.

وقيل: المرادُ بالحياة حياةُ الآخرة، وبعذاب الممات ما يكونُ في القبر، وأمرُ الإضافةِ والتقديرِ على حاله، والمعنى: لو قاربتَ لنضاعفنَّ لك عذابَ القبرِ وعذابَ يومِ القيامة المدَّخرَين للعصاة.

وفي هذه الشرطيةِ إجلالٌ عظيم بمكان رسولِ الله ﷺ، وتنبيهٌ على أنَّ الأقربَ أشدُّ خطراً، وذلك أنَّه أُوعد بضعف العذابِ على مقاربة أَدنَى رُكون، وقد وُضع عنَّا الركون ما لم يصدِّقه العمل. ونظيرُ ذلك مِن وجهٍ ما جاءَ في نسائه عليه الصلاة والسلام من قولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وذُكر في وجه مضاعفةِ جزاءِ خطأ الخطيرِ أنَّه يكون

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٦٥.

سبباً لارتكاب غيرِه مثلَه والاحتجاجِ به، فكأنَّه سنَّ ذلك، وقد جاء: «ومَن سنَّ سيئةً، فعليه وزرُها ووِزرُ مَن عمل بها إلى يومِ القيامة»(١) وعلى هذا يضاعَف عذابُ الخطيرِ في خطئه أضعافاً مضاعفة، ولا يَلزم من إثبات الضِّعف الواحدِ نفيُ الضعفِ المتعدِّد.

وقيل: الضِّعف من أسماءِ العذاب، وأنشدوا على ذلك قولَه:

لِمقتلِ مالكٍ إذ بانَ مني أبيتُ الليلَ في ضعفٍ أليمِ(٢)

وذكر بعضُهم أنَّ الضعفَ ليس من أسماءِ العذاب وضعاً، لكن يعبَّر به عنه لكثرة وصف العذابِ به، كما في قولِه تعالى: ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف:٣٨] وزعم أنَّ ذلك مرادُ القائل، واللهُ تعالى أعلم.

واللام في «لأذقناك» و«لاتخذوك» لامُ القَسَم على ما نصَّ عليه الحوفي، والماضي في الموضعَين واقعٌ موقعَ المضارعِ الدالِّ عليه اللامُ والنون، على ما نصَّ عليه أبو حيَّان(٣) وأشرنا إليه فيما سبق.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ يدفع العذابَ أو يرفعه عنك، رُوي عن قتادةَ أنَّه لمَّا نزل قولُه تعالى: «وإن كادوا» إلى هنا، قال ﷺ: «اللهمَّ لا تَكِلني إلى نفسي طرفةَ عين» وينبغي للمؤمن إذا تلا هذه الآيةَ أن يجثوَ عندها ويتدبَّرها، وأن يستشعرَ الخشيةَ وازديادَ التصلُّب في دين اللهِ تعالى، ويقولَ كما قال النبيُّ ﷺ.

﴿وَإِن كَادُوا﴾ أي: أهلُ مكة، كما رُوي عن ابن عباسٍ وقتادةَ وغيرِهما ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ لَيزعجونك ويستخفُّونك بعداوتهم ومكرِهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: الأرضِ التي أنت فيها، وهي أرضُ مكَّة ﴿لِيُخْرِجُوكَ﴾ أي: ليتسبَّبوا إلى خروجك ﴿مِنْهَا﴾.

وكان هذا الاستفزازُ بما فعلوا مِن حَصْره ﷺ في الشِّعب والتضييقِ عليه عليه

(١) أخرجه أحمد (١٩١٥٦)، ومسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي ﵁، وسلف ١٤/ ٧٨.

(٢) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٢٦٠، ومجمع البيان ١٥/ ٨٢ دون نسبة.

(٣) في البحر ٦/ ٦٥.

الصلاة والسلام، ووقع ذلك بعد نزولِ الآيةِ كما في «البحر»[١] وصار سبباً لخروجه ﷺ مهاجراً.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ أي: إن استفزُّوك فخرجتَ لا يبقَون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أي: بعدك، وبه قرأ عطاءُ بن أبي رباح[٢]، واستُحسن أنَّها تفسيرٌ لا قراءة؛ لمخالفتها سوادَ المصحف، وأنشدوا:

عفت الديارُ خلافَهم فكأنما ... بَسَطَ الشواطبُ بينهنَّ حصيرا[٣]

وقرأ أهلُ الحجاز وأبو بكرٍ وأبو عَمرٍو: «خَلْفَكَ» بغير ألف[٤]، والمعنى واحد، واللفظانِ في الأصلِ من الظروفِ المكانية، فتجوِّز فيهما واستُعملا للزمان. وقد اطَّرد إضافتُهما ـ كقبلُ وبعد ـ إلى أسماء الأعيانِ على حذف مضافٍ يدلُّ عليه ما قبلَه، أي: لا يلبثون خلفَ استفزازِك وخروجِك ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾ أي: إلَّا زماناً قليلاً.

وجوِّز أن يكونَ التقدير: إلَّا لَبثاً قليلاً، والمعنيانِ متقاربان. واختير التقديرُ الأوَّل لأنَّ التوسُّع ـ أعني إقامةَ الوصفِ مُقامَ الموصوف ـ بالظروف أَشبه.

وهذا وعيدٌ لهم بإهلاك مجموعِهم من حيث هو مجموعٌ بعد خروجِه ﷺ بقليل، وتحقَّق بإفناء البعضِ في بدر، لاسيَّما وقد كانوا صناديدَهم والرؤوس، وأنت تعرفُ أنَّ معظمَ الشيءِ يقام مُقامَ كلِّه. وكان الزمانُ القليل ـ على ما روى ابنُ أبي حاتمٍ عن السُّدِّي ـ ثمانيةَ عشر شهراً[٥].

ويجوز أن يفسَّرَ الإخراجُ بالإكراه على الخروج، والوعيدُ بإهلاك كلِّ واحدٍ منهم، أي: لو أخرجوك لاستؤصلوا على بَكرةِ أبيهم، لكن لم يقع المقدَّم لأنَّ الإكراهَ على الخروج مباشرةً، وقد خرج رسولُ اللهِ ﷺ مهاجراً بأمر ربِّه عزَّ وجلَّ،

---

(١) ٦/ ٦٦.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٦٦.
(٣) قائله الحارث بن خالد المخزومي كما في العين ٤/ ٢٦٦، واللسان (خلف). والشواطب: النساء اللاتي تشطب الجريد، أي: تشققه لتعمل منه الحصر. الصحاح (شطب).
(٤) التيسير ص١٤١، والنشر ٢/ ٣٠٨.
(٥) الدر المنثور ٤/ ١٩٥.

فلم يقع التالي، وهذا هو التفسيرُ المرويُّ عن مجاهد، قال: أرادت قريشٌ ذلك ولم تفعلْ؛ لأنَّه سبحانه أَراد استبقاءها وعدمَ استئصالها ليُسلِمَ منها ومن أَعقابها مَن يُسلم، فأَذِن لرسوله عليه الصلاة والسلام بالهجرة، فخرج بإذنه لا بإخراج قريشٍ وقهرِهم، والإخراجُ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣] محمولٌ على المعنى الأول، وكذا في قولِ ورقة: ياليتني كنتُ جَذَعاً إذ يُخرجك قومُك، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «أَوَ مخرجيَّ هم»(١)، فلم تتضمَّن الآيةُ وكذا الخبرُ إثباتَ إخراجٍ قلنا بنفيه هنا.

والقولُ بأنَّه يلزم على هذا التناقضُ بين هذه الآيةِ والآيةِ السابقة، بناءً على تفسير الإخراج فيها بالتسبُّب إلى الخروج؛ لأنَّ كاد تدلُّ على مقاربته لا حصولِه وهذه الآيةُ دلَّت على حصوله: مجابٌ عنه بأنَّ قصارى ما دلَّت عليه الآيةُ السابقة على التفسيرِ الأوَّل قُربُ حصولِ الاستفزازِ منهم ليتسبَّبوا به إلى خروجه ﷺ، وأنَّه لم يكن حاصلاً وقتَ نزولِ الآية، لا أنَّه لا يكون حاصلاً أبداً ليناقضَ حصولَه بعد.

وحكى الزجَّاج أنَّ استفزازَهم ما أَجمعوا عليه في دار النَّدوةِ من قتله ﷺ، والمرادُ من الأرض وجهُ البسيطةِ مطلقاً، وقال أبو حيَّان(٢): المرادُ بها ـ على هذا ـ الدُّنيا.

وقيل: ضميرُ «كادوا» وما بعدَه لليهود، فقد أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ، والبيهقيُّ في «الدلائل» وابنُ عساكر عن عبد الرحمنِ بن غَنْم قال: إنَّ اليهودَ أَتَوا النبيَّ ﷺ فقالوا: إن كنتَ نبيًّا فالْحَقْ بالشام؛ فإنَّها أرضُ المحشرِ وأرضُ الأَنبياء، فصدَّق رسولُ اللهِ عليه الصلاة والسلام ما قالوا، فغزا غزوةَ تبوكٍ لا يريد إلَّا الشام، فلمَّا بلغ تبوكَ أَنزل اللهُ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ إلى: ﴿تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ وأَمَره بالرُّجوع إلى المدينة، وقال: فيها مَحياك وفيها مماتُك ومنها تُبعَث(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها مطولاً.
(٢) في البحر ٦/ ٦٦، وعنه نقل المصنف قول الزجاج، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٤.
(٣) دلائل النبوة ٥/ ٢٥٤، وتاريخ ابن عساكر ١/ ١٧٨، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ١٩٥.

وفي روايةٍ أنَّهم قالوا: يا أبا القاسم، إنَّ الشام أرضٌ مقدَّسة، وهي أرضُ الأنبياء، فلو خرجتَ إليها لآمنَّا بك، وقد علمنا أنَّك تخافُ الرُّوم، فإن كنتَ نبيًّا فاخرجْ إليها، فإنَّ اللهَ تعالى سيحميك كما حمَى غيرَك من الأنبياء، فخرج عليه الصلاة والسلام بسببِ قولِهم، وعسكر بذي الحُلَيفة وأقام ينتظر أصحابَه، فنزلت هذه الآية، فرجع ﷺ، ثم إنَّه عليه الصلاة والسلام قتل منهم بني قريظةَ وأجلَى بني النَّضير بقليل.

وتعقِّب بأنَّه ضعيفٌ لم يقع في سيرةٍ ولا كتابٍ يُعتَمد عليه، وذو الحليفةِ ليس في طريق الشامِ من المدينة، وكيفما كان يكون المراد من الأرضِ عليه المدينة، وقيل: أرضُ العرب. وكأنَّ مَن ذهب إلى أن هذه الآيةَ مدنيةٌ يستند إلى ما ذُكر من الرِّوايات، وقد صرَّح الخفاجيُّ[1] بأنَّ هذا المذهبَ غيرُ مرضيّ، واللهُ تعالى أعلم.

وقرأ عطاء: «لايُلَبَّثون» بضمِّ الياءِ وفتح اللامِ والباءِ مشدَّدة[2]. وقرأ يعقوبُ كذلك، إلَّا أنَّه كسر الباء[3]. وقرأ أُبَيٌّ: «وإذاً لا يلبثوا» بحذف النُّون[4]، وكذا في مصحفِ عبدِ الله[5].

وتوجيهُ الإثبات والحذفِ أنَّ النحويين عدُّوا من جملة شروطِ عمل إذن كونَها في أوَّل الجملة، فعلى قراءةِ الحذفِ تكون الجملةُ معطوفةً على جملة «ليستفزونك» وهي خبرُ كاد، فيكون الشرطُ منخرماً؛ لتوسُّطِها حينئذٍ في الكلام، لِكونِ ما بعدها خبرَ كاد كالمعطوفِ هو عليه، وعلى قراءة الإثباتِ تكون الجملةُ معطوفةً على جملةِ «وإن كادوا» فيتحقَّق الشرط، والعطفُ لا يضرُّ في ذلك.

ووجَّه أبو حيَّان الإهمالَ بأنَّ «لا يلبثون» جوابُ قَسَم محذوف، أي: واللهِ إن استفزُّوك فخرجتَ لا يلبثون، وقد توسَّطت «إذاً» بين القَسَم المقدَّر والفعل، فأُهملت. ثم قال: ويحتمل أن يكونَ «لا يلبثون» خبراً لمبتدأ محذوفٍ يدلُّ عليه

---

(١) في حاشيته ٦/ ٥٢.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر ٦/ ٦٦.
(٣) البحر ٦/ ٦٦.
(٤) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر ٦/ ٦٦.
(٥) البحر ٦/ ٦٦.

المعنى، تقديره: وهم إذاً لا يلبثون، فتكون «إذاً» واقعةً بين المبتدأ وخبرِه، ولذلك أُلغيت[١]. وكلا التوجيهَين ليس بوجيهٍ كما لا يخفَى.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ نصبٌ على المصدرية، أي: سننَّا سنَّةَ مَن إلخ، وهي ألَّا ندعَ أمَّةً تستفزُّ رسولَها لتُخرجَه من بين ظهرانَيها تلبثُ بعده إلَّا قليلاً. فالسُّنَّة لله عزَّ وجلَّ وأُضيفت للرُّسل عليهم السلام لأنَّها سُنَّت لأجلهم، ويدلُّ على ذلك قولُه سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ حيث أَضاف السُّنَّةَ إليه تعالى.

وقال الفرَّاء[٢]: انتصب «سنة» على إسقاط الخافض، أي: كسنَّة؛ فلا يوقَفُ على قوله تعالى: «قليلاً» فالمرادُ تشبيهُ حالِه ﷺ بحال مَن قبله، لا تشبيهُ الفردِ بفردٍ من ذلك النوع.

وجوَّز أبو البقاءِ[٣] أن يكونَ مفعولاً به لفعلٍ محذوف، أي: اتَّبعْ سنَّةَ... إلخ، كما قال سبحانه: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. والأنسب بما قبلُ ما قبل، وكأنَّه اعتبر الأوامرَ بَعد، وهو خلافُ ما عليه عامَّةُ المفسِّرين.

والتحويلُ التغيير، أي: لا تجد لِمَا أَجرينا به العادةَ تغييراً، أي: لا يغيِّره أحد.

والمرادُ من نفي الوِجدان هنا وفيما أَشبهه نفيُ الوجود، ودليلُ نفي وجودِ مَن يغيِّر عادةَ اللهِ تعالى أَظهرُ من الشمس في رابعة النَّهار، وللإمام[٤] كلامٌ في هذا المقامِ لا يخلو عن بحث.

ثم إنَّه تعالى بعد أنْ ذكر كيدَ الكفارِ وسلَّى نبيَّه عليه الصلاة والسلام بما سلَّى، أَمره أن يُقبِلَ على شأنه من عبادة ربِّه تعالى شأنُه، ووعده بما يَغبطه عليه كلُّ الخلق، ويتضمَّن ذلك إرشادَه إلى ألَّا يَشغلَ قلبَه بهم. أو أنَّه سبحانه بعد أن قدَّم

---

(١) البحر ٦/٦٦.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٢٩.
(٣) في الإملاء ٣/ ٤٩٤.
(٤) في التفسير الكبير ٢١/ ٢٤.

القولَ في الإلهيات والمعادِ والنبوّات، أمر بأشرف العباداتِ بعد الإيمان، وهي الصَّلاة، فقال جلَّ وعلا: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: المفروضةَ ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: لزوالها عن دائرة نصفِ النَّهار. وهو المرويُّ عن عمرَ بنِ الخطاب، وابنِه، وابن عباسٍ في رواية، وأنسٍ، وأبي بَرزةَ الأسلميّ، والحسن، والشعبيّ، وعطاءٍ، ومجاهد، ورواه الإماميةُ عن أبي جعفرٍ وأبي عبد الله رضي الله عنهما وخلقٍ آخَرين.

وأخرج ابنُ جَرير، وإسحاقُ بن راهويه في «مسنده» وابنُ مردويه في «تفسيره» والبيهقيُّ في «المعرفة» عن أبي مسعودٍ عقبةَ بنِ عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريلُ عليه السلام لِدلوك الشمسِ حين زالت فصلَّى بي الظُّهر»[1].

وقيل: لغروبها. وهو المرويُّ عندنا عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وأخرجه ابنُ مردويه، والطبرانيّ، والحاكمُ وصحَّحه، وغيرُهم عن ابن مسعود[2]، وابنُ المنذر وغيرُه عن ابنِ مسعود[3]، ورُوي عن زيد بنِ أسلم، والنخعيّ، والضحَّاك، والسُّدِّي، وإليه ذهب الفرَّاء[4] وابن قتيبة[5]، وأنشد لذي الرُّمَّة:

مصابيحُ ليست باللَّواتي يقودها نجومٌ ولا بالآفلات الدوالكِ[6]

وأصلُ مادَّة (د ل ك) تدلُّ على الانتقال، ففي الزوال انتقالٌ من دائرة نصفِ النَّهار إلى ما يليها، وفي الغروبِ انتقالٌ من دائرة الأُفق إلى ما تحتها، وكذا في الدَّلك المعروفِ انتقالُ اليد من محلٍّ إلى آخر، بل كلُّ ما أوَّله دالٌ ولامٌ مع قطع النظرِ عن آخرِه يدلُّ على ذلك، كدَلَجَ بالجيم من الدُّلْجة، وهي سيرُ الليل، وكذا دَلَجَ بالدَّلو إذا مشى بها من رأس البئرِ للمصبّ، ودَلَح بالحاءِ المهمَلة إذا مشى مشياً متثاقلاً، ودَلَعَ بالعين المهملةِ إذا أَخرج لسانَه، ودَلَفَ بالفاءِ إذا مشى مِشيةَ المقيَّد،

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩ ومعرفة السنن والآثار (٢٣٤٤).
(٢) المعجم الكبير (٩١٢٧-٩١٣٨)، والمستدرك ٢/ ٣٦٣.
(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: عن علي، وقد أخرجه ابن المنذر في الأوسط ٢/ ٣٢٣ عن علي وابن مسعود، وينظر الدر المنثور ٤/ ١٩٥.
(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٢٩.
(٥) في تفسير غريب القرآن ص٢٥٩.
(٦) تتمة الديوان ٣/ ١٧٣٤.

وبالقاف إذا أَخرج المائعَ من مقرِّه، ودَلِهَ إذا ذهب عقلُه، وفيه انتقالٌ معنويٌّ، إلى غير ذلك، وهذا المعنى يشملُ كلا المعنيَين السابقين وإنْ قيل: إنَّ الانتقالَ في الغروب أتمّ؛ لأنَّه انتقالٌ من مكانٍ إلى مكان، ومن ظهورٍ إلى خفاء، وليس في الزَّوال إلَّا الأوَّل.

وقيل: إنَّ الدُّلوك مصدرٌ مزيدٌ مأخوذٌ من المصدر المجرَّد، أَعني الدلكَ المعروف، وهو أَظهرُ في الزَّوال؛ لأنَّ مَن نظر إلى الشمسِ حينئذٍ يَدلُك عينَه، ويكون على هذا في دُلوك الشمسِ تجوُّز عن دلوك ناظرِها.

وقد يُستأنس في ترجيح القولِ الأوَّل مع ما سبق بأنَّ أولَ صلاةٍ صلَّاها النبيُّ ﷺ نهارَ ليلةِ الإسراءِ الظُّهر، وقد صحَّ أنَّ جبريلَ عليه السلام ابتدأ بها حين علَّم النبيَّ عليه الصلاة السلام كيفيةَ الصلاةِ في يومين[1].

وقال المبرِّد: دلوكُ الشمسِ من لَدُن زوالِها إلى غروبها، فالأمرُ بإقامة الصلاةِ لدُلوكها أمرٌ بصلاتين: الظُّهر والعصر، وعلى القولَين الآخَرين أمرٌ بصلاة واحدة: الظهر أو العصر.

واللامُ للتأقيت متعلِّقة بـ «أقم»، وهي بمعنى بَعد، كما في قول متمِّم بن نُويرة يرثي أخاه:

فلمَّا تفرَّقنا كأني ومالكاً   لِطول اجتماعٍ لم نَبِت ليلةً معا[2]

ومنه: كتبتُه لثلاثٍ خَلَونَ من شهرِ كذا، وتكونُ بمعنى عند أيضاً، وقال الواحديّ: هي للتعليل؛ لأنَّ دخولَ الوقتِ سببٌ لوجوب الصلاة.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: إلى شدَّة ظلمتِه، كما قال الراغبُ[3] وغيرُه، وهو وقتُ العشاء. وأَخرج ابنُ الأنباريِّ في «الوقف»[4] عن ابن عباسٍ أنَّ نافع بنَ الأزرقِ قال

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥٣٨)، والترمذي (١٥٠)، والنسائي ١/ ٢٦٣ من حديث جابر ﷺ. ومن حديث ابن عباس أخرجه أبو داود (٣٩٣)، والترمذي (١٤٩) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) المفضليات ص ٢٦٧، والشعر والشعراء ١/ ٣٣٨، والخزانة ٨/ ٢٧٢.

(٣) في المفردات (غسق).

(٤) ١/ ٨٩.

له: أَخبِرني ما الغسق؟ فقال: دخولُ الليلِ بظُلمته، وأَنشد قولَ زهيرِ بن أبي سُلمى:

ظلَّت تجود يداها وهي لاهيةٌ حتى إذا جنح الإظلامُ والغسقُ

وقال النَّضر بن شُميل: غسقُ الليلِ دخولُ أوَّله، قال الشاعر[1]:

إنَّ هذا الليلَ قد غسقا واشتكيتُ الهمَّ والأَرقا

وهو عنده وقتُ المغرب، ورُوي ذلك عن مجاهد، وأصلُه من السَّيلان، يقال: غَسِقَت العينُ تَغسِق، إذا هَمَلت بالماء، كأنَّ الظُّلمة تنصبُّ على العالَم.

وقيل: المرادُ من غَسَق الليلِ ما يعمُّ وقتَي المغربِ والعشاء، وهو ممتدٌّ إلى الفجر، كما أنَّ المرادَ بدُلوك الشمسِ ما يعمُّ وقتَي الظهرِ والعصر، ففي الآية ـ بدخول الغايةِ تحت المغيَّا وبضمٍّ ما بَعد ـ إشارةٌ إلى أوقات الصَّلوات الخمس. واختاره جماعةٌ من الشِّيعة، واستدلُّوا بها على أنَّ وقتَ الظهرِ موسَّع إلى غروبِ الشمس، ووقتَ المغرب موسَّع إلى انتصافِ الليل، وهي أحدُ أدلَّة الجمعِ في الحضر بلا عذرٍ الذي ذهبوا إليه، وأيَّدوا ذلك بما رواه العيّاشيُّ بإسناده عن عُبيد بن زرارة[2]، عن أبي عبد اللهِ أنَّه قال في هذه الآية: إنَّ الله تعالى افترض أربعَ صلوات، أوَّلُ وقتِها من زوال الشَّمس إلى انتصافِ الليل، منها صلاتانِ أولُ وقتِهما من عند زوالِ الشمسِ إلى غروبها، إلَّا أنَّ هذه قبل هذه، ومنها صلاتان أوَّلُ وقتهما غروبُ الشمسِ إلى انتصاف اللَّيل، إلَّا أن هذه قبلَ هذه. وهو مرتضَى المرتضَى في أوقات الصَّلاة.

والمعتمدُ عليه عندَ جمهورِ المفسِّرين أنَّ دلوكَ الشمسِ وقتُ الظهر، وغسقَ الليل وقتُ العشاء، كما ينبئُ عنه إقحامُ الغسقِ وعدمُ الاكتفاءِ بـ «إلى الليل».

والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «أقم»، وأَجاز أبو البقاءِ[3] تعلُّقَه بمحذوفٍ وقع حالاً من الصلاة، أي: ممدودةً إلى الليل، والأوَّل أولى.

---

(١) هو عبيد الله بن قيس الرقيات، والبيت في ديوانه ص١٨٧.

(٢) في الأصل و(م): عبيدة وزرارة، والمثبت من مجمع البيان ١٥/ ٨٧، والكلام منه. وهو عبيد بن زرارة بن أعين، ينظر الفهرست ص ٢٧٦.

(٣) في الإملاء ٣/ ٤٩٤.

وليس المرادُ بإقامة الصلاةِ فيما بين هذين الوقتَين على وجهِ الاستمرار، بل إقامةُ كلِّ صلاةٍ في وقتها الذي عيَّن لها ببيان جبريلَ عليه السلام الثابتِ في الرِّوايات الصحيحةِ التي لم يروِها مَن شَهِدَ أحدٌ من الأئمَّة الطاهرين بزندقتهم ونجاسةِ بواطنهم، كما أنَّ أعدادَ ركعاتِ كلِّ صلاةٍ موكولةٌ إلى بيانِه عليه الصلاة والسلام.

ولعل الاكتفاءَ ببيان المبدأ والمنتَهى في أوقات الصلاةِ من غير فصلٍ بينها لِمَا أنَّ الإنسانَ فيما بين هذه الأَوقاتِ على اليقظة، فبعضُها متَّصل ببعض، بخلاف وقتِ العشاءِ والفجر، فإنَّه باشتغاله فيما بينهما بالنَّوم عادةً ينقطع أحدُهما عن الآخَر؛ ولذلك فَصَل وقتَ الفجرِ عن سائر الأَوقات.

ثم إنَّ المستدلَّ من الشِّيعة بالآية لا يتمُّ له الاستدلالُ بها على جواز الجمعِ بين صلاتَي الظهرِ والعصر وبين صلاتَي المغربِ والعشاءِ ما لم يضمَّ إلى ذلك شيئاً من الأخبار، فإنَّها إذا لم يضمَّ إليها ذلك أولى بأن يستدلَّ بها على جواز الجمعِ بين الأربعةِ جميعِها، لا بين الاثنتينِ والاثنتين. ولا يخفَى ما في الاستدلالِ بها على هذا المطلب؛ ولذا لم يرتضِه أبو جعفرٍ منهم. نعم ما ذهبوا إليه مما يؤيِّده ظواهرُ بعضِ الأحاديثِ الصَّحيحة، كحديث ابنِ عبَّاس وهو في صحيحِ مسلم[1]: صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ الظهرَ والعصرَ جمعاً بالمدينة. وفي روايةٍ أنَّه ﷺ صلَّى ثمانياً جميعاً وسبعاً جميعاً من غير خوفٍ ولا سفر[2].

واختُلف في تأويلِه، فمنهم مَن أوَّله بأنَّه جَمَعَ بعذر المطر، والجمعُ بسبب ذلك تقديماً وتأخيراً مذهبُ الشافعيِّ في القديم، وتقديماً فقط في الجديد، بالشَّرط المذكورِ في كتبهم.

وخصَّ مالكٌ جوازَ الجمعِ بالمطر في المغربِ والعشاء، وهذا التأويلُ مشهورٌ عن جماعةٍ من الكبار المتقدِّمين، وهو ضعيف؛ لمَا في صحيحِ مسلمٍ عنه أيضاً: جمع رسولُ اللهِ ﷺ بين الظُّهر والعصرِ والمغربِ والعشاءِ بالمدينة في غير خوفٍ

---

(١) برقم (٧٠٥)، والحديث عند البخاري (٥٤٣) و(٥٦٢) و(١١٧٤) بنحوه.
(٢) انظر الحديث السابق.

ولا مطر[١]. وكونُ المراد: ولا مطرٍ كثير، لا يرتضيه ذو إنصافٍ قليل، والشذوذُ غير مسلَّم.

ومنهم مَن أوَّله بأنَّه كان في غيم، فصلَّى ﷺ الظهرَ ثم انكشفَ الغيم، وبَانَ أنَّ أولَ وقتِ العصر دخل فصلَّاها. وفيه أنَّه وإنْ كان فيه أدنَى احتمالٍ في الظُّهر والعصر، إلَّا أنه لا احتمالَ في المغربِ والعشاء.

ومنهم مَن أوَّله بأنه عليه الصلاة والسلام أخَّر الأُولى إلى آخِر وقتها فصلَّاها فيه، فلمَّا فرغ منها، دخل وقتُ الثانيةِ فصلَّاها، فصارت الصورةُ صورةَ جمع. وفيه أنَّه مخالفٌ للظاهر مخالفةً لا تُحتَمل، ويردُّه أيضاً ما صحَّ عن عبد اللهِ بن شَقيقٍ قال: خَطَبَنا ابنُ عباس يوماً بعد العصرِ حتى غربت الشمسُ وبدت النُّجوم، وجعل الناسُ يقولون: الصلاةَ الصلاة، فجاءَ رجلٌ من بني تميم فجعل لا يَفتُر ولا يَنثني: الصلاةَ الصلاة، فقال ابنُ عباس: أتعلِّمني بالسُّنَّة لا أمَّ لك؟ رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ جمع بين الظُّهر والعصرِ والمغربِ والعشاء. قال عبدُ الله بن شقيق: فحاكَ في صدري من ذلك شيء، فأتيتُ أبا هريرةَ فسألته، فصدَّق مقالَته[٢].

ومنهم مَن قال: هو محمولٌ على الجمع بعذر المرضِ أو نحوِه ممَّا هو في معناه من الأعذار. وهذا قولُ الإمامِ أحمد، والقاضي حسينٍ من الشافعية، واختاره منهم الخطَّابيُّ[٣] والمتولِّي والرُّوياني. وقال النوويّ[٤]: هو المختارُ في التأويل.

ومذهبُ جماعةٍ من الأئمَّة جوازُ الجمعِ في الحضرِ للحاجة لمن لا يتَّخذه عادة. وهو قولُ ابنِ سيرين، وأشهبَ من أصحابِ مالك، وحكاه الخطابيُّ[٥] عن القفَّال الشاشيِّ الكبير من أصحابِ الإمام الشافعيّ، وعن أبي إسحاقَ المروزيّ، وعن جماعةٍ من أصحاب الحديث، واختاره ابنُ المنذر[٦]. ويؤيِّده ظاهرُ ما صحَّ

---

(١) صحيح مسلم (٧٠٥): (٥٤).
(٢) أخرجه مسلم (٧٠٥): (٥٧).
(٣) انظر معالم السنن ١/ ٢٦٥.
(٤) في شرح صحيح مسلم ٥/ ٢١٨.
(٥) في معالم السنن ١/ ٢٦٥.
(٦) انظر الأوسط ٢/ ٤٣٢-٤٣٤.

عن ابن عباسٍ ورواه مسلمٌ أيضاً[١] أنَّه لمَّا قال: جَمَعَ رسولُ اللهِ ﷺ بين الظُّهر والعصرِ والمغربِ والعشاءِ بالمدينة في غير خوفٍ ولا مطر، قيل له: لِمَ فعل ذلك؟ فقال: أراد ألَّا يُحرِجَ أحداً من أمَّته. وهو من الحرجِ بمعنى المشقَّة، فلم يعلِّله بمرضٍ ولا غيره.

ويعلم ممَّا ذكرنا أنَّ قول الترمذيِّ في آخر كتابه: ليس في كتابي حديثٌ أَجمعت الأمَّة على ترك العملِ به إلَّا حديثُ ابنِ عبَّاس في الجَمع بالمدينة من غير خوفٍ ولا مطر، وحديثُ قتلِ شارب الخمرِ في المرَّة الرابعة[٢]= ناشئٌ من عدم التتبُّع. نَعَم ما قاله في الحديثِ الثاني صحيحٌ؛ فقد صرَّحوا بأنَّه حديثٌ منسوخ دلَّ الإجماعُ على نسخه.

وقال ابنُ الهُمام[٣]: إنَّ حديثَ ابن عباس معارَضٌ بما في مسلم[٤] من حديث ليلةِ التَّعريس أنَّه ﷺ قال: «ليس في النَّوم تفريط، إنَّما التفريطُ في اليقظة أن يؤخِّرَ الصلاةَ حتى يدخلَ وقتُ صلاةٍ أُخرى» وللبحثِ في ذلك مجال.

ومذهبُ الإمامِ أبي حنيفةَ عدمُ جوازِ جمعِ صلاتَي الظُّهر والعصرِ في وقتِ إحداهما، والمغربِ والعشاءِ كذلك مطلقاً، إلَّا بعرفات، فيُجمع فيها بين الظُّهر والعصرِ بسبب النُّسك، وإلَّا بمزدلفة، فيُجمع فيها بين المغربِ والعشاءِ بسبب ذلك أيضاً، واستَدلَّ بما استدلّ، وفي الصَّحيحين[٥] وسنن أبي داودَ[٦] وغيرِه ما لا يساعده على التخصيص. وأنت تعلمُ أنَّ الاحتياطَ فيما ذهب إليه الإمامُ ﷺ، فالمحتاطُ لا يُخرج صلاةَ الظهرِ ـ مثلاً ـ عن وقتها المتيقَّن الذي لا خلافَ فيه إلى وقتٍ فيه خلاف، وقد صرَّح غيرُ واحدٍ بأنَّه إذا وقع التعارضُ يقدَّم الأحوط، وتعارضُ الأخبارِ في هذا الفصلِ ممَّا لا يخفَى على المتتبِّع.

---

(١) صحيح مسلم (٧٠٥): (٥٠).
(٢) سنن الترمذي ٥/ ٧٣٦ في أول كتاب العلل.
(٣) في فتح القدير ١/ ٤٠٧.
(٤) برقم (٦٨١) من حديث أبي قتادة ﷺ.
(٥) صحيح البخاري (١١٠٦-١١٠٨)، وصحيح مسلم (٧٠٣-٧٠٥) من حديث ابن عمر وابن عباس وأنس ﷺ.
(٦) برقم (١٢٠٦-١٢٢٠) من حديث معاذ وابن عمر وابن عباس وجابر وأنس ﷺ.

هذا وزعم بعضُهم أنَّ المرادَ بالصلاة المأمورِ بإقامتها صلاةُ المغرب، والتحديدُ المذكورُ بيانٌ لمبدأ وقتِها ومنتهاه على أنَّ الغايةَ خارجة، واستدلَّ به على امتدادِه إلى غروبِ الشَّفق، وهو خلافُ ما ذهب إليه الإمامُ الشافعيُّ ﷺ في الجديدِ من أنَّه ينقضي بمُضِيِّ قَدْرِ زمنِ وضوءٍ وغُسلٍ وتيمُّم، وطلبِ خفيف، وإزالةِ خبثٍ مغلَّظ يعمُّ البدنَ والثوبَ والمحلّ، وسَترِ عورة، واجتهادٍ في القِبلة، وأذانٍ وإقامة، وأُلحق بها سائرُ سننِ الصلاة المتقدِّمة، كتعمُّم وتقمُّصٍ، ومشيٍ لمحلِّ الجماعة، وأكلِ جائعٍ حتى يشبع، وسبعِ رَكَعات، ولعلَّ الزمانَ الذي يسع كلَّ هذا يَزيد على زمن ما بين غروبِ الشمس وغروبِ الشفق أيَّ شفقٍ كان في أكثر الأعراض.

ثم لا يخفَى أنَّه إذا كان المرادُ من غَسَق الليلِ وقتَ العشاء وفسِّر الغسقُ باجتماع الظلمةِ وشدَّتها، كان ذلك مؤيِّداً لما في ظاهر الرِّوايةِ عن الإمام أبي حنيفةَ ﷺ من أنَّ أوَّل وقتِ العشاءِ حين يغيب الشفقُ بمعنى البياضِ الذي يَعقُب الحُمرةَ في الأُفق الغربيّ؛ لأنَّ الظلمةَ لا تجتمع ولا تشتدُّ ما لم يَغِب. ولا يأبَى ذلك أنَّ الأحاديثَ الصحيحةَ صريحةٌ في أنَّ أولَ وقتِها حين يغيب الشفقُ وهو في اللغةِ الحمرةُ المعلومة؛ لأنَّ تفسيرَه بالبياض قد جاء أيضاً، ورُوي ذلك عن أبي بكرٍ الصدِّيق، وعمرَ، ومعاذِ بن جبل، وعائشةَ رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ورواه عبدُ الرزاق عن أبي هريرةَ وعن عمرَ بنِ عبد العزيز[1]، وبه قال الأوزاعيّ، والمُزَني، وابنُ المنذر[2]، والخطَّابي، واختاره المبرِّد وثعلب[3]. وما رواه الترمذيُّ[4] عن أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «أوَّلُ وقتِ العشاءِ حين يَغيب الأُفق» ظاهرٌ في كون الشَّفقِ البياض؛ إذ لا غيبوبةَ للأُفق إلَّا بسقوطه.

نَعَم ذهب صاحباه إلى أنَّه الحمرةُ، وهو قولُ ابنِ عباس[5] وابنِ عمرَ ﷺ، ورواه أسدُ بن عَمرٍو عن الإمام أيضاً، لكنَّه خلافُ ظاهرِ الرِّواية عنه.

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٠٤٠) و(٢١١٠).

(٢) انظر الأوسط ٢/ ٣٤٠-٣٤٢.

(٣) انظر مجالس ثعلب ص٣٠٨.

(٤) في جامعه (١٥١).

(٥) جاء فوقها في الأصل: أي: في رواية. اهـ منه.

والصحيحُ المفتَى به عندنا ما جاءَ في ظاهرِ الرِّواية، وقد نصَّ على ذلك المحقِّق ابنُ الهُمام[1]، والعلَّامة قاسم وابن نُجَيم، وغيرُهما.

وما قاله الإمامُ أبو المفاخرِ من أنَّ الإمام رجع إلى قولِهما وقال: إنَّه الحُمرة، لِمَا ثَبَتَ عنده من حَمل عامَّةِ الصحابةِ إيَّاه على ذلك وعليه الفتوى، وتَبِعه المحبوبيُّ وصدرُ الشريعة = ليس بشيء؛ لأنَّ الرجوع لم يثبت، ودون إثباته ـ مع نقل الكافَّة عن الكافةِ خلافَه ـ خَرْطُ القتاد. وكذا دعوى حملِ عامَّة الصحابةِ خلافُ المنقول كما سمعتَ، حتى إنَّ البيهقيَّ[2] لم يروِ أنَّ الشَّفقَ الحُمرةُ إلّا عن ابن عمرَ ﵄. وما رواه الدارَقطنيُّ[3] عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الشفقُ الحُمرة، فإذا غابَ وجبت الصلاة» قال البيهقيُّ والنوويُّ فيه: الصحيحُ أنَّه موقوفٌ على ابن عمرَ ﵄[4].

ومثلُ هذا الاختلافِ الاختلافُ في أوَّل وقتِ العصر، فقال الإمام: هو إذا صار ظلُّ كلِّ شيءٍ مثلَيه بعد ظلِّ الزَّوال، وقالا: إذا صار ظلُّ كلِّ شيءٍ مثلَه بعد ظلِّ الزَّوال. وفتوى المحقِّقين على قولِه رحمةُ الله تعالى عليه، بل قال ابن نُجيم: إنَّ الإفتاء بغيره لا يجوز، وقد أَطال الكلامَ في ذلك في رسالته «رفعُ الغِشاء عن وقتَي العصرِ والعشاء».

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ عطفٌ على مفعول «أقم» أو نصبٌ على الإغراء كما قال الزجَّاج[5] وأبو البقاءِ[6]، والجمهورُ على الأوَّل.

والمرادُ بقرآن الفجرِ صلاتُه كما رُوي عن ابن عباسٍ ومجاهد. وسميت قرآناً ـ أي: قراءةً ـ لأنَّها ركنُها، كما سمِّيت ركوعاً وسجوداً. وهذه حجَّة على ابن عُلَيّة والأصمِّ في زعمهما أنَّ القراءةَ ليست بركنٍ في الصلاة، قاله في «الكشَّاف»[7].

---

(١) في فتح القدير ١/ ١٥٥.
(٢) في سننه ١/ ٣٧٣.
(٣) في سننه (١٠٥٦).
(٤) سنن البيهقي ١/ ٣٧٣، والمجموع ٣/ ٤٤.
(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٥ دون ذكر النصب على الإغراء.
(٦) في الإملاء ٣/ ٤٩٤.
(٧) ٢/ ٤٦٢.

ورُدَّ بأنَّ ذلك لا يدل على الرُّكنية؛ لجواز كونِ مدارِ التجوُّز كونَ القراءةِ مندوبةً فيها.

وفي «الكشف» أنَّه مدفوعٌ بأنَّ العلاقةَ المعتَبرة في إطلاق غيرِ الصلاة وإرادةِ الصلاة هي علاقةُ الكلِّ والجزء، بدليل النَّظائر، وهاهنا إذ ورد تجوُّزاً فحملُه على معلوم النظيرِ من الاستقراءِ واجب، على أنَّ النَّدْبِيةَ لا تصلُح علاقةً معتَبَرة إلَّا بالتكلُّف وجَعْلِ سبَّح بمعنى صلَّى؛ لأنَّ التسبيحَ بمعنى التنزيهِ البالغ، والمصلِّي مسبِّح قولاً بقراءة الفاتحة، بل بالتكبير الواجبِ بالاتِّفاق، وفعلاً أيضاً بالرُّكوعِ والسجودِ مثلاً الدالَّين على كمال التعظيمِ والتبجيل، فهو الرُّكن كلُّه، لا لأنَّ التسبيحَ بمعنى قولِ: سبحان الله، ليقالَ: تُجوِّز عن الصلاة بما هو مندوبٌ فيها.

وتعقِّب بأنَّ الاكتفاءَ بعلاقة الندبيةِ التي يقول بها الأصمُّ وابنُ عُلَيّة لا تكلُّفَ فيه، فإن القرآنَ جزءٌ من الصلاةِ الكاملة، فيكونُ ذلك كالنَّظائر بلا ضررٍ ولا ضَير، وبأنَّ مذهبهما في التكبير غيرُ معلوم، فدعوى الاتِّفاقِ غيرُ مسلَّمة منه، ولو كان كما ذكره لكان الوجوبُ كافياً في علاقةٍ أخرى، وهي اللُّزوم. وفيه بحث.

وأَبقى الجصَّاص[1] القرآنَ على حقيقتِه وقال: في الآية دَلالةٌ على وجوب القراءةِ في صلاةِ الفجر؛ لأنَّ التقديرَ فيها: وأَقِم قرآنَ الفجر، والأمر للوجوب، ولا قراءةَ في ذلك الوقتِ واجبةٌ إلَّا في الصلاة، وزعمُ أنَّ كونَ المعنى: صلُّوا الفجر، غلطٌ من وجهَين: الأوَّل: أنَّه صرفٌ عن الحقيقة بغيرِ دليل. والثاني: أنَّ «فتهجد به» فيما بعدُ يأباه؛ إذ لا معنى للتهجُّد بصلاةِ الفجر.

وفيه أنَّ الدليلَ قائم، وهو «أقم» لاشتهار «أقم الصلاة» دون أَقم القراءة، وضمير «به» فيما بعدُ يجوز أن يرجعَ إلى القرآنِ بمعناه الحقيقيِّ استخداماً[2]، وهو أكثرُ من أن يُحصَى، ثم متى دلَّت الآيةُ على وجوب القراءةِ في صلاة الفجرِ نصًّا، كان ثبوتُ وجوبِها في غيرِها من الصلاةِ قياساً.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ٢٠٦.

(٢) الاستخدام: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

وذكر بعضُهم أنَّ في التعبير عن صلاة الفجرِ بخصوصها بما ذُكر إشارةً إلى أنَّه يُطلَب فيها من تطويل القراءةِ ما لم يُطلَبْ في غيرها، وهو حسن.

وقال الإمام[1]: إنَّ في الآية دلالةً على أنه يسنُّ التغليسُ في صلاة الفجر؛ لأنَّه أُضيف فيها القرآنُ إلى الفجر على معنى: أَقم قرآنَ الفجر، والأمرُ للوجوب، والفجرُ أوَّل طلوعِ الصُّبح؛ لانفجار ظلمةِ الليلِ عن نور الصباحِ حينئذ، ولذلك سمِّي الفجرُ فجراً، فيقتضي ذلك وجوبَ إقامة صلاة الفجرِ أولَ الطلوع، وحيث أُجمع على عدم وجوبِ ذلك بقي النَّدب؛ لأنَّ الوجوبَ عبارةٌ عن رُجحان مانعِ الترك، فإذا منع مانعٌ من تحقُّق الوجوبِ كالإجماع هنا، وجب أن يرتفعَ المنعُ من التركِ وأن يبقَى أصلُ الرُّجحان حتى تقلَّ مخالفةُ الدليل.

وأنت تعلمُ ما للعلماء من الخلاف في الباقي بعد رفعِ الوجوب، وما ذكر قولٌ في المسألة، لكنَّه لا يُفيد المطلوب؛ لأنَّ صلاة الفجرِ اسمٌ للصلاة المخصوصة، سواءٌ وقعت بغلسٍ أم إسفار، والأخبارُ الصحيحة تدلُّ على سنِّية الإِسفار بها، كخبر الترمذيِّ[2] ـ وهو كما قال حسنٌ صحيح ـ: «أَسفِروا بالفجر؛ فإنَّه أَعظمُ للأجر» وحَملُه على تبيُّن الفجرِ حتى لا يكونَ شكٌّ في طلوعِه ليس بشيء؛ إذ ما لم يتبيَّن لا يُحكَم بجواز الصلاةِ فضلاً عن إِصابة الأجر المفادِ بآخر الخبرِ ولو حُمِلَ «أعظمُ» فيه على عظيم، ورُدَّ أنَّ المناسبَ في التعليل: فإنَّه لا تصحُّ الصلاةُ بدونه، على أنَّه ـ على ما فيه ـ يَنفيه روايةُ الطَّحاوي[3]: «أسفِروا بالفجر، فكلَّما أَسفرتم فهو أَعظمُ للأجر» أو «لأُجوركم» أو كما قال. وروى بسنده الصَّحيحِ[4] عن إبراهيمَ قال: ما اجتمع أصحابُ رسولِ الله ﷺ على شيءٍ ما اجتمعوا على التَّنوير. ومحالٌ ـ نظراً إلى علوِّ شأنِهم ـ أن يجتمعوا على خلافِ ما فارقهم عليه حبيبُهم رسولُ اللهِ عليه الصلاة والسلام.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/٢٧.
(٢) برقم (١٥٤) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه. وهو عند أبي دواد (٤٢٤)، والنسائي ١/ ٢٧٢، وابن ماجه (٦٧٢) بنحوه.
(٣) في شرح معاني الآثار ١/١٧٨.
(٤) في شرح معاني الآثار ١/١٨٤.

وفي الصَّحيحين(١) عن ابنِ مسعود: ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ صلَّى صلاةً [إلَّا] لميقاتها، إلَّا صلاتين: صلاة المغربِ والعشاءِ بجمع، وصلَّى الفجرَ يومئذٍ قبلَ ميقاتها. مع أنَّه كان بعدَ الفجرِ كما يفيده لفظُ البخاريّ، فيكون المراد: قبل ميقاتِها الذي اعتاد الأداءَ فيه. والظاهرُ أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يكن يعتادُ التغليس، إلَّا أنَّه فعله يومئذٍ ليمتدَّ الوقوف، ونحن نقول بسنِّيته بفجرِ جمعٍ لهذا الحديث.

وخبرُ عائشةَ ﵂(٢): كان ﷺ يصلِّي الصبحَ بغلس، فتشهد معه نساءٌ متلفِّعاتٌ بمروطهنّ، ثم يَرجعنَ إلى بيوتهنَّ ما يعرفهنَّ أحدٌ من الغلس= حَمَلَ الغلسَ فيه بعضُ أصحابِنا على غلسٍ داخلَ المسجد، ويأباه قولُها: ثم يرجعنَ إلى بيوتهنَّ ما يعرفهن أحدٌ من الغلس؛ إذ لا يمكن حملُ هذا الغلسِ المانعِ من معرفتهنَّ في طريق رجوعهنَّ إلى بيوتهنَّ على غلسٍ داخلَ المسجد، وكونُ المراد: ما يعرفهنَّ أحدٌ في داخل المسجدِ من الغلس، خلافُ الظاهرِ على تقدير جعلِ الجملةِ حالاً من ضميرِ يرجعن. والظاهرُ ما أشرنا إليه، وكذا جعلُ الجملةِ حالاً من نساء أو صفةً لها، كأنَّه قيل: فتشهد معه نساءٌ بمروطهنَّ ما يعرفهن أحدٌ من الغَلَس ثم يرجعنَ إلى بيوتهنّ.

وقيل: كان ذلك في يومِ غيم، ويُبعده «كان» فإنَّها شائعةُ الاستعمالِ فيما كان يداومُ عليه عليه الصلاة والسلام.

وقيل: هو منسوخ، كما يدلُّ عليه اجتماعُ الصحابةِ على التنوير. ويُبعد ذلك أنَّ النسخَ يقتضي سابقيةَ وجودِ المنسوخ، وقولُ ابنِ مسعود: ما رأيتُ... إلخ، يفيد أنْ لا سابقيةَ له.

وقال بعضُهم: تُرجَّح في الأخبار المتعارضةِ هنا روايةُ الرِّجال خصوصاً، مثل ابنِ مسعود؛ فإنَّ الحالَ أكشفُ لهم في صلاة الجماعة، فتأمَّل.

وذكر الطحاويُّ(٣) أنَّ الذي ينبغي الدخولُ في الفجر وقتَ التغليس والخروجُ

(١) صحيح البخاري (١٦٨٢)، وصحيح مسلم (١٢٨٩)، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٨)، ومسلم (٦٤٥).
(٣) في شرح معاني الآثار ١/ ١٨٤.

وقتَ الإِسفار، وهو قولُ الإمامِ أبي حنيفةَ وصاحبَيه، وهو خلافُ ما يذكره الأصحابُ عنهم من البدءِ والختم في الإسفار، وهو الذي يفيده حديثُ الترمذيِّ وغيره، واللهُ تعالى أعلم.

ثم إنَّ صلاةَ الفجرِ وإنْ كانت إحدى الصلواتِ الخمسِ التي فُرضت ليلةَ الإسراء عليه ﷺ وعلى أمَّته ودلَّت هذه الآيةُ على وجوبِ إقامتها كذلك، إلَّا أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يصلِّها صبحَ تلك الليلة؛ لعدم العلمِ بكيفيَّتها حينئذ، وإنَّما علم الكيفيةَ بعد.

وقد قدَّمنا قريباً أنَّ البداءةَ وقعت في صلاةِ الظُّهر إشارةً إلى أنَّ دِينَه عليه الصلاة والسلام سيظهر على الأديان ظهورَها على بقية الصَّلوات.

ونوَّه سبحانه هنا بشأن صلاةِ الفجرِ بقوله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ حيث لم يقل سبحانه: إنَّه ﴿كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾.

أَخرج أحمد، والنَّسائي، وابنُ ماجه، والترمذيّ، والحاكم، وصحَّحاه[(١)]، وجماعةٌ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال في تفسير ذلك: «تشهده ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهار» وفي الصَّحيحين[(٢)] عنه رضي الله عنه أنَّه قال: قال النبيُّ ﷺ: «تجتمع ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ في صلاةِ الفجر» ثم قال أبو هريرة: اِقرؤوا إن شئتم: (وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) والمرادُ بهؤلاء الملائكةِ الكتبةُ والحفظة، فتنزل ملائكةُ النهارِ وتصعد ملائكةُ الليل، وتلتقي الطائفتان في ذلك الوقت، وكذا تلتقي الطائفتان ـ وأمرُ النزولِ والصُّعود على العكس ـ وقتَ العصر، كما جاءَ في الآثار[(٣)]. وهذا ممَّا يعكِّر على الإمام في زعمه أنَّ هذا أيضاً دليلٌ قويٌّ على أنَّ التغليسَ أَفضلُ من التنوير؛ لأنَّ الإنسان إذا شرع في الصلاة من أوَّل الصُّبح يكون ملائكةُ الليلِ حاضرين لبقاءِ الظُّلمة، فإذا امتدَّت الصلاةُ بسبب ترتيلِ القراءةِ وتكثيرِها، زالت الظلمةُ وظهر الضوءُ وحضر

---

(١) مسند أحمد (١٠١٣٣)، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٢٩)، وسنن ابن ماجه (٦٧٠)، وسنن الترمذي (٣١٣٥)، والمستدرك ١/ ٢١٠-٢١١.

(٢) صحيح البخاري (٦٤٨)، وصحيح مسلم (٦٤٩): (٢٤٦).

(٣) انظر ما سلف ١٣/ ٦٧.

ملائكةُ النهار، فإنه يَلزمه ـ على هذا البيانِ الذي لا يروج إلَّا على الصِّبيان ـ القولُ بأنَّ تأخيرَ صلاةِ العصر إلى أن يزولَ الضوءُ وتظهرَ الظُّلمة، وهو لا يقول به، بل لا يقولُ به أحد.

وهل الطائفةُ التي تشهد اليومَ مثلاً تشهد غداً، أو كلَّ يومٍ تشهد طائفةٌ أخرى لم تشهد قبلُ ولا تشهدُ بعد؟ فيه خلاف، وسيأتي الكلامُ إن شاءَ اللهُ تعالى فيما يتعلَّق بذلك.

وقيل: يشهدُه الكثيرُ من المصلِّين في العادة. وقيل: مِن حقِّه أن تشهدَه الجماعةُ الكثيرة. وقيل: تشهده وتحضرُ فيه شواهدُ القدرة، من تبدُّلِ الضياءِ بالظُّلمة، والانتباهِ بالنوم الذي هو أخو الموت. وهو احتمالٌ أبداه الإمامُ[1] وبسط الكلامَ فيه، ثم قال: وهذا هو المرادُ من قولِه تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ثم ذكر احتمالَ كونِ المرادِ: مشهوداً بالجماعة الكثيرةِ، وبسط الكلامَ أيضاً في تحقيقه.

وأنت تعلم أنَّه لا وجهَ للحصر المدلولِ عليه بقوله: وهذا هو المرادُ، ثم إبداءُ ذلك الاحتمال، على أنَّه بعدما صحَّ تفسيرُ النبيِّ ﷺ له بما سمعتَ لا ينبغي أن يقالَ في غيره: هذا هو المراد.

ولا يخفَى ما في هذه الجملةِ من الترغيب والحثِّ على الاعتناءِ بأمر صلاةِ الفجر؛ لأنَّ العبدَ في ذلك الوقتِ مشيَّعٌ كِراماً ومتلقٍّ كراماً، فينبغي أن يكونَ على أَحسنِ حالٍ يتحدَّث به الراحل، ويرتاحُ له النازل.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ قيل: أي: وعليك بعضَ الليل، وظاهرُه أنَّه من باب الإغراء، كما نُقل عن الزجَّاج وأبي البقاءِ في قوله تعالى: «وقرآن الفجر».

وتعقَّبه أبو حيَّان[2] بأنَّ المُغرَى به لا يكون حرفاً، ولا يُجدي نفعاً كونُ «مِن» للتبعيض؛ لأنَّ ذلك لا يجعلها اسماً، أَلَا ترى إجماعَ النُّحاةِ على أنَّ واوَ «مَعَ» حرفٌ وإنْ قُدِّرت بـ«مَعَ».

وأُجيب بأنَّه يحتملُ أن يكونَ القائلُ بذلك قائلاً باسميَّة «مِن» في مِثل ذلك،

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٢٨.

(٢) في البحر ٦/ ٧١.

كما قالوا باسميةِ الكافِ في نحو: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] و«عن» في نحو:

مــن عــن يــمــيــنــي تــارةً وشِــمــالــي[١]

و«على» نحو: مِن عليه، وكذا القائلُ بأنَّ ذلك نصبٌ على الظرفية بمقدَّر، أي: وقم بعضَ الليل. واختار الحوفيُّ أنَّ «مِن» متعلِّقة بفعلٍ دلَّ عليه معنى الكلام، أي: واسهَرْ من الليل، فالفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ إمَّا عاطفةٌ على ذلك المقدَّر، أو مفسِّرةٌ بناءً على أنَّه من أسلوب ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠].

وفي «الكشف» أنَّ الإغراءَ هو الظاهرُ هاهنا بخلافه فيما تقدَّم؛ لأنَّ النصبَ على التفسير والصِّلاتُ مختلفةٌ لا يتَّضح كلَّ الاتِّضاح، ومعنى الإغراءِ من السابق واللاحقِ تتعاضد الأدلةُ عليه. وفيه منعٌ ظاهر.

والتهجُّد ـ على ما نُقل عن الليث ـ الاستيقاظُ من النَّوم للصلاة، ويُطلق على نفس الصلاةِ بعد القيامِ من النَّوم ليلاً، يقال: تهجَّد، أي: صلَّى في الليل بعدَ الاستيقاظ، وكذا هَجَدَ، وهذا يقتضي سابقيةَ النوم في تحقُّق التهجُّد، فلو لم ينم وصلَّى ما شاء، لا يقال له: تَهَجَّدَ، وهو المرويُّ عن مجاهدٍ والأسودِ وعلقمةَ وغيرِهم.

وقال المبرِّد: هو السَّهرُ للصلاة أو لِذِكر اللهِ تعالى.

وقيل: السهرُ للطاعة. وظاهرُه عدمُ اشتراطِ سابقيةِ النوم في تحقُّقه، والمشهورُ أنَّ ذلك يسمَّى قياماً، وما بعد النومِ يسمَّى تهجُّداً.

وأَغربَ الحجَّاج بنُ عَمرٍو المازني[٢]، فإنَّه رُوي عنه أنَّه قال: أَيحسب أحدُكم

---

(١) البيت بتمامه ـ كما في حماسة أبي تمام ١/ ٦٨ـ:

فــلــقــد أراني لــلــرِّمــاح دريــئــةً   مــن عــن يــمــيــنــي مــرَّةً وأمــامــي

ونسبه لقطري بن الفجاءة المازني.

(٢) الأنصاري الخزرجي، مختلف في صحبته، قال أبو نعيم: شهد صفِّين مع علي ﷺ. الإصابة ٢/ ٢١٦ والخبر أخرجه الطبراني في الكبير (٣٢١٦)، وابن قانع في معجم الصحابة ١/ ١٩٤.

إذا قام من الليلِ فصلَّى حتى يُصبحَ أنَّه قد تهجَّد، إنَّما التهجُّدُ الصلاةُ بعد الرُّقاد، ثم صلاةٌ أخرى بعد رَقدة، ثم صلاةٌ أخرى بعد رَقدة، هكذا كانت صلاةُ رسولِ الله ﷺ.

وأنا أقول: إنَّ تخلُّل النومِ بين الصلواتِ جاءَ في صحيح مسلمٍ من رواية حُصين عن حبيبِ بن أبي ثابتٍ[1]، وهي ممَّا استدركها الدارقطنيُّ على مسلمٍ لاضطرابها، فقد قال: ورُوي عنه على سبعة أوجُه، وخالف فيه الجمهور. يعني الخبرَ الذي فيه تخلُّل النوم، والكثيرُ من الرِّوايات ليس فيه ذلك، فليُحفَظ.

واشتُرط ألَّا تكونَ الصلاةُ إحدى الخَمس، فلو نام عن العشاءِ ثم قام فصلَّاها لا يسمَّى متهجِّداً، ولا ضررَ في كونها واجبة، كأَنْ نام عن الوِتر ثم قام إليها.

وفي «القاموس»: الهجودُ النوم، كالتهجُّد، وتهجَّد: استيقظ، كهجد، ضِدّ[2]. وقال ابن الأعرابي: هَجَدَ الرجل: صلَّى من الليل، وهجد: نام باللَّيل. وقال أبو عبيدة: الهاجد: النائمُ والمصلِّي[3].

وفي «مَجمع البيان»[4] أنَّه يقال: هَجَّدته: إذا أَنمتَه، وعليه قولُ لبيد:

قلت هجِّدْنا فقد طال السُّرى[5]

ونُقل عن ابن بُزُرْج[6] أنَّه يقال: هجَّدته: إذا أيقظتَه، ومصدرُ هذا التهجيدُ، وصرَّح في «القاموس»[7] بأنَّه من الأضداد أيضاً.

وذكر بعضُهم أنَّ المعروفَ في كلام العربِ كونُ الهجودِ بمعنى النوم، وفسَّر

---

(١) برقم (٧٦٣): (١٩١).
(٢) القاموس (هجد).
(٣) انظر مجاز القرآن ١/ ٣٨٩.
(٤) ١٥/ ٨٥.
(٥) ديوان لبيد ص١٨٢، وعجزه: وقَدَرْنا إن خَنَى دهرٍ غَفَلْ.
(٦) في الأصل و(م): برزخ، والصواب ما أثبتناه، وهو عبد الرحمن بن بُزُرْج، كان حافظاً للغريب والنوادر، قال الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ١٩: قرأت له كتاباً بخط أبي الهيثم الرازي في النوادر فاستحسنه. وكلامه في تهذيب اللغة ٦/ ٣٦.
(٧) مادة (هجد).

التهجُّد بترك الهجود، أي: النوم، على أنَّ التفعُّل للسَّلْب، كالتأثُّم والتحنُّث، وهو مأخذُ مَن فسَّره بالاستيقاظ.

ويجوزُ أن يقال: إنَّ التفعُّل للتكلُّف، أي: تكلُّف الهجودِ بمعنى اليقظة. ورجِّح هذا بأنَّ مجيءَ التفعُّل للتكلُّف أكثرُ من مجيئه للسَّلْب.

وعُورض بأنَّ استعمالَ الهجودِ في اليقظة مختلَفٌ في ثبوته، وإنْ ثبت فهو أقلُّ من استعماله في النَّوم.

والضميرُ المجرورُ في «به» للقرآنِ من حيث هو، لا بقيد إضافتِه إلى الفجر. واستُدلَّ بذلك على تطويل القراءةِ في صلاة التهجُّد، وقد صرَّح العلماءُ بندب ذلك، وفي صحيح مسلمٍ[١] من حديث حذيفةَ: صلَّيتُ وراءَ النبيِّ ﷺ ذاتَ ليلة، فافتتح «البقرة» فقلت: يركع عندَ المئة، ثم مضى، فقلت: يصلِّي بها في رَكعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح «النِّساء» فقرأها، ثم افتتح «آل عمران» فقرأها، يقرأ مترسِّلاً، إذا مرَّ بآيةٍ تسبيحٍ سبَّح... الخبر.

ويجوز أن يكونَ للبعض المفهومِ من قولِه تعالى: «ومن الليل» والباءُ للظرفية، أي: فتهجَّد في ذلك البعض. وقال ابنُ عطية[٢]: هو عائدٌ على الوقت المقدَّر في النظم الكريم، أي: قُمْ وقتاً من الليل فتهجَّد فيه ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضةً زائدةً على الصَّلوات الخمسِ المفروضةِ خاصَّةً بك دون الأمَّة، ولعله الوجهُ في تأخير ذِكرِها عن ذِكر صلاة الفجر مع تقدُّم وقتِها على وقتها.

واستدلَّ به على أنَّ ما أُمر به ﷺ فأمَّته مأمورون به أيضاً، إلَّا أن يدلَّ دليلٌ على الاختصاصِ كما هنا. ويدلُّ على أنَّ المرادَ ما ذُكر ما أَخرجه ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ ﵄ أنَّه قال في ذلك: يعني خاصَّةً للنبيِّ ﷺ، أُمر بقيامِ الليلِ وكُتب عليه[٣]. لكن صحَّح النوويُّ أنَّه نُسخ عنه عليه الصلاة والسلام فَرْضيةُ التهجُّد، ونقله أبو حامدٍ من الشافعية، وقالوا: إنَّه الصحيح.

---

(١) برقم (٧٧٢).

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٨.

(٣) الدر المنثور ٤/ ١٩٦، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ٤٠.

وقيل الخطابُ في «لك» له ﷺ، والمرادُ هو وأمَّته، على حدِّ الخطابِ في «أقم الصلاة» فيما سبق، أي: فريضةً زائدةً على الصلوات الخمسِ لِنفعكم، ففيه دليلٌ على فَرْضية التهجُّد عليه عليه الصلاة والسلام، بناءً على ما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن الضَّحاك قال: نُسخ قيامُ الليلِ إلَّا عن النبيِّ ﷺ[1]. أو ونُسخ في حقِّه ﷺ أيضاً بناءً على الصحيح، وهو خلافُ الظاهرِ جدًّا.

ويجوز أن يرادَ بالنافلةِ الفضيلة، إما لأنَّه عليه الصلاة والسلام فُضِّل على أمَّته بوجوبها وإن نُسخ بعد، أو لأنَّها فضيلةٌ له ﷺ وزيادةٌ في درجاته، وليست بالنِّسبة إليه مكفِّرةً للذنوب وسادَّةً للخَلَل الواقعِ في الفرائض، كما أنَّها وسائرَ النوافلِ بالنِّسبة إلى الأمَّة كذلك؛ لكونه عليه الصلاة والسلام قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وفرائضُه وسائرُ تعبُّداته واقعةٌ على الوجه الأكمل. وقد أخرج هذا الأخيرَ البيهقيُّ في «الدلائل» وابن جَريرٍ وغيرُهما عن مجاهد[2]، وابنُ أبي حاتمٍ عن قتادة، وابنُ المنذر عن الحسن[3]، واستحسنه الإمام[4]، وضعَّفه الطبري[5]، وجوَّز ابنُ عطيةَ عمومَ الخطاب كما سمعتَ آنفاً، إلَّا أنَّه حمل «نافلة» على تطوُّعاً. وليس بشيءٍ أيضاً.

وربَّما يختلج في بعض الأذهانِ بناءً على ما تقدَّم عن أبي البقاءِ في قوله تعالى: (سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا) من أنَّه بتقدير: اتَّبعْ سنَّة، كما قال سبحانه: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] احتمالُ أن يكونَ قولُه تعالى: (أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ) إلخ بياناً للاتِّباع المأمورِ به، وهو متضمِّن للأمر بالصلواتِ الخمس، وقد كان الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام يصلُّونها، على ما يدلُّ عليه قولُ جبريلَ عليه السلام في خبرِ تعليمِه عليه الصلاة والسلام كيفيةَ الصلاةِ بعد صلاتِه الخمس: هذا وقتُ الأنبياءِ من قبلك[6]، فإنَّه ظاهرٌ في أنَّهم عليهم السلام كانوا يصلُّونها.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٩٦.
(٢) دلائل النبوة ٥/ ٤٨٧، وتفسير الطبري ١٥/ ٤١.
(٣) الدر المنثور ٤/ ١٩٦.
(٤) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٠.
(٥) في تفسيره ١٥/ ٤١-٤٢.
(٦) أخرجه أبو داود (٣٩٣)، والترمذي (١٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

غايةُ ما في الباب أنَّه على القولِ بأنَّها لم تجتمعْ لغير نبيِّنا ﷺ - وهو الصَّحيح - يحتمل أنَّ المرادَ أنَّه وقتُهم على الإجمال وإن اختصَّ مَن اختصَّ منهم بوقت، حيث ورد أنَّ الصبحَ لآدم، والظهرَ لداود، وفي رواية: لإبراهيم، والعصرَ لسليمان، وفي رواية: ليونُس، والمغربَ ليعقوب، وفي رواية: لعيسى، والعشاءَ ليونُس، وفي رواية: لموسى عليهم السلام، إلَّا أنَّ ذلك لا يضرّ، بل هو أنسبُ بالأمر باتِّباع سنَّة جميعِهم.

وقد استدلَّ الإمامُ[1] على أنَّه ﷺ أفضلُ من سائر الأنبياءِ عليهم السلام بقوله تعالى: «فبهداهم اقتده» من جهة أنَّه عليه الصلاة والسلام أُمر بالاقتداءِ بهدى جميعِهم وامتثلَ ذلك، فكان عندَه من الهدى ما عندَ الجميع، فيكون أفضلَ من كلِّ واحدٍ منهم، وحينئذٍ يقال: معنى كونِ ذلك نافلةً له عليه الصلاة والسلام أنَّه زائدٌ على الصلواتِ الخمس، خاصٌّ به ﷺ دون سائرِ الأنبياء عليهم السلام المأمورِ باتِّباع سنَّتهم. وهو ممَّا لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه ويعوَّلَ عليه، بل اللائقُ به أن يجعلَ من قبيلِ حديث النَّفْس، وتخيُّلِها بحراً من مسكٍ مَوجُه الذهب، فإنَّ فسادَه تأصيلاً وتفريعاً ممَّا لا يخفَى على مَن له أدنَى مُسكةٍ وأقلُّ اطِّلاع، والله تعالى العاصمُ من الزَّلل، والحافظُ من الخطأ والخَطَل.

وانتصابُ «نافلة» إمَّا على المصدرية بتقدير: تنفَّل. وقدَّر الحوفيُّ: نفَّلناك. أو بجعل «تهجَّدْ» بمعنى تنفَّل. أو بجعل «نافلةً» بمعنى تهجُّداً، فإنَّ ذلك عبادةٌ زائدة. وإمَّا على الحالِ من الضمير الراجعِ إلى القرآن، أي: حالَ كونِه صلاةً نافلةً كما قال أبو البقاء[2]. وإمَّا على المفعول لـ «تهجَّد» - كما جوَّزه الحوفيّ - إذا كان بمعنى: صلِّ، وجُعِلَ الضميرُ المجرورُ للبعضِ المفهوم، أو للوقت المقدَّر، أي: فصلِّ فيه نافلةً لك ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ الذي يبلِّغك إلى كمالك اللائقِ بك من بعد الموتِ الأكبر، لمَّا انبعثتَ من الموت الأصغرِ بالصلاة والعبادة. فالمعنى على التعليل والتهوينِ لمشقَّة قيام الليل، حتى زعم بعضُهم أنَّ «عسى» بمعنى كي، وهو وَهَم، بل هي - كما قال أهلُ المعاني - للإطماع، ولمَّا كان إطماع الكريمِ إنساناً بشيءٍ ثم

(١) في التفسير الكبير ١٣/ ٧١.
(٢) في الإملاء ٣/ ٤٩٤.

حرمانُه منه غروراً، واللهُ عزَّ وجلَّ أجلُّ وأكرمُ من أن يغرَّ أحداً فيُطمعَه في شيء ثم لا يُعطيَه، قالوا: هي للوجوبِ منه تعالى مجدُه، على معنى أنَّ المُطمَعَ به يكون ولا بدَّ للوعد.

وقيل: هي على بابها للترجِّي، لكن يُصرف إلى المخاطَب، أي: لتكن على رجاءٍ من أنْ يبعثَك ربُّك ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ وهي تامَّة، و«أن يبعثك» فاعلُها، و«ربك» فاعلُه، و«مقاماً» ـ كما قال جمعٌ ـ منصوبٌ على الظَّرفية، إمَّا على إضمار فعلِ الإقامة، أو على تضمين الفعلِ المذكورِ ذلك، أي: عسى أن يبعثَك فيُقيمَك مقاماً، أي: في مقام، أو يُقيمَك في مقام محمودٍ باعثاً، إذ لا يصحُّ أن يعملَ في مثل هذا الظرفِ إلَّا فعلٌ فيه معنى الاستقرار، خلافاً للكسائي.

واستظهرَ في «البحر»[(١)] كونَه معمولاً لـ «يبعثَك»، وهو مصدرٌ من غير لفظِ الفعل؛ لأنَّ نبعث بمعنى نُقيم، تقول: أُقيم من قبره، و: بُعث من قبره.

وجوَّز أبو البقاءِ[(٢)] وغيرُه كونَه حالاً بتقديرِ مضاف، أي: نبعثك ذا مقام.

وقيل: يجوز أن يكونَ مفعولاً به لـ «يبعثَك» على تضمينه معنى نُعطيك.

وجوَّز أبو حيَّانَ أن تكونَ «عسى» ناقصة، و«ربك» الفاعل[(٣)]، على تقدير أن ينتصبَ «مقاماً» بمحذوفٍ لا بـ «يبعث»؛ لئلَّا يلزمَ الفصلُ بين العاملِ والمعمولِ بأجنبيّ.

وتنكيرُ «مقاماً» للتعظيم. والمرادُ بذلك المقام مقامُ الشفاعةِ العظمى في فصل القضاء، حيث لا أحدَ إلَّا وهو تحت لوائه ﷺ، فقد أخرج البخاريُّ[(٤)] وغيرُه عن ابن عمرَ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ الشمس لَتدنو حتى يبلغَ العرقُ نصفَ الأُذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست بصاحبِ ذلك، ثم موسى، فيقول كذلك، ثم محمَّد، فيشفع، فيقضي اللهُ تعالى بين الخلق، فيمشي

---

(١) ٦/ ٧٢.
(٢) في الإملاء ٣/ ٤٩٤.
(٣) كذا في الأصل و(م)، وهو خطأ ظاهر، والصواب: اسمها، كما في البحر ٦/ ٧٢.
(٤) في صحيحه (١٤٧٥).

حتى يأخذَ بحلقة بابِ الجنَّة، فيومئذٍ يبعثه اللهُ تعالى مقاماً محموداً يحمده أهلُ الجمعِ كلُّهم».

وأخرج الترمذيُّ وحسَّنه[1] عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أنا سيِّد ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فخر، وما من نبيٍّ يومئذٍ فمَن سواه إلَّا تحت لوائي، وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر، وبيدي لواءُ الحمدِ ولا فخر، فيفزع الناسُ ثلاث فزعات، فيأتون آدمَ فيقولون: أنت أبونا فاشفعْ لنا إلى ربِّك، فيقول: إني أذنبتُ ذنباً أُهبطت منه إلى الأرض، ولكن ائتوا نوحاً، فيأتون نوحاً، فيقول: إني دعوتُ على أهل الأرضِ دعوةً فأُهلكوا، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقول: ائتوا موسى، فيقول: إني قتلتُ نفساً، ولكن ائتوا عيسى، فيقول: إني عُبدت من دون اللهِ تعالى، ولكن ائتوا محمداً، فيأتونني، فأنطلق معهم فآخذُ بحلقة بابِ الجنةِ فأُقعقعها، فيقال: مَن هذا، فأقول: محمَّد، فيفتحون لي ويقولون: مرحباً، فأخِرُّ ساجداً، فيُلهمني اللهُ تعالى من الثَّناء والحمدِ والمجد، فيقال: اِرفعْ رأسَك، سَلْ تُعطَ، واشفعْ تشفَّع، وقل يُسمعْ لقولك، فهو المقامُ المحمودُ الذي قال اللهُ تعالى: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً»».

وجاء في بعض الرِّواياتِ أنَّه عليه الصلاة والسلام يسجد أربعَ سجدات ـ أي: كسجود الصلاةِ كما هو الظَّاهر ـ تحتَ العرش، فيُجاب لِمَا فزعوا إليه.

وذكر الغزاليُّ في «الدُّرَّة الفاخرة» أنَّ بين إتيانهم نبيًّا وإتيانهم ما بعدَه ألفَ سَنَة، ولا أصلَ له كما قال الحافظُ ابن حجر[2].

وقيل: هو مقامُ الشفاعةِ لأمَّته ﷺ؛ لِمَا أخرجه أحمدُ، والترمذيُّ، والبيهقيُّ في «الدَّلائل» عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه سئل عن المقام المحمودِ في الآية فقال: «هو المقامُ الذي أشفع فيه لأمَّتي»[3].

---

(١) كما في تحفة الأشراف ٣/ ٤٦٨، وتحفة الأحوذي ٨/ ٥٨٨، والذي في المطبوع من سنن الترمذي (٣١٤٨): حديث حسن صحيح.

(٢) في فتح الباري ١١/ ٤٣٤.

(٣) مسند أحمد (٩٦٨٤)، وجامع الترمذي (٣١٣٧)، ودلائل النبوة ٥/ ٤٨٤. ولفظ الترمذي والبيهقي: قال: «هي الشفاعة».

وأَجاب مَن ذهب إلى الأوَّل بأنَّه يحتمل أن يكونَ المرادُ: المقامُ الذي أَشفع فيه أوَّلاً لأمَّتي، فقد أَخرج الشيخان(١) وغيرُهما عن أبي هريرةَ أيضاً من حديثٍ طويل في الشفاعةِ فيه فَزَعُ الناسِ إلى آدمَ ونوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم السلام، واعتذارُ كلٍّ منهم ـ ما عدا عيسى عليه السلام ـ بذنب، أنَّه ﷺ قال: «فيأتوني ـ يعني الناسَ بعد مَن علمتَ من الأنبياءِ عليهم السلام ـ فيقولون: يا محمد، أنت رسولُ اللهِ وخاتَمُ الأنبياء، وقد غفر اللهُ تعالى لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر، اِشفعْ لنا إلى ربِّك، أَلا ترى إلى ما نحن فيه، فأَنطلقُ فآتي تحتَ العرشِ فأقعُ ساجداً لربِّي، ثم يفتح اللهُ تعالى عليَّ من محامده وحُسنِ الثناءِ عليه شيئاً لم يفتحه على أحدٍ قبلي، ثم يقال: يا محمَّد، اِرفع رأسَك، سل تعطَه، واشفع تشفَّع، فأَرفع رأسي فأقول: أُمَّتي ياربِّ، فيقال: يا محمد، أَدخل مِن أمَّتك مَن لا حسابَ عليهم من الباب الأَيمنِ من أبواب الجنَّة، وهم شركاءُ الناسِ فيما سوى ذلك من الأبواب».

ومِن الناس مَن فسَّره بمقام الشفاعةِ في موقفِ الحشر، حيث يعترف الجميعُ بالعجز، أعمُّ من أن تكونَ عامَّةً كالشَّفاعة لفصلِ القضاء، أو خاصَّةً كالشفاعة لبعض عُصاةِ أمَّته ﷺ في العفو عنهم، والاقتصارُ على أَحد الأمرَين في بعض الأخبارِ لنكتةٍ اقتضاها الحال، ولكلِّ مقامٍ مقال، وحَمَلَ هذا الشفاعةَ للأمَّة في خبر أبي هريرةَ المتقدِّمِ على الشفاعة لبعض عصاتِهم في الموقفِ قبل دخولِهم النار، وإلَّا فلو أُريد الشفاعةُ لهم بعد الحساب ودخولِ أهل الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النار ـ كما رُوي عن أبي سعيد ـ لم يتيسَّر الجمعُ بين الرِّوايات، إلَّا بأن يقال: المقامُ المحمودُ هو مقامُ الشفاعة، أعمُّ من أن تكونَ في الموقف عامَّةً وخاصةً وأن تكونَ بعد ذلك، ويكونُ الاقتصارُ لنكتة.

وقد جاءَ تفسيرُه بمقام الشفاعةِ مطلقاً، فقد أَخرج ابنُ مردويه عن سعد بنِ أبي وقاصٍ قال: سئل النبيُّ ﷺ عن المقامِ المحمود، فقال: «هو الشفاعة»(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٤٧١٢)، وصحيح مسلم (١٩٤).
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٩٧.

وأخرج ابن جَريرٍ عن وَهْب، عن أبي هريرةَ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المقامُ المحمودُ الشفاعة»(١).

وأخرج ابن جَريرٍ والطبرانيُّ وابنُ مردويه من طرقٍ عن ابن عباسٍ أنه فسَّره بذلك(٢).

ثم الشفاعةُ من حيث هي وإن شاركه فيها ﷺ غيرُه من الملائكة والأنبياءِ عليهم السلام وبعضِ المؤمنين، إلَّا أنَّ الشفاعةَ الكاملة والأنواعَ الفاضلة لا تَثْبت لغيره عليه الصلاة والسلام، وقد أَوصل بعضُهم الشفاعةَ المختصَّة به ﷺ إلى عشر، وذكره بعضُ شرَّاح البخاريِّ فليراجع.

ووصفُ المقامِ بأنَّه محمودٌ ـ على ما ذُكر ـ باعتبار أنَّ النبيَّ ﷺ يُحمَد فيه على إنعامه الواصل إلى الخاصِّ والعامِّ من أَصناف الأَنام.

وأَخرج النَّسائي، والحاكمُ وصحَّحه(٣)، وجماعةٌ عن حذيفةَ ﷺ قال: يُجمَع الناسُ في صعيدٍ واحدٍ يسمعهم الدَّاعي ويَنفُذهم البصر، حفاةً كما خُلقوا، قياماً، لا تكلَّم نفسٌ إلَّا بإذنه، فينادَى: يامحمد، فيقول: لبَّيك وسَعدَيك، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك، والمَهديُّ مَن هَديت، وعبدُك بين يديك وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجَى منك إلَّا إليك، تباركتَ وتعاليت، سبحانَك ربَّ البيت. فهذا المقامُ المحمود.

وأَخرج الطبرانيُّ(٤) عن ابن عباسٍ أنَّه قال في الآية: يُجلسه فيما بينه وبين جبريلَ عليه السلام ويشفع لأمَّته، فذلك المقامُ المحمود.

وأَخرج ابن جَريرٍ(٥) عن مجاهدٍ أنَّه قال: المقامُ المحمودُ أن يُجلسَه معه على عرشه.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٤٧ ولكن من طريق يزيد بن عبد الرحمن الأودي عن أبي هريرة به.
(٢) الدر المنثور ٤/ ١٩٧، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ٤٤.
(٣) السنن الكبرى (١١٢٣٠)، والمستدرك ٢/ ٣٦٣.
(٤) في الكبير (١٢٤٧٤).
(٥) في تفسيره ١٥/ ٤٧.

وأنت تعلم أنَّ الحمد على أكثرِ ما في هذه الرِّواياتِ مجازٌ عند مَن يقول: إنَّه مختصٌّ بالثَّناء على الإنعام، وأمَّا عند مَن يقول بعدمِ الاختصاص، فلا مجاز.

وتعقَّب الواحديُّ القولَ بأنَّ المقام المحمودَ إجلاسُه ﷺ معه عزَّ وجلَّ على العرشِ بعد ذِكر روايتِه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما[1] بأنَّه قولٌ رَذِل موحِشٌ فظيع، لا يصحُّ مثلُه عن ابن عباس، ونصُّ الكتابِ ينادي بفساده من وجوه:

الأوَّل: أنَّ البعثَ ضدُّ الإجلاس، يقال: بعث اللهُ تعالى الميِّت، إذا أقامه من قبره، وبعثتُ الباركَ والقاعد فانبعث، فتفسيرُه به تفسيرُ الضِّدِّ بالضد.

الثاني: لو كان جالساً سبحانَه وتعالى على العرش، لَكان محدوداً متناهياً، فيكون محدَثاً، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيراً.

الثالث: أنَّه سبحانه قال: «مقاماً» ولم يقل مَقعداً، والمقامُ موضعُ القيامِ لا القعود.

الرابع: أنَّ الحمقى والجهَّالَ يقولون: إنَّ أهل الجنةِ كلَّهم يجلسون معه تعالى ويسألهم عن أحوالهم الدُّنياوية، فلا مزيَّةَ له ﷺ بإجلاسه معه عزَّ وجلّ.

الخامس: أنَّه إذا قيل: بعث السلطانُ فلاناً، يُفهَم منه أنَّه أَرسله إلى قومٍ لإصلاح مهمَّاتهم، ولا يُفهَم منه أنَّه أجلسه مع نفسه. انتهى.

وأبو عمرَ[2] لم يطَّلع إلَّا على رواية ذلك عن مجاهدٍ فقال: إنَّ مجاهداً وإن كان أحدَ الأئمَّة بتأويل القرآنِ حتى قيل: إذا جاءك التأويلُ عن مجاهدٍ فحسْبُك، إلَّا أنَّ له قولَين مهجورَين عند أهلِ العلم، أحدُهما: تأويلُ المقامِ المحمودِ بهذا الإجلاس، والثاني: تأويلُ «إلى ربها ناظرة» [القيامة: ٢٣] بانتظار الثَّواب.

وذكر النقَّاش عن أبي داود السِّجستانيِّ أنَّه قال: مَن أنكر هذا الحديثَ فهو عندنا متَّهم. فما زال أهلُ العلمِ يحدِّثون به.

---

(١) أخرجه الذهبي في الميزان ٤/ ١٢٤ من طريق علي بن محمد القادسي، عن مقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس. وقال: فهذا لعله وضعه أحد هؤلاء أصحاب مقاتل أو القادسي. اهـ. وكلام الواحدي في البحر ٦/ ٧٣.

(٢) هو ابن عبد البر، وكلامه في التمهيد ٧/ ١٥٧-١٥٨، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ٧٢.

قال ابنُ عطية: أراد: مَن أنكره على تأويله فهو متَّهم[١]. وقد يؤوَّل قولُه ﷺ: «يُجلسني معه» على رفع محلِّه وتشريفِه على خلقه، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف:٢٠٦] وقولِه سبحانه حكايةً: ﴿ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا﴾ [التحريم:١١] وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] إلى غير ذلك ممَّا هو كنايةٌ عن المكانةِ لا عن المكان.

وأنت تعلم أنَّه لا ينبغي لمجاهدٍ ولا لغيره أن يفسِّرَ المقامَ المحمودَ بالإجلاس على العرش حَسْبما سمعتَ من غير أن يثبتَ عنده ذلك الإجلاسُ في خبر، كخبر الديلميِّ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ في قولِه سبحانه: «عسى أن يبعثك...» إلخ: «يُجلسني معه على السَّرير»[٢] فإنْ تمسَّك المفسِّرُ بهذا أو نحوِه، لم يناظَر إلَّا بالطَّعن في صحَّته، وبعد إثبات الصحَّة لا مجالَ للمؤمن إلَّا التسليم.

وما ذكره الواحديُّ لا يستلزم عدمَ الصحة، فكم وكَمْ من حديثٍ نصُّوا على صحَّته ويَلزم من ظاهرِه المحال، كحديث أبي سعيد الخدريِّ المشتملِ على رؤية المؤمنين اللهَ عزَّ وجلَّ ثم إتيانِه إياهم في أدنَى صورةٍ من التي رأوه فيها، وقولِه تعالى لهم: «أنا ربكم» وقولِهم: نعوذُ بالله تعالى منك، حتى يكشفَ لهم عن ساق، فيسجدون، ثم يرفعون رؤوسَهم وقد تحوَّل في صورته التي رأوه فيها أوَّل مرَّة. وهو في الصَّحيحين[٣]، وحديثِ لَقيطِ بن عامرٍ المشتملِ على قوله ﷺ: «تلبثون ما لبثتم، ثم يتوفَّى نبيُّكم، ثم تلبثون ما لبثتم، ثم تُبعث الصائحة ـ لَعَمرُ إلهك ـ لا تدعُ على ظهرها شيئاً إلَّا مات والملائكةُ الذين مع ربِّك عزَّ وجلّ، فأَصبح ربُّك يطوفُ في الأرض وخلت عليه البلاد...» الحديث[٤]، وقد رواه أئمَّة السنَّةِ في كتبهم وتلقَّوه بالقَبول، وقابلوه بالتسليمِ والانقياد، إلى ما لا يُحصَى من هذا القبيل، ومذاهبُ المحدِّثين وأهلِ الفكر من العلماءِ في الكلامِ على ذلك ممَّا لا يخفى، ومتى أُجريت هناك فلتُجرَ هنا، فالكلُّ قريب من قريب.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٧٩ وما سيأتي هو من كلام أبي حيان في البحر ٦/ ٧٢-٧٣.
(٢) الفردوس (٤١٥٩).
(٣) صحيح البخاري (٧٤٣٩)، وصحيح مسلم (١٨٣) بنحوه.
(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند (١٦٢٠٦) والطبراني في الكبير ١٩/ (٤٧٧).
قال ابن كثير في البداية والنهاية ٧/ ٣٣: هذا حديث غريب جدًّا، وألفاظه في بعضها نكارة.
وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٠: هو حديث غريب جدًّا.

والصوفية يقولون: إنَّ لله عزَّ وجلَ الظهورَ فيما يشاءُ على ما يشاء، وهو سبحانَه في حال ظهورِه باقٍ على إطلاقه حتى عن قيد الإطلاق، فإنَّه العزيزُ الحكيم، ومتى ظهر جلَّ وعلا في صورة، أُجريت عليه سبحانه أحكامُها من حيث الظُّهور، فيوصف عزَّ مجدُه عندهم بالجلوس ونحوِه من تلك الحيثية، وينحلُّ بذلك أمورٌ كثيرة. إلَّا أنَّه مبنيٌّ على ما دون إثباتِه خَرْطُ القتاد.

ويَرِد على ما ذكره الواحديُّ في الوجه الثالثِ أنَّ المقام وإنْ كان في الأصل بمعنى محلِّ القيام، إلَّا أنَّه شاع في مطلق المحلِّ، ويُطلقَ على الرُّتبة والشرف.

وعلى ما ذكره في الوجه الأوَّل أنَّه ليس هناك إلَّا تفسيرُ المقام المحمود بالإجلاس، لا تفسيرُ البعثِ بالإجلاس، نَعَم فيه مسامحة، والمرادُ أنَّ إحلالَه في المحلِّ المحمودِ هو إجلاسُه على العرش، وهذا المعنى يتأتَّى بإبقاء البعثِ على معناه وتقديرِ فيُقيمك بمعنى فيُحلُّك، وبتفسيره بالإقامة بمعنى الإحلال، وقد يقال: لا مسامحة، والمرادُ من المقام الرُّتبة، والبعثُ متضمِّن معنى الإعطاء، أي: عسى يُعطيك ربُّك رتبةً محمودة، وهي إجلاسُه إياك على عرشه باعثاً.

وما ذكره في الوجهِ الثاني حقٌّ لو أُريد من الجلوس على العرش ظاهرُه، أما لو أُريد معنًى آخر، فلا نسلِّم اللازم، وبابُ التأويلِ واسع.

وقد أوِّل الإجلاسُ معه على رفع المحلِّ والتشريف، وهو مقولٌ بالتشكيك، فمتى صحَّ أنَّ أهل الجنةِ كلَّهم يجلسون معه، آمنَّا به مع إثبات المزيةِ للرَّسول ﷺ، فاندفع ما ذكره في الوجهِ الرابع.

ويَرِد على ما في الوجه الخامسِ أنَّ الإجلاسَ معه لم يُفهَم من مجرَّد البعث، وما ادَّعى أحدٌ ذلك، فكونُ: بَعَثَ السلطانُ فلاناً، يُفهَم منه أنَّه أرسله إلى قومٍ لإصلاح مهمَّاتهم، ولا يُفهَم منه أنَّه أَجلسه مع نفسه، لا يضرُّنا، كما لا يخفَى على منصف.

وبالجملة كلُّ ما قيل أو يقال لا يُصغى إليه إن صحَّ التفسيرُ عن رسول اللهِ ﷺ، لكن يبقَى حينئذٍ أنَّه يلزم التعارضُ بين ظواهر الرِّوايات، ومن هنا قال بعضُهم: المرادُ بالمقام المحمودِ ما ينتظم كلَّ مقامٍ يتضمَّن كرامةً له ﷺ، والاقتصارُ في

بعض الرِّوايات على بعضٍ لنكتة نحو ما مرّ، ووصفُه بكونه محموداً إمَّا باعتبار أنَّه ﷺ يحمد اللهَ تعالى عليه أبلغَ الحمد، أو باعتبار أنَّ كلَّ من يشاهده يحمده، ولم يشترطْ أن يكونَ الحمدُ في مقابلة النِّعمة، ويدخل في هذا كلُّ مقامٍ له ﷺ محمودٍ في الجنة.

وكذا يدخلُ فيه ما جوَّز مفتي الصوفيةِ سيِّدي شهابُ الدِّين السُّهرَورديُّ أن يكونَ المقامَ المحمود، وهو إعطاؤه عليه الصلاة والسلام مرتبةً من العلم لم تُعطَ لغيره من الخلقِ أصلاً، فإنَّه ذكر في رسالةٍ له في العقائد أنَّ علمَ عوامِّ المؤمنين يكون يومَ القيامةِ كعلم علمائهم في الدُّنيا، ويكون علمُ العلماءِ إذ ذاك كعلم الأنبياءِ عليهم السلام، ويكون علمُ الأنبياءِ كعلم نبيِّنا ﷺ، ويعطَى نبيُّنا عليه الصلاة والسلام من العلم ما لم يعطَ أحدٌ من العالمين، ولعله المقامُ المحمود. ولم أرَ ذلك لغيره عليه الرَّحمة، واللهُ تعالى أعلم.

ثم هذا الاختلافُ في المقام المحمودِ هنا لم يقع فيه في دعاءِ الأذان، بل ادَّعى العلَّامة ابنُ حجرٍ الهيتميُّ أنَّه فيه مقامُ الشفاعةِ العُظمى لفصل القضاءِ اتفاقاً، فتأمَّل في هذا المقام، واللهُ تعالى ولي الإنعامِ والإفهام.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي: إدخالاً مَرْضيًّا جيداً لا يرى فيه ما يكره، والإِضافةُ للمبالغة. ﴿وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ نظيرُ الأوَّل.

واختُلف في تعيين المرادِ من ذلك، فأَخرج الزُّبير بن بكَّار عن زيد بن أسلمَ أنَّ المرادَ إدخالُ المدينةِ والإخراجُ من مكة، ويدلُّ عليه ـ على ما قيل ـ قولُه تعالى: (وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ) إلخ. وأيِّد بما أخرجه أحمد، والطبرانيّ، والترمذيُّ وحسَّنه، والحاكم وصحَّحه[(١)]، وجماعةٌ عن ابن عباسٍ قال: كان النبيُّ ﷺ بمكة ثم أُمر بالهجرة، فأنزل اللهُ تعالى عليه: (وَقُل رَّبِّ) الآية. وبدأ بالإدخال لأنَّه الأهمّ.

وأَخرج ابن جَريرٍ[(٢)] وابنُ أبي حاتم عن ابن عباسٍ أنَّه الإدخالُ في القبر والإخراجُ منه. وأيِّد بذِكره بعد البعث.

(١) مسند أحمد (١٩٤٨)، والمعجم الكبير (١٢٦١٨)، وجامع الترمذي (٣١٣٩)، والمستدرك ٣/٣.

(٢) في تفسيره ١٥/٥٦.

وقيل: إدخالُ مكةَ ظاهراً عليها بالفتح وإخراجُه ﷺ منها آمناً من المشركين.

وقيل: إخراجُه من المدينة وإدخالُ مكةَ بالفتح.

وقال محمد بنُ المنكدر: إدخالُه الغارَ وإخراجُه منه.

وقيل: الإدخالُ في الجنة والإخراجُ من مكَّة.

وقيل: الإدخالُ في الصلاة والإخراجُ منها.

وقيل: الإدخالُ في المأمورات والإخراجُ عن المنهيَّات.

وقيل: الإدخالُ فيما حمله ﷺ من أعباء النبوَّة وأداءِ الشرع، وإخراجُه منه مؤدِّياً لِمَا كلَّفه من غيرِ تفريط.

وقيل: الإدخالُ في بحار التوحيدِ والتنزيه، والإخراجُ من الاشتغال بالدَّليل إلى معرفةِ المدلول، والتأمُّلِ في الآثار إلى الاستغراقِ في معرفة الواحدِ القهَّار.

وقيل وقيل، والأظهرُ أنَّ المراد إدخالُه عليه الصلاة والسلام في كلِّ ما يدخل فيه ويلابسه من مكانٍ أو أمر، وإخراجُه منه، فيكون عامًّا في جميع المواردِ والمصادر، واستظهر ذلك أبو حيَّان[1]، وفي «الكشف» أنَّه الوجهُ الموافقُ لظاهر اللفظ، والمطابقُ لمقتضَى النَّظم، فسابقُه ولاحقُه لا يختصَّان بمكانٍ دون آخَر، وكفاك قولُه تعالى: «واجعل لي» إلخ شاهدَ صدقٍ على إيثاره.

وقرأ قتادةُ وأبو حيوةَ وحميدٌ وإبراهيمُ بن أبي عبلة: «مَدخَلَ» و«مَخرَجَ» بفتح الميمِ فيهما[2]، قال صاحبُ «اللوامح»: وهما مصدران مِن: دَخَلَ وخَرَجَ، لكنَّهما جاءا من معنى: «أَدخِلني» و«أَخرجني» السابقَين دونَ لفظِهما، ومثلُ ذلك: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] ويجوز أن يكونا اسمَي مكانٍ وانتصابُهما على الظرفية.

وقال غيرُه من المحقِّقين: هما مصدرانِ منصوبان على تقدير فِعلَين ثلاثيين؛ إذ مصدرُ المزيدين مضمومُ الميم كما في القراءة المتواترة، أي: أَدخِلني فأَدْخُلَ مَدخَلَ صدقٍ وأَخرجني فأَخْرُجَ مَخرجَ صدق.

---

(١) في البحر ٦/ ٧٣.

(٢) البحر ٦/ ٧٣، وانظر القراءات الشاذة ص٧٧.

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ أي: حجّةً تنصرني على مَن خالفني، وهو مرادُ مجاهدٍ بقوله: حجّةً بيِّنة. وفي روايةٍ أخرى عنه أنّه كتابٌ يحوي الحدودَ والأحكام. وعن الحسن أنّه أُريد التسلُّط على الكافرين بالسَّيف، وعلى المنافقين بإقامة الحدود. وقريبٌ ما قيل أنَّ المراد قهراً وعزًّا تنصر به الإسلامَ على غيره. وزعم بعضُهم أنّه فتحُ مكة.

وقيل: السلطان: أحدُ السلاطينِ الملوك. فكأنَّ المرادَ الدعاءُ بأن يكونَ في كلِّ عصرٍ مَلِكٌ ينصر دينَ اللهِ تعالى؛ قيل: وهو ظاهرُ ما أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» والحاكمُ[1] وصحَّحه عن قتادةَ قال: أخرجه اللهُ تعالى من مكة مُخرجَ صدق وأدخله المدينةَ مُدخلَ صِدق، وعَلِمَ نبيُّ اللهِ أنَّه لا طاقةَ له بهذا الأمرِ إلَّا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب اللهِ تعالى وحدودِه وفرائِضه، فإنَّ السلطانَ عزَّةٌ من الله عزَّ وجلَّ جعلها بين أَظهُر عبادِه، لولا ذلك، لأغار بعضُهم على بعضٍ وأكل شديدُهم ضعيفَهم. وفيه نظر.

وفعيلٌ على سائر الأَوجُه مبالغةٌ في فاعل. وجوِّز أن يكونَ في بعضها بمعنى مفعول.

والحقُّ أنَّ المرادَ من السُّلطان كلُّ ما يُفيده الغلبةَ على أعداء اللهِ تعالى، وظهورَ دينه جلَّ شأنُه. ووصفُه بـ «نصيراً» للمبالغة.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ الإسلامُ والدِّين الثابتُ الراسخ. والجملةُ عطفٌ على جملة «قل» أوّلاً، واحتمالُ أنّها من مقول القولِ الأوّل لِمَا فيها من الدَّلالة على الاستجابة في غاية البُعد.

﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: زال واضمحلّ، ولم يَثبت الشِّركُ والكفرُ وتسويلاتُ الشيطان، مِن: زَهقَت نفْسُه، إذا خرجت من الأسف.

وعن قتادةَ أنَّ الحقَّ القرآن، والباطلَ الشيطان. وعن ابن جُريج أنَّ الأولَ الجهاد، والثاني الشِّرك. وعن مقاتلٍ: الحقُّ عبادةُ اللهِ تعالى، والباطلُ عبادةُ الشيطان. وهذا قريبٌ ممَّا ذكرنا.

---

(١) دلائل النبوة ٢/ ٥١٧، والمستدرك ٣/ ٣، وسكت عنه الحاكم والذهبي.

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ﴾ كائناً ما كان ﴿كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ مضمحلًّا غيرَ ثابتٍ الآن، أو فيما بعد، أو مطلقاً؛ لكونه كأن لم يكن. وصيغةُ فَعول للمبالغة.

أَخرج الشيخان(١) وجماعةٌ عن ابن مسعودٍ قال: دخل النبيُّ ﷺ مكةَ وحولَ البيتِ ستُّون وثلاثُ مئة نُصُب، فجعل يطعنها بعودٍ في يده ويقول: «﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾» [سبأ: ٤٩]. وفي رواية الطبرانيِّ في «الصغير» والبيهقيِّ في «الدلائل» عن ابن عباسٍ أنَّه ﷺ جاء ومعه قضيب، فجعل يَهوي به إلى كلِّ صنمٍ منها، فيَخرُّ لوجهه، فيقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ حتى مرَّ عليها كلِّها(٢).

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما هو في تقويم دينهم واستصلاحِ نفوسهم كالدَّواء الشافي للمرضى.

و«من» للبيان، وقدِّم اهتماماً بشأنه ـ وأنكر أبو حيَّان(٣) جوازَ التقديم، واختار هنا كونَ «مِن» لابتداءِ الغاية، وهو إنكارٌ غيرُ مسموع ـ فيفيد أنَّ كلَّ القرآنِ كذلك، وفي الخبر: «مَن لم يستشفِ بالقرآن، فلا شفاه اللهُ تعالى»(٤).

أو للتبعيض، ومعناه ـ على ما في «الكشف» ـ: وننزِّل ما هو شفاء، أي: تدرَّج في نزوله شفاءً فشفاء. وليس معناه أنَّه منقسمٌ إلى ما هو شفاءٌ وليس بشفاءٍ والمنزَّلُ الأوَّل، كما وهم الحوفيُّ فأنكر جوازَ إرادةِ التبعيض، وإنَّما المعنى أنَّ ما لم ينزل بعدُ ليس بشفاءٍ للمؤمنين؛ لعدم الاطِّلاع، وأنَّ كلَّ ما ينزل فهو شفاءٌ لداء خاصٍّ، يتجدَّد نزولُ الشفاءِ كِفاءَ تجدُّدِ الداء. وفيه أيضاً أنَّ هذا الوجهَ أوفقُ لمقتضَى المقام. ولا يخفَى عليك بُعده؛ ولذا اختير في توجيه التبعيضِ أنَّه باعتبار الشفاءِ الجسماني، وهو من خواصِّ بعضٍ دونَ بعض.

---

(١) صحيح البخاري (٤٢٨٧)، وصحيح مسلم (١٧٨١).

(٢) المعجم الصغير (١١٥٢)، والدلائل ٥/ ٧١-٧٢.

(٣) في البحر ٦/ ٧٤.

(٤) عزاه في كنز العمال (٢٨١٠٦) إلى الدارقطني في الأفراد من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه الثعلبي من حديث رجاء الغنوي مرفوعاً، كما في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص ١٠٢، وفي إسناده أحمد بن الحارث الغساني وهو متروك. وفي الاستيعاب ٣/ ٢٦٦: رجاء الغنوي لا يصح حديثه، ولا تصح له صحبة.

ومن البعض الأوَّلِ الفاتحة، وفيها آثارٌ مشهورة، وآياتُ الشِّفاء، وهي ستّ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩] ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال السُّبكي: وقد جرَّبت كثيراً، وعن القشيريِّ أنَّه مرض له ولدٌ أَيِس من حياته، فرأى اللهَ تعالى في منامه، فشكى له سبحانَه ذلك، فقال له: اِجمَع آياتِ الشِّفاء واقرأها عليه، أو اكتُبها في إناءٍ واسقِه فيه ما محيت به، ففعل، فشفاه اللهُ تعالى. والأطبَّاء معترفون بأنَّ من الأُمور والرُّقى ما يَشفي بخاصِّية روحانية، كما فصَّله الأَندلسيُّ في «مفرَداته» وكذا دوادُ في الجلدِ الثاني من «تذكرته»[(١)]، ومَن ينكِر لا يُعبأ به.

نعم اختلف العلماءُ في جواز نحوِ ما صنعه القشيريُّ عن الرؤيا، وهو نوعٌ من النُّشرة، وعرَّفوها بأنَّها أن يُكتبَ شيءٌ من أسماء اللهِ تعالى أو من القرآن، ثم يُغسل بالماء، ثم يُمسح به المريضُ أو يسقاه. فمنع ذلك الحسنُ والنخعيُّ ومجاهد، وروى أبو داودَ[(٢)] من حديث جابرٍ أنَّ النبيَّ ﷺ سئل عن النُّشرة فقال: «هي من عملِ الشَّيطان».

وأجاز ذلك ابنُ المسيَّب. والنشرةُ التي قال فيها ﷺ ما قال هي النشرةُ التي كانت تُفعل في الجاهلية، وهي أَنواع، منها ما يفعله أهلُ التعزيمِ في غالب الأعصارِ من قراءة أشياءَ غيرِ معلومةِ المعنى ولم تثبتْ في السُّنَّة، أو كتابتِها وتعليقها، أو سقيِها.

وقال مالك: لا بأسَ بتعليق الكتبِ التي فيها أسماءُ اللهِ تعالى على أَعناق المرضَى على وجه التبرُّك بها إذا لم يُرِد معلِّقها بذلك مدافعةَ العين. وعنى بذلك أنَّه

(١) تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب، لداود بن عمر الأنطاكي، الحكيم الطبيب المشهور، نزيل القاهرة، المتوفى سنة (١٠٠٨ أو ١٠٠٥ أو ٩٨٩ أو ١٠١١ هـ). شذرات الذهب ٨/ ٤١٥، وخلاصة الأثر ٢/ ١٤٠، وكشف الظنون ١/ ٣٨٦.

(٢) في سننه (٣٨٦٨).

لا بأسَ بالتعليق بعد نزول البلاءِ رجاءَ الفَرَج والبُرء، كالرُّقى التي وردت السنةُ بها من العين، وأما قبلَ النزولِ ففيه بأس. وهو غريب.

وعند ابنِ المسيَّب يجوز تعليقُ العُوْذةِ من كتاب اللهِ تعالى في قصبةٍ ونحوِها، وتوضع عند الجِماع وعند الغائط، ولم يقيِّد بقَبل أو بَعد.

ورخَّص الباقرُ في العُوذة تُعلَّق على الصِّبيان مطلقاً.

وكان ابنُ سِيرين لا يرى بأساً بالشيءِ من القرآن يعلِّقه الإنسانُ كبيراً أو صغيراً مطلقاً، وهو الذي عليه الناسُ قديماً وحديثاً في سائر الأمصار.

لكن توجيه التبعيضِ بما ذُكر لا يساعده قولُه سبحانه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ أي: لا يزيد القرآنُ كلُّه أو كلُّ بعضٍ منه الكافرين المكذِّبين به الواضعين للأشياءِ في غير موضِعها ـ مع كونه في نفسه شفاءً لما في الصُّدور من أَدواء الرَّيب وأسقامِ الأوهام ـ إلَّا خساراً، أي: هلاكاً بكفرهم وتكذيبِهم. وزيادتُهم من حيث إنَّهم كلَّما جدَّدوا الكفرَ والتكذيبَ بالآية النازلةِ تدريجاً، ازدادوا بذلك هلاكاً.

وفسَّر بعضُهم الخسارَ بالنقصان، ورجَّح أبو السُّعودِ[1] الأوَّلَ بأنَّ ما بهم من داءِ الكفر والضَّلال حقيقٌ بأن يعبَّرَ عنه بالهلاك، لا بالنقصان المُنبِئِ عن حصول بعضِ مبادئ الإسلام فيهم. وفيه ـ كما قال ـ إيماءٌ إلى أنَّ ما بالمؤمنين من الشُّبه والشكوكِ المعتريةِ لهم في أثناء الاهتداءِ والاسترشادِ بمنزلة الأمراض، وما بالكَفَرة من الجهل والعنادِ بمنزلة الموتِ والهلاك.

وإسنادُ الزيادةِ المذكورةِ إلى القرآن مع أنَّهم المزدادون في ذلك؛ لسوءِ صنيعهم باعتبار كونِه سبباً لذلك، وفيه تعجيبٌ من أمره من حيث كونُه مداراً للشِّفاء والهلاك:

كماءٍ صار في الأَصداف دُرًّا ... وفي ثغر الأفاعي صار سُمّا

هذا وربَّما يقال: إنَّ انقسامَ القرآنِ إلى ما هو شفاءٌ من أدواء الرَّيب وأَسقامِ الوهمِ وإلى ما ليس كذلك ممَّا لا ينبغي أن يكونَ فيه ريب؛ لأنَّ الشافيَ من أدواء الرَّيبِ إنَّما هو الأدلَّة، كالآيات الدالَّةِ على بطلان الشِّرك وثبوتِ الوحدانيةِ له

(١) في إرشاد العقل السليم ٥/ ١٩١.

تعالى، وكالآيات الدالَّةِ على إمكان الحشرِ الجسمانيّ، وليس كلُّ آياتِ القرآنِ كذلك، فإنّ منه ما هو أمرٌ بصلاة وصوم وزكاة، ومنه ما هو نهيٌ عن قتلٍ وزنًى وسرقة، ونحو ذلك، وهو لا يُشفَى به أدواءُ الريبِ وأسقامُ الوهم، وكذا آياتُ القَصَص، نَعَم فيما ذكر نفعُ غيرِ الشفاءِ من تلك الأدواء، فهو رحمة، وحينئذٍ يقال: في الآية حذف، أي: ننزِّل من القرآنِ ما هو شفاءٌ وما هو رحمة، على معنى: ننزِّل من القرآن آياتٍ هي شفاءٌ وآياتٍ هي رحمة.

وفيه أنَّ الريبَ غيرُ مختصٍّ فيما يتعلَّق بالله عزَّ وجلَّ وبإمكان الحشر، بل يكون أيضاً في الرِّسالة وصِدقِه ﷺ في دعواها، وما من آيةٍ في القرآن إلَّا وهي مستقلَّة أو لها دخلٌ في الشِّفاء من ذلك الداء؛ لِمَا فيها من الإعجاز، وكذا ما مِن آيةٍ إلَّا وفيها نفعٌ من جهة أخرى، فكلُّ آيةٍ رحمة، كما أنَّ كلَّها شفاء، لكن كونُه رحمةً بالنسبة إلى كلِّ واحدٍ واحدٍ من المؤمنين، إذ كلُّ مؤمنٍ ينتفع به نوعاً من الانتفاع، وكونُه شفاءً بالفعل بالنِّسبة إلى مَن عرض له شيءٌ من أدواء الرِّيبِ وأَسقام الوهم، وليس كلُّ المؤمنين كذلك، والقولُ بأنَّ كلًّا كذلك في أوَّل الإيمانِ غيرُ مسلَّم، ولا يُحتاج إليه كما لا يخفَى.

والإمامُ[1] عمَّم شفائيَّته، وقد أَحسن فقال: هو شفاءٌ للأمراض الرُّوحانية، وهي نوعان: اعتقاداتٌ باطلة، وأخلاقٌ مذمومة؛ فلاشتماله على الدَّلائل الحقَّة الكاشفةِ عن المذاهب الباطلةِ في الإلهيات والنبوَّات والمعادِ والقضاءِ والقَدَر المبيِّنةِ لبطلانها، يَشفي عن النوع الأوَّلِ من الأمراض، ولاشتماله على تفاصيل الأَخلاقِ المذمومةِ، وتعريفِ ما فيها من المفاسد، والإرشادِ إلى الأَخلاق الفاضلةِ والأعمالِ المحمودة، يَشفي عن النوع الآخَر، والشفاءُ إشارةٌ إلى التخلية، والرَّحمةُ إشارةٌ إلى التحلية، ولأنَّ الأُولى أهمُّ من الثانية قدَّم الشفاءَ على الرَّحمة، فتأمَّل واللهُ تعالى الموفِّق.

وقرأ البصريَّان: «نُنْزِلُ» بالنُّون والتخفيف[2]. وقرأ مجاهدٌ بالياء والتخفيف، ورواها المروزيُّ عن حفص[3]. وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «شفاءً ورحمةً» بنصبهما.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٤.

(٢) التيسير ص٧٥، والنشر ٢/ ٢١٨، ٣٠٨.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٧٤.

قال أبو حيَّان(١): ويتخرَّج ذلك على أنَّهما حالان، والخبرُ «للمؤمنين»، والعاملُ في الحال ما في الجارِّ والمجرورِ من الفعل، ونظيرُ ذلك: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] في قراءة نصب: «مطويات»(٢) وقولُ الشاعر(٣):

رهطُ ابنِ كوزٍ محقبي أدراعِهم ... فيهم ورهطُ ربيعةَ بنِ حُذارِ

ثم قال: وتقديمُ الحالِ على العاملِ فيه من الظرفِ لا يجوز إلَّا عند الأخفش، ومَن منع جَعَلَه منصوباً على إضمار أعني.

وأنت تعلم أنَّ مَن يجوِّز مجيءَ الحالِ من المبتدأ لا يحتاج إلى ذلك.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا﴾ بالصِّحة والسَّعة ونحوِهما ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: جنسِه، فيكفي في صحَّة الحكم وجودُه في بعض الأفراد، ولا يضرُّ وجودُ نقيضِه في البعض الآخَر. وقيل: المرادُ به الوليدُ بن المغيرة ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ذِكرنا كأنَّه مستغنٍ عنا، فضلاً عن القيامِ بمواجب شكرِنا ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ لوى عِطفَه عن طاعتنا وولَّاها ظهره.

وأصلُ معنى النأيِ البُعد، وهو تأكيدٌ للإعراض بتصوير صورتِه، فهو أَوفَى بتأدية المرادِ منه، ومِثلُه يجوز عَطفُه لإيهام المغايرةِ بينهما، وهو أبلغُ من ترك العطفِ على ما بيِّن في محلِّه. على أنَّ ما ذكره أهلُ المعاني من أنَّ التأكيدَ يتعيَّن فيه تركُ العطفِ لكمال الاتصالِ غيرُ مسلَّم، والجانبُ على ظاهره، والمراد: تَرْكُ ذلك، ويجوز أن يكونَ كنايةً عن الاستكبار؛ فإنَّ ثَنْيَ العِطف من أفعال المستكبرين، ولا يَبعد أن يرادَ بالجانب النَّفْس، كما يقال: جاء من جانبِ فلانٍ كذا، أي: منه، وهو كنايةٌ أيضاً، كما يعبَّر بالمقام والمجلسِ عن صاحبه.

وقرأ ابنُ عامرٍ برواية ابنِ ذَكوان: «وناءَ» هنا وفي «فُصِّلت»(٤) فقيل: ذلك من باب القلبِ ووضعِ العين محلَّ اللام، كراء ورأى. وقيل: لا قلبَ، وناء بمعنى نهض، كما في قوله:

---

(١) في البحر ٦/ ٧٤، وما قبله منه.
(٢) هي قراءة عيسى بن عمر كما في القراءات الشاذة ص١٣١.
(٣) هو النابغة الذبياني، والبيت في ديوانه ص٥٩.
(٤) التيسير ص١٤١، والنشر ٢/ ٣٠٨.

حتى إذا ما التأمت مفاصلُهْ وناءَ في شِقِّ الشِّمالِ كاهلُهْ[1]

أي: نهض متوكِّئاً على شِماله، وفسِّر نهض هنا بأسرع، والكلامُ على تقديرِ مضاف، أي: أسرعَ بصرف جانبِه. وقيل: معناه: تثاقَل عن أداء الشكرِ فعلَ المُعرِض.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من مرضٍ أو فقرٍ أو نازلةٍ من النوازل ﴿كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ شديدَ اليأسِ من رحمتنا؛ لأنَّه لم يُحسِن معاملتَنا في الرَّخاء حتى يرجو فضلَنا في الشدَّة.

وفي إسناد المساسِ إلى الشرِّ بعد إسناد الإنعام إلى ضميره تعالى إيذانٌ بأنَّ الخيرَ مرادٌ بالذات، والشرَّ ليس كذلك؛ لأنَّ ذلك هو الذي يقتضيه الكرمُ المطلقُ والرحمةُ الواسعة، وإلى ذلك الإشارةُ بقوله: ﷺ: «اللهمَّ إنَّ الخيرَ بيديك، والشرَّ ليس إليك»[2].

وللفلاسفة ومَن يحذو حذوَهم في ذلك بحثٌ طويلٌ لا بأسَ بالاطِّلاع عليه؛ ليؤخَذَ منه ما صفا ويتركَ منه ما كدر، قالوا: إنَّ الأوَّل تعالى تامُّ القدرةِ والحكمةِ والعلم، كاملٌ في جميع أفاعيلِه، لا يتصوَّر بخلُه بإفاضة الخيرات، وليس الداعي له لذلك إلَّا علمُه بوجوه الخيرِ ومصالح الغيرِ الذي هو عينُ ذاتِه، كسائر صفاتِه، وأمَّا النقائصُ والشرورُ الواقعةُ في ضربٍ من الممكنات وعدمُ وصولِها إلى كمالها المتصوَّرِ في حقِّها، فهي لقصور قابلياتِها ونقصِ استعداداتها، لا من بخل الحقِّ تعالى مجدُه عن ذلك. وقصورُ القابليةِ ينتهي في الآخرة إلى لوازم الماهياتِ الإمكانيةِ ومنبعُها الإمكان.

وتحقيقُ ذلك أنَّ الشرَّ يُطلَق عرفاً على معنَيين:

أحدُهما ما هو عدم، كالفقر والجهلِ البسيط، وهذا على ضربين:

الأوَّل: عدمٌ محضٌ ليس بإزاء الوجودِ الذي يطلبه طباعُ الشيء، ولا ما يمكن حصولُه له من الكمالاتِ والخيرات، كقصور الممكنِ عن الوجود الواجبيِّ

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٤٠ قال: وقد أنشدني بعض العرب... ثم ذكره، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٨٠، واللسان (نوأ)، والبحر ٦/ ٧٥، والدر المصون ٧/ ٤٠٤.

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٣)، ومسلم (٧٧١): (٢٠١) من حديث علي ﷺ، وسلف ٩/ ٤٨٠.

والوجوبِ الذاتيّ، وقصورِ بعضِ الممكنات عن بعض، كقصور الأجسامِ عن النفوس، فالخيرُ الذي يقابل هذا منحصرٌ في الواجب تعالى؛ إذ له الكمالُ المطلقُ والوجودُ الحقُّ بلا جهةِ إمكانيةٍ بوجه من الوجوه، وما عداه من المهيّآت المعروضةِ للوجود لا يخلو من شَوب شَرِّيَّةٍ ما وظلمةٍ ما، على تفاوتِ إمكاناتهم حَسَبَ تفاوتِ طبقاتهم في البعد عن يَنبوع الوجود، ومطلعِ نورِ الخيرِ والجود، وهذا الشرُّ منبعه الإِمكانُ الذاتي.

والثاني: ما يكون عدمَ ما يطلبه الشيء، أو ما يمكن حصولُه له من الكمالات، ولا يتصوَّر هذا في غير الماديّات، إذ الإبداعياتُ يكون وجودُها على أكملِ ما يتصوَّر في حقِّها، فلا يكون لها شرِّيةٌ بهذا المعنى، وما عداها من المتعلِّقة بالمادَّة لا تخلو من شرِّية، على تفاوت إمكاناتها الاستعداديةِ بحسَب تفاوتِ مراتبها في التعلُّق بالهيولى، وهذا الشرُّ منبعُه الهيولَى، ومنبعُها الإِمكان؛ إذ لولاه ما صدرت من مصدرها، فآلَ الشرُّ إلى الإِمكان كما سمعتَ أولاً.

وثانيهما: ما يمنع الشيءَ عن الوصولِ إلى الخير الممكنِ في حقِّه من الوجود أو كمالِ الوجود، كالبرد والحرِّ المفسدَين للثِّمار، والمطرِ المانعِ للقصَّار عن تبييض الثِّياب، والأخلاقِ الذميمةِ المانعةِ للنفْس عن وصولها إلى كمالها العقليّ، كالبخل، والإسراف، والجهل المركَّب، والسَّفاهة، والأفعالِ الذميمة، كالزِّنى والسرقةِ والنميمة، وأَشباهِ ذلك من الآلام والغموم، وغيرِ ذلك من الأشياءِ الوجودية، لكن يَتْبعها إعدام.

وإطلاق الشرِّ عندهم على المعنى الأوَّلِ حقيقةٌ، وعلى الثاني مجاز؛ لأنَّ الشرَّ الحقيقيَّ لا ذاتَ له، بل هو إما عدمُ ذات، أو عدمُ كمالٍ لذات، والبرهانُ عليه أنَّه لو كان أمراً وجوديًّا، فلا يخلو: إمَّا أن يكونَ شرًّا لنفسه، أو لغيره، والأوَّل باطل، وإلَّا لَمَا وُجد؛ إذ الشيءُ لا يقتضي لذاته عدمَه أو عدمَ كماله، كيف وجميعُ الأشياءِ طالبةٌ لكمالاتها لا مقتضيةٌ لعدمها، مع أنَّه لو اقتضَى كان الشرُّ ذلك العدمَ لا نفسَه، وكذا الثاني؛ لأنَّ كونه لغيره إمَّا لأنَّه لعدمِ ذلك الغير، أو لأنَّه لعدم بعضِ كمالاته، فإنه لو لم يكن معدِماً لشيءٍ أصلاً، لا لوجوده ولا لكمال وجودِه، لم يكن شرًّا لذلك الشيء، ضرورةَ أنَّ كلَّ ما لا يوجِب عدمَ شيءٍ ولا عدمَ كمالٍ له لا يكون

شرًّا له، فإذن ليس الشرُّ إلَّا عدمَ ذلك الشيءِ أو عدمَ كماله، لا نفسَ الأمرِ الوجوديِّ المعدم، بل هو في ذاته من الكمالات النفسانيةِ أو الجسمانية، كالظُّلم فإنَّه وإن كان شرًّا بالقياس إلى المظلوم وإلى النَّفْس الناطقةِ التي كمالُها في تسخير قُواها وكسرِها، لكنَّه خيرٌ بالقياس إلى القوَّة الغَضَبية التي كمالُها بالانتقام، وكذا الإحراقُ كمالٌ للنار، وشرٌّ لمن يتضرَّر به، فعُلِم أنَّ الشرَّ إمَّا عدمُ ذاتٍ أو عدمُ كمالٍ لها، فالوجودُ من حيث إنَّه وجودٌ خيرٌ محض، والعدمُ من حيث إنَّه عدمٌ شرٌّ محض.

ثم إنَّك قد علمتَ أنَّ الشرَّ الذي هو بمعنى العدمِ منه ما هو من لوازم الماهياتِ التي لا علَّةَ لها، ومنه ما لا يكونُ من هذا القبيل، بل قد يَلحق الماهياتِ لا من ذاتها، فلا بدَّ له من علَّة، والكلامُ ليس في الأوَّل الذي لا لِمِيَّة له، إذ قد تقرَّر أنَّه ليس للماهيَّات في كونها ممكنةً ولا في حاجتها إلى علَّة لوجودها عِلَّةٌ، ولا لقصور الممكنِ عن الواجب بذاته ولا لتفاوت مراتبِ هذا النقصانِ في الماهيات عِلَّة، بل إنَّما ذلك لاختلاف الماهياتِ في حدود ذاتِها، لا لأمرٍ خارجٍ عنها، كيف ولو كان النقصُ في جميعها متشابهاً لكانت الماهياتُ ماهيةً واحدة، بل الكلامُ في الثاني، وهو عدمُ ما هو من الأمور الزائدةِ على مقتضى النوع، كالجهل بالفلسفة للإنسان مثلاً، فإنَّ ذلك ليس شرًّا له لأَجل كونِه إنساناً، بل لأجل أنَّه فقدٌ لما اقتضاه شخصٌ مستعدٌّ له مشتاقٌ إليه، من حيث إنَّه وُجد فيه هذا الاستحقاقُ والاشتياقُ الذي لا صلاحَ في أن يَعمّ.

وهذا الشرُّ إنَّما يوجد في الأشياءِ على سبيل النَّدرة، فكلُّ ما وجد فهو خيرٌ محض، أو خيرُه أكثرُ من شرِّه، وأمَّا ما يكون شرًّا محضاً، أو مستوليَ الشرِّية، أو متساويَ الطرفين، فممَّا لا وجودَ له أصلاً حتى يُحتاجَ فيه إلى منشئٍ سوى الواجبِ تعالى الذي هو خيرٌ محض لا يوجد منه شرٌّ أصلاً، كما توهَّمه كفرةُ المجوس.

ثم كلُّ ما كان خيراً محضاً، أو كان خيرُه أكثر، يصدر من الواجب بمقتضى أنَّ مِن شأنه إفاضةَ الخير؛ لأنَّ تركَ الأوَّل شرٌّ محض، وتركَ الثاني شرٌّ غالب، وعالَم العناصرِ من القسم الثاني، فإنَّ إيجابَه للشُّرور على الوجهِ النادر، ولا تسوِّغُ عنايةُ المبدعِ ورحمةُ الجَوَاد إهمالَه، وإلَّا لزم خيرٌ كثير لشرٍّ قليل، وهو شرٌّ كثير، على

أنَّها إنَّما تكونُ للنَّفع في أشياءَ لو لم تُخلَق لَخَلُقَ سربالُ الوجود، وقَصُر رداءُ الجود، وبقي في كتم العدمِ عوالمُ كثيرة، ونفائسُ جمَّة غفيرة، فمن هذه الحيثيةِ يكون ذلك الشرُّ القليلِ مقتضياً بالذات، وهي مع ذلك إنَّما توجد تحت كرةِ القمرِ في بعض جوانبِ الأرضِ التي هي حقيرة، بل لاشيءَ بالنِّسبة إلى ما عند ربِّك سبحانه، وتكونُ لبعض الأشخاصِ في بعض الأَوقات، وليست أيضاً شروراً بالنِّسبة إلى نظام الكلّ، فإذا تصوَّرت ذَرَّةُ الشرِّ في أبحر أشعَّةِ شمسِ الخير، لا يضرُّها، بل يزيدها بهاءً وجمالاً، وضياءً وكمالاً، كالشامة السوداءِ على الصُّورة المليحةِ البيضاء، يزيدها حُسناً ومَلاحة، وإشراقاً وصَبَاحة.

ولا يخفى أنَّ هذا إنما يتمُّ على القول بأنَّه تعالى لا يُمكن أن تكونَ إرادتُه متساويةَ النسبةِ إلى الشيءِ ومقابِله بلا داعٍ ومصلحة، كما هو مذهبُ الأشاعرة، وإلَّا فقد يقال: إنَّ الفاعل للكلِّ إذا كانَ مختاراً، فله أن يختارَ أيَّما شاء من الخيرات والشُّرور، لكنَّ الحكماءَ وأساطينَ الإسلامِ قالوا: إنَّ اختيارَه تعالى أرفعُ من هذا النَّمَط، وأمورُ العالَم منوطةٌ بقوانينَ كلِّية، وأفعالُه تعالى مربوطةٌ بحِكَمٍ ومصالحَ جليةٍ وخفية.

وقولُ الإمام: إنَّ الفلاسفةَ لمَّا قالوا بالإيجاب والجبرِ في الأفعال، فخوضُهم في هذا المبحثِ من جملة الفضولِ والضَّلال؛ لأنَّ السؤالَ بلِمَ عن صدورها غيرُ وارد، كصدور الإِحراقِ من النار؛ لأنَّه يَصدر عنها لذاتها= ناشئٌ من التعصُّب؛ لأنَّ محقِّقيهم يُثبتون الاختيار، وليس صدورُ الأفعالِ من الله تعالى عندهم صدورَ الإِحراقِ من النار، وبعد فَرْض التسليم بحثُهم عن كيفية وقوعِ الشرِّ في هذا العالَم لأجل أنَّ الباريَ تبارك اسمُه خيرٌ محضٌ بسيطٌ عندهم، ولا يجوِّزون صدورَ الشرِّ عمَّا لا جهةَ شرِّيةٍ فيه أصلاً فيلزمَ عليهم في بادئ النظرِ إثباتُ ما افترته الثَّنَويةُ من مبدأين: خيريٍّ وشرِّي، فتخلَّصوا عن ذلك بذلك البحث، فهو فضلٌ لا فضول.

وبالجملة ما يصدر عنه تعالى إمَّا ما هو بريءٌ بالكلِّية عن الشرّ، وإمَّا ما يلزمه شرٌّ قليلٌ وفي تركه شرٌّ كثير، ولا يَصدر عنه تعالى ذلك أيضاً في حقِّ شخصٍ إلَّا بعد طلبِ ماهيَّتِه له في نفسها، كما يُشير إليه قولُه تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] إلى غير ذلك من الآيات.

وفي «الإشارات»[١] وشروحِها كلامٌ طويل يتعلَّق بهذا المقام، ولعلَّ فيما ذكرنا كفايةً لذوي الأَفهام.

هذا ثم إنَّه سبحانه بعد أن ذكر حالَ القرآنِ بالنِّسبة إلى المؤمنين وإلى الكافرين وبيَّن حالَ الكافرِ في حالَي الإنعام ومقابِله، ذكر ما يصلح جواباً لمن يقول: لِمَ كان الأمرُ كذلك؟ فقال عزَّ قائلاً: ﴿قُلۡ كُلّٞ﴾ أي: [كل][٢] واحدٍ من المؤمن والكافر، والمعرضِ والمقبِل، والراجي والقانط ﴿يَعۡمَلُ﴾ عملَه ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: على مذهبه وطريقتِه التي تشاكل حالَه وما هو عليه في نفس الأَمر، وتشابهه في الحُسن والقبح، من قولهم: طريقٌ ذو شواكل، أي: طرقٍ تتشعَّب منه، وهو مأخوذٌ من الشَّكل بفتح الشِّين، أي: المِثْل والنظير، ويقال: لستَ من شَكلي ولا شاكلتي، وأما الشِّكل بكسرِ الشينِ فالهيئة، يقال: جاريةٌ حسنةُ الشِّكل، أي: الهيئة، وظاهرُ عبارةِ «القاموس»[٣] أنَّ كلًّا من الشَّكل والشِّكل يُطلَق على المِثل والهيئة.

وهذا التفسيرُ مرويٌّ عن الفرَّاء والزجَّاج[٤]، واختاره الزمخشريُّ[٥] وغيرُه؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَبُّكُمۡ﴾ الذي برأكم متخالفين ﴿أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾ أسدُّ طريقاً وأَبينُ منهاجاً.

وفسَّر مجاهدٌ الشاكلةَ بالطبيعة، على أنَّها مِن: شكلتُ الدابَّة: إذا قيَّدتَها، أي: على طبيعته التي قيَّدته؛ لأنَّ سلطانَ الطبيعةِ على الإنسان ظاهر، وهو ضابطٌ له وقاهر، ورُوي ذلك عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

ومثلُ ذلك في المأخذ تفسيرُ بعضِهم بالعادة، ومن مشهور كلامِهم: العاداتُ قاهرات. وكذا تفسيرُ ابن زيدٍ لها بالدِّين.

وكلا التفسيرَين دون الأوَّلَين. ولعل الدِّين هنا بمعنى الحال، وهو أحدُ معانيه.

---

(١) الإشارات والتنبيهات في المنطق والحكمة، لابن سينا، وهو كتاب صغير الحجم، وله شروح منها: شرح الإمام فخر الدين الرازي، وشرح العلَّامة نصير الدين الطوسي. كشف الظنون ١/ ٩٤.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، ينظر غرائب القرآن للنيسابوري ١٥/ ٧٢، تفسير أبي السعود ٥/ ١٩٢.

(٣) مادة (شكل).

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٠، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥٧.

(٥) في الكشاف ٢/ ٤٦٤.

وجوَّز الإمامُ(١) وغيرُه أن يكونَ المرادُ أنَّ كلَّ أحدٍ يفعل على وَفق ما شاكل جوهرَ نفسِه ومقتضَى روحِه، فإن كانت نفساً مشرقةً حرَّة طاهرةً عُلوية، صدرت عنه أفعالٌ فاضلةٌ كريمة (وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ) وإن كانت نفساً كَدِرة نَذْلةً خبيثةً ظلمانيةً سفلية، صدرت عنه أفعالٌ خسيسةٌ فاسدة ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨] واختار أنَّ النفوسَ الناطقةَ البشريةَ مختلفةُ الماهية، ولذا اختلفت آثارُها. وسيأتي الكلامُ على ذلك إن شاء اللهُ تعالى قريباً.

ولا يَرِد أنَّ خِسَّة الأفعالِ وشرافتَها إذا كانتا تابعتَين لخسَّة النفسِ وشرافتها وهما أمران خَلقيان لا مدخلَ للاختيار فيهما، فعلامَ المدحُ والذمُّ والثوابُ والعقاب؟ لأنَّهم قالوا: إنَّ ذلك لأمرٍ ذاتي، وهو حسنُ استعدادِ النفس في نفسها وسوءُ استعدادِها أيضاً في نفسها، ولا تثاب النفسُ ولا تعاقب إلّا لاستعدادها في الأزل وطلبِها لذلك بلسان حالِها، والمشهورُ إطلاقُ القولِ بأنَّ ذلك غيرُ مجعول، وإنَّما المجعولُ وجودُه وإبرازه على طِبق ما هو عليه في نفسه «فاعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلِق له»(٢) و«من وجد خيراً فليَحمد اللهَ تعالى، ومَن وجد غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلَّا نفسه»(٣). وقال بعض: إنَّه مجعولٌ بالجعل البسيط، على معنى أنَّه أثرُ الفيضِ الأقدس الذي هو مقتضَى ذاته عزَّ وجلَّ بطريق الإيجاب، ويَجري نحوُ هذا في الوجهين الأوَّلين.

وقال(٤) بعض المتأخِّرين من فلاسفة الإسلام المتصدِّين للجمع برأيهم بين الشريعةِ والفلسفة: إنَّ ذات الإنسان بحسَب الفطرةِ الأصليةِ لا تقتضي إلّا الطاعة، واقتضاؤها للمعصية بحسب العوارضِ الغريبةِ الجارية مَجرَى المرضِ والخروجِ عن الحالةِ الطبيعية، فيكون ميلُها للمعصية مثلَ ميلِ منحرفِ المزاج الأصليِّ إلى أكل الطِّين، وقد ثبت في الحِكمة أنَّ الطبيعةَ بسبب عارضٍ غريبٍ تُحدِث في جسم

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٦.
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٨) من حديث علي ﷺ، وسلف ١/ ٤٠٧.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ ﷺ، وسلف ١/ ٣٩٠.
(٤) جاء في هامش الأصل هنا: الملا صدر الدين الشيرازي صاحب الأسفار لا صاحب حواشي شرح التجريد المشهور حاله مع ملا جلال. اهـ منه.

المريضِ مزاجاً خاصًّا يسمَّى مرضاً، فالمرضُ من الطبيعة بتوسُّط العارضِ الغريبِ كما أنَّ الصحَّة منها، وفي الحديث القدسيِّ[١]: «إنِّي خلقتُ عبادي كلَّهم حنفاء، وإنَّهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دِينهم» وفي الأثر[٢]: «كلُّ مولودٍ يولَد على فطرة الإسلام، ثم أبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه» أي: بواسطة الشَّياطين، أو المرادُ بهم ما يعمُّ شياطينَ الإنس والجنّ، أو الشياطينُ كنايةٌ عن العوارض الغريبة، فالخلقُ لو لم يحصل لهم مسٌّ من الشيطان ما عَصَوا، ولَبقُوا على فطرتهم، لكنْ مسَّهم الشيطان ففسدت عليهم فطرتُهم الأَصلية، فاقتضَوا أشياءَ منافيةً لهم مضادَّة لجوهرهم البهيِّ الإلهيِّ من الهيئات الظُّلمانية، ونسُوا أنفسَهم وما جُبلوا عليه:

ولولا المزعجاتُ من الليالي ... لَمَا ترك القطا طيبَ المنامِ[٣]

ولذا احتاجوا إلى رسلٍ يبلِّغونهم آياتِ اللهِ تعالى ويَسنُّون لهم ما يذكِّرهم عهدَ ذواتهم، من نحو الصلاةِ والصيامِ والزَّكاة وصِلة الأَرحام؛ ليعودوا إلى فطرتهم الأصليةِ ومقتضَى ذاتِهم البهية، ويعتدلَ مزاجُهم ويتقوَّمَ اعوجاجُهم؛ ولذا قيل: الأنبياءُ أطبَّاء، وهم أعرفُ بالداءِ والدَّواء. ثم إنَّ ذلك المرضَ الذي عرض لذواتهم والحالةَ المنافيةَ التي قامت بهم، لولا أنْ وجدوا من ذواتهم قَبولاً لعروضهما لهم ورخصةً في لحوقهما بهم، لم يكونا يَعرضان ولا يلحقان، فإذن كان ممَّا تقتضيه ذواتُهم أنْ تلحقَهم أمورٌ منافيةٌ مضادَّة لجواهرهم، فإذا لحقتهم تلك الأُمور، اجتمعت فيها جهتان: الملاءمةُ، والمنافاة، أمَّا كونُها ملائمة؛ فلكون ذواتِهم اقتضتها، وأمَّا كونُها منافية؛ فلأنَّها اقتضتها على أن تكون منافيةً لهم، فلو لم تكن منافية لم يكن ما فُرض مقتضًى لها، بل أمراً آخرَ، وانظر إلى طبيعة التي تقتضي يبوسةً حافظةً لأيِّ شكلٍ كان، حتى صارت ممسكةً للشَّكل القسريِّ المنافي لكرويتها الطبيعيةِ ومنعت عن العودِ إليها، فعروضُ ذلك الشكلِ للأرضية لكونها مقسورةً من وجهٍ ومطبوعةً من وجه، فالإنسانُ عند عروضِ مثل هذا المنافي ملتذٌّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) عن عياض المجاشعي ﷺ، وسلف ٩/ ١٦٦.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨) عن أبي هريرة ﷺ، وسلف ٤/ ٣١٠.

(٣) قطر الندى ص٤٣ دون نسبة.

متألِّم، سعيدٌ شقي، ملتذٌّ ولكنَّ لذَّته ألمُه، سعيدٌ ولكن سعادتَه شقاوتُه، وهذا لَعمرُكَ أمرٌ عجيب، لكنَّه أُوضِح بنمطٍ غريب.

ومَن تأمَّل وأَنصف، ظهر له أنْ لا مخلصَ لكثيرٍ من الشُّبهات في هذا الفصلِ إلَّا بالذَّهاب إلى القولِ بالاستعداد الأزليّ، وأنَّ لكلِّ شيءٍ حالةً في نفسه مع قطع النظرِ عن سائر الاعتبارات، لا يفاض عليه إلَّا هي، لئلَّا يلزمَ انقلابُ العلم جهلاً، وهو من أعظمِ المستحيلات، والإثابةُ والتعذيبُ تابعان لذلك، فسبحانَ الحكيمِ المالك، فتثبَّت، فكم قد زلَّت في هذا المقام أقدامُ أعلام كالأعلام، نسأل اللهَ تعالى أن ينوِّر أفهامَنا، ويثبِّتَ أقدامنا، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله العليِّ العظيم.

ثم اعلمْ أنه رُوي عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ أنَّه قال: لم أرَ في القرآن أَرجَى من هذه الآية، لا يشاكَلُ بالعبد إلَّا العصيان، ولا يشاكل بالربِّ إلَّا الغفران. قال ذلك حين تذاكروا القرآنَ فقال عمر: لم أرَ آيةً أرجَى من التي فيها ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣] قدَّم الغفرانَ قبل قَبولِ التوبة، وقال عثمان: لم أرَ آيةً أرجَى من ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]. وقال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: لم أرَ أرجَى من ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] الآية.

وقيل في الأرجَى غيرُ ذلك، وسيمرُّ عليك إن شاء اللهُ تعالى، لكن ما قاله الصِّدِّيق لا يتأتَّى إلَّا على تقدير أنْ يرادَ: كلُّ أحدٍ مطلقاً يعمل على شاكلته، فافهم.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الظاهرُ عند المُنصِف أنَّ السؤالَ كان عن حقيقة الرُّوح الذي هو مدارُ البدنِ الإنسانيِّ ومبدأُ حياته؛ لأنَّ ذلك من أدقِّ الأمورِ التي لا يسع أحداً إنكارها، ويشرئبُّ كلٌّ إلى معرفتها، وتتوفَّر دواعي العقلاء إليها، وتكلُّ الأذهانُ عنها، ولا تكاد تُعلَم إلَّا بوحي.

وزعم ابنُ القيِّم(١) أنَّ المسؤولَ عنه الروحُ الذي أَخبر الله تعالى عنه في كتابه أنَّه يقوم يومَ القيامةِ مع الملائكة عليهم السلام، قال: لأنَّهم إنَّما يسألونه عليه الصلاة والسلام عن أمرٍ لا يُعرَف إلَّا بالوحي، وذلك هو الروح الذي

(١) في كتاب الروح ص ١٧٨ (طبعة الرسالة).

عند الله تعالى لا يعلمه الناس، وأمَّا أرواحُ بني آدمَ فليست من الغيب، إلى آخرِ ما قال، وقد أطال. وفي «البحور الزاخرة» أنَّ هذا هو الذي عليه أكثرُ السلف بل كلُّهم.

والحقُّ ما ذكرنا، وهو الذي عليه الجمهورُ كما نصَّ عليه في «البحر»[1] وغيره، نَعَم ما زعمه ابنُ القيِّم مرويٌّ عن بعض السَّلف، فقد أخرج عبد بنُ حُميد وأبو الشيخ عن ابن عباس أنَّه قال: الرُّوح خلقٌ من خلق اللهِ تعالى، وصُوَرهم على صورةِ بني آدم، وما ينزل من السماءِ مَلَك إلَّا ومعه واحدٌ من الرُّوح، ثم تلا ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النبأ: ٣٨][2].

وأخرج أبو الشيخ[3] وغيرُه من طريق عطاءٍ عنه ﷺ أنَّه قال في الرُّوح المسؤولِ عنه: هو مَلَكٌ واحدٌ له عشرةُ آلافِ جناح، جناحان منها ما بين المشرقِ والمغربِ، له ألفُ وجه، لكلِّ وجهٍ لسانٌ وعينانِ وشفتان، يسبِّح اللهَ تعالى بذلك إلى يومِ القيامة.

وأخرج هو وغيرُه أيضاً عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّه قال فيه: هو مَلَك من الملائكة له سبعونَ ألفَ وجه، لكلِّ وجهٍ منها سبعونَ ألفَ لسان، لكلِّ لسانٍ منها سبعون ألفَ لغة، يسبِّح اللهَ تعالى بتلك اللغاتِ كلِّها، يخلق اللهُ تعالى من كلِّ تسبيحةٍ مَلَكاً يطير مع الملائكةِ إلى يوم القيامة[4]. وتعقَّب هذا بأنَّه لا يصحُّ عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وطعن الإمامُ[5] في ذلك بما طعن.

وأخرج ابنُ الأنباري في كتاب «الأضداد»[6] عن مجاهدٍ أنَّه قال: الرُّوح خلقٌ من الملائكة عليهم السلام، لا يراهم الملائكة كما لا تَرَون أنتم الملائكة.

---

(١) ٦/ ٧٦.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٠، وهو في كتاب العظمة (٤٠٦) دون قوله: ثم تلا.....
(٣) في العظمة (٤١١).
(٤) العظمة (٤١٠)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٥/ ٧١، وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن علي ﷺ، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا أثر غريب عجيب.
(٥) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٩.
(٦) ص ٤٢٢-٤٢٣.

وأَخرج أَبو الشيخِ[(١)] عن سلمانَ أَنَّه قال: الإنسُ والجنُّ عشرة أَجزاء، فالإنسُ جزءٌ والجنُّ تسعةُ أجزاء، والملائكةُ والجِنُّ عشرةُ أجزاء، فالجنُّ من ذلك جزءٌ والملائكةُ تسعة، والملائكةُ والروحُ عشرة أَجزاء، فالملائكةُ من ذلك جزءٌ والرُّوح تسعةُ أجزاء، والروحُ والكَروبيُّون عشرةُ أجزاء، فالروحُ من ذلك جزءٌ والكروبيون تسعةُ أجزاء.

وقال الحسنُ وقتادة: الروحُ هو جبرائيلُ عليه السلام، وقد سمِّي روحاً في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] والسؤالُ عن كيفية نزولِه وإلقائه الوحيَ إليه عليه الصلاة والسلام.

وقال بعضُهم: هو القرآن، وقد سمِّي روحاً في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقيل غيرُ ذلك.

وزَعَمَ بعضُهم أنَّ السؤالَ عن حدوث الرُّوح بالمعنى الأوَّل وقِدَمه. وليس بشيءٍ كما ستسمعه إنْ شاء الله تعالى.

وضميرُ «يسألون» لليهود؛ فقد أَخرج الشيخان[(٢)] وغيرُهما عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: كنت أَمشي مع النبيِّ ﷺ في خرب المدينةِ وهو متَّكئٌ على عَسيب، فمرَّ بقومٍ من اليهود، فقال بعضُهم لبعض: سلوه عن الرُّوح، وقال بعضُهم: لا تسألوه، فسألوه فقالوا: يا محمدُ ما الرُّوح؟ فما زال متوكِّئاً على العَسيب، فظننت أنَّه يوحَى إليه، فلما نزل الوحيُ قال: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ) الآيةَ.

وقال بعضُهم: لقريش؛ لِمَا أَخرج أَحمد، والنَّسائي، والتِّرمذي، والحاكم، وصحَّحاه، وابنُ حِبّان[(٣)]، وجماعةٌ عن ابن عباسٍ قال: قالت قريشٌ لليهود: أَعطُونا شيئاً نسأل هذا الرجلَ، فقالوا: سلوه عن الرُّوح، فسألوه، فنزلت «ويسألونك...» إلخ.

---

(١) في العظمة (٤٢٢).

(٢) صحيح البخاري (١٢٥) و(٧٤٥٦)، ومسلم (٢٧٩٤).

(٣) مسند أحمد (٢٣٠٩)، والسنن الكبرى (١١٢٥٢)، وجامع الترمذي (٣١٤٠)، والمستدرك ٢/ ٥١٣، وصحيح ابن حبان (٩٩).

وفي السِّيَر عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ قريشاً بعثت النَّضرَ بن الحارث وعُقبةَ بن أبي مُعَيط إلى أحبار يهودَ بالمدينة وقالوا لهم: سلوهم عن محمد[1]؛ فإنَّهم أهلُ كتابٍ عندهم من العلم ما ليس عندنا، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوهم، فقالوا: سلوه عن أَصحاب الكهف، وعن ذي القَرنين، وعن الرُّوح، فإن أَجاب عنها أو سكت فليس بنبيٍّ، وإن أجاب عن بعضٍ وسكت عن بعضٍ فهو نبيٌّ، فجاؤوا وسألوه، فبيَّن لهم ﷺ القضيَّتين وأَبهم أَمرَ الرُّوح وهو مبهَمٌ في التوراة.

والآيةُ على هذا وما قبلَه مكِّية، وعلى خبر الصحيحَين مدنيَّة، وجمع بعضُهم بين ذلك بأنَّ الآيةَ نزلت مرَّتين، فتدبَّر.

وأيًّا ما كان، فوجهُ تعقيبِ ما تقدَّم بها - إنْ فسِّر الروحُ بالقرآن - ظاهرٌ ملائمٌ لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ ولِمَا بعدَه من الامتنانِ عليه وعلى متَّبعيه بحفظه في الصُّدور والبقاء، وكذلك إنْ فسِّر بجبرائيلَ عليه السلام، وأمَّا على قولِ الجمهور، فقد ورد معترضاً دلالةً على خَسار الظالمين وضلالِهم، وأنَّهم مشتغلون عن تدبُّر الكتابِ والانتفاعِ به إلى التعنُّت بسؤال ما اقتضت الحكمةُ سدَّ طريقِ معرفته. ويقال نحوُ هذا على القول المرويِّ عن بعضِ السلف.

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ أَظهرَ في مقام الإضمار إظهاراً لكمال الاعتناءِ ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ كلمةُ «من» تبعيضيَّة، وقيل: بيانية، والأمرُ واحدُ الأمور، بمعنى الشأن، والإضافةُ للاختصاص العلميِّ لا الإيجادي؛ إذ ما من شيءٍ إلَّا وهو مضافٌ إليه عزَّ وجلَّ بهذا المعنى، وفيها من تشريف المضافِ ما لا يخفَى، كما في الإضافة الثانيةِ من تشريفِ المضاف إليه، أي: هي من جِنس ما استأثر اللهُ تعالى بعلمه من الأَسرار الخفيةِ التي لا تكاد تدركها عيونُ عقولِ البشر.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ لا يمكن تعلُّقه بأمثال ذلك. وهذا - على ما قيل - تركٌ للبيان ونهيٌ لهم عن السؤال.

---

(١) في الأصل وم: سلوهم محمداً، والمثبت من السير والمغازي لابن إسحاق ص ٢٠١، وتفسير الطبري ١٥/ ١٤٣، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٧٠، وغيرها.

أخرج ابن إسحاقَ وابن جَريرٍ[١] عن عطاء بن يسارٍ قال: نزلت هذه الآية بمكة، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبارُ يهودَ فقالوا: يامحمد، أَلَم يبلغْنا عنك أنَّك تقول: (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أفعنيتَنا أم قومَك؟ قال: «كلًّا قد عَنَيت» قالوا: فإنَّك تتلو أنَّا أوتينا التوراةَ وفيها تِبيانُ كل شيء، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «هي في علم الله تعالى قليل، وقد آتاكم اللهُ تعالى ما إنْ عملتم به انتفعتم»، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٧-٢٨]. وكأنَّه ﷺ أشار إلى أنَّ المرادَ في الآية: تبياناً لكلِّ شيءٍ من الأُمور الدِّينية، ولا شكَّ أنها أقلُّ قليلٍ بالنِّسبة إلى معلومات اللهِ تعالى التي لا نهايةَ لها، وبهذا يُردُّ على القائلِ بالعموم الحقيقيّ.

وفي رواية النَّسائي، وابن حِبّان، والترمذيِّ، والحاكم، وصحَّحاها: أنَّ اليهودَ قالوا حين نزلت الآية: أُوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومَن أُوتي التوراةَ فقد أُوتي خيراً كثيراً، فأنزل اللهُ تعالى: (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ) الآيةَ[٢].

ولا يخفَى أنَّ هذا أيضاً لا يَلزم منه التناقض؛ لأنَّ الكثرةَ والقلَّة من الأُمور الإضافية، فالشيءُ يكون قليلاً بالنِّسبة إلى ما فوقه وكثيراً بالنِّسبة إلى ما تحته، فما في التوراةِ قليلٌ بالنسبة إلى ما في علم اللهِ تعالى شأنُه، كثيرٌ بالنِّسبة إلى أمرٍ آخر.

وفي روايةٍ أخرجها ابنُ مردويه عن عكرمةَ أنَّه ﷺ لمَّا قال ذلك قال اليهود: نحن مختصُّون بهذا الخطاب؟ فقال: بل نحن وأنتم، فقالوا: ما أعجبَ شأنَك، ساعةً تقول: (وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا) وساعةً تقول هذا، فنزل (وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ) إلخ.

ولا يلزم منه التناقضُ أيضاً على نحو ما تقدَّم، بأن يقال: الحكمةُ الإنسانية أن يعلمَ من الخير ما تسعه القوةُ البشرية، بل ما ينتظم به أمرُ المعاشِ والمعاد، وهو قليلٌ بالنِّسبة إلى معلوماتهِ تعالى، كثيرٌ بالنِّسبة إلى غيرها.

---

(١) في تفسيره ١٥/ ٧٢.
(٢) هو بعض حديث ابن عباس السالف قريباً.

وإلى تعميم الخطابِ بحيث يشمَلُ الناسَ أجمعين ذهب ابنُ جُريج، كما أخرجه عنه ابنُ جَرير وابنُ المنذر[١].

لكن يعكِّر على القولِ بالعموم ظاهرُ قراءةِ ابن مسعودٍ والأعمش: «وما أوتوا»[٢] فإنَّه يقتضي الاختصاصَ بالسائلين، والحديثُ الأخير الذي هو نصٌّ فيه قال العراقي: إنَّه غيرُ صحيح، والحديثُ الأوَّل اللهُ تعالى أعلمُ بحاله.

وقال غيرُ واحد: معنى كونِ الرُّوح من أَمره تعالى أنَّه من الإبداعيَّات الكائنةِ بالأمر التكوينيّ، من غير تحصُّلٍ من مادَّة وتولُّدٍ من أصلٍ كالجسد الإنساني، فالمرادُ من الأمر واحدُ الأوامر، أعني: كن، والسؤالُ عن الحقيقة والجوابُ إجمالي.

ومآلُه أن الرُّوح من عالَم الأمر[٣] مبدَعةٌ من غير مادَّة، لا من عالَم الخلق، وهو من الأُسلوب الحكيم، كجوابِ موسى عليه السلام سؤالَ فرعونَ إياه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] إشارةً إلى أنَّ كُنهَ حقيقتِه ممَّا لا يحيط به دائرةُ إدراكِ البشر، وإنَّما الذي يُعلَم هذا المقدار الإجماليُّ المندرجُ تحت ما استُثني بقوله تعالى: (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) أي: إلَّا علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواسّ، فإنَّ تعقُّل المعارفِ النظريةِ إنَّما هو في الأكثر من إحساسِ الجزئيات؛ ولذلك قيل: مَن فقد حسًّا فقد فقدَ علماً. ولعلَّ أكثر الأشياءِ لا يدركه الحسُّ لكونه غيرَ محسوس، أو محسوساً مَنَعَ من إحساسه مانع، كالغَيبة مثلاً، وكذا لا يُدرِك شيئاً من عَرَضيَّاته ليَرسمَه بها، فضلاً عن أن ينتقلَ منها الفكرُ إلى الذاتيات ليقفَ على الحقيقة، وظاهرُ كلامِ بعضهم أنَّ الوقوفَ على كُنه الروحِ غيرُ ممكن، فلا فرقَ عنده بين الجوابَين.

وفرَّق الخفاجيُّ[٤] بأنَّ بيانَ كنهِ الرُّوح ممكن، بخلاف كنهِ الذاتِ الأقدس.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٧٣ وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٠٠.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٧٦، وانظر حديث الصحيحين السالف.
(٣) في (م): الأرض.
(٤) في حاشيته ٦/ ٥٨.

وفي «الكشف» أنَّ سبيلَ معرفةِ الروح إزالة الغشاءِ عن أَبصار القلوبِ باجتلاء كُحل الجواهرِ من كلام علَّام الغيوب، فهو عند المكتحلين أَجلى جَليّ، وعند المشتغلين أَخفَى خَفيّ.

ويُشكل على هذا ما أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عن عبد اللهِ بن بُريدة قال: لقد قُبض النبيُّ ﷺ وما يَعلم الرُّوح[1].

ولعل عبدَ الله هذا يزعم أنَّها يمتنع العلمُ بها، وإلَّا فلم يُقبَض رسولُ اللهِ ﷺ حتى عَلِمَ كلَّ شيءٍ يمكن العلمُ به، كما يدلُّ عليه ما أَخرجه الإمامُ أحمد، والترمذيُّ - وقال: حديثٌ صحيح، وسأل البخاريَّ عنه فقال: حديثٌ حسنٌ صحيح - عن معاذٍ ﷺ أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «إنِّي قُمت من الليل، فصلَّيت ما قدِّر لي، فنَعَست في صلاتي حتى استثقلت، فإذا أنا بربِّي عزَّ وجلَّ في أَحسنِ صورة، فقال: يا محمد، فيمَ يختصم الملأُ الأعلى؟ قلت: لا أدري ربِّ، قال: يامحمد، فيمَ يختصم الملأ الأعلَى؟ قلت: لا أدري ربِّ، قال: يا محمد، فيمَ يختصم الملأُ الأعلى، قلت: لا أدري ربِّ، فرأيته وضع كفَّه بين كتفَيّ، حتى وجدتُ بَردَ أناملِه بين صدري، وتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرفت...» الحديثَ[2].

ورأيت «يعلم» في الخبر السابقِ في بعض الكتبِ مضبوطاً بالبناءِ للمفعول، مضبوطاً بالرفع، والإشكالُ على ذلك أوهن، إلَّا أنَّه خلافُ الظاهر.

ويُفهَم من كلامِ بعضِ متأخِّري الصوفيةِ أنَّه يمتنع الوقوفُ على حقيقة الرُّوح، بل ذَكَرَ هذا البعضُ أنَّ حقيقةَ جميع الأشياءِ لا يوقَف عليها. وهو مبنيٌّ على مالا يخفَى عليك، وردُّه أو قَبوله مفوَّض إليك.

ثم إنَّ لي في هذا الوجه وقفة، فإنَّ الظاهرَ أن إطلاقَ عالَم الأمرِ على الكائن من غير تحصُّلٍ من مادَّة وتولُّدٍ من أصل، وإطلاقَ عالَم الخلقِ على خلافه، محضُ اصطلاحٍ لا يُعرَف للعرب ولا يعرفونه، وفي الاستدلالِ عليه بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ما لا يخفَى على منصِف.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٠٠.

(٢) مسند أحمد (٢٢١٠٩)، وسنن الترمذي (٣٢٣٥).

هذا وذَكَرَ الإمامُ(١) أنَّ السؤالَ عن الرُّوح يقع على وجوهٍ كثيرة، وليس في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ ما يدلُّ على وجهٍ منها، إلَّا أنَّ الجوابَ المذكورَ لا يليق إلَّا بوجهين منها: الأوَّل: كونُه سؤالاً عن الماهية، والثاني: كونُه سؤالاً عن القِدَم والحدوث.

وحاصلُ الجوابِ على الأوَّل: أنَّها جوهرٌ بسيطٌ مجرَّد محدَث بأمر اللهِ تعالى وتكوينِه وتأثيرِه إفادةَ الحياةِ للجسد، ولا يَلزم من عدم العلمِ بحقيقته المخصوصة [نفيُه] فإنَّ أكثرَ حقائقِ الأشياءِ ماهياتُها مجهولة، ولم يَلزم من كونها مجهولةً نفيُها، ويُشير إليه «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» ومبنَى هذا أيضاً الفرقُ بين عالَم الأمرِ وعالَمِ الخلق، وقد سمعتَ ما فيه.

وحاصلُ الجوابِ على الثاني أنَّه حادثٌ حصل بفعل اللهِ تعالى وتكوينِه وإيجاده، وجَعَلَ قوله تعالى: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» احتجاجاً على الحدوث، بمعنى أنَّ الأرواحَ في مبدأ الفطرةِ تكون خاليةً عن العلومِ والمعارف، ثم يحصلُ فيها ذلك، فلا تزال في تغيُّر من حالٍ إلى حال، وهو من أَمارات الحدوث.

وأنت تعلم أنَّ حملَ السؤالِ على ما ذَكَرَ وجَعْلَ الجوابِ إخباراً بالحدوث مع عدمِ ملاءمته لحالِ السائلين لا يساعده التعرُّض لبيانِ قلَّة عِلمهم، فإنَّ ما سألوا عنه ممَّا يفي به علمُهم حينئذٍ، وقد أَخبر عنه، وجَعْلُ ذلك احتجاجاً على الحدوث من أَعجب الحوادث، كما لا يخفَى على ذي رُوح، واللهُ تعالى أعلم.

وهاهنا أبحاثٌ لا بأسَ بإيرادها: البحثُ الأوَّل في شرح مذاهبِ الناسِ في حقيقة الإنسان، وظاهرُ كلامِ الإمام(٢) أنَّ الاختلافَ في حقيقته عينُ الاختلافِ في حقيقة الرُّوح، وفي القلبِ من ذلك ما فيه، فذهب جمهورُ المتكلِّمين إلى أنَّه عبارةٌ عن هذه البِنية المحسوسةِ، والهيكلِ المجسَّم المحسوس، وهو الذي يُشير إليه الإنسانُ بقوله: أنا.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٧-٣٨، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) في التفسير الكبير ٢١/ ٣٩ فما بعد.

وأبطل ذلك الإمامُ[(١)] بسبعَ عشرةَ حجَّةً نقليةً وعقلية، لكن للبحث في بعضِها مجال، منها ما تقدَّم من أنَّ أجزاءَ البنيةِ متغيِّرة زيادةً ونقصاناً، وذبولاً ونموًّا، والعلم الضروريُّ قاضٍ بأنَّ الإنسانَ من حيث هو أمرٌ باقٍ من أوَّل العُمرِ إلى آخره، وغيرُ الباقي غيرُ الباقي.

ومنها أنَّ الإنسانَ قد يعتريه ما يَشغله عن الالتفات إلى أجزاءِ بنيتِه كلًّا وبعضاً، ولا يغفُل عن نفسه المعيَّنة، بدليل أنَّه يقول مع ذلك الشاغلِ: فعلتُ وتركت، مثلاً، وغيرُ المعلومِ غيرُ المعلوم.

ومنها أنَّه قد توجد البنيةُ المخصوصةُ وحقيقةُ الإنسانِ غيرُ حاصلة، فإنَّ جبريلَ عليه السلام كثيراً ما رُئي في صورة دِحيةَ الكلبي[(٢)]، وإبليسُ عليه اللعنةُ رئي في صورة شيخٍ نجديّ[(٣)]، وقد تنتفي البنيةُ مع بقاءِ حقيقةِ الإنسان، فإن الممسوخ قرداً - مثلاً - باقيةٌ حقيقتُه مع انتفاء البنيةِ المخصوصة، وإلَّا لم يتحقَّق مسخ، بل إماتةٌ لذلك الإنسانِ وخلقُ قرد.

ومنها أنَّه جاءَ في الخبر «أنَّ الميِّت إذا حُمل على النَّعش، رفرف روحُه فوق النعشِ ويقول: يا أهلي ويا ولدي، لا تلعبنَّ بكم الدُّنيا كما لعبت بي، جمعتُ المالَ من حلِّه ومن غير حلِّه، ثم تركته لغيري، فالهناءُ له والتَّبعةُ عليّ، فاحذروا مثل ما حلَّ بي»[(٤)]. فصرَّح ﷺ بأنَّ هناك شيئاً ينادي غيرَ المحمول، كان الأهلُ أهلاً له وكان الجامعَ للمال من الحلالِ والحرام، وليس ذلك إلَّا الإنسان. إلى غير ذلك ممَّا ذكره في تفسيره.

وقيل: إنَّ الإنسانَ هو الرُّوح الذي في القلب.

وقيل: إنَّه جزءٌ لا يتجزَّأ في الدِّماغ.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٤٠-٤٣.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وسلف ٣/ ٤٦.

(٣) أخرجه ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما. سيرة ابن هشام ١/ ٤٨٠، وانظر مصنف عبد الرزاق (٩٧٤٣).

(٤) أورده الرازي في التفسير الكبير ٢١/ ٤١ وهو بنحوه في الزهد لأحمد ص ٢٠٦ عن أم الدرداء قولها.

وقيل: إنَّه أجزاءٌ نارية مختلطةٌ بالأرواح القلبيةِ والدِّماغية، وهي المسمَّاة بالحرارةِ الغريزية.

وقيل: هو الدمُ الحالُّ في البدن.

وقيل وقيل، إلى نحو ألفِ قول، والمعوَّل عليه عند المحقِّقين قولان:

الأول: أنَّ الإنسان عبارةٌ عن جسم نورانيٍّ علويٍّ حيٍّ متحرِّك مخالفٍ بالماهية لهذا الجسمِ المحسوس، سارٍ فيه سريانَ الماءِ في الورد والدُّهنِ في الزيتون والنارِ في الفحم، لا يقبل التحلُّلَ والتبدُّل، والتفرُّقَ والتمزُّق، مفيدٌ للجسم المحسوسِ الحياةَ وتوابعَها مادام صالحاً لقَبول الفيض؛ لعدم حدوث مايمنع من السَّريان، كالأخلاط الغليظة، ومتى حدث ذلك حصل الموت؛ لانقطاع السَّريان، والروحُ عبارةٌ عن ذلك الجسم.

واستحسن هذا الإمامُ[1] فقال: هو مذهب قويٌّ وقولٌ شريف يجب التأمُّل فيه؛ فإنَّه شديد المطابقةِ لما ورد في الكتب الإلهيَّة من أحوال الحياةِ والموت.

وقال ابن القيِّم في كتابه «الرُّوح»: إنَّه الصواب، ولا يصحُّ غيرُه، وعليه دلَّ الكتابُ والسُّنَّة، وإجماعُ الصحابة، وأدلَّةُ العقلِ والفطرة. وذَكَرَ له مئةَ دليلٍ وخمسةَ أدلَّة، فليُراجع[2].

الثاني: أنَّه ليس بجسمٍ ولا جسمانيّ، وهو الرُّوح، وليس بداخل العالَمِ ولا خارجَه، ولا متَّصل به ولا منفصل عنه، ولكنَّه متعلِّق بالبدن تعلُّقَ التدبيرِ والتصرُّف. وهو قولُ أكثرِ الإلهيِّين من الفلاسفة، وذهب إليه جماعةٌ عظيمةٌ من المسلمين، منهم الشيخُ أبو القاسم الراغبُ الأصفهانيُّ، وحجَّة الإسلامِ أبو حامدٍ الغزالي، ومن المعتزلة مُعمَّر بنُ عبَّاد السُّلَمي[3]، ومن الشيعة الشيخُ المفيد، ومن الكرَّامية جماعة، ومن أهل المكاشفةِ والرِّياضة أكثرُهم، وقد قدَّمنا لك الأدلَّةَ على

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ٤٤.

(٢) الروح ص ٢٠٨-٢٢٧، وفيه مئة وستة عشر دليلاً.

(٣) معتزلي من أهل البصرة، ثم سكن بغداد، وناظر النظّام، مات سنة (٢١٥هـ). لسان الميزان ٨/ ١٢٢.

ذلك، ومَن أراد الإحاطةَ بذلك فلْيرجع إلى كتب الشيخَين أبي عليٍّ[(١)] وشهابِ الدِّين المقتول[(٢)]، وإلى كتب الإمامِ الرازيّ، كـ «المباحث المشرقية» وغيرِه، وللشيخ الرئيسِ رسالةٌ مفرَدة في ذلك سمَّاها بـ «الحُجَج الغُرّ»، أحكمُها وأتقنُها ما يُبتنَى على تعقُّل النفس لذاتها، وابنُ القيِّم زيَّف حججَه في كتابه، وهو كتابٌ مفيد جدًّا، يهب للرُّوح روحاً، ويُورِث للصدر شرحاً.

واستدلَّ الإمامُ[(٣)] على ذلك في تفسيره بالآية المذكورةِ فقال: إنَّ الرُّوح لو كان جسماً منتقلاً من حالةٍ إلى حالة ومن صفةٍ إلى صفة، لَكان مساوياً للبدن في كونه متولِّداً من أجسامٍ اتَّصفت بصفاتٍ مخصوصة بعد أن كانت موصوفةً بصفات أُخَر، فإذا سئل رسولُ اللهِ ﷺ عنه، وجب أن يبيِّنَ أنَّه جسمٌ كان كذا ثم صار كذا وكذا حتى صار روحا، مثلَ ما ذَكَرَ في كيفية تولُّد البدنِ أنَّه كان نطفةً ثم علقةً ثم مضغة، فلمَّا لم يقل ذلك وقال: «هو من أمر ربِّي»، بمعنى أنَّه لا يحدثُ ولا يدخل في الوجود إلَّا لأجل أنَّ اللهَ تعالى قال له: كن، فيكون، دلَّ ذلك على أنَّه جوهرٌ ليس من جنس الأَجسام، بل هو جوهرٌ قدسيٌّ مجرَّد.

ولا يخفَى أنَّ ذلك من الإقناعيات الخِطابية، وهي كثيرةٌ في هذا الباب، منها قولُه تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وقولُه سبحانه: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] فإنَّ هذه الإضافةَ مما تنبِّه على شرف الجوهرِ الإنسيّ، وكونِه عرياناً[(٤)] عن الملابس الحِسِّية، ومنها قولُه عليه الصلاة والسلام: «أنا النذيرُ العُريان»[(٥)] ففيه إيماءٌ إلى تجرُّد الروحِ عن علائق الأَجرام، وقولُه ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى خلق آدمَ على صورةِ الرحمن» وفي رواية: «على صورته»[(٦)] وقولُه عليه

---

(١) الظاهر أنه ابن سينا.

(٢) هو السهروردي.

(٣) في التفسير الكبير ٢١/ ٥٢.

(٤) في (م): عريا.

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه مطولاً.

(٦) سلفت الروايتان ٢/ ٩٠-٩١، والثانية في صحيح البخاري (٦٢٢٧)، وصحيح مسلم (٢٦١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الصلاة والسلام[١]: «أَبِيتُ عند ربِّي يُطعمني ويسقيني» ففي ذلك إيذانٌ بشرف الرُّوح، وقُربِه من ربِّه قرباً بالذَّات والصفات، مجرَّداً عن علائق الأجرام وعوائقِ الأجسام، إلى غير ذلك ممَّا لا يُحصَى، وهو على هذا المنوال، وللبحث فيه مجالٌ أيُّ مجال.

وكان ثابتُ بن قُرَّة يقول: إنَّ الروحَ متعلِّق بأجسامٍ سماويَّة نورانيةٍ لطيفة، غيرِ قابلةٍ للكون والفسادِ والتفرُّق والتمزُّق، وتلك الأجسامُ ساريةٌ في البدن، وهي مادامت ساريةً كان الروحُ مدبِّراً للبدن، وإذا انفصلت عنه انقطع التعلُّق. وهو قولٌ ملفَّق، وأنا لا أستبعده.

البحثُ الثاني: في اختلاف الناسِ في حدوث الرُّوح وقِدَمه. أَجمع المسلمون على أنَّه حادثٌ حدوثاً زمانيًّا كسائر أجزاءِ العالَم، إلَّا أنَّهم اختلفوا في أنَّه هل هو حادثٌ قبل البدنِ أم بعده؟ فذهب طائفةٌ إلى الحدوث قبلُ، منهم محمدُ بن نصرٍ المروزيّ، وأبو محمدِ بنُ حزم الظاهريّ، وحكاه إجماعاً وقد افترى، واستدلَّ لذلك بما في الصَّحيحين من حديثِ عائشةَ ﵂ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الأَرواحُ جنودٌ مجنَّدة، فما تعارفَ منها ائتلف، وما تناكرَ منها اختلف»[٢].

قال ابن الجوزيِّ في «تبصرته[٣]»: قال أبو سليمانَ الخطَّابيُّ: معنى هذا الحديثِ الإخبارُ عن كون الأرواحِ مخلوقةً قبل الأجساد، وزعم ابنُ حزمٍ أنَّها في برزخ، وهو منقطعُ العناصر، فإذا استعدَّ جسدٌ لشيءٍ منها هبط إليه، وأنَّها تعود إلى ذلك البرزخِ بعد الوفاة، ولا دليلَ لهذا في كتابٍ أو سنة.

وبعضُهم استدلَّ على ذلك بخبر «خلق اللهُ تعالى الأرواحَ قبل الأجسادِ بألفي عام»[٤] وتعقَّبه ابن القيِّم[٥] بأنه لا يصحُّ إسناده.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٥-١٩٦٦)، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٢) صحيح البخاري (٣٣٣٦)، وهو عند مسلم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٣) ٢/ ٢٩٦.
(٤) أخرجه ابن منده كما في الروح ص ١٨٨، وفي إسناده عطاء بن عجلان الحنفي، وهو متروك. وسلف ١٣/ ٤٦١.
(٥) في كتاب الروح ص ٢٠١.

وذهب آخَرون ـ منهم حجّة الإسلامِ الغزاليّ ـ إلى الحدوث بعدُ. ومن أدلَّة ذلك ـ كما قال ابن القيِّم[١] ـ الحديثُ الصحيح[٢]: «إنَّ خلق ابنِ آدمَ يُجمع في بطن أمِّه أربعين يوماً دماً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسل إليه المَلَكُ فينفخ فيه الرُّوح» ووجهُ الاستدلالِ أنَّ الروحَ لو كان مخلوقاً قبلُ لقيل: ثم يُرسَل إليه المَلَك بالرُّوح فيُدخِله فيه. وصرَّح في «روضة المحبِّين ونزهة المشتاقين»[٣] باختيار هذا القولِ فقال: إنَّ القولَ بأنَّ الأرواحَ خُلقت قبلَ الأجسادِ قولٌ فاسد وخطأٌ صريح، والقولُ الصحيحُ الذي دلَّ عليه الشرعُ والعقلُ أنَّها مخلوقةٌ مع الأَجساد، وأنَّ المَلَك ينفخ الرُّوح ـ أي: يُحدثه بالنَّفخ في الجسد ـ إذا مضى على النطفة أربعةُ أشهُرٍ ودخلت في الخامس، ومَن قال: إنَّها مخلوقةٌ قبل، فقد غلط، وأَقبحُ منه قولُ مَن قال: إنَّها قديمة. انتهى، وفيه تأمُّل. ويوافق مذهبَ الحدوث قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فلْيُفهم.

وذهب أفلاطونُ ومَن تقدَّمه من الفلاسفة إلى قِدَم الرُّوح، وذهب المعلِّم الأولُ إلى حدوثها مع حدوثِ البدن المستعدِّ له، كما ذهب إليه بعضُ الإسلاميين.

وقد تقدَّم الكلامُ في استدلال كلٍّ جرحاً وتعديلاً، ويقال هنا: إنَّ المعلِّم الأولَ قائلٌ ـ كغيره من الفلاسفة ـ بتجرُّد الروحِ المسمَّاة بالنفس الناطقةِ عندهم عن المادَّة، فكيف يسعه القولُ بحدوثها مع قولِهم: كلُّ حادث زمانيٍّ يحتاج إلى مادَّة؟ وأُجيب بأنَّ المادةَ هاهنا أعمُّ من المحلِّ والمتعلَّق به، والبدنُ مادةٌ للنفس بهذا المعنى.

وأنت تعلم أنَّ استعدادَ الشيءِ للشيء لا يكون إلَّا فيما إذا كان ذلك مقترِناً به لا مبايناً عنه، فالأَوْلى أن يقال: إنَّ البدنَ الإنسانيَّ لمَّا استدعى لمزاجه الخاصِّ صورةً مدبِّرة له متصرِّفةً فيه، أي: أمراً موصوفاً بهذه الصفةِ من حيث هو كذلك، وجب على مقتضَى جُودِ الواهبِ الفيَّاض وجودُ أمرٍ يكون مبدأً للتدابير الإِنسية والأفاعيلِ البشرية، ومثلُ هذا الأمرِ لا يمكن إلَّا أن يكونَ ذاتاً مدرِكةً للكلِّيات مجرَّدةً في ذاتها، فلا محالةَ قد فاض عليه حقيقةُ النفسِ لا من حيث إنَّ البدنَ

---

(١) في الروح ص ٢٠٤.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وسلف ٣/ ٣٢٤.

(٣) ص ٧٥، وهو لابن القيم.

استدعاها، بل من حيث عدمُ انفكاكِها عمَّا استدعاه، فالبدنُ استدعى باستعداده الخاصِّ أمراً ماديًا، وجُودُ المبدأ الفيَّاضِ أفاد جوهراً قدسيًا، وكما أنَّ الشيءَ الواحدَ قد يكون على ما قرَّروه ـ جوهراً وعرضاً باعتبارَين، كذلك يكون أمرٌ واحدٌ مجرَّداً وماديًّا باعتبارين، فالنفسُ الإنسانية مجرَّدة ذاتاً ماديةٌ فعلاً، فهي من حيث الفعلُ من التدبيرِ والتحريكِ مسبوقةٌ باستعداد البدنِ مقترنةٌ به، وأمَّا من حيث الذاتُ والحقيقة، فمنشأُ وجودِها وجودُ المبدأ الواهبِ لا غير، فلا يَسبقها من تلك الحيثيةِ استعدادُ البدن، ولا يَلزمها الاقترانُ في وجودها به، ولا يلحقها شيءٌ من مثالب المادِّيات إلَّا بالعَرَض. ويمكن تأويلُ ما نُقل عن أفلاطونَ في بابِ قِدَمِ النَّفْس إلى هذا بوجهٍ لطيف. كذا قاله بعضُ صدورِ المتأخِّرين، فتأمَّله.

البحثُ الثالث: اختلف الناسُ في الرُّوح والنفسِ هل هما شيءٌ واحدٌ أم شيئان؟ فحكى ابنُ زيدٍ عن أكثر العلماءِ أنَّهما شيءٌ واحد، فقد صحَّ في الأخبار إطلاقُ كلٍّ منهما على الآخَر، وما أخرجه البزَّار[1] بسند صحيحٍ عن أبي هريرةَ رَفَعه: «إنَّ المؤمنَ ينزل به الموتُ ويعاينُ ما يعاين يودُّ لو خرجت نفسُه، والله تعالى يحبُّ لقاءه، وإنَّ المؤمنَ تصعد روحُه إلى السماء، فتأتيه أرواحُ المؤمنين فيستخبرونه عن معارفهِ من أَهل الدُّنيا» الحديثَ = ظاهرٌ في ذلك.

وقال ابنُ حبيب: هما شيئان، فالروحُ هو النفسُ المتردِّد في الإنسان، والنفسُ أمرٌ غير ذلك، لها يدانِ ورجلان ورأسٌ وعينان، وهي التي تلتذُّ وتتألَّم وتفرحُ وتحزن، وإنَّها هي التي تتوفَّى في المنام، وتخرجُ وتسرح وترى الرُّؤيا، ويبقى الجسدُ دونها بالرُّوح فقط، لا يلتذُّ ولا يفرح حتى تعود، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ الآية [الزمر: ٤٢].

وحكى ابنُ منده عن بعضهم أنَّ النفس طينيةٌ نارية، والروحَ نوريةٌ روحانيَّة. وعن آخَرَ أنَّ النفسَ ناسوتيّة، والروحَ لاهوتيّة، وذَكَرَ أنَّ أهل الأثرِ على المغايرة، وأنَّ قِوَام النفسِ بالرُّوح، والنفسُ صورةُ العبد، والهوى والشهوةُ والبلاءُ معجونٌ فيها، ولا عدوَّ أعدَى لابن آدمَ من نفسه، لا تريد إلَّا الدنيا ولا تحبُّ إلَّا إياها، والروحُ تدعو إلى الآخرة وتؤثِرُها.

---

(١) في مسنده (٨٧٤ - كشف الأستار) مطولاً.

وظاهرُ كلامِ بعض محقِّقي الصوفيةِ القولُ بالمغايرة، ففي «منتهَى المدارك» للمحقِّق الفرغانيِّ[(١)] أنَّ النفسَ المضافةَ إلى الإنسان عبارةٌ عن بخار ضبابيٍّ منبعثٍ من باطن القلبِ الصَّنَوبري، حاملٍ لقوَّة الحياة، متجنِّسٍ بأثر الرُّوح الروحانيةِ المرادةِ بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] الثابتِ تعيُّنها في عالَم الأرواح، وأثرُها واصلٌ إلى هذا البخارِ الحاملِ للحياة، فالنفسُ إذن أمرٌ مجتمعٌ من البخار ووصفِ الحياة وأثرِ الرُّوح الرُّوحانية، وهذه النفسُ بحكم تجنُّسها بأثر الرُّوح الروحانيةِ متعيِّنةٌ لتدبير البدنِ الإنساني، قابلةٌ لمعالي الأمور وسفاسِفها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنهَا﴾ [الشمس: ٨] والروحُ الروحانيةُ أمرٌ لا يُكتَنَه.

والحقُّ أنهما قد يتَّحدان إطلاقاً وقد يتغايران، وابنُ القيِّم اعتمد ما عليه الأكثرون من الاتِّحاد ذاتاً، وذكر غيرُ واحدٍ أنَّه هو الذي عليه الصُّوفية، بيدَ أنَّهم قالوا: إنَّ النفسَ هي الأصلُ في الإنسان، فإذا صُقِلت بالرِّياضة وأنواعِ الذِّكر والفكر، صارت روحاً، ثم قد تترقَّى إلى أن تصيرَ سرًّا من أسرار اللهِ تعالى.

وتفصيلُ الكلامِ حينئذٍ في هذا المقامِ أنَّ للنفس مراتبَ تترقَّى فيها، الأُولى: تهذيبُ الظاهر باستعمال النواميسِ الإلهية، من القيام والصيام وغيرهما، الثانية: تهذيبُ الباطنِ عن المَلَكات الرَّديةِ والأخلاقِ الدَّنية، الثالثة: تَحلِّي النفسِ بالصُّور القدسية، الرابعة: فناؤها عن ذاتها وملاحظتُها جلالَ ربِّ العالمين جلَّ جلالُه.

ويقال في كيفية الترقِّي في هذه المراتب: إنَّ الإنسان أوَّلَ ما يولد فهو كباقي الحيوانات، لا يعرف إلَّا الأكلَ والشُّرب، ثم بالتدريجِ يظهر له باقي صفاتِ النفس، من الشَّهوة والغضبِ والحرصِ والحسد، وغيرِ ذلك من الهيئات التي هي نتائجُ الاحتجابِ والبعدِ من معدن الجودِ والصفاتِ الكمالية، ثم إذا تيقَّظ من سِنة الغفلة وقام من نوم الجهل، وبان له أنَّ وراءَ هذه اللذَّاتِ البهيميةِ لذاتٍ أُخَر، وفوقَ هذه المراتبِ مراتبَ أُخَرَ كمالية، يتوب عن اشتغاله بالمنهيَّات الشرعية، ويُنيب إلى الله تعالى بالتوجُّه إليه، فيشرع في ترك الفضولِ الدُّنيوية طلباً للكمالات

---

(١) هو محمد بن أحمد الشهير بسعيد الفرغاني الصوفي، المتوفى سنة (٦٩٩هـ)، واسم كتابه: منتهى المدارك ومشتهى لب كل كامل وعارف وسالك، وهو شرح لتائية ابن الفارض في التصوف. كشف الظنون ١/ ٢٦٦، وهدية العارفين ٢/ ١٣٩.

الأُخروية، ويعزم عزماً تامًّا، ويتوجَّه إلى السُّلوك إلى مَلِك الملوكِ من مقام نفسِه، فيهاجرُ منه ويقع في الغربة، ويا طوبَى للغرباء، وإن قيل: إنَّما الغربةُ للأحرار ذَبح(١)، ثم إذا دخل في الطريقِ يزهدُ عن كلِّ ما يَعُوقه عن مقصوده، ويَصدُّه عن معبوده، فيتَّصف بالورع والتقوى والزهدِ الحقيقيّ، ثم يحاسب نفسَه دائماً في أقواله وأفعالِه، ويتَّهمها في كلِّ ما تأمر به، وإن كان عبادةً فإنَّها مجبولةٌ على حبِّ الشهوات، ومطبوعةٌ على الدسائس الخفيَّات، فلا ينبغي أن يأمنَها ويكونَ على ثقةٍ منها.

يُحكَى عن بعض الأكابرِ أنَّ نفسه لم تزل تأمره بالجهاد وتحثُّه عليه، فاستغربَ ذلك، ثم فَطِنَ أنَّها تريد أن تستريحَ من نَصَب القيامِ والصيامِ بالموت، فلم يُجِبها إلى ذلك.

فإذا خَلَصَ منها وصفا وقتُه وطاب عيشُه بما يجده في طريق المحبوب، يتنوَّر باطنُه، ويظهرُ له لوامعُ أنوارِ الغيب، وينفتحُ له بابُ المَلَكوت، وتلوح منه لوائحُ مرَّةً بعد أخرى، فيشاهد أموراً غيبيةً في صُوَرٍ مثالية، فإذا ذاق شيئاً منها، يرغب في العزلة والخلوةِ والذِّكر، والمواظبةِ على الطَّهارة والعبادة، والمراقبةِ والمحاسبة، ويُعرض عن الملاذِّ الحسِّية كلِّها، ويُفرغ القلبَ عن محبَّتها، فيتوجَّه باطنُه إلى الحقِّ تعالى بالكلِّية، فيظهر له الوجدُ والسُّكر، والشوقُ والعِشق والهَيَمان، ويجعله فانياً عن نفسه غافلاً عنها، فيشاهد الحقائقَ السرِّية والأنوارَ الغيبية، فيتحقَّق بالمشاهدة والمعاينةِ والمكاشفة، ويظهر له أنوارٌ حقيقيةٌ تارةً وتختفي أخرى، حتى يتمكَّنَ ويتخلَّصَ من التلوين، وينزل عليه السكينةُ الروحيةُ والطمأنينةُ الإلهية، ويصير ورودُ هذه البوارقِ والأحوالِ له مَلَكة، فيدخلُ في عوالم الجبروت، ويشاهد العقولَ المجرَّدة والأنوارَ القاهرة، من الملائكة المقرَّبين والمَهيمين، ويتحقَّق بأنوارهم، فيظهر له أنوارُ سلطانِ الأحدية، وسواطعُ العظمةِ والكبرياءِ الإلهية، فتجعله هباءً منثوراً، ويندكُّ حينئذٍ جبالُ إنِّيَّتِه، فيخرُّ لله تعالى خروراً، ويتلاشَى في التعيُّن الذاتيّ، ويضمحلُّ وجودُه في الوجود الإلهيّ.

---

(١) عجز بيت لفتح الله بن النحاس، وصدره: حسَّنوا القول وقالوا غربة. نفحة الريحانة ٢/ ٥٢٢.

وهذا مقامُ الفناءِ والمحو، وهو غايةُ السفرِ الأوَّل للسالكين، فإن بقي في الفناء والمحو ولم يجئْ إلى البقاءِ والصحو، صار مستغرقاً في عين الجمع، محجوباً بالحقِّ عن الخلق، لا يزيغُ بصرُه عن مشاهدة جمالِه عزَّ شأنه، وأنوارِ ذاته وجلالِه، فاضمحلَّت الكثرةُ في شهوده، واحتجب التفصيلُ عن وجوده، وذلك هو الفوزُ العظيم.

وفوقَ ذلك مرتبةٌ يُرجَع فيها إلى الصَّحو بعد المحو، وينظر إلى التفصيل في عينِ الجمع، ويسع صدرُه الحقَّ والخلق، فيشاهد الحقَّ في كلِّ شيء، ويرى كلَّ شيءٍ بالحقّ، على وجهٍ لا يوجب التكثُّر والتجسُّم، وهو طَورٌ وراء طورِ العقل. ووقع في عبارة بعضِهم أنَّه قد يصير العارفُ متخلِّقاً بأخلاق اللهِ تعالى بالحقيقة، لا بمعنى صيرورةِ صفاتِه تعالى عرضاً قائماً بالنفس، فإنَّ هذا ممَّا لا يتصوَّر أبداً، والقولُ به خروجٌ عن الشريعة والطريقةِ والحقيقة، بل بمعنى علاقةٍ أخرى أتمَّ من علاقتها مع الصفات الكونيةِ البدنيةِ وغيرِها، لا تُعلَم حقيقتها.

ولعل مرادَهم بالمرتبة التي تترقَّى إليها النفسُ فتكون سرًّا من أسرار اللهِ تعالى هي هذه المرتبة، والاطِّلاعُ عليها يحتاج إلى سلوك طريقةِ الأبرار، ولا يتمُّ بمجرَّد الأنظارِ والأفكار، واللهُ تعالى الموفِّق للسلوك، والمتفضِّل بالغِنَى على الصُّعلوك.

البحث الرابع: اختلف الناسُ في الرُّوح هل تموت أم لا؟ فذهبت طائفةٌ إلى أنَّها تموت؛ لأنَّها نفس، وكلُّ نفس ذائقةُ الموت، وقد دلَّ الكتابُ على أنَّه لا يبقى إلَّا اللهُ تعالى وحدَه، وهو يستدعي هلاكَ الأرواحِ كغيرها من المخلوقات، وإذا كانت الملائكةُ عليهم السلام يموتون، فالأرواحُ البَشرية أَوْلى، وأيضاً أَخبر سبحانه عن أهل النارِ أنَّهم يقولون: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ولا تحقُّق الإماتتان إلَّا بإماتة البدنِ مرَّةً وإماتةِ الرُّوح أخرى.

وقالت طائفة: إنَّها لا تموت؛ للأحاديث الدالَّة على نعيمها وعذابِها بعد المفارقةِ إلى أن يُرجعَها اللهُ تعالى إلى الجسد، وإنْ قلنا بموتها لزم انقطاعُ النعيمِ والعذاب.

والصوابُ أن يقال: موتُ الروحِ هو مفارقتُها الجسدَ، فإن أُريد بموتها هذا القَدْر، فهي ذائقةُ الموت، وإنْ أُريد أنَّها تعدم وتضمحلّ، فهي لا تموت، بل تبقى مفارقةً ما شاء اللهُ تعالى، ثم تعود إلى الجسد وتبقَى معه في نعيمٍ أو عذاب، أبدَ

الآبدين ودهرَ الداهرين، وهي مستثناةٌ ممَّن يصعق عند النفخِ في الصُّور، على أنَّ الصعقَ لا يلزمُ منه الموت، والهلاكُ ليس مختصًّا بالعدم، بل يتحقَّق بخروج الشيءِ عن حدِّ الانتفاعِ به ونحوِ ذلك، وما ذُكر في تفسير الإماتتين غيرُ مسلَّم، وسيأتي إن شاء اللهُ تعالى الكلامُ فيه.

وإلى أنَّها لا تموت بموت البدنِ ذهبت الفلاسفةُ أيضاً، واحتجَّ الشيخُ عليه بأنْ قال: قد ثبت أنَّ النفسَ يجب حدوثُها عند حدوثِ البدن، فلا يخلو إمَّا أن يكونا معاً في الوجود، أو لأحدهما تقدُّم على الآخَر،فإن كانا معاً، فلا يخلو إمَّا أن يكونا معاً في الماهية، أو لا في الماهية، والأولُ باطل، وإلَّا لكانت النفسُ والبدنُ متضايفَين، لكنَّهما جوهران، هذا خَلف، وإن كانت المعيةُ في الوجود فقط من غير أن يكونَ لأحدهما حاجةٌ في ذلك الوجودِ إلى الآخَر، فعدمُ كلٍّ واحدٍ منهما يوجِب عدمَ تلك المعية، أمَّا[1] لا يوجب عدمَ الآخر، وأمَّا إن كان لأحدهما حاجةٌ في الوجود إلى الآخَر، فلا يخلو إمَّا أن يكونَ المقدَّم هو النفسَ، أو البدنَ، فإن كان المقدَّم في الوجود هو النفسَ، فذلك التقدُّم إمَّا أن يكونَ زمانيًّا، أو ذاتيًّا، والأولُ باطل؛ لِمَا ثبت أنَّ النفسَ ليست موجودةً قبل البدن، وأمَّا الثاني فباطلٌ أيضاً؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ يكون وجودُه معلولَ شيءٍ كان عدمُه معلولَ عدمِ ذلك الشيء؛ إذ لو انعدم ذلك المعلولُ مع بقاءِ العلَّة، لم تكن تلك العلَّةُ كافيةً في إيجابها، فلا تكون العلَّةُ علة، بل جزءاً من العلَّة، هذا خَلف، فإذن لو كان البدنُ معلولاً، لامتنع عدمُ البدنِ إلَّا لعدم النفس، والتالي بطلانُ البدنِ[2] قد ينعدم لأسبابٍ أُخَر، مثل سوءِ المزاج، أو سوءِ التركيب، أو تفرُّق الاتِّصال، فبطل أن تكونَ النفسُ علَّةً للبدن، وباطلٌ أيضاً أن يكونَ البدنُ علَّةً للنفس؛ لأنَّ العِلَلَ ـ كما عُرِف ـ أربع.

ومحالٌ أن يكونَ البدنُ علَّة فاعليةً للنفس، فإنَّه لا يخلو إمَّا أن يكونَ علَّةً فاعليةً لوجود النفسِ بمجرَّد جسميَّته، أو لأمرٍ زائدٍ على جسميَّته، والأوَّل باطل، وإلَّا لَكان كلُّ جسمٍ كذلك، والثاني باطل، أمَّا أوَّلاً: فلِمَا ثبت أنَّ الصورَ المادِّية إنَّما تفعل بواسطة الوضع، وكلُّ ما لا يفعل إلَّا بواسطة الوضعِ استحال أن يفعلَ أفعالاً مجرَّدة عن الحيِّز والوضع، وأمَّا ثانياً: فلأنَّ الصُّور المادية أضعفُ من

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعلها: إنما.

(٢) في الأصل: العدم.

المجرَّد القائمِ بنفسه، والأضعفُ لا يكون سبباً للأقوى.

ومحالٌ أن يكونَ البدنُ علَّةً قابلية؛ لِمَا ثبت أنَّ النفسَ مجرَّدةٌ مستغنيةٌ عن المادَّة، ومحالٌ أن يكونَ علَّةً صوريةً للنفس أو تمامية؛ فإنَّ الأمرَ أَوْلى أن يكونَ بالعكس، فإذن ليس بين البدنِ والنفسِ علاقةٌ واجبةُ الثبوتِ أصلاً، فلا يكون عدمُ أحدِهما علَّةً لعدم الآخَر.

فإن قيل: ألستم جعلتم البدنَ علَّةً لحدوث النفس؟ فنقول: قد بيِّن أن الفاعلَ إذا كان منزَّهاً عن التغيُّر ثم صدر عنه الفعلُ بعد أن كان غيرَ صادر، فلا بدَّ وأن يكونَ لأجل أنَّ شرطَ الحدوثِ قد حصل في ذلك الوقتِ دونَ ما قبله، ثم إنَّ ذلك الشرطَ لمَّا كان شرطاً للحدوث فقط، وكان غنيًّا في وجودِه عن ذلك الشيءِ، استحال أن يكونَ عدمُ ذلك الشرطِ مؤثِّراً في عدم ذلك الشيء، ثم لمَّا اتَّفق أن كان ذلك الشرطُ مستعدًّا لأن يكونَ آلةً للنفس في تحصيلِ الكمالات، والنفسُ لذاتها مشتاقةٌ إلى الكمال، لا جرمَ حصل للنفس شوقٌ طبيعيٌّ إلى التصرُّف في ذلك البدنِ والتدبيرِ فيه على الوجه الأصلح، ومثلُ ذلك لا يمكن أن يكونَ عدمُه علَّةً لعدم ذلك الحادث، بل ذهب الفلاسفةُ إلى استحالة انعدامِ النفس، وبرهنوا على ذلك بما برهنوا، وعندنا لا استحالةَ في ذلك.

البحث الخامس: في تمايُز الأرواحِ بعد مفارقتِها الأبدان. نصَّ ابن القيِّم[(١)] على أن كلَّ روحٍ تأخذ من بدنها صورةً تتميَّز بها عن غيرها، وأنَّ تمايُز الأرواحِ أعظمُ من تمايزِ الأبدان، إلَّا أنَّه زعم أنه لا يمكن التمايزُ بينها على القول بأنَّها جوهرٌ مجرَّد عن المادَّة. وفيه نظر؛ فإنَّ القائلين بذلك قائلون بالتمايز أيضاً، باعتبار ما يحصل لها من التعلُّق بالبدن أو بنحوٍ آخَرَ من التمايز.

وذكر الشيخ إبراهيمُ الكورانيُّ في بعض رسائلِه أنَّ الأرواحَ بعد مفارقتها أبدانَها المخصوصةَ تتعلَّق بأبدانٍ أُخَرَ مثاليةٍ حَسْبما يليق بها، وإلى ذلك الإشارةُ بالطَّير الخُضرِ في حديث الشهداء، ففي صحيح مسلمٍ[(٢)] عن ابن مسعودٍ: «إنَّ أرواحَ الشهداءِ في أجوافِ طيرٍ خضر». وأخرج سعيدُ بن منصورٍ عن مكحولٍ عن النبيِّ ﷺ

(١) في الروح ص ٥٠ و٥١.

(٢) (١٨٨٧)، وسلف ٣/ ٤٤.

أنَّ ذراري المؤمنين أرواحُهم في عصافيرَ في شجر في الجنَّة[١]. أي: إنَّها تكون في أبدانٍ على تلك الصُّور.

ويؤيِّد ذلك روايةُ ابنِ ماجه[٢] عن ابنِ مسعود: «أرواحُ الشهداءِ عند اللهِ تعالى كطيرٍ خُضر»، وفي لفظٍ عن كعب: أرواحُ الشهداءِ طيرٌ خضر. ولفظُ ابنِ عمر: في صورةِ طيرٍ بيض، وفي رواية عليِّ بن عثمانَ اللاحقيِّ عن مكحولٍ أنَّ ذراري المؤمنين أرواحُهم عصافيرُ في الجنة.

وعلى هذا يكون إنكار قومٍ من المتكلِّمين خبرَ «في أجواف طير» وكذا خبرَ «في عصافير» لِمَا في ذلك من تعلُّقِ روحَين في بدنٍ واحدٍ وقد قالوا باستحالته = ناشئاً من عدم التأمُّلِ والتثبُّت؛ لأنَّه ـ على ما قرَّرنا ـ لا يكونُ للطائر روحٌ غير روحِ الشهيد، على أنَّه لو بقي الخبرُ على ظاهره، لم يلزمْ محال؛ لجواز أن تكونَ الروحُ في جوف الطيرِ على نحوِ كونِ الجنين في بطن أمِّه، فتدبَّر.

البحث السادس: في مستقَرِّ الأرواحِ بعد مفارقةِ الأبدان. الذي دلَّت عليه الأخبارُ أنَّ مستقرَّ الأرواحِ بعد المفارقةِ مختلف، فمستقرُّ أرواحِ الأنبياء عليهم السلام في أعلى عِلِّيين، وصحَّ أن آخرَ كلمةٍ تكلم بها ﷺ: «اللهمَّ الرفيقَ الأعلى»[٣] وهو يؤيِّد ما ذكر. ومستقرُّ أرواحِ الشهداءِ في الجنة، تَرِد من أنهارها وتأكلُ من ثمارها، وتأوي إلى قناديلَ معلَّقةٍ بالعرش. ورُوي في أرواحِ أطفالِ المؤمنين ما هو قريبٌ من ذلك.

وروى ابنُ المباركِ عن كعبٍ قال: جنةُ المأوى جنةٌ فيها طيرٌ خضر، ترعى فيها أَرواحُ الشهداءِ على بارق نهرٍ بباب الجنةِ في قبةٍ خضراء، يخرج عليهم رزقُهم من الجنة بكرةً وعشيًّا[٤].

ولعل هذا ـ كما قال ابنُ رجب ـ في عوامِّ الشهداء، وما تقدَّم في خواصِّهم، أو لعلَّ هذا في شهداءِ الآخرة، كالغريق والمبطونِ إلى غير ذلك.

---

(١) سنن سعيد بن منصور (٥١٤).

(٢) في سننه (٢٨٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤): (٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) الجهاد لابن المبارك (٦١)، وأخرجه أحمد (٢٣٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وإسناده حسن.

وأما مستقرُّ أرواحِ سائر المؤمنين، فقيل: في الجنة أيضاً؛ وهو نصُّ الإمام الشافعيّ، وقد أخرج الإمام مالكٌ عن كعب بنِ مالك مرفوعاً: «إنَّما نسمةُ المؤمنِ طائرٌ يَعلُق في شجر الجنةِ حتى يُرجعَه اللهُ تعالى في جسده حين يبعثه» ورواه الإمام أحمدُ في «مسنده» وخرَّجه النسائيُّ من طريق مالك، وخرَّجه ابنُ ماجه[1]، ورواه خلقٌ كثير.

وروى ابن مَندَه من حديث أمِّ بشرٍ مرفوعاً ما هو نصٌّ في أنَّ مستقرَّ أرواحِ المؤمنين نحوُ مستقرِّ أرواحِ الشهداء[2].

وقال وهب بن منبِّه: إنَّ لله تعالى في السماء السابعةِ داراً يقال لها البيضاء، يجتمع فيها أَرواحُ المؤمنين، ومستقرُّ أرواح الكفار في سِجِّين. وفي حديث أمِّ بشرٍ أنَّ أرواحَ الكفارِ في حواصل طيرٍ سُود، تأكل من النارِ وتشربُ من النار، وتأوي إلى جُحرٍ في النار، يقولون: ربَّنا لا تُلحق بنا إخوانَنا، ولا تؤتِنا ما وعدتَنا[3].

وقيل: مستقرُّ أرواحِ الموتى أَفنيةُ قبورهم، وحكى هذا ابنُ حزمٍ عن عامَّة أهلِ الحديث، واستدلَّ له بعضُهم بحديث ابنِ عمرَ[4] عن النبيِّ ﷺ: «إذا مات أحدُكم، عُرض عليه مقعدُه بالغداة والعَشيّ، إنْ كان من أهل الجنةِ فمن أهل الجنّة، وإنْ كان من أهل النارِ فمن أهل النَّار، يقال: هذا مقعدُك حتى يبعثَك اللهُ تعالى» وبأنه ﷺ حين زَار الموتى قال: «السلامُ عليكم دارَ قومٍ مؤمنين»[5].

ورجَّح ابن عبد البرِّ أنَّ مستقرَّ أرواحِ ماعدا الشهداءَ بأَفنية القبور[6]. وفيه أنَّه إن أُريد أنَّ الأرواحَ لا تفارق الأَفنية، فهو خطأ يردُّه نصوصُ الكتابِ والسنة، وإن أُريد أنَّها تكون هناك وقتاً من الأوقات ـ كما رُوي عن مجاهد: الأرواحُ على القبور

---

(١) الموطأ ١/ ٢٤٠، ومسند أحمد (١٥٧٧٧)، والمجتبى ٤/ ١٠٨، وسنن ابن ماجه (٤٢٧١).
قوله: يعلق، أي: يأكل.

(٢) وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٤٤٩)، وينظر الحديث (١٥٧٧٦) في مسند أحمد.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٥) أخرجه مسلم (٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، و(٩٧٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) التمهيد ١٤/ ١٠٩، وما سيأتي هو من كلام ابن القيم في الروح ص ١٢٢-١٢٣.

سبعةَ أيامٍ من يومِ دفنِ الميت ـ أو لها إشراقٌ على قبورها وهي في مقرِّها، فهو حقّ، لكنْ لا يقال: مستقرُّها أفنيةُ القبور.

وعوَّل بعض المحقِّقين على أنَّ الأرواحَ حيث كانت لها اتِّصالٌ لا يعلم حقيقتَه إلَّا اللهُ تعالى، وبذلك تردُّ السلام، وتعرف المسَلِّمَ، ويُعرض عليها مقعدُها من الجنَّة أو النار. وقال بعضُهم: لا مانعَ من انتقالها من مستقرِّها وعودِها إليه في أسرعِ وقتٍ حيث يشاء اللهُ تعالى ذلك، نعم جاءَ في حديث البراءِ بن عازبٍ[1] ما يدلُّ على أنَّ أرواحَ المؤمنين تستقرُّ في الأرض ولا تعود إلى السماءِ بعد عرضِها، حيث قال فيه في صفة قبضِ روحِ المؤمن: «فإذا انتهى إلى العرش كُتب كتابُه في علِّيين، ويقول الربُّ تعالى شأنه: رُدُّوا عبدي إلى مضجعه، فإني وعدتهم أنِّي منها خلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أُخرجهم تارةً أخرى»، وفي لفظ: «رُدُّوا روحَ عبدي إلى الأرض، فإنِّي وعدتهم أن أردَّهم فيها»، ثم قرأ رسولُ اللهِ ﷺ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ الآية، لكن قال الحافظُ ابن رجب: إنَّ حديثَ البراءِ وحده لا يعارض الأحاديثَ الكثيرةَ المصرِّحة بأنَّ الأرواحَ في الجنة، لاسيَّما الشهداء، وقولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ إلخ باعتبار الأبدان.

وقالت طائفة: مستقرُّ الأرواحِ مطلقاً في السماء الدُّنيا عن يمين آدمَ عليه السلام وعن شِماله، ويدلُّ عليه ما في الصَّحيحين[2] عن أبي ذرٍّ من حديث المعراج، ففيه: «لما فُتح علونا السماءَ الدنيا، فإذا رجلٌ قاعد، على يمينه أَسوِدةٌ وعلى يساره أَسوِدة، فإذا نظر قِبَلَ يمينِه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شمالِهِ بكى، فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابنِ الصالح، قلت لجبريل: مَن هذا؟ قال: آدم، وهذه الأَسودةُ عن يمينه وشمالِهِ نَسَمُ بنيه، وأهلُ اليمينِ هم أهلُ الجنة، والأسودةُ التي عن شِماله أهلُ النار».

ويجاب بأنَّ المرادَ أَنَّه عليه السلام يرى هذين الصِّنفين من جهة يمينِه وجهةِ شماله، وهو يجامع كونَ أرواحِ كلِّ فريقٍ في مستقرِّها من الجنَّة والنار. فقد رأى النبي ﷺ الجنةَ والنارَ في صلاة الكسوفِ وهو في الأرض[3]، والجنةُ ليست فيها،

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، والطبري في تهذيب الآثار (٧٢٣).
(٢) صحيح البخاري (٣٤٩)، وصحيح مسلم (١٦٣).
(٣) أخرجه البخاري (٨٦)، ومسلم (٩٠٥) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

ورآهما وهو في السماء، والنارُ ليست فيها، وفي حديثٍ لأبي هريرةَ في الإسراء[١] مايؤيِّد ما قلنا.

والنسفيُّ في «بحر الكلام» جعل الأرواحَ على أربعةِ أقسام: أرواحُ الأنبياءِ عليهم السلام تخرج من جسدها ويصير مثلُ صورتِها مثلَ المسكِ والكافور، وتكونُ في الجنة، تأكلُ وتشرب وتتنعَّم، وتأوي بالليل إلى قناديلَ معلَّقةٍ تحت العرش. وأرواحُ الشهداءِ تخرجُ من جسدها وتكون في أجواف طيرٍ خضرٍ في الجنة، تأكل وتتنعَّم وتأوي إلى قناديلَ كأرواح الأنبياءِ عليهم السلام. وأرواحُ المطيعين من المؤمنين برَبَض الجنة، لا تأكل ولا تتمتَّع، ولكن تنظرُ إلى الجنَّة، وأرواحُ العصاةِ منهم تكون بين السماءِ والأرضِ في الهواء، وأما أرواحُ الكفارِ ففي سِجِّين في جوف طيرٍ سودٍ تحت الأرضِ السابعة، وهي متَّصلة بأجسادها، فتعذَّب الأرواحُ وتتألَّم من ذلك الأجساد. انتهى.

وما ذكره في أرواح المطيعين مخالفٌ لما صحَّ من أنها تتمتَّع في الجنة.

وفي «الإفصاح»[٢] أنّ المنعَّم من الأرواح على جهاتٍ مختلفة، منها ما هو طائرٌ في شجر الجنَّة، ومنها ما هو في حواصل طيرٍ خضر، ومنها ما يأوي إلى قناديلَ تحت العرش، ومنها ما هو في حواصل طيرٍ بيض، ومنها ما هو في حواصلِ طير كالزَّرازير[٣]، ومنها ما هو في أشخاص صُوَرٍ من صُوَر الجنة، ومنها ما هو في صورةٍ تُخلَق من ثواب أعمالهم، ومنها ما تسرح وتتردَّد إلى جثَّتها وتزورها، ومنها ما تتلقَّى أرواحَ المقبوضين، وممَّن سوى ذلك ما هو في كفالة ميكائيلَ عليه السلام، ومنها ما هو في كفالة آدمَ عليه السلام، ومنها ما هو في كفالة إبراهيمَ عليه السلام. انتهى.

قال القرطبيّ[٤]: وهذا قولٌ حسنٌ يجمع الأخبارَ حتى لا تتدافع. وارتضاه الجلالُ السُّيوطي.

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٤/ ٤٢٤ فما بعد، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٣٩٦ فما بعد، مطولاً جدًا.

(٢) لضياء الدين شيث بن إبراهيم المعروف بابن الحاج، والكلام من التذكرة للقرطبي ص١٥٩.

(٣) جمع زُرْزُور، وهو طائر أكبر قليلاً من العصفور. المعجم الوسيط (زرزر).

(٤) في التذكرة ص ١٥٩.

وأخرج ابنُ أبي الدُّنيا عن مالكٍ قال: بلغني أنَّ الروحَ مرسلَة تذهب حيث شاءت. وهو إن صحَّ ليس على إطلاقه.

وقيل في مستقرِّ الأرواحِ غيرُ ذلك، حتى زعم بعضُهم أنَّ مستقرَّها العدمُ المحض، وهو مبنيٌّ على أنَّها من الأعراض، وهي الحياة، وهو قولٌ باطلٌ عاطل، فاسدٌ كاسد، يردُّه الكتابُ والسنة، والإجماعُ والعقلُ السليم.

ويُعجبني في هذا الفصلِ ما ذكره الإمامُ العارفُ ابن بَرَّجان في «شرح أسماءِ الله تعالى الحسنى» حيث قال: والنفسُ مُبْرَأَةٌ من باطن ما خُلق منه الجسم، وهي روحُ الجسم، وأوْجَدَ تبارك وتعالى الروحَ من باطن ما برَأ منه النفس، وهو للنَّفس بمنزلة النفسِ للجسم، والنفس حجابُه، والروحُ يوصف بالحياة بإحياء اللهِ تعالى شأنه له، وموتُه خمود، إلَّا ما شاء الله تعالى يومَ خمودِ الأرواح، والجسمُ يوصف بالموت حتى يحيَى بالرُّوح، وموتُه مفارقةُ الروحِ إياه، وإذا فارق هذا العبدُ الروحانيُّ الجسمَ صُعِد به، فإن كان مؤمناً فُتحت له أبوابُ السماءِ حتى يصعدَ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، فيؤمر بالسُّجود، فيسجد، ثم يُجعل حقيقتُه النفسانيةُ تَعمُر السفلَ من قبره إلى حيث شاءَ اللهُ تعالى من الجوّ، وحقيقتُه الروحانيةُ تعمر العلوَ من السماءِ الدنيا إلى السابعة في سرورٍ ونعيم؛ ولذلك لقي رسولُ اللهِ ﷺ موسى عليه السلام قائماً في قبره يصلِّي(١) وإبراهيمَ عليه السلام تحت الشجرةِ قبل صعودهِ إلى السماءِ الدنيا(٢)، ولَقيهما في السماوات العُلى(٣)، فتلك أرواحُهما وهذه نفوسُهما وأجسادُهما في قبورهما، وإنْ كان شقيًّا لم يُفتَح له، فرُمي من علوٍّ إلى الأرض. انتهى.

وفيه القولُ بالمغايرة بين الرُّوح والنفسِ، وبهذا التحقيقِ تندفع معارضاتٌ كثيرة، واعتراضاتٌ وفيرة، ويُعلَم أنَّ حديثَ «ما مِن أحدٍ يمرُّ بقبر أخيه المؤمنِ كان يعرفه في الدنيا فسلَّم عليه، إلَّا عرفه وردَّ عليه السلام»(٤) ليس نصًّا في أنَّ الروحَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحسن بن عرفة في جزئه كما في تفسير ابن كثير ٣/ ١٦.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في الاستذكار ٢/ ١٦٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

على القبر، إذ يُفهَم منه أنَّ الذي في القبر حقيقتُه النفسانيةُ المتَّصلة بالرُّوح اتِّصالاً لا يَعلم كنهَه إلَّا اللهُ تعالى.

وللرُّوح مع ذلك أحوالاً وأطواراً(١) لا يعلمها إلَّا الله تعالى، فقد تكون مستغرقةً بمشاهدة جمالِ الله تعالى وجلالِه سبحانه ونحوِ ذلك، وقد تصحو عن ذلك الاستغراق، وهو المرادُ بردِّ الروحِ في خبر: «ما من أحدٍ يسلِّم عليَّ إلَّا ردَّ اللهُ تعالى عليَّ روحي فأردُّ عليه السلام»(٢).

والذي ينبغي أن يعوَّلَ عليه ـ مع ما ذُكر ـ أنَّ الأرواحَ وإن اختلف مستقرُّها بمعنى محلِّها الذي أُعطيته بفضلِ اللهِ تعالى جزاءَ عملها، لكنَّ لها جَوَلاناً في ملك اللهِ تعالى حيث شاء جلَّ جلالُه، ولا يكون إلَّا بعد الإذن، وهي متفاوتةٌ في ذلك حَسَبَ تفاوتِها في القُرب والزُّلفَى من الله تعالى، حتى إنَّ بعضَ الأَرواح الطاهرةِ لَتظهر فيراها مَن شاء اللهُ تعالى من الأحياء يقظة، وإنَّ أرواحَ الموتى تتلاقَى وتتزاورُ وتتذاكر، وقد تتلاقى أرواحُ الأمواتِ والأحياءِ مناماً، ولا ينكر ذلك إلَّا مَن يجعل الرُّؤيا خيالاتٍ لا أصلَ لها، وذلك لا يُلتفت إليه، لكن لا ينبغي أن يُبنَى على ذلك حكمٌ شرعي؛ لاحتمال عدمِ الصحَّة وإنْ قامت قرينةٌ عليها.

وما صحَّ من أنَّ ثابتَ بن قيسِ بن شمَّاسٍ خرج مع خالد بن الوليد إلى حربِ مسيلمة، فاستشهد ﷺ، وكان عليه درعٌ نفيسة، فمرَّ به رجلٌ من المسلمين فأَخذها، فبينا رجلٌ من الجند نائم، إذ أتاه ثابتٌ في منامه فقال له: أُوصيك بوصيّة، فإيَّاك أن تقولَ: هذا حلم،فتضيِّعَه، إنِّي لما قُتلت أمس مرَّ بي رجلٌ من المسلمين فأخذ درعي، ومنزلُه في أَقصى الناس، وعند خِبائه فرسٌ يستنُّ في طِوَله(٣)، وقد كفأ على الدِّرع بُرمة وفوقَ البرمةِ رحل، فأتِ خالداً فمُره أن يبعثَ إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينةَ على خليفة رسولِ الله ﷺ فقل له: إنَّ عليَّ من الدَّين كذا وكذا، وفلانٌ من رقيقي عتيق، فأتى الرجلُ خالداً فأخبره، فبعث إلى الدِّرع وأتى بها، وحدَّث أبا بكرٍ ﷺ برؤياه، فأجاز وصيَّته. وقد ذكر

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أحوال وأطوار.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أي: يعدو لمرحه ونشاطه ولا راكب عليه، والطِّوَل: الحبل الذي يطوَّل للدابة لترعى فيه.

ذلك ابنُ عبدِ البرِّ[١] وغيرُه = مجابٌ عنه بأنَّ ذلك كان بإجازة الوارث؛ وهي بنتُه، لغلبة ظنِّ صدقِ الرُّؤيا بما قام من القرينة، ولو لم تُجِزْ لم يَسُغ لأبي بكرٍ رضي الله عنه ذلك بمجرَّد الرؤيا. وقيل: إنَّ أبا بكر لم يرَ الردّ، ففعل ذلك من حصَّة بيتِ المال.

ومثلُ هذه القصَّةِ قصةُ الصعب[٢] بن جثَّامة وعوفِ بن مالك، وقد ذكرها ابن القيِّم في كتاب «الرُّوح»[٣] وهي أغربُ مما ذكر بكثير.

وربَّما يؤذَن لأرواح بعضِ الناس في زيارة أهليهم، كما ورد في بعض الآثار، وبعضُ الأرواح تُحبس في قبرها أو حيث شاء اللهُ تعالى عن مقامها، كروح مَن يموت وعليه دَينٌ استدانه في محرَّم، لا مطلقاً كما هو المشهور، وتحقيقُه في «شرح الشَّمائل» للعلَّامة ابنِ حجر.

ثم اعلَمْ أنَّ اتِّصال الرُّوح بالبدن لا يختصُّ بجزءٍ دون جزء، بل هي متصلةٌ مشرقةٌ على سائر أجزائه، وإن تفرَّقت وكان جزءٌ بالمشرق وجزء بالمغرب، ولعل هذا الإشراقَ على الأجزاء الأصلية؛ لأنَّها التي يقوم بها الإنسانُ من قبره يومَ القيامةِ على ما اختاره جمع.

واعلم أيضاً أنَّ الروحَ على القول بتجرُّدها لا مستقرَّ لها، بل لا يقال: إنها داخلَ العالَم أو خارجَه، كما سمعتَ، وإنَّما المستقرُّ حينئذٍ للبدن الذي تتعلَّق به.

وقد نصَّ بعضُ الصوفيةِ على أنَّه لا مانعَ من أن تتعلَّقَ نفسٌ ببدنين فأكثر، بل هو واقعٌ عندهم، وذكر بعضُهم أنَّ أحدَ البدنين هو البدنُ الأصليّ، والآخَر مثاليٌّ يظهر للعِيان على وجه خرقِ العادة. وقال آخَر: إنَّ الآخرَ من باب تطوُّر الروحِ وظهورِها بصورة، على نحو ظهورِ جبريلَ عليه السلام بصورة دحيةَ الكلبيّ[٤]، وظهورِ القرآنِ لحافظه بصورة الرجلِ الشاحبِ يومَ القيامة[٥].

---

(١) في الاستيعاب ٢/ ٧٣-٧٤، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٣٢٠)، والحاكم ٣/ ٢٣٥.
(٢) في (م): مصعب.
(٣) ص ٢٠ وأخرجها ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات (٢٥).
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وسلف ٣/ ٤٦.
(٥) أخرجه أحمد (٢٢٩٧٦)، وابن ماجه (٣٧٨١) من حديث بريدة رضي الله عنه، وسلف ٥/ ١٠٤.

والفلاسفةُ قالوا: لا يجوز أن تتعلَّق نفسٌ واحدة بأبدانٍ كثيرة؛ لأنَّه يلزم أن يكونَ معلومُ أحدِها معلومَ الآخَر ومجهولُ أحدِها مجهولَ الآخَر، ومعلومٌ أنَّ الأمرَ ليس كذلك. ولا يخفَى أنَّ هذا الدليلَ يدلُّ على أنَّ كلَّ إنسانَين يعلم أحدُهما ما لا يعلم الآخَر، فإنَّ نفسَهما متغايرتان، فلمَ لا يجوز وجودُ إنسانين يتعلَّق ببدنهما نفسٌ واحدة، ويكون كلُّ ما علمه أحدُهما علمه الآخَرُ لا محالة، وما يجهله أحدُهما يكون مجهولاً للآخَر، لا بدّ لعدم الجوازِ من دليل.

وعلى ما ذكره هؤلاء الصوفيةُ يجوز أن تتعلَّقَ الروحُ ببدنٍ في الجنة وببدنٍ آخَر حيث شاء اللهُ تعالى، بل يجوز أن تظهرَ في صورٍ شتَّى في أماكنَ متعدِّدة، على حدِّ ما قالوه في جبريلَ عليه السلام أنَّه في حال ظهورِه في صورة دِحيةَ أو أعرابيٍّ غيرِه بين يدي النبي ﷺ لم يفارق سِدرةَ المنتهى.

وأنت تعلمُ ما يقولون في تجلِّي الله تعالى في الصُّور، وسمعتَ خبرَ «إنَّ اللهَ تعالى خلق آدمَ على صورته»(١)، ومن هنا قالوا: مَن عرف نفسَه فقد عرف ربَّه، فافهم الإشارة، ولَعَمري هي عبارة.

ثم إنَّ أرواحَ سائرِ الحيوانات من البهائم ونحوِها قيل: تكون بعد المفارقةِ في الهواء ولا اتِّصال لها بالأبدان. وقيل: تُعدَم ولا يُعجِز اللهَ تعالى شيء.

ومِن الناس مَن قال: إنْ كان للحيوانات حشرٌ يوم القيامةِ كما هو المشهورُ الذي تقتضيه ظواهرُ الآياتِ والأخبار، فالأَوْلى أن يقالَ ببقاءِ أَرواحها في الهواء، أو حيث شاء اللهُ تعالى، وإنْ لم يكن لها حشر، كما ذهب إليه الغزاليُّ وأوَّلَ الظواهر، فالأَولى أن يقالَ بانعدامها.

هذا وبقيت أبحاثٌ كثيرة، تركناها لضيقِ القفص، واتِّساع دائرةِ الغصص، ولعلَّ فيما ذكرناه هنا مع ما ذكرناه فيما قبلُ كفايةً لأهل البداية، وهدايةً لمن ساعدته العناية، والله عزَّ وجلَّ وليُّ الكرمِ والجود، ومنه سبحانه بدءُ كلِّ شيءٍ وإليه جلَّ وعلا يعود.

---

(١) سلف ص٩١ من هذا الجزء، و٢/ ٩٠-٩١.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القرآنِ الذي هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين، والذي ثبّتناك عليه حين كادوا يفتنونكَ عنه، إلى غير ذلك من أَوصافه التي يُشعر بها السِّياق. وإنَّما عبَّر عنه بالموصول؛ تفخيماً لشأنه ووصفاً له بما في حيِّز الصلةِ ابتداءً، إعلاماً بحاله من أوَّل الأمر، وبأنَّه ليس من قَبيل كلامِ المخلوق.

واللامُ الأُولى موطِّئة للقسم، و«لنذهبن» جوابُه النائبُ منابَ جزاءِ الشرط، فهو مُغْنٍ عن تقديره، وليس جزاءً؛ لدخول اللامِ عليه، وهو ظاهر، وبذلك حَسُنَ حذفُ مفعولِ المشيئة.

والمرادُ بالذهاب به محوُه عن المصاحف والصُّدور، وهو أبلغُ من الإفعال، ويُراد على هذا من القرآن ـ على ما قيل ـ صورتُه، أعمُّ من أن تكونَ في نقوش الكتابة، أو في الصُّوَر التي في القوَّة الحافظة.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي: القرآنِ ﴿عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ أي: متعهِّداً وملتزِماً استردادَه بعد الذهابِ به، كما يلتزم الوكيلُ ذلك فيما يتوكَّل عليه، حالَ كونِه متوقَّعاً أن يكونَ محفوظاً في السطور والصدورِ كما كان قبل، فالوكيلُ مجازٌ عما ذكر.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناءٌ منقطع، على ما اختاره ابنُ الأنباريِّ وابنُ عطية[1] وغيرُهما، وهو مفسَّر بـ «لكنْ» في المشهور، والاستدراكُ ـ على ما صرَّح به الطِّيبيُّ وغيرُه، واقتضاه ظاهرُ كلامِ جمعٍ ـ عن قوله تعالى: (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ).

وقال في «الكشف»: إنَّه ليس استدراكاً عن ذلك؛ فإنَّ المستثنَى منه «وكيلاً» وهذا من المنقطع الممتنعِ إيقاعُه موقعَ الاسمِ الأوَّل الواجبِ فيه النصبُ في لغتَي الحجازِ وتميم، كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] في رأي، وقولهم: لا تكوننَّ من فلانٍ إلَّا سلاماً بسلام، فقد صرَّح الرَّضِيُّ وغيرُه بأنَّ الفريقين يوجبون النَّصب، ولا يجوِّزون الإبدالَ في المنقطع فيما لا يكون قبلَه اسمٌ يصحُّ حذفه، وكونُ ما نحن فيه من ذلك ظاهرٌ لمن له ذوق، والمعنى: ثم بعد الإذهابِ لا تجد مَن يتوكَّل علينا بالاسترداد، ولكن رحمةً من ربِّك تركتُه غيرَ

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٢.

مذهوب[1]، فلم تحتج إلى مَن يتوكَّل للاسترداد مأيوسٍ عنه بالفقدان المدلولِ عليه بـ «لا تجد»، والتغايرُ المعنويُّ بين الكلامين من دَلالة الأوَّل على الإذهاب ضمناً والثاني على خلافه حاصل، وهو كافٍ، فافهَم.

ويُفهِم صنيعُ البعضِ اختيارَ أنه استثناءٌ متصلٌ من «وكيلاً»، أي: لا تجد وكيلاً باسترداده إلَّا الرحمةَ، فإنك تجدها مستردَّة، وأنت تعلم أنَّ شمولَ الوكيلِ للرَّحمة يحتاج إلى نوع تكلُّف.

وقال أبو البقاءِ[2]: إنَّ «رحمة» نصبٌ على أنه مفعولٌ له، والتقدير: حفظناه عليك للرَّحمة، ويجوز أن يكونَ نصباً على أنه مفعولٌ مطلق، أي: ولكن رحمناك رحمةً. انتهى. وهو كما ترى.

والآيةُ ـ على تقدير الانقطاع ـ امتنانٌ بإبقاء القرآنِ بعد الامتنانِ بتنزيله، وذكروا أنَّها على التقدير الآخَر دالَّة على عدم الإبقاء، فالمنَّةُ حينئذٍ إنَّما هي في تنزيله، ولا يخفَى ما فيه من الخفاء، وما يُذكَر في بيانه لا يَروي الغليل.

والآية ظاهرةٌ في أنَّ مشيئة الذَّهابِ به غيرُ متحقِّقة، وأنَّ فقدان المستردِّ إلَّا الرحمةَ إنَّما هو على فَرْض تحقُّق المشيئة، لكن جاءَ في الأخبار أنَّ القرآنَ يُذهَب به قبل يومِ القيامة، فقد أخرج البيهقي، والحاكمُ وصحَّحه، وابنُ ماجه بسند قويٍّ عن حذيفةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدرُسُ الإسلامُ كما يَدرسُ وَشْيُ الثوب، حتى لا يُدرَى ما صيامٌ ولا صدقةٌ ولا نُسُك، ويُسرَى على كتاب اللهِ تعالى في ليلة، فلا يبقَى في الأرضِ منه آية، ويبقى الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ يقولون: أَدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلَّا الله، فنحن نقولها»[3].

وأَخرج ابنُ مردويه عن ابن عباسٍ وابنِ عمرَ قالا: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، ما هذه الكتبُ التي بلغني أنَّكم تكتبونها مع كتاب الله تعالى، يوشك أن يغضبَ اللهُ تعالى لكتابه، فيُسرَى عليه ليلاً لا يُترَك في قلبٍ ولا ورقٍ منه

---

(١) في (م): منصوب، وهو خطأ.

(٢) في الإملاء ٣/ ٤٩٧.

(٣) الشعب ٢/ ٣٥٦، والمستدرك ٤/ ٤٧٣، وسنن ابن ماجه (٤٠٤٩).

حرفٌ إلَّا ذُهب به» فقيل: يا رسولَ الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات؟ قال: «مَن أراد اللهُ تعالى به خيراً أبقَى في قلبه لا إله إلا الله»[١].

وأَخرج ابنُ أبي حاتم، والحاكمُ وصحَّحه[٢] عن أبي هريرةَ قال: يُسرَى على كتاب اللهِ تعالى فيُرفع إلى السماءِ، فلا يبقَى في الأرض آيةٌ من القرآن ولا من التوراة والإنجيل والزَّبور، فيُنزع من قلوب الرِّجال، فيصبحون في الضَّلالة لا يدرون ما هم فيه.

وأخرج الدَّيلميُّ عن ابن عمرو[٣] مرفوعاً: «لا تقوم الساعةُ حتى يرجعَ القرآنُ من حيث جاء، له دويٌّ حول العرشِ كدويِّ النحل، فيقول الله عزَّ وجلّ: ما لَك؟ فيقول: منك خرجتُ وإليك أعود، أُتلَى ولا يُعمل بي» وأَخرج محمدُ بن نصرٍ نحوَه موقوفاً عن عبد اللهِ بن عَمرو بنِ العاص.

وأَخرج غيرُ واحدٍ عن ابن مسعودٍ أنَّه قال: سيُرفع القرآنُ من المصاحف والصُّدور، ثم قرأ: (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ) الآية، وفي «البهجة» أنَّه يُرفَع أولاً من المصاحف، ثم يرفع لأعجلِ زمنٍ من الصدور.

والذاهبُ به هو جبريلُ عليه السلام، كما أَخرجه ابنُ أبي حاتم من طريق القاسمِ بن عبدِ الرَّحمن، عن أبيه، عن جدِّه[٤]. فيا لَها من مصيبةٍ ما أعظَمَها، وبليَّةٍ ما أوخمَها، فإن دلَّت الآيةُ على الذهاب به، فلا منافاةَ بينها وبين هذه الأخبار، وإذا دلَّت على إبقائه، فالمنافاةُ ظاهرة، إلَّا أن يقال: إنَّ الإبقاءَ لا يستلزم الاستمرار، ويكفي فيه إبقاؤه إلى قُرب قيامِ الساعة، فتدبَّر.

وممَّا يرشد إلى أنَّ سَوق الآيةِ للامتنان قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ﴾ لم يزل ولا يزال ﴿عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ ومنه إنزالُ القرآن، واصطفاؤه على جميعِ الخلق، وختمُ الأنبياءِ عليهم السلام به، وإعطاؤه المقامَ المحمود، إلى غير ذلك.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٠١-٢٠٢، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٧٥١٤).

(٢) في المستدرك ٤/ ٥٠٦ وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٠١.

(٣) في الأصل و(م): عمر، والمثبت في مسند الفردوس (٧٥١٣) وهو الصواب، فإنه من طريق أبي قبيل (واسمه حيي بن هانئ) عن عبد الله بن عمرو به، وينظر تهذيب الكمال ٧/ ٤٩١.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٠٢.

وقال(١) أبو سهل إلى أنَّها سيقت لتهديد غيرِه ﷺ بإذهاب ما أُوتوا ليصدَّهم عن سؤال ما لم يؤتَوا، كعلم الرُّوح وعلمِ الساعة.

وقال صاحبُ «التحرير»: يحتمل أن يقال: إنَّه ﷺ لمَّا سئل عن الرُّوح وذي القَرنين وأهلِ الكهف وأبطأ عليه الوحي، شقَّ عليه ذلك، وبلغ منه الغايةَ، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ تسكيناً له ﷺ والتقدير: أيعِزُّ عليك تأخُّر الوحي، فإنَّا إن شئنا ذهبنا بما أَوحينا إليك جميعِه، فسكن ما كان يجدُه ﷺ وطاب قلبُه. انتهى، وكلا القولَين كما ترى.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ أي: اتَّـفـقـوا ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوتِ بما لا تُدركه العقولُ من النُّعوت الجليلةِ الشأن، من البلاغة وحسنِ النَّظم وكمالِ المعنى.

وتخصيصُ الثقلينِ بالذِّكر لأنَّ المنكِر لكونه من عند اللهِ تعالى منهما لا من غيرهما، والتحدِّي إنَّما كان معهما وإنْ كان النبيُّ ﷺ مبعوثاً إلى المَلَك كما هو مبعوثٌ إليهما، لا لأنَّ غيرَهما قادرٌ على المعارضة، فإنَّ الملائكةَ عليهم السلام ـ على فَرْض تصدِّيهم لها وحاشاهم؛ إذ هم معصومون لا يفعلون إلَّا ما يؤمرون ـ عاجزونَ كغيرهم.

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أي: هذا القرآنِ. وأُوثر الإظهار على إيراد الضميرِ الراجعِ إلى المثل المذكور؛ احترازاً عن أن يتوهَّم أنَّ له مثلاً معيَّناً، وإيذاناً بأنَّ المراد نفيُ الإتيانِ بمثلٍ مّا، أي: لا يأتون بكلامٍ مماثلٍ له فيما ذكر من الصِّفات الجليلةِ الشأن وفيهم العربُ العرباءُ أربابُ البراعةِ والبيان.

وقيل: المرادُ تعجيزُ الإنس، وذِكرُ الجنِّ مبالغةٌ في تعجيزهم؛ لأنَّهم إذا عجزوا عن الإتيان بمثله ومعهم الجنُّ القادرون على الأفعال المستغرَبة، فهم عن الإتيان بمثله وحدَهم أعجز. وليس بذاك.

وقيل: يجوز أن يرادَ من الجنِّ ما يشمل الملائكةَ عليهم السلام، وقد جاءَ

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وهو وهم من المصنف رحمه الله، والصواب: وذهب...، ينظر البحر ٦/ ٧٦.

إطلاقُ الجنِّ على الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨] نعم الأكثرُ استعمالُه في غير الملائكة عليهم السلام. ولا يخفى أنَّه خلاف الظاهر.

وزعم بعضُهم أن الملائكةَ عليهم السلام حيث كانوا وسائطَ في إتيانه لا ينبغي إدراجُهم؛ إذ لا يلائمه حينئذٍ «لا يأتون بمثله». وفيه أنَّه ليس المرادُ نفيَ الإتيان بمثله من عند اللهِ تعالى في شيءٍ ممن أُسند إليهم الفعل.

وجملةُ «لا يأتون» جوابُ القسمِ الذي ينبئُ عنه اللامُ الموطِّئةُ، وسادٌّ مسدَّ جزاءِ الشرط، ولولاها لكان «لا يأتون» جزاءَ الشرطِ وإن كان مرفوعاً بناءً على القول بأنَّ فعلَ الشرطِ إذا كان ماضياً يجوز الرفعُ في الجواب، كما في قول زهير:

وإنْ أتاه خليلٌ يومَ مسغبةٍ ... يقول لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ[(١)]

لأنَّ أداةَ الشرطِ إذا لم تؤثِّر في الشَّرط ظاهراً مع قُربه، جاز ألَّا تؤثِّرَ في الجواب مع بُعده. وهذا القولُ خلافُ مذهبِ سيبويه ومذهبِ الكوفيِّين والمبرِّدِ كما فصِّل في موضعه[(٢)].

ولا يجوز عند البصريِّين مع وجودِ هذه اللامِ جعلُ المذكورِ جوابَ الشرطِ خلافاً للفرَّاء[(٣)]، وأمَّا قولُ الأعشى:

لَئن مُنيتَ بنا عن غِبِّ معركةٍ ... لا تُلفِنا عن دماء الخلقِ ننتفلُ[(٤)]

فاللامُ ليست الموطِّئة، بل هي زائدةٌ على ما قيل، فافهم.

وحيث كان المرادُ بالاجتماع على الإتيان بمثل القرآنِ مطلقَ الاتفاقِ على ذلك، سواءٌ كان التصدِّي للمعارضة من كلِّ واحدٍ منهم على الانفراد، أو من المجموعِ بأن يتألَّبوا على تلفيق كلامٍ واحدٍ بتلاحق الأفكارِ وتعاضدِ الأنظار = قال

(١) ديوان زهير ص ١٥٣.
(٢) انظر ٢/ ٣٦٣.
(٣) انظر معاني القرآن ٢/ ١٣٠-١٣١.
(٤) ديوان الأعشى ص ١١٣.

سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ أي: مُعِيناً في تحقيق ما يتوخَّونه من الإتيان بمثله.

والجملة عطفٌ على مقدَّر، أي: لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضُهم لبعضٍ ظهيراً ولو كان... إلخ. وهي في موضع الحالِ كالجملة المحذوفة، والمعنى: لا يأتون بمثله على كلِّ حالٍ مفروض، ولو في مثل هذه الحالِ المنافيةِ لعدم الإتيان به فضلاً عن غيرها. وفيه ردٌّ لليهود أو قريش في زعمهم الإتيانَ بمثله، فقد رُوي أنَّ طائفةً من الأوَّلين قالوا: أَخبِرنا يا محمدُ بهذا الحقِّ الذي جئتَ به، أحقٌّ من عند اللهِ تعالى؟ فإنَّا لا نراه متناسقاً كتناسق التَّوراة، فقال ﷺ لهم: «أَمَا واللهِ إنَّكم لتعرفونه أنَّه من عند اللهِ تعالى» قالوا: إنَّا نجيئك بمثلِ ما تأتي به، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآية(١).

وفي روايةٍ أنَّ جماعةً من قريشٍ قالوا له ﷺ: جئنا بآية غريبةٍ غيرِ هذا القرآن، فإنَّا نحن نقدر على المجيءِ بمِثله، فنزلت. ولعل مرادَهم بهذه الآيةِ الغريبةِ ما تضمَّنه الآياتُ بعد، وهي قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلخ، وحينئذٍ قيل: يمكن أن تكونَ هذه الآيةُ مع الآياتِ الأُخَر ردًّا لجميع ما عَنَوه بهذا الكلام، إلَّا أنَّه ابتدأ بردِّ قولهم: نحن نقدر.. إلخ، اهتماماً به، فإنَّ قولَهم ذلك منشأُ طلبهم الآيةَ الغريبة.

وفي «إرشاد العقلِ السليم»(٢) أنَّ في هذه الآيةِ حسمَ أطماعِهم الفارغةِ في رَوم تبديلِ بعض آياتهِ ببعض، ولا مساغَ لكونها تقريراً لمَا قبلها من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ كما قيل، لكن لا لِمَا قيل من أنَّ الإتيانَ بمثله أصعبُ من استرداد عينِه ونفيُ الشيءِ إنَّما يقرِّره نفي ما دونه دونَ نفي ما فوقه؛ لأنَّ أصعبيةَ الاستردادِ بغير أمرهِ تعالى من الإتيان المذكورِ ممَّا لا شبهةَ فيه، بل لأنَّ الجملةَ القَسَمية ليست مسوقةً إلى النبيِّ ﷺ، بل إلى المكابرين من قَبلِه عليه الصلاة والسلام. انتهى.

ومنه يُعلَم ما في قول بعضِهم في وجهِ التقرير: إنَّ عدم قدرةِ الثَّقلين على ردِّه بعد إذهابه مساوٍ لعدم قدرتِهم على مثله؛ لأنَّ ردَّه بعينه غيرُ ممكن، لعدم وصولِهم

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/٧٦ مطولاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) ٥/١٩٤.

إلى الله تعالى شأنُه، فلم يبقَ إلَّا ردُّه بمثله، فصرَّح بنفيه تقريراً له من النَّظر وعدمِ الجدوى.

هذا واستدلَّ صاحبُ «الكشَّاف»[١] بإعجاز القرآنِ على حدوثه؛ إذ لو كان قديماً لم يكن مقدوراً، فلا يكونُ معجزاً، كالمحال. وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه لا نزاعَ في حدوث النَّظمِ ـ وإن تحاشَى أهلُ السنةِ من إطلاق المخلوقِ عليه للإيهام ـ وهو المعجز، إنَّما النزاعُ في المعبَّر بهذه العبارةِ المعجزة، وهو المسمَّى بالكلام النفسيّ، فهو استدلالٌ لا ينفعه. وذكر نحوَه ابنُ المنير[٢].

وقال صاحبُ «التقريب»: الجوابُ منعُ الملازمة؛ إذ مصحِّح المقدوريةِ الإمكانُ، وهو حاصلٌ، لا الحدوث، وأيضاً المعجزُ لفظُه، ولا يقال بقِدَمه، والقديمُ كلامُ النفس، ولا يقال بإعجازه، وأيضاً سلَّمنا أنَّ القديمَ لا يقدر البشرُ على عينه، لكن لم لا يقدر على مِثله.

واختار العلَّامةُ الطيبيُّ هذا الأخيرَ في الجواب، وقد ذكرنا في المقدِّمات من الكلام ما ينفعكَ في هذا المقام، فتدبَّر، واللهُ تعالى وليُّ الإنعام، ومسدِّد الأفهام.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كرَّرنا وردَّدنا على أساليبَ مختلفةٍ توجب زيادةَ تقريرٍ ورسوخ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أهلِ مكةَ وغيرِهم، كما هو الظاهرُ ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ المنعوتِ بما ذُكر من النعوتِ الفاضلة ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كلِّ معنًى بديع، هو في الحُسن والغرابةِ واستجلابِ النُّفوس كالمثل.

ومفعولُ «صرفنا» ـ على ما استظهره أبو حيَّان[٣] ـ محذوف، أي: البيانَ، وقدَّره البيناتِ والعِبرَ، و«مِن» لابتداء الغاية، وجوَّز ابن عطية[٤] أن تكونَ سيفَ خطيب، فـ «كل» هو المفعول، وهذا مبنيٌّ على مذهب الكوفيِّين والأخفش؛ لأنَّهم يجوِّزون زيادةَ مِن في الإيجاب دون جمهورِ البصريين.

---

(١) ٢/ ٤٦٥.

(٢) في الانتصاف ٢/ ٤٦٥.

(٣) في البحر ٦/ ٧٩.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٤.

وقرأ الحسن: «صَرَفنا» بتخفيف الراءِ[1]، وقراءةُ الجمهورِ أبلغ.

وأيّاما كان، فالمرادُ: فعلنا ذلك للنّاس ليُذعنوا ويتلقّوه بالقَبول ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾﴾ أي: جحوداً، وفسِّر به لثبوت الصِّدق بأصل الإعجاز.

والمرادُ بالناس المذكورون أولاً، وأُوثر الإظهارُ على الإضمار تأكيداً وتوضيحاً، والمرادُ بالأكثر قيل: مَن كان في عهده ﷺ من المشركين وأهلِ الكتاب. واستظهر في «البحر»[2] أنّهم أهلُ مكة، بدليل أنَّ الضمائرَ الآتيةَ لهم.

ونصب «كفوراً» على أنَّه مفعولُ «أبى»، والاستثناءُ مفرَّغ، وصحَّ ذلك هنا مع أنَّه مشروطٌ بتقدُّم النفي - فلا يصحّ: ضربتُ إلَّا زيداً - لأنَّ «أبى» قريبٌ من معنى النفي، فهو مؤوَّل به، فكأنَّه قيل: ما قَبِل أكثرهم إلَّا كفوراً، وفيه من المبالغة ما ليس في: أَبَوا الإيمان؛ لأنَّ فيه زيادةً على أنهم لم يرضَوا بخصلةٍ سوى الكفرِ من الإيمان والتوقُّفِ في الأمر ونحوِ ذلك، وأنَّهم بالغوا في عدم الرِّضا حتى بلغوا مرتبةَ الإباء، وإنَّما لم يَجُز ذلك في الإثباتِ لفساد المعنى، إذ لا قرينةَ على تقديرِ أمرٍ خاصّ، والعمومُ لا يصحّ، إذ لا يمكن في المثال أن تضربَ كلَّ أحدٍ إلَّا زيداً، فإن صحّ العمومُ في مثال، جاز التفريغُ في غير تأويلٍ بنفي، فيجوز: صلَّيتُ إلَّا يومَ كذا، إذ يجوز أن تصلِّي كلَّ يومٍ غيرَه. وجوِّز أن تكونَ الآيةُ من هذا القَبيل، بأن يكونَ المراد: أَبوا كلَّ شيءٍ فيما اقترحوه إلَّا كفوراً.

﴿وَقَالُواْ﴾ عند ظهورِ عجزِهم ووضوحِ مغلوبيَّتهم بالإعجاز التنزيليِّ وغيرِه من المعجزاتِ الباهرة، متعلِّلين بما لا تقتضي الحكمةُ وقوعَه من الأمور، ولا توقُّفَ لثبوت المدَّعى عليه، وبعضُه من المحالاتِ العقلية: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ﴾ بالتخفيف من باب نَصَرَ المتعدِّي، وبذلك قرأ الكوفيُّون[3]، أي: تفتح، وقرأ باقي السبعة: «تفجِّرَ» من فجَّر مشدَّداً، والتضعيفُ للتكثير لا للتعدية.

---

(١) البحر المحيط ٦/٧٩.

(٢) ٦/٧٩.

(٣) التيسير ص ١٤١، والنشر ٢/٣٠٨.

وقرأ الأعمشُ وعبد اللهِ بنُ مسلم بنِ يسار: «تُفْجِرَ»[١] من أَفجر رباعيًّا، وهي لغةٌ في فجر.

﴿لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مكَّة؛ لقلَّة مياهها، فالتعريف عهديّ ﴿يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ مفعولٌ من: نَبَعَ الماءُ، كيَعبُوب، من عبَّ الماءُ، إذا زخر وكثر موجُه، فالياءُ زائدةٌ للمبالغة، والمراد: عيناً لا ينضُب ماؤها.

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن السُّدِّي أنَّ الينبوعَ هو النهرُ الذي يجري من العين[٢]، والأولُ مرويٌّ عن مجاهد، وكفى به.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ﴾ خاصَّة ﴿جَنَّةٌ﴾ بستانٌ تستر أشجارُها ما تحتها من العَرصة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ خصُّوهما بالذِّكر لأنَّهما كانا الغالبَ في هاتيك النَّواحي مع جلالة قَدْرِهما ﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ أي: تُجريها ﴿خِلَٰلَهَا﴾ نصبٌ على الظرفية، أي: وَسْطَ تلك الجنةِ وأثناءها ﴿تَفْجِيرًا ۝٩١﴾ كثيراً. والمراد: إمَّا إجراءُ الأنهارِ خلالَها عند سقيها، أو إدامةُ إجرائها كما يُنبئ الفاء.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ الجِرمَ المعلوم ﴿كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ جمع كِسْفة، كقِطعة وقِطَع، لفظاً ومعنًى، وهو حالٌ من السماء.

والكافُ في «كما» في محلِّ النصبِ على أنَّه صفةُ مصدرٍ محذوف، أي: إسقاطاً مماثلاً لما زعمت، يعنُون بذلك قولَه تعالى: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩].

وزعم بعضُهم أنَّهم يعنون ما في هذه السورةِ من قولِه تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الآية: ٦٨] وليس بشيءٍ.

وقيل: إنَّ المعنى: كما زعمت أنَّ ربَّك إن شاءَ فعل. وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى في خبر ابنِ عباس.

وقرأ مجاهد: «يَسقطَ السماءُ» بياء الغَيبة ورفعِ «السماء»[٣].

---

(١) البحر ٦/ ٧٩.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٣.

(٣) القراءات الشاذة ص ٧٧، والبحر ٦/ ٧٩.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ ويعقوب: «كِسْفاً» بسكون السينِ في جميع القرآن إلّا في «الرُّوم»، وابنُ عامر إلّا في هذه السُّورة، ونافعٌ وأبو بكرٍ في غيرهما، وحفصٌ فيما عدا «الطُّور»، في قول. وفي «النَّشر»[1] أنَّهم اتَّفقوا على إسكان السينِ في «الطور» وهو إمَّا مخفَّف من المفتوح؛ لأنَّ السكونَ من الحركة مطلقاً، كسِدْر وسِدَر، أو هو فِعْلٌ صفةٌ بمعنى مفعول، كالطِّحْن بمعنى المطحون، أي: شيئاً مكسوفاً، أي: مقطوعاً.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: مقابِلاً، كالعشير والمعاشِرِ. وأرادوا ـ كما أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباس ـ عياناً[2]، وهذا كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وفي روايةٍ أخرى عن الحَبر والضحَّاك تفسيرُ القبيلِ بالكفيل، أي: كفيلاً بما تدَّعيه، يعنون شاهداً يشهد لك بصحَّة ما قلته، وضماناً يضمن ما يترتَّب عليه، وهو على الوجهَين حالٌ من الجلالة، وحالُ «الملائكةِ» محذوفةٌ لدَلالة الحالِ المذكورةِ عليها، أي: قُبَلاء، كما حُذف الخبرُ في قوله:

ومن يكُ أمسى في المدينة رحلُه فإني وقيَّارٌ بها لغريبُ[3]

وذكر الطبرسيُّ عن الزجَّاج أنَّه فسَّر «قبيلاً» بـ: مقابلةً ومعاينة، وقال: إنَّ العربَ تُجريه في هذا المعنى مُجرَى المصدر، فلا يثنَّى ولا يُجمع ولا يؤنَّث[4]، فلا تغفُل.

وعن مجاهد: القبيلُ الجماعةُ كالقبيلة، فيكون حالاً من «الملائكة».

وفي «الكشف» جعله حالاً من الملائكة لقُرب اللفظ وسدادِ المعنى؛ لأنَّ المعنى: تأتي بالله تعالى وجماعةٍ من الملائكة، لا: تأتي بهما جماعةً، ليكون حالاً

---

(١) ٢/ ٣٠٩.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٣.

(٣) قائله ضابئ بن الحارث البرجمي، كما في الكتاب ١/ ٧٥، والحماسة البصرية ٢/ ٥٦، والخزانة ١٠/ ٣١٢-٣٢٠، وسلف ٧/ ١٨٣، ٣٣٦.

(٤) مجمع البيان ١٥/ ٩٧، وانظر معاني القرآن للزجاج٣/ ٢٥٩-٢٦٠.

على الجمع، إذ لا يراد معنى المعيةِ معه تعالى، أَلَا ترى إلى قولِهِ سبحانه حكايةً عنهم: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١] والقرآنُ يفسِّر بعضُه بعضاً. انتهى.

وقرأ الأعرج: «قِبَلاً»(١) من المقابلة. وهذا يؤيِّد التفسيرَ الأوَّل.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ من ذهب، كما رُوي عن ابن عباسٍ وقتادةَ وغيرِهما، وأصلُه الزينة، وإطلاقُه على الذهب؛ لأنَّ الزينةَ به أرغبُ وأعجب.

وقرأ عبدُ الله: «من ذهب»، وجعل ذلك في «البحر»(٢) تفسيراً لا قراءة؛ لمخالفته سوادَ المصحف.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد في معارجها، فحذف المضاف، يقال: رقَى في السُّلَّم والدرجة، والظاهرُ أنَّ السماءَ هنا المُظِلَّة.

وقيل: المرادُ المكانُ العالي، وكلُّ ما ارتفع وعلا يسمَّى سماءً، قال الشاعر:

وقد يسمَّى سماءً كلُّ مرتفعٍ وإنَّما الفضلُ حيث الشمسُ والقمرُ(٣)

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي: لأجل رقيِّك فيها وحدَه، أو لن نصدِّقَ رقيَّك فيها ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ﴾ منها ﴿عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ بلُغتنا على أُسلوب كلامِنا وفيه تصديقُك.

﴿قُلْ﴾ تعجُّباً من شدَّة شكيمتهم، وفَرطِ حماقتهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أو قل ذلك تنزيهاً لساحة الجلالِ عمَّا لا يكاد يليقُ بها من مِثل هذه الاقتراحات، التي تضمَّنت ما هو من أَعظمُ المستحيلات، كإتيان اللهِ تعالى على الوجه الذي اقترحوه، أو عن طلبِ ذلك. وفيه تنبيهٌ على بطلانِ ما قالوه.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابن عامر: «قال سبحانَ ربِّي»(٤) أي: قال النبيُّ ﷺ.

﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ كسائر الرُّسلِ عليهم السلام، وكانوا لا يأتون

(١) البحر المحيط ٦/ ٨٠.
(٢) ٦/ ٨٠.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٨٠، وزهر الأكم ٢/ ٩٠ دون نسبة، ونسبه العماد الكاتب في الخريدة (٢/ ١١٧ قسم شعراء المغرب) إلى ابن اللبانة الداني الأندلسي.
(٤) التيسير ص ١٤١، والنشر ٢/ ٣٠٩.

قومَهم إلَّا بما يُظهره اللهُ تعالى على أيديهم حَسْبما تقتضيه الحِكمة، من غير تفويضٍ إليهم فيه، ولا تحكُّمٍ منهم عليه سبحانه.

و«بشراً» خبرُ كان، و«رسولاً» صفتُه، وهو معتمدُ الكلام، وكونُه بشراً توطئةٌ لذلك، ردًّا لما أنكروه من جواز كونِ الرَّسول بشراً، ودلالةً على أنَّ الرسلَ عليهم السلام من قبلُ كانوا كذلك، ولهذا قال الزمخشريّ[١]: هل كنتُ إلَّا رسولاً كسائر الرسلِ بشراً مثلَهم.

وزعم بعضٌ أنَّ ذِكرَ «بشراً» ليس للتَّوطئة، فإنَّ طلب القومِ منه عليه الصلاة والسلام ما طلبوه يحتمل أن يكونَ طلبَ أن يأتيَ به بقدرة نفسِه ﷺ، ويحتمل أن يكونَ طلبَ أن يأتيَ به بقدرة اللهِ تعالى، فذكر «بشراً» لنفي أن يأتيَ بذلك بقدرة نفسِه، كأنَّه قال: هل كنتُ إلَّا بشراً، والبشرُ لا قدرةَ له على الإتيانِ بذلك، وذَكَرَ «رسولاً» لنفي أن يأتيَ به بقدرة اللهِ تعالى، كأنَّه قيل: هل كنتُ إلَّا رسولاً والرسولُ لا يتحكَّم على ربِّه سبحانه.

وتعقِّب بأنَّ هذا مع ما فيه من مخالفةِ الآثارِ ـ كما ستعلمه قريباً إن شاءَ اللهُ تعالى ـ ظاهرٌ في جعل الاسمين خبرَين، وهو مما يأباه الذَّوقُ السليم.

وقال الخَفاجي[٢]: إنَّ كونَ الاسمين خبرين غيرُ متوجِّه؛ لأنَّه يقتضي استقلالَهما، وأنَّهم أنكروا كلًّا منهما حتى ردَّ عليهم بذلك، ولم يُنكِر أحدٌ بشريَّته ﷺ.

وتعقِّب بأنَّهم لمَّا طلبوا منه عليه الصلاة والسلام ما لا يتأتَّى من البشر، كالرُّقيِّ في السماءِ، كانوا بمنزلة مَن أنكر بشريَّته. وهو كما ترى.

وجوَّز بعضُهم كونَ «بشراً» حالاً من النكرة، وسوَّغ ذلك تقدُّمُه عليها، وهو ركيك؛ لأنَّه يقتضي أن له ﷺ حالاً آخَرَ غيرَ البشرية، ولا يقول بذلك أحد، اللهم إلَّا أن يكونَ من الوجودية.

هذا والظاهرُ اتِّحاد القائلِ لجميع ما تقدَّم، ويحتمل عدمَ الاتِّحاد، بأن يكونَ

---

(١) في الكشاف ٦/ ٦١.
(٢) في حاشيته ٦/ ٦١.

بعضٌ اقترح شيئاً وبعضٌ آخَرُ اقترح آخَرَ، لكن نُسب القولُ إلى الجميع لرضا كلٍّ بما اقترح الآخر.

وأخرج سعيد بنُ منصور وغيرُه عن ابن جُبيرٍ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلخ نزل في عبد اللهِ بن أبي أُمية، وهو ظاهرٌ في أنَّه القائل، ولا يعكِّر عليه ضميرُ الجمع؛ لِمَا أشرنا إليه.

وأخرج ابنُ إسحاق وجماعةٌ عن ابن عباسٍ ﵄: أنَّ عتبة وشيبةَ ابنَي ربيعة، وأبا سفيانَ بنَ حرب، والأسودَ بن المطلب، وزمعةَ بنَ الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهلٍ، وعبدَ اللهِ بنَ أبي أمية، وأمية بن خلف، وناساً آخَرين اجتمعوا بعد غروبِ الشَّمس عند الكعبة، فقال بعضُهم لبعض: ابعثوا إلى محمدٍ فكلِّموه حتى تُعذِروا فيه، فبعثوا إليه، فجاءهم ﷺ سريعاً وهو يظنُّ أنَّهم قد بدا لهم في أمره بَداء، وكان عليهم حريصاً، يحبُّ رُشدَهم ويَعِزُّ عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمَّد، إنَّا قد بعثنا إليك لنُعذِرَك، وإنَّا واللهِ ما نعلم رجلاً من العربِ أدخلَ على قومه ما أَدخلتَ على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعِبت الدِّين، وسفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرَّقت الجماعة، فما بقي من قبيحٍ إلَّا وقد جئتَه فيما بيننا وبينك، فإن كنتَ إنَّما جئت بهذا الحديثِ تطلب مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ إنَّما تطلب الشرفَ فينا، سوَّدناك علينا، وإنْ كنت تريد ملكاً، ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيكَ بما يأتيك رئيًّا تراه قد غلب عليك، بذلنا أَموالنَا في طلب الطبِّ، حتى نُبرئَك منه أو نُعذِرَ فيك. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُكم بما جئتكم به أَطلب أموالَكم ولا الشرفَ فيكم ولا الملكَ عليكم، ولكنَّ اللهَ تعالى بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكونَ لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتُكم رسالةَ ربِّي ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ، أَصبر لأمرِ اللهِ تعالى حتى يَحكمَ الله تعالى بيني وبينكم». فقالوا: يا محمَّد، فإنْ كنتَ غيرَ قابلٍ منَّا ما عرضنا عليك، فقد علمتَ أنَّه ليس أحدٌ من الناس أضيقَ بلاداً ولا أقلَّ مالاً ولا أشدَّ عيشاً منا، فاسأل ربَّك الذي بعثكَ بما بعثك به فليسيِّر عنا هذه الجبالَ التي ضيَّقَت علينا، وليَبسُط لنا بلادنا، وليُجرِ فيها أنهاراً كأنهار الشامِ

والعراق، ولْيبعثْ لنا مَن قد مضَى من آبائنا، وليكن فيمن يبعثُ لنا منهم قصيُّ بن كلاب، فإنَّه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول حقٌّ هو أم باطل، فإنْ صنعتَ ما سألناك وصدَّقوك صدَّقناك وعرفنا به منزلتَك عند اللهِ تعالى، وأنَّه بعثك رسولاً.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما بهذا بُعثت، إنَّما جئتكم من عند اللهِ تعالى بما بعثني به، فقد بلَّغتكم ما أُرسلت به إليكم، فإنْ تقبلوه فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليّ، أصبرْ لأمر اللهِ تعالى حتى يحكم اللهُ تعالى بيني وبينكم» قالوا: فإنْ لم تفعلْ لنا هذا، فخذ لنفسك، فاسأل ربَّك أن يبعثَ مَلَكاً يصدِّقك بما تقول، فيراجعنا عنكَ، وتسأله أن يجعلَ لك جِناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهبٍ وفضة، ويُغنيك بها عمَّا نراك تبتغي، فإنَّك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاشَ كما نلتمسه، حتى نعرفَ منزلتَك من ربِّك إن كنتَ رسولاً كما تزعم. فقال ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكنَّ اللهَ تعالى بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتُكم به، فهو حظُّكم في الدُّنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليّ، أَصبرْ لأمر اللهِ تعالى حتى يحكمَ اللهُ تعالى بيني وبينكم» قالوا: فتُسقط السماءَ كما زعمتَ أنَّ ربَّك إن شاء فعل، فإنَّا لن نؤمنَ لك إلَّا أن تفعل. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «ذلك إلى اللهِ تعالى، إنْ شاءَ فعل بكم ذلك» فقالوا: يا محمَّد، فاعلم[1] ربَّك أنَّا سنجلس معك ونسألُك عمَّا سألناك عنه ونطلبُ منك ما نطلب، فيتقدَّم إليك ويُعلِّمك ما تراجعنا به، ويُخبرك بما هو صانعٌ في ذلك بنا إذا لم نقبلْ منك ما جئتَنا به، فقد بلغنا أنَّه إنما يعلِّمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له: الرَّحمن، وإنَّا واللهِ لا نؤمن بالرَّحمن أبداً، فقد أَعذرنا إليك يا محمد، أَمَا واللهِ لا نتركَكَ وما فعلتَ بنا حتى نُهلكَك أو تُهلكَنا، وقال قائلُهم: لن نؤمنَ لك حتى تأتي بالله والملائكةِ قبيلاً، فلمَّا قالوا ذلك، قام رسولُ اللهِ ﷺ عنهم، وقام معه عبدُ اللهِ بنُ أبي أميةَ فقال: يا محمد، عَرَضَ عليك قومُك ما عرضوا، فلم تقبلْه منهم، ثم سألوكَ لأنفسهم أموراً يتعرَّفوا بها منزلتَك من اللهِ تعالى، فلم تفعلْ، ثم سألوك أن تعجِّلَ ما تخوِّفهم به من العذاب، فواللهِ لا نؤمن بك أبداً حتى تتخذَ إلى السماءِ

---

(١) كذا في الأصل و(م) والسير لابن إسحاق ص ١٩٩، ولعلها محرفة عن: فما علم. كما في تفسير الطبري ١٥/ ٨٩، وجاء في سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٧، وتفسير القرطبي ١٣/ ١٧٤: أفما علم.

سلَّماً، ثم ترقَى فيه وأنا أنظر، حتى تأتيَها وتأتيَ معك بنسخة منشورةٍ معك بأربعةٍ من الملائكةِ يشهدون لك أنَّك كما تقول، وايمُ اللهِ لو فعلتَ ذلك لَظننتُ أني لَأصدِّقك. ثم انصرف، وانصرف رسولُ اللهِ ﷺ إلى أهله حزيناً أَسفاً لِمَا فاته ممَّا كان طَمِعَ فيه من قومه حين دَعَوه ولِمَا رأى من مباعدتهم، فأُنزل عليه هذه الآياتُ وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾ الآية [الرعد: ٣٠] وقولُه سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية [الرعد: ٣١]. اهـ. واللهُ تعالى أعلم.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: الذين حُكيت أباطيلُهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ مفعولُ «مَنَعَ»، وقولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ظرفُ «منع»، أو «يؤمنوا»، أي: ما منعهم وقتَ مجيءِ الوحي المقرونِ بالمعجزات المستدعيةِ للإيمان أنْ يؤمنوا بالقرآن وبنبوَّتك، أو: ما منعهم أن يؤمنوا وقتَ مجيءِ ما ذُكر ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ فاعل «منع»، أي: إلَّا قولُهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ منكرين أن يَكونَ رسولُ اللهِ عليه الصلاة والسلام من جِنس البشر.

وليس المرادُ أنَّ هذا القولَ صدر عن بعضٍ فمنع آخَرين، بل المانعُ هو الاعتقادُ الشاملُ للكلِّ المستتبعُ لهذا القولِ منهم. وإنَّما عبَّر عنه بالقول، إيذاناً بأنه مجرَّد قولٍ يقولونه بأفواههم، من غير أن يكونَ له مفهومٌ ومصداق.

وحَصْرُ المانعِ فيما ذُكر مع أنَّ لهم موانعَ شتَّى؛ لِمَا أنَّه معظمُها، أو لأنَّه هو المانعُ بحسب الحال، أعني عند سماعِ الجوابِ بقوله تعالى: (هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا) إذ هو الذي يتشبَّثون به حينئذٍ من غير أن يخطرَ ببالهم شبهةٌ أخرى من شُبَههم الواهية، وفيه ـ على هذا ـ إيذانٌ بكمال عنادِهم، حيث يشير إلى أنَّ الجوابَ المذكورَ مع كونه حاسماً لموادِّ شبههم، مقتضياً للإيمان، يعكسون الأمرَ ويجعلونه مانعاً. قاله بعضُ المحقِّقين.

وظاهرُ ذلك أنَّ القومَ لا يقولون برسالة أحدٍ من الرُّسل المشهورين، كإبراهيمَ وموسى عليهما السلام، أصلاً. وصرَّح بعضُهم بأنهم لم يُنكِروا إرسالَ غيرِه ﷺ منهم، وبأنَّ قولَهم هذا كان تعنُّتاً. وهذا خلافُ الظاهرِ هنا، ولعل القومَ كانوا في ريبٍ وتردُّد لا يستقيمون على حال، فتدبَّر.

والظاهر أنَّ الآيةَ إخبارٌ منه عزَّ مجدُه عن الأمر المانعِ إيَّاهم عن الإيمان، ويظهر من كلامِ ابن عطيةَ(١) أنَّ هذا الكلامَ منه عليه الصلاة والسلام، قاله على معنى التوبيخِ والتلهُّف. وحاشا مَن له أدنَى ذوقٍ من أن يذهبَ إلى ذلك.

﴿قُل﴾ لهم أوّلاً من قِبَلنا تبييناً للحكمة، وتحقيقاً للحقِّ المزيحِ للرَّيب: ﴿لَّوْ كَانَ﴾ أي: لو وُجد ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلَ البشر ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يمشي البشر، ولا يطيرون إلى السماءِ فيسمعوا من أهلها ويَعلَموا ما يجب عِلمُه ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنينَ مقيمين فيها. وقال الجبَّائي: أي: مطمئنِّين إلى الدنيا ولذَّاتها، غيرَ خائفين ولا متعبِّدين بشرع؛ لأن المطمئنَّ مَن زال الخوفُ عنه.

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ يعلِّمهم ما لا تستقلُّ قُدَرُهم بعلمه؛ ليسهل عليهم الاجتماعُ به والتلقِّي منه، وأمَّا عامةُ البشر، فلا يَسهلُ عليهم ذلك، لبُعد ما بين المَلَكِ وبينهم، فلا يُبعث إليهم وإنَّما يبعث إلى خواصِّهم؛ لأنَّ الله تعالى قد وهبهم نفوساً زكيَّة، وأيَّدهم بقُوًى قدسيَّة، وجعل لهم جهتين: جهةً مَلَكية، بها من المَلَك يَستفيضون، وجهةً بشرية، بها على البشر يُفيضون، وجَعْلُ كلِّ البشرِ كذلك مُخِلٌّ بالحكمة.

وإنزالُ المَلَك عليهم على وجهٍ يسهل التلقِّي منه بأن يظهرَ لهم بصورة بشرٍ كما ظهر جبريلُ عليه السلام مِراراً في صورة دِحيةَ الكلبيّ(٢)، وقد صحَّ(٣) أن أعرابيّاً جاء وعليه أثرُ السفرِ إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن الإسلام والإيمانِ والإحسان وغيرِها، فأجابه عليه الصلاة والسلام بما أجابه، ثم انصرف ولم يعرفْه أحدٌ من الصحابة ﷺ، فقال ﷺ: «هذا جبريلُ جاءكم يعلِّمكم أمرَ دينكم» = ممَّا(٤) لا يُجدي نفعاً لأولئك الكَفَرة، كما قال تعالى جَدُّه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٦.
(٢) سلف ص ١٠٤ من هذا الجزء.
(٣) صحيح البخاري (٥٠)، وصحيح مسلم (٨)، وسلف تخريجه ١/ ٢٩٥.
(٤) خبر لقوله: وإنزال الملك.

وقيل: علَّة تنزيلِ المَلَك عليهم أنَّ الجِنس إلى الجنس أميل، وهو به آنس. ولعل الأوَّلَ أَوْلى وإن زُعم خلافُه.

وحكى الطبرسيُّ(١) عن بعضهم أنَّه قال في الآية: إنَّ العربَ قالوا: كنَّا ساكنين مطمئنِّين، فجاء محمدٌ (ﷺ) فأزعجنا وشوَّش علينا أمرنا. فبيَّن سبحانه أنَّه لو كان ملائكةٌ مطمئنين، لأوجبت الحكمةُ إرسالَ الرسلِ إليهم، ولم يمنع اطمئنانُهم الإرسال، فكذلك الناسُ لا يمنع كونُهم مطمئنِّين إرسالَ الرسلِ إليهم. وأنت تعلم أنَّ هذا بمراحلَ عن السِّياق، ولا يصحُّ فيه أثرٌ كما لا يخفَى على المتتبِّع.

ونَصْبُ «ملكاً» يحتمل أن يكونَ على الحاليَّة من «رسولاً» الواقعِ مفعولاً لـ «نزَّلنا»، وسوَّغ ذلك التقدُّم، ويحتمل أن يكونَ على المفعولية لـ «نزَّلنا» و«رسولاً» صفةٌ له. وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ورجَّح غيرُ واحدٍ الأوَّل بأنَّه أكثرُ موافقةً للمقام وأنسب.

ووجَّه ذلك القطبُ وصاحبُ «التقريب» بأنَّه على الحالية يُفيد المقصودَ بمنطوقه، وعلى الوصفية يُفيد خلافَ المقصودِ بمفهومه، أمَّا الأول؛ فلأنَّ منطوقه: أَبعث اللهُ تعالى رسولاً حالَ كونِه بشراً لا مَلَكاً، و: لنزَّلنا عليهم رسولاً حالَ كونِه مَلَكاً لا بشراً. وهو المقصود، وأمَّا الثاني؛ فلأنَّ التقييد بالصفة يفيد: أَبعث اللهُ تعالى بشراً مرسَلاً لا بشراً غيرَ مرسل، و: لنزَّلنا عليهم مَلَكاً مرسلاً لا ملكاً غيرَ مرسل. وهو خلافُ المقصود، بل غيرُ مستقيم.

وقال صاحبُ «الكشف» تبعاً لشيخه العلَّامة الطيبيِّ في ذلك: لأنَّ التقديم إزالةٌ عن موضعه الأَصليّ دلالةً على أنه مصبُّ الإنكار في الأوَّل، أعني: أَبعث اللهُ بشراً رسولاً، فيدلُّ على أنَّ البشرية منافيةٌ لهذا الثابت، أعني الرِّسالة، كما تقول: أَضربتَ قائماً زيداً، ولو قلت: أَضربتَ زيداً قائماً، أو القائم، لم يُفِد تلك الفائدة؛ لأنَّ الأولَ يفيد أنَّ المنكَرَ ضربُه قائماً لا الضربُ مطلقاً، والثاني يُفيد أنَّ المنكَرَ ضربُ زيدٍ لاتِّصافه بهذه الصفةِ المانعةِ، ولا يفيد أنَّ أصلَ الضربِ حسنٌ ومسلَّم والجهةُ منكَرة، هذا إن جُعل التقديمُ للحصر، وإن جُعل للاهتمام، دلَّ على كونه

---

(١) في مجمع البيان ١٥/ ١٠٠.

مصبَّ الإنكار وإن لم يدلَّ على ثبوت مقابله. وعلى التقديرَين فائدةُ التقديمِ لائحة. اهـ. وهو أكثرُ تحقيقاً.

واستشكل بعضُهم هذه الآيةَ بأنَّها ظاهرةٌ في أنَّه إنما يُرسل إلى كلِّ قبيلٍ ما يناسبه ويجانسه، كالبشر للبشر، والمَلَك للملك، ولا يُرسل إلى قبيلٍ ما لا يناسبه ولا يجانسه، وهو ينافي كونَه ﷺ مرسَلاً إلى الجنِّ كالإنس إجماعاً معلوماً من الدِّين بالضرورة، فيكفر منكِرُه، ومَن نازع في ذلك فقد وَهَم.

وأُجيب بمنع كونِها ظاهرةً في ذلك، بل قُصارى ما تدلُّ عليه أنَّ القوم أنكروا أن يبعثَ اللهُ تعالى إلى البشر بشراً، وزعموا أنَّه يجب أن يكونَ المبعوثُ إليهم مَلَكاً، ومَرامُهم نفيُ أن يكونَ النبيُّ ﷺ مبعوثاً إليهم، فأُجيبوا بما حاصلُه أنَّ الحكمة تقتضي بعثَ الملكِ إلى الملائكة؛ لوجود المناسبةِ المصحّحة للتلقِّي، لا إلى عامَّة البشر؛ لانتفاءِ تلك المناسبة، فأمرُ الوجوبِ الذي يزعمونه بالعكس، وليس في هذا أكثرُ من الدَّلالة على أنَّ أمر البعثِ منوطٌ بوجود المناسبة، فمتى وُجدت صحَّ البعث، ومتى لم توجَد لا يصحُّ البعث، وأنَّها موجودةٌ بين المَلَك والملك، لا بينه وبينَ عامَّة البشرِ كالمنكِرين المذكورين، وهذا لا ينافي بعثتَه ﷺ إلى الجنّ؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام متى صحَّ فيه المناسبةُ المصحِّحة للاجتماع مع المَلَك والتلقِّي منه، صحَّ فيه المناسبةُ المصحِّحةُ للاجتماع مع الجِنِّ والإِلقاءِ إليهم، كيف لا وهو عليه الصلاة والسلام نسخةُ اللهِ تعالى الجامعة، وآيتُه الكبرى الساطعة، وإذا قلنا: إنَّ اجتماعَه عليه الصلاة والسلام بالجِنِّ وإلقاءَه عليهم بعد تشكُّلهم له، فأمرُ المناسبةِ أظهر، وليس تشكُّل الملكِ لو أُرسل إلى البشر بمُجدٍ؛ لما سمعتَ آنفاً.

ويقال نحوُ هذا في إرساله ﷺ إلى الملائكة؛ لِمَا فيه عليه الصلاة والسلام من قوَّة الإلقاءِ إليهم، كالتلقِّي منهم، وإلى كونه عليه الصلاة والسلام مرسَلاً إليهم ذهب من الشافعية تقيُّ الدين السُّبكي والبارزيُّ والجلالُ المحلِّي في «خصائصه»، ومن الحنابلة ابنُ تيميةَ، وابنُ مفلح في كتاب «الفروع»، ومن المالكية عبدُ الحقِّ، وقال كابن تيمية: لا نزاعَ بين العلماءِ في جنس تكليفِهم بالأمر والنَّهي.

وقال إبراهيمُ اللقَاني: لا شكَّ في ثبوت أصلِ التكليفِ بالطاعات العملية في حقِّهم، وأمَّا نحوُ الإيمان، فهو فيهم ضروريّ، فيستحيل تكليفُهم به.

وقال السُّبكي في «فتاويه»[1]: الجنُّ مكلَّفون بكلِّ شيءٍ من هذه الشَّريعة؛ لأنَّه إذا ثبت أنَّه عليه الصلاة والسلام مرسلٌ إليهم كما هو مرسلٌ إلى الإنس، وأنَّ الدعوةَ عامةٌ والشريعةَ كذلك، لزمتهم جميعُ التكاليفِ التي توجد فيهم أسبابُها؛ إلَّا أن يقومَ دليلٌ على تخصيص بعضِها، فنقول: إنَّه يجب عليهم الصلاةُ والزكاةُ إن ملكوا نصاباً بشرطه، والحجُّ وصومُ رمضانَ، وغيرُها من الواجبات، ويحرم عليهم كلُّ حرامٍ في الشريعة، بخلاف الملائكة، فإنَّا لا نلتزم أنَّ هذه التكاليفَ كلَّها ثابتةٌ في حقِّهم إذاً قلنا بعموم الرِّسالة إليهم، بل يحتمل ذلك ويحتمل الرسالةَ في شيءٍ خاصّ. اهـ.

ولا مانعَ من أن يكلِّفَهم كلَّهم بما جاءه من ربِّه جلَّ جلالُه بواسطة بعضِهم، على أنَّه ليس كلُّ ما جاء به عليه الصلاة والسلام حاصلاً بوساطة المَلَك، فيمكن أن يكونَ ما كُلِّفوا به لم يكن بوساطة أحدٍ منهم.

وأنكر بعضُهم إرسالَه ﷺ إليهم، وبعدم الإرسالِ إليهم جزم الحليميُّ والبيهقيُّ من الشافعية، ومحمودُ بن حمزةَ الكرمانيُّ في كتابه «العجائب والغرائب» من الحنفية، بل نقل البرهان النسفيُّ والفخر الرازيُّ في تفسيرَيهما الإجماعَ عليه، وجزم به من المتأخِّرين زينُ الدِّين العراقيُّ في نكته على ابن الصَّلاح[2]، والجلالُ المحلِّي في شرح «جمع الجوامع»[3].

وصريحُ آيةِ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] إذ العالَم ما سوى اللهِ تعالى وصفاتِه، وخبرُ مسلمٍ: «أُرسلت إلى الخلق كافة»[4] يؤيِّد المذهبَ الأول. نعم استدل أهلُ هذا المذهبِ بما استدلُّوا به، وفيه ما فيه.

وقد ادَّعى بعضُ الناس أنَّ الآية تؤيِّد مذهبهم؛ لأنَّه تعالى خصَّ فيها المَلَكَ بالإرسال إلى الملائكة، فيتعيَّن أن يكونَ هو الرسولَ إليهم لا البشر، سواءٌ كان بينه وبينهم مناسبةٌ أم لا، وقد سمعتَ ما نُقل عن العلَّامة القطبِ وصاحبِ «التقريب» من أنَّ المراد: لَنزَّلنا عليهم رسولاً حالَ كونِه مَلَكاً لا بشراً.

---

(١) ٢/ ٦٢٣.
(٢) التقييد والإيضاح ص ٢٥٤.
(٣) ذكره العطار في حاشيته على شرح المحلي ٢/ ١٩٧ نقلاً عن العراقي.
(٤) صحيح مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأُجيب بأنَّه بعد إرخاء العِنانِ لا تدلُّ الآيةُ إلَّا على تعيُّن إرسالِ المَلَك إلى الملائكة إذا كانوا في الأرض يمشون مطمئنِّين بدلَ البشر، ولا يَلزم منه ألَّا يصحَّ إرسال البشرِ إليهم إذا لم يكونوا كذلك؛ لجواز أن يكونَ حكمةَ التعيُّن في الصورة الأولى - سوى المناسبةِ المترتِّب عليها سهولةُ الاجتماعِ والتلقِّي - شيءٌ آخَرُ لا يوجد في الصُّورة الثانية، وذلك أنَّه إذا كان أهلُ الأرضِ ملائكةً وأُرسل إليهم بشرٌ له قوَّة الإلقاء إليهم والإفاضةِ عليهم، نحوُ إرسالِ رُسُل البشرِ عليهم السلام إليهم، صَعُبَ بحسَب الطبعِ على ذلك الرسولِ بقاؤه معهم زمناً يعتدُّ بهم، كما يبقى رسلُ البشرِ مع البشر كذلك، إلَّا أن يجعلَ مشاركاً لهم فيما جُبلوا عليه ويُلحقَ بهم، وهو أشبهُ شيءٍ بإخراجه عن الطبيعة البشريةِ بالمرَّة، فيكون العدولُ عن إرسال مَلَكٍ إلى إرساله أشبهَ شيءٍ بالعبث المنافي للحكمة. اهـ. فتدبَّر، فلعل اللهَ سبحانه يمنُّ عليك بما يروي الغليل، وتأمَّل في جميع ما تقدَّم، فلعلك توفَّق بعَون اللهِ تعالى إلى الجَرح والتعديل.

﴿قُلْ﴾ لهم ثانياً من جهتك بعد ما قلتَ لهم من قِبَلنا ما قلت، وبيَّنتَ لهم ما تقتضيه الحكمةُ في البعثة، ولم يرفعوا إليه رأساً: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ عزَّ وجلَّ وحدَه ﴿شَهِيدًۢا﴾ على أنِّي قد أدَّيت ما عليَّ من مواجب الرِّسالة أكملَ أداء، وأنَّكم فعلتم ما فعلتم من التكذيبِ والعناد.

وقيل: شهيداً على أني رسولُ اللهِ تعالى إليكم بإظهار المعجزةِ على وَفق دعواي.

ورجِّح الأوَّلُ بأنه أَوفقُ بقوله تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ وكذا بقوله سبحانه تعليلاً للكفاية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ أي: الرسلِ والمرسَل إليهم ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ أي: محيطاً بظواهرهم وبواطنِهم، فيجازيهم على ذلك.

وزعم الخفاجيُّ(١) أنَّ الثاني أوفقُ بالسِّباق منه، إذ يكون الكلامُ عليه كالسابق ردّاً لإنكارهم أن يكونَ الرسولُ بشراً. وإلى ذلك ذهب الإمام(٢)، وأنَّ كونَ الأولِ

(١) في حاشيته ٦/ ٦٢.
(٢) في التفسير الكبير ٢١/ ٦٠.

أوفقَ بقوله تعالى: (إِنَّهُۥ كَانَ) إلخ لا وجهَ له؛ لأنَّ معناه التهديدُ والوعيدُ بأنَّه سبحانه يعلم ظواهرَهم وبواطنهم، وأنَّهم إنَّما ذكروا هذه الشُّبهةَ للحسد وحبِّ الرِّياسة والاستنكافِ عن الحقّ، وفيه من التسليةِ لحبيبه ﷺ ما فيه.

وأنت تعلم أنَّ إنكارَ كونِ الأوَّل أوفقَ بذلك ممَّا لا وجهَ له؛ لظهور خلافِه، ولا ينافيه تضمُّنُ الجملةِ الوعيدَ والتسلية، وأيضاً يبقَى أمرُ أوفقيَّته بـ «بيني وبينكم» في البَين، ومع ذلك في تصدير الكلامِ بـ «قُلْ» نوعُ تأييدٍ لإرادة الأوَّل، كما لا يخفَى على الذَّكي. هذا وإنَّما لم يقلْ سبحانه: بيننا، تحقيقاً للمفارقة، وإبانةً للمباينة.

ونصبُ «شهيداً» إمَّا على الحال، أو على التمييز.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ كلامٌ مبتدأ غيرُ داخلٍ في حيِّز «قل» يفصِّل ما أشار إليه الكلامُ السابقُ من مجازاة العباد؛ لِمَا أنَّ علمَه تعالى في مثل هذا الموضعِ مستعملٌ بمعنى المجازاة، أي: مَن يَهدِ اللهُ تعالى إلى الحقِّ ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ إليه وإلى ما يؤدِّي إليه من الثَّواب، أو المهتدي إلى كلِّ مطلوب. والأكثرون حذفوا ياءَ المهتدي.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يخلق فيه الضلالَ لسوءِ اختياره وقبحِ استعداده، كهؤلاء المعاندين ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أنصاراً ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عزَّ وجلَّ يهدونهم إلى طريق الحقّ، أو إلى طريقٍ يوصلهم إلى مطالبهم الدنيويةِ والأخروية، أو إلى طريق النجاةِ من العذاب الذي يستدعيه ضلالُهم، على معنى: لن تجدَ لأحدٍ منهم وليّاً، على ما يقتضيه قضيةُ مقابلةِ الجمعِ بالجمع من انقسام الآحادِ على الآحاد، على ما هو المشهور.

وقيل: قال سبحانه: «أولياء» مبالغةً؛ لأنَّ الأولياءَ إذا لم تنفعْهم فكيف الوليُّ الواحد؟ وضميرُ «لهم» عائدٌ على «مَن» باعتبار معناه، كما أنَّ «هو» عائدٌ عليه باعتبار لفظِه، فلذا أُفرد الضميرُ تارةً وجُمع أخرى. وفي إيثار الإفراد والجمعِ فيما أُوثرا فيه تلويحٌ بوحدة طريقِ الحقِّ وقلَّةِ سالكيهِ، وتعدُّدِ سبل الضَّلال وكثرةِ الضُّلَّال.

وذكر أبو حيَّان[١] ـ وتبعه بعضُهم ـ أنَّ الجملة الثانيةَ من المواضع التي جاءَ فيها الحملُ على المعنى ابتداءً من غير أن يتقدَّمَه الحملُ على اللفظ، وهي قليلةٌ في القرآن.

---

(١) في البحر ٦/ ٨٢.

وتعقَّب ذلك الخَفاجيُّ[١] بأنه لا وجهَ له، فإنَّه حمل فيها الضميرَ على اللفظ أوَّلاً، إذ في قوله تعالى: (يُضْلِلْ) ضميرٌ محذوفٌ مفرَد، إذ تقديرُه: يُضْلِله، على الأصل، وهو راجعٌ إلى لفظ «مَن»، فلا يقال: إنه لم يتقدَّمه حملٌ على اللفظ. ثم قال: وأغربُ من ذلك ما قيل: إنَّه قد يقال: إنَّ الحملَ على اللفظِ قد تقدَّمه في قوله سبحانه: «من يهد الله» وإن كان في جملةٍ أخرى. اهـ.

وفيه أنَّ وجهَه جَعْلُ أبي حيانَ «مَن» مفعولَ «يضلل» كما نصَّ عليه في «البحر»[٢] وكذا نصَّ على أنَّها في الجملة الأُولى مفعولُ «يهد» وحينئذٍ ليس هناك ضميرٌ مفرد محذوفٌ كما لا يخفَى، فتفطَّن.

وجوِّز كونُ الجملتين داخلتَين في حيِّز «قل» لمجيءِ «ومَن» بالواو، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ أوفقُ بالأوَّل، وفيه التفاتٌ من الغَيبة إلى التكلُّم؛ للإيذان بكمال الاعتناءِ بأمر الحشر، وعلى الاحتمالِ الثاني يجعل حكايةً لِمَا قاله اللهُ تعالى له عليه الصلاة والسلام.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ حين يقومون من قبورهم ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ في موضع الحالِ من الضمير المنصوب، أي: كائنين عليها، إمَّا مشياً، بأن يزحفوا[٣] منكبِّين عليها، ويشهد له ما أخرجه الشيخان[٤] وغيرُهما عن أنسٍ قال: قيل: يا رسولَ الله، كيف يُحشر الناسُ على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادرٌ على أن يُمشيَهم على وجوههم».

والمراد: كيف يُحشر هذا الجنسُ على الوجه؛ لأنَّ ذلك خاصٌّ بالكفار، وغيرُهم يحشر على وجهٍ آخَر. فقد أخرج أبو داود[٥]، والترمذيُّ وحسَّنه[٦]، وابن جَرير[٧]، وغيرُهم عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يُحشَر الناسُ يومَ

---

(١) في حاشيته ٦/ ٦٢.

(٢) ٦/ ٨١.

(٣) في الأصل و(م): يزحفون، والمثبت هو الجادة.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٦٠)، وصحيح مسلم (٢٨٠٦).

(٥) لعله الطيالسي، فهو في مسنده (٢٥٦٦).

(٦) في جامعه (٣١٤٢).

(٧) في تفسيره ١٧/ ٤٥٠. وهو عند أحمد (٨٦٤٧).

القيامة على ثلاثةِ أصناف: صنف مشاة، أي: على العادة، وصنف رُكبان، وصنف على وجوههم» قيل: يا رسولَ الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنَّ الذي أَمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يمشيَهم على وجوههم، إنَّهم يتَّقون بوجوههم كلَّ حَدَبٍ وشوك».

وإمَّا سحباً، بأن تجرَّهم الملائكةُ منكبِّين عليها، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر:٤٨] ويشهد له ما أخرجه أحمد، والنَّسائي، والحاكمُ وصحَّحه[1] عن أبي ذرٍّ أنَّه تلا هذه الآية: (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ) إلخ فقال: حدَّثني الصادقُ المصدوقُ ﷺ «أنَّ الناسَ يُحشَرون يومَ القيامةِ على ثلاثة أفواج: فوج طاعمين كاسين راكبين، وفوج يمشون ويسعَون، وفوج تسحبهم الملائكةُ على وجوههم».

وأخرج أحمدُ، والنَّسائي، والتِّرمذيُّ وحسَّنه[2] عن معاويةَ بنِ حَيْدَةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّكم تُحشَرون رِجَالاً ورُكباناً وتجرُّون على وجوهكم».

ولْيُطلَبْ وجهُ الجمع، فإنْ لم يوجد، فالمعوَّل عليه ما شهد له حديثُ الشيخين، ولا تعيِّن الآيةُ - أعني قولَه تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ - الثاني؛ لأنَّ القرآنَ يفسِّر بعضُه بعضاً، لأنَّها في حالهم بعدَ دخولِ النار، وما هنا في حالهم قبلُ، فتغايرا.

وزعم بعضُهم أنَّ الكلامَ على المجاز، وذلك كما يقال للمنصرف عن أمرٍ خائباً مهموماً: انصرفَ على وجهه، فالمراد: ونحشرهم يومَ القيامةِ مهمومين خائبين، وكأنَّ الداعيَ لهذا الارتكابِ أنَّه قد رُوي عن ابن عباسٍ حملُ الأحوالِ الآتيةِ على المجاز، وحينئذٍ تكون جميعُ الأحوالِ على طِرزٍ واحد، ولا يخفَى عليك، فإياك أن تلتفتَ إلى تأويلٍ نَطقَت السنةُ النبويةُ بخلافه، ولا تعبأْ بقومٍ يفعلون ذلك.

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أحوالٌ من الضمير المستكِنِّ في الجارِّ والمجرورِ الواقعِ حالاً أولاً.

---

(١) مسند أحمد (٢١٤٥٦)، وسنن النسائي ٤/١١٦-١١٧، والمستدرك ٢/٣٦٧-٣٦٨.

(٢) مسند أحمد (٢٠٠١١)، وسنن النسائي الكبرى (١١٣٦٧)، وسنن الترمذي (٣١٤٣).

وفي «إرشاد العقل السليم» أنها أحوالٌ من الضمير المجرورِ في الحال السابقة[١]، والأوَّل أبعدُ عن القيل والقال.

وجوَّز أبو البقاءِ[٢] كونَ ذلك بدلاً من تلك الحال. وهو كما ترى.

واستظهر أبو حيَّان[٣] كونَ المرادِ مما ذُكر حقيقتَه، ويكونُ ذلك في مبدأ الأمر، ثم يردُّ الله تعالى إليهم أبصارَهم ونطقَهم وسمعَهم، فيرون النارَ ويسمعون زفيرَها، وينطقون بما حكى اللهُ تعالى عنهم في غيرِ موضع. نعم قد يُختَم على أفواههم في البَين.

وقيل: هو على المجاز، على معنى أنَّهم لفَرط الحَيرةِ والذُّهول يُشبهون أصحابَ هذه الصِّفات، أو على معنى أنَّهم لا يرون شيئاً يسرُّهم ولا يسمعون كذلك ولا ينطقون بحجَّة، كما أنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يستبصرون ولا يَنطِقون بالحقِّ ولا يسمعونه. وأخرج ذلك ابنُ جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباس[٤]، ورُوي أيضاً عن الحسن، فنُزِّل ما يقولونه ويسمعونه ويُبصرونه منزلةَ العدم؛ لعدم الانتفاعِ به، ولا يعكِّر عليه أنَّ بعضَ الآياتِ يدلُّ على سلب بعضِ القُوى عنهم؛ لاختلاف الأوقات.

وقيل: عُمْياً عن النَّظر إلى ما جعل اللهُ تعالى لأوليائه، بُكماً عن الكلامِ معه سبحانه، صُمًّا عما مدح اللهُ تعالى به أولياءه.

وقيل: يحصل لهم ذلك حقيقةً بعدَ قولِه تعالى لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

وعلى هذا تكونُ الأحوالُ مقدَّرة، كقوله تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مستقرُّهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ على تقدير جَعلهِ حالاً، ويحتمل أن يكونَ استئنافاً، وقولُه سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ يحتمل أيضاً الاستئناف، ويحتمل أن يكونَ حالاً

---

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ١٩٧.
(٢) في الإملاء ٣/ ٤٩٨-٤٩٩.
(٣) في البحر ٦/ ٨٢.
(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٩٣-٩٤، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي الدر ٤/ ٢٠٤.

من «جهنَّمَ» كما قال أبو البقاءِ[١]، وجعل العاملَ في الحالِ معنى المأوى، وقال الطبرسيّ[٢]: هو حالٌ منها؛ لأنَّها توضع [موضعَ] متلظٍّ ومتسعِّر، ولولا ذلك ما جُعل حالاً منها.

وجوِّز جعلُه حالاً مما جُعلت الجملةُ الأولى منه، لكن بعد اعتبارِها في النظم، والرابطُ الضميرُ المنصوب في «زدناهم»، وهو كما ترى، والاستئنافُ أقلُّ مؤونة.

والخَبْو ـ وكذا الخُبُوُّ، بضمَّتين وتشديد، وهما مصدرا: خَبَت النار ـ سكونُ اللهب. قال في «البحر»[٣]: يقال: خبت النارُ تخبو: إذا سكن لهبُها، وخمدت: إذا سكن جمرُها وضَعُف، وهمدت: إذا طفئت جملة.

وقال الراغب[٤]: خبت النار: سكن لهبُها وصار عليها خِباءٌ من رماد، أي: غِشاء.

وفي «القاموس» تفسيرُ خَبَت بسكنت وطفئت، وتفسيرُ طفئت بذَهَبَ لهبها[٥]. وفيه مخالفةٌ لما في «البحر»، والأكثرون على ما فيه.

ومن الغريب ما أخرجه ابنُ الأنباريِّ[٦] عن أبي صالحٍ من تفسير «خبت» في الآية بحميت، وهو خلافُ المشهورِ والمأثور.

والسعيرُ: اللهب، والمعنى: كلَّما سكن لهبُها بأن أكلت جلودَهم ولحومَهم ولم يبقَ ما تتعلَّق به النارُ وتُحرقه، زدناهم لهباً وتوقُّداً بأن أَعدناهم على ما كانوا، فاستعرت النارُ بهم وتوقَّدت.

أخرج ابن جَريرٍ وابنُ المنذر وغيرُهما عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال في الآية: إنَّ الكفرةَ وَقودُ النار، فإذا أحرقتهم فلم يبقَ شيء، صارت جمراً تتوهَّج، فذلك

(١) في الإملاء ٣/ ٤٩٩.
(٢) في مجمع البيان ١٥/ ١٠٢، وما بين حاصرتين منه.
(٣) ٦/ ٦٨.
(٤) في المفردات (خبو).
(٥) القاموس (خبو)، (طفئ).
(٦) في الأضداد ص ١٥٠.

خبوُّها، فإذا بُدِّلوا خلقاً جديداً عاودتهم[1]. ولعلَّ ذلك - على ما قاله بعض الأجِلَّة - عقوبةً لهم على إنكارهم الإعادةَ بعد الإفناء، بتكرُّرها مرةً بعد الأخرى؛ ليرَوها عياناً حيث لم يروها برهاناً، كما يُفصح عنه ما بعد.

واستشكل ما ذُكر بأنَّ قولَه تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦] يدلُّ على أنَّ النارَ لا تتجاوز عن إنضاجهم إلى إحراقهم وإفنائهم، فيعارض ذلك.

وأَجاب بعضُهم بأنَّ تبديلَهم جلوداً غيرَها بإحراقها وإفنائها وخلقِ غيرها، فكأنَّه قيل: كلَّما نضجت جلودُهم، أَحرقناها وأفنيناها وخلقنا لهم غيرَها.

وبعضٌ بأنَّ المراد: كلَّما نضجت جلودُهم كمالَ النضج بأن يبلغَ شَيُّها إلى حدٍّ لو بقيت عليه لا يُحسُّ صاحبُها بالعذاب - وهو مرتبةُ الاحتراق - بدَّلناهم إلخ. ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال الخَفاجي[2]: أُجيب بأنَّه يجوز أن يحصلَ لجلودهم تارةً النضجُ وتارةً الإفناء، أو كلٌّ منهما في حقِّ قوم، على أنَّه لا سدَّ لباب المجاز بأن يجعلَ النُّضج عبارةً عن مطلق تأثيرِ النار، إذ لا يحصل في ابتداء الدخولِ غيرُ الإحراق دونَ النُّضج. اهـ.

ولا يخفَى ما في قوله: بأن يجعلَ النُّضج عبارةً عن مطلق تأثيرِ النار، من المساهلة، وفي قوله: إذ لا يحصل... إلخ منعٌ ظاهر. وذَكَرَ أنَّه أُورد على الجواب الأوَّل أنَّ كلمة «كلَّما» تنافيه. وفيه بحث، فتأمَّل.

وربما يتوهَّم أنَّ بين هذه الآيةِ وقولِه تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ١٦٢] تعارضاً؛ لأن الخبوَّ يستلزم التخفيف. وهو مدفوعٌ بأنَّ الخبوَّ سكونُ اللهبِ كما سمعت، واستلزامُه تخفيفَ عذابِ النار ممنوع. على أنَّا لو سلَّمنا الاستلزام، فالعذابُ الذي لا يخفَّف ليس منحصراً بالعذاب بالنار والإيلامِ بحرارتها، وحينئذٍ فيمكن أن يعوَّضَ ما فات منه بسكون اللهبِ بنوعٍ آخَرَ من العذاب ممَّا لا يعلمه إلَّا الله تعالى.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٩٦، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٠٤.

(٢) في حاشيته ٦/ ٦٣.

وذكر الإمامُ[(١)] أنَّ قولَه سبحانه: «زدناهم سعيراً» يقتضي ظاهرُه أنَّ الحالةَ الثانية أزيدُ من الحالة الأُولى، فتكون الحالةُ الأولى تخفيفاً بالنِّسبة إلى الحالة الثانية. وأجاب بأنَّه حصل في الحالة الأولى خوفُ حصولِ الثانية، فكان العذابُ شديداً. ويحتمل أن يقال: لمَّا عَظُمَ العذاب، صار التفاوتُ الحاصلُ في أثنائه غيرَ مشعورٍ به، نعوذ بالله تعالى منه. اهـ.

وقد يقال: ليس في الآية أكثرُ من ازدياد توقُّدهم، ولعلَّه لا يستلزم ازديادَ عذابهم، والمرادُ من الآية: كلَّما أُحرقوا أُعيدوا، إلَّا أنه عبَّر بما عبَّر للمبالغة. ويُشير إلى كون المرادِ ذلك قولُه تعالى: «زدناهم» دونَ زدناها، فتدبَّر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: العذابُ المفهومُ من قوله سبحانه: «كلما خبت زدناهم سعيراً» أو إلى جميع ما ذُكر من حشرهم على وجوههم عُمياً وبكماً وصمّاً.. إلخ، والمفهومُ ممَّا ذكرنا مندرجٌ فيه ﴿جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنَّهم ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآنيةِ والآفاقية، الدالَّةِ على صحَّة الإعادة دلالةً واضحة، أو على صحَّة ما أَرسلناك به مطلقاً، فيشمل ما ذكر.

و«ذلك» مبتدأ، و«جزاؤهم» خبرُه، والظرفُ متعلِّق به. وجوَّز أن يكونَ «جزاؤهم» مبتدأً ثانياً والظرفُ خبره، والجملةُ خبرٌ لـ «ذلك». وأن يكونَ «جزاؤهم» بدلاً من «ذلك»، أو بياناً، والخبرُ هو الظرف. وقيل: «ذلك» خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الأمرُ ذلك، وما بعده مبتدأٌ وخبر. وليس بشيء.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ منكِرين أشدَّ الإنكار: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ هو في الأصل - كما قال الراغب[(٢)] - كالفُتات: ما تكسَّر وتفرَّق من التِّبن. والمراد هنا: بالين متفرِّقين ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ۝٩٨﴾ إما مصدرٌ مؤكِّد من غير لفظِه، أي: لَمبعوثون بعثاً جديداً، وإمَّا حال، أي: مخلوقين مستأنفين.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: ألم يتفكَّروا ولم يعلموا أنَّ اللهَ تعالى الذي قَدَرَ على خلق هذه الأَجرامِ والأجسامِ الشديدةِ العظيمة التي

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/٦١.

(٢) في المفردات (رفت).

بعضُ ما تحويه البشر ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ من الإنس، أي: ومَن هو قادرٌ على ذلك كيف لا يقدر على إعادتهم وهي أهونُ عليه جلَّ وعلا؟

وقال بعضُ المحقِّقين: «مِثل» هنا مثلُها في: مِثلُك لا يبخل، أي: قادرٌ على أن يخلقَهم، والمرادُ بالخلق الإعادة، كما عبَّر عنها أوَّلاً بذلك حيث قيل: «خلقاً جديداً» ولا يخلو عن بُعد.

وزعم بعضُهم أنَّ المراد: قادرٌ على أن يخلقَ عبيداً آخرين يوحِّدونه تعالى، ويقرُّون بكمال حكمتِه وقدرتِه، ويتركون ذِكرَ هذه الشُّبهاتِ الفاسدة، كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩﴾ [إبراهيم:١٩] وقولِه سبحانه: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة:٣٩] وفيه أنَّه لا يلائم السِّياق، كما لا يخفَى على ذوي الأذواق.

ثم اعلمْ أنَّ ظاهرَ الآيةِ أنَّ الكفرةَ أنكروا إعادتَهم يومَ القيامةِ على معنى جمعِ أجزائهم المتفرِّقةِ وعظامِهم المتفتِّتة، وتأليفها وإفاضةِ الحياةِ عليها كما كانت في الدُّنيا، فهو الذي عَنَوه بقولهم: «أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً» بعد قولِهم: «أئذا كنا عظاماً ورفاتاً» فردَّ عليهم بإثبات ذلك بطريقٍ برهانيّ.

وعلى هذا تكون الآيةُ أحدَ أدلَّة مَن يقول: إنَّ الحشر بإعادة أجزاءِ الأبدان التي تتفرَّق ـ كأبدان ما عدا الأنبياءَ عليهم السلام، ومَن لم يعمل خطيئةً قط، والمؤذِّنين احتساباً، ونحوِهم ممَّن حُرِّمت أجسادُهم على الأرض كما جاءَ في الأخبار(١) ـ وجمعِها بعد تفرُّقها، وعَنَوا بذلك الأجزاءَ الأصلية، وهي الحاصلةُ في أوَّل الفطرةِ حالَ نفخِ الرُّوح، وهي عندهم محفوظةٌ من أن تصيرَ جزءاً لبدنٍ آخَرَ، فضلاً عن أن تصيرَ جزءاً أصليّاً له.

والذاهبون إلى هذا هم الأقلّ، وحكاه الآمديُّ بصيغة قيل، لكن رجَّحه الفخر الرازيُّ وذَكَرَ أنَّ الأكثر على أنَّ الله سبحانه يعدم الذواتِ بالكلِّية ثم يُعيدها، وقال: إنَّه الصحيح. وكذا قال البدرُ الزَّركشي، وذكر اللقَانيُّ أنه قولُ أهلِ السنَّة والمعتزلةِ القائلين بصحَّة الفناءِ والعدمِ على الأجسام، بل بوقوعه، وإن اختلفوا في أنَّ ذلك هل هو بحدوثِ ضِدّ، أو بانتفاءِ شرط، أو بِلا ولا.

---

(١) حديث تحريم أجساد الأنبياء على الأرض أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي ٣/ ٩١-٩٢، وابن ماجه (١٠٨٥) عن أوس بن أوس رضي الله عنه. وسترد هذه الأخبار ١٧/ ١٠٢.

فذهب إلى الأخير القاضي[1] من أهل السنَّة وأبو الهذيلِ من المعتزلة، قالا: إنَّ اللهَ تعالى يُعدِم ما يريد إعدامَه على نحو إيجادِه إياه، فيقول له ـ عند أبي الهذيل ـ: اِفنَ، فيفنَى، كما يقول له: كن، فيكون.

وذهب جمهورُ المعتزلةِ إلى الأوَّل، فقالوا: إنَّ فناءَ الجوهرِ بحدوث ضدٌّ له، وهو الفناءُ، ثم اختلفوا، فذهب ابنُ الإخشِيد[2] إلى أنَّ اللهَ تعالى يخلق الفناءَ في جهةٍ من جهات الجواهر، فتعدم الجواهرُ بأسرها، وقال ابنُ شبيب: إنَّه تعالى يُحدِث في كلِّ جوهرٍ بعينه فناءً يقتضي عدمَ الجوهرِ في الزمان الثاني، وذهب أبو عليٍّ وأبو هاشمٍ وأتباعُهما إلى أنَّ اللهَ تعالى يُعدِم الجوهرَ بخلق فناءٍ لا في محلٍّ معيَّن منه، ثم اختلفا، فقال أبو عليٍّ وأتباعُه: إنَّ اللهَ سبحانه يخلق فناءً واحداً لا في محلّ، فيُفني به الجواهرَ بأسرها، وقال أبو هاشمٍ وأتباعُه: إنَّه تعالى يخلق لكلِّ جوهرٍ فناءً لا في محلّ.

وذهب إمامُ الحرمين وأكثرُ أهلِ السنَّة وبشرٌ المريسيُّ والكعبيُّ من المعتزلة إلى الثاني، ثم اختلفوا في تعيين الشَّرط، فقال بِشر: إنَّه بقاءٌ يخلقه سبحانه لا في محلّ، فإن لم يخلقه عُدِم الجوهر. وقال الأكثرُ والكعبيّ: إنه بقاءٌ قائمٌ بالجوهر يخلقه جلَّ وعلا فيه حالاً فحالاً، فإذا لم يخلقْه تعالى فيه انتفَى الجوهر. وقال إمامُ الحرمين: إنَّه الأعراضُ التي يجب اتِّصافُ الجسمِ بها، فإنَّ اللهَ تعالى شأنُه يخلقها في الجسم حالاً فحالاً، فمتى لم يخلقْها سبحانه فيه انعدم. وقال النظَّام: إنَّه خلقُ اللهِ تعالى الجوهرَ حالاً فحالاً، فإنَّ الجواهرَ عنده لابقاءَ لها، بل هي متجدِّدة بتجدُّد الأعراض، فإذا لم يُوالِ عزَّ مجدُه على الجوهر خَلْقَه فَني.

وأنت تعلم أنَّ أكثرَ هذه الأقاويلِ من قَبيل الأباطيل، سيما القولُ بأنَّ الفناءَ أمرٌ محقَّق في الخارج ضدٌّ للبقاء قائمٌ بنفسه أو بالجوهر، وكونُ البقاءِ موجوداً لا في محلّ. ولعل وجهَ البطلانِ غنيٌّ عن البيان.

---

(١) هو أبو بكر الباقلاني، وكلامه ـ وكذا ما سيأتي من أقوال ـ في شرح المقاصد للتفتازاني ٥/ ٩٨ فما بعدها.

(٢) هو العلامة أبو بكر أحمد بن علي بن بيغجور الإخشيد، شيخ المعتزلة. كان يدري الحديث، وله تواليف في الفقه والنحو والكلام. توفي سنة (٣٢٦هـ). السير ١٥/ ٢١٧.

واحتجُّوا لهذا المذهبِ بقوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] وقولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] وأجابوا عن الآية بأنَّ الكفار اكتفَوا بأقلِّ اللازمِ وأرادوا المبالغةَ في الإنكار؛ لأنَّه إذا لم يُمكن بزعمهم الحشرُ بعد كونِهم عظاماً ورُفاتاً، فعدمُ إمكانه بعد فنائهم بالمرَّة أظهرُ وأظهر.

وفيه أنَّ هلاكَ كلِّ شيءٍ خروجُه عن صفاته المطلوبةِ منه، والتفرُّق كذلك، فيقال له هلاك، ويسمَّى أيضاً فناءً عرفاً، فالاحتجاجُ بالآيتين غيرُ تامّ، وأنَّ ما قالوه في الجواب عن الآية خلافُ الظاهر. ولا يَرِد عليهم أنَّ إعادةَ المعدومِ محالٌ لِمَا ذكره الفلاسفةُ من الأدلَّة؛ لِمَا ذكره المسلمون في إبطالها.

ومِن الناس مَن قال: إنَّ عَجْبَ الذَّنَب لا يفنَى وإن فَنيَ ما عداه من أجزاءِ البدن؛ لحديث الصَّحيحين[(١)]: «ليس من الإنسان شيءٌ إلَّا يبلَى، إلَّا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَب، منه خلق الخلق يومَ القيامة». وفي رواية مسلم[(٢)]: «كلُّ ابنِ آدم يأكله الترابُ إلَّا عَجْبَ الذَّنَب، منه خُلق ومنه يركَّب».

وصحَّح المزنيُّ أنَّه يفنَى أيضاً، وتأوَّل الحديثَ بأنَّ المرادَ منه أنَّ كلَّ الإنسان يبلَى بالتراب ويكون سببَ فنائه إلَّا عَجْبَ الذَّنب، فإنَّ الله تعالى يُفنيه بلا تراب، كما يُميت مَلَكَ الموتِ بلا مَلَكِ موت، والخلقُ منه والتركيبُ يمكن أن يكونَ بعد إعادته، فليس ما ذكر نصّاً في بقائه، ووافقه على ذلك ابنُ قتيبة، وأنت تعلم أنَّ ظواهرَ الأخبارِ تدلُّ على عدم فنائه مطلقاً.

وتوقَّف بعضُ العلماءِ عن الجزم بأحد المذهبَين السابقين في كيفيَّة الحشر. وقال السَّعد[(٣)]: إنَّه الحقّ، وهو اختيارُ إمام الحرمين[(٤)] وفي «المواقف» وشرحِه[(٥)] للسيِّد السَّند: هل يُعدِمُ اللهُ تعالى الأجزاءَ البدنيةَ ثم يُعيدها، أو يفرِّقها ويُعيد فيها التأليف؟ الحقُّ أنَّه لم يثبت في ذلك شيء، فلا جزمَ فيه نفياً ولا إثباتاً، لعدم الدليلِ على شيءٍ من الطرفين.

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٥)، وصحيح مسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) برقم (٢٩٥٥): (١٤٢).

(٣) في شرح المقاصد ٥/ ١٠٠-١٠١.

(٤) في الإرشاد ص٣١٥.

(٥) ٨/ ٢٩٧.

وقال حجَّة الإسلامِ الغزاليُّ في كتاب «الاقتصاد»[1]: فإن قيل: ما تقولون، هل تعدم الجواهرُ والأعراض ثم يعادان جميعاً، أو تعدم الأعراضُ دون الجواهرِ ثم تعاد الأعراضُ فقط؟ قلنا: كلٌّ ذلك ممكن، والحقُّ أنه ليس في الشرع دليلٌ قاطع على تعيين أحدِ الأمرَين الممكنين.

وقال بعضُهم: الحقُّ وقوعُ الأمرين جميعاً: إعادة ما انعدم بعينه، وإعادة ما تفرَّق بأعراضه. وهو حَسَن.

والكلامُ في هذا المقامِ طويلٌ جدّاً، ولعل اللهَ سبحانه وتعالى يمنُّ علينا باستيفائه ولو في مواضعَ متعدِّدة.

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ وهو ميقاتُ إعادتهم وحشرِهم، أو موتِهم، وهو ـ على هذا ـ اسمُ جنس؛ لأنَّ لكلِّ أحدٍ أجلاً للموت يخصُّه، وقد جاءَ إطلاقُ الأجلِ على الموت، ووجهُه أنَّه يطلق على مدَّة الحياةِ وعلى آخِرها، والموتُ مجاورٌ لذلك.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا ينبغي الرَّيبُ فيه والإنكارُ لمن تدبَّره. أو النفيُ على ظاهره. والجملةُ معطوفةٌ على «أو لم يروا» وهي وإن كانت إنشائيةً ـ وفي عطف الإخباريةِ عليها مقال ـ مؤوَّلةٌ بخبرية، والعطفُ على الصِّلة فيما مرَّ متعذِّر؛ للفصل بخبر «أنَّ»، وكذا على ما بعدَ «أنْ» المصدريةِ لفظاً ومعنًى.

والمعنى كما في «الكشف» وغيرِه: قد علموا بدليل العقلِ أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على إعادتهم، وقد جعل أجلاً لها لا ريبَ فيه، فلا بدَّ منها، أي: إذا كان ذلك ممكناً في نفسه واجبَ الوقوعِ بخبر الصادق، لا يبقَى للإنكار معنًى، فإنْ كان الأجلُ بمعنى ميقاتِ إعادتهم، أي: يومَ القيامة؛ لقولهم: «أئذا كنا عظاماً ورفاتاً» وهو الظاهرُ، فهو واضح، وإنْ كان بمعنى الموت، فوجهُه أنَّهم قد علموا إمكانه، وأنَّهم ميِّتون لا محالة، منسلخون من هذه الحياة، وأنه لا بدَّ لهم من جزاء، فلم يُخلَقوا عبثاً، ولم يُتركوا سُدًى، ففيمَ الإنكار؟ وكأنَّه قد اكتفى بالموت عمَّا بعده، لأنَّه أولُ القيامة، ومَن مات فقد قامت قيامتُه[2]، فالعطفُ في التقدير على: قد

(١) ص٢٠٠.

(٢) إشارة إلى حديث سلف ٨/ ١٢٢، وسنده ضعيف.

علموا، ويُعلَم من هذا التقريرِ أنَّ الجامعَ بين الجملتين لصحَّة العطفِ في غاية القوَّة.

وزعم القطبُ أنَّ الأَوْلى العطفُ على ما بعدَ «أنْ» المصدرية، أمَّا أولاً: فلأنَّه أَقرب، وأمَّا ثانياً: فلأنَّ جعل الأجلِ يدخل حينئذٍ تحتَ قدرتِه تعالى وتحتَ علمهم، بخلاف ما إذا عُطف على قوله سبحانه: «أو لم يروا..» إلخ. ولا يخفَى ما فيه على مَن استدارت كُرَةُ فِكرِه على مِحور التحقيق.

﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ الذين كفروا بالآيات وقالوا ما قالوا. ووضع الظاهر موضعَ ضميرِهم؛ تسجيلاً عليهم بالظُّلم وتجاوزِ الحدِّ بالمرَّة ﴿إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ أي: جحوداً.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ أي: خزائنَ نِعَمِه التي أفاضها على كافَّة الموجودات، فالرحمةُ مجازٌ عن النِّعم، والخزائنُ استعارةٌ تحقيقيةٌ أو تخييلية.

و«أنتم» ـ على ما ذهب إليه الحوفيُّ والزمخشريُّ[1] وأبو البقاءِ[2] وابنُ عطية[3] وغيرُهم ـ فاعلٌ لفعلٍ محذوف يفسِّره المذكور؛ لأنَّ «لو» يمتنع أن يليَها الاسم، والأصلُ: لو تملكون تملكون، فلمَّا حُذف الفعلُ انفصل الضمير، ومِثْلُ ذلك قولُ حاتمٍ وقد أُسر فلطمته جارية: لو ذاتُ سِوارٍ لطمتني[4]، وقولُ المتلمِّس[5]:

ولـو غيـرُ أَخـوالـي أرادوا نـقيـصـتـي جعلتُ لهم فوق العرانينِ[6] مِيسَما

وفائدةُ الحذفِ والتفسير ـ على ما قيل ـ الإِيجازُ؛ فإنَّه بعد قصدِ التوكيدِ لو قيل: تملكون تملكون، لَكان إطناباً وتكراراً بحسَب الظاهر. والمبالغةُ؛ لتكرير الإِسناد، أو لتكرير الشَّرط، فإنَّه يقتضي تكرُّرَ ترتُّب الجزاءِ عليه والدَّلالةَ على الاختصاص،

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٦٧-٤٦٨.

(٢) في الإملاء ٣/ ٥٠٠.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٨.

(٤) أي: لو لطمتني حرة؛ لأن السِّوار إنما يكون للحرائر عندهم. حاشية الشهاب ٦/ ٦٣.

(٥) في الأصل و(م): الملتمس، والبيت في الأصمعيات ص٢٤٥، والكامل ١/ ٣٦٣، والخزانة ١٠/ ٥٩.

(٦) جمع العِرنين: وهو الأنف كله، وقيل: رأس الأنف. اللسان (عرن).

وذلك بناءً على أنَّ «أنتم» بعينه ضميرُ «تملكون» المؤخَّر، فهو في المعنى فاعلٌ مقدَّم، وتقديمُ الفاعلِ المعنويِّ يفيد الاختصاصَ إذا ناسب المقام، فيفيد الكلامُ حينئذٍ ترتُّبَ الإمساك. وسيأتي قريباً إن شاءَ اللهُ تعالى المرادُ منه على تفرُّدهم بملك الخزائن، ويُعلَم منه ترتُّبه على ملكها بالاشتراك بالطَّريق الأَوْلى.

وإلى تخريج مثلِ هذا التركيبِ على هذا الطَّرز ذهب البصريُّون، بَيدَ أنَّ أبا الحسن بنَ الضائع وغيرَه صرَّحوا بأنَّهم يمنعون إيلاءَ «لو» فعلاً مضمراً في الفصيح، ويُجيزونه في الضَّرورة وفي نادرِ كلام، ولعل شِعرَ المتلمِّس وَمثَلَ حاتِمٍ عندهم من ذلك، والحقُّ خلافُ ذلك.

وقال أبو الحسن عليُّ بن فضَّال[1] المجاشعي: إنَّ التقدير: لو كنتم أنتم تملكون. وظاهرُه أنَّ أنتم عنده توكيدٌ للضمير المحذوفِ مع الفعل، وليس بشيء.

وقال أبو الحسن بنُ الضائع: إنَّ الأصل: لو كنتم تملكون، فحُذفت كان وحدَها وانفصل الضمير، فهو عنده اسمٌ لكان محذوفةً، وجملةُ «تملكون» خبرُها. وعلى هذا تخرَّج نظائرُه.

قال أبو حيَّان[2] بعد نقل ما تقدَّم: وهذا التخريجُ أَحسن؛ لأنَّ حذفَ «كان» بعد «لو» معهودٌ في لسان العرب.

ولا يخفَى أنَّ الكلامَ على ما سمعتَ أوَّلاً أَفيد، وإن كان الظاهرُ أنَّ الإمساكَ على هذا يكون على استمرار الملك.

والمرادُ من الإِمساك البخل؛ وذلك لأنَّ البخلَ إمساكٌ خاصّ، فلمَّا حُذف المفعولُ ووجِّه إلى نفس الفعلِ بمعنى: لَفعلتم الإمساك، جُعل كنايةً عن أَبلغ أنواعِه وأقبحِها. وإلى كونه كنايةً عمَّا ذُكر ذهب صاحبُ «الفرائد» وغيرُه.

وجوِّز أن يكونَ مضمَّناً معنى البخل. وتعقِّب بأنَّه ليس بشيءٍ لفظاً ومعنًى.

وعلى ما ذكرنا يتخرَّج قولُهم للبخيل: ممسك.

---

(١) في الأصل و(م): فضالة، والمثبت من البحر ٦/ ٨٤، وهو الصواب، وقد سلفت ترجمته ١٣/ ٣٨١.

(٢) في البحر ٦/ ٨٤.

﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أي: مخافةَ الفقر، كما أخرجه ابنُ جَرير وابنُ المنذرِ عن ابنِ عباس[١]، ورُوي نحوُه عن قتادةَ. وإليه ذهب الراغبُ[٢]، قال: يقال: أَنفقَ فلان، إذا افتقر. وأبو عبيدةَ قال: أَنفق وأَملق وأَعدم وأَصرم بمعنًى واحد.

وقال بعضُهم: الإنفاقُ بمعناه المعروف، وهو صرفُ المال، وفي الكلام مقدَّر، أي: خشيةَ عاقبةِ الإنفاق. وجوِّز أن يكونَ مجازاً عن لازمه، وهو النَّفاد.

ونصب «خشية» على أنَّه مفعولٌ له. وجَعْلُه مصدراً في موضع الحال ـ كما جوَّزه أبو البقاءِ[٣] ـ خلافُ الظاهر.

وقد بلغت هذه الآيةُ من الوصف بالشُّحِّ الغايةَ القصوَى التي لا يبلغها الوهم، حيث أَفادت أنَّهم لو ملكوا خزائنَ رحمةِ اللهِ تعالى التي لا تتناهَى وانفردوا بملكها من غيرِ مزاحم، أمسكوها من غير مقتضٍ إلَّا خشيةَ الفقر، وإن شئتَ فوازن بقول الشاعر:

ولَوَ انَّ داركَ أَنبتت لك أرضُها ... إِبَراً يضيق بها فِناءُ المنزلِ
وأتاك يوسفُ يستعيرك إبرةً ... ليَخِيطَ قَدَّ قميصِه لم تفعلِ[٤]

مع أنَّ فيه من المبالغات ما يزيد على العشرة، ترى التفاوتَ الذي لا يُحصَر.

وجعل غيرُ واحدٍ الخطابَ فيها عامّاً، فيقتضي أن يكونَ كلُّ واحدٍ من الناس بخيلاً، كما هو ظاهرُ ما بعد، مع أنَّه قد أثبت لبعضهم الإيثارَ مع الحاجة.

وأُجيب بأنَّ ذلك بالنِّسبة إلى الجَواد الحقيقيِّ والفيَّاض المطلق عزَّ مجدُه؛ فإنَّ الإنسانَ إمَّا ممسكٌ أو منفق، والإنفاقُ لا يكون إلَّا لغرضٍ للعاقل، كعِوَض ماليّ، أو معنوي، كثناءٍ جميل، أو خدمةٍ واستمتاع كما في النفقة على الأهل، أو نحوِ ذلك، وما كان لعِوَض كان مبادلةً لا مباذلة، أو هو بالنظر إلى الأَغلب وتنزيلِ غيرِه منزلةَ العدم، كما قيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٩٨، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٠٤.
(٢) في المفردات (نفق).
(٣) في الإملاء ٣/ ٥٠٠.
(٤) نسبهما صاحب العقد الفريد ٦/ ١٨١ لمحمد بن مسلمة، وصاحبُ الوافي بالوفيات ١٤/ ١٩١-١٩٢ لزرزر الرفاء، وصاحب معاهد التنصيص ٣/ ٢١-٢٢ لابن الرومي.

عَدِّنا في زمانِنا عن حديثِ المكارمِ
مَن كفى الناسَ شرَّه فهو في جُودِ حاتمِ[1]

وهذا الجوابُ عندي أَوْلى من الأوَّل، وعلى ذلك يُحمَل قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ مبالغاً في البخل.

وجاء القَتْر بمعنى تقليلِ النفقة، وهو بإزاء الإسراف وكلاهما مذموم، ويقال: قترت الشيءَ وأقترته وقتَّرته، أي: قلَّلته، وفلان مُقتِر: فقير. وأصل ذلك ـ كما قال الراغبُ[2] ـ من القُتار والقَتَر، وهو الدخانُ الساطعُ من الشِّواء والعُود ونحوِهما، فكأن المقتِر والمقتِّر هو الذي يتناول من الشيءِ قُتارَه.

وقيل: الخطابُ لأهل مكةَ الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوعِ والأنهارِ وغيرِها، والمرادُ من الإنسان كما في القول الأوَّل الجِنس، ولاشكَّ في أنَّ جنسَ الإنسان مجبولٌ على البخل؛ لأنَّ مبنَى أمرِه الحاجة. وقيل: الإنسان المعهود، وعليه الإمام[3].

ووجهُ ارتباطِ الآيةِ بما قبلَها ـ على تخصيص الخطاب ـ أنَّ أهل مكةَ طلبوا ما طلبوا من اليَنبوع والأنهارِ لتكثرَ أقواتُهم وتتَّسعَ عليهم، فبيَّن سبحانه أنَّهم لو ملكوا خزائنَ رحمةِ الله تعالى لَبخلوا وشحُّوا، ولَمَا قَدِموا على إيصال النفعِ لأحد، والمرادُ التشنيعُ عليهم بأنَّهم في غاية الشُّحِّ ويقترحون ما يقترحون، أو المرادُ أنَّ صفتَهم هذه، فلا فائدةَ في إسعافهم بما طلبوا. كذا قال العسكريُّ وغيرُه، فالآيةُ عندهم مرتبطةٌ بقوله تعالى: (وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا) ويكفي على العموم اندراجُ أهلِ مكةَ فيه.

وقال أبو حيَّان[4]: المناسبُ في وجه الارتباطِ أن يقال: إنَّه عليه الصلاة

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٦٤. والبيتان لأبي الحسن محمد بن لنكك البصري، كما في زهر الآداب ١/ ٤٣. وفيه: عدِّيا، بدل: عدنا.

(٢) في المفردات (قتر).

(٣) في التفسير الكبير ٢١/ ٦٣، وقال: وهم الذين قالوا: «لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً».

(٤) في البحر المحيط ٦/ ٨٣-٨٤.

والسلام قد منحه اللهُ تعالى ما لم يمنحْه لأحدٍ من النبوَّة والرِّسالة إلى الإنس والجنّ، فهو ﷺ أحرصُ الناسِ على إيصال الخيرِ إليهم وإنقاذهم من الضَّلال، يثابر على ذلك ويخاطرُ بنفسه في دعائهم إلى الله تعالى، ويَعرض ذلك على القبائل وأحياءِ العرب، سمحاً بذلك لا يطلب منهم أجراً، وهؤلاء أقرباؤه لا يكاد يُجيب منهم أحدٌ إلَّا الواحدُ بعدَ الواحد، قد لجُّوا في عِناده وبغضائه، فلا يصل منهم إليه إلَّا الأذى، فنبَّه تعالى شأنُه بهذه الآيةِ على سماحته عليه الصلاة والسلام وبذلِ ما آتاه الله تعالى، وعلى امتناع هؤلاء أن يصلَ منهم شيءٌ من الخير إليه ﷺ، فهي قد جاءت مبيِّنة تباينَ ما بينَه عليه الصلاة والسلام وبينَهم مِن حرصه على نفعهم، وعدم إيصال شيءٍ من الخير منهم إليه. اهـ.

فالارتباطُ بين الآيةِ وبين مجموعِ الآياتِ السابقة من حيث إنَّها تُشعر بحرصه ﷺ على هدايتهم، ولَعَمري إنَّ هذا ممَّا يأباه الذوقُ السليم والذهنُ المستقيم.

ويحتمل أن يكونَ وجهُ الارتباطِ اشتمالَها على ذمِّهم بالشحِّ المفرِط، كما أنَّ ما قبلها مشتملٌ على ذمِّهم بالكفر كذلك، وهما صفتان سيِّئتان، ضررُ إحداهما قاصرٌ وضررُ الأخرى متعدٍّ، فتأمَّل فلمسلك الذهنِ اتِّساع، واللهُ تعالى أعلمُ بمراده.

ولمَّا حكى سبحانه عن قريشٍ ما حكى من التعنُّت والعنادِ مع رسولِهِ ﷺ، سلَّاه تعالى جَدُّه بما جرى لموسى عليه السلام مع فرعونَ وما صنع سبحانه بفرعونَ وقومِه، فقال عزَّ قائلاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ ظاهرُ السِّياق والنظائرِ يقتضيانِ كونَ المعنى: تسعَ أدلَّةٍ واضحاتِ الدَّلالة على نبوَّة موسى عليه السلام وصحَّة ما جاءَ به من عند اللهِ تعالى، ولا ينافيه أنَّه قد أُوتي من ذلك ما هو أكثرُ مما ذُكر؛ لأنَّ تخصيصَ العددِ بالذِّكر لا يدلُّ على نفي الزائد، كما حقِّق في الأصول. وإلى هذا ذهب غيرُ واحد، إلَّا أنه اختُلف في تعيين هذه التِّسع، ففي بعض التفاسير: هي ـ كما في التَّوراة ـ العصا، ثم الدم، ثم الضفادع، ثم القُمَّل، ثم موتُ البهائم، ثم بردٌ كنارٍ أُنزل مع نار مضطرمةٍ أَهلكت ما مرَّت به من نباتٍ وحَيَوان، ثم جراد، ثم ظُلمة، ثم موتٌ عمَّ كبارَ الآدميين وجميعَ الحيوانات.

وأخرج عبدُ الرزاق، وسعيدُ بن منصور، وابن جَرير، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتمٍ من طرقٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّها العصا، واليدُ، والطُّوفان، والجراد،

والقمَّل، والضَّفادع، والدمُ، والسِّنين، ونقصٌ من الثمرات[(١)]. ورُوي ذلك عن مجاهدٍ والشعبيِّ وقتادةَ وعكرمة.

وتُعقِّب هذا بأنَّ السِّنين والنقصَ من الثمرات آيةٌ واحدة، كما رُوي عن الحسن.

ورُدَّ بأنَّه ليس بالحسن؛ إذ ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] يقتضي المغايرة، فيحمل الأوَّلُ على الجدب في بَوَاديهم، والثاني على النُّقصان في مزارعهم، أو على نحوِ ذلك، وقد تقدَّم الكلامُ فيه، فلا ضيرَ في عدِّهما آيتين.

وأخرج ابن جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ في روايةٍ أخرى عن الحَبر أنَّها: يدُه عليه السلام، ولسانُه، وعصاه، والبحر، والطُّوفان، والجراد، والقمَّل، والضَّفادع، والدم[(٢)].

وفي «الكشَّاف»[(٣)] عنه رضي الله عنه أنَّها: العصا، واليد، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدمُ، والحجر، والبحر، والطورُ الذي نَتَقَه اللهُ تعالى على بني إسرائيل.

وتعقَّبه في «الكشف» بقولِه فيه: إنَّ الحجرَ والطُّور ليسا من الآيات المذهوبِ بها إلى فِرعون، وقال تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل: ١٢] وذَكَر سبحانه في هذه السُّورة: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الآية: ١٠٢] والإشارةُ إلى الآيات، ثم قال: والجواب: جاز أن يكونَ التسعُ البيناتُ بعضاً منها غيرَ البعضِ من تلك التِّسع، وليس في هذه الآيةِ أن الكلَّ لفرعونَ وقومِه، وأما الإشارةُ فإلى البعض بالضَّرورة؛ لأنَّ الكلَّ إنما حصلت على التدريج، وفلقُ البحرِ لم يكن في معرض التحدِّي، بل عندما حقَّ الهلاك. اهـ.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٩٠-٣٩١، وتفسير الطبري ١٥/ ١٠١-١٠٢، والكلام من الدر المنثور ٤/ ٢٠٤.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٩٩ والكلام من الدر المنثور ٤/ ٢٠٤.

(٣) ٢/ ٤٦٨.

ولا يخلو عن ارتكاب خلافِ الظاهر، وما رُوي عن ابن عباسٍ أوَّلاً لائحُ الوجه ما فيه إشكال، ونَسَبَه في «الكشَّاف»[١] إلى الحسن، وهو خلافُ ما وجدناه في الكتب التي يعوَّل عليها في أمثالِ ذلك.

ورُوي أنَّ عمرَ بن عبدِ العزيز عليه الرحمةُ سأل محمدَ بن كعبٍ عن هذه الآيات، فعدَّ ما عدَّ وذَكَرَ فيه الطَّمس، فقال عمر: كيف يكونُ الفقيهُ إلَّا هكذا، ثم قال: يا غلام، أَخرج ذلك الجِراب، فأَخرجه فنفضه، فإذا بيضٌ مكسورٌ بنصفين، وجوزٌ مكسور، وفومٌ وحِمَّص وعدس، كلُّها حجارة.

هذا وظاهرُ بعضِ الأخبار يقتضي خلافَ ذلك. فقد أخرج أحمد، والبيهقيّ، والطبرانيّ، والنَّسائي، وابنُ ماجه، والترمذيُّ وقال: حسنٌ صحيح، والحاكمُ وقال: صحيحٌ لا نعرف له علَّة، وخلقٌ آخَرون، عن صفوانَ بنِ عَسَّال: أنَّ يهوديين قال أحدُهما لصاحبه: اِنطلق بنا إلى هذا النبيِّ نسأله، فأتَياه ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تُشركوا بالله شيئاً، ولا تَزنوا، ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ تعالى إلَّا بالحقّ، ولا تَسرقوا، ولا تَسحَروا، ولا تأكلوا الرِّبا، ولا تمشوا ببريءٍ إلى سلطانٍ ليقتلَه، ولا تقذفوا محصَنة، ولا تفرُّوا من الزَّحف ـ وفي رواية: أو قال: «لا تفرُّوا من الزَّحف» شكَّ شعبة ـ وعليكم يا يهودُ خاصَّةً أن لا تعتدوا في السَّبت» فقبَّلا يديه ورِجليه وقالا: نشهد أنَّك نبيّ.. الخبر[٢].

ومن هنا قيل: المرادُ بالآيات الأحكام، وقال الشِّهاب الخَفاجيّ[٣]: إنه التفسيرُ الصحيح، ووجهُ إطلاقها عليها بأنَّها علاماتٌ على السَّعادة لمن امتثلها والشَّقاوةِ لغيره.

وقيل: أُطلقت عليها لأنَّها نزلت في ضمن آياتٍ بمعنى عباراتٍ دالَّة على

---

(١) مسند أحمد (١٨٠٩٦)، وسنن البيهقي ٨/ ١٦٦، والمعجم الكبير (٧٣٩٦)، وسنن النسائي ٧/ ١١١، وسنن ابن ماجه (٣٧٠٥) مختصراً جدّاً، وجامع الترمذي (٢٧٣٣)، والمستدرك ١/ ٩ وروايةُ شَكِّ شعبة أخرجها أحمد (١٨٠٩٢)، والترمذي (٣١٤٤).

(٢) انظر التخريج السالف.

(٣) في حاشيته ٦/ ٦٥.

المعاني نحو آياتِ الكتاب، فيكون من قبيل إطلاق الدالِّ وإرادةِ المدلول.

وقيل: لا ضيرَ أن يرادَ على ذلك بالآيات العباراتُ الإلهيةُ الدالَّة على تلك الأحكامِ من حيث إنها دالَّة عليها.

وفيه ـ وكذا في سابقه ـ القولُ بإطلاق الآياتِ على ما أُنزل على غير نبيِّنا ﷺ من العبارات الإلهيةِ كإطلاقها على ما أُنزل عليه عليه الصلاة والسلام منها.

واستُشكل بأنَّ الآياتِ في الرِّواية التي لا شكَّ فيها عشرة، وما في الآية المسؤولِ عنها تِسع.

وأُجيب بأنَّ الأخيرَ فيها، أعني: لا تعتدوا في السَّبت، ليس من الآيات؛ لأنَّ المرادَ بها أحكامٌ عامَّة ثابتةٌ في الشرائع كلِّها، وهو ليس كذلك؛ ولذا غيِّر الأسلوبُ فيه، فهو تذييلٌ للكلام وتتميمٌ له بالزِّيادة على ما سألوه ﷺ.

وفي «الكشف» أنَّه من الأُسلوب الحكيم؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لمَّا ذكر التسعَ العامةَ في كلِّ شريعة، ذكر خاصًّا بهم؛ ليدلَّ على إحاطة علمِه ﷺ بالكلّ. وهو حسن، وليس الأسلوبُ الحكيمُ فيه بالمعنى المشهور، فإطلاقُ القولِ بأنَّه ليس من الأسلوبِ الحكيم ـ كما فعل الخَفاجي[1] ـ ليس في محلِّه.

وقال بعضُ الأجلَّة: إنَّ هذه الأشياءَ لا تعلُّق لها بفرعون، وإنَّما أُوتيها بنو إسرائيل، ولعل جوابَه ﷺ بما ذكر؛ لِمَا أنه المهمُّ للسائل، وقَبولَه؛ لمَا أنَّه كان في التوراة مسطوراً، وقد عُلِم أنه ما عَلِمه رسولُ اللهِ ﷺ إلَّا من جهة الوحي. اهـ.

وتعقِّب بأنَّا لا نسلِّم أنه يجب في الآيات المذكورةِ في الآية أن تكونَ ممَّا له تعلُّق بفرعون، وما بعدُ ليس نصًّا في ذلك، نعم هو كالظَّاهر فيه، لكن كثيراً ما تُترك الظواهرُ للأخبار الصحيحة، سلَّمنا أنَّه يجب أن يكونَ لها تعلُّق، لكن لا نسلِّم أنَّ تلك الأحكامَ لا تعلُّق لها؛ لجواز أن يكونَ كلُّها أو بعضُها مما خوطب به فرعونُ وبنو إسرائيلَ جميعاً، لابدَّ لنفي ذلك من دليل، وكأنَّ حاصلَ ما أراد من قوله: لعل جوابه ﷺ إلخ، أنَّ ذلك الجوابَ من الأُسلوب الحكيم، بأن يكونَ موسى عليه

---

(١) في حاشيته ٦/ ٦٥.

السلام قد أُوتي تسعَ آياتٍ بيِّنات بمعنى المعجزاتِ الواضحات، وهي المرادةُ في الآية، وأُوتي تسعاً أخرى بمعنى الأحكام، وهي غيرُ مرادة، إلَّا أن الجوابَ وقع عنها لِمَا ذكر. وهو كما ترى، فتأمَّل.

فمؤيِّدات كلٍّ من التفسيرين، أعني تفسيرَ الآياتِ بالأدلَّة والمعجزاتِ وتفسيرَها بالأحكام، متعارضة، وأقوى ما يؤيِّد الثاني الخبرُ.

﴿فَسْئَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وقرأ جمعٌ: «فسَلْ»[1]. والظاهر أنَّه خطابٌ لنبيِّنا ﷺ، والسؤالُ بمعناه المشهور. إلَّا أن الجمهورَ على أنه خطابٌ لموسى عليه السلام، والسؤالُ إمَّا بمعنى الطلب، أو بمعناه المشهور؛ لقراءة رسولِ الله ﷺ، وأخرجها أحمدُ في «الزُّهد» وابنُ المنذر، وابن جَرير، وغيرُهم عن ابن عباس: «فسَال» على صيغة الماضي بغيرِ همز[2]، كقال، وهي لغةُ قريش، فإنَّهم يُبدِلون الهمزةَ المتحرِّكة؛ وذلك لأنَّ هذه القراءةَ دلَّت على أنَّ السائلَ موسى عليه السلام، وأنَّه مستعقَبٌ عن الإيتاء، فلا يجوز أن يكونَ «فاسأل» خطاباً للنبيِّ ﷺ؛ لئلَّا تتخالفَ القراءتان، ولا بدَّ إذ ذاك من إضمارٍ؛ لئلَّا يختلفا خبراً وطلباً، أي: فقلنا له: اطلبهم من فرعونَ وقل له: أرسِل معي بني إسرائيل، أو: اطلب منهم أن يعاضدوك وتكونَ قلوبُهم وأيديهم معك، أو: سَلْهم عن إيمانهم وعن حال دينِهم، واستفهِم منهم هل هم ثابتونَ عليه أو اتَّبعوا فرعون؟

ويتعلَّق بالقول المضمرِ قولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾ وهو متعلِّق بـ «سَالَ» على قراءته ﷺ، والدليلُ على ذلك المضمرِ في اللفظ قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ﴾ لأنَّه لو كان «فاسأل» خطاباً لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام، لانفكَّ النظم، وأيضاً لا يظهر استعقابُه، ولا تسبُّبه عن إيتاء موسى عليه السلام، نَعَم جعل الذاهبون إلى الأوَّل «فاسأل» اعتراضاً من باب: زيدٌ فاعلمْ فقيه، والفاءُ تكون للاعتراض كالواو، وعلى ذلك قولُه:

واعلم فعِلمُ المرءِ ينفعه ... أنْ سوف يأتي كلُّ ما قُدِرا[3]

(١) هي قراءة ابن كثير والكسائي وخلف كما في النشر ١/ ٤١٤.

(٢) ينظر تفسيرالطبري ١٥/ ١٠٥، والدر المنثور ٤/ ٢٠٥، والكشاف ٢/ ٤٦٨، والبحر ٦/ ٨٥.

(٣) البيت في معاهد التنصيص ١/ ٣٧٧، وسلف ١/ ٤٢٨.

وهذا الوجهُ مستغنٍ عن الإضمار، و«إذ جاءهم» متعلِّق عليه بـ «آتينا» ظرفاً، ولا يصحُّ تعلُّقه بـ : اسأل؛ إذ ليس سؤالُه ﷺ في وقت مجيءِ موسى عليه السلام. قال في «الكشف»: والمعنى: فاسأل يا محمدُ مؤمني أهل الكتابِ عن ذلك، إمَّا لأنَّ تظاهرَ الأدلَّة أقوى، وإمَّا من باب التهييجِ والإلهاب، وإمَّا للدَّلالة على أنه أمرٌ محقَّق عندهم ثابتٌ في كتابهم، وليس المقصودُ حقيقةَ السؤال، بل كونَهم ـ أعني المسؤولين ـ من أهل عِلمِه؛ ولهذا يؤمر مثلُك بسؤالهم. وهذا هو الوجهُ الذي يَجمل به موقعُ الاعتراض.

وجوِّز أن يكونَ منصوباً باذكر مضمَراً على أنَّه مفعولٌ به، وجاز على هذا ألَّا يجعلَ «فاسأل» اعتراضاً، ويُجعلَ اذكر بدلاً عن اسأل؛ لمَا سمعتَ من أنَّ السؤالَ ليس على حقيقته.

وكذا جوِّز أن يكونَ منصوباً كذلك بيُخبروك مضمراً وَقَعَ جوابَ الأمر، أي: سَلْهم يُخبروك إذ جاءهم. ولا يجوز على هذا الاعتراضُ، نعم يجوز الاعتراضُ على هذا بأنَّ أخبر يتعدَّى بالباء أو عن، لا بنفسه، فيجب أن يقدَّر بدلَ الإخبار الذِّكرُ ونحوُه مما يتعدَّى بنفسه. وأمَّا جعلُه ظرفاً له غيرُ صحيح؛ إذ الإخبارُ غير واقعٍ في وقت المجيء.

واعتُرض أيضاً بأنَّ السؤالَ عن الآيات، والجوابُ بالإخبار عن وقت المجيءِ أو ذِكرِه لا يلائمه. ويمكن الجوابُ بأنَّ المرادَ: يُخبروك بذلك الواقعِ وقتَ مجيئه لهم، أو يذكروا ذلك لك. وهو كما ترى.

وبعضُهم جوَّز تعلقَه بيخبروك على أنَّ «إذ» للتعليل، وعلى هذا يجوز تعلُّقُه باذكر.

والمعنى على سائر احتمالاتِ كون الخطابِ لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام: إذ جاء آباءهم؛ إذ بنو إسرائيلَ حينئذٍ هم الموجودون في زمانه ﷺ، وموسى عليه السلام ما جاءهم، فالكلامُ إمَّا على حذفِ مضاف، أو على ارتكاب نوعٍ من الاستخدام[1]. والاحتمالاتُ على تقدير جعل الخطابِ لمن يسمع هي الاحتمالاتُ التي سمعتَ على تقدير جَعلِه لسيِّد السامعين عليه الصلاة والسلام.

---

(١) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضمير مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

والفاءُ في «فقال» على سائر الاحتمالاتِ والأَوجُهِ فصيحة، والمعنى: إذ جاءهم فذهب إلى فرعونَ وادَّعى النبوَّة وأَظهر المعجزةَ وكيتَ وكيت، فقال: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ سُحرتَ فاختلَّ عقلُك؛ ولذلك اختلَّ كلامُك وادَّعيت ما ادَّعيت، وهو كقوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

وقال الفرَّاء والطبريّ: مسحوراً بمعنى ساحراً[١] على النَّسب، أو حقيقة، وهو يناسب قلبَ العصا ونحوَه على تفسير الآياتِ بالمعجزات.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ردًّا لقوله المذكور: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعونُ ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: الآياتِ التِّسع، أو بعضَها. والإشارةُ إلى ذلك بما ذُكر على حدِّ قولِه على إحدى الرِّوايتين:

والـعـيـشَ بـعـد أولـئـك الأيـامِ

وقد مرّ[٢].

﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقُهما ومدبِّرهما.

وحاصل الردِّ أنَّ علمَك بأنَّ هاتيكَ الآياتِ من الله تعالى - إذ لا يَقدِر عليها سواه تعالى - يقتضي أنِّي لست بمسحورٍ ولا ساحر، وأنَّ كلامي غيرُ مختلّ، لكن حبَّ الرِّياسة حملك على العِناد.

وفي التعرُّض لعُنوان الرُّبوبية إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَها من آثار ذلك، وفي «البحر»[٣]: ما أحسنَ إسنادَ إنزالِها إلى ربِّ السماواتِ والأرض؛ إذ هو عليه السلام لمَّا سأله فرعونُ في أوَّل محاورتِه فقال له: وما ربُّ العالمين؟ قال: ربُّ السماواتِ والأرض، تنبيهاً على نقصه وأنَّه لا تصرُّفَ له في الوجود، فدعواه الربوبيةَ دعوَى مستحيل، فبكَّته وأَعلمه أنَّه يعلم آياتِ الله تعالى ومَن أنزلها، ولكنَّه مكابرٌ معاند، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وخاطَبَه بذلك على سبيل التوبيخ، أي: أنت بحالِ مَن يعلم هذه، أو هي من

(١) تفسير الطبري ١٥/١٠٦، والبحر ٦/٨٦.
(٢) ١٤/٥١٠.
(٣) ٦/٨٦.

الوضوحِ بحيث تعلمها، وليس خطابُه على جهة إِخباره عن عِلمه أو العلمِ بعلمه ليكونَ إفادةَ لازمِ الخبر، كقولكَ لمن حفظَ التوراة: حفظتَ التوراة.

وقرأ عليٌّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، وزيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما، والكِسائي: «لقد عَلِمتُ» بضمِّ التاء[(١)]، فيكون موسى عليه السلام قد أَخبر عن نفسه أنَّه ليس بمسحورٍ كما زعم عدوُّ اللهِ تعالى وعدوُّه، بل هو يعلم أنْ ما أنزل تلك الآياتِ إلَّا خالقُ السماواتِ والأرض ومدبِّرُها.

ورُوي عن الأمير كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنه قال: واللهِ ما علم عدوُّ اللهِ تعالى، ولكن موسى عليه السلام هو الذي علم.

وتعقَّبه أبو حيانَ[(٢)] بأنَّه لا يصحّ؛ لأنه رواه كلثومٌ المرادي، وهو مجهول، وكيف يقول ذلك بابُ مدينةِ العلم كرَّم اللهُ تعالى وجهَه، ووجهُ نسبةِ العلم إليه ظاهر.

وقد ذكر الجلال السيوطيُّ في «الدُّر المنثور»[(٣)] أنَّ سعيدَ بن منصورٍ وابنَ المنذر وابنَ أبي حاتمٍ أخرجوا عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنَّه كان يقرأ بالضمِّ ويقول ذلك، ولم يتعقَّبه بشيء، ولعل هذا المجهولَ الذي ذكره أبو حيَّان في أسانيدهم، واللهُ تعالى أعلم.

وجملةُ «ما أنزل» إلخ معلَّق عنها سادَّة مسدَّ [مفعولي][(٤)] «علمت».

وقولُه تعالى: ﴿بَصَآئِرَ﴾ حالٌ من «هؤلاء»، والعاملُ فيه «أنزل» المذكورُ، عند الحوفيِّ وأبي البقاءِ[(٥)] وابنِ عطية[(٦)]، وما قبلَ «إلَّا» يعمل فيما بعدها إذا كان مستثنًى منه أو تابعاً له، وقد نصَّ الأخفشُ والكسائيُّ على جواز: ما ضَرَبَ هنداً إلَّا زيدٌ ضاحكةً، ومذهب الجمهورِ عدمُ الجواز، فإنْ ورد ما ظاهرُه ذلك أُوِّل عندهم

---

(١) البحر ٦/ ٨٦، وقراءة الكسائي في التيسير ص١٤١، والنشر ٢/ ٣٠٩.

(٢) في البحر ٦/ ٨٦.

(٣) ٤/ ٢٠٥.

(٤) زيادة يقتضيها السياق، وانظر حاشية الشهاب ٦/ ٦٦.

(٥) الإملاء ٣/ ٥٠١.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٨٩.

على إضمار فعلٍ يدلُّ عليه ما قبلُ، والتقديرُ هنا: أنزلها بصائر، أي: بيناتٍ مكشوفاتٍ تبصِّرك صدقي، على أنَّه جمعُ بصيرةٍ بمعنى مبصِرة، أي: بيِّنة، وتطلق البصائرُ على الحُجَج بجعلها كأنَّها بصائرُ العقول، أي: ما أنزلها إلَّا حُججاً وأدلَّةً على صدقي، وتكون بمعنى العِبرة كما ذكره الراغب[١].

هذا ولا يخفَى عليك أنَّه إذا كان المرادُ من الآياتِ التسعِ ما اقتضاه خبرُ صفوانَ السابق، يجوز أن تكونَ «هؤلاء» إشارةً إلى ما أَظهره عليه السلام من المعجزات، ويُعتبر إظهارُ ذلك فيما يُفصح عنه الفاءُ الفصيحة، وإن أبيتَ إلَّا جعلَها إشارةً إلى الآيات المذكورةِ بذلك المعنى لتحقُّق جميعِها من أوَّل الأمرِ وثبوتِها وقتَ المحاورةِ وشدَّةِ ملاءمة الإنزالِ لها، احتجتَ إلى ارتكاب نوعِ تكلُّفٍ فيما لا يخفَى عليك.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ أي: هالكاً، كما رُوي عن الحسن ومجاهد، على أنَّه من ثَبَرَ اللازم بمعنى هلك، ومفعولٌ فيه[٢] للنَّسب، بناءً على أنه يأتي له من اللازم والمتعدِّي، وفَسَّره بعضُهم بمهلَكاً، وهو ظاهر.

وعن الفرَّاء[٣] أنَّه قال: أي: مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشرّ، من قولهم: ما ثبرك عن هذا، أي: ما منعك، وإليه يرجع ما أَخرجه الطَّستيُّ عن ابن عباسٍ من تفسيره بـ: ملعوناً محبوساً عن الخير.

وأَخرج الشيرازيُّ في «الألقاب» وابنُ مردويه من طريق ميمونِ بن مِهرانَ عنه رضي الله عنه تفسيرَه بناقص العقل. وفي معناه تفسيرُ الضحَّاك بمسحور، قال: ردَّ موسى عليه السلام بمثل ما قال له فرعونُ مع اختلاف اللفظ.

وأَخرج ابنُ أبي الدُّنيا في «ذم الغضب» عن أنس بنِ مالكٍ أنَّه سئل عن «مثبوراً» في الآيةِ فقال: مخالفاً، ثم قال: الأنبياءُ عليهم السلام [أكرم][٤] من أن يَلعنوا أو يَسبُّوا.

---

(١) في المفردات (بصر).
(٢) يعني وزن مفعول في «مثبور».
(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٣٢.
(٤) ما بين حاصرتين من الدر المنثور ٤/ ٢٠٥ وعنه نقل المصنف هذه الأخبار.

وأنت تعلم أنَّ هذا معنًى مجازيٌّ له، وكذا ناقصُ العقل، ولا داعيَ إلى ارتكابه، وما ذكره الإمام مالكٌ[١] فيه ما فيه، نعم قيل: إنَّ تفسيرَه بهالكاً ونحوه ممَّا فيه خشونةٌ ينافي قولَه تعالى خطاباً لموسى وهارونَ عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] وأشار أبو حيانَ[٢] إلى جوابه بأنَّ موسى عليه السلام كان أوَّلاً يتوقَّع من فرعونَ المكروه، كما قال: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] فأُمر أن يقولَ له قولاً ليِّناً فلمَّا قال سبحانه له: «لا تخف» وَثِقَ بحماية اللهِ تعالى، فصال عليه صولةَ المحميِّ، وقابله من الكلامِ بما لم يكن ليقابله به قبلَ ذلك. وفيه كلامٌ ستطَّلع عليه إن شاء اللهُ تعالى في محلِّه.

وبالجملة التفسيرُ الأولُ أَظهرُ التفاسير، ولا ضيرَ فيه، لاسيَّما مع تعبيرِ موسى عليه السلام بالظنّ، ثم إنَّه عليه السلام قد قارع ظنَّه بظنِّه، وشتَّانَ ما بين الظنَّين، فإنَّ ظنَّ فرعونَ إفكٌ مبين، وظنَّ موسى عليه السلام يحوم حولَ اليقين.

وقرأ أُبيٌّ: «وإنْ إخالُكَ يا فِرعونُ لمَثبوراً» على «إنْ» المخفَّفةِ واللامِ الفارقة[٣]، وإِخال بمعنى أظنّ، بكسر الهمزةِ في الفصيح، وقد تُفتَح في لغة، كما في «القاموس»[٤].

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي: موسى وقومَه، وأصلُ الاستفزازِ الإزعاجُ، وكنى به عن إخراجهم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ التي هم فيها، أو من جميعِ الأرض، ويلزم إخراجُهم من ذلك قتلَهم واستئصالَهم، وهو المراد.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ أي: فعكسنا عليه مكرَه حيث أراد ذلك لهم دونَه، فكان له دونَهم، فاستُفزَّ بالإغراق هو وقومُه، وهذا التعكيسُ أظهرُ من الشمس على الثاني، وظاهرٌ على الأوَّل؛ لأنَّه أراد إخراجَهم من مصر، فأُخرج هو أشدَّ الإخراج بالإهلاك، والزيادةُ لا تضرُّ في التعكيس، بل تؤيِّده.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل المصنف رحمه الله أراد ما روي عن أنس بن مالك ﷺ.

(٢) في البحر ٦/ ٨٦.

(٣) البحر ٦/ ٨٦.

(٤) مادة (خيل) وعبارته: وتفتح في لُغَيَّة.

﴿وَقُلْنَا﴾ على لسان موسى عليه السلام ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد فِرعون، على معنى: من بعد إغراقِه، أو الضميرُ للإغراق المفهومِ من الفعل السابق، أي: من بعد إغراقه وإغراقِ مَن معه ﴿لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الذين أَراد فرعونُ استفزازَهم: ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزَّكم منها، وهي أرض مصر. وهذا ظاهرٌ إنْ ثبت أنَّهم دخلوها بعد أنْ خرجوا منها وأَتْبعهم فرعونُ وجنودُه وأُغرقوا، وإنْ لم يثبت، فالمرادُ من بني إسرائيلَ ذريةُ أولئك الذين أراد فرعونُ استفزازَهم. واختار غيرُ واحدٍ أنَّ المرادَ من «الأرض» الأرضُ المقدَّسة، وهي أرضُ الشام.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: الكرَّة، أو الحياةِ، أو السَّاعة، أو الدارِ الآخرة. والمرادُ على جميع ذلك قيامُ الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي: مختلطين أنتم وهم، ثم نحكم بينكم ونميِّز سعداءكم من أشقيائكم.

وأصلُ اللفيفِ الجماعةُ من قبائلَ شتى، فهو اسمُ جمع كالجميع، ولا واحدَ له، أو هو مصدرٌ شاملٌ للقليل والكثير؛ لأنَّه يقال: لفَّ لفّاً ولفيفاً، والمرادُ منه ما أُشير إليه، وفسَّره ابن عباسٍ بجميعاً. وكيفما كان، فهو حالٌ من الضمير المجرورِ في «بكم» ونصَّ بعضُهم على أنَّ في «بكم» تغليبَ المخاطَبين على الغائبين، والمرادُ: بهم وبكم، وما أَلطفَه مع «لفيفاً».

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ عَودٌ إلى شرح حالِ القرآنِ الكريم، فهو مرتبطٌ بقوله تعالى: (لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ) الآية، وهكذا طريقةُ العربِ في كلامها، تأخذ في شيءٍ وتستطرد منه إلى آخَرَ ثم إلى آخَرَ ثم إلى آخر، ثم تعود إلى ما ذكرته أوَّلاً، والحديثُ شجون، فضميرُ الغائبِ للقرآن، وأَبعَدَ مَن ذهب إلى أنَّه لموسى عليه السلام، والآيةُ مرتبطةٌ بما عندها، والإِنزالُ فيها كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] وقد حمله بعضُهم على هذا المعنى فيما قبلُ، أو للآيات التِّسع وذُكِّر على المعنى، أو للوعد المذكورِ آنفاً.

والظاهرُ أن الباءَ في الموضعين للملابسة، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحالِ من ضمير القرآن، واحتمالُ أن يكونَ أوَّلاً حالاً من ضميره تعالى خلافُ الظاهر.

والمرادُ بالحقِّ الأوّل ـ على ما قيل ـ الحكمةُ الإلهية المقتضيةُ لإنزاله، وبالثاني ما اشتمل عليه من العقائد والأحكام ونحوِها، أي: ما أنزلناه إلَّا ملتبساً بالحقِّ المقتضي لإنزاله، وما نزل إلَّا ملتبساً بالحقِّ الذي اشتمل عليه.

وقيل: الباءُ الأولى للسببية متعلِّقة بالفعل بعدُ، والثانيةُ للملابسة. وقيل: هما للسببيَّة، فيتعلَّقان بالفعل.

وقال أبو سليمانَ الدمشقيّ: الحقُّ الأولُ التوحيد، والثاني الوعدُ والوعيد، والأمرُ والنهي.

وقيل: الحقُّ في الموضعين: الأمرُ المحفوظُ الثابت، والمعنى: ما أنزلناه من السماءِ إلَّا محفوظاً بالرَّصد من الملائكة، وما نزل على الرَّسول إلَّا محفوظاً بهم من تخليط الشَّياطين. وحاصلُه أنَّه محفوظٌ حالَ الإنزال وحالَ النزولِ وما بعدَه، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه.

وأَبعَدَ مَن جوَّز كونَ المرادِ بالحقِّ الثاني النبيَّ ﷺ، ومعنى نزولِه به نزولُه عليه وحلولُه عنده، من قولهم: نزل بفلانٍ ضيف.

وعلى سائر الأوجُهِ لا تَخفَى فائدةُ ذكرِ الجملة الثانيةِ بعد الأولى، وما يتوهَّم من التَّكرار مندفع. ونحا الطبريُّ إلى أنَّ الجملةَ الثانية توكيدٌ للأُولى من حيث المعنى؛ لأنَّه يقال: أنزلتُه فنزل، وأنزلته فلم ينزل، إذا عرض له مانعٌ من النزول، فجاءت الجملةُ الثانيةُ مزيلةً لهذا الاحتمال.

وتحاشَى بعضُهم من إطلاق التوكيد؛ لما بين الإنزال والنزولِ من المغايرة، وادَّعى أنَّه لو كانت الثانيةُ توكيداً للأولى لَما جاز العطف؛ لكمال الاتِّصال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيع بالثَّواب ﴿وَنَذِيرًا ۝١٠٥﴾ للعاصي من العقاب، فلا عليك إلَّا التبشيرُ والإنذار، لا هدايةُ الكفرةِ المقترحين وإكراهُهم على الدِّين. ولعل الجملةَ لتحقيق حقِّية بعثتِه ﷺ إثرَ تحقيقِ حقِّية القرآن، ونصبُ ما بعدَ «إلا» على الحال.

﴿وَقُرْءَانًا﴾ نصب بفعل مضمَرٍ يفسِّره قولُه تعالى: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ فهو من بابِ الاشتغال، ورجَّح النصبَ على الرفع العطفُ على الجملة الفعلية، ولو رُفع على

الابتداءِ في غير القرآنِ جازٍ، إلَّا أنه لا بدَّ له من ملاحظة مسوِّغ عند مَن لا يكتفي في صحَّة الابتداءِ بالنَّكرة بحصول الفائدة، وعلى هذا أَخرجه الحوفيّ(١). وقال ابنُ عطية: هو مذهبُ سيبويه(٢).

وقال الفرَّاء(٣): هو منصوبٌ بـ «أرسلناك»، أي: ما أرسلناك إلَّا مبشراً ونذيراً وقرآناً، كما تقول: رحمةً؛ لأنَّ القرآنَ رحمة. ولا يخفَى أنه إعرابٌ متكلَّف لا يكاد يقوله فاضل.

ومما يُقضَى منه العجب ما جوَّزه ابنُ عطيةَ(٤) من نصبه بالعطف على الكافِ في «أرسلناك»، وقال أبو البقاءِ(٥) ـ وهو دون الأوَّل وفوقَ ما عداه ـ إنه منصوبٌ بفعل مضمرٍ دلَّ عليه «آتينا» السابق، أو «أرسلناك».

وجملةُ «فرقناه» في موضع الصفةِ له، أي: آتيناك قرآناً فرقناه، أي: أنزلناه منجَّماً مفرَّقاً، أو: فرَقنا فيه بين الحقِّ والباطل، فحُذف الجارُّ وانتصب مجرورُه على أنَّه مفعولٌ به على التوسُّع كما في قوله:

ويوماً شهدناه سليماً وعامراً(٦)

ورُوي ذلك عن الحسن.

وعن ابن عباس: بيَّنَّا حلالَه وحرامَه.

وقال الفرَّاء(٧): أَحكمناه وفصَّلناه، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وابنُ عباس، وأُبيّ، وعبدُ الله، وأبو رجاء،

---

(١) أي: على أنه منصوب بإضمار فعل يفسره الظاهر بعده. البحر ٦/ ٨٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٠، وقوله: هو مذهب سيبويه، أي: كونه منصوباً بفعل مضمر.
(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٣٢.
(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٠.
(٥) في الإملاء ٣/ ٥٠٢.
(٦) سلف ١/ ٢٨٤.
(٧) في معاني القرآن ٢/ ١٣٣.

وقتادة، والشَّعبي، وحُميد، وعمر بنُ فائد، وزيد بن عليّ، وعمرو بن ذرّ، وعكرمة، والحسن بخلافٍ عنه: «فرَّقناه» بشدِّ الراء[١]، ومعناه كالمخفَّف، أي: أنزلناه مفرَّقاً منجَّماً، بيدَ أنَّ التضعيفَ للتكثير في الفعل، وهو التفريق، وقيل: فَرَقَ بالتخفيف يدلُّ على فصلٍ متقارب، وبالتشديد على فصلٍ متباعد. والأولُ أظهر.

ولمَّا كان قولُه تعالى الآتي: «على مكث» يدلُّ على كثرة نجومِه، كانت القراءتان بمعنًى. وقيل: معناه: فرقنا آياتِه بين أمرٍ ونهي، وحِكَم وأحكام، ومواعظ وأمثال، وقصصٍ وأخبارِ مغيَّباتٍ أتت وتأتي. والجمهورُ على الأوَّل.

وقد أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ الأنباريِّ وغيرُهما عن ابن عباسٍ قال: نزل القرآن جملةً واحدةً من عندَ اللهِ تعالى من اللوح المحفوظِ إلى السَّفرة الكرامِ الكاتبين في السماءِ الدنيا، فنجَّمته السفرةُ على جبريلَ عليه السلام عشرين ليلة، ونجَّمه جبريلُ عليه السلام على النبيِّ ﷺ عشرين سنة[٢].

وفي روايةٍ أنه أُنزل ليلةَ القدرِ في رمضان، ووُضع جملةً في بيت العزَّة في السماءِ الدنيا، ثم أُنزل نجوماً في عشرين.

وفي رواية: في ثلاثٍ وعشرين سنة. وفي أخرى: في خمسٍ وعشرين.

وهذا الاختلافُ ـ على ما في «البحر»[٣] ـ مبنيٌّ على الاختلاف في سِنِّه ﷺ.

وأَخرج ابن الضُّرَيْس[٤] من طريق قتادةَ عن الحسن كان يقول: أَنزل اللهُ القرآنَ على نبيِّ اللهِ ﷺ في ثماني عشرةَ سنة: ثمان سنين بمكَّة، وعشرٌ بعد ما هاجر.

وتعقَّبه ابن عطية[٥] بأنه قولٌ مختلٌّ لا يصحُّ عن الحسن.

واعتمد جمعٌ أنَّ بين أوَّله وآخرِه ثلاثاً وعشرين سنة، وكان ينزل به جبريلُ عليه السلام ـ على ما قيل ـ خمسَ آياتٍ خمسَ آيات، فقد أَخرج البيهقيُّ في «الشُّعب»

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٧، والمحتسب ٢/ ٢٣، والبحر ٦/ ٨٧.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٥.
(٣) ٦/ ٨٧.
(٤) في فضائل القرآن (١٢٦).
(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

عن عمرَ رضي الله عنه أنه قال: تعلَّموا القرآنَ خمسَ آياتٍ خمسَ آيات؛ فإنَّ جبريلَ عليه السلام كان ينزل به خمساً خمساً[١].

وأخرج ابنُ عساكر من طريق أبي نضرةَ قال: كان أبو سعيدٍ الخدريُّ يعلِّمنا القرآن خمسَ آياتٍ بالغَداة، وخمسَ آياتٍ بالعَشيّ، ويُخبر أنَّ جبريل عليه السلام نزل به خمسَ آياتٍ خمسَ آيات[٢]. وكأنَّ المرادَ: في الغالب، فإنَّه قد صحَّ أنه نزل بأكثرَ من ذلك وبأقلَّ منه.

وقرأ أُبيٌّ وعبدُ الله: «فرَّقناه عليك»[٣].

﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: تَؤدة وتأنٍّ؛ فإنه أيسرُ للحفظ وأعونُ على الفهم. ورُوي ذلك عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما. وقيل: أي: تطاولٍ في المدَّة وتقضِّيها شيئاً فشيئاً. والظاهرُ تعلُّق «لِتقرأَه» بـ «فرقناه»، و«على الناسِ» بـ «تقرأه»، و«على مُكثٍ» به أيضاً، إلَّا أنَّ فيه تعلُّقَ حرفَي جرٍّ بمعنًى بمتعلَّق واحد. وأُجيب بأنَّ تعلُّق الثاني بعد اعتبار تعلُّق الأوَّل به، فيختلف المتعلَّق.

وفي «البحر»[٤]: لا يبالَى بتعلُّق هذين الحرفين بما ذُكر؛ لاختلاف معناهما، لأنَّ الأولَ في موضع المفعولِ به، والثانيَ في موضع الحال، أي: متمهِّلاً مترسِّلاً. ولمَا في ذلك من القيل والقال، اختار بعضُهم تعلقَه بـ «فرقناه».

وجوَّز الخفاجيُّ[٥] تعلُّقَه بمحذوف، أي: تفريقاً، أو فرقاً على مكثٍ، أو قراءةً على مكثٍ منك، كمُكثِ تنزيله.

وجَعَله أبو البقاءِ[٦] في موضع الحالِ من الضمير المنصوبِ في «فرقناه»، أي: متمكِّثاً.

---

(١) الشعب (١٩٥٩) من طريق أبي العالية عن عمر، وأخرجه (١٩٥٨) عن أبي العالية قوله، وهو أصح كما ذكر البيهقي.
(٢) تاريخ ابن عساكر ٢٠/ ٣٩١، وفي إسناده: الصلت بن دينار، وهو متروك كما في التقريب.
(٣) البحر ٦/ ٨٧.
(٤) ٦/ ٨٧.
(٥) في حاشيته ٦/ ٦٨.
(٦) في الإملاء ٣/ ٥٠٢.

ومن العجيب قولُ الحوفيِّ: إنه بدلٌ من «على الناس». وقد تعقَّبه أبو حيانَ[١] بأنَّه لا يصح؛ لأنَّ «على مكث» من صفات القارئ، أو من صفاتِ المقروء، وليس من صفات الناسِ ليكونَ بدلاً منهم.

والمكثُ مثلَّث الميم، وقُرئ بالضمِّ والفتح[٢]، ولم يُقرأ بالكسر، وهو لغةٌ قليلة. وزعم ابنُ عطية[٣] إجماعَ القرَّاءِ على الضمّ.

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ على حسَب الحوادثِ والمصالح، فذِكْرُ هذا بعد قولِه تعالى: «فرقناه..» إلخ مفيد؛ وذلك لأن الأوَّلَ دالٌّ على تدريج نزولِه ليسهلَ حفظُه وفهمُه من غير نظرٍ إلى مقتضٍ لذلك، وهذا أخصُّ منه؛ فإنَّه دالٌّ على تدريجه بحسَب الاقتضاء.

﴿قُلْ﴾ للذين كفروا ﴿ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ﴾ أي: به، على معنى أنَّ إيمانكم به وعدمَ إيمانِكم به سواء؛ لأنَّ إيمانكم لا يزيده كمالاً، وعدمَ إيمانكم لا يورثه نقصاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: العلماءَ الذين قرؤوا الكتبَ السالفةَ من قبلِ تنزُّلِ القرآن، وعرفوا حقيقةَ الوحي وأماراتِ النبوَّة، وتمكَّنوا من تمييز الحقِّ والباطلِ والمحقِّ والمبطِل، أو: رأوا نعتَك ونعتَ ما أُنزل إليك ﴿إِذَا يُتْلَىٰ﴾ أي: القرآنُ ﴿عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ الخرور: السقوطُ بسرعة، والأذقان جمع ذَقَن، وهو مجتمع اللَّحيين، ويُطلق على ما ينبت عليه من الشَّعر مجازاً، وكذا يطلق على الوجه تعبيراً بالجزء عن الكلّ، قيل: وهو المراد، ورُوي عن ابن عباس.

فكأنَّه قيل: يسقطون بسرعةٍ على وجوههم ﴿سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ تعظيماً لأمر الله تعالى، أو شكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتبِ من بعثتك.

والظاهرُ أنَّ هنا خروراً وسجوداً على الحقيقة. وقيل: لا شيءَ من ذلك، وإنَّما

(١) في البحر ٦/ ٨٨.
(٢) القراءات الشاذة ص ٧٧، والبحر ٦/ ٨٨.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

المقصودُ أنهم ينقادون لِمَا سمعوا، ويخضعون له كمالَ الانقيادِ والخضوع، فأُخرج الكلامُ على سبيل الاستعارةِ التمثيلية.

وفسَّر الخرورَ للأذقان بالسُّقوط على الوجوه الزمخشريُّ(١)، ثم قال: وإنَّما ذكر الذَّقَن؛ لأنَّه أولُ ما يَلقَى الساجدُ به الأرضَ من وجهه.

وقيل: فيه نظر؛ لأنَّ الأولَ هو الجبهةُ والأنف، ثم وجِّه بأنه إذا ابتدأ الخرورُ فأقربُ الأشياءِ من وجهه إلى الأرض هو الذَّقَن، وكأنه أُريد أولُ ما يقرب من اللِّقاء.

وجوِّز أن تبقَى الأذقانُ على حقيقتها، والمرادُ المبالغةُ في الخشوع، وهو تعفيرُ اللِّحَى على التُّراب، أو أنَّه ربما خرُّوا على الذَّقن كالمغشيِّ عليهم لخشية الله تعالى. وقيل: لعل سجودَهم كان هكذا غيرَ ما عرفناه. وهو كما ترى.

وقال صاحبُ «الفرائد»: المرادُ المبالغةُ في التحامل على الجبهةِ والأنف، حتى كأنَّهم يُلصقون الأذقانَ بالأرض. وهو وجهٌ حسن جدّاً.

واللامُ ـ على ما نصَّ عليه الزمخشريُّ(٢) ـ للاختصاص، وذكر أنَّ المعنى: جعلوا أَذقانَهم للخُرور واختصُّوها به.

ومعنى هذا الاختصاصِ ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّ الخرورَ لا يتعدَّى الأذقانَ إلى غيرها من الأعضاءِ المقابلة، وحقَّق ذلك بما لا مزيدَ عليه.

واعتُرض القولُ بالاختصاص بأنه مخالفٌ لما سبق من قوله: إنَّ الذَّقَن أولُ ما يلقى الساجدُ به الأرض. وأُجيب بما أُجيب.

وتعقَّبه الخفاجيُّ(٣) بأنه مبنيٌّ على أنَّ الاختصاصَ الذي تدلُّ عليه اللامُ بمعنى الحصر، وليس كذلك، وإنَّما هو بمعنى تعلُّقٍ خاصّ، ولو سُلِّم، فمعنى الاختصاصِ بالذَّقن الاختصاصُ بجهته ومحاذيه، وهي جهةُ السفل، ولا شكَّ في

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٧٠.

(٢) في الكشاف ٢/ ٤٧٠.

(٣) في حاشيته ٦/ ٦٩.

اختصاصه به؛ إذ هو لا يكونُ لغيره، فمعنى «يخرون للأذقان»: يقعون على الأَرض، عند التحقيق، والمرادُ تصويرُ تلك الحالة، كما في قوله:

فخرَّ صريعاً لليدين وللفمِ(١)

فتأمَّل.

واختار بعضُهم كونَ اللامِ بمعنى «على».

وزعم بعضٌ عودَ ضميرَي «به» و«قبله» على النبيِّ ﷺ، ويأباه السِّباق واللَّحاق. وأَخرج ابنُ المنذرِ وابن جَرير [عن مجاهد] أنَّ ضميرَ «يتلى» لكتابهم(٢). ولا يخفَى حالُه.

والظاهر أنَّ الجملةَ الاسميةَ داخلةٌ في حيِّز «قل» وهي تعليلٌ لما يُفهَم من قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ من عدم المبالاة بذلك، أي: إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسنَ إيمانٍ مَن هو خيرٌ منكم. ويجوز ألَّا تكونَ داخلةً في حيِّز «قل»، بل هي تعليلٌ له على سبيل التسليةِ لرسول اللهِ ﷺ، كأنَّه قيل: تسلَّ بإيمان العلماءِ عن إيمان الجهلة، ولا تكترثْ بإيمانهم وإعراضهم(٣).

وقد ذكر كلا الوجهَين «الكشَّاف»(٤) قال في «الكشف»: والحاصلُ أن المقصودَ التسلِّي والازدراء، وعدمُ المبالاةِ المفيدُ للتوبيخ والتقريعِ مفرَّع عليه مُدمَج، أو بالعكس. والصيغةُ في الثاني أَظهر، والتعليلُ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ في الأوَّل.

وقال ابنُ عطية(٥): يتوجَّه في الآية معنًى آخرُ، وهو أنَّ قولَه سبحانه: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ إنمَّا جاء للوعيد، والمعنى: اِفعلوا أيَّ الأمرَين شئتم، فسترون

(١) قائله جابر بن حُنَيّ كما في المفضليات ص ٢٠٨، وسلف ١٤/ ٣٩٧.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٥-٢٠٦ وما بين حاصرتين منه، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ١٢١ عن ابن جريج.

(٣) في الأصل و(م): وأغراضهم، والمثبت من تفسير البيضاوي ٦/ ٦٨، وتفسير أبي السعود ٥/ ٩٩.

(٤) ٢/ ٤٦٩-٤٧٠.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩١.

ما تجاوَزون به، ثم ضرب لهم المثلَ على جهة التقريعِ بمن تقدَّم من أهل الكتاب، أي: إنَّ الناسَ لم يكونوا كما أنتم في الكفر، بل كان الذين أُوتوا التوراةَ والإنجيلَ والزَّبور والكتبَ المنزَّلة إذا يُتلَى عليهم ما أُنزل عليهم خشعوا وآمنوا. اهـ. وهو بعيدٌ جدًّا، ولا يخلو عن ارتكاب مجاز، وربَّما يكون في الكلامِ عليه استخدام.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: في سجودهم، أو مطلقاً: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ عن خُلف وعدِه، أو عمَّا يفعل الكفرةُ من التكذيب ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ إنْ مخفَّفة من المثقَّلة، واسمُها ضميرُ شأن، واللامُ فارقة، أي: إنَّ الشأنَ هذا.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ كرَّر الخرورَ للأذقان لاختلاف السبب، فإنَّ الأوَّل لتعظيم أمرِ الله تعالى، أو الشكرِ لإنجاز الوعد، والثاني لما أثَّر فيهم من مواعظ القرآن.

والجارُّ والمجرورُ إما متعلِّق بما عنده، أو بمحذوفٍ وقع حالاً مما قبلُ أو مما بعد، أي: ساجدين. وجملةُ «يبكون» حالٌ أيضاً، أي: باكين من خشية اللهِ تعالى. ولمَّا كان البكاءُ ناشئاً من الخشية الناشئةِ من التفكُّر الذي يتجدَّد، جيءَ بالجملة الفعليةِ المفيدةِ لِلتجدُّد.

وقد جاءَ في مدح البكاءِ من خشيته تعالى أخبارٌ كثيرة، فقد أَخرج الحكيمُ الترمذيُّ عن النَّضر بن سعيد قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لو أنَّ عبداً بكى في أُمَّة، لأَنجَى اللهُ تعالى تلك الأمةَ من النار ببكاءِ ذلك العبد، وما من عمل إلَّا له وزنٌ وثواب، إلَّا الدمعة، فإنَّها تطفئُ بحوراً من النار، وما اغرورقت عينٌ بمائها من خشية اللهِ تعالى إلَّا حرَّم اللهُ تعالى جسدَها على النار، فإنْ فاضت على خدِّه، لم يَرهَق وجهَه قَترٌ ولا ذِلَّة»[(١)].

وأَخرج أيضاً[(٢)] عن ابن عباسٍ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «عينان لا تمسُّهما النار: عينٌ بكت من خشية اللهِ تعالى، وعينٌ باتت تحرس في سبيل اللهِ تعالى».

---

(١) نوادر الأصول ص١٩٥، والنضر بن سعيد ضعفه ابن قانع، كما أن الحديث معضل، ينظر اللسان ٦/ ١٦٠ وتحرف سعيد في الأصل و(م) إلى: سعد.

(٢) هذا وهم من المصنف رحمه الله تعالى، وإنما أخرجه الترمذي صاحب الجامع (١٦٣٩).

وأخرج هو والنَّسائي ومسلمٌ عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يلج النارَ رجلٌ بكى من خشية اللهِ تعالى حتى يعودَ اللبنُ في الضَّرع، ولا اجتمع على عبدٍ غبارٌ في سبيل اللهِ تعالى ودخانُ جهنَّم»(١) زاد النسائيُّ: «في مَنخِريه» ومسلم: «أبداً»(٢).

وينبغي أن يكونَ ذلك حالَ العلماء؛ فقد أخرج ابنُ جَريرٍ وابنُ المنذرِ وغيرُهما عن عبد الأعلى التيميِّ أنَّه قال: إنَّ مَن أُوتي من العلم ما لا يُبكيه لَخليقٌ أن قد أُوتي من العلم ما لا ينفعه؛ لأنَّ اللهَ تعالى نعت أهلَ العلمِ فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾(٣).

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي: القرآنُ بسماعهم ﴿خُشُوعًا ۩ ١٠٩﴾ لِمَا يزيدهم علماً ويقيناً بأمر اللهِ تعالى على ما حصل عندهم من الأدلَّة.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ أخرج ابن جَريرٍ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ قال: صلَّى ﷺ بمكةَ ذاتَ يوم، فدعا اللهَ تعالى فقال في دعائه: «يا الله، يا رحمن» فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ، ينهانا أن ندعوَ إلهين وهو يدعو إلهين، فنزلت(٤).

وعن الضحَّاك أنَّه قال: قال أهلُ الكتابِ للرَّسول ﷺ: إنك لَتُقِلُّ ذِكرَ الرحمن، وقد أكثر اللهُ تعالى في التوراةِ هذا الاسم، فنزلت.

والمرادُ على الأوَّل التسويةُ بين اللفظين بأنَّهما عبارتان عن ذاتٍ واحدٍ وإن اختلف الاعتبار، والتوحيدُ إنَّما هو للذات الذي هو المعبود، وهو يلائم قولَه تعالى فيما بعد: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾.

وعلى الثاني التسويةُ في حُسن الإطلاق والإفضاءِ إلى المقصود، فإنَّ أهل

---

(١) جامع الترمذي (١٦٣٣)، (٢٣١١)، وسنن النسائي ٦/ ١٢، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وليس في صحيح مسلم. وانظر التعليق التالي.

(٢) كذا في الأصل و(م). وهو وهم من المصنف رحمه الله، والصواب: زاد النسائيُّ: «في منخري مسلم أبداً» كما في مشكاة المصابيح (٣٨٢٨).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٠٦، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ١٢٢-١٢٣.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٠٦، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ١٢٣.

الكتابِ فهموا أحسنيةَ الرحمنِ لكونه أحبَّ إليه تعالى؛ إذ أَكْثَرَ ذِكرَه في كتابهم، وكأنَّ حكمةَ ذلك أنَّ موسى عليه السلام كان غَضوباً كما دلَّت عليه الآثار، فأكثر له من ذِكر الرحمنِ ليعاملَ أمَّتَه بمزيد الرَّحمة؛ لأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام يتخلَّقون بأخلاق اللهِ تعالى.

قال القاضي البَيضاوي: وهذا أَجوبُ[1]؛ لقوله تبارك اسمُه: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنَّ توصيفَ الأسماءِ بالحسنى يُفهَم منه أنَّ المقولَ لهم ذلك يظنُّون أحسنيةَ اسمٍ من اسمٍ لا التغايرَ.

وقال صاحبُ «الكشف»: الغرضُ على الوجهين التسويةُ بين اللفظين في الحُسن، والاختلافُ إنَّما هو بأن الاستواءَ في الحسن ردٌّ لمن قال: إنك لَتُقِلّ.. إلخ، بأنَّ الإتيانَ بأحد الحسنينِ كاف، أو لمن قال: ينهانا أن ندعوَ إلهينِ وهو يدعو، بأنَّ الاختلافَ بين اللفظين الدالَّين على كماله تعالى لا بين كاملَين، فالأجوبةُ ممنوعة. انتهى.

وتعقِّب بأنَّ أنسبية التوصيفِ بالحسنى للثاني ظاهرةٌ ممَّا لا تكاد تُنكَر.

ووجَّه الطيبيُّ الأجوبةَ بأن اعتراضَ اليهودِ كان تعييراً للمسلمين على ترجيح أحدِ الاسمين على الآخَر، واعتراضَ المشركين كان تعييراً على الجمع بين اللَّفظين، وقوله تعالى: (أَيًّا مَّا تَدْعُواْ) يطابق الردَّ على اليهود؛ لأنَّ المعنى: أيَّ اسمٍ من الاسمين دعوتموه فهو حسن، وهو لا ينطبقُ على اعتراضِ المشركين.

ثم قال: هذا مسلَّم إذا كان «أو» للتخيير، ويجوز أن تكونَ للإباحة، والانطباقُ حينئذٍ ظاهر؛ فإنَّ المشركين حظروا الجمعَ بين الاسمين، فيكون ردُّهم بإباحة الجمعِ بين الأسماءِ المتكاثرة فضلاً عن الجمعِ بين الاسمين، على أنَّ الجوابَ بالتخيير في الردِّ على أهل الكتابِ غيرُ مطابق؛ لأنَّهم اعترضوا بالترجيح. وأُجيب بالتسوية؛ لأنَّ «أو» تقتضيها. وكان الجوابُ العتيدُ أن يقال: إنَّما رجَّحنا «الله» على

---

(١) في المطبوع من تفسير البيضاوي: أجود. قال الخفاجي في حاشيته ٦/ ٦٩: أي: أكثر جودة، وفي نسخة أخرى أي: أنسب. وفي النسخ الصحيحة: أجوب. من الجواب بالجيم والباء الموحدة، أي: أشد إجابة، والمعنى: أليق بالجواب لما قالوا.

«الرحمن» في الذِّكر؛ لأنه جامعٌ لجميع صفاتِ الكمال، بخلاف الرحمن. وسيأتي قريباً إن شاءَ اللهُ تعالى تتمَّةُ الكلامِ فيما يتعلَّق بهذا.

ومنع الأَجْوَبية أيضاً الجلبيُّ بأنَّ تقديمَ الخبرِ في قوله تعالى: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يقتضي أجوَبية الأوَّل؛ إذ معناه: هذه الأسماءُ لله تعالى لا لغيرِه كما زعم المشركون، إلَّا أن يقال: «أو» للتخيير، وهو غيرُ مسلَّم، بل يتعيَّن كونُها للإباحة؛ لأنها ـ كما قال الرضيُّ وغيرُه ـ يجوز الجمعُ فيها بين المتعاطفين والاقتصارُ على أحدهما، وفي التخييرِ لا يجوز الجمع، وهو هنا جائز.

ودفع بأن المعنى: لله تعالى أسماءٌ متَّفقة في الحُسن؛ لأنَّها لا تختلف مدلولاتُها بالذات، بخلاف غيرِه سبحانه، فإنَّ أسماءه تختلف، فالقصرُ إذا كان بأن لم يكن التقديمُ لمجرَّد التشويقِ ناظرٌ إلى الوصف لا للأسماء، وهذا لا يتوقَّف على تسليم التخيير، ثم إنَّه لا مانعَ من إرادته، بل «أيٌّ» تقتضيه؛ لأنَّها لأحد الشيئَين، فإذا قلتَ لأحد: أيَّ الأمرَين تفعل فافعل، لم تأمرْه بفعلهما، بل بفعل أحدِهما، وأما الدَّلالةُ على جواز الجمعِ فمن خارج النظمِ ودلالةِ العقل؛ لأنَّهما إذا لم يتنافيا جاز الجمعُ بينهما، ومن هنا تعلم أنَّه لا حاجَةَ إلى حمل التخييرِ في كلام مَن عبَّر به على غير الاصطلاحِ المشهورِ الذي هو اصطلاحُ النُّحاةِ فيه إذا قوبل بالإباحة بأن يقال: مرادُه به التسويةُ بين الاسمين في الدَّلالة على ذاتٍ واحدةٍ، وسواءٌ فيه الإفرادُ والجمع. قال في «التلويح»: وفي التخيير قد يجوز الجمعُ بحكم الإباحة الأَصلية، وهذا يسمَّى التخييرَ على سبيل الإباحة. اهـ.

والظاهرُ أنَّ الحقَّ مع مانعِ الأَجوبية والقائلِ بالإباحة، فتدبَّر.

والدُّعاء ـ على ما اختاره أبو حيَّان(١) وجماعة ـ بمعنى النِّداء، وقال الزمخشريّ: هو بمعنى التسميةِ لا بمعنى النِّداء، وهو يتعدَّى إلى مفعولَين، تقول: دعوتُه زيداً، ثم يُترَك أحدُهما استغناءً عنه، فتقول: دعوت زيداً(٢). والأصلُ ـ على ما قيل ـ أن يتعدَّى إلى الثاني بالباء، لكنه يتَّسع فيحذف الباء، والمفعولُ الآخَر هنا

(١) في البحر ٦/ ٩٠.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٧٠.

محذوف، أي: سمُّوه بهذا الاسم أو بهذا الاسم، وكذا يقال في الدُّعاء الثاني، وعلَّل ذلك بأنَّه لو حُمِل على الحقيقةِ المشهورة، يلزم إمَّا الاشتراكُ إنْ تغاير مدلولا الاسمين، أو عطفُ الشيءِ على نفسه بـ «أو» وهو إنَّما يجوز بالواو إن اتَّحدا. وبُحِث فيه بأنَّا نختار الثاني، ولا يلزم ما ذُكر؛ لأنَّه قصدُ اللفظ، كما تقول: نادي النبيَّ ﷺ بمحمد، أو بأحمدَ، مع أنَّ اختلاف مفهومَيهما يكفي لصحَّته. وما رُوي في سبب النزولِ أوَّلاً ينادي ـ على ما قيل ـ على إرادة النِّداء.

وقيل: إنْ كانت الآيةُ ردّاً على المشركين، فهو بمعنى التسمية، وإنْ كانت ردّاً على اليهود، فهو بمعنى النِّداء. وجعل الطِّيبي لذلك تفسيرَ الزمخشريِّ إياه بالتسمية مؤذِناً بميله إلى أنها ردٌّ على المشركين، وفي ذلك تأمُّل.

و«أيًّا» اسمُ شرطٍ جازمٌ منصوبٌ بـ «تدعوا» وجازمٌ له، فهو عاملٌ ومعمولٌ من جهتين، والتنوينُ عوضٌ عن المضاف إليه المحذوف، والتقدير: أيَّ هذين الاسمَين، و«ما» حرفٌ مزيدٌ للتأكيد. وقيل: إنها اسمُ شرطٍ مؤكِّدٌ به.

وقرأ طلحةُ بن مصرِّف: «مَن»[1] بدلَ «ما»، وخرِّج على زيادتها على مذهب الكِسائي، أو جعلِها أداةَ شرط. والجمعُ بين أداتي الشرطِ كالجمع بين حرفَي الجرِّ في قوله:

فأصبحنَ لا يسألنني عن بما به[2]

شاذّ.

وجملةُ «فله الأسماء الحسنى» واقعةٌ موقعَ جوابِ الشرط، وهي في الحقيقة تعليلٌ له، وكأن أصلَ الكلام: أيًّا ما تدعوه به فهو حَسَن؛ لأنَّ له سبحانه الأسماءَ الحسنى اللَّاتي منها هذان. وفي العدول عن حقِّ الجوابِ إقامةُ الشيءِ بدليله، وفيه

---

(١) البحر ٦/ ٩٠.

(٢) البحر ٦/ ٩٠ دون نسبة، وعجزه ـ كما في الخزانة ٩/ ٥٢٧ـ: أَصعَّدَ في عُلْو الهوى أم تصوَّبا. وقال: هذا البيت لم أقف على قائله ولا تتمته، والله أعلم. اهـ. وقال العيني في شرح الشواهد الكبرى ٤/ ١٠٣ (على هامش الخزانة): قاله الأسود بن يعفر من قصيدة أولها.. ثم ذكر أبياتاً.

مبالغةٌ لا تخفَى. وهذا التقديرُ ظاهرٌ على القول الثاني في سبب النزول، ويقدَّر على القول الأوَّل فيه: فمدلولُه واحدٌ، ونحوُه، ولا حاجةَ إلى ذلك، بل يقدَّر على القولَين: فهو حسن، على ما سمعتَ عن صاحب «الكشف».

وقال الطِّيبي - وقد حَمَلَ «أو» على الإباحة وجعل الخطابَ للمشركين -: التقدير: قل سمُّوا ذاتَه المقدَّسة بالله وبالرحمن، فهما سِيَّان في استصواب التسميةِ بهما، فبأيِّهما سمَّيتَه فأنت مصيب، وإن سمَّيتَه بهما جميعاً فأنت أَصوب؛ لأنَّ له الأسماءَ الحسنى، وقد أَمرَنا سبحانه بأن ندعوَه بها في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فجوابُ الشرطِ الأوَّل قولُنا: فأنت مصيب، ودلَّ على الشرط الثاني وجوابِه قولُه تعالى: (فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ) والآيةُ على هذا من فنون الإيجاز الذي هو من حِلية التَّنزيل، وعلى تقدير: فهو حَسَن - حَسَبما سمعتَ أوَّلاً - من باب الإطناب. اهـ. وهو كما ترى.

ونَقَلَ في «البحر»(١) أنَّ منهم مَن وقف على «أيًّا» على معنى: أيَّ اللفظين تدعوه به جاز، ثم استأنفَ فقال: «ما تدعوا فله الأسماءُ الحسنى». وتعقَّبه بأنَّ هذا لا يصحّ؛ لأن «ما» لا يُطلَق على آحادِ ذوي العلم، ولأنَّ الشرطَ يقتضي عموماً ما، وهو لا يصحُّ هنا.

وضميرُ «فله» عائدٌ على المسمَّى، أو المنادَى المفهومِ من الكلام، والقرينةُ عقلية، وهي أن الاسماءَ تكون للمسمَّى وللمنادَى، لا للاسم واللفظِ المنادَى به، وسيأتي إن شاء اللهُ تعالى عن مُحيي الدِّين قدِّس سرُّه غيرُ ذلك في باب الإِشارة.

ووصفُ الأسماءِ بالحسنَى لدَلالتها على ما هو جامعٌ لجميع صفاتِ الكمال بحيث لا يشذُّ منها شيءٌ، وما هو من صفات الجلالِ والجمالِ والإكرام.

هذا واعلم أنَّ الظاهرَ مما رُوي عن اليهود أنَّهم لا يُنكرون حُسنَ سائرِ أسمائه تعالى، وإنَّما يزعمون أنَّ الرحمنَ منها أحبُّ أسمائه تعالى إليه وأعظمُها وأشرفُها؛ لكثرة ذِكره تعالى إيَّاه في التوراة.

---

(١) ٦/ ٩٠.

واختلافُ أسمائه عزَّت أسماؤه في الشَّرف والعِظَم ممَّا ذهب إليه المسلمون أيضاً، ويدلُّ عليه تخصيصُه ﷺ بعضَ الأسماءِ بأنه الاسمُ الأعظم، فقد رُوي أن النبيَّ ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: اللهمَّ إني أسالك بأنِّي أشهد أنَّك أنت اللهُ لا إله إلا أنت، الأحدُ الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحد، فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لقد سأل اللهَ تعالى باسمه الأعظمِ الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[١] ورُوي أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «اسمُ اللهِ تعالى الأعظمُ في هاتين الآيتين ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣] وفاتحة آل عِمران ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢﴾»[٢].

ونصَّ حجَّة الإسلام الغزاليُّ في أوائل كتابِه «المقصد الأَسنَى»[٣] على أنَّ اللهَ أعظمُ الأسماءِ التسعةِ والتِّسعين؛ لأنَّه دالٌّ على الذات الجامعةِ لصفات الإلهية كلِّها، وسائرُ الأسماءِ لا يدلُّ آحادُها إلَّا على آحاد المعاني، من علمٍ أو قدرةٍ أو فعلٍ أو غيرِه، ولأنه أخصُّ الأسماء؛ إذ لا يطلقه أحدٌ على غيره تعالى، لا حقيقةً ولا مجازاً، وسائرُ الأسماءِ قد يسمَّى به غيرُه عزَّ وجلّ، كالقادر والعليمِ والرحيمِ وغيرها، واسمُه تعالى الرحمنُ لا يسمَّى به غيرُه تعالى أيضاً، فهو من هذا الوجهِ قريبٌ من اسم اللهِ سبحانه وإن كان مشتقّاً من الرَّحمة قطعاً؛ ولذا جمع عزَّ وجلَّ بينهما في قوله سبحانه: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ) اهـ.

وقال في أواخره[٤]: فإنْ قيل: ما بالُ تسعةٍ وتسعين من أسمائه تعالى اختصَّت بأنَّ مَن أحصاها دخل الجنةَ مع أنَّ الكلَّ أسماءُ اللهِ تعالى؟ فنقول: الأسامي يجوز أن تتفاوتَ فضيلتُها لتفاوت معانيها في الجلالة والشَّرف، فتكون تسعةٌ وتسعون منها تجمع أنواعاً من المعاني المنبئةِ عن الجلال لا يجمع ذلك غيرُها مختصٌّ[٥] بزيادة شرف. انتهى.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٤)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧) من حديث بريدة ﷺ.
(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥) من حديث أسماء بنت يزيد ﵄.
(٣) ص ٦١.
(٤) ص ١٦٩.
(٥) في المقصد الأسنى: فتختص.

وقال الإمام الرازيُّ في هذه الآية: تخصيصُ هذين الاسمين - يعني الله والرحمن - بالذِّكر يدلُّ على أنَّهما أشرفُ من سائر الأسماء، وتقديمُ اسم الله على اسم الرحمنِ يدلُّ على قولنا: اللهُ أعظمُ الأسماءِ[1]. إلى غير ذلك ممَّا ذكره غيرُ واحدٍ من الأَجِلَّة.

والآيةُ إنَّما تصلح بحسَب الظاهرِ ردّاً لما فهمه اليهودُ إذا كان المرادُ منها نفيَ التفاوتِ الذي زعموه، وحينئذٍ يقع التعارضُ بينها وبين ما يدلُّ على التفاوت من الأخبار، وقد يجعل هذا وجهاً لاختيار كونِ سبب النزولِ قولَ المشركين، ولعل أثرَه أَصحّ، وما نقلناه فيما سبق عن العلَّامة الطِّيبي مؤيِّد لمَا قلناه.

واحتجَّ الجبَّائي بالآية على أنَّه تعالى ليس خالقَ الظُّلْم، وإلَّا لصحَّ اشتقاقُ اسم له سبحانه منه، وحينئذٍ يبطل ما دلَّت عليه الآيةُ من كون أسمائه تعالى بأَسرها حُسنى.

وأُجيب بمنع الملازمة؛ لأنَّ الظلم ليس صفتَه عزَّ وجلّ، وكونُه خالقاً له لا يصحِّح الاشتقاقَ منه، وإلَّا لصحَّ الاشتقاقُ من الطُّول والقِصَر والسَّواد والبياض؛ لأنَّه تعالى خالقٌ لذلك بالاتِّفاق، نعم لا ينبغي أن يقالَ لله تبارك وتعالى: خالقُ القبيح؛ للزوم الأدبِ معه سبحانه، ويقال: خالقُ كلِّ شيءٍ، وما هو من أسمائه جلَّت أسماؤه الخالق، لا خالقُ كذا، فافهَم، سلك اللهُ تعالى بنا وبك الطريقَ الأَقوم.

وهذه الآيةُ - على ما قيل - من آيات الحفظ، بناءً على ما أخرج البيهقيُّ في «الدلائل» من طريق نهشلِ بن سعيد، عن الضحَّاك، عن ابن عباس، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ إلى آخر الآية: «هو أمانٌ من السَّرَق» وأنَّ رجلاً من المهاجرين تلاها حين أَخذ مضجعَه، فدخل

---

(١) لم نقف عليه في تفسيره، ولعله في كتابه المسمى: لوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات، أشار إليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨].

عليه سارق، فجمعَ ما في البيت وحمله والرجلُ ليس بنائم، حتى انتهى إلى البابِ فوجده مردوداً، فوضع الكارة[1]، وفعل ذلك ثلاثَ مرَّات، فضحك صاحبُ الدارِ ثم قال: إني أَحصنتُ بيتي[2].

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ أخرج أحمدُ والبخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ والنَّسائي وابن حِبَّان[3] وغيرُهم عن ابن عباسٍ قال: نزلت ورسولُ اللهِ ﷺ مختفٍ بمكة، فكان إذا صلَّى بأصحابه رفع صوتَه بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون، سبُّوا القرآنَ ومَن أنزله ومَن جاء به، فقال اللهُ تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: «ولا تجهر بصلاتك» أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن «ولا تخافت بها» عن أَصحابك، فلا تُسمعهم القرآنَ حتى يأخذوه عنك.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ يقول: بين الجهرِ والمخافتة، وظاهرُه أنَّ المرادَ بالصلاة القراءةُ التي هي أحدُ أجزائها مجازاً، ويجوز أن يكونَ الكلامُ على تقديرِ مضاف، أي: بقراءة صلاتِك.

والظاهرُ أنَّ المرادَ بالقراءة ما يعمُّ البسملةَ وغيرَها، وبعضُ الأخبار يفيد ظاهرُه تخصيصَها بالبسملة، فقد أَخرج ابنُ أبي شيبةَ في «المصنَّف» عن سعيدٍ قال: كان النبيُّ ﷺ يرفع صوتَه بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وكان مسيلمةُ قد تسمَّى الرحمن، فكان المشركون إذا سمعوا ذلك من النبيِّ عليه الصلاة والسلام قالوا: قد ذكر مسيلمةَ إلهَ اليمامة، ثم عارضوه بالمُكاءِ والتصديةِ والصفير، فأَنزل اللهُ تعالى هذه الآية[4]. ولا يخفَى على هذه الروايةِ أشدِّيَّةُ مناسبةِ الآيةِ لما قبلها.

---

(١) دلائل النبوة ٧/ ١٢١ والضحاك لم يسمع من ابن عباس، ونهشل متروك كما في التقريب.

(٢) هي كلمة فارسية، يراد بها كلُّ ما يحمل على الظهر من الثياب والحطب والكلأ وغير ذلك. معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص١٤٠.

(٣) مسند أحمد (١٥٥)، وصحيح البخاري (٤٧٢٢)، وصحيح مسلم (٤٤٦)، وجامع الترمذي (٣١٤٦)، وسنن النسائي ٢/ ١٧٧-١٧٨، وصحيح ابن حبان (٦٥٦٣).

(٤) الخبر بهذا اللفظ فيه نكارة، فإن السورة مكية، وما ذكر عن مسيلمة كان في أواخر حياة النبي ﷺ. وينظر مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٣٤٩ (تحقيق محمد عوامة). وسعيد هو ابن جبير.

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن الرَّبيع قال: كان أبو بكرٍ إذا صلَّى من الليل خفض صوتَه جدّاً، وكان عمرُ إذا صلى من الليل رفع صوتَه جدّاً، فقال عمر: يا أبا بكر، لو رفعتَ من صوتك شيئاً، وقال أبو بكر: يا عمر، لو خفضتَ من صوتك شيئاً، فأتَيا رسولَ اللهِ ﷺ، فأَخبراه بأمرهما، فأنزل اللهُ تعالى الآية، فأرسل عليه الصلاة والسلام إليهما فقال: «يا أبا بكر، اِرفعْ من صوتك شيئاً» وقال لعمر: «اِخفض من صوتك شيئاً».

وفي رواية أنَّه قيل لأبي بكر: لَمَ تصنعُ هذا؟ فقال: أُناجي ربِّي، وقد عرفَ حاجتي، وقيل لعمر: لَمَ تصنع هذا؟ قال: أَطرد الشيطان، وأُوقظ الوَسنان[1].

وأمرُ التجوُّز أو حذفِ المضاف على هذا مِثْلُهُ على الأوَّل، وكذا على ما أَخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ أنَّ المعنى: لا تجهر بصلاتك كلِّها ولا تخافت بها كلِّها، وابتغِ بين ذلك سبيلاً بالجهر في بعض، كالمغربِ والعشاء، والمخافتةِ في بعض، كما فيما عدا ذلك.

وقيل: الصلاةُ بمعنى الدُّعاء؛ لما أَخرج الشيخان[2] وغيرُهما عن عائشةَ قالت: إنَّما نزلت هذه الآيةُ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ في الدُّعاء، وأخرج نحوَه ابنُ أبي شيبةَ[3] عن مجاهد، وروَى ذلك عن ابن عباسٍ أيضاً ابنُ جريرٍ[4] وابنُ المنذر وجماعة، وكانوا يجهرون باللهمَّ ارحمني.

وأَخرَجوا[5] عن عبد اللهِ بن شدَّاد أنَّ أعراباً من بني تميمٍ كانوا إذا سلَّم النبيُّ ﷺ قالوا ـ أي: جهراً ـ: اللهمَّ ارزقنا إبلاً وولداً، فنزلت.

وفي روايةٍ أخرى[6] عن عائشةَ أنَّ الصلاةَ هنا التشهُّد، وكان الأَعراب ـ كما نُقل عن ابن سِيرين ـ يجهرون بتشهُّدهم، فنزلت.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ١٢٣، وهذه الأخبار نقلها المصنف عن الدر المنثور ٤/ ٢٠٦-٢٠٨.
(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٣)، وصحيح مسلم (٤٤٧).
(٣) في المصنف ٢/ ٤٤١.
(٤) في تفسيره ١٥/ ١٢٦، ١٢٨.
(٥) ابن أبي شيبة ٢/ ٤٤١، والطبري ١٥/ ١٣٣.
(٦) عند ابن خزيمة (٧٠٧)، والطبري ١٥/ ١٣٣.

وقيل: الصلاةُ على حقيقتها الشَّرعية، فقد أَخرج ابنُ عساكر عن الحسن أنَّه قال: المعنى: لا تصلِّ الصلاةَ رياءً، ولا تَدَعْها حياء. وروَى نحوَه ابنُ أبي حاتمٍ والطبرانيُّ[1] عن ابن عباسٍ أيضاً. والأكثرون على التفسير المرويِّ عنه أوَّلاً.

والمخافتة: إسرارُ الكلامِ بحيث لا يسمعه المتكلِّم، ومن هنا قال ابنُ مسعود ـ كما أَخرجه عنه ابنُ أبي شيبةَ وابن جَرير[2] ـ: لم يخافتْ مَن أَسمع أذنيه.

وخَفَتَ ـ وهو من بابِ ضرب ـ وخافَتَ بمعنًى، يقال: خَفَتَ يخفِت خَفْتاً وخُفوتاً، وخافَتَ مُخافَتةً، إذا أسرَّ وأَخفَى. والتعبيرُ عن الأمر الوسطِ بالسبيل باعتبار أنَّه أمرٌ يتوجَّه إليه المتوجِّهون، ويؤمُّه المقتدون، ويوصِلهم إلى المطلوب، وقد جاء عن عبد اللهِ بن الشِّخِّير وأبي قِلابة: خيرُ الأمورِ أوساطُها.

والآيةُ على ما يقتضيه كلامُ الأكثرين محكَمة. وقيل: منسوخة، بناءً على ما أَخرجه ابنُ مردويه وابنُ أبي حاتم[3] عن ابن عباسٍ من أنَّه ﷺ أُمر بمكةَ بالتوسُّط بألَّا يجهرَ جهراً شديداً ولا يخفضَ حتى لا يُسمعَ أُذنيه، فلمَّا هاجر إلى المدينة سقط ذلك.

وقيل: هي منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] وهو كما ترى.

ولا يخفَى عليك حكمُ رفعِ الصوتِ بالقراءة فوقَ الحاجة وحكمُ المخافتةِ بالمعنى الذي سمعتَه المسطوران في كتب الفقه، فراجِعْها إنْ لم يكن ذلك على ذُكرٍ منك. وأَخرج ابنُ أبي داودَ في «المصاحف»[4] عن أبي رَزينٍ قال: قرأ عبدُ الله: «ولا تخافِتْ بصوتك ولا تُعالِ به».

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ردٌّ على اليهود والنَّصارى وبني مليح حيث قالوا: عُزيرٌ ابن الله، والمسيحُ ابن اللهِ تعالى، والملائكة بناتُ الله، سبحانه وتعالى

---

(١) في المعجم الكبير (١٣٠٢٩).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤٤٠، وتفسير الطبري ١٥/ ١٣٧.
(٣) كما في الدر المنثور ٤/ ٢٠٧.
(٤) برقم (١٨٠).

عمَّا يقولون عُلوًّا كبيراً. ونفيُ اتِّخاذ الولدِ ظاهرٌ في نفي التبنِّي، ويُعلَم منه نفيُ أن يكونَ له سبحانه ولدُ الصُّلبِ من باب أَوْلى، وقد نُفي ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ظاهرُه أنه ردٌّ على الثَّنَوية، وهم المشركون في الرُّبوبية، ويجوز أن يكونَ كنايةً عن نفي الشَّركة في الأُلوهية، فيكون ردّاً على الوثنية.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ناصرٌ ومانعٌ له سبحانه من الذُّل لاعتزازه تعالى بنفسه. فـ «مِن» صلةٌ لـ «وليّ»، وضمِّن معنى المنعِ والنصر، أو لم يوالِ تعالى أحداً من أجل مذلَّة، فالولايةُ بمعنى المحبَّةِ على أصلها، و«من» تعليلة. وليس المعنى على الوجهَين نفيَ الذلِّ والنصر في الأوَّل والموالاةِ والذلِّ في الثاني، على أسلوب:

لا يُهتدى بمناره[1]

بل المرادُ أنَّه تعالى إذا اتَّخذ عبداً له وليّاً، فذلك محضُ الاصطناعِ في شأن العبد، لا أنَّ هناك حاجة، وكذلك نصرُ اللهِ تعالى كمالٌ للناصر، لا أنَّ ثمةَ حاجةً، أَلا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وإلى هذا ذهب صاحبُ «الكشف» وهو حَسَن، وجعل ذلك على الوجهين الفاضلُ الطِّيبي من ذاك الأسلوب.

وفي الحواشي الشِّهابية[2] في بيان ثاني الوجهَين أنَّ المراد نفيُ أن يكونَ له تعالى مولًى يلتجئُ هو سبحانه إليه، وأما الوليُّ الذي يوصَف به المؤمن، فليس الولايةُ فيه بهذا المعنى، بل بمعنى مَن يتولَّى أمرَه لمحبَّته له، تفضُّلاً منه عزَّ وجلَّ ورحمة، فغايَرَ بين الولايتين، ولعل الحقَّ مع صاحبِ «الكشف».

ومن عجيبِ ما قيل: إنَّ «من الذل» في موضع الصفةِ لـ «وليّ»، و«مِن» فيه للتبعيض، وإنَّ الكلامَ على حذف مضاف، أي: لم يكن له وليٌّ من أهل الذُّل، والمرادُ بهم اليهودُ والنصارى. ولَعمري إنَّه لا ينبغي أن يلتفتَ إليه.

---

(١) قطعة من بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٦٦، وسلف ١/ ٤٥٧.
(٢) ٦/ ٧٠.

وربَّما يتوهَّم أن المقامَ مقامُ التنزيهِ لا مقامُ الحمد؛ لأنَّه يكون على الفعل الاختياريِّ وبه، وما ذُكر من الصفاتِ العدمية. ويدفع بأنَّه لاقَ وصفُه تعالى بما ذُكر بكلمة التحميد؛ لأنَّه يدلُّ على نفي الإمكانِ المقتضي للاحتياج، وإثباتِ أنَّه تعالى الواجبُ الوجودِ لذاته، الغنيُّ عمَّا سواه، المحتاجُ إليه ما عداه، فهو الجوادُ المعطي لكلِّ قابلٍ ما يستحقّ، فهو تعالى المستحقُّ للحمد دون غيرِه عزَّ وجلّ. وهذا الذي عناه الزمخشريّ[1].

وقال في «الكشف»: لك أن تتخذَ نفيَ هذه الصفاتِ ـ وهي ذرائعُ منعِ المعروف، أما الولدُ فلأنَّه مَبخَلة، وأما الشريكُ فلأنَّه مانعٌ من التصرُّف كيف يشاء، وأما الاحتياجُ إلى مَن يعتزُّ به أو يذبُّ عنه فأظهرُ ـ رديفاً لإثبات أَضدادها على سبيل الكناية، وهو وجهٌ حسن. ولو حُمِل الكلامُ على ظاهره أيضاً لَكان له وجه؛ وذلك لأنَّ قولَ القائل: الحمدُ لله، فيه ما يُنبِئ أنَّ الإلهيةَ تقتضي الحمد، فإذا قلت: الحمدُ لله المنزَّهِ عن النقائص، مثلاً، يكون قد قوَّيتَ معنى الإلهيةِ المفهومة من اللفظ، فيكون وصفاً لائقاً مؤيِّداً لاستحقاقه تعالى الحمدَ، من غير نظرٍ إلى مدخلية الوصفِ في الحمدِ بالاستقلال، وهذا بيِّن مكشوف، إلَّا أنَّ الزمخشريَّ حاول أن ينبِّهَ على مكان الفائدةِ الزائدة. اهـ.

وتعقِّب بأنَّ ما ذكره من أنَّ في «الحمدُ لله» ما ينبئُ أنَّ الإلهيةَ تقتضي الحمد، لا يتمُّ على مذهب مانعي الاشتقاقِ في الاسم الكريم. وفيه تأمُّل.

والآيةُ ـ على ما قال العلَّامة الطِّيبي ـ من التقسيمِ الحاصر؛ لأنَّ المانع من إيتاء النِّعم إمَّا فوقَه سبحانه وتعالى، أو دونَه، أو مثلَه عزَّ وجلّ، فبني الكلامُ على الترقِّي، وبُدئ من الأدونِ وخُتم بالأعلى، فنُفي الكلُّ، فمنه وله الكثرةُ والقُلّ، والدِّقُّ والجُلّ، تعالى كبرياؤه، وعظُمت نَعماؤه.

ولدَلالة ما تقدَّم على أنَّه تعالى هو الكاملُ وما عداه ناقصٌ استحقَّ التكبير؛ ولذا عُطف عليه قولُه سبحانه: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ والتكبيرُ أبلغُ لفظةٍ للعرب في

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٧٠-٤٧١.

معنى التعظيمِ والإجلال، وفي الأمر بذلك بعد ما تقدَّم مؤكَّداً بالمصدر المنكَّر من غير تعيينٍ لما يعظَّم به تعالى إشارةٌ إلى أنه ممَّا لا تَسَعه العبارة، ولا تفي به القوَّة البشرية، وإن بالغ العبدُ في التنزيه والتمجيد، واجتهد في العبادةِ والتحميد، فلم يبقَ إلَّا الوقوفُ بأقدام المذلَّة في حضيض القصور، والاعترافُ بالعجز عن القيام بحقِّه جلَّ وعلا وإنْ طالت القصور.

وروى غيرُ واحدٍ أنَّه ﷺ كان يعلِّم الغلامَ من بني عبد المطَّلب إذا أفصح: «الحمدُ لله» إلى آخر الآيةِ سبعَ مرَّات[1]، وسمَّاها عليه الصلاة والسلام ـ كما أخرج أحمدُ والطبرانيُّ عن معاذ ـ آيةَ العِزِّ[2].

وأَخرج أبو يعلَى وابنُ السُّني عن أبي هريرةَ قال: خرجتُ أنا ورسولُ اللهِ ﷺ ويدي في يده، فأتَى على رجلٍ رثِّ الهيئة فقال: «أيْ فلان، ما بلغ بك ما أرى» قال: السُّقم والضُّر، قال ﷺ: «ألا أعلِّمك كلماتٍ تُذهب عنك السقمَ والضُّر: توكَّلت على الحيِّ الذي لا يموت، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآيةَ» فأتى عليه رسولُ اللهِ عليه الصلاة والسلام وقد حَسُنت حالتُه فقال: «مَهْيَم» فقال: لم أزل أقول الكلماتِ التي علَّمتني[3].

وأخرج ابنُ أبي الدُّنيا في كتاب «الفَرَج» والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن إسماعيلَ بنِ أبي فُدَيك[4] قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما كَرَبني أمرٌ إلَّا مَثَلَ لي جبريلُ عليه السلام فقال: يا محمد، قل: توكَّلت على الحيِّ الذي لا يموت، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إلى آخر الآية».

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١/ ٣٤٨ من طريق عبد الكريم أبي أمية عن عمرو بن شعيب، وأخرجه عبد الرزاق (٧٩٧٦) عن عبد الكريم أبي أمية، وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٢٤) متصلاً من طريق عبد الكريم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

(٢) مسند أحمد (١٥٦٣٤)، والمعجم الكبير ٢٠/ (٤٢٩-٤٣٠) وإسناده ضعيف.

(٣) مسند أبي يعلى (٦٦٧١)، وعمل اليوم والليلة (٥٤٦) قال في مجمع الزوائد ٧/ ٥٢: فيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف. اهـ. وقوله: مهيم أي: ما أمركم وشأنكم، وهي كلمة يمانية. النهاية (هيم).

(٤) الفرج بعد الشدة (٦٦)، والأسماء والصفات (٢١٦) قال البيهقي: هكذا جاء منقطعاً. اهـ. وأخرجه الحاكم ١/ ٥٠٩ من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأخرج ابن السُّنِّي والديلميُّ[١] عن فاطمةَ بنتِ رسول اللهِ صلى الله تعالى عليه وعليها وسلم أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال لها: «إذا أخذتِ مضجعَك فقولي: الحمدُ لله الكافي، سبحانَ اللهِ الأعلى، حسْبي اللهُ وكفى، ما شاء اللهُ قضى، سمع اللهُ لمن دعا، ليس من الله ملجأ، ولا وراءَ اللهِ ملتجأ، توكَّلت على ربِّي وربِّكم، ما من دابَّة إلَّا هو آخذٌ بناصيتها، إنَّ ربِّي على صراطٍ مستقيم، (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) إلى: (وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) ثم قال ﷺ: «ما من مسلمٍ يقرؤها عند منامِه ثم ينام وسْطَ الشياطينِ والهوامِّ فتضرّه».

هذا وما ألطفَ المناسبةَ بين ابتداءِ هذه السورةِ وهذا الختام، وليس ذلك بِدعاً في كلام اللطيفِ العلَّام.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارةِ في الآيات: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى آخره تنبيهٌ لحبيبه ﷺ عن الوقوع فيما يُخلُّ بحفظ شرائطِ المحبَّة. وفيه إشارةٌ إلى إيصاله إلى مقامِ التمكين.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ الآية، ذُكر أنَّ الصلاةَ على خمسة أقسام: صلاةُ المواصلةِ والمناغاةِ في مقام الخفيّ، وصلاةُ المشاهدةِ في مقام الرُّوح، وصلاةُ المناجاةِ في مقام السِّرّ، وصلاةُ الحضورِ في مقام القلب، وصلاةُ المطاوعةِ والانقيادِ في مقام النفْس. فدلوكُ الشمسِ إشارةٌ إلى زوال شمسِ الوحدةِ عن الاستواء على وجود العبدِ بالفناءِ المحض، فإنَّه لا صلاةَ في حال الاستواء؛ إذ لا وجودَ للعبد حينئذ، ولا شعورَ له بنفْسه، وإنَّما تجب بالزَّوال وحدوثِ ظلِّ وجودِ العبد، سواءٌ عند الاحتجابِ بالخَلق وهو حالةُ الفَرْق قبلَ الجمع، أو عند البقاءِ وهو حالةُ الفرقِ بعد الجمع، وغسقُ الليلِ إشارةٌ إلى غسق ليلِ النفس، وقرآنُ الفجرِ إشارةٌ إلى قرآن فجرِ القلب.

وأدلُّ الصلواتِ وألطفُها صلاةُ المواصلة، وأفضلُها صلاة الشهودِ المشارُ إليها بصلاة العصر، وأخفُّها صلاة السرِّ المشارُ إليها بصلاة المغرب، وأشدُّها تثبيتاً

(١) عمل اليوم والليلة (٧٣٥)، والفردوس (٨٦٦٠).

للنفس صلاةُ النفس المشارُ إليها بصلاة العشاء، وأزجرُها للشيطان صلاةُ الحضورِ المشار إليها بالفجر ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده ملائكةُ الليلِ والنهار. وهذا إشارةٌ إلى نزول صفاتِ القلبِ وأنوارها، وذهابِ صفات النفسِ وزوالِها.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: زيادةً على الفرائض الخمسِ خاصَّةً بك. قيل: لكونه علامةَ مقامِ النفس، فيجب تخصيصُه بزيادةِ الطاعة؛ لزيادة احتياجِ هذا المقامِ إلى الصلاة بالنِّسبة إلى سائر المقامات. وقيل: إنَّما خُصَّ ﷺ بالتهجُّد لأنَّ الليلَ وقتُ خلوةِ المحبِّ بالحبيب، وهو عليه الصلاة والسلام الحبيبُ الأعظم، والخليلُ المكرَّم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ وهو مقامُ إلحاق الناقصِ بالكامل، والكاملِ بالأكمل.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ حضرةَ الوحدةِ في عين الجمع ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ إدخالاً مرضيّاً بلا آفةِ زيغِ البصر إلى الالتفاتِ إلى الغير أصلاً ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ إلى فضاء الكثرةِ عند الرجوعِ إلى التفصيل بالوجود الموهوبِ الحقَّاني ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ سالماً من آفة التلوينِ والانحرافِ عن جادَّة الاستقامة ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ حجَّةً ناصرةً بالتثبيت والتمكين.

﴿وَقُلْ﴾ إذا زالت نقطةُ الغَينِ عن العين: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر الوجودُ الثابت، وهو الوجودُ الواجبيّ ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ وهو الوجودُ الإمكاني، ففي الحديث الصحيح[1]: «أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ كلمةُ لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ».

ويقال: الحقُّ العلم، والباطلُ الجهل، والحقُّ ما بدا من الإلهام، والباطلُ هواجسُ النفسِ ووساوسُ الشيطان. وقال فارس: كلُّ ما يحملك على سلوك سبيلِ الحقيقةِ فهو حقّ، وكلُّ ما يَحجبك ويفرِّق عليك وقتَك فهو باطل.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ من أمراض الصفاتِ الذميمة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالغيب، يفيدهم الكمالاتِ والفضائلَ العظيمة. فالأولُ إشارةٌ إلى التخلية، والثاني إلى التحلية.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٤٧)، ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويقال: هو شفاءٌ من داء الشكِّ لضعفاء المؤمنين، ومن داء النَّكرةِ للعارفين، ومن وجع الاشتياقِ للمحبِّين، ومن داء القنوطِ للمريدين والقاصدين، وأنشدوا:

وكُتْبك حولي لا تفارق مضجعي وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتمُ

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الباخسين حظوظَهم من الكمال بالميل إلى الشَّهواتِ النفسانية ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ بزيادة ظهور أنفُسهم بصفاتها، من إنكارٍ ونحوه.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ فاحتجب بالنِّعمة عن المنعمِ ولم يشكر ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ لجهله بعظيم قدرةِ اللهِ تعالى ولم يصبر ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على طريقته التي تشاكل استعدادَه، وكلُّ إناءٍ بالذي فيه يَرشَح.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من عالَم الإبداع، وهو عالَمُ الذواتِ المقدَّسة عن الشَّكل واللَّون، والجهةِ والأين، فلا يمكن إدراكُ المحجوبين لها ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو علمُ المحسوسات.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بنوره بمقتضى العنايةِ الأزلية ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ دونَ غيره ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بمنع ذلك النورِ عنه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يهدونه أو يحفظونه من قهره عزَّ وجلّ.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ لانجذابهم إلى الجهةِ السُّفلية ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ لأنَّها أحوالٌ تناسب أحوالَهم في الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ لعلمهم بحقِّيته، ووقوفِهم على ما أُودع فيه من الأسرار ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ لعظمته، أو شوقاً لمنزله وحبّاً للقائه.

قال أبو يعقوبَ السُّوسي: البكاءُ على أنواع: بكاءٌ من الله تعالى، وهو أن يبكيَ خوفاً ممَّا جرى به القلمُ في الفاتحة ويظهرُ في الخاتمة. وبكاءٌ على الله عزَّ وجلّ، وهو أن يبكيَ تحسُّراً على ما يفوته من الحقِّ تعالى. وبكاءٌ لله تبارك وتعالى، وهو أن يبكيَ عند ذِكره سبحانه وذِكرِ وعده ووعيدِه. وبكاءٌ بالله تعالى، وهو أن يبكيَ بلا حظٍّ منه في بكائه.

وقال القاسم: البكاءُ على وجوه: بكاء الجهَّال على ما جهلوا، وبكاءُ العلماء على ما قصَّروا، وبكاءُ الصالحين مخافةَ الفوت، وبكاء الأئمَّة مخافةَ السَّبق، وبكاءُ الفرسان من أرباب القلوبِ للهيبة والخشية، ولا بكاءَ للموحِّدين.

وفي الآية إشارةٌ ما إلى السَّماع، ولا أشرفَ من سماع القرآن، فهو الرَّوح والرَّيحان.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ قيل: دعاءُ اللهِ بالفَناء في الذات، ودعاءُ الرحمنِ بالفناء في الصفة، وصفةُ الرَّحمانية هي أمُّ الصفات، وبها استوى سبحانَه على عرشه، ومن ذلك يُعلم أنَّه ليس المرادُ من الإيجاد إلَّا رحمةَ الموجودين.

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ أي: أيًّا ما طلبتَ من هذين المقامَين ﴿فَلَهُ﴾ تعالى في هذين المقامين ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لا لك؛ إذ لستَ هناك بموجود، أمَّا في الفناء في الذاتِ فظاهر، وأمَّا في الفناء في الصفةِ المذكورة، فلأنَّ الرحمنَ لا يصلح اسماً لغير تلك الذَّات، ولا يمكن ثبوتُ تلك الصفةِ لغيرها، ولا يخفَى عليك أنَّ ضميرَ «له» على هذا التأويلِ عائدٌ على ما عاد إليه على التفسير.

وفي «الفتوحات المكِّية»(١) أنَّه تعالى جعل الأسماءَ الحسنى لله كما هي للرَّحمن، غيرَ أنَّ الاسمَ له معنًى وصورة، فيدعَى «الله» بمعنى الاسم، ويُدعَى «الرحمن» بصورته، لأنَّ الرحمن هو المنعوتُ بالنفس، وبالنفس ظهرت الكلماتُ الإلهية في مراتب الخلاءِ الذي ظهر فيه العالَم، فلا ندعوه إلَّا بصورة الاسم، وله صورتان: صورةٌ عندنا من أنفاسنا وتركيبِ حروفنا، وهي التي ندعوه بها، وهي أسماءُ الأسماءِ الإلهية، وهي كالخِلَع عليها، ونحن بصورة هذه الأسماءِ مترجِمون عن الأسماءِ الإلهية، ولها صورٌ من نفس الرحمنِ من كونه قائلاً ومنعوتاً بالكلام، وخلف تلك الصورِ المعاني، التي هي كالأرواح للأسماءِ الإلهية التي يَذكر الحقُّ بها نفسَه وهي من نفس الرَّحمن، فله الأسماءُ الحسنى، وأرواحُ تلك الصورِ هي التي لاسم اللهِ خارجةٌ عن حكم النفسِ لا تُنعَت بالكيفية، وهي لصور الأسماءِ النفسيةِ الرَّحمانية كالمعاني للحروف، ولمَّا علمنا هذا وأُمرنا بأن ندعوَه سبحانه

---

(١) ٢/ ٣٩٦-٣٩٧.

وخُيِّرنا بين الاسمينِ الجليلين، فإن شئنا دعوناه بصور الأسماءِ النفسيةِ الرحمانية، وهي الهممُ الكونيةُ التي في أرواحنا، وإن شئنا دعوناه بالأسماء التي من أنفاسنا بحكم التَّرجمة، فإذا تلفَّظنا بها أَحضرنا في نفوسنا إمَّا الله، فننظر المعنى، وإما الرَّحمن، فننظر صورةَ الاسمِ الإلهي النفسيِّ الرحماني، كيفما شئنا فعلنا؛ فإنَّ دلالةَ الصورتين منَّا ومن الرَّحمن على المعنى واحد، سواءٌ علمنا ذلك أو لم نعلمه. اهـ.

وهو كلامٌ يعسُر فهمُه إلَّا على مَن شاء اللهُ تعالى، بيدَ أنَّه ليس فيه حملُ الدعاءِ على ما سمعت.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فضلاً عن أن يكونَ له سبحانه ولدٌ بطريق التولُّد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فلا مدخلَ لغيره تعالى في ملكية شيءٍ على الحقيقة، وما يوجد بسببٍ ليس السببُ إلَّا آلةً له، ولا تملكُ الآلةُ شيئاً، بل لا شيءَ إلَّا وهو صنعُه تعالى على الحقيقة، والسريرُ مثلاً وإنْ أُضيف إلى النجَّار من حيث الصَّنعة، إلَّا أنَّه في الحقيقة آلةٌ كالقَدُوم، ولا يضاف العملُ إلى الآلةِ على الحقيقة. كذا قيل.

وللشيخ قدِّس سرُّه كلامٌ في هذا المقام يُفصح عن بعضِ هذا، ذكره في الباب الثامنِ والتِّسعين بعد المئة[1]، فارجع إليه وتدبَّر. وكذا له كلامٌ في قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ لكن يُغني عنه ما قدَّمناه.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ قال بعضُهم: تكبيرُه تعالى أن تعلمَ أنَّك لا تُطيق أن تكبِّرَه إلَّا به. وقال ابنُ عطاء: تكبيرُه عزَّ وجل بتعظيم مِنَّته وإحسانِه في القلب بالعلم بالتقصير في الشُّكر، وكيف يُوفي أحدٌ شكرَه تعالى، ونعمُه جلَّ وعلا لا تُحصَى، وآلاؤه لا تُستقصَى.

❁ ❁ ❁

هذا وقد تمَّ بفضل اللهِ تعالى تفسيرُ هذه السورةِ الكريمة.

---

(١) من الفتوحات المكية ٢/ ٣٩٠ فما بعد.

(١٨) سُورَةُ الكَهْفِ مَكِّيَّة وآياتُها عشرٌ ومائة

سورةُ الكهف من السور المكية التي تتناول أصول العقيدة الإسلامية ، وتهدف إلى تقرير دعائم الإيمان من الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والإيمان بالبعث والنشور ، وهي إحدى سورٍ خمسٍ في القرآن الكريم بُدئت بـ « الحمد لله » وهذه السور هي ﴿ الفاتحة ، والأنعامُ ، والكهفُ ، وسبأ ، وفاطر ﴾ وكلُّها تبدأ بتمجيدِ الله جلَّ وعلا وتقديسهِ ، والاعترافِ له بالعظمة والجلالِ والكبرياء ، فهو المحمودُ بذاته الذي يَحمده أهل السمواتِ وأهلُ الأرض . سُميتْ سورةَ الكهفِ لما فيها من المعجزة الربانية ، في تلك القصة الغريبة ، قصة « أصحابِ الكهف » وهم فتيةٌ مؤمنون خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم ، وهجروا الديار والأوطان في سبيل العقيدة والإيمان ، ولجئوا إلى غارٍ واسع في الجبل ومكثوا فيه نياماً ثلاثَ مائةٍ وتسعَ سنين بدون طعام ولا شراب ، ثم بعثهم الله تعالى بعد تلك المدة ﴿ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائلٌ منهم كم لَبِثْتم قالوا لبثْنا يوماً أو بعضَ يوم ... إلى قوله تعالى : ولبثوا في كهفِهم ثلاثَ مائةٍ سنينَ وازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ وهو زمنٌ يُعتبر طويلاً بالنسبة للانسان . وقد كانت قصةُ ﴿ أهلِ الكهف ﴾ برهاناً ساطعاً على إمكان البعث بعد الموتِ ، والحياةِ بعد الفناء ، فقد قررت إمكان حدوث البعث في الدنيا بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت ، والغرضُ منها إقامة البرهانِ الحسّيِ القاطع على أن الله يحيي الموتى ،

وأنه يبعث من في القبور ، وقد استخدمتْ السورةُ الكريمة — في سبيلِ تقريرِ أهدافها — أسلوبَ القَصَص ، فذكرتْ ثَلاَثَ قصص بدأتْ بقصة أصحاب الكهف ، وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة ، ثم قصة موسى الكليم مع العبد وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم الذي لا يعرف التكبر والغرور ، ثم قصة « ذي القَرْنَيْن » وهي قصةُ العدلِ وإغاثةِ الضعيفِ واللَّهفان ، وإلى جوار القَصَص الممتع ذي المغزى العميق ، بعضُ مشاهد القيامة ، وبعضُ مشاهدِ الحياةِ التي تصور الأفكار الرئيسية لدعوة الإسلام ، وكما استخدمتْ السورة في سبيل هدفها هذه القِصَص الثلاث ، استخدمتْ فيه من جهةٍ أُخرى أمثلةً ثلاثةً واقعيةً ، بيَّنَت فيها أن الحق لا يرتبط بكثرة المالِ والجاهِ والسلطان ، ولا بعلُوِّ الإنسان وإنما هو مرتبطٌ بالعقيدة التي دعا إليها القرآن ؛ **أما المثل الأول** فهو مَثَلُ الغنيّ المكاثر بماله ، والفقيرِ المعتز بعقيدته وإيمانه في قصة الجَنَّتَيْنِ ﴿واضربْ لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعنابٍ وحَفَفْناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعاً﴾ **وأما المثل الثاني** فهو مثلٌ للحياة الدنيا وما يلحقها من فناءٍ وزوال بعد تلك الزينة التي خدعت الكثيرين من الناس ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيءٍ مقتدراً﴾ **وأما المثل الثالث** : فهو مثل التكبر والغرور مصوَّراً في حادثة إبليس اللعين وما أصابه من الطردِ والحرمان جزاء تكبره واستعلائه على أوامر الله ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجنِّ ففسق عن أمر ربه ..﴾ وهكذا ترد القصص مقرونة بالأمثال . **تبتدىء السورة الكريمة** بحمد الله والثناء عليه الذي أنزل القرآن هداية للبشرية ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتابَ ولم يجعل له عِوَجاً﴾ ثم تنتقل إلى بيان حقيقة الحياةِ

بميزان العقيدة الدقيق ، فكلُّ ما على الأرض من زينةٍ وبَهْرجٍ إنما جُعل للابتلاء والاختبار ، ونهايتُه إلى فناءٍ وزوال ﴿ إنا جعلنا ما على الأرضِ زينةً لها لنبلوهم أيُّهُم أحسن عملاً . وإنّا الجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً ﴾ ثم تتحدث عن قصة الفتية المؤمنين الذين وقفوا في وجه الملك الجبار « دقيانوس » الذي كان يدعو الناس إلى عبادة الأوثان والأحجار ، وقفوا معلنين إيمانهم بكل جرأةٍ وصلابة ، متحدين الكُفْرَ والضلالَ ، لا يبالون بموتٍ أو قتل ﴿ نحنُ نقصُّ عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هُدَى . وربطْنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربُّنا ربُّ السمواتِ والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ وقد تحدثت الآيات عن إكرام الله لهم بإنجائهم من بطشِ ذلك الطاغيةِ الجبار ، وعن اكرامهم وهم مختفون بالغار بعد أن فروا بدينهم فألقى الله عليهم النوم ، وجعل الشمس تتنحَّى عنهم عند شروقها وغروبها لئلا تُؤذيهم بحرارتها ﴿ وترى الشمسَ إذا طَلَعت تَزَاوَرُ عنْ كَهْفِهم ذاتَ اليمينِ – أي تتنحى وتميل عنهم – وإذا غربتْ تَقْرِضُهم ذاتَ الشمال – أي تجاوزهم إلى جهة الشمال – وهم في فجوةٍ منه – أي في متَّسَع من الغار – ذلك من آياتِ الله ، من يهدِ اللهُ فهو المهتد ومن يُضْلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ ثم تأتي نهايةُ القصةِ العجيبة « قصةِ أهل الكهف » لبيان العبرة وهي دلالتها على البعث بمثلٍ واقعيٍ ، قريب محسوس ، وهو الإيمان بالبعثِ والنشور ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حقٌ ، وأنَّ الساعة لا ريبَ فيها ..) . ومن قصة أصحاب الكهف ينتقل الحديث إلى قصة الجنتين ، وهي ترمز إلى موضوع الإيمان بالبعث والجزاء والحساب كذلك ، وترسم نموذجين واضحين للنفوس البشرية ، للنفسِ المؤمنة المعتزَّة بالله ، والنفسِ الكافرة المُعْتَزَّةِ بزينةِ الحياة ، وكلاهما نموذج إنسانيٌ لطائفةٍ من الناس ، صاحبُ الجنتين

نموذجٌ للرجل الثريّ ، تُذهلُه الثروة وتُبْطره النعمة ، وصاحبُه نموذجٌ للرجل المؤمن ، الذاكرِ لربه ، يرى النعمة دليلاً على وجوب شكرِ المنعم لا على جحوده وعصيانه ﴿ قال له صاحبُه وهو يحاوِرُه أكفرتَ بالذي خلقك من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سوّاك رجلاً ! لكنّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾ .

ثم تذكر السورة الكريمة قصة التواضع في طلب العلم ، الماثلة فيما جرى بين موسى عليه السلام وبين العبد الصالح « الخَضِر » فإن موسى – مع علو شأنه – لم يمنعه علوُّه عن تحمل المشاقِّ في سبيلِ العلم ، دون دون نظرٍ إلى مكانةِ من يريد التعلم منه ، فموسى نبيُّ الله وكليمُه ، والخضِرُ ليس بنبيٍّ وإنما هو من أولياء الله الصالحين ، ومع ذلك لم يتردَّد موسى الكليم عن قطع المسافاتِ الشاسعة ، ليلتقي بالعبدِ الصالح ويستفيد من علمه اللَّدُنيِّ الذي وهبه الله إياه ﴿وإذ قال موسى لفتاهُ لا أبْرَحُ حتى أبْلُغ مجمعَ البحرين أو أَمْضِيَ حُقُباً﴾ والتقى موسى بالعبد الصالح وقدَّم نفسه بتواضعٍ وأدبٍ طالباً منه العلم ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لَدُنَّا علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تُعَلِّمنِ ممَّا عُلِّمتَ رُشْداً ! !﴾ ثم كان من شأنهما ما قصَّ علينا القرآن العزيز من روائع القَصَص من قصة السفينة ، وقتل الغلام ، وبناء الجدار ، وكلُّها أخبارٌ غيبية أطلعَ اللهُ عليها ذلكَ العبدَ الصالح وفيها عبرٌ وعظاتٌ .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى قصة « ذي القرنين » وهو مَلِكٌ مكَّن الله له بتقواه وعدله أن يبسط سلطانه على المعمورة ، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها ، ويُقيمَ فيها العدل والخيرَ والإصلاح ، ويكون من شأنه أن يبني ذلك السدَّ المتين المكين ليحمي الناس من شر يأجوج ومأجوج ﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض

فهل نجعلُ لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ قال ما مَكَّنِّي فيه ربي خيرٌ فأعينوني بقوةٍ أجعلْ بينكم وبينهم ردماً﴾ وحين يتم السدُّ يردُّ الملك الصالح الأمر للهِ تعالى لا لقوته البشرية ﴿قال هذا رحمةٌ من ربيْ فإذا جاء وعدُ ربي جعله دكّاءَ وكان وعدُ ربي حقاً﴾ وكلُّ هذه الأخبار العجيبة التي ذكرتها السورة الكريمة إنما وردت بقصد العظاتِ والعِبَر ، وتذكُّرُ المؤمنين بسعة علم الله وسلطانه ، وعجائب كونه وأسرار ملكه ، ثم تختم السورة بالإخلاص والنهي عن الشرك كما بدأت بذكر الوحي والتوحيد ، ليتفق البدء مع الختام ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشركْ بعبادة ربه أحداً﴾

سورة الكهف

[٥٨١] أخرج ابن جرير[1] من طريق ابن إسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس قال بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء مخرجاً حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله [ﷺ] ووصفوا لهم أمره وبعض قوله فقالوا لهم سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه كان لهم أمر عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هو فاقبلا حتى قدما على قريش فقالا قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد فجاؤا رسول الله [ﷺ] فسألوه فقال: «**أخبركم غداً بما سألتم عنه**» ولم يستثن فانصرفوا ومكث رسول الله [ﷺ] خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك إليه وحياً ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وحتى أحزن رسول الله [ﷺ] مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾[2].

[٥٨٢] وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام والنضر بن الحارث وأُمية بن خلف والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأبو البحتري في نفر من قريش وكان رسول الله [ﷺ] قد كبّر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء به من النصيحة فأحزنه حزناً شديداً فأنزل الله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾[3] الآية.

---

[٥٨١] (١) ورواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢/ ٢٧٠).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٨٥) ـ وقد أورد المصنف هذا الحديث في سورة الكهف وصوابه إيراده في سورة الإسراء.

[٥٨٢] (٣) سورة الكهف: الآية (٦).

[٥٨٣] وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن عباس قال أنزلت ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾(١) فقيل يا رسول الله سنين أو شهوراً، فأنزل الله ﴿سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾(٢) وأخرجه ابن جرير عن الضحاك.

[٥٨٤] وأخرجه ابن مردويه أيضاً عن ابن عباس قال حلف النبي [ﷺ] على يمين فمضى له أربعون ليلة فأنزل الله ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٢٨] الآية.

[٥٨٥] تقدم سبب نزولها في سورة الأنعام في حديث خباب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ [الكهف: ٢٨] الآية.

[٥٨٦] أخرج ابن مردويه(٤) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾(٥) الآية. قال نزلت في أمية بن خلف الجمحي وذلك أنه دعا النبي [ﷺ] إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فنزلت.

[٥٨٧] وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال حدثنا أن النبي [ﷺ] تصدى لأمية بن خلف وهو ساه غافل عما يقال له فنزلت.

[٥٨٨] وأخرج عن أبي هريرة قال دخل عيينة بن حصن على النبي [ﷺ] وعنده سلمان فقال عيينة إذا نحن أتيناك فاخرج هذا وأدخلنا فنزلت.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾ [الكهف: ١٠٩] الآية.

[٥٨٩] أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فسألوه فنزلت ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾(٦) وقال اليهود أوتينا علماً

---

[٥٨٣] (١) سورة الكهف: الآية (٢٥).
(٢) سورة الكهف: الآية (٢٥).
[٥٨٤] (٣) سورة الكهف: الآية (٢٣).
[٥٨٦] (٤) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٧٢) من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.
(٥) سورة الكهف: الآية (٢٨).
[٥٨٩] (٦) سورة الإسراء: الآية (٨٥).

كثيراً أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فنزلت ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾[1] الآية.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠] الآية.

[٥٩٠] أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص عن طاوس قال: قال رجل يا رسول الله إني أقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطني فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[2] مرسل وأخرجه الحاكم في المستدرك موصولاً عن طاوس عن ابن عباس وصححه على شرط الشيخين.

[٥٩١] وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال كان رجل من المسلمين يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه فأنزل الله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾[3] الآية.

[٥٩٢] وأخرج أبو نعيم وابن عساكر في تاريخه من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال جندب بن زهير إذا صلّى الرجل أو صام أو تصدق فذكر بخير ارتاح له فزاد في ذلك لمقالة الناس له فنزلت في ذلك: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾[4] الآية.

* * *

---

(١) سورة الكهف: الآية (١٠٩).

[٥٩٠] (٢) سورة الكهف: الآية (١١٠).

[٥٩١] (٣) سورة الكهف: الآية (١١٠).

[٥٩٢] (٤) سورة الكهف: الآية (١١٠).

سورة الكهف

مائة وإحدى عشرة آية مكية

قال ابن عباس: إنها مكية غير آيتين منها، فيهما ذكر عيينة بن حصن الفزاري. وعن قتادة أنها مكية. وعن رسول الله: «ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك حين نزلت؟ هي سورة الكهف».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أما الكلام في حقائق قولنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقد سبق، والذي أقوله هاهنا: إن التسبيح أينما جاء فإنما جاء مقدمًا على التحميد، ألا ترى أنه يقال: سبحان الله والحمد لله؟

إذا عرفت هذا فنقول: إنه جل جلاله ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد ﷺ فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وذكر التحميد عندما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد ﷺ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن التسبيح أول الأمر لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي، وهو إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته، والتحميد عبارة عن كونه مكملاً لغيره، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملاً في ذاته، ونهاية الأمر كونه مكملاً لغيره، فلا جرم وقع الابتداء في الذكر بقولنا ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ﴾ [الإسراء: ١] ثم ذكر بعده: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تنبيهًا على أن مقام التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية.

إذا عرفت هذا فنقول: ذكر عند الإسراء لفظ التسبيح وعند إنزال الكتاب لفظ التحميد، وهذا تنبيه على أن الإسراء به أول درجات كماله وإنزال الكتاب غاية درجات كماله، والأمر في الحقيقة كذلك لأن الإسراء به إلى المعراج يقتضي حصول الكمال له، وإنزال الكتاب عليه يقتضي كونه مكملاً للأرواح البشرية وناقلاً لها من حضيض البهيمية إلى أعلى درجات الملكية، ولا شك أن هذا الثاني أكمل، وهذا تنبيه على أن أعلى مقامات العباد مقامًا أن يصير (العبد)

عالمًا في ذاته معلمًا لغيره، ولهذا روي في الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**مَنْ تعلم وعلم فذاك يدعى عظيمًا في السماوات**»(١).

الفائدة الثانية: أن الإسراء عبارة عن رفع ذاته من تحت إلى فوق، وإنزال الكتاب عليه عبارة عن إنزال نور الوحي عليه من فوق إلى تحت، ولا شك أن هذا الثاني أكمل.

الفائدة الثالثة: أن منافع الإسراء به كانت مقصورة عليه، ألا ترى أنه تعالى قال هنالك: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١] ومنافع إنزال الكتاب عليه متعدية، ألا ترى أنه قال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والفوائد المتعدية أفضل من القاصرة.

المسألة الثانية: المشبهة استدلوا بلفظ الإسراء في السورة المتقدمة وبلفظ الإنزال في هذه السورة على أنه تعالى مختص بجهة فوق. والجواب عنه مذكور بالتمام في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

المسألة الثالثة: إنزال الكتاب نعمة عليه ونعمة علينا: أما كونه نعمة عليه فلأنه تعالى أطلعه بواسطة هذا الكتاب الكريم على أسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والإكرام وأسرار أحوال الملائكة والأنبياء وأحوال القضاء والقدر، وتعلق أحوال العالم السفلي بأحوال العالم العلوي، وتعلق أحوال عالم الآخرة بعالم الدنيا، وكيفية نزول القضاء من عالم الغيب، وكيفية ارتباط عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات، وتصيير النفس كالمرآة التي يتجلى فيها عالم الملكوت وينكشف فيها قدس اللاهوت، فلا شك أن ذلك من أعظم النعم. وأما كون هذا الكتاب نعمة علينا فلأنه مشتمل على التكاليف والأحكام والوعد والوعيد والثواب والعقاب، وبالجملة فهو كتاب كامل في أقصى الدرجات، فكل واحد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه، فلما كان كذلك وجب على الرسول وعلى جميع أمته أن يحمدوا الله عليه، فعلَّمهم الله تعالى كيفية ذلك التحميد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

ثم إنه تعالى وصف الكتاب بوصفين فقال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: أنا قد ذكرنا أن الشيء يجب أن يكون كاملاً في ذاته ثم يكون مكملاً لغيره، ويجب أن يكون تامًّا في ذاته ثم يكون فوق التمام بأن يفيض عليه كمال الغير. إذا عرفت هذا فنقول: في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ إشارة إلى كونه مكملاً لغيره لأن القيم عبارة عن القائم بمصالح الغير. ونظيره قوله في أول سورة البقرة في صفة الكتاب: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إشارة إلى كونه في

(١) أخرجه زهير بن حرب في كتاب (العلم) (١/ ٨/ ٧) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٤٧/ ٤٥٦) كلاهما من طريق بشر بن منصور عن ثور عن عبد العزيزي بن ظبيان قال: قال المسيح ابن مريم... فذكره.

نفسه بالغًا في الصحة وعدم الإخلال إلى حيث يجب على العاقل أن لا يرتاب فيه وقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى كونه سببًا لهداية الخلق وإكمال حالهم فقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ قائم مقام قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ قائم مقام قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهذه أسرار لطيفة.

البحث الثاني: قال أهل اللغة: العوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد منه وجوه: **أحدها:** نفي التناقض عن آياته كما قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. **وثانيها:** أن كل ما ذكر الله من التوحيد والنبوة والأحكام والتكاليف فهو حق وصدق ولا خلل في شيء منها ألبتة. **وثالثها:** أن الإنسان كأنه خرج من عالم الغيب متوجهًا إلى عالم الآخرة وإلى حضرة جلال الله وهذه الدنيا كأنها رباط بني على طريق عالم القيامة حتى أن المسافر إذا نزل فيه اشتغل بالمهمات التي يجب رعايتها في هذا السفر ثم يرتحل منه متوجهًا إلى عالم الآخرة، فكل ما دعاه في الدنيا إلى الآخرة ومن الجسمانيات إلى الروحانيات ومن الخلق إلى الحق ومن اللذات الشهوانية الجسدانية إلى الاستنارة بالأنوار الصمدانية، فثبت أنه مبرأ عن العوج والانحراف والباطل فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾. **الصفة الثانية للكتاب:** وهي قوله: ﴿قَيِّمًا﴾ قال ابن عباس: يريد مستقيمًا. وهذا عندي مشكل لأنه لا معنى لنفي الاعوجاج إلا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار وأنه باطل، بل الحق ما ذكرناه وأن المراد من كونه: ﴿قَيِّمًا﴾ أنه سبب لهداية الخلق وأنه يجري مجرى من يكون قيمًا للأطفال، فالأرواح البشرية كالأطفال، والقرآن كالقيم الشفيق القائم بمصالحهم.

البحث الثالث: قال الواحدي: جميع أهل اللغة والتفسير قالوا: هذا من التقديم والتأخير والتقدير: أنزل على عبده الكتاب قيمًا ولم يجعل له عوجًا. وأقول: قد بينا ما يدل على فساد هذا الكلام لأنا بينا أن قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ يدل على كونه كاملاً في ذاته، وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ يدل على كونه مكملاً لغيره، وكونه كاملاً في ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملاً لغيره، فثبت بالبرهان العقلي أن الترتيب الصحيح هو الذي ذكره الله تعالى وهو قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ فظهر أن ما ذكروه من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب إليه.

البحث الرابع: اختلف النحويون في انتصاب قوله: ﴿قَيِّمًا﴾ وذكروا فيه وجوهًا: **الأول:** قال صاحب (الكشاف) لا يجوز جعله حالاً من الكتاب لأن قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ معطوف على قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ فهو داخل في حيز الصلة فجعله حالاً من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يوجب الفصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة، وأنه لا يجوز. قال: ولما بطل هذا وجب أن ينتصب بمضمر والتقدير: ولم يجعل له عوجًا وجعله قيمًا. **الوجه الثاني:** قال الأصفهاني الذي نرى فيه أن يقال قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ حال وقوله: ﴿قَيِّمًا﴾ حال أخرى وهما حالان متواليان والتقدير أنزل على عبده الكتاب غير مجعول له عوجًا قيمًا. **الوجه الثالث:** قال السيد صاحب (حل العقد) يمكن

أن يكون قوله: ﴿قَيِّمًا﴾ بدلاً من قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ لأن معنى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أنه جعله مستقيمًا فكأنه قيل: أنزل على عبده الكتاب وجعله قيمًا. **الوجه الرابع:** أن يكون حالاً من الضمير في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ أي حال كونه قائمًا بمصالح العباد وأحكام الدين.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه أنزل على عبده الكتاب الموصوف بهذه الصفات المذكورة، أردفه ببيان ما لأجله أنزله فقال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ و(أنذر) متعدٍّ إلى مفعولين كقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾[النبأ: ٤٠] إلا أنه اقتصر هاهنا على أحدهما وأصله ﴿لِّيُنذِرَ﴾ الذين كفروا ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ كما قال في ضده: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والبأس مأخوذ من قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾[الأعراف: ١٦٥] وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأسًا وبآسة وقوله: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي صادرًا من عنده، قال الزجاج: وفي: (لدن) لغات يقال: لدن ولدي ولد، والمعنى واحد. قال: وهي لا تتمكن تمكن (عند) لأنك تقول هذا القول صواب عندي ولا تقول صواب لدني، وتقول عندي مال عظيم و(المال) غائب عنك ولدني لما يليك لا غير وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بسكون الدال مع إشمام الضم وكسر النون والهاء وهي لغة بني كلاب. ثم قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ واعلم أن المقصود من إرسال الرسل إنذار المذنبين وبشارة المطيعين، ولما كان دفع الضرر أهم عند (ذوي) العقول من إيصال النفع، لا جرم قدم الإنذار على التبشير في اللفظ، قال صاحب (الكشاف): وقرئ ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ بالتخفيف والتثقيل وقوله: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ يعني خالدين وهو حال للمؤمنين من قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا﴾. **قال القاضي: الآية دالة على صحة قولنا في مسائل:** أحدها: أن القرآن مخلوق وبيانه من وجوه: الأول: أنه تعالى وصفه بالإنزال والنزول وذلك من صفات المحدثات فإن القديم لا يجوز عليه التغير. الثاني: وصفه بكونه كتابًا والكتب هو الجمع وهو سمي كتابًا لكونه مجموعًا من الحروف والكلمات، وما صح فيه التركيب والتأليف فهو محدث. الثالث: أنه تعالى أثبت الحمد لنفسه على إنزال الكتاب، والحمد إنما يستحق على النعمة والنعمة محدثة مخلوقة.

الرابع: أنه وصف الكتاب بأنه غير معوج وبأنه مستقيم والقديم لا يمكن وصفه بذلك، فثبت أنه محدث مخلوق. **وثانيها: مسألة خلق الأعمال:** فإن هذه الآيات تدل على قولنا في هذه المسألة من وجوه: **الأول:** نفس الأمر بالحمد لأنه لو لم يكن للعبد فعل لم ينتفع بالكتاب إذ الانتفاع به إنما يحصل إذا قدر على أن يفعل ما دل الكتاب على أنه يجب فعله ويترك ما دل الكتاب على أنه يجب تركه، وهو إنما يفعل ذلك لو كان مستقلاً بنفسه، أما إذا لم يكن مستقلاً بنفسه لم يكن لعوج الكتاب أثر في اعوجاج فعله ولم يكن لكون الكتاب قيمًا أثر في استقامة فعله، أما إذا كان العبد قادرًا على الفعل مختارًا فيه بقي لعوج الكتاب واستقامته أثر في فعله. **والثاني:** أنه تعالى لو كان أنزل بعض الكتاب ليكون سببًا لكفر البعض وأنزل الباقي ليؤمن البعض الآخر، فمن أين أن الكتاب قيم لا عوج فيه؟ لأنه لو كان فيه عوج لما زاد على ذلك. **والثالث:** قوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ وفيه

دلالة على أنه تعالى أراد منه ﷺ إنذار الكل، وتبشير الكل وبتقدير أنه يكون خالق الكفر والإيمان هو الله تعالى لم يبق للإنذار والتبشير معنى لأنه تعالى إذا خلق الإيمان فيه حصل، شاء أو لم يشأ، وإذا خلق الكفر فيه حصل، شاء أو لم يشأ، فبقي الإنذار والتبشير على الكفر والإيمان جاريًا مجرى الإنذار والتبشير على كونه طويلاً قصيرًا وأسود وأبيض مما لا قدرة له عليه. **والرابع:** وصفه المؤمنين بأنهم يعملون الصالحات فإن كان ما وقع خلق الله تعالى فلا عمل لهم ألبتة. **الخامس:** إيجابه لهم الأجر الحسن على ما عملوا، فإن كان الله تعالى يخلق ذلك فيهم فلا إيجاب ولا استحقاق.

المسألة الرابعة: قال: قوله: ﴿ لِّيُنذِرَ﴾ يدل على أنه تعالى إنما يفعل أفعاله لأغراض صحيحة وذلك يبطل قول من يقول: إن فعله غير معلل بالغرض، واعلم أن هذه الكلمات قد تكررت في هذا الكتاب فلا فائدة في الإعادة.

قوله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ معطوف على قوله: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢] والمعطوف يجب كونه مغايرًا للمعطوف عليه، فالأول عام في حق كل من استحق العذاب. والثاني خاص بمن أثبت لله ولدًا، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهًا على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي، كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] فكذا هاهنا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى.

المسألة الثانية: الذين أثبتوا الولد لله تعالى ثلاث طوائف: **أحدها:** كفار العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله. **وثانيها:** النصارى حيث قالوا: المسيح ابن الله. **وثالثها:** اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والكلام في أن إثبات الولد لله كفر عظيم ويلزم منه محالات عظيمة قد ذكرناه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وتمامه مذكور في سورة مريم. ثم إنه تعالى أنكر على القائلين بإثبات الولد لله تعالى من وجهين: **الأول:** قوله: ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ﴾ فإن قيل: اتخاذ الله ولدًا محال في نفسه فكيف قيل ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾؟ قلنا: انتفاء العلم بالشيء قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه، وقد يكون لأنه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به. ونظيره قوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧] واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية فقالوا: هذه الآية تدل على أن القول في

الدين بغير علم باطل، والقول بالقياس الظني قول في الدين بغير علم فيكون باطلاً. وتمام تقريره مذكور في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]وقوله: ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ أي ولا أحد من أسلافهم، وهذا مبالغة في كون تلك المقالة باطلة فاسدة.

النوع الثاني مما ذكره الله في إبطاله: قوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

وفيه مباحث:

البحث الأول: قرئ: (كَبُرَتْ كَلِمَةٌ) بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية، قال الواحدي: ومعنى التمييز أنك إذا قلت: (كبرت المقالة أو الكلمة) جاز أن يتوهم أنها كبرت كذبًا أو جهلاً أو افتراء، فلما قلت (كلمة) ميزتها من محتملاتها فانتصبت على التمييز والتقدير: كبرت الكلمة كلمة: فحصل فيه الإضمار، أما من رفع فلم يضمر شيئًا كما تقول (عظم فلان) فلذلك قال النحويون: والنصب أقوى وأبلغ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة!!

البحث الثاني: قوله: ﴿كَبُرَتْ﴾ أي كبرت الكلمة. والمراد من هذه الكلمة ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فصارت مضمرة في (كبرت) وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة.

البحث الثالث: احتج النظام في إثبات قوله: (أن الكلام جسم) بهذه الآية قال: إنه تعالى وصف الكلمة بأنها تخرج من أفواههم والخروج عبارة عن الحركة، والحركة لا تصح إلا على الأجسام. والجواب أن الحروف إنما تحدث بسبب خروج النفَس عن الحلق، فلما كان خروج النفَس سببًا لحدوث الكلمة أطلق لفظ الخروج على الكلمة.

البحث الرابع: قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يدل على أن هذا الكلام مستكره جدًا عند العقل؛ كأنه يقول: هذا الذي يقولونه لا يحكم به عقلهم وفكرهم ألبتة لكونه في غاية الفساد والبطلان، فكأنه شيء يجري به لسانهم على سبيل التقليد؛ لأنهم مع أنها قولهم، عقولهم وفكرهم تأباها وتنفر عنها. ثم قال تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ومعناه ظاهر، واعلم أن الناس قد اختلفوا في حقيقة الكذب: فعندنا أنه الخبر الذي لا يطابق المخبر عنه، سواء اعتقد المخبر أنه مطابق أم لا؟ ومن الناس من قال: شرط كونه كذبًا أن لا يطابق المخبر عنه مع علم قائله بأنه غير مطابق. وهذا القيد عندنا باطل، والدليل عليه هذه الآية فإنه تعالى وصف قولهم بإثبات الولد لله بكونه كذبًا، مع أن الكثير منهم يقول ذلك، ولا يعلم كونه باطلاً، فعلمنا أن كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب، سواء علم القائل بكونه مطابقًا أو لم يعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾. **وفيه مباحث:**

البحث الأول: المقصود منه أن يقال للرسول: لا يَعْظُم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فإنا بعثناك منذرًا ومبشرًا، فأما تحصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه. والغرض تسلية الرسول ﷺ عنه.

البحث الثاني: قال الليث: بخع الرجل نفسه، إذا قتلها غيظًا من شدة وجده بالشيء. وقال الأخفش والفراء: أصل البخع الجهد. يقال: بخعت لك نفسي، أي جهدتها، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عمر فقالت: بخع الأرضَ، أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك. وقال الكسائي: بخعت الأرضَ بالزراعة، إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة. وبخع الرجل نفسه إذا نهكها. وعلى هذا معنى: ﴿بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ﴾ أي ناهكها وجاهدها حتى تهلكها، ولكن أهل التأويل كلهم قالوا: قاتل نفسك ومهلكها. والأصل ما ذكرناه، هكذا قال الواحدي.

البحث الثالث: قوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ أي من بعدهم، يقال مات فلان على أثر فلان، أي بعده. وأصل هذا أن الإنسان إذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم إنها تنمحي وتبطله بالكلية، فإذا كان موته قريبًا من موت الأول كان موته حاصلاً حال بقاء آثار الأول، فصح أن يقال: مات فلان على أثر فلان.

البحث الرابع: قوله: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ المراد بالحديث القرآن. قال القاضي: وهذا يقتضي وصف القرآن بأنه حديث، وذلك يدل على فساد قول من يقول: إنه قديم. وجوابه أنه محمول على الألفاظ وهي حادثة.

البحث الخامس: قوله: ﴿أَسَفًا﴾ الأسف المبالغة في الحزن، وذكرنا الكلام فيه عند قوله: ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفًا﴾ سورة[الأعراف ١٥٠] وعند قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[يوسف: ٨٤] وفي انتصابه وجوه. الأول: أنه نصب على المصدر ودل ما قبله من الكلام على أنه يأسف. الثاني: يجوز أن يكون مفعولاً له أي للأسف كقولك جئتك ابتغاء الخير. والثالث: قال الزجاج: ﴿أَسَفًا﴾ منصوب لأنه مصدر في موضع الحال.

البحث السادس: الفاء في قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ جواب الشرط وهو قوله: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ قُدم عليه ومعناه التأخير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي: وجه النظم كأنه تعالى يقول: يا محمد إني خلقت الأرض وزينتها وأخرجت منها أنواع المنافع والمصالح، والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق بهذه التكاليف ثم إنهم يكفرون ويتمردون مع ذلك فلا أقطع عنهم مواد هذه النعم. فأنت أيضًا يا محمد ينبغي أن لا تنتهي في الحزن بسبب كفرهم إلى أن تترك الاشتغال بدعوتهم إلى الدين الحق.

المسألة الثانية: اختلفوا في تفسير هذه الزينة: فقال بعضهم: النبات والشجر وضَمَّ بعضهم إليه الذهب والفضة والمعادن، وضَمَّ بعضهم إليه سائر الحيوانات وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة الأرض. وبالجملة: فليس بالأرض إلا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات والحيوان، وأشرف أنواع الحيوان الإنسان. وقال القاضي: الأولى أنه لا يدخل في هذه الزينة المكلف لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ فمن يبلوه يجب أن لا يدخل في ذلك، فأما سائر النبات والحيوان فإنهم يدخلون فيه كدخول سائر ما ينتفع به، وقوله: ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أي للأرض، ولا يمتنع أن يكون ما يحسن به الأرض زينة للأرض كما جعل الله السماء مزينة بزينة الكواكب.

أما قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ . ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذهب هشام بن الحكم إلى أنه تعالى لا يعلم الحوادث إلا عند دخولها في الوجود، فعلى هذا الابتلاء والامتحان على الله جائز، واحتج عليه بأنه تعالى لو كان عالمًا بالجزئيات قبل وقوعها لكان كل ما علم وقوعه واجب الوقوع وكل ما علم عدمه ممتنع الوقوع، وإلا لزم انقلاب علمه جهلاً وذلك محال والمفضي إلى المحال محال، ولو كان ذلك واجبًا فالذي علم وقوعه يجب كونه فاعلاً له ولا قدرة له على الترك، والذي علم عدمه يكون ممتنع الوقوع ولا قدرة له على الفعل، وعلى هذا يلزم أن لا يكون الله قادرًا على شيء أصلاً بل يكون موجبًا بالذات، وأيضًا فيلزم أن لا يكون للعبد قدرة لا على الفعل ولا على الترك، لأن ما علم الله وقوعه امتنع من العبد تركه وما علم الله عدمه امتنع منه فعله، فالقول بكونه تعالى عالمًا بالأشياء قبل وقوعها يقدح في الربوبية وفي العبودية وذلك باطل، فثبت أنه تعالى إنما يعلم الأشياء عند وقوعها، وعلى هذا التقدير فالابتلاء والامتحان والاختبار جائز عليه وعند هذا قال: يجري قوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ على ظاهره.

وأما جمهور علماء الإسلام فقد استبعدوا هذا القول وقالوا: إنه تعالى من الأزل إلى الأبد عالم بجميع الجزئيات، فالابتلاء والامتحان محالان عليه، وأينما وردت هذه الألفاظ فالمراد أنه تعالى يعاملهم معاملة لو صدرت تلك المعاملة عن غيره لكان ذلك على سبيل الابتلاء والامتحان. وقد ذكرنا هذه المسألة مرارًا كثيرة.

المسألة الثانية: قال القاضي: معنى قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هو أنه يبلوهم ليبصرهم أيهم أطوع لله وأشد استمرارًا على خدمته لأن من هذا حاله هو الذي يفوز بالجنة فبين تعالى أنه كلف لأجل ذلك لا لأجل أن يعصى، فدل ذلك على بطلان قول من يقول: خلق بعضهم للنار.

المسألة الثالثة: اللام في قوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ تدل ظاهرًا على أن أفعال الله معللة بالأغراض عند المعتزلة، وأصحابنا قالوا: هذا محال لأن التعليل بالغرض إنما يصح في حق من لا يمكنه

تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة، وهذا يقتضي العجز وهو على الله محال.

المسألة الرابعة: قال الزجاج: ﴿أَيُّهُمْ﴾ رُفع بالابتداء إلا أن لفظه لفظ الاستفهام، والمعنى لنختبر ونمتحن هذا أحسن عملاً أم ذاك. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ والمعنى أنه تعالى بَيَّن أنه إنما زين الأرض لأجل الامتحان والابتلاء لا لأجل أن يبقى الإنسان فيها متنعمًا أبدًا لأنه يُزهد فيها بقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا﴾ الآية ونظيره قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] وقوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا﴾ الآية[طه: ١٠٦]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ الآية[الانشقاق: ٣].

والمعنى أنه لا بد من المجازاة بعد فناء ما على الأرض، وتخصيص الإبطال والإهلاك بما على الأرض يوهم بقاء الأرض إلا أن سائر الآيات دلت على أن الأرض أيضًا لا تبقى، وهو قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ٤٨] قال أبو عبيدة: الصعيد: المستوي من الأرض، وقال الزجاج: هو الطريق الذي لا نبات فيه، وقد ذكرنا تفسير الصعيد في آية التيمم، وأما الجرز فقال الفراء: الجرز: الأرض التي لا نبات عليها، يقال: جرزت الأرض فهي مجروزة، وجرزها الجراد والشاء والإبل إذا أكلت ما عليها، وامرأة جروز، إذا كانت أكولاً، وسيف جراز إذا كان مستأصلاً، ونظيره قوله تعالى: ﴿نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾[السجدة: ٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت أنهم كانوا عجبًا من آياتنا فقط، فلا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب، فإن من كان قادرًا على تخليق السماوات والأرض ثم يزين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيدًا جرزًا خالية عن الكل، كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم؟! هذا هو الوجه في تقرير النظم، والله أعلم.

المسألة الثانية: قد ذكرنا سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[الإسراء: ٨٥] وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه القصة مشروحًا فقال: كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلَّم بها أحاديث رستم واسفنديار، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلسًا ذكر

فيه الله وحَدَّث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه! ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ثم إن قريشًا بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلوهم عن محمد وصفته وأخبِروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب، وعن رجل طَوَّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح وما هو؟ فإن أخبركم فهو نبي وإلا فهو متقول. فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد. وأخبروا بما قاله اليهود فجاؤوا رسول الله ﷺ وسألوه فقال رسول الله ﷺ: «أُخبِرُكُمْ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ غَدًا» ولم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به، وقالوا: وعدنا محمد غدًا واليوم خمس عشرة ليلة! فشق عليه ذلك، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرجل الطواف[(١)].

المسألة الثالثة: الكهف: الغار الواسع في الجبل، فإذا صغر فهو الغار، وفي الرقيم أقوال: الأول: روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعة غسلين وحنانًا والأواه والرقيم. الثاني: روى عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الرقيم فقال: زعم كعب أنها القرية التي خرجوا منها. وهو قول السدي. الثالث: قال سعيد بن جبير ومجاهد: الرقيم لوح من حجارة وقيل من رصاص، كتب فيه أسماؤهم وقصتهم وشُد ذلك اللوح على باب الكهف، وهذا قول جميع أهل المعاني والعربية قالوا: الرقيم: الكتاب، والأصل فيه المرقوم، ثم نُقل إلى فعيل، والرقم: الكتابة، ومنه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] أي مكتوب، قال الفراء: الرقيم لوح كان فيه أسماؤهم وصفاتهم، ونظن أنه إنما سمي رقيمًا لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه، وقيل: الناس رقموا حديثهم نقرًا في جانب الجبل. وقوله: ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ المراد أحسبت أن واقعتهم كانت عجيبة في أحوال مخلوقاتنا، فلا تحسب ذلك فإن تلك الواقعة ليست عجيبة في جانب مخلوقاتنا. والعجب هاهنا مصدر سمي المفعول به، والتقدير كانوا معجوبًا منهم، فسموا بالمصدر والمفعول به من هذا يستعمل باسم المصدر. ثم قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ لا يجوز أن يكون (إذ) هنا متعلقًا بما قبله على تقدير: أم حسبت إذ أوى الفتية لأنه كان بين النبي وبينهم مدة طويلة فلم يتعلق الحسبان بذلك الوقت الذي أووا فيه إلى

(١) أورده ابن إسحاق في (سيرته) (١/ ١٧٨) قال: حدثني رجل من أهل مكة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال. . . فذكره ضمن حديث طويل.

الكهف، بل يتعلق بمحذوف، والتقدير: اذكر إذ أوى، ومعنى أوى الفتية إلى الكهف صاروا إليه وجعلوه مأواهم قال: فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء. وقوله ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ يدل على عظمة تلك الرحمة وهي التي تكون لائقة بفضل الله تعالى وواسع جوده ﴿وَهَيِّئْ لَنَا﴾ أي أصلح، من قولك هيأت الأمر فتهيأ: ﴿مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ الرشد والرشاد نقيض الضلال، وفي تفسير اللفظ وجهان: الأول: التقدير: وهيئ لنا أمرًا ذا رشد حتى نكون بسببه راشدين مهتدين. الثاني: اجعل أمرنا رشدًا كله كقولك رأيت منك رشدًا. ثم قال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ قال المفسرون: معناه أنمناهم، وتقدير الكلام أنه تعالى ضرب على آذانهم حجابًا يمنع من أن تصل إلى أسماعهم الأصوات الموقظة، والتقدير: (ضربنا عليهم حجابًا) إلا أنه حذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال بنى على امرأته يريدون بني عليها القبة ثم إنه تعالى بَيَّن أنه ضرب على آذانهم في الكهف وهو ظرف المكان وقوله ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ ظرف الزمان.

وفي قوله ﴿عَدَدًا﴾ بحثان:

الأول: قال الزجاج: ذكر العدد هاهنا يفيد كثرة السنين وكذلك كل شيء مما يعد إذا ذكر فيه العدد ووُصف به أريد كثرته؛ لأنه إذا قل فُهم مقداره بدون التعديد أما إذا أكثر فهناك يحتاج إلى التعديد فإذا قلت أقمت (أيامًا عددًا) أردت به الكثرة.

البحث الثاني: في انتصاب قوله (عددًا) وجهان: أحدهما: نعت لسنين المعنى سنين ذات عدد أي معدودة، هذا قول الفراء وقول الزجاج، وعلى هذا يجوز في الآية ضربان من التقدير: أحدهما: حذف المضاف. والثاني: تسمية المفعول باسم المصدر. قال الزجاج: ويجوز أن ينتصب على المصدر، المعنى تعد عدًّا. ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ يريد من بعد نومهم يعني أيقظناهم بعد نومهم.

وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ . فيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ﴾ اللام لام الغرض فيدل على أن أفعال الله معللة بالأغراض، وقد سبق الكلام فيه.

المسألة الثانية: ظاهر اللفظ يقتضي أنه تعالى إنما بعثهم ليحصل له هذا العلم، وعند هذا يرجع إلى أنه تعالى هل يعلم الحوادث قبل وقوعها أم لا؟ فقال هشام: (لا يعلمها إلا عند حدوثها) واحتج بهذه الآية والكلام فيه قد سبق، ونظائر هذه الآية كثيرة في القرآن منها ما سبق في هذه السورة ومنها قوله في سورة البقرة: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وفي آل عمران: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ [الكهف: ٧] وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

المسألة الثالثة: (أَيُّ) رُفع بالابتداء و(أَحْصى) خبره، وهذه الجملة بمجموعها متعلق العلم

فلهذا السبب لم يظهر عمل قوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ في لفظة (أَيُّ) بل بقيت على ارتفاعها، ونظيره قوله: (اذهب فاعلم أيهم قام) قال تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾[القلم: ٤٠] وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾[مريم: ٦٩] وقرىء (لِيُعلم) على فعل ما لم يسم فاعله وفي هذه القراءة فائدتان: إحداهما: أن على هذا التقدير لا يلزم إثبات العلم المتجدد لله بل المقصود أنا بعثناهم ليحصل هذا العلم لبعض الخلق. والثانية: أن على هذا التقدير يجب ظهور النصب في لفظة أي، لكن لقائل أن يقول: الإشكال بعد باقٍ لأن ارتفاع لفظة (أي) بالابتداء لا بإسناد يعلم إليه. ولمجيب أن يجيب فيقول: إنه لا يمتنع اجتماع عاملين على معمول واحد لأن العوامل النحوية علامات ومعرفات، ولا يمتنع اجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد، والله أعلم.

المسألة الرابعة: اختلفوا في الحزبين: فقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكًا بعد ملك، فالملوك حزب وأصحاب الكهف حزب. والقول الثاني: قال مجاهد: الحزبان من هذه الفتية لأن أصحاب الكهف لما انتبهوا اختلفوا في أنهم كم ناموا والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[الكهف: ١٩] فالحزبان هما هذان، وكان الذين قالوا (ربكم أعلم بما لبثتم) هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول. القول الثالث: قال الفراء: إن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم.

المسألة الخامسة: قال أبو علي الفارسي قوله: ﴿أَحْصَىٰ﴾ ليس من باب أفعل التفضيل لأن هذا البناء من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس، فأما قولهم ما أعطاه للدرهم وما أولاه للمعروف وأعدى من الجرب وأفلس من ابن المدلق، فمن الشواذ والشاذ لا يقاس عليه، بل الصواب أن أحصى فعل ماضٍ وهو خبر المبتدأ والمبتدأ والخبر مفعول نعلم وأمدًا مفعول به لأحصى، و(ما) في قوله تعالى: ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ مصدرية والتقدير أحصى أمدًا للبثهم، وحاصل الكلام لنعلم أي الحزبين أحصى أمد ذلك اللبث، ونظيره قوله: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾[المجادلة: ٦] وقوله: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[الجن: ٢٨].

المسألة السادسة: احتج أصحابنا الصوفية بهذه الآية على صحة القول بالكرامات، وهو استدلال ظاهر، ونذكر هذه المسألة هاهنا على سبيل الاستقصاء فنقول قبل الخوض في الدليل على جواز الكرامات: نفتقر إلى تقديم مقدمتين:

المقدمة الأولى: في بيان أن الولي ما هو؟ فنقول: هاهنا وجهان: الأول: أن يكون فعيلاً مبالغة من الفاعل كالعليم والقدير، فيكون معناه من توالت طاعاته من غير تخلل معصية. الثاني: أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح، وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على التوالي عن كل أنواع المعاصي ويديم توفيقه على الطاعات.

واعلم أن هذا الاسم مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] وقوله تعالى: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥] وأقول: الولي هو القريب في اللغة، فإذا كان العبد قريبًا من حضرة الله بسبب كثرة طاعاته وكثرة إخلاصه، وكان الرب قريبًا منه برحمته وفضله وإحسانه فهناك حصلت الولاية.

المقدمة الثانية: إذا ظهر فعل خارق للعادة على الإنسان فذاك إما أن يكون مقرونًا بالدعوى أو لا مع الدعوى. والقسم الأول وهو أن يكون مع الدعوى فتلك الدعوى إما أن تكون دعوى الإلهية أو دعوى النبوة أو دعوى الولاية أو دعوى السحر وطاعة الشياطين، فهذه أربعة أقسام: القسم الأول: ادعاء الإلهية وجَوَّز أصحابنا ظهور خوارق العادات على يده من غير معارضة كما نُقل أن فرعون كان يدعي الإلهية وكانت تظهر خوارق العادات على يده، وكما نُقل ذلك أيضًا في حق الدجال. قال أصحابنا: وإنما جاز ذلك لأن شكله وخلقته تدل على كذبه فظهور الخوارق على يده لا يفضي إلى التلبيس. والقسم الثاني: وهو ادعاء النبوة فهذا القسم على قسمين لأنه إما أن يكون ذلك المدعي صادقًا أو كاذبًا فإن كان صادقًا وجب ظهور الخوارق على يده وهذا متفق عليه بين كل من أقر بصحة نبوة الأنبياء، وإن كان كاذبًا لم يجز ظهور الخوارق على يده وبتقدير أن تظهر وجب حصول المعارضة. وأما القسم الثالث: وهو ادعاء الولاية والقائلون بكرامات الأولياء اختلفوا في أنه هل يجوز أن يدعي الكرامات ثم إنها تحصل على وفق دعواه أم لا. وأما القسم الرابع: وهو ادعاء السحر وطاعة الشيطان فعند أصحابنا يجوز ظهور خوارق العادات على يده، وعند المعتزلة لا يجوز. وأما القسم الثاني: وهو أن تظهر خوارق العادات على يد إنسان من غير شيء من الدعاوى، فذلك الإنسان إما أن يكون صالحًا مَرضيًّا عند الله، وإما أن يكون خبيثًا مذنبًا. والأول هو القول بكرامات الأولياء، وقد اتفق أصحابنا على جوازه وأنكرها المعتزلة إلا أبا الحسين البصري وصاحبه محمود الخوارزمي. وأما القسم الثالث: وهو أن تظهر خوارق العادات على بعض من كان مردودًا عن طاعة الله تعالى، فهذا هو المسمى بالاستدراج فهذا تفصيل الكلام في هاتين المقدمتين: **إذا عرفت ذلك فنقول:** الذي يدل على جواز كرامات الأولياء القرآن والأخبار والآثار والمعقول: **أما القرآن فالمعتمد فيه عندنا آيات:**

الحجة الأولى: قصة مريم عليها السلام، وقد شرحناها في سورة آل عمران فلا نعيدها.

الحجة الثانية: قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم أحياء سالمين عن الآفات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين، وأنه تعالى كان يعصمهم من حر الشمس كما قال: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨] إلى قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ [الكهف: ١٧] ومن الناس من تمسك في هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ

﴿أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل: ٣٩] وقد بينا أن ذلك الذي كان عنده علم من الكتاب هو سليمان فسقط هذا الاستدلال. أجاب القاضي عنه بأن قال: لا بد من أن يكون فيهم أو في ذلك الزمان نبي يصير ذلك علمًا له لما فيه من نقض العادة كسائر المعجزات. قلنا: إنه يستحيل أن تكون هذه الواقعة معجزة لأحد من الأنبياء لأن إقدامهم على النوم أمر غير خارق للعادة حتى يجعل ذلك معجزة لأن الناس لا يصدقونه في هذه الواقعة؛ لأنهم لا يعرفون كونهم صادقين في هذه الدعوى إلا إذا بقوا طول هذه المدة وعرفوا أن هؤلاء الذين جاؤوا في هذا الوقت هم الذين ناموا قبل ذلك بثلثمائة سنين وتسع سنين، وكل هذه الشرائط لم توجد فامتنع جعل هذه الواقعة معجزة لأحد من الأنبياء فلم يبق إلا أن تجعل كرامة للأولياء وإحسانًا إليهم.

أما الأخبار فكثيرة:

الخبر الأول: ما أخرج في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَصَبِيٌّ فِي زَمَنِ جُرَيْجٍ النَّاسِكِ وَصَبِيٌّ آخَرُ، أَمَّا عِيسَى فَقَدْ عَرَفْتُمُوهُ، وَأَمَّا جُرَيْجٌ فَكَانَ رَجُلاً عَابِدًا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَتْ لَهُ أُمٌّ فَكَانَ يَوْمًا يُصَلِّي إِذِ اشْتَاقَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ يَا رَبِّ الصَّلاَةُ خَيْرٌ أَمْ رُؤْيَتُهَا؟ ثُمَّ صَلَّى فَدَعَتْهُ ثَانِيًا فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى قَالَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ وَكَانَ يُصَلِّي وَيَدَعُهَا، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أُمِّهِ قَالَتْ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمُومِسَاتِ، وَكَانَتْ زَانِيَةٌ هُنَاكَ فَقَالَتْ لَهُمْ: أَنَا أَفْتِنُ جُرَيْجًا حَتَّى يَزْنِيَ فَأَتَتْهُ فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ، وَكَانَ هُنَاكَ راع يأوي بالليل إلى أصل صومعته فَلَمَّا أَعْيَاهَا رَاوَدَتِ الرَّاعِيَ عَلَى نَفْسِهَا فَأَتَاهَا فَوَلَدَتْ ثُمَّ قَالَتْ: وَلَدِي هَذَا مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَاهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ وَشَتَمُوهُ، فَصَلَّى وَدَعَا ثُمَّ نَخَسَ الْغُلاَمَ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ بِيَدِهِ: يَا غُلاَمُ مَنْ أَبُوكَ؟ فَقَالَ: الرَّاعِي. فَنَدِمَ الْقَوْمُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ وَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ. وَقَالُوا: نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ - فَأَبَى عَلَيْهِمْ، وَبَنَاهَا كَمَا كَانَتْ، وَأَمَّا الصَّبِيُّ الآخَرُ فَإِنَّ امْرَأَةً كَانَ مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا تُرْضِعُهُ إِذْ مَرَّ بِهَا شَابٌّ جَمِيلٌ ذُو شَارَةٍ حَسَنَةٍ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا. فَقَالَ الصَّبِيُّ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. ثُمَّ مَرَّتْ بِهَا امْرَأَةٌ ذَكَرُوا أَنَّهَا سَرَقَتْ وَزَنَتْ وَعُوقِبَتْ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذِهِ، فَقَالَ الصَّبِيُّ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا. فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ فِي ذَلِكَ: فَقَالَ: إِنَّ الشَّابَّ كَانَ جَبَّارًا مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ قِيلَ إِنَّهَا زَنَتْ وَلَمْ تَزْنْ وَقِيلَ إِنَّهَا سَرَقَتْ وَلَمْ تَسْرِقْ، وَهِيَ تَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ»(١).

الخبر الثاني: وهو خبر الغار وهو مشهور في (الصحاح) عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَأَوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ وَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ بَابَ الْغَارِ فَقَالُوا: وَاللَّهِ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (واذكر في الكتاب مريم...) (٣/ ١٢٦٨) حديث رقم/ ٣٢٥٣ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٧٦/ ٢٥٥٠) كلاهما من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة... به.

فَنَامَا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ يَوْمًا فَلَمْ أَبْرَحْ عَنْهُمَا، وَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَجِئْتُهُمَا بِهِ فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمِينَ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَكَرِهْتُ أَنْ أُغْبِقَ قَبْلَهُمَا، فَقُمْتُ وَالْقَدَحُ فِي يَدِي أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى ظَهَرَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ هَذَا ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ! ! فَانْفَرَجَتِ انْفِرَاجًا لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ الآخَرُ: كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ وَكَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَرَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ، حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي وَأَعْطَيْتُهَا مَالاً عَظِيمًا عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَدِرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لاَ يَجُوزُ لَكَ أن تَفُكَّ الخَاتَمَ إلا بِحُقِّهِ! فَتَحَرَّجْتُ مِنْ ذَلِكَ الْعَمَلِ وَتَرَكْتُهَا وَتَرَكْتُ الْمَالَ مَعَهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ! ! فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ»، قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ قَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أُجُورَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ وَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أُجْرَتِي. فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أُجْرَتِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَسْتَهْزِئُ بِي؟ فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَ ذَلِكَ كُلَّهُ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ! ! فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ عَنِ الْغَارِ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ» وهذا حديث حسن صحيح متفق عليه (١).

الخبر الثالث: قوله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ» (٢) ولم يفرق بين شيء وشيء فيما يقسم به على الله.

الخبر الرابع: روى سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا، فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ الْبَقَرَةُ فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، وَإِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ. فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بَقَرَةٌ تَتَكَلَّمُ! !» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «آمَنْتُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا» (٣).

الخبر الخامس: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسْمَعُ رَعْدًا أَوْ صَوْتًا فِي السَّحَابِ: أَنِ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ، قَالَ: فَغَدَوْتُ إِلَى تِلْكَ الْحَدِيقَةِ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِيهَا فَقُلْتُ لَهُ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلاَنُ بْنُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ. قُلْتُ: فَمَا تَصْنَعُ بِحَدِيقَتِكَ هَذِهِ إِذَا صَرَمْتَهَا؟ قَالَ: وَلِمَ تَسْأَلُ عَنْ ذَلِكَ؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (البيوع) باب (إذا اشترى شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي) (٢/ ٧٧١) حديث رقم/ ٢١٠٢ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٩٩) حديث رقم/ ٢٧٤٣ كلاهما من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر. . . به.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٢٤/ ٢٦٢٢) وابن حبان في (صحيحه) (١٤/ ٤٠٣) حديث رقم/ ٦٤٨٣ كلاهما من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة. . . به.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة) باب (قول النبي ﷺ لو كنت متخذًا خليلاً) (٣/ ١٣٣٩) حديث رقم/ ٣٤٦٣ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٥٧/ ٢٣٨٨) كلاهما من طريق الزهري قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة. . . به.

قُلْتُ: لِأَنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ أَنِ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ فَإِنِّي أَجْعَلُهَا أَثْلَاثًا فَأَجْعَلُ لِنَفْسِي وَأَهْلِي ثُلُثًا وَأَجْعَلُ لِلْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ثُلُثًا وَأُنْفِقُ عَلَيْهَا ثُلُثًا)[١] (أما الآثار): فلنبدأ بما نقل أنه ظهر عن الخلفاء الراشدين من الكرامات، ثم بما ظهر عن سائر الصحابة: أما أبو بكر رضي الله عنه: فمن كراماته أنه لما حُملت جنازته إلى باب قبر النبي ﷺ ونودي السلام عليك يا رسول الله هذا أبو بكر بالباب. فإذا الباب قد انفتح وإذا بهاتف يهتف من القبر: أدخلوا الحبيب إلى الحبيب. وأما عمر رضي الله عنه: فقد ظهرت أنواع كثيرة من كراماته. **وأحدها:** ما روي أنه بعث جيشًا وأمر عليهم رجلاً يدعى سارية بن الحصين، فبينا عمر يوم الجمعة يخطب جعل يصيح في خطبته وهو على المنبر: يا سارية الجبل الجبل. قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: فكتبت تاريخ تلك الكلمة فقدم رسول مقدم الجيش فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، غَزَوْنَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي وَقْتِ الْخُطْبَةِ فَهَزَمُونَا، فَإِذَا بِإِنْسَانٍ يَصِيحُ يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ، الْجَبَلَ فَأَسْنَدْنَا ظُهُورَنَا إِلَى الْجَبَلِ فَهَزَمَ اللَّهُ الْكُفَّارَ وَظَفِرْنَا بِالْغَنَائِمِ الْعَظِيمَةِ بِبَرَكَةِ ذَلِكَ الصَّوْتِ[٢]. قلت: سمعت بعض المذكرين قال: كَانَ ذَلِكَ مُعْجِزَةً لِمُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّهُ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «أَنْتُمَا مِنِّي بِمَنْزِلَةِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ»[٣] فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد ﷺ، لا جرم قدر على أن يرى من ذلك البعد العظيم.

الثاني: روي أن نيل مصر كان في الجاهلية يقف في كل سنة مرة واحدة، وكان لا يجري حتى يلقى فيه جارية واحدة حسناء، فلما جاء الإسلام كتب عمرو بن العاص بهذه الواقعة إلى عمر، فكتب عمر على خزفة: أيها النيل إن كنت تجري بأمر الله فاجرِ، وإن كنت تجري بأمرك فلا حاجة بنا إليك! فألقيت تلك الخزفة في النيل فجرى ولم يقف بعد ذلك.

الثالث: وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر الدرة على الأرض وقال: اسكني بإذن الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٨٨/ ٢٩٨٤) وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٩٦/ ٧٩٢٨) كلاهما من طريق وهب بن كيسان عن عبيد بن عمير الليثي عن أبي هريرة... به.

(٢) إسناده حسن: البيهقي في (الأعتقاد) (١/ ٣١٤) حديث رقم/ ٢٨٩ من طريق ابن وهب عن يحيى بن أيوب عن محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر... به. وأورده الألباني في (الصحيحة) (١١١٠) وقال: صحيح.

(٣) ضعيف: أخرجه الآجري في (الشريعة) (٣/ ٤٥٢) حديث رقم/ ١٢٩٣ من طريق بقية بن الوليد عن ثور بن يزيد عن عبد الله بن بشر الكندي عن عبد الله بن عمرو بن العاص... به. ورواه أيضا في الحديث رقم/ ١٢٩٤ من طريق ابن الفرات بن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عمر... به. ورواه أيضا برقم/ ١٢٩٥ من طريق سمرة بن حجر قال: حدثني حمزة بن أبي حمزة النصيبي عن نافع عن ابن عمر... به. وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٦/ ٤٤٣) حديث رقم/ ٢٠٨٧ من طريق ابن أبي فديك عن المغيرة بن عبد الرحمن عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أبيه عن جده... به. وابن أبي عاصم في (السنة) (٣/ ٢٢٥) حديث رقم/ ١٠٢١ من طريق ثور بن يزيد عن عبد الله بن نسير الكندي عن عبد الله بن عمرو... به. وأورده الألباني في (الضعيفة) (٣٢٦٩) وقال: موضوع.

الرابع: وقعت النار في بعض دور المدينة فكتب عمر على خزفة: يا نار اسكني بإذن الله فألقوها في النار فانطفأت في الحال.

الخامس: روي أن رسول ملك الروم جاء إلى عمر فطلب داره فظن أن داره مثل قصور الملوك فقالوا: ليس له ذلك، وإنما هو في الصحراء يضرب اللبن، فلما ذهب إلى الصحراء رأى عمر رضي الله عنه وضع درته تحت رأسه ونام على التراب، فعجب الرسول من ذلك وقال: إن أهل الشرق والغرب يخافون من هذا الإنسان وهو على هذه الصفة! ثم قال في نفسه: إني وجدته خاليًا فأقتله وأخلص الناس منه. فلما رفع السيف أخرج الله من الأرض أسدين فقصداه فخاف وألقى السيف من يده وانتبه عمر ولم ير شيئًا فسأله عن الحال فذكر له الواقعة وأسلم.

وأقول: هذه الوقائع رويت بالآحاد، وهاهنا ما هو معلوم بالتواتر وهو أنه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن التكلفات والتهويلات - ساس الشرق والغرب وقلب الممالك والدول، لو نظرت في كتب التواريخ علمت أنه لم يتفق لأحد من أول عهد آدم إلى الآن ما تيسر له، فإنه مع غاية بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات، ولا شك أن هذا من أعظم الكرامات.

وأما عثمان رضي الله عنه: فروى أنس قال: سرت في الطريق فرفعت عيني إلى امرأة ثم دخلت على عثمان فقال: ما لي أراكم تدخلون عليَّ وآثار الزنا ظاهرة عليكم؟ فقلت: أجاء الوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا ولكن فراسة صادقة. **الثاني:** أنه لما طُعن بالسيف فأول قطرة من دمه سقطت وقعت على المصحف على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. **الثالث:** أن جهجاهًا الغفاري انتزع العصا من يد عثمان وكسرها على ركبته، فوقعت الأكلة في ركبته.

وأما علي كرم الله وجهه: فيروى أن واحدًا من محبيه سرق وكان عبدًا أسود فأتى به إلى علي فقال له: أسرقت؟ قال: نعم. فقطع يده فانصرف من عند علي عليه السلام فلقيه سلمان الفارسي وابن الكرا، فقال ابن الكرا: من قطع يدك؟ فقال: أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول. فقال: قَطَع يدك وتمدحه؟ فقال: ولم لا أمدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار! فسمع سلمان ذلك فأخبر به عليًا فدعا الأسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات، فسمعنا صوتًا من السماء: ارفع الرداء عن اليد فرفعناه فإذا اليد قد برأت بإذن الله تعالى وجميل صنعه.

أما سائر الصحابة فأحوالهم في هذا الباب كثيرة فنذكر منها شيئا قليلاً:

الأول: روى محمد بن المنكدر عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها، فركبت لوحًا من ألواحها فطرحني اللوح في خيسة فيها أسد، فخرج الأسد إليَّ يريدني فقلت: يا أبا الحارث أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! فَتَقَدَّمْ وَدَلَّنِي عَلَى الطَّرِيقِ ثُمَّ

هَمْهَمَ فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوَدِّعُنِي وَرَجَعَ (١).

الثاني: روى ثابت عن أنس أن أسيد بن حضير ورجلاً آخر من الأنصار تحدثا عند رسول الله ﷺ في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده، وكانت الليلة شديدة الظلمة وفي يد كل واحد منهما عصا، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، فلما انفرق بينهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى في ضوئها حتى بلغ منزله.

الثالث: قالوا لخالد بن الوليد: إن في عسكرك من يشرب الخمر. فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلاً على فرس ومعه زق خمر، فقال: ما هذا؟ قال: خل. فقال خالد: اللهم اجعله خلا. فذهب الرجل إلى أصحابه فقال: أتيتكم بخمر ما شربتِ العرب مثلها! فلما فتحوا فإذا هو خل فقالوا: والله ما جئتنا إلا بخل؟ فقال: هذا والله دعاء خالد بن الوليد.

الرابع: الواقعة المشهورة وهي أن خالد بن الوليد أكل كفًّا من السم على اسم الله وما ضره (٢).

الخامس: روي أن ابن عمر كان في بعض أسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع، فطرد السبع من طريقهم ثم قال: إنما يسلط على ابن آدم ما يخافه، ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء.

السادس: روي أن النبي ﷺ بَعَثَ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ فِي غَزَاةٍ، فَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَطْلُوبِ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَحْرِ فَدَعَا بِاسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ وَمَشَوْا عَلَى الْمَاءِ.

وفي كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن أرادها طالعها.

وأما الدلائل العقلية القطعية على جواز الكرامات فمن وجوه:

الحجة الأولى: أن العبد ولي الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] والرب ولي العبد، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧] وقال: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥] وقال: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد: ١١] فثبت أن الرب، ولي العبد وأن العبد ولي الرب، وأيضًا الرب حبيب العبد والعبد حبيب الرب، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. **وإذا ثبت هذا فنقول:** العبد إذا بلغ في الطاعة إلى حيث يفعل كل ما

---

(١) ذكره الواقدي في (فتوح الشام) (١/ ٢٧٨) قال الواقدي: ولقد حدثني معمر بن رواحة عن القاسم عن خزامة بن عمرو وعن أبي المنذر أن سفينة مولى رسول الله ﷺ... فذكره.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أبو يعلى في (مسنده) (١٣/ ١٠٩) حديث رقم/ ٧١٨٦. وأحمد في (فضائل الصحابة) (٢/ ٨١٥) حديث رقم/ ١٤٧٨ والبيهقي في (دلائل النبوة) (٨/ ١٧١) حديث رقم/ ٣٠٣٢ جميعًا من طريق يونس بن أبي إسحاق عن أبي السفر قال: نزل خالد... فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ٥٨٢) وقال: رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، وهو متصل ورجالهما ثقات، إلا أن أبا السفر وأبا بردة بن أبي موسى لم يسمعا من خالد، والله أعلم.

أمره الله وكل ما فيه رضاه، وترك كل ما نهى الله وزجر عنه، فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد بل هو أَوْلى لأن العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل ما يريده الله ويأمره به، فلأن يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد كان أَوْلى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[البقرة: ٤٠] .

الحجة الثانية: لو امتنع إظهار الكرامة لكان ذلك إما لأجل أن الله ليس أهلاً لأن يفعل مثل هذا الفعل أو لأجل أن المؤمن ليس أهلاً لأن يعطيه الله هذه العطية: والأول: قدح في قدرة الله وهو كفر، والثاني: باطل فإن معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ومحبة الله وطاعاته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله - أشرف من إعطاء رغيف واحد في مفازة أو تسخير حية أو أسد، فلما أعطى المعرفة والمحبة والذكر والشكر من غير سؤال فلأن يعطيه رغيفًا في مفازة فأي بعد فيه؟!

الحجة الثالثة: قال النبي ﷺ حكاية عن رب العزة: «مَا تَقَرَّبَ عَبْدٌ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَزَالُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَلِسَانًا وَقَلْبًا وَيَدًا وَرِجْلاً، بِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَنْطِقُ وَبِي يَمْشِي»[(١)] . وهذا الخبر يدل على أنه لم يبق في سمعهم نصيب لغير الله ولا في بصرهم ولا في سائر أعضائهم، إذ لو بقي هناك نصيب لغير الله لما قال أنا سمعه وبصره. إذا ثبت هذا فنقول: لا شك أن هذا المقام أشرف من تسخير الحية والسبع وإعطاء الرغيف وعنقود من العنب أو شربة من الماء، فلما أوصل الله برحمته عبده إلى هذه الدرجات العالية فأي بعد في أن يعطيه رغيفًا واحدًا أو شربة ماء في مفازة؟!

الحجة الرابعة: قال عليه السلام حاكيًا عن رب العزة: «مَنْ آذَى لِي وَلِيًا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ»[(٢)] فجعل إيذاء الولي قائمًا مقام إيذائه، وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح: ١٠] وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾[الأحزاب: ٣٦] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[الأحزاب: ٥٧] فجعل بيعة محمد ﷺ بيعة مع الله ورضاء محمد ﷺ رضاء الله وإيذاء محمد ﷺ إيذاء الله، فلا جرم كانت درجة محمد ﷺ أعلى الدرجات إلى أبلغ الغايات، فكذا هاهنا لما قال: «مَنْ آذَى لِي وَلِيًا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ» دل ذلك على أنه تعالى جعل إيذاء الولي قائمًا مقام إيذاء نفسه، ويتأكد هذا بالخبر المشهور أنه تعالى يقول يوم القيامة: «مَرِضْتَ فَلَمْ تَعُدْنِي، اسْتَسْقَيْتُكَ فَمَا سَقَيْتَنِي، اسْتَطْعَمْتُكَ فَمَا أَطْعَمْتَنِي فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَفْعَلُ هَذَا وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟!»[(٣)] وكذا في السقي والإطعام.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الرقاق) باب (التواضع) (٥/ ٢٣٨٤) حديث رقم/ ٦١٣٧ من طريق عبد الله بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة. . . به.

(٢) انظر سابقه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٩٠/ ٢٥٦٩) من طريق ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة. . . به.

فدلت هذه الأخبار على أن أولياء الله يبلغون إلى هذه الدرجات، فأي بعد في أن يعطيه الله كسرة خبز أو شربة ماء أو يسخر له كلبًا أو وردًا؟

الحجة الخامسة: أنا نشاهد في العرف أن من خصه الملك بالخدمة الخاصة وأذن له في الدخول عليه في مجلس الأنس، فقد يخصه أيضًا بأن يقدره على ما لا يقدر عليه غيره، بل العقل السليم يشهد بأنه متى حصل ذلك القرب فإنه يتبعه هذه المناصب، فجعل القرب أصلاً والمنصب تبعًا، وأعظم الملوك هو رب العالمين فإذا شَرَّف عبدًا بأنه أوصله إلى عتبات خدمته ودرجات كرامته وأوقفه على أسرار معرفته ورَفَع حجب البعد بينه وبين نفسه وأجلسه على بساط قربه، فأي بُعد في أن يُظهر بعض تلك الكرامات في هذا العالم مع أن كل هذا العالم بالنسبة إلى ذرة من تلك السعادات الروحانية والمعارف الربانية كالعدم المحض.

الحجة السادسة: لا شك أن المتولي للأفعال هو الروح لا البدن، ولا شك أن معرفة الله تعالى للروح كالروح للبدن على ما قررناه في تفسير قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النمل: ٢٠]وقال عليه السلام: «أَبِيتُ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي» ولهذا المعنى نرى أن كل من كان أكثر علمًا بأحوال عالم الغيب كان أقوى قلبًا وأقل ضعفًا؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولكن بقوة ربانية. وذلك لأن عليًّا كرم الله وجهه في ذلك الوقت انقطع نظره عن عالم الأجساد وأشرقت الملائكة بأنوار عالم الكبرياء فتقوى روحه وتشبه بجواهر الأرواح الملكية وتلألأت فيه أضواء عالم القدس والعظمة، فلا جرم حصل له من القدرة ما قدر بها على ما لم يقدر عليه غيره، وكذلك العبد إذا واظب على الطاعات بلغ إلى المقام الذي يقول الله: كنت له سمعًا وبصرًا. فإذا صار نور جلال الله سمعًا له سمع القريب والبعيد، وإذا صار ذلك النور بصرًا له رأى القريب والبعيد، وإذا صار ذلك النور يدًا له قدر على التصرف في الصعب والسهل والبعيد والقريب.

الحجة السابعة: وهي مبنية على القوانين العقلية الحكمية، وهي أنا قد بينا أن جوهر الروح ليس من جنس الأجسام الكائنة الفاسدة المتعرضة للتفرق والتمزق، بل هو من جنس جواهر الملائكة وسكان عالم السماوات ونوع المقدسين المطهرين، إلا أنه لما تعلق بهذا البدن واستغرق في تدبيره صار في ذلك الاستغراق إلى حيث نسي الوطن الأول والمسكن المتقدم، وصار بالكلية متشبهًا بهذا الجسم الفاسد، فضعفت قوته وذهبت مكنته ولم يقدر على شيء من الأفعال، أما إذا استأنست بمعرفة الله ومحبته وقل انغماسها في تدبير هذا البدن، وأشرقت عليها أنوار الأرواح السماوية العرشية المقدسة، وفاضت عليها من تلك الأنوار، قويت على التصرف في أجسام هذا العالم مثل قوة الأرواح الفلكية على هذه الأعمال، وذلك هو الكرامات، وفيه دقيقة أخرى وهي أن مذهبنا أن الأرواح البشرية مختلفة بالماهية ففيها القوية والضعيفة، وفيها النورانية والكدرة، وفيها الحرة والنذلة، والأرواح الفلكية أيضًا كذلك، ألا ترى إلى جبريل

كيف قال الله في وصفه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] وقال في قوم آخرين من الملائكة: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦] فكذا هاهنا فإذا اتفق في نفس من النفوس كونها قوية، القوة القدسية العنصرية مشرقة الجوهر علوية الطبيعة، ثم انضاف إليها أنواع الرياضات التي تزيل عن وجهها غبرة عالم الكون والفساد، أشرقت وتلألأت وقويت على التصرف في هيولي عالم الكون والفساد بإعانة نور معرفة الحضرة الصمدية وتقوية أضواء حضرة الجلال والعزة. ولنقبض هاهنا عنان البيان فإن وراءها أسرارًا دقيقة وأحوالاً عميقة من لم يصل إليها لم يصدق بها، ونسأل الله الإعانة على إدراك الخيرات.

واحتج المنكرون للكرامات بوجوه:

الشبهة الأولى: - وهي التي عليها يعولون وبها يضلون - أن ظهور الخارق للعادة جعله الله دليلاً على النبوة فلو حصل لغير نبي لبطلت هذه الدلالة؛ لأن حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح في كونه دليلاً، وذلك باطل.

والشبهة الثانية: تمسكوا بقوله عليه السلام حكاية عن الله سبحانه: «لَنْ يَتَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ» قالوا: هذا يدل على أن التقرب إلى الله بأداء الفرائض أعظم من التقرب إليه بأداء النوافل، ثم إن المتقرب إليه بأداء الفرائض لا يحصل له شيء من الكرامات فالمتقرب إليه بأداء النوافل أولى أن لا يحصل له ذلك.

الشبهة الثالثة: تمسكوا بقوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧] والقول بأن الولي ينتقل من بلد إلى بلد بعيد لا على الوجه طَعْن في هذه الآية، وأيضًا أن محمدًا ﷺ لم يصل من مكة إلى المدينة إلا في أيام كثيرة مع التعب الشديد فكيف يعقل أن يقال: إن الولي ينتقل من بلد نفسه إلى الحج في يوم واحد.

الشبهة الرابعة: قالوا: هذا الولي الذي تظهر عليه الكرامات إذا ادعى على إنسان درهمًا فهل نطالبه بالبينة أم لا؟ فإن طالبناه بالبينة كان عبثًا لأن ظهور الكرامات عليه يدل على أنه لا يكذب، ومع قيام الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظني، وإن لم نطالبه بها فقد تركنا قوله عليه السلام: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي»(١) فهذا يدل على أن القول بالكرامة باطل.

الشبهة الخامسة: إذا جاز ظهور الكرامة على بعض الأولياء جاز ظهورها على الباقين، فإذا كثرت الكرامات حتى خرقت العادة جرت وفقًا للعادة، وذلك يقدح في المعجزة والكرامة.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٣/ ٦٢٦) حديث رقم/ ١٣٤١ من طريق محمد بن عبيد الله عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده... به. وقال: هذا حديث في إسناده مقال، ومحمد بن عبيد الله العزرمي يضعف في الحديث من قبل حفظه، ضعفه ابن المبارك وغيره. والدارقطني في (سننه) (٤/ ١٥٧/ ٨) من طريق الحجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده... به. ورواه الشافعي في (مسنده) (١/ ١٩١) من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس... به.

والجواب: عن الشبهة الأولى: أن الناس اختلفوا في أنه هل يجوز للولي دعوى الولاية؟ فقال قوم من المحققين: إن ذلك لا يجوز، فعلى هذا القول يكون الفرق بين المعجزات والكرامات أن المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية، والسبب في هذا الفرق أن الأنبياء عليهم السلام إنما بُعثوا إلى الخلق ليصيروا دعاة للخلق من الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة، فلو لم تظهر دعوى النبوة لم يؤمنوا به وإذا لم يؤمنوا به بقوا على الكفر، وإذا ادعوا النبوة وأظهروا المعجزة آمن القوم بهم، فإقدام الأنبياء على دعوى النبوة ليس الغرض منه تعظيم النفس بل المقصود منه إظهار الشفقة على الخلق حتى ينتقلوا من الكفر إلى الإيمان، أما ثبوت الولاية للولي فليس الجهل بها كفرًا ولا معرفتها إيمانًا، فكان دعوى الولاية طلبًا لشهوة النفس، فعلمنا أن النبي يجب عليه إظهار دعوى النبوة والولي لا يجوز له دعوى الولاية فظهر الفرق.

أما الذين قالوا: يجوز للولي دعوى الولاية فقد ذكروا الفرق بين المعجزة والكرامة من وجوه:

الأول: أن ظهور الفعل الخارق للعادة يدل على كون ذلك الإنسان مبرًأ عن المعصية، ثم إن اقترن هذا الفعل بادعاء النبوة دل على كونه صادقًا في دعوى النبوة، وإن اقترن بادعاء الولاية دل على كونه صادقًا في دعوى الولاية، وبهذا الطريق لا يكون ظهور الكرامة على الأولياء طعنًا في معجزات الأنبياء عليهم السلام.

الثاني: أن النبي ﷺ يدعي المعجزة ويقطع بها، والولي إذا ادعى الكرامة لا يقطع بها لأن المعجزة يجب ظهورها، أما الكرامة (ف) لا يجب ظهورها.

الثالث: أنه يجب نفي المعارضة عن المعجزة ولا يجب نفيها عن الكرامة.

الرابع: أنا لا نُجوز ظهور الكرامة على الولي عند ادعاء الولاية إلا إذا أقر عند تلك الدعوى بكونه على دين ذلك النبي، ومتى كان الأمر كذلك صارت تلك الكرامة معجزة لذلك النبي ومؤكدة لرسالته، وبهذا التقدير لا يكون ظهور الكرامة طاعنًا في نبوة النبي بل يصير مقويًا لها.

والجواب عن الشبهة الثانية: أن التقرب بالفرائض وحدها أكمل من التقرب بالنوافل؛ أما الولي فإنما يكون وليًا إذا كان آتيًا بالفرائض والنوافل، ولا شك أنه يكون حاله أتم من حال من اقتصر على الفرائض فظهر الفرق.

والجواب على الشبهة الثالثة: أن قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: ٧] محمول على المعهود المتعارف، وكرامات الأولياء أحوال نادرة فتصير كالمستثناة عن ذلك العموم. وهذا هو

الجواب عن الشبهة الرابعة: وهي التمسك بقوله عليه السلام: «البينة على المدعي».

والجواب عن الشبهة الخامسة: أن المطيعين فيهم قلة كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وكما قال إبليس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧] وإذا حصلت القلة فيهم لم يكن

ما يظهر عليهم من الكرامات في الأوقات النادرة قادحًا في كونها على خلاف العادة.

المسألة السابعة: في الفرق بين الكرامات والاستدراج، اعلم أن من أراد شيئًا فأعطاه الله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيهًا عند الله تعالى، سواء كانت العطية على وفق العادة أو لم تكن على وفق العادة، بل قد يكون ذلك إكرامًا للعبد وقد يكون استدراجًا له، ولهذا الاستدراج أسماء كثيرة من القرآن:

أحدها: الاستدراج، قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] ومعنى الاستدراج أن يعطيه الله، كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده، فيزداد كل يوم بعدًا من الله، وتحقيقه أنه ثبت في العلوم العقلية أن تكرر الأفعال سبب لحصول الملكة الراسخة، فإذا مال قلب العبد إلى الدنيا ثم أعطاه الله مراده، فحينئذٍ يصل الطالب إلى المطلوب وذلك يوجب حصول اللذة، وحصول اللذة يزيد في الميل، وحصول الميل يوجب مزيد السعي، ولا يزال يتأدى كل واحد منهما إلى الآخر وتتقوى كل واحدة من هاتين الحالتين درجة فدرجة، ومعلوم أن الاشتغال بهذه اللذات العاجلة مانع عن مقامات المكاشفات ودرجات المعارف، فلا جرم يزداد بعده عن الله درجة فدرجة إلى أن يتكامل فهذا هو الاستدراج.

وثانيها: المكر، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقال: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

وثالثها: الكيد، قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وقال: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩].

ورابعها: الإملاء، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وخامسها: الإهلاك، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم﴾ [الأنعام: ٤٤] وقال في فرعون: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠] فظهر بهذه الآيات أن الإيصال إلى المرادات لا يدل على كمال الدرجات والفوز بالخيرات. بقي علينا أن نذكر الفرق بين الكرامات وبين الاستدراجات فنقول: إن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله أقوى، فإنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج، وأما صاحب الاستدراج فإنه يستأنس بذلك الذي يظهر عليه، ويظن أنه إنما وجد تلك الكرامة لأنه كان مستحقًّا لها وحينئذٍ يستحقر غيره ويتكبر عليه، ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ولا يخاف سوء العاقبة، فإذا ظهر شيء من هذه الأحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على أنها كانت استدراجًا لا كرامة؛ فلهذا المعنى قال المحققون: أكثر ما اتفق من الانقطاع عن

حضرة الله إنما وقع في مقام الكرامات. فلا جرم ترى المحققين يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء.

والذي يدل على أن الاستئناس بالكرامة قاطع عن الطريق وجوه:

الحجة الأولى: أن هذا الغرور إنما يحصل إذا اعتقد الرجل أنه مستحق لهذ الكرامة لأن بتقدير أن لا يكون مستحقًّا لها امتنع حصول الفرح بها، بل يجب أن يكون فرحه بكرم المولى وفضله أكبر من فرحه بنفسه، فثبت أن الفرح بالكرامة أكثر من فرحه بنفسه، وثبت أن الفرح بالكرامة لا يحصل إلا إذا اعتقد أنه أهل ومستحق لها، وهذا عين الجهل لأن الملائكة قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] وأيضًا قد ثبت بالبرهان اليقيني أنه لا حق لأحد من الخلق على الحق فكيف يحصل ظن الاستحقاق؟!

الحجة الثانية: أن الكرامات أشياء مغايرة للحق سبحانه، فالفرح بالكرامة فرح بغير الحق، والفرح بغير الحق حجاب عن الحق، والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور؟!

الحجة الثالثة: أن من اعتقد في نفسه أنه صار مستحقًّا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم في قلبه، ومن كان لعمله وقع عنده كان جاهلاً، ولو عرف ربه لعلم أن كل طاعات الخلق في جنب جلال الله تقصير، وكل شكرهم في جنب آلائه ونعمائه قصور، وكل معارفهم وعلومهم فهي في مقابلة عزته حيرة وجهل. رأيت في بعض الكتب أنه قرأ المقرئ في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] فقال: علامة أن الحق رفع عملك أن لا يبقى (ذكره) عندك، فإن بقي عملك في نظرك فهو مدفوع، وإن لم يبق معك فهو مرفوع مقبول.

الحجة الرابعة: أن صاحب الكرامة إنما وجد الكرامة لإظهار الذل والتواضع في حضرة الله، فإذا ترفع وتجبر وتكبر بسبب تلك الكرامات فقد بطل ما به وصل إلى الكرامات، فهذا طريق ثبوته يؤديه إلى عدمه فكان مردودًا، ولهذا المعنى لما ذكر النبي ﷺ مناقب نفسه وفضائلها كان يقول في آخر كل واحد منها (ولا فخر) يعني لا أفتخر بهذه الكرامات وإنما أفتخر بالمُكرم والمعطي.

الحجة الخامسة: أن ظاهر الكرامات في حق إبليس وفي حق بلعام كان عظيمًا ثم قيل لإبليس: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] وقيل لبلعام ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقيل لعلماء بني إسرائيل: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥] وقيل أيضًا في حقهم: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] فبيّن أن وقوعهم في الظلمات والضلالات كان بسبب فرحهم بما أوتوا من العلم والزهد.

الحجة السادسة: أن الكرامة غير المكرم، وكل ما هو غير المكرم فهو ذليل، وكل من تعزز بالذليل فهو ذليل، ولهذا المعنى قال الخليل صلوات الله عليه: (أما إليك فلا)، فالاستغناء

بالفقير فقر والتقوِّي بالعاجز عجز والاستكمال بالناقص نقصان والفرح بالمحدث بله والإقبال بالكلية على الحق خلاص، فثبت أن الفقير إذا ابتهج بالكرامة سقط عن درجته . أما إذا كان لا يشاهد في الكرامات إلا المُكرم ولا في الإعزاز إلا المُعز ولا في الخلق إلا الخالق، فهناك يحق الوصول .

الحجة السابعة: أن الافتخار بالنفس وبصفاتها من صفات إبليس وفرعون، قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢]وقال فرعون: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ [الزخرف: ٥١]وكل من ادعى الإلهية أو النبوة بالكذب فليس له غرض إلا تزيين النفس وتقوية الحرص والعُجْب، ولهذا قال عليه السلام: «ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ . . .»، وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: «وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بنفسه» (١).

الحجة الثامنة: أنه تعالى قال: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]فلما أعطاه الله العطية الكبرى أمره بالاشتغال بخدمة المعطى لا بالفرح بالعطية .

الحجة التاسعة: أن النبي ﷺلَمَّا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَلِكًا نَبِيًّا وَبَيْنَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا نَبِيًّا، تَرَكَ الْمُلْكَ (٢)، ولا شك أن وجدان المُلك الذي يعم المشرق والمغرب من الكرامات بل من المعجزات، ثم إنه ﷺترك ذلك الملك واختار العبودية؛ لأنه إذا كان عبدًا كان افتخاره بمولاه، وإذا كان ملكًا كان افتخاره بعبيده، فلما اختار العبودية لا جرم جعل السنة التي في التحيات التي رواها ابن مسعود (وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) (٣)وقيل في المعراج: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

---

(١) **حسن**: أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٥/ ٣٢٨) حديث رقم/ ٥٤٥٢ من طريق إبراهيم بن محمد بن عرعرة قال حدثنا حميد بن الحكم الجرشي قال: سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك . . . به . ورواه أيضًا في (٦/ ٤٧) حديث رقم/ ٥٧٥٤ من طريق الوليد بن عبد الواحد التميمي عن ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عمر . . . به . ورواه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٢١٣) حديث رقم/ ٣٢٤ من طريق علي بن عبد العزيز حدثنا حجاج حدثنا حماد عن عبيد الله بن عمر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة . . . به . ورواه ايضًا (١/ ٢١٥) حديث رقم/ ٣٢٦ من طريق أحمد بن يونس حدثنا أيوب بن عتبة حدثنا الفضل بن بكر العبدي حدثنا قتادة عن أنس بن مالك . . . به . والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ٤٧١) حديث رقم/ ٧٤٥ من طريق أحمد بن يونس حدثنا أيوب بن عتبة عن الفضل بن بكر عن قتادة عن أنس . . . به . ورواه أيضًا في (٥/ ٤٥٢) حديث رقم/ ٧٢٥٢ من طريق عبيد الله بن محمد حدثني بكر بن سليم الصواف عن أبي حازم عن الأعرج عن أبي هريرة . . . به . وأورده الألباني في (صحيح الجامع) (٣٠٥٠) وقال: حسن .

(٢) **حسن**: أخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٤/ ١٧١) حديث رقم/ ٦٧٤٣ والبيهقي في (سننه الكبرى) (٧/ ٤٩) حديث رقم/ ١٣١٠٥ كلاهما من طريق الزبيدي قال: حدثني الزهري عن محمد بن عبد الله بن عباس قال: كان ابن عباس يحدث . . . فذكره . ورواه أبو الشيخ في (العظمة) (٢/ ٧٠٠/ ٣٠) من طريق ابن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس . . . به .

(٣) مسلم في (صحيحه) (١/ ٢١٠/ ٢٣٤) من طريق جبير من تغير بين مالك الحضرمي عن عقبة بن عامر الجهني . . . به .

الحجة العاشرة: أن محب المولى غير، ومحب ما للمولى غير، فمن أحب المولى لم يفرح بغير المولى ولم يستأنس بغير المولى، فالاستئناس بغير المولى والفرح بغيره يدل على أنه ما كان محبًا للمولى بل كان محبًا لنصيب نفسه، ونصيب النفس إنما يطلب للنفس فهذا الشخص ما أحب إلا نفسه، وما كان المولى محبوبًا له بل جعل المولى وسيلة إلى تحصيل ذلك المطلوب. والصنم الأكبر، هو النفس كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]فهذا الإنسان عابد للصنم الأكبر حتى أن المحققين قالوا: لا مضرة في عبادة شيء من الأصنام مثل المضرة الحاصلة في عبادة النفس، ولا خوف من عبادة الأصنام كالخوف من الفرح بالكرامات.

الحجة الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وهذا يدل على أن من لم يتق الله ولم يتوكل عليه لم يحصل له شيء من هذه الأفعال والأحوال.

المسألة الثامنة: في أن الولي هل يعرف كونه وليًا؟ قال الأستاذ أبو بكر بن فورك: لا يجوز. وقال الأستاذ أبو علي الدقاق وتلميذه أبو القاسم القشيري: يجوز. **وحجة المانعين وجوه:**

الحجة الأولى: لو عرف الرجل كونه وليًا لحصل له الأمن بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]لكن حصول الأمن غير جائز، ويدل عليه وجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]واليأس أيضًا غير جائز لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]ولقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]والمعنى فيه أن الأمن لا يحصل إلا عند اعتقاد العجز، واليأس لا يحصل إلا عند اعتقاد البخل، واعتقاد العجز والبخل في حق الله كفر، فلا جرم كان حصول الأمن والقنوط كفرًا. الثاني: أن الطاعات وإن كثرت إلا أن قهر الحق أعظم ومع كون القهر غالبًا لا يحصل الأمن. الثالث: أن الأمن يقتضي زوال العبودية، وترك الخدمة والعبودية يوجب العداوة، والأمن يقتضي ترك الخوف. الرابع: أنه تعالى وصف المخلصين بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]قيل: رغبًا في ثوابنا، ورهبًا من عقابنا. وقيل: رغبًا في فضلنا، ورهبًا من عدلنا. وقيل رغبًا في وصالنا، ورهبًا من فراقنا. والأحسن أن يقال: رغبًا فينا، ورهبًا منا.

الحجة الثانية: **على أن الولي لا يعرف كونه وليًا**: أن الولي إنما يصير وليًا لأجل أن الحق يحبه لا لأجل أنه يحب الحق، وكذلك القول في العدو، ثم إن محبة الحق وعداوته سران لا يطلع عليهما أحد، فطاعات العباد ومعاصيهم لا تؤثر في محبة الحق وعداوته لأن الطاعات والمعاصي محدثة، وصفات الحق قديمة غير متناهية، والمحدث المتناهي لا يصير غالبًا للقديم غير المتناهي. وعلى هذا التقدير فربما كان العبد في الحال في عين المعصية إلا أن نصيبه من الأزل عين المحبة. وربما كان العبد في الحال في عين الطاعة ولكن نصيبه من الأزل عين

العداوة، وتمام التحقيق أن محبته وعداوته صفة، وصفة الحق غير معللة، ومن كانت محبته لا لعلة، فإنه يمتنع أن يصير عدوًّا بعلة المعصية، ومن كانت عداوته لا لعلة يمتنع أن يصير محبًّا لعلة الطاعة، ولما كانت محبة الحق وعداوته سرين لا يطلع عليهما، لا جرم قال عيسى عليه السلام: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

الحجة الثالثة: على أن الولي لا يعرف كونه وليًا: أن الحكم بكونه وليًّا ويكونه من أهل الثواب والجنة يتوقف على الخاتمة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ولم يقل (مَن عمل حسنة فله عشر أمثالها)، وهذا يدل على أن استحقاق الثواب مستفاد من الخاتمة لا من أول العمل، والذي يؤكد ذلك أنه لو مضى عمره في الكفر ثم أسلم في آخر الأمر كان من أهل الثواب وبالضد، وهذا دليل على أن العبرة بالخاتمة لا بأول العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فثبت أن العبرة في الولاية والعداوة وكونه من أهل الثواب أو من أهل العقاب بالخاتمة، فظهر أن الخاتمة غير معلومة لأحد، فوجب القطع بأن الولي لا يعلم كونه وليًّا.

أما الذين قالوا إن الولي قد يعرف كونه وليًا: فقد احتجوا على صحة قولهم بأن الولاية لها ركنان. أحدهما: كونه في الظاهر منقادًا للشريعة. الثاني: كونه في الباطن مستغرقًا في نور الحقيقة، فإذا حصل الأمران وعرف الإنسان حصولهما عرف لا محالة كونه وليًا، أما الانقياد في الظاهر للشريعة فظاهر، وأما استغراق الباطن في نور الحقيقة فهو أن يكون فرحه بطاعة الله واستئناسه بذكر الله، وأن لا يكون له استقرار مع شيء سوى الله. والجواب: أن تداخل الأغلاط في هذا الباب كثيرة غامضة والقضاء عسر، والتجربة خطر، والجزم غرور، ودون الوصول إلى عالم الربوبية أستار، تارة من النيران، وأخرى من الأنوار، والله العالم بحقائق الأسرار، ولنرجع إلى التفسير.

قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ١٣ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾

اعلم أنه تعالى ذكر من قبل جملة من واقعتهم ثم قال: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ أي على وجه الصدق: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم﴾ كانوا جماعة من الشبان آمنوا بالله، ثم قال تعالى في صفاتهم: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي ألهمناها الصبر وثبتناها: ﴿إِذۡ قَامُواْ﴾ وفي هذا القيام أقوال: الأول: قال مجاهد: كانوا عظماء مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير ميعاد، فقال

رجل منهم أكبر القوم: إني لأجد في نفسي شيئًا ما أظن أن أحدًا يجده، قالوا: ما تجد؟ قال أجد في نفسي أن ربي رب السماوات والأرض. القول الثاني: أنهم قاموا بين يدي ملكهم دقيانوس الجبار، وقالوا: ربنا رب السماوات والأرض، وذلك لأنه كان يدعو الناس إلى عبادة الطواغيت، فثبَّت الله هؤلاء الفتية، وعصمهم حتى عصوا ذلك الجبار، وأقروا بربوبية الله، وصرحوا بالبراءة عن الشركاء والأنداد. والقول الثالث: - وهو قول عطاء ومقاتل - أنهم قالوا ذلك عند قيامهم من النوم. وهذا بعيد لأن الله استأنف قصتهم بقوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ معنى الشطط في اللغة مجاوزة الحد، قال الفراء: يقال: قد أشط في السوم إذا جاوز الحد، ولم يُسمع إلا أشط يُشط إشطاطًا وشططًا، وحكى الزجاج وغيره شط الرجل وأشط إذا جاوز الحد، ومنه قوله: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: ٢٢] وأصل هذا من قولهم: (شطت الدار) إذا بعدت، فالشطط البعد عن الحق، وهو هاهنا منصوب على المصدر، والمعنى: لقد قلنا إذًا قولاً شططًا. أما قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ هذا من قول أصحاب الكهف، ويعنون الذين كانوا في زمان دقيانوس عبدوا الأصنام ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ﴾ - هلا يأتون - ﴿عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ بحجة بينة، ومعنى (عليهم) أي على عبادة الآلهة، ومعنى الكلام أن عدم البينة بعدم الدلائل على ذلك لا يدل على عدم المدلول، ومن الناس من يحتج بعدم الدليل على عدم المدلول، ويستدل على صحة هذه الطريقة بهذه الآية فقال: إنه تعالى استدل على عدم الشركاء والأضداد بعدم الدليل عليها فثبت أن الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة قوية. ثم قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني أن الحكم بثبوت الشيء مع عدم الدليل عليه ظلم وافتراء على الله وكذب عليه، وهذا من أعظم الدلائل على فساد القول بالتقليد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

اعلم أن المراد أنه قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ واعتزلتم الشيء الذي يعبدونه إلا الله، فإنكم لم تعتزلوا عبادة الله: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ قال الفراء: هو جواب (إذ) كما تقول: إذ فعلت كذا فافعل كذا، ومعناه: اذهبوا إليه واجعلوه مأواكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي يبسطها عليكم: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية (مَرفِقًا) بفتح الميم وكسر الفاء والباقون (مِرفَقًا) بكسر الميم وفتح الفاء، قال الفراء: وهما لغتان واشتقاقهم

من الارتفاق. وكان الكسائي ينكر في مرفق الإنسان الذي في اليد إلا كسر الميم وفتح الفاء، والفراء يجيزه في الأمر وفي اليد وقيل: هما لغتان إلا أن الفتح أقيس والكسر أكثر، وقيل: المِرفق ما ارتفقت به، والمَرفق بالفتح المرافق.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ . **وفيه مباحث:**

البحث الأول: قرأ ابن عامر (تَزْوَرُّ) ساكنة الزاي المعجمة مشددة الراء مثل تَحْمَرُّ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي (تَزَاور) بالألف والتخفيف والباقون (تَزَّاور) بالتشديد والألف والكل بمعنى واحد، والتزاور هو الميل والانحراف، ومنه زاره: إذا مال إليه والزور الميل عن الصدق، وأما التشديد فأصله تتزاور سُكنت التاء الثانية وأُدغمت في الزاي، وأما التخفيف فهو تفاعل من الزور وأما تَزْوَرُّ فهو من الازورار.

البحث الثاني: قوله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ أي أنت أيها المخاطب ترى الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم، وليس المراد أن من خوطب بهذا يرى هذا المعنى، ولكن العادة في المخاطبة تكون على هذا النحو، ومعناه أنك لو رأيته على هذه الصورة.

البحث الثالث: قوله: ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي جهة اليمين وأصله أن (ذات) صفة أقيمت مقام الموصوف لأنها تأنيث (ذو) في قولهم: رجل ذو مال، وامرأة ذات مال، والتقدير كأنه قيل تزاور عن كهفهم جهة ذات اليمين.

وأما قوله: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ . **ففيه بحثان:**

البحث الأول: قال الكسائي: (قرضت المكان) أي عدلت عنه. وقال أبو عبيدة: القرض في أشياء فمنها القطع، وكذلك السير في البلاد أي إذا قطعها. تقول لصاحبك هل وردت مكان كذا فيقول المجيب: إنما قرضته. فقوله: ﴿تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي تعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة الشمال.

البحث الثاني: للمفسرين هاهنا قولان: القول الأول: أن باب ذلك الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل، والمقصود أن الله تعالى صان أصحاب الكهف من أن يقع عليهم ضوء الشمس وإلا لفسدت أجسامهم فهي مصونة عن العفونة والفساد. والقول الثاني: أنه ليس المراد ذلك، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله ضوء الشمس من الوقوع. وكذا القول حال غروبها، وكان ذلك فعلاً خارقًا للعادة وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف، وهذا قول الزجاج، واحتج على صحته بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال: ولو كان الأمر كما ذكره أصحاب القول الأول لكان ذلك أمرًا معتادًا مألوفًا فلم يكن ذلك من آيات الله، وأما إذا حملنا الآية على هذا الوجه الثاني

كان ذلك كرامة عجيبة فكانت من آيات الله. واعلم أنه تعالى أخبر بعد ذلك أنهم كانوا في متسع من الكهف ينالهم فيه برد الريح ونسيم الهواء، قال: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي من الكهف، والفجوة متسع في مكان، قال أبو عبيدة: وجمعها فجوات، ومنه الحديث: «فإذا وَجَدَ فَجْوَةً نَصَّ» ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ وفيه قولان: الذين قالوا: إنه يمنع وصول ضوء الشمس بقدرته. قالوا: المراد من قوله ذلك: أي ذلك التزاور والميل. والذين لم يقولوا به قالوا: المراد بقوله ذلك: أي ذلك الحفظ الذي حفظهم الله في الغار تلك المدة الطويلة - من آيات الله الدالة على عجائب قدرته وبدائع حكمته. ثم بيَّن تعالى أنه كما أن بقاءهم هذه المدة الطويلة مصونًا عن الموت والهلاك من تدبيراته ولطفه وكرمه، فكذلك رجوعهم أولاً عن الكفر ورغبتهم في الإيمان كان بإعانة الله ولطفه فقال: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ مثل أصحاب الكهف: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ كدقيانوس الكافر وأصحابه، ومناظرات أهل الجبر والقدر في هذه الآية معلومة.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

اعلم أن معنى قوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ على ما ذكرناه في قوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ [الكهف: ١٧] أي لو رأيتهم لحسبتهم ﴿أَيْقَاظًا﴾ وهو جمع يقظ ويقظان، قاله الأخفش وأبو عبيدة والزجاج، وأنشدوا لرؤبة:

وَوَجَدُوا إِخْوَانَهُمْ أَيْقَاظَا

ومثله قوله: نَجِد ونَجْدان وأنجاد، وهم رقود أي نائمون وهو مصدر سمي المفعول به، كما يقال: قوم ركوع وقعود وسجود، يوصف الجمع بالمصدر، ومن قال: (إنه جمع راقد) فقد أبعد لأنه لم يجمع فاعل على فُعول، قال الواحدي: وإنما يُحسبون ﴿أَيْقَاظًا﴾ لأن أعينهم مفتحة وهم نيام، وقال الزجاج: لكثرة تقلبهم يظن أنهم أيقاظ، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ واختلفوا في مقدار مدة التقليب: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن لهم في كل عام تقليبتينْ وعن مجاهد يمكثون على أيمانهم تسع سنين ثم يُقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودًا تسع سنين وقيل: لهم تقليبة واحدة في يوم عاشوراء. وأقول: هذه التقديرات لا سبيل للعقل إليها، ولفظ القرآن لا يدل عليه، وما جاء فيه خبر صحيح فكيف يُعرف؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فائدة تقليبهم لئلا تأكل الأرض لحومهم ولا تبليهم. وأقول: هذا عجيب لأنه تعالى لما قدر على أن يمسك حياتهم مدة ثلثمائة سنة وأكثر، فلمَ لا يقدر على حفظ

أجسادهم أيضًا من غير تقليب؟! وقوله: ﴿وَذَاتَ﴾ منصوبة على الظرف لأن المعنى ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في ناحية ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ أو على ناحية ﴿ٱلشِّمَالِ﴾ كما قلنا في قوله: ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾.

وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين قالوا إنهم هربوا ليلاً من مَلِكهم، فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ومعه كلبه. وقال كعب: مروا بكلب فنبح عليهم فطردوه فعاد ففعلوا مرارًا، فقال لهم الكلب: ما تريدون مني لا تخشوا جانبي أنا أحب أحباء الله فناموا حتى أحرسكم. وقال عبيد بن عمير: كان ذلك كلب صيدهم. ومعنى: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أي يلقيهما على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين، ومنه الحديث في الصلاة: «أَنَّهُ نَهَى عَنِ افْتِرَاشِ السَّبُعِ» وقال: «لاَ تَفْتَرِشْ ذِرَاعَيْكَ افْتِرَاشَ السَّبُعِ» قوله: ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ يعني فناء الكهف، قال الزجاج: الوصيد فناء البيت وفناء الدار، وجمعه وصائد ووصد، وقال يونس والأخفش والفراء: الوصيد والأصيد لغتان مثل الوكاف والإكاف. وقال السدي: (بِالْوَصِيدِ) الباب والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وإنما أراد أن الكلب منه بموضع العتبة من البيت، ثم قال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي أشرفت عليهم، يقال: اطلعت عليهم أي أشرفت عليهم، ويقال: أطلعت فلانًا على الشيء فاطلع. وقوله: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ قال الزجاج: قوله: ﴿فِرَارًا﴾ منصوب على المصدر لأن معنى وليت منهم: فررت: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي فزعًا وخوفًا، قيل في التفسير: طالت شعورهم وأظفارهم وبقيت أعينهم مفتوحة وهم نيام، فلهذا السبب لو رآهم الرائي لهرب منهم مرعوبًا، وقيل: إنه تعالى جعلهم بحيث كل من رآهم فزع فزعًا شديدًا، فأما تفصيل سبب الرعب فالله أعلم به. وهذا هو الأصح وقوله: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ قرأ نافع وابن كثير: (لملّئت) بتشديد اللام والهمزة والباقون بتخفيف اللام، وروي عن ابن كثير بالتخفيف والمعنى واحد إلا أن في التشديد مبالغة، قال الأخفش: الخفيفة أجود في كلام العرب، يقال: ملأتني رعبًا، ولا يكادون يعرفون ملأّتني، ويدل على هذا أكثر استعمالهم كقوله:

فَيَمْلأُ بَيْتَنَا أقِطًا وَسَمْنًا (١)

وقول الآخر:

وَمِنْ مالأَ عَينَيهِ مِنْ شَيْءٍ غَيرِهِ ... إذَا رَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ الْبِيضِ كَالدُّمَى(٢)

---

(١) هذا أول البيت لعمرو بن قميئة والبيت هكذا:

فَتَملأُ بَيتَنا أقطًا وَسَمنًا ... وَحسبُكَ مِن غِنًى شَبعٌ وَرِيُّ

وعمرو بن قميئة وهو بن ذريح بن سعد بن مالك الثعلبي البكري الوائلي النزاري. ١٧٩- ٨٥ ق هـ/ ٤٤٨- ٥٤٠ م شاعر جاهلي مقدم، نشأ يتيمًا وأقام في الحيرة مدة وصحب حُجرًا أبا امرئ القيس الشاعر، وخرج مع امرئ القيس في توجهه إلى قيصر فمات في الطريق فكان يقال له (الضائع).

(٢) البيت للشاعر عمر بن أبي ربيعة، وقد تقدمت ترجمته.

وقال الآخر:

لاَ تَـمْـلأِ الـدَّلْـوَ وَعَـرِّقْ فِـيـهَـا [١]

وقال الآخر:

امْـتَـلأَ الْـحَـوْضُ وَقَـالَ قَـطْـنِـي

وقد جاء التثقيل أيضًا، وأنشدوا للمخبل السعدي:

وَإذْ قَتَلَ النُّعْمَانُ بِالنَّاسِ مُحْرِمًا ... فَمُلِّئَ مِنْ عَوْفِ بْنِ كَعْبٍ سَلاَسِلُهْ

وقرأ ابن عامر والكسائي (رعُبًا) بضم العين في جميع القرآن والباقون بالإسكان.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامٗا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٖ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ ﴾

اعلم أن التقدير: وكما زدناهم هدى، وربطنا على قلوبهم، فضربنا على آذانهم وأنمناهم وأبقيناهم أحياء لا يأكلون ولا يشربون ونقلبهم، فكذلك بعثناهم أي أحييناهم من تلك النومة التي تشبه الموت ليتساءلوا بينهم تساؤل تنازع واختلاف في مدة لبثهم. فإن قيل: هل يجوز أن يكون الغرض من بعثهم أن يتساءلوا ويتنازعوا؟ قلنا: لا يبعد ذلك لأنهم إذا تساءلوا انكشف لهم من قدرة الله تعالى أمور عجيبة وأحوال غريبة، وذلك الانكشاف أمر مطلوب لذاته.

ثم قال تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ ﴾ أي كم مقدار لبثنا في هذا الكهف: ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٖۚ ﴾ قال المفسرون: إنهم دخلوا الكهف غدوة وبعثهم الله في آخر النهار؛ فلذلك قالوا: (لبثنا يومًا) فلما رأوا الشمس باقية قالوا: (أو بعض يوم)، ثم قال تعالى: ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾، قال ابن عباس: هو رئيسهم يمليخا رد علم ذلك إلى الله تعالى؛ لأنه لما نظر إلى أشعارهم وأظفارهم وبشرة وجوههم رأى فيها آثار التغير الشديد فعَلِم أن مثل ذلك التغير لا يحصل إلا في الأيام الطويلة. ثم قال: ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم (بورْقكم) ساكنة الراء مفتوحة الواو ومنهم من قرأ (ها) مكسورة الواو ساكنة الراء، وقرأ ابن كثير (بورقكم) بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف، وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم القاف في الكاف، وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين على هذه، والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا، ويدل عليه ما روي أن

---

(١) هذا البيت للمخبل السعدي، وقد تقدمت ترجمته.

عرفجة اتخذ أنفًا من ورق، وفيه لغات: وَرِق ووَرْق ووِرْق مثل كَبِد وكَبْد وكِبْد، ذكره الفراء والزجاج قال الفراء: وكسر الواو أردؤها. ويقال أيضًا للورق الرقة، قال الأزهري: أصله وَرَق مثل صلة وعدة.

قال المفسرون: كانت معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم يعني بالمدينة التي يقال لها اليوم طرسوس، وهذه الآية تدل على أن السعي في إمساك الزاد أمر مهم مشروع وأنه لا يبطل التوكل. وقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ . قال ابن عباس: يريد ما حل من الذبائح لأن عامة أهل بلدهم كانوا مجوسًا وفيهم قوم يخفون إيمانهم. وقال مجاهد: كان ملكهم ظالمًا، فقولهم: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ يريدون أيها أبعد عن الغصب، وقيل: أيها أطيب وألذ، وقيل: أيها أرخص، قال الزجاج: قوله: ﴿أَيُّهَا﴾ رفع بالابتداء، و ﴿أَزْكَىٰ﴾ خبره و ﴿طَعَامًا﴾ نصب على التمييز، وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي يكون ذلك في سر وكتمان، يعني دخول المدينة وشراء الطعام ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي لا يُخبرن بمكانكم أحدًا من أهل المدينة: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلعوا ويُشرفوا على مكانكم أو على أنفسكم، من قولهم: (ظهرت على فلان) إذا علوته و(ظهرت على السطح) إذا صرت فوقه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[الصف: ١٤] أي عالين، وكذلك قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[التوبة: ٣٣] أي ليعليه. وقوله: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم، والرجم بمعنى القتل كثير في التنزيل، كقوله: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾[هود: ٩١] وقوله: ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾[الدخان: ٢٠] وأصله الرمي، قال الزجاج: أي يقتلوكم بالرجم، والرجم أخبث أنواع القتل: ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي يردوكم إلى دينهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أي إذا رجعتم إلى دينهم لن تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة. قال الزجاج: قوله: ﴿إِذًا أَبَدًا﴾ يدل على الشرط، أي ولن تفلحوا إن رجعتم إلى ملتهم أبدًا. قال القاضي: ما على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين: فأحدهما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذي هو أخبث أنواع القتل، والآخر هلاك الدين بأن يردوا إلى الكفر. فإن قيل: أليس أنهم لو أكرهوا على الكفر حتى إنهم أظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة؟ فكيف قالوا: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾؟ قلنا: يحتمل أن يكون المراد أنهم لو ردوا هؤلاء المسلمين إلى الكفر على سبيل الإكراه، بقوا مظهرين لذلك الكفر مدة، فإنه يميل قلبهم إلى ذلك الكفر ويصيرون كافرين في الحقيقة، فهذا الاحتمال قائم فكان خوفهم منه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ

﴿ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾

اعلم أن المعنى: كما زدناهم هدى وربطنا على قلوبهم وأنمناهم وقلبناهم، وبعثناهم لما فيها من الحكم الظاهرة، فكذلك أعثرنا عليهم أي أطلعنا غيرهم على أحوالهم، يقال: عثرت على كذا أي علمته وقالوا: إن أصل هذا أن من كان غافلاً عن شيء فعثر به نظر إليه فعرفه، فكان العثار سببًا لحصول العلم والتبين فأطلق اسم السبب على المسبب. واختلفوا في السبب الذي لأجله عرف الناس واقعة أصحاب الكهف على وجهين: الأول: أنه طالت شعورهم وأظفارهم طولاً مخالفًا للعادة، وظهرت في بشرة وجوههم آثار عجيبة تدل على أن مدتهم قد طالت طولاً خارجًا عن العادة. والثاني: أن ذلك الرجل لما دخل إلى السوق ليشتري الطعام وأخرج الدراهم لثمن الطعام، قال صاحب الطعام: هذه النقود غير موجودة في هذا اليوم، وإنما كانت موجودة قبل هذا الوقت بمدة طويلة ودهر داهر، فلعلك وجدت كنزًا. واختلف الناس فيه وحملوا ذلك الرجل إلى ملك البلد فقال الملك: من أين وجدت هذه الدراهم؟ فقال: بعت بها أمس شيئًا من التمر، ذوخرجنا فرارًا من الملك دقيانوس. فعرف ذلك الملك أنه ما وجد كنزًا وأن الله بعثه بعد موته. ثم قال تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني أنا إنما أطلعنا القوم على أحوالهم ليعلم القوم أن وعد الله حق بالبعث والحشر والنشر، روي أن ملك ذلك الوقت كان ممن ينكر البعث إلا أنه كان مع كفره منصفًا، فجعل الله أمر الفتية دليلاً للملك، وقيل: بل اختلفت الأمة في ذلك الزمان فقال بعضهم: الجسد والروح يُبعثان جميعًا. وقال آخرون: الروح تُبعث، وأما الجسد فتأكله الأرض. ثم إن ذلك الملك كان يتضرع إلى الله أن يظهر له آية يستدل بها على ما هو الحق في هذه المسألة، فأطلعه الله تعالى على أمر أصحاب أهل الكهف، فاستدل ذلك الملك بواقعتهم على صحة البعث للأجساد؛ لأن انتباههم بعد ذلك النوم الطويل يشبه من يموت ثم يُبعث. فقوله: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ﴾ متعلق بأعثرنا، أي أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم. واختلفوا في المراد بهذا التنازع فقيل: كانوا يتنازعون في صحة البعث، فالقائلون به استدلوا بهذه الواقعة على صحته، وقالوا: كما قدر الله على حفظ أجسادهم مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين، فكذلك يقدر على حشر الأجساد بعد موتها. وقيل: إن الملك وقومه لما رأوا أصحاب الكهف ووقفوا على أحوالهم عاد القوم إلى كهفهم فأماتهم الله، فعند هذا اختلف الناس: فقال قوم: إنهم نيام كالكرَّة الأولى. وقال آخرون: بل الآن ماتوا. والقول الثالث: أن بعضهم قال: الأوْلى أن يُسد باب الكهف لئلا يدخل عليهم أحدٍ ولا يقف على أحوالهم إنسان. وقال آخرون: بل الأَوْلى أن يبنى على باب الكهف مسجد. وهذا القول يدل على أن أولئك الأقوام كانوا

عارفين بالله معترفين بالعبادة والصلاة. والقول الرابع: أن الكفار قالوا: إنهم كانوا على ديننا فنتخذ عليهم بنيانًا، والمسلمون قالوا: كانوا على ديننا فنتخذ عليهم مسجدًا. والقول الخامس: أنهم تنازعوا في قدر مكثهم. والسادس: أنهم تنازعوا في عددهم وأسمائهم.

ثم قال تعالى: ﴿ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ . **وهذا فيه وجهان:**

أحدهما: أنه من كلام المتنازعين، كأنهم لما تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا: ربهم أعلم بهم.

الثاني: أن هذا من كلام الله تعالى ذكره ردًا للخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين.

ثم قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ ﴾ قيل: المراد به الملك المسلم، وقيل: أولياء أصحاب الكهف، وقيل: رؤساء البلد: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ نعبد الله فيه ونستبقي آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد. **ثم قال تعالى:** ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الضمير في قوله: ﴿ سَيَقُولُونَ ﴾ عائد إلى المتنازعين. روي أن السيد والعاقب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبيًا: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب وكان نسطوريًا: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم.

قال أكثر المفسرين: هذا الأخير هو الحق ويدل عليه وجوه:

الأول: أن الواو في قوله: ﴿ وَثَامِنُهُمْ ﴾ هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك (جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف) ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر: ٤] وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا: إنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، وأنهم قالوا قولاً متقررًا متحققًا عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس.

الوجه الثاني: قالوا: إنه تعالى خص هذا الموضع بهذا الحرف الزائد وهو الواو، فوجب أن تحصل به فائدة زائدة صونًا للفظ عن التعطيل، وكل من أثبت هذه الفائدة الزائدة قال: المراد منها تخصيص هذا القول بالإثبات والتصحيح.

الوجه الثالث: أنه تعالى أتبع القولين الأولين بقوله: ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن الحال في الباقي بخلافه، فوجب أن يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الأولان، وأن يكون القول الثالث مخالفًا لهما في كونهما رجمًا بالظن.

والوجه الرابع: أنه تعالى لما حكى قولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ قال بعده: ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ فإتباع القولين الأولين بكونهما رجمًا بالغيب وإتباع هذا

القول الثالث بقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ يدل على أن هذا القول ممتاز عن القولين الأولين بمزيد القوة والصحة.

والوجه الخامس: أنه تعالى قال: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ وهذا يقتضي أنه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل، وكل من قال من المسلمين قولاً في هذا الباب قالوا: إنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. فوجب أن يكون المراد من ذلك القليل هؤلاء الذين قالوا هذا القول. كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: كانوا سبعة وأسماؤهم هذا: يمليخا، مكسلمينا، مسلثينا، وهؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب يمين الملك، وكان عن يساره: مرنوس، ودبرنوس، وسادنوس، وكان الملك يستشير هؤلاء الستة في مهماته، والسابع هو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم، واسم كلبهم قطمير، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: أنا من ذلك العدد القليل. وكان يقول: إنهم سبعة وثامنهم كلبهم.

الوجه السادس: أنه تعالى لما قال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ والظاهر أنه تعالى لما حكى الأقوال فقد حكى كل ما قيل من الحق والباطل؛ لأنه يبعد أنه تعالى ذكر الأقوال الباطلة ولم يذكر ما هو الحق، فثبت أن جملة الأقوال الحقة والباطلة ليست إلا هذه الثلاثة، ثم خص الأولين بأنهما رجم بالغيب، فوجب أن يكون الحق هو هذا الثالث.

الوجه السابع: أنه تعالى قال لرسوله؛ ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ فمنعه الله تعالى عن المناظرة معهم وعن استفتائهم في هذا الباب، وهذا إنما يكون لو علمه حكم هذه الواقعة، وأيضًا أنه تعالى قال: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ ويبعد أن يحصل العلم بذلك لغير النبي ولا يحصل للنبي، فعلمنا أن العلم بهذه الواقعة حصل للنبي عليه السلام، والظاهر أنه لم يحصل ذلك العلم إلا بهذا الوحي؛ لأن الأصل فيما سواه العدم، وأن يكون الأمر كذلك فكان الحق هو قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾.

واعلم أن هذه الوجوه وإن كان بعضها أضعف من بعض إلا أنه لما تقوى بعضها ببعض حصل فيه كمال وتمام، والله أعلم. **بقي في الآية مباحث.**

البحث الأول: في الآية حذف والتقدير: (سيقولون هم ثلاثة) فحذف المبتدأ لدلالة الكلام عليه.

البحث الثاني: خص القول الأول بسين الاستقبال، وهو قوله: (سيقولون)، والسبب فيه أن حرف العطف يوجب دخول القولين الآخرين فيه.

البحث الثالث: الرجم هو الرمي، والغيب ما غاب عن الإنسان، فقوله: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ معناه أن يرى ما غاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة، يقال: فلان يرمي بالكلام رميًا، أي يتكلم من غير تدبر.

البحث الرابع: ذكروا في فائدة الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وجوهًا: الوجه الأول: ما ذكرنا أنه يدل على أن هذا القول أَوْلى من سائر الأقوال. وثانيها: أن السبعة عند العرب أصل في المبالغة في العدد، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] وإذا كان كذلك فإذا وصلوا إلى الثمانية ذكروا لفظًا يدل على الاستئناف، فقالوا (وثمانية)، فجاء هذا الكلام على هذا القانون، قالوا: ويدل عليه نظيره في ثلاث آيات، وهي قوله: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢] لأن هذا هو العدد الثامن من الأعداد المتقدمة، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] لأن أبواب الجنة ثمانية، وأبواب النار سبعة، وقوله: ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] هو العدد الثامن مما تقدم، والناس يسمون هذه الواو واو الثمانية، ومعناه ما ذكرناه، قال القفال: وهذا ليس بشيء، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] ولم يذكر الواو في النعت الثامن، ثم قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهذا هو الحق؛ لأن العلم بتفاصيل كائنات العالم والحوادث التي حدثت في الماضي والمستقبل لا تحصل إلا عند الله تعالى، وإلا عند من أخبره الله عنها، وقال ابن عباس: أنا من أولئك القليل. قال القاضي: إن كان قد عرفه ببيان الرسول صح، وإن كان قد تعلق فيه بحرف الواو فضعيف، ويمكن أن يقال: الوجوه السبعة المذكورة وإن كانت لا تفيد الجزم إلا أنها تفيد الظن. واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه القصة أتبعه بأن نهى رسوله عن شيئين: عن المراء والاستفتاء: أما النهي عن المراء فقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ والمراد من المراء الظاهر أن لا يكذبهم في تعيين ذلك العدد، بل يقول: هذا التعيين لا دليل عليه، فوجب التوقف وترك القطع. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وأما النهي عن الاستفتاء فقوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، وذلك لأنه لما ثبت أنه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم.

واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية قالوا: لأن قوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ وضع الرجم فيه موضع الظن فكأنه قيل: ظنًّا بالغيب لأنهم أكثروا أن يقولوا: (رجم بالظن) مكان قولهم ظن، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين، ألا ترى إلى قوله:

وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ (١)

أي المظنون، هكذا قاله صاحب الكشاف، وذلك يدل على أن القول بالظن مذموم عند الله، ثم إنه تعالى لما ذم هذه الطريقة رَتَّب عليه من استفتاء هؤلاء الظانين، فدل ذلك على أن الفتوى بالمظنون غير جائز عند الله. وجواب مثبتي القياس عنه قد ذكرناه مرارًا.

(١) هذا الشطر الثاني من بيت لقصيدة من البحر الطويل للشاعر زهير بن أبي سُلمى، وقد تقدمت ترجمته.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال المفسرون: إن القوم لما سألوا النبي ﷺ عن المسائل الثلاثة، قال عليه السلام: «أجيبكم عنها غدًا» ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحي خمسة عشر يومًا وفي رواية أخرى أربعين يومًا، ثم نزلت هذه الآية. اعترض القاضي على هذا الكلام من وجهين: الأول: أن رسول الله ﷺ كان عالمًا بأنه إذا أخبر عن أنه سيفعل الفعل الفلاني غدًا فربما جاءته الوفاة قبل الغد، وربما عاقه عائق آخر عن الإقدام على ذلك الفعل غدًا، وإذا كان كل هذه الأمور محتملاً، فلو لم يقل إن شاء الله ربما خرج الكلام مخالفًا لما عليه الوجود، وذلك يوجب التنفير عنه وعن كلامه عليه السلام، أما إذا قال (إن شاء الله) كان محترزًا عن هذا المحذور، وإذا كان كذلك كان من البعيد أن يعد بشيء ولم يقل فيه إن شاء الله. الثاني: أن هذه الآية مشتملة على فوائد كثيرة وأحكام جمة فيبعد قصرها على هذا السبب. ويمكن أن يجاب عن الأول: أنه لا نزاع أن الأولى أن يقول (إن شاء الله) إلا أنه ربما اتفق له أنه نسي هذا الكلام لسبب من الأسباب فكان ذلك من باب ترك الأولى والأفضل، وأن يجاب عن الثاني أن اشتماله على الفوائد الكثيرة لا يمنع من أن يكون سبب نزوله واحدًا منها.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ليس فيه بيان أنه شاء الله ماذا، وفيه قولان: الأول: التقدير: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أن يأذن لك في ذلك القول، والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك أنك تفعل الفعل الفلاني إلا إذا أذن الله لك في ذلك الإخبار. القول الثاني: أن يكون التقدير: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ إلا أن تقول: (إن شاء الله) والسبب في أنه لا بد من ذكر هذا القول هو أن الإنسان إذا قال: سأفعل الفعل الفلاني غدًا. لم يبعد أن يموت قبل مجيء الغد، ولم يبعد أيضًا لو بقي حيًا أن يعوقه عن ذلك الفعل شيء من العوائق، فإذا كان لم يقل: (إن شاء الله) صار كاذبًا في ذلك الوعد، والكذب منفر وذلك لا يليق بالأنبياء عليهم السلام، فلهذا السبب أوجب عليه أن يقول: ﴿ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ حتى أن بتقدير أن يتعذر عليه الوفاء بذلك الموعود، لم يَصِر كاذبًا فلم يحصل التنفير.

المسألة الثالثة: اعلم أن مذهب المعتزلة أن الله تعالى يريد الإيمان والطاعة من العبد والعبد يريد الكفر والمعصية لنفسه، فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الله فتكون إرادة العبد غالبة وإرادة الله تعالى مغلوبة!! وأما عندنا فكل ما أراد الله تعالى فهو واقع فهو تعالى يريد الكفر من الكافر ويريد الإيمان من المؤمن، وعلى هذا التقرير فإرادة الله تعالى غالبة وإرادة العبد مغلوبة.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا قال العبد لأفعلن كذا غدًا إلا أن يشاء الله والله إنما يدفع عنه الكذب إذا كانت إرادة الله غالبة على إرادة العبد، فإن على هذا القول يكون التقدير أن العبد قال أنا أفعل الفعل الفلاني إلا إذا كانت إرادة الله بخلافه، فأنا على هذا التقدير لا أفعل لأن إرادة الله غالبة على إرادتي، فعند قيام المانع الغالب لا أقوى على الفعل، أما بتقدير أن تكون إرادة الله تعالى مغلوبة فإنها لا تصلح عذرًا في هذا الباب؛ لأن المغلوب لا يمنع الغالب. إذا ثبت هذا فنقول: أجمعت الأمة على أنه إذا قال: والله لأفعلن كذا ثم قال: إن شاء الله دافعًا للحنث فلا يكون دافعًا للحنث إلا إذا كانت إرادة الله غالبة، فلما حصل دفع (الحنث) بالإجماع وجب القطع بكون إرادة الله تعالى غالبة وأنه لا يحصل في الوجود إلا ما أراده الله، وأصحابنا أكدوا هذا الكلام في صورة معينة، وهو أن الرجل إذا كان له على إنسان دَين وكان ذلك المديون قادرًا على أداء الدين فقال: والله لأقضين هذا الدين غدًا، ثم قال: إن شاء الله فإذا جاء الغد ولم يقض هذا الدين لم يحنث، وعلى قول المعتزلة أنه تعالى يريد منه قضاء الدين وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق لذلك الحكم على شرط واقع فوجب أن يحنث، ولما أجمعوا على أن لا يحنث علمنا أن ذلك إنما كان لأن الله تعالى ما شاء ذلك الفعل مع أن ذلك الفعل قد أمر الله به ورغب فيه وزجر عن الإخلال به، وثبت أنه تعالى قد ينهى عن الشيء ويريده، وقد يأمر بالشيء ولا يريده وهو المطلوب، فإن قيل: هب أن الأمر كما ذكرتم إلا أن كثيرًا من الفقهاء قالوا: إذا قال الرجل لامرأته: (أنت طالق إن شاء الله) لم يقع الطلاق فما السبب فيه؟ قلنا: السبب هو أنه لما علَّق وقوع الطلاق على مشيئة الله لم يقع إلا إذا عرفنا وقوع الطلاق، ولا نعرف وقوع الطلاق إلا إذا عرفنا أولاً حصول هذه المشيئة، لكن مشيئة الله تعالى غيب، فلا سبيل إلى العلم بحصولها إلا إذا علمنا أن متعلق المشيئة قد وقع وحصل وهو الطلاق، فعلى هذا الطريق لا نعرف حصول المشيئة إلا إذا عرفنا وقوع الطلاق، ولا نعرف وقوع الطلاق إلا إذا عرفنا وقوع المشيئة، فيتوقف العلم بكل واحد منها على العلم بالآخرة، وهو دور والدور باطل فلهذا السبب قالوا: الطلاق غير واقع.

المسألة الرابعة: احتج القائلون بأن المعدوم شيء بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قالوا: الشيء الذي سيفعله الفاعل غدًا سماه الله تعالى في الحال بأنه شيء لقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ ومعلوم أن الشيء الذي سيفعله الفاعل غدًا فهو معدوم في

الحال، فوجب تسمية المعدوم بأنه شيء. والجواب أن هذا الاستدلال لا يفيد إلا أن المعدوم مسمى بكونه شيئًا، وعندنا أن السبب فيه أن الذي سيصير شيئًا يجوز تسميته بكونه شيئًا في الحال، كما أنه قال: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] والمراد سيأتي أمر الله.

أما قوله: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ **ففيه وجهان:**

الأول: أنه كلام متعلق بما قبله، والتقدير أنه إذا نسي أن يقول: (إن شاء الله) فليذكره إذا تذكره. وعند هذا اختلفوا فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لو لم يحصل التذكر إلا بعد مدة طويلة ثم ذكر إن شاء الله، كفى في دفع الحنث. وعن سعيد بن جبير: بعد سنة أو شهر أو أسبوع أو يوم. وعن طاوس أنه يقدر على الاستثناء في مجلسه. وعن عطاء يستثني على مقدار حلب الناقة الغزيرة. وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً. واحتج ابن عباس بقوله: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ لأن الظاهر أن المراد من قوله: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ هو الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ غير مختص بوقت معين بل هو يتناول كل الأوقات، فوجب أن يجب عليه هذا الذكر في أي وقت حصل هذا التذكر، وكل من قال: (وجب هذا الذكر) قال: إنه إنما وجب لدفع الحنث وذلك يفيد المطلوب، واعلم أن استدلال ابن عباس رضي الله عنهما ظاهر في أن الاستثناء لا يجب أن يكون متصلاً، أما الفقهاء فقالوا إنا لو جوزنا ذلك لزم أن لا يستقر شيء من العقود والأيمان، يحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه فقال أبو حنيفة رحمه الله: هذا يرجع عليك، فإنك تأخذ البيعة بالأيمان أتفرض أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟ فاستحسن المنصور كلامه ورضي به.

واعلم أن حاصل هذا الكلام يرجع إلى تخصيص النص بالقياس وفيه ما فيه. وأيضًا فلو قال (إن شاء الله) على سبيل الخفية بلسانه بحيث لا يسمعه أحد فهو معتبر، ودافع للحنث بالإجماع مع أن المحذور الذي ذكرتم حاصل فيه. فثبت أن الذي عولوا عليه ليس بقوي، والأَوْلى أن يحتجوا في وجوب كون الاستثناء متصلاً بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد، قال تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وقال: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ [الإسراء: ٣٤] فالآتي بالعهد يجب عليه الوفاء بمقتضاه؛ لأجل هذه الآيات خالفنا هذا الدليل فيما إذا كان متصلاً لأن الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد، بدليل أن لفظ الاستثناء وحده لا يفيد شيئًا، فهو جارٍ مجرى نصف اللفظ الواحدة [١]، فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة، وعلى هذا التقدير فعند ذكر الاستثناء عرفنا أنه لم يلزم شيء، بخلاف ما إذا كان الاستثناء متصلاً فإنه حصل الالتزام التام بالكلام فوجب عليه الوفاء بذلك الملتزم.

---

(١) هكذا في الأصل: (اللفظ الواحدة). والصواب أن يقال: (اللفظ الواحد، أو اللفظة الواحدة).

والقول الثاني: أن قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ لا تعلق له بما قبله بل هو كلام مستأنف، وعلى هذا القول ففيه وجوه:

أحدها: واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء، والمراد منه الترغيب في الاهتمام بذكر هذه الكلمة. **وثانيها:** واذكر ربك إذا اعتراك النسيان ليُذكرك المَنسي. **وثالثها:** حَمَله بعضهم على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها.

وهذا القول بما فيه من الوجوه الثلاثة بعيد لأن تعلق هذا الكلام بما قبله يفيد إتمام الكلام في هذه القضية وجعله كلامًا مستأنفًا يوجب صيرورة الكلاء مبتدأ منقطعًا، وذلك لا يجوز.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾. **وفيه وجوه:**

الأول: أن ترك قوله: ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ ليس بحسن وذكره أحسن من تركه، وقوله: ﴿لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ المراد منه ذكر هذه الجملة.

الثاني: إذا وَعَدهم بشيء وقال معه (إن شاء الله) فيقول: عسى أن يهديني ربي لشيء أحسن وأكمل مما وعدتكم به.

والثالث: أن قوله: ﴿لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ إشارة إلى نبأ أصحاب الكهف ومعناه لعل الله يؤتيني من البينات والدلائل على صحة أني نبي من عند الله صادق القول في ادعاء النبوة - ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشدًا من نبأ أصحاب الكهف. وقد فعل الله ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ فاعلم أن هذه الآية آخر الآيات المذكورة في قصة أصحاب الكهف. **وفي قوله:** ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾ **قولان:**

الأول: أن هذا حكاية كلام القوم، والدليل عليه أنه تعالى قال: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ وكذا إلى أن قال: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾ أي أن أولئك الأقوام قالوا ذلك، ويؤكده أنه تعالى قال بعده: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ وهذا يشبه الرد على الكلام المذكور قبله ويؤكده أيضًا ما روي في مصحف عبد الله: (وقالوا ولبثوا في كهفهم).

والقول الثاني: أن قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾ هو كلام الله تعالى فإنه أخبر عن كمية تلك المدة.

وأما قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ فهو كلام قد تقدم، وقد تخلل بينه وبين هذه الآية ما يوجب انقطاع أحدهما عن الآخر وهو قوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ لا يوجب أن ما قبله حكاية، وذلك لأنه تعالى أراد: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فارجعوا إلى خبر الله دون ما يقوله أهل الكتاب.

المسألة الثانية: قرأ حمزة والكسائي (ثَلَاثَمِائَةِ سِنِينَ) بغير تنوين والباقون بالتنوين، وذلك

لأن قوله: ﴿سِنِينَ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ لأنه لما قال: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ﴾ لم يعرف أنها أيام أم شهور أم سنون فلما قال (سنين) صار هذا بيانًا لقوله: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ فكان هذا عطف بيان له، وقيل: هو على التقديم والتأخير أي لبثوا سنين ثلثمائة. وأما وجه قراءة حمزة فهو أن الواجب في الإضافة ثلثمائة سنة إلا أنه يجوز وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله: ﴿نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾[الكهف: ١٠٣].

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ المعنى: وازدادوا تسع سنين فإن قالوا: لمَ لم يقل: ثلثمائة وتسع سنين؟ وما الفائدة في قوله: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾؟ قلنا: قال بعضهم: كانت المدة ثلثمائة سنة من السنين الشمسية وثلثمائة وتسع سنين من القمرية، وهذا مشكل لأنه لا يصح بالحساب هذا القول، ويمكن أن يقال: لعلهم لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب أمرهم من الانتباه ثم اتفق ما أوجب بقاءهم في النوم بعد ذلك تسع سنين. ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ معناه أنه تعالى أعلم بمقدار هذه المدة من الناس الذين اختلفوا فيها، وإنما كان أولى بأن يكون عالمًا به لأنه موجد للسماوات والأرض ومدبر للعالم، وإذا كان كذلك كان عالمًا بغيب السماوات والأرض فيكون عالمًا بهذه الواقعة لا محالة.

ثم قال تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ وهذه كلمة تذكر في التعجب، والمعنى ما أبصره وما أسمعه!! وقد بالغنا في تفسير كلمة التعجب في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[البقرة: ١٧٥] ثم قال تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾. **وفيه وجوه:**

الأول: ما لأصحاب الكهف من دون الله من ولي، فإنه هو الذي يتولى حفظهم في ذلك النوم الطويل.

الثاني: ليس لهؤلاء المختلفين في مدة لبث أهل الكهف ولي من دون الله يتولى أمرهم ويقيم لهم تدبير أنفسهم، فإذا كانوا محتاجين إلى تدبير الله وحفظه فكيف يعلمون هذه الواقعة من غير إعلامه؟!

الثالث: أن بعض القوم لما ذكروا في هذا الباب أقوالاً على خلاف قول الله، فقد استوجبوا العقاب، فبيَّن الله أنه ليس لهم من دونه ولي يمنع الله من إنزال العقاب عليهم.

ثم قال: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ والمعنى أنه تعالى لما حكم أن لبثهم هو هذا المقدار فليس لأحد أن يقول قولاً بخلافه، والأصل أن الاثنين إذا كانا لشريكين فإن الاعتراض من كل واحد منهما على صاحبه يكثر ويصير ذلك مانعًا لكل واحد منهما من إمضاء الأمر على وفق ما يريده. وحاصله يرجع إلى قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾[الأنبياء: ٢٢] فالله تعالى نفى ذلك عن نفسه بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾.

وقرأ ابن عامر (ولا تشرك) بالتاء والجزم على النهي والخطاب عطفًا على قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ﴾ أو على قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ والمعنى: ولا تسأل أحدًا عما أخبرك الله به من

عدة أصحاب الكهف واقتصِر على حكمه وبيانه ولا تشرك أحدًا في طلب معرفة تلك الواقعة . وقرأ الباقون بالياء والرفع على الخبر ، والمعنى أنه تعالى لا يفعل ذلك .

المسألة الرابعة : اختلف الناس في زمان أصحاب الكهف وفي مكانهم :

أما الزمان الذي حصلوا فيه: فقيل : إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام وإن موسى ذكرهم في التوراة ، ولهذا السبب فإن اليهود سألوا عنهم . وقيل : إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح وأخبر المسيح بخبرهم ثم بُعثوا في الوقت الذي بين عيسى عليه السلام وبين محمد ﷺ. وقيل : إنهم دخلوا الكهف بعد المسيح ، وحكى القفال هذا القول عن محمد بن إسحاق . وقال قوم : إنهم لم يموتوا ولا يموتون إلى يوم القيامة .

وأما مكان هذا الكهف: فحكى القفال عن محمد بن موسى الخوارزمي المنجم أن الواثق أنفذه ليعرف حال أصحاب الكهف إلى الروم . قال : فوجَّه ملك الروم معي أقوامًا إلى الموضع الذي يقال إنهم فيه . قال : وإن الرجل الموكل بذلك الموضع فزعني من الدخول عليهم . قال : فدخلت ورأيت الشعور على صدورهم . قال : وعرفت أنه تمويه واحتيال وأن الناس كانوا قد عالجوا تلك الجثث بالأدوية المجففة لأبدان الموتى لتصونها عن البلى مثل التلطيخ بالصبر وغيره . ثم قال القفال : والذي عندنا لا يعرف أن ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف أو موضع آخر ، والذي أخبر الله عنه وجب القطع به ، ولا عبرة بقول أهل الروم إن ذلك الموضع هو موضع أصحاب الكهف . وذُكر في الكشاف عن معاوية أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم . فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس لك ذلك قد منع الله مُن هو خير منك . فقال : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارًا ولملئت منهم رعبًا . فقال لابن عباس : لا أنتهي حتى أعلم حالهم . فبعث أناسًا فقال لهم : اذهبوا فانظروا . فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحًا فأحرقتهم . **وأقول**: العلم بذلك الزمان وبذلك المكان ليس للعقل فيه مجال ، وإنما يستفاد ذلك من نص ، وذلك مفقود فثبت أنه لا سبيل إليه .

المسألة الخامسة : اعلم أن مدار القول بإثبات البعث والقيامة على أصول ثلاثة : أحدها : أنه تعالى قادر على كل الممكنات . والثاني : أنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات . وثالثها : أن كل ما كان ممكن الحصول في بعض الأوقات كان ممكن الحصول في سائر الأوقات . فإذا ثبتت هذه الأصول الثلاثة ثبت القول بإمكان البعث والقيامة ، فكذلك ها هنا ثبت أنه تعالى عالم قادر على الكل ، وثبت أن بقاء الإنسان حيًا في النوم مدة يوم ممكن ، فكذلك بقاؤه مدة ثلثمائة سنة يجب أن يكون ممكنًا ، بمعنى أن إله العالم يحفظه ويصونه عن الآفة . وأما الفلاسفة فإنهم يقولون أيضًا : لا يبعد وقوع أشكال فلكية غريبة توجب في هيولي عالم الكون والفساد حصول أحوال غريبة نادرة .

وأقول : هذه السور الثلاثة المتعاقبة اشتمل كل واحد منها على حصول حالة عجيبة نادرة في

هذا العالم فسورة بني إسرائيل اشتملت على الإسراء بجسد محمد ﷺ من مكة إلى الشام وهو حالة عجيبة، وهذه السورة اشتملت على بقاء القوم في النوم مدة ثلثمائة سنة وأزيد وهو أيضًا حالة عجيبة، وسورة مريم اشتملت على حدوث الولد لا من الأب وهو أيضًا حالة عجيبة.

والمعتمد في بيان إمكان كل هذه العجائب والغرائب المذكورة في هذه السور الثلاثة المتوالية هو الطريقة التي ذكرناها. ومما يدل على أن هذا المعنى من الممكنات أن أبا علي بن سينا ذكر في باب الزمان من كتاب الشفاء أن أرسطاطاليس الحكيم ذكر أنه عرض لقوم من المتألهين حالة شبيهة بحالة أصحاب الكهف، ثم قال أبو علي: ويدل التاريخ على أنهم كانوا قبل أصحاب الكهف.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى والخضر كلام واحد في قصة واحدة، وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله ﷺ: إن أردت أن نؤمن بك فاطرد مَن عندك هؤلاء الفقراء الذين آمنوا بك. والله تعالى نهاه عن ذلك ومَنَعه عنه، وأطنب في جملة هذه الآيات في بيان أن الذي اقترحوه والتمسوه مطلوب فاسد واقتراح باطل، ثم إنه تعالى جعل الأصل في هذا الباب شيئًا واحدًا وهو أن يواظب على تلاوة الكتاب الذي أوحاه الله إليه وعلى العمل به، وأن لا يلتفت إلى اقتراح المقترحين وتعنت المتعنتين فقال: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾.

وفي الآية مسألة وهي: أن قوله: ﴿وَٱتْلُ﴾ يتناول القراءة ويتناول الاتباع فيكون المعنى الزم قراءة الكتاب الذي أُوحي إليك والزم العمل به. ثم قال: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أي يمتنع تطرق التغيير والتبديل إليه.

وهذه الآية يمكن التمسك بها في إثبات أن تخصيص النص بالقياس غير جائز لأن قوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾ معناه الزم العمل بمقتضى هذا الكتاب، وذلك يقتضي وجوب العمل بمقتضى ظاهره، فإن قيل: فيجب ألا يتطرق النسخ إليه. قلنا: هذا هو مذهب أبي مسلم الأصفهاني فليس يبعد، وأيضًا فالنسخ في الحقيقة ليس بتبديل لأن المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالغاية فكيف يكون تبديلاً؟!

أما قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ اتفقوا على أن الملتحد هو الملجأ، قال أهل اللغة: هو من لحد وألحد إذا مال، ومنه قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ [النحل: ١٠٣] والمُلحد: المائل عن الدين والمعنى: ولن تجد من دونه ملجأ في البيان والرشاد.

اعلم أن أكابر قريش اجتمعوا وقالوا لرسول الله ﷺ: إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء

الفقراء من عندك، فإذا حضرنا لم يحضروا، وتُعَين لهم وقتًا يجتمعون فيه عندك فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية [الأنعام: ٥٢] فبيَّن فيها أنه لا يجوز طردهم بل تجالسهم وتوافقهم وتُعظم شأنهم ولا تلتفت إلى أقوال أولئك الكفار ولا تقيم لهم في نظرك وزنًا سواء غابوا أو حضروا. وهذه القصة منقطعة عما قبلها وكلام مبتدأ مستقل. ونظير هذه الآية قد سبق في سورة الأنعام وهو قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] ففي تلك الآية نُهي الرسول ﷺ عن طردهم، وفي هذه الآية أمَره بمجالستهم والمصابرة معهم، فقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أصل الصبر الحبس، ومنه نهى رسول الله ﷺ عَنِ الْمَصْبُورَةِ وَهِيَ الْبَهِيمَةُ تُحْبَسُ فَتُرْمَى (١).

أما قوله: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾. **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ ابن عامر (بالغُدوة) بضم الغين والباقون (بالغداة) وكلاهما لغة.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ وجوه: الأول: المراد كونهم مواظبين على هذا العمل في كل الأوقات، كقول القائل: ليس لفلان عمل بالغداة والعشي إلا شتم الناس. الثاني: أن المراد صلاة الفجر والعصر. الثالث: المراد أن الغداة هي الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من النوم إلى اليقظة، وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت إلى الحياة، والعشي هو الوقت الذي ينتقل الإنسان فيه من اليقظة إلى النوم ومن الحياة إلى الموت، والإنسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثير الذكر لله عظيم الشكر لآلاء الله ونعمائه.

ثم قال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ يقال: عداه، إذا جاوزه ومنه قولهم: عدا طوره وجاء القوم عُدا زيدًا وإنما عدي بلفظة (عن) لأنها تفيد المباعدة فكأنه تعالى نهى عن تلك المباعدة وقرئ: (ولا تُعْدِ عينيك) (ولا تُعَدِّ عينيك) من أعداه وعَدَّاه نقلًا بالهمزة وتثقيل الحشو ومنه قوله شعر:

فَعَدِّ عَمَّا تَرَى إِذْ لاَ ارْتِجَاعَ لَهُ (٢)

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الأشربة) باب (الشراب من في السقاء) (٣/ ٣٣٥) حديث رقم/ ٣٧١٩ والترمذي في كتاب (الأطعمة) باب (في أكل لحوم الجلالة) (٤/ ٢٣٨) حديث رقم/ ١٨٥ من طريق هشام... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الضحايا) باب (النهي عن لبن الجلالة) (٧/ ٢٧٥) حديث رقم/ ٤٤٦٠ من طريق هشام... به. وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٦٦) حديث رقم/ ١٩٨٩ من طريق هشام... به. والدارمي في كتاب (الأضاحي) باب (النهي عن مُثلة الحيوان) (١/ ٥٤٨) حديث رقم/ ١٩٧٥ من طريق قتادة... به. وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ١٤٦) حديث رقم/ ٢٥٥٢ من طريق حماد بن سلمة... به. كلاهما عن قتادة... به.

(٢) هذا أول بيت من البحر البسيط للشاعر النابغة الذبياني وهو النابغة الذبياني ١٨ ق هـ/ ٦٠٥ م وهو: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو امامة. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره عليه. كان حظيًا عند النعمان بن المنذر، حتى شبب في قصيدة له بالمتجردة (زوجة النعمان) فغضب منه النعمان، ففر النابغة ووفد على الغسانيين بالشام، وغاب زمنًا. ثم رضي عنه النعمان فعاد إليه.

والمقصود من الآية أنه تعالى نهى رسول الله ﷺ عن أن يزدري فقراء المؤمنين وأن تنبو عيناه عنهم لأجل رغبته في مجالسة الأغنياء وحسن صورتهم.

وقوله: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نصب في موضع الحال، يعني أنك (إنْ) فعلت ذلك لم يكن إقدامك عليه إلا لرغبتك في زينة الحياة الدنيا. ولما بالغ في أمره بمجالسة الفقراء من المسلمين بالغ في النهي عن الالتفات إلى أقوال الأغنياء والمتكبرين فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى هو الذي يخلق الجهل والغفلة في قلوب الجهال لأن قوله: ﴿أَغْفَلْنَا﴾ يدل على هذا المعنى. قالت المعتزلة: المراد بقوله تعالى: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أنا وجدنا قلبه غافلاً وليس المراد خلق الغفلة فيه، والدليل عليه ما روي عن عمرو بن معديكرب الزبيدي أنه قال لبني سليم: قاتلناكم فما أجبناكم، وسألناكم فما أبخلناكم، وهجوناكم فما أفحمناكم. أي ما وجدناكم جبناء ولا بخلاء ولا مفحمين. ثم نقول: حَمْل اللفظ على هذا المعنى أَوْلى ويدل عليه وجوه: الأول: أنه لو كان كذلك لما استحقوا الذم. الثاني: أنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ولو كان تعالى خلق الغفلة في قلبه لما صح ذلك. الثالث: لو كان المراد هو أنه تعالى جعل قلبه غافلاً لوجب أن يقال: ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه. لأن على هذا التقدير يكون ذلك من أفعال المطاوعة، وهي إنما تعطف بالفاء لا بالواو، ويقال: كسرته فانكسر ودفعته فاندفع. ولا يقال: وانكسر واندفع. الرابع: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ولو كان تعالى أغفل في الحقيقة قلبه لم يجز أن يضاف ذلك إلى اتباعه هواه. والجواب: قوله المراد من قوله: ﴿أَغْفَلْنَا﴾ أي وجدناه غافلاً، وليس المراد تحصيل الغفلة فيه.

قلنا: الجواب عنه من وجهين:

الوجه الأول: أن الاشتراك خلاف الأصل فوجب أن يعتقد أن وزن الإفعال حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر، وجَعْله حقيقة في التكوين مجازًا في الوجدان أَوْلى من العكس، وبيانه من وجوه: أحدها: أن مجيء بناء الإفعال بمعنى التكوين أكثر من مجيئه بمعنى الوجدان، والكثرة دليل الرجحان. وثانيها: أن مبادرة الفهم من هذا البناء إلى التكوين أكثر من مبادرته إلى الوجدان، ومبادرة الفهم دليل الرجحان. وثالثها: أنا إن جعلناه حقيقة في التكوين أمكن جعله مجازًا في الوجدان لأن العلم بالشيء تابع لحصول المعلوم، فجَعْل اللفظ حقيقة في المتبوع ومجازًا في التبع موافق للمعقول، أما لو جعلناه حقيقة في الوجدان مجازًا في الإيجاد لزم جعله حقيقة في التبع مجازًا في الأصل وأنه عكس المعقول فثبت أن الأصل جعل هذا البناء حقيقة في الإيجاد لا في الوجدان.

الوجه الثاني: في الجواب عن السؤال: أنا نسلم كون اللفظ مشتركًا بالنسبة إلى الإيجاد وإلى الوجدان إلا أنا نقول: يجب حمل قوله: ﴿أَغْفَلْنَا﴾ على إيجاد الغفلة؛ وذلك لأن الدليل العقلي دل على أنه يمتنع كون العبد موجدًا للغفلة في نفسه، والدليل عليه أنه إذا حاول إيجاد الغفلة فإما أن يحاول إيجاد مطلق الغفلة أو يحاول إيجاد الغفلة عن شيء معين، والأول باطل، وإلا لم يكن بأن تحصل له الغفلة عن هذا الشيء أولى بأن تحصل له الغفلة عن شيء آخر؛ لأن الطبيعة المشترك فيها بين الأنواع الكثيرة تكون نسبتها إلى كل تلك الأنواع على السوية، أما الثاني فهو أيضًا باطل لأن الغفلة عن كذا عبارة عن غفلة لا تمتاز عن سائر أقسام الغفلات إلا بكونها منتسبة إلى ذلك الشيء المعين بعينه، فعلى هذا لا يمكنه أن يقصد إلى إيجاد الغفلة عن كذا إلا إذا تصور أن تلك الغفلة غفلة عن كذا، ولا يمكنه أن يتصور كون تلك الغفلة غفلة عن كذا إلا إذا تصور كذا لأن العلم بنسبة أمر إلى أمر آخر مشروط بتصور كل واحد من المنتسبين. فثبت أنه لا يمكنه القصد إلى إيجاد الغفلة عن كذا إلا مع الشعور بكذا، لكن الغفلة عن كذا ضد الشعور بكذا؛ فثبت أن العبد لا يمكنه إيجاد هذه الغفلة إلا عند اجتماع الضدين وذلك محال، والموقوف على المحال محال، فثبت أن العبد غير قادر على إيجاد الغفلة، فوجب أن يكون خالق الغفلات وموجدها في العباد هو الله، وهذه نكتة قاطعة في إثبات هذا المطلوب، وعند هذا يظهر أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ هو إيجاد الغفلة لا وجدانها، أما حديث المدح والذم فقد عارضناه مرارًا وأطوارًا بالعلم والداعي، أما قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فالبحث عنه سيأتي إن شاء الله تعالى.

أما قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ لو كان المراد إيجاد الغفلة لوجب ذكر الفاء، لا ذكر الواو. فنقول: هذا إنما يلزم لو كان خلق الغفلة في القلب من لوازمه حصول اتباع الهوى، كما أن الكسر من لوازمه حصول الانكسار، وليس الأمر كذلك لأنه لا يلزم من حصول الغفلة عن الله حصول متابعة الهوى؛ لاحتمال أن يصير غافلاً عن ذكر الله، ومع ذلك فلا يتبع الهوى بل يبقى متوقفًا لا ينافي مقام الحيرة والدهشة والخوف من الكل فسقط هذا السؤال. وذكر القفال في تأويل الآية على مذهب المعتزلة وجوهًا أخرى: فأحدها: أنه تعالى لما صب عليهم الدنيا صبًّا وأدى ذلك إلى رسوخ الغفلة في قلوبهم، صح على هذا التأويل أنه تعالى حصَّل الغفلة في قلوبهم كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦]. والوجه الثاني: أن معنى قوله: ﴿أَغْفَلْنَا﴾ أي تركناه غافلاً فلم نَسِمْه بسمة أهل الطهارة والتقوى وهو من قولهم (بعير غفل) أي لا سمة عليه. وثالثها: أن المراد من قوله (أغفلنا قلبه) أي خلاه مع الشيطان ولم يمنع الشيطان منه. فيقال في الوجه الأول: إن فتح باب لذات الدنيا عليه هل يؤثر في حصول الغفلة في قلبه أو لا يؤثر؟ فإن أثر كان أثَّر إيصال اللذات إليه سببًا لحصول الغفلة في قلبه، وذلك عين القول بأنه

تعالى فعل ما يوجب حصول الغفلة في قلبه، وإن كان لا تأثير له في حصول هذه الغفلة بطل إسناده إليه، وقد يقال في الوجه الثاني: إن قوله (أغفلنا قلبه) بمنزلة قوله (سودنا قلبه وبيضنا وجهه) ولا يفيد إلا ما ذكرناه، ويقال في الوجه الثالث إن كان لتلك التخلية أثر في حصول تلك الغفلة فقد صح قولنا، وإلا بطل استناد تلك الغفلة إلى الله تعالى.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يدل على أن شر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خاليًا عن ذكر الحق ويكون مملوءًا من الهوى الداعي إلى الاشتغال بالخلق، وتحقيق القول أن ذكر الله نور وذكر غيره ظلمة؛ لأن الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة، والحق تعالى واجب الوجود لذاته فكان النور الحق هو الله، وما سوى الله فهو ممكن الوجود لذاته، والإمكان طبيعة عدمية فكان منبع الظلمة فالقلب إذا أشرق فيه ذكر الله فقد حصل فيه النور والضوء والإشراق، وإذا توجه القلب إلى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات؛ فلهذا السبب إذا أعرض القلب عن الحق وأقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة، فالإعراض عن الحق هو المراد بقوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ والإقبال على الخلق هو المراد بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

المسألة الثالثة: قيل: ﴿فُرُطًا﴾ أي مجاوزًا للحد، من قولهم: فرس فرط، إذا كان متقدمًا الخيل، قال الليث: الفرط: الأمر الذي يفرط فيه، يقال: كل أمر فلان فرط. وأنشد شعرًا:

لَقَدْ كَلَّفَنِي شَطَطَا ... وَأَمْرًا خَائِبًا فُرُطَا

أي مضيعًا، فقوله: (وكان أمره فرطًا) معناه أن الأمر الذي يلزمه الحفظ له والاهتمام به وهو أمر دينه - يكون مخصوصًا بإيقاع التفريط والتقصير فيه، وهذه الحالة صفة من لا ينظر لدينه وإنما عمله لدنياه، فبَيَّن تعالى من حال الغافلين عن ذكر الله التابعين لهواهم أنهم مقصرون في مهماتهم مُعْرضون عما وجب عليهم من التدبر في الآيات والتحفظ بمهمات الدنيا والآخرة، والحاصل أنه تعالى وصف أولئك الفقراء بالمواظبة على ذكر الله والإعراض عن غير ذكر الله فقال: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ووَصَف هؤلاء الأغنياء بالإعراض عن ذكر الله تعالى والإقبال على غير الله وهو قوله: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ثم أمر رسوله بمجالسة أولئك والمباعدة عن هؤلاء، روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كنت جالسًا في عصابة من ضعفاء المهاجرين وإن بعضهم ليستر بعضًا من العرى وقارئ يقرأ القرآن فجاء رسول الله ﷺ فقال: «ماذا كنتم تصنعون؟» قلنا: يا رسول الله كان واحد يقرأ من كتاب الله ونحن نستمع. فقال عليه السلام: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ إِلَى أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ**» ثم جلس وسطنا وقال: «**أَبْشِرُوا يَا صَعَالِيكَ الْمُهَاجِرِينَ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِمِقْدَارِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**».

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى :في تقرير النظم وجوه:

الأول:أنه تعالى لما أمر رسوله بأن لا يلتفت إلى أولئك الأغنياء الذين قالوا: إن طردت الفقراء آمنا بك، قال بعده: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي قل لهؤلاء: إن هذا الدين الحق إنما أتى من عند الله، فإن قبلتموه عاد النفع إليكم وإن لم تقبلوه عاد الضرر إليكم، ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى والقبح والحسن والخمول والشهرة.

الوجه الثاني في تقرير النظم:يمكن أن يكون المراد أن الحق ما جاء من عند الله، والحق الذي جاءني من عنده أن أصبر نفسي مع هؤلاء الفقراء ولا أطردهم ولا ألتفت إلى الرؤساء وأهل الدنيا.

والوجه الثالث في تقرير النظم:أن يكون المراد هو أن الحق الذي جاء من عند الله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وأن الله تعالى لم يأذن في طرد من آمن وعمل صالحًا لأجل أن يدخل في الإيمان جمع من الكفار، فإن قيل: أليس أن العقل يقتضي ترجيح الأهم على المهم فطَرْد أولئك الفقراء لا يوجب إلا سقوط حرمتهم وهذا ضرر قليل. أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر، وهذا ضرر عظيم.

قلنا:أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر فمسلَّم إلا أن من ترك الإيمان لأجل الحذر من مجالسة الفقراء فإيمانه ليس بإيمان بل هو نفاق قبيح، فوجب على العاقل أن لا يلتفت إلى إيمان من هذا حاله وصفته.

المسألة الثانية : قالت المعتزلة: قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ صريح في أن الأمر في الإيمان والكفر والطاعة والمعصية مفوض إلى العبد واختياره. فمن أنكر ذلك فقد خالف صريح القرآن. ولقد سألني بعضهم عن هذه الآية فقلت: هذه الآية من أقوى الدلائل على صحة قولنا وذلك لأن الآية صريحة في أن حصول الإيمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الإيمان وحصول مشيئة الكفر، وصريح العقل أيضًا يدل له، فإن العقل الاختياري يمتنع حصوله بدون القصد إليه وبدون الاختيار له.

إذا عرفت هذا فنقول:حصول ذلك القصد والاختيار إن كان بقصد آخر يتقدمه واختيار آخر يتقدمه لزمه أن يكون كل قصد واختيار مسبوقًا بقصد آخر إلى غير النهاية وهو محال، فوجب

انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارت إلى قصد واختيار يخلقه الله تعالى في العبد على سبيل الضرورة، عند حصول ذلك القصد الضروري والاختيار الضروري يوجب الفعل، فالإنسان شاء أو لم يشأ إن لم تحصل في قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية عن المُعارض لم يترتب الفعل، وإذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء أو لم يشأ يجب ترتب الفعل عليه، فلا حصول المشيئة مترتب على حصول الفعل، ولا حصول الفعل مترتب على المشيئة. فالإنسان مضطر في صورة مختار، ولقد قرر الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه الله هذا المعنى في باب التوكل من كتاب إحياء علوم الدين فقال: فإن قلت إني أجد في نفسي وجدانًا ضروريًّا أني إن شئت الفعل قدرت على الفعل وإن شئت الترك قدرت على الترك فالفعل والترك بي لا بغيري. وأجاب عنه وقال: هب أنك تجد من نفسك هذا المعنى ولكن هل تجد من نفسك أنك إن شئت مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئة، وإن لم تشأ تلك المشيئة لم تحصل، بل العقل يشهد بأنه يشاء الفعل لا بسبق مشيئة أخرى على تلك المشيئة، وإذا شاء الفعل وجب حصول الفعل من غير مكنة واختيار في هذا المقام، فحصول المشيئة في القلب أمر لازم، وترتب الفعل على حصول المشيئة أيضًا أمر لازم، وهذا يدل على أن الكل من الله تعالى.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. **فيه فوائد:**

الفائدة الأولى: الآية تدل على أن صدور الفعل عن الفاعل بدون القصد والداعي - محال.

الفائدة الثانية: أن صيغة الأمر لا لمعنى الطلب في كتاب الله كثيرة ثم نُقل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هذه الصيغة تهديد ووعيد وليست بتخيير.

الفائدة الثالثة: أنها تدل على أنه تعالى لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا يستضر بكفر الكافرين، بل نفع الإيمان يعود عليهم، وضرر الكفر يعود عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] واعلم أنه تعالى لما وصف الكفر والإيمان والباطل والحق أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والأعمال الباطلة، وبذكر الوعد على الإيمان والعمل الصالح:

أما الوعيد فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ يقول: اعتدنا لمن ظلم نفسه ووضع العبادة في غير موضعها والأنفة في غير محلها، فعندما استحسن بهواه وأنِف عن قبول الحق لأجل أن الذين قبلوه فقراء ومساكين، فهذا كله ظلم ووضع للشيء في غير موضعه. فأخبر تعالى أنه أعد لهؤلاء الأقوام نارًا وهي الجحيم، ثم وصف تعالى تلك النار بصفتين:

الصفة الأولى: قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ والسرادق هو الحجزة التي تكون حول الفسطاط فأثبت للنار شيئًا شبيهًا بذلك يحيط بهم من جميع الجهات، والمراد أنه لا مخلص لهم منها ولا فرجة يتفرجون بالنظر إلى ما وراءها من غير النار، بل هي محيطة بهم من كل الجوانب. وقال بعضهم: المراد من هذا السرادق الدخان الذي وصفه الله في قوله: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠] وقالوا: هذه الإحاطة بهم إنما تكون قبل دخولهم النار، فيغشاهم هذا

الدخان ويحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط.

والصفة الثانية: لهذه النار: قوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ قيل في حديث مرفوع: إنه دردي الزيت. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه دخل بيت المال وأخرج نفاثة كانت فيه وأوقد عليها النار حتى تلألأت ثم قال: هذا هو المهل. قال أبو عبيدة والأخفش: كل شيء أذبته من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المهل. وقيل: إنه الصديد والقيح. وقيل: إنه ضرب من القطران. ثم يحتمل أن تكون هذه الاستغاثة لأنهم إذا طلبوا ماء للشرب فيعطون هذا المهل، قال تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٤، ٥] ويحتمل أن يستغيثوا من حر جهنم فيطلبوا ماء يصبونه على أنفسهم للتبريد فيعطون هذا الماء. قال تعالى حكاية عنهم: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وقال في آية أخرى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠] فإذا استغاثوا من حر جهنم صُب عليهم القطران الذي يعم كل أبدانهم كالقميص. وقوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ وارد على سبيل الاستهزاء كقوله:

تحيةُ بينِهِم ضربٌ وجيعُ

ثم قال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ أي أن الماء الذي هو كالمهل بئس الشراب؛ لأن المقصود بشرب الشراب تسكين الحرارة، وهذا يبلغ في احتراق الأجسام مبلغًا عظيمًا. ثم قال تعالى: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قال قائلون: ساءت النار منزلاً ومجتمعًا للرفقة لأن أهل النار يجتمعون رفقاء كأهل الجنة، قال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وأما رفقاء النار فهم الكفار والشياطين، والمعنى: بئس الرفقاء هؤلاء وبئس موضع الترافق النار، كما أنه نعم الرفقاء أهل الجنة ونعم موضع الرفقاء الجنة. وقال آخرون: مرتفقًا أي متكأ، وسمي المرفق مرفقًا لأنه يُتكأ عليه، فالاتكاء إنما يكون للاستراحة، والمرتفق موضع الاستراحة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد المبطلين أردفه بوعد المحققين. وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يدل على أن العمل الصالح مغاير للإيمان لأن العطف يوجب المغايرة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ ظاهره يقتضي أنه يستوجب المؤمن بحسن عمله على الله أجرًا، وعند أصحابنا ذلك الاستيجاب حصل بحكم الوعد. وعند

المعتزلة لذات الفعل، وهو باطل لأن نعم الله كثيرة وهي موجبة للشكر والعبودية فلا يصير الشكر والعبودية موجبين لثواب آخر لأن أداء الواجب لا يوجب شيئًا آخر.

المسألة الثالثة: نظير قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلخ - قول الشاعر:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنَّ اللَّهَ سَرْبَلَهُ ... سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ(١)

كرر أن تأكيدًا للأعمال والجزاء عليها.

المسألة الرابعة: أولئك خبر (إنّ) و(إنا لا نضيع) اعتراض ولك أن تجعل (إنا لا نضيع) و(أولئك) خبرين معًا ولك أن تجعل (أولئك) كلامًا مستأنفًا بيانًا للأجر المبهم.

واعلم أنه تعالى لما أثبت الأجر المبهم أردفه بالتفصيل من وجوه: أولها: صفة مكانهم وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والعدن في اللغة عبارة عن الإقامة، فيجوز أن يكون المعنى: أولئك لهم جنات إقامة. كما يقال هذه دار إقامة، ويجوز أن يكون العدن اسمًا لموضع معين من الجنة وهو وسطها وأشرف أماكنها، وقد استقصينا فيه فيما تقدم، وقوله: ﴿جَنَّٰتُ﴾ لفظ جمع فيمكن أن يكون المراد ما قاله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ويمكن أن يكون المراد أن نصيب كل واحد، من المكلفين جنة على حدة وذكر أن من صفات تلك الجنات أن الأنهار تجري من تحتها وذلك لأن أفضل المساكن في الدنيا البساتين التي يجري فيها الأنهار. وثانيها: إن لباس أهل الدنيا إما لباس التحلي، وإما لباس التستر، أما لباس التحلي فقال تعالى في صفته: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ والمعنى أنه يحليهم الله تعالى ذلك أو تحليهم الملائكة وقال بعضهم: على كل واحد منهم ثلاثة أسورة: سوار من ذهب لأجل هذه الآية، وسوار من فضة لقوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] وسوار من لؤلؤ لقوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]، وأما لباس التستر فقوله: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ والمراد: من سندس الآخرة واستبرق الآخرة والأول هو الديباج الرقيق وهو الخز، والثاني هو الديباج الصفيق، وقيل أصله فارسي معرب وهو إستبره، أي غليظ، فإن قيل: ما السبب في أنه تعالى قال في الحلي: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ على فعل ما لم يسم فاعله وقال في السندس والإستبرق ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ فأضاف اللبس إليهم، قلنا: يحتمل أن يكون اللبس إشارة إلى ما استوجبوه بعملهم، وأن يكون الحلي إشارة إلى ما تفضل الله عليهم ابتداء من زوائد الكرم. وثالثها: كيفية جلوسهم فقال في صفتها: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾. قالوا: الأرائك جمع أريكة وهي سرير في حجلة، أما السرير وحده فلا يسمى أريكة.

ولما وصف الله تعالى هذه الأقسام قال: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ والمراد أن يكون هذا في مقابلة ما تقدم ذكره من قوله: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

---

(١) البيت للشاعر جرير.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا
خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ
نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ
أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ
صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾
لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ
لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا
مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا
غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا
وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ
هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فبيَّن الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنيًّا والغني فقيرًا، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين، وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ أي مثّل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما كافر اسمه براطوس والآخر مؤمن اسمه يهوذا، وقيل هما المذكوران في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١] ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فأخذ كل واحد منهما النصف فاشترى الكافر أرضًا فقال المؤمن: اللهم إني أشتري منك أرضًا في الجنة بألف. فتصدق به، ثم بني أخوه دارًا بألف فقال المؤمن: اللهم إني اشتري منك دارًا في الجنة بألف. فتصدق به، ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال المؤمن اللهم إني جعلت ألفًا صداقًا للحور العين ثم اشترى أخوه خدمًا وضياعًا بألف فقال المؤمن: اللهم إني اشتريت منك الولدان بألف فتصدق به، ثم أصابه حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله.

وأما قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾، فاعلم أن الله تعالى وصف تلك الجنة بصفات:

الصفة الأولى: كونها جنة، وسُمي البستان جنة لاستتار ما يستتر فيها بظل الأشجار، وأصل الكلمة من الستر والتغطية.

والصفة الثانية: قوله: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي وجعلنا النخل محيطًا بالجنتين، نظيره قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥] أي واقفين حول العرش محيطين به، والحفاف جانب الشيء والأحفة جمع، فمعنى قول القائل: (حف به القوم) أي صاروا في أحفته وهي جوانبه قال الشاعر:

لَهُ لَحَظَاتٌ فِي حَفَافَيْ سَرِيرِهِ إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ[١]

قال صاحب (الكشاف): حفوه: إذا طافوا به، وحففته بهم، أي جعلتهم حافين حوله، وهو متعدٍّ إلى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولاً ثانيًا كقوله: غشيته وغشيته به. قال: وهذه الصفة مما يؤثرها الدهاقين في كرومهم وهي أن يجعلوها محفوفة بالأشجار المثمرة، وهو أيضًا حسن في المنظر.

الصفة الثالثة: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ والمقصود منه أمور: أحدها: أن تكون تلك الأرض جامعة للأقوات والفواكه. وثانيها: أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف، ومع ذلك فإنها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض. وثالثها: أن مثل هذه الأرض تأتي في كل وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرة أخرى فكانت منافعها دارة متواصلة.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ (كلا) اسم مفرد معرفة يؤكد به مذكران معرفتان، و(كلتا) اسم مفرد يؤكد به مؤنثان معرفتان. وإذا أضيفا إلى المُظهر كانا بالألف في الأحوال الثلاثة كقولك: جاءني كلا أخويك، ورأيت كلا أخويك، ومررت بكلا أخويك. وجاءني كلتا أختيك، ورأيت كلتا أختيك، ومررت بكلتا أختيك، وإذا أضيفا إلى المضمر كانا في الرفع بالألف، وفي الجر والنصب بالياء، وبعضهم يقول مع المضمر بالألف في الأحوال الثلاثة أيضًا. وقوله: ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ حمل على اللفظ لأن (كلتا) لفظه لفظ مفرد ولو قيل (أتتا) على المعنى لجاز، وقوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي لم تنقص، والظلم النقصان، يقول الرجل: (ظلمني حقي) أي نقصني.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي كان النهر يجري في داخل تلك الجنتين. وفي قراءة يعقوب (وفجَرنا) مخففة وفي قراءة الباقين (وفجرنا) مشددة، والتخفيف هو الأصل لأنه نهر واحد والتشديد على المبالغة لأن النهر يمتد فيكون كأنهار و﴿خِلَالَهُمَا﴾ أي وسطهما وبينهما. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. ومنه يقال: (خللت القوم) أي دخلت بين القوم.

---

(١) البيت من البحر الطويل للشاعر إبراهيم بن هرمة، وقد تقدمت ترجمته.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قرأ عاصم بفتح الثاء والميم في الموضعين وهو جمع ثمار أو ثمرة، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم في الحرفين والباقون بضم الثاء والميم في الحرفين. ذكر أهل اللغة أنه بالضم أنواع الأموال من الذهب والفضة وغيرهما، وبالفتح حمل الشجر، قال قطرب: كان أبو عمرو بن العلاء يقول: الثمر: المال والولد. وأنشد للحارث بن كلدة:

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاشِرًا قَدْ أَثْمَرُوا مَالاً وَوَلَدا(١)

وقال النابغة:

مَهْلاً فِدَاءٌ لَكَ الأَقْوَامُ كُلُّهُمْ مَا أَثْمَرُوهُ أَمِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدِ(٢)

وقوله: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي أنواع من المال، مِن (ثمر ماله) إذا كثر. وعن مجاهد: الذهب والفضة. أي كان مع الجنتين أشياء من النقود. ولما ذكر الله تعالى هذه الصفات قال بعده: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ والمعنى أن المسلم كان يحاوره بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله وبالبعث، والمحاورة مراجعة الكلام، من قولهم: (حار) إذا رجع، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ﴾ [الانشقاق: ١٤، ١٥] فذكر تعالى أن عند هذه المحاورة قال الكافر: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ والنفر عشيرة الرجل وأصحابه الذين يقومون بالذب عنه وينفرون معه، وحاصل الكلام أن الكافر ترفَّع على المؤمن بجاهه وماله، ثم إنه أراد أن يُظهر لذلك المسلم كثرة ماله فأخبر الله تعالى عن هذه الحالة فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ وأراه إياها على الحالة الموجبة للبهجة والسرور، وأخبره بصنوف ما يملكه من المال. فإن قيل: لمَ أفرد الجنة بعد التثنية؟ قلنا: المراد أنه ليس له جنة ولا نصيب في الجنة التي وعد المتقون المؤمنون وهذا الذي ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدًا منهما.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو اعتراض وقع في أثناء الكلام، والمراد التنبيه على أنه لما اعتز بتلك النعم وتوسل بها إلى الكفران والجحود لقدرته على البعث، كان واضعًا تلك النعم في غير موضعها، ثم حكى تعالى عن الكافر أنه قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ فجمع بين هذين: فالأول قَطْعه بأن تلك الأشياء لا تهلك ولا تبيد أبدًا مع أنها متغيرة متبدلة.

فإن قيل: هب أنه شك في القيامة فكيف قال: (ما أظن أن تبيد هذه أبدًا) مع أن الحدس يدل

---

(١)هذا البيت للحارث بن حلزة وهو الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي. ٥٤ ق. هـ/ ٥٧٠ م شاعر جاهلي من أهل بادية العرق، وهو أحد أصحاب المعلقات. كان أبرص فخورًا، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك بالحيرة، جَمَع بها كثيرًا من أخبار العرب ووقائعهم حتى صار مضرب المثل في الافتخار، فقيل: أفخر من الحارث بن حلزة.

(٢)تقدمت ترجمته.

على أن أحوال الدنيا بأسرها ذاهبة باطلة غير باقية؟ قلنا: المراد أنها لا تبيد مدة حياته ووجوده، ثم قال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي مرجعًا وعاقبة، وانتصابه على التمييز، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] والسبب في وقوع هذه الشبهة أنه تعالى لما أعطاه المال في الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقًّا له، والاستحقاق باقٍ بعد الموت فوجب حصول العطاء. والمقدمة الأولى كاذبة فإنَّ فتح باب الدنيا على الإنسان يكون في أكثر الأمر للاستدراج والتملية.

قرأ نافع وابن كثير (خيرًا منهما)، والمقصود عود الكناية إلى الجنتين، والباقون (منها)، والمقصود عود الكناية إلى الجنة التي دخلها.

ثم ذكر تعالى جواب المؤمن فقال جل جلاله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ . **وفيه بحثان:**

البحث الأول: أن الإنسان الأول قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ وهذا الثاني كَفَّره حيث قال: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ وهذا يدل على أن الشاك في حصول البعث كافر.

البحث الثاني: هذا الاستدلال يحتمل وجهين: الأول: يرجع إلى الطريقة المذكورة في القرآن وهو أنه تعالى لما قدر على الابتداء وجب أن يقدر على الإعادة، فقوله: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ إشارة إلى خلق الإنسان في الابتداء. الوجه الثاني: أنه لما خلقك هكذا فلم يخلقك عبثًا، وإنما خلقك للعبودية، وإذا خلقك لهذا المعنى وجب أن يحصل للمطيع ثواب وللمذنب عقاب، وتقريره ما ذكرناه في سورة يس، ويدل على هذا الوجه قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي هيأك هيئة تعقل وتصلح للتكليف فهل يجوز في العقل مع هذه الحالة إهماله أمرك .

ثم قال المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ . **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قال أهل اللغة: (لكنا) أصله (لكن أنا) فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون (لكن) فاجتمعت النونان فأدغمت نون (لكن) في النون التي بعدها ومثله:

وَتَقْلِينَنِي لَكِنَّ إِيَّاكَ لاَ أَقْلِي

أي لكن أنا لا أقليك و(هو) في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ ضمير الشأن وقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾ جملة من المبتدأ والخبر واقعة في معرض الخبر لقوله: (هو) فإن قيل: قوله: (لكِنَّا) استدراك لماذا؟ قلنا لقوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ كأنه قال لأخيه: أكفرت بالله لكني مؤمن موحد. كما تقول: زيد غائب لكن عمرو حاضر.

والبحث الثاني: قرأ ابن عامر ويعقوب الحضرمي ونافع في رواية: (لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي) في الوصل بالألف. وفي قراءة الباقين: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ بغير ألف والمعنى واحد.

ثم قال المؤمن: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ ذكر القفال فيه وجوهًا: أحدها: إني لا أرى الفقر

والغنى إلا منه فأحمده إذا أعطى وأصبر إذا ابتلى ولا أتكبر عندما ينعم عليَّ ولا أرى كثرة المال والأعوان من نفسي . وذلك لأن الكافر لما اعتز بكثرة المال والجاه فكأنه قد أثبت لله شريكًا في إعطاء العز والغنى . وثانيها : لعل ذلك الكافر مع كونه منكرًا للبعث كان عابد صنم ، فبَيَّن هذا المؤمن فساد قوله بإثبات الشركاء . وثالثها : أن هذا الكافر لما عجَّز الله عن البعث والحشر فقد جعله مساويًا للخلق في هذا العجز وإذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك .

ثم قال المؤمن للكافر : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فأمره أن يقول هذين الكلامين : **الأول:** قوله : ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ **وفيه وجهان:**

الأول: أن تكون (مَا) شرطية ويكون الجزاء محذوفًا والتقدير أي شيء شاء الله كان . **والثاني:** أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف وتقديره الأمر ما شاء الله ، واحتج أصحابنا بهذا على أن كل ما أراده الله وقع وكل ما لم يرده لم يقع . وهذا يدل على أنه ما أراد الله الإيمان من الكافر ، وهو صريح في إبطال قول المعتزلة ، أجاب الكعبي عنه بأن تأويل قولهم : (ما شاء) مما تولى فعله لا مما هو فعل العباد . كما قالوا : (لا مرد لأمر الله) لم يُرد ما أمر به العباد . ثم قال : لا يمتنع أن يحصل في سلطانه ما لا يريده كما يحصل فيه ما نهى عنه ، واعلم أن الذي ذكر الكعبي ليس جوابًا عن الاستدلال بل هو التزام المخالفة لظاهر النص ، وقياس الإرادة على الأمر باطل لأن هذا النص دال على أنه لا يوجد إلا ما أراده الله ، وليس في النصوص ما يدل على أنه لا يدخل في الوجود إلا ما أمر به ، فظهر الفرق ، وأجاب القفال عنه بأن قال : هلا إذا دخلت بستانك قلت ما شاء الله؟ كقول الإنسان : هذه الأشياء الموجودة في هذا البستان ما شاء الله ، ومثله قوله : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] وهم ثلاثة ، وقوله : ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨] أي قولوا هذه حطة . وإذا كان كذلك كان المراد من هذا الشيء الموجود في البستان شيء شاء الله تكوينه ، وعلى هذا التقدير لم يلزم أن يقال : كل ما شاء الله وقع . لأن هذا الحكم غير عام في الكل بل مختص بالأشياء المشاهدة في البستان . وهذا التأويل الذي ذكره القفال أحسن بكثير مما ذكره الجبائي والكعبي ، وأقول : إنه على جوابه لا يدفع الإشكال على المعتزلة لأن عمارة ذلك البستان ربما حصلت بالغصوب والظلم الشديد ، فلا يصح أيضًا على قول المعتزلة أن يقال : (هذا واقع بمشيئة الله) . اللهم إلا أن نقول المراد أن هذه الثمار حصلت بمشيئة الله تعالى إلا أن هذا تخصيص لظاهر النص من غير دليل . والكلام الثاني الذي أمر المؤمن الكافر بأن يقوله : هو قوله : ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي لا قوة لأحد على أمر من الأمور إلا بإعانة الله وإقداره .

والمقصود أنه قال المؤمن للكافر : هلا قلت عند دخول جنتك : (الأمر ما شاء الله والكائن ما قدره الله) اعترافًا بأنها وكل خير فيها بمشيئة الله وفضله فإن أمرها بيده إن شاء تركها وإن شاء خربها ، وهلا قلت : (لا قوة إلا بالله) إقرارًا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها فهو

بمعونة الله وتأييده لا يقوى أحد في بدنه ولا في ملك يده إلا بالله. ثم إن المؤمن لما علَّم الكافر الإيمان أجابه عن افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ من قرأ (أقل) بالنصب فقد جعل (أنا) فصلاً و(أقل) مفعولاً ثانيًا، ومن قرأ بالرفع جعل قوله: ﴿أَنَا﴾ مبتدأ وقوله ﴿أَقَلَّ﴾ خبر والجملة مفعولاً ثانيًا لترن، واعلم أن ذكر الولد هاهنا يدل على أن المراد بالنفر المذكور في قوله: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ الأعوان والأولاد، كأنه يقول له: إن كنت تراني ﴿أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وأنصارًا في الدنيا الفانية: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ إما في الدنيا، وإما في الآخرة. ويرسل على جنتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي عذابًا وتخريبًا، والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب، أي مقدارًا قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها. قال الزجاج: عذاب حسبان وذلك الحسبان حسبان ما كسبت يداك، وقيل: حسبانًا أي مرامي، الواحد منها حسبانة وهي الصواعق: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي فتصبح جنتك أرضًا ملساء لا نبات فيها، والصعيد وجه الأرض، زلقًا أي تصير بحيث تزلق الرجل عليها زلقًا. ثم قال: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي يغوص ويسفل في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أي فيصير بحيث لا تقدر على رده إلى موضعه.

قال أهل اللغة في قوله: ﴿مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائرًا، وهو نعت على لفظ المصدر كما يقال: فلان زَوْر وصَوْم للواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ويقال نساء نَوْح أي نوائح. ثم أخبر الله تعالى أنه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ وهو عبارة عن إهلاكه بالكلية، وأصله من إحاطة العدو لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك، ومنه قوله: ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] ومثله قولهم: (أتى عليه) إذا أهلكه من (أتى عليهم العدو) إذا جاءهم مستعليًا عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ وهو كناية عن الندم والحسرة، فإن من عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى، وقد يمسح إحداهما على الأخرى، وإنما يفعل هذا ندامة على ما أنفق في الجنة التي وعظه أخوه فيها وعذله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة على عروشها، فيمكن أن يكون المراد بالعروش عروش الكرم، فهذه العروش سقطت ثم سقطت الجدران عليها، ويمكن أن يراد من العروش السقوف وهي سقطت على الجدران. وحاصل الكلام أن هذه اللفظة كناية عن بطلانها وهلاكها، ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ والمعنى أن المؤمن لما قال: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ فهذا الكافر تذكَّر كلامه وقال: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

فإن قيل: هذا الكلام يوهم أنه إنما هلكت جنته بشؤم شركه، وليس الأمر كذلك لأن أنواع البلاء أكثرها إنما يقع للمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] وقال النبي ﷺ: «خُصَّ الْبَلَاءُ

بِالْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الْأَمْثَلِ فالأمثل»[١] وأيضًا فلما قال: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ فقد ندم على الشرك ورغب في التوحيد، فوجب أن يصير مؤمنًا فلمَ قال بعده: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

والجواب عن السؤال الأول: أنه لما عظمت حسرته لأجل أنه أنفق عمره في تحصيل الدنيا وكان مُعْرِضًا في كل عمره عن طلب الدين، فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقي الحرمان عن الدنيا والدين عليه، فلهذا السبب عظمت حسرته.

والجواب عن السؤال الثاني: أنه إنما ندم على الشرك لاعتقاده أنه لو كان موحدًا غير مشرك لبقيت عليه جنته، فهو إنما رغب في التوحيد والرد عن الشرك لأجل طلب الدنيا، فلهذا السبب ما صار توحيده مقبولاً عند الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قرأ حمزة والكسائي: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِئَةٌ) بالياء لأن قوله: ﴿فِئَةٌ﴾ جمع فإذا تقدم على الكناية جاز التذكير، ولأنه رعاية للمعنى. والباقون بالتاء المنقوطة باثنتين من فوق لأن الكناية عائدة إلى اللفظة وهي الفئة.

البحث الثاني: المراد من قوله: ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هو أنه ما حصلت له فئة يقدرون على نصرته من دون الله، أي هو الله تعالى وحده القادر على نصرته، ولا يقدر أحد غيره أن ينصره.

ثم قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

المسألة الأولى: اختلف القراء في ثلاثة مواضع من هذه الآية: أولها: في لفظ (الولاية) ففي قراءة حمزة والكسائي بكسر الواو وفي قراءة الباقين بالفتح، وحكي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: كسر الواو لحن. قال صاحب (الكشاف): الولاية بالفتح: النصرة والتولي، وبالكسر السلطان والملك. وثانيها: قرأ أبو عمرو والكسائي قوله: (الحق) بالرفع والتقدير: هنالك الولاية الحق لله. وقرأ الباقون بالجر صفة لله. وثالثها: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع والكسائي وابن عامر (عقبًا) بضم القاف، وقرأ عاصم وحمزة عقبًا بتسكين القاف.

المسألة الثانية: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ فيه وجوه. الأول: أنه تعالى لما ذكر من قصة الرجلين ما ذكر عَلِمنا أن النصرة والعاقبة المحمودة كانت للمؤمن على الكافر، وعرفنا أن الأمر هكذا يكون في حق كل مؤمن وكافر فقال: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أي في مثل ذلك الوقت وفي مثل ذلك المقام تكون الولاية لله، يوالي أولياءه فيغلبهم على أعدائه ويفوض أمر الكفار إليهم فقوله: (هنالك) إشارة إلى الموضع والوقت الذي يريد الله إظهار كرامة أوليائه وإذلال أعدائه (فيهِمَا).

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود في كتاب (العلم) باب (في القصص) (٣/ ١٥٨٦) حديث رقم/ ٣٦٦٦ وأحمد في (مسنده) (٣/ ٦٣) والبغوي في (شرح السنة) (٧/ ٢٥٥) حديث رقم/ ٣٨٨٧ جميعًا من طريق جعفر... به. المعلي بن زياد صدوق قليل الحديث، والعلاء بن بشير قال الحافظ: مجهول.

والوجه الثاني في التاويل: أن يكون المعنى: في مثل تلك الحالة الشديدة يتولى الله ويلتجئ إليه كل محتاج مضطر. يعني أن قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ كلمة ألجئ إليها ذلك الكافر فقالها جزعًا مما ساقه إليه شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها.

والوجه الثالث: المعنى هنالك الولاية لله ينصر بها أولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم ويشفي صدورهم من أعدائهم، يعني أنه تعالى نصر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن وصَدَّق قوله في قوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ويعضده قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي لأوليائه.

والوجه الرابع: أن قوله (هنالك) إشارة إلى الدار الآخرة، أي في تلك الدار الآخرة الولاية لله. كقوله ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦] ثم قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي في الآخرة لمن آمن به والتجأ إليه: ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي هو خير عاقبة لمن رجاه وعمل لوجهه. وقد ذكرنا أنه قرئ عقبًا بضم القاف وسكونها وعُقبى على فُعلى وكلها بمعنى العاقبة.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

اعلم أن المقصود: اضرب مثلاً آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها، والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ أي لهؤلاء الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين: ﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ثم ذكر المثل فقال: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ وحينئذٍ يربو ذلك النبات ويهتز ويحسن منظره، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥] ثم إذا انقطع ذلك مدة جف ذلك النبات وصار هشيمًا، وهو النبت المتكسر المتفتت. ومنه قوله: هشمت أنفه وهشمت الثريد. وأنشد:

عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِأَهْلِهِ وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ[1]

وإذا صار النبات كذلك طيرته الرياح وذهبت بتلك الأجزاء إلى سائر الجوانب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ بتكوينه أولاً وتنميته وسطًا وإبطاله آخرًا، وأحوال الدنيا أيضًا كذلك تظهر أولاً في غاية الحسن والنضارة، ثم تتزايد قليلاً قليلاً، ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء؛ ومثل هذا الشيء ليس للعاقل أن يبتهج به.

---

(١) هذا البيت للشاعر عبد الله بن الزبعري وهو عبد الله بن الزبعرى السهمي القرشي، وأمه عاتكة الجمحية بنت عبد الله بن عمير. ١٥ هـ/ ٦٣٦ م. شاعر قريش في الجاهلية، وكان شديداً على المسلمين إلى أن فتحت مكة، فهرب إلى نجران، فقال حسان فيه أبياتاً، فلما بلغته عاد إلى مكة فأسلم واعتذر ومدح النبي ﷺ، فأمر له بحلة. وقد سجل في شعره حادثة الفيل وحرمة مكة ومنعتها، وتحدث عن حرب الفجار وبلاء بني المغيرة فيها.

والباء في قوله: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه وجوه:

الأول: التقدير: فاختلط بعض أنواع النبات بسائر الأنواع بسبب هذا الماء، وذلك لأن عند نزول المطر يقوى النبات ويختلط بعضه بالبعض ويشتبك بعضه بالبعض، ويصير في المنظر في غاية الحسن والزينة.

والثاني: فاختلط ذلك الماء بالنبات واختلط ذلك النبات بالماء حتى روى ورف رفيفًا. وكان حق اللفظ على هذا التفسير (فاختلط بنبات الأرض) ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾﴾

لما بَيَّن تعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء، مشرفة على الزوال والبوار والفناء، بَيَّن تعالى أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، والمقصود إدخال هذا الجزء تحت ذلك الكل، وسنعقد منه قياس الإنتاج وهو أن (المال والبنون) زينة الحياة الدنيا وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض، ينتج إنتاجًا بديهيًّا أن المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض. ومن المقتضى البديهي أن ما كان كذلك فإنه يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له في نظره وزنًا، فهذا برهان باهر على فساد قول أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأولاد. ثم ذكر ما يدل على رجحان أولئك الفقراء على أولئك الكفار من الأغنياء فقال: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ وتقرير هذا الدليل أن خيرات الدنيا منقرضة منقضية، وخيرات الآخرة دائمة باقية، والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي، وهذا معلوم بالضرورة، لا سيما إذا ثبت أن خيرات الدنيا خسيسة حقيرة، وأن خيرات الآخرة عالية رفيعة؛ لأن خيرات الدنيا حسية وخيرات الآخرة عقلية والعقلية أشرف من الحسية بكثير بالدلائل المذكورة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] في بيان أن الإدراكات العقلية أفضل من الحسية، وإذا كان كذلك كان مجموع السعادات العقلية والحسية هي السعادات الأخروية، فوجب أن تكون أفضل من السعادات الحسية الدنيوية، والله أعلم.

والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات أقوالاً: قيل: إنها قولنا: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ) وللشيخ الغزالي رحمه الله في تفسير هذه الكلمات وجه لطيف، فقال: روي أن من قال: (سبحان الله) حصل له من الثواب عشر مرات، فإذا قال (والحمد لله) صارت عشرين، فإذا قال: (ولا إله إلا الله) صارت ثلاثين، فإذا قال: (والله أكبر) صارت أربعين. قال: وتحقيق القول فيه أن أعظم مراتب الثواب هو الاستغراق في معرفة الله وفي محبته، فإذا

قال (سبحان الله) فقد عرف كونه سبحانه منزهًا عن كل ما لا ينبغي، فحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة، فإذا قال مع ذلك (والحمد لله) فقد أقر بأن الحق سبحانه مع كونه منزهًا عن كل ما لا ينبغي فهو المبدأ لإفادة كل ما ينبغي ولإفاضة كل خير وكمال فقد تضاعفت درجات المعرفة، فلا جرم قلنا تَضَاعَفَ الثواب فإذا قال مع ذلك (ولا إله إلا الله) فقد أقر بأن الذي تنزه عن كل ما لا ينبغي، فهو المبدأ لكل ما ينبغي وليس في الوجود موجود هكذا إلا الواحد، فقد صارت مراتب المعرفة ثلاثة، فلا جرم صارت درجات الثواب ثلاثة فإذا قال (والله أكبر) معناه أنه أكبر وأعظم من أن يصل العقل إلى كنه كبريائه وجلاله، فقد صارت مراتب المعرفة أربعة، لا جرم صارت درجات الثواب أربعة.

والقول الثاني: أن الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس.

والقول الثالث: أنها الطيب من القول، كما قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤].

والقول الرابع: أن كل عمل وقول دعاك إلى الاشتغال بمعرفة الله وبمحبته وخدمته، فهو الباقيات الصالحات، وكل عمل وقول دعاك إلى الاشتغال بأحوال الخلق فهو خارج عن ذلك، وذلك أن كل ما سوى الحق سبحانه فهو فان لذاته، هالك لذاته فكان الاشتغال به والالتفات إليه عملاً باطلاً وسعيًا ضائعًا. أما الحق لذاته فهو الباقي لا يقبل الزوال، لا جرم كان الاشتغال بمعرفة الله ومحبته وطاعته هو الذي يبقى بقاء لا يزول ولا يفنى.

ثم قال تعالى: ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي كل عمل أريد به وجه الله فلا شك أن ما يتعلق به من الثواب وما يتعلق به من الأمل يكون خيرًا وأفضل؛ لأن صاحب تلك الأعمال يؤمل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن خساسة الدنيا وشرف القيامة، أردفه بأحوال القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ والمقصود منه الرد على المشركين الذي افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأعوان. واختلفوا في الناصب لقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ على وجوه: أحدها: أنه يكون التقدير واذكر لهم ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ عطفًا على قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]

الثاني: أنه يكون التقدير: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ حصل كذا وكذا، يقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لأن القول مضمر في هذا الموضع، فكان المعنى أنه يقال لهم هذا في هذا الموضع. الثالث: أن يكون التقدير ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ في ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ والأول أظهر.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه ذكر في الآية من أحوال القيامة أنواعًا.

النوع الأول: قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (تُسَيَّر) على فعل ما لم يسم فاعله والجبال بالرفع بإسناد (تسير) إليه اعتبارًا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣] والباقون (نسير) باسناد فعل التسيير إلى نفسه (تعالى و) الجبال بالنصب لكونه مفعول نسير، والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتبارًا بقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ والمعنى واحد لأنها إذا سيرت فمُسَيرها ليس إلا الله سبحانه. ونقل صاحب (الكشاف) قراءة أخرى وهي (تسير الجبال) بإسناد تسير إلى الجبال.

البحث الثاني: قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ ليس في لفظ الآية ما يدل على أنها إلى أين تسير، فيحتمل أن يقال: إنه تعالى يسيرها إلى الموضع الذي يريده، ولم يبين ذلك الموضع لخلقه، والحق أن المراد أنه تعالى يسيرها إلى العدم لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧] ولقوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦].

والنوع الثاني من أحوال القيامة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ وفي تفسيره وجوه: أحدها: أنه لم يبق على وجهها شيء من العمارات، ولا شيء من الجبال، ولا شيء من الأشجار، فبقيت بارزة ظاهرة ليس عليها ما يسترها، وهو المراد من قوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]. وثانيها: أن المراد من كونها بارزة أنها أبرزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها، فهي بارزة الجوف والبطن، فحذف ذكر (الجوف)، ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤] وقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢] وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [ابراهيم: ٢١]. وثالثها: أن وجوه الأرض كانت مستورة بالجبال والبحار، فلما أفنى الله تعالى الجبال والبحار فقد برزت وجوه تلك البقاع بعد أن كانت مستورة.

والنوع الثالث من أحوال القيامة: قوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ والمعنى جمعناهم للحساب فلم نغادر منهم أحدًا، أي لم نترك من الأولين والآخرين أحدًا إلا وجمعناهم لذلك اليوم. ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] ومعنى لم نغادر: لم نترك، يقال: غادره وأغدره، إذا تركه، ومنه الغدر ترك الوفاء، ومنه الغدير لأنه ما تَرَكَتْه السيول، ومنه سميت ضفيرة المرأة بالغديرة لأنها تجعلها خلفها.

ولما ذكر الله تعالى حشر الخلق ذكر كيفية عرضهم، فقال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسير الصف وجوه: أحدها: أنه تعرض الخلق كلهم على الله صفًّا واحدًا ظاهرين بحيث لا يحجب بعضهم بعضًا، قال القفال: ويشبه أن يكون الصف راجعًا إلى الظهور والبروز، ومنه اشتق الصفصف للصحراء. وثانيها: لا يبعد أن يكون الخلق صفوفًا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التي يكون بعضها خلف بعض، وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله صفًّا: صفوفًا كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أي أطفالاً. وثالثها: صفًّا أي قيامًا، كما قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ [الحج: ٣٦] قالوا: قيامًا.

المسألة الثانية: قالت المشبهة: قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] يدل على أنه تعالى يحضر في ذلك المكان وتعرض عليه أهل القيامة صفًّا، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ يدل على أنه تعالى يحضر في ذلك المكان، وأجيب عنه بأنه تعالى جعل وقوفهم في الموضع الذي يسألهم فيه عن أعمالهم ويحاسبهم عليها عرضًا عليه، لا على أنه تعالى يحضر في مكان وعُرضوا عليه ليراهم بعد أن لم يكن يراهم، ثم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ وليس المراد حصول المساواة من كل الوجوه، لأنهم خُلقوا صغارًا ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم، بل المراد أنه قال للمشركين المنكرين للبعث المفتخرين في الدنيا على فقراء المؤمنين بالأموال والأنصار: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ عراة حفاة بغير أموال ولا أعوان ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] إلى قوله ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠] ثم قال تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي كنتم مع التعزز على المؤمنين بالأموال والأنصار تنكرون البعث والقيامة، فالآن قد تركتم الأموال والأنصار في الدنيا وشاهدتم أن البعث والقيامة حق. ثم قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ والمراد أنه يوضع في هذا اليوم كتاب كل إنسان في يده إما في اليمين أو في الشمال، والمراد الجنس وهو صحف الأعمال: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي خائفين مما في الكتاب من أعمالهم الخبيثة وخائفين من ظهور ذلك لأهل الموقف فيفتضحون، وبالجملة يحصل لهم خوف العقاب من الحق وخوف الفضيحة عند الخلق ويقولون: يا ويلتنا، ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ وهي عبارة عن الإحاطة بمعنى لا يترك شيئًا من المعاصي سواء كانت صغيرة أو كبيرة إلا وهي مذكورة في هذا الكتاب. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] وإدخال تاء التأنيث في الصغيرة والكبيرة على تقدير أن المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة: ﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ إلا ضبطها وحصرها، قال بعض العلماء: ضجوا من الصغائر قبل الكبائر؛ لأن تلك الصغائر هي التي جرتهم إلى الكبائر

فاحترزوا من الصغائر جدًا: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ في الصحف عتيدًا، أو جزاء ما عملوا: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ معناه أنه لا يكتب عليه ما لم يفعل، ولا يزيد في عقابه المستحق، ولا يعذب أحدًا بجرم غيره، **بقي في الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال الجبائي: هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة في مسائل: أحدها: أنه لو عذب عباده من غير فعل صدر منهم لكان ظالمًا. وثانيها: أنه لا يعذب الأطفال بغير ذنب. وثالثها: بطلان قولهم (لله أن يفعل ما يشاء ويعذب من غير جرم لأن الخلق خلقه) إذ لو كان كذلك لما كان لنفي الظلم عنه معنى لأن بتقدير أنه إذا فعل أي شيء أراد لم يكن ظلمًا منه، لم يكن لقوله (إنه لا يظلم) فائدة فيقال له.

أما الجواب عن الأولين فهو المعارضة بالعلم والداعي، وأما الجواب عن هذا الثالث فهو أنه تعالى قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] ولم يدل هذا على أن اتخاذ الولد صحيح عليه فكذا هاهنا.

المسألة الثانية: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يُحَاسَبُ النَّاسُ فِي الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثَةٍ: يُوسُفَ، وَأَيُّوبَ، وَسُلَيمَانَ: فَيَدْعُو بِالْمَمْلُوكِ وَيَقُولُ لَهُ: مَا شَغَلَكَ عَنِّي فَيَقُولُ جَعَلْتَنِي عَبْدًا لِلْآدَمِيِّ فَلَمْ تُفَرِّغْنِي. فَيَدْعُو يُوسُفَ عَلَيهِ السَّلَامُ، وَيَقُولُ: كَانَ هَذَا عَبْدًا مِثْلَكَ فَلَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ عَنْ عِبَادَتِي. فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ يَدْعُو بِالْمُبْتَلَى فَإِذَا قَالَ: شَغَلْتَنِي بِالْبَلَاءِ. دَعَا بِأَيُّوبَ عَلَيهِ السَّلَامُ فَيَقُولُ: قَدِ ابْتَلَيْتُ هَذَا بِأَشَدَّ مِنْ بَلَائِكَ فَلَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ عَنْ عِبَادَتِي. فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمَلِكِ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ الْغِنَى وَالسَّعَةِ فَيَقُولُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ: فَيَقُولُ: شَغَلَنِي الْمُلْكُ عَنْ ذَلِكَ. فَيُدْعَى بِسُلَيمَانَ عَلَيهِ السَّلَامُ فَيَقُولُ: هَذَا عَبْدِي سُلَيمَانُ آتَيْتُهُ أَكْثَرَ مَا آتَيْتُكَ فَلَمْ يَشْغَلْهُ ذَلِكَ عَنْ عِبَادَتِي اذْهَبْ فَلَا عُذْرَ لَكَ. وَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ**»(١) وعن معاذ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَنْ يَزُولَ قَدَمُ الْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ كَيْفَ عَمِلَ بِهِ**»(٢).

المسألة الثالثة: دلت الآية على إثبات صغائر وكبائر في الذنوب، وهذا متفق عليه بين المسلمين إلا أنهم اختلفوا في تفسيره: فقالت المعتزلة: الكبيرة ما يزيد عقابه على ثواب فاعله، والصغيرة ما ينقص عقابه عن ثواب فاعله. واعلم أن هذا الحد إنما يصح لو ثبت أن الفعل

---

(١) أورده أهل التفسير في كتبهم بغير إسناد.

(٢) **صحيح**: أخرجه الدارمي في كتاب (المقدمة) باب (من كره الشهرة والمعرفة) (١/ ١٢٩) حديث رقم/ ٥٣٩ وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢/ ٥٤٤) وقال: رواه الخطيب في (التاريخ) (١١/ ٤٤١) وهذا سند لا بأس به في الشواهد. رجاله ثقات غير عبد المجيد وصامت ففيهما ضعف. (قلت): وللحديث شاهد موصول من حديث أبي برزة الأسلمي. وأخرجه الترمذي في كتاب (صفة القيامة) باب (في القيامة) (٤/ ٦١٢) حديث رقم/ ٢٤١٧ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأبو برزة الأسلمي اسمه فضلة بن عبيد رضي الله عنه. وأورده الألباني في (الصحيحة) (٩٤٦).

يوجب ثوابًا وعقابًا، وذلك عندنا باطل لوجوه كثيرة ذكرناها في سورة البقرة، في إبطال القول بالإحباط والتكفير، بل الحق عندنا أن الطاعات محصورة في نوعين: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فكل ما كان أقوى في كونه جهلاً بالله كان أعظم في كونه كبيرة، وكل ما كان أقوى في كونه إضرارًا بالغير كان أكثر في كونه ذنبًا أو معصية، فهذا هو الضبط.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين، وهذه الآية المقصود من ذكرها عين هذا المعنى، وذلك لأن إبليس إنما تكبر على آدم لأنه افتخر بأصله ونسبه وقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فأنا أشرف منه في الأصل والنسب، فكيف أسجد وكيف أتواضع له؟! وهؤلاء المشركون عاملوا فقراء المسلمين بعين هذه المعاملة فقالوا: كيف نجلس مع هؤلاء الفقراء مع أنا من أنساب شريفة وهم من أنساب نازلة ونحن أغنياء وهم فقراء؟! فالله تعالى ذكر هذه القصة هاهنا تنبيهًا على أن هذه الطريقة هي بعينها طريقة إبليس، ثم إنه تعالى حذر عنها وعن الاقتداء بها في قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾. فهذا هو وجه النظم وهو حسن معتبر، وذكر القاضي وجهًا آخر فقال: إنه تعالى لما ذكر من قبل أمر القيامة وما يجري عند الحشر ووضع الكتاب، وكأن الله تعالى يريد أن يذكر هاهنا أنه ينادي المشركين ويقول لهم: أين شركائي الذي زعمتم؟ وكان قد علم تعالى أن إبليس هو الذي يحمل الإنسان على إثبات هؤلاء الشركاء، لا جرم قدم قصته في هذه الآية إتمامًا لذلك الغرض. ثم قال القاضي: وهذه القصة وإن كان تعالى قد كررها في سور كثيرة إلا أن في كل موضع منها فائدة مجددة.

المسألة الثانية: أنه تعالى بيَّن في هذه الآية أن إبليس كان من الجن، وللناس في هذه المسألة ثلاثة أقوال: **الأول:** أنه من الملائكة وكونه من الملائكة لا ينافي كونه من الجن ولهم فيه وجوه: الأول: أن قبيلة من الملائكة يسمون بذلك لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠]. والثاني: أن الجن سمُوا جنًّا للاستتار والملائكة كذلك

فهم داخلون في الجن. الثالث: أنه كان خازن الجنة ونُسب إلى الجنة كقولهم كوفي وبصري. وعن سعيد بن جبير أنه كان من الجنانين الذين يعملون في الجنات حي من الملائكة يصوغون حلية أهل الجنة مذ خُلقوا رُواه القاضي في تفسيره عن هشام عن سعيد بن جبير.

والقول الثاني: أنه من الجن الذين هم الشياطين والذين خُلقوا من نار وهو أبوهم.

والقول الثالث: قول من قال: كان من الملائكة فمُسِخ وغُير. وهذه المسألة قد أحكمناها في سورة البقرة.

وأصل ما يدل على أنه ليس من الملائكة أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلاً في هذه الآية وهو قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل، فوجب أن لا يكون إبليس من الملائكة.

بقي أن يقال: إن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود فلو لم يكن إبليس من الملائكة فكيف تناوله ذلك الأمر؟ وأيضًا لو لم يكن من الملائكة فكيف يصح استثناؤه منهم؟ وقد أجبنا عن كل ذلك بالاستقصاء.

ثم قال تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ وفي ظاهره إشكال لأن الفاسق لا يفسق عن أمر ربه، فلهذا السبب ذكروا فيه وجوهًا:

الأول: قال الفراء: ففسق عن أمر ربه، أي خرج عن طاعته. والعرب تقول: فسقت الرطبة من قشرها، أي خرجت، وسميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها من البابين وقال رؤبة:

يَـهْـوِيـنَ فِـي نَـجْـدٍ وَغَـوْرٍ غَـائِـرَا فَـوَاسِـقًـا عَـنْ قَـصْـدِهَـا جَـوَائِـرَا[1]

الثاني: حكى الزجاج عن الخليل وسيبويه أنه قال: لما أُمر فعصى كان سبب فسقه هو ذلك الأمر، والمعنى أنه لولا ذلك الأمر السابق لما حصل الفسق، فلأجل هذا المعنى حسن أن يقال: فسق عن أمر ربه. الثالث: قال قطرب: فسق عن أمر ربه رده كقوله واسأل القرية واسأل العير.

قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: المقصود من هذا الكلام أن إبليس تكبر على آدم وترفع عليه لما ادعى أن أصله أشرف من أصل آدم، فوجب أن يكون هو أشرف من آدم، فكأنه تعالى قال لأولئك الكافرين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بشرف نسبهم وعلو منصبهم: إنكم في هذا القول اقتديتم بإبليس في تكبره على آدم، فلما علمتم أن إبليس عدو لكم فكيف تقتدون به في هذه الطريقة المذمومة؟! هذا هو تقرير الكلام.

فإن قيل: إن هذا الكلام لا يتم إلا بإثبات مقدمات: فأولها: إثبات إبليس. وثانيها: إثبات ذرية إبليس. وثالثها: إثبات عداوة بين إبليس وذريته وبين أولاد آدم. ورابعها: أن هذا القول

---

(١) تقدمت ترجمته الشاعر رؤبة.

الذي قاله أولئك الكفار اقتدوا فيه بإبليس. وكل هذه المقدمات الأربعة لا سبيل إلى إثباتها إلا بقول النبي محمد ﷺ . فالجاهل بصدق النبي جاهل بها. إذا عرفت هذا فنقول: المخاطبون بهذه الآيات هل عرفوا كون محمد نبيًّا صادقًا أو ما عرفوا ذلك؟ فإن عرفوا كونه نبيًّا صادقًا قبلوا قوله في كل ما يقوله، فكلما نهاهم النبي ﷺ عن قول انتهوا عنه، وحينئذٍ فلا حاجة إلى قصة إبليس وإن لم يعرفوا كونه نبيًّا جهلوا كل هذه المقدمات الأربعة ولم يعرفوا صحتها، فحينئذٍ لا يكون في إيرادها عليهم فائدة.

والجواب: أن المشركين كانوا قد سمعوا قصة إبليس وآدم من أهل الكتاب واعتقدوا صحتها وعلموا أن إبليس إنما تكبر على آدم بسبب نسبه، فإذا أوردنا عليهم هذه القصة كان ذلك زاجرًا لهم عما أظهروه مع فقراء المسلمين من التكبر والترفع.

المسألة الثانية: قال الجبائي في هذه الآية دلالة على أنه تعالى لا يريد الكفر ولا يخلقه في العبد، إذ لو أراده وخلقه فيه ثم عاقبه عليه لكان ضرر إبليس أقل من ضرر الله عليهما، فكيف يوبخهم بقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ تعالى الله عنه علوًّا كبيرًا. بل على هذا المذهب لا ضرر البتة من إبليس بل الضرر كله من الله. والجواب: المعارضة بالداعي والعلم.

المسألة الثالثة: إنما قال للكفار المفتخرين بأنسابهم وأموالهم على فقراء المسلمين: أفتتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله؛ لأن الداعي لهم إلى ترك دين محمد ﷺ هو النخوة وإظهار العُجْب. فهذا يدل على أن كل من أقدم على عمل أو قول بناء على هذا الداعي فهو متبع لإبليس حتى أن من كان غرضه في إظهار العلم والمناظرة التفاخر والتكبر والترفع فهو مقتدٍ بإبليس، وهو مقام صعب غرق فيه أكثر الخلق، فنسأل الله الخلاص منه ثم قال تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بئس البدل من الله إبليس لمن استبدله به فأطاعه بدل طاعته.

ثم قال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ إلى من يعود؟ فيه وجوه: أحدها: - وهو الذي ذهب إليه الأكثرون - أن المعنى: ما أشهدت الذي اتخذتموهم أولياء خلق السماوات والأرض ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[النساء: ٦٦] يعني ما أشهدتهم لأعتضد بهم. والدليل عليه قوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي وما كنت متخذهم. فوضع الظاهر موضع المضمر بيانًا لإضلالهم. وقوله: ﴿عَضُدًا﴾ أي أعوانًا. وثانيها: -وهو أقرب عندي- أن الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول ﷺ إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء لم نؤمن بك. فكأنه تعالى قال: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم. بدليل قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والآخرة، بل هم قوم كسائر الخلق، فلمَ أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد؟ ونظيره أن من اقترح عليك اقتراحات عظيمة فإنك تقول له:

لست بسلطان البلد ولا ذرية المملكة حتى نقبل منك هذه الاقتراحات الهائلة، فلمَ تُقدم عليها؟! والذي يؤكد هذا أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات. وفي هذه الآية المذكورة الأقرب هو ذكر أولئك الكفار وهو قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ والمراد بالظالمين أولئك الكفار. وثالثها: أن يكون المراد من قوله: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ كون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به القلم في الأزل من أحوال السعادة والشقاوة فكأنه قيل لهم: السعيد من حكم الله بسعادته في الأزل والشقي من حكم الله بشقاوته في الأزل، وأنتم غافلون عن أحوال الأزل. كأنه تعالى قال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ وإذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم أن تحكموا لأنفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالدناءة والذل، بل ربما صار الأمر في الدنيا والآخرة على العكس فيما حكمتم به.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف) قرئ (وما كنت) بالفتح، والخطاب لرسول الله ﷺ، والمعنى: وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعتز بهم. وقرأ علي رضوان الله عليه: (متخذًا المضلين) بالتنوين على الأصل. وقرأ الحسن: (عُضْدًا) بسكون الضاد ونقل ضمتها إلى العين، وقرئ: (عَضْدًا) بالفتح وسكون الضاد (وعُضُدًا) بضمتين (وعَضَدًا) بفتحتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورصد، من عضده إذا قواه وأعانه.

واعلم أنه تعالى لما قرر أن القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء اقتداء بإبليس، عاد بعده إلى التهويل بأحوال يوم القيامة فقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ **وفيه أبحاث**:

البحث الأول: قرأ حمزة: (نَقُولُ) بالنون عطفًا على قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ و﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ و ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ والباقون قرأوا بالياء.

البحث الثاني: (واذكر يوم نقول) عطفًا على قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟﴾.

البحث الثالث: المعنى: واذكر لهم يا محمد أحوالهم وأحوال آلهتهم يوم القيامة إذ يقول الله لهم: ﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ﴾ أي ادعوا من زعمتم أنهم شركاء لي حيث أهلتموهم للعبادة، ادعوهم يشفعوا لكم وينصروكم. والمراد بالشركاء الجن فدعوهم، ولم يذكر تعالى في هذه الآية أنهم كيف دعوا الشركاء لأنه تعالى بَيَّن ذلك في آية أخرى وهو أنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ [غافر: ٤٧] ثم قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي لم يجيبوهم إلى ما دعوهم إليه ولم يدفعوا عنهم ضررًا وما أوصلوا إليهم نفعًا.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ **وفيه وجوه: الأول**: قال صاحب (الكشاف): الموبق: المهلك، من وبق يبق وبوقًا ووبقًا، إذا هلك، وأوبقه غيره، فيجوز أن يكون مصدرًا كالمورد والموعد، وتقرير هذا الوجه أن يقال: إن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة كالملائكة وعيسى - دعوا هؤلاء فلم يستجيبوا لهم ثم حيل بينهم وبينهم، فأدخل الله تعالى

هؤلاء المشركين جهنم وأدخل عيسى الجنة، وصار الملائكة إلى حيث أراد الله من دار الكرامة، وحصل بين أولئك الكفار وبين الملائكة وعيسى عليه السلام هذا الموبق وهو ذلك الوادي في جهنم. **الوجه الثاني:** قال الحسن: (مَوْبِقًا) أي عداوة والمعنى عداوة هي في شدتها هلاك. ومنه قوله: لا يكن حبك كلفًا، ولا بغضك تلفًا. **الوجه الثالث:** قال الفراء: البين: المواصلة أي جعلنا مواصلتهم في الدنيا هلاكًا في يوم القيامة. **الوجه الرابع:** الموبق: البرزخ البعيد أي جعلنا بين هؤلاء الكفار وبين الملائكة وعيسى برزخًا بعيدًا يهلك فيه الساري لفرط بعده، لأنهم في قعر جهنم وهم في أعلى الجنان.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ وفي هذا الظن قولان: الأول: أن الظن هاهنا بمعنى العلم واليقين. والثاني: - وهو الأقرب - أن المعنى أن هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد فيظنون أنهم مواقعوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة؛ لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها. كما قال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وقوله: ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي مخالطوها، فإن مخالطة الشيء لغيره إذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة. ثم قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي لم يجدوا عن النار معدلاً إلى غيرها لأن الملائكة تسوقهم إليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

اعلم أن أولئك الكفرة لما افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم، وبيّن تعالى بالوجوه الكثيرة أن قولهم فاسد وشبهتهم باطلة وذكر فيه المثلين المتقدمين، قال بعده: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ وهو إشارة إلى ما سبق، والتصريف يقتضي التكرير، والأمر كذلك لأنه تعالى أجاب عن شبهتهم التي ذكروها من وجوه كثيرة، ومع تلك الجوابات الشافية والأمثلة المطابقة فهؤلاء الكفار لا يتركون، المجادلة الباطلة فقال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل، وانتصاب قوله (جدلاً) على التمييز، قال بعض المحققين: والآية دالة على أن الأنبياء عليهم السلام جادلوهم في الدين حتى صاروا هم مجادلين لأن المجادلة لا تحصل إلا من الطرفين، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل.

ثم قال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ . وفيه بحثان:

البحث الأول: قالت المعتزلة: الآية دالة على أنه لم يوجد ما يمنع من الإقدام على الإيمان، وذلك يدل على فساد قول من يقول: إنه حصل المانع. قال أصحابنا: العلم بأنه لا يؤمن مضاد لوجود الإيمان. فإذا كان ذلك العلم قائمًا كان المانع قائمًا. وأيضًا حصول الداعي إلى الكفر قائم وإلا لما وجب؛ لأن الفعل الاختياري بدون الداعي محال، ووجود الداعي إلى الكفر مانع من حصول الإيمان. وإذا ثبت هذا ظهر أن المراد مقدار الموانع المحسوسة.

البحث الثاني: المعنى أنه لما جاءهم الهدى وهو الدليل الدال على صحة الإسلام، وثبت أنه لا مانع لهم من الإيمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة، والأعذار زائلة، فلمَ لم يقدموا على الإيمان؟! ثم قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهو عذاب الاستئصال ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ قرأ حمزة وعاصم والكسائي (قبلًا) بضم القاف والباء جميعًا وهو جمع قبيل بمعنى ضروب من العذاب تتواصل مع كونهم أحياء وقيل مقابلة وعيانًا، والباقون (قبلًا) بكسر القاف وفتح الباء أي عِيانًا أيضًا، وروى صاحب الكشاف (قبلًا) بفتحتين أي مستقبلًا. والمعنى أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا، واعلم أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا على هذين الشرطين؛ لأن العاقل لا يرضى بحصول هذين الأمرين إلا أن حالهم شبيه بحال من وقف العمل على هذين الشرطين، ثم بيَّن تعالى أنه إنما أرسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة ومنذرين بالعقاب على المعصية لكي يؤمنوا طوعًا، وبين مع هذه الأحوال أنه يوجد من الكفار المجادلة بالباطل لغرض دحض الحق. وهذا يدل على أن الأنبياء كانوا يجادلونهم لما بينا أن المجادلة إنما تحصل من الجانبين، وبيَّن تعالى أيضًا أنهم اتخذوا آيات الله وهي القرآن وإنذارات الأنبياء هزوًا، وكل ذلك يدل على استيلاء الجهل والقسوة. قال النحويون: (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ يجوز أن تكون موصولة ويكون العائد من الصلة محذوفًا، ويجوز أن تكون مصدرية بمعنى إنذارهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار جدالهم بالباطل، وَصَفهم بعده بالصفات الموجبة للخزي والخذلان.

الصفة الأولى: قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي لا ظلم أعظم مِن كفر من تَرِد عليه الآيات والبينات فيعرض عنها وينسى ما قدمت يداه، أي مع إعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ما قدمت يداه من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة، والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم.

الصفة الثانية: (قوله): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ وقد مر تفسير هذه الآية على الاستقصاء في سورة الأنعام، والعجب أن قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ متمسك القدرية، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ إلى آخر الآية متمسك الجبرية، وقلما نجد في القرآن آية لأحد هذين الفريقين إلا ومعها آية للفريق الآخر، والتجربة تكشف عن صدق قولنا، وما ذاك إلا امتحان شديد من الله تعالى ألقاه على عباده ليتميز العلماء الراسخون من المقلدين.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ الغفور: البليغ المغفرة، وهو إشارة إلى دفع المضار، ذو الرحمة: الموصوف بالرحمة، وإنما ذكر لفظ المبالغة في المغفرة لا في الرحمة، لأن المغفرة ترك الإضرار وهو تعالى قد ترك مضار لا نهاية لها مع كونه قادرًا عليها، أما فعل الرحمة فهو متناهٍ لأن ترك ما لا نهاية له ممكن، أما فعل ما لا نهاية له فمحال، ويمكن أن يقال: المراد أنه يغفر كثيرًا لأنه ذو الرحمة ولا حاجة به إليها فيهبها من المحتاجين كثيرًا، ثم استشهد بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلاً من غير إمهال مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ ثم قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو إما يوم القيامة، وإما في الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح (وقوله): ﴿لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ (أي) منجى ولا ملجأ، يقال: وأل، إذا لجأ، ووأل إليه إذا لجأ إليه.

ثم قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ يريد قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم، أشار إليها ليعتبروا، و(تلك) مبتدأ، والقرى صفة لأن أسماء الإشارة توصف بأصناف الأجناس و(أهلكناهم) خبر والمعنى: وتلك أصحاب القرى أهلكناهم لما ظلموا مثل ظلم أهل مكة ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي وضربنا لإهلاكهم وقتًا معلومًا لا يتأخرون عنه، كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر، والمهلك: الإهلاك أو وقته، وقرئ (لمهلكهم) بفتح الميم واللام مفتوحة أو مكسورة، أي لهلاكهم أو وقت هلاكهم، والموعد وقت أو مصدر، والمراد: إنا عجلنا هلاكهم ومع ذلك لم نَدَعْ أن نضرب له وقتًا ليكونوا إلى التوبة أقرب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ۝٦٢ قَالَ أَرَأَيْتَ

إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾

اعلم أن هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وهي أن موسى عليه السلام ذهب إلى الخضر عليه السلام ليتعلم منه العلم، وهذا وإن كان كلامًا مستقلاً في نفسه إلا أنه يُعِين على ما هو المقصود في القصتين السابقتين، أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه - ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضَع له، وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر، وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة: إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا. وهذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كونه نبيًا من عند الله تعالى أن يكون عالمًا بجميع القصص والوقائع، كما أن كون موسى عليه السلام نبيًا صادقًا من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه، فظهر مما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود في القصتين المتقدمتين.

المسألة الثانية: أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة. وعن سعيد بن جبير أنه قال لابن عباس: إن نوفًا ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس صاحب موسى بن عمران، وإنما هو صاحب موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، وقيل: هو كان نبيًا قبل موسى بن عمران فقال ابن عباس: كذب عدو الله[1]، واعلم أنه كان ليوسف عليه السلام ولدان أفرائيم وميشا فولد أفرائيم نون وولد نون يوشع بن نون وهو صاحب موسى وولي عهده بعد وفاته، وأما ولد ميشا فقيل: إنه جاءته النبوة قبل موسى بن عمران، ويزعم أهل التوراة أنه هو الذي طلب هذا العلم ليتعلم، والخضر هو الذي خرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، وموسى بن ميشا معه، هذا هو قول جمهور اليهود، واحتج القفال على صحة قولنا: إن موسى هذا هو صاحب التوراة، قال: إن الله تعالى ما ذكر موسى في كتابه إلا وأراد به صاحب التوراة، فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه، ولو كان المراد شخصًا آخر مسمى بموسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وإزالة الشبهة، كما أنه لما كان المشهور في العرف من أبي حنيفة رحمه الله هو الرجل المعين، فلو ذكرنا هذا الاسم وأردنا به رجلاً سواء، لقيدناه مثل أن نقول: قال أبو حنيفة الدينوري. وحجة

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (العلم) باب (ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم) (١/ ٥٦) حديث رقم/ ١٢٢ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٤٧/ ٢٣٨٠) كلاهما من طريق عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير... به.

الذين قالوا: موسى هذا غير صاحب التوراة أنه تعالى بعد أن أنزل التوراة عليه وكلمه بلا واسطة وحج خصمه بالمعجزات القاهرة العظيمة التي لم يتفق مثلها لأكثر أكابر الأنبياء - يبعد أن يبعثه بعد ذلك لتعلم الاستفادة. وأجيب عنه بأنه لا يبعد أن العالم الكامل في أكثر العلوم يجهل بعض الأشياء فيحتاج في تعلمها إلى من دونه، وهذا أمر متعارف معلوم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في فتى موسى: فالأكثرون على أنه يوشع بن نون، وروى القفال عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي هريرة عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ يقول: فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ[1]. **والقول الثاني**: أن فتى موسى أخو يوشع وكان صاحبًا لموسى عليه السلام في هذا السفر. **والقول الثالث**: روى عمرو بن عبيد عن الحسن في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ﴾ قال: يعني عبده، قال القفال: واللغة تحتمل ذلك، روى عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي»[2] وهذا يدل على أنهم كانوا يسمون العبد فتى والأمة فتاة.

المسألة الرابعة: قيل: إن موسى عليه السلام لما أعطي الألواح وكلمه الله تعالى قال: مَن الذي أفضل مني وأعلم؟ فقيل: عبد لله يسكن جزائر البحر وهو الخضر، وفي رواية أخرى أن موسى عليه السلام لما أوتي من العلم ما أوتي ظن أنه لا أحد مثله، فأتاه جبريل عليه السلام وهو بساحل البحر قال: يا موسى انظر إلى هذا الطير الصغير يهوي إلى البحر يضرب بمنقاره فيه ثم يرتفع، فأنت فيما أوتيت من العلم دون قدر ما يحمل هذا الطير بمنقاره من البحر. قال الأصوليون: هذه الرواية ضعيفة لأن الأنبياء يجب أن يعلموا أن معلومات الله لا نهاية لها وأن يعلموا أن معلومات الخلق يجب كونها متناهية، وكل قدر متناهٍ فإن الزائد عليه ممكن فلا مرتبة من مراتب العلم إلا وفوقها مرتبة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] وإذا كانت هذه المقدمات معلومة، فمن المستبعد جدًّا أن يقطع العاقل بأنه لا أحد أعلم مني، لا سيما موسى عليه السلام مع علمه الوافر بحقائق الأشياء وشدة براءته عن الأخلاق الذميمة كالعُجْب والتيه والصلف. والرواية الثالثة: قِيلَ: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ سَأَلَ رَبَّهُ: أَيُّ عِبَادِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُنِي وَلاَ يَنْسَانِي. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَقْضَى؟ قَالَ: الَّذِي يَقْضِي بِالْحَقِّ وَلاَ يَتَّبِعُ الْهَوَى. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: الَّذِي يَبْتَغِي عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ عَسَى أَنْ يُصِيبَ كَلِمَةً تَدُلُّهُ عَلَى هُدًى أَوْ تَرُدُّهُ عَنْ رَدًى، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ: إِنْ كَانَ فِي عِبَادِكَ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (فلما جاوزا قال لفتاه آتنا عداءنا...) (٤/ ١٧٥٧) حديث رقم/ ٤٤٥٠ من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد) (٢/ ٢٩٩) حديث رقم/ ٢١٠. وأبو داود في كتاب (الأدب) باب (لايقول المملوك ربي وربتي) (٤/ ٢١١٩) حديث رقم/ ٤٩٧٥ والإمام أحمد في (مسنده) (٢/ ٤٢٣/ ٤٩١/ ٥٠٨) جميعًا من طريق محمد بن سيرين... به. وأورده الشيخ الألباني في (الصحيحة) (٢/ ٣٦٨).

مِنِّي فَادْلُلْنِي عَلَيْهِ. فَقَالَ: أَعْلَمُ مِنْكَ الْخَضِرُ. قَالَ: فَأَيْنَ أَطْلُبُهُ؟ قَالَ: عَلَى السَّاحِلِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ. قَالَ يَا رَبِّ: كَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ فَحَيْثُ فَقَدْتَهُ فَهُوَ هُنَاكَ. فَقَالَ لِفَتَاهُ: إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَأَخْبِرْنِي. فَذَهَبَا يَمْشِيَانِ وَرَقَدَ مُوسَى وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ وَطَفَرَ إِلَى الْبَحْرِ، فَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الْغَدَاءِ طَلَبَ مُوسَى الْحُوتَ فَأَخْبَرَهُ فَتَاهُ بِوُقُوعِهِ فِي الْبَحْرِ، فَرَجَعَ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي طَفَرَ الْحُوتُ فِيهِ إِلَى الْبَحْرِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوْبِهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ! فَعَرَّفَهُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: يَا مُوسَى أَنَا عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَنِي اللَّهُ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَ اللَّهُ لاَ أَعْلَمُهُ أَنَا. فَلَمَّا رَكِبَا السَّفِينَةَ جَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِهَا فَنَقَرَ فِي الْمَاءِ فَقَالَ الْخَضِرُ: مَا يَنْقُصُ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مِقْدَارَ مَا أَخَذَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنَ الْبَحْرِ [(١)].

أقول نسبة ذلك القدر القليل الذي أخذه ذلك العصفور من ذلك الماء إلى كلية ماء البحر نسبة متناهٍ إلى متناهٍ، ونسبة معلومات جميع المخلوقات إلى معلومات الله تعالى نسبة متناهٍ إلى غير متناهٍ، فأين إحدى النسبتين من الأخرى والله العالم بحقائق الأمور.

ونرجع إلى التفسير، أما قوله تعالى: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ قال الزجاج قوله: ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ ليس معناه لا أزول؛ لأنه لو كان كذلك لم يقطع أرضًا. أقول يمكن أن يجاب عنه بأن الزوال عن الشيء عبارة عن تركه والإعراض عنه، يقال: زال فلان عن طريقته في الجود، أي تركها، فقوله: (لا أبرح) بمعنى لا أزول عن السير والذهاب، بمعنى لا أترك هذا العمل وهذا الفعل. وأقول: المشهور عند الجمهور أن قوله (لا أبرح) معناه لا أزول، والعرب تقول: لا أبرح ولا أزال ولا أنفك ولا أفتأ بمعنى واحد. قال القفال: وقالوا: أصل قولهم (لا أبرح) من البراح كما أن أصل لا أزال من الزوال. يقال: زال يزال ويزول كما يقال دام يدام ويدوم ومات يمات ويموت، إلا أن المستعمل في هذه اللفظة (يزال) فقوله: (لا أبرح) أي أقيم لأن البراح هو العدم فقوله لا أبرح يكون عدمًا للعدم فيكون ثبوتًا، فقوله: لا أزال ولا أبرح يفيد الدوام والثبات على العمل. فإن قيل: إذا كان قوله (لا أبرح) بمعنى لا أزال فلا بد من الخبر. قلنا: حذف الخبر لأن الحال والكلام يدلان عليه، أما الحال فلأنها كانت حال سفر، وأما الكلام فلأن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ غاية مضروبة تستدعي شيئًا هي غاية له فيكون المعنى (لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين) ويحتمل أن يكون المعنى لا أبرح مما أنا عليه، يعني ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ. كما تقول: لا أبرح المكان. وأما مجمع البحرين فهو المكان الذي وُعد فيه موسى بلقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق وقيل غيره، وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين البحرين، فإن صح بالخبر الصحيح شيء

(١) تقدم قريبا.

فذاك وإلا فالأولى السكوت عنه، ومن الناس من قال: البحران موسى والخضر لأنهما كانا بحري العلم. وقرئ: (مجمِع) بكسر الميم.

ثم قال: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أي أسير زمانًا طويلاً وقيل: الحقب: ثمانون سنة. وقد تكلمنا في هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾[النبأ: ٢٣] وحاصل الكلام أن الله عز وجل كان أعلم موسى حال هذا العالم، وما أعلمه موضعه بعينه، فقال موسى عليه السلام: لا أزال أمضي حتى يجتمع البحران فيصيرا بحرًا واحدًا أو أمضي دهرًا طويلاً حتى أجد هذا العالم. وهذا إخبار من موسى بأنه وطَّن نفسه على تحمُّل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر لأجل طلب العلم، وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحق له ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ والمعنى فانطلقا إلى أن بلغا مجمع بينهما، والضمير في قوله (بينهما) إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: مجمع بينهما أي مجمع البحرين، وهو كأنه إشارة إلى (قَوْلِ) موسى (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين) أي فحقق (اللَّهُ) ما قاله. والقول الثاني: أن المعنى: فلما بلغ الموضع الذي يجتمع (فِيهِ) موسى وصاحبه الذي كان يقصده لأن ذلك الموضع الذي وقع فيه نسيان الحوت هو الموضع الذي كان يسكنه الخضر أو يسكن بقربه، ولأجل هذا المعنى لما رجع موسى وفتاه بعد أن ذكر الحوت صار إليه. وهو معنى حسن، والمفسرون على القول الأول.

ثم قال تعالى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وفيه مباحث:

البحث الأول: الروايات تدل على أنه تعالى بَيَّن لموسى عليه السلام أن هذا العالم موضعه مجمع البحرين، إلا أنه تعالى جعل انقلاب الحوت حيًّا علامة على مسكنه المعين. كمن يطلب إنسانًا فيقال له: إن موضعه محلة كذا من الري فإذا انتهيت إلى المحلة فسل فلانًا عن داره وأين ما ذهب بك فاتبعه فإنك تصل إليه. فكذا ههنا قيل له: إن موضعه مجمع البحرين فإذا وصلت إليه رأيت الحوت انقلب حيًّا وطفر إلى البحر، فيحتمل أنه قيل له: فهنالك موضعه. ويحتمل أنه قيل له: فاذهب على موافقة ذهاب ذلك الحوت فإنك تجده.

إذا عرفت هذا فنقول: إن موسى وفتاه لما بلغا مجمع بينهما طفرت السمكة إلى البحر وسارت، وفي كيفية طفرها روايات أيضًا: قيل: إن الفتى كان يغسل السمكة لأنها كانت مملحة فطفرت وسارت. وقيل: إن يوشع توضأ في ذلك المكان فانتضح الماء على الحوت المالح فعاش ووثب في الماء. وقيل: انفجر (ت) هناك عين من الجنة ووصلت قطرات من تلك العين إلى السمكة فحييت وطفرت إلى البحر. فهذا هو الكلام في صفة الحوت.

البحث الثاني: المراد من قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أنهما نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول إلى المطلوب، فإن قيل: انقلاب السمكة المالحة حية حالة عجيبة فلما جعل الله حصول هذه الحالة العجيبة دليلاً على الوصول إلى المطلوب، فكيف يعقل

حصول النسيان في هذا المعنى؟

أجاب العلماء عنه بأن يوشع كان قد شاهد المعجزات القاهرة من موسى عليه السلام كثيرًا، فلم يبق لهذه المعجزة عنده وقع عظيم، فجاز حصول النسيان. وعندي فيه جواب آخر وهو أن موسى عليه السلام لما استعظم علم نفسه أزال الله عن قلب صاحبه هذا العلم الضروري تنبيهًا لموسى عليه السلام على أن العلم لا يحصل إلا بتعليم الله وحفظه على القلب والخاطر.

أما قوله: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ **ففيه وجوه. الأول:** أن يكون التقدير: سرب في البحر سربًا إلا أنه أقيم قوله (فاتخذ) مقام قوله (سرب) والسرب هو الذهاب ومنه قوله: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. الثاني: أن الله تعالى أمسك إجراء الماء على البحر وجعله كالطاق والكوة حتى سرى الحوت فيه، فلما جاوز أي موسى وفتاه الموعد المعين وهو الوصول إلى الصخرة بسبب النسيان المذكور وذهبا كثيرًا وتعبا وجاعا: ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال الفتى: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ الهمزة في (أرأيت) همزة الاستفهام ورأيت على معناه الأصلي، وقد جاء هذا الكلام على ما هو المتعارف بين الناس فإنه إذا حدث لأحدهم أمر عجيب قال لصاحبه: أرأيت ما حدث لي؟ كذلك هاهنا كأنه قال: أرأيت ما وقع لي منه إذ أوينا إلى الصخرة؟ فحذف مفعول (أرأيت) لأن قوله: ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ يدل عليه.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ **وفيه مباحث:**

البحث الأول: أنه اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير: فإني نسيت الحوت واتخذ سبيله في البحر عجبًا، والسبب في وقوع هذا الاعتراض ما يجري مجرى العذر والعلة لوقوع ذلك النسيان.

البحث الثاني: قال الكعبي: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ يدل على أنه تعالى ما خلق ذلك النسيان وما أراده، وإلا كانت إضافته إلى الله تعالى أوجب من إضافته إلى الشيطان لأنه تعالى إذا خلقه فيه لم يكن لسعي الشيطان في وجوده ولا في عدمه - أثر. قال القاضي: والمراد بالنسيان أن يشتغل قلب الإنسان بوساوسه التي هي من فعله دون النسيان الذي يضاد الذكر؛ لأن ذلك لا يصح أن يكون إلا من قبل الله تعالى.

البحث الثالث: قوله ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدل من الهاء في ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾ أي: وما أنساني ذكره إلا الشيطان.

ثم قال: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ **وفيه وجوه: الأول:** أن قوله (عجبًا) صفة لمصدر محذوف كأنه قيل واتخذ سبيله في البحر اتخاذًا عجبًا. ووجه كونه عجبًا انقلابه من المكتل وصيرورته حيًّا وإلقاء نفسه في البحر على غفلة منهما. **والثاني:** أن يكون المراد منه ما ذكرنا أنه تعالى جعل الماء عليه كالطاق وكالسرب. **الثالث:** قيل: إنه تم الكلام عند قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ ثم قال بعده: (عجبًا) والمقصود منه تعجبه من تلك العجيبة التي رآها ومن نسيانه لها. وقيل: إن قوله

(عجبًا) حكاية لتعجب موسى وهو ليس بقوله.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي قال موسى: ذلك الذي كنا نطلبه لأنه أمارة الظفر بالمطلوب وهو لقاء الخضر. وقوله: (نبغ) أصله نبغي فحذفت الياء طلبًا للتخفيف لدلالة الكسرة عليه، وكان القياس أن لا يحذف لأنهم إنما يحذفون الياء في الأسماء وهذا فعل، إلا أنه قد يجوز على ضعف القياس حذفها لأنها تحذف مع الساكن الذي يكون بعدها كقولك ما نبغي اليوم؟ فلما حذفت مع الساكن حذفت أيضًا مع غير الساكن. ثم قال فارتدا على آثارهما أي فرجعا.

وقوله: ﴿قَصَصًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه مصدر في موضع الحال، أي رجعا على آثارهما مقتصين آثارهما.

والثاني: أن يكون مصدرًا لقوله (فارتدا على آثارهما)، لأن معناه فاقتصا على آثارهما.

وحاصل الكلام أنهما لما عرفا أنهما تجاوزا عن الموضع الذي يسكن فيه ذلك العالم، رجعا وعادا إليه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: **قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فيه بحثان:**

البحث الأول: قال الأكثرون إن ذلك العبد كان نبيًا واحتجوا عليه بوجوه: **الأول:** أنه تعالى قال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ والرحمة هي النبوة بدليل قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] والمراد من هذه الرحمة: النبوة. ولقائل أن يقول: نسلم أن النبوة رحمة، أما لا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا يقتضي أنه تعالى علّمه لا بواسطة تعليم معلم ولا إرشاد مرشد، وكل من علّمه الله لا بواسطة البشر وجب أن يكون نبيًا يعلم الأمور بالوحي من الله. وهذا الاستدلال ضعيف لأن العلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله، وذلك لا يدل على النبوة.

الحجة الثالثة: أن موسى عليه السلام قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ [الكهف: ٦٦] والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم. وهذا أيضًا ضعيف؛ لأن النبي لا يتبع غير النبي في العلوم التي باعتبارها صار نبيًّا أما في غير تلك العلوم فلا.

الحجة الرابعة: أن ذلك العبد أظهر الترفع على موسى حيث قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ وأما موسى فإنه أظهر التواضع له حيث قال: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ وكل ذلك يدل على أن ذلك العالم كان فوق موسى، ومن لا يكون نبيًّا لا يكون فوق النبي.

وهذا أيضًا ضعيف لأنه يجوز أن يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف نبوته عليها. فلمَ قلتم: إن ذلك لا يجوز؟ فإن قالوا: لأنه يوجب التنفير. قلنا: فارسال موسى إلى التعلم منه بعد إنزال الله عليه التوراة وتكليمه بغير واسطة - يوجب التنفير. فإن قالوا: إن هذا لا يوجب التنفير. فكذا القول فيما ذكروه.

الحجة الخامسة: احتج الأصم على نبوته بقوله في أثناء القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] ومعناه فعلته بوحي الله، وهو يدل على النبوة. وهذا أيضًا دليل ضعيف وضَعْفه ظاهر.

الحجة السادسة: ما روي أن موسى عليه السلام لما وصل إليه قال: السلام عليك. فقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل. فقال موسى عليه السلام: من عرفك هذا؟ قال: الذي بعثك إليَّ. قالوا: وهذا يدل على أنه إنما عرف ذلك بالوحي والوحي لا يكون إلا مع النبوة، ولقائل أن يقول: لمَ لا يجوز أن يكون ذلك من باب الكرامات والإلهامات؟

البحث الثاني: قال الأكثرون: إن ذلك العبد هو الخضر، وقالوا: إنما سمي بالخضر لأنه كان لا يقف موقفًا إلا أخضر ذلك الموضع، قال الجبائي: قد ظهرت الرواية أن الخضر إنما بُعث بعد موسى عليه السلام من بني إسرائيل. فإن صح ذلك لم يجز أن يكون هذا العبد هو الخضر. وأيضًا: فبتقدير أن يكون هذا العبد هو الخضر، وقد ثبت أنه يجب أن يكون نبيًّا، فهذا يقتضي أن يكون الخضر أعلى شأنًا من موسى صاحب التوراة، لأنا قد بينا أن الألفاظ المذكورة في هذه الآيات تدل على أن ذلك كان يترفع على موسى، وكان موسى يُظهر التواضع له إلا أن كون الخضر أعلى شأنًا من موسى غير جائز لأن الخضر إما أن يقال إنه كان من بني إسرائيل أو ما كان من بني إسرائيل: فإن قلنا: إنه كان من بني إسرائيل (فقد) كان من أمة موسى لقوله تعالى: حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال لفرعون: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧] والأمة لا تكون أعلى حالاً من النبي، وإن قلنا: إنه ما كان من بني إسرائيل. لم يجز أن يكون أفضل من موسى لقوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] وهذه الكلمات تقوي قول من يقول: إن موسى هذا غير موسى صاحب التوراة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يفيد أن تلك العلوم حصلت عنده من عند الله من غير واسطة، والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات العلوم اللدنية، وللشيخ أبي

حامد الغزالي رسالة في إثبات العلوم اللدنية.

وأقول: تحقيق الكلام في هذا الباب أن نقول: إذا أدركنا أمرًا من الأمور وتصورنا حقيقة من الحقائق، فإما أن نحكم عليه بحكم وهو التصديق أو لا نحكم وهو التصور، وكل واحد من هذين القسمين فإما أن يكون نظريًا حاصلاً من غير كسب وطلب، وإما أن يكون كسبيًا، أما العلوم النظرية فهي تحصل في النفس والعقل من غير كسب وطلب، مثل تصورنا الألم واللذة، والوجود والعدم، ومثل تصديقنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان، وأن الواحد نصف الاثنين. وأما العلوم الكسبية فهي التي لا تكون حاصلة في جوهر النفس ابتداء بل لا بد من طريق يتوصل به إلى اكتساب تلك العلوم، وهذا الطريق على قسمين: أحدهما: أن يتكلف الإنسان تركب تلك العلوم البديهية النظرية حتى يتوصل بتركبها إلى استعلام المجهولات. وهذا الطريق هو المسمى بالنظر والتفكر والتدبر والتأمل والتروي والاستدلال، وهذا النوع من تحصيل العلوم هو الطريق الذي لا يتم إلا بالجهد والطلب. والنوع الثاني: أن يسعى الإنسان بواسطة الرياضات والمجاهدات في أن تصير القوى الحسية والخيالية ضعيفة، فإذا ضعفت قويت القوة العقلية وأشرقت الأنوار الإلهية في جوهر العقل، وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في التفكر والتأمل، وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية.

إذا عرفت هذا فنقول: جواهر النفس الناطقة مختلفة بالماهية: فقد تكون النفس نفسًا مشرقة نورانية إلهية علوية قليلة التعلق بالجواذب البدنية والنوازع الجسمانية، فلا جرم كانت أبدًا شديدة الاستعداد لقبول الجلايا القدسية والأنوار الإلهية، فلا جرم فاضت عليها من عالم الغيب تلك الأنوار على سبيل الكمال والتمام، وهذا هو المراد بالعلم اللدني وهو المراد من قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وأما النفس التي ما بلغت في صفاء الجوهر وإشراق العنصر، فهي النفس الناقصة البليدة التي لا يمكنها تحصيل المعارف والعلوم إلا بمتوسط بشري يحتال في تعليمه وتعلمه، والقسم الأول بالنسبة إلى القسم الثاني كالشمس بالنسبة إلى الأضواء الجزئية وكالبحر بالنسبة إلى الجداول الجزئية وكالروح الأعظم بالنسبة إلى الأرواح الجزئية. فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ، ووراءه أسرار لا يمكن ذكرها في هذا الكتاب.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ . **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو ويعقوب (رَشَدًا) بفتح الراء والشين، وعن ابن عباس رضي الله عنهما بضم الراء والشين، والباقون بضم الراء وتسكين الشين، قال القفال: وهي لغات في معنى واحد، يقال: رَشَد ورُشْد مثل نَكَر ونُكر، كما يقال سَقَم وسُقْم وشَغَل وشُغْل وبَخَل وبُخْل وعَدَم وعُدْم. وقوله ﴿رُشْدًا﴾ أي علمًا ذا رشد، قال القفال: قوله: ﴿رُشْدًا﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الرشد راجعًا إلى الخضر، أي مما علمك الله وأرشدك به. والثاني: أن يرجع ذلك إلى موسى ويكون المعنى: على أن تعلمني وترشدني مما علمت.

المسألة الثانية: اعلم أن هذه الآيات تدل على أن موسى عليه السلام راعى أنواعًا كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر: **فاحدها**: أنه جعل نفسه تبعًا له لأنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾. **وثانيها**: أن استأذن في إثبات هذا التبعية فإنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعًا لك؟ وهذا مبالغة عظيمة في التواضع. **وثالثها**: أنه قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ وهذا إقرار له على نفسه بالجهل وعلى أستاذه بالعلم. **ورابعها**: أنه قال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ وصيغة (مِن) للتبعيض فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضًا مُشعر بالتواضع كأنه يقول له: لا أطلب منك أن تجعلني مساويًا في العلم لك، بل أطلب منك أن تعطيني جزءًا من أجزاء علمك، كما يطلب الفقير من الغني أن يدفع إليه جزءاً من أجزاء ماله. **وخامسها**: أن قوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم. **وسادسها**: أن قوله: ﴿رُشْدًا﴾ طلب منه للإرشاد والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال. **وسابعها**: أن قوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك عليَّ عند هذا التعليم شبيهًا بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم؛ ولهذا المعنى قيل: أنا عبد من تعلمت منه حرفًا. **وثامنها**: أن المتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير لأجل كونه فعلاً لذلك الغير، فإنا إذا قلنا: (لا إله إلا الله) فاليهود الذين كانوا قبلنا كانوا يذكرون هذه الكلمة فلا يجب كوننا متبعين لهم في ذكر هذه الكلمة، لأنا لا نقول هذه الكلمة لأجل أنهم قالوها، بل إنما نقولها لقيام الدليل على أنه يجب ذكرها، أما إذا أتينا بهذه الصلوات الخمس على موافقة فعل رسول الله ﷺ فإنما أتينا بها لأجل أنه عليه السلام أتى بها، لا جرم كنا متابعين في فعل هذه الصلوات لرسول الله ﷺ. إذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على أنه يأتي بمثل أفعال ذلك الأستاذ لمجرد كون ذلك الأستاذ آتيًا بها. وهذا يدل على أن المتعلم يجب عليه في أول الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض. **وتاسعها**: أن قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقًا في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء. **وعاشرها**: أنه ثبت بالإخبار أن الخضر عرف أولاً أنه نبي بني إسرائيل، وأنه هو موسى صاحب التوراة وهو الرجل الذي كلمه الله عز وجل من غير واسطة، وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة – أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيًا في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر، فكان طلبه لها أشد وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد. **والحادي عشر**: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فأثبت كونه تبعًا له أولاً ثم طلب ثانيًا أن يعلمه، وهذا منه ابتداء بالخدمة ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم. **والثاني عشر**: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئًا، كانه قال: لا أطلب منك على هذه

المتابعة المال والجاه ولا غرض لي إلا طلب العلم.

ثم إنه تعالى حكى عن الخضر أنه قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن المتعلم على قسمين: متعلم ليس عنده شيء من العلم ولم يمارس القيل والقال ولم يتعود التقرير والاعتراض، ومتعلم حصَّل العلوم الكثيرة ومارس الاستدلال والاعتراض. ثم إنه يريد أن يخالط إنسانًا أكمل منه ليبلغ درجة التمام والكمال والتعلم، فهذا القسم الثاني شاق شديد، وذلك لأنه إذا رأى شيئًا أو سمع كلامًا فربما كان ذلك بحسب الظاهر منكرًا إلا أنه كان في الحقيقة حقًّا صوابًا، فهذا المتعلم لأجل أنه ألف القيل والقال وتعوَّد الكلام والجدال - يغتر ظاهره ولأجل عدم كماله لا يقف على سره وحقيقته، وحينئذٍ يُقْدم على النزاع والاعتراض والمجادلة، وذلك مما يثقل سماعه على الأستاذ الكامل المتبحر، فإذا اتفق مثل هذه الواقعة مرتين أو ثلاثة حصلت النفرة التامة والكراهة الشديدة، وهذا هو الذي أشار إليه الخضر بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ إشارة إلى أنه ألف الكلام وتعوَّد الإثبات والإبطال والاستدلال والاعتراض، وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ إشارة إلى كونه غير عالم بحقائق الأشياء كما هي، وقد ذكرنا أنه متى حصل الأمران صعب السكوت وعسر التعليم، وانتهى الأمر بالآخرة إلى النفرة والكراهية وحصول التقاطع والتنافر.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ على أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل. قالوا: لو كانت الاستطاعة على الفعل حاصلة قبل حصول الفعل، لكانت الاستطاعة على الصبر حاصلة لموسى عليه السلام قبل حصول الصبر، فيلزم أن يصير قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ كذبًا، ولما بطل ذلك علمنا أن الاستطاعة لا توجد قبل الفعل.

أجاب الجبائي عنه: أن المراد من هذا القول أنه يثقل عليه الصبر لا أنه لا يستطيعه، يقال في العرف: (إن فلانًا لا يستطيع أن يرى فلانًا و(لاَ) أن يجالسه) إذا كان يثقل عليه ذلك. ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠] أي كان يشق عليهم الاستماع. فيقال له: هذا عدول عن الظاهر من غير دليل وإنه لا يجوز. وأقول: مما يؤكد هذا الاستدلال الذي ذكره الأصحاب قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ استبعد حصول الصبر على ما لم يقف الإنسان على حقيقته، ولو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكانت القدرة على العلم حاصلة قبل حصول ذلك العلم، ولو كان كذلك لما كان حصول الصبر عند عدم ذلك العلم مستبعدًا، لأن القادر على الفعل لا يبعد منه إقدامه على ذلك الفعل، ولما حكم الله باستبعاده علمنا أن الاستطاعة لا تحصل قبل الفعل.

ثم حكى الله تعالى عن موسى أنه قال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: احتج الطاعنون في عصمة الله الأنبياء بهذه الآية فقالوا: إن الخضر قال

لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ وكل واحد من هذين القولين يُكذب الآخر، فيلزم إلحاق الكذب بأحدهما، وعلى التقديرين فيلزم صدور الكذب عن الأنبياء عليهم السلام، والجواب أن يُحمل قوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ على الأكثر الأغلب، وعلى هذا التقدير فلا يلزم ما ذكروه.

المسألة الثانية: لفظة (إن كان كذا) تفيد الشك فقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معناه ستجدني صابرًا إن شاء الله كوني صابرًا، وهذا يقتضي وقوع الشك في أن الله هل يريد كونه صابرًا أم لا. ولا شك أن الصبر في مقام التوقف واجب، فهذا يقتضي أن الله تعالى قد لا يريد من العبد ما أوجبه عليه، وهذا يدل على صحة قولنا: إن الله تعالى قد يأمر بالشيء مع أنه لا يريده. قالت المعتزلة: هذه الكلمة إنما تُذكر رعاية للأدب فيما يريد الإنسان أن يفعله في المستقبل. فيقال لهم: هذا الأدب إن صح معناه فقد ثبت المطلوب، وإن فسد فأي أدب في ذكر هذا الكلام الباطل؟

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ يدل على أن ظاهر الأمر يفيد الوجوب؛ لأن تارك المأمور به عاص بدلالة هذه الآية، والعاصي يستحق العقاب لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣] وهذا يدل على أن ظاهر الأمر يفيد الوجوب.

المسألة الرابعة: قول الخضر لموسى عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ نسبة إلى قلة العلم والخبر، وقول موسى له: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ تواضع شديد وإظهار للتحمل التام والتواضع الشديد، وكل ذلك يدل على أن الواجب على المتعلم إظهار التواضع بأقصى الغايات، وأما المعلم فإن رأى أن في التغليظ على المتعلم ما يفيده نفعًا وإرشادًا إلى الخير، فالواجب عليه ذكره، فإن السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم.

ثم قال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي لا تستخبرني عما تراه مني مما لا تعلم وجهه حتى أكون أنا المبتدئ لتعليمك إياه وإخبارك به، وفي قراءة ابن عامر (فلا تسألَنّ) محركة اللام مشددة النون بغير ياء. وروى عنه (لا تسألني) مثقلة مع الياء وهي قراءة نافع، وفي قراءة الباقين (لا تسألْنِ) خفيفة والمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

اعلم أن موسى وذلك العالم لما تشارطا على الشرط المذكور وسارا، فانتهيا إلى موضع احتاجا فيه إلى ركوب السفينة فركباها، وأقدم ذلك العالم على خرق السفينة، وأقول: لعله أقدم

على خرق جدار السفينة لتصير السفينة بسبب ذلك الخرق معيبة ظاهرة العيب فلا يتسارع الغرق إلى أهلها، فعند ذلك قال موسى له: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ **وفيه بحثان:**

البحث الأول: قرأ حمزة والكسائي: (لِيَغْرَقَ أَهْلُهَا) بفتح الياء على إسناد الغرق إلى الأهل، والباقون (لتُغرق أهلها) على الخطاب، والتقدير: لتغرق أنت أهل هذه السفينة.

البحث الثاني: أن موسى عليه السلام لما شاهد ذلك الأمر المنكر بحسب الظاهر - نسي الشرط المتقدم فلهذا المعنى قال ما قال.

واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجهين: الأول: أنه ثبت بالدليل أن ذلك العالم كان من الأنبياء، ثم قال موسى عليه السلام: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ فإن صدق موسى في هذا القول دل ذلك على صدور الذنب العظيم عن ذلك النبي، وإن كذب دل على صدور الكذب عن موسى عليه السلام. **الثاني:** أنه التزم أن لا يعترض على ذلك العالم، وجرت العهود المؤكدة لذلك، ثم إنه خالف تلك العهود وذلك ذنب.

والجواب عن الأول: أنه لما شاهد موسى عليه السلام منه الأمر الخارج عن العادة قال هذا الكلام، لا لأجل أنه اعتقد فيه أنه فعل قبيحًا، بل لأنه أحب أن يقف على وجهه وسببه، وقد يقال في الشيء العجيب الذي لا يُعرف سببه: إنه إمر يقال أَمِر الأمر، إذا عظُم وقال الشاعر:

داهِـــيَــــةً دَهْـــيَـــاءَ

وعلى الثاني: أنه فعل بناء على النسيان. ثم إنه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه لما خالف الشرط لم يزد على أن قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فعند هذا اعتذر موسى عليه السلام بقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي بشيء: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ يقال: رهقه، إذا غشيه، وأرهقه إياه، أي ولا تغشني من أمري عسرًا، وهو اتباعه إياه، يعني ولا تُعسر عليّ متابعتك ويسِّرها عليّ بالإغضاء وترك المناقشة، وقرئ: (عُسُرًا) بضمتين.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

اعلم أن لفظ الغلام قد يتناول الشاب البالغ، بدليل أنه يقال: (رأيُ الشيخ خير من مشهد الغلام) جعل الشيخ نقيضًا للغلام، وذلك يدل على أن الغلام هو الشاب، وأصله من الاغتلام وهو شدة الشبق، وذلك إنما يكون في الشباب، وأما تناول هذا اللفظ للصبي الصغير فظاهر.

وليس في القرآن كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان الصبيان أو كان منفردًا؟ وهل كان مسلمًا أو كان كافرًا؟ وهل كان منعزلاً؟ وهل كان بالغًا أو كان صغيرًا؟ وكان اسم الغلام بالصغير أليق وإن احتمل الكبير إلا أن قوله: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أليق بالبالغ منه بالصبي؛ لأن الصبي

لا يُقتل وإن قتل، وأيضًا فهل قَتَله بأن حز رأسه أو بأن ضرب رأسه بالجدار أو بطريق آخر؟ فليسَ في لفظ القرآن ما يدل على شيء من هذه الأقسام.

فعند هذا قال موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ **وفيه مباحث:**

البحث الأول: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (زاكية) بالألف والباقون (زكية) بغير ألف، قال الكسائي: الزاكية والزكية لغتان ومعناهما: الطاهرة. وقال أبو عمرو: (الزاكية) التي لم تذنب و(الزكية) التي أذنبت ثم تابت.

البحث الثاني: ظاهر الآية يدل على أن موسى عليه السلام استبعد أن يقتل النفس إلا لأجل القصاص بالنفس، وليس الأمر كذلك لأنه قد يحل دمه بسبب من الأسباب، وجوابه أن السبب الأقوى هو ذلك.

البحث الثالث: النكر أعظم من الإمر في القبح، وهذا إشارة إلى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة لأن ذلك ما كان إتلافًا للنفس لأنه كان يمكن أن لا يحصل الغرق، أما هاهنا حصل الإتلاف قطعًا فكان أنكر. وقيل: إن قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي عجبًا والنكر أعظم من العجب، وقيل: النكر ما أنكرته العقول ونفرت عنه النفوس، فهو أبلغ في تقبيح الشيء من الإمر، ومنهم من قال: الإمر أعظم. قال: لأن خرق السفينة يؤدي إلى إتلاف نفوس كثيرة وهذ القتل ليس إلا إتلاف شخص واحد، وأيضًا الإمر هو الداهية العظيمة فهو أبلغ من النكر. وأنه تعالى حكى عن ذلك العالم أنه ما زاد على أن ذكره ما عاهده عليه فقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وهذا عين ما ذكره في المسألة الأولى إلا أنه زاد هاهنا لفظة (لك) لأن هذه اللفظة تؤكد التوبيخ، فعند هذا قال موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ مع العلم بشدة حرصه على مصاحبته، وهذا كلامُ نادم شديد الندامة، ثم قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ والمراد منه أنه يمدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين أولاً وثانيًا، مع قرب المدة.

وبقي مما يتعلق بالقراءة في هذه الآية ثلاثة مواضع:

الأول: قرأ نافع برواية ورش وقالون وابن عامر وأبو بكر عن عاصم (نكرًا) بضم الكاف في جميع القرآن والباقون ساكنة الكاف حيث كان وهما لغتان.

الثاني: الكل قرؤوا: (فَلا تُصاحِبْنِي) بالألف إلا يعقوب فإنه قرأ: (لاَ تَصْحَبْنِي) من صحب والمعنى واحد.

الثالث: في ﴿لَّدُنِّي﴾ قراءات: الأولى: قراءة نافع وأبي بكر في بعض الروايات عن عاصم: (مِنْ لَدُنِي) بتخفيف النون وضم الدال. الثانية: قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: (لَدُنّي) مشددة النون وضم الدال. الثالثة: قرأ أبو بكر عن عاصم بالإشمام وغير إشباع. الرابعة: (من لُدْني) بضم اللام وسكون الدال في بعض الروايات عن عاصم، وهذه القراءات كلها لغات في هذه اللفظة.

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾

اعلم أن تلك القرية هي أنطاكية وقيل هي الأيلة **وهاهنا سؤالات: الأول:** أن الاستطعام ليس من عادة الكرام، فكيف أقدم عليه موسى وذلك العالم؛ لأن موسى كان من عادته عرض الحاجة وطلب الطعام ألا ترى أنه تعالى حكى عنه أنه قال في قصة موسى عند ورود ماء مدين: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. الجواب: أن إقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كل الشرائع، بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد.

السؤال الثاني: لِمَ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ وكان من الواجب أن يقال: استطعما منهم؟ والجواب أن التكرير قد يكون للتأكيد كقول الشاعر:

لَيتَ الغُرَابَ غَدَاةَ يَنعِبُ دَائِمًا ... كَانَ الغُرَابُ مُقَطَّعَ الأَوْدَاجِ[1]

السؤال الثالث: أن الضيافة من المندوبات فتركها ترك للمندوب، وذلك أمر غير منكر، فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه أنه غضب عليهم الغضب الشديد الذي لأجله ترك العهد الذي التزمه مع ذلك العالم في قوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ وأيضًا مثل هذا الغضب لأجل ترك الأكل في ليلة واحدة لا يليق بأدون الناس فضلاً عن كليم الله.

الجواب: أما قوله: (الضيافة من المندوبات) قلنا: قد تكون من المندوبات، وقد تكون من الواجبات بأن كان الضيف قد بلغ في الجوع إلى حيث لو لم يأكل لهلك، وإذا كان التقدير ما ذكرناه لم يكن الغضب الشديد لأجل ترك الأكل يومًا. فإن قالوا: ما بلغ في الجوع إلى حد الهلاك بدليل أنه قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وكان يطلب على إصلاح ذلك الجدار أجرة، ولو كان قد بلغ في الجوع إلى حد الهلاك لما قدر على ذلك العمل، فكيف يصح منه طلب الأجرة؟ قلنا: لعل ذلك الجوع كان شديدًا إلا أنه ما بلغ حد الهلاك.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وفيه بحثان:

البحث الأول: (يضيفوهما) يقال: ضافه إذا كان له ضيفًا، وحقيقته مال إليه، مِن ضاف السهم عن الغرض. ونظيره: زاره من الازورار، وأضافه وضَيَّفه: أنزله، وجعله ضيفه، وعن النبي ﷺ «**كَانُوا أَهْلَ قَرْيَةٍ لِئَامًا**»[2].

البحث الثاني: رأيت في كتب الحكايات أن أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الآية

---

(١) هذا البيت لجرير وتقدمت ترجمته.

(٢) تقدم.

استحيوا، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ بحمل من الذهب وقالوا: يا رسول الله نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء تاءً حتى تصير القراءة هكذا: (فأتوا أن يضيفوهما). أي أتوا لأن يضيفوهما، أي كان إتيان أهل تلك القرية إليهما لأجل الضيافة، وقالوا: غرضنا منه أن يندفع عنا هذا اللؤم. فامتنع رسول الله ﷺ وقال: «إِنَّ تَغْيِيرَ هَذِهِ النُّقْطَةِ يُوجِبُ دُخُولَ الْكَذِبِ فِي كَلَامِ اللَّهِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ الْقَدْحَ فِي الْإِلَهِيَّةِ» فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية.

ثم قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ أي فرأيا في القرية حائطًا مائلاً، فإن قيل: كيف يجوز وصف الجدار بالإرادة مع أن الإرادة من صفات الأحياء؟ قلنا: هذا اللفظ ورد على سبيل الاستعارة، وله نظائر في الشعر، قال:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ ... وَيَرْغَبُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ

وأنشد الفراء:

إِنْ دَهْرًا يَلُفُّ شَمْلِي بِجَمْعَلٍ ... لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ[(1)]

وقال الراعي

فِي مهمة فلقت به هاماتها ... فلق الفؤوس إِذَا أَرَدْنَ نُصُولا[(2)]

ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقوله: ﴿أَن يَنقَضَّ﴾ يقال: انقض، إذا أسرع سقوطه، من انقضاض الطائر وهو انفعل مطاوع قضضته. وقيل: انقض فعل من النقض كأحمر من الحمرة، وقرئ (أن ينقض) من النقض، و(أن ينقاض) من انقاضت العين إذا انشقت طولاً. وأما قوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قيل: نقضه ثم بناه، وقيل: أقامه بيده، وقيل: مسحه بيده فقام واستوى، وكان ذلك من معجزاته، واعلم أن ذلك العالم لما فعل ذلك وكانت الحالة حالة اضطرار وافتقار إلى الطعام، فلأجل تلك الضرورة نسي موسى ما قاله من قوله: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ فلا جرم قال: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ أي طلبت على عملك أجرة تصرفها في تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات، وقرئ: (لتَخِذْنَ عَلَيْهِ أَجْراً) والتاء تخذت أصل كما في تبع، واتخذ افتعل منه كقولنا اتبع من قولنا تبع، واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر هذا الكلام قال العالم: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ .

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: قوله: (هذا) إشارة إلى ماذا؟ والجواب من وجهين: الأول: أن موسى عليه

---

(١) تقدمت ترجمة الفراء.

(٢) الراعي النميري تقدمت ترجمته.

السلام قد شرط أنه إن سأله بعد ذلك سؤالاً آخر يحصل الفراق حيث قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ فلما ذكر هذا السؤال فارقه ذلك العالم وقال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي هذا الفراق الموعود. الثاني: أن يكون قوله (هذا) إشارة إلى السؤال الثالث، أي هذا الاعتراض هو سبب الفراق.

السؤال الثاني: ما معنى قوله: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾؟ الجواب: معناه هذا فراق حصل بيني وبينك، فأضيف المصدر إلى الظرف، حكى القفال عن بعض أهل العربية أن البين هو الوصل لقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[الأنعام: ٩٤] فكان المعنى هذا فراق بيننا، أي اتصالنا، كقول القائل: أخزى الله الكاذب مني ومنك، أي أحدنا، هكذا قاله الزجاج.

ثم قال العالم لموسى عليه السلام: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاثة، وأصل التأويل راجع إلى قولهم: آل الأمر إلى كذا، أي صار إليه، فإذا قيل: ما تأويله؟ فالمعنى: ما مصيره..

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذه المسائل الثلاثة مشتركة في شيء واحد، وهو أن أحكام الأنبياء صلوات الله عليهم مبنية على الظواهر، كما قال عليه السلام: «**نَحْنُ نَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ**» وهذا العالم ما كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور بل كانت مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة في نفس الأمر؛ وذلك لأن الظاهر أنه يَحرم التصرف في أموال الناس وفي أرواحهم في المسألة الأولى وفي الثانية - من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف لأن تخريق السفينة تنقيص لملك الإنسان من غير سبب ظاهر، وقتل الغلام تفويت لنفس معصومة من غير سبب ظاهر، والإقدام على إقامة ذلك الجدار المائل في المسألة الثالثة تحمُّل التعب والمشقة من غير سبب ظاهر، وفي هذه المسائل الثلاثة ليس حكم ذلك العالم فيها مبنيًّا على الأسباب الظاهرة المعلومة، بل كان ذلك الحكم مبنيًّا على أسباب معتبرة في نفس الأمر، وهذا يدل على

أن ذلك العالم كان قد آتاه الله قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ويطلع بها على حقائق الأشياء، فكانت مرتبة موسى عليه السلام في معرفة الشرائع والأحكام بناء الأمر على الظواهر، وهذا العالم كانت مرتبته الوقوف على بواطن الأشياء وحقائق الأمور والاطلاع على أسرارها الكامنة، فبهذا الطريق ظهر أن مرتبته في العلم كانت فوق مرتبة موسى عليه السلام.

إذا عرفت هذا فنقول: المسائل الثلاثة مبنية على حرف واحد وهو أن عند تعارض الضررين يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى؛ فهذا هو الأصل المعتبر في المسائل الثلاثة.

أما المسألة الأولى: فلأن ذلك العالم عَلِم أنه لو لم يعب تلك السفينة بالتخريق، لغصبها ذلك الملك، وفاتت منافعها على مُلاكها بالكلية فوقع التعارض بين أن يخرقها ويعيبها فتبقى مع ذلك على ملاكها، وبين أن لا يخرقها فيغصبها الملك فتفوت منافعها بالكلية على ملاكها، ولا شك أن الضرر الأول أقل فوجب تحمله لدفع الضرر الثاني الذي هو أعظمهما.

وأما المسألة الثانية: فكذلك لأن بقاء ذلك الغلام حيًّا كان مفسدة للوالدين في دينهم وفي دنياهم، ولعله علم بالوحي أن المضار الناشئة من قتل ذلك الغلام أقل من المضار الناشئة بسبب حصول تلك المفاسد للأبوين، فلهذا السبب أقدم على قتله.

والمسألة الثالثة: أيضًا كذلك لأن المشقة الحاصلة بسبب الإقدام على إقامة ذلك الجدار ضررها أقل من سقوطه، لأنه لو سقط لضاع مال تلك الأيتام، وفيه ضرر شديد.

فالحاصل أن ذلك العالم كان مخصوصًا بالوقوف على بواطن الأشياء وبالاطلاع على حقائقها كما هي عليها في أنفسها، وكان مخصوصًا ببناء الأحكام الحقيقية على تلك الأحوال الباطنة، وأما موسى عليه السلام فما كان كذلك بل كانت أحكامه مبنية على ظواهر الأمور، فلا جرم ظهر التفاوت بينهما في العلم.

فإن قال قائل: فحاصل الكلام أنه تعالى أطلعه على بواطن الأشياء وحقائقها في نفسها، وهذا النوع من العلم لا يمكن تعلمه، وموسى عليه السلام إنما ذهب إليه ليتعلم منه العلم فكان من الواجب على ذلك العالم أن يُظهر له علمًا يمكن له تعلمه، وهذه المسائل الثلاثة علوم لا يمكن تعلمها فما الفائدة في ذكرها وإظهارها؟

والجواب: أن العلم بظواهر الأشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة، وأما العلم ببواطن الأشياء فإنما يمكن تحصيله بناء على تصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الجسدانية، ولهذا قال تعالى في صفة علم ذلك العالم: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، ثم إن موسى عليه السلام لما كملت مرتبته في علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ليعلم موسى عليه السلام أن كمال الدرجة في أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على البواطن والتطلع على حقائق الأمور.

المسألة الثانية: اعلم أن ذلك العالم أجاب عن المسألة الأولى بقوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ

﴿لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن تلك السفينة كانت لأقوام محتاجين متعيشين بها في البحر، والله تعالى سماهم مساكين، واعلم أن الشافعي رحمه الله احتج بهذه الآية على أن حال الفقير في الضر والحاجة أشد من حال المسكين؛ لأنه تعالى سماهم مساكين مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة.

الفائدة الثانية: أن مراد ذلك العالم من هذا الكلام أنه ما كان مقصودي من تخريق تلك السفينة تغريق أهلها، بل مقصودي أن ذلك الملك الظالم كان يغصب السفن الخالية عن العيوب، فجعلتُ هذه السفينة معيبة لئلا يغصبها ذلك الظالم، فإن ضرر هذا التخريق أسهل من الضرر الحاصل من ذلك الغصب، فإن قيل: وهل يجوز للأجنبي أن يتصرف في ملك الغير لمثل هذا الغرض؟ قلنا: هذا مما يختلف أحواله بحسب اختلاف الشرائع، فلعل هذا المعنى كان جائزًا في تلك الشريعة، وأما في شريعتنا فمثل هذا الحكم غير بعيد، فإنا إذا علمنا أن الذين يقطعون الطريق ويأخذون جميع ملك الإنسان، فإن دفعنا إلى قاطع الطريق بعض ذلك المال سلم الباقي، فحينئذٍ يحسن منا أن ندفع بعض مال ذلك الإنسان إلى قاطع الطريق ليسلم الباقي، وكان هذا منا يعد إحسانًا إلى ذلك المالك.

الفائدة الثالثة: أن ذلك التخريق وجب أن يكون واقعًا على وجه لا تبطل به تلك السفينة بالكلية؛ إذ لو كان كذلك لم يكن الضرر الحاصل من غصبها أبلغ من الضرر الحاصل من تخريقها، وحينئذٍ لم يكن تخريقها جائزًا.

الفائدة الرابعة: لفظ الوراء على قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ فيه قولان: الأول: أن المراد منه (وكان أمامهم ملك يأخذ)، هكذا قاله الفراء، وتفسيره قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] أي أمامهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧] وتحقيقه أن كل ما غاب عنك فقد توارى عنك وأنت متوار عنه، فكل ما غاب عنك فهو وراءك وأمام الشيء وقدامه إذا كان غائبًا عنه متواريًا عنه، فلم يبعد إطلاق لفظ وراء عليه. والقول الثاني: يحتمل أن يكون الملك كان من وراء الموضع الذي يركب منه صاحبه وكان مرجع السفينة عليه.

وأما المسألة الثانية وهي قتل الغلام: فقد أجاب العالم عنها بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ قيل: إن ذلك الغلام كان بالغًا وكان يقطع الطريق ويُقْدِم على الأفعال المنكرة، وكان أبواه يحتاجان إلى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشيء من المنكرات، وكان يصير ذلك سببًا لوقوعهما في الفسق، وربما أدى ذلك الفسق إلى الكفر، وقيل: إنه كان صبيًا إلا أن الله تعالى علم منه أنه لو صار بالغًا لحصلت منه هذه المفاسد.

وقوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ الخشية بمعنى الخوف وغلبة الظن، والله تعالى قد أباح له قتل من غلب على ظنه تولد مثل هذا الفساد منه، وقوله: ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا﴾ فيه

قولان: الأول: أن يكون المراد أن ذلك الغلام يحمل أبويه على الطغيان والكفر، كقوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]أي لا تحملني على عسر وضيق. وذلك لأن أبويه لأجل حب ذلك الولد يحتاجان إلى الذب عنه، وربما احتاجا إلى موافقته في تلك الأفعال المنكرة. والثاني: أن يكون المعنى أن ذلك الولد كان يعاشرهما معاشرة الطغاة الكفار، فإن قيل: هل يجوز الإقدام على قتل الإنسان لمثل هذا الظن؟ قلنا: إذا تأكد ذلك الظن بوحي الله جاز.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي أردنا أن يرزقهما الله تعالى ولدًا خيرًا. من هذا الغلام زكاة، أي دينًا وصلاحًا، وقيل: إن ذكره الزكاة هاهنا على مقابلة قول موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤]فقال العالم: أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين خيرًا بدلاً عن ابنهما هذا ولدًا يكون خيرًا منه، كما ذكرته من الزكاة، ويكون المراد من الزكاة الطهارة فكأن موسى عليه السلام قال: أقتلت نفسًا طاهرة لأنها ما وصلت إلى حد البلوغ فكانت زاكية طاهرة من المعاصي؟ فقال العالم: إن تلك النفس وإن كانت زاكية طاهرة في الحال، إلا أنه تعالى علم منها أنها إذا بلغت أقدمت على الطغيان والكفر فأردنا أن يجعل لهما ولدًا أعظم زكاة وطهارة منه، وهو الذي يعلم الله منه أنه عند البلوغ لا يقدم على شيء من هذه المحظورات. ومن قال: إن ذلك الغلام كان بالغًا قال: المراد من صفة نفسه بكونها زاكية أنه لم يظهر عليه ما يوجب قتله. ثم قال: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي يكون هذا البدل أقرب عطفًا ورحمة بأبويه بأن يكون أبر بهما وأشفق عليهما، والرحم الرحمة والعطف. روي أنه وُلدت لهما جارية تزوجها نبي، فولدت نبيًّا هدى الله على يديه أمة عظيمة.

بقي من مباحث هذه الآية موضعان في القراءة. **الأول:** قرأ نافع وأبو عمرو (يبدلهما) بفتح الباء وتشديد الدال وكذلك في التحريم: (أن يُبَدِّله أزواجًا) [التحريم: ٥]وفي القلم: (عسى رلنا أن يُبدِّلنا) [القلم: ٣٢]والباقون ساكنة الباء خفيفة الدال، وهما لغتان أَبَدَّل يبدل وبدل يبدل. الثاني: قراءة ابن عامر في إحدى الروايتين عن أبي عمرو (رحمًا) بضم الحاء والباقون بسكونها، وهما لغتان، مثل نُكْر ونُكُر وشُغْل وشُغُل.

وأما المسألة الثالثة وهي إقامة الجدار: فقد أجاب العالم عنها بأن الداعي له إليها أنه كان تحت ذلك الجدار كنز، وكان ذلك ليتيمين في تلك المدينة وكان أبوهما صالحًا، ولما كان ذلك الجدار مشرفًا على السقوط ولو سقط لضاع ذلك الكنز، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما ورعاية لحق صلاح أبيهما، فأمرني بإقامة ذلك الجدار رعاية لهذه المصالح. وفي الآية فوائد:

الفائدة الأولى: أنه تعالى سمى ذلك الموضع قرية حيث قال: ﴿إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وسماه أيضًا مدينة حيث قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾.

الفائدة الثانية: اختلفوا في هذا الكنز: فقيل: إنه كان مالاً. وهذا هو الصحيح لوجهين.

الأول: أن المفهوم من لفظ الكنز هو المال. والثاني: أن قوله: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ يدل على أن ذلك الكنز هو المال. وقيل: إنه كان علمًا بدليل أنه قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال إذ كنز المال لا يليق بالصلاح بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] وقيل: كان لوحًا من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء. وعن جعفر بن محمد: كان بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة آباء. وعن الحسن بن علي أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بم حفظ الله مال الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما. قال: فأبي وجدي خير منه؟ قال: قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون. وذكروا أيضًا أن ذلك الأب الصالح كان الناس يضعون الودائع إليه فيردها إليهم بالسلامة.

فإن قيل: اليتيمان هل عرف أحد منهما حصول الكنز تحت ذلك الجدار أو ما عرف أحد منهما؟ فإن كان الأول امتنع أن يتركوا سقوط ذلك الجدار. وإن كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج ذلك الكنز والانتفاع به؟

الجواب: لعل اليتيمين كانا جاهلين به إلا أن وصيهما كان عالمًا به، ثم (إن) ذلك الوصي غاب وأشرف ذلك الجدار في غيبته على السقوط. ولما قرر العالم هذه الجوابات قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني إنما فعلت هذه الفعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحد وهو تحمُّل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى كما قررناه. ثم قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ يعني ما فعلت ما رأيت من هذه الأحوال عن أمري واجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله ووحيه لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع.

بقي في الآية سؤال، وهو أنه قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ كيف اختلفت الإضافة في هذه الإرادات الثلاث وهي كلها في قصة واحدة وفعل واحد؟

والجواب: أنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه فقال: أردت أن أعيبها. ولما ذكر القتل عَبَّر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهًا على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يُقْدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى؛ لأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

اعلم أن هذا هو القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، **وفيها مسائل:**

المسألة الأولى: قد ذكرنا في أول هذه السورة أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وعن قصة ذي القرنين وعن الروح، فالمراد من قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هو ذلك السؤال.

المسألة الثانية: اختلف الناس في أن ذا القرنين من هو؟ وذكروا فيه أقوالاً:

الأول: أنه هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني. قالوا: والدليل عليه أن القرآن دل على أن الرجل المسمى بذي القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب بدليل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] وأيضًا بلغ ملكه أقصى المشرق بدليل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: ٩٠] وأيضًا بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال، وبدليل أن السد المذكور في القرآن يقال في كتب التواريخ إنه مبني في أقصى الشمال، فهذا الإنسان المسمى بذي القرنين في القرآن قد دل القرآن على أن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق، وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض، ومثل هذا المُلْك البسيط لا شك أنه على خلاف العادات، وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلدًا على وجه الدهر وأن لا يبقى مخفيًّا مستترًا.

والمَلك الذي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر، وذلك لأنه لما مات أبوه جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف، ثم جمع ملوك المغرب وقهرهم، وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر، ثم عاد إلى مصر فبنى الإسكندرية وسماها باسم نفسه، ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه، ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر. ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرات إلى أن قتله صاحب حرسه، فاستولى الإسكندر على ممالك الفرس، ثم قصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها.

فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلاً مَلَكَ الأرض بالكلية أو ما يقرب منها، وثبت بعلم التواريخ أن الذي هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر، وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني.

ثم ذكروا في سبب تسميته بهذا الاسم وجوهًا: الأول: أنه لقب بهذا اللقب لأجل بلوغه قرني الشمس أي مطلعها ومغربها، كما لُقب أردشير بن بهمن بطويل اليدين لنفوذ أمره حيث أراد.

والثاني: أن الفرس قالوا: إن دارا الأكبر كان قد تزوج بابنة فيلبوس، فلما قرب منها وجد منها

رائحة منكرة فردها على أبيها فيلبوس، وكانت قد حملت منه بالإسكندر فولدت الإسكندر بعد عودها إلى أبيها، فبقي الإسكندر عند فيلبوس وأظهر فيلبوس أنه ابنه وهو في الحقيقة ابن دارا الأكبر. قالوا والدليل عليه أن الإسكندر لما أدرك دارا بن دارا وبه رمق وضع رأسه في حجره وقال لدارا: يا أبي أخبرني عمن فعل هذا لأنتقم لك منه! فهذا ما قاله الفرس، قالوا: وعلى هذا التقدير فالإسكندر أبوه دارا الأكبر وأمه بنت فيلبوس، فهو إنما تولد من أصلين مختلفين الفرس والروم. وهذا الذي قاله الفرس إنما ذكروه لأنهم أرادوا أن يجعلوه من نسل ملوك العجم حتى لا يكون ملك مثله من نسب غير نسب ملوك العجم، وهو في الحقيقة كذب، وإنما قال الإسكندر لدارا: يا (أبي) على سبيل التواضع وأكرَمَ دارا بذلك الخطاب.

والقول الثاني: قال أبو الريحان الهروي المنجم في كتابه الذي سماه بالآثار الباقية عن القرون الخالية: قيل: إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبير بن أفريقش الحميري، فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال:

قَدْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ قَبْلِي مُسْلِمًا ... مَلِكًا عَلاَ فِي الأَرْضِ غَيْرَ مُفَنِدِي (١)
بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي ... أَسْبَابَ مُلْكٍ مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدِ

ثم قال أبو الريحان: ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن وهم الذين لا تخلو أساميهم من ذي كذا، كذي النادي وذي نواس وذي النون وغير ذلك.

والقول الثالث: أنه كان عبدًا صالحًا مَلَّكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة، وإن كنا لا نعرف أنه من هو. **ثم ذكروا في تسميته بذي القرنين وجوهًا**:

الأول: سأل ابن الكوا عليًّا رضي الله عنه عن ذي القرنين وقال: أمَلِك هو أم نبي؟ فقال: لا مَلِك ولا نبي، كان عبدًا صالحًا ضُرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله، فضُرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله، فسمي بذي القرنين وملك ملكه.

الثاني: سمي بذي القرنين لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس.

الثالث: قيل: كان صفحتا رأسه من نحاس.

الرابع: كان على رأسه ما يشبه القرنين.

الخامس: (كان) لتاجه قرنان.

السادس: عن النبي ﷺ: **«سمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا»**. يعني شرقها وغربها (٢).

---

(١) هذا البيت لأمية بن الصلت، وقد تقدمت ترجمته.

(٢) **غريب**: رواه الدارقطني في كتابه المؤتلف والمختلف من قول الزهري فقال: حدثنا مسلم بن عبد الله الحسيني، حدثنا الخضر بن داود، حدثنا الزبير بن بكار، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثني عبد العزيز بن عمران عن سليمان بن أسيد عن ابن شهاب الزهري قال: إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها فسمي ذا القرنين.

السابع: كان له قرنان، أي ضفيرتان.

الثامن: أن الله تعالى سخر له النور والظلمة، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتمده الظلمة من ورائه.

التاسع: يجوز أن يلقب بذلك لشجاعته، كما يسمى الشجاع كبشًا كأنه ينطح أقرانه.

العاشر: رأى في المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفي الشمس وقرنيها وجانبيها، فسمي لهذا السبب بذي القرنين.

الحادي عشر: سمي بذلك لأنه دخل النور والظلمة. **والقول الرابع:** أن ذا القرنين ملك من الملائكة، عن عمر أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين. فقال: اللهم اغفر. أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسموا بأسماء الملائكة!

فهذا جملة ما قيل في هذا الباب، والقول الأول أظهر لأجل الدليل الذي ذكرناه، وهو أن مثل هذا المُلك العظيم يجب أن يكون معلوم الحال عند أهل الدنيا، والذي هو معلوم الحال بهذا الملك العظيم هو الإسكندر، فوجب أن يكون المراد بذي القرنين هو هو إلا أن فيه إشكالاً قويًّا وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق، وذلك مما لا سبيل إليه، والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في ذي القرنين هل كان من الأنبياء أم لا؟ منهم من قال: إنه كان نبيًّا واحتجوا عليه بوجوه: الأول: قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والأولى حمله على التمكين في الدين والتمكين الكامل في الدين هو النبوة. والثاني: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ ومن جملة الأشياء النبوة فمقتضى العموم في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ هو أنه تعالى آتاه في النبوة سببًا. الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ والذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبيًّا. ومنهم من قال: إنه كان عبدًا صالحًا وما كان نبيًّا.

المسألة الرابعة: في دخول السين في قوله: ﴿سَأَتْلُوا۟﴾ معناه إني سأفعل هذا إن وفقني الله تعالى عليه وأنزل فيه وحيًا وأخبرني عن كيفية تلك الحال.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهذا التمكين يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة، ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب المُلك من حيث إنه مَلَك مشارق الأرض ومغاربها. والأول أَوْلى لأن التمكين بسبب النبوة أعلى من التمكين بسبب الملك، وحَمْل كلام الله على الوجه الأكمل الأفضل أَوْلى. ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ قالوا: السبب في أصل اللغة عبارة عن الحبل ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى المقصود، وهو يتناول العلم والقدرة والآلة، فقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ معناه: أعطيناه من كل شيء من الأمور التي يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشيء، ثم إن الذين قالوا: إنه كان نبيًّا قالوا: من جملة الأشياء النبوة، فهذه الآية تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق الذي به يتوصل إلى تحصيل النبوة.

والذين أنكروا كونه نبيًا قالوا: المراد به وآتيناه من كل شيء يحتاج إليه في إصلاح ملكه سببًا. إلا أن لقائل أن يقول: إن تخصيص العموم خلاف الظاهر فلا يصار إليه إلا بدليل. ثم قال: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ومعناه أنه تعالى لما أعطاه من كل شيء سببه فإذا أراد شيئًا أتبع سببًا يوصله إليه ويقربه منه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (فاتبع) بتشديد التاء، وكذلك (ثم اتبع) أي سلك وسار، والباقون (فأتبع) بقطع الألف وسكون التاء مخففة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

اعلم أن المعنى أنه أراد بلوغ المغرب فأتبع سببًا يوصله إليه حتى بلغه. أما قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ **ففيه مباحث:**

الأول: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم (في عين حامية) بالألف من غير همزة أي حارة، وعن أبي ذر قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال: «أَتَدْرِي يَا أَبَا ذَرٍّ أَيْنَ تَغْرُبُ هَذِهِ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ»(١)؛ وهي قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر، والباقون (حمئة)، وهي قراءة ابن عباس، واتفق أن ابن عباس كان عند معاوية فقرأ معاوية: (حامية) بألف فقال ابن عباس: (حمئة)، فقال معاوية لعبد الله بن عمر: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين. ثم وجَّه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجده في التوراة، والحمئة ما فيه ماء، وحمأة سوداء، واعلم أنه لا تنافي بين الحمئة والحامية، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعًا.

البحث الثاني: أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها، ولا شك أن الشمس في الفلك، وأيضًا قال: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير

---

(١) **إسناده صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الحروف) (٤/ ٣٧) حديث رقم/ ٤٠٠٢ من طريق يزيد بن هارون عن سفيان بن حسين... به مختصرًا إلى قوله (عليه حامية) وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٦٥) حديث رقم/ ٢١٤٩٧ قال: حدثنا زيد بن هارون عن سفيان... به. والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٦٧) حديث رقم/ ٢٩٦١ من طريق محمد بن مسلمة الواسطي، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سفيان بن حسين... به. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وابن منده في معرفة أسامي أرواق النبي ﷺ (١/ ٤١) من طريق عمر بن علي ويزيد بن هارون عن سفيان بن حسين... به. وأورده الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٥/ ٤٠٢) حديث رقم/ ٢٤٠٣ وقال: صحيح.

موجود، وأيضًا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة، فكيف يُعقل دخولها في عين من عيون الأرض؟! **إذا ثبت هذا فنقول:** تأويل قوله: ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ من وجوه: الأول: أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب في عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا لم ير الشط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر، هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره. الثاني: أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر بها، فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار، ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهي حامية وهي أيضًا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء، فقوله: ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ إشارة إلى أن الجانب الغربي من الأرض قد أحاط به البحر وهو موضع شديد السخونة. الثالث: قال أهل الأخبار: إن الشمس تغيب في عين كثيرة الماء والحمأة. وهذا في غاية البعد؛ وذلك لأنا إذا رصدنا كسوفًا قمريًا فإذا اعتبرناه ورأينا أن المغربيين قالوا: حصل هذا الكسوف في أول الليل. ورأينا المشرقيين قالوا: حصل في أول النهار. فعلمنا أن أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثاني عند أهل المشرق، بل ذلك الوقت الذي هو أول الليل عندنا، فهو وقت العصر في بلد ووقت الظهر في بلد آخر، ووقت الضحوة في بلد ثالث، ووقت طلوع الشمس في بلد رابع، ونصف الليل في بلد خامس، وإذا كانت هذه الأحوال معلومة بعد الاستقراء والاعتبار، وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الأوقات، كان الذي يقال: إنها تغيب في الطين والحمأة كلامًا على خلاف اليقين وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه التهمة، فلم يبق إلا أن يصار إلى التأويل الذي ذكرناه. ثم قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ الضمير في قوله (عندها) إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: أنه عائد إلى الشمس ويكون التأنيث للشمس؛ لأن الإنسان لما تخيل أن الشمس تغرب هناك كان سكان هذا الموضع كأنهم سكنوا بالقرب من الشمس. والقول الثاني: أن يكون الضمير عائدًا إلى العين الحامية، وعلى هذا القول فالتأويل ما ذكرناه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ . **وفيه مباحث:**

الأول: أن قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يدل على أنه تعالى تكلم معه من غير واسطة، وذلك يدل على أنه كان نبيًّا، وحمل هذا اللفظ على أن المراد أنه خاطبه على ألسنة بعض الأنبياء، فهو عدول عن الظاهر.

البحث الثاني: قال أهل الأخبار في صفة ذلك الموضع أشياء عجيبة، قال ابن جريج: هناك مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها سمع الناس وجبة الشمس حين تغيب.

البحث الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يدل على أن سكان آخر المغرب كانوا كفارًا، فخَيَّر الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم إن أقاموا على

كفرهم، وبين المن عليهم والعفو عنهم، وهذا التخيير على معنى الاجتهاد في أصلح الأمرين، كما خَيَّرَ نبيه عليه السلام بين المن على المشركين وبين قتلهم، وقال الأكثرون: هذا التعذيب هو القتل، وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء، ثم قال ذو القرنين: (أَمَّا مَنْ ظَلَمَ نفسه) أي ظلم نفسه بالإقامة على الكفر. والدليل على أن هذا هو المراد أنه ذكر في مقابلته: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ثم قال: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي بالقتل في الدنيا: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي منكرًا فظيعًا: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالنصب والتنوين، والباقون بالرفع والإضافة، فعلى القراءة الأولى يكون التقدير (فله الحسنى جزاء) كما تقول: لك هذا الثوب هبة، وأما على القراءة الثانية ففي التفسير وجهان. الأول: فله جزاء الفعلة الحسنى، والفعلة الحسنى هي الإيمان والعمل الصالح. والثاني: أن يكون التقدير فله جزاء المثوبة الحسنى، ويكون المعنى: فله ذا الجزاء الذي هو المثوبة الحسنى، والجزاء موصوف بالمثوبة الحسنى، وإضافة الموصوف إلى الصفة مشهورة، كقوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾[النحل: ٣٠] و﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[الواقعة: ٩٥] ثم قال: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل الميسر من الزكاة والخراج وغيرهما، وتقدير هذا يسر، كقوله: ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[الإسراء: ٢٨] وقرئ: (يُسُرًا) بضمتين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بَيَّن أولاً أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مغرب الشمس، أتبعه ببيان أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مطلع الشمس، فبَيَّن الله تعالى أنه وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترًا، وفيه قولان: الأول: أنه ليس هناك شجر ولا جبل ولا أبنية تمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم؛ فلهذا السبب إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب واغلة في الأرض أو غاصوا في الماء، فيكون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف في المعاش، وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش، حالهم بالضد من أحوال سائر الخلق.

والقول الثاني: أن معناه أنه لا ثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدًا، ويقال في كتب الهيئة: إن حال أكثر الزنج كذلك وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك، وذُكر في كتب التفسير أن بعضهم قال: سافرت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء القوم، فقيل: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة. فبلغتُهم فإذا أحدهم يفرش أذنه الواحدة ويلبس الأخرى، ولما قرب طلوع الشمس سمعت كهيئة الصلصلة فغشي عليَّ ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعتِ الشمس إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلونا سربًا لهم فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج.

ثم قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾ **وفيه وجوه:**

الأول: أي كذلك فعل ذو القرنين اتبع هذه الأسباب حتى بلغ ما بلغ، وقد علمنا حين مَلَّكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به.

والثاني: كذلك جعل الله أمر هؤلاء القوم على ما قد أعلم رسوله عليه السلام في هذا الذكر.

والثالث: كذلك كانت حالته مع أهل المطلع كما كانت مع أهل المغرب، قضى في هؤلاء كما قضى في أولئك، من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين.

والرابع: أنه تم الكلام عند قوله (كذلك) والمعنى أنه تعالى قال: أمر هؤلاء القوم كما وجدهم عليه ذو القرنين. ثم قال بعده: ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أي كنا عالمين بأن الأمر كذلك.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

اعلم أن ذا القرنين لما بلغ المشرق والمغرب أتبع سببًا آخر وسلك الطريق حتى بلغ بين السدين، وقد آتاه الله من العلم والقدرة ما يقوم بهذه الأمور. وهاهنا مباحث:

الأول: قرأ حمزة والكسائي (السُّدين) بضم السين (وسَدًّا) بفتحها حيث كان، وقرأ حفص عن عاصم بالفتح فيهما في كل القرآن، وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالضم فيهما في كل القرآن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو السَّدين وسَدًّا ههنا بفتح السين فيهما وضمها في يس في الموضعين.

قال الكسائي: هما لغتان، وقيل: ما كان من صنعة بني آدم فهو (السَّد) بفتح السين، وما كان من صنع الله فهو (السُّد) بضم السين والجمع سدد. وهو قول أبي عبيدة وابن الأنباري، قال صاحب الكشاف: السُّد بالضم فُعْل بمعنى مفعول أي هو مما فعله الله وخلقه، والسَّد بالفتح مصدر حدث يُحدثه الناس.

البحث الثاني: الأظهر أن موضع السدين في ناحية الشمال، وقيل: جبلان بين أرمينية وبين أذربيجان، وقيل: هذا المكان في مقطع أرض الترك، وحكى محمد بن جرير الطبري في تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجَّه إنسانًا إليه من ناحية الخزر، فشاهده ووَصَف أنه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق منيع، وذكر ابن (خرداذبة) في كتاب المسالك والممالك أن الواثق بالله رأى في المنام كأنه فتح هذا الردم، فبعث بعض الخدم إليه ليعاينوه، فخرجوا من باب الأبواب حتى وصلوا إليه، وشاهدوه فوصفوا أنه بناء من لبن من حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه

باب مقفل، ثم إن ذلك الإنسان لما حاول الرجوع أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند. قال أبو الريحان: مقتضى هذا أن موضعه في الربع الشمالي الغربي من المعمورة، والله أعلم بحقيقة الحال.

البحث الثالث: أن ذا القرنين لما بلغ ما بين السدين وجد من دونهما، أي من ورائهما مجاوزًا عنهما ﴿قَوْمًا﴾ أي أمة من الناس: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قرأ حمزة والكسائي (يُفْقِهُونَ) بضم الياء وكسر القاف على معنى لا يمكنهم تفهيم غيرهم، والباقون بفتح الياء والقاف، والمعنى أنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم وما كانوا يفهمون اللسان الذي يتكلم به ذو القرنين.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن قيل: كيف فهم ذو القرنين منهم هذا الكلام بعد أن وصفهم الله بقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾؟!

والجواب: أن نقول (كاد) فيه قولان: الأول: أن إثباته نفي ونفيه إثبات، فقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لا يدل على أنهم لا يفهمون شيئًا، بل يدل على أنهم قد يفهمون على مشقة وصعوبة. والقول الثاني: أن (كاد) معناه المقاربة، وعلى هذا القول فقوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أي لا يعلمون وليس لهم قرب من أن يفقهوا. وعلى هذا القول فلا بد من إضمار، وهو أن يقال: لا يكادون يفهمونه إلا بعد تقريب ومشقة من إشارة ونحوها، وهذه الآية تصلح أن يحتج بها على صحة القول الأول في تفسير (كاد).

البحث الرابع: في يأجوج ومأجوج قولان: **الأول:** أنهما اسمان أعجميان موضوعان، بدليل منع الصرف. **والقول الثاني:** أنهما مشتقان، وقرأ عاصم يأجوج ومأجوج بالهمز. وقرأ الباقون ياجوج وماجوج. وقرئ في رواية آجوج ومأجوج.

والقائلون بكون هذين الاسمين مشتقين ذكروا وجوهًا: **الأول:** قال الكسائي: يأجوج مأخوذ من تأجج النار وتلهبها، فلسرعتهم في الحركة سُموا بذلك، ومأجوج من موج البحر. **الثاني:** أن يأجوج مأخوذ من تأجج الملح وهو شدة ملوحته، فلشدتهم في الحركة سُموا بذلك. **الثالث:** قال القتيبي: هو مأخوذ من قولهم: أج الظليم في مشيه يئج أجًّا: إذا هرول وسمعت حفيفه في عَدْوه. **الرابع:** قال الخليل: الأج: حَب كالعدس والمج: مج الريق، فيحتمل أن يكونا مأخوذين منهما. واختلفوا في أنهما من أي الأقوام: فقيل: إنهما من الترك، وقيل: ﴿يَأْجُوجَ﴾ من الترك ﴿وَمَأْجُوجَ﴾ من الجيل والديلم. ثم من الناس من وصفهم بقصر القامة وصغر الجثة بكون طول أحدهم شبرًا. ومنهم من وصفهم بطول القامة وكبر الجثة وأثبتوا لهم مخاليب في الأظفار وأضراسًا كأضراس السباع. واختلفوا في كيفية إفسادهم في الأرض فقيل: كانوا يقتلون الناس. وقيل: كانوا يأكلون لحوم الناس. وقيل: كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون لهم شيئًا أخضر. وبالجملة فلفظ الفساد محتمل لكل هذه الأقسام، والله أعلم بمراده.

ثم إنه تعالى حكى عن أهل ما بين السدين أنهم قالوا لذي القرنين: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن

﴿تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي خراجًا والباقون خرجًا. قيل: الخراج والخرج واحد، وقيل: هما أمران متغايران، وعلى هذا القول اختلفوا: قيل: الخرج (بغير ألف) هو الجُعل لأن الناس يُخرج كل واحد منهم شيئًا منه فيخرج هذا أشياء وهذا أشياء، والخراج هو الذي يجبيه السلطان كل سنة. وقال الفراء: الخراج هو الاسم الأصلي والخرج كالمصدر. وقال قطرب: الخرج الجزية، والخراج في الأرض. فقال ذو القرنين: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي﴾ أي ما جعلني مكينًا من المال الكثير واليسار الواسع خير مما تبذلون من الخراج فلا حاجة بي إليه. وهو كما قال سليمان عليه السلام: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦] قرأ ابن كثير: (ما مكنني) بنونين على الإظهار، والباقون بنون واحدة مشددة على الإدغام. ثم قال ذو القرنين: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي لا حاجة لي في مالكم، ولكن (أعينوني) برجال وآلة أبني بها السد. وقيل: المعنى: (أَعِينُونِي) بمال أصرفه إلى هذا المهم ولا أطلب المال لآخذه لنفسي، والردم هو السد، يقال: ردمت الباب أي سددته، وردمت الثوب رقعته لأنه يسد الخرق بالرقعة، والردم أكثر من السد، من قولهم: ثوب مردوم، أي وُضعت عليه رقاع.

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

اعلم أن ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ قِطعه، قال الخليل: الزبرة من الحديد القطعة الضخمة، قراءة الجميع (آتوني) بمد الألف إلا حمزة فإنه قرأ (ائتوني) من الإتيان، وقد روي ذلك عن عاصم والتقدير ائتوني بزبر الحديد. ثم حذف الباء كقوله: شكرته وشكرت له وكفرته وكفرت له. وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ فيه إضمار، أي فأتوه بها فوضع تلك الزبر بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فالتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلدًا.

واعلم أن هذا معجز قاهر لأن هذه الزبر الكثيرة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار، لم يقدر الحيوان على القرب منها، والنفخ عليها لا يمكن إلا مع القرب منها، فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين عليها. قال صاحب الكشاف: قيل: بُعد ما بين (السدين) مائة فرسخ. (والصدفان) بفتحتين: جانبا الجبلين لأنهما يتصادفان أي يتقابلان وقرئ: (الصُّدُفَيْنِ) بضمتين. و(الصُّدْفَيْنِ) بضمة وسكون. والقِطر: النحاس المذاب لأنه يقطر، وقوله: ﴿قِطْرًا﴾ منصوب بقوله: ﴿أُفْرِغْ﴾ وتقديره آتوني قطرًا: ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ فحذف الأول لدلالة الثاني عليه ثم قال: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟﴾ فحذف التاء للخفة لأن التاء قريبة المخرج من الطاء وقرئ: (فَمَا اصْطَاعُوا) بقلب السين صادًا (أَنْ يَظْهَرُوهُ) أن يعلوه، أي ما قدروا

على الصعود عليه لأجل ارتفاعه وملاسته ولا على نقبه لأجل صلابته وثخانته، ثم قال ذو القرنين: (هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) فقوله (هذا) إشارة إلى السد، أي هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده أو هذا الاقتدار والتمكين من تسويته: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يعني فإذا دنا مجيء القيامة جعل السد دكًا، أي مدكوكًا مسوى بالأرض. وكل ما انبسط بعد الارتفاع فقد اندك، وقرئ (دكاء) بالمد أي أرضًا مستوية ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ وهاهنا آخر حكاية ذي القرنين.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾

اعلم أن الضمير في قوله (بعضهم) عائد إلى: ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فيه وجوه: الأول: أن يوم السد ماج بعضهم في بعض خلفه لما مُنعوا من الخروج. الثاني: أن عند الخروج يموج بعضهم في بعض، قيل: إنهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين في البلاد، يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر ويأكلون لحوم الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله عليهم حيوانات فتدخل آذانهم فيموتون. والقول الثالث: أن المراد من قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة. وكل ذلك محتمل إلا أن الأقرب أن المراد الوقت الذي جعل الله ذلك السد دكًا فعنده ماج بعضهم في بعض وبعده نُفخ في الصور وصار ذلك من آيات القيامة، والكلام في الصور قد تقدم وسيجيء من بعد، وأما عرض جهنم وإبرازه حتى يصير مكشوفًا بأهواله فذلك يجري مجرى عقاب الكفار لما يتداخلهم من الغم العظيم، وبَيَّن تعالى أنه يكشفه للكافرين الذين عموا وصموا، أما العمى فهو المراد من قوله: ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ والمراد منه شدة انصرافهم عن قبول الحق، وأما الصمم فهو المراد من قوله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ يعني أن حالتهم أعظم من الصمم لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به، وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة.

واحتج الأصحاب بقوله: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ على أن الاستطاعة مع الفعل وذلك لأنهم لما لم يسمعوا لم يستطيعوا. قال القاضي: المراد منه نفرتهم عن سماع ذلك الكلام واستثقالهم إياه، كقول الرجل: لا أستطيع النظر إلى فلان.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ

أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما بيَّن من حال الكافرين أنهم أعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به الرسول، أتبعه بقوله: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ والمراد أفظنوا أنهم ينتفعون بما عبدوه مع إعراضهم عن تدبر الآيات وتمردهم عن قبول أمره وأمر رسوله؟! وهو استفهام على سبيل التوبيخ.

المسألة الثانية: قرأ أبو بكر ولم يرفعه إلى عاصم: (أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا) بسكون السين ورفع الباء. وهي من الأحرف التي خالف فيها عاصمًا، وذكر أنه قراءة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعلى هذا التقدير فقوله: (حَسْب) مبتدأ، (أن يتخذوا) خبر، والمعنى أفكافيهم وحَسْبهم أن يتخذوا كذا وكذا. وأما الباقون فقرؤوا: (أفحَسب) على لفظ الماضي، وعلى هذا التقدير ففيه حذف والمعنى: أفحسب الذين كفروا اتخاذ عبادي أولياء نافعًا.

المسألة الثالثة: في العباد أقوال: قيل: أراد عيسى والملائكة. وقيل: هم الشياطين يوالونهم ويطيعونهم. وقيل: هي الأصنام سماهم عبادًا كقوله: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[الأعراف: ١٩٤]. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ وفي النزل قولان: الأول: قال الزجاج إنه المأوى والمنزل. والثاني: أنه الذي يقام للنزيل وهو الضيف، ونظيره قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: ٣٤] ثم ذكر تعالى ما نبه به على جهل القوم فقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ قيل إنهم هم الرهبان كقوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾[الغاشية: ٣] وعن مجاهد: أهل الكتاب. وعن علي أن ابن الكواء سأله عنهم فقال: هم أهل حروراء. والأصل أن يقال: هو الذي يأتي بالأعمال يظنها طاعات وهي في أنفسها معاصٍ، وإن كانت طاعات لكنها لا تُقبل منهم لأجل كفرهم، فأولئك إنما أتوا بتلك الأعمال لرجاء الثواب، وإنما أتعبوا أنفسهم فيها لطلب الأجر والفوز يوم القيامة، فإذا لم يفوزوا بمطالبهم بيَّن أنهم كانوا ضالين.

ثم إنه تعالى بين صنعهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ . وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: لقاء الله عبارة عن رؤيته، بدليل أنه يقال: (لقيت فلانًا) أي رأيته، فإن قيل: اللقاء عبارة عن الوصول، قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[القمر: ١٢] وذلك في حق الله تعالى محال، فوجب حمله على لقاء ثواب الله، والجواب أن لفظ اللقاء وإن كان في الأصل عبارة عن الوصول والملاقاة إلا أن استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور، والذي يقولونه من أن المراد منه لقاء ثواب الله، فهو لا يتم إلا بالإضمار، ومن المعلوم أن حمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج معه إلى الإضمار.

المسألة الثانية: استدلت المعتزلة بقوله تعالى: ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ على أن القول بالإحباط والتكفير حق، وهذه المسألة قد ذكرناها بالاستقصاء في سورة البقرة فلا نعيدها.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ وفيه وجوه: الأول: أنا نزدري بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار. الثاني: لا نقيم لهم ميزانًا لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدين لتمييز مقدار الطاعات ومقدار السيئات. الثالث: قال القاضي: إن من غلبت معاصيه صار ما في فعله من الطاعة كأن لم يكن فلا يدخل في الوزن شيء من طاعته. وهذا التفسير بناء على قوله بالإحباط والتكفير.

ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ فقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ذلك الذي ذكرناه وفصّلناه من أنواع الوعيد هو جزاؤهم على أعمالهم الباطلة، وقوله: ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ ثم بيَّن تعالى أن ذلك الجزاء جزاء على مجموع أمرين: أحدهما: كفرهم. الثاني: أنهم أضافوا إلى الكفر أن اتخذوا آيات الله واتخذوا رسله هزوًا، فلم يقتصروا على الرد عليهم وتكذيبهم حتى استهزؤوا بهم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد أتبعه بالوعد، ولما ذكر في الكفار أن جهنم نُزُلهم، أتبعه بذكر ما يُرغب في الإيمان والعمل الصالح فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾.

المسألة الثانية: عطف عمل الصالحات على الإيمان، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، وذلك يدل على أن الأعمال الصالحة مغايرة للإيمان.

المسألة الثالثة: عن قتادة: الفردوس وسط الجنة وأفضلها. وعن كعب: ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر. وعن مجاهد: الفردوس هو البستان بالرومية، وعن النبي ﷺ أنه قال: **«الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، وَمِنْهَا الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ، وَالْفِرْدَوْسُ مِنْ فَوْقِهَا، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّ فَوْقَهَا عَرْشَ الرَّحْمَنِ وَمِنْهَا تَتَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»** [1].

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٦٧٥) حديث رقم/ ٢٥٣١ من طريق يزيد بن هارون... به. وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣١٦) حديث رقم/ ٢٢٧٤٧ قال: حدثنا يزيد... به. والحاكم في (المستدرك) (١/ ١٥٣) حديث رقم/ ٢٦٩ من طريق همام... به. وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٩٣) حديث رقم/ ١٨٢ من طريق همام... به. وابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ١٣٨) حديث رقم/ ٣٥٢١١ من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن=

المسألة الرابعة: قال بعضهم: إنه تعالى جعل الجنة بكليتها نزلاً للمؤمنين، والكريم إذا أعطى النزل أولاً فلا بد أن يُتبعه بالخلعة وليس بعد الجنة بكليتها إلا رؤية الله. فإن قالوا: أليس أنه تعالى جعل في الآية الأولى جملة جهنم نزلا الكافرين ولم يبق بعد جملة جهنم عذاب آخر، فكذلك هاهنا جعل جملة الجنة نزلاً للمؤمنين مع أنه ليس له شيء آخر بعد الجنة، والجواب: قلنا: للكافر بعد حصول جهنم مرتبة أعلى منها وهو كونه محجوبًا عن رؤية الله، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] فجعل الصلاء بالنار متأخرًا في المرتبة عن كونه محجوبًا عن الله، ثم قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ الحِول: التحول، يقال: حال من مكانه حولاً، كقوله (عاد في حبها عودًا) يعني لا مزيد على سعادات الجنة وخيراتها حتى يريد أشياء غيرها، وهذا الوصف يدل على غاية الكمال لأن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجة كانت في السعادات فهو طامح الطرف إلى ما هو أعلى منها.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝١٠٩ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة أنواع الدلائل والبينات وشَرَح أقاصيص الأولين، نبه على كمال حال القرآن فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ والمداد اسم لما تمد به الدواة من الحبر ولما يمد به السراج من السليط، والمعنى: لو كُتبت كلمات علم الله وحكمه، وكان البحر مدادًا لها والمراد بالبحر الجنس، لنفد قبل أن تنفد الكلمات.

تقرير الكلام أن البحار كيفما فُرضت في الاتساع والعظمة فهي متناهية، ومعلومات الله غير متناهية والمتناهي لا يفي ألبتة بغير المتناهي. قرأ حمزة والكسائي (ينفد) بالياء لتقدم الفعل على الجمع والباقون بالتاء لتأنيث كلمات، وروي أن حيي بن أخطب قال: في كتابكم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ثم تقرؤون: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]!! فنزلت هذه الآية يعني أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

المسألة الثانية: احتج المخالفون على الطعن في قول أصحابنا أن كلام الله تعالى واحد بهذه الآية، وقالوا: إنها صريحة في إثبات كلمات الله تعالى: وأصحابنا حملوا الكلمات على متعلقات علم الله تعالى، قال الجبائي: وأيضًا قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ يدل على أن

=عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال... فذكره. وصححه الألباني في (الصحيحة) (٩٢١) وأخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١٠٢٨) حديث رقم/ ٣٦٣٧. من طريق فليح عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال: رسول الله ﷺ... فذكره بنحوه.

كلمات الله تعالى قد تنفد في الجملة وما ثبت عدمه امتنع قدمه. وأيضًا قال: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ وهذا يدل على أنه تعالى قادر على أن يجيء بمثل كلامه، والذي يجاء به يكون محدثًا، والذي يكون المحدث مثلاً له فهو أيضًا محدث. وجواب أصحابنا أن المراد منه الألفاظ الدالة على تعلقات تلك الصفة الأزلية.

واعلم أنه تعالى لما بيّن كمال كلام الله أمَر محمدًا ﷺ بأن يسلك طريقة التواضع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي لا امتياز بيني وبينكم في شيء من الصفات إلا أن الله تعالى أوحى إليَّ أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد. والآية تدل على مطلوبين: الأول: أن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر وهي قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾. والثاني: أن كون الإله تعالى: إلهًا واحدًا يمكن إثباته بالدلائل السمعية، وقد قررنا هذين المطلوبين في سائر السور بالوجوه القوية، ثم قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ والرجاء هو ظن المنافع الواصلة إليه، والخوف: ظن المضار الواصلة إليه، وأصحابنا حملوا لقاء الرب على رؤيته، والمعتزلة حملوه على لقاء ثواب الله، وهذه المناظرة قد تقدمت، والعجب أنه تعالى أورد في آخر هذه السورة ما يدل على حصول رؤية الله في ثلاث آيات: أولها: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ [الكهف: ١٠٥]. وثانيها: قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] وثالثها: قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ولا بيان أقوى من ذلك ثم قال: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي من حصل له رجاء لقاء الله فليشتغل بالعمل الصالح، ولما كان العمل الصالح قد يؤتى به لله وقد يؤتى به للرياء والسمعة، لا جرم اعتبر فيه قيدان: أن يؤتى به لله، وأن يكون مبرأ عن جهات الشرك، فقال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. قيل: نزلت هذه الآية في جندب بن زهير، قال لرسول الله ﷺ: إني أعمل العمل لله تعالى فإذا اطلع عليه أحد سرني. فقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبَلُ مَا شُورِكَ فِيهِ**»(١) وروي أيضًا أنه قال له: «**لَكَ أَجْرَانِ: أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلاَنِيَةِ**»(٢) فالرواية الأولى محمولة على ما إذا قصد بعمله الرياء والسمعة، والرواية الثانية محمولة على ما إذا قصد أن يُقتدى به، والمقام الأول مقام المبتدئين، والمقام الثاني مقام الكاملين.

والحمد ﷺ رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) ذكره الزيلعي في (تخريج أحاديث الكشاف) (٢/ ٢١٣) وقال: قلت: غريب. وذكره الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس.

(٢) **ضعيف**: أخرجه هناد في (الزهد) (٢/ ٤٤٤) حديث رقم/ ٨٨٠ قال: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حبيب ابن أبي ثابت عن أبي صالح قال... فذكره. ووصله الترمذي في (سننه) (٤/ ٥٩٤) حديث رقم/ ٢٣٨٤ من طريق حبيب بن أبي ثابت عن أبي صالح عن أبي هريرة... فذكره وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه حبيب بن أبي ثابت... فذكره موصولاً. وابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ٥٨) حديث رقم/ ٣٦٨٥٩ من طريق إسماعيل، عن حبيب بن أبي ثابت، أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: يا رسول الله... فذكره بنحوه. وضَعّفه الألباني في ضعيف السنن، ولعل تضعيفه علته حبيب بن أبي ثابت وهي كثير الإرسال والتدليس وقد عنعنه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الكهف

وهي مكيَّة في قول جميعِ المفسرين. ورُويَ عن فرقة أنَّ أوَّلَ السورةِ نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿جُرُزًا﴾ [الآية:٨]، والأوَّل أصحُّ.

ورُوي في فضلِها من حديث أنسٍ أنَّه قال: مَن قَرَأَ بها أُعْطِيَ نوراً بين السماء والأرض، ووُقيَ بها فتنةَ القبر(١).

وقال إسحاقُ بنُ عبد الله بنِ أبي فَرْوَةَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألا أَدُلُّكم على سورة شيَّعها سبعون ألف مَلَكٍ، مَلأَ عِظَمُها ما بين السماء والأرض، لتاليها مِثْلُ ذلك». قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: «سورةُ أصحابِ الكهف، مَن قَرَأَها يومَ الجمعة، غُفِرَ له إلى الجمعة الأُخرى وزيادةُ ثلاثةِ أيَّام، وأُعطِيَ نوراً يبلغ السماءَ، ووُقِيَ فتنةَ الدجال» ذكره الثعلبِيُّ، والمهدوِيُّ أيضاً بمعناه(٢). وفي «مسند الدَّارِمِيِّ»(٣) عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ قال: مَن قَرَأَ سورةَ الكهف ليلةَ الجمعة، أَضاءَ له من النُّور

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٤ .

(٢) وأخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن (٢٠٣) عن إسماعيل بن أبي رافع قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم بسورة ملأ عظمتها ما بين السماء والأرض...» الخبر بنحوه. وإسماعيل بن أبي رافع يروي عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وكلاهما ضعيف، تنظر ترجمتهما في تهذيب الكمال وغيره من كتب التراجم.

(٣) برقم (٣٤١٠)، وأخرجه أيضاً القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص١٣١ ، وابن الضريس في فضائل القرآن (٢١١). وأخرجه مرفوعاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٦٨ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

فيما بينَه وبينَ البيت العتيقِ.

وفي «صحيح مسلم»[١] عن أبي الدَّرْدَاءِ أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «مَن حَفِظَ عَشْر آيات من أوَّل سورةِ الكهف، عُصِمَ من الدجال». وفي رواية: «من آخر الكهف»[٢]. وفي «مسلم»[٣] أيضاً من حديث النواسِ بن سَمْعان: «فمن أدركه ـ يعني الدجالَ ـ فليَقرأ عليه فواتحَ سورةِ الكهف». وذكره الثعلبيُّ.

قال سَمُرةُ بنُ جُنْدُب: قال النبيُّ ﷺ: «مَن قَرأَ عَشْر آياتٍ من سورةِ الكهف حِفْظاً، لم تضرَّه فتنةُ الدَّجّال، ومن قَرأَ السورةَ كلَّها، دخل الجنَّة[٤]».

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا﴾ ذكر ابنُ إسحاق[٥] أنَّ قريشاً بعثوا النَّضْر بنَ الحارث وعُقبةَ بنَ أبي مُعَيْطٍ إلى أحبارِ يهودَ وقالوا لهما: سَلاهم عن محمَّد، وصِفَا لهم صِفَتَه، وأَخبِراهم بقوله، فإنَّهم أهلُ الكتاب الأوَّل، وعندهم عِلْمٌ ليس عندنا من عِلْم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينةَ، فسألا أحبارَ يهودَ عن رسولِ الله ﷺ، ووَصَفا لهم أمْرَه، وأَخبراهم ببعضِ قوله، وقالا لهم: إنَّكم أهلُ التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبِنا هذا. فقالت لهما أحبارُ يهودَ: سَلُوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنَّ، فإنْ أخبركم بهنَّ، فهو نبيٌّ مرسَلٌ، وإن لم يفعل فالرجلُ مُتَقَوِّل، فرَوْا فيه رأيكم، سَلُوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوَّل، ما كان

---

(١) برقم (٨٠٩).

(٢) مسلم (٨٠٩) إثر الرواية السابقة.

(٣) في كتاب الفتن وأشراط الساعة برقم (٢١٣٧) إثر الحديث (٢٩٣٦).

(٤) لم نقف عليه.

(٥) ونقله عنه ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٣٠٠ - ٣٠٦ بتمامه.

أَمرهم، فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عَجَبٌ؟ وسَلُوه عن رجل طوَّاف قد بلغَ مشارقَ الأرض ومغاربَها، ما كان نَبَؤه؟ وسَلُوه عن الروح، ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتَّبعوه؛ فإنَّه نبيٌّ، وإن لم يفعل، فهو رجلٌ متقوِّل، فاصنعوا في أَمْرِه ما بَدَا لكم.

فأَقبل النضرُ بنُ الحارث وعقبةُ بنُ أبي مُعَيط حتى قدما مكَّة على قريش فقالا: يا معشرَ قريشٍ! قد جئناكم بفَصْل ما بينَكم وبين محمَّد ﷺ، قد أَمَرَنا أحبارُ يهودَ أنْ نسأله عن أشياءَ أَمَرُونا بها، فإنْ أخبركم عنها فهو نبيٌّ، وإن لم يفعل، فالرجل متقوِّل، فرَوْا فيه رأيكم.

فجاؤوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا محمَّد، أَخبِرنا عن فِتيةٍ ذهبوا في الدهر الأوَّل، قد كانت لهم قصةٌ عَجَبٌ؟ وعن رجل كان طوَّافاً قد بلغَ مشارقَ الأرض ومغاربَها؟ وأَخْبرنا عن الروح ما هي؟

قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «أُخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثنِ. فانصرفوا عنه، فمكثَ رسولُ الله ﷺ فيما يزعمون خَمْسَ عشْرة ليلةً، لا يُحْدِث اللهُ إليه في ذلك وَحْياً، ولا يأتيه جبريلُ، حتى أَرْجفَ[1] أهلُ مكَّة وقالوا: وَعَدَنا محمَّدٌ غداً، واليوم خمسَ عشْرة ليلةً، وقد أَصبحنا منها لا يُخبِرنا بشيء مما سألناه عنه، وحتى أَحزن رسولَ الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهلُ مكَّة، ثم جاءه جبريلُ عليه السلام من عندِ الله عزَّ وجلَّ بسورةِ أصحاب الكهف، فيها معاتبتُه إيَّاه على حزنِه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أَمْرِ الفِتْية، والرجلِ الطوَّاف، والرُّوح.

قال ابنُ إسحاق: فذُكر لي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لجبريلَ: «لقد احتبستَ عنِّي يا جبريلُ حتى سُؤت ظنًّا» فقال له جبريلُ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

فافتتح السورةَ تبارك وتعالى بحمده، وذِكْرِ نبوَّة رسولِه ﷺ لِمَا أنكروا عليه من

(١) أرجفَ القومُ: إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن. لسان العرب (رجف).

ذلك فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: محمَّداً، إنَّك رسولٌ مِنِّي، أي: تحقيقٌ لِمَا سألوا عنه من نبوَّتك. ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ قَيِّمًا﴾ أي: معتدلاً لا اختلافَ فيه.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: عاجلَ عقوبته في الدنيا، وعذاباً أليماً في الآخرة، أي: من عندِ ربِّك الذي بعثك رسولاً.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: دارَ الخُلد لا يموتون فيها، الذين صدَّقوك بما جئتَ به مما كذَّبك به غيرُهم، وعَمِلوا بما أَمرتهم به من الأعمال.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني: قريشاً في قولهم: إنَّا نعبدُ الملائكةَ وهي بناتُ الله. ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين أعظموا فراقَهم وعَيْبَ دينهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: لقولهم إنَّ الملائكةَ بناتُ الله. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ لحزنِه عليهم حين فاتَه ما كان يَرجوه منهم، أي: لا تفعل. قال ابنُ هشامٍ[١]: «باخع نفسك» أي: مُهْلكٌ نفسَك، فيما حدَّثني أبو عبيدة[٢]. قال ذو الرُّمَّة[٣]:

ألا أيُّهذا الباخِعُ الوَجْدُ نفسَه ... بشيءٍ نَحَتْه عن يَدَيْه المَقادِرُ

وجمعها: باخعونَ وبَخَعة. وهذا البيت في قصيدةٍ له. وتقول العربُ: قد بَخَعْتُ له نُصْحِي ونَفْسي، أي: جَهَدت له[٤].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال ابنُ إسحاق[٥]:

---

(١) في السيرة النبوية ١/٣٠٢.

(٢) في مجاز القرآن ١/٣٩٣.

(٣) ديوانه ٢/١٠٣٧.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٩٣.

(٥) ونقله عن ابن هشام في السيرة النبوية ١/٣٠٣.

أي: أيُّهم أتبعُ لأمري، وأعملُ بطاعتي.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: الأرض، وإنَّ ما عليها لفانٍ وزائل، وإنَّ المرجعَ إليَّ فأجزِي كلًّا بعمله، فلا تأسَ ولا يَحْزُنْك ما ترى وتسمع فيها. قال ابنُ هشامٍ: الصَّعيد: وَجْهُ الأرض، وجمعه: صُعُد. قال ذو الرُّمّة يصف ظَبْياً صغيراً:

كأنه بالضُّحَى تَرمِي الصعيدَ به   دبَّابةٌ في عِظام الرأسِ خُرْطوم[١]

وهذا البيت في قصيدة له. والصعيد أيضاً: الطريق، وقد جاء في الحديث: «إيَّاكم والقعودَ على الصُّعُدات»[٢] يريد: الطُّرُق. والجُرُز: الأرض التي لا تُنبِت شيئاً، وجمعها: أجراز. ويقال: سَنَةٌ جُرُز، وسِنُونَ أَجراز؛ وهي التي لا يكون فيها مطرٌ، وتكون فيها جُدوبةٌ ويبس وشِدَّة[٣]. قال ذو الرمّة يصف إبلاً:

طَوَى النَّحزُ والأَجرازُ ما في بطونها   فما بقِيتْ إلا الضُّلوعُ الجراشِعُ[٤]

قال ابنُ إسحاق: ثم استقبل قصَّةَ الخبرِ فيما سألوه عنه من شَأْنِ الفتية فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ أي: قد كان من آياتي فيما وضعتُ على العباد مِن حجَّتي ما هو أعجبُ من ذلك. قال ابنُ هشام[٥]: والرَّقيم: الكتابُ الذي رُقِم بخبرهم، وجمعه: رُقُم. قال العَجَّاج[٦]:

---

(١) ديوان ذي الرمة ١/٣٨٩ ، وقال شارحه: والدبابة: الخمر، والخرطوم: أول ما ينزل ويؤخذ من الدَّنِّ، والمعنى: كأن هذا الولدَ ـ يعني الظبيَ ـ بالضحى تبطحه خمر من النعاس، وإنما ينام لريِّه من اللبن.

(٢) أورده بهذا اللفظ ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (صعد)، وأخرجه أحمد (٢٧١٦٣) عن أبي شريح الخزاعي بلفظ: «إياكم والجلوس على الصعدات...» مطولاً، وعنون له البخاري في كتاب المظالم، باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات، وأخرج حديث أبي سعيد الخدري (٢٤٦٥) عن النبي ﷺ قال: إياكم والجلوس على الطرقات.

(٣) سيرة ابن هشام ١/٣٠٣ ، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ص٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٤) ديوان ذي الرمة ٢/١٢٩٦ بنحوه، قال شارحه: والنحز: ضرب الأعقاب والاستحثاث في السير، والجراشع: المنتفخ الجنبين.

(٥) في السيرة النبوية ١/٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٦) ديوانه ص٢٨٥ ، والعجَّاج هو: عبد الله بن رؤبة بن لبيد.

ومُـسْـتَـقَـرَّ الـمُـصْـحَـفِ الـمُـرَقَّـمِ

وهذا البيت في أُرْجوزة له.

قال ابنُ إسحاق: ثم قال: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾. ثم قال: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بصِدْقِ الخبر: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: لم يشركوا بي كما أَشركتم بي ما ليس لكم به علم. قال ابنُ هشام[1]: والشَّطَطُ: الغُلُوُّ ومجاوزةُ الحقِّ. قال أعشى بني[2] قيس بنِ ثَعْلبة[3]:

أتـنـتـهـونَ ولا يَـنْـهَـى ذَوِي شَـطَـطٍ كـالـطَّعْنِ يَذهـبُ فيه الزَّيْت والفُـتُـلُ

وهذا البيت في قصيدة له، قاله ابنُ إسحاق.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾. قال ابن إسحاق: أي: بحجَّة بالغة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا . وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا . وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾. قال ابنُ هشام: تزاوَرَ: تميَّل، وهو من الزَّوَر. وقال أبو الزحف الكُلَيْبيُّ يصف بلداً:

جَـدْبِ الـمُـنَـدَّى عـن هَـوانَـا أَزْوَرُ يُنْضِي المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ[4]

(١) في السيرة النبوية ١/ ٣٠٤.

(٢) في (ظ): بن.

(٣) ديوانه ص١١٣.

(٤) السيرة النبوية ١/ ٣٠٤ – ٣٠٥، وهو في الصحاح: (عشزر)، والمندَّى: حيث يُرتَع، والخِمْس من أظماء الإبل: أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع. الصحاح (خمس).

وهذان البيتان في أرجوزة له.

و﴿تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ تجاوزُهم وتتركهم عن شمالها. قال ذو الرُّمَّة:

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضنَ أقوازَ مُشْرِفٍ شِمالاً وعن أيمانِهِنَّ الفوارِسُ[1]

وهذا البيت في قصيدةٍ له. والفَجْوة: السَّعةُ، وجمعها: الفِجاء. قال الشاعر:

ألبسْتَ قومَك مَخزاةً ومنقصةً حتى أُبيحُوا وحَلُّوا فَجْوةَ الدار[2]

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الحجَّة على من عَرَفَ ذلك من أمورهم من أهلِ الكتاب ممَّن أَمَرَ هؤلاء بمسألتك عنهم في صِدْقِ نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ﴾ قال ابنُ هشام: الوصيد: الباب. قال العبسيُّ، واسمه عبدُ بنُ وهب:

بأرضِ فَلاةٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ[3]

وهذا البيت في أبيات له. والوصيد أيضاً: الفِناء، وجمعه: وصائد، ووُصُد، ووُصْدان.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أهلُ السلطان والمِلْكِ منهم. ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا . سَيَقُولُونَ﴾ يعني: أحبارَ اليهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم. ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ . [وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: لا تُكابرهم. ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ فإنَّهم لا عِلْم لهم بهم.

---

(١) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥، والبيت في ديوان ذي الرمة ٢/ ١١٢٠، وجاء فيه: أجواز، بدل: أقواز، والقَوْز: الكثيب الصغير من الرمل، والفوارس: رملٌ بالدهناء. وينظر الصحاح (قوز).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥، وفيه: وخَلَّوا، بدل: وحَلُّوا.

(٣) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥ وفيه وفي (ظ): عبيد، بدل: عبد، وأورده أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب ١/ ١١٩ ونسبه إلى زهير بن أبي سلمى، ولم نقف عليه في ديوانه.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىٍءٍ] [١] إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي: لا تقولنَّ لشيء سألوك عنه كما قلتَ في هذا: إنِّي مخبركم غداً، واستثنِ مشيئةَ الله، واذْكُر ربَّك إذا نسِيتَ، وقل عسى أن يهديني ربِّي لخبرِ ما سألتموني عنه رَشَداً، فإنَّك لا تدري ما أنا صانعٌ في ذلك.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ أي: سيقولونَ ذلك. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: لم يَخْفَ عليه شيءٌ مما سألوك عنه[٢].

قلت: هذا ما وقَع في السيرة من خبرِ أصحاب الكهف ذكرناه على نَسَقه. ويأتي خبرُ ذي القرنين، ثم نعود إلى أوَّل السورةِ فنقول:

قد تقدَّم معنى «الحمد لله»[٣].

وزعم الأخفش والكسائيُّ والفرَّاء وأبو عبيد وجمهورُ المتأوِّلين أنَّ في أوَّل هذه السورة تقديماً وتأخيراً، وأنَّ المعنى: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجاً[٤].

و﴿قَيِّمًا﴾ نصب على الحال[٥] ـ وقال قتادة: الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير، ومعناه: ولم يجعل له عوجاً ولكن جعلناه قَيِّماً[٦] ـ وقول الضحَّاك فيه حسن، وأن المعنى: مستقيم، أي: مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فسادَ ولا

(١) ما بين حاصرتين في (ظ).
(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٠٥ - ٣٠٦ ، والخبر أخرجه الطبري في التفسير ١٥/ ١٤٣ - ١٤٤ عن ابن عباس مختصراً.
(٣) ١/ ٢٠٢ وما بعدها.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧ ، وينظر معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٦ ، وللفراء ٢/ ١٣٣ .
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧ .
(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٤٤ .

تناقضَ[١]. وقيل: «قيِّماً» على الكتب السابقة يُصدِّقها. وقيل: «قَيِّماً» بالحُجج أبداً.

﴿عِوَجَا﴾ مفعول به، والعِوَج، بكسر العين: في الدِّين والرأي والأمر والطريق. وبفتحها في الأجسام كالخشب والجدار، وقد تقدَّم[٢]. وليس في القرآن عِوَجٌ، أي: عيبٌ، أي: ليس متناقضاً مختلفاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقيل: أي: لم يجعله مخلوقاً، كما روي عن ابنِ عباس في قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] قال: غير مخلوق[٣]. وقال مقاتل: «عِوَجاً»: اختلافاً. قال الشاعر:

أدوم بــودِّي لـلـصـديـق تـكـرُّمـاً ولا خيرَ فيمن كان في الودِّ أعْوَجَا[٤]

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي: لينذر محمَّدٌ أو القرآنُ. وفيه إضمارٌ، أي: لينذرَ الكافرين عقابَ اللهِ. وهذا العذابُ الشديدُ قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة.

﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ أي: من عندِه[٥]. وقرأ أبو بكرٍ عن عاصم: «من لدْنه» بإسكان الدَّالِ وإشمامِها الضَّمَّ وكسرِ النون، والهاء موصولةٌ بياء. الباقون «لدُنْهُ» بضمِّ الدَّالِ وإسكانِ النون وضمِّ الهاء[٦]. قال الجوهريُّ: وفي «لدن» ثلاثُ لغات: لَدُن، ولَدَى، ولَدُ. وقال:

مِـن لَـدُ لَـحْـيَـيْـه إلـى مُـنْـخُـورِهِ[٧]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ١٤١ .

(٢) ٥/ ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وينظر النكت والعيون ٤/ ٢٨٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٩٤ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٤٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٨٣ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٨٣ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٤٥ وعزاه إلى قتادة.

(٦) السبعة ص٣٨٨ ، والتيسير ص١٤٢ .

(٧) الصحاح (لدن)، وأورد البيت ابن منظور في لسان العرب (لدن) ونسبه إلى غيلان بن حريث، وقال: قال ابن بري: وأنشده سيبويه: إلى منخوره، أي: منخزه. اهـ، وكذا جاء في الصحاح، وفي (ظ) و(د).

المُنْخُور: لغةٌ في المَنْخَر[١].

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهي الجنَّة. ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ دائمين. ﴿فِيهِ أَبَدًا﴾ لا إلى غايةٍ. وإن حملتَ التبشيرَ على البيان، لم يحتج إلى الباء في «بأن». والأجْر الحسن: الثوابُ العظيمُ الذي يؤدِّي إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهودُ، قالوا: عزيرٌ ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله. وقريشٌ قالت: الملائكةُ بناتُ الله[٢]. فالإنذار في أوَّل السورة عامٌّ، وهذا خاصٌّ فيمن قال لله ولد.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ «مِن» صِلَةٌ، أي: ما لهم بذلك القولِ عِلْم؛ لأنَّهم مقلِّدة، قالوه بغير دليل. ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي: أسلافهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ «كلمة» نصبٌ على البيان، أي: كَبُرَت تلك الكلمةُ كلمةً. وقرأ الحسنُ ومجاهدٌ ويحيى بنُ يَعْمَر وابنُ أبي إسحاق «كلمةٌ» بالرفع، أي: عَظُمتْ كلمةٌ، يعني قولَهم: «اتَّخذ الله ولداً»[٣]. وعلى هذه القراءة فلا حاجةَ إلى إضمار. يقال: كبر الشيء: إذا عَظُمَ. وكَبِرَ الرجلُ: إذا أسنَّ[٤]. ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ في موضعِ الصفة. ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي: ما يقولون إلا كذباً.

---

(١) في (ظ) و(د): المنخور لغة في المنخر.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٥، وتفسير الرازي ٢١/ ٧٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٧ - ٤٤٨، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٤، ومختصر شواذ القرآن لابن خالويه ص٧٨.

(٤) الصحاح (كبر).

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ «باخع» أي: مُهلِكٌ وقاتلٌ، وقد تقدَّم[١]. «آثارِهِمْ»: جمع أثَر، ويقال: إثْر[٢]. والمعنى: على أثَر تولِّيهم وإعراضِهم عنك. ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ أي: حزناً وغضباً على كفرهم، وانتصبَ على التفسير[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ «ما» و«زينةً» مفعولان[٤]. والزينةُ: كلُّ ما على وجه الأرض، فهو عمومٌ؛ لأنَّه دالٌّ على بارئه. وقال ابن جُبير عن ابنِ عباس: أراد بالزينة الرجالَ، وقاله مجاهد. وروى عكرمةُ عن ابنِ عباس أنَّ الزينةَ الخلفاءُ والأمراءُ[٥]. وروى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهد عن ابنِ عباس في قوله تعالى: «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها» قال: العلماءُ زينةُ الأرض[٦]. وقالت فرقةٌ: أراد النِّعَم والملابس والثمارَ والخُضْرةَ والمياه، ونحوَ هذا مما فيه زينةٌ، ولم يدخل فيه الجبالُ الصُّمُّ، وكلُّ ما لا زينة فيه كالحياتِ والعقارب. والقول بالعموم أَوْلى، وأنَّ كلَّ ما على الأرض فيه زينةٌ من جهة خَلْقه وصنْعه وإحكامه[٧]. والآيةُ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٨ ، وينظر ما تقدم أول السورة ص٢٠٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٤٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٦ .

(٦) ينظر زاد المسير ٥/ ١٠٥ - ١٠٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٦ - ٤٩٧ .

بَسْطٌ في التسلية، أي: لا تهتمَّ يا محمد للدنيا وأهلِها؛ فإنَّا إنَّما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلِها، فمنهم من يتدبَّر ويؤمن، ومنهم من يَكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم، فلا يعظُمنَّ عليكَ كفرُهم، فإنَّا نُجازيهم.

الثانية: معنى هذه الآية ينظر إلى قول النبيِّ ﷺ: «إنَّ الدنيا خَضِرةٌ حُلوةٌ، والله مستخلفُكم فيها، فينظرُ كيف تعملون». وقوله ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم ما يُخرج اللهُ لكم من زَهرةِ الدنيا» قالوا: وما زهرةُ الدنيا؟ قال: «بركاتُ الأرض» خرَّجهما مسلمٌ وغيرُه مِن حديث أبي سعيد الخُدْرِيِّ[١]. والمعنى: أنَّ الدنيا مستطابَةٌ في ذَوْقِها، مُعجِبةٌ في منظرها، كالثمر المُسْتَحْلَى[٢] المُعْجِب المرأى[٣]، فابتلى اللهُ بها عبادَه؛ لينظرَ أيُّهم أحسنُ عملاً. أي: مَن أَزهدُ فيها وأَتركُ لها، ولا سبيلَ للعباد إلى معصية ما زيَّنه اللهُ إلا أن يعينه على ذلك. ولهذا كان عمرُ يقول فيما ذكر البخاريُّ[٤]: اللَّهُمَّ إنَّا لا نستطيعُ إلا أن نفرحَ بما زيَّنته لنا، اللَّهُمَّ إني أسألكَ أن أنفقَه في حقِّه. فدعا اللهَ أن يعينه على إنفاقه في حقِّه. وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «فمن أَخَذَه بطيبِ نَفْسٍ، بُورِكَ له فيه، ومن أَخَذَه بإشراف نفسٍ، كان كالذي يأكلُ ولا يشبع»[٥]. وهكذا هو المكثِر من الدنيا لا يَقنَعُ بما يَحصلُ له منها، بل همَّته جَمْعُها؛ وذلك لعدمِ الفَهْم عن الله تعالى ورسوله، فإنَّ الفتنةَ معها حاصلةٌ، وعدمَ السلامة غالبةٌ، وقد أَفلحَ من أَسلم، ورُزِقَ كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه.

وقال ابنُ عطية[٦]: كان أبي ﷺ يقول في قوله: «أحسن عملاً»: أَحسنُ العملِ

(١) صحيح مسلم (٢٧٤٢) و(١٠٥٢): (١٢٢) على الترتيب، والأول أخرجه أيضاً أحمد (١١١٤٣)، والترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤٠٠٠)، والثاني أحمد (١١٠٣٥)، وابن ماجه (٣٩٩٥). وهما عند البخاري (١٤٦٥) و(٢٨٤٢) بنحوهما.

(٢) في (د) و(ظ): كالتمر المستجلي.

(٣) في (ظ): للرأي. والكلام من المفهم ٧/ ٣١٢ .

(٤) في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: هذا المال خضرة حلوة، قبل حديث (٦٤٤١).

(٥) تقدم آنفاً.

(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ .

أخذٌ بحقٍّ، وإنفاقٌ في حقٍّ مع الإيمان، وأداءُ الفرائضِ، واجتنابُ المحارم، والإكثارُ من المندوب إليه.

قلت: هذا قولٌ حسنٌ، وجيزٌ في ألفاظه، بليغٌ في معناه، وقد جمعَه النبيُّ ﷺ في لفظٍ واحد، وهو قوله لسفيانَ بنِ عبدِ الله الثَّقَفِيِّ لما قال: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدك ـ في رواية: غيرك ـ قال: «قل: آمنتُ بالله ثم استقِم» خرَّجه مسلم(١). وقال سفيان الثّورِيُّ: «أحسنُ عملاً»: أزهدُهم فيها(٢). وكذلك قال أبو عصام العسقلانيُّ: «أحسنُ عملاً»: أتْركُ لها(٣).

وقد اختلفت عباراتُ العلماء في الزهد فقال قوم: قِصَرُ الأمل وليس بأكل الخشِن ولبسِ العَباء، قاله سفيان الثّوْريُّ(٤). قال علماؤنا: وصدَق ﷺ! فإنَّ مَن قَصُر أملُه، لم يتأنَّق في المطعوماتِ، ولا يتفنَّن في الملبوسات، وأَخَذَ من الدنيا ما تيسَّر، واجتزأ منها بما يُبَلِّغ.

وقال قومٌ: بُغْضُ المحمدةِ وحُبُّ الثناء. وهو قول الأوزاعِيِّ ومن ذهب إليه.

وقال قومٌ: تَرْكُ الدنيا كلِّها هو الزهد، أَحَبَّ تَرْكَها أم كَرِه. وهو قول فُضيلٍ. وعن بشرِ بنِ الحارث قال: حُبُّ الدنيا: حبُّ لقاءِ الناس، والزهدُ في الدنيا: الزهد في لقاء الناس. وعن الفضيلِ أيضاً: علامةُ الزهدِ في الدنيا الزهدُ في الناس. وقال قومٌ: لا يكون الزاهدُ زاهداً حتى يكون تَرْكُ الدنيا أحبَّ إليه من أخذها، قاله إبراهيمُ بنُ أدهم(٥). وقال قومٌ: الزهد: أن تزهدَ في الدنيا بقلبِك، قاله ابنُ المبارك. وقالت فرقةٌ: الزهدُ: حبُّ الموت(٦). والقول الأوَّل يعمُّ هذه الأقوالَ بالمعنى، فهو أَولى.

---

(١) برقم (٣٨)، وهو عند أحمد (١٥٤١٦).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٤٥ (١٢٧٠٧).

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ١٥٢ .

(٤) الرسالة القشيرية ٢/ ١٦٦ - ١٦٨ .

(٥) أخرجه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ١٩ .

(٦) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٣٠٦ .

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

تقدَّم بيانه[١]. وقال أبو سهلٍ: تراباً لا نباتَ به، كأنَّه قُطع نباتُه. والجَرْز: القَطْع، ومنه سنة جُرُزٌ. قال الراجز:

قـد جَـرفَـتْـهـنَّ الـسِّـنُـونُ الأَجْـرَاز[٢]

والأرضُ الجُرُز: التي لا نباتَ فيها ولا شيءَ من عمارةٍ وغيرها، كأنَّه قُطِعَ وأُزيل. يعني: يومَ القيامة، فإنَّ الأرضَ تكون مستويةً لا مستتَر فيها[٣]. النحاس[٤]: والجُرْزُ في اللغة: الأرضُ التي لا نباتَ بها. قال الكسائيُّ: يقال: جُرِزَت الأرضُ تَجْرَز، وجرزها القوم يَجْرُزونها: إذا أكلوا كلَّ ما جاء فيها من النباتِ والزرع، فهي مَجْرُوزة وجُرُز[٥].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

مذهب سيبويه أنَّ «أَمْ» إذا جاءت دون أن يتقدَّمها ألفُ استفهامٍ أنَّها بمعنى «بل» وألف الاستفهام، وهي المنقطعة. وقيل: «أَمْ» عطف على معنى الاستفهام في «لعلك»، أو بمعنى ألف الاستفهامِ على الإنكار. قال الطبريُّ: وهو تقريرٌ للنبيِّ ﷺ على حسابِه أنَّ أصحابَ الكهف كانوا عجباً، بمعنى إنكار ذلك عليه، أي: لا يعظم ذلك بحسَب ما عظمه عليك السائلونَ من الكَفَرة، فإنَّ سائرَ آياتِ اللهِ أعظمُ من قصَّتهم وأشيعُ، هذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابنِ إسحاق[٦]. والخطاب

---

(١) في بداية هذه السورة.

(٢) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٩٤ ، والطبري ١٥/ ١٥٤ ، والجوهري في الصحاح (جرز) ولم ينسبوه.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ ، والتعريف والإعلام ص١٠٠ ، وزاد المسير ٥/ ١٠٦ - ١٠٧ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢١٦ ، والجرز فيها أربع لغات كما في الصحاح (جرز).

(٥) ينظر تهذيب اللغة ١٠/ ٦٠٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ ، وينظر الكتاب لسيبويه ٣/ ١٧٢ - ١٧٨ ، وتفسير الطبري ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وتفسير مجاهد ١/ ٣٧٣ .

للنبيِّ ﷺ، وذلك أنَّ المشركين سألوه عن فِتْيةٍ فُقدوا، وعن ذي القرنين، وعن الروح، وأبطأَ الوَحْيُ على ما تقدَّم[١]. فلما نزل قال اللهُ تعالى لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: أحسبتَ يا محمدُ أنَّ أصحابَ الكهف والرَّقِيمِ كانوا من آياتنا عجباً، أي: ليسوا بعَجَب من آياتنا، بل في آياتنا ما هو أعجبُ مِن خبرهم[٢]. الكلبي: خَلْقُ السماواتِ والأرضِ أعجبُ من خبرهم. الضحاك: ما أَطْلَعتُكَ عليه من الغيبِ أعجبُ. الجُنيد: شأنُكَ في الإسراء أعجبُ. الماورديُّ: معنى الكلام النفيُ، أي: ما حسبت لولا إخبارنا[٣]. أبو سهل: استفهامُ تقريرٍ، أي: أحسبتَ ذلك فإنَّهم عجبٌ.

والكهف: النَّقْب المتَّسعُ في الجبل، وما لم يتَّسع منها فهو غارٌ. وحكى النَّقاش عن أنس بنِ مالك أنَّه قال: الكهفُ: الجبلُ، وهذا غيرُ شهير في اللغة[٤].

واختلف الناسُ في الرَّقيم، فقال ابنُ عباس: كلُّ شيءٍ في القرآن أَعلمه إلا أربعةً: غِسْلين وحَنَان والأوَّاه والرَّقيم[٥]. وسُئِلَ مرَّة عن الرَّقيم فقال: زعَم كعبٌ أنَّها قريةٌ خرجوا منها[٦]. وقال مجاهد: الرقيمُ: وادٍ[٧]. وقال السُّدِّيُّ: الرقيمُ: الصخرةُ التي كانت على الكهف. وقال ابنُ زيد: الرقيمُ: [كتابٌ غَمَّ اللهُ علينا أمرَه، ولم يشرحْ لنا قصَّته. وقالت فرقةٌ: الرقيم][٨]: كتابٌ في لوح مِن نُحاس. وقال ابنُ عباس: في لوح من رَصاصٍ كَتب فيه القومُ الكفارُ ـ الذين فرَّ الفتيةُ منهم ـ قصَّتَهم وجعلوها

(١) في أول السورة.

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ٢٨٧، والوسيط ٣/ ١٣٧، وتفسير البغوي ٣/ ١٤٥، وزاد المسير ٥/ ١٠٨.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٨٧.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧، وفيه: وحكى النحاس، بدل: وحكى النقاش.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٧، وذكره أبو الليث في التفسير ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ بنحوه.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٧، والطبري ١٥/ ١٥٨.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٦ - ٣٩٧، والطبري ١٥/ ١٥٨.

(٨) ما بين حاصرتين ليس في (ظ).

تاريخاً لهم، ذكروا وقتَ فَقْدِهم، وكم كانوا، وبين من كانوا[١]. وكذا قال الفرَّاء، قال: الرقيمُ: لوحٌ من رَصاص، كُتب فيه أسماؤهم وأنسابُهم ودينُهم وممَّن هربوا[٢]. قال ابنُ عطيَّة[٣]: ويظهر من هذه الرواياتِ أنَّهم كانوا قوماً مؤرِّخين للحوادث، وذلك من نبل المملكة، وهو أمرٌ مفيدٌ. وهذه الأقوالُ مأخوذةٌ من الرَّقْم، ومنه: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٢٠] ومنه الأَرقمُ؛ لتخطيطه. ومنه رَقْمة الوادي، أي: مكان جَرْي الماء وانعطافه.

وما رُوي عن ابنِ عباس ليس بمتناقضٍ؛ لأنَّ القولَ الأوَّلَ إنَّما سمعه مِن كَعْب. والقولَ الثانيَ يجوز أن يكونَ عَرَفَ الرقيمَ بعده. وروى عنه سعيدُ بنُ جُبير قال: ذكَر ابنُ عباس أصحابَ الكهف فقال: إنَّ الفتيةَ فُقِدوا، فطلبهم أهلُوهم فلم يجدوهم، فرُفع ذلك إلى الملك فقال: ليكوننَّ لهم نبأٌ، وأَحضر لوحاً من رصاصٍ فكَتب فيه أَسماءَهم وجعله في خِزانته، فذلك اللوحُ هو الرقيمُ[٤].

وقيل: إنَّ مؤمِنَيْن كانا في بيت الملك فكتبا شأنَ الفتية وأسماءَهم وأنسابَهم في لوح من رصاص، ثم جعلاه في تابوتٍ من نُحاس وجعلاه في البنيان، فالله أعلم[٥].

وعن ابن عباس أيضاً: الرقيمُ: كتابٌ مرقومٌ كان عندهم فيه الشَّرْعُ الذي تمسَّكوا به من دِيْنِ عيسى عليه السلام. وقال النقَّاش عن قَتادةَ: الرقيمُ: دراهمهم. وقال أنسُ ابنُ مالك والشَّعْبيُّ: الرقيمُ: كلبُهم. وقال عكرمة: الرقيمُ: الدَّواةُ[٦]. و قيل: الرقيمُ: اللوحُ من الذهب تحت الجدارِ الذي أقامه الخَضر. وقيل: الرقيمُ: أصحابُ الغارِ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ .

(٢) معاني القرآن ٢/ ١٣٤ .

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ - ٤٩٨ .

(٤) زاد المسير ٥/ ١٠٩ بنحوه.

(٥) عرائس المجالس ص٤٢٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٧ - ٤٩٨ ، وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٨٧ ، وزاد المسير ٥/ ١٠٨ .

الذي انطبقَ عليهم، فذكر كلٌّ واحدٍ منهم أَصلح عمله[١].

قلت: وفي هذا خبرٌ معروفٌ أخرجه الصحيحان[٢]، وإليه نحا البخاريُّ. وقال قوم: أَخبر اللهُ عن أصحاب الكهف، ولم يُخبِر عن أصحاب الرقيم بشيء. وقال الضحاك: الرقيمُ: بلدةٌ بالرُّوم فيها غارٌ فيه أَحَدَ وعشرونَ نَفْساً، كأنَّهم نيامٌ على هيئة أصحابِ الكهف، فعلى هذا هم فِتْيةٌ آخرونَ جرى لهم ما جَرى لأصحاب الكهف[٣]. والله أعلم. وقيل: الرقيم: وادٍ دونَ فلسطين فيه الكهف[٤]، مأخوذ من رَقْمة الوادي: وهي موضعُ الماء، يقال: عليك بالرَّقْمة وَدَعِ الضِّفَّة، ذكره الغزنوي[٥]. قال ابنُ عطيَّة[٦]: وبالشام ـ على ما سمعتُ به من ناسٍ كثير ـ كهف فيه موتى، يزعم مجاوِروه أَنَّهم أصحابُ الكهف، وعليهم مسجدٌ وبناءٌ يسمَّى الرقيم، ومعهم كلبٌ رِمَّة. وبالأندلس في جهة غَرْناطة بقرب قريةٍ تسمَّى «لَوْشة» كهفٌ فيه موتى ومعهم كلبٌ رِمَّة، وأكثرهم قد تجرَّد لحمه، وبعضُهم متماسك، وقد مضتِ القرونُ السالفةُ، ولم نجد من عِلْم شأنهم أَثَارة، ويزعم ناسٌ أَنَّهم أصحابُ الكهف، دخلتُ إليهم ورأيتُهم سنة أربع وخمس مئة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجدٌ، وقريبٌ منهم بناء رُوميٌّ يسمَّى الرقيم، كأنَّه قَصْرٌ مُخْلِق قد بقي بعض جدرانه، وهو في فلاةٍ من الأرض خَرِبة،

(١) أخرج أحمد (١٨٤١٧)، والطبراني في الأحاديث الطوال (٤١)، وفي الأوسط (٢٣٢٨)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٧٩ عن النعمان بن بشير أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن الرقيم: أن ثلاثة نفر دخلوا في كهف فوقع قطعة من الجبل على باب الكهف فأوصد عليهم... الحديث. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٤٠: رواه أحمد والطبراني في الأوسط والكبير، والبزار بنحوه من طرق، ورجال أحمد ثقات.

(٢) أخرج البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم... الحديث.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٨٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ١٥٧ - ١٥٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وينظر عرائس المجالس ص٤١٥ - ٤١٦.

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ١٦١، والمحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ بنحوه.

(٦) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١١.

وبأعلى غَرناطة مما يلي القبلةَ آثارُ مدينة قديمة روميَّة يقال لها: مدينة دَقْيُوس، وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها.

قلت: ما ذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنَّما هم غيرهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقول في حقِّ أصحابِ الكهف: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾. وقال ابنُ عباس لمعاوية لما أرادَ رؤيتَهم: قد منَع اللهُ من هو خيرٌ منك عن ذلك، وسيأتي في آخر القصَّة[١].

وقال مجاهدٌ في قوله: «كانوا من آياتنا عَجَباً» قال: هم عَجَبٌ.كذا روى ابنُ جُريج عنه، يذهب إلى أنَّه ليس بإنكار على النبيِّ ﷺ أن يكون عنده أنَّهم عَجَب. وروى ابنُ نجيح عنه قال: يقول ليس بأعجبِ آياتنا[٢].

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ رُوي أنَّهم قومٌ من أبناء أشرافِ مدينة دقيوس الملكِ الكافر، ويقال فيه: دقينوس. ورُوي أنَّهم كانوا مطوَّقين مسوَّرين بالذهب ذوي ذوائب، وهم من الرُّوم واتَّبعوا دينَ عيسى. وقيل: كانوا قبلَ عيسى، والله أعلم[٣].

وقال ابنُ عباس: إنَّ مَلِكاً من الملوك ـ يقال له: دقيانوس ـ ظهرَ على مدينة من مدائنِ الرُّوم يقال لها: أُفْسُوس. وقيل هي: طَرَسوس، وكان بعد زمنِ عيسى عليه السلام فأمر بعبادةِ الأصنام، فدعا أهلَها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعةُ أحداثٍ يعبدون اللهَ سراً، فرُفع خبرُهم إلى الملك وخافوه، فهربوا ليلاً، ومرُّوا براعٍ معه كلبٌ

(١) عند تفسير الآية (٢٧) من هذه السورة، وتخريج كلام ابن عباس هناك.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ١٥٥ - ١٥٦ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٧٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ .

فتبعهم، فآوَوْا إلى الكهف، فتبعهم الملك إلى فَم الغارِ، فوجد أثرَ دخولهم ولم يجد أثَر خروجهم، فدخلوا فأعمى اللهُ أبصارَهم فلم يَرَوا شيئاً، فقال الملك: سُدُّوا عليهم بابَ الغارِ حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً[١].

وروى مجاهد عن ابنِ عباس أيضاً أنَّ هؤلاء الفتية كانوا في دِيْنِ مَلِكٍ يعبد الأصنامَ ويذبح لها ويَكفرُ بالله، وقد تابعه على ذلك أهلُ المدينة، فوقع للفتية عِلْم من بعض الحواريين - حسبما ذكر النقَّاش، أو: من مؤمني الأُمم قبلهم - فآمنوا بالله ورأوا ببصائرِهم قبيحَ فعل الناس، فأخذوا نفوسَهم بالتزام الدِّين وعبادةِ الله، فرُفع أمرُهم إلى الملك، وقيل له: إنهم قد فارقوا دينك واستخفُّوا آلهتك وكفروا بها، فاستحضَرهم الملِكُ إلى مجلسه، وأمرهم باتباع دينِه والذَّبح لآلهته، وتوعَّدهم على فِراق ذلك بالقتل، فقالوا له فيما روي: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾. وروي أنَّهم قالوا نحوَ هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملِكُ: إنَّكم شبانٌ أَغمار لا عقولَ لكم، وأنا لا أَعجل بكم بل أَستأني، فاذهبوا إلى منازِلكم ودبِّروا رأيكم وارجعوا إلى أمري، وضرَب لهم في ذلك أجلاً، ثم إنَّه سافر خلال الأَجلِ، فتشاور الفِتيةُ في الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدُهم: إنِّي أَعرف كهفاً في جبل كذا، كان أبي يُدخِل فيه غنمَه، فَلْنذهب فَلْنَخْتَفِ فيه حتى يفتحَ اللهُ لنا، فخرجوا فيما رُويَ يلعبون بالصَّوْلجان والكُرَة، وهم يدحرجونها إلى نحوِ طريقهم؛ لئلا يشعرَ الناسُ بهم. ورُوي أنهم كانوا مُتَّفِقين[٢]، فحضر عيدٌ خرجوا إليه، فركبوا في جملة الناس، ثم أَخذوا باللَّعِب بالصَّوْلجان حتى خَلَصوا بذلك[٣].

وروى وهبُ بنُ منبِّه أنَّ أولَ أمرهم إنَّما كان حواريٌّ لعيسى ابنِ مريم جاء إلى مدينة أصحابِ الكهف يريد دخولَها، فأَجَرَ نفسَه من صاحب الحمَّام وكان يعمل فيه، فرأى صاحبُ الحمام في أعماله بركةً عظيمةً، فألقى إليه بكلِّ أمره، وعرف ذلك

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٢) في (ز) و(م) والمحرر الوجيز: «مثقفين».

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨ .

الرجلَ فتيانٌ من المدينة، فعرَّفهم اللهَ تعالى، فآمنوا به واتَّبعوه على دينه، واشتهرت خلطتُهم به، فأتى يوماً إلى ذلك الحمَّام وَلَدُ الملِك بامرأةٍ أراد الخَلْوةَ بها، فنهاه ذلك الحوارِيُّ، فانتهى، ثم جاء مرَّة أُخرى فنهاه، فشتَمه، وأمضى عَزْمه في دخول الحمَّام مع البَغِيِّ، فدخل فماتا فيه جميعاً، فاتُّهِم ذلك الحواريُّ وأصحابُه بقتلهما، ففرُّوا جميعاً حتى دخلوا الكهفَ[1]. وقيل في خروجهم غير هذا.

وأما الكلب فرُويَ أنَّه كان كلبَ صيدٍ لهم، ورُويَ أنَّهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلبٌ فاتَّبعهم الراعي على رأيهم وذهب الكلبُ معهم، قاله ابن عباس. واسمُ الكلب: حمران، وقيل: قطمير[2].

وأما أسماءُ أهل الكهف فأعجميَّة، والسَّنَدُ في معرفتها واهٍ. والذي ذكره الطبريُّ[3] هي هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلِّم عنهم، ومحسيميلنينا ويمليخا، وهو الذي مضى بالوَرِقِ إلى المدينة عند بَعْثهم مِن رقدتهم، ومرطوس، وكشوطوش، ودينموس، ويطونس، وبيرونس. قال مقاتل: وكان الكلبُ لمكسلمينا، وكان أسنَّهم وصاحبَ غنم.

الثانية: هذه الآية صريحةٌ في الفرار بالدِّين وهجرةِ الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوفَ الفتنة وما يلقاهُ الإنسانُ من المحنة. وقد خرج النبيُّ ﷺ فارًّا بدِيْنه، وكذلك أصحابُه، وجلس في الغار حسبما تقدَّم في سورة النحل[4]. وقد نصَّ اللهُ تعالى على ذلك في «براءة» وقد تقدَّم[5]. وهجروا أوطانَهم، وتركوا أرضَهم ودِيارَهم وأهاليهم وأولادَهم وقراباتهم وإخوانَهم، رجاءَ السلامة

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٩، وعرائس المجالس ص٤٢٣، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٩٧ - ٣٩٩، والطبري ١٥/ ١٧٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٩، وينظر المحبَّر ص٣٥٦، وعرائس المجالس ص٤١٩.

(٣) في التفسير ١٥/ ١٦٥ - ١٦٦، وينظر المحبّر ص٣٥٦، وعرائس المجالس ص٤١٩.

(٤) ١٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤، وسلف تخريج الحديث هناك.

(٥) ١٠/ ٢١٠ وما بعدها.

بالدِّين والنجاةِ من فتنة الكافرين. فسُكْنَى الجبال ودخول الغِيران، والعزلة عن الخَلْق والانفراد بالخالق، وجواز الفِرارِ من الظالم هي سُنَّة الأنبياءِ صلوات الله عليهم والأولياءِ. وقد فضَّل رسولُ الله ﷺ العزلةَ، وفضَّلها جماعةُ العلماء لا سيما عند ظهور الفتنِ وفساد الناس، وقد نصَّ اللهُ تعالى عليها في كتابه فقال: «فَأْوُوا إِلى الْكَهْفِ»(١).

قال العلماء: الاعتزالُ عن الناس يكون مرَّة في الجبال والشِّعاب، ومرَّة في السواحل والرِّباط، ومرَّة في البيوت، وقد جاء في الخبر: «إذا كانت الفتنةُ فأَخْفِ مكانَك وكُفَّ لسانَك». ولم يخصَّ موضعاً مِن موضع(٢). وقد جعلت طائفةٌ من العلماء العزلةَ اعتزالَ الشَّرِّ وأهلِه بقلبِك وعملِك، وإن كنتَ بين أظهرهم. وقال ابنُ المبارك في تفسير العزلة: أن تكونَ مع القوم فإذا خاضوا في ذكر الله فَخُضْ معهم، وإن خاضوا في غيرِ ذلك فاسكت(٣).

وروى البَغَوِيُّ عن ابنِ عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «المؤمن الذي يُخالط الناسَ ويَصبِرُ على أذاهم أفضلُ من المؤمن الذي لا يُخالِطهم ولا يَصبِرُ على أذاهم»(٤). ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ قال: «نِعْمَ صوامعُ المؤمنين بيوتُهم» من مراسيل الحسن وغيره(٥).

---

(١) التمهيد ١٧/ ٤٤٠ ، وينظر العزلة للخطابي ص٦٢ - ٦٣ .

(٢) التمهيد ١٧/ ٤٤٠ ، وأورد الحديث بهذا اللفظ، وأخرجه أحمد (٦٩٨٧) ، وأبو داود (٤٣٤٣)، والخطابي في العزلة ص٦٣ - ٦٤ من حديث عبد الله بن عمرو بنحوه.

(٣) التمهيد ١٧/ ٤٤٦ .

(٤) أبو القاسم البغوي في الجعديات (٧٤٤)، وأبو محمد البغوي في شرح السنة (٣٥٨٥)، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذي (٢٥٠٧)، وابن ماجه (٤٠٣٢). وحسَّن الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٥١٢ إسناد ابن ماجه، مع أن فيه عبد الواحد بن صالح، وهو مجهول، كما ذكر ذلك ابن حجر في التقريب، وينظر التمهيد ١٧/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٢٧٩ ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٩ من مرسل الحسن، وأخرجه أيضاً ابن عدي مرفوعاً من حديث أنس، وقال: وهذا زاد فيه ابن بنت مطر هذا أنس والنبي ﷺ، وإنما هذا من قول الحسن... وابن بنت مطر هذا أظهر أمراً في الضعف، وأحاديثه عامتها مسروقة سرقها من قوم ثقات ويوصل أحاديثه. اهـ، وهو عند ابن المبارك في زوائد الزهد ص٤ ، وابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٩ ، والخطابي في العزلة ص٧٠ - ٧١ عن أبي الدرداء موقوفاً بنحوه، وينظر التمهيد ١٧/ ٤٤٢ .

وقال عقبةُ بنُ عامر لرسول الله ﷺ: ما النجاةُ يا رسول الله؟ فقال: «يا عقبةُ أَمسِك عليك لسانَك، ولْيَسَعْكَ بيتُك، وابْكِ على خطيئتك»[١]. وقال ﷺ: «يأتي على الناس زمانٌ خير مالِ الرجل المسلم الغنمُ يتبع بها شَعَفَ الجبالِ ومواقعَ القطر، يَفِرُّ بدينه من الفتن». خرَّجه البخاريُّ[٢].

وذكر عليُّ بنُ سعد، عن الحسن بن واقد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت سنة ثمانين ومئة فقد حلَّت لأمتي العُزْبة والعُزْلة والترهُّب في رؤوس الجبال»[٣].

وذكر أيضاً عليُّ بنُ سعد، عن عبد الله بنِ المبارك، عن مبارك بنِ فضالة، عن الحسن يرفعه إلى رسولِ الله ﷺ قال: «يأتي على الناس زمانٌ لا يَسْلَم لذي دِينٍ دينُه إلا مَن فرَّ بدينه مِن شاهقٍ إلى شاهق، أو جِحْر إلى جِحْر، فإذا كان ذلك، لم تُنَل المعيشةُ إلا بمعصيةِ الله، فإذا كان ذلك، حلَّت العُزْبة». قالوا: يا رسول الله، كيف تَحِلُّ العُزْبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟! قال: «إذا كان ذلك كان فسادُ الرجل على يدي أبوَيْه، فإن لم يكن له أبوان، كان هلاكُه على يدي زوجته، فإن لم تكن له زوجةٌ، كان هلاكُه على يدي ولدِه، فإن لم يكن له ولدٌ، كان هلاكه على يدي القرابات والجيران». قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يُعيِّرونه بضِيْق المعيشة ويكلِّفونه ما لا يُطيق، فعند ذلك يُورِدُ نفسَه المواردَ التي يهلك فيها»[٤].

قلت: أحوالُ الناس في هذا الباب تختلف، فرُبَّ رجلٍ تكون له قوَّة على سكنى الكهوفِ والغِيران في الجبال، وهي أرفعُ الأحوال؛ لأنَّها الحالةُ التي اختارها اللهُ لنبيِّه ﷺ في بداية أمره، ونصَّ عليها في كتابه مخبراً عن الفتية، فقال: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٣٥)، والترمذي (٢٤٠٦)، وابن المبارك في الزهد (١٣٤). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) برقم (٣٦٠٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وشَعَف الجبال: جمع شَعَفَة، وهي رأس الجبل.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) أخرجه الخطابي في العزلة ص٦٦ - ٦٧ ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٢٥ ، والقزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٢١ .

ورُبَّ رجلٍ تكون العُزْلة له في بيته أخفَّ عليه وأسهلَ، وقد اعتزل رجالٌ من أهل بدر، فلزموا بيوتَهم بعد قَتْلِ عثمان، فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

ورُبَّ رجلٍ متوسِّط بينهما فيكون له من القوَّة ما يَصبِرُ بها على مخالطة الناس وأذاهم، فهو معهم في الظاهر، ومخالفٌ لهم في الباطن. وذكر ابن المبارك: حدَّثنا وُهَيب بنُ الوَرْد قال: جاء رجل إلى وهب بنِ منبِّه فقال: إنَّ الناسَ وقعوا فيما فيه وقعوا! وقد حدَّثت نفسي ألا أخالطَهم. فقال: لا تَفعلْ! إنَّه لابُدَّ لك من الناس، ولابُدَّ لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصمَّ سميعاً، أعمَى بصيراً، سَكوتاً نَطُوقاً[(١)].

وقد قيل: إنَّ كلَّ موضع يَبعد عن الناس فهو داخلٌ في معنى الجبال والشِّعاب، مثل الاعتكاف في المساجد، ولزوم السواحل للرِّباط والذِّكْر، ولزوم البيوت؛ فراراً عن شرورِ الناس. وإنَّما جاءت الأحاديثُ بذِكْر الشِّعاب والجبال واتِّباع الغنم - والله أعلم - لأنَّ ذلك هو الأغلب في المواضع التي يُعتزَل فيها، فكلُّ موضع يَبعُد عن الناس فهو داخلٌ في معناه، كما ذكرنا، والله الموفِّق وبه العصمةُ[(٢)].

وروى عقبةُ بنُ عامر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يَعْجَب ربُّك من راعي غنم في رأس شَظِيّة الجبل يؤذِّن بالصلاة ويصلِّي، فيقول اللهُ عزَّ وجلَّ: انظروا إلى عبدي هذا يؤذِّن ويقيم الصلاةَ، يخاف منِّي، قد غفرتُ لعبدي وأدخلته الجنة». خرَّجه النَّسائيُّ[(٣)].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ لما فَرُّوا ممَّن يطلبهم، اشتغلوا بالدُّعاء ولجؤوا إلى الله تعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: مغفرةً ورزقاً.

---

(١) التمهيد ١٧/ ٤٤٦ .

(٢) التمهيد ١٧/ ٤٥٠ .

(٣) في المجتبى ٢/ ٢٠ ، وفي الكبرى (١٦٤٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٤٤٢)، وأبو داود (١٢٠٣) قال الشوكاني في نيل الأوطار ٢/ ٣٦ : الحديث رجال إسناده ثقات. والشظيَّة: قطعة مرتفعة في رأس الجبل. النهاية (شظي).

﴿وَهَيِّئْ لَنَا[(١)] مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ توفيقاً للرشاد. وقال ابنُ عباس: مخرجاً من الغارِ في سلامة[(٢)]. وقيل: صواباً. ومن هذا المعنى أنَّه عليه الصلاة والسلام كان إذا حَزَبَه أمرٌ، فَزِع إلى الصلاة[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

عبارةٌ عن إلقاء اللهِ تعالى النومَ عليهم. وهذه من فصيحاتِ القرآن التي أقرَّت العربُ بالقصور عن الإتيانِ بمثله. قال الزجَّاج[(٤)]: أي: منعناهم عن أن يَسمعوا؛ لأنَّ النائمَ إذا سمع انتبه. وقال ابن عباس: ضربْنا على آذانهم بالنوم، أي: سَدَدْنا آذانَهم عن نفوذ الأصوات إليها. وقيل: المعنى «فضربنا على آذانهم» أي: فاستجبنا دعاءَهم، وصَرَفْنا عنهم شرَّ قومهم، وأنمناهم. والمعنى كلُّه متقارب. وقال قُطْرُب: هذا كقولِ العرب: ضرَب الأميرُ على يد الرعيَّة؛ إذا منعهم الفسادَ، وضرب السيِّدُ على يد عبدِه المأذون له في التجارة؛ إذا منعَه من التصرُّف. قال الأسود بن يَعْفُر وكان ضَرِيراً:

ومِن الحوادثِ لا أبالَكَ أنَّني ضُرِبتْ عليَّ الأرضُ بالأسدادِ[(٥)]

وأما تخصيصُ الآذان بالذكر؛ فلأنَّها الجارحةُ التي منها عظم فساد النوم، وقلَّما ينقطع نومُ نائم إلا من جهة أذنه، ولا يُستحكم نومٌ إلا مع[(٦)] تَعَطُّل السمع. ومن ذِكْر الأذن في النوم قوله ﷺ: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه» خرَّجه الصحيح. أشار عليه الصلاة والسلام إلى رجل طويلِ النوم، لا يقومُ الليل[(٧)].

---

(١) بعدها في (ظ): أي يسِّر.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٥٢.

(٣) سلف ١/ ٢٦٢.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧١، وينظر تفسير البغوي ٣/ ١٥٢، وزاد المسير ٥/ ١١٤.

(٥) المفضليات ص٢١٦، والاختيارين ص٥٥٩، ومنتهى الطلب ١/ ٤١٥. وضُربت عليه الأرضُ بالأسداد: سُدَّت عليه الطرق، وعميت عليه مذاهبه. القاموس (سدد).

(٦) في (م): من.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠، والحديث أخرجه البخاري (٣٢٧٠)، و مسلم (٧٧٤) من حديث ابن مسعود ﷺ.

و﴿عَدَدًا﴾: نعت للسنين، أي: معدودة، والقصد به العبارةُ عن التكثير؛ لأنَّ القليلَ لا يحتاج إلى عدد؛ لأنَّه قد عُرِف[١]. والعَدُّ: المصدر، والعدد: اسم المعدود، [٢]كالنَّفَض والخَبَط[٢]. وقال أبو عبيدة: «عدداً» نصب على المصدر. ثم قال قوم: بيَّن اللهُ تعالى عددَ تلك السنين من بعدُ فقال: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: من بَعْدِ نومهم. ويقال لمن أُحْيِيَ أو أُقِيمَ من نومه: مبعوثٌ؛ لأنَّه كان ممنوعاً من الانبعاثِ والتصرُّف.

قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ «لنعلم» عبارةٌ عن خروج ذلك الشيء إلى الوجودِ ومشاهدته، وهذا على نحوِ كلام العرب، أي: لنعلمَ ذلك موجوداً، وإلا فقد كان اللهُ تعالى عَلِمَ أيَّ الحزبين أحصى الأمد. وقرأ الزُّهْرِيُّ «ليعلم»: بالياء[٣].

والحزبان: الفريقان. والظاهر من الآية أنَّ الحزبَ الواحد هم الفتيةُ إذ ظنُّوا لبثَهم قليلاً. والحزبَ الثاني أهلُ المدينة الذين بُعِثَ الفِتْيةُ على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية. وهذا قول الجمهور من المفسِّرين. وقالت فرقة: هما حزبان من الكافرين، اختلفا في مدَّة أصحابِ الكهف. وقيل: هما حزبان من المؤمنين. وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية[٤].

و«أحصى»: فعلٌ ماضٍ. و«أمداً»: نصب على المفعول به، قاله أبو عليٍّ[٥].وقال

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٥ ، وللزجاج ٣/ ٢٧١ بنحوه.

(٢-٢) في (د) و(ظ): كالنقص والخيط.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠ ، وقراءة الزهري في البحر المحيط ٦/ ١٠٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠ .

الفرَّاء(١): نصب على التمييز. وقال الزجَّاج(٢): نصب على الظرف، أي: أيُّ الحزبين أَحصى للبثِهم في الأمد، والأمد: الغاية. وقال مجاهد(٣): «أمداً»: معناه عدداً، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب. وقال الطبري(٤): «أمداً» منصوب بـ«البثوا». ابن عطية(٥): وهذا غير مُتَّجه، وأما من قال: إنَّه نصب على التفسير، فيلحقه من الاختلال أن «أفعل» لا يكون من فعل رباعيٍّ إلا في الشاذِّ، و«أحصى» فعل رباعي. وقد يحتج له بأن يقال: إن «أفعل» في الرباعي قد كثر، كقولك: ما أعطاه للمال، وآتاه للخير. وقال في صفة حوضِه ﷺ: «ماؤه أبيض من اللبن»(٦). وقال عمر بن الخطاب: فهو لما سواها أضْيع(٧).

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ لما اقتضى قوله تعالى: «لنعلمَ أيُّ الحزبين أحصى» اختلافاً وقع في أمدِ الفِتْية، عقَّب بالخبر عن أنَّه عزَّ وجلَّ يَعلَم من أمرهم بالحقِّ الذي وقع.

وقوله تعالى: «إنَّهم فِتْيَةٌ» أي: شبابٌ وأحداث حكم لهم بالفتوَّة حين آمنوا بلا واسطة، كذلك قال أهلُ اللسان: رأس الفتوَّة الإيمان. وقال الجُنيد: الفتوَّة: بَذْلُ النَّدى وكفُّ الأذى وتَرْكُ الشكوى. وقيل: الفُتوَّة: اجتنابُ المحارم واستعجالُ المكارم(٨).

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٣٦ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٧١ .

(٣) في تفسيره ١/ ٣٧٤ .

(٤) في تفسيره ١٥/ ١٧٨ .

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠ .

(٦) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٧) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٦ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١٩٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٤٤٥ - ٤٤٦ .

(٨) ينظر مدارج السالكين ٢/ ٣٤٢ .

وقيل غير هذا. وهذا القول حسن جدًّا؛ لأنَّه يعمُّ بالمعنى جميعَ ما قيل في الفتوَّة.

قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أي: يسَّرناهم للعمل الصالح، من الانقطاعِ إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا. وهذه زيادةٌ على الإيمان(١). وقال السُّدِّيُّ: زادهم هُدًى بكلب الراعي حين طردوه ورجموه مخافةَ أن يَنْبَح عليهم ويُنَبِّهَ بهم، فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعي فأنطقه اللهُ، فقال: يا قومِ! لِمَ تطردونني، لم ترجمونني! لم تضربونني! فوالله لقد عرفتُ اللهَ قبل أن تعرفوه بأربعينَ سنةً، فزادهم اللهُ بذلك هُدًى(٢).

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدَّة عزمٍ وقُوَّة صبرٍ، أعطاها اللهُ لهم حتى قالوا بين يدي الكفار: «رَبُّنَا رَبُّ السماواتِ والأرضِ لن نَدْعُوَ مِنْ دونِهِ إلهاً لقد قلنا إذاً شَطَطاً». ولما كان الفَزَع وخَوَر النفس يُشْبِه بالتناسب الانحلالَ، حَسُنَ في شدَّة النفس وقوَّة التصميم أن يُشْبِه الرَّبْطَ، ومنه يقال: فلانٌ رابطُ الجَأْش، إذا كان لا تَفْرَق نفسُه عند الفَزَع والحرب وغيرها. ومنه الرَّبْط على قلبِ أمِّ موسى(٣). وقولُه تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] وقد تقدَّم(٤).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ يحتمل ثلاثة معان:

أحدها: أن يكون هذا وصفَ مقامِهم بين يدي الملك الكافر، كما تقدَّم، وهو

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٢) عرائس المجالس ص٤١٩ - ٤٢٠ بنحوه.

(٣) في قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٤) ٩/ ٤٦٦.

مَقام يَحتاج إلى الرَّبْط على القلب حيث خالفوا دينَه، ورفضوا في ذات الله هيبته[١].

والمعنى الثاني فيما قيل: إنَّهم أولادُ عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراءَ تلك المدينة من غير ميعاد، فقال أسنُّهم: إني أجد في نفسي أنَّ ربِّي ربُّ السماوات والأرض، فقالوا: ونحن كذلك نجد في أنفسنا. فقاموا جميعاً فقالوا: «رَبُّنَا ربُّ السماوات والأرض لن نَدْعُوَ من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شَطَطاً»[٢]. أي: لئن دعَوْنا إلهاً غيرَه، فقد قلنا إذاً جَوْراً ومحالاً.

والمعنى الثالث: أن يُعَبَّر بالقيام عن انبعاثِهم بالعَزْم إلى الهروب إلى اللهِ تعالى ومنابذة الناس، كما تقول: قام فلانٌ إلى أَمْرِ كذا، إذا عزَم عليه بغاية الجِدِّ[٣].

الثانية: قال ابن عطية[٤]: تعلَّقت الصوفيَّة في القيام والقول بقوله: «إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض».

قلت: وهذا تعلّقٌ غيرُ صحيح! هؤلاء قاموا فذكروا اللهَ على هدايته، وشكروا لِمَا أولاهم من نعمه ونِعْمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعينَ إلى ربِّهم، خائفين من قومهم، وهذه سنَّة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء. أين هذا من ضَرْبِ الأرض بالأقدام والرَّقص بالأكمام! وخاصَّةً في هذه الأزمان عند سماعِ الأصوات الحسان من المُرْد والنسوان، هيهات! بينهما والله ما بين الأرض والسماء. ثم هذا حرامٌ عند جماعة العلماء، على ما يأتي بيانه في سورة لقمان[٥] إن شاء الله تعالى. وقد تقدَّم في «سبحان» عند قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] ما فيه كفاية[٦]. وقال الإمام أبو بكر الطَّرَسُوشِيُّ وسئل عن مذهب الصوفيَّة فقال: وأما

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٢) زاد المسير ٥/ ١١٠، وتفسير الرازي ٢١/ ٩٧ - ٩٨.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٥) عند الآية (١٨).

(٦) ص٨١ فما بعد من هذا الجزء.

الرَّقص والتواجد فأوّل من أحدثه أصحابُ السَّامِرِيِّ؛ لمَّا اتخذ لهم عجلاً جسداً له خُوار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دينُ الكفَّار وعُبَّاد العِجْل، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي: قال بعضهم لبعض: هؤلاء قومُنا، أي: أهلُ عصرنا وبلدِنا، عبدوا الأصنامَ تقليداً من غير حجَّة. ﴿لَّوْلَا﴾ أي: هَلَّا. ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أي: بحجَّة على عبادتهم الصَّنَمَ. وقيل: «عليهم» راجع إلى الآلهة، أي: هلَّا أقاموا بيِّنةً على الأصنام في كونها آلهةً، فقولهم: «لولا» تحضيضٌ بمعنى التعجيز، وإذا لم يمكنهم ذلك، لم يجب أن يُلتفَت إلى دعواهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ قيل: هو من قولِ الله لهم. أي: وإذ اعتزلتموهم فَأْووا إلى الكهف. وقيل: هو من قولِ رئيسِهم يمليخا، فيما ذكر ابن عطية[2]. وقال الغَزْنَوِيُّ: رئيسهم مكسلمينا قال لهم ذلك، أي: إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون. ثم استثنى وقال ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: إنَّكم لم تتركوا عبادته، فهو استثناءٌ منقطع.

قال ابنُ عطية[3]: وهذا على تقدير أنَّ الذين فرَّ أهلُ الكهف منهم لا يعرفون الله، ولا عِلْم لهم به، وإنَّما يعتقدون الأصنام في ألوهيتهم فقط. وإنْ فرضنا أنَّهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل، لكنَّهم يشركون أصنامَهم معه في العبادة، فالاستثناءُ متَّصل؛ لأنَّ الاعتزالَ وقع في كلِّ ما يعبد الكفار إلا في جهة الله. وفي

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٨، وزاد المسير ٥/ ١١٦.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠١ - ٥٠٢، وقراءة ابن مسعود ذكرها الطبري في التفسير ١٥/ ١٨٢.

مصحف عبد الله بنِ مسعود: «وما يعبدون من دون الله». قال قتادة: هذا تفسيرها.

قلت: ويدلُّ على هذا ما ذكره أبو نُعيم الحافظ[١] عن عطاءٍ الخُراسانيِّ في قوله تعالى: «وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله» قال: كان فِتيةٌ من قوم يعبدون الله، ويعبدون معه آلهةً، فاعتزلت الفتيةُ عبادةَ تلك الآلهة، ولم تعتزل عبادةَ الله.

ابن عطية[٢]: فعلى ما قال قتادة تكون «إلَّا» بمنزلة «غير»، و«ما» مِن قوله: «وما يعبدون إلا الله» في موضع نصب، عطفاً على الضمير في قوله: «اعتزلتموهم». ومُضمَّن هذه الآية أنّ بعضهم قال لبعضٍ: إذا فارَقْنا الكفَّارَ وانفردنا بالله تعالى، فلنجعل الكهفَ مأوًى ونتكلْ على الله؛ فإنَّه سيبسط لنا رحمتَه، وينشرها علينا، ويهيِّئ لنا من أمرنا مِرْفَقاً. وهذا كلُّه دعاءٌ بحسَب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله في أمْرِ آخرتهم. وقال أبو جعفر محمد بن علي بنِ الحسين ﷺ: كان أصحابُ الكهف صياقلةً. واسم الكهف: حيوم[٣].

﴿مِرْفَقًا﴾ قُرئ بكسر الميم وفتحها، وهو ما يُرتفق به. وكذلك مِرْفَق الإنسان ومَرْفِقه، ومنهم من يجعل: «المَرْفق» بفتح الميم، الموضع كالمسجد، وهما لغتان[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: ترى

---

(١) في حلية الأولياء ٥/ ٢٠٠.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٢.

(٣) عرائس المجالس ص٤٢٠، ٤٢٣ وفيه أن أصحاب الكهف كانوا صيارفة، وأن اسم الكهف كان الوصيد، وقيل: خيرم.

(٤) قرأ نافع وابن عامر: بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ الباقون: بكسر الميم وفتح الفاء. السبعة ص٣٨٨، والتيسير ص١٤٢، وينظر معاني القرآن للنحاس ٢/ ٢٢٤.

أيُّها المخاطَب الشمسَ عند طلوعها تَميلُ عن كهفهم. والمعنى: إنَّك لو رأيتهم لرأيتهم كذا، لا أنَّ المخاطَب رآهم على التحقيق[١].

و«تزاور»: تتنحَّى وتميل، من الازورار. والزَّوَر: المَيْل. والأزور في العين: المائل النظر إلى ناحية، ويستعمل في غير العين، كما قال ابن أبي رَبيعة[٢]:

... وجَـنْـبِـي خِـيـفَـةَ الـقـومِ أزْوَرُ

من اللفظة قول عنترة[٣]:

فـازورَّ مـن وَقْـع الـقَـنَـا بـلـبَـانـه

وفي حديث غَزْوة مُؤْتة أنَّ رسولَ الله ﷺ رأى في[٤] سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سرير جعفر وزيد بن حارثة[٥].

وقرأ أهلُ الحَرَمين وأبو عمرو: «تزَّاوَرُ» بإدْغام التاء في الزاي، والأصل: «تتزاور». وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: «تَزَاوَرُ» مخففَّة الزاي. وقرأ ابن عامر «تَزْوَرُّ» مثل تحمرُّ[٦]. وحكى الفرَّاء[٧] «تزوارُّ» مثل تحمارُّ، كلُّها بمعنًى واحد.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ قرأ الجمهور بالتاء، على معنى: تتركهم، قاله مجاهد[٨].

---

(١) تفسير الرازي ٢١/ ٩٩.

(٢) في ديوانه ص٦٥، والبيت بتمامه فيه:

وخُفِّض عني الصوت أقبلتُ مشية الـ حباب وشخصي خشية الحي أزور

(٣) في ديوانه ص٣٠، وتمامه: وشكا إليَّ بعَبْرة وتحمحم

(٤) بعدها في (ظ): الجنة.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٢ - ٥٠٣، والخبر أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٣٦٨، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٥٩ - ١٦٠ وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات. وأورده ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٣٨٠.

(٦) السبعة ص٣٨٨، والتيسير ص١٤٢.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ١٣٦.

(٨) في تفسيره ١/ ٣٧٤.

وقال قتادة: تَدَعهم[١]. النحَّاس: وهذا معروف في اللغة، حكى البصريون أنَّه يقال: قرضه يقرضه: إذا تركه، والمعنى: أنَّهم كانوا لا تُصيبهم شمسٌ ألبتة؛ كرامةً لهم، وهو قول ابن عباس[٢].

يعني أنَّ الشمسَ إذا طلعت مالت عن كهفِهم ذاتَ اليمين، أي: يمينَ الكهف، وإذا غربت تمرُّ بهم ذاتَ الشمال، أي: شمالَ الكهف، فلا تصيبهم في ابتداءِ النهار ولا في آخرِ النهار. وكان كهفُهم مستقبِلَ بنات نَعْش في أرض الروم، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربةً وجاريةً لا تَبلغهم لتؤذيهم بحرِّها، وتغيِّر ألوانهم، وتُبْلِي ثيابهم[٣]. وقد قيل: إنَّه كان لكهفهم حاجبٌ من جهة الجنوب، وحاجبٌ من جهة الدَّبُور وهم في زاويته. وذهب الزجَّاج[٤] إلى أن فِعْلَ الشمس كان آيةً من الله، دون أن يكون بابُ الكهف إلى جهة تُوجِبُ ذلك.

وقرأت فرقة: «يقرضهم» بالياء، من القَرْضِ وهو القَطْع، أي: يقطعهم الكهف بظلِّه من ضوء الشمس[٥].

وقيل: «وإذا غربت تقرضهم» أي: يصيبهم يسيرٌ منها، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة، أي: تعطيهم الشمسُ اليسيرَ من شعاعها. وقالوا: كان في مَسِّها لهم بالعَشِيِّ؛ إصلاح لأجسادهم. وعلى الجملة فالآية في ذلك أنَّ الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفتُه لا إلى كهف آخر يتأذَّوْن فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار. وعلى هذا فيمكن أن يكون صَرْفُ الشمس عنهم بإظلالِ غمامٍ أو سببٍ آخر. والمقصود بيانُ حِفْظهم عن تطرُّق البلاء وتغيُّر الأبدان والألوان إليهم، والتأذِّي بحرٍّ أو بَرْدٍ.

---

(١) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤٠٠ ، والطبري ١٥/ ١٨٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٣٩ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣ ، وينظر البحر المحيط ٦/ ١٠٨ .

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: من الكهف. والفَجْوَة: المتَّسع، وجمعها فَجَوات وفِجَاء[١]، مثل رَكْوة ورِكاء ورَكَوات. وقال الشاعر:

ونــحــن مَــلأْنــا كــلَّ وادٍ وفَــجْــوةٍ رجالاً وخيلاً غيرَ ميلٍ ولا عُزْلِ[٢]

أي: كانوا بحيث يصيبهم نسيمُ الهواء.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لطف بهم، وهذا يقوِّي قولَ الزجَّاج. وقال أهل التفسير: كانت أعينُهم مفتوحةً وهم نائمون، فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظاً[٣]. وقيل: تحسبهم أيقاظاً؛ لكثرة تقلُّبهم كالمستيقظ في مضجعه[٤]. و﴿أَيْقَاظًا﴾ جمع يَقِظ ويَقْظان، وهو المنتبه[٥].

﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ كقولهم: وهم قومٌ ركوع وسجود وقعود، فوصف الجمع بالمصدر. ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لئلَّا تأكلَ الأرضُ لحومَهم[٦]. قال أبو هريرة: كان لهم في كل عام تقليبتان.و قيل: في كل سنة مرَّة[٧]. وقال مجاهد: في كلِّ سبع سنين مرَّة. وقالت فرقة: إنما قُلِّبوا في التسع الأَواخر، وأما في الثلاث مئة فلا[٨]. وظاهر كلام المفسرين أنَّ التقليبَ كان من فعل اللهِ، ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى.

---

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٦ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٩١ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٤ .

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٤٦٢ ، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٧ .

(٦) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ١٨٦ ، ١٩١ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٥٤ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١٠١ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ ، ولم ينسب القول الأول إلى مجاهد، بل إلى فرقة أيضاً، والذي ورد في المصادر أن القول الثاني ـ وهو إنما قُلِّبوا في التسع الأواخر ـ هو قول مجاهد، ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٣ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٩١ ، وزاد المسير ٥/ ١١٨ .

قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم﴾ قال عمرو بنُ دِينار: إنَّ ممَّا أُخِذَ على العقرب ألَّا تضرَّ أحداً قال في ليله أو في نهاره: صلى الله على نوح[(١)]. وإنَّ ممَّا أُخِذَ على الكلب ألَّا يضرَّ من حَمَلَ عليه إذا قال: وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد[(٢)].

أكثر المفسرين على أنَّه كلب حقيقةً، وكان لصيدِ أحدِهم أو لزرعه أو غنمه، على ما قال مقاتل. واختُلف في لونه اختلافاً كثيراً، ذكره الثعلبيّ[(٣)]. تحصيله: أيَّ لون ذكرتَ أصبتَ، حتى قيل: لون الحجر، وقيل: لون السماء. واختلف أيضاً في اسمه، فعن عليٍّ: ريَّان. ابن عباس: قطمير. الأوزاعي: مشير. عبد الله بن سَلَام: بسيط[(٤)]. كعب: صهيا. وهب: نقيا. وقيل: قطمير، ذكره الثعلبيُّ.

وكان اقتناءُ الكلب جائزاً في وقتهم، كما هو عندنا اليوم جائز في شرعنا. وقال ابن عباس: هربوا ليلاً، وكانوا سبعةً، فمرُّوا براعٍ معه كلب فاتَّبَعَهم على دينهم. وقال كعب: مرُّوا بكلب فنبح لهم، فطردوه مراراً، فقام الكلبُ على رجليه ورفع يدَيْه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال: لا تخافوا مني! أنا أحِبُّ أحبَّاء الله تعالى، فناموا حتى أحرسَكم[(٥)].

الثانية: ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ قال: «من اقتنى كلباً إلا كلبَ صيد أو ماشية، نقص من أَجْره كلَّ يوم قيراطان»[(٦)]. وروى الصحيح أيضاً عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتخذ كلباً إلا كلبَ ماشية أو صيد أو زرع، انْتُقِص من أجره كلَّ يوم قيراط». قال الزهريُّ: وذُكر لابنِ عمر قولُ أبي هريرة فقال:

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٤٤٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٢/ ٢٥٦، من حديث أبي أمامة مرفوعاً، وأخرجه الأصبهاني في طبقات المحدثين ٣/ ٤٠٤ من قول الحسن ﷺ.

(٢) ينظر حياة الحيوان للدميري ٢/ ٣٠٤.

(٣) في عرائس المجالس ص٤١٩.

(٤) في عرائس المجالس: بطيط.

(٥) الوسيط ٣/ ١٣٩، وعرائس المجالس ص٤٢٥، وتفسير الرازي ٢١/ ١٠١.

(٦) سلف ٧/ ٣١٢.

يَرحم اللهُ أبا هريرة! كان صاحبَ زرع[١]. فقد دلَّت السُّنَّة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية. وجعل النقص في أَجْرِ من اقتناها على غير ذلك من المنفعة، إما لترويعِ الكلبِ المسلمينَ وتشويشِه عليهم بنباحه، أو لِمَنْع دخول الملائكةِ البيتَ، أو لنجاسته، على ما يراه الشافعيُّ، أو لاقتحام النهي عن اتخاذ ما لا منفعةَ فيه، والله أعلم. وقال في إحدى الروايتين: «قيراطان»، وفي الأخرى: «قيراط». وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشدُّ أذًى من الآخر، كالأسود الذي أَمَرَ عليه الصلاة والسلام بقَتْله، ولم يُدخله في الاستثناء حين نهى عن قَتْلها، كما هو منصوص في حديث جابر، أخرجه الصحيح، وقال: «عليكم بالأسود البَهيم ذي النُّقطتين فإنه شيطان»[٢]. ويحتمل أن يكون ذلك؛ لاختلافِ المواضع، فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكَّة ينقص قيراطان، وبغيرها قيراط. وأما المباح اتخاذُه، فلا ينقص، كالفرس والهِرَّة، والله أعلم.

الثالثة: وكلب الماشية المباح اتخاذُه عند مالكٍ هو الذي يَسْرَح معها، لا الذي يحفظها في الدار من السُّرَّاق. وكلب الزرع هو الذي يَحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السُّرَّاق. وقد أجاز غيرُ مالك اتخاذَها لسُرَّاق الماشية والزرع. وقد تقدَّم في «المائدة»[٣] من أحكام الكلاب ما فيه كفاية، والحمد لله.

الرابعة: قال ابنُ عطية[٤]: وحدَّثني أبي ﷺ، قال: سمعت أبا الفضل الجوهريَّ في جامع مصر يقول على منبر وَعْظه سنةَ تسعٍ وستينَ وأربع مئة: إنَّ مَن أحبَّ أهلَ الخير، نال من بركتهم، كلبٌ أحبَّ أهلَ فَضْلٍ وصَحِبَهم، فذكره اللهُ في محكم تنزيله.

---

(١) سلف ٧/ ٣١٢.

(٢) سلف ٧/ ٣١٣.

(٣) ٧/ ٢٩٩ وما بعدها.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤.

قلت: إذا كان بعضُ الكلاب قد نال هذه الدرجةَ العليا بصُحبته ومخالطته الصلحاءَ والأولياءَ حتى أَخبر اللهُ تعالى بذلك في كتابه جلَّ وعلا فما ظنُّك بالمؤمنين الموحِّدين المخالطين المحبِّين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسليةٌ وأُنْسٌ للمؤمنين المقصِّرين عن درجاتِ الكمال، المحبِّين للنبيِّ ﷺ وآلِه خيرِ آل[١].

روى الصحيح عن أنس بنِ مالك قال: بينا أنا ورسولُ الله ﷺ خارجان من المسجد، فلقِيَنا رجلٌ عند سُدَّة المسجد فقال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددتَ لها» قال: فكأنَّ الرجلَ استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددتُ لها كثيرَ صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنِّي أحِبُّ اللهَ ورسوله. قال: «فأنتَ مع من أحببتَ»[٢]. في رواية قال أنس بنُ مالك: فما فَرِحنا بعد الإسلام فرحاً أشدَّ من قول النبيِّ ﷺ: «فأنت مع من أحببت». قال أنس: فأنا أُحِبُّ اللهَ ورسولَه وأبا بكر وعمرَ، فأرجو أن أكونَ معهم وإن لم أعمل بأعمالهم[٣].

قلت: وهذا الذي تمسَّك به أنس يَشمل من المسلمين كلَّ ذي نفس، فكذلك تعلَّقت أطماعنا بذلك وإن كنَّا مقصِّرين، ورجونا رحمةَ الرحمن وإن كنَّا غيرَ مستأهلين، كلبٌ أحبَّ قوماً فذكرَه اللهُ معهم! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحبُّ النبيِّ ﷺ، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقالت فرقة[٤]: لم يكن كلباً حقيقةً، وإنَّما كان أحدَهم، وكان قد قعد عند باب الغارِ طليعةً لهم[٥]؛ فسُمِّيَ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع[٦] كما سُمِّي

(١) ينظر لطائف الإشارات ٢/ ٣٨٤.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩): (١٦٤) واللفظ له.

(٣) البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩): (١٦٣).

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤، وينظر النكت والعيون ٣/ ٢٩٢.

(٥) بعدها في (د) و(ز) زاد الناسخ قوله: قال ابن عطية ما ذكر موصلاً هنا موضعه وإنما تأخر عن موضعه. اهـ.

(٦) قوله: فسمي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع. تأخَّر في (م) وجاء بعد قوله: قال ابن عطية. والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز.

النجمُ[١] التابعُ للجوزاء كلباً؛ لأنَّه منها كالكلب من الإنسان، ويقال له: كلب الجبَّار[٢]. قال ابنُ عطية[٣]: أمَا إنَّ هذا القولَ يُضعِفه ذِكْرُ بَسْطِ الذراعين فإنَّها في العرف من صفة الكلب حقيقةً، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «ولا يبسط أحدُكم ذراعَيْه انبساطَ الكلب»[٤].

وقد حكى أبو عمر المطرِّز في كتاب «اليواقيت» أنَّه قُرِئَ: «وكالئهم[٥] باسط ذراعيه بالوصيد». فيحتمل أن يريد بالكالئ[٦] هذا الرجل على ما روي؛ إذ بَسْطُ الذراعين واللصوقُ بالأرض مع رَفْعِ الوجه للتطلُّع هي هيئة الرِّيبة المستخفي بنفسه. ويحتمل أن يريد بالكالئ الكلبَ. وقرأ جعفر بن محمد الصادقُ: «وكالبهم» يعني: صاحبَ الكلب[٧].

قوله تعالى: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضِيِّ؛ لأنَّها حكايةُ حال ولم يقصد الإخبارَ عن فعل الكلب[٨].

والذراع: مِن طَرَف المرفق إلى طَرَف الأصبع الوسطى. ثم قيل: بَسَطَ ذراعيه؛ لطول المدَّة. وقيل: نام الكلب، وكان ذلك من الآيات. وقيل: نام مفتوحَ العين.

والوصِيد: الفِناء، قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبَير[٩]، أي: فناء الكهف،

(١) ليست في (د) و(ظ).

(٢) في (ظ): الخيار. وفي (ز): الحبار. وفي المحرر الوجيز: الحيار. اهـ. والجبَّار: اسم الجوزاء. القاموس المحيط (جبر).

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ .

(٤) سلف ٢/ ٢٦ .

(٥) في النسخ: وكالبهم. في الموضعين وكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ والكلام منه، والمثبت من البحر المحيط ٦/ ١٠٩ ، وروح المعاني ١٥/ ٢٢٦ ، قال أبو حيان: قرئ: وكالئهم، اسم فاعل من كَلأَ، إذا حَفِظَ.

(٦) في (د) و(ظ) و(م): بالكالب، والمثبت من (ز) والبحر المحيط ٦/ ١٠٩ .

(٧) الكشاف ٢/ ٤٧٥ ، والبحر المحيط ٦/ ١٠٩ وورد عنده أبو جعفر، بدل: جعفر.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ ، والكشاف ٢/ ٤٧٥ - ٤٧٦ .

(٩) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ١٩٢ ، وينظر تفسير مجاهد ١/ ٣٧٥ .

والجمع وصائد ووُصُد. وقيل: الباب. وقاله ابن عباس أيضاً[١]. وأنشد:

بأرضِ فضاءٍ لا يُسَدُّ وصِيدُها عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ

وقد تقدَّم[٢]. وقال عطاء: عتبة الباب[٣]، والباب الموصد هو المغلق. وقد أوصدتُ البابَ وآصدته، أي: أغلقته. والوصيد: النبات المتقارب الأُصول[٤]، فهو مشترك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قرأ الجمهور: بكسر الواو. والأعمش ويحيى بن وثَّاب: بضمِّها[٥]. ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أي: لو أشرفتَ عليهم لهربتَ منهم. ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لِمَا حفَّهم اللهُ تعالى من الرُّعب، واكتنفهم من الهيبة. وقيل: لوحشةِ مكانهم، وكأنَّهم آواهم اللهُ إلى هذا المكان الوَحْشِ في الظاهر لينفرَ الناسُ عنهم. وقيل: كان الناسُ محجوبين عنهم بالرعب، لا يَجْسُر أحدٌ منهم على الدُّنوِّ إليهم. وقيل: الفرار منهم؛ لطول شُعورهم وأظفارهم، ذكره المهدويُّ والنحَّاس والزجَّاج والقشيريُّ[٦]. وهذا بعيد؛ لأنَّهم لما استيقظوا قال بعضُهم لبعض: لبثنا يوماً أو بعضَ يوم. ودلَّ هذا على أنَّ شعورَهم وأظفارَهم كانت بحالها، إلا أن يقال: إنَّما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم. قال ابنُ عطية[٧]: والصحيح في أمرهم أنَّ الله عزَّ وجلَّ حَفِظَ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكونَ لهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يبْلَ لهم ثوبٌ، ولم تغيَّر صفةٌ، ولم يُنكِر الناهض إلى المدينة إلا معالمَ

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ١٩٤ .

(٢) سلف ص٢٠٣ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٩٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٥٤ .

(٤) الصحاح (وصد).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ ، وينظر الكشاف ٢/ ٤٧٦ ، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٠٩ ، والبحر المحيط ٦/ ١٠٩ .

(٦) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٥ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ .

(٧) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ - ٥٠٥ .

الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها، لكانت عليه أهم.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهل مكة والمدينة: «لَمُلِّئْتَ منهم» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة، أي: مُلِئت، ثم مُلِئت. وقرأ الباقون: «لَمُلِئت» بالتخفيف، والتخفيف أشهرُ في اللغة[١]. وقد جاء التثقيل في قول المُخَبَّل السعدِيِّ[٢]:

وإذ فَتَكَ النُّعمانُ بالناسِ مُحْرِماً ... فمُلِّئَ من كعبِ بن عوف سلاسِلُه

وقرأ الجمهور: ﴿رُعْبًا﴾ بإسكان العين. وقرأ بضمِّها أبو جعفر. قال أبو حاتم: هما لغتان[٣]. و«فراراً» نصب على الحال، و«رعباً» مفعول ثانٍ أو تمييز[٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ البعث: التحريك عن سكون[٥]. والمعنى: كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدًى وقلَّبناهم، بعثناهم أيضاً، أي: أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئتهم في ثيابهم وأحوالهم. قال الشاعر:

وفِتْيانِ صِدْقٍ قد بَعثْتُ بسُحْرَةٍ ... فقاموا جميعاً بين عاثٍ ونَشْوانِ[٦]

---

(١) السبعة ص٣٨٩، والتيسير ص١٤٣، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٤ والكلام منه.

(٢) المُخَبَّل السعدي هو: ربيع بن مالك بن ربيعة، والبيت في اللسان (فتك).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٥.

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥١، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٥.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٥.

(٦) القائل امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص٩١، قال شارحه: والعاثي: المتناول للشيء، والسُّحْرة: السَّحَر الأعلى، أول الأسحار.

أي: أَيقظت: واللام في قوله: «ليتساءلوا» لام الصيرورة، وهي لام العاقبة، كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] فبعْثُهم لم يكن لأجل تساؤلهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك أنَّهم دخلوه غُدوةً، وبعثَهم اللهُ في آخر النهار، فقال رئيسهم تمليخا أو مكسلمينا: اللهُ أعلم بالمدَّة(١).

قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ **فيه سبع مسائل:**

الأولى: قال ابن عباس: كانت ورقُهم كأخفافِ الرُّبَع(٢)، ذكره النحاس.

وقرأ ابنُ كَثير ونافع وابن عامر والكسائيُّ وحفص عن عاصم: «بورِقكم» بكسر الراء. وقرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر عن عاصم: «بوَرْقكم» بسكون الراء، حذفوا الكسرةَ؛ لثقلها، وهما لغتان(٣). وقرأ الزجَّاج(٤): «بوِرْقكم» بكسر الواو وسكون الراء.

ويُروى أنَّهم انتبهوا جِياعاً، وأنَّ المبعوثَ هو تمليخا، كان أصغرَهم، فيما ذكر الغَزْنويُّ. والمدينة: أُفسُوس، ويقال: هي طَرسوس، وكان اسمها في الجاهلية: أفسوس، فلما جاء الإسلامُ سمَّوها: طرسوس(٥). وقال ابنُ عباس: كان معهم دراهمُ عليها صورةُ الملِك الذي كان في زمانهم(٦).

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ قال ابنُ عباس: أحلُّ ذبيحةً؛ لأنَّ أهلَ بلدهم كانوا يذبحون على اسمِ الصنم، وكان فيهم قومٌ يُخْفُون إيمانَهم. ابن

---

(١) الوسيط ٣/ ١٤٠ .

(٢) ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧١/ ٦٨ دون عزوٍ، قال ابن الأثير في النهاية (ربع): الرباع بكسر الراء، جمع رُبَع، وهو ما ولد من الإبل في الربيع، وقيل: ما ولد في أول النتاج.

(٣) السبعة ص٣٨٩ ، والتيسير ص١٤٣ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٢ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٥٥ .

(٦) الوسيط ٣/ ١٤٠ ، وزاد المسير ٥/ ١٢١ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١٠٣ .

عباس: كان عامَّتُهم مجوساً[١]. وقيل: «أزكى طعاماً» أي: أكثر بركةً. قيل: إنَّهم أمروه أن يشتري ما يُظنُّ أنَّه طعام اثنين أو ثلاثة؛ لئلا يُطَّلع عليهم، ثم إذا طُبخ كفى جماعة، ولهذا قيل ذلك الطعام: الأرز. وقيل: كان زبيباً. وقيل: تمراً، فالله أعلم. وقيل: «أزكى»: أطيب. وقيل: أرخص[٢].

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: بقُوت. ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في دخول المدينة وشراء الطعام. ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا يُخبِرنَّ. وقيل: إن ظُهِر عليه، فلا يوقعنَّ إخوانَه فيما وقع فيه.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ قال الزجَّاج[٣]: معناه بالحجارة، وهو أخبثُ القتل. وقيل: يرموكم بالسَّبِّ والشَّتم[٤]، والأوَّل أصحُّ؛ لأنَّه كان عازماً على قَتْلهم، كما تقدَّم في قَصصهم. والرجم فيما سلف هي كانت ـ على ما ذكر ـ قِتْلَةَ مخالفِ[٥] دينِ الناس، إذ هي أشفى لجملة[٦] أهل ذلك الدِّين من حيث إنَّهم يشتركون فيها.

الثالثة: في هذه البِعْثة بالوَرِق دليلٌ على الوَكالة وصحَّتها. وقد وكَّل عليُّ بن أبي طالب أخاه عَقيلاً عند عثمان ﷺ، ولا خلافَ فيها في الجملة[٧]. والوَكالة معروفة في الجاهلية والإسلام، ألا ترى إلى عبد الرحمن بنِ عَوف كيف وكَّل أميَّة بنَ خَلَف بأهله وحاشيته بمكَّة، أي: يحفظهم، وأميَّة مُشرِك، والتزم عبدُ الرحمن لأميَّة من حَفِظ حاشيته بالمدينة مثل ذلك؛ مجازاةً لصنعه، روى البخاريُّ عن عبد الرحمن بنِ عوف قال: كاتبتُ أميَّة بنَ خَلَف كتاباً بأن يحفظني في صاغِيَتي بمكَّة وأحفظه في صاغِيَته

(١) تفسير الرازي ٢١/ ١٠٣ .

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢١٢ - ٢١٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٢٩٤ ، وزاد المسير ٥/ ١٢٣ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٦ .

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢١٥ وعزاه إلى ابن جريج.

(٥) في النسخ: ما ذكر قبله مخالفة، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٦ ، والكلام منه.

(٦) في المحرر الوجيز: لحملة.

(٧) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٨١ .

بالمدينة، فلما ذكرتُ الرحمنَ، قال: لا أَعرفُ الرحمنَ! كاتِبْني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته: عبدَ عمرٍو... وذكر الحديث[١]. قال الأصمعيُّ: صاغية الرجل: الذين يَميلون إليه ويأتونه، وهو مأخوذ من صغا يَصْغُو ويَصْغَى إذا مال، وكلُّ مائل إلى الشيء أو معه، فقد صغا إليه وأَصغى، من كتاب «الأفعال»[٢].

الرابعة: الوكالة عقدُ نيابةٍ، أذِن اللهُ سبحانه فيه؛ للحاجة إليه، وقيام المصلحة في ذلك، إذ ليس كلُّ أحد يقدر على تناول أموره إلا بمعونةٍ من غيره، أو بترفُّه[٣]، فيستنيب من يريحه.

وقد استدل علماؤنا على صحَّتها بآيات من الكتاب، منها هذه الآية، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٦٠]، وقوله: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا﴾ [يوسف: ٩٣].

وأما من السنة: فأحاديث كثيرة، منها حديث عروة البارِقِيِّ، وقد تقدَّم في آخر الأنعام[٤]. روى جابر بنُ عبد الله قال: أَردتُ الخروجَ إلى خَيْبَر، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلت له: إنِّي أردت الخروج إلى خيبر، فقال: «إذا أتيتَ وكيلي، فخذ منه خمسةَ عشَر وَسْقاً، فإن ابتغى منك آيةً، فضع يدك على تَرْقُوَته» خرَّجه أبو داود[٥]. والأحاديث كثيرة في هذه المعنى، وفي إجماع الأمة على جوازها كفايةٌ.

الخامسة: الوكالة جائزة في كلِّ حقٍّ تجوز النيابةُ فيه، فلو وكَّل الغاصبُ، لم يجز، وكان هو الوكيلَ؛ لأنَّ كلَّ محرَّم فعله، لا تجوز النيابة فيه.

السادسة: في هذه الآية نُكْتة بديعة، وهي أنَّ الوكالة إنَّما كانت مع التَّقِيَّة[٦]

---

(١) البخاري (٢٣٠١).

(٢) تهذيب اللغة ٨/ ١٥٩، والأفعال للسرقسطي ٣/ ٣٨٣، ولابن القطاع ٢/ ٢٥٦ بنحوه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١٦، وفيه: يترفَّه، بدل: بترفُّه.

(٤) ٩/ ١٤٤ - ١٤٥.

(٥) في سننه (٣٦٣٢)، وأخرجه أيضاً الدارقطني (٤٣٠٤)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٨٠. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ٥١: رواه أبو داود من طريق وهب بن كيسان عن جابر بسند حسن. اهـ، والكلام من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢١٦ - ١٢١٧.

(٦) في (ظ): البقية.

خوفَ أن يشعرَ بهم أحدٌ؛ لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم. وجواز توكيل ذوي العُذر متفَق عليه، فأمَّا من لا عذرَ له، فالجمهور على جوازها. وقال أبو حنيفة وسُحْنون: لا تجوز. قال ابنُ العربيِّ[١]: وكأنَّ سُحنونَ تلقَّفه من أسد بنِ الفُرات، فحكم به أيام قضائه، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت؛ إنصافاً منهم، وإذلالاً لهم، وهو الحقُّ؛ فإنَّ الوكالةَ معونةٌ ولا تكون لأهل الباطل.

قلت: هذا حسن، فأمَّا أهلُ الدين والفَضْل، فلهم أن يوكِّلوا وإن كانوا حاضرين أصحَّاء، والدليل على صحَّة جواز الوكالة للشاهد الصحيح ما خرَّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبيِّ ﷺ سِنٌّ من الإبل، فجاء يتقاضاه فقال: «أَعطوه» فطلبوا له سِنَّه فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقَها، فقال: «أَعطوه» فقال: أوْفَيْتَنِي، أوْفَى الله لك. قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ خيرَكم أحسنُكم قضاء». لفظ البخاري[٢]. فدلَّ هذا الحديث ـ مع صحَّته ـ على جواز توكيلِ الحاضر الصحيح البدن، فإنَّ النبيَّ ﷺ أَمَر أصحابه أن يُعطوا عنه السِّنَّ التي كانت عليه، وذلك توكيلٌ منه لهم على ذلك، ولم يكن النبيُّ ﷺ مريضاً ولا مسافراً، وهذا يردُّ قولَ أبي حنيفة وسُحنون في قولهما: إنَّه لا يجوز توكيلُ الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه، وهذا الحديث خلافُ قولهما.

السابعة: قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: تضمَّنت هذه الآيةُ جواز الشركة؛ لأنَّ الوَرِق كان لجميعهم. وتضمَّنت جوازَ الوكالة؛ لأنَّهم بعثوا من وكلَّوه بالشراء. وتضمَّنت جواز أكْلِ الرُّفقاء وخَلْطهم طعامهم معاً، وإن كان بعضُهم أكثرَ أكْلاً من الآخر[٣]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] حسبما تقدَّم بيانه في «البقرة»[٤]. ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُتصدَّق عليه فيخلطه بطعام لغنيٍّ ثم يأكل معه: إنَّ

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢١٩ ، والكلام السابق منه.

(٢) في «صحيحه» (٢٣٠٥)، وأخرجه أيضاً مسلم (١٦٠١)، وأحمد (٩١٠٦).

(٣) أحكام القرآن للهراسي ٣/ ٢٦٥ ، ولابن العربي ٣/ ١٢١٨ بنحوه.

(٤) ٣/ ٤ .

ذلك جائزٌ. وقد قالوا في المضارِب يَخلط طعامَه بطعام غيره ثم يأكل معه: إنَّ ذلك جائزٌ. وقد كان رسول الله ﷺ وكَّل من اشترى له أُضْحية. قال ابنُ العربي[(١)]: ليس في الآية دليلٌ على ذلك؛ لأنَّه يحتمل أن يكون كلُّ واحد منهم قد أَعطاه منفرداً، فلا يكون فيه اشتراك، ولا مُعَوَّل في هذه المسألة إلا على حديثين: أحدهما: أنَّ ابنَ عمر مَرَّ بقوم يأكلون تمراً فقال: نهى رسولُ الله ﷺ عن الإقران[(٢)] إلا أن يستأذن الرجلُ أخاه[(٣)]. الثاني: حديث أبي عبيدة في جيش الخَبَط[(٤)]. وهذا دون الأوَّل في الظهور؛ لأنَّه يحتمل أن يكون أبو عبيدة يُعطيهم كَفافاً من ذلك القوت، ولا يَجمعهم عليه.

قلت: ومما يدلُّ على خلاف هذا من الكتاب قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١] على ما يأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أطلعنا عليهم وأظهرناهم. و«أَعْثر» تعديةُ عَثَر بالهمزة، وأصل العِثار في القدم[(٥)].

﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني الأمَّة المسلمة الذين بُعث أهلُ الكهف على عهدهم. وذلك أنَّ دقيانوس مات ومضت قرون، وملك أهل تلك الدار رجلٌ صالح،

(١) في أحكام القرآن ٣/١٢١٨.

(٢) في (د) و(ز) و(م): الاقتران، والمثبت من (ظ) ومصادر التخريج.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٥)، ومسلم (٢٠٤٥)، وأحمد (٥٠٣٧).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٦١)، ومسلم (١٩٣٥)، وأحمد (١٤٣١٥)، قال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٧٩: والخَبَط: ورق السَّلَم.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٥٠٦.

فاختلف أهلُ بلده في الحشر وبَعْثِ الأجساد من القبور، فشكَّ في ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا: إنَّما تُحشَر الأرواح، والجسد تأكله الأرض. وقال بعضهم: تُبعَث الروح والجسد جميعاً، فكبُر ذلك على الملك وبقي حيران لا يدري كيف يتبيَّن أمره لهم، حتى لبس المُسُوح وقعد على الرَّماد وتضرَّع إلى الله تعالى في حجَّة وبيان، فأعثر اللهُ على أهل الكهف[١].

فيقال: إنَّهم لما بعثوا أحدهم بوَرِقهم إلى المدينة ليأتيهم برزقٍ منها، اسْتُنْكِر شخصُه واسْتُنْكرت دراهمه[٢]؛ لبُعد العهد، فحُمل إلى الملك، وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه، فلما نظر إليه قال: لعلَّ هذا من الفِتْيَة الذين خرجوا على عَهْد دِقيانوس الملك، فقد كنت أدعو اللهَ أن يُرِيَنِيهم، وسأل الفتى، فأخبره[٣]، فسُرَّ الملِكُ بذلك وقال: لعلَّ اللهَ قد بعث لكم آيةً، فلْنَسِرْ إلى الكهف معه، فركب مع أهل المدينة إليهم، فلما دنَوْا إلى الكهف قال تمليخا: أنا أدخل عليهم لئلَّا يَرْعَبُوا، فدخل عليهم فأعلمهم الأمرَ، وأنَّ الأمَّةَ أمَّةُ إسلام، فرُوِي أنَّهم سُرُّوا بذلك، وخرجوا إلى الملك وعظَّموه وعظَّمهم، ثم رجعوا إلى كهفهم. وأكثر الروايات على أنَّهم ماتوا ـ حين حدَّثهم تمليخا ـ ميتة الحقِّ، على ما يأتي. ورجع من كان شكَّ في بَعْث الأجساد إلى اليقين. فهذا معنى: «أعثرنا عليهم».

﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليعلم الملكُ ورعيته أنَّ القيامةَ حقٌّ والبعثَ حقٌّ.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ وإنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم، وهابوا الدخولَ عليهم، فقال الملك: ابنوا عليهم بنياناً، فقال الذين هم على دين الفتية: اتَّخِذوا عليهم مسجداً. وروي أنَّ طائفةً كافرةً قالت: نبني بِيعةً أو مصنعاً[٤]، فمانعهم

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧ .

(٢) في (ظ): وَرِقه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٢٩٥ .

(٤) في (ظ): مصنع، وفي (د): مضيعاً، وفي (م): مضيفاً، والمثبت من (ز) والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧ ، والكلام منه.

المسلمون، وقالوا: لنتخذنَّ عليهم مسجداً. وروي أنَّ بعضَ القوم ذهب إلى طَمْسِ الكهف عليهم وتَرْكِهم فيه مغيَّبين.

ورُوي عن عبيد بنِ عمير[١] أنَّ اللهَ تعالى أعمى على الناس حينئذٍ أَثَرهم، وحجبهم عنهم، فذلك دعا إلى بناء البنيان؛ ليكون مَعْلَماً لهم.

وقيل: إنَّ الملكَ أراد أن يدفنَهم في صندوق من ذهب، فأتاه آتٍ منهم في المنام فقال: أردتَ أن تجعلنا في صندوق من ذهب، فلا تفعل؛ فإنَّا من التراب خُلقنا وإليه نعود، فدَعْنا[٢].

وتنشأ هنا مسائلُ ممنوعةٌ وجائزةٌ؛ فاتِّخاذ المساجد على القبور والصلاةُ فيها والبناء عليها، إلى غيرِ ذلك مما تضمَّنته السنة من النهي عنه، ممنوعٌ لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذيُّ عن ابنِ عباس قال: لعن رسولُ اللهِ ﷺ زوَّارات القبور والمتَّخذين عليها المساجدَ والسُّرُج[٣]. قال الترمذيُّ: وفي الباب عن أبي هريرة[٤] وعائشة[٥]، حديث ابن عباس حديث حسن. وروى الصحيحان[٦] عن عائشة أنَّ أمَّ حبيبة وأمَّ سلمة ذكرتا كنيسةً رَأَيْنها بالحبشة - فيها تصاويرُ - لرسولِ الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بَنَوْا على قبره مسجداً، وصوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرارُ الخَلْق عند الله تعالى يوم القيامة». لفظ مسلم. قال علماؤنا: وهذا يحرِّم على المسلمين أن يتَّخذوا قبورَ الأنبياء والعلماء مساجدَ. وروى الأئمة عن أبي مَرْثَد الغَنَويِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا

---

(١) في (د) و(م): عبد الله بن عمر، والمثبت من (ز) و(ظ) والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٩٦.

(٣) أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٥٧٥) مختصراً، وهو عند أحمد (٢٦٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٧)، ومسلم (٥٣٠)، وهو عند أحمد (٧٨٢٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١)، وهو عند أحمد (٢٤٠٦٠).

(٦) سلف ٢/ ٢٩٤.

تُصَلُّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها» لفظ مسلم[١]. أي: لا تتخذوها قبلةً فتصلُّوا عليها أو إليها، كما فعل اليهود والنصارى؛ فيؤدي إلى عبادةِ من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام. فحذَّر النبيُّ ﷺ عن مِثْلِ ذلك، وسَدَّ الذرائعَ المؤدِّية إلى ذلك فقال: «اشتدَّ غَضَبُ اللهِ على قوم اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم وصالحيهم مساجدَ»[٢]. وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بنِ عباس قالا: لما نزل برسول الله ﷺ طَفِق يَطرحُ خَميصةً له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها، كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنةُ اللهِ على اليهود والنصارى اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ» يحذِّر ما صنعوا[٣]. وروى مسلم[٤] عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُجَصَّص القبرُ، وأن يُقعدَ عليه، وأن يُبنى عليه. وخرَّجه أبو داود والترمذيُّ أيضاً عن جابر قال: نهى رسولُ الله ﷺ أن تُجَصَّص القبور، وأن يُكتَب عليها، وأن يُبْنَى عليها، وأن توطأ[٥]. قال الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح.

وروى الصحيح عن أبي الهَيَّاج الأسديِّ قال: قال لي عليُّ بنُ أبي طالب: ألا أبْعَثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: ألَّا تَدَعَ تمثالاً إلا طَمَسته، ولا قبراً مُشْرِفاً إلا سوَّيته. في رواية: ولا صورةً إلا طمستها. وأخرجه أبو داود والترمذيُّ[٦].

قال علماؤنا: ظاهره مَنْعُ تسنِيم القبور ورَفْعِها، وأن تكون لاطئةً. وقد قال به بعضُ أهل العلم، وذهب الجمهور إلى أنَّ هذا الارتفاعَ المأمورَ بإزالته هو ما زاد على التسنيم، ويبقى للقبر ما يُعرف به ويُحترم، وذلك صفةُ قبر نبيِّنا محمد ﷺ وقبرِ صاحبَيْه

---

(١) سلف ١٢/ ٢٤٧ .

(٢) المفهم ٢/ ١٢٨ و٦٢٨، والحديث أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٧٢ من حديث عطاء بن يسار ﷺ مرسلاً.

(٣) سلف ٢/ ٢٩٥ .

(٤) في صحيحه (٩٧٠)، وهو عند أحمد (١٤١٤٩).

(٥) أبو داود (٣٢٢٥)، والترمذي (١٠٥٢)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٢١٦٥)، وابن ماجه (١٥٦٢).

(٦) مسلم (٩٦٩)، وأبو داود (٣٢١٨)، والترمذي (١٠٤٩)، وهو عند أحمد (٧٤١).

رضي الله عنهما ـ على ما ذكر مالك في «الموطأ»[1] ـ وقبر أبينا آدمَ ﷺ، على ما رواه الدارقطنيُّ[2] من حديث ابنِ عباس. وأما تعليةُ البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهليَّة تفعله تفخيماً وتعظيماً، فذلك يُهدَم ويُزال؛ فإنَّ فيه استعمالَ زينة الدنيا في أوَّل منازلِ الآخرة، وتشبُّهاً بمن كان يعظِّم القبورَ ويَعبدها. وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهي ينبغي أن يقال: هو حرام[3].

والتسنيم في القبر: ارتفاعُه قَدْرَ شبر، مأخوذ من سَنام البعير[4]. ويُرَشّ عليه بالماء؛ لئلَّا ينتثرَ بالريح. وقال الشافعيُّ: لا بأس أن يطيَّن القبر. وقال أبو حنيفة: لا يُجصَّص القبر، ولا يطيَّن، ولا يُرفَع عليه بناء، فيسقط[5].

ولا بأسَ بوضْع الأحجار؛ لتكون علامةً؛ لما رواه أبو بكر الأثرم قال: حدَّثنا مُسدَّد، حدَّثنا نوح بن درّاج، عن أبان بنِ تغْلِب، عن جعفر بنِ محمد، قال: كانت فاطمةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ تزور قبرَ حمزة بنِ عبد المطلب كلَّ جمعةٍ وعلَّمته بصخرة، ذكره أبو عمر[6].

وأما الجائزة: فالدفن في التابوت، وهو جائز لا سيَّما في الأرض الرِّخْوة. ورُوي أنَّ دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حَجَر[7]، وأنَّ يوسفَ عليه السلام

(١) المفهم ٢/ ٦٢٥ - ٦٢٦ ، ولم نقف عليه في الموطأ، وأخرج البخاري (١٣٩٠) عن سفيان التمَّار أنه رأى قبر النبي ﷺ مسنَّماً. اهـ قال ابن حجر في فتح الباري ٣/ ٢٥٧ : زاد أبو نعيم في المستخرج: وقبر أبي بكر وعمر كذلك. اهـ. وأخرج أبو داود (٣٢٢٠) من طريق القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: دخلت على عائشة فقلت: يا أمَّه اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء.

(٢) في سننه (١٨١٢)، وفيه عبد الرحمن بن مالك بن مغول، وهو متروك.

(٣) المفهم ٢/ ٦٢٦ - ٦٢٧ .

(٤) تهذيب اللغة ١٦/ ١٦ ، والصحاح (سنم).

(٥) الأم ١/ ٢٤٥ - ٢٤٦ ، وبدائع الصنائع ٢/ ٣٥٩ .

(٦) في التمهيد ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٧) ذكر الشريف الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١/ ٣٩٥ أن بنهر تستر فيما يقال تابوت دانيال.

أوصى بأن يُتَّخذ له تابوتٌ من زجاج ويُلقَى في رَكِيَّة؛ مخافةَ أن يُعبَد، وبقي كذلك إلى زمانِ موسى صلوات الله عليهم أجمعين، فدلَّته عليه عجوزٌ، فرفعه ووضعه في حظيرة إسحاق عليه السلام[١]. وفي الصحيح عن سعد بنِ أبي وَقّاص أنَّه قال في مرضه الذي هلك فيه: اتَّخذوا لي لَحْداً، وانْصِبوا عليَّ اللَّبِن نَصْباً، كما صُنع برسول الله ﷺ[٢].

اللَّحد: هو أن يشقَّ في الأرض ثم يُحفَر قبرٌ آخرُ في جانب الشَّقِّ من جانب القِبْلة إن كانت الأرض صُلْبةٌ، يُدخَل فيه الميتُ ويُسَدّ عليه باللَّبِن. وهو أفضلُ عندنا من الشَّقِّ؛ لأنَّه الذي اختاره اللهُ تعالى لرسول الله ﷺ[٣]. وبه قال أبو حنيفة قال: السُّنَّة اللَّحد. وقال الشافعي: الشَّقُّ.ويكره الآجُرُّ في اللَّحد. وقال الشافعي: لا بأس به؛ لأنَّه نوعٌ من الحجر. وكرهه أبو حنيفة وأصحابه؛ لأنَّ الآجرَّ لإحكام البناء، والقبر وما فيه للبِلَى، فلا يليقُ به الإحكام. وعلى هذا يسوَّى بين الحجر والآجرِّ. وقيل: إنَّ الآجُرَّ أثر النار فيكره تفاؤلاً، فعلى هذا يفرَّق بين الحجر والآجرِّ. قالوا: ويستحبُّ اللَّبِن والقَصَب؛ لما رُوي أنَّه وضع على قبر النبيِّ ﷺ حُزْمةٌ من قصب[٤]. وحكي عن الشيخ الإمام أبي بكر محمد بنِ الفضل الحنفيِّ رحمه الله أنَّه جوَّز اتخاذَ التابوت في بلادهم؛ لرخاوة الأرض. وقال: لو اتُّخذ تابوتٌ من حديد، فلا بأس به، لكن ينبغي أن يُفرَش فيه التراب، وتطيَّن الطبقةُ العليا مما يلي الميتَ، ويُجعل اللَّبِن الخفيفُ على يمين الميت ويساره؛ ليصير بمنزلة اللَّحد[٥].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٧ بنحوه، والركيَّة: البئر. القاموس (ركو).

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٦)، وأحمد (١٤٥٠).

(٣) المفهم ٢/ ٦٢٤ .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣ عن الشعبي أن النبي ﷺ جعل على لحده طَنَّ قصب. والطَّنُّ: حزمة القصب. القاموس (طنن).

(٥) ذكره بنحوه الكاساني في بدائع الصنائع ٢/ ٣٥٤ .

قلت: ومن هذا المعنى جَعْل القطيفة في قبر النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ المدينةَ سَبِخة[(١)]، قال شُقْران: أنا والله طرحتُ القطيفةَ تحت رسولِ الله ﷺ في القبر. قال أبو عيسى الترمذيُّ: حديث شُقران حديثٌ حسن غريب[(٢)].

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الضمير في «سيقولون» يراد به أهلُ التوراة ومعاصري محمَّد ﷺ. وذلك أنَّهم اختلفوا في عددِ أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص[(٣)].

وقيل: المراد به النَّصارى، فإنَّ قوماً منهم حضروا النبيَّ ﷺ من نَجْران، فجرى ذِكْر أصحاب الكهف فقالت اليَعْقُوبيَّة: كانوا ثلاثةً رابعهم كلبهم. وقالت النَّسْطورية: كانوا خمسةً سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعةً ثامنهم كلبهم[(٤)].

وقيل: هو إخبارٌ عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبيِّ ﷺ عن أصحاب الكهف.

والواو في قوله: «وثامنهم كلبهم» طريق النحويين أنَّها واو عطف دخلت في آخر إخبارٍ عن عددهم؛ لتفصِّل أمرهم، وتدلَّ على أنَّ هذا غاية[(٥)] ما قيل، ولو سقطت،

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في المراسيل ٤١٦ ، وابن أبي شيبة ٣/ ٣٣٦ عن الحسن مرسلاً، وجعل القطيفة في قبر النبي ﷺ أخرجه مسلم (٩٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سنن الترمذي (١٠٤٧)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤٦٨)، والطبراني في الكبير (٧٤٠٩).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧ .

(٤) الوسيط ٣/ ١٤٢ ، وزاد المسير ٥/ ١٢٤ .

(٥) في (ظ): نهاية. وكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨ والكلام منه.

لصحَّ الكلام. وقالت فرقة، منها ابنُ خالَويْه: هي واو الثمانية. وحكى الثعلبيُّ عن أبي بكر بنِ عَيَّاش أنَّ قريشاً كانت تقول في عددها: ستَّة سبعة وثمانية، فتُدخل الواو في الثمانية[١]. وحكى نحوه القفَّال، فقال: إنَّ قوماً قالوا: العدد ينتهي عند العرب إلى سبعة، فإذا احتِيج إلى الزيادة عليها، استؤنف خبرٌ آخر بإدخال الواو، كقوله: ﴿التَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ﴾ [التوبة: ١١٢]. يدلُّ عليه أنَّه لمَّا ذكر أبواب جهنم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] بلا واو، ولما ذكر الجنة قال: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] بالواو. وقال: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ ثم قال: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥] فالسبعة نهاية العدد عندهم، كالعشَرة الآن عندنا[٢].

قال القُشيريُّ أبو نصر: ومثل هذا الكلام تحكُّم، ومن أين السبعةُ نهاية عندهم! ثم هو منقوضٌ بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] ولم يذكر الاسمَ الثامنَ بالواو.

وقال قومٌ ممن صار إلى أنَّ عددَهم سبعة: إنَّما ذكر الواو في قوله: «سبعة وثامنهم» لينبِّه على أن هذا العددَ هو الحقُّ، وأنَّه مباين للأعداد الأُخَر التي قال فيها أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى في الجملتين المتقدِّمتين: «رَجْماً بالغيب» ولم يذكره في الجملة الثالثة، ولم يَقدَح فيها بشيء، فكأنَّه قال لنبيِّه: هم سبعة وثامنهم كلبهم.

والرَّجْم: القول بالظنِّ، يقال لكل ما يُخرص: رَجَم فيه، ومرجوم ومُرَجَّم[٣]، كما قال:

وما الحربُ إلا ما علمتُم وذُقْتُمُ ... وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ[٤]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨، وزاد المسير ٥/ ١٢٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٥٦، وزاد المسير ٥/ ١٢٥.

(٣) لسان العرب (رجم).

(٤) القائل زهير بن أبي سلمى، والبيت في ديوانه ص١٨.

قلت: قد ذكر الماورديُّ[١] والغَزْنَوِيُّ: وقال ابن جريج ومحمد بنُ إسحاق: كانوا ثمانيةً، وجعلا قوله تعالى: «وثامنهم كلبهم» أي: صاحبُ كلبهم. وهذا مما يقوِّي طريقَ النحويين في الواو، وأنَّها كما قالوا[٢]. وقال القُشيرِيُّ: لم يذكر الواوَ في قوله: رابعهم، سادسهم، ولو كان بالعكس لكان جائزاً، فطلبُ الحكمة والعلَّة في مثل هذه الواو تكلّفٌ بعيد، وهو كقوله في موضع آخر: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤]. وفي موضع آخر: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩].

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية أن يردَّ عِلْم عدَّتهم إليه عزَّ وجلَّ. ثم أخبر أنَّ عالِمَ ذلك من البشر قليلٌ. والمراد به قوم من أهل الكتاب[٣]، في قول عطاء. وكان ابنُ عباس يقول: أنا من ذلك القليل، كانوا سبعةً وثامنهم كلبهم[٤]، ثم ذكر السبعةَ بأسمائهم، والكلب اسمه قطمير، كلب أنمر، فوق القَلَطِيّ ودون الكركيّ[٥]. وقال محمد بن سعيد بن المُسَيِّب: هو كلب صينيٌّ. والصحيح أنَّه زبيري. وقال: ما بقي بنيسابور محدِّث إلا كتب عني هذا الحديث إلا من لم يُقدَّر له. قال: وكتبه أبو عمرٍو الحِيريُّ عنِّي[٦].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك، وهو ردُّ عِلْم عدَّتهم إلى الله تعالى. وقيل: معنى المراء الظاهر

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٢٩٧.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٢١٩ - ٢٢٠، وفي تاريخه ٢/ ٥، وابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٦٦، وعبد الرزاق في التفسير ١/ ٤٠٠.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٥٤، وعرائس المجالس ص٤١٩، والقَلَطي: القصير جداً من الناس والسنانير والكلاب. وورد في النسخ: الكردي، بدل الكركي. والمثبت من عرائس المجالس، والكركي: طائر كبير معروف. حياة الحيوان للدميري ٢/ ٢٧٣.

(٦) عرائس المجالس ص٤١٩.

أن تقول: ليس كما تقولون، ونحو هذا، ولا تحتجَّ على أمر مقدَّر في ذلك[١]. وفي هذا دليل على أنَّ الله تعالى لم يبيِّن لأحد عدَدَهم فلهذا قال: «إلا مِراءً ظاهراً» أي: ذاهباً، كما قال:

وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[٢]

ولم يبح له في هذه الآية أن يمارِي، ولكن قوله: «إلَّا مِرَاءً» استعارةٌ من حيث يماريه أهلُ الكتاب، سمِّيت مراجعته لهم مِراءً، ثم قيد بأنّه ظاهر، ففارق المراءَ الحقيقيَّ المذمومَ. والضمير في قوله: «فيهم» عائدٌ على أهل الكهف. وفي قوله: «منهم» عائدٌ على أهل الكتاب المعارِضين. وقوله: «فلا تمار فيهم» يعني في عِدَّتهم، وحذفت العدَّة؛ لدلالة ظاهر القول عليها[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ روي أنَّه عليه الصلاة والسلام سأل نصارى نَجْران عنهم، فنُهي عن السؤال[٤]. وفي هذا دليل على مَنْع المسلمين من مراجعة أهلِ الكتاب في شيء من العلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قال العلماء: عاتب الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام على قوله للكفار حينَ سألوه عن الرُّوح والفِتية وذي القرنين: غداً أُخبركم بجواب أسئلتكم،

(١) المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ .

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ص٢١ ، وصدره:

وعيَّرها الواشون أنِّي أحبُّها

(٣) المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/١٣٨ ، والوسيط ٣/ ١٤٣ .

ولم يستثنِ في ذلك. فاحتبسَ الوحيُ عنه خمسة عشر يوماً حتى شقَّ ذلك عليه، وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرِّجة. وأُمِرَ في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور: إني أَفعل غداً كذا وكذا، إلَّا أن يُعلِّق ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ[١]، حتى لا يكون محقِّقاً لحكم الخبر، فإنَّه إذا قال: لأَفعلنَّ ذلك ولم يفعل، كان كاذباً، وإذا قال: لأفعلنَّ ذلك إن شاء الله، خرج عن أن يكون محقِّقاً للمخبَر عنه. واللام في قوله «لشيء» بِمنزلة «في»، أو كأنَّه قال: لأجل شيء.

الثانية: قال ابن عطيَّة[٢]: وتكلَّم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآيةُ ليست في الأَيمان وإنما هي في سُنَّة الاستثناء في غير اليمين. وقوله: «إلا أن يشاء الله» في الكلام حَذْف يقتضيه الظاهر، ويحسِّنه الإيجاز، تقديره: إلا أن تقول: إلا أَنْ يشاء الله، أو إلا أن تقول: إن شاء الله، فالمعنى: إلا أَنْ تذكر مشيئةَ الله، فليس: «إلا أن يشاء الله»، من القول الذي نُهِي عنه.

قلت: ما اختاره ابنُ عطيَّة وارتضاه هو قول الكسائيِّ والفَرَّاء والأَخفش[٣]. وقال البصريون: المعنى: إلا بمشيئةِ الله. فإذا قال الإنسان: أَنا أَفعل هذا إن شاء الله، فمعناه: بمشيئة الله. قال ابنُ عطيَّة[٤]: وقالت فرقة: «إلا أن يشاء الله» استثناءٌ من قوله: «ولا تقولنَّ». قال: وهذا قول حكاه الطبريُّ[٥] وردَّ عليه، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يُحكَى. وقد تقدَّم القول في الاستثناء في اليمين وحكمه في «المائدة»[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٥٠٨.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/٥٠٨.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/١٣٨، وللأخفش ٢/٦١٨.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/٥٠٨ - ٥٠٩.

(٥) في التفسير ١٥/٢٢٤ - ٢٢٥.

(٦) ٨/١٣٧.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهو الأمر بالذِّكْر بعد النسيان، واختلف في الذِّكْر المأمور به، فقيل: هو قوله: «وقل عسى أن يَهْدِيني ربّي لأقرب من هذا رَشَداً». قال محمَّد الكوفيُّ المفسِّر: إنَّها بألفاظها مما أمِر أن يقولها كلُّ من لم يَسْتَثْنِ، وإنَّها كفارةٌ لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاءٌ مأمور به دون هذا التخصيص[(١)]. وقيل: هو قوله: «إن شاء الله» الذي كان نَسِيَه عند يمينه. حُكي عن ابن عباس[(٢)] أنَّه إن نسيَ الاستثناء ثم ذَكَر ولو بعد سنة؛ لم يَحنَث إن كان حالفاً. وهو قول مجاهد[(٣)].

وحكى إسماعيل بنُ إسحاق ذلك عن أبي العالية في قوله تعالى: «واذكر ربك إذا نسيت» قال: يَستثني إذا ذَكَره[(٤)]. الحسن: ما دام في مجلس الذِّكْر[(٥)]. ابن عباس: سنتين[(٦)]، ذكره الغزنويُّ قال: فيحمل على تَدارك التبرُّك بالاستثناء؛ للتخلُّص عن الإثم. فأما الاستثناء المفيد حكماً؛ فلا يصحُّ إلا متصلاً. السُّدِّي: أي: كل صلاة نسيها إذا ذَكَرها[(٧)]. وقيل: استثنِ باسمِه؛ لئلا تنسى. وقيل: اذكره متى ما نسيتَه. وقيل: إذا نسيتَ شيئاً، فاذكره يُذَكِّرْكَه. وقيل: اذكره إذا نسيتَ غيرَه أو نسيتَ نفسك؛ فذلك حقيقةُ الذِّكْر.

وهذه الآية مخاطبة للنبيِّ ﷺ، وهي استفتاحُ كلام على الأصحِّ، وليست من الاستثناء في اليمين بشيء، وهي بعدُ تعمُّ جميعَ أمَّته؛ لأنَّه حكم يتردَّد في الناس لكثرة وقوعِه. والله الموفِّق.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٢٥ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٥ (١٢٧٥٨)، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٩٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ ، وفيه: بعد سنتين.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٢٩٩ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٩ وعزاه إلى مجاهد.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٥٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

هذا خبر من الله تعالى عن مدَّة لَبثهم، وفي قراءة ابنِ مسعود: «وقالوا لبثوا»[١]. قال الطبريُّ[٢]: إنَّ بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدَّة بعد الإعثار عليهم إلى مدَّة النبيِّ ﷺ، فقال بعضهم: إنَّهم لبثوا ثلاث مئة سنة وتِسْعَ سنين، فأخبر اللهُ تعالى نبيَّه أنَّ هذه المدَّة في كونهم نياماً، وأنَّ ما بعد ذلك مجهولٌ للبشر. فأمر اللهُ تعالى أن يردَّ عِلْم ذلك إليه.

قال ابن عطيَّة[٣]: فقوله على هذا: «لبثوا» الأوَّل يريد في نوم الكهف، و«لبثوا» الثاني يريد بعد الإعثارِ إلى مدَّة محمَّد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبَلاء[٤]. مجاهد: إلى وقت نزولِ القرآن. الضَّحَّاك: إلى أن ماتوا. وقال بعضهم: إنَّه لما قال: «وازدادوا تسعاً» لم يَدْرِ الناس أهيَ ساعات، أم أيام، أم جُمَع، أم شهور، أم أعوام؟ واختلف بنو إسرائيلَ بحسَب ذلك، فأمر اللهُ تعالى بِرَدِّ العلم إليه في التسع، فهي على هذا مبهمةٌ. وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنَّها أعوام، والظاهر من أَمْرهم أنَّهم قاموا ودخلوا الكهفَ بعد عيسى بيسيرٍ، وقد بقيت من الحواريين بقيَّة. وقيل غير هذا على ما يأتي.

قال القشَيْريُّ: لا يُفهَم من التِّسع تسعَ ليال وتسعَ ساعات؛ لسَبْق ذكر السنين، كما تقول: عندي مئة درهم وخمسة، والمفهوم منه خمسةُ دراهم. وقال أبو علي: «وازدادوا تسعاً» أي: ازدادوا لبثَ تسع، فحذف. وقال الضحَّاك: لما نزلت: «ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة» قالوا: سنين، أم شهور، أم جُمَع، أم أيام؟ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: «سنين»[٥]. وحكى النقَّاش ما معناه أنَّهم لبثوا ثلاث مئة سنة شمسيَّة بحساب

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٢٩ ، والكشاف ٢/ ٤٨١ .

(٢) في التفسير ١٥/ ٢٣١ ، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ .

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ .

(٤) في (ظ) والمحرر الوجيز: بالبلى. وهما بمعنى.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٣٠ ، وابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٥٦ (١٢٧٦٧).

الأيام، فلما كان الإخبارُ هنا للنبيِّ العربيِّ، ذكرت التسع، إذ المفهوم عنده من السنين القمريَّة، وهذه الزيادة هي ما بين الحسابَيْن[١]. ونحوه ذَكَر الغزنويُّ. أي: باختلاف سنِي الشمس والقمر؛ لأنَّه يتفاوت في كلِّ ثلاث وثلاثين وثُلُث سنةٍ سنةً، فيكون في ثلاث مئة، تسع سنين.

وقرأ الجمهور: «ثلاث مئةٍ سنينَ» بتنوين مئة ونَصْب سنين، على التقديم والتأخير، أي: سنين ثلاث مئة، فقدَّم الصفةَ على الموصوف، فتكون «سنين» على هذا بدلاً، أو عَطْفَ بيان. وقيل: على التفسير والتمييز. و«سنين» في موضع سنة. وقرأ حمزة والكسائيُّ بإضافة مئة إلى سنين، وترك التنوين، كأنَّهم جعلوا سنينَ بمنزلة سنة، إذ المعنى بهما واحد[٢]. قال أبو عليٍّ[٣]: هذه الأعداد التي تُضاف في المشهور إلى الآحاد نحو ثلاث مئة رجل وثوب، قد تُضاف إلى الجموع. وفي مصحف عبد الله: «ثلاث مئة سنة»[٤]. وقرأ الضحاك «ثلاث مئة سنون» بالواو. وقرأ أبو عمرو بخلاف «تَسْعاً» بفتح التاء[٥]، وقرأ الجمهور بكسرها. وقال الفرَّاء والكسائيُّ وأبو عبيدة: التقدير: ولبثوا في كهفهم سنين ثلاث مئة[٦].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ قيل: بعد موتهم إلى نزول القرآنِ فيهم،

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ .

(٢) السبعة ص٣٨٩ - ٣٩٠ ، والتيسير ص١٤٣ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٣ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٨ .

(٣) في الحجة للقراء السبعة ٥/ ١٣٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ ، وذكرها ابن خالويه في الشواذ ص٧٩ ، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٨١ ونسباها إلى أُبَيٍّ. وينظر البحر المحيط ٦/ ١١٧ .

(٥) الشواذ ص٧٩.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٣ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٨ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٩٨ .

على قول مجاهد. أو إلى أَنْ ماتوا، على قول الضَّحَّاك. أو إلى وقت تغيُّرهم بالبِلَى، على ما تقدَّم. وقيل: بما لبثوا في الكهف، وهي المدَّة التي ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادةً ونقصاناً[1]. أي: لا يَعلم عِلْم ذلك إلا الله أو مَن علَّمه ذلك ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ﴾ أي: ما أَبصره وأَسمعه. قال قتادة: لا أحدَ أَبصرُ مِن الله ولا أَسمعُ[2]. وهذه عبارات عن الإدراك. ويحتمل أن يكون المعنى: «أَبصر به» أي: بوَحْيِه وإرشادِه هداكَ وحُججكَ والحقَّ من الأمور، وأَسمع به العالم، فيكونان أَمرين لا على وجه التعجُّب[3]. وقيل: المعنى: أَبصرهم وأَسمعهم ما قال الله فيهم[4].

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ﴾ أي: لم يكن لأصحاب الكهف وَلِيٌّ يتولَّى حِفْظهم دون الله. ويحتمل أن يعود الضمير في: «لهم» على معاصري محمَّد ﷺ من الكفَّار[5]. والمعنى: ما لهؤلاء المختلفين في مدَّة لُبثهم وَلِيٌّ دون الله يتولَّى تدبيرَ أَمرهم، فكيف يكونون أعلمَ منه، أو كيف يتعلَّمون من غيرِ إعلامه إيَّاهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ قرئ بالياء ورَفْع الكاف، على معنى الخبر عن الله تعالى. وقرأ ابنُ عامر والحسن وأبو رَجاء وقتادة والجَحْدَريُّ: ﴿ولا تُشْرِكْ﴾ بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبيِّ ﷺ، ويكون قوله: «ولا تشرك» عطفاً على قوله: «أبصر به وأسمع». وقرأ مجاهد: «يُشْرِكْ» بالياء من تحت والجَزْم. قال يعقوب: لا أَعرف وجهَه[6].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٠٠.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٣٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠٠.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠ - ٥١١.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥١١، وقراءة ابن عامر في السبعة ص٣٩٠، والتيسير ص١٤٣.

مسألة: اختلف في أصحاب الكهف هل ماتوا وفَنُوا، أو هم نيامٌ وأجسادهم محفوظة، فروي عن ابن عباس أنَّه مرَّ بالشام في بعض غزواته مع ناسٍ على موضع الكهف وجَبَله، فمشى الناسُ معه إليه، فوجدوا عظاماً فقالوا: هذه عظامُ أهل[1] الكهف. فقال لهم ابن عباس: أولئك قومٌ فَنُوا وعُدِموا منذ مدَّة طويلة، فسمعه راهبٌ فقال: ما كنتُ أَحسِب أن أحداً من العرب يعرف هذا، فقيل له: هذا ابنُ عمِّ نبيِّنا ﷺ. وروت فرقةٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: لَيَحُجَّنَّ عيسى ابنُ مريم ومعه أصحابُ الكهف فإنَّهم لم يَحجُّوا بعدُ». ذكره ابن عطيَّة.

قلت: ومكتوب في التوراة والإنجيل أنَّ عيسى ابنَ مريم عبدُ الله ورسولُه، وأنَّه يمرُّ بالرَّوْحاء حاجًّا أو مُعْتَمِراً أو يَجمع اللهُ له ذلك فيجعل اللهُ حوارِيَّه أصحابَ الكهف والرقيم، فيمرُّون حجَّاجاً، فإنَّهم لم يحجوا ولم يموتوا. وقد ذكرنا هذا الخبرَ بكماله في كتاب «التذكرة»[2]. فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يومِ القيامة، بل يموتونَ قُبيلَ الساعة.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ قيل: هو من تمامِ قصةِ أصحاب الكهف، أي: اتبعِ القرآنَ، فلا مُبدِّلَ لكلماتِ اللهِ، ولا خُلفَ فيما أَخبر به من قصةِ أصحاب الكهف[3]. وقال الطبري[4]: لا مغيِّر لما أَوعدَ بكلماتِه أهلَ معاصيه والمخالفين لكتابه، ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أنتَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ إنْ لم تتبعِ القرآنَ وخالفته ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي: ملجأً. وقيل: موئلاً[5]. وأصلُه الميلُ، ومَن لجأتَ إليه، فقد

(١) في (ظ): أصحاب. وكذا في المحرر الوجيز ٣/ ٥١١ والكلام منه.

(٢) ص٦٨٦ .

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ١٤٤ .

(٤) في تفسيره ١٥/ ٢٣٤ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٠١ .

مِلْتَ إليه. قال القُشَيْرِيُّ أبو نصر عبد الرحيم: وهذا آخرُ قصةِ أصحاب الكهف.

ولما غزا معاويةُ غزوةَ المضيق نحو الروم وكان معه ابنُ عباس، فانتهى إلى الكهفِ الذي فيه أصحابُ الكهف، فقال معاويةُ: لو كُشِف لنا عن هؤلاء فننظرَ إليهم، فقال ابنُ عباس: قد منعَ الله مَن هو خَيرٌ منك عن ذلك، فقال: «لو اطلعتَ عليهم لولَّيْتَ منهم فِراراً» فقال: لا أنتهي حتى أعلمَ علمَهم، وبعثَ قوماً لذلك، فلما دخلوا الكهفَ، بعثَ الله عليهم ريحاً فأخرجتهم[1]، ذكره الثعلبي أيضاً. وذَكر[2] أنَّ النبيَّ ﷺ سألَ الله أن يريَه إياهم، فقال: إنَّك لن تراهم في دارِ الدنيا، ولكن ابعثْ إليهم أربعةً من خيارِ أصحابك ليبلِّغوهم رسالتَك ويدعوهم إلى الإيمان، فقال النبيُّ ﷺ لجبريلَ عليه السلام: كيف أبعثُهم؟ فقال: ابسط كساءَك، و أَجلِسْ على طرفٍ من أطرافه أبا بكر، وعلى الطرفِ الآخر عمرَ، وعلى الثالث عثمانَ[3]، وعلى الرابع عليَّ بنَ أبي طالب، ثم ادع الريحَ الرُّخاءَ المسخرة لسليمان، فإنَّ الله تعالى يأمُرها أن تطيعَك، ففعل فَحملتهم الريحُ إلى بابِ الكهفِ، فقَلعوا منه حجراً، فحَمل الكلبُ عليهم، فلمَّا رآهم حَرَّك رأسَه، وبَصبَص بذَنبه، وأوْمأ إليهم برأسه أنِ ادخلوا فدَخلوا الكهفَ، فقالوا: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، فردَّ الله على الفِتية أرواحَهم، فقاموا بأجمعِهم وقالوا: وعليكم السلام[4] ورحمةُ الله وبركاته، فقالوا لهم: معشرَ الفِتْية، إنَّ النبيَّ محمد بنَ عبد الله ﷺ يقرأُ عليكم السلامَ، فقالوا: وعلى محمدٍ رسولِ الله السلامُ ما دامتِ السماواتِ والأرضُ، وعليكم بما أبلغتُم، وقَبِلوا دينَه، وأسلموا، ثم قالوا: أقرئوا محمداً رسولَ الله منَّا السلام، وأخذوا مضاجعَهم وصاروا إلى رَقدتِهم إلى آخرِ الزمان عندَ خروجِ المهدي. فيقالُ: إنَّ المهديَّ يسلِّمُ عليهم فيُحييهم الله ثم يَرجعون إلى رَقدتِهم فلا يقومونَ حتى تقومَ الساعة، فأخبرَ

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/٢٣٤٨ (١٢٧٢٠)، وتغليق التعليق ٤/ ٢٤٤ ،و صححه ابن حجر هنا وفي فتح الباري ٦/ ٥٠٥ ، ووقع في تغليق التعليق: غزوة المصيف، وفي الفتح: الصائفة.

(٢) أي: الثعلبي في عرائس المجالس ص٤٣١ - ٤٣٢ .

(٣) في عرائس المجالس: أبا ذر، فيه أنه على الطرف الرابع من الكساء.

(٤) في (م): عليكم.

جبريلُ رسولَ الله ﷺ بما كان منهم، ثم ردَّتهمُ الريحُ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «كيف وجدتموهم؟» فأخبروه الخبر، فقال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ لا تُفرِّق بيني وبينَ أصحابي وأصهاري، واغفر لمن أحبَّني وأحبَّ أهلَ بيتي وخاصَّتي وأصحابي»(١).

وقيل: إنَّ أصحابَ الكهفِ دخلوا الكهفَ قبل المسيح، فأخبر اللهُ تعالى المسيحَ بخبرهم، ثم بُعثوا في الفَتْرة بين عيسى ومحمدٍ ﷺ(٢). وقيل: كانوا قبلَ موسى عليه السلام، وأنَّ موسى ذَكَرهم في التوراةِ، ولهذا سألتِ اليهودُ رسولَ الله ﷺ. وقيل: دَخلوا الكهفَ بعد المسيح، فالله أعلمُ أيَّ ذلك كان(٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ هذا مثلُ قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في سورة الأنعام(٤) وقد مضى الكلامُ فيه(٥). وقال سلمانُ الفارسيُّ ﷺ: جاءتِ المؤلَّفةُ قلوبُهم إلى رسولِ الله ﷺ: عُيينةُ بنُ حِصْن، والأقْرعُ بن حابس [وذووهم(٦)] فقالوا: يا رسولَ الله، إنَّك لو جلستَ في صدرِ المجلسِ ونَحَّيتَ عنا هؤلاءِ وأرواح جِبابهم ـ يعنونَ سلمانَ وأبا ذَرٍّ وفقراءَ المسلمين، وكانت عليهم جبابُ الصوفِ لم يكن عليهم غيرُها ـ جلسنا إليكَ وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزلَ الله تعالى: «واتلُ ما أُوحِيَ إليك من كتاب ربِّك لا مبدّلَ لكلماته ولن تَجِدَ من دونه مُلْتَحَداً. واصْبر نفسَك مع الذين يَدْعُون ربَّهم بالغَداةِ

---

(١) عرائس المجالس ص٤٣١ - ٤٣٢.
(٢) النكت والعيون ٣/ ٢٨٨.
(٣) تفسير الرازي ٢١/ ١١٣.
(٤) آية ٥٢.
(٥) ٨/ ٣٨٩.
(٦) ما بين حاصرتين ليست في النسخ، وهي من تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٠ - ٢٤١، وأسباب النزول للواحدي ص٣٠٦-٣٠٧، والوسيط ٣/ ١٤٥.

والعَشِيِّ يريدون وجهه ـ حتى بلغَ ـ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادِقها» يَتهددُهم بالنار، فقام النبيُّ ﷺ يلتمسُهم حتى إذا أصابَهم في مؤخرِ المسجدِ يذكرون الله قال: «الحمدُ لله الذي لم يُمتْني حتى أمرني أن أصبرَ نفسي مع رجالٍ من أُمتي، معكم الْمَحْيا ومعكم المماتُ»(١).

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: طاعته. وقرأ نصرُ بن عاصم، ومالكُ بن دِينار، وأبو عبد الرحمن: «ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربَّهم بالغُدْوة والعَشِيّ» وحجتُهم أنَّها في السَّوادِ بالواو. وقال أبو جعفر النَّحاس: وهذا لا يلزمُ؛ لكتبِهم الحياةَ والصلاةَ بالواو، ولا تكادُ العربُ تقول: الغدوة؛ لأنَّها معرفة(٢)، وروي عن الحسن: «ولا تُعْدِ عينيك عنهم»(٣) أي: لا تتجاوزْ عيناك إلى غيرِهم من أبناءِ الدنيا طلباً لزينتها؛ حكاه اليزيدي(٤). وقيل: لا تحتقرُهم عيناك، كما يقال: فلان تَنْبُو عنه العين، أي: مستحقراً(٥).

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تتزيَّن بمجالسةِ هؤلاء الرؤساءِ الذين اقترحوا إبعادَ الفقراء من مجلسِك(٦)، ولم يُرد النبيُّ ﷺ أن يفعلَ ذلك، ولكنَّ الله نَهاه عن أن يفعلَه، وليس هذا بأكثر من قولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وإن كان الله أعاذَه من الشرك. و«تريد» فعلٌ مضارع في موضع الحالِ، أي: لا تعدُ عيناك مريداً(٧)؛ كقولِ امرئ القيس:

فقلتُ له لا تبكِ عَينُك إنما ... نحاول مُلْكاً أو نموتَ فنُعْذَرَا(٨)

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) في (د) و(م): معروفة، والمثبت من (ظ)، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٤، والكلام منه. وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٦ - ٢٣٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٣٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٢.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١١٩، والإملاء للعكبري ٢/ ٥٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠٢، وينظر المحتسب ٢/ ٢٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٢.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٩٧.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٩.

(٧) الوسيط ٣/ ١٤٥، وتفسير الرازي ٢١/ ١١٥.

(٨) في ديوانه ص٦٦.

وزعم بعضُهم أنَّ حق الكلامِ: لا تَعْدُ عينيك عنهم؛ لأن «تَعْدُ» متعدٍّ بنفسه. قيل له: والذي وَردت به التلاوةُ من رفعِ العينين يؤول إلى معنى النصبِ فيهما، إذ كان «لا تَعدُ عيناك عنهم» بمنزلة لا تنصرفْ عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم: لا تَصرفْ عينيك عنهم، فالفعلُ مسندٌ إلى العينين، وهو في الحقيقةِ موجَّه إلى النبيِّ ﷺ[١]؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ [التوبة: ٥٥] فأسندَ الإعجابَ إلى الأموال، والمعنى: لا تُعْجبْكَ يا محمدُ أموالُهم. ويزيدُك وضوحاً قولُ الزجاج[٢]: إن المعنى: لا تصرفْ بصرَك عنهم إلى غيرِهم من ذوي الهيئاتِ والزينةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ رَوى جُوَيبر، عن الضحاك، عن ابن عباس في قولِه تعالى: «ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا» قال: نزلت في أُمَيَّة بنِ خلف الجُمَحِيِّ، وذلك أنَّه دعا النبيَّ ﷺ إلى أمرٍ كَرِهه من تجرُّدِ الفقراء عنه، وتقريبِ صناديدِ أهلِ مكة، فأنزلَ الله تعالى: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» يعني: مَنْ ختمنا على قلبِه عن التوحيد، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يعني: الشرك[٣]، ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ قيل: هو من التفريطِ الذي هو التقصيرُ وتقديمُ العجزِ بتركِ الإيمان. وقيل: من الإفراط ومجاوزة الحدِّ، وكان القومُ قالوا: نحن أشرافُ مُضَرَ، إن أسلمنا أسلمَ الناس. وكان هذا من التكبرِ والإفراط في القول[٤]. وقيل: «فُرُطاً» أي: قُدُماً في الشرِّ؛ من قولهم: فَرَط منه أمرٌ، أي: سبقَ[٥]. وقيل: معنى: «أغفلنا قلبه» وَجدناه غافلاً، كما تقول: لقِيت فلاناً فأَحمدتُه، أي: وجدته محموداً. وقال عمرو بنُ

---

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٥ - ٢٢٦ ، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١١٥ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٨١ ، وكلامه في أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦ ، وعنه نقل المصنف.

(٣) أسباب النزول ص٣٠٧ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١٤٦ ، وفيه: «طرد» بدل «تجرد»، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٤١ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٥٩ ، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٥) وقال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٢ : وكان أمره فرطاً، فيه خمسة تأويلات: أحدها: ضيقاً، وهو قول مجاهد. الثاني: متروكاً، قاله الفراء. الثالث: ندماً، قاله ابن قتيبة. الرابع: سرفاً وإفراطاً، قاله مقاتل. الخامس: سريعاً، قاله ابن بحر.

معدِ يكَرِب لبني الحارث بنِ كعب: واللهِ لقد سألناكم فَما أَبخلناكم، وقَاتلناكم فما أَجْبَنَّاكم، وهَاجَيناكم فما أفحمناكم. أي: ما وجدناكم بخلاءَ ولا جبناء ولا مُفْحَمين[١]. وقيل: نزلت: «ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا» في عُيينةَ بن حِصن الفَزَارِي[٢]؛ ذكره عبدُ الرزاق، وحكاه النحاسُ[٣] عن سفيانَ الثوري. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ «الحقُّ» رَفعٌ على خبرِ الابتداءِ المضمر، أي: قل: هو الحقُّ[٤]. وقيل: هو رفعٌ على الابتداءِ، وخبرُه في قوله: «مِن ربكم». ومعنى الآية: قل يا محمدُ لهؤلاءِ الذين أغفلنا قلوبَهم عن ذكرنا: أيها الناس، مِن ربكم الحقُّ، فإليهِ التوفيقُ والخِذلان، وبيده الهُدَى والضَّلال، يهدي من يشاءُ فيؤمِنُ، ويُضِل مَن يشاء فيكفر، ليس إليَّ من ذلك شيءٌ، فالله يؤتي الحقَّ مَن يشاء وإن كان ضعيفاً، ويَحرِمه من يشاء وإن كان قويًّا غَنِيًّا، ولستُ بطاردِ المؤمنين لِهَواكم، فإنْ شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفُروا، وليسَ هذا بترخيصٍ وتخييرٍ بين الإيمانِ والكفر، وإنَّما هو وعيدٌ وتهديدٌ. أي: إن كفرتم فقد أَعدَّ لكم النارَ، وإن آمنتم فَلكم الجنةُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ أي: أعددنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: للكافرين الجاحدين[٥]

---

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦ .و نقل محققه الدكتور محمود الطناحي رحمه الله عن هامش الأصل قولَ جمال الدين ابن هشام: هذه المقالةُ أعني كون «أغفلنا» بمعنى وجدناه غافلاً، تقدَّمه إليها ابنُ جني، نصَّ عليها في المحتسب وغيره، وحامله عليها الاعتزال.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤١ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٠ .

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٢٣١ .

(٤) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦١٨ ، وينظر البحر المحيط ٦/ ١٢٠ .

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٤ - ٢٤٥ .

﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ قال الجوهري[١]: السُّرادِقُ واحدُ السُّرادِقات التي تُمَدُّ فوقَ صَحن الدار، وكلُّ بيتٍ من كُرْسُف فهو سُرادق. قال رؤبة[٢]:

يا حَكَمَ بنَ المنذر بنِ الجارُودْ سُرادِقُ المجدِ عليك مَمْدُودْ

يقال: بيتٌ مُسَرْدَق. وقال سلامة بن جندل يذكر أبرَوِيزَ وقتلَه النعمانَ بن المنذر تحت أرجل الفِيَلة:

هو المُدْخِلُ النعمانَ بيتاً سماؤه صُدورُ الفُيولِ بعد بَيتٍ مُسَرْدَقِ[٣]

وقال ابن الأعرابي: «سرادقها» سورُها. وعن ابنِ عباس: حائطٌ من نار[٤]. الكلبي: عنقٌ تخرجُ من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة[٥]. القتَبي[٦]: السرادقُ الحُجرة[٧] التي تكونُ حولَ الفسطاط. وقاله ابنُ عُزيز[٨]. وقيل: هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذي ذكره الله تعالى في سورة «والمرسلات» حيث يقول: ﴿انطَلِقُوٓا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ﴾[٩][١٠] وقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة:٤٣] قاله قتادة. وقيل: إنَّه البحر المحيطُ بالدنيا. وروى يَعْلَى بنُ أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «البحرُ

---

(١) في الصحاح (سردق).

(٢) في ملحق ديوانه ص١٧٢ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٤٥ - ٢٤٦ ، ومجاز القرآن ١/ ٣٩٨ - ٣٩٩ ، ونسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ٢٠٣ ، والأعلم الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص٣١٤ إلى رجل من بني الجِرماز.

(٣) البيت في ديوان سلامة ص١٨٤ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٤٦ ، ومجاز القرآن ١/ ٣٩٩ ، ونسبه الأزهري في تهذيب اللغة ٩/ ٣٩٤ إلى الأعشى.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٦ .

(٥) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٩٧ .

(٦) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٧ .

(٧) في (م): الحجزة.

(٨) في نزهة القلوب ص٢٧٧ .

(٩) آية ٣٠ .

(١٠) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧ .

هو جهنمُ» ثم تلا: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ ثم قال: «واللهِ لا أدخلُها أبداً ما دمت حيًّا، ولا يُصيبني منها قطرةٌ». ذكره الماوَرديُّ[1]. وخَرَّج ابنُ المبارك[2] من حديث أبي سعيد الخُدْريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «لسرادقِ النارِ أربعُ جُدُر كُثُفٍ كلُّ جدارٍ مسيرةُ أربعين سنةً». وخرَّجه أبو عيسى الترمذيُّ[3]، وقال فيه: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

قلتُ: وهذا يدلُّ على أن السرادقَ ما يعلو الكفارَ من دخان أو نار، وجُدُره ما وُصِف.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ﴾ قال ابنُ عباس: المُهْلُ ماءٌ غليظ مثلُ دُرْديِّ الزيتِ. مجاهد: القَيْح والدَّم. الضحاكُ: ماءٌ أسود، وإنَّ جهنم لسوداء، وماؤها أسودُ، وشجرُها أسود، وأهلُها سُود[4]. وقال أبو عبيدة: هو كلُّ ما أُذيب من جواهرِ الأرض من حديدٍ ورَصاص، ونُحاس وقَزْدير، فَتَموَّجَ بالغليان، فذلك المُهْلُ[5]. ونحوه عن ابن مسعود[6]. قال سعيد بنُ جُبير: هو الذي قد انتهى حَرُّه[7]. وقال: المهلُ ضربٌ من القَطِران، يقال: مَهلتُ البعيرَ فهو ممهول. وقيل: هو السمُّ[8]. والمعنى في هذه الأقوالِ متقاربٌ. وفي الترمذي[9] عن النبيِّ ﷺ في قوله: «كالمهل» قال: «كعَكَرِ الزيت فإذا قرَّبه إلى وجهِه سقطت فَرْوةُ وجهِه» قال أبو عيسى: هذا حديثٌ إنما نعرفُه من حديث رِشْدِين بنِ سعد، ورِشْدينُ قد تُكُلِّم فيه

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٣، وقولُ النبي ﷺ أخرجه الطبري ١٥/ ٢٤٦ - ٢٤٧، وأحمد (١٧٩٦٠).

(٢) في الزهد زيادات نعيم بن حماد (٣١٦).

(٣) في سننه برقم (٢٥٨٤).

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٩.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٤٠٠.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٤٨.

(٧) تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٠.

(٨) ينظر اللسان (مهل).

(٩) برقم (٢٥٨١)، من حديث أبي سعيد.

من قِبَلِ حفظِه. وخَرَّج عن أبي أُمامةَ، عن النبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم:١٦] قال: «يُقرَّب إلى فيه فيَكرهُه، فإذا أُدْنِيَ منه شوَى وجهَه ووقعتْ فَروةُ رأسِه، فإذا شَرِبه قَطَّع أمعاءَه حتى يخرج من دبرِه، يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد:١٥] يقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾» قال: حديثٌ غريبٌ[(١)].

قلت: وهذا يدلُّ على صحةِ تلك الأقوال، وأنَّها مرادةٌ، والله أعلم. وكذلك نصَّ عليها أهلُ اللغة. في «الصحاحِ»[(٢)]: «المهلُ»: النحاسُ المُذابُ. ابن الأعرابي: المهلُ: المذابُ من الرصاص. وقال أبو عمرو: المهلُ: دُرديُّ الزيت. والمهل أيضاً: القيحُ والصديدُ. وفي حديثِ أبي بكرٍ: ادفنوني في ثَوْبَيَّ هذين؛ فإنهما للمُهل والتراب[(٣)].

و﴿مُرْتَفَقًا﴾ قال مجاهد: معناه: مجتمعاً كأنَّه ذهبَ إلى معنى المرافقةِ[(٤)]. ابنُ عباس: منزلاً. عطاء: مقرًّا[(٥)]. وقيل: مهاداً. وقال القتَبيُّ[(٦)]: مجلساً. والمعنى متقاربٌ، وأصلُه من المتَّكأ، يقال منه: ارتفقتُ، أي: اتكأتُ على المرفقِ، قال الشاعرُ:

قالت له وارتَفَقتْ ألَا فتًى يسوقُ بالقوم غَزالاتِ الضُّحا[(٧)]

(١) سنن الترمذي (٢٥٨٣).

(٢) مادة (مهل) دون قول ابن الأعرابي.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٧).

(٤) تفسير مجاهد ١/ ٣٧٦، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٢٥٣، وهو في النكت والعيون ٣/ ٣٠٣.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٦٠.

(٦) تفسير غريب القرآن ص٢٦٧.

(٧) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٢، والنوادر ص١٢٨، وأمالي القالي ٢/ ٩٦، وأمالي الزجاجي ص١٢. وقال أبو زيد في النوادر ص١٢٨: ويقال: لقيت فلاناً غزالة الضحى، ورَأْدَ الضحى، وكَهْرَ الضحى، كل ذلك بعد ما تنبسط الشمس وتُضحي غزالة.

ويُقال: ارتفقَ الرجل إذا نام على مِرفقه لا يأتيه نومٌ. قال أبو ذُؤيب الهُذلي:

نام الخَلي وبِتُّ الليل مُرتَفِقاً كأنَّ عَيْنَي فيها الصَّابُ مَذْبُوحُ[(١)]

الصابُ: عُصارةُ شجرٍ مرٍّ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

لمَّا ذَكرَ ما أَعدَّ للكافرين من الهوانِ، ذَكر أيضاً ما للمؤمنين من الثواب، وفي الكلامِ إضمارٌ، أي: لا نضيعُ أجرَ مَن أحسن منهم عملاً، فأمَّا مَن أحسن عملاً من غيرِ المؤمنين، فعملُه مُحْبَطٌ[(٣)]. و«عملاً» نُصِب على التمييزِ[(٤)]، وإن شئتَ بإيقاعِ «أحسن» عليه. وقيل: «إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً» كلامٌ معترض، والخبرُ قولُه: «أولئك لهم جنات عدن»[(٥)] و﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ سُرَّةُ الجنة، أي: وسطُها وسائرُ الجناتِ مُحْدِقَةٌ بها، وذُكِرت بلفظ الجمع لسَعتِها؛ لأنَّ كل بُقعة منها تصلحُ أن تكونَ جنة[(٦)]. وقيل: العَدْن الإقامةُ[(٧)]، يقال: عَدَن بالمكان إذا أقامَ به[(٨)]. وعَدَنْت البلدَ:

---

(١) ديوان الهذليين ص١٠٤، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٥٣، ومجاز القرآن ١/ ٤٠٠، والنكت والعيون ٣/ ٣٠٤.

وفي ديوان الهذليين: مشتجراً، بدل: مرتفقاً.

وصدره عند أبي عبيدة في مجاز القرآن:

إنـي أرقـت فـبـت الـلـيـل مـرتـفـقـاً

(٢) الصحاح (صوب).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٤، والطبري ١٥/ ٢٥٤.

(٦) ذكر نحوه الرازي في التفسير ٢١/ ١٢٢.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٣.

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٢١٨.

توطنْته. وعَدَنَتِ الإبلُ بمكانٍ كذا: لزمتْه فلم تَبرحْ منه، ومنه «جناتُ عَدْن» أي: جنات إقامة. ومنه سُمِّيَ المَعْدِن، بكسر الدال؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء. ومركزُ كلِّ شيءٍ مَعدِنُه. والعادن: الناقة المقيمة في المرعى، وعَدَنُ بلدٌ؛ قاله الجوهريُّ(١).

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدَّم في غير موضع(٢). ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سِوار. قال سعيد بن جُبَير: على كلِّ واحد منهم ثلاثةُ أَسوِرة: واحدٌ من ذهب، وواحدٌ من وَرِق، وواحدٌ من لؤلؤ(٣).

قلت: هذا منصوصٌ في القرآن، قال هنا: «من ذهب» وقال في «الحج» و«فاطر»(٤): ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ وفي «الإنسان»(٥): ﴿مِن فِضَّةٍ﴾. وقال أبو هريرة: سمعتُ خليلي ﷺ يقول: «تبلغُ الحِلْيَة من المؤمن حيثُ يبلغ الوضوء» خرَّجه مسلم(٦).

وحكى الفرَّاء: «يَحْلَون» بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة؛ يقال: حَلِيت المرأة تَحْلَى فهي حالية إذا لبست الحَلْي. وحَلِيَ الشيء بعيني يَحْلَى؛ ذكره النحاس(٧). والسِّوار سِوارُ المرأة، والجمعُ أسورة، وجمع الجمع أساورةٌ. وقُرِئ: «فلولا أُلْقِيَ عليه أساورة من ذهب» [الزخرف: ٥٣] وقد يكون الجمع أساور. وقال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] و[الحج: ٢٣] قاله الجوهري(٨).

---

(١) في الصحاح (عدن). والمقصود بمدينة عدن: المدينة المشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. معجم البلدان ٤/ ٨٩ .

(٢) ينظر ١/ ٣٥٩ .

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ١٤٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٣٧ .

(٤) [الحج: ٢٣] و[فاطر: ٣٣].

(٥) آية: ٢١ .

(٦) برقم (٢٥٠)، وسلف ٧/ ٣٣٤ .

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥ .

(٨) في الصحاح (سور).

وقال ابنُ عُزَيز[١]: أساور جمع أسوِرة، وأسورة جمع سِوار وسُوار، وهو الذي يُلبَس في الذراع من ذهب، فإن كان من فضة فهو قُلْب وجمعه قِلَبَة، فإن كان من قَرْن أو عاج فهي مَسَكة وجمعه مَسَك. قال النحاس[٢]: وحكى قُطْرب في واحد الأساور إسوار، وقُطرب صاحبُ شذوذ، قد تركه يعقوب وغيرُه، فلم يذكره.

قلت: قد جاء في «الصحاح»: وقال أبو عمرو بن العلاء: واحدها إسوار[٣]. وقال المفسرون: لمَّا كانتِ الملوك تلبَسُ في الدنيا الأساورَ والتِيجانَ، جعلَ الله تعالى ذلك لأهلِ الجنةِ[٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السُّنْدُس: الرقيقُ النحيف، واحدُه سندسةٌ؛ قاله الكسائي[٥]. والإستبرق: ما ثَخُن منه ـ عن عكرمة[٦] ـ وهو الحرير. قال الشاعر:

تَـراهـنَّ يَـلـبَـسْـنَ الـمـشـاعـر مَـرَّةً وإستبرقُ الديباجِ طَوْراً لباسُها[٧]

فالإستبرقُ الدِيباج. ابن بحر: المنسوجُ بالذهب[٨]. القُتَبي[٩]: فارسي معرب. الجوهري[١٠]: وتصغيره أُبَيْرِق. وقيل: هو استفعل من البريق. والصحيحُ أنَّه وِفاقٌ بين

---

(١) في نزهة القلوب ص٨٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٣ .

(٣) الصحاح (سور). ومثل قول أبي عمرو هذا قولُ الكسائي في ما تلحن فيه العامة ص١١٦ : ويقال: سِوار المرأة، للذي يكون في يدها، ويقال: إسوار بالألف وبغير ألف. فلم يتفرد قطرب بذلك.

(٤) زاد المسير ٥/ ١٣٧ .

(٥) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥ .

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٣٤)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧ قال: الإستبرق الديباج الغليظ.

(٧) نسبه الطبري ١٥/ ٢٥٥ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥ إلى المرقش.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٣٠٥ .

(٩) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٧ .

(١٠) في الصحاح (برق).

اللغتين؛ إذ ليس في القرآنِ ما ليس من لغةِ العرب[١]، على ما تقدَّم، والله أعلم.

وخَصَّ الأخضرَ بالذكر؛ لأنه الموافقُ للبصر؛ لأن البياضَ يُبدِّد النظرَ ويُؤلم، والسوادَ يُذَم، والخضرةُ بينَ البياض والسواد، وذلك يجمع الشعاعَ. والله أعلم.

روى النسائيُّ عن عبد الله بنِ عمرو بنِ العاص قال: بينما نحنُ عند رسولِ الله ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسولَ الله، أخبرنا عن ثيابِ الجنة، أَخَلْقٌ يُخلَق أم نَسجٌ ينسج؟ فضحكَ بعضُ القوم. فقال لهم: «ممَّ تضحكون من جاهلٍ يسأل عالماً؟» فجلسَ يسيراً أو قليلاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «أينَ السائلُ عن ثيابِ الجنة؟» فقال: هاهو ذا يا رسول الله، قال: «لا بل تَشَقَّق عنها ثمرُ الجنةِ» قالها ثلاثاً[٢].

وقال أبو هريرة: دارُ المؤمنِ دُرَّةٌ مجوّفة في وسطها شجرةٌ تُنبِتُ الحُلَلَ، ويأخذُ بأصبعِه ـ أو قال بأصبَعيه ـ سبعينَ حُلَّةً منظمة بالدرِّ والمَرْجان. ذكره يحيى بنُ سلام في «تفسيره»، وابنُ المبارك في «رقائقِه»[٣]. وقد ذكرنا إسنادَه في كتابِ «التذكرة»[٤]. وذُكر في الحديثِ أنَّه يكون على كلِّ واحد منهم الحلةُ لها وجهان لكلِّ وجهٍ لونٌ، يتكلمان بصوتٍ يَستحسنه سامعُه، يقول أحدُ الوجهين للآخر: أنا أكرمُ على وَليِّ الله منك، أنا أَلي جسدَه وأنتَ لا تلي. ويقول الآخر: أنا أكرمُ على وليِّ اللهِ منك، أنا

(١) قال الجواليقي في المعرب ص٥٢ - ٥٣: فأما ما ورد منه، فقد اختلف فيه أهل العلم، فقال بعضهم: كتاب الله تعالى ليس فيه شيء من غير العربية. وأسنده إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة أنه من غير لسان العرب مثل: سجيل، والمشكاة، واليم، والطور، وأباريق، وإستبرق، وغير ذلك فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ولكنهم ذهبوا إلى مذهب، وذهب هذا إلى غيره. وكلاهما مصيب إن شاء الله تعالى.
وقال الشافعي في الرسالة ص٤٢: والقرآن يدل على أنْ ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب.

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٥٨٤١)، وهو عند أحمد (٦٨٩٠).

(٣) الزهد (زوائد نعيم بن حماد) (٢٦٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٢٩، وهناد في الزهد (١٢٥). وفي إسناده أبو المُهَزِّم واسمه يزيد بن سفيان، وهو متروك. وأورده المصنف في التذكرة ص٥٠٢ من طريق يحيى بن سلام.

(٤) ص٥٠٢.

أُبصِر وجهَه وأنتَ لا تُبصر[١].

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ «الأرائك» جمعُ أَرِيكة، وهي السُّرُر في الحِجال[٢].و قيل: الفرش في الحِجال؛ قاله الزجاج[٣]. ابن عباس: هي الأَسرَّةُ من ذهب، وهي مكلَّلة بالدُّر والياقوت عليها الحِجال[٤]. الأريكةُ ما بين صنعاء إلى أيْلة، وما بينَ عدن إلى الجابية.

وأصلُ «متكئين» مُوْتَكئين، وكذلك اتكأَ أصلُه اوتكأ، وأصل التُّكَأة وُكَأة؛ ومنه: التوكُّؤ للتحاملِ على الشيء، فقُلبت الواو تاءً وأُدغمت[٥]. ورجل تُكَأة[٦] كثير الاتكاء.

﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ يعني: الجنات، عكس «وساءت مرتفقاً». وقد تقدَّم. ولو كان «نِعْمَتْ» لجاز؛ لأنه اسم للجنةِ. وعلى هذا «وحسنت مرتفقاً».

ورَوى البَراء بن عازِب، أنَّ أعرابيًّا قامَ إلى رسول الله ﷺ في حجةِ الوداع، والنبيُّ ﷺ واقفٌ بعرفاتٍ على ناقتِه العَضْباء فقال: إني رجلٌ مسلمٌ، فأخبرني عن هذه الآية «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «ما أنت منهم ببعيد، ولا هم ببعيدٍ منك، هم هؤلاء الأربعةُ: أبو بكر وعمر، وعثمان وعليّ، فأعْلِم قومَك أنَّ هذه الآيةَ نزلت فيهم». ذكره الماورديُّ[٧]. وأسنده النحاسُ في كتاب «معاني القرآن»[٨] قال: حدَّثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال: حدَّثنا محمد بن

(١) أورده المصنف في التذكرة ص٥٠٢ ، عن أبي هريرة قال: بلغني أنَّ ولي الله...، فذكره.
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٥ ، والحجال جمع حَجَلة، وهي بيت يُزين بالثياب والأسرة والستور. الصحاح (حجل).
(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٤ .
(٤) الوسيط ٣/ ١٤٧ .
(٥) ينظر سر الصناعة ١/ ١٤٦ .
(٦) في (د) و(م): وُكَأة، والمثبت من (ظ) و(ز) و(ف) وهو الموافق لما في الصحاح (وكأ).
(٧) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٤ .
(٨) ٤/ ٢٣٥ .

حميد قال: حدَّثنا يحيى بن الضُّرَيْس، عن زهير بن معاوية، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازِب قال: قام أعرابي...؛ فذكره. وأسنده السُّهَيْلي في كتاب «الإعلام»[1]. وقد روينا جميعَ ذلك بالإجازة، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ هذا مثلٌ لمن يَتعززُ بالدنيا ويستنكفُ عن مجالسة المؤمنين، وهو متَّصل بقوله: «واصبر نفسك». واختُلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما؛ فقال الكلبي: نزلتْ في أخوين من أهلِ مكة مخزوميَّين، أَحدُهما مؤمنٌ وهو أبو سلمة عبدُ الله بنُ عبد الأسد بنِ هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوجُ أمِّ سلمة قبل النبيِّ ﷺ. والآخرُ كافرٌ وهو الأسود[2] بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورةِ الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١]، وَرِث كلُّ واحدٍ منهما أربعةَ آلاف دينار، فأنفقَ أحدُهما مالَه في سبيلِ الله، وطلبَ من أخيهِ شيئاً فقالَ ما قال...؛ ذكره الثعلبيُّ والقُشَيرِيُّ. وقيل: نزلتْ في النبيِّ ﷺ وأهلِ مكةَ. وقيل: هو مَثَلٌ لجميع مَن آمن بالله وجميع مَن كفر. وقيل: هو مَثَلٌ لعُيَيْنة بن حِصْن وأصحابِه مع سلمان وصُهيب وأصحابِه؛ شبَّههم الله برجلين من بني إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا، في قولِ ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه تمليخا. والآخر كافر واسمُه قرطوش[3] وهما اللذان وصفَهما اللهُ تعالى في

---

(١) التعريف والإعلام ص١٠١، من طريق النحاس.

(٢) في (ظ): الأسد.

(٣) في (ظ) و(ف): قرطوس، وبعدها في (ظ): القزويني قرطيس. وبعدها في (د): القرنوي قرطوش. وبعدها في (ز): العرنوي قطروش.

سورةِ الصَّافات[١]. وكذا ذكر محمد بنُ الحسن المقرئ قال: اسمُ الخَيِّر منهما تمليخا، والآخر قرطوش[٢]، وأنَّهما كانا شريكين ثم اقتَسما المالَ فصارَ لكل واحدٍ منهما ثلاثةُ آلاف دينار، فاشترى المؤمنُ منهما عبيداً بألف وأَعتقهم، وبالألفِ الثانية ثياباً فكسا العُراةَ، وبالألفِ الثالثة طعاماً فأطعمَ الجُوَّع، وبَنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً. وأمَّا الآخرُ فنكحَ بماله نساءً ذواتَ يَسارٍ، واشترى دوابَّ وبقراً فاستَنتجَها فنَمت له نماءً مُفْرِطاً، واتَّجر بباقيها فربحَ حتى فاقَ أهلَ زمانه غِنًى، وأَدركتِ الأوَّل الحاجةُ، فأراد أن يستأجر[٣] نفسَه في جنة يخدُمها فقال: لو ذهبتُ لشريكي وصاحبي فسألتُه أن يستخدمَني في بعضِ جناته رجوتُ أن يكونَ ذلك أصلحَ بي، فجاءَه فلم يَكَد يصل إليه من غلظِ الحُجَّاب، فلمَّا دخل عليه وعَرَفه وسألَه حاجتَه قال له: أَلم أكن قاسمتك المالَ شطرين[٤] فما صنعتَ بمالِكَ؟ قال: اشتريتُ به من الله تعالى ما هو خيرٌ منه وأَبقى. فقال: أَئِنَّك لمن المُصَدِّقين؟! ما أظنُّ الساعةَ قائمة، وما أراكَ إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتِك إلا الحرمان، أوما تَرى ما صنعتُ أنا بمالي حتى آلَ إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أَني كَسَبْتُ وسَفُهتَ أنتَ، اخرجْ عني. ثم كان من قصةِ هذا الغنيِّ ما ذكره الله تعالى في القرآنِ من الإحاطةِ بثمره وذهابِها أصلاً بما أرسلَ عليها من السماءِ من الحُسْبان[٥]. و قد ذكر الثعلبيُّ هذه القصةَ بلفظٍ آخر، والمعنى متقارب. قال عطاء: كانا شريكين لهما ثمانيةُ آلافِ دينار. وقيل: وَرِثاه من أبيهما وكانا أَخوين فاقتسماها، فاشترى أحدُهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبُه: اللهمَّ إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف دينار، وإني اشتريتُ منك أرضاً

---

(١) ينظر بحر العلوم ٢/ ٢٩٨، والمحرر ٣/ ٥١٥، والكشاف ٢/ ٤٨٣، وزاد المسير ٥/ ١٣٩، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٤.

(٢) في (ظ) و(ز): قرطس، وفي (د) قرطش، وفي التعريف والإعلام ص١٠٢، والكلام منه: موطس.

(٣) في (م): يستخدم.

(٤) في (م) و(د) و(ز): نصفين، والمثبت من (ظ) و(ف) ومن التعريف والإعلام ص١٠٢، والكلام منه.

(٥) التعريف والإعلام ص١٠٢.

في الجنةِ بألف دينار، فتَصدَّقَ بها، ثم إنَّ صاحبَه بنى داراً بألفِ دينار، فقال: اللهمَّ إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإني أشتري[١] منك داراً في الجنة بألف دينار، فتصدَّق بها، ثم تزوج امرأةً فأنفق عليها ألفَ دينار، فقال: اللهمَّ إن فلاناً تزوج امرأةً بألف دينار، وإني أخطب إليكَ من نساءِ الجنة بألف دينار، فتصدَّق بألف دينار. ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإني أشتري منك خَدَماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدَّقَ بألف دينار. ثم أَصابته حاجةٌ شديدةٌ فقال: لعلَّ صاحبي ينالُني معروفُه، فأتاهُ فقال: ما فعلَ مالُك؟ فأخبره قصتَه فقال: وإنَّك لمن المُصدِّقين بهذا الحديث! والله لا أُعطيكَ شيئاً![٢] ثم قال له: أنتَ تعبدُ إله السماء، وأنا لا أعبدُ إلا صنماً، فقال صاحبُه: والله لأعِظَنَّه، فوعظَه وذكَّره وخوَّفه. فقال: سِرْ بنا نَصطدِ[٣] السمكَ، فَمن صادَ أكثر فهو على حقٍّ؛ فقال له: يا أخي! إنَّ الدنيا أحقرُ عند الله من أن يجعلَها ثواباً لمحسن، أو عقاباً لكافر. قال: فأكرهه على الخروجِ معه، فابتلاهما الله، فجعلَ الكافرُ يرمي شبكتَه ويسمِّي باسم صنمِه، فتطلع متدفِّقةً[٤] سمكاً. وجعلَ المؤمنُ يرمي شبكتَه ويسمي باسمِ الله، فلا يطلُع له فيها شيء؛ فقال له: كيف ترى! أنا أكثرُ منك في الدنيا نصيباً ومنزلةً ونَفَراً[٥]، كذلك أكون أفضلَ منك في الآخرة إن كان ما تقولُ بزعمك حقًّا. قال: فَضجَّ المَلَك الموَكَّل بهما، فأمرَ الله تعالى جبريلَ أن يأخذَه فيذهب به إلى الجِنان فيرِيَه منازلَ المؤمنِ فيها، فلما رأى ما أَعدَّ الله له قال: وعزَّتك لا يَضرُّه ما ناله من الدنيا بعدَ ما يكون مصيرُه إلى هذا؛ وأَراه منازلَ الكافرِ في جهنم فقال: وعزَّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيرُه إلى هذا[٦]. ثم إنَّ

---

(١) في (ظ) و(ز) و(ف): اشتريت.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٦١ .

(٣) في النسخ الخطية: نصطاد.

(٤) في (ظ) و(ز): مندفقة.

(٥) في (د) و(ز): وكفراً، وفي (ف): وبقراً.

(٦) أخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (٦٢١) عن عطاء الخراساني مرسلاً.

الله تعالى تَوفَّى المؤمن وأهلكَ الكافر بعذاب من عندِه، فلما استقرَّ المؤمن في الجنة ورأى ما أعدَّ اللهُ له؛ أقبلَ هو وأصحابُه يتساءلون، فقال: «إني كان لي قَرِينٌ. يقول أئنك لمِن المصدِّقين» الآية، فنادى منادٍ: يا أهلَ الجنةِ! هل أنتم مطَّلِعون، فاطلعَ إلى جهنم فرآه في سواءِ الجحيم، فنزلت «واضرب لهم مَثَلاً».

بيَّن الله تعالى حالَ الأخوين في الدنيا في هذه السورة، وبينَ حالَهما في الآخرةِ في سورة الصافات في قوله: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾[(١)].

قال ابنُ عطية[(٢)]: وذكَرَ إبراهيمُ بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائبِ البلادِ أنَّ بحيرة تِنِّيس[(٣)] كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين، فباعَ أحدهما نصيبَه من الآخر فأنفق في طاعةِ الله حتى عيَّره الآخر، وجرت بينهما المحاورة فغرَّقها الله تعالى في ليلة، وإياها عَنَى بهذه الآية.

وقد قيل: إنَّ هذا مَثَلٌ ضَربه الله تعالى لهذه الأمةِ، وليس بخبر عن حال متقدمةٍ، لتزهدَ في الدنيا وترغبَ في الآخرة، وجعله زجراً وإنذاراً؛ ذكره الماوردي[(٤)]. وسياقُ الآيةِ يدلُّ على خلافِ هذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: أَطَفْناهما من جوانبهما بنخلٍ[(٥)]. والحِفافُ الجانب، وجمعه أحِفّة[(٦)]؛ ويقال: حَفَّ القومُ بفلان يَحُفُّون حَفًّا، أي: طافوا به، ومنه ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]. ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أي: جعلنا حول

(١) آية ٥١ حتى ٦١.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٥.

(٣) جزيرة في بحر مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها. معجم البلدان ٢/ ٥١.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٦.

(٥) الطبري ١٥/ ٢٥٧.

(٦) في (ظ): أحفية.

الأعناب النخلَ، ووسطَ الأعناب الزرعَ. ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ أي: كلُّ واحدةٍ من الجنتين ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ تامًّا(١)، ولذلك لم يقل: آتتا. واختُلف في لفظ «كِلْتا وكِلَا» هل هو مفرد أو مثنى؛ فقال أهلُ البصرة: هو مفرد؛ لأن «كِلا وكلتا» في توكيدِ الاثنينِ نظيرُ «كُلٍّ» في المجموع، وهو اسمٌ مفردٌ غيرُ مثنى؛ فإذا وَلِيَ اسماً ظاهراً(٢) كان في الرفع والنصب والخفض على حالةٍ واحدة، تقول: رأيتُ كِلا الرجلين، وجاءني كِلا الرجلين، ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر؛ قلبت الألف ياء في موضع الجر والنصب، تقول: رأيت كِلَيْهِما، ومررتُ بكليهما، كما تقول: عليهما. وقال الفراء(٣): هو مثنًّى، وهو مأخوذ من كُلٍّ، فخفّفت اللام وزيدت الألفُ للتثنية. وكذلك كلتا للمؤنث، ولا يكونان إلا مضافين، ولا يُتكلم بواحد، ولو تُكُلم به لقيل: كِلْ وكِلْت وكِلان وكِلْتان. واحتجَّ بقول الشاعر:

فـي كِـلْـتِ رِجْـلـيـهـا سُـلَامـى واحـدَهْ كِـلْـتـاهـمـا مَـقْـرونـةٌ بـزائـده(٤)

أرادَ: في إحدى رجليها فأفردَ. وهذا القولُ ضعيفٌ عند أهلِ البصرة؛ لأنه لو كان مثنى؛ لوجب أن تكون ألفُه في النصب والجر ياءً مع الاسمِ الظاهر، ولأنَّ معنى «كِلا» مخالفٌ لمعنى «كل»؛ لأن «كلًّا» للإحاطة و«كِلَا» يدلُّ على شيءٍ مخصوص،

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٦١، وتهذيب اللغة ٤/ ٣.

(٢) قوله: ولي اسماً ظاهراً، كذا وقع في النسخ والصحاح (كلى) والكلام منه، وكذا نقله ابن منظور في اللسان (كلى)، وفي العبارة نظر، والصواب فيها أن يقول: وليه اسم ظاهر.

وينظر الإنصاف ٢/ ٤٤٨ - ٤٤٩، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٩٠ - ٢٩١.

(٣) ينظر معاني القرآن ٢/ ١٤٢ - ١٤٣، والكلام بحرفيته في الصحاح (كلى) وعنه نقل المصنف.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٢، والصحاح، واللسان (كلى) وخزانة الأدب ١/ ١٢٩ دون نسبة.

وقال البغدادي في الخزانة ١/ ١٢٩ - ١٣٠: رأيت في حاشية الصحاح أنَّ هذا البيت من رجز يصف به نعامة، فضمير رجليها عائد على النعامة. والسُّلامَى على وزن حُبارَى: عظم في فِرسِن البعير، وعظام صغار طول إصبع أو أقل في اليد والرجل، والجمع سلاميات، والفرسِن بكسر أوله وثالثه، هو للبعير بمنزلة الحافر للفرس.

وأمَّا هذا الشاعر؛ فإنما حَذفَ الألف للضرورة، وقدَّر أنها زائدة، وما يكون ضرورةً لا يجوز أن يُجعَل حجة، فثبت أنه اسمٌ مفرد كَمِعَى، إلا أنه وُضع ليدل على التثنيةِ، كما أنَّ قولهم: «نحن» اسمٌ مفرد يدل على اثنين فما فوقهما، يدلُّ على ذلك قولُ جرير:

كِـلَا يَـوْمَـيْ أُمـامـةَ يـومُ صَـدٌّ   وإنْ لـم نـأتِـهـا إلَّا لِـمـامـا[1]

فأخبر عن «كلا» بيومٍ مفرد، كما أَفردَ الخبرَ بقوله: «آتت» ولو كان مثنى لقالَ: آتتا، ويوما. واختُلف أيضاً في ألفِ «كلتا»؛ فقال سيبويهِ[2]: ألفُ «كلتا» للتأنيثِ والتاءُ بدلٌ من لام الفعل وهي واو، والأصل كِلْوا، وإنما أُبدلت تاء؛ لأنَّ في التاء علمَ التأنيث، والألف في «كلتا» قد تصير ياءً مع المضمر، فتخرج عن علم التأنيث، فصار في إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث.

وقال أبو عمر الجَرْمِيُّ: التاء ملحقةٌ والألف لام الفعل، وتقديرها عندَه: فِعْتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم؛ لقالوا في النسبة إليها: كِلْتَوِيّ، فلما قالوا: كِلَوِيّ، وأسقطوا التاء دلَّ على أنهم أجروها مُجْرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت: أَخَوِيّ؛ ذكره الجوهري[3].

قال أبو جعفر النحاس[4]: وأجازَ النحويون في غير القرآن الحملَ على المعنى، وأن تقول: كلتا الجنتين آتتا أكلهما؛ لأن المعنى: الجنتان[5] كلتاهما آتتا، وأجازَ الفراء[6]:

(١) ديوان جرير ٢/ ٧٧٨، وفيه: صدق بدل صد، وقال محمد بن حبيب في شرحه: أي: يوم صالح، كما تقول: رجل صدق، أي: صالح.
والبيت في كتاب الشعر للفارسي ١/ ١٢٦، والصحاح (كلى).

(٢) ينظر الكتاب ٤/ ٣١٧.

(٣) في الصحاح (كلى).

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٥.

(٥) في (د) و(ز) و(م): المختار، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ١٤٢ - ١٤٣، ونقل كلامه من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٥.

كلتا الجنتين آتى أكلَه، قال: لأنَّ المعنى: كل[١] الجنتين. قال: وفي قراءةِ عبدِ الله «كلُّ الجنتين آتى أكله»[٢]. والمعنى على هذا عندَ الفراء[٣]: كل شيءٍ من الجنتين آتى أكله. والأُكُل، بضمِّ الهمزة: ثمرُ النخل والشجرِ وكلُّ ما يُؤكل فهو أُكُل؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] وقد تقدم[٤]. ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم تنقص.

قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: أجرينا وشَققنا وسطَ الجنتين بنهر. ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشَيْبة وعاصم ويعقوب وابنُ أبي إسحاق «ثَمَر» بفتح الثاء والميم[٥]، وكذلك قوله: «وأحيط بثَمَره» جمع ثمرة.

قال الجوهري: الثمرةُ واحدةُ الثمرِ والثمرات، وجمعُ الثَّمر ثمار، مثل جبل وجبال. قال الفراء: وجمعُ الثمارِ ثُمُر، مثل كتاب وكُتُب، وجمعُ الثُّمُرِ أثمار؛ مثل أعناق وعُنُق. والثُّمُر أيضاً المالُ المُثَمَّر؛ يخفف ويثقَّل. وقرأ أبو عمرو «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وفسَّره بأنواع المال[٦]. الباقون بضمِّها في الحرفين[٧]. قال ابن عباس: ذهبٌ وفضةٌ وأموال[٨]. وقد مضى في «الأنعامِ» نحوُ هذا مبيَّناً[٩] وذكر النحاس[١٠]: حدثنا أحمدُ بن شعيب قال: أخبرني عمران بن بكار قال: حدثنا

(١) في إعراب القرآن: أكل.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٣ ، والكشاف ٢/ ٤٨٤ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٤٣ .

(٤) ١٢/ ٨١ .

(٥) ينظر السبعة ص٣٩٠ ، والتيسير ص١٤٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٦ ، والبحر المحيط ٦/ ١٢٥ .

(٦) الصحاح (ثمر)، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص١٤٣ ، والسبعة ص٣٩٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٦ .

(٧) التيسير ص١٤٣ ، والسبعة ص٣٩٠ .

(٨) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٦٠ ، بلفظ: أنواع المال.

(٩) ٨/ ٤٧٤ .

(١٠) في معاني القرآن ٤/ ٢٤٠ .

إبراهيم بنُ العلاء الزبيدي قال: حدَّثنا شعيب بنُ إسحاق قال: حدثنا[١] هارون قال: حدثني أبان بن تغلب[٢]، عن الأعمش، أنَّ الحجاج قال: لو سمعتُ أحداً يقرأ «وكان له ثُمُر» لقطعتُ لسانَه؛ فقلت للأعمش: أتأخذُ بذلك؟ فقال: لا! ولا نَعْمَة عينٍ[٣]. فكان يقرأ «ثُمُر» ويأخذه من جمعِ الثمر. قال النحاس: فالتقديرُ على هذا القولِ أنه جَمعَ ثمرة على ثِمار[٤]، ثم جمعَ ثمار على ثُمُر؛ وهو حسنٌ في العربيةِ إلا أنَّ القولَ الأول أشبهُ والله أعلم؛ لأنَّ قولَه: «كلتا الجنتين آتت أكلها» يدل على أنَّ له ثمراً.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يراجعه في الكلام ويُجاوبه. والمحاورةُ المجاوبة، والتحاورُ التجاوب. و يقال: كلَّمته فما أحارَ إليَّ جواباً، وما رجعَ إليَّ حَويراً ولا حَوِيرةً، ولا مَحُورةً ولا حِوَاراً، أي: ما ردَّ جواباً[٥]. ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ النفر: الرهطُ وهو ما دون العشرةِ[٦]. وأراد هاهنا الأتباعَ والخدمَ والولد، حسبما تقدَّم بيانُه.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ۝٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ قيل: أخذَ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُريه إيَّاها[٧]، ﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ أي: بكفره[٨]، وهو جملةٌ في موضعِ الحال. ومَن

(١) ليست في (م).
(٢) قوله: ابن تغلب، في (د) و(ز) و(م): عن ثعلب، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٠ .
(٣) نَعِمَك وأنْعَم بك عيناً: أقرَّ بك عين من تحبه. القاموس المحيط (نعم)، وذكر فيها اثنا عشر وجهاً.
(٤) في (ظ): أثمار.
(٥) الصحاح (حور).
(٦) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٠٩ .
(٧) الوسيط ٣/ ١٤٨ .
(٨) الطبري ١٥/ ٢٦٢ .

أدخلَ نفسه النار بكفره؛ فهو ظالمٌ لنفسِه، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أنكر فناءَ الدنيا[١]، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: لا أحسِبُ البعثَ كائناً، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ أي: وإن كان بعثٌ، فكما أعطاني هذه النعمَ في الدنيا، فسيعطيني أفضلَ منه؛ لكرامتي عليه[٢]، وهو معنى قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ وإنَّما قال ذلك، لمَّا دَعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر. وفي مصاحف مكةَ والمدينةِ والشَّام «منهما»، وفي مصاحفِ أهلِ البصرة والكوفةِ «منها» على التوحيد، والتثنيةُ أولى؛ لأنَّ الضمير أقربُ إلى الجنتين[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ يهوذا أو تمليخا، على الخلافِ في اسمِه: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ وَعَظه وبيَّن له أن ما اعترفَ به من هذه الأشياء التي لا يُنكرها أحدٌ أبدعُ من الإعادة. و«سوَّاك رجلاً» أي: جَعلك معتدلَ القامة والخَلْق، صحيحَ الأعضاءِ، ذَكَراً[٤] «لكنَّ[٥] هُوَ اللهُ رَبِّي» كذا قَرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ وأبو العالية[٦]، ورُوي عن الكسائي. «لكنَّ هو الله» بمعنى لكنَّ الأمرَ هو اللهُ ربي، فأُضمِر اسمُها فيها. وقرأ الباقون «لكنا» بإثباتِ الألف[٧]. قال الكسائي: فيه تقديمٌ وتأخير، تقديره: لكنَّ الله هو ربي أنا، فحُذِفت الهمزةُ من «أنا»

---

(١) في (م) و(د) و(ز): الدار، والمثبت من (ف) و(ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٥، والوسيط ٣/ ١٤٩، وزاد المسير ٥/ ١٤٢.

(٢) الوسيط ٣/ ١٤٩، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٦.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٧، وزاد المسير ٥/ ١٤٢ - ١٤٣.

(٤) الطبري ١٥/ ٢٦٣.

(٥) في (ظ) و(د) و(م): لكنَّا، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق لما في فتح القدير ٣/ ٢٨٧.

(٦) لم نقف عليهما عند غير المصنف.

(٧) السبعة ص٣٩١، والتيسير ص١٤٣.

طلباً للخفة؛ لكثرة الاستعمال، وأُدغِمت إحدى النونين في الأخرى، وحُذِفت ألف «أنا» في الوصل وأُثبتت في الوقف[(١)].

وقال النحاس[(٢)]: مذهبُ الكسائي والفرّاء والمازِنِيّ أنَّ الأصلَ: لكن أنا، فأُلقيت حركةُ الهمزة على نون لكن، وحُذِفت الهمزةُ، وأُدغمتِ النونُ في النون، فالوقفُ عليها لكنَّا، وهي ألفُ أنا؛ لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصلُ لكن أنا، فحُذِفت الألف فالتقتْ نونان، فجاء بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائي:

لـهَـنَّـكِ مـن عَـبْـسِـيَّـة لَـوَسِـيـمَـةٌ ... عـلـى هَـنَـوَاتٍ كـاذبٍ مـن يـقـولـهـا[(٣)]

أرادَ: لله إنَّك، فأسقطَ إحدى اللَّامين من (لله)، وحذفَ الألف من إِنَّك. وقال آخرُ فجاءَ به على الأصل:

وتَـرمـينـنـي بـالـطَّـرْف أي أنـتَ مـذنـبٌ ... وتَـقْـلِـيـنَـنـي لـكـنَّ إيَّـاكِ لَا أَقْـلِـي[(٤)]

أي: لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورَوَوْا عن عاصم «لكنَّا[(٥)] هو الله ربي» وزعمَ أنَّ هذا لحن، يعني: إثبات الألف في الإدراجِ. قال الزجاج[(٦)]: إثباتُ الألفِ في «لكنا هو الله ربي» في الإدراج جيد؛ لأنه قد حُذفت الألف من أنا، فجاؤوا بها عِوضاً. قال: وفي قراءةِ أُبَيٍّ «لكنْ أنا هو الله ربي». وقرأ ابن عامر والمُسيَّبي[(٧)] عن نافع

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٦ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٦ - ٤٥٧ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤ .

(٣) البيت في الصحاح (لهن)، والخزانة ١٠/ ٣٤٤ .

(٤) البيت في معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤ ، والمغني ص١٠٦ و ٥٢٣ و ٥٣٩ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/ ١٤٠ ، والخزانة ١١/ ٢٢٥ .

(٥) في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٧ ، والكلام منه: لكننا.

(٦) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٨٧ .

(٧) في (م): المسيلي، وفي (ظ): المثنى، وهما تحريف، والمسيَّبي هو: إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المسيب إمام جليل عالم بالحديث قيم في قراءة نافع ضابط لها محقق فقيه، قرأ على نافع وغيره. طبقات القراء لابن الجزري ١/ ١٥٧ .

ورُويس عن يعقوب «لكنا» في حال الوقف والوصل معاً بإثبات الألف[١]. وقال الشاعر:

أنا سيفُ العشيرةِ فاعرفوني حُميْداً قد تَذَرَّيْتُ السَّناما[٢]

وقال الأعشى:

فكيفَ أنا وانتحالي القواف يَ بعدَ المشيبِ كَفى ذاكَ عارا[٣]

ولا خلافَ في إثباتِها في الوقف.

﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ «هو» ضميرُ القصةِ والشأن والأمر، كقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء:٩٧] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]. ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ دلَّ مفهومُه على أنَّ الأخ الآخر كان مشركاً بالله تعالى يعبد غيره. ويحتملُ أنه أراد: لا أرى الغنى والفقرَ إلا منه، وأَعلم أنه لو أرادَ أن يَسلُب صاحبَ الدنيا دنياه قَدَر عليه، وهو الذي آتاني الفقر. ويحتمل أنه أرادَ: جحودُك البعثَ مصيرُه إلى أنَّ الله تعالى لا يقدر عليه، وهو تعجيزُ الرب سبحانه وتعالى، ومَن عجَّزه سبحانه وتعالى شبَّهه بخلقه، فهو إشراك[٤].

(١) التيسير ص١٤٣، والسبعة ص٣٩١، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٧.

(٢) البيت في أساس البلاغة (ذري) منسوباً إلى حَميد بفتح الحاء، وفي معاني الزجاج ٣/ ٢٨٧ دون نسبة، وقال في الخزانة ٥/ ٢٤٣: وحُميد يروى مصغراً ومكبراً، وتذريت السنام بمعنى علوته، ونسب ياقوت هذا البيت في حاشية الصحاح إلى حُميد بن بحدل، وحميد مضاف إلى جده لأنه حميد بن حريث بن بحدل من بني كلب بن وبرة وينتهي نسبه إلى قضاعة وهو شاعر إسلامي، وكانت عمته ميسون بنت بحدل أم يزيد بن معاوية.

(٣) ديوان الأعشى ص١٠٣ وروايته هناك:

فما أنا أم ما انتحالي القوا في بعد المشيب كفى ذاك عارا

وهو في الكامل للمبرد ٢/ ٥٥٢ كما رواه المصنف.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢١/ ١٢٦.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ **فيه مسألتان**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي: بالقلب، وهو توبيخٌ ووصيةٌ من المؤمن للكافر، وردٌّ عليه، إذ قال: «مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً» و«ما» في موضعِ رفع، تقديرُه: هذه الجنةُ هي ما شاء الله. وقال الزجاج والفراء: الأمرُ ما شاء الله، أو هو ما شاء الله، أي: الأمر مشيئةُ الله تعالى. وقيل: الجوابُ مضمر، أي: ما شاء الله كان، وما لا يشاء لا يكون[١]. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي: ما اجتمعَ لك من المال فهو بقدرةِ الله تعالى وقوتِه لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنَزَع البركةَ منه فلم يجتمع[٢].

الثانية: قال أشهب قال مالك: ينبغي لكلِّ مَن دخل منزله أن يقول هذا. وقال ابن وهب: قال لي حفص بنُ مَيْسرة: رأيتُ على باب وهب بن منبِّه مكتوباً «ما شاء الله لا قوّة إلا بالله»[٣]. وروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال لأبي هريرة: «ألا أدلك على كلمةٍ من كنوز الجنة، أو قال: كنز من كنوزِ الجنة؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله إذا قالها العبدُ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: أَسلمَ عبدي واستسلم»[٤]. أخرجه مسلم في «صحيحه»[٥] من حديث أبي موسى. وفيه: فقال: «يا أبا موسى، أو

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٨.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٠، والكشاف ٢/ ٤٨٥.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٢٨.

(٤) أخرجه أحمد (٧٩٦٦) و(٨٤٢٦).

(٥) برقم (٢٧٠٤) (٤٥).

يا عبد الله بن قيس، ألا أدُلُّك على كلمة من كنزِ الجنة، في رواية: على كنزٍ من كنوز الجنة؟» قلت: ما هي يا رسولَ الله؟ قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله». وعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أدلكَ على كلمة من كنوز الجنة، أو قال: كنز من كنوز الجنة؟» قلت: بلى، فقال: «لا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»(١). وروي أنه مَن دخل منزله أو خرجَ منه فقال: باسم الله ما شاءَ الله لا قوةَ إلا بالله، تنافرت عنه الشياطينُ من بين يديه، وأنزلَ الله تعالى عليه البركات. وقالت عائشةُ: إذا خرج الرجل من منزله فقال: باسم الله. قال المَلَك: هُديتَ، وإذا قال: ما شاء الله. قال المَلك: كُفِيت، وإذا قال: لا قوةَ إلا بالله. قال المَلك: وُقيت. خَرَّجه الترمذيُّ(٢) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال ـ يعني: إذا خرجَ من بيتِه ـ: باسمِ الله، توكلتُ على الله، لا حولَ ولا قوة إلا بالله؛ يقال له(٣): كُفِيت ووُقِيت وتنحَّى عنه الشيطان» هذا حديث حسن(٤) غريب صحيح(٥) لا نعرفه إلا من هذا الوجه. خَرَّجه أبو داود(٦) أيضاً وزاد فيه: فقال له: «هُدِيت وكُفيت ووُقيت».

وأخرجه ابن ماجه(٧) من حديث أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا خرجَ الرجل من بابِ بيته أو باب دارِه، كان معه مَلَكان موكَّلان به، فإذا قال: باسم الله، قالا: هُديت. وإذا قال: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، قالا: وُقيت. وإذا قال: توكَّلت على الله، قالا: كفيت. قال: فيلقاه قَريناه فيقولان: ماذا تريدان من رجلٍ قد هُدِيَ ووُقِي وكُفِي؟».

(١) صحيح مسلم (٢٧٠٤) (٤٧) دون قوله: العلي العظيم، وهو عند البخاري (٦٣٨٤).

(٢) في سننه (٣٤٢٦)، وحديث عائشة وما قبله لم نقف عليهما.

(٣) ليست في (م) و(د) و(ز).

(٤) ليست في (م) و(د) و(ز)، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي، وينظر الأذكار للنووي ص٣٣.

(٥) ليست في (م) و(د) و(ز) و(ف)، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي.

(٦) برقم (٥٠٩٥).

(٧) في سننه برقم (٣٨٨٦)، وفي إسناده هارون بن هارون وهو ضعيف.

وقال الحاكم أبو عبد الله في «علوم الحديث»[(١)]: سُئل محمدُ بنُ إسحاق بن خزيمة عن قولِ النبيِّ ﷺ: «تحاجَّت الجنةُ والنار، فقالت هذه ـ يعني: الجنة ـ: يدخلني الضعفاء» مَنِ الضعيف؟ قال: الذي يُبرئ نفسَه من الحول والقوّة يعني في اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة. وقال أنس بنُ مالك: قال النبيُّ ﷺ: «مَن رأى شيئاً فأعجَبه، فقال: ما شاءَ الله لا قوةَ إلا بالله لم يضرَّه عين»[(٢)]. وقد قال قومٌ: ما من أحدٍ قالَ: ما شاء الله كان، فأصابه شيءٌ إلا رَضِيَ به. ورُوي أنَّ من قال أربعاً أَمِنَ من أربع: مَن قال هذه أَمِنَ من العين، ومن قال: حسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل، أَمِن من كيدِ الشيطان، ومَن قال: وأُفوض أمري إلى الله، أَمِن مكرَ الناس، ومَن قال: لا إلهَ إلا أنتَ سبحانك إني كنتُ من الظالمين، أَمِن من الغمِّ.

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ «إنْ» شرط «تَرَنِ» مجزوم به، والجوابُ «فعسى ربِّي»، و«أنا» فاصلةٌ لا موضع لها من الإعراب، ويجوزُ أن تكون في موضعِ نصب توكيداً للنون والياء. وقرأ عيسى بنُ عمر: «إن ترنِ أنا أقلُّ منك» بالرفع؛ يَجعلُ «أنا» مبتدأً، و«أقل» خبرَه، والجملةَ في موضعِ المفعولِ الثاني، والمفعولُ الأول النونُ والياء؛ إلا أنَّ الياء حُذِفت؛ لأنَّ الكسرة تدلُّ عليها، وإثباتُها جيِّد بالغ وهو الأصلُ؛ لأنَّها الاسم على الحقيقةِ[(٣)]. و﴿فَعَسَىٰ﴾ بمعنى لعل، أي: فلعلَّ ربي ﴿أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: في الآخرة. وقيل: في الدنيا، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك ﴿حُسْبَانًا﴾ أي: مرامي من السماء، واحدُها حُسْبانة؛ قاله الأخفشُ والقُتَبيُّ وأبو عبيدةَ[(٤)]، وقال ابنُ الأعرابي: والحسبانةُ السحابةُ، والحسبانة

---

(١) ص٨٤.

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٠٧)، وفي إسناده أبو بكر الهذلي وهو ضعيف.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٧، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٥، والكشاف ٢/ ٤٨٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٨.

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٤٠٣، وقول الأخفش نقله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٧.

الوِسادةُ، والحسبانةُ الصَّاعقة[١]. وقال الجوهري[٢]: والحُسبان، بالضم: العذابُ. وقال أبو زياد الكلابي: أصابَ الأرض حسبانٌ، أي: جراد. والحُسبانُ أيضاً الحساب، قال الله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]. وقد فُسِّر الحُسْبان هنا بهذا. قال الزجاجُ[٣]: الحسبانُ من الحساب، أي: يرسل عليها عذابَ الحساب، وهو حسابُ ما اكتسبتْ يداك. فهو من بابِ حذف المضاف. والحسبان أيضاً: سهامٌ قصار يُرمَى بها في طلقٍ واحد[٤]، وكان من رَمْي الأكاسرةِ. والمرامي من السماءِ عذابٌ. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ يعني: أرضاً بيضاء لا ينبتُ فيها نباتٌ، ولا يثبتُ عليها قدم، وهي أضَرُّ أرضٍ بعد أن كانت جنةً أنفعَ أرضٍ[٥]. و«زلقاً» تأكيد لوصفِ الصعيد، أي: تزلُّ عنها الأقدامُ لملاستِها. يقال: مكانٌ زَلَقٌ، بالتحريك، أي: دَحْضٌ، وهو في الأصل مصدرُ قولِك: زَلِقت رجلُه تَزْلَقُ زَلَقاً، وأزلَقها غيرُه. والزَّلَقُ أيضاً عَجُزُ الدابةِ. قال رُؤْبةُ:

كأنَّها حَقْباءُ بَلْقاء الزَّلَقْ[٦]

والمَزْلَقُ والمَزْلَقة[٧]: الموضعُ الذي لا يثبت عليه قدمٌ. وكذلك الزَّلَّاقةُ. والزَّلْقُ: الحَلْق، زَلَق رأسَه يَزْلِقُه زَلْقاً حلقه؛ قاله الجوهريُّ[٨]. والزَّلَقُ: المحلوق، كالنَّقْض

---

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٢.

(٢) في الصحاح (حسب).

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٩٠.

(٤) نسبه في تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٢ إلى ابن شُميل.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٠٧.

(٦) ديوان رؤبة ص١٠٤، والرجز في تهذيب اللغة ٨/ ٤٣١، والخزانة ١/ ٨٦، وقال البغدادي: والحقباء: مؤنث الأحقب، وهو حمار الوحش سمي بذلك لبياض في حَقويه، شبه الناقة بالأتان الوحشية، وهي في الجلادة والسرعة مثلها. والبلقاء: مؤنث الأبلق. والزَّلق: عجز الدابة، أي: المكان الذي تزلق اليد عن كفلها أبيض وأسود.

(٧) في (م): والمَزلقة والمُزلقة، وفي (ز) و(د): والمزلقة والزلقة، وسقطت إحداهما من (ف) و(ظ)، والمثبت من الصحاح ومقاييس اللغة (زلق).

(٨) في الصحاح (زلق).

والنَّقص. وليس المرادُ أنَّها تصيرُ مَزْلقة، بل المرادُ أنَّها لا يبقى فيها نباتٌ كالرأسِ إذا حُلق لا يَبقى عليه شعر؛ قاله القشَيْرِيُّ.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً ذاهباً، فتكون أعدمَ أرضٍ للماء بعد أنْ كانت أوجدَ أرض للماء[1]. والغَوْرُ مصدرٌ وُضِع موضعَ الاسمِ، كما يقال: رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ، وعَدْلٌ ورِضاً، وفَضْلٌ وزَوْرٌ، ونساء نوحٌ، ويستوي فيه المذكرُ والمؤنث، والتثنيةُ والجمع[2]. قال عمرو بن كُلثوم:

تَظَلُّ جيادُه نَوْحاً عليه ... مُقلَّدةً أعنتَها صُفُونا[3]

آخر:

هَرِيقي من دموعِهما سِجاما ... ضُباعَ وجاوبي نَوحاً قياما[4]

أي: نائحات. وقيل: أويصبح ماؤها ذا غَوْر، فحذف المضافَ، مثلُ «واسأل القَرْيَةَ» ذكره النحاس[5]. وقال الكسائي: مياه[6] غَوْرٌ. وقد غار الماءُ يَغُور غَوْراً وغُؤُوراً، أي: سفَل في الأرض، ويجوزُ الهمزُ لانضمامِ الواو. وغارت عينُه تَغُور غَوْراً وغُؤُوراً، دخلت في الرأسِ، وغارت تَغار لغةٌ فيه. وقال:

أغارتْ عينُه أم لم تَغارَا[7]

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٠٧.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٨.

(٣) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح ابن كيسان ص٦٠، وشرح القصائد المشهورات لابن النحاس ٢/ ٩٩، وصدره ثمة: تركنا الخيل عاكفة عليه، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٦٧ دون نسبة، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٤٠٤.
ووقع في النسخ الخطية: جيادنا. والصافن: القائم. ويقال: الذي يرفع إحدى قوائمه من الإعياء يعتمد على سنبكها.

(٤) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٧، ومجاز القرآن ١/ ٤٠٤، وأمالي المرتضى ١/ ٢٠١ دون نسبة. وضباع: ترخيم ضباعة، وهو اسم امرأة.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٨.

(٦) في (د) و(ز) و(م): ماء، والمثبت من (ظ) و(ف)، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٨، والكلام منه.

(٧) عجز بيت نسبه في الصحاح (غور) إلى ابن أحمر.

وغارتِ الشمسُ تغور غِياراً، أي: غربت. قال أبو ذُؤيب:

هل الدهرُ إلّا ليلةٌ ونهارُها وإلا طلوعُ الشمسِ ثم غيارُها[١]

﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ أي: لن تستطيع ردَّ الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة. وقيل: فلن تستطيع طلبَ غيره بدلاً منه. وإلى هذا الحديث انتهت مناظرةُ أخيه وإنذارُه[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ اسمُ ما لم يُسمَّ فاعلُه مُضمرٌ، وهو المصدر، ويجوز أن يكونَ المخفوضُ في موضعِ رفع[٣]. ومعنى «أُحِيط بثمره»، أي: أُهْلِك مالُه كلُّه، وهذا أَوَّلُ ما حقق اللهُ تعالى به إنذارَ أخيه، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي: فأصبحَ الكافرُ يضربُ إحدى يديه على الأخرى ندماً؛ لأنَّ هذا يصدر من النادم. وقيل: يقلِّب مِلكه فلا يرى فيه عوضَ ما أنفق، وهذا لأنَّ المِلك قد يُعبَّر عنه باليد، من قولهم: في يده مال، أي: في مِلكه مال[٤]. ودلَّ قولُه: «فأصبح» على أن هذا الإهلاكَ جرى بالليل، كقوله: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [ن: ١٩] ويقال: أنفقتُ في هذه الدار كذا، وأنفقتُ عليها[٥]. ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خالية قد سقط بعضُها على بعض، مأخوذٌ من: خَوَتِ النجوم تخوي خَيًّا: أمْحَلَتْ، وذلك إذا سَقطت ولم تُمْطر في نَوْئها، وأخْوَت مثلُه. وخوَت الدار خَواء ممدود[٦]: أقْوَت،

(١) ديوان الهذليين ص٢١ ، والصحاح (غور)، وهو في مجالس ثعلب ص٥٨٣ دون نسبة.

(٢) النكت والعيون ٣/٣٠٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/٤٥٨ .

(٤) النكت والعيون ٣/٣٠٨ .

(٥) ينظر زاد المسير ٥/١٤٦ .

(٦) ليست في (م).

وكذلك إذا سقطت؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢] ويقال: ساقطة، كما يقال: فهي خاوية على عروشها، أي: ساقطة على سقوفها[١]. فجمعَ عليه بين هلاك الثمرِ والأصل، وهذا من أعظمِ الجوائح، مقابلةً على بَغْيه[٢].

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي: يا ليتني عرفتُ نعمَ الله عليَّ، وعرفتُ أنَّها كانت بقدرةِ الله ولم أكفرْ به. وهذا ندمٌ منه حينَ لا ينفعه الندم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ «فِئَةٌ» اسمُ «تكن»، و«له» الخبر. «يَنْصُرونه» في موضعِ الصفةِ، أي: فئة ناصرة، ويجوزُ أن يكونَ «ينصرونه» الخبرَ، والوجهُ الأوّلُ عندَ سيبويهِ أوْلى[٤]؛ لأنه قد تقدَّم «له». وأبو العباس[٥] يُخالِفه، ويحتجُّ بقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقد أجازَ سيبويهِ الآخَر، و«ينصرونه» على معنى فئة؛ لأنَّ معناها أقوام، ولو كان على اللفظِ لقال: ولم تكنْ له فئةٌ تنصره[٦]، أي: فرقة وجماعة يلتجئ إليهم.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ أي: ممتنعاً؛ قاله قتادة. وقيل: مُستردًّا بدلَ ما ذهبَ منه[٧]. وقد تقدَّم اشتقاقُ الفئةِ في «آل عمران»[٨]. والهاءُ عوضٌ من الياءِ[٩] التي نقصَت من

---

(١) الصحاح (خوى)، وتهذيب اللغة ٧/ ٦١٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٠٨ .

(٣) ينظر الوسيط ٣/ ١٤٩ ، وزاد المسير ٥/ ١٤٦ .

(٤) ينظر كتاب سيبويه ٤/ ٥٦ .

(٥) أي: المبرد، وكلامه في المقتضب ٤/ ٩٠ - ٩١ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٨ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٣٠٨ ، وأخرج قول قتادة الطبري ١٥/ ٢٧٠ .

(٨) ٥/ ٣٨ .

(٩) قال ابن الشجري في أماليه ٢/ ٢٧٨ : والمحذوف من «فئة» واوٌ، وجمعها فئات، وهي من قولهم: فَأَوْتُ: إذا شققتَ وفرَّقتَ؛ لأنَّ الفئة كالفِرقة.

وسطه، أَصلُه فِيءُ مثلُ فِيع؛ لأنَّه من فاء، ويُجمعُ على فِئون وفِئات، مثل شِيَات ولِدَات[١] وهبات[٢]. أي: لم تكن له عشيرةٌ[٣] يمنعونَه من عذابِ الله، وضلَّ عنه مَنِ افتخرَ بهم من الخدمِ والولد.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ﴾ اختُلفَ في العامل في قوله: «هنالك» وهو ظرف؛ فقيل: العاملُ فيه «ولم تكن له فئة» ولا كان هنالك؛ أي: ما نُصِر ولا انتصرَ هنالك، أي: لِمَا أصابَه من العذاب. وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قوله: «منتصِراً»، والعاملُ في قوله: «هنالك»: «الولايةُ»، وتقديرُه على التقديم والتأخير: الولايةُ لله الحقِّ هنالك، أي: في القيامة[٤]. وقرأ أبو عمرو، والكسائيُّ: «الحقُّ» بالرفع[٥] نعتاً للولاية. وقرأ أهلُ المدينة وحمزةُ: «الحقِّ» بالخفضِ نعتاً لله عزَّ وجلَّ، والتقديرُ: لله ذي الحق. قال الزَّجاجُ[٦]: ويجوزُ «الحقَّ» بالنصب على المصدرِ والتوكيد، كما تقول: هذا لك حقًّا. وقرأ الأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ: «الوِلاية» بكسر الواو، الباقون بفتحِها[٧]، وهما بمعنًى واحدٍ كالرِّضاعة والرَّضاعة. وقيل: الوَلايةُ بالفتح من الموالاة، كقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة:٢٥٧]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد:١١]. وبالكسر يعني: السلطان والقدرة والإمارة[٨]، كقوله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ

---

(١) الصحاح (فيأ).

(٢) في (م): مئات، وفي (د) و(ز): هيات، والمثبت من (ظ) و(ف).

(٣) نسبه في النكت والعيون ٣/ ٣٠٨ إلى مجاهد، وهو في تفسيره ١/ ٣٧٦ وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٢٦٩، وينظر تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٠.

(٤) وقال النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٥٩ : العامل فيه منتصراً. وقال ابن الشجري في أماليه ١/ ١٦٨ : هنالك ظرف في موضع الحال، والعامل فيه قوله: (لله) وذو الحال المضمرُ المستكنُّ في (لله).

(٥) التيسير ص١٤٣ ، والسبعة ص٣٩٢ .

(٦) ينظر معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٨٩ ، وكلام الزجاج وما قبله من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٩ .

(٧) التيسير ص١٤٣ ، والسبعة ص٣٩٢ .

(٨) الكشاف ٢/ ٤٨٦ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٩ .

﴿لِلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] أي: له الملكُ والحكمُ يومئذٍ، أي: لا يُردُّ أمرُه إلى أحد، والمُلك في كل وقتٍ لله، ولكن تَزولُ الدَّعاوَى والتَّوَهُّماتُ يومَ القيامة. وقال أبو عبيد: إنَّها بفتحِ الواو للخالق، وبكسرها للمخلوق(١).

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: اللهُ خيرٌ ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به، وليس ثَمَّ غيرٌ يُرْجَى منه، ولكنَّه أرادَ: في ظنِّ الجُهَّال، أي: هو خيرُ مَنْ يُرجَى(٢). ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ قرأ عاصم والأعمش، وحمزة ويحيى: «عُقْباً» ساكنة القاف، الباقون بضمِّها(٣)، وهما بمعنًى واحد؛ أي: هو خيرُ عاقبةٍ لمن رَجاه وآمنَ به. يقال: هذا عاقبةُ أمرِ فلان وعُقباه(٤) وعُقُبُه، أي: آخره.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: صِفْ لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طَردَ فقراءِ المؤمنين مَثَلَ الحياةِ الدنيا، أي: شَبِّهها(٥) ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ حتى استوى. وقيل: إنَّ النبات اختلط بعضُه ببعض حين نزل عليه الماء(٦)؛ لأنَّ النبات إنما يختلطُ ويكثر بالمطر. وقد تقدَّم هذا المعنى في «يونس»(٧) مبيَّناً.

---

(١) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٠٩.

(٢) ينظر زاد المسير ٥/ ١٤٨.

(٣) التيسير ص١٤٣، والسبعة ص٣٩٢، عن عاصم وحمزة، وزاد عليهما في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٩ الحسن، وذكر قراءة الأعمش أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٣١.

(٤) بعدها في (ظ): وعقيبه، وفي (ف): وعقبه، وينظر الطبري ١٥/ ٢٧١، والصحاح ومقاييس اللغة (عقب).

(٥) ينظر الطبري ١٥/ ٢٧٢.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٠٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٩.

(٧) ١٠/ ٤٧٧.

وقالت الحكماء: إنَّما شبَّه تعالى الدنيا بالماء؛ لأنَّ الماءَ لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحدٍ، ولأن الماءَ لا يستقيم على حالةٍ واحدة كذلك الدنيا، ولأنَّ الماءَ لا يبقى ويذهب، كذلك الدنيا تَفنَى، ولأن الماءَ لا يَقدِر أحدٌ أن يدخلَه ولا يبتلَّ، كذلك الدنيا لا يَسلم أحدٌ دخلها من فتنتِها وآفتها، ولأنَّ الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعاً مُنْبِتاً[١]، وإذا جاوزَ المقدار كان ضارًّا مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفعُ وفضولُها يضرُّ. وفي حديثِ النبيِّ ﷺ قال له رجل: يا رسولَ الله، إني أريدُ أن أكونَ من الفائزين، قال: «ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد؛ فإنَّ القليلَ منها يكفي، والكثير منها يُطغي»[٢]. وفي «صحيح» مسلم عن النبيِّ ﷺ: «قد أفلحَ مَن أسلم ورُزِق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه»[٣]. ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: النبات ﴿هَشِيمًا﴾ أي: متكسِّراً من اليُبس متفتِّتاً، يعني: بانقطاعِ الماءِ عنه، فحذف ذلك إيجازاً لدلالةِ الكلام عليه[٤]. والهَشْم: كسرُ الشيء اليابس. والهشيمُ من النبات اليابسُ المتكسرُ، والشجرةُ البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء. ومنه قولهم: ما فلانٌ إلا هشِيمةُ كَرَمٍ؛ إذا كان سَمْحاً. ورجلٌ هَشِيم: ضعيفُ البدن. وتهشَّم عليه فلان إذا تعطَّف. واهتشم ما في ضَرعِ الناقةِ إذا احتلبَه. ويقال: هَشَمَ الثَّرِيد، ومنه سُمِّيَ هاشمُ بنُ عبدِ مناف واسمُه عمرو، وفيه يقولُ عبدُ الله بن الزِّبَعْرَى:

عَمْرُو العُلَا هَشَم الثريدَ لقومه ورجالُ مكّةَ مُسْنِتُون عِجافُ[٥]

(١) في (ظ) و(ف): مبقياً.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) صحيح مسلم (١٠٥٤)، وهو عند أحمد (٦٥٧٢)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠٩.

(٥) الصحاح (هشم)، والبيت في ديوان عبد الله ص٥٣ في ما ينسب إلى عبد الله بن الزبعرى وإلى غيره من الشعراء، وفي أمالي المرتضى ٢/ ٢٦٩، والحماسة البصرية ١/ ١٥٥ - ١٥٦. ومسنتون من أسنتوا: أجدبوا. القاموس (سنت).

وكان سببُ ذلك أنَّ قريشاً أصابتهم سِنونَ ذهبْنَ بالأموالِ، فخرج هاشمٌ إلى الشأم، فأمرَ بخبز كثيرٍ فخُبِز له، فحمله في الغرائر على الإبلِ حتى وافى مكةَ، وهشَمَ ذلك الخبز، يعني: كَسَّره وثَرَده، ونحر تلك الإبلَ، ثم أمر الطُّهاةَ فطبخوا، ثم كفأَ القدورَ على الجِفان فأشبعَ أهلَ مكة؛ فكان ذلك أولَ الحِباء[١] بعدَ السنةِ التي أصابتهم؛ فسُمِّيَ بذلك هاشماً[٢].

﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ﴾ أي: تُفرقه؛ قاله أبو عبيدة[٣]. ابن قتيبة: تنسِفُه[٤]. ابن كَيْسان: تذهبُ به وتجيء. ابنُ عباس: تُديره[٥]، والمعنى متقاربٌ. وقرأ طلحةُ بنُ مُصَرِّف «تذريه الريح»[٦]. قال الكسائي: وفي قراءةِ عبد الله «تَذريه»[٧]. يقال: ذَرَتْه الريحُ تَذْرُوه ذَرْواً، وتَذرِيه[٨] ذَرْياً، وأذرته تُذْريه إذْراء[٩] إذا طارتْ به. وحكى الفراءُ[١٠]: أذريتُ الرجلَ عن فرسِه، أي: قلبتَه. وأنشد سيبويهِ والفراءُ:

فـقـلـتُ لـه صَـوِّبْ ولا تَـجـهـدَنَّـهُ فَيُذْرِك من أُخرَى القَطاةِ فَتَزْلَقِ[١١]

---

(١) في (ف): الحياة، والحِباءُ: العطاء بلا جزاء ولا مَنٍّ. القاموس (حبو).

(٢) ينظر الروض الأنف ١/ ١٦١ .

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٤٠٥ .

(٤) تفسير غريب القرآن ص٢٦٨ .

(٥) في (ز): تدبره.

(٦) أي بالإفراد، وذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠ ، وزاد النخعيَّ والأعمش، وذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٣٣ عن عدد من القراء.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٦ ، وزاد المسير ٥/ ١٤٨ .

(٨) ليست في (د) و(ز).

(٩) الصحاح (ذرا)، والطبري ١٥/ ٢٧٢ .

(١٠) في معاني القرآن ٢/ ١٤٦ .

(١١) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص١٧٤ ، وهو عند سيبويه في الكتاب ٣/ ١٠١ وعزاه إلى عمرو ابن عمار الطائي ووقع في الكتاب: فيُدْنِك من الإدناء، وعند الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٤٦ ، والطبري ١٥/ ٢٧٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٥٩ دون نسبة، وقال الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص٤٢٥ : يقول هذا لغلامه وقد حمله على فرسه ليصيد له، ومعنى صوِّب: خذ القصدَ في السير وارفق بالفرس ولا تجهده. وأُخرى القطاةِ: آخرها، والقطاة: مقعد الردف. ويُروى: فيُذرِك أي: يرمي بك، يقال: أذراه عن فرسه إذا رمى به. وجاء في (د) و(ز) و(ظ): صوِّت.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ من الإنشاءِ والإفناءِ[١] والإحياء، سبحانه!

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويجوزُ «زينتا» وهو خبر الابتداءِ في التثنيةِ والإفراد. وإنَّما كان المالُ والبنون زينةَ الحياة الدنيا؛ لأنَّ في المالِ جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوَّة ودفعاً[٢]، فصارا زينةَ الحياة الدنيا، لكن معه قرينةُ الضَّعَة[٣] للمال والبنين؛ لأن المعنى: المالُ والبنون زينةُ هذه الحياة المحتقرة؛ فلا تُتبعوها نفوسَكم[٤]. وهو رَدٌّ على عُيينةَ بن حِصْن وأمثالِه لمَّا افتخروا بالغنى والشرفِ، فأخبر تعالى أنَّ ما كان من زينةِ الحياة الدنيا فهو غرورٌ يمرُّ ولا يبقى، كالهشيمِ حين ذَرتْه الريحُ، إنَّما يبقى ما كان من زادِ القبر وعُدد الآخرة[٥]. وكان يقال: لا تعقد قلبكَ مع المال؛ لأنه فَيْءٌ ذاهب، ولا مع النساءِ؛ لأنَّها اليومَ معك وغداً مع غيرك، ولا مع السلطان؛ لأنه اليوم لك وغداً لغيرك. ويكفي في هذا قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ﴾ [التغابن: ١٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أي: ما يأتي به سَلْمان وصُهيب وفقراءُ المسلمين من الطاعات[٦] ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: أفضل ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: أفضل

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٨٦.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣١٠.

(٣) في (م): الصفة.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠.

(٥) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠١، والطبري ١٥/ ٢٧٣ بنحوه.

(٦) الوسيط ٣/ ١٥١.

أملاً من ذي المال والبنين دونَ عمل صالح[١]، وليس في زينةِ الدنيا خير، ولكنه خَرَج مخرجَ قولِه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وقيل: خير في التحقيق ممَّا يَظنُّه الجهالُ أنه خير في ظنِّهم.

واختلف العلماءُ في «الباقيات الصالحات»، فقال ابنُ عباس وابن جُبير وأبو مَيْسرة عمرو[٢] بن شُرَحْبِيل: هي الصلواتُ الخمس[٣]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّها كلُّ عملٍ صالح من قول أو فعل يبقى للآخرةِ. وقاله ابنُ زيد ورجَّحه الطبري[٤]، وهو الصحيحُ إن شاء الله؛ لأنَّ كل ما بقي ثوابُه، جازَ أن يقالَ له هذا. وقال عليٌّ ﷺ: الحرثُ حرثان، فحرثُ الدنيا المالُ والبنون، وحرثُ الآخرةِ الباقياتُ الصالحات، وقد يَجمعُهن الله تعالى لأقوام[٥].

وقال الجمهور: هي الكلماتُ المأثورُ فضلها: سبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم[٦]. خرَّجه مالك في «موطئه»[٧] عن عمارة بنِ صياد، عن سعيد بن المسيِّب، أنه سمعه يقولُ في الباقياتِ الصالحات: إنها قولُ العبدِ: الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله. أسنده النَّسائيُّ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ، أن رسول الله ﷺ قال: «استكثِروا من الباقياتِ الصالحات» قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبيرُ والتهليلُ والتسبيحُ والحمدُ لله ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله»[٨]. صحَّحه أبو محمد عبدُ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠ .

(٢) في (م): وعمرو.

(٣) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٠ - ٢٨١ عنهما ورجَّحه.

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٥٠٣ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠ .

(٧) الموطأ ١/ ٢١٠ ، وهو عند الطبري ١٥/ ٢٧٩ .

(٨) لم نقف عليه عند النسائي، وعزاه المزي في تحفة الأشراف ٣/ ٣٦٢ إليه في عمل اليوم والليلة وذكر إسناده، وصححه عبد الحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى ٢/ ٨٩١ ، وهو عند أحمد (١١٧١٣).

الحق رحمه الله. وروى قتادةُ أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذَ غُصْناً فَخرطه حتى سقط ورقُه وقال: «إنَّ المسلم إذا قالَ: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تَحاتَّت خطاياه كما تَحاتَّ هذا، خُذهنَّ إليك أبا الدرداء قبلَ أن يُحال بينَك وبينهن؛ فإنَّهن من كنوزِ الجنةِ وصفايا الكلام، وهنَّ الباقياتُ الصالحات». ذكره الثعلبي، وخرَّجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداءِ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عليك بسبحانَ الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ فإنَّهنَّ يعني يَحطُطْنَ الخطايا كما تَحطُّ الشجرةُ ورقَها»[(١)]. وأخرجه الترمذي[(٢)] من حديث الأعمش، عن أنسِ بن مالك، أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ بشجرةٍ يابسةِ الورقة فضربها بعَصاهُ فتناثرَ الورقُ فقال: «إنَّ الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر لتُساقِطُ من ذنوبِ العبد كما تَساقَطَ ورقُ هذه الشجرة». قال: هذا حديثٌ غريب ولا نعرف للأعمش سماعاً من أنس، إلا أنه قد رآه ونظرَ إليه[(٣)]. وخرَّج الترمذي[(٤)] أيضاً عن ابنِ مسعود قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَقِيتُ إبراهيمَ عليه السلام ليلةَ أسْرِيَ بي فقال: يا محمدُ، أَقرئ أمتَك مني السلامَ، وأَخبرهم أنَّ الجنةَ طيبةُ التُّربةِ عذبةُ الماء، وأنَّها قِيعان وأنَّ غِراسها سبحان الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر» قال: حديثٌ حسنٌ غريب، خرَّجه الماوردي[(٥)] بمعناه. وفيه: فقلتُ: وما غِراسُ الجنةِ؟ قال: «لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله». وخرَّج ابنُ ماجه[(٦)] عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ به وهو يَغْرِسُ غَرْساً فقالَ: «يا أبا هريرةَ، ما الذي تغرس؟» قلت: غراساً. قال: «ألا أدُلُّك على غِراسٍ خيرٍ من هذا، سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر، يُغرسُ لك بكلِّ واحدة شجرةٌ في

---

(١) سنن ابن ماجه (٣٨١٣)، وضعَّفه البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٦٤ .

(٢) في سننه (٣٥٣٣).

(٣) قوله: ولا نعرف للأعمش سماعاً... ونظر إليه، ليس في السنن

(٤) في سننه (٣٤٦٢).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣١٠ - ٣١١ دون إسناد.

(٦) في سننه (٣٨٠٧)، وحسَّن إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٦٣ .

الجنةِ». وقد قيل: إنَّ الباقياتِ الصالحاتِ هي النياتُ والهَمَّاتُ؛ لأنَّ بها تُقبَل الأعمال وتُرفع؛ قاله الحسن. وقال عُبيد بن عُمير: هنَّ البناتُ؛ يدلُّ عليه أوائلُ الآية، قال الله تعالى: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» ثمن قالَ: «والباقياتُ الصالحات» يعني: البنات الصالحات هنَّ عندَ الله لآبائهنَّ خيرٌ ثواباً، وخير أملاً في الآخرة لمن أحسن إليهنَّ. يدُلُّ عليه ما روته عائشةُ رضي الله عنها قالت: دَخلتْ عليَّ امرأةٌ مسكينة... الحديث، وقد ذكرناه في سورةِ النحل في قوله: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ الآية[١]. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لقد رأيتُ رجلاً من أمتي أُمِر به إلى النار، فتعلَّق به بناتُه وجَعلنَ يَصْرُخنَ ويَقُلن: ربِّ إنه كان يُحسنُ إلينا في الدنيا، فَرحِمَه اللهُ بهنَّ»[٢]. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] قال: أبدلهما منه ابنةً فتزوجها نبيٌّ، فَولدت له اثني عشر غلاماً كلُّهم أنبياءُ[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال بعضُ النحويين: التقديرُ: والباقياتُ الصَّالحاتُ خيرٌ عند ربك يومَ نُسيِّر الجبال. قال النحاسُ: وهذا غلطٌ من أجلِ الواو[٤]. وقيل: المعنى: واذكر يومَ نُسيِّر الجبال[٥]، أي: نزيلها من أماكِنها من

---

(١) ٥٩ .

(٢) أخرج نحوه ابن ماجه (٣٦٦٩)، وابن أبي الدنيا في العيال (٨٩) من حديث عقبة بن عامر بلفظ: من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهنَّ وأطعمهنَّ وسقاهنَّ وكساهنَّ من جِدَتِه، كنَّ له حجاباً من النار يوم القيامة. لفظ ابن ماجه.

(٣) نسبه الواحدي في الوسيط ٣/ ١٦١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٨١ لابن عباس وقال: سبعين بدل اثني عشر نبيًّا. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ : وهذا بعيد، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٠ .

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٢ .

على وجهِ الأرض، ونُسيرها كما نسيرُ السحاب؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل:٨٨]. ثم تكسرُ فتعود إلى الأرضِ[١]؛ كما قال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة:٥-٦]. وقرأ ابنُ كَثير والحسن، وأبو عمرو وابن عامر: «ويوم تُسَيَّر» بتاءٍ مضمومة وفتحِ الياء، و«الجبالُ» رفعاً على الفعل المجهول[٢]. وقرأ ابن مُحَيْصِن[٣] ومجاهد: «ويوم تَسير الجبالُ» بفتح التاءِ مخففاً من سار، «الجبال» رفعاً. دليلُ قراءةِ أبي عمرو: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣]. ودليلُ قراءةِ ابن محيصِن: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور:١٠]. واختار أبو عبيد[٤] القراءة الأولى: «نُسيِّر» بالنون؛ لقوله: «وحشرناهم».

ومعنى ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرة، وليس عليها ما يسترُها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أي: قد اجتُثت ثمارُها وقُلِعت جبالها، وهُدم بنيانُها، فهي بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهلُ التفسير. وقيل: «وترى الأرض بارزة» أي: برزَ ما فيها من الكنوز والأموات[٥]؛ كما قال: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق:٤] وقال: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:٢] وهذا قولُ عطاء[٦].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: إلى الموقف، ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم نترك؛ يقال: غَادرتُ كذا، أي: تركته. قال عنترةُ:

غَادَرْتُه مُتَعَفِّراً أوصالُه والقومُ بين مُجَرَّحٍ ومُجَدَّلِ[٧]

---

(١) الوسيط ٣/ ١٥٢ .

(٢) السبعة ص٣٩٣ ، والتيسير ص١٤٤ ، و قراءة الحسن في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠ .

(٣) القراءات الشاذة ص٨٠ .

(٤) في (ظ): عبيدة.

(٥) الطبري ١٥/ ٢٨١ ، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٢ ، والوسيط ٣/ ١٥٢ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢ ، والنكت والعيون ٣/ ٣١١ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٦٥ .

(٧) ديوانه ص٦٠ .

أي: تركته. والمغادرةُ التركُ، ومنه الغَدْر؛ لأنه تركُ الوفاءِ. وإنَّما سُمِّي الغديرُ من الماءِ غديراً؛ لأنَّ الماء ذهبَ وتركَه. ومنه غدائرُ المرأة؛ لأنها تجعلُها خلفَها(١). يقول: حَشرنا بَرَّهم وفاجِرَهم وجنَّهم وإنسَهم.

قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

قول تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ «صفًّا» نُصِب على الحال(٢). قال مقاتل: يُعرضون صفًّا بعد صفٍّ كالصفوف في الصلاة، كلُّ أمةٍ وزمرة صفًّا، لا أنهم صفٌّ واحد(٣). وقيل: جميعاً، كقوله: ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ [طه: ٦٤] أي: جميعاً(٤). وقيل: قياماً(٥). وخرَّج الحافظُ أبو القاسم عبدُ الرحمن بنُ مَنْدَه في «كتابِ التوحيد» عن معاذ ابنِ جبل، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله تباركَ وتعالى يُنادي يومَ القيامة بصوتٍ رفيع غيرِ فظيعٍ: يا عبادي، أنا اللهُ لا إله إلا أنا أرحمُ الراحمين، وأحكم الحاكمين، وأسرعُ الحاسبين، يا عبادي، لا خوف عليكم اليومَ، ولا أنتم تحزنون، أَحْضِروا حجَّتكم، ويَسِّروا جواباً؛ فإنكم مسؤولون محاسبون، يا ملائكتي، أَقيموا عبادي صفوفاً على أطرافِ أناملِ أقدامِهم للحساب»(٦).

قلت: هذا الحديثُ غايةٌ في البيان في تفسيرِ الآية، ولم يَذكُره كثيرٌ من المفسرين، وقد كتبناه في «كتاب التذكرة»(٧)، ومنه نقلناهُ والحمد لله.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي: يقال لهم: لقد جئتمونا حُفاةً عُراة، لا

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٨٧، والنكت والعيون ٣/ ٣١١ - ٣١٢، والرازي ٢١/ ١٣٣.

(٢) إعراب القرآن ٢/ ٤٦٠.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣١٢، والوسيط ٣/ ١٥٢، وتفسير البغوي ٣/ ١٦٥، دون نسبة.

(٤) نسبه في زاد المسير ٥/ ١٥١ إلى مقاتل.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٦٥.

(٦) ينظر الدر المنثور ٤/ ٢٢٦.

(٧) ص٢٥٣ - ٢٥٤.

مالَ معكم ولا ولداً. وقيل: فرادَى[١]؛ دليلُه قولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقد تقدَّم. وقال الزجاجُ[٢]: أي: بعثناكم كما خَلقناكم.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ هذا خطابٌ لمنكري البعث، أي: زعمتم في الدنيا أنْ لن تُبعثوا، وأن لن نجعلَ لكم موعداً للبعث[٣]. وفي «صحيح» مسلم عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يُحشرُ الناسُ يومَ القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً» قلت: يا رسولَ الله، الرجالُ والنساءُ ينظر بعضُهم إلى بعض؟! قال: «يا عائشةُ، الأمرُ أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعض»[٤]. «غُرْلاً» أي: غير مختونين. وقد تقدمَ في «الأنعامِ» بيانُه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ «الكتاب» اسمُ جنس[٦]، وفيه وجهان: أحدهما: أنَّها كتبُ الأعمال في أيدي العباد؛ قاله مُقاتل. الثاني: أنه وضْع الحساب؛ قاله الكَلْبيُّ، فعبَّر عن الحساب بالكتاب؛ لأنَّهم يُحاسبون على أعمالهم المكتوبة[٧]. والقولُ الأوّل أظهرُ؛ ذكره[٨] ابنُ المبارك[٩] قال: أَخبرنا الحكم أو أبو الحكم ـ شكَّ

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢.

(٢) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٢.

(٣) الوسيط ٣/ ١٥٢.

(٤) صحيح مسلم (٢٨٥٩).

(٥) ٨/ ٤٦٣.

(٦) الوسيط ٣/ ١٥٢.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٣١٢.

(٨) في (ظ) و(ف): ذكر.

(٩) في الزهد زيادات نعيم بن حماد (٣٩٦).

نُعيم - عن إسماعيل بنِ عبد الرحمن، عن رجلٍ من بني أسد قال: قال عمرُ لكعْب: وَيْحكَ يا كعب، حدِّثنا من حديث الآخرة، قال: نعم يا أمير المؤمنين! إذا كان يوم القيامة رُفِع اللوحُ المحفوظُ فلم يبقَ أحدٌ من الخلائق إلا وهو ينظرُ إلى عملِه، قال: ثم يُؤتى بالصحفِ التي فيها أعمالُ العباد فتُنثر حولَ العرش، وذلك قولُه تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ قال الأسدي: الصَّغيرةُ ما دون الشركِ، والكبيرةُ الشركُ. «إلا أحصاها» قال كعب: ثم يُدعَى المؤمنُ فيُعطى كتابَه بيمينه، فينظر فيه فإذا حسناتُه بادِياتٌ للناس وهو يقرأُ سيئاتِه؛ لكيلا يقولَ: كانت لي حسناتٌ فلم تُذكَر، فأحبَّ الله أن يُريَه عملَه كلَّه حتى إذا استنقض[1] ما في الكتابِ وجدَ في آخر ذلك كلِّه أنه مغفورٌ وأنَّك من أهل الجنة، فعند ذلك يُقبِل إلى أصحابه ثم يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ . إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠] ثم يدعى الكافر[2] فيُعطَى كتابَه بشماله ثم يُلَفُّ فيجعل من وراءِ ظهره ويُلْوَى عنقُه، فذلك قولُه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠] فينظر في كتابِه فإذا سيئاتُه بادياتٌ للناس وينظر في حسناتِه؛ لكيلا يقول: أَفأُثاب على السيئات.

وكان الفُضيل بنُ عِياض إذا قرأ هذه الآيةَ يقول: يا ويلتاه! ضِجُّوا إلى الله تعالى من الصَّغائر قبل الكبائر[3]. قال ابنُ عباس: الصغيرةُ التبسمُ، والكبيرةُ الضحك[4]. يعني: ما كان من ذلك في معصيةِ الله عزَّ وجلَّ؛ ذكره الثعلبيُّ. وحكى الماوَرْدِيُّ عن ابنِ عباسٍ أنَّ الصغيرةَ الضحكُ[5].

---

(١) في (م) و(ز): استنقص، وفي (ف): استفض، وفي الزهد لابن المبارك استنفض. وكلُّها بمعنى التناهي والتلاشي.

(٢) في (د) و(م): بالكافر، والمثبت من (ظ) و(ز) و(ف)، والزهد لابن المبارك (٣٩٦).

(٣) ذكره الرازي ٢١/ ١٣٤ دون نسبة.

(٤) الوسيط ٣/ ١٥٢ ، والبغوي ٣/ ١٦٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣١٢ ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٤ - ٢٨٥ ، وقال ابن عطية ٣/ ٥٢١ : وهذا مثال.

قلت: فيحتمل أن يكونَ صغيرةً إذا لم يكن في معصيةٍ؛ فإنَّ الضحكَ من المعصية رِضاً بها، والرضا بالمعصيةِ معصيةٌ، وعلى هذا تكون كبيرةً، فيكون وجهُ الجمع هذا. والله أعلم. أو يُحمل الضحكُ فيما ذكر الماورديُّ على التبسم، وقد قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]. وقال سعيد بن جبير: إنَّ الصغائر اللَّمَمُ كالمَسِيس والقُبَل، والكبيرةَ المواقعةُ والزِّنى[١]. وقد مضى في «النساء» بيانُ هذا[٢]. قال قتادة: اشتكى القومُ الإحصاء، وما اشتكى أحدٌ ظلماً، فإياكم ومحقَّرات الذنوبِ؛ فإنَّها تجتمعُ على صاحبها حتى تهلكه[٣]. وقد مضى ومعنى «أحصاها» عدَّها وأحاطَ بها، وأُضيفَ الإحصاءُ إلى الكتاب توسُّعاً. ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ أي: وجدوا إحصاءَ ما عملوا حاضراً. وقيل: وجدوا جزاءَ ما عملوا حاضراً. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: لا يأخذُ أحداً بجُرْمِ أحد، ولا يأخذه بما لم يَعمَلْه؛ قاله الضحاكُ[٤]. وقيل: لا يَنقُص طائعاً من ثوابِه، ولا يزيد عاصياً في عقابه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ تقدم في «البقرة» هذا مستوفًى[٦]. قال أبو جعفر النحاس: وفي هذه الآيةِ سؤال، يقال: ما معنى: «فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه»؟ ففي هذا قولان أحدهما: وهو

(١) الوسيط ٣/ ١٥٢، والبغوي ٣/ ١٦٦.

(٢) ٦/ ٢٦١ وما بعدها.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٨٤.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٦٦.

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ١٣٤، والنكت والعيون ٣/ ٣١٣، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢.

(٦) ١/ ٤٣٣ وما بعدها.

مذهبُ الخليل وسيبويه أنَّ المعنى: أَتاه الفسقُ لمَّا أُمِر فعَصَى، فكان سببَ الفسق أمْرُ ربه، كما تقول: أطعمته عن جوع. والقول الآخر: وهو مذهب محمد بن [المستنير] قُطْرب أن المعنى: ففسقَ عن ردِّ أمرِ ربه[١].

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ وقفَ عزَّ وجلَّ الكفرةَ على جهة التوبيخِ بقوله: أفتتخذونه يا بني آدم وذرِّيَّته أولياءَ وهم لكم عدوٌّ، أي: أعداء، فهو اسمُ جنس. ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي: بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادةِ الله. أو بئس إبليسُ بدلاً عن الله[٢]. واختُلِف هل لإبليس ذريةٌ من صلبِه؟ فقال الشَّعبيُّ: سألني رجلٌ فقال: هل لإبليس زوجة؟ فقلت: إنَّ ذلك عُرْسٌ لم أَشهدْه، ثم ذكرت قوله: «أفتتخذونه وذريته أولياء» فعلمتُ أنه لا تكون ذريةٌ إلا من زوجةٍ، فقلت: نعم. وقال مجاهد: إنَّ إبليسَ أدخلَ فرجَه في فرجِ نفسه فباض خمسَ بيضات، فهذا أصلُ ذريته[٣]. وقيل: إن الله تعالى خلقَ له في فخذه اليمنى ذكراً، وفي اليسرى فرجاً، فهو ينكح هذا بهذا، فيَخرجُ له كلَّ يوم عشرُ بيضات، يخرج من كل بيضةٍ سبعون شيطاناً وشيطانة، فهو يَخْرج وهو يطير، وأعظمُهم عند أبيهم منزلةً أعظمُهم في بني آدم فتنةً. وقال قومٌ: ليس له أولادٌ ولا ذرية، وذرِّيتُه أعوانُه من الشياطين. قال القُشيري أبو نصر: والجملةُ أنَّ الله تعالى أخبرَ أن لإبليس أتباعاً وذرية، وأنهم يُوسوسون إلى بني آدم وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفيةٌ في كيفيةِ التوالد منهم وحدوثِ الذريةِ عن إبليس، فيتوقَّف الأمرُ فيه على نقلٍ صحيحٍ.

قلت: الذي ثبتَ في هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميديُّ في «الجمعِ بين الصحيحين» عن الإمام أبي بكر البرقاني، أنَّه خَرَّج في كتابِه مسنداً عن أبي محمد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤ - ٢٥٥ ، وما بين حاصرتين سقط منه ومن النسخ،وقد صرح بأنه قطرب الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٩٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٥٤ .

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٢ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٦٧ - ١٦٨ ، ونسب قول مجاهد إلى قتادة بنحوه.

عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم، عن أبي عثمان، عن سلمان قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تكن أوَّلَ مَن يدخل السوقَ، ولا آخر مَن يخرج منها، فبها باض الشيطانُ وفرَّخ»[١]. وهذا يدلُّ على أن للشيطان ذريةً من صلبه، والله أعلم. قال ابنُ عطية[٢]: وقولُه: «وذريته» ظاهرُ اللفظِ يقتضي الموسوسين من الشياطين، الذين يَأمرون[٣] بالمنكر، ويحملون على الباطل.

وذكر الطبري[٤] وغيره أنَّ مجاهداً قال: ذريةُ إبليس الشياطينُ، وكان يَعدُّهم:

زَلَنْبُور: صاحبُ الأسواق، يضع رايتَه في كل سوقٍ بين السماء والأرض، يجعل تلك الرايةَ على حانوتِ أوَّلِ مَن يفتح وآخرِ مَن يغلق.

وثَبْر: صاحبُ المصائب، يأمر بضربِ الوجوه، وشقِّ الجيوب، والدعاءِ بالويل والحرب.

والأعورُ: صاحبُ أبواب الرِّبا[٥].

ومِسْوَط: صاحبُ الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواهِ الناس فلا يَجِدون لها أصلاً.

وداسم: الذي إذا دخلَ الرجلُ بيتَه فلم يُسلِّم ولم يذكرِ اسمَ الله بصَّرَه من المتاع ما لم يُرفع، وما لم يُحسَن موضعُه، وإذا أكلَ ولم يذكر اسمَ الله، أكلَ معه. قال الأعمشُ: وإني ربما دخلتُ البيتَ فلم أذكرِ الله ولم أُسلِّم، فرأيت مطهرةً فقلتُ: ارفعوا هذه، وخَاصمتُهم، ثم أذكر فأقول: داسم داسم! أعوذُ بالله منه[٦].

زاد الثعلبي وغيرُه عن مجاهد:

---

(١) الجمع بين الصحيحين للحميدي ٣/ ٣٦١ ، وهو عند مسلم (٢٤٥١).

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٢ .

(٣) في النسخ: «يأتون» والمثبت من المحرر الوجيز.

(٤) في التفسير ١٥/ ٢٩٢ .

(٥) في (ز) و(م): «الزنى».

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٩٣ .

والأبيضُ، وهو الذي يوسوس للأنبياء.

وصخر وهو الذي اختلسَ خاتمَ سليمانَ عليه السلام[١].

والولهان وهو صاحبُ الطهارة يوسوسُ فيها[٢].

والأقيس وهو صاحبُ الصلاة يوسوس فيها.

ومُرَّة وهو صاحبُ المزامير وبه يُكْنَى.

والهفاف[٣] يكونُ بالصحارَى يُضلُّ الناسَ ويُتيهُهم، ومنهم الغيلان.

وحكى أبو مطيع مكحولُ بنُ الفضل النسفي في «كتابِ اللؤلؤيات» عن مجاهد، أنَّ الهفافَ هو صاحب الشراب، ولقوس صاحبُ التحريش، والأعورَ صاحبُ أبواب السلطان. قال: وقال الدَّارانيُّ: إنَّ لإبليس شيطاناً يقال له: المتقاضي، يتقاضى ابنَ آدم فيخبر بعمل كان عمله في السرِّ منذ عشرين سنة، فيُحدِّث به في العلانية.

قال ابن عطية[٤]: وهذا وما جانَسه ممَّا لم يأتِ به سندٌ صحيح، وقد طوَّل النقاشُ في هذا المعنى، وجلب حكاياتٍ تبعد عن الصحةِ، ولم يمرَّ بي في هذا صحيح إلا ما في «كتاب مسلم»[٥] من أنَّ للصلاةِ شيطاناً يسمى خِنْزب. وذكر الترمذيُّ أنَّ للوضوء شيطاناً يسمى الولهان[٦].

قلت: أما ما ذُكر من التعيينِ في الاسم فصحيح، وأما أنَّ له أتباعاً وأعواناً وجنوداً فمقطوعٌ به، وقد ذكرنا الحديثَ الصحيح في أنَّ له أولاداً من صلبه، كما قال مجاهد وغيره.

---

(١) عرائس المجالس ص٣٢٥.

(٢) أخرج أحمد (٢١٢٣٨ زوائد)، والترمذي (٥٧)، وابن ماجه (٤٢١)، من حديث أُبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: للوضوء شيطان يقال له: الولهان، فاتقوه، أو قال: فاحذروه. وفي إسناده خارجة بن مصعب وهو متروك الحديث.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٦٧.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٢.

(٥) برقم (٢٢٠٣)، وهو عند أحمد (١٧٨٩٧)، من حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ.

(٦) تقدم تخريجه آنفاً.

وفي «صحيح» مسلم عن عبدِ الله بنِ مسعود قال: إنَّ الشيطانَ ليتمثل في صورةِ الرجلِ، فيأتي القومَ فيحدِّثُهم بالحديث من الكذب، فيتفرَّقون فيقول الرجل منهم: سمعتُ رجلاً أعرفُ وجهه ولا أدري ما اسمُه يحدِّث[1].

وفي «مسند» البَزَّار عن سلمان الفارسي قال: قال النبيُّ ﷺ: «لا تكونَنَّ إن استطعتَ أَوَّلَ مَن يدخل السوقَ، ولا آخرَ مَنْ يخرجُ منها؛ فإنَّها معركةُ الشيطان، وبها ينصِبُ رايتَه»[2].

وفي «مسند» أحمد بنِ حنبل قال: أنبأنا عبدُ الله بنُ المبارك قال: حدَّثنا سفيان، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ، عن أبي موسى الأشعري قال: إذا أصبحَ إبليسُ بَثَّ جنودَه فيقول: مَنْ أَضلَّ مسلماً أَلبستُه التاجَ. قال: فيقول له القائل: لم أَزلْ بفلانٍ حتى طلَّق زوجتَه. قال: يُوشِك أن يتزوَّج. ويقول آخر: لم أزل بفلانٍ حتى عَقَّ. قال: يوشِك أن يَبَرَّ. قال: ويقول القائل: لم أَزلْ بفلان حتى شَرِب. قال: أنت! قال: ويقول: لم أَزلْ بفلان حتى زَنَى. قال: أنت! قال: ويقول: لم أزل بفلانٍ حتى قَتَل. قال: أنتَ أنتَ[3].

وفي «صحيح» مسلم عن جابرٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ إبليسَ يضعُ عرشَه على الماء، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمُهم فتنةً، يجيءُ أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً. قال: ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينه وبينَ أهلِه، قال: فيُدنيهِ، أو قال: فيلتزمه ويقول: نِعْمَ أنتَ»[4]. وقد تقدَّم.

وسمعتُ شيخَنا الإمامَ أبا محمد عبدَ المعطي بثَغْرِ الإسكندريةِ يقول: إنَّ شيطاناً

---

(١) صحيح مسلم (٧).

(٢) مسند البزار (٢٥٤١)، وهو عند مسلم (٢٤٥١).

(٣) لم نقف عليه في مسند أحمد، ولم يذكره الحافظ ابن حجر في أطراف المسند، ولا في إتحاف المهرة ١٠/ ٣٨ ، وعزاه لابن حبان والحاكم، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١١٤ إلى الطبراني في الكبير. وأخرجه ابن حبان (٦١٨٩)، والحاكم ٤/ ٣٥٠ ، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ.

(٤) صحيح مسلم (٢٨١٣) (٦٧)، وهو عند أحمد (١٤٣٧٧).

يقالُ له البَيضاوي يتمثلُ للفقراءِ المواصلين في الصيامِ، فإذا استحكمَ منهمُ الجوعُ وأضرَّ بأدمِغتِهم، يكشفُ لهم عن ضياءٍ ونورٍ حتى يملأَ عليهم البيوتَ، فيظنُّون أنَّهم قد وصلوا، وأنَّ ذلك من اللهِ، وليسَ كما ظنُّوا.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ قيل: الضميرُ عائد على إبليس وذريته[(١)]، أي: لم أُشاورهم في خلق السماوات والأرض ولا خلقِ أنفسهم، بل خلقتُهم على ما أَردت. وقيل: ما أَشهدت إبليسَ وذريته خلقَ السماوات والأرض «ولا خلق أنفسهم» أي: أنفس المشركين، فكيفَ اتخذوهم أولياءَ من دوني؟[(٢)]. وقيل: الكنايةُ في قوله: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ» ترجعُ إلى المشركين، وإلى الناس بالجملة، فَتتضمنُ الآيةُ الردَّ على طوائف من المنجِّمين، وأهل الطبائع، والمتحكمين من الأطباءِ وسواهم مِن كل مَن ينخرطُ[(٣)] في هذه الأشياء. وقال ابنُ عطية[(٤)]: وسمعتُ أبي ﷺ يقولُ: سمعتُ الفقيهَ أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدوي[(٥)] بالمهدية يقول: سمعتُ عبدَ الحق الصِّقِلِّيَّ يقول هذا القول، ويتأوَّل هذا التأويلَ في هذه الآية، وأنَّها رادةٌ على هذه الطوائف، وذكر هذا بعضُ الأصوليين. قال ابنُ عطية وأقولُ: إن الغرضَ المقصود أَولاً بالآية هم إبليسُ وذريتُه، وبهذا الوجه يتجهُ الردُّ على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعربِ والمعظمين للجنِّ، حين يقولون:

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٤.

(٢) زاد المسير ٥/ ١٥٤.

(٣) في (ظ): يتخوض، وفي (ز) و(ف): يتخرص.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣، وما قبله منه.

(٥) في (م) و(د): المهدي.

أعوذُ بعزيزِ هذا الوادي، إذ الجميعُ من هذه الفرق متعلقون[١] بإبليس وذريتِه وهم أَضلوا الجميع، فهم المرادُ الأول بالمضلِّين، وتندرجُ هذه الطوائفُ في معناهم. قال الثعلبي: وقال بعضُ أهلِ العلم: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» ردٌّ على المنجِّمين أنْ قالوا: إنَّ الأفلاكَ تُحدِث في الأرض وفي بعضها في بعض، وقولُه: «والأرضِ» ردٌّ[٢] على أصحابِ الهندسة حيثُ قالوا: إنَّ الأرضَ كُريَّة[٣] والأفلاكَ تجري تحتها، والناس ملصَقون عليها وتحتها، وقولُه: «ولا خلق أنفسهم» ردٌّ على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائعَ هي الفاعلةُ في النفوس. وقرأ أبو جعفر: «ما أشهدناهم» بالنون والألف على التعظيم. الباقون بالتاء[٤] بدليل قولِه: «وما كنت متخذ» يعني: ما استعنتُهم على خلقِ السماوات والأرض ولا شاورتُهم .﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ يعني: الشياطين. وقيل: الكفار[٥] ﴿عَضُدًا﴾ أي: أعواناً[٦]. يقال: اعتضدتُ بفلانٍ إذا استعنتَ به وتَقوَّيتَ[٧]. والأصلُ فيه عَضُدُ اليد، ثم يوضعُ موضعَ العون؛ لأنَّ اليدَ قِوامُها العَضدُ. يقال: عَضَده وعَاضَدَه على كذا إذا أَعانه وأَعزَّه. ومنه قوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص:٣٥] أي: سَنُعينك بأخيك. ولفظُ العضدِ على جهةِ المثَل، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عونِ أحد. وخَصَّ المضلِّين بالذكر لزيادةِ الذمِّ والتوبيخ. وقرأ أبو جعفر والجَحْدَريّ: «وَمَا كُنْتَ» بفتح التاء[٨]، أي: وما كنت يا محمدُ متخذَ المضلِّين عضداً[٩]. وفي عضد ثمانيةُ أوجه[١٠]: «عَضُداً» بفتح

---

(١) في النسخ الخطية: متعلقين، والمثبت من (م) والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ .

(٢) في النسخ الخطية: ردًّا.

(٣) في النسخ الخطية: أكرية.

(٤) النشر ٢/ ٣١١ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣١٦ .

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٢٩٥ ، عن قتادة.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٤ ، والصحاح (عضد).

(٨) وقع في النسخ: أبو جعفر الجحدري دون واو، وهو خطأ، والكلام في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ ، وقراءة أبي جعفر من العشرة وهي في النشر ٢/ ٣١١ .

(٩) الكلام بنحوه في الكشاف ٢/ ٤٨٨ .

(١٠) ذكر ستة أوجه النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٤٦٠ ، وذكر خمساً الزجاج في معاني القرآن =

العين وضم الضاد، وهي قراءةُ الجمهور، وهي أفصحُها. و«عَضْداً» بفتح العين وإسكان الضاد، وهي لغة بني تميم. و«عُضُداً» بضم العينِ والضاد، وهي قراءةُ أبي عمرو والحسن. و«عُضْداً» بضم العين وإسكانِ الضاد، وهي قراءةُ عكرمة. و«عِضَداً» بكسر العين وفتح الضاد، وهي قراءةُ الضحاك. و«عَضَداً» بفتح العين والضاد، وهي قراءةُ عيسى بن عمر. وحكى هارون القارئ «عَضِداً». واللغةُ الثامنةُ «عِضْداً» على لغةِ مَن قال: كتْف وفِخْذ[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: اذكروا يومَ يقول الله: أينَ شركائي؟ أي: ادعوا الذينَ أشركتُموهم بي، فليمنعوكم من عذابي، وإنَّما يقول ذلك لعبدةِ الأوثان[٢]. وقرأ حمزةُ ويحيى وعيسى بنُ عمر: «نقول» بنون. الباقون بالياء[٣]؛ لقوله: «شركائي» ولم يقل: شركائنا، ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: فعلوا ذلك، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي: لم يُجيبوهم إلى نصرِهم، ولم يكفُّوا عنهم شيئاً، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال أنسُ بن مالك: هو وادٍ في جهنمَ من قيح ودم[٤]. وقال ابنُ عباس: أي: وجعلنا بينَ المؤمنين والكافرين حاجزاً. وقيل: بينَ الأوثان وعَبَدتِها[٥]، نحو قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٢٨]. قال ابنُ الأعرابي: كلُّ شيءٍ حاجزٌ بينَ شيئين فهو مَوْبِق. وذكر ابنُ وهب، عن مجاهدٍ في قولِه تعالى: «مَوْبِقا» قال: وادٍ في جهنمَ يقال له: مَوْبق. وكذلك قال نَوْفُ البِكَاليُّ إلا أنه قال: يحجزُ بينَهم وبينَ المؤمنين[٦]. عِكرمة: هو نهرٌ في جهنم يسيل ناراً، على حافتيه حياتٌ مثل البغالِ الدُّهم[٧]، فإذا ثارت إليهم

= ٣/ ٢٩٤- ٢٩٥ ، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٨٨ .

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٠ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ جميع القراءات إلا قراءة هارون القارئ، وينظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص٨٠ .

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٥ ، والسمرقندي ٢/ ٣٠٣ ، وإعراب النحاس ٢/ ٤٦١ .

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ ، دون ذكر عيسى بن عمر، وزاد طلحةَ والأعمش.

(٤) سيأتي تخريجه قريباً.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٦٨ ، ونحوه في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣ .

(٦) الوسيط ٣/ ١٥٣ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٦٨ .

لتأخذهم، استغاثُوا منها بالاقتحام في النار. ورَوى يزيد[١] بنُ درهم، عن أنس بنِ مالك قال: «مَوْبقا» وادٍ من قيح ودم في جهنم[٢]. وقال عطاء والضحاكُ: مَهْلِكاً في جهنم، ومنه يقال: أوبَقَتْه ذنوبُه إيباقاً[٣]. وقال أبو عبيدة[٤]: موعداً للهلاك. الجوهري: وَبَق يبِق وُبوقا: هَلَك، والمَوْبِق مثلُ الموعدِ، مَفعِلٌ من وعد يَعِد، ومنه قولُه تعالى: «وجعلنا بينهم موبقا». وفيه لغةٌ أخرى: وَبِق يَوْبَق وَبَقاً، وفيه لغةٌ ثالثة: وَبِق يَبِق بالكسرِ فيهما، وأَوبقه أي: أهلكه[٥]. وقال زهير:

ومَن يَشتري حُسنَ الثَّناءِ بمالِهِ يَصُنْ عِرضَه من كلِّ شَنْعاءَ مُوبِقِ[٦]

قال الفرّاء[٧]: جَعلَ تواصلَهم في الدنيا مَهلِكاً لهم في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ «رأى» أصلُه رَأَيَ، قُلبت الياءُ ألفاً؛ لانفتاحها وانفتاحِ ما قبلها، ولهذا زعمَ الكوفيون أنَّ «رأى» يكتب بالياء، وتابَعهم على هذا القولِ بعضُ البصريين، فأمَّا البصريونَ الحذَّاقُ، منهم محمدُ بنُ يزيد، فإنَّهم يكتبونَه بالألف. قال النحاس: سمعتُ عليَّ بنَ سليمان يقول: سمعت محمدَ بنَ يزيد يقول: لا يجوزُ أن يُكتَب مضى ورمَى وكلُّ ما كان من ذواتِ الياء إلَّا بالألف، ولا فرقَ بينَ ذواتِ الياء وبين ذوات الواو في الخطِّ، كما أنَّه لا فرقَ بينهما في اللفظ، ولو وجبَ أن يكتب ذواتُ الياء بالياء؛ لوجبَ أن يكتب ذواتُ الواوِ بالواو، وهم مع هذا

---

(١) في (م): زيد، وهو خطأ.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/٢٩٨ ، وابن حبان في الثقات ٥/٥٣٨ في ترجمة يزيد، والبيهقي في البعث والنشور (٥٢٠).

(٣) تفسير البغوي ٣/١٦٨ .

(٤) في مجاز القرآن ١/٤٠٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/٣١٦ .

(٥) الصحاح (وبق).

(٦) ديوان زهير ص٢٥٢ ، وفيه: ومن يلتمس بدل يشتري. وقال شارحه: شنعاء: قبيحة، وموبق: مهلك، ووقع في النسخ الخطية: عن كل شنعاء، والمثبت من (م)، وديوان زهير.

(٧) في معاني القرآن ٢/١٤٧ .

يُناقِضونَ فيكتبون رمى بالياء ورماهُ بالألف، فإن كانتِ العلةُ أنه من ذوات الياء؛ وجبَ أن يكتبوا رماه بالياء، ثم يكتبون ضُحاً جمع ضَحْوة، وكُساً جمع كِسوة، وهما من ذواتِ الواو بالياء، وهذا ما لا يحصلُ ولا يثبتُ على أصل[١]. ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ «فظنّوا» هنا بمعنى اليقين والعلم[٢]، كما قال:

فَقلْتُ لهمْ ظُنُّوا بألْفَيْ مُدَجَّجٍ[٣]

أي: أيقنوا، وقد تقدم[٤]. قال ابنُ عباس: أيقنوا أنَّهم مواقعوها[٥]. وقيل: رَأَوها من مكان بعيدٍ فتوهَّموا أنَّهم مُواقِعوها، وظنُّوا أنَّها تأخذهم في الحال. وفي الخبر: «إنَّ الكافرَ ليرى جهنمَ ويظنُّ أنَّها مُواقِعَتُه من مسيرةِ أربعينَ سنةً»[٦]. والمواقعةُ ملابسةُ الشيءِ بشدَّةٍ[٧]. [وعن علقمةَ أنه قرأ][٨]: «فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلَافُّوهَا» أي: مجتمعون فيها، واللَّفَف الجمعُ، ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: مَهْرَباً؛ لإحاطتها بهم من كلِّ جانب. وقال القتبي[٩]: مَعْدِلاً ينصرفون إليه. وقيل: ملجأً يلجؤون إليه، والمعنى واحدٌ. وقيل: ولم تجدِ الأصنامُ مَصرِفاً للنار عن المشركين[١٠].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦١ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٥٤ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٥ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٣ .

(٣) صدر بيت لدريد بن الصمة الجشمي وهو في ديوانه ص٤٧ وروايته ثَمة:

علانية ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسيِّ المسرَّدِ

(٤) ٢/ ٧٢ .

(٥) الوسيط ٣/ ١٥٤ .

(٦) أخرجه أحمد (١١٧١٤)، والطبري ١٥/ ٢٩٩ ، من حديث أبي سعيد الخدري. وفي إسناده: دراج عن أبي الهيثم سليمان بن عمرو العُتْواري، وروايته عنه ضعيفة.

(٧) الوسيط ٣/ ١٥٤ .

(٨) ما بين حاصرتين من المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٤ .

(٩) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٩ .

(١٠) النكت والعيون ٣/ ٣١٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ يحتملُ وجهين: أحدهما: ما ذكره لهم من العبرِ والقرونِ الخالية. الثاني: ما أوضحه لهم من دلائلِ الربوبية[(١)]، وقد تقدَّم في «سبحان»[(٢)]، فهو على الوجهِ الأوّل زجرٌ، وعلى الثاني بيان.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: جدالاً ومجادلةً، والمرادُ به النضرُ بن الحارث وجدالُه في القرآن. وقيل: الآيةُ في أُبيِّ بنِ خلف. وقال الزجاجُ: أي: الكافرُ أكثرُ شيءٍ جدلاً؛ والدليلُ على أنه أرادَ الكافرَ قولُه: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[(٣)].

وروى أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يُؤتى بالرجلِ يومَ القيامة من الكفارِ فيقولُ الله له: ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليك؟ فيقول: ربِّ آمنتُ بك، وصدَّقت برسلك، وعملتُ بكتابك. فيقول الله له: هذه صحيفتُك ليس فيها شيءٌ من ذلك. فيقول: يا رب، إني

(١) النكت والعيون ٣/ ٣١٧.

(٢) ص٨٧ من هذا الجزء.

(٣) الوسيط ٣/ ١٥٤، وكلام الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٩٦.

لا أقبلُ ما في هذه الصحيفةِ. فيقال له: هذه الملائكةُ الحَفَظةُ يشهدون عليك. فيقول: ولا أقبلُهم يا رب، وكيفَ أقبلهم ولا هم من عندي، ولا من جهتي؟ فيقول الله تعالى: هذا اللوحُ المحفوظ أمُّ الكتاب قد شهدَ بذلك. فقال: يا رب، ألم تُجِرني من الظلمِ؟ قال: بلى. فقال: يا رب، لا أقبلُ إلا شاهداً عليَّ من نفسي. فيقولُ الله تعالى: الآنَ نبعثُ عليك شاهداً من نفسِك. فيَتفكَّرَ مَن ذا الذي يشهدُ عليه من نفسِه، فيُخْتَم على فيه، ثم تنطقُ جوارحُه بالشركِ، ثم يُخلَّى بينَه وبينَ الكلام، فيدخلُ النارَ وإنَّ بعضَه لَيلعن بعضاً، يقول لأعضائِه: لَعنكُنَّ اللهُ فَعنكنَّ كنتُ أُناضل. فتقولُ أَعضاؤه: لعَنكَ الله، أفتعلمُ أنَّ اللهَ تعالى يُكْتَم حديثاً. فذلك قولُه تعالى: «وكان الإنسان أكثَر شيءٍ جدلاً»[(١)]. أَخرجه مسلمٌ[(٢)] بمعناه من حديثِ أنس أيضاً.

وفي «صحيح» مسلمٍ، عن عليٍّ، أنَّ النبيَّ ﷺ طَرقه وفاطمةَ فقال: «ألا تُصلُّون؟» فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّما أَنفسُنا بيدِ الله، فإذا شاءَ أن يبعثَنا بعثنا، فانصرفَ رسولُ الله ﷺ حينَ قلت له ذلك، ثم سَمعتُه وهو مُدبِرٌ يضرب فخذَه ويقول: «وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيء جدلا»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: القرآنُ والإسلامُ ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام[(٤)]، ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سُنتُنا في إهلاكِهم[(٥)]، أي: ما مَنعهم عن الإيمان إلَّا حكمي عليهم بذلك، ولو حكمت عليهم بالإيمان؛ آمنوا. وسنةُ الأوّلين: عادةُ الأوّلين في عذابِ الاستئصال[(٦)]. وقيل: المعنى: وما منع الناسَ أن يؤمنوا إلَّا طلبُ أن تأتيَهم سنةُ

(١) لم نقف عليه بهذه السياقة.

(٢) برقم (٢٩٦٩).

(٣) صحيح مسلم (٧٧٥)، وهو عند البخاري (١١٢٧).

(٤) زاد المسير ٥/ ١٥٧، والنكت والعيون ٣/ ٣١٨.

(٥) البغوي ٣/ ١٦٨.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣١٨.

الأوّلين، فحذف، وسنةُ الأوّلين: معاينةُ العذاب، فطلبَ المشركون ذلك، وقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾[١] الآية [الأنفال: ٣٢]. «أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قِبَلاً» نصب على الحال[٢]، ومعناه عِياناً؛ قاله ابن عباس[٣]. وقال الكلبيُّ: هو السيفُ يومَ بَدْر. وقال مقاتل: فجأةً. وقرأ أبو جعفر وعاصم، والأعمش وحمزة، ويحيى والكسائي: «قُبُلاً»[٤] بضمتين أرادوا به أصنافَ العذابِ كلِّه؛ جمع قَبِيل نحو سَبِيل وسُبُل. النحاس: ومذهب الفراء[٥] أن «قُبُلا» جمع قَبِيل أي: متفرِّقاً يتلو بعضه بعضاً. ويجوزُ عنده أن يكونَ المعنى عِياناً. وقال الأعرج ـ وكانت قراءتُه «قُبُلاً» ـ معناه: جميعاً. وقال أبو عمرو ـ وكانت قراءتُه «قِبَلاً» ـ ومعناه: عِياناً[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ أي: بالجنةِ لمن آمن. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ أي: مُخوِّفين بالعذابِ مَن كفر[٧]. وقد تقدَّم. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ قيل: نزلت في المقتسمين، كانوا يُجادلون في الرسولِ ﷺ، فيقولون: ساحرٌ ومجنونٌ، وشاعرٌ وكاهنٌ كما تقدّم[٨]. ومعنى «يدحِضوا»: يزيلوا ويُبطِلوا. وأصلُ الدَّحْض الزَّلَقُ. يقال: دَحَضتْ رِجلُه، أي: زَلِقت، تَدْحَض دَحْضاً، ودَحَضَتِ الشمسُ عن كبد السماءِ: زالت، ودَحَضت حُجَّتُه دُحوضاً: بَطلت، وأدحضَها الله. والإدحاضُ الإزلاق[٩]. وفي وصفِ الصراط: «ويُضرَب الجِسرُ على جهنم، وتَحِلُّ

(١) البغوي ٣/ ١٦٨ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٦ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٢ ، و«قِبَلا» التي قرأ بها المصنف هي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ونافع، وابن عامر كما في السبعة ص٣٩٣ .

(٣) البغوي ٣/ ١٦٩ .

(٤) السبعة ص٣٩٣ ، والتيسير ص١٤٤ ، والنشر ٢/ ٣١١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ١٤٧ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٢ .

(٧) ذكر نحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٥ ، وسلف ٨/ ٣٨٤ .

(٨) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ١٥٤ ، وسلف ١٢/ ٢٥٥ .

(٩) الصحاح (دحض).

الشفاعةُ فيقولون: اللهمَّ سَلِّم سَلِّم» قيل: يا رسولَ الله، وما الجِسرُ؟ قال: «دَحْضٌ مَزَلَّة»(١)، أي: تَزلَقُ فيه القدمُ. قال طَرَفة:

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فهِبتَهُ وحِدْتَ كما حَادَ البعِيرُ عن الدَّحْضِ(٢)

﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾ يعني: القرآن(٣) ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾ من الوعيدِ ﴿هُزُوًا﴾. و«ما» بمعنى المصدر أي: والإنذار. وقيل: بمعنى الذي(٤)، أي: اتخذوا القرآنَ(٥) والذي أُنذِروا به من الوعيدِ هُزواً، أي: لعباً وباطلاً، وقد تقدَّم في «البقرة» بيانُه(٦). وقيل: هو قولُ أبي جهل في الزُّبدِ والتَّمرِ: هذا هو الزقُّوم(٧). وقيل: هو قولُهم في القرآنِ: هو سحرٌ وأضغاثُ أحلامٍ وأساطيرُ الأوَّلين، وقالوا للرسول: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] و﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ لنفسِه ممَّن وُعِظ بآياتِ ربه، فتهاونَ بها وأعرضَ عن قَبولِها(٨)، ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: ترك كفرَه ومعاصيَه فلم يتبْ منها(٩)، فالنسيانُ هنا بمعنى التركِ. وقيل: المعنى: نسيَ ما قدَّم لنفسه وحصَّل من العذاب، والمعنى متقاربٌ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري، ووقع في (م): مزلقة بدل مزلة.

(٢) ديوان طرفة ص١٧٢، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٤٠٨، ودون نسبة عند الطبري ١٥/ ٣٠٢، وروايته:

رَدِيتُ ونجَّس اليشكريَّ حذاره وحاد كما حاد البعيرُ عن الدحض

(٣) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٣.

(٤) الكشاف ٢/ ٤٨٩.

(٥) البغوي ٣/ ١٦٩.

(٦) ٤/ ١٠١.

(٧) سلف في سورة الإسراء، عند الآية (٦٠).

(٨) تفسير الرازي ٢١/ ١٤٢.

(٩) إعراب النحاس ٢/ ٤٦٢.

﴿يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بسببِ كفرِهم، أي: نحن مَنَعْنا الإيمانَ من أن يدخلَ قلوبهم وأسماعهم ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إلى الإيمان[1] ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ نزل في قومٍ معينين[2]، وهو يردُّ على القَدَريةِ قولَهم، وقد تقدَّم معنى هذه الآيةِ في «سبحان»[3] وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: للذنوب، وهذا يختصُّ به أهلُ الإيمان دون الكفرةِ بدليلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]. «ذو الرحمة» فيه أربعُ تأويلات: أحدها: ذو العفو. الثاني: ذو الثواب، وهو على هذين الوجهين مختصٌّ بأهلِ الإيمان دون الكفر. الثالث: ذو النعمةِ. الرابع: ذو الهدى، وهو على هذين الوجهين يعمُّ أهلَ الإيمانِ والكفر؛ لأنه يُنعِمُ في الدنيا على الكافرِ، كإنعامِه على المؤمن، وقد أَوضحَ هُداه للكافرِ كما أَوضحه للمؤمنِ، وإنِ اهتدى به المؤمنُ دون الكافر[4]. ومعنى قوله: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: من الكفرِ والمعاصي[5] ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ ولكنَّه يُمهل، ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أي: أجلٌ مقدَّر يُؤخَّرون إليه[6]، نظيرُه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧]، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨] أي: إذا حلَّ لم يتأخرْ عنهم إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة، ﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي: ملجأ؛ قاله ابنُ عباس وابن زيد[7]، وحكاه الجوهريُّ في «الصحاح». وقد وَأَلَ يَئِلُ وَأْلاً وَوُؤُولاً على فُعول، أي: لجأ، وواءَل منه على فَاعَلَ،

---

(١) زاد المسير ٥/ ١٥٩ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩٧ .

(٣) ص٩٥ من هذا الجزء.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٢٠ .

(٥) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٤ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٢٠ .

(٧) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٠٥ .

أي: طلب النجاة[١]. وقال مجاهد: مَحْرِزاً. قتادةُ: وليًّا[٢]. وأبو عبيدة[٣]: مَنْجًى. وقيل: مَحيصاً، والمعنى واحدٌ. والعربُ تقول: لا وَأَلَتْ نفسُه، أي: لا نَجَت[٤]، ومنه قولُ الشاعر:

لا وَأَلَتْ نفسُكَ خَلَّيْتَها ... للعامِرِيَّيْنِ ولم تُكْلَمِ[٥]

وقال الأعشى[٦]:

وقد أُخالِسُ رَبَّ البيتِ غَفْلَتَهُ ... وقد يُحاذِرُ منِّي ثم ما يَئِلُ

أي: ما ينجو[٧].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ «تلك» في موضعِ رفعٍ بالابتداء. «القرى» نعتٌ أو بدل. و«أهلكناهم» في موضعِ الخبرِ محمول على المعنى؛ لأنَّ المعنى: أهل القرى. ويجوزُ أن تكون «تلك» في موضع نصب على [قول] مَن قال: زيداً ضربته[٨]. أي: وتلك القرى التي قَصصنا عليك نبأهم، نحو قُرى عادٍ وثمودَ ومدينَ وقوم لوط أَهلكناهم لمَّا ظلموا وكفروا. ﴿وجَعَلنا لِمُهْلَكِهِمْ موعداً﴾ أي: وقتاً معلوماً لم تَعْده[٩]. و«مُهْلَك» من أُهلِكوا، وقرأ عاصم: «مَهْلَكهم» بفتح الميمِ واللام[١٠]

---

(١) الصحاح (وأل).

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٠٥، وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٧٨.

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٤٠٨.

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٩.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٢٠، والبيت لضمرة بن ضمرة النهشلي، وهو شاعر جاهلي، والبيت في النوادر ص٥٥، وهو دون نسبة عند الطبري ١٥/ ٣٠٤، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٨.

وقال البغدادي في الخزانة ٩/ ٢٨٦: وقوله: لا وألت نفسك..إلخ، هذا دعاء على رجل استأسر لأعدائه دون أن يجرح.

(٦) في ديوانه ص١٠٩.

(٧) زاد المسير ٥/ ١٦٠.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٣، وما بين حاصرتين منه.

(٩) الكشاف ٢/ ٤٨٩ - ٤٩٠.

(١٠) هذه رواية أبي بكر عن عاصم، وروى حفص عن عاصم: بفتح الميم وكسر اللام. «السبعة» ص٣٩٣.

وهو مصدرُ هَلَك، وأجازَ الكسائيُّ والفراء: «لِمَهْلِكِهِم» بكسر اللامِ وفتحِ الميم. النحاس: [قال الكسائي]: وهو أحبُّ إليَّ؛ لأنَّه من هَلك. الزجاج: اسمٌ للزمانِ، والتقديرُ: لوقتِ مَهْلِكهم، كما يقال: أتت الناقةُ على مَضْرِبِها[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ﴾ الجمهورُ من العلماءِ وأهلِ التاريخ أنَّه موسى بنُ عمران المذكور في القرآن ليس فيه موسى غيره. وقالت فرقةٌ منها نَوْفٌ البِكَاليُّ: إنه ليس ابنَ عمران، وإنَّما هو موسى بنُ منشا بنِ يوسفَ بنِ يعقوب، وكان نبيًّا قبل موسى بنِ عمران[2]. وقد ردَّ هذا القولَ ابنُ عباس في «صحيح» البخاري[3] وغيرِه. وفتاه: هو يوشعُ بنُ نون. وقد مضى ذكرُه في «المائدةِ» وآخرَ «يوسف»[4]. ومَن قال: هو ابنُ منشا؛ فليسَ الفتى يوشعَ بنَ نون. «لَا أَبْرَحُ» أي لا أزال أسِير[5]؛ قال الشاعر:

وأبرحُ ما أدامَ اللهُ قومي   بحمدِ اللهِ مُنْتَطِقاً مُجِيدَا[6]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٣ ، وما بين حاصرتين منه، والتيسير ص١٤٤ ، والسبعة ص٣٩٣ ، والنشر ٢/ ٣١١ .

وقوله: أتت الناقة على مضربها، قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ : أي: على زمان ضِرابها.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٠ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٧ .

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٤) في المائدة ٧/ ٤٠٣ وما بعدها، وفي يوسف ١١/ ٤٦٤ .

(٥) الطبري ١٥/ ٣٠٨ .

(٦) البيت لخداش بن زهير العامري، نسبه إليه ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٨٢ ، وهو عند الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٩٨ دون نسبة. وفي المعاني الكبير: رخيَّ البال، بدل: بحمد الله. وقال ابن قتيبة: =

وقيل: «لَا أَبْرَحُ» لا أفارقك[١] ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: ملتقاهما. قال قتادة: وهو بحرُ فارس والروم، وقاله مجاهد[٢]. قال ابنُ عطية: وهو ذراعٌ يخرجُ من البحرِ المحيط من شمالٍ إلى جنوب في أرضِ فارس من وراء أَذْرَبِيجان، فالركنُ الذي لاجتماعِ البحرين مما يلي بَرَّ الشامِ هو مجمعُ البحرين[٣] على هذا القولِ. وقيل: هما بحر الأرْدُنِّ وبحر القُلْزُم[٤]. وقيل: مجمعُ البحرين عندَ طنجة؛ قاله محمد ابن كعب[٥]. ورُوي عن أُبيٍّ بنِ كعب أنه بأفريقية. وقال السُّديُّ: الكُرُّ والرَّسُّ بأرمينية. وقال بعضُ أهل العلم: هو بحرُ الأندلس من البحر المحيط؛ حكاه النَّقاشُ، وهذا ممَّا يُذكر كثيراً. وقالت فرقةٌ: إنَّما هما موسى والخضر، وهذا قولٌ ضعيف[٦]، وحُكي عن ابنِ عباس، ولا يصحُّ[٧]؛ فإنَّ الأمر بُيِّنَ من الأحاديث أنَّه إنما رُسِم[٨] له بحر ماء.

وسببُ هذه القصةِ ما خرَّجه الصحيحان[٩] عن أُبيِّ بن كعب، أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ موسى عليه السلام قامَ خطيباً في بني إسرائيل، فسُئِل: أيُّ الناسِ أَعلمُ؟ فقال: أنا، فعتَبَ الله عليه؛ إذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، فأَوحى الله إليه: إنَّ لي عبداً بمَجْمَعِ البحرين هو أَعلمُ منك. قال موسى: يا ربِّ، فكيفَ لي به؟ قال: تأخذُ معك

= منتطقاً فيه قولان، أحدهما أن يشد الدرع عليه بالنطاق، ويروى عن يونس أنه قال: تقول: انتطق الرجل فرسه إذا قاده، مجيداً: أقود فرساً تلد الجياد.

(١) النكت ٣/ ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٧.

(٤) التعريف والإعلام ص١٠٣.

(٥) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٠٩.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٧، وقول السدي في المفهم ٦/ ١٩٥.

(٧) المفهم ٦/ ١٩٥.

(٨) في (م): وسم، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٨ والكلام منه.

(٩) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

حُوتاً فتجعَلُه في مِكتَلٍ، فحيثُما فَقدتَ الحُوتَ فهو ثَمَّ» وذكر الحديثَ، واللفظُ للبخاري.

وقال ابنُ عباس: لمَّا ظهر موسى وقومُه على أرض مصرَ، أنزلَ قومَه مصر، فلما استقرت بهمُ الدار، أمره اللهُ: أنْ ذَكِّرهم بأيام الله، فخطب قومَه فذكَّرهم ما آتاهم اللهُ من الخير والنعمة؛ إذ نجَّاهم من آلِ فرعون، وأهلكَ عدوَّهم، واستخلفهم في الأرض، ثم قال: وكلَّم الله نبيكم تكليماً، واصطفاه لنفسِه، وألقى عليَّ محبةً منه، وآتاكم من كلِّ ما سألتموه، فجعلكم أفضلَ أهل الأرض، ورزَقكم العزَّ بعد الذلِّ، والغنى بعدَ الفقر، والتوراةَ بعدَ أن كنتم جهالاً، فقال له رجلٌ من بني إسرائيل: عَرَفنا الذي تقول، فهل على وجهِ الأرض أحدٌ أعلمُ منكَ يا نبيَّ الله؟ قال: لا؛ فعتبَ اللهُ عليه حين لم يردَّ العلم إليه، فبعثَ الله جبريل: أن يا موسى، وما يُدريكَ أين [أضع] علمي؟ بلى! إنَّ لي عبداً بمجمَعِ البحرين أعلم منك، وذكر الحديث[1].

قال علماؤنا: قولُه في الحديث: «هو أعلمُ منك» أي: بأحكامِ وقائعَ مفصَّلة، وحُكمِ نوازلَ معينة، لا مطلقاً، بدليل قولِ الخضرِ لموسى: إنَّك على علم علَّمكه اللهُ لا أَعلمُه أنا، وأنا على علمِ عَلَّمنيه لا تَعلمُه أنت، وعلى هذا فيصدقُ على كلِّ واحد منهما أنَّه أعلمُ من الآخر بالنسبةِ إلى ما يعلمُه كلُّ واحد منهما ولا يعلمُه الآخر، فلما سمعَ موسى هذا تشوَّفت نفسُه الفاضلة، وهمتُه العالية، لتحصيل علمِ ما لم يعلم، وللقاءِ مَن قيل فيه: إنه أعلمُ منك، فعزم فسألَ سؤالَ الذليل: بكيف السبيل؟ فأُمِر بالارتحالِ على كل حال. وقيل له: احملْ معك حوتاً مالحاً في مِكْتل ـ وهو الزِّنْبيل ـ فحيثُ يَحيا وتَفقِدُه، فثَمَّ السبيلُ، فانطلقَ مع فتاه لما واتاه، مجتهداً طَلِباً قائلاً: «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين»[2]. ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ بضمِّ الحاءِ والقافِ وهو الدهرُ، والجمع أحقاب. وقد تُسكن قافُه فيقال: حُقْب، وهو ثمانونَ سنة، ويقال:

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٣٠، وما بين حاصرتين منه.

(٢) المفهم ٦/ ١٩٥ - ١٩٦.

أكثر من ذلك، والجمع حِقاب، والحِقْبةُ، بكسرِ الحاء: واحدةُ الحقَب وهي السِّنون[١].

الثانية: في هذا من الفقهِ: رحلةُ العالم في طلب الازديادِ من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادمِ والصاحبِ، واغتنام لقاءِ الفضلاءِ والعلماءِ وإن بَعُدت أقطارُهم، وذلك كان دأب السلفِ الصالحِ، وبسبب ذلك وصلَ المرتحلون إلى الحظِّ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح، فرسختْ لهم في العلومِ أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذكرِ والأجرِ والفضل أفضلُ الأقسام[٢]. قال البخاري[٣]: ورحلَ جابرُ بنُ عبدِ الله مسيرةَ شهرٍ إلى عبدِ الله بن أُنيس في حديثٍ واحد[٤].

الثالثة: قولُه تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ» للعلماءِ فيه ثلاثةُ[٥] أقوال:

أحدها: أنه كان معه يخدُمه، والفتى في كلامِ العرب الشابُّ، ولما كان الخَدَمةُ أكثرَ ما يكونون فتياناً قيل للخادمِ: فتًى على جهةِ حسنِ الأدب، ونَدبتِ الشريعةُ إلى ذلك في قولِ النبي ﷺ: «لا يقل أَحدُكم: عبدي ولا أمتي، وليقل: فَتايَ وفتاتي» فهذا ندبٌ إلى التواضع، وقد تقدَّم هذا في «يوسف»[٦]. والفتى في الآية هو الخادمُ وهو يوشعُ بنُ نون بن إفرائيم بن يوسف عليه السلام.

ويقال: هو ابنُ أختِ موسى عليه السلام. وقيل: إنَّما سُمي فتى موسى؛ لأنَّه لزمَه ليتعلمَ منه وإن كان حرًّا، وهذا معنى الأوَّل. وقيل: إنَّما سماه فتًى؛ لأنه قام مقامَ الفتى وهو العبد، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]،

---

(١) الصحاح (حقب)، وقد نقله المصنف بواسطة أبي العباس القرطبي في المفهم.

(٢) المفهم ٦/ ١٩٦.

(٣) في الصحيح قبل حديث (٧٨).

(٤) ليست في (د) و(ز) و(م)، وهي من (ظ) و(ف) وصحيح البخاري.

(٥) ليست في (ظ) و(ف)، وفي أحكام ابن العربي ٣/ ١٢٣٢، والكلام منه قال: فيه قولان.

(٦) ١١/ ٣٥٣، وما بعدها.

وقال: ﴿تُرَاوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٠] قال ابنُ العربي(١): فظاهرُ القرآنِ يقتضي أنه عبدٌ، وفي الحديث: أنه كان يوشعَ بنَ نون. وفي التفسيرِ: أنه ابنُ أخته، وهذا كلُّه ممَّا لا يُقطع به، والتوقفُ فيه أسلمُ.

الرابعة: قوله تعالى: «أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً» قال عبدُ الله بنُ عَمرو: والحُقب ثمانونَ سنة. مجاهد: سبعونَ خريفاً. قتادة: زمان(٢). النحاسُ: الذي يعرفُه أهلُ اللغةِ أنَّ الحُقبَ والحِقبة زمانٌ من الدهرِ مبهمٌ غيرُ محدود، كما أنَّ رهطاً وقوماً مبهمٌ غيرُ محدود، وجمعُه أحقاب(٣).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ الضميرُ في قوله: «بينهما» للبحرين؛ قاله مجاهد(٤). والسَّرَب: المسلكُ؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: جَمَد الماءُ فصار كالسَّرَب(٥). وجمهورُ المفسرين أنَّ الحوت بقي موضعُ سلوكِه فارغاً، وأن موسى مشى عليه متبعاً للحوت، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرةٍ في البحر، وفيها وجد الخَضِرَ. وظاهرُ الرواياتِ والكتابِ أنَّه إنما وجدَ الخضرَ في ضفةِ البحر. وقوله: «نسيا حوتهما» وإنَّما كان النسيانُ من الفتى وحدَه فقيل: المعنى:

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٣٢، وما قبله منه.

(٢) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٣١٠ - ٣١١، وقول مجاهد في التفسير ١/ ٣٧٨.

(٣) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٣ و ٥/ ١٣٠.

(٤) في التفسير ١/ ٣٧٨، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣١١.

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٣١٤، وقول مجاهد في السرب ذكره في النكت والعيون ٣/ ٣٢٣.

نسيَ أن يُعلِم موسى بما رأى من حاله، فنسبَ النسيان إليهما للصحبة[(١)]، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنَّما يخرج من المِلحِ، وقولِه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنَّما الرسلُ من الإنس لا من الجن. وفي «البخاري»[(٢)]: فقال لفتاه: لا أُكلفك إلا أن تخبرَني بحيثُ يُفارقك الحوتُ، قال: ما كلَّفتَ كثيراً، فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: «وإذ قال موسى لفتاه» يوشع بن نون ـ ليست عن سعيد[(٣)] ـ قال: فبينا هو في ظلِّ صخرةٍ في مكانٍ ثَرْيَانَ إذ تَضَرَّبَ[(٤)] الحوتُ وموسى نائمٌ فقال فتاه: لا أُوقظِه، حتى إذا استيقظَ نسيَ أن يخبره، وتَضَرَّبَ الحوتُ حتى دخلَ البحر، فأمسكَ الله عنه جِرْيَةَ البحرِ حتى كأنَّ أثرَه في حَجَر. قال لي عمرو[(٥)]: هكذا كأنَّ أثرَه في حَجَر، وحَلَّقَ بينَ إبهاميه واللتين تَلِيانِهما. وفي روايةٍ[(٦)]: وأمسكَ الله عن الحوتِ جِرْيَةَ الماءِ فصار عليه مثلَ الطاق[(٧)]، فلما استيقظَ، نسيَ صاحبُه أن يخبره بالحوتِ، فانطلقا بقيةَ يومِهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: «آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً» ولم يجدْ موسى النَّصَبَ حتى جاوزَ المكانَ الذي أَمَر الله به، فقال له فتاه: «أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ».

وقيل: إنَّ النسيانَ كان منهما؛ لقولِه تعالى: «نسِيا» فنَسَب النسيانَ إليهما[(٨)]،

---

(١) الكلام بنحوه في المفهم ٦/١٩٦ - ١٩٧ ، والمحرر الوجيز ٣/٥٢٨ .

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٦)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث ابن عباس.

(٣) قال الحافظ في فتح الباري ٨/ ٤١٤ : القائل ليست عن سعيد هو ابن جريج، ومراده أن تسمية الفتى ليست عنده في رواية سعيد بن جبير.

(٤) ثريان، أي: مبلول، من: ثرَّى التربة تثرية: بلَّها. وتضرَّب: تحرَّك وماج. القاموس (ثري) و(ضرب).

(٥) أي: عمرو بن دينار، والقائل هو ابن جريج كما في فتح الباري لابن حجر ٨/٤١٦ .

(٦) عند البخاري (٤٧٢٥).

(٧) الطاق: هو النَّقْب الذي يُدخَل منه كما في المفهم ٦/١٩٦ .

(٨) الكلام بنحوه في زاد المسير ٥/ ١٦٥ - ١٦٦ ، والكشاف ٢/٤٩١ .

وذلك أنَّ بدوَّ حملِ الحوت كان من موسى؛ لأنَّه الذي أُمِرَ به، فلما مضيا؛ كان فتاه هو الحاملَ له حتى أويا إلى الصخرةِ نزلا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ يعني: الحوتَ هناك منسيًّا[1] ـ أي: متروكاً ـ فلما سألَ موسى الغداءَ؛ نسبَ الفتى النسيانَ إلى نفسِه عند المخاطبة، وإنَّما ذكر الله نسيانَهما عند بلوغِ مَجمع البحرين وهو الصخرة، فقد كان موسى شريكاً في النسيان؛ لأن النسيانَ التأخير، من ذلك قولُهم في الدعاء: أنسأ الله في أجلك، فلمَّا مَضيا من الصخرة أخَّرا حوتَهما عن حملِه فلم يحمله واحدٌ منهما، فجازَ أن يُنسَب إليهما؛ لأنَّهما مضيا وتركا الحوت.

قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ فيه مسألةٌ واحدة، وهو اتخاذُ الزادِ في الأسفار، وهو ردٌّ على الصوفيةِ الجَهَلة الأغمار الذين يقتحمونَ المهامهَ والقِفار زعماً منهم أنَّ ذلك هو التوكلُ على الله الواحدِ القهار، هذا موسى نبيُّ الله وكليمُه من أهل الأرض قد اتخذَ الزادَ مع معرفته بربه، وتوكله على ربِّ العباد. وفي «صحيح» البخاري[2]: إنَّ ناساً من أهلِ اليمن كانوا يحجُّون ولا يَتزوَّدون، ويقولون: نحنُ المتوكلون، فإذا قدِموا سألوا الناسَ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿وَتَـزَوَّدُواْ﴾ [البقرة:١٩٧]. وقد مَضى هذا في «البقرة»[3].

واختُلِف في زادِ موسى ما كان، فقال ابن عباس: كان حوتاً مملوحاً في زِنبيل، وكانا يُصيبان منه غداءً وعشاءً، فلما انتهيا إلى الصخرةِ على ساحلِ البحر، وضعَ فتاهُ المِكتلَ، فأصابَ الحوتَ جريُ البحرِ، فتحرك الحوتُ في المكتلِ، فقلبَ المكتلَ وانسربَ الحوت، ونسي الفتى أن يذكر قصةَ الحوتِ لموسى. وقيل: إنَّما كان الحوتُ دليلاً على موضعِ الخضر؛ لقولِه في الحديث: احملْ معكَ حوتاً في مِكتلٍ، فحيثُ

(١) النكت والعيون ٣/٣٢٣، وزاد المسير ٥/١٦٦.

(٢) برقم (١٥٣٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) ٣/٣٢٨ - ٣٢٩.

فقدتَ الحوتَ، فهو ثَمَّ، على هذا فيكون تَزوَّدا شيئاً آخر غيرَ الحوت، وهذا ذكره شيخُنا الإمامُ أبو العباس واختاره[١]. وقال ابنُ عطية[٢]: قال أبي ﷺ: سمعتُ أبا الفضل الجوهريَّ يقول في وعظِه: مشَى موسى إلى المناجاة فبقي أربعينَ يوماً لم يحتجْ إلى طعام، ولمَّا مشى إلى بَشَرٍ لحِقَه الجوعُ في بعضِ يوم.

وقوله: «نَصَباً» أي: تعباً، والنَّصَب: التعبُ والمشقة. وقيل: عَنى به هنا الجوعَ، وفي هذا دليلٌ على جوازِ الإخبار بما يجدُه الإنسانُ من الألمِ والأمراض، وأنَّ ذلك لا يقدحُ في الرضا، ولا في التسليمِ للقضاء، لكنْ إذا لم يصدرْ ذلك عن ضجرٍ ولا سخط.

وفي قوله: «وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» أنْ مع الفعلِ بتأويلِ المصدر، وهو منصوبٌ بدلَ اشتمالٍ من الضميرِ في «أنسانيه» وهو بدلُ الظاهرِ من المضمرِ، أي: وما أنساني ذكرَه إلا الشيطان، وفي مصحف عبد الله: «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان». وهذا إنَّما ذكره يوشعُ في مَعرضِ الاعتذارِ؛ لقولِ موسى: لا أُكلفُك إلا أن تُخبرَني بحيثُ يُفارقُك الحوت، فقال: ما كَلَّفتَ كثيراً، فاعتذرَ بذلك القول[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يحتملُ أن يكونَ من قولِ يوشع لموسى، أي: اتخذَ الحوتُ سبيلَه عجباً للناس. ويحتمل أن يكون قوله: «واتخذ سبيله في البحر» تمامَ الخبر، ثم استأنفَ التعجب[٤] فقالَ من نفسه: «عجباً» لهذا الأمرِ. وموضعُ العجبِ أن يكونَ حوتٌ قد ماتَ فأُكِل شقُّه الأيسرُ ثم حَييَ بعدَ ذلك. قال أبو شجاع في «كتابِ الطبري»[٥]: رأيتُه ـ أُتيت به ـ فإذا هو شِقُّ حوتٍ وعينُ

---

(١) المفهم ٦/١٩٧، والحديث الذي أشار إليه أخرجه البخاري (٤٧٢٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/٥٢٩.

(٣) المفهم ٦/١٩٧ - ١٩٨، وقراءة عبد الله ﷺ في تفسير الطبري ١٥/٣١٧، والمحرر الوجيز ٣/٥٢٩، وعندهما «أذكركه» بدل «أذكره».

(٤) في (م) و(د): التعجيب.

(٥) أخرجه عنه الطبري ١٥/٣١٥.

واحدة، وشِقٌّ آخرُ ليس فيه شيءٌ. قال ابنُ عطية[١]: وأنا رأيتُه والشِّقُّ الذي ليس فيه شيءٌ عليه قشرةٌ رقيقة ليست تحتَها شوكة. ويحتمل أن يكون قولُه: «واتَّخَذَ سَبِيلَهُ» إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إمَّا أن يخبرَ عن موسى أنَّه اتخذَ سبيلَ الحوت من البحرِ عجباً، أي: تَعجَّب منه. وإمَّا أن يخبرَ عن الحوتِ أنه اتخذَ سبيلَه عجباً للناس.

ومن غريبِ ما رُوي في البخاريِّ[٢] عن ابنِ عباس من قصصِ هذه الآية، أنَّ الحوتَ إنَّما حَيِيَ؛ لأنَّه مَسَّه ماءُ عينٍ هناك تُدعَى عينَ الحياة، ما مَسَّت قطُّ شيئاً إلا حَيِيَ. وفي «التفسيرِ»: إنَّ العلامةَ كانت أن يَحيا الحوتُ، فقيل: لمَّا نزل موسى بعد ما أجهده السفرُ على صخرةٍ إلى جنبها ماءُ الحياة، أصابَ الحوتَ شيءٌ من ذلك الماءِ فحيِيَ. وقال الترمذيُّ[٣] في حديثِه: قال سفيان: يزعمُ ناسٌ أنَّ تلك الصخرةَ عندها عينُ الحياة، ولا يصيبُ ماؤها ميتاً[٤] إلا عاش. قال: وكان الحوتُ قد أُكِل منه، فلما قطرَ عليه الماءُ عاشَ. وذكر صاحبُ كتابِ «العروس» أنَّ موسى عليه السلام توضَّأ من عينِ الحياةِ، فقَطَرتْ من لحيتِه على الحوتِ قطرةٌ فحيِيَ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي﴾[٥] أي: قالَ موسى لفتاه: أمرُ الحوتِ وفَقدُه هو الذي كنا نطلب، فإنَّ الرجل الذي جئنا له ثَمَّ، فرجعا يَقصَّان آثارَهما لئلا يُخطِئا طريقَهما[٦] وفي «البخاري»[٧]: فوجدا خضراً على طِنْفِسةٍ خضراء على كَبِد البحرِ مُسَجًّى بثوبه، قد جعل طَرفَه تحت رجليه، وَطرَفَه تحت رأسه، فسلَّم عليه موسى،

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ ، وما قبله منه.

(٢) برقم (٤٧٢٧).

(٣) في السنن (٣١٤٩).

(٤) في (ظ) و(م): شيئاً، والمثبت من (د) و(ف) و(ز)، وسنن الترمذي.

(٥) قرأ نافع وأبو عمرو والكسائي بياء في الوصل وبغير ياء في الوقف، وابن كثير يثبت الياء فيهما جميعاً في الوصل والوقف كما في السبعة ص٣٩١ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩ .

(٧) برقم (٤٧٢٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فكشف عن وجهه وقال: هل بأرضِي[١] من سلام؟! مَن أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنُك؟ قال: جئتُ لتعلِّمني مما عُلِّمت رشداً، الحديث.

وقال الثعلبيُّ في كتابِ «العرائس»[٢]: إنَّ موسى وفتاه وَجدا الخضرَ وهو نائم على طِنْفِسة خضراء على وجهِ الماء وهو مُتَّشِح بثوبٍ أخضرَ، فسلَّم عليه موسى، فكشفَ عن وجهِه فقال: وأَنَّى بأَرضِنا السلام؟! ثم رفعَ رأسَه واستوى جالساً وقال: وعليك السلامُ يا نبيَّ بني إسرائيل، فقال له موسى: وما أَدراك بي؟ ومَن أَخبرك أَنِّي نبي بني إسرائيل؟ قال: الذي أَدراكَ بي ودَلَّك عليَّ؛ ثم قال: يا موسى، لقد كان لك في بني إسرائيل شغلٌ، قال موسى: إنَّ ربي أرسلني إليك لأتبعَك وأتعلمَ من علمك، ثم جلسا يتحدَّثان، فجاءت خُطَّافةٌ وحملت بمنقارِها من الماء، وذكر الحديثَ على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ العبدُ هو الخضرُ عليه السلام في قولِ الجمهور، وبمقتضى الأحاديثِ الثابتة. وخالفَ مَن لا يعتد بقوله، فقال: ليس صاحبُ موسى بالخضر بل هو عالِمٌ آخر. وحكى أيضاً هذا القول القُشيريّ، قال: وقال قومٌ: هو عبدٌ صالح[٣]، والصحيح أنَّه كان الخضر، بذلك وردَ الخبرُ عن النبي ﷺ. قال مجاهد: سُمِّي الخضرَ لأنَّه كان إذا صلَّى اخضرَّ ما حوله[٤]. وروى الترمذيُّ[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّما سُمِّي الخضرَ؛ لأنه جلسَ على فروةٍ بيضاء فاهتزت[٦] تحتَه خضراء» هذا حديث صحيح غريب[٧]. الفروةُ هنا

---

(١) في (م): بأرضك.

(٢) ص٢٢٧، وفيه: قائم على طنفسة بدل نائم، ولعل في النسخة التي اعتمدها المصنف زيادة على المطبوع الذي بين أيدينا.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩، دون ذكر القشيري.

(٤) البغوي ٣/ ١٧٢.

(٥) في سننه (٣١٥١).

(٦) في (م) و(د) و(ز): فإذا هي تهتز، والمثبت من (ف) و(ظ) وسنن الترمذي.

(٧) في سنن الترمذي: حديث حسن صحيح.

وجهُ الأرض؛ قاله الخَطَّابيُّ وغيرُه. والخضرُ نبيٌّ عند الجمهور. وقيل: هو عبدٌ صالح غير نبيٍّ، والآيةُ تشهدُ بنبوّته؛ لأن بواطنَ أفعالِه هل كانت[١] إلا بوحي. وأيضاً فإنَّ الإنسانَ لا يتعلم ولا يَتَّبع إلا مَن فوقه، وليس يجوزُ أن يكونَ فوقَ النبيِّ مَن ليس بنبيٍّ. وقيل: كان مَلَكاً أمرَ الله موسى أن يأخذَ عنه ممَّا حملَه من علمِ الباطن[٢]. والأوّلُ الصحيحُ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ الرحمةُ في هذه الآيةِ النبوةُ[٣]. وقيل: النعمة[٤]. ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أي: علم الغيب. ابن عطية[٥]: كان علمُ الخضرِ[٦] معرفةَ بواطنَ قد أُوحيتْ إليه، لا تُعطي ظواهرُ الأحكام أفعالَه بحسبها، وكان علمُ موسى علمَ الأحكامِ والفتيا بظاهرِ أقوالِ الناسِ وأفعالهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قولُه تعالى: «قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ» هذا سؤالُ الملاطِف، والمخاطِب المستنزل المبالغ في حسنِ الأدب، المعنى: هل يتفقُ لك ويَخِفُّ عليك؟ وهذا كما في الحديث: هل تستطيعُ أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ[٧]؟

(١) في (م): لا تكون، والمثبت من النسخ الخطية، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩، والكلام منه.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٢٥.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٢٤، وزاد: الطاعة وطول الحياة.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٩.

(٦) بعدها في (م): علم.

(٧) أخرجه أحمد (١٦٤٣١)، والبخاري (١٨٥)، ومسلم (٢٣٥)، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم ﷺ.

وعلى بعضِ التأويلات يجيء كذلك قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢][١] حسب ما تقدم بيانُه في «المائدة».

الثانية: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ المتعلم تبعٌ للعالم وإن تفاوتتِ المراتب[٢]، ولا يُظَن أنَّ في تعلمِ موسى من الخضر ما يدلُّ على أنَّ الخضر كان أفضلَ منه، فقد يَشذُّ عن الفاضلِ ما يعلمه المفضول، والفضلُ لمن فضَّله الله، فالخضرُ إن كان وليًّا فموسى أفضلُ منه؛ لأنه نبيٌّ والنبي أفضلُ من الوليِّ، وإن كان نبيًّا فموسى فَضَلَه بالرسالة[٣]. والله أعلم. «ورشداً» مفعولٌ ثانٍ بـ «تعلمني».

﴿قَالَ﴾ الخضرُ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ أي: إنك يا موسى، لا تطيقُ أن تصبرَ على ما تراه من علمي[٤]؛ لأن الظواهرَ التي هي علمك لا تُعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأً ولم تُخبَر بوجه الحكمة فيه، ولا طريقِ الصواب، وهو معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ والأنبياءُ لا يُقِرُّون على منكر، ولا يجوزُ لهم التقرير[٥]. أي: لا يسعك السكوتُ جرياً على عادتك وحُكمك. وانتصب «خُبْراً» على التمييزِ المنقولِ عن الفاعل. وقيل: على المصدرِ الملاقي في المعنى، لأنَّ قوله: «لَمْ تُحِطْ» معناه: لم تَخبُرْه، فكأنه قال: لم تَخبره خُبراً، وإليه أشارَ مجاهد. والخبيرُ بالأمورِ هو العالمُ بخفاياها وبما يختبرُ منها[٦].

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أي: سأصبرُ بمشيئةِ الله، ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي: قد أَلزمتُ نفسي طاعتَك. وقد اختلف في الاستثناءِ، هل هو

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٣ .

(٣) المفهم ٦/ ٢١٧ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٠ : عملي، والكلام منه.

(٥) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ١٧٣ .

(٦) المفهم ٦/ ٢٠٢ . وفي تفسير مجاهد ١/ ٣٨١ : خُبراً: يعني: علماً.

يشملُ قوله: «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً» أم لا؟ فقيل: يشملُه كقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقيل: استثنى في الصَّبر فصبَرَ، وما استثنى في قوله: «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً» فاعترضَ وسأل[١]. قال علماؤنا: إنَّما كان ذلك منه؛ لأنَّ الصبر أمرٌ مستقبل ولا يَدري كيف يكون حالُه فيه، ونفيُ المعصيةِ معزومٌ عليه حاصلٌ في الحال، فالاستثناءُ فيه ينافي العزمَ عليه. ويمكنُ أن يُفرَّق بينَهما بأنَّ الصبر ليس مكتسباً لنا بخلافِ فعلِ المعصية وتركها، فإنَّ ذلك كلَّه مكتَسبٌ لنا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتى أكونَ أنا الذي أُفسره لك، وهذا من الخضرِ تأديبٌ وإرشادٌ لِما يَقتضي دوامَ الصحبةِ، فلو صَبَر ودَأَب؛ لرأى العجبَ، لكنَّه أكثرَ من الاعتراضِ، فتَعيَّن الفراقُ والإعراض[٢].

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: في «صحيح» مسلم والبخاري[٣]: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرَّت سفينة فكلَّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضرَ فحملوه بغير نَوْل، فلما ركبا في السفينة لم يَفْجأ[٤] إلا والخضرُ قد قلعَ منها لوحاً من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى: قومٌ حملونا بغير نَوْل عَمَدْتَ إلى سفينتهم فخرقتَها لتغرقَ أهلها «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٣ - ١٢٣٤ .

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٣ ، وما قبله منه.

(٣) البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث ابن عباس ﷺ.

(٤) بعدها في (م): موسى.

تُرهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً». قال وقال رسولُ الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نِسياناً قال: وجاء عصفورٌ فوقع على حَرْفِ السفينة فَنقَر في البحر نقرةً، فقال له الخضر: ما عِلمي وعِلمُك من علمِ الله إلا مثل ما نَقَص هذا العصفورُ من هذا البحر».

قال علماؤنا: حرفُ السفينةِ: طَرفُها، وحَرْف كلِّ شيءٍ: طرفُه، [ومنه حرف الجبل][1] وهو أعلاه المحدَّد. والعِلم هنا بمعنى المعلوم، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة:٥٥] أي: من معلوماته، وهذا من الخضرِ تمثيلٌ، أي: معلوماتي ومعلوماتك لا أثَرَ لها في علمِ الله، كما أنَّ ما أَخذَ هذا العصفورُ من هذا البحرِ لا أثر له بالنسبةِ إلى ماء البحرِ، وإنَّما مثَّل له ذلك بالبحرِ؛ لأنَّه أكثر ما نُشاهدُه ممَّا بينَ أيدينا، وإطلاقُ لفظِ النقصِ هنا تجوُّز قُصِدَ به التمثيلُ والتفهيمُ؛ إذ لا نقصَ في علمِ الله، ولا نهايةَ لمعلوماته. وقد أوضحَ هذا المعنى البخاريُّ فقال: والله ما علمي وما علمُك في جنبِ علمِ الله إلا كما أخذَ هذا الطيرُ بمنقارِه من البحر[2].

وفي «التفسير» عن أبي العالية: لم يرَ الخضرَ حين خرقَ السفينة غيرُ موسى وكان عبداً لا تراه إلا عينُ مَن أرادَ الله له أن يريه، ولو رآه القومُ لمنعوه من خرقِ السفينة. وقيل: خرج أهلُ السفينةِ إلى جزيرة، وتخلَّف الخضرُ فخرقَ السفينة. وقال ابنُ عباس: لمَّا خرقَ الخضر السفينةَ تنحَّى موسى ناحية، وقال في نفسه: ما كنتُ أَصنع بمصاحبةِ هذا الرجل! كنت في بني إسرائيل أتلو كتابَ الله عليهم غدوةً وعشيّة فيطيعوني! قال له الخضرُ: يا موسى، أَتريدُ أن أخبرك بما حدَّثتَ به نفسَك؟ قال: نعم. قال: كذا وكذا. قال: صدقتَ، ذكره الثعلبيُّ في كتاب «العرائس»[3].

الثانية: في خرقِ السفينة دليلٌ على أنَّ للوليِّ أن يَنقُصَ مالَ اليتيم إذا رآه صلاحاً، مثل أن يخافَ على رَيْعه ظالماً فيُخرِّبَ بعضَه[4]. وقال أبو يوسف: يجوزُ للوليِّ أن

---

(١) ما بين حاصرتين من المفهم ٦/ ٢١٥ ، والكلام منه.

(٢) المفهم ٦/ ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) ص٢٢٨ .

(٤) الكلام بنحوه في المفهم ٦/ ٢٠٤ .

يصانعَ السلطان ببعض مالِ اليتيم عن البعض. وقرأ حمزةُ والكسائي: «لِيَغْرَقَ» بالياء «أَهْلُهَا» بالرفع فاعل يَغرَق[١]، فاللامُ على قراءةِ الجماعة في «لِتغرِق» لامُ المآلِ مثل: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]. وعلى قراءةِ حمزةَ لامُ كي، ولم يقل: لتُغرقني؛ لأنَّ الذي غَلبَ عليه في الحال فرطُ الشفقةِ عليهم، ومراعاةُ حقِّهم. و«إِمْراً» معناه عجباً؛ قاله القتبيُّ[٢]. وقيل: منكَراً؛ قاله مجاهد[٣]. وقال أبو عبيدة: الإمرُ: الداهيةُ العظيمةُ؛ وأنشد:

قـد لَـقِـيَ الأقـرانُ مِـنِّـي نُـكْـرَا داهِـيَـةً دَهْـيَـاءَ إدًّا إمْـرَا[٤]

وقال الأخفشُ: يقالُ: أَمِرَ أَمْرُهُ يأْمَر [أَمْراً] إذا اشتدَّ، والاسمُ الإِمْرُ[٥].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ في معناه قولان: أحدُهما: يُروى عن ابنِ عباس قال: هذا من معاريضِ الكلام[٦]. والآخر: أنَّه نسي فاعتذر. ففيه ما يدلُّ على أنَّ النسيان لا يقتضي المؤاخذة، وأنه لا يدخلُ تحتَ التكليف، ولا يتعلقُ به حكم طلاقٍ ولا غيره، وقد تقدَّم، ولو نسي في الثانيةِ لاعتذرَ[٧].

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ في «البخاري»[٨]: قال يَعْلَى: قال

---

(١) التيسير ص١٤٤، والسبعة ص٣٩٥.

(٢) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٩.

(٣) في تفسيره ١/ ٣٧٩، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٣٦.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٤٠٩، والرجز عند الطبري ١٥/ ٣٣٦ - ٣٣٧. وفي الصحاح (أمر).

(٥) الصحاح (أمر) والمفهم ٦/ ٢٠٤، وما بين حاصرتين منهما.

(٦) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٧، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٣٨ بهذا اللفظ عن أبي بن كعب.

(٧) وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٧١ قولاً ثالثاً أنه بمعنى الترك، فالمعنى: لا تؤاخذني بما تركته مما عاهدتك عليه، ذكره ابن الأنباري.

(٨) برقم (٤٧٢٦)، وسلف في تفسير الآية ٦٤ من هذه السورة.

سعيد: وجدَ غلماناً يلعبون فأخذَ غلاماً كافراً، فأضجعه ثم ذبَحه بالسكين، «قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ» لم تعملْ بالحِنْثِ. وفي «الصحيحين» و«صحيح الترمذي»[١]: ثم خرجا من السفينةِ فبينما هما يمشيانِ على الساحلِ إذ أبصرَ الخضرُ غلاماً يلعبُ مع الغلمان، فأخذَ الخضرُ رأسه بيدِه فاقتلَعه بيده فقتلَه، قال له موسى: «أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً» قال[٢]: وهذه أشدُّ من الأولى. «قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً». لفظ البخاري. وفي «التفسير»: إنَّ الخضرَ مرَّ بغلمانٍ يلعبون فأخذَ بيدِه غلاماً ليس فيهم أَضوأُ منه، وأخذ حجراً فضرب به رأسَه حتى دَمَغه، فقتله[٣]. قال أبو العالية: لم يَره إلا موسى، ولو رأَوه لحالوا بينَه وبين الغلام.

قلت: ولا اختلافَ بين هذه الأحوال الثلاثةِ، فإنه يحتملُ أن يكون دَمَغه أوَّلاً بالحجر، ثم أضجعه فذبَحه، ثم اقتلعَ رأسه؛ والله أعلمُ بما كان من ذلك، وحسبُك بما جاءَ في «الصحيح».

وقرأ الجمهورُ: «زَاكِيَةً» بالألف. وقرأ الكوفيون وابنُ عامر: «زَكِيَّةً» بغير ألفٍ وتشديدِ الياء[٤]؛ قيل: المعنى واحد؛ قاله الكسائي. وقال ثعلب: الزكيةُ أبلغُ. قال أبو عمرو: الزاكيةُ التي لم تذنبْ قطُّ، والزكيةُ التي أَذنبت ثم تابت[٥].

قوله تعالى: «غلاما» اختلفَ العلماء في الغلام، هل كان بالغاً أم لا؟ فقال الكلبي: كان بالغاً يقطع الطريقَ بين قريتين، وأبوه من عظماءِ أهل إحدى القريتين، وأمُّه من عظماء القرية الأخرى، فأخذه الخضرُ فصرعه، ونزع رأسَه عن جسده[٦].

---

(١) البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، والترمذي (٣١٤٩).

(٢) القائل سفيان بن عيينة كما صرَّح به البخاري (١٢٢)، وذكره في إرشاد الساري للقسطلاني ٧/ ٢٢٠ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٤ بنحوه.

(٤) التيسير ص١٤٤ ، والسبعة ص٣٩٥ .

(٥) المفهم ٦/ ٢٠٥ ، وفيه أنَّ قول أبي عمرو في الزكية: التي ما حلَّ ذنبها.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٧٤ .

قال الكلبي: واسمُ الغلام شمعون. وقال الضَّحاك: حيسون. وقال وهب: اسمُ أبيه سلاس، واسمُ أمِّه رُحْمَى[١]. وحكى السهيليُّ أنَّ اسمَ أبيه كازير، واسمَ أمه سهوى[٢]. وقال الجمهور: لم يكن بالغاً، ولذلك قالَ موسى: زاكية لم تذنب. وهو الذي يقتضيه لفظُ الغلام؛ فإنَّ الغلامَ في الرجال يقال على مَن لم يبلغ، وتقابلُه الجاريةُ في النساء. وكان الخضرُ قتله لِمَا علمَ من سِرِّه، وأنه طُبع كافراً كما في صحيح الحديث، وأنَّه لو أدركَ لأرهقَ أبويه كفراً. وقَتلُ الصغيرِ غيرُ مستحيل إذا أذنَ الله في ذلك؛ فإنَّ الله تعالى الفعالُ لما يريد، القادرُ على ما يشاء[٣].

وفي كتابِ «العرائس»: إنَّ موسى لمَّا قال للخضر: «أَقَتَلْتَ نَفساً زَكِيَّة» ـ الآية ـ غضبَ الخضرُ واقتلع كتفَ الصبيِّ الأيسر، وقشرَ اللحمَ عنه، وإذا في عظمِ كتفِه مكتوبٌ: كافرٌ لا يؤمنُ بالله أبداً[٤]. وقد احتجَّ أهلُ القولِ الأول بأنَّ العرب تُبقي على الشابِّ اسمَ الغلام[٥]، ومنه قولُ ليلى الأخيلية:

شَفَاها من الدَّاءِ العُضالِ الذي بِها ... غُلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ سَقاهَا[٦]

وقال صفوان لحسان:

تَلَقَّ ذُبابَ السَّيفِ عَنِّي فإنَّني ... غُلامٌ إذا هُوجِيتُ لَسْتُ بشاعِرِ[٧]

وفي الخبر: إنَّ هذا الغلامَ كان يفسد في الأرض، ويُقسِم لأبويه أنَّه ما فَعل، فيقسمان على قَسَمِه، ويحميانه ممَّن يطلبه. قالوا: وقوله: «بِغَيْرِ نَفْسٍ» يقتضي أنه لو

(١) المفهم ٦/ ٢٠٥ .
(٢) التعريف والإعلام ص١٠٥ .
(٣) الكلام بنحوه في المفهم ٦/ ٢٠٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٢٨ ، وزاد المسير ٥/ ١٧٢ .
(٤) عرائس المجالس ص٢٢٨ .
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ .
(٦) سلف ٥/ ١٢٢ .
(٧) البيت في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٥ ، وتاريخ الطبري ٢/ ٦١٨ ، والبداية والنهاية ٦/ ٢٠١ . وذُباب السيف: حَدُّه أو طرفه المتطرف كما في القاموس (ذبب).

كانَ عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدلُّ على كبَرِ الغلام، وإلَّا فلو كان لم يحتلم، لم يجب قتلُه بنفسٍ[(١)]. وإنما جاز قتلُه؛ لأنه كان بالغاً عاصياً. قال ابنُ عباس: كان شابًّا يقطعُ الطريق[(٢)]. وذهب ابن جبير إلى أنَّ بلغَ سنَّ التكليف لقراءةِ أُبَيٍّ وابنِ عباس «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين» والكفرُ والإيمان من صفاتِ المكلَّفين، ولا يُطلَق على غير مكلَّف إلا بحكم التبعيةِ لأبويه، وأبوا الغلامِ كانا مؤمنين بالنص فلا يَصدقُ عليه اسمُ الكافر إلا بالبلوغ، فتعين أن يُصار إليه[(٣)]. والغلامُ من الاغتلامِ وهو شدةُ الشَّبَق.

قوله تعالى: ﴿نُّكْرًا﴾ اختلف الناسُ أيُّهما أبلغُ «إمرا» أو قوله: «نكرا» فقالت فرقة: هذا قَتلٌ بيِّن، وهناك مُترقَّب؛ فـ«نكرا» أبلغُ. وقالت فرقة: هذا قَتلُ واحدٍ، وذاك قتلُ جماعة فـ«إمرا» أبلغ. قال ابنُ عطية[(٤)]: وعندي أنَّهما لمعنيين وقوله: «إِمْراً» أفظعُ وأهولُ من حيثُ هو متوقع عظيم، و«نُكْراً» بيِّن في الفساد؛ لأنَّ مكروهَه قد وقع. وهذا بَيِّن. قوله: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ شرطٌ وهو لازم، والمسلمون عند شروطِهم، وأحقُّ الشروطِ أن يُوفَّى به ما التزمَه الأنبياء، والتُزِمَ للأنبياء. وقوله: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ يدلُّ على قيامِ الاعتذار بالمرةِ الواحدةِ مطلقاً، وقيامِ الحجةِ من المرة الثانيةِ بالقطع؛ قاله ابنُ العربي[(٥)]. ابنُ عطية: ويشبهُ أن تكونَ هذه القصةُ أيضاً أصلاً للآجالِ في الأحكامِ التي هي ثلاثة، وأيامُ التلومِ[(٦)] ثلاثة، فتأمله[(٧)].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٦ .

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٠٧ .

(٣) المفهم ٦/ ٢١١ .

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ ، وما قبله منه.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ٢٣٤ ، وما قبله منه.

(٦) في (م): المتلوم.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ .

قوله تعالى: «فَلَا تُصَاحِبْنِي» كذا قرأ الجمهور؛ أي: تتابعني. وقرأ الأعرجُ: «تَصْحَبَنِّي» بفتحِ التاءِ والباء وتشديدِ النون. وقرئ: «تَصْحَبْنِي» أي: تتبعني. وقرأ يعقوب «تُصْحِبْنِي» بضمِّ التاء وكسر الحاء، ورواها سهل، عن أبي عمرو[1]؛ قال الكسائي: معناهُ: فلا تتركني أصحَبُك. «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً» أي: بلغتَ مبلغاً تُعذر به في تركِ مصاحبتي. وقرأ الجمهور: «مِنْ لَدُنِّي» بضمِّ الدال، إلا أنَّ نافعاً وعاصماً خفَّفا النون، فهي «لدن» اتصلت بها ياءُ المتكلم التي في غلامي وفرسي، وكُسر ما قبلَ الياء كما كُسر في هذه. وقرأ أبو بكرٍ عن عاصم: «لَدْنِي» بفتح اللام وسكون الدال وتخفيفِ النون، ورُوي عن عاصم: «لُدْنِي» بضمِّ اللام وسكون الدال، قال ابنُ مجاهد[2]: وهي غلطٌ. قال أبو علي: هذا التغليطُ يُشبه أن يكونَ من جهة الروايةِ، فأمَّا على قياسِ العربية؛ فهي صحيحةٌ[3]. وقرأ الجمهور: «عُذْراً»، وقرأ عيسى: «عُذُراً» بضمِّ الذال، وحكى الداني أنَّ أُبيًّا روى عن النبيِّ ﷺ: «عُذْرِي» بكسرِ الراء وياءٍ بعدها[4].

مسألة: أسندَ الطبريُّ[5] قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا دعا لأحدٍ بدأ بنفسه، فقال يوماً: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لو صَبَر على صاحبِه لرأى العجبَ ولكنَّه قال: «فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً»». والذي في «صحيحِ» مسلم قالَ رسولُ الله ﷺ: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل، لرأى العجبَ ولكنَّه أَخذته من صاحبِه ذَمامةٌ ولو صَبَر؛ لرأى العجبَ» قال: وكان إذا ذَكَر أحداً من الأنبياء بدأ بنفسِه: «رحمةُ اللهِ علينا وعلى أخي كذا»[6]. وفي البخاري عن النبيِّ ﷺ قال: «يرحمُ الله

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢ ، ونسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨١ قراءة الأعرج إلى ابن مسعود، وقراءة يعقوب إلى الجحدري والنخعي. وقراءة يعقوب ذكرها البغوي ٣/ ١٧٥ .

(٢) في السبعة ص٣٩٦ ، وما قبله منه.

(٣) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ١٦٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ .

(٥) في التفسير ١٥/ ٣٤٥ ، ونقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ .

(٦) صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

موسى، لوَدِدْنا أنه صَبَر حتى يقصَّ علينا من أمرِهما»(١).

الذَّمامةُ بالذالِ المعجمةِ المفتوحة، وهو بمعنى المَذَمَّة بفتح الذالِ وكسرها، وهي الرقةُ، والعارُ من تَرْكِ الحرمةِ: يقال: أَخذتني منك مَذَمَّةٌ ومَذِمَّة وذَمامة، وكأنه استحيا من تكرارِ مخالفتِه، وممَّا صدرَ عنه من تغليظِ الإنكارِ(٢).

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

فيه ثلاثَ عَشْرةَ مسألةً:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ في «صحيح» مسلم(٣) عن أُبيِّ بنِ كعب، عن النبيِّ ﷺ: «لئاماً»، فطافا في المجالس ف﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يقول: مائل. قال: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضرُ بيده قال له موسى: قومٌ أتيناهم فلم يُضيِّفونا، ولم يُطعِمونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قال رسولُ الله ﷺ: «يرحمُ الله موسى، لوَدِدْتُ أنَّه كان صَبَر حتى يقصَّ علينا من أخبارِهما».

الثانية: واختلفَ العلماءُ في القرية، فقيل: هي أَيْلة(٤)؛ قاله قتادةُ، وكذلك قال محمد بنُ سيرين، وهي أَبخلُ قرية وأبعدُها من السماء. وقيل: أنطاكية. وقيل: بجزيرةِ الأَندلس، رُوي ذلك عن أبي هريرة وغيرِه، ويذكر أنها الجزيرةُ الخضراء. وقالت

---

(١) صحيح البخاري (١٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٦.

(٣) برقم (٢٣٨٠): ١٧٢.

(٤) في (م): أبلة، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٦/ ٢٠٧، وإكمال المعلم ٧/ ٣٧٧، وعرائس المجالس ص٢٢٩، ووقع في تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٧، والوسيط ٣/ ١٦٠، والمحرر ٣/ ٥٣٣، وزاد المسير ٥/ ١٧٥، والنكت والعيون ٣/ ٣٣٠: الأُبُلَّة.

فرقة: هي أبو جوزان[١] وهي بناحيةِ أذْرَبيجان. وحكى السُّهيليُّ وقال: إنَّها برقة[٢]. الثَّعلبي: هي قريةٌ من قرى الروم يقالُ لها: ناصرة، وإليها تُنسَب النصارى[٣]. وهذا كلُّه بحسب الخلاف في أي ناحيةٍ من الأرضِ كانت قصةُ موسى، والله أعلمُ بحقيقةِ ذلك[٤].

الثالثة: كان موسى عليه السلام حينَ سقى لبنتي شعيب أَحوجَ منه حين أَتى القريةَ مع الخضر، ولم يَسألْ قوتاً بل سقى ابتداءً، وفي القريةِ سألا القوت، وفي ذلك للعلماءِ انفصالاتٌ كثيرة، منها أنَّ موسى كان في حديث مَدْين منفرداً، وفي قصةِ الخضرِ تبعاً لغيره[٥].

قلتُ: وعلى هذا المعنى يَتمشّى قولُه في أوّلِ الآية لفتاه: «آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً» فأَصابه الجوعُ مراعاةً لصاحبِه يوشع. والله أعلم.

وقيل: لمَّا كانَ هذا سفرَ تأديب، وُكِل إلى تكلُّف المشقة، وكان ذلك سفرَ هجرةٍ، فوُكِل إلى العونِ والنُّصرةِ والقوة[٦].

الرابعة: في هذه الآيةِ دليلٌ على سؤالِ القوت، وأنَّ مَن جاع وجبَ عليه أن يطلب ما يردُّ جوعَه خلافاً لجهالِ المتصوفة. والاستطعامُ سؤالُ الطعام، والمرادُ به هنا سؤالُ الضيافة، بدليل قوله: «فأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا» فاستحقَّ أهلُ القرية لذلك أن يُذمُّوا، ويُنسبوا إلى اللُّؤمِ والبخل، كما وصفَهم بذلك نبيُّنا عليه الصلاةُ والسلام[٧]. قال قتادةُ في هذه الآيةِ: شرُّ القُرَى التي لا تُضيِّف الضيفَ، ولا تعرفُ لابنِ السبيل حقَّه.

---

(١) في (م): بَاجَروان، والمثبت من النسخ، وفي المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ ، والكلام منه: أبو حوران.
(٢) التعريف والإعلام ص١٠٥ .
(٣) عرائس المجالس ص٢٢٩ .
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣ .
(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٥ .
(٦) في (م): بالقوت، والمثبت من النسخ الخطية، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٥ ، والكلام منه.
(٧) أخرجه أحمد (٢١١٢٠) في الزوائد، ومسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، من حديث أبي بن كعب ﷺ.

ويظهرُ من ذلك أنَّ الضيافة كانت عليهم واجبةً، وأنَّ الخضر وموسى إنَّما سألا ما وجبَ لهما من الضِّيافة، وهذا هو الأليقُ بحالِ الأنبياء، ومنصبِ الفضلاء والأولياء، وقد تقدَّم القولُ في الضيافةِ في «هود»[١] والحمدُ لله. ويعفو اللهُ عن الحريريِّ[٢] حيثُ استخفَّ في هذه الآيةِ وتَمجَّن، وأتى بخَطَلٍ من القول وزلَّ، فاستدلَّ بها على الكُدْيةِ[٣] والإلحاحِ فيها، وأنَّ ذلك ليس بمعيبٍ على فاعله، ولا منقصة عليه؛ فقال:

وإنْ رُدِدْتَ فما في الردِّ مَنقصةٌ عليكَ قد رُدَّ موسى قبلُ والْخَضِرُ

قلت: وهذا لعبٌ بالدين، وانسلالٌ عن احترام النبيين، وهي شِنْشِنَةٌ أدبية، وهفوةٌ سخافية؛ ويرحمُ الله السلفَ الصالح، فلقد بالغوا في وصيةِ كل ذي عقل راجح، فقالوا: مهما كنت لاعباً بشيءٍ فإياك أن تلعبَ بدينك[٤].

الخامسة: قولُه تعالى: «جِدَاراً» الجدارُ والجَدْرُ بمعنًى، وفي الخبر: «حتى يبلغَ الماءُ الجَدْرَ». ومكانٌ جَدِيرٌ: بُني حَواليه جدارٌ، وأصلُه الرفع. وأَجدرتِ الشجرةُ: طلعت، ومنه الجُدَرِيُّ[٥].

السادسة: قوله تعالى: «يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ» أي: قَرُب أن يسقط[٦]، وهذا مجازٌ وتوسُّع، وقد فسَّره في الحديث بقوله: «مائل» فكانَ فيه دليلٌ على وجودِ المجازِ في القرآن، وهو مذهبُ الجمهور[٧]. وجميعُ الأفعالِ التي حقُّها أن تكونَ للحي الناطقِ متى أُسندِت إلى جمادٍ أو بهيمة، فإنَّما هي استعارة، أي: لو كان مكانَهما إنسانٌ،

(١) ١١/ ١٥٩ وما بعدها، والكلام في المحرر الوجيز ٣/ ٢٠٧ ، وأثر قتادة أخرجه الطبري ١٥/ ٣٤٧ .

(٢) هو: أبو محمد القاسم بن علي بن محمد البصري، له: درة الغواص في وهم الخواص، والملحة، والمقامات. (ت٥١٦هـ). السير ١٩/ ٤٦٠ - ٤٦٥ .

(٣) الكُدية: حِرفةُ السائلِ المُلِحّ. المعجم الوسيط (كدى).

(٤) المفهم ٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وقول الحريري في مقاماته ص٣٢٦ .

(٥) تهذيب اللغة ١٠/ ٦٣٤ - ٦٣٥ . والخبر أخرجه البخاري (٤٥٨٥)، وسلف ٦/ ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٣٥٠ .

(٧) المفهم ٦/ ٢٠٨ .

لكان ممتثلاً لذلك الفعل، وهذا في كلام العربِ وأشعارِها كثيرٌ[(١)]، فمن ذلك قولُ الأعشى:

أتَنْتَهون ولَا يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ كالطَّعْنِ يَذهبُ فيه الزَّيتُ والفُتُلُ[(٢)]

فأضافَ النَّهيَ إلى الطعنِ، ومن ذلك قولُ الآخر:

يُرِيدُ الرمحُ صدرَ أَبِي بَرَاءٍ ويرغبُ عن دماءِ بني عقيل[(٣)]

وقال آخر:

إنَّ دهراً يلُفُّ شَمْلي بِجُمْلٍ لَزمَانٌ يَهُمُّ بالإِحسان[(٤)]

وقال آخر:

في مهمهٍ فُلِقت به هاماتُها فَلْقَ الفؤوس إذا أردن نُصُولاً[(٥)]

أي: ثبوتاً في الأرض، من قولهم: نَصَل السيفُ إذا ثَبَت في الرميَّة؛ فشبَّه وقعَ السيوف على رؤوسهم بوقع الفؤوسِ في الأرض، فإنَّ الفأسَ يقعُ فيها ويثبت لا يكاد يخرج[(٦)]. وقال حسانُ بنُ ثابت[(٧)]:

لَوَ انَّ اللُّؤمَ يُنسبُ كان عَبْداً قبيحَ الوجهِ أعْوَرَ من ثَقِيفِ

وقال عَنْتَرة:

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣.

(٢) ديوان الأعشى ص١١٣، وسلف ١/ ٣٢٠.

(٣) البيت في مجاز القرآن ١/ ٤١٠ ونسبه للحارثي، وفي تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٧، والصناعتين ص٢٨٤ دون نسبة.

(٤) البيت في الطبري ١٥/ ٣٤٨، والصحاح (دهر)، وتهذيب اللغة ٦/ ١٩٢، بهذه السياقة، وهو في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٢١٩ بلفظ: بسعدى بل بجمل. ولفظه في ديوان بشار بن برد ٢/ ٥٤٥:

إنَّ دهراً يضم شملي بسلمى لزمان قد همَّ بالإحسان

(٥) البيت للراعي النميري في ديوانه ص٢٢٢، وفي ديوان المعاني ٢/ ١٢٣.

(٦) المفهم ٦/ ٢٠٨ - ٢٠٩. وما قبله فيه.

(٧) في ديوانه ص١٦١.

فـازْوَرَّ مـن وَقْـعِ الـقَـنَـا بِـلَـبَـانِـه وشَـكَـا إلـيَّ بـعَـبْـرةٍ وتَـحَـمْـحُـمِ

وقد فَسَّر هذا المعنى بقوله:

لو كان يَدْرِي ما الْمُحَاوَرةُ اشتكَى(١)

وهذا في هذا المعنى كثيرٌ جدًّا. ومنه قولُ الناس: إنَّ داري تنظرُ إلى دارِ فلان(٢). وفي الحديث: «اشتكتِ النارُ إلى ربِّها»(٣).

وذهبَ قومٌ إلى منعِ المجاز في القرآن، منهم أبو إسحاق الإسْفَرايني(٤) وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني(٥) وغيرهما، فإنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ وكلامَ رسوله حَمْلُه على الحقيقةِ أولى بذي الفضلِ والدِّين؛ لأنه يَقصُّ الحقَّ كما أخبرَ الله تعالى في كتابِه. وممَّا احتجوا به أن قالوا: لو خاطبنا الله تعالى بالمجازِ؛ لزمَ وصفُه بأنَّه مُتجوِّز أيضاً، فإنَّ العدولَ عن الحقيقةِ إلى المجاز يقتضي العجزَ عن الحقيقة، وهو على الله تعالى محالٌ(٦)، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] وقال تعالى: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ

(١) صدر بيت لعنترة، وعجزه: ولكان لو علم الكلام مكلمي، وهو وما قبله في شرح المعلقات لابن النحاس ٢/ ٤٤ .
وقال النحاس: ازورَّ: مال. والتحمحم: صوت مقطع وليس بالصهيل.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ ، وما قبله منه.
(٣) أخرجه أحمد (٧٧٢٢)، والبخاري (٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧): ١٨٥ ، من حديث أبي هريرة.
(٤) هو: ركن الدين إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، من تصانيفه: كتاب جامع الخلي في أصول الدين، وغيرها. (ت٤١٨هـ). السير ١٧/ ٣٥٣ .
ونقل مَنْعَه للمجاز ابن العربي في المحصول ص٣١ .
(٥) هو: الظاهري صاحب كتاب الزهرة في الآداب والشعر، وكتاب التقصي في الفقه. (ت٢٩٧هـ). السير ١٣/ ١٠٩ وما بعدها.
ونقل مَنْعَه للمجاز الرازي في المحصول ١/ ٣٣٣ .
(٦) المحصول للرازي ١/ ٣٣٣ .

أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج:١٧]، و«اشتكتِ النارُ إلى ربها»[(١)]، «واحتجت النار والجنة»[(٢)] وما كان مثلَها حقيقة، وأنَّ خالقَها الذي أنطق كلَّ شيء أنطقَها.

وفي «صحيح» مسلم من حديث أنس، عن النبي ﷺ: «فيُختَم على فِيهِ ويقالُ لفخذه: انطقي، فتنطقُ فخذُه ولحمه وعظامُه بعملِه وذلك لِيُعذِر من نفسه، وذلك المنافقُ وذلك الذي يَسخطُ الله عليه»[(٣)]. هذا في الآخرة.

وأمَّا في الدنيا؛ ففي «الترمذي» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تقومُ السَّاعةُ حتى تُكلِّمَ السِّباعُ الإنسَ، وحتى تُكلِّمَ الرجلَ عذَبَةُ سَوْطِهِ، وشِراكُ نَعلِه، وتُخبرَه فَخذُه بما أحدثَ أهلهُ مِن بعدِه» [قال أبو عيسى]: وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حديثٌ حسنٌ غريب[(٤)].

السابعة: قوله تعالى: «فَأَقَامَه» قيل: هدمَه ثم قعد يبنيه[(٥)]، فقال موسى للخضر: «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» لأنه فعلٌ يَستحقُّ أجراً. وذكر أبو بكر الأنباري، عن ابنِ عباس، عن أبي بكر، عن رسولِ الله ﷺ أنه قرأ «فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه». قال أبو بكر: وهذا الحديثُ إنْ صحَّ سندُه فهو جارٍ من الرسولِ عليه الصلاة والسلام مجرى التفسيرِ للقرآن، وإنَّ بعضَ الناقلين أدخلَ [تفسير][(٦)] قرآنٍ في موضعٍ فَسَرى أنَّ ذلك قرآنٌ نَقصَ من مُصحف عثمان، على ما قاله بعضُ الطاعنين. وقال سعيد بنُ جبير: مَسحه بيدِه وأقامه فَقام[(٧)]، وهذا القولُ هو الصحيح،

---

(١) تقدم تخريجه آنفاً.

(٢) أخرجه أحمد (٧٧١٨)، والبخاري (٤٨٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٦٨)، وهذا لفظ حديث أبي هريرة، وحديث أنس عند مسلم (٢٩٦٩) بلفظ: قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي فتنطق بأعماله.

(٤) سنن الترمذي (٢١٨١)، وما بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه أحمد (١١٧٩٢).

(٥) الطبري ١٥/ ٣٥٠ .

(٦) زيادة من (م) يقتضيها السياق.

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٥١ .

وهو الأشبهُ بأفعالِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل والأولياء. وفي بعض الأخبار: إنَّ سُمْكَ ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعاً بذراع ذلك القرن، وطولَه على وجهِ الأرض خَمسُمائة ذراعٍ، وعرضَه خمسون ذراعاً، فأقامه الخضرُ عليه السلام أي: سوَّاه بيده فاستقام. قاله الثَّعلبي في كتاب «العرائس»(١). فقال موسى للخضر: «لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» أي: طعاماً تأكله(٢)، ففي هذا دليلٌ على كراماتِ الأولياء، وكذلكَ ما وصفَ من أحوالِ الخضر عليه السلام في هذا الباب كلُّها أمورٌ خارقةٌ للعادة، هذا إذا تَنزَّلنا على أنَّه وليٌّ لا نبيٌّ.

وقوله تعالى: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» يدلُّ على نبوّتِه وأنه يوحَى إليه بالتكليفِ والأحكام، كما أُوحي للأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام غير أنَّه ليس برسول، والله أعلم(٣).

الثامنة: واجبٌ على الإنسانِ ألَّا يتعرض للجلوس تحتَ جدار مائل يُخاف سقوطُه، بل يسرع في المشي إذا كان مارًّا عليه؛ لأنَّ في حديثِ النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا مرَّ أحدكم بطِرْبالٍ مائل فليُسرِعِ المشي»(٤). قال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: كان أبو عبيدة يقول: الطِّرْبال شبيهٌ بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصّومعة؛ والبناء المرتفع؛ قال جرير:

أَلْوَى بِها شَذبُ العُرُوقِ مُشَذَّبٌ ... فكأنما وَكَنَتْ على طِرْبالِ(٥)

يقال منه: وَكَن يَكِن إذا جلسَ. وفي «الصحاح»: الطِّرْبالُ: القطعةُ العاليةُ من

---

(١) عرائس المجالس ص٢٢٩ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ .

(٣) المفهم ٦/ ٢٠٩ .

(٤) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ١٨ ، وما بعده منه.

(٥) ديوان جرير ٢/ ٩٦٠ ، وقال شارحه: ألوى بها: ذهب بها حيث أراد. شذب العروق: ليس عليه لحم. وَكَنَت: جلست. طربال: حصن معروف.

الجدار، والصخرةُ العظيمةُ المشرفة من الجبل، وطَرابيلُ الشامِ صوامعُها. ويقال: طَرْبَل بَوْلَه إذا مدَّه إلى فوق[١].

التاسعة: كراماتُ الأولياءِ ثابتة على ما دلَّت عليه الأخبارُ الثابتة، والآياتُ المتواترة، ولا يُنكِرها إلا المبتدعُ الجاحد، أو الفاسقُ الحائد، فالآياتُ ما أخبرَ الله تعالى في حقِّ مريم من ظهورِ الفواكهِ الشَّتويةِ في الصيف، والصَّيفيةِ في الشتاء ـ على ما تقدم ـ وما ظهر على يدِها حيثُ أَمرتِ النخلةَ وكانت يابسةً فأثمرت، وهي ليست بنبيَّة، على الخلاف. ويدلُّ عليها ما ظهرَ على يد الخضرِ عليه السلام من خرقِ السفينة، وقتلِ الغلام، وإقامةِ الجدار. قال بعضُ العلماء: ولا يجوزُ أن يقالَ: كان نبيًّا؛ لأنَّ إثباتَ النبوةِ لا يجوز بأخبارِ الآحادِ، لا سيَّما وقد رُوي من طريقِ التواتر ـ من غيرِ أن يحتملَ تأويلاً ـ بإجماعِ الأمةِ قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا نبيَّ بعدي»[٢]. وقال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] والخضرُ وإلياس[٣] جميعاً باقيان مع هذه الكرامةِ، فوجبَ أن يكونا غيرَ نبيين[٤]؛ لأنَّهما لو كانا نبيين، لوجبَ أن يكونَ بعد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام نبيٌّ، إلا ما قامتِ الدلالةُ في حديثِ عيسى أنَّه ينزلُ بعده.

قلت: الخضرُ كان نبيًّا ـ على ما تقدم ـ وليس بعدَ نبينا عليه الصلاةُ والسلام نبيٌّ، أي: يَدَّعي النبوَّةَ بعده أبداً. والله أعلم.

العاشرة: اختلفَ الناسُ، هل يجوزُ أن يعلمَ الوليُّ أنه وليٌّ أم لا؟ على قولين[٥]:

أحدهما: أنه لا يجوز، وأنَّ ما يظهر على يديه يجبُ أن يلاحظه بعينِ خوفِ

---

(١) الصحاح (طربل).

(٢) سلف ١/٣٩٨.

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ف): دانيال، والمثبت من (ظ).

(٤) قال بذلك القشيري في رسالته ٤/١٦١، وينظر المفهم ٦/٢١٧.

(٥) ذكر هذه المسألة القشيري في رسالته ٤/١٥٠ - ١٥١.

المكر؛ لأنه لا يأمنُ أن يكون مكراً واستدراجاً له، وقد حُكِي عن السَّريِّ أنه كان يقول: لو أنَّ رجلاً دخل بستاناً فكلَّمه من رأسِ كل شجرة طيرٌ بلسانٍ فصيح: السلامُ عليك يا وليَّ الله، فلو لم يخفْ أن يكون ذلك مكراً، لكانَ ممكوراً به[1]. ولأنه لو علم أنَّه وليٌّ لزالَ عنه الخوف، وحصلَ له الأمن. ومِن شرطِ الوليِّ أن يستديمَ الخوف إلى أن تتنزلَ عليه الملائكة، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]، ولأنَّ الوليَّ مَن كان مختوماً له بالسعادة، والعواقبُ مستورةٌ ولا يدري أحدٌ ما يُختَم له به؛ ولهذا قال عليه الصلاةُ والسلام: «إنَّما الأعمالُ بالخواتيم»[2].

القول الثاني: أنَّه يجوز للوليِّ أن يعلمَ أنه وليٌّ؛ ألا ترى أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام يجوزُ أن يعلم أنَّه وليٌّ، ولا خلافَ أنه يجوزُ لغيره أن يعلمَ أنه وليُّ الله تعالى، فجاز له أن يعلمَ ذلك. وقد أخبرَ النبي عليه الصلاة والسلام مِن حالِ العَشرة مِن أصحابه أنَّهم من أهلِ الجنة، ثم لم يكن في ذلك زوالُ خوفِهم، بل كانوا أكثرَ تعظيماً لله سبحانه وتعالى، وأشدَّ خوفاً وهيبة، فإذا جازَ للعشرةِ ذلك ولم يُخرجْهم عن الخوفِ، فكذلك غيرُهم.

وكان الشِّبْليُّ يقول: أنَا أمَانُ هذا الجانب، فلما ماتَ ودُفن عبرَ الدَّيلمُ دجلةَ ذلك اليوم، واستَولَوا على بغداد[3]، ويقول الناس: مُصيبتانِ موتُ الشبليِّ وعبورُ الديلم. ولا يقالُ: إنه يحتملُ أن يكون ذلك استدراجاً؛ لأنه لو جازَ ذلك؛ لجازَ ألَّا يَعرِف النبيُّ أنه نبيٌّ ووليُّ الله؛ لجوازِ أن يكونَ ذلك استدراجاً، فلمَّا لم يجز ذلك؛ لأنَّ فيه إبطالَ المعجزاتِ لم يَجُزْ هذا، لأنَّ فيه إبطالَ الكرامات. وما رُوي من ظهورِ

---

(١) الرسالة القشيرية ٤/ ١٥٦ .

(٢) سلف ١/ ٢٩٦ .

(٣) ذكر هذا القول صاحب الديباج المذهب ١/ ٣٦٣ . والديلم: جيل سُمُّوا بأرضهم في قول بعض أهل الأثر، وليس باسم لأب لهم، وإقليم الديلم يشمل قُومِس وجرجان وطبرستان والدَّيلمان والخزر. معجم البلدان ٢/ ٥٤٤ ، وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للبشاري ص٢٧١ .

الكراماتِ على يدي بِلْعام[١] وانسلاخِه عن الدينِ بعدها لقولِه: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] فليس في الآيةِ أنه كان وليًّا ثم انسلختْ عنه الوِلاية. وما نُقِل أنه ظهرَ على يديه ما يجري مَجرى الكراماتِ هو أخبارُ آحادٍ لا تُوجِب العلمَ[٢]. والله أعلم.

والفرقُ بينَ المعجزةِ والكرامةِ أنَّ الكرامةَ من شرطها الاستتارُ، والمعجزةَ من شرطِها الإظهارُ. وقيل: الكرامةُ ما تظهرُ من غيرِ دعوى، والمعجزةُ ما تظهر عند دَعوى الأنبياءِ، فيُطالَبون بالبرهانِ، فيظهرُ أثر ذلك[٣]. وقد تقدَّم في مقدَّمةِ الكتاب[٤] شرائطُ المعجزة، والحمدُ لله تعالى وحدَه لا شريكَ له.

وأمَّا الأحاديثُ الواردةُ في الدِّلالةِ على ثبوتِ الكرامات، فمن ذلك ما خرَّجه البخاريُّ[٥] من حديث أبي هريرة قال: بعثَ رسول الله ﷺ عشرةَ رَهْط سريةً عَيْناً وأَمَّر عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصاريَّ، وهو جدُّ[٦] عاصم بنِ عمر بنِ الخطاب ﷺ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدأة وهي بين عُسفان ومكة ذُكِروا لحيٍّ من هُذَيْل يقال لهم بنو لَحيان، فنَفَّروا إليهم قريباً من مائتي راجلٍ كلُّهم رامٍ، فاقتصُّوا آثارَهم حتى وجدوا مأْكلهم تمراً تزوَّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمرُ يثرب، فاقتصوا آثارَهم، فلمَّا رآهم عاصم وأصحابه لَجؤوا إلى فَدْفَد[٧]، وأحاط بهم القومُ، فقالوا لهم: انزلوا فأَعطونا بأيديكم[٨] ولكم العهدُ والميثاق، ولا[٩] نقتلُ منكم أحداً؛ فقال عاصمُ بنُ ثابت أميرُ

(١) هو بِلعام بن باعوراء، ينظر ما تقدم في ٩/ ٣٨٣ .

(٢) ذكر بعضاً من أخباره ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٠/٣٩٦ - ٤٠٤ .

(٣) الرسالة القشيرية ٤/١٤٨ .

(٤) ١/ ١١٢ وما بعدها.

(٥) في صحيحه (٣٠٤٥).

(٦) وقال القسطلاني في إرشاد الساري ٥/ ١٦٣ : وقال مصعب الزهري: إنما هو خال عاصم لا جده؛ لأن عاصم بن عمر بن الخطاب أمه جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح أخت عاصم بن ثابت وكان اسمها عاصية. قال الكرماني: وعليه الأكثر.

(٧) الفدفد: المرتفع. القاموس (فدد).

(٨) في (د) و(م): أيديكم.

(٩) في (م): ألا.

السرية: أما أنا[(١)] فوالله لا أنزلُ اليوم في ذمةِ الكافر، اللهمَّ أَخبِرْ عنَّا نبيَّك، فَرَموا بالنَّبل فقتلوا عاصماً في سبعةٍ، فنزل إليهم ثلاثةُ رهطٍ بالعهد والميثاقِ، وهم: خُبَيبٌ الأنصاري وابنُ الدَّثِنة ورجلٌ آخر[(٢)]، فلما استمكنوا منهم، أَطلقوا أوتارَ قِسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أوّلُ الغدر! والله لا أَصحبكم؛ إنَّ لي في هؤلاء لأسوةً ـ يريدُ القتلى ـ فجرَّروه وعالجوه على أنْ يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، فانطلقوا بخُبيبٍ وابن الدَّثِنة حتى باعوهما بمكةَ بعد وقعة بدر، فابتاع خُبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خُبيب هو الذي قتلَ الحارثَ بن عامرٍ يوم بدر، فلبث خُبيب عندهم أسيراً؛ فأخبرني[(٣)] عبيدُ الله بنُ عياض أنَّ بنتَ الحارث أخبرته أنهم حينَ اجتمعوا، استعارَ منها موسى يَسْتحِدُّ بها فأعارته، فأخذَ ابناً[(٤)] لي وأنا غافلةٌ حتى أتاه، قالت: فوجدته مُجلِسَه على فخذه والموسى بيده، ففزِعتُ فزعةً عرفها خُبيبٌ في وجهي، فقال: أَتخشَيْنَ أن أَقتلَه؟ ما كنتُ لأفعل ذلك. قالت: والله ما رأيتُ أسيراً قطُّ خيراً من خُبيب؛ واللهِ لقد وجدتُه يوماً يأكل من قِطْفِ عنبٍ في يده، وإنَّه لموثَقٌ بالحديد، وما بمكة من ثمر؛ وكانت تقول: إنه لرزقٌ رزقه الله تعالى خُبيباً، فلمَّا خرجوا به من الحرمِ ليقتلوه في الحِلِّ قال لهم خُبيب: دعوني أركعْ ركعتين، فتركوه فركعَ ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا أنَّ ما بي جزعٌ من الموت لزدت؛ ثم قال[(٥)]: اللهمَّ أَحْصِهِم عدداً، واقتلهم بَدَداً، ولا تُبقِ منهم أحداً، ثم قال:

ولستُ أُبالي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... على أيِّ شِقٍّ كان لِلَّه مَصْرَعي
وذلك في ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَأْ ... يبارِكْ على أوصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[(٦)]

---

(١) ليست في (د) و(م).

(٢) هو عبد الله بن طارق البلوي كما في إرشاد الساري ٥/ ١٦٤ .

(٣) في (م) و(د): فأخبر.

(٤) في (م): ابن. وهو أبو الحسين بن الحارث بن عدي بن نوفل بن عبد مناف كما في إرشاد الساري ٥/ ١٦٥ .

(٥) قوله: من الموت لزدت ثم قال. ليس في النسخ الخطية.

(٦) وقال القسطلاني ٥/ ١٦٥ : وقال ابن هشام: أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لخبيب.

فقتله بنو الحارث، وكان خُبيب هو الذي سنَّ الركعتين لكلِّ امرئ مسلم قُتل صَبْراً، فاستجاب الله تعالى لعاصم يومَ أصيب، فأُخبر النبيُّ عليه الصلاة والسلام وأصحابُه خبرَهم وما أُصيبوا. وبعثَ ناسٌ من كفارِ قريش إلى عاصم حين حُدِّثوا أنه قُتل ليُؤتَوا بشيء منه يعرفونه، وكان قد قَتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فبعثَ الله على عاصم مثلَ الظُّلَّةِ من الدَّبْر[1] فَحَمَتْه من رُسلِهم، فلم يَقدِروا على أن يَقطعوا من لحمِه شيئاً.

وقال ابن إسحاق[2] في هذه القصة: وقد كانت هذيل حين قُتِل عاصمُ بن ثابت أرادوا رأسَه ليبيعوه من سُلَافة بنت سعد بن شُهَيْد، وقد كانت نذرت حين أصابَ ابنيها بأُحُد: لئن قَدَرتْ على رأسه لتشرَبنَّ في قِحْفِهِ[3] الخمرَ فمنَعهم الدَّبْر، فلمَّا حالت بينَه وبينهم قالوا: دعوه حتى يُمسِي فتذهب عنه فنأخذه، فبعثَ الله تعالى الوادي فاحتمل عاصماً فذهبَ، وقد كان عاصم أعطى الله تعالى عهداً ألَّا يمسَّ مشركاً ولا يمسه مشركٌ أبداً في حياتِه، فمنَعه الله تعالى بعدَ وفاتِه مما امتنعَ منه في حياته.

وعن عمرو بنِ أمية الضَّمْري: وكان رسولُ الله ﷺ بَعثه عيناً وحدَه فقال: جئتُ إلى خشبةِ خُبَيب فرقيتُ فيها وأنا أتخوف العيونَ، فأطلقته، فوقعَ في الأرض، ثم اقتحمتُ فانتبذتُ قليلاً، ثم التفتُّ فكأنما ابتلعتْه الأرضُ. وفي رواية أخرى زيادة: فلم يُذكر لخبيب رِمَّةٌ حتى الساعة. ذكره البيهقي[4].

الحادية عشرة: ولا يُنكر أن يكونَ للوليِّ مالٌ وضَيْعةٌ يصونُ بها مالَه وعياله،

---

(١) جماعة النحل والزنابير. القاموس (دبر).

(٢) في السير والمغازي ص٣٢٩ - ٣٣٠ ، وقد نقله المصنف بواسطة ابن هشام في السيرة ٢/ ١٧١ .

(٣) القِحف: العظم الذي فوق الدماغ. الصحاح (قحف).

(٤) في دلائل النبوة ٣/ ٣٣٢ ، وهو عند أحمد (١٧٢٥٢)، وإسناده ضعيف، فيه إبراهيم بن إسماعيل وهو ابن مجمع الأنصاري، وهو ضعيف وقد اضطرب فيه. وفي (م): فلم نذكر لخبيب رمة.

وحسبُك بالصحابةِ وأموالهم مع ولايتهم وفضلِهم، وهم الحجةُ على غيرهم. وفي «صحيح» مسلمٍ عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «بينما رجلٌ بفلاةٍ من الأرض فسمع صوتاً في سحابةٍ: اسقِ حديقةَ فلان، فتنحَّى ذلك السَّحابُ فأفرغَ ماءَه في حَرَّةٍ، فإذا شَرْجَة من تلك الشِّراجِ قد استوعبت ذلك الماءَ كلَّه، فتتبَّع الماءَ فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحوِّل الماءَ بمِسْحاته، فقال: يا عبدَ الله، ما اسمُك؟ قال: فلان، الاسم الذي سمعه في السَّحابة، فقال له: يا عبد الله، لمَ سألتني عن اسمي؟ قال: إني سمعتُ صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤُه يقول: اسقِ حديقةَ فلان لاسمك، فما تصنعُ فيها؟ قال: أمَّا إذ قُلتَ هذا، فإني أنظرُ إلى ما يخرجُ منها فأتصدقُ بثلثِه، وآكلُ أنا وعيالي ثلثاً، وأردُّ فيها ثلثَه»، وفي رواية «وأجعلُ ثلثَه في المساكين والسائلين وابن السبيل»[(١)].

قلت: وهذا الحديثُ لا يناقضُه قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا تَتخذوا الضيْعةَ فتركَنوا إلى الدنيا» خرَّجه الترمذي[(٢)] من حديثِ ابنِ مسعود وقال فيه: حديثٌ حسن؛ فإنَّه محمولٌ على من اتخذَها مستكثراً أو متنعماً ومتمتعاً بزهرتها، وأمَّا منِ اتخذَها معاشاً يصونُ بها دينَه وعيالَه؛ فاتخاذُها بهذه النيةِ من أفضلِ الأعمال، وهي من أفضلِ الأموال؛ قال عليه الصلاةُ والسلام: «نِعم المالُ الصالح للرجلِ الصالح»[(٣)]. وقد أكثرَ الناسُ في كراماتِ الأولياء، وما ذكرناهُ فيه كفايةٌ، واللهُ الموفقُ للهداية.

الثانية عشرة: قولُه تعالى: «لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً» فيه دليلٌ على صحةِ جوازِ الإجارة، وهي سنةُ الأنبياء والأولياء على ما يأتي بيانُه في سورة «القصص»[(٤)] إن شاءَ

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٨٤)، وهو عند أحمد (٧٩٤١).

(٢) سنن الترمذي (٢٣٢٨)، وهو عند أحمد (٣٥٧٩)، والبخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٥٤ ، وإسناده ضعيف لضعف المغيرة بن سعد بن الأخرم.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، وابن حبان (٣٢١٠)، من حديث عمرو بن العاص ﷺ.

(٤) عند الآية ٢٦ .

الله تعالى. وقرأ الجمهورُ: «لَاتَّخَذْتَ» وأبو عمرو: «لَتَخِذْتَ» وهي قراءةُ ابنِ مسعود والحسن وقتادة[١]، وهما لغتان بمعنى واحد من الأَخْذ[٢]، مثل قولك: تَبِع واتَّبع، وتَقى واتّقى[٣]. وأدغم بعض القرَّاء الذَّالَ في التاء، ولم يدغمها بعضهم. وفي حديث أبيٍّ بن كعب: لو شئت لأوتيت أجراً[٤]. وهذه صدرت من موسى سؤالاً على جهة العَرْض لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر: «هذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ» بحكم ما شرطتَ على نفسِك[٥]. وتكريره: «بيني وبينك» وعدوله عن بيننا؛ لمعنى التأكيد. قال سيبويه: كما يقال: أخزى اللهُ الكاذبَ منِّي ومنك، أي: منَّا[٦]. وقال ابن عباس: وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلبِ شيء من الدنيا، فكان سببَ الفِراق[٧]. وقال وهب بنُ مُنَبِّه: كان ذلك الجدار جداراً طوله في السماء مئة ذراع.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً» تأويل الشيء: مآله، أي: قال له: إنِّي أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ. وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر: إنَّها حُجَّة على موسى، وعجباً له. وذلك أنَّه لما أنكر أمر خَرْقِ السفينة نُوديَ: يا موسى، أين كان تدبيرُك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليمِّ؟ فلما أنكر أمرَ الغلام قيل له: أين إنكارُك هذا مِن وكزك القِبْطيَّ وقضائِك عليه؟ فلما أنكر إقامةَ الجدار نُوديَ: أين هذا مِن رَفْعِك حجرَ البئر لبناتِ شعيب دون أجرٍ؟![٨]

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤، والكلام منه، والتيسير ص١٤٥، والسبعة ص٣٩٦.

(٢) المفهم ٦/ ٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٦.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤.

(٥) المفهم ٦/ ٢١٠.

(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٠٤، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٦٨.

(٧) لطائف الإشارات ٢/ ٤١١.

(٨) عرائس المجالس ص٢٣١ - ٢٣٢.

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ استدلَّ بهذا مَن قال: إنَّ المسكينَ أحسنُ حالاً من الفقير، وقد مضى هذا المعنى مستوفى في سورة براءة[1]. وقد قيل: إنَّهم كانوا تجاراً، ولكن من حيث هم مسافرون عن قلَّة في لجَّة بحر، وبحال ضَعْف عن مدافعة خَطْب، عَبَّر عنهم بمساكين، إذ هم في حالة يُشفَق عليهم بسببها، وهذا كما تقول لرجل غنيٍّ وقع في وَهْلَة أو خَطْب: مسكينٌ[2]. وقال كعب وغيره: كانت لعشَرة إخوةٍ من المساكين ورثوها من أبيهم، خمسة زَمْنى، وخمسة يعملون في البحر[3]. وقيل: كانوا سبعةً، لكل واحد منهم زَمَانة ليست بالآخر. وقد ذكر النقَّاش أسماءَهم[4]، فأمَّا العمّال منهم؛ فأحدهم كان مجذوماً، والثاني: أعور، والثالث: أعرج، والرابع: آدَر، والخامس: محموماً لا تنقطع عنه الحمَّى الدَّهرَ كلَّه، وهو أصغرهم، والخمسة الذين لا يطيقون العمل: أعمى وأصمُّ وأخرس ومُقْعد ومجنون، وكان البحر الذي يعملون فيه ما بين فارس والروم، ذكره الثعلبيُّ.

وقرأت فرقة: «لِمَسَّاكِينَ» بتشديد السين[5]، واختلف في ذلك فقيل: هم مَلَّاحو

---

(١) ٢٤٦/١٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٦ ، والمفهم ٦/ ٢١٠ .

(٤) التعريف والإعلام ص١٠٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ ، وقرأ بها سيدنا علي بن أبي طالب كما في البحر المحيط ٦/ ١٥٣ .

السفينة، وذلك أنَّ المسَّاك هو الذي يُمسِك رجل السفينة، وكلُّ الخدمة تصلح لإمساكه، فسمِّي الجميعُ مسَّاكين. وقالت فرقة: أراد بالمسَّاكين: دَبَغة المُسُوك، وهي الجلود، واحدها: مَسْك. والأظهر قراءة: «مساكين» بالتخفيف، جمع مسكين، وأنَّ معناها: إنَّ السفينةَ لقوم ضعفاء ينبغي أن يُشفَق عليهم(١)، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيب، يقال: عِبتُ الشيءَ فعاب، إذا صار ذا عَيب، فهو معِيب وعائب(٢).

وقوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ قرأ ابن عباس وابن جبير: «صحيحةٍ»(٣)، وقرأ أيضاً ابن عباس وعثمان بن عفان: «صالحةٍ»(٤). و«وراء» أصلها بمعنى خَلْف، فقال بعض المفسرين: إنَّه كان خَلْفه وكان رجوعهم عليه(٥). والأكثر على أنَّ معنى «وراء» هنا أمام، يَعضُده قراءةُ ابنِ عباس وابنِ جبير: «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْباً»(٦). قال ابن عطيَّة(٧): «وراءهم» هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظَ إنَّما تجيء مراعًى بها الزمان، وذلك أنَّ الحادث المقدَّم الموجود هو الأمام، والذي يأتي بعده هو الوراء وهو ما خَلْف، وذلك بخلاف ما يظهر باديَ الرأي، وتأمَّل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت، تَجِدْها تَطَّرِد، فهذه الآية معناها: إنَّ هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتي بعده في الزمان غصب هذا الملك، ومن قرأ: «أمامهم» أراد في المكان، أي: كأنَّهم يسيرون إلى بلد. وقوله عليه الصلاة

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ .

(٢) الصحاح (عيب).

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ ، وقراءة ابن عباس أخرجها الطبري ١٥/ ٣٥٦ .

(٤) قراءة ابن عباس أخرجها البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، والطبري ١٥/ ٣٥٦ ، وقراءة عثمان بن عفان ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٥ .

(٦) تقدمت القراءة قريباً.

(٧) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥ .

والسلام: «الصلاةُ أمامك»[١] يريد في المكان، وإلَّا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمان، وتأمَّل هذه المقالةَ فإنَّها مريحةٌ من شغب هذه الألفاظ، ووقع لقتادة في كتاب الطبري[٢]: «وكان وراءهم ملك» قال قتادة: أَمامهم، ألا تراه يقول: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] وهي بين أَيديهم. وهذا القول غيرُ مستقيم، وهذه هي العجمة التي كان الحسنُ بنُ أبي الحسن يضجُّ منها، قاله الزجَّاج[٣].

قلت: وما اختاره هذا الإمامُ قد سبقه إليه في ذلك ابنُ عرفة قال الهَرويُّ: قال ابن عرفة: يقول القائل كيف قال: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١٦] وهي أمامه؟ فزعم أبو عبيد وأبو عليٍّ قُطْرُب أنَّ هذا من الأضداد، وأنَّ وراء في معنى قُدَّام، وهذا غيرُ محصَّل؛ لأنَّ أمام ضدُّ وراء، وإنَّما يصلح هذا في الأوقات، كقولك للرجل إذا وعد وعداً في رجب لرمضان ثم قال: ومن ورائك شعبان، لجاز وإن كان أَمامه؛ لأنَّه يَخْلفه إلى وقت وعده، وأشار إلى هذا القول أيضاً القشيريُّ وقال: إنَّما يقال هذا في الأوقات، ولا يقال للرجل أَمامك: إنَّه وراءك، قاله الفرَّاء[٤]، وجوَّزه غيرُه، والقوم ما كانوا عالمينَ بخبر الملك، فأخبر اللهُ تعالى الخضرَ حتى عَيَّب السفينةَ، وذكره الزجَّاج[٥]. وقال الماورديُّ[٦]: اختلف أهلُ العربية في استعمال «وراء» موضعَ «أمام» على ثلاثة أقاويل: أحدها: يجوز استعمالها بكلِّ حال، وفي كل مكان، وهو من الأضداد، قال الله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] أي: من أمامهم: وقال الشاعر:

أتـرجـو بَـنُـو مَرْوانَ سَـمْعِي وطـاعـتـي ... وقَـوْمِـي تَـمـيـمٌ والـفَـلَاةُ وَرَائِـيـا[٧]

---

(١) سلف ٣/ ٣٤٢.
(٢) في التفسير ١٥/ ٣٥٤.
(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٥٧.
(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٥٧.
(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٠٥.
(٦) في النكت والعيون ٣/ ٣٣٢ - ٣٣٣.
(٧) نسب هذا البيت لسوَّار بن المُضَرَّب، ونسب أيضاً لمساور بن حمثان، وسلف ١٢/ ١٢٠.

يعني: أمامي.

والثاني: أنَّ «وراء» تستعمل في موضع «أمام» في المواقيت والأزمان؛ لأنَّ الإنسانَ يَجُوزها فتصير وراءَه، ولا يجوز في غيرها.

الثالث: أنَّه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحَجَرين متقابلين، كلٌّ واحد منهما وراءَ الآخر، ولا يجوز في غيرها، وهذا قول علي بن عيسى.

واختلف في اسم هذا الملك فقيل: هُدَد بنُ بُدَد. وقيل: الجَلَنْدي(١)، وقال السهيليُّ(٢): وذكر البخاريُّ اسمَ الملك الآخذ لكلِّ سفينة غصباً فقال: هو [هُدَد بن بَدد، وذكر اسم الغلام المقتول فقال هو:] جَيْسور، وهكذا قيَّدناه في «الجامع» من رواية أبي يزيد المَرْوزيِّ، وفي غير هذه الرواية: حَيْسور بالحاء(٣)، وعندي في حاشية الكتاب رواية ثالثة: وهي حسنون(٤). وكان يأخذ كلَّ سفينة جيِّدة غصباً، فلذلك عابها الخضرُ وخَرَقَها، ففي هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقَّق وجهها، وجواز إصلاح كلِّ المال بإفساد بعضه(٥)، وقد تقدَّم. وفي «صحيح مسلم»(٦) وجهُ الحكمةِ بِخَرْق السفينة وذلك قوله: فإذا جاء الذي يُسخِّرها، وجدها منخرقةً فتَجاوَزها، فأصلحوها بخشبة، الحديث. وتحصَّل من هذا الحضُّ على الصبر في الشدائد، فكم في ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة:٢١٦](٧).

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥، والمفهم ٦/ ٢١٠، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٣٠٩.

(٢) في التعريف والإعلام ص١٠٤ - ١٠٥، وما بين حاصرتين منه، ومن صحيح البخاري (٤٧٢٦)، وينظر فتح الباري ٨/ ٤٢٠.

(٣) في (د): جيسور بالجيم.

(٤) في (م): حيسون. وفي التعريف والإعلام ص١٠٥: جنون. وينظر فتح الباري ٨/ ٤٢٠.

(٥) المفهم ٦/ ٢٠٤.

(٦) برقم (٢٣٨٠).

(٧) المفهم ٦/ ٢١٠ - ٢١١.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ جاء في صحيح الحديث: «أنَّه طُبع يوم طُبع كافراً»[١] وهذا يؤيِّد ظاهره أنَّه غيرُ بالغ، ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ قيل: هو من كلام الخضرِ عليه السلام، وهو الذي يَشهد له سياقُ الكلام، وهو قول كثيرٍ من المفسِّرين[٢]، أي: خِفْنا أن يرهقهما طغياناً وكفراً، وكان اللهُ قد أباح له الاجتهادَ في قتل النفوس على هذه الجهة. وقيل: هو من كلامِ الله تعالى وعنه عبَّر الخضر، قال الطبريُّ[٣]: معناه: فعلمنا، وكذا قال ابن عباس أي: فعلمنا، وهذا كما كنى عن العِلْم بالخوف في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وحكي أنَّ أُبيًّا قرأ: «فَعَلِمَ ربُّك». وقيل: الخشية بمعنى الكراهة، يقال: فرَّقت بينهما خشيةَ أن يقتتلا، أي: كراهةَ ذلك. قال ابن عطيَّة[٤]: والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل ـ وإن كان اللفظُ يدافعه ـ أنَّها استعارةٌ، أي: على ظنِّ المخلوقين والمخاطبين لو عَلموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود: «فخاف ربك»[٥] وهذا بيِّن في الاستعارة، وهذا نظير ما وقع في القرآن في جهة الله تعالى من «لعل» و«عسى» وأنَّ جميعَ ما في هذا كلِّه من ترجٍّ وتوقُّع وخوف وخشية إنَّما هو بحسبكم أيُّها المخاطبون. و«يرهقهما»: يجشِّمهما ويكلِّفهما، والمعنى أن يلقيهما حبُّه في اتِّباعه، فيضلَّا ويتدينا بدِينه.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ قرأ الجمهور: بفتح الباء وشدِّ الدال، وقرأ عاصم: بسكون الباء وتخفيف الدال[٦]، أي: أن يرزقهما اللهُ ولداً.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦، والحديث أخرجه مسلم (٢٣٨٠)، وأحمد (٢١١١٨) عن أُبي بن كعب ﷺ.

(٢) المفهم ٦/ ٢١٣.

(٣) في التفسير ١٥/ ٣٥٧-٣٥٨، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦.

(٥) أخرجها عنه الطبري ١٥/ ٣٥٧.

(٦) السبعة ص٣٩٧، والتيسير ص١٤٥.

﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي: ديناً وصلاحاً، يقال: بدَّل وأبدل، مثل مَهَّلَ وأمهل، ونَزَّل وأنزل. ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قرأ ابن عامر[1]: «رُحُماً» بالضمِّ، قال الشاعر:

وكـيـف بـظـلـمِ جـاريـةٍ ومـنـهـا الـلِّـيـنُ والـرُّحُـمُ[2]

الباقون بسكونها[3]، ومنه قول رُؤْبةَ بنِ العَجَّاج:

يـا مُـنْـزِلَ الـرُّحـمِ عـلـى إدريـسَـا ومُـنْـزِلَ الـلَّـعْـنِ عـلـى إبـلـيـسَـا[4]

واختلف عن أبي عمرو[5].

و«رحماً» معطوف على «زكاة» أي: رحمة، يقال: رَحِمه رَحْمةً ورُحْماً، وألفه للتأنيث، ومذكَّره رُحْم. وقيل: الرُّحم هنا بمعنى الرَّحِم، قرأها ابن عباس: «وأَوْصَلَ رُحْماً» أي: رَحِماً[6]. وقرأ أيضاً: «أزكى منه». وعن ابن جبير وابن جريج أنَّهما بُدِّلا جاريةً[7]، قال الكلبيُّ: فتزوَّجها نبيٌّ من الأنبياء، فولدت له نبيًّا، فهدى اللهُ تعالى على يديه أمَّة من الأمم. قتادة: ولدت اثني عشَر نبيًّا. وعن ابن جريج أيضاً أنَّ أمَّ الغلام يوم قُتل كانت حاملاً بغلام مسلم، وكان المقتولُ كافراً. وعن ابن عباس: فولدت جاريةً ولدت نبيًّا، وفي رواية: أبدلهما اللهُ به جاريةً ولدت سبعين نبيًّا[8]، وقاله جعفر بنُ محمد عن أبيه[9]، قال علماؤنا: وهذا بعيد، ولا تُعرف كثرة الأنبياء

---

(١) في النسخ: ابن عباس، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ والعبارة منه، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٨٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ بفتح الراء وكسر الحاء.

(٢) القائل الوليد بن يزيد، والبيت في ديوانه ص١١١ .

(٣) قرأ ابن عامر بضمِّ الحاء، وقرأ الباقون بسكونها، واختلف عن أبي عمرو فروي عنه تسكين الحاء وتحريكها. السبعة ص٣٩٧ ، والتيسير ص١٤٥ .

(٤) ملحق ديوان رؤبة ص١٧٥ .

(٥) تقدم الكلام عليها قريباً.

(٦) المفهم ٦/ ٢١٣ ، وفيه: ومذكَّره رحيم.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ١٧٧ .

إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم[١].

ويستفاد من هذه الآية تهوينُ المصائب بفَقْد الأولاد وإن كانوا قِطَعاً من الأكباد، ومن سَلَّم للقضاء، أَسفرت عاقبته عن اليد البيضاء[٢]. قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين وُلد وحَزِنا عليه حين قُتل، ولو بقي، كان فيه هلاكُهما، فالواجب على كلِّ امرئٍ الرضا بقضاءِ الله تعالى، فإنَّ قضاءَ اللهِ للمؤمن فيما يَكره خيرٌ له من قضائه له فيما يُحب[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وَصْفهما باليتم، واسمهما أَصرم وأصيرم[٤]. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا يُتْمَ بعد بلوغٍ» هذا هو الظاهر. وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسمُ اليُتم بعد البلوغ إن كانا يتيمين، على معنى الشفقة عليهما[٥]. وقد تقدَّم[٦] أن اليُتمَ في الناس من قِبَلِ فَقْدِ الأب، وفي غيرهم من الحيوان من قِبَلِ فَقْدِ الأمِّ.

ودلَّ قوله: ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ على أنَّ القريةَ تسمَّى مدينةً، ومنه الحديث: «أُمرتُ بقرية تأكل القُرَى»[٧] وفي حديث الهجرة: «لمن أنت» فقال الرجل: من أهل

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٥٣٦.

(٢) المفهم ٦/٢١٣.

(٣) عرائس المجالس ص٢٣٠، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢٠٢١١)، والطبري ١٥/٣٥٩ - ٣٦٠، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٧٢).

(٤) في (م): وصريم. وكذا في التعريف والإعلام ص١٠٥، والمثبت من (د) و(ظ) و(ز) و(ف)، والمفهم ٦/٢١٤.

(٥) المحرر الوجيز ٣/٥٣٦ - ٥٣٧، وتفسير أبي الليث ٢/٣٠٩، والحديث أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/٥٧، عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: حفظتُ عن رسول الله ﷺ: «لا يتم بعد احتلام، ولا صمات يوم إلى الليل». قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/١٠١: وقد أعلّه العقيلي وعبد الحق وابن القطان والمنذري وغيرهم، وحسَّنه النووي متمسكاً بسكوت أبي داود عليه.

(٦) ٢/٢٢٩، والكلام من المفهم ٦/٢١٤.

(٧) أخرجه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢)، وأحمد (٧٢٣٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المدينة[١]، يعني: مكّة[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ اختلف الناس في الكنز، فقال عِكرِمة وقتادة: كان مالاً جسيماً[٣]. وهو الظاهر من اسم الكنز، إذ هو في اللغة: المال المجموع، وقد مضى القول فيه[٤].

وقال ابن عباس: كان عِلْماً في صُحُفٍ مدفونة[٥]. وعنه أيضاً قال: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، عجبتُ لمن يؤمن بالقَدَر كيف يَحزن، عجبتُ لمن يؤمنُ بالرزق كيف يتعب، عجبتُ لمن يؤمن بالموت كيف يَفرح، عجبتُ لمن يؤمن بالحساب كيف يَغفل، عجبتُ لمن يؤمن بالدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يَطمئن لها، لا إله إلا الله محمَّد رسول الله[٦]. وروي نحوه عن عكرمة وعمر مولى غُفْرة[٧]، ورواه عثمان بن عفان ﷺ عن النبيِّ ﷺ[٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنَّه والدهما دِنْيةً[٩]. وقيل: هو الأبُ السابع، قاله جعفر بنُ محمد. وقيل: العاشر، فَحُفِظا فيه وإن لم

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩) في كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة، واللفظ له، والكلام من المفهم ٥/ ٢٧٧ .

(٢) بعدها في (د) و(ظ): واسم هذه المدينة، قاله مقاتل.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ ، وأخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٣٦٥ .

(٤) ١٠/ ١٨٦ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٣٦٢ بنحوه.

(٦) عرائس المجالس ص٢٣٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٧٧ ، وزاد المسير ٥/ ١٨١ .

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ عن عمر مولى غفرة، ولم نقف عليه من قول عكرمة.

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥ (١٢٨٨٠) عن أبي ذر مرفوعاً، وأبو الليث السمرقندي ٢/ ٣٠٨ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٦٢ ، عن أنس مرفوعاً، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٣٥ عن علي مرفوعاً، وعزاه لابن مردويه، وينظر الكافي الشاف ص١٠٤ .

(٩) في (د): زينة، وفي (ظ): دفنه.

يُذْكَرا بصلاح[(١)]، وكان يسمَّى: كاشحاً[(٢)]، قاله مقاتل. واسم أمِّهما: دنيا، ذكره النقَّاش.

ففيه ما يدلُّ على أنَّ الله تعالى يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بَعدُوا عنه. وقد روي أنَّ اللهَ تعالى يحفظ الصالحَ في سبعة من ذرِّيَّته، وعلى هذا يدلُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦][(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ يقتضي أنَّ الخضر نبيٌّ، وقد تقدَّم الخلاف في ذلك.

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أي: تفسير. ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قرأت فرقة: «تَسْتَطِعْ». وقرأ الجمهور: «تَسْطِعْ» قال أبو حاتم: كذا نقرأ كما في خطِّ المصحف[(٤)]. **وهنا خمس مسائل:**

الأولى: إن قال قائل: لم يُسمَع لفتى موسى ذِكر في أوَّل الآية ولا في آخرِها، قيل له: اختلف في ذلك، فقال عكرمة لابن عباس: لم يُسمَع لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟ فقال: شرب الفتى من الماء فخلَّد، وأخذه العالِم فطبَّق عليه سفينة ثم أرسله في البحر، وإنَّها لتموج به فيه إلى يوم القيامة، وذلك أنَّه لم يكن له أن يشرب منه، فشرب منه. قال القشيريُّ: وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون، فإنَّ يوشعَ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ إلا أنه لم يذكر جعفر بن محمد، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٦٢ - ١٦٣، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٦.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٠، والبغوي ٣/ ١٧٧، والمفهم ٦/ ٢١٤ وفيه أن اسمه: كاسحاً. وكذا في (ظ).

(٣) المفهم ٦/ ٢١٤، وأخرج ابن المبارك في الزهد ١/ ١١١ - ١١٢، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ١٤٨، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٥٩ عن محمد بن المنكدر أنه قال: إن الله عزَّ وجلَّ ليحفظ بصلاح العبد ولده، وولد ولده، وأهل دويرته، وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله تعالى ما دام فيهم. وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٣٦ وقال بعده: وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ مثله. اهـ. ولم نقف عليه.

وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ٧/ ٢٣٧٥ (١٢٨٨٣) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧.

ابنَ نون قد عُمِّر بعد موسى وكان خليفتَه، والأظهر أنَّ موسى صرف فتاه لما لقي الخضر. وقال شيخنا الإمام أبو العباس[١]: يحتمل أن يكون اكتفى بذِكْر المتبوع عن التابع، والله أعلم.

الثانية: إن قال قائل: كيف أَضاف الخضرُ قصَّةَ استخراج كنز الغلامين للهِ تعالى، وقال في خرق السفينة: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا» فأضاف العيبَ إلى نفسه؟ قيل له: إنَّما أسند الإرادة في الجدار إلى الله تعالى؛ لأنَّها في أمر مستأنف في زمن طويل غيبٍ من الغيوب، فحسُن إفرادُ هذا الموضع بذِكْر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد ذلك، الذي أَعلمه اللهُ تعالى أنه يريده. وقيل: لما كان ذلك خيراً كلَّه أَضافه إلى اللهِ تعالى، وأضاف عيبَ السفينة إلى نفسِه؛ رعاية للأدب، لأنَّها لفظةُ عيب، فتأدَّب بأن لم يُسند الإرادةَ فيها إلا إلى نفسِه، كما تأدَّب إبراهيمُ عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فأَسند الفِعْلَ قبلُ وبعدُ إلى الله تعالى، وأَسند إلى نفسِه المرضَ، إذ هو معنى نقص ومصيبة[٢]، فلا يُضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يُستحسَن منها دونَ ما يُستقبَح، وهذا كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ واقتصر عليه فلم ينسب الشَّرَّ إليه، وإن كان بيده الخيرُ والشرُّ والضرُّ والنفع، إذ هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء خبير.

ولا اعتراضَ بما حكاه عليه الصلاة والسلام عن ربِّه عزَّ وجلَّ أنَّه يقول يوم القيامة: «يا ابنَ آدم مرضتُ فلم تَعُدْني، واستطعمتُك فلم تُطعمني، واستسقيتك فلم تَسقني»[٣] فإنَّ ذلك تَنزُّلٌ في الخطاب، وتلطُّف في العتاب، مقتضاه التعريف بفَضْل ذي الجلال، وبمقادير ثواب هذه الأعمال، وقد تقدَّم هذا المعنى، والله تعالى أعلم.

---

(١) في المفهم ٦/ ٢٠٣ .

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ .

(٣) سلف ٢/ ٤٣٨ .

ولله تعالى أن يُطلِق على نفسه ما يشاء، ولا نُطلِق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة، والأفعال الشريفة، جلَّ وتعالى عن النقائص والآفات علوًّا كبيراً. وقال في الغلام: «فأردنا» فكأنَّه أضاف القَتْلَ إلى نفسه، والتبديلَ إلى الله تعالى. والأشدُّ كمال الخَلْق والعقل. وقد مضى الكلام فيه في «الأنعام»[١]، والحمد لله.

الثالثة: قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قومٌ من زنادقة الباطنيَّة إلى سلوك طريق يلزم منه هدُّ[٢] الأحكام الشرعيَّة، فقالوا: هذه الأحكام الشرعيَّة العامة إنَّما يُحكم بها على الأغبياء[٣] والعامَّة، وأمَّا الأولياء وأهلُ الخصوص فلا يَحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنَّما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويُحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطِرهم. وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم، عن الأكدار، وخلوِّها عن الأغيار، فتتجلَّى لهم العلوم الإلهيَّة، والحقائق الربانيَّة، فيقفون على أسرار الكائنات، ويَعلمون أحكام الجزئيَّات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليَّات، كما اتفق للخضر؛ فإنَّه استغنى بما تجلَّى له من العلوم، عمَّا كان عند موسى من تلك الفُهوم. وقد جاء فيما ينقلون: استفتِ قلبَك وإن أفتاكَ المُفْتون[٤]. قال شيخنا ﷺ: وهذا القول زندقةٌ وكُفر، يُقتَل قائلُه ولا يستتاب؛ لأنَّه إنكار ما عُلم من الشرائع، فإنَّ اللهَ تعالى قد أجرى سنَّته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تُعلَم إلا بواسطة رُسُله السفراء بينه وبين خَلْقه، وهم المبلِّغون عنه رسالته وكلامه، المبيِّنون شرائعَه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصَّهم بما هنالك، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ [الحج: ٧٥] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ

---

(١) ٩/ ١١١ وما بعدها.

(٢) في النسخ: هذه، والمثبت من المفهم ٦/ ٢١٨، الكلام منه.

(٣) في (ظ) والمفهم: الأغنياء، وفي (م): الأنبياء. والمثبت من (ز) و(د).

(٤) سلف ٨/ ٤٥٨.

ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة:٢١٣] إلى غيرِ ذلك من الآيات.

وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعيُّ، واليقين الضروريُّ، واجتماع السلف والخَلَف على أن لا طريقَ لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يُعرَف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إنَّ هناك طريقاً آخرَ يُعرَف بها أمرُه ونهيُه غيرَ الرسل بحيث يُستغنى عن الرسل، فهو كافر، يُقتَل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جوابٍ، ثم هو قول بإثباتِ أنبياء بعد نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، الذي قد جعله اللهُ خاتمَ أنبيائه ورسله، فلا نبيَّ بعدَه ولا رسولَ. وبيان ذلك أنَّ من قال: يأخذ عن قلبه، وأنَّ ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنَّه يعمل بمقتضاه، وأنَّه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سُنَّة، فقد أثبت لنفسِه خاصَّة النبوَّة، فإنَّ هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ روح القدس نَفثَ في رُوْعي» الحديث[(١)].

الرابعة: ذهب الجمهور من الناس إلى أنَّ الخضرَ مات ﷺ. وقالت فرقة: حيٌّ؛ لأنَّه شرب من عين الحياة، وأنه باقٍ في الأرض، وأنَّه يحجُّ البيت. قال ابن عطيَّة[(٢)]: وقد أَطنب النقَّاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن عليٍّ بن أبي طالب

(١) المفهم ٦/ ٢١٩ ، والحديث أخرجه الشافعي في مسنده (١/ ١٣ - ١٤ بدائع المنن)، والبغوي في شرح السنة (٤١١٠)، من حديث المطلب بن حنطب مرفوعاً مرسلاً، وابن أبي شيبة ١٣/ ٢٢٧ ، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والعسكري في تصحيفات المحدثين ١/ ٢٠٩ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤ ، والبغوي في شرح السنة (٤١١١) و(٤١١٢) و(٤١١٣) من طرق، عن ابن مسعود مرفوعاً وبعضه منقطع، والآخر مرسل. وأخرجه أيضاً البزار في مسنده (٢٩١٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٧١ : رواه البزار وفيه: قدامة بن زائدة بن قدامة ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات.

وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢٦ - ٢٧ من حديث أبي أمامة مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١١٦ : وفيه عفير بن معدان، وهو ضعيف.

وله شاهد من حديث أبي الزبير عن جابر عند الحاكم ٢/ ٤ وقال: صحيح على شرط مسلم.

قال العسكري في تصحيفات المحدثين ١/ ٢١٠ : النفث بالفم شبيه بالنفخ، ومعنى رُوعي: في خَلَدي ونفسي.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧ ، وما قبله منه.

وغيره، وكلُّها لا تقوم على ساقٍ. ولو كان الخضرُ عليه السلام حيًّا يحجُّ لكان له في ملَّة الإسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ربَّ غيره. ومما يقضي بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة والسلام: «أرأيتَكم ليلتَكم هذه، فإنَّه لا يَبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ»[1].

قلت: إلى هذا ذهب البخاريُّ، واختاره القاضي أبو بكر بن العربي[2]، والصحيح القول الثاني، وهو أنَّه حيٌّ على ما نذكره. والحديث خرَّجه مسلم في «صحيحه»[3] عن عبد الله بن عمر قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذاتَ ليلة صلاةَ العشاء في آخر حياته، فلما سلَّم قام فقال: «أرأيتَكم ليلتَكم هذه، فإنَّ على رأس مئة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحدٌ» قال ابن عمر: فَوَهَل[4] الناسُ في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدَّثون من هذه الأحاديث عن مئة سنة، وإنَّما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ» يريد بذلك أن يَنْخرِم ذلك القَرْن.

ورواه أيضاً من حديث جابر بنِ عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموتَ بشهر: «تسألوني عن الساعة وإنَّما عِلْمها عند الله وأُقسم بالله، ما على الأرض من نفس مَنْفُوسة تأتي عليها مئة سنة» وفي أخرى: قال سالم: تذاكرنا أنَّها هي مخلوقة يومئذ. وفي أخرى: «ما من نفسٍ منفوسة اليوم يأتي عليها مئة سنة وهي حيَّة يومئذ». وفسَّرها عبد الرحمن صاحبُ السقاية قال: نقص العمر[5].

وعن أبي سعيد الخدري نحو هذا الحديث[6].

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

(٢) التعريف والإعلام ص١٠٤ .

(٣) برقم (٢٥٣٧)، وهو عند البخاري (١١٦)، وأحمد (٥٦١٧).

(٤) وَهَل: غلط، ووهَلت إليه وَهَلاً: إذا ذهب وهمك إليه وأنت تريد غيره. المفهم ٦/ ٤٩١ .

(٥) صحيح مسلم الأولى برقم (٢٥٣٨): (٢١٨)، والثانية برقم (٢٥٣٨): (٢٢٠)، والثالثة برقم (٢٥٣٨): (٠٠)، وكلام عبد الرحمن صاحب السقاية إثر هذه الرواية.

(٦) أخرجه مسلم (٢٥٣٩).

قال علماؤنا: وحاصل ما تضمَّنه هذا الحديثُ أنَّه عليه الصلاة والسلام أَخبر قبل موته بشهر أنَّ كلَّ من كان من بني آدم موجوداً في ذلك الوقت لا يزيد عمرُه على مئة سنة لقوله عليه الصلاة والسلام: «ما من نفس مَنْفوسة» وهذا اللفظ لا يتناول الملائكةَ ولا الجنَّ؛ إذ لم يصحَّ عنهم أنَّهم كذلك، ولا الحيوان غير العاقل؛ لقوله: «ممَّن هو على ظهر الأرض أحدٌ» وهذا إنَّما يقال بأصل وَضْعه على من يعقل، فتعيَّن أنَّ المرادَ بنو آدم. وقد بيَّن ابنُ عمر هذا المعنى، فقال: يريد بذلك أن يَنْخرم ذلك القَرْن. ولا حجَّة لمن استدل به على بطلانِ قول من يقول: إنَّ الخضر حيٌّ؛ لعموم قوله: «ما من نفس منفوسة» لأنَّ العمومَ وإن كان مؤكَّد الاستغراق، فليس نَصًّا فيه، بل هو قابلٌ للتخصيص، فكما لم يتناول عيسى عليه السلام، فإنَّه لم يمت ولم يقتل، فهو حيٌّ بنصِّ القرآن ومعناه، ولا يتناول الدجَّالَ مع أنَّه حيٌّ؛ بدليل حديث الجَسّاسة، فكذلك لم يتناول الخضر عليه السلام وليس مشاهداً للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبةِ بعضهم بعضاً، فمثل هذا العموم لا يتناوله[1].

وقد قيل: إنَّ أصحابَ الكهف أحياءٌ ويحجُّون مع عيسى عليه الصلاة والسلام، كما تقدَّم. وكذلك فتى موسى في قول ابنِ عباس كما ذكرنا. وقد ذكر أبو إسحاق الثعلبي في كتاب «العرائس»[2] له: والصحيح أنَّ الخضر نبيٌّ مُعمَّر محجوب عن الأبصار، وروى محمد بن المتوكل، عن ضمرة[3]، عن عبد الله بن سوَّار قال: الخضر عليه السلام من وَلَدِ فارس، وإلياس من بني إسرائيل، يلتقيان كلَّ عام في الموسم. وعن عمرو بن دينار قال: إنَّ الخضر وإلياس لا يزالان حيَّين في الأرض ما دام القرآن على الأرض، فإذا رُفع، ماتا.

---

(١) المفهم ٦/ ٤٩٠، وحديث الجساسة أخرجه مسلم (٢٩٤٢) من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

(٢) ص٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) ليست في (د).

وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي اللَّخمي في «شرح الرسالة» له للقشيري حكاياتٍ كثيرةً عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنَّهم رأوا الخضر عليه السلام ولَقوه، يفيد مجموعها غايةَ الظَّنِّ بحياته مع ما ذكره النقَّاش والثعلبيُّ وغيرهما.

وقد جاء في «صحيح مسلم»(١): «أنَّ الدجَّالَ ينتهي إلى بعض السِّباخ التي تلي المدينةَ، فيخرج إليه يومئذٍ رجلٌ هو خير الناس، أو: من خير الناس» الحديث، وفي آخره قال أبو إسحاق: يعني أنَّ هذا الرجلَ هو الخضرُ.

وذكر ابنُ أبي الدنيا في كتاب «الهواتف»(٢) بسند يوقفه إلى عليِّ بنِ أبي طالب ﷺ أنَّه لَقِيَ الخضرَ وعلَّمه هذا الدعاء، وذكر أنَّ فيه ثواباً عظيماً ومغفرةً ورحمة لمن قاله في إثر كل صلاة، وهو: يا من لا يَشغله سمعٌ عن سمع، ويا من لا تَغلطه المسائل، ويا من لا يتبرَّم من إلحاح الملحِّين، أذقني بَرْد عفوك، وحلاوةَ مغفرتك.

وذكَر أيضاً عن عمر بن الخطاب ﷺ في هذا الدعاء بعينه نحواً مما ذكر عن عليِّ ابنِ أبي طالب ﷺ في سماعِه من الخضر(٣). وذكَر أيضاً اجتماعَ إلياس مع النبيِّ عليه الصلاة والسلام(٤). وإذا جاز بقاءُ إلياس إلى عهد النبيِّ ﷺ جاز بقاءُ الخضر، وقد ذكَر أنَّهما يجتمعان عند البيت في كلِّ حول، وأنَّهما يقولان عند افتراقهما: ما شاء الله ما شاء الله، لا يَصرِف السوءَ إلا الله، ما شاء الله ما شاء الله، ما يكون من نعمةٍ فمن الله، ما شاء الله ما شاء الله، توكَّلت على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل(٥). وأما خبر

---

(١) برقم (٢٩٣٨).

(٢) ص٥٢ ، وفي إسناده صالح بن أبي الأسود، قال عنه الذهبي: واهٍ.

(٣) الهواتف ص٥٧ .

(٤) الهواتف ص٧٨ - ٧٩ ، وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٧ ، قال الذهبي في التلخيص: موضوع، قبَّح الله من وضعه. وسيأتي مطولاً في الصافات (١٢٣).

(٥) من قوله: وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب الهواتف... إلى هنا نقله من التعريف والإعلام ص١٠٧ .

إلياس فيأتي في «والصافات»[١] إن شاء الله تعالى. وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب «التمهيد»[٢] عن عليٍّ ﷺ قال: لما توفي النبيُّ ﷺ وسُجِّي بثوب، هتف هاتفٌ من ناحية البيت يسمعون صوتَه ولا يرونَ شخصه: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته، السلامُ عليكم أهلَ البيت، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٥]، إنَّ في الله خَلَفاً من كلِّ هالك، وعِوضاً من كلِّ تالف، وعَزاء من كلِّ مصيبة، فبالله فثقوا، وإيَّاه فارجوا، فإنَّ المصابَ من حُرِم الثوابَ. فكانوا يرون أنَّه الخضر عليه الصلاة والسلام، يعني: أصحاب النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

والألف واللام في قوله: «على الأرض»[٣] للعهد لا للجنس، وهي أرض العرب، بدليل تصرُّفهم فيها وإليها غالباً، دون أرض يأجوج ومأجوج، وأقاصي جزر الهند والسند مما لا يقرع السمعَ اسمُه، ولا يُعلَم علمه. ولا جواب عن الدجَّال.

قال السهيليُّ[٤]: واختلف في اسم الخضر اختلافاً متبايناً، فعن ابنِ منبِّه أنَّه قال: إيليا بن مَلْكان بن فالغ بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقيل: هو ابن عاميل بن سمالجين بن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحاق، وأنَّ أباه كان مَلِكاً، وأنَّ أُمَّه كانت بنت فارس واسمها ألها، وأنَّها ولدته في مغارة، وأنَّه وجد هنالك وشاة ترضعه في كلِّ يوم من غنم رجل من القرية، فأخذه الرجل فربَّاه، فلما شَبَّ وطلب الملِكُ ـ أبوه ـ كاتباً وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصُّحف التي أُنزلت على إبراهيم وشيث، كان ممَّن أَقدم عليه من الكتَّاب ابنُه الخضرُ وهو لا يعرفه، فلما استحسن خطَّه ومعرفته، وبحث عن جليَّة أمره، عرف أنَّه ابنُه، فضمَّه لنفسه، وولَّاه أمر الناس، ثم إنَّ الخضرَ فرَّ من الملك لأسباب يَطول ذكرها إلى أن وجد عينَ الحياة فشرب منها،

---

(١) عند الآية (١٢٣).

(٢) ٢/ ١٦٢، والمؤلف نقله عن ابن عبد البر بواسطة السهيلي في التعريف والإعلام ص١٠٦ - ١٠٧.

(٣) في قوله ﷺ: «أريتكم ليلتكم هذه...» الحديث المتقدم قريباً، والكلام من المفهم ٦/ ٤٩٠.

(٤) في التعريف والإعلام ص١٠٣ - ١٠٤، وفيه: عمائيل، بدل: عاميل.

فهو حيٌّ إلى أن يَخرج الدجَّالُ، وأنَّه الرجلُ الذي يقتله الدجَّالُ ويقطعه، ثم يحييه اللهُ تعالى. وقيل: لم يدرك زمنَ النبيِّ ﷺ، وهذا لا يصحُّ. وقال البخاريُّ وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بنُ العربي رحمه الله تعالى: إنَّه مات قبل انقضاءِ المئة، من قوله عليه الصلاة والسلام: «إلى رأس مئة عام لا يَبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحدٌ»(١) يعني: من كان حيًّا حين قال هذه المقالة. قلت: قد ذكرنا هذا الحديثَ والكلامَ عليه، وبيَّنا حياةَ الخضر إلى الآن، والله أعلم.

الخامسة: قيل: إنَّ الخضرَ لما ذهب يفارق موسى قال له موسى: أَوصني. قال: كن بَسَّاماً ولا تكن ضَحَّاكاً، ودعِ اللَّجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تَعِبْ على الخطَّائين خطاياهم، وابْكِ على خطيئتك يا ابنَ عمران(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ قال ابن إسحاق(٣): وكان من خبر ذي القرنين أنَّه أُوتيَ ما لم يؤتَ غيرُه، فمدَّت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارقِ الأرض ومغاربِها، لا يطأ أرضاً إلا سُلِّط على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخَلْق. قال ابن

(١) سلف تخريجه قريباً.
(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣١٠، والتعريف والإعلام ص١٠٦.
(٣) السيرة النبوية ١/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

إسحاق: حدَّثني من يسوق الأحاديثَ عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذي القرنين أنَّ ذا القرنين كان من أهل مصر، اسمه مَرْزبان بنُ مَرْدبة اليونانيُّ من ولد يونان بنِ يافث بنِ نوح(١).

قال ابنُ هشام: واسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندريَّة فنُسبت إليه. قال ابن إسحاق: وقد حدَّثني ثورُ بنُ يزيد، عن خالد بن مَعْدان الكَلَاعيِّ ـ وكان خالدٌ رجلاً قد أدرك الناس ـ أنَّ رسول الله ﷺ سُئلَ عن ذي القرنين فقال: «مَلِكٌ مسح الأرضَ من تحتها بالأسباب». وقال خالد: وسمع عمرُ بنُ الخطَّاب ﷺ رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللهمَّ غَفْراً، أما رضيتم أن تُسمُّوا بأسماء الأنبياء حتى تسمَّيتم بأسماء الملائكة؟!(٢) قال ابنُ إسحاق: فالله أعلم أي ذلك كان؟ أقال رسولُ الله ﷺ ذلك أم لا؟ والحقُّ ما قال.

قلت: وقد روي عن عليٍّ بنِ أبي طالب ﷺ مثلَ عمر، سمع رجلاً يدعو آخَرَ: يا ذا القرنين، فقال عليٌّ: أما كفاكم أن تسمَّيتم بأسماءِ الأنبياء حتى تسمَّيتم بأسماء الملائكة؟! وعنه: أنه عَبْد ملِك ـ بكسر اللام ـ صالح، نصح اللهَ فأيَّدَه(٣). وقيل: هو نبيٌّ مبعوثٌ فتح الله تعالى على يدَيْه الأرض. وذكر الدارقطنيُّ في كتاب «الأخبار» أن مَلَكاً يقال له: رباقيل كان ينزل على ذي القرنين، وذلك المَلَك هو الذي يطوي الأرضَ يوم القيامة وينقضها، فتقع أقدامُ الخلائقِ كلِّهم بالساهرة، فيما ذكر بعضُ أهل العلم.

وقال السهيليُّ: وهذا مشاكل بتوكيله بذي القرنين الذي قطَع الأرضَ مشارقَها ومغاربَها، كما أنَّ قصةَ خالد بنِ سنان في تسخير النار له مشاكلة بحال الملَك الموكَّل بها، وهو مالِكٌ عليه السلام وعلى جميع الملائكة أجمعين.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٩ – ٣٩٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٥)، وفيهما أن اسمه: مرزبا بن مردبه.
(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٩٠ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٥) و(٩٨٦).
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨ .

ذكر ابنُ أبي خَيْثَمة في كتاب «البدء» له خالدَ بنَ سِنان العبسيَّ، وذكر نبوَّته، وذكر أنَّه وُكِّلَ به من الملائكة مالكٌ خازن النار، وكان من أعلام نبوَّته أنَّ ناراً يقال لها: نار الحدثان، كانت تخرج على الناس من مغارةٍ فتأكلُ الناسَ ولا يستطيعون ردَّها، فردَّها خالدُ بن سنان فلم تَخرُج بعد[١].

واختلف في اسم ذي القرنين، وفي السبب الذي سُمِّيَ به بذلك اختلافاً كثيراً:

فأمَّا اسمه فقيل: هو الإسكندر الملِك اليوناني المقدوني، وقد تُشدَّد قافُه فيقال: المقّدوني[٢]. وقيل: اسمه هرمس. ويقال: اسمه هرديس. وقال ابن هشام: هو الصعب بنُ ذي يزن الحِميريُّ من ولد وائل بنِ حمير[٣]، وقد تقدَّم قولُ ابنِ إسحاق. وقال وهب بن منبِّه: هو روميٌّ. وذكر الطبريُّ حديثاً عن النبيِّ عليه الصلاة والسلام أنَّ ذا القرنين شابٌّ من الروم. وهو حديثٌ واهي السَّند، قاله ابن عطيَّة[٤]. قال السُّهيليُّ[٥]: والظاهر من عِلْم الأخبار أنَّهما اثنان: أحدهما: كان على عهد إبراهيمَ عليه السلام، ويقال: إنَّه الذي قضى لإبراهيم عليه السلام حين تحاكموا إليه في بئر السبع بالشام. والآخر: أنَّه كان قريباً من عهد عيسى عليه السلام. وقيل: إنَّه أفريدون الذي قتل بيوراسب بن أرو انداسب الملك الطاغي على عهد إبراهيم عليه السلام، أو قبله بزمان.

وأما الاختلاف في السبب الذي سمي به، فقيل: إنه كان ذا ضفيرتين من شَعَر فسمِّي بهما، ذكره الثعلبيُّ وغيره[٦]. والضفائر: قرون الرأس، ومنه قول الشاعر[٧]:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/ ٢٩٨ (١١٧٩٣)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٥٩٩-٦٠٠ عن ابن عباس، قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨.

(٣) التعريف والإعلام ص١٠٨، وفيه: من ولد وائل بن حمير.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨، والخبر عند الطبري ١٥/ ٣٩٠.

(٥) في التعريف والإعلام ص١٠٨، وجاء فيه: بيوراسف بن أندراسف.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨، وعرائس المجالس ص٣٦٢.

(٧) القائل عمر بن أبي ربيعة، والبيت في ديوانه ص٤٣.

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخذاً بِقُرُونِها شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

وقيل: إنَّه رأى في أوَّل ملْكه كأنَّه قابضٌ على قرني الشمس، فقصَّ ذلك، ففسِّر أنَّه سيغلِب ما ذرت عليه الشمسُ، فسمِّي بذلك ذا القرنين. وقيل: إنَّما سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه بلغ المغربَ والمشرقَ، فكأنَّه حاز قرني الدنيا. وقالت طائفة: إنَّه لما بلغ مطلعَ الشمس كشف بالرؤية قرونَها، فسمِّي بذلك ذا القرنين، أو قرني الشيطان بها. وقال وهب بن منبِّه: كان له قرنان تحت عمامته[١].

وسأل ابنُ الكَوَّاء علياً ﷺ عن ذي القرنين أنبيًّا كان أم ملِكاً؟ فقال: لاذا ولاذا، كان عبداً صالحاً، دعا قومه إلى الله تعالى، فشجُّوه على قرنه، ثم دعاهم، فشجُّوه على قرنه الآخرَ، فسمِّي ذا القرنين[٢].

واختلفوا أيضاً في وقت زمانه، فقال قوم: كان بعد موسى. وقال قوم: كان في الفَتْرة بعد عيسى. وقيل: كان في وقتِ إبراهيم وإسماعيل، وكان الخضر عليه السلام صاحبَ لوائه الأعظم، وقد ذكرناه في «البقرة»[٣]. وبالجملة فإنَّ اللهَ تعالى مكَّنه وملَّكه ودانت له الملوك، فرُوي أنَّ جميعَ ملوك الدنيا كلها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود وإسكندر، والكافران: نمروذ وبختنصر[٤]، وسيملكها من هذه الأمة خامسٌ؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وهو المهديُّ. وقد قيل: إنَّما سُمِّيَ ذا القرنين؛ لأنَّه كان كريمَ الطرفين من أهل بيت شريف من قِبَل أبيه وأمِّه. وقيل: لأنَّه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حيٌّ. وقيل: لأنَّه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً. وقيل: لأنَّه أُعطيَ عِلْم الظاهر والباطن. وقيل: لأنَّه دخل الظلمة والنور. وقيل: لأنَّه مَلك فارس والروم[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٧٠، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٠) بنحوه.

(٣) ٤/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٨، وذكر الخبر أبو الليث في التفسير ٢/ ٣١٠ ونسبه إلى مجاهد.

(٥) عرائس المجالس ص٣٦٢ -٣٦٣، وزاد المسير ٥/ ١٨٣ - ١٨٤.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قال عليٌّ ﷺ: سخّر له السحاب، ومُدَّت له الأسباب، وبُسط له في النور، فكان الليلُ والنهارُ عليه سواء[١]. و في حديث عقبة بنِ عامر أنَّ النبيَّ ﷺ قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذي القرنين فقال: «إنَّ أوَّلَ أمره كان غلاماً من الروم فأُعطي ملكاً، فسار حتى أتى أرضَ مصر فابتنى بها مدينة يقال لها: الإسكندرية، فلما فرغ أتاه مَلَك فعرج به فقال له: انظر ما تحتك؟ قال: أرى مدينتي وحدها لا أرى غيرَها. فقال له الملَك: تلك الأرض كلُّها وهذا السواد الذي تراه محيطاً بها هو البحر، وإنَّما أراد اللهُ تعالى أن يُريَك الأرضَ، وقد جعل لك سلطاناً فيها، فَسِرْ في الأرض فعلِّم الجاهلَ وثبِّت العالم» الحديث[٢].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال ابن عباس: من كلِّ شيء علماً يتسبَّب به إلى ما يريد. وقال الحسن: بلاغاً إلى حيث أراد[٣]. وقيل: من كل شيء يحتاج إليه الخَلْق. وقيل: من كلِّ شيء يستعين به الملوك، من فَتْح المدائن وقهر الأعداء[٤]. وأصل السبب: الحبل، فاستعير لكلِّ ما يتوصَّل به إلى شيء[٥].

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «فَأَتْبَعَ سَبَباً» مقطوعة الألف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو: «فَاتَّبَعَ سَبَباً» بوَصْلها[٦]، أي: اتَّبع سبباً من الأسباب التي أوتيها. قال الأخفش: تَبعته وأَتبعته بمعنى، مثل ردِفته وأَردفته[٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠] ومنه الإتباع في

---

(١) الوسيط ٣/ ١٦٤، وتفسير البغوي ٣/ ١٧٨، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٦٩).

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٦٨ - ٣٦٩، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٦)، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٧٨، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ١٥/ ٣٧١.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٣٨.

(٥) تفسير الرازي ٢١/ ١٦٥.

(٦) السبعة ص٣٩٧ - ٣٩٨، والتيسير ص١٤٥.

(٧) الصحاح (تبع).

الكلام، مثل حَسَنٌ بَسَنٌ، وقَبِيح شَقِيح. قال النحَّاس[١]: واختار أبو عبيد قراءةَ أهلِ الكوفة قال: لأنَّها من السَّيْر، وحكى هو والأَصْمَعيُّ أنَّه يقال: تَبِعه واتَّبعه، إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه، قال أبو عبيد: ومثله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]. قال النحَّاس[٢]: وهذا التفريق وإن كان الأصمعي قد حكاه، لا يُقبَل إلا بعلَّة أو دليل. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ ليس في الحديث أنَّهم لحقوهم، وإنَّما الحديث: لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر، وحصَّل فرعونَ وأصحابَه، انطبق عليهم البحرُ. والحقُّ في هذا أن تبعَ واتَّبع وأَتبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السَّيْر، فقد يجوز أن يكون معه لَحَاق، وألَّا يكون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «حامِيةٍ» أي: حارَّة. الباقون: ﴿حَمِئَةٍ﴾ أي: كثيرة الحمأة، وهي الطينة السوداء[٣]، تقول: حَمَأْتُ البئرَ حَمْأً ـ بالتسكين ـ إذا نزعت حَمْأَتها. وحَمِئت البئرُ حَمَأً ـ بالتحريك ـ كثرت حَمْأَتها. ويجوز أن تكون: «حامِيةٍ» من الحمأة، فخفِّفت الهمزة وقُلبت ياء. وقد يُجمَع بين القراءتين فيقال: كانت حارَّة وذات حَمْأة[٤]. وقال عبد الله بنُ عمرو: نظر النبيُّ ﷺ إلى الشمس حيث غَربت، فقال: «نارُ اللهِ الحاميةُ، لولا ما يَزَعُها من أَمْرِ الله لأَحرقت ما على الأرض»[٥]. وقال ابن عباس: أَقْرَأَنِيْها أُبَيٌّ كما أَقرأه رسولُ الله ﷺ: «في عين حَمِئَة»[٦]، وقال معاوية: هي «حامية»، فقال عبد الله بنُ عمرو بنِ العاص: فأَنا مع أمير المؤمنين، فجعلوا كعباً بينهم حَكَماً

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ .

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ .

(٣) السبعة ص٣٩٨ ، والتيسير ص١٤٥ ، وحجة القراءات ٥/ ١٦٩ - ١٧٠ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٠٨ .

(٥) أخرجه أحمد (٦٩٣٤)، والطبري ١٥/ ٣٧٨ ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ١٣١ : رواه أحمد، وفيه راوٍ لم يسمَّ، وبقية رجاله ثقات.

(٦) أخرجه أبو داود (٣٩٨٦)، والترمذي (٢٩٣٤)، والطبري ١٥/ ٣٧٨ .

وقالوا: يا كعبُ كيف تَجِدُ هذا في التوراة؟ فقال: أَجدها: تغرب في عين سوداء، فوافق ابنَ عباس[١]. وقال الشاعر وهو تُبَّع اليمانيُّ:

قد كان ذو القرنين قبلي مُسْلِماً مَلِكاً تدينُ له الملوك وتَسْجُدُ
بَلَغَ المغاربَ والمشارقَ يَبتغِي أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرْشِدِ
فرأى مغِيبَ الشَّمسِ عند غروبِها في عينِ ذِي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حِرْمَدِ

الخُلُب: الطين. والثأْط: الحمأَة. والحِرْمِد: الأسود[٢].

وقال القفَّال: قال بعض العلماء: ليس المراد أنَّه انتهى إلى الشمس مغرباً ومشرقاً حتى وصل إلى جِرْمها ومسَّها؛ لأنَّها تدور مع السماء حولَ الأرض من غير أن تلتصقَ بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عينٍ من عيون الأرض، بل هي أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفةً، بل المراد أنَّه انتهى إلى آخِر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها في رأي العين تغرب في عينٍ حمئة، كما أنَّا نشاهدها في الأرض الملساء كأنَّها تدخل في الأرض، ولهذا قال: «وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً» ولم يُرد أنَّها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنَّهم أولُ من تطلع عليهم.

وقال القتبيُّ: ويجوز أن تكون هذه العينُ من البحر، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءَها أو معها أو عندها، فيقام حرفُ الصفة مقامَ صاحبه، والله أعلم.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: عند العين، أو عند نهاية العين، وهم أهل جَابَرْس، ويقال لها بالسريانية: جرجيسا، يسكنها قومٌ من نسلِ ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح، ذكره السُّهيليُّ[٣].

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/٤١١، والطبري ١٥/٣٧٥، والواحدي في الوسيط ٣/١٦٤ - ١٦٥، والثعلبي في عرائس المجالس ص٣٦٦.

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٠، ومعاني القرآن للنحاس ٤/٢٨٧، وعرائس المجالس ص٣٦٦.

(٣) في التعريف والإعلام ص١٠٨.

وقال وهب بن منبِّه: كان ذو القرنين رجلاً من الروم، ابن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره، وكان اسمه الإسكندر، فلما بلغ وكان عبداً صالحاً قال الله تعالى: يا ذا القرنين! إنِّي باعثك إلى أمم الأرض وهم أُمم مختلفةٌ ألسنتهم، وهم أُمم جميع الأرض، وهم أصناف: أُمَّتان بينهما طول الأرض كله، وأُمَّتان بينهما عَرْض الأرض كلّه، وأُمم في وسط الأرض منهم الجنُّ والإنسُ ويأجوج ومأجوج، فأمَّا اللتان بينهما طولُ الأرض فأمَّة عند مغرب الشمس يقال لها: ناسك، وأمَّا الأُخرى فعند مطلعها ويقال لها: منسك. وأمَّا اللتان بينهما عَرْض الأرض، فأمَّة في قطر الأرض الأيمن يقال لها: هاويل، وأمَّا الأخرى التي في قطر الأرض الأيسر يقال لها: تاويل. فقال ذو القرنين: إلهي! قد ندبتني لأمرٍ عظيم لا يَقدر قَدْره إلا أنت، فأَخبرني عن هذه الأُمم بأي قوَّة أكاثرهم؟ وبأي صبر أُقاسيهم؟ وبأي لسان أُناطقهم؟ فكيف لي بأن أفقه لغتهم وليس عندي قوَّة؟ فقال الله تعالى: سأظفرك[1] بما حملتك، أشرحُ لك صدرَك فتسمع كلَّ شيء، وأثبت لك فهمَك فتفقه كلَّ شيء، وأُلبسك الهيبةَ فلا يروعك شيء، وأُسخِّر لك النور والظلمة فيكونان جنداً من جنودك، يهديك النورُ من أمامك، وتحفظك الظلمةُ من ورائك.

فلما قيل له ذلك، سار بمن اتَّبعه، فانطلق إلى الأمَّة التي عند مغرب الشمس؛ لأنَّها كانت أقربَ الأمم منه وهي ناسك، فوجد جموعاً لا يحصيها إلا الله تعالى، وقوَّة وبأساً لا يطيقه إلا الله، وألسنة مختلفة، وأهواءً مُتشتِّتة، فكاثرهم بالظُّلمة، فضرب حولهم ثلاثَ عساكر من جند الظلمة قَدْر ما أحاط بهم من كلِّ مكان، حتى جمعتهم في مكان واحد، ثم دخل عليه بالنور، فدعاهم إلى الله تعالى وإلى عبادته، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر وصدَّ عنه، فأدخل على الذين تَولَّوا الظلمةَ، فغشيتهم من كلِّ مكان، فدخلت إلى أفواههم وأنوفِهم وأعينهم وبيوتهم وغشيتهم من كلِّ مكان، فتحيَّروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا، فعجُّوا[2] إلى الله تعالى بصوت

(١) في عرائس المجالس ص٣٦٥ : سأطوقك. والكلام منه.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٦٦ : ضجوا. والكلام منه.

واحد: إنَّا آمنا، فكشفها عنهم، وأخذهم عنوةً، ودخلوا في دعوته، فجنَّد من أهل المغرب أمماً عظيمة، فجعلهم جنداً واحداً، ثم انطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم وتحرسه مِن خلفه، والنور أمامَهم يقودُه ويدلُّه، وهو يسير في ناحية الأرض اليمنى يريد الأمَّةَ التي في قطر الأرض الأيمن وهي هاويل، وسخَّر الله تعالى يدَه وقلبه وعقله ونظره فلا يُخطئ إذا عمل عملاً، فإذا أتوا مخاضة أو بحراً، بنى سفناً من ألواح صغار مثل النعال، فنظمها في ساعة، ثم جعل فيها جميعَ من معه من تلك الأُمم، فإذا قطعَ البحار والأنهار، فتَقَها ودفع إلى كلِّ رجل لوحاً، فلا يكترث بحمله، فانتهى إلى هاويل وفَعل بهم كفعله بناسك فآمنوا، ففرغ منهم، وأخذ جيوشَهم وانطلق إلى ناحية الأرض الأُخرى حتى انتهى إلى منسك عند مَطْلع الشمس، فعمل فيها وجنَّد منها جنوداً كفعله في الأُولى، ثم كَرَّ مقبلاً حتى أخذ ناحيةَ الأرض اليسرى يريد تاويل، وهي الأمَّة التي تقابل هاويل بينهما عَرْض الأرض، ففعل فيها كفعله فيما قبلها.

ثم عطَف إلى الأمم التي في وسط الأرض من الجنِّ والإنس ويأجوج ومأجوج، فلما كان في بعض الطريق مما يلي منقطع التُّرك من المشرق، قالت له أمَّة صالحة من الإنس: يا ذا القرنين! إنَّ بين هذين الجبلين خَلْقاً من خَلْق الله تعالى كثيراً ليس لهم عدد، وليس فيهم مشابهة من الإنس، وهم أَشباه البهائم، يأكلون العشبَ، ويفترسون الدوابَّ والوحش كما تفترسها السباع، ويأكلون حشراتِ الأرض كلها من الحيَّات والعقارب والوزغ وكلِّ ذي روح مما خَلَق الله تعالى في الأرض، وليس لله تعالى خَلْق ينمو نماءَهم في العام الواحد، فإن طالت المدَّة فسيملؤون الأرضَ، ويُجلون أهلها، فهل نجعل لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً؟ وذكر الحديث[1]، وسيأتي من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوعٌ منهم ما فيه كفاية.

(١) عرائس المجالس ص٣٦٤ - ٣٦٨، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٩٠ - ٣٩٨، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ قال القشيريُّ أبو نصر: إن كان نبيًّا فهو وحيٌ، وإن لم يكن نبيًّا فهو إلهام من الله تعالى.

﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ قال إبراهيم بن السري[1]: خَيَّره بين هذين، كما خيَّر محمَّداً ﷺ فقال: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] ونحوه.

وقال أبو إسحاق الزجَّاج: المعنى أنَّ اللهَ تعالى خيَّره بين هذين الحكمين.

قال النحَّاس[2]: وردَّ عليُّ بنُ سليمان عليه قولَه؛ لأنَّه لم يصحَّ أنَّ ذا القرنين نبيٌّ فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربِّه عزَّ وجلَّ: «ثم يُردُّ إلى ربِّه»؟ وكيف يقول: «فسوف نعذِّبه» فيخاطب بالنون؟ قال: التقدير: قلنا يا محمَّد، قالوا: يا ذا القرنين. قال أبو جعفر النحَّاس: هذا الذي قاله أبو الحسن لا يلزم منه شيءٌ. أمَّا قوله: «قلنا يا ذا القرنين» فيجوز أن يكون الله عزَّ وجلَّ خاطبه على لسان نبيٍّ في وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيِّه: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]، وأمَّا إشكال: «فسوف نعذِّبه ثم يردُّ إلى ربِّهِ» فإنَّ تقديرَه أنَّ الله تعالى لما خَيَّره بين القَتْل في قوله: «إمَّا أنْ تُعذِّبَ» وبين الاستبقاء في قوله جلَّ وعزَّ: «وَإِمَّا أنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً» قال لأولئك القوم: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: أقام على الكُفْر منكم: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أي: بالقتل ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديداً في جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي: تاب من الكفر ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال أحمد بن يحيى: «أن» في موضع نصب في «إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً» قال: ولو رُفعت كان صواباً، بمعنى: فإمَّا هو، كما قال:

فسِيْرا فإمَّا حاجةٌ تقضيانها وإما مقيلٌ صالحٌ وصديقُ[3]

(١) وهو أبو إسحاق الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٣٠٩، وما بعده منه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ - ٤٧١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٨، وتفسير الطبري ١٦/ ١٠٩، والتدوين في أخبار قزوين ٢/ ٤١٦.

﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم: «فَلَهُ جَزاءُ الْحُسْنَى» بالرفع على الابتداء أو بالاستقرار. و«الحسنى» في موضع خفض بالإضافة، ويحذف التنوين للإضافة[1]، أي: له جزاء الحسنى عند الله تعالى في الآخرة وفي الجنة، فأضاف الجزاءَ إلى الجنَّة، كقوله: ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، قاله الفرَّاء[2]. ويحتمل أن يريد: بـ«الحسنى» الأعمال الصالحة. ويمكن أن يكون الجزاء من ذي القرنين، أي: أُعطيه وأتفضَّل عليه.

ويجوز أن يحذف التنوين؛ لالتقاء الساكنين، ويكون «الحسنى» في موضع رفع على البدل عند البصريين، وعلى الترجمة عند الكوفيين، وعلى هذا قراءة ابنِ أبي إسحاق: «فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى» إلا أنَّك لم تحذف التنوين، وهو أجود. وقرأ سائر الكوفيين: «فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى» منصوباً منوَّناً، أي: فله الحسنى جزاءً. قال الفرَّاء: «جزاءً» منصوب على التمييز. وقيل: على المصدر، وقال الزجَّاج: هو مصدر في موضع الحال، أي: مجزياً بها جزاء[3].

وقرأ ابنُ عباس ومسروق: «فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى» منصوباً غيرَ منوَّن. وهي عند أبي حاتم على حذف التنوين؛ لالتقاء الساكنين، مثل «فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى» في أحد الوجهين. النحَّاس[4]: وهذا عند غيره خطأ؛ لأنه ليس موضعَ حذف تنوين؛ لالتقاء الساكنين، ويكون تقديره: فله الثواب جزاءَ الحسنى.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ تقدَّم معناه أنَّ أتبع واتَّبع بمعنًى، أي: سلك طريقاً ومنازل. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ وقرأ مجاهد وابن محيصن: بفتح الميم

(١) السبعة ص٣٩٨، والتيسير ص١٤٥، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٥٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١، وكلام الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٥٩، وكلام الزجَّاج في معاني القرآن ٣/ ٣٠٩.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٤٧١ - ٤٧٢، وما قبله منه.

واللام[١]، يقال: طَلَعت الشمسُ والكواكب طُلوعاً ومَطْلِعاً. والمطلَع والمطلِع أيضاً: موضع طلوعها، قاله الجوهريُّ[٢]. المعنى أنَّه انتهى إلى موضعِ قوم لم يكن بينهم وبين مطلع الشمس أحدٌ من الناس، والشمس تَطلعُ وراءَ ذلك بمسافة بعيدة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾.

وقد اختلف فيهم، فعن وهب بن منبِّه ما تقدَّم، وأنَّها أُمَّةٌ يقال لها: منسك، وهي مقابلة ناسك، وقاله مقاتل. وقال قتادة: يقال لها: الزنج[٣]. وقال الكلبيُّ: هم تارس وهاويل ومنسك، حفاة عراة عماة عن الحقِّ[٤]، يتسافدون مثلَ الكلاب، ويتهارجون تهارجَ الحمر.

وقيل: هم أهل جَابَلْق، وهم من نسل مؤمني عاد الذين آمنوا بهود، ويقال لهم بالسريانية: مرقيسا. والذين عند مغرب الشمس هم أهل جَابَرْس، ولكلٍّ واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب، بين كلِّ بابين فرسخ، ووراء جَابَلْق أُمم، وهم: تافيل وتارس، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج. وأهل جَابَرْس وجَابَلْق آمنوا بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، مرَّ بهم ليلةَ الإسراء، فدعاهم فأجابوه، ودعا الأُمم الآخَرين فلم يجيبوه، ذكره السهيليُّ[٥] وقال: اختصرت هذا كلَّه من حديثٍ طويل رواه مقاتل بنُ حيَّان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ. ورواه الطبريُّ مسنداً إلى مقاتل يرفعه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: حجاباً يَستترون منها عند طلوعها. قال قتادة: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، كانوا في مكان لا يستقرُّ عليه بناء، وهم

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٩٨ ، وزاد المسير ٥/ ١٨٧ ، والبحر المحيط ٦/ ١٦١ .

(٢) في الصحاح (طلع).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤١٢ ، والطبري ١٥/ ٣٨٣ .

(٤) عرائس المجالس ص٣٦٧ ، والوسيط ٣/ ١٦٥ .

(٥) في التعريف والإعلام ص١٠٩ ، والخبر أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٦٥ - ٧٥ .

يكونون في أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثِهم[١]، يعني: لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنُّهم منها.

وقال أميَّة: وجدتُ رجالاً بسمرقند يحدِّثون الناسَ، فقال بعضهم: خرجتُ حتى جاوزتُ الصينَ، فقيل لي: إنَّ بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرتُ رجلاً يرينيهم حتى صبَّحتهم، فوجدتُ أحدَهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى، وكان صاحبي يُحسِن كلامَهم، فبتنا بهم، فقالوا: فيمَ جئتم؟ قلنا: جئنا ننظر كيف تَطلعُ الشمس، فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصَّلصلة، فغشيَ عليَّ، ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدهن، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي على الماء كهيئة الزيت، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط، فلما ارتفعت أَدخلوني سرباً لهم، فلما ارتفع النهار وزالت الشمس عن رؤوسهم، خرجوا يصطادون السمك، فيطرحونه في الشمس فينضج[٢].

وقال ابنُ جريج: جاءهم جيش مرَّة، فقال لهم أهلُها: لا تطلع الشمس وأنتم بها، فقالوا: ما نبرحُ حتى تَطلُع الشمس. ثم قالوا: ما هذه العظام؟ قالوا: هذه والله عظام جيشٍ طلعت عليهم الشمس هاهنا، فماتوا. قال: فولَّوا هاربين في الأرض[٣].

وقال الحسن: كانت أرضُهم لا جبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا في الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا، فيتراعَون كما تتراعى البهائم[٤].

قلت: وهذه الأقوال تدلُّ على أن لا مدينة هناك، والله أعلم. وربما يكون منهم من يدخل في النهر، ومنهم من يدخل في السّرب، فلا تناقضَ بين قولِ الحسن وقتادة.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٢ .

(٢) عرائس المجالس ص٣٦٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٢ ، وأبو الشيخ في العظمة (٩٨٠).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينيَّة وأذْرَبِيجان. روى عطاء الخراساني عن ابنِ عباس: «بين السدين»: الجبلين: أرمينيَّة وأذْرَبِيجان[1]. ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: من ورائهما: ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «يُفْقِهُونَ» بضمِّ الياء، وكسر القاف، من أفقه: إذا أبان، أي: لا يُفقِهون غيرَهم كلاماً. الباقون: بفتح الياء والقاف، أي: يعلمون[2]. والقراءتان صحيحتان، فلا هم يَفقهون من غيرهم ولا يُفقِهون غيرَهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أي: قالت له أُمَّة من الإنس صالحة: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. قال الأخفش[3]: من همز «يأجوج» فجعل الألِفين من الأصل يقول: يأجوج: يَفْعول، ومأجوج: مَفْعول؛ كأنَّه من أجيج النار. قال: ومن لا يهمز، ويجعل الألِفين زائدتين يقول: «ياجوج» من يَجَجت، وماجوج من مَجَجت. وهما غير مصروفين، قال رؤبة:

لــو أن يــاجــوجَ ومــاجــوجَ مَــعَــا وَعــادَ عــادٌ واســتــجــاشــوا تُــبَّــعَــا

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٩٣، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٨٧.

(٢) السبعة ص٣٩٩، والتيسير ص١٤٥، والطبري ١٥/ ٣٨٧.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٢١.

ذكره الجوهريُّ[١].

وقيل: إنَّما لم ينصرفا؛ لأنَّهما اسمان أعجميَّان، مثل: طالوت وجالوت، غير مشتقين، علَّتاهما في مَنْع الصَّرْف: العُجمة والتعريف والتأنيث. وقالت فرقةٌ: هو معرَّب، من أَجَّ وَأَجَّجَ، علَّتاه في مَنْع الصَّرْف: التعريفُ والتأنيث[٢].

وقال أبو عليٍّ[٣]: يجوز أن يكونا عربيَّين، فمن همز «يأجوج» فهو على وزن يَفْعُول، مثل يَربوع، من قولك: أَجَّت النارُ، أي: ضويت، ومنه: الأَجيج، ومنه: ملح أُجاج، ومن لم يهمز، أمكن أن يكون خفَّف الهمزة، فقلبها ألفاً، مثل راس، وأما «مأجوج» فهو مَفْعول، من أَجَّ، والكلمتان من أصل واحد في الاشتقاق، ومن لم يَهمز، فيجوز أن يكون خفَّف الهمزة، ويجوز أن يكون فاعولاً مِن مَجَّ، وترك الصرف فيهما؛ للتأنيث والتعريف، كأنَّه اسم للقبيلة.

واختلف في إفسادهم: سعيد بن عبد العزيز: إفسادُهم أَكْل بني آدم. وقالت فرقة: إفسادهم إنَّما كان متوقَّعاً، أي: سيفسدون، فطلبوا وجه التحرُّز منهم. وقالت فرقة: إفسادهم هو الظُّلْم والغَشْم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر[٤]، والله أعلم.

وقد وردت أخبار بصفتهم وخروجهم وأنَّهم ولد يافث. روى أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «وُلد لنوح سامٌ وحامٌ ويافثُ، فولد سامٌ العربَ وفارسَ والرومَ، والخير فيهم، وولد يافثُ يأجوجَ ومأجوجَ والتركَ والصقالبةَ، ولا خيرَ فيهم، وولد حامٌ القبطَ والبربر والسودان»[٥].

---

(١) في الصحاح (أجج)، والبيت في ديوان رؤبة ص٩٢ ، ورواية الشطر الأول هكذا:

والناس أحلافاً علينا شيعا

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ .

(٣) في الحجة ٥/ ١٧٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ ، والغَشْم: الظلم والغصب. لسان العرب (غشم).

(٥) أخرجه البزار (٢١٨ كشف الأستار) وقال في إثره: لا نعلم أسنده عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة بهذا =

وقال كعب الأحبار: احتلم آدمُ عليه السلام، فاختلط ماؤه بالتراب، فأَسِفَ، فخلقوا من ذلك الماء، فهم متَّصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأمّ[١]. وهذا فيه نظرٌ؛ لأنَّ الأنبياءَ ـ صلوات الله عليهم ـ لا يحتلمون[٢]، وإنَّما هم من ولد يافث، وكذلك قال مقاتل وغيره[٣].

وروى أبو سعيد الخدريُّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا يموت رجل منهم حتى يُولَد لصلبه ألفُ رجل»[٤]. يعني: يأجوج ومأجوج.

وقال أبو سعيد: هم خمس وعشرون قبيلةً من وراء يأجوج ومأجوج، لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يَخرُج من صلبه ألفُ رجل، ذكره القشيريُّ.

وقال عبد الله بن مسعود: سَألتُ النبيَّ ﷺ عن يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام: «يأجوج ومأجوج أُمَّتان، كلُّ أمَّة أربع مئة ألف أمة[٥]، كلُّ أمَّة لا يَعلم عددَها إلا اللهُ، لا يموت الرجل منهم حتى يُولَد له ألفُ ذَكَر من صُلْبه، كلُّهم قد حمل السلاح» قيل: يا رسولَ اللهَ صِفْهم لنا. قال: «هم ثلاثةُ أصناف، صِنْف منهم أمثال الأَرْز ـ شجر بالشام، طول الشجرة عشرون ومئة ذراع ـ وصِنْف عرضه وطوله

= الإسناد، تفرد به يزيد بن سنان، وتفرد به ابنه عنه، ورواه غيره مرسلاً، وإنما جعله من قول سعيد. اهـ وأخرجه أحمد في العلل ٣/ ٣٥، وابن سعد في الطبقات ١/ ٤٢ - ٤٣، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٦٣ من قول سعيد بن المسيب.

(١) الوسيط ٣/ ١٦٧، وتفسير البغوي ٣/ ١٨١، والتذكرة ص٦٩٦.

(٢) أخرج الطبراني في الكبير ١١/ ٢٢٥ (١١٥٦٤) وفي الأوسط (٨٠٥٨)، عن ابن عباس قال: ما احتلم نبي قط، إنما الاحتلام من الشيطان. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٦٧: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد العزيز بن أبي ثابت، وهو مجمع على ضعفه.
وأخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ٩٥٩ عن ابن عباس مرفوعاً.

(٣) التذكرة ص٦٩٦.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٠.

(٥) ليست في (د) و(ز).

سواء، نحواً من الذراع، وصِنْف يفترش أُذُنه ويَلتحف بالأُخرى، لا يمرُّون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه، ويأكلون من مات منهم، مُقدِّمتهم بالشام وساقتهم بخراسان، يَشربون أنهارَ الشرق وبحيرة طبريَّة، فيمنعهم الله من مكَّة والمدينة وبيت المقدس»[١].

وقال عليٌّ ﷺ: وصِنْف منهم في طول شِبْر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعي الحَمام، وتسافد البهائم، وعُواء الذِّئاب، وشعور تَقِيْهم الحرَّ والبرد، وآذان عِظام، إحداها وَبرة يشتون فيها، والأُخرى جلدة يصيفون فيها[٢]، يحفرون السَّدَّ حتى كادوا ينقبونه، فيُعيده الله كما كان، فيقولون: ننقبه غداً إن شاء الله تعالى، فينقبونه ويَخرجون، ويتحصَّن الناس بالحصون، فيَرمون إلى السماء فيُردُّ السهم عليهم ملطَّخاً بالدم، ثم يُهلكهم الله تعالى بالنَّغَف[٣] في رقابهم. ذكره الغزنويُّ.

وقال عليٌّ عن النبيِّ ﷺ: «يأجوج أُمَّة لها أربع مئة أمير، وكذا مأجوج لا يَموت أحدُهم حتى يَنظُر إلى ألف فارس من ولده»[٤].

قلت: وقد جاء مرفوعاً من حديث أبي هريرة، خرَّجه ابن ماجه في «السنن» قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَحفرون كلَّ يوم، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شعاعَ الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيُعيده اللهُ أشدَّ ما كان، حتى إذا بلغت مُدَّتهم، وأَراد الله تعالى أن يَبعثهم على الناس، حفَروا، حتى إذا كادوا يَرَوْنَ شعاعَ الشمس قال: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى، فاستثنوا، فيَعودون إليه وهو كهيئتِه حين تركوه، فيحفرونه ويَخرجون على الناس فيَنْشِفون الماء،

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٠ - ٤٠١ موقوفاً مختصراً، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٣٨٦٧) عن حذيفة بن اليمان ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٦ : رواه الطبراني في الأوسط، وفيه يحيى بن سعيد العطار، وهو ضعيف.

(٢) التذكرة ص٦٩٦ .

(٣) النَّغَف: دود يكون في أنوف البعير والغنم. النهاية (نغف).

(٤) التذكرة ص٦٩٤ .

ويتحصَّن الناسُ منهم في حصونهم، فيَرْمُون بسهامهم إلى السماء، فترجع عليها الدمُ الذي اجْفَظَّ[1] فيقولون: قَهرنا أهلَ الأرض وعَلَونا أهلَ السماء، فيبعث الله تعالى عليهم نغَفاً في أقفائهم فيقتلهم بها» قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنَّ دوابَّ الأرض لتسمن وتَشْكَر شَكَراً من لحومهم»[2]. قال الجوهريُّ[3]: شَكِرت الناقةُ تَشكَر شَكَراً فهي شكِرة، وأشكر الضرع: امتلأ لبناً.

وقال وهب بن منبِّه: رآهم ذو القرنين، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منَّا، لهم مخاليب في مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع، وأَحناك كأحناك الإبل، وهم هُلْبٌ، عليهم من الشعر ما يُواريهم، ولكلٍّ واحد منهم أُذُنان عظيمتان، يَلتحِف إحداهما ويفترش الأخرى، وكل واحد منهم قد عرف أَجَلَه، لا يَموتُ حتى يخرج له من صلبه ألف رجل إن كان ذكراً، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى[4]. وقال السُّدِّيُّ والضحَّاك: الترك: شِرْذمة من يأجوج ومأجوج خرَجت تُغِيرُ، فجاء ذو القرنين فضرب السَّدَّ، فبقيت في هذا الجانب[5]. قال السُّدِّيُّ: بُني السَّدُّ على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلةٌ واحدة دون السَّدِّ، فهم التُّرك. وقاله قتادة.

---

(١) في النسخ: أحفظ. وكذا في شرح السندي لابن ماجه ٢/ ٥١٧ حيث قال: لعل هذا من كلام الراوي بتقدير: هذا الذي أحفظه. اهـ. والمثبت من سنن ابن ماجه (٤٠٨٠) وشرحه مصباح الزجاجة ٢/ ٢٠١ . قال السيوطي في شرحه على سنن ابن ماجه ١/ ٢٩٩ : الذي اجْفَظَّ: أي ملأها، أي: ترجع السهم عليهم حال كون الدم محفوفاً وممتلئاً عليها، فكأن قوله: عليها الدم اجفظَّ: جملة حالية من قوله: فترجع. فلفظ: جفظ، من باب احمرَّ من الجفظ. وفي القاموس (جفظ): الجفيظ: المقتول المنتفخ، والجَفْظ: الملء.

(٢) ابن ماجه (٤٠٨٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٠٦٣٢)، والترمذي (٣١٥٣)، والحاكم ٤/ ٤٨٨ ، قال الترمذي: حديث حسن غريب وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٣) في الصحاح (شكر)، وفيه: واشتكر الضرع، بدل: وأشكر الضرع.

(٤) سلف ص٣٧١ من هذا الجزء.

(٥) زاد المسير ٥/ ١٩٠ .

قلت: وإذا كان هذا، فقد نعت النبيُّ ﷺ التُّركَ كما نعت يأجوجَ ومأجوجَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعةُ حتى يقاتلَ المسلمون التُّركَ، قوماً وجوهُهم كالمجانّ المُطْرَقَة، يلبَسون الشَّعر ويمشون في الشّعر» في رواية: «ينتعلون الشَّعر» خرَّجه مسلم وأبو داود وغيرهما(١).

ولما عَلِمَ النبيُّ ﷺ عددَهم وكثرتَهم وحِدَّة شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام: «اتركوا التُّركَ ما تركوكم»(٢). وقد خرج منهم في هذا الوقت أُمم لا يُحصيهم إلا اللهُ تعالى، ولا يردُّهم عن المسلمين إلا اللهُ تعالى، حتى كأنَّهم يأجوج ومأجوج أو مُقدِّمتهم.

وروى أبو داود(٣) عن أبي بَكْرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ينزل ناس من أمَّتي بغائط يسمُّونه البصرة عند نهر، يقال له: دِجْلة، يكون عليه جِسْر، يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين» قال ابنُ يحيى: قال أبو معمر: «وتكون من أمصار المسلمين فإذا كان في آخر الزمان، جاء بنو قنطوراء عِراض الوجوه، صغار الأعين، حتى ينزلوا على شاطئ النهر، فيتفرَّق أهلُها ثلاث فِرَق، فِرْقة يأخذون أذنابَ البقر والبرِّيَّة وهلكوا، وفِرْقة يأخذون لأنفسهم وكفروا، وفِرْقة يجعلون ذراريهم خَلْف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء». الغائط: المُطمئنُّ من الأرض. والبصرة: الحجارة الرخوة، وبها سمِّيت البصرة. وبنو قنطوراء: هم التُّرك. يقال: إنَّ قنطوراء اسمُ جارية كانت لإبراهيمَ صلوات الله وسلامه عليه، ولدت له أولاداً جاء من نَسْلهم الترك(٤).

---

(١) الرواية الأولى عند مسلم (٢٩١٢): (٦٥)، وأبي داود (٤٣٠٣)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٤٤ - ٤٥ ، وهي عند البخاري (٢٩٢٨)، وأحمد (٧٢٦٣) بنحوه، والثانية عند مسلم (٢٩١٢): (٦٣)، وأبي داود (٤٣٠٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٠٢)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٤٣ - ٤٤ ، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٧٦ عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) في سننه برقم (٤٣٠٦).

(٤) معالم السنن ٦/ ١٦٨ .

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ استفهام على جهة حُسْن الأدب[١]. «خَرْجاً»: أي: جُعْلاً. وقُرِئ: «خراجاً»[٢] والخرج أخصُّ من الخراج. يقال: أدِّ خَرْج رأسك وخَرَاج مدينتك. وقال الأزهريُّ[٣]: الخراج يقع على الضريبة، ويقع على مال الفيء، ويقع على الجزية، وعلى الغلَّة. والخراج: اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال. والخرج: المصدر[٤].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي: ردماً، والرَّدم: ما جعل بعضه على بعض حتى يتَّصل. وثوب مردَّم، أي: مرقَّع، قاله الهرويُّ[٥]. يقال: رَدَمْتُ الثُّلْمة أردِمها بالكسر ردماً، أي: سددتها. والردم أيضاً الاسم، وهو السَّدُّ[٦].

وقيل: الردم أبلغ من السَّدِّ، إذ السَّدُّ: كلُّ ما يسدُّ به، والردم: وَضْع الشيء على الشيء، من حجارة أو تراب أو نحوه، حتى يقوم من ذلك حجاب منيع. ومنه: ردَّم ثوبَه، إذا رقَّعه برقاع متكاثفة بعضها فوق بعض. ومنه قول عنترة:

هـل غـادَر الـشـعـراءُ مـن مُـتَـرَدَّمِ

أي: من قول يُركَّب بعضه على بعض[٧].

وقُرئ: «سَدًّا»: بالفتح في السين، فقال الخليل وسيبويه: الضَّمُّ هو الاسم، والفتح المصدر. وقال الكسائي: الفتح والضمُّ لغتان بمعنى واحد. وقال عكرمة وأبو

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ .

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي. السبعة ص٤٠٠ ، والتيسير ص١٤٦ .

(٣) في تهذيب اللغة ٧/ ٤٧ - ٥٥ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧٣ .

(٥) في غريب الحديث ٣/ ٤٣٧ - ٤٣٨ .

(٦) الصحاح (ردم)، وفيه: تردَّم ثوبَه.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢ ، والبيت في ديوان عنترة ص١٥ ، وتمامه: أم هل عرفتَ الدار بعد توهُّم

عمرو بن العلاء وأبو عبيدة[١]: ما كان من خِلْقة الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضَّمِّ، وما كان من صُنْع البشر، فهو بالفتح. ويَلزم أهلَ هذه المقالة أن يقرؤوا «سَدًّا» بالفتح، وقبله «بين السُّدَّيْنِ» بالضَّمِّ، وهي قراءة حمزة والكسائيِّ[٢]. وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكسَ ما قال أبو عبيدة. وقال ابن أبي إسحاق: ما رأته عيناك فهو سُدٌّ، بالضمِّ، وما لا ترى فهو سَدٌّ، بالفتح.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على اتِّخاذ السجون، وحبس أهلِ الفساد فيها، ومنعهم من التصرُّف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضرباً ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ المعنى: قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله تعالى لي من القُدْرة والملك خيرٌ من خَرْجكم وأموالكم، ولكن أَعينوني بقوَّة الأبدان، أي: برجال وعمل منكم بالأبدان[٣]، والآلة التي أَبني بها الردمَ، وهو السَّدُّ. وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة، فإنَّ القومَ لو جمعوا له خرجاً لم يعنه أحدٌ ولَوَكَلوه إلى البنيان، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربَّما أربى ما ذكروه له على الخرج.

وقرأ ابن كثير وحده: «مَا مَكَّنَنِي» بنونين، وقرأ الباقون: «مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي»[٤].

الثانية: في هذه الآية دليل على أنَّ الملِك فرضٌ عليه أن يقوم بحماية الخَلْق في

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٤١٤، ونقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٤١ وما قبله منه، وقرأ بالفتح حمزة والكسائي. السبعة ص٣٩٩، والتيسير ص١٤٦.

(٢) السبعة ص٣٩٩، والتيسير ص١٤٥، وحجة القراءات للفارسي ٥/ ١٧١، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٥٤١ وما بعده منه أيضاً.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٢.

(٤) السبعة ص٤٠٠، والتيسير ص١٤٦.

حفظ بيضتهم، وسدِّ فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي تجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفدتها المؤن، لكان عليهم جَبْرُ ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط:

الأول: ألا يستأثر عليهم بشيء.

الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم.

الثالث: أن يسوِّي في العطاء بينهم على قَدْر منازلهم، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صُفْراً فأَطلعتِ الحوادثُ أمراً، بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغْنِ ذلك فأموالهم تُؤخَذ منهم على تقدير، وتُصْرَف بتدبير، فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكفَّ عنهم ما يَحذرونه من عاديَة يأجوج ومأجوج، قال: لستُ أحتاج إليه، وإنَّما أحتاج إليكم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: اخدموا بأنفسكم معي، فإنَّ الأموال عندي والرجال عندكم، ورأى أنَّ الأموالَ لا تغني عنهم، فإنَّه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فيعود بالأجر عليهم، فكان التطوُّع بخدمة الأبدان أَولى. وضابط الأمر أنَّه لا يحلُّ مالُ أحدٍ إلا لضرورة تَعرِض، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سرًّا، وينفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر، والله تعالى الموفِّق للصواب[1].

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: أعطوني زُبَر الحديد وناولونيها. أَمرَهم بنقل الآلة، وهذا كلُّه إنَّما هو استدعاء العطيَّة التي بغير معنى الهبة، وإنَّما هو استدعاء للمناولة؛ لأنَّه قد ارتبط من قوله: إنَّه لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبقَ إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان[2].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣.

و«زُبَرَ الْحَدِيدِ»: قِطَع الحديد. وأصل الكلمة: الاجتماع، ومنه: زُبْرة الأسد؛ لما اجتمع من الشعر على كاهله. وزبرتُ الكتابَ، أي: كتبته وجمعت حروفه[١].

وقرأ أبو بكر والمفضَّل: «ردماً ايتوني»[٢] من الإتيان الذي هو المجيء، أي: جيئوني بزُبَر الحديد، فلما سقط الخافض انتصب الفعل، على نحو قول الشاعر:

أَمَـرْتُـكَ الـخـيـرَ . . .

حذف الجار فنصب الفعل[٣]. وقرأ الجمهور: «زُبَرَ» بفتح الباء. وقرأ الحسن: بضمِّها، وكلُّ ذلك جمع زُبْرة، وهي القطعة العظيمة منه[٤].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ يعني: البناء، فحذف لقوَّة الكلام عليه. ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ قال أبو عبيدة[٥]: هما جانبا الجبل، وسُمِّيا بذلك؛ لتصادفهما، أي: لتلاقيهما. وقاله الهرويُّ[٦] وابن عباس[٧]، كأنَّه يُعرِض عن الآخر، من الصدوف، قال الشاعر:

كـلَا الـصَّـدَفَـيـن يَـنْـفُـذُه سَـنَـاهَـا   تَـوقَّـد مـثـلَ مِـصـبـاحِ الـظَّـلامِ[٨]

ويقال للبناء المرتفع: صدف، تشبيه بجانب الجبل. وفي الحديث: كان إذا مرَّ

---

(١) تهذيب اللغة ١٣/ ١٩٦ - ١٩٨، والصحاح (زبر).

(٢) قراءة أبي بكر في السبعة ص٤٠١، والتيسير ص١٤٦.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣، والبيت لعمرو بن معديكرب وهو في ديوانه ص٣٥، وسلف ٤/ ١٢٣ وهو بتمامه:

أمرتك الخير فاصنع ما أمرت به   فقد تركتك ذا مال وذا نشب

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣، والقراءة في البحر المحيط ٦/ ١٦٤.

(٥) في مجاز القرآن ١/ ٤١٤.

(٦) في (ز) و(د) و(ف): الزهري، والمثبت من (ظ) وزاد المسير ٥/ ١٩٣، والكلام في تهذيب اللغة ١٢/ ١٤٦.

(٧) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٤٠٦.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٣٤٣ ونسبه لعمرو بن شاش.

بصدف مائل أَسرع المشيَ. قال أبو عبيد[(١)]: الصدف والهدف: كلُّ بناء عظيم مرتفع.

ابن عطيَّة: الصَّدَفان: الجبلان المتناوِحان[(٢)]، ولا يقال للواحد: صَدف، وإنَّما يقال: صَدَفان، للاثنين؛ لأنَّ أحدَهما يصادف الآخَرَ. وقرأ نافع وحمزة والكسائيُّ: «الصَّدَفَيْنِ»: بفتح الصاد وشدِّها وفتح الدال، وهي قراءةُ عمرَ بن الخطاب ﷺ وعمر ابن عبد العزيز، وهي اختيار أبي عبيدة؛ لأنَّها أشهر اللغات. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «الصُّدُفين»: بضمِّ الصاد والدال. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر «الصُّدْفَيْنِ»: بضمِّ الصاد وسكون الدال، نحو الجُرْف والجُرُف. فهو تخفيف. وقرأ ابن الماجشون: بفتح الصاد وضمِّ الدال. وقرأ قتادة: «بين الصَّدْفَين» بفتح الصاد وسكون الدال، وكلُّ ذلك بمعنى واحد، وهما الجبلان المتناوِحان[(٣)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ إلى آخر الآية، أي: على زُبَر الحديد بالأكيار، وذلك أنَّه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبُر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تَحمى، والحديد إذا أُوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً» ثم يُؤتَى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسَب الخلاف في القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتدَّ ولصق البعض بالبعض، استأنف وَضْع طاقةٍ أُخرى، إلى أن استوى العمل فصار جبلاً صَلْداً[(٤)].

قال قتادة: هو كالبُرْد المحبَّر، طريقةٌ سوداءُ، وطريقةٌ حمراءُ[(٥)].

ويُروى أنَّ رسولَ الله ﷺ جاءه رجل فقال: يا رسولَ الله! إنِّي رأيت سَدَّ يأجوج

---

(١) في غريب الحديث ١/ ٧٧ - ٧٨ ، وما قبله منه، والحديث أورده ابن الأثير في النهاية (صدف).

(٢) التناوح: التقابل. القاموس (نوح)، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ وما بعده منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ ، وينظر مجاز القرآن ١/ ٤١٤ ، والسبعة ص٤٠١ ، والتيسير ص١٤٦ ، وزاد المسير ٥/ ١٩٢ - ١٩٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ .

(٥) الوسيط ٣/ ١٦٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٨٢ .

ومأجوج، قال: «كيف رأيته» قال: رأيته كالبُرْد المحبَّر، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله ﷺ: «قد رأيتَه»[١].

ومعنى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: كالنار. ومعنى ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: أعطوني قِطْراً أُفرغ عليه، على التقديم والتأخير. ومن قرأ: «ائتوني» فالمعنى عنده: تعالوا أُفرغ عليه نحاساً.

والقِطْر عند أكثر المفسرين: النحاس المذاب[٢]، وأصله من القَطْر؛ لأنَّه إذا أُذيب، قَطَرَ كما يقطر الماء. وقالت فرقة: القِطْر: الحديد المذاب[٣]. وقالت فرقة منهم ابن الأنباري: الرصاص المذاب. وهو مشتقٌ من قَطَر يَقطُر قَطْراً[٤]. ومنه: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢].

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يَعلُوه ويَصعدوا فيه؛ لأنَّه أملسُ مستوٍ مع الجبل، والجبل عالٍ لا يُرام[٥]. وارتفاع السَّدِّ مئتا ذِراع وخمسون ذِراعاً[٦]. روي في طوله ما بين طَرَفي الجبلين مئة فَرْسَخ، وفي عرضه خمسون فرسخاً[٧]، قاله وهب بن منبِّه.

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٧٥٨)، وابن حجر في تغليق التعليق ٤/ ١٢ عن أبي بكرة الثقفي. قال ابن حجر: هذا إسناد صحيح إلى قتادة، فإن كان سمعه من هذا الرجل فهو حديث صحيح، لأن عدم معرفة اسم الصحابي لا تضر عند الجمهور لأن كلهم عدول، ولكن قد اختلف فيه على قتادة... اهـ. وأخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٤ عن قتادة مرسلاً.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٤٠٩ ونسبه لابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك.

(٣) منهم أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٤١٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٢ .

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٤٤ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣ .

﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لبُعْد عَرْضه وقوَّته، وروي في «الصحيح»[(١)] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «فُتح اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثلُ هذه» وعقَد وهب بن منبِّه بيده تسعين ـ وفي رواية ـ وحَلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، وذكر الحديث.

وذكر يحيى بن سلَّام، عن سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أبي رافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يخرقون السَّدَّ كلَّ يوم، حتى إذا كادوا يَرون شعاعَ الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غداً، فيعيده الله كأشدِّ ما كان حتى إذا بلغت مُدَّتهم وأراد اللهُ أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاعَ الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه إن شاء الله، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيخرقونه ويَخرجون على الناس» الحديث وقد تقدَّم[(٢)].

قوله تعالى: «فَمَا اسْطَاعُوا» بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور. وقيل: هي لغة بمعنى استطاعوا. وقيل: بل استطاعوا بعينه، كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاءَ فقالوا: اسطاعوا. وحذف بعضهم منه الطاءَ فقال: استاع يستيع، بمعنى استطاع يستطيع، وهي لغة مشهورة. وقرأ حمزة وحده: «فما اسطّاعوا» بتشديد الطاء، كأنَّه أراد: استطاعوا، ثم أدغم التاء في الطاء فشدَّدها، وهي قراءة ضعيفة الوجه، قال أبو عليٍّ: هي غير جائزة. وقرأ الأعمش: «فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً» بالتاء في الموضعين[(٣)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ القائل: ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم،

---

(١) البخاري (٣٣٤٧)، ومسلم (٢٨٨١) واللفظ له.

(٢) ص٣٨٠ من هذا الجزء.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥ ، وقراءة حمزة في السبعة ص٤٠١ ، والتيسير ص١٤٦ ، وكلام أبي علي في الحجة ٥/ ١٧٨ .

والقوَّة عليه، والانتفاع به في دَفْعِ ضرر يأجوج ومأجوج. وقرأ ابن أبي عَبْلة: «هذِهِ رَحْمَةٌ مِنْ ربي»[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: يوم القيامة. وقيل: وقت خروجهم[(٢)]. ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ أي: مستوياً بالأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الفجر:٢١] قال ابن عرفة: أي: جعلت مستويةً لا أكَمة فيها، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣] قال اليزيدي: أي: مستوياً، يقال: ناقة دكَّاء: إذا ذهب سنامها. وقال القتبيُّ[(٣)]: أي: جعله مدكوكاً ملصقاً بالأرض. وقال الكلبيُّ: قِطَعاً متكسِّراً، قال:

هل غيرُ غادٍ دَكَّ غاراً فانهدم[(٤)]

وقال الأزهريُّ: يقال: دككته، أي: دققته. ومن قرأ: «دَكَّاءَ» أراد جعل الجبلَ أرضاً دكَّاء: وهي الرابية التي لا تبلغ أن تكون جبلاً، وجمعها دكاوات[(٥)].

وقرأ حمزة وعاصم والكسائيُّ «دكاء» بالمدِّ على التشبيه بالناقة الدكَّاء، وهي التي لا سنامَ لها، وفي الكلام حذف، تقديره: جعله مثل دكاء، ولابدَّ من تقدير هذا الحذف؛ لأنَّ السَّد مذكَّر فلا يوصف بدكَّاء. ومن قرأ: «دَكًّا» فهو مصدر دَكَّ يدك، إذا هَدم ورَضّ، ويحتمل أن يكون «جعل» بمعنى خَلَق. وينصب «دَكًّا» على الحال. وكذلك النصب أيضاً في قراءة من مدَّ يحتمل الوجهين[(٦)].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) في غريب القرآن ص٢٧١ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٤٥ ، ونسب البيت لأغلب.

(٥) ينظر الصحاح (دكك)، وتهذيب اللغة ٩/ ٤٣٦ - ٤٣٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤ ، والقراءة في السبعة ص٤٠٢ ، والتيسير ص١٤٦ ، والحجة ٥/ ١٨٢-١٨٣ .

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ الضمير في «تركنا» لله تعالى، أي: تركنا الجنَّ والإنسَ يوم القيامة يَموج بعضهم في بعض. وقيل: تركنا يأجوجَ ومأجوجَ «يومئذ» أي: وقت كمال السَّدِّ يموج بعضهم في بعض. واستعارة الموج لهم عبارةٌ عن الحيرة، وتردُّد بعضهم في بعض، كالمولهين من هَمٍّ وخوف، فشبَّههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض[١]. وقيل: تركنا يأجوجَ ومأجوجَ يوم انفتاح السَّدِّ يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم[٢].

قلت: فهذه ثلاثة أقوال، أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الأول؛ لأنَّه تقدَّم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي»، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ تقدَّم في «الأنعام»[٣]. ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ يعني: الجنَّ

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٦٥ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٦٩.

(٣) ٨/ ٤٣٠ .

والإنسَ في عَرَصات القيامة. ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: أبرزناها لهم[(١)]. ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ في موضع خفض، نعت «للكافرين». ﴿فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ أي: هم بمنزلة من عينه مغطاة، فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى[(٢)]. ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يطيقون أن يَسمعوا كلامَ الله تعالى، فهم بمنزلة مَنْ صَمَّ.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: ظنَّ. وقرأ عليٌّ وعكرمة ومجاهد وابن محيصن: «أَفَحَسْبُ» بإسكان السين وضمِّ الباء، أي: كَفَاهم. ﴿أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى﴾ يعني: عيسى والملائكة وعُزَيراً[(٣)]. ﴿مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ ولا أعاقبهم؟! ففي الكلام حذف. وقال الزجَّاج: المعنى: أفحسبوا أن ينفعهم ذلك. ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَزْنًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً» الآية، فيه دلالة على أنَّ مِن الناس مَن يعمل العمل وهو يظنُّ أنَّه محسن، وقد حَبِطَ سعيه، والذي يوجب إحباطَ السعي إما فسادُ الاعتقاد أو المراءاةُ، والمراد هنا الكُفْر[(٤)]. روى البخاريُّ[(٥)] عن مصعبٍ قال: سألت أبي: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ أهم الحَرُوريَّة؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى. أما اليهود فكذَّبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنَّة، فقالوا: لا طعامَ فيها ولا شراب، والحروريَّة: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧٥.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٤٢٢، والقراءة قرأ بها علي وابن عباس وابن يعمر والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن كثير بخلاف ونعيم بن ميسرة والضحاك ويعقوب وابن أبي ليلى. القراءات الشاذة ص٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٤.

(٤) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٦٨.

(٥) في صحيحه برقم (٤٧٢٨).

مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧] وكان سعد يُسمِّيهم الفاسقين.

والآية معناها التوبيخ، أي: قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري: يخيب سعيهم وآمالهم غداً، فهم الأخسرون أعمالاً، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ في عبادة من سواي. قال ابن عباس: يريد كفَّار أهل مكة. وقال عليٌّ: هم الخوارج أهلُ حروراء(١). وقال مَرَّة: هم الرهبان أصحابُ الصوامع(٢). ورُوي أنَّ ابنَ الكوَّاء سأله عن الأخسرين أعمالاً فقال له: أنت وأصحابُك(٣). قال ابن عطيَّة(٤): ويضعف هذا كلَّه قولُه تعالى بعد ذلك: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ وليس من هذه الطوائف من يَكفُر بالله ولقائه والبعث والنشور، وإنَّما هذه صفة مشركي مكَّة عبدة الأوثان، وعليٌّ وسعد رضي الله عنهما ذكرا أقواماً أخذوا بحظِّهم من هذه الآية. و«أعمالاً» نصب على التمييز. و«حبِطت» قراءة الجمهور: بكسر الباء. وقرأ ابن عباس «حبَطت»: بفتحها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ قراءة الجمهور: «نقيم» بنون العظمة. وقرأ مجاهد: بياء الغائب، يريد: فلا يقيم اللهُ عزَّ وجلَّ. وقرأ عبيد بن عمير: «فلا يقوم»، ويلزمه أن يقرأ: «وزنٌ»، وكذلك قرأ مجاهد: «فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنٌ»(٥). قال عبيد بن عمير: يُؤتَى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة(٦).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٤١٣، ومن طريقه الطبري ١٥/ ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٢٣ - ٤٢٤، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ١/ ١٩٥ - ١٩٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٢٦.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥، وقراءة ابن عباس ذكرها أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ١٦٧.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٦ - ٥٤٧، والقراءة في القراءات الشاذة ص٨٢، والبحر المحيط ٦/ ١٦٧، وذكرها العكبري في إملاء ما منّ به الرحمن ٣/ ٥٤١ دون نسبة.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٦٩ - ١٧٠، وابن أبي حاتم في التفسير ٥/ ١٤٤٠ (٨٢٢٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٢٧٠.

قلت: هذا لا يقال مثله من جهة الرأي، وقد ثبت معناه مرفوعاً في «صحيحي البخاري ومسلم»[١] عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «إنه ليأتي الرجلُ العظيم السمينُ يومَ القيامة لا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾». والمعنى: أنَّهم لا ثوابَ لهم، وأعمالهم مقابلة بالعذاب، فلا حسنةَ لهم توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنةَ له فهو في النار. وقال أبو سعيد الخدريُّ: يُؤتَى بأعمال كجبال تِهامة، فلا تَزِنُ شيئاً. وقيل: يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة، كأنَّه قال: فلا قَدْرَ لهم عندنا يومئذ[٢]، والله أعلم.

وفي هذا الحديث من الفقه ذمُّ السِّمن لمن تكلَّفه؛ لما في ذلك من تكلُّف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم، بل يدلُّ على تحريم الأكل الزائد على قَدْرِ الكفاية المبتغى به التَّرفُّه والسِّمن. وقد قال ﷺ: «إنَّ أبغضَ الرجال إلى الله تعالى الحبر السَّمين». ومن حديث عِمران بن حُصَين عن النبيِّ ﷺ قال: «خيركم قرني، ثم الذين يَلُونهم ـ قال عِمران: فلا أدري أَذَكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ـ ثم إنَّ من بعدكم قوماً يَشهدون ولا يُستشهدون، ويَخونون ولا يُؤتمنون، ويَنذرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السِّمن» وهذا ذمٌّ. وسبب ذلك أنَّ السِّمَنَ المكتسَب إنَّما هو من كثرة الأكل والشَّرَه، والدَّعَة والراحة والأَمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبدُ نفسه لا عبدُ ربِّه، ومن كان هذا حاله، وقَع لا محالةَ في الحرام[٣]، وكلُّ لحم تولَّد عن سُحتٍ، فالنار أولى به، وقد ذمَّ الله تعالى الكفَّار بكثرة الأكل فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢] فإذا كان المؤمن يتشبَّه بهم، ويتنعَّم بتنعُّمهم في كلِّ أحواله وأزمانه، فأين حقيقةُ الإيمان، والقيام بوظائف

---

(١) البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥ .

(٣) المفهم ٧/ ٣٥٩ - ٣٦٠ ، والحديث الأول سلف ٨/ ٤٥٥ ، وحديث عمران أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥): (٢١٥).

الإسلام؟! ومن كثر أكله وشربه، كثر نَهَمُه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهارَه هائماً، وليلَه نائماً. وقد مضى في «الأعراف» هذا المعنى[١]، وتقدَّم فيها ذكر الميزان[٢]، وأن له كفَّتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة.

وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حَمْش ساقِ ابنِ مسعود وهو يصعد النخلة: «تضحكون من ساقٍ تُوزَن بعمل أهل الأرض»[٣] فدلَّ هذا على أنَّ الأشخاص تُوزَن، ذكره الغزنويُّ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾ «ذلك» إشارة إلى تَرْك الوزن، وهو في موضع رفع بالابتداء، «جزاؤهم» خبره، و﴿جَهَنَّمُ﴾ بدل من المبتدأ الذي هو «ذلك»، و«ما» في قوله: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ مصدريَّة، والهزء: الاستخفاف والسُّخرية[٤]، وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قال قتادة: الفردوس رَبوة الجنَّة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها[٥]. وقال أبو أمامة الباهليُّ: الفردوس سُرَّة الجنَّة[٦]. وقال كعب: ليس في الجنان جنَّة أعلى من جنَّة الفردوس،

---

(١) ٩/ ١٩٦.

(٢) ٩/ ١٥٦.

(٣) أخرجه أحمد (٩٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٧)، وأبو يعلى (٥٥٥)، والطبراني في الكبير (٨٥١٦) من حديث علي بن أبي طالب بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٨٨ - ٢٨٩ بعد أن عزاه إلى أحمد وأبي يعلى والطبراني: رجالهم رجال الصحيح غير أم موسى، وهي ثقة.
وأخرجه أيضاً أحمد (٣٩٩١)، والبزار (٢٦٧٨)، وأبو يعلى (٥٣١٠)، والطبراني في الكبير (٨٤٥٢)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٢٧ من حديث عبد الله بن مسعود بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٨٩ : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني من طرق... وأمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح. اهـ. واستحمش الرجل حَمْشاً وحَمَشاً: صار دقيق الساقين.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٦.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٣١، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١٦٧.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١٤٨، والطبري ١٥/ ٤٣١.

فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر[١]. وفي «صحيح البخاري»[٢] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاةَ وصام رمضان، كان حقًّا على الله أن يُدخِله الجنَّة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله أفلا نبشِّر الناس؟ قال: «إنَّ في الجنَّة مئةَ درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتَيْن كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم اللهَ تعالى فاسألوه الفردوسَ، فإنَّه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـ أراه قال: ـ وفوقه عَرْشُ الرحمن، ومنه تَفجَّر أنهارُ الجنة».

وقال مجاهد: والفردوس: البستان بالروميَّة[٣]. الفرَّاء[٤]: هو عربي. والفردوس: حديقة في الجنَّة. وفردوس: اسمُ روضة دون اليمامة. والجمع فراديس، قال أميَّة بن أبي الصلت الثقفي:

كانت منازلُهم إذ ذاك ظاهرةً ... فيها الفَراديسُ والفومانُ والبصلُ

والفراديس: موضع بالشام. وكَرْمٌ مُفَرْدَس، أي: مُعرَّش[٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: دائمين. ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: لا يطلبون تحويلاً عنها إلى غيرها. والحِول: بمعنى التحويل، قاله أبو عليٍّ. وقال الزجَّاج[٦]: حال من مكانه حِوَلاً كما يقال: عَظُم عِظَماً. قال: ويجوز أن يكون من الحيلة، أي: لا يحتالون منزلاً غيرَها. قال الجوهريُّ[٧]: التحوُّل: التنقُّل من موضع إلى موضع، والاسم: الحِول، ومنه قوله تعالى: «خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً».

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٣١، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٣٨٠.

(٢) برقم (٢٧٩٠).

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٣٢.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٣١.

(٥) الصحاح (فردس)، دون قول أمية، وهو في ديوانه ص٩٨.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣١٥.

(٧) في الصحاح (حول).

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ نفد الشيءُ: إذا تمَّ وفرَغ، وقد تقدَّم. ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ أي: زيادةً على البحر عدداً أو وزناً. وفي مصحف أبيٍّ: «مِدَاداً» وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحميد[1]. وانتصب «مدداً» على التمييز أو الحال[2].

وقال ابن عباس: قالت اليهود لما قال لهم النبيُّ ﷺ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] قالوا: وكيف وقد أوتينا التوراة، ومن أُوتيَ التوراة فقد أُوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ الآية[3].

وقيل: قالت اليهود: إنَّك أُوتيت الحكمةَ، ومن أُوتيَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً، ثم زعمت أنَّك لا عِلْم لك بالرُّوح؟! فقال اللهُ تعالى قل: وإن أُوتيت القرآنَ وأوتيتم التوراةَ، فهي بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلةٌ[4]. قال ابن عباس: «كَلِمَاتُ رَبِّي» أي: مواعظ ربِّي. وقيل: عنى بالكلمات الكلامَ القديمَ الذي لا غايةَ له ولا منتهى، وهو وإن كان واحداً فيجوز أن يعبَّر عنه بلفظ الجمع؛ لما فيه من فرائد الكلمات، ولأنَّه ينوب منابَها، فجازت العبارةُ عنها بصيغة الجمع؛ تفخيماً، وقال الأعشى:

ووجهٌ نقيُّ اللونِ صافٍ يَزينُهُ   مع الجِيدِ لَبَّاتٌ لها ومَعَاصِمُ[5]

فعبَّر باللَّبَّات عن اللَّبَّة. وفي التنزيل: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ [الحجر: ٢٣] وكذلك: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٥، والبحر المحيط ٦/ ١٦٩، وذكرها الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٢٣، وأبو الليث في التفسير ٢/ ٣١٥، والطبري ١٥/ ٤٣٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٦.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٨، وتفسير البغوي ٣/ ١٨٦.

(٤) السيرة النبوية ١/ ٣٠٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣١٥ بنحوه.

(٥) ديوان الأعشى ص١٢٧، واللَّبَّة: المنحر. القاموس (لبب).

كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] لأنَّه ناب منابَ أمَّة. وقيل: أي ما نفدت العبارات والدلالات التي تدلُّ على مفهومات معاني كلامه سبحانه وتعالى[١]. وقال السُّدِّيُّ: أي: إن كان البحر مداداً لكلمات ربِّي لنفدَ البحر قبل أن تنفدَ صفاتُ الجنَّة التي هي دار الثواب. وقال عكرمة: لنفد البحرُ قبل أن ينفدَ ثوابُ من قال: لا إله إلا الله. ونظير هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقرأ حمزة والكسائيُّ: «قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ» بالياء؛ لتقدُّم الفعل[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: لا أعلم إلا ما يعلِّمني الله تعالى، وعِلْم الله تعالى لا يحصى، وإنَّما أُمِرت بأن أبلِّغكم بأنَّه لا إله إلا الله. ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يرجو رؤيته وثوابَه، ويخشى عقابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ قال ابن عباس: نزلت في جُنْدَب بنِ زهير العامريِّ، قال: يا رسول الله إنِّي أعمل العملَ لله تعالى، وأُريد وجهَ الله تعالى، إلَّا أنَّه إذا اطُّلِع عليه سَرَّني، فقال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ طيِّبٌ ولا يَقبلَ إلا الطيِّبَ، ولا يَقبل ما شُورِكَ فيه» فنزلت الآية. وقال طاوس: قال رجل: يا رسولَ الله! إنِّي أحبُّ الجهادَ في سبيل الله تعالى، وأُحبُّ أن يُرى مكاني، فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد: جاء رجلٌ للنبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله! إنِّي أَتصدَّق وأَصِلُ الرَّحِم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى، فيذكر ذلك منِّي وأُحمَد عليه فيسرُّني ذلك وأُعجَب به، فسكت رسولُ الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٣].

قلت: والكلُّ مراد، والآية تعمُّ ذلك كلَّه وغيرَه من الأعمال. وقد تقدَّم في سورة «هود»[٤] حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضى عليهم أوَّل الناس. وقد

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٧ .

(٢) السبعة ص٤٠٢ ، والتيسير ص١٤٦ .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣٠٨ .

(٤) ١١/ ٨٤ .

تقدَّم في سورة النساء[١] الكلامُ على الرياء، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية.

وقال الماورديُّ[٢] وقال جميعُ أهل التأويل: معنى قوله تعالى: «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» إنه لا يرائي بعمله أحداً. وروى الترمذيُّ الحكيم رحمه الله تعالى في «نوادر الأصول»[٣] قال: حدَّثنا أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثنا مكيُّ بن إبراهيم قال: حدَّثنا عبد الواحد بنُ زيد، عن عبادة بن نُسَيٍّ، قال: أتيت شدادَ بنَ أوس في مصلَّاه وهو يبكي، فقلت: ما الذي أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: حديثٌ سمعتُه من رسول الله ﷺ يوماً، إذ رأيت بوجهه أَمْراً ساءني فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، ما الذي أرى بوجهك؟ قال: «أمراً أتخوَّفه على أمَّتي من بعدي» قلت: ما هو يا رسولَ الله؟ قال: «الشِّرك والشهوة الخفيَّة» قلت: يا رسولَ الله! وتُشرِكُ أمَّتك مِن بعدك؟ قال: «يا شدَّاد أما إنَّهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حَجَراً ولا وَثَناً، ولكنَّهم يُراؤون بأعمالهم. قلت: والرياء شِرْك هو؟ قال: «نعم». قلت: فما الشهوة الخفيَّة؟ قال: «يُصبِح أحدُهم صائماً فتعرض له شهواتُ الدنيا فيفطر». قال عبد الواحد: فلقيتُ الحسنَ، فقلت: يا أبا سعيدٍ! أَخبِرني عن الرياء أَشِرْك هو؟ قال: نعم، أما تقرأ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدَّثنا محمد بن أبي بكر قال: حدَّثنا المعتمر ابنُ سليمان، عن ليث، عن شَهْرِ بن حوشب قال: كان عبادةُ بنُ الصامت وشدَّاد بن أوس جالسين، فقالا: إنَّا نتخوَّف على هذه الأمَّة من الشِّرْك والشهوة الخفيَّة، فأمَّا الشهوة الخفيَّة فمِن قِبَلِ النساء. وقالا: سمعنا رسولَ الله ﷺ يقول: «من صلَّى صلاةً يُرائي بها فقد أَشركَ، ومن صام صياماً يُرائي به فقد أشرك» ثم تلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ

(١) ٦/ ٢٩٩.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٥٠.

(٣) ص٤٠٠ بدون إسناد، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٧١٤٤)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٠، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦٨، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٣٠) من طرق، عن عبد الواحد بن زيد، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: عبد الواحد بن زيد متروك.

رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[١].

قلت: وقد جاء تفسير الشهوة الخفيَّة بخلاف هذا، وقد ذكرناه في «النساء»[٢].

وقال سهل بن عبد الله: وسئل الحسنُ عن الإخلاص والرياء فقال: من الإخلاص أن تحبَّ أن تُكتَم حسناتُك، ولا تحبَّ أن تُكتَم سيئاتُك، فإن أظهر اللهُ عليك حسناتك تقول: هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتذكر قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ الآية [المؤمنون: ٦٠]، يؤتون الإخلاصَ، وهم يخافون ألا يُقبَل منهم، وأما الرياء: فطلب حظِّ النفس من عملها في الدنيا، قيل له: كيف يكون هذا؟ قال: من طلب بعمل بينه وبينَ الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة، فهو رياء.

وقال علماؤنا رضي الله تعالى عنهم: وقد يُفضِي الرياء بصاحبه إلى استهزاءِ الناس به، كما يُحكى أنَّ طاهرَ بنَ الحسين قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صِرْتَ إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلتُ العراقَ منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائمٌ. فقال: يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين. وحكى الأصمعيُّ أنَّ أعرابيًّا صلَّى فأطال، وإلى جانبه قوم، فقالوا: ما أحسنَ صلاتك؟! فقال: وأنا مع ذلك صائم[٣]. أين هذا من قول الأشعثِ بنِ قيس وقد صلَّى فخفَّف، فقيل له: إنَّك خفَّفت. فقال: إنَّه لم يُخالِطها رياء[٤]. فخلص من تنقُّصهم بنفي الرياء

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢١٦)، وأحمد (١٧١٤٠)، والبزار (٣٤٨٢)، والطبراني في الكبير (٧١٣٩)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٢٩، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦٨ - ٢٦٩، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٨٤٤) من طرق، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرحمن بن غنم، عن شداد بن أوس بنحوه. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٠ - ٢٢١: رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وثَّقه أحمد وغير واحد، وبقية رجاله ثقات.

(٢) ٦/ ٢٩٩.

(٣) البيان والتبيين ٢/ ٣١٩، والعقد الفريد ٣/ ٢١٦.

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٣٣٤، والعقد الفريد ٣/ ٢١٦، عن أشعب بن جبير، واسمه أشعث، وهو الذي يضرب به المثل في الطمع. سمط اللآلي ٣/ ٩٥٨، وفوات الوفيات ١/ ١٩٧.

عن نفسه، والتصنُّع من صلاته، وقد تقدَّم في «النساء»[١] دواء الرياء من قول لقمان، وأنَّه كتمان العمل.

وروى الترمذيُّ الحكيم[٢]: حدَّثنا أبي رحمه الله تعالى قال: أنبأنا الحِمَّاني قال: أنبأنا جرير، عن ليث، عن شيخٍ، عن مَعْقِل بنِ يَسَار قال: قال أبو بكر وشَهِدَ به على رسول الله ﷺ، قال: ذكَر رسولُ الله ﷺ الشِّرْكَ، قال: «هو فيكم أخفى من دَبيب النمل، وسأدلُّك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأَستغفركَ لما لا أعلم، تقولها ثلاث مرات».

وقال عمر بن قيس الكندي: سمعتُ معاويةَ تلا هذه الآيةَ على المنبر ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فقال: إنَّها لآخِرُ آيةٍ نزلت من السماء[٣]. وقال عمر: قال النبيُّ ﷺ: «أُوحيَ إليَّ أنَّه من قرأ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ رُفعَ له نورٌ ما بين عدن إلى مكَّة، حَشْوه الملائكة يصلُّون عليه ويستغفرون له»[٤].

وقال معاذ بن جبل: قال النبيُّ ﷺ: «من قرأ أوَّل سورة الكهف وآخِرها، كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه، ومن قرأها كلَّها، كانت له نوراً من الأرض إلى السماء»[٥].

---

(١) ٦/ ٢٩٩.

(٢) في نوادر الأصول ص٤٠٠ بدون إسناد، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، والمروزي في مسند أبي بكر برقم (١٨) من طريق ليث، به.

وأخرجه أيضاً المروزي في مسند أبي بكر (١٧)، وأبو يعلى (٥٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٦) من طريق ليث، عن أبي محمد، عن حذيفة، عن أبي بكر الصديق بنحوه مطولاً. ووقع عند ابن السني: أبي مجلز، بدل: أبي محمد، وفي إسنادهما: ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف، والراوي عنه، وهو مجهول.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٤١ - ٤٤٢ ، والطبراني في الكبير ١٩/ ٣٩٢ (٩٢١).

(٤) أخرجه البزار (٢٩٧). وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٣٦٠) وقال: رواه البزار، ورواته ثقات إلا أن أبا قرَّة الأسدي لم يروِ عنه ـ فيما أعلم ـ غير النضر بن شميل.

(٥) أخرجه أحمد (١٥٦٢٦)، والطبراني في الكبير ٢٠/ ١٩٧ (٤٤٣)، والبغوي في شرح السنة (١٢٠٥) عن معاذ بن أنس ﷺ. وفي إسناده: زبَّان بن فائد الحمراوي، وهو ضعيف.

وعن ابن عباس أنَّه قال له رجل: إنِّي أُضمر أن أقومَ ساعةً من الليل فيغلبني النوم، فقال: إذا أردتَ أن تقوم أيَّ ساعةٍ شِئْتَ من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ إلى آخِر السورة، فإنَّ اللهَ تعالى يُوقِظك متى شئتَ من الليل، ذكر هذه الفضائل الثعلبيُّ ﷺ.

وفي «مسند الدارمي»[1] أبي محمد، أخبرنا محمد بنُ كثير، عن الأوزاعيِّ، عن عبدة، عن زرٍّ بن حبيش، قال: من قرأ آخِر سورة الكهف لساعة يُريد أن يقوم من الليل، قامها، قال عبدة: فجرَّبناه، فوجدناه كذلك. قال ابن العربي[2]: كان شيخنا الطُّرْطُوشيُّ الأكبر يقول: لا تذهب بكم الأزمانُ في مصاولة الأقران، ومواصلة الإخوان، وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

تمَّت سورةُ الكهف، والحمد لله وحده،
والصلاةُ والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعدَه.

---

(١) برقم (٣٤٠٩).

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٣٧

سُورَةُ الكَهفِ

مَكِّيَّةٌ، وقيل: إلا قولَه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ...﴾ الآية[1]

وهي مئةٌ وإحدى عشرةَ آيةً[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآنَ، رتَّبَ استحقاقَ الحمدِ على إنزالِه تنبيهًا على أَنَّهُ أعظَمُ نَعْمائِه، وذلك لأَنَّه الهادي إلى ما فيه كمالُ العبادِ، والدَّاعي إلى ما بهِ يَنتَظِمُ صلاحُ المعاشِ والمعادِ.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾: شيئًا من العِوَجِ باختلالٍ في اللفظِ وتنافٍ في المعنى، أو انحرافٍ مِن[3] الدَّعوةِ إلى جنابِ الحقِّ، وهو في المعاني كالعَوَجِ في الأعيانِ.

(٢) ـ ﴿قَيِّمًا﴾: مُستقيمًا مُعتَدِلًا لا إفراطَ فيه ولا تَفريطَ، أو: قيِّمًا بمصالحِ العبادِ، فيكونُ وصفًا له بالتَّكميلِ بعد وصفِه بالكمالِ، أو: على الكتبِ السَّابقةِ ليشهدَ بصِحَّتِها.

---

(١) ذكره الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٢٣٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٦٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره ابن الجوزي أيضاً عن قتادة.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٧٩)، وفيه: هي مئة وخمس آيات في المَدَني والمكي، وست في الشَّامي، وعشر في الكوفي، وإحدى عشرة في البصري.

(٣) في نسخة التفتازاني: «عن»، وفي نسخة الطبلاوي: «في».

وانتصابُهُ بمُضمَرٍ تَقديرُه: جعلَهُ قيمًا، أو على الحالِ مِن الضَّميرِ في ﴿لَّهُۥ﴾، أو مِن ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ على أنَّ الواوَ في ﴿وَلَمْ يَجْعَل﴾ للحالِ دونَ العَطفِ؛ إذ لو كانَ للعَطفِ لكانَ المعطوفُ فاصلًا بين أبعاضِ المعطوفِ عليه، ولذلك قيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ.

وقُرِئَ: (قِيَمًا)(١).

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾؛ أي: لينذرَ الذين كفروا عذابًا شديدًا، فحُذفَ المفعولُ الأوَّلُ اكتفاءً بدلالةِ القرينةِ واقتصارًا على الغرضِ المَسوقِ إليه.

﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾: صادرًا مِن عندِه، وقرأَ أبو بكرٍ بإسكانِ الدَّالِ إسكانَ الباءِ مِن (سَبُع) مع الإشمامِ ليَدُلَّ على أصلِه، وكسرِ النُّونِ لالتقاءِ السَّاكنَيْنِ، وكسرِ الهاء للإتباعِ(٢).

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنَّةُ.

(٣) - ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾: في الأجرِ ﴿أَبَدًا﴾ بلا انقطاعٍ.

(٤) - ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ خصَّهُم بالذِّكرِ وكرَّرَ الإنذارَ مُتعلِّقًا بهم استعظامًا لكُفرِهم، وإنَّما لم يُذكَرِ المنذَرُ به استغناءً بتقدُّمِ ذكرِه.

(٥) - ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: بالولدِ، أو: باتِّخاذِه، أو: بالقولِ، والمعنى: أنَّهُم يقولونَه عن جهلٍ مُفْرِطٍ وتَوهُّمٍ كاذبٍ، أو تقليدٍ لِمَا سَمِعُوه مِن أَوائلِهم مِن غيرِ علمٍ بالمَعنى الذي أرادُوا به، فإنَّهُم كانوا يطلقونَ الأبَ والابنَ بمَعنى المؤثِّرِ والأثرِ، أو: باللهِ إذ لو عَلِمُوه لَمَا جَوَّزُوا نسبةَ الاتِّخاذِ إليه.

﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذينَ تَقوَّلُوه بمعنى التَّبنِّي.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١) عن أبان بن تغلب.

(٢) مع وصل الهاء بياء لفظية. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٢).

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾: عَظُمَت مَقالَتُهُم هذه في الكفرِ، لِمَا فيها مِن التَّشبيهِ والتَّشريكِ وإيهامِ احتياجِهِ تعالى إلى ولدٍ يُعينُهُ ويَخْلفُهُ، إلى غيرِ ذلك مِن الزَّيغِ.

و﴿كَلِمَةً﴾ نصبٌ على التَّمييزِ، وقُرِئَ بالرَّفعِ على الفاعليَّةِ[1]، والأولُ أبلغُ وأدلُّ على المقصود.

﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صِفَةٌ لها تفيدُ استعظامَ اجترائِهِم على إخراجِها مِن أفواهِهِم، والخارجُ بالذَّاتِ هو الهواءُ الحاملُ لها.

وقيل: صِفَةُ مَحذوفٍ هو المخصوصُ بالذمِّ؛ لأنَّ (كبرَ) هاهنا بمَعنى: بئس.

وقُرِئَ: (كَبْرَتْ) بالسُّكونِ مع الإشمامِ[2].

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

(٦) ـ ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: قاتِلُها ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ إذا وَلَّوا عن الإيمانِ، شبَّهَه ـ لِمَا تداخلَهُ مِن الوَجْدِ على تولِّيهم ـ بمَن فارَقَتْه أَعِزَّتُهُ وهو يتحسَّرُ على آثارِهِم ويَبْخَعُ نفسَه وَجْدًا عليهِم.

وقُرِئَ: (باخِعُ نَفْسِك) على الإضافةِ[3].

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾: بهذا القُرآنِ ﴿أَسَفًا﴾: للتَّأسُّفِ عليهم، أو: مُتأسِّفًا عليهِم، والأسفُ: فَرْطُ الحزنِ والغَضبِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١) عن الحسن وعيسى، وزاد ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٤) نسبتها ليحيى بن يعمر وابن محيصن وعمرو بن عبيد وابن أبي إسحاق.

(٢) انظر: «الكشاف» (٥/ ١٢٩)، وذكرها أبو حيان في «البحر» (١٤/ ٢١٧) بسكون الباء ولم يذكر الإشمام، قال: وهي في لغة تميم.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨٢) عن قتادة، ونسبها الكرماني في «شواذ القراءات» (ص: ٢٨٥) لزيد بن علي.

وقُرِئَ (أنْ) بالفتحِ[١] على: لِأَنْ، فلا يجوزُ إعمالُ ﴿بَـٰخِعٌ﴾ إلا إذا جُعلَ حكايةَ حالٍ ماضِيَةٍ.

(٧) ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مِـن الحيوانِ والنَّباتِ والمَـعادنِ ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ ولأهلِها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في تَعاطيه، وهو مَن زَهِدَ فيه ولم يَغترَّ به، وقَنِعَ منه بما يُزَجِّي به أيامَهُ، وصَرَفَه على ما يَنبَغِي، وفيه تَسكينٌ لرَسولِ اللهِ عليهِ السَّلامُ.

(٨) ـ ﴿وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ تزهيدٌ فيه، والجرُزُ: الأرضُ التي قُطعَ نَباتُها، من الجَرْزِ وهو القطعُ، والمعنى: إنَّا لنُعيدُ ما عليها من الزِّينةِ تُرابًا مُستَوِيًا بالأرضِ، ونجعَلُه كصَعيدٍ[٢] أملسَ لا نباتَ فيه.

(٩) ـ ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾: بـل أَحَسِبْت ﴿أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ فـي إبقـاءِ حَياتِهِـم مـدَّةً مَديـدَةً ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾ وقِصَّتُهـم بالإضافـةِ إلى خلـقِ ما على الأرضِ مـن الأجنـاسِ والأنـواعِ الفائتَـةِ للحصـرِ علـى طبائـعَ مُتباعـدةٍ وهيئـاتٍ متخالفـةٍ تُعجِـبُ النَّاظريـنَ مِـن مـادَّةٍ واحدَةٍ ثـمَّ ردِّها إليهـا= ليس بعَجيـبٍ[٣]، مع أنَّه مِـن آيـاتِ اللهِ كالنَّـزرِ الحَقيرِ.

---

(١) انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٨٥)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٨٧)، عن ابن أبي عبلة. ونسبها ابن خالويه في «مختصر شواذ القراءات» (ص:٨١) نقلاً عن الفراء إلى الأعشى عن أبي بكر عن عاصم. وجاء في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٣٤): وقوله: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ تكسرها إذا لَمْ يكونوا آمنوا عَلَى نيَّة الجزاء، وتفتحها إذا أردت أنها قد مضت.

(٢) في نسخة التفتازاني: «صعيداً».

(٣) قوله: «وقصتهم» مبتدأٌ «من الأجناس والأنواع» بيانٌ لـ(ما) «من مادة» متعلق بـ(خَلْقِ) «ثم ردِّها» بالجر عطفاً على (خَلْقِ) «إليها»؛ أي: إلى الأرضِ «ليس بعجيب» خبرُ المبتدأ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٥٤٨).

والكهفُ: الغارُ الواسِعُ في الجبلِ، والرَّقيمُ: اسمُ الجبلِ أو الوادي الذي فيه كَهفُهُم، أو: اسمُ قَريَتِهِم، أو: كَلْبِهِم، قال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلتِ:

وَليسَ بِهَا إلَّا الـرَّقيـمُ مُجـاوِرًا وَصِيدَهُمْ والقَوْمُ في الكَهْفِ هُجَّدُ[١]

أو: لوحٌ رصاصيٌّ أو حجريٌّ رُقِمتْ فيه أسماؤُهُم وجُعِلَت على بابِ الكهفِ.

وقيل: أصحابُ الرَّقيمِ قومٌ آخرونَ كانوا ثلاثةً خَرَجُوا يرتادونَ لأَهلِهِم[٢]، فأخذَتْهُم السَّماءُ فأَوَوْا إلى كهفٍ، فانحطَّتْ صخرَةٌ وسدَّتْ بابَه، فقال أحدهم: اذكُرُوا أيُّكم عَمِلَ حسنَةً لعلَّ اللهَ يرحَمُنا ببركتِه، فقال واحِدٌ: استَعْمَلْتُ أُجَراءَ ذاتَ يومٍ، فجاءَ رَجُلٌ وسطَ النَّهارِ وعملَ في بَقيَّتِه مثلَ عَمَلِهم فأعطيتُه مثلَ أَجرِهِم، فغضبَ أَحَدُهُم وتركَ أجرَهُ فوضَعْتُه في جانبِ البَيتِ، ثمَّ مرَّ بي بقرٌ فاشتَرَيْتُ به فصيلةً فبلَغَتْ ما شاءَ اللهُ، فرجعَ إليَّ بعد حينٍ شَيْخًا ضَعِيفًا لا أعرفُهُ وقال: إنَّ لي عندكَ حقًّا، وذكرَهُ حتى عَرَفْتُه، فدَفَعْتُها إليه جميعًا، اللهمَّ إن كنتُ فَعَلْتُ ذلك لوَجهِكَ فافرجْ عنَّا، فانصدَعَ الجبلُ حتَّى رَأَوا الضَّوءَ.

وقالَ آخرُ: كانَ فيَّ[٣] فضلٌ وأصابَت النَّاسَ شِدَّةٌ، فجاءَتْنِي امرأةٌ فطَلَبَت مِنِّي مَعروفًا فقلت: واللهِ ما هو دونَ نَفسِكِ، فأَبَتْ وعادَتْ، ثمَّ رَجَعَت ثَلاثًا، ثم ذَكَرَتْ لزَوْجِها فقال: أَجِيبي له وأَغِيثي عيالَكِ، فأَتَتْ وسَلَّمَتْ إليَّ نَفْسَها، فلمَّا تَكَشَّفْتُها وهمَمْتُ بها ارتعَدَتْ فقلتُ: ما لكِ؟ فقالت: أخافُ اللهَ، فقلتُ لها: خِفتيهِ في الشِّدَّةِ ولم أَخَفْهُ في الرَّخاءِ، فترَكْتُهَا وأَعْطَيْتُها مُلتمَسَها، اللهمَّ إنْ فعلتُهُ لوَجهِكَ فافرجْ عنَّا، فانصدَعَ حتى تعارَفُوا.

---

(١) انظر: «ديوان أمية» (ص: ٣٧٥).

(٢) أي: يطلبون معاشهم.

(٣) في نسخة الخيالي: «لي».

وقال الثَّالثُ: كانَ لي أبَوَان هِمَّان[1]، وكانَتْ لي غنمٌ، وكنتُ أُطعِمُهُما وأَسقيهِمَا ثمَّ أَرجِعُ إلى غنمِي، فحبسَنِي ذاتَ يومٍ غيثٌ فلم أَرُحْ حتَّى أَمْسَيْتُ، فأتيتُ أهلي وأخذتُ مِحْلَبِي فحَلَبْتُ فيه ومضيتُ إليهِمَا فوَجدْتُهُمَا نائِمَيْنِ، فشَقَّ عليَّ أَنْ أُوقِظَهُما، فتوقَّفَتْ جالسًا ومِحْلَبي على يَدِي حتَّى أَيْقظَهُما الصُّبحُ فسقيتُهُما، اللهمَّ إنْ فَعَلْتُه لوَجهِكَ فافرُجْ عنَّا. ففَرَجَ اللهُ عَنْهُم فخرجوا. وقد رفعَ ذلك نُعمانُ بنُ بَشيرٍ[2].

(١٠) ـ ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ يعني: فتيةً مِن أَشرافِ الرُّومِ، أرادَهُم دِقْيَانُوسُ على الشِّركِ فأَبَوْا وهَرَبُوا إلى الكهفِ.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ تُوجبُ لنا المغفرةَ والرِّزقَ والأمنَ مِن العَدُوِّ.

﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا﴾: مِن الأمرِ الذي نحنُ عليه مِن مُفارقَةِ الكُفَّارِ ﴿رَشَدٗا﴾ نصيرُ بسببِهِ راشدِينَ مُهتدينَ، أو: اجعَلْ أمرَنا كلَّه رشدًا كقولك: رأيتُ منك أَسدًا، وأصلُ التَّهيئَةِ: إحداثُ هَيئَةِ الشَّيءِ.

(١١) ـ ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾؛ أي: ضَرَبْنا عليهـم حجابًا يمنع السَّماعَ، بمعنى: أَنَمْنَاهُم إنامَةً لا تُنَبِّهُهُم فيها الأَصواتُ، فحُذِفَ المَفعولُ كما حُذِفَ في قولهم: بَنَى على امرأَتِه.

---

(١) أي: مُسنَّان.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤٧)، ورواه أيضاً الإمام أحمد في «مسنده» (١٨٤١٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٣٠٧)، و«المعجم الكبير» (٢١/ ١٦٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٤٢): (رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، والبزار بنحوه من طرق، ورجال أحمد ثقات)، وحسن ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٥٠٦) إسناده.

وروى قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الكهف البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما وفي سياقها بعض اختلاف.

﴿فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ﴾ ظَرْفانِ لـ(ضربنا) ﴿عَدَدًا﴾؛ أي: ذواتِ عددٍ، ووصفُ السنينَ به يحتمِلُ التَّكثيرَ والتَّقليلَ، فإنَّ مُدةَ لبثِهم كبعضِ يومٍ عِندَه.

(١٢) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾: أيقظْناهُم ﴿لِنَعْلَمَ﴾: ليتعلَّقَ عِلمُنا تعلُّقًا حاليًّا مُطابقًا لتَعلُّقِه أولًا تعلُّقًا استِقباليًّا ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ المُختلفَيْنِ مِنْهم أو مِن غيرِهم في مُدةِ لبثِهم ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾: ضبطَ أمدًا لزمانِ لبثِهم، وما في ﴿أَىُّ﴾ مِن مَعنى الاستفهامِ عُلِّقَ عنه ﴿لِنَعْلَمَ﴾، فهو مُبتدأٌ و﴿أَحْصَىٰ﴾ خبرُه، وهو فعلٌ ماضٍ و﴿أَمَدًا﴾ مفعولُه، و﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾ حالٌ منه أو مفعولٌ له.

وقيل: إنَّه المفعولُ، واللامُ مزيدةٌ، و(ما) مَوصولةٌ، و﴿أَمَدًا﴾ تمييزٌ.

وقيل: ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسمُ تَفضيلٍ مِن الإحصاءِ بحذفِ الزَّوائدِ، كقولهم: هو أَحصَى للمالِ، و(أفلسُ مِن ابنِ المذلَّقِ[1])، و﴿أَمَدًا﴾ نصبٌ بفعلٍ دلَّ عليه كقولِه:

أكرَّ وأحمَى للحقيقة منهم ... وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ القَوَانِسَا[2]

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: بالصِّدقِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾: شُبَّان، جمعُ فتًى؛ كصَبيٍّ وصِبيَةٍ ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ بالتَّثبُّتِ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: وقوَّيناها بالصَّبرِ على هجرِ الوطنِ والأهلِ والمالِ، والجَراءةِ على إظهارِ الحقِّ والردِّ على دِقْيَانُوسَ الجَّبارِ.

---

(١) هو رجلٌ مِن بني عبدِ شَمسٍ، وأبوه وأجدادُه يُعرَفُونَ بالإفلاسِ. «حاشية السيوطي على البيضاوي» (٨/ ٤٠٠).

(٢) البيت للعباس بن مرداس. انظر: «الأصمعيات» (ص: ٢٠٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٣)، و«الحماسة» بشرح المرزوقي (١/ ٣١٨)، و«الخزانة» (٨/ ٣١٩). والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى بيضة الفارس.

﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يديهِ ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾: واللهِ لَقَد قُلنا قولًا ذا شَطَطٍ؛ أي: ذا بُعدٍ عَن الحقِّ مُفْرطٍ في الظُّلمِ.

(١٥) ـ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ مبتدأٌ ﴿قَوْمُنَا﴾ عطفُ بيانٍ ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ خبرُه، وهو إخبارٌ في مَعنى الإنكارِ ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ﴾: هلَّا يأتون ﴿عَلَيْهِم﴾: على عِبادَتِهم ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾: ببُرهانٍ ظاهرٍ، فإنَّ الدِّينَ لا يوجدُ إلَّا بهِ، وفيه دَليلٌ على أنَّ ما لا دليلَ عليه مِن الدِّياناتِ مَردودٌ، وأنَّ التَّقليدَ فيه غيرُ جائزٍ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبةِ التَّشريكِ إليه.

(١٦) ـ ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطابُ بعضِهم لبَعضٍ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ عطفٌ على الضَّميرِ المَنصوبِ؛ أي: وإذا اعتزَلْتُم القومَ ومَعبودِيهِمْ إلَّا اللهَ، فإنَّهُم كانوا يَعبدونَ اللهَ ويَعبدونَ الأصنامَ كسائرِ المُشركينَ.

ويَجوزُ أَنْ تكونَ (ما) مصدريَّةً على تقدير: وإذ اعتزَلْتُمُوهم وعِبادَتَهُم إلَّا عبادةَ اللهِ.

وأن تكونَ نافيةً على أنه إخبارٌ مِن اللهِ تَعالى عن الفِتيةِ بالتَّوحيدِ مُعترِضٌ بين (إذ) وجوابِه لتَحقيقِ اعتزالِهم.

﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾: يَبسُطْ لَكُم ويوسِّعْ عليكُم ﴿مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ في الدَّارينِ ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾: ما تَرتَفِقُونَ به؛ أي: تَنتَفِعونَ، وجزمُهم بذلك لنُصوعِ يَقينِهم وقوَّةِ وُثوقِهم بفضلِ اللهِ.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿مَرفِقًا﴾ بفتحِ الميمِ وكَسرِ الفاءِ[1]، وهو مَصدَرٌ جاءَ شاذًّا كالمَرجِعِ والمصيرِ والمحيضِ، فإنَّ قياسَهُ الفَتحُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٢). وذكر ابن مجاهد من طريق الكسائي عن أبي بكر عن عاصم مثل نافع وابن عامر، ولم يذكرها الداني.

(١٧) ـ ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾ لو رأيتَهُم، والخطابُ لرَسولِ اللهِ أو لكلِّ أحدٍ ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾: تميلُ عنه ولا يقعُ شُعاعُها عليهم فيؤذِيهِم؛ لأنَّ الكهفَ كان جنوبيًّا، أو لأنَّ اللهَ زَوَّرَهَا عنهم[1]، وأصله: تَتزَاوَرُ فأُدغِمَت التَّاءُ في الزَّايِ.

وقرأ الكوفِيُّونَ بحَذفِها، وابنُ عامرٍ ويَعقوبُ: ﴿تَزْوَرُّ﴾ كتَحْمَرُّ[2]، وقُرِئَ: (تَزْوَارُّ) كتَحمارُّ[3]، وكلُّها من الزَّوَرِ بمعنى: الميلِ.

﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾: جهةَ اليَمينِ، وحقيقتُها: الجِهَةُ ذاتُ اسمِ اليَمينِ ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ﴾: تقطَعُهُم وتَصرِمُ عَنْهُم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ يعني: يمينَ الكهفِ وشمالَه لقوله: ﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ﴾؛ أي: وهُمْ في مُتَّسَعٍ مِن الكهفِ؛ يعني: في وسطِه بحيثُ يَنالُهُم رَوحُ الهواءِ ولا يُؤذيهِم كَرْبُ الغارِ ولا حرُّ الشَّمسِ، وذلك لأنَّ بابَ الكهفِ في مقابلةِ بناتِ النَّعشِ، وأقربُ المشارقِ والمغاربِ إلى محاذاتِه مشرقُ رأسِ السَّرطانِ ومَغرِبُهُ، والشَّمسُ إذا كان مدارُها مدارُهُ تطلعُ مائلةً عنه مقابِلةً لجانبِه الأَيمنِ، وهو الذي يلي المَغرِبَ، وتغربُ مُحاذيَةً لجانبِهِ الأيسَرِ فيَقعُ شعاعُها على جَنْبَتيهِ ويُحلِّلُ عفونتَهُ ويُعدِّلُ هواءَهُ، ولا يقعُ عليهم فيؤذي أجسادَهُم ويُبلي ثِيابَهُم.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: شأنُهُم، أو: إيواؤُهُم إلى كهفٍ كذلك، أو: إخبارُكَ قِصَّتَهُم، أو: ازورارُ الشَّمسِ وقَرضُها طالعَةً وغارِبَةً، مِن آياتِه.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ بالتَّوفيقِ ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ الذي أصابَ الفَلاحَ، والمرادُ به: إما

---

(١) أي: صرفها وأمالها عنهم.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٢)، و«النشر» (ص: ٣٨٨).

(٣) نسبت للجحدري وأيوب السختياني وابن أبي عبلة وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٢)، و«المحتسب» (٢/ ٢٥).

الثَّناءُ عليهم، أو التَّنبيهُ على أنَّ أمثالَ هذه الآياتِ كَثيرةٌ ولكنَّ المنتفِعَ بها مَن وفَّقَه اللهُ للتَّأمُّلِ فيها والاستبصارِ بها.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾: ومَن يَخذُلْه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾: مَن يليهِ ويُرشِدُه.

(١٨) ـ ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لانتفاخِ عُيونِهم، أو لكَثرةِ تَقلُّبِهم ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيامٌ ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رَقدَتِهم ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ كيلا تَأكُلَ الأَرضُ ما يَليها مِن أَبدانِهم على طُولِ الزَّمانِ.

وقُرِئَ: (ويُقلِّبُهُم) بالياءِ والضَّميرُ للهِ تَعالى[١]، و: (تَقَلُّبَهم)[٢] على المصدرِ منصوبًا بفعلٍ يدلُّ عليه: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾؛ أي: وترى تَقلُّبَهُم.

﴿وَكَلْبُهُم﴾ هو كلبٌ مَرُّوا به فتبِعَهُم فطَردوهُ، فأنطقَهُ اللهُ فقال: أنا أُحِبُّ أحِبَّاءَ اللهِ، فناموا وأنا أحرسُكُم[٣].

أو: كلبُ راعٍ مَرُّوا به فتبعَهُم وتبعَهُ الكلبُ[٤]، ويؤيِّدُه قراءةُ مَن قرأَ:........

---

(١) انظر: «الكشاف» (٥/ ١٣٨)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٤١)، وعزاها الكرماني في «شواذ القراءات» (ص: ٢٨٦) لعمران بن حدير عن الحسن.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٢)، و«المحتسب» (٢/ ٢٦)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٨٦)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٤١)، عن الحسن. ورويت هذه القراءة أيضاً بضم الباء، قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٣): وقرأ الحسن (وتَقلُّبُهم) بالتاء المفتوحة وضم اللام والباء، وهو مصدر مرتفع بالابتداء، قاله أبو حاتم، وحكى ابن جني القراءة عن الحسن بفتح الباء، وقال: هذا نصب بفعل مقدر؛ كأنه قال: وترى أو تشاهد تقلبهم، وأبو حاتم أثبت.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٧)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٥٨) عن كعب الأحبار.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٧)، والواحدي في «البسيط» (١٣/ ٥٥٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(وكالِبُهم)[1]؛ أي: وصاحبُ كلبِهِم.

﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيۡهِ﴾ حكايةُ حالٍ ماضيَةٍ، ولذلك أُعملَ اسمُ الفاعلِ.

﴿بِٱلۡوَصِيدِ﴾: بفناءِ الكَهفِ، وقيل: الوصيدُ: البَابُ، وقيل: العَتَبَةُ.

﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فنظرتَ إليهِمْ، وقُرِئَ: (لَوُ اطَّلَعْتَ) بضمِّ الواوِ[2].

﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾: لهربتَ مِنهُم، و﴿فِرَارٗا﴾ يحتمِلُ المصدرَ ـ لأنَّه نوعٌ مِن التَّولِيَةِ ـ والعلةَ والحال.

﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾: خوفًا يملأُ صَدركَ؛ لِمَا أَلبسَهُم اللهُ مِن الهيبةِ، أو لعظمِ أَجرامِهِم وانفتاحِ عيونِهِم، وقيل: لوحشَةِ مَكانِهِم.

وعن معاويةَ: أنه غزا الرُّومَ فمرَّ بالكهفِ، فقال: لو كُشفَ لَنَا عَن هؤلاءِ فنَظَرْنَا إليهم، فقال لـه ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنه: ليسَ لك ذلك، قد منعَ اللهُ تَعالى مَن هوَ خَيرٌ منكَ، فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ فلم يسمَعْ وبعثَ ناسًا، فلما دخَلُوا جاءَتْ ريحٌ فأحرقَتْهُم[3].

---

(١) نسبت لجعفر الصادق. انظر: «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٦٩)، و«الكشاف» (٥/ ١٣٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٣)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٤١).

(٢) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩١)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٢)، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٤)، عن يحيى بن وثاب والأعمش.

(٣) قوله: «فأحرقتهم» كذا ذكر تبعاً لـ«الكشاف» (٥/ ١٤٠)، والذي في المصادر: «فأخرجتهم»، كذا رواه عبد بن حميد في «تفسيره» كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٤٤)، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤٨)، وأبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٤١)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٧٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٤٠)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ١٥٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده صحيح كما قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٣).

وقرأ الحِجازِيَّانِ: ﴿وَلَمُلِّئْتَ﴾ بالتَّشديدِ للمُبالغةِ[١]، وابنُ عامرٍ والكِسائيُّ ويَعقوبُ: ﴿رُعُبًا﴾ بالتَّثقيلِ[٢].

(١٩) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾: وكَمـا أَنَمْنَاهُـم آيـةً بَعَثْنَاهُم آيـةً على كمالِ قُدرَتِنـا ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ليسـأَلَ بعضُهُم بَعْضًا فيَتعرَّفُوا حالَهم ومـا صَنَعَ اللهُ بهـم، فيـزدادُوا يقينًا علـى كَمالِ قُـدرةِ اللهِ، ويَسـتبصِرُوا به أمـرَ البعثِ، ويشـكروا ما أَنعَمَ بـه عليهِمْ.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بناءً عـلى غالبِ ظَنِّهِم؛ لأنَّ النَّائمَ لا يُحصي مُدةَ نومِه، ولذلك أحالوا العلمَ إلى اللهِ ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ويجوزُ أَنْ يكونَ ذلك قولُ بَعضِهم وهذا إنكارُ الآخَرينَ عليهم.

وقيل: إنَّهُم لمَّا دخلوا الكَهفَ غَدْوةً وانتبهوا ظَهيرةً فظَنُّوا أَنَّهُم في يَومِهم أو اليومِ الذي بعدَهُ قالوا ذلك، فلَمَّا نَظَرُوا إلى طولِ أَظفارِهم وأشعارِهم قالوا هذا، ثمَّ لَمَّا عَلِمُوا أنَّ الأمرَ مُلتَبِسٌ لا طريقَ لَهُم إلى علمِهِ أخذوا فيما يُهمُّهُم وقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ والوَرِقُ: الفِضَّةُ مَضروبَةً كانَتْ أو غيرَها. وقرأ أبو بَكرٍ وحمزةُ وأبو عمرٍو ورَوْحٌ عن يَعقوبَ بالتَّخفيفِ[٣].

وقُـرِئَ بالتَّثقيـلِ وإدغـامِ القـافِ فـي الـكافِ[٤]، وبالتَّخفيـفِ مكسـورَ الـواوِ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

(٢) أي: بضم العين من (الرعب) و(رعبًا) حيث أتى، وقرأ بها أبو جعفر أيضاً. انظر: «السبعة» (ص: ٢١٧)، و«التيسير» (ص: ٩١)، و«النشر» (٢/ ٢١٦).

(٣) أي: بإسكان الراء، والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٣)، و«النشر» (٢/ ٣١٠).

(٤) نسبها الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ١٤٠) لابن كثير، ونقلها عنه أبو حيان في «البحر المحيط»

مُدغمًا وغيرَ مُدغمٍ[1]، ورُدَّ المُدغَمُ لالتقاءِ السَّاكنَيْنِ على غيرِ حَدِّهِ[2].

وحملُهُم له دليلٌ على أنَّ التَّزوُّدَ رأيُ المُتوكِّلينَ، والمَدينَةُ طَرَسُوس[3].

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾: أيُّ أهلِها ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾: أحلُّ وأطيَبُ، أو أكثرُ وأرخَصُ.

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾: ولْيَتكلَّفِ اللُّطفَ في المُعاملَةِ حتَّى لا يُغبَنَ، أو في التَّخفِّي حتَّى لا يُعرفَ ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾: ولا يَفعلنَّ ما يُؤدِّي إلى الشُّعورِ.

(٢٠) ـ ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يَطَّلِعُوا عَلَيْكُم، أو: يَظْفَرُوا بِكُم، والضَّميرُ للأَهلِ المُقدَّرِ في ﴿أَيُّهَآ﴾ ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: يقتُلُوكُم بالرَّجمِ ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾: أو يُصَيِّروكُمْ إليها كرهًا، مِن العَودِ بمَعنى الصَّيرورةِ، وقيل: كانوا أولًا على دينِهم فآمَنوا.

(١٤/ ٢٤٦) ثم قال: وهو مخالف لما نقل الناس عنه. أي: عن ابن كثير.

(١) قرأ بكسر الواو مع سكون الراء والإدغام ابن محيصن، كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٢)، وأبو رجاء كما في «المحتسب» (٢/ ٢٤)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٨٦). والقراءة بكسر الواو مع سكون الراء دون إدغام، ذكرها الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٢٧٥)، وعنه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٥)، وأبو حيان في «البحر المحيط» (١٤/ ٢٤٦).

(٢) هكذا رده الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ١٤٢)، وقال ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٤): هذا ونحوه عند أصحابنا مخفي غير مدغم، لكنه أخفى كسرة القاف فظنها القراء مدغمة. ومعاذ الله لو كانت مدغمة لوجب نقل كسرة القاف إلى الراء، كقولهم: يَرُدُّ ويَفِرُّ ويَصُبُّ، ألا ترى أن الأصل: يَرْدُدْ ويَفْرِرْ ويَصْبُبْ، فلما أسكن الأول ليدغمه نقل حركته إلى الساكن قبله.

(٣) كذا ضبطها التفتازاني في نسخته، وفي نسخة الفاروقي: «طُرْسوس» بضم الطاء. وهما وجهان. انظر: «تاج العروس» (مادة: ط ر س).

﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾[1] إنْ دَخلْتُم في مِلَّتِهم.

(٢١) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾: وكما أَنَمْنَاهُم وبَعَثْناهُم لتزدادَ بصيرتُهم أطلَعْنا عليهم ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾: ليعلمَ الذين أطْلَعْنَاهُم على حالِهم ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعثِ، أو: الموعودَ الذي هو البعثُ ﴿حَقّٞ﴾ لأنَّ نومَهُم وانتباهَهُم كحالِ مَن يَموتُ ثمَّ يُبعَثُ.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾: وأنَّ القيامةَ لا ريبَ في إمكانِها، فإنَّ مَن توفَّى نُفوسَهُم وأمسكَها ثلاثَ مئةِ سنينَ حافظًا أبدانَها عَن التَّحلُّلِ والتفتُّتِ ثمَّ أرسلَها إليها قَدَرَ أَنْ يتوفَّى نفوسَ جَميعِ النَّاسِ ممسِكًا إيَّاها إلى أن يَحشرَ أَبدانَها فيردَّها عليها.

﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرفٌ لـ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾؛ أي: أعثَرْنا عليهِمْ حينَ يَتنازَعُونَ ﴿بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾: أمرَ دينِهم، وكان بَعضُهُم يقولون: تُبعَثُ الأَرواحُ مُجرَّدةً، وبعضُهُم يقول: يُبعثانِ معًا؛ ليرتفعَ الخلافُ ويَتبيَّنَ أَنَّهُما يُبعثان معًا.

أو: أَمْرَ الفِتيةِ حينَ أماتَهُم اللهُ ثانيًا بالموتِ، فقال بعضُهُم: ماتوا، وقال آخرونَ: ناموا نومَهُم أوَّلَ مرَّةٍ، أو قالَتْ طائفةٌ: نبني عليهم بنيانًا يَسكنُهُ النَّاسُ ويتَّخِذُونَه قريةً، وقال آخرون: لنتَّخذنَّ عليهِم مَسجِدًا يُصلَّى فيه كما قالَ تعالى: ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ وقوله: ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾ اعتراضٌ: إمَّا مِن اللهِ ردًّا على الخائضينَ في أمرِهم مِن أولئكَ المُتنازِعينَ، أو مِن المتنازِعينَ فيهم على عهدِ رسولِ الله عليه السَّلامُ، أو مِن

(١) حصل هنا خرم في نسخة الخيالي مقداره ورقتان، ينتهي عند قوله تعالى: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ﴾.

المُتنازِعِينَ للرَّدِّ إلى اللهِ بعدَما تذاكَرُوا أمرَهُم، وتناقَلُوا الكلامَ في أنسابِهِم وأحوالِهِم فلَمْ يَتحقَّقْ لَهُم ذلك.

حُكِيَ: أنَّ المبعوثَ لَمَّا دخلَ في السُّوقِ وأخرجَ الدِّرهمَ وكان على اسمِ دِقْيَانُوسَ اتَّهموهُ بأنَّه وجدَ كنزًا، فذهبوا به إلى الملكِ ـ وكانَ نَصرانيًّا مُوحِّدًا ـ فقصَّ عليه القصصَ، فقال بعضُهُم: إنَّ آباءَنا أخبرونا أنَّ فِتيَةً فرُّوا بدينِهِم مِن دِقْيَانُوسَ فلعلَّهُم هؤلاءِ، فانطلقَ الملكُ وأَهلُ المدينةِ مِن مُؤمنٍ وكافرٍ وأبصَرُوهُم وكَلَّمُوهُم، ثم قالَت الفتيةُ للملكِ: نَسْتَودِعُكَ اللهَ ونُعيذُكَ بِهِ مِن شرِّ الجنِّ والإنسِ، ثمَّ رَجَعُوا إلى مَضاجِعِهِم فماتوا فدَفَنَهُم الملكُ في الكهفِ وبنى عليهِمْ مَسجِدًا.

وقيل: لَمَّا انتهَوا إلى الكهفِ قالَ لهم الفَتَى: مَكانَكُم حتَّى أَدخُلَ أوَّلًا لئلَّا يَفزَعُوا، فدخلَ فعَمِيَ عليهم المَدخلُ فبَنَوا ثَمَّ مَسجِدًا[1].

(٢٢) ـ ﴿سَيَقُولُونَ﴾؛ أي: الخائضونَ في قِصَّتِهِم في عهدِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ مِن أَهلِ الكتابِ والمؤمنين: ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾؛ أي: هُم ثَلاثةُ رِجالٍ يَرْبَعُهُم كلبُهُم بانضِمامِه إليهِم.

قيل: هو قولُ اليَهودِ، وقيل: قولُ السيِّدِ مِن نَصارى نَجْرانَ، وكانَ يَعقوبيًّا[2].

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قالَت النَّصارَى أو العاقِبُ منهم، وكان نَسْطُورِيًّا.

---

(١) ورد في قصتهم أخبار كثيرة من نحو هذا، وليس فيها شيء يصح عن النبي ﷺ.

(٢) انظر: «تفسير أبي الليث» (٢/ ٣٤٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٧/ ٨٤ ـ ٨٥)، و«درج الدرر» للجرجاني (٢/ ٢٤٤)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ١٤٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ١٦١)، و«التيسير في التفسير» لأبي حفص النسفي عند هذه الآية، و«تفسير الرازي» (٢١/ ٤٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٤٦). وعزاه النسفي للكلبي، والجرجاني للكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾: يرمونَ رَمْيًا بالخبرِ الخفيِّ الذي لا مُطْلِعَ لهم عليه وإتيانًا به[١]، أو: ظنًّا بالغيبِ مِن قولِهم: (رجَمَ بالظَّنِّ): إذا ظنَّ، وإنَّما لم يُذكَرْ بالسِّينِ[٢] اكتفاءً بعَطفِه على ما هو فيه.

﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ إنَّما قالَهُ المُسلمونَ بإخبارِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ لَهُم عَن جبريلَ عليهِ السَّلامُ، وإيماءِ اللهِ إليهِ بأنْ أَتْبَعَهُ قولَه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ﴾ وأتبعَ الأَوَّلَيْنِ قولَه: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾، وبأَنْ أثبتَ العلمَ بهم لطائفةٍ بعدَما حصرَ أقوالَ الطَّوائفِ في الثلاثةِ المذكورةِ، فإنَّ عدمَ إيرادِ رابعٍ في نحوِ هذا المحلِّ دَليلُ العدمِ مع أنَّ الأصلَ ينفيه، ثمَّ ردَّ الأَوَّلَيْنِ بأن أتبعَهُما قولَه: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ ليتعيَّنَ الثَّالثُ، وبأَنْ أدخلَ فيه الواوَ على الجملةِ الواقعةِ صفةً للنَّكِرَةِ تشبيهًا لها بالواقعةِ حالًا عَن المعرفةِ لتَأكيدِ لصوقِ الصِّفَةِ بالموصوفِ والدلالةِ على أنَّ اتِّصافَهُ بها أمرٌ ثابت.

وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه: هم سبعةٌ وثامنُهُم كلبُهُم[٣]، أسماؤُهُم: يَمْلِيخَا ومَكْشلِينِيَا ومَشْلِينيا هؤلاءِ أصحابُ يمينِ الملك، ومَرْنُوشُ ودَيَرنُوشُ وشَاذَنُوشُ أصحابُ يَسارِه، وكانَ يَستَشِيرُهُم، والسَّابعُ الرَّاعِي الذي وافَقَهُم، واسمُ كَلبِهِم قِطْمِيرُ، واسمُ مَدِينَتِهِم أَفْسُوسُ[٤].

---

(١) قوله: «وإتياناً به»؛ أي: بالخبر، معطوف على: «رمياً». انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) يعني لم يذكر: (وسيقولون) مكان (ويقولون).

(٣) قال السيوطي في «حاشيته» (٨/ ٤٢٢): لم أَقِف عليه، إنَّما رأيتُه عن ابنِ مَسعودٍ رواه ابنُ أبي حاتمٍ [٧/ ٢٣٥٤]، وعن ابنِ عبَّاسٍ رواهُ الفِريابيُّ وابنُ جريرٍ [١٥/ ٢٢٠] وغيرهما.

(٤) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ١٤٧)، ولم أجده مسنداً، وقد فصَل السيوطي في «حاشيته على البيضاوي» (٨/ ٤٢٢) بين أوله وهو: (هم سبعةٌ وثامنُهُم كلبُهُم) وبين باقيه فجعله خبراً آخر كما سيأتي. أما الآلوسي في «روح المعاني» (١٥/ ٢٧٨) فجعله خبراً واحداً حيث قال بعد أورده =

وقيل: الأقوالُ الثَّلاثةُ لأهلِ الكتابِ، والقَليلُ مِنْهُم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾: فلا تُجادِلْ في شأنِ الفِتيَةِ إلا جِدالًا ظاهرًا غيرَ مُتعمِّقٍ فيه، وهو أن تقصَّ علَيْهِم ما في القرآنِ مِن غيرِ تَجهيلٍ لهم والردِّ عليهِم.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾: ولا تَسْألْ أحدًا مِنْهُم عن قِصَّتِهم سؤالَ مُسترشِدٍ، فإنَّ فيما أُوحِيَ إليك لَمَندوحةً عَن غيرِه، مع أنَّه لا علمَ لَهُم بها، ولا سؤالَ مُتعنِّتٍ تريدُ تفضيحَ المسؤولِ عنه وتَزييفَ ما عِندَهُ فإنَّه يُخلُّ بمكارمِ الأَخلاقِ.

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نهيُ تَأديبٍ مِن اللهِ لنَبيِّهِ حينَ قالت اليَهودُ لقُرَيشٍ: سَلُوه عَن الرُّوحِ وأصحابِ الكَهفِ وذي القرنينِ، فسَأَلُوه، فقال: «ائتوني غدًا أخبركم» ولم يَستثنِ، فأبطأَ عليه الوَحيُ بضعةَ عشرَ يومًا حتى شَقَّ عليه وكذَّبَتْه قريشٌ[١].

والاستثناءُ مِن النَّهيِ؛ أي: ولا تقولَنَّ لأجلِ شَيءٍ تعزمُ عليه: (إنِّي فاعله[٢] فيما يُستقبَلُ) إلا بأَنْ يشاءَ اللهُ؛ أي: إلا مُلتبِسًا بمشيئَتِهِ قائلًا: (إنْ شاءَ اللهُ)، أو: إلَّا وقتَ أَنْ يشاءَ اللهُ أن تقولَهُ، بمعنى: أن يأذنَ لك فيه، ولا يجوزُ تعليقُهُ بـ﴿فَاعِلٌ﴾ لأنَّ استثناءَ اقترانِ المشيئةِ بالفعلِ غيرُ سديدٍ، واستثناءُ اعتراضِها دونَهُ لا يناسبُ النَّهيَ.

= بتمامه: وفي صحة نسبة هذه الرواية لعلي رضي الله عنه مقال، وقد سُموا في بعض الروايات بغير هذه الأسماء. وذكر أبو حيان في «البحر» (١٤/ ٢٢٥) أن أسماء أصحاب الكهف أعجمية لا تنضبط بشكل ولا نقط، والسند في معرفتها ضعيف. قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٩٨): والسند في معرفتها واه.

(١) رواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص: ٢٠١): حدثني رجل من أهل مكة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، فذكره مطولاً. ومن طريق ابن إسحاق رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٤٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧٠).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «إني فاعلٌ».

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾: مشيئةَ رَبِّكَ وقل: (إِنْ شاءَ اللهُ) كما رُوِيَ أنَّه لَمَّا نزلَ قالَ عليه السَّلامُ: «إن شاءَ الله»[١].

﴿إِذَا نَسِيتَ﴾: إذا فَرَطَ مِنكَ نِسيانٌ لذلك ثمَّ تَذكَّرْتَه، وعن ابنِ عبَّاس: ولو بعدَ سنةٍ ما لم تحنَثْ[٢]، ولذلك جَوَّزَ تأخيرَ الاستثناءِ عنه.

وعامَّةُ الفُقَهاءِ على خلافِه؛ لأنَّه لو صحَّ ذلك لم يَتقرَّر إقرارٌ ولا طلاقٌ ولا عتاقٌ، ولم يُعْلَم صِدقٌ ولا كَذِبٌ، وليسَ في الآيةِ والخبرِ أنَّ الاستثناءَ المتدارَكَ بِهِ مِن القَولِ السَّابقِ، بل هو مِن مقدَّرٍ مَدلولٍ به عليه.

ويجوزُ أَنْ يكونَ المعنى: واذكُرْ ربَّكَ بالتَّسبيحِ والاستغفارِ إذا نسيتَ الاستثناءَ، مُبالغةً في الحثِّ عليه، أو: اذكُرْ ربَّهُ وعِقابَهُ إذا تركتَ بعضَ ما أمركَ بِهِ ليبعثكَ على التَّدارُكِ، أو: اذكُرْه إذا اعتراكَ النِّسيانُ ليذكِّركَ المَنسيَّ.

---

(١) روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٥٥) واللفظ له، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٨١٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إذا نسيت أن تقول لشيء: إني أفعله، فنسيت أن تقول: إن شاء الله، فقل إذا ذكرت: إن شاء الله).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٢٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٠٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٣٣) وصححه.

ونقل محمد بن نصر المروزي في «اختلاف الفقهاء» (ص: ٤٨٢) عن أبي عبيد قال: معنى حديث ابن عباس أنه إذا استثنى بعد سنة سقط عنه المأثم وأما الكفارة فإنها لا تسقط.

قال القرطبي في بيانه: هذا في تداركه التبرُّك بالاستثناء للتَّخلُّص عن الإثم، وأما الاستثناء المغيِّر حكمًا فلا يصحُّ إلَّا متَّصلًا. انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٥١).

وقال المبرد كما في «البسيط» (١٣/ ٥٨٦): إن ابن عباس أعلم من أن يُسقط حكم الحنث بالاستثناء الذي لا يصله الحالف بيمينه، ولعله قال هذا في الاستثناء من غير يمين كما قال المفسرون، قال: إذا نسي أن يقول: إن شاء الله، ثم ذكر فليقله. فظن بعض الناس أنه يقول ذلك في اليمين، فروي عنه ذلك في اليمين.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾: يدلَّني ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾: لأقربَ رشدًا وأظهرَ دلالةً على أنِّي نبيٌّ مِن نبأِ أصحابِ الكَهفِ، وقد هداهُ لأعظمَ مِن ذلك كقَصَصِ الأَنبياءِ المتباعِدِ عنه أيامُهُم، والإخبارِ بالغُيوبِ والحَوادثِ النَّازِلَةِ في الأَعصارِ المستقبلةِ إلى قيامِ السَّاعةِ، أو: لأقربَ رَشَدًا وأدنى خيرًا مِن المَنسيِّ.

(٢٥) ـ ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ يعني: لبثَهُم فيه أحياءً مَضروبًا على آذانِهم، وهو بيانٌ لِمَا أجملَهُ قبلُ.

وقيل: إنَّه حِكايَةُ كلامِ أَهلِ الكِتابِ، فإنَّهُم اختَلَفُوا في مُدَّةِ لبثِهم كما اختَلَفُوا في عِدَّتِهم، فقال بعضُهُم: ثلاثَ مئةٍ، وقال بعضُهُم: ثلاث مئةٍ وتسعَ سنينَ.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿ثَلَٰثَ مئةِ سِنِينَ﴾ بالإضافَةِ(١) على وَضعِ الجَمعِ مَوضِعَ الوَاحِدِ، ويُحسِّنُه هاهنا أنَّ علامةَ الجَمعِ فيه جبرٌ لِمَا حُذِفَ مِن الواحِدِ، وأنَّ الأصلَ في العددِ إضافَتُه إلى الجمعِ، ومَن لم يُضِفْ أبدلَ السِّنينَ مِن ﴿ثَلَٰثَ﴾.

(٢٦) ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: له ما غابَ فيها وخَفِيَ مِن أحوالِ أهلِها، فلا خَلْقَ يخفَى عليهِ علمًا.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ ذكرَ بصيغةِ التَّعجُّبِ للدلالةِ على أنَّ أمرَهُ في الإدراكِ خارجٌ عمَّا عليه إدراكُ السَّامعينَ والمبصِرينَ؛ إذ لا يَحجُبهُ شيءٌ ولا يتفاوَتُ دونَه لطيفٌ وكثيفٌ، وصغيرٌ وكبيرٌ، وخَفِيٌّ وجَلِيٌّ.

والهاءُ تعودُ إلى اللهِ، ومحلُّه الرَّفعُ على الفاعليَّةِ، والباءُ مَزيدةٌ عندَ سيبويه، وكان أصلُهُ: أبصَرَ؛ أي: صارَ ذا بَصرٍ، ثمَّ نُقلَ إلى صيغةِ الأمرِ بمعنى الإنشاءِ فبرزَ الضَّميرُ لعَدمِ لياقِ الصِّيغةِ له، أو لزيادةِ الباءِ كما في قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾ [النساء: ٥٠]، والنَّصبُ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٨٩ ـ ٣٩٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

على المفعوليَّةِ عندَ الأخفَشِ، والفاعلُ ضَميرُ المَأمورِ، وهو كلُّ أحدٍ، والباءُ مَزيدَةٌ إن كانَت الهمزَةُ للتَّعدِيَةِ، ومعدِّيَةٌ إنْ كانَتْ للصَّيرورةِ.

﴿مَا لَهُم﴾ الضَّميرُ لأَهلِ السَّماواتِ والأَرضِ ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾: مَن يَتولَّى(١) أمورَهُم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ﴾: في قضائِه ﴿أَحَدًا﴾ منهم، ولا يَجعلُ له فيه مدخلًا.

وقرأ ابنُ عامرٍ وقالونُ عن يعقوبَ بالتاءِ والجزمِ(٢) على نهيِ كلِّ أحدٍ عَن الإشراكِ.

ثمَّ لَمَّا دلَّ اشتمالُ القُرآنِ على قصَّةِ أهلِ الكَهفِ مِن حيثُ إنَّها مِن المُغيَّباتِ بالإضافةِ إلى الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ على أنَّه وَحيٌ مُعجزٌ، أمرَهُ بأَنْ يداومَ درسَهُ ويلازمَ أصحابَهُ فقال:

(٢٧) ـ ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾: مِن القُرآنِ، ولا تسمَعْ لقَولِهِم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: لا أحدَ يقدِرُ على تبديلِها وتَغييرِها غيرُه ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾: مُلتجأً تَعدِلُ إليه إن هممتَ به.

(٢٨) ـ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ واحبِسْها وثبِّتْها ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ في مَجامعِ أَوقاتِهِم، أو في طرَفَي النَّهارِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «متولي».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٣)، عن ابن عامر، وقوله: «وقالون عن يعقوب» لم أقف عليها، وقال الأنصاري في «الحاشية» (٣/ ٥٦٢): لم أره لغيره. أي: لغير المصنف، وعزاها الهذلي في «الكامل» (ص: ٥٩١) إلى حميد بن الوزير عن يعقوب وغيره.

وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿بالغُدْوَةِ﴾[1]، وفيهِ أن غُدْوَةً عَلَمٌ في الأكثرِ، فتكونُ اللامُ فيه على تأويلِ التَّنكيرِ.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾: رضاءَ اللهِ وطاعتَهُ.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾: ولا يجاوِزْهُم نَظَرُكَ إلـى غَيرِهِم، وتَعدِيَتُه بـ(عن) لتَضمينِه مَعنى (نبا)، يقال: نَبَتْ وعَلَتْ عنه عَينُه: اقتحَمَته ولم تَعلَقْ به، والغَرَضُ في هذا إعطاءُ معنيَينِ؛ أي: لا تقتحِمْهم عَيْناكَ مُتجاوِزتَينِ إلى غيرِهم.

وقُرِئَ: (وَلَا تُعْدِ عينَيْك)[2]، و: (ولا تُعَدِّ)[3] مِن أعداهُ وعَدَّاه.

والمراد: نهيُ الرَّسولِ أن يزدريَ بفُـقراءِ المؤمنينَ وتَعلُوَ عينُه عَن رَثاثَةِ زِيِّهِم طُموحًا إلى طَراوةِ زيِّ الأَغنِيَاءِ.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حالٌ مِن الكافِ فـي المشهورَةِ، ومِن المُستكِنِّ في الفعلِ في غيرِهَا.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾: مَن جَعَلْنا قلبَهُ غافلًا ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ كأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ في دُعائِكَ إلى طردِ الفُقراءِ عَن مَجلسِكَ لصَناديدِ قُرَيشٍ[4].

وفيـه تَنبيهٌ على أنَّ الدَّاعِيَ له على هذا الاستدعاءِ غفلَـةُ قلبِه عَن المعقولاتِ، وانهماكُـه فـي المحسوسـاتِ، حتَّى خَفِـيَ عليه أنَّ الشَّـرفَ بحِلْيَـةِ النَّفـسِ لا بزينةِ الجَسـدِ، وأنَّـه لـو أطاعَـهُ كان مثلَـهُ فـي الغبـاوةِ، والمعتزلَـةُ لَمَّـا غاظَهُـم إسـنادُ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٠)، و«التيسير» (ص: ١٠٢).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٢)، و«المحتسب» (٢/ ٢٧)، عن الحسن.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٢) عن الحسن وعيسى.

(٤) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنه.

الإغفالِ إلى اللهِ قالوا: إنه مِثلُ (أجبَنْتُه): إذا وَجَدْتَه كذلك أو نَسَبْتَه إليه، أو مِن (أغفَلَ إبِلَهُ): إذا تركَهَا بغيرِ سِمَةٍ؛ أي: لم نَسِمْهُ بذِكرِنا كقُلوبِ الذين كَتَبْنَا في قُلوبِهم الإيمانَ[1]، واحتَجُّوا على أنَّ المُرادَ ليسَ ظاهرَ ما ذُكِرُ أوَّلًا بقولِه: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾. وجوابُهُ ما مَرَّ غيرَ مرَّةٍ[2].

وقُرِئَ: (أَغْفَلَنَا) بإسنادِ الفعلِ إلى القلبِ[3]، على معنى: حَسِبَنا قلبُه غافلينَ عن ذكرِنا إيَّاه بالمؤاخذةِ.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾؛ أي: تَقدُّمًا على الحقِّ ونَبذًا له وراءَ ظَهرِه، يقال: فرسٌ فُرُطٌ؛ أي: مُتقدِّمٌ للخيلِ، ومنه: الفَرَطُ.

(٢٩) ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: ما يكونُ مِن جهَةِ اللهِ لا ما يقتضيه الهَوَى، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبرَ محذوفٍ، و﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ حالًا.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ لا أُبالي بإيمانِ مَن آمنَ وكُفْرِ مَن كَفَرَ، وهو لا يَقتَضِي استقلالَ العَبدِ بفعلِه، فإنَّه وإنْ كانَ بمَشيئَتِه، فمَشيئَتُه ليسَتْ بمَشيئَتِه.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾: هيَّأْنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾: فسطاطُها، شبَّه به ما يحيطُ بهم مِن النَّارِ، وقيل: السُّرادِقُ الحجرةُ التي تكونُ حولَ الفُسطاطِ، وقيل: ﴿سُرَادِقُهَا﴾ دُخانُها، وقيل: حائطٌ مِن نارٍ.

---

(١) عبارة «الكشاف»: (أي: لم نَسِمْهُ بالذِّكر، ولم نجعَلْهم من الذين كتبْنا في قلوبهم الإيمانَ).

(٢) قوله: «وجوابه ما مر غير مرة»؛ أي: أنَّ اللهَ موجدُ كلِّ شيءٍ.

(٣) وبضم الباء من (قلبه) نسبت لعمرو بن فائد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٨).

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ من العطشِ ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾: كالجسدِ المُذابِ[(١)]، وقيل: كدُرْدِيِّ الزَّيتِ[(٢)]، وهو على طريقةِ قوله:

فَأُعْتِبُوا بِالصَّيْلَمِ[(٣)]

﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ إذا قُدِّمَ ليُشربَ مِن فَرْطِ حَرارتِه، وهو صِفَةٌ ثانيَةٌ لـ(ماءٍ)، أو حالٌ مِن المهلِ، أو الضَّميرِ في الكافِ.

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ المهلُ ﴿وَسَآءَتْ﴾: وساءَتِ النَّارُ ﴿مُرْتَفَقًا﴾: مُتَّكأً، وأصلُ الارتفاقِ: نصبُ المرفقِ تحتَ الخَدِّ، وهو لِمُقابلةِ قولِه: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، وإلَّا فلا ارتفاقَ لأهلِ النَّارِ.

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ خبرُ ﴿إِنَّ﴾ الأُولَى هي الثَّانيةُ بما في حَيِّزِها، والرَّاجعُ محذوفٌ تقديرُه: مَن أحسَنَ عَمَلًا مِنْهم، أو مُستغنًى عنه بعُمومِ ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ كما هو مُستغنًى عنه

---

(١) قوله: «كالجسد المذاب»: إن أراد بالجسد ما يتبادر منه ـ وهو جسد الحيوان ـ فالمراد أنه لغلظه كأنه لحم مذاب بالطبخ، وإن أراد به مطلق الجِرْم فهو بمعناه، ويحتمل أن يريد به جِرْم المعدنيات، فإن أهل الكيمياء اصطلحت على تسميته جسداً، فيكون بمعنى ما وقع في نسخة أخرى: «كالنحاس المذاب». انظر: «حاشية الشهاب». قلت: ولعل الأخير هو الأرجح؛ لما في «الكشاف» (٥/ ١٥٨): والمُهلُ: ما أُذيبَ من جواهر الأرض.

(٢) دردي الزيت: عكره وما يستقر منه في قعر الإناء. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) هو جزء من بيتٍ لبشرِ بن أبي خازمٍ الأزديِّ، وتمامه:

غَضِبَت تَميمٌ أَنْ تُقتَّلَ عامِرٌ ... يومَ النِّسارِ فأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ

انظر: «المفضليات» (ص: ٣٤٦)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص: ٤٠١)، و«عيون الأخبار» (٣/ ٣٦)، و«الصحاح» (مادة: عتب).

في قولِك: (نِعمَ الرَّجُلُ زيدٌ)، أو واقعٌ موقعَهُ الظَّاهرُ، فإنَّ ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ على الحقيقةِ لا يَحْسُنُ إطلاقُهُ إلا على الذين آمَنُوا وعملوا الصَّالحاتِ.

أو خبرُها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ، وعلى الأوَّلِ استئنافٌ لبيانِ الأَجرِ، أو خبرٌ ثانٍ.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى للابتداءِ والثَّانيةُ للبيانِ صِفَةً لـ﴿أَسَاوِرَ﴾، وتنكيرُها لتَعظيمِ حُسنِها عن الإحاطةِ به، وهو جمعُ أَسْوِرَةٍ أو أَسوارٍ في جمعِ سِوَارٍ.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأنَّ الخُضرةَ أحسَنُ الألوانِ وأكثَرُها طَرَاوَةً ﴿مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ مِمَّا رَقَّ مِن الدِّيباجِ وما غَلُظَ منه، جمعَ بين النَّوعينِ للدَّلالةِ على أنَّ فيها ما تَشتَهِي الأَنفُسُ وتَلَذُّ الأَعيُنُ.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: على السُّرُرِ كمَا هوَ هَيْئَةُ المُتنعِّمِينَ ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾: نِعمَ الجنَّةُ ونَعيمُها ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الأرائِكُ ﴿مُرْتَفَقًا﴾: مُتَّكَأً.

(٣٢) - ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ للكافرِ والمُؤمنِ ﴿رَّجُلَيْنِ﴾: حالَ رَجُلينِ مُقدَّرَيْنِ أو مَوْجودَيْنِ.

قيل: هُما أَخوانِ مِن بني إسرائيلَ: كافرٌ اسمُه قَطروسَ، ومؤمِنٌ اسمُهُ يَهُوذَا، وَرِثَا مِن أبيهما ثمانيةَ آلافِ دينارٍ، فتَشاطَرَا، فاشترَى الكافِرُ بها ضِياعًا وعَقارًا، وصرفَها المُؤمِنُ في وُجوهِ الخيرِ، وآلَ أمرُهما إلى ما حكاهُ اللهُ[1].

---

(١) رواه مطولًا الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣١) عن عطاء الخراساني، وذكرت القصة أيضاً في «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٨٤) و(٣/ ٦٠٧)، و«تفسير يحيى بن سلام» (١/ ١٨٥)، و«تفسير أبي الليث» (٢/ ٣٤٦)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٣/ ٦٢)، و«الهداية» لمكي (٦/ ٤٣٧٨)، و«التيسير في التفسير» لأبي حفص النسفي عند هذه الآية. وعزاه أبو الليث ومكي لابن عباس، وأبو حفص للكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. فمدارها على الكلبي ومقاتل، وهما متروكان.

وقيل: المُمثَّلُ بهما أخوانِ مِن بَنِي مَخزومٍ: كافِرٌ، وهو الأسوَدُ بنُ عبدِ الأَشَدِّ، ومُؤمِنٌ وهو أبو سَلَمَةَ عبدُ اللهِ زَوجُ أمِّ سَلَمَةَ قبلَ رسولِ اللهِ ﷺ(١).

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾: بُستانَيْنِ ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾: مِن الكُرومِ، والجُملَةُ بتَمامِها بيانُ التَّمثيلِ أو صِفَةٌ للرَّجُلَينِ.

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾: وجَعَلْنا النَّخلَ مُحيطَةً بهما مُؤزَّرًا بهما كُرومُهُمَا، يُقال: حفَّهُ القَومُ: إذا أطافُوا به، وحَفَفْتُه بِهِم: إذا جَعَلْتَهُم حافِّينَ حَوْلَه، فتَزيدُهُ الباءُ مَفعولًا ثانيًا، كقولك: غَشَّيْتُه بهِ.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾: وسطَهُما ﴿زَرْعًا﴾ ليكونَ كُلٌّ مِنْهُما جامعًا للأقواتِ والفواكهِ، مُتواصِلَ العمارةِ على الشَّكلِ الحَسَنِ والتَّرتيبِ الأَنِيقِ.

(٣٣) ـ ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾: ثَمَرَها، وإفرادُ الضَّميرِ لإفرادِ ﴿كِلْتَا﴾. وقُرِئَ: (كُلُّ الجنَّتَينِ آتى أُكُلَه)(٢).

---

(١) ذكره دون سند أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٤٦)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ١٣١)، والكرماني في «لباب التفسير» عند تفسير هذه الآية. وعزاه الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٧)، والقرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٦٩) للكلبي.

وكلمة: (الأشدِّ) في والد أبي سلمة كذا وقعت في النسخ، فإن كانت مرادة للمصنف فقد تبع فيها الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ١٦١)، وجاء في نسخة الأنصاري كما في «حاشيته» (٣/ ٥٦٧) بالسين المهملة، حيث قال: «"عبد الأسد" بسين مهملة، وقيل: معجمة». ومثله عند السيوطي في «حاشيته على البيضاوي» (٨/ ٤٣٦).

قلت: والذي في المصادر: «الأسد» بالسين المهملة والدال المخففة.

(٢) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٤٣)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٤).

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾: ولَمْ تَنقُصْ مِن أُكُلِها ﴿شَيْـًٔا﴾ يُعهدُ في سائرِ البَساتينِ، فإنَّ الثِّمارَ تَتِمُّ في عامٍ وتَنقُصُ في عامٍ غالبًا.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ ليَدومَ شُربُهما - فإنَّه الأَصلُ - ويزيدَ بَهاؤُهما.

وعَن يعقوبَ: (وفَجَرْنا) بالتَّخفيفِ[١].

(٣٤) - ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثُمُرٌ﴾: أنواعٌ مِن المالِ سِوَى الجَنَّتينِ؛ مِن ثَمَّرَ مالَهُ: إذا كَثَّرَه.

وقرأ عاصمٌ بفتحِ الثَّاءِ والميم، وأبو عمرٍو بضمِّ الثاءِ وإسكانِ الميم، والباقون بضمِّهما، وكذلك ﴿وَأُحِيطَ بِثُمُرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢][٢].

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾: يراجِعُه في الكلامِ، مِن حارَ: إذا رجعَ: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾: حَشَمًا وأعوانًا. وقيل: أولادًا ذكورًا لأنَّهم الَّذين يَنْفِرونَ معه.

(٣٥) - ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ بصاحبِه يَطوفُ به فيها ويُفاخِرُه بها، وإفرادُ الجنَّةِ لأنَّ المُرادَ: ما هو جنَّتُه، وهو ما مُتِّعَ به مِن الدُّنيَا تَنبيهًا على أنَّه لا جنَّةَ له غيرُها، ولا حظَّ له في الجنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقونَ، أو لاتِّصالِ كلِّ واحدَةٍ مِن جَنَّتَيهِ بالأُخرى، أو لأنَّ الدُّخولَ يكونُ في واحدَةٍ واحدَةٍ.

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: ضارٌّ لها بعُجبِه وكُفْرِه ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾: أَنْ تَفنَى ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنَّةُ ﴿أَبَدًا﴾ لطولِ أمَلِه وتَمادِي غَفْلَتِه واغترارِه بمُهلَتِه.

---

(١) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» لأبي بكر النيسابوري (ص: ٢٧٧) عن روح وزيد عن يعقوب، و«الوجيز في شرح القراءات» لأبي علي الأهوازي (ص: ٢٣٥) عن رويس عن يعقوب، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٨٨) عن سهل وروح وزيد وفهد عن يعقوب، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣) عن سلام ويعقوب. ولم تُذكر في «النشر».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

(٣٦) ـ ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾: كائنةً ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ بالبعثِ كما زَعَمْتَ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾ مِن جَنَّتِه.

وقرأ الحِجازيَّانِ والشَّاميُّ: ﴿منهما﴾[١]؛ أي: مِن الجَنَّتين.

﴿مُنقَلَبًا﴾: مَرجِعًا وعاقبةً؛ لأنَّها فانِيَةٌ وتلك باقِيَةٌ.

وإنَّما أقسمَ على ذلك لاعتقادِه أنَّه تَعالى إنَّما أَوْلاهُ ما أَوْلاهُ لاستِئْهَالِه واستحقاقِه إيَّاهُ لذَاتِه، وهو معَهُ أينَما يَلقاهُ.

(٣٧) ـ ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ لأنَّه أصلُ مادَّتِك، أو مادَّةُ أَصلِكَ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فإنَّها مادَّتُكَ القَريبَةُ ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾: ثمَّ عَدَلكَ وكمَّلَك إنسانًا ذكرًا بالغًا مبلغَ الرِّجالِ.

جعلَ كُفرَهُ بالبعثِ كُفْرًا باللهِ لأنَّ مَنشأَهُ الشَّكُّ في كَمالِ قُدرةِ اللهِ، ولذلك رتَّبَ الإنكارَ على خلقِهِ إيَّاه مِن التُّرابِ، فإنَّ مَن قَدَرَ على بدءِ خلقِهِ منه قدَرَ أن يُعيدَهُ منه.

(٣٨) ـ ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ أصلُه: لكِنْ أَنَا، فحُذِفَت الهمزةُ بنَقلِ الحَركةِ أو دونَه، وتلاقَتِ النُّونانِ فكانَ الإدغامُ.

وقرأَهُ ابنُ عامرٍ ويَعقوبُ في روايةٍ بالألفِ في الوَصلِ[٢]؛ لتَعويضِها مِن الهَمزَةِ، أو لإجراءِ الوَصلِ مُجرى الوقفِ.

وقَد قُرِئَ: (لكِنْ أَنَا) على الأصلِ[٣].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٣). الحجازيان: نافع وابن كثير، والشامي: ابن عامر.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩١)، و«التيسير» (ص: ١٤٣)، وهي رواية رويس عن يعقوب، وقرأ بها أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣١١).

(٣) نسبت لأبيٍّ بن كعب رضي الله عنه أيضا أوالحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٩).

و﴿هُوَ﴾ ضَمِيرُ الشَّأنِ، وهو بالجُملَةِ الواقعةِ خبرًا له خبرُ (أنا)، أو ضميرُ (الله)، و﴿ٱللَّهُ﴾ بدلُه و﴿رَبِّي﴾ خبرُهُ، والجملَةُ خبرُ (أنا)، والاستدراكُ مِن ﴿أَكَفَرْتَ﴾ كأنَّه قال: أنتَ كافِرٌ باللهِ لكنِّي مُؤمِنٌ بهِ.

وقَد قُرِئَ: (لكنْ هوَ اللهُ ربِّي)[1]، و: (لكنْ أنا لا إلهَ إلَّا هو ربِّي)[2].

(٣٩) - ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾: وهَلَّا قُلتَ عندَ دُخولِها: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: الأمرُ ما شاءَ اللهُ، أو: ما شاءَ كائِنٌ، على أنَّ ﴿مَا﴾ موصولةٌ، أو: أيُّ شيءٍ شاءَ اللهُ كانَ، على أنَّها شرطيَّةٌ، والجوابُ مَحذوفٌ إقرارًا بأنَّها وما فيها بمشيئةِ اللهِ، إنْ شاءَ أَبقاهَا وإنْ شاءَ أبادَها.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقلتَ: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ اعتِرافًا بالعَجزِ على نَفسِكَ والقُدرةِ للهِ، فإنَّ ما تيسَّرَ لكَ مِن عمارتِها وتدبيرِ أمرِها فبمَعُونَتِه وإِقدارِه.

وعَن النبيِّ ﷺ: «مَن رأَى شَيْئًا فأعجبَهُ فقال: ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إلَّا باللهِ؛ لم يَضُرَّه»[3].

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٢٩) عن عيسى الثقفي.

(٢) انظر: «الكشاف» (٥/ ١٦٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه، ووقعت في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩) هكذا: (لكن هو الله ربي لا إله إلا هو).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٧٠)، ورواه أيضاً البزار في «مسنده» (٧٣٣٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٠٧)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٩): رواه البزار من رواية أبي بكر الهذلي وأبو بكر ضعيف جدًا.

وقد روى الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (١/ ٣٠٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (٢٢٣٠)، عن عروة أنه كان إذا دخل حائطه قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. وذكر ابن العربي في «أحكام القرآن» (٣/ ٢٣٣) عن أشهب عن مالك أنه قال: ينبغي لكل من دخل منزله أنْ يقولَ هذا.

﴿إِن تَـرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ يحتمِلُ أَنْ يكونَ ﴿أَنَا۠﴾ فصلًا، وأن يكونَ تأكيدًا للمَفعولِ الأوَّلِ.

وقُرِئَ: (أَقَلُّ) بالرَّفعِ[1] على أنَّه خبرُ ﴿أَنَا۠﴾، والجملةُ مَفعولٌ ثانٍ لـ﴿تَـرَنِ﴾.

وفي قولِه: ﴿وَوَلَدًا﴾ دليلٌ لِمَن فسَّرَ النَّفَرَ بالأولادِ.

(٤٠) ـ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدُّنيا أو في الآخرةِ لإيماني، وهو جَوابُ الشَّرطِ ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا﴾: على جنَّتِكَ لكفركَ ﴿حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: مَرامِيَ، جمع: حُسبَانَةٍ، وهي الصَّواعِقُ.

وقيل: هو مَصدرٌ بمعنى الحسابِ، والمرادُ به: التَّقديرُ بتَخريبِها، أو عذابُ حسابِ الأعمالِ السَّيِّئةِ.

﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾: أرضًا مَلساءَ يُزلَقُ عليها باستئصالِ نباتِها وأشجارِهَا.

(٤١) ـ ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرًا﴾: غائرًا في الأرضِ، مصدرٌ وُصِفَ به كالزَّلَقِ.

﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾: للماءِ الغائرِ تَردُّدًا[2] في ردِّه.

(٤٢) ـ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾: وأُهلِكَ أموالُه حسبَما توقَّعَه صاحبُه وأنذرَهُ مِنه، وهو مأخوذٌ مِن: أحاطَ بِهِ العَدوُّ، فإنَّه إذا أحاطَ به غلبَهُ، وإذا غلبَهُ أهلَكَهُ، ونَظيرُه: أتى عليه: إذا أهلَكَه، مِن أَتَى عليهم العَدُوُّ: إذا جاءَهُم مُستَعليًا عَلَيهِم.

﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ ظهرًا لبَطنٍ تَلَهُّفًا وتَحسُّرًا ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾: في عمارَتِها، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿يُقَلِّبُ﴾؛ لأنَّ تَقليبَ الكَفَّينِ كنايَةٌ عَن النَّدمِ، فكأنَّه قيل: فأصبَحَ يَنْدِمُ، أو حالٌ؛ أي: مُتَحَسِّرًا على ما أنفقَ فيها.

---

(١) نسبت لعيسى بن عمر كما في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٢٩٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٨)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٨٧)، ولابن أبي عبلة كما في «الكامل» للهذلي (ص: ٥٩١).

(٢) في نسخة التفتازاني: «مترددا».

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾: ساقِطَةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بأَنْ سقطَتْ عروشُهَا على الأَرضِ وسَقَطت الكُرومُ فَوقَها.

﴿وَيَقُولُ﴾ عطفٌ على ﴿يُقَلِّبُ﴾ أو حالٌ مِن ضَميرِه: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ كأَنَّه تذكَّرَ مَوعظةَ أخيه، وعلمَ أنَّه أُتِيَ مِن قِبَلِ شِركِه، فتمنَّى لو لم يَكُن مُشرِكًا فلم يُهلِكِ اللهُ بُستانَه.

ويحتمِلُ أن يكونَ توبَةً مِن الشِّركِ ونَدَمًا على ما سبقَ منه.

(٤٣) ـ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بالياءِ[1] لتَقدُّمِه.

﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾: يقدِرونَ على نصرِهِ بدفعِ الإهلاكِ، أو ردِّ المهلَكِ، أو الإتيانِ بمِثلِه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّه القادِرُ على ذلك وحدَه ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾: وما كانَ ممتنعًا بقُوَّتِه عن انتقامِ اللهِ مِنه.

(٤٤) ـ ﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المقامِ وتلكَ الحالِ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾: النُّصرَةُ لـه وحدَهُ لا يقدِرُ علَيْهَا غَيرُه، تَقريرٌ لقولِه: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ أو يَنصُرُ فيها أولياءَهُ المؤمنينَ على الكفرَةِ كما نَصَر فيما فعلَ بالكافرِ أخاهُ المؤمِنَ، ويعضُدُه قولُه: ﴿هو خيرٌ ثوابًا وخيرٌ عُقُباً﴾؛ أي: لأوليائِه.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿الوِلاية﴾ بالكَسرِ[2]، ومعناها: السُّلطانُ والملكُ؛ أي: هنالك السُّلطانُ له لا يُغلَبُ ولا يُمتنَعُ مِنه، أو: لا يُعبَدُ غيرُه، كقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فيكونُ تَنبيهًا على أنَّ قولَه: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ﴾ كانَ عَن اضطِرارٍ وجَزَعٍ ممَّا دَهَاه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

وقيل: ﴿ هُنَالِكَ ﴾ إشارةٌ إلى الآخرةِ.

وقرأ أبو عمرٍو[١] والكِسائيُّ: ﴿الحقُّ﴾ بالرَّفعِ[٢] صِفَةً لـ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾.

وقُرِئَ بالنَّصبِ[٣] على المَصدَرِ المؤكِّدِ.

وقرأ عاصِمٌ وحمزَةُ: ﴿عُقْبًا﴾ بالسُّكونِ[٤]، وقُرِئَ: (عُقْبَى)[٥]. وكلُّها بمَعنى العاقِبَةِ.

(٤٥) ـ ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾: اذكُرْ لَهُم ما تُشبِهُهُ الحياةُ الدُّنيا في زهرَتِها وسُرعَةِ زَوالِها، أو صِفَتِها الغَريبةِ ﴿كَمَآءٍ﴾: هو كماءٍ، ويجوزُ أَنْ يكونَ مَفْعولًا ثانيًا لـ﴿اضْرِبْ﴾ على أنَّه بمَعنى: صيِّرْ.

﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فالتفَّ بسبَبِه وخالطَ بعضُهُ بعضًا مِن كَثرتِه وتكاثُفِه، أو نجعَ[٦] في النَّباتِ حتى رَوِيَ ورَفَّ[٧]، وعلى هذا

---

(١) «وقرأ أبو عمرو» من نسخة التفتازاني، وهو الصواب، وكذا قال الأنصاري في «الحاشية» (٣/ ٥٧٢): ذكرُ حمزةَ سهوٌ، وصوابُه: أبو عمرو. ووقع في نسخة الطبلاوي: «وقرأ حمزة»، وكذا جاء في نسخة الفاروقي إلا أنه ذكر تحتها: «أبو عمرو» وعندها إشارة (صح).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٣) عن أبي عمرو والكسائي.

(٣) قرأ بها عمرو بن عبيد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٣).

(٥) نسبت لعاصم في غير المشهور عنه. انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٩)، و«الدر المصون» (٧/ ٥٠٠). وفي «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣): (عقبى) بالإمالة عن بعضهم. وذكرها الكرماني في «شواذ القراءات» (ص: ٢٨٩) بالوجهين فقال: عن ابن عمير: (عقبى) على فعلى، وكذا المفضل طريق الخبازي إلا أنه بالإمالة.

(٦) أي: نفع.

(٧) أي: اهتزَّ نَضارَةً.

كانَ حَقُّـه: فاختلَـطَ بنَباتِ الأَرضِ، لكِـنْ لَمَّا كانَ كلٌّ مِن المُختلطَيـنِ مَوْصُوفًا بصِفَةِ صاحبِـهِ عكـسَ للمُبالغَةِ فـي كثرتِه.

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾: مَهشـومًا مَكسُـورًا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾: تُفرِّقُه. وقُرِئَ: (تُذْرِيهِ)[1] مِن أَذْرَى.

والمُشـبَّهُ بـه ليسَ المـاءَ ولا حالَـه، بـل الكَيْفِيَّـةُ المُنتزعَـةُ مِن الجملَـةِ، وهي حـالُ النَّبـاتِ المُنبَـتِ بالماءِ: يكـونُ أخضَرَ رَافًّا، ثـمَّ هَشِـيمًا تُطَيِّرُهُ الرِّيـاحُ، فيَصيرُ كأَنْ لَـمْ يَكُن.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الإنشاءِ والإفناءِ ﴿مُّقْتَدِرًا﴾: قادِرًا.

(٤٦) ـ ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يتزيَّنُ بها الإنسانُ في دُنياهُ وتَفنَى عنه عمَّا قَريبٍ.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: وأعمـالُ الخَيـراتِ التـي تبقَـى لـهُ ثَمَرَتُها أبـدَ الآبادِ، ويَنـدَرِجُ فيهـا مـا فُسِّـرَت بـه مِـن الصَّلـواتِ الخمـسِ[2]، وأعمـالِ الحَـجِّ وصِيـامِ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص:٨٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٧/ ١٤٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥)، عن ابن عباس، وزاد في «الدر المنثور» (٤/ ٤١٨) عزوه للفريابي وابن أبي شيبة ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبي الشيخ. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) أيضاً عن سعيد بن جبير وعمرو بن شرحبيل وإبراهيم وأبي ميسرة.

رَمضانَ، و(سُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ ولا إلـهَ إلَّا اللهُ واللهُ أكبَرُ)[١]، والكَلامِ الطَّيِّبِ[٢].

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ مِن المالِ والبنينَ ﴿ثَوَابًا﴾: عائدةً ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأنَّ صاحِبَها ينالُ بها في الآخرةِ ما كانَ يَأمُلُ بها في الدُّنْيا.

(٤٧) ـ ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾: واذكُرْ يومَ نَقلَعُها ونُسيِّرُها في الجَوِّ، أو نَذهَبُ بها فنَجْعَلُها هباءً مُنبَثًّا، ويجوزُ عَطفُه على ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: الباقياتُ الصَّالِحاتُ خيرٌ عندَ اللهِ ويومَ القيامةِ.

وقرأ ابنُ كَثيرٍ وأبو عَمرٍو وابنُ عامرٍ: ﴿تُسَيَّرُ﴾ بالتَّاءِ والبناءِ للمَفعولِ[٣].

وقُرِئَ: (تَسِيرُ) مِن سَارَتْ[٤].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٥ ـ ٢٧٩)، عن ابن عباس وعثمان بن عفَّان وابنِ عمر ومجاهدٍ وعطاء بن يسار وسعيد بن المسيِّب والحسن وقتادة ومحمد بن كعب.

وروي مرفوعاً: رواه الإمام أحمد في «المسند» (١١٧١٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٣٨٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٤٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨٧): رواه أحمد وأبو يعلى... وإسنادهما حسن.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٥١٣) من حديث عثمان رضي الله عنه، وإسناده حسن.

ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١٨٣٥٣) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

ورواه النسائي في «الكبرى» (١٠٦١٧)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٥ ـ ٢٧٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهذا وكل ما تقدم يندرج فيما رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٦٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٣٣٩) عن قتادة قال: كل ما أريد به وجه الله.

(٣) مع رفع اللاَّم من ﴿الْجِبَالَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

(٤) نسبت لابن محيصن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٨٩).

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾: باديةً، بَرَزَتْ مِن تحتِ الجبالِ ليسَ عَلَيْهَا ما يَسْتُرُهَا.

وقُرِئَ: (وتُرَى) على بناءِ المَفعولِ[1].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾: وجَمعنَاهُم إلى الموقفِ، ومَجيئُه ماضِيًا بعدَ ﴿نُسَيِّرُ﴾ و﴿ترى﴾ لتَحقيقِ الحَشرِ، أو للدَّلالةِ على أنَّ حَشرَهُم قبلَ التَّسييرِ ليُعايِنُوه[2] ويُشاهِدُوا ما وعَدَ لَهُم، وعلى هذا تكونُ الواوُ للحالِ بإضمارِ (قد).

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾: فلَمْ نَترُك ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقال: غادرَهُ وأَغْدَرَهُ: إذا تَرَكَهُ، ومنه: الغَدْرُ، لتَركِ الوَفاءِ، والغَدِيرُ لِمَا غادرَهُ السَّيلُ. وقُرِئَ بالياءِ[3].

(٤٨) ـ ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ تَشبيهُ حالِهِم بحالِ الجُندِ المَعروضينَ على السُّلطانِ لا ليَعرِفَهُم بَلْ ليَأْمُرَ فيهِم.

﴿صَفًّا﴾: مُصطَفِّينَ لا يَحْجُبُ أَحَدٌ أَحَدًا.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ على إضمارِ القَوْلِ على وجهٍ يكونُ حالًا أو عاملًا في ﴿يومَ نُسَيِّرُ﴾.

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾: عُراةً لا شيءَ مَعَكُم مِن المالِ والوَلَدِ، كقولِه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤]، أو: أحياءً كخِلْقَتِكُم الأُولَى؛ لقولِه: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾: وقتًا لإنجازِ الوَعدِ بالبَعثِ والنُّشورِ، وأنَّ الأَنبياءَ كذَبُوكُم بهِ، و﴿بَلْ﴾ للخُروجِ مِن قصَّةٍ إلى أُخرَى.

---

(١) وبرفع الضاد من (الأرض). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣) عن عيسى، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٨٩) عن أبي معاذ النحوي عن بعض القراء.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «ليعاينوا».

(٣) نسبت لعاصم في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٠).

(٤٩) ـ ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾: صحائفُ الأعمالِ في الأيمانِ والشَّمائلِ، أو في الميزانِ.

وقيل: هو كِنايَةٌ عَن وضعِ الحِسابِ.

﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾: خائفينَ ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ مِن الذُّنوبِ.

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ يُنادونَ هَلَكَتَهُم التي هَلَكُوها مِن بينِ الهَلَكَاتِ.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَعَجُّبًا مِن شَأنِه ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾: هَنَةً صَغِيرَةً ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ إلا عَدَّدَها وأَحاطَ بها.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾: مكتوبًا في الصُّحُفِ ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتبَ عليهِ ما لم يفعَلْ، أو يزيدَ في عِقابِهِ المُلائمِ لعَمَلِه.

(٥٠) ـ ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ كرَّرَهُ في مَواضِعَ لكَوْنِه مُقدِّمَةً للأُمورِ المَقصودِ بيانُها في تلك المَحَالِّ، وهاهنا لَمَّا شَنَّعَ على المفتخِرينَ واستَقْبَحَ صَنِيعَهم قرَّرَ ذلك بأنَّهُ مِن سُنَنِ إبليسَ.

أو لَمَّا بَيَّنَ حالَ المغرورِ بالدُّنيا والمُعرضِ عنها، وكان سببَ الاغترارِ بها حُبُّ الشَّهواتِ وتَسويلُ الشَّيطانِ، زَهَّدَهُم أوَّلًا في زخارفِ الدُّنيا بأنَّها عُرضَةُ الزَّوالِ، والأعمالُ الصَّالِحَةُ خَيرٌ وأَبْقَى مِن أَنفَسِها وأَعلاها، ثمَّ نَفَّرَهُم عَن الشَّيطانِ بتَذكيرِ ما بَينَهُم مِن العَداوَةِ القَديمَةِ، وهكذا مَذهَبُ كلِّ تَكريرٍ في القرآن.

﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ حالٌ بإِضمارِ: قد كان، أو استئنافٌ للتَّعليلِ كأنَّه قيل: ما له لم يَسجُد؟ فقيل: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾.

﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فخرجَ عَن أمرِهِ بتَركِ السُّجودِ، والفَاءُ للتَّسبُّبِ، وفيه دَليلٌ عَلى أنَّ المَلَكَ لا يَعصِي أَلبَتَّةَ، وإنَّما عَصَى إبليسُ لأنَّه كانَ جِنِّيًا في أَصلِه، والكلامُ المُستَقْصَى فيه مرَّ في (سُورَةِ البَقرةِ).

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾: أعَقِيبَ ما وُجدَ مِنْه تَتَّخِذونه، والهمزةُ للإنكارِ والتَّعجيبِ.

﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: أولادَهُ، أو: أتباعَهُ، وسَمَّاهُم ذُرِّيَّةً مَجازًا.

﴿أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ وتَستَبْدِلُونَهُم بي فتُطيعُونَهُم بدلَ طاعَتِي ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ مِن اللهِ إبليسُ وذُرِّيَّتُهُ.

(٥١) ـ ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ نَفى إحضارَ إبليسَ وذُرِّيَّتِه خلقَ السَّماواتِ والأَرضِ وإحضارَ بعضِهم خلقَ بَعضٍ؛ ليدُلَّ على نفيِ الاعتضادِ بهم في ذلك، كما صَرَّحَ بهِ بقوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾؛ أي: أعوانًا، ردًّا لاتِّخاذِهم أولياءَ مِن دونِ اللهِ شُركاءَ لَه في العبادةِ؛ فإنَّ استحقاقَ العِبادةِ مِن تَوابعِ الخالقيَّةِ، والإشراكُ فيه يَستلزِمُ الإشراكَ فيها، فوضعَ ﴿ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ موضِعَ الضَّميرِ ذَمًّا لهم واستِبعادًا للاعتضادِ بهم.

وقيلَ: الضَّميرُ للمُشركينَ، والمعنى: ما أَشهَدْتُهُم خلقَ ذلك وما خَصَصْتُهُم بعُلومٍ لا يَعرِفُها غيرُهُم، حتَّى لَوْ آمَنوا تَبِعَهُم النَّاسُ كمَا يَزْعُمونَ، فلا تَلْتَفِتْ إلى قولِهم طمعًا في نُصرَتِهم للدِّينِ، فإنَّه لا ينبَغِي لي أَنْ أَعتَضِدَ بالمُضلِّينَ لديني.

ويَعضُدُه قِراءَةُ مَن قرأَ: ﴿وَمَا كنتَ﴾[1] على خطابِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ.

وقُرِئَ: (مُتَّخِذًا المُضلِّينَ) على الأصلِ[2].

---

(١) قرأ بها أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣١١).

(٢) أي بإعمال اسم الفاعل. نسبت لعلي رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤).

و: (عَضْـدًا) بالتَّخفيـفِ، و: (عُضُـدًا) بالإتبـاعِ، و: (عَضَدًا)[١] كخَـدَمٍ، جمعُ: عاضِدٍ، مِـن عَضَـدَهُ: إذا قوَّاهُ.

(٥٢) ـ ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾؛ أي: اللهُ للكافرِ. وقرأَ حمزَةُ بالنُّونِ[٢].

﴿نَادُوا شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أنَّهـم شُـرَكائِي، أو: شُـفعاؤكم؛ ليَمنعُوكُـم مِن عَذابـي، وإضافَـةُ الشُّـركاءِ على زَعمِهِـم للتَّوبيخِ، والمراد: مـا عُبِدَ مِـن دُونِه، وقيل: إبليـسُ وذُرِّيَّتُه.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾: فنادَوْهُم للإغاثةِ[٣] ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾: فلـم يُغيثُوهُم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم ﴾: بين الكُفَّارِ وآلِهَتِهِم ﴿مَّوْبِقًا ﴾: مَهْلِكًا يَشترِكُونَ فيه وهو النَّارُ، أو: عداوةً هي في شِدَّتِها هلاكٌ، كقولِ عُمَرَ: لا يَكُن حبُّكَ كَلَفًا ولا بُغْضُكَ تَلَفاً[٤]. اسمُ مَكانٍ أو مَصدرٌ، مِن وبَقَ يَوبَقُ وبَقًا: إذا هلكَ.

وقيل: البينُ للوَصلِ؛ أي: وجَعَلْنَا تَواصُلَهُم في الدُّنيَا هَلَاكًا يومَ القِيامَةِ.

(٥٣) ـ ﴿ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا ﴾: فأَيْقَنُوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾: مُخالِطُوهَا واقعونَ فيها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾: مُنْصَرَفًا[٥]، أو: مكانًا ينصرفونَ إليه.

---

(١) القراءات الثلاث في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، وفي «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٨٤) ذكر ستة أوجه: (عُضُداً) عن الحسن، و(عَضْداً) عن الأعرج، و(عِضْداً) عن الضحاك، و(عَضِداً) عن الأعرج أيضاً، و(عَضَداً) عن ابن عمر، والسادسة المشهورة.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

(٣) كذا في نسخة الفاروقي، وعند التفتازاني والطبلاوي: «للإعانة».

(٤) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٢٦٩)، وابن وهب في «جامعه» (٢١٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢٢)، عن أسلم قال: قال لي عمر: (يا أسلم لا يكن حبك كلفاً، ولا يكن بغضك تلفاً)، قلت: وكيف ذلك؟ قال: (إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي بالشيء يحبه، وإذا أبغضت فلا تبغض بغضاً تحب أن يتلف صاحبك ويهلك).

(٥) مصدر ميمي بمعنى: انصرافاً.

(٥٤) ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: مِن كلِّ جنسٍ يحتاجونَ إليه ﴿وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ﴾ يتأتَّى مِنهُ الجَدَلُ ﴿جَدَلًا﴾ خُصومَةً بالباطلِ، وانتصابُهُ على التَّمييز.

(٥٥) ـ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾: مِن الإيمانِ ﴿إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ وهو الرَّسولُ الدَّاعي والقُرآنُ المُبينُ ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ ومِن الاستغفارِ عَن الذُّنوبِ ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: إلا طلبُ أو: انتظارُ، أو: تقديرُ، أَنْ تأتِيَهُم سنَّةُ الأَوَّلينَ وهو الاستئصالُ، فحُذِفَ المُضافُ وأقيمَ المُضافُ إليه مقامَهُ.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ﴾: عذابُ الآخرةِ ﴿قِبَلًا﴾ عِيانًا، وقرأَ الكوفيُّون: ﴿قُبُلًا﴾ بضَمَّتينِ(١)، وهو لُغَةٌ فيه، أو جمعُ قبيلٍ بمَعنى: أنواعٍ.

وقُرِئَ بفَتْحَتَينِ(٢)، وهو أيضًا لغةٌ، يقال: لقيتُه مُقابَلَةً وقُبُلًا وقِبَلًا وقَبَلاً وقَبَلِيًّا.

وانتصابهُ على الحالِ مِن الضَّميرِ أو ﴿الْعَذَابُ﴾.

(٥٦) ـ ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ للمُؤمِنينَ والكافرينَ ﴿وَيُجَٰدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِالْبَٰطِلِ﴾: باقتراحِ الآياتِ بعدَ ظُهورِ المُعجزاتِ، والسُّؤالِ عَن قصَّةِ أصحابِ الكَهفِ ونحوِها تَعنُّتًا.

﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾: ليزيلوا بالجِدالِ ﴿الْحَقَّ﴾ عن مَقرِّهِ ويبطلوهُ، مِن إدحاضِ القدمِ وهو إزلاقُها، وذلك قَولُهُم للرُّسُلِ: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] ونحوُ ذلك.

﴿وَاتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾ يعني: القرآنَ ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾: وإنذارُهم، أو: والذي أُنذِرُوا

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٤). والكوفيون: عاصم وحمزة والكسائي.

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، و«الكشاف» (٥/ ١٨١).

بـه مـن العـذابِ[١] ﴿هُزُوًا﴾: استهزاءً. وقُرِئَ: ﴿هُزْءًا﴾ بالسُّكونِ[٢]، وهو ما يُستهزَأُ به.

(٥٧) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ﴾: بالقرآنِ ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولم يَتدَبَّرْهَا ولم يَتذَكَّرْ بها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ مِن الكُفرِ والمَعاصِي فلَمْ يَتفكَّرْ في عَاقِبَتِهما[٣].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تَعليلٌ لإعراضِهم ونسيانِهم بأَنَّهُم مَطبوعٌ على قُلوبِهم ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: كراهَةَ أَنْ يَفقَهُوهُ، وتَذكيرُ الضَّميرِ وإِفرادُه للمَعْنَى.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يَمْنَعُهُم أَنْ يَسْتَمِعُوهُ حقَّ استِماعِه.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ تحقيقًا ولا تَقليدًا؛ لأَنَّهُم لا يَفقهونَ ولا يَسمعونَ، و﴿إِذًا﴾ كما عرفتَ جزاءٌ وجوابٌ للرَّسولِ على تَقديرِ قولِه: ما لي لا أَدْعُوهُم؟ فإنَّ حِرصَهُ على إسلامِهم يَدُلُّ عليه.

(٥٨) ـ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾: البليغُ المَغفِرَةِ ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾: الموصوفُ بالرَّحمَةِ ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ استشهادٌ على ذلك بإمهالِ قُرَيشٍ مَع إفراطِهم في عَداوَةِ رَسولِ اللهِ عليهِ السَّلامُ.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يومُ بَدرٍ أو يومُ القِيامَةِ ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾: مَنْجًى، يقال: وَأَلَ: إذا نَجا، ووَأَلَ إليه: إذا لجَأَ إليه.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «العقاب».

(٢) قرأ بها حمزة عند الوصل، فإذا وقف أبدل الهمزة واواً اتِّباعا للخطِّ وتقديراً لضمة الحرف المسكَّن قبلها، وقرأ حفص: ﴿هُزُوًا﴾ بضم الزَّاي من غير همز، والباقون: ﴿هُزُؤاً﴾ بالضم والهمز. انظر: «التيسير» (ص: ٧٤)، وانظر: «السبعة» (ص: ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «عاقبتها»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

(٥٩) ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعني: قُرَى عادٍ وثَمُودَ وأَضرابِهِم، و﴿تلك﴾ مُبتدأٌ خبرُه: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أو مفعولُ مُضمَرٍ مُفسَّرٍ به و﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ صِفَتُه[1]، ولا بُدَّ مِن تَقديرِ مُضافٍ في أحدِهِما ليكونَ مرجعَ الضَّمائرِ[2].

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ كقُرَيشٍ بالتَّكذيبِ والمراءِ وأنواعِ المعاصِي.

﴿وَجَعَلْنَا لِمُهْلَكِهِم مَّوْعِدًا﴾: لإهلاكِهِم وَقْتًا مَعْلومًا لا يستأخرونَ عنهُ ساعةً ولا يَستقدمونَ، فليَعْتَبِرُوا بهم ولا يَغْتَرُّوا بتأَخُّرِ العَذابِ عَنْهُم.

وقرأَ أبو بكرٍ: ﴿لِمَهْلَكِهِم﴾ بفَتحِ الميمِ واللامِ؛ أي: لهلاكِهِم، وحفصٌ بكسرِ اللامِ[3] حملًا على ما شَذَّ مِن مصادرِ (يَفْعِل)، كالمرجِعِ والمحِيضِ.

(٦٠) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ مُقدَّرٌ بـ: اذكُرْ ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يوشَعَ بنِ نُونِ بنِ إفرائيمَ بنِ يُوسُفَ عليهِم السَّلام، فإنَّه كانَ يخدمُه ويتبَعُهُ، ولذلك سمَّاهُ فَتاهُ، وقيل: لعبدِه.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾: لا أزالُ أَسيرُ، فحُذِفَ الخبرُ لدَلالةِ حالِه وهو السَّفرُ، وقولِه: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ مِن حَيثُ إنَّها تَستَدْعِي ذا غايةٍ عليه.

ويجوزُ أَنْ يكونَ أصلُه: لا يبرحُ مَسيرِي حتَّى أبلُغَ، على أَنَّ ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ﴾ هو الخَبرُ، فحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مُقامَهُ، فانقلبَ الضَّميرُ والفعلُ.

وأن يكونَ ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ بمَعنى: لا أزولُ عمَّا أنا عليه مِن السَّيرِ والطَّلَبِ ولا أُفارِقُه، فلا يَستَدعي الخبرَ.

---

(١) قوله: «أو مفعولُ مُضمَرٍ مُفسَّرٍ...»؛ أي: أو تكون ﴿تلك﴾ مفعولًا لفعل مضمر مفسر بـ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، والقرى صفة ذلك المفعول الذي هو ﴿تلك﴾.

(٢) قوله: «ولا بُدَّ مِن تَقديرِ مُضافٍ في أحدِهِما...»؛ أي: في أحد الموضعين: قبل تلك أو بعدها؛ أي: وأهل تلك القرى أهلكناهم، أو: وتلك القرى أهلكنا أهلها.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٣)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

و﴿مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾: مُلتَقى بَحْرَي فارسَ والرُّومِ ممَّا يَلِي المشرقَ[١]، وُعِدَ لِقَاءَ الخَضِرِ فيه.

وقيل: البَحْرانِ: مُوسَى والخَضِرُ عليهما السَّلامُ، فإنَّ مُوسَى كانَ بحرَ علمِ الظَّاهرِ، وخَضِرٌ كانَ بحرَ علمِ الباطن[٢].

وقُرِئَ: (مَجْمِع) بكسرِ الميمِ[٣] على الشُّذوذِ[٤] مِن (يَفْعَل)، كالمَشرِقِ والمَطلِعِ.

﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾: أو أسيرَ زَمانًا طَوِيلًا، والمَعنى: حتى يقعَ إمَّا بلوغُ المجمعِ أو مضيُّ الحقُبِ، أو: حتَّى أبلُغَ.. إلا أن أَمضيَ زَمانًا أتيقَّن معَهُ فواتَ المجمعِ.

والحُقُبُ: الدَّهرُ، وقيل: ثمانونَ سَنةً، وقيل: سبعونَ.

رُوِيَ أنَّ مُوسَى عليهِ السَّلامُ خطبَ النَّاسَ بعدَ هَلاكِ القبطِ ودُخولِه مِصرَ خطبةً بليغَةً فأُعجِبَ بها، فقيل له: هل تعلَمُ أحدًا أعلمَ[٥] مِنك؟ فقال: لا، فأَوْحَى اللهُ إليه: بَل عبدُنا الخَضِرُ وهو بمَجمَعِ البَحرَيْنِ[٦].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٠٨) عن قتادة.
وقال ابن كمال باشا في «تفسيره» عند هذه الآية: ويَرِدُ على من قال: (بحرا فارس والرُّوم): أنهما لا يلتقيان، ولا يقرب أحدهما من الآخر، ولعل (فارس) محرَّف من: فاس، وهي بالمغرب حاضرةُ البحر، من أجلِّ المدن القديمة، ويعضده ما قاله محمَّد بن كعب: إنَّ مجمعَ البحرين عند طنجة، وما قاله أبيُّ بن كعب: إنَّه بإفريقية.

(٢) وعدَّ الزمخشري هذا القول من بدع التفاسير. انظر: «الكشاف» (٥/ ١٨٥).

(٣) نسبت لعبد الله بن مسلم بن يسار. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، و«المحتسب» (٢/ ٣٠).

(٤) يعني به: قراءَةً وقِياسًا. قاله الطيبي في «فتوح الغيب» (٩/ ٥٠٦).

(٥) في نسخة التفتازاني: «أحدا أبلغ وأعلم».

(٦) رواه بهذا السياق الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٣٠) من طريق عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله =

وكانَ الخَضِرُ في أَيَّامِ أفريدونَ، وكانَ عَلى مُقدِّمَةِ ذي القَرْنَيْنِ الأَكبرِ، وبَقِيَ إلى أَيَّامِ مُوسَى.

وقيـل: إنَّ مُوسَـى عليهِ السَّـلامُ سـأَلَ ربَّـه: أيُّ عِبـادِكَ أحبُّ إليك؟ قـال: الذي يذكُرُنِـي ولا يَنسـاني، قـال: فـأيُّ عِبادِكَ أقضَـى؟ قال: الـذي يَقْضِي بالحـقِّ ولا يتَّبعُ الهَـوَى، قـال: فـأيُّ عبادِكَ أعلَـمُ؟ قال: الـذي يَبْتَغِي عِلـمَ النَّاسِ إلى علمِهِ عَسَـى أن يصيـبَ كلمَـةً تدلُّه على هُدًى أو تـردُّهُ عَن رَدًى، فقـال: إنْ كانَ في عِبـادِكَ أعلَمُ مِنِّي فادلُلْنِـي عليـه، قـال: أعلَمُ مِنـكَ الخَضِرُ، قـال: أينَ أَطلبُـه؟ قال: على السَّـاحلِ عندَ الصَّخرةِ(١).

= عنهما، وإسناده ضعيف جدًّا، وروى نحوه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، عن سعيد بن جبير، قال: قلتُ لابن عباس: إنَّ نَوْفًا البِكَاليَّ يَزْعُمُ أنَّ موسى عليه السلام صاحبَ بني إسرائيلَ ليس هو موسى صاحبَ الخَضِر عليه السلام! فقال: كَذَب عدُوُّ الله، سمعتُ أُبيَّ بن كعبٍ يقولُ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «قام موسى عليه السلامُ خطيبًا في بني إسرائيل فسُئل: أيُّ الناسِ أعلمُ؟ فقال: أنا أعلمُ، قال فعَتَبَ اللهُ عليه إذْ لمْ يَرُدَّ العلمَ إليه، فأَوحَى اللهُ إليه: إن عبدًا من عبادي بمجمَع البحرين هو أعلمُ منك...» الحديث.

وفي رواية للبخاري (٤٧٢٦) أن النبي ﷺ قال: «موسى رسولُ الله عليه السَّلامُ، قال: ذَكَّر الناسَ يومًا حتى إذا فاضتِ العيونُ، ورقَّت القلوبُ، ولَّى، فأَدركه رجلٌ فقال: أيْ رسولَ الله، هل في الأرض أحدٌ أعلمُ منك؟ قال: لا، فعَتَبَ عليه إذْ لمْ يَرُدَّ العلمَ إلى الله...» الحديث.

وليس في الروايات الصحيحة ذكر مكان القصة بخلاف ما جاء في الرواية الضعيفة الأولى من التصريح بكونها وقعت في مصر، والله أعلم.

(١) إلى هنا رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٧٤)، وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤١٩)، من طريق هارون بن عنترة عن أبيه عن ابن عباس موقوفاً، وفيه: (... عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت، قال: فخرج موسى يطلبه، حتى كان ما ذكر الله، وانتهى إليه موسى عند الصخرة...)، إلى آخر ما قصه القرآن من قصتهما.

قال: كيفَ لي به؟ قال: تأخذُ حوتًا في مِكْتَلٍ، فحيثُ فقدْتَه فهو هناك، فقالَ لِفَتاه: إذا فقدتَ الحوتَ فأَخبِرْنِي، فذهبَا يَمشِيَانِ[1].

(٦١) ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾؛ أي: مجمَعَ البَحرينِ، و﴿بَيْنِهِمَا﴾ ظرفٌ أُضيفَ إليه على الاتِّساعِ، أو بمَعنى الوَصلِ.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾: نَسِيَ موسى أن يطلبَهُ ويتعرَّفَ حالَه، ويوشعُ أن يذكرَ له ما رأى مِن حياتِه ووقوعَه في البَحرِ.

رُوِيَ أنَّ مُوسَى عليه السَّلامُ رقدَ فاضطربَ الحوتُ المَشْوِيُّ ووثبَ في البحرِ معجزةً لِمُوسَى أو الخَضِرِ[2].

وقيل: توضَّأَ يوشَعُ من عينِ الحياةِ فانتضحَ الماءُ عليه فعاشَ ووثَبَ في الماءِ[3].

وقيل: نَسِيَا تفقُّدَ أمرِهِ وما يكونُ مِنه أمارةً على الظَّفرِ بالمَطلوبِ.

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾: فاتَّخَذَ الحوتُ طريقَهُ في البَحرِ مَسْلَكًا، مِن قَولِه: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وقيل: أمسَكَ اللهُ جريةَ الماءِ على الحوتِ فصَارَ كالطَّاقِ عليه.

ونصبُهُ على المفعولِ الثَّاني، و﴿فِي الْبَحْرِ﴾ حالٌ مِنه أو مِن السَّبيلِ، ويجوزُ تَعَلُّقُه بـ: (اتَّخذَ).

---

(١) هذه قطعة من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنهم عند البخاري (١٢٢) و(٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) هذه قطعة من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنهم المتقدم عند البخاري (١٢٢) و(٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠). وليس فيهما أنه كان مشويًّا.

(٣) ورد نحو هذا ضمن رواية البخاري (٤٧٢٧) لحديث ابن عباس عن أبيّ رضي الله عنهم، وهي زيادة أنكرها الداودي كما في «فتح الباري» (٨/ ٤١٥)، وانظر كلامه ثمة.

(٦٢) ـ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمعَ البَحرَيْنِ ﴿قَالَ لِفَتَـٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾: ما نَتغدَّى به ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا﴾ قيل: لم يَنْصَبْ حتَّى جاوزَ المَوْعِدَ، فلَمَّا جاوزَهُ وسارَ الليلةَ والغدَ إلى الظُّهرِ أُلْقِيَ عليهِ الجوعُ والنَّصَبُ.

وقيل: لم يَعْيَ مُوسَى في سفرٍ غيرِه، ويؤيِّدُه التَّقييدُ باسمِ الإشارةِ.

(٦٣) ـ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ﴾: أرأيتَ ما دَهاني إذ أَوَيْنا ﴿إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ يعني: الصَّخرةَ التي رقدَ عندَها مُوسى، وقيل: هي الصَّخرةُ التي دونَ نَهرِ الزَّيتِ.

﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾: فقدتُه، أو: نَسِيتُ ذكرَهُ بما رأيتُ منه.

﴿وَمَآ أَنسَـٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾؛ أي: وما أَنْساني ذكرَهُ إلا الشَّيطانُ، فإن ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدلٌ مِن الضَّميرِ.

وقُرِئَ: (أَنْ أُذكِّرَكه)(١)، وهو اعتذارٌ عَن نسيانِه بشَغْلِ الشَّيطانِ لَهُ بوَساوِسِه، والحالُ وإنْ كانَتْ عَجيبةً لا يُنسَى مِثلُها، لكنَّه لَمَّا ضَرِيَ بمُشاهدةِ أمثالِها عندَ موسى وأَلِفَها قلَّ اهتِمامُه بها، ولعلَّه نَسِيَ ذلك لاستِغراقِه في الاستبصارِ وانجذابِ شَراشِرِه إلى جنابِ القدسِ بما عراهُ مِن مُشاهدَةِ الآياتِ الباهرة، وإنَّما نسبَهُ إلى الشَّيطانِ هَضْمًا لنَفسِه، أو لأنَّ عدمَ احتمالِ القوَّةِ للجَانِبَينِ واشتِغالها بأحدِهِما عَن الآخرِ يعدُّ مِن نُقصانِ صاحبِها.

---

(١) نسبت لعبد الله رضي الله عنه. انظر: «الكشاف» (٥/ ١٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٢٩)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٢٦)، وذكر الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ١٩٦) أن عبد الله قرأ: (وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان).

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾: سَبيلًا عَجَبًا[1]، وهو كونُهُ كالسَّربِ، أو: اتِّخاذًا عجبًا، والمفعولُ الثَّاني هو الظَّرفُ.

وقيل: هو مَصدَرُ فعلِهِ المُضمَرِ؛ أي: قال في آخرِ كلامِهِ، أو مُوسى في جوابِه: ﴿عَجَبًا﴾ تَعجُّبًا مِن تلك الحالِ.

وقيل: الفِعلُ لِمُوسَى؛ أي: اتَّخذَ مُوسَى سَبيلَ الحوتِ في البحرِ عَجَبًا.

(٦٤ ـ ٦٥) ـ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: أمرُ الحُوتَ ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾: نَطلبُ؛ لأنَّه أمارةُ المطلوبِ.

﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾: فرَجَعا فـي الطَّريقِ الذي جاءا فيه ﴿قَصَصًا﴾: يَقُصَّانِ قَصَصًا؛ أي: يتَّبعانِ آثارَهُما اتِّباعًا، أو: مُقتَصِّينَ، حتَّى أَتيَا الصَّخرَةَ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ الجمهورُ على أنَّه الخَضِرُ، واسمُهُ: بَلْيَا بنُ مَلْكانَ[2].

وقيل: اليَسَعُ، وقيل: إلياسُ.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾: هو الوَحيُ والنبوَّةُ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ممَّا يختَصُّ بِنَا ولا يُعلمُ إلَّا بتَوفيقِنَا، وهو عِلمُ الغُيوبِ.

(٦٦) ـ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾: على شَرطِ أَنْ تُعلِّمَني، وهو في موضعِ الحالِ مِن الكافِ.

﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾: عِلْمًا ذا رشدٍ وهو إصابَةُ الخيرِ، وقرأَ البَصرِيَّانِ بفَتحَتَيْنِ[3]،

---

(١) قوله: «سبيلاً عجباً»؛ أي: هو صفة لمحذوف دل عليه ﴿سَبِيلَهُۥ﴾ وفيه مبالغة حيث جعل السبيل نفس العجب.

(٢) انظر: «المعارف» لابن قتيبة (١/ ٤٢)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٦٥)، و«تفسير الثعلبي» (١٧/ ١٩٧).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٤٤)، و«النشر» (٢/ ٣١١).

وهما لُغتانِ كالبُخْلِ والبَخَلِ. وهو مَفعولُ ﴿أَن تُعَلِّمَنِ﴾، ومَفعولُ ﴿عُلِّمْتَ﴾ العائدُ المَحذوفُ، وكِلاهُما مَنقولانِ مِن (عَلِمَ) الذي له مَفعولٌ واحِدٌ، ويجوزُ أَنْ يكونَ عِلَّةً لـ﴿أَتَّبِعُكَ﴾، أو مَصدَرًا بإضمارِ فعلِه.

ولا يُنافي نُبوَّتَه وكونَه صاحبَ شَريعَةٍ أَنْ يتعلَّمَ مِن غيرِهِ ما لَمْ يَكُن شَرْطًا في أبوابِ الدِّينِ، فإنَّ الرَّسولَ يَنبَغِي أن يكونَ أعلمَ ممَّن أُرسِلَ إليه فيما بُعِثَ به مِن أُصولِ الدِّينِ وفروعِه لا مُطلَقًا، وقد راعَى في ذلك غايةَ التَّواضُعِ والأَدبِ فاستجهلَ نفسَهُ واستَأْذَنَ أن يكونَ تابعًا له، وسألَ مِنه أَنْ يُرشِدَهُ ويُنعِمَ عليهِ بتَعليمِ بعضِ ما أَنعمَ اللهُ عليه.

(٦٧) ـ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نَفى عنه استطاعةَ الصَّبرِ معه على وُجوهٍ مِن التَّأكيدِ؛ كأَنَّها ممَّا لا يَصِحُّ ولا يَستَقيمُ، وعلَّلَ ذلك واعتذرَ عَنهُ بقولِه:

(٦٨) ـ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؛ أي: وكيفَ تَصبرُ وأنتَ نَبيٌّ على ما أتوَلَّى مِن أُمورٍ ظاهِرُهَا مَناكِيرُ وبواطِنُها لم يُحِط بهَا خُبْرُك، و﴿خُبْرًا﴾ تمييزٌ أو مَصدَرٌ؛ لأنَّ ﴿لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ بمَعنى: لم تَخْبَرْه.

(٦٩) ـ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معكَ غيرَ مُنكِرٍ عليك ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عطفٌ على ﴿صَابِرًا﴾؛ أي: سَتجِدُني صابرًا وغيرَ عاصٍ، أو على ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾.

وتعليقُ الوَعدِ بالمَشيئةِ إمَّا للتَّيمُّنِ، أو لعلمِهِ بصُعوبةِ الأَمرِ، فإنَّ مُشاهدَةَ الفَسادِ والصَّبرَ على خلافِ المُعتادِ شَديدٌ، فلا خُلفَ فيه، وفيه دَليلٌ على أنَّ أفعالَ العِبادِ واقعَةٌ بمَشيئَةِ اللهِ.

(٧٠) ـ ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾: فلا تُفاتِحني بالسُّؤالِ عَن شيءٍ أنكرْتَهُ مِنِّي ولم تعلَمْ وجهَ صِحَّتِه ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: حتَّى أَبتدِئَك ببيانِهُ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿فَلَا تَسْأَلَنِّي﴾ بالنُّونِ الثَّقيلَةِ[1].

(٧١) ـ ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ على السَّاحلِ يطلُبانِ السَّفينةَ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أخذَ الخَضِرُ فأسًا فخرقَ السَّفينةَ بأَنْ قلعَ لَوْحَيْنِ مِن ألواحِها[2].

﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ فإنَّ خرقَها سببٌ لدُخولِ الماءِ فيها المُفضي إلى غرقِ أَهلِها. وقُرِئَ (لتُغَرِّقَ) بالتَّشديدِ[3] للتَّكثيرِ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ ﴿ليَغرَقَ أَهلُهَا﴾[4] على إسنادِهِ إلى الأَهلِ.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾: أتيتَ أمرًا عظيمًا، مِن أَمِرَ الأمرُ: إذا عَظُمَ.

(٧٢ ـ ٧٣) ـ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ تذكيرٌ مَا ذكرَه قبلُ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾: بالذي نَسيتُه، أو: بشيءٍ نَسيتُه؛ يعني: وَصِيَّتَه بأن لا يَعترِضَ عليه، أو: بنِسياني إيَّاها، وهو اعتذارٌ بالنِّسيانِ أخرجَهُ في مَعرِضِ النَّهيِ عَن المؤاخذةِ مع قيامِ المانعِ لها[5].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٤)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٠٢)، و«النكت والعيون» (٣/ ٣٢٧).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣١)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٢)، عن الحسن وأبي رجاء وأيوب السختياني، وتحرفت القراءة في مطبوع «المختصر في الشواذ» إلى: (ليُغَرِّق) بالياء.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٤٤).

(٥) قوله: «وهو اعتذار بالنسيان» إن كان راجعاً لجميع ما تقدم فهو لذكره صريحاً في الثاني، ولتعبيره عن الوصية بالمنسيّ في الأوّل، وإن رجع للثاني كما هو المتبادِر من فصله عنه فلأنّ النسيان لا يؤاخذ به لأنه ليس بمقدور له بالذات وإن كان يؤاخذ بالمنسي لا من حيث إنه منسي فيكون المراد به أنا غير مؤاخذ، ولكنه أبرزه في صورة النهي والمراد: التماس عدم المؤاخذة لقيام المانع. انظر: «حاشية الشهاب».

وقيل: أرادَ بالنِّسيانِ التَّركَ؛ أي: لا تُؤاخِذْنِي بما تركتُ مِن وَصِيَّتِكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

وقيل: إنَّه مِن مَعاريضِ الكَلامِ، والمرادُ شَيءٌ آخرُ نَسِيَه.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾: ولا تُغْشِني عُسْرًا من أمري بالمضايقَةِ والمُؤاخذةِ على المنسيِّ، فإنَّ ذلك يُعسِّرُ عليَّ متابعتَكَ.

و﴿عُسْرًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ(ترهق)، فإنه يقالُ: رَهِقَه: إذا غَشِيَه، وأرهقَهُ إيَّاه.

وقُرِئَ: ﴿عُسُرًا﴾ بضَمَّتينِ[1].

(٧٤) ـ ﴿فَانْطَلَقَا﴾؛ أي: بعدَمَا خرجَا مِن السَّفينةِ ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قيل: فتلَ عُنقَهُ، وقيل: ضربَ برأسِهِ الحائطَ، وقيل: أضجَعَه فذَبحَهُ، والفاءُ للدَّلالةِ على أنَّه كما لَقِيَهُ قتلَهُ مِن غيرِ تَرَوٍّ واستكشافِ حالٍ، ولذلك ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؛ أي: طاهرةً مِن الذُّنوبِ.

وقرأ ابنُ كَثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو ورُوَيسٌ عَن يعقوب: ﴿زاكِيَةً﴾[2]، والأوَّلُ أبلَغُ.

وقال أبو عمرٍو: الزَّاكِيَةُ: التي لم تُذنِب قَطُّ، والزَّكِيَّةُ: التي أَذنبَتْ ثمَّ غُفِرَت[3]، ولعلَّه اختارَ الأوَّلَ لذلك، فإنَّها كانَتْ صغيرةً ولم تَبلُغ الحُلُمَ، وأنَّه لَمْ يرَهَا قد أذنبَتْ ذَنْبًا يقتضي قَتْلَها، أو قتَلَتْ نَفْسًا فتُقَادَ بها.

نبَّه به على أنَّ القتلَ إنَّما يُباحُ حدًّا أو قِصاصًا، وكِلا الأمرينِ مُنتَفٍ، ولعلَّ تَغييرَ النَّظمِ بأَنْ جعلَ ﴿خَرَقَهَا﴾ جزاءً، واعتراضَ مُوسى مُستأنفًا، وفي الثَّانيةِ (قتَلَه) مِن جملةِ

---

(١) قراءة أبي جعفر المدني. انظر: «النشر» (٢/ ٢١٦)، و«إتحاف الفضلاء» (ص: ١٨٥).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٥)، و«التيسير» (ص: ١٤٤)، و«النشر» (٢/ ٣١٣).

(٣) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٠٢)، و«حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٤٢٤).

الشَّرطِ واعتراضَهُ جَزاءً؛ لأنَّ القتلَ أقبَحُ، والاعتراضَ عليهِ أدخَلُ، فكانَ[1] جديرًا بأَنْ يجعلَ عُمدةَ الكلامِ، ولذلك فصلَه بقولِه: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾؛ أي: مُنْكراً.

وقرأَ نافعٌ في روايةِ قالونَ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وأبو بكرٍ: ﴿نُكُرًا﴾ بضَمَّتينِ[2].

(٧٥) ـ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ زادَ فيه ﴿لَّكَ﴾ مُكافحةً بالعتابِ على رفضِ الوَصِيَّةِ، ووسمًا بقلَّةِ الثَّباتِ والصَّبرِ لمَّا تكرَّرَ منه الاشمئزازُ والاستنكارُ، ولم يرعوِ بالتَّذكيرِ أوَّلَ مَرَّةٍ حتَّى زادَ في الاستنكارِ ثانيَ مرَّةٍ.

(٧٦) ـ ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِى﴾ وإنْ سَأَلْتُ صحبتكَ.

وعن يعقوبَ: (فلا تُصْحِبني)[3]؛ أي: فلا تَجْعَلْني صاحِبَكَ.

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾: قد وجدتَ عذرًا مِن قِبَلِي لمَّا خالَفْتُكَ ثلاثَ مرَّاتٍ.

وعَن رسولَ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أخي مُوسى استَحْيَا فقالَ ذلك، لو لَبِثَ مع صاحبِهِ لأبصرَ أعجبَ الأَعاجيبِ»[4].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «فلذلك كان».

(٢) قرأ بها نافع وأبو بكر وابن ذكوان. كما في «التيسير» (ص: ١٤٤)، ومن العشرة أبو جعفر ويعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٢١٦). وذكر ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٣٩٥) خلافاً عن نافع.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤) عن الجحدري والنخعي، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣١) عن عيسى ورواية عن أبي عمرو.

(٤) رواه ابن مردويه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكر القصة، وفيها: «رحمة الله علينا وعلى موسى استحيا عند ذلك فقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِى﴾ الآية». انظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٠٣).

ورواه مسلم (٢٣٨٠)، وأبو داود (٣٩٨٤) من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنهم بلفظ: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجل لرأى العجب».

وقرأ نافع: ﴿مِن لَدُنِي﴾ بتَحريكِ النُّونِ والاكتفاءِ بها عن نونِ الدِّعامَةِ، كقولِه:

قَدْنِـيَ مِـنْ نَصْـرِ الخُبَيْبَيْـنِ قَـدِي[1]

وأبو بكرٍ: ﴿لَدْنِي﴾ بتَحريكِ النُّونِ وإسكانِ الدَّالِ إسكانَ الضَّادِ مِن (عَضْد)[2].

(٧٧) ـ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾: قريةُ أنطاكِيَّةَ، وقيل: أُبُلَّةُ بصرةَ، وقيل: باجَرْوانُ أرمينيَّةَ.

﴿اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقُرِئَ: (يُضِيفُوهُما)[3] مِن ضافَهُ: إذا نزلَ به ضيفًا، وأضافَهُ وضَيَّفَه: أنزلَهُ، وأصلُ التَّركيبِ للمَيْلِ، يقال: ضافَ السَّهمُ عَن الغرضِ: إذا مالَ.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾: يُداني أن يَسقُطَ، فاستُعيرَتِ الإرادةُ للمُشارَفَةِ كمَا استُعيرَ لها الهمُّ والعَزمُ قالَ:

---

(١) الرجز لحميد بن مالك الأرقط كما في «الصحاح» (مادة: خبب)، و«التكملة والذيل» (٢/ ٢٢٤)، و«لسان العرب» (مادة: لحد)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٥/ ٣٩٣)، ولأبي بحدلة كما في «شرح المفصل» لابن يعيش (٢/ ٣٤٩)، ودون نسبة في «الكتاب» (٢/ ٣٧١)، و«مجاز القرآن» (٢/ ١٧٣)، و«إصلاح المنطق» (ص: ٢٤٢ و٢٨٢)، و«الكامل» للمبرد (١/ ١١٩) و(٣/ ٢٢٠)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٣٦٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٠٤)، و«الأصول في النحو» لابن السراج (٢/ ٢٢٢)، و«الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ٣٢٣)، و«المحتسب» (٢/ ٢٢٣)، و«الصحاح» (مادة: قدد). قوله: «قدني» يعني: حَسْبِي.

(٢) قرأ نافع بضم الدال وتخفيف النون، وأبو بكر بإسكان الدال وإشمامها الضم وتخفيف النون، والباقون بضم الدال وتشديد النون. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٦)، و«التيسير» (ص: ١٤٥). أما السكون الخالص في الدال فهي رواية ذكرها ابن مجاهد عن أبي بكر.

(٣) نسبت لابن الزبير وأبي رزين وأبي رجاء وسعيد بن جبير والحسن والمفضل وأبان وابن محيصن. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٠٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٥٩١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٣)، و«البحر» (١٤/ ٣٣٨).

يريدُ الرُّمحُ صــدرَ أبــي بــراءٍ ويــعدِلُ عَن دماءِ بَنِي عَقِيلِ[١]

وقال:

إنَّ دَهْـرًا يَلُـفُّ شَـمْلِي بجُمْلٍ لـزَمَـانٌ يَـهُـمُّ بِالإِحْـسَانِ[٢]

وانقضَّ: انفعَلَ، مِن قَضَضْتُه: إذا كَسَرْتَه، ومنه: انقِضاضُ الطَّيرِ والكواكِبِ، لهُوِيِّهِ، أو: افعَلَّ مِن النَّقضِ.

وقُرِئَ: (أن يُنقَضَ)[٣]، و: (أَنْ ينقاصَ) بالصَّادِ المهملةِ[٤]، مِن انقاصَتِ السِّنُّ: إذا انشقَّتْ طولًا.

---

(١) نسبه أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٤١٠) للحارثي، وهو دون نسبة في «تأويل مشكل القرآن» (ص: ٨٦)، و«تفسير الطبري» (١٥/ ٣٤٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٠٦)، و«الصناعتين» للعسكري (ص: ٢٧٧)، و«الغريبين» للهروي (مادة: ريد).

(٢) البيت بلا نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٥٦)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص: ٨٦)، و«تفسير الطبري» (١٥/ ٣٤٨)، و«المذكر والمؤنث» لابن الأنباري (١/ ١١٣)، و«معجم ديوان العرب» للفارابي (١/ ١٠٧)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ١٠٩)، و«الصحاح» (مادة: دهر)، و«الصناعتين» للعسكري (ص: ٢٧٧)، و«دلائل الإعجاز» للجرجاني (ص: ٣٢٠).

وعزاه الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ١٩٨)، و«أساس البلاغة» (مادة: لفف) لحسان.

وعزاه المستعصمي في «الدر الفريد» (١١/ ١٨٨) لعمر بن أبي ربيعة، وهو في «ديوانه» (ص: ٢٩١) (ت: محيي الدين عبد الحميد) برواية: (يسعدى) مكان: (بجمل).

(٣) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣١) ونسبها للنبي ﷺ، ونسبت لأبي بن كعب في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٤)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٣٩).

(٤) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه، وكذا: (ينقاض) بالضاد المعجمة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، وبالصاد نسبها ابن جني أيضاً في «المحتسب» (٢/ ٣١) لعلي رضي الله عنه وعكرمة وأبي شيخ الهنائي ويحيى بن يعمر.

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ بعمارتِه، أو بعمودٍ عَمَدَ به، وقيل: مَسَحَهُ بيدِه فقامَ، وقيل: نقضَهُ وبَناهُ.

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريضًا على أخذِ الجعلِ لينتعِشَا به، أو تعريضًا بأنَّه فضولٌ[1]؛ لِمَا في (لو) مِن النَّفيِ، كأنَّه لَمَّا رأى الحِرمانَ ومِساسَ الحاجةِ واشتغالَهُ بما لا يَعنيهِ لم يَتمالَك نفسَهُ.

و﴿اتَّخذ﴾: افتعلَ مِن تَخِذَ، كاتَّبعَ مِن تَبِعَ، وليسَ من الأخذِ عندَ البَصريِّينَ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ والبَصرِيَّانِ: ﴿لتَخِذْتَ﴾؛ أي: لأخذْتَ، وأظهرَ ابنُ كثيرٍ ويَعقوبُ وحَفصٌ الذَّالَ، وأدغمَهُ الباقونَ[2].

(٧٨) ـ ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ الإشارةُ إلى الفراقِ الموعودِ بقولِه: ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ أَوْ إلى الاعتراضِ الثَّالثِ أو الوقتِ؛ أي: هذا الاعتراضُ سببُ فراقِنا، أو هذا الوَقتُ وقتُه، وإضافَةُ الفراقِ إلى البينِ إضافَةُ المصدَرِ إلى الظَّرفِ على الاتِّساعِ، وقد قُرِئَ على الأصلِ[3].

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾: بالخبرِ الباطنِ فيما لم تَستَطِع الصَّبرَ عليه لكونِه مُنكَرًا من حيثُ الظَّاهرُ.

---

(١) قوله: «فضول»؛ أي: تبرع، وهو من الخصال الحميدة، لكن الحال هنا اقتضت خلافه لمساس الحاجة. انظر: «حاشية القونوي» (١٢/ ١٤٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٦)، و«التيسير» (ص: ١٤٥)، و«النشر» (٢/ ٣١٤).

(٣) أي: (هذا فراقٌ بيني وبينَك)، نسبها الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٢٥) للاحق بن حميد، ونسبت لابن أبي عبلة في «الكشاف» (٥/ ٢٠٣)، و«زاد المسير» (٣/ ١٠٢)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٤٢)، وزاد ابن الجوزي نسبتها لأبي رزين، وابن السميفع، وأبي العالية.

(٧٩) ـ ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾: لِمَحاويجَ، وهو دَليلٌ على أنَّ المسكينَ يطلقُ على مَن يملكُ شيئًا إذا لم يَكفِه.

وقيل: سُمُّوا مَساكينَ لعَجزِهم عن دَفعِ الملِكِ أو لزَمانَتِهم، فإنَّها كانَتْ لعشرةِ إخوةٍ خمسةٌ زَمْنَى وخَمسَةٌ يَعملونَ في البَحرِ[١].

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾: أجعلَها ذاتَ عَيبٍ ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾: قُدَّامهم، أو: خلفَهُم، وكان رجوعُهُم عليه[٢]، واسمُه: جُلَنْدَى بن كركرَ، وقيل: منولةُ بن جلندٍ[٣] الأزديُّ.

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ مِن أَصحابِها.

وكانَ حقَّ النَّظمِ أَنْ يتأخَّرَ قولُه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ عَن قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ لأنَّ إرادةَ التَّعييبِ مُسبَّبٌ عَن خوفِ الغَصْبِ، وإنَّما قُدِّمَ للعنايةِ، أو لأنَّ السَّببَ لَمَّا كانَ مجموعَ الأَمرينِ: خوفَ الغَصبِ، ومسكنةَ المُلَّاكِ، رتَّبَه على أَقْوَى الجُزْأَينِ وأَدعَاهُما، وعقَّبَه بالآخرِ على سبيلِ التَّقييدِ والتَّتميمِ.

وقُرِئَ: (كلَّ سفينةٍ صالحةٍ)[٤]، والمَعنى عَلَيْها.

(٨٠) ـ ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾: أن يُغْشيَهُما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ لنِعمَتِهما بعقوقِه فيُلْحِقَهُما شرًّا، أو: يَقْرنَ بإيمانِهما طُغيانَه وكفرَه فيجتمعَ في بيتٍ واحدٍ مؤمنانِ وطاغٍ كافرٌ، أو: يُعْدِيَهُما بعِلَّتِه فيرتدَّا بإضلالِه، أو بمُمالأَتِه على طُغيانِه وكفرِه حُبًّا، وإنَّما خَشِيَ ذلك لأنَّ اللهَ أعلَمَهُ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٢٦) عن وهب.

(٢) في نسخة التفتازاني: «إليه».

(٣) في نسخة الخيالي: «جندل».

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وعَن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: أن نَجْدَةَ الحَرُوْرِيَّ كتبَ إليه: كيفَ قتلَهُ وقَد نَهى النَّبيُّ عليه السَّلامُ عن قتلِ الوِلْدانِ؟ فكتبَ إليه: إن عَلِمْتَ مِن حالِ الوِلْدانِ ما علمَهُ عالِمُ موسَى فلكَ أن تقتلَ[1].

وقُرِئَ: (فخاف ربُّك)[2]؛ أي: فكَرِهَ كراهةَ مَن خافَ سوءَ عاقبةٍ، ويجوزُ أن يكونَ قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ حكايةَ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

(٨١) ـ ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾: أن يرزُقَهُما بدلَهُ ولدًا خيرًا منه ﴿زَكَوٰةً﴾: طهارةً مِن الذُّنوبِ والأَخلاقِ الرَّديئةِ ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ رحمةً وعَطْفًا على والديهِ.

قيل: وُلِدَتْ لَهُما جاريَةٌ فتَزوَّجَها نبيٌّ فولَدَتْ نَبيًّا هَدَى اللهُ بِهِ أمَّةً مِن الأُمَمِ[3].

وقرأَ نافِعٌ وأبو عمرٍو: ﴿يُبَدِّلَهُما﴾ بالتَّشديدِ[4].

وابنُ عامرٍ ويَعقوبُ ﴿رُحُمًا﴾ بالتَّثقيل[5]، وانتصابُه على التَّمييزِ، والعامِلُ اسمُ التَّفضيلِ، وكذلكَ ﴿زَكَوٰةً﴾.

---

(١) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٢٥٥٠)، ورواه أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٣٢٩٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨٥٦٣)، وبنحوه مسلم (١٨١٢).

(٢) رواها الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٥٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٨٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه، ونسبت لأبي في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٥٧)، و«تأويل مشكل القرآن» (ص: ١٢١)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٢٧٩٩).

(٣) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٣٤) عن الكلبي. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «فتح الباري» (٨/ ٤٢٢) عن السدي دون قوله: «هدَى الله على يديه أمَّةً من الأمم».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

(٥) أي: بضم الحاء، وكذا قرأ أبو جعفر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٥)، و«النشر» (٢/ ٢١٦).

(٨٢) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ قيل: اسمهما أَصْرَمُ وصُرَيْمٌ، واسمُ المقتولِ حَيْسون[1].

﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ مِن ذَهبٍ وفِضَّةٍ، رُوِيَ ذلك مَرفوعًا[2].

والذمُّ على كنزِهما في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] لِمَن لا يُؤدِّي زَكاتَهُما وما تعلَّقَ بهما من الحُقوقِ[3].

وقيل: من كتبِ العلمِ[4].

وقيل: كانَ لوحًا مِن ذَهبٍ مَكتوبٌ فيه: عَجِبْتُ لِمَن يُؤمِنُ بالقَدَرِ كيفَ يحزَنُ، وعَجِبْتُ لِمَن يُؤمِنُ بالرِّزقِ كيفَ يتعَبُ، وعَجِبتُ لِمَن يُؤمِنُ بالموتِ كيفَ يفرَحُ،

---

(١) كذا في نسخة الفاروقي، وفي هامشها أشار إلى عدة نسخ هي: «جيسور. حيسور. جيسون». وفي نسخة الخيالي: «جيسور»، وفي نسخة التفتازاني: «جيسون»، وفي نسخة الطبلاوي: «خيسون».

(٢) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (١٠/ ٤١٧)، والترمذي (٣١٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٩٧). قال الترمذي: غريب. قلت: فيه يزيد بن يوسف الصنعاني، قال عنه الذهبي: متروك. ورواه البزار في «مسنده» (٤٠٨٢) وقال: إسناده حسن، يزيد بن يوسف ليس به بأس، ومن بعده وقبله ثقات.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٥)، عن عكرمة بلفظ: كنز مال. واختاره على باقي الأقوال.

(٣) أخرجَ الطَّبرانيُّ عَن أبي الدَّرداءِ في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا﴾ قال: أُحِلَّت لهم الكُنوزُ وحُرِّمَت عليهم الغَنائِمُ، وأُحِلَّت لنا الغَنائِمُ وحُرِّمَت علينا الكُنوزُ. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٤): «فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وهو متروك».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٢ ـ ٣٦٤)، عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٣٣٩٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: قد صحت الرواية بضده عن ابن عباس.

وعَجِبْتُ لِمَن يُؤمِنُ بالحساب كيفَ يَغفُلُ، وعَجِبْتُ لِمَن يَعرِفُ الدُّنيا وتَقلُّبَها بأهلِها كيفَ يَطمَئِنُّ إلَيْها، لا إلهَ إلَّا اللهُ مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ[١].

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ تنبيهٌ على أنَّ سَعيَهُ في ذلك كانَ لصَلاحِه.

قيل: كان بينَهُما وبين الأبِ الذي حُفِظَا فيه سبعَةُ آباءٍ[٢]، وكان سَيَّاحًا، واسمهُ كاشَخ.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾؛ أي: الحُلُمَ وكمالَ الرَّأيِ ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: مَرحومَيْنِ مِن ربِّكَ، ويجوزُ أَنْ يكونَ عِلَّةً أو مَصدرًا لـ(أراد)، فإنَّ إرادةَ الخَيرِ رَحمَةٌ.

---

(١) روي مرفوعاً وموقوفاً ومرسلًا:

أما المرفوع: فرواه البزار في «مسنده» (٤٠٦٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٢١)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٣): رواه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما وبقية رجاله ثقات.

وقال ابن كثير عند هذه الآية: بشر بن المنذر هذا يقال له: قاضي المصيصة، قال الحافظ أبو جعفر العقيلي: في حديثه وهم.

ورواه البيهقي في «الزهد» (٥٤٥)، وابن مردويه في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٢١)، من حديث علي رضي الله عنه. وفيه جويبر بن سعيد وهو متروك.

ورواه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦٢) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً. وفيه محمد بن مروان قال الذهبي في «الميزان»: تركوه واتهمه بعضهم بالكذب، وهو صاحب الكلبي.

وأما الموقوف: فرواه ابن عدي في «الكامل»، وابن سمعون في «أماليه» (١٥٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦/ ٤١٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه كثير بن مروان الفلسطيني وشيخه أبين بن سفيان، وهو ضعيفان.

وأما المرسل: فرواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤)، من قول جعفر بن محمد والحسن البصري وعمر مولى غفرة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٣) عن جعفر بن محمد.

وقيل: مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: فعلتُ ما فَعلتُ رحمةً مِن ربِّكَ، ولعلَّ إسنادَ الإرادةِ أوَّلًا إلى نفسِه لأنَّه المباشرُ للتَّعييبِ، وثانيًا إلى اللهِ وإلى نفسِه لأنَّ التَّبديلَ بإهلاكِ الغُلامِ وإيجادِ اللهِ بدلَه، وثالثًا إلى اللهِ وحدَهُ لأنَّه لا مدخلَ له في بُلوغِ الغُلامينِ، أو لأنَّ الأوَّلَ في نَفسِهِ شَرٌّ والثَّالثَ خَيرٌ والثَّانيَ ممتزِجٌ، أو لاختلافِ حالِ العارفِ في الالتفاتِ إلى الوَسائطِ.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾: وما فعلتُ ما رَأيتَه ﴿عَنْ أَمْرِى﴾: عَن رأيي، وإنَّما فَعَلْتُه بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ومَبنَى ذلك على أنَّه متى تعارَضَ ضررانِ يجِبُ تحمُّلُ أهونِهمَا لدَفعِ أَعظَمِهما، وهو أصلٌ ممهَّدٌ[1] غيرَ أنَّ الشَّرائعَ في تَفاصيلِه مُختلفَةٌ.

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾؛ أي: ما لم تَستَطِع، فحذفَ التَّاءَ تخفيفًا.

ومِن فوائدِ هذه القصَّةِ: أنْ لا يُعْجَبَ المرءُ بعلمِهِ، ولا يُبادِرَ إلى إنكارِ ما لا يَستَحسِنُه، فلعلَّ فيه سِرًّا لا يَعرِفُه، وأن يُداوِمَ على التَّعلُّمِ، ويتذلَّلَ للمُعلِّمِ، ويُراعِيَ الأدبَ في المقالِ، وأن ينبِّهَ المُجرمَ على جُرمِهِ، ويَعفُوَ عَنه حتى يتحقَّقَ إصرارُهُ ثمَّ يُهاجِرَ عنه.

(٨٣) ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ يعني: إسكندرَ الرُّوميَّ ملكَ فارس والرُّومِ، وقيل: المشرقِ والمَغربِ، ولذلك سُمِّيَ ذا القَرْنَينِ، أو لأنَّه طافَ قَرْنَي الدُّنيا شرقَها وغَربَها.

وقيل: لأنَّه انقرضَ في أيَّامِه قرنانِ مِن النَّاسِ.

وقيل: كانَ له قَرنانِ؛ أي: ضَفِيرتانِ، وقيل: كان لتاجِهِ قَرنان.

---

(١) قوله: «وهو أصل ممهد»؛ أي: قاعدة ممهدة مبسوطة في الشرع. انظر: «حاشية القونوي» (١٢/ ١٥٤).

ويحتمِلُ أنَّه لُقِّبَ بذلك لشَجاعَتِه كما يقال: (الكبشُ) للشُّجَاعِ، كأنَّه ينطَحُ أقرانَهُ.

واختُلِفَ في نُبوَّتِه مع الاتِّفاقِ على إيمانِه وصَلاحِه.

والسَّائلونَ هُم اليَهودُ سَألوهُ امتِحانًا، أو: مُشرِكُو مَكَّةَ.

﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ خطابٌ للسَّائلينَ، والهاءُ لـذِي القَرنيـنِ، وقيـل: للهِ.

(٨٤ ـ ٨٥) ـ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مَكنَّا له أمرَهُ مِن التَّصرُّفِ فيها كيفَ شاءَ، فحُذِفَ المفعولُ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أرادَه وتوجَّه إليه ﴿سَبَبًا﴾: وُصلةً توصِلُه إليه مِـن العلمِ والقُدرَةِ والآلةِ.

﴿فاتَّبَعَ سَبَبًا﴾؛ أي: فأرادَ بُلوغَ المغربِ فاتَّبعَ سَببًا يُوصِلُه إليه.

وقرأ الكوفيُّون وابنُ عامرٍ بقطعِ الألفِ مخفَّفةَ التاء[1].

(٨٦) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: ذاتِ حَمْأَةٍ، من حَمِئَت البئرُ: إذا صارَتْ ذاتَ حَمْأَةٍ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ: ﴿حامِيَةٍ﴾[2]؛ أي: حارَّةٍ، ولا تَنافِيَ بينَهُما لِجَوازِ أَنْ تكونَ العينُ جامعةً للوَصفينِ.

أو: حَمِئةٍ[3] على أنَّ ياءَها مَقلوبٌ عن الهمزةِ لكسرِ ما قبلَها.

ولعلَّه بلغَ ساحِلَ المُحيطِ فرآها كذلك؛ إذ لم يَكُن في مَطْمَحِ بصرِه غيرُ الماءِ، ولذلك قال: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ ولم يَقُل: كانَتْ تغربُ.

---

(١) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٥)، و«النشر» (٢/ ٣١٤).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

(٣) قوله: «حمئة» معطوف على قوله: «حارة».

وقيـل: إنَّ ابنَ عبَّاسٍ سـمعَ مُعاويةَ يقرَأُ: ﴿حامِيَةٍ﴾ فقـال: ﴿حَمِئَةٍ﴾ فبعثَ مُعاويَةُ إلـى كعـبِ الأحبـارِ: كيـفَ تجِدُ الشَّـمسَ تَغربُ؟ قـال: في مـاءٍ وطينٍ، كذلـك نجدُهُ في التَّـوراةِ(١).

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العَينِ ﴿قَوْمًا﴾ قيـل: كـان لِباسُهُم جلودَ الوَحشِ وطعامُهُم ما لَفَظَهُ البَحرُ، وكانوا كُفَّارًا، فخيَّرَهُ اللهُ بين أَنْ يُعذِّبَهُم أو يَدعُوَهُم إلى الإيمانِ كما حكى بقولِه: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾؛ أي: بالقتلِ علـى كُفرِهِم ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالإرشادِ وتَعليمِ الشَّرائعِ.

وقيل: خَيَّره بينَ القَتلِ والأَسرِ، وسَمَّاهُ إِحسَانًا في مُقابلةِ القتلِ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ قولُه:

(٨٧) ـ ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾؛ أي: فاختارَ الدَّعوةَ، وقال: أَمَّا مَن دَعَوْتُه فظلمَ نفسَهُ بالإصرارِ على كُفرِهِ أو استَمرَّ على ظُلمِهِ الذي هو الشِّركُ فنُعَذِّبُه أنا ومَن مَعِيَ في الدُّنيَا بالقَتلِ، ثمَّ يُعذِّبُه الله في الآخرةِ عَذابًا مُنكَرًا لم يُعهَدْ مِثلُه.

(٨٨) ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وهو ما يَقتضيهِ الإيمانُ ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدَّارينِ ﴿جزاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: فِعْلَتِه الحُسْنى.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧١٤)، وسعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٣٥٦)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٢٦٠)، برواية: «تغرب في ماء وطين».

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧١٠)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٧٥)، برواية «تغرب في ثأط». ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧١٢) برواية: «تغرب في عين سوداء». ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٧٧) برواية: «في عين حارة». ورواه الطحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ٢٥٧)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦٤ ـ ١٦٥)، برواية: «في طينة سوداء».

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ ويَعقوبُ وحَفصٌ: ﴿جَزَآءً﴾ مُنوَّنًا مَنصوبًا على الحالِ[١]؛ أي: فلَهُ المثوبَةُ الحُسنى مَجْزِيًّا بها، أو على المصدَرِ لفعلِهِ المقدَّرِ حَالًا؛ أي: يُجزَى بها جزاءً، أو التَّمييزِ.

وقُرِئَ مَنصُوبًا غيرَ مُنوَّنٍ[٢] على أَنَّ تَنوينَهُ حُذِفَ لالتقاءِ السَّاكِنَين.

ومُنَوَّنًا مرفوعًا[٣] على أنّه المُبتدأُ و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدلُه.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿أَمَّا﴾ و﴿أَمَّا﴾ للتَّقسيمِ دُونَ التَّخييرِ؛ أي: لِيَكُن شأنُكَ مَعهُم إمَّا التَّعذيبُ وإمَّا الإحسانُ، فالأوَّلُ لِمَن أصرَّ على الكُفرِ، والثَّاني لِمَن تابَ عنه.

ونداءُ اللهِ إيَّاه إنْ كانَ نبيًّا فبوحيٍ، وإن كانَ غيرَهُ فبإلهامٍ أو على لسانِ نَبِيٍّ.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾: ممَّا نأمُرُ به ﴿يُسْرًا﴾: سَهْلًا مُتيَسِّرًا غيرَ شاقٍّ، وتَقديرُه: ذا يُسرٍ، وقُرِئَ بضَمَّتينِ[٤].

(٨٩ ـ ٩٠) ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾: ثمَّ أتبعَ طَرِيقًا يُوصِلُه إلى المَشرقِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: الموضِعَ الذي تطلعُ الشَّمسُ عليه أولًا مِن مَعمورَةِ الأَرضِ.

وقُرِئَ بفَتحِ اللامِ[٥] على إضمارِ مُضافٍ؛ أي: مكانَ مَطلَعِ الشَّمسِ، فإنَّه مَصدَرٌ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

(٢) نسبت لابن عباس ومسروق في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٠٦)، ونسبت للضحاك وابن أبي إسحاق. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٤).

(٣) رويت عن شعبة في غير المشهور عنه. انظر: «جامع البيان في القراءات» (٣/ ١٣٢٠ ـ ١٣٢١)، ونسبت لابن أبي إسحاق في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٠٦).

(٤) قرأ بها أبو جعفر حيث وقعت. انظر: «النشر» (٢/ ٢١٦).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٥) عن عيسى وابن محيصن وابن كثير في رواية شبل.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ مِن اللباسِ أو البناءِ، فإنَّ أَرضَهُم لا تمسكُ الأَبنِيَةَ، أو أنَّهم اتَّخَذُوا الأسرابَ بدلَ الأَبنِيَةِ.

(٩١) ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: أمرُ ذي القرنينِ كمَا وَصفْنَاهُ في رِفعَةِ المكانِ وبَسطَةِ المُلكِ.

أو: أمرُهُ فيهِم كأَمرِهِ في أهلِ المَغربِ مِن التَّخييرِ والاختِيارِ.

ويجوزُ أن يكونَ صِفَةَ مَصدرٍ مَحذوفٍ لـ(وَجَد) أو ﴿نَجْعَل﴾، أو صِفَةَ ﴿قَوْمٍ﴾؛ أي: على قومٍ مثلِ ذلك القَبيلِ الذي تغربُ عليهِم الشَّمسُ في الكُفرِ والحكمِ.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ مِن الجُنودِ والآلاتِ والعُددِ والأَسبابِ ﴿خُبْرًا﴾: عِلْمًا تعلَّقَ بظَواهِرِهِ وخَفاياهُ، والمراد: أنَّ كثرةَ ذلك بَلَغَت مَبْلَغًا لا يحيطُ بهِ إلا عِلْمُ اللَّطيفِ الخَبيرِ.

(٩٢ ـ ٩٣) ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يعني: طَرِيقًا ثالثًا مُعتَرِضًا بينَ المَشرقِ والمَغربِ آخِذًا مِن الجَنُوبِ إلى الشِّمالِ.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾: بين الجبلينِ المَبنيِّ بينَهُما سدُّهُ، وهما جَبَلا أَرْمينيةَ وأَذْرَبيجانَ.

وقيل: جبلانِ في أواخرِ الشمالِ في مُنقطَعِ أرضِ التُّركِ مُنيفانِ[1] مِن وَرائِهما يَأجوجُ ومَأجوجُ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ ويَعقوبُ: ﴿بَيْنَ السُّدَّينِ﴾: بالضمِّ[2]، وهما لُغتانِ.

---

(١) كذا في نسخة التفتازاني وعلى هامش نسخة الفاروقي؛ أي: مرتفعان. ووقع في نسخة الفاروقي: «منفيٌّ»، وفي نسخة الخيالي: «منيعان»، وسقطت الكلمة من نسخة الطبلاوي.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٥)، و«النشر» (٢/ ٣١٥).

وقيل: المَضمومُ لِمَا خلقَهُ اللهُ والمَفتوحُ لِمَا عَمِلَهُ النَّاسُ؛ لأنَّه في الأصلِ مَصدَرٌ سُمِّيَ بِهِ حدثٌ يُحْدِثُهُ النَّاسُ، وقيل بالعكسِ.

و﴿بَيْنَ﴾ هاهنا مفعولٌ به، وهو مِن الظُّروفِ المُتصرِّفَةِ.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابَةِ لُغَتِهِم وقِلَّةِ فِطنَتِهِم.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يُفْقِهُونَ﴾[(١)]؛ أي: لا يُفهِمُونَ السَّامعَ كلامَهُم ولا يُبِيْنونَهُ لتَلَعْثُمِهِم فيه.

(٩٤) ـ ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾؛ أي: قال مُترجِمُهُم، وفي مُصحَفِ ابنِ مَسعودٍ: (قالَ الذينَ من دُونهم)[(٢)].

﴿إِنَّ ياجوجَ وماجوجَ﴾ قبيلتانِ مِن ولدِ يافثَ بنِ نوحٍ، وقيل: يأجوجُ مِن التُّركِ، ومَأجوجُ مِن الجِيلِ، وهما اسمانِ أَعجَمِيَّانِ بدَليلِ منعِ الصَّرفِ.

وقيل: عَربيَّانِ مِن أَجَّ الظَّليمُ: إذا أسرعَ، وأَصلهُمَا الهمزُ، كمَا قرأَ عاصِمٌ[(٣)]، ومَنعُ صَرفِهِمَا للتَّعريفِ والتَّأنيثِ.

﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: في أرضِنَا بالقَتلِ والتَّخريبِ وإتلافِ الزُّروعِ، قيل: كانوا يَخرجونَ الرَّبيعَ فلا يَتركونَ أَخْضَرًا إلا أَكلوهُ، ولا يابسًا إلا احتَمَلُوهُ. وقيل: كانوا يأكلونَ النَّاسَ.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾: جُعْلًا نخرجُهُ مِن أَموالِنا.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

(٢) ذكرها الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٢٦٧)، والكرماني في «لباب التفسير» عند هذه الآية، والقسطلاني في «إرشاد الساري» (٥/ ٣٣٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٥).

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿خَراجًا﴾[1]، وكلاهما واحِدٌ كالنَّوْلِ والنَّوالِ.

وقيل: الخراجُ على الأرضِ والذِّمَّةِ، والخَرْجُ المَصدَرُ.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يحجزُ دونَ خُروجِهِم عَلَينَا، وقَد ضمَّهُ مَن ضمَّ ﴿السُّدَّينِ﴾ غيرَ حمزةَ والكِسائيِّ[2].

(٩٥) - ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾: ما جَعَلني فيه مَكِينًا مِن المُلكِ والمالِ خيرٌ ممَّا تَبذلونَ لي مِن الخراجِ ولا حاجةَ لي إليه. وقرأ ابنُ كَثيرٍ: ﴿مَكَّنَني﴾ على الأصلِ[3].

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بقُوَّةِ فَعَلَةٍ، أو: بما أَتقوَّى به مِن الآلاتِ.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾: حاجِزًا حصينًا، وهو أكبرُ مِن السدِّ، مِن قولِهِم: ثَوبٌ مُرَدَّمٌ: إذا كانَ رِقاعٌ فوقَ رِقاعٍ.

(٩٦) - ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾: قِطَعَه، والزُّبْرَةُ: القِطعَةُ الكَبيرَةُ، وهو لا يُنافِي رَدَّ الخَراجِ والاقتصارَ عَلى المَعونَةِ؛ لأنَّ الإيتاءَ بمعنى المُناولَةِ، ويدلُّ عليهِ قِراءَةُ أبي بكرٍ: ﴿رَدْمًا ائتوني﴾ بكسرِ التَّنوينِ مَوصولَةَ الهمزةِ[4] على مَعنى: جِيئُونِي بزُبَرِ الحَديدِ، والباءُ مَحذوفَةٌ حَذْفَها في:

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ..........[5]

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بالضم، وباقي السبعة بالفتح. انظر: «السبعة» (ص: ٣٩٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٦)، وفيه: بكسر التنوين وهمزة ساكنة بعده من باب المجيء وإذا ابتدأ كسر همزة الوصل وأبدل الهمزة الساكنة بعدها ياء.

(٥) قطعة من بيت «الكتاب» الذي تقدم عند تفسير الآية (٦٨) من سورة البقرة، وتمامه:

ولأنَّ إعطاءَ الآلةِ مِن الإعانَةِ بالقُوَّةِ دونَ الخَراجِ على العملِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾: بين جانِبَي الجَبَلينِ بتَنضيدِها. وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وابنُ عامرٍ والبَصريَّانِ بضَمَّتينِ، وأبو بكرٍ بضمِّ الصَّادِ وسُكونِ الدَّالِ(١).

وقُرِئَ بفَتحِ الصَّادِ وضَمِّ الدَّالِ(٢)، وكلُّهَا لُغَاتٌ مِن الصَّدْفِ، وهو المَيلُ؛ لأنَّ كُلًّا مِنهما مُنعَزِلٌ عَن الآخرِ، ومِنه: التَّصادُفُ، للتَّقابُلِ.

﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾؛ أي: قال للعَمَلَةِ: انفُخُوا في الأَكْوارِ والحَديدِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾: جعلَ المنفوخَ فيهِ ﴿نَارًا﴾: كالنَّارِ بالإحماءِ ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾؛ أي: آتُوني قطرًا ـ أي: نحاسًا مُذابًا ـ أفرغْ عليهِ قِطْرًا، فحُذِفَ الأوَّلُ لدَلالَةِ الثَّاني عليه، وبه تمسَّكَ البَصريُّونَ على أنَّ إعمالَ الثَّاني مِن العامِلَينِ المُتوجِّهَينِ نحو معمولٍ واحدٍ أَوْلَى؛ إِذْ لَوْ كانَ ﴿قِطْرًا﴾ مَفعولَ ﴿ءَاتُونِيٓ﴾ لأُضمِرَ مَفعولُ ﴿أُفْرِغْ﴾ حذرًا من الإلباسِ.

وقرَأَ حمزَةُ وأبو بَكرٍ: ﴿قَالَ ائْتُونِي﴾ مَوصولةَ الألفِ(٣).

(٩٧) ـ ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ بحذفِ التَّاءِ حَذَرًا مِن تَلاقِي مُتقارِبَيْنِ، وقرَأَ حمزَةُ بالإدغامِ(٤) جامِعًا بينَ ساكِنَينِ على غيرِ حَدِّهِ، وقُرِئَ بقلبِ السِّينِ صادًا(٥).

= أمرتك الخير فافعل ما أمرت به ... فقد تركتك ذا مال وذا نشب

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠١)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٤)، و«شواذ القراءات» (ص: ٢٩٤) عن الماجشون. والماجشون هو عبد الملك بن عبد العزيز من رجال «التهذيب».

(٣) وهي عن أبي بكر بخلف عنه، والوجه الثاني له بالمد كالباقين. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠١)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠١)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

(٥) ذكرها الداني في «جامع البيان في القراءات» (٢/ ٩١٥) و(٣/ ١٣٢٧) رواية عن قالون وورش، و(٣/ ١٠٢٤) رواية عن أبي بكر، وانظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٥٠٧).

﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾: أن يَعْلُوه بالصُّعودِ لارتفاعِهِ وانمِلاسِه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لثخنِه وصَلابتِه.

قيل: حفرَ للأساسِ حتَّى بلغَ الماءَ، وجعَلَهُ مِن الصَّخرِ والنُّحاسِ المُذابِ والبُنيانَ مِن زُبرِ الحَديدِ بينَها الحَطبُ والفَحمُ حتَّى ساوَى أَعْلَى الجَبلينِ[1]، ثمَّ وضعَ المَنافيخَ حتَّى صارَتْ كالنَّارِ، فصبَّ النُّحاسَ المُذابَ عليها فاختلطَ والتَصقَ بعضُهُ ببَعضٍ وصارَ جَبلًا صَلْدًا.

وقيل: بناهُ مِن الصُّخورِ مُرتَبِطًا بعضُها ببعضٍ بكَلاليبَ مِن حديدٍ ونُحاسٍ مُذابٍ في تَجاويفِهَا.

(٩٨) ـ ﴿قَالَ هَٰذَا﴾: هذا السَّدُّ، أو الإقدارُ على تَسوِيَته ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ على عِبادِه ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾: وقتُ وَعدِه بخُروجِ يأجوجَ ومَأجوجَ، أو بقيامِ السَّاعةِ بأَنْ شارفَ يومُ القيامَةِ ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾: مَدكوكًا مَبْسوطًا مُسوًّى بالأَرضِ، مصدرٌ بمَعنى مفعولٍ، ومنه: جَمَلٌ أَدَكُّ، لمُنبسِطِ السنامِ.

وقرأ الكُوفِّيونَ: ﴿دَكَّآءَ﴾ بالمدِ[2]؛ أي: أرضًا مُستويَةً.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾: كائنًا لا محالةَ، وهو آخرُ قولِ ذي القَرنينِ.

(٩٩ ـ ١٠٠) ـ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾: وجعَلْنَا بعضَ يأجوجَ ومَأجوجَ حينَ يَخرجونَ ممَّا وراءَ السدِّ يَموجونَ في بَعضٍ مُزدَحمينَ في البلادِ.

---

(١) قوله: «وجعله»؛ أي: الأساس، و«البنيانَ» بالنصب عطفٌ على ضمير «جعله»، ووضع الحطب والفحم بين زبر البنيان لتوقدَ فتذوب الزبر فتلتحم بما تحتها، لا أن الفحم يبقى في البناء كما يوهمه ظاهر العبارة، وقوله: «ساوى أعلى الجبلين»؛ أي: بلغه، وقوله: «بينها»؛ أي: الزبر، وفي نسخة: «بينهما»؛ أي: بين الأساس والبنيان. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

أو يموجُ بعضُ الخَلقِ في بَعضٍ فيَضطَرِبُونَ ويَختَلِطُونَ إنسُهُم وجنُّهُم حَيارَى، ويؤيِّدُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيامِ السَّاعةِ ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعًا﴾ للحسابِ والجَزاءِ ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾: وأبرزناهَا وأَظهرنَاها لَهُم ﴿عَرۡضًا﴾.

(١٠١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾: عَن آياتي التي يُنظَرُ إليها فأُذكَرُ بالتَّوحيدِ والتَّعظيمِ ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾: استماعًا لذِكْرِي وكَلامِي لإفراطِ صَمَمِهِم عَن الحقِّ، فإنَّ الأَصَمَّ قَد يَستطيعُ السَّمْعَ إذا صِيحَ به، وهؤلاء كأنَّهُم أُصْمِتَتْ[١] مَسامِعُهُم بالكُلِّيَّةِ.

(١٠٢) ـ ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: أفظَنُّوا ـ والاستفهامُ للإنكارِ ـ ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي﴾ اتِّخاذَهُم الملائكةَ والمَسيحَ ﴿مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ مَعبودِينَ= نافِعَهُم، أو: لا أُعذِّبُهُم به، فحُذِفَ المفعولُ الثَّاني كمَا يُحذَفُ الخَبرُ للقَرينَةِ، أو سدَّ ﴿أَن يَتَّخِذُواْ﴾ مَسدَّ مَفعولَيْهِ[٢].

وقرِئ: (أفَحَسْبُ الذين كفَرُوا)[٣]؛ أي: أفَكافِيْهِم في النَّجاةِ، و﴿أَن﴾ بما في حَيِّزِه مُرتَفِعٌ بأنَّه فاعِلُ (حَسْبُ)، فإنَّ النَّعتَ إذا اعتمدَ على الهمزةِ ساوَى الفعلَ في العَملِ، أو خبرٌ له.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا﴾: ما يقامُ للنَّزيلِ، وفيهِ تَهَكُّمٌ وتَنبيهٌ على أنَّ لَهُم وراءَها مِن العَذابِ ما تُستحقَرُ دونَه.

---

(١) أي: أُطبقت.

(٢) قوله: «أو سدّ أن يتخذوا..» وعليه فالمعنى: أحسبوا أنفسهم متخذي أولياء غيري؛ أي: لا ينبغي مثل هذا، قيل: وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ بمعنى: أنصاراً، ولا وجه للتخصيص به. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٥)، و«المحتسب» (٢/ ٣٤) عن علي وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وغيرهم.

(١٠٣) ـ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ نصبٌ على التَّمييزِ، وجُمِعَ لأنَّه مِن أسماءِ الفَاعلينَ، أو لتنوُّعِ أعمالِهِم.

(١٠٤) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: ضاعَ وبطلَ لكُفرِهم وعُجبِهِم؛ كالرَّهابِنَةِ فإنَّهُم خَسِرُوا دُنيَاهُم وأُخرَاهُم، ومَحلُّه الرَّفعُ على الخبرِ المحذوفِ؛ فإنَّه جَوابُ السُّؤالِ، أو الجرُّ على البَدلِ، أو النَّصبُ على الذمِّ.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ لعُجْبِهِم واعتقادِهِم أنَّهُم على الحقِّ.

(١٠٥) ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: بالقرآنِ، أو بدَلائلِهِ المَنصوبَةِ على التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبَعثِ على ما هو عليهِ، أو لقاءِ عَذابِه.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بكُفرِهم فلا يُثابونَ عليها ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾: فنَزْدَرِي بِهِمْ ولا نجعلُ لَهُم مِقْدارًا واعتبارًا، أو: فلا نَضَعُ لهم ميزانًا يوزَنُ به أعمالُهُم لانحِباطِها.

(١٠٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾: الأمرُ ذلك، وقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جُملَةٌ مبيِّنَةٌ له.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتدأً والجملةُ خبرَهُ والعائدُ مَحذوفٌ؛ أي: جزاؤُهُم بهِ، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بدلَه و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبرَه، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ خبرَه و﴿جَهَنَّمُ﴾ عطفَ بَيانٍ للخَبرِ.

﴿بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾؛ أي: بسببِ ذلك.

(١٠٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ فيما سبقَ مِن حُكمِ اللهِ ووَعدِه، والفِردَوْسُ: أعلى دَرجاتِ الجنَّةِ، وأصلُه: البُستانُ الذي يجمَعُ الكَرْمَ والنَّخلَ.

(١٠٨) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ مُقدَّرَةٌ ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾: تَحوُّلًا؛ إذ لا يجدونَ أطيبَ مِنْها حتى تُنازِعَهُم إليه أنفُسُهُم، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بِهِ تأكيدُ الخُلودِ.

(١٠٩) ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا﴾: ما يُكتَبُ به، وهو اسمُ ما يُمدُّ به الشَّيءُ كالحبرِ للدَّواةِ والسَّليطِ للسِّراجِ.

﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾: لكلماتِ علمِهِ وحِكمَتِه.

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾: لنَفِدَ جنسُ البَحرِ بأَسرِهِ؛ لأنَّ كلَّ جِسمٍ مُتناهٍ.

﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ فإنَّها غيرُ مُتناهيَةٍ لا تَنْفَدُ كعلمِهِ.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾: بمثلِ البَحرِ المَوجودِ ﴿مَدَدًا﴾: زيادةً ومَعونَةً؛ لأنَّ مَجموعَ المتناهيَيْنِ مُتناهٍ، بل مجموعُ ما يدخلُ في الوُجودِ مِن الأَجسامِ لا يكونُ إلا مُتناهِيًا؛ للدَّلائلِ القاطعَةِ على تَناهي الأَبعادِ، والمُتناهي ينفدُ قبلَ أَنْ ينفدَ غيرُ المُتناهي لا محالةَ.

وقُرِئَ: ﴿يَنْفَدَ﴾ بالياءِ[١]، و: (مِدَدًا) بكسرِ الميمِ[٢] جمعُ مِدَّةٍ، وهي ما يَستَمِدُّهُ الكاتِبُ، و: (مِدادًا)[٣].

وسببُ نُزولِها: أنَّ اليَهودَ قالوا: في كتابِكُم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وتقرؤونَ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥][٤].

---

(١) هي قراءة حمزة والكسائي، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٢)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٥)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٦) عن الأعرج.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٥)، و«المحتسب» (٢/ ٣٥)، عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد والأعمش وغيرهم.

(٤) انظر: «تفسير أبي الليث السمرقندي» (٢/ ٣٦٥)، و«تفسير الثعلبي» (١٧/ ٣٠٥)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٢٩٨)، و«البسيط» له (١٤/ ١٧٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢١٢)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٦). وعزاه بعضهم لابن عباس رضي الله عنهما. =

(١١٠) ـ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ لا أَدَّعي الإِحاطةَ على كَلِمَاتِه ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ وإنَّما تَميَّزْتُ عَنْكُم بذلك.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: يأمُلُ حسنَ لِقائِه ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ يَرتَضيهِ اللهُ له ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ بأَنْ يُرائِيَهُ أو يطلُبَ مِنهُ أَجْرًا.

رُوِيَ أنَّ جُندبَ بنَ زُهيرٍ قالَ لرَسولِ اللهِ ﷺ: إنِّي لأَعمَلُ العمَلَ للهِ، فإذَا اطُّلِعَ عليهِ سَرَّنِي فقال: «إنَّ اللهَ لا يقبَلُ ما شُورِكَ فيهِ» فنزلَتْ تَصديقًا له[1].

وعنه علـيه السَّلامُ: «اتَّقُوا الشِّركَ الأصغَرَ» قالوا: وما الشِّركُ الأَصْغَرُ؟ قال: «الرِّياءُ»[2].

= ورواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٦٨) عن عكرمة لكن في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

(١) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣١٣): (غريب، وذكره الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس رضي الله عنهما). قلت: هو في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٢).
ورواه بنحوه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١٥٩١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١/ ٣٠٤)، من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ومحمد بن مروان كذاب، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٢) رواه قوام السنة الأصفهاني في «الترغيب والترهيب» (١٢٠)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وروى نحوه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٣٦٣٠) و(٢٣٦٣٦) من حديث محمود بن لبيد بلفظ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء».
وروى نحوه البزار في «مسنده» (٣٤٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٧٩٣٧) وصححه، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

والآيةُ جامِعَةٌ لخُلَاصَتَي العلمِ والعَمَلِ، وهمَا: التَّوحيدُ، والإخلاصُ في الطَّاعةِ.

وعَن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأ عند مَضْجعه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كانَ له نورًا في مَضجعِهِ يَتلَأْلَأُ إلى مَكَّةَ، حشوُ ذلكَ النُّورِ مَلائكةٌ يُصلُّونَ عليهِ حتَّى يَستَيقِظَ، فإنْ كان مضجعُه بمَكَّةَ فإنَّ له نورًا يتلأْلَأُ مِن مضجعهِ إلى البَيتِ المَعمورِ حَشْوُ ذلك النُّورِ ملائكَةٌ يُصلُّونَ عليهِ حتَّى يَستيقِظَ»(١).

وعنه عليه السَّلامُ: «مَن قرأَ سُورَةَ الكَهفِ مِن آخرِهَا كانَتْ لَهُ نُورًا مِن قَرنِه إلى قَدَمِه، ومَن قرأَهَا كُلَّها كانَتْ لَه نورًا مِن الأَرضِ إلى السَّماءِ»(٢)(٣).

---

(١) رواه من حديث أبيٍّ رضي الله عنه المستغفري في «فضائل القرآن» (٨٢٩). وروى نحوه إسحاق بن راهويه كما في «المطالب العالية» (٣٦٥٤)، والبزار في «مسنده» (٢٩٧)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣١٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٠٣)، جميعهم من طريق النضر بن شميل، حدثني أبو قرة الأسدي، قال: سمعت سعيد بن المسيب، يحدث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن قرأ في ليلةٍ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] كان له نورٌ من عدن أبين إلى مكة حشوه الملائكة». قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بقوله: أبو قرة فيه جهالة ولم يضعف. وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٢٩٤): رواه البزار ورواته ثقات، إلا أن أبا قرة الأسدي لم يرو عنه فيما أعلم غير النضر بن شميل.

(٢) رواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٧٧) من حديثِ مُعاذ بن أنسٍ الجُهنيِّ. ورواه الإمام أحمد في «المسند» (١٥٦٢٦) من طريق ابن لَهيعةَ، حدَّثنا زَبَّانُ، عن سهل بن مُعاذٍ، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن قرأ أولَ سورة الكهف وآخِرها كانت له نورًا من قدمه إلى رأسه...»، الحديث. ورواه الطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٩٧) من طريق رشدين بن سعد، عن زبَّان، به. وإسناده ضعيف لضعف زَبَّان بن فائد، وكذا سهل بن معاذ في رواية زَبَّان عنه، وابن لهيعة ورشدين ضعيفان، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٢)، وقال: رواه أحمد والطبراني، وفي إسناد أحمد ابنُ لهيعة، وهو ضعيف، وقد يُحسَّن حديثه.

(٣) **جاء بعده في نسخة العلامة الخيالي بخطه: «الحمد لله ولي الإنعام على حالتي الختم والإتمام، واتفق ذلك صبيحة يوم السبت من شهر ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثمان مئة هجرية، يتلوه المجلد الأخير من سورة كهيعص إلى الآخر».**

(١٨) سورة الكهف مكية وآياتها عشر ومائة

« ذكر ما ورد في فضلها وأنها عصمة من الدجـال »

عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال »[١] ، **طريق أخرى** : قال الإمام أحمد، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال ». ورواه مسلم أيضاً والنسائي، وفي لفظ النسائي: « من قرأ عشر آيات من الكهف » فذكره. **حديث آخر** : عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال »[٢]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قد تقدم في أول التفسير ، أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة، عند فواتح الأمور وخواتمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم، محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم بـه من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، واضحاً بيناً جلياً، نذيراً للكافرين بشيراً للمؤمنين، ولهذا قال: ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتـدلاً مستقيماً، ولهذا قال: ﴿ قيماً ﴾ أي مستقيماً، ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ أي لمن خالفه وكذبه، ولم يؤمن بـه، ينذره بأساً

---

(١) رواه مسلم وأبوداود والنسائي والترمذي .

(٢) أخرجه النسائي في سننه .

شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا، وآجلة في الأخرى، ﴿ من لدنه ﴾ أي من عند الله، ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ أي بهذا القرآن، الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ أي مثوبة عند الله جميلة، ﴿ ماكثين فيه ﴾ في ثوابهم عندالله، وهو الجنة، خالدين فيه ﴿ أبداً ﴾ دائماً، لا زوال له ولا انقضاء، وقوله: ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب، في قولهم نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله ﴿ ما لهم به من علم ﴾، أي بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه، ﴿ ولا لآبائهم ﴾ أي لأسلافهم، ﴿ كبرت كلمة ﴾ كبرت كلمتهم هذه، وفي هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم. ولهذا قال: ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال: ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش (النضر ابن الحارث) و (عقبة بن أبي معيط) إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور؛ فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ! أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول ﷺ : « أخبركم غداً عما سألتم عنه »، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عزّ وجلّ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من خبر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عزّ وجلّ ﴿ ويسألونك عن الروح ؟ قل الروح ﴾ الآية .

فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ ، وقال: ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ ، وقال: ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ ، باخع : أي مهلك نفسك بحزنك عليهم، ولهذا قال: ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم

إن لم يؤمنوا بهذا الحديث﴾[1] يعني القرآن، ﴿أسفاً﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفاً، قال قتادة: قاتلٌ نفسك غضباً وحزناً عليهم. وقال مجاهد: جزعاً، والمعنى متقارب أي: لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾. عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وذهابها، وخرابها، فقال تعالى: ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ أي وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكاً ﴿صعيداً جرزاً﴾ لا ينبت ولا ينتفع به، كما قال ابن عباس: يهلك كل شيء عليها ويبيد، وقال مجاهد ﴿صعيداً جرزاً﴾ بلقعاً. وقال قتادة: الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. وقال ابن زيد: الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ ؟

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف ﴿أم حسبت﴾ يعني يا محمد ﴿أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ أي ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا فإن خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء– أعجب من أخبار أصحاب الكهف، كما قال مجاهد: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك، وقال ابن عباس: الذي آتيتك من العلم والسنّة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وأما الكهف: فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون، وأما الرقيم: فقال ابن عباس: هو واد قريب من أيلة. وقال الضحّاك: أما الكهف فهو غار الوادي، والرقيم اسم الوادي، وقال مجاهد: الرقيم كتاب بنيانهم، ويقول بعضهم هو الوادي الذي فيه كهفهم. وقال ابن عباس: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف. وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب، ثم قرأ ﴿كتاب مرقوم﴾ وهذا هو الظاهر من الآية وهو اختيار ابن جرير، قال الرقيم فعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول قتيل وللمجروح جريح، والله أعلم.

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس، قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وأبوجهل بن هشام في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ=

وقوله تعالى : ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه فهربوا منهم فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم : ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ، ﴿ وهيئ لنا من أمرنا رشداً ﴾ أي اجعل عاقبتنا رشداً ، كما جاء في الحديث : « وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً » . وفي المسند عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو : « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » ، وقوله : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴾ أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة ﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله ، ولهذا قال : ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين ﴾ أي المختلفين فيهم ﴿ أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ قيل : عدداً ، وقيل : غاية .

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب ، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً . وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل ، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقال مجاهد : بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة ، يعني الحلق ، فألهمهم الله رشدهم ، وآتاهم تقواهم فآمنوا بربهم ، أي اعترفوا له بالوحدانية وشهدوا أنه لا إله إلا هو ، ﴿ وزدناهم هدى ﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها على زيادة الإيمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ ، كما قال : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ ، وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض ﴾ يقول تعالى : وصبرناهم على مخالفة قومهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم ، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون في ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها ، وكان لها ملك جبار عنيد يقال له (دقيانوس) وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه ، فلما خرج الناس لمجتمعهم

= قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من الفضيلة ، فأحزنه حزناً شديداً ، فأنزل الله : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ﴾ الآية .

ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لهـا لا ينبغي إلا لله الذي خلق السماوات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز عنهم، واتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عزّ وجلّ، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً﴾ و «لن» لنفي التأبيد: أي لا يقع منا هذا أبداً لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال عنهم: ﴿لقد قلنا إذاً شططاً﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً، ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً، ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾، يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال إن ملكهم تهددهم وتوعـدهم وأمر بنزع لباسهم عنهم وأجّلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في النـاس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه كما جاء في الحديث: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بهـا شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»[1]، ففي هذه الحال تشرع العزلة عن النـاس ولا تشرع فيما عداها، لمـا يفوت بهـا من ترك الجماعات والجمع، فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله﴾: أي وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته﴾: أي يبسط عليكم رحمة يستركم بهـا من قومكم ﴿ويهيئ لكم من أمركم﴾ الذي أنتم فيه، ﴿مرفقاً﴾ أي أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف، فأووا إليه ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك، فيقال إنه لم يظفر بهم، وعمّى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيّه محمد ﷺ وصاحبه الصدّيق حين لجـآ إلى (غار ثور).

۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

أخبر تعالى أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذات اليمين﴾، قال ابن عباس ﴿تزاور﴾: أي تميل، وذلك أنهـا كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منـه شيء عند الزوال في مثـل ذلك المكان، ولهذا قال: ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابـه وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمـر والكواكب. وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لمـا دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما

(١) الحديث: أخرجه البخاري وأبو داود عن أبي سعيد.

دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه ولله الحمد. وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿تقرضهم﴾ تتركهم، وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فقد قال ﷺ: «ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به». فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه فقال: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم﴾، قال مالك: تميل، ﴿ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه﴾ أي في متسع منه داخلاً، بحيث لا تصيبهم، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس، ﴿ذلك من آيات الله﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك من آيات الله﴾ ثم قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

ذكر أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى، وقوله تعالى: ﴿ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾، قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين، قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض، وقوله: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ الوصيد الفناء، وقال ابن عباس: بالباب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم، كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما ورد في الصحيح، ولا صورة ولا جنب، وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صحبة الأخيار فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن، وقوله تعالى: ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾ أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

۞ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم، وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئاً، وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم ﴿كم لبثتم﴾؟ أي كم رقدتم؟ ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار، ولهذا استدركوا فقالوا:

﴿أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ أي أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم﴾ أي فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلهذا قالوا ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها ﴿فلينظر أيها أزكى طعاماً﴾ أي أطيب طعاماً، كقوله: ﴿ما زكى منكم من أحد أبداً﴾، وقوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾، ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره. وقوله ﴿وليتلطف﴾ أي في خروجه وإيابه، يقولون وليختف كل ما يقدر عليه، ﴿ولا يشعرن﴾ أي ولا يعلمن ﴿بكم أحداً ۝ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم﴾ أي إن علموا بمكانكم ﴿يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونكم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوكم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتموهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾ .

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾: أي أطلعنا عليهم الناس ﴿ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ ذكر غير واحد من السلف، أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك، وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكّر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه، ويقول إن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم، ويقولون لعل هذا وجد كنزاً، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة، لعله وجدها من كنز، وممن أنت؟ فجعل يقول أنا من أهل هذه البلدة، وعهدي بها عشية أمس، وفيها دقيانوس فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم، فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف – ملك البلد وأهلها – حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال لهم دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال: بل دخلوا عليهم ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه يندوسيس، ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله عزّوجلّ، فالله أعلم. وقوله ﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾: أي كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ أي في أمر

القيامة، فن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم﴾ أي سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً﴾. حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين (أحدهما): أنهم المسلمون منهم، و (الثاني): أهل الشرك منهم، فالله أعلم.

سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، ولما ضعف القولين الأولين[1] بقوله ﴿رجماً بالغيب﴾ أي قولاً بلا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد. ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله ﴿وثامنهم كلبهم﴾، فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر، وقوله: ﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا بـه وإلا وقفنا، وقوله ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾: أي من الناس. قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عزّ وجلّ، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جرير عن عطاء أنه كان يقول: عدتهم سبعة. فكانوا ليلهم ونهارهم في عبادة الله، يبكون ويستغيثون بالله. قال تعالى: ﴿فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً﴾ أي سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾: أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد إلى مشيئة الله عزّ وجلّ علام الغيوم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان ابن داود عليهما السلام لأطوفن الليلة على سبعين امرأة – وفي رواية مائة امرأة – تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له – وفي رواية قال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ – والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته». وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون». وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول

(١) القائلون بالثلاثة: اليهود، والقائلون بالخمسة: النصارى، كما ذكره السُّدي.

النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيبكم»، فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقوله ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾: قيل معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له(١)، وقال ابن عباس في الرجل يحلف، له أن يستثني ولو إلى سنة، وكان يقول ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ ذلك، ومعنى قول ابن عباس أنه يستثنى ولو بعد سنة أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسنة الاستثناء، حتى ولو كان بعد الحنث. قاله ابن جرير رحمه الله ونص على ذلك، لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة، وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم. وقال عكرمة ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾: إذا غضبت. وقال الطبراني، عن ابن عباس في قوله ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ أن تقول إن شاء الله. وروى الطبراني أيضاً عنه استثن إذا ذكرت، وقال هي خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثني إلا في صلة من يمينه، ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى، لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكرُ الله تعالى سبب للذكر، ولهذا قال ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾. وقوله: ﴿وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك.

وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ، بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله، أعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية. وهي ثلثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلثمائة وازدادوا تسعاً، وقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا ﴿الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو، ومن أطلعه عليه من خلقه(٢). وقوله ﴿أبصر به وأسمع﴾ أي إنه لبصير بهم سميع لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روي عن قتادة في قوله ﴿أبصر به وأسمع﴾: فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقوله ﴿ما لهم

---

(١) قاله أبو العالية والحسن البصري.

(٢) هذا قول جمهور المفسرين من السلف والخلف، وقال قتادة في قوله: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين﴾ أنه قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿الله أعلم بما لبثوا﴾، والظاهر أنه إخبار من الله لا حكاية عنهم كما قال ابن جرير.

من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير، ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى النـاس، ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل، وقوله ﴿ولن تجـد من دونه ملتحداً﴾ قال مجاهد: ﴿ملتحداً﴾ ملجأ، وعن قتادة: ولياً ولا مولى، قال ابن جرير: يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾، وقوله: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويحمدونـه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشياً، من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية. عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾(١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم، قـد بدلت سيئاتكم حسنات»(٢). وقال الطبراني، عن عبدالرحمن بن سهل بن حنيف، قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ الآية، فخرج يلتمسهم فوجد قومـاً يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم»، وقوله: ﴿ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة، ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي شغل عن الدين وعبادة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

ربه بالدنيا، ﴿وكان أمره فرطاً﴾ أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾.

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل يا محمد للناس هذا الذي جئتكم بـه من ربكم، هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إنا اعتدنا﴾ أي أرصدنا ﴿للظالمين﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ناراً أحـاط بهم سرادقها﴾ أي سورها، وعن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة»[١]. وقال ابن عباس ﴿أحاط بهم سرادقها﴾ قال: حائط من نار، وقوله: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الآية، قال ابن عباس: المهل الماء الغليظ ، مثل دردي الزيت، وقال مجاهد: هو كالدم والقيح، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره، وقال الضحّاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار، ولهذا قال ﴿يشوي الوجوه﴾: أي من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه، حتى تسقط جلدة وجهه فيه، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء كالمهل، قال: كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه»[٢]. وعن النبي ﷺ في قوله ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا قرب منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه، يقول الله تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بمـاء كالمهـل يشوي الوجوه بئس الشراب﴾[٣]. وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم، فيأكلون منها فاجتثت جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بمـاء كالمهل، وهو الذي قـد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قـد سقطت عنها الجلود، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بئس الشراب﴾ أي بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم﴾، وقال تعالى: ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي حارة، كما قال تعالى: ﴿وبين حميم آن﴾ ﴿وساءت مرتفقاً﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قـال في الآية الأخرى ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾.

* إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي في صفة النار وابن جرير في تفسيره.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي.

(٣) أخرجه عبدالله بن المبارك عن أبي أمامة مرفوعاً.

مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا بـه وعملوا بمـا أمروهم بـه من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن، والعدن الإقامة ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم، قـال فرعون ﴿ وهذه الأنهـار تجري من تحتي ﴾ الآية. ﴿ يحلون ﴾ أي من الحلية ﴿ فيهـا من أساور من ذهب ﴾ وقال في المكان الآخر ﴿ ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفصّله ههنا فقال ﴿ ويلبسون ثيـاباً خضراً من سندس وإستبرق ﴾ فالسندس ثياب رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج، وفيه بريق. وقوله: ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس، وهو أشبه بالمراد ههنا – ومنه الحديث الصحيح: « أما أنا فلا آكل متكئاً » ، والأرائك جمع أريكة وهي السرير تحت الحجلة ، عن قتادة ﴿ على الأرائك ﴾ قال: هي الحجال، وقال غيره: السرر في الحجال، وقوله ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾: أي الجنة ثواباً على أعمالهم، ﴿ وحسنت مرتفقاً ﴾ أي حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿ بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾، وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿ خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ .

* وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين، المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة[1]. ولهذا قال :

(١) نقل السهيلي : عن محمد بن الحسن المقري : اسم الخيِّر من الرجلين (تمليخا) واسم الآخر (فوطيس) وأنهمـا كـانا شريكين، ثم اقتسما المال، فصار لكل واحـد منهما ثلاثة آلاف دينار ، فاشترى المؤمن منهما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثياباً وكسا العراة، وبالألف الثالثة طعامـاً وأطعم الجياع، وبنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً – وأما الآخر : فنكح بماله نساء ذات يسار ، واشترى دواب وبقراً فاستنتجها فنمت له نمـاء مفرطـاً ، واتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى . وأدركت الأول الحاجة فأراد أن يستأجر نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت إلى شريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح لي، فجاء فلم يكد يصل إليه من غلظ الحجاب ، فلما دخل عليه وعرفه سأله =

﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ أي أخرجت ثمرها ﴿ ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي لم تنقص منه شيئاً ﴿ وفجرنا خلالهما نهراً﴾ أي والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا ﴿ وكان له ثمر ﴾ قيل، المراد به المال، وقيل: الثمار، وهو أظهر ههنا، ﴿ فقال﴾ أي صاحب هاتين الجنتين ﴿ لصاحبه وهو يحاوره﴾ أي يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ أي أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال، وعزة النفر. وقوله: ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ أي بكفره وتمرده وتجبره وإنكاره المعاد، ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي كائنة، ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾، وقال ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً ﴾ .

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب﴾، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ الآية، أي كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، ولهذا قال المؤمن ﴿ لكنَّ هو الله ربي﴾: أي لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿ ولا أشرك بربي أحداً﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل

= حاجته، قال: ألم أكن قاسمتك المال شطرين، فما صنعت بمالك؟ قال: اشتريت به من الله، ما هو خير منه وأبقى. قال: أئنك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة، وما أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان. أو ما ترى ما صنعت أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن المال؟ وذلك أني كسبت وسفهت أنت، أخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله في القرآن من الإحاطة بثمرها وذهابها أصلاً. وفي عجائب الكرماني، قيل: كانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن اسمه (تمليخا) وقيل: (يهوذا)، والآخر كافر اسمه (نطروس) وهما المذكوران في سورة الصافات ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين ● يقول أئنك لمن المصدقين﴾ الآية.

منك مالاً وولداً﴾، هذا تحضيض وحث على ذلك، أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي فيه حديث مرفوع عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت»(١). وكان يتأول هذه الآية: ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾، وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله».

وقال أبو هريرة، قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟» قال، قلت: فداك أبي وأمي، قال: «أن تقول لا قوة إلا بالله». قال أبو بلخ وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول أسلم عبدي واستسلم»(٢). وقوله: ﴿فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿ويرسل عليها﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿حسباناً من السماء﴾، قال ابن عباس والضحّاك: أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها، ولهذا قال: ﴿فتصبح صعيداً زلقاً﴾، أي بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجرز الذي لا ينبت شيئاً، وقوله ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي غائراً في الأرض وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض. فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾: أي جار وسائح، وقال ههنا: ﴿أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً﴾، والغور مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه كما قال الشاعر:

تظل جياده نوحاً عليه تقلده أعنتها صفوفاً

بمعنى نائحات عليه.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى: ﴿وأحيط بثمره﴾ بأمواله وبثماره ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن، من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وألهته عن الله عزّ وجلّ، ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾، وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً * ولم تكن له فئة﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك الولاية لله الحق﴾ أي الموالاة لله، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فلما

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي. (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا بـه مشركين﴾. وكقوله إخباراً عن فرعون ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إلّه إلا الذي آمنت بـه بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾، ومنهم من كسر الواو من ﴿الوِلاية﴾ أي هنالك الحكم لله الحق، كقوله: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ الآية. ولهذا قال تعالى ﴿هو خـير ثواباً﴾: أي جزاء ﴿وخير عقباً﴾ أي الأعمال التي تكون لله عزّ وجلّ ثوابهـا خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى: ﴿واضرب﴾ يا محمد للنـاس ﴿مثل الحياة الدنيا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها، ﴿كماء أنزلناه من السماء فاختلط بـه نبات الأرض﴾ أي ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور، والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿أصبح هشيماً﴾ يابساً ﴿تذروه الرياح﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ أي هو قـادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إنمـا مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل النـاس والأنعام﴾ الآية، وقال في سورة الحديد: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾ الآية. وفي الحديث الصحيح: «الدنيا خضرة حلوة». وقوله: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ كقوله: ﴿زين للنـاس حب الشهوات من النساء والبنـين والقناطير المقنطرة من الذهب﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿إنمـا أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾: أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾، قال ابن عباس وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وقال ابن عباس: ﴿الباقيـات الصالحات﴾: سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن ﴿الباقيات الصالحات﴾ ما هي؟ فقال: هي لا إلّه إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وروي عن سعيد بن المسيب قال: الباقيـات الصالحـات (سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله) وقال محمد بن عجلان عن عمارة قـال: سألني سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات، فقلت: الصلاة والصيام، فقال: لم تصب، فقلت: الزكاة والحج، فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إلّه إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله والحمد لله ولا إلّه إلا الله والله أكبر هنّ الباقيات الصالحات»[1]. وفي الحديث: «أما إنه سيكون بعدي أمراء

---

(١) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة.

يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، ألا و إن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر من الباقيات الصالحات »[١] وقال ابن عباس قوله ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ قال: هي ذكر الله ، قول : لا إله إلا الله، والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات ، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض، وعنه: هي الكلام الطيب، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير رحمه الله .

* وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿ يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً ﴾: أي تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى: ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾، يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً، أي سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا أمتاً، أي لا وادي ولا جبل. ولهذا قال تعالى ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ أي بادية ظاهرة، ليس فيها معلم لأحد ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾: لا حجر فيها ولا غيابة، وقال قتادة: لا بناء ولا شجر، وقوله: ﴿ وحشرناهم فلم نغادرهم منهم أحداً ﴾ أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً. كما قال ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾، وقال: ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾، وقوله: ﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾، وقوله: ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن. وقوله: ﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير ، والفتيل والقطمير ، والصغير والكبير ، ﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ أي من أعمالهم السيئة، وأفعالهم القبيحة، ﴿ ويقولون يا ويلتنا ﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا، ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

وإن صغر، إلا أحصاها أي ضبطها وحفظها، وقوله ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ أي من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ وفي الحديث: «يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، يقال هذه غدرة فلان بن فلان»[1]. وقوله: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾ الآية، وقال: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً - إلى قوله - حاسبين﴾ والآيات في هذا كثيرة.

روى الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً فسرت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا (عبد الله بن أنيس)، فقلت للبواب: قل له جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله عزّ وجلّ الناس يوم القيامة - أو قال العباد - عراة غرلاً بهماً». قلت: وما بهماً؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقضيه منه، حتى اللطمة قال: قلنا، كيف وإنما نأتي الله عزّ وجلّ حفاة عراة غرلاً بهماً؟ قال: «بالحسنات والسيئات»[2]

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، فقال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة﴾ أي لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة ﴿اسجدوا لآدم﴾ أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾، وقوله ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن﴾ أي خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم: (خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[3]. ونبّه تعالى ههنا على أنه من الجن،

(١) أخرجاه في الصحيحين.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.
(٣) أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً.

أي على أنه خلق من نار كما قال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن. كما أنّ آدم عليه السلام أصل البشر[1]. وقوله: ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ أي فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها، إذا خرجت منه للعيث والفساد، ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ أي بدلاً عني، ولهذا قال: ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾، وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها، ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون – إلى قوله – أفلم تكونوا تعقلون﴾.

* مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

يقول تعالى هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني، عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدي، وليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾، ولهذا قال: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ قال مالك: أعواناً.

* وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة، على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً ﴿نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أي في دار الدنيا، ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾، وقوله: ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾، كما قال: ﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ الآية، وقال: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾، وقوله: ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال ابن عباس: مهلكاً، وقال قتادة: موبقاً وادياً في جهنم. وقال ابن جرير، عن أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال: واد في جهنم من قيح ودم، وقال الحسن البصري: موبقاً: عداوة، والظاهر من السياق ههنا أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم او غيره، والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير، قال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا

(١) رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾، وقوله ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز، وقوله ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها. وقال ابن جرير، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعمائة سنة».

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

ويقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة. قال الإمام أحمد، عن علي بن أبي طالب أخبره أنَّ رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان»، فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلي شيئاً ثم سمعته وهو مولٍّ يضرب فخذه ويقول: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾[1]

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾، وآخرون قالوا: ﴿ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾، وقالت قريش: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، ثم قال: ﴿إلا أن تأتيهم سنة الأولين﴾ من غشيانهم بالعذاب، وأخذهم عن آخرهم ﴿أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ أي يرونه عياناً مواجهة ومقابلة، ثم قال تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي مبشرين من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم، ثم أخبر عن الكفار بأنهم ﴿يجادلون بالباطل ليدحضوا به﴾ أي ليضعفوا به الحق، الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، ﴿واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب، ﴿هزواً﴾: أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكّر بآيات الله فأعرض عنها، أي تناساها وأعرض عنها ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً ﴿ونسي ما قدمت يداه﴾ أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿إنا جعلنا على قلوبهم﴾ أي قلوب هؤلاء ﴿أكنة﴾ أي أغطية وغشاوة، ﴿أن يفقهوه﴾ أي لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان، ﴿وفي آذانهم وقراً﴾: أي صمماً معنوياً عن الرشاد، ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾، وقوله: ﴿وربك الغفور ذو الرحمة﴾: أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب﴾، كما قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾، وقال: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ والآيات في هذا كثيرة شتى، ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد وتضع كل ذات حمل حملها، ولهذا قال: ﴿بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً﴾: أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد، ولا معدل، وقوله: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾: أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذري.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

سبب **قول موسى لفتاه** وهو (يوشع بن نون) هذا الكلام، أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه، وقال لفتاه ذلك ﴿لا أبرح﴾: أي لا أزال سائراً ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال قتادة وغير واحد: هما (بحر فارس) مما يلي

المشرق و (بحر الروم) مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿أو أمضي حقباً﴾ أي ولو أني أسير حقباً من الزمان، عن عبدالله بن عمرو أنه قال: الحقب ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفاً، وقال ابن عباس ﴿أو أمضي حقباً﴾ قال: دهراً، وقوله: ﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له متى فقدت الحوت فهو ثمة، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام، وطفر من المكتل إلى البحر، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿واتخذ سبيله في البحر سرباً﴾ أي مثل السرب في الأرض، قال ابن عباس: صار أثره كأنه حجر، وقال قتادة: سرب من البحر حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا صار ماء جامداً، وقوله: ﴿فلما جاوزا﴾: أي المكان الذي نسيا الحوت فيه، ﴿قال﴾ موسى ﴿لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿نصباً﴾ أي تعبا، ﴿قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾، ولهذا قال: ﴿فاتخذ سبيله﴾ أي طريقه ﴿في البحر عجباً قال ذلك ما كنا نبغي﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿فارتدا﴾ أي رجعا ﴿على آثارهما﴾ أي طريقهما ﴿قصصاً﴾ أي يقصان آثار مشيهما، ويقفوان أثرهما ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾، وهذا هو الخضر عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

روى البخاري، عن أبي بن كعب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، قال له فتاه: ﴿أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾، قال فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ قال، فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾، قال له الخضر: ﴿فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا

بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ! لقد جئت شيئاً إمراً ﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ . قال، وقال رسول الله ﷺ وعلى آله – فكانت الأولى من موسى نسياناً، قال، وجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هم يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه، فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾، قال وهذه أشد من الأولى، ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذراً . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ أي مائلاً فقال الخضر بيده ﴿ فأقامه﴾ فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾، فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: ﴿ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً﴾، وكان يقرأ: ﴿وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين﴾[1]

وروى الزهري: عن ابن عباس، أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري، في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر، فمر بها أبي بن كعب فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى، الذي سأل السبيل إلى لقيه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه ؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل، فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك ؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى: بلى عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع، فإنك ستلقاه، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر، فقال فتى موسى لموسى أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، قال موسى ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ فوجدا عبدنا خضراً، فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

* قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام، لذلك الرجل العالم، وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر. ﴿ قال له موسى هل اتبعك﴾ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم، وقوله ﴿ أتبعك﴾ أي أصحبك وأرافقك، ﴿ على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ أي مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح، فعندها

(١) أخرجه البخاري في صحيحة عن ابن عباس عن أبي كعب رضي الله عنهما .

﴿ قال﴾ الخضر لموسى ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر عليَّ ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة، التي اطلعت أنا عليها دونك، ﴿ قال﴾ أي موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ أي على ما أرى من أمورك، ﴿ ولا أعصي لك أمراً﴾ أي ولا أخالفك في شيء، فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء﴾ أي ابتداء ﴿ حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ أي حتى أبدأك أنا به، قبل أن تسألني. عن ابن عباس قال: سأل موسى عليه السلام ربه عزّ وجلّ فقال: أي رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: أي رب أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى، قال، أي رب: هل في أرضك أحد أعلم مني؟ قال: نعم، قال: فمن هو؟ قال: الخضر، قال: وأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت، قال، فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلّم كل واحد منهما على صاحبه، فقال له موسى: إني أحب أن أصحبك، قال: إنك لن تطيق صحبتي. قال: بلى، قال: فإن صحبتني ﴿ فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾، قال فسار به في البحر، حتى انتهى إلى مجمع البحرين، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه، قال، وبعث الله الخطاف، فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزأ، قال: يا موسى فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء، وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به، فمن ثم أمر أن يأتي الخضر، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك[1]

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول، يعني بغير أجرة تكرمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولججت، أي دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها، ثم رقعها، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها﴾ وهذه اللام لام العاقبة. لا لام التعليل. كما قال الشاعر: لدوا للموت وابنوا للخراب *

﴿ لقد جئت شيئاً إمراً﴾ قال مجاهد: منكراً، وقال قتادة: عجباً، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس.

﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾، يعني وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها، لأنك لم تحط بها خبراً، ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت، ﴿قال﴾ أي موسى ﴿لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسراً﴾: أي لا تضيّق علي ولا تشدد علي، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً».

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ﴿فانطلقا﴾ أي بعد ذلك ﴿حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾، وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم فقتله، وروي أنه اجتز رأسه، وقيل رضخه بحجر، وفي رواية اقتلعه بيده، والله أعلم. فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال ﴿أقتلت نفساً زكية﴾: أي صغيرة، لم تعمل الحنث، ولا عملت إثماً بعد، فقتلته ﴿بغير نفس﴾: أي بغير مستند لقتله ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾: أي ظاهر النكارة ﴿قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى ﴿إن سألتك عن شيء بعدها﴾: أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً﴾: أي قد أعذرت إليّ مرة بعد مرة، قال ابن جرير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، لكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً».

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما، إنهما ﴿انطلقا﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾، روي عن ابن سيرين أنها الإيكة، وفي الحديث: «حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً» أي بخلاء، ﴿فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل، والانقضاض هو السقوط، وقوله ﴿فأقامه﴾ أي فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ودعمه حتى رد ميله، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ أي لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك، ﴿سأنبئك بتأويل﴾ أي بتفسير ﴿ما لم تستطع عليه صبراً﴾.

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها، لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يأخذ كل سفينة﴾ صالحة أي جيدة ﴿غصباً﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل إنهم أيتام، وروى ابن جريج، أن اسم ذلك الملك، (هدد بن بدد)، وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق.

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً»[1]، ولهذا قال: ﴿فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾ أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وصح في الحديث: «لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له»، وقال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾، وقوله: ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾ أي ولداً أزكى من هذا، وهما أرحم به منه، وقال قتادة: أبر بوالديه، وقيل لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم، قاله ابن جريج.

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾، وقال ههنا: ﴿فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾[2]، كما قال تعالى: ﴿فكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ يعني مكة والطائف، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة: كان تحته مال مدفون لهما، وهو

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس عن أبي بن كعب.

(٢) قال السهيلي في الغلامين اليتيمين: هما أصرم وصريم ابنا كاشح، والأب الصالح الذي حفظ كنزها من أجله كان بينهما وبينه سبعة آباء، وقيل عشرة، ولم يكونا أبنيه من صلبه فيما ذكر عن ابن عباس، وذكر السيوطي: ان اسم الملك (هدد ابن بدد) واسم أبوي الغلام المقتول (أبرا) وأمه (سهواً) وقد أبدلهما الله خيراً منه بجارية ولدت نبياً كان بعد موسى اسمه (شمعون).

ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله، وقال ابن عباس: كان تحته كنز علم، وعن الحسن البصري أنه قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله»[1]، وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، وكان نساجاً، وهذا الذي ذكر - وإن صح - لا ينافي قول عكرمة إنه كان مالاً، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل أكثر، كان مودعاً فيه علم وهو حكم ومواعظ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن، ووردت بـه السنّة، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظـا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحاً، وتقدم أنه كان الأب السابع فالله أعلم. وقوله: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقـال في الغلام: ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة﴾ وقال في السفينة: ﴿فأردت أن أعيبها﴾ فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثـلاثة إنمـا هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، وما فعلته عن أمري، لكني أمرت بـه ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قـال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾، وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً بل كان وليـاً، فالله أعلم. وحكي في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولان، ومال النووي وابن الصلاح إلى بقائه، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾، وبقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هـذه العصابة لا تعبد في الأرض»، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي»، وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل[2].

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنمـا سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز من تحته خضراء»[3] والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، وقيل المراد بذلك وجه الأرض. وقوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي هذا تفسير ما ضقت بـه ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولمـا أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿تسطع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: ﴿فـما

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن الحسن البصري، وورد في حديث مرفوع رواه الحافظ البزار عن أبي ذر بمثله.

(٢) أخرجه البخاري وأحمد ورواه أيضاً عبد الرزاق. (٣) الراجح قول أهل الحديث بموت الخضر للأدلة المذكورة.

اسطاعوا أن يظهروه﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿وما استطاعوا له نقباً﴾ وهو أشق من ذلك، فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى والله أعلم. فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها، أنه (يوشع بن نون) وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام .

* وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾

يقول تعالى لنبيّه ﷺ ﴿ويسألونك﴾ يا محمد ﴿عن ذي القرنين﴾ أي عن خبره، وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب، يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية ما يدري ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف. وقد ذكر الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به، وتبعه، وكان وزيره الخضر عليه السلام، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب (البداية والنهاية) بما فيه كفاية والحمد لله . وقال بعض أهل الكتاب: سمّي ذا القرنين لأنه ملك الروم وفارس، وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين. وقال سفيان الثوري، عن أبي الطفيل: سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين فقال: كان عبداً ناصحاً لله فناصحه، دعا قومه لله فضربوه على قرنه فمات، فسمي ذا القرنين، ويقال إنه سمي ذا القرنين لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب . وقوله: ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً، ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحضارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها ، وقوله: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾، قال ابن عباس: يعني علماً[1] ، وقال قتادة: منازل الأرض وأعلامها، وقال عبدالرحمن بن زيد، تعليم الألسنة، قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم، وعن حبيب بن حماد قال: كنت عند علي رضي الله عنه، وسأله رجل عن ذي القرنين، كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال: سبحان الله سخّر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد[2]

فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ

(١) وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسُّدي وقتادة والضحّاك وغيرهم .

(٢) ذكره الضياء المقدسي عن سماك بن حرب عن حبيب بن حماد .

عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس ﴿ فأتبع سبباً ﴾: يعني بالسبب المنزل. وقال مجاهد ﴿ فأتبع سبباً ﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب، وقال قتادة: أي اتبع منازل الأرض ومعالمها. وقال سعيد بن جبير: علماً، وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك. وقوله: ﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾: أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاق زنادقتهم وكذبهم، وقوله ﴿ وجدها تغرب في عين حمئة ﴾: أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين، كما قال تعالى ﴿ إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ﴾: أي من طين أملس، وقد تقدم بيانه. وقال ابن جرير : كان ابن عباس يقول ﴿ في عين حمأة ﴾ ثم فسرها ذات حمأة، قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء . وبه قال مجاهد وغير واحد. وعن أُبي بن كعب أن النبي ﷺ أقرأه حمئة، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس وجدها تغرب في عين حامية يعني حارة. وكذا قال الحسن البصري، وقال ابن جرير : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب، ولا منافاة بين معنييهما إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود كما قال كعب الأحبار وغيره .

وقوله تعالى: ﴿ ووجد عندها قوماً ﴾: أي أُمّة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمّة عظيمة من بني آدم[١]، وقوله: ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾ معنى هذا أن الله تعالى مكّنه منهم، وحكّمه فيهم وأظفره بهم، وخيّره إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى ، فعرف عدله وإيمانه، فيما أبداه عدله وبيانه في قوله ﴿ أما من ظلم ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿ فسوف نعذبه ﴾، قال قتادة: بالقتل، وقال السدي: كان يحمي لهم النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة فتدخل بيوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، والله أعلم. وقوله ﴿ ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ أي شديداً بليغاً وجيعاً أليماً، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . وقوله: ﴿ وأما من آمن ﴾ أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فله جزاء الحسنى ﴾ أي في الدار الآخرة عند الله عزّ وجلّ، ﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ قال مجاهد: معروفاً .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

(١) قال السهيلي: هم أهل جابرص، ويقال لها بالسريانية: جرجيا يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح .

يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرّ بأمّة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتـاخم لهم. وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض، طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغارب، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى ﴿ وجدها تطلع على قوم﴾ أي أمة ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ أي ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس، قـال سعيد بن جبير: كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك. وقال الحسن في قول الله تعالى ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ قال: إن أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم[1]، وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم. وقال ابن جرير: لم يبنوا فيها بناء قط ولم يبن عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل. وقوله ﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ قال مجاهد والسدي: علماً، أي نحن مطلعون على جميع أحواله، وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾.

* ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين ﴿ ثم أتبع سبباً﴾ أي ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض، حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين: «أن الله تعالى يقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثّرتاه، يأجوج ومأجوج»[2] وفي مسند الإمام أحمد، عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»، قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، وقال، إنمـا سمي هؤلاء تركا لأنهم تركوا من وراء السـد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفسـاد وجراءة، وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً في

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي عن الحسن البصري. (٢) أخرجه البخاري ومسلم.

سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم. وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها، والله أعلم.

وقوله تعالى ﴿وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ أي لاستعجام كلامهم، وبعدهم عن الناس، ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا﴾ قال ابن عباس: أجراً عظيماً، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبينهم سداً، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير ﴿ما مكّني فيه ربي خير﴾ أي إنّ الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم﴾ الآية. وهكذا قال ذو القرنين، الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني بقوة، أي بعملكم وآلات البناء ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً. آتوني زبر الحديد﴾ والزبر، جمع (زبرة) وهي القطعة منه[1] وهي كاللبنة يقال كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي أو تزيد عليه ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً[2] ﴿قال انفخوا﴾ أي أجّج عليه النار، حتى صار كله ناراً ﴿قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾ قال ابن عباس والسدي: هو النحاس[3]، زاد بعضهم المذاب، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وأسلنا له عين القطر﴾، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال: «انعته لي»، قال كالبرد المحبّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء، قال: «قد رأيته»[4]، وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه وجهز معه جيشاً سرية لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتونه له إذا رجعوا، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن ملك إلى ملك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاهق، لا يستطاع، ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب، ثم قال الله تعالى:

فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج، إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلا بما يناسبه، فقال: ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾، وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه، فأما الحديث الذي رواه الإمام

---

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة.

(٢) قال السيوطي عن الضحّاك: هما من قبل أرمينية وآذربيجان أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) وهو قول مجاهد وعكرمة والضحّاك وقتادة.

(٤) أخرجه ابن جرير وهو حديث مرسل.

أحمد، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم، ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، فيستثني فيعودون إليه، وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه، ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً في رقابهم فيقتلهم بها، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَشْكر شكراً من لحومهم ودمائهم»[1]، ففي رفعه نكارة، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته، وشدته ويؤيد ما قلناه، من أنهم لم يتمكنوا من نقبه، ومن نكارة هذا المرفوع، قول الإمام أحمد، عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بأصبعيه السبابة والإبهام»، قلت: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي لما بناه ذو القرنين ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾، أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ إي إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جعله دكاء ﴾ أي ساواه بالأرض، تقول العرب: ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها، وقال تعالى: ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ﴾ أي مساوياً للأرض، وقال عكرمة في قوله ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴾ قال: طريقاً كما كان، ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ أي كائناً لا محالة. وقوله: ﴿ وتركنا بعضهم ﴾ أي الناس، ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس، ويفسدون على الناس أموالهم، ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي، في قوله ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس، وهذا كله قبل يوم القيامة، وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق ﴾ الآية. وهكذا قال ههنا، ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿ ونفخ في الصور ﴾ على أثر ذلك ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾، وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾، قال: إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن، وقوله: ﴿ ونفخ في الصور ﴾، والصور كما جاء في الحديث، قرن ينفخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وفي الحديث عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، واستمع متى يؤمر»، قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»، وقوله: ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾، ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾.

(١) وأخرجه ابن ماجة أيضاً والترمذي، وقال الترمذي: إسناده جيد قوي، واختار ابن كثير أن يكون موقوفاً.

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة : أنه يعرض عليهم جهنم، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك »(١) ، ثم قال مخبراً عنهم ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ أي تغافلوا وتعاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾، وقال ههنا ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، ثم قال: ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك وينتفعون به ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

عن مصعب قال: سألت أبي، يعني سعد بن أبي وقاص، عن قول الله: ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أهم الحرورية ؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين »(٢) . وقال علي بن أبي طالب والضحّاك وغير واحد: هم الحرورية، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه، أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص، وإنما هي عامة في كل من عبدالله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ والذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ قل هل ننبئكم ﴾ أي نخبركم ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾، ثم فسرهم فقال: ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون، وقوله ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾:

(١) أخرجه مسلم عن ابن مسعود . (٢) أخرجه البخاري في صحيحه في باب التفسير .

أي جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقـام على وحدانيته، وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ أي لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير، روى البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة - وقال - اقرأوا إن شئتم: ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾»، وقال ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها»، قال قرأ ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾، عن عبدالله بن بريـدة، عن أبيه قـال: كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يخطر في حلة له، فلما قام على النبي ﷺ قال: «يا بريدة هذا ممن لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً»[1]، وعن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرأوا: ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾[2]. وقوله ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم، واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً استهزأوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به، أن لهم جنات الفردوس، قال مجاهد: هو البستان بالرومية، وقال الضحّاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب، وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، وقد روي عن النبي ﷺ: «الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها»[3]. وفي الصحيحين: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة»، وقوله تعالى ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة فإن النزل الضيافة، وقوله ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ﴿ لا يبغون عنها حولاً ﴾ أي لا يختارون عنها غيرها، ولا يحبون سواها، كما قال الشاعر

فحلّت سويدا القلب لا أنا باغياً سواها، ولا عن حبها أتحول

وفي قوله تعالى: ﴿ لا يبغون عنها حولاً ﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً، ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلاً.

قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه،

(١) أخرجه الحافظ البزار.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره.

(٣) أخرجه ابن جرير عن سمرة مرفوعاً.

لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ولو جئنا بمثله﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر، وهلم جراً، بحور تمده ويكتب بها لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾، وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي﴾(١) يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

* ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾، فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أخبركم ﴿أنما إلهكم﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إله واحد﴾ لا شريك له، ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بدَّ أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ، وقد روي عن طاووس قال، قال رجل: يا رسول الله! إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، حتى نزلت هذه الآية ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾(٢)، وجاء رجل إلى عبادة بن الصامت، فقال أنبئني عما أسألك عنه، أرأيت رجلاً يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويصوم يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويتصدق يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويحج يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك، فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه.

وروى الإمام أحمد. عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني. سمعت رسول الله يقول: «أتخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية»، قلت: يا رسول

---

(١) أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قال، قالت قريش لليهود: اعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه فنزلت: ﴿ويسألونك عن الروح - إلى - وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، وقال اليهود: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ الآية.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن طاووس وهو حديث مرسل.

الله ! أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه »[١]. (**حديث آخر**): قال الإمام أحمد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ يرويه عن الله عزّ وجلّ أنه قال: « أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك » . (**حديث آخر**) : قال الإمام أحمد، عن أبي سعيد ابن أبي فضالة الأنصاري، وكان من الصحابة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »[٢]. (**حديث آخر**) : عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عزّ وجلّ يوم القيامة، في صحف مختمة، فيقول الله: ألقوا هذا واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يا رب، والله ما رأينا منه إلا خيراً، فيقول: إن عمله كان لغير وجهي، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي »[٣]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عزّ وجلّ »[٤].

[آخر تفسير سورة الكهف ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة .
(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة .
(٣) أخرجه الحافظ أبو بكر البزار .
(٤) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي .

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين][١]

تفسير سورة الكهف

وهى مكية.

ذكر ما ورد فى فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنها عصمة من الدجال:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، ، حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء يقول: قرأ رجل الكهف، وفى الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة ـ أو: سحابة ـ قد غشيته، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزلت عند القرآن، أو تنزلت للقرآن».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث شعبة ، به[٢]. وهذا الرجل الذى كان يتلو هو: أُسَيْدُ بن الحُضَيْر، كما تقدم فى تفسير البقرة[٣] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همّامَ بن يحيى، عن قتادة، عن سالم بن أبى الجعد، عن مَعْدان بن أبى طلحة، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «من حَفظ عَشْرَ آيات من أول سورة الكهف، عُصِم من الدجال» .

رواه مسلم، وأبو داود، والنسائى، والترمذى[٤] من حديث قتادة، به[٥]. ولفظ الترمذى: «من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف» ، وقال: حسن صحيح .

طريق أخرى: قال [الإمام][٦] أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت سالم بن أبى الجعد يحدّث عن معدان، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال» .

ورواه مسلم أيضًا والنسائى، من حديث قتادة، به[٧] . وفى لفظ النسائى: «من قرأ عشر آيات من الكهف»، فذكره.

حديث آخر : وقد رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد، عن شعبة، عن قتادة، عن سالم بن أبى الجعد، عن ثَوْبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، فإنه عصمة له من الدجال»[٨] . فيحتمل أن سالما سمعه من ثوبان ومن

---

(١) زيادة من ت .

(٢) المسند (٤/ ٢٨١) وصحيح البخارى برقم (٣٦١٤) وصحيح مسلم برقم (٧٩٥) .

(٣) فى أول تفسير سورة البقرة، فى فضلها .

(٤) فى ف : «الترمذى والنسائى».

(٥) المسند (٥/ ١٩٦) وصحيح مسلم برقم (٨٠٩) وسنن أبى داود برقم (٤٣٢٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٢٥) وسنن الترمذى برقم (٢٨٨٦) .

(٦) زيادة من ف .

(٧) المسند (٦/ ٤٤٦) وصحيح مسلم برقم (٨٠٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٦) .

(٨) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٤) .

أبى الدرداء .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا زبَّان بن فايد[١]، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهنى، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها، كانت له نورًا من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نورًا ما بين الأرض إلى السماء[٢]» انفرد به أحمد ولم يخرجوه[٣] [٤] .

وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوْيه [فى تفسيره][٥] ،بإسناد له غريب، عن خالد بن سعيد بن أبى مريم، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة، سطع له نور من تحت قدمه إلى عَنَان السماء، يضىء له يوم القيمة، وغُفر له مابين الجمعتين»[٦] .

وهذا الحديث فى رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف .

وهكذا روى[٧] الإمام: «سعيد بن منصور» فى سننه، عن هُشَيْم بن بشير[٨] ،عن أبى هاشم[٩]، عن أبى مِجْلَز، عن قيس بن عباد[١٠]، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أنه قال: من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة، أضاء له مِنَ النور ما بينه وبين البيت العتيق .

هكذا وقع موقوفا، وكذا[١١] رواه الثورى، عن أبى هاشم[١٢]، به[١٣] .من حديث أبى سعيد الخدرى .

وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه، عن أبي بكر محمد بن المؤمل، حدثنا الفضيل[١٤] بن محمد الشَّعرانى، حدثنا نُعَيم بن حَمَّاد، حدثنا هُشَيْم، حدثنا أبو هاشم، عن أبى[١٥] مِجْلَزْ، عن قيس بن عُبَاد، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى سننه، عن الحاكم[١٦]، ثم قال البيهقى: ورواه يحيى بن كثير، عن شعبة، عن أبى هاشم بإسناده أن النبى ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت

---

(١) فى ت: «زياد بن واقد»، وفى ف: «ثوبان بن فايد» .

(٢) فى ف: «السماء والأرض»

(٣) فى ت: «يخرجه» .

(٤) المسند (٤/٤٣٩) .

(٥) زيادة من ف .

(٦) ذكره المنذرى فى الترغيب (١/٥١٣)وقال: «رواه ابن مردويه بإسناد لا بأس به» .

(٧) فى ت : «رواه».

(٨) فى ت :«بشر» .

(٩) فى ت،أ : «هشام».

(١٠) فى ف: «عبادة».

(١١) فى ت : «وهكذا» .

(١٢) فى ت : «هشام» .

(١٣) ورواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣١) قال: حدثنا هشيم به موقوفًا. وسيأتى الاختلاف على هشيم .أما رواية الثورى: فرواها النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٧٩٠) من طريق عبد الرحمن عن سفيان الثورى به موقوفًا .وقد حقق الفاضل محمد طرهونى فى كتابه «موسوعة فضائل القرآن» (١/٣٣٧) روايتى الرفع والوقف فأجاد وأفاد، جزاه الله خيرًا، ثم رجح أنه موقوف فى حكم المرفوع .

(١٤) فى ت: «الفضل».

(١٥) فى ت :« أبو» .

(١٦) المستدرك (٢/٣٦٨) والسنن الكبرى للبيهقى (٣/٢٤٩) .

له نورًا يوم القيامة»[١]. [والله أعلم][٢].

وفى «المختارة» للحافظ الضياء المقدسى من حديث عبد الله بن[٣] مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهنى، عن على بن الحسين، عن أبيه، عن على مرفوعًا: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه»[٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

[رب وفقنى][٥]

﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)** ﴾.

قد تقدم فى أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند[٦] فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد فى الأولى والآخرة؛ ولهذا حَمَد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد، صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه أعظم نعمة[٧] أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدى إلى صراط مستقيم، بينا واضحا جلياً[٨]، نذيرًا للكافرين وبشيرًا للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿**وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا**﴾ أى: لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زيغًا ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً؛ ولهذا قال: ﴿**قَيِّمًا**﴾ أى: مستقيماً.

﴿**لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ**﴾ أى: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأسًا شديدًا، عقوبة عاجلة فى الدنيا وآجلة فى الأخرى ﴿**مِّن لَّدُنْهُ**﴾ أى: من عند الله الذى لا يُعَذّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد.

﴿**وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أى: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ **أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا**﴾ أى: مثوبة عند الله جميلة ﴿ **مَاكِثِينَ فِيهِ** ﴾ فى ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه ﴿**أَبَدًا**﴾ دائمًا لازوال له ولا انقضاء.

﴿ **وَيُنذِرَ الَّذِينَ**[٩] **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا**﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب فى قولهم: نحن

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٢٨) «مجمع البحرين» واختلف فيه على شعبة، فرواه غندر عن شعبة موقوفًا.
(٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «عن».
(٤) المختارة برقم (٤٣٠) وقال: «عبد الله بن مصعب لم يذكره البخارى، ولا ابن أبى حاتم فى كتابيهما».
(٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: «عن». (٧) فى ف: «نعم».
(٨) فى ت: «جليل». (٩) فى ت: «الذى» وهو خطأ.

نعبد الملائكة، وهم بنات الله .

﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى: بهذا القول الذى افتروه وائتفكوه من علم ﴿ وَلا لآبَائِهِمْ ﴾ أى: أسلافهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ : نصب على التمييز، تقديره: كبرت كلمتهم هذه كلمة.

وقيل: على التعجب، تقديره: أعظم بكلمتهم كلمة، كما تقول: أكرم بزيد رجلا، قاله بعض البصريين. وقرأ ذلك بعض قراء مكة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةٌ﴾ ، كما يقال: عَظُم قولُك، و كبر[١] شأنُك .

والمعنى على قراءة الجمهور أظهر؛ فإن هذا تبشيع لمقالتهم[٢] واستعظام لإفكهم؛ ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثنى شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى مُعَيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود[٣] عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم[٤] أمره وبعض قوله، وقالا[٥]: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بِهِن، فإن أخبركم بهن، فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَول فَرَوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم[٦] قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نَبَؤه[٧]؟ [وسلوه عن الروح، ماهو؟][٨] فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يامعشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد، أخبرنا: فسألوه عما أمروهم به، فقال[٩] لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غدا بما سألتم عنه». ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحدث الله إليه فى ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل، عليه السلام، حتى أرجف[١٠] أهل مكة وقالوا :وعدنا محمد غدًا، واليوم خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها، لايُخبرنا بشىء عما سألناه عنه. وحتى أحزنَ رسول الله ﷺ مكثُ الوحى عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل، عليه السلام، من عند الله، عز وجل، بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبَرَ ماسألوه عنه من أمر الفتية[١١] والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥][١٢] .

---

(١) فى ت: «وعظم» .
(٢) فى ت: «لمقالهم» .
(٣) فى ت: «يهودى» .
(٤) فى أ: «له».
(٥) فى ت: «وقال».
(٦) فى أ: «فإنه».
(٧) فى ت، أ: «بناؤه».
(٨) زيادة من الطبرى .
(٩) فى ت: «فقالوا» .
(١٠) فى ت: «أوجب».
(١١) فى ت : «الفقيه» .
(١٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٢٧) .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) ﴾ .

يقول تعالى مسليًا رسوله ﷺ[1] فى حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿ لَعَلَّكَ [2] بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا [3] يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣] .

باخع: أى مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾، يعنى: القرآن. ﴿ أَسَفًا ﴾ يقول: لاتهلك نفسك أسفًا .

قال قتادة: قَاتِل نَفْسَكَ غضبًا وحزنًا عليهم. وقال مجاهد: جزعًا. والمعنى متقارب، أى: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا دارًا فانية مُزيَّنة بزينة زائلة. وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ .

قال قتادة، عن أبى نَضْرة، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا خضرة حلوة[4]، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا[5]، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء»[6] .

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أى: وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شىء عليها هالكاً ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: لايُنْبت ولا ينتفع به، كما قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يقول: يهلك كل شىء عليها ويبيد. وقال مجاهد: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: بلقعاً.

وقال قتادة: الصعيد: الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات.

وقال ابن زيد: الصعيد: الأرض التى ليس فيها شىء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ[7] ﴾ [السجدة: ٢٧].

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يعنى الأرض، إن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع لإلى الله[8]، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى .

(١) فى أ: «صلوات الله وسلامه عليه» . (٢) فى ت: «ولعلك»، وفى أ: «لعلكم» وهو خطأ.
(٣) فى ت، أ: «على ألا» وهو خطأ . (٤) فى ف، أ: «حلوة خضرة». (٥) فى أ: «يعملون، واتقوا الدنيا».
(٦) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٤٢) من طريق أبى مسلمة عن أبى نضرة به .
(٧) فى أ: «أفلا تبصرون». (٨) فى ت: «المرجع إلى الله»، وفى ف، أ: «إلى الله المرجع» .

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢)﴾.

هذا إخبار عن قصة أصحاب[١] الكهف [والرقيم][٢]، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعنى: يامحمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أى: ليس أمرهم عجيبا[٣] فى قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر[٤]، ولا يعجزه شىء أعجب من أخبار أصحاب الكهف [والرقيم][٥] كما قال ابن جريج[٦]، عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: قد كان من آياتنا ماهو أعجب من ذلك!

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب[٧] الكهف والرقيم.

وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت[٨] من حججى على العباد، أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

[وأما «الكهف» فهو: الغار فى الجبل، وهو الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم»][٩] فقال العوفى، عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلَة. وكذا قال عطية العوفى، وقتادة .

وقال الضحاك: أما «الكهف» فهو : غار الوادى، و «الرقيم»: اسم الوادى .

وقال مجاهد: «الرقيم»: كان[١٠] بنيانهم[١١]، ويقول بعضهم: هو الوادى الذى فيه كهفهم .

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: «الرقيم» ، قال: يزعم كعب أنها القرية .

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: «الرقيم»: الجبل الذى فيه الكهف .

وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبى نَجِيح، عن [مجاهد، عن][١٢]، ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس.

وقال ابن جريج: أخبرنى وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائى: أن اسم جبل الكهف بنجلوس، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران .

---

(١) فى أ: «أهل» .
(٢) زيادة من ت .
(٣) فى ت، ف، أ: «عجيب» .
(٤) فى ت: «قدير» .
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ت: «جرير» .
(٧) فى ت: «أصحاب أهل».
(٨) فى ت: «ما أظهر» .
(٩) زيادة من ف.
(١٠) فى أ: «كتاب» .
(١١) فى ت: «كتابتهم بهم».
(١٢) زيادة من ف .

وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا حَنَانًا، والأواه، والرقيم .

وقال ابن جريج: أخبرنى عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدرى ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان ؟

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس: الرقيم: الكتاب. وقال سعيد بن جبير: [الرقيم][1]: لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف[2]، ثم وضعوه على باب الكهف .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] .

وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل بمعنى[3] مرقوم، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم .

وقوله: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾: يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبوا منهم فَلَجَؤُوا إلى غار فى جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أى: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أى: وقدر لنا من أمرنا هذا رشدا، أى: اجعل عاقبتنا رشدًا[4]، كما جاء فى الحديث: «وما قضيت لنا من قضاء، فاجعل عاقبته رشدًا»، وفى المسند من حديث بُسْر بن أبى أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة» .

وقوله: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أى: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أى: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه[5] ليشترى لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتى بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ ﴾ أى: المختلفين فيهم ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية كقوله[6] :

سَبْقَ الجَوَاد إذَا استَولى عَلَى الأمَد

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ

---

(١) زيادة من ف . (٢) فى أ: «أهل الكتاب» . (٣) فى ت: «من» .
(٤) فى ت: «عاقبته رشد»، وفى ف، أ: «عاقبته رشدا». (٥) فى ف، أ: « معينة».
(٦) هو النابغة الذبيانى، والبيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٧).

رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)﴾.

من ههنا شرع فى بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية ـ وهم الشباب ـ وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعَسَوا[1] فى دين الباطل؛ ولهذا كان أكثرهم المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شباباً. وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بَقُوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا[2] أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً.

قال مجاهد: بلغنى أنه كان فى آذان بعضهم القرطة يعنى: الحَلَق فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم. فآمنوا بربهم، أى: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره[3]، ممن ذهب لى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ[4] هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر[5] أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم، عليه السلام، والله أعلم ـ والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنه[6] لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس: أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذى القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمـر محفوظ فى كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصَبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً فى بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه فى ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: «دقيانوس»، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا[7] أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد

---

(١) فى أ: «وغشوا». (٢) فى ف: «وكذا». (٣) فى ت: «ونحوه».
(٤) فى أ: «زدناهم» وهو خطأ. (٥) فى ت: «ذكروا». (٦) فى ف: «فإنهم».
(٧) فى ت، ف: «فعرفوا».

منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم[١]، ويتبرز عنهم ناحية. فكان[٢] أول من جلس منهم [وحده][٣] أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذى رواه البخارى تعليقاً، من حديث يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مُجَنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٤]. وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث سهيل[٥]، عن أبيه، عن أبى هريرة عن النبى[٦] ﷺ[٧].

والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

والغرض أنه جعل كل[٨] أحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدرى أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون ـ والله ياقوم ـ أنه ما[٩] أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا[١٠] شيء فليظهر كل واحد منكم ما بأمره. فقال آخر: أما أنا فإنى [والله][١١] رأيت ما قومى عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذى يستحق أن يعبد [وحده][١٢] ولا يشرك به شيء هو الله الذى خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما. فقال الآخر: وأنا والله وقع لى كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وماهم عليه[١٣]، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله عز وجل؛ ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ ولن: لنفي التأبيد، أى: لا يقع منا هذا أبداً؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أى: باطلاً وكذباً وبهتاناً.

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أى: هَلاً أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتَهَدّدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا فى أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذى كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه. والفرار بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن فى الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء فى

---

(١) فى ف، أ: «عنهم». (٢) فى ت، ف: «وكان». (٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٣٦).
(٥) فى أ: «سهل». (٦) فى ف، أ: «عن رسول الله».
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٦٣٨).
(٨) فى ت: «وأنه جعل كل»، وفى ف: «أنه كل». (٩) فى ت: «إنما».
(١٠) فى ت: «لا». (١١، ١٢) زيادة من ف. (١٣) فى ت: «عليهم».

الحديث: « يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن »(١) ففى هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار اللَّه تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك فى قوله: ﴿**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ**﴾ أى: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم فى عبادتهم غير اللَّه، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿**فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ**﴾ أى: يبسط عليكم رحمة(٢) يستركم بها من قومكم ﴿**وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم**﴾ [أى](٣): الذى أنتم فيه، ﴿**مِّرْفَقًا**﴾ أى: أمرًا ترتفقون به. فعند ذلك خرجوا هُراباً إلى الكهف، فآووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتَطَلَّبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعَمَّى اللَّه عليه خبرهم. كما فعل بنبيه [محمد](٤) ﷺ وصاحبه الصديق، حين لجآ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش فى الطلب، فلم يهتدوا إليه مع(٥) أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبى ﷺ حين رأى جزع الصديق فى قوله: يارسول اللَّه، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه(٦) لأبصرنا، فقال: « يا أبا بكر، ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما؟ »، وقد قال تعالى: ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٤٠] فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب(٧) الكهف، وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم، وقفوا(٨) على باب الغار الذى دخلوه، فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم. فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم، فَفُعل [لهم](٩) ذلك. وفى هذا نظر، واللَّه أعلم؛ فإن اللَّه تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم فى الكهف بكرة وعشية، كما قال تعالى:

﴿**وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)**﴾.

هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿**ذَاتَ الْيَمِينِ**﴾ أى: يتقلص الفىء يمنة(١٠)، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: ﴿**تَّزَاوَرُ**﴾ أى: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت فى الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شىء عند الزوال فى مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿**وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ**﴾ أى: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه،

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.
(٢) فى ت، ف: «رحمته». (٣) زيادة من ت، ف، أ. (٤) زيادة من ف.
(٥) فى ت: «ثم». (٦) فى أ: «قدمه». (٧) فى ف، أ: «أهل».
(٨) فى ت، ف: «ووقفوا». (٩) زيادة من ف. (١٠) فى ت: «عنه»، وفى أ: «يمينه».

وهذا بينّ لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه[١]: أنه[٢] لو كان باب الغار من ناحية الشرق[٣] لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب[٤] لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب. فتعين[٥] ما ذكرناه ولله الحمد.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿ تَّقْرِضُهُمْ﴾ : تتركهم.

وقد أخبر اللّه تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف فى أى البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد[٦] شرعى. وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: [هو][٧] قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نِينَوَى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء. واللّه أعلم بأى بلاد اللّه هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا اللّه ورسوله إليه[٨]، فقد قال رسول الله ﷺ: « ماتركت شيئاً يقربكم إلى [الجنة][٩] ويباعدكم من النار، إلا وقد أعلمتكم به». فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾ قال مالك، عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أى: فى متسع منه داخلاً، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم[١٠]، قاله ابن عباس.

﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ؛ ولهذا قال :﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ .

ثم قال : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ أى: هو الذى أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه اللّه اهتدى،ومن أضله فلا هادى له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) ﴾.

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب اللّه على آذانهم بالنوم، لم تنطبق[١١] أعينهم؛ لئلا[١٢] يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر[١٣]:

---

(١) فى ت: «فبانه». .
(٢) فى ف: «أن».
(٣) فى ف، أ: «المشرق».
(٤) فى أ: « المغرب».
(٥) فى ت: «فتعى».
(٦) فى ت: «ولا تضر».
(٧) زيادة من ف.
(٨) فى ت: «الله».
(٩) زيادة من ف، وفى ت: «الله».
(١٠) فى ت:«ثيابهم وأبدانهم»، وفى ف، أ:«ثيابهم وأجسادهم».
(١١) فى ت: «تطبق».
(١٢) فى ت: «كيلا».
(١٣) هو حميد بن ثور، والبيت فى ديوانه (ص١٠٤) أ. هـ مستفاداً من حاشية ط الشعب.

يَنَامُ بإحْدَى مُقْلَتَيْة ويَتَّقِي بأخْرَى الرزايا فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ

وقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال بعض السلف: يقلبون فى العام مرتين.

قال ابن عباس: لو لم يقلبوا[١] لأكلتهم الأرض.

وقوله: ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ قال ابن عباس، وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير[٢]: الوصيد: الفناء.

وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة:٨] أى: مطبقة مغلقة. ويقال: «وَصِيد» و«أصيد».

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

قال ابن جريج[٣]: يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض[٤] ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ـ كما ورد فى الصحيح[٥] ـ ولا صورة ولا جُنُب ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن[٦]. وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه. وقيل: كان كلب طباخ الملك، وكان قد وافقهم على الدين فصحبه كلبه، فاللَّه أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة «همام بن الوليد الدمشقي»: حدثنا صَدَقَة بن عمر الغَسَّانى، حدثنا عباد المِنْقَرى، سمعت الحسن البصرى، رحمه الله، يقول: كان اسم كبش إبراهيم: جرير، واسم هدهد سليمان: عَنْقَز، واسم كلب أصحاب الكهف: قطمير، واسم عجل بنى إسرائيل الذى عبدوه: بهموت. وهبط آدم، عليه السلام، بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدست بيسان، والحية بأصبهان[٧].

وقد تقدم [٨] عن شعيب الجبائى أنه سماه: حمران.

واختلفوا فى لونه[٩] على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هى مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.

---

(١) فى ت: «تتقلبون»، وفى أ: «يتقلبوا». (٢) فى ف: «ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة».

(٣) فى أ: «جرير». (٤) فى ف: «ربض».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٢٧) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.

(٦) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٨٠) وأبو داود فى السنن برقم (٢٢٧) والنسائى فى السنن (١/ ١٤١) من حديث على بن أبى طالب مرفوعًا: «لاتدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب».

(٧) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ١٤٣).

(٨) فى ت: «وقيل». (٩) فى ت: «كونه».

وقوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أى: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم(١) يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضى رقدتهم التى شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له فى ذلك من الحجة والحكمة(٢) البالغة، والرحمة الواسعة.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠)﴾.

يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ أى: كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار، واستيقاظهم(٣) كان فى آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أى: اللَّه أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تَرَدُّد فى كثرة نومهم، فاللَّه أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم إذ ذاك(٤)، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أى: فضتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقى منها؛ فلهذا قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أى: مدينتكم التى خرجتم منها والألف اللام للعهد.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أى: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التى تُطَيب(٥) المال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، قال الشاعر(٦):

قَبَائِلُنا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلاثَةٌ ... وَلِلسَّبْعُ أَزْكَى مِنْ ثَلاثٍ وَأَطْيَبُ

والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيرا.

وقوله: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أى: فى خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفَ(٧) كل ما يقدر عليه ﴿وَلا يُشْعِرَنَّ﴾ أى: يعلمن ﴿بِكُمْ أَحَدًا. إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أى: إن علموا بمكانكم، ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم(٨) بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم(٩) فى ملتهم التى هم عليها أو

(١) فى أ: «أو يمسهم». (٢) فى ف: «الحكمة والحجة». (٣) فى ف: «وإيقاظهم».
(٤) فى ت: «إن ذلك». (٥) فى ت: «يطيب».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٤٨) غير منسوب.
(٧) فى ف، أ: « وليتخفف». (٨) فى ف: «يزالون يعذبونكم». (٩) فى ف: «يعيدوكم».

يموتوا، وإن واتوهم على العود[١] فى الدين فلا فلاح لكم[٢] فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولهذا قال[٣]: ﴿ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى: أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ .

ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة.

وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد. فبعث اللّه أهل الكهف حجة[٤] ودلالة وآية على ذلك.

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة، فى شراء شىء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشى فى غير الجادة، حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمها دقسوس[٥]، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرنًا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قال الشاعر:

أما الدّيارُ فَإنَّها كَديارِهم   وَأرَى رجالَ الحَى غَيْرَ رجَاله

فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التى يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها، لا[٦] خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير فى نفسه ويقول: لعل بى جنوناً أو مساً، أو أنا حالم، ويقول: واللّه ما بى شىء[٧] من ذلك، وإن عهدى بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لى. ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً. فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضَرْبها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزاً. فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النفقة؟ لعله وجدها من كنز. ومن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه المدينة[٨]، وعهدى بها عشية أمس وفيها دقيانوس. فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولىّ أمرهم، فسأله عن شأنه وعن أمره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير فى حاله، وماهو فيه. فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف: مُتَوَلّى البلد وأهلها، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال: دعونى حتى أتقدمكم فى الدخول لأعلم أصحابى،

---

(١) فى ف: «وافوهم على العودة». (٢) فى ت، ف: «لهم». (٣) فى ف: «قالوا».
(٤) فى ت: «وحجة». (٥) فى ت: «دقوس». (٦) فى ت، ف: «ولا».
(٧) فى ت: «شتى». (٨) فى ت: «النفقة».

فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى اللَّه عليهم خبره[١] ، ويقال: بل دخلوا عليهم، ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه تيدوسيس[٢]، ففرحوا به وآنسوه الكلام، ثم ودعوه[٣] وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم اللَّه، عز وجل، فاللَّه أعلم.

قال قتادة : غزا[٤] ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف فى بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً، فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف؟ فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير .

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا[٥] عَلَيْهِمْ ﴾ أى: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أى: فى أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أى: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ .

حكى ابن جرير فى القائلين[٦] ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثانى: أهل الشرك منهم، فاللَّه أعلم[٧] .

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر ؛ لأن النبى ﷺ قال: « لعن اللَّه اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»[٨] يحذر مافعلوا. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى اللَّه عنه، أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده، فيها شىء من الملاحم وغيرها .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَّف القولين الأولين بقوله: ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أى: قول بلا علم، كمن[٩] يرمى إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ دل على صحته، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر.

---

(١) فى ت، ف: «خبرهم». (٢) فى ت: « تيدرسين»، وفى ف: «بيدوسيس». (٣) فى ت، ف: «دعوه».
(٤) فى ت: «وعن». (٥) فى ت: «أعثرناهم» وهو خطأ. (٦) فى ت: «القائل».
(٧) فى ت: «والله أعلم».
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٣٣٠) من حديث عائشة، رضى الله عنها.
(٩) فى أ: «لمن».

وقوله: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى اللَّه تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حيث وقفنا.

وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ أى: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذى استثنى اللَّه، عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جريج، عن[1] عطاء الخراسانى عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى اللَّه، ويقول: عدتهم سبعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار[2]، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة.

فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار عن عبد اللَّه بن أبى نَجيح، عن مجاهد قال: لقد حُدِّثْتُ أنه كان على بعضهم من حداثة سنه وَضَح الوَرَق. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم فى عبادة اللَّه، يبكون[3] ويستغيثون باللَّه، وكانوا ثمانية نفر: مكسلمينا[4]، وكان أكبرهم وهو الذى كلم الملك عنهم، ومجسيميلنينا وتمليخا[5]، ومرطونس، وكشطونس، وبيرونس، وديموس، ويطونس قالوش.

هكذا وقع فى هذه الرواية، ويحتمل[6] هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو ظاهر الآية. وقد تقدم عن شعيب الجبائى أن اسم كلبهم حمران[7]. وفى تسميتهم بهذه[8] الأسماء واسم كلبهم نظر فى صحته، واللَّه أعلم؛ فإن غالب ذلك مُتَلَقَّى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أى: سهلاً هيِّنًا؛ فإن الأمر فى معرفة[9] ذلك لا يترتب عليه كبير[10] فائدة ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك اللَّه يا محمد بالحق الذى لاشك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه[11] من الكتب والأقوال.

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾.

هذا إرشاد من اللَّه لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى الأدب فيما إذا عزم على شىء ليفعله فى المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة اللَّه، عز وجل، علام الغيوب، الذى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول اللَّه ﷺ أنه [قال][12]: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على

---

(١) فى ت: «ابن». (٢) فى ت: «يسار». (٣) فى ت، ف أ: «يتلون».
(٤) فى هـ: «مكيليممنينا»، والمثبت من ت، ف، أ. (٥) فى ف: «شمليخا». (٦) فى ف، أ: «ويحتمل أن يكون».
(٧) فى ت: «خمران». (٨) فى ت: «بهذا». (٩) فى ت: «معرفته».
(١٠) فى ف: «كثير». (١١) فى ف: «على من تقدمه». (١٢) زيادة من ت، ف، أ.

سبعين امرأة - وفى رواية تسعين امرأة. وفى رواية: مائة امرأة ـ تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل اللّه، فقيل له - وفى رواية: فقال له الملك - قل: إن شاء اللّه. فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان» ، قال رسول اللّه ﷺ: « والذى نفسى بيده، لو قال: « إن شاء اللّه» لم يحنث، وكان دَرَكًا لحاجته»، وفى رواية: « ولقاتلوا فى سبيل اللّه فرساناً أجمعون [(١)]»[(٢)].

وقد تقدم فى أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية فى قول النبى ﷺ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: « غداً أجيبكم». فتأخر الوحى خمسة عشر يوماً ، وقد ذكرناه بطوله فى أول السورة، فأغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قيل: معناه: وإذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحسن البصرى.

وقال هشيم، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس فى الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فى ذلك. قيل للأعمش: سمعته من مجاهد؟ قال [(٣)]: حدثنى به ليث بن أبى سليم، يرى[(٤)] ذهب كسائى هذا.

ورواه الطبرانى من حديث أبى معاوية، عن الأعمش، به[(٥)] .

ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثنى ولو بعد سنة» أى: إذا نسى أن يقول فى حلفه أو كلامه «إن شاء الله» وذكر ولو بعد سنة، فالسُّنَّة له أن يقول ذلك، ليكون آتيا بسُنَّة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير، رحمه الله، ونص على ذلك، لا أن يكون [ذلك][(٦)] رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة. وهذا الذى قاله ابن جرير، رحمه الله، هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم .

وقال عكرمة: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أى: إذا غضبت. وهذا تفسير باللازم .

وقد قال الطبرانى: حدثنا أحمد بن يحيى الحُلْوانى، حدثنا سعيد بن سليمان، عن عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله[(٧)] . [وهذا تفسير باللازم][(٨)] .

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن الحارث الجُبيلى[(٩)]، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن

---

(١) فى ت، ف: «أجمعين».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٤٢) رواية المائة، وبرقم (٦٧٢٠) رواية التسعين، وصحيح مسلم برقم (١٦٥٤) .

(٣) فى ف: «فقال» . (٤) فى ت: «ترى».

(٥) تفسير الطبرى (١٥/ ١٥١) والمعجم الكبير للطبرانى (١١/ ٦٨) .

(٦) زيادة من ف . (٧) المعجم الكبير (١٢/ ١٧٩) . (٨) زيادة من ف .

(٩) فى ت، ف: «الحبلى» .

مسلم، عن عبد العزيز بن حُصَيْن،، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله.

وروى الطبرانى، أيضاً، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء، فاستثن إذا ذكرت. وقال: هى خاصة برسول[1] الله ﷺ، وليس لأحد منا أن يستثنى إلا فى صلة من يمينه. ثم قال: تَفَرَّد به الوليد، عن عبد العزيز بن الحصين[2] [3].

ويحتمل فى الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله، عز وجل، قد أرشد من نسى الشيء فى كلامه إلى ذكر الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر[4]؛ ولهذا قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أى: إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجه إليه فى أن يوفقك للصواب والرشد [فى ذلك][5]، وقيل غير ذلك فى تفسيره، والله أعلم.

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾.

هذا خَبَر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف فى كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة [سنة][6] وتسع سنين بالهلالية، وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت مابين كل مائة [سنة][7] بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أى: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك [علم][8] فى ذلك وتوقيف[9] من الله، عز وجل[10]، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل فى مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه الله عليه من خَلْقه، وهذا الذى قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة فى قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾: هذا قول أهل الكتاب،

---

(١) فى ت: «يارسول»، وفى ف: «لرسول».
(٢) فى ف: «حصين».
(٣) المعجم الأوسط برقم (٣٣٥٧) «مجمع البحرين».
(٤) فى ت: «سبب الذكر».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) زيادة من أ.
(٧، ٨) زيادة من ف.
(٩) فى ت: «توفيق».
(١٠) فى ت، ف: «تعالى».

وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قال: وفى[(١)] قراءة عبد الله: «وقالوا: ولبثوا»، يعنى أنه قاله الناس[(٢)].

وهكذا قال ـ كما قال قتادة ـ مُطرِّف بن عبد الله.

وفى هذا الذى زعمه قتادة نظر، فإن الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ وظاهر الآية إنما هو من إخبار الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله. ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هى شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور فلا يحتج بها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أى: إنه لبصير بهم سميع لهم.

قال ابن جرير: وذلك فى معنى المبالغة فى المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لايخفى عليه من ذلك شىء.

ثم روى عن قتادة فى قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ فلا أحد أبصر[(٣)] من الله ولا أسمع.

وقال ابن زيد: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سميعًا بصيرًا.

وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أى: إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر، الذى لامعقّب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾.

يقول تعالى آمرًا رسوله [عليه الصلاة والسلام][(٤)] بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه[(٥)] إلى الناس: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أى: لا مغير[(٦)] لها ولا محرف ولا مؤوّل.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: [عن مجاهد: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال: ملجأ. وعن قتادة: وليًا ولا مولى][(٧)]. قال ابن جرير: يقول[(٨)]: «إن أنت يامحمد لم تتل ما أوحى إليك من كتب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله». كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أى: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة.

(١) فى ت: «ومن». (٢) فى أ: «ابن عباس». (٣) فى ت: «أنصر».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت «وابتلاغه».
(٦) فى ت، ف: «أى غير مغير». (٧) زيادة من أ. (٨) فى ت: «ويقول».

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: اجلس[١] مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت فى أشراف قريش، حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده[٢]، ولا يجالسهم[٣] بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب [وخباب][٤] وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ[٥] الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس[٦] مع هؤلاء، فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

قال مسلم فى صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدى، عن إسرائيل، عن المقدام بن شُرَيْح،، عن أبيه، عن سعد ـ هو ابن أبى وقاص ـ قال: كنا مع النبى ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبى ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا!. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل،، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما[٧]، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى [٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبى التَّيَّاح قال: سمعت أبا الجعد يحدّث عن أبى أمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص، فأمسك، فقال رسول الله ﷺ: «قُص، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس، أحب إلىَّ من أن أعتق أربع رقاب»[٩].

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا هاشم[١٠]، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن مَيْسرَةَ قال: سمعت كُرْدُوس بن قيس ـ وكان قاص العامة بالكوفة ـ يقول: أخبرنى رجل من أصحاب بدر: أنه سمع النبى ﷺ يقول: «لأن أقعد فى مثل هذا المجلس أحب إلىّ من أن أعتق أربع رقاب». قال شعبة: فقلت: أى مجلس؟ قال: كان قاصا[١١] [١٢].

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده: حدثنا محمد، حدثنا يزيد بن أبان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة[١٣] إلى طلوع الشمس، أحَبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلىّ من أن أعتق

(١) فى ت: «يجلس».
(٢) فى ت، ف: «وحدهم».
(٣) فى ت: «تجالسهم».
(٤) زيادة من ف.
(٥) فى ت: «يطرد».
(٦) فى ت: «فى المجلس».
(٧) فى ت: ، ف: «اسمهما».
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤١٣).
(٩) المسند (٥/ ٢٦١).
(١٠) فى ت: «هشام».
(١١) فى ت: «وقاص».
(١٢) المسند (٣/ ٤٧٤) وكردوس بن قيس لم يوثقه إلا ابن حبان.
(١٣) فى ت: «الغد».

ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً». فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس، فبلغت ستة وتسعين[١] ألفاً، وههنا من يقول: «أربعة من ولد إسماعيل» واللَّه ما قال إلا ثمانية، دية كل واحد منهم اثنا[٢] عشر ألفاً[٣].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمر، عن الأغر أبي[٤] مسلم ـ وهو الكوفي ـ أن رسول اللَّه ﷺ مرّ برجل يقرأ سورة الكهف، فلما رأى النبي ﷺ سكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم».

هكذا رواه أبو أحمد، عن عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمر، عن الأغر مرسلاً. وحدثناه يحيى بن المعلى، عن[٥] منصور، حدثنا محمد[٦] بن الصلت، حدثنا عمرو بن ثابت، عن علي بن الأقمر، عن الأغر أبي مسلم[٧]، عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: جاء رسول اللَّه ﷺ، ورجل يقرأ سورة الحِجْر أو سورة الكهف، فسكت، فقال رسول اللَّه ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسَي معهم»[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر[٩]، حدثنا ميمون المَرئي، حدثنا ميمون بن سِيَاه، عن أنس بن مالك، رضي اللَّه عنه، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون اللَّه، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلت سيئاتُكم حسنات»[١٠]. تفرد به أحمد، رحمه اللَّه.

وقال الطبراني: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن أسامة بن زيد[١١]، عن أبي حازم، عن عبد الرحمن بن سهل بن حُنيف قال: نزلت على رسول اللَّه ﷺ، وهو في بعض أبياته: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، فخرج يلتمسهم، فوجد قوماً يذكرون اللَّه، منهم ثائر الرأس، وجافي الجلد[١٢]، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: «الحمد للّه الذي جعل في أمتي من أمرني الله أن أصبر نفسي معهم»[١٣].

عبد الرحمن هذا، ذكره أبو بكر بن أبي داود في الصحابة[١٤]. وأما أبوه فمن سادات الصحابة،

---

(١) في ت: «وسبعين». (٢) في ت: «اثنتا».
(٣) مسند الطيالسي برقم(٢١٠٤) ويزيد بن أبان ضعيف.
(٤) في ت: «أي». (٥) في ت، ف: «بن». (٦) في ت: «أحمد».
(٧) في ت: «الأغر بن أبي مسلم».
(٨) مسند البزار برقم(٢٣٢٥، ٢٣٢٦) «كشف الأستار»، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٦٤): «وفيه عمرو بن ثابت أبو المقدام وهو متروك».
(٩) في ف، أ: «بكير».
(١٠) المسند (٣/ ١٤٢) وميمون المرئي ضعيف.
(١١) في ت: «زيدي». (١٢) في ف: «الجلود».
(١٣) ورواه ابن منده وأبو نعيم في الصحابة كما في أسد الغابة(٣/ ٣٥٣) من طريق أبي حازم به.
(١٤) وتعقبه ابن الأثير بقوله: «ولا يصح، وإنما الصحبة لأبيه ولأخيه أبي أمامة، وله رؤية».

رضى الله عنهم .

وقوله: ﴿ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم: يعنى: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة.

﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أى: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿[وَاتَّبَعَ هَوَاهُ][1] وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ أى: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذى جئتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أى: أرصدنا ﴿لِلظَّالِمِينَ ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أى: سورها .

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا درَّاج، عن أبى الهيثم[2]، عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لسُرَادِق النار أربعة جُدُر، كثافة كل جدار مثل مسافة أربعين سنة».

وأخرجه الترمذى فى «صفة النار» وابن جرير فى تفسيره، من حديث دراج أبى السَّمح به[3] .

[وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، قال: حائط من نار][4].

قال ابن جرير: حدثنى الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا: حدثنا أبو عاصم، عن عبدالله ابن أمية، حدثنى محمد بن حيى بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: « البحر هو جهنم» قال: فقيل له: [كيف ذلك ؟][5] فتلا هذه الآية ـ أو: قرأ هذه الآية ـ: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، ثم قال: « والله لا أدخلها أبداً أو: ما دمت حياً ـ ولا تصيبنى منها قطرة»[6].

وقوله: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قال ابن عباس: «المهل»: ماء غليظ مثل[7] دردى الزيت.

---

(١) زيادة من ف. (٢) فى ت: «هشيم».
(٣) المسند(٣/ ٢٩) وسنن الترمذى برقم(٢٥٨٤) وتفسير الطبرى (١٥/ ١٥٧). ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.
(٤، ٥) زيادة من ف.
(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ١٥٧).
(٧) فى ت: «قيل».

وقال مجاهد: هو كالدم والقيح. وقال عكرمة: هو الشيء الذى انتهى حَرّه: وقال آخرون: هو كل شيء أذيب.

وقال قتادة: أذاب ابنُ مسعود شيئاً من الذهب فى أخدود، فلما انماع وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل.

وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهى سوداء وأهلها(١) سود.

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أى: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقَرّبه من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم فى سُرادِق النار عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « ماء كالمهل ». قال(٢): «كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه» (٣)، وهكذا رواه الترمذى فى «صفة النار» من جامعه، من حديث رِشْدين بن سعد(٤)، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به(٥). ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث «رشدين»، وقد تكلم فيه من قبل حفظه،، هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لَهيعة، عن درّاج، واللَّه أعلم (٦).

وقال عبد اللَّه بن المبارك، وبَقيَّة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبد اللَّه بن بُسْر، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧] قال: «يقرب إليه فيتكرّهه، فإذا قرب منه شَوَى وجههَ ووقعت فروةُ رأسه، فإذا شربه(٧) قطع أمعاءه، يقول اللَّه تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾».

وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا(٨) منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن مارًا مرّ بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها. ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون. فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذى قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم(٩) وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود.

ولهـذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه(١٠) الصفات [الذميمة](١١) القبيحة: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ أى: بئس هذا الشراب(١٢)، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ تُسْقَىٰ(١٣) مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ [الغاشية: ٥] أي: حارة، كما قال: ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٤].

---

(١) فى ف،أ: «شجرها».
(٢) فى ت: « قال كالمهل».
(٣) المسند(٣/ ٧٠).
(٤) فى ت: « بن الأسعد».
(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٨١).
(٦) فى ت: «فالله أعلم».
(٧) فى ت، ف : «شرب».
(٨) فى ت، ف: «فيأكلون».
(٩) فى ت: «جلود».
(١٠) فى ت: «بهذا».
(١١) زيادة من ف، أ.
(١٢) فى ف، أ: «شرابا».
(١٣) فى ف:« يسقى».

﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [أي: وساءت النار][١] منزلاً ومَقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق[٢] كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة .

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت غرفهم ومنازلهم، قال [لهم][٣] فرعون: ﴿ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف: ٥١].

﴿ يُحَلَّوْنَ﴾ أي: من الحلية ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر: ﴿ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وفصله ههنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فالسندس: لباس[٤] رقاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق.

وقوله: ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾: الاتكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا ومنه الحديث [في][٥] الصحيح: « أما أنا فلا آكل متكئاً »[٦] فيه القولان .

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحَجَلة، والحجلة كما يعرفه[٧] الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم .

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرُ، عن قتادة: ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ قال: هي الحجال. قال معمر: وقال غيره: السُّرُر في الحجال[٨].

وقوله: ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[أي: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي: حسنت منزلا ومقيلا ومقاماً، كما قال في النار: ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾] [الكهف: ٢٩][٩]. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

---

(١) زيادة من ف.
(٢) في ت: «للارتفاع».
(٣) زيادة من ت.
(٤) في ت، ف، أ: «ثياب».
(٥) زيادة من ت، ف.
(٦) صحيح البخاري برقم (٥٣٩٨).
(٧) في ت، ف: «تعرفه».
(٨) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٣٩).
(٩) زيادة من ف.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾.

يقول الله تعالى بعد ذكر[١] المشركين المستكبرين عن مجالسة[٢] الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم[٣] مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل[٤] المحدقة فى جنباتهما، وفى خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبلٌ فى غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: خرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار تتخرق فيهما ههنا وههنا.

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به: المال. رُوى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار وهو أظهر ههنا، ويؤيده القراءة الأخرى: «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون[٥] جمع ثَمرَة، كَخَشَبَة وخُشب، وقرأ آخرون: ﴿ثَمَر﴾ بفتح الثاء والميم.

فقال ـ أى صاحب هاتين [الجنتين][٦] ـ: ﴿ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أكثر خدماً وحشماً وولداً.

قال قتادة: تلك ـ و الله ـ أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر.

وقوله: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها[٧] من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف[٨]، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة[٩]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أى: كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أى: ولئن كان معاد ورجعة وَمَرَدٌّ إلى الله، ليكونَنّ لى هناك أحسن من هذا لأنى مُحظى[١٠] عند ربى، ولولا كرامتى[١١] عليه ما أعطانى هذا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[فصلت: ٥٠] وقال: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] أى: فى الدار الآخرة، تألى على الله، عز

---

(١) فى ت، ف: «ذكره». (٢) فى ت: «مجالسهم». (٣) فى ت، ف، أ: «لهم ولهم».
(٤) فى ف، أ: «بالنخيل». (٥) فى ت: « فيك». (٦) زيادة من ف.
(٧) فى ف: «فيهما». (٨) فى ت: «ولايسلم». (٩) فى ت: «بالأخرى».
(١٠) فى ت، ف: «محض». (١١) فى ت: «إكرامى».

وجل، وكان سبب نزولها فى العاص بن وائل، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: **﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾**؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذى خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: **﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾** [البقرة، ٢٨٠]، أى: كيف تجحَدُون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شىء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته، فعلم إسناد[١] إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل شىء؛ ولذا[٢] قال: **﴿ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾** أى: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية **﴿وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾** أى: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: **﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾** هذا تحضيض وحث على ذلك، أى: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: **﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾**؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شىء من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: **﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾** وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روى فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده:

حدثنا جَرَّاح بن مَخْلَد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عيسى بن عَوْن، حدثنا عبد الملك بن زُرَارَة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد، فيقول: **﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾** فيرى فيه آفة دون الموت». وكان يتأول هذه الآية: **﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾** [٣].

---

(١) فى ف: «استناد». (٢) فى ف: «ولهذا».

(٣) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٥٢٥) من طريق الحسن بن صباح، عن عمر بن يونس به.

قال الحافظ أبو الفتح الأزدى: عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس: لا يصح حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، حدثنى شعبة، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبى رُهْم، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا قوة إلا بالله». تفرد به أحمد(١).

وقد ثبت فى الصحيح(٢)، عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال له: « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنه؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»(٣).

وقال الإمام أحمد: حدثنا بكر(٤) بن عيسى، حدثنا أبو عوَانة، عن أبى بَلْج، عن عَمْرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لى نبى الله ﷺ: « يا أبا هريرة، أدلك(٥) على كنز من كنوز الجنه تحت العرش؟». قال: قلت: نعم، فداك أبى وأمى. قال: « أن تقول لا قوة إلا بالله ». قال أبوبَلج: وأحسب أنه قال: « فإن الله يقول: أسلم عبدى واستسلم». قال: فقلت لعمرو ـ قال أبو بَلَج: قال عَمْرو: قلت لأبى هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف: ﴿**وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾ (٦).

وقوله: ﴿ **فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ** ﴾ أى: فى الدار الآخرة ﴿**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا**﴾ أى: على جنتك فى الدنيا التى ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى ﴿**حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ**﴾ قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهرى: أى عذاباً من السماء.

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها ؛ولهذا قال: ﴿ **فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا**﴾ أى: بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قَدم.

وقال ابن عباس: كالجُرز الذى لا ينبت شيئاً .

وقوله: ﴿ **أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا**﴾ أى: غائراً فى الأرض، وهو ضد النابع الذى يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها(٧)، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ**﴾ [الملك: ٣٠] أى: جار وسائح. وقال ههنا: ﴿**أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**﴾ والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه ،كما قال الشاعر (٨):

تَظَلّ جيادُهُ نَوْحاً عَلَيه   تُقَلّدُهُ أعنّتَها صفُوفا

بمعنى: نائحات عليه .

---

(١) المسند (٢/ ٤٦٩).

(٢) فى ف: «الصحيحين».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦١٠) وصحيح مسلم برقم(٢٧٠٤).

(٤) فى ف، أ: «بكير».

(٥) فى ت، ف: «ألا أدلك».

(٦) المسند (٢/ ٣٣٥).

(٧) فى ت، ف: « أسفل».

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٣) غير منسوب.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾: بأمواله، أو بثماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوّفه به المؤمن من إرسال الحسبان[١] على جنته، التى اغتر بها[٢] وألهته عن الله، عز وجل ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ قال قتادة: يُصَفِّق كفيه متأسفًا متلهفاً على الأموال التى أذهبها عليه ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا. وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ﴾ أى: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختلف القراء ههنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا. هُنَالِكَ﴾ أى: فى ذلك الموطن الذى حل به عذاب الله، فلا منقذ منه، ويبتدئ [بقوله][٣] ﴿الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾، ومنهم من يقف على: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ويبتدئ بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾.

ثم اختلفوا فى قراءة ﴿الْوَلَايَةُ﴾ فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك الموالاة[٤] لله، أى: هنالك[٥] كل أحد[٦] من مؤمن أو كافر[٧]، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

ومنهم من كسر الواو من ﴿الْوَلَايَةُ﴾ أى: هنالك الحكم لله الحق.

ثم منهم من رفع ﴿الْحَقِّ﴾ على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

ومنهم من خفض القاف، على أنه نعت لله عز وجل، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أى: الأعمال التى تكون لله، عز وجل، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾.

---

(١) فى ت: «الحسنات». (٢) فى ت: «اعتز». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «الولاية». (٥) فى ت: «هناك». (٦) فى ف: «واحد».
(٧) فى ف: «وكافر».

يقول تعالى: ﴿وَاضْرِبْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فى زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ أى: ما فيها من الحَبّ، فشب وحسن، وعلاه[١] الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله ﴿أَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أى: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال[٢] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أى: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال[٣]، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما فى سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١] . وقال في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفى الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة»[٤].

وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] أى: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: الصلوات الخمس.

وقال عطاء بن أبى رباح، وسعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وهكذا سُئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، عن: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ ما هى؟ فقال: هى[٥] لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولاحول ولا قوة إلا بالله. رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حَيْوَة، أنبأنا أبو عقيل، أنه سمع الحارث مولى عثمان، رضى الله عنه، يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء فى إناء، أظنه أنه سيكون فيه مُد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئى هذا، ثم قام فصلى[٦] صلاة الظهر، غُفر له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب غُفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلي العشاء غُفر له ما

(١) فى ت: «وعلا». (٢) فى ت: «ذات يمين وذات شمال». (٣) فى ت: «هذه الحالة وهذه الحالة».
(٤) سبق تخريجه عند تفسير الآية الثامنة من هذه السورة.
(٥) فى ت: «هن». (٦) فى ت، ف: «يصلى».

بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ[١] ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح، غُفر له ما بينها[٢] وبين صلاة العشاء وهى الحسنات يذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله، وسبحان اللّه، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولاقوة إلا بالله[٣] . تفرد به[٤].

وروى مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد[٥]، عن سعيد بن المسيب قال: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال محمد بن عَجْلان، عن عمارة قال: سألنى سعيد بن المسيب عن ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾، فقلت: الصلاة والصيام. قال[٦]: لم تصب. فقلت: الزكاة والحج. فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ابن جريج: أخبرنى عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن نافع بن سَرْجس، أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر،[وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالّله. قال ابن جريج: وقال عطاء بن أبى رباح مثل ذلك.

وقال مجاهد: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبر][٧].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمر، عن الحسن وقتاده فى قوله : ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنّ الباقيات الصالحات.

قال ابن جرير: وجدت فى كتابى عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبى نصر التمار ،عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقْبرى، عن أبيه، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، منَ الباقيات الصالحات»[٨].

قال: وحدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث أن درّاجًا أبا السمح حَدّثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: « استكثروا من الباقيات الصالحات». قيل: وما هى[٩] يا رسول الله ؟ قال:« الملة». قيل: وما هى يارسول الله؟ قال: « التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وهكذا، رواه أحمد، من حديث دراج، به[١٠].

وبه قال ابن وهب: أخبرنى أبو صَخْر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولى سالم بن عبد الله

(١) فى ف، أ: «لعله يتمرغ». (٢) فى ت: «بينهما». (٣) فى أ: «بالله العلى العظيم».
(٤) المسند (١/ ٧١).
(٥) فى ف: «جياد». (٦) فى ف: «فقال». (٧) زيادة من ف.
(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٧).
(٩) فى أ: «وماهن».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٧) والمسند (٣/ ٧٥).

حَدّثه قال : أرسلنى سالم إلى محمد بن كعب القرظى، فقال: قل له: القنى عند زاوية القبر، فإن لى إليك حاجة. قال: فالتقيا، فسلم أحدهما على الآخر، ثم قال سالم: ما تعد الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فقال له سالم: متى جعلت فيها «لا حول ولا قوة إلا بالله ؟» فقال: مازلت أجعلها. قال: فراجعه(١) مرتين أو ثلاثاً، فلم ينزع، قال: فأثبت(٢) . قال سالم : أجل فأثبت(٣) ،فإن أبا أيوب الأنصارى حدثنى أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول: « عرج بى إلى السماء فأريت إبراهيم عليه السلام، فقال: يا جبريل، من هذا معك ؟ فقال: محمد. فرحب بى وسَهَّل، ثم قال: مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة، فإن تربتها طيّبة وأرضها واسعة. فقلت: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام، حدثنى رجل من الأنصار، من آل النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن فى المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض، حتى ظننا أنه قد حدث فى السماء شىء، ثم قال: «أما إنه سيكون بعدى أمراء، يكذبون ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم، فليس منى ولا أنا منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم(٥) فهو منى وأنا منه. ألا وإن «سبحان الله، والحمد لله ،ولا إله إلا الله ،والله أكبر هُنّ الباقيات الصالحات» (٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن كثير، عن زيد، عن أبى سلام [عن](٧) مولى لرسول الله ﷺ [أن رسول الله ﷺ](٨) قال : «بخ بخ لخمس ما أثقلهن فى الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه(٩) والده». وقال :« بخ بخ لخمس من لقى الله مستيقناً بهن، دخل الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب(١٠)»(١١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوْح، حدثنا الأوزاعى، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس، رضى الله عنه،[فى سفر](١٢) فنزل منزلاً، فقال لغلامه:« ائتنا بالشَّفرة نعبث بها». فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه. فلا تحفظوها على (١٣) ،واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا(١٤) هؤلاء الكلمات : اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد ، وأسألك(١٥) شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير

---

(١) فى ف، أ :«فراجعته». (٢) فى ف، أ: «فأبيت». (٣) فى أ :«فأبيت».
(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٦).
(٥) فى أ: «ولم يمالئهم على ظلمهم».
(٦) المسند (٤/ ٢٦٧).
(٧، ٨) زيادة من ف، والمتند. (٩) فى ت: «فيحتسبنه». (١٠) فى ت، ف: «والحساب».
(١١) المسند (٤/ ٢٣٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٨٨): «رجاله رجال الصحيح».
(١٢) زيادة من ف، والمسند. (١٣) فى ت: «على ذلك». (١٤) فى أ: «فاكثروا».
(١٥) فى ت: «وأشكرك».

ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»(١).

ثم رواه أيضاً والنسائى(٢)، من وجه آخر عن شداد، بنحوه (٣).

وقال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفى، حدثنى أبى، حدثنا عمر بن الحسين، عن يونس بن نفيع الجدلى، عن سعد بن جنادة، رضى اللّه عنه، قال: كنت فى أول من أتى النبى ﷺ من أهل الطائف، فخرجت من أهلى(٤) من السراة غدوة، فأتيت منى عند العصر، فتصاعدت في الجبل ثم هبطت، فأتيت النبى ﷺ فأسلمت، وعلمنى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، وعلمنى هؤلاء الكلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال: « هن الباقيات الصالحات». وبهذا الإسناد: «من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه، ثم قال: سبحان الله مائة مرة، والحمد لله مائة مرة، والله أكبر مائة مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل »(٥).

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: هى ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات. وهن الباقيات الصالحات، التى تبقى لأهلها فى الجنة، ما دامت السموات والأرض .

وقال العوفى، عن ابن عباس : هُنّ الكلام الطيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هى الأعمال الصالحة كلها. واختاره ابن جرير، رحمه الله.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾.

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾[الطور: ٩، ١٠] أى: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال:

---

(١) المسند (٤/ ١٢٣).

(٢) فى ت: «فالنسائى».

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم(١٢٢٧).

(٤) فى ت، ف، أ: «من أهلى الطائفة».

(٥) المعجم الكبير (٦/ ٥١) وفيه الحسين العوفى ضعيف.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]. يقول تعالى: إنه تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: سطحاً مستوياً لا عوج فيه ﴿وَلا أَمْتًا﴾ أى: لا وادى ولا جبَل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [أى: بادية ظاهرة، ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يوارى أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية.

قال مجاهد، وقتاده: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾] (١) لا خَمَرَ فيها ولا غَيَابة. قال قتادة: لا بناءَ ولا شَجَر.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أى: وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩, ٥٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدى الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، يحتمل أنهم يقومون(٢) صفوفاً صفوفا، كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أى: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أى: كتاب الأعمال، الذى فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أى: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أى: ياحسرتنا وويلنا(٣) على ما فرطنا فى أعمارنا ﴿مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ أى: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر ﴿إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ أى: ضبطها، وحفظها.

وروى الطبرانى، بإسناده المتقدم فى الآية قبلها، إلى سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حُنَيْن، نزلنا قفراً من الأرض، ليس فيه شىء، فقال النبى ﷺ: «اجمعوا، من وجد عُودًا فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه رُكاماً، فقال النبى ﷺ: «أترون هذا؟ فكذلك تُجْمَع الذنوبُ على الرجل منكم كما جَمَعْتُم هذا. فليتق الله رجل ولا

---

(١) زيادة من ف. (٢) فى ف، أ: «أن يقوموا». (٣) فى ت، ف، أ: «وويلتنا».

يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها مُحصَاة عليه »[١].

وقوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أي: من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أي: تظهر المخبآت والضمائر.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن ثابت، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يومَ القيامة [يعرف به»[٢].

أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: «يُرْفَع لكل غادر لواء يوم القيامة][٣] عند استه بقدر غَدْرته، يقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان»[٤].

وقوله: ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحدا من خلقه، بل يغفر[٥] ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، [ثم ينجي أصحاب المعاصي][٦] ويُخلَّد فيها الكافرون[٧]، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا[٨] تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والآيات في هذا[٩] كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكي، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رَحْلي، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس[١٠] فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج يطأ ثوبه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمَعَه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشُر الله، عز وجل، الناس يوم القيامة ـ أو قال: العبادَ ـ عُرَاةَ غُرْلاً بُهْمًا» قلت: وما بهمًا؟ قال: «ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قَربَ: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقصه[١١] منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند رجل من أهل النار حق، حتى أقصه[١٢] منه حتى اللطمة». قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله، عز وجل، عُراة غُرْلاً بُهْمًا؟ قال:

---

(١) المعجم الكبير (٦/ ٥٢). (٢) المسند (٣/ ١٤٢). (٣) زيادة من ف.

(٤) صحيح البخاري برقم (٣١٨٦) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٧).

(٥) في ت، ف: «يعفو». (٦) زيادة من ف.

(٧) في ف: «الكافرين». (٨) في ت: «ولا» وهو خطأ. (٩) في ت: «في هذه»، وفي ف: «فيهما».

(١٠) في ت: «أنس». (١١، ١٢) في ت، ف، أ: «أقضيه».

«بالحسنات والسيئات »[(١)].

وعن شعبة، عن العوام بن مُزَاحم، عن أبى عثمان، عن عثمان بن عفان، رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: « إن الجَمَّاء لتقتص من القرناء يوم القيامة»[(٢)]. رواه عبد الله بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه أخر، قد ذكرناها عند قوله: ﴿ وَنَضَعُ[(٣)] الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وعند قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾.

يقول تعالى منبهاً بنى آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذى أنشأه وابتداه، وبألطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ ﴾ أى: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره فى أول سورة «البقرة»[(٤)].

﴿اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ أى: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

وقوله ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: « خُلِقت الملائكة من نور، وخُلِق إبليس من مارج من نار، خُلق[(٥)] آدم مما وصف لكم»[(٦)]. فعند الحاجة نضح[(٧)] كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل فى خطابهم، وعصى بالمخالفة .

ونبه تعالى ههنا على أنه ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: إنه خُلق من نار، كما قال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، وص: ٧٦].

قال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم، عليه السلام، أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح [عنه] [(٨)] [(٩)].

---

(١) المسند (٣/ ٤٩٥). (٢) زوائد المسند(١/ ١٢).
(٣) فى ت: «ويضع». (٤) عند تفسير الآية: ٣٤. (٥) فى ت، ف، ومسلم: «وخلق».
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦). (٧) فى أ: «نضح لكم».
(٨) زيادة من ف، أ. (٩) تفسير الطبرى (١٥/ ١٧٠).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليس من حى من أحياء الملائكة، يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ـ قال: وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، وخُلقت الملائكة من نور غير هذا الحى ـ قال: وخلقت الجن الذين ذُكروا فى القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت.

وقال الضحاك أيضاً، عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان [السماء][١] الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه، من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك فى قلبه كبر[٢] لا يعلمه إلا الله. فاستخرج الله ذلك الكبر منه حين[٣] أمره بالسجود لآدم فاستكبر، وكان من الكافرين. قال ابن عباس: وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِ﴾ أى: من خزان [الجنان، كما يقال للرجل: مكى، ومدنى، وبصرى، وكوفى. وقال ابن جريج، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: هو من خزان][٤] الجنة، وكان يدبر أمر السماء الدنيا، رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد، به.

وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء [٥] الدنيا.

وقال ابن إسحاق، عن خَلاَّد بن[٦] عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كان إبليس ـ قبل أن يركب المعصية ـ من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض. وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً. فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يسمون جنا.

وقال ابن جُرَيْج، عن صالح مولى التَّوْأمة وشريك بن أبى نَمِر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجنّ، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض. فعصى، فسخط الله عليه، فمسخه شيطاناً رجيماً ـ لعنه الله ـ ممسوخاً، قال: وإذا كانت خطيئة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه، وإذا كانت فى معصية فارجه.

وعن سعيد بن جُبَيْر أنه قال: كان من الجنانين، الذين يعملون فى الجنة.

وقد رُوى فى هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا، وفى القرآن غُنْيَةٌ عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين يَنْفُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه [الأمة من][٧] الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء والأبرار النجباء[٨]، من الجهابذة النقاد، والحفاظ

---

(١) زيادة من ت، ف، أ.
(٢) فى ف: «كبر فى قلبه».
(٣) فى ت: «حتى».
(٤) زيادة من ف.
(٥) فى ت، ف: «السماء».
(٦) فى ف: «عن».
(٧) زيادة من ف.
(٨) فى أ: «البررة والنجباء».

الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى، خاتم الرسل، وسيد البشر[عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات][(١)]، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس [منه][(٢)]، فرضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فَعَل.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أى: فخرج عن طاعة الله؛ فإن الفسق هو الخروج، يقال[(٣)]: فَسَقَت الرُّطَبَة: إذا خرجت من أكمامها[(٤)]، وفسقت الفأرة من جُحْرها: إذا خرجت منه للعيث[(٥)] والفساد.

ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى﴾ أى: بدلاً عنى؛ ولهذا قال: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء فى سورة يس: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾.

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دونى عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلقى للسموات[(٦)] والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وَحْدى، ليس معى فى ذلك شريك ولا وزير، ولامشير ولا نظير، كما قال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآية [سبأ: ٢٢، ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال مالك : أعواناً .

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً:

(١) زيادة من أ.
(٢) زيادة من ف.
(٣) فى أ: «تقول».
(٤) فى أ: «كمامها».
(٥) فى أ: «للعنت».
(٦) فى ف، أ: « خلق السموات».

﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أى: فى دار الدنيا، ادعوهم اليوم، ينقذونكم مما[1] أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ][2]وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة، وغير واحد: مَهْلكًا[3].

وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر البكالى[4] حدث عن عبد الله بن عمرو قال: هو واد عميق، فُرِق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة.

وقال قتادة: ﴿مَّوْبِقًا﴾: وادياً فى جهنم.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سنان القزاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم سمعت أنس بن مالك يقول فى قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال: واد فى جهنم، من قيح ودم.

وقال الحسن البصرى: ﴿مَّوْبِقًا﴾: عداوة.

والظاهر من السياق ههنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً فى جهنم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبر[5] أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

وأما إن جعل الضمير فى قوله: ﴿بَيْنَهُم[6]﴾ عائداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله ابن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ. فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ. هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠].

---

(١) فى ت: «بما». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: «هلكًا».
(٤) فى أ: «البكائى». (٥) فى أ: «خير». (٦) فى ت: «بينهما».

وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: إنهم لما عاينوا جهنم حين[١] جىء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه، عذاب ناجز .

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: ليس [٢] لهم طريق يعدل بهم عنها ولابد لهم منها .

قال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن درّاج عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله[٣] ﷺ أنه قال: « إن الكافر يرى[٤] جهنم، فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين[٥] سنة »[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن[٧] لَهيعة، حدثنا دَرّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: « ينصب للكافر مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل فى الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم، ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة » [٨].

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى: ولقد بينا للناس فى هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا[٩] يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة .

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى على بن الحسين، أن حسين بن على أخبره، أن على بن أبى طالب أخبره، أن رسول اللَّه[١٠] ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يارسول اللَّه، إنما أنفسنا بيد اللَّه، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثنا. فانصرف حين قلت ذلك، ولم يَرْجع إلىّ شيئًا، ثم سمعته وهو مولٍّ[١١] يضرب فخذه [ويقول][١٢] : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾. أخرجاه فى الصحيحين [١٣].

---

(١) فى ت: «حتى». (٢) فى ت، ف، أ: «وليس». (٣) فى ف، أ: «عن النبى».
(٤) فى ف، أ: «ليرى». (٥) فى ف: «أربعمائة».
(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ١٧٣) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.
(٧) فى ت: «أبى» وهو خطأ.
(٨) المسند(٣/ ٧٥).
(٩) فى ف، : «لئلا». (١٠) فى ف، أ: «النبى». (١١) فى ت، ف، أ: «يقول».
(١٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١٣) المسند(١/ ١١٢) وصحيح البخارى برقم (١٢٢٧) وصحيح مسلم برقم (٧٥٥).

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) ﴾.

يخبر تعالى عن تمرد[١] الكفرة فى قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات [والآثار][٢] والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذى وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿ائْتِنَا[٣] بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦، ٧] إلى غير ذلك [من الآيات الدالة على ذلك][٤].

ثم قال: ﴿ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ أى: يرونه عياناً مواجهة [ومقابلة][٥]، ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِى وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ أى: قبل العذاب مبشرين[٦] من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين[٧] مَنْ كذبهم وخالفهم.

ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ ﴾ أى: ليضعفوا به ﴿الْحَقَّ ﴾ الذى جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم. ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِى وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ أى: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التى بعث[٨] بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا ﴾ أى: سخروا منهم فى ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩) ﴾.

يقول تعالى: وأى عباد الله أظلم[٩] ممن ذكر بآيات الله[١٠] فأعرض عنها، أى: تناساها وأعرض

---

(١) فى ت: «ثمود». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت، أ: «فاتنا» وهو خطأ.
(٤، ٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ت، ف، أ: «مبشرون». (٧) فى ت، ف، أ: «ومنذرون».
(٨) فى ت، أ: «أبعث». (٩) فى أ: «وأى عبادى أظلم». (١٠) فى ف: «ربه».

عنها، ولم يصغ[١] لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وغشاوة، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلا يفهموا [٢] هذا القرآن والبيان، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمم معنوي عن الرشاد، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أي: ربك[٣] ـ يا محمد ـ غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا[٤] مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. والآيات فى هذا كثيرة.

ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغى إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أي: ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أي: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت[معلوم][٥] معين، لايزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول[٦] وأعظم نبى، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابى ونذر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾.

سبب قول موسى [عليه السلام][٧] لفتاه ـ وهو: يُوشع بن نُون ـ هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أى لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذى فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق:

(١) فى ت: «يضع».
(٢) فى ت: «يفهم»، وفى ف، أ: «يفهموه».
(٣) فى ف، أ: «وربك».
(٤) فى ت: «ماترك عليها» وهو خطأ.
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ت: «رسول الله ﷺ».
(٧) زيادة من ف، أ.

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَهَادَتْ نسَاؤهُم ... بِبَطْحَاء ذى قار عيابَ اللطَائم[١]

قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلى المشرق، وبحر الروم مما يلى المغرب.

وقال محمد بن كعب القُرظى: مجمع البحرين عند طنجة، يعنى فى أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أى: ولو أنى أسير حقباً من الزمان.

قال ابن جرير، رحمه اللَّه: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب فى لغة قيس[٢]: سنة. ثم قد روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقُب ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفاً. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قال: دهراً. وقال قتادة، وابن زيد، مثل ذلك.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدتَ الحوت فهو ثَمّة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين؛ وهناك عين يقال لها: «عين الحياة»، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب[٣]، وكان فى مكتل مع يوشع [عليه السلام][٤]، وطَفَر من المكتَل إلى البحر، فاستيقظ يُوشع، عليه السلام، وسقط الحوت فى البحر وجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده؛ ولهذا قال: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أى: مثل السرَب فى الأرض.

قال ابن جريج[٥]: قال ابن عباس: صار أثره كأنه حَجَر.

وقال العوفى، عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة[٦].

وقال محمد ـ [هو][٧] بن إسحاق ـ عن الزهرى، عن عُبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: «ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره، ثبت[٨] مكان الحوت الذى فيه، فانجاب كالكُوّة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه»، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

وقال قتادة: سَرَب من البر[٩]، حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا جعل[١٠] ماء جامداً.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أى: المكان الذى نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يُوشَع

---

(١) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٧٦).

(٢) فى ف، أ: «العرب».
(٣) فى ف، أ: «فاضطربت».
(٤) زيادة من ت، ف، أ.
(٥) فى ت: «جرير».
(٦) فى ت، ف، أ: «كصخرة».
(٧) زيادة من أ.
(٨) فى أ: «غير مثبت».
(٩) فى ت، أ: «الحر».
(١٠) فى ت، أ: «صار».

هو الذى نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من[1] المالح فى أحد القولين.

فلما ذهبا عن المكان الذى نسياه فيه مَرْحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا [نَصَبًا][2]﴾ أى: الذى جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعنى: تعباً. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: [«وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان»][3]، ولهذا قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أى: طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أى: هذا الذى نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أى: رجعا ﴿عَلَى آثَارِهِمَا﴾ أى: طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ أى: يقصان أثر مشيهما، ويقفوان أثرهما.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر، عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ. بذلك قال البخارى:

حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرنى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكَالىّ يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عَدُوّ الله، حدثنا أبى بن كعب، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فَسُئل: أى الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يَرُدّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إنّ لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يارب، وكيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتاً، تجعله[4] بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو[5] ثم. فأخذ حوتا، فجعله بمكتل[6]، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه[7] يُوشع بن نون عليهما[8] السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل، فخرج منه، فسقط فى البحر واتخذ[9] سبيله فى البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جريةَ الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوزَا المكان الذى أمره الله به. قال له فتاه[10]: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: «فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾». قال: «فرجعا[11] يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسَجّى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخَضِر: وَأنّى بأرضك السلام!. قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمنى مما عُلِّمت رشداً. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه، لاتعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله عَلّمكَه الله لا

---

(١) فى ف، أ: «على».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) زيادة من ف، أ، وفى هـ: «أن أذكره».
(٤) فى أ: «فتجعله».
(٥) فى أ: «منهم».
(٦) فى ف: «فى مكتل».
(٦) فى ف: «فتاه».
(٨) فى ت، ف: «عليه».
(٩) فى ف: «فاتخذ».
(١٠) فى ت: «قتادة» وهو خطأ.
(١١) فى ف: «فرجعان».

أعلمه . فقال موسى: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوه[١]، فعرفوا الخضر، فحملوهم[٢] بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول فعمدت[٣] إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ[٤] إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا .قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ قال: وقال رسول اللهﷺ:«كانت الأولى من موسى نسياناً ». قال: وجاء عصفور فنزل[٥] على حرف السفينة فنقر فى البحر نَقْرة،[أو نقرتين][٦] ،فقال له الخضر: ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه [بيده][٧] فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً[٨] بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟! قال:« وهذه أشد من الأولى»، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي[٩] عُذْرًا . فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ[١٠]﴾ قال : مائل. فقال الخضر بيده: ﴿فَأَقَامَهُ﴾، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما ».

قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً » وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين »[١١].

ثم رواه[١٢] البخارى عن قتيبة، عن سفيان بن عُيينة. . . فذكر نحوه[١٣]، وفيه:« فخرج موسى ومعه فتاه يُوشع بن نون، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها ـ قال: فوضع موسى رأسه فنام ـ قال سفيان: وفى حديث غير[١٤] عمرو قال: وفى أصل الصخرة عين يقال لها:الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيى: فأصاب[١٥] الحوت من ماء تلك العين،قال، فتحرك وانسل من المكتل، فدخل البحر ، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾. كذا قال: وساق[١٦] الحديث.ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره فى البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمى

(١) فى ف، أ: «يحملوهم».
(٢) فى ت: «فحملوه»، وفى ف، أ: «فحملوا».
(٣) فى ف، أ: «عمدت».
(٤) فى ف، أ:« أقل لك» وهو خطأ.
(٥) فى ف، أ: «فوقع».
(٦) زيادة من أ.
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف، أ: «زاكية».
(٩) فى ف: «قد بلغت منى» وهو خطأ.
(١٠) فى ت: « ينقض فأقامه».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٥).
(١٢) فى أ: «ورواه».
(١٣) فى ت، ف، أ: «فذكره بنحوه».
(١٤) فى ت، ف، أ: «عن».
(١٥) فى ت:«قال: فأصاب».
(١٦) فى أ: «وسباق».

وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدارُ ما غمس هذا العصفورُ منقاره وذكر تمامه بنحوه(١).

وقال البخارى أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جُرَيْج أخبرهم قال: أخبرنى يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير ـ يزيد أحدهما على صاحبه ـ وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبير قال: إنا لعند ابن عباس فى بيته، إذ قال: سلونى. فقلت: أى أبا عباس، جعلنى الله فداك، بالكوفة رجل قاص، يقال له: «نوف» يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل ـ أما عمرو فقال لى: قال(٢): كذب عدو الله! وأما يعلى فقال لى: قال ابن عباس: حدثنى أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: « موسى رسول الله، ذكَّر الناس يوماً، حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب، ولى، فأدركه رجل فقال: أى رسول الله، هل فى الأرض(٣) أحد أعلم منك ؟ قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أى رب، وأين؟ قال: بمجمع البحرين. قال: أى رب، اجعل لى علماً أعلم ذلك به» . قال لى عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت، وقال لى يعلى: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح. فأخذ حوتاً فجعله فى مكتل، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرنى حيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كبيراً. فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون، ليست عن سعيد بن جبير، قال: « فبينا(٤) هو فى ظل صخرة فى مكان ثريان(٥)، إذ تَضَرَّب(٦) الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره، وتَضَرَّب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جَرْيَة الماء حتى كأن أثره فى حجر». [قال: فقال لى عمرو: هكذا كأن أثره فى حجر](٧)، وحلق بين إبهاميه والتى تليهما : ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال: «وقد قطع الله عنك النصب» ليست هذه عن سعيد ـ أخبره، فرجعا فوجدا خَضِراً. قال : قال (٨) عثمان بن أبى سليمان: على طِنْفِسَة خضراء على كبِد(٩) البحر. قال سعيد بن جبير: مُسَجى بثوب، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرض من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك ؟ قال: جئتك لتعلمنى مما علمت رشداً . قال: يكفيك(١٠) التوراة(١١) بيدك، وأن الوحى يأتيك! . ياموسى، إن لى علماً لا ينبغى لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغى لى أن أعلمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر[فقال: والله ما علمى وعلمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر](١٢)، حتى إذا ركبا فى السفينة وجدا معابر صغاراً تحمل(١٣) أهل هذا الساحل إلى (١٤) هذا الساحل الآخر عرفوه، فقالوا: عبد الله الصالح؟. قال: فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم. لا نحمله بأجر. فخرقها، وَوَتَدَ فيها وتداً. قال موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٧).
(٢) فى أ : « فقال وقال».
(٣) فى ت: «هل على الأرض»، وفى ف: «هل فى الناس».
(٤) فى ت: «فبينما».
(٥) فى ف، أ: «يريان».
(٦) ف أ : «يضرب».
(٧) زيادة من ف، أ، والبخارى .
(٨) فى ف، أ : «قال لى».
(٩) فى ت: «كبده».
(١٠) فى أ: «أما يكفيك»، وفى ت: «الا تكفيك
(١١) فى ف: «أما يكفيك أن التوراة».
(١٢) زيادة من ف، أ، والبخارى .
(١٣) فى ت: «فحمد».
(١٤) فى ت، أ: «إلى أهل».

شَيْئًا إِمْرًا﴾. قال مجاهد: منكراً. قال: ﴿ **أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴾ كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً ﴿**قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا . فَانطَلَقَا**﴾ حتى لقيا غلاماً فقتله. قال يعلى: قال سعيد، وجد غلماناً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، فقال: ﴿**قَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً**﴾ لم تعمل بالحنث[١]. وابن عباس قرأها ﴿**زَكِيَّةً**﴾ ـ ﴿**زَاكِيَةً**﴾: مُسْلِمَة، كقولك[٢]: غلاماً زكيا فانطلقا، فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه، قال [سعيد][٣] بيده هكذا، ورفع يده فاستقام ـ قال يعلى: حسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده فاستقام ـ قال: ﴿**لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾ قال سعيد: أجراً نأكله ﴿**وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ** ﴾ وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: « أمامهم ملك» يزعمون عن غير سعيد أنه هُدَدُ بن بُدَدَ، والغلام المقتول[٤] اسمه ـ يزعمون ـ جَيسُور[٥] ﴿ **مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾ فأردت إذا هي مرت به أن يدعها بعيبها، فإذا جاوزه[٦] أصلحوها فانتفعوا بها .ومنهم من يقول: سدوها بقارورة. ومنهم من يقول: بالقار. ﴿**فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ** ﴾ وكان كافراً، ﴿ **فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا** ﴾. أن يحملهما حُبّه على أن يتابعاه[٧] على دينه ﴿ **فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً**﴾ كقوله: ﴿**قَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً**﴾، ﴿ **وَأَقْرَبَ رُحْمًا** ﴾: هما به أرحم منهما بالأول الذى قتل[٨] خضر. وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبدلا جارية. وأما داود بن أبى عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية[٩].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: خطب موسى، عليه السلام، بنى إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره منى. فَأمرَ أن يلقى هذا الرجل. فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان[١٠] ،والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عتيبة[١١]، عن سعيد بن جبير قال: جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم: يا أبا العباس، إن نوفاً بن امرأة كعب، يزعم عن كعب أن موسى النبى الذى طلب العالم إنما هو موسى بن ميشا ؟ قال سعيد: فقال ابن عباس: أنوْف يقول هذا؟ قال سعيد: فقلت له: نعم، أنا سمعت نوفاً يقول[١٢] ذلك. قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال: قلت: نعم. قال: كذب نوف. ثم قال ابن عباس: حدثنى أبى بن كعب، عن رسول الله ﷺ:« أن موسى بنى إسرائيل سأل ربه فقال: أى رب، إن كان فى عبادك أحد[١٣] هو أعلم منى، فدلنى عليه. فقال له: نعم، فى عبادى من هو أعلم منك. ثم نعت له مكانه[١٤] وأذن له فى لقيه. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه حوت مليح، قد قيل له:إذا [١٥] حيى هذا الحوت فى مكان، فصاحبك هنالك، وقد أدركت حاجتك. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه ذلك الحوت يحملانه، فسار حتى جهده السير، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء، وذلك الماء ماء الحياة، من

(١) فى ت: «لم تعلم بالحنث»، وفى ف، أ: «لم تعمل الحنث».
(٢) فى ت: «كقوله».
(٣) زيادة من ف، أ، والبخارى.
(٤) فى ت: «المقصود».
(٥) فى أ: «حيسون».
(٦) فى أ:« جاوزوا».
(٧) فى ت: «تبايعاه».
(٨) فى أ: «قتله».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٦) .
(١٠) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٤١، ٣٤٢).
(١١) فى ف، أ: «عيينة».
(١٢) فى ت: «فيقول».
(١٣) فى ت: «واحد».
(١٤) فى ف، أ: «بمكان».
(١٥) فى أ: «إنه إذا».

شرب منه خلد، ولا يقاربه شيء ميت إلا حيى. فلما نزلا ومس الحوت الماء حيىَ ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فانطلقا فلما جاوز مُنْقَلَبَه قال: موسى لفتاه: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا﴾، قال الفتى ـ وذكر ـ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾. قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهيا إليها، فإذا رجل متلفف فى كساء له، فسلم موسى، فردّ عليه العالم ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك فى قومك لَشُغل؟. قال له موسى: جئتك لتعلمنى مما علمت رشداً ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وكان رجلاً يعلم علم الغيب قد عُلِّم ذلك ـ فقال موسى: بلى. قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؟ أى: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم. ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وإن رأيتُ ما يخالفنى، قال: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ [وإن أنكرته][(١)] ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرّضان الناس، يتلمسان[(٢)] من يحملهما، حتى مرّت بهما سفينة جديدة وثيقة، لم يمرّ بهما من السفن أحسن ولا أكمل ولا أوثق منها. فسألا أهلها أن يحملوهما، فحملوهما[(٣)]، فلما اطمأنا فيها ولَجَجَت بهما مع أهلها، أخرج منقاراً له ومطرقة، ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها. ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها، ثم جلس عليها يرقعها، فقال: له موسى ـ ورأى أمراً أفظع به ـ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أى: بما تركت من عهدك، ﴿وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. ثم خرجا[(٤)] من السفينة فانطلقا، حتى أتيا[(٥)] أهل قرية، فإذا غلمان يلعبون خلفها، فيهم غلام ليس فى الغلمان غلام أظرفُ منه ولا أثري[(٦)] ولا أوضأ[(٧)] منه، فأخذه بيده، وأخذ[(٨)] حجراً فضرب به رأسه حتى دمغه فقتله، قال: فرأى موسى أمراً فظيعاً لا صبر عليه، صبى صغير قتله لا ذنب له[(٩)] قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً[(١٠)]﴾ أى: صغيرة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي[(١١)] عُذْرًا﴾ أى: قد أعذرتَ[(١٢)] فى شأنى. ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، فهدمه ثم قعد يبنيه، فضجر موسى مما يراه[(١٣)] يصنع من التكليف، وما ليس عليه صبر، قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: قد استطعمناهم فلم يطعمونا، وضفناهم فلم يُضيِّفونا، ثم قعدت تعمل من غير صنيعة، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً فى عمله؟. قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا . أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ـ وفى قراءة أبىّ بن كعب: «كل سفينة صالحة» ـ وإنما عبتها[(١٤)] لأرده عنها، فسلمت[(١٥)] حين رأى

(١) زيادة من ف ،أ، والطبرى.
(٢) فى ف، أ: «يلتمسان».
(٣) فى ت: «فحملوها».
(٤) فى ت: «خرجاه».
(٥) فى ف، أ: «حتى إذا أتيا».
(٦) فى ف ، أ: «ولا أبرأ».
(٧) فى أ: «ولا أضوأ».
(٨) فى ف: «فأخذ».
(٩) فى ف: «عليه».
(١٠) فى أ: «زاكية».
(١١) فى ف: « قد بلغت منى» وهو خطأ.
(١٢) فى ت: «عددت»، وفى أ: «عذرت».
(١٣) فى أ : «رآه».
(١٤) فى أ: «عيبتها».
(١٥) فى ف: «فسلمت منه».

العيب الذى صنعت بها. ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أى: ما فعلته عن نفسى، ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ وكان ابن عباس يقول: ما كان الكنز إلا علماً [١].

وقال العوفى، عن ابن عباس قال: لما ظهر موسى وقومه على مصر، أنزل قومه [٢] ،فلما استقرت بهم الدار، أنزل الله: أن ذكرهم بأيام الله. فخطب قومه، فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة، وذكرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون، وذكرهم هلاك عدوهم، وما استخلفهم الله فى الأرض، وقال: كلم الله نبيكم تكليماً، واصطفانى لنفسه، وأنزل علىّ محبة منه، وآتاكم الله من كل ما سألتموه؛ فنبيكم أفضل أهل الأرض، وأنتم تقرؤون التوراة، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها. فقال له رجل من بنى إسرائيل: هم[٣] كذلك يا نبى الله، قد عرفنا الذى تقول، فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله؟ قال: لا. فبعث الله جبرائيل إلى موسى، عليهما السلام[٤]، فقال: إن الله [عز وجل][٥] يقول: وما يدريك أين أضع علمى؟ بلى[٦]. إن على شط البحر رجلاً هو أعلم منك ـ قال ابن عباس: هو الخضر ـ فسأل موسى ربه أن يريه إياه، فأوحى إليه: أن ائت البحر، فإنك تجد على شط البحر حوتاً، فخذه فادفعه إلى فتاك، ثم الزم شط البحر، فإذا نسيت الحوت وهلك منك، فثم تجد العبد الصالح الذى تطلب. فلما طال سفر موسى نبى الله ونصب فيه، سأل فتاه عن الحوت، فقال له فتاه وهو غلامه: ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك ، قال الفتى: لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله فى البحر سرباً فأعجب ذلك موسى، فرجع حتى أتى الصخرة، فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب فى البحر ويتبعه موسى، وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع[٧] الحوت، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس، حتى يكون صخرة[٨]، فجعل نبى الله يعجب من ذلك، حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقى الخضر بها فسلم عليه، فقال الخضر: وعليك السلام ، وأنى يكون السلام بهذه[٩] الأرض؟ ومن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال[١٠] الخضر: أصاحب بنى إسرائيل ؟ [قال: نعم][١١] فرحب به وقال: ما جاء[١٢] بك ؟ قال: جئتك ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يقول: لا تطيق ذلك. قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألنى عن شيء أصنعه حتى أبين لك شأنه ، فذلك قوله : ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

وقال الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تمارى هو

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٨٠).
(٢) فى ت، ف، أ: «قومه مصر». (٣) فى أ: «هن».
(٤) فى ف: « جبريل عليه السلام إلى موسى عليه السلام»، وفى أ: «جبريل إلى موسى عليه السلام».
(٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «بل». (٧) فى أ: «حتى يتتبع».
(٨) فى ت: «حتى يكون مثل الحجر». (٩) فى أ: «وأنى يكون هذا السلام بهذا». (١٠) فى ف، أ: «فقال له».
(١١) زيادة من ف، أ، والطبرى. (١٢) فى أ: «ما حاجتك». (١٣) زيادة من ف، أ.

والحر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر. فمر بهما أبى بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لُقيه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينا موسى فى ملأ من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا؛ فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إلى لُقيّه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فَقَدت[1] الحوت [فهو ثمة][2] فارجع، فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر. فقال فتى موسى لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾. قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ فوجدا عبدنا[3] خضراً، فكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه[4]»[5].

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾.

يخبر تعالى عن قيل موسى، عليه السلام، لذلك [الرجل][6] العالم، وهو الخضر، الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ سؤال بتلطف[7]، لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أى: أصحبك وأرافقك، ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أى: مما علمك الله شيئاً، أسترشد به فى أمرى، من علم نافع وعمل صالح. فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أى: أنت لا تقدر أن تصاحبنى، لما ترى [منِّى][8] من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنى على علم من علم الله، ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله، ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور[9] من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتى. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، فأنا أعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه، ولكنْ ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التى اطلعت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ له[10] موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أى: على ما أرى من أمورك، ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أى: ولا أخالفك فى شىء. فعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ أى: ابتداءً ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أى: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن هارون بن عنترة[11]، عن أبيه، عن ابن

(١) فى ت: «بعدت». (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «عبداً».
(٤) فى ت: «كتابه العزيز».
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٨٣).
(٦) زيادة من أ. (٧) فى ت، ف، أ: «تلطف». (٨) زيادة من أ.
(٩) فى أ: «مأمور». (١٠) فى أ: «أى». (١١) فى ف: «عرة».

عباس قال: سأل موسى ربه ،عز وجل، فقال[١]: رب، أى عبادك أحب إليك ؟ قال: الذى يذكرنى ولا ينسانى. قال: فأى عبادك أقضى ؟ قال: الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أى رب، أى عبادك أعلم ؟ قال: الذى يبتغى علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى، أو ترده عن ردى. قال: أى رب، فهل فى أرضك[٢] أحد أعلم منى ؟ قال: نعم. قال: فمن هو ؟ قال الخضر. قال: فأين[٣] أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، التى ينفلت[٤] عندها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبه، حتى كان ما ذكر الله، وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلم[٥] كل واحد منهما على صاحبه. فقال له موسى: إنى أريد أن تصحبنى[٦]. قال: إنك لن تطيق[٧] صحبتى. قال: بلى. قال: فإن صحبتنى ﴿فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال: فسار به فى البحر[٨] حتى انتهى إلى مجمع البحور[٩]، وليس فى الأرض[١٠] مكان أكثر ماء منه. قال: وبعث الله الخطاف، فجعل يستقى منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزأ! قال: ياموسى، فإن علمى وعلمك فى علم الله كقَدْر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء. وكان موسى قد حدث نفسه أن ليس أحد أعلم منه، أو تكلم به، ، فمن ثم أمر أن يأتى الخضر. وذكر تمام الحديث فى خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه ألاَّ يسأله عن شىء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه[١١] من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا فى السفينة. وقد تقدم فى الحديث كيف ركبا فى السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول ـ يعنى بغير أجرة ـ تكرمة للخضر. فلما استقلت بهم السفينة فى البحر، ولجحت، أى: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها[١٢]، ثم رقعها. فلم يملك موسى، عليه السلام، نفسه أن قال منكراً عليه: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر[١٣]:

لدُوا للْمَوت وابْنُوا للخَرَاب

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾: قال مجاهد: منكراً. وقال قتادة: عجباً. فعندها قال له الخضر مذكرا[١٤] بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعنى وهذا الصنيع فعلته[١٥] قصداً،

---

(١) فى ت، ف، أ: «فقال أى». (٢) فى ت ف، أ: «فى الأرض». (٣) فى ف، أ: «وأين».
(٤) فى ت، ف: «يتفلت». (٥) فى ت: «وسلم». (٦) فى ت: «تستصحبنى».
(٧) فى ت: «تستطيع». (٨) فى ت: « فصار فى البحر»، وفى ف، أ: «فسار به إلى البحر». (٩) فى ف، أ: «البحرين».
(١٠) فى ت: «فى البحر». (١١) فى ف، أ: «يبتدئ به». (١٢) فى ت: «ألواح».
(١٣) هو أبو العتاهية، والبيت فى ديوانه (ص٤٦) أ. هـ. مستفاداً من ط ـ الشعب.
(١٤) فى ت: «مذكوراً». (١٥) فى ت: «عملته».

وهو[١] من الأمور التى اشترطت معك ألا تنكر علىّ فيها، لأنك لم تحط بها خبراً، ولها داخل هو مصلحة ،ولم تعلمه[٢] أنت. ﴿ قَالَ ﴾ أى موسى: ﴿ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أى: لا تضيق علىّ وتُشدد[٣]علىّ؛ ولهذا تقدم فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً » .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَانطَلَقَا ﴾ أى: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ﴾. وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان فى قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم[٤]، فقتله، فروى أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر. وفي رواية: اقتطفه بيده. والله أعلم.

فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً[٥]﴾ أى صغيرة لم تعمل الحنث[٦] ،ولا حملت إثماً بعد، فقتلته ؟!﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى: بغير مستند لقتله ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أى: ظاهر النكارة. ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأكد أيضاً فى التذكار بالشرط الأول؛ فلهذا قال له موسى: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أى: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿ فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ أى: قد أعذرت إلىّ مرة بعد مرة.

قال ابن جرير: حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنا حجاج بن محمد، عن حمزة الزيات، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب قال: كان النبى ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث[٧] مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً» [مثقلة][٨] [٩].

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المرتين الأوليين[١٠] ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾. روى

---

(١) فى ف :«وهى» . (٢) فى ت: «تعلم» . (٣) فى ت، ف :«ولا تشدد» .
(٤) فى ف :«وأضوأهم» . (٥) فى ت : «زاكية بغير نفس» . (٦) فى أ: «الخبث» .
(٧) فى ف، أ: «ثبت» . (٨) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ١٨٦) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٣٩٨٤) من طريق حمزة الزيات به.
(١٠) فى أ: «الأولتين».

ابن جرير[(١)] ،عن ابن سيرين أنها الأيلة[(٢)]، وفى الحديث: « حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما»[(٣)] أى: بخلاء ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة فى المحدثات بمعنى الميل. والانقضاض هو: السقوط.

وقوله: ﴿ فَأَقَامَهُ﴾ أى: فردّه إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم فى الحديث أنه ردّه بيديه، ودعمه حتى ردّ ميله[(٤)]. وهذا خارق فعند ذلك قال موسى له : ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ[(٥)] عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى: لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغى ألاَّ تعمل لهم مجاناً [(٦)] ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [أى: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتنى عن شىء بعدها فلا تصاحبنى، فهو فراق بينى وبينك][(٧)] ، ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ﴾ أى: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ .

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى، عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر اللّه الخضر، عليه السلام، على [(٨)] باطنة فقال إن: السفينة[(٩)] إنما خرقتها لأعيبها؛[لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صالحة، أى: جيدة ﴿ غَصْبًا ﴾ فأردت أن أعيبها][(١٠)] ، لأرده عنها لعيبها[(١١)]، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شىء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام.

و[قد][(١٢)] روى ابن جريج[(١٣)] عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائى؛ أن اسم ذلك الملك هُدَدُ[(١٤)] بن بُدَدَ، وقد تقدم أيضاً فى رواية البخارى، وهو مذكور فى التوراة فى ذرية «العيص بن إسحاق» وهو من الملوك المنصوص عليهم فى التوراة، واللّه أعلم[(١٥)] .

﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ .

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جَيْسُور. وفى الحديث عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ قال: « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ». رواه ابن جرير من حديث ابن إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، به؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا

---

(١) فى أ: «جريج» . (٢) فى ت :«الأيكة» .

(٣) رواه أحمد فى مسنده (١١٩/٥) من طريق أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، رضى الله عنهما.

(٤) فى ت : «بيده وعمه حتى ردّ مثله» . (٥) فى ت: «اتخذت» وهو خطأ. (٦) فى ت: «يعمل مجانا» .

(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ت، ف، أ: «على حكمة».

(٩) فى ت: «فقال له السفينة»، وفى ف:«أما السفينة». (١٠) زيادة من ف، أ.

(١١) فى ت: «لعينها» . (١٢) زيادة من ف، أ . (١٣) فى ت: «جرير».

(١٤) فى أ: «هود». (١٥) فى ف: «فالله أعلم».

وَكُفْرًا﴾ أى: يحملهما حبه على متابعته على الكفر.

قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقى كان فيه هلاكهما، فليرض[(١)] امرؤ بقضاء اللَّه، فإن قضاء اللَّه للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه[(٢)] فيما يحب.

وصح فى الحديث: «لا يقضى اللَّه للمؤمن قضاء[(٣)] إلا كان خيراً له». وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦].

وقوله [تعالى][(٤)]: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أى: ولداً أزكى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج.

وقال قتادة: أبر بوالديه.

وقد تقدم أنهما بدلا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم. قاله ابن جريج[(٥)].

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾.

فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧] وقال ههنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾[محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعنى: مكة والطائف.

ومعنى الآية: أن هذا الجدار[(٦)] إنما أصلحه[(٧)] لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما.

قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير، رحمه اللَّه.

وقال العوفى عن ابن عباس: كان تحته كنز علم. وكذا قال سعيد بن جبير، وقال مجاهد: صحف فيها علم، وقد ورد فى حديث مرفوع ما يقوى ذلك، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده المشهور: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد اللَّه اليَحْصَبىّ، عن عياش[(٨)] بن عباس القتبانى[(٩)]، عن ابن حُجَيرة[(١٠)]، عن

---

(١) فى ت، ف، أ: «فرضى».
(٢) فى ف: «من قضائه له».
(٣) فى أ: «للمؤمنين قضاء».
(٤) زيادة من ت.
(٥) فى ت: «ابن جرير».
(٦) فى ت: «الجار».
(٧) فى ف: «أصلحته».
(٨) فى ت، ف، أ: «عباس».
(٩) فى أ: «الغسانى».
(١٠) فى هـ: «أبى حجيرة» والصواب ما أثبتناه من مسند البزار.

أبي ذر، رضى الله عنه، [رفعه][١] قال: «إن الكنز الذى ذكر[٢] اللَّه فى كتابه: لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب[٣]؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضَحِك[٤]؟ وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل؟ لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه»[٥].

بشر بن المنذر هذا يقال له: قاضى المصيصة. قال الحافظ أبو جعفر العقيلى: فى حديثه وهم[٦].

وقد روى فى هذا آثار عن السلف، فقال ابن جرير فى تفسيره: حدثنى يعقوب، حدثنى الحسن ابن حبيب بن ندبة[٧]، حدثنا سلمة[٨]، عن نعيم العنبرى ـ وكان من جلساء الحسن ـ قال: سمعت الحسن ـ يعنى البصرى ـ يقول فى قوله: ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يوقن[٩] بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه.

وحدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عبد اللَّه بن عياش[١٠]، عن عُمَر[١١] مولى غُفْرَة[١٢] قال: إن الكنز الذى قال اللَّه فى السورة التى يذكر فيها الكهف: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: كان لوحاً من ذهب مُصْمَت مكتوبا فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، عجبٌ لمن عرف النار[١٣] ثم ضحك! عجبٌ[١٤] لمن أيقن بالقدر ثم نصب! عجبٌ لمن أيقن بالموت ثم أمن! أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وحدثنى أحمد بن حازم الغفارى، حدثتنا هَنَّادَة بنت مالك الشيبانية قالت: سمعت صاحبى حماد ابن الوليد الثقفى يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول فى قول اللَّه تعالى[١٥]: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عجبت للموقن بالرزق كيف يتعب وعجبت للموقن[١٦] بالحساب كيف يغفل؟ وعجبت للموقن[١٧] بالموت كيف يفرح؟ وقد قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] قالت: وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذى حفظا به سبعة آباء، وكان نساجاً.

وهذا الذى ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدم وإن صح، لا ينافى قول عكرمة: إنه كان مالاً لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم[١٨]، وهو حكم ومواعظ، واللَّه أعلم.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته، وتشمل بركة

---

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) فى ف، أ: «ذكره». (٣) فى ف، أ: «ينصب».
(٤) فى ت، ف: «يضحك»، وفى أ: «ضحك».
(٥) مسند البزار برقم (٢٢٢٩) «كشف الأستار» وقد روى موقوفًا من طرق عن ابن عباس وعلى، رضى الله عنهما، لكن أسانيدها ضعيفة.
(٦) ميزان الاعتدال (٢/ ٣٢٥). (٧) فى ف، أ: «بدنة». (٨) فى ت: «مسلم».
(٩) فى ت، ف: «يؤمن». (١٠) فى أ، ف: «بن عباس». (١١) فى ف: «عن عمرو».
(١٢) فى ف: «عفرة». (١٣) فى ت: «عجبت لمن عرف الموت». (١٤) فى ت: «عجبت».
(١٥) فى ف: «عز وجل». (١٦) فى ت: «للموقف». (١٧) فى ت: «للموتى».
(١٨) فى ف: «علما».

عبادته لهم فى الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء فى القرآن ووردت السنة[١] به. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح، وتقدم أنه كان الأب السابع. [فاللّه أعلم][٢].

وقوله: ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا**﴾: ههنا أسند الإرادة إلى اللّه تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم[٣] لا يقدر عليه إلا اللّه؛ وقال فى الغلام: ﴿**فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ**﴾ وقال فى السفينة: ﴿**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾، فاللّه أعلم.

وقوله: ﴿**رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ أى: هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة اللّه بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدى الغلام، وولدى الرجل الصالح، ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى**﴾، لكنى أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخَضِر، عليه السلام، مع ما تقدم من[٤] قوله: ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾.

وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً. نقله الماوردى فى تفسيره.

وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً. بل كان ولياً. فاللّه أعلم.

وذكر ابن قتيبة فى المعارف أن اسم الخضر بَلْيَا بن مَلْكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح، عليه السلام[٥].

قالوا: وكان يكنى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووى فى تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره فى كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا فى ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره فى بعض الأحاديث. ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها أحاديث[٦] التعزية، وإسناده ضعيف.

ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ**﴾ [الأنبياء: ٣٤] وبقول النبى ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض»[٧]، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول اللّه ﷺ [ولا حضر عنده، ولا قاتل معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبى ﷺ][٨] وأصحابه؛ لأنه عليه السلام[٩] كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجنّ والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حَيَّيْن ما[١٠] وسعهما إلا اتباعى»[١١]، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تَطْرِفُ، إلى غير ذلك من الدلائل.

---

(١) فى ف: «به السنة». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت: «الحكم».
(٤) فى ف: «فى». (٥) المعارف (ص٤٢). (٦) فى ت: «حديث».
(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٧٦٣) من حديث عمر، رضى الله عنه.
(٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى أ: «ﷺ». (١٠) فى ت، ف: «لما».
(١١) ذكره ابن أبى العز فى شرح الطحاوية فى سياقه وعلق عليه الشيخ ناصر الألبانى فى تخريج الطحاوية بقوله: «كذا الأصل، وكأنه يشير إلى الحديث الذى ذكره شيخه ابن كثير فى تفسير سورة الكهف بلفظ: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى». وهو حديث محفوظ، دون ذكر «عيسى» فيه، فإنه منكر عندى لم أره فى شيء من طرقه، وهى مخرجة فى إرواء الغليل برقم (١٥٨٩)».

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، عن النبى ﷺ [فى الخَضر قال][١] :« إنما سمى «خضراً»؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تحته [تهتز][٢] خضراء »[٣].

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق. وقد ثبت أيضاً فى صحيح البخارى، عن همام، عن أبى هريرة، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنما سمى الخضِر؛ لأنه جلس على فَرْوَة، فإذا هى تهتز [من خلفه][٤] خضراء»[٥].

والمراد بالفروة ههنا[٦] :الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات ، قاله عبد الرزاق . وقيل: المراد بذلك وجه الأرض .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أى: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال :﴿ [مَا لَمْ] [٧]تَسْطِع ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً فقال: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف، بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧]، وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، واللَّه أعلم.

فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر فى أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك ؟

فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح فى الأحاديث المتقدمة فى الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذى كان يلى بنى إسرائيل بعد موسى، عليهما السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير فى تفسيره حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة[٨] ،حدثنى ابن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث وقد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال: شرب الفتى من الماء [فخلد، فأخذه][٩] العالم، فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر، فإنها تموج به إلى يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب[١٠] .

إسناد ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ

(١) زيادة من ف،أ، والمسند.
(٢) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٣) المسند (٢/ ٣١٢).
(٤) زيادة من ف، أ، والبخارى.
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٤٠٢).
(٦) فى ت: «ههنا بالفروة».
(٧) زيادة من ف .
(٨) فى ف: «مسلم».
(٩) زيادة من ف ، أ، والطبرى، وفى هـ: «فحار» .
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٨٢) .

وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ يامحمد ﴿ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ أي: عن خبره. وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون[1] منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية لا يدرى ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف.

وقد أورد ابن جرير ههنا، والأموى فى مغازيه، حديثاً أسنده وهو ضعيف، عن عقبة بن عامر، أن نفراً من اليهود جاؤوا يسألون النبى ﷺ عن ذى القرنين، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء، فكان فيما أخبرهم به: «أنه كان شاباً[2] من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك فى السماء، وذهب به إلى السد، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب». وفيه طول ونكارة، ورفعه لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بنى إسرائيل. والعجب أن أبا زُرْعَة الرازى، مع جلالة قدره، ساقه بتمامه فى كتابه دلائل النبوة، وذلك غريب منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذى كان من الروم الإسكندر الثانى ابن فيليبس المقدونى، الذى تؤرخ به الروم، فأما الأول فقد ذكره الأزرقى وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل، عليه السلام، أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان معه[3] الخضر، عليه السلام، وأما الثانى فهو، اسكندر بن فيليبس المقدونى اليونانى، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور، والله أعلم. وهو الذى تؤرخ به من مملكته ملة الروم. وقد كان قبل المسيح، عليه السلام، بنحو من ثلثمائة سنة، فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل، كما ذكره الأزرقى وغيره، وأنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم، عليه السلام، وقرب إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً[4] من أخباره فى كتاب «البداية والنهاية»[5]، بما فيه كفاية، ولله الحمد.

قال وهب بن منبه: كان ملكاً، وإنما سمى ذا القرنين لأن؛ صفحتى رأسه كانتا من نحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك الروم وفارس. وقال بعضهم: كان فى رأسه شبه القرنين، وقال سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت، عن أبى الطفيل قال: سئل على، رضى الله عنه، عن ذى القرنين، فقال: كان عبداً ناصحَ الله فناصَحَه، دعا قومه إلى الله فضربوه[6] على قرنه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمى ذا القرنين.

وكذا رواه شعبة، عن القاسم بن أبى بَزّة عن أبى الطفيل، سمع علياً يقول ذلك.

ويقال: إنما سمى ذا القرنين؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع[7] قرن الشمس ويغرب.

وقوله: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً، فيه له من جميع ما يؤتى[8] الملوك، من التمكين والجنود[9]، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم؛ ولهذا ذكر

---

(١) فى ت: «يسألونك». (٢) فى ت: «ماشيا». (٣) فى أ: «وكان وزيره».
(٤) فى ف، أ: «طرفا صالحاً». (٥) البداية والنهاية (٢/ ٩٥). (٦) فى ت، ف، أ: «فضرب».
(٧) فى ت، ف: «تطلع». (٨) فى ف: «تؤتى». (٩) فى ف: «من الجنود والتمكن».

بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها .

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدى، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعنى علماً .

وقال قتادة أيضاً فى قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ قال: منازل الأرض وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم .

وقال ابن لَهيعة: حدثنى سالم بن غَيْلان، عن سعيد بن أبى هلال؛ أن معاوية بن أبى سفيان قال[١] لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك، فإن اللَّه تعالى قال: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

وهذا الذى أنكره معاوية، رضى اللَّه عنه، على كعب الأحبار هو الصواب[٢] ،والحق مع معاوية فى الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنا لنبلو[٣] عليه الكذب» يعنى: فيما ينقله، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس فى صحيفته[٤]، ولكن الشأن فى صحيفته[٥] أنها من الإسرائيليات التي غالبها مبدل مصحف محرف مختلق[٦] ،ولا حاجة لنا مع خبر اللَّه ورسول اللَّه [ﷺ[٧]] إلى شىء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير[٨] ،وفساد عريض. وتأويل كعب قول اللَّه: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ واستشهاده فى ذلك على ما يجده فى صحيفته من أنه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شىء من ذلك، ولا إلى الترقى[٩] فى أسباب السموات. وقد قال اللَّه فى حق بلقيس: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل:٢٣] أى: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر اللَّه له الأسباب، أى: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرَّسَاتيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك. قد أوتى من كل شىء مما[١٠] يحتاج إليه مثله سبباً، واللَّه أعلم.

وفى «المختارة» للحافظ الضياء المقدسى، من طريق قتيبة، عن أبى عوانة، عن سماك بن حرب، عن حبيب بن حماز[١١] قال : كنت عند على، رضى اللَّه عنه، وسأله رجل عن ذى القرنين: كيف بلغ المشارق والمغارب ؟ فقال سبحان اللَّه سخر له السحاب، وقَدَّر له الأسباب، وبسط له اليد[١٢].

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ

---

(١) فى ت: «يقول» . (٢) فى أ : «الطنوب» . (٣) فى أ: «لنتلوا» .
(٤، ٥) فى ف، أ: «صحفه» . (٦) فى أ: «مخلق». (٧) زيادة من ف، أ .
(٨) فى ت: «كبير». (٩) فى ف: «الرقى». (١٠) فى أ: «ما» .
(١١) فى ت، ف، أ: «حماد» .
(١٢) المختارة برقم (٤٠٩) .

نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ يعنى: بالسبب المنزل][1]. وقال مجاهد: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب.

وفى رواية عن مجاهد: ﴿ سَبَبًا ﴾ قال: طريقا فى[2] الأرض .

وقال قتادة: أى اتبع منازل الأرض ومعالمها [3].

وقال الضحاك: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى: المنازل [4].

وقال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قال: علماً. وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى، والسدى.

وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك .

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أى: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار فى الأرض مدّة والشمس تغرب من ورائه فشىء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق[5] زنادقتهم وكذبهم[6] .

وقوله: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى: رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لاتفارقه[7] .

والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين[8] من «الحمأة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] أى: طين أملس[9] . وقد تقدم بيانه.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب[10]، حدثنى نافع بن أبى نعيم، سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس يقول[11] ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ثم فسرها: ذات حمأة. قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن منى، ولكنى أجدها فى الكتاب تغيب فى طينة سوداء[12] .

وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وغير واحد.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد[13] بن أوس، عن مِصْدَع، عن ابن

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى هـ، ت، ف: «طرقى»، والمثبت من الطبرى، أ.
(٣) فى ت: «ومغاربها» .
(٤) فى ت: «المنزل».
(٥) فى ت: «واختلاف» .
(٦) فى ف: «وكذبتهم» .
(٧) فى ت: «يفارقه» .
(٨) فى ت: «على أحد الروايتين» .
(٩) فى ت: «إبليس» .
(١٠) فى ت: «حدثنا وهب» .
(١١) فى ف، أ: «يقرأ» .
(١٢) تفسير الطبرى (١٦/ ١٠) .
(١٣) فى ت: «سعيد» .

عباس، عن أبيّ بن كعب؛ أن النبي ﷺ أقرأه ﴿حَمِئَة﴾[١] .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: «وجدها تغرب فى عين حامية» يعنى: حارة. وكذا قال الحسن البصرى .

وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قرأ القارئ فهو مصيب[٢] .

قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وَهْج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و﴿حَمِئَة﴾ فى ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره .

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا[٣] العوام، حدثني مولى لعبد اللَّه بن عمرو، عن عبد اللَّه قال: نظر رسول اللَّه ﷺ إلى الشمس حين غابت، فقال: «فى نار الله الحامية [فى نار اللَّه الحامية][٤]، لولا ما يزعها من أمر اللَّه، لأحرقت ما على الأرض».

قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون[٥] .وفى صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد اللَّه بن عمرو، من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك، واللَّه أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا محمد ـ يعنى ابن بشر ـ حدثنا عمرو بن ميمون، أنبأنا ابن حاضر، أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبى سفيان قرأ الآية التى فى سورة الكهف «تغرب فى عين حامية» قال ابن عباس لمعاوية ما نقرؤها[٦] إلا ﴿حَمِئَة﴾ فسأل معاوية عبد اللَّه ابن عمرو كيف تقرؤها: فقال عبد اللَّه: كما قرأتها. قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: فى بيتى نزل القرآن؟ فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب فى التوراة ؟ [فقال له كعب: سل أهل العربية، فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإنى أجد الشمس تغرب فى التوراة][٧] فى ماء وطين. وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن حاضر: لو أنى عندكما أفدتك[٨] بكلام تزداد فيه بصيرة فى حمئة. قال ابن عباس: وإذاً ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول تُبَّع، فيما ذكر به ذا القرنين فى تخلقه بالعلم واتباعه إياه:

بَلَغَ المشَارِقَ والمغَارِبَ يَبْتَغِى أَسْبَابَ أمرٍ مِنْ[٩] حكيمٍ مُرْشِدِ
فَرَأَى مَغيب[١٠] الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِها فِى عَيْنِ ذِى خلُب وثَأط[١١] حَرْمَدِ[١٢] [١٣]

قال[١٤] ابن عباس: ما الخُلُب؟ قلت: الطين بكلامهم. [يعنى بكلام حمير][١٥] .قال: ما الثاط؟

---

(١) مسند الطيالسى برقم (٥٣٦) .
(٢) فى ت: «المصيب» .
(٣) فى ت: «حدثنا» .
(٤) زيادة من ف،أ، والطبرى.
(٥) المسند (٢/٢٠٧) .
(٦) فى ت: «تقرأها» .
(٧) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(٨) فى أ: «لأفدتك» .
(٩) فى ت: «من أمر».
(١٠) فى ت أ: «فوجد مغاب» وفى ف: «فرأى مغاب» .
(١١) فى أ: «وأناط» .
(١٢) فى ت: «وقاص»، وفى ف :«وناط» .
(١٣) البيتان فى لسان العرب، مادة (ثأط) وهما لأمية بن أبى الصلت .
(١٤) فى ف: «فقال» .
(١٥) زيادة من ت، ف.

قلت: الحمأة. قال: فما الحرْمَد؟ قلت: الأسود. قال: فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل.

وقال سعيد بن جبير: بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ فقال كعب: والذى نفس كعب بيده ما سمعت أحداً يقرؤها كما أنزلت فى التوراة غير ابن عباس، فإنا نجدها فى التوراة: تغرب فى مدرة سوداء.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف قال: فى تفسير ابن جريج ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ قال: مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وُجُوب الشمس حين تجب.

وقوله: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أى: أمّة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بنى آدم.

وقوله: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنى هذا: أن اللّه تعالى مكنه منهم(١)، وحكمه فيهم، وأظفره بهم(٢) وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى(٣). فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه(٤) فى قوله: ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ أى: من استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ قال قتادة: بالقتل: وقال السدى: كان يحمى لهم بقر النحاس ويضعهم فيها(٥) حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة، فتدخل أفواههم وبيوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، واللّه أعلم.

وقوله(٦): ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أى: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً. وفيه(٧) إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ أى: تابعنا على ماندعوه إليه من عبادة اللّه وحده لا شريك له ﴿ فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ أى: فى الدار الآخرة عند اللّه، عز وجل ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾.

يقول: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها(٨)، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى اللّه عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم، وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل(٩) الإقليم المتاخم لهم.. وذكر فى أخبار بنى إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب(١٠) الأرض طولها والعرض(١١)، حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى: ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ

---

(١) فى ت: «فيهم».
(٢) فى ت: «وأظفره عليهم»، وفى ف، أ: «وأظهره عليهم».
(٣) فى ف، أ: «وافتدى».
(٤) فى ت: «وثباته».
(٥) فى ف: «فيه».
(٦) فى ت: «فقوله».
(٧) فى أ: «وفى هذا».
(٨) فى ت: «من مطلع الشمس إلى مغربها».
(٩) فى أ: «قتال».
(١٠) فى ف، أ: «يخرب».
(١١) فى ف، أ: «طولها وعرضها».

قَوْمٍ﴾ أى: أمة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ أى: ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس.

قال سعيد بن جبير: كانوا حُمراً قصاراً، مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل[١] بن أبى الصلت، سمعت الحسن وسئل عن قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: إن أرضهم[٢] لاتحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا[٣] فى المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم. قال[٤] الحسن: هذا حديث سمرة[٥].

وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لاتنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا فى أسراب، حتى إذا زالت[٦] الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم.

وعن سلمة بن كُهَيْل أنه قال: ليس لهم أكنان، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم، فلأحدهم أذنان يفترش إحداهما[٧] ويلبس الأخرى.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: هم الزنج[٨].

وقال ابن جريج فى قوله: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم ين عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم[٩] حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها[١٠] جبل، جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها: لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها. قالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيفُ جيش طلعت عليهم الشمس ههنا فماتوا. قال: فذهبوا هاربين فى الأرض.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ قال مجاهد، والسدى: علماً، أى: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لايخفى علينا منها شىء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ

---

(١) فى أ: «سهيل». (٢) فى ت: «أرضيكم». (٣) فى ت: «فقعدوا»، وفى أ: «يغوروا».

(٤) فى ت، ف: «فقال».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ١٢) من طريق إبراهيم بن المستمر، عن أبى داود به.

(٦) فى ت: «غربت». (٧) فى ف، أ: «واحدة».

(٨) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٤٦).

(٩) فى ت: «أسرابا بهم». (١٠) فى أ: «بها».

وبينهم ردمًا (٩٥) آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارًا قال آتوني أفرغ عليه قطرًا (٩٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن ذى القرنين: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحان بينهما ثُغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت فى الصحيحين: « إن اللَّه تعالى يقول : يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعث بَعْثَ النار. فيقول: وما بَعْثُ النار ؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمّتين، ما كانتا فى شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج»[١] .

وقد حكى النووى[٢] ،رحمه اللَّه، فى شرح «مسلم» عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من منى خرج من آدم فاختلط بالتراب، فخلقوا من ذلك[٣] ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جداً، [ثم][٤] لا دليل عليه لا من عقل ولا [من][٥] نقل، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث[٦] المفتعلة، واللَّه أعلم .

وفي مسند[٧] الإمام أحمد، عن سَمُرَة؛ أن رسول اللَّه ﷺ قال: « وَلَدُ نوح ثلاثة: سام أبوالعرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»[٨] . فقال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبى الترك ، قال: [إنما[٩]سموا هؤلاء تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من[١٠] هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجراءة[١١] . وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً فى سير ذى القرنين، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم وصفاتهم، [وطولهم][١٢] وقصر بعضهم، وآذانهم[١٣] . وروى ابن أبى حاتم أحاديث غريبة فى ذلك لا تصح [١٤] أسانيدها، واللَّه أعلم .

وقوله: ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [أى][١٥]: لاستعجام كلامهم وبعدهم

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٢٢) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.
(٢) فى أ: «النواوى».
(٣) شرح النووى (٣/ ٩٧).
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) زيادة من ت، ف. (٦) فى ت: «من الأكاذيب».
(٧) فى ف، أ: «المسند».
(٨) المسند (٥/ ٩).
(٩) فى أ: «وإنما». (١٠) فى أ: «فمن». (١١) فى أ: «وجرأة» .
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) تفسير الطبرى (١٦/ ١٤).
(١٤) فى ف، أ: «لايصح». (١٥) زيادة من ف، أ.

عن الناس.

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ قال ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس: أجراً عظيماً، يعنى: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أى: إن الذى أعطانى اللّه من الملك والتمكين[١] خير لى من الذى تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذى أنا فيه خير من الذى تبذلونه، ولكن ساعدونى ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى: بعملكم وآلات البناء، ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾، والزبر: جمع زُبْرَة، وهى القطعة منه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وهى كاللبنة[٢]، يقال: كل لبنة [زنة][٣] قنطار بالدمشقى، أو تزيد عليه.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أى: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً. واختلفوا فى مساحة عرضه وطوله على أقوال. ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ أى: أجج[٤] عليه النار حتى صار كله ناراً، ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدى: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ [سبأ: ١٢] ولهذا يشبه[٥] بالبرد المحبر.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يارسول اللّه، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: «انعته لى» قال: كالبرد المحبر، طريقة سوداء. وطريقة حمراء. قال: «قد رأيته». هذا حديث مرسل[٦].

وقد بعث الخليفة الواثق فى دولته بعض أمرائه، ووجه[٧] معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْك إلى مُلْك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه[٨] أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل فى برج هناك. وأن عنده حرساً [٩] من الملوك المتاخمة له، وأنه منيف عال[١٠] شاهق، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين،

---

(١) فى أ: «والتمكن».
(٢) فى أ: «اللبنة».
(٣) زيادة من ف، أ.
(٤) فى ف: «أججوا».
(٥) فى أ: «شبه».
(٦) وقد روى موصولاً من طرق: فرواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف(٢/٣١٢) من طريق أبى الجماهر ـ سعيد بن بشير ـ عن قتادة، عن رجل، عن أبى بكرة الثقفى: أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إنى قد رأيته، فذكر نحوه. ورواه البزار فى مسنده كما فى تخريج الكشاف(٢/٣١٣) من طريق عبد الملك بن أبى نعامة، عن يوسف بن أبى مريم، عن أبى بكرة بنحوه مطولا. ورواه ابن مردويه أيضًا من طريق سفيان، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن رجل من أهل المدينة أنه قال للنبى ﷺ، فذكر نحوه.
(٧) فى ف، أ: « وجهز».
(٨) فى ت : «وعلى».
(٩) فى ف، أ : «سرحًا».
(١٠) فى ت، ف، أ: «عالٍ منيف».

وشاهدوا أهوالاً وعجائب.

ثم قال اللَّه تعالى :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا [١] فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال: **﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾** وهذا دليل على أنهم لم[٢] يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبى هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ قال: « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد اللَّه أن يبعثهم على الناس[٣] [حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس][٤] قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء اللَّه. ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهيئته[٥] حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون[٦] على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، [فترجع وعليها هيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء][٧]. فيبعث الله عليهم نغفا[٨] فى أقفائهم، فيقتلهم بها. قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكرًا من لحومهم ودمائهم»[٩].

ورواه أحمد أيضاً عن حسن ـ هو ابن موسى الأشيب ـ عن سفيان، عن قتادة، به[١٠]. وكذا رواه [١١] ابن ماجه، عن أزهر بن مروان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذى، من حديث أبى عوانة، عن قتادة[١٢]. ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

---

(١) فى ف، أ: «يصعدوا من». (٢) فى ت: «لا». (٣) فى أ: « على النار».
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند. (٥) فى أ: «كهيئة». (٦) فى ت: «ويخرجونهم».
(٧) زيادة من ف، أ، والمسند. (٨) فى أ: « نغيفا».
(٩) المسند (٢/ ٥١٠).
(١٠) المسند(٢/ ٥١١).
(١١) فى أ: «رواه الإمام».
(١٢) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٣).

وهذا إسناد قوى، ولكن فى[(١)] رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد روى عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه[(٢)] إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحه. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه[(٣)] إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان، فيلحسونه ويقولون: غداً نفتحه. ويلهمون أن يقولوا: «إن شاء اللَّه»، فيصبحون وهو كما فارقوه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب. فإنه كثيراً ما كان يجالسه[(٤)] ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم[(٥)] بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، واللَّه أعلم.

ويؤكد ما قلناه[(٦)] ـ من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شىء منه، ومن نكارة هذا المرفوع ـ قول الإمام أحمد:

حدثنا سفيان، عن الزهرى، عن عروة، عن [زينب بنت أبى سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبى سفيان، عن أمها أم حبيبة، عن][(٧)] زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ- قال سفيان: أربع نسوة - قالت: استيقظ النبى ﷺ من نومه. وهو محمر وجهه، وهو يقول: « لا إله إلا اللَّه! ويل للعرب[(٨)] من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ». وحَلَّق. قلت: يا رسول اللَّه، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: « نعم إذا كثر الخبث ».

هذا حديث صحيح، اتفق البخارى ومسلم على إخراجه، من حديث الزهرى[(٩)]، ولكن سقط فى رواية البخارى ذكر حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء[(١٠)] عزيزة نادرة قليلة الوقوع فى صناعة[(١١)] الإسناد، منها رواية الزهرى عن عروة، وهما تابعيان ومنها[(١٢)] اجتماع أربع نسوة فى سنده، كلهن يروى بعضهن عن بعض. ثم كل منهن صحابية[(١٣)]، ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان، رضى اللَّه عنهن.

وقد روى نحو هذا عن أبى هريرة أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا مُؤمَّل بن إسماعيل، حدثنا وهيب[(١٤)]، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «فُتَح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين. وأخرجه البخارى ومسلم من حديث وهيب[(١٥)]، به[(١٦)].

---

(١) فى ف، أ: «ولكن متنه فى». (٢) فى ف: «فيه». (٣) فى ف، أ: «فيه».
(٤) فى ت: «كان كثيرًا ما يجالسه». (٥) فى ت: «فيقرهم». (٦) فى أ: «قلنا».
(٧) زيادة من ف، أ، والمسند. (٨) فى ت: «للغريب».
(٩) المسند (٦/٤٢٨) وصحيح البخارى برقم (٧١٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨٠).
(١٠) فى أ: «إسناد». (١١) فى ت: «صياغة». (١٢) فى أ: «وفيما».
(١٣) فى أ: «منهم صاحبيه».
(١٤، ١٥) فى ت: «وهب».
(١٦) صحيح البخارى برقم (٧١٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨١).

وقـوله : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أى: لما بناه ذو القرنين ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ أى: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث(١) فى الأرض والفساد. ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أى: إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أى: ساواه(٢) بالأرض. تقول العرب: ناقة دكاء: إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها. وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ [الأعرف:١٤٣] أى: مساوياً للأرض(٣).

وقال عكرمة فى قوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ قال: طريقاً كما كان.

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ أى: كائناً لا محالة.

وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ [يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ] (٤)﴾ أى: الناس يومئذ أى: يوم يدك(٥) هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون فى الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدى فى قوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتى بيانه [إن شاء الله تعالى](٦) عند قوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ .وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ [الأنبياء:٩٦، ٩٧] وهكذا قال ههنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ قال ابن زيد فى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ (٧)فى الصُّور﴾ على أثر ذلك ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أى: يوم القيامة يختلط الإنس والجن.

روى ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمى(٨) ،عن هارون بن عنترة، عن شيخ من بنى فزارة(٩) فى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ قال: إذا ماج الإنس والجن قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر. فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد بطنوا(١٠) الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة بطنوا(١١) الأرض، فيقول: «ما من محيص». ثم يظعن يميناً وشمالاً إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة بطنوا(١٢) الأرض فيقول :«ما من محيص». فبينما هو كذلك، إذ عرض له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج اللَّه خازناً من خزان النار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟! ألم تكن فى الجنان؟! فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن اللَّه فرض علىّ فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من

---

(١) فى أ: «العبث». (٢) فى ت، أ: «واساه» . (٣) فى ت: «الأرض» .
(٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ت: «بذكر» .
(٦) زيادة من ف، أ .
(٧) فى ت: «ينفخ». (٨) فى أ: «العمى». (٩) فى أ: «قرارة» .
(١٠ـ ١٢) فى أ: «قد تطبقوا».

خلقه. فيقول: فإن اللَّه قد فرض عليك فريضة. فيقول: ماهى؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار. فيتلكأ عليه، فيقول به وبذريته بجناحيه فيقذفهم فى النار. فتزفر النار[١] زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مُرسل إلا جثا لركبتيه[٢].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث يعقوب القمى به. رواه من وجه آخر عن يعقوب، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ قال: الجن والإنس، يموج بعضهم فى بعض.

وقال الطبرانى: حدثنا عبد اللَّه بن محمد بن العباس الأصفهانى[٣]، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسى، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبى إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد اللَّه بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أمم: تاويل، وتايس[٤] ومنسك»[٥].

هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف.

وروى النسائى من حديث شعبة عن النعمان بن سالم، عن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده أوس بن أبى أوس مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجوج لهم نساء، يجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقحون ما شاؤوا، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»[٦].

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: والصور كما جاء فى الحديث: «قرن ينفخ فيه» والذى ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، كما قد تقدم فى الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة.

وفى الحديث عن عطية، عن ابن عباس وأبى سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم، وصاحب القَرْن قد التقم القَرْن، وحنى جبهته واستمع متى يؤمر». قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل، على اللَّه توكلنا»[٧].

وقوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أى: أحضرنا الجميع للحساب، ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

---

(١) فى أ: «جهنم».

(٢) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٣).

(٣) فى ف، أ: «الأصبهانى».

(٤) فى ت، ف: «تاريس».

(٥) الحديث فى مسند الطيالسى برقم (٢٢٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٦): «رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورجاله ثقات».

تنبيه: وقع فى مجمع الزوائد «تاول وتاريس ومنسك» وعند الطيالسى «تاويل وتاريس وتارليس ومنسك» وفى المطالب العالية «تاويل وتاريس وناسك».

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٤).

(٧) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٣١) وقال: «هذا حديث حسن».

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم، أى: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ فى تعجيل الهم والحزن لهم.

وفى صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زِمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك [يجرونها][1] »[2] .

ثم قال مخبراً عنهم : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾ أى: تعاموا وتغافلوا وتصاموا[3] عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦] ، وقال ههنا : ﴿وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أى: لا يعقلون عن اللَّه أمره ونهيه .

ثم قال ﴿ أَفَحَسِبَ[4] الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ أى: اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك، وينتفعون بذلك؟ ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعدّ لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) ﴾ .

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عَمْرو، عن مُصْعَب قال : سألت أبى ـ يعنى سعد بن أبى وقاص ـ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾: أهم الحَرُورية؟ قال: لا ، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد اللَّه من بعد ميثاقه. وكان سعد رضى اللَّه عنه، يسميهم الفاسقين[5] .

---

(١) زيادة من ف،أ، ومسلم.
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٢).
(٣) فى أ: «تصامموا» .
(٤) فى ت: «أفحسبتم» وهو خطأ.
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٨) .

وقال على بن أبى طالب(١) ، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية.

ومعنى هذا عن على، رضى اللَّه عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء(٢) ، بل هى أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل(٣) وجود الخوارج بالكلية، وإنما هى عامة فى كل من عبد اللَّه على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود ،كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤] وقوله(٤) تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] .

وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم ﴾ أى :نخبركم ﴿ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾؟ ثم فسرهم فقال : ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أى: يعتقدون أنهم على شىء، وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أى: جحدوا آيات اللَّه فى الدنيا، وبراهينه التى أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ أى: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير(٥) .

قال البخارى: حدثنا محمد بن عبد اللَّه، حدثنا سعيد بن أبى مريم، أخبرنا المغيرة، حدثنى أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين(٦) يوم القيامة، لايزن عند اللَّه جناح بعوضة» وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾». وعن يحيى بن بُكَيْر، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبى الزناد، مثله(٧) .

هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقاً(٨) . وقد رواه مسلم عن أبى بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن بكير، به(٩) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن صالح مولى التَّوْأمة، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم، فيوزن بحبة فلا يزنها». قال: وقرأ: ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

وكذا رواه ابن جرير، عن أبى كريب، عن أبى الصلت، عن ابن أبى الزناد، عن صالح مولى

---

(١) فى ت : «طلحة» . (٢) فى أ : «هو» . (٣) فى ت : «وقيل» .
(٤) فى ت، ف، أ: «وقال» . (٥) فى ت : «من الخير» . (٦) فى ت: «السمين العظيم» .
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٩) .
(٨) فى ت: «مغلقًا» .
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٥) .

التوأمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، مرفوعاً [١] فذكره بلفظ البخارى سواء .

وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا العباس بن محمد، حدثنا عون بن عُمَارة[٢]، حدثنا هشام بن حسان، عن واصل، عن عبد اللَّه بن بريدة، عن أبيه قال : كنا عند رسول اللَّه ﷺ، فأقبل رجل من قريش يخطر فى حلة له. فلما قام على النبى ﷺ قال: «يابريدة، هذا ممن لايقيم اللَّه له يوم القيامة وزناً»[٣] .

ثم قال: تفرّد به واصل مولى أبى عنبسة[٤] وعون[٥] بن عُمَارة[٦]، وليس بالحافظ، ولم يتابع عليه. وقد قال ابن جرير أيضًا: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شمر[٧] ، عن أبى يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل، فلا يزن عند اللَّه جناح بعوضة، اقرؤوا : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[٨] .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا﴾ أى: إنما جازيناهم بهذا الجزاء جهنم، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات اللَّه ورسله هزواً، استهزؤوا بهم ، وكذبوهم أشد التكذيب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا باللَّه ورسله، وصدقوهم فيما جاؤوا به بأن لهم جنات الفردوس.

قال مجاهد: الفردوس هو: البستان بالرومية .

وقال كعب، والسدى، والضحاك: هو البستان الذى فيه شجر الأعناب.

وقال أبو أمامة[٩] :الفردوس: سرة[١٠] الجنة.

وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها.

وقد روى هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بشير[١١] ،عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَة، عن النبى ﷺ: « الفردوس[١٢] :ربوة الجنة، أوسطها وأحسنها»[١٣] .

---

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٩) .

(٢) فى ت: «عامر» .

(٣) مسند البزار برقم (٢٩٥٦) «كشف الأستار».

(٤) فى ت: «مولى عن عبيد»، وفى ف، أ: «مولى أبى عيينة» .

(٥) فى ف، أ: «وعنه عون» . (٦) فى ت : «عامر» . (٧) فى ت: «سمرة» .

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٩) .

(٩) فى ت : «أسامة» . (١٠) فى ت : «شجرة» . (١١) فى ف ، أ: «بشر» .

(١٢) فى ت: «والفردوس» .

(١٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧/ ٢١٣) من طريق أبى الجماهر، عن سعيد بن بشير به .

وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً. وروى عن قتادة، عن أنس ابن مالك مرفوعاً بنحوه. وقد نقله[١] ابن جرير، رحمه اللّه[٢].

وفي الصحيحين: « إذ سألتم اللّه الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط[٣] الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة »[٤].

وقوله: ﴿ نُزُلاً ﴾ أي: ضيافة، فإن النزل هو الضيافة.

وقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: مقيمين ساكنين[٥] فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ أي: لا يختارون[٦] غيرها، ولا يحبون سواها، وكما قال الشاعر[٧]:

فَحَلَّتْ سُوَيدا القَلْبِ لاَ أَنَا بَاغياً ... سواها ولا عَنْ حُبِّها أَتَحوّلُ

وفي قوله: ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم[٨] فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعناً[٩] ولا رحلة[١٠] ولا بدلاً[١١].

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تكتب[١٢] به كلمات ربي وحكمه وآياته الدالة[١٣] عليه، ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ [أي: لفرغ البحر][١٤] قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات اللّه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧].

قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم اللّه كقطرة من ماء البحور[١٥] كلها، وقد أنزل اللّه ذلك: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾.

---

(١) في أ: «ذكر ذلك كله».

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ٣٠) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١٧٤) من طريق روح بن عبادة، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، رضي اللّه عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) في ت: «وأوسطه».

(٤) صحيح البخاري برقم (٧٤٢٣).

(٥) في ف، أ: «ماكثين».

(٦) في ت: «لا تختارون».

(٧) هو النابغة الجعدي، والبيت في مغني اللبيب (ص٢٦٥) أ.هـ مستفاداً من حاشية ط ـ الشعب.

(٨) في أ: «أنه قد توهم».

(٩) في ت: «ضعفا».

(١٠) في أ: «رحيلة».

(١١) في ت، ف، أ: «بديلا».

(١٢) في ف: «يكتب».

(١٣) في ت، ف، أ: «والدلالات».

(١٤) زيادة من ت، ف، أ.

(١٥) في ت: «البحر».

يقول: لو كان البحر مدادا [لكلمات الله][(١)]، والشجر كله أقلام[(٢)]، لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر، وبقيت كلمات اللّه قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق مانقول[(٣)]، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فى نعيم الآخرة[(٤)] كحبة من خردل فى خلال الأرض [كلها][(٥)].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ .

روى الطبرانى من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن قيس الكوفى، أنه سمع معاوية بن أبى سفيان أنه قال: هذه آخر آية أنزلت[(٦)].

يقول لرسوله محمد ﷺ[(٧)]: **﴿ قُلْ ﴾** لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: **﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾** فمن زعم[(٨)] أنى كاذب، فليأت بمثل ماجئت به، فإنى لا أعلم الغيب فيما[(٩)] أخبرتكم به من الماضى، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين، مما هو مطابق[(١٠)] فى نفس الأمر، لولا ما أطلعنى اللّه عليه، وأنا أخبركم **﴿ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ ﴾** الذى أدعوكم إلى عبادته، **﴿ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾** لا شريك له، **﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾** أى: ثوابه وجزاءه الصالح، **﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾**، وهو ما كان موافقاً لشرع اللّه، **﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾** وهو الذى يراد به وجه اللّه وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لابد أن يكون خالصاً للّه، صواباً[(١١)] على شريعة رسول اللّه [ﷺ][(١٢)]. وقد روى ابن أبى حاتم من حديث معمر، عن عبد الكريم الجزرى، عن طاوس قال: قال رجل: يارسول اللّه، إنى أقف المواقف أريد وجه اللّه، وأحب أن يرى موطنى. فلم يرد عليه رسول اللّه ﷺ شيئاً. حتى نزلت هذه الآية: **﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾**.

وهكذا أرسل هذا مجاهد، وغير واحد.

وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بنى هاشم، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال: أنبئنى عما أسألك عنه: أرأيت رجلاً يصلى، يبتغى وجه اللّه، ويحب أن يُحْمَد، ويصوم ويبتغى وجه اللّه، ويحب أن يحمد، ويتصدق ويبتغى وجه اللّه، ويحب أن يحمد، ويحج ويبتغى وجه اللّه، ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شيء، إن اللّه تعالى يقول: «أنا خير شريك، فمن كان له معى شريك[(١٣)] فهو له كله، لاحاجة لى فيه»[(١٤)].

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «والشجر أقلام كلها».
(٣) فى ت، أ: «يقول».
(٤) فى أ: «الجنة».
(٥) زيادة من ت، ف، أ.
(٦) المعجم الكبير(١٩/ ٣٩٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٤):«رجاله ثقات».
(٧) فى ت، ف، أ: «صلوات الله وسلامه عليه».
(٨) فى ف، أ: «يزعم».
(٩) فى أ: «مما».
(١٠) فى ت،أ: «المطابق».
(١١) فى ت: «صوابًا خالصاً له».
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) فى أ: «شرك».
(١٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد اللّه بن الزبير، ثنا كثير بن زيد، عن ربيح بن عبدالرحمن بن أبى سعيد الخدرى، عن أبيه، عن جده قال: كنا نتناوب رسول اللّه ﷺ، فنبيت عنده، تكون[١] له الحاجة، أو يطرقه أمر من الليل، فيبعثنا. فكثر المحتسبون[٢] وأهل النُّوب، فكنا نتحدث، فخرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال: « ما هذه النجوى ؟ [ألم أنهكم عن النجوى][٣]». قال: فقلنا: تبنا إلى اللّه، أى نبىّ اللّه، إنما كنا فى ذكر المسيح، وفرقنا منه، فقال: « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى ؟ » قال: قلنا: بلى. قال: « الشرك الخفى، أن يقوم الرجل يصلى لمكان الرجل »[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد ـ يعنى ابن بَهْرَام ـ قال: قال شَهْر بن حَوْشَب: قال ابن غنم: لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادة بن الصامت، فأخذ يمينى بشماله، وشمال أبى الدرداء بيمينه، فخرج يمشى بيننا ونحن نتناجى، واللّه أعلم بما نتناجى به، فقال عبادة بن الصامت: إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما، لتوشكان[٥] أن تريا الرجل من ثبج المسلمين ـ يعنى من وسط ـ قرأ القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه، وأحل حلاله وحرم[٦] حرامه، ونزل عند منازله، لا يَحُورُ فيكم إلا كما يَحُور[٧] رأس الحمار الميت. قال: فبينما نحن كذلك، إذ طلع شداد بن أوس، رضى اللّه عنه، وعوف بن مالك، فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « من الشهوة الخفية والشرك». فقال عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء: اللهم غفراً. أو لم يكن رسول اللّه ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب . وأما الشهوة الخفية[٨] فقد عرفناها، هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذى تخوفنا به ياشداد؟ فقال شداد: أرأيتكم لو رأيتم رجلاً يصلى لرجل، أو يصوم لرجل، [أو تصدق له، أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا: نعم، واللّه إنه من صلى لرجل أو صام له][٩] أو تصدق له، لقد أشرك. فقال شداد: فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ [يقول][١٠] : «من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك؟» فقال[١١] عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يعمد اللّه إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله، فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به؟ فقال شداد عن ذلك: فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «إن اللّه يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بى، من أشرك بى شيئاً فإن [حَشْده][١٢]عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به، وأنا عنه غنى »[١٣].

طريق [أخرى][١٤] لبعضه: قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنى عبد الواحد بن زياد، أخبرنا عبادة بن نُسىّ،عن شداد بن أوس،رضى اللّه عنه، أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شىء سمعته من رسول اللّه ﷺ [يقوله فذكرته][١٥] فأبكانى، سمعت رسول اللّه يقول:« أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية ». قلت: يارسول اللّه، أتشرك أمتك [من بعدك؟][١٦] قال: « نعم،

(١) فى ت، ف:« تأذن»، وفى أ : «تأذن». (٢) فى أ: «المجسسون».
(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) المسند(٣/ ٣٠) وفى إسناده ربيح بن عبد الرحمن قال أحمد: ليس بمعروف، وقال البخارى: منكر الحديث.
(٥) فى أ: «ليوشكان». (٦) فى ت: «فحرم». (٧) فى ت، ف، أ: « لايجوز منكم إلا كما يجوز».
(٨) فى أ : «حفية». (٩، ١٠) زيادة من ف، أ، والمسند. (١١) فى ف، أ: «قال». (١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) المسند (٤/ ١٢٥). (١٤ـ ١٦) زيادة من ف، أ.

أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً، ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه [١]».

ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذَكْوَان، عن عبادة بن نُسىّ، به[٢]. وعبادة فيه ضعف وفى سماعه من شداد نظر.

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسين[٣] بن علىّ بن جعفر الأحمر، حدثنا علىّ ابن ثابت، حدثنا قيس بن[٤] أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يقول اللّه يوم القيامة: أنا خير شريك، من [٥] أشرك بى أحداً فهو له كله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت العلاء يحدث عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، يرويه عن ربه، عز وجل، أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى، فأنا منه برىء، وهو للذى أشرك». تفرّد به من هذا الوجه [٦].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا لَيْث، عن يزيد ـ يعنى ابن الهاد ـ عن عمرو، عن محمود بن لبيد؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول اللّه؟قال: «الرياء، يقول اللّه يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» [٧].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر[٨]، أخبرنا عبد الحميد ـ يعنى ابن جعفر ـ أخبرنى أبى، عن زياد بن ميناء، عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى ـ وكان من الصحابة ـ أنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إذا جمع اللّه الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله للّه أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير اللّه، فإن اللّه أغنى الشركاء عن الشرك».

وأخرجه الترمذى وابن ماجه، [من حديث محمد بن][٩]بكر [١٠] وهو البُرسانى، به[١١].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكار، حدثنى أبى - يعنى عبد العزيز بن أبى بكرة[١٢] - عن أبى بكرة، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من سمَّع سمَّع اللّه به، ومن راءى راءى اللّه به»[١٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبى سعيد

(١) فى أ: «صيامه».
(٢) المسند(٤/ ١٢٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٠٥).
(٣) فى ف، أ: «الحسن». (٤) فى أ: «عن». (٥) فى أ: «فمن».
(٦) المسند (٢/ ٣٠١) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم(٩٣٨) من طريق محمد بن جعفر به.
(٧) المسند(٥/ ٤٢٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٠٢): «رجاله رجال الصحيح».
(٨) فى ف، أ: «بكير». (٩) زيادة من ف، أ. (١٠) فى ف، أ: «بكير».
(١١) المسند (٤/ ٢١٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٠٣).
(١٢) فى ف، أ: «بكر».
(١٣) المسند(٥/ ٤٥).

الخدرى، عن رسول اللَّه ﷺ قال: « من يرائى يرائى اللَّه به، ومن يسمع يسمع اللَّه به »[١].

حديث آخر: قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثنى عمرو بن مرة، قال: سمعت رجلاً فى بيت أبى عبيدة؛ أنه سمع[٢] عبد اللَّه بن عمرو يحدث ابن عمر[٣]، أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: « من سَمَّع الناس بعمله سَمَّع اللَّه به ، سامع خلقه وصغره وحقره »[قال][٤]: فذرفت عينا عبد اللَّه[٥].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن يحيى الأيلى، حدثنا الحارث بن غسان، حدثنا أبوعمران الجونى، عن أنس، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تعرض أعمال بنى آدم بين يدى اللَّه، عز وجل، يوم القيامة فى صحف مختومة[٦]، فيقول اللَّه: ألقوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يارب، واللَّه ما رأينا منه إلا خيراً. فيقول: إن عمله كان لغير وجهى، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى».

ثم قال الحارث بن غسان: روى عنه جماعة وهو بصرى ليس به بأس [٧].

وقال ابن وهب: حدثنى يزيد بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد اللَّه[٨] بن قيس الخزاعى، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « من قام رياء وسمعة، لم يزل[٩] فى مقت اللَّه حتى يجلس»[١٠].

وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص، عن عوف[١١] بن مالك، عن ابن مسعود، رضى اللَّه عنه، قال : قال رسول اللَّه ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك[١٢] استهانة استهان بها ربه، عز وجل»[١٣].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السَّكونى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش[١٤] ،حدثنا عمرو بن قيس الكندى؛ أنه سمع معاوية بن أبى سفيان تلا هذه الآية ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن[١٥].

---

(١) المسند (٣/ ٤٠).
(٢) فى أ: «ليسمع».
(٣) فى أ: «عمرو».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المسند(٢/ ١٦٢).
(٦) فى أ:«مختمة».
(٧) مسند البزار برقم (٣٤٣٥) «كشف الأستار».
(٨) فى أ: «عبد الرحمن».
(٩) فى ت، أ: «يزد».
(١٠) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢٣): «رواه الطبرانى وفيه يزيد بن عياض وهو متروك». وله شاهد من حديث أبى هند الدارى رواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٠).
(١١) فى ت، ف، أ: «عروة».
(١٢) فى أ: «فذلك».
(١٣) مسند أبى يعلى (٩/ ٥٤) وحسنه الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية(٣/ ١٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢١): «فيه إبراهيم ابن مسلم الهجرى وهو ضعيف».
(١٤) فى ت، أ: «ابن عباس».
(١٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٢).

وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية [هى][١] آخر سورة الكهف. والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها[٢] ولا يغير حكمها[٣]، بل هى مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى ما فهمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا أبو قُرَّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ فى ليلة: **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾**، كان له من نور، من عدن أبين إلى [مكة][٤] حَشْوُهُ الملائكة»[٥]. غريب جداً.

آخر [تفسير][٦] سورة الكهف ولله الحمد[٧]

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «آية تنسخها».
(٣) فى ت، ف: «بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) مسند البزار برقم (٣١٠٨) «كشف الأستار»، وأبو قرة الأسدى جهله الذهبى وابن حجر، وقال الذهبى: «تفرد عنه النضر بن شميل». وقال ابن حجر: «أخرج ابن خزيمة حديثه فى صحيحه وقال: لا أعرفه بعدالة ولا جرح».
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «والحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، غفر الله لمن كتبه ولمن كان سببًا فى كتابته.

[٣٩٦ظ] / سورة الكهف

مكيّة،[١] قال ابن عبّاس: غيرَ آيتين،[٢] وهي[٣] مائة وعشر آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ١﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الكتابَ الكامل الغنيّ عن الوصف بالكمال المعروف بذلك مِن بين الكتب الحقيقَ باختصاص اسم الكتاب به، وهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المُنزَل حينئذ، كما مرّ مرارًا.

وفي وصفه تعالى بالموصول إشعارٌ بعلّيّة ما في حيّز الصلة لاستحقاق الحمد، وإيذانٌ بعِظَم شأن التنزيل الجليل، كيف لا، وعليه يدور فَلَك سعادة الدارين. وفي التعبير عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم بالعبد مضافًا إلى ضمير الجلالة تنبيهٌ على بلوغه عليه الصلاة والسلام إلى أعلى معارج العبادة، وتشريفٌ له أيُّ تشريف، وإشعارٌ بأنّ شأن الرسول أن يكون عبدًا للمرسِل، لا كما زعمت النصارى في حقّ عيسى عليه السلام.

وتأخير المفعول الصريح عن الجارّ والمجرور مع أنّ حقّه التقديمُ عليه، ليتّصل به قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ أي: شيئًا مِن العِوَج بنوع اختلال في النظم وتنافٍ في المعنى أو انحراف عن الدعوة إلى الحقّ، وهو في المعاني كالعِوَج في الأعيان، وأمّا قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه، ١٠٧/٢٠]، مع كون الجبال مِن الأعيان فللدلالة على انتفاء ما لا يُدرَك مِن العِوَج بحاسّة البصر؛ بل إنّما يوقَف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسيّة،

---

١ ط س + وهي مئة وإحدى عشرة آية.

٢ انظر: تفسير الرازي، ٤٢١/٢١.

٣ س – قال ابن عبّاس غير آيتين، وهي.

ولمّا كان ذلك ممّا لا يُشعَر به بالمشاعر الظاهرة عُدّ مِن قبيل ما في المعاني. وقيل: الفتحُ في اعوجاج المنتصِب كالعُود والحائط، والكسرُ في اعوجاج غيره عينًا كان أو معنى.

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾

﴿قَيِّمًا﴾ بالمصالح الدينيّة والدنيويّة للعباد على ما ينبئ عنه ما بعده مِن الإنذار والتبشير، فيكون وصفًا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال، أو على ما قبله مِن الكتب السماويّة شاهدًا بصِحّتها ومهيمِنًا عليها أو متناهيًا في الاستقامة، فيكون تأكيدًا لِما دلّ عليه نفيُ العِوَج مع إفادة كونِ ذلك مِن صفاته الذاتيّة اللازمة له حسبما تنبئ عنه الصيغة، لا أنّه نُفي عنه العِوَج مع كونه مِن شأنه.

وانتصابه على تقدير كون الجملة المتقدِّمة معطوفة على الصلة بمضمَر ينبئ عنه نفيُ العِوَج، تقديرُه: جعلَه قَيّمًا، وإمّا على تقدير كونها حاليّة، فهو على الحاليّة مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛[1] إذ لا فصلَ حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف. / وقُرئ: "قِيَمًا".[2] [٣٩٧و]

﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلِّق بـ﴿أَنزَلَ﴾،[3] والفاعلُ ضمير الجلالة كما في الفعلين المعطوفين عليه. والإطلاق عن ذِكر المفعول الأوّل للإيذان بأنّ ما سِيق له الكلام هو المفعول الثاني، وأنّ الأوّل ظاهر لا حاجةَ إلى ذِكره، أي: أنزل الكتاب ليُنذِر بما فيه الذين كفروا به. ﴿بَأۡسًا﴾ أي: عذابًا ﴿شَدِيدًا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ أي: صادرًا مِن عنده نازلًا مِن قِبَله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم، وقُرِئ: "مِنْ لَدْنِهِ"[4] بسكون الدال مع إشمام الضمّة وكَسْرِ النون لالتقاء الساكنين وكَسْرِ الهاء للإتباع.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

[3] في الآية السابقة.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الرفاعي عن يحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ بالتشديد، وقرئ بالتخفيف[١] ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدِّقين به ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الأعمالَ الصالحة التي بُيِّنت في تضاعيفه. وإيثار صيغة الاستقبال في الصلة للإشعار بتجدّد الأعمالِ الصالحة واستمرارها، وإجراءُ الموصول على موصوفه المذكور لِما أنّ مَدار قَبول الأعمالِ هو الإيمان. ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم بمقابلة إيمانِهم وأعمالهم المذكورة ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنّة وما فيها مِن المَثوبات الحُسنى.

﴿مَّٰكِثِينَ﴾ حالٌ مِن الضمير المجرور في ﴿لَهُمْ﴾.[٢] ﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك الأجر ﴿أَبَدًا﴾ مِن غير انتهاء، أي: خالدين فيه، وهو نصب على الظرفية لـ﴿ماكثين﴾. وتقديم "الإنذار" على "التبشير" لإظهار كمال العناية بزَجْر الكفّار عمّا هم عليه مع مراعاة تقديمِ التخلية على التحلية.

وتكرير الإنذار بقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ متعلّقًا بفِرقة خاصّة ممّن عمّه الإنذار السابق مِن مستحقّي البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم، أي: وينذرَ مِن بين سائر الكفَرة هؤلاء المتفوِّهين بمِثل هاتيك العظيمة خاصّة، وهم كفّار العرب الذين يقولون: الملائكة بنات الله تعالى، واليهودُ القائلون: عزيرٌ ابن الله، والنصارى القائلون: المسيحُ ابن الله.

وتركُ إجراءِ الموصول على الموصوف، كما فُعل في قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء، ٩/١٧] للإيذان بكفاية ما في حيّز الصلة في الكُفر على أقبح الوجوه، وإيثارُ صيغة الماضي في الصلة للدلالة / على تحقّق صدور تلك [٣٩٧ظ]
الكلمة القبيحة عنهم فيما سبَق. وجعلُ المفعول المحذوف فيما سلف عبارةً عن هذه الطائفة يؤدّي إلى خروج سائر أصناف الكفَرة عن الإنذار والوعيد، وتعميمُ الإنذار هناك للمؤمنين أيضًا بحَمْله على معنى مجرّد الإخبار بالخبر الضارّ مِن غير اعتبار حُلول المنذَر به على المنذَر، كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [يونس، ٢/١٠] يُفضي إلى خُلوّ النظم الكريم عن الدلالة

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

٢ في الآية السابقة.

على حلول البأس الشديد على مَن عدا هذه الفِرقة. ويجوز أن يكون الفاعل في الأفعال الثلاثة ضميرَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾،[١] أو ضميرَ الرسول عليه السلام.

﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

﴿مَا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: باتّخاذه سبحانه وتعالى ولدًا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مرفوع على الابتداء أو الفاعليّة لاعتماد الظرف، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي، والجملةُ حاليّة أو مستأنَفة لبيان حالهم في مقالهم، أي: ما لهم بذلك شيء مِن عِلم أصلًا، لا لإخلالهم بطريقه مع تحقيق المعلوم أو إمكانِه؛ بل لاستحالته في نفسه ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين قلّدوهم فتاهوا جميعًا في تِيه الجهالة والضلالة. أو ما لهم عِلم بما قالوه أهو صواب أم خطأ؟ بل إنّما قالوه رميًا بقول عن عمًى وجهالة مِن غير فكر ورويّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام، ٦/١٠٠]، أو بحقيقة ما قالوه وبعِظَم رُتبته في الشناعة كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ الآيات [مريم، ١٩/٨٨-٩٠]، وهو الأنسَب بقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: عظُمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لِما فيها مِن نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بكبرياء جنابه.[٢]

والفاعلُ في ﴿كَبُرَتْ﴾ إمّا ضميرُ المقالة المدلول عليها بـ﴿قَالُوا۟﴾،[٣] و﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز، أو ضمير مُبهَم مفسَّر بما بعده مِن النكرة المنصوبة تمييزًا كـ"بئس رجلًا"، والمخصوصُ بالذمّ محذوف، تقديره: كبُرت هي كلمة خارجة مِن أفواههم. وقرئ: "كَبْرَتْ"[٤] بإسكان الباء مع إشمام الضمّ، وقُرِئ: "كَلِمَةٌ"[٥] بالرفع.

---

١ الكهف، ١٨/١.

٢ م ط س: بجناب كبريائه [صُحّح في هامش م].

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعيسى بن عمر وابن مُحيصن وابن أبي عبلة وأبو حَيْوَة وحُميد والزّعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٤٩.

﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة لـ"الكلمة" مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوّه بها. وإسنادُ الخروج إليها مع أنّ الخارج هو الهواء المتكيّف بكيفيّة الصوت لملابسته بها. ﴿إِن يَقُولُونَ﴾ ما يقولون في ذلك الشأن ﴿إِلَّا كَذِبًا﴾[1] إلّا قولًا كذِبًا لا يكاد يدخُل تحت إمكان الصدق أصلًا، والضميران لهم ولآبائهم.

مُثِّل حاله عليه السلام في شِدّة الوجد على إعراض القوم وتولّيهم عن الإيمان بالقرآن وكمالِ التحسّر عليهم بحال مَن يُتوقَّع منه إهلاكُ نفسه إثرَ فوت ما يُحِبّه عند مفارقة أحبّتِه تأسّفًا على مفارقتهم وتلهّفًا على مهاجَرتهم، فقيل على طريقة التمثيل حَمْلًا له عليه السلام على الحذَر والإشفاق مِن ذلك: ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ﴾ أي: مُهلِك ﴿نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ﴾ غمًّا ووَجْدًا على فراقهم. وقرئ بالإضافة.[2]

﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآنِ الذي عُبّر عنه في صدر السورةِ بـ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾.[3] وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة ما سبَق عليه. وقرئ: بـ"أنْ"[4] المفتوحةِ، أي: لأن لم يؤمنوا، فإعمالُ ﴿بَـٰخِعٌ﴾ بحَمْله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف، ١٨/١٨].

﴿أَسَفًا﴾ مفعول له لـ﴿بَـٰخِعٌ﴾، أي: لفَرْط الحُزن والغضبِ، أو حالٌ ممّا فيه مِن الضمير، أي: متأسِّفًا عليهم. ويجوز حَمْل النظم الكريم على الاستعارة التبعيّة بجعل التشبيه بين أجزاءِ الطرفين لا بين الهيئتين المنتزَعتين منهما كما في التمثيل. وقد مرّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة، ٢/٧].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ استئناف وتعليل لِما في "لعلّ"[5] مِن معنى الإشفاقِ، أي: إنّا جعلنا ما عليها ممّن عدا مَن وُجّه إليه التكليف مِن الزخارف حيوانًا كان أو نباتًا أو معدِنًا، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ[6] لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة، ٢/٢٩].

---

[1] س + أي.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.

[3] الكهف، ١/١٨.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.

[5] في الآية السابقة.

[6] ط س: جعل.

﴿زِينَةً﴾ مفعول ثانٍ للجَعْل إن حُمل على معنى التصيير، أو حال إن حُمل على معنى الإبداع. و"اللام" في ﴿لَهَا﴾ إمّا متعلِّقة بـ﴿زِينَةً﴾، أو بمحذوف هو صفة لها، أي: كائنة لها، أي: ليتمتّع بها الناظرون مِن المكلَّفين وينتفعوا بها نظرًا واستدلالًا، فإنّ الحيّاتِ والعقاربَ مِن حيث تذكيرُهما لعذاب الآخرة مِن قبيل المنافِع؛ بل كلُّ حادث داخلٌ تحت الزينة مِن حيث دلالتُه على وجود الصانع ووَحدتِه، فإنّ الأزواج والأولاد أيضًا مِن زينة الحياة الدنيا؛ بل أعظمُها، ولا يمنع ذلك كونُهم مِن جملة المكلَّفين، فإنّهم مِن جهة انتسابهم إلى أصحابهم داخلون تحت الزينة، ومِن جهة كونهم مكلَّفين داخلون تحت الابتلاء.

[٣٩٨ظ] ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، / أي: جعلنا ما جعلنا لنُعاملَهم معاملةَ مَن يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنُجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبيَّن المحسِن مِن المسيء، وامتازت طبقات أفراد كلّ مِن الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المترتِّبة على أنظارهم وتفاوتِ درجات أعمالهم المتفرِّعة على ذلك، كما قرّرناه في مطالع سورة هود.[١]

و"أيّ" إمّا استفهاميّة مرفوعة بالابتداء و﴿أَحْسَنُ﴾ خبرُها، والجملةُ في محلّ النصب معلِّقة لفعل البلوى؛[٢] لِما فيه مِن معنى العِلم باعتبار عاقبته كـ"السؤال" و"النظر"، ولذلك أُجريَ مُجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعيّة، وإمّا موصولة[٣] بمعنى "الذي" و﴿أَحْسَنُ﴾ خبرُ مبتدأ مضمَر، والجملةُ صلة لها، وهي في حيِّز النصب بدلًا مِن مفعول ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾، والتقديرُ: لنبلوَ الذي هو أحسنُ عملًا، فحينئذ يحتمل أن يكون الضمّة في ﴿أَيُّهُمْ﴾ للبناء، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم، ٦٩/١٩] على أحد الأقوال، لتحقُّق شرط البناء الذي هو الإضافة لفظًا وحذفُ صَدْر الصلة، وأن تكون للإعراب؛ لأنّ ما ذُكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه.

---

[١] وفي هامش م: عند قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]. «منه».

[٢] وفي هامش م: أيّ مُصحِّحة لتعقيبه بحرف الاستفهام، كما ذُكر في سورة هود. «منه». | في تفسير الآية السابعة منها.

[٣] السياق: "أيّ" إمّا استفهاميّة... وإمّا موصولة...

وحُسن العمل: الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعةُ باليسير منها وصرفُها على ما ينبغي والتأمّلُ في شأنها وجعلُها ذريعةً إلى معرفة خالقها والتمتّعُ بها حسبما أذِن له الشرع وأداءُ حقوقها والشكرُ لها، لا اتّخاذُها وسيلةً إلى الشهوات والأغراض الفاسدة، كما يفعَله الكفَرة وأصحاب الأهواء.

وإيراد صيغةِ التفضيل مع أنّ الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسَن فقط، للإشعار بأنّ الغاية الأصليّة للجعل المذكور إنّما هو ظهور كمال إحسانِ المحسِنين، على ما حُقِّق في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ١١/٧].

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عُمر الدنيا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ مِن المخلوقات قاطبةً بإفنائها بالكلّيّة، وإنّما أُظهِر في مَقام الإضمار لزيادة التقرير، أو لإدراج المكلَّفين فيه.

﴿صَعِيدًا﴾ مفعول ثانٍ للجَعْل، والصعيد: التراب أو وجه الأرض. قال أبو عبيدةَ: هو المستوي مِن الأرض.[١] وقال الزجّاج: «هو الطريق الذي لا نباتَ فيه».[٢] ﴿جُرُزًا﴾ ترابًا لا نباتَ فيه / بعد ما كان يَتعجَّب مِن بهجته النُّظار ويتشرَّف بمشاهدته الأبصار، يقال: أرض جرُز: لا نباتَ فيها، وسَنة جرُز: لا مطرَ فيها. قال الفرّاء: جُرِزَت الأرض فهي مجروزة، أي: ذهب نباتها بقَحْط أو جَراد، ويقال: جرَزها الجراد والشاة والإبل إذا أكلتْ ما عليها.[٣] [٣٩٩و]

وهذه الجملة لتكميل ما في السابقة مِن التعليل، والمعنى: لا تحزَن بما عاينْتَ مِن القوم مِن تكذيب ما أنزلنا عليك مِن الكتاب، فإنّا قد جعلنا ما على الأرض مِن فنون الأشياء زينة لها لنختبرَ أعمالهم فنُجازيَهم بحسبها، وإنّا لَمُفنون جميع ذلك عن قريب ومُجازون لهم بحسب أعمالهم.

---

١ انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ١/٣٩٣؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٢٩.

٢ معاني القرآن وإعرابه للزّجّاج، ٣/٢٦٩؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٢٩.

٣ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢/١٣٤؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٢٩.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمراد إنكار حُسبان أمّته. و﴿أَمْ﴾ منقطِعة مقدَّرة بـ"بل" التي هي للانتقال مِن حديث إلى حديث لا للإبطال، وبهمزة الاستفهام عند الجمهور، وبـ"بل" وحدَها عند غيرِهم، أي: بل أحسبت ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟﴾ في بقائهم على الحياة مدّة طويلة مِن الدهر، ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ مِن بين آياتنا التي مِن جملتها ما ذكرناه مِن جعل ما على الأرض زينة لها للحكمة المشار إليها، ثمّ جعلِ ذلك كلّه صعيدًا جرُزًا كأن لم تغْنَ بالأمس.

﴿عَجَبًا﴾ أي: آيةً ذات عجَب، وَضْعًا له موضعَ المضاف، أو وصفًا لذلك بالمصدر مبالغةً. وهو خبرٌ لـ﴿كَانُوا۟﴾ و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حال منه، والمعنى أنّ قصّتهم وإن كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات التي مِن جملتها ما ذُكر مِن تعاجيب خَلْق الله تعالى؛ بل هي عندها كالنزْر الحقير.

و﴿ٱلْكَهْفِ﴾: الغار الواسع في الجبل. و﴿ٱلرَّقِيمِ﴾: كلبُهم. قال أميّةُ بن أبي الصَّلْت:[١]

وليس بها إلّا الرقيمُ مُجاورًا وصِيدَهمُ والقومُ في الكهف هُمَّدُ[٢]

وقيل: هو لوح رصاصي أو حجَري رُقمت فيه أسماؤُهم وجُعل على باب الكهف. وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف، فهو مِن رَقْمة الوادي، أي: جانبه. وقيل: الجبل. وقيل: قريتهم. وقيل: مكانُهم بين غَضْبانَ[٣] وأيْلةَ[٤]

---

١ هو أميّة بن أبي الصلت بن ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غِيَرة بن قسيّ (ت. ٥هـ/٦٢٦م). أمّه رقيّة بنت عبد شمس بن عبد مناف. شاعر جاهلي حكيم مِن أهل الطائف. قرأ الكتب المتقدّمة مِن كتب الله عزّ وجلّ ورغب عن عبادة الأوثان. وكان يُخبِر أنّ نبيًّا يُبعَث ويؤمّل أن يكون هو ذلك النبيّ، فلمّا بلغه بعثة النبيّ عليه الصلاة السلام كَفَر حسدًا له، ولمّا سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم شعره قال: آمن شعره وكفر قلبه. انظر: **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٤٥٠/١؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٣/٢.

٢ البيت لأميّةَ في ديوانه، ص ٣٧٥؛ وهو له في **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٩/٢؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٢٨/٢.

٣ وفي هامش م: اسم جبل. «منه». | جبل غَضْبان: جبل في أطراف الشام، بينه وبين أيلة مكان أصحاب الكهف، انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٢٠٦/٤.

٤ وفي هامش م: هي القرية التي كانت حاضرة البحر. «منه». | أَيْلَة: بالفتح، مدينة على ساحل >

دون فلسطين.[١] وقيل: أصحاب الرقيم آخرون، وكانوا ثلاثةً انطبق عليهم الغار فنجَوا / بذِكر كلّ منهم أحسنَ عمله،[٢] على ما فُصِّل في **الصحيحين**.[٣] [٣٩٩ظ]

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾

﴿إِذۡ أَوَى﴾ ظرفٌ لـ﴿عَجَبًا﴾ لا لـ﴿حَسِبۡتَ﴾، أو مفعول لـ"اذكُرْ" أي: حين التجأ ﴿ٱلۡفِتۡيَةُ﴾ أي: أصحاب الكهف. أوثرَ الإظهار على الإضمار لتحقيق ما كانوا عليه في أنفسهم مِن حال الفتوّة، فإنّهم كانوا فتية مِن أشراف الروم أرادهم دِقيانوسُ على الشِّرك فهربوا منه بدينهم، ولأنّ صاحبيّة الكهف مِن فروع التجائهم إلى الكهف، فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه. ﴿إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ بجبلهم بنجلوس[٤] واتّخذوه مأوًى.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ مِن خزائن رحمتك الخاصّة المكنونة عن عيون أهل العادات، فـ﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلِّقة بـ﴿ءَاتِنَا﴾، أو بمحذوف وقَع حالًا مِن مفعوله الثاني قُدِّمت عليه لكونه نكرة، ولو تأخّرت لكانت صفة له أي: آتنا كائنة مِن لدنك. ﴿رَحۡمَةٗ﴾ خاصّة تستوجب المغفرة والرِّزق والأمن مِن الأعداء، ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ الذي نحن عليه مِن مهاجَرة الكفّار والمثابَرة على طاعتك. وأصلُ التهيئة إحداث هيئة الشيء، أي: أصلحْ ورتِّب وأتممْ لنا مِن أمرنا ﴿رَشَدٗا﴾ إصابة للطريق الموصِل إلى المطلوب واهتداءً إليه، وكلا الجارّين متعلِّق بـ﴿هَيِّئۡ﴾ لاختلافهما في المعنى.

وتقديم المجرورَين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبرازِ الرغبة في المؤخَّر بتقديم أحواله، فإنّ تأخير ما حقُّه التقديم عمّا هو مِن أحواله المرغِّبة فيه، كما يورث شوقَ السامع إلى وروده، ينبئ عن كمال رغبة المتكلِّم فيه

< بحر القلزم [البحر الأحمر] ممّا يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأوّل الشام، وقيل: مدينة بين الفسطاط ومكّة على شاطئ بحر القلزم، وقيل: هي مدينة لليهود الذين حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت. انظر: معجم البلدان للحموي، ١/٢٩٢.

[١] هذه الأقوال جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٩.

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٢٩.

[٣] صحيح البخاري، ٣/٩١ (٢٢٧٢)؛ صحيح مسلم، ٤/٢٠٩٩ (٢٧٤٣).

[٤] وفي هامش م: كذا في تفسير الكواشي. «منه». | تفسير الكواشي، ٢٨٩ظ.

واعتنائه بحصوله لا محالةَ، وكذا الكلام في تقديم قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ على تقدير تعلّقه بـ﴿ءَاتِنَا﴾. وتقديمُ ﴿لَنَا﴾ على ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾[1] للإيذان مِن أوّل الأمر بكون المسئول مرغوبًا فيه لديهم، أو اجعل أمرنا رشَدًا كلَّه على أنّ ﴿مِن﴾ تجريديّة مثلُها في قولك: "رأيتُ منك أسدًا".

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١١﴾

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم على طريقة التمثيل المبنيّ على تشبيه الإنامة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحِجاب عليها. وتخصيص الآذان بالذِّكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحَجْب عن الشعور عند النوم لِما أنّها المحتاج إلى الحَجْب عادة، إذ هي الطريقة للتيقّظ غالبًا لاسيّما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق. وقيل: الضرب على الآذان كناية عن الإنامة الثقيلة.[2] وحملُه على تعطيلها كما في قولهم: "ضرَب الأمير على يد الرعيّة"، أي: منَعهم مِن التصرُّف،[3] مع عدم ملاءمته لِما سيأتي مِن البعث لا يدلّ على النوم مع أنّه المراد قطعًا.

و"الفاء" في ﴿فَضَرَبْنَا﴾ كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء، ٧٦/٢١] بعد قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، فإنّ الضرب المذكور وما ترتَّب عليه مِن التقليب ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال والبعثِ وغير ذلك إيتاءُ رحمة لدُنّيّة خافية عن أبصار المتمسِّكين بالأسباب العاديّة استجابةً لدعوتهم.

﴿فِي ٱلْكَهْفِ﴾ ظرف مكان لـ﴿ضَرَبْنَا﴾. ﴿سِنِينَ﴾ ظرف زمان له باعتبار بقائه لا ابتدائه. ﴿عَدَدًا﴾ أي: ذواتَ عدد / أو تُعَدّ عددًا على أنّه مصدر، أو معدودةً [٤٠٠و] على أنّه بمعنى المفعول. ووصفُ السنين بذلك إمّا للتكثير وهو الأنسَب بإظهار كمال القدرة، أو للتقليل وهو الأليَق بمقام إنكار كون القصّة عجبًا مِن بين سائر الآياتِ العجيبة، فإنّ مدّة لُبثهم كبعض يوم عنده عزّ وجلّ.

---

١ ط س: لدنّا.

٢ كذا في فتوح الغيب للطِّيبي، ٤١٦/٩.

٣ هذا القول منقول عن قُطْرُب في تفسير القرطبي، ٣٦٣/١٠.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ۝١٢﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: أيقظناهم مِن تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت ﴿لِنَعْلَمَ﴾ بنون العظمة، وقرئ بالياء مبنيًا للفاعل[١] بطريق الالتفات. وأيًا ما كان فهو غاية للبعث:

لكن لا بجعل العِلم مجازًا مِن الإظهار والتمييز، أو بحمله على ما يصِحّ وقوعه غايةً للبعث الحادث مِن العِلم الحالي الذي يتعلّق به الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]، وقولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران، ١٤٠/٣]، ونظائرهما التي يتحقّق فيها العِلم بتحقّق متعلّقه قطعًا، فإنّ تحويل القِبلة قد ترتّب عليه تحزُّب الناس إلى متّبِع ومنقلِب، وكذا مداولة الأيّام بين الناس ترتّب عليه تحزُّبهم إلى الثابت على الإيمان والمتزلزِل فيه، وتعلّق بكلّ مِن الفريقين العِلم الحالي والإظهار والتمييز، وأمّا بَعْث هؤلاء فلم يترتّب عليه تفرُّقهم إلى المَحصيّ وغيره حتّى يتعلّق بهما العِلم أو الإظهار والتمييز ويتسنّى نَظْم شيء مِن ذلك في سِلك الغاية، وإنّما الذي ترتّب عليه تفرُّقهم إلى مقدِّر تقديرًا غيرَ مصيب ومُفوِّض إلى العِلم الربّاني، وليس شيء منهما مِن الإحصاء في شيء.

بل بحَمْل النظم الكريم على التمثيل[٢] المبنيّ على جَعْل العِلم عبارة عن الاختبار مجازًا بطريق إطلاقِ اسمِ المسبَّب على السبب، وليس مِن ضرورة الاختبار صدورُ الفعل المختبِر به عن المختبَر قطعًا، بل قد يكون لإظهار عَجْزه عنه على سَنن التكاليفِ التعجيزيّة، كقوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة، ٢٥٨/٢]، وهو المراد ههنا، فالمعنى: بعثناهم لنعاملهم معاملة مَن يختبرهم.

﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: الفريقين المختلفَين في مدّة لُبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتي ﴿أَحْصَىٰ﴾ أي: أضبَطُ ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ أي: للُبثهم ﴿أَمَدًا﴾ أي: غاية فيظهَر لهم عجزهم ويفوِّضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرَّفوا حالَهم وما صنَع الله تعالى بهم

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٩/٢.

٢ السياق: لكن لا بجَعْل العلم مجازًا... بل بحمل النظم...

مِن حفظ أبدانهم وأديانهم فيزدادوا يقينًا بكمال قدرته وعِلمه، ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفًا لمؤمني زمانِهم وآيةً بيّنة لكفّارهم.

وقد اقتُصر ههنا مِن تلك الغايات الجليلة على ذِكر مبدئها الصادر عنه عزّ وجلّ، وفيما سيأتي على ما صدَر عنهم مِن التساؤل المؤدّي إليها، وهذا أَولى مِن تصوير التمثيل بأن يقال: بعثناهم بَعْث مَن يريد أن يعلَم... إلخ، حسبما وقَع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران، ١٤٠/٣] على أحد الوجوه حيث حُمل على معنى: فعلنا ذلك فِعْل مَن يريد أن يعلم مَن الثابتُ على الإيمان مِن غير الثابت، إذ ربّما يتوهَّم منه استلزام الإرادة لتحقّق المراد، فيعود المحذور فيُصار إلى جعل إرادة العِلم عبارة عن الاختبار، فاختبِر واختر.

هذا وقد قرئ: "لِيُعْلَمَ" مبنيًّا للمفعول[١] ومبنيًّا للفاعل[٢] مِن الإعلام على أنّ المفعول الأوّل محذوف، والجملةُ المصدّرة بـ﴿أَيُّ﴾ في موقع المفعول الثاني فقط إن جُعل العِلم عِرفانيًّا، وفي موقع المفعولين إن جُعل يقينيًّا، أي: ليُعلِمَ الله الناسَ أيَّ الحزبين أحصى... إلخ، وروى عطاء عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ أحد الحزبين الفِتيةُ والآخرَ الملوكُ الذين تداولوا المدينة مَلِكًا بعد مَلِك.[٣] وقيل: كلاهما مِن غيرهم. والأوّل هو الأظهر، فإنّ "اللام" للعهد ولا عهدَ لغيرهم.

[٤٠٠ظ] و"الأمد" بمعنى "المدى" / كـ"الغاية" في قولهم: "ابتداء الغاية" و"انتهاء الغاية"، وهو مفعول لـ﴿أَحْصَىٰ﴾، والجارُّ والمجرور حال منه قُدِّمت عليه لكونه نكرة. وليس معنى إحصاء تلك المدّة ضبطَها مِن حيث كمّيّتُها المتّصلة الذاتيّة، فإنّه لا يُسمّى إحصاء، بل ضبطَها مِن حيث كمّيّتُها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها إلى السنين وبلوغها مِن تلك الحيثيّة إلى مراتب الأعداد، على ما يُرشِدك إليه كون تلك المدّة عبارة عمّا سبَق مِن السنين.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٥١.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **اللباب** لابن عادل، ٤٣٣/١٢.

٣ **التفسير البسيط** للواحدي، ٥٤١/١٣؛ **تفسير الرازي**، ٤٣٠/٢١؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٣٦/١٢.

ويجوز أن يُراد بـ"الأمد" معناه الوضعي بتقدير المضاف، أي: لزمان لُبثِهم وبدونه أيضًا، فإنّ اللُّبث عبارة عن الكون المستمرّ المنطبق على الزمان المذكور، فباعتبار الامتداد العارضِ له بسببه يكوْن له أمد لا محالةَ، لكن ليس المراد به ما يقع غاية ومنتهًى لذلك الكونِ المستمرّ باعتبار كمّيّته المتّصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتدّ بالذات، وهو آنُ انبعاثهم مِن نومهم، فإنّ معرفته مِن تلك الحيثيّة لا تخفى على أحد ولا تُسمّى إحصاء كما مرّ،[1] بل باعتبار كمّيّته المنفصلة العارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه إلى السنين ووصوله إلى مرتبة معيّنة مِن مراتب العدد، كما حُقِّق في الصورة الأولى.

والفرق بين الاعتبارين أنّ ما تعلّق به الإحصاء في الصورة السابقة نفسُ المدّة المنقسمة إلى السنين، فهو مجموع ثلاثمائةٍ وتسعِ سنين، وفي الصورة الأخيرة منتهى تلك المدّة المنقسمة إليها، أعني السنة التاسعة بعد الثلاثمائة.

وتعلُّق الإحصاء بالأمد بالمعنى الأوّل ظاهر، وأمّا تعلُّقه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامه لِما تحته مِن مراتب العدد واشتماله عليها.

هذا على تقدير كون ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ مصدريّة. ويجوز أن تكون موصولة حُذف عائدها مِن الصلة أي: للذي لبثوا فيه مِن الزمان الذي عُبّر عنه فيما قبل بسنين عددًا. فالأمدُ بمعناه الوضعي على ما تحقّقتَه. وقيل: "اللام" مَزيدة، والموصول مفعول، و﴿أَمَدًا﴾ نصبٌ على التميز.[2]

وأمّا ما قيل مِن أنّ ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسم تفضيل؛ لأنّه الموافق لِما وقَع في سائر الآيات الكريمة، نحو: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف، ٧/١٨] ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء، ١١/٤] إلى غير ذلك ممّا لا يحصى، ولأنّ كونه فعلًا ماضيًا يُشعِر بأنّ غاية البعث هو العِلم بالإحصاء المتقدِّم على البعث لا بالإحصاء المتأخِّر عنه وليس كذلك.

[1] في كلامه على تفسير الآية الخامسة مِن سورة يونس، وتفسير الآية الثانيةَ عشرةَ مِن سورة الإسراء.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٠.

وادّعاءُ أنّ مجيء أفعل التفضيل مِن المزيد عليه غيرُ قياسي مدفوعٌ بأنّه عند سيبويهِ قياس مطلقًا، وعند ابن عصفور[1] فيما ليست همزتُه للنقل،[2] ولا ريبَ
[٤٠١و] في أنّ ما نحن فيه مِن ذاك القبيل، وامتناعُ عمَله إنّما هو / في غير التمييز مِن المعمولات، وأمّا أنّ التمييز يجب كونه فاعلًا في المعنى فلمانع أن يمنعه بصحّة أن يقال: أيُّهم أحفظُ لهذا الشعر وزنًا أو تقطيعًا، أو يقالَ: إنّ العامل في ﴿أَمَدًا﴾ فعل محذوف يدلّ عليه المذكور، أي: يُحصي لِما لبثوا أمدًا، كما في قوله:

وأضــــرَبَ مـنّـا بـالـسـيـوف الـقـوانـسـا[3]

وحديث الوقوع في المحذور بلا فائدة مدفوعٌ بما أشيرَ إليه مِن فائدة الموافقة للنظائر،[4] فمع ما فيه[5] مِن الاعتساف والخلَل بمَعزِل مِن السَّداد؛ لأنّ مؤدّاه أن يكون المقصود بالاختبار إظهارَ أفضل الحزبين وتمييزَه عن الأدنى مع تحقّق أصل الإحصاء فيهما. ومِن البيّن ألّا تحقُّقَ له أصلًا، وأنّ المقصود بالاختبار إظهارُ عجز الكلّ عنه رأسًا، فهو فعل ماضٍ قطعًا. وتوهُّم إيذانه بأنّ غاية البعث هو العِلم بالإحصاء المتقدِّم عليه مردودٌ بأنّ صيغة الماضي باعتبار حال الحكاية. والله تعالى أعلمُ.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ⑬﴾

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمِل فيما سلف مِن قوله تعالى:

---

[1] هو عليّ بن مؤمن بن محمّد بن عليّ الحضرمي الإشبيلي، أبو الحسن المعروف بابن عصفور (ت. ٦٦٩هـ/١٢٧١م). النحوي وحامل لواء العربيّة بالأندلس في عصره. وُلد بإشبيليّة ومات بتونس. وله مصنّفات مشهورة، مِن أبرز كتبه: **المقرَّب، الممتع في التصريف، وشرح الحماسة.** انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٢/٢١٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٢٧.

[2] وفي هامش م: أي: إلى التعدية. «منه».

[3] وفي هامش م: صدره:

أكـرَّ وأحـمـى للحقيقة منهمُ

وقبله:

فلم أرَ مثلَ الحيّ حيًا مُصبّحًا
ولا مثلَنا يوم التقينا فوارسا

وهما للعبّاس بن مرداس السُّلمي في ديوانه، ص ٩٢-٩٣؛ **والأصمعيّات** للأصمعي، ص ٢٠٥. والعجُز موضع الاستشهاد بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥١٩؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٤٥٠؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٤٣٤.

[4] الكلام في هذا الوجه مذكور في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥١٩-٥٢٠؛ **والدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧/٤٤٩-٤٥٠؛ **واللباب** لابن عادل، ١٢/٤٣٤-٤٣٥.

[5] السياق: وأمّا ما قيل... فمع مافيه...

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ﴾... إلى آخره،[1] أي: نحن نخبِرك بتفاصيل أخبارِهم، وقد مرّ بيان اشتقاقه في مطلع سورة يوسفَ عليه السلام. ﴿نَبَأَهُم﴾ النبأ: الخبر الذي له شأن وخطر. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ إمّا صفة لمصدر محذوف، أو حالٌ مِن ضمير ﴿نَقُصُّ﴾ أو مِن ﴿نَبَأَهُم﴾، أو صفة له على رأي مَن يرى حذف الموصول مع بعض صلته، أي: نقصّ قَصصًا ملتبِسًا بالحقّ، أو نقصّه ملتبِسين به، أو نقصّ نبأهم ملتبِسًا به، أو نبأهم الملتبِس به.

ونبأُهم حسبما ذكَره محمّد بن إسحاقَ بن يسار أنّه قد مرَج أهل الإنجيل وعظُمت فيهم الخطايا وطغَت[2] ملوكهم، فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وكان ممّن بالغ في ذلك وعتا عُتوًّا كبيرًا دِقيانوس، فإنّه غلا فيه غلوًّا شديدًا فجاس خلال الديار والبلاد بالعبث والفساد، وقتَل مَن خالفه مِن المتمسِّكين بدين المسيح عليه السلام، وكان يتتبّع الناس فيُخيِّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فمَن رغِب في الحياة الدنيا الدنيّة يصنع ما يصنع، ومَن آثَر عليها الحياة الأبديّة قتَله وقطّع آرابه وعلّقها في سُور المدينة وأبوابها.

فلمّا رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء مدينتهم، وقيل: كانوا مِن خواصّ المَلِك، قاموا فتضرّعوا إلى الله عزّ وجلّ واشتغلوا بالصلاة والدعاء. فبينما هم كذلك إذ دخَل عليهم أعوان الجبّار فأحضروهم بين يديه، فقال لهم ما قال، وخيَّرهم بين القتل وبين عبادة الأوثان، فقالوا: إنّ لنا إلهًا ملأ السماواتِ والأرضَ عظمتُه وجبروته لن ندعوَ مِن دونه أحدًا، ولن نُقِرّ بما تدعونا إليه أبدًا، فاقضِ ما أنت قاضٍ، فأمَر فنُزِع ما عليهم مِن الثياب الفاخرة وأخرجهم مِن عنده، وخرج هو إلى مدينة / نَينوى لبعض شأنه وأمهلهم إلى رجوعه ليتأمّلوا [٤٠١ظ]
في أمرهم فإن تبِعوه وإلّا فعَل بهم ما فعل بسائر المسلمين.

فأزمعت الفتيةُ على الفرار بالدِّين والالتجاء إلى الكهف الحصين، فأخذ كلّ منهم مِن بيت أبيه شيئًا فتصدّقوا ببعضه وتزوّدوا بالباقي، فأوَوا إلى الكهف، فجعلوا يصلّون فيه آناءَ الليل وأطرافَ النهار، ويبتهلون إلى الله سبحانه بالأنين والجُؤار، وفوّضوا أمر نفقتهم إلى يمليخا، فكان إذا أصبح يضع عنه ثيابه الحِسان

---

[1] الكهف، ١٠/١٨.

[2] س: طفت.

ويلبَس لباس المساكين ويدخُل المدينة ويشتري ما يُهمّهم ويتجسّس ما فيها مِن الأخبار ويعود إلى أصحابه، فلبِثوا على ذلك إلى أن قدِم الجبّار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم، فاعتذروا بأنّهم عصَوهم ونهَبوا أموالهم وبذّروها في الأسواق وفرّوا إلى الجبل، فلمّا رأى يمليخا ما رأى مِن الشرّ رجَع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه قليل مِن الزاد، فأخبرهم بما شاهده[1] مِن الهَول ففزِعوا إلى الله عزّ وجلّ وخرّوا له سُجّدًا، ثمّ رفعوا رءوسهم وجلسوا يتحدّثون في أمرهم، فبينما هم كذلك إذ ضرَب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رءوسهم.

فخرج دِقيانوس في طلبهم بخيله ورَجِله فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم فلم يُطِق أحد أن يدخُله، فلمّا ضاق بهم ذرعًا قال قائل منهم: أليس لو كنتَ قدَرتَ عليهم قتلتَهم؟ قال: بلى، قال: فابْنِ عليهم باب الكهف ودَعْهم يموتوا جوعًا وعطشًا وليكن كهفُهم قبرًا لهم ففعل. ثم كان مِن شأنهم ما قصّ الله عزّ وعلا عنهم.[2]

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ استئناف تحقيقي مبنيّ على تقدير السؤال مِن قِبَل المخاطَب. و"الفِتْية" جَمْعُ قِلّة للفَتيّ كـ"الصِّبية" لـ"الصبيّ". ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أوثرَ الالتفات للإشعار بعلّيّة وصف الربوبيّة لإيمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم مِن المقالة حسبما سيُحكى عنهم.

﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ بأن ثبّتناهم على ما كانوا عليه مِن الدِّين، وأظهرنا لهم مكنوناتِ محاسنه، وفيه التفات مِن الغَيبة إلى ما عليه سبكُ النظم سِباقًا وسِياقًا مِن التكلّم.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قوّيناها حتّى اقتحموا مضائق الصبر على هَجْر
[٤٠٢و] الأهل والأوطان والنعيم والإخوان، / واجترأوا على الصَّدْع بالحقّ مِن غير خوف وحِذار والردِّ على دِقيانوسَ الجبّار.

---

١ ط س: شهده.

٢ ط س: منهم. | بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٦٣-١٧١.

﴿إِذۡ قَامُواْ﴾ منصوب بـ﴿رَبَطۡنَا﴾، والمرادُ بقيامهم انتصابهم لإظهار شِعار الدِّين، قال مجاهد: خرجوا مِن المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد، فقال أكبرُهم: إنّي لأجد في نفسي شيئًا أنّ ربّي ربُّ السماوات والأرض، فقالوا: نحن أيضًا كذلك،[1] فقاموا جميعًا ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ضمّنوا دعواهم ما يُحقِّق فحواها ويقضي بمقتضاها، فإنّ ربوبيّته عزّ وجلّ لهما يقتضي ربوبيّته لِما فيهما أيَّ اقتضاء. وقيل: المراد قيامهم بين يدي الجبّار مِن غير مبالاة به حين عاتبهم على تَرْك عبادة الأصنام.[2] فحينئذ يكون ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾... إلخ،[3] منقطِعًا عمّا قبله، صادرًا عنهم بعد خروجهم مِن عنده.

﴿لَن نَّدۡعُوَاْ﴾ لن نعبد أبدًا ﴿مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾ معبودًا آخرَ لا استقلالًا ولا اشتراكًا. والعدول عن أن يقال: "ربًّا" للتنصيص على ردّ المخالفين حيث كانوا يسمُّون أصنامهم آلهةً، وللإشعار بأنّ مدار العبادة وَصْف الألوهيّة، وللإيذان بأنّ ربوبيّته تعالى بطريق الألوهيّة لا بطريق المالكيّة المجازيّة.

﴿لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ أي: قولًا ذا شطَط، أي: تجاوزٍ عن الحدّ، أو قولًا هو عين الشطَط، على أنّه وُصِف بالمصدر مبالغة، ثمّ اقتُصر على الوصف مبالغة على مبالغة، وحيث كانت العبادة مستلزِمة للقول لِما أنّها لا تَعرى مِن الاعتراف بألوهيّة المعبود والتضرّع إليه قيل: ﴿لَّقَدۡ قُلۡنَا﴾. و﴿إِذٗا﴾ جواب وجزاء، أي: لو دعَونا مِن دونه إلهًا واللهِ لقد قلنا قولًا خارجًا عن حدّ العقول مُفرِطًا في الظلم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هو مبتدأ، وفي اسم الإشارة تحقير لهم، ﴿قَوۡمُنَا﴾ عطفُ بيان له، ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ خبرُه، وفيه معنى الإنكار، ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ﴾ تخصيص فيه معنى الإنكار والتعجيز، أي: هلّا يأتون ﴿عَلَيۡهِم﴾ على ألوهيّتهم أو على صحّة

---

[1] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٧٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٣/٥٤٤-٥٤٥؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٤٣٧.

[2] القول في اللباب لابن عادل، ١٢/٤٣٧.

[3] في الآية الآتية.

اتّخاذهم لها آلهةً ﴿بِسُلْطَٰنِۭ بَيِّنٍۖ﴾ بحجّة ظاهرة الدلالة على مُدّعاهم، وهو تبكيت لهم وإلقامُ حجَر.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، / والمعنى أنّه أظلمُ مِن كلّ ظالم، وإن كان سَبْك النظم على إنكار الأظلميّة مِن غير تعرّض لإنكار المساواة، كما مرّ تحقيقه في سورة هود.[1] [٤٠٢ظ]

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: فارقتموهم في الاعتقاد، أو أردتُم الاعتزال الجسماني. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ عطف على الضمير المنصوب، و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة، أي: إذ اعتزلتموهم ومعبوديهم إلّا اللهَ، أو وعبادتَهم إلّا عبادةَ الله، وعلى التقديرين فالاستثناءُ متّصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكّة، ومنقطِعٌ على تقدير تمحُّضهم في عبادة الأوثان، ويجوز كون ﴿مَا﴾ نافيةً على أنّه إخبار مِن الله تعالى عن الفِتية بالتوحيد معترِض بين ﴿إذ﴾ وجوابه.

﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ أي: التجِئوا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ قال الفرّاء: هو جواب ﴿إذ﴾، كما تقول: إذ فعلتَ فافعل كذا.[2] وقيل: هو دليل على جوابه، أي: إذ اعتزلتموهم اعتزالًا اعتقاديًّا فاعتزلوهم اعتزالًا جسمانيًّا، أو إذ أردتُم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء إلى الكهف، ﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ يبسُطْ لكم ويوسِّعْ عليكم ﴿رَبُّكُم﴾ مالكُ أمرِكم ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ في الدارين ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ يسهِّلْ لكم ﴿مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم بصدده مِن الفرار بالدِّين ﴿مِّرْفَقًا﴾ ما ترتفِقون وتنتفِعون به. وقرئ بفتح "الميم" وكسر "الفاء"[3] مصدرًا كـ"المَرجِع". وتقديم ﴿لَكُم﴾ في الموضعين لِما مرّ مرارًا مِن الإيذان مِن أوّل الأمر بكون المؤخَّر مِن منافعهم والتشويق إلى وروده.

---

[1] في تفسير الآية الثامنةَ عشرةَ منها.

[2] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ١٣٦/٢؛ وعنه في اللباب لابن عادل، ٤٣٩/١٢.

[3] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾ بيان لحالهم بعد ما أَوَوا إلى الكهف، ولم يصرِّح به إيذانًا بعدم الحاجة إليه لظهور جرَيانهم على موجَب الأمر به لكونه صادرًا عن رأي صائب، وتعويلًا على ما سلف مِن قوله سبحانه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾،[1] وما لحِق مِن إضافة الكهف إليهم وكونهم في فجوة منه.

والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن يصلُح للخطاب، وليس المراد به الإخبارَ بوقوع الرؤية تحقيقًا؛ بل الإنباءُ[2] بكون الكهف بحيث لو رأيتَه ترى الشمس ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تتزاوَر وتتنحّى، بحذف إحدى التاءين. وقرئ بإدغام "التاء" في "الزاء"،[3] و"تَزْوَرّ"[4] كـ"تحمرّ"، و"تَزْوَارّ"[5] كـ"تَحْمَارّ"، و"تَزْوَئِرُ"،[6] وكلّها مِن الزَّوَر: وهو المَيل.

﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ / الذي أوَوا إليه، فالإضافة لأدنى ملابسة. ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ [٤٠٣و]
أي: جهةَ ذاتِ يمين الكهف عند توجّه الداخل إلى قعره، أي: جانبه الذي يلي المَغرِب فلا يقع عليهم شُعاعها فيؤذيَهم، ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي: تراها عند غروبها ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تقطَعهم مِن "القطيعة والصَّرْم" ولا تقربهم ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةَ ذاتِ شمال الكهف، أي: جانبه الذي يلي المَشرِق. وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على مِنهاج خرق العادة كرامةً لهم.

---

[1] الكهف، ١٨/١٠.

[2] وفي هامش م: يتضمّن الإنباء معنى الإيذان والإشعار. «منه».

[3] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

[4] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري وأيّوب السِّختياني وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٥.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحوي والوليد بن مُسلم عن ابن عامر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٥٢.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ جملة حاليّة مُبيّنة لكون ذلك أمرًا بديعًا، أي: تراها تميل عنهم يمينًا وشمالًا ولا تحوم حولهم، مع أنّهم في متّسع مِن الكهف معرَّض لإصابتها لولا أن صرفتْها عنهم يد التقدير.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما صنع الله بهم مِن تزاوُر الشمس وقَرْضها حالتَي الطلوع والغروب مع كونهم في موقع شُعاعِها ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ العجيبة الدالّة على كمال عِلمه وقدرته وحقّيّة التوحيد وكرامة أهلِه عنده سبحانه وتعالى. وهذا قبل أن سدّ دِقيانوسُ باب الكهف.

وقيل: كان باب الكهف شماليًّا مستقبلَ بنات النعش،[1] وأقربُ المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرِق رأس السرطان ومغربِه،[2] والشمسُ إذا كان مدارها مدارَه تطلُع مائلةً عنه مقابِلة لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المَغرِب، وتغرُب محاذيةً لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جنبَيه وتُخلِّل عفونتَه وتُعدِّل هواءه، ولا يقع عليهم فيؤذيَ أجسادهم ويُبليَ ثيابهم، ولعلّ مَيلَ الباب إلى جانب الغرب كان أكثر ولذلك أُوقِع التزاورُ على كهفهم والقرضُ على أنفسهم. فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ حينئذ إشارة إلى إيوائهم إلى كهفٍ هذا شأنه، وأمّا جعلُه إشارة إلى حفظ الله سبحانه إيّاهم في ذلك الكهف تلك المدّة الطويلة، أو إلى اطّلاعه سبحانه لرسوله[3] صلّى الله عليه وسلّم على أخبارهم فلا يساعده إيراده في تضاعيف القصّة.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ إلى الحقّ بالتوفيق له / ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح. [٤٠٣ظ]
والمراد إمّا الثناء عليهم والشهادة لهم بإصابة المطلوب، والإخبارُ بتحقيق ما أمّلوه مِن نشر الرحمة وتهيئة المرافق، أو التنبيهُ على أنّ أمثال هذه الآية كثيرة ولكنّ المنتفِع بها مَن وفّقه الله تعالى للاستبصار بها.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ أي: يخلق فيه الضلال لصَرْف اختياره إليه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ﴾ أبدًا وإن بالغتَ في التتبّع والاستقصاء ﴿وَلِيًّا﴾ ناصرًا ﴿مُّرْشِدًا﴾ يهديه إلى ما ذُكر مِن الفلاح لاستحالة وجوده في نفسه، لا أنّك لا تجِده مع وجوده أو إمكانه.

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.
[2] وفي هامش م: التذكير باعتبار أنّه برج.
[3] ط س: لرسول الله.

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾ بفتح "السين"، وقرئ بكسرها[1] أيضًا، والخطابُ فيه كما فيما سبق. ﴿أَيۡقَاظٗا﴾ جمع "يَقظ" بكسر "القاف" وفتحها: وهو اليقظان. ومدارُ الحُسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر. وقيل: كثرة تقلّبهم.[2] ولا يلائمه قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾. ﴿وَهُمۡ رُقُودٞ﴾ أي: نِيام، وهو تقرير لِما لم يُذكَر فيما سلَف اعتمادًا على ذِكره السابق مِن الضرب على آذانهم.

﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ﴾ في رقدتهم ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ نصب على الظرفية، أي: جهةً تلي أَيمانهم، ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةً تلي شمائلهم كيلا تأكل الأرض ما يليها مِن أبدانهم. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: لو لم يُقلَّبوا لأكلَتْهم الأرض.[3] قيل: لهم تقلُّبتان في السَّنة.[4] وقيل: تقلُّبة واحدة يوم عاشوراء.[5] وقيل: في كلّ تسع سنين.[6] وقرئ: "يُقَلِّبُهُمْ"[7] على الإسناد إلى ضمير الجلالة، و"تَقَلُّبَهُمْ"[8] على المصدر منصوبًا بمضمر ينبئ عنه ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾، أي: وترى تقلُّبَهم.

﴿وَكَلۡبُهُم﴾ قيل: هو كلب مرّوا به فتبِعهم فطردوه مِرارًا فلم يرجِع، فأنطقه الله تعالى فقال: لا تخشَوا جانبي فإنّي أحبّ أحبّاء الله فناموا حتّى أحرُسَكم.[9] وقيل: هو كلبُ راعٍ قد تبِعهم على دينهم،[10] ويُؤيّده قراءة "كَالِبُهُمْ"،[11] إذ الظاهر

---

[1] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢١/٢.

[2] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢١/٢.

[3] بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ١٨٦/١٥؛ و**التفسير البسيط** للواحدي، ٥٥٨/١٣؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٥.

[4] مَرويّ عن أبي هريرة في **التفسير البسيط** للواحدي، ٥٥٨/١٣؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٥؛ و**اللباب** لابن عادل، ٤٤٤/١٢.

[5] القول في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٥؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٢١/٢.

[6] مرويّ عن مجاهد في **التفسير البسيط** للواحدي، ٥٥٨/١٣؛ و**اللباب** لابن عادل، ٤٤٤/١٢.

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن عِمران بن حِطّان عن الحسن. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١١٥٤.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل والحسن وعِمران بن حُدير. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٢؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١١٥٣.

[9] مرويّ عن الكلبي في **اللباب** لابن عادل، ٤٤٦/١٢؛ وبلا عزو في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٣١/٢-٣٣٢.

[10] مرويّ عن ابن عبّاس في **اللباب** لابن عادل، ٤٤٦/١٢؛ وبلا عزو في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٣١/٢.

[11] قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر الصادق. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٦.

لُحوقه بهم. وقيل: هو كلبُ صيدِ أحدهم أو زرعِه أو غنمِه. واختُلف في لونه، فقيل: كان أنمرَ، وقيل: أصفرَ، وقيل: أصهبَ، وقيل: غير ذلك،[١] وقيل: كان اسمه قطمير،[٢] وقيل: زبّان،[٣] وقيل: تتود،[٤] وقيل: قطمون، / وقيل: ثور.[٥] قال [٤٠٤و] خالد بن مَعْدان:[٦] «ليس في الجنّة مِن الدوابّ إلّا كلب أصحاب الكهف وحمارُ بلعم».[٧] وقيل: لم يكن ذلك مِن جنس الكلاب؛ بل كان أسدًا.[٨]

﴿بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ حكايةُ حال ماضية، ولذلك أُعمِل اسم الفاعل،[٩] وعند الكسائي وهشام[١٠] وأبي جعفر مِن البصريّين يجوز إعماله مطلقًا.[١١] والذراع: مِن المِرفق إلى رأس الإصبع الوسطى. ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ أي: بموضع الباب مِن الكهف.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لو عاينتَهم وشاهدتَهم، وأصل الاطّلاع الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهَدة، وقرئ بضمّ "الواو"،[١٢] ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾

---

١ هذه الأقوال مع أخرى في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفيهما أنّ القول بأنّ لونه أصفر مرويّ عن مقاتل.

٢ مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٣ مرويّ عن عليّ في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفي مطبوعها «ريّان».

٤ مرويّ عن الأوزاعي في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥، وفي مطبوعه «بتور»؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢. وفي مطبوعه «يشور».

٥ مرويّ عن السُّدّي في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥، وفي مطبوعه «تور»؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢، وفي مطبوعه «يور».

٦ هو خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي الحمصي، أبو عبد الله (ت. ١٠٤هـ/٧٢٢م). الإمام شيخ أهل الشام. قيل: أصله مِن اليمن وإقامته في حمص، تابعي ثقة، اشتهر بالعبادة والعلم والهيبة. أدرك سبعين مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحدّث عن خلق مِن الصحابة. روى عن ثوبان وأبي أمامة الباهلي ومعاوية وأبي هريرة وابن عمر وغيرهم، وأرسل عن معاذ وعائشة وأبي الدرداء وغيرهم، روى عنه محمّد بن إبراهيم التيمي وحسان بن عطيّة وغيرهم. كان كثير التسبيح، فلمّا مات بقيت إصبعه تتحرّك وكأنّه يسبّح. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥٣٦/٤-٥٤٠؛ والأعلام للزركلي، ٢٩٩/٢.

٧ معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ اللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٨ مرويّ عن ابن جُريج في معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٦/١٢.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/٢.

١٠ هو هشام بن معاوية، أبو عبد الله (ت. ٢٠٩هـ/٨٢٤م). نحوي ضرير مِن أهل الكوفة، وهو أحد أعيان أصحاب الكسائي. له مِن الكتب: الحدود، المختصر، القياس، كلّها في النحو. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٣٢٨/٢؛ والأعلام للزركلي، ٨٨/٨.

١١ انظر تفصيل أقوالهم في التذييل والتكميل لأبي حيّان، ٣٢٤/١٠-٣٤٥.

١٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

هربًا ممّا شاهدتَ منهم، وهو إمّا نصب على المصدريّة مِن معنى ما قبله، إذ التولية والفِرار مِن وادٍ واحد، وإمّا على الحاليّة بجعل المصدر بمعنى الفاعل، أي: فارًّا، أو بجعل الفاعل مصدرًا مبالغة، كما في قولها:[١]

فـإنّـمـا هـيَ إقـبـالٌ وإدبـارُ[٢]

وإمّا على أنّه مفعول له.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ وقرئ بضمّ العين،[٣] أي: خوفًا يملأ الصدر ويُرعِبه، وهو إمّا مفعول ثانٍ أو تمييز. وذلك لِما ألبسهم الله عزّ وجلّ مِن الهَيبة والهيئة، كانت أعينهم مفتّحة كالمستيقِظ الذي يريد أن يتكلّم. وقيل: لطول أظفارهم وشُعورهم.[٤] ولا يساعده قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾،[٥] وقولُه: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾،[٦] فإنّ الظاهر مِن ذلك عدم اختلاف أحوالِهم في أنفسهم. وقيل: لعِظم أجرامِهم.[٧]

ولعلّ تأخيرَ هذا مِن[٨] ذِكر التولية للإيذان باستقلال كلّ منهما في الترتّب على الاطّلاع، إذ لو رُوعيَ ترتيب الوجود لَتبادر إلى الفهم ترتُّب المجموع مِن حيث هو هو عليه، وللإشعار بعدم زوال الرُّعب بالفِرار، كما هو المعتاد.

وعن معاويةَ رضي الله عنه:[٩] لمّا غزا الروم فمرّ بالكهف، قال: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابن عبّاس رضي الله عنهما: ليس لك ذلك قد منع الله تعالى مَن هو خير منك، حيث قال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية، قال معاويةُ:[١٠] لا أنتهي حتّى أعلم / عِلمَهم، فبعث ناسًا وقال لهم: اذهبوا فانظُروا، ففعلوا فلمّا دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحًا فأحرقتْهم.[١١] وقرئ بتشديد "اللام"[١٢] [٤٠٤ظ]

---

١ وفي هامش م: خنساء. «منه».
٢ مضى تخريجه عند تفسير الآية السادسة والأربعين مِن سورة هود.
٣ قرأ بها ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.
٥ في الآية الآتية.
٦ في الآية الآتية.
٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.
٨ س: عن.
٩ ط س - رضي الله عنه.
١٠ ط س + رضي الله عنه.
١١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٥٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢١.
١٢ قرأ بها ابن نافع وابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

على التكثير، وبإبدال "الهمزة" ياء مع التخفيف[١] والتشديد.[٢]

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم وحفِظنا أجسادَهم مِن البِلى والتحلّل آيةً دالّة على كمال قدرتنا بعثناهم مِن النوم ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليسأل بعضهم بعضًا فيترتّب عليه ما فُصّل مِن الحِكَم البالغة. وجعلُه غايةً للبعث المعلَّل فيما سبَق بالاختبار مِن حيث إنّه مِن أحكامه المترتِّبة عليه والاقتصارُ على ذِكره لاستتباعه لسائر آثاره.

﴿قَالَ﴾ استئناف لبيان تساؤلِهم ﴿قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو رئيسهم واسمه مَكْشَلِينِيا ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في منامكم؟ لعلّه قاله لِما رأى مِن مخالفة حالهم لِما هو المعتادُ في الجملة. ﴿قَالُواْ﴾ أي: بعضُهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قيل: إنّما قالوه لِما أنّهم دخلوا الكهف غُدوةً وكان انتباههم آخرَ النهار،[٣] فقالوا: لبثنا يومًا، فلمّا رأوا أنّ الشمس لم تغرُب بعدُ، قالوا: أو بعضَ يوم، وكان ذلك بناءً على الظنّ الغالب، فلم يُعزَوا إلى الكذِب.

﴿قَالُواْ﴾ أي: بعض آخرُ منهم بما سنَح لهم مِن الأدلّة أو بإلهام مِن الله سبحانه: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: أنتم لا تعلمون مدّة لُبثِكم وإنّما يعلمها الله سبحانه. وهذا ردّ منهم على الأوّلين بأجملِ ما يكون مِن مراعاة حُسن الأدب، وبه يتحقّق التحزّب إلى الحزبين المعهودين فيما سبَق. وقد قيل: القائلون جميعُهم ولكن في حالتين. ولا يساعده النظم الكريم؛ فإنّ الاستئناف في الحكاية والخطاب في المحكي يقضي بأنّ الكلام جارٍ على منهاج المحاورة والمجاوبة، وإلّا لقيل: ثمّ قالوا: ربُّنا أعلمُ بما لبثنا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٦١/٧.

[٢] قرأ بها أبو جعفر. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٦١/٧.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٢.

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ قالوه إعراضًا عن التعمّق في البحث وإقبالًا على ما يُهمّهم بحسب الحال، / [١] كما ينبئ عنه "الفاء". و"الورِق": [٤٠٥و] الفِضّة مضروبة أو غيرَ مضروبة. ووصفُها باسم الإشارة يُشعر بأنّ القائل ناولها بعض أصحابه ليشتريَ بها قوتَ يومِهم ذلك. وقرئ بسكون "الراء"،[٢] وبإدغام "القاف" في "الكاف"،[٣] وبكسر "الواو" وبسكون "الراء" مع الإدغام.[٤] وحَمْلُهم لها دليل على أنّ التزوّد لا ينافي التوكّل على الله تعالى.

﴿فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَا﴾ أي: أهلها ﴿أَزۡكَىٰ﴾ أحلُّ وأطيبُ، أو أكثرُ وأرخصُ ﴿طَعَامًا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٍ مِّنۡهُ﴾ أي: مِن ذلك الأزكى طعامًا ﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ﴾ وليتكلّف اللُّطف في المعاملة كيلا يُغبَن، أو في الاستخفاء لئلّا يُعرَف ﴿وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾ مِن أهل المدينة، فإنّه يستدعي شيوع أخباركم، أي: لا يفعلنّ ما يؤدّي إلى ذلك، فالنهيُ على الأوّل تأسيس وعلى الثاني تأكيدٌ للأمر بالتلطّف.

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ٢٠﴾

﴿إِنَّهُمۡ﴾ تعليل لِما سبَق مِن الأمر والنهي، أي: لِيبالِغْ في التلطّف وعدمِ الإشعار؛ لأنّهم ﴿إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: يطّلعوا عليكم أو يظفَروا بكم، والضميرُ للأهل المقدّر في ﴿أَيُّهَا﴾، ﴿يَرۡجُمُوكُمۡ﴾ إن ثبتُّم على ما أنتم عليه ﴿أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ أي: يُصيّروكم إليها ويُدخلوكم فيها كُرهًا، مِن العَود بمعنى الصيرورة، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف، ٨٨/٧]. وقيل: كانوا أوّلًا على دينهم.[٥] وإيثار كلمة ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" للدلالة على الاستقرار الذي هو أشدّ شيء عندهم كراهة. وتقديم احتمال الرجم على احتمال الإعادة؛ لأنّ الظاهر مِن حالهم هو الثبات على الدِّين المؤدّي إليه.

---

١ وقع هنا اضطراب في الألواح في نسخة المؤلّف، فتقدّمت عشر منها على عشر بعدُ.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٦.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٣/٢.

وضمير الخِطاب في المواضع الأربعة للمبالغة في بعث[١] المبعوث على الاستخفاء وحثّ الباقين على الاهتمام بالتوصية، فإنّ إمحاض النُّصح أدخلُ في القَبول واهتمامَ الإنسان بشأن نفسه أكثرُ وأوفَرُ.

﴿وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا﴾ أي: إن دخلتُم فيها، ولو بالكُره والإلجاء، لن تفوزوا بخير ﴿أَبَدٗا﴾ لا في الدنيا ولا الآخرة. وفيه مِن التشديد في التحذير ما لا يخفى.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما أنمناهم وبعثناهم لِما مرّ مِن ازديادهم / في مراتب اليقين ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾ أي: أطلعنا الناس ﴿عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ أي: الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا مِن أحوالهم العجيبة ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدَه بالبعث أو موعودَه الذي هو البعث، أو أنّ كلّ وعدِه أو كلَّ موعوده فيدخُل فيه وعده بالبعث والبعث الموعود دخولًا أوليًا، ﴿حَقّٞ﴾ صادق لا خُلف فيه، أو ثابت لا مردَّ له؛ لأنّ نومهم وانتباههم كحال مَن يموت ثمّ يُبعث، ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامة التي هي عبارة عن وقت بَعْث الخلائق جميعًا للحساب والجزاء ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ لا شكّ في قيامها، فإنّ مَن شاهد أنّه جلّ وعلا توفّى نفوسهم وأمسَكها ثلاثمائة سنةٍ وأكثرَ حافظًا أبدانَها مِن التحلّلِ والتفتّت ثمّ أرسلها إليها، لا يبقى له شائبة شكّ في أنّ وعده تعالى حقّ وأنّه يبعث مَن في القبور فيردّ إليهم أرواحَهم فيُحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم. [٤١٥ظ]

﴿إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرف لقوله: ﴿أَعۡثَرۡنَا﴾ قُدِّم عليه الغاية إظهارًا لكمال العناية بذِكرها، لا لقوله: ﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ كما قيل؛[٢] لدِلالته على أنّ التنازع يحدُث بعد الإعثار وليس كذلك، أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازعون ﴿بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾ ليرتفع الخلاف ويتبيّنَ الحقّ. قيل: المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين في البعث:

---

[١] م ط س: حَثل [صُحِّح في هامش م ط].

[٢] القول في التبيان للعكبري، ٢/٨٤٢.

فمِن مُقِرّ له، وجاحدٍ به، وقائل يقول ببعث الأرواح دون الأجساد، وآخرَ يقول ببعثهما معًا.[١]

قيل: كان مَلِك المدينة حينئذ رجلًا صالحًا مؤمنًا، وقد اختلف أهل مملكته في البعث حسبما فُصِّل، فدخَل المَلِك بيته وأغلق بابه ولبس مِسْحًا وجلس على رماد وسأل ربّه أن يُظهِر الحقّ، فألقى الله عزّ وجلّ في نفس رجل مِن رُعيانهم فهدَم ما سدّ به دِقيانوسُ باب الكهف ليتّخذه حظيرة لغنمه، فعند ذلك بعثهم الله تعالى، فجرى بينهم مِن التقاوُل ما جرى.[٢]

رُوي أنّ المبعوث لمّا دخل المدينة أخرج الدِّرهم ليشتريَ به الطعام وكان على ضَرْب دِقيانوسَ، فاتّهموه بأنّه وجَد كنزًا، فذهبوا به إلى المَلِك فقصّ عليه القِصّة، / فقال بعضهم: إنّ آباءنا أخبرونا بأنّ فِتية فرّوا بدينهم مِن دِقيانوسَ فلعلّهم [٤١٦و] هؤلاء، فانطلق المَلِك وأهل المدينة مِن مسلم وكافر وأبصروهم وكلّموهم، ثمّ قالت الفِتية للملك: نستودعك الله ونُعيذك به مِن شرّ الإنس والجنّ، ثمّ رجعوا إلى مضاجعهم فماتوا، فألقى المَلِك عليهم ثيابه، وجعَل لكلّ منهم تابوتًا مِن ذهَب، فرآهم في المنام كارهين للذهب، فجعَلها مِن الساج،[٣] وبنى على باب الكهف مسجِدًا.[٤] وقيل: لمّا انتهَوا إلى الكهف قال لهم الفتى: مكانكم حتّى أدخُل أوّلًا لئلّا يفزعوا، فدخل فعمِيَ عليهم المدخل فبنَوا ثمّة مسجِدًا.[٥]

وقيل: المتنازَع فيه أمر الفتية قبل بعثهم، أي: أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وما جرى بينهم وبين دِقيانوسَ مِن الأحوال والأهوال ويتلقَّون ذلك مِن الأساطير وأفواه الرجال.

---

١ مرويّ عن عكرمة بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٦١؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

٢ مرويّ بمعناه عن ابن إسحاق في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٩-٢٠٠؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

٣ السّاج: خشب يجلب مِن الهند. لسان العرب لابن منظور، «سوج».

٤ مروي عن وهب بن منبّه بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/١٩٧-١٩٨؛ وبلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٢٣.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٤.

وعلى التقديرين فـ"الفاء" في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَقَالُواْ﴾ فصيحة،[١] أي: أعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا فماتوا فقالوا، أي: قال بعضهم: ﴿ٱبْنُواْ عَلَيْهِم﴾ أي: على باب كهفهم ﴿بُنْيَٰنًا﴾ لئلّا يتطرّقَ إليهم الناس، ضنًّا بتربتهم ومحافظةً عليها.

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ مِن كلام المتنازِعين، كأنّهم لمّا رأوا عدم اهتدائهم إلى حقيقة حالهم مِن حيث النسب ومِن حيث العددُ ومِن حيث اللُّبث في الكهف قالوا ذلك تفويضًا للأمر إلى علّام الغيوب، أو مِن كلام الله سبحانه ردًّا لقول الخائضين في حديثهم مِن أولئك المتنازِعين.

وقيل: هو أمرهم[٢] وتدبيرهم عند وفاتهم،[٣] أو شأنهم في الموت والنوم، حيث اختلفوا في أنّهم ماتوا أو ناموا كما في أوّل مرّة، فـ﴿إِذْ﴾ حينئذ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ وهم المَلِك والمسلمون: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ﴾ معطوف على ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾، وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على أنّ هذا القول ليس ممّا يستمرّ ويتجدّد كالتنازع. وقيل: متعلّقٌ بـ"اذكر" مضمَرًا. وأمّا تعلّقه بـ﴿أَعْثَرْنَا﴾ فيأباه أنّ إعثارهم ليس في زمان تنازُعهم فيما ذُكر؛ بل قبله. وجعلُ وقت التنازع ممتدًّا يقع في بعضه الإعثارُ وفي بعضه التنازعُ[٤] / تعسّفٌ لا يخفى، مع أنّه لا مخصِّص لإضافته إلى التنازُع، وهو مؤخَّر في الوقوع. [٤١٦ظ]

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضمير في الأفعال الثلاثة للخائضين في قصّتهم في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أهل الكتاب والمسلمين، لكن لا على وجه

---

١ كما في فتوح الغيب للطِّيبي، ٩/٤٣٣؛ وشرح مشكلات الكشّاف لقطب الدين الرازي، ٤١٩و.

٢ وفي هامش م: أي: المتنازع فيه. «منه».

٣ القول في الكشف عن مشكلات الكشّاف للقزويني، ١٩٥و.

٤ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٣٣-٣٣٤.

إسناد كلّ منها إلى كلّهم؛ بل إلى بعضهم: ﴿ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ أي: هم ثلاثة أشخاص رابعهم، أي: جاعلُهم أربعة بانضمامه إليهم كلبُهم. قيل: قالته اليهود،[١] وقيل: قاله السيّد مِن نصارى نَجرانَ وكان يعقوبيًّا.[٢] وقرئ: "ثَلَاثَّةٌ"[٣] بإدغام "الثاء" في "التاء".

﴿وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ قيل: قالته النصارى، أو العاقب منهم وكان نَسطوريًّا.[٤] ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾ رميًا بالخبر الخفيّ الذي لا مُطَّلَعَ عليه، أو ظنًّا بالغيب مِن قولهم: "رجَم بالظنّ" إذا ظنّ. وانتصابه على الحاليّة مِن الضمير في الفعلين جميعًا، أي: راجمين، أو على المصدريّة منهما، فإنّ الرَّجم والقول واحد، أو مِن محذوف مستأنَف أو واقع موقعَ الحال مِن ضمير الفعلين معًا، أي: يرجُمون رجمًا، وعدم إيراد "السين" للاكتفاء بعطفه على ما فيه ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقّن مِن هذا الوحي وما فيه ممّا يُرشدهم إلى ذلك مِن عدم نظمِه في سِلك الرَّجْم بالغيب. وتغييرُ سَبكه بزيادة "الواو" المفيدة لزيادة وَكادة النسبة فيما بين طرفيها، لا بوحي آخرَ كما قيل.

﴿قُل﴾ تحقيقًا للحقّ وردًّا على الأوّلين: ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ أي: أقوى عِلمًا ﴿بِعِدَّتِهِم﴾ بعددهم ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ﴾ أي: ما يعلم عِدّتهم، أو ما يعلمهم فضلًا عن العِلم بعِدّتهم ﴿إِلَّا قَلِيلٞ﴾ مِن الناس قد وفّقهم الله للاستشهاد بتلك الشواهد.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: حين وقعت "الواو" انقطعت العِدّة، وعليه مدار قوله رضي الله تعالى عنه: أنا مِن ذلك القليل.[٥] ولو كان في ذلك وحيٌ آخرُ لما خفيَ عليه ولَما احتاج إلى الاستشهاد بـ"الواو"، ولكان المسلمون أسوة له في العِلم بذلك.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٤/٢.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٧.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٢.
٥ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٥؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٧٩/١٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٥.

وعن عليّ كرّم الله تعالى وجهه أنّهم سبعةُ نفر أسماؤُهم: يمليخا ومَكْشَلِينِيا ومَشْلِينِيَا، هؤلاء أصحابُ يمين الملك، وكان عن يساره مَرْنُوش ودَبَرْنُوش وشَاذَنُوش وكان يستشير هؤلاء الستّةَ في أمره، والسابعُ الراعي الذي وافقهم حين / هربوا مِن ملكهم دِقيانوسَ واسمه كَفِيشَطَيُوش.[1] [٤١٧و]

﴿فَلَا تُمَارِ﴾ "الفاء" لتفريع النهي على ما قبله، أي: إذ قد عرفتَ جَهْل أصحاب القولين الأوّلَين فلا تُجادلهم ﴿فِيهِمْ﴾ في شأن الفِتية ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ قَدْر ما تعرَّض له الوحيُ مِن وَصْفهم بالرَّجْم بالغيب، وعدمِ العِلم على الوجه الإجمالي، وتفويضِ العلم إلى الله سبحانه مِن غير تصريح بجَهْلهم وتفضيح لهم، فإنّه ممّا يُخِلّ بمكارم الأخلاق.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ في شأنهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ مِن الخائضين ﴿أَحَدًا﴾ فإنّ فيما قُصّ عليك لَمَندوحةً عن ذلك، مع أنّه لا عِلمَ لهم بذلك. وقال عطاء: إلّا قليل مِن أهل الكتاب.[2] فالضمائر الثلاثة في الأفعال الثلاثة لهم وما ذُكر مِن الشواهد لإرشاد المؤمنين إلى صحّة القولِ الثالث، وفيه مَحيصٌ عمّا في الأوّل مِن التكلّف في جعل أحد الأقوال المحكيّة المنظومة في سِمْط واحد ناشئًا عن الحكاية مع كون الأخيرين بخلافه، ووضوحٌ في سبب حذف المفعول في ﴿لَا تُمَارِ﴾، والمعنى حينئذ: وإذ قد وقفتَ على أنّ كلّهم ليسوا على خطأ في ذلك فلا تُجادِلْهم إلّا جدالًا ظاهرًا نطَق به الوحيُ المُبين، مِن غير تجهيل لجميعهم، فإنّ فيهم مُصيبًا وإن قلّ.

والنهيُ عن الاستفتاء لدَفْع ما عسى يُتوهَّم مِن احتمال جوازه أو احتمالِ وقوعه بناءً على إصابة بعضهم، فالمعنى: لا تراجِعْ إليهم في شأن الفِتية ولا تُصدِّق القول الثالث مِن حيث صدورُه عنهم؛ بل مِن حيث التلقّي مِن الوحي.

---

١ ط س: كَفِيْشَنِطَطَيُوس. | وفي هامش م: كذا ذكره الإمام الواحدي في الوسيط. «منه». | وهو عن ابن عبّاس في التفسير الوسيط للواحدي، ١٤٢/٣، عن عليّ رضي الله عنه في اللباب لابن عادل، ٤٥٧/١٥؛ وقريب منه عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٥. وأكثر هذه الأسماء واردة في مطبوعاتها على غير هيئة رسمها ههنا.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٥؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٢.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ أي: لأجل شيء تعزِم عليه ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيءَ ﴿غَدًا﴾ أي: فيما يُستقبل مِن الزمان مطلقًا فيدخُل فيه الغدُ دخولًا أوّليًا، فإنّه نزل حين قالت اليهود لقريش: سلُوه عن الروح وعن أصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه عليه السلام فقال: «ائتوني غدًا أُخبرْكم»،[١] ولم يستثنِ فأبطأ عليه الوحيُ حتّى شقّ عليه وكذّبتْه قريش. وما قيل مِن أنّ المدلول بالعبارة هو الغد وما بعد ذلك مفهوم بطريق دلالة النصّ، يردّه أنّ ما بعده ليس بمعناه في مناط النهي، فإنّ وسعة المجال دليل القدرة. فليُتأمّلْ.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ / استثناء مفرَّغ مِن النهي، أي: لا تقولنّ ذلك في حال مِن [٤١٧ظ] الأحوال إلّا حالَ ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد، وهو أن يقال: "إن شاء الله"، أو في وقت مِن الأوقات إلّا وقتَ أن يشاء الله أن تقوله، لا مطلقًا؛ بل مشيئةَ إذنٍ، فإنّ النسيان أيضًا بمشيئته تعالى. ولا مساغَ لتعليقه بـ﴿فَاعِلٌ﴾[٢] لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاةِ استثناء اعتراضها النهيَ. وقيل: الاستثناء جارٍ مَجرى التأبيد، كأنّه قيل: لا تقولنّه أبدًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ[٣] لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف، ٨٩/٧].[٤]

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ بقولك: "إن شاء الله" متدارِكًا له ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرَط منك نسيان ثمّ ذكرتَه، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ولو بعد سَنة ما لم يحنَث».[٥] ولذلك جُوّز تأخير الاستثناء، وعامةُ الفقهاء على خلافه؛ إذ لو صحّ ذلك

---

١ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٢٢٤/١٥؛ وبلفظه في التفسير البسيط للواحدي، ٤٦٠/١٣ (الإسراء، ٨٥/١٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٢ في الآية السابقة.

٣ م ط س: كان

٤ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٥ بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٥؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

لَما تقرَّر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولـم يُعلم صِدق ولا كذِب. قال القرطبيّ: هذا في تدارُك التبرّك والتخلّص عن الإثم، وأمّا الاستثناء المغيِّر للحُكم فلا يكون إلّا متّصلًا.[١] ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربّك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيتَ الاستثناء مبالغة في الحثّ عليه، أو اذكر ربّك وعقابَه إذا تركتَ بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارُك، أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليُذكِّرك المنسيَّ. وقد حُمل على أداء الصلاة المَنْسيّة عند ذِكرها.[٢]

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ أي: يوفِّقني ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ أي: لشيء أقربَ وأظهرَ مِن نبأ أصحاب الكهف مِن الآيات والدلائل الدالّة على نُبوّتي. ﴿رَشَدًا﴾ إرشادًا للناس ودلالة على ذلك، وقد فعل عزّ وعلا ذلك، حيث آتاه مِن البيّنات ما هو أعظمُ مِن ذلك وأبينُ، كقصص الأنبياء المتباعدِ أيّامُهم والحوادثِ النازلة في الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة، أو لأقربَ رشدًا وأدنى خيرًا مِن المنسيّ.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾ أحياءً مضروبًا على آذانهم ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ وهي جملة مستأنَفة مبيِّنة لِما أُجمِل فيما سلف وأشيرَ إلى عزّة مناله. وقيل: إنّه حكاية كلام أهل الكتاب فإنّهم اختلفوا في مدّة لُبثهم كما اختلفوا في عِدّتهم، فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلاثمائة.[٣]

ورُوي عن عليّ رضي الله تعالى عنه أنّه قال: «عند أهل الكتاب أنّهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسيّة، والله تعالى ذكَر السنة القمريّة، والتفاوت بينهما في كلّ مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلاثمائة وتسعَ سنين».[٤] و﴿سنينَ﴾ عطف بيان لـ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾. وقيل: بدل.[٥] وقرئ على الإضافة[٦] وضعًا للجمع موضعَ المفرد،

---

١ انظر: تفسير القرطبي، ٣٨٦/١٠.

٢ هذه الوجوه جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٦/٢. وبعضه عن قتادة في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

٤ معالم التنزيل للبغوي، ١٦٥/٥.

٥ الوجه في التبيان للعكبري، ٨٤٤/٢؛ وهو في اللباب لابن عادل، ٤٦٣/١٢.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.

وممّا يُحسِّنه ههنا أنّ علامة الجمع فيه جبرٌ لِما حُذف في الواحد، وأنّ الأصل في العدد إضافته إلى الجمع.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي: بالزمان الذي لبثوا فيه. ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما وخفيَ مِن أحوال أهلهما، و"اللام" / للاختصاص العِلمي دون التكويني، فإنّه غير مختصّ بالغيب. ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ دُلّ بصيغة التعجّب على أنّ شأن عِلمه سبحانه بالمبصَرات والمسموعات خارج عمّا عليه إدراكُ المدرِكين، لا يحجُبه شيء ولا يحُول دونه حائل، ولا يتفاوت بالنسبة إليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفيّ والجليّ. و"الهاء" ضمير الجلالة، ومحلُّه الرفع على الفاعليّة، و"الباء" مَزيدة عند سيبويهِ، وكان أصله "أبصَرَ"، أي: صار ذا بَصَر، ثمّ نُقل إلى صيغة الأمر للإنشاء، فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له، أو لزيادة "الباء" كما في "كفى به"؛ والنصبُ على المفعوليّة[1] عند الأخفش، والفاعلُ ضمير المأمورِ وهو "كلّ أحد"، و"الباء" مَزيدةٌ إن كانت "الهمزة" للتعدية ومعدِّيةٌ إن كانت للصيرورة. ولعلّ تقديمَ أمر إبصاره تعالى لِما أنّ الذي نحن بصدده مِن قبيل المبصَرات. [٤١٨و]

﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السماواتِ والأرض ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يتولّى أمورهم وينصُرهم استقلالًا ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾ في قضائه، أو في عِلم الغيب ﴿أَحَدًا﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلًا، وهو كما ترى أبلَغ في نفي الشريك مِن أن يقال: "مِن وليّ ولا شريك"، وقرئ على صيغة نهي الحاضر[2] على أنّ الخِطاب لكلّ أحد.

ولمّا دلّ انتظام القرآن الكريم لقصّة أصحاب الكهف مِن حيث إنّها بالنسبة إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن المغيَّبات على أنّه وحيٌ معجِز، أَمَره عليه السلام

---

[1] السياق: ومحلُّه الرفع... والنصبُ...

[2] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٠.

بالمداومة على دراسته فقال: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ ولا تسمَعْ لقولهم: ائتِ بقرآن غير هذا أو بدِّلْه.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا قادرَ على تبديله وتغييره غيرُه ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أبدَ الدهر وإن بالغتَ في الطلب ﴿مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مَلجأ تعدل إليه عند إلمام مُلِمّة.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احبِسها وثبِّتها مصاحِبةً ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ أي: دائبين على الدعاء في جميع الأوقات. وقيل: في طرفَي النهار.[١] وقرئ: "بِالغُدْوَةِ"[٢] على أنّ إدخال "اللام" عليها وهي علَم في الأغلب على تأويل التنكير، والمرادُ بهم فقراء المؤمنين مثل صُهيبٍ وعمّارٍ وخبّابٍ ونحوهم، وقيل: أصحاب الصُّفّة وكانوا نحو سبعمائة رجل.[٣]

[٤١٨ظ] قيل: إنّه قال قوم / مِن رؤساء الكفرة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: نحِّ هؤلاء المواليَ الذين كأنّ ريحهم ريح الضأن حتّى نجالسَك، كما قال قوم نوحٍ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء، ١١١/٢٦] فنزلت.[٤] والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الأمر بما في حيّز الصلة مِن الخَصلة الداعية إلى إدامة الصحبة. ﴿يُرِيدُونَ﴾ بدعائهم ذلك ﴿وَجْهَهُۥ﴾ حال مِن المستكِنّ في ﴿يَدْعُونَ﴾، أي: مريدين لرضاه تعالى وطاعته.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يجاوِزْهم نظرك إلى غيرهم، مِن "عَدَاه"، أي: جاوزه، واستعمالُه بـ"عن" لتضمينه معنى النُبوّ، أو لا تصرِفْ عيناك النظرَ عنهم إلى غيرهم، مِن "عدَوتُه عن الأمر"، أي: صرفتُه عنه على أنّ المفعول

---

[١] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٧/٢.
[٢] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢، ٣١٠.
[٣] مرويّ عن قتادة في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٦/٥؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٨/١٢.
[٤] الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٢.

محذوف لظهوره. وقرئ: "وَلَا تُعْدِ عَيْنَيْكَ"،[١] "ولا تُعَدِّ عَيْنَيْكَ"[٢] مِن الإعداء والتعدية. والمراد نُهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زِيّهم طموحًا إلى زِيّ الأغنياء.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالسة الأشراف والأغنياء وأصحابِ الدنيا، وهي حال مِن "الكاف" على الوجه الأوّل مِن القراءة المشهورة ومِن الفاعل على الوجه الثاني منها، وضميرُ ﴿تُرِيدُ﴾ لـ"العينين"، وإسنادُ الإرادة إليه مجاز، وتوحيدُه للتلازم، كما في قوله:

لِمَن زُحْلُوفَةٌ[٣] زَلُّ[٤] بها العينان تنهلُّ[٥]

ومِن المستكِنّ في الفعل على القراءتين الأخيرتين.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في تنحية الفقراء عن مجلسك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي: جعلناه غافلًا لبطلان استعداده للذِّكر بالمرّة، أو وجدناه غافلًا، كقولك: "أجبَنتُه وأبخَلتُه" إذا وجدتَه كذلك، أو هو مِن "أَغفَل إبِلَه"، أي: لم نَسِمه بالذِّكر. ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ كأولئك الذين يدعونك إلى طَرْد الفقراء عن مجلسك فإنّهم غافلون عن ذِكرنا، على خلاف ما عليه المؤمنون مِن الدعاء في مجامع الأوقات. وفيه تنبيه على أنّ الباعث له إلى ذلك الدعاءِ غفلةُ قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته، وانهماكُه في الحسّيّات حتّى خفيَ عليه أنّ الشرف بحِلْية النفس لا بزينة الجسد. وقرئ: "أَغْفَلَنَا قَلْبُهُ"[٦] على إسناد الفعل إلى القلب، أي: حسِبَنا غافلين عن ذِكرنا إيّاه بالمؤاخذة، مِن "أغفلتُه" إذا وجدتَه غافلًا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٧؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١٥٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر والأعرج والحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٢؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١٥٩.

[٣] هذا اللفظ يُروى "زُحْلُوفة" و"زُحْلُوقة". لسان العرب لابن منظور، «زلل».

[٤] كذا ضبطها المؤلِّف. وهي "زُلُّ"، أي: زَلَقٌ. لسان العرب لابن منظور، «زلل».

[٥] البيت لامرئ القيس في ملحق ديوانه ٤٧٣؛ وأمالي ابن الشجري، ١/١٨٣؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧/٤٧٤؛ واللباب لابن عادل، ١٢/٤٧٠.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن فايد وابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١٥٩.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ ضياعًا وهلاكًا، أو متقدِّمًا للحقّ والصواب نابذًا له وراء ظهره، مِن قولهم: "فرَس فُرُط"، أي: متقدِّم للخيل، أو هو بمعنى [٤١٩و] / الإفراط والتفريط، فإنّ الغفلة عن ذِكره سبحانه تؤدّي إلى اتّباع الهوى المؤدّي إلى التجاوُز والتباعُد عن الحقّ والصواب. والتعبير عنهم بالموصول للإيذان بعِلّيّة ما في حيّز الصلة للنهي عن الإطاعة.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَقُلِ﴾ لأولئك الغافلين المتّبعين هواهم: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: ما أوحيَ إليَّ الحقُّ لا غيرُ كائنًا مِن ربّكم، أو الحقُّ المعهود مِن جهة ربّكم لا مِن جهتي حتّى يُتصوَّر فيه التبديل أو يُمكنَ التردّد في اتّباعه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إمّا مِن تمام القول المأمور به، و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص، ٣٩/٣٨]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة، ١٤٧/٢]، أي: عَقيبَ تحقّق أنّ ما أوحيَ إليَّ حقّ لا ريبَ فيه، وأنّ ذلك الحقّ مِن جهة ربّكم، مَن شاء أن يؤمِن به فليُؤمن كسائر المؤمنين ولا يتعلّل بما لا يكاد يصلُح للتعلّل، ومَن شاء أن يكفُر به فليفعلْ، وفيه مِن التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم وجودًا وعدمًا ما لا يخفى.

وإمّا تهديد[١] مِن جهة الله تعالى، و"الفاء" لترتيب ما بعدها مِن التهديد على الأمر لا على مضمون المأمور به، والمعنى: قلْ لهم ذلك، وبعد ذلك مَن شاء أن يؤمن به أو أن يصدِّقك فيه فليُؤمن ومَن شاء أن يكفُر به أو أن يكذِّبك فيه فليفعلْ.

---

[١] السياق: إمّا مِن تمام... وإمّا تهديد...

فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لِما يفيده مِن الزجر عن الكفر أو لِما يُفهَم مِن ظاهر التخيير مِن عدم المبالاة بكفرهم وقلّة الاهتمام بزَجْرهم عنه، فإنّ إعداد جزائه مِن دواعي الإملاء والإمهال. وعلى الوجه الأوّل هو تعليل للأمر بما ذُكر مِن التخيير التهديدي، أي: قلْ لهم ذلك، إنّا أعتدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هيّأنا للكافرين بالحقّ بعد ما جاء مِن الله سبحانه. والتعبير عنهم بـ"الظالمين" للتنبيه على أنّ مشيئة الكفر واختيارَه تجاوزٌ عن الحدّ ووضعٌ للشيء في غير موضعه.

﴿نَارًا﴾ عظيمة عجيبة ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ﴾ أي: يُحيط بهم، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على التحقّق. ﴿سُرَادِقُهَا﴾ أي: فُسطاطها، شُبِّه به ما يحيط بهم مِن النار. وقيل: السُّرادِق: الحجرةُ التي تكون حول الفُسطاط. وقيل: سُرادِقها: دُخانها. وقيل: حائط مِن نار.[١]

﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ مِن العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ كالحديد المُذاب. وقيل: كدُرْديّ الزيت،[٢] وهو على طريقة قوله:

فأُعتِبوا بالصَّيْلمِ[٣]

/ ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ إذا قُدِّم ليُشرَب انشوى الوجه لحرارته. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هو كعَكَر الزيت فإذا قرُب إليه سقطت فَرْوةُ وجهه».[٤] [٤١٩ظ]

﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلك ﴿وَسَآءَتۡ﴾ النار ﴿مُرۡتَفَقًا﴾ متّكأ، وأصل الارتفاق نصب المِرْفق تحت الخدّ، وأنّى ذلك في النار؟ وإنّما هو لمقابلة قوله تعالى: ﴿حَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾.[٥]

---

١ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢.

٣ وفي هامش م: صدره:

غضِبتْ تميمٌ أن تُقتَّلَ عامرٌ
يومَ النِّسار فأُعتِبوا بالصَّيْلمِ

والبيت لبِشر بن أبي خازم في ديوانه، ص ١٨٠. وهو مِن مُجمهرته في جمهرة أشعار العرب للقرشي، ٥١٩/١؛ وله في الصحاح للجوهري، «عتب»، «صلم»، وفيه: الصيلم: الداهية، ويُسمّى السيف صَيْلمًا، أي: أعتبناهم بالسيف، أي: أرضيناهم بالقتل. وأراد المؤلِّف ما فيه مِن التهكّم. والبيت بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢.

٤ مسند أحمد، ٢١٠/١٨ (١١٦٧٢)؛ سنن الترمذي، ٥٣٧/٤ (٢٥٨١)؛ جامع البيان للطبري، ٢٥٠/١٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٦٨/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٢-٥٢٩.

٥ الكهف، ٣١/١٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في محلّ التعليل للحثّ على الإيمان المُنفهِم مِن التخيير، كأنّه قيل: وللذين آمنوا، ولعلّ تغييرَ سَبْكه للإيذان بكمال تنافي مآلَي الفريقين، أي: إنّ الذين آمنوا بالحقّ الذي أوحيَ إليك، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حسبما بُيّن في تضاعيفه.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى هي الثانية مع ما في حيّزها، والراجع محذوف، أي: مَن أحسنَ منهم عملًا، أو مستغنًى عنه، كما في قولك: "نِعْمَ الرجلُ زيدٌ" أو واقعٌ موقعَه الظاهر، فإنّ مَن أحسنَ عملًا في الحقيقة هو الذي آمَن وعمِل الصالحاتِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ[1] ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ استئناف لبيان الأجر، أو هو الخبر وما بينهما اعتراض، أو هو خبر بعد خبر.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِن﴾ الأولى ابتدائيّة والثانية بيانيّة صفة لـ﴿أَسَاوِرَ﴾، والتنكير للتفخيم، وهو جمع "أَسوِرة"، أو "أَسْوار" جَمْع "سِوار". ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ خُصّت الخُضرة بثيابهم لأنّها أحسن الألوان وأكثرها طراوة، ﴿مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: ممّا رقّ مِن الدِّيباج وما غلُظ. جُمع بين النوعين للدلالة على أنّ فيها ما تشتهي الأنفس وتلَذّ الأعين. ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ على السُرُر على ما هو شأن المتنعِّمين. ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ذلك ﴿وَحَسُنَتْ﴾ أي: الأرائك ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي: متّكأً.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾

---

[1] م ط س: تحتها.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ أي: للفريقين الكافر والمؤمن ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾ مفعولان لـ﴿ٱضۡرِبۡ﴾ أوّلُهما ثانيهما؛ لأنّه المحتاج إلى التفصيل والبيان، أي: اضرب للكافرين والمؤمنين، لا مِن حيث أحوالُهما المستفادة ممّا ذُكر آنفًا مِن أنّ للأوّلين في الآخرة كذا وللآخِرين كذا؛ بل مِن حيث عصيانُ الأوّلين مع تقلّبهم في نِعَم الله تعالى وطاعة الآخِرين مع مكابدتهم مشاقّ الفقر، مثلًا[1] حالَ[2] رجلين مقدَّرين أو محقَّقين هما أخوان مِن بني إسرائيلَ أو شريكان: كافر اسمه قُطروسُ، ومؤمنٌ اسمه يَهوذا، / اقتسما ثمانية آلاف دينار، فاشترى الكافر [٤٢٠و] بنصيبه ضِياعًا وعَقارًا، وصرَف المؤمن نصيبه إلى وجوه المبارّ، فآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى.

وقيل: هما أخوان مِن بني مخزوم كافر هو الأسود بن عبد الأشدّ، ومسلِم هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشدّ[3] زوجُ أمّ سلمة رضي الله عنها أوّلًا.

﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ بستانين ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ مِن كروم متنوِّعة، والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة لـ﴿رَجُلَيۡنِ﴾. ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾ أي: جعلنا النخل محيطة بهما مؤزَّرًا بها كرومُهما، يقال: "حفّه القوم" إذا أطافوا به، و"حففتُه بهم" جعلتُهم حافّين حوله، فيزيده "الباء" مفعولًا آخرَ، كقولك: غشَّيتُه به. ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا﴾ وسطهما ﴿زَرۡعٗا﴾ ليكون كلّ منهما جامعًا للأقوات والفواكه متواصل العِمارة على الهيئة الرائقة والوضع الأنيق.

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ ثمرَها وبلغت مبلغًا صالحًا للأكل. وقرئ

---

[1] وفي هامش م: مفعول ثانٍ.

[2] وفي هامش م: مفعول أوّل.

[3] هو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، أبو سلمة (ت. ٣هـ/٦٢٦م). أمّه بَرّة بنت عبد المطّلب بن هاشم، هو أخو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن الرضاعة وابن عمّته بَرّة، وهو الصحابي السيّد الكبير. أحد السابقين الأوّلين هاجر إلى الحبشة، ثمّ إلى المدينة. وشهد بدرًا ومات بعدها بأشهر وله أولاد صحابة كعمر وزينب وغيرهما. وتزوّج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم زوجه أمّ سلمة رضي الله عنها التي روت القول عند المصيبة. انظر: الاستيعاب، ١٦٨٢/٤؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٥٠/١.

بسكون "الكاف"،[١] وقرئ: "كُلُّ الجَنَّتَيْنِ آتَى أُكُلَهُ".[٢] ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ﴾ لم تنقُص مِن أُكُلها ﴿شَيۡـٔٗا﴾ كما يُعهَد ذلك في سائر البساتين، فإنّ الثمار غالبًا تكثُر في عام وتقِلّ في آخرَ، وكذا بعض الأشجار يأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض.

﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا﴾ فيما بين كلّ مِن الجنّتين ﴿نَهَرٗا﴾ على حِدَة ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما، وقرئ بالتخفيف.[٣] ولعلّ تأخيرَ ذِكر تفجير النهر عن ذكر إيتاء الأكل مع أنّ الترتيب الخارجي على العكس للإيذان باستقلال كلّ مِن إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنّتين، كما في قصّة البقرة ونحوها.[٤] ولو عُكس لانفهم أنّ المجموع خَصلة واحدة بعضُها مترتِّب على بعض، فإنّ إيتاء الأكل متفرِّع على السَّقْي عادة. وفيه إيماء إلى أنّ إيتاء الأُكُل لا يتوقَّف على السَّقْي، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ [النور، ٣٥/٢٤].

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ لصاحب الجنّتين ﴿ثَمَرٞ﴾ أنواع مِن المال غيرُ الجنّتين، مِن "ثمَّر مالَه" إذا كثّره، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هو جميع المال مِن الذهب والفضّة والحيوان وغير ذلك.[٥] وقال مجاهدٌ: هو الذهب والفضّة خاصّة.[٦]

[٤٢٠ظ] ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ﴾ / أي: القائل ﴿يُحَاوِرُهُۥ﴾ أي: صاحبَه المؤمن، وإن جاز العكس، أي: يراجعه في الكلام مِن "حار" إذا رجَع، ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ حشَمًا وأعوانًا، أو أولادًا ذُكورًا؛ لأنّهم الذين ينفِرون معه.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥﴾

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ التي شُرحت أحوالها وعَدَدها وصفاتها وهيئاتها. وتوحيدُها

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦١.

٤ ذكر ذلك في تفسير الآية الثالثة والسبعين مِن سورة البقرة في قصّة البقرة، وذكره في تفسير الآية الحادية والخمسين بعد المائة مِن تلك السورة.

٥ بمعناه عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٢٦٠/٢.

٦ جامع البيان للطبري، ٢٥٩/٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧١/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٢.

إمّا لعدم تعلّقِ الغرَض بتعدّدها، وإمّا لاتّصال إحداهما بالأخرى، وإمّا لأنّ الدخول يكون في واحدة فواحدة، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ضارّ لها بعُجبه وكفره.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن ذِكر دخول جنّته حالَ ظلمه لنفسه، كأنّه قيل: فماذا قال إذ ذاك؟ فقيل قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنّةُ، أي: تفنى ﴿أَبَدًا﴾ لطول أمده وتمادي غفلتِه واغتراره بمُهلته. ولعلّه إنّما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنّتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمْرِه بتحصيل الباقيات الصالحات.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كائنة فيما سيأتي ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ بالبعث عند قيامها كما تقوله ﴿إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ﴾ يومئذ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: مِن هذه الجنّة، وقرئ: "مِنْهُمَا"،[١] أي: مِن الجنّتين ﴿مُنقَلَبًا﴾ مَرجِعًا وعاقبة. ومدار هذا الطمع واليمينِ الفاجرة اعتقادُ أنّه تعالى إنّما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه، ولـم يدرِ أنّ ذلك استدراج.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ استئناف كما سبق ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥ﴾ جملة حاليّة كما مرّ، فائدتُها التنبيه مِن أوّل الأمر على أنّ ما يتلوه كلام معتنًى بشأنه مَسُوق للمحاورة: ﴿أَكَفَرْتَ﴾ حيث قلت: ما أظنّ الساعة قائمة ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ أي: في ضمن خَلْق أصلك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ فإنّ خَلْق آدمَ عليه السلام منه متضمِّن لخَلْقه منه، لِما أنّ خَلْق كلّ فرد مِن أفراد البشر له حظّ مِن خَلْقه عليه السلام، إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه؛ بل كانت أُنموذجًا منطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء إجماليًّا مستتبِعًا لجريان آثارها على الكلّ، فكان خَلْقه عليه السلام

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢-٣١١.

مِن التراب خَلْقًا للكلّ منه. وقيل: خَلَقك منه؛ لأنّه أصل مادّتك إذ به يحصُل الغذاء الذي منه تحصُل النطفة، فتدبّر.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي مادّتك القريبة، فالمخلوق واحد والمبدأ متعدِّد، ﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أي: عَدّلك وكمّلك إنسانًا ذكرًا أو صيّرك رجلًا. والتعبير عنه تعالى بالموصول للإشعار بعِلّيّة ما في حيّز الصلة لإنكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذي نطَق به قوله عزّ مِن قائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾... إلى آخره [الحج، ٢٢/٥].

﴿لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾

[٤٢١و] ﴿لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أصله "لَكِنْ أَنَا" وقد قرئ كذلك،[١] / فحُذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الإدغامُ، و﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، وهو مبتدأ خبرُه ﴿ٱللَّهُ رَبِّى﴾ وتلك الجملة خبر "أنا" والعائدُ منها إليه الضمير. وقرئ بإثبات ألِف "أنا" في الوصل والوقف جميعًا،[٢] وفي الوقف خاصّة،[٣] وقرئ: "لَكِنَّهْ"[٤] بالهاء، و"لَكِنْ"[٥] بطرح "أنا"، و"لَكِنْ أَنَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبِّي".[٦] ومدارُ الاستدراك قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ﴾،[٧] كأنّه قال: أنت كافر لكنّي مؤمن موحِّد.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ فيه إيذان بأنّ كفره كان بطريق الإشراك.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ أي: هلّا قلتَ عندما دخلتَها. وتقديم الظرف

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ والحسن. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٣.

[٢] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ورُويس. **النشر** لابن الجزري، ٣١١/٢.

[٣] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة وعاصم وخلف ورَوح. **النشر** لابن الجزري، ٣١١/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن خالد وهارون وعديّ كلّهم عن أبي عمرو. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٦٣.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **الكشّاف** للزمخشري، ٥٣١/٢.

[٧] في الآية السابقة.

على المحضَّض عليه للإيذان بتحتّم القول في آن الدخول مِن غير ريث، لا للقصر.

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمرُ ما شاء الله، أو ما شاء الله كائن على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة مرفوعة المَحلّ، أو أيَّ شيء شاء الله كان على أنّها شرطيّة منصوبة والجواب محذوف، والمراد تحضيضُه على الاعتراف بأنّها وما فيها بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: هلّا قلت ذلك اعترافًا بعجزك وبأنّ ما تيسّر لك مِن عِمارتها وتدبير أمرها إنّما هو بمعونته تعالى وإقداره. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن رأى شيئًا فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله لم يضُرَّه».

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿أَنَا۠﴾ إمّا مؤكِّد لياء المتكلِّم أو ضمير فَصْل بين مفعولي الرؤية إن جُعلت عِلْميّة و﴿أَقَلَّ﴾ ثانيهما، وحال إن جُعلت بصَريّة فيكون ﴿أَنَا۠﴾ حينئذ تأكيدًا لا غيرُ؛ لأنّ شرط كونه ضميرَ فَصْل توسُّطه بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله المبتدأ والخبر، وقرئ: "أَقَلُّ"[1] بالرفع خبرًا لـ﴿أَنَا۠﴾ والجملة مفعول ثانٍ للرؤية أو حال. وفي قوله تعالى: ﴿وَوَلَدًا﴾ نُصرةٌ لمَن فسَّر النفَر بالولد.[2]

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ هو جواب الشرط، والمعنى إن ترنِ أفقرَ منك فأنا أتوقَّع مِن صنع الله سبحانه / أن يقلِبَ ما بي وبك مِن الفقر والغنى [٤٢١ظ] فيرزُقني لإيماني جنّة خيرًا مِن جنّتك ويسلُبَك لكفرك نعمتَه ويُخرِّب جنّتك ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانًا﴾ هو مصدر بمعنى الحِساب كـ"البُطلان" و"الغفران"، أي: مقدارًا قدّره الله تعالى وحسَبه، وهو الحكم بتخريبها. وقيل: عذابَ حُسبان

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٨.

[2] الكهف، ٣٤/١٨.

وهو حساب ما كسَبت يداه.[١] وقيل: مَراميَ جمعُ "حُسْبانة": وهي الصواعق.[٢] ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتي للأوّلَين أكثرُ.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾ مصدر أريدَ به المفعول مبالغةً، أي: أرضًا ملساء يُزلَق عليها لاستئصال ما عليها مِن البناء والشجر والنبات.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ۝٤١﴾

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَتُصۡبِحَ﴾،[٣] وعلى الوجه الثالث على ﴿يُرۡسِلَ﴾[٤] ﴿مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾ أي: غائرًا في الأرض أُطلِق عليه المصدر مبالغة ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ﴾ أبدًا ﴿لَهُۥ﴾ أي: للماء الغائر ﴿طَلَبٗا﴾ فضلًا عن وجدانه ورَدِّه.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٤٢﴾

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أُهلِك أمواله المعهودةُ مِن جنّتيه وما فيهما، وأصلُه مِن إحاطة العدوّ، وهو عطفٌ على مقدَّر، كأنّه قيل: فوقع بعض ما توقَّع مِن المحذور وأُهلِك أمواله، وإنّما حُذف لدلالة السباق والسياق عليه، كما في المعطوف عليه بالفاء الفصيحة.

﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ ظهرًا لبطن وهو كناية عن الندم، كأنّه قيل: فأصبح يندم ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي: في عِمارتها مِن المال، ولعلّ تخصيصَ الندم به دون ما هلَك الآن مِن الجنّة لِما أنّه إنّما يكون على الأفعال الاختياريّة، ولأنّ ما أنفق في عِمارتها كان ممّا يمكن صيانته عن طوارق الحدَثان، وقد صرَفه إلى مصالحها رجاءَ أن يتمتّع بها أكثرَ ممّا يتمتّع به، وكان يرى أنّه لا ينالها أيدي الردى، ولذلك قال: ما أظنّ أن تبيد هذه أبدًا، فلمّا ظهَر له أنّها ممّا يعتريه الهلاك

---

[١] قول الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ٢٨٩/٣؛ وعزاه إليه الزمخشري في الكشّاف، ٥٣١/٢.
[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٢.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] في الآية السابقة.

ندِم على ما صنَع بناء على الزعم الفاسد مِن إنفاق ما يمكن ادّخاره في مثل هذا الشيء السريع الزوالِ.

﴿وَهِيَ﴾ أي: الجنّة مِن الأعناب المحفوفة بنخل ﴿خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها. وتخصيص حالها بالذِّكر دون النخل والزرع إمّا لأنّها العُمدة وهما مِن متمِّماتها، وإمّا لأنّ ذِكر هلاكِها مُغنٍ عن ذِكر هلاك الباقي؛ لأنّها حيث هلكت وهي مُشيَّدة بعروشها فهلاك ما عداها بالطريق الأَولى، وإمّا لأنّ الإنفاق في عمارتها أكثر. وقيل: / أرسل الله تعالى عليها نارًا فأحرقتها وغار ماؤها.[1] [٤٢٢و]

﴿وَيَقُولُ﴾ عطفٌ على ﴿يُقَلِّبُ﴾ أو حال مِن ضميره، أي: وهو يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾، كأنّه تذكّر موعظة أخيه وعلِم أنّه إنّما أُتيَ مِن قِبل شِركه فتمنّى لو لم يكن مُشرِكًا فلم يُصبه ما أصابه. قيل: ويحتمل أن يكون ذلك توبة مِن الشِّرك وندمًا على ما فرَط منه.[2]

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ﴾ وقرئ بالياء التحتانيّة[3] ﴿فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ﴾ يقدِرون على نصره بدفع الإهلاك، أو على ردّ المهلَك أو الإتيان بمثله، وجمعُ الضمير باعتبار المعنى، كما في قوله عزّ وعلا: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران، ١٣/٣]. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنّه القادر على ذلك وحدَه، ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا﴾ ممتنعًا بقوّته عن انتقامه سبحانه.

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام وفي تلك الحال ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: النُصرة له وحدَه لا يقدِر عليها أحد، فهو تقرير لِما قبله، أو ينصُر فيها أولياءه المؤمنين

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٢.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

على الكفَرة كما نصَر بما فعل بالكافر أخاه المؤمن، ويعضُده قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: لأوليائه، وقرئ: "الوِلَايَةُ"[١] بكسر "الواو" ومعناها المُلك والسلطان، أي: هنالك السلطان له عزّ وجلّ لا يُغلَب ولا يُمتَنع منه، أو لا يُعبد غيره، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا[٢] رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت، ٦٥/٢٩]، فيكون تنبيهًا على أنّ قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ﴾... إلخ،[٣] كان عن اضطرار وجزَع عمّا دهاه على أسلوب قوله تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس، ٩١/١٠].

وقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى الآخرة كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر، ١٦/٤٠].

وقرئ برفع ﴿الْحَقِّ﴾[٤] على أنّه صفة لـ﴿الْوَلَايَةُ﴾ وبنصبه على أنّه مصدر مؤكِّد، وقرئ: "عُقُبًا"[٥] بضمّ "القاف"، و"عُقْبَى"[٦] كـ"رُجعى"، والكلُّ بمعنى العاقبة.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: واذكر لهم ما يُشبهها في زَهْرتها ونَضارتها وسرعة زوالها لئلّا يطمئنّوا بها ولا يعكُفوا عليها ولا يَضرِبوا عن الآخرة صفحًا بالمرّة، أو بيِّنْ لهم صفتها العجيبة التي هي في الغرابة كالمَثل. ﴿كَمَاءٍ﴾ استئناف لبيان المَثل، أي: هي كماء ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾. ويجوز كونه مفعولًا ثانيًا لـ﴿اضْرِبْ﴾ على أنّه بمعنى "صيِّر".

[٤٢٢ظ] ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ / اشتبك بسببه ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فالتفّ وخالط بعضه بعضًا مِن كثرته وتكاثفه، أو نجَع الماء في النبات حتّى روِيَ ورفّ،[٧] فمقتضى الظاهر حينئذ

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٧/٢.

٢ م: وإذا.

٣ الكهف، ٤٢/١٨.

٤ قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٥ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٩.

٧ رفّ النبات: اهتزّ وتنعّم، ويقال ذلك للشيء إذا كثُر ماؤه مِن النِّعمة والغضاضة حتّى كاد يهتزّ. لسان العرب لابن منظور، «رفف».

"فاختلط بنبات الأرض". وإيثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة في الكثرة فإنّ كلًّا مِن المختلِطَين موصوف بصفة صاحبه.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ ذلك النبات الملتفّ إثرَ بهجتها ورفيفها ﴿هَشِيمًا﴾ مهشومًا مكسورًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تفرّقه، وقرئ: "تُذْرِيهِ"[١] مِن "أذراه وتذروه الريح". وليس المشبَّه به نفسَ الماء؛ بل هو الهيئة المنتزَعة مِن الجملة، وهي حال النبات المُنبَت بالماء، يكون أخضرَ وارفًا ثمّ هشيمًا تُطيِّره الرياح كأن لم يَغْنَ بالأمس.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإنشاء والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾ قادرًا على الكمال.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيان لشأن ما كانوا يفتخِرون به مِن محسِّنات الحياة الدنيا، كما قال الأخ الكافر: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[٢] إثرَ بيان شأن نفسها بما مرّ مِن المَثل.

وتقديم "المال" على "البنين" مع كونهم أعزَّ منه كما في الآية المحكيّة آنفًا وقولِه تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء، ٦/١٧] وغيرِ ذلك مِن الآيات الكريمة لعراقته فيما نِيط به مِن الزِّينة والإمدادِ وغيرِ ذلك وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقات، فإنّه زينة ومُمِدّ لكلّ أحد مِن الآباء والبنين في كلّ وقت وحين. وأمّا البنون فزَيْنهم وإمدادهم إنّما يكون بالنسبة إلى مَن بلَغ مَبلغ الأبوّة، ولأنّ المال مَناط لبقاء النفس والبنين[٣] لبقاء النوع، ولأنّ الحاجة إليه أمسُّ مِن الحاجة إليهم، ولأنّه أقدم منهم في الوجود، ولأنّه زينة بدونهم مِن غير عكس، فإنّ مَن له بنونَ بلا مال فهو في ضِيق حال ونكال.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود والضحّاك وعُبيد بن عُمير وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٨٩؛

٢ الكهف، ٣٤/١٨.

٣ م ط: البنون [صُحّح في هامش.م ط].

وإفراد الزِّينة مع أنّها مسنَدة إلى الاثنين لِما أنّها مصدر في الأصل أطلق على المفعول مبالغةً كأنّهما نفسُ الزينة، والمعنى أنّ ما يفتخرون به مِن المال والبنين شيء يُتزيّن به في الحياة الدنيا وقد عُلم شأنُها في سرعة الزوال وقُربِ الاضمحلال، فكيف بما هو مِن أوصافها التي شأنُها أن تزول قبل زوالِها؟

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي أعمال الخير. وقيل: هي الصلوات الخمس.[١] وقيل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبرُ.[٢] وقيل: كلُّ ما أُريدَ به وجه الله تعالى.[٣] / [٤٢٣و] وعلى كلّ تقدير يدخُل فيها أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهَه دخولًا أوّليًا، أمّا صلاحها فظاهر وأمّا بقاؤها فبقاء عوائدها عند فَناء كلّ ما تطمح إليه النفس مِن حظوظ الدنيا.

﴿خَيْرٌ﴾ أي: ممّا نُعت شأنه مِن المال والبنين. وإخراجُ بقاء تلك الأعمال وصلاحها مُخرَجَ الصفات المفروغ عنها مع أنّ حقّهما أن يكونا مقصودَي الإفادة لاسيّما في مقابلة إثبات الفناء لِما يقابلها مِن المال والبنين على طريقة قوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل، ٩٦/١٦] للإيذان بأنّ بقاءها أمر محقَّق لا حاجةَ إلى بيانه؛ بل لفظ ﴿ٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾ اسم لها لا وصف، ولذلك لم يُذكَر الموصوف، وإنّما الذي يُحتاج إلى التعرّض له خيريّتُها.

﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في الآخرة، وهو بيان لِما يظهَر فيه آثار خيريّتها بمنزلة إضافة الزِّينة إلى الحياة الدنيا لا لأفضليّتها فيها[٤] مِن المال والبنين مع مشاركة الكلّ في الأصل، إذ لا مشاركةَ لهما في الخيريّة في الآخرة. ﴿ثَوَابًا﴾ عائدةً تعود إلى صاحبها.

---

[١] مرويّ عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٢٧٤/١٥-٢٧٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٥؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٢.

[٢] مرويّ عن عثمان بن عفّان وابن عبّاس وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٢٧٥/١٥-٢٧٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٤/٥-١٧٥؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٢.

[٣] مرويّ بمعناه عن ابن عبّاس وقتادة وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٢٨٠/١٥-٢٨١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧٥/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٢.

[٤] ط س - فيها.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ حيث ينال بها صاحبها في الآخرة كلّ ما كان يؤمِّله في الدنيا، وأمّا ما مرّ مِن المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله. وتكرير ﴿خَيْرٌ﴾ للإشعار باختلاف حيثيّتَي الخيريّة والمبالغة فيها.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ منصوب بمضمر، أي: اذكر حين نقلَعها مِن أماكنها ونُسيّرها في الجوّ على هيئاتها، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل، ٨٨/٢٧]، أو نُسيّر أجزاءها بعد أن نجعلها هباءً مُنبَثًّا. والمراد بتذكيره تحذير المشركين ممّا فيه مِن الدواهي. وقيل: هو معطوف على ما قبله مِن قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة. وقرئ: "تُسَيَّرُ"[1] على صيغة البناء للمفعول مِن "التفعيل" جريًا على سَنن الكِبرياءِ وإيذانًا بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعيّنِه، وقرئ: "تَسِيْرُ".[2]

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جميع جوانبها، والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤيةُ، وقرئ: "تُرَى"[3] على صيغة البناء للمفعول. ﴿بَارِزَةً﴾ أمّا بروزُ ما تحت الجبال فظاهر، وأمّا ما عداه فكانت الجبال تحُول بينه وبين الناظر قبل ذلك، فالآن أضحى قاعًا صَفْصَفًا لا ترى فيها عِوجًا ولا أَمْتًا.

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ جمعناهم إلى الموقف مِن كل أَوْب. وإيثار صيغة الماضي / بعد ﴿نُسَيِّرُ﴾ و﴿تَرَى﴾ للدلالة على تحقّق الحَشْر المتفرّع على البعث الذي يُنكره المنكرون، وعليه يدور أمْر الجزاء، وكذا الكلام فيما عُطف عليه منفيًّا وموجَبًا. [٤٢٣ظ]

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن وكِرداب، والثقفي ومِنهال عن يعقوب، ومحبوب والأزرق عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٩؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١١٦٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ النحوي عن بعض القرّاء. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٨٩.

وقيل: هو للدلالة على أنّ حَشْرهم قبل التسيير والبروز ليُعاينوا تلك الأهوال، كأنّه قيل: وحشرناهم قبل ذلك.[١]

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ أي: لم نترُك ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ يقال: "غادره وأغدَره" إذا تركه، ومنه الغَدْر الذي هو تَرْك الوفاء، والغديرُ الذي هو: ما يتركه السيل في الأرض الغائرة. وقرئ بالياء،[٢] وبالفوقانيّة[٣] على إسناد الفعل إلى ضمير ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، كما في قوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق، ٨٤/٤].

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ شُبّهت حالهم بحال جند عُرضوا على السلطان ليأمُر فيهم بما يأمُر، وفي الالتفات إلى الغَيبة[٤] وبناءِ الفعل للمفعول مع التعرّض لعنوان الربوبيّة والإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تربية المهابة والجَري على سَنن الكبرياء وإظهار اللطف به عليه السلام ما لا يخفى. ﴿صَفًّا﴾ أي: غيرَ متفرّقين ولا مختلِطين فلا تعرُّض فيه لوَحدة الصفّ وتعدُّده، وقد ورد في الحديث الصحيح: «يجمَع الله الأوّلين والآخِرين في صعيد واحد صُفوفًا».[٥]

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ على إضمار القول على وَجْه يكون حالًا مِن ضمير ﴿عُرِضُوا۟﴾، أي: مقولًا لهم، أو وقلنا لهم، وأمّا كونه عاملًا في ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ﴾[٦] كما قيل فبعيدٌ مِن جزالة التنزيل الجليل، كيف لا، ويلزم منه أنّ هذا القول هو المقصود بالأصالة دون سائر القوارع مع أنّه خاصُّ التعلّق بما قبله مِن العَرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الأرض.

---

١ كذا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٢/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠.

٤ وفي هامش م: حيث لم يقل علينا. «منه».

٥ مسند أحمد، ٣٨٤/١٥ (٩٦٢٣)؛ صحيح البخاري، ١٣٤/٤ (٣٣٤٠).

٦ في الآية السابقة.

﴿كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ نعت لمصدر مقدَّر، أي: مجيئًا كائنًا كمجيئكم عند خَلْقنا لكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾، أو حال مِن ضمير ﴿جِئْتُمُونَا﴾، أي: كائنين كما خلقناكم أوّلَ مرّة حُفاةً عُراة غُرْلًا، أو ما معكم شيء ممّا تفتخرون به مِن الأموال والأنصار، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام، ٩٤/٦].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ إضراب وانتقال مِن كلام إلى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع، أي: زعمتُم في الدنيا أنّه لن نجعَل لكم أبدًا وقتًا نُنجِز فيه ما وعدناه مِن البعث وما يتبعه. و"أن" مخفَّفة / مِن المثقَّلة فُصِل بحرف النفي بينها وبين خبرها [٤٢٤و]
لكونه جملة فعليّة متصرِّفة غيرَ دعاء. والظرف إمّا مفعول ثانٍ للجَعْل وهو بمعنى التصيير والأوّلُ هو ﴿مَوْعِدًا﴾، أو حال مِن ﴿مَوْعِدًا﴾ وهو بمعنى الخَلْق والإبداع.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ عطفٌ على ﴿عُرِضُوا۟﴾[١] داخل تحت الأمور الهائلة التي أريدَ تذكيرُها بتذكير وقتها وأُوردَ فيه ما أُوردَ في أمثاله مِن صيغة الماضي دلالة على التقرّر أيضًا، أي: وُضع صحائف الأعمال. وإيثار الإفراد للاكتفاء بالجنس. والمراد بوضعها إمّا وضعُها في أيدي أصحابها يمينًا وشمالًا وإمّا في الميزان. ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قاطبة، فيدخُل فيهم الكفَرة المنكِرون للبعث دخولًا أوّليًّا. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ مِن الجرائم والذنوب.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند وقوفِهم على ما في تضاعيفه نَقيرًا وقِطْميرًا ﴿يَـٰوَيْلَتَنَا﴾ مُنادين لهَلَكتهم التي هلَكوها مِن بين الهلَكات مستدعين لها ليهلِكوا ولا يرَوا هول ما لاقَوه، أي: يا ويلتنا احضُري فهذا أوان حضورك. ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: أيُّ شيء له؟ وقولُه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي:

---
١ في الآية السابقة.

حواها وضبطها، جملة حاليّة محقِّقة لِما في الجملة الاستفهاميّة مِن التعجّب، أو استئنافيّة مبنيّة على سؤال نشأ مِن التعجّب، كأنّه قيل: ما شأنه حتّى يُتعجَّب منه؟ فقيل: لا يغادر سيّئةً صغيرةً / ولا كبيرة إلّا أحصاها. [٤٢٤ظ]

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا مِن السيّئات، أو جزاءَ ما عملوا ﴿حَاضِرًا﴾ مسطورًا عتيدًا. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فيكتبَ ما لم يُعمَل مِن السيّئات، أو يزيد في عقابه المستحقّ فيكون إظهارًا لمَعدَلة القلم الأزلي.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: اذكر وقت قولنا لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ سجودَ تحيّة وتكريم، وقد مرّ تفصيله ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ جميعًا امتثالًا بالأمر ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فإنّه لم يسجُد؛ بل أبى واستكبر.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ كلام مستأنَف سِيق مَساقَ التعليل لِما يفيده استثناء اللعين مِن الساجدين، كأنّه قيل: ما له لم يسجُد؟ فقيل: كان أصلُه جنّيًّا،[١] ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: خرج عن طاعته كما ينبئ عنه "الفاء"، أو صار فاسقًا كافرًا بسبب أمر الله تعالى، إذ لولاه لَما أبى. والتعرّض لوَصْف الربوبيّة النافية للفِسق لبيان كمال قبح ما فعَله.

والمراد بتذكير قصّته تشديدُ النكير على المتكبِّرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكِفين عن الانتظام في سِلك فقراء المؤمنين ببيان أنّ ذلك مِن صنيع إبليسَ وأنّهم في ذلك تابعون لتسويله، كما ينبئ[٢] قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾... إلخ، فإنّ الهمزة للإنكار والتعجيب و"الفاء" للتعقيب، أي: أعَقيبَ عِلمكم بصدور تلك القبائح عنه تتّخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: أولاده وأتباعه؟ جُعلوا ذرّيّته مجازًا. قال قتادة: يتوالدون كما يتوالد بنو آدمَ. وقيل: يُدخل ذنبَه في دُبُره فيبيض / فتنفلِق البيضة مِن جماعة مِن الشياطين. [٤٢٥و]

---

[١] ط س: خبيثًا.

[٢] ط س + عنه.

﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ فتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدَل طاعتي، ﴿وَهُمْ﴾ أي: والحال أن إبليسَ وذرّيّته ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء، ٧٧/٢٦]، وقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون، ٤/٦٣]، وإنّما فُعل به ذلك تشبيهًا له بالمصادر نحو "القَبول" و"الولوع". وتقييد "الاتّخاذ" بالجملة الحاليّة لتأكيد الإنكار وتشديده، فإنّ مضمونها مانع مِن وقوع الاتّخاذ ومُنافٍ له قطعًا.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الواضعين للشيء في غير موضعه ﴿بَدَلًا﴾ مِن الله سبحانه إبليسُ وذرّيّته. وفي الالتفات إلى الغَيبة مع وَضْع الظالمين موضعَ الضمير مِن الإيذان بكمال السخط والإشارة إلى أنّ ما فعلوه ظلمٌ قبيح ما لا يخفى.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ استئناف مَسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتّخاذ المذكور في أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك مِن خَباثة المَحتِد والفِسق والعداوة، أي: ما أحضرتُ إبليسَ وذرّيّته ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حيث خلقتُهما قبل خَلْقهم ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ولا أشهدتُ بعضهم خَلْق بعض، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء، ٢٩/٤].

هذا ما أجمع عليه الجمهور حِذارًا مِن تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الأنفس. / ولك أن تُرجع الضمير الثانيَ إلى "الظالمين" وتلتزمَ [٤٢٥ظ] التفكيك بناءً على قَوْد المعنى إليه، فإنّ نفيَ إشهاد الشياطين خَلْق الذين يتولّونهم هو الذي يدور عليه إنكار اتّخاذهم أولياء بناء على أنّ أدنى ما يصحِّح التولّيَ حضورُ الوليّ خَلْق المتولّى وحيث لا حضورَ لا مصحِّحَ للتولّي قطعًا.

وأمّا نفيُ إشهاد بعض الشياطين خَلْق بعض منهم فليس مِن مداريّة الإنكار المذكور في شيء، على أنّ إشهاد بعضهم خَلْق بعض إن كان مصحِّحًا

لتولّي الشاهد بناءً على دلالته على كماله باعتبار أنّ له مدخلًا في خلق الشهود في الجملة فهو مُخِلٌّ بتولي المشهودِ بناءً على قصوره عمّن شهِد خَلْقه، فلا يكون نفيُ الإشهاد المذكور متمحّضًا في نفي الكمال المصحّح للتولّي عن الكلّ، وهو المَناط للإنكار المذكور.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ أي: متّخذَهم، وإنّما وُضع موضعَه المُظهَر ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالإضلال وتأكيدًا لِما سبق مِن إنكار اتّخاذهم أولياءَ. ﴿عَضُدًا﴾ أعوانًا في شأن الخَلْق، أي:[١] في شأن مِن شئوني حتّى يُتوهّم شركتهم في التولّي بناء على الشركة في بعض أحكامِ الربوبيّة.

وفيه تهكّمٌ بهم وإيذانٌ بكمال ركاكة عقولِهم وسخافةِ آرائِهم حيث لا يفهمون هذا الأمرَ الجليَّ الذي لا يكاد يشتبه على البُلْه والصبيان فيحتاجون إلى التصريح به. وإيثار نفيِ الإشهاد على نفي شهودهم ونفيِ اتّخاذِهم أعوانًا على نفي كونهم كذلك للإشعار بأنّهم مقهورون تحت
[٤٢٦و] قدرته تعالى /[٢] تابعون لمشيئته وإرادتِه فيهم، وأنّهم بمَعزِل مِن استحقاق الشهود والمعونة مِن تلقاء أنفسِهم مِن غير إحضار واتّخاذ. وإنّما قُصارى ما يُتوهَّم في شأنهم أن يبلُغوا ذلك المبلغ بأمر الله عزّ وجلّ ولم يكد ذلك يكون.

وقيل: الضميرُ للمشركين، والمعنى: ما أشهدتُهم خَلْق ذلك، وما أطلعتُهم على أسرار التكوين، وما خصَصْتُهم بفضائلَ لا يحويها غيرهم حتّى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا تَلتفتْ إلى قولهم طمعًا في نُصرتهم للدين فإنّه لا ينبغي لي أن أعتضِدَ بالمُضِلّين. ويعضُده القراءة بفتح "التاء"[٣] خطابًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمعنى: ما صحّ لك الاعتضادُ بهم.

---

١ ط س: أو.

٢ هنا ينتهي اختلاط الترتيب في عشرة الألواح في نسخة المؤلّف.

٣ قرأ بها أبو جعفر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

ووصفُهم بالإضلال لتعليل نفي الاتّخاذ، وقرئ: "مُتَّخِذًا المُضِلِّيْنَ"[١] على الأصل، وقرئ: "عُضْدًا"[٢] بضمّ العين وسكون الضاد، وبفتح وسكون[٣] بالتخفيف، وبضمّتين[٤] بالإتباع، وبفتحتين[٥] على أنّه جمع "عاضد" كـ"رَصَد" و"راصد".

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢﴾

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ للكافرين توبيخًا وتعجيزًا، وقرئ بنون العظمة.[٦] ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنّهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم، والمراد بهم كلُّ ما عُبد مِن دونه تعالى. وقيل: إبليسُ وذرّيّته.[٧] ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: نادوهم للإغاثة. وفيه بيان لكمال اعتنائهم بإعانتهم على طريقة الشفاعة؛ إذ معلومٌ ألّا طريقَ إلى المدافعة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ فلم يُغيثوهم إذ لا إمكان لذلك. وفي إيراده مع ظهوره تهكمّ بهم وإيذانٌ بأنّهم في الحماقه بحيث لا يفهمونه إلّا بالتصريح به.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الداعين والمَدعوّين ﴿مَّوْبِقًا﴾ اسم مكان، أو مصدر مِن "وبَق وُبوقًا" كـ"وثب وثوبًا"، أو "وَبِق وَبَقًا" كـ"فَرِح فَرَحًا"، إذا هلَك، أي: مَهلِكًا يشتركون فيه وهو النار، أو عداوة وهي في الشِّدّة نفس الهلاك، كقول عمرَ رضي الله عنه: «لا يكن حبُّك كلَفًا ولا بغضُك تلَفًا».[٨] وقيل: البين:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب والجَحدري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج ونُعيم، وعبّاس عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وهارون، وخارجة والخفّاف وأبي زيد كلُّهم عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٨.

٦ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٤/٢.

٨ الأدب المفرد للبخاري، ٤٤٨ (١٣٢٢)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٥١٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٥/٢.

الوصل،[١] أي: وجعلنا تواصُلهم في الدنيا هلاكًا في الآخرة. ويجوز أن يكون المراد / بـ"الشركاء" الملائكة وعُزيرًا وعيسى عليهم السلام ومريمَ، وبالمَوبِق البرزخَ البعيدَ، أي: جعلنا بينهم أمدًا بعيدًا يهلك فيه الأشواط لفَرْط بُعده؛ لأنّهم في قَعر جهنّمَ وهم في أعلى الجنان. [٤٠٥ظ]

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ وُضع المظهرُ مقام المُضمر تصريحًا بإجرامهم وذمًّا لهم بذلك ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أي: فأيقنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ مُخالطوها واقعون فيها، أو ظنّوا إذ رأوها مِن مكان بعيد أنّهم مواقعوها الساعةَ ﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ انصرافًا أو معدِلًا ينصرِفون إليه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: كرَّرنا وأوردنا على وجوه كثيرة مِن النَّظم ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِن جملته ما مرّ مِن مَثل الرجُلين ومَثل الحياة الدنيا، أو مِن كلّ نوع مِن أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان التي هي في الغرابة والحُسن واستجلاب النفس كالمَثل ليتلقَّوه بالقَبول فلم يفعلوا.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بحسب جِبِلّته ﴿أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي: أكثرَ الأشياء التي يتأتّى منه الجدل، وهو ههنا شدّة الخُصومة بالباطل والمماراة مِن "الجَدْل" الذي هو الفتْل. والمجادلةُ: المُلاواة؛ لأنّ كلًّا مِن المُجادِلَين يلتوي على صاحبه. وانتصابُه على التمييز، والمعنى أنّ جدَله أكثر مِن جدَل كلّ مجادِل.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أهلَ مكّةَ الذين حُكيت أباطيلهم ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ مِن أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ما هم فيه مِن الإشراك ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: القرآن العظيم

---

[١] وهو قول الفرّاء في معاني القرآن، ١٤٧/٢؛ ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٣٥/٢.

الهادي إلى الإيمان بما فيه مِن فنون المعاني الموجبة له، ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ عمّا فرَط منهم مِن أنواع الذنوب التي مِن جملتها مجادلتُهم للحقّ بالباطل، ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ / أي: إلّا طلبُ إتيان سُنّتهم أو إلّا انتظارُ إتيانها، أو [٤٠٦و] إلّا تقديرُه، فحُذف المضاف وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه، وسنّتُهم الاستئصال.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: عذابُ الآخرة ﴿قُبُلًا﴾ أي: أنواعًا، جَمْع "قَبيل"، أو عِيانًا كما في قراءة "قِبَلًا"[١] بكسر "القاف" وفتح "الباء"، وقرئ بفتحتين،[٢] أي: مستقبَلًا، يقال: "لقِيتُه قِبَلًا وقُبُلًا وقَبَلًا". وانتصابُه على الحاليّة مِن الضمير أو ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، والمعنى أنّ ما تضمّنه القرآن الكريم مِن الأمور المستوجِبة للإيمان بحيث[٣] لو لم يكن مِثلَ هذه الحكمة القويّة لَما امتنع الناس مِن الإيمان، وإن كانوا مجبولين على الجدَل المفرِط.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الأمَم ملتبِسين بحال مِن الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالَ كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للكفرة والعصاة بالعقاب. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ باقتراح الآياتِ بعد ظهور المعجزات والسؤالِ عن قصّة أصحاب[٤] الكهفِ ونحوها تعنّتًا ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ﴾ أي: بالجدال ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُزيلوه عن مركزه ويُبطلوه مِن "إدحاض القدم" وهو إزلاقها، وهو قولهم للرسل عليهم السلام: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس، ١٥/٣٦]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٤/٢٣]، ونحوُهما.

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى﴾ التي تخِرّ لها صُمّ الجبال ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي: أُنذروه مِن القوارع الناعية عليهم العقابَ والعذابَ، أو إنذارَهم، ﴿هُزُوًا﴾ استهزاءً، وقرئ بسكون الزاء[٥] وهو ما يُستهزأ به.

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٦٩.

[٣] وفي هامش م: خبر "أنّ".

[٤] س: أصحاف.

[٥] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولم يتدبّرها ولم يتذكّر بها. وهذا السّبك وإن كان مدلوله الوضعي نفيَ الأظلميّة مِن غير تعرّض لنفي المساواة في الظلم إلّا أنّ مفهومه العُرفي أنّه أظلم مِن كلّ ظالم، وبناءُ الأظلميّة على ما في / حيّز الصلة مِن الإعراض عن القرآن للإشعار [٤٠٦ظ] بأنّ ظُلمَ مَن يجادل فيه ويتّخذه هزوًا خارجٌ عن الحدّ. ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: عَمِلَه مِن الكفر والمعاصي التي مِن جملتها ما ذُكر مِن المجادَلة بالباطل والاستهزاء بالحقّ ولم يتفكّر في عاقبتها.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية كثيرة جمع "كِنان"، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنّهم مطبوع على قلوبهم ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ مفعول لِما دلّ عليه الكلام أي: منعناهم أن يقفوا[١] على كُنهه، أو مفعول له، أي: كراهةَ أن يفقهوه. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: جعلنا فيها ﴿وَقْرًا﴾ ثِقَلًا يمنعهم مِن استماعه.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أي: فلن يكون منهم اهتداء البتّةَ مدّةَ التكليف. و﴿إِذًا﴾ جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبيّ عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته بإسلامهم، كأنّه قال عليه السلام: مالي لا أدعوهم؟ فقيل: إن تدعُهم... إلخ، وجَمْعُ[٢] الضميرِ الراجع إلى الموصول في هذه المواضع الخمسة باعتبار[٣] معناه، كما أنّ إفراده في المواطن الخمسة المتقدّمة باعتبار لفظه.

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَرَبُّكَ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ خبرُه، وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: الموصوف بها، خبرٌ بعد خبر. وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة

---

١ س: يقفوه.
٢ وفي هامش م: مبتدأ.
٣ وفي هامش م: خبر.

للتنبيه على كثرة الذنوب، ولأنّ المغفرة تَرْك المضارّ وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى مِن العذاب، وأمّا الرحمة فهي فعل وإيجاد، ولا يدخل تحت الوجود إلّا ما يتناهى.

وتقديم الوصف الأوّل لأنّ التخلية قبل التحلية، أو لأنّه أهمُّ بحسب الحال، إذ المقام مقام بيانِ تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها، كما يُعرب عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم﴾ أي: لو يريد[١] / مؤاخَذتهم ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ مِن [٤٠٧و]
المعاصي التي مِن جملتها ما حُكي عنهم مِن مجادلتهم بالباطل وإعراضِهم عن آيات ربّهم وعدمِ المبالاة بما اجترحوا مِن المُوبقات، ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك.

وإيثار المؤاخذة المنبئة عن شدّة[٢] الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوها للإيذان بأنّ النفيَ المستفاد مِن مقدَّم الشرطيّة متعلِّق بوَصْف السرعة كما ينبئ عنه تاليها. وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المُضيّ لإفادة أنّ انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم إرادة المؤاخذة، فإنّ المضارع الواقع مَوقعَ الماضي يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى، كما حُقّق في موضعه.

﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾ اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة، والجملة معطوفة على مقدَّر كأنّه قيل: لكنّهم ليسوا مؤاخَذين بغتةً، ﴿لَّن يَجِدُواْ﴾ البتّةَ ﴿مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ مَنجى أو مَلجأ، يقال: "وأل"، أي: نجا، و"وأل" إليه، أي: لجأ إليه.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ٥٩﴾

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ أي: قرى عاد وثمودَ وأضرابها، وهي مبتدأ على تقدير المضاف، أي: وأهلُ تلك القرى، خبرُه قوله تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، أو مفعول مضمرٍ مفسَّرٍ به ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي: وقت ظلمهم، كما فعلت قريشٌ بما حُكي عنهم مِن القبائح. وتركُ المفعول إمّا لتعميم الظلم أو لتنزيله منزلةَ اللازم،

---

١ وفي هامش م: فإنّ ترتيب تعجيل العذاب على نفس المؤاخذة غيرُ مفيد. «منه».

٢ وفي هامش م: الشِّدّة مستفادة مِن صيغة المغالبة الدالّة على المبالغة.

أي: لمّا فعلوا الظلم. و﴿لَمَّا﴾ إمّا حرف كما قال ابن عصفور،[١] وإمّا ظرف استعمل للتعليل، وليس المراد به الوقت المعيَّن الذي عمِلوا فيه الظلم؛ بل زمان ممتدّ مِن ابتداء الظلم إلى آخره.

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ أي: عيّنّا لهلاكهم ﴿مَوْعِدًا﴾ أي: وقتًا معيَّنًا لا محيدَ لهم عن ذلك. وهذا استشهاد على ما فُعل بقريشٍ مِن تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغترّوا / بتأخّر العذاب. وقرئ بضمّ "الميم" وفتح "اللام"،[٢] أي: إهلاكهم، وبفتحهما.[٣] [٤٠٧ظ]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ نصب بإضمار فعل، أي: اذكُرْ وقتَ قوله عليه السلام ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ وهو يوشعُ بن نونٍ بن أفرائيمَ بن يوسفَ عليه السلام، سُمّيَ فتاه إذ كان يخدمه ويتّبعه. وقيل: كان يتعلّم منه،[٤] ويُسمّى التلميذُ فتًى وإن كان شيخًا، ولعلّ المرادَ بتذكيره عَقيب بيان أنّ لكلّ أمّة موعدًا تذكيرُ ما في القصّة مِن موعد الملاقاة مع ما فيها مِن سائر المنافع الجليلة.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ مِن "برِح" الناقص كـ"زال يزال"، أي: لا أزال أسير، فحُذف الخبر اعتمادًا على قرينة الحال إذ كان ذلك عند التوجّه إلى السفر واتّكالًا على ما يعقُبه مِن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ﴾ فإنّ ذلك غايةٌ تستدعي ذا غاية يؤدّي إليها، ويجوز أن يكون أصل الكلام "لا يبرَحُ مسيري حاصلًا حتّى أبلُغ"، فيُحذَف المضاف ويُقام المضاف إليه مُقامَه، فينقلب الضمير البارز المجرور المحلّ مرفوعًا مستكِنًّا، والفعلُ مِن صيغة الغَيبة إلى التكلّم.[٥]

ويجوز أن يكون مِن "برِح" التامّ كـ"زال يزول"، أي: لا أفارق ما أنا بصدده حتّى أبلغ ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ هو ملتقى بحر فارسَ والروم ممّا يلي المشرِق.

---

١ هذا رأي ابن خروف كما نقل الرضيُّ في شرح الكافية ٢٣٠/٣.

٢ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٣ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣١١/٢.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٢.

٥ الكلام بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٦/٢.

وقيل: طَنجَةُ.[١] وقيل: هما الكُرّ[٢] والرَّسّ[٣] بإرْمِينيةَ.[٤] وقيل: إفريقيّة.[٥] وقرئ بكسر "الميم"[٦] كـ"مَشرِق".

﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ أسير زمانًا طويلًا أتيقّن معه فواتَ المطلَب. والحُقُب: الدهر أو ثمانون سَنة، وكان منشأ هذه العزيمة أنّ موسى عليه السلام لمّا ظهَر على مصرَ مع بني إسرائيلَ واستقرُّوا بها بعد هلاك القِبط[٧] أمره الله عزّ وجلّ أن يذكّر قومه النعمةَ فقام فيهم خطيبًا بخطبة بديعة رقّت بها القلوب وذرَفت العيون، / فقالوا له: مَن أعلمُ الناس؟ قال: أنا. فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردّ [٤٠٨و] العلم إليه عزّ وجلّ، فأوحى إليه: بل أعلمُ منك عبدٌ لي عند مجمَع البحرين وهو الخَضِر عليه السلام.[٨] وكان في أيّام أفريدون قبل موسى عليه السلام، وكان على مقدّمة ذي القرنين الأكبر وبقِيَ إلى أيّام موسى.[٩]

وقيل: إنّ موسى عليه السلام سأل ربّه: «أيُّ عبادِك أحبّ إليك؟» قال: «الذي يذكرُني ولا ينساني». قال: «فأيُّ عبادك أقضى؟» قال: «الذي يقضي بالحقّ

---

١ مَرويّ عن محمّد بن كعب في جامع البيان للطبري، ٣٠٩/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٨٥/٥؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٢. | طَنْجة: مدينة على ساحل بحر المغرب، مقابل الجزيرة الخضراء، مِن البرّ الأعظم وبلاد البربر، وهي مدينة أزليّة خصبة آثارها باقية وبناؤها بالحجارة قائمة على البحر. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٣/٤.

٢ الكُرّ: نهر بين أرمينيّة وأران، يشقّ مدينة تفليس، وبينه وبين برذعة فرسخان، ثمّ يجتمع هو ونهر الرسّ بالجمع ويصبّ في بحر الخَزَر وهو بحر طبرستان، وقيل: هو موضع بفارس، والمشهور الأوّل. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٥١/٤.

٣ الرَّسّ: قرية باليمامة يقال لها فلج، وقيل: وادي أذربيجان وحدّ أذربيجان ما وراء الرّسّ، وقيل: ديار لطائفة مِن ثمود. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٣/٣-٤٤.

٤ مرويّ عن السدّي في تفسير ابن أبي حاتم، ٢٣٧٦/٧؛ وتفسير القرطبي، ٩/١١.

٥ مرويّ عن أُبيّ بن كعب في معالم التنزيل للبغوي، ١٨٥/٥؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عُبيد بن مُسلم بن يسار وعُبيد بن عُمير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٧١.

٧ القبط: كلمة يونانيّةُ الأصل بمعنى سُكّان مصر، ويقصد بهم اليوم: المسيحيون مِن المصريّين. انظر لِما قيل فيهم في المصادر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٩١/١٤؛ ولبّ اللباب للسيوطي، ص ٢٠٣.

٨ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٣٥/١ (١٢٢).

٩ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٢.

ولا يتّبع الهوى». قال: «فأيُّ عبادك أعلمُ؟» قال: «الذي يبتغي عِلمَ الناس إلى عِلمه عسى أن يصيب كلمةً تدلُّه على هدى أو تردّه عن ردى»، فقال: «إن كان في عبادك مَن هو أعلمُ منّي فدلّني عليه»، قال: «أعلمُ منك الخَضِر» قال: «أين أطلبه؟» قال: «على ساحل البحر عند الصخرة». قال: «يا ربّ كيف لي به؟» قال: «تأخذ حوتًا في مِكْتل فحيثما فقَدته فهو هناك». فأخذ حوتًا فجعله في مِكْتل، فقال لفتاه: «إذا فقدتَ الحوتَ فأخبرني» فذهبا يمشيان.[١]

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ "الفاء" فصيحة كما أشيرَ إليه ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: مجمَع البحرين، و﴿بَيْنِهِمَا﴾ ظرف أضيفَ إليه اتّساعًا، أو بمعنى الوصل. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جُعل فقدانه أمارة وُجدان المطلوب، أي: نسيا تفقُّد أمره وما يكون منه. وقيل: نسيَ يُوشَع أن يقدِّمه وموسى عليهما السلام أن يأمره فيه بشيء.[٢]

رُوي أنّهما لمّا بلغا مجمَع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التي لا يصيب ماؤها ميتًا إلّا حيَّ وضعا رءوسَهما على الصخرة فناما، فلمّا أصاب الحوتَ بردُ الماء ورَوحُه عاش،[٣] وقد كانا أكلا منه، وكان ذلك بعد ما استيقظ يُوشَع عليه السلام. وقيل: توضّأ عليه السلام مِن تلك / العين فانتضح الماء [٤٠٨ظ]
على الحوت فعاش فوقع في الماء.[٤]

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ مسلَكًا كالسَّرَب وهو: النَّفَق. قيل: أمسك الله عزّ وجلّ جِرْيَة الماء على الحوت فصار كالطاق عليه،[٥] معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام. وانتصاب ﴿سَرَبًا﴾ على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾، و﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ حال منه أو مِن "السبيل"، ويجوز أن يتعلّق بـ﴿ٱتَّخَذَ﴾.

---

١ مرويّ بلفظ قريب عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٣٢١/١٥-٣٢٢؛ وبعضه في شعب الإيمان للبيهقي، ١٧١/٢ (٦٧١)؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٧/٢.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٢.
٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٩١/٦ (٤٧٢٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٢.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٢.
٥ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٥٤/٤ (٣٤٠١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٢.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: مجمَع البحرين الذي جُعل موعدًا للملاقاة، قيل: أدلجا وسارا الليلة والغد إلى الظهر، وأُلقي على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي: ما نتغذّى به، وهو الحوت كما ينبئ عنه الجواب، ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما سارا بعد مجاوزة الموعد ﴿نَصَبًا﴾ تعبًا وإعياءً. قيل: لم ينصَبْ ولم يجُعْ قبل ذلك.[1] والجملة في محلّ التعليل للأمر بإيتاء الغداء، إمّا باعتبار أنّ النصَب إنّما يعتري بسبب الضعف الناشئ عن الجوع، وإمّا باعتبار ما في أثناء التغذّي مِن استراحة ما.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فتاه عليهما السلام: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ أي: التجأنا إليها وأقمنا عندها. وذِكرُ الإواء إليها مع أنّ المذكور فيما سبَق مرّتين بلوغ مجمَع البحرين لزيادة تعيين محلّ الحادثة، فإنّ المجمَع محلّ متّسِع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة إليه، ولتمهيد العُذر فإنّ الإواء إليها والنومَ عندها ممّا يؤدّي إلى النسيان عادة، والرؤيةُ مستعارة للمعرفة التامّة والمشاهَدة الكاملة.

ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليهما السلام ممّا اعتراه هناك مِن النسيان مع كون ما شاهده مِن العظائم التي لا تكاد تُنسى، وقد جُعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب، وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس، يقول أحدهم لصاحبه إذا نابه خَطْب: أرأيتَ ما نابني؟ يريد بذلك تهويله / وتعجيبَ صاحبه [٤٠٩و]
منه وأنّه ممّا لا يُعهَد وقوعُه، لا استخبارُه[2] عن ذلك كما قيل.[3]

والمفعول محذوف اعتمادًا على ما يدلّ عليه مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾، وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المَنسيّ. وإيقاع النسيان

---

١ بمعناه في صحيح البخاري، ١٥٤/٤ (٣٤٠١).

٢ وفي هامش م: معطوف على قوله: "تعجيب موسى عليه السلام". «منه».

٣ في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٢.

على اسم الحوت دون ضمير الغَداء مع أنّه المأمور بإتيانه للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّه ليس مِن قبيل نِسيان المسافر زادَه في المنزل، وأنّ ما شاهده ليس مِن قبيل الأحوال المتعلِّقة بالغداء مِن حيث هو غَداء وطعام؛ بل مِن حيث هو حوت كسائر الحِيتان مع زيادة، أي: نسِيتُ أن أذكُر لك أمره وما شاهدتُ منه مِن الأمور العجيبة.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدَل اشتمال مِن الضمير، أي: ما أنساني أن أذكُره لك. وفي تعليق "الإنساء" بضمير الحوت أوّلًا وبذِكره له[١] ثانيًا على طريق الإبدال المنبئ عن تنحية المبدَل منه إشارةٌ إلى أنّ متعلَّق النسيان أيضًا ليس نفس الحوت؛ بل ذِكر أمره. وقرئ: "أَنْ أُذَكِّرَهُ"،[٢] وإيثارُ ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ على المَصدر للمبالغة، فإنّ مدلوله نفس الحدَث عند وقوعه، والحالُ وإن كانت غريبة لا يُعهَد نسيانُها، لكنّه لمّا تعوّد بمشاهدة أمثالِها عند موسى عليه السلام وألِفَها قلّ اهتمامه بالمحافظة عليها.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ بيان لطرَف مِن أمر الحوت منبئ عن طرَف آخرَ منه، وما بينهما اعتراض قُدّم عليه للاعتناء بالاعتذار، كأنّه قيل: حَيِيَ واضطرب ووقَع في البحر واتّخذ سبيله فيه سبيلًا عجبًا. فـ﴿عَجَبًا﴾ ثاني مفعولَي ﴿ٱتَّخَذَ﴾، والظرفُ حال مِن أوّلهما أو ثانيهما، أو هو المفعول الثاني و﴿عَجَبًا﴾ صفة مصدر محذوف، أي: اتّخاذًا عجبًا وهو كون مسلَكه / كالطاق والسَّرَب، [٤٠٩ظ] أو مصدرُ فعل محذوف، أي: أتعجَّب منه عجبًا، وقد قيل: إنّه مِن كلام موسى عليه السلام. وليس بذاك.[٣]

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتَ مِن أمر الحوت

---

١ وفي هامش م: عليه السلام.

٢ ما وقفتُ عليها فيما بين يديَّ مِن كتب القراءات والتفسير. وفيها قراءة قريبة: "أَنْ أُذَكِّرَكَهُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **المغني في القراءات** للنَّوْزاوازي، ص ١١٧٢.

٣ القول والردّ بلفظ قريب في **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٨.

﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ وقرئ بإثبات الياء،[١] والضميرُ العائد إلى الموصول محذوف، أصلُه "نبغيه"، أي: نطلُبه لكونه أمارة للفوز بالمَرام. ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ طريقهما الذي جاءا منه ﴿قَصَصًا﴾ يقُصّان قَصصًا، أي: يتّبعان آثارهما اتّباعا أو مقتصّين حتّى أتيا الصخرة.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ التنكير للتفخيم والإضافة للتشريف. والجمهور على أنه الخَضِر واسمه بَلْيا بن مَلكان. وقيل: اليسع، وقيل: إلياس عليهم السلام.[٢] ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هي الوحي والنبوّة، كما يُشعِر به تنكير "الرحمة" واختصاصها بجَناب الكبرياء، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ خاصًا لا يُكتنه كُنهه ولا يُقادَر قَدره وهو عِلم الغيوب.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن السِّباق، كأنّه قيل: فماذا جرى بينهما مِن الكلام؟ فقيل: قال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ استئذانًا منه في اتّباعه له على وجه التعلّم ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: عِلمًا ذا رُشد أرشُد به في ديني، والرُّشد: إصابة الخير، وقرئ بفتحتين،[٣] وهو مفعول ﴿تُعَلِّمَنِ﴾، ومفعول ﴿عُلِّمْتَ﴾ محذوف، وكلاهما منقول مِن "عَلَم" المتعدّي إلى مفعول واحد.

ويجوز كونه عِلّة لـ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أو مصدرًا بإضمار فعله، ولا ينافي نبوّته وكونَه صاحب شريعة أن يتعلّم مِن نبيّ آخرَ ما لا تعلُّقَ له بأحكام شريعته مِن أسرار العلوم الخفيّة، ولقد راعى في سَوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام.

---

١ قرأ بإثباتها وصلًا نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وقرأ بإثباتها في الحالين ابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٦.

٢ الاسم والقولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٤٧.

٣ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١١.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾

[٤١٠و] ﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر: / ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد، كأنّه ممّا لا يصِحّ ولا يستقيم وعلّله بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ إيذانًا بأنّه يتولّى أمورًا خفيّةَ المدار مُنكَرة الظواهر، والرجلُ الصالح لاسيّما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئزّ عند مشاهدتها.

وفي صحيح البخاري قال الخَضِر:[١] «يا موسى إنّي على عِلم مِن عِلم الله تعالى علّمنيه لا تعلَمه، وأنت على عِلم مِن عِلم الله علّمكَه الله لا أعلَمه».[٢] و﴿خُبْرًا﴾ تمييز، أي: لم يُحط به خبرك.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غيرَ معترض عليك. وتوسيطُ الاستثناء بين مفعولَي الوُجدان لكمال الاعتناء بالتيمّن ولئلّا يُتوهَّم تعلّقه بالصبر. ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عطفٌ على ﴿صَابِرًا﴾، أي: ستجدني صابرًا وغيرَ عاصٍ. وفي وَعْد هذا الوُجدان مِن المبالغة ما ليس في الوَعْد بنفس الصبر وتَرْكِ العصيان، أو على ﴿سَتَجِدُنِي﴾ فلا محلّ له مِن الإعراب. والأوّل هو الأَولى لِما عرفتَه، ولظهور تعلُّقِه بالاستثناء حينئذ. وفيه دليل على أنّ أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٧٠﴾

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي﴾ أذِن له في الإتّباع بعد اللّتيا والتي،[٣] و"الفاء" لتفريع الشرطيّة على ما مرّ مِن التزام موسى عليه السلام للصبر والطاعة، ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ تُشاهده مِن أفعالي، أي: لا تفاتحني بالسؤال عن حِكمته فضلًا عن المناقشة والاعتراض، ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: حتّى أبتدئ ببيانه.

---

١ س – الخضِر.

٢ صحيح البخاري، ١/٣٥ (١٢٢).

٣ اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

وفيه إيذانٌ بأنَّ كلَّ ما صدَر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتّةَ، وهذا مِن أدب المتعلِّم مع العالم والتابع مع المتبوع.

وقرئ: "فَلَا تَسْأَلَنِّيْ"[١] بالنون المثقَّلة.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي: موسى والخَضِر عليهما السلام على الساحل يطلبان السفينة، وأمّا يُوشَعُ فقد صرَفه موسى عليه السلام / إلى بني إسرائيلَ. قيل: إنّهما مرّا بسفينة فكلّما أهلها فعرفوا الخَضِر فحملوهما بغير نَول.[٢] [٤١٠ظ]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ استعمال[٣] "الركوب" في أمثال هذه المواقع بكلمة ﴿فِى﴾ مع تجريده عنها في مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل، ١٦/٨]، على ما يقتضيه تعديتُه بنفسه لِما[٤] أشرنا إليه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ [هود، ١١/٤١]، لا لِما قيل: مِن أنّ في ركوبها معنى الدخول. ﴿خَرَقَهَا﴾ قيل: خرقها بعد ما لجَّجُوا، حيث أخذ فأسًا فقلع مِن ألواحها لوحَين ممّا يلي الماء، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ مِن الإغراق، وقرئ بالتشديد[٥] مِن التغريق، و"لِيَغْرَقَ أَهْلُهَا"[٦] مِن الثلاثي. ﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ أتيتَ وفعلتَ ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي: عظيمًا هائلًا مِن "أَمِرَ الأمرُ" إذا عظُم، قيل: الأصل "أَمِرٌ" فخفّف.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ تذكير لِما قاله مِن قبلُ وتحقيق لمضمونه متضمِّن للإنكار على عدم الوفاء بوعده.

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٠.

٣ وفي هامش م: مبتدأ.

٤ وفي هامش م: خبر.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وأيّوب السَّخْتِياني وابن مِقْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٢؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١١٧٤.

٦ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٣.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ بنسياني أو بالذي نسِيتُه، أو[١] بشيء نسيتُه، وهو وصيّته بألّا يسأله عن حكمة ما صدَر عنه مِن الأفعال الخفيّة الأسباب قبل بيانه، أراد[٢] أنّه نسيَ وصيّته ولا مؤاخذة على الناسي كما ورد في صحيح البخاري مِن أنّ الأوّل كان مِن موسى نسيانًا،[٣] أو أخرَج الكلامَ في معرِض النهي عن المؤاخذة بالنسيان يُوهِمه أنّه قد نسِيَ ليبسُطَ عُذره في الإنكار، وهو مِن معاريض الكلام التي يُتّقى بها الكذب مع التوسّل إلى الغرض، أو أراد بالنسيان التَّرْك، أي: لا تؤاخذني بما تركتُ مِن وصيّتك أوّل مرّة.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ أي: لا تُغْشِني ولا تُحمّلني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ وهو اتّباعه إيّاه ﴿عُسْرًا﴾ أي: لا تُعسّر عليّ متابعتَك ويسّرْها عليّ بالإغضاء وتَرْكِ المناقشة. وقرئ: "عُسُرًا"[٤] / بضمّتين. [٤١١و]

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَانطَلَقَا﴾ "الفاء" فصيحة، أي: فقَبِل عُذره فخرجا مِن السفينة فانطلقا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ قيل: كان الغلام يلعب بالغلمان فقتَل عُنقه، وقيل: ضرَب برأسه الحائط،[٥] وقيل: أضجعه فذبحه بالسكّين.[٦]

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ طاهرة عن الذنوب، وقرئ: "زَاكِيَةً".[٧] ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتل نفس محرَّمة؟ وتخصيص نَفْي هذا المُبيح بالذِّكر مِن بين سائر المبيحات مِن الكفر بعد الإيمان والزنا بعد الإحصان لأنّه الأقرب إلى الوقوع نظرًا إلى حال الغلام.

---

١ س: أي.

٢ وفي هامش م: موسى.

٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٣٥/١ (١٢٢).

٤ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٢.

٦ مَرويّ عن سعيد بن جُبير في جامع البيان للطبري، ٣٤١/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٠/٢.

٧ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وخلف ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣١٣/٢.

ولعلّ تغييرَ النظم الكريم بجَعْل ما صدَر عن الخَضِر عليه السلام ههنا مِن جملة الشرط، وإبرازِ ما صدَر عن موسى عليه السلام في معرِض الجزاء المقصود إفادته، مع أنّ الحقيق بذلك إنّما هو ما صدَر عن الخَضِر عليه السلام مِن الخوارق البديعة، لاستشراف النفس إلى ورود خبرها لقلّة وقوعها في نفس الأمر ونُدرة وصول خبرها إلى الأذهان، ولذلك رُوعيت تلك النكتة في الشرطيّة الأولى، لِما[١] أنّ صدور الخوارقِ منه عليه السلام خرج بوقوعه مرّة مَخرجَ العادة، فانصرفت النفس عن ترقّبه إلى ترقّب أحوال موسى عليه السلام، هل يُحافِظ على مراعاة شرطه بموجَب وعده الأكيد عند مشاهدة خارق آخرَ، أو يُسارِع إلى المناقشة كما مرّ في المرّة الأولى؟ فكان المقصود إفادةَ ما صدَر عنه عليه السلام ففُعِل ما فُعِل. ولله درُّ شأن التنزيل.[٢]

وأمّا ما قيل مِن أنّ القتل أقبَح والاعتراضَ عليه أدخَلُ فكان جديرًا بأن يُجعَل عُمدة في الكلام فليس مِن دَفْع الشبهة في شيء؛ بل هو مُؤيِّد لها، فإنّ كون القتل أقبَح مِن مبادي قلّة صدوره عن المؤمن العاقل ونُدرةِ وصول خبرِه إلى الأسماع، وذلك ممّا يستدعي / جَعْله مقصودًا بالذات وكونَ الاعتراض عليه أدخَل مِن [٤١١ظ]
موجبات كثرة صدوره عن كلّ عاقل، وذلك ممّا لا يقتضي جَعْله كذلك.

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ قيل: معناه أنكَرُ مِن الأوّل، إذ لا يمكن تدارُكه كما يمكن تدارُك الأوّل بالسدّ ونحوه. وقيل: الأمر أعظم مِن النُّكر؛ لأنّ قَتْل نفس واحدة أهون مِن إغراق أهل السفينة.[٣]

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٧٥﴾

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ زِيد ﴿لَكَ﴾ لزيادة المكافحة بالعِتاب على رَفْض الوصيّة وقلّة التثبّت والصبر لمّا تكرّر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يَرعَوِ بالتذكير حتّى زاد في[٤] النكير في المرّة الثانية.

---

١ وفي هامش م: خبر "لعلّ".

٢ وفي هامش م: ومَن توهّم أنّ ذلك لِما أنّ خَرْق السفينة لم يتعقّب الركوب وقد تعقّبَ القتلُ لقاء الغلام فقد نأى مِن الحقّ بمراحل. «منه».

٣ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٢.

٤ س – في.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ٧٦﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرّة ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾، وقُرئ مِن الإفعال،[١] أي: لا تجعلني صاحبك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرتَ ووجدتَ مِن قِبلي عُذرًا حيث خالفتُك ثلاثَ مرّات. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «رحِم الله أخي موسى استحيى فقال ذلك، لو لبِث مع صاحبه لأبصَر أعجبَ الأعاجيب».[٢]

وقُرئ: "لَدُنِي"[٣] بتخفيف "النون"، وقُرئ بسكون "الدال"[٤] كـ"عَضْد" في "عَضُد".

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ٧٧﴾

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي أنطاكيةُ.[٥] وقيل: أُبُلَّةُ،[٦] وهي أبعدُ أرض الله مِن السماء. وقيل: هي برقة.[٧] وقيل: بلدة بأندلس.[٨] عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري والنخَعي، واليماني وسهل بن حمّاد عن أبي عمرو. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٤؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٢.

[٢] بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ٣٤٥/١٥؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ١٩٢/٥؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٤١/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٣٠٥/٢-٣٠٦.

[٣] قرأ بها نافع وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣١٣/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي ليلى والحسين والجُعفي عن أبي بكر عن عاصم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٩٢.

[٥] **أنطاكية**: مدينة تاريخيّة تقع على الضفّة اليسرى لنهر العاصي على بعد ٣٠ كم مِن شاطئ البحر المتوسّط في محافظة هتاي التركيّة. وانظر لِما قيل فيها: **معجم البلدان** للحموي، ٢٦٦/١.

[٦] مرويّ عن محمّد بن سيرين في **جامع البيان** للطبري، ٣٤٧/١٥؛ وبلا نسبة في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤١/٢. | **الأُبُلّة**: بلدة على شاطئ دجلة البَصرة العظمى، في زاوية الخليج الذي يدخل إلى البَصرة، وهي أقدم مِن البصرة. وهي مِن أجمل البلاد ونهرها مِن جِنان الدنيا المذكورة عند القدماء. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٧٧/١.

[٧] **بَرقَة**: بفتح الباء والقاف، اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندريّة وإفريقيّة، واسم مدينتها انطابلس، فيها فواكه وخيرات كثيرة. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٨٩/١-٣٩٠.

[٨] القولان في **المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٥٣٣/٣.

«كانوا أهلَ قرية لئامًا».[١] وقيل: شرُّ القرى التي لا يضاف فيها الضيف ولا يُعرف لابن السبيل حقُّه.[٢]

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ في محلّ الجرّ على أنّه صفةٌ لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، ولعلّ العدولَ عن استطعامهم على أن يكون صفة لـ"الأهل" لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم، فإنّ الإباء مِن الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبحُ وأشنَعُ. «رُوي أنّهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم»[٣] ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ بالتشديد، وقُرئ بالتخفيف مِن الإضافة،[٤] يقال: "ضافه" إذا كان له ضيفًا، و"أضافه وضيَّفه" أنزَله وجعله ضيفًا له. وحقيقةُ "ضاف" مالَ إليه مِن "ضاف السهمُ عن الغرَض"، / ونظيرُه "زاره" مِن الازورار. [٤١٢و]

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يداني أن يسقُط، فاستُعيرت الإرادةُ للمشارفة للدلالة على المبالغة في ذلك. والانقضاض: الإسراعُ في السقوط وهو "انفعال" مِن القضّ، يقال: قضضتُه فانقضّ، ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة. وقيل: هو "افْعِلال" مِن النقض كـ"احمرّ"[٥] مِن الحُمرة.[٦] وقُرئ: "أَنْ يُنْقَضَ"[٧] مِن النَّقْض، و"أَنْ يَنْقَاصَ"[٨] مِن "انقاصَت السنّ" إذا انشقّت طولًا. ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قيل: مسَحه بيده فقام. وقيل: نقَضه وبناه. وقيل: أقامه بعمود عمَده به. قيل: كان سَمكُه مائة ذراع.[٩]

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تحريضًا له على أَخْذ الجُعْل لينتعشا به أو تعريضًا بأنّه فضول لِما في ﴿لَوْ﴾ مِن النفي، كأنّه لمّا رأى الحِرمان ومِساس الحاجة

---

[١] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٢.

[٢] مَرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٣٤٧/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥.

[٣] معالم التنزيل للبغوي، ١٩٣/٥.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير وأبي رَزين وأبي رجاء والأعمش وشِبل وابن الزُّبير ومجاهد والمفضّل والزّعفراني وابن مُحيصن وأبان. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٦.

[٥] س: احمرار.

[٦] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٧.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعكرمة وابن يعمُر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣.

[٩] هذه الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٢.

واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر. و"اتّخذ" افتعَل مِن "تخِذ" بمعنى "أخذ"، كـ"اتّبع" مِن "تبِع" وليس مِن "الأخذ" عند البصريّين. وقُرئ: "لَتَخِذْتَ"،[1] أي: لأخذتَ، وقُرئ بإدغام "الذال" في "التاء".[2]

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾

﴿قَالَ﴾ أي: الخَضِر عليه السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ على إضافة المصدر إلى الظرف اتّساعًا، وقد قُرئ على الأصل،[3] والمشارُ إليه إمّا نفس الفِراق كما في "هذا أخوك"، أو الوقت الحاضر، أي: هذا الوقت وقت فراق بيني وبينك، أو السؤال الثالث، أي: هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ "السين" للتأكيد لعدم تراخي التنبئة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ التأويل: رَجْع الشيء إلى مآله، والمراد به ههنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبّأ به دون التأويل، وهو خلاص السفينة مِن اليد العادِيَة، وخلاصُ أبوَي الغلام مِن شرّه مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراجُ اليتيمين للكنز. وفي جَعْل صلة الموصول عدمَ استطاعة / موسى عليه السلام للصبر دون أن يقال: "بتأويل [٤١٢ظ]
ما فعلتُ" أو "بتأويل ما رأيتَ" ونحوهما نوعُ تعريضٍ به عليه السلام وعتاب.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ لضعفاءَ لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة. وقيل: كانت لعشرة إخوة، خمسةٌ منهم زَمْنى وخمسةٌ ﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾،[4] وإسنادُ العمل إلى الكلّ حينئذ إنّما هو بطريق التغليب، أو لأنّ عمل الوكلاء بمنزلة عدم الموكِّلين. ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيب.

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣١٤/٢.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ١٦/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٢.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أي: أمامَهم، وقد قُرئ به،[١] أو خلفَهم، وكان رجوعُهم عليه لا محالةَ، واسمه جُلَندى بن كركر. وقيل: منولة بن جلندى الأزدي.

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي: صالحة، وقد قُرئ كذلك،[٢] ﴿غَصْبًا﴾ مِن أصحابها. وانتصابه على أنّه مصدر مبيّن لنوع الأخذ، ولعلّ تفريعَ إرادة تعييب السفينةِ على مَسكَنة أصحابها قبل بيان خوف الغَضب مع أن مدارَها كلا الأمرين، للاعتناء بشأنها، إذ هي المحتاجة إلى التأويل، وللإيذان بأنّ الأقوى في المداريّة هو الأمر الأوّل، ولذلك لا يُبالى بتخليص سُفن سائر الناس مع تحقّق خوف الغَضب في حقّهم أيضًا، ولأنّ في التأخير فصلًا بين السفينة وضميرها مع توهّم رجوعه إلى الأقرب.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتلتُه ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ لم يصرِّح بكفرانه أو بكُفره إشعارًا بعدم الحاجة إلى الذِّكر لظهوره ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ فخِفنا أن يُغشيَ الوالدَين المؤمنَين ﴿طُغْيَٰنًا﴾ عليهما ﴿وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويُلحِق بهما شرًّا وبلاء، أو يُقرَنَ بإيمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر، أو يُعدِيَهما بدائه ويُضلَّهما بضلاله فيرتدّا بسببه.

وإنّما خشيَ الخَضِر عليه السلام منه ذلك لأنّ الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سِرّ أمره. وقُرئ: "فَخَافَ رَبُّكَ"،[٣] أي: كرِه سبحانه كراهةَ مَن خاف / سوء عاقبة الأمر فغيّره، ويجوز أن يكون القراءةُ المشهورة على الحكاية [٤١٣و]
بمعنى "فكرِهنا"، كقوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم، ١٩/١٩].

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ بأن يرزُقهما بدلَه ولدًا خيرًا ﴿مِنْهُ﴾.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعثمان وابن عبّاس وقتادة وحُميد وأبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وعثمان وابن عبّاس وقتادة وحُميد وأبي جعفر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٧٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة والإضافة إليهما ما لا يخفى مِن الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما. ﴿زَكَوٰةً﴾ طهارةً مِن الذنوب والأخلاق الرديئة، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: رحمةً وعطفًا.

قيل: وُلدت لهما جارية تزوّجها نبيّ فولدت نبيًّا هدى[1] الله تعالى على يده أمّة مِن الأمَم. وقيل: ولدت سبعين نبيًّا. وقيل: أبدلهما ابنًا مؤمنًا مثلَهما.[2] وقُرئ: "يُبَدِّلَهُمَا"[3] بالتشديد، وقرئ: "رُحُمًا"[4] بضمّ الحاء أيضًا، وانتصابه على التمييز مثل ﴿زَكَوٰةً﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ المعهودُ ﴿فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي القرية المذكورة فيما سبق، ولعلّ التعبيرَ عنها بالمدينة لإظهار نوع اعتدادٍ بها باعتداد ما فيها مِن اليتيمين وأبيهما الصالح. قيل: اسماهما أصرَم وصريم واسم المقتول جيسون.[5]

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مِن فضّة وذهب، كما رُوي مرفوعًا.[6] والذمُّ[7] على كنزهما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة، ٣٤/٩] لمَن[8] لا يؤدّي زكاتهما وسائر حقوقهما. وقيل: كان لوحًا مِن ذهب مكتوبًا فيه: عجبْتُ لمَن يؤمن بالقدر كيف يحزَن؟ وعجبتُ لمَن يؤمن بالرزق كيف يتعَب؟ وعجبتُ لمَن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمَن يؤمن بالحساب كيف يغفُل؟

---

١ س + أي.

٢ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/٢.

٣ قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٤/٢.

٤ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/٢.

٦ سنن الترمذي، ٣٧٦/٥ (٣١٥٢)؛ المعجم الصغير للطبراني، ١٧٤/٢ (٩٧٧)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٩٥/٥.

٧ وفي هامش م: مبتدأ.

٨ وفي هامش م: خبر.

وعجبت لمَن يعرِف الدنيا وتقلُّبَها بأهلها كيف يطمئنّ إليها؟ لا إله إلّا الله محمّد رسول الله.[١] وقيل: صحفٌ فيها عِلم.[٢]

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ تنبيه على أنّ سعيَه في ذلك / كان لصلاحه. قيل: كان بينهما وبين الأب الذي حُفظا فيه سبعةُ آباء.[٣] [٤١٣ظ]

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ أي: مالكُك ومدبِّر أمورك، ففي إضافة الربّ إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له عليه السلام على تحتّم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه ووجوبِ الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبها مِن الأمور المذكورة. ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي: حُلُمَهما وكمالَ رأيهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ مِن تحت الجدار، ولولا أنّي أقمته لانقضّ وخرج الكنز مِن تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلّيّة.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر في موقع الحال، أي: مرحومَين منه عزّ وجلّ، أو مفعول له، أو مصدر مؤكِّد لـ﴿أَرَادَ﴾، فإنّ إرادة الخير رحمة. وقيل: متعلِّق بمضمَر، أي: فعلتُ ما فعلتُ مِن الأمور التي شاهدتَها رحمة مِن ربّك،[٤] ويعضُده إضافة الربّ إلى ضمير المخاطَب[٥] دون ضميرهما، فيكون قوله عزّ وعلا: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: عن رأيي واجتهادي تأكيدًا لذلك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العواقب المنظومةِ في سِلك البيان، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتها في الفخامة. ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ أي: لم تستطع، فحُذف "التاء" للتخفيف. ﴿عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ مِن الأمور التي رأيته أي: مآلُه وعاقبتُه فيكون إنجازًا للتنبئة الموعودة، أو إلى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه، وعلى كلّ حال فهو فذلكة لِما تقدَّم، وفي جعل الصلة عينَ ما مرّ[٦] تكريرٌ للنكير وتشديد للعِتاب.

---

[١] مَرويّ عن ابن عبّاس والحسن بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٦٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦.

[٢] مَرويّ عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير ومجاهد في جامع البيان للطبري، ١٥/٣٦٢-٣٦٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦.

[٣] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/١٩٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٤.

[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٢.

[٥] وفي هامش م: حسبما وقفتَ عليه مِن السرّ. «منه».

[٦] وفي هامش م: مِن عدم استطاعة موسى عليه السلام للصبر. «منه».

تنبيه: اختلفوا في حياة الخَضِر، فقيل: إنّه حيّ، وسببُه أنّه كان على مقدّمة ذي القرنين، فلمّا دخل الظلماتِ أصاب الخَضِر عينَ الحياة فنزل واغتسل منها وشرب مِن مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد. قالوا: وإلياس أيضًا في الحياة يلتقيان كلّ سنة بالموسم. وقيل: إنّه ميّت، لِما رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صلّى العشاء ذاتَ ليلة، ثم قال: «أرأيتَكم ليلتَكم هذه، فإنّ رأس مائة سنة منها لا يبقَى ممّن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»،[١] ولو كان الخَضِر حينئذ حيًّا لَما عاش بعد مائة عام.[٢] رُوي أنّ موسى عليه السلام لمّا أراد أن يفارقه، قال له: «أوصِني»، قال: «لا تطلب العلمَ لتحدّث به واطلبْه لتعمَل به».[٣]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

[٤١٤و] / ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هم اليهود سألوه عليه السلام[٤] على وجه الامتحان، أو سأله قريشٌ بتلقينهم. وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك إلى ورود الجواب. وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الإسكندر بن فيلقوسَ اليوناني، وقال ابن إسحاقَ: اسمه مَرزُبان بن مَرْدِبةْ مِن ولد يافث بن نوح عليه السلام وكان أسودَ.[٥] وقيل: اسمُه عبد الله بن الضحّاك. وقيل: مصعبُ بن عبد الله بن فينانَ بن منصور بن عبد الله بن الآزر بن عون بن زيد بن كهلانَ بن سبأ بن يعرُبَ بن قحطانَ.[٦] وقال السهيليّ: قيل: إنّ اسمه مَرْزُبان بن مُدرِكة، ذكره ابن هشام وهو أوّل التبابِعة.[٧] وقيل: إنّه أفريدون بن النعمان الذي قتل الضحّاك.[٨]

---

١ **صحيح البخاري**، ٣٤/١ (١١٦)؛ **صحيح مسلم**، ١٩٦٥/٤ (٢٥٣٧)؛ **معالم التنزيل للبغوي**، ١٩٧/٥.

٢ هذان القولان في الخَضِر مع الاستدلال المذكور جاءا بلفظ قريب في **معالم التنزيل للبغوي**، ١٩٧/٥.

٣ **معالم التنزيل للبغوي**، ١٩٧/٥.

٤ ط س - عليه السلام.

٥ القولان في **معالم التنزيل للبغوي**، ١٩٨/٥. وانظر: **اللباب لابن عادل**، ٥٥٤/١٢.

٦ القولان في **البداية والنهاية لابن كثير**، ٥٣٩/٢؛ و**اللباب لابن عادل**، ٥٥٥/١٢. وأوّلهما في **الرّوض الأنف للسُّهيلي**، ١٨٠/٣.

٧ التبابِعة: هم مِن ولد صيفي بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد، وهم مِن ملوك اليمن. انظر: **جمهرة أنساب العرب لابن حزم**، ٤٣٨/١؛ و**نهاية الأرب للقلقشندي**، ٤٢٥/١.

٨ انظر: **الرّوض الأنف للسُّهيلي**، ١٧٨/٣-١٧٩. والكلام بلفظ قريب عن السُّهيلي في **البداية والنهاية لابن كثير**، ٥٤٠/٢-٥٤١؛ و**اللباب لابن عادل**، ٥٥٥/١٢.

وذكر أبو الريحان البيروتي[١] في كتابه المسمى بـ**الآثار الباقية عن القرون الخالية** أنّ ذا القرنين هو أبو كرِب سميّ بن عيرين بن أقريقيس الحِمْيري وأنّ مُلكَه بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها وهو الذي افتخر به التُّبّع اليماني حيث قال:

قد كان ذو القرنين جدّي مسلمًا   مَلِكًا علا في الأرض غيرَ مفنَّدِ
بلَغ المَشارق والمَغارب يبتغي   أسبابَ أمرٍ مِن حكيم مُرشدِ[٢]

وجعلَ هذا القولَ أقربَ لأن الأذواءَ كانوا مِن اليمن كذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رُعَين وذي يزَن وذي جَدَن.[٣]

قال الإمام الرازي: والأوّل هو الأظهر؛ لأنّ مَن بلغ مُلكُه مِن السَّعة والقوّة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل الجليل إنّما هو الإسكندر اليوناني كما تشهد به كتب التواريخ. يُروى أنّه لمّا مات أبوه جَمع مُلكَ الرُّوم بعد أن كان / طوائفَ، [٤١٤ظ] ثمّ قصَد ملوكَ العرب وقهَرهم، ثمّ أمعن حتّى انتهى إلى البحر الأخضر،[٤] ثم عاد إلى مصرَ فبنى الإسكندريّة وسمّاها باسمه، ثمّ دخَل الشام وقصد بني إسرائيلَ وورد بيتَ المَقدِس وذبح في مذبَحه، ثمّ انعطف إلى إرمينيّةَ وبابِ الأبواب[٥]

---

١ هو محمّد بن أحمد الخوارزمي البيروني، أبو الريحان (ت. ٤٤٠هـ/١٠٤٧م). فيلسوف رياضي مؤرّخ مِن أهل خوارزم، أقام في الهند سبع سنين ومات في بلده. اطّلع على فلسفة اليونانيين والهنود. وعلت شهرته وارتفعت منزلته عند ملوك عصره. صنّف كتبًا متقنة منها: **الآثار الباقية في القرون الخالية**، و**الاستيعاب في صفة الأسطرلاب**، و**تاريخ الأمم الشرقية**. انظر: **معجم الأدباء** للحمَوي، ٢٣٣٠/٥؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣١٤/٥.

٢ البيتان لأبي كرِب أسعد الكامل بن مَلْكِيكرب بن تُبّع الأكبر الحِميري في **شعراء حِمير**، ١١٠/٣، مع بعض اختلاف في الرِّواية؛ وهما لبعض الحميريّين في **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٤٠/٢؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥٥٤/١٢.

٣ انظر: **الآثار الباقية** للبيروني، ص ٤٧. والكلام بلفظ قريب عن البيروني في **تفسير الرازي**، ٤٩٤/٢١؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥٥٤/١٢.

٤ البحر الأخضر: هو محيط بالدنيا جميعها كإحاطة الهالة بالقمر، ويخرج منه شعبتان إحداهما بالمشرق وهي بحر الهند والصين وفارس واليمن والزنج، والأخرى في المغرب تخرج مِن عند سلا فتمرّ بالزقاق الذي بين البرّ الأعظم مِن بلاد بربر المغرب وجزيرة الأندلس، وتمرّ بأفريقيّة إلى أرض مصر والشام إلى القسطنطينيّة. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٤٤/١.

٥ باب الأبواب: هي مدينة على بحر طبرستان؛ وهو بحر الخَزَر، وعلى المدينة سور مِن الحجارة ممتدّ مِن الجبل. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٠٣/١.

ودان له العراقيّون والقِبط والبربر،[١] ثمّ توجّه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارًا إلى أن قتله صاحب حرسه، واستولى على ممالك الفُرس وقصدَ الهِند وفتحه وبنى مدينة سرنديبَ[٢] وغيرَها مِن المُدن العظامِ، ثم قصَد الصين وغزا الأمَم البعيدة ورجع إلى خراسانَ[٣] وبنى بها مدائنَ كثيرة، ورجع إلى العراق ومرض بشهرزورَ[٤] ومات. انتهى كلام الإمام.[٥]

ورُوي أنّ أهل النجوم قالوا له: «إنّك لا تموت إلّا على أرض مِن حديد وتحت سماء مِن خشب»، وكان يدفِن كنزَ كلّ بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه، فبلغ بابل فرعَف وسقَط عن دابّته، فبُسطت له دروع فنام عليها، فآذته الشمس فأظلُّوه بتُرس، فنظر فقال: «هذه أرض مِن حديد وسماء مِن خشب»، فأيقَن بالموت، فمات وهو ابن ألف وستّمائة سنةٍ.[٦] وقيل: ثلاثة آلاف سنةٍ. قال ابن كثير: وهذا غريب.[٧] وأغربُ منه: ما قاله ابن عساكر[٨] مِن أنّه بلغني أنّه عاش ستًّا وثلاثين سنةً أو اثنتين وثلاثين سنةً، وأنّه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام.[٩] فإنّ ذلك لا ينطبق إلّا على ذي القرنين الثاني كما سنذكره.

---

١ البربر: شعب أكثره قبائل تسكن الجبال في شمال إفريقيّة. قيل: مختلف في نسبتهم للعرب، قيل مِن العرب، وقيل: مِن غسّان وغيرهم، وقيل: هم مِن حمير ومصر، وقيل: أخلاط مِن كنعان والعماليق. انظر: **قلائد الجمان** للقلقشندي، ١/٣٤.

٢ سَرَنْديب: هي جزيرةٌ كبيرةٌ في المحيط الهندي جنوب الهند، أطلق عليها العرب قديمًا اسم جزيرة سرنديب، وعُرِفت أيضًا باسم سيلان، وانظر فيها: **معجم البلدان** للحموي، ٣/٢١٥.

٣ خُراسان: بلاد واسعة أوّل حدودها ممّا يلي العراق أَزَاذْوار قصبة جوَين وبَيهق، وآخرُ حدودها ممّا يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها وإنّما هي أطراف حدودها، وتشتمل على أمّهات مِن البلاد منها نيسابور وهَراة ومرو وأبيوَرد وسرخس وغيرها وما يتخلّل ذلك مِن المدن التي دون نهر جيحون. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٢/٣٥٠.

٤ شهرزور: هي كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمَذان. أحدثها زُور بن الضحّاك، ومعنى "شهر" بالفارسيّة: المدينة. وأهل نواحيها كلّهم أكراد. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣/٣٧٥.

٥ انظر: **تفسير الرازي**، ٢١/٤٩٣-٤٩٤.

٦ انظر: **اللباب** لابن عادل، ١٢/٥٥٤.

٧ انظر: **البداية والنهاية** لابن كثير، ٢/٥٤٤-٥٤٦.

٨ هو عليّ بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم (ت. ٥٧١هـ/١١٧٦م). ثقة الدين المعروف بابن عساكر الدمشقي، المؤرّخ الحافظ الرحّالة الشافعي. مولده ووفاته في دمشق. وكان محدّث الديار الشاميّة، مِن أبرز كتبه: **تاريخ دمشق، والإشراف على معرفة الأطراف، ومعجم الصحابة**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢١/٤٠٥؛ **والأعلام** للزركلي، ٤/٢٧٣.

٩ انظر: **تاريخ دمشق** لابن عساكر، ١٧/٣٤٦.

قلتُ: وكذا ما ذكَره الإمام مِن قَصْدِ بني إسرائيلَ وورودِ بيت المَقدِس / [1] [٤١٥و]
والذبحِ في مذبَحه، فإنّه ممّا لا يكاد يتأتّى نسبتُه إلى الأوّل.[2]

واختُلف في نبوّته بعد الاتّفاق على إسلامه وولايته. فقيل: كان نبيًّا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾،[3] وظاهر أنّه متناول للتمكين في الدِّين وكمالُه بالنبوّة، ولقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾،[4] ومِن جملة الأشياء النبوّةُ، ولقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[5] ونحوِ ذلك. وقيل: كان مَلَكًا، لِما رُوي أنّ عمرَ رضي الله عنه سمع رجلًا يقول لآخر: يا ذا القرنين، فقال: اللّهمّ غُفرًا، أمَا رضِيتم أن تتسمَّوا بأسماء الأنبياء حتّى تسمَّيتُم بأسماء الملائكة.[6]

قال ابن كثير: والصحيح أنّه ما كان نبيًّا ولا مَلَكًا، وإنّما كان مَلِكًا صالحًا عادلًا مَلَك الأقاليم وقهَر أهلها مِن الملوك وغيرهم ودانت له البلاد، وأنّه كان داعيًا إلى الله تعالى سائرًا في الخلق بالمَعْدَلة التامّة والسلطان المؤيَّد المنصور، وكان الخَضِر على مقدّمة جيشه بمنزلة المستشار الذي هو مِن المَلِك بمنزلة الوزير.

وقد ذكَر الأزرقي[7] وغيره أنّه أسلَم على يدَيْ إبراهيمَ الخليل عليه السلام فطاف معه بالكعبة هو وإسماعيلُ. ورُوي أنه حجّ ماشيًا فلمّا سمِع إبراهيمُ عليه السلام بقدومه تلقّاه ودعا له وأوصاه بوصايا، ويقال: إنّه أُتيَ بفرس ليركب فقال: لا أركَب في بلد فيه الخليل، فعند ذلك سُخِّر له السحاب وطُويَ له الأسباب وبشّره إبراهيمُ عليه السلام[8] بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكرَه وجميعَ آلاتهم إذا أرادوا غزوة قوم.

---

١ هنا ينتهي ما وقع مِن اضطراب الألواح في نسخة المؤلّف.

٢ وفي هامش م: وستعرف أنّ مَن بنى الإسكندريّة وقتل دارا أيضًا هو الثاني. «منه».

٣ في الآية الآتية.

٤ في الآية الآتية.

٥ الكهف، ٨٦/١٨.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/٢؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ٥٣٧/٢.

٧ هو محمّد بن عبد الله بن أحمد بن محمّد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الأزرقي، أبو الوليد (ت. نحو ٢٥٠هـ/ ونحو ٨٦٥م). مؤرّخ مِن أهل مكّة، يمانيّ الأصل، له مِن المصنّفات أخبار مكّة وما جاء فيها مِن الآثار. انظر: الأعلام للزركلي، ٢٢٢/٦.

٨ س – عليه السلام.

وقال أبو الطُّفيل:[١] سُئل عنه عليّ كرَّم الله وجهه أكان نبيًا أم مَلِكًا؟ فقال: لم يكن نبيًا ولا مَلِكًا لكن كان عبدًا أحبَّ الله فأحبّه وناصَح الله فناصَحه سُخِّر له السحاب ومُدّ له الأسباب.[٢]

[٤٢٦ظ] / واختُلف في وجه تسميته بذي القَرنين. فقيل: لأنّه بلغ قَرنَي الشمس مَشرِقَها ومَغربَها. وقيل: لأنّه مَلَك الرُّوم وفارسَ، وقيل: الرُّومَ والتُّركَ. وقيل: لأنّه كان في رأسه أو في تاجه ما يشبه القَرنين. وقيل: لأنّه كان له ذؤابتان. وقيل: لأنّه كانت صفحتا رأسه مِن النُّحاس.[٣] وقيل: لأنّه دعا الناس إلى الله عزّ وجلّ فضُرِب بقَرنه الأيمن فمات، ثمّ بعثه الله تعالى فضُرِب بقرنه الأيسر فمات، ثمّ بعثه الله تعالى.[٤] وقيل: لأنّه رأى في منامه أنّه صعِد الفَلَك فأخذ بقَرنَي الشمس. وقيل: لأنّه انقرض في عهده قَرنان. وقيل: لأنّه سُخِّر له النور والظُّلمة فإذا سرَى يهديه النور مِن أمامه وتحُوطه الظُّلمة مِن ورائه. وقيل: لُقِّب به لشجاعته.[٥]

هذا وأمّا ذو القرنين الثاني فقد قال ابن كثير: إنّه الإسكندر بن فيليسَ بن مصريمَ بن هرمسَ بنِ ميطونَ بن رومي بن ليطى بن يونان بن يافثَ بن نونة بن شرخونَ بن روميةَ بن ثونط بن برقيل[٦] بن رومي بن الأصفرِ بن العنرِ بن العيصِ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ الخليل عليهما السلام. كذا نسبه ابن العساكرَ:[٧] المقدوني

---

[١] هو عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو الليثي الكناني القرشي، أبو الطفيل (ت. ١٠٠هـ/٧١٨م). شاعر كنانة وأحد فرسانها ومِن ذوي السيادة، وُلد يوم وقعة أحد ومات بمكّة، وهو آخر مَن مات مِن الصحابة رضوان الله عليهم، وعاش إلى أيّام معاوية وما بعدها. روى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تسعة أحاديث. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٦٩٦/٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٢/٢٥٥-٢٥٦.

[٢] إلى هنا ينتهي النقل بلفظ قريب عن **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٧/٢-٥٣٩؛ وبعضه في **تفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥. وحديث أبي الطُّفيل بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥.

[٣] هذه الأقوال الستّة في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٥/٢. وبعضها في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥-٣٧١؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ١٩٨/٥. وأكثرها في **البداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٨/٢؛ **وتفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥.

[٤] مَرويّ عن أبي الطُّفيل عن عليّ في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٠/١٥؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ١٩٨/٥؛ **والبداية والنهاية** لابن كثير، ٥٣٩/٢؛ **وتفسير ابن كثير**، ١٨٩/٥.

[٥] أكثر هذه الأقوال في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٥/٢.

[٦] م ط س: نوفيل [صُحّح في هامش م].

[٧] س: عساكر.

اليوناني المصري باني الإسكندريّة الذي يؤرّخ بأيّامه الروم، وكان متأخِّرًا عن الأوّل بدهر طويل أكثرَ مِن ألفَي سَنةٍ، كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو مِن ثلاثمائة سنةٍ وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوفَ، وهو الذي قتل دارا بن دارا، وأذلّ ملوك الفُرس ووطئ أرضهم.[١]

ثم قال:[٢] وإنّما بيّنا هذا لأنّ كثيرًا مِن الناس يعتقد أنّهما واحدٌ، وأنّ المذكور / في القرآن العظيم هو هذا المتأخِّر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير، كيف لا، [٤٢٧و] والأوّل كان عبدًا صالحًا مؤمنًا ومَلِكًا عادلًا وزيرُه الخَضِر عليه السلام، وقد قيل: إنّه كان نبيًّا. وأمّا الثاني فقد كان كافرًا وزيرُه أرسطاطاليس الفيلسوف، وقد كان ما بينهما مِن الزمان أكثرَ مِن ألفَي سنةٍ فأين هذا مِن ذلك؟ انتهى.[٣]

قلتُ: المَقْدُوني نسبة إلى بلدة مِن بلاد الروم غربيَّ دار السلطَنة السنيّة قُسطنطينيّةَ المَحميّة، لا زالَت مشحونة بالشعائر الدينيّة، بينهما مِن المسافة مسيرة خمسةَ عشرَ يومًا أو نحو ذلك عند مدينة سَيروزَ، اسمُها بلغة اليونانيّين مَقْدُونْيَا، كانت سرير مُلك هذا الإسكندر،[٤] وهي اليوم بلقَع لا يقيم بها أحد، ولكن فيها علائمُ تحكي كمال عِظَمها في عهد عُمرانها ونهايةِ شوكة واليها وسلطانِها، ولقد مررتُ بها عند[٥] القُفول عن[٦] بعض المغازي السُلطانيّة، فعاينتُ فيها مِن تعاجيب الآثار ما فيه عِبرة لأولي الأبصار.[٧]

﴿قُلْ﴾ لهم في الجواب ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم﴾ أي: سأذكر لكم ﴿مِنْهُ﴾ أي: مِن ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾ أي: نبأ مذكورًا، وحيث كان ذلك بطريق الوحي المَتلوّ حكايةً عن جهة الله عزّ وجلّ قيل: ﴿سَأَتْلُواْ﴾ في شأنه، أو﴿سَأَتْلُواْ﴾ مِن جهته تعالى ﴿ذِكْرًا﴾ أي: قرآنًا، و"السين" للتأكيد والدلالة على التحقّق المناسب

---

١ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٥٤١/٢-٥٤٢.

٢ وفي هامش م: ابن كثير.

٣ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٥٤٢/٢.

٤ وفي هامش م: ومَن نسب إليها ذا القرنين الأكبر، ثمّ استشهد على أنّه مَلَك المَشارق والمَغارب بأبيات التُّبّع اليماني فقد أبدع وأغرب. «منه».

٥ س: عن.

٦ ط س: مِن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، لعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٧ أشيرَ في دراسة هذا التحقيق إلى تلك المغازي وما ذكره المصنّف مِن مشاهدته.

لمقام تأييده عليه السلام وتصديقه بإنجاز وعده، أي: لا أترك التلاوة البتّةَ، كما في قول مَن قال:

سأشكر عَـمْـرًا إن تـراخـت منيّتي   أيـاديَ لـم تُـمنَـن وإن هـي جلَّـتِ[1]

لا للدلالة على أنّ التلاوة ستقع فيما يُستقبَل كما قيل، لأنّ هذه الآيةَ ما نزلت بإنفرادها قبل الوحي بتمام القصّة؛ بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه السلام عنه وعن الروح / وعن أصحاب الكهف، فقال لهم عليه السلام: «ائتوني [٤٢٧ظ] غدًا أخبرْكم»،[2] فأبطأ عليه الوحيُ خمسةَ عشرَ يومًا أو أربعين كما ذُكر فيما سلف.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ شروع في تلاوة الذِكر المعهود حسبما هو الموعود. والتمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب، يقال: مكّنه ومكّن له، ومعنى الأوّل جعَله قادرًا وقويًّا، ومعنى الثاني جعَل له قدرة وقوّة، ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يُستعمَل كلٌّ منهما في محلّ الآخر كما في قوله عزّ وعلا: ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ [الأنعام، ٦/٦]، أي: جعلناهم قادرين مِن حيث القُوى والأسباب والآلات على أنواع التصرّفات فيها ما لم نجعله لكم مِن القوّة والسَّعة في المال والاستظهارِ بالعَدد والأسباب، فكأنّه قيل: ما لم نُمكِّنكم فيها، أي: ما لم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكّنّا لهم في الأرض ما لم نمكِّنْ لكم.

وهكذا إذا كان التمكين مأخوذًا مِن المكان بناءً على توهّم ميمه أصليّة، كما أشيرَ إليه في سورة يوسفَ عليه السلام،[3] والمعنى إنّا جعلنا له مَكِنة وقدرة على التصرّف في الأرض مِن حيث التدبير والرأي والأسباب، حيث سُخِّر له السحاب،

---

١ مختلف في نسبته: فهو لعبد الله بن الزَّبِير الأسدي في ملحق ديوانه، ص ١٤٢؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٢/٢٦٥؛ وهو له أو لعمرو بن كُمَيل في الحماسة البصرية للبصري، ٢/٤٢١؛ ولإبراهيم الصولي في ديوانه، ص ١٣٠ (ضمن الطرائف الأدبيّة للميمني)؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ٦/٣٨٤؛ وهو لأبي الأسود الدؤلي في ملحق ديوانه، ص ٣٨٨؛ ولمحمّد بن سعيد في رسائل الجاحظ، ١/٣٨؛ ولمحمّد بن سعد الكاتب التميمي في معجم الشعراء للمرزباني، ص ٤٢١.

٢ مضى بتخريجه عند تفسير الكهف، ١٨/٢٣.

٣ في الآية الحادية والعشرين منها.

ومُدّ له في الأسباب، وبُسط له النور، وكان الليل والنهار عليه سواءً، وسُهّل عليه السير في الأرض، وذُلّلت له طرقها.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده مِن مُهمّات مُلكه ومقاصده المتعلِّقة بسلطانه ﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقًا يُوصِله إليه، وهو كلُّ ما يُتوصَّل به إلى المقصود مِن عِلم أو قدرة أو آلة.

﴿فَأَتْبَعَ﴾ بالقَطع، أي: فأراد بلوغَ المغرب فأتبع ﴿سَبَبًا﴾ يُوصِله إليه، ولعلّ قصْدَ بلوغ المغرب ابتداءً لمراعاة الحركة الشمسيّة، وقُرئ: "فَاتَّبَعَ"[١] مِن الافتعال، والفرق أنّ الأوّل فيه معنى الإدراك والإسراع دون الثاني.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منتهى الأرض مِن جهة المغرِب بحيث لا يتمكّن أحد مِن مجاوزته، ووقف على حافّة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه / الجزائر المسمّاة بالخالدات[٢] التي هي مبدأ الأطوال على أحد القولين، ﴿وَجَدَهَا﴾ أي: الشمس ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: ذات حَمْأة: وهي الطين الأسود مِن "حمِئت البئر" إذا كثرت حَمْأتها، وقُرئ: "حَامِيَةٍ"،[٣] أي: حارّة. [٤٢٨و]

رُوي أنّ معاويةَ رضي الله عنه قرأ: "حَامِيَةٍ" وعنده ابن عبّاس رضي الله عنهما فقال: ﴿حَمِئَةٍ﴾، فقال معاويةُ لعبد الله بن عمرو بن العاص:[٤] «كيف تقرأ؟» قال:

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٤.

٢ الخالدات: هي الجزائر الخالدات، هي ستّ جزائر واغلة في البحر المحيط، وهي ببلاد المغرب، وقيل: بإزاء طنجة في المحيط، وقيل: هي جزائر السعادة؛ لأنّ فيها أصناف الفواكه العجيبة الطيّبة، وأرضها تحمل الزرع مكان العشب وأصناف الرياحين العطرة. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢/١٣٢.

٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٤.

٤ عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤيّ القرشي السهمي (ت. ٦٥هـ/٦٨٤م). مِن قريش مِن أهل مكّة، صحابي عالم فاضل حافظ مِن النسّاك، كان يكتب في الجاهليّة ويحسن السريانيّة، وأسلم قبل أبيه، واستأذن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يكتب ما يسمع منه فأذن له، »

«كما يقرأ أمير المؤمنين»، ثمّ وجّه إلى كعب الأحبار: «كيف تجد الشمس تغرب؟» قال: «في ماء وطين»، ورُوي "في ثَأْط"[١] فوافَق قول ابن عبّاس رضي الله عنهما.[٢]

وليس بينهما منافاة قطعيّة لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء في الثانية منقلبة مِن "الهمزة" لانكسار ما قبلها. وأمّا رجوع معاويةَ إلى قول ابن عبّاس رضي الله عنهما بما سمعه مِن كعب مع أنّ قراءته أيضًا مسموعة قطعًا،[٣] فلكون قراءةِ ابن عبّاس قطعيّة في مدلولها وقراءتِه محتمَلةً.

ولعلّه لمّا بلغ ساحل المحيط رآها كذلك؛ إذ ليس في مطمَح بصره غيرُ الماء كما يلوِّح به قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ قيل: كان لباسهم جلود الوحوش وطعامُهم ما لَفَظه البحر، وكانوا كفّارًا فخيّره الله جلّ ذِكره بين أن يُعذّبهم بالقتل وأن يدعوَهم إلى الإيمان وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل مِن أوّل الأمر ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: أمرًا ذا حُسن على حذف المضاف أو على طريقة إطلاق المصدر على موصوفه مبالغة، وذلك بالدعوة إلى الإسلام والإرشاد إلى الشرائع.

ومحلُّ ﴿أَن﴾ مع صلته إمّا الرفع على الابتداء أو الخبريّة، وإمّا النصب على المفعوليّة، أي: إمّا تعذيبك واقع،[٤] أو إمّا أمرك تعذيبك،[٥] أو إمّا تفعَل تعذيبَك،[٦] وهكذا الحال في "الاتّخاذ".[٧] ومَن لم يقل بنبوّته قال: كان[٨] الخطاب بواسطة

< وكان كثير العبادة، وكان يشهد الحروب والغزوات ويضرب بسيفين وحمل راية أبيه يوم اليرموك، وشهد صفّين مع معاوية، وعمي في آخر حياته، ومات بمكّة، وقيل: في مصر. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٩٥٦/٣-٩٥٩؛ **والأعلام** للزركلي، ١١١/٤.

١ وفي هامش م: جمع ثأطة: وهي الحَمْأة. «منه».

٢ بلفظ قريب في **جامع البيان** للطبري، ٣٧٥/١٥-٣٧٦؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٥٤٥/٢-٥٤٦.

٣ وفي هامش م: وليس مدار الاختلاف هو السماع وإلّا لَما سأل كعبًا سؤاله المذكور. «منه».

٤ وفي هامش م: على الأوّل.

٥ وفي هامش م: على الثاني.

٦ وفي هامش م: على الثالث.

٧ وفي هامش م: هذا ما قالوا. والأظهر هو الرفع على الخبريّة، بتقدير المقدّر قبل ﴿إِمَّا﴾، أي: أمرك إمّا تعذيبُك لهم وإمّا إحسانُك إليهم، أو النصبُ على المفعوليّة، أي: اختر إمّا تعذيبَك لهم وإمّا إحسانَك إليهم. «منه».

٨ س + ذلك.

نبيّ في ذلك العصر، / أو كان ذلك إلهامًا لا وحيًا بعد أن كان ذلك التخيير [٤٢٨ظ]
موافقًا لشريعة ذلك النبيّ.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: ذو القرنين لذلك النبيّ[1] أو لمَن عنده[2] مِن خواصّه بعد ما تلقّى[3] أمره تعالى مختارًا للشقّ الأخير: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: نفسَه ولم يقبل دعوتي وأصرّ على ما كان عليه مِن الظلم العظيم الذي هو الشِّرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل. وعن قتادةَ أنه كان يطبُخ مَن كفَر في القدور ومَن آمن أعطاه وكساه.[4]

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ فيها ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا فظيعًا وهو عذاب النار. وفيه دلالة ظاهرة على أنّ الخطاب لم يكن بطريق الوحي إليه، وأنّ مقاولته كانت مع النبيّ أو مع مَن عنده مِن أهل مشورته.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجَب دعوتي ﴿وَعَمِلَ﴾ عملًا ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: فله المثوبة الحسنى أو الفِعلة الحسنى أو الجنّة جزاء، على أنّه مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة قُدِّم على المبتدأ اعتناء به، أو منصوب بمضمَر، أي: نجزي بها جزاء، والجملةُ حاليّة أو معترِضة بين المبتدأ والخبر المتقدِّم عليه، أو حال،[5] أي: مجزيًّا بها، أو تمييز. وقُرئ منصوبًا غيرَ منوّن[6] على أنّه سقَط تنوينه لالتقاء الساكنين، ومرفوعًا منوّنًا[7] على أنّه المبتدأ، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدله، والخبرُ الجارّ والمجرور.

---

١ وفي هامش م: على تقدير شمول الخطاب بطريق الوحي إليه. «منه».
٢ وفي هامش م: أي: على التقديرين. «منه».
٣ وفي هامش م: مِن النبيّ أو منه تعالى بطريق الإلهام. «منه».
٤ بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٦. ولم أقف عليه في مظانّه.
٥ السياق: على أنّه مصدر... أو حال...
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والضحّاك وابن أبي إسحاق. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨١.

وقيل: خُيِّر بين القتل والأسْر، والجواب مِن باب الأسلوب الحكيم؛ لأنّ الظاهر التخيير بينهما وهم كفّار، فقال: أمّا الكافر فيُراعى في حقّه قوّة الإسلام وأمّا المؤمن فلا يُتعرَّض له إلّا بما يجب. ويجوز أن تكون ﴿إِمَّا﴾ و﴿إِمَّا﴾[1] للتوزيع دون التخيير، أي: ليكن شأنك معهم إمّا التعذيبَ وإمّا الإحسانَ، فالأوّل لمَن بقيَ على حاله والثاني لمَن تاب.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ممّا نأمر به ﴿يُسْرًا﴾ أي: سهلًا متيسِّرًا غيرَ شاقّ، وتقديره: ذا يُسر، أو أُطلِق عليه المصدر مبالغة، وقُرئ بضمّتين.[2]

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠﴾

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقًا راجعًا مِن مغرِب الشمس موصِلًا إلى مَشرِقها.

[٤٢٩و] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ / يعني الموضِع الذي تطلع عليه الشمس أوّلًا مِن معمورة الأرض. وقُرئ بفتح "اللام"[3] على تقدير مضاف، أي: مكان طلوع الشمس فإنّه مصدر. قيل: بلَغه في اثنتي عشرةَ سنةً. وقيل: في أقلَّ مِن ذلك بناء على ما ذُكر مِن أنه سُخِّر له السحاب وطُوي له الأسباب.[4]

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ مِن اللباس والبناء. قيل: هم الزَّنْج. وعن كعب: أنّ أرضَهم لا تُمسك الأبنية وبها أسراب، فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب أو البحر، فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معايشهم. وعن بعضهم: خرجتُ حتى جاوزت الصينَ فسألت عن هؤلاء فقالوا: بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فبلغتُهم فإذا أحدهم يفرُش أُذنه ويلبَس الأخرى ومعي صاحب يعرِف لسانهم، فقالوا له: جئتنا تنظر كيف تطلُع الشمس، قال: فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة

---

[1] كلاهما في الكهف، ٨٦/١٨.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعيسى وحُميد وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١١٨١.

[4] ما وقفت عليهما فيما بين يديّ مِن المظانّ.

فغُشيَ عليّ ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدُّهن، فلما طلعَت الشمس على الماء إذا هو فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سِرْبًا لهم، فلمّا ارتفع النهار خرجوا إلى البحر يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضَج لهم.[١]

وعن مجاهد: مَن لا يلبَس الثيابَ مِن السودان عند مطلِع الشمس أكثرُ مِن جميع أهل الأرض.[٢]

﴿كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ٩١﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: أمر ذي القرنين كما وصفناه لك في رِفعة المحلّ وبَسطة المُلك، أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرِب مِن التخيير والاختيار. ويجوز أن يكون صفةَ مصدر محذوف لـ﴿وَجَدَ﴾ أو ﴿نَجۡعَل﴾[٣] أو صفةَ ﴿قَوۡمٖ﴾،[٤] أي: على قوم مثل ذلك القَبيل الذي تغرُب عليهم الشمس في الكفر والحُكم، أو سترًا / مثلَ [٤٢٩ظ] ستركم مِن اللباس والأكنان والجبال وغير ذلك.

﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ﴾ مِن الأسباب والعَدد والعُدد ﴿خُبۡرٗا﴾ يعني أنّ ذلك مِن الكثرة بحيث لا يحيط به إلّا عِلمُ اللطيف الخبير، هذا على الوجه الأوّل. وأمّا على الوجوه الباقية فالمراد بـ﴿مَا لَدَيۡهِ﴾ ما يتناول ما جرى عليه وما صدَر عنه وما لاقاه، فتأمّل.

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقًا ثالثًا معترِضًا بين المشرِق والمغرِب آخذًا مِن الجنوب إلى الشمال.

---

١ هذه الأقوال الثلاثة بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٢.

٣ وفي هامش م: فيها نوع تكلُّف: أمّا في الوجه الأوّل فلأنّ الوجدان في المشبَّه متعلّق بالشمس وفي المشبَّه به بالقوم، وأمّا في الثاني فلأنّه ليس المشبَّه جَعل حتّى يشبَّه به هذا الجَعل. «منه».

٤ في الآية السابقة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين اللذين سَدّ ما بينهما، وهو منقطَع أرض التُّرك ممّا يلي المشرِق، لا جبلا إرمينيّةَ وأذربيجان[١] كما تُوهِّم،[٢] وقُرئ بالضم.[٣] قيل: ما كان مِن خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان مِن عمل الخَلْق فهو مفتوح.[٤] وانتصاب ﴿بَيْنَ﴾ على المفعوليّة؛ لأنّه مبلوغ، وهو مِن الظروف التي تستعمل أسماء أيضًا كما ارتفع في قوله تعالى: "لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ"[٥] [الأنعام، ٦/٩٤]، وانجرّ في قوله تعالى: ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف، ١٨/٧٨].

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي: مِن ورائهما مجاوزًا عنهما ﴿قَوْمًا﴾ أي: أمّة مِن الناس ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابة لغتهم وقلّة فِطنتهم. وقُرئ مِن باب الإفعال،[٦] أي: لا يُفهمون السامعَ كلامَهم.

واختلفوا في أنّهم مِن أيّ الأقوام، فقال الضحّاك: هم جيل مِن التُّرك، وقال السُّدّي: التُّرك سريّة مِن يأجوجَ ومأجوجَ، خرجت فضرَب ذو القرنين السَّدّ فبقيت خارجةً فجميع التُّرك منهم، وعن قتادةَ: أنّهم اثنتان وعشرون قبيلةً سدّ ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلةً منهم وبقيت واحدة فسُمّوا التُّركَ لأنّهم تُركوا خارجين.[٧]

قال أهل التاريخ: أولاد نوح عليه السلام ثلاثة: سامٌ وحامٌ ويافثُ، فسامٌ أبو العرب والعجم والروم، وحامٌ أبو الحبشة والزَّنج والنُّوبة،[٨] ويافثُ أبو التُّرك

---

[١] أَذْرَبيجان: هي اليوم واحدة مِن ستّ دول تركيّة مستقلّة في منطقة القوقاز في أوراسيا تقع في مفترق الطرق بين أوروبا الشرقيّة وآسيا الغربيّة، انظر لِما قيل فيها في المصادر: معجم البلدان للحموي، ١/١٢٨.

[٢] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٤.

[٣] قرأ بها نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٥.

[٤] وفي هامش م: في الضمّ والفتح ما لا يخفى مِن النكتة. «منه». | والقول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٧.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٧٣.

[٦] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٥.

[٧] الأقوال الثلاثة في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٠٢.

[٨] النُّوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبيّ مصر. انظر: معجم البلدان للحموي، ٥/٣٠٩.

والخَزَر[١] والصقالبة[٢] ويأجوجَ ومأجوجَ.[٣]

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

/ ﴿قَالُواْ﴾ أي: بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهمُ ذي القرنين [٤٣٠و] كلامَهم، وإفهامُ كلامِه إيّاهم مِن جملة ما آتاه الله تعالى مِن الأسباب. ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قد ذكرنا أنّهما مِن أولاد يافث بن نوحٍ عليه السلام. وقيل: يأجوجُ مِن التُّرك ومأجوجُ مِن الجِيل.[٤] واختُلف في صفاتهم، فقيل: في غاية صِغر الجُثّة وقِصَر القامة لا يزيد قدُّهم على شبر واحد. وقيل: في نهاية عِظَم الجسم وطول القامة يبلغ قدُودهم نحوَ مائة وعشرين ذراعًا وفيهم مَن عَرضه كذلك. وقيل: لهم مخالبُ وأضراس كالسباع.[٥] وهما اسمان أعجميّان بدليل مَنْع الصرف، وقيل: عربيّان مِن "أجّ الظليم" إذا أسرَع.[٦] وأصلها "الهمزة"، كما قرأ عاصم، وقد قُرئ بغير همزة،[٧] ومَنْعُ صرفهما للتعريف والتأنيث.

---

١ الخَزَر: هم جيل خُزر العيون، ينسبون إلى خزر بن يافث بن نوح. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٣٦٧/٢.

٢ الصقالبة: مختلف فيهم، قيل: جيل حمر الألوان صُهب الشعور، وقيل: أجناس مختلفة مساكنهم بالحربي إلى شلو المغرب وبينهم حروب، ومنهم نصارى يعقوبيّة، ومنهم لا كتاب له ولا شريعة وهم جاهلون، وقيل: مِن أبناء يافث بن نوح عليه السلام. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٤١٦/٣.

٣ الكلام بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٠٢/٥؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥٦٤/١٢. | يأجوج ومأجوج: قيل: هما ابنا يافث بن نوح عليه السلام، وهما قبيلتان مِن خلق. قيل: أربع وعشرون أمّةً، وقيل: هم أمَم كثيرة لا يحصيهم إلّا الله، وهم قصار صلع، عراض الوجوه، يبلع طول الواحد منهم نصف طول الرجل المربوع لهم مخاليب في مواضع الأظفار، ولهم أضراس وأنياب كالسباع، وقد بنى ذو القرنين سدًّا بينهم وبين الأمّة التي استجارت به منهم. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ١٩٧/٢، ٣٥١-٣٦٩.

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٧/٢. | الجِيل: هم أهل جِيلان؛ وهي بلاد كثيرة مِن وراء بلاد طبرستان، وقد نُسب إليها ما لا يُحصى مِن أهل العلم في كلّ فنّ، وقيل: جيلان ابن يافث بن نوح عليه السلام. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٢٠٢/٢، ٤٢٠/٥.

٥ الأقوال الثلاثة في **اللباب** لابن عادل، ٥٦٤/١٢، وبعضها في **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٠٢/٥؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٤٧/٢.

٦ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٥٤/٢.

٧ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. **النشر** لابن الجزري، ٣١٥/٢.

﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزروع. قيل: كانوا يخرُجون أيّام الربيع فلا يتركون أخضرَ إلّا أكلوه ولا يابسًا إلّا احتملوه. وقيل: كانوا يأكلون الناسَ أيضًا.[١]

﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ أي: جُعْلًا مِن أموالنا. "الفاء" لتفريع العَرض على إفسادهم في الأرض. وقُرئ: "خَرَاجًا"[٢] وكلاهما واحد كـ"النَّول" و"النَّوال". وقيل: الخراجُ ما على الأرض والذِّمة والخَرْج المصدر.[٣] وقيل: الخَرْج ما كان على كلّ رأس والخراجُ ما كان على البلد. وقيل: الخَرْج ما تبرّعتَ به والخَراج ما لزِمك أداؤه.[٤] ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ وقُرئ بالضمّ.[٥]

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ بالإدغام، وقُرئ بالفكّ، أي: ما مكّنني ﴿فِيهِ رَبِّي﴾ وجعلني فيه مكينًا قادرًا مِن المُلك والمال وسائر الأسباب ﴿خَيۡرٞ﴾ أي: ممّا تريدون أن تبذلوه إليّ مِن الخَرْج فلا حاجةَ بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بفَعَلة / وصُنّاع [٤٣٠ظ] يُحسنون البناء والعمل وبآلات لا بدّ منها في البناء، و"الفاء" لتفريع الأمر بالإعانة على خيريّة ما مكّنه الله تعالى فيه مِن مالهم أو على عدم قَبول خَرْجهم.

﴿أَجۡعَلۡ﴾ جواب للأمر ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ﴾ تقديم إضافةِ الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج، لإظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعَوه في قولهم: بيننا وبينهم. ﴿رَدۡمًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا وبرزخًا متينًا، وهو أكبر مِن السدّ وأوثَقُ، يقال: ثوب مُرَدَّم، أي: فيه رِقاع فوق رِقاع، وهذا إسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٢.
٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٤/٢.
٤ القولان في اللباب لابن عادل، ٥٦٤/١٢-٥٦٥.
٥ قرأ بها نافع وابن عامر وشعبة ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ جمع "زُبْرة" كـ"غُرَف" في "غُرفة" وهي القطعة الكبيرة، وهذا لا ينافي ردّ خراجهم لأنّ المأمور به الإيتاء بالثمن أو المناولة كما ينبئ عنه القراءة بوَصْل الهمزة، أي: جيئوني بزُبَر الحديد على حَذْف "الباء"، كما في "أمرتُك الخير"، ولأنّ إيتاء الآلة مِن قبيل الإعانة بالقوّة دون الخَراج على العمل، ولعلّ تخصيصَ الأمر بالإيتاء بها[1] دون سائر الآلات مِن الصخور والحطب ونحوهما لِما أنّ الحاجة إليها أمسُّ؛ إذ هي الرُكن في السدّ ووجودها أعزّ.

قيل: حفَر للأساس حتّى بلغ الماء وجعل الأساسَ مِن الصخر والنحاس المذاب والبنيانَ مِن زُبر الحديد بينها الحطبُ والفحم، حتّى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، وكان مائةَ فرسخ،[2] وذلك قوله عزّ قائلًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي: آتَوه إيّاها فأخذ يبني شيئًا فشيئًا،[3] حتّى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين مِن البنيان مساويًا لهما في السَّمْك على النهج المحكيّ. قيل: كان ارتفاعه مائتي ذراع وعَرضه خمسين ذراعًا.[4] وقُرئ: "سَوَّى"[5] مِن التسوية و"سُوْوِيَ"[6] على البناء للمجهول.

﴿قَالَ﴾ للعَمَلة ﴿ٱنفُخُواْ﴾ أي: بالكِيران في الحديد المبنيّ ففعلوا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي: المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ أي: كالنار في الحرارة والهيئة. / وإسناد الجعل المذكور إلى ذي القرنين مع أنّه فَعْل الفَعَلة للتنبيه على أنّه العُمدة [٤٣١و] في ذلك وهم بمنزلة آلاته. ﴿قَالَ﴾ للذين يتولّوْن أمرَ النُّحاس مِن الإذابة ونحوِها: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ أي: آتوني قِطرًا، أي: نُحاسًا مذابًا أفرغْ عليه قِطرًا، فحُذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. وقُرئ بالوصل،[7] أي: جيئوني كأنّه يستدعيهم للإعانة باليد عند الإفراغ. وإسنادُ الإفراغ إلى نفسه للسرّ الذي وقفت عليه آنفًا، وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿سَاوَىٰ﴾، وقولِه تعالى: ﴿أَجۡعَلۡ﴾.[8]

---

١ وفي هامش م: "الباء" متعلّقة بالتخصيص. «منه».
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٨.
٣ وفي هامش م: فإنّ "حتّى" يستدعي التدريج. «منه».
٤ القول في اللباب لابن عادل، ١٢/٥٦٧.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي أميّة عن أبي بكر عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨٤.
٧ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٥.
٨ في الآية السابقة.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفًا وحذَرًا عن تلاقي المتقارِبَين، وقُرئ بالإدغام،[١] وفيه جمع بين الساكنين على غير حدّه، وقُرئ بقلب "السين" صادًا،[٢] و"الفاء" فصيحة، أي: فعلوا ما أُمروا به مِن إيتاء القِطْر أو الإتيانِ،[٣] فأفرغَه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلًا صَلْدًا، فجاء يأجوجُ ومأجوجُ، فقصدوا أن يعلُوه وينقُبوه فما استطاعوا ﴿أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أي: يعلوه ويرقَوا فيه لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ لصلابته وثخانته.

وهذه معجزة عظيمة؛[٤] لأنّ تلك الزُبَر الكثيرة إذا أثّرت فيها حرارة النار لا يقدِر الحيوان على أن يحُومْ حولها فضلًا عن النفخ فيها إلى أن تكون كالنار، أو عن إفراغ القِطْر عليها فكأنّه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للأعمال، فكان ما كان، والله على كلّ شيء قدير.

«وقيل: بناه مِن الصخور مرتبطًا بعضها ببعض بكلاليب مِن حديد ونُحاس مُذاب في تجاويفها»،[٥] بحيث لم يبقَ هناك فُرجة أصلًا.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾

[٤٣١ظ] ﴿قَالَ﴾ أي: ذو القرنين لمَن عنده مِن أهل تلك الديارِ وغيرهم / ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى السدّ. وقيل: إلى تمكينه مِن بنائه،[٦] والفضل للمتقدّم، أي: هذا الذي ظهر على يديّ وحصَل بمباشرتي مِن السدّ الذي شأنه ما ذُكر مِن المتانة وصعوبةِ المنال ﴿رَحۡمَةٞ﴾ أي: أثرُ رحمة عظيمة عُبّر عنه بها مبالغة ﴿مِّن رَّبِّي﴾ على كافّة العباد لاسيّما على مجاوريه، وفيه إيذان بأنّه ليس مِن قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة؛ بل هو إحسان إلهي مَحض وإن ظهر بمباشرتي. والتعرُّض لوَصْف الربوبيّة لتربية معنى الرحمة.

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٦.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الشُّمُوني. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨٤.
٣ وفي هامش م: للإعانة على قراءة الوصل. «منه».
٤ وفي هامش م: ومَن لا يقول بنبوّته يجعل ذلك معجزةً لنبيّ ذلك العصر. «منه».
٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٦.
٦ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٥٦.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة، لا خروج يأجوجَ ومأجوجَ كما قيل،[١] إذ لا يساعده النظم الكريم. والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيئَه ومجيءَ مباديه مِن خروجهم وخروج الدجّال ونزولِ عيسى عليه السلام ونحو ذلك، لا دنوُّ وقوعه فقط كما قيل،[٢] فإنّ بعضَ الأمور[٣] التي ستُحكى يقع بعد مجيئه حتمًا.

﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: السدَّ المشار إليه مع متانته ورصانته، وفيه مِن الجزالة ما ليس في توجيه الإشارة السابقة إلى التمكين المذكور. ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: أرضًا مستوية، وقُرئ: "دَكًّا"،[٤] أي: مدكوكًا مُسوًّى بالأرض، وكلُّ ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندكّ ومنه "الجَمَل الأدَكّ"، أي: المنبسِط السنامِ، وهذا الجَعْل وقت مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه، وفيه بيان لعِظَم قدرته عزّ وجلّ بعد بيان سَعة رحمته.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: وعده المعهود، أو كلُّ ما وعَد به، فيدخُل فيه ذلك دخولًا أوّليًّا. ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا لا محالةَ واقعًا البتّةَ. وهذه الجملة تذييل مِن ذي القرنين لِما ذكَره مِن الجملة الشرطيّة ومقرِّر[٥] لمضمونها وهو آخرُ ما حُكي مِن قصّته.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ كلام مَسوق مِن جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾[٦] ومحقِّق لمضمونه، أي: جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ جاء الوعد بمجيء بعض مباديه ﴿يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ آخرَ منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلِط إنسهم وجنّهم حَيارى مِن شدّة الهول، ولعلّ ذلك قبل النفخة الأولى، أو تركنا بعض يأجوجَ ومأجوجَ يموج في بعض آخرَ منهم حين يخرُجون مِن السدّ مزدحِمين في البلاد.

---

١ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٦/٢.

٢ في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٨/٢.

٣ وفي هامش م: كالنفخ في الصور والجمع وعرض جهنّم ونحو ذلك. «منه».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٥.

٥ م: مؤكِّد ["صح" في الهامش].

٦ في الآية السابقة.

رُوي أنّهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابّه ثمّ يأكلون الشجر ومَن ظفِروا به ممّن لم يتحصّن منهم مِن الناس، ولا يقدِرون أن يأتوا مكّة والمدينة وبيت المقدس، ثمّ يبعث الله عزّ وجلّ نَغَفًا[1] في أقفائهم فيدخُل آذانَهم فيموتون موتَ نفس واحدة، / فيرسل الله تعالى عليهم طيرًا فتُلقيهم في البحر، ثمّ يرسِل [٤٣٢و] مطرًا يغسل الأرض ويطهِّرها مِن نَتْنهم حتّى يترُكها كالزَّلَفة،[2] ثمّ يوضع فيها البركة، وذلك بعد نزولِ المسيح عليه الصلاة والسلام وقَتْل الدجّال.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية بقضيّة "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾. ولعلّ عدمَ التعرّض لذِكر النفخة الأولى لأنّها داهية عامّة ليس فيها حالة مختصّة[3] بالكفّار، ولئلّا يقع الفَصل بين ما يقع في النشأة الأولى مِن الأحوال والأهوال، وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة، أي: جمعنا الخلائق بعدما تفرّقت أوصالهم وتمزّقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء. ﴿جَمْعًا﴾ أي: جمعًا عجيبًا لا يُكتَنه كُنهه.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أظهرناها وأبرزناها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ جمعنا الخلائق كافّة. ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرَونها ويسمعون لها[4] تغيّظًا وزفيرًا. ﴿عَرْضًا﴾ أي: عرضًا فظيعًا هائلًا لا يُقادَر قَدْره. وتخصيص[5] العَرض بهم مع أنّها بمرأى مِن أهل الجمع قاطبةً؛ لأنّ[6] ذلك لأجلهم خاصّة.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِى غِطَآءٍ﴾ كثيف وغِشاوة غليظة مُحاطة بذلك مِن جميع الجوانب. ﴿عَن ذِكْرِى﴾ عن الآيات المؤدّيةِ لأولي الأبصار

---

[1] وفي هامش م: وهو دُود يكون في أنوف الغنَم. «منه». | انظر: لسان العرب لابن منظور، «نغف».
[2] الزَّلَفة: البركة والروضة والمرآة. لسان العرب لابن منظور، «زلف».
[3] س: فخصّة.
[4] س – لها.
[5] وفي هامش م: مبتدأ.
[6] وفي هامش م: خبر.

المتدبِّرين فيها إلى ذِكري بالتوحيد والتمجيد، أو كانت أعين بصائرهم في غطاء عن ذكري على وجه يليق بشأني أو عن القرآن الكريم.

﴿وَكَانُواْ﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لفَرْط تصامّهم عن الحقّ وكمال عداوتهم للرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿سَمْعًا﴾ استماعًا لذِكري وكلامي الحقّ الذي لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلّة السمعيّة، كما أنّ الأوّل تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهَدة بالأبصار. والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جيء به لذمّهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلّيّته لإصابة ما أصابهم مِن عرَض جهنّمَ لهم، فإنّ ذلك إنّما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عُرض لهم في الدنيا مِن الآيات وإعراضهم عنها مع كونها أسبابًا منجّية عمّا ابتُلوا به في الآخرة.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ١٠٢﴾

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ / أي: كفروا بي، كما يُعرب عنه قوله تعالى: [٤٣٢ظ] ﴿عِبَادِى﴾، والحُسبان بمعنى الظنّ، وقد قُرئ: "أَفَظَنَّ".[١] والهمزة للإنكار والتوبيخ على معنى إنكار الواقع واستقباحِه، كما في قولك: أضربتَ أباك؟ لا إنكارِ الوقوع،[٢] كما في قوله: أأضرِب أبي؟ و"الفاء" للعطف على مقدَّر يُفصِح عنه الصلة على توجيه الإنكار والتوبيخ إلى المعطوفَين جميعًا، كما إذا قُدِّر المعطوف عليه في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٢/٤٤] منفيًّا، أي: ألا تسمعون فلا تعقلون، لا إلى المعطوف فقط كما إذا قُدِّر مُثبَتًا، أي: أتسمعون فلا تعقلون.

والمعنى أكفَروا بي مع جلالة شأني فحسِبوا ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ﴾ مِن الملائكة وعيسى وعُزيرٍ عليهم السلام وهم تحت سلطاني وملكوتي ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ معبودين ينصُرونهم مِن بأسي. وما قيل: إنّها للعطف على ما قبلها

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٢/٥٤٩.

٢ وفي هامش م: كما قيل في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾... إلخ [النحل، ١٦/٤٥]، مِن أنّ "الفاء" للعطف على مقدّر تنبئ عنه الصلة، أي: أمَكَر فأمِن الذين... إلخ.

مِن قوله تعالى: ﴿كَانَتْ﴾... إلخ، ﴿وَكَانُواْ﴾... إلخ،[١] دلالة على أنّ الحُسبان ناشئ مِن التعامي والتصامّ وأُدخِل عليها همزة الإنكار ذمًّا على ذمّ وقطعًا له عن المعطوف عليهما لفظًا لا معنى للإيذان بالاستقلال المؤكِّد للذمّ، يأباه[٢] تَرْك الإضمار والتعرّض لوَصْف آخرَ غير التعامي والتصامّ على أنّهما أُخرجا مُخرَج الأحوال الجِبِلّيّة لهم، ولم يُذكرا بعنوان[٣] أنّهما مِن أفعالهم الاختياريّة الحادثة كحُسبانهم ليحسُن تفريعه عليهما، وأيضًا فإنّه دِين قديم لهم لا يمكن جعلُه ناشئًا عن تصامّهم عن كلام الله عزّ وجلّ.

وتخصيص الإنكار بحُسبانهم المتأخّر عن ذلك تعسُّف لا يخفى، وما في حيّز صلةِ ﴿أَن﴾ سادٌّ مسدّ مفعولَي ﴿حَسِبَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة، ٧١/٥]، أي: أفحسبوا أنّهم يتّخذونهم أولياءَ على معنى أنّ ذلك ليس مِن الاتّخاذ في شيء لِما أنّه إنّما يكون مِن الجانبين، وهم عليهم السلام منزَّهون عن وَلايتهم بالمرّة لقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ، ٤١/٣٤].

وقيل: مفعوله الثاني محذوف، أي: أفحسِبوا اتّخاذهم نافعًا لهم.[٤] والوجهُ هو الأوّل لأنّ في هذا تسليمًا لنفس الاتّخاذ واعتدادًا به في الجملة، وقُرئ: "أفحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا"،[٥] أي: أفمُحسِبهم وكافيهم أن يتّخذوهم أولياء على الابتداء والخبر، أو الفعل والفاعل،[٦] فإنّ النعت إذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل في العمل، فالهمزة حينئذ بمعنى إنكار الوقوع.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: هيأناها ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المعهودين، عُدل عن الإضمار ذمًّا لهم وإشعارًا بأنّ ذلك الإعتاد بسبب كفرهم المتضمِّن لحسبانهم الباطل. ﴿نُزُلًا﴾ أي: شيئًا يتمتّعون به عند ورودهم، وهو ما يقام للنزيل، أي: الضيف ممّا حضَر مِن الطعام، وفيه تخطئة لهم في حسبانهم / وتهكُّم بهم حيث كان [٤٣٣و]

---

١ في الآية السابقة.

٢ السياق: وما قيل... يأباه...

٣ م ط س: مِن حيث [صُحّح في هامش م].

٤ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٦/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والحسن ومجاهد وعاصم ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

٦ وفي هامش م: وفيه ما فيه مِن نوع تسليم لنفس الاتّخاذ. «منه».

اتّخاذهم إيّاهم أولياءَ مِن قبيل إعتاد العتاد وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنّه قيل: إنّا أعتدنا لهم مكان ما أعدّوا لأنفسهم مِن العُدة والذُّخر جهنمَ عُدّة.

وفي إيراد النُّزُل إيماء إلى أنّ لهم وراءَ جهنّمَ مِن العذاب ما هي أنموذج له. وقيل: النُّزل موضع النزول.[١] ولذلك فسّره ابن عبّاس رضي الله عنهما بالمثوى.[٢]

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣﴾

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ الخطاب الثاني للكفرة على وجه التوبيخ، والجَمْع في صيغة المتكلِّم لتعيينه مِن أوّل الأمر، وللإيذان بمعلوميّة النبأ للمؤمنين أيضًا. ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ نصب على التمييز، والجمع للإيذان بتنوّعها، وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدَر عنهم مِن الأعمال الحسَنة في أنفسها، وفي حُسبانهم أيضًا حيث كانوا معجَبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غِبَّ بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيّئة في أنفسها مع كونها حسنةً في حسبانهم.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ في إقامة تلك الأعمال، أي: ضاع وبطَل بالكلّيّة ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلّق بالسعي لا بالضلال لأنّ بُطلان سعيهم غير مختصّ بالدنيا. قيل: المراد بهم أهل الكتابين، قاله ابن عبّاس وسعد بن أبي وقّاص ومجاهد،[٣] ويدخُل في الأعمال حينئذ ما عمِلوه مِن الأحكام المنسوخة المتعلّقة بالعبادات. وقيل: الرَّهابِنة الذين يحبِسون أنفسَهم في الصوامع ويحمِلونها على الرياضات الشاقّة.[٤] ولعلّه ما يعمّهم وغيرَهم مِن الكفرة. ومحلُّ الموصول الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف لأنّه جواب للسؤال، كأنّه قيل: مَن هم؟ فقيل: الذين... إلخ.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٥٧١/١٢.

٢ في معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥.

٣ في جامع البيان للطبري، ٤٢٥/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٩/٢.

٤ مَرويٌّ عن عليّ بن أبي طالب والضحّاك وغيرهما في جامع البيان للطبري، ٤٢٣/١٥؛ وهو بلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٩/٢.

وجعلُه مجرورًا على أنّه نعت للأخسرين أو بدل منه أو منصوبًا على الذمّ على أنّ الجواب ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾[١] الآية،[٢] يأباه أنّ صدره ليس مُنبئًا عن خُسران الأعمال وضلال السعي كما يستدعيه مقام الجواب. والتفريع الأوّل وإن دلّ على حبوطها لكنّه ساكتٌ عن إنباء ما هو العُمدة في تحقيق معنى الخسران مِن الوثوق بترتّب الربح واعتقاد النفع فيما صنعوا، على أنّ التفريع الثانيَ ممّا يقطع ذلك الاحتمال رأسًا، إذ لا مجالَ لإدراجه تحت الأمر بقضيّة نون العظمة.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق، وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحُسنها الذاتي، أي: يحسَبون أنّهم يعملون ذلك على الوجه اللائق وذلك لإعجابهم بأعمالهم التي سعَوا في إقامتها وكابدوا في تحصيلها.

[٤٣٣ظ] والجملة حال مِن فاعل ﴿ضَلَّ﴾، / أي: بطَل سعيُهم المذكور، والحال أنّهم يحسَبون أنّهم يُحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره، أو مِن المضاف إليه لكونه في محلّ الرفع،[٣] نحو قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس، ٤/١٠]، أي: بطل سعيُهم والحال أنّهم... إلخ. والفرق بينهما أنّ المقارِن لحال حُسبانهم المذكور في الأوّل ضلالُ سعيهم، وفي الثاني نفسُ سعيهم، والأوّل أدخَل في بيان خطئهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ كلام مستأنَف مِن جنابه تعالى مَسوق لتكميل تعريف الأخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم، بحيث ينطبق[٤] على المخاطَبين غيرَ داخل تحت الأمر، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر[٥] مِن ضلال السعي مع الحسبان المزبور. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بدلائله الداعية إلى التوحيد عقلًا ونقلًا، والتعرّض لعنوان الربوبيّة لزيادة تقبيح حالِهم في الكفر المذكور.

---

١ في الآية التالية.

٢ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٧/٢.

٣ وفي هامش م: ولاتّحاد العامل في الحال وصاحبها. «منه».

٤ وفي هامش م: التعريف؛ س + التعريف.

٥ وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾... إلخ. «منه».

﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث وما يتبعه مِن أمور الآخرة على ما هي عليه، ﴿فَحَبِطَتْ﴾ لذلك ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ المعهودة حُبوطًا كليًا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ أي: لأولئك الموصوفين بما مرّ مِن حُبوط الأعمال، وقُرئ بالياء.[1] ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ أي: فنزدريهم ولا نجعل لهم مقدارًا واعتبارًا؛ لأنّ مداره الأعمال الصالحة وقد حبِطت بالمرّة، وحيث كان هذا الازدراء مِن عواقب حبوط الأعمال عُطف عليه بطريق التفريع.

وأمّا ما هو مِن أجزية الكفر فسيجيء بعد ذلك، أو لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزانًا؛ لأنّه إنّما يُوضَع لأهل الحسنات والسيّئات مِن الموحِّدين ليتميّز به مقاديرُ الطاعات والمعاصي ليترتّب عليه التكفير أو عدمه، لأنّ ذلك[2] في الموحِّدين بطريقِ الكمّيّة، وأمّا الكفر فإحباطه للحسنات بحسب الكيفيّة دون الكمّيّة فلا يُوضَع لهم الميزان قطعًا.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم إثرَ بيان مآل أعمالهم المحبَطة بذلك،[3] أي: الأمر ذلك، وقوله عزّ وجلّ: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملة مبيِّنة له، أو ذلك مبتدأ والجملةُ خبره والعائد محذوف، أي: جزاؤهم به، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بدلُه و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبره، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ خبره و﴿جَهَنَّمُ﴾ عطف بيان للخبر. ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ تصريح بأنّ ما ذُكر جزاء لكفرهم المتضمِّن لسائر القبائح التي أنبأ عنها قوله تعالى: / ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ أي: مهزوًّا بهما، فإنّهم لم يقتنعوا بمجرَّد الكفر بالآيات والرسل؛ بل ارتكبوا مثلَ تلك العظيمة أيضًا. [٤٣٤و]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتّصفوا بأضداد ما اتّصفت به الكفرة إثرَ بيان ما لهم بطريق الوعيد، أي: آمنوا بآيات ربّهم ولقائه ﴿وَعَمِلُواْ

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير ومجاهد وابن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

[2] وفي هامش م: أي: تكفير الطاعات للمعاصي وإحباط المعاصي للطاعات. «منه».

[3] وفي هامش م: أي: بكفرهم.

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن الأعمال ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ فيما سبق مِن حُكم الله تعالى ووعده. وفيه إيماءٌ إلى أنّ أثر الرحمة يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزليّة، بخلاف ما مرّ مِن جَعْل جهنّم للكافرين نُزُلًا، فإنّه بموجَب ما حدَث مِن سوء اختيارِهم.

﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾ عن مجاهد: أنّ الفردوس هو البستان بالروميّة.[١] وقال عكرمةُ: هو الجنّة بالحبشيّة. وقال الضحّاك: هي الجنّة الملتفّة الأشجار. وقيل: هي الجنّة التي تُنبت ضروبًا مِن النبات. وقيل: هي الجنّة مِن الكَرْم خاصّة. وقيل: ما كان غالبه كَرْمًا. وقال المبرّد: هو فيما سمعتُ مِن العرب الشجر الملتفُّ، والأغلب عليه أن يكون مِن العِنَب.[٢] وعن كعب: أنّه ليس في الجِنان أعلى مِن جنّة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المُنكَر.[٣] وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «في الجنّة مائة درجة ما بين كلّ درجة مسيرةُ مائة عامٍ، والفردوسُ أعلاها وفيها الأنهار الأربعة، فإذا سألتُم الله تعالى فاسألوه الفِردوسَ فإنّ فوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنّة».[٤]

﴿نُزُلًا﴾ خبرُ ﴿كَانَتۡ﴾ والجارّ والمجرور متعلّق بمحذوف على أنّه حال مِن ﴿نُزُلًا﴾، أو على أنّه بيان أو حال مِن ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾، والخبرُ هو الجارّ والمجرور، فإن جُعل النزول بمعنى ما يُهيَّأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنّات الفردوس نُزُلًا، أو جُعلت نفس الجنّات نُزلًا مبالغةً في الإكرام، وفيه إيذان بأنّها عند ما أعدّ الله لهم على ما جرى على لسان النبوّة مِن قوله: «أعددْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمِعتْ ولا خطرَ على قلب بشر»،[٥] بمنزلة النُّزل بالنسبة إلى الضيافة، وإن جُعل بمعنى المُنزل، فالمعنى ظاهر.

---

[١] جامع البيان للطبري، ٤٣٢/١٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥؛ اللباب لابن عادل، ٥٧٥/١٢.

[٢] هذه الأقوال الستّة في اللباب لابن عادل، ٥٧٥/١٢-٥٧٦؛ وأكثرها في معالم التنزيل للبغوي، ٢١١/٥-٢١٢.

[٣] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤٣١/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٥.

[٤] بلفظ قريب في صحيح البخاري؛ وجامع البيان للطبري، ٤٣٤/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١١/٥.

[٥] مضى بتخريجه في هامش للمُصنِّف عند الكلام على الآية الثامنة بعد المائة مِن سورة هود.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحالية ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ مصدر كـ"العِود" و"الصِغَر"، أي: لا يطلبون تحوّلًا عنها، إذ لا يتصوَّر أن يكون شيء أعزَّ عندهم وأرفعَ منها حتّى تُنازِعهم إليه أنفسهم وتطمَح نحوه أبصارهم. ويجوز أن يراد نفيُ التحوّل وتأكيدُ الخلود، والجملة حال مِن صاحب ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أو مِن ضميره فيه، فيكون حالًا متداخِلة.

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩﴾

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ أي: جنس البحر ﴿مِدَادٗا﴾ وهو ما تُمِدّ به الدواة مِن الحِبْر ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ لتحرير كلماتِ عِلمه وحكمته التي مِن جملتها ما ذُكِر مِن الآيات الداعية إلى التوحيد المحذِّرة مِن الإشراك ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ مع كثرته، ولم يبقَ منه شيء / لتناهيه ﴿قَبۡلَ أَن تَنفَدَ﴾ وقُرئ بالياء،[1] والمعنى مِن غير أن تنفَد ﴿كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ لعدم تناهيها، فلا دلالةَ للكلام على نَفادها بعد نَفاد البحر. [٤٣٤ظ]

وفي إضافة الكلمات إلى اسم الربّ المضاف إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم في الموضعين مِن تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى. وإظهار ﴿ٱلۡبَحۡرُ﴾ و"الكلماتِ" في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

﴿وَلَوۡ جِئۡنَا﴾ كلام مِن جهته تعالى غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله مع زيادة مبالغة وتأكيد، و"الواو" لعطف الجملة على نظيرتها المستأنَفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة المذكورة عليها دلالة واضحة، أي: لنفِد البحر مِن غير نَفاد كلماته تعالى لو لم نجِئ بمثله مَدَدًا، ولو جئنا بقدرتنا الباهرة ﴿بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ عونًا وزيادة؛ لأنّ مجموع المتناهيَين مُتناهٍ، بل مجموع ما يدخل تحت الوجود مِن الأجسام لا يكون إلّا متناهيًا لقيام الأدلّة القاطعة على تناهي الأبعاد.

---

[1] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٦.

وقُرئ: "مِدَدًا"[1] جمع "مِدّة": وهي ما يستمدّه الكاتب، وقُرئ: "مِدَادًا".[2]

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم بعد ما بيّنتَ لهم شأن كلماته تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدّعي الإحاطة بكلماته التامّة ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ مِن تلك الكلماتِ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريكَ له في الخَلْق ولا في سائر أحكام الألوهيّة، وإنّما تميّزتُ عنكم بذلك.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الرجاء: توقُّع وصول الخير في المستقبل. والمراد بلقائه تعالى كرامتُه. وإدخالُ الماضي على المستقبل للدلالة على أنّ اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء، أي: فمَن استمرّ على رجاء كرامته تعالى، ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ لتحصيل تلك الطِّلْبة العزيزة ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ في نفسه لائقًا بذلك المرجوِّ كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ إشراكًا جليًا كما فعله الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه، ولا إشراكًا خفيًا كما يفعله أهل الرياء ومَن يطلب به أجرًا. وإيثار وضعِ المُظهَر موضعَ المُضمر في الموضعين[3] مع التعرّض لعنوان الربوبيّة لزيادة التقرير، وللإشعار بعلّيّة العنوان / للأمر والنهي ووجوب الامتثال فعلًا وتَركًا. [٤٣٥و]

رُوي أنّ جُندُب بن زهير[4] رضي الله عنه قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي لأعمل العمل لله تعالى فإذا اطُّلع عليه سرّني»، فقال عليه السلام:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والنقّاش عن مجاهد. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٥؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٨٨.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس والأعمش ومجاهد وحُميد والأعرج وابن مِقسَم وابن مُحيصن وسليمان التّيمي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٥؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١١٨٨.

[3] وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ وقوله تعالى: ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾. «منه».

[4] هو جندب بن زهير بن الحارث بن كثير بن سبع بن مالك الأزدي الغامدي، مختلف في صحبته للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قيل: كان مع عليّ في صفّين، وهو عند أكثرهم قاتل الساحر بين يدي الوليد بن عقبة. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٢٥٨/١؛ **والإصابة** لابن حجر، ٥٠٧/١.

«إن الله لا يقبل ما شُورك فيه»،[1] فنزلت تصديقًا له. ورُوي أنّه عليه السلام قال له: «لك أجران أجْر السرّ وأجْر العلانية»،[2] وذلك إذا قصد أن يُقتدى به. وعنه عليه السلام: «اتّقوا الشِرك الأصغر»، قيل: «وما الشِركُ الأصغرُ؟» قال: «الرِّياء».[3]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الكهف مِن آخرها كانت له نورًا مِن قَرْنه[4] إلى قدَمه، ومَن قرأها كلَّها كانت له نورًا مِن الأرض إلى السماء».[5]

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ عند مضجعه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾... إلخ [الكهف، ١١٠/١٨]، كان له مِن مضجعه نورًا يتلألأ إلى مكّةَ، حَشْوُ ذلك النورِ ملائكة يصلّون عليه حتّى يقوم، وإن كان مضجعه بمكّةَ كان له نورًا يتلألأ مِن مضجعه إلى البيت المعمور، حَشْوُ ذلك النور ملائكة يصلّون عليه حتّى يستيقظ».[6]

الحمد لله سبحانه على نعمه العِظام، وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل.[7]

---

١ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٣٠٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥٠/٢.

٢ **سنن ابن ماجه**، ٣٠٥/٥ (٤٢٢٦)؛ **سنن الترمذي**، ٣٩٦/٤ (٢٣٨٤)؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٢٤١/٩ (٦٦١٠)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥٠/٢.

٣ **معالم التنزيل** للبغوي، ٢١٣/٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥١/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٣١٥/٢-٣١٦.

٤ وفي هامش م: والقَرْن: جانب الرأس.

٥ الحديث بمعناه في **سنن الدارمي**، ٢١٤٣/٤ (٣٤٥٠)؛ و**شعب الإيمان** للبيهقي، ٨٦/٤ (٢٢٢٠)؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٢١٤/٥؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٥١/٢.

٦ بلفظ قريب في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣١٤/١٧؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٥١/٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٣١٧/٢.

٧ ط س - وحسبنا الله ونعم الوكيل. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد بفضل الله سبحانه، غُرّةَ ذي القعدة الحَرام، لسنة سبع وخمسين وتسعمائة، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين. والله عزّ سلطانه أسأل متضرّعًا أن ييسّر لي إعادةَ النظر إليه بلطفه وفضله وإتمامه بمنّه وكرمه، إنّه هو البرّ الكريم، وصلّى الله على جميع الأنبياء والملائكة أجمعين.

[قال الشيخ الإمام العالم العلاّمة المحقّق المدقّق، جلال الدين المحلّيّ. تغمّده اللهُ برحمته وأسكنَه فسيحَ جنّته]:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

١٨ - سُورَةُ الكَهْفِ

مكية إلاّ «واصبرْ نفسك» الآيةَ، مِائةٌ وعشرُ آيات أو خمسَ عشْرةَ.

١ - ﴿**الحَمدُ**﴾، هو الوصف بالجميل ثابت ﴿**لله**﴾ تعالى - وهل المُراد الإعلامُ بذلك للإيمانِ به أوِ الثناءِ به أو هما؟ احتمالاتٌ، أفيَدُها الثالث - ﴿**الَّذِي أنزَلَ علَى عَبدِهِ**﴾ مُحمّد ﴿**الكِتابَ**﴾: القُرآنَ، ﴿**ولَم يَجعَلْ لَهُ**﴾ أي: فيه ﴿**عِوَجًا**﴾: اختلافًا وتناقُضًا - والجملة: حال من الكتاب - ٢ - ٣ - ﴿**قَيِّمًا**﴾: مستقيمًا،

سُورَةُ الكَهْفِ

قولُهُ: (الشَّيخَ) أي: الجلالَ المحلِّيَّ.

قولُهُ: (أوِ الثَّناءِ) أي: ثناؤُهُ لذاتِهِ.

قولُهُ: (الثَّالِثُ) أو تلقينٌ للنبيِّ وأمَّتهِ، فيُقَدَّرُ قبلَهُ: قولوا.

قولُهُ: (مُحَمَّدٍ) قيل: العَبدُ: الَّذي لا يَرى غير سيِّدِه.

وقيل: العبدُ: هو المتخلِّقُ بأخلاقِ سيِّدِه.

قولُهُ: (القُرْآنَ) رتَّبَ استحقاقَ الحَمدِ على إنزالِهِ تنبيهاً على أنَّه أعظمُ نعمائهِ، وذلك لأنَّه الهادِي إلى ما فيه كمالُ العباد، والدَّاعي إلى ما ينتظِمُ به صلاحُ المعاشِ أو المعاد.

قولُهُ: (أي: فِيْهِ) فاللَّامُ بمعنى «في» كما في ﴿جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ [آل عمران: ٩]، والظَّاهرُ: أنَّه على بابِهِ صلةٌ لـ «جعل» كما في كثيرٍ من المواضعِ.

قولُهُ: (تَنَاقُضاً) أي: ذا تناقُضٍ؛ أي: تَنافٍ في المعنى.

قولُهُ: (مُستَقِيماً) أي: مُعتَدلاً، لا إفراطَ فيه ولا تَفريطَ.

حالٌ ثانية مؤكّدة، ﴿لِيُنذِرَ﴾: يُخوّفَ الكتابُ الكافرين ﴿بأسًا﴾: عذابًا ﴿شَدِيدًا مِن لَدُنهُ﴾: من قِبَلِ الله، ﴿ويُبَشِّرَ المُؤمِنِينَ الَّذِينَ يَعمَلُونَ الصَّالِحاتِ أنَّ لَهُم أجرًا حَسَنًا، ماكِثِينَ فِيهِ أبَدًا﴾ ـ هو الجنة ـ ٤ ـ ٥ ـ ﴿ويُنذِرَ﴾ مِن جُملة الكافرين ﴿الَّذِينَ قالُوا: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا. ما لَهُم بِهِ﴾: بهذا القول ﴿مِن عِلمٍ، ولا لِآبائِهِم﴾ من قبلهم القائلين له. ﴿كَبُرَتْ﴾: عظُمتْ ﴿كَلِمةً، تَخرُجُ مِن أفواهِهِم﴾! كلمة: تمييز مُفسِّر للضمير المُبهم، ....

قولُهُ: (حَالٌ) من الضَّميرِ في ﴿لَهُ﴾ أو مِن: ﴿الكتاب﴾.

قولُهُ: (مُؤَكِّدَةٌ) لصَاحبِ الحالِ؛ لأنَّه يُفهَمُ منه بعدَ تقييدِهِ بالحالِ الأولى معنى الحالِ الثَّانيةِ، وقالَ الفاضلُ: الأولى أن يُقالَ: ﴿قَيِّماً﴾ بمعنى: قائماً بمنَافعِ النَّاسِ مُقوِّماً لصلاحِهِم وفلاحِهِم، فهو كامِلٌ في نفسِهِ مُكمِّلٌ لغيرِهِ؛ لأنَّ التَّأسيسَ أولى مِن التَّأكيدِ.

ومن اللَّطائفِ: ما حكاهُ بعضُهُم من أنَّه سمِعَ شيخاً يُعرِبُ لتلميذِهِ فقالَ: ﴿قَيِّماً﴾ صفةٌ لـ﴿عِوَجًا﴾ فقلتُ له: يا هذا كيفَ يكونُ العِوَجُ قيِّماً؟

وترحَّمتُ على من وقَفَ من القُرَّاءِ على ألفِ التَّنوينِ في ﴿عوجاً﴾ وقفَةً لطيفةً دَفعاً لهذا الوَهمِ، والوقفَةُ اللَّطيفَةُ تُسمَّى: السَّكتَةَ، والواقفُ حفصٌ عن عاصمٍ[1] ـ يعني: حينَ الوصلِ ـ وإلَّا فالكلُّ يقفونَ وَقفاً كاملاً مع التَّنفُّسِ على ﴿عوجاً﴾.

قولُهُ: (﴿لينذرَ﴾) أي: الكتابُ، أو اللهُ، أو عبدُه.

قولُهُ: (الكَافِرِينَ) فحُذِفَ المفعولُ اكتفاءً بدلالَةِ القرينَةِ المقابلةِ بقولِه: ﴿وَيُبَشِّرَ المؤمِنِينَ﴾، واقتِصاراً على الغرضِ المسوقِ إليه؛ يعني: المنذَرَ به.

قولُهُ: (مِن قِبَلِ اللهِ) أي: صادراً من عندِه.

قولُهُ: (هُوَ الجَنَّةُ) أي: الأجرُ الحسنُ.

قولُهُ: (مِن جُملَةِ الكَافِرِينَ) خصَّهُم بالذِّكرِ وكرَّرَ الإنذارَ متعلِّقاً بهم استِعظاماً لكُفرِهم، ولم يُذكَرِ المنذَرُ به استغناءً بما تقدَّمَ ذكرُه.

قولُهُ: (بِهَذَا المَقُولِ) أو بالولدِ، أو باتِّخاذِهِ، ويحتملُ: باللهِ؛ إذ لو كانَ لهم به عِلمٌ لما قالوا ما قالوا.

قولُهُ: (تَمْيِيزٌ) و﴿تخرجُ﴾ صفةٌ لها تفيدُ استِعظامَ اجترائِهِم على النُّطقِ بها وإخراجِها مِن أفواهِهِم.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٤٣).

والمخصوصُ بالذمّ محذوف، أي: مقالتُهم المذكورةُ. ﴿إن﴾: ما ﴿يَقُولُونَ﴾ في ذلك ﴿إلاّ﴾ مقولاً ﴿كَذِبًا﴾.

٦ ـ ﴿فلَعَلَّكَ باخِعٌ﴾: مُهلِكٌ ﴿نفسَكَ علَى آثارِهِم﴾: بعدَهم، أي: بعدَ تولّيهم عنك، ﴿إن لَم يُؤمِنُوا بِهذا الحَدِيثِ﴾: القُرآنِ، ﴿أسَفًا﴾: غيظًا وحُزنًا منك لحِرصك على إيمانهم. ونصبُه على المفعول له. ٧ ـ ﴿إنّا جَعَلْنا ما علَى الأرضِ﴾ من الحيوان والنبات والشجر والأنهار وغير ذلك ﴿زِينةً لَها، لِنَبلُوَهُم﴾: لنختبرَ الناس ناظرِينَ إلى ذلك: ﴿أيُّهُم أحسَنُ عَمَلاً﴾ فيه، أي: أزهدُ له؟ ٨ ـ ﴿وإنّا لَجاعِلُونَ ما علَيها صَعِيدًا﴾: فُتاتًا ﴿جُرُزًا﴾: يابسًا لا يُنبِتُ.

٩ ـ ﴿أم حَسِبتَ﴾ أي: أظَننتَ ﴿أنَّ أصحابَ الكَهفِ﴾:..........................

قولُهُ: (والمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ) يعني: ﴿كَبُرَتْ﴾ هنا مِن أفعالِ الذَّمِّ بناءً على ما قالوا أنّه أُلحِقَ بـ «نِعمَ» و«بِئْسَ» كلُّ ما هو على زِنَةِ فعُلَ ـ بالضَّمِّ ـ نحو: ظَرُفَ وشَرُفَ وحَسُنَ ولَؤُمَ.

قالَ أبو البقاءِ: ﴿كَلِمَةً﴾ تمييزٌ، والفاعلُ مضمرٌ؛ أي: كبُرَتْ مقالَتُهم[1].

وكذا قولُ البَيضاويِّ: عظُمَتْ مقالَتُهم هذه في الكُفرِ، و﴿كَلِمَةً﴾ نَصبٌ على التَّمييزِ، وقُرِئَ بالرَّفعِ على الفاعليَّةِ[2].

قولُهُ: (عَنْكَ) وعن الإيمانِ بك.

قولُهُ: (عَلَى المَفعُولِ لَهُ) أو الحالِ؛ أي: متأسِّفاً عليهم.

قولُهُ: (وغَيرِ ذَلِكَ) كالمعادِنِ.

قولُهُ: (فِيهِ) أي: في تَعاطيهِ، وهو مَن زَهِدَ فيه ولم يغترَّ به، وقَنِعَ منهُ بما يدفعُ به أيَّامَهُ، وصرَفَهُ على ما يَنبَغي.

قولُهُ: (فُتَاتاً) تَزهيدٌ فيه.

قولُهُ: (يَابِساً لا يُنبِتُ) لا يلائمُ ما عليها بل يناسِبُها، ولذا قيلَ: بحَذفِ المضافِ؛ أي: مُنبِت ما عليها ﴿صعيداً﴾ أي: خالياً أو تُراباً ﴿جرزاً﴾ لا نباتَ فيه.

وقيل: المعنى: إنَّا لنُعيدُ ما عليها من الزِّينَةِ تراباً مُستَوياً بالأرضِ، ونجعلُهُ كصَعيدٍ أملسَ لا نباتَ فيه.

قولُهُ: (أظَنَنْتَ)[3] ﴿أمْ﴾ بمعنى: بل والهمزَة؛ للإضرابِ بمعنى الانتِقالِ، لا الإبطالِ، وقيل: بمعنى: الهمزَةِ.

---

(١) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ٨٣٨).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٧٣). وانظر القراءة بالرفع في «شواذ القراءات» (ص: ٢٨٤) عن الحسن وابن محيصن وابن أبي عبلة.

(٣) في (ص): «أم ظننت».

الغار في الجبل ﴿والرَّقِيمِ﴾: اللوحِ المكتوبِ فيه أسماؤهم وأنسابُهم ـ وقد سئل ﷺ عن قِصّتهم ـ ﴿كانُوا﴾ في قِصّتهم ﴿مِن﴾ جُملة ﴿آياتِنا عَجَبًا﴾: خبرُ «كان» وما قبله حال، أي: كانوا عجبًا دُون باقي الآيات أو أعجبَها؟ ليس الأمر كذلك.

١٠ ـ اذكرْ ﴿إذ أوَى الفِتْيَةُ إلَى الكَهفِ﴾: جمعُ فتًى ـ وهو الشابّ الكامل ـ خائفين على إيمانهم من قومهم الكُفّار، ﴿فقالُوا: رَبَّنا، آتِنا مِن لَدُنكَ﴾: من قِبَلِك ﴿رَحْمةً، وهَيِّئْ﴾: أصلحْ ﴿لَنا مِن أمرِنا رَشَدًا﴾: هِدايةً.

١١ ـ ﴿ فضَرَبْنا علَى آذانِهِم﴾ أي: أنَمْناهم ﴿في الكَهفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾: معدودة، ١٢ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْناهُم﴾: أيقظناهم ﴿لِنَعلَمَ﴾ عِلمَ مُشاهَدة: ﴿أيُّ الحِزبَينِ﴾: الفريقين المُختلفين في مُدّة لَبثهم ﴿أحصَى﴾: فعلٌ بمعنى ضَبَطَ،..

قولُهُ: (الغَارِ) الواسِعِ.

قولُهُ: (اللَّوْحِ) الرَّصاصِ، أو الحَجَرِيِّ، جُعِلَ على بابِ الكَهفِ.

قولُهُ: (في قِصَّتِهِم) وإبقاءِ حياتِهِم مُدَّةً مَديدةً.

قولُهُ: (جَمْعُ فَتًى) كصَبيٍّ وصِبْيَةٍ.

قولُهُ: (خَائِفِينَ) يعني: فِتيةً من أشرافِ الرُّومِ أرادَهُم دقيانوسُ على الشِّركِ، فأبَوا وهرَبوا[1].

قالَ تعالى: (﴿رَحْمَةً﴾) توجِبُ لنا المغفرةَ والرِّزقَ والأمنَ من العدوِّ.

قالَ تعالى: (﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾) الَّذي نحنُ عليه من مُفارقَةِ الكفَّارِ.

قولُهُ: (أي: أَنَمْنَاهُم) أي: ضَرَبنا حِجاباً يمنعُ السَّماعَ، فحُذِفَ المفعولُ كما حُذِفَ في قولِهِ: بَنَى على امرأتِهِ؛ أي: حِجاباً وقُبَّةً.

قولُهُ: (مَعْدُودَةً) أي: ذواتِ عَددٍ.

قولُهُ: (عِلْمَ مُشاهَدَةٍ) أو لنميِّزَ.

قولُهُ: (المُختَلِفَينِ) منهُم، أو من غَيرِهِم.

قولُهُ: (فِعْلٌ) ثلاثيٌّ مزيدٌ، لا أفعَلُ تفضيلٍ.

قولُهُ: (ضَبَطَ) أي: أَمَدَ زمانِ لَبثِهِم، وما في ﴿أيُّ﴾ من مَعنى الاستفهامِ علَّقَ عنه: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ فهو مبتَدأٌ، و﴿أَحصَى﴾ خبرُه.

---

(١) انظر قصتهم في «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٢٣).

﴿لِما لَبِثُوا﴾: للَبثهم: مُتعلّق بما بعده ﴿أَمَدًا﴾: غاية؟

١٣ ـ ١٤ ـ ﴿نحنُ نَقُصُّ عليكَ نَبَأَهُم بِالحَقِّ﴾: بالصِّدق. ﴿إنَّهُم فِتيةٌ، آمَنُوا بِرَبِّهِم وزِدْناهُم هُدًى، ورَبَطْنا علَى قُلُوبِهِم﴾: قوّيناها على قول الحقّ، ﴿إذ قامُوا﴾ بين يدَي ملكهم وقد أمرهم بالسُّجود للأصنام، ﴿فقالُوا: رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ، لَن نَدعُوَ مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَه ﴿إلٰـهًا. لَقَد قُلْنا إذًا شَطَطًا﴾ أي: قولاً ذا شططٍ أي: إفراطٍ في الكُفر، إن دعونا إلٰـهًا غير الله ـ تعالى ـ فَرْضًا.

١٥ ـ ﴿هؤُلاءِ﴾: مبتدأ ﴿قَومُنا﴾: عطف بيان ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهةً. لَولا﴾: هلاّ ﴿يأتُونَ علَيهِم﴾: على عِبادتهم ﴿بِسُلطانٍ بَيِّنٍ﴾: بحُجّة ظاهرة. ﴿فمَن أظلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افتَرَى علَى اللهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه تعالى؟

١٦ ـ قال بعض الفِتية لبعض: ﴿وإذِ اعتَزَلتُمُوهُم وما يَعبُدُونَ إلاّ اللهَ فأْوُوا إلَى الكَهفِ، يَنشُرْ لَكُم رَبُّكُم مِن رَحمتِهِ، ويُهَيِّئْ لَكُم مِن أمرِكُم مِرفَقًا﴾، بكسر الميم وفتح الفاء وبالعكس: ما ترتفقون به من غَداء وعَشاء.

١٧ ـ ﴿وتَرَى الشَّمسَ إذا طَلَعَت تَزاوَرُ﴾:..

قولُهُ: (مُتَعَلِّقٌ) أو حالٌ من ﴿أَمَدًا﴾ أو مفعولٌ له، و﴿أمدًا﴾ مفعولٌ به.

قولُهُ: (قَوَّيْنَاهَا) بالصَّبرِ على هَجرِ الوَطنِ والأهلِ والمالِ والجرأةِ.

وقيل: التَّقديرُ: ربَطْنا الإيمانَ.

قولُهُ: (عَلى قَوْلِ الحَقِّ) وإظهارِه، والرَّدِّ على دقيانوسَ الجبَّارِ.

قولُهُ: (إِفرَاطٍ) وبُعدٍ.

قولُهُ: (إِنْ دَعَونَا) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿إذًا﴾ جوابٌ وجزاءٌ.

قولُهُ: (عَطْفُ بيَانٍ) وما بعدَهُ خبرُه، وهو إخبارٌ في معنى الإنكارِ.

قولُهُ: (وبالعَكْسِ) نافعٌ وشاميٌّ[1].

قولُهُ: (تَرتَفِقُونَ) أي: تنتَفِعونَ، وجَزمُهُم بذلك لخلوصِ يقينِهم وقوَّةِ وثُوقِهم بفضلِ اللهِ تعالى.

قالَ تعالى: (﴿وتَرَى﴾) الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، أو لكلِّ أحَدٍ، والمعنى: إنَّكَ لو رأيتَهُم لرأيتَهُم كذا، لا أنَّ المخاطَبَ رآهُم على التَّحقيقِ، كذا أفادَهُ ابنُ كمال باشا[2].

---

(١) أي: (مَرفِقا) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٨).

(٢) انظر: «تفسير ابن كمال باشا» (٦/ ٢٣٥).

بالتشديد والتخفيف: تميل ﴿عَن كَهفِهِم ذاتَ اليَمِينِ﴾: ناحيتَه، ﴿وإذا غَرَبَتْ تَقرِضُهُم ذاتَ الشِّمالِ﴾: تتركهم وتتجاوز عنهم فلا تُصيبهم البتّةَ، ﴿وهُم في فَجْوةٍ مِنهُ﴾: مُتّسعٍ من الكهف، ينالهم برد الريح ونسيمها. ﴿ذلِكَ﴾ المذكور ﴿مِن آياتِ اللهِ﴾: دلائلِ قُدرته. ﴿مَن يَهدِ اللهُ فهُوَ المُهتَدِي، ومَن يُضلِلْ فلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرشِدًا﴾.

١٨ ـ ﴿وتَحسِبُهُم﴾ ـ لو رأيتَهم ـ ﴿أيقاظًا﴾ أي: مُنتبهِينَ لأنّ أعينَهم مُفتّحةٌ، جمع يَقِظ بكسر القاف، ﴿وهُم رُقُودٌ﴾: نيام جمعُ راقد، ﴿ونُقَلِّبُهُم ذاتَ اليَمِينِ وذاتَ الشِّمالِ﴾ لئلاّ تأكل الأرض لُحومهم، ﴿وكَلبُهُم باسِطٌ ذِراعَيهِ بالوَصِيدِ﴾: بفِناء الكهف ـ وكانوا إذا انقلبوا انقلب معهم، وهو مثلهم في النوم واليقظة ـ ﴿لَوِ اطَّلَعتَ علَيهِم لَوَلَّيتَ مِنهُم فِرارًا، ولَمُلِئتَ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿مِنهُم رُعْبًا﴾، بسُكون العين وضمّها. منعَهم الله بالرعب مِن دُخول أحد عليهم.

١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿وكَذلِكَ﴾: كما فعلنا بهم ما ذكرنا ﴿بَعَثْناهُم﴾: أيقظناهم ﴿لِيَتَساءَلُوا بَينَهُم﴾ عن حالهم ومُدّة لَبثهم...

قولُهُ: (والتَّخفِيفِ) كوفيٌّ، وكـ«تَحمَرُّ» شاميٌّ[١].

قولُهُ: (نَاحِيَتَهُ) أي: اليَمينِ للكَهفِ.

قولُهُ: (المَذكُورُ) أي: شأنُهُم، أو إيواؤهم، أو إخبارُكَ قصَّتَهُم، أو ازْوِرارُ الشَّمسِ وقُرصِها طالِعةً وغارِبةً، ولا منعَ من الجَمعِ.

قولُهُ: (لأنَّ أَعيُنَهُم) أو لكثرَةِ تقلُّبِهِم.

قولُهُ: (انقَلَبَ) وهو كَلبٌ مَرُّوا به فتبعَهُم فطرَدوهُ فأنطقَهُ اللهُ تعَالى فقال: أُحِبُّ أحبَّاءَ اللهِ[٢].

قولُهُ: (بالتَّشدِيْدِ) الحرميَّانِ[٣].

قولُهُ: (وَضَمِّهَا) شاميٌّ وكسائيٌّ[٤]، وهو تمييزٌ؛ أي: خوفاً يملأُ صدرَكَ لما ألبسَهُم اللهُ من الهيبَةِ.

قولُهُ: (كَمَا فَعَلْنا.. إلخ) الأخصَرُ: كما أَنمناهُم؛ أي: آيةً[٥] على كَمالِ قُدرَتِنا[٦].

---

(١) أي: (تَزَاور) لكوفي، و(تَزْوَرُّ) لشامي. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٧/ ٢٧) من قول كعب الأحبار.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٩).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢١٧).

(٥) بعدها في النسخ عدا (د): «تدل». وانظر التعليق الآتي.

(٦) أي: كَما أَنَمنَاهُم آيةً على كمالِ قُدرَتِنا بَعَثْنَاهُم. لفظ البيضاوي.

﴿قالَ قائلٌ مِنهُم: كَم لَبِثتُم؟ قالُوا: لَبِثْنا يَومًا أو بَعضَ يَومٍ﴾ لأنهم دخلوا الكهف عِند طُلوع الشمس، وبُعِثوا عِند غُروبها، فظنّوا أنه غُروب يومِ الدخول. ثمّ ﴿قالُوا﴾ مُتوقِّفين في ذلك: ﴿رَبُّكُم أعلَمُ بِما لَبِثتُم. فابعَثُوا أحَدَكُم بِوَرْقِكُم﴾، بسكون الراء وكسرها: بفِضّتكم ﴿هذِهِ إلَى المَدِينةِ﴾ ـ يقال: إنها المُسمّاة الآن طَرَسُوسَ بفتح الراء ـ ﴿فلْيَنظُرْ: أيُّها أزكَى طَعامًا﴾: أيُّ أطعمة المدينة أحلّ؟ ﴿فلْيأتِكُم بِرِزقٍ مِنهُ، ولْيَتَلَطَّفْ ولا يُشعِرَنَّ بِكُم أحَدًا. إنَّهُم إن يَظهَرُوا علَيكُم يَرجُمُوكُم﴾: يقتلوكم بالرجم، ﴿أو يُعِيدُوكُم في مِلّتِهِم، ولَن تُفلِحُوا إذًا﴾ أي: إن عدتم في مِلّتهم ﴿أبَدًا﴾.

٢١ ـ ﴿وكَذلِكَ﴾: كما بعثناهم ﴿أعثَرْنا﴾: أطلعْنا ﴿علَيهِم﴾ قومَهم والمؤمنين، ﴿لِيَعلَمُوا﴾ أي: قومُهم ﴿أنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ بطريق أنّ القادرَ على إقامتهم المُدّة الطويلة وإبقائهم على حالهم بلا غِذاء قادرٌ على إحياء الموتى، ﴿وأنَّ السّاعةَ لا رَيبَ﴾: لا شكَّ ﴿فِيها، إذْ﴾: معمول لـ «أعثرنا» ﴿يَتَنازَعُونَ﴾ أي: المؤمنون والكُفّار ﴿بَينَهُم أمرَهُم﴾: أمرَ الفِتية في البناء حولهم، ﴿فقالُوا﴾ أي: الكُفّار: ﴿ابنُوا علَيهِم﴾ أي: حولهم ﴿بُنيانًا﴾ يسترهم. ﴿رَبُّهُم أعلَمُ بِهِم. قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا علَى أمرِهِم﴾: أمر الفتية وهم المؤمنون: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ علَيهِم﴾: حولهم ﴿مَسجِدًا﴾ يُصلَّى فيه. وفُعل ذلك على باب الكهف.

قولُهُ: (فَظَنُّوا) فقالوا قبْلَ النَّظرِ إلى الشَّمسِ: ﴿يوماً﴾، وبَعدَما التَفتوا فرأَوا بقيَّةً من الشَّمسِ فقالوا: ﴿بعضَ يومٍ﴾، فـ﴿أو﴾ بمعنى: بَل، أو للتَّنويعِ باعتِبارِ البَعضِ والبَعضِ.

قولُهُ: (مُتوقِّفِينَ) مُحتاطِينَ؛ لأنَّ النَّائمَ لا يُحصِي مدَّةَ نومِهِ، وقولُهُم كانَ بناءً على ظنِّهم.

قولُهُ: (بسُكُونِ الرَّاءِ) أبو عَمرٍو وشعبةُ وحَمزةُ[1].

قولُهُ: (أطْعِمَةِ) فالتَّميزُ للتَّأكيدِ، أو: أَهلِ[2].

قولُهُ: (أَحَلُّ) وأطيَبُ، أو: أكثرُ وأرخَصُ.

قالَ تعالَى: (﴿بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾) أي: الوَرِقِ، و«من» للبدَلِ، ويحتملُ: مِن المدينَةِ؛ لأنَّها في معنى البَلدِ.

قولُهُ: (أي: قَومُهُم) فيُؤمنوا، أو والمؤمنينَ[3] ليزيدَ علمُهُم.

قولُهُ: (يَستُرُهُم) جمعُ: بُنيانَةٍ، وقيل: مصدرٌ.

قولُهُ: (يُصَلَّى) بالنُّونِ، أو الياءِ مجهولاً، وهو الأحسنُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٨٩). (٢) أي: أيُّ أهلها. لفظ البيضاوي.

(٣) «أو والمؤمنون» كذا في النسخ، ولعل الصواب: «أو المؤمنون».

٢٢ ـ ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: المُتنازعون في عدد الفِتية في زمن النبيّ، أي: يقول بعضُهم: هم ﴿ثَلاثَةٌ رابِعُهُم كَلبُهُم. ويَقُولُونَ﴾ أي بعضُهم: ﴿خَمْسَةٌ سادِسُهُم كَلبُهُم﴾. والقولان لنصارى نَجرانَ ﴿رَجمًا بِالغَيبِ﴾ أي: ظنًّا في الغَيبة عنهم. وهو راجع إلى القولينِ معًا، ونصبُه على المفعول له أي: لِظنّهم ذلك. ﴿ويَقُولُونَ﴾ أي المؤمنون: ﴿سَبْعَةٌ وثامِنُهُم كَلبُهُم﴾. الجملة من مبتدأٍ وخبرٍ صفةُ «سبعة» بزيادة الواو، وقيل: تأكيدًا ودلالةً، على لصوق الصفة بالموصوف. ووصفُ الأوّلَينِ بالرجم دُون الثالث دليلٌ على أنه مَرْضيّ وصحيح.

﴿قُلْ: رَبِّيَ أعلَمُ بِعِدّتِهِم، ما يَعلَمُهُم إلاّ قَلِيلٌ﴾. قال ابن عبّاس: «أنا من القليل» وذكَرَهم سبعةً. ﴿فلا تُمارِ﴾: تجادلْ ﴿فِيهِم إلاّ مِراءً ظاهِرًا﴾ بما أُنزل عليك،........................

قولُهُ: (المُتَنازِعُونَ) من أهلِ الكتابِ والمؤمنينَ.

قولُهُ: (والقَوْلانِ) وقيل: الأوَّلُ لليهودِ، والثَّاني للنَّصارى.

قولُهُ: (نَجْرَانَ) موضعٌ بينَ الحجازِ والشَّامِ واليَمنِ.

قولُهُ: (أي: المُؤمِنُونَ) بإخبارِ الرَّسولِ لهُم عن جبريلَ، وقيل: الأقوالُ الثَّلاثةُ لأهلِ الكتابِ، والقليلُ منهم.

قولُهُ: (تَأكِيداً) فائدةُ هذا التَّأكيدِ: أنَّ هذه العِدَّةَ هي الصَّوابُ.

قولُهُ: (قالَ ابنُ عبَّاسٍ)[١] وكذا ابنُ مسعودٍ[٢].

فائدةٌ: أكثرُ العُلماءِ على أنَّ أصحابَ الكَهفِ كانوا بعدَ عيسَى[٣]، وحُكيَ أنَّهُم مبعوثُونَ في أيَّامِ عيسى إذا نزلَ ويحجُّونَ البيتَ[٤].

قولُهُ: (بِمَا أُنزِلَ) مِن غيرِ تَجهيلٍ لهم والرَّدِّ عليهم.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٦٦٥)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (١٥٥٧)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٤٢)، والطبراني في «الأوسط» (٦١١٣).

قال السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٧٦): أخرجه الطبراني في «الأوسط» بسند صحيح.

(٢) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٧٥).

(٣) انظر: «تاريخ الطبري» (٢/ ٦)، و«الكامل في التاريخ» (١/ ٣٢٥).

(٤) رواه مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٢/ ٦٠٧) عن الليث بن سعد عن عطاف بن خالد، وكذلك ذكره عن الليث ابن الجوزي في «مثير العزم» (ص: ٣٤١).

وذكره السيوطي في «مفحمات الأقران» (ص: ٦٨) من قول ابن أبي خيثمة.

﴿ولا تَستَفْتِ فِيهِم﴾: تطلبِ الفُتيا ﴿مِنهُم﴾: من أهلِ الكتاب اليهودِ ﴿أحَدًا﴾.

وسأله أهل مكّة عن خبر أهل الكهف، فقال: «أُخبِرُكُم بِهِ غَدًا»، ولم يقل: «إن شاءَ اللهُ»، فنزل:

٢٣ - ﴿ولا تَقُولَنَّ لِشَيءٍ﴾ أي: لِأجل شيء: ﴿إنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَدًا﴾، أي: فيما يُستقبل من الزمان.

٢٤ - ﴿إلاّ أن يَشاءَ اللهُ﴾ أي: إلاّ مُلتبسًا بمشيئة الله - تعالى - بأن تقول: إن شاءَ اللهُ. ﴿واذكُرْ رَبَّكَ﴾ أي: مشيئته مُعلَّقًا بها، ﴿إذا نَسِيتَ﴾ التعليقَ بها، ويكون ذِكرها بعد النِّسيان كذِكرها مع القول. قال الحسن وغيره: ما دامَ في المجلِس..

قولُهُ: (تَطْلُبِ الفُتْيَا) أي: لا تسأَلْ أحَداً منهم عن قصَّتِهم سؤالَ مُستَرشِدٍ، فإنَّ فيما أوحيَ إليكَ لمندوحَةً عن غيرِه مع أنَّه لا عِلمَ لهم بها، ولا سؤالَ مُتعَنِّتٍ فإنَّه يُخلُّ بمكارمِ الأخلاقِ.

قولُهُ: (وَلَم يَقُلْ) فأبطَأَ عليه الوَحيُ بضعَةَ عشرَ يوماً حتَّى شقَّ عليه وكذَّبَته قريشٌ[1].

قولُهُ: (لِأَجْلِ شَيءٍ) تعزمُ عليه.

قولُهُ: (فِيْمَا يُستَقْبَلُ) أي: لم يُرِدِ الغَدَ المتعارَفَ.

قولُهُ: (إلَّا مُلتَبِساً) الاستثناءُ من النَّهي.

قولُهُ: (مُعَلَّقاً) فاعِلٌ أو مفعولٌ؛ أي: الفِعلَ.

و(بِهَا) أي: بالمشيئةِ، كما رُوِيَ أنَّهُ لمَّا نزلَ قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «إنْ شاءَ اللهُ»[2].

قولُهُ: (قَالَ الحَسَنُ)[3] وعن ابنِ عبَّاسٍ: «ولو بعدَ سنةٍ ما لم يحنَثْ»[4]، ولذلك جُوِّزَ تأخيرُ الاستثناءِ عنه،

(١) رواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص: ٢٠١): حدثني رجل من أهل مكة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، فذكره مطولاً. ومن طريق ابن إسحاق رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٤٣)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧٠). وفيه إبهام الراوي عن سعيد بن جبير.

ورواه أبو نعيم في «الدلائل» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٥٧) من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، فذكره مطولاً.

والسدي الصغير هو محمد بن مروان، متروك، ومنهم من اتهمه بالكذب. انظر: «ميزان الاعتدال» (٤/ ٣٢). والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

وللحديث أصل عند أحمد في «مسنده» (٢٣٠٩) عن ابن عباس بلفظ: «قالت قريش لليهود: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح...﴾».

(٢) رواه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٧٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٤٥) عن الحسن، قال: إذا ذكر أنه لم يقل: إن شاء الله، فليقل: إن شاء الله.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٦٤٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (١١٩)، وفي «الكبير» (١١/ ٦٨) (١١٠٦٩)، =

﴿وقُلْ: عَسَى أن يَهدِيَنِ رَبِّي لِأقرَبَ مِن هذا﴾: من خبر أهل الكهف في الدلالة على نُبوّتي ﴿رَشَدًا﴾: هِداية. وقد فعل الله ـ تعالى ـ ذلك.

٢٥ ـ ﴿ولَبِثُوا في كَهفِهِم ثَلاثَمِائَةٍ﴾ بالتنوين ﴿سِنِينَ﴾: عطفُ بيان لِـ «ثلاثمِائَةٍ» ـ وهذه السنون الثلاثُمِائَةِ عِند أهل الكتاب شمسيّة، وتزيد القمريّة عليها عِند العرب تسعَ سنين ـ وقد ذُكرتْ في قوله ﴿وازدادُوا تِسعًا﴾ أي: تسع سِنينَ. فالثلاثُمِائَةِ الشمسيّةُ: ثلاثُمِائَةٍ وتسعٌ قمريّةٌ.

٢٦ ـ ﴿قُلِ: اللهُ أعلَمُ بِما لَبِثُوا﴾ ممّن اختلفوا فيه ـ وهو ما تقدّم ذكره ـ ﴿لَهُ غَيبُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: عِلمُه، ﴿أبصِرْ بِهِ﴾ أي: بالله ـ هي صِيغة تعجّب ـ ﴿وأسمِعْ﴾ به كذلك، بمعنى:.......

وعامَّةُ الفُقَهاءِ على خلافِهِ، ولم يجوِّزوهُ إلَّا أن يكونَ متَّصلاً بالكلامِ؛ لأنَّه لو صحَّ ذلك لم يتقرَّرْ إقرارٌ ولا طلاقٌ ولا عِتاقٌ، ولا يُعلَمُ صِدقٌ ولا كذِبٌ، وليس في الآيةِ والخبرِ[1] أنَّ الاستثناءَ المتَدارَكَ به من القَولِ السَّابقِ، وهو «أُخبِرُكُم»، بل هو من مقدَّرٍ مدلولٍ به عليهِ؛ أي: افعَلْ ذلك؛ أي: علِّق كلَّ ما أقولُ فيه أنِّي فاعلُهُ غداً بمشيئةِ اللهِ إن شاءَ اللهُ؛ كما يُقالُ لكَ: افعَلْ كذا، فتقولُ: إن شاءَ اللهُ تعالى.

وقالَ بعضُ العارِفينَ: اذكُرْ ربَّكَ إذا نسيتَ نفسَكَ[2].

قولُهُ: (هِدَايَةً) مفعولٌ مطلَقٌ.

قولُهُ: (وَقَد فَعَلَ اللهُ) حيثُ هداهُ لأعظَمَ من ذلك كقصَصِ الأنبياءِ المتباعِدِ عنه أيَّامُهُم، والإخبارِ بالغُيوبِ والحوادِثِ المستقبَلَةِ إلى قيامِ السَّاعةِ.

قولُهُ: (بالتَّنوِينِ) غيرُ حمزةَ والكسائيِّ فإنَّهُما قَرَءا بالإضافَةِ[3] على وضعِ الجمعِ مَوضِعَ المفردِ بناءً على أنَّهُ الأصلُ في العَددِ.

قولُهُ: (وهُو مَا تقَدَّمَ) من قولِهِم: ﴿لَبِثْنَا يَوْماً﴾، وقيلَ: اختَلفوا فقالَ بعضُهم: ثلاثَ مئةٍ، وقال بعضُهم: ثلاث مئةٍ وتسعَ سنينَ.

قولُهُ: (عِلْمُهُ) أي: عِلمُ ما غابَ فيهما، وخَفيَ من أحوالِ أهلِهما.

قولُهُ: (كذَلِكَ) أي: صيغَةُ تعجُّبٍ للدَّلالةِ على أنَّ أمرَهُ في الإدراكِ خارجٌ عمَّا عليه إدراكُ السَّامِعينَ والمبصِرينَ.

= والحاكم في «المستدرك» (٧٨٣٣) وصححه، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٩٩٣١).

(١) هو ما تقدم تخريجه عند أبي نعيم.

(٢) وانظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٩٠).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٠).

ما أبصَرَهُ! وما أسمَعَهُ! وهما على جِهة المجازِ، والمُرادُ أنه ـ تعالى ـ لا يغيب عن بصره وسمعه شيء، ﴿ما لَهُم﴾: لأهل السماوات والأرض ﴿مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾: ناصر، ﴿ولا يُشرِكُ في حُكمِهِ أحَدًا﴾ لأنه غنيّ عن الشريك.

٢٧ ـ ﴿واتلُ ما أُوحِيَ إلَيكَ مِن كِتابِ رَبِّكَ، لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ، ولَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلتَحَدًا﴾: ملجأ، ٢٨ ـ ﴿واصبِرْ نَفسَكَ﴾: احبِسها ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِالغَداةِ والعَشِيِّ، يُرِيدُونَ﴾ بعِبادتهم ﴿وَجهَهُ﴾ ـ تعالى ـ لا شيئًا من أعراض الدنيا، وهم الفقراء، ﴿ولا تَعْدُ﴾: تنصرفْ ﴿عَيناكَ عَنهُم﴾ ـ عُبِّرَ بهما عن صاحبهما ـ ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الحَياةِ الدُّنيا، ولا تُطِعْ مَن أغفَلْنا قَلبَهُ عَن ذِكرِنا﴾ أي: القُرآنِ ـ هو عُيينة بن حِصن وأصحابه ـ ﴿واتَّبَعَ هَواهُ﴾ في الشِّرك، ....

قولُهُ: (لأنَّه غَنِيٌّ) وقرأَ شاميٌّ بالخِطابِ والجزْمِ[1] على نهيِ كلِّ أحدٍ.

قولُهُ: (احبِسْهَا) وثبِّتْها.

قالَ تعالى: (﴿بِالغَدَاةِ﴾) ـ قرأَ الشَّاميُّ: (بالغُدْوةِ)[2] ـ؛ أي: في جميعِ[3] أوقاتِهِم، أو طرَفي النَّهارِ.

قولُهُ: (مِنْ أَعْرَاضِ) بالغَينِ معجَمةٌ أو مهملةٌ.

قولُهُ: (عُبِّرَ بِهِمَا) أي: بالعَينَينِ.

قولُهُ: (عَنْ صَاحِبِهِمَا) ولذا جازَ كونُ ﴿تريدُ﴾ حالاً عنهُما، وقالَ البَيضاويُّ: حالٌ من الكافِ، والمعنَى: لا تجاوزْهُم عَيناكَ نظَراً إلى غيرِهِم، والمرادُ: نَهيُ الرَّسولِ أن يزدَرِيَ بفُقراءِ المؤمنينَ ورَثاثَةِ زيِّهِم طموحاً إلى طراوةِ زيِّ الأغنياءِ[4].

قولُهُ: (هُو عُيَيْنَةُ)[5] أو أميَّةُ بنُ خَلَفٍ[6]، في دعائِكَ إلى طرْدِ الفقراءِ عن مُجالسَتِكَ لصناديدِهِم، وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ الدَّاعيَ له إلى هذا الاستِدعاءِ غفلةُ قلبِهِ عن المعقُولاتِ وانهِماكُهُ في المحسوسَاتِ حتَّى خَفيَ عليه أنَّ الشَّرفَ بحِليَةِ النَّفسِ لا بزينَةِ الجسَدِ.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) في د): «مجامع».

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٧٩).

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٧٧٥) عن ابن بريدة. ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٨) عن خباب، وقال: هو عيينة والأقرع.

(٦) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢٧٧٦)، وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٥/ ٣٨٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وكانَ أمرُهُ فُرُطًا﴾: إسرافًا.

٢٩ ـ ﴿وقُلِ﴾ له ولأصحابه: هذا القُرآن ﴿الحَقُّ مِن رَبِّكُم. فمَن شاءَ فلْيُؤمِنْ، ومَن شاءَ فلْيكفُرْ﴾، تهديد لهم. ﴿إنّا أَعتَدْنا لِلظّالِمينَ﴾ أي: الكافرين ﴿نارًا، أحاطَ بِهِم سُرادِقُها﴾: ما أحاط بها، ﴿وإن يَستَغيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كالمُهلِ﴾: كعَكَر الزيت، ﴿يَشوِي الوُجُوهَ﴾ من حرّه إذا قُرّب إليها. ﴿بِئسَ الشَّرابُ﴾ هو! ﴿وساءَتْ﴾ أي: النارُ ﴿مُرتَفَقًا﴾: متكأ! تمييز منقول من الفاعل أي: قَبُحَ مُرتفقُها، وهو مُقابِل لقوله الآتي في الجنّة: «وحَسُنَتْ مُرتَفَقًا»! وإلاّ فأيّ ارتفاق في النار؟

٣٠ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ إنّا لا نُضِيعُ أجرَ مَن أحسَنَ عَمَلاً﴾. الجملة: خبرُ «إنّ»، وفيها إقامة الظاهر مَقام المُضمر ـ والمعنى: أجرَهم، أي: نُثيبُهم بما تضمّنه ـ ٣١ ـ ﴿أُولئِكَ لَهُم جَنّاتُ عَدنٍ﴾: إقامةٍ، ﴿تَجري مِن تَحتِهِم الأنهارُ، يُحَلَّونَ فِيها مِن أساوِرَ﴾ ـ..........................

قولُهُ: (إِسْرَافاً) مجاوِزاً فيه الحدَّ.

قولُهُ: (هَذَا القُرْآنُ) مبتدأٌ محذوفٌ، و﴿مِنْ ربِّكُمْ﴾ حالٌ، أو خبرٌ آخرُ.

قولُهُ: (تَهدِيدٌ) أي: لا أُبالِي بإيمانِ من آمنَ وكُفْرِ من كفَرَ، وهو لا يَقتَضي استقْلالَ العَبدِ بفعلِه، فإنَّهُ وإن كانَ بمشيئتِه فمشيئتُه ليسَتْ بمشيئتِه بل بمشيئةِ اللهِ تعالى.

قولُهُ: (مَا أَحَاطَ) أي: فُسطاطُها، شبَّهَ به ما يُحيطُ بهم مِن النَّارِ، وفي «الوَجيزِ»: ﴿سُرَادِقُهَا﴾ دُخانُها، وقيل: حائطٌ مِن نارٍ[1].

قولُهُ: (كعَكَرٍ) محرَّكةً: دُرْديُّ كلِّ شيءٍ.

قولُهُ: (تَمْيِيزٌ) أي: متَكأً، أو منتَفَعاً، أو مَنزِلاً.

قولُهُ: (الجُمْلَةُ) الثَّانيةُ.

قولُهُ: (وَفِيهَا) أي: الجملةِ.

قولُهُ: (إِقَامَةُ الظَّاهِرِ) أي: واقعٌ موقِعَ الرَّاجعِ، فإنَّ ﴿مَنْ أحسنَ عملاً﴾ على الحَقيقةِ لا يحسُنُ إطلاقُهُ إلَّا على الَّذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ.

قولُهُ: (بِمَا تَضَمَّنَهُ) فاعلُهُ ﴿أولئكَ... ﴾ إلخ.

---

(١) انظر: «الوجيز» للواحدي (ص: ٦٥٩).

قيل: مِن: زائدةٌ، وقيل: للتبعيض ـ وهي جمعُ أَسْوِرةٍ كأحمِرة جمعِ سِوار ﴿مِن ذَهَبٍ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُندُسٍ﴾: ما رقَّ من الدِّيباج، ﴿وإستَبرَقٍ﴾: ما غلُظ منه ـ وفي آيةِ «الرحمن»: «بَطائنُها مِن إستَبرَقٍ» ـ ﴿مُتَّكِئِينَ فِيها علَى الأرائكِ﴾: جمع أريكة، وهي السرير في الحَجَلة، وهي بيت يُزيّن بالثياب والستور للعَروس. ﴿نِعمَ الثَّوابُ﴾: الجزاءُ الجنةُ! ﴿وحَسُنَتْ مُرتَفَقًا﴾!

٣٢ ـ ﴿واضرِبْ﴾: اجعلْ ﴿لَهُم﴾: للكُفّار مع المؤمنين ﴿مَثَلاً رَجُلَينِ﴾: بدلٌ، وهو وما بعده تفسير للمَثل، ﴿جَعَلْنا لِأحَدِهِما﴾ الكافرِ ﴿جَنّتَينِ﴾: بُستانَينِ ﴿مِن أعنابٍ، وحَفَفْناهُما بِنَخلٍ، وجَعَلْنا بَينَهُما زَرعًا﴾ يُقتات به، ٣٣ ـ ﴿كِلتا الجَنّتَينِ﴾ كلتا: مُفرد يدلّ على التثنية مبتدأٌ ﴿آتَتْ﴾: خبرُه ....

قولُهُ: (وقِيلَ: للتَّبعِيضِ) و﴿مِنْ﴾ الثَّانيةُ للبيانِ صفةٌ لـ﴿أَسَاوِرَ﴾ وتنكيرُها للتَّعظيمِ.

قولُهُ: (مَا رَقَّ) وقولُه تعالى: ﴿خُضْراً﴾؛ لأنَّ الخضرةَ أحسَنُ الألوانِ وأكثرُها طراوَةً.

قولُهُ: (الجَنَّةُ) ونعيمُها.

وقولُهُ تعالى: (﴿وَحَسُنَتْ﴾) أي: الجنَّةُ؛ لمقابلَةِ قولِهِ: ﴿وَسَاءَتْ﴾ وقالَ البَيضاويُّ: أي: الأرائكُ[1].

قوله: (لِلكُفَّارِ) الأظهرُ: للكافرِ والمؤمنِ، سواءٌ أن يُرادَ بهما الجنْسُ أو الشَّخصُ.

قولُهُ: (بَدَلٌ) أي: مَثَلَ رجُلَينِ، أو: حالَ رجُلَينِ مقدَّرينِ أو موجُودَينِ.

هما أخَوانِ من بَني إسرائيلَ كافرٌ ومؤمنٌ وَرِثا من أبيهِمَا ثمانيةَ آلافِ دينارٍ فتشاطَرَا، فاشتَرى الكافرُ بها ضياعاً[2] وعَقاراً، وصرَفَهُ المؤمنُ في وجوهِ الخَيرِ، وآلَ أمرهما إلى ما حَكاهُ اللهُ عنهُما.

قولُهُ: (تَفسِيرٌ) أو صفةٌ لـ﴿رَجُلَيْنِ﴾.

وقولُهُ تعَالى: (﴿وَحَفَفْنَاهُمَا﴾) أي: جَعلنا النَّخلَ محيطةً بهما مؤزَّراً بها كُرومُهُما.

وقولُهُ تعَالى: (﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾) أي: وسطَهُما (﴿زَرْعاً﴾) ليكونَ كلٌّ منهُما جامِعاً للأقواتِ والفواكِهِ متواصلَ العمارَةِ على الشَّكلِ الحسَنِ.

قولُهُ: (مُفرَدٌ) أي: لفظاً.

قولُهُ: (على التَّثنِيةِ) معنًى.

قولُهُ: (خَبَرُهُ) وإفرادُ الضَّميرِ لإفرادِ ﴿كِلْتَا﴾ وهو أفصَحُ.

---

(١) قال البيضاوي: ﴿وحسنت مرتفقا﴾ متكأ، انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٨٠).

(٢) في (ص): «متاعًا».

﴿أُكُلَها﴾: ثمرها، ﴿ولَم تَظلِمْ﴾: تَنقُص ﴿مِنهُ شَيئًا! وفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَرًا﴾ يجري بينهما، ٣٤ـ ﴿وكانَ لَهُ﴾ مع الجنّتين ﴿ثَمَرٌ﴾ بفتح الثاء والميم، وبضمّهما، وبضمّ الأوّل وسكون الثاني، وهو جمع ثَمَرة كشَجَرة وشَجَر، وخَشَبة وخُشُب، وبَدَنة وبُدْن.

﴿فقالَ لِصاحِبِهِ﴾ المؤمنِ، ﴿وهُوَ يُحاوِرُهُ﴾: يُفاخره: ﴿أنا أكثَرُ مِنكَ مالاً، وأعزُّ نَفَرًا﴾ عشيرةً. ٣٥ ـ ٣٦ ـ ﴿ودَخَلَ جَنّتَهُ﴾ بصاحبه، يطوف به فيها ويُريه آثارها ـ ولم يقل «جنّتيه» إرادةً للروضة، وقيل: اكتفاءً بالواحدة ـ ﴿وهُوَ ظالِمٌ لِنَفسِهِ﴾ بالكُفر، ﴿قالَ: ما أظُنُّ أن تَبِيدَ﴾: تنعدم.............

قولُهُ: (ثَمَرَهَا) أي: تامًّا.

قولُهُ: (تَنْقُصُ) من أُكُلِها شيئاً يعهدُ في سائرِ البَساتينِ، فإنَّ الثِّمارَ تتمُّ في عامٍ وتنقصُ في عامٍ غالباً.

قولُهُ: (يَجْرِي) ليَدومَ شُربُها فإنَّه الأصلُ، ويزيدَ نماؤُها.

قولُهُ: (بفَتحِ الثَّاءِ) عاصمٌ[1].

قولُهُ: (وبِضَمِّ الأَوَّلِ) بصريٌّ[2]، أنواعٌ مِن المالِ سِوى الجنَّتَينِ.

قولُهُ: (يُفَاخِرُهُ) ويراجعُهُ.

قولُهُ: (عَشِيرَةً) لا يلائمُ القصَّةَ[3]، فإنَّ الأخوَينِ عشيرتُهُما سواءٌ إلَّا أن لا يكونا شقيقَينِ، أو العشيرُ لا يُعاشِرُ الفقيرَ، والأَولى: حَشَماً وأعواناً، وقيل: أولاداً ذكوراً؛ لأنَّهمُ الَّذين ينفردونَ معهُ.

قولُهُ: (الرَّوضَةِ) وهي تشملُهُما، أو لأنَّ المرادَ: ما هو جنَّته، وهو ما مُتِّعَ به من الدُّنيا تَنبيهاً على أنَّه لا جنَّةَ له غيرها.

قولُهُ: (بالوَاحِدِ) والأظهرُ: بالواحِدةِ[4]، أو لاتِّصالِ كلِّ واحدَةٍ من جنَّتَيهِ بالأخرَى، أو لأنَّ الدُّخولَ يكونُ في واحدةٍ وواحدةٍ.

قولُهُ: (بالكُفْرِ) والعُجبِ.

قولُهُ: (تَنعَدِمَ) أي: تفنَى هذه الجنَّةُ أبداً؛ لطولِ أملِهِ وتمادِي غفلتِه واغترارِه بمهلتِه.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٤١٦).

(٢) أي: (ثُمْرًا)، انظر المصدرين السابقين.

(٣) في (ن): «القصد».

(٤) وكذا هي في المتن المعتمد.

﴿هذِهِ أَبَدًا، وما أظنُّ السّاعةَ قائمةً، ولَئِنْ رُدِدتُ إِلَى رَبِّي﴾ في الآخرة، على زعمِك، ﴿لَأَجِدَنَّ خَيرًا مِنها مُنقَلَبًا﴾: مَرجِعًا.

٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿قالَ لَهُ صاحِبُهُ، وهُوَ يُحاوِرُهُ﴾: يُجاوبه: ﴿أَكَفرتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرابٍ﴾ لأنّ آدم خُلق منه، ﴿ثُمَّ مِن نُطفَةٍ﴾: مَنِيٍّ ﴿ثُمَّ سَوّاكَ﴾: عَدَلَكَ وصيّرك ﴿رَجُلاً﴾؟ لكِنّا ـ أصله: لكنْ أنا. نُقلت حركة الهمزة إلى النون، أو حُذفت الهمزة ثم أُدغمت النون في مثلها ـ ﴿هُوَ﴾: ضمير الشأن تُفسّره الجملة بعده، والمعنى: أنا أقول، ﴿اللهُ رَبِّي، ولا أُشرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا، ولَولا﴾: هلاّ، ﴿إِذ دَخَلتَ جَنَّتَكَ، قُلتَ﴾ عند إعجابك بها: هذا ﴿ما شاءَ اللهُ، لا قُوَّةَ إِلاّ بِاللهِ﴾........

قالَ تعالى: (﴿قَائِمَةً﴾) أي: كائنةً ثابتةً واقعةً.

قالَ تعالى: (﴿مِنْهَا﴾) من جنَّتِهِ، وقرأ الحرميَّانِ والشَّاميُّ: (مِنهُمَا)[1]؛ أي: من الجنَّتينِ.

قولُهُ: (مَرْجِعاً) وعاقبةً؛ لأنَّها فانيةٌ، وتلك باقيةٌ، وإنَّما أقسَمَ على ذلك لاعتقادِهِ الفاسدِ أنَّه تعالى إنَّما أولاهُ ما أولاهُ لاستحقاقِهِ إيَّاهُ لذاتِهِ، وهو معه أينَما يلقاهُ.

قولُهُ: (يُجَاوِبُه) ويراجِعُهُ.

قولُهُ: (لأنَّ آدَمَ) أو لأنَّه أصلُ مادَّتِكَ ومادَّةُ أصلِكَ، أو لأنَّ كلَّ إنسانٍ يذرُّ من ترابِ قبرِهِ في نطفَةٍ يُخلَقُ منها.

قولُهُ: (مَنِيٍّ) فإنَّها مادَّتُكَ القريبةُ، جعلَ كفرَهُ بالبعثِ كُفراً باللهِ؛ لأنَّ منشَأهُ الشكُّ في كمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ولذلك رتَّبَ الإنكارَ على خلقِهِ إيَّاهُ من التُّرابِ، فإنَّ من قَدِرَ على بدْءِ خلقِهِ منه قَدِرَ أن يعيدَهُ منه.

قولُهُ: (أَصْلُهُ) اتَّفقَ القُرَّاءُ على إثباتِ الألفِ وَقفاً كما في (أنا) وأثبَتَها الشَّاميُّ في الوَصلِ أيضاً هنا إجراءً للوَصلِ مُجرى الوَقفِ[2].

قولُهُ: (بَعْدَهُ) وهو بالجُملةِ الواقِعةِ خبراً له خبرُ (أنا)، والاستِدراكُ من ﴿أكفرتَ﴾ كأنَّهُ قالَ: أنت كافرٌ باللهِ لكنِّي مؤمنٌ به.

قولُهُ: (أَنَا أَقُولُ) بحَذفِ القولِ بدَليلِ عَطفِ ﴿لَا أُشْرِكُ﴾.

قولُهُ: (عِنْدَ إِعجَابِكَ) الأظهرُ: هلَّا قلتَ عند دُخولِها وإعجابِكَ بها.

قولُهُ: (هَذَا) أو الأمرُ، فالمبتدأُ محذوفٌ، أو: ما شاءَ اللهُ كائنٌ، على أنَّ ﴿ما﴾ موصولةٌ، أو: أيَّ شيءٍ شاءَ اللهُ كانَ، على أنَّها شرطيَّةٌ، والجوابُ محذوفٌ إقرارًا بأنَّها وما فيها بمشيئةِ اللهِ تعالى إن شاءَ أبقَاها وإن شاءَ أفنَاها،

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٤١٦).

(٢) ومثله نافع في رواية عنه، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩١)، و«حجة القراءات» (ص: ٤١٧).

في الحديث «مَن أُعطِيَ خَيرًا مِن أهلٍ أو مالٍ ـ فيَقُولَ عِندَ ذلِكَ: ما شاءَ اللهُ لا قُوّةَ إلاّ باللهِ ـ لم يَرَ فِيهِ مَكرُوهًا». ﴿إن تَرَنِيَ أنا﴾ ـ ضمير فصل بين المفعولين ـ ﴿أقَلَّ مِنكَ مالاً ووَلَدًا فعَسَى رَبِّيَ أن يُؤتِيَنِي خَيرًا مِن جَنَّتِكَ﴾: جوابُ الشرط، ﴿ويُرسِلَ علَيها حُسبانًا﴾: جمع حُسبانة، أي: صواعقَ ﴿مِنَ السَّماءِ، فتُصبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾: أرضًا ملساء لا يثبتُ عليها قَدمٌ، ٤١ ـ ﴿أو يُصبِحَ ماؤُها غَورًا﴾ بمعنى: غائرًا، عطفٌ على «يرسلَ» دُون «تصبحَ» لأن غور الماء لا يتسبب عن الصواعق، ﴿فلَن تَستَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾: حِيلةً تدركه بها.

٤٢ ـ ٤٣ ـ ﴿وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ ـ بأوجُه الضبط السابقة ـ مع جنّته بالهلاك فهلكت، ﴿فأصبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيهِ﴾ ندَمًا وتحسّرًا ﴿علَى ما أنفَقَ فِيها﴾: في عمارة جنّته، ﴿وهِيَ خاوِيةٌ﴾: ساقطة ﴿علَى عُرُوشِها﴾: دعائمها للكرْمِ بأن سقطت ثم سقط الكرْمُ، ﴿ويَقُولُ: يا﴾: ....

و﴿قُلْتَ﴾: ﴿لَا قوَّةَ إلَّا باللهِ﴾ اعترافاً بالعجزِ على نفسِكَ والقُدرةِ للهِ، وأنَّ ما تيسَّرَ لك من عمارَتِها وتدَابيرِ أمرِها فبمَعونتِهِ وإقدارِهِ.

قولُهُ: (ضَمِيرُ فَصْلٍ) أو تأكيدٌ للمفعولِ الأوَّلِ.

قالَ تعالى: (﴿خيراً﴾) أي: في الدُّنيا، أو في الآخرَةِ؛ لإيمانِي.

قولُهُ: (غَائِراً) ذاهِباً في الأرضِ، مصدرٌ وُصِفَ به كالزَّلَقِ.

قولُهُ: (حِيلَةً تُدرِكُهُ) أي: الماءَ الغائرَ؛ يعني: فلا يتأتَّى منك الطَّلَبُ فَضلاً عن الوُجودِ.

قولُهُ: (السَّابِقَةِ) في ﴿ثَمَرٌ﴾.

قولُهُ: (مَعَ جَنَّتِهِ) يعني: أهلَكَ أموالَهُ ـ حسبَ ما توقَّعَهُ صاحبُهُ وأنذرَهُ منهُ ـ مع جنَّتِهِ، وهو مأخوذٌ من: أحاطَ به العدوُّ، فإنَّهُ إذا أحاطَ به غلبَهُ، وإذا غلبَهُ أهلكَهُ.

قولُهُ: (بالهَلاكِ) متعلِّقٌ بـ﴿أُحِيطَ﴾ وقولُهُ: (فَهَلَكَتْ) أي: الأموالُ والجنَّةُ، أو الجنَّةُ.

قولُهُ: (نَدَماً) عِلَّةٌ لتقليبِ الظَّهرِ للبطنِ.

قولُهُ: (فِي عِمَارَةِ) وهو[1] متعلِّقٌ بـ﴿يُقَلِّبُ﴾؛ لأنَّ تقليبَ الكفَّينِ كنايَةٌ عن النَّدَمِ، فكأنَّهُ قيل: فأصبحَ يندمَ، أو حالٌ؛ أي: متحسِّراً على ما أنفَقَ.

قولُهُ: (دَعَائِمِهَا) جمعُ: دِعَامٍ ـ بالكسرِ ـ: عِمادُ البيتِ، والخشبُ المنصوبُ للتَّعريشِ.

---

(١) أي: ﴿على ما أنفق﴾ لا «في عمارة» كما يوهم ظاهر اللفظ.

للتنبيه ﴿لَيتَني لم أُشرِكْ بِرَبِّيَ أحَدًا. ولَم تكُنْ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿لَهُ فِئَةٌ﴾: جماعة ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ﴾ عِند هلاكها، ﴿وما كانَ مُنتَصِرًا﴾ عند هلاكها بنفسه.

٤٤ ـ ﴿هُنالِكَ﴾ أي: يومَ القيامة ﴿الوَلايَةُ﴾ بفتح الواو: النُّصرةُ، وبكسرها: المُلكُ ﴿للهِ الحَقُّ﴾ بالرفع: صفة الولاية، وبالجرّ: صفة الجلالة. ﴿هُوَ خَيرٌ ثَوابًا﴾ من ثواب غيره ـ لو كان يُثيب ـ ﴿وخَيرٌ عُقُبًا﴾ بضم القاف وسكونها: عاقبةً للمؤمنين، ونصبُهما على التمييز.

٤٥ ـ ﴿واضرِبْ﴾: صيِّر ﴿لَهُم﴾: لقومك ﴿مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا﴾: مفعولٌ أول ﴿كَماءٍ﴾: مفعولٌ ثان، ﴿أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ، فاختَلَطَ بِهِ﴾:.......................................

قولُهُ: (للتَّنْبِيهِ) كأنَّهُ تذكَّرَ موعظَةَ أخيهِ، وعَلِمَ أنَّه أُتيَ من قِبَلِ شركِهِ، فتمنَّى لو لم يكن مُشرِكاً فلم يُهلِكِ اللهُ بستانَهُ، ويحتملُ أن يكونَ توبةً من الشِّركِ ونَدَماً على ما سبَقَ منه.

قولُهُ: (والياءِ) التَّذكيرُ حمزةُ والكسائيُّ[1] لتقدُّمِهِ.

قولُهُ: (أي: غَيرِهِ) فإنَّهُ القادِرُ على ذلك وحدَهُ، وفي نسخةٍ: «عندَ هَلَاكِهَا» والمعنى: لم يَقدِروا على نصرِهِ بدفعِ الإهلاكِ، أو ردِّ المهلَكِ، أو الإتيانِ بمثلِهِ.

قولُهُ: (بِنَفْسِهِ) أي: ممتَنعاً بقوَّتِهِ عن انتِقامِ اللهِ منه.

قولُهُ: (يَوْمَ القِيَامَةِ) أو في ذلك المقامِ وتلكَ الحالِ.

قولُهُ: (وبكَسْرِهَا) حمزةُ والكسائيُّ[2].

قولُهُ: (بالرَّفْعِ) بصريٌّ وكسائيٌّ[3].

قولُهُ: (صِفَةُ الوَلايَةِ) وذُكِّر لأنَّهُ مصدَرٌ.

قولُهُ: (يُثِيبُ) أي: غيرُهُ.

قولُهُ: (وسُكُونِهَا) عاصمٌ وحمزةُ[4].

قولُهُ: (مَفعُولٌ أَوَّلٌ) أي: صِفتَها القريبَةَ؛ أي: في زهرَتِها وسرعةِ زَوالِها.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٤١٨).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٤١٩).

(٤) انظر المصدرين السابقين.

تكاثفَ بسبب نزول الماء ﴿نَبَاتُ الأرضِ﴾ أو امتزج الماء بالنبات فرَوِيَ وحَسُن، ﴿فأصبَحَ﴾: صار النبات ﴿هَشِيمًا﴾: يابسًا متفرّقة أجزاؤه، ﴿تَذرُوهُ﴾: تنثره وتُفرّقه ﴿الرِّياحُ﴾ فتذهب به. المعنى: شَبِّهِ الدنيا بنَباتٍ حسُنَ، فيبس فتكسّر، ففرّقته الرياح. وفي قراءةٍ «الرِّيحُ». ﴿وكانَ اللهُ علَى كُلِّ شَيءٍ مُقتَدِرًا﴾: قادرًا. ٤٦ ـ ﴿المالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنيا﴾ يُتجمّل بهما فيها، ﴿والباقِياتُ الصّالِحاتُ﴾ هي «سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلـٰـهَ إلاّ اللهُ، واللهُ أكبَرُ»، وزاد بعضهم «ولا حَولَ ولا قُوّةَ إلاّ بِاللهِ»،

قولُهُ: (تَكَاثَفَ) أي: التفَّ وخالطَ بعضُهُ بعضاً من كَثرتِهِ.

قولُهُ: (وامْتَزَجَ) يعني: تكاثُفُه أثَّرَ في النَّباتِ.

قولُهُ: (وحَسُنَ) واهتزَّ.

قولُهُ: (يَابِساً) أي: مَهْشوماً مَكسوراً.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزَةَ والكسائيِّ[1].

قوله: (قَادِراً) أي: على وَجهِ الكَمالِ.

قولُهُ: (يُتَجَمَّلُ) وتَفنَى عن قَريبٍ.

قولُهُ: (هِيَ: سُبحَانَ اللهِ... إلخ)، كذا وردَ في الأحادِيثِ[2]، وقالَ القاضِي[3] وكذا المحلِّيُّ في المحلِّ الآتي[4]: هي أعمالُ الخَيراتِ الَّتي تَبقى له ثَمرَتُها أبَدَ الآبادِ، ويندرِجُ فيها ما فُسِّرَت به من الصَّلواتِ الخَمسِ وأعمالِ الحجِّ وصيامِ رَمضانَ وسبحانَ اللهِ... إلخ والكلامِ الطَّيِّبِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٧٣).

(٢) منها: ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (١١٧١٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٣٨٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٧٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٤٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨٧): رواه أحمد وأبو يعلى... وإسنادهما حسن.

ومنها: ما رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦١٧)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٠٢٧)، والحاكم في «المستدرك» (١٩٨٥) وصححه، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٩٨)، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا جنتكم» قالوا: يا رسول الله، أمن عدو قد حضر؟ قال: «لا، ولكن جنتكم من النار قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مجنبات ومعقبات، وهن الباقيات الصالحات».

وجاءت زيادة «لا حول ولا قوة إلا بالله» فيما رواه أحمد في «مسنده» (٥١٣) عن عثمان رضي الله عنه.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٨٣).

(٤) عند قوله تعالى: ﴿والباقيات الصالحات﴾ [مريم: ٧٦].

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي: ما يأمله الإنسان ويرجوه عند الله تعالى.

٤٧ ـ ٤٨ ـ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾: يُذهب بها عن وجه الأرض فتصير هباءً مُنبثًّا ـ وفي قراءةٍ بالنون وكسر الياء ونصب «الجبالَ» ـ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾: ظاهرة ليس عليها شيء من جبل ولا غيره ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ المؤمنين والكافرين ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾: نترك ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: حال أي: مُصطفِّين كلُّ أمة صفٌّ، ويقال لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: فُرادى حُفاةً عُراةً غُرْلًا، ويقال لمنكري البعث: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن﴾: مخففة من الثقيلة، أي: أنه ﴿لَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ للبعث.

٤٩ ـ ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾: كتابُ كل امرئ في يمينه من المؤمنين وفي شماله من الكافرين ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾: الكافرين ﴿مُشْفِقِينَ﴾: خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ﴾ عند معاينتهم ما فيه من السيئات: ﴿يَا﴾: للتنبيه ﴿وَيْلَتَنَا﴾: هَلَكَتنا، وهو مصدر لا فعلَ له من لفظه ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ من ذنوبنا ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾: عدَّها وأثبتها!.........................

قولُهُ: (أي: ما يأملُهُ) في الدُّنيا، وقولُهُ: (ويَرجُوهُ) أي: في الآخرةِ.

قوله: (وفي قراءةٍ) لنافعٍ والكوفيِّ[1].

قولُهُ: (المُؤمِنينَ) أي: جمَعْناهُم إلى الموقِفِ.

قولُهُ: (مُصطفِّينَ) لا يحجُبُ أحدٌ أحداً.

قولُهُ: (كلُّ أُمَّةٍ صفٌّ) شبَّهَ حالَهُم بحالِ الجُندِ المعروضينَ على السُّلطانِ لا ليعرِفَهُم بل ليأمُرَ فيهِم.

قولُهُ: (فُرادى) لا شيءَ معكُم من المالِ والولَدِ.

قولُهُ: (حُفاةً) جمعُ: حافٍ، من لا نَعلَ له.

قولُهُ: (غُرْلًا) جمعُ: أغرَلَ، وهو غيرُ المختونِ.

قولُهُ: (في يَمينِهِ) أو في الميزانِ.

قولُهُ: (للتَّنبيهِ) أو يُنادونَ هلكَتَهُم الَّتي هَلكُوها من بينِ الهَلَكاتِ.

قولُهُ: (إلَّا عدَّها) التَّقديرُ: لا يُغادِرُ بوصفٍ إلَّا بهذا الوَصفِ، كما قيلَ في حديثِ: «لا تَدَعْ لنا ذَنباً إلَّا غفَرتَهُ»[2].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٤١٩).

(٢) هو طرف من حديث رواه الترمذي (٤٢٩)، وابن ماجه (١٣٨٤)، والبزار في «مسنده» (٣٣٦٤) من حديث عبد الله بن أبي =

تعجّبوا منه في ذلك. ﴿ووَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِرًا﴾: مُثبتًا في كِتابهم. ﴿ولا يَظلِمُ رَبُّكَ أحَدًا﴾: لا يُعاقبه بغير جُرم، ولا يَنقُص من ثواب مُؤمن.

٥٠ ـ ﴿وإذ﴾ منصوب بـ «اذكرْ» ﴿قُلنا لِلمَلائكةِ: اسجُدُوا لِآدَمَ﴾ سُجودَ انحناءٍ لا وضعِ جبهةٍ تحيّةً له، ﴿فسَجَدُوا إلاّ إبلِيسَ، كانَ مِنَ الجِنِّ﴾ ـ قيل: هم نوع من الملائكة، فالاستثناء مُتّصل. وقيل: هو منقطع، وإبليس أبو الجنّ فله ذُرّيّة ذُكرت معه بعدُ، والملائكة لا ذُرّيّة لهم ـ ﴿ففَسَقَ عَن أمرِ رَبِّهِ﴾ أي: خرج عن طاعته بترك السُّجود. ﴿أفتَتَّخِذُونَهُ وذُرِّيّتَهُ﴾ ـ الخِطاب لآدمَ وذُرِّيّته، والهاء في الموضعين لإبليس ـ ﴿أَولِياءَ مِن دُونِي﴾: تُطيعونهم، ﴿وهُم لَكُم عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء؟ حال. ﴿بِئسَ لِلظّالِمِينَ بَدَلاً﴾ إبليسُ وذُرِّيّته، في طاعتهم بدلَ طاعة الله! ٥١ ـ ﴿ما أشهَدتُهُم﴾ أي: إبليسَ وذُرّيّته ﴿خَلقَ السَّماواتِ والأرضِ، ولا خَلقَ أنفُسِهِم﴾ أي: لم أُحضِر بعضَهم خلقَ بعض، ﴿وما كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ﴾: الشياطينِ ﴿عَضُدًا﴾: أعوانًا في الخلق. فكيف تُطيعونهم؟

٥٢ ـ ﴿ويَومَ﴾ منصوب بـ «اذكرْ» ﴿يَقُولُ﴾، بالياء والنون: ﴿نادُوا شُرَكائيَ﴾ الأوثانَ ﴿الَّذِينَ زَعَمتُم﴾ ليشفعوا لكم بزعمكم. ﴿فدَعَوهُم فلَم يَستَجِيبُوا لَهُم﴾: لم يجيبوهم، ....

قولُهُ: (تَعَجَّبُوا مِنْهُ) أي: مِن شَأنِ ﴿الكتَابِ﴾ يعني: الاستفهامُ للتَّعجُّبِ.

قولُهُ: (فِي ذَلِكَ) أي: عَدمِ التَّركِ.

قولُهُ: (تَحِيَّةً) مفعولٌ له، كرَّرَهُ في مواضِعَ لكونِهِ مقدِّمةً للأمورِ المقصودِ بيَانُها في تلكَ المحالِّ، وهاهنا لمَّا شنَّعَ تعالى على المفتَخِرينَ قرَّرَ ذلك بأنَّه من سَننِ إبليسَ.

قولُهُ: (مُنقَطِعٌ) وأمرَ بالسُّجودِ لكونِهِ في غِمارِهِم.

قولُهُ: (تُطِيعُونَهُم) بدَلَ طاعَتي.

قولُهُ: (الشَّيَاطِينَ) وُضِعَ الظَّاهرُ موضِعَ الضَّميرِ ذمًّا لهم واستِبْعاداً للاعتِضادِ بهم.

قولُهُ: (والنُّونِ) حمزةُ[1].

قالَ تعالى: (﴿زَعَمْتُمْ﴾) أي: أنَّهم شُركائي، أو شُفَعاؤكُم.

قولُهُ: (لِيَشفَعُوا) أو ليمنَعوكُم مِن عَذابي.

= أوفى رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث غريب وفي إسناده مقال، فائد بن عبد الرحمن يضعف في الحديث، وفائد هو أبو الورقاء.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢٠).

﴿وجَعَلْنا بَينَهُم﴾ بين الأوثان وعابديها ﴿مَوبِقًا﴾: واديًا من أودية جهّنم يَهلِكون فيه جميعًا ـ وهو من: وَبَقَ بالفتح: هَلَكَ ـ ٥٣ ـ ﴿ورأَى المُجرِمُونَ النّارَ، فظَنُّوا﴾ أي: أيقنوا ﴿أنَّهم مُواقِعُوها﴾ أي: واقعون فيها، ﴿ولَم يَجِدُوا عَنها مَصرِفًا﴾: مَعدِلاً.

٥٤ ـ ﴿ولَقَد صَرَّفْنا﴾: بيّنّا ﴿في هذا القُرآنِ لِلنّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: صِفةٌ لمحذوف، أي: مَثلاً من جِنس كُلِّ مَثَل ليتّعظوا، ﴿وكانَ الإنسانُ﴾ أي: الكافر ﴿أكثَرَ شَيءٍ جَدَلاً﴾: خُصومة في الباطل، وهو تمييز منقول من اسم «كان» ـ المعنى: وكان جدل الإنسان أكثر شيء فيه ـ ٥٥ ـ ﴿وما مَنَعَ النّاسَ﴾ أي: كفّارَ مكّة ﴿أن يُؤمِنُوا﴾: مفعول ثان، ﴿إذ جاءَهُمُ الهُدَى﴾: القُرآنُ، ﴿ويَستَغفِرُوا رَبَّهُم إلاّ أن تأتِيَهُم سُنَّةُ الأوَّلِينَ﴾: فاعلٌ، أي: سُنّتُنا فيهم، وهي الإهلاك المُقدّر عليهم، ﴿أو يأتِيَهُمُ العَذابُ قِبَلاً﴾: مقابلةً وعِيانًا ـ وهو القتل يومَ بدر. وفي قراءةٍ بضمّتينِ: جمعَ قَبيل، أي: أنواعًا ـ ٥٦ ـ ﴿وما نُرسِلُ المُرسَلِينَ إلاّ مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين ﴿ومُنذِرِينَ﴾: مُخوِّفينَ للكافرين، ﴿ويُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالباطِلِ﴾ بقولهم: «أبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً»؟..

قولُهُ: (واقِعُونَ) ومخالِطوها.

قولُهُ: (مَعْدِلاً) أي: مكاناً ينصَرِفونَ إليه، أو: انْصِرافاً.

قولُهُ: (أي: مَثَلاً) يحتاجُونَ إليه.

قولُهُ: (أي: الكَافِرُ) لقولِهِ تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالبَاطِلِ﴾ قالَ البغويُّ[1]: العمومُ أصحُّ؛ لما وردَ عن عليٍّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ طرقَهُ وفاطمةَ ليلةً، فقالَ: «ألَا تُصَلِّيانِ؟»، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ؛ إنَّ أنفُسَنا بيدِ اللهِ، فإذا شاءَ أن يبعثَنا بَعَثَنا، ثمَّ سمعتُهُ وهو مُوَلٍّ يضرِبُ فخذَهُ وهو يقولُ: «﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾»[2].

قولُهُ: (مَفْعُولٌ ثَانٍ) أي: عن الإيمانِ.

قولُهُ: (القُرْآنُ) أو الرَّسولُ.

قالَ تعالى: (﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾) أي: تقديرُ اللهِ عليهِم أن تأتيَهُم، أو طلبُهُم أو انتظارُهُم أن تأتيَهُم.

قولُهُ: (وهُوَ القَتْلُ) أو عَذابُ الآخرَةِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للكوفيِّ[3].

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٠٠).

(٢) رواه البخاري (١١٢٧)، ومسلم (٧٧٥).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢٠).

ونحوه، ﴿لِيُدحِضُوا بِهِ﴾: ليُبطلوا بجِدالهم ﴿الحَقَّ﴾: القُرآنَ، ﴿واتَّخَذُوا آياتِي﴾ أي: القُرآنَ ﴿وما أُنذِرُوا﴾ به من النار ﴿هُزُوًا﴾ سُخريّة.

٥٧ ـ ٥٨ ـ ﴿ومَن أظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ، فأعرَضَ عَنها، ونَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ﴾: ما عمل من الكُفر والمعاصي؟ ﴿إنّا جَعَلْنا علَى قُلُوبِهِم أكِنّةً﴾: أغطِية، ﴿أن يَفقَهُوهُ﴾ أي: من أن يفهموا القُرآن، أي: فلا يفهمونه، ﴿وفي آذانِهِم وَقْرًا﴾: ثِقَلاً فلا يسمعونه، ﴿وإن تَدْعُهُم إلَى الهُدَى فلَن يَهتَدُوا إذًا﴾ أي: بالجعل المذكور ﴿أبَدًا. ورَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحمةِ، لَو يُؤاخِذُهُم﴾ في الدنيا ﴿بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذابَ﴾ فيها. ﴿بَل لَهُم مَوعِدٌ﴾ ـ وهو يوم القيامة ـ ﴿لَن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوئِلاً﴾: مَنجًى، من وَأَلَ: نَجا. ٥٩ ـ ﴿وتِلكَ القُرَى﴾ أي: أهلُها كعادٍ وثمودَ وغيرِهما ﴿أهلَكْناهُم لَمّا ظَلَمُوا﴾: كفروا، ....

قولُهُ: (وَنَحْوه) مِن اقتِراحِ الآياتِ بعدَ ظُهورِ المعجِزاتِ.

قولُهُ: (بِهِ) إشارَةٌ إلى أنَّ: ﴿ما﴾ موصولَةٌ والعائِدُ محذوفٌ، و(مِن) بيانيَّةٌ، ويجوزُ أن تكونَ ﴿ما﴾[1] مصدريَّةً.

قولُهُ: (أي: مِنْ أنْ يَفقَهُوا) أي: حِجاباً منه، والأظهَرُ: كراهةَ أن يفقَهوهُ، وتذكيرُ الضَّميرِ وإفرادُهُ للمَعنى.

قولُهُ: (أي: بالجَعْلِ) أي: بسببِهِ.

قولُهُ: (يومُ القيامَةِ) أو يومُ بَدرٍ.

قولُهُ: (مِنَ اللهِ)[2] الظَّاهرُ: من غَيرِ اللهِ.

قولُهُ: (مَلْجَأً)[3] ووَأَلَ إليه: التَجَأَ.

قولُهُ: (أَهْلُهَا) مرفوعٌ أو منصوبٌ بناءً على أنَّ ﴿تلكَ﴾ مبتدأٌ خبرُهُ ﴿أَهْلَكْنَاهُم﴾ أو مفعولُ مضمرٍ مفسَّرٍ به و﴿القُرَى﴾ صفتُهُ[4]، ولا بُدَّ من تقديرِ مضافٍ في أحدِهما ليكونَ مرجعَ الضَّمائرِ.

---

(١) في النسخ: «أن» وهو خطأ.

(٢) قوله: «من الله» ليس في المتن عندنا، ولعله موجود في نسخ المؤلف، ولعل المراد به تفسير قوله تعالى: ﴿من دونه﴾ وأن الجلال فسره بـ«من الله».

(٣) الذي في المتن: «منجى».

(٤) قوله: «أو مفعولُ مُضمَرٍ مُفسَّرٍ...»؛ أي: أو تكون ﴿تلك﴾ مفعولا لفعل مضمر مفسر بـ﴿أهلكناهم﴾، والقرى صفة ذلك المفعول الذي هو ﴿تلك﴾.

﴿وجَعَلْنا لِمُهلكِهِم﴾: لِإهلاكهم - وفي قراءةٍ بفتح الميم، أي: لِهلاكهم - ﴿مَوعِدًا﴾.

٦٠ - ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قالَ موسَى﴾ هو ابنُ عِمرانَ ﴿لِفَتاهُ﴾ يُوشَعَ بنِ نونٍ، كان يتبعه ويخدمه ويأخذ منه العِلم: ﴿لا أبرَحُ﴾ لا أزال أسيرُ ﴿حَتَّى أبلُغَ مَجمَعَ البَحرَينِ﴾: مُلتقى بحرِ الروم وبحر فارس ممّا يلي المشرقَ، أي: المكانَ الجامعَ لذلك، ﴿أو أَمضِيَ حُقُبًا﴾: دهرًا طويلاً في بُلوغه، إن بعُدَ. ٦١ - ﴿فلَمّا بَلَغا مَجمَعَ بَينِهِما﴾ بينِ البحرَينِ ﴿نَسِيا حُوتَهُما﴾ نسيَ يُوشَعُ حملَه عند الرحيل، ونسيَ موسى تذكيره،........................

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لعاصِمٍ(١).

قولُهُ: (بِفَتْحِ المِيْمِ) مع فتحِ اللَّامِ لشعبةَ، ومعَ كسرِها لحَفصٍ(٢).

قولُهُ: (هُو ابنُ عِمرَانَ) ردٌّ على من قالَ: إنَّه غيرُه.

قولُهُ: (نُونٍ) ابنُ أفرائيم بن يوسُفَ.

قولُهُ: (ويَخْدمُه) ولذلك سمَّاهُ فَتاهُ.

قولُهُ: (أَسِيرُ) فحُذِفَ الخبرُ لدلالةِ حالِه وهو السَّفرُ، وقولِه: ﴿حَتَّى أَبْلُغَ﴾ - من حيثُ إنَّها تَستَدعي ذا غايةٍ - عَليه.

قولُهُ: (أي: المَكَانَ الجَامِعَ) وُعِدَ لقاءَ الخَضرِ فيه.

وقيل: البَحرانِ: موسَى والخَضرُ، فإنَّ موسى كانَ بحرَ علمِ الظَّاهرِ، وخضرٌ كان بحرَ علمِ الباطِنِ، لكن هذا يصلُحُ أن يكونَ إشارةً لا تفسيراً وعبارَةً.

قولُهُ: (دَهْراً) أي: أسيرَ زماناً(٣) [طويلاً]، والحُقُب: الدَّهرُ، وقيلَ: ثمانونَ سنةً، وقيلَ: سبعونَ(٤).

قولُهُ: (بينِ البَحْرَينِ) يعني: مجمَعَ البحرينِ، و﴿بينِهِما﴾ ظرفٌ أُضيفَ إليه على الاتِّساعِ، أو بمعنى الوَصلِ.

قولُهُ: (حَمْلَهُ) أو: ذِكْرَهُ لموسَى ما رَأى من حياتِهِ ووقوعِهِ في البَحرِ، وهذا هو الظَّاهِرُ لما سيَأتي في الحديثِ.

قولُهُ: (تَذْكِيرَهُ) أو طلبَهُ وتعرُّفَ حالِهِ.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢١).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) في النسخ: «زمان» والتصويب من «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٨٦)، وما بين معكوفتين منه.

(٤) انظر: «لسان العرب» (١/ ٣٢٦).

﴿فاتَّخَذَ﴾ الحوتُ ﴿سَبِيلَهُ فِي البَحرِ﴾ أي: جَعَلَه بجَعلِ اللهِ ﴿سَرَبًا﴾ أي: مِثلَ السَّرَبِ. وهو الشَّقّ الطويل لا نفاذَ له. وذلك أنّ الله أمسك عن الحوت جريَ الماء فانجابَ عنه، فبقيَ كالكُوّة لم يلتئم، وجَمَدَ ما تحته منه.

٦٢ ـ ﴿فلَمّا جاوَزا﴾ ذلك المكان بالسير إلى وقت الغداء من ثاني يوم ﴿قالَ﴾ موسى ﴿لِفَتاهُ: آتِنا غَداءَنا﴾ هو ما يُؤكل أوّل النهار. ﴿لَقَد لَقِينا مِن سَفَرِنا هذا نَصَبًا﴾: تعبًا. وحصولُه بعد المُجاوزة.
٦٣ ـ ﴿قالَ: أرَأَيتَ﴾ أي: تنبَّهْ ﴿إذ أوَينا إلَى الصَّخرةِ﴾ بذلك المكان ﴿فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ ـ وما أنسانِيهِ إلاّ الشَّيطانُ﴾، يُبدل من الهاء: ﴿أن أذكُرَهُ﴾ بدل اشتمال أي: أنساني ذِكرَه ـ ﴿واتَّخَذَ﴾ الحوتُ ﴿سَبِيلَهُ فِي البَحرِ عَجَبًا﴾ مفعول ثان، أي يَتعجّب منه موسى وفتاه لِما تقدّم في بيانه.

٦٤ ـ ﴿قالَ﴾ موسى: ﴿ذلِكَ﴾ أي: فقْدُنا الحوتَ ﴿ما﴾..............................

قولُهُ: (جَعَلَهُ) أي: جعلَ الحوتُ طريقَهُ.

قولُهُ: (فَانْجَابَ) أي: انقَطعَ وانكشَفَ.

قولُهُ: (كالكَوَّةِ) بالفتحِ ويضمُّ: الخَرْقُ في الحائطِ[1].

قولُهُ: (لَم يَلتَئِمْ) لم يلتَصِقْ حتَّى رجَعَ إليه موسَى فرَأى مسلكَهُ.

قولُهُ: (هُوَ ما يُؤكَلُ) الجوهريُّ[2]: آتاهُ إيتاءً: أعطاهُ، وآتاهُ أيضاً: أتَى به، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾؛ أي: ائتِنا به، كذا في «الكشفِ»[3].

قولُهُ: (أي: تَنَبَّهْ) أو: أرأَيتَ ما دَهانِي.

قولُهُ: (بِذَلِكَ المَكَانِ) الَّتي رقدَ عِندَها موسى.

وقولُهُ: (﴿نَسِيتُ الحُوتَ﴾) أي: فقدتُهُ، أو: نسيتُ ذكرَهُ بما رأيتُ منه.

قولُهُ: (أي: أَنْسَانِي ذِكْرَهُ) وهو اعتِذارٌ عن نسيانِهِ بشَغلِ الشَّيطانِ له بوَسواسِهِ.

قولُهُ: (مَفعُولٌ ثَانٍ) الظَّاهرُ أنَّ المفعولَ الثَّاني هو الظَّرفُ، والتَّقديرُ: سبيلاً عجباً، أو: اتِّخاذاً عجباً.

قولُهُ: (لِمَا تَقَدَّمَ) من كونِهِ سَرَباً.

قولُهُ: (فَقْدُنَا) أو: أمرُ الحوتِ.

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١٥/ ٢٣٦).

(٢) انظر: «الصحاح» (٦/ ٢٢٦٢).

(٣) انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (٩/ ٥٩٧).

أي: الذي ﴿كُنَّا نَبْغِي﴾: نطلبه. فإنه علامة لنا على وُجود من نطلبه. ﴿فارتَدَّا﴾: رجَعا ﴿علَى آثارِهِما﴾ يقُصَّانها ﴿قَصَصًا﴾، فأتيا الصخرة، ٦٥ ـ ﴿فوَجَدا عَبدًا مِن عِبادِنا﴾ هو الخَضِر، ﴿آتيناهُ رَحْمةً مِن عِندِنا﴾ نُبوّةً في قولٍ، وولايةً في آخَرَ وعليه أكثر العلماء، ﴿وعَلَّمْناهُ مِن لَدُنَّا﴾: من قِبَلِنا ﴿عِلمًا﴾: مفعولٌ ثان، أي: معلومًا من المُغيَّبات.

روى البخاريّ حديثَ «أنّ مُوسى قامَ خَطِيبًا في بَنِي إسرائيلَ فسُئِلَ: أيُّ النّاسِ أعلَمُ؟ فقالَ: أنا. فعتَبَ اللهُ علَيهِ، إذ لم يَرُدَّ العِلمَ إليه، فأوحَى اللهُ إلَيهِ: إنّ لِي عَبدًا بِمَجمَعِ البَحرَينِ، هُوَ أعلَمُ مِنكَ......

قولُهُ: (رَجَعَا) أي: في الطَّرِيقِ الَّذي جَاءا فيه.

قولُهُ: (يَقُصَّانِهَا) أي: يتبَعانِ آثارَهُما اتِّباعاً.

قولُهُ: (فَأَتَيَا) أو: حتَّى أَتَيا.

قولُهُ: (هُو الخَضِرُ) كما في «الصَّحيحِ» وغيرِهِ[١]، واسمُهُ: بلْيَا بنُ ملكانِ، وقيلَ: اليسعُ، وقيلَ: إلياسُ.

قولُهُ: (فِي قَوْلٍ) واقتصَرَ عليه البَيضاويُّ[٢].

قولُهُ: (فِي أُخْرَى) أي: روايةٍ، والأظهَرُ: في آخر[٣].

قوله: (وَعَلَيهِ أَكْثَرُ العُلَمَاءِ) نصَّ عليه البَغويُّ[٤]، لكن نقلَ سَعدي جَلبي[٥] عنِ القرطبيِّ أنَّ الخَضِرَ نبيٌّ عند الجمهورِ[٦]، وقالَ الإمامُ: الأكثَرونَ على أنَّ ذلك العبْدَ كانَ نبيًّا[٧].

وفي «المداركِ»: هي الوَحيُ أو النُّبوَّةُ، أو العِلمُ، أو طولُ الحياةِ[٨].

قولُهُ: (مِنْ قِبَلِنَا) بطريقِ الوَحيِ أو الإلهامِ.

قولُهُ: (أَعْلَمُ) أي: بالمغيَّباتِ.

---

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) في حديث طويل من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنهم.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٨٧).

(٣) وهكذا هو في نسخ المتن المعتمدة.

(٤) فقال: ولم يكن الخضر نبيًّا عند أكثر أهل العلم، انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٠٥).

(٥) هو: سعد الله بن عيسى بن أمير خان، الشهير بسعدى جلبي أو سعدي أفندي: قاض حنفي من علماء الروم. أصله من ولاية قسطموني. منشؤه ووفاته في الآستانة. وله حاشية على البيضاوي. ت: (٩٤٥هـ). انظر: «الأعلام» للزركلي (٣/ ٨٨).

(٦) انظر: «تفسير القرطبي» (١١/ ١٦).

(٧) انظر: «مفاتيح الغيب» (٢١/ ٤٨١).

(٨) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣١٠).

قالَ مُوسَى: يا رَبِّ، فكَيفَ لِي بِهِ؟ قالَ: تأخُذُ مَعَكَ حُوتًا فتجعَلُهُ في مِكتَلٍ. فحَيثُما فَقَدتَ الحُوتَ فهوَ ثَمَّ. فأخَذَ حُوتًا فجعَلَهُ في مِكتَلٍ، ثُمّ انطَلَقَ وانطَلَقَ مَعَهُ فَتاهُ يُوشَعُ بنُ نُونٍ حَتّى أتَيا الصَّخرةَ، ووَضَعا رُؤوسَهُما فناما.

واضطَرَبَ الحُوتُ في المِكتَلِ، فخَرَجَ مِنهُ، فسَقَطَ في البَحرِ، فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحرِ سَرَبًا. وأمسَكَ اللهُ عَنِ الحُوتِ جِريةَ الماءِ، فصارَ علَيهِ مِثلَ الطّاقِ. فلمّا استَيقَظَ نَسِيَ صاحِبُه أن يُخبِرَهُ بالحُوتِ، فانطَلَقا بَقِيّةَ يَومِهِما ولَيلتِهِما. حَتّى إذا كانا مِنَ الغَداةِ قالَ مُوسَى لِفَتاهُ: آتِنا غَداءنا، إلى قوله: «واتّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحرِ عَجَبًا». قالَ: وكانَ لِلحُوتِ سَرَبًا، ولِمُوسَى ولفَتاهُ عَجَبًا» إلى آخره.

٦٦ ـ ﴿قالَ لَهُ مُوسَى: هَل أَتَّبِعُكَ عَلَى أن تُعَلِّمَنِي مِمّا عُلِّمتَ رَشَدًا﴾ أي: صوابًا أُرشَدُ به؟ وفي قراءةٍ بضمّ الراء وسكون الشين. وسأله ذلك لأنّ الزيادة في العِلم مطلوبة.........

قولُهُ: (مِكْتَلٍ) أي: زِنْبيلٍ[1].

قولُهُ: (ثَمَّ) بفتحِ الثّاءِ؛ أي: في ذلك المكانِ.

قولُهُ: (استَيْقَظَ) أي: مُوسى، وأُفرِدَ لأنّه الأصلُ.

قولُهُ: (قَالَ) أي: النَّبيُّ ﷺ.

قولُهُ: (وكَانَ) أي: البحرُ.

قولُهُ: (﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾) أي: بشَرطِ أن تعلِّمَني، وهو في موضِعِ الحالِ مِن الكافِ.

قولُهُ: (أي: صَوَاباً) أي: عِلماً ذا رَشَدٍ، وهو إصابَةُ الخيرِ، وهو مفعولُ: ﴿تُعَلِّمَنِي﴾ ومفعولُ ﴿عُلِّمْتَ﴾ العائِدُ المحذوفُ، وكلاهُما منقولٌ من «علَّمَ» الّذي له مفعولٌ واحدٌ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءةٍ) لغَيرِ البَصريِّ[2].

قولُهُ: (مَطْلُوبٌ) يعني: لا يُنافي نبوَّتَهُ وكونَهُ صاحِبَ شريعَةٍ أن يتعلَّمَ من غيرِهِ ما لم يكن شَرطاً في أبوابِ الدِّينِ، فإنَّ الرَّسولَ ينبَغي أن يكونَ أعلمَ ممَّن أُرسِلَ إليه فيما بُعِثَ به مِن أُصولِ الدِّينِ وفروعِه مطلقاً، وقد راعى في ذلك غايةَ التَّواضُعِ فاستجهلَ نفسَهُ واستأذَنَ أن يكون تابِعاً له، وسأَلَ منه أن يُرشِدَهُ ويُنعِمَ عليه بتَعليمِ بعضِ ما أنعَمَ اللهُ عليه.

(١) انظر: «تاج العروس» (٣٠/ ٣١٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢٢).

٦٧ ـ ٦٨ ـ ﴿قالَ: إنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبرًا. وكَيفَ تَصبِرُ علَى ما لَم تُحِطْ بِهِ خُبرًا﴾؟ في الحديث السابق عقِبَ هذه الآيةِ: «يا مُوسَى. إنّي علَى عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلّمَنِيهِ لا تَعلَمُهُ، وأنتَ علَى عِلمٍ مِن عِلمِ اللهِ عَلّمَكَهُ اللهُ لا أعلَمُهُ». وقوله «خُبرًا» مصدر لمعنى «لم تُحِط» أي: لم تَخبُر حقيقتَه.

٦٩ ـ ﴿قالَ: ستَجِدُنِيَ، إن شاءَ اللهُ، صابِرًا ولا أعصِي﴾ أي: وغيرَ عاصٍ ﴿لَكَ أمرًا﴾ تأمرني به. وقيّد بالمشيئة لأنه لم يكن على ثِقة من نفسه فيما التزمَ. وهذه عادة الأنبياء والأولياء ألاّ يثقوا إلى أنفسهم طَرْفةَ عين. ٧٠ ـ ﴿قالَ: فإنِ اتّبَعتَني فلا تَسألْني﴾ ـ وفي قراءة بفتح اللام وتشديد النون ـ ﴿عَن شَيءٍ﴾ تُنكره منّي في عِلمك، واصبرْ ﴿حَتّى أُحدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكرًا﴾ أي: أذكرَه لك بعِلّته. فقبل مُوسَى شرطه رعايةً لأدب التعلّم من العالِم.

٧١ ـ ﴿فانطَلَقا﴾ أي: يمشيانِ على ساحل البحر..............................

قولُهُ: (أي: لَمْ تَخْبُر) بضمِّ الباءِ وفتحِها؛ أي: لم تعرف؛ أي: كيفَ تصبِرُ وأنت نبيٌّ على ما أتولَّى من أمورٍ ظاهِرُها مناكيرُ، وبواطِنُها لم يُحِط بها خُبرُكَ.

قولُهُ: (﴿صَابِراً﴾) أي: معكَ غيرَ منكِرٍ عليك.

قولُهُ: (أي: وغَيرَ عَاصٍ) أي: ﴿لا أعصِي﴾ في محلِّ النَّصبِ على أنّه عطفٌ على ﴿صابراً﴾، ولو عطفَ على ﴿سَتَجِدُنِي﴾ كما جوَّزهُ البَيضاويُّ[1] لم يكُن في سِياقِ المشيئَةِ المقصودَةِ في الكلامِ المحكيِّ.

قولُهُ: (إلَى أنْفُسِهِم) الظَّاهرُ: من أنفُسِهم، ولعلَّهُ ضمَّنَ الوثوقَ معنى الميلِ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ، وإنَّما حذفَ الياءَ ابنُ ذكوانَ بخُلفٍ عنه[2].

قولُهُ: (تُنْكِرُهُ) ولم تعلَمْ وجهَ صحَّتِهِ.

قولُهُ: (وَاصبِرْ) لا يُحتاجُ إليه.

قولُهُ: (أي: أَذْكُرَ) أي: حتَّى أَبتَدِئَ بك تبيانَه[3].

قولُهُ: (مِنَ العالِمِ) وفي نسخَةٍ: «مع»، وهو الأظهَرُ.

قولُهُ: (يَمْشِيَانِ) يطلُبانِ السَّفينَةَ، قالَ القرطبيُّ: قيلَ: لم يُذكر هنا فَتى موسى؛ لأنَّ موسى صرفَهُ لمَّا لقيَ الخَضِرَ، ويحتملُ أن يكونَ اكتَفى بذكرِ المتبوعِ عن التَّابعِ[4].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٨٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢٣).

(٣) أي: «حتى أبتدئك ببيانه».

(٤) انظر: «المفهم» (٦/ ٢٠٣).

﴿حَتَّى إذا رَكِبا في السَّفِينةِ﴾ التي مرّت بهما ﴿خَرَقَها﴾ الخَضِرُ بأن اقتلع لوحًا أو لوحين منها من جِهة البحر بفأس لمّا بلغَتِ اللُّجَّ. ﴿قالَ﴾ له مُوسَى: ﴿أخَرَقتَها لِتُغرِقَ أهلَها﴾؟ وفي قراءةٍ بفتح التحتانيّةِ والراءِ ورفع «أهلُها». ﴿لَقَد جِئتَ شَيئًا إمرًا﴾، أي: عظيمًا مُنكرًا. رُوي أنّ الماء لم يدخلها.

٧٢ ـ ٧٣ ـ ﴿قالَ: ألَم أقُلْ: إنَّكَ لَن تَستَطِيعَ مَعِيَ صَبرًا؟ قالَ: لا تُؤاخِذْني بِما نَسِيتُ﴾ أي: غفَلت عن التسليم لك وترك الإنكار عليك، ﴿ولا تُرهِقْني﴾: تُكلّفْني ﴿مِن أمرِي عُسرًا﴾: مشقّة في صُحبتي إياك، أي: عاملني فيها بالعفو واليُسر.

٧٤ ـ ﴿فانطَلَقا﴾ بعد خُروجهما من السفينة يمشيان. ﴿حَتَّى إذا لَقِيا غُلامًا﴾ لم يبلغِ الحِنثَ، يلعبُ مع الصِّبيان أحسنَهم وجهًا، ﴿فقتَلَهُ﴾ الخَضِر بأن ذبحه بالسكّين مُضطجِعًا، أو اقتلع رأسه بيده، أو ضرب رأسه بالجدار، أقوالٌ ـ وأَتى هنا بالفاء العاطفة لأنّ القتل عقب اللُّقيّ ـ وجواب «إذا»: ﴿قالَ﴾ له مُوسَى: ﴿أقَتَلتَ نَفسًا زاكِيةً﴾ أي: طاهرة لم تبلغ حدّ التكليف ـ وفي قراءة «زَكِيَّةً» بتشديد الياء بلا ألف ـ ﴿بِغَيرِ نَفسٍ﴾ ....

قولُهُ: (بِفَأْسٍ) أو بإشارَةٍ، وهو الأظهَرُ.

قولُهُ: (اللُّجَّ) معظَمَ البحرِ، وكذا اللُّجَّةُ[1].

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحَمزةَ والكسائيِّ[2].

قولُهُ: (أي: عَظِيْماً) أي: أتيتَ أمراً عَظيماً، من أَمِرَ الأمرُ: إذا عَظُمَ.

قولُهُ: (تُكَلِّفْنِي) وتُغشِني.

قولُهُ: (مَشَقَّةً) مفعولٌ ثانٍ.

قولُهُ: (بالعَفْوِ واليُسْرِ) لا بالمضايقَةِ والمؤاخَذَةِ على المنسيِّ، فإنَّ ذلك يُعسِرُ عليَّ مُتابعتَك.

قولُهُ: (الحِنْثَ) الإثمَ، أو زمانَهُ، وهو البُلوغُ.

قولُهُ: (بالفَاءِ) للدَّلالَةِ على أنَّهُ كما لقيَهُ قتلَهُ من غيرِ تروٍّ واستكشافِ حالٍ.

قولُهُ: (أي: طَاهِرَةً) من الذُّنوبِ.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) للشّاميِّ والكوفيِّ[3].

---

(١) انظر: «تاج العروس» (٦/ ١٨٠).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢٣).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢٤).

أي: لم تقتلْ نفسًا؟ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ بسكونِ الكاف وضمِّها أي: منكرًا. ٧٥ ـ ﴿قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟ زاد «لك» على ما قبله لعدم العذر هنا. ولهذا ٧٦ ـ ﴿قَالَ: إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرّة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾: لا تتركْني أتبعُك. ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي﴾، بالتشديد والتخفيف: من قِبَلي ﴿عُذْرًا﴾ في مُفارقتك لي.

٧٧ ـ ﴿فَانطَلَقَا. حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ ـ هي أنطاكيةُ ـ ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾: طلبا منهم الطعام ضيافةً، ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ ارتفاعُه مِائَة ذراع، ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يقرُبُ أن يسقط لميلانه،........

قولُهُ: (أي: لَم تَقتُلْ نَفساً) فتُقادَ بها، نبَّهَ به على أنَّ القَتلَ يُباحُ حدًّا أو قصَاصاً وكِلاهُما مُنتَفٍ.

قولُهُ: (وضَمِّها) نافعٌ وابنُ ذكوانَ وأبو بكرٍ[1].

قولُهُ: (أي: مُنْكَراً) في «العرائسِ»: أنَّ موسى لمَّا قالَ ما قالَ، غَضِبَ الخَضِرُ واقتلعَ كتفَ الصبيِّ الأيسرَ، وقَشَرَ اللَّحمَ عنه، فإذا في عَظْمِ كتفِهِ مكتوبٌ: كافرٌ لا يُؤمِنُ باللهِ أبداً، كذا ذكرَهُ القرطبيُّ[2]، وهو مخالفٌ لظاهرِ القصَّةِ، وهو أنَّ الإعلامَ إنَّما كانَ بعدَ وقوعِ الجميعِ.

قولُهُ: (زَادَ: ﴿لَكَ﴾) مشافَهةً بالعِتابِ على رَفضِ الوصيَّةِ.

قولُهُ: (لا تَتْرُكْني) وإن سألْتُ صحبتَكَ.

قولُهُ: (والتَّخفِيفِ) نافِعٌ وأبو بكرٍ، إلَّا أنَّ أبا بكرٍ بالإشمامِ[3].

قولُهُ: (مِنْ قِبَلي) و﴿بَلَغْتَ﴾ بمعنى: وجَدْتَ.

قولُهُ: (في مُفَارَقَتِكَ) لمَّا خالفتُكَ ثلاثَ مرَّاتٍ، رُوِيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِي موسَى استحيى فقالَ ذلكَ، لو لَبِثَ معَ صاحبِهِ لأبصَرَ أعجبَ الأعاجِيبِ»[4].

قولُهُ: (أَنْطَاكِيَةُ) وقيل: غيرُها.

قولُهُ: (طَلَبَا مِنْهُم) ولم يقُل: استَطْعَماهُم؛ لأنَّ المرادَ بالأوَّلِ الأعمُّ، وبالثَّاني الأخَصُّ.

قولُهُ: (يَقْرُبُ) فاستُعيرَتِ الإرادَةُ للمُشارَفَةِ.

---

(١) انظر المصادر السابقة.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١١/ ٢١).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٦).

(٤) رواه بنحوه مسلم (٢٣٨٠)، وأبو داود (٣٩٨٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٤٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٨٨)، من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب رضي الله عنهم.

﴿فأَقامَهُ﴾ الخَضِر بيده. ﴿قالَ﴾ له مُوسَى: ﴿لَو شِئتَ لَتخِذْتَ﴾ ـ وفي قراءة: «لَاتَّخَذْتَ» ـ ﴿علَيهِ أجرًا﴾: جُعْلاً حيثُ لم يُضيّفونا مع حاجتنا إلى الطعام. ٧٨ ـ ﴿قالَ﴾ له الخَضِر: ﴿هذا فِراقُ﴾ أي: وقتُ فراقِ ﴿بَينِي وبَينِكَ﴾. فيه إضافة «بين» إلى غير متعدّد، سوّغها تكريره بالعطف بالواو. ﴿سأُنَبِّئُكَ﴾ قبل فراقي لك ﴿بِتأوِيلِ ما لَم تَستَطِعْ علَيهِ صَبرًا﴾.

٧٩ ـ ﴿أمّا السَّفِينةُ فكانَتْ لِمَساكِينَ﴾ عشَرةٍ، ﴿يَعمَلُونَ في البَحرِ﴾ بها مُؤاجَرةً لها طلبًا للكسب، ﴿فأَرَدتُ أن أعِيبَها، وكانَ وَراءَهُم﴾ إذا رجَعوا أو أمامَهم الآنَ ﴿مَلِكٌ﴾ كافر، ﴿يأخُذُ كُلَّ سَفِينةٍ﴾ صالحةٍ ﴿غَصْبًا﴾. نصبُه على المصدر المُبيِّن لنوع الأخذ.

٨٠ ـ ﴿وأمّا الغُلامُ فكانَ أبَواهُ مُؤمِنَينِ، فخَشِينا أن يُرهِقَهُما طُغيانًا وكُفرًا﴾ ـ فإنه كما في حديث مُسلم طُبع كافرًا، ولو عاش لأرهقهما ذلك لمحبّتهما له يتبعانه في ذلك ـ.........

قولُهُ: (بِيَدِهِ) بأنْ مسحَهُ فقامَ، أو بعمارَتِهِ، أو بعَمودٍ عمدَهُ به، وقيلَ: نقضَهُ وبَناهُ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ المكيِّ والبصريِّ(١).

قولُهُ: (أي: وَقْتُ فِرَاقِ) الإشارَةُ إلى الفِراقِ الموعودِ بقولِه: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أو إلى الاعتِراضِ الثَّالثِ، أو: هذا الوقتُ وقتُه، وإضافةُ الفراقِ إلى البَينِ من إضافَةِ المصدَرِ إلى الظَّرفِ اتِّساعاً، وقد قُرِئَ على الأَصلِ(٢).

قولُهُ: (سَوَّغَهَا) وقيل: كرَّرَ الظَّرفَ ولم يقُل: «بينَنا» للتَّأكيدِ.

قولُهُ: (عَشَرَةٍ) إخوَةٍ.

قولُهُ: (بِهَا) أي: «بالسَّفينَةِ» كما في نسخَةٍ.

قولُهُ: (إِذَا رَجَعُوا) فـ﴿وَرَاءَ﴾ بمعنى: خَلْفَ.

قولُهُ: (كَافِرٌ) اسمُهُ: هُدَدُ بنُ بُدَد، كما في «البخاريِّ»(٣)، ذكرَهُ في «المبهماتِ»(٤).

قولُهُ: (صَالِحَةٍ) وقرئَ بها(٥).

قالَ تعَالى: (﴿أَنْ يُرْهِقَهُما﴾) أي: يغشيهِما.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢٥).

(٢) أي: بالتنوين، وقرأ به ابن أبي عبلة. «تفسير الزمخشري» (٢/ ٧٤٠).

(٣) رواه البخاري (٤٧٢٦).

(٤) وانظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٧٠).

(٥) وهي قراءة ابن عباس، رواه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

٨١ ـ ﴿فأَرَدْنـا أن يُبَدِّلَهُمـا﴾ ـ بالتشـديد والتخفيـف ـ ﴿رَبُّهُمـا خَيـرًا مِنـهُ زَكاةً﴾ أي: صلاحًـا وتُقًـى ﴿وأقـرَبَ﴾ منـه ﴿رُحْمًا﴾، بسـكون الحـاء وضمّهـا، أي: رحمةً. وهي البِرّ بوالديـه. فأبدلهما تعالى جاريـة تزوّجـتْ نبيًّا، فولـدتْ نبيًّا فهـدى الله ـ تعالى ـ بـه أُمّةً.

٨٢ ـ ﴿وأمّا الجِدارُ فكانَ لِغُلامَينِ يَتِيمَينِ في المَدِينةِ، وكانَ تَحتَهُ كَنزٌ﴾: مال مدفون من ذهب وفضّة ﴿لَهُما، وكانَ أبُوهُما صالِحًا﴾ فحُفِظا بصلاحه في أنفسهما ومالهما، ﴿فأرادَ رَبُّكَ أن يَبلُغا أَشُدَّهُما﴾ أي: إيناسَ رُشدهما، ﴿ويَستَخرِجا كَنزَهُما، رَحمةً مِن رَبِّكَ﴾: مفعول له عامله «أراد». ﴿وما فَعَلْتُهُ﴾، ....

قولُهُ: (بالتَّشدِيدِ) نافعٌ وبصريٌّ[1].

قولُهُ: (وَضَمِّهَا) شاميٌّ[2].

قولُهُ: (مِن ذَهَبٍ وفِضَّةٍ) رُوِيَ ذلك مرفُوعاً[3]، وإنَّما الذَّمُّ لمن لا يؤدِّي الحُقوقَ، وقيل: من كتُبِ العِلمِ.

وقيل: كانَ لوحاً من ذهبٍ مكتوبٌ فيه: عجبْتُ لمن يُؤمِنُ بالقَدرِ كيف يحزنُ، وعجبْتُ لمن يُؤمِنُ بالرِّزقِ كيف يتعَبُ، وعجبتُ لمن يؤمِنُ بالموتِ كيف يفرَحُ، وعجبتُ لمن يؤمِنُ بالحسابِ كيف يغفلُ، وعجبتُ لمن يعرفُ الدُّنيا وتقلُّبَها بأهلها كيف يطمئنُّ إليها، لا إله إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ.

قال البغويُّ[4]: وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرينَ، ورُوِيَ ذلك أيضاً مرفوعاً[5].

قلتُ: لا عجَبَ فإنَّ هذا كلَّهُ من القَدرِ الَّذي لا يتغيَّرُ لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ.

قولُهُ: (بصَلاحِهِ) أي: الأبِ، قيلَ: كان بينهُما وبين الَّذي حُفِظا فيه سبعَةُ آباءٍ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ سعيَهُ في ذلك كانَ لصلاحِهِ.

قولُهُ: (إِينَاسَ رُشْدِهِمَا) من الحُلُمِ وكمالِ الرَّأيِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢٧).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) رواه الترمذي (٣١٥٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٦٩٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٩٧) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

قال الحاكم: صحيح. وقال الذهبي: بل يزيد بن يوسف متروك.

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢١١).

(٥) رواه البزار في «مسنده» (٤٠٦٥)، وابن بشران في «الأمالي/ ج١» (٣٢١) بنحوه من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

أي: ما ذُكر من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، ﴿عَن أمرِي﴾ أي: اختياري، بل بأمر إلهام من الله. ﴿ذَلِكَ تأوِيلُ ما لَم تَسطِعْ علَيهِ صَبرًا﴾. يقال: اسطاعَ واستَطاعَ بمعنى: أطاقَ. ففي هذا وما قبلَه جمعٌ بين اللغتين. ونُوِّعَتِ العبارةُ في: فأردتُ، فأردنا، فأرادَ رَبُّكَ.

٨٣ ـ ﴿ويَسألُونَكَ﴾ أي: اليهودُ ﴿عَن ذِي القَرنَينِ﴾، اسمه الإسكندر، ولم يكن نبيًّا. ﴿قُلْ: سأتلُو﴾: سأقُصُّ ﴿علَيكُم مِنهُ﴾: من حاله ﴿ذِكرًا﴾: خبرًا. ٨٤ ـ ﴿إنّا مَكَّنّا لَهُ في الأرضِ﴾ بتسهيل السير فيها، ﴿وآتَيناهُ مِن كُلِّ شَيءٍ﴾ يَحتاج إليه ﴿سَبَبًا﴾:........................

قولُهُ: (مَا ذُكِرَ) أو: ما رأيتَهُ.

قولُهُ: (أي: اختِيَارِي) ورَأيِي.

قولُهُ: (بَلْ بأمْرٍ) ومَبنَى ذلك على أنَّه إذا تعارضَ ضرَرانِ يجبُ تحمُّلُ أهونِهما لدفعِ أعظمِهِما، وهو أصلٌ ممهَّدٌ، غير أنَّ الشَّرائعَ في تفاصيلِهِ مختلفةٌ.

هذا وفيه إشكالٌ قويٌّ على القولِ بأنَّه وليٌّ وأمرُه إلهاميٌّ، وهو أنَّه ليس للوليِّ أن يقتلَ نَفْساً بالإلهامِ أو بالكشفِ عن المقامِ، أو برؤيَةِ النبيِّ عليهِ السَّلامُ وأمرِهِ في المنامِ، ولم أرَ من تعرَّضَ له بالكلامِ، واللهُ أعلمُ بالمرامِ.

قالَ تعالى: (﴿ذَلِكَ﴾) أي: المذكورُ من الحِكَمِ الخفيَّةِ.

قولُهُ: (ونُوِّعَتِ) لاختلافِ حالِ العارِفِ في الالتِفاتِ إلى الوَسائطِ.

قولُهُ: (اليَهُودُ) أو مُشرِكو مكَّةَ.

قولُهُ: (الإِسكَنْدَرُ) روميٌّ مَلِكُ فارسَ والرُّومِ، وقيل: المشرقِ والمغربِ، ولذلك سُمِّي ذا القرنينِ، وقيل: لأنَّه انقرضَ في أيَّامِهِ قَرنانِ من النَّاسِ، وقيل: كانَ له قَرْنانِ؛ أي: ضفيرَتانِ، وقيل: كانَ لتاجِهِ قَرنانِ.

قولُهُ: (وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا) الجزمُ بالنَّفيِ غيرُ مُناسبٍ، إذ اختُلِفَ في نبوَّتِهِ مع الاتِّفاقِ على إيمانِهِ وصلاحِهِ، قالَ البغويُّ: والأكثَرونَ على أنَّهُ لم يكنْ نبيًّا[1].

قولُهُ: (مِنْ حَالِهِ) فالهاءُ لذي القرنَينِ، وقيلَ: للهِ.

قولُهُ: (بِتَسْهِيلِ السَّيرِ) أي: مكَّنَّا له أمرَهُ من التَّصرُّفِ فيها كيفَ شاءَ، فحُذِفَ المفعولُ.

قولُهُ: (يَحتَاجُ إِلَيهِ) أو أرادَهُ وتوجَّهَ إليه.

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢١٢).

طريقًا يُوصله إلى مُراده، ٨٥ ـ ﴿فاتَّبَعَ سَبَبًا﴾: سلك طريقًا نحو المَغرِب.

٨٦ ـ ﴿حَتَّى إذا بَلَغَ مَغرِبَ الشَّمسِ﴾: موضع غُروبها ﴿وَجَدَها تَغرُبُ في عَينٍ حَمِئةٍ﴾: ذات حمْأة، وهي الطين الأسود ـ وغروبها في العَين في رأيِ العين. وإلاّ فهي أعظم من الدنيا ـ ﴿ووَجَدَ عِندَها﴾ أي: العَينِ ﴿قَومًا﴾ كافرين. ﴿قُلْنا: يا ذا القَرنَينِ﴾ بإلهام، ﴿إمّا أن تُعذِّبَ﴾ القومَ بالقتل، ﴿وإمّا أن تَتَّخِذَ فِيهِم حُسنًا﴾ بالأسر. ٨٧ ـ ﴿قالَ: أمّا مَن ظَلَمَ﴾ بالشِّرك ﴿فَسوفَ نُعَذِّبُهُ﴾: نقتله،......

قولُهُ: (طَرِيقاً) أي: وصلَةً من العلمِ والقُدرةِ والآلةِ.

قولُهُ تعالى: (﴿فَأَتْبَعَ﴾) شاميٌّ وكوفيٌّ في المواضعِ الثَّلاثةِ من الإفعالِ، والباقِي من الافتِعالِ[1].

قولُهُ: (سَلَكَ) أو: فأرادَ بُلوغَ المغرِبِ فاتَّبعَ سبباً يوصلُهُ إليه.

قولُهُ: (الأَسوَدُ) وقرأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكرٍ: (حامِيةٍ)[2]؛ أي: حارَّةٍ، ولا تَنافيَ بينهُما؛ لجوازِ أن تكونَ العينُ جامِعةً للوصفَينِ.

قولُهُ: (فِي رَأْيِ العَينِ) إذ لم يكُنْ في مَطْمَحِ بصرِهِ غيرُ الماءِ، ولذلك قالَ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ ولم يقلْ: كانَت تغرُبُ.

قولُهُ: (كَافِرِينَ) قيلَ: كانَ لباسُهُم جلودَ الوحشِ وطعامُهُم ما لفظَهُ البحرُ.

قولُهُ: (بِإِلهَامٍ) أو على لسانِ نبيٍّ، أو بوَحيٍ على القولِ بأنَّهُ نبيٌّ.

قولُهُ تعالى: (﴿حُسْنًا﴾) أي: أمراً ذا حُسنٍ، وصفَ بالمصدَرِ مُبالغةً، وسمَّاهُ إحساناً في مقابَلةِ القتْلِ.

وقيلَ: بالإرشادِ وتعليمِ الشَّرائعِ، ويؤيِّدُه ما بعدَهُ؛ يعني: فخيَّرَهُ اللهُ بينَ أن يعذِّبَهُم أو يَدعوَهُم إلى الإيمانِ فاختارَ الدَّعوَةَ، كذا قالَ البيضاويُّ[3]، وفيهِ إشكالٌ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فالمعتمَدُ ما ذكرَهُ الشَّيخُ.

ثمَّ قالَ القاضي: ويجوزُ أن يكونَ ﴿أمَّا﴾ ﴿وأمَّا﴾ للتَّقسيمِ؛ أي: ليكن شأنُكَ معهُم إمَّا التَّعذيبَ وإمَّا الإحسانَ، فالأوَّلُ على مَن أصرَّ على الكُفرِ، والثَّاني لمن تابَ عنه، وهذا هو الظَّاهرُ، واللهُ أعلمُ بالسَّرائرِ.

قولُهُ: (بِقَتْلِهِ) أو أسرِهِ، فإنَّهُ نوعٌ من العَذابِ وإن كانَ إحساناً من وجْهٍ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢٨).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٩٢).

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ، فَيُعَذِّبُهُ عَذابًا نُكْرًا﴾، بسكون الكاف وضمّها أي: شديدًا في النار، ٨٨ ـ ﴿وأمّا مَن آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا فلَهُ جَزاءُ الحُسنَى﴾ أي: الجنّةُ ـ والإضافةُ للبيان. وفي قراءةٍ بنصبِ «جَزاءً» وتنوينِه. قال الفراء: نصبُه على التفسير، أي: لجهة النِّسبة ـ ﴿وسَنَقُولُ لَهُ مِن أمرِنا يُسْرًا﴾ أي: نأمره بما يسهُل عليه.

٨٩ ـ ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ نحو المَشرِق. ٩٠ ـ ﴿حَتَّى إذا بَلَغَ مَطلِعَ الشَّمسِ﴾: موضعَ طُلوعها ﴿وَجَدَها تَطلُعُ على قَومٍ﴾ هم الزَّنج، ﴿لَم نَجعَلْ لَهُم مِن دُونِها﴾ أي: الشمسِ ﴿سِترًا﴾ من لباس ولا سقف لأنّ أرضهم لا تحمل بناء، ولهم سُروب يغيبون فيها عِند طُلوع الشمس، ويظهرون عِند ارتفاعها. ﴿كَذلِكَ﴾ أي: الأمرُ كما قلنا.

قوله: (وضَمِّهَا) تقدَّمَ[1].

قولُهُ: (أي: الجَنَّةُ) أو: فله في الدَّارينِ جزاءُ فعلتِهِ الحُسنَى.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحَمزةَ والكسائيِّ وحَفصٍ[2].

قولُهُ: (بِنَصْبِ ﴿جزاءً﴾) على الحالِ؛ أي: فلَهُ المثوبَةُ الحُسنَى مجزيًّا بها، أو على المصدَرِ؛ أي: يُجزى بها جزاءً، أو التَّمييزِ وهو المرادُ بقولِهِ: (عَلَى التَّفْسِيرِ).

قولُهُ: (أَيْ: نَأْمُرُهُ... إلخ)، هذا حاصِلُ المعنى، والتَّقديرُ: ممَّا نأمرُهُ به سهلاً ميسَّراً غيرَ شاقٍّ، وتقديرُهُ: ذا يُسرٍ.

قولُهُ: (مَوْضِعَ طُلُوعِهَا) يعني: الموضِعَ الَّذي تطلعُ الشَّمسُ عليه أوَّلاً من معمورَةِ الأرضِ.

قولُهُ: (هُمُ الزَّنْجُ) بالفتحِ ويُكسَرُ، جيلٌ من السُّودانِ[3].

قولُهُ: (أي: الشَّمْسِ) أي: أمامَهَا.

قولُهُ: (سُرُوبٌ) السَّرَبُ: بيتٌ في الأرضِ، فالمنفيُّ هو السِّترُ المتعارَفُ من اللِّباسِ والأبنيَةِ[4].

قولُهُ: (أي: الأَمْرُ كَمَا قُلْنَا) أي: أمرُ ذي القرنَينِ كما وصَفناهُ من رفعَةِ المكانِ وبَسطِ المِلكِ، أو: أمرُهُ فيهم كأمرِهِ في أهلِ المغرِبِ.

---

(١) وقد نسبها لنافع وابن ذكوان وأبي بكر. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٢٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٣٠).

(٣) انظر: «مختار الصحاح» (ص: ١٣٧).

(٤) وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٥٩).

٩١ ـ ﴿وقَد أحَطْنا بِما لَدَيهِ﴾ أي: عِندَ ذي القرنينِ من الآلات والجُند وغيرهما ﴿خُبْرًا﴾: عِلمًا.

٩٢ ـ ٩٣ ـ ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إذا بَلَغَ بَينَ السَّدَّينِ﴾، بفتح السين وضمّها هنا وبعدُ: هما جبلان بمُنقطَع بلاد الترك، سدّ الإسكندر ما بينهما كما سيأتي، ﴿وَجَدَ مِن دُونِهما﴾ أي: أمامَهما ﴿قومًا، لا يَكادُونَ يَفقَهُونَ قَولاً﴾ أي: لا يَفهمونه إلاّ بعد بُطء. وفي قراءةٍ بضمّ الياء وكسر القاف. ٩٤ ـ ﴿قَالُوا: يا ذا القَرنَينِ، إنَّ يأجُوجَ ومأجُوجَ﴾ ـ بالهمز وتركه، هما اسمان أعجميّان لقبيلتين فلم ينصرفا ـ........

قولُهُ: (وغَيرِهِمَا) من العُددِ والأسبابِ.

قولُهُ: (عِلْماً) تعلَّقَ بظواهرِهِ وخَفاياهُ، والمرادُ: أنَّ كثرةَ ذلك بلغَتْ مبلَغاً لا يحيطُ به إلَّا علمُ اللَّطيفِ الخبيرِ، ونصبُهُ على المصدرِ إذ ﴿أَحَطْنَا﴾ بمعنى: خَبَرْنا.

قالَ تعَالى: (﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾) أي: طريقاً مُعترِضاً بين المشرقِ والمغربِ آخذاً من الجنوبِ إلى الشِّمالِ.

قولُهُ: (بِفَتحِ السِّينِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ وحفصٌ[١].

قولُهُ: (وبَعْدُ) ووافقَهُم فيما بعدُ حمزةُ والكسائيُّ[٢].

قولُهُ: (هُمَا جَبَلَانِ) عالِيانِ.

قولُهُ: (أي: أَمَامَهُمَا) الظَّاهرُ: وراءَهمَا، كما في «المدارِكِ»[٣].

قولُهُ: (إلَّا بَعْدَ بُطْءٍ) بالضمِّ، ضدُّ: الإسراعِ؛ لقلَّةِ فطنتِهِم، أو بجهدٍ ومشقَّةٍ من إشارةٍ ونَحوِها.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحَمزةَ والكسائيِّ[٤]؛ أي: لا يُفهِمونَ السَّامعَ كلامَهُم ولا يُبيِّنونَه؛ لأنَّ لغتَهُم غريبةٌ مجهولَةٌ.

قالَ تعَالى: (﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾) أي: قال مترجمُهُم، وفي مصحفِ ابنِ مسعودٍ: (قالَ الَّذينَ مِنْ دونِهِم)[٥].

قولُهُ: (بالهَمْزِ) عاصمٌ[٦].

قولُهُ: (لقَبِيلَتَينِ) من ولَدِ يافثَ بنِ نُوحٍ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٩).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣١٩).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٩).

(٥) وهي قراءة شاذة، انظر: «الكشف والبيان» (١٧/ ٢٦٧)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٢١٤).

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٩٩).

﴿مُفسِدُونَ في الأرضِ﴾ بالنهب والبغي عند خُروجهم إلينا. ﴿فهَل نَجعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾: جُعلاً من المال ـ وفي قراءة: «خَراجًا» ـ ﴿علَى أن تَجعَلَ بَينَنا وبَينَهُم سَدًّا﴾ حاجزًا، فلا يَصِلون إلينا؟

٩٥ ـ ﴿قالَ: ما مَكَّنِّي﴾ ـ وفي قراءة بنونين من غير إدغام ـ ﴿فِيهِ رَبِّي﴾ من المال وغيره ﴿خَيرٌ﴾ من خرجكم الذي تجعلونه لي. فلا حاجة بي إليه، وأجعلُ لكم السدّ تبرّعًا. ﴿فأعِينُوني بِقُوَّةٍ﴾ لِما أطلبه منكم، ﴿أجعَلْ بَينَكُم وبَينَهُم رَدْمًا﴾: حاجزًا حصينًا.

٩٦ ـ ﴿آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ﴾: قِطَعه على قَدْر الحِجارة التي يُبنى بها. فبنى بها وجعل بينها الحطبَ والفحم. ﴿حَتَّى إذا ساوَى بَينَ الصُّدُفَينِ﴾ ـ بضمِّ الحرفين وفتحِهما،........

قولُهُ: (بالنَّهْبِ) أي: في أرضِنا.

قولُهُ: (والبَغْيِ) والقتلِ، وإتلافِ الزَّرعِ، قيل: كانوا يخرُجونَ أيَّامَ الرَّبيعِ فلا يترُكونَ أخضرَ إلَّا أكلوهُ ولا يابساً إلَّا احتملوهُ، وقيلَ: كانوا يأكُلونَ النَّاسَ.

قولُهُ: (مِنَ المَالِ) أي: نخرِجُهُ من أموالِنا.

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحَمزةَ والكسائيِّ[١].

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) للمكِّيِّ[٢]؛ أي: ما جَعلَني فيه مَكيناً.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) من المِلْكِ.

قولُهُ: (لِمَا) الظَّاهرُ: بما أطلبُه ممَّا أتقوَّى به من الآلاتِ، أو: بقوَّةِ فعلِهِ.

قولُهُ: (حَاجِزًا) وهو أكبَرُ من السَّدِّ.

قولُهُ: (بَيْنَها) أي: الزُّبَرِ، والإيتاءُ بمعنى المناوَلةِ، ويدلُّ عليه روايةُ أبي بكرٍ بكسرِ التَّنوينِ موصُولةَ الهمزةِ[٣] على معنى: جيئوني بزبَرِ الحديدِ، والباءُ محذوفةٌ كحذفها في: أمرتُكَ الخيرَ[٤]، وفي الموضعِ الثَّاني حمزةُ وشعبةُ بخُلفٍ عنه[٥].

قولُهُ: (بِضَمِّ الحَرفَينِ) مكِّيٌّ وبصريٌّ وشاميٌّ[٦].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٠).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) أي: ﴿ردما ائتوني﴾، انظر المصدر السابق.

(٤) وانظر: «الحجة للقرء السبعة» (٥/ ١٧٦).

(٥) أي: ﴿قال ائتوني﴾. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠١).

(٦) انظر المصدر السابق.

وضمِّ الأول وسكونِ الثاني ـ أي: جانبَيِ الجبلين بالبناء، ووَضع المَنافخَ والنار حول ذلك، ﴿قالَ: انفُخُوا﴾، فنفخوا. ﴿حَتَّى إذا جَعَلَهُ﴾ أي: الحديدَ ﴿نارًا﴾ أي: كالنار ﴿قالَ: آتُونِيَ، أُفرِغْ علَيهِ قِطْرًا﴾ هو النحاس المُذاب، تنازعَ فيه الفعلان، وحُذف من الأوّل لإعمال الثاني.

فأفرَغَ النحاسَ المُذاب على الحديد المُحمَى، فدخل بين زُبَرِه فصارا شيئًا واحدًا. ٩٧ ـ ﴿فما اسطاعُوا﴾ أي: يأجوجُ ومأجوج ﴿أن يَظهَرُوهُ﴾: يعلوا ظهره لارتفاعه وملاسته، ﴿وما استَطاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾: خَرقًا لصلابته وسُمكه. ٩٨ ـ ﴿قالَ﴾ ذو القرنين: ﴿هذا﴾ أي السدُّ، أي: الإقدارُ عليه ﴿رَحْمَةٌ مِن رَبِّي﴾: نِعمةٌ لأنه مانع من خُروجهم. ﴿فإذا جاءَ وَعدُ رَبِّي﴾ بخُروجهم القريبِ من البعثِ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾: مَدكوكًا مبسوطًا. ....

قولُهُ: (وَضَمِّ الأَوَّلِ... إلخ)، شعبةُ[1].

قولُهُ: (ووَضَعَ) عطفٌ على: ﴿سَاوَى﴾، والمنفاخُ: الَّذي يُنفَخُ فيه.

قولُهُ: (والنَّارَ) عطفٌ على «المنافخ»، أو مرفوعٌ والجملةُ حاليَّةٌ، وجوابُ ﴿إِذَا﴾: ﴿قَالَ انفُخُوا﴾ والأمرُ للعَمَلةِ.

قولُهُ: (فَنَفَخُوا) قدَّرَهُ ليتعلَّقَ به ﴿حتَّى﴾.

قولُهُ: (أي: الحَدِيدَ) أو المنفوخَ فيه.

قولُهُ: (لإِعْمَالِ الثَّانِي) ودلالتِهِ عليه.

قولُهُ: (أي: يَأجُوجُ ومَأجُوجُ) بحذفِ التَّاءِ، وقرأَ حمزةُ بالإدغامِ[2].

قولُهُ: (يَعْلُو ظهرًا) ويعلوهُ بالصُّعودِ، أو: يظهَروا عليه، بالحَذفِ والإيصالِ.

قولُهُ: (وسُمْكِهِ) أي: ارتِفاعِهِ.

قولُهُ: (أي: الإِقْدَارُ) وفي البَيضاويِّ: أو الإقدارُ على تسويتِهِ[3]، وهو الأظهرُ.

قولُهُ: (نِعمَةٌ) على عبادِهِ.

قولُهُ: (بخُرُوجِهِم) أي: وقتُ وعدِهِ بخُروجِهِم، أو بقيامِ السَّاعةِ بأن شارَفَ يومُ القيامةِ.

قولُهُ: (مَبْسُوطاً) مُسَوًّى بالأرضِ، مصدرٌ بمعنى: مفعولٍ، وقرأَ الكوفيُّ: ﴿دكاء﴾ بالمدِّ[4] أي: أرضاً مستَويةً.

---

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٩٤).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٢).

﴿وكانَ وَعدُ رَبِّي﴾ بخُروجهم وغيره ﴿حَقًّا﴾: كائنًا.

٩٩ ـ ١٠٠ ـ ١٠١ ـ قال تعالى: ﴿وتَرَكْنا بَعضَهُم يَومَئذٍ﴾: يومَ خُروجهم ﴿يَمُوجُ في بَعضٍ﴾: يختلط به لكثرتهم، ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ﴾ أي: القرنِ للبعث، ﴿فجَمَعْناهُم﴾ أي: الخلائقَ في مكان واحد يوم القيامة ﴿جَمعًا، وعَرَضْنا﴾: قرّبنا ﴿جَهَنَّمَ يَومَئذٍ لِلكافِرِينَ عَرضًا، الَّذِينَ كانَتْ أعيُنُهُم﴾: بدلٌ من «الكافرين» ﴿في غِطاءٍ عَن ذِكرِي﴾ أي: القُرآنِ ـ فهم عُميٌ لا يهتدون به ـ ﴿وكانُوا لا يَستَطِيعُونَ سَمعًا﴾ أي: لا يقدرون أن يسمعوا من النبيّ ما يتلو عليهم بُغضًا له، فلا يؤمنون به.

١٠٢ ـ ﴿أفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أن يَتَّخِذُوا عِبادِي﴾ أي: ملائكتي وعِيسَى وعُزيرًا ﴿مِن دُونِي أَولِياءَ﴾: أربابًا؟ مفعول ثان لـ «يتّخذوا»، والمفعول الثاني لـ «حسب» محذوف. المعنى: أظنّوا أنّ الاتّخاذ المذكور لا يُغضِبني..

قولُهُ: (وغَيْرِهِم) الظَّاهرُ: وغيرِهِ[١].

قولُهُ: (كَائِناً) لا محالَةَ.

قولُهُ: (قَالَ تَعَالى) أشارَ[٢] إلى أنَّ ما قبلَهُ آخرُ حكايةِ قولِ ذي القرنَينِ.

قولُهُ: (يَوْمَ خُرُوجِهِم) ممَّا وراءَ السَّدِّ.

قولُهُ: (يَختَلِطُ بِهِ) أي: ببعضٍ مُزدَحمينَ في البلادِ، أو يموجُ بعضُ الخلقِ في بعضٍ فيضطَرِبونَ ويختلِطونَ، إنسُهُم وجنُّهُم حَيَارى، ويؤيِّدُه ﴿ونفخَ﴾ كذا قالَهُ البَيضاويُّ[٣].

وفيه: أنَّ بينَ النَّفختينِ ليس في الدَّارِ غيرُهُ ديَّارٌ: ﴿لِمَنِ الملكُ اليومَ للهِ الواحدِ القهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

قولُهُ: (قَرَّبْنَا) أو: أَبرَزناها وأظهَرناهَا.

قولُهُ: (أي: القُرآنِ) أو: عن آياتي الَّتي يُنظَرُ إليها فأُذكَرُ بالتَّوحيدِ والتَّعظيمِ.

قولُهُ: (مَا يَتْلُو عَلَيْهِم) أو: ذِكْرِي منهُ ومِن غيرِهِ.

قولُهُ: (أَرْبَاباً) أي: معبودِينَ.

قولُهُ: (لا يَغِيْظُنِي) وفي نسخةٍ: «لا يُغضِبُنِي»[٤]، أو: نافعُهُم.

---

(١) وهكذا هو في المتن.

(٢) في (ص): «إشارة».

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٩٤).

(٤) وكذا في النسخ المعتمدة في المتن.

ولا أُعاقبهم عليه؟ كلاّ. ﴿إنّا أعتَدْنا جَهَنَّمَ لِلكافِرِينَ﴾ هؤلاء وغيرِهم ﴿نُزُلاً﴾ أي: هي مُعدّة لهم كالمَنزلِ المُعدّ للضيف.

١٠٣ ـ ﴿قُلْ: هَل نُنَبِّئُكُم بِالأخسَرِينَ أعمالاً﴾ تمييزٌ طابَقَ المُميَّز، وبيَّنهم بقوله: ١٠٤ ـ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعيُهُم في الحَياةِ الدُّنيا﴾: بَطَلَ عملهم، ﴿وهُم يَحسِبُونَ﴾: يظنّون ﴿أَنَّهُم يُحسِنُونَ صُنعًا﴾: عملاً، يُجازَون عليه؟

١٠٥ ـ ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِم﴾: بدلائل توحيده من القُرآن وغيره ﴿ولِقائِهِ﴾ أي: وبالبعث والحِساب والثواب والعِقاب، ﴿فحَبِطَتْ أعمالُهُم﴾: بَطَلَتْ، ﴿فلا نُقِيمُ لَهُم يَومَ القِيامةِ وَزنًا﴾ أي: لا نجعل لهم قدرًا ـ ١٠٦ ـ ﴿ذلِكَ﴾ أي: الأمرُ ذلك الذي ذكرتُ من حُبوطِ أعمالهم وغيرِه ـ وابتدأ: ﴿جَزاؤُهُم جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا، واتَّخَذُوا آياتِي ورُسُلِي هُزُوًا﴾ أي: مهزوءًا بهما. ١٠٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ كانَتْ لَهُم﴾ في عِلم الله ﴿جَنّاتُ الفِردَوسِ﴾......................

وقولُهُ: (ولا أُعاقِبُهم) الظّاهرُ: أو لا أعاقبُهم عليه؛ أي: لا أعذِّبُهم به، فحُذِفَ المفعولُ الثّاني كما يحذَفُ الخبرُ للقرينَةِ، أو سدَّ ﴿أنْ يَتَّخِذُوا﴾ مسدَّ مفعولَيه.

قولُهُ: (كَلَّا) فالاستِفهامُ للإنكارِ.

قولُهُ: (كالنُّزُولِ) وفيه تهكُّمٌ وتنبيهٌ على أنَّ لهم وراءَهَا من العذابِ ما تُستحقَرُ دونَهُ.

قولُهُ: (طابَقَ المُمَيَّزَ) أي: جُمِع لتنوُّعِ أعمالِهم.

قولُهُ: (بَطَلَ عَمَلُهُم) لكُفرِهم وعُجْبِهم كالرَّهابنةِ، فإنَّهُم خَسِروا دُنياهُم وأخراهُم، ومحلُّهُ الرَّفعُ على الخبرِ لمحذوفٍ، أو الجرُّ على البدَلِ، أو النَّصبُ على الذَّمِّ.

قولُهُ: (يَظُنُّونَ) لعُجبِهِم واعتقادِهِم أَنَّهُم على الحَقِّ.

قولُهُ: (تَوحِيْدِهِ) ونبوَّتِهِ.

قولُهُ: (أَوْ غَيرِهِ) من الدَّلائِلِ المنصوبَةِ.

قولُهُ: (قَدْراً) أي: مِقداراً واعتباراً.

قولُهُ: (وَغَيْرِهِ) من عَدمِ إقامَةِ الوَزنِ، فـ ﴿ذلكَ﴾ خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ، والمشارُ إليه ما ذكرَ.

وقولُهُ: (وابْتَدَأَ) أي: بمبتدإٍ وخبرٍ آخَرَينِ، والجملةُ مبيِّنَةٌ للسَّابقِ.

قولُهُ: (فِي عِلْمِ اللهِ) أو: فيما سبَقَ من حُكمِ اللهِ ووعدِهِ، أو: صارَت.

أو: تكونُ، وعُبِّرَ بالماضي لتحقُّقِ وقوعِهِ.

هو وسَط الجنّة وأعلاها ـ والإضافة إليه للبيان ـ ﴿نُزُلاً﴾ منزلاً، ١٠٨ ـ ﴿خالِدِينَ فِيها، لا يَبغُونَ﴾: يطلبون ﴿عَنها حِوَلاً﴾ تحوّلاً إلى غيرها.

١٠٩ ـ ﴿قُلْ: لَو كانَ البَحرُ﴾ أي: ماؤه ﴿مِداداً﴾، هو ما يُكتب به، ﴿لِكَلِماتِ رَبِّي﴾ الدالّة على حِكَمه وعجائبه بأن تُكتب به ﴿لَنَفِدَ البَحرُ﴾ في كتابتها، ﴿قَبلَ أن تَنفَدَ﴾، بالتاء والياء: تَفرُغَ ﴿كَلِماتُ رَبِّي، ولَو جِئْنا بِمِثلِهِ﴾ أي: البحرِ ﴿مَدَداً﴾ زيادةً فيه لنفِدَ إذًا، ولم تَفرُغ هي.........

قولُهُ: (تَحَوُّلاً) إذ لا يجِدونَ أطيَبَ منها.

قولُهُ: (أي: مَاؤُهُ) بحَذفِ المضَافِ، أو بإطلاقِ المحلِّ وإرادَةِ الحالِّ، والمرادُ: جنسُ البحرِ، فقولُه تعالى: ﴿لَنَفِدَ البَحْرُ﴾ من بابِ وضعِ الظَّاهرِ موضِعَ الضَّميرِ تأكيداً، هذا ما خطَرَ لي، واللهُ أعلمُ.

ثمَّ اعلم أنَّهُ استشكلَهُ بعضُ فضلاءِ زمانِنا بأنَّ صاحبَ «القاموسِ» قال: البحرُ: الماءُ الكثيرُ[1]. فلا حاجَةَ إلى ارتِكابِ مَجازٍ في إطلاقِ البحرِ بأن يقالَ: أي: ماؤُهُ.

والجوابُ: أنَّ اللُّغويَّ أيضاً ارتكَبَ المعنى المجازيَّ في هذا المحلِّ، حيثُ أرادَ به محلَّ الماءِ الكثيرِ، وقد صرَّحَ بالمعنَى الحقيقيِّ في موضعٍ آخرَ بأن قالَ: البَرُّ ضدُّ البَحرِ، ولا شكَّ في عدمِ الضِّدِّيَّةِ بين الماءِ الكثيرِ والبَرِّ، بل الضِّدِّيَّةُ بين أرضٍ ذاتِ ماءٍ كثيرٍ وأرضٍ ذاتِ ماءٍ قليلٍ، أو بلا ماءٍ، وأيضاً لو كانَ إطلاقُهُ على الماءِ الكثيرِ حقيقةً لتحقَّقَ الفاصلةُ بينهما، والتَّحقيقُ عدمُها كما يشيرُ إليه قولُهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩] المفيدُ عمومَ ما في الأرضِ، ثمَّ الجبالُ ونحوُها تابعةٌ لهما، وممَّا يُصرِّحُ بصحَّةِ المعنى الَّذي قرَّرناهُ ما وردَ في الحديثِ الصَّحيحِ في البحرِ: «هو الطَّهُورُ ماؤُهُ»[2]، واللهُ أعلمُ.

قولُهُ: (فِي كِتَابَتِها) لأنَّ كلَّ جسمٍ مُتَناهٍ.

قولُهُ: (واليَاءِ) حمزةُ والكسائيُّ[3].

قولُهُ: (أي: البَحرِ) أي: الموجودِ.

قولُهُ: (لَنَفِدَ) لأنَّ مجموعَ المتَناهِيين مُتَناهٍ.

قولُهُ: (وَلَمْ تَفْرُغْ هِيَ) أي: ﴿كلماتُ ربِّي﴾ فإنَّهَا غيرُ متناهيَةٍ، فلا تنفدُ كعلمِهِ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٣٤٦).

(٢) رواه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (٥٩)، وابن ماجه (٣٨٦)، ومالك في «الموطأ» (ص: ٢٢) (١٢)، وأحمد في «مسنده» (٧٢٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٢).

ونصبُه على التمييز.

١١٠ ـ ﴿قُلْ: إنَّما أنا بَشَرٌ﴾ آدميّ ﴿مِثلُكُم، يُوحَى إلَيَّ أنَّما إلـٰهُكُم إلـٰهٌ واحِدٌ﴾. أنْ: المكفوفةُ بـ «ما» باقيةٌ على مصدريّتها. والمعنى: يُوحَى إليَّ وحدانيّةُ الإلـٰه. ﴿فمَن كانَ يَرجُو﴾: يأمُلُ ﴿لِقاءَ رَبِّهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿فلْيَعمَلْ عَمَلاً صالِحًا، ولا يُشرِكْ بِعِبادةِ رَبِّهِ﴾ أي: فيها بأن يُرائيَ ﴿أحَدًا﴾.

بَقِيَ فيه إشكالٌ: وهو أنَّ ﴿قَبْلَ﴾ ظرفٌ لنفادِ البحرِ، مضافٌ إلى نفادِ الكَلماتِ، فيَصيرُ المعنى: أنَّ الكلماتِ نافدَةٌ، ونفادُ البحرِ قبلَ نفادِها؟

فقيلَ: الآيةُ مـن بـابِ التَّمثيلِ وتنزيلِ غيرِ المتَناهي منزلةَ المتَناهي فَرْضاً تفهيميًّا للعِبادِ وتَقريباً لهم، والمرادُ: الكثرَةُ الغيرُ المتناهيةِ.

أقولُ: هذه الآيةُ من المتَشابهِ، والمحكَمُ هو قولُهُ تعالى في «لقمان»: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وفسَّرَ الشَّيخُ الكلماتِ هناك بالمعلوماتِ الَّتي هي غيرُ متناهيَةٍ، واللهُ أعلمُ بمرادِهِ.

ثمَّ رأيتُ الغزاليَّ ذكرَ في «منهاج العابدينَ»: أنَّ المفسِّرينَ يقولونَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ أنَّ هذهِ الكلماتِ الَّتي يقولُها اللهُ تعالى لأهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ باللُّطفِ والإكرامِ[1]، انتهى.

قلتُ: ومع هذا لا بُدَّ أن يقيَّدَ بكلامٍ خاصٍّ في مقامِ الاختِصاصِ[2]، وبه تحصُلُ المناسبةُ اللَّائحَةُ والملاءمةُ الواضِحةُ بين هذهِ الآيةِ وبين سابقَتِها، وكذا بينها وبينَ لاحقَتِها.

ثمَّ خطَرَ لي أنَّه يحتملُ أن يكونَ المرادُ في الآيةِ: قبلَ أن تنفدَ معاني كلِماتِ ربِّي، على حذفِ مُضافٍ، فتكونُ الآيةُ توطئةً لِمَا بعدها من قولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] واللهُ تعالى أعلمُ.

قولُهُ: (عَلَى التَّمْيِيزِ) عن ﴿مِثْلِهِ﴾.

قولُهُ: (المَكْفُوفَةُ) أي: عن العَملِ لفظاً.

قولُهُ: (يَأْمُلُ) أي: حُسنَ لقائِهِ، أو يخافُ المصيرَ إليه، لكنَّ العملَ على الرَّجاءِ أكملُ.

قوله: (بِأَنْ يُرَائِيَ) أو يطلبَ منه أجراً، والآيةُ جامعَةٌ لخُلاصَتَي العِلمِ والعمَلِ؛ وهما التَّوحيدُ والإخلاصُ، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «منهاج العابدين» (ص: ٣٥٠).

(٢) في (ص): «اختصاص».

سُورَةُ الكَهْفِ

ويقال: سورةُ أصحابِ الكهف، كما في حديثٍ أَخرجه ابنُ مردويه(١)، وروى البيهقيُّ(٢) من حديث ابن عباسٍ مرفوعاً أَنَّها «تُدعَى في التوراة الحائلة، تحول بين قارئها وبين النَّار» إلا أنَّه قال: إنَّه منكر.

وهي مكِّية كلُّها في المشهور، واختاره الداني، ورُوي عن ابن عباسٍ وابنِ الزبير ﷺ، وعدَّها بعضُهم من السُّوَر التي نزلت جملة؛ لما أَخرج الديلميُّ في «مسند الفردوس»(٣) عن أنس، عن النبيِّ ﷺ قال: «نزلت سورةُ الكهفِ جملة، معها سبعون ألفاً من الملائكة». وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس أنَّها مكِّية إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ الآية [٢٨] فمدنيّ، ورُوي ذلك عن قتادة. وقال مقاتلٌ: هي مكِّية إلَّا أولَها إلى «جرزاً» وقولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الآية: ١٠٧] إلى آخرها فمدنيّ.

وهي مئةٌ وإحدى عشرةَ آيةً عند البصريين، ومئةٌ وعشرةٌ عند الكوفيين، ومئةٌ وستٌّ عند الشاميين، ومئةٌ وخمسٌ عند الحجازيين.

ووجهُ مناسبةِ وضعها بعدَ الإسراء ـ على ما قيل ـ افتتاحُ تلك بالتسبيح وهذه بالتحميد، وهما مقترنان في الميزان وسائرِ الكلام، نحو: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨] فسبحانَ اللهِ وبحمده. وأيضاً تشابُه اختتام تلك وافتتاحِ هذه؛ فإنَّ في كلٍّ منهما حمداً، نعم فرِّق بينهما بأنَّ الحمدَ الأوَّلَ ظاهرٌ في الحمد الذاتيّ، والحمدَ المفتتحَ به في هذه يدلُّ على الاستحقاق الغيرِ الذاتي.

---

(١) عن عائشة ﷺ مرفوعاً، كما في الدر المنثور ٤/ ٢٠٩، وورد ذلك أيضاً في حديث النواس بن سمعان عند الترمذي (٢٢٤٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٧١٧).

(٢) في الشعب ٢/ ٤٧٥.

(٣) برقم (٦٨١٢)، وفي إسناده أبو بكر الهذلي، وهو متروك الحديث كما في التقريب.

وقال الجلالُ السيوطيُّ[(١)] في ذلك: إنَّ اليهودَ أمروا المشركين أن يسألوا النبيَّ ﷺ عن ثلاثةِ أشياء: عن الرُّوح، وعن قصَّة أصحابِ الكهف، وعن قصة ذي القَرنين، وقد ذُكر جوابُ السؤالِ الأوَّل في آخر السورةِ الأولى، وجوابُ السؤالين الآخرَين في هذه، فناسب اتصالَهما، ولم تُجمع الأجوبة الثلاثةُ في سورة لأنَّه لم يقع الجوابُ عن الأوَّل بالبيان، فناسب أن يُذكرَ وحدَه في سورة، واختيرت سورةُ الإسراءِ لما بين الروحِ وبين الإسراء من المشاركة بأنَّ كلًّا منهما ممَّا لا يكاد تصلُ إلى حقيقته العقول. وقيل: إنمَّا ذكر هناك لِمَا أنَّ الإسراء متضمِّن العروجَ إلى المحلِّ الأرفع، والروحَ متصفةٌ بالهبوط من ذلك المحلّ؛ ولذا قال ابنُ سينا فيها:

هبطت إليك من المحلِّ الأرفعِ ورقاءُ ذات تعزُّز وتمنُّعِ[(٢)]

ثم قال: ظهر لي وجهٌ آخر، وهو أنَّه تعالى لمَّا قال في تلك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الآية: ٨٥] والخطابُ لليهود، استظهر على ذلك بقصَّة موسى نبيِّ بني إسرائيلَ مع الخَضِر عليهما السلام، التي كان سببَها ذِكرُ العلمِ والأعلم وما دلَّت عليه من كثرة معلوماتِ الله تعالى التي لا تحصَى، فكانت هذه السورةُ كإقامة الدليلِ لمَا ذُكر من الحكم في تلك السورة. وقد ورد في الحديث أنَّه لمَّا نزل (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) قال اليهود: قد أُوتينا التوراةَ فيها علمُ كلِّ شيء، فنزل ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ الآية [الكهف: ١٠٩] فتكون هذه السورةُ من هذه الجهةِ جواباً عن شُبهة الخصوم فيما قرِّر في تلك، وأيضاً لمَّا قال سبحانه هناك: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الآية: ١٠٤] شرح ذلك هنا وبَسَطه بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾[الآية: ٩٨] إلى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ [الآية:٩٩-١٠٠] اهـ. وللمناسبة أوجُهٌ أُخَرُ تظهر بأدنَى تأمُّل.

وأمَّا فضلُها فمشهور.

---

(١) في تناسق الدرر ص٦٤.

(٢) وفيات الأعيان ٢/ ١٦٠، والخزانة ١١/ ١٦٨.

وقد أَخرج ابنُ مردويه عن ابن عمرَ مرفوعاً: «من قرأ سورةَ الكهفِ في يوم الجمعة، سطع له نورٌ من تحت قدمِه إلى عَنان السماء، يُضيءُ له إلى يومِ القيامة، وغُفر له ما بينَ الجُمُعتين»[١].

وروى غيرُ واحدٍ عن أبي سعيدٍ الخُدْري: مَن قرأ سورةَ الكهفِ في يوم الجمعة، أَضاء له من النُّور ما بينه وبينَ البيتِ العتيق[٢].

وكان الحسنُ بن عليٍّ ﵄ - كما أَخرج أبو عُبَيدٍ والبيهقيُّ عن أمِّ موسى - يقرؤها كلَّ ليلة[٣].

وأخرج ابنُ مردويه عن عبد اللهِ بن مغفَّلٍ مرفوعاً: «البيتُ الذي تُقرأ فيه سورةُ الكهفِ لا يدخله شيطانٌ تلك الليلة»[٤].

وإلى سُنِّية قراءتِها يومَ الجمعةِ وكذا ليلتَها ذهب غيرُ واحدٍ من الأئمَّة، وقالوا بندب تكرارِ قراءتها.

وأخرج أحمدُ، ومسلم، وأبو داودَ، والتِّرمذي، والنَّسائي، وابنُ حِبَّان[٥]، وجماعةٌ عن أبي الدَّرداء، عن النبيِّ ﷺ: «مَن حفظ عشرَ آياتٍ من أوَّل سورةِ الكهف، عُصم من فتنة الدجَّال». وفي روايةٍ أخرى عنه رواها أحمدُ، ومسلمٌ، والنسائيّ، وابن حبانَ أيضاً[٦] قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ العشرَ الأواخرَ من سورة الكهف، عُصِم من فتنة الدجَّال».

---

(١) ذكره ابن كثير في أول تفسير سورة الكهف وقال: في رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف.
(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٣١، والدارمي (٣٤١٠)، وأخرجه مرفوعاً الحاكم ٢/ ٣٦٨ وقال: صحيح الإسناد.
(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٣٢، وشعب الإيمان ٢/ ٤٧٥.
(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٠٩.
(٥) مسند أحمد (٢١٧١٢)، وصحيح مسلم (٨٠٩)، وسنن أبي داود (٤٣٢٣)، والسنن الكبرى (١٠٧٢١)، وصحيح ابن حبان (٧٨٥).
(٦) مسند أحمد (٢٧٥١٦)، وصحيح مسلم (٨٠٩)، والسنن الكبرى (١٠٧٢٠)، وصحيح ابن حبان (٧٨٦).

وأخرج الترمذيُّ وصحَّحه[1] عنه مرفوعاً: «مَن قرأ ثلاثَ آياتٍ من أوَّل الكهفِ عُصم...» إلخ.

وجاءَ في حديثٍ أَخرجه ابنُ مردويه عن عائشةَ رضي الله عنها مرفوعاً أنَّ: «مَن قرأ الخمسَ الأواخرَ منها عند نومِه، بعثه اللهُ تعالى أيَّ الليلِ شاء»[2] وقد جرَّبت ذلك مِراراً، فلْيُحفظ، واللهُ تعالى الموفِّق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمدٍ ﷺ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكاملَ الغنيَّ عن الوصف بالكمال، المعروفَ بذلك من بين سائرِ الكتب، الحقيقَ باختصاص اسمِ الكتاب به. وهو إمَّا عبارةٌ عن جميع القرآن، ففيه تغليبُ الموجودِ على المترقَّب، وإما عبارةٌ عن الجميع المنزَّل حينئذ، فالأمرُ ظاهر.

وفي وصفه تعالى بالموصول إشعارٌ بعِلِّية ما في حيِّز الصلةِ لاستحقاق الحمدِ الدالِّ عليه اللامُ، على ما صرَّح به ابنُ هشامٍ وغيرُه، وإيذانٌ بعِظَم شأنِ التنزيلِ الجليل، كيف لا، وهو الهادي إلى الكمال الممكنِ في جانبَي العلمِ والعمل.

وفي التعبير عن الرَّسول ﷺ بالعبد مضافاً إلى ضميره تعالى من الإشارة إلى تعظيمه عليه الصلاة والسلام ـ وكذا تعظيم المنزَّل عليه ـ ما فيه. وفيه أيضاً إشعارٌ بأنَّ شأن الرسولِ أن يكونَ عبداً للمرسِل، لا كما زعمت النصارَى في حقِّ عيسى عليه السلام.

وتأخيرُ المفعولِ الصريح عن الجارِّ والمجرورِ مع أن حقَّه التقديمُ عليه ليتَّصلَ به قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ﴾ أي: للكتاب ﴿عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ أي: شيئاً من العِوَج باختلال اللفظِ من جهة الإعراب، ومخالفةِ الفصاحةِ وتناقُض المعنى، وكونِه مشتملاً على ما ليس بحقّ، أو داعياً لغير اللهِ تعالى.

---

(١) في جامعه (٢٨٨٦).

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٠٩، وضعَّف سنده الكناني في تنزيه الشريعة ١/ ٣٠٢.

والعِوَج ـ وكذا العَوَج ـ: الانحرافُ والميلُ عن الاستقامة، إلَّا أنَّه قيل: هو بكسر العينِ ما يُدرَك بفتح العين، وبفتح العينِ ما يُدرَك بفتح العين[1]، فالأوَّل: الانحرافُ عن الاستقامة المعنويةِ التي تُدرَك بالبصيرة، كعِوَج الدِّين والكلام، والثاني: الانحرافُ عن الاستقامة الحسيةِ التي تُدرَك بالبصر، كعَوَج الحائطِ والعُود.

وأورد عليه قولُه تعالى في شأن الأرض: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧] فإنَّ الأرضَ محسوسة، واعوجاجُها وكذا استقامتُها مما يدرك بالبصر، فكان ينبغي ـ على ما ذُكر ـ فتحُ العين.

وأُجيب بأنَّه لمَّا أُريد به هنا ما خفي من الاعوجاجِ حتى احتاج إثباتهُ إلى المقاييس الهندسيةِ المحتاجةِ إلى إعمال البصيرة، أُلحق بما هو عقليٌّ صِرْف، فأُطلق عليه ذلك لذلك.

وتعقِّب بأنَّ«لا ترى» ظاهرٌ في أنَّ المنفيَّ ما يُدرَك بالبصر، فيحتاج إلى أن يرادَ به الإدراك.

وعن ابن السِّكِّيت أنَّ المكسورَ أعمُّ من المفتوح[2]. واختار المرزوقيُّ في شرح «الفصيح» أنَّه لا فرقَ بينهما.

﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيماً، كما أخرجه ابنُ المنذر عن الضحَّاك، ورُوي أيضاً عن ابن عباس. والمرادُ مما قبلُ أنَّه لا خللَ في لفظه ولا في معناه، والمرادُ من هذا أنه معتدلٌ لا إفراطَ فيما اشتمل عليه من التكاليفِ حتى يشقَّ على العباد، ولا تفريطَ فيه بإهمالِ ما يحتاج إليه حتى يحتاجَ إلى كتابٍ آخَرَ، كما قال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨] ولذا كان آخرَ الكتبِ المنزَّلَ على خاتَم الرسلِ عليه الصلاة والسلام.

وقيل: المرادُ منه ما أُريد ممَّا قبله، وذَكَره للتأكيد.

وقال الفرَّاء[3]: المراد: قيِّماً على سائر الكتبِ السماويَّة شاهداً بصحَّتها.

---

(١) جاء في هامش الأصل: «ما» الأولى نافية و«ما» الثانية موصولة. اهـ منه.

(٢) ينظر إصلاح المنطق ص ١٨٥.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٣٣.

وقال أبو مسلم: المراد: قيِّماً بمصالحِ العباد، متكفِّلاً بها وببيانها لهم؛ لاشتماله على ما ينتظم به المعاشُ والمعاد.

وهو على هذين القولَين تأسيسٌ أيضاً لا تأكيد، فكأنَّه قيل: كتاباً صادقاً في نفسه مصدِّقاً لغيره، أو: كتاباً خالياً عن النقائص حالياً بالفضائل.

وقيل: المرادُ على الأخير أنه كاملٌ في نفسه ومكمِّل لغيره.

ونصبه بمضمَر، أي: جعله قيِّماً، على أنَّ الجملةَ مستأنفة، أو: وجعله قيِّماً، على أنَّها معطوفةٌ على ما قبل، إلَّا أنَّه قيل: إنَّ حذفَ حرفِ العطفِ مع المعطوف تكلُّف. وكان حفصٌ يسكت على «عوجا» سكتةً خفيفةً ثم يقول: «قيماً»[(١)].

واختار غيرُ واحدٍ أنَّه على الحالِ من الضمير في «له»، أي: لم يجعلْ له عِوَجاً حالَ كونِه مستقيماً. ولا عِوَجَ فيه على ما سمعتَ أوَّلاً من معنى المستقيم؛ إذ محصِّله أنَّه تعالى صانه عن الخَلَل في اللفظ والمعنى حالَ كونِه خالياً عن الإفراط والتفريط، وكذا على القولَين الأخيرين.

نعم قيل: إنَّ جَعْلَه حالاً من الضمير مع تفسير المستقيم بالخالي عن العِوَج ركيك. وتعقَّبه بعضُهم بأنَّه تندفع الركاكةُ بالحمل على الحالِ المؤكِّدة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. وفيه بحث.

وجوِّز أن يكونَ حالاً من الكتاب. واعتُرض بأنَّه يلزم حينئذٍ العطفُ قبل تمامِ الصِّلة؛ لأنَّ الحالَ بمنزلة جزءٍ منها. وأُجيب بأنَّه يجوز أن يجعلَ «ولم يجعل» إلخ من تتمَّة الصلةِ الأولى على أنَّه عطفٌ بياني، حيث قال تعالى: (أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ) الكاملَ في بابه [ثم][(٢)] عقَّبه بقوله سبحانه: (وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا) فحينئذٍ لا يكون الفصلُ قبل تمامِ الصِّلة، وهو نظيرُ قولِه تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] على قول.

وأيضاً يجوز أن يكونَ الواوُ في «ولم يجعل» للحال، والجملةُ بعده حالٌ من «الكتاب» كـ «قيِّماً». واختاره الأصبهانيّ.

---

(١) التيسير ص١٤٢، والنشر٢/ ٣١٠.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

وقال أبو حيَّان(١): إنَّ ذاك على مذهب مَن يجوِّز وقوعَ حالَين من ذي حالٍ واحدٍ بغير عطف، وكثيرٌ من أصحابنا على منعه.

وقال آخَر: إنَّ قياسَ قولِ الفارسيِّ في الخبر أنَّه لا يتعدَّد مختلفاً بالإفراد والجملية أن يكونَ الحالُ كذلك.

وأُجيب بأنَّه غيرُ وارد؛ إذ ما ذكره الفارسيُّ خلافُ مذهبِ الجمهور، مع أنَّه قياسٌ مع الفارق، فلا يُسمَع. وكذا ما ذكره أبو حيَّانَ عن الكثير خلافُ المعوَّل عليه عند الأكثر. نعم فِراراً من القيل والقال جعل بعضُهم الواوَ للاعتراض والجملةَ اعتراضية، وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، والأصل: الحمدُ لله الذي أنزل على عبده الكتابَ قيِّماً ولم يجعل له عِوَجاً. ورُوي القولُ بالتقديم والتأخيرِ عن ابن عباسٍ ومجاهد. وذَكَرَ السمينُ أنَّ ابن عباسٍ حيث وقعت جملةٌ معترضةٌ في النَّظم يجعلها مقدَّمةً من تأخير(٢)، ووجَّه ذلك بأنَّها وقعت بين لفظَين مرتبطين، فهي في قوَّة الخروج من بينهما، ولما كان «قيماً» يُفيد استقامةً ذاتيةً أو ثابتةً(٣)؛ لكونه صفةً مشبَّهة أوصيغةَ(٤) مبالغة، وما من شيءٍ كذلك إلَّا وقد يتوهَّم فيه أدنَى عِوَج، ذُكر قولُه تعالى: «ولم يجعل» إلخ للاحتراس، وقدِّم للاهتمام، كما في قوله:

أَلا يا اسلمي يا دارَ ميٍّ على البِلى ... ولا زال منهلًّا بجرعائك القَطْرُ(٥)

ومن هنا يُعلَم أنَّ تفسير القيِّم بالمستقيم بالمعنى المتبادِر، وأنَّ قول الزمخشريِّ: فائدةُ الجمعِ بينه وبين نفي العِوَج التأكيدُ، فرُبَّ مستقيمٍ مشهودٍ له بالاستقامة ولا يخلو من أدنَى عِوَج عند السَّبر والتصفُّح(٦) = غيرُ ذي عِوَجٍ عند السَّبر والتصفُّح، وأنَّه لا يَرِد قولُ الإمام(٧): إنَّ قولَه تعالى: «لم يجعل له عوجا»

---

(١) في البحر٦/ ٩٦.

(٢) ينظر الدر المصون ٦/ ٦٧-٦٨، ونقله بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٧٣، وما بعده منه.

(٣) في حاشية الشهاب: أو تابعة، وهو الأنسب بالسياق.

(٤) في الأصل و(م): وصيغة، والمثبت من حاشية الشهاب.

(٥) البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه١/ ٥٥٩.

(٦) في الكشاف٢/ ٤٧٢.

(٧) في التفسير الكبير٢١/ ٧٤.

يدلُّ على كونه مكمَّلاً في ذاته، وقولَه سبحانه: «قيماً» يدلُّ على كونه مكمِّلاً لغيره، فثبت بالبرهان العقليِّ أنَّ الترتيب الصحيحَ كما ذكره اللهُ تعالى، وأنَّ ما ذكروه من التقديم والتأخيرِ فاسدٌ يمتنع العقلُ من الذهاب إليه. انتهى.

ولَعمري إنَّ هذا الكلامَ لا ينبغي من الإمام إنْ صحَّ عنده أنَّ القولَ المذكورَ مرويٌّ عن ابن عباسٍ ومجاهد؛ فإنَّ الأولَ تَرجمانُ القرآن وناهيكَ به جلالةً ومعرفةً بدقائق اللِّسان، وقد قيل في الثاني: إذا جاءك التفسيرُ عن مجاهدٍ فحسْبُك.

وقال صاحبُ«حلّ العقد»: يمكن أن يكونَ «قيِّماً» بدلاً من قوله تعالى: «ولم يجعل له عوجاً» قال أبو حيَّان(١): ويكون حينئذٍ بدلَ مفردٍ من جملة، كما قالوا في: عرفتُ زيداً أبو مَن هو: إنَّه بدلُ جملةٍ من مفرَد، وفي جواز ذلك خلاف.

هذا وزعم بعضُهم أنَّ ضميرَ«له» عائدٌ على«عبده» وحينئذٍ لا يتأتَّى جميعُ التخاريجِ الإعرابيةِ السابقة.

وقرأ أَبانُ بن تَغلب(٢): «قِيَماً»بكسر القاف وفتح الياء المخفَّفة. وفي بعض مصاحفِ الصحابة: «ولم يَجعلْ له عِوَجاً لكنَّه قيِّماً»(٣) وحُمل ذلك على أنَّه تفسيرٌ لا قراءة.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ متعلِّق بـ «أَنزلَ»، واللامُ للتعليل، واستدلَّ به مَن قال بتعليل أفعالِ الله تعالى بالأغراض، كالسلف والماتُريدية، ومَن يأبَى ذلك يجعلها لامَ العاقبة، وزعم الحوفيُّ أنَّه متعلِّق بـ «قيِّماً». وليس بقيِّم.

والفاعلُ ضميرُ الجلالة، وكذا في الفعلَين المعطوفين عليه.

وجوِّز أن يكونَ الفاعلُ في الكلِّ ضميرَ «الكتاب»، أو ضميرَه ﷺ.

وأَنذر يتعدَّى لمفعولَين، قال تعالى: ﴿أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠] وحُذف هنا المفعولُ الأوَّل واقتُصر على الثاني، وهو قولُه تعالى: ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ إيذاناً بأنَّ

(١) في البحر٦/ ٩٦.
(٢) في الأصل و(م): ثعلب، والقراءة في القراءات الشاذة ص٧٨، والدر المصون ٧/ ٤٣٤.
(٣) في تفسير الطبري١٥/ ١٤١، والبحر٦/ ٩٦، والدر المصون ٧/ ٤٣٥: «لكن جعله قيِّماً».

ما سيق له الكلامُ هو المفعولُ الثاني، وأنَّ الأولَ ظاهرٌ لا حاجةَ إلى ذِكره، وهو: الذين كفروا، بقرينةِ ما بعدُ، والمراد: الذين كفروا بالكتاب.

والظاهرُ أنَّ المرادَ من البأس الشديدِ عذابُ الآخرةِ لا غير. وقيل: يحتمل أن يندرجَ فيه عذابُ الدنيا.

﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ أي: صادراً مِن عندِه تعالى نازلاً من قِبَله بمقابلة كفرِهم، فالجارُّ والمجرورُ متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً ثانيةً للبأس.

و«لَدُن» هنا بمعنى عند كما رُوي عن قتادة. وذكر الراغبُ[1] أنه أخصُّ منه؛ لأنَّه يدلُّ على ابتداءِ نهاية، نحو: أقمتُ عنده من لَدُن طلوعِ الشمسِ إلى غروبها، وقد يوضع موضعَ عند، وقال بعضُهم: إنَّ «لدن» أبلغُ من عند وأخصّ. وفيه لغات. وقرأ أبو بكرٍ عن عاصمٍ بإشمام الدال[2]، بمعنى تضعيفِ الصوتِ بالحركة الفاصلةِ بين الحرفين، فيكون إخفاءً لها، وبكسر النونِ لالتقاء الساكنين، وكسرِ الهاءِ للإتْباع.

ويُفهَم من كلام بعضِهم أنَّه قرأ بالإسكان مع الإشمام، بمعنى الإشارةِ إلى الحركة بضمِّ الشفتين مع انفراجٍ بينهما، فاستُشكل في «الدُّر المصون»[3] وغيرِه بأنَّ هذا الإشمامَ إنما يتحقَّق في الوقف على الآخِر، وكونُه في الوسَط كما هنا لا يتصوَّر؛ ولذا قيل: إنَّه يؤتَى به هنا بعدَ الوقفِ على الهاء.

ودُفع الاعتراضُ بأنَّه لا يدلُّ حينئذٍ على حركة الدال، وقد علِّل به بأنَّه متعيِّن؛ إذ ليس في الكلمة ما يصلحُ أن يشارَ إلى حركته غيرُها. ولا يخفَى ما فيه، وما قدَّمناه حاسمٌ لمادَّة الإشكال.

وقرأ الجمهورُ بضمِّ الدالِ والهاءِ وسكونِ النون، إلَّا أنَّ ابنَ كثيرٍ يصل الهاءَ بواو، وغيرُه لا يَصِل[4].

---

(١) في المفردات (لدن).

(٢) التيسير ص١٤٢، والنشر٢/ ٣١٠.

(٣) ٧/ ٤٣٨.

(٤) التيسير ص١٤٢، والنشر٢/ ٣١٠.

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ بالنصب عطفٌ على «ينذر» وقُرئ شاذاً بالرفع(١).

وقرأ حمزةُ والكِسائي: «ويَبْشُرَ» بالتخفيف(٢).

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدِّقين بالكتاب، كما يُشعر به ـ وكذا بما تقدَّم ـ ذكرُ ذلك بعد الامتنانِ بإنزال الكتاب (ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ) أي: الأعمالَ الصالحةَ التي بيِّنت في تضاعيفه.

وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ في الصِّلة للإشعار بتجدُّد العملِ واستمراره، وإجراءُ الموصولِ على موصوفه المذكورِ لمَا أنَّ مدارَ قبولِ العمل الإيمان.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم بمقابلة إيمانهم وعملِهم المذكورِ ﴿أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ هو ـ كما قال السُّدِّي وغيرُه ـ الجنة، وفيها من النعيم المقيم والثوابِ العظيم ما فيها، ويؤيِّد كونَ المرادِ به الجنةَ ظاهرُ قولهِ تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ أي: مقيمين في الأجر ﴿أَبَدًا ۝٣﴾ من غير انتهاءٍ لزمان مُكثهم.

ونصبُ «ماكثين» على الحالِ من الضمير المجرورِ في«لهم» والظرفان متعلِّقان به، وتقديمُ الإنذارِ على التبشير لإظهار كمالِ العناية بزجر الكفارِ عمَّا هم عليه، مع مراعاة تقديمِ التخليةِ على التحلية.

وتكريرُ الإنذارِ بقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ متعلِّقاً بفرقةٍ خاصَّة ممن عمَّه الإنذارُ السابقُ من مستحقِّي البأسِ الشديد؛ للإيذان بكمال فظاعةِ حالهم، لغاية شناعةِ كفرِهم وضلالهم، كما ينبئُ عنه ما بعد، أي: ويُنذرَ مِن بين هؤلاء الكفرةِ المتفوِّهين بمثل هاتيك العظيمةِ خاصَّة، وهم العربُ القائلون: الملائكةُ بناتُ اللهِ تعالى، واليهودُ القائلون: عُزَير ابنُ اللهِ سبحانه، والنصارى القائلون: المسيحُ ابن اللهِ عزَّ وجلّ.

وتركُ إجراءِ الموصولِ على الموصوف كما في قوله تعالى: (وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) إلخ للإيذان بكفاية ما في حيِّز الصلةِ في الكفر على أقبح الوجوه؛ وإيثارُ صيغةِ الماضي في الصلة؛ للدَّلالة على تحقُّق صدورِ تلك الكلمةِ القبيحةِ عنهم فيما سبق.

---

(١) البحر٦/ ٩٦.

(٢) التيسير ص٨٧، والنشر٢/ ٢٣٩.

وجعل بعضُهم المفعولَ المحذوفَ فيما سلف عبارةً عن هذه الطائفة، وفي الآية صنعةُ الاحتباك، حيث حُذف من الأوَّل ما ذُكر فيما بعد، وهو المنذَر، وحُذف مما بعدُ ما ذُكر في الأوَّل، وهو المنذَرُ به.

وتعقِّب بأنَّه يؤدِّي إلى خروج سائرِ أصناف الكفرةِ عن الإنذار والوعيد.

وأُجيب بأنَّه يُعلَم إنذارُ سائرِ الأصناف ودخولُهم في الوعيد من باب الأَوْلى؛ لأنَّ القول بالتبنِّي ـ وإن كَبُرَ كلمةً ـ دون الإشراك، وفيه نظر.

وقدَّر ابنُ عطية[1]: العالَم، وأبو البقاءِ[2]: العباد، فيعمُّ المؤمنين أيضاً.

وتعقِّب بأنَّ التعميمَ يقتضي حملَ الإنذارِ على معنى مجرَّد الإخبار بالأمر الضارِّ من غير اعتبارِ حلولِ المنذَر به على المنذَر، كما في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: ٢] وهو يفضي إلى خلوِّ النظمِ الكريم عن الدَّلالة على حلول البأسِ الشديدِ على مَن عدا هذه الفرقة، فتأمَّل.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي: باتِّخاذه سبحانه وتعالى ولداً ﴿مِنۡ عِلۡمٍ﴾ مرفوعُ المحلِّ على الابتداء، أو الفاعلية، لاعتماد الظرف. و«مِن» مزيدةٌ لتأكيد النفي، والجملةُ حاليَّة، أو مستأنفة، لبيان حالِهم في مقالهم، أي: ما لهم بذلك شيءٌ من العلم أصلاً، لا لإخلالهم بطريقِ العلمِ مع تحقُّق المعلومِ أو إمكانه، بل لاستحالته في نفسه، ومعها لا يستقيم تعلُّق العلم.

واستُظهر كونُ ضميرِ «به» عائداً على الولد، وعدمُ العلم وكذا حالُ الجملةِ على ما سمعت. وزعم المهدويُّ أنَّ الجملةَ على هذا صفةٌ لـ «ولداً». وليس بشيء.

وجوِّز أن يعودَ على القول المفهومِ من«قالوا» أي: ليس قولُهم ذلك ناشئاً عن علمٍ وتذكُّرٍ ونظرٍ فيما يجوز عليه تعالى وما يمتنع.

وقال الطبريّ[3]: هو عائدٌ على الله تعالى، على معنى: ليس لهم علمٌ بما يجوز عليه تعالى وما يمتنع ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ الذين قالوا مِثلَ ذلك ناسبين التبنِّي إليه

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٥.

(٢) في الإملاء ٣/ ٥٠٤.

(٣) في تفسيره ١٥/ ١٤٧.

عزَّ وجلّ. والتعرُّضُ لنفي العلمِ عنهم لأنَّهم قدوةُ هؤلاء.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: عَظُمت مقالتُهم هذه في الكفرِ والافتراء؛ لمَا فيها من نسبته تعالى إلى ما لا يكاد يليقُ بكبريائه جلَّ وعلا، وكَبُر ـ وكذا كلُّ ما كان على وزن فَعُلَ موضوعاً على الضمّ، كظَرُف، أو محوَّلاً إليه من فَعَلَ أو فَعِل ـ ذهب الأَخفش[1] والمبرِّد إلى إلحاقه بباب التعجُّب، فالفاعلُ هنا ضميرٌ يرجع إلى قوله تعالى: «اتخذ» إلخ بتأويل المقالة، و«كلمةً» نصبٌ على التمييز، وكأنَّه قيل: ما أكبرَها كلمةً! وقولُه تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفةُ «كلمة» تفيد استعظامَ اجترائهم على النُّطق بها وإخراجِها من أفواههم، فإنَّ كثيراً ممَّا يوسوس به الشيطانُ وتحدِّث به النفسُ لا يمكن أن يتفوَّهَ به، بل يُصرَف عنه الفكر، فكيف بمِثل هذا المنكر؟

وذهب الفارسيُّ وأكثرُ النُّحاة إلى إلحاقه بباب نِعمَ وبئس، فيَثْبُتُ له جميعُ أحكامه، ككون فاعلِه معرَّفاً بأل، أو مضافاً إلى معرَّف بها، أو ضميراً مفسَّراً بالتمييز. ومن هنا جوَّز أن يكونَ الفاعلُ هنا ضميرَ «كلمة» وهي أيضاً تمييز، والجملةُ صفتها، ولا ضيرَ في وصف التمييزِ في باب نِعَم وبئس. وجوَّز أبو حيانَ[2] وغيرُه أن تكونَ صفةً لمحذوف هو المخصوصُ بالذمّ، أي: كبرت كلمةً كلمةٌ خارجةٌ من أفواههم.

وظاهرُ كلامِ الأخفش تغايُرُ المذهبَين. وفي«التسهيل»[3] أنَّه من باب نِعمَ وبئسَ وفيه معنى التعجُّب، والمرادُ به هنا تعظيمُ الأمرِ في قلوب السامعين. وهذا ظاهرٌ في أنه لا تغايرَ بينهما، وإليه يميل كلامُ بعضِ الأئمَّة.

وقيل: نُصبت على الحال، ولا يَخفَى حاله. وتسميةُ ذلك كلمةً على حدِّ تسميةِ القصيدة بها.

وقُرئ: «كَبْرَتْ» بسكون الباء، وهي لغةُ تميم[4]، وجاء في نحو هذا الفعل ضمُّ العين، وتسكينُها، ونقلُ حركتها إلى الفاء.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦١٦.
(٢) في البحر ٦/ ٩٧.
(٣) انظر ص ١٢٨، والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٧٥.
(٤) البحر٦/ ٩٧.

وقرأ الحسنُ وابن يَعمَر وابنُ محيصنٍ والقوَّاس عن ابن كثير: «كلمةٌ» بالرَّفع على الفاعلية[١]. والنصبُ أَبلغُ وأَوكد.

واستدلَّ النظَّام على أنَّ الكلامَ جسمٌ بهذه الآية؛ لوصفه فيها بالخروج الذي هو من خواصِّ الأَجسام.

وأُجيب: بأنَّ الخارجَ حقيقةً هو الهواءُ الحاملُ له، وإسنادُه إلى الكلام الذي هو كيفيةٌ مجازٌ.

وتعقِّب بأنَّ النظَّام القائلَ بجسمية الكلامِ يقول: هو الهواءُ المكيَّف لا الكيفية. واستدلالُه على ذلك مبنيٌّ على أنَّ الأصلَ هو الحقيقة. إلَّا أنَّ الخلافَ لفظيٌّ لا ثمرةَ فيه.

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾ أي: ما يقولون في ذلك الشأنِ إلَّا قولاً كذباً، لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدقِ أصلاً، والضميرانِ لهم ولآبائهم.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي: قاتلٌ ﴿نَّفْسَكَ﴾ وفي معناه ما في «صحيح البخاريِّ»[٢]: مُهلِك. والأوَّل مرويٌّ عن مجاهدٍ والسُّدِّي وابنِ جبير وابنِ عباس، وأَنشد لابن الأزرق إذ سأله قولَ لبيدِ بن ربيعة:

لعلك يوماً إنْ فقدتَ مزارها ... على بُعده يوماً لنفسك باخعُ[٣]

وفي «البحر»[٤] عن الليث: بَخَعَ الرجلُ نفسَه بَخْعاً وبُخوعاً: قتلها من شدَّة الوَجْد، وأَنشد قولَ الفرزدق[٥]:

ألا أيُّهذا الباخعُ الوجدُ نفسَه ... لشيءٍ نَحَتْه عن يديه المقَادِرُ

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٨، والمحتسب٢/ ٢٤، والبحر ٦/ ٩٧. والقواس: هو الإمام أبو الحسن أحمد بن محمد المكي النبَّال المقرئ، قرأ عليه قنبل وغيره، توفي سنة (٢٤٠ أو ٢٤٥هـ). معرفة القراء الكبار١/ ٣٧٠-٣٧١.

(٢) قبل حديث (٤٧٢٤).

(٣) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٨٩، والدر المنثور٤/ ٢١١.

(٤) ٦/ ٩٢.

(٥) كذا نقل المصنف عن البحر ٦/ ٩٢، والصواب أن البيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ٢/ ١٠٣٧.

وهو من: بَخَعَ الأرضَ بالزِّراعة، أي: جعلها ضعيفةً بسبب متابعةِ الزراعة، كما قال الكِسائي.

وذكر الزمخشريُّ[١] أنَّ البخعَ أن يبلغَ الذبحُ البِخَاع، بالباء، وهو عِرقٌ مستبطنُ القفا، وقد ردَّه ابنُ الأثير[٢] وغيرُه بأنّه لم يوجد في كتب اللغةِ والتشريح، لكنَّ الزمخشريَّ ثقةٌ في هذا البابِ واسعُ الاطِّلاع.

وقرئ: «باخعُ نفسِك» بالإضافة[٣]، وهي خلافُ الأصلِ في اسم الفاعلِ إذا استوفى شروطَ العملِ عند الزمخشريّ، وأشار إليه سيبويه في «الكتاب»[٤]. وقال الكِسائي: العملُ والإضافةُ سواء، وزعم أبو حيَّان[٥] أنَّ الإضافةَ أحسنُ من العمل.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ أي: مِن بعدِهم. يعني: من بعدِ تولِّيهم عن الإيمان وتباعدِهم عنه. أخرج ابنُ مردويه عن ابن عباسٍ أنَّ عتبةَ بن ربيعةَ وشيبةَ بن ربيعة وأبا جهلِ بنَ هشام والنضرَ بن الحارث وأميةَ بن خلفٍ والعاصيَ بن وائلٍ والأسودَ بن المطلب وأبا البَخْتريِّ في نفرٍ من قريشٍ اجتمعوا، وكان رسولُ اللهِ ﷺ قد كَبُرَ عليه ما يرى من خلاف قومِه إياه وإنكارهم ما جاء به من النَّصيحة، فأحزنه حزناً شديداً، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ إلخ[٦]. ومنه يُعلَم أنَّ ما ذكرنا أوفقُ بسبب النزولِ من كون المراد: مِن بعدِ موتِهم على الكفر.

﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ الجليلِ الشأن، وهو القرآنُ المعبَّر عنه في صدر السورةِ بالكتاب، ووصفُه بذلك ـ لو سُلِّمَ دلالتُه على الحدوث ـ لا يضرُّ الأشاعرةَ وأضرابَهم القائلين بأنَّ الألفاظَ حادثة.

و«إنْ» شرطية، والجملةُ بعدها فعلُ الشرط، والجوابُ محذوفٌ ثقةً بدَلالة ما سبق عليه عندَ الجمهور. وقيل: الجواب: «فلعلك..» إلخ المذكور، وهو مقدَّم لفظاً مؤخَّر معنًى، والفاءُ فيه فاءُ الجواب.

---

(١) في الفائق (بخع).
(٢) في النهاية (بخع) والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٧٥.
(٣) البحر ٦/ ٩٧.
(٤) انظر ١/ ١٨١ فما بعد، والكلام من البحر ٦/ ٩٧-٩٨.
(٥) في البحر ٦/ ٩٨.
(٦) الدر المنثور ٤/ ٢١١.

وقُرِئ: «أَنْ لم يؤمنوا»(١) بفتح همزةِ «أنْ» على تقدير الجارّ، أي: لأنْ، وهو متعلِّق بـ «باخع» على أنَّه عِلَّة له. وزعم غيرُ واحدٍ أنَّه لا يجوز إعمالُه على هذا؛ إذ هو اسمُ فاعل، وعملُه مشروطٌ بكونه للحالِ أو الاستقبال، ولا يعمل وهو للمُضِيّ، و«إن» الشرطيةُ تقلب الماضيَ بواسطة «لم» إلى الاستقبال، بخلاف أن المصدرية، فإنَّها تدخلُ على الماضي الباقي على مُضِيِّه، إلَّا إذا حُمِل على حكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار الصورةِ للغرابة.

وتعقَّبه بعضُ الأجِلَّة بأنَّه لا يلزم من مُضيِّ ما كان عِلَّةً لشيءٍ مُضيُّه، فكم من حزنٍ مستقبلٍ على أمرٍ ماض، سواء استمرَّ أو لا، فإذا استمرَّ فهو أَوْلى؛ لأنه أشدُّ نكاية، فلا حاجةَ إلى الحمل على حكايةِ الحال.

ووجَّه ذلك في «الكشف» بأنَّه إذا كانت علةُ البخعِ عدمَ الإيمان، فإن كانت العلَّةُ قد تمَّت، فالمعلولُ كذلك، ضرورةَ تحقُّق المعلولِ عند العلَّة التامَّة، وإن كانت بعد، فكمِثلٍ، ضرورةَ أنَّه لا يتحقَّق بدون تمامِها.

وتعقِّب بأنَّه غيرُ مسلَّم، لأنَّ هذه ليست علَّةً تامةً حقيقيةً حتى يلزمَ ما ذُكر، وإنَّما هي منشأٌ وباعث، فلا يضرُّ تقدُّمها.

وقيل: إنَّه تفوت المبالغةُ حينئذٍ في وَجْده ﷺ على تولِّيهم؛ لعدم كونِ البخع عقبَه، بل بعدَه بمدَّة، بخلاف ما إذا كان للحكاية.

وتعقِّب أيضاً بأنه لا وجهَ له، بل المبالغةُ في هذا أَقوى؛ لأنَّه إذا صدر منه لأمرٍ مضى، فكيف لو استمرَّ أو تجدَّد؟ ولعل في الآية ما يترجَّح له البقاءُ على الاستقبال، فتدبَّر.

وانتصابُ قولِه تعالى: ﴿أَسَفًا ۝٦﴾ بـ «باخع» على أنَّه مفعولٌ من أجله. وجوِّز أن يكونَ حالاً من الضمير فيه بتأويلِ متأسِّفاً؛ لأنَّ الأصلَ في الحال الاشتقاق، وأن ينتصبَ على أنَّه مصدرُ فعلٍ مقدَّر، أي: تأسفُ أسفاً.

والأسف على ما نُقل عن الزجَّاج(٢): المبالغةُ في الحزنِ والغضب. وقال

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٨.

(٢) معاني القرآن ٣/ ٢٦٩.

الراغب: الأَسف: الحزنُ والغضبُ معاً، وقد يقال لكلٍّ منهما على الانفراد، وحقيقتُه ثَوَرانُ دم القلب شهوةَ الانتقام، فمتى كان على مَن دونه انتشر فصار غضباً، ومتى كان على ما فوقه انقبض فصار حزناً، ولذلك سئل ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما عن الحزن والغضبِ فقال: مَخرجُهما واحدٌ واللفظُ مختلف، فمَن نازع مَن يقوَى عليه، أَظهره غيظاً وغضباً، ومَن نازع مَن لا يقوَى عليه، أَظهره حزناً وجَزَعاً. وبهذا النظرِ قال الشاعر:

فحزنُ كلِّ أخي حزنٍ أخو الغضبِ[١]

وإلى كون الأسفِ أعمَّ من الحزن والغضب، وكونِ الحزنِ على مَن لا يملك ولا هو تحت يدِ الآسف، والغضبِ على مَن هو في قبضته وملكه ذهب منذرُ بن سعيد[٢]، وفسَّر الأسفَ هنا بالحزن، بخلافه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وإذا استُعمل الأسفُ مع الغضب، يراد به الحزنُ، على ما قيل في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] وجُعل كلٌّ منهما فيه بالنِّسبة إلى بعضٍ من القوم.

وعن قتادةَ تفسيرُ الأسفِ هنا بالغضب، وفي روايةٍ أخرى بالحزن. وفي «صحيح البخاريِّ»[٣] تفسيرُه بالندم. وعن مجاهدٍ تفسيرُه بالجَزَع. وأهلُ الحزنِ أكثر.

و«لعل» للترجِّي، وهو الطمعُ في الوقوع أو الإشفاقُ منه، وهي هنا استعارة، أي: وصلتَ إلى حالةٍ يَتوقَّع منك الناسُ ذلك؛ لمَا يشاهَد من تأسُّفك على عدم إيمانهم.

وقال العسكريّ: هي هنا موضوعةٌ موضعَ النهي، كأنَّه قيل: لا تبخعْ نفسَك. وقيل: موضعَ الاستفهام. وجعله ابنُ عطيةَ[٤] إنكاريًّا على معنى: لا تكن كذلك.

---

(١) مفردات القرآن (أسف) وصدر البيت: جزاك ربُّك بالأحزان مغفرةً. وهو للمتنبي في ديوانه ١/ ٢٢٣.

(٢) في الأصل و(م): سعد، وهو تصحيف، والمثبت من البحر المحيط ٦/ ٩٨.

(٣) بعد حديث (٤٧٢٣).

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٤٩٦ ونقل المصنف كلامه وكلام العسكري من البحر ٦/ ٩٧.

والقولُ بمجيءِ «لعل» للاستفهام قولٌ كوفيّ، والذي يظهر أنَّها هنا للإشفاق الذي يُقصَد به التسلّي والحثُّ على ترك التحزُّن والتأسُّف، ويمكن أن يكونَ مرادُ العسكريِّ ذلك.

وفي الآية عند غيرِ واحدٍ استعارةٌ تمثيلية، وذلك أنَّه مثَّل حالَه ﷺ في شدَّة الوجدِ على إعراض القومِ وتولِّيهم عن الإيمان بالقرآن وكمالِ الحزنِ عليهم بحال مَن يُتوقَّع منه إهلاكُ نفسِه إثرَ فوتِ ما يحبُّه عند مفارقةِ أحبَّته، تأسُّفاً على مفارقتهم، وتلهُّفاً على مهاجرتهم، ثم قيل ما قيل، وهو أَوْلى من اعتبار الاستعارةِ المفردةِ التبعيَّة في الأطراف.

وجوِّز أن تكونَ من باب التشبيه؛ لذِكر طرفيه، وهما النبيُّ ﷺ وباخع، بأن يشبَّهَ عليه الصلاة والسلام لشدَّة حرصِه على الأمر بمن يريد قتلَ نفسِه لفواتِ أمر. وهو كما ترى.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ الظاهرُ عمومُ «ما» جميعَ ما لا يعقل، أي: سواءٌ كان حَيَواناً أو نباتاً أو معدناً، أي: جعلنا جميعَ ما عليها من غيرِ ذوي العقول ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ تتزيَّن به وتتحلَّى، وهو شاملٌ لزينة أهلِها أيضاً، وزينةُ كلِّ شيءٍ بحسَبه(١).

وقيل: لا يدخل في ذلك ما فيه إيذاءٌ من حَيَوان ونبات، ومَن قال بالعموم قال: لا شيءَ مما على الأرض إلَّا وفيه جهةُ انتفاع، ولا أقلَّ من الاستدلالِ به على الصانع ووحدتِه.

وخصَّ بعضُهم «ما» بالأشجار والأنهار، وآخَرُ بالنبات؛ لمَا فيه من الأزهار المختلفةِ الألوانِ والمنافع، وآخَرُ بالحيوان المختلفِ الأشكالِ والمنافعِ والأفعال، وآخَرُ بالذهب، والفضَّة، والرَّصاص، والنُّحاس، والياقوت، والزَّبرجد، واللؤلؤ، والمرجان، والألماس، وما يَجري مَجرَى ذلك من نفائس الأحجار. وقالت فِرقة: أُريد بها الخُضرة، والمياه، والنّعم، والملابسُ، والثمار. ولعَمري إنه تخصيصٌ لا يقبله الخواصُّ على العموم.

---

(١) بعدها في (م): بالحقيقة وإنما هو زينة لأهلها.

وقيل: إنَّ «ما» هنا لمَن يعقل، والمرادُ بذلك ـ على ما أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن جُبَير والحسنِ وجاءَ في روايةٍ عن ابن عباس ـ الرِّجال، وعلى ما أَخرج أبو نصرٍ السِّجْزيُّ[(١)] في «الإبانة» عن ابن عباس: العلماءُ، وعلى ما روى عِكرمة: الخلفاءُ والعلماءُ والأمراء.

وأنت تعلم أنَّ جَعْلَ «ما» لمن يعقل مع إرادة ما ذُكر بعيدٌ جدًّا، ولعل أولئك الأَجِلَّة أرادوا مِن «ما» العقلاءَ وغيرَهم، تغليباً للأكثر على غيره، و«ما على الأرض» بهذا المعنى ليس إلَّا بعضَ العناصرِ الأربعةِ والمواليدِ الثلاثة، وأشرفُ ذلك المواليدُ، وأشرفُها نوعُ الإنسان، وهو متفاوتُ الشَّرفِ بحسَب الأصناف، فيمكن أن يكونَ ما ذكروه من باب الاقتصارِ على بعض أَصنافِ هذا الأَشرف؛ لداعٍ لذلك[(٢)].

وقد يقال: المرادُ بـ «ما» عمومُ ما لا يعقل ومَن يعقل، فيدخل مَن توجَّه إليه التكليفُ وغيرُه، ولا ضيرَ في ذلك؛ فإنَّ للمكلَّف جهتين: جهةً يدخل بها تحتَ الزينة، وجهةً يدخل بها تحت الابتلاءِ المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ وقد نصَّ سبحانه على بعض المكلَّفين بأنَّهم زينةٌ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] ومن هنا يُعلَم ما في قول القاضي[(٣)]: الأَوْلى أَلَّا يدخلَ المكلَّف؛ لأنَّ ما على الأرض ليس زينةً لها بالحقيقة، وإنَّما هو زينةٌ لأهلها لغرض الابتلاءِ، فالذي له الزينةُ يكون خارجاً عن الزِّينة.

ونصبُ «زينة» على أنه مفعولٌ ثانٍ للجعل إنْ حُمِل على معنى التصيير، أو على أنَّه حال أو مفعولٌ له ـ كما قال أبو البقاءِ وأبو حيَّان[(٤)] ـ إنْ حُمِل على معنى الإبداع، واللامُ الأولى إمَّا متعلِّقة به، أو متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً له، أي: زينةً كائنةً لها، واللامُ الثانيةُ متعلِّقة بـ «جعلنا»، والكلامُ على هذا وجَعْلِ «زينةً» مفعولاً

---

(١) هو عبيد الله بن سعيد الوائلي البكري السِّجستاني، شيخ الحرم. وهو راوي الحديث المسلسل بالأولية، توفي سنة (٤٤٤هـ). السير ١٧/ ٦٥٤ وهذه الأخبار منقولة من الدر المنثور ٤/ ٢١١.

(٢) بعدها في (م): أصناف.

(٣) هو القاضي عبد الجبار، وكلامه في تفسير الرازي ٢١/ ٨٠، وغرائب القرآن للنيسابوري ١٥/ ١٠٣، وعنه نقل المصنف.

(٤) الإملاء ٣/ ٥٠٥، والبحر ٦/ ٩٨.

له نحوُ: قمتُ إجلالاً لك لتقابلَني بمثل ذلك، وضميرُ الجمعِ عائدٌ على سكَّان الأرضِ من المكلَّفين المفهومِ من السِّياق. وجوِّز أن يعودَ على «ما» على تقديرِ أن تكونَ للعقلاء.

والابتلاءُ في الأصل الاختبار، وجوَّز ذلك على اللهِ سبحانه هشامُ بن الحكم(١)، بناءً على جهله وزعمِه أنَّه عزَّ وجلَّ لا يعلم الحوادثَ إلَّا بعد وجودِها؛ لئلَّا يلزمَ نفيُ قدرته تعالى على الفعلِ أو الترك.

وردَّه أهلُ السنَّة في محلِّه وقالوا: إنَّه تعالى يعلم الكلِّياتِ والجزئياتِ في الأزل، وأوَّلوا هذه الآيةَ أنَّ المراد: لنعاملَهم معاملةَ مَن يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ فنجازي كلًّا بما يَليق به وتقتضيه الحكمة.

وحسنُ العملِ: الزهدُ في زينة الدنيا وعدمُ الاغترارِ بها، وصرفُها على ما ينبغي، والتأمُّل في شأنها، وجعلُها ذريعةً إلى معرفة خالقِها، والتمتُّع بها حَسْبما أَذِنَ الشرع، وأداءُ حقوقها، والشكرُ على ما أُوتي منها، لا اتِّخاذُها وسيلةً إلى الشهوات والأغراضِ الفاسدةِ كما تفعله الكفرةُ وأصحابُ الأهواء.

ومراتب الحَسَن متفاوتة، وكلَّما قوي الزُّهد مثلاً كان أحسن. وسأل ابنُ عمرَ رضي الله عنهما النبيَّ ﷺ عن الأحسن عملاً ـ كما أخرج ذلك ابنُ جَريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ والحاكمُ في «التاريخ» ـ فقال عليه الصلاة والسلام: «أحسنُكم عقلاً، وأورعُ عن محارم اللهِ تعالى، وأسرعُكم في طاعته سبحانَه»(٢).

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الحسن أنَّه قال: أحسنُهم عملاً: أشدُّهم للدنيا تركاً. وأخرج نحوَه عن سفيانَ الثوريِّ(٣).

وذكر بعضُهم أنَّ الأحسنَ مَن زهد وقنع من الدُّنيا بزاد المسافر، ووراءَه حَسَنٌ، وهو مَن استكثر من حلالها وصَرَفه في وجوهه، وقبيح: مَن احتطب حلالَها

(١) المتكلم الكوفي الرافضي المشبِّه، له نظر وجدل، وتواليف كثيرة. السير ١٠/ ٥٤٣.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٣٣٥، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٠٦ (١٠٧٠٥)، وفي إسناده: داود بن المحبَّر، قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ٨٦: داود ساقط.

(٣) الخبران في الدر المنثور ٤/ ٢١١، وعنه نقل المصنف.

وحرامَها وأنفقه في شهواته. وكلامُ النبيِّ ﷺ في بيان الأَحسنِ أحسن ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وإيرادُ صيغةِ التفضيلِ مع أنَّ الابتلاءَ شاملٌ للفريقين باعتبار أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسن والقبيحِ أيضاً، لا إلى الحسن والأحسنِ فقط؛ للإشعار بأنَّ الغايةَ الأصليةَ للجعل المذكور إنَّما هو ظهورُ كمالِ إحسان المحسنين.

و«أيُّ» إمَّا استفهامية، فهي مرفوعةٌ بالابتداء و«أحسنُ» خبرُها، والجملةُ في محلِّ نصبٍ بفعل الابتلاء؛ ولِما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبتِهِ، كالسؤال والنظرِ ومكانِ الاستفهام، علِّق عن العمل. وإمَّا موصولَةٌ بمعنى الذي، فهي مبنيةٌ على الضمِّ محلُّها النصبُ على أنها بدلٌ من ضمير النصبِ في «نبلوهم» و«أحسن» خبرُ مبتدأ محذوف، والجملة صلةٌ لها، والتقدير: لنبلوَ الذي هو أحسنُ عملاً.

ويُفهَم من «البحر» أنَّ مذهبَ سيبويه في «أيُّ» إذا أُضيفت وحذف صدرُ صلتِها كما هنا، جوازُ البناءِ لا وجوبُه، وتحقيقُ الكلامِ في مذهبه لا يخلو عن إشكال، وأفعلُ التفضيلِ باقٍ - على الصَّحيح - على حقيقته كما أشرنا إليه، والمفضَّل عليه محذوف، والتقدير كما قال أبو حيَّان[1]: لنبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً ممَّن ليس أحسنَ عملاً.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ﴾ فيما سيأتي عند تناهي عُمرِ الدنيا ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ ممَّا جعلناه زينة. والإظهارُ في مقام الإضمار لزيادة التقرير، وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يكونَ هذا أعمَّ مما جعل زينة؛ ولذا لم يؤتَ بالضمير.

والجعلُ هنا بمعنى التصيير، أي: مصيِّرون ذلك ﴿صَعِيدًا﴾ أي: تراباً ﴿جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ أي: لا نباتَ فيه. قاله قتادة.

وقال الراغب[2]: الصعيدُ وجهُ الأرض. وقال أبو عبيدة[3]: هو المستوي من الأرض. ورُوي ذلك عن السدِّي. وقال الزجَّاج[4]: هو الطريقُ الذي لا نباتَ فيه.

---

(١) ٦/ ٩٨.

(٢) في المفردات (صعد).

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٩٣.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٩.

وأخرج ابنُ أبي حاتم[١] أنَّ الجُرُز الخراب. والظاهرُ أنَّه ليس معنًى حقيقيًّا، والمعنى الحقيقيّ ما ذكرناه، وقد ذكره غيرُ واحدٍ من أئمَّة اللغة. وفي «البحر»[٢]: يقال: جَرَزَتِ الأرضُ فهي مجروزة: إذا ذهب نباتُها بقحطٍ أو جراد، وأَرَضون أجراز: لا نباتَ فيها، ويقال: سَنَة جُرُز وسِنونَ أَجراز: لا مطرَ فيها، وجُرُز الأرض: الجرادُ والشاةُ والإبلُ إذا أكلت ما عليها، ورجلٌ جَروز: أكول، أو سريعُ الأكل، وكذا الأنثى، قال الشاعر:

إنَّ العجوزَ خَبَّةً جَروزا ... تأكل كلَّ ليلةٍ قفيزا[٣]

وفي «القاموس»[٤]: أرض جُرُز وجُرْز وجَرْز وجَرَز[٥]: لا تُنبت، أو أُكل نباتُها، أو لم يُصِبها مطر. وفي المثل: لا ترضَى شانئةٌ إلَّا بجَرْزة، أي: بالاستئصال.

والمراد: تصييرُ ما على الأرض تراباً ساذجاً بعد ما كان يَتعجَّب مِن بهجته النُّظَّار، وتستلذُّ بمشاهدته الأبصار. وظاهرُ الآيةِ تصييرُ ما عليها بجميع أجزائه كذلك، وذلك إنَّما يكون بقلب سائرِ عناصرِ المواليد إلى عنصر التُّراب، ولا استحالةَ فيه؛ لوقوع انقلابِ بعض العناصرِ إلى بعضٍ اليومَ.

وقد يقال: إنَّ هذا جارٍ على العرف؛ فإنَّ الناسَ يقولون: صار فلانٌ تراباً: إذا اضمحلَّ جسدُه ولم يبقَ منه أثرٌ إلَّا التراب. وحديثُ انقلابِ العناصر ممَّا لا يكاد يخطرُ لهم ببال، وكذا زَعْمُ محقِّقي الفلاسفةِ بقاءَ صورِ العناصرِ في المواليد، ويوشك أن يكونَ تركُّب المواليدِ من العناصر أيضاً كذلك، وهذا الحديثُ لا تكاد تسمعُه عن السَّلف الصالح، والله تعالى أعلم.

---

(١) عن سعيد بن جبير كما في الدر المنثور ٤/ ٢١١.
(٢) ٦/ ٩٢.
(٣) الرجز في كتاب العين ٦/ ٦٤، والنوادر لأبي زيد ص١٧٢، والبحر ٦/ ٩٢، والدر المصون ٤/ ٤٩٠ و٧/ ٤٤٥، واللباب ١٢/ ٤٢٩ دون نسبة.
(٤) مادة (جرز).
(٥) جاء في هامش الأصل: الأول على وزن كتب جمع كتاب، والثاني كقفل، والثالث كسهم، والرابع كسبب. اهـ منه.

ووجهُ ربطِ هاتين الآيتين بما قبلَهما ـ على ما قاله بعضُ المحقِّقين ـ أنَّ قوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا) إلخ تعليلٌ لِمَا في «لعل» مِن معنى الإشفاق، وقولَه سبحانه: (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ) إلخ تكميلٌ للتعليل، وحاصلُ المعنى: لا تحزنْ بما عاينتَ من القوم من تكذيبِ ما أنزلنا عليك من الكتاب؛ فإنَّا قد جعلنا ما على الأرضِ من فنون الأشياءِ زينةً لها لنختبرَ أعمالَهم، فنجازيَهم بحسَبها، وإنَّا لَمُفْنونَ ذلك عن قريب، ومجازون بحسَب الأعمال. وفي معنى ذلك ما قيل: إنَّه تسكينٌ له عليه الصلاة والسلام، كأنَّه قيل: لا تحزن؛ فإنَّا ننتقم لك منهم.

وظاهرُ كلام بعضِهم جعلُ ما يُفهَم من أوَّل السورةِ تعليلاً للإشفاق، حيث قال: المعنى: لا يعظُمْ حزنُك بسبب كفرِهم؛ فإنَّا بعثناك منذراً ومبشِّراً، وأمَّا تحصيلُ الإيمان في قلوبهم فلا قدرةَ لك عليه. قيل: ولا يضرُّ جعلُ ما ذُكر تعليلاً لذلك أيضاً؛ لأنَّ العِلَل غيرُ حقيقية.

وقيل في وجهِ الربط: إنَّ ما تقدَّم تضمَّن نهيَه ﷺ عن الحزن، وهذا تضمَّن إرشادَه إلى التخلُّق ببعض أخلاقِه تعالى، كأنَّه قيل: إنِّي خلقت الأرضَ وزينتَها ابتلاءً للخلق بالتكاليف، ثم إنَّهم يتمرَّدون ويكفرون، ومع ذلك لا أقطعُ عنهم نِعَمي، فأنت أيضاً يا محمدُ لا تترك الاشتغالَ بدعوتهم بعدَ ألَّا تأسف عليهم، والجملةُ الثانيةُ لمجرَّد التزهيدِ في الميل إلى زينة الأرض. ولا يخفَى عليك بُعْدُ هذا الرَّبط، بل لا يكاد ينساق الذِّهن إليه، فتأمَّل.

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ خطابٌ لسيِّد المخاطَبين ﷺ والمقصودُ غيره، كما ذهب إليه غيرُ واحد. و«أم» منقطعةٌ مقدَّرة بـ «بل» ـ التي هي للانتقال من كلامٍ إلى آخَرَ، لا للإبطال ـ وهمزةِ الاستفهامِ عند الجمهور، وببل وحدَها عند بعضٍ، وقيل: هي هنا بمعنى الهمزة.

والحقُّ الأوَّل، أي: بل أَحسبتَ ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟﴾ في بقائهم على الحياة ونومِهم مدةً طويلةً من الدَّهر ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: مِن بين دلائلنا الدالَّة على القدرة والألُوهية ﴿عَجَبًا ۝٩﴾ أي: آيةً ذاتَ عجب، وضعاً له موضعَ المضاف، أو وصفاً لذلك بالمصدر مبالغةً. وهو خبرٌ لـ «كانوا»، و«من آياتنا» حالٌ منه، كما هو قاعدةُ نعتِ النكرةِ إذا تقدَّم عليها.

وجوَّز أبو البقاءِ(١) أن يكونَ «عجباً» و«من آياتنا» خبرَين، وأن يكونَ «عجباً» حالاً من الضمير في الجارِّ والمجرور. وليس بذاك.

والمعنى: إنَّ قصَّتهم وإن كانت خارقةً للعادة ليست بعجيبةٍ بالنِّسبة إلى سائر الآياتِ التي من جملتها ما تقدَّم. ومن هنا يُعلمُ وجهُ الربط. وفي «الكشف» أنَّه تعالى ذكر من الآيات الكلِّية ـ وإن كان لتسليته ﷺ، وأنَّه لا ينبغي أن يبخعَ نفسَه على آثارهم، فالمسترشدُ يكفيه أدنى إشارة، والزائغُ لا تجدي فيه آياتُ النذارةِ والبشارة ـ ما يشتمل على أمَّهات العجائب، وعقَّبه سبحانه بقوله: (أَمْ حَسِبْتَ) إلخ، يعني أنَّ ذلك أعظمُ من هذا، فمَن لا يتعجَّب من ذلك لا ينبغي أن يتعجَّبَ من هذا، وأُريد من الخطاب غيرُه ﷺ؛ لأنَّه كان يعرف مِن قدرته تعالى ما لا يتعاظمه لا الأوَّلُ ولا الثاني، فأنكر اختلافَهم في حالهم تعجُّباً، وإضرابَهم عن مثل تلك الآياتِ البيِّنات.

والاعتراضُ عليه بأنَّ الإضرابَ عن الكلام الأوَّلِ إنَّما يَحسُنُ إذا كان الثاني أغربَ ليحصلَ الترقِّي، وإيثار أنَّ الهمزةَ للتقرير، وهو قولٌ آخَرُ في الآية لذلك = غيرُ قادح؛ لأنَّ تعجُّبهم عن هذا دون الأوَّلِ هو المنكر، وهو الأغرب، فافهم. وبأنَّ المنكَرَ ينبغي أن يكون مقرَّراً عند السامعِ معلوماً عنده، وهذا ابتداءُ إعلامٍ منه تعالى على ما يُعرَف من سبب النزولِ = كذلك؛ لأنَّ الإنكارَ من تعجُّبهم، ويكفي في ذلك معرفتُها إجمالاً وكانت حاصلة، كيف وقد علمتَ أنَّه راجعٌ إلى الغير، أعني أصحابَ الكتابِ الذين أمروا قريشاً بالسؤال وكانوا عالمين، ثم إنَّه مشتركُ الإلزام؛ لأنَّ التقريرَ أيضاً يقتضي العلم، بل أَوْلى. انتهى.

وقال الطبريّ(٢): المرادُ إنكار ذلك الحِسبانِ عليه عليه الصلاة والسلام، على معنى: لا يعظُمْ ذلك عندك بحسَب ما عظَّمه عليك السائلون من الكَفَرة؛ فإنَّ سائرَ آياتِ الله تعالى أَعظمُ من قصَّتهم. وزَعَمَ أنَّ هذا قولُ ابنِ عباس ومجاهدٍ وقتادةَ وابن إسحاق. وفي القلب منه شيء.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٥٠٥.

(٢) انظر تفسيره ١٥/ ١٥٥ فما بعد.

وقيل: المرادُ من الاستفهام إثباتُ أنَّهم عجب، كأنَّه قيل: اِعلم أنَّهم عجب، كما تقول: أَعلمتَ أنَّ فلاناً فعل كذا؟ أي: قد فعل فاعلمه، والمقصودُ بالخطاب رسولُ اللهِ ﷺ أيضاً. وليس بشيءٍ.

وزعم الطيبيُّ أنَّ الوجهَ أن يجريَ الكلامُ على التسلِّي والاستفهامُ على التنبيه، ويقالَ: إنَّه عليه الصلاة والسلام لمَّا أخذه من الكآبة والأسفِ من إباء القومِ عن الإيمان ما أخذه، قيلَ له ما قيل، وعلَّل بقوله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا) إلى آخره، على معنى: إنَّا جعلنا ذلك لنختبرَهم، وحين لم تتعلَّق إرادتُنا بإيمانهم تشاغلوا به عن آياتنا، وشُغلوا عن الشُّكر، وبدَّلوا الإيمانَ بالكفران، فلم نبالِ بهم، وإنَّا لجاعلون أبدانَهم جُرُزاً لأسيافكم، كما إنَّا لجاعلون ما عليها صعيداً جُرُزاً، ألا ترى إلى أولئك الفتيانِ كيف اهتدَوا وفرُّوا إلى الله تعالى، وتركوا زينةَ الدنيا وزُخرفَها، فأوَوْا إلى الكهف قائلين: (رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) وكما تعلَّقت الإرادةُ بإرشادهم فاهتدَوا، تتعلَّق بإرشاد قومٍ من أمَّتك يحبُّهم ويحبُّونه، أذلَّةٍ على المؤمنين أعزَّةٍ على الكافرين. اهـ. ويكاد يكونُ أعجبَ من قصَّة أهلِ الكهف، فتأمَّل.

والحِسبان إمَّا بمعنى الظنّ، أو بمعنى العلم، وقد استُعمل بالمعنيين. والكهف: النَّقب المتَّسع في الجبل، فإنْ لم يكن واسعاً فهو غار. وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ [عن الضحاك] أنَّه غارُ الوادي(١). وعن مجاهدٍ أنَّه فُرجةٌ بين الجبلين. وعن أنسٍ هو الجبل، وهو غيرُ مشهورٍ في اللغة.

والرقيم: اسمُ كلبِهم على ما رُوي عن أنسٍ والشعبيّ، وجاءَ في روايةٍ عن ابن جُبَير، ويدلُّ عليه قولُ أميةَ بنِ أبي الصلت:

وليس بها إلَّا الرقيمُ مجاوراً وصيدهمُ والقومُ في الكهف هُجَّدا(٢)

وأَخرج ابنُ المنذرِ وغيرُه عن ابن جُبَير أنَّه لوحٌ من حجارةٍ كتبوا فيه قصةَ أصحابِ الكهف وأَمْرَهم، ثم وُضع على بابِ الكهف.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢١١، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٥/ ١٥٨، ولفظ الدر: غار في الوادي.

(٢) في ديوان أمية ص٤٧: هُمَّدُ.

وقيل: لوحٌ من حجارةٍ كُتِب فيه أسماؤهم وجُعِل في سور المدينة، ورُوي ذلك عن السُّدِّي.

وقيل: لوحٌ من رصاصٍ كُتِب فيه شأنُهم ووُضِع في تابوتٍ من نحاسٍ في فم الكهف.

وقيل: لوحٌ من ذهبٍ كُتِب فيه ذلك، وكان تحت الجدارِ الذي أَقامه الخَضِرُ عليه السلام.

ورُوي عن ابن عباسٍ أَنَّه كتابٌ كان عندهم فيه الشرعُ الذي تمسَّكوا به من دين عيسى عليه السلام. وقيل: من دينٍ قبلَ عيسى عليه السلام. فهو لفظٌ عربيٌّ، وفعيلٌ بمعنى مفعول.

وأخرج ابنُ جَرير وابنُ أبي حاتمٍ من طريق العَوفيِّ عن ابن عباسٍ أَنَّه وادٍ دون فلسطين قريبٌ من أيلة[(١)]. والكهفُ ـ على ما قيل ـ في ذلك الوادي، فهو مِن رَقْمة الوادي، أي: جانبِه. وأخرجا ـ هما ـ وجماعةٌ من طريقٍ آخَرَ عنه رضي الله عنه أَنَّه قال: لا أدري ما الرَّقيم، وسألت كعباً فقال: اسمُ القريةِ التي خرجوا منها[(٢)]. وعلى جميع هذه الأقوالِ يكون أصحابُ الكهفِ والرقيمِ عبارةً عن طائفةٍ واحدة.

وقيل: إنَّ أصحابَ الرقيمِ غيرُ أصحابِ الكهف، وقصَّتُهم في الصحيحين وغيرهما. فقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ[(٣)] والنَّسائي وابنُ المنذرِ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «بينما ثلاثةُ نفرٍ ممَّن كان قبلَكم يمشون إذ أصابهم مطر، فأَوَوا إلى غار، فانطبق عليهم، فقال بعضُهم لبعض: إنَّه واللهِ يا هؤلاء لا يُنجيكم إلَّا الصدق، فلْيَدْعُ كلُّ رجلٍ منكم بما يعلم أنَّه قد صَدَق فيه، فقال واحدٌ منهم: اللهمَّ إن كنتَ تعلم أنَّه كان لي أجيرٌ عمل على فَرَق من أَرُزّ، فذهب وتركه، وإنِّي عمدت إلى ذلك الفَرَق فزرعته، فصار من أمره أنِّي اشتريتُ منه بقراً، وأنَّه أتاني يطلب

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٥٧-١٥٨، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢١٢.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ١٥٧، والدر المنثور ٤/ ٢١٢، ولفظ الطبري: يزعم كعب أن الرقيم القرية.

(٣) صحيح البخاري (٣٤٦٥)، وصحيح مسلم (٢٧٤٣).

أجرَه، فقلت: اِعمَدْ إلى تلك البقرِ فسُقها، فقال لي: إنَّما لي عندك فَرَقٌ من أرُز، فقلتُ: اِعمد إلى تلك البقرِ فإنَّها من ذلك الفَرَق، فساقها، فإنْ كنتَ تعلم أنّي فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا، فانساخت عنهم الصَّخرة، فقال الآخَر: اللهمَّ إن كنت تعلم أنَّه كان لي أبوان شيخانِ كبيران، فكنتُ آتيهما كلَّ ليلةٍ بلبنِ غنمٍ لي، فأبطأتُ عليهما ليلة، فجئتُ وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغَون من الجوع، فكنت لا أَسقيهم حتى يشربَ أبواي، فكرهتُ أن أوقظَهما، وكرهت أن أدعَهما فيستكِنَّا[١] لشَرْبتهما، فلم أزل أنتظرُ حتى طلع الفجر، فإن كنتَ تعلم أنِّي فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا، فانساخت عنهم الصخرةُ حتى نظروا إلى السماءِ، فقال الآخَر: اللهمَّ إن كنتَ تعلم أنَّه كان لي ابنةُ عمٍّ مِن أحبِّ الناسِ إليّ، وإني راودتها عن نفسها فأَبت إلَّا أن آتيَها بمئةِ دينار، فطلبتها حتى قَدَرت، فأتيتُها بها فدفعتها إليها، فأمكنتني من نفسها، فلمَّا قعدتُ بين رِجليها قالت: اِتَّقِ اللهَ تعالى ولا تفضَّ الخاتَمَ إلَّا بحقِّه، فقمتُ وتركت المئةَ دينار، فإنْ كنت تعلم أنِّي فعلت ذلك من خشيتك ففرِّج عنا، ففرَّج اللهُ تعالى عنهم فخرجوا».

ورُوي نحوُ ذلك عن ابن عباسٍ وأنسٍ والنعمانِ بن بشير، كلٌّ يرفعه إلى رسول اللهِ ﷺ.

والرَّقيم ـ على هذا ـ بمعنى محلٍّ في الجبل. وقيل: بمعنى الصَّخرة. وقيل: بمعنى الجبل. ويكون ذِكْر ذلك تلميحاً إلى قصَّتهم، وإشارةً إلى أنَّه تعالى لا يُضيع عملَ أحدٍ خيراً أو شرًّا، فهو غيرُ مقصودٍ بالذات. ولا يخفَى أنَّ ذلك بعيدٌ عن السِّياق. وليس في الأخبار الصحيحةِ ما يضطرُّنا إلى ارتكابه، فتأمَّل.

﴿إِذْ أَوَى﴾ معمولُ «عجباً» أو «كانوا» أو: اذكر، مقدَّراً. ولا يجوزُ أن يكونَ ظرفاً لـ «حسبتَ»؛ لأنَّ حِسبانه لم يكن في ذلك الوقت، أي: حين التجأ ﴿ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ واتَّخذوه مأوًى ومكاناً لهم.

---

(١) في (م): فيستكينا. قال القسطلاني في إرشاد الساري ٥/٤٢٨: بتشديد النون من الاستكنان، أي: يلبثا في كنِّهما منتظرين لشربتهما، أو بتخفيف النون كما أفهمه كلام الكرماني، وتفسير الحافظ ابن حجر مقتصراً عليه حيث قال: أي: يضعفا لأنه عشاؤهما، وترك العشاء يُهرِم...

والفِتية جمعُ قِلَّة لفتًى، وهو ـ كما قال الراغبُ(١) وغيرُه ـ الطَّريُّ من الشبَّان، ويُجمَع أيضاً على فتيان، وقال ابن السرَّاج: إنه اسمُ جمع. وقال غيرُ واحد: إنَّه جمع فَتِيّ، كصبيٍّ وصبية، ورجِّح بكثرة مثلِه.

والمرادُ بهم أصحابُ الكهف، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمار لتحقيقِ ما كانوا عليه في أنفسهم من حال الفُتوَّة، فقد رُوي أنَّهم كانوا شبَّاناً من أبناء أشرافِ الرُّوم وعظمائهم، مطوَّقين مسوَّرين بالذهب ذوي ذوائب، وقيل: لأنَّ صاحبيَّة الكهفِ من فروع التجائهم إلى الكهف، فلا يناسب اعتبارُها معهم قبلَ بيانه، والظاهرُ مع الضمير اعتبارُها، وليس الأمرُ كذلك مع هذا الظاهر وإنْ كانت أل فيه للعهد.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾ أي: من عندك ﴿رَحۡمَةً﴾ عظيمة، أو نوعاً من الرحمة، فالتنوينُ للتعظيم أو للنَّوع، و«من» للابتداء متعلِّق بـ «آتنا»، ويجوز أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ وقع حالاً من «رحمة»، قدِّم عليها لكونها نكرةً، ولو تأخَّر لَكان صفةً لها.

وفسِّرت الرحمةُ بالمغفرة والرزقِ والأمن، والأَوْلى تفسيرُها بما يتضمَّن ذلك وغيرَه.

وفي ذِكر «من لدنك» إيماءٌ إلى أنَّ ذلك من باب التفضُّل لا الوجوب، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا تفضَّلْ علينا برحمةٍ ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا﴾ الذي نحن عليه من مُهاجَرة الكفارِ والمثابرةِ على طاعتك.

وقرأ أبو جعفرٍ وشيبةُ والزُّهري: «وهيِّي» بياءَين من غيرِ همز(٢)، يعني أنَّهم أَبدلوا الهمزةَ الساكنةَ ياء.

وفي كتاب ابنِ خالويه(٣): قرأ الأعشَى عن أبي بكرٍ عن عاصم: «وهَيِّ» بلا همز. انتهى. وهو يَحتمل أن يكونَ قد أَبدل الهمزةَ ياء، وأن يكونَ حَذَفها، والأوَّل إبدالٌ قياسي، والثاني مختلفٌ فيه: أَينقاس حذفُ الحرفِ المبدَل من الهمزة في الأمر والمضارعِ المجزومَين أم لا؟

---

(١) في المفردات (فتى).

(٢) النشر ١/ ٣٩٠-٣٩١ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٦/ ١٠٢.

(٣) ص٧٨، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ١٠٢.

وأصلُ التهيئة: إحداثُ الهيئة، وهي الحالةُ التي يكون عليها الشيء، محسوسةً أو معقولة، ثم استُعمل في إحضار الشيءِ وتيسيرِه، أي: يسِّر لنا من أمرِنا ﴿رَشَدًا ۝١٠﴾ إصابةً للطريق الموصلِ إلى المطلوب واهتداءً إليه.

وقرأ أبو رجاء: «رُشْداً» بضمِّ الراء وإسكان الشين[١]، والمعنى واحد، إلَّا أن الأَوفقَ بفواصل الآياتِ قراءةُ الجمهور.

وإلى اتِّحاد المعنى ذهب الرَّاغب، قال: الرَّشَد بفتحتين: خلافُ الغَيّ، ويُستعمل استعمالَ الهداية، وكذا الرُّشْدُ بضمٍّ فسكون. وقال بعضُهم: الرَّشَد ـ أي: بفتحتين كما في بعض النُّسخ المضبوطة ـ أخصُّ من الرُّشد؛ لأن الرُّشدَ بالضمِّ يقال في الأمور الدُّنيويةِ والأخروية، والرَّشَد يقال في الأمور الأُخرويةِ لا غير[٢]. اهـ. وفيه مخالفةٌ لِمَا ذكره ابنُ عطية[٣]، فإنه قال: إنَّ هذا الدعاءَ منهم كان في أمرِ دنياهم، وألفاظُه تقتضي ذلك، وقد كانوا على ثقةٍ من رشد الآخرةِ ورحمتها، وينبغي لكلِّ مؤمنٍ أن يجعلَ دعاءه في أمر دنياه لهذه الآية، فإنَّها كافية. ويحتمل أن يرادَ بالرحمة رحمةُ الآخرة. اهـ.

نعم فيما قاله نظر، والأَوْلى جعلُ الدعاءِ عامًّا في أمر الدُّنيا والآخرة، وإنْ كان تعقيبُه بما بعدُ ظاهراً في كونه خاصًّا في أمر الأُولى.

واللامُ و«مِن» متعلِّقان بـ «هيِّئ»، فإن اختلف معناهما بأن كانت الأُولى للأَجْل والثانيةُ ابتدائية، فلا كلامَ، وإنْ كانتا للأَجْل، احتاجت صحةُ التعلُّق إلى الجواب المشهور.

وتقديمُ المجرورَين على المفعول الصريحِ لإظهار الاعتناءِ بهما وإبراز الرغبةِ في المؤخَّر، وكذا الكلامُ في تقديم «من لدنك» على «رحمة» على تقدير تعلُّقه بـ «آتنا». وتقديمُ المجرورِ الأوَّل على الثاني للإيذان من أوَّل الأمرِ بكون المسؤولِ مرغوباً فيه لديهم.

---

(١) البحر ٦/ ١٠٢.
(٢) المفردات (رشد).
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠.

وقيل: الكلامُ على التجريد، وهو أن ينتزعَ من أمرٍ ذي صفةٍ آخَرُ مثله مبالغة، كأنَّه بلغ إلى مرتبةٍ من الكمال بحيث يمكنُ أن يؤخذَ منه آخَر، كرأيتُ منك أسداً، أي: اجعل أمرَنا كلَّه رشداً.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: ضربنا عليها حجاباً يمنع السَّماع، فالمفعولُ محذوف، كما في قولهم: بنى على امرأته، والمراد: أَنمناهم إنامةً ثقيلةً لا تنبِّههم فيها الأَصوات، بأن يجعلَ الضربُ على الآذان كنايةً عن الإنامة الثقيلة، وإنَّما صلح كناية؛ لأنَّ الصوتَ والتنبيهَ طريقٌ من طرق إِزالة النَّوم، فَسَدُّ طريقِه يدلُّ على استحكامه، وأمَّا الضربُ على العين وإنْ كان تعلُّقه بها أشدَّ، فلا يصلُح كناية؛ إذ ليس المبصرَاتُ من طرق إزالته حتى يكونَ سدُّ الأبصارِ كناية، ولو صلح كناية، فعن ابتداءِ النوم لا النومةِ الثقيلة.

واعترض القطبُ جعلَه كنايةً عما ذُكر بما لا يخفَى ردُّه، وخرَّج الآيةَ على الاستعارة المَكنيَّة، بأن يقال: شبّه الإِنامة الثقيلة بضرب الحجابِ على الآذان، ثم ذكر «ضربنا» وأُريد: أنمنا، وهو وجهٌ فيها.

وجوِّز أن تكونَ من باب الاستعارةِ التمثيلية، واختاره بعضُ المحقِّقين.

ومن الناس مَن حمل الضربَ على الآذانِ على تعطيلها، كما في قولهم: ضرب الأميرُ على يد الرَّعية، أي: منعهم عن التصرُّف. وتعقِّب بأنَّه مع عدمِ ملاءمته لما سيأتي إن شاء اللهُ تعالى من البعث، لا يدلُّ على إرادة النوم، مع أنَّه المرادُ قطعاً. وأُجيب بأنَّه يمكن أن يكونَ مرادُ الحاملِ التوصُّلَ بذلك إلى إرادة الإِنامة، فافهم.

والضربُ إمَّا من: ضربتُ القُفلَ على الباب، أو من: ضربت الخِباءَ على ساكنه. والفاءُ هنا مثلُها في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء:٧٦] بعد قولهِ سبحانه: (إِذْ نَادَىٰ) فإنَّ الضربَ المذكورَ وما يترتَّب عليه من التقليب ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ والبعثِ وغيرِ ذلك من آثار استجابةِ دعائهم السابق.

﴿فِى ٱلْكَهْفِ﴾ ظرفٌ لـ «ضربنا»، وكذا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿سِنِينَ﴾ ولا مانعَ من ذلك، لا سيَّما وقد تغايرا بالمكانية والزَّمانية ﴿عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي: ذواتِ عدد، على

أنَّه مصدرٌ وصف بالتأويل الشائع. وقيل: إنَّه صفةٌ بمعنى: معدودة. وقيل: إنَّه مصدرٌ لفعل مقدَّر، أي: تُعَدُّ عدداً.

والعددُ ـ على ما قال الراغبُ وغيرُه(١) ـ قد يراد به التكثير؛ لأنَّ القليلَ لا يحتاج إلى العدِّ غالباً، وقد يُذكَر للتقليل في مقابلة ما لا يحصَى كثرة، كما يقال: بغير حساب، وهو هنا يحتمل الوجهين، والأوَّلُ هو الأنسبُ بإظهار كمالِ القدرة، والثاني هو الأليقُ بمقام إنكار كونِ القصَّة عجباً من بين سائرِ الآياتِ العجيبة؛ فإنَّ مدةَ لَبثهم وإن كَثُرت في نفسها، فهي كبعض يومٍ عند اللهِ عزَّ وجلّ.

وفي «الكشف» أنَّ الكثرةَ تناسب نظراً إلى المخاطَبين، والقلَّةَ تناسب نظراً إلى المخاطب. اهـ.

وقد خَفِي على العزِّ بن عبدِ السلام أمرُ هذا الوصفِ وظنَّ أنَّه لا يكون للتكثير، وأنَّ التقليلَ لا يمكن هاهنا. وهو غريبٌ من جلالة قدرِه، وله في «أماليه» أمثالُ ذلك. وللعلَّامة ابنِ حجرٍ في ذلك كلامٌ ذكره في «الفتاوى الحديثية»(٢) لا أظنُّه شيئاً.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: أيقظناهم وأثرناهم من نومِهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ أي: منهم، وهم القائلون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الآية:١٩] والقائلون (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ).

وقيل: أحدُ الحزبَين الفتيةُ الذين ظنُّوا قِلَّةَ زمانِ لَبثهم، والثاني أهلُ المدينةِ الذين بُعث الفتيةُ على عهدهم، وكان عندهم تاريخُ غَيبتهم. وزعم ابنُ عطية(٣) أنَّ هذا قولُ جمهورِ المفسِّرين.

وعن ابن عباسٍ أنَّ أحدَ الحزبين الفتية، والآخَرَ الملوكُ الذين تداولوا ملكَ المدينةِ واحداً بعد واحدٍ.

وعن مجاهد: الحِزبان قومُ أهلِ الكهف، حزبٌ منهم مؤمنون وحزبٌ كافرون.

---

(١) انظر المفردات (عدد).

(٢) ص٢٦١-٢٦٢.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠.

وقال الفرَّاء[1]: الحزبان: مؤمنان كانوا في زمنهم، واختلفوا في مدَّة لبثهم.

وقال السُّدِّي: الحزبان كافران، والمراد بهما اليهودُ والنصارَى الذين علَّموا قريشاً سؤالَ رسولِ الله ﷺ عن أهل الكهف.

وقال ابنُ بحر[2]: الحزبان: اللهُ سبحانه وتعالى، والخلقُ، كقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

والظاهرُ هو الأوَّل؛ لأنَّ اللامَ للعهد، ولا عهدَ لغير مَن سمعت.

﴿أَحْصَىٰ﴾ أي: ضَبَطَ، فهو فعلٌ ماض، وفاعلُه ضمير «أيُّ» واختار ذلك الفارسيُّ والزمخشريُّ وابنُ عطية[3]. و«ما» في قوله تعالى: ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ مصدرية، والجارُّ والمجرورُ حالٌ مقدَّم عن قوله تعالى: ﴿أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ وهو مفعولُ «أحصى».

والأمدُ ـ على ما قال الراغب[4] ـ مدَّةٌ لها حدّ، والفرقُ بينه وبين الزمانِ أنَّ الأمدَ يقال باعتبار الغاية، بخلاف الزَّمان، فإنَّه عامٌّ في المبدأ والغاية، ولذلك قال بعضُهم: المدى والأمدُ يتقاربان، وليس اسماً للغاية حتى يكونَ إطلاقُه على المدَّة مجازاً، كما أُطلقت الغايةُ عليها في قولهم: ابتداءُ الغايةِ وانتهاؤها، أي: ليعلمَ أيُّهم أحصى مدَّةً كائنةً للَبثهم.

والمرادُ من إحصائها ضبطُها من حيث كميتُها المنفصلةُ العارضةُ لها، باعتبار قسمتِها إلى السِّنين وبلوغِها من تلك الحيثيةِ إلى مراتب الأعداد، كما يرشدك إليه كونُ المدةِ عبارةً عما سبق من السِّنين، وليس المرادُ ضبطَها من حيث كميتُها المتصلةُ الذاتية؛ فإنَّه لا يسمَّى إحصاء.

وقيل: إطلاقُ الأمدِ على المدَّة مجاز، وحقيقتُه غايةُ المدَّة. ويجوز إرادةُ ذلك بتقدير المضاف، أي: لنعلمَ أيُّهم ضبط غايةً لزمان لَبثهم، وبدونه أيضاً؛ فإنَّ اللَّبث

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٣٦.

(٢) في الأصل و(م): حرب، والمثبت من البحر ٦/ ١٠٤، والكلام منه، وهو علي بن إبراهيم بن سلمة بن بحر.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٧٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠٠.

(٤) في المفردات (أمد).

عبارةٌ عن الكون المستمرِّ المنطبقِ على الزمان المذكور، فباعتبار الامتدادِ العارضِ له بسببه يكون له أمدٌ وغايةٌ لا محالة، لكن ليس المرادُ ما يقع غايةً ومنتهًى لذلك الكونِ المستمرِّ باعتبار كمِّيته المتصلةِ العارضةِ له بسبب انطباقِه على الزمان الممتدِّ بالذات، وهو آنُ انبعاثِهم من نومهم؛ فإنَّ معرفتَه من تلك الحيثيةِ لا تخفَى على أحد، ولا تسمَّى إحصاءً أيضاً، بل باعتبار كميتِه المنفصلةِ العارضةِ له بسبب عروضِها لزمانه المنطبقِ هو عليه باعتبار انقسامِه إلى السِّنين، ووصولِه إلى مرتبةٍ معيَّنة من مراتبِ العدد.

والفرقُ بين هذا وما سبق أنَّ ما تعلَّق به الإحصاءُ في الصورة السابقةِ نفسُ المدةِ المنقسمةِ إلى السنين، فهو مجموعُ ثلاثِ مئةٍ وتسعِ سنين، وفي الصورة الأخيرةِ منتهى تلك المدةِ المنقسمة إليها، أعني التاسعةَ بعد الثلاث مئة. وتعلُّق الإحصاءِ بالأمد بالمعنى الأوَّل ظاهر، وأمَّا تعلُّقه به بالمعنى الثاني، فباعتبار انتظامِه لما تحته من مراتب العددِ واشتمالِه عليها. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ ظاهرَ كلامِ الراغب ـ وهو هو في اللغة ـ يقتضي أنَّ الأمدَ حقيقةٌ في المدَّة، وأنَّه في الغاية مجاز، وأنَّ توجيهَ إرادةِ الغايةِ هنا بما ذُكِر تكلُّف لا يُحتاج إليه على تقدير كونِ «ما» مصدرية. نعم يُحتاج إليه على تقدير جعلِها موصولةً حُذِف عائدُها من الصِّلة، أي: لنعلمَ أيُّهم أَحصى أمداً كائناً للذي لبثوه، أي: لبثوا فيه من الزَّمان.

وقيل: «ما لبثوا» في موضع المفعولِ له؛ وجيءَ بلام التعليلِ لكونه غيرَ مصدرٍ صريح، وغيرَ مقارنٍ أيضاً. وليس بذاك.

وقيل: اللامُ مزيدة، و«ما» موصولة، وهي المفعولُ به، وعائدُها محذوف، أي: أَحصى الذي لبثوه، والمراد: الزمانَ الذي لبثوا فيه، و«أمداً» على هذا تمييزٌ للنسبة، مفسِّر لما في نسبة المفعولِ من الإبهام، محوَّل عن المفعول، وأَصله: أحصى أمدَ الزمانِ الذي لبثوا فيه.

وزَعْمُ أنه لا يصحُّ أن يكونَ تمييزاً للنسبة لأنَّه لا بدَّ أن يكونَ محوَّلاً عن الفاعلِ ولا يمكن ذلك هنا، ليس بشيء؛ لأنَّ اللَّابُدِّية في حيِّز المنع، والذي تحقَّق في المعتبَرات ـ كشروح «التسهيل» وغيرِها ـ أنَّه يكون محوَّلاً عن المفعول، كـ :

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢] كما يكون محوَّلاً عن الفاعل، ك: تصبَّب زيدٌ عرقاً، ولو جُعل تمييزاً لمَا كان تمييزاً لمفرَد، ولم يقل أحدٌ باشتراط التحويلِ فيه أصلاً.

وجوَّز في «ما» على هذا التقديرِ أن تكونَ مصدرية، وهو بعيد، وضعَّف القولُ بزيادة اللامِ هنا بأنَّها لا تزاد في مثلِ ذلك.

واختار الزجَّاج(١) والتِّبريزيُّ كونَ «أحصى» أفعلَ تفضيل؛ لأنَّه الموافقُ لما وقع في سائر الآياتِ الكريمة، نحو: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الآية:٧] ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء:١١] إلى غير ذلك مما لا يُحصَى، ولأنَّ كونَه فعلاً ماضياً يُشعر بأنَّ غاية البعثِ هو العلمُ بالإحصاء المتقدِّم على البعث، لا بالإحصاء المتأخِّر عنه، وليس كذلك.

واعتُرض أوَّلاً: بأنَّ بناءَ أفعل التفضيلِ من غير الثلاثيِّ المجرَّد ليس بقياس، وما جاء منه شاذٌ، ك: أعدَى من الجَرَب، وأفلسُ من ابن المُدلَّق(٢).

وأُجيب بأنَّ في بناء أفعل من ذلك ثلاثةَ مذاهب: الجوازُ مطلقاً، وهو ظاهرُ كلامِ سيبويه. والمنعُ مطلقاً، وما ورد شاذٌّ لا يقاس عليه، وهو مذهبُ أبي عليّ. والتفصيلُ بين أن تكونَ الهمزةُ للنقل، فلا يجوز، أو لغيره، كأشكل الأمرُ، وأظلم الليلُ، فيجوز، وهو اختيارُ ابنِ عُصفور. فلعلَّهما يريان الجوازَ مطلقاً كسيبويه، أو التفصيلَ كابن عُصفور، والهمزةُ في «أحصى» ليست للنقل.

وثانياً: بأنَّ «أمداً» حينئذٍ إنْ نُصب على أنَّه مفعولٌ به، فإن كان بمضمَرٍ كما في قول العباسِ بن مِرْداس:

فلم أرَ مثلَ الحيِّ حيًّا مصبَّحاً ... ولا مثلَنا لمَّا التقينا فوارسا
أَكرَّ وأَحمَى للحقيقة منهمُ ... وأَضربَ منَّا بالسيوف القَوانِسا(٣)

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٧١.

(٢) المدلَّق: يروى بالدال والذال، وهو رجل من بني عبد شمس بن سعد بن زيد مناة، لم يكن يجد في بيته قوت ليلة، وأبوه وأجداده يعرفون بالإفلاس. جمهرة الأمثال ٢/ ١٠٧.

(٣) الأصمعيات ص٢٠٥، والحماسة البصرية ١/ ٥٥. والحقيقة: ما يحق على المرء أن يحميه، والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى بيضة الرأس.

لزم الوقوعُ فيما فرّا منه، حيث لم يجعلا المذكورَ فعلاً ثم قدّرا، وإنْ كان به فليس صالحاً لذلك، وإنْ نصب بـ «لبثوا»، لا يكونُ المعنى سديداً؛ لأنَّ الضبط لمدَّة اللَّبث وأَمدِه لا للَّبث في الأمد. ولا يقال: فليكن نظيرَ قولكم: أيُّكم أضبطُ لصومه في الشهر، أي: لأيام صومِه، والمعنى: أيُّهم أضبطُ لأيام اللبثِ أو ساعاتِه في الأمد، ويراد به جميعُ المدَّة؛ لِمَا قيل: يعضل حينئذٍ تنكيرُ «أمداً». والاعتذارُ بأنَّهم ما كانوا عارفين بتحديده يوماً أو شهراً أو سَنَة، فنكَّر على أنَّه سؤالٌ إما عن الساعات، أو الأيام[1]، أو الأشهر، غيرُ سديد؛ لأنَّه معلومٌ أنَّه أمدُ زمانِ اللَّبث، فليعرَّف إضافةً أو عهداً، ويكون الاحتمالُ على حاله.

ووجَّه أبو حيان[2] نصبَه بأنَّه على إسقاط حرفِ الجرّ، وهو بمعنى المدَّة، والأصل: لِمَا لبثوا مِن أمد، ويكون مِن أمدٍ تفسيراً لما أُبهم في لفظ «ما» كقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة:١٠٦] ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر:٢] ولمَّا سقط الحرفُ وصل إليه الفعل. وهو كما ترى. وتَعقَّب منعَ صلاحيةِ أفعل لنصب المفعولِ به بأنَّه قولُ البصريين دون الكوفيين، فلعل الإمامَين سلكا مذهبَ الكوفيين، فجعلا «أحصى» أفعلَ تفضيل، و«أمداً» مفعولاً له.

والحقُّ أنَّ الذاهبَ إلى كون «أحصى» أفعلَ تفضيلٍ جعل «أمداً» تمييزاً، وهو يعمل في التمييز على الصَّحيح، والقولُ بأنَّ التمييزَ يجب كونُه محوَّلاً عن الفاعل قد مُيِّزت حالُه.

وثالثاً: بأنَّ توهُّم الإشعار بأنَّ غايةَ البعثِ هو العلمُ بالإحصاء المتقدِّم عليه مردودٌ بأنَّ صيغةَ الماضي باعتبار حالِ الحكاية، ولا يكاد يتوهَّم من ذلك الإشعارُ المذكور.

ورابعاً: بأنَّه يلزم حينئذٍ أن يكونَ أصلُ الإحصاءِ متحقِّقاً في الحزبين إلَّا أنَّ بعضَهم أفضلُ والبعضَ الآخَر أدنى، مع أنَّه ليس كذلك.

وفي «الكشف» أنَّ قولَ الزجَّاج ليس بذلك المردود، إلَّا أنَّ ما آثره الزمخشريُّ أحقُّ بالإيثار لفظاً ومعنًى، أما الأوَّل فظاهر، وأما الثاني؛ فلأنَّه تعالى حكى تساؤلَهم

---

(١) في (م): والأيام.
(٢) في البحر ٦/ ١٠٥.

فيما بينهم وأنَّه عن العارف لا عن الأعرف، وغيرُهم أَوْلى به. انتهى، فافهم.

و«أيُّ» استفهاميةٌ مبتدأ، وما بعدها خبرُها، وقد علَّقت «نَعلَمَ» عن العمل كما هو شأنُ أدواتِ الاستفهام في مثل هذا الموضع، وهذا جارٍ على احتمالَي كونِ «أحصى» فعلاً ماضياً، وكونِه أفعلَ تفضيل.

وجوَّز جعلُ «أيُّ» موصولة؛ ففي «البحر»[1]: إذا قلنا بأنَّ «أحصى» أفعلُ تفضيل، جاز أن تكونَ «أيُّ» موصولاً مبنيّاً على مذهب سيبويه؛ لوجود شرطِ جواز البناءِ فيه، وهو كونُ «أيُّ» مضافةً حُذف صدرُ صلتها، والتقدير: لنعلمَ الفريقَ الذي هو أحصى لِمَا لبثوا أمداً من الذين لم يُحصوا، وإذا كان فعلاً ماضياً امتنع ذلك؛ لأنَّه حينئذٍ لم يُحذَف صدرُ صلتها؛ لوقوع الفعلِ مع فاعله صلة، فلا يجوزُ بناؤها لفوات تمامِ الشرط، وهو حذفُ صدرِ الصلة. انتهى.

وقرأ الزُّهري: «ليَعلَمَ»[2] بالياء على إسناد الفعل إليه تعالى بطريق الالتفات.

وأيًّا ما كان، فالعلمُ غايةٌ للبعث، وليس ذلك على ظاهره، وإلَّا تكن الآيةُ دليلاً لهشامٍ على ما يزعمه[3]، تعالى اللهُ تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، فقيل: هو غايةٌ بجعله مجازاً عن الإظهار والتميز. وقيل: المراد: ليتعلَّقَ علمُنا تعلُّقاً حاليًّا مطابقاً لتعلُّقه أوَّلاً تعلُّقاً استقباليًّا، كما في قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

واعترضه بعضُ الأجلَّة بأنَّ بعثَ هؤلاء الفئةِ لم يترتَّب عليه تفرُّقُهم إلى المحصَى وغيرِه حتى يتعلَّقَ بهما العلمُ تعلُّقاً حاليًّا أو الإظهارُ والتميز، ويتسنَّى نظمُ شيءٍ من ذلك في سلك الغاية، كما ترتَّب على تحويل القِبلة انقسامُ الناسِ إلى متَّبع ومنقلب، فصحَّ تعلُّقُ العلمِ الحاليِّ والإظهارِ بكلٍّ من القسمين، وإنَّما الذي ترتَّب على ذلك تفرُّقهم إلى مقدِّرٍ تقديراً غيرَ مصيب، ومفوِّضٍ العلمَ إلى الله عزَّ وجلّ، وليس في شيءٍ منهما إحصاءٌ أصلاً.

---

(١) ٦/ ١٠٤.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٠٣، وانظر القراءات الشاذة ص٧٨.

(٣) سلف كلامه ص١٩٨ من هذا الجزء.

ثم قال: إنَّ جعل ذلك غايةً بحمل النظمِ الكريمِ على التمثيل المبنيِّ على جعل العلمِ عبارةً عن الاختبارِ مجازاً، بإطلاق اسم المسبَّب على السبب، وليس من ضرورة الاختبارِ صدورُ الفعلِ المختبَر به عن المختبر قطعاً، بل قد يكون لإظهاره عجزَه عنه على سنن التكاليفِ التعجيزية، كقوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨] وهو المرادُ هنا، فالمعنى: بعثناهم لنعاملَهم معاملَة مَن يختبرهم أيُّهم أحصى لِمَا لبثوا أمداً فيظهرَ لهم عجزُهم ويفوِّضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرَّفوا حالَهم وما صنع اللهُ تعالى بهم من حفظ أبدانِهم، فيزدادوا يقيناً بكمال قدرتِه تعالى وعلمِه، ويستبصروا به أمرَ البعث، ويكون ذلك لطفاً لمؤمني زمانِهم، وآيةً بيِّنة لكفارهم، وقد اقتصر هاهنا من تلك الغاياتِ الجليلةِ على مبدئها الصادرِ عنه سبحانه، وفيما سيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدِّي إليها، وهذا أَوْلى من تصوير التمثيلِ بأن يقال: بعثناهم بعثَ مَن يريد أن يعلم؛ إذ ربَّما يتوهَّم منه استلزامُ الإرادة لتحقُّق المراد، فيعود المحذور، فيصار إلى جعل إرادة العلمِ عبارةً عن الاختبار، فاختبِر واختَر. انتهى.

وتعقَّبه الخفاجيُّ(١) بأنَّ ما ذكره مع تكلُّفه وقلةِ جدواه غيرُ مستقيم؛ لأنَّ الاختبارَ الحقيقيَّ لا يتصوَّر ممَّن أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، فحيث وقع جعلوه مجازاً عن العلم أو ما يترتَّب عليه، فلزمه بالأَخَرَةِ الرجوعُ إلى ما أنكره، واختار جعلَ العلمِ كنايةً عن ظهور أمرِهم ليطمئنَّ بازدياد الإيمان قلوبُ المؤمنين وتنقطعَ حجَّة المنكرين، وعِلمُ اللهِ تعالى حيث تعذَّر إرادةُ حقيقتِه في كتابه تعالى جُعِلَ كنايةً عن بعض لوازمِه المناسبةِ لموقعه، والمناسبُ هنا ما ذكر.

ثم قال: وإنَّما علَّق العلمُ بالاختلاف في أمده، أي: المفهومِ من «أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً»، لأنَّه أدعَى لإظهاره، وأقوى لانتشاره.

وفي «الكشف» توجيهاً لِمَا في «الكشاف»: أراد أنَّ العلمَ مجازٌ عن التمييز والإظهار، كأنَّه قيل: لنُظهرَ ونميِّز لهم العارفَ بأمدِ ما لبثوا ولينظر مَن هذا العارف؛ فإنَّه لا يجوز أن يكونَ أحداً منهم، لأنَّهم بين مفوِّض ومقدِّر غيرِ مصيب.

---

(١) في حاشيته ٦/ ٧٩.

والفرقُ بين ما في «الكشف» وما ذكره الخفاجيُّ لا يخفَى على بصير، وما في «الكشف» أقلُّ مؤونةً منه. وتصويرُ التمثيلِ بأن يقال: بعثناهم بعثَ مَن يريد أن يعلم، أحسنُ عندي من التصوير الأوَّل، والتوهُّم المذكورُ ممَّا لا يكاد يُلتفَت إليه، فتدبَّر جدًّا.

وقُرئ: «ليُعْلِمَ» مبنيًّا للفاعل[1]، من الإعلام، وخرِّج ذلك على أنَّ الفاعل ضميرُه تعالى، والمفعولَ الأوَّل محذوفٌ لدَلالة المعنى عليه، و«أيُّ الحزبين» إلخ من المبتدأ والخبرِ في موضع مفعولَي «يُعلِم» الثاني والثالث، والتقدير: ليُعلِمَ اللهُ الناسَ أيُّ الحزبين.. إلخ، وإذا جُعِل العلم عرفانيًّا، كانت الجملةُ في موضع المفعولِ الثاني فقط، وهو ظاهر.

وقُرئ: «ليُعلَمَ» بالبناء للمفعول[2]، وخرِّج على أنَّ نائبَ الفاعلِ محذوفٌ، أي: ليُعلَمَ الناسُ، والجملة بعدُ إمَّا في موضع المفعولَين أو المفعول، حسبما سمعت. وقال بعضُهم: إنَّ الجملةَ هي النائبُ عن الفاعل. وهو مذهبٌ كوفيٌّ، ففي «البحر»[3]: البصريُّون لا يجوِّزون كونَ الجملةِ فاعلاً ولا نائباً عنه، وللكوفيين مذهبان: أحدُهما أنَّه يجوز الإسنادُ إلى الجملة مطلقاً. والثاني: أنَّه لا يجوز إلَّا إذا كان المسندُ ممَّا يصحُّ تعليقُه، وتحقيقُ ذلك في محلِّه.

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم﴾ شروعٌ في تفصيل ما أُجمل فيما سلف، أي: نحن نُخبرك بتفصيل خبرِهم الذي له شأنٌ وخطر.

﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ إما صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أو حالٌ من ضمير «نقصُّ» أو مِن «نبأهم» أو صفةٌ له على رأي مَن يرى جوازَ حذفِ الموصولِ مع بعض الصِّلة، أي: نقصُّ قَصصاً ملتبساً بالحقّ، أو نقصُّه ملتبسين به، أو نقصُّ نبأَهم ملتبساً به، أو نبأَهم الملتبسَ به.

ولعل في التقييد «بالحق» إشارةً إلى أنَّ في عهده ﷺ مَن يقصُّ نبأَهم لكن لا بالحقّ.

---

(١) البحر ٦/ ١٠٣.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٠٣، وانظر القراءات الشاذة ص٧٨.

(٣) ٦/ ١٠٣.

وفي «الكشف» بعد نقلِ شعر أميةَ بن أبي الصلتِ السابقِ ما نصُّه: وهذا يدلُّ على أنَّ قصةَ أصحابِ الكهفِ كانت من علم العربِ وإنْ لم يكونوا عالِميها على وجهها.

ونبؤهم ـ حسبما ذكره ابنُ إسحاقَ وغيرُه(١) ـ أنَّه مَرِجَ أهلُ الإنجيلِ وعَظُمت فيهم الخطايا، وطغت ملوكُهم، فعبدوا الأصنامَ وذبحوا للطَّواغيت، وفيهم بقايا على دين المسيحِ عليه السلام متمسِّكين بعبادة اللهِ تعالى وتوحيدِه، وكان ممَّن فعل ذلك من ملوكهم وعتا عتوًّا كبيراً دقيانوس، وفي رواية: دقيوس، فإنَّه غلا غلوًّا شديداً، فجاس خلالَ الديارِ والبلاد، وأكثرَ فيها الفساد، وقتل مَن خالفه من المتمسِّكين بدين المسيحِ عليه السلام، وكان يتتبَّع الناسَ فيخيِّرهم بين القتل وعبادةِ الأوثان، فمَن رغب في الحياةِ الدُّنيا انقاد لأمره وامتثله، ومَن آثر عليها الحياةَ الأبديةَ لم يبالِ بأيِّ قِتلةٍ قتله، فكان يقتل أهلَ الإيمانِ ويقطع أجسادَهم ويجعلها على سور المدينةِ وأبوابِها، فلمَّا رأى الفتيةُ ذلك ـ وكانوا عظماءَ مدينتهم، واسمُها على ما في بعض الرِّوايات: أفسوس، وفي بعضها: طرسوس، وقيل: كانوا من خواصِّ الملك ـ قاموا فتضرَّعوا إلى الله عزَّ وجلّ، واشتغلوا بالصلاة والدُّعاء، فبينما هم كذلك، دخل عليهم الشُّرَط فأخذوهم وأعينُهم تفيض من الدَّمع ووجوهُهم معفَّرة بالتُّراب، وأحضروهم بين يدي الجبَّار، فقالوا لهم: ما منعكم أن تشهدوا الذَّبحَ لآلهتنا؟ وخيَّرهم بين القتل وعبادة الأوثان، فقالوا: إنَّ لنا إلهاً ملأ السماواتِ والأرضَ عظمتُه وجبروتُه، لن ندعوَ من دونه أحداً، ولن نُقرَّ بما تدعونا إليه أبداً، فاقضِ ما أنت قاض، وأوَّل مَن قال ذلك أكبرُهم مكسلمينا، فأمر الجبارُ فنُزِع ما عليهم من الثياب الفاخرةِ وأخرجهم مِن عنده، وخرج هو إلى مدينةٍ أخرى، قيل: هي نينوى، لبعض شأنِه، وأمهلهم إلى رجوعه، وقال: ما يمنعني أن أعجِّلَ عقوبتَكم إلَّا أني أراكم شبَّاناً، فلا أحبُّ أن أهلكَكم حتى أجعلَ لكم أجلاً تتأمَّلون فيه وترجعون إلى عقولِكم، فإنْ فعلتم فبها، وإلَّا أَهلكتكم، فلمَّا رأَوا خروجَه اشتوروا فيما بينهم، واتَّفقوا على أن يأخذَ كلٌّ منهم نفقةً من بيت أبيه فيتصدَّقَ ببعضها ويتزوَّد بالباقي وينطلقوا إلى كهفٍ قريبٍ من المدينة يقال له: بنجلوس،

(١) أخرجه الطبري مطولاً ١٥/ ١٦٣-١٧٢.

ففعلوا ما فعلوا، وأوَوا إلى الكهف، فلبثوا فيه ليس لهم عملٌ إلّا الصلاةُ والصيامُ والتسبيحُ والتحميد، وفوَّضوا أمرَ نفقتِهم إلى فتًى منهم اسمُه يمليخا، فكان إذا أصبح يتنكَّر ويدخل المدينةَ ويشتري ما يهمُّهم ويتجسَّس ما فيها من الأَخبار ويعود إليهم، فلبثوا على ذلك إلى أن قدم الجبارُ مدينتَهم، فتطلَّبهم وأَحضر آباءهم، فاعتذروا بأنَّهم عَصَوهم ونهبوا أموالَهم وبذروها في الأسواق وفرُّوا إلى الجبل، وكان يمليخا إذ ذاك في المدينة، فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه قليلُ طعام، فأخبرهم بما شاهد من الهول، ففزعوا إلى اللهِ تعالى وخرُّوا له سجَّداً، ثم رفعوا رؤوسَهم وجلسوا يتحدَّثون في أمرهم، فبينما هم كذلك إذ ضرب اللهُ عزَّ وجلَّ على آذانهم، فناموا ونفقتُهم عند رؤوسهم وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد، فأصابه ما أصابهم، فخرج الجبارُ في طلبهم بخيله ورَجِله، فوجدوهم قد دخلوا الكهف، فأمر بإخراجهم، فلم يُطِق أحدٌ أن يدخلَه، فلمَّا ضاق بهم ذرعاً قال قائلٌ منهم: أليس لو كنتَ قَدَرتَ عليهم قتلتهم؟ قال: بلى، قال: فابنِ عليهم بابَ الكهفِ ودَعْهم يموتوا جوعاً وعطشاً، ولْيكن كهفُهم قبراً لهم، ففعل، ثم كان من شأنهم ما قصَّ اللهُ تعالى عزَّ وجلّ.

وأخرج ابنُ أبي شيبةَ وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّهم كانوا في مملكة ملكٍ من الجبابرة يدعو الناسَ إلى عبادة الأَوثان، فلمَّا رأوا ذلك، خرجوا من تلك المدينة، فجمعهم اللهُ تعالى على غيرِ ميعاد، فجعل بعضُهم يقول لبعض: أين تريدون، أين تذهبون؟ فجعل بعضُهم يخفي عن بعض؛ لأنه لا يدري هذا علام خرج هذا، ولا يدري هذا علام خرج هذا، فأخذوا العهودَ والمواثيقَ أن يخبر بعضهم بعضاً، فإن اجتمعوا على شيء وإلا كتم بعضهم بعضاً، فاجتمعوا على كلمةٍ واحدة، فقالوا: (رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) إلى: (مِّرْفَقًا) ثم انطلقوا حتى دخلوا الكهفَ، فضرب اللهُ تعالى على آذانهم فناموا، وفُقدوا في أَهلهم، فجعلوا يطلبونهم فلم يظفروا بهم، فرُفع أمرُهم إلى الملك، فقال: لَيكوننَّ لهؤلاء القومِ بعد اليوم شأن، ناسٌ خرجوا لا ندري أين ذهبوا في غير جنايةٍ ولا شيءٍ يُعرَف، فدعا بلوحٍ من رصاص، فكتب فيه أسماءهم ثمَّ طرح في خزانته، ثم كان من شأنهم ما قصَّه اللهُ سبحانه وتعالى.

وكانوا ـ على ما أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن أبي جعفر ـ صيارفة(١).

وأخرج عبدُ الرزَّاق وابنُ المنذر(٢) عن وهب بنِ منبِّه قال: جاء رجلٌ من حواريِّي عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحابِ الكهف، فأراد أن يدخلَها، فقيل: على بابها صنمٌ لا يدخل أحدٌ إلَّا سجد له، فكره أنْ يدخل، فأتى حمَّاماً قريباً من المدينة، وآجر نفسَه من صاحبه، فكان يعملُ فيه، ورأى صاحبُ الحمامِ البركةَ والرزق، وجعل يسترسل إليه، وعَلِقه فتيةٌ من أهل المدينة، فجعل يُخبرهم عن خبر السماءِ وخبرِ الآخرة، حتى آمنوا وكانوا على مِثل حالِه في حُسن الهيئة، وكان يشترط على صاحب الحمَّام أنَّ الليلَ لي، ولا تحولُ بيني وبين الصلاةِ إذا حضرت، حتى جاءَ ابنُ الملكِ بامرأةٍ يدخل بها الحمَّام، فعيَّره الحواريُّ فقال: أنت ابنُ الملكِ وتدخل مع هذه المرأةِ التي صفتُها كذا وكذا، فاستحيا فذهب، فرجع مرةً أخرى، فسبَّه وانتهره، فلم يلتفتْ حتى دخل ودخلت معه، فباتا في الحمَّام جميعاً، فماتا فيه، فأُتي الملكُ فقيل له: قتل ابنَك صاحبُ الحمام، فالتُمس فلم يُقدَر عليه، وهرب مَن كان يصحبه، والتُمس الفتيةُ، فخرجوا من المدينة، فمرُّوا بصاحبٍ لهم في زرعٍ له وهو على مثل أمرِهم، فذكروا له أنَّهم التُمسوا، فانطلق معهم حتى أَواهم الليلُ إلى كهف، فدخلوا فيه فقالوا: نبيت هاهنا الليلةَ ثم نصبح إن شاء اللهُ تعالى فنرى رأيَنا، فضُرب على آذانهم، فخرج الملكُ بأصحابه يتبعونهم حتى وجدوهم قد دخلوا الكهف، فكلَّما أراد الرجلُ منهم أن يدخلَه أُرعب فلم يُطِق أن يدخل، فقال للملك قائل: ألستَ لو قدرتَ عليهم قتلتهم؟ قال: بلى، قال: فابنِ عليهم بابَ الكهفِ ودَعْهم يموتوا عطشاً وجوعاً، ففعل، ثم كان ما كان. ورُوي غير ذلك، والأخبارُ في تفصيل شأنِهم مختلفة.

وفي «البحر»(٣): لم يأتِ في الحديث الصحيحِ كيفيةُ اجتماعِهم وخروجهم، ولا معوَّلَ إلَّا على ما قصَّ اللهُ تعالى من نبئهم.

---

(١) هذا الخبر والذي قبله نقلهما المصنف عن الدر المنثور ٤/ ٢١٢، ٢١٣.
(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣٩٧، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢١٥.
(٣) ٦/ ١٠١.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال من قِبَل المخاطَب، وتقدَّم الكلامُ آنفاً في الفتية ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أي: بسيِّدهم والناظرِ في مصالحهم. وفيه التفاتٌ من التكلُّم إلى الغَيبة، وأُوثر للإشعار بعِلِّية وصفِ الرُّبوبية لإيمانهم ولِمَا صدر عنهم من المقالة حسبما سيُحكى عنهم.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ بالتثبيت على الإيمان، والتوفيقِ للعمل الصالح، والانقطاعِ إلى الله تعالى، والزُّهدِ في الدنيا.

وفي «التحرير»: المراد: زدناهم ثمراتِ هدًى، أو يقيناً، قولان، وما حصلت به الزيادةُ امتثالُ المأمورِ وتركُ المنهيّ، أو إنطاقُ الكلبِ لهم بأنَّه على ما هم عليه من الإيمان؛ أو إنزالُ مَلَكٍ عليهم بالتبشير والتثبيت، وإخبارُهم بظهور نبيٍّ من العرب يكون به الدينُ كلُّه لله تعالى، فآمنوا به ﷺ قبل بَعثه. اهـ.

ولا يلزمُ من القول بإنزال مَلَكٍ عليهم بذلك القولُ بنبوَّتهم كما لا يخفَى.

وفي «زدناهم» التفاتٌ من الغيبة إلى التكلُّم الذي عليه سبكُ النظمِ الكريمِ سباقاً وسياقاً. وفيه من تعظيم أمرِ الزِّيادة ما فيه.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قوَّيناها بالصبر، فلم تزحزحها عواصفُ فراقِ الأَوطان، وتركِ الأهلِ والنعيمِ والإخوان، ولم يزعجْها الخوفُ من ملكهم الجبَّار، ولم يَرُعها كثرةُ الكفار.

وأصلُ الربطِ الشدُّ المعروف، واستعمالُه فيما ذُكر مجازٌ كما قال غيرُ واحد. وفي «الأساس»[1]: ربطت الدابَّة: شددتها برِباط، والمِرْبَطُ: الحبل، ومن المجاز: ربط اللهُ تعالى على قلبه: صبَّره، ورابطُ الجأش.

وفي «الكشف»: لمَّا كان الخوفُ والقلقُ[2] يزعج القلوبَ عن مقارِّها ـ أَلَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] قيل في مقابله: ربط قلبَه، إذا تمكَّن وثبت، وهو تمثيل.

---

(١) مادة (ربط).

(٢) في (م): والتعلُّق.

وجوَّز بعضُهم أن يكونَ في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ تخييلية، وعُدِّي الفعلُ بـ «على» وهو متعدٍّ بنفسه؛ لتنزيله منزلةَ اللازمِ، كقوله:

... يَجرحْ في عراقيبها نَصْلي[(١)]

﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ متعلِّق بـ «ربطنا»، والمرادُ بقيامهم انبعاثُهم بالعزم على التوجُّه إلى الله تعالى ومنابذةِ الناس، كما في قولهم: قام فلانٌ إلى كذا: إذا عزم عليه بغاية الجِدّ. وقريبٌ منه ما قيل: المرادُ به انتصابُهم لإظهار الدِّين.

أَخرج ابنُ المنذرِ وابن أبي حاتم[عن مجاهد] أنَّهم خرجوا من المدينة فاجتمعوا وراءَها على غيرِ ميعاد، فقال رجلٌ منهم هو أشبههم: إني لأَجد في نفسي شيئاً ما أظنُّ أحداً يجده، قالوا: ما تجد؟ قال: أجد في نفسي أنَّ ربي ربُّ السماواتِ والأرض، فقالوا أيضاً: نحن كذلك، فقاموا جميعاً ﴿فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٢)].

وقد تقدَّم آنفاً عن ابن عباسٍ القولُ باجتماعهم على غيرِ ميعادٍ أيضاً، إلَّا أنَّه قال: إنَّ بعضَهم أخفَى حالَه عن بعض، حتى تعاهدوا فاجتمعوا على كلمةٍ فقالوا ذلك.

وقال صاحبُ «الغنيان»: المرادُ به وقوفُهم بين يدي الجبّارِ دِقيانوس، وذلك أنَّهم قاموا بين يديه حين دعاهم إلى عبادة الأَوثان، فهدَّدهم بما هدَّدهم، فبينما هم بين يديه، تحرَّكت هِرَّة ـ وقيل: فأرة ـ ففزع الجبارُ منها، فنظر بعضُهم إلى بعض، فلم يتمالكوا أن قالوا ذلك غيرَ مكترثين به.

وقيل: المرادُ قيامُهم لدعوة الناسِ سرًّا إلى الإيمان.

وقال عطاء: المرادُ قيامُهم من النوم. وليس بشيء. ومثلُه ما قيل: إنَّ المرادَ قيامُهم على الإيمان.

وما أحسنَ ما قالوا؛ فإنَّ ربوبيَّته تعالى للسماوات والأرضِ تقتضي ربوبيتَه لِمَا فيهما ـ وهم مِن جملته ـ أيَّ اقتضاء، وأَردفوا دعواهم تلك بالبراءة من إلهٍ غيرِه

---

(١) قطعة من بيت لذي الرمّة، وهو في ديوانه ١/١٥٦، وسلف ١٠/١٦١.

(٢) الدر المنثور ٤/٢١٤، وما بين حاصرتين منه.

عزَّ وجلّ، فقالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾، وجاؤوا بـ «لن» لأنَّ النفيَ بها أبلغُ من النفي بغيرها، حتى قيل: إنَّه يفيد استغراقَ الزمان، فيكون المعنى: لا نعبد أبداً مِن دونه إلهاً، أي: معبوداً آخر، لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

قيل: وعدلوا عن قولهم: ربًّا، إلى قولهم: «إلهاً» للتنصيص على ردِّ المخالفين حيث كانوا يسمُّون أصنامَهم آلهة، وللإشعار بأنَّ مدارَ العبادةِ وصفُ الألوهية، وللإيذان بأنَّ ربوبيَّته تعالى بطريق الألوهية لا بطريق المالكيةِ المجازية.

وقد يقال: إنَّهم أشاروا بالجملة الأُولى إلى توحيد الرُّبوبية، وبالجملة الثانيةِ إلى توحيد الأُلوهية، وهما أمران متغايران، وعبدةُ الأوثانِ لا يقولون بهذا ويقولون بالأوَّل ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥] وحكى سبحانه عنهم أنَّهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] وصحَّ أنهم يقولون أيضاً: لبَّيك لا شريكَ لك، إلَّا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وجاؤوا بالجملة الأُولى ـ مع أنَّ ظاهر القصَّة كونُهم بصدد ما تُشير إليه الجملةُ الثانيةُ من توحيد الأُلوهية؛ لأنَّ الظاهر أنَّ قومَهم إنَّما أشركوا فيها، وهم إنَّما دعوا لذلك الإشراك ـ دلالةً على كمال الإيمان، وابتدؤوا بما يُشير إلى توحيد الرُّبوبية؛ لأنَّه أولُ مراتبِ التوحيد، والتوحيدُ الذي أقرَّت به الأرواحُ في عالَم الذَّرِّ يومَ قال لها سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] وفي ذِكر ذلك أوَّلاً وذكرِ الآخَر بعده تدرُّج في المخالفة؛ فإنَّ توحيدَ الربوبيةِ يشير إلى توحيد الأُلوهية، بناءً على أنَّ اختصاصَ الرُّبوبيةِ به عزَّ وجلَّ علَّةٌ لاختصاص الأُلوهيةِ واستحقاقِ المعبوديةِ به سبحانه وتعالى، وقد أَلزم جلَّ وعلا الوثنيةَ القائلين باختصاص الربوبيةِ بذلك في غيرِ موضع، ولكون الجملةِ الأولى ـ لكونها مشيرةً إلى توحيد الربوبيةِ ـ مشيرةً إلى توحيد الأُلوهية قيل: إنَّ في الجملة الثانيةِ تأكيداً لها، فتأمَّل، ولا تَعجَلْ بالاعتراض.

والجارُّ والمجرورُ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالاً من النَّكرة بعده، ولو أُخِّر لَكان صفة، أي: لن ندعوَ إلهاً كائناً مِن دونه تعالى.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ أي: قولاً ذا شطط، أي: بُعدٍ عن الحقِّ مُفرِط، أو قولاً هو عينُ الشططِ والبُعد المفرطِ عن الحقّ، على أنَّه وُصِف بالمصدر مبالغةً، ثم

اقتُصر على الوصف مبالغةً على مبالغة. وجوَّز أبو البقاءِ[1] كونَ «شططاً» مفعولاً به لـ «قلنا». وفسَّره قتادةُ بالكذب، وابنُ زيدٍ بالخطأ، والسُّدِّيُّ بالجَور. والكلُّ تفسيرٌ باللازم، وأصلُ معناه ما أَشرنا إليه؛ لأنَّه مِن شطَّ: إذا أَفرط في البُعد، وأَنشدوا:

شَطَّ المرادُ بحزْوَى وانتهى الأملُ[2]

وفي الكلام قَسَمٌ مقدَّر، واللامُ واقعةٌ في جوابه، «وإذاً» حرفُ جوابٍ وجزاء، فتدلُّ على شرطٍ مقدَّر، أي: لو دَعونا وعبدنا مِن دونه إلهاً واللهِ لقد قلنا... إلخ، واستلزامُ العبادةِ القولَ؛ لمَا أنَّها لا تَعرَى عن الاعتراف بأُلوهية المعبودِ والتضرُّعِ إليه، وفي هذا القولِ دلالةٌ على أنَّ الفِتية دُعوا لعبادة الأصنامِ ولِيموا على تركها. وهذا أوفقُ بكون قيامِهم بين يدي الملك.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هو مبتدأ، وفي اسم الإشارةِ تحقيرٌ لهم ﴿قَوْمُنَا﴾ عطفُ بيانٍ له لا خبر؛ لعدم إفادته، ولا صفة؛ لعدم شرطِها، والخبرُ قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى شأنُه ﴿ءَالِهَةً﴾ أي: عملوها ونحتوها لهم.

قال الخفاجيّ[3]: فيفيد أنَّهم عبدوها، ولا حاجةَ إلى تقديره كما قيل بناءً على أنَّ مجردَ العملِ غيرُ كافٍ في المقصود.

وتفسيرُ الاتخاذِ بالعمل أحدُ احتمالَين ذكرهما أبو حيَّان[4]، والآخَرُ تفسيرُه بالتصيير، فيتعدَّى إلى مفعولَين أحدُهما «آلهة» والثاني مقدَّر، وجوِّز أن يكونَ «آلهة» هو الأوَّل، و«من دونه» هو الثاني. وهو كما ترى. وأيًّا ما كان، فالكلامُ إخبارٌ فيه معنى الإنكار، لا إخبارٌ محض، بقرينة ما بعدَه، ولأنَّ فائدةَ الخبرِ معلومة.

﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ﴾ تحضيضٌ على وجه الإنكارِ والتعجيز؛ إذ يستحيل أنْ يأتوا ﴿عَلَيۡهِم﴾ بتقديرِ مضاف، أي: على أُلوهيَّتهم، أو على صحَّة اتِّخاذِهم لها آلهة

---

(١) في الإملاء ٣/ ٥٠٧.

(٢) وعجزه: فلا خيالٌ ولا عهدٌ ولا طللُ، والبيت لعمرو بن الأحمر، وهو في ديوانه ص١٣٣، وفيه: شط المزار بجَذْوَى وانتهى...

(٣) في حاشيته ٦/ ٨٠.

(٤) في البحر ٦/ ١٠٦.

﴿بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾ بحجَّة ظاهرةِ الدَّلالة على مدَّعاهم؛ فإنَّ الدِّين لا يؤخذ إلَّا به، واستدلَّ به على أنَّ ما لا دليلَ عليه من أمثال ما ذُكر مردود.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ بنسبة الشريكِ إليه، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً. وقد مرَّ تحقيقُ المرادِ من مثل هذا التركيب. وهذه المقالةُ يحتمل أن يكونوا قالوها بين يدي الجبَّار تبكيتاً له وتعجيزاً، وتأكيداً للتبرِّي من عبادةِ ما يدعوهم إليه بأسلوبٍ حَسَن، ويحتمل أن يكونوا قالوها فيما بينهم لمَّا عزموا لِمَا عزموا عليه.

وخبرُ ابن عباسٍ ﷺ السابقُ نصٌّ في أنَّ هذه المقالةَ وما قبلَها وما بعدها إلى «مرفقاً» مقولةٌ فيما بينهم، ودعوى أنَّه إذا كان المرادُ من القيام فيما مرَّ قيامَهم بين يدي الجبَّار يتعيَّن كونُ هذه المقالةِ صادرةً عنهم بعد خروجِهم من عنده = غيرُ مسلَّمةٍ كما لا يخفَى.

نعم ينبغي أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ مقولاً فيما بينهم مطلقاً خاطَبَ به بعضُهم بعضاً. وفي «مَجمَع البيان»(١) عن ابن عباسٍ أنَّ قائلَه يمليخا.

والاعتزالُ تجنُّب الشيءِ بالبدن، أو بالقلب، وكلا الأمرين محتملٌ هنا. والتعزُّل بمعناه، ومن ذلك قولُه:

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتعزَّلُ ... حَذَرَ العِدا وبه الفؤادُ موكَّلُ(٢)

و«ما» يحتمل أن تكونَ موصولة، وأن تكونَ مصدرية، والعطفُ في الاحتمالَين على الضمير المنصوب.

والظاهرُ أنَّ الاستثناءَ فيهما متَّصل، ويقدَّر على الاحتمال الثاني مضافٌ في جانب المستثنى ليتأتَّى الاتصال، أي: وإذ اعتزلتموهم واعتزلتم الذين يعبدونهم إلَّا اللهَ تعالى، أو: إذ اعتزلتموهم واعتزلتم عبادتَهم إلَّا عبادةَ اللهِ عزَّ وجلَّ. وتقديرُ مستثنًى منه على ذلك الاحتمالِ لذلك ـ نحو: عبادتهم لمعبوديهم ـ تكلُّف.

ويحتمل أن يكونَ منقطعاً.

---

(١) ١٥/ ١٢٧.

(٢) البيت للأحوص، وهو في ديوانه ص ١٥٢، وسلف ١٤/ ٥٥٤.

وعلى الأوَّل يكون القومُ عابدين اللهَ تعالى وعابدين غيرَه، كما جاءَ ذلك في بعض الآثار؛ أَخرج سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذر وابن أبي حاتمٍ وأبو نُعَيم عن عطاءٍ الخراسانيِّ أنَّه قال: كان قومُ الفتيةِ يعبدون اللهَ تعالى ويعبدونَ معه آلهةً شتَّى، فاعتزلت الفتيةُ عبادةَ تلك الآلهةِ ولم تعتزل عبادةَ اللهِ تعالى[(١)].

وعلى الثاني يكونون عابدين غيرَه تعالى فقط؛ قيل: وهذا هو الأَوفقُ بقوله تعالى أوَّلاً: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ فتأمَّل.

وجوِّز أن تكونَ «ما» نافية، والاستثناءُ مفرَّغ، والجملةُ إخبارٌ من الله تعالى عن الفِتية بالتوحيد، معترضةٌ بين «إذ» وجوابِه، أعني قولَه تعالى: ﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ أي: التجِئوا ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ ووجهُ الاعتراضِ ـ على ما في «الكشف» ـ أنَّ قولَه تعالى: «وإذ اعتزلتموهم... فأووا» معناه: وإذ اجتنبتم عنهم وعمَّا يعبدون، فأَخلِصوا له العبادةَ في موضعٍ تتمكَّنون منه، فدلَّ الاعتراضُ على أنَّهم كانوا صادقين، وأنَّهم أَقاموا بما وصَّى به بعضُهم بعضاً، فهو يؤكِّد مضمونَ الجملة. وإلى كون «فأووا» جوابَ «إذ» ذهب الفرَّاء[(٢)].

وقيل: إنَّه دليلُ الجواب، أي: وإذ اعتزلتموهم اعتزالاً اعتقاديًّا، فاعتزلوهم اعتزالاً جسمانيًّا، أو: إذ أردتم الاعتزالَ الجسمانيَّ فافعلوا ذلك.

واعتُرض كلا القولَين بأنَّ «إذ» بدون «ما» لا تكون للشَّرط، وفي «همع الهوامع» أنَّ القولَ بأنَّها تكون له قولٌ ضعيفٌ لبعض النُّحاة، أو تسامح؛ لأنَّها بمعناه، فهي هنا تعليلية، أو ظرفيَّة، وتعلُّقها قيل: بأَوَوْا محذوفاً دلَّ عليه المذكور، لا به؛ لمكان الفاءِ، أو بالمذكور، والظرفُ يُتوسَّع فيه ما لا يتوسَّع في غيره.

وقال أبو البقاءِ[(٣)]: «إذ» ظرفٌ لفعل محذوف، أي: وقال بعضُهم لبعض. وظاهرُه أنَّه عنَى بالفعل المحذوفِ قال. وأَقول: هو من أَعجب العجائب.

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٠٠، والدر المنثور ٤/ ٢١٦.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٣٦.

(٣) في الإملاء ٣/ ٥٠٧.

وفي مصحف ابنِ مسعود ـ كما أخرج ابنُ جَرير[(١)] وابنُ أبي حاتمٍ عن قتادة ـ: «وما يعبدون مِن دونِ الله».

وقال هارون: في بعض المصاحف[(٢)]: «وما يعبدونَ مِن دونِنا» وهذا يؤيِّد الاعتراض.

وفي «البحر» أنَّ ما في المصحفين تفسيرٌ لا قراءة؛ لمخالفته سوادَ الإمام، وزَعَمَ أنَّ المتواترَ عن ابن مسعودٍ ما فيه[(٣)].

﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ يبسُطْ لكم ويوسِّع عليكم ﴿رَبُّكُم﴾ مالكُ أمرِكم الذي هداكم للإيمان ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ في الدارين ﴿وَيُهَيِّئْ﴾ يسهِّل ﴿لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ الذي أنتم بصدده، من الفِرار بالدِّين والتوجُّهِ التامِّ إلى الله تعالى ﴿مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به وهو مفعولُ «يهيئ»، ومفعولُ «ينشر» محذوف، أي: الخيرَ، ونحوَه. و«من أمركم» ـ على ما في بعض الحواشي ـ متعلِّق بـ «يهيِّئ»، و«من» لابتداءِ الغاية، أو للتبعيض، وقال ابنُ الأنباريّ: للبدل، والمعنى: يهيِّئ لكم بدلاً عن أمركم الصعبِ مرفقاً، كما في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة:٣٨] وقولِه:

فليت لنا من ماءِ زمزمَ شَربةً   مبرَّدةً باتت على طَهيَانِ[(٤)]

وجوَّز أن يكونَ حالاً من «مرفقاً» فيتعلَّق بمحذوف. وتقديمُ «لكم» لِمَا مرَّ مراراً من الإيذان من أوَّل الأمرِ بكون المؤخَّر من منافعهم، والتشويقِ إلى وروده.

والظاهرُ أنَّهم قالوا هذا ثقةً بفضل اللهِ تعالى، وقوَّةً في رجائهم؛ لتوكُّلهم عليه سبحانه، ونُصوعِ يقينهم، فقد كانوا علماءَ بالله تعالى. فقد أخرج الطبرانيُّ وابنُ المنذر وجماعةٌ عن ابن عباسٍ قال: ما بعث اللهُ تعالى نبيًّا إلَّا وهو شابّ، ولا أُوتي العلمَ عالمٌ إلَّا وهو شابّ، وقرأ: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ١٨٢ وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢١٦.

(٢) هو مصحف عبد الله بن مسعود كما في البحر ٦/ ١٠٦.

(٣) أي: ما في السواد. البحر ٦/ ١٠٦.

(٤) البيت ليعلى الأحول كما في الأغاني ٢٢/ ١٤٧، والخزانة ٥/ ٢٧٦، وسلف ٤/ ٤٩.

إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء:٦٠] و﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَنٰهُ﴾ [الكهف:٦٠] و﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾[1].

وجوَّز أن يكونوا قالوه عن إخبار نبيٍّ في عصرهم به، وأن يكونَ بعضُهم نبيًّا أُوحي إليه ذلك فقاله. ولا يخفَى أنَّ ما ذُكر مجرَّدُ احتمالٍ من غيرِ داعٍ.

وقرأ أبو جعفر، والأَعرج، وشيبة، وحميد، وابنُ سعدان، ونافع، وابنُ عامر، وأبو بكرٍ في رواية الأعشى والبُرجُميِّ والجُعفيِّ عنه، وأبو عَمرٍو في رواية هارون: «مَرفِقاً» بفتح الميمِ وكسرِ الفاء[2]. ولا فرقَ بينه وبين ما هو بكسر الميمِ وفتحِ الفاء معنًى، على ما حكاه الزجَّاج[3] وثعلب، فإنَّ كلًّا منهما يقال في الأمر الذي يُرتفق به وفي الجارحة.

ونقل مكِّي عن الفرَّاء أنَّه قال: لا أَعرف في الأمر وفي اليد وفي كلِّ شيءٍ إلَّا كسرَ الميم.

وأَنكر الكسائيُّ أن يكونَ المرفقُ من الجارحة إلَّا بفتح الميمِ وكسرِ الفاء، وخالفه أبو حاتمٍ وقال: المَرفِق بفتح الميم: الموضعُ كالمسجد.

وقال أبو زيد: هو مصدرٌ جاء على مَفعِل، كالمرجع. وقيل: هما لغتان فيما يُرتفق به، وأمَّا من اليد فبكسر الميمِ وفتح الفاءِ لا غير.

وعن الفرَّاء أنَّ أهلَ الحجازِ يقولون: مَرفِقاً، بفتح الميم وكسر الفاءِ، فيما ارتفقت به، ويكسرون مِرفَق الإنسان، وأمَّا العربُ فقد يكسرون الميمَ منهما جميعاً[4]. اهـ.

وأجاز معاذٌ فتحَ الميمِ والفاء[5].

---

(١) المعجم الأوسط (٦٤٢١) والدر المنثور ٤/ ٢١٥-٢١٦.

(٢) التيسير ص١٤٢، والنشر ٢/ ٣١٠ عن نافع وابن عامر وأبي جعفر، والكلام من البحر ٦/ ١٠٧.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٢.

(٤) انظر معاني القرآن ٢/ ١٣٦ ونقل المصنف هذه الأقوال عن البحر ٦/ ١٠٧.

(٥) القراءات الشاذة ص٧٨، والبحر المحيط ٦/ ١٠٧.

هذا واستُدل بالآية على حُسن الهجرةِ لسلامة الدِّين، وقُبحِ المقامِ في دار الكفرِ إذا لم يمكن المقامُ فيها إلَّا بإظهار كلمةِ الكفر، وبالله تعالى التوفيق.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ﴾ بيانٌ لحالهم بعد ما أَوَوا إلى الكهف، ولم يصرِّح سبحانه به تعويلاً على ما سبق من قولِه تعالى: (إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ) وما لحق من إضافة الكهفِ إليهم وكونِهم في فجوةٍ منه.

وجوِّز أن يكونَ إيذاناً بعدم الحاجةِ إلى التصريح؛ لظهور جَرَيانِهم على موجَب الأمر، لكونه صادراً عن رأيٍ صائب. وقد حَذَفَ سبحانه وتعالى أيضاً جُمَلاً أخرى لا تخفَى.

والخطابُ لرسول اللهِ ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ ممَّن يصلح له، وهو للمبالغة في الظهور.

وليس المرادُ الإخبارَ بوقوع الرؤية، بل الإنباءَ بكون الكهفِ لو رأيتَه ترى الشمسَ ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تتنحَّى، وأصلُه: تتزاور بتاءين، فحُذف أحدُهما تخفيفاً، وهي قراءةُ الكوفيين، والأعمش، وطلحة، وابنِ أبي ليلى، وخَلَف، وابنِ سعدان، وأبي عُبَيدة[(١)]، وأحمدَ بن جُبَير الأنطاكي، ومحمدِ بن عيسى الأصبهاني.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو: «تزَّاور» بفتح التاءِ وتشديدِ الزاي[(٢)]، وأصلُه أيضاً: تتزاور، إلَّا أنَّه أُدغمت التاءُ في الزاي بعد قلبها زاياً.

وقرأ ابنُ أبي إسحاق، وابنُ عامر، وقتادة، وحميد، ويعقوبُ عن العُمري: «تَزْوَرُّ» كتحمرّ[(٣)]، وهو من بناء الافعلالِ[(٤)] من غير العيوبِ والألوان، وقد جاء ذلك نادراً.

وقرأ جابر، والجَحدري، وأبو رجاءٍ، والسَّختياني، وابنُ أبي عبلة، وورْدان عن أبي أيُّوب[(٥)]: «تَزْوارُّ» كتحمارّ، وهو في البناءِ كسابقه.

---

(١) في البحر المحيط ٦/ ١٠٧: أبو عبيد. وقراءة الكوفيين في التيسير ص١٤٢، والنشر ٢/ ٣١٠.
(٢) التيسير ص١٤٢، والنشر ٢/ ٣١٠.
(٣) التيسير ص ١٤٢، والنشر ٢/ ٣١٠ عن ابن عامر ويعقوب، والكلام من البحر ٦/ ١٠٧.
(٤) في (م): الأفعال.
(٥) في البحر ٦/ ١٠٨: وورد عن أيوب. وانظر القراءات الشاذة ص٧٨، والمحتسب ٢/ ٢٥.

وقرأ ابنُ مسعودٍ وأبو المتوكِّل: «تَزْوَئِرُّ» بهمزةٍ قبل الراءِ المشدَّدة[١]، كتطمئنُّ. ولعله إنَّما جيء بالهمزة فراراً من التقاءِ الساكنين وإنْ كان جائزاً في مثل ذلك ممَّا كان الأولُ حرفَ مدٍّ والثاني مُدْغماً في مثله.

وكلُّها من الزَّوَر، بفتحتين مع التخفيف، وهو الميل. وقيَّده بعضُهم بالخلقي، والأكثرون على الإطلاق، ومنه الأَزْوَر: المائلُ بعينه إلى ناحية، ويكون في غير العين، قال ابنُ أبي ربيعة:

..... وجَـنْـبـي خِـيـفـةَ الـقـومِ أَزْوَرُ[٢]

وقال عنترة:

فـازورَّ مـن وَقـعِ الـقـنـا بـلَـبـانـه وشـكـا إلـيَّ بـعَـبـرةٍ وتَـحـمـحُـمِ[٣]

وقال بِشرُ بن أبي حازم:

تـؤمُّ بـهـا الـحـداةُ مـيـاهَ نـخـلٍ وفـيـهـا عـن أَبـانَـيْـنِ ازورارُ[٤]

ومنه: زاره: إذا مالَ إليه. والزُّور، أي: الكذب؛ لميله عن الواقع وعدمِ مطابقتِه له، وكذا الزُّورُ بمعنى الصنمِ في قوله:

جـاؤوا بـزُورَيْـهـم وجـئـنـا بـالأصـمّ[٥]

وقال الراغب[٦]: إنَّ الزَّوَر، بتحريك الواو، مَيلٌ في الزَّوْر، بتسكينها، وهو أَعلى الصَّدر، والأَزور: المائلُ الزَّور، أي: الصدر، وزرت فلاناً: تلقَّيته بزَوري، أو قصدت زَورَه، نحو: وَجَهتُه، أي: قصدت وجهَه. والمشهورُ ما قدَّمناه.

---

(١) البحر ٦/ ١٠٨، وانظر القراءات الشاذة ص٧٨.

(٢) البحر ٦/ ٩٣، ورواية الديوان ص٩٦:

وخُفِّضَ عني الصوتُ أَقبلتُ مِشيةَ الـ ـحُبَابِ وشخصي خشيةَ الحيِّ أَزْوَرُ

(٣) الديوان ص٣٠.

(٤) الديوان ص١٠٢. وأبانان: جبلان في البادية كما في اللسان (أبن).

(٥) الرجز للأغلب العجلي كما في العقد الفريد ٥/ ٢٠٦، وبعده: شيخٌ لنا قد كان من عهد إرَمْ.

(٦) في المفردات (زور).

وحُكي عن أبي الحسنِ أنَّه قال: لا معنى لـ «تزوَرُّ» في الآية؛ لأنَّ الازورارَ الانقباض. وهو طعنٌ في قراءة ابنِ عامرٍ ومَن معه بما يوجِب تغييرَ الكُنية.

وبالجملة المراد: إذا طلعت تروغُ وتميل ﴿عَن كَهْفِهِمْ﴾ الذي أوَوا إليه، فالإضافةُ لأدنَى ملابسة ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: جهةَ ذاتِ يمينِ الكهف عند توجُّه الداخلِ إلى قعره، أي: جانِبه الذي يَلي المغرب، أو جهةَ ذاتِ يمينِ الفتية، ومآلُه كسابقه، وهو نصبٌ على الظرفية؛ قال المبرِّد في «المقتضَب»: ذاتُ اليمينِ وذاتُ الشِّمال من الظروف المتصرِّفه، كيميناً وشمالاً.

﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ أي: تراها عندَ غروبِها ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تَعْدِلُ عنهم. قال الكِسائي: يقال: قرضتُ المكانَ، إذا عَدَلْتَ عنه ولم تَقرَبْه ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةَ ذاتِ شمالِ الكهف، أي: جانبه الذي يلي المشرق.

وقال غيرُ واحد: هو من القرضِ بمعنى القطع، تقول العرب: قرضت موضعَ كذا، أي: قطعته. قال ذو الرمَّة:

إلى ظُعُنٍ يَقرِضنَ أقوازَ مُشرِفٍ شِمالاً وعن أيمانهنَّ الفوارسُ(١)

والمراد: تتجاوزهم ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متَّسعٍ من الكهف، وهي - على ما قيل - من الفَجَا، وهو تباعُدُ ما بين الفخذين، يقال: رجل أَفجَى وامرأةٌ فجواء، وتجمع على: فِجَاء وفُجًا وفَجَوات.

وحاصلُ الجملتين أنَّهم كانوا لا تُصيبهم الشمسُ أصلاً فتؤذيهم وهم في وسط الكهفِ بحيث ينالهم رَوْحُ الهواء(٢)، ولا يؤذيهم كَربُ الغارِ ولا حرُّ الشمس، وذلك لأنَّ بابَ الكهف - كما قال عبدُ الله بنُ مسلم وابنُ عطية(٣) - كان في مقابلة بناتِ نعش(٤)، وأقربُ المشارقِ والمغاربِ إلى محاذاته مشرقُ رأسِ السَّرطان

(١) ديوان ذي الرمة ٢/ ١١٢٠. وجاء في هامش الأصل: القوز بالقاف والزاي المعجمة: الكثيب الصغير، ويروى: أجواز، والمشرف: اسم رملة معروفة، والفوارس: رمال معروفة بالدهناء. اهـ منه.

(٢) رَوْح الهواء بفتح الراء: نسيمه. حاشية الشهاب ٦/ ٨٢.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣.

(٤) سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، شبِّهت بحَمَلة النعش. المعجم الوسيط (نعش).

ومغربُه، والشمسُ إذا كان مدارُها مدارَه تطلع مائلةً عنه مقابِلةً لجانبه الأيمن، وهو الذي يَلي المغرب، وتغرب محاذيةً لجانبه الأيسرِ، فيقع شعاعُها على جنبه، وتحلِّل عفونتَه وتعدِّل هواه، ولا تقع عليهم فتؤذي أجسادَهم وتُبلي ثيابَهم، ولعل ميلَ البابِ إلى جانب المغربِ كان أكثر، ولذلك وقع التزاورُ على كهفهم والقرضُ على أنفسهم.

وقال الزجَّاج[1]: ليس ذلك لما ذُكر، بل لمحض صرفِ اللهِ تعالى الشمسَ بيد قدرتِه عن أن تصيبَهم، على منهاج خرقِ العادةِ كرامةً لهم، وجيءَ بقوله تعالى: (وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُۚ) حالاً مبيِّنةً لكون ما ذُكر أمراً بديعاً، كأنَّه قيل: ترى الشمسَ تميل عنهم يميناً وشمالاً، ولا تحوم حولَهم، مع كونهم في متَّسع من الكهف معرَّضٍ لإصابتها، لولا أنْ كفَّها عنهم كفُّ التقدير. واحتجَّ عليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ﴾ حيث جعل «ذلك» إشارةً إلى ما ذُكر من التزاوُر والقرضِ في الطلوع والغروبِ يميناً وشمالاً.

ولا يظهر كونُه آيةً على القول السابقِ ظهورَه على قوله؛ فإنَّ كونَه آيةً دالَّة على كمال قدرةِ الله تعالى وحقِّية التوحيدِ وكرامةِ أهله عنده سبحانه على هذا أظهرُ من الشَّمس في رابعة النَّهار. وكان ذلك قبل سدِّ بابِ الكهفِ على ما قيل.

وقال أبو عليّ: معنى تَقرضهم: تُعطيهم من ضوئها شيئاً، ثم تزول سريعاً وتستردُّ ضوءها، فهو كالقرض يستردُّه صاحبُه. وحاصلُ الجملتين عنده أنَّ الشمسَ تميل بالغُدوة عن كهفهم، وتُصيبهم بالعَشيِّ إصابةً خفيفة.

ورُدَّ بأنَّه لم يُسمَع للقرض بهذا المعنى فعلٌ ثلاثيٌّ ليفتحَ حرفُ المضارعة.

واختار بعضُهم كونَ المرادِ ما ذُكر، إلَّا أنَّه جعل «تَقرضَهم» من القرض بمعنى القطع، لا بالمعنى الذي ذكره أبو عليّ؛ لِمَا سمعت، وزعم أنَّه من باب الحذفِ والإيصال، والأصل: تقرض لهم، وأنَّ المعنى: وإذا غربت تقطع لهم مِن ضوئها شيئاً. والسببُ لاختياره ذلك توهُّمه أنَّ الشمسَ لو لم تُصِب مكانَهم أصلاً، لفَسد هواؤه وتعفَّن ما فيه، فيصير ذلك سبباً لهلاكهم. وفيه ما فيه.

---

(١) انظر معاني القرآن ٣/ ٢٧٣-٢٧٤.

وأكثرُ المفسِّرين على أنَّهم لم تُصِبهم الشمسُ أصلاً وإن اختلفوا في منشأ ذلك. واختار جمعٌ أنه لمحض حَجبِ الله تعالى الشمسَ على خلافِ ما جرت به العادة، قالوا: والإشارة تؤيِّد ذلك أَتمَّ تأييد، والاستبعادُ ممَّا لا يلتفت إليه، لا سيَّما فيما نحن فيه، فإنَّ شأنَ أصحابِ الكهف كلَّه على خلافِ العادة.

وبعضُ مَن ذهب إلى أنَّ المنشأ كونُ بابِ الكهف في مقابلة بناتِ نعشٍ جعل ذلك إشارةً إلى إيوائهم إلى كهفٍ هذا شأنُه. وبعضٌ آخَرُ جعله إشارةً إلى حفظ اللهِ تعالى إياهم في ذلك الكهفِ المدَّةَ الطويلة. وآخَرُ جعله إشارةً إلى إطلاعه سبحانه رسولَه ﷺ على أَخبارهم. واعتُرض على الأخيرين بأنَّه لا يساعدهما إيرادُ ذلك في تضاعيف القصَّة. وجعله بعضُهم إشارةً إلى هدايتهم إلى التوحيد، ومخالفتِهم قومَهم وآباءهم، وعدمِ الاكتراثِ بهم وبمَلِكهم، مع حداثتهم وإيوائهم إلى كهفٍ شأنُه ذلك. ولا يخلو عن حُسن، وإليه أَمِيل، واللهُ تعالى أعلم.

وقرئَ: «يَقرضهم» بالياء آخرِ الحروف، ولعل الضميرَ عائدٌ على غروب الشمس. وقال أبو حيَّان[1]: أي: يَقرضهم الكهف. وهو كما ترى[2].

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ مَن يدلُّه سبحانه دلالةً موصولةً إلى الحقِّ ويوفِّقه لما يحبُّه ويرضاه ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الفائزُ بالحظِّ الأوفر في الدَّارين.

والمرادُ إما الثناءُ على أصحاب الكهفِ والشهادةُ لهم بإصابة المطلوب، والإخبارُ بتحقُّق ما أَمَّلوه من نشر الرحمةِ وتهيئةِ المرفق، أو التنبيهُ على أنَّ أمثالَ هذه الآياتِ كثيرة، ولكنَّ المنتفع[3] بها مَن وفَّقه اللهُ تعالى للتأمُّل فيها والاستبصارِ بها، فالمرادُ بـ «مَن» إمَّا الفتية، أو ما يعمُّهم وغيرَهم، وفيه ثناءٌ عليهم أيضاً. وهو كما ترى.

وجعله بعضُهم ثناءً على الله تعالى؛ لمناسبة قولِه سبحانه: «وزدناهم هدى» و«ربطنا» وملاءمةِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ يَخلقْ فيه الضَّلال؛ لِصرف

---

(١) في البحر ٦/١٠٨، والقراءة فيه.

(٢) قوله: وهو كما ترى، ليس في (م).

(٣) في (م): المشفع.

اختيارِه إليه ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ﴾ أبداً، وإنْ بالغتَ في التتبُّع والاستقصاءِ ﴿وَلِيًّا﴾ ناصراً ﴿مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ يَهديه إلى الحقِّ ويخلِّصه من الضلال؛ لاستحالة وجودِه في نفسه، لا أنَّك لا تجده مع وجودِه أو إمكانه، إذ لو أُريد مدحُهم لاكتفى بقوله تعالى: (فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ) وفيه أنَّه لا يطابق المقام، والمقابلةُ لا تنافي المدح، بل تؤكِّده، ففيه تعريضٌ بأنَّهم أهلُ الولايةِ والرَّشاد؛ لأنَّ لهم الوليَّ المرشد، ولعل في الآية صنعةَ الاحتباك.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ بفتح السِّين. وقرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، والكِسائيُّ بكسرها[1]، أي: تظنُّهم، والخطابُ فيه كما فيما سبق.

والظاهرُ أنَّ هذا إخبارٌ مستأنف، وليس على تقديرِ شيء.

وقيل: في الكلام حذف، والتقدير: ولو رأيتَهم تحسَبهم ﴿أَيْقَاظًا﴾ جمعُ يَقِظ، بكسر القاف، كأنكاد ونَكِد، كما في «الكشَّاف»[2] وبضمِّها، كأعضاد وعَضُد، كما في «الدُّر المصون»[3].

وفي «القاموس»: رجلٌ يقظ، كنَدُس وكَتِف[4]. فحكى اللغتين: ضمَّ العينِ وكسرَها، وهو اليقظان، ومدارُ الحِسبانِ انفتاحُ عيونِهم على هيئة الناظرِ كما قال غيرُ واحد.

وقال ابنُ عطية[5]: يحتمل أن يَحسَبَ الرائي ذلك لشدَّة الحفظِ الذي كان عليهم وقلَّةِ التغيُّر؛ وذلك لأنَّ الغالبَ على النِّيام استرخاءٌ وهيئاتٌ يقتضيها النوم، فإذا لم تكن لنائمٍ يحسَبه الرائي يقظانَ وإنْ كان مسدودَ العينين، ولو صحَّ فتحُ أعينِهم بسندٍ يقطع العذر كان أَبينَ في هذا الحِسبان.

وقال الزجَّاج[6]: مدارُه كثرةُ تقلُّبهم، واستدلَّ عليه بذِكر ذلك بعد. وفيه أنَّه

---

(١) التيسير ص٨٤، والنشر ٢/ ٢٣٦.
(٢) ٢/ ٤٧٥.
(٣) ٧/ ٤٥٩.
(٤) القاموس (يقظ)، والندس: الرجل الفَهِم.
(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٣.
(٦) قاله بعد قوله: وقيل. معاني القرآن ٣/ ٢٧٤.

لا يلائمه ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ جمعُ راقد، أي: نائم. وما قيل: إنَّه مصدرٌ أُطلق على الفاعل واستوى فيه القليلُ والكثيرُ كرُكوع وقُعود لأنَّ فاعلاً لا يُجمَع على فُعول = مردود؛ لأنه نصَّ على جمعه كذلك النُّحاة، كما صرَّح به في «المفصَّل» و«التسهيل»(١)، وهذا تقريرٌ لما لم يُذكَر فيما سلف، اعتماداً على ذِكره السابقِ من الضَّرب على آذانهم.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ في رَقدتهم كثيراً ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: جهةً تلي أيمانَهم ﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: جهةً تلي شمائلَهم كيلا تأكلَ الأرضُ ما عليها من أَبدانهم، كما أَخرجه سعيدُ بن منصورٍ وابنُ المنذر عن ابن جُبَير.

واستُبعد ذلك، وقال الإمام(٢): إنَّه عجيب؛ فإنَّ اللهَ تعالى الذي قَدَرَ على أن يُبقيَهم أحياءً تلك المدةَ الطويلة، هو عزَّ وجلَّ قادرٌ على حفظ أبدانِهم أيضاً من غيرِ تقليب.

وأُجيب بأنَّه اقتضت حكمتُه تعالى أن يكونَ حفظُ أبدانِهم بما جرت به العادةُ وإنْ لم نعلم وجهَ تلك الحكمة. ويجري نحوُ هذا فيما قيل في التزاوُر وأخيه.

وقيل: يمكن أن يكونَ تقليبُهم حفظاً لما هو عادتُهم في نومهم من التقلُّب يميناً وشمالاً اعتناءً بشأنهم.

وقيل: يحتمل أن يكونَ ذلك إظهاراً لعظيم قدرتِه تعالى في شأنهم، حيث جمع تعالى شأنُه فيهم الإنامةَ الثقيلةَ المدلولَ عليها بقوله تعالى: (فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ) والتقليبَ الكثير، وممَّا جرت به العادةُ أن النومَ الثقيلَ لا يكون فيه تقلُّب كثير. ولا يخفى بُعده.

واختُلف في أوقات تقليبِهم، فأخرج ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّهم كانوا يقلَّبون في كلِّ ستة أشهرٍ مرَّة(٣). وأَخرج غيرُ واحدٍ عن أبي عياضٍ نحوَه. وقيل: يقلَّبون في كلِّ سنةٍ مرَّة، وذلك يومَ عاشوراء. وأَخرج ابنُ المنذرِ وابنُ أَبي حاتمٍ

(١) ينظر التسهيل ص ٢٧٣.
(٢) في التفسير الكبير ٢١/ ١٠١.
(٣) الدر المنثور ٤/ ٢١٦، وعنه نقل المصنف ما سيأتي من أخبار.

عن مجاهدٍ أنَّ التقليبَ في التِّسع سنينَ الضميمةِ ليس فيما سواها. وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن قتادةَ أنَّ هذا التقليبَ في رَقدتهم الأُولى، يعني الثلاثَ مئة سنة، وكانوا يقلَّبون في كلِّ عامٍ مرةً، ولم يكن في مدَّة الرقدةِ الثانية، يعني التِّسع.

وتعقَّب الإمامُ[(١)] ذلك بأنَّ هذه التقديراتِ لا سبيلَ للعقل إليها، ولفظُ القرآنِ لا يدلُّ عليها، وما جاء فيها خبرٌ صحيح. انتهى.

وظاهرُ الآيةِ يدلُّ على الكثرة؛ لمكان المضارعِ الدالِّ على الاستمرار التجدُّدي، مع ما فيه من التثقيل.

والظاهرُ أنَّ «ونقلبهم» إخبارٌ مستأنف. وجوَّز الطِّيبي ـ بناءً على ما سمعتَ عن الزجَّاج ـ كونَ الجملةِ في موضع الحال. وهو كما ترى.

وقُرئ: «ويُقلِّبهم» بالياء آخرِ الحروفِ مع التشديد، والضميرُ لله تعالى. وقيل: للمَلَك.

وقرأ الحسنُ ـ فيما حكى الأهوازيُّ في «الإقناع»: ـ «ويَقْلِبُهم» بياء مفتوحةٍ وقافٍ ساكنةٍ ولامٍ مخفَّفة.

وقرأ ـ فيما حكى ابنُ جِنِّي[(٢)] ـ: «وتَقلُّبَهم» على المصدر منصوباً، ووجهُه أنَّه مفعولٌ لفعل محذوفٍ يدلُّ عليه «وتحسبهم»، أي: وترى أو تشاهد تقلُّبَهم.

ورُوي عنه أيضاً أنَّه قرأ كذلك إلَّا أنَّه رفع، وهو على الابتداءِ كما قال أبو حاتم، والخبرُ ما بعد، أو محذوف، أي: آيةٌ عظيمة، أو: مِن آيات اللهِ تعالى.

وحكى ابنُ خالويه هذه القراءةَ عن اليمانيّ، وذَكَرَ أنَّ عكرمةَ قرأ: «وتَقْلِبُهم» بالتاء ثالثةِ الحروف، مضارعُ قَلَبَ مخفَّفاً[(٣)]. ووجِّه بأنَّه على تقدير: وأنت تَقلِبهم، وجَعلِ الجملةِ حالاً من فاعل «تحسبهم»، وفيه إشارةٌ إلى قوَّة اشتباهِهم بالأيقاظ، بحيث أنهم يُحسَبون أيقاظاً في حال سبرِ أحوالِهم وقلبِهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمال.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/١٠١.

(٢) في المحتسب ٢/٢٦. ونقل المصنف هذه القراءات عن البحر ٦/١٠٩.

(٣) البحر ٦/١٠٩ وفي المطبوع من القراءات الشاذة ص٧٨: وتقلُّبهم.. الحسن، وتقلبهم، عكرمة. ولم يذكر ضبطهما.

﴿وَكَلْبُهُم﴾ الظاهرُ أنه الحيوانُ المعروفُ النبَّاح، وله أسماءٌ كثيرةٌ أَفرد لها الجلالُ السيوطيُّ رسالة. قال كعبُ الأحبار: هو كلبٌ مرُّوا به، فتَبِعهم فطردوه، فعاد، ففعلوا ذلك مراراً، فقال لهم: ما تريدون منِّي؟ لا تخشَوا جانبي، أنا أُحبُّ أحبَّاءَ اللهِ تعالى، فناموا وأنا أحرسكم.

ورُوي عن ابن عباسٍ أنَّه كلبُ راعٍ مرُّوا به، فتبع دينَهم وذهب معهم وتَبِعهم الكلب. وقال عُبَيد بن عمير: هو كلبُ صيدِ أحدِهم. وقيل: كلبُ غنمِه.

ولا بأسَ في شريعتنا باقتناء الكلبِ لذلك، وأمَّا فيما عداه وما عدا ما أُلحق به، فمنهيٌّ عنه؛ ففي البخاريِّ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما[(١)]: «مَن اقتنى كلباً ليس بكلب صيدٍ أو ماشية، نقص كلَّ يومٍ من عمله قيراطان» وفي رواية: «قيراط»[(٢)].

واختُلف في لونه، فأخرج ابنُ أبي حاتمٍ من طريق سفيانَ قال: قال لي رجلٌ بالكوفة يقال له: عبيد، وكان لا يُتَّهم بكذبٍ: رأيت كلبَ أصحابِ الكهف أحمرَ كأنَّه كساءٌ أنبجاني. وأخرج عن كثيرٍ النَّوَّاء[(٣)] قال: كان الكلبُ أصفر. وقيل: كان أنمرَ[(٤)]. ورُوي ذلك عن ابن عباسٍ. وقيل غيرُ ذلك.

وفي اسمه، فأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن الحسن أنَّه قِطمير. وأخرج عن مجاهدٍ أنَّه قطمورا. وقيل: ريَّان. وقيل: ثور. وقيل غيرُ ذلك.

وهو في الكِبَر ـ على ما رُوي عن ابن عباس ـ فوقَ القَلَطي ودون الكردي. وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيدٍ أنَّه قال: رأيته صغيراً زينيًّا. قال الجلالُ السُّيوطي: يعني صينيًّا[(٥)]. وفي «التفسير الخازني»[(٦)] تفسيرُ القلطيِّ بذلك.

وزعم بعضُهم أنَّ المرادَ بالكلب هنا الأسد، وهو ـ على ما في

---

(١) مرفوعاً، كما في صحيح البخاري (٥٤٨٠-٥٤٨٢)، وصحيح مسلم (١٥٧٤).
(٢) هي عند مسلم (١٥٧٤): (٥٣).
(٣) هو كثير بن إسماعيل، أو ابن نافع، النوَّاء، بالتشديد، أبو إسماعيل التيمي الكوفي. تقريب التهذيب ص٣٩٥، ونقل المصنف هذه الأخبار عن الدر المنثور ٤/٢١٦.
(٤) جاء في هامش الأصل: فيه نمرة بيضاء ونمرة سوداء. اهـ منه.
(٥) الدر المنثور ٤/٢١٦، ووقع في مطبوعه: صيفيًّا.
(٦) ٤/٢٠٥.

«القاموس»[(١)] - أحدُ معانيه. وقد جاء أنَّه ﷺ دعا على كافرٍ بقوله: «اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك»[(٢)] فافترسه أسد. وهو خلافُ الظاهر. وأخرج ابنُ المنذر، عن ابن جُرَيج أنَّه قال: قلت لرجلٍ من أهل العلم: زعموا أنَّ كلبَهم كان أسداً، فقال: لَعَمرُ اللهِ ما كان أسداً، ولكنَّه كان كلباً أحمرَ خرجوا به من بيوتهم يقال له: قطمورا.

وأبعدُ من هذا زعمُ مَن ذهب إلى أنَّه رجلٌ طبَّاخ لهم تَبِعهم، أو أحدُهم قعد عند البابِ طليعةً لهم. نعم حكى أبو عَمرٍو[(٣)] الزاهديُّ غلامُ ثعلبٍ أنَّه قُرئ: «وكالئُهم» بهمزةٍ مضمومةٍ بدلَ الباءِ وألفٍ بعد الكاف، من: كلأَ، إذا حفظ. ولا يَبعدُ فيه أن يرادَ الرجلُ الرَّبيئة، لكن ظاهر القراءةِ المتواترةِ يقتضي إرادةَ الكلبِ المعروفِ منه أيضاً، وإطلاقُ ذلك عليه لحفظه ما استُحفظ عليه وحراستِه إيَّاه. وقيل في هذه القراءة: إنَّها تفسيرٌ أو تحريف.

وقرأ جعفرٌ الصادقُ ﷺ: «وكالبُهم»[(٤)] بباء موحَّدةٍ وزِنَة اسمِ الفاعل، والمراد صاحبُ كلبِهم، كما تقول: لابنٌ وتامر، أي: صاحبُ لبنٍ وتمر.

وجاء في شأن كلبِهم أنَّه يدخل الجنةَ يومَ القيامة، فعن خالد بنِ مَعدان: ليس في الجنَّة من الدوابِّ إلَّا كلبُ أصحابِ الكهف وحمارُ بلعم.

ورأيتُ في بعض الكتبِ أنَّ ناقةَ صالحٍ وكبشَ إسماعيلَ أيضاً في الجنة، ورأيتُ أيضاً أنَّ سائرَ الحيواناتِ المستحسنةِ في الدنيا، كالظِّباء والطواويسِ، وما يَنتفع به المؤمن، كالغنم، تدخل الجنة على كيفيةٍ تليق بذلك المكانِ وتلك النَّشأة.

وليس فيما ذُكر خبرٌ يعوَّل عليه فيما أعلم، نعم في الجنة حيواناتٌ مخلوقةٌ

---

(١) مادة (كلب).

(٢) أخرجه الحارث (٥١١ - بغية الباحث)، والحاكم ٢/ ٥٣٩ من حديث أبي نوفل، وسلف ٧/ ٤٠.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أبو عمر، وهو محمد بن عبد الواحد البغدادي الزاهد، العلامة اللغوي المحدث، لازم ثعلباً فأكثر عنه إلى الغاية. مات سنة (٣٤٥هـ). السير ١٥/ ٥٠٨.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٠٩.

فيها، وفي خبرٍ يُفهَم من كلام الترمذيِّ صحتُه التصريحُ بالخيل منها[١]، والله تعالى أعلم.

وقد اشتهر القولُ بدخول هذا الكلبِ الجنة، حتى إنَّ بعضَ الشيعةِ يسمُّون أبناءهم بكلب عليّ، ويؤمِّل مَن سُمِّيَ بذلك النجاةَ بالقياس الأولويِّ على ما ذُكر، ويُنشد:

فتيةُ الكهفِ نجا كلبُهمُ كيف لا ينجو غداً كلبُ علي

ولَعَمري إنْ قَبِله عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه كلباً له نجا، ولكن لا أظنُّ يقبله؛ لأنَّه عَقور.

﴿بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ مادُّهما، والذِّراع من المرفق إلى رأس الأُصبعِ الوسطى. ونصب «ذراعيه» على أنَّه مفعولُ «باسط»، وعَمِلَ مع أنَّه بمعنى الماضي - واسمُ الفاعلِ لا يعمل إذا كان كذلك - لأنَّ المرادَ حكايةُ الحالِ الماضية. وذهب الكسائيُّ وهشامٌ وأبو جعفر بنُ مضاءٍ إلى جواز عملِ اسم الفاعلِ كيفما كان، فلا سؤال ولا جواب.

﴿بِالْوَصِيدِ﴾ بموضع البابِ ومحلِّ العبورِ من الكهف، وأنشدوا:

بأرضِ فضاءٍ لا يُسَدُّ وصيدُها عليَّ ومعروفي بها غيرُ مُنْكَرِ[٢]

وهو المرادُ بالفِناء في التفسير المرويِّ عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وعطية.

وقيل: بالعتبة، والمرادُ بها ما يحاذي ذلك من الأرض لا المتعارَف، فلا يقال: إنَّ الكهفَ لا بابَ له ولا عتبة، على أنَّه لا مانعَ من ذلك.

وأخرج ابنُ المنذرِ وغيرُه عن ابن جُبَيرٍ أنَّ الوصيدَ الصعيد. وليس بذاك.

وذكروا في حكمةِ كونِه بالوصيد غيرَ ثاوٍ معهم أنَّ الملائكةَ عليهم السلام لا تدخل بيتاً فيه كلب[٣]. وقد يقال: إنَّ ذلك لكونه حارساً، كما يُشير إليه

(١) سنن الترمذي (٢٥٤٣) من حديث بريدة ﷺ.
(٢) البيت في سيرة ابن هشام ١/ ٣٠٥ منسوباً لعُبيد بن وهب العبسي، وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١١٩ منسوباً لزهير بن أبي سلمى.
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦) من حديث أبي طلحة ﷺ.

ما أخرجه ابنُ المنذرِ عن ابن جُرَيج قال: باسطٌ ذراعيه بالوصيد يُمسك عليهم بابَ الكهف، وكان ـ فيما قيل ـ يكسر أُذنَه اليمنى وينام عليها إذا قُلِّبوا ذاتَ اليمين، ويكسر أذنَه اليسرى وينام عليها إذا قُلِّبوا ذاتَ الشِّمال.

والظاهرُ أنَّه نام كما ناموا، لكن أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن عبد الله بنِ حميد المكِّي أنَّه جُعل رزقُه في لَحس ذراعيه، فإنَّه كالظاهر أنَّه لم يستغرق نومُه كما استغرق نومُهم.

﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ لو عاينتَهم وشاهدتَهم. وأصلُ الاطِّلاعِ الوقوفُ على الشيءِ بالمعاينة والمشاهدة.

وقرأ ابنُ وثَّابٍ والأعمش: «لَوُ اطَّلعتَ» بضمِّ الواو[1]، تشبيهاً لها بواو الضمير؛ فإنَّها قد تضمُّ إذا لَقِيها ساكن، نحو: رَمَوُا السِّهام. ورُوي ذلك عن شيبةَ وأبي جعفر[2].

﴿لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾ أي: لأعرضتَ بوجهك عنهم وأوليتَهم كشحك.

ونصب «فراراً» إمَّا على المصدر لـ «ولَّيت»؛ إذ التوليةُ والفرارُ من وادٍ واحد، فهو كـ : جلست قعوداً، أو لِفررتَ محذوفاً، وإمَّا على الحاليَّة بتأويله باسم الفاعل، أو بجعله مِن باب:

فــإنَّــمــا هــي إقــبــالٌ وإدبــار[3]

وإمَّا على أنَّه مفعولٌ لأجله، أي: لَرجعتَ لأجل الفرار.

﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾ أي: خوفاً يَملأ الصدر، ونصب على أنَّه مفعولٌ ثان، ويجوز أن يكونَ تمييزاً، وهو محوَّل عن الفاعل، وكونُ الخوفِ يملأ مجازٌ في عِظَمه مشهور، كما يقال في الحُسن: إنَّه يملأ العيون.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٠٩.

(٢) البحر ٦/ ١٠٩.

(٣) شطر بيت للخنساء، وهو في ديوانها ص ٤٨، وسلف ٨/ ١٢٥.

وفي «البحر»[1]: أبعدَ مَن ذهب إلى أنَّه تمييزٌ محوَّل عن المفعول، كما في قوله تعالى شأنُه: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر:١٢] لأنَّ الفعلَ لو سلِّط عليه ما تعدَّى إليه تعدِّيَ المفعولِ به، بخلاف ما في الآية.

وسببُ ما ذُكر أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ألقى عليهم من الهيبة والجلالِ ما ألقى.

وقيل: سببُه طولُ شعورِهم وأظفارِهم، وصُفرةُ وجوهِهم وتغيُّر أطمارهم.

وقيل: إظلامُ المكان وإيحاشُه.

وتعقَّب ذلك أبو حيَّان[2] بأنَّ القولين ليسا بشيء؛ لأنَّهم لو كانوا بتلك الصفة، أَنكروا أحوالَهم ولم يقولوا: «لبثنا يوماً أو بعض يوم» ولأنَّ الذي بُعث إلى المدينة لم ينكر إلَّا المعالمَ والبناءَ لا حالَ نفسه، ولأنَّهم بحالةٍ حسنة، بحيث لا يفرِّق الرائي بينهم وبين الأيقاظ وهم في فجوة موصوفةٍ بما مرّ، فكيف يكون مكانُهم موحشاً؟ اهـ.

وأُجيب بأنَّهم لا يَبعد عدمُ تيقُّظِهم لحالهم؛ فإنَّ القائمَ من النوم قد يذهل عن كثيرٍ من أموره، ويُدَّعى استمرارُ الغفلةِ في الرسول، وإنكارُه للمعالم لا ينافي إنكارَ الناسِ لحاله وكونَه على حالةٍ منكرةٍ لم يتنبَّه لها، وأيضاً يجوز أنَّهم لم يطَّلعوا على حالهم ابتداءً فقالوا: «لبثنا يوما أو بعض يوم» ثم تنبَّهوا له فقالوا: «ربكم أعلم بما لبثتم»، وأيضاً يجوز أن يكونَ هذا الخطابُ للنبيِّ ﷺ، وذلك الحالُ إنَّما حدث بعد انتباهِهم الذي بَعثوا فيه رسولَهم إلى المدينة. وعلى هذا لا يضرُّ عدمُ إنكارِ الرسولِ حالَ نفسه؛ لأنَّه لم يحدثْ له ما ينكر بعد، وإيحاشُ المكانِ يجوز أن يكونَ حدث بعدُ ـ على هذا ـ أيضاً، وذلك بتغيُّره بمرور الزمان. اهـ.

ولا يخفَى على مُنصفٍ ما في هذه الأجوبة، فالذي ينبغي أن يعوَّلَ عليه أنَّ السببَ في ذلك ما أَلقى اللهُ تعالى عليهم من الهيبةِ وهم في كهفهم، وأنَّ شعورَهم وأظفارَهم إن كانت قد طالت، فهي لم تَطُل إلى حدٍّ يُنكره مَن يراه.

---

(١) ٦/١٠٩.

(٢) في البحر ٦/١٠٩-١١٠.

واختار بعضُ المفسِّرين أنَّ اللهَ تعالى لم يغيِّر حالَهم وهيئتَهم أصلاً؛ ليكونَ ذلك آيةً بيِّنة.

والخطابُ هنا كالخطاب فيما سبق. وعلى احتمال أن يكونَ له ﷺ يَلزم أن يكونوا باقين على تلك الحالةِ التي توجب فرارَ المطَّلعِ عليهم ومزيدَ رُعبِه إلى ما بعد نزولِ الآية، فمَن لا يقول به لا يقول به.

وأخرج ابنُ أبي شيبةَ وابنُ المنذرِ وابنُ أبي حاتمٍ عن ابن عباسٍ قال: غزونا مع معاويةَ غزوةَ المضيقِ نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحابُ الكهفِ الذي ذكر اللهُ تعالى في القرآن، فقال معاوية: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال له ابنُ عباس: ليس ذلك لك، قد منع اللهُ تعالى ذلك مَن هو خيرٌ منك فقال: (لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) فقال معاوية: لا أَنتهي حتى أعلمَ علمهم، فبعث رجالاً وقال: إذهبوا فادخُلوا الكهفَ وانظروا، فذهبوا، فلمَّا دخلوه، بعث اللهُ تعالى عليهم ريحاً فأخرجتهم[1].

قيل: وكأنَّ معاويةَ إنَّما لم يَجرِ على مقتضَى كلامِ ابن عباسٍ رضي الله عنهما ظنًّا منه تغيُّرَ حالِهم عمَّا كانوا عليه، أو طلباً لعلمهم مهما أمكن.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن شَهْر بن حَوْشَبٍ قال: كان لي صاحبٌ ماضٍ شديدُ النفس، فمرَّ بجانب الكهفِ فقال: لا أَنتهي حتى أنظرَ إليهم، فقيل له: لا تفعل، أَمَا تقرأ: (لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ) إلخ؟ فأبى إلَّا أن ينظر، فأَشرف عليهم، فابيضَّت عيناه وتغيَّر شعرُه، وكان يُخبر الناسَ بأنَّ عِدَّتهم سبعة.

وربَّما يُستأنَس بمثل هذه الأخبارِ لوجودهم اليوم، بل لبقائهم على تلك الحالةِ التي لا يستطاع معها الوقوفُ على أحوالهم، وفي ذلك خلاف:

فحكى السُّهيلي[2] عن قومٍ القولَ به، وعن ابن عباسٍ إنكارَه، فقد أَخرج عبدُ الرزاقِ وابنُ أبي حاتمٍ عن عكرمةَ أنَّ ابن عباسٍ غزا مع حبيب بنِ مسلمة، فمرُّوا

(١) الدر المنثور ٤/ ٢١٣.
(٢) في الروض الأنف ٢/ ٥٤.

بالكهف، فإذا فيه عظام، فقال رجل: هذه عظامُ أهلِ الكهف، فقال ابن عباس: لقد ذهبت عظامُهم منذ أكثرَ من ثلاث مئةِ سنة(١).

ولا يخفَى ما بين هذا الخبرِ والخبرِ السابق عنه، بل والآخَرِ أيضاً، من المخالفة، والذي يميل القلبُ إليه عدمُ وجودِهم اليوم، وأنَّهم إنْ كانوا موجودين، فليسوا على تلك الحالةِ التي أشار اللهُ تعالى إليها، وأنّ الخطابَ الذي في الآية لغير معيَّن، وأنَّ المرادَ منها الإخبارُ عن أنَّهم بتلك الحالةِ في ذلك الوقت ـ وما أخرجه ابنُ مردويه عن ابن عباسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أصحابُ الكهفِ أعوانُ المهدي»(٢) على تقدير صحَّته لا يدلُّ على وجودهم اليومَ على تلك الحالة ـ وأنَّه عليه الصلاة والسلام على القول بعموم الخِطاب ليس من الأفراد المعيَّنة به؛ لأنَّه ﷺ اطَّلع على ما هو أعظمُ منهم من ملكوت السماوات والأرض، ومَن جعله ﷺ معيَّناً قال: المراد: لو اطَّلعتَ عليهم لولَّيت منهم فراراً ولَملئت منهم رُعباً بحكم جَري العادةِ والطبيعة البشرية، وعدمُ ترتُّب الجزاءِ على اطِّلاعه ﷺ على ما هو أعظمُ منهم أمرٌ خارقٌ للعادة، ومنوطٌ بقوَّةٍ مَلَكية، بل بما هو فوقَها، أو المراد: لو اطَّلعتَ عليهم بنفسك من غير أن نُطلعَك عليهم لولَّيتَ منهم فراراً. . . إلخ، واطِّلاعه عليه الصلاة والسلام على ما اطَّلع عليه كان بإطلاع اللهِ عزَّ وجلَّ إياه، وفرقٌ بين الاطِّلاعين.

يُحكَى أنَّ موسى عليه السلام وَجِعه بطنُه، فشكى إلى ربِّه سبحانه، فقال له: اذهب إلى نباتٍ كذا في موضعِ كذا فكُلْ منه، فذهب وأكل، فذهب ما كان يجد، ثم عاوَدَه ذلك بعدَ سنوات، فذهب إلى ذلك النباتِ فأكل منه، فلم ينتفعْ به، فقال: يا ربِّ، أَنت أَعلم، وجعني بطني في سَنَة كذا، فأمرتَني أن أذهَب إلى نبات كذا، فذهبتُ فأكلت فانتفعت، ثم عاوَدَني ما كنت أَجد، فذهبت إلى ذلك وأكلتُ فلم أنتفع، فقال سبحانه: أتدري يا موسى ما سببُ ذلك؟ قال: لا يارَبِّ، قال: السببُ أنَّك في المرَّة الأولى ذهبت منَّا إلى النبات، وفي المرة الثانيةِ ذهبتَ من نفسك إليه.

وممَّا يُستهجَن من القول ما يُحكَى عن بعض المتصوِّفةِ أنَّه سمع قارئاً يقرأ هذه

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢١٤، وهو في تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٩٦ من طريق قتادة عن ابن عباس.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢١٥، وفتح الباري ٦/ ٥٠٣، وسنده ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر.

الآية فقال: لو اطَّلعتُ أنا ما ولَّيت منهم فراراً، وما ملئتُ منهم رُعباً. وما نُقل عن بعضهم من الجواب بأنَّ مرادَ قائلِه إثباتُ مرتبةِ الطفوليةِ لنفسه؛ فإنَّ الطفلَ لا يهاب الحيةَ مثلاً إذا رآها، ولا يفرِّق بينها وبين الحبل، على تقدير تسليم أنَّ مرادَه ذلك، لا يَدفع الاستهجان، وذلك نظيرُ قولِ مَن قال: إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يعلم الغيبَ، على معنى أنَّه لا غيبَ بالنِّسبة إليه عزَّ وجلَّ ليتعلَّقَ به علمُه، ولَنِعمَ ما قال عمرُ رضي الله عنه: كلِّموا الناسَ بما يفهمون، أتريدون أن يكذَّبَ اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ؟

هذا وقرأ ابنُ عباسٍ والحِرْمِيان وأبو حَيوةَ وابنُ أبي عبلة: «ولَملِّئتَ» بتشديد اللامِ والهمزة. وقرأ أبو جعفرٍ وشيبةُ بتشديد اللامِ وقلبِ الهمزة ياءً. وقرأ الزهريُّ بالتخفيف والقلب[(١)].

وقرأ أبو جعفرٍ وعيسى: «رُعُباً» بضمِّ العين[(٢)].

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: كما أنمناهم هذه الإنامةَ الطويلة ـ وهي المفهومةُ مما مرّ ـ أيقظناهم، فالمشبَّه الإيقاظ، والمشبَّه به الإنامة المشارُ إليها، ووجهُ الشَّبه كونُ كلٍّ منهما آيةً دالَّة على كمال قدرتِه الباهرةِ عزَّ وجلّ.

﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليسألَ بعضُهم بعضاً، فيترتَّب عليه ما فُصِّل من الحِكَم البالغة، وجَعْلُه علَّةً للبعث المعلَّلِ بما سبق فيما سبق قيل: من حيث إنَّه من أحكامه المترتِّبةِ عليه، والاقتصارُ على ذِكره لاستتباعه لسائر آثارِه. وجعل غيرُ واحدٍ اللامَ للعاقبة، واستظهره الخَفَاجي[(٣)]، وادَّعى أنَّ مَن فعل ذلك لاحظَ أنَّ الغرضَ من فعله تعالى شأنُه إظهارُ كمالِ قدرته، لا ما ذُكر من التساؤل، فتأمَّل.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ لبيان تساؤلهم ﴿قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قيل: هو كبيرُهم مكسلمينا، وقيل: صاحبُ نفقتِهم يمليخا: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: كم يوماً أقمتم نائمين، وكأنَّه قال ذلك لِمَا رأى من مخالفة حالِهم لِمَا هو المعتادُ في الجملة. وقيل: راعَهُم ما فاتهم من الصلاةِ فقالوا ذلك.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١١٠، وقراءة الحرميين في التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١٠، وقراءة أبي جعفر في النشر.

(٢) البحر ٦/ ١١٠، وهي قراءة ابن عامر والكسائي ويعقوب. التيسير ص٩١، والنشر ٢/ ٢١٦.

(٣) في حاشيته ٦/ ٨٤.

﴿قَالُواْ﴾ أي: قال بعضُهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ «أو» للشكِّ كما قاله غيرُ واحد، والمراد: لم نتحقَّق مقدارَ لَبثنا، أي: لا ندري أنَّ مدةَ ذلك هل هي مقدارُ مدةِ يومٍ أو مقدارُ مدَّة بعضٍ منه. والظاهرُ أنَّهم قالوا ذلك لأنَّ لُوثةَ النومِ لم تذهب من بصرهم وبصيرتِهم، فلم ينظروا إلى الأمارات، وهذا مما لا غبارَ عليه، سواءٌ كان نومُهم وانتباهُهم جميعاً أو أحدُهما في النهار، أم لا.

والمشهورُ أنَّ نومَهم كان غُدوةً وانتباهُهم كان آخرَ النهار، فلم يدروا أنَّ انتباهَهم في اليوم الذي ناموا فيه أم في اليوم الذي بعده، فقالوا ما قالوا.

واعتُرض بأنَّ ذلك يقتضي أن يكونَ التردُّد في بعض يوم ويومٍ وبعض، ومن هنا قيل: إنَّ «أو» للإضراب، وذلك أنَّهم لمَّا انتبهوا آخرَ النهارِ وكانوا في جوف الغارِ ولُوثةُ النومِ لم تفارقْهم بعد، قالوا قبلَ النظر: «لبثنا يوماً» ثم لمَّا حقَّقوا أنَّ الشمسَ لم تغرب بعد، قالوا: «أو بعض يوم».

وأنت تعلم أنَّ الظاهرَ أنَّها للشك، والاعتراضُ مندفعٌ بإرادة ما سمعتَ منه، نعم هو في ذلك مجاز.

وحكى أبو حيَّان[1] أنَّها للتفصيل، على معنى: قال بعضُهم: لبثنا يوماً، وقال آخَرون: لبثنا بعضَ يوم، وقولُ كلٍّ مبنيٌّ على غالب الظنِّ على ما قيل، فلا يكون كذباً.

ولا يخفَى أنَّ القولَ بأنَّها للتفصيل ممَّا لا يكاد يذهب إليه الذِّهن، ولا حاجةَ إلى بناء الأمرِ على غالب الظنِّ لنفي أن يكونَ كذباً، بناءً على ما ذكرنا من أنَّ المرادَ: لم نتحقَّق مقدارَه، كما ذكره أهلُ المعاني في قول النبيِّ ﷺ - وقد سلَّم سهواً من صلاةٍ رُباعيةٍ فقال له ذو اليدين: أَقَصُرَتْ الصلاةُ أم نسيتَ يا رسولَ الله؟ -: «كلُّ ذلك لم يكن»[2].

﴿قَالُواْ﴾ أي: قال بعضٌ آخَرُ منهم، استدلالاً أو إلهاماً: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا

---

(١) في البحر ٦/ ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣) من حديث أبي هريرة ﷺ. ولفظ البخاري: «لم أنسَ ولم تقصر».

لَبِثْتُمْ﴾ أي: أنتم لا تعلمون مدَّةَ لَبثكم، وإنَّما يعلمها اللهُ سبحانه، وهذا ردٌّ منهم على الأوَّلين على أحسنِ ما يكون من مراعاة حُسنِ الأدب، وبه ـ كما قيل ـ يتحقَّق التحزُّب إلى الحِزبين المعهودَين فيما سبق.

وقيل: قائلُ القولين متَّحد، لكن الحالةَ مختلفة.

وتعقِّب بأنَّه لا يساعده النظمُ الكريم؛ فإنَّ الاستئنافَ في الحكاية والخطابَ في المحكيِّ يقضي بأنَّ الكلامَ جارٍ على منهاج المحاورةِ والمجاوبة، وإلَّا لقيل: ثم قالوا: ربُّنا أعلمُ بما لبثنا.

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ أي: واحداً منكم، ولم يقل: واحدَكم؛ لإيهامه إرادةَ سيِّدكم، فكثيراً ما يقال: جاء واحدُ القوم، ويراد سيِّدُهم.

﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ أي: بدراهمكم المضروبة، كما هو مشهورٌ بين اللغويين، وقيل: الوَرِق: الفضةُ مضروبةً أو غيرَ مضروبة، واستُدلَّ عليه بما وقع في حديث عَرْفَجة أنَّه لما قُطِع أنفُه اتَّخذ أنفاً من وَرِق، فأنتن، فاتَّخذ أنفاً من ذهب[1]. فإنَّ الظاهرَ أنَّه أطلق فيه الوَرِق على غير المضروبِ من الفضَّة. وقولُ الأصمعيِّ ـ كما حكى عنه القُتيبي ـ: الوَرَق في الحديث بفتح الرَّاء، والمرادُ به الوَرَقُ الذي يُكتب فيه؛ لأنَّ الفضةَ لا تُنتن = لا يعوَّل عليه، والنَّتْنُ الذي ذكره لا صحَّة له.

وقرأ أبو عَمرو، وحمزة، وأبو بكر، والحسن، والأعمش، واليزيديّ، ويعقوبُ في رواية، وخَلَف، وأبو عُبَيد، وابنُ سعدان: «بِوَرْقِكم» بإسكان الراء[2].

وقرأ أبو رجاءٍ بكسر الواو وإسكانِ الراءِ وإدغام القافِ في الكاف. وكذا إسماعيلُ عن ابن مُحَيصن، وعنه أيضاً أنَّه قرأ كذلك إلَّا أنَّه كسر الراء[3]، لئلَّا يلزمَ التقاءُ الساكنين على غير حدِّه كما في الرِّواية الأخرى، وبهذا اعتُرض عليها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٢٦٩)، وأبو داود (٤٢٣٢)، والترمذي (١٧٧٠) ـ وحسَّنه ـ من حديث عرفجة بن أسعد ﷺ.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١١٠، وقراءة أبي عمرو وحمزة وأبي بكر في التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١٠، وقراءة يعقوب وخلف في النشر.

(٣) ذكر هذه القراءات صاحب البحر ٦/ ١١٠-١١١.

وأُجيب بأنَّ ذلك جائزٌ وواقعٌ في كلام العرب، لكن على شذوذ. وقد قُرئ: «نِعْمَّا» بسكون العينِ والإدغام(١)، وما قيل: إنَّه لا يمكن التلفُّظ به، قيل عليه: إنَّه سهو.

وحكى الزجَّاج أنَّه قُرئ بكسر الواوِ وسكونِ الراءِ من غير إدغام(٢).

وقرأ عليٌّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه: «بوارقكم» على وزن فاعل، جعله اسمَ جمع، كباقر وحامل.

ووصفُ الوَرِق بقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ يُشعر بأنَّ القائلَ أَحضرها لِيناولَها بعضَ أصحابه، وإشعارُه بأنَّه ناولها إيَّاه بعيد، وفي حملهم لها دليلٌ على أنَّ التأهُّب لأسباب المعاشِ لمن خرج من منزله بحمل النفقةِ ونحوِها لا ينافي التوكُّلَ على الله تعالى، كما في الحديث: «اِعقِلها وتوكَّل»(٣) نعم قال بعضُ الأَجِلَّة: إنَّ توكُّل الخواصِّ تركُ الأسبابِ بالكلِّية، ومن ذلك ما رُوي عن خالد بنِ الوليد من شُرب السُّمّ، ومشي سعدِ بن أبي وقَّاص وأبي مسلم الخَولانيِّ بالجيوش على متنِ البحر، ودخولِ تميمٍ في الغار التي خرجت منه نارُ الحرَّة ليردَّها بأمر عمرَ رضي الله عنه(٤).

وقد نصَّ الإمامُ أحمدُ وإسحاقُ وغيرُهما من الأئمَّة على جواز دخولِ المفاوزِ بغير زاد، وتركِ التكسُّب والتطبُّبِ لمن قَوِي يقينُه وتوكُّله، وفسَّر الإمامُ أحمدُ التوكُّلَ بقطع الاستشرافِ باليأس من المخلوقين، واستدلَّ عليه بقول إبراهيمَ عليه السلام حين عرض له جبريلُ عليه السلام يوم أُلقي في النار وقال له: أَلكَ حاجة؟: أمَّا إليك فلا(٥).

وليس طرحُ الأسبابِ سبيلَ توكُّلِ الخواصِّ عند الصوفيةِ فقط كما يُشعر به كلامُ بعضِ الفضلاء، بل جاءَ عن غيرهم أيضاً.

---

(١) التيسير ص٨٤، والنشر ٢/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٧٥، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ١١١، وكذا ما بعده.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) عن أنس رضي الله عنه، وسلف ٥/ ٩٨، و١٢/ ٤١٤.

(٤) قصة خالد أخرجها أحمد في فضائل الصحابة (١٤٧٨) و(١٤٨١)، وقصة سعد ذكرها الطبري في تاريخه ٤/ ٩، وقصة أبي مسلم أخرجها البيهقي في الدلائل ٦/ ٥٤ وصحح إسنادها، وقصة تميم أخرجها بحشل في تاريخ واسط ص ٢٣١، والبيهقي في الدلائل ٦/ ٨٠.

(٥) طبقات الحنابلة ١/ ٣٧٢، وجامع العلوم والحكم ص ٤١٢-٤١٣ (طبعة دار المعرفة).

﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المعهودة، وهي المدينةُ التي خرجوا منها، قيل: وتسمَّى الآن طرسوس، وكان اسمُها يومَ خرجوا منها أفسوس، وبهذا يجمع بين الرِّوايتين السابقتين، وكان هذا القولُ صدر منهم إعراضاً عن التعمُّق في البحث، وإقبالاً على ما يهمُّهم بحسب الحالِ كما ينبئُ عنه الفاء.

وذكر بعضُهم أنَّ ذلك من باب الأُسلوبِ الحكيم، كقوله:

أَتَت تشتكي عندي مزاولةَ القِرَى وقد رأتِ الضِّيفانَ يَنحونَ منزلي
فقلت كأني ما سمعتُ كلامَها هم الضيفُ جِدِّي في قِراهم وعجِّلي[(١)]

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أَحلُّ؛ فإنَّ أهلَ المدينةِ كانوا في عهدهم يذبحون للطواغيت، كما روى سعيدُ بن منصورٍ وغيرُه عن ابنِ عباس. وفي روايةٍ أخرى أنَّهم كانوا يذبحون الخنازير. وقال الضحَّاك: إنَّ أكثرَ أموالِهم كانت مغصوبة.

فأَزكَى من الزكاة، وأصلُها النموُّ والزيادة، وهي تكون معنويةً أخروية، وحسِّيةً دنيوية، وأُريد بها الأولى؛ لما في توخِّي الحلالِ من الثواب وحُسنِ العاقبة.

وقال ابنُ السائبِ ومقاتل: أي: أَطيب. فإنْ كان بمعنى أحلّ ـ لأنَّه يُطلَق عليه ـ رجع إلى الأوَّل، وإنْ كان بمعناه المتبادر، فالزيادةُ قيل: حِسِّيةٌ دنيوية.

وقال عِكرمة: أي: أكثر. وقال يمان بنُ ريَّان[(٢)]: أي: أَرخص. وقال قتادة: أي: أَجود. وهو أَجود. وعليه وكذا على سابقَيه ـ على ما قيل ـ تكونُ الزيادةُ حِسِّيةً دنيويةً أيضاً.

وزعم بعضُهم أنَّهم عَنَوا بالأزكى الأَرُزّ. وقيل: التمر. وقيل: الزَّبيب. وحُسنُ الظنِّ بالفتية يقتضي أنَّهم تحرَّوا الحلال.

والنظرُ يحتمل أن يكونَ من نظر القلب، وأن يكونَ من نظر العين، و«أي» استفهامٌ مبتدأ، و«أزكى» خبرُه، والجملةُ معلَّق عنها الفعلُ للاستفهام.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ص٧٦ دون نسبة.

(٢) كذا في الأصل و(م) والبحر ٦/ ١١١، ولعل الصواب: يمان بن رئاب. ينظر البحر ١/ ٢١ و٤/ ٣٥٣، والميزان ٤/ ٤٦٠.

وجوّز أن تكونَ «أي» موصولاً مبنيًّا مفعولاً لـ «ينظر»، و«أزكى» خبرُ مبتدأ محذوفٍ هو صدرُ الصلة.

وضميرُ «أيها» إمَّا للمدينة، والكلامُ على تقديرِ مضاف، أي: أيُّ أهلِها، وإمَّا للمدينة مراداً بها أهلُها مجازاً، وفي الكلام استخدامٌ ولا حذف، وإمَّا لِمَا يُفهَم من سياق الكلام، كأنَّه قيل: فلْينظرْ أيُّ الأطعمةِ أو المَآكلِ أزكى طعاماً ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: من ذلك الأزكى طعاماً، فـ «من» لابتداء الغاية، أو التبعيض.

وقيل: الضميرُ للوَرِق، فتكون «مِن» للبدل.

ثم إنَّ الفتيةَ إنْ لم يكن تحرَّوا الحلالَ سابقاً، فليكن مرادُهم بالرِّزق هنا الحلالَ وإنْ لم يكن مختصًّا به عندنا.

واستُدلَّ بالآية ـ وسيأتي إن شاءَ اللهُ تعالى ما يُعلَم منه ما فيه ـ على صحَّة الوكالةِ والنِّيابة. قال ابنُ العربي(١): وهي أقوى آيةٍ في ذلك، وفيها ـ كما قال الكيا(٢) ـ دليلٌ على جواز خلطِ دراهم الجماعة والشراءِ بها، والأكلِ من الطعام الذي بينهم بالشَّركة وإنْ تفاوتوا في الأكل، نعم لا بأسَ للأكول أن يزيدَ حصَّتَه من الدراهم.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: وليتكلَّف اللطفَ في المعاملة؛ كيلا تقعَ خصومةٌ تجرُّ إلى معرفته. أو: ليتكلَّف اللطفَ في الاستخفاءِ دخولاً وخروجاً.

وقيل: ليتكلَّف ذلك كي لا يُغبَن، فيكون قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ ـ أي: لا يفعلنَّ ما يؤدِّي إلى شعور أحدٍ من أهل المدينة بكم ـ تأسيساً على هذا، وهو على الأوَّلَين تأكيدٌ للأمر بالتلطُّف وتفسيرُه بما ذُكر من باب الكناية، نحو: لا أرينَّك هاهنا، وفسَّره الإمام(٣) بـ : لا يُخبِرَنَّ بكم أحداً، فهو على ظاهره.

وقرأ الحسن: «وليتلطَّفْ» بكسر لامِ الأمر. وعن قتيبة الميَّال: «وليُتَلَطَّفْ» بضمِّ

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢١٦.
(٢) في أحكام القرآن ٢/ ٢٦٥.
(٣) في التفسير الكبير ٢١/ ١٠٣.

الياءِ مبنيًّا للمفعول. وقرأ هو وأبو صالحٍ ويزيدُ بن القعقاع: «ولا يَشعُرن بكم أحدٌ» ببناءِ الفعلِ للفاعل ورفعِ «أحد» على أنَّه الفاعل(١).

﴿إِنَّهُمْ﴾ تعليلٌ لما سبق من الأمر والنَّهي، والضميرُ للأهل المقدَّر في «أيُّها»، أو للكفَّار الذي دلَّ عليه المعنى، على ما اختاره أبو حيَّان، وجوَّز أن يعودَ على «أحد» لأنَّه عامّ، فيجوز أن يُجمعَ ضميرُه، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧](٢).

﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يطَّلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم، أو: يظفروا بكم، وأصلُ معنى ظَهَرَ: صار على ظهر الأرض. ولمَّا كان ما عليها يشاهَد ويتمكَّن منه، استُعمل تارةً في الاطِّلاع، وتارةً في الظَّفَر والغَلَبة، وعُدِّي بـ «على».

وقرأ زيدُ بن عليّ: «يُظهَروا» بضمِّ الياءِ مبنيًّا للمفعول(٣).

﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ إنْ لم تفعلوا ما يريدونه منكم وثبتُّم على ما أنتم عليه. والظاهرُ أنَّ المرادَ القتلُ بالرَّجم بالحجارة، وكان ذلك عادةً فيما سلف فيمَن خالف في أمرٍ عظيم؛ إذ هو أشفَى للقلوب، وللناس فيه مشاركة. وقال الحجَّاج(٤): المرادُ الرجم بالقول، أي: السَّبّ، وهو للنفوس الأبيةِ أعظمُ من القتل.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي: يصيِّروكم إليها ويُدخلوكم فيها مكرَهين، والعودُ في الشيءِ بهذا المعنى لا يقتضي التلبُّسَ به قبل. ورُوي هذا عن ابن جُبَير.

وقيل: العَودُ على ظاهره، وهو رجوعُ الشخصِ إلى ما كان عليه، وقد كان الفتيةُ على مِلَّة قومِهم أوَّلاً.

وإيثارُ كلمةِ «في» على كلمة إلى، قال بعضُ المحقِّقين: للدَّلالة على الاستقرار الذي هو أشدُّ كراهة، وتقديمُ احتمالِ الرَّجم على احتمال الإعادة؛ لأنَّ الظاهرَ من حالهم هو الثباتُ على الدِّين المؤدِّي إليه.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١١١، وقتيبة هو ابن مهران الأزاذاني صاحب الإمالات المنكرة، صحب الكسائيَّ وغيره. معرفة القراء الكبار ١/ ٣٥٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١١١.

(٤) لعله حجاج بن محمد المصِّيصي، فقد أخرجه الطبري ١٥/ ٢١٥ من طريقه عن ابن جريج.

وضميرُ الخطابِ في المواضع الأربعةِ للمبالغة في حمل المبعوثِ على ما أُريد منه، والباقين على الاهتمام بالتوصية؛ فإنَّ إمحاضَ النصحِ أدخلُ في القَبول، واهتمامَ الإنسان بشأن نفسِه أكثرُ وأوفر.

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: إنْ دخلتم فيها حقيقةً ولو بالكُره والإلجاء، لن تفوزوا بخير، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة. ووجهُ الارتباطِ على هذا أنَّ الإكراهَ على الكفر قد يكون سبباً لاستدراج الشيطانِ إلى استحسانه والاستمرارِ عليه، وبما ذُكر سقط ما قيل: إنَّ إظهارَ الكفرِ بالإكراه مع إبطان الإيمان معفوٌّ في جميع الأزمان، فكيف رتِّب عليه عدمُ الفلاحِ أبداً؟ ولا حاجةَ إلى القول بأنَّ إظهارَ الكفرِ مطلقاً كان غيرَ جائزٍ عندهم، ولا إلى حملِ «يعيدوكم في ملتهم» على: يميلوكم إليها بالإكراه وغيرِه، فتدبَّر.

ثم إنَّ الفتيةَ بعثوا أحدَهم وكان ـ على ما قال غيرُ واحد ـ يمليخا، فكان ما أَشار اللهُ تعالى إليه بقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أنمناهم وبعثناهم، فالإشارةُ إلى الإنامة والبعث، والإفرادُ باعتبار ما ذُكر ونحوِه. وقال العزُّ بن عبدِ السلام في «أماليه»: الإشارةُ إلى البعث المخصوص، وهو البعثُ بعد تلك الإنامةِ الطويلة.

وأصلُ العثور ـ كما قال الراغب(١) ـ السقوطُ للوجه، يقال: عثر عُثوراً وعِثاراً: إذا سقط لوجهه، وعلى ذلك قولُهم في المَثَل: الجوَادُ لا يكاد يعثر، وقولُهم: مَن سلك الجَدَدَ أَمِنَ العِثار، ثم تجوّز به في الاطِّلاع على أمرٍ من غير طلبِه.

وقال الإمام المطرِّزي: لمَّا كان كلُّ عاثرٍ ينظر إلى موضع عَثرته، وَرَدَ العثورُ بمعنى الاطِّلاع والعِرفان(٢)، فهو في ذلك مجازٌ مشهورٌ بعلاقة السببية، وإنْ أَوهم ذِكر اللغويين له أنَّه حقيقةٌ في ذلك، وجعله الغوريُّ حقيقةً في الاطِّلاع على أمرٍ كان خفيًّا، وأمرُ التجوُّز على حاله.

---

(١) في المفردات (عثر).

(٢) انظر المُغرِب (عثر) ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٦/ ٨٦.

ومفعولُ «أعثرنا» الأوَّلُ محذوفٌ لقصد العموم، أي: وكذلك أطلعنا الناسَ عليهم. وقال أبو حيَّان[1]: أهلَ مدينتِهم.

﴿لِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ أي: الذين أطلعناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبةِ ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدَه سبحانه وتعالى بالبعث، على أنَّ الوعدَ بمعناه المصدريّ، ومتعلَّقه مقدَّر. أو موعودَه تعالى شأنُه الذي هو البعث، على أنَّ المصدرَ مؤوَّل باسم المفعول، والمراد: موعودَه المعهود، ويجوز أن يرادَ كلُّ وعدِه تعالى، أو كلُّ موعودِه سبحانه، ويدخل في ذلك ما ذُكر دخولاً أوليًّا.

﴿حَقّٞ﴾ صادقٌ لا خُلفَ فيه، أو ثابتٌ متحقِّق سيقع ولا بدّ، قيل: لأنَّ نومَهم الطويلَ المخالفَ للمعتاد وانتباهَهم كالموت والبعث.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: القيامةَ التي هي في لسان الشرعِ عبارةٌ عن وقت بعثِ الخلائقِ جميعاً للحساب والجزاءِ ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ أي: ينبغي ألَّا يرتابَ الآن في إمكان وقوعِها؛ لأنَّه لا يبقَى بيد المرتابين في ذلك بعدَ النظرِ والبحثِ سوى الاستنادِ إلى الاستبعاد، وعلمُهم بوقوع ذلك الأمرِ الغريبِ والحال العجيبِ الذي لو سمعوه ولم يتحقَّقوا وقوعَه لَاستبعدوه وارتابوا فيه ارتيابَهم في ذلك، يكسرُ شوكةَ ذلك الاستبعاد، ويَهدمُ ذلك الاستناد، فينبغي حينئذٍ ألَّا يرتابوا.

وقال بعضُ المحقِّقين في توجيه ترتُّب العلمِ بما ذُكر على الاطِّلاع: إنَّ مَن شاهد أنَّه جلَّ وعلا توفَّى نفوسَهم وأَمسكها ثلاثَ مئة سنةٍ وأكثر، حافظاً أبدانَها من التحلُّل والتفتُّت، ثم أَرسلها إليها، لا يبقَى معه شائبةُ شكٍّ في أنَّ وعدَه تعالى حقّ، وأنَّه تعالى يبعث مَن في القبور، فيردُّ عليهم أرواحَهم، فيحاسبهم ويجازيهم بحسَب أعمالِهم. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ في استفادة العلمِ بالمحاسبة والمجازاةِ من الاطِّلاع على حال القومِ نظراً.

واعتُرض بأنَّ المطلوبَ في البعث إعادةُ الأبدانِ بعد تفرُّق أجزائها، وما في القصَّة طولُ حفظِ الأبدان، وأين هذا مِن ذاك؟ والقولُ بأنَّه متى صحَّ طولُ حفظِ

(١) في البحر ٦/ ١١٢.

الأَبدان المحتاجةِ إلى الطَّعام والشَّراب، صحَّ قدرتُه سبحانه على إعادتها[1] بعد تفرُّق أجزائها بطريق الأَوْلى = غيرُ مسلَّم.

وأُجيب بأنَّ طولَ الحفظِ المذكورِ يدلُّ على قدرته تعالى على ما ذُكر بطريق الحدسِ، فليُتدبَّر.

ولعل الأَظهرَ توجيهُ الترتُّب بما ذكره أوّلاً، وتوضيحُه: أنَّ حالَ الفتيةِ حيث ناموا في تلك المدَّةِ المديدة، والسنينَ العديدة، وحُبست عن التصرُّف نفوسُهم، وتعطَّلت مشاعرُهم وحواسُّهم، من غير تصاعدِ أبخرةِ شرابٍ وطعام، أو نزولِ عللٍ وأَسقام، وحُفظت أبدانُهم عن التحلُّل والتفتُّت، وأُبقيت على ما كانت عليه من الطَّراوة والشبابِ في سالف الأَعوام، حتى رجعت الحواسُّ والمشاعرُ إلى حالها، وأُطلقت النفوسُ من عِقالها، وأُرسلت إلى تدبير أبدانِها، والتصرُّفِ في خدَّامها وأَعوانها، فرأت الأمرَ كما كان، والأعوانَ هم الأعوان، ولم تُنكر شيئاً عهدته في مدينتها، ولم تتذكَّر طولَ حبسِها عن التصرُّف في سرير سلطنِتها، وحالَ الذين يقومون من قبورهم، بعدما تعطَّلت مشاعرُهم وحُبِست نفوسُهم، ثم لمَّا أُطلقت وجدت ربوعاً عامرة، ومنازلَ كأنَّها لم تكن داثرة، قائلين قبل أن يكشّرَ عن أنيابه العَنا: مَن بعثنا مِن مرقدنا = في الغرابة[2] من صُقعٍ واحد، ولا ينكر ذلك إلَّا جاهلٌ أو معاند، ووقوعُ الأوَّلِ يزيل الارتيابَ في إمكان وقوعِ الثاني، حيث كان مستنداً إلى الاستبعاد في الحقيقة كما سمعتَ فيما قبلُ لبطلانِ أدلَّةِ النافين للحشر الجسمانيّ.

نعم في ترتُّب العلم بأنَّ البعثَ سيقع لا محالةَ على نفس الاطِّلاع على حال الفتيةِ خفاء؛ فإنَّ الظاهرَ أنَّ العلمَ المذكورَ إنما يترتَّب على إخبار الصادقِ بوقوعه وعلى إمكانه في نفسه، لكن لمَّا كان الاطلاعُ المذكورُ سبباً للعلم بالإمكان، وكان كالجزءِ الأخير من العِلَّة بالنسبة للكفَّار الذين بلغهم خبرُ الصادق، قيل بترتُّب العلمِ بذلك عليه، وكذا في ترتُّب العلمِ بأنَّ كلَّ ما وعده اللهُ تعالى حقٌّ على نفس الاطِّلاع خفاء. ولم أرَ مَن تعرَّض لتوجيهه من الفضلاء، فتأمَّل.

---

(١) في (م): إعادتهما.

(٢) خبر لقوله: أن حال الفتية...

ثم لا يخفى أنَّ ذِكرَ قولِه تعالى: (وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ) بعد قولِه سبحانه: (أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ) على التفسير الذي سمعتَ مما لا غبارَ عليه، وليس ذلك من ذِكر الإمكانِ بعد الوقوعِ ليلغوَ كما زعمه مَن زعمه.

وقال بعضُهم: إنَّ الظاهرَ أنَّ يفسَّر قولُه تعالى: (أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ) بأنَّ كلَّ ما وعده سبحانه متحقِّق، ويُجعلَ قولُه تعالى: (وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ) تخصيصاً بعد تعميم، على معنى: لا ريبَ في تحقُّقها، وهو وجهٌ في الآية، إلَّا أنَّ في دعوى الظهورِ مقالاً، فلا تغفُل.

﴿إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ﴾ ظرفٌ لـ «أعثرنا عليهم»؛ قدَّم عليه الغايةُ إظهاراً لكمال العنايةِ بذِكرها. وجوَّز أبو حيَّان وأبو البقاءِ[1] وغيرُهما كونَه ظرفاً لـ «يعلموا». وتعقِّب بأنه يدلُّ على أنَّ التنازعَ يحدث بعد الإعثار، مع أنَّه ليس كذلك، وبأنَّ التنازعَ كان قبلَ العلمِ وارتفع به، فكيف يكون وقتُه وقتَه؟ وللمناقشة في ذلك مجال. وجوِّز أن يكونَ ظرفاً لـ «حَق»، أو لـ «وعد». وهو كما ترى.

وأصلُ التنازعِ التجاذبُ، ويعبَّر به عن التخاصُم، وهو باعتبار أصلِ معناه يتعدَّى بنفسه، وباعتبار التخاصمِ يتعدَّى بـ «في»، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [النساء: ٥٩].

وضميرُ (يَتَنَـٰزَعُونَ) لِمَا عاد عليه ضميرُ «ليعلموا» أي: وكذلك أَعثرنا على أصحاب الكهفِ الناسَ - أو أهلَ مدينتِهم - حين يتنازعون ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ويتخاصمون فيه؛ ليرتفعَ الخلافُ ويتبيَّن الحقّ. وضميرُ «أمرهم» قيل: عائدٌ أيضاً على مفعول «أعثرنا».

والمرادُ بالأمر البعث، ومعنى إضافتِه إليهم اهتمامُهم بشأنه، والوقوفُ على حقيقة حالِه. وقد اختلفوا فيه، فمن مُقرٍّ به وجاحد، وقائلٍ يقول: تُبعث الأرواحُ دون الأجساد، وآخَر يقول ببعثهما معاً، كما هو المذهبُ الحقُّ عند المسلمين.

رُوي أنَّه بعد أن ضرب اللهُ تعالى على آذان الفتيةِ ومضى دهرٌ طويل، لم يبقَ أحدٌ من أمَّتهم الذين اعتزلوهم، وجاء غيرُهم، وكان مَلِكُهم مسلماً، فاختلف أهلُ

---

(١) البحر ٦/ ١١٢-١١٣، والإملاء ٣/ ٥١٠.

مملكتِه في أمر البعثِ حَسبما فصَّل، فشقَّ ذلك على الملك، فانطلق فلبس المُسوحَ وجلس على الرَّماد، ثم دعا اللهَ عزَّ وجلَّ فقال: أيْ ربِّ، قد ترى اختلافَ هؤلاء، فابعثْ لهم آيةً تبيِّن لهم، فقيَّض اللهُ تعالى راعيَ غنمٍ أدركه المطر، فلم يزل يعالج ما سدَّ به دقيانوس بابَ الكهف، حتى فتحه وأدخل غنمَه، فلمَّا كان الغدُ بُعثوا من نومهم، فبَعثوا أحدَهم ليشتريَ لهم طعاماً، فدخل السُّوق، فجعل يُنكر الوجوهَ ويعرف الطُّرق، ورأى الإيمانَ ظاهراً بالمدينة، فانطلق وهو مستخفٍ حتى أتى رجلاً يشتري منه طعاماً، فلمَّا نظر الوَرِق أنكرها، حيث كانت من ضربِ دقيانوس كأنَّها أَخفافُ الرُّبَعِ[1]، فاتَّهمه بكنزٍ وقال: لَتدلَّني عليه أو لأَرفعنَّك إلى الملك، فقال: هي مِن ضربِ الملك، أَليس ملكُكم فلاناً؟ فقال الرجل: لا بل ملكُنا فلان، وكان اسمُه يندوسيس، فاجتمع الناسُ وذهبوا به إلى الملكِ وهو خائف، فسأله عن شأنه، فقصَّ عليه القِصّة، وكان قد سمع أنَّ فتيةً خرجوا على عهدِ دقيانوس، فدعا مشيخةَ أهلِ مدينته، وكان رجلٌ منهم عنده أَسماؤهم وأنسابُهم، فسأله فأَخبره بذلك، وسأل الفتى فقال: صَدَق، ثم قال الملك: أيُّها الناس، هذه آيةٌ بعثها اللهُ تعالى لكم، ثم خرج هو وأهلُ المدينةِ ومعهم الفتى، فلمَّا رأى الملكُ الفتية، اعتنقهم وفَرِحَ بهم، ورآهم جلوساً مشرقةً وجوهُهم لم تَبلَ ثيابُهم، فتكلَّموا معه وأَخبروه بما لقُوا من دقيانوس، فبينما هم بين يديه قالوا له: نستودعُك اللهَ تعالى، والسلامُ عليك ورحمةُ اللهِ تعالى، حفظك اللهُ تعالى وحفظ ملكَك، ونعيذُك بالله تعالى من شرِّ الإِنس والجِنّ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم، فتوفَّاهم اللهُ تعالى، فقام الملكُ إليهم وجعل ثيابَه عليهم، وأمر أن يُجعلَ كلٌّ منهم في تابوتٍ من ذهب، فلمَّا كان الليلُ ونام، أَتوه في المنام فقالوا: أردتَ أن تجعلَ كلًّا منَّا في تابوتٍ من ذهب، فلا تفعلْ، ودعْنا في كهفنا، فمن التراب خُلقنا وإليه نعود، فجعلهم في توابيتَ من ساجٍ وبنَى على باب الكهفِ مسجداً.

ويُروى أنَّ الفتى لمَّا أُتي به إلى الملك قال: مَن أنت؟ قال: أنا رجلٌ من أهل هذه المدينة، وذكر أنَّه خرج أمسِ أو منذ أيَّام، وذكر منزلَه وأقواماً لم يعرفْهم أحد، وكان الملكُ قد سمع أنَّ فتيةً قد فُقدوا في الزمان الأوَّل، وأن أَسماءهم مكتوبةٌ على

---

(١) يعني الإبل الصغار. تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٩٥، وتفسير الطبري ١٥/ ١٩٨.

لوحٍ في الخزانة، فدعا باللَّوح ونظر في أسمائهم، فإذا هو من أولئك القوم، فقال الفتى: وهؤلاء أَصحابي، فركب القومُ ومَن معه، فلمَّا أَتَوا بابَ الكهفِ قال الفتى: دعوني حتى أَدخلَ على أصحابي فأبشِّرَهم؛ فإنَّهم إذا رأوكم معي رُعبوا، فدخل فبشَّرهم، وقبض اللهُ تعالى أرواحَهم، وعُمِّي على الملك ومَن معه أَثرُهم، فلم يهتدوا إليهم، فبنَوا عليهم مسجداً، وكان وقوفُهم على حالهم بإخبار الفتى وقد اعتمدوا صِدقَه. وهذا هو المرادُ بالإعثار عليهم. ورُوي غيرُ ذلك.

وقيل: ضميرُ «أمرهم» للفتية، والمرادُ بالأمر الشأنُ والحالُ الذي كان قبل الإعثار، أي: وكذلك أَعثرنا الناسَ على أصحاب الكهفِ حين تذاكُرِهم بينهم أمرَهم، وما جرى لهم في عهد الملكِ الجبَّار من الأحوال والأهوال، ولعلهم قد تلقَّوا ذلك من الأساطير وأفواهِ الرِّجال، لكنَّهم لم يعرفوا هل بقُوا أحياءً أم حلَّ بهم الفَناء؟

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ﴾ بناءً على القول الأوَّل فصيحةٌ بلا ريب، على دأب اختصارات القرآن، كأنَّه قيل: وكذلك أَعثرنا الناسَ على أَصحاب الكهفِ حين تنازُعِهم في أمر البعث، فتحقَّقوا ذلك وعلموا أنَّ هؤلاء آيةٌ من آياتنا، فتوفَّاهم اللهُ تعالى بعد أنْ حصل الغرضُ من الإعثار، فقالوا: ابنوا... إلى آخره.

وكذلك على القولِ الثاني، كأنَّه قيل: وكذلك أَعثرنا الناسَ على أَصحاب الكهفِ حين تذاكُرِهم أمرَهم وما جرى لهم في عهد الملكِ الجبَّار ولم يكونوا عارفين بما هم عليه، فوقفوا من أَحوالهم على ما وقفوا، واتَّضح لهم ما كانوا قد جهلوا، فتوفَّاهم اللهُ تعالى بعد أن حصل الغرضُ من الإعثار، فقالوا ابنوا.. إلى آخره، أي: قال بعضُهم: ابنوا ﴿عَلَيْهِم﴾ أي: على باب كهفِهم ﴿بُنْيَـٰنًا﴾ نصب على أنَّه مفعولٌ به.

وهو ـ كما قال الرَّاغب[1] ـ واحدٌ لا جمعَ له، وقال أبو البقاءِ[2]: هو جمعُ بنيانة، كشَعير وشعيرة. وقيل: هو نصبٌ على المصدرية.

---

(١) في المفردات (بني).
(٢) في الإملاء ٣/ ٥١٠.

وهذا القولُ من البعض عند بعضٍ كان عن اعتناءٍ بالفتية، وذلك أنَّهم ضنُّوا بتُربتهم، فطلبوا البناءَ على باب كهفِهم لئلَّا يتطرَّقَ الناسُ إليهم.

وجوَّزوا في قوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْۚ﴾ بعدَ القولِ بأنه اعتراضٌ أن يكونَ من كلام المتنازعين المُعْثَرين، كأنَّهم تذاكروا أمرَهم، وتناقلوا الكلامَ في أنسابهم وأحوالِهم ومدَّة لَبثهم، فلمَّا لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك، فوَّضوا العلمَ إلى الله تعالى علَّامِ الغيوب.

وأن يكونَ من كلامه سبحانه ردًّا للخائضين في أمرهم: إمَّا من المعثَرين، أو ممَّن كان في عهده ﷺ من أهل الكتاب، وحينئذٍ يكون فيه التفاتٌ على أحدِ المذهبين.

وقيل: ضميرُ «أمرهم» للفتية، والمرادُ بالأمر الشأنُ والحالُ الذي كان بعد الإعثار، على أنَّ المعنى: إذ يتنازعون بينهم تدبيرَ أمرِهم وحالهم حين توفُّوا كيف يفعلون بهم، وبماذا يُجِلُّون قدرَهم. أو: إذ يتنازعون بينهم أَمرَهم من الموت والحياة، حيث خفي عليهم ذلك بعدَ الإعثار، فلم يدروا هل ماتوا أو ناموا كما في أوَّل مرة.

وعلى هذا تكون «إذ» معمولاً لـ : اذكرْ مضمَراً، أو ظرفاً لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ ويكون قولُه تعالى: «فقالوا» معطوفاً على «يتنازعون» وإيثارُ صيغةِ الماضي للدَّلالة على أنَّ هذا القولَ ليس مما يستمرُّ ويتجدَّد كالتنازع.

وصرَّح بعضُ الأجِلَّة أنَّ الفاءَ على أوَّل المعنيين للتعقيب، وعلى ثانيهما فصيحة، كأنَّه قيل: اذكر حين يتنازعون في أنَّهم ماتوا أو ناموا، ثم فرغوا من التنازُع في ذلك، واهتمُّوا بإجلال قدرِهم وتشهيرِ أمرهم، فقالوا: ابنوا... إلى آخره.

وذكر الزمخشريُّ[1] احتمالَ كونِ ضميرِ «أمرهم» للمعثَرين، وأنَّ المرادَ من «أمرهم» أمرُ دينهم، وهو البعث، واحتمالَ كونِ الضميرِ للفتية، والمعنى حينئذ: إذ

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٧٧.

يتذاكر الناسُ بينهم أمرَ أصحابِ الكهف، ويتكلَّمون في قصَّتهم وما أَظهر اللهُ تعالى من الآية فيهم. أو: إذ يتنازعون بينهم تدبيرَ أمرِهم حين توفُّوا كيف يُخفون مكانَهم، وكيف يَسدُّون الطريقَ إليهم، وجَعَلَ «إذ» في الأَوجَه ظرفاً لـ «أعثرنا».

وذكر صاحبُ «الكشف» أنَّ الفاءَ على الأوَّل فصيحةٌ لا محالة، وعلى الأخيرَين للتعقيب، أمَّا على الثاني منهما فظاهر، وأمَّا على الأوَّل؛ فلأنَّهم لمَّا تذاكروا قصَّتَهم وحالَهم وما أَظهر اللهُ تعالى من الآية فيهم، قالوا: دعوا ذلك وابنُوا عليهم بنياناً، أي: خذوا فيما هو أهم... إلى آخر ما قال.

واحتمالُ جعلِ الفاءِ فصيحةً على هذا الأوَّل غيرُ بعيد، وتعلُّق الظرفِ بـ «أَعثرنا» على الوجهين الأَخيرين ـ وكذا على ما نقلناه آنفاً ـ ليس بشيء؛ لأنَّ إِعثارهم ليس في وقت التنازُع فيما ذكر، بل قبلَه. وجعلُ وقتِ التنازعِ ممتدًّا يقع في بعضه الإعثارُ وفي بعضه التنازعُ تعسُّفٌ لا يخفى، مع أنَّه لا مخصِّصَ لإِضافته إلى التنازع، وهو مؤخَّر في الوقوع.

وحكى في «البحر»[1] أنَّ ضميرَ «ليعلموا» عائدٌ على أصحاب الكهف، والمراد: أَعثرنا عليهم ليزدادوا علماً بأنَّ وعدَ اللهِ حقّ... إلى آخره. وجعل ذلك غايةً للإعثار بواسطة وقوفِهم بسببه على مدَّة لَبثهم بما تحقَّقوه من تبدُّل القرون، وجعل «إذ يتنازعون» على هذا ابتداءَ إخبارٍ عن القوم الذين بُعثوا في عهدهم، وخصَّ الأمر المتنازَع فيه بأمر البناءِ والمسجد، ويُختار حينئذٍ تعلُّقُ الظرفِ باذكر، ولا يخفَى أنَّ جعلَ ذلك الضميرِ للفتية وإنْ دعا لتأويلِ «يعلموا» بما سمعتَ ليس ببعيد الإرادة من النَّظم الكريمِ إذا قُطع النظرُ عن الأمور الخارجيةِ كالآثار.

ولم يذهب أحدٌ فيما أَعلم إلى احتمال كونِ الضمائرِ في قوله تعالى: «إذ يتنازعون بينهم أمرهم» عائدةً على الفتية، كضمير «يعلموا»، و«إذ» ظرفُ «أعثرنا»، والمرادُ بالأمر المتنازَعِ مقدارُ زمنِ لَبثهم، وتنازُعُهم فيه قولُ بعضِهم: «لبثنا يوماً أو بعض يوم» وقولُ الآخَر ردًّا عليه: «ربكم أعلم بما لبثتم» وحيث لم يتَّضح الحالُ ولم يحصل الإجماعُ على مقدارٍ معلوم، كان التنازعُ في حكم الباقي، فكان زمانه

---

(١) ١١٣/٦.

ممتدًّا، فصحَّ أن يكونَ ظرفاً للإعثار، وضميرُ «فقالوا» للمعثرين، والفاءُ فصيحة، أي: وكذلك أعثرنا الناسَ على الفتية وقتَ تنازعِهم في مدَّة لَبثِهم ليزدادوا علماً بالبعث، فكان ماكان، وصار لهم بين الناسِ شأنٌ أيُّ شأن، فقالوا: ابنوا.. إلى آخره.

وكأنَّ ذلك لما فيه من التكلُّف مع عدم مساعدةِ الآثارِ إياه.

ثم ما ذُكر من احتمال كونِ «ربهم أعلم بهم» من كلامه سبحانه جيءَ به لردِّ المتنازعين من المعثَرين لا يخلو عن بُعد، وأمَّا الاحتمالُ الأخير فبعيدٌ جدًّا، والظاهرُ أنَّه حكايةٌ عن المعثرين، وهو شديدُ الملاءمةِ جدًّا لكون التنازعِ في أمرهم من الموتِ والحياة.

والذي يقتضيه كلامُ كثيرٍ من المفسِّرين أنَّ غرضَ الطائفتين: القائلين: «ابنوا...» إلى آخره، والقائلين: «لنتخذن» إلى آخره تعظيمُهم وإجلالهم.

والمرادُ من الذين غَلبوا على أمرهم ـ كما أَخرج عبدُ الرزاق وابنُ أبي حاتم عن قتادة ـ الولاة، ويلائمه «لنتخذن» دون اتَّخِذوا بصيغة الطلبِ المعبِّر بها الطائفةُ الأولى، فإنَّ مثلَ هذا الفعلِ تنسبه الولاةُ إلى أنفسها. وضمير «أمرهم» هنا قيل: للموصول المراد به الولاة، ومعنى غَلَبتهم على أمرهم أنَّهم إذا أرادوا أمراً لم يتعسَّر عليهم ولم يَحُلْ بينه وبينهم أحد، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

وذكر بعضُ الأفاضلِ أنَّ الضميرَ لأَصحاب الكهف، والمرادُ بالذين غَلبوا قيل: الملكُ المسلم، وقيل: أولياءُ أصحابِ الكهف، وقيل: رؤساءُ البلد؛ لأنَّ مَن له الغلبةُ في هذا النِّزاع لا بدَّ أن يكونَ أحدَ هؤلاء، والمذكورُ في القصَّة أنَّ الملكَ جعل على باب الكهفِ مسجداً، وجعل له في كلِّ سنةٍ عيداً عظيماً. وعن الزجَّاج[1] أنَّ هذا يدلُّ على أنَّه لمَّا ظهر أمرُهم، غَلَبَ المؤمنون بالبعث؛ لأنَّ المساجدَ إنَّما تكون للمؤمنين به. انتهى.

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٧.

ويُبعد الأوَّلَ التعبيرُ بما يدلُّ على الجمع، والثاني ـ إن أُريد من الأولياء الأولياءُ من حيث النَّسبُ كما في قولهم: أولياءُ المقتول ـ أنَّه لم يوجد في أثرٍ أنَّ لأصحاب الكهفِ حين بُعثوا أولياءَ كذلك.

وفسَّر غيرُ واحدٍ الموصولَ بالملك والمسلمين، ولا بُعدَ في إطلاق الأولياءِ عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١] ويدلُّ هذا على أنَّ الطائفةَ الأولى لم تكن كذلك، وقد رُوي أنَّها كانت كافرة، وأنَّها أرادت بناءَ بِيعةٍ أو مصنعٍ لكفرهم، فمانَعَهم المؤمنون وبنَوا عليهم مسجداً.

وظاهرُ هذا الخبرِ أنَّ المسجدَ مقابلُ البِيعة، وما أَخرج ابنُ أبي حاتم عن سعيد بنِ جُبَير من أنَّ الملكَ بنى عليهم بيعةً فكتب في أَعلاها: أبناءُ الأراكنة أبناء الدَّهاقين(١) = ظاهرٌ في عدم المقابلة، ولعله الحقّ؛ لأنَّه لا يصحُّ أن يرادَ بالمسجد هنا ما يُطلَق عليه اليومَ من مصلَّى المحمَّديين، بل المرادُ به معبدُ المؤمنين من تلك الأمَّة، وكانوا على ما سمعتَ أوَّلاً نصارى ـ وإن كان في المسألة قولٌ آخَرُ ستسمعه إن شاء اللهُ تعالى قريباً ـ ومعبدُهم يقال له: بِيعة.

وظاهرُ ما تقدَّم أنَّ المسجدَ اتُّخذ لأنْ يَعبدَ اللهَ تعالى فيه مَن شاء. وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدي أنَّ الملكَ قال: لأتخذنَّ عند هؤلاء القوم الصالحين مسجداً، فلأعبدنَّ اللهَ تعالى فيه حتى أموت. وعن الحسن أنه اتُّخذ ليصلِّيَ فيه أصحابُ الكهفِ إذا استيقظوا، وهذا مبنيٌّ على أنَّهم لم يموتوا، بل ناموا كما ناموا أوَّلاً، وإليه ذهب بعضُهم، بل قيل: إنَّهم لا يموتون حتى يظهرَ المهديُّ ويكونوا من أنصاره، ولا معوَّلَ على ذلك، وهو عندي أشبهُ شيءٍ بالخرافات.

ثم لا يخفى أنَّه على القول بأنَّ الطائفةَ الأولى الطالبةَ لبناء البنيانِ عليهم إذا كانت كافرةً لم تكن غايةُ الإعثار متحقِّقةً في جميع المعثَرين، ولا يتعيَّن كونُ «ربهم أعلم بهم» مُساقاً لتعظيم أمرِ أصحابِ الكهف، ولعل تلك الطائفةَ لم تتحقَّق حالَهم وأنَّهم ناموا تلك المدةَ ثم بُعثوا، فطلبت انطماسَ الكهفِ عليهم، وأَحالت أمرَهم إلى ربِّهم سبحانه، واللهُ تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

---

(١) الدر المنثور ٤/٢١٧، والأراكنة جمع الأُركون، وهو رئيس القرية ودهقانها العظيم. اللسان (ركن).

وقرأ الحسنُ وعيسى الثقفيُّ: «غُلِبوا» بضمِّ الغينِ وكسرِ اللام[١] على أنَّ الفعلَ مبنيٌّ للمفعول، ووجِّه ذلك بأنَّ طائفةً من المؤمنين المعثَّرين أرادت ألَّا يُبنَى عليهم شيءٌ ولا يُتعرَّضَ لموضعهم، وطائفةً أخرى منهم أرادت البناءَ وألَّا يطمسَ الكهف، فلم يُمكن للطائفة الأُولى منعُها، ووجدت نفسَها مغلوبة، فقالت: إنْ كان بنيانٌ ولا بدَّ فلنتخذنَّ عليهم مسجداً.

هذا واستُدلَّ بالآية على جواز البناءِ على قبور الصُّلحاءِ واتِّخاذِ مسجدٍ عليها، وجوازِ الصلاةِ في ذلك، وممَّن ذكر ذلك الشِّهاب الخفاجيُّ في حواشيه على البيضاويّ[٢]. وهو قولٌ باطلٌ عاطل، فاسدٌ كاسد، فقد روى أحمدُ، وأبو داود، والتِّرمذي، والنَّسائي، وابنُ ماجه[٣]، عن ابن عباس قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لعن اللهُ تعالى زائراتِ القبور، والمتَّخذين عليها المساجدَ والسُّرُج» ومسلم[٤]: «ألَا وإنَّ مَن كان قبلكم كانوا يتَّخذون قبورَ أنبيائهم مساجد، فإنِّي أنهاكم عن ذلك» وأحمدُ عن أسامة[٥]، وهو، والشَّيخان، والنَّسائي، عن عائشة[٦]، ومسلمٌ عن أبي هريرة[٧]: «لعن اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى؛ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» وأحمدُ، والشيخان، والنَّسائي[٨]: «إنَّ أولئك إذا كان فيهم الرجلُ الصالحُ فمات، بنوا على قبره مسجداً وصوَّروا فيه تلك الصُّور، أولئك شِرارُ الخلقِ يوم القيامة» وأحمدُ، والطَّبراني[٩]: «إنَّ مِن شرار الناسِ مَن تُدركهم الساعةُ وهم

(١) البحر المحيط ٦/ ١١٣، ونسبها في القراءات الشاذة ص٧٩ للحسن فقط.
(٢) ٦/ ٨٧.
(٣) مسند أحمد (٢٠٣٠)، وسنن أبي داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي ٤/ ٩٤-٩٥، وابن ماجه (١٥٧٥).
(٤) في صحيحه (٥٣٢) من حديث جندب بن جنادة رضي الله عنه.
(٥) المسند (٢١٧٧٤).
(٦) مسند أحمد (١٨٨٤)، وصحيح البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١)، والمجتبى ٢/ ٤٠-٤١.
(٧) صحيح مسلم (٥٣٠).
(٨) المسند (٢٤٢٥٢)، وصحيح البخاري (٣٢٧)، ومسلم (٥٢٨)، والمجتبى ٢/ ٤١ من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٩) المسند (٣٨٤٤)، والمعجم الكبير (١٠٤١٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أَحياء، ومَن يتَّخذ القبورَ مساجد» وعبدُ الرزاق[1]: «مِن شرار أُمَّتي مَن يتَّخذ القبورَ مساجد» وأيضاً: «كانت بنو إسرائيل اتَّخذوا القبورَ مساجد، فلعنهم اللهُ تعالى»[2] إلى غير ذلك من الأخبار الصحيحةِ والآثارِ الصريحة.

وذكر ابنُ حجرٍ في «الزواجر» أنَّه وقع في كلام بعضِ الشافعيةِ عدُّ اتخاذِ القبورِ مساجدَ والصلاةِ إليها واستلامِها والطوافِ بها ونحوِ ذلك من الكبائر، وكأنَّه أخذ ذلك ممَّا ذُكر من الأحاديث، ووجهُ اتخاذِ القبرِ مسجداً واضح[3]؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام لعن مَن فعل ذلك في قبور الأنبياءِ عليهم السلام، وجَعَلَ مَن فعل ذلك بقبور الصلحاءِ شرارَ الخلقِ عند اللهِ تعالى يومَ القيامة، ففيه تحذيرٌ لنا. واتخاذُ القبرِ مسجداً معناه الصلاةُ عليه أو إليه، وحينئذٍ يكون قولُه: والصلاة إليها، مكرَّراً، إلَّا أنْ يرادَ باتِّخاذها مساجدَ الصلاةُ عليها فقط، نعم إنَّما يتَّجه هذا الأخذُ إن كان القبرُ قبرَ معظَّم من نبيٍّ أو وليّ، كما أشارت إليه رواية: «إذا كان فيهم الرجلُ الصالح» ومن ثَمَّ قال أصحابُنا: تحرم الصلاةُ إلى قبور الأنبياءِ والأولياءِ تبرُّكاً وإعظاماً، فاشترطوا شيئَين: أن يكونَ قبرَ معظَّم، وأن يقصدَ الصلاة إليها، ومثلُ الصلاةِ عليه التبرُّكُ والإعظام[4]، وكونُ هذا الفعلِ كبيرةً ظاهرٌ من الأحاديث، وكأنَّه قاس عليه كلَّ تعظيمٍ للقبر، كإيقاد السُّرجِ عليه تعظيماً له وتبرُّكاً به، والطواف به كذلك، وهو أخذٌ غيرُ بعيد، سيَّما وقد صرّح في بعض الأحاديثِ المذكورةِ بلعن مَن اتَّخذ على القبر سراجاً، فيحمل قولُ الأصحابِ بكراهة ذلك على ما إذا لم يَقصِد به تعظيماً وتبرُّكاً بذي القبر.

وقال بعضُ الحنابلة: قصدُ الرجلِ الصلاةَ عند القبرِ متبرِّكاً به عينُ المحادَّةِ لله تعالى ورسولِه ﷺ، وإبداعُ دينٍ لم يأذنْ به اللهُ عزَّ وجلّ؛ للنَّهي عنها ثم إجماعاً؛ فإنَّ أعظمَ المحرَّماتِ وأسبابِ الشِّرك الصلاةُ عندها، واتخاذُها مساجدَ أو بناؤها

---

(١) في المصنف (١٥٨٦) من طريق معمر والثوري، عن علي موقوفاً، وقال: وأحسب معمراً رفعه.

(٢) المصنف (١٥٩١) من طريق عمرو بن دينار عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٣) العبارة في الزواجر ١/١٣٨: ووجهُ أَخْذِ اتخاذِ القبر مسجداً منها واضح.

(٤) في الزواجر: وأن يقصد بالصلاة إليه ومِثْلُها الصلاةُ عليه التبركَ والإعظام.

عليها، وتجب المبادرةُ لهدمها وهدمِ القبابِ التي على القبور؛ إذ هي أضرُّ من مسجد الضِّرار، لأنَّها أُسِّست على معصية رسولِ اللهِ ﷺ، لأنَّه عليه الصلاة والسلام نهى عن ذلك، وأمر بهدم القبورِ المشرِفة، وتجب إزالةُ كلِّ قنديلٍ أو سراجٍ على قبر، ولا يصحُّ وقفُه ولا نذرُه. اهـ.

وفي «المنهاج» وشرحِه للعلَّامة المذكور[1]: ويُكره تجصيصُ القبر، والبناءُ عليه في حريمه وخارجه في غير المسبلَة، إلَّا إنْ خُشي نبشٌ أو حفرُ سبعٍ أو هدمُ سيل، ويَحرم البناءُ في المسبلَة، وكذا تُكره الكتابةُ عليه؛ للنَّهي الصحيحِ عن الثلاثة، سواءٌ كتابةُ اسمِه وغيرِه، في لوحٍ عند رأسِه أو في غيره. نَعَم بحث الأَذرعيُّ حرمةَ كتابةِ القرآن؛ لتعريضه للامتهانِ بالدَّوس، والتنجيسِ بصديد الموتى، عند تكرُّر الدفنِ ووقوعِ المطر، ونُدب كتابةُ اسمِه لمجرَّد التعريفِ به على طول السِّنين، لاسيَّما قبورُ الأنبياءِ والصالحين؛ لأنَّه طريقٌ للإعلام المستحبّ. ولمَّا روى الحاكمُ النَّهيَ قال: ليس العملُ عليه الآن؛ فإنَّ أئمَّة المسلمين من المشرق والمغربِ مكتوبٌ على قبورهم، فهو عملٌ أخذ به الخلفُ عن السلف. ويُرَدُّ بمنع هذه الكلِّية، وبفرْضها، فالبناءُ على قبورهم أكثرُ من الكتابة عليها في المقابر المسبلةِ كما هو مشاهَد، لاسيَّما بالحرمين ومِصرَ ونحوِها، وقد علموا بالنَّهي عنه، فكذا هي. فإنْ قلتَ: هو إجماعٌ فعلي، فهو حجَّة كما صرَّحوا به، قلتُ: ممنوع، بل هو أكثريٌّ فقط؛ إذ لم يُحفَظ ذلك حتى عن العلماءِ الذين يرون منعَه، وبفرْض كونِه إجماعاً فعليًّا، فمحلُّ حجيَّته ـ كما هو ظاهر ـ إنَّما هو عند صلاحِ الأزمنة، بحيث ينفَّذ فيها الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، وقد تعطَّل ذلك منذ أَزمنة.

ولو بُني نفسُ القبرِ لغير حاجةٍ مما مرَّ كما هو ظاهر، أو نحوُ تحويطٍ أو قبةٍ عليه في مقبرةٍ مسبلَة، كأرضٍ مواتٍ اعتادوا الدفنَ فيها، أو موقوفةٍ لذلك، بل هي أَوْلى، هُدِم وجوباً؛ لحُرمته كما في «المجموع»[2] لِمَا فيه من التضييق، مع أنَّ البناءَ يتأبَّد بعد انمحاقِ الميِّت، فيُحْرَمُ الناسُ تلك البقعة، وهل من البناءِ ما اعتيد مِن جعل أربعةِ أحجارٍ مربَّعة محيطةٍ بالقبر مع لصق كلِّ رأسٍ منها برأس الآخَر

---

(١) أي: ابن حجر الهيتمي.

(٢) ٥/ ٢٦٣.

بجصٍّ مُحكَم، أو لا لأنَّه لا يسمَّى بناءً عرفاً؟ والذي يتَّجه الأوَّل؛ لأنَّ العِلَّة من التأبيد موجودةٌ هنا، وقد أَفتى جمعٌ بهدم كلِّ ما بقرافةِ مصرَ من الأبنية، حتى قبَّةِ الإمام الشافعيِّ عليه الرحمةُ التي بناها بعضُ الملوك، وينبغي لكلِّ أحدٍ هدمُ ذلك مالم يخشَ منه مفسدة، فيتعيَّن الرفعُ للإمام أخذاً من كلام ابنِ الرِّفعة في الصُّلح. انتهى.

وفي «صحيح مسلم»[1] عن أبي الهيَّاج الأسدي قال: قال لي عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: أَبعثُكَ على ما بعثني عليه رسولُ اللهِ ﷺ: ألَّا تدعَ تمثالاً إلَّا طمستَه، ولا قبراً مشرِفاً إلَّا سوَّيتَه. قال ابنُ الهُمام في «فتح القدير»[2]: وهو محمولٌ على ما كانوا يفعلونه من تعلية القبورِ بالبناءِ الحسنِ العالي.

والأحاديثُ وكلامُ العلماءِ المنصفين المتَّبعين لما ورد عن النبيِّ ﷺ وجاء عن السَّلف الصالحِ أكثرُ من أن يحصَى.

لا يقال: إنَّ الآيةَ ظاهرةٌ في كون ما ذُكر من شرائع مَن قبلَنا، وقد استُدلَّ بها، فقد رُوي أنَّه ﷺ قال: «مَن نام عن صلاةٍ أو نَسِيها...» الحديثَ، ثم تلا قولَه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤][3]، وهو مقولٌ لموسى عليه السلام، وسياقُه الاستدلال. واحتجَّ محمدٌ على جواز قسمةِ الماءِ بطريق المهايأةِ بقوله تعالى: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ﴾ الآيةَ [الشعراء: ١٥٥] و﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [القمر: ٢٨] وأبو يوسفَ على جَري القَوَدِ بين الذَّكر والأُنثى بآية ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [المائدة: ٤٥] والكرخيُّ على جَريه بين الحرِّ والعبدِ والمسلمِ والذميِّ بتلك الآيةِ الواردةِ في بني إسرائيل، إلى غير ذلك = لأنَّا نقول[4]: مذهبُنا في شرع مَن قبلنا وإن كان أنَّه يلزمنا على أنَّه شريعتُنا، لكن لا مطلقاً، بل إنْ قصَّه اللهُ تعالى علينا بلا إنكار، وإنكارُ رسولِه ﷺ كإنكاره عزَّ وجلَّ، وقد سمعتَ أنَّه عليه الصلاة والسلام لعن الذين يتَّخذون المساجدَ على القبور.

---

(١) برقم (٩٦٩).

(٢) ١/ ٤٧٢.

(٣) أخرجه مسلم (٦٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) جواب لقوله: لا يقال...

على أنَّ كونَ ما ذُكر من شرائع مَن قبلَنا ممنوع، وكيف يمكن أن يكونَ اتخاذُ المساجدِ على القبور من الشَّرائع المتقدِّمةِ مع ما سمعتَ من لعن اليهودِ والنَّصارى حيث اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد، والآيةُ ليست كالآيات التي ذكرنا آنفاً احتجاجَ الأئمَّة بها، وليس فيها أكثرُ من حكاية قولِ طائفةٍ من الناس وعزمِهم على فعل ذلك، وليست خارجةً مَخرجَ المدحِ لهم والحضِّ على التأسِّي بهم، فمتى لم يثبت أنَّ فيهم معصوماً، لا يدلُّ فعلُهم ـ فضلاً عن عزمهم ـ على مشروعيةِ ما كانوا بصدده. ومما يقوِّي قلَّةَ الوثوقِ بفعلهم القولُ بأنَّ المرادَ بهم الأمراءُ والسلاطينُ كما رُوي عن قتادة.

وعلى هذا لقائلٍ أن يقول: إنَّ الطائفةَ الأُولى كانوا مؤمنين، عالمين بعدم مشروعيةِ اتِّخاذ المساجدِ على القبور، فأشاروا بالبناءِ على باب الكهفِ وسدِّه وكفِّ كفِّ التعرُّضِ عن أصحابه، فلم يقبلِ الأمراءُ منهم، وغاظهم ذلك حتى أقسموا على اتِّخاذ المسجد، وكأنَّ الأوَّلين إنَّما لم يُشيروا بالدَّفن مع أنَّ الظاهرَ أنَّه هو المشروعُ إذ ذاك في الموتى كما أنَّه هو المشروعُ عندنا فيهم؛ لعدم تحقُّقهم موتَهم، ومَنَعهم من تحقيقه أنَّهم لم يقدروا ـ كما أخرج عبدُ الرزاق وابنُ المنذر عن وهب بنِ منبِّه(١) ـ على الدُّخول عليهم لِمَا أُفيض عليهم من الهَيبة؛ ولهذا قالوا: «ربهم أعلم بهم».

وإن أَبيتَ إلَّا حسنَ الظنِّ بالطائفة الثانية، فلكَ أن تقول: إنَّ اتِّخاذَهم المسجدَ عليهم ليس على طَرزِ اتِّخاذ المساجدِ على القبور المنهيِّ عنه الملعونِ فاعلُه، وإنَّما هو اتخاذُ مسجدٍ عندهم وقريباً من كهفهم، وقد جاء التصريحُ بالعنديَّة في رواية القصَّةِ عن السُّدِّي ووهب، ومثلُ هذا الاتخاذِ ليس محظوراً، إذ غايةُ ما يلزم على ذلك أنْ يكون نسبةُ المسجدِ إلى الكهف الذي هم فيه كنسبة المسجدِ النبويِّ إلى المرقد المعظَّم صلَّى اللهُ تعالى على مَن فيه وسلَّم، ويكون قولُهم: «لنتخذنَّ عليهم» على هذا لمشاكلة قولِ الطائفة: «ابنوا عليهم».

وإن شئتَ قلت: إنَّ ذلك الاتخاذَ كان على الكهف فوقَ الجبلِ الذي هو فيه، وفي خبر مجاهدٍ أنَّ الملكَ تركهم في كهفهم وبنى على كهفهم مسجداً، وهذا أقربُ لظاهر اللفظِ كما لا يخفَى.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٩٧-٣٩٩، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٣١٥.

وهذا كلُّه إنَّما يُحتاج إليه على القول بأنَّ أصحابَ الكهفِ ماتوا بعد الإعثار عليهم، وأمَّا على القول بأنَّهم ناموا كما ناموا أوَّلاً، فلا يُحتاج إليه على ما قيل.

وبالجملة لا ينبغي لمن له أدنَى رشدٍ أن يذهبَ إلى خلاف ما نطقت به الأخبارُ الصحيحةُ والآثارُ الصريحة، معوِّلاً على الاستدلال بهذه الآية؛ فإنَّ ذلك في الغَواية غاية، وفي قلَّة النُّهى نهاية. ولقد رأيتُ مَن يُبيح ما يفعله الجهلةُ في قبور الصالحين من إشرافها وبنائها بالجصِّ والآجُرّ، وتعليقِ القناديل عليها، والصلاةِ إليها، والطوافِ بها واستلامِها، والاجتماعِ عندها في أوقاتٍ مخصوصة، إلى غير ذلك، محتجًّا بهذه الآيةِ الكريمة، وبما جاءَ في بعض رواياتِ القصَّة من جعل الملكِ لهم في كلِّ سَنةٍ عيداً، وجعلِه إيَّاهم في توابيتَ من ساج، ومقيساً البعضَ على البعض، وكلُّ ذلك محادَّة لله تعالى ورسولِه ﷺ، وإبداعُ دِينٍ لم يأذنْ به اللهُ عزَّ وجلَّ.

ويكفيكَ في معرفة الحقِّ تتبُّعُ ما صنع أصحابُ رسولِ الله ﷺ في قبره عليه الصلاة والسلام، وهو أفضلُ قبرٍ على وجه الأرض، بل أفضلُ من العرش، والوقوفُ على أفعالهم في زيارتهم له والسلامِ عليه عليه الصلاة والسلام، فتتبَّع ذاك، وتأمَّل ما هنا وما هناك، واللهُ سبحانه وتعالى يتولَّى هُداك.

ثم اعلمْ أنَّهم اختلفوا في تعيين موضعِ المسجدِ والكهف، وقد مرَّت عليك بعضُ الأقوال. وفي «البحر»: إنَّ في الشام كهفاً فيه موتَى، ويزعم مجاوروه أنَّهم أصحابُ الكهف، وعليهم مسجدٌ وبناءٌ يسمَّى الرَّقيم، ومعهم كلبٌ رِمَّة، وبالأندلس في جهة غرناطةَ بقُرب قريةٍ تسمَّى لوشة كهفٌ فيه موتى ومعهم كلب رمَّة، وأكثرُهم قد انجرد لحمُه، وبعضُهم متماسك، وقد مضت القرونُ السالفةُ ولم نجد مَن عَلِمَ شأنَهم، ويزعم ناسٌ أنَّهم أصحابُ الكهف، قال ابنُ عطية(١): دخلتُ عليهم فرأيتهم سنةَ أربعٍ وخمسِ مئة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجدٌ وقريبٌ منهم بناءٌ روميٌّ يسمَّى الرقيم، كأنَّه قصرٌ مُخْلَق(٢)، قد بقي بعضُ جدرانِه، وهو في فلاةٍ من الأرض خَرِبة، وبأعلى حصنِ غرناطةَ ممَّا يلي القِبلةَ آثارُ مدينةٍ قديمةٍ يقال لها: مدينةُ دقيوس، وجدنا في آثارها غرائب. انتهى.

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١١، والكلام من البحر ٦/ ١٠٢.

(٢) أي: متهدِّم، وقد فسَّرتها العبارة الآتية بعدها، وفي اللغة: أَخْلَق الثوبُ: بلي، فهو مُخْلَق.

وحين كنَّا بالأندلس، كان الناسُ يزورون هذا الكهف، ويذكرون أنَّهم يَغلطون في عِدَّتهم إذا عدُّوهم، وأنَّ معهم كلباً، ويرحل الناسُ إلى لوشةَ لزيارتهم. وأمَّا ما ذكره من المدينةِ القديمة، فقد مررتُ عليها مِراراً لا تحصَى، وشاهدت فيها حجارةً كباراً، ويترجَّح كونُ ذلك بالأندلس؛ لكثرة دينِ النصارَى بها، حتى إنَّها هي بلادُ مملكتِهم العظمى، ولأنَّ الإخبارَ بما هو في أقصَى مكانٍ من أرض الحجازِ أغربُ وأَبعدُ أن يعرفَ[1] إلَّا بوحي من اللهِ تعالى. انتهى.

وما تقدَّم من خبر ابنِ عباسٍ ومعاويةَ يُضعِف ما ادَّعى ترجُّحَه؛ لأنَّ معاويةَ لم يدخل الأندلس، وتسميةُ الأندلسيين نصارى الأندلسِ بالرُّوم في نثرهم ونظمِهم ومخاطبةِ عامَّتهم ـ كما في «البحر»[2] ـ أيضاً لا يُجدي نفعاً، وقد عوَّل الكثيرُ على أنَّ ذلك في طرسوس، واللهُ تعالى أعلم.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضميرُ فيه وفي الفعلين بعدُ ـ كما اختاره ابنُ عطيةَ[3] وبعضُ المحقِّقين ـ لليهودِ المعاصرين له ﷺ، الخائضين في قصَّة أصحابِ الكهف، وأُيِّد بذلك قولُ الحسنِ وغيرِه: إنَّهم كانوا قبلَ بعثِ موسى عليه السلام؛ لدَلالته أنَّ لهم علماً في الجملة بأحوالهم، وهو يستلزم أن يكونَ لهم ذِكرٌ في التوراة. وفيه ما فيه.

والظاهرُ أنَّ هذا إخبارٌ بما لم يكن واقعاً بعد، كأنَّه قيل: سيقولون إذا قصصتَ قصةَ أصحابِ الكهف، أو: إذا سُئلوا عن عدَّتهم: هم ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: ثلاثةُ أشخاص ﴿رَّابِعُهُمْ﴾ أي: جاعلُهم أربعةً بانضمامه إليهم ﴿كَلْبُهُمْ﴾ فـ «ثلاثةٌ» خبرُ مبتدأ محذوف، و«رابعهم كلبهم» مبتدأٌ وخبر، ولا عملَ لاسم الفاعل؛ لأنَّه ماض، والجملةُ في موضع النعتِ لـ «ثلاثة»، والضميرانِ لها لا للمبتدأ، ومن ثَمَّ استُغني عنه بالحذف، وإلَّا كان الظاهرُ أن يقال: هم ثلاثةٌ وكلب، لكن لمَّا أُريد اختصاصُها بحكم بديعِ الشأن، عُدِل إلى ما ذُكر؛ لينبَّهَ بالنعت الدالِّ على التَّفضلة والتميزِ على أنَّ أُولئك الفتيةَ ليسوا مثلَ كلِّ ثلاثةٍ اصطحبوا، ومن ثَمَّ قرن اللهُ تعالى

---

(١) في الأصل: أن لا يعرف. والمثبت موافق لما في البحر.

(٢) ٦/ ١٠٢.

(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥٠٧.

في كتابه العزيزِ أخسَّ الحيواناتِ ببركة صحبتِهم مع زمرة المتبتِّلين إليه المعتكفين في جواره سبحانه، وكذا يقال فيما بعد.

وإلى هذا الإعرابِ ذهب أبو البقاءِ(١)، واختاره العلَّامة الطِّيبي، وهو الذي أَشار إلى ما أُشير إليه من النُّكتة، ونَظَمَ في سلكها مع الآيةِ حديثَ: «ما ظنُّك باثنين اللهُ تعالى ثالثُهما»(٢) فأَوجب ذلك أنْ شنَّع بعضُ أجلَّةِ الأفاضلِ عليه، حتى أَوصله إلى الكفر ونسبه إليه، ولَعمري لقد ظلمه، وخفي عليه مرادُه فلم يفهمْه.

ولم يجوِّز ابنُ الحاجبِ كونَ الجملةِ في موضع النَّعت، كما لم يجوِّز هو ولا غيرُه ـ كأبي البقاء(٣) ـ جَعْلَها حالاً، وجَعَلَها خبراً بعد خبرٍ للمبتدأ المحذوف، وسيأتي إنْ شاء اللهُ تعالى تمامُ الكلامِ في ذلك.

وتقديرُ تمييزِ العدد: أشخاص، أَوْلى من تقديره: رِجال؛ لأنَّه لا تصير الثلاثةُ الرِّجالِ أربعةً بكلبهم، لاختلاف الجِنسين. وعدمُ اشتراطِ اتِّحاد الجنسِ في مثل ذلك يأباه الاستعمالُ الشائع، مع كونِه خلافَ ما ذكره النُّحاة.

والقولُ بأنَّ الكلبَ بشرف صُحبتِهم أُلحق بالعقلاء تخيُّلٌ شِعريّ.

وقرأ ابنُ مُحَيصن: «ثلاثة» بإدغام الثاءِ في التاء(٤)، تقول: ابعث تلك. وحَسُن ذلك لقُرب مخرجِهما وكونِهما مهموسَين.

﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ عطفٌ على «سيقولون» والمضارعُ وإنْ كان مشتركاً بين الحالِ والاستقبال، إلَّا أنَّ المرادَ منه هنا الثاني بقرينةِ ما قبلَه؛ فلذا اكتُفي عن السِّين فيه، وإذا عطفتَه على مدخولِ السين، دخل معه في حكمها واختصَّ بالاستقبال بواسطتها، لكن قيل: إنَّ العطفَ على ذلك تكلُّف.

وقرأ شبلُ بن عبادٍ عن ابن كثير: «خَمَسةٌ» بفتح الميم، وهو كالسُّكون لغةٌ فيها، نظيرُ الفتحِ والسكونِ في العشرة.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٥١٠-٥١١.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) عن أنس ﷺ، وسلف ١٠/ ٣٢٨.

(٣) الإملاء ٣/ ٥١٠-٥١١.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١١٣.

وقرأ ابنُ محيصنٍ بكسر الخاءِ والميم، وبإدغام التاءِ في السِّين. وعنه أيضاً إدغامُ التنوينِ في السين بغير غنَّة(١).

﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي: رمياً بالخبر الغائبِ الخفيِّ عنهم الذي لا مُطْلِعَ لهم عليه، وإتياناً به أو ظنًّا بذلك، وعلى الأوَّل استُعير الرجمُ ـ وهو الرميُ بالحجارة التي لا تُصيب غرضاً ومرمًى ـ للتكلُّم من غير علمٍ وملاحظةٍ بعد تشبيهه به.

وفي «الكشف» أنَّه جعل الكلام الغائب عنهم عِلمُه بمنزلة الرِّجامِ المَرْميِّ به لا يُقصَد به مخاطَب معيَّن، ولو قَصد لأخطأ؛ لعدم بنائه على اليقين، كما أنَّ الرجَّام قلَّما يصيب المرجومَ على السَّداد، بخلاف السهمِ ونحوِه؛ ولهذا قالوا: قذفاً بالغيب ورجماً به، ولم يقولوا: رمياً به، وأمَّا الرميُ في السبِّ ونحوِه، فالنظرُ إلى تأثيره في عِرْض المرميِّ تأثيرَ السَّهمِ في الرمية. انتهى.

وعلى الثاني شبَّه ذِكرُ أمرٍ من غير علمٍ يقينيٍّ واطمئنانِ قلبٍ بقذف الحجرِ الذي لا فائدةَ في قذفه ولا يُصيب مرماه، ثم استُعير له ووضع الرجمُ موضعَ الظنِّ حتى صار حقيقةً عرفيةً فيه.

وفي «الكشف» أيضاً أنَّه لمَّا كثر استعمالُ قولِهم: رجماً بالظنّ، فهموا من المصدر معناه دونَ النظرِ إلى المتَعلَّق، فقالوا: رجماً بالغيب، أي: ظنًّا به، وعلى ذلك جاءَ قولُ زهير:

وما الحربُ إلَّا ما علمتمْ وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ(٢)

حيث أَراد المظنون.

وانتصابُ «رجماً» هنا ـ على الوجهَين ـ إمَّا على الحاليةِ من الضمير في الفعلين، أي: راجمين، أو على المصدريةِ منهما؛ فإنَّ الرجمَ والقولَ واحد. وفي «البحر» أنَّه ضمِّن القولُ معنى الرَّجم(٣). أو من محذوفٍ مستأنف، أو

---

(١) ذكر هذه القراءات صاحب البحر ٦/ ١١٤، وانظر القراءات الشاذة ص٧٩.

(٢) ديوان زهير ص١٨.

(٣) البحر ٦/ ١١٤.

واقعٍ موقعَ الحالِ من ضمير الفعلَين معاً، أي: يرجمون رجماً. وجوَّز أبو حيانَ[1] كونَه منصوباً على أنَّه مفعولٌ من أجله، أي: يقولون ذلك لرميهم بالغيب، أو لظنِّهم بذلك، أي: الحاملُ لهم على القولِ هو الرجمُ بالغيب. وهو كما ترى.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ المرادُ الاستقبالُ أيضاً، والكلامُ في عطفِه كالكلام في عطف سابقِه، والجملةُ الواقعةُ بعد العددِ في موضع الصفةِ له كالجملتين السابقتَين على ما نصَّ عليه الزمخشريّ[2]، ولم يَجعل الواوَ مانعةً عن ذلك، بل ذكر أنَّها الواوُ التي تدخل على الجملة الواقعةِ صفةً للنكرة، كما تدخل على الواقعةِ حالاً عن المعرفة في قولك: جاءني رجلٌ ومعه آخر، و: مررت بزيدٍ وفي يده سيف، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] وفائدتُها توكيدُ لصوقِ الصفةِ بالموصوف، والدلالةُ على أنَّ اتِّصافَه بها أمرٌ ثابتٌ مستقرّ، وهي التي آذَنَتْ هنا بأنَّ قائلي ما ذُكر قالوه عن ثباتِ علمٍ وطمأنينةِ نفس، ولم يرجموا بالظنِّ كما رَجَمَ غيرُهم، فهو الحقُّ دون القولَين الأوَّلين.

والدليلُ على ذلك أنَّه سبحانه وتعالى أَتبعهما قولَه تبارك اسمُه: «رجماً بالغيب» وأَتبع هذا قولَه عزَّ وجلّ: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي: أقوى وأقدمُ في العلم بها ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ﴾ أي: ما يعلم عدَّتهم، على ما ينساق إلى الذِّهن نظراً إلى المقام ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وعلى إيذان الواوِ بما ذُكر يدلُّ كلامُ ابن عباسٍ رضي الله عنهما، فقد رُوي أنَّه قال: حين وقعت الواوُ انقطعت العدَّة، أي: لم يبقَ بعدها عِدةُ عادٍّ يُلتفت إليها، وثبت أنَّهم سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم على القطع والبَتات.

وقد نصَّ عطاءٌ على أنَّ هذا القليلَ من أهل الكتاب، وقيل: من البشر مطلقاً، وهو الذي يقتضيه ما أَخرجه الطبرانيُّ في «الأوسط» بسندٍ صحيحٍ عن ابن عباسٍ أنَّه

---

(١) في البحر ٦/ ١١٤.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٧٨.

قال: أنا من أولئك القليل. وأَخرجه عنه غيرُ واحدٍ من طرقٍ شتَّى[١]، وأَخرج نحوَه ابنُ أبي حاتمٍ عن ابن مسعود[٢].

وزَعْمُ بعضِهم أنَّ المرادَ: إلَّا قليلٌ من الملائكة عليهم السلام، لا يرتضيه أحدٌ من البشر، والمثبتُ في هذا الاستثناءِ هو العالِمِية، وذلك لا يضرُّ في كون الأعلميةِ له عزَّ وجلَّ.

هذا وإلى كون الواوِ كما ذَكَرَ الزمخشريُّ ذهب ابنُ المنير[٣]، وقال بعد نقلِه: وهو الصَّواب، لا كالقول بأنَّها واوُ الثمانية، فإنَّ ذلك أمرٌ لا يستقرُّ لمثبِته قَدَم، وردَّ ما ذكروه من ذلك، وسيأتي إن شاء اللهُ تعالى في موضعه التنبيهُ عليه.

وقال أبو البقاءِ[٤]: الجملةُ إذا وقعت صفةً للنَّكرة جاز أن يدخلَها الواو، وهذا هو الصحيحُ في إدخال الواوِ في «ثامنهم».

واعتَرضَ على ذلك غيرُ واحد، فقال أبو حيَّان[٥]: كونُ الواوِ تدخل على الجملة الواقعةِ صفةً دالَّةً على لصوق الصفةِ بالموصوف وعلى ثبوتِ اتِّصاله بها شيءٌ لا يعرفه النَّحويون، بل قرَّروا أنَّه لا تعطف الصفةُ التي ليست بجملةٍ على صفةٍ أخرى إلَّا إذا اختلفت المعاني، حتى يكونَ العطفُ دالًّا على المغايرة، وأمَّا إذا لم تختلف، فلا يجوزُ العطف، هذا في الأَسماء المفرَدة، وأما الجملُ التي تقع صفة، فهي أَبعدُ من أن يجوزَ ذلك فيها.

وقد ردُّوا على مَن ذهب إلى أنَّ قولَ سيبويه: وأمَّا ما جاء بالمعنى وليس باسمٍ ولا فعل[٦]، إلى أنَّ: وليس باسم.. إلخ، صفةٌ لمعنًى، وأنَّ الواوَ دخلت في الجملة = بأنَّ ذلك ليس من كلامِ العَرب، وليس من كلامِهم: مررتُ برجلٍ ويأكل،

---

(١) المعجم الأوسط (٦١١٣) وتفسير عبد الرزاق ١/ ٤٠٠، وفضائل الصحابة لأحمد (١٥٥٧)، والطبري ١٥/ ٢١٩.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢١٧.

(٣) في الانتصاف ٢/ ٤٧٨.

(٤) في الإملاء ٣/ ٥١١.

(٥) في البحر ٦/ ١١٤-١١٥.

(٦) الكتاب ١/ ١٢.

على تقديرِ الصفة، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤] فالجملةُ فيه حاليَّة، ويكفي ردًّا لقول الزمخشريِّ أنَّا لا نعلم أحداً من علماء النحوِ ذهب إليه. اهـ.

وقال صاحب «الفرائد»: دخولُ الواوِ بين الصفةِ والموصوفِ غيرُ مستقيم؛ لاتِّحاد الصفةِ والموصوفِ ذاتاً وحكماً، وتأكيدُ اللصوقِ يقتضي الاثنينية، مع أنَّا نقول: لا نسلِّم أنَّ الواوَ تفيد التأكيدَ وشدَّةَ اللُّصوق، غايةُ ما في الباب أنَّها تفيد الجمع، والجمعُ ينبئُ عن الاثنينية، واجتماعُ الصفةِ والموصوفِ ينبئُ عن الاتِّحاد بالنظر إلى الذَّات.

وقد ذكر صاحبُ «المفتاح»(١) أنَّ قولَ مَن قال: إنَّ الواوَ في قوله تعالى: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ داخلةٌ بين الصفةِ والموصوفِ، سهوٌ منه(٢)، وإنَّما هي واوُ الحال، وذو الحالِ «قرية» وهي موصوفة، أي: وما أهلكنا قريةً من القرى إلَّا ولها... إلخ.

وأمَّا: جاءني رجلٌ ومعه آخَر، ففيه وجهان: أحدُهما: أن يكونَ جملتين متعاطفتين، وثانيهما: أن يكونَ: آخَرُ، معطوفاً على رجل، أي: جاءني رجلٌ ورجلٌ آخَرُ معه، وعدل عن: جاءَني رجلان؛ ليفهمَ أنَّهما جاءا مصاحبَين. وأمَّا الواوُ في: مررتُ بزيدٍ وفي يده سيف، فإنَّما جاز دخولُها بين الحالِ وذِيْها؛ لكون الحالِ في حكم جملة، بخلاف الصفةِ بالنِّسبة إلى الموصوف، فإنَّ: جاء زيدٌ راكباً، في حكم: جاءَ وهو راكب، بخلاف: جاءَ زيدٌ الراكب، فافهَمْه.

سلَّمنا أنَّها داخلةٌ بين الصفةِ والموصوفِ لتأكيد اللُّصوق، لكن الدَّلالةَ على أنَّ اتصافَه بها أمرٌ ثابتٌ مستقرٌّ غيرُ مسلَّم، وأين الدليلُ عليه؟ وكونُ الواوِ هي التي آذنت بأنَّ القولَ المذكورَ عن ثباتِ علم وطُمأنينة نفسٍ في غاية البعد، والقولُ بأنَّ الإتْباع يدلُّ على ذلك، إنْ أُريد منه أنَّه يدلُّ على إيذان الواوِ بما ذكر، فبطلانُه

---

(١) ص٢٥٠-٢٥١.

(٢) جاء في هامش الأصل: الحكم بأنه سهو سهو؛ فقد تكرر من الزمخشري مع بسط وتفصيل، فتدبر ما قلنا ولا تعجل. اهـ منه.

ظاهر، وإنْ أُريد منه أنَّه يدلُّ على صدق قائلي القولِ الأخيرِ وعدمِ صدقِ قائلي القولَين الأوَّلين، فمسلَّمٌ أنَّ إتباع القولَين الأوَّلين بـ «رجماً بالغيب» يدلُّ على عدم الصِّدق دلالةً لا شبهةَ فيها، لكن لا نسلِّم أنَّ عدمَ إتباع القولِ الأخيرِ به وإتباعَه بما أُتبع يدلُّ على ذلك، وإن سلَّمنا فهو يدلُّ دلالةً ضعيفة، ولا نسلِّم أيضاً دلالةَ كلام ابن عباسٍ على ما ذكر، والظاهر أنَّه عَلِمَ أنَّ القول الأخيرَ صادقٌ من الصادق المصدوقِ ﷺ، وأنَّ مرادَه من قوله: حين وقعت الواوُ انقطعت العِدَّة، أنَّ الذي هو صدقٌ ما وقعت الواوُ فيه وانقطعت العِدَّة به، فالحقُّ أنَّ الواوَ واو عطف، والجملةُ بعدَه معطوفةٌ على الجملة قبلَه.

وانتصر العلَّامة الطِّيبي للزمخشريّ، وأَجاب عمَّا اعتُرض به عليه فقال: اِعلَم أنَّه لا بدَّ قبل الشُّروع في الجواب من تبيين المقصودِ تحريراً للبحث، فالواوُ هنا ليست على الحقيقة، ولا يُعتبَر في المجاز النقلُ الخصوصيّ، بل المعتبرُ فيه اعتبارُ نوعِ العلاقة، وذكروا أنَّ المجازَ في عُرف البلاغةِ أَوْلى من الحقيقة وأَبلغ، وأنَّ مدارَ علمِ البيان الذوقُ السليمُ الذي هو أنفعُ من ذوقِ التعليم، ولا يتوقَّف على التوقيف، وليس ذلك كعلم النَّحو، والمجازُ لا يختصُّ بالاسم والفعل، بل قد يقع في الحروف.

وقد نقل شارحُ «اللباب» عن سيبويه أنَّ الواوَ في قولهم: بِعت الشاةَ ودرهماً، بمعنى الباء، وتحقيقُه أنَّ الواوَ للجمع والباءَ للإلصاق، وهما من وادٍ واحد، فسُلك به طريقُ الاستعارة، وكم وكم. وإذا عُلم ذلك فلْيُعلَم أنَّ معنى قولِه: فائدتُها توكيدُ لصوقِ الصفةِ بالموصوف، أنَّ للصفة نوعَ اتِّصالٍ بالموصوف، فإذا أُريد توكيدُ اللُّصوق وسِّط بينهما الواو؛ ليؤذنَ أنَّ هذه الصفةَ غيرُ منفكَّة عن الموصوف، وإليه الإشارةُ فيما بعدُ من كلامه، وأنَّ الحالَ في الحقيقة صفةٌ لا فرقَ إلَّا بالاعتبار، أَلَا ترى أنَّ صفةَ النكرةِ إذا تقدَّمت عليها وهي بعينها تصير حالاً، ولو لم يكونا متَّحدين لم يصحَّ ذلك.

ثم إنَّ قولَك: جاءني رجلٌ ومعه آخَر، وقولَك: مررتُ بزيدٍ ومعه آخر، لمَّا كانا سواءً في الصورة، اللهمَّ إلَّا في اعتبار المعرفةِ والنكرة، كان حكمُهما سواءً في الواو، وهو مرادُ الزمخشريِّ من إيراد المثالَين، لا كما فهم بعضُهم.

وأما قولُ الفرائديِّ[1] في تعليل امتناعِ دخولِ الواو بين الصفةِ والموصوف: لاتِّحادهما ذاتاً وحكماً، وهو منافٍ لما يقتضيه دخولُ الواوِ من المغايرة، فمبنيٌّ على أنَّ الواوَ عاطفة؛ لأنَّها هي التي تقتضي المغايرةَ كما قال السكاكي، وقد بيَّن وجهَ مجازِه لمجرَّد الربط.

وأما قولُه في جاءني رجلٌ ومعه آخَر: إنَّه جملتان، فهو كما تراه. وأمَّا قوله: إنَّ: جاء زيدٌ راكباً، في حكم: جاء زيدٌ وهو راكب، فمن المعكوس؛ فإنَّ الأصلَ في الحال الإفراد، كما يدلُّ عليه كلامُ ابنِ الحاجب وغيرِه من الأعيان. وأمَّا تسليمُه الدخولَ لتأكيد اللُّصوقِ ومنه الدَّلالةُ على أنَّ الاتِّصافَ أمرٌ ثابتٌ مستقرّ، فمن العجائب، فكيف يسلِّم التأكيدُ ولا يسلِّم فائدتَه؟

ويَدفع الاعتراضاتِ الباقية أنَّ ما استند إليه الزمخشريُّ ليس من بابِ الأدلَّة اليقينية، بل هي من باب الأَمارات، وتكفي في هذه المقامات.

وقال ابنُ الحاجب: لا يجوز أن يكونَ «رابعهم كلبهم» و«سادسهم كلبهم» صفةً لما قبل، ولا حالاً؛ لعدم العاملِ مع عدمِ الواو، ويجوز أن يكونَ كلٌّ منهما خبراً بعد خبرٍ للمبتدأ المحذوف، والأَخبارُ إذا تعدَّدت جاز في الثاني منها الاقترانُ بالواو وعدمُه، وهذا إنْ سلِّم أنَّ المعنى في الجمل واحد، أمَّا إذا قيل: إنَّ قولَه تعالى: «وثامنهم كلبهم» استئنافٌ منه سبحانه لا حكايةٌ عنهم، فيفهم أنَّ القائلين: سبعةٌ، أَصابوا، ولا يلزم أن يكونَ خبراً بعدَ خبر، ويقوِّيه ذِكر «رجماً بالغيب» قبلَ الثالثة، فدلَّ على أنَّها مخالفةٌ لما قبلَها في الرَّجم بالغيب، فتكون صدقاً البتَّة، إلَّا أنَّ هذا الوجهَ يَضعُف من حيث إنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فلو جُعل «وثامنهم كلبهم» تصديقاً منه تعالى لمن قال: سبعة، لَوجب أن يكونَ العالِمُ بذلك كثيراً، فإن أخبارَ اللهِ تعالى صدق، فدلَّ على أنَّه لم يَصْدُقْ منهم أحد، وإذا كان كذلك، وجب أن تكونَ الجملةُ كلُّها متساويةً في المعنى، وقد تعذَّر أن تكونَ الأخيرةُ وصفاً، فوجب أن يكونَ الجميعُ كذلك. انتهى.

ويفهم أنَّ الواوَ هي المانعةُ من الوصفية، والداءُ هو الداء، فالدواءُ هو الدواء.

---

(١) يعني صاحب الفرائد، وقد سلف قوله قريباً.

وقولهُ: وإذا كان كذلك وجب... إلخ، كلامٌ بمراحلَ عن مقتضَى البلاغة؛ لأنَّ في كلِّ اختلافٍ فوائد، والبليغُ مَن ينظر إلى تلك الفوائد، لا مَن يردُّه إلى التطويل والحشوِ في الكلام، وأيضاً لا بدَّ من قولٍ صادقٍ من الأقوال الثلاثةِ لينطبقَ قولُه تعالى: «ما يعلمهم إلا قليل» مع قولِه سبحانه: «رجماً بالغيب» لأنَّه قد اندفع به القولان الأوَّلان، فيكون الصادقُ هذا. وتعقيبُه به أمارةٌ على صِدقه، وذلك مفقودٌ على ما ذهب إليه السائل، ومع هذا أين طلاوةُ الكلام، وأين اللطفُ الذي تستلذُّه الأفهام؟

وما ذكره من لزوم كونِ العالِم بذلك كثيراً على تقديرِ كون «وثامنهم كلبهم» استئنافاً منه تعالى لأنَّ أخبارَ اللهِ تعالى صِدق = لا يخلو عن بحث؛ لأنَّ المصدِّق حينئذٍ هم المسلمون، وهم قليلٌ بالنسبة إلى غيرهم، ولا اختصاصَ للقليل بما دونَ العشرةِ، وإنْ أخرج ابنُ أبي حاتمٍ عن وهب بنِ منبِّه أنَّه قال: كلُّ قليلٍ في القرآن فهو دونَ العشرة. فإنَّ ذلك في حيِّز المنع، ودون إثباته التعبُ الكثير، على أنَّه يمكن أنْ يقال: المرادُ قِلَّة العالِمين بذلك قبل تصديقِه تعالى، ولا يَبْعد أن يكونوا قليلين في حدِّ أنفسهم، من المسلمين كانوا أو من أهل الكتابِ أو منهما، نَعَم القولُ بالاستئناف ممَّا لا ينبغي أن يلتفتَ إليه وإنْ ذهب إليه بعضُ المفسِّرين.

هذا ووافق في الانتصار جماعةٌ، منهم سيِّد المحقِّقين وسندُ المدقِّقين(١) فقال: الظاهرُ أنَّ قولَه تعالى: «وثامنهم كلبهم» صفةٌ لسبعةٍ كما يشهد به أخواه، وأيضاً ليس «سبعةٌ» في حكم الموصوفةِ كما قيل في «قرية» في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الحجر: ٤] حتى يصحَّ الحملُ على الحال اتِّفاقاً، ولا شكَّ أنَّ معنى الجمعِ يناسب معنى اللُّصوق، وبابُ المجازِ مفتوح، فلْتُحمَل هذه الواوُ عليه تأكيداً لِلُصوق الصفةِ بالموصوف، فتكونُ هذه أيضاً فرعاً للعاطفة كالتي بمعنى مع، والحاليَّة، والاعتراضية. وأُيِّد ذلك أيضاً بما رُوي عن ابنِ عباس.

وأُورد على تعليل منعِه للحاليَّة بعدم كونِ النَّكرة في حكم الموصوفةِ أنَّه لا ينحصر مسوِّغُ مجيءِ الحالِ من النَّكرة في كونها موصوفةً أو في حكم

(١) هو الشريف علي بن محمد الجرجاني.

الموصوفة، كما في الآية التي ذكرها، فقد ذَكَرَ في «المغني»[1] أنَّ من المسوِّغات اقترانَ الجملةِ الحاليةِ بالواو، فلْيحفظ.

وقد وافق ابنُ مالكٍ الرادِّين له، فقال في «شرح التسهيل»: ما ذهب إليه صاحبُ «الكشَّاف» من توسُّط الواوِ بين الصفةِ والموصوفِ فاسدٌ من خمسة أوجه:

أَحدُها: أنَّه قاسَ في ذلك الصفةَ على الحال، وبينهما فروقٌ كثيرة؛ لجواز تقدُّمِ الحالِ على صاحبها، وجوازِ تخالُفهما في الإعراب والتعريفِ والتنكير، وجواز إغناء الواوِ عن الضمير في الجملة الحاليَّة، وامتناعِ ذلك في الواقعة نعتاً، فكما ثبت مخالفةُ الحالِ الصفةَ في هذه الأشياء، ثبتت مخالفتُها إيَّاها بمقارنة الواوِ الجملةَ الحالية، وامتناعُ ذلك في الجملة النعتيَّة.

الثاني: أنَّ مذهبَه في هذه المسألةِ لا يُعرَف بين البصريِّين والكوفيين، فوجب ألَّا يلتفتَ إليه.

الثالث: أنه معلَّل بما لا يناسب، وذلك أنَّ الواوَ تدلُّ على الجمع بين ما قبلَها وما بعدَها، وذلك مستلزمٌ لتغايرهما، وهو ضدٌّ لِمَا يراد من التوكيد، فلا يصحُّ أن يقالَ لعاطفٍ: مؤكِّد.

الرابع: أنَّ الواوَ فَصَلت الأوَّلَ من الثاني، ولولاها لَتلاصقا، فكيف يقال: إنَّها أكَّدت لصوقَهما؟!

الخامس: أنَّ الواوَ لو صَلَحت لتأكيد لصوقِ الموصوفِ بالصفة، لَكان أَوْلى المواضعِ بها موضعاً لا يصلُح للحال؛ بخلاف جملةٍ تصلحُ في موضعها الحال. اهـ.

ويُعلَم ما فيه بالتأمُّل الصادقِ فيما تقدَّم. والعجبُ ممَّا ذكره في الوجهِ الرابع، فهو توهُّم يستغرَب من الأطفال، فضلاً عن فحول الرِّجال، فتأمَّل ذاك، واللهُ تعالى يتولَّى هداك.

وقال بعضُهم: إنَّ ضمائرَ الأفعالِ الثلاثِ للخائضين في قصَّة أصحابِ الكهفِ

---

(١) ص٤٧٧-٤٧٨.

في عهد النبيِّ ﷺ من أهلِ الكتابِ والمسلمين، لا على وجه إسناد كلٍّ من الأفعال إلى كلِّهم، بل إلى بعضهم، فالقولُ الأوَّل لليهود على ما أَخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عن السُّدِّي. وقيل: لسيِّدٍ من ساداتِ نصارى العربِ النَّجرانيين، وكان يعقوبيًّا، وكان قد وفد مع جماعةٍ منهم إلى رسول الله ﷺ، فجرى ذِكرُ أصحابِ الكهف، فذكر من عدَّتهم ما قصَّه اللهُ تعالى شأنُه، ولعل التعبيرَ بضمير الجمعِ لموافقة مَن معه إيَّاه في ذلك.

والقولُ الثاني ـ على ما رُوي عن السُّدِّي أيضاً ـ للنصارى، ولم يقيِّدهم. وقيل: العاقبُ ومَن معه من نصارى نَجران، وكانوا وافدين أيضاً، وكان نسطوريًّا[١].

والقولُ الثالث: لبعض المسلمين. وكأنَّه عزَّ اسمُه لمَّا حكى الأَقوالَ قبل أن تقال[٢]، لقَّنهم الحقَّ وأرشدهم إليه بعدم نظمِ ذلك القولِ في سلك الرَّجم بالغيب كما فَعَلَ بأَخويه، وتغييرِ سَبكه بإقحام الواو، وتعقيبِه بما عقَّبه به على ما سمعتَ من كونِ ذلك أمارةً على الحقِّية، والمرادُ بالقليل ـ على هذا ـ مَن وفَّقه الله تعالى للاسترشاد بهذه الأمارات، كابن عباسٍ رضي الله عنهما، وقد مرَّ غيرَ بعيدٍ أنَّه عدَّ من ذلك وذكر ما ظاهرُه الاستشهادُ بالواو.

وقيل: إنَّهم علموا تلك العدَّةَ من وحي غير ما ذكر، بأنْ يكونَ قد أَخبرهم ﷺ بذلك عن إعلام اللهِ تعالى إيَّاه به.

وتُعقِّب بأنَّه لو كان كذلك لَمَا خفي على الحَبر، ولَما احتاج إلى الاستشهاد، ولكان المسلمون أُسوةً له في العلم بذلك.

وأُجيب بأنَّه لا مانعَ من وقوف الحبرِ على الخبر مع جماعةٍ قليلةٍ من المسلمين، ولا يَلزم من إخباره ﷺ بشيءٍ وقوفُ جميعِ الصحابةِ عليه، فكم مِن خبرٍ تضمَّن حكماً شرعيًّا تفرَّد بروايته عنه عليه الصلاة والسلام واحدٌ منهم رضي الله عنهم،

---

(١) جاء في هامش الأصل: نسبة إلى نسطور كان زمن الفترة كما في الكامل، وليس هو الذي في زمن المأمون كما توهم ليحتاج إلى التكلف في الجواب كما في الكشف. اهـ منه.
(٢) بعدها في (م): على ذلك.

فما ظنُّك بما هو من باب القصصِ التي لم تتضمَّن ذلك؟ واستشهادُه ﷺ نصًّا لا ينافي الوقوف، بل قد يجامعه بناءً على ما وقفتَ عليه آنفاً، فهو ليس نصًّا في عدم الوقوف.

وقد أُورد على القول بأنَّ منشأَ العلمِ التلقُّنُ من هذا الوحي لما تضمَّن من الأمارات أنَّه يلزمُ من ذلك كونُ الصحابةِ السامعين للآية أسوةً لابن عباسٍ في العلم نحو ما ذكره المتعقِّب، لأنَّهم(١) العربُ الذين أُرضعوا ثديَ البلاغةِ في مهد الفصاحة، وأَشرقت على آفاقِ قلوبهم وصفحاتِ أذهانهم مِن مطالع إيمانهم الاستوائيةِ أنوارُ النبوَّة المفاضةِ من شمس الحضرةِ الأحدية، وقلَّما تنزل آيةٌ ولا تُلقي عصاها في رباع أسماعِهم؛ لوفور رغبتِهم في الاستماع، ومزيدِ حرصِه ﷺ على إسماعهم، ومتى فَهِمَ الزمخشريُّ وأضرابُه من هذه الآيةِ ما فهموا، فلِمَ لمْ يفهم أصحابُه عليه الصلاة والسلام ذلك وهم هم؟ أَيخطر ببالِ من له أدنَى عقلٍ أنَّ الأَعجامَ شعروا وأَكثرَ أولئك العربِ لم يشعروا؟ أم كيف يتصوَّر تجلِّي أسرارِ بلاغةِ القرآن لمن لا يعرف إعجازَه إلَّا بعد المشقَّةِ وتُحجب عمَّن يعرف ذلك بمجرَّد السَّليقة؟

ولا يكاد يُدفع هذا الإيرادُ إلَّا بالتزام أنَّ السامعين لهذه الآيةِ قليلون؛ لأنَّها نزلت في مكَّةَ وفي المسلمين هناك قِلَّة، مع عدم تيسُّر الاجتماعِ لهم برسول اللهِ ﷺ - وكذا اجتماعُ بعضِهم مع بعض - نحو تيسُّر ذلك في المدينة، أو بالتزام القولِ بأنَّ الملتفتين إلى ما فيها من الشَّواهد كانوا قليلين. وهذا كما ترى.

وقيل: إنَّ الضمائرَ لنصارى نَجران، تناظروا مع رسول اللهِ ﷺ في عدد أَصحابِ الكهف، فقالت المَلكانيةُ الجملةَ الأولى، واليعقوبيةُ الجملةَ الثانية، والنّسطوريةُ الجملةَ الثالثة. ويُروَى هذا عن ابن عباسٍ ﷺ، وهو أَوْلى من القول السابقِ المحكيِّ عن بعضهم.

وقال الماورديُّ واستظهره أبو حيَّان(٢): إنَّ الضمائرَ للمتنازعين في حديثهم قبلَ ظهورِهم عليهم، فيكون قد أَخبر سبحانه نبيَّه ﷺ بما كان من اختلاف قومِهم في عددهم.

---

(١) قبلها في (م): بل.

(٢) في البحر ٦/ ١١٣، وكلام الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٢٩٧.

ولا يخفَى أنَّه يُبعد هذا القولَ حكايةُ تلك الأقوالِ بصيغة الاستقبالِ مع تعقيبِها بقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ وقد تقدَّم روايةُ أنَّ القومَ حين أَتَوا بابَ الكهفِ مع المبعوثِ لاشتراء الطعام، قال: دعوني أَدخلْ إلى أصحابي قبلَكم، فدخل وعُمِّيَ على القوم أثرُهم، وفي رواية أنَّهم كلَّما أراد أن يدخلَ عليهم أحدٌ منهم رعبوا، فتُركوا وبُني عليهم مسجد.

فلو قيل على هذا: إنَّ الضمائرَ للمعثَرين، اختلفوا في عددهم لعدم تمكُّنهم من رؤيتهم والاجتماعِ معهم، فقالت كلُّ طائفةٍ منهم ما قالت، ولعلَّ الطائفةَ الأخيرةَ استخبرت الفتى فأَخبرها بتلك العدَّة، فصدَّقته وأَخذت كلامَه بالقَبول، وتأيَّد بما عندهم من أَخبار أسلافِهم، فقالت ذلك عن يقين، ورجمت الطائفتان المتقدِّمتان لعدم ثبوتِ ما يفيد العلمَ عندهما، ولعلَّهما كانتا كافرتين = لم يَبْعُد[1] بعدَ ما نُقل عن الماورديّ، فتدبَّر.

ومن غريبِ ما قيل: إنَّ الضميرَ في «يقولون سبعة» لله عزَّ وجلّ، والجمعَ للتعظيم.

وأسماؤهم على ما صحَّ عن ابن عبَّاس: مكسلمينا، ويمليخا، ومرطولس، وثبيونس، ودردونس، وكفاشيطيطوس، ومنطنواسيس وهو الرَّاعي، والكلبُ اسمُه قطمير. ورُوي عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّ أَسماءهم: يمليخا، ومكشلينيا، ومثلينيا، وهؤلاء أصحابُ يمينِ الملك، ومرنوش، ودبرنوش، وشاذنوش، وهؤلاء أصحابُ يسارِه، وكان يستشير السِّتَّة، والسابعُ الراعي، ولم يُذكَر في هذه الروايةِ اسمُه، وذكر فيها أنَّ اسمَ كلبِهم قطمير.

وفي صحَّة نسبةِ هذه الرِّوايةِ لعليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه مقال، وذكر العلَّامة السيوطيُّ في حواشي البيضاويِّ أنَّ الطبرانيَّ روى ذلك عن ابن عباسٍ في «معجَمه الأَوسط» بإسنادٍ صحيح، والذي في «الدُّر المنثور»[2] روايةُ الطبرانيِّ في «الأَوسط» بإسنادٍ صحيحٍ ما قدَّمناه عن ابن عباس، واللهُ تعالى أعلم.

---

(١) جواب لقوله: فلو قيل...

(٢) ٢١٧/٤ وينظر ما سلف ص٢٦٩-٢٧٠ من هذا الجزء.

وقد سُمُّوا في بعض الرواياتِ بغير هذه الأسماء، وذكر الحافظُ ابنُ حجرٍ في شرح البخاريِّ[1] أنَّ في النُّطق بأسمائهم اختلافاً كثيراً، ولا يقع الوثوقُ من ضبطها. وفي «البحر»[2] أنَّ أسماءَ أصحابِ الكهفِ أعجميةٌ لا تنضبط بشكلٍ ولا نَقط، والسندُ في معرفتها ضعيف.

وذكروا لها خواصًّا، فقال النيسابوريُّ[3] عن ابن عباس: إنَّ أسماءَ أصحابِ الكهفِ تصلح للطَّلب، والهرب، وإطفاءِ الحريق، تكتب في خِرقةٍ ويُرمَى بها في وسَط النار، ولبكاء الطِّفل، تكتب وتوضع تحتَ رأسهِ في المهد، وللحرث، تكتب على القِرطاس ويرفع على خشبٍ منصوبٍ في وسَط الزَّرع، وللضَّرَبان[4]، وللحمَّى المُثلِثة[5]، والصُّداع، والغنى، والجاه، والدُّخولِ على السَّلاطين، تُشدُّ على الفَخِذ اليمنى، ولعُسر الولادة، تُشدُّ على الفخذ الأيسر، ولحفظ المال، والركوبِ في البحر، والنَّجاةِ من القتل. انتهى.

ولا يصحُّ ذلك عن ابن عباس ولا عن غيره من السَّلف الصالح، ولعله شيءٌ افتراه المتزيُّون بزيِّ المشايخ لأخذ الدَّراهمِ من النساء وسَخَفة العقول، وأنا أَعدُّ هذا من خواصِّ أسمائهم؛ فإنَّه صحيحٌ مجرَّب.

وقرئ: «وثامنُهم كالِبُهم»[6] أي: صاحبُ كلبِهم. واستدلَّ بعضُهم بهذه القراءة على أنَّهم ثمانيةُ رجال، وأوَّل القراءةَ المتواترةَ بأنَّها على حذف مضاف، أي: وصاحبُ كلبِهم. وهو كما ترى.

﴿فَلَا تُمَارِ﴾ الفاءُ لتفريع النَّهي على ما قبلَه، والمماراةُ ـ على ما قال الرَّاغب[7] ـ المحاجَّة فيما فيه مِرية، أي: تردُّد، وأصلُ ذلك مِن: مريتُ الناقة، إذا

---

(١) ٦/ ٥٠٥.
(٢) ٦/ ١٠١.
(٣) في غرائب القرآن ١٥/ ١١٠.
(٤) الضربان: مَوَجان العروق بالألم، وضَرَبَ العِرْقُ: هاج دمُه واختلج. ينظر شرح ديوان الحماسة ٤/ ١٨٧٧، والمعجم الوسيط (ضرب).
(٥) أي: تعتاد المريض في اليوم الثالث.
(٦) البحر المحيط ٦/ ١١٤.
(٧) في المفردات (مري).

مسحتَ ضَرعَها للحلب. وفسَّرها غيرُ واحدٍ بالمجادلة، وهي المحاجَّة مطلقاً، أي: إذ قد وقفتَ على أنَّ في الخائضين مخطئاً ومصيباً فلا تجادِلْهم ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في شأن الفتيةِ ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ غيرَ متعمِّقٍ فيه، وذلك بالاقتصار على ما تعرَّض له الوحيُ المبينُ من غير تجهيلٍ لجميعهم؛ فإنَّ فيهم مصيباً وإن قلّ، ولا تفضيحٍ وتعنيفٍ للجاهل منهم؛ فإنَّ ذلك مما يُخلُّ بمكارم الأخلاقِ التي بُعثتَ لإتمامها.

وقال ابنُ زيد: المراءُ الظاهر: القولُ لهم: ليس كما تعلمون. وحكى الماورديُّ[1] أنَّ المراءَ الظاهرَ ما كان بحجَّةٍ ظاهرة. وقال ابن الأنباريّ: هو جدالُ العالم المتيقِّن بحقيقة الخبر. وقال ابنُ بحر: هو ما يَشهده الناس. وقال التِّبريزي: المرادُ من الظاهر: الذاهبُ بحجَّة الخصم، يقال: ظهر، إذا ذهب، وأنشد:

وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[2]

أي: ذاهب.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ ولا تطلب الفُتيا ﴿فِيهِم﴾ في شأنهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ من الخائضين ﴿أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ فإنَّ فيما أفتيناك غنًى عن الاستفتاء، فيحمل على التفتِّي المنافي لمكارم الأخلاق؛ إذ الحالُ لا تقتضي تطييبَ الخواطرِ أو نحوَ ذلك.

وقيل: المعنى: لا ترجِعْ إليهم في شأن الفتية، ولا تصدِّق القولَ الثالثَ من حيث صدورُه منهم، بل من حيث التلقِّي من الوحي.

وقيل: المعنى: إذ قد عرفتَ جهلَ القولَين، فلا تجادلْهم في شأنهم إلَّا جدالاً ظاهراً، قَدْرَ ما تعرَّضَ له الوحيُ من وصفهم بالرَّجم بالغيب، ولا تستفتِ فيهم من أولئك الطائفتَين أحداً؛ لاستغنائك بما أُوتيت، مع أنَّهم لا علمَ لهم بذلك. وهو خلافُ الظاهرِ كما لا يخفى.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ أي: لأَجل شيءٍ تعزمُ عليه ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشيءَ ﴿غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: فيما يُستقبل من الزَّمان مطلقاً، وهو تأكيدٌ لما يدلُّ عليه اسمُ الفاعل، بناءً على أنَّه حقيقةٌ في الاستقبال، ويدخل فيه الغدُ بمعنى اليومِ الذي يلي

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٢٩٨.

(٢) شطر بيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في شرح أشعار الهذليين ١/ ٧٠، وسلف ١٣/ ١٦٥.

يومَك ـ وهو المتبادِر ـ دخولاً أوَّليًّا؛ فإنَّ الآيةَ نزلت حين سألت قريشٌ النبيَّ ﷺ عن الرُّوح وأصحابِ الكهف وذي القَرنين، فقال عليه الصلاة والسلام: غداً أُخبرُكم، ولم يستثنِ، فأبطأ عليه ﷺ الوحيُ خمسةَ عشرَ يوماً ـ على ما رُوي عن ابن إسحاق[1]، وقيل: ثلاثةَ أيام، وقيل: أربعين يوماً ـ فشقَّ ذلك عليه عليه الصلاة والسلام، وكذَّبته قريشٌ، وحاشاه.

وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يبقَى على المعنى المتبادِر، وما بعدَه بذلك المعنى يُعلَم بطريق دَلالةِ النصّ. وتُعقِّب بأنَّ ما بعدَه ليس بمعناه في مناط النَّهي، وهو احتمالُ المانع؛ فإنَّ الزمانَ إذا اتَّسع قد ترتفع فيه الموانعُ أو تخفّ. وليس بشيء؛ لأنَّ المانعَ شاملٌ للموت، واحتمالُه في الزمان الواسعِ أقوَى.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناءٌ متعلِّق بالنَّهي على ما اختاره جمعٌ من المحقِّقين، وقولُ ابنِ عطيةَ[2] اغتراراً بردِّ الطبريّ[3]: إنَّه من الفسادِ بحيث كان الواجبُ ألَّا يُحكَى = خروجٌ عن الإنصاف.

وهو مفرَّغ من أعمِّ الأحوال. وفي الكلام تقديرُ باءٍ للملابسة داخلةٍ على «أنْ»، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال، أي: لا تقولَنَّ ذلك في حالٍ من الأحوال إلَّا حالَ ملابستِه بمشيئة اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ تذكر.

قال في «الكشف»: إنَّ التباسَ القولِ بحقيقة المشيئةِ محال، فبقي أن يكونَ بذِكرها، وهو: إن شاءَ اللهُ تعالى، ونحوُه مما يدلُّ على تعليقه الأمورَ بمشيئة اللهِ تعالى. ورُدَّ بما يصلح أن يكونَ تأييداً لا ردًّا.

وجوِّز أن يكونَ المستثنَى منه أعمَّ الأوقات، أي: لا تقولَنَّ ذلك في وقتٍ من الأوقات إلَّا في وقت مشيئةِ اللهِ تعالى ذلك القولَ منك، وفسِّرت المشيئةُ على هذا بالإِذن؛ لأنَّ وقتَ المشيئةِ لا يُعلَم إلَّا بإِعلامه تعالى به وإِذنِه فيه، فيكون مآلُ المعنى: لا تقولَنَّ إلَّا بعد أن يؤذنَ لك بالقول.

---

(١) في السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٠١، وهو في السير والمغازي لابن إسحاق ص ٢٠٢ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) في المحرر الوجيز ٣/٥٠٨-٥٠٩.
(٣) في تفسيره ١٥/ ٢٢٤-٢٢٥.

وجوَّز أيضاً أن يكونَ الاستثناءُ منقطعاً، والمقصودُ منه التأبيد، أي: ولا تقولَنَّ ذلك أبداً. ووجَّه ذلك في «الكشف» بأنَّه نهيٌ عن القول إلَّا وقتَ مشيئةِ الله تعالى، وهي مجهولة، فيجب الانتهاءُ أبداً، وأشار إلى أنَّه هو مرادُ الزمخشريِّ[1]، لا ما يتوهَّم من جعلِه مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٨٩] من أنَّ التأبيدَ لعدم مشيئته تعالى فِعْلَ ذلك غداً؛ لقبحه، كالعَود في مِلَّة الكفر؛ لأنَّ القبحَ فيما نحن فيه على إطلاقه غيرُ مسلَّم. والتخصيصُ بما يتعلَّق بالوحي على معنى: لا تقولَنَّ فيما يتعلَّق بالوحي: إني أُخبرُكم به إلَّا أن يشاءَ اللهُ تعالى، واللهُ تعالى لم يشأ أن تقولَه من عندك، فإذن لا تقولنَّه أبداً = يأباه النَّكرةُ في سياق النَّهي المتضمِّنِ للنفي والتقييدِ بالمستقبل. وأنَّ قولَه: «فاعلٌ ذلك غداً» ـ أي: مخبرٌ عن أمرٍ يتعلَّق بالوحي غداً ـ غيرُ مؤذِنٍ بأنَّ قولَه في الغد يكون مِن عنده لا عن وحي، فالتشبيهُ في أنَّ الاستثناءَ بالمشيئة استُعمل في معرض التأبيدِ وإنْ كان وجهُ الدَّلالة مختلفاً، أخذاً من متعلَّق المشيئةِ تارةً ومن الجهل بها أخرى. ولا يخفَى أنَّ الظاهرَ في الآية الوجهُ الأوَّل، وأنَّ أمَّته ﷺ وهو في الخطاب الذي تضمَّنته سواءٌ[2].

ولا يجوزُ أن يكونَ الاستثناءُ متعلِّقاً بقوله تعالى: «إني فاعل» بأن يكونَ استثناءً مفرَّغاً ممَّا في حيِّزه من أعمِّ الأحوالِ أو الأوقات؛ لأنَّه حينئذٍ إمَّا أن تعتبرَ تعلُّقَ المشيئةِ بالفعل، فيكون المعنى: إني فاعلٌ في كلِّ حالٍ أو في كلِّ وقتٍ إلَّا في حالِ أو وقتِ مشيئةِ الله تعالى الفعل، وهو غيرُ سديد، أو يُعتبرَ تعلُّقُها بعدمه، فيكون المعنى: إنِّي فاعلٌ في كلِّ حالٍ أو في كلِّ وقتٍ إلَّا في حالٍ أو وقت مشيئةِ اللهِ تعالى عدمَ الفعل. ولا شبهةَ في عدم مناسبتِه للنَّهي، بل هو أمرٌ مطلوب.

وقال الخَفاجي[3]: إذا كان الاستثناءُ متعلِّقاً بـ «إني فاعلٌ» والمشيئةُ متعلِّقةً بالعدم، صار المعنى: إنِّي فاعلٌ في كلِّ حالٍ إلَّا إذا شاء اللهُ تعالى عدمَ فعلي، وهذا لا يصحُّ النهيُ عنه، أمَّا على مذهب أهلِ السُّنَّة فظاهر، وأمَّا على مذهب

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٧٩-٤٨٠.
(٢) بعدها في (م): مخصوصاً بالنبي ﷺ.
(٣) في حاشيته ٦/ ٩١.

المعتزلة؛ فلأنَّهم لا يشكُّون في أنَّ مشيئةَ اللهِ تعالى لعدم فعلِ العبدِ الاختياريِّ إذا عرضت دونَه بإيجادِ ما يعوقُ عنه من الموت ونحوِه منعت عنه وإنْ لم تتعلَّق عندهم بإيجاده وإعدامِه، وكذا لا يصحُّ النهيُ إذا كانت المشيئةُ متعلِّقةً بالفعل في المذهبين، فما قيل: إنَّ تعلُّقَ الاستثناءِ بما ذُكر صحيح، والمعنى عليه النهيُ عن أن يذهبَ مذهبَ الاعتزالِ في خلق الأَعمالِ فيضيفَها لنفسه، قائلاً: إنْ لم تقترن مشيئةُ اللهِ تعالى بالفعل فأنا فاعلُه استقلالاً، فإن اقترنت فلا = لا يخفَى ما فيه على نبيه، فتأمَّل.

وقد شاع الاعتراضُ على المعتزلة في زعمهم أنَّ المعاصيَ واقعةٌ من غير إرادة اللهِ تعالى ومشيئته، وأنَّه تعالى لا يشاء إلَّا الطاعات: بأنَّه لو كان كذلك، لَوَجب فيما إذا قال الذي عليه دَينٌ لغيره قد طالبه به: واللهِ لأُعطينَّك حقَّك غداً إن شاءَ اللهُ تعالى، أن يكونَ حانثاً إذا لم يفعل؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد شاء ذلك، لكونه طاعة، وإنْ لم يقع فتلزمه الكفارةُ عن يمينه ولم ينفعْه الاستثناء، كما لو قال: واللهِ لأُعطينَّك إنْ قام زيد، فقام ولم يفعل، وفي التزام الحنثِ في ذلك خروجٌ عن الإجماع.

وقد أَجاب عنه المرتضَى بأنَّ للاستثناء الداخلِ في الكلام وجوهاً مختلفة، فقد يدخل في الأَيمان والطلاقِ والعتاقِ وسائرِ العقود وما يَجري مَجراها من الأَخبار، وهذا يقتضي التوقُّفَ عن إمضاء الكلام، والمنعَ من لزوم ما يلزمُ به، ويصير به الكلامُ كأنَّه لا حكمَ له، ويصحُّ في هذا الوجهِ الاستثناءُ في الماضي، فيقال: قد دخلتُ الدارَ إن شاء اللهُ تعالى، ليخرجَ بذلك من أن يكونَ خبراً قاطعاً أو يلزمَ به حكم، ولا يصحُّ في المعاصي؛ لأنَّ فيه إظهارَ الانقطاعِ إلى الله تعالى، والمعاصي لا يصلُح ذلك فيها.

قال: وهذا الوجهُ أحدُ محتملاتِ الآية، وقد يدخل في الكلام ويرادُ به التسهيلُ والإقدار والتخليةُ والبقاءُ على ما هو عليه من الأَحوال، وهذا هو المرادُ إذا دخل في المباحات، وهو ممكنٌ في الآية، وقد يدخل لمجرَّد غرضِ الانقطاعِ إلى الله تعالى، ويكون على هذا غيرَ معتدٍّ به في كون الكلامِ صادقاً أو كاذباً، وهو أيضاً ممكنٌ في الآية، وقد يدخل ويراد به اللطفُ والتسهيل، وهذا يختصُّ بالطاعات،

ولا يصحُّ أن تُحمَلَ الآيةُ عليه؛ لأنَّها تتناول كلَّ ما لم يكن قبيحاً[١]. وقولُ المديونِ السابقِ إنْ قُصِد به هذا المعنى، لا يلزمُ منه الحنثُ إذا لم يفعل، ويديَّن المديون وغيرُه إن ادَّعى قصدَ ما لا يلزمه فيه شيءٌ، فلا ورودَ لما اعترضوا به. والإِنصافُ أنَّ الاعتراضَ ليس بشيء، والردُّ عليهم غنيٌّ عن مِثل ذلك.

هذا ثمَّ اعلمْ أنَّ إطلاقَ الاستثناءِ على التقييد بإنشاء الله تعالى، بل على التقييد بالشَّرط مطلقاً، ثابتٌ في اللغةِ والاستعمال، كما نصَّ عليه السيرافيُّ في شرح «الكتاب».

وقال الراغب[٢]: الاستثناءُ دفعُ ما يوجبه عمومٌ سابق، كما في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ إلخ [الأنعام: ١٤٥]، أو دفعُ ما يوجِبه اللفظ، كقوله: امرأتُه طالقٌ إن شاءَ اللهُ تعالى. انتهى.

وفي الحديث: «مَن حلف على شيءٍ فقال: إن شاءَ اللهُ تعالى، فقد استثنَى»[٣] فما قيل: إنَّ كلمةَ: إن شاء اللهُ تعالى، تسمَّى استثناءً لأنَّه عبَّر عنها هنا بقولِه سبحانه: (إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ) ليس بسديد، فكذا ما قيل: إنَّها أشبهت الاستثناءَ في التخصيص فأُطلق عليها اسمُه، كذا قال الخَفاجي[٤]. ولا يخفَى أنَّ في الحديث نوعَ إباءٍ لدعوى أنَّ إطلاقَ الاستثناءِ على التقييد بإن شاء اللهُ تعالى لغويّ؛ لأنَّه ﷺ لم يُبعَث لإِفادة المدلولاتِ اللغوية، بل لتبليغ الأحكامِ الشرعيَّة، فتذكَّر.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أي: مشيئةَ ربِّك، فالكلامُ على حذفِ مضاف، وذِكرُ مشيئته تعالى ـ على ما يدلُّ عليه ما قبل ـ أن يقال: إن شاءَ اللهُ تعالى، وقد قال ذلك رسولُ اللهِ ﷺ حين نزلت.

﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا فرط منك نسيانُ ذلك ثم تذكَّرتَه؛ فإنَّه ما دام ناسياً لا يؤمر بالذِّكر، وهو أمرٌ بالتدارك عند التذكُّر، سواءٌ قَصُرَ الفصلُ أم طال. وقد

---

(١) أمالي المرتضى ٢/ ١٢٢-١٢٣.

(٢) في المفردات ص [illegible]

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٦١)، والترمذي (١٥٣١) وحسَّنه، والنسائي ٧/ ٢٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وهو عند النسائي ٧/ ٢٥، وابن ماجه (٢١٠٦) بألفاظ قريبة.

(٤) في حاشيته ٦/ ٩٠.

أَخرج ابن جَريرٍ والطبرانيُّ وابنُ المنذر وغيرُهم عن ابن عباسٍ ﵄ أنَّه كان يرى الاستثناءَ ولو بعد سَنَةٍ ويقرأ الآية[1]، ورُوي ذلك عن أئمَّة أهلِ البيتِ ﵃، وهو روايةٌ عن الإمام أحمدَ عليه الرحمة.

وأخرج ابنُ المنذرِ عن ابن جُبَير في رجلٍ حلف ونسي أن يستثني، قال: له ثُنياه إلى شهر.

وأَخرج ابنُ أبي حاتمٍ من طريق عَمرِو بن دينار، عن عطاءٍ أنَّه قال: مَن حلف على يمين فله الثُّنيا حلبَ ناقة، قال: وكان طاوسٌ يقول: ما دام في مجلسِه.

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ أيضاً عن إبراهيمَ قال: يَستثني ما دام في كلامِه[2].

وعامةُ الفقهاءِ على اشتراط اتِّصال الاستثناءِ في عدم الحِنث، ولو صحَّ جوازُ الفصلِ وعدمُ تأثيرِه في الأَحكام، لاسيَّما إلى الغاية المرويَّةِ عن ابن عباس، لَمَا تقرَّر إقرارٌ ولا طلاقٌ ولا عتاق، ولم يُعلَم صِدقٌ ولا كَذِب.

ويُحكَى أنَّه بلغ المنصورَ أنَّ أبا حنيفةَ ﵁ خالف ابنَ عباسٍ في هذه المسألة، فاستحضره ليُنكرَ عليه، فقال له أبو حنيفة: هذا يرجعُ إليك، إنَّك تأخذ البَيعةَ بالأَيمان، أفترضَى أنْ يخرجوا مِن عندِك فيستثنوا فيَخرجوا عليك؟ فاستحسن كلامَه.

ومن غريبِ ما يُحكَى أنَّ رجلاً من علماء المغربِ أحبَّ أن يرى علماءَ بغدادَ ويتحقَّقَ مبلغَ علمِهم، فشدَّ الرَّحلَ للاجتماع معهم، فدخل بغدادَ من باب الكرخ، فصادف رجلَين يمشيان أَمامه يبيعان البقلَ في أَطباقٍ على رؤوسهما، فسمع أحدَهما يقول لصاحبه: يا فلان، إنِّي لأَعجبُ من ابن عباسٍ ﵄ كيف جوَّز فصلَ الاستثناءِ وقال بعدم تأثيره في الأَحكام، ولو كان الأمرُ كما يقول، لأَمر اللهُ تعالى نبيَّه أيوبَ عليه السلام بالاستثناء لئلَّا يحنث؛ فإنَّه أقلُّ مؤنةً ممَّا أَرشده سبحانه إليه بقوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] وليس بين ....

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٢٥، والمعجم الأوسط (١١٩)، والكبير (١١٠٦٩)، والدر المنثور ٤/ ٢١٨.

(٢) نقل المصنف هذه الأخبار عن الدر المنثور ٤/ ٢١٨.

بما ذُكِر أكثرُ من سَنَة. فرجع ذلك الرجلُ إلى بلده واكتفَى بما سمع ورأى، فسئل: كيف وجدتَ علماءَ بغداد؟ فقال: رأيتُ مَن يبيع البقلَ على رأسه في الطُّرقات من أَهلها بلغ مبلغاً من العلمِ يعترض به على ابن عباسٍ ﵄، فما ظنُّك بأهل المدارسِ المنقطعين لخدمة العلم؟

والإنصافُ أنَّ هذا الاعتراضَ على عِلَّاته[1] يُستكثَر ممَّن يبيع البقل، واللهُ تعالى أَعلمُ بصحَّة النقل. لا يقال: إنَّ ظاهرَ الآيةِ ـ على ما سمعتَ ـ يطابقُ ما ذهب إليه الحبر، وإلَّا لم يكن للتدارك معنًى، وكذا ما جاءَ في الخبر = لِمَا قالوا: إنَّ التداركَ فيما يرجع إلى تفويض العبدِ يحصل بذِكره بعد التنبُّه[2]، أمَّا في التأثيرِ في الحكم حتى يُخرجَه عن الجزم، فليست الآيةُ مسوقةً له، ولا دالَّةً عليه بوجه.

وقال بعضُهم: إنَّ ذلك من خصائصه ﷺ، فله عليه الصلاة والسلام أن يستثنيَ ولو بعد حين؛ بخلاف غيرِه. فقد أَخرج ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه والطبرانيُّ في «الكبير» بسندٍ متَّصل عن ابن عباسٍ ﵄ أنَّه قال في الآية: إذا نسيتَ الاستثناءَ فاستثنِ إذا ذكرت، ثم قال: هي خاصَّة لرسول الله ﷺ، وليس لأَحدنا أن يستثنيَ إلَّا في صِلةِ يمين[3].

وقيل: ليس في الآية والخبرِ أنَّ الاستثناءَ المتداركَ من القولِ السابق، بل من مقدَّر مدلولٍ به عليه، والتقديرُ في الآية: كلَّما نسيتَ ذِكرَ اللهِ تعالى اذكُرْه حين التذكُّر إن شاء الله تعالى، وفي الحديث[4]: لا أنسى المشيئةَ بعد اليومِ ولا أتركها إن شاء اللهُ تعالى. أو: أقولُ: إن شاءَ اللهُ تعالى، إذا قلتُ: إني فاعلٌ أمراً فيما بعد. ولا يخفَى أنَّه خلافُ الظاهرِ جدًّا.

وجوِّز أن يكونَ المعنى: واذكُرْ ربَّك بالتسبيح والاستغفارِ إذا نسيتَ الاستثناء، والمرادُ من ذلك المبالغةُ في الحثِّ عليه، بإِيهام أنَّ تركَه من الذُّنوب التي يجب لها التوبةُ والاستغفار.

---

(١) في (م): علامة.

(٢) في الأصل: التنبيه.

(٣) المعجم الكبير (١١١٤٣)، والدر المنثور ٤/ ٢١٨.

(٤) أي: والتقدير في الحديث...

وقيل: المعنى: واذكُرْ ربَّك وعقابَه إذا تركتَ بعضَ ما أَمرك به؛ ليبعثَك ذلك على التدارُك. وحملُ النسيانِ على الترك مجازٌ لعلاقة السببيةِ والمسبَّبية. أو: اذكُر ربَّك إذا عرض لك نسيانٌ ليذكِّرَك المَنسيّ، و«نسيتَ» على هذا مُنزلٌ منزلةَ اللازم، ولا يخفَى بُعدُ ارتباطِ الآيةِ على هذين المعنيَين بما سبق.

وحَمَلَ قتادةُ الآيةَ على أداء الصلاةِ المنسيةِ عند ذِكرها. فإنْ أَراد أنَّ المرادَ من الآية: واقضِ الصلاةَ المنسيةَ إذ ذكرتَها، فهو كما ترى، وأمرُ الارتباطِ كما في سابقه. وإنْ أراد أنَّها تدلُّ على الأمر بقضاء الصلاةِ المنسيةِ عند ذِكرها، لِمَا أنَّها دلَّت على الأمر بذكر الاستثناءِ المنسيّ، وأمرُ الصلاةِ أشدّ، والاهتمامُ بها أَعظم = فالأمرُ أَسهل، ولكن ظاهر كلامِهم أنَّه أراد الأوَّل.

وأخرج ابنُ أبي شيبةَ والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» وغيرُهما عن عكرمةَ أنَّه قال في الآية: أي: اذكر ربَّك إذا غضبت[1]. ووجهُ تفسيرِ النِّسيان بالغضب أنَّه سببٌ للنسيان. وأمرُ هذا القولِ نظيرُ ما مرّ.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ أي: يوفِّقَني ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ أي: لشيءٍ أقربَ وأظهرَ من نبأ أصحابِ الكهف، من الآيات والدَّلائلِ الدالَّة على نبوَّتي ﴿رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ إرشاداً للناس ودَلالةً على ذلك. وإلى هذا ذهب الزجَّاج[2].

وقد فعل ذلك عزَّ وجلَّ حيث آتاه من الآيات البيِّنات ما هو أعظمُ من ذلك وأبْيَن، كقصص الأنبياءِ عليهم السلام المتباعدةِ أيامُهم، والحوادثِ النازلةِ في الأَعصار المستقبلةِ إلى قيام السَّاعة، وكأنَّه تهوينٌ منه عزَّ وجلَّ لأمر قصةِ أصحابِ الكهف، كما هوَّنه جلَّ وعلا أوَّلاً بقوله سبحانه: (أَمْ حَسِبْتَ) إلخ.

وهو متعلِّق بمجموع القِصَّة، وعَطَفه بعضُ الأفاضلِ على العاملِ في قوله تعالى: (إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ) كأنَّه قيل: اذكر إذ أوى الفتية... إلخ، وقل: عسى أن يهديَني ربِّي لِمَا هو أَظهرُ من ذلك دلالةً على نبوَّتي.

---

(١) في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧١: إذا عصيت. ثم قال: وقال بعضهم: إذا غضبت. وفي شعب الإيمان ٦/ ٣٠٢ كما ذكر المصنف.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٨.

وقال الجبَّائي: هو متعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ إلى آخره. والمعنى عنده: ادعُ ربَّك سبحانه وتعالى إذا نسيتَ شيئاً أن يذكِّرَك إيَّاه، وقل إنْ لم يذكِّرك سبحانه: عسى أن يهديَني لشيءٍ أقربَ من المنسيِّ خيراً ومنفعةً، فـ «هذا» إشارةٌ إلى المنسيّ، والرَّشَد: الخيرُ والمنفعة، و«أقرب» على معناه الحقيقيّ. ولا يخفَى أنَّ هذا أقربُ من جهة المتعلَّق وأبعدُ من جهات.

وقيل: إنَّه متعلِّق بالمتعاطفات قبلَه، و«هذا» إشارةٌ إلى ما تضمَّنته من الخير أمراً ونهياً، كأنَّه قيل: اِفعلْ كذا ولا تفعلْ كذا، واطمعْ من ربِّك أن يهديَك لأقربَ مما أُرشدتَ إليه في ضمن ما سمعتَ من الأمر والنهي خيراً ومنفعة. وقد هُدي ﷺ في ضمن ما أُنزل عليه عليه الصلاة والسلام بعدَ ذلك من الأوامر والنَّواهي إلى ما هو أقربُ من ذلك منفعة، ولا يكاد يُحصَى. وهو كما ترى. ولعله ـ على عِلَّاته ـ أقربُ ممَّا نقل عن الجبَّائي.

وقال ابنُ الأنباري: معنى الآية: عسى أن يعرِّفَني ربِّي جوابَ مسائلِكم قبل الوقتِ الذي حدَّدتُه لكم، ويعجِّلَ لي من جهته الرَّشاد. ولا يكاد يُستفاد هذا المعنى من الآية، وعلى فَرْض الاستفادةِ تكون نظيرَ استفادةِ المعاني المرادةِ من المعمَّيات، ويَجلُّ كتابُ اللهِ تعالى الكريمُ عن ذلك.

وأخرج البيهقيُّ(١) من طريق المعتمرِ بن سليمانَ قال: سمعت أبي يحدِّث عن رجلٍ من أهل الكوفةِ أنَّه كان يقول: إذا نسي الإنسانُ الاستثناء، فتوبتُه أن يقول: «عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً» وحكاه أبو حيَّان عن محمدٍ الكوفيِّ المفسِّر(٢)، والظاهرُ أنَّه الرجلُ الذي ذكره المعتمِر(٣). وهو قولٌ لا دليلَ عليه.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ أحياءً مضروباً على آذانهم ﴿ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ وهي جملةٌ مستأنفةٌ مبيِّنة ـ كما قال مجاهد ـ لِمَا أُجمل في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ واختار ذلك غيرُ واحد.

---

(١) في الأسماء والصفات (٣٦٧)، وابن جرير في تفسيره ١٥/ ٢٢٨.
(٢) البحر ٦/ ١١٦.
(٣) وهو كذلك، فقد جاء في الأسماء والصفات وتفسير ابن جرير: عن أبيه، عن محمد رجل من أهل الكوفة كان يفسر القرآن. . .

قال في «الكشف»: فعلى هذا قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ تقريرٌ لكون المدَّةِ المضروبِ فيها على آذانهم هي هذه المدَّة، كأنَّه قيل: قل: اللهُ أعلمُ بما لبثوا، وقد أعلَم، فهو الحقُّ الصحيحُ الذي لا يحوم حولَه شكٌّ قط.

وفائدةُ تأخيرِ البيانِ التنبيهُ على أنَّهم تنازعوا في ذلك أيضاً؛ لذِكره عقيبَ اختلافِهم في عدَّة أشخاصهم، وليكونَ التذييلُ بـ «قُل اللهُ أعلمُ» محاكياً للتَّذييل بقوله سبحانه: (قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم) وللدَّلالة على أنَّه من الغيب الذي أُخبر به عليه الصلاة والسلام ليكونَ معجزاً له، ولو قيل: فضربنا على آذانِهم سنينَ عدداً، وأُتي به مبيَّناً أوَّلاً، لم يكن فيه هذه الدَّلالةُ البتَّة. فهذه عدَّةُ فوائد، والأصلُ الأخيرة. انتهى.

ويُحتاج ـ على هذا ـ إلى بيان وجهِ العدولِ عن المتبادِر، وهو ثلاثُ مئةٍ وتسعُ سنين، مع أنَّه أَخصَرُ وأَظهر، فقيل: هو الإشارةُ إلى أنَّها ثلاثُ مئةٍ بحساب أهلِ الكتابِ واعتبارِ السَّنَة الشمسيَّة، وثلاثُ مئةٍ وتسعٌ بحساب العربِ واعتبارِ السَّنة القمرية، فالتِّسعُ مقدارُ التفاوت. وقد نقله بعضُهم عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه.

واعتُرض بأنَّ دلالةَ اللفظِ على ما ذُكر غيرُ ظاهرة، مع أنَّه لا يوافق ما عليه الحُسَّاب والمنجِّمون، كما قاله الإمام[1]؛ لأنَّ السنةَ الشمسيةَ ثلاثُ مئةٍ وخمسٌ وستُّون يوماً وخمسُ ساعاتٍ وتسعٌ وأربعون دقيقةً على مقتضَى الرَّصدِ الإيلخاني، والسَّنةَ القمريةَ ثلاثُ مئةٍ وأربعةٌ وخمسون يوماً وثمانِ ساعاتٍ وثمانٍ وأربعون دقيقة، فيكون التفاوتُ بينهما عشرةَ أيامٍ وإحدى وعشرين ساعةً ودقيقةً واحدة، وإذا كان هذا تفاوتَ سَنَة، كان تفاوتُ مئة سَنَةٍ ألفَ يوم وسبعةً وثمانين يوماً وثلاث[2] عشرةَ ساعةً وأربعَ دقائق، وهي ثلاثةُ سنينَ وأربعةٌ وعشرون يوماً وإحدى عشرةَ ساعةً وستَّ عشرةَ دقيقة، فيكون تفاوتُ ثلاثِ مئةِ سنةٍ تسعَ سنينَ وثلاثاً وسبعين يوماً وتسعَ ساعاتٍ وثمانياً وأربعين دقيقة[3]؛ ولذا قيل: إنَّ روايتَه عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه لم تثبت.

---

(١) في التفسير الكبير ٢١/ ١١٢.

(٢) في الأصل و(م): وثلاثة.

(٣) جاء في هامش الأصل: وإذا اعتبر هذا سنين شمسية كان تسع سنين إلا أربعة وعشرين يوماً وإحدى عشرة ساعة وإحدى وعشرين دقيقة. اهـ. منه.

وبحث فيه الخفاجيُّ[1] بأنَّ وجهَ الدلالةِ فيه ظاهر؛ لأنَّ المعنى: لبثوا ثلاثَ مئةِ سنةٍ على حساب أهلِ الكتابِ الذين علَّموا قومَك السؤالَ عن شأنهم، وتسعاً زائدةً على حساب قومِك الذين سألوكَ عن ذلك، والعدولُ عن الظاهر يُشعر به، ودعوى أنَّ التفاوتَ تسعُ سنين مبنيَّةٌ على التقريب؛ لأنَّ الزائدَ لم يبلغ نصفَ سنة، بل ولا فصلاً من فصولِها، فلم يعبأْ به، وكونُ التفاوتِ تسعاً تقريباً جارٍ على سائر الأقوالِ في مقدار السنةِ الشمسيةِ والسنةِ القمرية؛ إذ التفاوتُ في سائرها لا يكاد يبلغ رُبعاً فضلاً عن نصف.

وقال الطِّيبي في توجيهِ العدول: إنَّه يمكن أن يقال: لعلهم لمَّا استكملوا ثلاثَ مئةِ سنة، قَرُبوا من الانتباه، ثم اتَّفق ما أَوجب بقاءهم نائمين تسعَ سنين.

وتعقِّب بأنَّ هذا يقتضي أن يكونَ المراد: وازدادوا نوماً، أي: قَوِي نومُهم في تِسع سنين، ولا يخفَى ما فيه.

وقال أيضاً: يجوز أن يكونَ أهلُ الكتابِ قد اختلفوا في مدَّة لَبثهم كما اختلفوا في عِدَّتهم، فجاء قولُه تعالى: «ولبثوا...» إلخ رافعاً للاختلاف مبيِّناً للحقّ، ويكون «وازدادوا تسعاً» تقريراً ودفعاً للاحتمال، نظير الاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وسيجيءُ بيانُه إن شاء اللهُ تعالى، ولا يخلو عن حُسْن.

وقيل: إنَّهم انتبهوا قليلاً ثم رُدُّوا إلى حالتهم الأُولى؛ فلذا ذُكر الازدياد، وهو الذي يقتضيه ما أَخرجه ابنُ أبي حاتمٍ عن قتادةَ المارُّ في قوله تعالى: (وَنُقَلِّبُهُمْ) إلخ، وهو ـ فيما أرى ـ أقربُ مما تقدَّم من حديث السنينَ الشمسيةِ والقمرية.

وقال جمع: إنَّ الجملةَ من كلام أهلِ الكتاب، فهي مِن مقول «سيقولون» السَّابق، وما بينهما اعتراضٌ. ونُسب ذلك إلى ابن عباس، فقد أَخرج ابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه عنه رضي الله عنه أنَّه قال: إنَّ الرجلَ لَيفسِّر الآيةَ يرى أنَّها كذلك، فيَهوي أَبعدَ ما بين السماءِ والأرض، ثم تلا: (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ) الآيةَ، ثم قال: كم لبثَ

(١) في حاشيته ٦/ ٩٢.

القوم؟ قالوا: ثلاثَ مئةٍ وتسعَ سنين، فقال: لو كانوا لبثوا كذلك، لم يقل اللهُ تعالى: (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟) ولكنَّه سبحانه حكى مقالةَ القومِ فقال تعالى: (سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ) إلى قوله تعالى: (رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ) فأخبر أنَّهم لا يعلمون وقال: سيقولون: لبثوا في كهفهم ثلاثَ مئةٍ سنينَ وازدادوا تسعاً[(١)].

ولعل هذا لا يصحُّ عن الحَبر رضي الله عنه، فقد صحَّ عنه القولُ بأن عِدَّةَ أصحابِ الكهف سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم، مع أنَّه تعالى عقَّب القولَ بذلك بقوله سبحانه: (قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم) ولا فرقَ بينه وبين قولِه تعالى: (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟) فلمَ دلَّ هذا على الردِّ ولم يدلَّ ذاك؟

نعم قرأ ابنُ مسعود: «وقالوا لَبِثوا في كهفِهم»[(٢)] وهو يقتضي أن يكونَ من كلام الخائضين في شأنهم، إلَّا أنَّ التعقيبَ بقوله تعالى: (قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟) كتعقيب القولِ الثالثِ في العِدَّة بما سمعتَ في عدم الدَّلالةِ على الردّ.

والظاهرُ أنَّ ضميرَ «وازدادوا» على هذا القولِ لأصحاب الكهف، كما أنَّه كذلك على القولِ السابق.

وقال الخَفاجي[(٣)]: إنَّ الضميرَ عليه لأهل الكتاب، بخلافه على الأوَّل، ويظهر فيه وجهُ العدولِ عن ثلاث مئةٍ وتسع سنين؛ لأنَّ بعضَهم قال: لبثوا ثلاثَ مئةٍ، وبعضهم قال: إنَّه أَزيدُ بتسعة. اهـ. ولا يخفَى ما فيه.

وعلى القولين الظاهرُ أنَّ «بما لبثوا» إشارةٌ إلى المدَّة السابق ذِكرُها، وزعم بعضُهم أنَّه إشارةٌ إلى المدَّة التي بعد الإطلاعِ عليهم إلى زمن الرَّسولِ ﷺ. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّه تعالى لمَّا قال: «وازدادوا تسعاً» كانت التِّسعُ مبهمة، لا يدرَى أنَّها سِنونَ أم شهورٌ أم أيامٌ أم ساعات، واختلف في ذلك بنو إسرائيل، فأُمر ﷺ بردِّ

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢١٨.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣١، والكشاف ٢/ ٤٨١، والبحر المحيط ٦/ ١١٦. وجاء في الأصل و(م): لبثوا كهفهم، والمثبت من المصادر.

(٣) في حاشيته ٦/ ٩٣.

العلم إليه عزَّ وجلَّ في التِّسع فقط. اهـ، وليس بشيء؛ فإنَّه إذا سبق عددٌ مفسَّر وعُطف عليه ما لم يفسَّر، حُمِل تفسيرُه على السابق، فـ: عندي مئةُ درهمٍ وعشرة، ظاهرٌ في: وعشرةِ دراهم، وليس بمجمَلٍ كما لا يخفَى.

هذا ونصب «تسعاً» على أنَّه مفعولُ «ازدادوا» وهو ممَّا يتعدَّى إلى واحد. وقال أبو البقاءِ[(١)]: إنَّ زَادَ يتعدَّى إلى اثنين، وإذا بُني على افتعل تعدَّى إلى واحد. وظاهرُ كلامِ الراغبِ[(٢)] وغيرِه أنَّ زاد قد يتعدَّى إلى واحد، يقال: زدتُه كذا، فزادَ هو وازداد كذا. ووجهُ ذلك ظاهرٌ فلا تغفُل.

والجمهورُ على أنَّ «سنين» في القراءة بتنوين «مئة» منصوب، لكن اختلفوا في توجيهِ ذلك:

فقال أبو البقاءِ[(٣)] وابنُ الحاجب: هو منصوبٌ على البدليَّة من «ثلاث مئة».

وقال الزَّمخشريّ[(٤)]: على أنَّه عطفُ بيانٍ لـ «ثلاث مئة» وتعقَّبه في «البحر» بأنَّه لا يجوز على مذهب البصريِّين[(٥)].

وادَّعى بعضُهم أنه أَوْلى من البدلية؛ لأنَّها تستلزم ألَّا يكونَ العددُ مقصوداً، ويؤيِّده ما أخرجه ابنُ أبي شيبةَ وابن جَريرٍ وابنُ المنذر وابن أبي حاتمٍ عن الضحَّاك قال: لمَّا نزلت هذه الآيةُ ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ قيل: يا رسولَ الله، أياماً أم أشهراً أم سنين؟ فأنزل اللهُ تعالى ﴿سِنِينَ﴾[(٦)].

وجوَّز ابنُ عطية[(٧)] الوجهين.

وقيل: على التمييز. وتُعقِّب بأنَّه يلزم عليه الشذوذُ من وجهَين، وستعلم وجهَه قريباً إن شاء اللهُ تعالى، وبما نقل في «المفصَّل» عن الزجَّاج أنَّه يلزمُ أن يكونوا

---

(١) في الإملاء ٣/ ٥١٣.
(٢) في المفردات (زيد).
(٣) في الإملاء ٣/ ٥١٣.
(٤) في الكشاف ٢/ ٤٨١.
(٥) البحر ٦/ ١١٧.
(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٢٣٠، والدر المنثور ٤/ ٢١٨، وعنه نقل المصنف.
(٧) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠.

لبثوا تسعَ مئةِ سنة[1]، قال ابنُ الحاجب: ووجهُه أنَّه فهم من لغتهم أنَّ مميِّز المئةِ واحدٌ من مئة، كما إذا قلت: مئة رجل، فـ «رجل» واحدٌ من المئة، فلو كان «سنين» تمييزاً، لَكان واحداً من ثلاث مئة، وأقلُّ السنين ثلاثة، فكان كأنَّه قيل: ثلاثُ مئةِ ثلاثِ سنين، فيكون تسعَ مئةِ سنة.

ويُردُّ بأنَّ ما ذُكر مخصوصٌ بما إذا كان التمييزُ مفرَداً، وأمَّا إذا كان جمعاً، فالقصدُ فيه كالقصد في وقوع التمييزِ جمعاً في نحو: ثلاثةُ أثواب، مع أنَّ الأصلَ في الجميع الجمعُ، وإنَّما عدلوا إلى المفرَد لعِلَّة كما بيِّن في محلِّه، فإذا استُعمل التمييزُ جمعاً استُعمل على الأصل، وما قال إنَّما يلزم لو كان ما استُعمل جمعاً استُعمل كما استُعمل المفرد، فأمَّا إذا استُعمل الجمعُ على أَصله فيما وضع له العددُ، فلا. انتهى.

وقد صرَّح الخفاجيُّ[2] أنَّ ذلك كتقابُل الجمعِ بالجمع.

وجوَّز الزجَّاج[3] كونَ «سنين» مجروراً على أنَّه نعتُ «مئة» وهو راجعٌ في المعنى إلى جملةِ العدد، كما في قولِ عنترة:

فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلوبةً ... سُوداً كخافيةِ الغرابِ الأسحمِ[4]

حيث جعل سوداً نعتاً لحَلوبةً، وهي في المعنى نعتٌ لجملة العدد.

وقال أبو عليّ[5]: لا يمتنع أن يكونَ الشاعرُ اعتبر حَلوبةً جمعاً، وجعل سُوداً وصفاً لها، وإذا كان المرادُ به الجمع، فلا يمتنعُ أن يقعَ تفسيراً لهذا الضربِ من العددِ من حيث كان على لفظ الآحاد، كما يقال: عشرون نفراً، وثلاثون قَبيلاً.

وقرأ حمزة، والكِسائي، وطلحة، ويحيى، والأعمش، والحسن، وابنُ أبي ليلى، وخَلَف، وابنُ سعدان، وابنُ عيسى الأصبهاني، وابن جُبَيرِ الأنطاكي:

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش ٦/ ٢١.

(٢) في حاشيته ٦/ ٩٣.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٧٨.

(٤) الديوان ص١٧.

(٥) في الحجة ٥/ ١٣٨.

«ثلاثَ مئةِ سنين»[١] بإضافة «مئة» إلى «سنين»، وما نُقل عن الزجَّاج يَرِد هنا أيضاً، ويُرَدُّ بما رُدَّ به هناك، ولا وجهَ لتخصيص الإيراد بنصب «سنينَ» على التمييز، فإنَّ منشأَ اللزومِ على فَرْض تسليمِه كونُه تمييزاً، وهو متحقِّق إذا جُرَّ أيضاً، وجرُّ تمييزِ المئةِ بالإضافة أحدُ الأمرَين المشهورَين فيه استعمالاً، وثانيهما كونُه مفرداً، ولكون الإفراد مشهوراً في الاستعمال أُطلق عليه الأَصل، فهو أصلٌ بحسَب الاستعمال.

ولا ينافي هذا قولُ ابنِ الحاجب: إنَّ الأصلَ في التمييز مطلقاً الجمع، كما سمعتَ آنفاً؛ لأنَّه أراد أنَّه الأصلُ المرفوضُ قياساً، نظراً إلى أنَّ المئةَ جمعٌ كثلاثةٍ وأربعةٍ ونحوِهما، كذا في «الكشف»، وقد يَخرج عن الاستعمالِ المشهورِ فيأتي مفرداً منصوباً، كما في قوله:

إذا عاش الفتى مئتينِ عاماً فقد ذهب اللَّذاذةُ والفَتاءُ[٢]

وقد يأتي جمعاً مجروراً بالإضافة، كما في الآية على قراءة الكِسائيِّ وحمزةَ ومَن معهما، لكن قالوا: إنَّ الجمعَ المذكورَ فيها قد أُجري مُجرَى العاري عن علامةِ الجمع؛ لِمَا أنَّ العلامةَ فيه ليست متمحِّضةً للجمعية، لأنَّها كالعِوَض عن لام مفردِه المحذوفة، حتى إنَّ قوماً لا يُعربونه بالحروف، بل يُجرونه مُجرَى حين، ولم أجدْ فيما عندي من كتب العربيةِ شاهداً من كلام العربِ لإضافة المئةِ إلى جمع، وأكثرُ النَّحويين يوردون الآيةَ على قراءة حمزةَ والكسائيِّ شاهداً لذلك، وكفى بكلام اللهِ تعالى شاهداً.

وقرأ أُبَيّ: «ثلاثَ مئةِ سَنَة» بالإضافة والإفراد[٣]، كما هو الاستعمالُ الشائع، وكذا في مصحفِ ابنِ مسعود[٤].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١١٧ وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١٠، وقراءة خلف في النشر.

(٢) قائله الربيع بن ضَبُع الفَزاري، كما في الكتاب ١/ ٢٠٨، والخزانة ٣/ ٣٠٦ (دار صادر).

(٣) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١١٧.

(٤) البحر ٦/ ١١٧.

وقرأ الضحَّاك: «ثلاثَ مئةٍ سِنونٍ» بالتنوين ورفعِ «سِنونَ» على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هي سِنون[1].

وقرأ الحسنُ وأبو عَمرٍو في رواية اللؤلؤيِّ عنه: «تَسعاً» بفتح التاءِ[2]، وهو لغةٌ فيه فاعلَمْ، واللهُ تعالى أعلم.

﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: جميعُ ما غاب فيهما، وخَفِي من أحوال أهلِهما، فالغيبُ مصدرٌ بمعنى الغائبِ والخفيّ، جُعل عينَه للمبالغة، واللامُ للاختصاص العلميّ، أي: له تعالى ذلك علماً، ويلزم منه ثبوتُ علمِه سبحانَه بسائر المخلوقات؛ لأنَّ مَن عَلِمَ الخفيَّ عَلِمَ غيرَه بالطريق الأَوْلى.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ صيغتا تعجُّب، والهاءُ ضميرُه تعالى، والكلامُ مندرجٌ تحت القول، فليس التعجُّب منه سبحانه ليقال: ليس المرادُ منه حقيقتَه لاستحالتِه عليه تعالى، بل المرادُ أنَّ ذلك أمرٌ عظيمٌ مِن شأنه أن يُتعجَّبَ منه كما قيل، ولا يمتنع صدورُ التعجُّب من بعض صفاتِه سبحانه وأفعالِه عزَّ وجلَّ حقيقةً من غيره تعالى.

وفي الحديث[3]: «ما أَحلمَك عمَّن عصاك، وأقربَك ممَّن دعاك، وأَعطفَك على مَن سألك» ولهم في هذه المسألةِ كلامٌ طويل، فليرجعْ إليه مَن أَراده، ولابن هشامٍ رسالةٌ في ذلك.

وأيًّاما كان، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ شأنَ بصرِه تعالى وسمعِه عزَّ وجلّ - وهما صفتان غيرُ راجعتَين إلى صفة العلم - خارجٌ عمَّا عليه بصرُ المبصِرين وسمعُ السامعين، فإنَّ اللطيفَ والكثيفَ، والصغيرَ والكبير، والجليَّ والخفيّ، والسِّرَّ والعلن، على حدٍّ سواءٍ في عدم الاحتجاب عن بصره وسمعِه تبارك وتعالى، بل مِن الناس مَن قال: إنَّ المعدومَ والموجودَ في ذلك سواء، وهو مبنيٌّ على شيئيَّة المعدوم، والخلافُ في ذلك معلوم، ولعل تقديمَ ما يدلُّ على عِظَم شأنِ بصرِه عزَّ وجلَّ لِمَا أنَّ ما نحن بصدده مِن قَبيل المُبصَرات.

---

(١) البحر ٦/ ١١٧.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١١٧.
(٣) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٦/ ٩٣، ولم نقف عليه حديثاً.

والأصل: أَبْصَرَ وأَسْمَعَ، والهمزةُ للصَّيرورة، لا للتعدية، أي: صار ذا بَصَر، و: صار ذا سَمْع، ولا يقتضي ذلك عدمَ تحقُّقِهما له تعالى، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، وفيهما ضميرٌ مستترٌ عائدٌ عليه سبحانه، ثم حوِّلا إلى صيغة الأَمر، وبرز الضميرُ الفاعلُ لعدم ليَاقةِ صيغةِ الأمر لتحمُّل ضميرِ الغائب، وجُرَّ بالباءِ الزائدة، فكان له محلَّان: الجرُّ لمكان الباء، والرفعُ لِمكان كونِه فاعلاً، ولكونه صار فَضلةً صورةً، أُعطي حكمَها، فصحَّ حذفُه من الجملة الثانيةِ مع كونِه فاعلاً، والفاعلُ لا يجوز حذفُه عندهم، ولا تكاد تُحذَف هذه الباءُ في هذا الموضعِ إلَّا إذا كان المتعجَّب منه إنْ وصِلَتَها، نحو: أَحسِنْ أن تقولَ، وهذا الفعلُ لكونه ماضياً معنًى قيل: إنَّه مبنيٌّ على فتحٍ مقدَّر مَنَعَ مِن ظهوره مجيئُه على صورةِ الأمر، وهذا مذهبُ سيبويه في هذا التركيب.

قال الرَّضِيّ: وضعِّف ذلك بأنَّ الأمرَ بمعنى الماضي ممَّا لم يُعهَد، بل جاءَ الماضي بمعنى الأمر، كما في حديث: «اتَّقى اللهَ امرؤٌ فعل خيراً يُثَبْ عليه»(١) وبأنَّ: صار ذا كذا، قليلٌ، ولو كان ما ذكر منه، لَجاز: أَلحِمْ بزيدٍ وأَشحِم بزيد، وبأنَّ زيادةَ الباءِ في الفاعل قليل، والمطَّرد زيادتُها في المفعول.

وتعقِّب بأنَّ كونَ الأمرِ بمعنى الماضي ممَّا لم يُعهَد غيرُ مسلَّم، ألا ترى أنَّ كفَى به بمعنى اكتفِ به عند الزجَّاج، وقصد بهذا النقلِ الدَّلالة على أنَّه قصد به معنًى إنشائيّ هو التعجُّب، ولم يقصد ذلك من الماضي؛ لأنَّ الإنشاءَ أنسبُ بصيغة الأمرِ منه؛ لأنَّه خبرٌ في الأكثر، وبأنَّ كثرةَ أَفْعَلَ بمعنى: صار ذا كذا، لا تخفَى على المتتبِّع، وجوازُ أَلحِم بزيدٍ على معنى التعجُّب لازم، ولا محذورَ فيه، وعلى معنًى آخَرَ غيرُ لازم، نعم ما ذكر من قِلَّة زيادةِ الباءِ في الفاعل ممَّا لا كلامَ فيه.

والإِنصافُ أنَّ مذهبَ سيبويه في هذه المسألةِ لا يخلو عن تعسُّف، ومذهبُ الأَخفش ـ وعزاه الرَّضيُّ إلى الفرَّاء ـ أنَّ أَفعِلْ في نحو هذا التركيبِ أمرٌ لفظاً ومعنًى، فإذا قلت: أَحسِن بزيد، فقد أمرتَ كلَّ واحدٍ بأن يجعلَ زيداً حسناً، ومعنى

(١) شاهد نحوي هو قول لبعض العرب، ولم نقف عليه حديثاً، ينظر مغني اللبيب ص ١٤٤ و٥٢٢، وكتاب سيبويه ٣/ ١٠٠، وفيه: فعل خيراً بالواو، ومعناه: ليتَّق وليفعل.

جعلِه كذلك وصفُه به، فكأنَّك قلت: صفْه بالحُسن كيف شئتَ؛ فإنَّ فيه منه كلَّ ما يمكن أن يكونَ في شخص، كما قال الشاعر[1]:

لقد وجدتَ مكانَ القولِ ذا سَعَةٍ   فإنْ وجدتَ لساناً قائلاً فقُلِ

وهذا المعنى مناسبٌ للتعجُّب، بخلاف تقديرِ سيبويه، وأيضاً همزةُ الجعلِ أكثرُ من همزةِ صار ذا كذا، وإنْ لم يكن شيءٌ منهما ـ على ما قال الرَّضِي ـ قياساً مطَّرداً. واعتُبر الفاعلُ ضميرَ المأمور، وهو: كلُّ أحد؛ لأنَّ المرادَ أنَّه لظهور الأمرِ يؤمر كلُّ أحدٍ لا على التعيينِ بوصفه بما ذُكر، ولم يتصرَّف في أفعِل على هذا المذهبِ فيُسندَ إلى مثنًى أو مجموعٍ أو مؤنَّث؛ لِمَا ذكروا من عِلَّة كونِ فعل التعجُّبِ غيرَ متصرِّف، وهي مشابهتُه الحروفَ في الإنشاء، وكونُ كلِّ لفظٍ من ألفاظه صار عَلَماً لمعنًى من المعاني وإنْ كان هناك جملة، فالقياسُ ألَّا يتصرَّفَ فيه احتياطاً؛ لتحصيل الفهم، كأسماءِ الأعلام، فلذا لم يتصرَّف في نِعمَ وبئسَ في الأمثال، وسهَّل ذلك هنا انمحاءُ معنى الأمرِ فيه، كما انمحى معنى الجعلِ وصار لمحض إنشاء التعجُّب، ولم يبقَ فيه معنى الخطاب، والباءُ زائدةٌ في المفعول.

وأجاز الزجَّاجُ أن تكونَ الهمزةُ للصَّيرورة، فتكون الباءُ للتعدية، أي: صيَّره ذا حُسن. ثم إنَّه اعتذر لبقاءِ أَحسِن في الأحوال على صورةٍ واحدة؛ لكون الخطابِ لمصدر الفعل، أي: يا حُسنُ أَحسِن بزيد، وفيه تكلُّف وسَمَاجة.

وأيضاً نحن نقول: أَحسِن بزيدٍ يا عَمرو، ولا يخاطَب شيئان في حالةٍ إلَّا أن يقول: معنى خطابِ الحُسن قد انمحى، وثمرةُ الخلافِ بين سيبويه وغيره تظهر فيما إذا اضطرَّ إلى حذف الباء، فعلى مذهبِ سيبويه يلزم رفعُ مجرورِه، وعلى غيره يلزم نصبُه.

هذا وقال ابنُ عطية[2]: يحتمل أن يكونَ معنى الآية: أَبصِر بدين اللهِ تعالى وأَسمِع به، أي: بُصِر بهُدى اللهِ تعالى وسُمِع به، فترجع الهاءُ إمَّا على الهدى، وإمَّا على الاسمِ الجليل. ونُقل ذلك عن ابن الأنباري، وليس بشيء.

---

(١) هو المتنبي، والبيت في ديوانه ٣/ ٢٠٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٠.

وقرأ عيسى: «أَبصرَ به وأَسمعَ»[١] بصيغة الماضي فيهما، وخرَّج ذلك أبو حيَّان[٢] على أنَّ المرادَ الإخبارُ لا التعجُّب، والضميرُ المجرورُ لله تعالى، أي: أَبصرَ عبادَه بمعرفته سبحانَه وأَسمَعَهم.

وجوَّز أن يكونَ «أَبْصَرَ» أفعلَ تفضيل، وكذا «أَسمَعَ» وهو منصوبٌ على الحاليَّة من ضميرِ «له»، وضميرُ «به» عائدٌ على الغيب، وليس المرادُ حقيقةَ التفضيل، بل عِظَم شأنِ بَصَره تعالى وسَمْعه عزَّ وجلّ. ولعل هذا أَقربُ ممَّا ذكره أبو حيَّان.

وحاصلُ المعنى عليه أنَّه جلَّ شأنُه يعلم غيبَ السماواتِ والأرضِ بصيراً به وسميعاً على أتمِّ وجهٍ وأعظمِه.

﴿مَا لَهُم﴾ أي: لأهل السماواتِ والأرضِ المدلولِ عليه بذِكرهما ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ مَن يتولَّى أمورَهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ﴾ في قضائه تعالى ﴿أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ كائناً مَن كان، ولا يجعلُ له فيه مَدخلاً.

وقيل: يحتمل أن يعودَ الضميرُ لأَصحاب الكهف، وإضافةُ «حكم» للعهد، على معنى: ما لهم مَن يتولَّى أمرَهم ويحفظُهم غيره سبحانه، ولا يُشرك في حكمه الذي ظهر فيهم أحداً من الخلق.

وجوَّز ابن عطيةَ[٣] أن يعودَ على معاصري رسولِ اللهِ ﷺ من الكفَّار المشاقِّين له عليه الصلاة والسلام، وجَعَلَ الآيةَ اعتراضاً بتهديد.

وقيل: يحتمل أن يعودَ على مؤمني أهلِ السماواتِ والأرض، والمرادُ أنَّهم لن يتَّخذوا من دونِه تعالى وليًّا.

وقيل: يعود على المختلفين في مدَّة لَبثِ أصحابِ الكهف، أي: لا يتولَّى أمرَهم غيرُ اللهِ تعالى، فهم لا يَقدرون بغير إقداره سبحانه، فكيف يعلمون بغير إعلامِه عزَّ وجلّ. والكلُّ كما ترى.

---

(١) القراءات الشاذة ص٧٩.
(٢) في البحر ٦/ ١١٧.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١١.

ثم لا يخفَى عليك أنَّ ما في النَّظم الكريمِ أبلغُ في نفي الشريكِ من أن يقال: مِن وليٍّ ولا شريك.

وقرأ مجاهدٌ: «ولا يُشرِكْ» بالياء آخرِ الحروفِ والجزم(١). قال يعقوب: لا أعرف وجهَ ذلك. ووجَّهه بعضُهم بأنَّه سكَّن بنيَّة الوقف.

وقرأ ابنُ عامر، والحسن، وأبو رجاءٍ، وقتادة، والجحدريّ، وأبو حَيْوة، وزيد، وحُميد بنُ الوزير عن يعقوب، والجُعفيّ واللؤلؤيُّ عن أبي بكر: «ولا تُشرِكْ»(٢) بالتاء ثالثِ الحروفِ والجزم، على أنَّه نهيٌ لكلِّ أحدٍ عن الشِّرك، لا نهيٌ له ﷺ، ولو جُعِل له عليه الصلاة والسلام لَجُعل تعريضاً بغيره، كقوله: إياكِ أَعني واسمعي يا جارة، فيكون مآلُه إلى ذلك.

وجوِّز أن يكونَ الخطابُ له ﷺ، ويجعل معطوفاً على «لا تقولن» والمعنى: لا تسألْ أحداً عمَّا لا تعرفه من قصَّة أصحابِ الكهفِ ولبثهم، واقتصرْ على ما يأتيكَ في ذلك من الوحي. أو: لا تسألْ أحداً عمَّا أَخبرك اللهُ تعالى به من نبأ مدَّةِ لَبثهم، واقتصرْ على بيانهِ سبحانه.

ولا يخفَى ما فيه من كثرة مخالفةِ الظاهرِ وإنْ كان أشدَّ مناسبةً لقوله تعالى﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ﴾ ووجهُ الربطِ على القراءةِ المشهورة - حَسبما تقدَّم من تفسيرها - أنَّه سبحانه لمَّا ذكر قصةَ أصحابِ الكهفِ وكانت من المغيَّبات بالإِضافة إليه ﷺ ودلَّ اشتمالُ القرآنِ عليها على أنَّه وحيٌ معجزٌ من حيثية الاشتمالِ وإنْ كانت جهةُ إعجازِه غيرَ منحصرةٍ في ذلك، أَمَره جلَّ شأنُه بالمواظبة على دَرسِه بقوله سبحانه: «واتل...» إلخ. وهو أمرٌ من التِّلاوة بمعنى القراءة، أي: لازِمْ تلاوةَ ذلك على أَصحابك، أو مطلقاً، ولا تكترثْ بقول مَن يقول لك: ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله.

وجوِّز أن يكونَ «اتل» أمراً من التُّلوّ، بمعنى الاتِّباع، أي: اِتَّبع ما أُوحي إليك والزم العملَ به.

---

(١) البحر ٦/ ١١٧.

(٢) البحر ٦/ ١١٧. وقراءة ابن عامر في التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١٠.

وقيل: وجهُ الربطِ أنَّه سبحانه لمَّا نهاه عن المِراء المتعمَّق فيه وعن الاستفتاء، أَمَره سبحانه بأنْ يتلوَ ما أُوحي إليه من أمرهم، فكأنَّه قيل: اِقرأ ما أُوحي إليك مِن أمرهم واستغنِ به ولا تتعرَّضْ لأكثرَ من ذلك، أو: اتَّبع ذلك وخُذْ به، ولا تتعمَّق في جدالهم، ولا تستفتِ أحداً منهم. فالكلامُ متعلِّق بما تقدَّم من النَّواهي، والمرادُ بـ «ما أُوحي» إلخ هو الآياتُ المتضمِّنة شرحَ قصةِ أصحابِ الكهف.

وقيل: متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي: قل لهم ذلك واتلُ عليهم إخبارَه عن مدَّة لَبثهم، فالمراد بـ «ما أُوحي» إلخ: ما تضمَّن هذا الإخبار. وهذا دونَ ما قبلَه بكثير، بل لا ينبغي أنْ يلتفتَ إليه، والمعوَّل عليه أنَّ المرادَ بـ «ما أُوحي» ما هو أعمُّ ممَّا تضمَّن القصةَ وغيره من كتابه تعالى.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ لا يَقدِر أحدٌ على تبديلها وتغييرِها غيرُه، وأمَّا هو سبحانه فقدرتُه شاملةٌ لكلِّ شيء، يمحو ما يشاءُ ويُثبت. ويُعلَم ممَّا ذُكر اندفاعُ ما قيل: إنَّ التبديلَ واقع؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ [النحل:١٠١] الآيةَ.

والظاهرُ عمومُ الكلماتِ الأخبارَ وغيرَها، ومن هنا قال الطبرسيّ(١): المعنى: لا مغيِّرَ لِمَا أَخبر به تعالى ولا لِمَا أَمَر، والكلامُ على حذفِ مضاف، أي: لا مبدِّلَ لحكم كلماتِه. انتهى.

لكن أنت تعلم أنَّ الخبرَ لا يقبل التبديلَ، أي: النَّسخ، فلا تتعلَّق به الإرادةُ حتى تتعلَّقَ به القدرة، لئلَّا يلزمَ الكَذِبُ المستحيلُ عليه عزَّ شأنُه.

ومنهم مَن خصَّ الكلماتِ بالأخبار؛ لأنَّ المقامَ للإخبار عن قصَّة أصحابِ الكهف، وعليه لا يُحتاج إلى تخصيص النكرةِ المنفيَّة؛ لِمَا سمعتَ من حال الخبر، وقولُ الإمام(٢): إنَّ النسخَ في الحقيقةِ ليس بتبديل؛ لأنَّ المنسوخَ ثابتٌ في وقته إلى وقت طَريانِ الناسخ، فالناسخُ كالمغاير(٣)، فكيف يكون تبديلاً = توهُّمٌ لا يُقتدَى به.

---

(١) في مجمع البيان ١٥/١٤٧.

(٢) في التفسير الكبير ٢١/ ١١٤.

(٣) في التفسير الكبير: كالغاية.

ومن الناس مَن خصَّ الكلماتِ بمواعيده تعالى لعباده الموحِّدين، فكأنَّه قيل: اتلُ ما أُوحي إليك ولا تبالِ بالكَفَرة المعاندين، فإنَّه قد تضمَّن من وعد الموحِّدين ما تضمَّن، ولا مبدِّلَ لذلك الوعد، ومآلُه: اتلُ ولا تبال، فإنَّ الله تعالى ناصرُك وناصرُ أصحابِك. وهو كما ترى وإنْ كان أشدَّ مناسبةً لما بعدُ.

والضميرُ ـ على ما يظهر من «مَجمَع البيان»[1] ـ للكتاب، ويجوز أن يكونَ للربِّ تعالى، كما هو الظاهرُ في الضمير في قولِه سبحانه: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: ملجأً تعدل إليه عند إلمام مُلمَّة. وقال الإمامُ: في البيان والإرشاد[2]، وأصلُه من الالتحادِ بمعنى الميل. وجوَّز الراغب[3] فيه أن يكونَ اسمَ مكان، وأن يكونَ مصدراً. وفسَّره ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما هنا بالمدخل في الأرض، وأنشد عليه ـ حين سأله نافعُ بن الأرزقِ ـ قولَ خصيبِ الضَّمري:

يا لهفَ نفسي ولهفٌ غيرُ مُجديةٍ عني وما عن قضاءِ اللهِ ملتحدُ[4]

ولا داعيَ فيه لتفسيره بالمدخل في الأرض ليُلتجأ إليه.

ثمَّ إذا كان المعنيُّ بالخطاب سيِّدَ المخاطَبين ﷺ، فالكلامُ مبنيٌّ على الفرْض والتقدير؛ إذ هو عليه الصلاة والسلام بل خلَّصُ أمَّتِه لا تحدِّثهم أنفسُهم بطلب ملجأٍ غيره تعالى، نسأله سبحانه أن يجعلَنا ممَّن التجأ إليه، وعوَّل في جميع أمورِه عليه، فكفاه جلَّ وعلا ما أهمَّه، وكشف عنه غياهبَ كلِّ غُمَّه.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ قد تقدَّم أنَّ مقامَ العبوديةِ لا يُشابهه مقامٌ ولا يدانيه، ونبيُّنا ﷺ في أعلى مراقيه. وقد ذُكِر أنَّ العبدَ الحقيقيَّ مَن كان حرًّا عن الكونَين، وليس ذاك إلَّا سيِّدُهما ﷺ.

---

(١) ١٥/ ١٤٧.

(٢) أي: ولن تجد من دونه ملتحداً في البيان والإرشاد. تفسير الرازي ٢١/ ١١٤.

(٣) في المفردات (لحد).

(٤) أخرجه ابن الأنباري في الوقف والابتداء ١/ ٩٠.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ قد تقدَّم في التفسير أنَّ الضميرَ المجرورَ عائدٌ على «الكتاب»، وجَعَله بعضُ أهلِ التأويلِ عائداً على «عبده»، أي: لم يجعلْ له عليه الصلاة والسلام انحرافاً عن جنابِه وميلاً إلى ما سواه، وجَعَله مستقيماً في عبوديَّته سبحانه، وجَعَلَ الأمرَ في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] أمرَ تكوين.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ وهو بأسُ الحجاب، والبُعدِ عن الجناب، وذلك أشدُّ العذاب ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ وهي الأعمالُ التي أُريد بها وجهُ اللهِ تعالى لا غير. وقيل: العملُ الصالح: التبرِّي من الوجودِ بوجود الحقِّ ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهي رؤيةُ المولى ومشاهدةُ الحقِّ بلا حجاب.

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ فيه إشارةٌ إلى مزيد شفقتِه ﷺ واهتمامِه وحرصِه على موافقة المخالفين وانتظامِهم في سِلك الموافقين.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من الأنهار والأشجارِ والجبالِ والمعادنِ والحَيَوانات ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ أي: لأهلها ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيجعل ذلك مرآةً لمشاهدة أنوارِ جلالِه وجمالِه سبحانه عزَّ وجلّ. وقال ابنُ عطاء: حسنُ العمل: الإعراضُ عن الكلّ. وقال الجنيد: حُسنُ العمل: اتِّخاذُ ذلك عِبرةً وعدمُ الاشتغالِ به. وقال بعضُهم: أهلُ المعرفةِ بالله تعالى والمحبَّةِ له هم زينةُ الأرض، وحسنُ العملِ: النظرُ إليهم بالحُرمة.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ كناية عن ظهور فَناءِ ذلك بظهور الوجودِ الحقَّاني والقيامةِ الكبرى.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ قال الجنيدُ قدَّس اللهُ سرَّه: أي: لا تتعجَّبْ منهم، فشأنُك أعجبُ من شأنهم، حيث أَسرى بك ليلاً من المسجد الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى، وبلغ بك سِدرةَ المنتهَى، وكنتَ في القُرب كقابِ قوسَين أو أدنَى، ثم ردَّك قبل انقضاءِ الليلِ إلى مضجعك.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ قيل: هم فتيانُ المعرفةِ الذين جُبلوا على سجيَّة الفُتُوَّة، وفتوَّتُهم إعراضُهم عن غير اللهِ تعالى، فأَوَوا إلى كهف الخلوةِ به سبحانه

﴿فَقَالُواْ﴾ حين استقاموا في منازل الأُنس، ومشاهدِ القدس، وهيَّجهم ما ذاقوا إلى طلب الزِّيادة، والترقِّي في مراقي السَّعادة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ معرفةً كاملةً، وتوحيداً عزيزاً ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ بالوصول إليك، والفن٠اءِ فيك.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ كناية عن جعلهم مستغرقين فيه سبحانه، فانين به تعالى عمَّا سواه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ إشارةٌ إلى ردِّهم إلى الصَّحو بعد السُّكر، والبقاءِ بعد الفناء. ويقال أيضاً: هو إشارةٌ إلى الجَلوةِ بعد الخَلوة. وهما قولانِ متقاربان.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ الإيمانَ العلميَّ ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ بأَنْ أَحضرناهم وكاشفناهم ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ سكَّناها عن التزلزُل بما أَسكنَّا فيها من اليقين، فلم يسنحْ فيها هواجسُ التخمين، ولا وساوسُ الشياطين. ويقال أيضاً: رفعناها من حضيض التلوينِ إلى أَوج التمكين.

﴿إِذْ قَامُواْ﴾ بنا لنا ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مالكُ أمرِهما ومدبِّرُهما، فلا قيامَ لهما إلَّا بوجوده، المفاضِ من بحار جودِه ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ إذ ما من شيءٍ إلَّا وهو محتاجٌ إليه سبحانه، فلا يصلحُ لأن يُدعى ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ كلاماً بعيداً عن الحقّ، مُفرِطاً في الظلم.

واستدلَّ بعضُ المشايخِ بهذه الآيةِ على أنَّه ينبغي للسالكين إذا أرادوا الذِّكرَ وتحلَّقوا له أنْ يقوموا فيذكروا قائمين. قال ابنُ الفرس[1]: وهو استدلالٌ ضعيف، لا يقوم به المدَّعى على ساقٍ.

وأنت تعلم أنَّه لا بأسَ بالقيام والذِّكر، لكن لا على ما يفعله المتشيِّخون اليوم؛ فإنَّ ذلك لم يكن في أمَّةٍ من الأمم، ولم يجئْ في شريعة نبيِّنا ﷺ، بل لَعَمري إنَّ تلك الحِلَقَ حبائلُ الشيطان، وذلك القيامُ قعودٌ في بُحبوحة الخِذلان.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: وإذ خرجتم عن صُحبة أهلِ الهوى، وأعرضتم عن السِّوى ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ فاخلُوا بمحبوبكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ

(١) في (م): الغرس، ولم تجوَّد في الأصل، والمثبت من الإكليل للسيوطي ص ١٧٠، وعنه نقل المصنف.

رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ مطويٌّ معرفتِه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ما تنتفعون به من أنوار تجلِّياته، ولطائفِ مشاهداتِه.

قال بعضُ العارفين: العزلةُ عن غير اللهِ تعالى توجب الوُصلةَ بالله عزَّ وجلّ، بل لا تحصل الوُصلةُ إلَّا بعدَ العزلة، ألا ترى كيف كان رسولُ اللهِ ﷺ يتحنَّث بغار حِراءَ حتى جاءه الوحيُ وهو فيه؟

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ لئلَّا يكثرَ الضوءُ في الكهف، فيقلَّ معه الحضور، فقد ذكروا أنَّ الظلمةَ تُعين على الفِكر وجمعِ الحواسّ، ومن هنا ترى أهلَ الخلوةِ يختارون لخلوتهم مكاناً قليلَ الضِّياء، ومع هذا يُغمضون أعينَهم عند المراقبة.

وفي «أسرار القرآن» أنَّ في الآية إشارةً إلى أنَّ اللهَ تعالى حَفِظهم عن الاحتراق في السُّبُحات، فجعل شمسَ الكبرياءِ تَزَاور عن كهف قُربِهم ذاتَ يمينِ الأزلِ وذاتَ شِمال الأبد، وهم في فجوةِ وصالِ مشاهدةِ الجمال والجلال، محروسون محفوظون عن قَهر سلطانِ صرفِ الذَّات الأزليةِ التي تتلاشى الأكوانُ في أوَّل بوادي إشراقِها.

وفي الحديث(١): «حجابُه النُّور، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه كلَّ شيءٍ أدركه بصرُه».

وقيلَ في تأويله: إنَّ شمسَ الرُّوح أو المعرفة والوِلاية، إذا طلعت من أُفق الهداية، وأَشرقت في سماءِ الواردات، وهي حالةُ السُّكر وغَلَبَةِ الوجد، لا تنصرفُ في خَلْوتهم إلى أمرٍ يتعلَّق بالعُقبَى، وهو جانبُ اليمين، وإذا غربت، أي: سكنت تلك الغَلَبةُ وظهرت حالةُ الصَّحو، لا تلتفت هِمَمُ أرواحِهم إلى أمرٍ يتعلَّق بالدنيا، وهو جانبُ الشِّمال، بل تنحرف عن الجهتَين إلى المولى، وهم في فراغٍ عمَّا يَشغلهم عن اللهِ تعالى.

وذُكر أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ نورَ ولايتهم يغلب نورَ الشمسِ ويردُّه عن الكهف، كما يغلب نورُ المؤمنِ نار جهنم. وليس هذا بشيءٍ وإنْ رُوي عن ابنِ عطاء.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وسلف ١/ ١٣٢.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي رُفعت عنه الحُجُبُ ففاز بما فاز ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ لأنَّه لا يَخذُله سبحانه إلَّا لسوء استعدادِه، ومتى فُقد الاستعدادُ تعذَّر الإرشاد.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم مع الخلق بأبدانهم، ومع الحقِّ بأرواحهم. وقال ابنُ عطاء: هم مقيمون في الحضرة كالنَّومَى، لا علمَ لهم بزمانٍ ولا مكان، أحياءٌ موتى، صرعَى مُفيقون، نومَى منتبهونَ.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: ننقلُهم من عالَمٍ إلى عالَم. وقال ابنُ عطاء: نقلِّبهم في حالتَي القبضِ والبسط، والجمعِ والفرق. وقال آخَر: نقلِّبهم بين الفناءِ والبقاء، والكشفِ والاحتجاب، والتجلِّي والاستتار. وقيل: في الآية إشارةٌ إلى أنَّهم في التسليم كالميِّت في يد الغاسل.

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ قال أبو بكرٍ الورَّاق: مجالسةُ الصالحين ومجاورتُهم غنيمةٌ وإن اختلف الجِنس، أَلَا ترى كيف ذكر اللهُ سبحانه كلبَ أصحابِ الكهفِ معهم لمجاورته إيَّاهم.

وقيل: أُشير بالآية إلى أنَّ كلاب نفوسِهم نائمةٌ معطَّلة عن الأعمال.

وقيل: يمكن أن يرادَ أنَّ نفوسَهم صارت بحيث تُطيعهم جميعَ الأحوالِ وتَحرُسهم عما يَضرُّهم.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لو اطَّلعتَ من حيث أنت على ما ألبسْتُهم من لباس قهرِ ربوبيَّتي وسَطَواتِ عَظَمتي ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ أي: من رؤيةِ ما عليهم من هَيبتي وعَظَمتي ﴿فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ كما فرَّ موسى كليمي من رؤيةِ عصاه حين قلبتُها حيَّةً وألبستُها ثوباً من عَظَمتي وهَيبتي، وهذا الفرارُ حقيقةٌ منَّا؛ لأنَّه مِن عظمتنا الظاهرةِ في هاتيكَ المرآة. كذا قرَّره غيرُ واحد، ورُوي عن جعفرٍ الصادقِ رضي الله عنه.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ رددناهم إلى الصَّحو بعد السُّكر ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنَّهم كانوا مستغرقين لا يَعرفون اليومَ من الأمس، ولا يميِّزون القمرَ من الشمس. وقيل: إنَّهم استقلُّوا أيامَ الوِصال، وهكذا شأنُ عشَّاقِ الجمال، فسَنَة الوصل في سُنَّتهم سِنَة، وسِنَةُ الهجرِ سَنَة.

ويقال: مقامُ المحبِّ مع الحبيبِ وإنْ طالَ قصير، وزمانُ الاجتماعِ وإنْ كَثُرَ يسير؛ إذ لا يُقضَى من الحبيب وَطَر، وإنْ فَنِي الدهرُ ومرَّ، ولا يكاد يَعدُّ المحبُّ الليال، إذا كان قريرَ العينِ بالوصال، كما قيل:

أَعـدُّ الـلـيـالـيْ لـيـلـةً بـعـدَ لـيـلـةٍ وقد عِشتُ دهراً لا أَعدُّ اللياليا[1]

ثم إنَّهم لمَّا رجعوا من السُّكر إلى الصَّحو، ومن الرُّوحانية إلى البشرية، طلبوا ما يعيشُ به الإنسان، واستعملوا حقائقَ الطريقة، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ والإشارةُ فيه أوَّلاً إلى أنَّ اللائقَ بطالبي اللهِ تعالى تركُ السؤال، ويُرَدُّ به على المتشيِّخين الذين دِينُهم ودَيدنُهم السؤال، وليتَه كان من الحلال.

وثانياً: إلى أنَّ اللائقَ بهم ألَّا يختصَّ أحدُهم بشيءٍ دونَ صاحِبه، أَلا ترى كيف قال قائلُهم: ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ﴾ فأضاف الوَرِقَ إليهم جملةً، وقد كان ـ فيما يروى ـ فيهم الرَّاعي ولعلَّه لم يكن له وَرِق.

وثالثاً: إلى أنَّ اللائقَ بهم استعمالُ الورع، أَلا ترى كيف طلب القائلُ الأزكى، وهو ـ على ما في بعض الرِّوايات ـ الأحلّ؛ ولذلك قال ذو النُّون: العارفُ مَن لا يُطفئُ نورُ معرفتِه نورَ ورعِه. والعجبُ أنَّ رجلاً من المتشيِّخين كان يأخذُ من بعض الظَّلَمةِ دنانيرَ مقطوعاً بحُرمتها، فقيل له في ذلك، فقال: نعم هي جَمَرات، ولكن تُطفئُ حرارةَ جوعِ السالكين، ومع هذا وأمثالِه له اليومَ مرقدٌ يطوف به مَن يزور، وتوقَد عليه السُّرج وتنذر له النُّذور.

ورابعاً: إلى أنَّه ينبغي لهم التواصي بحُسن الخُلق، وجميلِ الرِّفق، أَلا ترى كيف قال قائلُهم: «وليتلطف» بناءً على أنَّه أمرٌ بحسن المعاملةِ مع مَن يشتري منه.

وقال بعضُ أهلِ التأويل: إنَّه أمرٌ باختيار اللطيفِ من الطَّعام؛ لأنَّهم لم يأكلوا مدَّة، فالكثيفُ يضرُّ بأجسامهم. وقيل: أرادوا اللطيفَ لأنَّ أرواحَهم من عالَم القُدس، ولا يناسبها إلَّا اللُّطف، وعن يوسفَ بنِ الحسين[2] أنَّه كان يقول: إذا

---

(١) قائله مجنون ليلى، وهو في ديوانه ص٢٩٤.

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي، الإمام العارف، شيخ الصوفية. أخذ عن ذي =

اشتريتَ لأهل المعرفةِ شيئاً من الطعام، فلْيكن لطيفاً، وإذا اشتريتَ للزُّهَّاد والعبَّاد، فاشترِ كلَّ ما تَجِد، لأنَّهم بعدُ في تذليل أنفسِهم. وقال بعضُهم: طعامُ أهلِ المجاهداتِ وأصحابِ الرِّياضات ولباسُهم الخَشِنُ من المأكولاتِ والملبوسات، والذي بلغ المعرفةَ فلا يوافقه إلَّا كلُّ لطيف. ويُروَى عن الشيخِ عبدِ القادر الكيلانيِّ قدَّس اللهُ سرَّه أنَّه كان في آخر أمرِه يلبَس ناعماً ويأكل لطيفاً.

وعندي أنَّ التزامَ ذلك يُخلُّ بالكمال، وما يُروَى عن الشيخ قدِّس سرُّه وأمثاله إن صحَّ يحتمل أن يكونَ أمراً اتفاقيًّا، وعلى فرْض أنَّه كان عن التزام، يحتمل أنَّه كان لغرضٍ شرعيّ، وإلَّا فهو خلافُ المأثورِ عن النبيِّ ﷺ، وعن كبار أصحابِه ﷺ، فقد بيِّن في الكتب الصحيحةِ حالُهم في المأكلِ والملبس، وليس فيها ما يؤيِّد كلامَ يوسفَ بنِ الحسين وأضرابِه، واللهُ تعالى أعلم.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: من الأغيارِ المحجوبين عن مطالعة الأنوار والوقوفِ على الأسرار.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بأحجار الإنكار ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ التي اجتمعوا عليها ولم يُنزِل الله تعالى بها من سلطان، ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾ لأنَّ الكفرَ حينئذٍ يكون كالكفر الإبليسيِّ.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىٍءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إرشادٌ إلى محض التجريد والتفريد، ويُحكى عن بعض كبار الصوفية أنَّه أَمَرَ بعضَ تلامذته بفعل شيء، فقال: أفعله إن شاء الله تعالى. فقال له الشيخ بالفارسية ما معناه: يا مجنون، فإذاً مَن أنت؟! والآية تأبى هذا الكلامَ غايةَ الإباء، وفيه على مذهب أهل الوحدة أيضاً ما فيه.

وقيل: الآيةُ نهيٌ عن أن يخبر ﷺ عن الحقِّ بدون إذن الحقِّ سبحانه. ففيه إرشادٌ للمشايخ إلى أنه لا ينبغي لهم التكلُّم بالحقائق بدون الإذن، ولهم أماراتٌ للإذن يعرفونها.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ قيل: أي: إذا نسيتَ الكونَ بأسْره حتى نفسَك، فإنَّ

= النون المصري وأحمد بن حنبل وغيرهما. من كلامه: إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء. مات سنة (٣٠٤ هـ). السير ١٤/٢٤٨.

الذكر لا يصفو إلا حينئذٍ. وقيل: إذا نسيتَ الذكر، ومن هنا قال الجنيد قُدِّس سرُّه: حقيقةُ الذكر الفناءُ بالمذكور عن الذكر. وقال قُدِّس سِرُّه في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾: إنَّ فوق الذكر منزلةً هي أقرب منزلةً من الذكر وهي تجديد النعوت بذكره سبحانه لك قبل أن تذكره جلَّ وعلا.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ زعم بعضُ أهل التأويل أنَّ مجموعَ ذلك خمس وعشرون سنة، واعتبر السنةَ التي في الآية شهراً، وهو زعمٌ لا داعي إليه إلا ضعفُ الدين ومخالفةُ جماعة المسلمين، وإلا فأيُّ ضررٍ في إبقاء ذلك على ظاهره وهو أمرٌ ممكنٌ أخبر به الصادق، ومما يدلُّ على إمكان هذا اللبث أنَّ أبا عليّ ابن سينا ذكر في باب الزمان من «الشفاء» أنَّ أرسطو ذكر أنَّه عُرِضَ لقوم من المتألِّهين حالةٌ شبيهةٌ بحالة أصحاب الكهف. قال أبو عليٍّ: ويدلُّ التاريخ على أنَّهم قبلَ أصحاب الكهف. انتهى.

وفي الآية ـ على ما قيل ـ إشارةٌ إلى أنَّ المريدَ الذي يربِّيه الله سبحانه بلا واسطة المشايخ يصل في مدَّةٍ مديدةٍ وسنين عديدة، والذي يربِّيه جل جلاله بواسطتهم يتمُّ أمرُه في أربعينيات، وقد يتمُّ في أيامٍ معدودات. وأنا أقول: لا حجرَ على الله سبحانه، وقد أوصل جلَّ وعلا كثيراً من عباده بلا واسطة في سُويعاتٍ.

﴿لَهُۥ﴾ تعالى شأنه ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عالم العلوِّ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ عالم السفلِ، ولا يخفى أنَّ عنوان الغيبية إنما هو بالنسبة إلى المخلوقين، وإلا فلا غيبَ بالنسبة إليه جلَّ جلاله، ومن هنا قال بعضهم: إنه سبحانه لا يعلم الغيبَ بمعنى أنَّه لا غيبَ بالنسبة إليه تعالى ليتعلَّق به العلمُ. لكن أنت تعلم أنه لا يجوز التكلُّم بمثل هذا الكلام ـ وإن أوِّل بما أُوِّل ـ لِمَا فيه ظاهراً من مصادَمة الآيات. وإلى الله تعالى نشكو أقواماً ألغزوا الحقَّ وفتنوا بذلك الخلقَ.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصره تعالى وما أسمعه؛ لأنَّ صفاتِه عينُ ذاتِه، ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ إذ لا فعلَ لأحدٍ سواه تعالى ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ لكمال قدرته سبحانه وعَجْز غيرِه عزَّ شأنه. هذا، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ أي: احبِسْها وثَبِّتْها، يقال: صَبَرتُ زيداً، أي: حَبَستُه، وفي الحديث النهيُ عن صبرِ الحيوان[1]، أي: حبسِه للرمي، واستعمالُ ذلك في الثبات على الأمر وتحمُّلِه توسُّعٌ، ومنه الصبر بمعناه المعروف، ولم يُجْعل هذا منه لتعدِّي هذا ولزومِه.

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ﴾ أي: مصاحبةً مع الذين ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ أي: يعبُدونه دائماً، وشاع استعمالُ مثلِ هذه العبارة للدوام، وهي نظيرُ قولِهم: ضَرَب زيدٌ الظهرَ والبطنَ، يريدون به ضربَ جميع بدنه.

وأبقى غيرُ واحدٍ الغداةَ والعشيَّ على ظاهرِهما، ولم يُرِد عمومَ الأوقات، أي: يعبدونه في طَرَفَي النهار، وخُصَّا بالذكر؛ لأنَّهما محلُّ الغفلةِ والاشتغالِ بالأمور.

والمرادُ بتلك العبادة قيل: ذكرُ الله تعالى، ورُوي ذلك من طريق مُغيرة عن إبراهيم. وقيل: قراءةُ القرآن، ورُوي ذلك عن عبيد الله بن عبد الله بن عديٍّ بن الخيار[2]. وأخرج الحكيم الترمذي عن ابن جبير أنَّ المرادَ بها المفاوَضةُ في الحلال والحرام[3].

وعن ابن عمر ومجاهد: هي شهودُ الصلوات الخمس. وعن قتادة: شهودُ صلاة الصبح والعصر[4]. وفيما تقدَّم ما يؤيِّد ثاني الأقوال، وفيما بعدُ ما يؤيِّد ظاهرُه أولَها، فتدبَّر جِدًّا.

والمراد بالموصول فقراءُ الصحابة: عمار وصهيب وسلمان وابن مسعود وبلال وأضرابُهم؛ قال كفَّارُ قريش كأميَّة بن خَلَف وغيره من صناديدِ أهل مكة: لو أبعدتَ هؤلاء عن نفسك لجالَسْناك، فإنَّ ريحَ جِبابِهم تُؤذينا. فنزلت الآية[5].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٦)، وابن ماجه (٣١٨٦) عن أنس بن مالك ﷺ.
(٢) قول إبراهيم وعبيد الله عزاهما السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٠ لابن أبي حاتم.
(٣) عزاه للحكيم الترمذي السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٠.
(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٠١، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٢، وقول ابن عمر أخرجه الطبري ٩/ ٢٦٥.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٩٨، وأسباب النزول للواحدي ص٢١٣، وللسيوطي ص٢٤١.

وأخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان»، عن سلمان قال: جاءت المؤلَّفةُ قلوبُهم إلى رسول الله ﷺ، عيينةُ بن بدر والأقرعُ بن حابسٍ فقالوا: يا رسول الله، لو جلستَ في صدر المجلس، وتغيَّبْتَ عن هؤلاءِ وأرواحِ جبابهم - يعنون سلمان وأبا ذرٍّ وفقراءَ المسلمين، وكانت عليهم جِبابُ الصوف - جالسْناك أوحدَّثْناك وأخذْنا عنك. فأنزل الله تعالى ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا﴾ يتهدَّدهم بالنار[1].

ورَوى أبو الشيخ عن سلمان أنَّها لمَّا نزلت قام رسول الله عليه الصلاة والسلام يلتمِسُهم، حتى أصابهم في مؤخَّر المسجد يذكرون الله تعالى، فقال: «الحمد لله الذي لم يُمِتْني حتى أَمَرني أن أصْبِرَ نفسي مع رجالٍ من أمتي، معكم الحياةُ والمماتُ»[2].

والآية على هذا مدنية، وعلى الأول مكية، قال أبو حيان[3]: وهو أصحُّ؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ.

وأقول: أكثرُ الروايات تؤيِّد الثاني، وعليه تكون الآيات مستثناةً من حكم السورة، وكم مثل ذلك، وقد أخرج ما يؤيِّد الأولَ ابنُ مردويه من طريق جويبر عن الضحَّاك عن ابن عباس ﵄[4]، ولعلَّ الآيات بعدُ تؤيِّده أيضاً.

والتعبيرُ عن أولئك بالموصول لتعليل الأمر بما في حيِّز الصلة من الخصلة الداعية إلى إدامةِ الصُّحبة.

وقرأ ابن عامر: «بالغُدْوة»[5]. وخُرِّج ذلك على ما ذكره سيبويه والخليل من أنَّ بعضَ العربِ ينكِّر غدوةً فيقول: جاء زيد غدوةً. بالتنوين[6]. على أنَّ الرضي قال:

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٤٥، وشعب الإيمان (١٠٤٩٤)، وعزاه لابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢١٩.

(٢) عزاه لأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢١٩.

(٣) في البحر ٦/ ١١٨.

(٤) عزاه لابن مردويه السيوطيُّ في أسباب النزول ص٢٤١، وفي الدر ٤/ ٢٢٠.

(٥) التيسير ص١٠٢، والنشر ٢/ ٢٥٨.

(٦) سلف ٨/ ١٨٠، والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٩٥.

إنه يجوز استعمالها نكرةً اتفاقاً. والمشهورُ أنَّ الأكثرَ استعمالُها عَلَمَ جِنْسٍ ممنوعاً من الصرف، فلا تدخلُ عليها «أل»؛ لأنه لا يجتمع في كلمةٍ تعريفان، ومتى أُرِيد إدخالُها عليها قُصِد تنكيرُها، فأدخِلَت، كما قُصِد تنكيرُ العَلَم الشخصيِّ في قوله:

وقد كان منهم صاحبٌ وابنُ عمِّه أبو جَندلٍ والزيدُ زيدُ المعارِكِ[1]

والقراءةُ المذكورةُ مخرَّجة على ذلك، واختارَ بعضُ المحقِّقين التخريجَ الأول، وقال: إنه أحسنُ درايةً وروايةً؛ لأنَّ التنكيرَ في العلَم الشخصيِّ ظاهرٌ، وأمَّا في الجنسيِّ ففيه خفاءٌ؛ لأنَّه شائعٌ في أفراده قبل تنكيرِه، فتنكيرُه إنما يُتصوَّرُ بتركِ حضورِه في الذهن الفارقِ بينه وبين النكرة، وهو خفيٌّ، فلذا أنكره الفناريُّ[2] في حواشيه على «التلويح» في تنكيرِ رَجَب علَمِ الشهر[3]. انتهى، وللبحث فيه مجال.

وهذه الآية كما في «البحر»[4] أبلغُ من التي في «الأنعام»، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الآية: ٥٢].

﴿يُرِيدُونَ﴾ بذلك الدعاءِ ﴿وَجْهَهُۥ﴾ أي: رضاه سبحانه وتعالى دون الرياء والسمعة، بناءً على ما قاله الإمام السُّهيلي من أنَّ الوجهَ إذا أضيفَ إليه تعالى يُراد به الرضا والطاعةُ المرضيةُ مجازاً؛ لأنَّ مَن رَضِيَ على شخصٍ يُقْبل عليه، ومن غَضِب يُعرِض عنه.

وقيل: المرادُ بالوجهِ الذاتُ، والكلامُ على حذفِ مضافٍ. وقيل: هو بمعنى التوجُّه، والمعنى: يريدون التوجُّهَ إليه تعالى والزُّلفَى لديه سبحانه. والأول أولى.

والجملةُ في موضع الحال من فاعل «يدعون»، أي: يدعون مُرِيدين ذلك.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تَصرِفْ عيناك النظرَ عنهم إلى أبناءِ الدنيا، والمراد النهيُ عن احتقارِهم وصرف النظر عنهم لرَثاثةِ حالِهم إلى غيرِهم، فـ «عدا»

(١) البيت للأخطل، وهو في ديوانه ص ٢٧٥، وفيه: حاجب، بدل: صاحب.

(٢) هو المولى حسن جلبي بن محمد شاه الفناري الحنفي، محقق وصاحب الحواشي المفيدة، توفي سنة (٨٨٦ هـ). هدية العارفين ١/ ٢٨٨، وكشف الظنون ١/ ٤٩٦.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٩٥.

(٤) ٦/ ١١٨.

بمعنى «صَرَف» المتعدِّي إلى مفعولٍ بنفسه وإلى آخرَ بـ «عن»، قال في «القاموس»: يقال: عَدَاه عن الأمر عَدْواً وعُدْواناً: صَرَفه[1]. واختار هذا أبو حيان[2]، وهو الذي قدَّر المفعولَ كما سمعت، وقد تتعدَّى «عدا» إلى مفعولٍ واحدٍ بـ «عن»، كما تتعدَّى إليه بنفسها، فتكون بمعنى: جَاوَزَ وتَرَكَ؛ قال في «القاموس»: يقال: عدا الأمرَ وعنه: جاوزه وتَرَكه[3]. وجوِّز أن يكونَ معنى الآية على ذلك، كأنه قيل: لا تتركهم عيناك.

وقيل: إنَّ «عدا» حقيقةً معناه: تَجاوَزَ، كما صرَّح به الراغبُ[4]، والتجاوُز لا يتعدَّى بـ «عن» إلا إذا كان بمعنى العفو، كما صرَّحوا به أيضاً، وهو هنا غيرُ مرادٍ، فلا بُدَّ من تضمينِ عدا معنى نبا وعلا في قولك: نَبَتْ عنه عينُه، و: علَتْ عنه عينُه: إذا اقتحَمَتْه ولم تعلقْ به، وهو الذي ذهب إليه الزمخشريُّ ثم قال: لم يقل: ولا تعدهم عيناك، أو: ولا تَعْلُ عيناك عنهم، وارتُكِب التضمينُ؛ ليُعطِي الكلامُ مجموعَ معنيَين، وذلك أقوى من إعطاءِ معنًى فذٍّ، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تَقْتَحِمْهم عيناك مُجاوِزتَيْن إلى غيرهم[5].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ التضمينَ لا ينقاس عندَ البصريين، وإنما يذهب إليه عندَ الضرورة، أما إذا أمكن إجراءُ اللفظ على مدلوله الوضعيِّ فإنه يكون أولى[6].

واعتُرِض أيضاً ما قيل بأنَّه لا يلزم من اتحادِ الفعلَيْن في المعنى اتحادُهما في التعدية، فلا يلزم من كون «عدا» بمعنى «تجاوز» أن يتعدَّى كما يتعدَّى، ليقال: إنَّ التجاوُزَ لا يتعدَّى بـ «عن»، إلا إذا كان بمعنى العفو، وهو غيرُ مراد، فلا بدَّ من تضمينِ «عدا» معنى «فعل» متعدٍّ بـ «عن». ويكفي كلامُ «القاموس» مستنَداً لمن خالف الزمخشريَّ، فتدبَّر ولا تغفل.

---

(١) القاموس (عدو).
(٢) في البحر ٦/ ١١٩.
(٣) القاموس (عدو).
(٤) في المفردات (عدو).
(٥) الكشاف ٢/ ٤٨١. ووقع في الأصل و(م): لا تقحمهم عيناك. . .، والمثبت من المصدر.
(٦) البحر ٦/ ١١٩.

وقرأ الحسن: «ولا تُعْدِ عَيْنَيْك» بضمِّ التاء وسكونِ العين وكسرِ الدال المخفَّفة، من: أعداه، ونَصْبِ العينين. وعنه وعن عيسى والأعمش أنهم قرؤوا: «ولا تُعَدِّ عَينيك» بضمِّ التاء وفتح العين وتشديدِ الدال المكسورة، من عدَّاه يُعدِّيه، ونصبِ العينين أيضاً[1].

وجعل الزمخشريُّ[2] وصاحبُ «اللوامح» الهمزةَ والتضعيفَ للتعدية. وتعقَّب ذلك في «البحر» بأنه ليس بجيِّدٍ، بل الهمزةُ والتضعيفُ في هذه الكلمةِ لموافَقةِ أفْعَلَ وفَعَّلَ للفعل المجرَّد، وذلك لأنَّه قد أقرَّ الزمخشريُّ بأنَّها قبلَ ذَينك الأمرين متعدِّيةٌ بنفسها إلى واحدٍ، وعُدِّيت بـ «عن» للتضمين، فمتى كان الأمران للتعدية لَزِم أن تتعدَّى إلى اثنين، مع أنها لم تتعدَّ في القراءتين المذكورتين إليهما[3].

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالَسةَ مَن لم يكن مثلَهم من الأغنياء وأصحابِ الدنيا. والجملةُ على القراءة المتواترة حالٌ من كاف «عيناك»، وجازت الحالُ منه لأنه جزءُ المضاف إليه. والعاملُ ـ على ما قيل ـ معنى الإضافة، وليس بشيء.

وقال في «الكشف»: العاملُ الفعلُ السابق كما تقرَّر في قوله تعالى: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، ولك أن تقول ها هنا خاصَّةً: العينُ مقحَمةٌ للتأكيد، ولايبعُد أن يُجْعل حالاً من الفاعل، وتوحيدُ الضمير إما لاتحاد الإحساس، أو للتنبيه على مكانِ الإقحام، أو للاكتفاءِ بأحدهما عن الآخَر، أو لأنهما عُضْوٌ واحدٌ في الحقيقة، واستبشاعُ إسنادِ الإرادة إلى العين مندفِعٌ بأنَّ إرادتَها كنايةٌ عن إرادةِ صاحبِها، ألا ترى إلى ما شاع من نحوِ قولهم: يَستلِذُّه العينُ أو السمعُ، وإنَّما المستلِذُّ الشخصُ، على أنَّ الإرادةَ يُمكِن جعلُها مجازاً عن النظر للَّهْو لا للعِبَر. اهـ. ولا يخفى أنَّ فيه عدولاً عن الظاهر من غير داعٍ.

وقولُ بعضِهم: إنَّه لا يجوز مجيء الحالِ من المضافِ إليه في مثلِ هذا الموضع لاختلافِ العامل في الحال وذِيها = لا يصلُح داعياً؛ لظهورِ ضَعفِه.

---

(١) القراءتان في القراءات الشاذة ص٧٩، والمحتسب ٢/ ٢٧، والبحر ٦/ ١١٩.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٨٢.
(٣) البحر ٦/ ١١٩.

ثم الظاهرُ أنه لا فرقَ في جوازِ كون الجملة حالاً من المضافِ إليه أو المضافِ على تقديرِ أن يفسَّر «تَعْدُ» بـ «تُجاوِزُ»، وتقديرِ أن تفسَّر بـ «تَصْرف».

وخصَّ بعضُهم كونَها حالاً من المضافِ إليه على التقديرِ الأول، وكونَها حالاً من المضافِ على التقديرِ الثاني، ولعلَّه أمرٌ استحسانيٌّ، وذلك لأنَّ في أولِ الكلام على التقديرِ الثاني إسنادَ ما هو من الأفعال الاختيارية ليس إلَّا ـ وهو الصرفُ ـ إلى العين، فناسب إسنادَ الإرادة إليها في آخره، ليكونَ أولُ الكلام وآخرُه على طِرْزٍ واحدٍ، مع رعايةِ ما هو الأكثرُ في أحوالِ الأحوال من مجيئها من المضاف دون المضافِ إليه، وتضمَّن ذلك عدمَ مواجَهةِ الحبيب ﷺ بإسناد إرادةِ الحياة الدنيا إليه صريحاً وإن كانت مصبَّ النهْي.

وليس في أول الكلام ذلك على التقدير الأول، إذ الظاهرُ أنَّ التجاوُزَ ليس من الأفعال الاختيارية لا غير، بل يتصفُ به المختارُ وغيرُه، مع أنَّ في جعلِ الجملة حالاً من الفاعل على هذا التقدير ـ مع قول بعض المحقِّقين: إنَّ المتجاوِزَ في الحقيقة هو النظرُ ـ احتياجاً إلى اعتبارِ الشيء وتركِه في كلامٍ واحدٍ، وليس لك أن تجعلَه استخداماً بأنْ تُريدَ من العينين أولاً النظرَ مجازاً، وتُريدَ عند عَودِ ضميرِ «تُرِيْدُ» منهما الحقيقةَ؛ لأنَّ التَّثْنية تأبى ذلك، وإن اعتُبِر ذلك أولاً وآخِراً ولم يُتْرَك احتِيجَ إلى مؤنٍ لا تخفى على المتأمِّل، فتأمَّل وتدبَّر.

وهي على القراءتين الشاذَّتَيْن حالٌ من فاعل الفعل المستَتِر، أي: لا تُعْدِ ـ أو: لا تُعَدِّ ـ عينيك عنهم مريداً ذلك.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في تنحيةِ الفقراء عن مجلِسِك ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي: جعلنا قلبَه غافلاً ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ لبطلانِ استعدادِه للذكر بالمرَّةِ، كأولئك الذين يَدْعُونك إلى طردِ الفقراء، فإنَّهم غافلون عن ذكرنا، على خلافِ ما عليه أولئك الفقراءُ مِن الدعاء في الغَداة والعَشيِّ. وفيه تنبيهٌ على أنَّ الباعثَ لهم إلى استدعاء الطرد غفلةُ قلوبِهم عن جنابِ الله تعالى شأنُه وملاحظةِ المعقولات وانهماكُه في الحسِّيَّات، حتى خفي عليه[1] أنَّ الشرَفَ بحليةِ النفس لا بزينةِ الجسد.

---

(١) قوله: وانهماكه في الحسيات حتى خفي عليه، كذا في الأصل و(م) بإفراد الضمير في «انهماكه» و«عليه»، والأنسب للسياق جمعه، ينظر تفسير أبي السعود ٥/ ٢١٩.

ومعنى الذكر ظاهر، وفسَّره المفضل بالقرآن(١). والآيةُ ظاهرةٌ في مذهب أهل السنة، وأوَّلَها المعتزلةُ، فقيل: المراد: أغفلنا قلبَه بالخِذْلان، وهذا هو التأويل المشهور عندهم في أمثالِ ذلك، وحالُه معلوم عندَك.

وقيل: المرادُ: صادفناه غافلاً، كما في قولهم: سألناكم فما أفحمناكم، وقاتلناكم فما أَجْبَنَّاكم(٢).

وتعقِّب بأنه لا ينبغي أن يتجرَّأ على تفسيرِ فعلٍ أسنده الله تعالى إليه بالمصادفة التي تُفْهِم وجدانَ الشيء بغتةً عن جهلٍ سابقٍ وعدَمِ علمٍ.

وقيل: المراد: نسبناه إلى الغفلة، كما في قول الكميت:

وطائفةٌ قد أكفروني بحبِّكم وطائفةٌ قالوا مسيءٌ ومذنبُ(٣)

وهو كما ترى.

وقال الرماني(٤): المراد: لم نَسِمْ قلبَه بالذكر، ولم نجعله من القلوب التي كتبْنا فيها الإيمان كقلوب المؤمنين، من قولهم: أغفل فلانٌ إبلَه: إذا تَرَكها غفلاً من غير سِمَةٍ وعلامةٍ بكَيٍّ ونحوِه، ومنه إغفالُ الخطِّ لعدم إعجامِه، فالإغفالُ المذكورُ استعارةٌ لِجعْلِ ذكرِ الله تعالى الدالِّ على الإيمان به كالسِّمَة لأنَّه علامةٌ للسعادة، كما جُعل ثبوتُ الإيمان في القلب بمنزلة الكتابة(٥).

وهو تأويلٌ رقيقُ الحاشية لطيفُ المعنى وإن كان خلافَ الظاهر، فهو ممَّا لا بأسَ به لمن لم يكن غرضُه منه الهربَ من مذهبِ أهل السنة.

واحتجَّ بعضُهم على أنه ليس المرادُ ظاهرَ الآية بقوله سبحانه: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في طلب الشهوات؛ حيثُ أُسنِد اتِّباعُ الهوى إلى العبد، فيدلُّ على أنَّه فعلُه

---

(١) البحر ٦/ ١٢٠.

(٢) أي: فما وجدناكم جبناء. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٩٦. وقائل هذا هو عمرو بن معدي كرب كما في أمالي ابن الشجري ١/ ٢٢٦ أنه قال لبني الحارث بن كعب: والله لقد سألناكم فما أبخلناكم، وقاتلناكم فما أجبنَّاكم، وهاجيناكم فما أفحمناكم.

(٣) ديوان الكميت ص٥١٩، برواية: فطائفة قد أكفرتني... وطائفة قالت... .

(٤) ورد في هامش الأصل و(م): وقد كان معتزليًّا، فليحفظ. اهـ.

(٥) البحر ٦/ ١٢٠.

لا فعلُ الله تعالى، ولو كان ذلك فِعْلَ اللهِ سبحانه والإسنادُ مجازيٌّ لقيل: فاتَّبَعَ، بالفاء السببية لتفرُّعِه عليه.

وأجيب بأنَّ فِعلَ العبد لكونه بكسبه وقدرته وخلْقِ اللهِ تعالى يجوز إسنادُه إليه بالاعتبار الأول، وإلى الله تعالى بالثاني، والتنصيصُ على التفريع ليس بلازم فقد يُترَك لنكتةٍ كالقصدِ إلى الإخبارِ به استقلالاً لأنه أَدْخَلُ في الذمِّ، وتفويضاً إلى السامع في فهمه، ولا حاجةَ إلى تقدير فقيل: «واتبع هواه».

وقرأ عمر بن فائد وموسى الأسواري وعمرو بن عبيد: «أغفَلَنا» بفتح الفاء واللام، «قلبُه» بالرفع على أنه فاعلُ: «أغْفَلَنا»[1]، وهو على هذه القراءة مِن: أغفلَه إذا وجده غافلاً، والمراد: ظنَّنا وحَسِبَنا غافلين عن ذكرنا له ولصنيعه بالمؤاخَذة، بجعلِ ذكر الله تعالى له كنايةً عن مُجازاتِه سبحانه.

واستشكل النهْيُ عن إطاعةِ أولئك الغافلين في طردِ أولئك المؤمنين بأنَّه وَرَدَ أنَّهم أرادوا طردَهم ليؤمنوا، فكان ينبغي تحصيلُ إيمانِهم بذلك، وغايةُ ما يَلْزَم ترتُّبُ نفعٍ كثيرٍ وهو إيمانُ أولئك الكَفَرة على ضررٍ قليلٍ وهو سقوطُ حرمةِ أولئك البرَرَة، وفي عدم طردِهم لزِمَ ترتُّب ضررٍ عظيمٍ وهو بقاءُ أولئك الكَفَرةِ على كُفْرهم على نفعٍ قليلٍ. ومن قواعد الشرع المقرَّرة: تُدْفَعُ المفسدةُ الكُبرى بالمفسدةِ الصغرى.

وأجيب بأنَّه سبحانه علم أنَّ أولئك الكَفَرة لا يؤمنون إيماناً حقيقيًّا، بل إنْ يؤمنوا يؤمنوا إيماناً ظاهريًّا، ومثلُه لا يُرتَكَب له إسقاطُ حرمة أولئك الفقراء الأبرارِ، فلذا جاء النهْيُ عن الإطاعة.

وقد يقال: يحتمل أن يكونَ اللهُ تعالى قد عَلِم أنَّ طردَ أولئك الفقراءِ السابقين إلى الإيمانِ المنقطِعين لعبادة الرحمن وكسْرَ قلوبهم وإسقاطَ حُرمتِهم لجلبِ الأغنياء وتطييبِ خواطرِهم يُوجِب نفرةَ القلوب وإساءةَ الظنِّ برسوله ﷺ، فربَّما يرتدُّ مَن هو قريبُ عهدٍ بإسلام، ويقِلُّ الداخلون في دينه بعد ذلك عليه

(١) القراءات الشاذة ص٧٩، والمحتسب ٢/ ٢٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٢١٥-٥١٣، والبحر ٦/ ١٢٠.

الصلاة والسلام، وذلك ضررٌ عظيم فوقَ ضررِ بقاءِ شِرْذِمةٍ من الكفَّار على الكفر، فلذا نَهَى جلَّ وعلا عن إطاعةِ مَن أغفل قلبَه واتبع هواه ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ﴾ في اتباع الهوى وترك الإيمان ﴿فُرُطًا ۝٢٨﴾ أي: ضَياعاً وهلاكاً، قاله مجاهد[١]، أو متقدِّماً على الحقِّ والصواب نابذاً له وراءَ ظهره، من قولهم: فرسٌ فُرُطٌ، أي: متقدِّم للخيل، وهو في معنى ما قاله ابن زيد: مخالفاً للحقِّ[٢].

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكونَ الفُرُط بمعنى التفريط والتضييع، أي: كان أمرُه الذي يجب أن يلزَمَ ويهتمَّ به من الدين تفريطاً، ويحتمل أن يكونَ بمعنى الإفراط والإسراف، أي: كان أمرُه وهواه الذي هو سبيلُه إفراطاً وإسرافاً[٣]. وبالإسراف فسَّره مقاتل.

والتعبيرُ عن صناديد قريش المستدعين طردَ فقراء المؤمنين بالموصول للإيذان بعلِّيَّةِ ما في حيِّز الصلة للنهي عن الإطاعة.

﴿وَقُلِ﴾ لأولئك الذين أغفلْنا قلوبَهم عن الذكر واتبعوا هواهم ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذا الذي أوحِي إليَّ الحقُّ، و«من ربكم» حالٌ مؤكِّدة، أو خبرٌ بعد خبرٍ، والأول أولى، والظاهرُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ من تمام القول المأمورِ به، فالفاء لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها بطريق التهديد، أي: عقيبَ تحقيقِ أنَّ ذلك حقٌّ لا ريبَ فيه لازمُ الاتباعِ مَن شاء أن يؤمِنَ به ويتبعَه فليفعل كسائر المؤمنين ولا يتعلَّلْ بما لا يكاد يصلُح للتعلُّلِ، ومن شاء أن يكفرَ به وينبذَه وراء ظهره فليفعل، وفيه من التهديد وإظهارِ الاستغناء عن متابعَتِهم التي وَعَدُوها في طردِ المؤمنين وعدمِ المبالاة بهم وبإيمانهم وجوداً وعدماً ما لا يخفى.

وجوَّز أن يكونَ «الحقُّ» مبتدأً، خبرُه «من ربكم».

واختار الزمخشريُّ هنا الأول[٤]، قال في «الكشف»: ووجهُ إيثارِ الحذف أنَّ

---

(١) زاد المسير ٥/ ١٣٣.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٣، والبحر ٦/ ١٢٠.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٣.
(٤) الكشاف ٢/ ٤٨٢.

المعنى عليه أتمُّ التئاماً؛ لأنَّه لمَّا أمره سبحانه بالمداومة على تلاوةِ هذا الكتابِ العظيم الشأنِ في جملةِ التالِين له حقَّ التلاوة المريدين وجهَه تبارك وتعالى غيرَ ملتفتٍ إلى زخارف الدنيا، فمن أُوتِيَ هذه النعمةَ العظمى فله بشكرها اشتغالٌ عن كلِّ شاغلٍ = ذيَّله لإزاحة الأعذار والعِلَل بقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ﴾ إلخ، أي: هذا الذي أُوحي هو الحقُّ، فمن شاء فليدخُلْ في سلكِ الفائزين بهذه السعادة، ومَن شاء فليكن في الهالكين انهماكاً في الضلالة.

أمَّا لو جُعِل مبتدأً، فالتعريفُ إن كان للعهد رَجع إلى الأول مع فوات المبالغة، وإن كان للجنس على معنى: جميعُ الحقِّ من ربِّكم لا من غيره، ويشملُ الكتابَ شمولاً أولياً، لم يُطبِّقِ المَفْصِل؛ إذ ليس ما سيق له الكلامُ كونَه منه تعالى لا غير، بل كونَه حقًّا لازمَ الاتباع لا غير. اهـ.

وهو كلامٌ يلوح عليه مخايلُ التحقيق، ويُشعِر ظاهرُه بحمل الدعاءِ على ثاني الأقوالِ فيه وكونِ المشار إليه الكتابَ مطلقاً، لا المتضمِّنَ الأمرَ بصبر النفس مع المؤمنين وتركِ الطاعة للغافلين كما جوَّزه ابن عطية[(١)].

وعلى تقدير أن يكون الحقُّ مبتدأً، قيل: المرادُ به القرآنُ، كما كان المرادَ من المشارِ إليه على تقدير كونِه خبراً، وهو المرويُّ عن مقاتل. وقال الضحَّاك: هو التوحيدُ. وقال الكرماني: الإسلام والقرآن[(٢)].

وقال مكي: المراد به التوفيقُ والخِذلانُ، أي: قل: التوفيقُ والخِذلانُ من عند الله تعالى، يهدي مَن يشاء فيوفِّقُه فيؤمنُ، ويُضِلُّ مَن يشاء فيَخذُله فيكفُر، ليس إليَّ مِن ذلك شيءٌ[(٣)]. وليس بشيء كما لا يخفى.

وجوِّز أن يكونَ قولُه سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن﴾ إلخ تهديداً من جِهته تعالى غيرَ داخلٍ تحت القول المأمورِ به، فالفاءُ لترتيبِ ما بعدها من التهديد على نفس الأمر، أي: قل لهم ذلك، وبعدَ ذلك مَن شاء أن يؤمِنَ به أو أن يصدِّقَك فيه فليفعل، ومن

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٣.
(٢) الأقوال الثلاثة في البحر ٦/ ١٢٠.
(٣) نقله المصنف من البحر ٦/ ١٢٠.

شاء أن يكفُرَ به أو أن يكذِّبك فيه فليفعل. وعلى الوجهين ليس المرادُ حقيقةَ الأمر والتخييرِ، وهو ظاهرٌ.

وذكر الخفاجي(١) أنَّ الأمرَ بالكفر غيرُ مراد، وهو استعارةٌ للخِذْلان والتخليةِ بتشبيه حالِ مَن هو كذلك بحالِ المأمور بالمخالفة، ووجهُ الشَّبَهِ عدمُ المبالاة والاعتناء، وهذا كقَولِ كُثيِّر:

أَسِيئي بنا أو أحسِني لا ملومةٌ(٢)

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ العبد مستقلٌّ في أفعاله موجدٌ لها؛ لأنه عُلِّق فيها تحقُّقُ الإيمان والكفرِ على محضِ مشيئته؛ لأنَّ المتبادِرَ من الشرط أنَّه علَّةٌ تامَّةٌ للجزاء فدلَّ على أنَّه مستقلٌّ في إيجادِهما، ولا فرقَ بين فعلٍ وفعلٍ فهو الموجِد لكلِّ أفعاله.

وأُجيبَ بأنَّا لو فرضْنا أنَّ مشيئةَ العبد مؤثِّرة وموجِدةٌ للأفعال لا يتمُّ المقصودُ؛ لأنَّ العقلَ والنقلَ يدُلَّان على توقُّفها على مشيئة الله تعالى وإرادتِه، أما الأولُ فلأنَّهم قالوا: لو لم تتوقَّف على ذلك لزِمَ الدورُ أو التسلسلُ، وأمَّا الثاني فلأنَّه سبحانه يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩] ومع هذا التوقُّفِ لا يتمُّ أمرُ الاستقلال، ويثبُت أنَّ العبدَ مضطرٌّ في صورةِ مختارٍ، وهو مذهبُ الأشاعرة.

وفي «الإحياء» لحجَّةِ الإسلام: فإن قلت: إني أجدُ في نفسي وجداناً ضروريًّا أنِّي إن شئتُ الفعلَ قدَرْتُ عليه، وإن شئتُ التركَ قدرتُ عليه، فالفعلُ والتركُ بي لا بغيري.

قلت: هَبْ أنَّك تَجِدُ مِن نفسِك هذا المعنى، ولكن هل تجِدُ من نفسِك أنَّك إن شئتَ مشيئة الفعل حصلت تلك المشيئةُ، أو لم تشأ تلك المشيئةَ لم تحصُل؟ لأنَّ العقلَ يشهَدُ بأنَّه يشاء الفعلَ لا لسبقِ مشيئةٍ أُخْرى على تلك المشيئة، وإذا شاء الفعلَ وجب حصولُ الفعل من غير مكنةٍ واختيارٍ، فحصولُ المشيئةِ في القلب أمرٌ

(١) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٦/ ٩٧.

(٢) ديوان كثير ص٨٠ وعجزه: لدَيْنا ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ، ونسب البيت إلى جرير وهو في ديوانه ص٧٢، وقال في اللسان وتاج العروس (قلي): تقلَّى: أي: تبغَّض، وأنشدوا هذا البيت، ونسبوه إلى كثيِّر. وقوله: مقلية: أي: مكروهة ومبغوضة.

لازمٌ، وترتُّبُ الفعل على حصولِ المشيئة أيضاً أمرٌ لازمٌ، وهذا يدلُّ على أنَّ الكلَّ من الله تعالى[١]. انتهى.

وبعضُهم يكتفي في إثباتِ عدم الاستقلالِ بثبوت توقُّفِ مشيئةِ العبد على مشيئة الله تعالى وتمكينِه سبحانه بالنصِّ، ولا يذكر حديثَ لزومِ الدورِ أو التسلسُل لِمَا فيه من البحث، وتمامُ الكلام في ذلك في كتب الكلام، وسنذكر إن شاء الله تعالى طرفاً لائقاً منه في الموضع اللائق به.

وقال السديُّ[٢]: هذه الآيةُ منسوخةٌ بقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]. ولعلَّه أراد أن لا يرادَ المتبادِرُ منها للآية المذكورة، وإلا فهو قولٌ باطلٌ.

وحَكى ابنُ عطية عن فرقة أنَّ فاعلَ «شاء» في الشرطيتين ضميرُه تعالى[٣]. واحتُجَّ له بما رُوي عن ابن عباس ﵄ أنه قال في الآية: من شاء الله تعالى له الإيمان آمن، ومن شاء له الكفرَ كَفَر.

والحقُّ أنَّ الفاعلَ ضميرُ «مَن»، والرواية عن الحبر أخرجها ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات»[٤]، فإذا صحَّت يحتمل أن يكونَ ذلك القولُ لبيان أنَّ من شاء الإيمانَ هو من شاءَ اللهُ تعالى له الإيمانَ، ومن شاء الكفرَ هو مَن شاء اللهُ سبحانه له ذلك، لا لبيانِ مدلولِ الآية وتحقيقِ مرجعِ الضمير، ويؤيِّد ذلك قولُه في آخر الخبر الذي أخرجه الجماعةُ: وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. والله تعالى أعلم.

وقرأ أبو السمَّال قعنب: «وقُلَ الحق» بفتح اللام حيث وقع[٥]، قال أبو حاتم: وذلك رديء في العربية.

---

(١) نقله المصنف من التفسير الكبير ٢١/ ١١٩، وهو في الإحياء ٤/ ٢٥٣ بنحوه.

(٢) كما في البحر ٦/ ١٢٠.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥١٣.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٤، والأسماء والصفات (٣٧٧)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٠.

(٥) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١٢٠، والكلام منه.

وعنه أيضاً ضمُّ اللام حيث وقع، كأنه إتباعٌ لحركة القاف، وقرأ أيضاً: «الحقَّ» بالنصب، وخرَّجه صاحبُ «اللوامح» على تقدير: قُلِ القولَ الحقَّ[(١)]، و«من ربكم» قيل: حالٌ، أي: كائناً من ربِّكم، وقيل: صفةٌ، أي: الكائنَ من ربِّكم. وفيه بحث.

وقرأ الحسن وعيسى الثقفيُّ: «فلِيُؤْمِنْ» و«لِيكفُرْ» بكسر لام الأمر فيهما[(٢)].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ للكافرين بالحقِّ بعدما جاء من اللهِ سبحانه، والتعبيرُ عنهم بـ «الظالمين» للتنبيه على أنَّ مشيئةَ الكفر واختيارَه تجاوُزٌ عن الحدِّ ووَضْعٌ للشيءِ في غير موضعه، والجملةُ تعليلٌ للأمر بما ذُكر من التخيير التهديديِّ.

وجَعَلها مَن جَعَل «فمن شاء» إلخ تهديداً من قِبَلِه تعالى = تأكيداً للتهديد وتعليلاً لِمَا يُفِيده من الزجرِ عن الكفرِ. وجوِّز كونُها تعليلاً لِمَا يُفْهَم من ظاهرِ التخيير من عدَمِ المبالاة بكفرهم وقلَّةِ الاهتمام بشأنهم.

و«أعتدنا» من العتادِ، وهو في الأصل: ادِّخارُ الشيء قَبل الحاجة إليه. وقيل: أصلُه: أعدَدْنا، فأُبدل من إحدى الدالين تاء، والمعنى واحدٌ، أي: هيَّأنا لهم ﴿نَارًا﴾ عظيمةً عجيبةً ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ أي: فسطاطُها، شُبِّه به ما يُحِيط بهم من لهبها المنتشرِ منها في الجهاتِ، ثم استُعِير له استعارةٌ مصرِّحةٌ. والإضافة قرينةٌ والإحاطةُ ترشيحٌ.

وقيل: السرادقُ: الحجزةُ التي تكون حولَ الفُسطاطِ تمنع من الوصول إليه، ويُطلَق على الدخانِ المرتفع المحيط بالشيء، وحَمَل عليه بعضُهم ما في الآية، وهو أيضاً مجازٌ كإطلاقه على اللَّهَب، وكلامُ «القاموس» يُوهِم أنَّه حقيقةٌ[(٣)]، والمرويُّ عن قتادة تفسيرُه بمجموع الأمْرَين اللهبِ والدخانِ[(٤)].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه حائط من نار[(٥)].

وحكى الكلبيُّ أنه عُنُقٌ يخرُجُ من النار فيُحِيط بالكفَّار.

---

(١) البحر ٦/ ١٢٠.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٣، والبحر ٦/ ١٢٠.
(٣) القاموس (سردق) وحاشية الشهاب ٦/ ٩٨.
(٤) مجمع البيان ١٥/ ١٥١.
(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٦.

وحكى القاضي الماورديُّ[(١)] أنه البحر المحيط بالدنيا يكون يومَ القيامة ناراً ويحيط بهم، واحتَجَّ له بما أخرجه أحمد والبخاريُّ في «التاريخ» وابن أبي حاتم والحاكم[(٢)] وصحَّحه والبيهقيُّ في «البعث» وآخرون عن يعلى بن أمية أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ البحرَ هو من جهنَّم» ثم تلا: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[(٣)].

والسرادق: قال الراغب: فارسيٌّ معرَّب، وليس من كلامِهم اسمٌ مفردٌ ثالثُه ألفٌ وبعدَه حرفان[(٤)]. انتهى، وقد أصاب في دعوى التعريب فإنَّ عامَّةَ اللغويِّين على ذلك، وأمَّا قوله: وليس من كلامهم.. إلخ، فيكذِّبه وُرودُ عُلابِط وقُرامِص وجُنادِف وحُلاحل[(٥)]، وكلُّها بِزِنَةِ سُرادق، ومثلُ ذلك كثيرٌ، والغفلةُ مع تلك الكثرةِ من هذا الفاضل بعيدةٌ، فليُنظَر ما مرادُه؟!.

ثم إنه معرَّبُ: سرَايَرْدَه، أي: سترُ الديوان، وقيل: سَراطاق، أي: طاقُ الديوان، وهو أقربُ لفظاً إلا أنَّ الطاقَ معرَّبٌ أيضاً وأصلُه: تا، أو: تاك، وقال أبو حيان وغيره: معرَّبُ: سرادَر، وهو: الدهليز[(٦)]. ووقَع في بيت الفرزدق:

تمنيتهم حتى إذا ما لَقِيتهم ... تركت لهم قبل الضِّرابِ السُّرادِقا[(٧)]

ويُجمع كما قال سيبويه بالألف والتاء وإن كان مذكَّراً، فيقال: سُرادِقات.

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٣.

(٢) سقطت كلمة «الحاكم» من الأصل و(م)، والمثبت من الدر المنثور ٤/ ٢٢٠ وعنه نقل المصنف.

(٣) مسند أحمد (١٧٩٦٠)، والتاريخ الكبير ١/ ٧٠، والمستدرك ٤/ ٥٩٦، وسنن البيهقي الكبرى ٤/ ٣٣٤، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٠. وأخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٤٦-٢٤٧. وإسناده ضعيف، فيه محمد بن حيي، وهو مجهول، ورواية المصادر عدا التاريخ الكبير والدر: «... هو جهنم»، ليس فيه: من.

(٤) المفردات (سردق).

(٥) العلابط: الضخم، وقطيع الغنم. وقرامص: اللبن القارص، أي: الحامض. وجنادف: الجافي، والجسيم من الناس والإبل. وحلاحل: السيد الشجاع. القاموس (علبط) (قرمص) (جندف) (حلل).

(٦) البحر المحيط ٦/ ٩٣، والمعرب للجواليقي ص٢٤٨، وقوله: «سرادر» كذا في الأصل و(م)، وهو في البحر والمعرَّب: «سرادار» بزيادة ألف قبل الراء.

(٧) ديوان الفرزدق ٢/ ٤٧.

وفسَّره في «النهاية» بكلِّ ما أحاط بموضعٍ من حائطٍ أو مضربٍ أو خِباءٍ[١]. وأَمْرُ إطلاقِه على اللهب أو الدخانِ أو غيرِهما مما ذُكر على هذا ظاهرٌ.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ من العطَش بقرينةِ قولِه تعالى: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾، وقيل: مما حلَّ بهم من أنواع العذاب، و«المهل» على ما أخرج ابن جرير وغيرُه عن ابن عباس وابن جُبَير: ماءٌ غليظٌ كدُردِيِّ الزيت[٢]. وفيه حديثٌ مرفوعٌ؛ فقد أخرج أحمد والترمذيُّ وابن حبان والحاكم وصحَّحه والبيهقيُّ وآخرون عن أبي سعيد الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: (كَٱلْمُهْلِ) قال: «كعَكَرِ الزيت، فإذا قُرِّب إليه سقطَتْ فَرْوَةُ وجهِه فيه»[٣].

وقال غير واحد: هو ما أُذِيبَ من جواهِرِ الأرض. وقيل: ما أُذِيبَ من النحاس، وأخرج الطبرانيُّ وابن المنذر وابن جرير عن ابن مسعود أنه سُئل عنه فدعا بذهبٍ وفضَّةٍ فأذَابَه، فلمَّا ذاب قال: هذا أشبهُ شيء بالمُهل الذي هو شرابُ أهل النار، ولونُه لونُ السماء، غيرَ أنَّ شرابَ أهل النار أشدُّ حرًّا من هذا[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم وغيره عن مجاهد أنه القيحُ والدمُ الأسود[٥].

وقيل: هو ضَربٌ من القَطِران.

وقولُه سبحانه: «يغاثوا» إلخ خارجٌ مخرجَ التهكُّم بهم، كقول بِشْر بن أبي خازم:

---

(١) النهاية (سردق)، والكلام سيبويه في الكتاب ٣/ ٦١٥.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٢٤٩، وكتاب الزهد لهناد (٢٨٣) و(٢٨٥). ودُرْدِيُّ الزيت: ما يبقى أسفلَه. القاموس (درد).

(٣) مسند أحمد (١١٦٧٢)، وسنن الترمذي (٢٥٨١)، وصحيح ابن حبان (٧٤٧٣)، والمستدرك ٢/ ٥٠١، والبعث والنشور (٦٠٦). وهو في منتخب عبد بن حميد (٩٣٠)، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٥٠. وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلّا من حديث رشدين بن سعد، ورشدين قد تكلِّم فيه. قوله: عَكَر الزيت: قال في تاج العروس (عكر): عَكَرُ الشرابِ: آخِرُه وخاثِره.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ١٤٥، والمعجم الكبير (٩٠٨٢) و(٩٠٨٣)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٢١، وعنه نقل المصنف.

(٥) عزاه لابن أبي حاتم وابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٢١.

غـضِـبَـت تـمـيـمٌ أن تُـقَـتَّـلَ عـامـرٌ يـوم الـنِّـسـار فـأعْـتِـبُـوا بـالـصَّـيْـلَـمِ(١)

﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ يُنْضِجها إذا قدِّم ليُشْرَبَ مِن فَرْط حرارتِه، حتى إنَّه يُسقِط جلودَها كما سمعتَ في الحديث، فالوجوهُ جمع وجهٍ، وهو العضْوُ المعروف، والظاهرُ أنه المرادُ لا غير، وقيل: عبَّر بالوجوه عن جميع أبدانهم.

والجملة صفةٌ ثانيةٌ لـ «ماءٍ»، والأولى «كالمهل»، أو حالٌ منه كما في «البحر»(٢)؛ لأنَّه قد وُصِف. أو حال من «المهل» كما قال أبو البقاء(٣).

وظاهرُ كلام بعضِهم جوازُ كونها في موضع الحال من الضمير المستتر في الكاف؛ لأنها اسمٌ بمعنى: مُشابِه، فيستَتِرُ الضميرُ فيها كما يستَتِر فيه. وفيه ما لا يخفى من التكلُّف؛ لأنها ليست صفةً مشتقَّةً حتى يستَتِر فيها، ولم يُعهَد مشتقٌّ على حرفٍ واحدٍ، قاله الخفاجي(٤)، وذَكَر أنَّ أبا عليٍّ الفارسيَّ مَنَعَ في «شرح الشواهد»(٥) جَعْلَ «ذؤابتي» في قول الشاعر:

رأتْـنـي كـأُفْـحُـوصِ الـقـطـاةِ ذُؤَابَـتـي(٦)

مرفوعاً بالكاف؛ لكونها بمنزلة: مِثْل، وقال: إنَّ ذلك ليس بالسهل؛ لأنَّ الكافَ ليست على ألفاظ الصفات.

وجوَّز أن تكونَ في موضع الحال من الضمير المستتِر في الجارِّ والمجرور. وقيل: يجوز أن يكونَ مرادَ ذلك البعض، إلا أنَّه تسامح.

---

(١) ديوان بشر ص١٩١، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٧٨، والصحاح واللسان وتاج العروس (عتب)، وفي المفضليات ص ٣٤٦: فأعقبوا، وفي الخزانة ٩/ ٢٨٥ «حنيفة» بدل تميم، وقد أشير إلى هذه الرواية في هامش الأصل بقوله: في نسخة: حنيفة. ومعنى «أعتبوا بالصيلم» كما في الصحاح: أعتبناهم بالسيف، أي: أرضيناهم بالقتل. اهـ. ومعنى أعقبوا: جُعل ذلك عاقبة أمرهم، فلا شاهد فيه على هذه الرواية كما ذكر الشهاب في الحاشية ٦/ ٩٨.

(٢) ٤/ ١٢١.

(٣) في الإملاء ٣/ ٥١٥.

(٤) في حاشيته ٦/ ٩٨.

(٥) واسمه «كتاب الشعر»، أو «شرح الأبيات المشكلة الإعراب»، وقول أبي علي فيه ١/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٦) شطر بيت لبشر بن أبي خازم، وهو في ديوانه ص٦٥، وعجزه: وَمامسَّها مِن مُنعِمٍ يستثيبها.

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذلك الماء الذي يُغاثُون به ﴿وَسَآءَتْ﴾ النارُ ﴿مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: متَّكأً، كما قال أبو عبيدة(١) وروي عن السديِّ، وأصلُ الارتفاق ـ كما قيل ـ الاتِّكاءُ على مِرفَق اليد؛ قال في «الصحاح»: يقال: بات فلانٌ مُرتَفِقاً، أي: مُتَّكِئاً على مِرفَق يده(٢)، وقيل: نصبُ المرفق تحتَ الخدِّ. فـ «مرتفقاً» اسمُ مكان ونصبُه على التمييز.

قال الزمخشريُّ: وهذا لمشاكلةِ قولِه تعالى: (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) وإلا فلا ارتفاقَ لأهل النار ولا اتكاءَ إلا أن يكونَ من قوله:

إنِّي أرِقْتُ فبِتُّ الليلَ مُرتفِقاً كأنَّ عَينيَ فيها الصابُ مَذْبُوح(٣)

أي: فحينئذٍ لا يكون من المشاكلة، ويكون الكلامُ على حقيقته بأن يكونَ لأهل النار ارتفاقٌ فيها، أي: اتكاءٌ على مرافقِ أيديهم كما يفعله المتحزِّنُ المتحسِّرُ.

وقد ذكر في «الكشف» أنَّ الاتكاءَ على الحقيقة كما يكون للتنعُّم يكون للتحزُّن. وتعقِّب بأنَّ ذلك وإن أمكن عقلاً إلا أنَّ الظاهرَ أنَّ العذابَ أشْغَلَهم عنه، فلا يتأتَّى منهم حتى يكونَ الكلامُ حقيقةً لا مشاكلةً.

وجوِّز أن يكونَ ذلك تهكُّماً، أو كنايةً عن عدم استراحتهم. ورُوي عن ابن عباس أنَّ المرتفق المنزلُ. وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن قتادة(٤)، وفي معناه قول عطاء(٥): المقرُّ، وقولُ القتبي(٦): المجلسُ.

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٤٠٠.
(٢) الصحاح (رفق).
(٣) الكشاف ٢/ ٤٨٣، والبيت لأبي ذؤيب كما في مجاز القرآن ١/ ٤٠٠، والكامل للمبرد ٣/ ١٤٣٣، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٠٤، وتفسير الماوردي ٣/ ٣٠٤، والخزانة ٥/ ١٣٧ برواية صدره: نام الخليُّ وبتُّ الليلَ مُشتَجِرا. والخليُّ: الذي لا همَّ له. والمشتجر: الذي قد وضع حنكه أو فَمَه على يده عند الهمِّ. والصاب: شجرة مُرَّةٌ لها لبن يحرق العين إذا أصابها. والمذبوح: المشقوق. ينظر الخزانة ٥/ ١٣٨، وديوان الهذليين ١/ ١٠٤.
(٤) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢١، وقول ابن عباس في زاد المسير ٥/ ١٣٦، والبحر ٦/ ١٢١.
(٥) في الأصل و(م): ابن عطاء، والمثبت من تفسير البغوي ٣/ ١٦٠، وتفسير القرطبي ١٣/ ٢٦٣، والبحر ٦/ ١٢١.
(٦) في الأصل و(م): العتبي، والمثبت من المصادر السابقة، وكلامه في كتابه غريب القرآن ص٢٦٧.

وقيل: موضعُ الترافُق، أي: ساءت موضِعاً للترافُق والتصاحُب، وكأنه مرادُ مجاهد في تفسيره بالمجتمع، فإنكارُ الطبري[١] أنْ يكونَ له معنًى مكابرةٌ.

وقال ابن الأنباري: المعنى: ساءت مطلباً للرفق؛ لأنَّ مَن طلب رِفقاً من جهنَّم عَدِمه[٢].

وجوَّز بعضُهم أن يكونَ المرتَفَقُ مصدراً ميميًّا بمعنى الارتفاق والاتكاء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في محلِّ التعليل للحثِّ على الإيمان المنفهِم من التخيير، كأنه قيل: وللذين آمنوا، ولعلَّ تغييرَ السَّبك للإيذان بكمالِ تنافي حالَي الفريقَيْنِ، أي: إنَّ الذين آمنوا بالحقِّ الذي يُوحَى إليك ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حسبما بيِّن في تضاعيفِه ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾.

وقرأ عيسى الثقفي: «لا نضيِّع» بالتضعيف[٣]، وعلى القراءتين الجملة خبرُ «إنَّ» الثانية، وخبرُ «إنَّ» الأولى الثانيةُ بما في حيِّزها، والرابطُ ضميرٌ محذوفٌ تقديرُه: مَن أحسَن عملاً مِنْهم، ولا يَرِدُ أنَّه يقتضي أنَّ منهم من أحسَنَ ومنهم من لم يُحسِن؛ لأنَّ ذلك على تقدير كونِ «مِن» تبعيضية، وليس بمتعيِّنٍ لجوازِ كونها بيانيةً، ولو سلِّم فلا بأسَ به؛ فإنَّ الإحسانَ زيادةُ الإخلاص الوارد في حديث الإحسان: «أن تعبُدَ الله كأنَّك تراه»[٤] لكن يبقى على هذا حكمُ مَن لم يُحسِن بهذا المعنى منهم.

أو الرابطُ الاسمُ الظاهرُ الذي هو المبتدأ في المعنى على ما ذهب إليه الأخفش مِن جَعْلِه رابطاً؛ فإنَّ مَن أحسن عملاً في الحقيقة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات. واعتُرِض بأنَّه يأباه تنكير «عملاً»؛ لأنَّه للتقليل. وأجيب بأنَّه غيرُ متعيِّن لذلك، إذ النكرةُ قد تعمُّ في الإثبات، ومقامُ المدح شاهدُ صدقٍ.

أو الرابط عمومُ «مَن» بناءً على أنَّ العموم قد يكونُ رابطاً كما في: زيدٌ نِعْمَ الرجلُ، على قولٍ. وفيه مناقشةٌ ظاهرةٌ.

---

(١) في تفسيره ١٥/ ٢٥٣، وقول مجاهد فيه، وينظر البحر ٦/ ١٢١.
(٢) البحر ٦/ ١٢١.
(٣) القراءات الشاذّة ص٧٩، والبحر ٦/ ١٢٢.
(٤) قطعة من حديث جبريل الطويل، وسلف ١/ ٢٩٥.

ولعلَّ الأولى كونُ الخبر جملةَ قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ وجملة «إنا» إلخ معترِضَةٌ، ونحوُ هذا من الاعتراض ـ كما قال ابنُ عطية وغيرُه ـ قولُه:

إنّ الخليفةَ إنَّ اللهَ ألبَسَهُ   سِربالَ ملك به ترجى الخواتيم[1]

وأنت تَعلم أنَّ الاعتراضَ فيه غيرُ متعيِّنٍ أيضاً، وعلى الاحتمالِ السابقِ يحتمل أن تكونَ هذه الجملةُ مستأنَفةً لبيانِ الأجرِ، ويحتمل أن تكونَ خبراً بعدَ خبرٍ على مذهبِ مَن لا يشترِطُ في تعدُّد الأخبارِ كونَها في معنى خبرٍ واحدٍ، وهو الحقُّ.

أي: أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة لهم جناتُ إقامةٍ، على أنَّ العَدْنَ بمعنى الإقامةِ والاستقرارِ، يقالُ: عَدَن بالمكان: إذا أقام فيه واستقرَّ، ومنه المعدِن؛ لاستقرارِ الجواهرِ فيه.

وعن ابن مسعود: عَدْن: جنةٌ من الجِنان، وهي بُطنانُها[2]، ووجهُ إضافةِ الجِنانِ إليها بأنَّها لِسِعَتِها كأنَّ كلَّ ناحيةٍ منها جنةٌ.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهم في الغُرُفاتِ آمنون.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ «مِن» الأولى للابتداء والثانية للبيان، والجارُّ والمجرورُ في موضع صفةٍ لـ «أساور»، وهذا ما اختاره الزمخشريُّ وغيرُه[3].

وجوَّز أبو البقاء في الأولى أن تكونَ زائدةً في المفعول على قولِ الأخفش، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ﴾ [الإنسان: ٢١]، وأن تكونَ بيانيةً، أي: شيئاً، أو حُلِيًّا من أساور[4]. وجوَّز غيرُه فيها أن تكونَ تبعيضيةً واقعةً موقعَ المفعولِ كما جوَّز هو وغيرُه ذلك في الثانية، وجوِّز فيها أيضاً أن تتعلَّقَ بـ «يحلون»، وهو كما ترى.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٤، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٨، وللزجاج ٣/ ٤١٨، والأمالي للزجاجي ص٦٢، والخزانة ١٠/ ٣٦٦، والبيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٦٧٢ برواية:

يكفي الخليفةَ أنَّ اللهَ سَرْبلَه   سربالَ مُلكٍ به تُرجى الخواتيم

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٥٦٢.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٨٢، وتفسير البيضاوي ٦/ ٩٩.

(٤) الإملاء ٣/ ٥١٦.

والأَسَاوِرُ، جمعُ: أَسْوِرَةٍ، جمعِ: سِوَار، بالكسر والضَّمِّ، وهو ما في الذِّراع من الحلي، وهو عربيٌّ، وقال الراغبُ: معرَّبُ: دَسْتوَارَه[١]. وقيل: جمعُ: أَسْوَارٍ، جمعِ: سِوَار، وأصلُه: أَسَاوِيرُ، فخُفِّف بحذفِ يائه. فهو على القولين جمعُ الجمع، ولم يجعلوه من أوّل الأمر جمعَ سِوارٍ؛ لِمَا رَأوا أنَّ فِعالاً لا يُجمَع على أفاعِلَ في القياس.

وعن [أبي] عمرو بن العلاء أنَّ الواحدَ إسوَار[٢]، وأنشد ابن الأنباري:

واللهِ لولا صبيةٌ صِغارُ
كأنَّما وُجوهُهم أَقْمارُ
تَضُمُّهم مِنَ العَتيك دارُ
أخافُ أن يصيبَهم أَقْتارُ
أو لاطمٌ ليس له إسوارُ
لَمَا رآني مَلِكٌ جَبَّارُ
ببابِه ما وَضَحَ النَّهارُ[٣]

وفي «القاموس»: السِّوارُ ككتابٍ وغُرابٍ: القُلْبُ، كالأُسوارِ، والجمعُ أَسْوِرَةٌ وأَساوِرُ وأساوِرَةٌ وسُورٌ وسُؤُورٌ[٤]. وهو موافقٌ لِمَا نُقِل عن ابن العلاء، ونُقِل ذلك أيضاً عن قُطرب وأبي عبيدة[٥]، ونُكِّرت لتعظيمِ حُسْنِها من الإحاطة.

وقد أخرج ابن مردويه عن سعد عن النبيِّ ﷺ قال: «لو أنَّ رجلاً من أهل الجنَّةِ اطَّلعَ فبدَتْ أساورُه لطَمَس ضَوءه ضوءَ الشمس كما تَطمِسُ ضوءَ النُّجوم»[٦].

---

(١) المفردات (سور).
(٢) الصحاح واللسان (سور) وما سلف بين حاصرتين منهما.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٤-٥١٥، والبحر ٦/ ٩٣ وعنه نقل المصنف. والعَتيك من الأيام: الشديد الحرّ. وأقتار: القَتْر: الرُّمقةُ من العيشِ، والقدْرُ. القاموس: (عتك) و(قتر).
(٤) القاموس (سور).
(٥) مجاز القرآن ١/ ٤٠١، وقول قطرب في البحر ٦/ ٩٩.
(٦) الدر المنثور ٤/ ٢٢١، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٦٧)، والترمذي (٢٥٣٨).

وأخرج الطبراني في «الأوسط» والبيهقيُّ في «البعث» عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لو أنَّ أدنى أهلِ الجنة حِلْيَةً عُدلت حِليتُه بحِلْية أهل الدنيا جميعاً لكان ما يُحلِّيه اللهُ تعالى به في الآخرة أفضل من حِلْية أهلِ الدنيا جميعاً»(١).

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال: إنَّ أهلَ الجنَّةِ يُحَلَّون أَسْوِرَةً من ذهبٍ ولؤلؤٍ وفضَّةٍ هي أخفُّ عليهم من كلِّ شيء، إنَّما هي نورٌ(٢).

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «تبلُغُ الحِلْيةُ من المؤمن حيثُ يبلغ الوضوء»(٣).

وأخرج أبو الشيخ وغيرُه عن كعب الأحبار قال: إنَّ لله تعالى ملكاً ـ وفي رواية: في الجنة ملكٌ ـ لو شئت أن أُسميه أَسْميتُه، يَصوغُ حُلِيَّ أهلِ الجنةِ من يوم خُلق إلى أن تقومَ الساعةُ، ولو أنَّ حُليًّا منها أُخرِج لردَّ شعاع الشمس(٤).

والسؤال بأنَّ لبسَ الرجالِ الأساورَ عيبٌ في الدنيا، فكيف يُحَلَّونها في الآخرة؟ مندفِعٌ بأنَّ كونَه عيباً إنَّما هو بين قومٍ لم يعتادوه، لا مطلقاً، ولا أظنُّكَ في مرية من أنَّ الشيءَ قد يكون عيباً بين قومٍ ولا يكون عيباً بين آخرين، وليس فيما نحن فيه أمرٌ عقليٌّ يُحكَم بكونه عيباً في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ مكانٍ وبين كلِّ قومٍ، وإن التزمتَ أنَّ فيه ذلك فقد حلَّيتَ نفسَك بحِليةِ الجَهل وخَرجتَ من رِبْقَةِ العقل.

هذا وقرأ أبان عن عاصم: «من أَسْوِرَة» بحذف ألفٍ وزيادةِ هاءٍ(٥)، وهو أحَدُ الجموع لسِوارٍ كما سمعتَ.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأنَّ الخُضْرة أحسنُ الألوان، والنفسُ تنبسِطُ بها أكثرَ مِن غيرها، ورُوي في أثرٍ أنها تزيد في ضوء البصر(٦). وقيل:

---

(١) المعجم الأوسط (٨٨٧٤)، والبعث والنشور (٣٣١).

(٢) عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٢١.

(٣) صحيح مسلم (٢٥٠)، وأخرجه بنحوه البخاري (٥٩٥٣)، وهو في مسند أحمد (٨٨٤٠).

(٤) كتاب العظمة (٣٣٧)، وعزاه السيوطي في الدر ٤/ ٢٢١ لابن أبي حاتم.

(٥) البحر المحيط ٦/ ١٢٢.

(٦) روي من قول علي وعائشة وابن عمر وأبي سعيد ﷺ: ثلاثٌ يزدن في قوَّة البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن. وفي أسانيدها جميعاً كلام. ينظر فيض =

ثـلاثـةٌ مُـذهِـبـة لـلـحَـزَن   الماءُ والخُضْرةُ والوجهُ الحَسَن(١)

والظاهرُ أنَّ لباسَهم غيرُ منحصرٍ فيما ذُكر، إذْ لهم فيها ما تشتهي الأنفسُ وتلذُّ الأعيُنُ، وأخرج ابن أبي حاتم عن سُليم بن عامرٍ أنَّ الرجلَ يُكسى في الساعة الواحدة سبعين ثوباً، وأنَّ أدناها مثلُ شقيق النعمان(٢).

وقيل: يحتمل الانحصارُ، و: لهم فيها ما تشتهي الأنفسُ، لا يأباه؛ لجوازِ أنَّهم لا يشتهُون ولا تلذُّ أعينُهم سوى ذلك من الألوان.

والتنكيرُ لتعريفِ أنَّها لا يكاد يُوصَف حسنُها؛ وقد أخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال: لو أنَّ ثوباً من ثيابِ أهل الجنة نُشِر اليومَ في الدنيا لصَعِق مَن ينظر إليه، وما حَمَلتْه أبصارُهم(٣).

وقرأ أبان عن عاصم وابن أبي حماد عن أبي بكر: «ويلبِسون» بكسر الباء(٤).

﴿مِّن سُندُسٍ﴾ قال الجواليقي: هو رقيقُ الديباج بالفارسية. فهو معرَّبٌ، وفي «القاموس»: هو ضربٌ من البُزْيونِ أو ضربٌ من رَقيق الدِّيباج معرَّبٌ بلا خلافٍ. وقال الليث: لم يختلف أهلُ اللغة والمفسِّرون في أنه معرَّبٌ(٥). وأنت تعلم أنَّ فيه خلافَ الشافعيِّ عليه الرحمة، والقولُ بأنَّه ليس من أهل اللغة والمفسِّرين في النفس منه شيء. وقال شَيْذَلَة: هو رقيق الديباج بالهندية(٦). وواحدُه على ما نقل عن ثعلب: سُنْدُسَة.

= القدير ٣/ ٣١٣. وفي حديث آخر أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٣/ ٣٥٩ عن ابن عباس موقوفاً: ثلاث يجلين البصر: النظر إلى الخضرة، والإثمد عند النوم، والوجه الحسن.

(١) لم نهتد إلى قائله، وهو في كشف الخفاء ١/ ٣٨٧ بلفظ:

ثـلاثـة مـذهِـبـةٌ عـنّـا الـحَـزَن   الـمـاء والـخـضـرةُ والـوجـهُ الـحَـسَـن

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٢. وشقائق النعمان: زهر، سميت «شقائق» لحمرتها تشبيهاً بشقيقة البرق، وأضيفت إلى النعمان لأنه حمى أرضاً فكثر فيها ذلك. الصحاح والقاموس (شقق).

(٣) المصدر السابق.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٩، والبحر ٦/ ١٢٢.

(٥) المعرَّب ص٢٢٥، والقاموس (سندس). وقول الليث في تهذيب اللغة ١٣/ ١٥٣.

(٦) الرسالة للشافعي ص٤٢، وقول شيذلة في الإتقان ١/ ٤٣٦.

وزعم بعضُهم: أنَّ أصلَه: سِنْدِي، وكان هذا النوعُ من الديباج يُجلَب من السِّنْد، فأبدلت الياءُ سِيناً كما فُعل في سادي، فقيل: سادِس، وهو كلامٌ لا يَرُوج إلا على سندِيٍّ أو هنديٍّ.

ويُحكَى أنَّ جماعةً من أهل الهند من بلدٍ يقالُ له: بَرُوج بالجيم الفارسية، وكانوا يتكلَّمون بلغة تُسمَّى سنسكريت، جاؤوا إلى الإسكندر الثاني بهدية من جملتها هذا الديباجُ، ولم يكن رآه فقال: ما هذا؟ فقالوا: سَنْدُون، بالنون في آخِرِه، فغيَّرتْه الرومُ إلى سَنْدوس، ثم العربُ إلى سندُس، فهو معرَّبٌ قطعاً من ذلك اللفظ الذي أطلقَتْه أولئك الجماعةُ عليه، لكن لا جزمَ في أنه اسمٌ له في الأصل بلغتِهم، أو اسمٌ للبلدةِ المجلوبِ هو منها أُطلِق عليه كما في أسماءِ كثيرٍ من الأمتعة اليومَ. والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة عن عكرمة أنَّه غليظُ الديباج(١). وقال ابن بحر: هو ديباجٌ منسوجٌ بذهب.

وفي «القاموس»: هو الديباجُ الغليظ، أو ديباجٌ يُعمَل بالذهب، أو ثيابُ حرير صِفاقٌ نحوَ الديباج، أو قِدَّة حمراء كأنها قِطَعُ الأوتار(٢). اهـ.

والذي عليه الأكثرون من المفسِّرين واللغويين الأولُ، وهو كما أخرج ابن أبي حاتم عن الضحَّاك معرَّبُ: إستَبْرَه، وهي كلمةٌ عَجَمِيَّةٌ، ومعناها: الغليظ(٣). والمشهورُ أنه يقال للغليظ بالفارسية: إستبر، بلا هاءٍ، وقال ابن قتيبة: هو روميٌّ عُرِّب، وأصله: إستَبْرَه، فأبدلوا الهاء قافاً(٤). ووقع في شعر المرقِّش قال:

تراهنَّ يَلبَسْنَ المشاعرَ مرَّةً وإستبرقُ الديباج طوراً لباسُها(٥)

وقال ابن دُريد(٦): هو سريانيٌّ عرِّب، وذَكَر من أصله ما ذكروا.

---

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٢٤٣، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٧.
(٢) القاموس (برق).
(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢١.
(٤) البحر ٦/ ٩٣، وورد في غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٦٧: فارسيٌّ معرَّب... إلخ.
(٥) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٢٥٥، والنكت والعيون ٣/ ٣٠٥، والبحر ٦/ ٩٤.
(٦) في جمهرة اللغة ٣/ ٥٠٢.

وقيل: أصلُه: إستَفْره بحرف بعد التاء بين الفاء والباء الموحَّدة.

وادَّعى بعضُهم أنَّ الإستبرقَ الديباجُ الغليظُ الحَسَنُ في اللغة العربية والفارسية، ففيه توافُقُ اللُّغَتَيْن، ونُقل عن الأزهري أنه استصوب هذا[1].

ويُجمَع على أبارق. ويصغَّر كما في «القاموس» وغيرِه على أُبَيْرِق[2].

وقرأ ابن محيصن: «وَاسْتَبْرَقَ» بوصل الهمزة وفتح القاف حيثُ وقع[3]، جَعَلَه ـ كما يقتضيه ظاهرُ كلام ابن خالويه ـ فعلاً ماضياً على وزن اسْتَفْعَلَ من البريق[4]، إلا أنَّ اسْتَفْعَلَ فيه موافِقٌ للمجرَّدِ الذي هو بَرَق. وظاهرُ كلامِ الأهوازيِّ في «الإقناع» أنه وحدَه قرأ كذلك، وجَعَله اسماً ممنوعاً من الصرف ولم يجعلْه فعلاً ماضياً[5].

وقال صاحبُ «اللوامح»: قرأ ابن محيصن: «واسْتَبْرقٍ» بوصل الهمزة في جميع القرآن مع التنوين. فيجوز أنه حذفَ الهمزةَ تخفيفاً على غيرِ قياس، ويجوز أنه جعلَه كلمةً عربيةً من بَرَق الثوبُ يبرِق بريقاً: إذا تلألأ بجدَّتِه ونَضَارتِه، فيكون وزنُه: استَفْعَل من ذلك، فلمَّا سُمِّي به عاملَه معاملةَ الفعل في وصل الهمزة، ومعاملةَ المتمكِّن من الأسماء في الصرفِ والتنوينِ. وأكثرُ التفاسيرِ على أنَّه عربيٌّ وليس بمستعرَبٍ. انتهى. ولا يخفى أنه مخالِفٌ للنقلَيْن السابقَيْنِ.

ويمكن أن يقال: إنَّ لابن محيصن قراءتين فيه، الصرفُ والمنعُ منه، فنقَلَ بعضٌ قراءةً وبعضٌ آخَرُ أُخرَى، لكنْ ذكر ابن جني أنَّ قراءة فتح القاف سهوٌ، أو كالسهو. قال أبو حيان: وإنما قال ذلك لأنَّ جعْلَه اسماً ومنْعَه من الصرف لا يجوز، لأنه غيرُ عَلَم، فتكون سهواً، وقد أمكن جعلُه فعلاً ماضياً فلا تكون سهواً[6]. انتهى.

---

(١) تهذيب اللغة ٩/ ٤٢٢.

(٢) القاموس (برق)، والمعرّب ص٦٣، وقوله: أبارق، تصحف في الأصل إلى: أباريق.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٩، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٥، والبحر ٦/ ١٢٢.

(٤) القراءات الشاذة ص٧٩-٨٠، والبحر ٦/ ١٢٢.

(٥) البحر ٦/ ١٢٢. وما بعده منه.

(٦) البحر ٦/ ١٢٢، وكلام ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٩.

وفي الجمع بين السندُس والإستبرق إشعارٌ ما بأنَّ لأولئك القوم في الجنة ما يشتهون، ونُكِّرا لتعظيم شأنِهما، وكيف لا، وهما وراءَ ما يشاهَدُ من سُندُسِ الدنيا وإستبرَقها، بل وما يُتخيَّل من ذلك؟ وقد أخرج البيهقيُّ عن أبي الخير مرثد بن عبد الله قال: وفي الجنة شجرةٌ تُنبِت السُّندُسَ، منه تكون ثيابُ أهل الجنةِ(١).

وأخرج الطيالسيُّ والبخاريُّ في «التاريخ» والنسائيُّ وغيرُهم عن ابن عمرو(٢) قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، أَخبِرْنا عن ثياب أهل الجنة، أخَلْقاً تُخلَق أم نَسْجاً تُنْسَج؟ فقال ﷺ: «بل يتشقَّقُ عنها ثمرُ الجنة». وظاهرُه أنها من سُندُسٍ كانت أو من إستبرق كذلك.

وقدِّمت التحليةُ على اللباس؛ لأنَّ الحُلي في النفس أعظمُ، وإلى القلب أحبُّ، وفي القيمة أغلى، وفي العين أحلى. وبُني فعلُه للمفعول؛ إشعاراً بأنَّهم لا يتعاطَون ذلك بأنفُسهم، وإنما يفعله الخَدَمُ، كما قال الشاعر:

غَرائرُ في كِنٍّ وصَونٍ ونِعمةٍ ... يُحلَّينَ ياقوتاً وشَذْراً مُفقَّرَا(٣)

وكذلك سائرُ الملوك في الدنيا يُلبِسهم التيجانَ ونحوَها من العلامات المرصَّعةِ بالجواهر خدَمُهم، وأُسنِد اللبسُ إليهم لأنَّ الإنسانَ يتعاطَى ذلك بنفسه، خصوصاً إذا كان فيه سترُ العورة.

وقيل: بُني الأولُ للمفعول والثاني للفاعل؛ إشارةً إلى أنَّ التَّحْليةَ تفضُّلٌ من الله تعالى واللبسُ استحقاقُهم. وتعقِّب بأنَّ فيه نزغةً اعتزاليةً، ويُدفع بالعناية.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جمعُ: أريكة وهو ـ كما قال غير واحد ـ: السريرُ في

---

(١) البعث والنشور (٣٣٤).

(٢) في الأصل و(م): ابن عمر، وهو تحريف، والحديث في مسند الطيالسي (٢٢٧٧)، والتاريخ الكبير ٣/ ١١٢، والسنن الكبرى (٥٨٤١)، وأخرجه أحمد (٦٨٩٠).

(٣) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص٥٩. وقوله: غرائر؛ وقع في الأصل و(م): غرائز، وهو تصحيف. ومعنى الغرائر: الغوافل عن الدهر لصيانتهن وتنعُّمِهنَّ، والكِنُّ: ما يُكتَنُّ به عن الحرّ والبرد. والشذْر: قطع الذهب، والمفقَّر: المصوغ على هيئة فِقار الجرادة، وهو مربع.

الحَجَلة، فإن لم يكن فيها فلا يسمَّى أريكةً. وأخرج ذلك البيهقيُّ عن ابن عباس[(١)].

وقال الراغب: الأريكةُ: حَجَلَةٌ على سريرٍ، وتسميتُها بذلك إما لكونها في الأرض متخَذة من أراك، وهو شجرٌ معروفٌ، أو لكونها مكاناً للإقامة من قولهم: أَرَك بالمكانِ أُرُوكاً، وأصلُ الأُروك: الإقامة على رَعْي الأراك، ثم تُجوِّز به في غيره من الإقامات[(٢)]. ورُوي تفسيرُها بذلك عن عكرمة.

وقال الزجَّاج: الأرائك: الفُرُش في الحِجَال[(٣)].

والظاهرُ أنَّها على سائر الأقوال عربيةٌ، وحَكَى ابن الجوزي في «فنون الأفنان» أنها السُّرُر بالحبشية.

وأيًّا ما كان فالكلامُ على ما قاله بعضُ المحقِّقين كنايةٌ عن تنعُّمِهم وترفُّهِهم، فإنَّ الاتكاءَ على الأرائك شأنُ المتنعِّمين المترفِّهين، والآثارُ ناطقةٌ بأنَّهم يتَّكؤون ويتنعَّمون؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الرجلَ ليتَّكئُ المتَّكأ مقدارَ أربعين سنةً، ما يتحوَّل منه ولا يمَلُّه، يأتيه ما اشتهَتْ نفسُه ولذَّت عينُه»[(٤)].

وأخرج ابن المنذر وجماعة عن ابن عباس أنَّ على الأرائك فُرشاً منضودةً في السماء مقدارَ فَرْسَخٍ[(٥)].

وقرأ ابن محيصن: «عَلَّرائِكِ» بنقلِ حركةِ الهمزة إلى لام التعريف وإدغام لامِ «على» فيها[(٦)]، فيُحذف ألفُ «على» لتوهُّم سكونِ لام التعريف، ومثلُه قول الشاعر:

---

(١) البعث والنشور (٣٣٤) والحجلة: ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس. المعجم الوسيط (حجل).

(٢) المفردات (أرك).

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٢٨٤.

(٤) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٢، وهو مرسل.

(٥) عزاه لابن المنذر وعبد بن حميد وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٢، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٥.

(٦) البحر المحيط ٦/ ١٢٢.

فـمـا أصـبـحَـتْ عـلَّـرْضِ نـفـسـي بَـرِيّـةً(١)

يريد: على الأرض.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ ذلك الذي وُعِدوا به من الجنةِ ونعيمِها ﴿وَحَسُنَتْ﴾ أي: الأرائكُ أو الجناتُ ﴿مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾ متكأً، وقد تقدم آنفاً الكلامُ فيه.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ للمؤمنينِ الذين يَدْعُون ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ، والكفرةِ الذين طلبوا طردَهم ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ مفعولانِ لـ «اضرب»، ثانيهما أوَّلُهما؛ لأنه المحتاجُ إلى التفصيل والبيانِ، قاله بعضُهم، وقد مرَّ تحقيقُ هذا المقام(٢)، فتذكَّر. والمرادُ بالرجلين إما رجلان مقدَّران على ما قيل، وضَربُ المثلِ لا يقتضي وجودَهما، وإما رجلان موجودان، وهو المعوَّلُ عليه، فقيل: هما أخوَان من بني إسرائيل، أحدُهما كافرٌ اسمه: فرطوس، وقيل: اسمه: قطفير، والآخرُ مؤمنٌ اسمُه: يَهُوذا، في قولِ ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه: يمليخا(٣).

وعن ابن عباس أنَّهما ابنا ملِكٍ من بني إسرائيل أنفق أحدُهما مالَه في سبيل الله تعالى، وكَفَر الآخَرُ واشتغل بزينة الدنيا وتنميةِ ماله(٤). ورُوي أنهما كانا حدَّادَيْنِ كسبا مالاً.

ورُوي أنَّهما وَرِثا من أبيهما ثمانيةَ آلاف دينار فتشاطَراها، فاشترى الكافرُ أرضاً بألفٍ، فقال المؤمن: اللَّهم أنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألفٍ، فتصدَّقَ به، ثم بَنَى أخوه داراً بألف، فقال: اللَّهمَّ إنِّي أشتري منك داراً في الجنة بألف، فتصدَّق به، ثم تزوَّج أخوه امرأةً بألف، فقال: اللهمَّ إنِّي جعلتُ ألفاً صَداقاً للحُور، فتصدَّق به، ثم اشترى أخوه خَدَماً ومتاعاً بألف، فقال: اللهمَّ إنِّي أشترِي منك الوِلدانَ المخلَّدين بألف، فتصدَّق به، ثم أصابته حاجةٌ فجلس لأخيه على طريقه،

---

(١) لم نهتد إلى قائله، وهو في البحر ٦/ ١٢٣ برواية: نَفْسٌ، وفي الدر المصون ٧/ ٤٨٥ برواية: نفس بريئةٌ. وعجزه كما في البحر والدر المصون:

ولا غـيـرهـا إلّا سـلـيـمـان نـالـهـا

(٢) في سورة إبراهيم عند الآية (٢٤).

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٦١.

(٤) زاد المسير ٥/ ١٣٨-١٣٩.

فمرَّ به في حَشَمه فتعرَّض له، فطرده ووبَّخه على التصدُّق بماله[١].

وقيل: هما أخوان من بني مخزوم: كافرٌ هو: الأسود بن عبد الأسد، ومؤمنٌ هو: أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد[٢].

والمرادُ: ضربُهما مثَلاً للفريقَيْن المؤمِنيْنَ والكافرينَ، لا من حيثُ أحوالهما المستفادة مما ذُكِر آنفاً من أنَّ للمؤمنين في الآخرة كذا، وللكافرين فيها كذا، بل من حيثُ عصيانُ الكَفَرةِ مع تقلُّبِهم في نِعَمِ الله تعالى، وطاعةُ المؤمنين مع مكابَدتهم مشاقَّ الفقر، أي: اضرب لهم مثلاً من حيثيةِ العصيان مع النعمةِ، والطاعةِ مع الفقر، حالَ رجلين ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بستانَيْنِ، لم يعيِّن سبحانه مكانَهما؛ إذ لا يتعلَّق بتعيينِه كبيرُ فائدة.

وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه: «عجائب البلاد» أنَّ بُحَيْرَةَ تِنِّيس كانت هاتينِ الجنَّتينِ، فجَرى ما جرى، ففرَّقهما الله تعالى في ليلةٍ واحدة[٣]. وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يُعلم منه قولٌ آخرُ.

والجملةُ بتمامها تفسيرٌ للمَثَلِ، فلا موضعَ لها من الإعراب، ويجوز أن تكونَ في موضع الصفة لـ «رجلين» فموضعُها النصب.

﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ من كرومٍ متنوِّعةٍ، فالكلامُ ـ على ما قيل ـ إما على تقديرِ مضافٍ، وإما الأعنابُ فيه مجازٌ عن الكروم، وهي أشجارُ العنب، والمفهومُ من ظاهرِ كلام الراغب أنَّ العنبَ مشتَرَكٌ بين الثمرة والكَرْم[٤]، وعليه فيُرادُ الكرومُ من غير حاجةٍ إلى التقديرِ أو ارتكابِ المجاز، والداعي إلى إرادةِ ذلك أنَّ الجنةَ لا تكون من ثمرٍ بل من شجرٍ.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٦١، والكشاف ٢/ ٤٨٣.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٢٩٨، والبحر المحيط ٦/ ١٢٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٥، والبحر المحيط ٦/ ١٢٤. و«تِنِّيس»: جزيرة في بحر مصر، قريبةٌ من البرِّ، ما بين فرما ودمياط، والفرما في شرقيها. معجم البلدان ٢/ ٥١. وقد وقع في الأصل و(م): «تينيس» بياء بعد التاء، والمثبت من المصادر. وإبراهيم بن القاسم هو المعروف بالرقيق القيرواني، له: تاريخ إفريقيا والمغرب، وكتاب الراح والارتياح، وكتاب الأغاني، وغيرها، وله شعر، توفي نحو (٤٢٥هـ). معجم الأدباء ١/ ٢١٦، والأعلام ١/ ٥٧.

(٤) المفردات (عنب) وفيه: العنب يقال لثمرة الكرْم، وللكرْم نفسه.

﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: جعلنا النخلَ مُحيطةً بهما، مُطيفَة بحِفَافَيهما، أي: جانبَيْهما، مؤزَّراً بها كرومُهما، يقال: حفَّه القومُ: إذا طافوا به، وحفَفْته بهم: إذا جعلتَهم حافِّين حولَه، فتَزيده الباءُ مفعولاً آخَرَ، كقولك: غشِيتُه به.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ وسطَهما ﴿زَرْعًا ۝٣٢﴾ لتكونا جامعتَيْن للأقوات والفواكهِ، متواصِلتَي العمارةِ على الهيئة الرائقةِ والوضعِ الأنيق.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرَها وبلغ مبلغاً صالحاً للأكل. و«كلتا» اسمٌ مفردُ اللفظِ مثنَّى المعنى عند البصريِّين، وهو المذهب المشهور، ومثنًّى لفظاً ومعنًى عند البغداديِّيْن، وتاؤُه منقلبةٌ عن واوٍ عند سيبويه، فأصلُه: كِلْوَى، فالألفُ فيه للتأنيث(١). ويُشكل على هذا إعرابُه بالحروفِ بشرطه، ويُجاب بما أُجيبَ به عن الإشكال في الأسماء الخمسة.

وعند الجرمي: الألفُ لامٌ منقلبةٌ عن أصلها، والتاءُ زائدةٌ للتأنيث(٢). ويَرِد عليه أنه لا يُعرف: فَعْتَل، وأنَّ التاءَ لا تقع حَشْواً ولا بعدَ ساكنٍ صحيحٍ.

وعلى المشهور يجوز في ضميره مراعاةُ لفظه ومراعاةُ معناه، وقد رُوعِيَ الأولُ هنا والثاني فيما بعد.

وفي مصحفِ عبد الله: «كِلَا الجنتَين» أَتَى بصيغة التذكير؛ لأنَّ تأنيثَ الجنَّتَيْن مجازيٌّ. ثم قرأ: «آتت» فأنَّث؛ لأنَّه ضميرُ مؤنَّثٍ(٣). ولا فرقَ بين حقيقيِّه ومجازيِّه، فالتركيبُ نظيرُ قولك: طلع الشمسُ وأشرقت. وقال [الفراء]: إنَّ عبد الله قرأ: «كُلُّ الجنتَيْن آتى أُكُلَه» فذكَّر وأعاد الضمير على «كلّ»(٤).

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ أي: لم تنقُصْ من أُكُلها ﴿شَيْـًٔا﴾ من النقص، على خلافِ ما يُعهد في سائر البساتين، فإنَّ الثمارَ غالباً تكثُر في عامٍ وتقِلُّ في عامٍ، وكذا بعضُ الأشجار تأتي بالثمار في بعضِ الأعوام دونَ بعض.

---

(١) ينظر الكتاب ٣/ ٣٦٣-٣٦٤، والصحاح (كلي).
(٢) الصحاح (كلي).
(٣) البحر ٦/ ١٢٤.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٣، والبحر ٦/ ١٢٤، والكلام وما بين حاصرتين منه.

وجوِّز أن يكونَ «تَظْلِم» متعدِّياً و«شيئاً» مفعولَه، والمآل واحد.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا﴾ أي: فيما بين كلتا الجنتين ﴿نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ ليدومَ شِربُهما ويزيدَ بهاؤُهما، قال يحيى بن أبي عمرو السيباني: وهذا النهر هو المسمَّى بنهر أبي فرطس، وهو على ما قال ابن أبي حاتم: نهرٌ مشهور في الرَّمْلَة[١].

وقيل: المعنى: فجَّرنا فيما بين كلٍّ من الجنتين نهراً على حدة، فيكون هناك نهران على هذا، ولا يخفى أنه خلافُ الظاهر.

وتشديد «فجَّر» قيل: للمبالغة في سعة التفجير. وقال الفراء: لأنَّ النهرَ ممتدٌّ، فكأنه أنهارٌ[٢].

وقرأ الأعمش وسلَّام ويعقوب وعيسى بن عمر: «فجَرنا» بالتخفيف على الأصل[٣].

وقرأ أبو السمَّال والفياض بن غزوان[٤] وطلحة بن سليمان: «نَهْراً» بسكون الهاء، وهو لغةٌ جاريةٌ فيه وفي نظائره.

ولعلَّ تأخيرَ ذكر التفجير عن ذكر الإيتاء ـ مع أنَّ الترتيبَ الخارجيَّ على العكس ـ للإيذان باستقلال كلٍّ من إيتاءِ الأُكُل وتفجير النَّهَر في تكميل محاسِن الجنتَيْنِ، كما في قصَّة البقرة ونحوها[٥]، ولو عَكَس لانْفَهم أنَّ المجموعَ خصلةٌ واحدةٌ بعضُها مترتِّبٌ على بعضٍ، فإنَّ إيتاءَ الأكل متفرِّع على السقْي عادةً، وفيه

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٦/ ٢٢٢. ويحيى بن أبي عمرو السَّيباني: بالسين المهملة ـ وقد وقع في الأصل و(م) بالمعجمة ـ هو أبو زرعة الحمصي، روى له البخاري في الأدب المفرد، والترمذي والنسائي وابن ماجه. والرملة: مدينة عظيمة بفلسطين، عمّرها سليمان بن عبد الملك. معجم البلدان ٣/ ٦٩.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٦، والبحر ٦/ ١٢٤.

(٤) وقع في الأصل و(م): العياض بن غزوان، وهو تصحيف، والمثبت من البحر ٦/ ١٢٥، والكلام منه. وفياض بن غزوان هو الضبي الكوفي، قرأ القرآن على طلحة بن مصرف، وحدّث عن مالك بن مغول وغيره. تاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ٩٥١.

(٥) ينظر ما سلف ٢/ ٢٢٨.

إيماءٌ إلى أنَّ إيتاءَ الأكل لا يتوقَّفُ على السقْي كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النور: ٣٥]. قاله شيخ الإسلام(١).

﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ أي: للأحد المذكور وهو صاحبُ الجنتين ﴿ثَمَرٌ﴾ أنواعُ المال، كما في «القاموس» وغيرِه(٢)، ويقال: ثَمَرَ: إذا تموَّل، وحَمْلُه على حَمْلِ الشجر كما فعل أبو حيان(٣) وغيره غيرُ مناسب للنظم.

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن عامر وحمزة والكسائيُّ وابن كثير ونافع وقراء المدينة: «ثُمُرٌ» بضمِّ الثاء والميم، وكذا في «بثمره» الآتي(٤)، وهو جمعُ: ثِمَارٍ بكسر الثاء، جمعِ: ثَمَرٍ بفتحتين، فهو جمعُ الجمع، ومعناه على نحو ما تقدَّم، أي: أموالٌ كثيرةٌ من الذهبِ والفضَّة والحيوان وغيرها، وبذلك فسَّره ابن عباس وقتادة وغيرهما. وقال مجاهد: يراد به الذهبُ والفضَّة خاصَّةً.

وقرأ الأعمش وأبو رجاء وأبو عمرو بضمِّ الثاء وإسكانِ الميم تخفيفاً(٥)، هنا وفيما بعدُ، والمعنى على ما سمعتَ.

وقرأ أبو رجاء في رواية: «ثَمْر» بالفتح والسكون(٦).

وفي مصحفِ أُبَيٍّ ـ وحُمِلَ على التفسير ـ: «وآتيناه ثَمَراً كثيراً»(٧).

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المؤمنِ، والمرادُ بالصاحب المعنى اللغويُّ، فلا ينافي هذا العنوانُ القولَ بأنَّهما كانا أخوين، خلافاً لمن وَهِم.

﴿وَهُوَ﴾ أي: القائل ﴿يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يحاور صاحبَه، فالجملةُ في موضع الحال من القائل. والمحاوَرةُ: مراجَعة الكلام، من حارَ: إذا رَجَع، أي: يُراجِعه الكلامَ في إنكارِه البعثَ وإشراكِه بالله تعالى.

---

(١) في تفسيره إرشاد العقل السليم ٥/ ٢٢١.
(٢) القاموس (ثمر)، وكذا في اللسان (ثمر).
(٣) في البحر ٦/ ١٢٥، وهو قول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥١٦.
(٤) التيسير ص١٤٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٦، والبحر ٦/ ١٢٥، والنشر ٢/ ٣١٠.
(٥) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١٠ عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٦/ ١٢٥.
(٦) البحر ٦/ ١٢٥.
(٧) المصدر السابق.

وجوِّز أن تكون الجملةُ حالاً من «صاحبه»، فضميرُ «هو» عائدٌ عليه، وضميرُ «صاحبه» عائدٌ على القائل، أي: والصاحبُ المؤمنُ يراجِع بالوعظ والدعوةِ إلى الله عزَّ وجلَّ ذلك الكافرَ القائلَ له:

﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ حشماً وأعواناً، وقيل: أولاداً ذكوراً، ورُوي ذلك عن قتادة ومقاتل، وأيِّد بمقابلته «أقل منك مالاً وولداً»، وتخصيصُ الذكور لأنَّهم الذين ينفِرون معَه لمَصالِحِه ومعاوَنتِه.

وقيل: عشيرةً، ومِن شأنِهم أنَّهم ينفِرون مع مَن هو منهم، واستُدِلَّ بذلك على أنَّه لم يكن أخاه؛ لأنَّ العشيرةَ مشتركةٌ بينَهما، وملتزِمُ الأُخُوَّةِ لا يفسِّر بذلك. ونصبُ «مالاً» و«نفراً» على التمييز، وهو ـ على ما قيل ـ محوَّلٌ عن المبتدأ، والظاهرُ أنَّ المرادَ من أفعل التفضيل معناه الحقيقيُّ، وحينئذٍ يُرَدُّ بذلك ما في بعض الروايات من أنَّ الأخَ المؤمنَ بقي بعدَ التصدُّقِ بماله فقيراً محتاجاً، فسأل أخاه الكافرَ ولم يُعطِه ووبَّخه على التصدُّق[1].

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ أي: كلَّ ما هو جنةٌ له يتمتَّعُ بها، بناءً على أنَّ الإضافةَ للاستغراق والعموم، فتُفيد ما أفادته التثنيةُ مع زيادةٍ، وهي الإشارةُ إلى أنَّه لا جنةَ له غيرُ ذلك، ولا حظَّ له في الجنة التي وُعِد المتقون، وإلى هذا ذهب الزمخشريُّ[2]، وهو معنى لطيفٌ دقَّ تصوُّرُه على أبي حيان فتعقَّبه بما تعقَّبه، واختارَ أنَّ الإفرادَ لأنَّ الدخولَ لا يُمكِن أن يكونَ في الجنتَيْن معاً في وقتٍ واحدٍ، وإنما يكون في واحدةٍ واحدةٍ[3]. وهو خالٍ عمَّا أُشيرَ إليه من النكتة. وكذا ما قيل: إنَّ الإفرادَ لاتصالِ إحداهما بالأخرى.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السديِّ أنه قال في قوله تعالى: (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ) إلخ الجنةُ: البستانُ، فكان له بستانٌ واحدٌ وجدارٌ واحدٌ، وكان بينهما نهرٌ فلذلك كان جنتَيْن، وسمَّاه سبحانه جنة من قِبَل الجدار المحيط به[4]. وهو كما ترى.

---

(١) ينظر ما سلف ص٣٣٥-٣٣٦ من هذا الجزء.

(٢) في الكشاف ٢/ ٤٨٤.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٢٥.

(٤) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٢.

والذي يدلُّ عليه السياقُ والمحاورة أنَّ المرادَ: ودخل جنتَه مع صاحبه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ جملةٌ حاليةٌ، أي: وهو ضارٌّ لنفسه بكفره، حيثُ عَرَّضها للهلاك وعَرَّض نعمتَها للزوال، أو: واضعٌ الشيءَ في غير موضعه، حيثُ كان اللائقُ به الشكرَ والتواضُعَ، لا ما حُكِي عنه.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من ذكر دخولِ جنته حالَ ظُلمِه لنفسه، كأنه قيل: فماذا قال إذ ذاك؟ فقيل: قال: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي: تَهلكَ وتَفنَى، يقال: بادَ يبيد بَيْداً وبُيُوداً وبَيْدُودةً: إذا هلك.

﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: الجنةُ ﴿أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: طولَ الحياةِ، فالمرادُ بالتأبيد طولُ المُكْث لا معناه المتبادِر. وقيل: يجوز أن يكونَ أراد ذلك؛ لأنه لجهلِه وإنكارِه قيامَ الساعة ظنَّ عدمَ فناءِ نوعِها، وإن فَنِي كلُّ شخصٍ من أشجارها، نحوَ ما يقوله الفلاسفةُ القائلون بقِدَم العالم في الحركات الفلكية، وليس بشيء.

وقيل: ما قَصَد إلا أنَّ هذه الجنةَ المشاهَدةَ بشخصِها لا تَفنَى، على ما يقوله الفلاسفةُ على المشهور في الأفلاك أنفسِها، وكأنَّ حُبَّ الدنيا والعُجبَ بها غَشَّى على عقلِه فقال ذلك، وإلا فهو مما لا يقوله عاقلٌ. وهو مما لا يرتضيه فاضلٌ.

وقيل: «هذه» إشارةٌ إلى الأجرام العلوية والأجسام السفلية من السماوات والأرض وأنواعِ المخلوقات، أو إشارةٌ إلى الدنيا، والمآلُ واحدٌ، والظاهرُ ما تقدَّم.

وأيَّاما كان فلعلَّ هذا القولَ كان منه بمقابلةِ موعِظةِ صاحبِه وتذكيرِه بفَناء جنَّتَيْه ونهْيِه عن الاغترار بهما وأمرِه بتحصيل الصالحات الباقيات، ولعلَّه خوَّفه أيضاً بالساعة فقال له: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: كائنةً فيما سيأتي، فالقيامُ الذي هو من صفاتِ الأجسام مجازٌ عن الكون والتحقُّق، لكنَّه جارٍ في العُرف مَجرى الحقيقة.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعثِ عندَ قيامها كما زعمتَ ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ حينئذٍ ﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ أي: من هذه الجنة.

وقرأ ابن الزبير وزيد بن عليٍّ وأبو بحريَّة وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وحميد

وابن مُناذِر ونافع وابن كثير وابن عامر: «منهما» بضمير التثنية(١)، وكذا في مصاحفِ مكة والمدينة والشام(٢)، أي: من الجنتين.

﴿مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ أي: مرجعاً وعاقبةً لفناءِ الأولى وبقاءِ الأخرى على زعمك، وهو تمييزٌ محوَّلٌ من المبتدأ على ما نصَّ عليه أبو حيان(٣)، ومدارُ هذا الطمعِ واليمينِ الفاجرة اعتقادُ أنَّه تعالى إنَّما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقِه الذاتيِّ وكرامته عليه سبحانه، وهذا كقوله تعالى حكايةً: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ولم يَدْرِ أنَّ ذلك استدراجٌ، وكأنه لسبقِ ما يشقُّ عليه فراقُه ـ وهي الجنة التي ظنَّ أنها لا تبيد ـ جاء هنا: «رُدِدتُ»، ولعدمه فيما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى من آية ﴿حمٓ﴾ المذكورة جاء: ﴿رُّجِعْتُ﴾ [فصلت: ٥٠] فليتأمَّل.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ﴾ استئنافٌ كما سبق ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ جملةٌ حاليةٌ كالسابقة، وفائدتُها التنبيهُ من أوَّلِ الأمر على أنَّ ما يتلوها كلامٌ معتنًى بشأنه مسوقٌ للمحاورة.

وقرأ أبيٌّ ـ وحُمل ذلك على التفسير ـ: «وهو يخاصمه»(٤).

﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي: في ضمن خلقِ أصلِك منه، وهو آدمُ عليه السلام؛ لِمَا أنَّ خَلْقَ كلِّ فردٍ من أفرادِ البشر له حظٌّ من خَلْقِه عليه السلام، إذ لم تكن فطرتُه الشريفةُ مقصورةً على نفسه، بل كانت أنموذجاً مُنطوياً على فطرةِ سائر أفرادِ الجنس انطواءً إجماليًّا مستتبعاً لجَريان آثارِها على الكلِّ، فإسناد الخلق من تراب إلى ذلك الكافر حقيقةٌ باعتبارِ أنه مادَّةُ أصلِه. وكونُ ذلك مبنيًّا على صحَّةِ قياسِ المساواة خيالٌ واهٍ.

---

(١) التيسير ص١٤٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٧، والبحر ٦/ ١٢٦، والنشر ٢/ ٣١١. وأبو بحريَّة هو عبد الله بن قيس السَّكوني، حمصي مشهور بكنيته، مخضرم ثقة. روى له أصحاب السنن الأربعة. مات سنة (٧٧هـ). تهذيب التهذيب ٢/ ٤٠٦. وابن مُناذِر هو محمد أبو ذريح، شاعر فصيح، أخذ الأدب واللغة عن الخليل وأبي عبيدة، كان قارئاً تروى عنه حروف يقرأ بها، وله معرفة بالحديث، لم يكن مرضيًّا في أفعاله، توفي سنة (١٩٨هـ). معجم الأدباء ١٩/ ٥٥، وتاريخ الإسلام للذهبي ٥/ ١٩٠.

(٢) البحر ٦/ ١٢٦، والنشر ٢/ ٣١١.

(٣) في البحر ٦/ ١٢٦.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٧، والبحر ٦/ ١٢٧.

وقيل: خَلَقَك منه؛ لأنَّه أصلُ مادتِك، إذ ماءُ الرجل يتولَّد من أغذيةٍ راجعةٍ إلى التراب. فالإسنادُ مجازٌ من إسنادِ ما للسبب إلى المسبَّب، فتدبَّر.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي مادَّتُك القريبةُ، فالمخلوقُ واحدٌ والمبدأ متعدِّدٌ، ونُقل أنَّه ما من نطفةٍ قدَّر الله تعالى أن يخلُقَ منها بشراً إلا وملكٌ موكَّل بها يُلقِي فيها قليلاً من ترابٍ، ثم يَخلُق الله تعالى منها ما شاء من ذكر أو أنثى. وتعقَّبه في «البحر»[1] بأنه يحتاج إلى ثبوت صحَّته. وأنا أقول: غالب ظنِّي أنِّي وقفتُ على تصحيحه، لكن في تخريج الآية عليه كلامٌ لا يخفى.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ عدَلك وكمَّلك إنساناً ذكراً، وأصلُ معنى التسوية: جعلُ الشيء سواءً، أي: مستوياً كما فيما: ﴿تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢] ثم إنَّه يُستعمَل تارةً بمعنى الخَلْق والإيجاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]، فإذا قُرِن بالخَلْق والإيجاد كما هنا فالمرادُ به الخَلْقُ على أتمِّ حالٍ وأعدلِه، حسبَما تقتضيه الحكمةُ بدون إفراطٍ ولا تفريطٍ، ونصبُ «رجلاً» على ما قال أبو حيان[2] على الحال، وهو مُحْوِجٌ إلى التأويل. وقال الحوفي: نصب على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «سوّى»، والمراد: ثمَّ جَعَلك رجلاً، وفيه ـ على ما قيل ـ تذكيرٌ بنعمةِ الرجولية، أي: جعلك ذَكراً ولم يجعلْك أنثى.

والظاهرُ أنَّ نسبةَ الكفر بالله تعالى إليه لشكِّه في البعث وقولِه: «ما أظن الساعة قائمة»، والشاكُّ في البعث ـ كما في «الكشف» ـ كافرٌ من أوجُهٍ: الشكُّ في قدرته تعالى، وفي إخباره سبحانه الصدق، وفي حكمته، ألا ترى إلى قولِه عزَّ وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وهذا هو الذي يقتضيه السياقُ؛ لأنَّ قولَه: «أكفرت» إلخ وقع ردًّا لقوله: «ما أظن الساعة قائمة»، ولذلك رتَّب الإنكارُ بخلقه من ترابٍ ثم من نطفة الملوَّح بدليل البعثِ، وعليه أكثرُ المفسرين ونُوقِشوا فيه.

وقال بعضُهم: الظاهرُ أنه كان مشرِكاً كما يدلُّ عليه قولُ صاحبه تعريضاً به: «ولا أشرك بربي أحداً» وقولُه: «يا ليتني لم أشرك بربي أحداً»، وليس في قوله:

---

(١) ٦/ ١٢٧.

(٢) في البحر ٦/ ١٢٧، وقول الحوفي الآتي فيه.

«إن رددت إلى ربي» ما يُنافيه؛ لأنه على زعمِ صاحبِه كما مرَّ، مع أنَّ الإقرار بالربوبية لا يُنافي الإشراكَ، فعبَدَة الأصنامِ مُقِرُّون بها وهم مشركون، فالمراد بقوله: «أكفرت»: أأشركتَ. اهـ، وسيأتي إن شاء الله تعالى بعضُ ما يتعلَّق به.

وقرأ ثابت البنانيُّ، وحُمل ذلك على التفسير كنظائره المتقدِّمة: «ويلكَ أكفرتَ»[(١)].

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ أصله: لكنْ أنا، وقد قرأ به أبيٌّ والحسنُ، وحَكى ابن عطية ذلك عن ابن مسعود[(٢)]، فنُقِل حركةُ همزةِ «أنا» إلى نون «لكن»، فحُذِفت الهمزة، ثم حُذِفت الحركةُ، ثم أُدغِمَت النونُ في النون. وقيل: حُذِفت الهمزةُ مع حركتها، ثم أُدغِم أحدُ المِثْلَين في الآخَر، وهو أقربُ مسافةً إلَّا أنَّ الحذف المذكور على خلاف القياس، وقد جاء الحذفُ والإدغامُ في قوله:

وتَرمِينَني بالطَّرْفِ أي أَنْتَ مُذنِبٌ ... وتَقْلِينَنِي لكنَّ إياكِ لا أَقْلِي[(٣)]

فإنه أراد: لكنْ أنا لا أقليك، وهو أولى من جَعْلِهم التقديرَ: لكنَّه إياكِ، على حذفِ ضميرِ الشأن، وأبعدُ منه جَعْلُ الأصل: لكنَّني إياكِ، على حذف اسمِ «لكن» كما في قوله:

فلو كنتَ ضبِّيًّا عرفتَ قَرابَتِي ... ولكنَّ زِنْجيٌّ عظيمُ المَشَافِرِ[(٤)]

أي: لكنَّك مع نون الوقاية.

وبإثباتِ الألف آخراً في الوقف، وحذفِها في الوصل كما هو الأصلُ في «أنا» وقفاً ووصلاً قرأ الكوفيون وأبو عمرو وابن كثير ونافع في رواية ورش وقالون[(٥)].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٢٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٧، والبحر ٦/ ١٢٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٨٤، والبحر ٦/ ١٢٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٤، وشرح المفصل لابن يعيش ٨/ ١٤٠، والخزانة ١١/ ٢٢٥. وقلاه يقليه: أبغضه.

(٤) البيت في البحر ٦/ ١٢٨، وتفسير القرطبي ١٤/ ١٢٣ دون نسبة، ونسب في الكتاب ٢/ ١٣٦، والمحتسب ٢/ ١٨٢، وشرح المفصل ٨/ ٨١ للفرزدق. ورواية المحتسب: غليظ المشافر. والمشافر جمع مشفر، أصله للبعير وجعله لشفة مَن يهجوه.

(٥) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١١ وهي قراءة يعقوب في رواية روح.

وأبدلَها هاءً في الوقف أبو عمرو في روايةٍ فقال: «لكنَّهْ» ذكره ابن خالويه(١).

وقال ابن عطية: روى هارون عن أبي عمرو: «لكنَّهُ هو الله ربي» بضميرٍ لَحِقَ «لكنَّ»(٢).

وقرأ ابن عامر وزيد بن عليٍّ والحسن والزهريُّ بإثبات الألف وقفاً ووصلاً، وهو روايةٌ عن نافع ويعقوب وأبي عمرو وورش وأبي جعفر وأبي بحريَّة(٣). وجاء ذلك على لغةِ بني تميم فإنَّهم يُثبِتون ألفَ «أنا» في الوصل اختياراً، وأما غيرُهم فيُثبِتها فيه اضطراراً. وقال بعضهم: إنَّ إثباتَها في الوصل غيرُ فصيحٍ لكنَّه حَسُن هنا لمشابهة «أنا» بعدَ حذفِ همزتِه لضميرِ «نا» المتصلِ، ولأنَّ الألفَ جُعِل عوضاً عن الهمزة المحذوفةِ فيه. وقيل: أُثبِتَت إجراءً للوصل مجرى الوقف، وفي إثباتها دفعُ اللبس بـ «لكنَّ» المشدَّدة، ومن إثباتها وصلاً قولُ الشاعر:

أنا شيخُ العَشِيرَةِ فاعرِفُوني ... حُميداً قد تَذَرَّيتُ السَّنَامَا(٤)

وفي رواية الهاشميِّ عن أبي جعفر حذفُها وصلاً ووقفاً، وروي ذلك أيضاً عن [ابن] أبي عبلة وأبي حيوة وأبي بحريَّة(٥).

وقرئ: «لكنَنَا» بحذف الهمزة وتَخْفيفِ النونَيْن(٦).

و«لكن» في جميع هذه القراءات حرفُ استدراك لا عملَ له، و«أنا» مبتدأٌ أوَّل، و«هو» ضميرُ الشأن مبتدأٌ ثانٍ، و«الله ربِّي» مبتدأٌ وخبرٌ، والجملةُ خبرُ ضميرِ الشأن، وهي غنيةٌ عن الرابط، وجملةُ ضميرِ الشأنِ وخبرِه خبرُ المبتدأ الأوَّلِ،

---

(١) في القراءات الشاذة ص٨٠ والكلام من البحر ٦/ ١٢٨.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٧-٥١٨، والبحر ٦/ ١٢٨.

(٣) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١١ عن نافع وأبي جعفر ويعقوب في رواية رويس، والكلام من البحر ٦/ ١٢٧.

(٤) البيت في حجة القراءات لابن زنجلة ص٤١٧، والمحرر الوجيز ١/ ٣٤٦، وتاريخ مدينة دمشق ١١/ ٣٦٩ دون نسبة، وهو في تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٤، وأساس البلاغة (ذرى)، والخزانة ٥/ ٢٤٢ برواية: سيف العشيرة، ونسبه الزمخشري والبغدادي لحميد بن بحدل. وقال الزمخشري: تذرَّى السنامَ: إذا شرُف وعلا، وارتفع أمره.

(٥) البحر ٦/ ١٢٨ وما بين حاصرتين منه.

(٦) المصدر السابق.

والرابطُ ضميرُ المتكلِّم المضافِ إليه، والتركيبُ نظيرُ قولك: هندٌ هو زيد ضاربها.

وجوِّز أن يكونَ «هو» مبتدأ ثانياً، والاسمُ الجليلُ بدلاً منه، و«ربِّي» خبرُه، والجملةُ خبرُ المبتدأ الأوَّلِ، والرابطُ الياء أيضاً.

وفي «البحر» أنَّ «هو» ضميرُ الشأن وثَمَّ قولٌ محذوفٌ، أي: لكنْ أنا أقولُ: هو الله ربِّي، ويجوز أن يعودَ على «الذي خلقك»، أي: لكن أنا أقول: الذي خلقك اللهُ ربي، فخبرُه الاسمُ الجليل، و«ربِّي» نعتٌ، أو عطفُ بيانٍ، أو بدلٌ[١]. انتهى. ثم جَوَّز عدمَ تقدير القول واقتَصَرَ على جَعْلِ «هو» ضميرَ الشأن حينئذٍ حسبما سمعتَ.

ولا يخفى أنَّ احتمالَ تقدير القول بعيدٌ في هذه القراءة، ولعلَّ احتمالَ كونِ الاسم الجليل بدلاً أقربُ معنًى من كونه خبراً وعودِ الضمير على «الذي خَلقك».

وجوَّز أبو عليٍّ كونَ «نا» ضميرَ الجماعة كالتي في: خَرَجْنا وضربْنا، ووقع الإدغامُ لاجتماعِ المثلَيْنِ، إلا أنَّه أُرِيد بها ضميرُ المعظِّم نفسَه، فوُحِّد «ربِّي» على المعنى، ولو اتُّبِع اللفظُ لقيل: ربُّنا[٢]. ولا يخفى ما فيه من البُعد.

وقال ابن عطية في الآية: يجوز أن تكونَ «لكن» هي العاملةُ من أخواتِ «إنَّ»، واسمُها محذوفٌ، وحذْفُه فصيحٌ إذا دلَّ عليه الكلامُ، والتقديرُ: لكنَّ قولي: هو اللهُ ربي، لكنَّ ذلك إنَّما يتمُّ لو قُرئ بحذفِ الألف وقفاً ووصلاً، وأنا لا أعرِفُ أحداً قرأ بذلك[٣]. انتهى. وأنتَ قد عرفتَ من قرأ به، وقد ذكر غيرهم قرؤوا أيضاً: أبو القاسم يوسفُ بن عليٍّ الهُذَليُّ[٤] في كتابه: «الكامل في القراءات»، لكن لا أظنُّك تستَحْسِن التخريجَ على ذلك.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٥/١٤٦-١٤٧. ونقله المصنف من البحر ٧/١٢٨.

(٣) المحرر الوجيز ٣/٥١٧.

(٤) المغربي، مقرئ، رحل في طلب القراءات، وصنف كتابه «الكامل في القراءات المشهورة والشواذ»، فيه خمسون رواية من أكثر من ألف طريق. توفي سنة (٤٦٠ هـ) أو قريباً منها. تاريخ الإسلام للذهبي ١٠/١٣٥.

وقرأ عيسى الثقفيُّ: «لكنْ هو الله» بسكون نون «لكنْ»، وحكاه ابن خالويه عن ابن مسعود، والأهوازيُّ عن الحسن، وإعرابه ظاهرٌ جدًّا[(١)].

وقرئ: «لكنْ أنا هو الله لا إله إلا هو ربي»[(٢)]. ويعلم إعرابه مما مرَّ.

وخرَّج أبو حيان قراءةَ أبي عمرو على رواية هارون على أن يكونَ «هو» تأكيداً لضمير النصب في «لكنه»،وجعله عائداً على «الذي خلقك»، ثم قال: ويجوز أن يكونَ فصلاً؛ لوقوعه بين معرفتَيْن، ولا يجوز أن يكونَ ضميرَ شأنٍ؛ لأنه لا عائدَ حينئذٍ على اسمِ «لكن» من الجملة الواقعة خبراً[(٣)]. انتهى.

ويا ليت شعري ما الذي منعه من تجويزِ أنْ يكونَ ضميرُ «لكنه» للشأن، ويكونُ «هو» مبتدأً عائداً على «الذي خلقك»، والاسمُ الجليلُ خبرُه، و«ربِّي» نعتاً، أو عطفَ بيان، أو بدلاً، والجملةُ خبرُ ضميرِ الشأن المنصوبِ بـ «لكن»، أو يكونُ «هو» مبتدأً، والاسمُ الجليلُ بدلاً منه، و«ربِّي» خبراً، والجملةُ خبرُ الضمير.

هذا وقولُه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ عطفٌ على إحدى الجملتَيْن، والاستدراكُ على «أَكَفَرْتَ»، وملخَّصُ المعنى لمكان الاستفهام الذي هو للتقرير على سبيل الإنكار: أنتَ كافرٌ بالله تعالى لكنِّي مؤمنٌ موحِّدٌ. وللتغايرِ الظاهرِ بين الجملتين وقعت «لكنْ» موقعَها فقد قالوا: إنها تقعُ بين كلامَيْن متغايرَيْن نحو: زيدٌ حاضرٌ لكنْ عمرو غائبٌ، وإلى كون المعنى ما ذُكر ذهب الزمخشريُّ وغيره[(٤)].

وذَكَر في «الكشف» أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الكفرَ بالله تعالى يقابله الإيمانُ والتوحيدُ، فجاز أن يُستدرَكَ بكلٍّ منهما وبهما معاً، أي: كما هنا؛ فإنَّ الإيمانَ مفادُ: أنا هو الله ربِّي، والتوحيدَ مفادُ: «لا أشرك بربِّي أحدا»، وأنتَ تعلم أيضاً أنَّ الشركَ كثيراً ما يُطلَق على مُطلَق الكفرِ، وجعلوا منه قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٠، والمحتسب ٢/ ٩٢، والبحر ٦/ ١٢٨.

(٢) لم نقف على هذه القراءة، وفي القراءات الشاذة ص٨٠: «لكن هو الله ربي لا إله إلّا هو» عن ابن مسعود. وفي الكشاف ٢/ ٤٨٥ عنه: «لكن أنا لا إله إلّا هو ربي». اهـ.

(٣) البحر ٦/ ١٢٨.

(٤) الكشاف ٢/ ٤٨٥، وتفسير البيضاوي ٧/ ١٠٢.

يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:١١٦] وأنه يمكن أن يكون الغرضُ من مجموعِ الكلام إثباتَ الإيمان على الوجهِ الأكيد، ولعلَّ شركَ صاحبه الذي عرَّض به في الجملة الثانية ـ كما صرَّح به غير واحد ـ بهذا المعنى.

وقيل: الشركُ فيه بالمعنى المتبادِر، وإثباتُه لصاحبه تعريضاً باعتبارِ أنَّه لمَّا أنْكر البعثَ فقد عَجَّز الباري جلَّ جلالُه، ومَن عَجَّزه سبحانه وتعالى فقد سوَّاه بخلقه تعالى في العجز، وهو شِرْكٌ.

وقيل: باعتبارِ أنه لمَّا اغترَّ بدنياه وزَعَم الاستحقاقَ الذاتيَّ وأضاف ما أضاف لنفسه، كان كأنه أشرك، فعرَّض به المؤمنُ بما عرَّض، فكأنه قال: لكنْ أنا مؤمنٌ ولا أرى الغنى والفقرَ إلا مِن الله تعالى، يُفقِر مَن يشاء ويُغني من يشاء، ولا أرى الاستحقاقَ الذاتيَّ، على خلافِ ما أنت عليه.

والإنصافُ أنَّ كلًّا مِن القولين تكلُّفٌ.

وقيل: في الكلام تعريضٌ بشركِ صاحبِه، ولا يلزَم أن يكونَ مدلولاً عليه بكلامِه السابقِ، بل يَكْفيه ثبوتُ كونِه مشركاً في نفس الأمر وفيما بعدُ ما هو ظاهرٌ فيه، فتأمَّل.

ثم اعْلَم أنَّ ما تضمَّنته الآيةُ ذكرٌ جليلٌ؛ وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أسماء بنتِ عميس قالت: علَّمني رسولُ الله ﷺ كلماتٍ أقولُهن عند الكرب: «اللهُ ربِّي لا أشركُ به شيئاً»(١).

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ حضٌّ على القول وتوبيخٌ على تركه، وتقديمُ الظرف على المحضَّضِ عليه؛ للإيذان بتحتُّم القول في آنِ الدخول من غير رَيثٍ [لا](٢) للقصر، وجاز تقديمُه لذلك وجعلُه فاصلاً بين «لولا» وفعلها لتوسُّعِهم في الظروف، أي: هلَّا قلتَ عندما دخلتها: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: الأمرُ

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٢، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٠٨٢)، وأبو داود (١٥٢٥) وابن ماجه (٣٨٨٢)، وجاء في المصادر عدا مسند أحمد: «الله الله ربّي»، بتكرارِ لفظ الجلالة.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٣.

ما شاء الله، أو: ما شاء الله تعالى كائنٌ، على أنَّ «ما» موصولةٌ مرفوعةُ المحلِّ إمَّا على أنَّها خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو على أنَّها مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ. ويجوزُ أن تكونَ شرطيةً في محلِّ نصبٍ بـ «شاء»، والجوابُ محذوفٌ، أي: أيَّ شيءٍ شاء اللهُ تعالى كان.

وأيًّاما كان فالمرادُ تحضيضُه على الاعترافِ بأنَّ جنَّتَه وما فيها بمشيئةِ الله تعالى، إن شاء أبقاها وإن شاء أبادَها، ودلالةُ الجملة على العموم الداخلِ فيه ما ذُكر دخولاً أوليًّا على التقدير الأولِ؛ لأنَّ تعريفَ الأمر للاستغراق، والجملةُ على هذا تفِيدُ الحصرَ، وأمَّا على غيرِه فقيل: لأنَ «ما» شرطيةٌ، أو موصولةٌ وهي في معنى الشرط، والشرطُ وما في معناه يُفيد توقُّفَ وجودِ الجزاء على ما في حيِّزه، فيُفيد عدمَه عند عدمِه، فيكون المعنى: ما شاء كان وما لم يشأ[1] لم يكن، ولا غبارَ على ذلك عند مَن يقول بمفهوم الشرط.

وقدَّر بعضُهم في الثاني من احتمالَي الموصولة: ما شاء الله هو الكائن، حتى تُفيد الجملةُ ما ذُكر. وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وزعم القفَّال من المعتزلة أنَّ التقديرَ: هذا ما شاءه الله تعالى، والإشارةُ إلى ما في الجنة من الثمار ونحوها، وهذا كقول الإنسان إذا نظر إلى كتابٍ مثلاً: هذا خطُّ زيد. ومرادُه نفي دلالة الآية على العموم؛ ليسْلَمَ له مذهبُ الاعتزال، وكذلك فَعَلَ الكعبيُّ والجبَّائيُّ حيث قالا: الآية خاصَّةٌ فيما تولى اللهُ تعالى فعلَه، ولا تشملُ ما هو من فعل العباد، ولا يمتنع أن يحصُلَ في سلطانه سبحانه ما لا يريد كما يحصل فيه ما ينهى عنه. ولا يخفى على مَن له ذوقٌ سليمٌ وذهنٌ مستقيمٌ أنَّ المنساقَ إلى الفهم العمومُ، وكم للمعتزلة عدولٌ عن ذلك.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ من مَقولِ القول أيضاً، أي: هلَّا قلتَ ذلك اعترافاً بعجزك وإقراراً بأنَّ ما تيسَّر لك من عمارتها وتدبيرِ أمرها إنما هو بمَعُونتِه تعالى وإقدارِه جلَّ جلالُه!.

---

(١) في (م): وإن لم يشأ، وهو تحريف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٦/ ١٠٢، والكلام منه.

وقد تضمَّنت هذه الآيةُ ذكراً جليلاً أيضاً؛ فقد أخرج أحمدُ عن أبي هريرة قال: قال لي نبيُّ الله ﷺ: «ألا أدلُّك على كنزٍ من كنوز الجنةِ تحت العرش»؟ قلتُ: نعم. قال: «أن تقولَ: لا قوَّةَ إلا بالله». قال عَمرو بن ميمون: قلتُ لأبي هريرة: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآيةَ(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن مرَّة قال: إنَّ من أفضلِ الدعاء قولَ الرجل: ما شاء الله(٢).

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والبيهقيُّ في «الشعب» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم اللهُ تعالى على عبدٍ نعمةً في أهل أو مال أو ولد، فيقول: ما شاء الله لا قوَّة إلا بالله. إلا دفع الله تعالى عنه كلَّ آفة حتى تأتيه منيَّته»، وقرأ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ إلخ(٣).

وأخرج ابن أبي حاتم من وجهٍ آخَرَ عن أنس قال: من رأى شيئاً من ماله فأعجَبَه فقال: ما شاء الله لا قوَّةَ إلا بالله. لم يُصِب ذلك المالَ آفةٌ أبداً، وقرأ الآيةَ، وأخرجه البيهقيُّ في «الشعب» عن أنس مرفوعاً(٤).

وأخرج ابن أبي حاتم عن مطرِّفٍ قال: كان مالك إذا دخل بيتَه يقول: ما شاء الله. قلتُ لمالك: لِمَ تقول هذا؟ قال: ألا تسمع اللهَ تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾(٥). ونُقِل عن ابن العربي أنَّ مالكاً يستدِلُّ بالآية على استحباب ما تضمَّنته من الذِّكْر لكلِّ مَن دخل منزلَه(٦).

---

(١) مسند أحمد (٨٤٢٦)، وإسناده حسن.
(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٣.
(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٢٣، وهو في شعب الإيمان (٤٣٦٩) دون ذكر الآية، وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٤٢٦١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٤٠: فيه عبد الملك بن زرارة، وهو ضعيف.
(٤) شعب الإيمان (٤٣٧٠) دون ذكر الآية، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٣.
(٥) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٣.
(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٢٧-١٢٢٨.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم والبيهقيُّ في «الشعب» عن عروة أنه كان إذا رأى من مالِه شيئاً يُعجِبه أو دخل حائطاً من حيطانه قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ويتأوَّل قولَ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآية[١].

ويفهم من بعض الروايات استحبابُ قول ذلك عندَ رؤيةِ ما يُعجِب مطلقاً، سواءٌ كان له أو لغيرِه، وأنه إذا قال ذلك لم تُصِبه عينُ الإعجاب[٢].

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ إلخ «أنا» توكيدٌ للضميرِ المنصوب على المفعولية في «ترني»، وقد أقيم ضميرُ الرفع مقامَ ضمير النصب، والرؤيةُ إن كانت عِلميةً فـ «أقلَّ» مفعولٌ ثانٍ، وإن كانت بصريةً فهو حالٌ من المفعول، ويجوز أن يكونَ «أنا» فصلاً، وحينئذٍ يتعيَّن أن تكونَ الرؤيةُ علميةً؛ لأنَّ الفصلَ إنما يقعُ بينَ مبتدأ وخبرٍ في الحال أو في الأصل.

وقرأ عيسى بن عمر: «أقلُّ» بالرفع[٣]، فيكون «أنا» مبتدأً، و«أقلُّ» خبرَه، والجملةُ في موضع المفعول الثاني على الأول من احتمالَي الرؤية، أو الحال على الثاني منهما.

و«مالاً وولداً» تمييزٌ على القراءتين وما فيهما من الاحتمال، وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ قائمٌ مقامَ جوابِ الشرط، أي: إن ترنِ كذلك فلا بأسَ، عسى ربِّي... إلخ. وقال كثيرٌ: هو جوابُ الشرط، والمعنى: إن ترني أفقرَ منكَ فأنا أتوقَّع من صَنيع الله تعالى أن يقلِبَ ما بي وما بك من الفقر والغِنى، فيرزُقني لإيماني جنةً خيراً من جنَّتِك، ويسلبك بكفرك نعمتَه ويُخرِّب جنتك.

وقيَّد بعضُهم هذا الإيتاءَ بقوله: في الآخرة، وقال آخر: في الدنيا أو في الآخرة، وظاهرُ ما ذُكر أنه في الدنيا كالإرسال في قوله: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذاباً كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس[٤].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٢٣، وهو في شعب الإيمان (٢٢٣٠).
(٢) ينظر حديث أنس رضي الله عنه في عمل اليوم والليلة لابن السني (٢٠٧).
(٣) البحر ٧/ ١٢٩.
(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٦٦.

وأخرج الطستيُّ عنه أنَّ نافع بن الأزرق قال له: أَخبِرْني عن قوله تعالى: ﴿حُسۡبَانٗا﴾ فقال: ناراً، وأنشد له قولَ حسَّان:

بقيةُ معشرٍ صُبَّت عليهم شآبيبٌ من الحُسبان شُهْبُ[(١)]

وأخرج ذلك ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن الضحَّاك أيضاً[(٢)].

وقال الزمخشريُّ: هو مصدرٌ كالبطلان والغفرانِ، بمعنى الحِساب، والمراد به المحسوب والمقدَّر، أي: مقدَّراً قدَّره الله تعالى وحَسَبه وهو الحُكْمُ بتخرِيبها[(٣)].

والظاهرُ أنَّ إطلاقه على الحكم المذكورِ مجازٌ. والزجَّاجُ جعل الحسبانَ بمعنى الحساب أيضاً، إلا أنه قدَّر مضافاً، أي: عذابَ حسابٍ، وهو حسابُ ما كسبَتْ يداه[(٤)]. ولا يخفى أنه يجوز أن يرُاد من الحسبان بهذا المعنى العذابُ مجازاً، فلا يحتاج إلى تقديرِ مضافٍ. وظاهر عبارة «القاموس»[(٥)] وكذا ما رُوي أولاً عن ابن عباس أنَّ إطلاقَ الحُسبان على العذاب حقيقةٌ، ويُمكِن على ما قيل أن يكونَ إطلاقُه على النار باعتبارِ أنَّها من العذاب أو من المقدَّر، ونقل الزمخشريُّ أنَّ «حسباناً» جمع: حُسبانةٍ، وهي المرماة، أي: ما يُرمَى به كالسهمِ والصاعِقةِ، وأُريد بها هنا الصواعق[(٦)]. وقيل: أعمُّ من ذلك، أي: يُرسِل عليها مَرامي من عذابِه إمَّا بَرَداً وإما حجارةً وإما غيرَهما مما يشاء.

﴿فَتُصۡبِحَ﴾ لذلك ﴿صَعِيدٗا﴾ أي: أرضاً ﴿زَلَقًا ۝٤٠﴾ ليس فيها نباتٌ، قاله الحسن، وأخرجه ابن أبي حاتم عن السديِّ[(٧)].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٢٤، وأخرجه من طريق الطستي السيوطي في الإتقان ١/ ٤٠٥. وشآبيب: جمع شؤبوبٍ، وهو الدفعة من المطر. القاموس (شأب).

(٢) عزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٤، ولم نقف عليه في مطبوع المصنف.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٨٥.

(٤) معاني القرآن ٣/ ٢٩٠.

(٥) مادة (حسب).

(٦) الكشاف ٢/ ٤٨٥.

(٧) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٤.

قيل: وأصلُ معنى الزَّلَقِ: الزلَلُ في المشي لوَحَلٍ أو نحوه، لكن لمَّا كان ذلك فيما لا يكون فيه نبتٌ ونحوُه مما يَمنع منه، تُجوِّز به أو كُني عنه، وعُبِّر بالمصدر عن المَزلَقة مبالغةً.

وقيل: الزَّلَقُ من: زَلَق رأسَه بمعنى حَلَقه، والكلامُ على التشبيه، أي: فتُصبِحَ أرضاً ملساء ليس فيها شجرٌ ولا نباتٌ، كالرأس الذي حُلقَ. وفيه بُعدٌ.

وقيل: المرادُ بالزَّلَق: المَزلَقةُ بالمعنى الحقيقيِّ الظاهر، والمعنى: فتُصبح أرضاً لا نبات فيها ولا يَثْبُت فيها قَدَمٌ، وحاصلُه: فتُصبح مسلوبةَ المنافع حتى منفعة المشْي عليها، فتكونُ وحَلاً لا تُنبِت ولا يثبُت عليها قَدَمٌ، وظاهرُ صنيع أبي حيان اختيارُه[(١)].

وقال مجاهد: أي: فتُصبح رملاً هائلاً[(٢)].

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض، والتعبيرُ بالمصدر للمبالغة نظيرَ ما مرَّ. ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ﴾ أي: للماء الغائر ﴿طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ تحرُّكاً وعملاً في ردِّه وإخراجِه، والمراد نفْي استطاعةِ الوصول إليه، فعُبِّر عنه بنفْي الطلب إشارةً إلى أنَّه غيرُ ممكنٍ، والعاقلُ لا يطلبُ مثله.

وقيل: ضميرُ «له» للماء مطلقاً لا للماءِ المخصوصِ، أي: فلن تستطيعَ لماءٍ لها بدلَ ذلك الماء الغائرِ طلباً، وهو الذي يقتضيه كلامُ الماورديِّ[(٣)]، إلَّا أنه خلافُ الظاهر.

والظاهرُ أنَّ «يُصبِحَ» عطفٌ على «تُصبحَ»، وحينئذٍ لا بدَّ أن يرادَ بالحُسبانِ ما يصلُح ترتُّبُ الأمرين عليه عادةً كالحكم الإلهيِّ بالتخريبِ، إذ ليس كلُّ آفةٍ سماويةٍ يترتَّبُ عليها إصباحُ الجنة صعيداً زلقاً يترتَّبُ عليها إصباحُ مائِها غوراً.

وجوِّز أن يكونَ العطفُ على «يُرسِل»، وحينئذٍ يجوز أن يرادَ بالحسبانِ أيُّ معنًى كان من المعاني السابقة، وعلى هذا يكونُ المؤمنُ قد ترجَّى هلاكَ جنَّةِ

---

(١) ينظر البحر المحيط ٦/ ١٢٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في النكت والعيون ٣/ ٣٠٨.

صاحبِه الكافر إما بآفةٍ سماويةٍ، أو بآفةٍ أرضيةٍ وهو غورُ مائِها، فيتلَفُ كلُّ ما فيها من الشجر والزرع، لكنَّه لم يُصرّح بما يترتَّبُ على الغور من الضررِ والخرابِ، ولعلَّ ذلك لظهوره والاكتفاءِ بالإشارة إليه بقوله: «فلن» إلخ.

وتعقِّب بأنَّه لا يخفى أنه لا فسادَ في هذا العطف لا لفظاً ولا معنًى، إلا أنَّه كان الظاهرُ أن يقال: أو يَجعل ماءَها غوراً، أو نحوَ ذلك مما فيه إسنادُ الفعل إلى الله تعالى، ولا يظهرُ للعدول إلى ما في النظم الكريم وجهٌ، فتأمَّل.

ثم إنَّ أكثرَ العلماء على أنَّ قولَه: «إنْ تَرَنِ» إلخ في مقابلة قول الكافر: «أنا أكثر منك مالاً» إلخ، وكأنَّهم عنَوا المقابلةَ في الجملة، لا المقابلةَ التامَّةَ، أما إذا لم يتَّحد المرادُ بالنفَر والولد فظاهرٌ، وأما إذا اتَّحد بأنْ فُسِّر النفرُ بالولد فلأنَّ هناك أمرين: أكثريةً وأعزِّيَّةً، ولم يُذكر هنا إلا مقابلُ أحدِهما وهو الأقلِّيَّةُ المنسوبةُ في المعنى إلى المال والولد، نعم قيل: إنَّ أقلِّيَّةَ الولدِ قد تستلزم الأذلِّيَّةَ، والأكثريةُ قد تستلزم الأعزِّيَّةَ كما يُشاهَد في عرَب البادية.

هذا، وكان الظاهرُ أن يتعرَّضَ في الجزاء لأمرِ الولد كما تعرَّض لأمر المال بأن يقال: وعسى أن يؤتيني خيراً من ولدك ويُصيبَهم ببلاءٍ فيُصبِحوا هَلْكَى، أو نحو ذلك.

وأجيب بأنَّه إنَّما لم يتعرَّضْ لذلك إشارةً إلى استيلاء حبِّ المال على قلبِ ذلك الكافر، وأنَّه يكفي في نِكايته وإغاظته تلَفُ جنَّتِه وإعطاءُ صاحبِه المؤمن خيراً منها.

وقيل: إنما لم يتعرَّض لذلك لِمَا فيه من ترجِّي هلاكِ مَن لم يصدرُ منه مكالمةٌ ومحاورةٌ، ولم يُنقل عنه مقاومَةٌ ومفاخرةٌ لمجرَّدِ إغاظة كافرٍ حاوَرَ وكاثَرَ وفاخَرَ، وتركُه أفضلُ للكاملِ وأكملُ للفاضل، والدعاءُ على الكَفَرة وذرارِيهم الصادرُ من بعض الأنبياءِ عليهم السلام ليس مِن قبيل هذا الترجِّي كما لا يخفى على المتأمِّل. وحيثُ أراد ترْكَ هذا الترجِّي ترَكَ ترجِّي الولد لنفسه تبعاً له، أو لكونه غيرَ مُهمٍّ له.

وقيل: إنه ترجَّاه في قوله: «خيراً من جنتك»؛ لأنَّ المرادَ: شيئاً خيراً من جنتك، والنكرةُ قد تعمُّ بمَعونةِ المقام فيندرجُ الولدُ. وليس بشيء.

وقيل: أراد ما هو الظاهرُ، أي: جنةً خيراً من جنتك، إلا أنَّ الخيريَّةَ لا تِتمُّ من دونِ الولد إذ لا تكمُل لذَّةٌ بالمال لمن لا ولدَ له، فترجِّي جنةٍ خيرٍ من تلك الجنة متضمِّنٌ لترجِّي ولدٍ خيرٍ من أولئك الولد، ولم يترجَّ هلاكَ ولده ليكون بقاؤُهم بعدَ هلاكِ جنته حملاً عليه. ولا يخفى أنَّه لا يتبادَرُ إلى الذهن من خيريَّةِ الجنة إلا خيريَّتُها فيما يعود إلى كونها جنةً من كثرةِ الأشجار وزيادةِ الثمار وغزارةِ مياه الأنهار ونحوِ ذلك. وفي قوله: ليكونَ. . . إلخ منعٌ ظاهرٌ.

وقيل: لم يترجَّ الولدَ؛ اكتفاءً بما عنده منهم، فإنَّ كثرةَ الأولادِ ليس مما يرغَب فيه الكاملون، وفيه نظرٌ.

وقيل: إنه لم يقرِنْ ترجِّيَ إيتاءِ الولد مع ترجِّي إيتاءِ الجنة؛ لأنَّ ذلك الإيتاء المترجَّى في الآخرة، وهي ليست محلًّا لإيتاءِ الولد لانقطاع التولُّدِ هناك. ولا يخفى أنَّ هذا ـ بعدَ تسليم أنَّه لا يؤتى الولُد لمن شاءه في الآخرة ـ ليس بشيء.

وقيل: يمكن أن يكونَ ترجِّي الولد في قوله: ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾، بناءً على أنَّه أراد من جنته جميعَ ما مُتِّع به من الدنيا، وتكونُ الضمائرُ بعدها عائدةً عليها بمعنى البستان على سبيل الاستخدام. وهو كما ترى، فتدبَّر، والله تعالى أعلم بأسرارِ كتابه وأخبر.

وقرأت فرقة: «غُؤوراً» بضمِّ الغين وهمزةٍ بعدها وواوٍ بعدهما[1].

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أُهلِك أموالُه المعهودةُ من جنَّتيه وما فيهما، وهو مأخوذٌ من إحاطةِ العدوِّ وهي استدارتُه به من جميع جوانبِه، استُعمِلت في الاستيلاء والغلبة، ثم استُعمِلت في كلِّ هلاكٍ، وذكر الخفاجيُّ أنَّ في الكلام استعارةً تمثيليةً: شُبِّهَ إهلاكُ جنتيه بما فيهما بإهلاك قومٍ حاط بهم عدوٌّ وأوقع بهم بحيثُ لم ينجُ أحدٌ منهم، ويحتمل أن تكونَ الاستعارةُ تبعيَّةً، وبعضٌ يجوِّز كونَها تمثيليَّةً تبعيَّةً[2]. انتهى.

وجَعْلُ ذلك من باب الكناية أظهرُ، والعطفُ على مقدَّر، كأنه قيل: فوَقَع بعضُ ما ترجَّى وأُحيط. . . إلخ، وحُذِف لدلالة السِّباقِ والسِّياقِ عليه.

---

(١) زاد المسير ٥/١٤٦، والبحر ٦/١٢٩.

(٢) حاشية الشهاب ٦/١٠٣.

واستُظْهِر أنَّ الإهلاكَ كان ليلاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾. ويحتمل أن تكونَ «أصبح» بمعنى «صار»، فلا تدلُّ على تقييدِ الخبر بالصباح، ويَجرِي هذان الأمران في «تُصبحَ» و«يُصبحَ» السابقين.

ومعنى تقليبِ الكفَّين على ما استظهره أبو حيان(١) أن يُبدِي بطنَ كلٍّ منهما ثم يُعوج يدَه حتى يبدو ظهرُ كلٍّ، يفعل ذلك مراراً. وقال غيرُ واحد: هو أن يضعَ باطنَ إحداهما على ظهرِ الأخرى ثم يعكِس الأمرَ ويُكرِّر ذلك. وأيًّا ما كان فهو كنايةٌ عن الندَم والتحسُّر، وليس ذلك من قولهم: قلبتُ الأمرَ ظهراً لبطنٍ، كما في قول عُمر بن أبي ربيعة(٢):

وضَربْنا الحديثَ ظهراً لبطنٍ وأتَيْنا مِن أمْرِنا ما اشتَهَيْنا

فإنَّ ذلك مجازٌ عن الانتقال من بعضِ الأحاديث إلى بعضٍ.

ولكونه كنايةً عن الندم عُدِّي بـ «على» في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ فالجارُّ والمجرورُ ظرفٌ لغوٌ متعلِّقٌ بـ «يقلب»، كأنه قيل: فأصبَحَ يندَمُ على ما أنفق، ومنه يُعلم أنَّه يجوز في الكناية أن تُعدَّى بصلةِ المعنى الحقيقيِّ كما في قولهم: بَنَى عليها، وبصلةِ المعنى الكنائيِّ كما هنا، فيجوز: بَنَى بها، ويكون القولُ بأنه غلط غلطاً.

ويجوز أن يكونَ الجارُّ والمجرور ظرفاً مستقِرًّا متعلَّقه خاصٌّ، وهو حالٌ من ضميرِ «يقلب»، أي: متحسِّراً على ما أنفق، وهو نظراً إلى المعنى الكنائيِّ حال مؤكِّدة على ما قيل؛ لأن التحسُّرَ والندَمَ بمعنًى. وقال بعضُهم: إنَّ التحسُّرَ الحزنُ، وهو أخصُّ من الندم، فليُراجَع. وأيًّاما كان فلا تضمينَ في الآية كما تُوهِّم.

وقرئ: «تَقَلَّبُ كفَّاه» أي: تَتقلَّب(٣)، ولا يخفى عليك أمرُ الجارِّ والمجرور على هذا.

---

(١) في البحر ٦/ ١٣٠.

(٢) تحرف في الأصل و(م) إلى: عمرو ابن ربيعة، والصواب المثبت، والبيت في ديوانه ص٣٠٥، وأساس البلاغة (ظهر).

(٣) الإملاء ٣/ ٥١٩.

و«ما» إمَّا مصدريةٌ، أي: على إنفاقه في عمارتها، وإمَّا موصولةٌ، أي: على الذي أنفقَه في عمارتها من المال، ويقدَّر على هذا مضافٌ إلى الموصول من الأفعال الاختياريَّةِ إذا كان متعلَّق الجارِّ «يقلِّب»، مراداً منه: يَندم؛ لأنَّ الندمَ إنما يكون على الأفعال الاختياريَّة، ويُعلم من هذا وجهُ تخصيصِ الندم على ما أنفق بالذكر دون هلاك الجنة. وقيل: لعلَّ التخصيصَ لذلك؛ ولأنَّ ما أنفق في عمارتها كان مما[1] يمكن صيانتُه عن طوارقِ الحَدَثان وقد صَرفه إلى مصالحِها رجاءَ أن يتمتَّعَ بها أكثرَ مما يتمتَّعُ به، وكان يرى أنَّها لا تنالُها أيدي الرَّدَى، ولذلك قال: «ما أظن أن تبيدَ هذه أبداً»، فلمَّا ظهر له أنها مما يَعتريه الهلاكُ نَدِم على ما صنع بناءً على الزعم الفاسد من إنفاق ما يُمكِن ادِّخارُه في مثل هذا الشيء السريع الزوال. انتهى.

والظاهرُ أنَّ إهلاكَها واستئصالَ نباتِها وأشجارِها كان دفعيًّا بآفةٍ سماويةٍ، ولم يكن تدريجيًّا بإذهاب ما به النماءُ وهو الماءُ، فقد قال الخفاجيُّ: إنَّ الآية تدلُّ على وقوع استئصالِ نباتِها وأشجارِها عاجلاً بآفةٍ سماويةٍ صريحاً لقوله تعالى: «فأصبح» بالفاءِ التعقيبية، والتحسُّرُ إنما يكون لِمَا وقع بغتةً[2]. فتأمَّل.

﴿وَهِىَ﴾ أي: الجنةُ من الأعناب المحفوفة بنخلٍ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ أي: ساقطةٌ، وأصلُ الخواء ـ كما قيل ـ الخلاءُ، يقال: خَوى بطنُه من الطعام يخوي خوًى وخواءً: إذا خلا. وفي «القاموس»: خوت الدارُ: تهدَّمَت. وخَوَّت[3] وخَويت خَيًّا وخُويًّا وخَواء وخَوايةً: خلت من أهلها. وأريد السقوطُ هنا لتعلُّقِ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بذلك.

والعروشُ: جمع عرشٍ، وهو هنا ما يُصنَع من الأعمِدةِ لتُوضَع عليه الكرومُ، وسقوطُ الجنة على العروش لسقوطِها قبلَها، ولعلَّ ذلك لأنَّه قد أصابَ الجنةَ من العذاب ما جعلها صعيداً زلقاً لا يثبُت فيها قائم.

ولعلَّ تخصيصَ حالِ الكروم بالذكر دونَ النخلِ والزرعِ إمَّا لأنَّها العُمدةُ وهما من متمِّماتها، وإمَّا لأنَّ ذكرَ هلاكِها ـ على ما قيل ـ مغنٍ عن ذكر هلاك

(١) في الأصل و(م): ما، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٤، والكلام منه.
(٢) حاشية الشهاب ٦/ ١٠٣.
(٣) كذا وقعت في القاموس بالتشديد، وقال في تاج العروس: الصحيح خَوَت. اهـ.

الباقي؛ لأنَّها حيثُ هلكت وهي مسنَدةٌ بعروشها فهلاكُ ما عداها بالطريق الأولى، وإمَّا لأنَّ الإنفاقَ في عمارتها أكثرُ.

ثم هذه الجملةُ تُبعِد ما رُوي من أنَّ اللهَ تعالى أرسل عليها ناراً فأحرَقَتْها وغار ماؤُها، إلَّا أن يرادَ منها مطلقُ الخراب، وحينئذٍ يجوز أن يرادَ من «هي» الجنةُ بجميع ما اشتَمَلَتْ عليه.

﴿وَيَقُولُ﴾ عطفٌ على «يقلِّب»، وجوَّز أبو البقاء[1] وغيرُه أن يكونَ حالاً من الضمير المستترِ فيه بتقديرِ: وهو يقول، لأنَّ المضارعَ المثبت لا يقترِنُ بالواو الحالية إلَّا شذوذاً.

﴿يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ كأنه تذكَّر موعظةَ أخيهِ وعَلِم أنَّه إنَّما أُتي من قِبَل شِرْكه، فتمنَّى لو لم يكن مشرِكاً فلم يُصِبه ما أصابه، قيل: ويحتمل أن يكونَ توبةً من الشرك وندماً عليه، فيكون تجديداً للإيمان؛ لأنَّ ندمَه على شركه فيما مضى يُشعِر بأنَّه آمن في الحال، فكأنه قال: آمنتُ بالله تعالى الآنَ، وليت ذلك كانَ أولاً. لكن لا يخفى أنَّ مجرَّد الندمِ على الكفر لا يكون إيماناً، وإن كان الندمُ على المعصية قد يكون توبةً إذا عزمَ على أن لا يعودَ، وكان الندمُ عليها من حيث كونها معصيةً كما صرَّح به في «المواقف»[2].

وعلى فرض صحَّةِ قياسِه بها لم يتحقَّق هنا من الكافر ندمٌ عليه من حيثُ هو كفرٌ، بل بسببِ هلاك جنتيه، والآيةُ فيما بعدُ ظاهرةٌ أيضاً في أنَّه لم يتُب عمَّا كَفَر به وهو إنكارُ البعث، والقولُ بأنَّه إنَّما لم تُقبل توبتُه عن ذلك لأنَّها كانت عندَ مشاهَدةِ البأسِ، والإيمانُ إذ ذاك غيرُ مقبول = غيرُ مقبول، إذ غايةُ ما في الباب أنه إيمانٌ بعد مشاهدة إهلاك مالِه، وليس في ذلك سلبُ الاختيار الذي هو مناطُ التكليف، لا سيَّما إذا كان ذلك الإهلاكُ للإنذار، نعم إذا قيل: إنَّ هذا حكايةٌ لِمَا يقوله الكافرُ يومَ القيامة كما ذهب إليه بعضُ المفسرين، كان وجهُ عدمِ القبول ظاهراً؛ إذ لا ينفع تجديدُ الإيمان هناك بالاتفاق.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٥١٩.

(٢) المواقف مع شرح الجرجاني ٨/ ٣١٤.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ﴾ وقرأ الأخوان ومجاهد وابن وثَّاب والأعمش وطلحة وأيوب وخلف وأبو عبيد وابن سعدان وابن عيسى الأصبهانيُّ وابن جرير: «يكن» بالياء التحتيَّة[1]؛ لأنَّ المرفوعَ به ـ أعني قولَه تعالى: ﴿فِئَةٌ﴾ ـ غيرُ حقيقيِّ التأنيث، والفعلُ مقدَّمٌ عليه، وقد فُصِل بينهما بالمنصوب، وقد رُوعي في قوله سبحانه: ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ المعنى، فأتي بضمير الجمع.

وقرأ ابن أبي عبلة: «ولم تكن له فئة تنصره»[2]، مراعاةً للفظ فقط.

والمرادُ من النصرة لازِمُها وهو القدرةُ عليها، أي: لم تكن له فئةٌ تقدِر على نصره إما بدفعِ الهلاك قبلَ وقوعه، أو بردِّ المُهلَك بعينه على القول بجواز إعادةِ المعدوم بعينه، أو بردِّ مثلِه على القول بعدم جوازِ ذلك ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّه سبحانه وتعالى القادرُ على نصره وحدَه، وارتُكب المجازُ لأنَّه لو أُبقي ذلك على ظاهره لاقتضى نصرةَ الله تعالى إياه؛ لأنَّه إذا قيل: لا ينصر زيداً أحدٌ دون بكرٍ، فُهِم منه نصرةُ بكرٍ له في العرف، وليس ذلك بمرادٍ، بل المرادُ ما سمعتَ، وحاصلُه: لا يقدِرون على نَصره إلا اللهَ تعالى القدير. ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ ممتنِعاً بقوَّتِه عن انتقام الله تعالى منه.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المقام وتلك الحالِ التي وقع فيها الإهلاكُ ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: النصرةُ له تعالى وحدَه لا يقدِرُ عليها أحدٌ، فالجملةُ تقريرٌ وتأكيدٌ لقوله تعالى: (وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ) إلخ، أو ينصُر فيها[3] أولياءَه المؤمنين على الكَفَرة كما نَصَر سبحانه بما فعل بالكافر أخاه المؤمنَ، فالولايةُ بمعنى النُّصرةِ على الوجهين، إلا أنَّها على الأول مطلَقةٌ أو مقيَّدةٌ بالمضطرِّ ومن وقع به الهلاكُ، وعلى هذا مقيَّدة بغير المضطرِّ وهم المؤمنون، ويعضُد أنَّ المرادَ نصرتُهم قولُه تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ أي: عاقبةً لأوليائه، ووجهُ ذلك أنَّ الآيةَ خُتِمت بحالِ الأولياء فيناسِبُ أن يكونَ ابتداؤُها كذلك.

---

(١) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١١ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٦/ ١٣٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٩، والبحر ٦/ ١٣٠.

(٣) الضمير في قوله: فيها، عائد على قوله: تلك الحال. حاشية الشهاب ٦/ ١٠٤.

وقرأ الأخوان والأعمش وابن وثَّاب وشيبة وابن غزوان عن طلحة وخلف وابن سعدان وابن عيسى الأصبهانيُّ وابن جرير: «الوِلاية» بكسر الواو[(١)]، وهي والوَلاية بالفتح بمعنًى واحدٍ عند بعضِ أهل اللغة، كالوَكَالة والوِكالة، والوَصاية والوِصاية. وقال الزمخشريُّ: هي بالفتح: النصرةُ والتولِّي، وبالكسر: السلطانُ والملك[(٢)]. أي: هنالك السلطانُ له عزَّ وجلَّ لا يُغلَب ولا يُمتنَع منه ولا يُعبَد غيرُه، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فتكون الجملةُ تنبيهاً على أنَّ قولَه: «يا ليتني لم أشرك» إلخ كان عن اضطرارٍ وجَزَعٍ عمّا دهاه، ولم يكن عن ندمٍ وتوبةٍ.

وحُكي عن أبي عمرو والأصمعيِّ أنهما قالا: إنَّ كسرَ الواو لحنٌ هنا؛ لأنَّ فِعالة إنَّما تجيء فيما كان صنعةً ومعنًى متقلَّداً كالكِتابة والإمارة والخِلافة، وليس هنا تولِّي أمرٍ، إنما هي الوَلاية بالفتح بمعنى الدِّين بالكسر[(٣)]. ولا يُعوَّل على ذلك.

واستظهر أبو حيان[(٤)] كونَ «هنالك» إشارةً إلى الدار الآخرة، أي: في تلك الدار الولايةُ لله الحقِّ، ويناسِبُ قولَه تعالى: (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) ويكون كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

والظاهرُ على جميع ذلك أنَّ الوقفَ على «منتصراً»، وقولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ إلخ ابتداءُ كلامٍ، وحينئذٍ فـ «الولاية» مبتدأ، و«لله» الخبرُ، والظرفُ معمولُ الاستقرار، والجملةُ مفيدةٌ للحصر لتعريف المسنَد إليه واقترانِ الخبر بلام الاختصاصِ، كما قُرِّر في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال أبو البقاء: يجوز أن يكون «هنالك» خبرُ «الولاية»، أو الولايةُ مرفوعةٌ به، و«لله» يتعلَّق بالظرف، أو بالعامل فيه، أو بالولاية، ويجوز أن يكونَ متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً منها[(٥)].

---

(١) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٢٧٧ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٦/ ١٣٠.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٨٦.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٩، والبحر المحيط ٦/ ١٣٠.
(٤) في البحر ٦/ ١٣٠.
(٥) الإملاء ٣/ ٥٢٠.

وقال بعضُهم: إنَّ الظرفَ متعلِّقٌ بـ «منتصراً» والإشارةُ إلى الدار الآخرة، والمراد الإخبارُ بنفْي أن يَنتصِر في الآخرة بعد نفْي أن تكونَ له فئة تنصره في الدنيا. والزجَّاج جعله متعلِّقاً بـ «منتصراً» أيضاً إلا أنَّه قال: وما كان منتصراً في تلك الحالة(١).

و«الحقِّ» نعتٌ للاسم الجليل.

وقرأ النحويان(٢) وحميد والأعمش وابن أبي ليلى وابن مُناذر واليزيديُّ وابن عيسى الأصبهانيُّ: «الحقُّ» بالرفع على أنه صفة «الولاية».

وجوَّز أبو البقاء أن يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي ـ أو هو ـ الحقُّ، وأن يكون مبتدأً و«هو» خبرُه(٣).

وقرأ أبيٌّ: «هنالك الولاية الحقُّ لله» بتقديم «الحق» ورفعِه(٤)، وهو يرجِّح كونَ «الحق» نعتاً لـ «الولاية» في القراءة السابقة.

وقرأ أبو حيوة وزيد بن عليٍّ وعمرو بن عبيد وابن أبي عبلة وأبو السمال ويعقوب عن عصمة عن أبي عمرو: «الحقَّ» بالنصب(٥)، على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملة، والناصبُ له عاملٌ مقدَّرٌ، كما في قولك: هذا عبد الله حقًّا. ويحتمل أنه نعتٌ مقطوعٌ.

وقرأ الحسن والأعمش وحمزة وعاصم وخلف: «عُقْباً» بسكون القاف والتنوين(٦). وعن عاصم: «عُقْبى» بألف التأنيث المقصور(٧)، على وزن: رُجعى. والجمهورُ بضمِّ القاف والتنوين، والمعنى في الكلِّ ما تقدَّم.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٩.

(٢) تحرف في الأصل و(م) إلى: الأخوان، والصواب المثبت كما في التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٣١١، والبحر ٦/ ١٣١، والكلام منه، والنحويان هما أبو عمرو والكسائي.

(٣) الإملاء ٣/ ٥٢٠.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٥-١٤٦، والبحر ٦/ ١٣١.

(٥) القراءات الشاذة ص٨٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٥١٩، والبحر ٦/ ١٣١.

(٦) التيسير ص١٤٣، والنشر ٢/ ٢١٦ عن عاصم وحمزة وخلف، والكلام من البحر ٦/ ١٣١.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٥١٩، والبحر ٦/ ١٣١، وهي خلاف المشهور عن عاصم.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: اذكر لهم ما يُشبِهها في زهرتها ونَضارتها وسُرعةِ زوالها لئلَّا يغترُّوا بها ولا يضرِبوا عن الآخرة صفحاً بالمرَّة، أو: اذكر لهم صفتَها العجيبةَ التي هي في الغرابة كالمَثَل وبَيِّنْها لهم.

﴿كَمَآءٍ﴾ استئنافٌ لبيان المثل، أي: هي كماءٍ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وجوَّزوا أن يكونَ مفعولاً ثانياً لـ «اضْرِب» على أنه بمعنى: صَيِّر. وتعقَّب بأنَّ الكافَ تنبو عنه، إلا أن تكونَ مقحَمةً. ورُدَّ بأنَّه مما لا وجهَ [له][1] لأنَّ المعنى: صيِّر المثلَ هذا اللفظَ، فالمثل بمعنى الكلام الواقع فيه التمثيلُ. وقال الحوفي: الكافُ متعلِّقةٌ بمحذوف صفة لمصدرٍ محذوفٍ، أي: ضرباً كماءٍ. وليس بشيء.

﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: فاشتبك وخالَطَ بعضُه بعضاً لكثرته وتكاثُفِه بسبب كثرةِ سقي الماء إياه، أو المرادُ: فدخل الماءُ في النبات حتى رَوِي ورفَّ[2]، وكان الظاهر في هذا المعنى: فاختلط بنبات الأرض، لأنَّ المعروفَ في عُرف اللغة والاستعمال دخولُ الباء على الكثير الغير الطارئ، وإن صدق بحسب الوضع على كلٍّ من المتداخِلَين أنه مختلِط ومختلَطٌ به، إلا أنَّه اختِير ما في النظم الكريم للمبالغة في كثرة الماء حتى كأنه الأصلُ الكثير، ففي الكلام قلبٌ مقبولٌ.

﴿فَأَصۡبَحَ﴾ ذلك النباتُ الملتفُّ إثرَ بهجتِه ونضارته ﴿هَشِيمًا﴾ أي: يابساً متفتِّتاً، وهو فعيلٌ بمعنى مفعول، وقيل: جمعُ: هَشيمةٍ، و«أصبح» بمعنى: «صار»، فلا يُفيد تقييدَ الخبر بالصباح كما في قوله:

أصبحتُ لا أحمِلُ السلاحَ ولَا أملِكُ رَأسَ البَعِيرِ إن نَفَرا[3]

وقيل: هي على ظاهرِها مُفيدةٌ لتقييدِ الخبر بذلك؛ لأنَّ الآفاتِ السماويةَ أكثر ما تَطرُق ليلاً. وتعقِّب بأنَّه ليس في الآية ما يدلُّ على أنَّ اتصافَه بكونه «هَشِيماً» لآفةٍ سماويةٍ، بل المرادُ بيانُ ما يَؤُول إليه بعدَ النضارة من اليُبسِ والتفتُّتِ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۞ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ [الأعلى: ٤-٥].

---

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٦/ ١٠٥، والكلام منه.
(٢) قوله: رفَّ، أي: تحرك بلطف لرطوبته ونضرته. حاشية الشهاب ٦/ ١٠٥.
(٣) سلف البيت للربيع بن ضبع الفزاري، ونسب لغيره، ينظر ما سلف ٧/ ١٨٨.

﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي: تُفرِّقه، كما قال أبو عبيدة[١]. وقال الأخفش: ترفعه. وقال ابن كيسان: تجيء به وتذهب.

وقرأ ابن مسعود: «تُذْرِيه» من أذرى رباعيًّا، وهو لغةٌ في ذرى[٢].

وقرأ زيد بن عليٍّ والحسن والنخعيُّ والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وابن محيصن وخلف وابن عيسى وابن جرير: «تَذْرُوه الرِّيحُ» بالإفراد[٣].

وليس المشبَّهُ به نفسَ الماء، بل هو الهيئةُ المنتزعةُ من الجملة، وهي حالُ النبات المنبَت بالماء؛ يكون أخضر مُهتزًّا، ثم يصير يابساً تُطِيره الرياح حتى كأنه لم يكن.

وعبَّر بالفاء في الآية للإشعار بسُرعة زوالِه وصَيرُورتِه بتلك الصفة فليست فصيحةً. وقيل: هي فصيحةٌ والتقديرُ: فزَهَا ومَكَث مدَّةً فأصبح هشيماً.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإنشاءُ والإفناء ﴿مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ كاملَ القدرة.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بيانٌ لشأن ما كانوا يفتخِرُون به من محسِّنات الحياة الدنيا كما افتخر الأخُ الكافرُ بما افتخر به من ذلك إثرَ بيانِ شأنِ نفسها بما مرَّ من المثل، وتقديمُ المال على البنين مع كونِهم أعزَّ منه عندَ أكثر الناس لعَرَاقتِه فيما نيط به من الزينة والإمداد وغير ذلك، وعمومِه بالنسبة إلى الأفراد والأوقاتِ، فإنَّه زينةٌ وممدٌّ لكلِّ أحدٍ من الآباء والبنين في كلِّ وقتٍ وحينٍ، وأما البنون فزينتُهم وإمدادُهم إنما يكون بالنسبة إلى مَن بلغ الأبوَّةَ، ولأنَّ المالَ مناطٌ لبقاءِ النفس والبنون لبقاء النوع، ولأنَّ الحاجةَ إليه أمسُّ من الحاجة إليهم، ولأنَه أقدمُ منهم في الوجود، ولأنَّه زينةٌ بدونهم من غير عكسٍ، فإنَّ مَن له بنون بلا مالٍ فهو في أضْيَقِ حالٍ ونكالٍ. كذا في «إرشاد العقل السليم»[٤].

---

(١) في مجاز القرآن ١/ ٤٠٥. والكلام وما بعده من البحر ٦/ ١٣١.

(٢) البحر ٦/ ١٣٣، ووردت قراءة عبد الله في معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٦، وللنحاس ٢/ ٤٥٩: «تُذْريه» من ذرى، وفي القراءات الشاذة ص٨٠: «يُذْريه» بالياء.

(٣) البحر ٦/ ١٣٣، وهي قراءة حمزة والكسائي كما في التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

(٤) ٥/ ٢٢٥.

والزينةُ مصدَرٌ، وأُطلِق على ما يُتزيَّن به للمبالغة ولذلك أُخبِر به عن أمرين، وإضافتُها إلى الحياة الدنيا اختصاصيةٌ، وجوِّز أن تكونَ على معنى «في»، والمعنى أنَّ ما يفتخرون به من المال والبنين شيءٌ يتزيَّنُ به في الحياة الدنيا، وقد عُلم شأنُها في سرعة الزوال وقُرب الاضمحلال، فما الظنُّ بما هو من أوصافِها التي شأنُها أن تزولَ قبلَ زوالها؟

وذُكر أنَّ هذا إشارةٌ إلى ما يَردُّ افتخارَهم بالمال والبنين، كأنه قيل: المالُ والبنون زينةُ الحياة الدنيا، وكلُّ ما كان زينةَ الحياة الدنيا فهو سريعُ الزوال، ينتج: المالُ والبنون سريعا الزوال، أما الصغرى فبديهيةٌ، وأما الكُبرى فدليلُها يُعلم مما مرَّ من بيان شأن نفس الحياة الدنيا، ثم يقال: المالُ والبنون سريعا الزوال، وكلُّ ما كان سريعَ الزوال يقبُح بالعاقل أن يفتخِرَ به، ينتج: المالُ والبنون يَقْبح بالعاقل أن يفتخرَ بهما، وكلتا المقدِّمتينِ لا خفاءَ فيها.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن أبي سعيد الخُدريِّ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «استكثِرُوا من الباقيات الصالحات». قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التكبيرُ، والتَهليلُ، والتسبِيحُ، والتحمِيدُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله»(١).

وأخرج الطبرانيُّ وابن شاهين في «الترغيب» وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله هُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ، وهُنَّ يحططن الخطايا كما تَحُطُّ الشجرةُ ورقَها، وهُنَّ من كنوزِ الجنة»(٢).

---

(١) مسند أحمد (١١٧١٣)، ومسند أبي يعلى (١٣٨٤)، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٧٩، والمستدرك ١/ ٥١٢-٥١٣، وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٤.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٢٥، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٢، وابن ماجه (٣٨١٣). وفي إسناده: عمر بن راشد وهو ضعيف، وقال المنذري في الترغيب ٢/ ٤١٧: رواه الطبراني بإسنادين أصلحهما فيه عمر بن راشد، وبقية رواته محتج بهم في الصحيح، ولا بأس بهذا الإسناد في المتابعات.

وجاء تفسيرُها بما ذُكر في غير ذلك من الأخبارِ عن رسول الله ﷺ[١]، وأخرج ابنُ المنذر وابن أبي شيبة عن ابن عباس تفسيرَها بما ذكر أيضاً لكن بدون الذكرِ الأخير.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر في رواية أخرى عنه تفسيرَها بالصلوات الخمس.

وأخرج ابن مردويه وابن المنذر وابن أبي حاتم في رواية أخرى عنه أيضاً تفسيرَها بجميع أعمال الحسنات.

وفي معناه ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن قتادة أنَّها كلُّ ما أُرِيد به وجهُ الله تعالى[٢].

وعن الحسن وابن عطاء أنَّها النِّيَّاتُ الصالحةُ[٣].

واختار الطبريُّ[٤] وغيرُه ما في الرواية الأخيرة عن ابن عباس، ويَندَرِج فيها ما جاء في ما ذُكر من الروايات وغيرِها.

وادَّعى الخفاجيُّ أنَّ كلَّ ما ذكر في تفسيرها غيرَ العامِّ ذكر على طريق التمثيل[٥]. ويُبعِد ذلك قولُه ﷺ: «وهُنَّ الباقيات» المفيدُ للحصر بعد التنصيص على ما لا عمومَ فيه، فتأمَّل.

وأيَّاما كان فـ «الباقياتُ» صفةٌ لمقدَّرٍ كالكلماتِ أو الأعمال، وإسنادُ الباقياتِ إلى ذلك مجازٌ، أي: الباقي ثمرتُها وثوابُها، بقرينةِ ما بعدُ، فهي صفةٌ جرت على غيرِ ما هي له بحسب الأصل. أو هناك مقدَّرٌ مرفوعٌ بالوصف مضافٌ إلى ضميرِ الموصوف، واستتر الضميرُ المجرورُ وارتفع بعد حذفه.

---

(١) منها ما أخرجه أحمد (٥١٣) من حديث عثمان بن عفان ﷺ، وإسناده حسن. والطبراني في الدعاء (١٦٩٦) (١٦٩٧) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) نقل المصنف هذه الأخبار عن الدر المنثور ٤/ ٢٢٦.

(٣) البحر ٦/ ١٣٣.

(٤) في تفسيره ١٥/ ٢٨١، والبيضاوي في تفسيره ٦/ ١٠٦.

(٥) حاشية الشهاب ٦/ ١٠٦.

وكذا تدخُل أعمالُ فقراءِ المؤمنين الذين يَدعُون ربَّهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهَه دخولاً أوليًّا، فإنَّ لهم من كلِّ نوعٍ من أنواع الخيرات الحظَّ الأوفرَ، والكلامُ متضمِّنٌ للتنويه بشأنهم وحطِّ قدر شانئِهم، فكأنه قيل: ما افتخر به أولئك الكَفَرةُ من المال والبنين سريعُ الزوال لا ينبغي أن يُفتَخَر به، وما جاء به أولئك المؤمنون ﴿خَيْرٌ﴾ من ذلك ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: في الآخرة، وهو بيانٌ لِمَا يظهَرُ فيه آثارُ خيريَّتها بمنزلة إضافةِ الزينةِ إلى الحياة الدنيا، لا لأفضليتها من المال والبنين مع مشاركة الكلِّ في الأصل؛ إذ لا مشاركةَ لهما في الخيريَّة في الآخرة.

وقيل: معنى «عند ربك»: في حُكمه سبحانه وتعالى.

﴿ثَوَابًا﴾ جزاءً وأجراً. وقيل: نفعاً ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ حيثُ ينال بها صاحبُها في الآخرةِ ما يُؤمِّله بها في الدنيا، وأمَّا المال والبنون فليس لصاحبهما ذلك. وتكريرُ «خير» للمبالغة، وقيل: لها، وللإشعار باختلاف جهتَي الخيريَّة.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ منصوبٌ بـ «اذْكُر» مضمَراً، أي: اذكر يومَ نقلَعُ الجبالَ من أماكنها ونسيِّرها في الجوِّ كالسحاب، كما ينبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

وقيل: نسيِّر أجزاءَها بعدَ أن نجعلَها هباءً مُنبثًّا، والكلامُ على هذا على حذفِ مضافٍ.

وجوِّز أن يكون التسييرُ مجازاً عن الإذهاب والإفناء بذكر السبب وإرادة المسبَّب، أي: واذكر يومَ نذهب بها ونَنسِفُها نسفاً، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥-٦].

واعتُرِض كِلا الأمرين بأنَّ صَيرُورةَ الجبال هباءً منبثًّا وإذهابَها بعدَ[1] تَسْيِيرها، فقد ذكر بعضُ المحقِّقين أخذاً من الآيات أنَّه أوَّلاً تنفَصِل الجبالُ عن الأرض وتَسِير في الجوِّ، ثم تسقُط فتصِيرُ كثيباً مهيلاً ثم هباءً منبثًّا، والظاهرُ هنا أوَّلُ أحوالِ الجبال، ولا مقتَضَى للصرف عن الظاهر. ثمَّ المرادُ بذكر ذلك تحذيرُ المشركين ما فيه من الدواهي التي هي أعظمُ من ثالثة الأثافي.

---

(١) قوله: بعد، متعلق بخبر «أن» الواقعة في قوله: بأنَّ صيرورة...

وجوَّز أبو حيان(١) وغيرُه كونَ «يوم» ظرفاً للفعل المضمَر عند قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ إلخ، أي: قلنا يومَ كذا: لقد جئتمونا، وفيه ما ستعلمه إن شاء الله تعالى هناك.

وغيرُ واحد كونَه معطوفاً على ما قبله من قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، فهو معمولُ «خير»، أي: الباقيات الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربك ويومَ القيامة، وحينئذٍ يتعيَّن أن يكونَ المرادُ من «عندَ ربك»: في حكمه تعالى، كما قيل به.

وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو والحسن وشبل وقتادة وعيسى والزهريُّ وحميد وطلحة واليزيديُّ والزبيريُّ عن رجاله عن يعقوب: «تُسيَّر الجبالُ» برفع «الجبال» وبناءِ «تسيَّر» بالتاء ثالثةِ الحروف للمفعول(٢)، جرياً على سننِ الكبرياء وإيذاناً بالاستغناء عن الإسناد إلى الفاعل لتعيُّنه.

وعن الحسن أنَّه قرأ كذلك إلا أنه جاء بالياءِ آخرِ الحروف بدلَ التاء(٣).

وقرأ أُبيٌّ: «سُيِّرت الجبالُ» بالماضي المبنيِّ للمفعول، ورفعِ «الجبال»(٤).

وقرأ ابن محيصن ومحبوبٌ عن أبي عمرو: «تَسِيرُ الجبالُ» بالمضارع المفتتح بالتاء المثنَّاة من فوق المبنيِّ للفاعل، ورفع «الجبال»(٥).

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ﴾ خطابٌ لسيِّد المخاطَبين ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ ممن يتأتَّى منه الرؤيةُ، أي: وترى جميعَ جوانبِ الأرض ﴿بَارِزَةً﴾ باديةً ظاهرةً، أمَّا ظهورُ ما كان منها تحتَ الجبال فظاهرٌ، وأما ما عداه فكانت الجبالُ تحول بينَه وبين الناظر قبلَ

---

(١) في البحر ٧/ ١٣٤.

(٢) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١ عن ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر، والكلام من البحر ٦/ ١٣٤. والزبيري هو الزبير بن أحمد من ولد الزبير بن العوام ﷺ، قرأ على روح ورويس وغيرهما، توفي سنة بضع وثلاث مئة. غاية النهاية ١/ ٢٩٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٠، والبحر ٦/ ١٣٤.

(٤) المصدران السابقان.

(٥) القراءات الشاذة ص٨٠، والبحر ٦/ ١٣٤. ومحبوب هو لقب محمد بن الحسن بن هلال البصري، روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء وغيره، وروى عنه خلف بن هشام وغيره، وحدث عنه أحمد بن حنبل وأخرج له البخاري. غاية النهاية ٢/ ١٢٣.

ذلك، أو تراها بارزةً لذهاب جميع ما عليها من الجِبال والبحارِ والعمران والأشجارِ، وإنما اقتصَرَ على زوال الجبالِ؛ لأنَّه يُعلَم منه زوالُ ذلك بطريقِ الأولى.

وقيل: إسنادُ البروز إلى الأرض مجازٌ، والمراد: ترى أهلَ الأرضِ بارِزين من بطنها. وهو خلافُ الظاهر.

وقرأ عيسى: «وتُرى الأرضُ» ببناء الفعل للمفعول، ورفع «الأرض»[1].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: جمعناهم إلى الموقِف من كلِّ أوب بعد أن أقمناهم من قبورِهم، ولم يُذكَر لظهور إرادته، وعلى ما قيل يكون ذلك مذكوراً، وإيثارُ الماضي بعد «نُسَيِّر» و«تَرَى» للدَّلالة على تحقُّق الحشر المتفرِّع على البعث الذي يُنكره المنكرون، وعليه يدُور أمرُ الجزاء، وكذا الكلامُ فيما عُطف عليه منفيًّا ومُوجباً.

وقال الزمخشريُّ[2]: هو للدلالة على أنَّ حشرَهم قبلَ التسيير والبروز؛ ليعاينوا تلك الأهوال والعظائمَ، كأنه قيل: وحشرناهم قبلَ ذلك. اهـ.

واعتُرِض بأنَّ في بعض الآيات مع الأخبار ما يدلُّ على أنَّ التسييرَ والبروزَ عند النفخة الأولى، وفسادَ نظام العالم والحشرَ وما عُطِف عليه عندَ النفخة الثانية، فلا ينبغي حملُ الآية على معنى: وحشرناهم قبل ذلك، لئلَّا تُخالِفَ غيرَها. فليتأمَّل.

ثم لا يخفى أنَّ التعبير بالماضي على الأول مجازٌ، وعلى هذا حقيقةٌ؛ لأنَّ المُضِيَّ والاستقبالَ بالنظر إلى الحكم المقارِن له، لا بالنسبة لزمان التكلُّم، والجملة عليه كما في «الكشف» وغيرِه تحتَمِل العطفَ والحاليَّةَ من فاعل: «نُسَيِّر».

وقال أبو حيان: الأولى جعلُها حالاً على هذا القول[3]. وأوجبه بعضُهم وعلَّله بأنَّها لو كانت معطوفةً لم يكن مُضِيٌّ بالنسبة إلى التسيير والبُروز، بل إلى زمان

(١) القراءات الشاذة ص٨٠.
(٢) في الكشاف ٢/ ٤٨٧.
(٣) البحر ٦/ ١٣٤.

التكلُّم، فيحتاج إلى التأويل الأول، ثم قال: وتحقيقه أنَّ صِيَغَ الأفعال موضوعةٌ لأزمنة التكلُّم إذا كانت مطلَقة، فإذا جُعلت قيوداً لِمَا يدلُّ على زمانٍ كان مُضيُّها وغيرُه بالنسبة إلى زمانه. اهـ. وليس بشيء، والحقُّ عدمُ الوجوب، وتحقيقُ ذلك أنَّ الجُمل التي ظاهرُها التعاطُف يجوز فيها التوافُقُ والتخالُف في الزمان، فإذا كان في الواقع كذلك فلا خفاءَ فيه، وإن لم يكن فلابدَّ للعُدول من وجهٍ، فإن كان أحدُهما قيداً للآخر وهو ماضٍ بالنسبة إليه فهو حقيقةٌ، ووجهُه ما ذُكر، ولا تكون الجملةُ معطوفةً حينئذٍ، فإن عُطِفت وجُعل المضيُّ بالنسبة لأحدِ المتعاطفَيْنِ فلا مانعَ منه، وهل هو حقيقةٌ أو مجازٌ؟ محلُّ تردُّدٍ، والذي يحكُم به الإنصافُ اختيارُ قول أبي حيان من أولويَّة الحاليَّة على ذلك. والقولُ بأنَّه لا وجهَ له، لا وجهَ له، وحينئذٍ يقدَّر «قد» عندَ الأكثرين، أي: وقد حشرناهم.

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: لم نترك، يقال: غادَره وأغْدَره: إذا تركه، ومنه: الغدرُ الذي هو: تركُ الوفاء، والغَدير الذي هو: ماءٌ يتركُه السيلُ في الأرض.

وقرئ: «يُغادِر» بالياء التحتية على أنَّ الضميرَ لله تعالى على طريق الالتفات(١).

وقرأ قتادة: «تُغادِر» بالتاء الفوقية(٢)، على أنَّ الضميرَ للأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]، وجوَّز أبو حيان كونَه للقدرة.

وقرأ أبان بن يزيد عن عاصم كذلك، أو بفتح الدال مبنيًّا للمفعول ورفع «أحد» على النيابة عن الفاعل(٣).

وقرأ الضحاك: «نُغدِر» بضمِّ النون وإسكانِ الغين وكسر الدال(٤).

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ أُحضِروا محلَّ حُكمِه وقضائِه عزَّ وجلَّ فيهم ﴿صَفًّا﴾ مصطفِّين أو مصفُوفِين. فقد أخرج ابن منده في «التوحيد» عن معاذ بن جبل أنَّ

(١) القراءات الشاذة ص٨٠.
(٢) البحر ٦/ ١٣٤، والكلام وما بعده منه.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.

النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى يُنادِي يومَ القيامة: يا عبادي، أنا اللهُ لا إله إلا أنا، أرْحَمُ الراحمين وأحْكَمُ الحاكمين وأسرعُ الحاسبين، أَحضِروا حُجَّتَكم ويَسِّروا جواباً، فإنَّكم مسؤُولون مُحاسَبُون، يا ملائكتي، أَقِيمُوا عبادِي صُفوفاً على أطرافِ أنامل أقدامِهم للحساب»(١).

وفي الحديث الصحيح: «يجمَعُ الله تعالى الأوَّلين والآخِرين في صعيدٍ واحدٍ صُفوفاً، يُسمِعُهم الداعي وينفُذُهم البصرُ...» الحديثَ بطوله(٢).

وقيل: تُقام كلُّ أمَّةٍ وزمرةٍ صفًّا(٣). وفي بعضِ الأخبار: «أهلُ الجنةِ يومَ القيامة مئةٌ وعشرون صفًّا، أنتم منها ثمانون»(٤).

وقيل: لا عرضَ بالمعنى المعروف ولا اصطفافَ، والكلامُ خارجٌ مخرجَ الاستعارة التمثيليةِ، شُبِّهت حالُهم في حشرِهم بحالِ جُندٍ عُرِضوا على السلطان ليأمُرَ فيهم بما يأمر.

وقيل: إنَّ فيه استعارةً تبعيةً بتشبيهِ حَشْرِهم بعرضِ هؤلاء، ومعنى «صفًّا» سواءٌ كان داخلاً في الاستعارةِ التمثيلية أو كان ترشيحاً: غيرَ متفرِّقين ولا مختلِطِين، فلا تعرُّضَ فيه لوحدة الصفِّ وتعدُّده. ولا حاجةَ إلى أن يقال: إنه مفرَدٌ أريد به الجمعُ؛ لكونه مصدراً، أي: صفوفاً، أو يقال: إنَّ الأصلَ: صفًّا صفًّا، على أنَّ هذا مع بُعدِه يَرِدُ عليه أنَّ ما يدلُّ على التعدُّد بالتكرار ـ كـ: باباً باباً، وصفًّا صفًّا ـ لا يجوز حذفُه.

هذا والحقُّ أنَّ إنكارَ الاصطفافِ مما لا وجهَ له بعدَ إمكانِه وصحَّة الأخبار فيه، ولعلَّ ما فسَّرنا به الآيةَ مما لا غُبارَ عليه.

---

(١) عزاه لابن منده القرطبي في كتابه التذكرة ص٢٥٣-٢٥٤، والتفسير ١٣/ ٢٩٦، والسيوطي في الدر ٤/ ٢٢٦، ولم نقف عليه في مطبوع كتاب التوحيد.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤)، وأحمد (٩٦٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، دون قوله: صفوفاً. ونقله المصنف من البحر ٦/ ١٣٤.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ١٥٢، وزاد المسير ٥/ ١٥١.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٩٤٠)، والترمذي (٢٥٤٦)، وابن حبان (٧٤٥٩) من حديث بريدة ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وفي الالتفات إلى الغَيبة، وبناءِ الفعل للمفعول، مع التعرُّض لعنوان الربوبية، والإضافةِ إلى ضميره ﷺ، من تربيةِ المهابة والجري على سنن الكبرياءِ وإظهارِ اللطف به عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى.

وقيل: في قوله تعالى: (عَلَىٰ رَبِّكَ) إشارةٌ إلى غَضبِ الله تعالى عليهم وطردِهم عن ديوان القبول بعدم جَرْيهم على معرفتهم لربوبيته عزَّ وجلَّ.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ خطابٌ للكفَّارِ المُنكِرين للبعث على إضمارِ القول، ويكون حالاً مما تقدَّم، فيقدَّر: قائلين، أو: نقول، إن كان حالاً من فاعلي «حشرنا»، أو: قائلاً، أو: يقول، إن كان من «ربِّك»، أو: مقولاً لهم، أو: يقال لهم، إن كان من ضميرِ «عُرِضوا». وقد يقدَّر فعلاً ك: قلنا، أو: نقول، لا محلَّ لجملتِه.

وجُوِّز تعلُّق «يوم» السابقِ به على هذا التقدير دونَ تقديرِ الحاليَّة. قال الخفاجيُّ: لأنَّه يصيرُ ك: غلامُ زيدٍ ضارباً، على أنَّ «ضارباً» حالٌ من «زيدٍ» ناصباً لـ «غلام»، ومثلُه تعقيدٌ غيرُ جائز؛ لا لأنَّ ذلك قبل الحشر وهذا بعدَه؛ ولا لأنَّ معمولَ الحال لا يتقدَّم عليها كما يُتوهَّم، ثم قال: وأما ما أُورِد على تعلُّقِه بالفعل في التقدير الثاني من أنَّه يلزَمُ منه أنَّ هذا القولَ هو المقصودُ أصالةً = فتخيُّلٌ أغنى عن الردِّ أنه لا محذورَ فيه[1]. اهـ.

والحقُّ أنَّ تعلُّقه بالقول المقدَّر حالاً أو غيرَه مما لا يرتضيه الطبعُ السليمُ والذهن المستقيمُ، ولا يكاد يجوز مثلُ هذا التركيب على تقديرِ الحاليَّة وإن قلنا بجوازِ تقدُّمِ معمولِ الحال عليها، فتدبَّر.

والمرادُ من مجيئهم إليه تعالى مجيئُهم إلى حيثُ لا حكم لأحد غيره سبحانه من المعبوداتِ الباطلةِ التي تزعُم فيها عَبَدتُها النفع والضُّرَّ وغير ذلك، نظيرَ ما قالوا في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: مجيئاً كائناً كمجيئِكم عند خَلْقِنا لكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أو حالٌ من الضمير المرفوعِ في «جئتُمونا»، أي: كائنين كما خلَقْنَاكم أوَّلَ مرَّةٍ حُفاةً عُراةً غُرلاً، أو: ما معكم شيءٌ مما تفتَخِرُون به من

(١) حاشية الشهاب ٦/١٠٨ وفيه: فتخيلٌ غنيٌّ عن الرد إذ لا محذور فيه.

الأموال والأنصار لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وجُوِّز أن يكونَ المرادُ: أحياءً كخِلقَتِكم الأولى، والكلامُ عليه إعراباً كما تقدَّم، لكن يخالِفُه في وجه التشبيه، وذاك كما قيل أوفقُ بما قبلُ، وهذا بقوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ وهو إضرابٌ وانتقالٌ من كلام إلى كلامٍ كلاهما للتوبيخ والتقريع.

والموعِدُ اسمُ زمانٍ، و«أن» مخفَّفةٌ من المثقَّلةِ فُصِلَ بينَها وبينَ خَبرِها بحرفِ النفْي؛ لكونه جملةً فعليةً فعلُها متصرِّفٌ غيرُ دعاءٍ، وفي ذلك يجبُ الفصل بأحدِ الفواصل المعلومة إلا فيما شذَّ.

والجعل إمَّا بمعنى التصْييرِ فالجارُّ والمجرورُ مفعولُه الثاني، و«موعِداً» مفعولُه الأول، وإمَّا بمعنى الخلق والإيجادِ فالجارُّ والمجرورُ في موضعِ الحال من مفعولِه وهو «موعِداً»، أي: زعمتُم في الدنيا أنَّه لن نجعلَ لكم وقتاً نُنجِز فيه ما وعدْنا من البعث وما يتبَعُه.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ عطفٌ على «عُرِضوا» داخلٌ تحتَ الأمور الهائلة التي أُريد بذكرِ وقتها تحذيرُ المشركين كما مرّ، وإيرادُ صيغة الماضي للدلالة على التقرُّر، والمرادُ من «الكتاب» كُتُبُ الأعمال، فـ «أل» فيه للاستغراق، وَمِنْ وَضْعِه إمَّا جعلُ كلِّ كتابٍ في يدِ صاحبِه اليمينِ أو الشمالِ، وإمَّا جَعْلُ كلٍّ في الميزان، وجُوِّز أن يكونَ المرادُ جَعْلَ الملائكة تلك الكتبَ في البين ليحاسبوا المكلَّفين بما فيها، وعلى هذا يجوز أن يكون المراد بالكتاب كتاباً واحداً بأن تَجمَعَ الملائكةُ عليهم السلام صحائفَ الأعمال كلَّها في كتابٍ وتَضعَه في البَيْنِ للمحاسَبة، لكن لم أجد في ذلك أثراً، نعم قال اللقانيُّ في شرح قوله في «جوهرة التوحيد»:

وواجبٌ أخذُ العبادِ الصُّحُفَا ... كما مِن القُرآن نصًّا عُرِفَا

جَزَم الغزاليُّ بما قيل: إنَّ صُحُفَ العباد يُنسَخُ ما في جميعِها في صحيفةٍ واحدةٍ. انتهى، والظاهرُ أنَّ جزْمَ الغزاليِّ وأضرابِه بذلك لا يكون إلا عن أثرٍ؛ لأنَّ مثلَه لا يقال مِن قِبَلِ الرأي كما هو الظاهرُ.

وقيل: وَضْعُ الكتابِ كنايةٌ عن إبرازِ محاسَبةِ الخلق وسُؤالهم، فإنَّه إذ أُريد محاسبةُ العُمَّال جيء بالدفاتر ووُضِعَت بين أيديهم ثم حُوسِبوا، فأُطلِق الملزومُ وأريد لازمُه. ولا يخفى أنه لا داعي إلى ذلك عندَنا وربَّما يدعو إليه إنكارُ وزنِ الأعمال.

وقرأ زيد بن عليٍّ ﵄: «ووَضَع الكتابَ» ببناءِ «وَضَع» للفاعل وإسنادِه إلى ضميرِه تعالى على طريق الالتفات ونَصْب «الكتاب» على المفعولية[١]، أي: ووَضَع اللهُ الكتابَ.

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قاطبةً، فيدخُل فيهم الكَفَرةُ المُنكِرون للبعث دخولاً أوَّليًّا، والخطابُ نظير ما مرَّ. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ أي: «الكتابِ» من الجرائم والذنوب لتحقُّقهم ما يترتَّبُ عليها من العذاب ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عندَ وقوفِهم على ما في تضاعيفِه نقيراً وقطميراً: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ نداءٌ لهَلَكَتِهم التي هَلكوها من بين الهَلَكَات، فإنَّ الويلةَ كالويل: الهلاكُ، ونداؤُها على تشبيهها بشخصٍ يُطلَب إقبالُه، كأنه قيل: يا هلاكُ أَقبِلْ فهذا أوانُك، ففيه استعارةٌ مكنيةٌ تخييليةٌ، وفيه تقريعٌ لهم وإشارةٌ إلى أنَّه لا صاحبَ لهم غيرُ الهلاك، وقد طلبوه ليَهلِكوا ولا يروا العذابَ الأليم.

وقيل: المرادُ نداءُ مَن بحضرتِهم، كأنه قيل: يا مَن بحضرتِنا انظُروا هلَكَتَنا، وفيه تقديرٌ يفوت به تلك النكتةُ.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أيُّ شيءٍ له؟ والاستفهامُ مجازٌ عن التعجُّب من شأنِ الكتاب، ولامُ الجرِّ رُسمَت في الإمام مفصولةً، وزعم الطبرسيُّ أنه لا وجهَ لذلك[٢].

وقال البقاعيُّ[٣]: إنَّ في رسمِها كذلك إشارةً إلى أنَّ المجرمين لشدَّةِ الكرب يقفون على بعض الكلمة[٤].

---

(١) البحر ٦/ ١٣٤.

(٢) مجمع البيان ١٥/ ١٦٥.

(٣) في نظم الدرر ١٢/ ٧٢، والبقاعي هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط، برهان الدين البقاعي، عالم، أديب، مفسر، محدث ومؤرخ، له كتب منها: «نظم الدرر في تناسب الآي والسور» توفي بدمشق سنة (٨٨٥هـ). الضوء اللامع ١/ ١٠١، ومعجم المؤلفين ١/ ٤٩.

(٤) في نظم الدرر: بعض الكتب، والمصنف نقله من حاشية الشهاب ٦/ ١٠٨.

وفي «لطائف الإشارات»[1]: وَقَفَ على «ما» أبو عمرو والكسائيُّ ويعقوب، والباقون على اللامِ، والأصحُّ الوقفُ على «ما» لأنَّها كلمةٌ مستقلَّةٌ، وأكثرُهم لم يَذكُر فيها شيئاً. اهـ.

وأنتَ تعلم أنَّ الرسمَ العثمانيَّ مُتَّبعٌ ولا يقاس عليه، ولا يكادُ يعرَف وجهُه، وفي حُسن الوقف على «ما» أو اللام توقُّفٌ عندي.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ﴾ أي: لا يترك ﴿صَغِيرَةً﴾ أي: هَنَةً صغيرةً[2] ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَنهَاۚ﴾ أي: إلا عدَّها، وهو كنايةٌ عن الإحاطة، جملةٌ حاليةٌ محقِّقةٌ لِمَا في الجملة الاستفهامية من التعجُّبِ، أو استئنافيةٌ مبنيَّةٌ على سؤالٍ نشأ من التعجُّب، كأنه قيل: ما شأنُ هذا الكتاب حتى يُتعجَّب منه؟ فقيل: «لا يغادِرُ صَغيرة» إلخ.

وعن ابن جُبير تفسيرُ الصغيرة بالمسيس، والكبيرةِ بالزنى[3].

وأخرج ابن أبي الدنيا في «ذمِّ الغيبة» وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: الصغيرةُ: التبسُّم بالاستهزاء بالمؤمنين. والكبيرةُ: القهقهةُ بذلك[4]. وعلى هذا يُحمَل إطلاقُ ابن مردويه في الرواية عنه ﷺ تفسيرَ الصغيرة بالتبسُّم والكبيرةِ بالضحكِ[5]، ويندفع استشكالُ بعض الفضلاء ذلك، ويُعلم منه أنَّ الضحكَ على الناس من الذنوب.

وعن عبد الله بن زمعة ﷺ أنه سمع النبيَّ ﷺ يخطُب ويَعِظُهم في ضحكهم من الريح الخارجِ بصوتٍ وقال: «علامَ يضحَكُ أحدُكم مما يفعل»[6]؟ بل ذكر بعضُ علمائنا أنَّ مِن الضحك ما يكفُر به الضاحكُ كالضحك على كلمة كفرٍ، وقيَّده

(١) لطائف الإشارات لفنون القراءات لأبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٣هـ). كشف الظنون ٢/ ١٥٥١. والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ١٠٨.

(٢) الهَنَة بفتح الهاء والنون: الخصلة السيئة. حاشية الشهاب ٦/ ١٠٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٤٨٧.

(٤) ذم الغيبة والنميمة ص١٣٠، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٢٦.

(٥) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٦.

(٦) أخرجه أحمد (١٦٢٢٢)، والبخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥)، وورد في رواية أحمد ومسلم: «إلام». وفي رواية البخاري: «لم».

بعضُهم بما إذا قَدَر على أن يملكَ نفسَه، وإلا فلا يكفر، وتمامُ الكلام في ذلك في محلِّه.

وكان الظاهرُ: لا يغادِرُ كبيرةً ولا صغيرةً، بناءً على ما قالوا من أنَّ الترقِّي في الإثبات يكون من الأدنى إلى الأعلى، وفي النفْي على عكسِ ذلك، إذ لا يلزم من فعلِ الأدنى فعلُ الأعلى، بخلاف النفْي، لكن قال المحقِّقون: هذا إذا كان على ظاهرِه، فإن كان كنايةً عن العموم كما هنا وقولِك: ما أعطاني قليلاً ولا كثيراً، جاز تقديمُ الأدنى على الأعلى في النفْي كما فصَّله ابن الأثير في «المثل السائر»[(١)].

وفي «البحر»: قُدِّمت الصغيرُة اهتماماً بها، ورَوى عن الفضيل أنَّه كان إذا قرأ الآيَةَ قال: ضَجُّوا والله من الصغائرِ قبلَ الكبائرِ[(٢)].

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن قتادة أنه قال في الآية: اشتكى القومُ كما تسمعون الإحصاءَ ولم يشتكِ أحدٌ ظلماً، فإيَّاكم والمحقَّرات من الذنوب فإنَّها تجمَعُ على صاحبِها حتى تُهلِكَه[(٣)].

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا من السيئاتِ، أو جزاءَ ذلك ﴿حَاضِرًاۗ﴾ مسطوراً في كتابِ كلٍّ منهم، أو عتيداً بين أيديهم نقداً غير مؤجَّل، واختير المعنى الأخيرُ وإن كان فيه ارتكابُ خلافِ الظاهر؛ لأنَّ الكلامَ عليه تأسيسٌ محضٌ.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ بما لم يعمله[(٤)]، أي: منهم، أو: منهم ومن غيرهم، والمرادُ أنه عزَّ وجلَّ لا يتجاوز الحدَّ الذي حَدَّه في الثواب والعقاب وإن لم يَجب ذلك عليه تعالى عقلاً، وتحقيقُه أنَّه تعالى وَعَد بإثابةِ المطيع والزيادةِ في ثوابه، وبتعذيبِ العاصي بمقدارِ جرمه من غير زيادةٍ، وأنه قد يَغفِر له ما سوى الكفر، وأنَّه لا يُعذِّب بغير جنايةٍ، فهو سبحانه وتعالى لا يجاوِزُ الحدَّ الذي حدَّه، ولا يخالِفُ ما جرَت عليه سنَّتُه الإلهيَّةُ، فلا يعذِّب أحداً بما لم يعمَلْه، ولا ينقصُ

(١) ٢/ ٣٢-٣٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ١٠٩.

(٢) البحر ٦/ ١٣٥.

(٣) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٦، وقوله: فإياكم والمحقَّرات... إلخ ورد في حديث مرفوع عن ابن مسعود ﷺ وهو عند أحمد (٣٨١٨).

(٤) قوله: بما لم يعمله، سقط من الأصل.

ثوابَ ما عمِله مما أَمَرَ به وارتضاه، ولا يزيد في عقابِه الملائِم لعَملِه الذي نَهَى عنه ولم يرتضه. وهذا مما أجمع عليه المسلمون وإن اختلفوا في أنَّ امتناعَ وقوعِ ما نُفِيَ هل هو سمعيٌّ أو عقليٌّ؟ فذهب إلى الأول أهلُ السنة وإلى الثاني المعتزلةُ.

وهل تسميةُ تلك المجاوَزةِ ظلماً حقيقةٌ أم لا؟ قال الخفاجيُّ[1]: الظاهرُ أنها حقيقةٌ، وعليه لا حاجةَ إلى أن يقال: المرادُ بالآية أنه سبحانه لا يفعل بأحدٍ ما يكون ظلماً لو صدر من العباد كالتعذيب بلا ذنبٍ، فإنَّه لو صدر من العباد يكون ظلماً ولو صدر منه سبحانه لا يكون كذلك؛ لأنه جلَّ شأنُه مالكُ الملك متصرِّفٌ في ملكِه كيف يشاء، فلا يُتصوَّر في شأنِه ـ تعالى شأنُه ـ ظلمٌ أصلاً بوجهٍ من الوجوه عند أهل السنَّة. وأنت تعلم أنَّ هذا هو المشهورُ لدى الجمهور لا ما اقتضاه التحقيقُ، فتأمَّل والله تعالى وليُّ التوفيق.

واستُدِلَّ بعموم الآية على أنَّ أطفال المشركين لا يُعذَّبون، وهو القولُ المنصورُ، وقد أسلَفْنا ـ ولله تعالى الحمدُ ـ ما يؤيِّده من الأخبار[2].

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: اذكر وقتَ قولنا ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ كلِّهم كما هو الظاهر، واستثنى بعضُ الصوفية الملائكةَ المهيمين، وبعضٌ آخرُ ملائكةَ السماءِ مطلقاً، وزعم أنَّ المقولَ له ملائكةُ الأرض.

﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ سجودَ تحيةٍ وإكرامٍ، أو: اسجُدُوا لجهتِه على معنى: اتخِذُوه قبلةً لسجودِكم للهِ تعالى، وقد مرَّ تمامُ الكلام في ذلك. ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ كلُّهم أجمعون امتثالاً للأمر ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لم يكن من الساجدين، بل أبى واستكبر.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ سيق مساقَ التعليل لِمَا يفيده استثناءُ اللعين من الساجدين. وقيل: حالٌ من المستثنى، و«قد» مقدَّرةٌ، والرابطُ الضميرُ، وهو اختيار أبي البقاء[3]، والأوّلُ ألصَقُ بالقلب، فكأنَّه قيل: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان أصلُه جِنِّيًا، وهذا ظاهرٌ في أنَّه ليس من الملائكة. نعم كان

---

(١) في حاشيته ٦/١٠٩.
(٢) ينظر ١٤/٤٢٩ وما بعد.
(٣) في الإملاء ٣/٥٢٢.

معهم ومعدوداً في عدادهم؛ فقد أخرج ابن جرير عن سعد بن مسعود قال: كانت الملائكة تقاتِل الجنَّ فسُبي إبليسُ وكان صغيراً، فكان مع الملائكة فتعبّد بالسجود معهم. وأخرج نحوه عن شهر بن حوشب(١).

وهو قول كثيرٍ من العلماء، حتى قال الحسن فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبي حاتم: قاتل اللهُ تعالى أقواماً زعموا أن إبليسَ من الملائكة، والله تعالى يقول: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾(٢).

وأخرج عنه ابن جرير، وابن الأنباري في «كتاب الأضداد»، وأبو الشيخ في «العظمة» أنه قال: ما كان إبليسُ من الملائكة طرفةَ عينٍ، وإنَّه لأصلُ الجنِّ، كما أنَّ آدم عليه السلام أصل الإنس(٣). وفيه دلالةٌ على أنَّه لم يكن قبلَه جنٌّ كما لم يكن قبلَ آدم عليه السلام إنسٌ، وفي القلب من صحَّته ما فيه.

وأقرب منه إلى الصحَّة ما قاله جماعةٌ من أنه كان قبلَه جنٌّ إلا أنَّهم هَلَكُوا، أو لم يكن لهم عقبٌ سواه، فالجنُّ والشياطين اليومَ كلُّهم من ذُرِّيَّته، فهو في الجنِّ كنوح عليه السلام في الإنس على ما هو المشهورُ.

وقيل: كان من الملائكةِ والجنُّ قبيلةٌ منهم، وقد أخرج هذا ابنُ جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في «العظمة» والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن عباس(٤).

وفي روايةٍ أخرى عنه رضي الله عنه أنَّ إبليس كان من أشراف الملائكة وأكرمِهم قبيلةً، وكان خازناً على الجِنان، وكان له سلطانُ السماء الدنيا، وكان له مجمعُ البحرَين: بحرِ الروم وبحرِ فارس، وسلطانُ الأرض، فرأى أنَّ له بذلك عظمةً وشرفاً على أهل السماء، فوقع في نفسه كِبرٌ لم يعلم به أحدٌ إلا اللهُ تعالى، فلمَّا أُمِر بالسجود ظهر كِبْرُه الذي في نفسه، فلعنه الله تعالى إلى يوم القيامة(٥). وكان على ما رواه عنه

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٥٤٠-٥٤١.

(٢) عزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٧.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٣٩-٥٤٠، وكتاب الأضداد ص٣٣٧، والعظمة (١١٤٥).

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٨٦، والعظمة (١١٤٤)، وشعب الإيمان (١٤٤). وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٧.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٨٧ من رواية ابن جريج عنه.

قتادة يقول: لو لم يكن من الملائكة لم يُؤمَر بالسُّجود[١]. وأجيب عن هذا بما أشَرْنا إليه آنفاً، وبغيره مما لا يخفى.

وإلى ذلك ذهب ابنُ جبير[٢]، وقد رَوى عنه جماعةٌ أنه قال: الجِنُّ في الآية حيٌّ من الملائكة، لم يزالوا يصُوغون حُليَّ أهلِ الجنة حتى تقومَ الساعةُ[٣]. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّ معنى «كان من الجنِّ»: كان من خَزَنَةِ الجنان[٤]. وهو تأويلٌ عجيبٌ، ومثلُه ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» عن قتادة أنَّ معنى كونِه من الجنِّ أنه أُجِنَّ عن طاعةِ الله تعالى[٥]، أي: سُتِرَ ومُنِعَ.

وروايةُ الكثير عنه أنه قائلٌ بما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما[٦].

وقيل: هو من الملائكة، ومعنى «كان من الجن»: صار منهم بالمسخ.

وقيل: معنى ذلك أنه عُدَّ منهم؛ لموافَقتِه إيَّاهم في المعصية حيثُ إنَّهم كانوا من قبلُ عاصين، فبُعثت طائفةٌ من الملائكة عليهم السلام لقتالهم.

وأنت تعلم أنه يشقُّ الجوابُ على مَن ادَّعى أنَّ إبليس من الملائكة مع دعواه عصمتَهم، ولا بدَّ أن يرتكبَ خلاف الظاهر في هذه الآية، نعم مسألةُ عصمتِهم عليهم السلام خلافيةٌ، ولا قاطعَ في العصمة كما قال العلامة التفتازاني. وقد ذكر القاضي عياض أنَّ طائفةً ذهبوا إلى عصمة الرسل منهم والمقرَّبين عليهم السلام، ولم يقولوا بعصمةِ غيرهم[٧]. وإذا ذهب مدَّعي كونِ إبليس من الملائكة إلى هذا لم يتخلَّص من الاعتراض إلا بزعمِ أنَّه لم يكن من المقرَّبين، ولا تساعده الآثارُ على ذلك، ويبقى عليه أيضاً أنَّ الآية تأبى مدَّعاه، وكذا لو ذهب إلى ما نُقل عن

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٨٨.

(٢) فإنه قال: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا، تفسير الطبري ١/ ٥٣٨.

(٣) كتاب الأضداد لابن الأنباري ص٣٣٤، والدر المنثور ٤/ ٢٢٧ باللفظ المذكور، وفي العظمة (١١٤٢) بلفظ «حرس» بدل «حي».

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٠، والعظمة (١١٤٠).

(٥) العظمة (١١٣٨)، وهو عند الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٨٨.

(٦) أي: أنه كان من قبيل من الملائكة يقال لهم: الجن. وهو عند الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٨٨، وعزاه السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٧ لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٧) الشفا ٢/ ٣٩٧.

بعض الصوفية مِن أنَّ ملائكةَ الأرض لم يكونوا معصومين، وكان إبليس عليه اللعنةُ منهم.

﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: فخرج عن طاعتِه سبحانه كما قال الفراء(١)، وأصلُه من: فَسَقَ الرُّطَبُ: إذا خَرَج عن قشره، وسمَّوا الفأرةَ فاسقةً؛ لخروجها من جُحرها من البابَيْن، ولهذا عُدِّي بـ «عن» كما في قول رؤبة:

يَـهْـوِيْـنَ فـي نـجـدٍ وغـوراً غـائِـرَا   فَـواسِـقـاً عـن قـصـدِهـا جَـوَائـرا(٢)

والظاهرُ أنَّ الفسقَ بهذا المعنى مما تكلَّمت به العربُ من قبل، وقال أبو عبيدة: لم نسمع ذلك في شيء من أشعار الجاهلية ولا أحاديثِها، وإنما تكلَّم به العربُ بعد نزول القرآن. ووافقه المبرِّدُ على ذلك فقال: الأمرُ على ما ذكره أبو عبيدة، وهي كلمةٌ فصيحةٌ على ألسنةِ العرب. وكأنَّ ما ذكره الفراءُ بيانٌ لحاصل المعنى؛ إذ ليس الأمرُ بمعنى الطاعة أصلاً، بل هو إمَّا بمعنى المأمور به وهو السجودُ، وخروجُه عنه بمعنى عدم اتصافِه به، وإمَّا قولُه تعالى: «اسجدوا»، وخروجُه عنه مخالفتُه له، وكونُ حاصل المعنى ذلك على المعنيَيْن ظاهرٌ.

وقيل: «عن» للسببية كما في قولهم: كسوتُه عن عُري وأطعمته عن جُوعٍ. أي: فصار فاسقاً كافراً بسببِ أمر الله تعالى الملائكةَ المعدودَ هو في عِدادهم، إذ لولا ذلك الأمرُ ما تحقَّق إباءٌ. وإلى ذلك ذهب قُطرب إلا أنَّه قال: أي: ففسق عن ردِّه أمرَ ربِّه(٣).

ويحتمل أن يكونَ تقديرَ معنًى، وأن يكونَ تقديرَ إعرابٍ. وجوِّز على تقديرِ السببية أن يرادَ بالأمر المشيئةُ، أي: ففسق بسببِ مشيئةِ الله تعالى فسقَه، ولولا ذلك لأطاع. والأظهرُ ما ذُكر أولاً.

والفاءُ سببيةٌ عَطَفت ما بعدها على قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ وأفادت تسبُّبَ

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٤٧.

(٢) البيت في مجاز القرآن ١/ ٤٠٦، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤، والبحر ٦/ ١٣٦، وشطره الأول في الكتاب ١/ ٩٤ بلفظ «يذهبن». ونسبه سيبويه للعجاج. وقد سلف ٢/ ٦٩.

(٣) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٤/ ٢٥٥.

فسقِه عن كونه من الجنِّ، إذ شأنُهم التمرُّدُ لكدورة مادَّتِهم وخَباثة ذاتِهم، والذي خبُث لا يخرج إلا نكداً، وإن كان منهم مَن أطاع وآمن.

وجوِّز أن يكون العطفُ على ما يُفهَم من الاستثناء، كأنه قيل: فسجدوا إلا إبليس أبى عن السجود ففسق، وتفيد حينئذٍ تسبُّبَ فسقِه عن إبائِه وتركِه السجود.

وقيل: إنَّها هنا غيرُ عاطفةٍ؛ إذ لا يصحُّ تعليلُ تركِ السجود وإبائه عنه بفسقِه عن أمر ربِّه تعالى، قال الرضي: والفاءُ التي لغير العطف ـ وهي التي تسمَّى فاءَ السببيَّة ـ لا تخلو أيضاً من معنى الترتيبِ، وتختصُّ بالجمل، وتدخُل على ما هو جزاءٌ مع تقدُّم كلمةِ الشرط وبدونها. انتهى. وليس بشيء؛ لأنَّه يكفي لصحَّةِ ترتُّبِ الثاني تسبُّبه كما في ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ [القصص: ١٥] كما صرَّح به في «التسهيل»[(١)]، وهنا كذلك. والتعرُّضُ لعنوانِ الربوبية المنافيةِ للفسق لبيانِ قُبح ما فعله.

والمرادُ من الأمر بذكر وقت القصَّة ذكرُ القصَّةِ نفسِها؛ لِمَا فيها من تشديدِ النكير على المتكبِّرين المفتخرِين بأنسابهم وأموالِهم، المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين، ببيانِ أنَّ ذلك من صنيع إبليس، وأنَّهم في ذلك تابعون لتسويله كما يُنبئ عنه ما يأتي إن شاء الله تعالى، ومنه يُعلم وجهُ الرابط.

وجوِّز أن يكون وجهُه أنَّه تعالى لمَّا بيَّن حالَ المغرور بالدنيا والمُعرِض عنها، وكان سببَ الاغترار بها حبُّ الشهوات وتسويلُ الشيطان، زهَّدهم سبحانه أوَّلاً بزخارفِ الدنيا بأنها عُرضةُ الزوالِ وشيكةُ الانتقالِ، والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ ثواباً وأحسنُ أملاً من أنفَسِها وأعلاها، ثم نفَّرهم عن الشيطان، بتذكيرِ ما بينَهم من العداوة القديمة.

واختار أبو حيان في وجهه أنَّه سبحانه لمَّا ذكر يومَ القيامة والحشر، وذكر خوفَ المجرمين مما سُطر في كتبهم، وكان إبليسُ اللعينُ هو الذي حملهم على المعاصي واتخاذِ الشركاء = ناسب ذِكْرَ إبليس والتنفيرَ عنه تبعيداً عن المعاصي وعن امتثالِ ما يُوَسوِسُ به ويدعو إليه[(٢)].

---

(١) ص١٧٥.

(٢) البحر ٦/ ١٣٥.

وأيَّاما كان فلا يعدُّ ذكرُ هذه القصَّة هنا مع ذكرها قبلُ تكراراً؛ لأنَّ ذكرَها هنا لفائدةٍ غيرِ الفائدة التي ذُكرت لها فيما قبلُ، وهكذا ذكرُها في كلِّ موضع ذكرت فيه من الكتاب الجليل، ومثلُ هذا يقال في كلِّ ما هو تكرارٌ بحسب الظاهر فيه. ولا يخفى أنَّ أكثرَ المكرَّرات ظاهراً مختلفةُ الأساليبِ متفاوتةُ الألفاظِ والعباراتِ، وفي ذلك من الأسرار الإلهية ما فيه، فلا يستزلنَّك الشيطانُ.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ الهمزةُ للإنكار والتعجيبِ، والفاءُ للتعقيب، والمرادُ إمَّا إنكارُ أن يَعقبَ اتخاذُه وذريتَه أولياءَ العلمَ بصدورِ ما صَدر منه مع التعجُّب من ذلك، وإما تعقيبُ إنكار الاتخاذِ المذكور والتعجيب منه إعلامَ الله تعالى بقبح صنيع اللعين، فتأمَّل.

والظاهرُ أنَّ المرادَ من الذرِّيةِ الأولادُ، فتكونُ الآيةُ دالَّةً على أنَّ له أولاداً، وبذلك قال جماعةٌ، وقد رُوي عن ابن زيد أنَّ الله تعالى قال لإبليس: إني لا أخلُقُ لآدم ذرِّيَّةً إلا ذرأتُ لك مثلَها. فليس يُولَد لآدم ولدٌ إلا وُلد معه شيطانٌ يقرن به[١]. وعن قتادة أنه قال: إنه ينكِح وينسل كما ينسل بنو آدم[٢]. وذكر في «البحر» أنَّ من القائلين بذلك أيضاً الضحاكُ والأعمش والشعبيُّ. ونَقَل عن الشعبيِّ أنَّه قال: لا تكون ذريةٌ إلا من زوجةٍ. فيكونُ قائلاً بالزوجة[٣].

والذي في «الدر المنثور» برواية ابن المنذر عنه أنه سُئل عن إبليس: هل له زوجةٌ؟ فقال: إنَّ ذلك لعُرس ما سمعت به[٤]. وأخرج ابن أبي الدنيا في «المكائد» وابن أبي حاتم عن مجاهد أنَّه قال: وَلَدُ إبليس خمسةٌ: ثَبْرٌ وهو صاحبُ المصائب، والأعورُ وداسمٌ لا أدري ما يعملان، ومِسوَطٌ وهو صاحبُ الصخب، وزَلَنبور وهو الذي يفرِّق بين الناس ويُبصِّر الرجلَ عيوبَ أهلِه[٥].

وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّ الأعورَ صاحبُ الزنى، ومِسوَط صاحبُ أخبارِ

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البحر ٦/ ١٣٦.
(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٢٧.
(٥) عزاه لابن أبي الدنيا وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٧.

الكذِب، يُلقيها على أفواهِ الناس ولا يجدون لها أصلاً، وداسم صاحبُ البيوت، إذا دخل الرجلُ بيتَه ولم يسلِّم دخلَ معه، وإذا أكل ولم يسمِّ أكلَ معه، وزَلَنبور صاحبُ الأسواق، وكان هؤلاء الخمسةُ من خمسِ بيضاتٍ باضها اللعينُ[(١)].

وقيل: إنَّه عليه اللعنةُ يُدخِل ذَنَبَه في دُبره فيَبِيض، فتنفلقُ البيضةُ عن جماعةٍ من الشياطين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان أنَّ جميعَ ذريتِه من خمسِ بيضات باضها، قال: وبلغني أنَّه يجتمع على مؤمنٍ واحدٍ أكثرُ من ربيعة ومضر[(٢)]. والله تعالى أعلم بصحَّةِ هذه الأخبار.

وقال بعضُهم: لا ولدَ له، والمرادُ من الذرية الأتباعُ من الشياطين، وعُبِّر عنهم بذلك مجازاً تشبيهاً لهم بالأولاد.

وقيل ـ ولعلَّه الحقُّ ـ: إنَّ له أولاداً وأتباعاً.

ويجوز أن يرادَ من الذرِّية مجموعُهما معاً على التغليب، أو الجمعُ بين الحقيقةِ والمجازِ عند مَن يراه، أو عمومُ المجاز. وقد جاء في بعض الأخبار أنَّ ممن ينسب إليه بالوِلاد مَن آمن بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا ﷺ، وهو هامة ﵁[(٣)]، وسبحان مَن يُخرِج الحيَّ من الميِّت، ولا يلزمُنا أن نعلمَ كيفية ولادتِه، فكثيرٌ من الأشياء مجهولُ الكيفية عندنا، ونقول به، فليكن من هذا القبيل إذا صحَّ الخبرُ فيه.

واستدلَّ نافي مَلَكيَّته بظاهر الآية حيث أفادت أنَّه له ذريةٌ، والملائكة ليس لهم ذلك. ولمدَّعيها أن يقول بعد تسليم حَملِ الذرية على الأولاد: إنَّه بعد أن عصى مُسخ وخَرج عن الملكيَّة فصار له أولادٌ، ولم تُفِد الآيةُ أنّ له أولاداً قبلَ العصيان، والاستدلالُ بها لا يتمُّ إلا بذلك.

---

(١) أخرجه عن مجاهد أبو الشيخ في العظمة (١١٥٠)، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٥/ ٢٩٢ بنحوه.

(٢) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) روي فيه حديث مرفوع، وقال جعفر المستغفري: لا يثبت إسناد خبره. الإصابة ١٠/ ٢٢٧.

وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِي﴾ في موضع الحال، أي: أفتتخذونهم أولياءَ مجاوِزين عنِّي إليهم، وتستبدلونهم بي فتطيعونهم بدلَ طاعتي ﴿وَهُمْ﴾ أي: والحالُ أنَّ إبليسَ وذريته ﴿لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أي: أعداءٌ كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٧٧] وقولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون:٤]، وإنَّما فُعل به ذلك تشبيهاً بالمصادر نحو القَبول والوُلوع. وتقييدُ الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيدِ الإنكار وتشديدِه، فإنَّ مضمونَها مانعٌ من وقوع الاتخاذ ومُنافٍ له قطعاً:

ومِن نَكَد الدنيا على الحُرِّ أن يَرَى عـدوًّا لـه مـا مِـن صَـداقَـتِـه بـدُّ[1]

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضعين للشيء في غير موضِعه ﴿بَدَلًا ۝٥٠﴾ أي: مِن الله سبحانه، وهو نصبٌ على التمييز، وفاعلُ «بئس» ضميرٌ مستترٌ يفسِّره «هو»، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ، أي: بِئس البدلُ من الله تعالى للظالمين إبليسُ وذريته.

وفي الالتفات إلى الغيبة مع وضع الظالمين موضعَ ضمير المخاطَبين من الإيذان بكمالِ السخط والإشارةِ إلى أنَّ ما فعلوه ظلمٌ قبيحٌ = ما لا يخفى.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ عدم استحقاق إبليس وذريتِه للاتخاذِ المذكور في أنفسِهم، بعدَ بيانِ الصوارف عن ذلك من خَباثة الأصلِ والفسقِ والعداوةِ، أي: ما أحضرتُ إبليسَ وذريتَه ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حيثُ خلقتُهما قبلَ خَلْقهم ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ولا أشهدتُ بعضَهم خلقَ بعضٍ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] فكِلا ضميرَي الجمع المنصوبِ والمجرورِ عائدٌ على إبليس وذريتِه، وهم المراد بالمضلِّين في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾، وإنَّما وُضع ذلك موضعَ ضميرهم؛ ذمًّا لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال وتأكيداً لِمَا سبق من إنكارِ اتخاذِهم أولياءَ.

والعضُد في الأصل: ما بين المِرْفَق إلى الكَتِف، ويُستعار للمُعين كاليد، وهو المرادُ هنا، ولكونه نكرةً في سياق النفي عمَّ وفُسِّر بالجمع، والإفرادُ لرؤوس الآي. وقيل: إنما لم يُجمع لأنَّ الجميعَ في حكم الواحد في عدم الصلاحية

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ٩٣.

للاعتضاد، أي: وما كنتُ متخذَهم أعواناً في شأن الخلق، أو: في شأنٍ من شؤوني حتى يُتوهَّمَ شركتُهم في التولِّي فضلاً عن الاستبدال الذي لَزِم فعلَهم بناءً على الشركة في بعضِ أحكامِ الربوبيَّة.

وإرجاعُ ضميرِ «أنفسهم» إلى إبليس وذريته قد قال به كلُّ مَن ذهب إلى إرجاع ضميرِ «أشهدتهم» إليهم، وعَلَّل ذلك العلَّامةُ شيخُ الإسلام بقوله: حذَراً من تفكيكِ الضميرَين، ومحافظةً على ظاهرِ لفظ الأنفس، ثم قال: ولك أن تُرجِع الضميرَ الثاني إلى «الظالمين» وتَلتزم التفكيكَ بناءً على عودِ المعنى إليه، فإنَّ نفْيَ إشهاد الشياطين الذين يتولَّونهم هو الذي يدور عليه إنكارُ اتخاذهم أولياءَ، بناءً على أنَّ أدنى ما يصحِّح التولِّي حضورُ الوليِّ خَلْقَ المتولِّي، وحيثُ لا حصولَ لا مصحِّحَ للتولِّي قطعاً، وأما إشهادُ بعضِ الشياطين خلقَ بعضٍ منهم فليس من مَداراته الإنكارُ المذكورُ في شيء، على أنَّ إشهادَ بعضِهم خلقَ بعض إن كان مصحِّحاً لتولِّي الشاهد بناءً على دلالتِه على كمالِه باعتبارِ أنَّ له مدخلاً في خلق المشهود في الجملة فهو مُخلٌّ بتولِّي المشهودِ بناءً على قصورِه عمن شَهِد خلقَه، فلا يكون نفْيُ الإشهادِ المذكور متمحِّضاً في نفْيِ الكمال المصحِّح للتولِّي عن الكلِّ وهو المناطُ للإنكار المذكورُ.

وفي الآية تهكُّم بالكفارِ، وإيذانٌ بكمالِ ركاكةِ عُقولهم وسخافةِ آرائهم، حيث لا يفهَمون هذا الأمرَ الجليَّ الذي لا يكاد يشتبه على البُله والصبيانِ فيحتاجون إلى التصريح به. وإيثارُ نفي الإشهاد على نفي شهودِهم، ونفيِ اتخاذِهم أعواناً على نفي كونهم كذلك؛ للإشعار بأنَّهم مقهورون تحتَ قُدرته تعالى، تابعون لمشيئته سبحانه وإرادتِه عزَّ وجلَّ، بمعزلٍ من استحقاق الشهود والمَعونة من تلقاءِ أنفسهم من غير إحضارٍ واتخاذٍ، وإنَّما قُصارى ما يُتوهَّم فيهم أن يبلغوا ذلك المبلغَ بأمر الله جلَّ جلالُه، ولم يكد ذلك يكون[1]. اهـ.

وهو كلامٌ يلوحُ عليه مخايلُ التحقيق، لكن قيل عليه: يجوز أن يُرادَ من «السماوات والأرض» ما يشمَلُ أهلَها، وكثيراً ما يُراد منهما ذلك، فيدخُل فيه الكفَّارُ، فتفيدُ الآيةُ نفي إشهادِ الشياطين خلقَهم الذي مِن مَداراته الإنكارُ المذكورُ، من غير حاجةٍ إلى التزام التفكيكِ الذي هو خلافُ المتبادر.

(١) تفسير أبي السعود ٥/٢٢٨.

وظاهرُ كلامِه وكذا كلام كثيرٍ حملُ الإشهادِ المنفيِّ على حقيقته. وجوَّز أن يرادَ به المشاورةُ مجازاً، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ ما في «البحر»[(١)]، ولا مانعَ على هذا أن يرادَ من «السماوات والأرض» ما يشمَلُ أهلَهما، فكأنه قيل: ما شاورتُهم في خلق أحدٍ لا الكفَّارِ ولا غيرِهم، فما بالُ هؤلاء الكفَّار يتولَّونَهم؟! وأدنى ما يصحِّح التولِّي كونُ الوليِّ ممن يُشاوَر في أمر المتولِّي أو أمرِ غيره. ويكونُ نفْي اتخاذِهم أعواناً مطلَقاً في شيءٍ من الأشياء بعد نفي مشاورتِهم في الخلق ليؤدِّي الكلامُ ظاهراً عمومَ نفْي مدخليَّتِهم بوجهٍ من الوجوه رأياً وإيجاداً وغيرَ ذلك في شيءٍ من الأشياء، ولعلَّ الآية حينئذٍ نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩] من وجهٍ.

وقيل: قد يرادُ مِن نفْي الإشهادِ في جانب المعطوفِ نفْيُ المشاورةِ، ومنه نفْي أن يكونوا خُلِقوا حسبَ مشيئتِهم، ومنه نفْيُ أن يكونوا خُلقوا كاملين، فإنه يقال: خُلِق كما شاء، بمعنى خُلِق كاملاً قال الشاعر:

خُلقتَ مبرَّأً مِن كلِّ عيبٍ كأنَّك قد خُلِقتَ كما تشاءُ[(٢)]

وعلى هذا يكون في الخَلْق مَن أُشهِد خَلْقَ نفسه بمعنى أنه خُلق كاملاً. ولا يخفى ما فيه، وقد يُكتفى بدلالة ذلك على أنَّ نفْي الكمال بأقلَّ مِن هذه المؤونة، فافهَم. وزَعمُ أنَّ الكاملين شهدوا حقيقةَ خلقَ أنفسهم بمعنى أنَّهم رأوا وهم أعيانٌ ثابتةٌ خلقَهم، أي: إفاضةَ الوجود الخارجيِّ ـ الذي لا يتصِفُ به المعدومُ ـ عليهم = لا أرى أنَّ كاملاً يُقْدِمُ عليه أو يُصغي إليه.

وقال الإمام بعد حكاية القول برجوع الضميرَين إلى الشياطين: الأقرب عندي عودُهما على الكفَّار الذين قالوا للرسول ﷺ: إن لم تَطرُد عن مجلسك هؤلاء الفقراءَ لم نُؤمِن بك. فكأنه تعالى قال: إنَّ هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراحِ الفاسدِ والتعنُّت الباطل ما كانوا شُركائي في تدبير العالم، بدليلِ أنِّي ما أشهدتُهم خلقَ السماواتِ والأرضِ ولا خلقَ أنفسهم، ولا اعتضَدتُ بهم في تدبيرِ الدنيا والآخرةِ، بل هم كسائرِ الخلق، فلِمَ أَقْدَموا على هذا الاقتراحِ الفاسدِ؟! ونظيرُه أنَّ مَن اقترح

(١) ٦/ ١٣٦.

(٢) البيت لحسان ﷺ، وهو في ديوانه ص ٦٦، وقد سلف ١١/ ١٢.

عليك اقتراحاتٍ عظيمةً فإنَّك تقول له: لستَ بسلطانِ البلد حتى نَقبَل منك هذه الاقتراحاتِ الهائلَة، فلِمَ تُقدِم عليها؟! والذي يؤكِّد هذا أنَّ الضميرَ يجب عودُه على أقرب المذكورات، وهو في الآية أولئك الكفار؛ لأنَّهم المراد بالظالمين في قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[1]. انتهى.

وقيل: المعنى على تقدير عودِ الضميرَيْنِ على أولئك الكَفَرة: إنَّ هؤلاء الظالمين جاهلون بما جرى به القلمُ في الأزل من أحوالِ السعادة وضدِّها؛ لأنَّهم لم يكونوا شاهدين خلقَ العالم، فكيف يمكنُهم أن يحكُموا بحُسنِ حالهم عند الله تعالى وبشَرَفهم ورِفعتهم عند الخلق، وبأضدادِ هذه الأحوال للفقراء؟!.

وقيل: المعنى عليه: ما أشهدتُهم خلقَ ذلك وما أطلعتُهم على أسرارِ التكوين، وما خصَصتُهم بخصائصَ لا يحويها غيرُهم حتى يكونوا قدوةً للناس فيؤمنوا بإيمانهم كما يزعمون، فلا تلتفِتْ إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدين، فإنَّه لا ينبغي لي أن أعتَضِد لديني بالمضلِّين. ويعضده قراءةُ أبي جعفر والجحدريِّ والحسن وشيبة: «وما كنتَ» بفتح التاء[2]، خطاباً له ﷺ، والمعنى: ما صَحَّ لك الاعتضادُ بهم، ولعلَّ وصفَ أولئك الظالمين بالإضلال لِمَا أنَّ قصدَهم بطردِ الفقراء تنفيرُ الناس عنه ﷺ، وهو إضلالٌ ظاهرٌ.

وقيل: كلُّ ضالٍّ مضلٌّ؛ لأنَّ الإضلالَ إما بلسانِ القال أو بلسان الحال، والثاني لا يخلو عنه ضالٌّ.

وقيل: الضميران للملائكة، والمعنى: ما أشهدتُهم ذلك ولا استعنتُ بهم في شيء، بل خلقتُهم ليعبدوني فكيف يُعبَدُون؟! ويَردُّه «وما كنت متخذ المضلين عضداً»، إلا أن يقال: هو نفْيٌ لاتخاذ الشياطين أعواناً، فيستفاد من الجملتين نفْيُ صحَّةِ عبادةِ الفريقَيْن.

وقال ابن عطية: الضميران عائدان على الكفَّار وعلى الناس بالجملة، فتتضمَّن الآيةُ الردَّ على طوائفَ من المنجِّمين وأهلِ الطبائع والأطباء ومَن سواهم ممن

---

(١) التفسير الكبير ٢١/١٣٨.

(٢) النشر ٢/٣١١ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٦/١٣٧.

يخوض خوضَهم، وإلى هذا ذهب عبد الحق الصَّقَليُّ، وذكره بعض الأصوليين(١). انتهى. ويقال عليه في الجملة الأخيرة نحوُ ما قيل فيها آنفاً.

واستُدِلَّ بها على أنَّه لا ينبغي الاستعانةُ بالكافر، وهو في أمور الدين كجهاد الكفار وقتال أهل البغي مما ذهب إليه بعضُ الأئمة، ولبعضهم في ذلك تفصيلٌ، وأمَّا الاستعانةُ بهم في أمور الدنيا فالذي يظهر أنَّه لا بأسَ بها، سواءٌ كانت في أمرٍ مُمتَهنٍ كنزح الكنائف، أو في غيره كعمل المنابر والمحاريب والخياطة ونحوِها، ولعلَّ: افْرِضِ اليهوديَّ أو الكلبَ قد مات، في كلام الفاروق ﷺ = لعدِّ ما استُخْدِمَ فيه من الأمور الدينية، أو هو مبنيٌّ على اختيار تفصيلٍ في الأمور الدنيوية أيضاً.

وقد حكى الشيعةُ أنَّ عليًّا كرَّم الله تعالى وجهَه قال حين صمَّم على عزلِ معاوية وأشار عليه ابنُ عباس ﷺ بإبقائه على عمله إلى أن يستفحلَ أمر الخلافة: يمنعني من ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ فلا أتخِذ معاويةَ عضُداً أبداً. وهو كذِبٌ لا يعتقده إلا ضالٌّ مضلٌّ.

وقرأ أبو جعفر وشيبة والسختيانيُّ وعون العقيليُّ وابن مقسم: «ما أشهدناهم» بنون العظمة(٢).

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: «متخذاً المضلِّين» على إعمال اسم الفاعل(٣).

وقرأ الحسن وعكرمة: «عُضْداً» بسكون الضاد ونقْل حركتِها إلى العين(٤).

وقرأ عيسى: «عَضْداً» بسكون الضاد للتخفيف، كما قالوا في رَجُلٍ وسَبُعٍ: رَجْلٌ وسبْعٌ بالسكون، وهي لغةٌ عن تميم، وعنه أيضاً أنه قرأ بفتحتين(٥).

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣، وعبد الحق هو ابن محمد بن هارون أبو محمد السهمي المالكي، له: النكت والفروق لمسائل المدونة، وتهذيب الطالب. السير ١٨/ ٣٠١-٣٠٢.

(٢) النشر ٢/ ٣١١ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٦/ ١٣٦.

(٣) القراءات الشاذة ص٨٠، والكشاف ٢/ ٤٨٨، والبحر ٦/ ١٣٧.

(٤) الكشاف ٢/ ٤٨٨، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣، والبحر ٦/ ١٣٧.

(٥) قراءة سكون الضاد في القراءات الشاذة ص٨٠، وقراءة الفتحتين في المحرر الوجيز ٣/ ٥٢٣، ونقله المصنف من البحر ٦/ ١٣٧.

وقرأ شيبة وأبو عمرو في رواية هارون وخارجة والخفاف وأبي زيد[١]: «عُضُداً» بضمَّتين، ورُوي ذلك عن الحسن أيضاً، وكذا رُوي عنه أيضاً أنَّه قرأ بفَتحَتَيْنِ[٢]، وهو على هذا إما لغةٌ في العَضُد كما في «البحر» ولم يذكره في «القاموس»[٣]، وإما جمعُ: عاضدٍ، كخَدَم جمعُ خادمٍ، مِن عضَدَه بمعنى قوَّاه وأعانه، فحينئذٍ لا استعارةَ.

وقرأ الضحاك: «عِضَداً» بكسر العين وفتح الضاد ولم نجد ذلك من لغاته، نعم في «القاموس» عَدَّ «عَضِد» كـ: «كَتِف» منها[٤]، وهو عكسُ هذه القراءة.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ أي: الله تعالى للكفَّار توبيخاً وتعجيزاً بواسطةٍ أو بدونها، وقرأ الأعمش وطلحة ويحيى وابن أبي ليلى وحمزة وابن مقسم: «نقول» بنون العظمة[٥].

والكلام على معنى: اذكر، أيضاً، أي: واذكر يومَ يقول: ﴿نَادُوا۟﴾ للشفاعة لكم ﴿شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أي: زعمتموهم شفعاءَ، والإضافةُ باعتبارِ ما كانوا يزعمون أيضاً، فإنَّهم كانوا يزعمون أنهم شركاء كما يزعمون أنَّهم شفعاءُ، وقد جوَّز غيرُ واحدٍ هنا أن يكونَ الكلامُ بتقديرِ: زعمتموهم شركاء، والمرادُ بهم إبليسُ وذريتُه، وجعلُهم بدلاً فيما تقدَّم مبنيٌّ على ما لزِمَ من فعلِ عَبَدَتِهم المطيعين لهم فيما وسوسوا به، أو كلُّ ما عُبِد من دون الله تعالى.

وقرأ ابن كثير: «شُرَكَايَ» مقصوراً مضافاً إلى الياء[٦].

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: نادَوْهم للإغاثة، وفيه بيانٌ بكمالِ اعتنائهم بإغاثتهم على طريق الشفاعة؛ إذ معلومٌ أنْ لا طريقَ إلى المدافعة. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فلم يغيثوهم؛ إذ لا إمكانَ لذلك، قيل: وفي إيراده مع ظهوره تهكُّم بهم وإيذانٌ بأنَّهم في الحماقة بحيث لا يفهمونه إلا بالتصريح به.

---

(١) كذا وقع في الأصل و(م) قوله: وأبي زيد، وليس هو في البحر ٦/ ١٣٧، والكلام منه.
(٢) القراءات الشاذة ص٨١.
(٣) البحر ٦/ ١٣٢، والقاموس (عضد).
(٤) القاموس (عضد)، والقراءة في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٣، والبحر ٦/ ١٣٧.
(٥) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١ عن حمزة، والكلام من البحر ٦/ ١٣٧.
(٦) البحر ٦/ ١٣٧.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ أي: بين الداعين والمدعوين ﴿مَّوْبِقًا ۝٥٢﴾، اسمُ مكانٍ من: وَبَق وُبُوقاً كـ: وثب وثوباً، أو: وَبِق وَبَقاً كـ: فَرِح فرَحاً: إذا هلك، أي: مهلِكاً يشتركون فيه وهو النارُ، وجاء عن ابن عمر وأنس ومجاهد أنه وادٍ في جهنَّم يجري بدمٍ وصديدٍ. وعن عكرمة أنه نهرٌ في النار يسيل ناراً، على حافَّتَيْه حياتٌ أمثالُ البغَال الدُّهْم، فإذَا ثارت إليهم لتأخذَهم استغاثوا بالاقتحام في النار منها.

وتفسير الموبق بالمهلك مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن مجاهدٍ وغيرهما، وعن الحسن تفسيرُه بالعداوة[1]، فهو مصدرٌ أطلِق على سببِ الهلاك ـ وهو العداوةُ ـ كما أُطلِق التلَفُ على البغضِ المؤدِّي إليه في قول عمر رضي الله عنه: لا يكن حُبُّك كَلَفاً ولا بغضُك تلَفاً[2]. وعن الربيع بن أنس تفسيره بالمحبس.

ومعنى كون الموبِق ـ على سائر تفاسيره ـ بينَهم: شمولُه لهم وكونُهم مشتركين فيه، كما يقال: جعلتُ المالَ بين زيدٍ وعمرو، فكأنه ضُمِّن «جعلنا» معنى «قسمْنا»، وحينئذٍ لا يمكن إدخالُ عيسى وعزير والملائكةِ عليهم السلام ونحوِهم في الشركاء على القول الثاني.

وقال بعضُهم: معنى كون الموبق ـ أي: المَهْلِك، أو: المَحْبِس ـ بينَهم: أنَّه حاجزٌ واقعٌ في البَين، وجُعِلَ ذلك بينَهم حسماً لأطماع الكَفَرة في أن يصلَ إليهم ممن دعَوه للشفاعة. وجاء عن بعضِ مَن فسَّره بالوادي أنه يفرقُ الله تعالى به بين أهل الهدى وأهل الضلالة، وعلى هذا لا مانعَ مِن شمول المعنى الثاني للشركاء لأولئك الأجلَّة.

وقال الثعالبي في «فقه اللغة»[3]: الموبق بمعنى البرزَخ البعيد. على أنَّ «وبق» بمعنى «هلك» أيضاً، أي: جعلنا بينَهم أمداً بعيداً يهلك فيه الأشواط[4] لفرطِ بُعدِه،

---

(١) تفسير الطبري ١٥/٢٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٣٢٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٥٩٨)، والكَلَف: الوُلوع بالشيء مع شُغْلِ قلبٍ ومشقة. أي: لا يكن حبُّك حبّاً مفرطاً يؤدي إلى الولع والهيام. ينظر النهاية (كلف)، وحاشية الشهاب ٦/ ١١١.

(٣) ص٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ١١١.

(٤) كذا في الأصل و(م)، وفي حاشية الشهاب: بالأشواط.

وعليه أيضاً يجوز الشمولُ المذكورُ لأنَّ أولئك الكرام عليهم السلامُ في أعلى الجنان، وهؤلاء اللئام في قعر النيران، ولا يخفى على مَن له أدنى تأمُّلٍ الحالُ فيما إذا أريد بالموبق العداوة.

و«بينهم» على جميعِ ما ذُكر ظرفٌ، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل» إنْ جُعِلَ بمعنى «صيَّر»، و«موبقاً» مفعولُه الأول، وإنْ جُعِلَ بمعنى «خلق» كان الظرفُ متعلِّقاً به، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لمفعولِه قُدِّم عليه لرعايةِ الفواصل فتحوَّل حالاً.

وقال الفراء والسيرافي: البين هنا بمعنى الوصل فإنه يكونُ بمعناه كما يكون بمعنى الفِراق[1]، وهو مفعولٌ أول لـ «جعلنا»، و«موبقاً» بمعنى هلاكاً مفعولُه الثاني، والمعنى: جعلنا تواصلَهم في الدنيا هلاكاً يومَ القيامة.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ وُضِع المظهرُ في مقام المضمَر تصريحاً بإجرامهم وذمًّا لهم بذلك، والرؤيةُ بصريَّةٌ، وجاء عن أبي سعيد الخدريِّ ـ كما أخرجه عنه أحمد وابن جرير والحاكم وصحَّحه ـ عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الكافرَ ليرى جهنَّم من مسيرِ أربعين سنةً»[2].

﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ أي: علموا، كما أخرجه عبدُ الرزاق وجماعةٌ عن قتادة[3]، وهو الظاهرُ من حالهم بعد قولِ الله تعالى ذلك واستغاثتِهم بشركائهم وعدمِ استجابتهم لهم وجعلِ الموبق بينَهم.

وقيل: الظنُّ على ظاهره وهم لم يتيقَّنوا ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ ـ أي: مخالِطوها واقعون فيها ـ لعدم يأسِهم من رحمة الله تعالى قبل دخولهم فيها.

وقيل: إنَّهم لمَّا رأوها من بعيدٍ ـ كما سمعتَ في الحديث ـ ظنُّوا أنَّها تخطفهم في الحال، فإنَّ اسمَ الفاعل موضوعٌ للحال، فالمتيقَّن أصلُ الدخول، والمظنونُ الدخولُ حالاً.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٤٧، والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ١١١.

(٢) مسند أحمد (١١٧١٤)، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٩٩، بزيادة «ويظنُّ أنَّها مُوَاقِعَتُه» بعد لفظة: «جهنم»، ولم نقف عليه عند الحاكم، وأخرجه ابن حبان (٧٣٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ٤٠٤، وعزاه السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٨ لابن المنذر وابن أبي حاتم.

وفي مصحف عبد الله: «ملاقوها»، وكذلك قرأ الأعمش وابن غزوان عن طلحة[(١)]. واختير جعلُها تفسيراً لمخالفَتِها سوادَ المصحف.

وعن علقمة أنَّه قرأ: «مُلافُّوها» بالفاء مشدَّدةً[(٢)]، من: لفَّ الشيءَ.

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: مكاناً ينصرفون إليه؛ قال أبو كبير الهذليّ:

أزُهيرُ هَل عَن شَيبةٍ من مَصْرِف   أم لَا خُلُودَ لباذِلٍ مُتَكَلِّفِ[(٣)]

فهو اسمُ مكانٍ، وجُوِّز أن يكونَ اسمَ زمانٍ، وكذا جوَّز أبو البقاء وتبِعه غيرُه أن يكونَ مصدراً، أي: انصرافاً[(٤)].

وفي «الدر المصون» أنَّه سهوٌ، فإنَّه جعلَ «مَفعِل» بكسر العين مصدراً من صحيحٍ مضارعُه «يفعِل» بالكسر، وقد نصُّوا على أنَّ مصدرَه مفتوحُ العين لا غير، واسمُ زمانِه ومكانِه مكسورُها. نعم إنَّ القولَ بأنَّه مصدرٌ مقبولٌ في قراءةِ زيدِ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «مصرَفاً» بفتح الراء[(٥)].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ كرَّرنا وردَّدْنا على وجوهٍ كثيرةٍ من النظم ﴿فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الجليلِ الشأنِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: كلَّ مثل، على أنَّ «من» سيفُ خطيبٍ على رأي الأخفش، والمجرورُ مفعولُ «صرَّفنا»، أو: مَثَلاً من كلِّ مَثَلٍ، على أنَّ «مِن» أصليةٌ، والمفعولُ موصوفُ الجارِّ والمجرورِ المحذوفِ. وقيل: المفعولُ مضمونُ «مِن كلِّ مَثَل» أي: بعضَ كلِّ جنسِ مثلٍ. وأيًّا ما كان فالمرادُ من المثل إما معناه المشهورُ، أو الصفةُ الغريبة التي هي في الحُسن واستجلابِ النفس كالمثل، والمراد أنَّه تعالى نوَّع ضربَ الأمثالِ وذِكرَ الصفاتِ

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٤، والبحر ٦/ ١٣٨.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) أبو كبير هو عامر بن الحُلَيْس، شاعر صحابيٌّ اشتهر بكنيته، أحد بني سهل بن هذيل. والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ١٠٤، ومجاز القرآن ا/ ٤٠٧، وتفسير الطبري ١٥/ ٢٩٩، وفي اللسان (حرف): مَحْرِف، بدل: مَصْرِفٍ. قوله: زُهَيرُ، ترخيم زهيرة وهي ابنته، وشيبة: صديقه يرثيه.

(٤) الإملاء ٣/ ٥٢٥، وينظر تفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٩.

(٥) الدر المصون ٧/ ٥١٠بنحوه. وقراءة زيد بن علي في البحر ٦/ ١٣٨.

الغريبة، وذَكَر مِن كلِّ جنسٍ محتاجٍ إليه داعٍ إلى الإيمان نافعٍ لهم مثلاً، لا أنَّه سبحانه ذَكَر جميعَ أفرادِ الأمثال، وكأنَّ في الآية حذفاً، أو هي على معنى: ولقد فعلنا ذلك ليُقبلوا، فلم يفعلوا.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بحسب جبلَّته ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: أكثرَ الأشياءِ التي يتأتَّى منها الجدلُ، وهو كما قال الراغب[1] وغيرُه: المنازَعةُ بمفاوَضةِ القول. والأليقُ بالمقام أن يرادَ به هنا الخصومةُ بالباطل والمماراةُ، وهو الأكثر في الاستعمال. وذكر غيرُ واحدٍ أنَّه مأخوذٌ من الجَدْل وهو الفَتْلُ، والمجادَلةُ: الملاواة؛ لأنَّ كلًّا من المتجادِلَيْنِ يلتوي على صاحبه. وانتصابه على التمييز، والمعنى أنَّ جَدَلَ الإنسان أكثرُ من جَدَلِ كلِّ مجادِلٍ، وعُلِّل بسعة مضطرَبه فإنَّه بين أوجِ المَلَكيَّة وحَضيضِ البهيميَّة، فليس له في جانبَي التصاعُدِ والتسفُّلِ مقامٌ معلومٌ.

والظاهرُ أنَّه ليس المرادُ إنساناً معيَّناً، وقيل: المرادُ به النضرُ بن الحارث. وقيل: ابنُ الزِّبَعْرى. وقال ابن السائب: أُبيُّ بن خلفَ، وكان جدالُه في البعث حين أتى بعظمٍ قد رمَّ، فقال: أيقدِرُ اللهُ ـ تعالى ـ على إعادةِ هذا؟! وفتَّه بيده[2].

والأولُ أولى، ويؤيِّده ما أخرجه الشيخان وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنَّ النبيَّ ﷺ طرقه وفاطمةَ ليلاً، فقال: «ألا تصليان؟» فقلتُ: يا رسول الله، إنَّما أنفُسُنا بيدِ الله تعالى إن شاء أن يبعثَنا بَعَثَنا. فانصرف حين قلتُ ذلك ولم يَرجِع إليَّ شيئاً، ثم سمعتُه يضرب فخذَه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[3]. فإنَّه ظاهرٌ في حمل «الإنسان» على العموم، ولا شبهةَ في صحَّة الحديث إلا أنَّ فيه إشكالاً يُعرفُ بالتأمُّل، ولا يدفَعُه ما ذكره النوويُّ حيث قال: المختارُ في معناه أنَّه ﷺ تعجَّب من سرعةِ جوابه، وعدم موافقتِه له على الاعتذارِ بهذا، ولهذا ضرب فخذَه، وقيل: قال ﷺ ذلك تسليماً لعذرِهما وأنَّه لا عتبَ[4]. اهـ. فتأمَّل.

---

(١) في المفردات (جدل).

(٢) زاد المسير ٥/ ١٥٧، وينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٧٨) من سورة يس.

(٣) صحيح البخاري (٧٣٤٧)، وصحيح مسلم (٧٧٥)، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٢٨.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ٦/ ٦٥.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ قال ابن عطية وغيره: المرادُ بهم كفَّارُ قريش الذين حُكِيت أباطيلُهم[١]. و«ما» نافية، وزعم بعضُهم ـ وهو من الغرابة بمكان ـ أنَّها استفهاميةٌ، أي: أيُّ شيءٍ منعهم.

﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي: من إيمانهم بالله تعالى وتركِ ما هم فيه من الإشراك ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: القرآنُ العظيم الهادي إلى الإيمان بما فيه من فنون المعاني الموجبة له، أو: الرسولُ ﷺ، وإطلاقُ «الهدى» على كلٍّ للمبالغة.

﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾ بالتوبة عمَّا فرط منهم من أنواع الذنوب التي من جُملتها مجادَلتُهم الحقَّ بالباطل، وفائدةُ ذكرِ هذا بعد الإيمان التعميمُ على ما قيل.

واستدَلَّ به مَن زعم أنَّ الإيمانَ إذا لم ينضمَّ إليه الاستغفارُ لا يَجُبُّ ما قبله، وهو خلافُ ما اقتضتْه الظواهرُ.

وقال بعضُهم: لاشكَّ أنَّ الإيمانَ مع الاستغفار أكملُ من الإيمان وحدَه، فذُكِر معه لتُفِيدَ الآيةُ ما منعهم من الاتصاف بأكمل ما يُراد منهم. ولا يخفى أنه ليس بشيء.

وقيل: ذِكرُ الاستغفار بعد الإيمان لتأكيدِ أنَّ المرادَ منه الإيمانُ الذي لا يشوبه نفاقٌ، فكأنَّه قيل: ما منعهم أن يؤمنوا إيماناً حقيقيًّا.

﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهم مَن أُهلِك من الأمم السالفة، وإضافةُ السُّنَّة إليهم قيل: لكونها جاريةً عليهم، وهي في الحقيقة سنةُ الله تعالى فيهم، والمراد بها الإهلاكُ بعذابِ الاستئصال، وإذا فسِّرت السُّنَّةُ بالهلاك لم تحتَج لِمَا ذكر، و«أنْ» وما بعدها في تأويل المصدر وهو فاعلُ «منع»، والكلامُ بتقديرِ مضافٍ، أي: ما منعهم من ذلك إلَّا طلبُ الهلاك في الدنيا. قاله الزجَّاج[٢].

وجوَّز صاحبُ «الغنيان»[٣] تقديرَ: انتظار، أي: ما منعهم إلا انتظارُ الهلاك. وقدَّر الواحديُّ: تقدير، أي: ما منعَهم إلا تقديرُ الله تعالى إتيانَ الهلاك عليهم،

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٥، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٩.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٩٦.

(٣) في الأصل و(م): الغينان، والتصويب من البحر ٦/ ١٣٩، والكلام منه.

وقال: إنَّ الآيةَ فيمن قُتل ببدرٍ وأُحُدٍ من المشركين[1]. ويأباه بحسب الظاهر كونُ السورة مكيةً إلَّا ما استُثني.

والداعي لتقدير المضاف أنَّه لو كان المانعُ من إيمانهم واستغفارِهم نفسَ إتيانِ الهلاك كانوا معذورين، وأنَّ عذابَ الآخرةِ المعدَّ للكفارِ المرادَ من قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ منتظرٌ قطعاً، وقيل: لأنَّ زمانَ إتيان العذاب متأخِّرٌ عن الزمان الذي اعتُبِر لإيمانِهم واستغفارِهم، فلا يتأتَّى مانِعيَّته منهما.

واعتُرِض تقديرُ الطلبِ بأنَّ طلبَهم سنةَ الأولين لعدم إيمانهم، وهو لمنعهم عن الإيمان، فلو كان منعُهم للطلب، لزم الدورُ.

ودُفِع بأنَّ المرادَ بالطلب سببُه، وهو تعنُّتُهم وعنادُهم الذي جعلَهم طالبين للعذاب بمثل قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] إلخ.

وتُعقِّب بأنَّ فيهم مَن يُنكِر حقيَّةَ الإسلام كما أنَّ فيهم المعاند، ولا يظهر وجهُ كون الطلب ناشئاً عن إنكارِ الحقيَّة، وكذا لا يظهر كونُه ناشئاً عن العناد.

واعتُرِض أيضاً بأنَّ عدمَ الإيمان متقدِّمٌ على الطلب مستمرٌّ، فلا يكون الطلب مانعاً.

وأجيب بأنَّ المتقدِّمَ على الطلب هو عدمُ الإيمان السابق وليس الطلب بمانعٍ منه، بل هو مانعٌ مما تحقَّق بعدُ. وهو كما ترى.

وقيل: المراد من الطلب الطلبُ الصوريُّ اللسانيُّ، لا الحقيقيُّ القلبيُّ، فإنَّ مَن له أدنى عقلٍ لا يطلبُ الهلاكَ والعذابَ طلباً حقيقيًّا قلبيًّا، ومِن الطلب الصوريِّ منشؤُه وما هو دليلٌ عليه وهو تكذيبُ النبيِّ ﷺ بما أَوْعَدَ به من العذاب والهلاكِ مَن لم يؤمن بالله عزَّ وجلَّ، فكأنه قيل: ما منعهم من الإيمان بالله تعالى الذي أمر به النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلا تكذيبُهم إياه بما أَوْعَدَ على تركه. ولا يخلو عن دغدغةٍ.

(١) الوسيط ٣/ ١٥٤.

وقيل: الحقُّ أنَّ الآيةَ على تقديرِ الطلب من قولك لمن يعصيك: أنت تريد أن أضربك. وهو على تنزيل الاستحقاق منزلةَ الطلب، فكأنه قيل: ما منعهم من ذلك إلا استحقاقُ الهلاك الدنيويِّ أو العذاب الأخرويِّ.

وتُعقِّب بأنَّ عدمَ الإيمان والاتصافَ بالكُفر سببٌ للاستحقاق المذكور فيكون متقدِّماً عليه، ومتى كان الاستحقاقُ مانعاً منه انعكس أمرُ التقدُّم والتأخُّرِ، فيلزم اتصافُ الواحد بالشخص بالتقدُّم والتأخرِ، وأنَّه باطل.

وأجيب بمنع كون عدم الإيمان سبباً للاستحقاق في الحقيقة وإنَّما هو سببٌ صوريٌّ، والسبب الحقيقيُّ سوءُ استعداداتِهم وخَباثةُ ماهياتهم في نفس الأمر، وهذا كما أنَّه سببٌ للاستحقاقِ كذلك هو سببٌ للاتصاف بالكفر، وإن شئتَ فقل: هو مانعٌ من الإيمان، ومن هنا قيل: إنَّ المرادَ من الطلب الطلبُ بلسان الاستعداد، وأنَّ مآلَ الآية: ما منعهم من ذلك إلا استعداداتُهم وطلبُ ماهياتهم لضدِّه، وذلك لأنَّ طلبَ استعداداتهم للهلاك أو العذاب المترتِّب على الضدِّ استعدادٌ للضدِّ وطلبٌ له. وربما يقال بناءً على هذا: إنَّ المفهومَ من الآيات أنَّ الكفارَ لو لم يأتهم رسولٌ ينبِّهُهم من سِنَةِ الغَفلة يحتجُّون لو عُذِّبوا بعدم إتيانه، فيقولون: منَعَنا من الإيمان أنَّه لم يأتِنا رسولٌ. ومآله: منعنا من ذلك الغفلةُ، ولا يجدون من حُجَّة أبلغَ من ذلك وأنفعَ في الخلاص، وأما سوءُ الاستعداد وخباثةُ الذات فبمراحلَ مِن أن يحتجُّوا به ويجعلوه مانعاً، فلا بُعدَ في أن يقدَّر الطلبُ ويراد منه ظاهرُه، وتكون الآيةُ من قبيل قوله:

ولا عيب فيهم. . . . . البيت(١)

والمراد نفْي أن يكونَ لهم مانعٌ من الإيمان والاستغفارِ بعد مجيء الرسول ﷺ يصلُح أن يكونَ حجَّةً لهم أصلاً، كأنه قيل: لا مانعَ لهم من أن يؤمنوا أو يستغفروا ربَّهم، ولا حجَّةَ بعد مجيء الرسول الذي بلَّغ ما بلَّغ من الهدى إلا طلب ما أُوعِدوا به من إتيان الهلاك الدنيويِّ أو العذاب الأخرويِّ، وحيث إنَّ ذلك على فرض تحقُّقِه منهم لا يصلُح للمانعيَّة والحجيَّة لم يبقَ مانعٌ وحجَّةٌ عندهم أصلاً. انتهى.

---

(١) قائله النابغة، وقد سلف ٥/٤٠٧؛ وتمامه:

ولا عيبَ فيهم غير أنَّ سيوفَهم ... بهنَّ فلولٌ من قِراع الكتائب

ولا يخفى أنَّه ـ بعد الإغضاء عمَّا يَرِد عليه ـ بعيدٌ، وإنكارُ ذلك مكابرةٌ، والأولى تقديرُ: التقدير، وهو مانعٌ بلا شبهةٍ، إلَّا أنَّ القائلين بالاستعداد حسبما تعلم يجعلون منشأه الاستعدادَ، وفي معناه تقديرُ الإرادة، أي: إرادتُه تعالى، وعليه اقتصر العزُّ بن عبد السلام، ودَفَع التنافي بين الحصر المستفادِ من هذه الآية والحصرِ المستفادِ من قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] بأنَّ الحصرَ الأول في المانع الحقيقيِّ، فإنَّ إرادةَ الله تعالى هي المانعةُ على الحقيقة، والثاني في المانع العاديِّ وهو استغرابُ بعثِ بشرٍ رسولٍ؛ لأنَّ المعنى: وما منع الناسَ أن يؤمنوا إلا استغرابُ ذلك، وقد تقدَّم في الإسراء[١] ما ينفعك في الجمع بين الحصرَيْن، فتذكَّر فما في العهد من قِدَم.

وادَّعى الإمام تعدُّدَ الموانع، وأنَّ المرادَ من الآية فقدانُ نوعٍ منها، فقال: قال الأصحابُ: إنَّ العلم بعدَم إيمانِهم مضادٌّ لوجود إيمانهم، فإذا كان ذلك العلمُ قائماً كان المانع قائماً، وأيضاً حصولُ الداعي إلى الكفر قائمٌ، وإلَّا لَمَا حصل؛ لأنَّ حصولَ الفعل الاختياريِّ بدون الداعي محالٌ، ووجودُ الداعي إلى الكفر مانعٌ من حصول الإيمان، فلا بدَّ أن يقالَ: المرادُ فقدانُ الموانع المحسوسة[٢]. انتهى، فليتأمَّل فيه.

والقُبُل ـ بضمَّتين ـ جمعُ قبيلٍ، وهو النوعُ، أي: أو يأتيهم العذابُ أنواعاً وألواناً، أو هو بمعنى «قِبَلاً» بكسر القاف وفتح الباء كما قَرأ به غيرُ واحد[٣]، أي: عِياناً، فإنَّ أبا عبيدة حكاهما معاً بهذا المعنى[٤]، وأصلُه بمعنى المقابلَة، فإذاً دلَّ على المعاينَة.

ونصبُه على الحال، فإن كان حالاً من الضمير المفعول فمعناه: مُعايِنين، بكسر الياء، أو بفتحِها، أي: معايَنين للناس ليفتضحوا، وإن كان من «العذاب» فمعناه: معايَناً لهم أو للناس.

---

(١) ينظر ص١٢٢ من هذا الجزء.

(٢) التفسير الكبير ٢١/ ١٤٠.

(٣) هي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب كما في التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٤٠٧.

وقرأت طائفة: «قِبْلاً» بكسرِ القاف وسكون الباء، وهو كما في «البحر»(١) تخفيفُ «قِبَل» على لغة تميم.

وذكر ابن قتيبة والزمخشريُّ أنَّه قُرِئ: «قَبَلاً» بفتحتين(٢)، أي: مستقبَلاً.

وقرأ أبيٌّ بن كعب وابن غزوان عن طلحة: «قَبِيلاً» بقاف مفتوحة وباء مكسورةٍ بعدَها ياءٌ ساكنة(٣)، أي: عِياناً ومقابلةً.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى الأمم متلبِّسين بحالٍ من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالَ كونهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للكَفَرة والعُصاة بالعقاب، ولم نرسلهم ليُقترحَ عليهم الآيات بعد ظهور المعجزات ويُعامَلوا بما لا يليق بشأنهم ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ باقتراح ذلك والسؤالِ عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنُّتاً، وقولِهم لهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] إلى غير ذلك. وتقييدُ الجدال بـ «الباطل» لبيان المذمومِ منه فإنَّه كما مرَّ غيرَ بعيدٍ عامٌّ لغةً، لا خاصٌّ بالباطل ليُحمل ما ذكر على التجريد، والمراد به هنا معناه اللغويُّ، وما يُطلَق عليه اصطلاحاً مما يصدُق عليه ذلك.

﴿لِيُدْحِضُواْ﴾ أي: ليُزيلوا ويُبطلوا ﴿بِهِ﴾ أي: بالجدال ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءت به الرسلُ عليهم السلام، وأصلُ الإدحاض: الإزلاقُ، والدحضُ: الطين الذي يُزلَق فيه، قال الشاعر:

وَرَدْتُ ونَجَّى اليشكريَّ حذارُه وحادَ كما حادَ البعيرُ عن الدحْضِ(٤)

وقال آخر:

أبا منذرٍ رمتَ الوفاء وهبتَه وحِدتَ كما حاد البعيرُ المدحض(٥)

---

(١) ٦/ ١٣٩.

(٢) غريب القرآن ص٢٦٩، والكشاف ٢/ ٤٨٩.

(٣) البحر ٦/ ١٣٩.

(٤) البيت في البحر ٦/ ١٣٢، وهو في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٥ بلفظ: نجاؤه، بدل: حذارُه، ولم ينسباه، وفي تفسير الطبري ١٥/ ٣٠٢، وجمهرة اللغة ٢/ ١٢٣، واللسان (دحض) بلفظ: رَدِيتُ، بدل: وردت، ونسبه ابن دريد وابن منظور لطرفة، وهو في ديوانه ص١٧٢.

(٥) البيت في الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري ٢/ ٣٣٣، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣١٢، =

واستعماله في إزالة الحق قيل: من استعمال ما وضع للمحسوس في المعقول، وقيل: لك أن تقول: فيه تشبيهُ كلامهم بالوَحل المستكره، كقول الخفاجيِّ:

أتـانـا بـوحـلٍ لأفـكـارِه ليُـزلِـق أقـدامَ هَـذْي الـحُـجَـج[1]

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي﴾ التي أيَّدتُ بها الرسلَ، سواء كانت قولاً أو فعلاً ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي: والذي أُنذروه من القوارع الناعية عليهم العقابَ والعذابَ، أو: إنذارَهم ﴿هُزُوٗا ٥٦﴾ أي: استهزاءً وسخريةً. وقرأ حمزة: «هُزْأً» بالسكون مهموزاً، وقرأ غيرُه وغير حفص من السبعة بضمَّتَيْنِ مهموزاً[2]، وهو مصدرٌ وصف به للمبالغة، وقد يؤوَّل بما يُستهزَأُ به.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الأكثرون على أنَّ المرادَ بها القرآنُ العظيم؛ لمكان «أن يفقهوه»، فالإضافةُ للعهد. وجوِّز أن يرادَ بها جنسُ الآيات ويدخل القرآن العظيم دخولاً أوليًّا، والاستفهامُ إنكاريٌّ في قوة النفْي، وحقَّق غيرُ واحد أنَّ المرادَ نفْي أن يساوِي أحد في الظلم مَن وُعِظ بآيات الله تعالى ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ فلم يتدبَّرها ولم يتعظ بها، ودلالةُ ما ذكر على هذا بطريق الكناية، وبناء الأظلمية على ما في حيِّز الصلة من الإعراض؛ للإشعار بأنَّ ظُلمَ مَن يجادل في الآيات ويتخذُها هزواً خارجٌ عن الحدِّ.

﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ﴾ أي: عملَه من الكفر والمعاصي التي من جملتها المجادلةُ بالباطل والاستهزاءُ بالحقِّ، ونسيانُ ذلك كنايةٌ عن عدم التفكُّر في عواقبه.

والمرادُ من «مَن» عند الأكثرين مشركو مكة. وجوِّز أن يكونَ المرادُ منه المتصف بما في حيِّز الصلة كائناً مَن كان، ويدخل فيه مشركو مكة دخولاً أوليًّا، والضميرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ لهم على الوجهين، ووجه الجمع ظاهرٌ، والجملة استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: ما علَّةُ الإعراض والنسيان؟ فقيل: علتُه

= وتاج العروس (دحض) منسوب لطرفة، وهو في ديوانه ص١٧٣، ورَوَوْه بلفظ: فهِبْتَه، بدل: وهبته، و: عن الدحض، بدل: المدحض. وهو في البحر ٦/ ١٣٢، والدر المصون ٧/ ٥١٢، برواية المصنف إلا أن في الدر المصون: فهبتَه.

(١) حاشية الشهاب للخفاجي ٦/ ١١٣.

(٢) التيسير ص٧٤، والنشر ٢/ ٢١٥-٢١٦. وقرأ حفص بضمِّ الزاي وإبدالِ الهمزة واواً.

أنَّا جعلنا على قلوبهم ﴿أَكِنَّةً﴾ أي: أغطيةً، جمعُ: كنانٍ، والتنوينُ ـ على ما يشيرُ إليه كلامُ البعض ـ للتكثير.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ الضميرُ المنصوب عند الأكثرين للآيات، وتذكيرُه وإفرادُه باعتبار المعنى المرادِ منها وهو القرآن. وجوِّز أن يكونَ للقرآن لا باعتبار أنه المرادُ من الآيات.

وفي الكلام حذفٌ، والتقديرُ: كراهة أن يفقهوه. وقيل: لئلا يفقهوه، أي: فقهاً نافعاً.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: وجعلنا فيها ﴿وَقْرًا﴾ أي: ثِقَلاً أن يسمعوه سماعاً كذلك ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ أي: مدَّةَ التكليف كلّها، و«إذاً» جزاءٌ وجوابٌ كما حقَّق المرادُ منه في موضعه، فتدلُّ على نفْي اهتدائهم لدعوة الرسول ﷺ بمعنى أنَّهم جعلوا ما يجب أن يكونَ سببَ وجودِ الاهتداء سبباً في انتفائه، وعلى أنَّه جوابٌ للرسول عليه الصلاة والسلام على تقدير قوله ﷺ: مالي لا أدعوهم؟ حرصاً على اهتدائهم ـ وإن ذُكر له ﷺ من أمرهم ما ذُكر ـ رجاءَ أن تنكشفَ تلك الأكنَّة وتمزَّق بيد الدعوة، فقيل: «وإن تدعهم» إلخ. قاله الزمخشري[(١)].

وفي «الكشف» في بيانِ ذلك: أما الدلالةُ فصريحُ تخلُّلِ «إذاً» يدلُّ على ذلك؛ لأنَّ المعنى: إذاً لو دعوتَ، وهو من التعكيس بلا تعسُّفٍ، وأما أنَّه جوابٌ على الوجه المذكور فمعناه أنَّه ﷺ نزِّل منزلةَ السائل مبالغةً في عدم الاهتداء المرتَّب على كونهم مطبوعاً على قلوبهم، فلا ينافي ما آثروه من أنه على تقديرِ سؤالٍ: لِمَ لَمْ يهتدوا؟ فإنَّ السؤالَ على هذا الوجه أوقع. اهـ.

وهو كلامٌ نفيس، به ينكشف الغطا، ويُؤمَن من تقليد الخَطَا، ويستغني به المتأمِّلُ عما قيل: إنَّ تقديرَ: ما لي لا أدعوهم؟ يقتضي المنعَ من دعوتهم، فكأنه أُخِذ من مثلِ قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم:٢٩] وقيل: أُخِذ من قوله تعالى: (عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً). وقيل: من قوله سبحانه: (وَإِن تَدْعُهُمْ).

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٨٩.

هذا، ولا يخفى عليك المرادُ من «الهدى»، وقد يُراد منه القرآنُ، فيكون من إقامة الظاهر مقامَ الضمير، ولعلَّ إرادةَ ذلك هنا ترجِّح إرادة القرآن في «الهدى» السابق، والله تعالى أعلم.

والآية في أناسٍ عَلِم الله تعالى موافاتَهم على الكفر من مشركي مكة حين نزولها، فلا ينافي الإخبارَ بالطبع، وأنَّهم لا يؤمنون تحقيقاً ولا تقليداً إيمانَ بعض المشركين بعد النزول. واحتمالُ أنَّ المرادَ جميعُ المشركين على معنى: وإن تدعهم إلى الهدى جميعاً فلن يهتدوا جميعاً، وإنما يهتدي بعضُهم = كما ترى.

واستدلَّت الجبريَّةُ بهذه الآية على مذهبهم، والقدريَّةُ بالآية التي قبلها، قال الإمام: وقلَّ ما تجد في القرآن آيةً لأحدِ هذين الفريقين إلا ومعها آيةٌ للفريق الآخَر، وما ذاك إلا امتحانٌ شديدٌ مِن الله تعالى ألقاه الله تعالى على عباده ليتميَّزَ العلماءُ الراسخون من المقلِّدين[1].

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، وقولُه تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ - أي: صاحبُها، والموصوفُ بها - خبرٌ بعد خبر، قال الإمام: وإنما ذُكر لفظُ المبالغة في المغفرة دونَ الرحمة؛ لأنَّ المغفرةَ تركُ الإضرار والرحمةَ إيصال النفع، وقدرةُ الله تعالى تتعلَّقُ بالأول؛ لأنَّه تركُ مضارٍّ لا نهايةَ لها، ولا تتعلَّق بالثاني لأنَّ فعلَ ما لا نهايةَ له محالٌ[2].

وتعقَّبه النيسابوريُّ بأنَّه فرقٌ دقيقٌ لو ساعده النقلُ، على أنَّ قولَه تعالى: «ذو الرحمة» لا يخلو عن مبالغةٍ، وفي القرآن «غفورٌ رحيمٌ» بالمبالغة في الجانبَيْنِ كثيراً، وفي تعلُّق القدرة بترك غير المتناهي نظرٌ؛ لأنَّ مقدوراته تعالى متناهيةٌ لا فرق بين المتروك وغيره[3]. اهـ.

وقيل عليه: إنَّهم فسَّروا «الغفَّار» بمُريدِ إزالة العقوبة عن مستحقِّها، و«الرحيمَ» بمُريدِ الإنعام على الخَلْق، وقصدُ المبالغة من جهةٍ في مقامٍ لا ينافي تركَها في آخرَ

---

(١) التفسير الكبير ٢١/ ١٤٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٥/ ١٤٤.

لعدم اقتضائِه لها، وقد صرَّحوا بأنَّ مقدوراتِه تعالى غيرُ متناهية، وما دخل منها في الوجود متناهٍ ببرهان التطبيق. اهـ، وهو كلامٌ حسنٌ اندفع به ما أورد على الإمام.

وزعمت الفلاسفة أنَّ ما دخل في الوجود من المقدورات غيرُ متناهٍ أيضاً، ولا يجري فيه برهانُ التطبيق عندهم؛ لاشتراطهم الاجتماعَ والترتُّبَ، ولعَمري لقد قفَّ شعري من ظاهرِ قول النيسابوري أنَّ مقدوراته تعالى متناهية، فإنَّ ظاهرَه التعجيزُ، تعالى اللهُ سبحانه عمَّا يقوله الظالمون علوًّا كبيراً، ولكن يدفع بالعناية، فتدبَّر.

ثم إنَّ تحريرَ نكتةِ التفرقة بين الخبرَيْنِ هاهنا على ما قاله الخفاجيُّ(١) أنَّ المذكورَ بعدُ عدمُ مؤاخذتهم بما كسبوا من الجرم العظيم وهو مغفرةٌ عظيمةٌ، وتركُ التعجيل رحمةٌ منه تعالى سابقةٌ على غضبه لكنه لم يُرد سبحانه إتمامَ رحمته عليهم وبلوغَها الغايةَ، إذ لو أراد جلَّ شأنُه ذلك لهداهم وسلَّمهم من العذاب رأساً، وهذه النكتةُ لا تتوقَّفُ على حديث التناهي وعدم التناهي الذي ذكره الإمام وإن كان صحيحاً في نفسه كما قيل.

والاعتراض عليه بأنه يقتضي عدمَ تناهي المتعلّقات في كلِّ ما نسب إليه تعالى بصيغ المبالغة، وليس بلازم؛ إذ يمكن أن تُعتبَر المبالغةُ في المتناهي بزيادة الكمية وقوَّةِ الكيفية، ولو سلِّم ما ذكر لزِمَ عدمُ صحة صيغ المبالغة في الأمور الثبوتية كـ «رحيم» و«رحمن»، ولا وجهَ له = مدفوعٌ بأنَّ ما ذكره نكتةٌ لوقوع التفرقة بين الأمرَيْنِ هنا بأنَّه اعتُبِرَت المبالغةُ في جانب الترك دونَ مقابِله؛ لأنَّ التركَ عدميٌّ يجوز فيه عدمُ التناهي بخلاف الآخر، ألا ترى أنَّ تركَ عذابهم دالٌّ على ترك جميع أنواع العقوبات في العاجل وإن كانت غيرَ متناهيةٍ؟ كذا قيل، وفيه نظرٌ.

وربما يقال في توجيه ما قاله النيسابوريُّ من أنَّ «ذو الرحمة» لا يخلو عن المبالغة: إنَّ ذلك إمَّا لاقتران الرحمة بـ «أل» فتفيد الرحمةَ الكاملةَ، أو الرحمةَ المعهودةَ التي وسعت كلَّ شيء، وإمَّا لـ «ذو» فإنَّ دلالتَه على الاتصاف في مثل هذا التركيب فوقَ دلالة المشتقَّات عليه، ولا يكاد يدلُّ سبحانه على اتصافِه تعالى بصفةٍ

---

(١) في حاشيته على تفسير البيضاوي ٥/ ١١٤.

بهذه الدلالة إلا وتلك الصفةُ مرادةٌ على الوجه الأبلغ، وإلا فما الفائدةُ في العدول عن المشتقِّ الأخصر الدالِّ على أصل الاتصافِ كـ : الراحم ـ مثلاً ـ إلى ذلك.

ولا يعكِّر على هذا أنَّ المبالغةَ لو كانت مرادةً فلِمَ عُدل عن الأخصر أيضاً المفيدِ لها كـ «الرحيم» أو «الرحمن» إلى ما ذُكر؟ لجوازِ أن يقال: إنَّه أريد أن لا تُقيَّد الرحمةُ المبالغُ فيها بكونها في الدنيا أو في الآخرة، وهذان الاسمان يفيدان التقييدَ على المشهور ولذا عُدل عنهما إلى «ذو الرحمة».

وإذا قلت: هما مثله في عدم التقييد. قيل: إنَّ دلالتَه على المبالغة أقوى من دلالتهما عليها بأنْ يُدَّعى أنَّ تلك الدلالةَ بواسطة أمرين لا يعدلهما في قوَّة الدلالة ما يتوسَّط في دلالة الاسمين الجليلين عليها، وعلى هذا يكون «ذو الرحمة» أبلغَ من كلِّ واحدٍ من «الرحمن» و«الرحيم» وإن كانا معاً أبلغَ منه، ولذا جيء بهما في البسملة دونه، ومَن أنصف لم يشكَّ في أنَّ قولك: فلانٌ ذو العلم، أبلغُ مِن قولك: فلان عليمٌ، بل ومن قولك: فلان العليمُ، من حيث إنَّ الأولَ يفيدُ أنَّه صاحب ماهيةِ العلم ومالكُها، ولا كذلك الأخيران، وحينئذٍ يكون التفاوتُ بين الخبرين في الآية بأبلغية الثاني، ووجه ذلك ظاهرٌ، فإنَّ الرحمةَ أوسعُ دائرةً من المغفرة كما لا يخفى، والنكتة فيه هاهنا مزيدُ إيناسه ﷺ بعد أن أخبره سبحانه بالطبع على قلوب بعض المرسَل إليهم وآيَسه من اهتدائهم مع علمه جلَّ شأنه بمزيد حرصه عليه الصلاة والسلام على ذلك، وهو السرُّ في إيثار عنوان الربوبية مضافاً إلى ضميره ﷺ. انتهى.

وهو كلامٌ واقف في أعراف الردِّ والقبولِ في النظر الجليل، ومن دقَّق عَلِم ما فيه من الأمرين.

وإنما قُدِّم الوصفُ الأول لأنَّ التخليةَ قبلَ التحلية، أو لأنه أهمُّ بحسب الحال والمقام، إذ المقامُ على ما قاله المحقِّقون مقامُ بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قولُه تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ أي: لو يريد مؤاخذتَهم ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: فعلوا، وكَسْبُ الأشعريِّ لا تفهمه العرب(١)، و«ما»

(١) ينظر ما سلف ٤/ ٣٤٦ وما بعدها.

إما مصدريةٌ، أي: بكسبهم، وإمَّا موصولةٌ، أي: بالذي كسبوه من المعاصي التي من جملتها ما حُكي عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن آيات ربِّهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ لاستيجاب أعمالهم لذلك، قيل: وإيثارُ المؤاخذة المُنبِئة عن شدَّة الأخذ بسرعةٍ على التعذيب والعقوبة ونحوهما للإيذان بأنَّ النفي المستفادَ من مقدَّم الشرطية متعلِّقٌ بوصف السرعة كما يُنبئ عنه تاليها، وإيثارُ صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضيِّ لإفادة أنَّ انتفاءَ تعجيلِ العذاب لهم بسبب استمرارِ عدم إرادة المؤاخَذَة، فإنَّ المضارع الواقعَ موقعَ الماضي يفيد استمرارَ الفعل فيما مضى.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو يومُ بدرٍ، أو يومُ القيامة، على أنَّ الموعِدَ اسمُ زمان، وجوِّز أن يكون اسمَ مكان والمرادُ منه جهنَّم، والجملة معطوفةٌ على مقدَّر، كأنه قيل: لكنَّهم ليسوا مؤاخَذين بغتة بل لهم موعدٌ ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ قال الفراء: أي: منجاً[1]؛ يقال: وَأَلَتْ نفسُ فلان: نَجَتْ، وعليه قول الأعشى:

وقَـد أُخَـالِـسُ ربَّ الـدارِ غـفـلـتَـه ... وقـد يُـحـاذِرُ مـنِّـي ثـمَّ مـا يَـئِـلِ[2]

وقال ابن قتيبة[3]: هو الملجأ، يقال: وَأَلَ فلانٌ إلى كذا يَئِل وَألاً ووُؤولاً: إذا لجأ، والمعنى واحدٌ، والفرقُ إنما هو بالتعدي بـ «إلى» وعدمه. وتفسيرُه بالملجأ مرويٌّ عن ابن عباس. وفسَّره مجاهد بالمَحْرِز، والضحاكُ بالمخلص، والأمر في ذلك سهل، وهو على ما قاله أبو البقاء[4]: يحتمل أن يكونَ اسمَ زمان وأن يكون اسمَ مكان. والضميرُ المجرورُ عائدٌ على الموعد كما هو الظاهرُ. وقيل: على العذاب. وفيه من المبالغة ما فيه؛ لدلالته على أنَّهم لا خلاصَ لهم أصلاً، فإنَّ من يكون ملجؤه العذابَ كيف يرى وجهَ الخلاص والنجاة.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ١٤٨.

(٢) البيت في تفسير الطبري ١٥/ ٣٠٥، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٦، والبحر ٦/ ١٣٢، وخزانة الأدب ١١/ ٣٥٢ بلفظ: البيت، بدل: الدار، وكذا في ديوان الأعشى ص١٧٤، وفيه: فقد، بدل: وقد.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص٢٦٩.

(٤) في الإملاء ٣/ ٥٢٦.

وأنت تعلم أنَّ أمرَ المبالغة موجودٌ في الظاهر أيضاً.

وقيل: يعود على الله تعالى، وهو مخالفٌ للظاهر مع الخلوِّ عن المبالغة.

وقرأ الزهريُّ: «مَوَّلاً» بتشديد الواو من غير همزٍ ولا ياء.

وقرأ أبو جعفر عن الحلواني عنه: «مَوِلا» بكسر الواو خفيفةً من غير همزٍ ولا ياءٍ أيضاً(١).

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم، والكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: أهل القرى؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، والإشارةُ لتنزيلهم - لعلمِهم بهم - منزلةَ المحسوس، وقدَّر المضافُ في «البحر» قبلَ «تلك»(٢)، وكلا الأمرين جائزٌ. و«تلك» يشارُ بها للمؤنَّث من العقلاء وغيرهم، وجوِّز أن تكون القرى عبارةً عن أهلها مجازاً.

وأيًّا ما كان فاسم الإشارة مبتدأٌ، و«القرى» صِفته، والوصفُ بالجامد في باب الإشارة مشهورٌ، والخبرُ جملةُ «أهلكناهم». واختار أبو حيان كونَ «القرى» هو الخبرَ، والجملةُ حاليةٌ، كقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ [النمل: ٥٢]، وجوِّز أن تكونَ «تلك» منصوباً بإضمار فعلٍ يفسِّره ما بعدَه، أي: وأهلكنا تلك القرى أهلكناهم(٣).

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي: حين ظلمهم كما فعل مشركو مكة ما حُكي عنهم من القبائح. وتركُ المفعول إما لتعميم الظلم، أو لتنزيله منزلةَ اللازم، أي: لمَّا فعلوا الظلمَ.

و«لمَّا» عند الجمهور ظرفٌ كما أشير إليه، وليس المرادُ به الحينَ المعيَّن الذي عملوا فيه الظلمَ، بل زمانٌ ممتدٌّ من ابتداءِ الظلم إلى آخرِه. وقال أبو الحسن ابن عصفور: هي حرف، ومما استَدلَّ به على حرفيَّتها هذه الآيةُ حيث قال: إنها تدلُّ على أنَّ علة الإهلاك الظلمُ، والظرفُ لا دلالةَ له على العلية(٤). واعتُرِض بأنَّ

---

(١) القراءتان في البحر ٦/ ١٤٠.
(٢) البحر ٦/ ١٤٠.
(٣) المصدر السابق.
(٤) البحر ٦/ ١٤٠.

قولَك: أهلكته وقتَ الظلم، يُشعِر بعليَّة الظلم وإن لم يدلَّ الظرفُ نفسُه على العليَّة. وقيل: لا مانعَ من أن تكون ظرفاً استعمل للتعليل.

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ لهلاكِهم ﴿مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ وقتاً معيَّناً لا يستأخرون عنه ساعةً ولا يستقدمون، فـ «مَفعِل» الأول مصدرٌ والثاني اسم زمان، والتعيينُ من جهة أنَّ الموعد لا يكون إلا معيَّناً، وإلا فاسمُ الزمان مبهمٌ، والعكس ركيك.

وزعم بعضُهم أنَّ المهلِكَ على هذه القراءة - وهي قراءة حفصٍ في الرواية المشهورة عنه، أعني: القراءةَ بفتح الميم وكسر اللام[1] - من المصادر الشاذَّة كالمرجِع والمحيض. وعُلِّل ذلك بأنَّ المضارع يهلِكُ بكسر اللام، وقد صرَّحوا بأنَّ مجيء المصدر الميمي مكسوراً فيما عينُ مضارعِه مكسورةٌ شاذٌّ.

وتعقِّب بأنَّه قد صرَّح في «القاموس»[2] بأنَّ هلك جاء من باب: ضَرب ومَنَع وعَلِم، فكيف يتحقَّق الشذوذُ؟ فالحقُّ أنَّه مصدرٌ غيرُ شاذٍّ، وهو مضافٌ للفاعلِ ولذا فُسِّر بما سمعتَ.

وقيل: إنَّ «هلك» يكون لازماً ومتعديًّا، فعن تميم: هلكني فلانٌ، فعلى تعديتِه يكون مضافاً للمفعول، وأنشد أبو عليٍّ في ذلك:

ومَـهْـمَـهٍ هـالـكِ مَـن تـعـرَّجـا[3]

أي: مُهلِكه. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّه لا يتعيَّن ذلك في البيت، بل قد ذهب بعضُ النحويين ألى إنَّ هالكاً فيه لازمٌ، وأنَّه من باب الصفة المشبَّهة، والأصل: هالكٍ مَن تعرجا، بجعل «مَن» فاعلاً لـ «هالك»، ثم أُضمِر في «هالك» ضميرُ «مهمه» وانتصب «مَن» على التشبيه بالمفعول، ثم أُضيف مِن نَصْبٍ. والصحيحُ جواز

---

(١) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١.

(٢) مادة (هلك).

(٣) الحجة لأبي عليٍّ الفارسي ٥/ ١٥٦، والرجز للعجاج وبعده:

هـائـلـةٍ أهـوالُـه مَـن أدلـجـا

وهو في ديوانه ص٣٣٤. قوله: مهمه، المَهْمَهُ: الأرض القفر المستوية. والكلام وما بعده من البحر ٦/ ١٤٠.

استعمال الموصول في باب الصفة المشبهة، وقد ثبت في أشعار العرب، قال عمر بن أبي ربيعة:

أسيلاتُ أبدانٍ دِقاقٌ خُصُورها وثِيراتُ ما التفَّت عليها الملاحِفُ[١]

وقرأ حفص وهارون وحماد ويحيى عن أبي بكر: بفتح الميم واللام[٢].

وقراءة الجمهور بضمِّ الميم وفتح اللام[٣]، وهو مصدرٌ أيضاً. وجعلُه اسمَ مفعول على معنى: وجعلنا لمن أهلكناه منهم في الدنيا موعداً ننتقم فيه منه أشدَّ انتقامٍ وهو يومُ القيامة أو جهنم = لا يخفى ما فيه.

والظاهر أنَّ الآية استشهادٌ على ما فُعِل بقريش من تعيين الموعد ليعتبروا ولا يغترُّوا بتأخير العذاب عنهم، وهي ترجِّح حملَ الموعد فيما سبق على يوم بدر، فتدبَّر والله تعالى أعلم وأخبر.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أمرٌ بصحبة الفقراء الذين انقطعوا لخدمة مولاهم، وفائدتُها منه عليه الصلاة والسلام تعود عليهم، وذلك لأنهم عُشَّاق الحضرة، وهو ﷺ مرآتُها وعرشُ تجلِّيها ومعدنُ أسرارها ومشرقُ أنوارها، فمتى رأوه ﷺ عاشوا، ومتى غاب عنهم كئبوا وطاشوا.

وأما صحبة الفقراء بالنسبة إلى غيره ﷺ ففائدتها تعود إلى مَن صَحِبهم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسُهم، وقال عمرو المكيُّ: صحبةُ الصالحين والفقراء الصادقين عيشُ أهل الجنة، يتقلَّب معهم جليسُهم من الرضا إلى اليقين، ومن اليقين إلى الرضا.

---

(١) البحر ٦/ ١٤٠، والبيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٤٦٤، وفيه: عليه، بدل: عليها.
وقوله: أسيلات، الأسيل: الأملس المستوي، والطويل المسترسل. وقوله: وثيرات، الوثيرة: كثيرة اللحم. القاموس (أسل) و(وثر).

(٢) التيسير ص ١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١ عن أبي بكر، وهي خلاف المشهور عن حفص كما سلف.

(٣) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١.

ولأبي مدين من قصيدته المشهورة التي خمَّسها الشيخ محيي الدين قدِّس سرُّه:

ما لذَّة العيش إلا صحبةُ الفقرا ... هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحَبْهمُ وتأدَّب في مجالسهم ... وخَلِّ حظَّك مهما قدَّموك ورا
واستغنِم الوقتَ واحضُر دائماً معهم ... واعلَمْ بأنَّ الرضا يختصُّ مَن حضرا
ولازِمِ الصمتَ إلا إن سُئلتَ فقُلْ: ... لا علمَ عندي وكُنْ بالجهل مستَتِرا

إلى أن قال:

وإن بدا منك عيبٌ فاعتَرِفْ وأقِمْ ... وجْهَ اعتذارِك عما فيك مِنك جَرا
وقل عُبَيْدُكمُ أولى بصفحكمُ ... فسَامِحُوا وخُذُوا بالرفق يا فُقَرا
هم بالتفضُّل أولى وهْو شيمتُهم ... فلا تخَفْ دركاً منهم ولا ضَرَرا

وعنى بهؤلاء السادةِ الصوفيةَ، وقد شاع إطلاقُ الفقراء عليهم؛ لأنَّ الغالبَ عليهم الفقرُ بالمعنى المعروف، وفقرُهم مقارنٌ للصلاح وبذلك يُمدَح الفقرُ، وأما إذا اقترن بالفساد فالعياذ بالله تعالى منه، فمتى سمعتَ الترغيبَ في مجُالسَة الفقير فاعلم أنَّ المرادَ منه الفقيرُ الصالح، والآثارُ متضافرةٌ في الترغيب في ذلك:

فعن ابن عُمر رضي الله عنهما موقوفاً: تواضعوا وجَالِسوا المساكينَ تكونوا من كبار عَبيد الله تعالى وتخرُجوا من الكِبْر[(١)].

وفي «الجامع»: «الجلوسُ مع الفقراء من التواضع، وهو من أفضل الجهاد»[(٢)].

وفي رواية: «أَحِبُّوا الفقراء وجالسوهم»[(٣)].

ومن فوائد مجالستهم أنَّ العبد يرى نعمةَ الله تعالى عليه، ويقنع باليسير من الدنيا، ويأمن في مجالستهم من المداهنة والتملُّق وتحمُّل المنِّ وغير ذلك، نعم إنَّ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٨/ ١٩٧ عن ابن عمر مرفوعاً، وقال: غريب. وهو في مسند الفردوس (٢٢٦٢).

(٢) الجامع الصغير (٣٦٢٢) من حديث أنس، ورمز السيوطي لضعفه وعزاه لمسند الفردوس، وهو فيه (٢٦٤٦). وقال المناوي في فيض القدير ٣/ ٣٥٦: فيه محمد بن الحسين السلمي الصوفي، قال محمد بن يوسف القطان: كان يضع الحديث. اهـ.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣٣٢ من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وصحَّحه.

مجالستَهم خلافُ ما جُبلت عليه النفس، ولذا عَظُم فضلُها، وقيل: إنَّ في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ﴾ إلخ دونَ: ودُم مع الذين.. إلخ إشارةً إلى ذلك، ولكن ذلك بالنسبة إلى غيره ﷺ، فإنَّ نفسَه الشريفةَ فُطِرت على أحسنِ فطرةٍ وطُبِعت على أحسنِ طبيعة.

وقال بعض أهل الأسرار: إنَّما قيل: «واصبر نفسك» دون: واصبر قلبَك، لأنَّ قلبه الشريفَ ﷺ كان مع الحقِّ، فأُمِر ﷺ بصحبة الفقراء جهراً بجهرٍ، واستخلَصَ سبحانه قلبَه له سرًّا بسرٍّ.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تطلب مجالسةَ الأشراف والأغنياء وأصحاب الدنيا، وهي مذمومة مع الميل إليهم والتواضُعِ لغناهم، وقد جاء في الحديث: «من تذلَّل لغنيٍّ لأجلِ غناه ذهب ثلثا دينه، فليتَّقِ الله تعالى في الثلث الآخَر»(١). ومضارُّ مجالستِهم كثيرةٌ ـ ولا تخفى على مَن عَلِم فوائدَ مجالسة الفقراء ـ وأدناها ضرراً تحمُّل مَنِّهم، فإنَّه قلَّما يسلم الغنيُّ من المنِّ على جليسه الفقير ولو بمجرَّد المجالسة، وهو حملٌ لا يطاق، ومن نوابغ الزمخشريِّ: طعم الآلاء أحلى من المنِّ، وهي أمرُّ من الآلاء عند المنِّ(٢)، وقال بعض الشعراء:

لنا صاحبٌ ما زال يُتْبِعُ بِرَّه ... بمَنٍّ وبَذْلُ المَنِّ بالبرِّ لا يسوَى
تركناه لا بُغضاً ولا عن ملالةٍ ... ولكنْ لأَجْلِ المنِّ يستعْمِل السلوى

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ نهيٌ عن إطاعة المحجوبِين الغافلين، وكانوا في القصة يريدون طردَ الفقراء وعدمَ مجالسة النبيِّ ﷺ لهم، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يطاع عند أهل الإشارة

---

(١) أخرجه البيهقي مرفوعاً في شعب الإيمان (١٠٠٤٤) عن أنس، و(١٠٠٤٥) عن ابن مسعود نحوه، وإسنادهما ضعيف كما نقل العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٣١٦ عن السيوطي.
وأخرج أبو نعيم في الحلية ٤/ ٣٨ والبيهقي في الشعب (١٠٠٤٣) عن وهب بن منبه قال: قرأت في التوراة... وذكر نحوه.

(٢) الكشاف ١/ ٣٩٣-٣٩٤. وقال خالد بن عبد الله الأزهري النحوي في موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب ص٢٧: أراد بالآلاء الأولى النِّعَم، وبالثانية الشجر المرَّ، وأراد بالمنِّ الأولِ المذكورَ في قوله تعالى ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾، وبالثاني تعديدَ النِّعَم.

الغافلُ المحجوب في كلِّ شيء فيه هوى النفس، وعَدُّوا من إطاعته التواضعَ له؛ فإنَّه يطلبه حالاً وإن لم يُفصِح به مقالاً.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ قالوا: فيه إشارةٌ إلى عدم كتم الحقِّ وإن أدَّى إلى إنكار المحجوبين وإعراض الجاهلين، وعَدَّ من ذلك في «أسرار القرآن» كشفَ الأسرار الإلهية وقال: إنَّ العاشق الصادقَ لا يبالي تهتُّكَ الأسرار عند الأغيار، ولا يخاف لومةَ لائم، ولا يكون في قيد إيمان الخلق وإنكارِهم، فإنَّ لذَّة العشق بذلك أتمُّ، ألا ترى قولَ القائل:

ألا فاسْقِني خمراً وقُل لي هي الخمرُ ... ولا تسقِني سرًّا إذا أَمْكَنَ الجهرُ
وبُح باسمِ مَن أهوى ودَعْني من الكُنى ... فلا خيرَ في اللذَّات من دونها سترُ[(١)]

ولا يخفى أنَّ هذا خلافُ المنصور عند الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارَهم؛ فإنَّهم حافَظوا على كتم الأسرار عن الأغيار وأَوْصوا بذلك، ويكفي حجَّةً في هذا المطلب ما نُسب إلى زين العابدين ﷺ وهو:

إنِّي لأكتمُ من علمي جواهرَه ... كيلا يرى الحقَّ ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدَّم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين ووصَّى قبلَه الحَسَنا
فربَّ جَوهرِ علمٍ لو أبُوح به ... لقيل لي أنتَ ممن يَعبُد الوثَنا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمون دمي ... يرون أقبحَ ما يأتونه حَسَنا

نَعَمْ المغلوبُ ـ وكذا المأمورُ ـ معذورٌ، وعند الضرورة يباحُ المحظورُ، وما أحسن قولَ الشهاب القتيل[(٢)]:

وارحمتا للعاشقين تكلَّفوا ... سترَ المحبة، والهوى فضَّاحُ

---

(١) البيتان لأبي نواس، وهما في ديوانه ص٢٤٢، وزهر الآداب ١/٤١٣ بلفظ: من تهوى، بدل: من أهوى.

(٢) هو شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن حبش السهروردي، فقيه شافعي أصولي، أديب شاعر حكيم، من تصانيفه: التلويحات في الحكمة والتنقيحات في أصول الفقه، والمعارج، والمقامات، ومن أشهر شعره قصيدته الحائية، المنقول من أبياتها هنا. معجم الأدباء ١٩/٣١٤.

بالسرِّ إن باحوا تُباحُ دماؤُهم وكذا دماءُ البائحين تُباحُ
وإذا هُمُ كَتَموا يحدِّثُ عنهمُ عند الوُشاة المدمَعُ السحَّاحُ(١)

وما ذُكر أوَّلاً يكون مستمسكاً في الذبِّ عن الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه وأضرابِه، فإنَّهم لم يبالوا في كشف الحقائق التي يدَّعونها بكونه سبباً لضلالِ كثيرٍ من الناس وداعياً للإنكار عليهم، وقد استدلَّ بعضٌ بالآية في الردِّ عليهم بناءً على أنَّ المعنى الحقَّ ما يكون من جهته تعالى، وما جاؤوا به ليس من جهته سبحانه؛ لأنَّه لا تشهَدُ له آيةٌ ولا يصدِّقه حديثٌ ولا يؤيِّده أثرٌ.

وأجيب بأنَّ ذلك ليس إلَّا من الآيات والأحاديث إلا أنَّه لا يستنبط منها إلا بقوةٍ قدسيةٍ وأنوارٍ إلهيةٍ، فلا يلزم من عدم فهم المنكِرين لها من ذلك ـ لحرمانهم تلك القوَّةَ واحتجابِهم عن هاتيك الأنوار ـ عدمُ حقِّيَّتها، فكم من حقٍّ لم تصل إليه أفهامهم.

واعترض بأنَّه لو كان الأمر كذلك لظهر مثلُ تلك الحقائق في الصدر الأول، فإنَّ أربابَ القُوى القدسية والأنوارِ الإلهية فيه كثيرون، والحرصُ على إظهار الحقِّ أكثر.

وأجيب بأنَّه يحتمل أن يكونَ هناك مانعٌ أو عدمُ مقتضٍ لإظهارِ ما أظهر من الحقائق. وفيه نوعُ دغدغةٍ، ولعلَّه سيأتيك إن شاء الله تعالى ما عسى أن ينفعَك هنا.

وبالجملة أمرُ الشيخ الأكبر وأضرابِه قدَّس الله تعالى أسرارَهم فيما قالوا ودوَّنوا عندي مشكلٌ، لاسيما أمرُ الشيخ، فإنه أتى بالداهية الدهياء مع جلالة قدره التي لا تنكر، ولذا ترى كثيراً من الناس يُنكِرون عليه ويكِرُّون، وما ألطف ما قاله فرق جبين(٢) العصابة الفاروقية والراقي في مراقي التنزُّلات الموصلية في قصيدته التي

---

(١) معجم الأدباء ١٩/ ٣١٧، وسلفت ١٣/ ٣٧٣.

(٢) في (م): جنين، وهو خطأ. والمراد به عبد الباقي بن سليمان العمري أفندي الموصلي، شاعر مؤرخ، ولي بالموصل وببغداد أعمالاً حكومية. توفي سنة (١٢٧٩هـ). له: الترياق الفاروقي ديوان شعره، ونزهة الدهر في تراجم علماء العصر، وغير ذلك. الأعلام ٣/ ٢٧١-٢٧٢.

عقَد إكسيرَها في مدح الكبريت الأحمر، فغدا شمساً في آفاق مدائح الشيخ الأكبر، وهو قوله:

يُنكِر المرءُ منه أمراً فيَنْهاه نُهاه فيُنكِر الإنكارا
تَنْثَني عنه ثم تُثْني عليه ألسُنٌ تشبه الصُّحاةَ سُكارَى

﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ قيل: هي إشارةٌ إلى أنَّهم يُحلَّون حقائقَ التوحيد الذاتيِّ ومعاني التجلِّيات العينية الأحدية، ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم متصفون بصفاتٍ بهيجةٍ حسنةٍ نَضِرةٍ موجبةٍ للسرور، ﴿مِّن سُندُسٍ﴾ الأحوال والمواهب، وعبِّر عنها بالسندس لكونها ألطف ﴿وَإِسۡتَبۡرَقٍ﴾ الأخلاق والمكاسب، وعبِّر عنها بالإستبرق لكونها أكثف، ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ قيل: أي: أرائك الأسماء الإلهية.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ إلخ، فيه من تسلية الفقراء المتوكِّلين على الله تعالى وتنبيه الأغنياء المغرورين ما فيه.

وقال النيسابوريُّ: الرجلان هما النفسُ الكافرةُ والقلبُ المؤمنُ ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو النفسُ ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ هما الهوى والدنيا ﴿مِنۡ أَعۡنَٰبٍ﴾ الشهواتِ ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٍ﴾ حبِّ الرياسة، ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا﴾ من التمتعات البهيمية، ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ من القوى البشرية والحواسِّ ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾ من أنواع الشهوات ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يُجاذِب النفسَ ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾ أي: ميلاً ﴿وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ من الأوصاف المذمومة ﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ في الاستمتاع بجنة الدنيا على وفق الهوى ﴿لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا﴾ قال ذلك غروراً بالله تعالى وكرمه، ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ من العمر وحسن الاستعداد(١). انتهى. وقد التزم هذا النمطَ في أكثر الآيات، ولا بدعَ فهو شأنُ كثيرٍ من المؤوِّلين.

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾ قال ابن عطاء: للطالبين له سبحانه لا للجنة ﴿وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ للمريدين.

﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قيل: هي المحبةُ الدائمة، والمعرفةُ الكاملة، والأنسُ بالله

---

(١) غرائب القرآن ١٥/ ١٣٦.

تعالى، والإخلاصُ في توحيده سبحانه، والانفرادُ به جلَّ وعلا عن غيره، فهي باقيةٌ للمتصف بها وصالحةٌ لا اعواجاجَ فيها، وهي خيرُ المنازل، وقد تفسَّر بما يعمُّها وغيرَها من الأعمال الخالصة والنيَّات الصادقة.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال ابن عطاء: دلَّ سبحانه بهذا على إظهار جبروته وتمام قدرته وعظيمِ عزته ليتأهَّب العبدُ لذلك الموقفِ ويُصلح سريرتَه وعلانيتَه لخطاب ذلك المشهد وجوابه.

﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ إخبارٌ عن جميع بني آدم وإن كان المخاطب في قوله سبحانه: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ إلخ بعضَهم، ذكر أنه يُعرَض كلُّ صنفٍ صفًّا، وقيل: الأنبياء عليهم السلام صفٌّ، والأولياءُ صفٌّ، وسائر المؤمنين صفٌّ، والمنافقون والكافرون صفٌّ، وهم آخر الصفوف، فيقال لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ على وصف الفطرة الأولية عاجزين منقطعين إليه سبحانه.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: الكُتُب، فيوضع كتابُ الطاعات للزهَّاد والعبَّاد، وكتابُ الطاعات والمعاصي للعموم، وكتابُ المحبة والشوق والعشق للخصوص، ولبعضهم:

وأودعتُ الفؤادَ كتابَ شوقٍ سيُنشَر طيُّه يومَ الحساب

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ قال أبو حفص: أشدُّ آية في القرآن على قلبي هذه الآية.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ قيل: أي: ما أشهدتهم أسرارَ ذلك والدقائقَ المودَعةَ فيه، وإنما أشهَدَ سبحانه ذلك أحِبَّاءَه وأولياءَه.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ لأنه مظهر الأسماء المختلفة والعالَمُ الأصغرُ الذي انطوى فيه العالَم الأكبر. هذا، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ هو ابنُ عمران نبيُّ بني إسرائيل عليه السلام على الصحيح؛ فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائيُّ وجماعةٌ من طريق سعيد بن جبير قال: قلتُ

لابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ نوفاً البكاليَّ ابن فضالة[١] يزعم أنَّ موسى صاحبَ الخضر ليس موسى صاحبَ بني إسرائيل. فقال: كذب عدوُّ الله[٢]. ثم ذكر حديثاً طويلاً فيه الإخبار عن رسول الله ﷺ بما هو نصٌّ في أنَّه موسى بني إسرائيل.

وإلى إنكار ذلك ذهب أيضاً أهلُ الكتاب، وتبعهم مَن تبعهم من المحدِّثين والمؤرِّخين، وزعموا أنَّ موسى هنا هو موسى بن ميشا ـ بالمعجمة ـ بن يوسف بن يعقوب. وقيل: موسى بن إفراثيم بن يوسف، وهو موسى الأول.

قيل: وإنما أنكره أهلُ الكتاب لإنكارهم تعلُّم النبيِّ من غيره.

وأجيب بالتزامِ أنَّ التعلُّم من نبيٍّ، ولا غضاضة في تعلم نبيٍّ من نبيٍّ.

وتعقِّب بأنَّه ولو التزموا ذلك وسلَّموا نبوَّةَ الخضر عليه السلام، لا يسلِّمون أنه موسى بن عمران؛ لأنَّهم لا تسمح أنفسُهم بالقول بتعلُّمِ نبيِّهم الأفضل ممن ليس مِثْلَه في الفضل، فإنَّ الخضر عليه السلام على القول بنبوته ـ بل القول برسالتِه ـ لم يبلغ درجةَ موسى عليه السلام.

وقال بعض المحقِّقين: ليس إنكارُهم لمجرَّد ذلك، بل لذلك ولقولهم: إنَّ موسى عليه السلام بعد الخروج من مصر حصل هو وقومُه في التِّيْه، وتُوفِّي فيه ولم يخرُج قومُه منه إلا بعدَ وفاته، والقصةُ تقتضي خروجَه عليه السلام من التِّيْه؛ لأنها لم تكن وهو في مصر بالإجماع، وتقتضي أيضاً الغيبةَ أياماً، ولو وقعت لعَلِمَها كثيرٌ

(١) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصُّه: هو ابن امرأة كعب، وقيل: ابن أخيه، والمشهور الأول، وهو من أصحاب أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه. و«بكال» قيل: بضمِّ الباء، حيٌّ من اليمن. وعن المبرد: البِكالي ـ بكسر الباء ـ نسبة إلى بكالة من اليمن.
وفي شرح مسلم للنووي [١٥/ ١٣٦]: البكالي: ضبطه الجمهور بكسر الباء الموحدة، وتخفيف الكاف، ورواه بعضهم بفتحها وتشديد الكاف. قال القاضي: وهذا ضبط أكثر الشيوخ وأصحاب الحديث، والصواب الأول، وهو قول المحققين، وهو منسوب إلى بني بِكَال، بطنٍ من حمير. وقيل: من همدان. اهـ منه.
والقاضي المذكور ـ هو ـ عياض، وكلامه في إكمال المُعْلِم ٧/ ٣٦٤. وقال الذهبي في تاريخ الإسلام ٢/ ١٠١٣ عن نوف: كان يقص. وقال عنه ابن حجر في التقريب: مستور.

(٢) صحيح البخاري (١٢٢)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠)، وسنن الترمذي (٣١٤٩)، والسنن الكبرى (١١٢٤٥)، وهو عند أحمد في مسنده (٢١١١٤).

من بني إسرائيل الذين كانوا معه، ولو عُلِمَت لنُقلَت؛ لتضمُّنها أمراً غريباً تتوافر الدواعي على نقله، فحيث لم يكن لم تكن.

وأجيب بأنَّ عدمَ سماحِ نفوسِهم بالقول بتعلُّم نبيِّهم عليه السلام ممن ليس مثله في الفضل أمرٌ لا يساعده العقلُ، وليس هو إلَّا كالحميَّة الجاهلية إذ لا يبعُد عقلاً تعلُّم الأفضل الأعلم شيئاً ليس عنده ممن هو دونه في الفضل والعلم. ومن الأمثال المشهورة: قد يوجد في الأسقاط ما لا يوجد في الأسفاط. وقالوا: قد يوجد في المفضول مالا يوجد في الفاضل.

وقال بعضُهم: لا مانعَ من أن يكونَ قد أخفى اللهُ سبحانه وتعالى علمَ المسائل التي تضمنَتْها القصةُ عن موسى عليه السلام على مزيد علمه وفضله لحكمةٍ، ولا يقدح ذلك في كونه أفضلَ وأعلمَ من الخضر عليه السلام. وليس بشيء كما لا يخفى.

وبأنه سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً القولُ بأنَّ القصةَ كانت بعد أن ظهر موسى عليه السلام على مصر مع بني إسرائيل واستقرَّ بعد هلاك القبط، فلا إجماع على أنها لم تكن بمصر، نعم اليهودُ لا يقولون باستقرارهم في مصر بعد هلاك القبط، وعليه كثيرٌ منَّا، وحينئذٍ يقال: إنَّ عدمَ خروج موسى عليه السلام من التِّيْه غيرُ مسلَّم، وكذلك اقتضاءُ ذلك الغَيبةَ أياماً؛ لجواز أن يكونَ على وجهٍ خارقٍ للعادة كالتِّيْه الذي وقعوا فيه، وكنتق الجبل عليهم، وغيرِ ذلك من الخوارق التي وقعت فيهم.

وقد يقال: يجوز أن يكون عليه السلام خرج وغاب أياماً لكن لم يعلموا أنَّه عليه السلام ذهب لهذا الأمر، وظنُّوا أنَّه ذهب يُناجي ويتعبَّد، ولم يُوقِفهم على حقيقة غيبته بعد أن رجع؛ لعلمه بقصور فهمهم، فخاف من حطِّ قدره عندهم فهم القـائلـون: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعـراف:١٣٨] و﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] وأوصى فتاه بكتم ذلك عنهم أيضاً. ويجوز أن يكونَ غاب عليه السلام وعَلِموا حقيقة غيبته لكن لم يتناقلوها جيلاً بعد جيلٍ لتوهُّم أنَّ فيها شيئاً مما يحطُّ من قدره الشريفِ عليه السلام، فلا زالت نَقَلَتُها تقِلُّ حتى هلكوا في وقتِ بُخْتنصَّر كما هلك أكثرُ حَمَلَة التوراة. ويجوز أن يكونَ قد بقي منهم أقلُّ قليلٍ إلى زمن

نبيِّنا ﷺ، فتواصوا على كتمها وإنكارِها ليوقعوا الشكَّ في قلوب ضعفاء المسلمين، ثم هلك ذلك القليلُ فلم تُنقَل عنه.

ولا يخفى أنَّ باب الاحتمال واسعٌ، وبالجملة لا يُبالى بإنكارهم بعد جواز الوُقوع عقلاً وإخبارِ الله تعالى به ورسولِه ﷺ، فإن الآيةَ ظاهرةٌ في ذلك، ويقرُب من هذا الإنكار إنكارُ النصارى تكلُّمَ عيسى عليه السلام في المهد، وقد قدَّمنا أنه لا يلتفَتُ إليه بعد إخبار الله تعالى به(١)، فعليك بكتاب الله تعالى ودَعْ عنك الوساوسَ.

و«إذ» نصبٌ على المفعولية بـ «اذكر» محذوفاً، والمراد: قل: قال موسى ﴿لِفَتَـٰهُ﴾ يوشع بن نون بن إفراثيم بن يوسف عليه السلام، فإنه كان يخدمه ويتعلَّم منه، ولذا أضيف إليه، والعربُ تسمِّي الخادمَ فتًى، لأنَّ الخَدَمَ أكثرُ ما يكونون في سنِّ الفتوة، وكان فيما يقال ابنَ أخت موسى عليه السلام. وقيل: هو أخو يوشع عليه السلام، وأنكر اليهود أن يكونَ له أخٌ.

وقيل: لعبده، فالإضافة للملك، وأطلق على العبد فتًى لِمَا في الحديث الصحيح: «ليقُل أحدكم: فتاي وفتاتي، ولا يقل: عبدي وأمتي»(٢). وهو من آداب الشريعة، وليس إطلاقُ ذلك بمكروهٍ ـ خلافاً لبعضٍ ـ بل خلاف الأولى.

وهذا القولُ مخالفٌ للمشهور، وحَكَم النوويُّ بأنَّه قولٌ باطلٌ(٣). وفي حلِّ تملُّك النفس في بني إسرائيل كلامٌ، ومثله في البطلان القول الثاني لمنافاته كلَّ الأخبار الصحيحة.

﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ من «برِحَ» الناقص، كزال يزال، أي: لا أزال أسير، فحُذف الخبرُ اعتماداً على قرينة الحال إذ كان ذلك عند التوجُّه إلى السفر، واتكالاً على ما يعقبه من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ إذ الغايةُ لابدَّ لها من مُغيًّا، والمناسبُ لها هُنا السيرُ، وفيما بعدُ أيضاً ما يدلُّ على ذلك، وحذفُ الخبرِ فيها قليلٌ كما ذكره الرضي، ومنه قول الفرزدق:

---

(١) ينظر ما سلف ٤/ ١٩٩.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/ ١٣٨.

فما بَرِحُوا حتى تهادَتْ نِساؤُهم ببطحاءِ ذي قارٍ عِيابَ اللَّطائِم[١]

وقال أبو حيان: نصَّ أصحابُنا على أنَّ حذفَ خبرِ «كان» وأخواتِها لا يجوز وإن دلَّ الدليلُ على حذفه إلا ما جاء في الشعر من قوله:

لهفي عليك كلهفةٍ من خائفٍ يبغي جِوارَك حين ليس مُجِيرُ

أي: حينَ ليس في الدنيا[٢].

وجوَّز الزمخشريّ وأبو البقاء أن يكون الأصل: لا يبرَحُ سيري حتى أبلغَ، فالخبرُ متعلَّقُ «حتى» مع مجرورِها، فحُذف المضافُ[٣] وهو سير، فانقلب الضمير من البروز والجرِّ إلى الرفع والاستتار، وانقلب الفعل من الغيبة إلى التكلم.

قيل: وكذا الفعلُ الواقعُ في الخبر ـ وهو «أَبْلُغَ» ـ كان أصله: يَبلُغ، ليحصل الربط، والإسناد مجازيٌّ، وإلا يخلو الخبر من الرابط إلا أن يقدَّر: حتى أبلغَ به، أو يقال: إنَّ الضميرَ المستترَ في «كائن» يكفي للربط، أو أنَّ وجودَ الربط بعد التغيير صورةً يكفي فيه وإن كان المقدَّر في قوَّة المذكور.

وعندي لا لطف في هذا الوجه وإن استلطفه الزمخشريُّ. وجوَّز أيضاً أن يكون «أَبْرَحُ» من «بَرِحَ» التام كزال يزول، فلا يحتاج إلى خبر[٤].

نعم قيل: لابدَّ من تقدير مفعولٍ ليتمَّ المعنى، أي: لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾.

---

(١) ديوان الفرزدق ٢/ ٢١٧. وقوله: عِياب: واحدُ عَيْبةٍ، وهي ما يجعل فيه الثياب وغيرها. واللطائم: واحد لطِيمَة: المسك. والبيت في تفسير الطبري ١٥/ ٣١٠، والبحر ٦/ ١٤٣.

(٢) البحر ٦/ ١٤٣، والبيت لعبد الله بن أيوب التيمي في رثاء منصور بن زياد أحد وجوه الدولة العباسية، كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/ ٨، وعزاه البصري في الحماسة البصرية ١/ ٢٣٠ للشمردل الليثي، وجعله أبو هلال في ديوان المعاني ٢/ ١٧٤ لرجلٍ يرثي عمر بن عبد العزيز، والشطر الثاني فيه: كنتَ المجيرَ له وليس مجير.

(٣) في الأصل و(م) وحاشية الشهاب ٦/ ١١٥ـ وعنه نقل المصنف ـ: المضاف إليه. والمثبت من الكشاف ٢/ ٤٩٠، والإملاء ٣/ ٥٢٧.

(٤) الكشاف ٢/ ٤٩٠.

وتعقَّبه في «البحر» بأنَّه يحتاج إلى صحَّة نقل[١].

والمجمعُ: الملتقى، وهو اسمُ مكانٍ. وقيل: مصدرٌ، وليس بذاك.

والبحران: بحر فارس والروم، كما رُوي عن مجاهد وقتادة وغيرهما[٢]، وملتقاهما مما يلي المشرق، ولعلَّ المرادَ مكانٌ يقرُب فيه التقاؤُهما، وإلا فهما لا يلتقيان إلا في البحر المحيط وهما شعبتان منه.

وذكر أبو حيان أنَّ مجمع البحرين على ما يقتضيه كلام ابن عطية مما يلي برَّ الشام[٣].

وقالت فرقة منهم محمد بن كعب القرظي: هو عند طنجة، حيثُ يجتمع البحر المحيط والبحرُ الخارج منه من دبور إلى صبا. وعن أبيٍّ أنه بإفريقية[٤].

وقيل: البحران: الكُرُّ والرسُّ بأرمينية، ورُوي ذلك عن السديِّ.

وقيل: بحر القلزم وبحر الأزرق.

وقيل: هما بحرٌ ملحٌ وبحرٌ عذبٌ، وملتقاهما في الجزيرة الخضراء في جهة المغرب.

وقيل: هما مجاز عن موسى والخضر عليهما السلام لأنهما بحرا علم، والمراد بملتقاهما مكانٌ يتفق فيه اجتماعُهما. وهو تأويلٌ صوفيٌّ والسياق ينبو عنه، وكذا قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ﴾ إذ الظاهر عليه أن يقال: حتى يجتمع البحران، مثلاً.

وقرأ الضحاك وعبد الله بن مسلم بن يسار: «مجمِع» بكسر الميم الثانية، والنضر عن ابن مسلم: «مجمع» بالكسر لكلا الحرفين[٥]، وهو شاذٌّ على

---

(١) البحر ٦/ ١٤٤.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٣٠٩، وأخرجه عن ابن عباس أيضاً.

(٣) البحر ٦/ ١٤٤، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٧، ولفظه: وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من رواء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي برّ الشام.

(٤) البحر ٦/ ١٤٤، وقول محمد بن كعب أخرجه الطبري ١٥/ ٣٠٩.

(٥) القراءات الشاذة ص٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٠، والبحر ٦/ ١٤٤. وعبد الله بن مسلم بن يسار =

القراءتين؛ لأنَّ قياسَ اسم المكانِ والزمانِ من فَعَل يفْعَل - بفتح العين فيهما - الفتحُ كما في قراءة الجمهور.

﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ۝٦٠﴾ عطفٌ على «أبلغ»، و«أو» لأحد الشيئين، والمعنى: حتى يقع إما بلوغي المجمعَ أو مُضِيِّي حُقُباً، أي: سيري زماناً طويلاً.

وجوِّز أن تكونَ «أو» بمعنى «إلا»، والفعلُ منصوبٌ بعدها بـ «أنْ» مقدَّرةً، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، أي: لازِلتُ أسير في كلِّ حالٍ حتى أبلغَ إلا أن أمضي زماناً أتيقَّنُ معه فواتَ المجمع.

ونقل أبو حيان جوازَ أن تكون بمعنى «إلى»[(١)]، وليس بشيء؛ لأنه يقتضي جزمَه ببلوغ المجمع بعد سيره حُقُباً، وليس بمرادٍ.

والحُقُب بضمتين - ويقال بضمٍّ فسكونٍ وبذلك قرأ الضحاك[(٢)] - اسمٌ مفردٌ، وجمعُه كما «القاموس»: أَحْقُب وأَحْقَاب. وفي «الصحاح» أن الحُقْب بالضم يجمع على حِقاب مثل قُفٍّ وقِفَاف[(٣)].

وهو على ما روي عن ابن عباس وجماعة من اللغويين الدهرُ[(٤)].

وروي عن ابن عمرو[(٥)] وأبي هريرة أنه ثمانون سنة، وعن الحسن أنَّه سبعون. وقال الفراء: إنه سنةٌ بلغة قريش[(٦)].

وقال أبو حيان: الحُقُب: السنون، واحدها: حِقْبةٌ، قال الشاعر:

= هو مولى طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، كما في طبقات ابن سعد ٧/ ٢٣٩، واسمه كما في مطبوع القراءات الشاذة: عبد الله بن عبيد بن مسلم، ولم نقف له على ترجمة وافية.

(١) البحر ٦/ ١٤٥.

(٢) البحر ٦/ ١٤٥، وهي قراءة الحسن كما في القراءات الشاذة ص٨١.

(٣) القاموس والصحاح (حقب).

(٤) أخرجه عن ابن عباس الطبري في تفسيره ١٥/ ٣١١.

(٥) في الأصل و(م): ابن عُمر. وكذا في النكت والعيون ٣/ ٣٢٢، والمثبت من تفسير الطبري ١٥/ ٣١٠، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٨، والبحر ٦/ ١٤٤، والكلام منه.

(٦) نقله المصنف من البحر ٦/ ١٤٤، وفي معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٤: قيس، بدل: قريش. وقال الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٢٢: إنه سنة بلغة قيس، قاله الكلبي.

فإن تَنْأَ عنها حِقْبةً لا تُلاقِها فإنَّك مما أحدَثْتَ بالمجرَّبِ[١]

وما ذكره من أنَّ الحُقُبَ السنون ذكره غير واحد من اللغويين، لكنَّ قولَه: واحدُها: حِقْبة، فيه نظرٌ؛ لأنَّ ظاهرَ كلامهم أنَّه اسمٌ مفردٌ، وقد نصَّ على ذلك الخفاجيُّ[٢]، ولأنَّ جمعَ الحقبةِ[٣] حِقَب بكسرٍ ففتح، قال في «القاموس»: الحِقْبةُ ـ بالكسر ـ من الدهر مدَّةٌ لا وقتَ لها، والسَّنَةُ، وجمعُه: حِقَبٌ كعِنَبٍ، وحُقُوب كحبوب[٤]. واقتصر الراغب والجوهريُ على الأول[٥].

وكان منشأُ عزيمة موسى عليه السلام على ما ذُكر ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبيٍّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله تعالى عليه إذ لم يردَّ العلمَ إليه سبحانه، فأوحى الله تعالى إليه: إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك» الحديث[٦].

وفي رواية أخرى عنه، عن أبي أيضاً، عن رسول الله ﷺ: «أنَّ موسى بني إسرائيل سأل ربَّه فقال: أي ربِّ، إن كان في عبادك أحدٌ هو أعلم مني فدُلَّني عليه؟ فقال له: نعم في عبادي مَن هو أعلم منك. ثم نعت له مكانَه وأذِن له في لُقِيِّه»[٧].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب وابن عساكر من طريق هارون عن أبيه عن ابن عباس قال: سأل موسى عليه السلام ربَّه سبحانه فقال: أي ربِّ، أيُّ عبادِك أحبُّ إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأيُّ عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحقِّ ولا يتبع الهوى. قال: فأيُّ عبادِك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه، عسى أن يصيبَ كلمةً تهديه إلى هدًى أو تردَّه عن ردًى. قال: وكان حدَّث موسى نفسَه أنه ليس أحدٌ أعلمَ منه، فلمَّا أن قيل له:

---

(١) البحر ٦/ ١٤١، والبيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص٤٢.
(٢) في حاشيته ٥/ ١١٦.
(٣) في الأصل و(م): ولأن الحقبة جمع، والصواب ما أثبتناه.
(٤) القاموس (حقب).
(٥) الصحاح والمفردات (حقب).
(٦) صحيح البخاري (٣٤٠١)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠).
(٧) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٢٦.

الذي يبتغي علمَ الناس إلى علمه، قال: ياربِّ، فهل في الأرض أحدٌ أعلمُ مني؟ قال: نعم. قال: فأين هو؟ قيل له: عند الصخرة التي عندها العين. فخرج موسى يطلُبه حتى كان ما ذكر الله تعالى(١).

ثم إنَّ هذه الأخبارَ لا دلالةَ فيها على وقوع القصة في مصر أو في غيرها، نعم جاء في بعض الروايات التصريحُ بكونها في مصر؛ فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لمَّا ظهر موسى عليه السلام وقومُه على مصر أنزل قومَه بمصر، فلمَّا استقرت بهم البلد أنزل الله تعالى أن: ذكِّرهم بأيام الله تعالى، فخطب قومَه فذكَر ما آتاهم اللهُ تعالى من الخير والنعم، وذكَّرهم إذ أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وذكَّرهم هلاكَ عدوِّهم وما استخلفهم الله سبحانه في الأرض، وقال: كلَّم الله تعالى نبيَّكم تكليماً، واصطفاني لنفسه، وأنزل عليَّ محبةً منه، وآتاكم من كلِّ شيءٍ ما سألتموه، فنبيُّكم أفضلُ أهل الأرض، وأنتم تقرؤون التوراةَ. فلم يترك نعمةً أنعمها الله تعالى عليهم إلا عرَّفهم إياها، فقال له رجلٌ من بني إسرائيل: فهل على الأرض أعلمُ منك يا نبيَّ الله؟ قال: لا. فبعث الله جبريلَ عليه السلام إلى موسى عليه السلام فقال: إنَّ الله تعالى يقول: وما يُدرِيك أين أضع علمي؟ بلى، إنَّ على ساحل البحر رجلاً أعلم منك. ثم كان ما قصَّ الله سبحانه(٢).

وأنكر ذلك ابن عطية(٣) فقال: ما مرَّ بي(٤) قطُّ أنَّ موسى عليه السلام أنزل قومَه بمصر إلا في هذا الكلام، وما أراه يصحُّ، بل المتضافر أنَّ موسى عليه السلام تُوفِّي في أرضِ التِّيْه قبل فتح ديار الجبارين. اهـ.

وما ذكره من عدم إنزال موسى عليه السلام قومَه بمصر هو الأقربُ إلى القبول عندي وإن تعقَّب الخفاجيُّ(٥) كلامَه بعد نقله بقوله: فيه نظر. ثم إنَّ الأخبارَ

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٣٢١، وتاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤١١، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والخطيب السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٣٤، وعنه نقل المصنف.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٣٣٠، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٣، وإسناده ضعيف.

(٣) في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٧، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ١٤٤.

(٤) في الأصل و(م) والبحر: ما يُرى، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) في حاشيته ٦/ ١١٦.

المذكورةَ ظاهرةٌ في أنَّ العبدَ الذي أُرشِد إليه موسى عليه السلام كان أعلم منه، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلامُ في ذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: فذهبا يمشيان إلى مجمع البحرين فلمَّا بلغا ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: البحرين، والأصلُ في «بين» النصبُ على الظرفية. وأُخرج عن ذلك بجرِّه بالإضافة[1] اتساعاً، والمرادُ: مجمعَهما، وقيل: مجمعاً في وسطهما، فيكون كالتفصيل لمجمع البحرين، وذكر أنَّ هذا يناسب تفسيرَ المجمع بطنجة أو إفريقية، إذ يراد بالمجمع مُتشعَّبُ بحر فارس[2] والروم من المحيط، وهو هناك.

وقيل: «بين» اسمٌ بمعنى الوصل. وتعقِّب بأنَّ فيه ركاكةً إذ لا حُسنَ في قولك: مجمعَ وصلهما. وقيل: إنَّ فيه مزيد تأكيدٍ، كقولهم: جَدَّ جِدُّه.

وجوِّز أن يكونَ بمعنى الافتراق، أي: موضع اجتماع افتراق البحرين، أي: البحرين المفترقين.

والظاهرُ أنَّ ضميرَ التثنية على الاحتمالين للبحرين، وقال الخفاجي: يحتمل على احتمال أن يكونَ بمعنى الافتراق عودُه لموسى والخضر عليهما السلام، أي: وصلا إلى موضعِ وعد اجتماع شملهما فيه، وكذا إذا كان بمعنى الوصل[3]. انتهى. وفيه ما لا يخفى.

و«مجمع» على سائر الاحتمالات اسمُ مكان، واحتمال المصدرية هنا مثله فيما تقدَّم.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ الذي جُعل فقدانُه أمارةَ وجدانِ المطلوب، فقد صحَّ أنَّ الله تعالى حين قال لموسى عليه السلام: «إنَّ لي بمجمع البحرين مَن هو أعلم. قال موسى: ياربِّ، فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتلٍ،

---

(١) ورد في هامش الأصل و(م): والإضافة بيانية، أو لاميةٌ. اهـ منه.

(٢) في الأصل: إذ يراد بالجمع منشعب مجمع بحر فارس... والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٦/١١٦، والكلام منه.

(٣) حاشية الشهاب ٦/١١٧.

فحيثما فقدتَ الحوتَ فهو ثمَّ. فأخذَ حوتاً وجعله في مكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه حتى إذا أتيا الصخرةَ، وكانت عند مجمع البحرين، وضعا رؤسَهما فناما، واضطرب الحوتُ في المكتل فخرج منه فسقط في البحر»(١).

والظاهر نسبة النسيان إليهما جميعاً، وإليه ذهب الجمهور، والكلام على تقدير مضافٍ، أي: نسيا حالَ حوتهما، إلا أنَّ الحال الذي نسيه كلٌّ منهما مختلفٌ، فالحال الذي نسيه موسى عليه السلام كونه باقياً في المكتل أو مفقوداً، والحال الذي نسيه يوشع عليه السلام ما رأى من حياته ووقوعه في البحر، وهذا قولٌ بأنَّ يوشع شاهد حياته، وفيه خبرٌ صحيح؛ ففي حديثٍ رواه الشيخان وغيرهما «أنَّ الله تعالى قال لموسى: خذ نوناً ميِّتاً فهو حيثُ يُنفَخ فيه الروحُ. فأخذ ذلك فجعله في مكتلٍ فقال لفتاه: لا أكلِّفك إلا أن تخبرَني بحيث يفارِقُك الحوتُ. قال: ما كلَّفتَ كثيراً. فبينما هما في ظلِّ صخرةٍ إذ تضرَّب(٢) الحوتُ حتى دخل البحر وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه. حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره»(٣).

وفي حديثٍ رواه مسلم وغيره(٤): أنَّ الله تعالى قال له: «آيةُ ذلك أن تزوَّد حوتاً مالحاً(٥) فهو حيث تفقده. ففعل حتى إذا انتهيا إلى الصخرة انطلق موسى يطلُب، ووضع فتاه الحوتَ على الصخرة، فاضطرب ودخل البحرَ، فقال فتاه: إذا جاء نبيُّ الله تعالى حدَّثتُه، فأنساه الشيطان».

وزعم بعضٌ أنَّ الناسيَ هو الفتى لا غير، نسي أن يُخبرَ موسى عليه السلام بأمر الحوت، ووجّه نسبة النسيان إليهما بأنَّ الشيء قد يُنسَب إلى الجماعة وإن كان الذي

---

(١) قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ، وهو عند البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠): (١٧٠).
(٢) وقع في (م): إذا اضطرب.
(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٦) وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب. ولم نقف عليه بهذا اللفظ في صحيح مسلم.
(٤) صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، ومسند أحمد (٢١١١٨)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٥) ورد هنا في هامش الأصل و(م) ما نصُّه: في رواية: مُملحاً، وفي أخرى: مليحاً. اهـ. والرواية الثانية أخرجها ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤١٣، والأُولى لم نقف عليها، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٣٢ بلفظ: «مملوحة».

فعله واحداً منهم، وما ذكر هنا نظيرُ: نسي القومُ زادَهم، إذا نسيه متعهِّدُ أمرهم. وقيل: الكلامُ على حذف مضافٍ أي: نسي أحدُهما، والمرادُ به الفتى. وهو كما ترى.

وسببُ حياة هذا الحوت على ما في بعض الروايات عن ابن عباس أنَّه كان عند الصخرة ماءُ الحياة، مَن شَرِبَ منه خُلِّدَ، ولا يقارِبه ميِّتٌ إلا حَيِيَ، فأصاب شيءٌ منه الحوتَ فحَيِيَ[1].

ورُوي أنَّ يوشع عليه السلام توضَّأ من ذلك الماء، فانتضح شيءٌ منه على الحوت فعاش. وقيل: إنَّه لم يُصِبه سوى رَوْح الماء وبَرْده، فعاش بإذن الله تعالى.

وذِكْرُ هذا الماء، وأنَّه ما أصاب منه شيءٌ إلا حَيِيَ، وأنَّ الحوتَ أصاب منه، جاء في صحيح البخاريِّ فيما يتعلَّقُ بسورة الكهف أيضاً[2]، لكن ليس فيه أنَّه مَن شَرِب منه خُلِّد، كما في بعض الروايات السابقة. ويشكل على هذا البعض أنَّه رُوي أنَّ يوشع شَرِب منه أيضاً مع أنَّه لم يخلَّد[3]، اللهم إلا أن يقال: إنَّ هذا لا يصحُّ. والله تعالى أعلم.

ثم إنَّ هذا الحوتَ كان على ما سمعتَ فيما مرَّ مالحاً، وفي روايةٍ: مشويًّا. وفي بعضٍ أنَّه كان في جملة ما تزوَّداه، وكانا يُصيبان منه عندَ العشاء والغداء، فأحياه الله تعالى وقد أكلا نصفَه.

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ مسلكاً كالسَّرَب وهو النَفَقُ؛ فقد صحَّ من حديث الشيخين والترمذيِّ والنسائيِّ وغيرِهم أنَّ اللهَ تعالى أمسَكَ عن الحوت جِرْيَةَ الماءِ فصار عليه مثلُ الطاق[4]، والمراد به البناءُ المقوَّس كالقنطرة.

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٣٢٦-٣٢٧ من حديث ابن عباس عن أبيٍّ، وفي إسناده الحسن بن عمارة، وهو متروك. وينظر التعليق الآتي.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٧)، وهذه زيادة عند البخاري أنكرها الداودي فيما نقل عنه ابن حجر في الفتح ٨/ ٤١٥. وينظر كلامه ثمة.

(٣) عزاه السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٣ لابن عساكر والروياني.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن الحبر: جعل الحوتُ لا يمسُّ شيئاً من البحر إلَّا يَبِس حتى يكون صخرةً[١]. وهذا ـ وكذا ما سبق ـ من الأمور الخارقة للعادة التي يُظهِرها سبحانه على مَن شاء من أنبيائه وأوليائه.

ونقل الدميريُّ بقاءَ أثر الخارق الأول، قال: قال أبو حامد الأندلسيُّ: رأيتُ سمكةً بقرب مدينة سبتة من نسل الحوت الذي تزوَّده موسى وفتاه عليهما السلام وأكلا منه، وهي سمكةٌ طولُها أكثر من ذراع وعرضُها شبرٌ واحدٌ، [في] جنبيها شوكٌ وعظامٌ وجلدٌ رقيقٌ على أحشائها، ولها عينٌ واحدةٌ ورأسُها نصفُ رأسٍ، مَن رآها من هذا الجانب استقذَرَها وحسب أنها ماكولةٌ ميتةٌ، ونصفُها الآخَرُ صحيحٌ، والناسُ يتبرَّكون بها ويُهدُونها إلى الأماكن البعيدة[٢]. انتهى.

وقال أبو شجاع في كتاب الطبري: أتيتُ به فرأيتُه فإذا هو شقُّ حوتٍ، وليس له إلا عين واحدة[٣].

وقال ابن عطية: وأنا رأيتُه أيضاً، وعلى شقِّه قشرةٌ رقيقةٌ ليس تحتَها شوكة[٤]. وفيه مخالفةٌ لِمَا في كلام أبي حامد، وأنا سألتُ كثيراً من راكبي البحار ومتتبِّعي عجائب الآثار، فلم يذكروا أنَّهم رأوا ذلك، ولا أُهدي إليهم في مملكةٍ من الممالك، فلعلَّ أمرَه ـ إن صحَّ كلٌّ من الإثبات والنفْي ـ صار اليومَ كالعنقاء، كانت فعُدِمت، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

والفاءُ على ما يقتضيه كلامُهم فصيحةٌ، أي: فحَيي وسقط في البحر فاتخذ، وقدَّر بعضُهم المعطوفَ عليه الذي تُفصِح عنه الفاءُ بالواو على خلافِ المألوف؛ ليدفع به الاعتراضَ على كون الحال الذي نَسِيه يوشع ما رأى من حياته ووقوعه في البحر بأنَّ الفاء تُؤذِن بأنَّ نسيانَه عليه السلام كان قبلَ حياته ووقوعِه في البحر واتخاذِه سرباً، فلا يصحُّ اعتبارُ ذلك في الحال المنسيِّ.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٣٣١، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٣٣. وإسناده ضعيف.

(٢) حياة الحيوان للدميري ١/ ٢٦٩، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٣١٥.

(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩، ونقله المصنف من البحر ٦/ ١٤٦.

وأجيب بأنَّ المعتبرَ في الحال هو الحياةُ والوقوعُ في البحر أنفسُهما من غير اعتبارِ أمرٍ آخر، والواقعُ بعدهما من حيث ترتُّبَ عليهما الاتخاذُ المذكور، فهما من حيث أنفُسُهما متقدِّمان على النسيان، ومن حيث ترتُّبُ الاتخاذ متأخران، وهما من هذه الحيثية معطوفان على «نسيا» بالفاء التعقيبية. ولا يخفى أنه سيأتي في الجواب ـ إن شاء الله تعالى ـ ما يأبى هذا الجوابَ، إلا أن يُلتزَم فيه خلافُ المشهور بين الأصحاب، فتدبَّر.

وانتصابُ «سرباً» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «اتخذ»، و«في البحر» حالٌ منه، ولو تأخَّر كان صفةً، أو من السبيل، ويجوز أن يتعلَّق بـ «اتخذ»، و«في» في جميع ذلك ظرفيةٌ. وربما يُتوهَّم من كلام ابن زيد ـ حيث قال: إنما اتخذ سبيلَه في البرِّ حتى وصل إلى البحر فعام على العادة[1] ـ أنَّها تعليليةٌ، مثلها في: «أنَّ امرأةً دخلت النارَ في هرَّةٍ»[2]، فكأنَّه قيل: فاتخذ سبيله في البر سرباً لأجل وصوله إلى البحر. ووافقه في كون اتخاذ السَّرَب في البرِّ قومٌ، وزعموا أنَّه صَادَفَ في طريقه في البرِّ حجراً فنقبه، ولا يخفى أنَّ القولَ بذلك خلافُ ما ورد في الصحيح مما سمعتَ، والآيةُ لا تكاد تساعده.

وجوِّز أن يكون مفعولَا «اتخذ»: «سبيله» و«في البحر»، و«سَرَباً» حالٌ من السبيل. وليس بذاك.

وقيل: حالٌ من فاعل «اتخذ» وهو بمعنى التصرُّف والجولان، من قولهم: فحلٌ ساربٌ، أي: مهمَلٌ يرعى حيثُ شاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] وهو في تأويل الوصف، أي: اتخذ ذلك في البحر متصرِّفاً. ولا يخفى أنه نظير سابقه.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: ما فيه المقصد من مجمع البحرين، صحَّ «أنَّهما انطلقا بقيةَ يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغدُ وارتفع النهارُ أحسَّ موسى عليه السلام بالجوع فعند ذلك ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾»[3]. وهو الطعام الذي يؤكل أولَ النهار،

---

(١) البحر ٦/ ١٤٥. والعوم: السباحة، وبابه قال.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ ﷺ.

والمراد به الحوتُ على ما يُنبئ عنه ظاهرُ الجواب، وقيل: سارا ليلتَهما إلى الغد فقال ذلك.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ أي: تعباً وإعياءً، و«هذا» إشارةٌ إلى سفرهم الذي هم ملتبسون به ولكن باعتبار بعضِ أجزائه، فقد صحَّ أنه ﷺ قال: «لم يجد موسى شيئاً من النصب حتى جاوَزَ المكانَ الذي أُمِر به»(١).

وذُكر أنه يُفهم من الفحوى والتخصيصِ بالذكر أنَّه لم ينصَب في سائر أسفاره، والحكمةُ في حصول الجوع والتَّعَب له حين جاوز أن يطلُبَ الغداءَ فيذكر الحوتَ فيرجعَ إلى حيث يجتمع بمراده. وعن أبي بكر غالب بن عطية والد أبي [محمد](٢) عبد الحق المفسِّر قال: سمعتُ أبا الفضل الجوهريَّ يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعامٍ، ولمَّا مشى إلى بَشَرٍ لحقه الجوعُ في بعض يوم(٣).

والجملة في محلِّ التعليل للأمر بإيتاء الغداء: إمَّا باعتبارِ أنَّ النصَبَ إنما يعتري بسبب الضَّعف الناشئ عن الجوع، وإمَّا باعتبارِ ما في أثناء التغدِّي من استراحةٍ ما.

وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير: «نُصُباً» بضمتين(٤)، قال صاحب «اللوامح»: وهي إحدى اللغات الأربع في هذه الكلمة.

---

(١) قطعة من الحديث السابق.

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل و(م) ومطبوع البحر ٦/ ١٤٦ وعنه نقل المصنف، والمثبت هو الصواب، ينظر تاريخ الإسلام ١١/ ٧٨٧، وطبقات المفسرين للداودي ١/ ٢٦٠، وهذا الكلام ذكره أبو محمد ابن عطية عن أبيه في المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩.
وأبو بكر غالب هو ابن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، كان حافظاً للحديث، وعارفاً بأسماء الرجال، وكان ديِّناً فاضلاً. كفّ بصره في آخر عمره، توفي (٥١٨ هـ). تاريخ الإسلام للذهبي ١١/ ٢٩٤.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩، وأبو الفضل الجوهري هو عبد الله بن الحسين المصري الواعظ، روى عن أبي سعد الماليني، وروى عنه أبو عبد الله الحميدي. توفي سنة (٤٨٠هـ). تاريخ الإسلام للذهبي ١٠/ ٤٥٣-٤٥٤.

(٤) القراءات الشاذة ص٨٠، والبحر ٦/ ١٤٥. وزاد ابن خالويه أنه قرأ: «سَفْرِنا» بإسكان الفاء.
وعبد الله بن عبيد هو أبو الهاشم الليثي المكي، تابعي جليل. مات سنة (١١٣ هـ). غاية النهاية ١/ ٤٣٠.

﴿قَالَ﴾ أي: فتاه، والاستئنافُ بيانيٌّ، كأنه قيل: فما صنع الفتى حين قال له موسى عليه السلام ما قال؟ فقيل: قال: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ أي: التجأنا إليها وأقمنا عندها. وجاء في بعض الروايات الصحيحة أنَّ موسى عليه السلام حين قال لفتاه: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا» قال: قد قطع الله عنك النصب[(١)]، وعلى هذا فيحتمل أنَّه بعد أن قال ذلك قال: «أرأيت» إلخ.

قال شيخ الإسلام: وذكر الإواء إلى الصخرة مع أنَّ المذكور فيما سبق بلوغُ مجمع البحرين؛ لزيادة تعيين محلِّ الحادثة فإنَّ المجمع محلٌّ متَّسعٌ لا يمكن تحقيقُ المراد بنسبة الحادثة إليه، ولتمهيد العذر فإنَّ الإواء إليها والنومَ عندها مما يؤدِّي إلى النسيان عادةً[(٢)]. انتهى.

وهذا الأخير إنَّما يتمُّ على بعض الروايات من أنَّهما ناما عند الصخرة[(٣)].

وذُكر أنَّ هذه الصخرةَ قريبةٌ من نهر الزيت وهو نهرٌ مَعينٌ، عنده كثيرٌ من شجر الزيتون.

و«أرأيت» قيل: بمعنى: أَخبِرْني، وتعقَّبه أبو حيان بأنَّها إذا كانت كذلك فلا بدَّ لها من أمرين: كونُ الاسم المستخبَر عنه معها، ولزومُ الجملة التي بعدها الاستفهام، وهما مفقودان هنا، ونقل هو وناظر الجيش في «شرح التسهيل» عن أبي الحسن الأخفش أنَّه يرى أنَّ «أرأيت» إذا لم يُر بعدها منصوبٌ ولا استفهامٌ، بل جملةٌ مصدَّرةٌ بالفاء كما هنا، مُخْرَجةٌ عن بابها ومضمَّنةٌ معنى «أمَّا» أو «تَنبَّهْ»، فالفاءُ جوابُها لا جوابُ «إذ»؛ لأنَّها لا تُجازَى إلا مقرونةً بـ «ما» بلا خلاف، فالمعنى: أمَّا ـ أو تنبَّهْ ـ إذ أوينا إلى الصخرة ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾.

وقال شيخُ الإسلام: الرؤيةُ مستعارةٌ للمعرفة التامَّة والمشاهدة الكاملة، ومرادُه بالاستفهام تعجيبُ موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تُنسى، وقد جعل فقدانَه علامةً لوجدان

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٢٦)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ رضي الله عنه.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٣.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ رضي الله عنه.

المطلوب، وهذا أسلوبٌ معتادٌ بين الناس، يقول أحدُهم لصاحبه إذا نابه خطب: أرأيتَ ما نابني؟ يريد بذلك تهويلَه وتعجيبَ صاحبه منه وأنَّه مما لا يعهَد وقوعُه، لا استخبارَه عن ذلك كما قيل. والمفعولُ محذوفٌ اعتماداً على ما يدلُّ عليه من قوله: «فإني» إلخ، وفيه تأكيدٌ للتعجيب وتربيةٌ لاستعظام المنسيِّ[1]. اهـ. وفيه من القصور ما فيه.

والزمخشريُّ جعله استخباراً فقال: إنَّ يوشع عليه السلام لمَّا طلب منه موسى عليه السلام الغداءَ ذكر ما رأى من الحوت وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدُهِش فطفق يسأل عن سبب ذلك، كأنه قال: أرأيت ما دهاني إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت. فحُذِف ذلك[2]. اهـ.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مفعولَ «أرأيت» محذوفٌ، وهو إما الجملةُ الاستفهاميةُ إن كانت «ما» في «ما دهاني» للاستفهام، وإما نفسُ «ما» إن كانت موصولةً، وإلى أنَّ «إذ» ظرفٌ متعلِّقٌ بـ «دهاني» وهو سببٌ لِمَا بعدَ الفاء في «فإني» وهي سببية، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١] فإنَّ التقدير: وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادُهم فسيقولون.. إلخ، وهو قولٌ بأنَّ «أرأيت» بمعنى: أَخبِرْني، وقد سمعتَ ما قيل عليه.

وفي تقديره أيضاً على الاحتمال الثاني في «ما»[3] حذفُ الموصول مع جزء الصلة بناءً على أنَّ «فإني نسيت» من تتمتها، وعلى العلات ليس المرادُ من الاستخبار حقيقتَه، بل تهويل الأمر أيضاً.

ثم لا يخفى أنَّ «رأى» إن كانت بصريةً أو بمعنى «عرف» احتاجت إلى مفعولٍ واحدٍ، والتقديرُ عند بعض المحقِّقين، أَأَبْصَرتَ، أو: أعرفتَ حالي إذ أوينا، وفيه تقليلٌ للحذف، ولا يخفى حسنه، وإن كانت عِلْميةً احتاجت إلى مفعولين، وعلى هذا قال أبو حيان: يمكن أن تكونَ مما حُذِف منه المفعولان اختصاراً، والتقديرُ: أرأيتَ أمرَنا إذ أوينا ما عاقبته.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٣.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٩٢.
(٣) في (م): ما في، بدل: في ما.

وإيقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنَّه المأمورُ بإيتائه قيل: للتنبيه من أول الأمر على أنَّه ليس من قبيل نسيانِ [المسافر][1] زاده في المنزل، وأنَّ ما شاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلِّقة بالغداء من حيث هو غداءٌ وطعامٌ، بل من حيث هو حوتٌ كسائر الحيتان مع زيادة. وقيل: للتصريح بما في فقده إدخالُ السرور على موسى عليه السلام مع حصول الجواب، فقد تقدَّم رواية أنَّه قال له: لا أكلِّفك إلا أن تخبرَني بحيثُ يفارقك الحوت[2].

ثم الظاهر أنَّ النسيان على حقيقته، وهو ليس متعلِّقاً بذات الحوت بل بذِكْرِه. وجوِّز أن يكونَ مجازاً عن الفَقْد فيكون متعلِّقاً بنفس الحوت. والأكثرون على الأول، أي: نسيتُ أن أذكرَ لك أمرَ الحوت وما شاهدتُ من عجيب أمره.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لعلَّه شغله بوساوسَ في الأهل ومفارَقةِ الوطن، فكان ذلك سبباً للنسيان بتقدير العزيز العليم، وإلا فتلك الحالُ مما لا تُنسى.

وقال بعضهم: إنَّ يوشع كان قد شاهد من موسى عليه السلام المعجزاتِ القاهراتِ كثيراً، فلم يبقَ لهذه المعجزة وقعٌ عظيمٌ لا يؤثِّر معه الوسوسةُ فنسي.

وقال الإمام: إنَّ موسى عليه السلام لما استعظمَ عِلمَ نفسِه، أزال الله تعالى عن قلب صاحبه هذا العلمَ الضروريَّ؛ تنبيهاً لموسى عليه السلام على أنَّ العلم لا يحصُل إلَّا بتعليم الله تعالى وحفظِه على القلب والخاطر[3]. وأنت تعلم أنَّه لو جعل الله تعالى المُشاهِدَ الناسيَ هو موسى عليه السلام كان أتمَّ في التنبيه.

وقد يقال: إنَّه أُنسي تأديباً له بناءً على ما تقدَّم من أنَّ موسى عليه السلام لمَّا قال له: «لا أُكلِّفك» إلخ، قال له: ما كلَّفْتَ كثيراً[4]، حيث استسهل الأمرَ ولم يُظهِر الالتجاءَ فيه إلى الله تعالى بأن يقول: أُخبِرُك إن شاء الله تعالى. وفيه أيضاً عتابٌ لموسى عليه السلام حيث اعتمد عليه في العلم بذهاب الحوت فلم يحصل له حتى نَصَبَ.

---

(١) زيادة من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٣، والكلام منه.

(٢) ينظر ص٤٢٢ من هذا الجزء.

(٣) التفسير الكبير ٢١/ ١٤٦-١٤٧.

(٤) ينظر ص٤٢٢ من هذا الجزء.

ثم إنَّ هذه الوسوسةَ لا تضُرُّ بمقام يوشع عليه السلام وإن قلنا: إنه كان نبيًّا وقتَ وقوعِ هذه القصة.

وقال بعضُ المحقِّقين: لعلَّه نَسي ذلك لاستغراقه في الاستبصار، وانجذابِ شراشرِه إلى جناب القدس بما اعتراه من مشاهدة الآيات الباهرة، وإنما نسبه إلى الشيطان مع أنَّ فاعلَه الحقيقيَّ هو الله تعالى، والمجازيَّ هو الاستغراق المذكورُ؛ هضماً لنفسه بجعل ذلك الاستغراق والانجذابِ لشَغْلِه عن التيقُّظِ للموعِد الذي ضربه الله تعالى بمنزلة الوساوس، ففيه تجوُّزٌ باستعارةِ الشيطان لمطلَق الشاغل، وفي الحديث: «إنَّه ليُغان على قلبي فأستغفِرُ اللهَ تعالى في اليومِ سبعين مرةً»[(١)].

أو لأنَّ عدمَ احتمالِ القوَّة للجانبَيْن واشتغالها بأحدِهما عن الآخر يُعدُّ من نقصان صاحبِها وتركِه المجاهداتِ والتصفيةِ، فيكون قد تجوَّزَ بذلك عن النقصان لكونه سببَه.

وضَمَّ حفصٌ الهاءَ في: «أَنسَانِيهُ»، وهو قليلٌ في مثل هذا التركيب قِلَّة النسيان في مثل هذه الواقعة، والجمهورُ على الكسرِ[(٢)]، وأمال الكسائيُّ فتحةَ السينِ[(٣)].

وقولُه تعالى: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدلُ اشتمالٍ من الهاء، أي: ما أنساني ذكرَه لك إلا الشيطانُ، قيل: وفي تعليق الفعل بضمير الحوتِ أولاً وبذكره له ثانياً على طريق الإبدالِ المُنبئِ عن تنحية المبدَلِ منه إشارةٌ إلى أنَّ متعلَّق النسيان أيضاً[(٤)] ليس نفس الحوت بل ذكر أمره.

وفي مصحف عبد الله وقراءتِه: «أَن أُذكِّرَكَه»[(٥)].

وفي إيثار «أنْ» والفعل على المصدر نوعُ مبالغةٍ لا تخفى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) (٤١) من حديث الأغرّ بن يسار المزني ﷺ، وسلف ١/ ٣٠٤.

(٢) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١.

(٣) التيسير ص٤٦، والنشر ٢/ ٣٥.

(٤) لفظة: أيضاً، سقطت من (م)، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٣، والكلام منه.

(٥) الكشاف ٢/ ٤٩٢، وجاء في تفسير الطبري ١٥/ ٣١٧، والمحرر الوجيز ٢/ ٥٢٩ أن في مصحف عبد الله: «وما أَنسَانِيهُ أن أَذَكِّرَكَه إلَّا الشيطان»، وفي تفسير القرطبي ١٣/ ٣٢٢، والبحر ٦/ ١٤٧ أن فيه: «أن أذكره إلَّا الشيطان».

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ الظاهرُ الذي عليه أكثرُ المفسرين أنَّ مجموعَه كلامُ يوشع، وهو تتمةٌ لقوله: «فإني نسيت الحوت»، وفيه إنباءٌ عن طرفٍ آخر من أمره، وما بينهما اعتراضٌ قُدِّم عليه للاعتناء بالاعتذار، كأنه قيل: حَيي واضطَربَ ووقع في البحر واتَّخَذَ سبيله فيه سبيلاً عجباً، ف «سبيله» مفعولٌ أوّل لـ «اتخذ»، و«في البحر» حالٌ منه، و«عجباً» مفعولٌ ثانٍ.

وفي ذكر السبيل ثم إضافتِه إلى ضمير الحوت ثم جعلِ الظرف حالاً من المضاف تنبيهٌ إجماليٌّ على أنَّ المفعولَ الثاني من جنس الأمور الغريبة، وفيه تشويقٌ للمفعول الثاني، وتكريرٌ مفيدٌ للتأكيد المناسب للمقام، فهذا التركيبُ في إفادة المراد أوفَى لحقِّ البلاغة من أن يقال: واتخذ في البحر سبيلاً عجباً.

وجوِّز أن يكون «في البحر» حالاً من «عجباً»، وأن يكون متعلِّقاً بـ «اتخذ»، وأن يكون المفعولَ الثاني له و«عجباً» صفة مصدرٍ محذوفٍ، أي: اتخاذاً عجباً، وهو كونُ مسلكِه كالطاق والسَّرَب.

وجوِّز أيضاً على احتمال كونِ الظرف مفعولاً ثانياً أن يُنصَب «عجباً» بفعلٍ منه مضمرٍ، أي: أَعجبُ عجباً، وهو من كلام يوشع عليه السلام أيضاً، تَعجَّبَ من أمر الحوت بعد أن أَخبرَ عنه.

وقيل: إنَّ كلامَ يوشع عليه السلام قد تمَّ عند «البحر»، وقولُ: أعجَبُ عجباً، كلامُ موسى عليه السلام، كأنه قيل: وقال موسى: أعجبُ عجباً من تلك الحال التي أخبرتَ بها. وأنت تعلم أنَّه لو كان كذلك لجيء بالجملة الآتية بالواو العاطفة على هذا المقدَّر.

وقيل: يحتمل أن يكونَ المجموعُ من كلامه عزَّ وجل، وحينئذٍ يحتمل وجهين:

أحدُهما: أن يكون إخباراً منه تعالى عن الحوت بأنَّه اتخذ سبيلَه في البحر عجباً للناس.

وثانيهما: أن يكون إخباراً منه سبحانه عن موسى عليه السلام بأنَّه اتخذ سبيل الحوت في البحر عجباً يتعجَّب منه، و«عجباً» على هذا مفعولٌ ثانٍ، ولا ركاكةَ في تأخير «قال» الآتي عنه على هذا؛ لأنَّه استئنافٌ لبيانِ ما صدر منه عليه السلام بعدُ.

ويؤيِّد كونَه من كلام يوشع عليه السلام قراءةُ أبي حيوة: «واتخاذَ» بالنصب[١]، على أنَّه معطوفٌ على المنصوب في «أذكُرَه».

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذكرتَ من أمر الحوت ﴿مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ أي: الذي كنَّا نطلُبه من حيث إنه أمارةٌ للفوز بما هو المطلوبُ بالذات.

وقرئ: «نَبْغِ» بغير ياء في الوصل[٢]، وإثباتُها أحسنُ، وهي قراءةُ أبي عمرو والكسائيِّ ونافع[٣].

وأما الوقفُ فالأكثر فيه طرحُ الياء اتباعاً لرسم المصحف، وأَثبَتَها في الحالَيْنِ ابنُ كثيرٍ[٤].

﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي: رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ الأولى، والمراد: طريقهما الذي جاءا منه، ﴿قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: يقُصَّانها[٥] قصصاً، أي: يتَّبعانها اتِّباعاً، فهو من: قصَّ أثرَه: إذا اتَّبعه، كما هو الظاهر، ونصبُه على أنَّه مفعولٌ لفعلٍ مقدَّرٍ من لفظه. وجوِّز أن يكونَ حالاً مؤوَّلاً بالوصف، أي: مقتصِّين حتى أتيا الصخرةَ التي فُقِد الحوتُ عندها.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ الجمهورُ على أنَّه الخَضِر، بفتح الخاء وقد تُكسر، وكسر الضاد وقد تسكَّن، وقيل: اليسع. وقيل: إلياس. وقيل: ملكٌ من الملائكة، وهو قولٌ غريب باطلٌ كما في «شرح مسلم»[٦].

والحقُّ الذي تشهد له الأخبارُ الصحيحة هو الأول، والخَضرُ لقبُه، ولُقِّب به كما أخرج البخاريُّ وغيره عن رسول الله ﷺ «لأنَّه جَلَس على فَرْوَةٍ بيضاءَ، فإذا هي

---

(١) القراءات الشاذة ص٨١، والبحر ٦/ ١٤٧.

(٢) التيسير ص ١٤٧، والنشر ٢/ ٣١٦، وهي قراءة عاصم وابن عامر وحمزة، ويعقوب وخلف.

(٣) التيسير ص١٤٧، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٣١٦.

(٤) التيسير ص١٤٧، وهي قراءة يعقوب من العشرة كما في النشر ٢/ ٣١٧.

(٥) في (م): يقصانه.

(٦) للنووي ١٥/ ١٣٦.

تهتزُّ مِن خَلفِه خَضْراء»⁽¹⁾. وأخرج ابن عساكر وجماعة عن مجاهد أنه لُقِّب بذلك لأنَّه إذا صلى اخضرَّ ما حوله⁽٢⁾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة أنَّ ذلك لأنه كان إذا جلس في مكان اخضرَّ ما حوله، وكانت ثيابُه خَضِراً. وأخرج عن السدِّي أنه إذا قام بمكانٍ نبت العشبُ تحت رِجليه حتى يُغطِّي قدميه⁽٣⁾.

وقيل: لإشراقه وحسنه. والصوابُ ـ كما قال النوويُّ⁽٤⁾ ـ الأولُ.

وكنيته أبو العباس، واسمه بَلْيا بموحدة مفتوحة ولام ساكنة وياء مثناة تحتية. وفي آخره ألف، قيل: ممدودةٌ. وقيل: أبليا، بزيادة همزة في أوله. وقيل: عامر.

وقيل: أحمد. ووهَّاه ابن دحية بأنَّه لم يسمَّ قبلَ نبينا ﷺ أحدٌ من الأمم السالفة بأحمد⁽٥⁾.

وزعم بعضُهم أنَّ اسم الخضر اليسعُ، وأنه إنما سُمِّي بذلك لأنَّ علمه وَسِعَ ستَّ سماوات وستَّ أرضين، ووهَّاه ابن الجوزي⁽٦⁾، وأنت تعلم أنه باطلٌ لا واهٍ، ومثله القول بأنَّ اسمَه إلياس.

و اختلفوا في أبيه فأخرج الدارقطني في «الأفراد» وابن عساكر من طريق

---

(١) صحيح البخاري (٣٤٠٢)، وهو عند أحمد في مسنده (٨١١٣)، وابن حبان في صحيحه (٦٢٢٢)، جميعهم عن أبي هريرة رضي الله عنه. والفروة: أرض بيضاء ليس فيها نبات. ووقع في رواية عند أحمد (٨٢٢٨) الفروة: الحشيش الأبيض وما أشبهه. قال أحمد: أظن هذا تفسيراً من عبد الرزاق.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٠٢، وعزاه السيوطي لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم في الدر ٤/ ٢٣٤.

(٣) قول عكرمة والسدي عزاهما لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٦.

(٤) في شرح صحيح مسلم ١٥/ ١٣٦.

(٥) عمدة القاري ٢/ ٦٠، وابن دحية هو أبو الخطاب عمر بن حسن، توفي (٦٣٣ هـ)، وكان صاحب علم وفضل، إلّا أنه كان يدعي أشياء لا حقيقة لها. تاريخ الإسلام للذهبي ١٤/ ١١٣.

(٦) المصدر السابق.

مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس أنه ابن آدم لصلبه[١].

وأخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب أنَّ أمَّه روميةٌ وأبَاه فارسيٌّ[٢]. ولم يذكر اسمه، وذكر أنَّ إلياس أخوه من هذه الأم وهذا الأب.

وأخرج أيضاً عن أسباط عن السديِّ أنَّه ابن ملكٍ من الملوك، وكان منقطعاً في عبادة الله تعالى، وأحبَّ أبوه أن يزوِّجه فأبى، ثم أجاب فزوَّجه بامرأة بكرٍ، فلم يقربْها سنةً، ثم بثيِّبٍ فلم يقربها، ثم فرَّ فطلبه فلم يقدر عليه، ثم تزوَّجت امرأتُه الأولى، وكانت قد آمنت، وهي ماشطةُ امرأة فرعون[٣]. ولم يذكر أيضاً اسمَ أبيه.

وقيل: إنَّه ابنُ فرعون، على ما قيل: إنه أبوه، وسبحان مَن يُخرج الحيَّ من الميت ويُخرج الميِّتَ من الحيِّ.

وأخرج أبو الشيخ في «العظمة» وأبو نعيم في «الحلية» عن كعبِ الأَحبارِ أنَّه ابنُ عاميل، وأنَّه رَكب في نفرٍ من أصحابه حتى بلغ بحرَ الهند، وهو بحرُ الصين، فقال: يا أصحابي، دَلُّوني، فدَلَّوه في البحر أياماً وليالي، ثم صعد فقال: استقبلني ملك فقال لي: أيها الآدميُّ الخطَّاء، إلى أين ومن أين؟ فقلتُ: أردتُ أن أنظرَ عمقَ هذا البحر، فقال لي: كيف، وقد أهوى رجلٌ من زمانِ داود عليه السلام، ولم يبلغ ثُلُثَ قعره حتى الساعة، وذلك ثلاث مئة سنة[٤].

وأظنُّك لا تشكُّ بكذب هذا الخبر وإن قيل: حدِّث عن البحر ولا حرج.

وقيل: هو ابن العيص. وقيل: هو ابن كَلْيان، بكاف مفتوحة ولام ساكنة وياء مثناة تحتية بعدها ألف ونون.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ١٦/ ٤٠٠ من طريق الدارقطني، وعزاه للدارقطني السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٤. وقال الحافظ ابن حجر في «الزهر النضر في أحوال الخضر» ص١٨ عن رجال هذا السند: وروَّاد ضعيف، ومقاتل متروك والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٠١.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤١٩.

(٤) العظمة (٩٢٨)، وحلية الأولياء ٦/ ٧.

وقال ابن قتيبة في «المعارف»: قال وهب بن منبه: إنَّه ابن مَلْكان ـ بفتح الميم وإسكان اللام ـ ابن فالغ بن عابر بن شالخ[(١)] بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

ولم يَصحَّ عندي شيءٌ من هذه الأقوال، بيدَ أنَّ صنيع النووي عليه الرحمة في «شرح مسلم» يُشعِر باختيارِ أنَّه بليا بن ملكان[(٢)]، وهو الذي عليه الجمهورُ، والله تعالى أعلم.

وصحَّ من حديث البخاريِّ وغيرِه أنَّهما «رجعا إلى الصخرة وإذا رجلٌ مسجًّى بثوبٍ قد جعل طرفَه تحت رجليه، وطرفَه الآخرَ تحت رأسه»[(٣)].

وفي «صحيح مسلم»: «فأتيا جزيرةً فوجدا الخضرَ قائماً يصلِّي على طنْفسَةٍ خضراء على كبد البحر»[(٤)].

وقال الثعلبي: انتهيا إليه وهو نائم[(٥)] على طنفسَةٍ خضراء على وجه الماء وهو مسجًّى بثوبٍ أخضر.

وقيل: إنَّ سبيلَ الحوت عاد حجراً، فلما جاءا إليه مَشَيا عليه حتى وصلا إلى جزيرةٍ فيها الخضر.

وصحَّ «أنَّهما لمَّا انتهيا إليه سلَّم موسى، فقال الخضر: وأنَّى بأرضِكَ السلامُ. فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم»[(٦)].

---

(١) كذا في الأصل و(م): بالخاء المعجمة، وفي مطبوع المعارف ص٤٢: شالح، بالحاء المهملة.

(٢) في الأصل و(م): ملكا، بغير نون، والمثبت من شرح مسلم ١٦/ ١٣٦.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٢٦) وهو في مسند أحمد (٢١١١٩)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ ﷺ.

(٤) لم نقف عليه في صحيح مسلم، وفي الحديث السابق عند أحمد والبخاري: «فوجدا خضراً على طِنْفِسَةٍ خضراء على كبد البحر». وليس فيه: قائماً يصلي. وينظر عمدة القاري ٢/ ١٩٤.

(٥) كذا في الأصل و(م) وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٢٤، وفي مطبوع قصص الأنبياء المسمى «عرائس المجالس» للثعلبي ص٢٢٧: قائم يصلي.

(٦) أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠) وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أُبَيّ بن كعب ﷺ.

ورُوي أنَّه لمَّا سلَّم عليه وهو مسجًّى، عرفه أنَّه موسى، فرفع رأسَه فاستوى جالساً وقال: وعليك السلام يا نبيَّ بني إسرائيل، فقال موسى: وما أدراك بي، ومَن أخبرك أنِّي نبيُّ بني إسرائيل؟ فقال: الذي أدراك بي ودلَّك عليَّ، ثمَّ قال: ياموسى، أما يكفيك أنَّ التوراةَ بيدك وأنَّ الوحْيَ يأتيك؟ قال موسى: إنَّ ربي أرسلني إليك لأتبعَك وأتعلَّم من علمك.

والتنوين في «عبداً» للتفخيم، والإضافةُ في «عبادِنا» للتشريف والاختصاصِ، أي: عبداً جليلَ الشأن ممن اختصَّ بنا وشرُف بالإضافة إلينا.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ قيل: المرادُ بها الرزقُ الحلال والعيشُ الرغد. وقيل: العُزلة عن الناس وعدمُ الاحتياج إليهم. وقيل: طولُ الحياة مع سلامة البنية.

والجمهورُ على أنَّها الوحْيُ والنبوةُ، وقد أُطلِقت على ذلك في مواضع من القرآن، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس[1]. وهذا قولُ مَن يقول بنبوته عليه السلام، وفيه أقوالٌ ثلاثة، فالجمهورُ على أنَّه عليه السلام نبيٌّ وليس برسولٍ. وقيل: هو رسولٌ. وقيل: هو وليٌّ، وعليه القشيريُّ وجماعةٌ.

والمنصورُ ما عليه الجمهور، وشواهدُه من الآيات والأخبارِ كثيرةٌ، وبمجموعها يكاد يحصلُ اليقين.

وكما وقع الخلافُ في نبوته وقع الخلافُ في حياته اليومَ، فذهب جمعٌ إلى أنَّه ليس بحيٍّ اليومَ، وسئل البخاريُّ عنه وعن إلياس عليهما السلام: هل هما حيَّان؟ فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبيُّ ﷺ ـ أي: قبل وفاته بقليل ـ: «لا يبقى على رأسِ المئة ممن هو اليومَ على ظهر الأرض أحدٌ»[2]؟

والذي في «صحيح مُسلم» عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ قبلَ موته: «ما من نفْسٍ منفوسةٍ [اليوم] يأتي عليها مئةُ سنةٍ وهي يومئذٍ حية»[3]. وهذا أبعدُ عن التأويل.

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٦.

(٢) أخرج المرفوع البخاري في صحيحه (١١٦) من حديث ابن عمر، والقصة رواها النقاش كما ذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ١٦٨.

(٣) صحيح مسلم (٢٥٣٨) وما بين حاصرتين منه.

وسئل عن ذلك غيره من الأئمة فقرأ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: لو كان الخضر حيًّا لوجب عليه أن يأتي إلى النبيِّ ﷺ ويجاهدَ بين يديه ويتعلَّم منه، وقد قال النبيُّ ﷺ يومَ بدر: «اللّهمَّ إن تَهلِك هذه العصابةُ لا تُعبَد في الأرض». فكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً معروفين بأسمائهم وأسماءِ آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر حينئذٍ؟!(١).

وسئل إبراهيم الحربيُّ عن بقائه فقال: من أحال على غائبٍ لم ينتصف منه، وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطانُ(٢).

ونقل في «البحر» عن شرف الدين أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسيِّ القولَ بموته أيضاً(٣). ونقله ابنُ الجوزيِّ(٤) عن علي بن موسى الرضا رضي الله عنهما أيضاً، وكذا عن إبراهيم بن إسحاق الحربيِّ، وقال أيضاً: كان أبو الحسين ابن المنادي(٥) يقبِّح قولَ مَن يقول: إنَّه حيٌّ. وحكى القاضي أبو يعلى موتَه عن بعض أصحاب أحمد(٦).

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٠٠بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن القيم في المنار المنيف ص ٦٨، والحديث قد سلف ١٠/ ٣٧-٣٨.

(٢) المنار المنيف ص ٦٧، وجاء في مجموع الفتاوى ٤/ ٣٣٧: أن السائل هو إبراهيم الحربي والمسؤول أحمد بن حنبل. وإبراهيم الحربي هو ابن إسحاق البغدادي، صاحب التصانيف، والإمام الحافظ العلامة، سمع أحمد وأبا عبيد بن سلَّام ومسدّد وغيرهم، وحدث عنه خلق كثير. كان عابداً زاهداً ورعاً، له ترجمة طويلة في سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٥٦.

(٣) البحر ٦/ ١٤٧، والمرسي محدث مفسر فقيه، ولد سنة (٥٧٠ هـ)، وسمع الكثير من منصور الفُراوي، له تصانيف كثيرة مع زهد وورع وفقر وتعفف. توفي سنة (٦٥٥ هـ). شذرات الذهب ٧/ ٤٦٥.

(٤) كما في المنار المنيف ص٧٢، ولابن الجوزي مؤلَّف في هذه المسألة اسمه: عجالة المنتظر في شرح حال الخضر.

(٥) هو أحمد بن جعفر البغدادي، كان إماماً محدِّثاً، سمع الكثير وصنف كتباً كثيرةً، توفي سنة (٣٣٦ هـ). النجوم الزاهرة ٣/ ٢٩٥-٢٩٦.

(٦) تحرف في الأصل و(م) إلى محمد. والمثبت من المنار المنيف ص٧٢.

وكيف يُعقَل وجودُ الخضر ولا يُصلِّي مع رسول الله ﷺ الجمعةَ والجماعةَ، ولا يشهد معه الجهادَ، مع قوله عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني»(١). وقولِه عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وثبوتِ أنَّ عيسى عليه السلام إذا نزل إلى الأرض يُصلِّي خلف إمام هذه الأمة، ولا يتقدَّم عليه في مبدأ الأمر(٢)، وما أبعدَ فهمَ مَن يُثبِت وجودَ الخضر عليه السلام وينسى ما في طيِّ إثباته من الإعراض عن هذه الشريعة.

ثم قال: وعندنا من المعقول وجوه على عدم حياته:

أحدها: أنَّ الذي قال بحياته قال: إنَّه ابنُ آدم عليه السلام لصلبه. وهذا فاسدٌ لوجهين:

الأوَّلُ: أنه يلزم أن يكونَ عمرُه اليومَ ستةَ آلاف سنة أو أكثر، ومثلُ هذا بعيدٌ في العادات في حقِّ البشر.

والثاني: أنَّه لو كان ولدَه لصلبه أو الرابعَ من أولاده كما زعموا أنَّه وزيرُ ذي القرنين لكان مهولَ الخلقة مُفرِطَ الطول والعرض، ففي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خُلِق آدمُ، طولُه ستون ذراعاً، فلم يزل الخلقُ ينقُص بعدَه»(٣). وما ذكر أحدٌ ممن يزعم رؤيةَ الخضر أنه رآه على خلقةٍ عظيمةٍ وهو مِن أقدمِ الناس.

والوجه الثاني: أنه لو كان الخضر قبل نوح عليه السلام لركب معه في السفينة ولم ينقل هذا أحد.

الثالث: أنَّ العلماء اتفقوا على أنَّ نوحاً عليه السلام لمَّا خرج من السفينة مات مَن معه ولم يبق غيرُ نسله، ودليلُ ذلك قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

---

(١) سلف عند الآية: ٤١ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه (١٥٦) من حديث جابر ﷺ.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٢٦)، وصحيح مسلم (٢٨٤١).

الرابع: أنَّه لو صحَّ بقاءُ بشرٍ من لدن آدم إلى قرب خراب الدنيا لكان ذلك من أعظم الآيات والعجائب، وكان خبرُه في القرآن مذكوراً في مواضع لأنه من آيات الربوبية وقد ذكر سبحانه عزَّ وجلَّ مَن استحياه ألفَ سنة إلا خمسين عاماً وجعله آيةً، فكيف لا يذكر جلَّ وعلا مَن استحياه أضعافَ ذلك؟!

الخامس: أنَّ القولَ بحياة الخضر قولٌ على الله تعالى بغير علم، وهو حرامٌ بنصِّ القرآن، أما المقدِّمة الثانية فظاهرةٌ، وأما الأولى فلأنَّ حياتَه لو كانت ثابتةً لدلَّ عليها القرآنُ أو السنةُ أو إجماعُ الأمة، فهذا كتابُ الله تعالى فأين فيه حياةُ الخضر؟ وهذه سنةُ رسوله ﷺ فأين فيها ما يدلُّ على ذلك بوجه؟ وهؤلاء علماءُ الأمة فمتى أجمعوا على حياته؟

السادس: أنَّ غاية ما يتمسَّك به في حياته حكاياتٌ منقولةٌ يُخبِر الرجل بها أنَّه رأى الخضر، فيا لله تعالى العجب هل للخضر علامةٌ يعرفه بها مَن رآه؟! وكثيرٌ مِن زاعمي رؤيته يغترُّ بقوله: أنا الخضر. ومعلومٌ أنه لا يجوز تصديقُ قائلِ ذلك بلا برهانٍ من الله تعالى، فمن أين للرائي أنَّ المخبِرَ له صادقٌ لا يكذب؟

السابع: أنَّ الخضرَ فارقَ موسى بن عمران كليمَ الرحمن ولم يصاحبه، وقال: (هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) فكيف يرضى لنفسه بمفارقةِ مثل موسى عليه السلام، ثم يجتمع بجَهَلةِ العباد الخارجين عن الشريعة الذين لا يحضُرون جمعةً ولا جماعةً ولا مجلسَ علم، وكلٌّ منهم يقول: قال لي الخضر، جاءني الخضر، أوصاني الخضر، فيا عجباً له يفارقُ الكليمَ ويدور على صُحبةِ جاهل لا يصحبه إلا شيطانٌ رجيمٌ، سبحانك هذا بهتان عظيم!!

الثامن: أنَّ الأمةَ مُجْمِعةٌ على أنَّ الذي يقول: أنا الخضر. لو قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: كذا وكذا. لم يُلتفَت إلى قوله ولم يُحتجَّ به في الدين، ولا مخلصَ للقائل بحياته عن ذلك إلا أن يقول: إنَّه لم يأت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ولا بايعه. أو يقول: إنه لم يُرسَل إليه. وفي هذا من الكفر ما فيه.

التاسع: أنَّه لو كان حيًّا لكان جهادُه الكفارَ، ورباطُه في سبيل الله تعالى، ومقامُه في الصفِّ ساعةً، وحضورُه الجمعةَ والجماعةَ، وإرشادُ جَهَلةِ الأمة = أفضلَ

بكثير من سياحته بين الوحوش في القفار والفلوات[١]. إلى غير ذلك، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما له وما عليه.

وشاع الاستدلال بخبر: لو كان الخضر حيًّا لزارني. وهو ـ كما قال الحفَّاظ ـ خبرٌ موضوعٌ لا أصلَ له[٢]، ولو صحَّ لأغنى عن القيل والقال، ولا نقطع به الخصامُ والجدال.

وذهب جمهورُ العلماء إلى أنَّه حيٌّ موجودٌ بين أظهرنا، وذلك متفقٌ عليه عند الصوفية قدِّست أسرارُهم. قاله النوويُّ[٣]، ونَقَل عن الثعلبيِّ المفسِّر أنَّ الخضر نبيٌّ معمَّر على جميع الأقوال محجوبٌ عن أبصار أكثر الرجال[٤].

وقال ابن الصلاح[٥]: هو حيٌّ اليومَ عند جماهير العلماء، والعامةُ معهم في ذلك، وإنما ذهب إلى إنكار حياته بعضُ المحدِّثين.

واستدلُّوا على ذلك بأخبارٍ كثيرةٍ منها ما أخرجه الدارقطنيُّ في «الأفراد» وابن عساكر عن الضحَّاك عن ابن عباس أنه قال: الخضر ابن آدم لصلبه، ونُسئ له في أجله حتى يكذِّب الدجَّال[٦]. ومثله لا يقال من قبل الرأي.

ومنها ما أخرجه ابن عساكر عن ابن إسحاق قال: حدثنا أصحابُنا أنَّ آدم عليه السلام لمَّا حضره الموت جمع بنيه فقال: يا بَنيَّ، إنَّ الله تعالى مُنزلٌ على أهل الأرض عذاباً، فليكن جسدي معكم في المغارة حتى إذا هبطتم فابعثوا بي وادفنوني بأرض الشام. فكان جسدُه معهم، فلمَّا بعث الله تعالى نوحاً ضمَّ ذلك الجسدَ، وأرسل الله تعالى الطوفانَ على الأرض فغرقت زماناً، فجاء نوحٌ حتى نزل بابلَ وأوصى بنيه الثلاثة أن يذهبوا بجسده إلى المغار الذي أمرهم أن يدفنوه به، فقالوا: الأرضُ وحشةٌ لا أنيسَ بها، ولا نهتدي الطريقَ، ولكن كُفَّ حتى يأمن الناسُ

---

(١) المنار المنيف ص٧٢-٧٦.

(٢) ينظر المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ص١٠٥، وكشف الخفاء ١/ ٥١٣.

(٣) في شرح صحيح مسلم ١٥/ ١٣٥-١٣٦.

(٤) عرائس المجالس ص٢٢٦.

(٥) كما في شرح صحيح مسلم للنووي ١٣٦/١٥.

(٦) سلف ص٤٣٤ من هذا الجزء، وذكرنا ثمة أن سنده ضعيف ومنقطع.

ويكثُروا. فقال لهم نوح: إنَّ آدم قد دعا الله تعالى أن يطيلَ عمرَ الذي يدفنه إلى يوم القيامة. فلم يزل جسدُ آدم حتى كان الخضرُ هو الذي تولَّى دفنَه، فأنجز الله تعالى له ما وعده، فهو يَحيا إلى ما شاء الله تعالى له أن يحيا[(١)].

وفي هذا سببُ طول بقائه، وكأنه سببٌ بعيدٌ، وإلا فالمشهورُ فيه أنه شرب من عين الحياة حين دخل الظلمة مع ذي القرنين وكان على مقدمته[(٢)].

ومنها ما أخرجه الخطيب وابن عساكر عن عليٍّ رضي الله عنه وكرَّم وجهَه قال: بينا أنا أطوف بالبيت إذا رجلٌ متعلِّقٌ بأستار الكعبة يقول: يا مَن لا يشغله سمعٌ عن سمع، ويا مَن لا تغلطه المسائلُ، ويا مَن لا يتبرَّمُ بإلحاح الملحِّين، أَذِقني بردَ عفوك وحلاوةَ رحمتك. قلتُ: ياعبد الله أَعِد الكلامَ. قال: أسمعتَه؟ قلتُ: نعم. قال: والذي نفسُ الخضرِ بيده ـ وكان هو الخضر ـ لا يقولهُن عبدٌ دُبُرَ الصلاة المكتوبة إلا غُفِرَتْ ذنوبُه وإن كانت مثلَ رمل عالج وعددِ المطر وورقِ الشجر[(٣)].

ومنها ما نقله الثعلبيُّ عن ابن عباس قال: قال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: إنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا تُوفِّي وأخذْنا في جهازه خرج الناسُ وخلا الموضعُ، فلمَّا وضعتُه على المغتسل إذا بهاتفٍ يهتِفُ من زاوية البيت بأعلى صوته: لا تغسلوا محمداً فإنه طاهرٌ طَهِر. فوقع في قلبي شيءٌ من ذلك وقلتُ: ويلك من أنتَ؟ فإنَّ النبيَّ ﷺ بهذا أمَرَنا، وهذه سنَّتُه. وإذا بهاتفٍ آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته: غَسِّلوا محمداً، فإنَّ الهاتفَ الأول كان إبليس الملعون حسد محمداً ﷺ أن يدخُل قبرَه مغسولاً. فقلت: جزاك الله تعالى خيراً، قد أخبرتني بأنَّ ذلك إبليس، فمن أنتَ؟ قال أنا الخضر، حضرتُ جنازةَ محمد ﷺ.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٠٠.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٣٤٨/١٧ من طريق أبي جعفر عن أبيه قوله، وفيه: سفيان بن وكيع، وحديثه ساقط.

(٣) تاريخ بغداد ٤/ ١١٨-١١٩، وتاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٢٥ وهو من طريق عبد الله بن محرر، عن يزيد بن الأصم، عن علي ﷺ، قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢٥٩: هذا ضعيف من جهة عبد الله بن محرر، فإنه متروك الحديث، ويزيد بن الأصم لم يدرك علياً، ومثل هذا لا يصح.

ومنها ما أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن أنس بن مالك قال: لمَّا توفي رسولُ الله ﷺ واجتمع الصحابة دخل رجل أشهبُ اللحية جسيمٌ صبيحٌ، فتخطَّى رقابَهم فبكى، ثم التفت إلى الصحابة فقال: إنَّ في الله تعالى عزاءً من كلِّ مصيبةٍ، وعوضاً من كلِّ فائتٍ، وخلفاً مِن كلِّ هالكٍ، فإلى الله تعالى فأنيبوا، وإليه تعالى فارغبوا، ونظرُه سبحانه إليكم في البلاء فانظروا، فإنما المصابُ مَن لم يُجبر. فقال أبو بكر وعليٌّ رضي الله عنهما: هذا الخضرُ عليه السلام(١).

ومنها ما أخرجه ابن عساكر أنَّ إلياس والخضرَ يصومان شهرَ رمضان في بيت المقدس، ويحجَّان في كلِّ سنة، ويشربان من زمزم شربةً تكفيهما إلى مثلها من قابل(٢).

ومنها ما أخرجه ابنُ عساكر أيضاً والعقيليُّ والدارقطنيُّ في «الأفراد» عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «يلتقي الخضرُ وإلياس كلَّ عامٍ في الموسم، فيحلقُ كلُّ واحدٍ منهما رأسَ صاحبه، ويتفرَّقان عن هذه الكلمات: باسم الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوَّة إلا بالله»(٣).

ومنها ما أخرجه ابن عساكر بسنده عن محمد بن المنكدر قال: بينما عمر بن الخطَّاب يصلِّي على جنازةٍ إذا بهاتفٍ يهتف من خلفه: لا تسبقْنا بالصلاة يرحمك الله تعالى. فانتظره حتى لَحِق بالصفِّ الأوَّل، فكبَّر عمر وكبَّر الناسُ معه، فقال الهاتفُ: إنْ تعذِّبه فكثيراً عصاك، وإن تغفر له ففقيرٌ إلى رحمتك. فنظر عمرُ وأصحابُه إلى الرجل، فلمَّا دُفن الميت وسُوِّي عليه التراب قال: طوبى لك يا صاحب القبر، إن لم تكن عريفاً، أو جابياً، أو خازناً، أو كاتباً، أو شرطيًّا.

---

(١) المستدرك ٣/٥٨، وفيه: أصهب، بدل: أشهب، ورواه بلفظ المصنف البيهقي في الدلائل ٧/٢٦٩، وقال: فيه عباد بن عبد الصمد، ضعيف، وهذا منكر بمرة. اهـ. وقال الحاكم: فيه عباد بن عبد الصمد ليس من شرط هذا الكتاب. اهـ. ووقع في الأصل و(م) بدل أنس بن مالك: جابر، وهو خطأ.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ١٦/٤٢٨، عن ابن أبي روَّاد قوله.

(٣) الضعفاء للعُقيلي ١/٢٢٤-٢٢٥، وتاريخ مدينة دمشق ٩/٢١١، وعزاه للدارقطني ابنُ حجر في الزهر النضر ص٦١. وفيه الحسن بن رزين، قال العقيلي: مجهول الرواية.

فقال عمر: خذوا لي الرجلَ نسأله عن صلاته وكلامه هذا عمن هو، فتوارى عنهم، فنظروا فإذا أثرُ قدمه ذراعٌ، فقال عمر: هذا والله الذي حدَّثنا عنه النبيُّ ﷺ(١).

والاستدلال بهذا مبنيٌّ على أنَّه عنى بالمحدَّث عنه الخضر عليه السلام.

إلى غير ذلك، وكثيرٌ مما ذُكر وإن لم يدلَّ على أنه حيٌّ اليومَ، بل يدلُّ على أنَّه كان حيًّا في زمنه ﷺ، ولا يلزم من حياته إذ ذاك حياتُه اليومَ، إلَّا أنَّه يكفي في ردِّ الخصم، إذ هو ينفي حياته إذ ذاك كما ينفي حياته اليومَ، نعم إذا كان عندنا مَن يُثبتها إذ ذاك وينفيها الآنَ لم ينفع ما ذُكر معه، لكن ليس عندنا مَن هو كذلك، وحكاياتُ الصالحين من التابعين والصوفية في الاجتماع به والأخذِ عنه في سائر الأعصار أكثرُ مَن أن تُحصَر، وأشهرُ مِن أن تذكر. نعم أجمع المحدِّثون القائلون بحياته عليه السلام على أنَّه ليس له روايةٌ عن النبيِّ ﷺ كما صرَّح به العراقيُّ في «تخريج أحاديث الإحياء»(٢).

وهذا خلافُ ما عند الصوفية فقد ادَّعى الشيخ علاء الدين استفادةَ الأحاديث النبوية عنه بلا واسطة. وذكر السهرورديُّ في «السرِّ المكتوم» أنَّ الخضرَ عليه السلام حدثنا بثلاث مئة حديث سمعه من النبيِّ ﷺ شِفاهاً.

واستدلَّ بعضُ الذاهبين إلى حياته الآن بالاستصحاب، فإنَّه قد تحقَّقت من قبلُ بالدليل، فتبقى على ذلك إلى أن يقومَ الدليلُ على خلافها، ولم يقم.

وأجابوا عما استدلَّ به الخصم مما تقدَّم:

فأجابوا عما ذكره البخاريُّ من الحديث الذي لا يُوجِبُ نفْيَ حياته في زمانه ﷺ، وإنما يُوجِب بظاهره نفيَها بعد مئة سنة من زمانِ القول = بأنَّه لم يكن حينئذٍ على ظهر الأرض، بل كان على وجه الماء، وبأنَّ الحديثَ عامٌّ فيما يشاهده الناس بدليلِ استثناء الملائكة عليهم السلام وإخراج الشيطان، وحاصلُه انخرامُ القرن الأول، نعم هو نصٌّ في الردِّ على مدَّعي التعمير كـ : رَتَن بن عبد الله الهنديِّ

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ١٦/ ٤٢٤، وقال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٢٥٩: هذا الخبر فيه مبهم، وفيه انقطاع (يعني بين ابن المنكدر وعمر) ولا يصح مثله.

(٢) على هامش إحياء علوم الدين ١/ ٣٣٦ و٣٥٢.

التبريزيِّ، الذي ظهر في القرن السابع وادَّعى الصحبة وروى الأحاديث(١).

وفيه أنَّ الظاهرَ ممن على ظهر الأرض مَن هو مِن أهل الأرض ومتوطِّنٌ فيها عرفاً، ولا شكَّ أنَّ هذا شاملٌ لمن كان في البحر، ولو لم يُعدَّ مَن في البحر ممن هو على ظهر الأرض لم يكن الحديث نصًّا في الردِّ على رتن وأضرابه، لجواز أن يكونوا حين القول في البحر، بل متى قيل هذا التأويلُ خرج كثيرٌ من الناس من عموم الحديث، وضَعُفَ العموم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥]. ولينظر في قول مَن قال: يحتمل أنَّه كان وقتَ القول في الهواء. ففيه أيضاً ما لا يخفى على الناظر.

ويَرِد على الجواب الثاني أنَّ الخضرَ لو كان موجوداً لكان ممن يُشاهده الناس، كما هو الأمر المعتاد في البشر، وكونه عليه السلام خارجاً عن ذلك لا يثبُت إلا بدليل، وأنّى هو؟ فتأمل.

وأجابوا عما قاله الشيخ ابن تيمية بأنَّ وجوبَ الإتيان ممنوعٌ، فكم من مؤمن به ﷺ في زمانه لم يأته عليه الصلاة والسلام، فهذا خيرُ التابعين أويس القرني ﵁، لم يتيسَّر له الإتيان والمرافقة في الجهاد ولا التعلُّم من غير واسطة، وكذا النجاشيُّ ﵁، على أنَّا نقول: إنَّ الخضر عليه السلام كان يأتيه ويتعلَّم منه ﷺ لكن على وجه الخفاء؛ لعدم كونه مأموراً بإتيان العلانية لحكمةٍ إلهيةٍ اقتضت ذلك.

وأما الحضورُ في الجهاد فقد روى ابن بشكوال في كتاب «المستغيثين بالله تعالى» عن عبد الله بن المبارك أنَّه قال: كنتُ في غزوة فوقع فرسي ميّتاً، فرأيتُ رجلاً حَسَن الوجه طَيِّب الرائحة قال: أتحبُّ أن تركَب فرسك؟ قلتُ: نعم. فوضع يدَه على جبهة الفرس حتى انتهى إلى مؤخَّره، وقال: أقسمتُ عليك أيتها العِلَّة بعزَّة عزَّة الله، وبعظمة عظمة الله، وبجلال جلال الله، وبقُدرة قدرة الله، وبسُلطان سلطان الله، وبلا إله إلا الله، وبما جرى به القلمُ من عند الله، وبلا حول ولا قوة

---

(١) رتن الهندي: قال الذهبي: شيخ دجال بلا ريب، ظهر بعد الست مئة، فادعى الصحبة، مات سنة (٦٣٢هـ)، ومع كونه كذاباً، رووا عنه جملة كبيرةً من أسمج الكذبِ المحال. ميزان الاعتدال ٢/ ٤٥، ولسان الميزان ٣/ ٤٥٧. وقد صنف الذهبي جزءاً في تبيين كذبه سماه: «كَسْرُ وَثَنِ رَتَن».

إلا بالله، إلا انصرفت. فوثَب الفرسُ قائماً بإذن الله تعالى وأخذ الرجلُ بركابي وقال: اركَبْ. فركِبتُ ولحقتُ بأصحابي، فلمَّا كان من غداة غدٍ، وظهرْنا على العدوِّ فإذا هو بين أيدينا، فقلت: ألستَ صاحبي بالأمس؟ قال: بلى. فقلتُ: سألتك بالله تعالى مَن أنت؟ فوثب قائماً فاهتزَّت الأرضُ تحته خضراء، فقال: أنا الخضر(١).

فهذا صريحٌ في أنه قد يحضر بعضَ المعارك.

وأما قوله ﷺ: في بدر: «اللَّهم إن تهلك هذه العصابةُ لا تعبد في الأرض»(٢)، فمعناه: لا تعبد على وجه الظهور والغلبة وقوَّة الأمَّة، وإلا فكم من مؤمنٍ كان بالمدينة وغيرها ولم يحضُر بدراً.

ولا يخفى أنَّ نظم الخضر عليه السلام في سلك أويس القرني والنجاشي وأضرابهما ممن لم يمكنه الإتيانُ إليه ﷺ بعيدٌ عن الإنصاف وإن لم نَقُلْ بوجوب الإتيان عليه عليه السلام، وكيف يقول مُنصِفٌ بإمامته ﷺ لجميع الأنبياء عليهم السلام واقتداءِ جميعهم به ليلةَ المعراج، ولا يرى لزومَ الإتيان على الخضر عليه السلام والاجتماع معه ﷺ، مع أنَّه لا مانعَ له من ذلك بحسب الظاهر، ومتى زعم أحدٌ أنَّ نسبتَه إلى نبينا ﷺ كنسبته إلى موسى عليه السلام فليجدِّد إسلامه. ودعوى أنَّه كان يأتي ويتعلَّم خفيةً لعدم أمره بذلك علانية لحكمةٍ إلهيةٍ مما لم يقم عليها الدليلُ، على أنه لو كان كذلك لذكره ﷺ ولو مرَّةً، وأين الدليل على الذكر؟ وأيضاً لا تظهر الحكمةُ في منعه عن الإتيانِ مرَّةً أو مرتين على نحو إتيان جبريل عليه السلام في صورة دحية الكلبيِّ رضي الله عنه، وإن قيل: إنَّ هذه الدعوى مجرَّدُ احتمال، قيل: لا يلتفت إلى مثله إلا عند الضرورة، ولا تتحقَّقُ إلا بعدَ تحقُّقِ وجودِه إذ ذاك بالدليل، ووجودُه كوجوده عندنا.

---

(١) عزاه لابن بشكوال الدَّميريُّ في حياة الحيوان ٢/ ٢١٩-٢٢٠. وابن بشكوال: خلف بن عبد الملك بن مسعود أبو القاسم القرطبي، حافظ الأندلس في عصره ومؤرخها ومسندها، حجة حافظ، ألَّف خمسين تأليفاً في أنواع العلم منها كتاب الصلة في علماء الأندلس، روى عن أبي بكر ابن العربي وطائفة، توفي سنة (٥٧٨ هـ). تاريخ الإسلام ١٢/ ٦١٢.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وسلف ١٠/ ٣٨.

وأما ما رُوِي عن ابن المبارك فلا نسلِّم ثبوته عنه، وأنتَ إذا أمعنتَ النظرَ في ألفاظ القصة استبعدتَ صحَّتها، ومن أنصف يعلم أنَّ حضورَه عليه السلام يوم قال النبيُّ ﷺ لسعد رضي الله عنه: «ارم، فداك أبي وأمي»[1] كان أهمَّ من حضوره مع ابن المبارك، واحتمالُ أنه حضر ولم يره أحدٌ أشبهُ شيءٍ بالسفسطة.

وأما ما ذكروه في معنى الحديث فلقائل أن يقول: إنه بعيدٌ، فإنَّ الظاهرَ منه نفْي أن يُعبَد سبحانه إن أهلك تلك العصابةَ مطلقاً، على معنى أنَّهم إن أُهلِكوا والإسلام غضٌّ ارتدَّ الباقون، ولم يكد يُؤمِن أحدٌ بعدُ، فلا يَعبُده سبحانه أحدٌ من البشر في الأرض حينئذٍ، وقد لا يوسَّط حديث الارتداد بأن يكون المعنى: اللهم إن تهلِك هذه العصابة الذين هم تاجُ رأس الاسلام استولى الكفارُ على سائر المسلمين بعدَهم فأهلكوهم، فلا يعبدُك أحدٌ من البشر حينئذٍ.

وأيًّاما كان فالاستدلال بالحديث على عدم وجود الخضر عليه السلام له وجهٌ، فإن أجابوا عنه بأنَّ المرادَ نفْيُ أن يشاهَد مَن يعبده تعالى بعدُ، والخضر عليه السلام لا يُشاهَد. وَرَدَ عليه ما تقدَّم.

وأجابوا عن الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء:٣٤] بأنَّ المرادَ من الخلد الدوامُ الأبديُّ، والقائلون بوجوده اليومَ لا يقولون بتأبيده، بل منهم مَن يقول: إنه يقاتِل الدجالَ ويموت. ومنهم من يقول: إنه يموت زمانَ رفع القرآن. ومنهم من يقول: إنه يموت في آخر الزمان. ومراده أحد هذين الأمرين أو ما يقاربهما.

وتعقِّب بأنَّ الخلد بمعنى الخلود، وهو على ما يقتضيه ظاهرُ قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧] حقيقةٌ في طولِ المكث، لا في دوام البقاء، فإنَّ الظاهرَ التأسيسُ لا التأكيد، وقد قال الراغب: كلُّ ما يتباطأ عنه التغييرُ والفسادُ تصفه العربُ بالخلود، كقولهم للأثافي: خوالد. وذلك لطول مكثها لا لدوامها وبقائها[2]. انتهى. وأنت تعلم قوَّةَ الجواب؛ لأنَّ المكثَ الطويل ثبت لبعض البشر كنوح عليه السلام.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥٥)، ومسلم (٢٤١٢) من حديث سعد رضي الله عنه، وسلف ٥/ ٢١.
(٢) المفردات (خلد).

وأجابوا عما نُقِل عن ابن الجوزي من الوجوه العقلية:

أما عن الأول من وجهَي فساد القول: بأنَّه ابنُ آدم عليه السلام بعد تسليم صحَّة الرواية، فبأنَّ البعدَ العادي لا يضرُّ القائل بتعميره هذه المدةَ المديدةَ؛ لأنَّ ذلك عندَه من خرق العادات.

وأما عن الثاني: فبأنَّ ما ذكر من عظم خلقة المتقدِّمين خارجٌ مخرج الغالب، وإلا فيأجوجُ ومأجوجُ من صلب يافث بن نوح، وفيهم مَن طولُه قَدْرَ شبرٍ كما رُوي في الآثار، على أنَّه لا بدعَ في أن يكون الخضرُ عليه السلام قد أُعطِيَ قوةَ التشكُّل والتصوُّر بأيِّ صورةٍ شاء كجبريل عليه الصلاة والسلام، وقد أثبت الصوفيةُ قُدِّست أسرارُهم هذه القوةَ للأولياء، ولهم في ذلك حكاياتٌ مشهورة.

وأنت تعلم أنَّ ما ذُكر عن يأجوج ومأجوج من أنَّ فيهم مَن طولُه قدرَ شبرٍ ـ بعد تسليمه ـ لقائل أن يقول فيه: إنَّ ذلك حين يفتح السدُّ، وهو في آخر الزمان ولا يتمُّ الاستنادُ بحالهم إلا إذا ثبت أنَّ فيهم مَن هو كذلك في الزمن القديم.

وما ذكر من إعطائه قوَّة التشكُّلِ احتمالٌ بعيدٌ، وفي ثبوته للأولياء خلافُ كثيرٍ من المحدِّثين. وقال بعض الناس: لو أعطي أحدٌ من البشر هذه القوَّةَ لأعطيها النبيُّ ﷺ يومَ الهجرة، فاستغنَى بها عن الغار وجعلَها حجاباً له عن الكفار، وللبحث في هذا مجالٌ.

وعن الثاني من الوجوه: بأنَّه لا يلزمُ مِن عدم نقلِ كونه في السفينة ـ إن قلنا بأنَّه عليه السلام كان قبل نوح عليه السلام ـ عدمُ وجوده؛ لجواز أنَّه كان ولم يُنقل، مع أنَّه يحتمل أن يكونَ قد رَكِب ولم يشاهَد. وهذا كما ترى.

وقال بعضُ الناس: إذا كان احتمالُ إعطاءِ قوَّة التشكُّلِ قائماً عند القائلين بالتعمير فليقولوا: يحتمل أنَّه عليه السلام قد تشكَّل فصار في غايةٍ من الطول بحيث خاض في الماء ولم يَحتج إلى الركوب في السفينة على نحوِ ما يزعمه أهلُ الخرافات في عوج بن عوق.

وأيضاً هم يقولون: له قدرةُ الكون في الهواء، فما منعهم من أن يقولوا بأنَّه

يحتمل أنَّه لم يركب وتحفَّظ عن الماء بالهواء، كما قالوا باحتمالِ أنَّه كان في الهواء، في الجواب عن حديث البخاريِّ[1].

وأيضاً ذكر بعضُهم عن العلامي[2] في تفسيره أنَّ الخضر يدور في البحار يهدي مَن ضلَّ فيها، وإلياس يدور في الجبال يهدي مَن ضلَّ فيها، هذا دأبُهما في النهار، وفي الليل يجتمعان عند سدِّ يأجوج ومأجوج يحفظانه، فلِمَ لم يقولوا: إنَّه عليه السلام بقي في البحر حين ركب غيرُه السفينةَ؟

ولعلهم إنما لم يقولوا ذلك لأنَّ ما ذكر قد رَوَى قريباً منه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن أنس مرفوعاً، ولفظه: «إنَّ الخضرَ في البحر، وإلياس في البرِّ، يجتمعان كلَّ ليلةٍ عند الردم الذي بناه ذو القرنين» الخبر[3]، وقد قالوا: إنَّ سندَه واهٍ.

أو: لأنَّهم لا يُثبِتون له هذه الخدمةَ الإلهية في ذلك الوقت، ويوشك أن يقولوا في إعطائه قوةَ التشكُّل والكون في الهواء كذلك.

وعن الثالث: بأنَّه لا نسلِّم الاتفاقَ على أنه مات كلُّ أهل السفينة، ولم يبق بعد الخروج منها غيرُ نسل نوح عليه السلام، والحصر في الآية إضافيٌّ بالنسبة إلى المكذِّبين بنوح عليه السلام.

وأيضاً المرادُ أنَّه مات كلُّ مَن كان ظاهراً مشاهداً غير نسله عليه السلام، بدليل أنَّ الشيطانَ كان أيضاً في السفينة.

وأيضاً المرادُ من الآية بقاءُ ذريته عليه السلام على وجه التناسُل، وهو لا ينفي بقاءَ مَن عداهم من غير تناسُلٍ، ونحن ندَّعي ذلك في الخضر.

على أنَّ القول بأنَّه كان قبل نوح عليهما السلام قولٌ ضعيفٌ، والمعتمد كونُه بعد ذلك، ولا يخفى ما في بعض ما ذكر من الكلام.

---

(١) في صحيحه برقم (١١٦) وسلف ص٤٣٦ من هذا الجزء.

(٢) هو قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي، له: فتح المنان في تفسير القرآن، توفي (٧١٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢٣٥.

(٣) زوائد مسند الحارث للهيثمي (٩٢٦)، وفيه: اليسع، بدل: الخضر، قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٣/ ٢٧٨، فيه ضعفٌ جدًا.

وعن الرابع: بأنه لا يلزم من كون تعميره من أعظم الآيات أن يُذكَر في القرآن العظيم كرَّاتٍ، وإنَّما ذكر سبحانه نوحاً عليه السلام تسليةً لنبينا ﷺ بما لاقى من قومه في هذه المدَّة مع بقائهم مصرِّين على الكفر حتى أُغرقوا، ولا توجد هذه الفائدةُ في ذكر عمر الخضر عليه السلام لو ذكر، على أنه قد يقال: مِن ذكر طول عمر نوح عليه السلام تصريحاً يُفهَم تجويزُ عمرٍ أطولَ من ذلك تلويحاً.

وتعقِّب بأنَّ لنا أن نعودَ فنقول: لا أقلَّ من أن يذكر هذا الأمرُ العظيم في القرآن العظيم مرَّة، لأنَّه من آيات الربوبية في النوعِ الإنسانيِّ، وليس المرادُ أنه يلزم عقلاً من كونه كذلك ذِكْرُه، بل ندَّعي أنَّ ذكرَ ذلك أمرٌ استحسانيٌّ، لا سيَّما وقد ذُكر تعميرُ عدوِّ الله تعالى إبليس عليه اللعنة، فإذا ذُكر يكون القرآن مشتملاً على ذكر معمَّرٍ من الجنِّ مُبعَدٍ، وذكرِ معمَّرٍ من الإنس مقرَّبٍ، ولا يخفى حُسنُه. وربَّما يقال: إنَّ فيه أيضاً إدخالَ السرور على النبيِّ ﷺ، وبأنَّ التجويزَ المذكورَ في حيِّز العلاوة مما لا كلامَ فيه، إنَّما الكلام في الوقوع، ودون إثباته الظفرُ بماء الحياة.

وأجابَ بعضُهم بأنَّ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إشارةً إلى طول عمره عليه السلام على ما سمعتَ عن بعضٍ في تفسيره. ورُدَّ بأنَّ تفسيرَه بذلك مبنيٌّ على القول بالتعمير، فإنْ قُبِلَ قُبِل، وإلا فلا.

وعن الخامس: بأنَّا نختار أنَّه ثابتٌ بالسنة، وقد تقدَّم لك طرفٌ منها.

وتعقِّب بما نقله علي القاري عن ابن قيم الجوزية أنَّه قال: إنَّ الأحاديثَ التي يذكر فيها الخضرُ عليه السلام وحياتُه كلُّها كذبٌ، ولا يصحُّ في حياته حديثٌ واحدٌ(١). ومن ادَّعى الصحَّةَ فعليه البيانُ.

وقيل: يكفي في ثبوته إجماعُ المشايخ العظام وجماهيرُ العلماء الأعلام، وقد نقل هذا الإجماعَ ابنُ الصلاح والنوويُّ(٢) وغيرهما من الأجلَّة الفخام.

وتعقِّب بأنَّ إجماع المشايخ غير مسلَّم، فقد نقل الشيخ صدر الدين إسحاق

(١) اللؤلؤ المرصوع للملا علي القاري ١/٨٨، وكلام ابن القيم في المنار المنيف ١/٦٧.
(٢) في شرح مسلم ١٥/١٣٦، وقد سلف ص٤٤٠ من هذا الجزء.

القونويُّ في «تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي»[(١)] أنَّ وجودَ الخضر عليه السلام في عالم المثال. وذهب عبد الرزاق الكاشي[(٢)] إلى أنَّ الخضر عبارةٌ عن البسط، وإلياس عن القبض. وذهب بعضُهم إلى أنَّ الخضريةَ رتبةٌ يتولّاها بعضُ الصالحين على قدم الخضر الذي كان في زمن موسى عليهما السلام. ومع وجود هذه الأقوال لا يتمُّ الإجماع، وكونُها غيرَ مقبولةٍ عند المحقِّقين منهم لا يتمِّمُه أيضاً، وإجماع جماهير العلماء على ما نقل ابنُ الصلاح والنوويُّ مسلَّم، لكنه ليس الإجماع الذي هو أحد الأدلة الشرعية، والخصم لا يقنع إلا به، وهو الذي نفاه، فأنّى بإثباته. ولعلَّ الخصمَ لا يعتبِرُ أيضاً إجماعَ المشايخ قدست أسرارهم إجماعاً هو أحدُ الأدلة.

وعن السادس: بأنَّ له علاماتٍ عند أهله ككون الأرضِ تخضرُّ عند قدمه، وأنَّ طولَ قدمه ذراعٌ، وربما يظهر منه بعضُ خوارق العادات مما يشهد بصدقه، على أنَّ المؤمنَ يصدِّق بقوله بناءً على حسن الظنِّ به، وقد شاع بين زاعمي رؤيته عليه السلام أنَّ من علاماتِه أنَّ إبهامَ يده اليمنى لا عظم فيه، وأنَّ بؤبؤ إحدى عينيه يتحرَّكُ كالزئبق.

وتعقِّب بأنَّه بأيِّ دليل ثبت أنَّ هذه علاماتُه؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. والذي ثبت في الحديث الصحيح أنَّه إنما سمِّي الخضر لأنَّه جلس على فروةٍ بيضاء، فإذا هي تهتزُّ من خلفه خضراءَ[(٣)]. وأين فيه ثبوتُ ذلك له دائماً؟ وكونُ طولِ قدمه ذراعاً إنما جاء في خبر محمد بن المنكدر السابق[(٤)] عن عمر بن الخطاب ﷺ، ولا نسلِّم صحتَه. على أنَّ زاعمي رؤيته يزعمون أنَّهم يرونه في صورٍ مختلفةٍ، ولا يكاد يستقرُّ له عليه السلام قدمٌ على صورةٍ واحدةٍ، وظهورُ الخوارق مشتركٌ بينه وبين غيره من أولياء الأمة، فيمكن أن يظهرَ وليٌّ خارقاً ويقول: أنا الخضر. مجازاً لأنه على قدمه، أو لاعتبارٍ آخر،

---

(١) رسالة فارسية في أصول المعارف وقواعد طور الولاية. كشف الظنون ١/ ٣٣٥.

(٢) هو كمال الدين أبو الغنائم عبد الرزاق بن جمال الدين الكاشي، المتوفى سنة (٧٣٠هـ)، من كتبه: اصطلاحات الصوفية، وتفسير اسمه: تأويلات القرآن. كشف الظنون ١/ ١٠٧ و٣٣٦.

(٣) صحيح البخاري (٣٤٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ص٤٣٣ من هذا الجزء.

(٤) ص٤٤٢ من هذا الجزء.

ويَدْعوه لذلك داعٍ شرعيٌّ، وقد صحَّ في حديث الهجرة[١] أنَّه ﷺ لمَّا قيل له: ممن القوم؟ قال: «منَ ماء» فظنَّ السائلُ أنَّ «ماء» اسمُ قبيلةٍ، ولم يَعنِ ﷺ إلَّا أنَّهم خُلِقوا من ماءٍ دافق.

وقد يقال للصوفي: إنَّ «أنا الخضرُ» مع ظهور الخوارق لا يُتيقَّن منه أنَّ القائلَ هو الخضرُ بالمعنى المتبادِر في نفس الأمر، لجواز أن يكونَ ذلك القائلُ ممن هو فانٍ فيه لاتحاد المشرب، وكثيراً ما يقول الفاني في شيخه: أنا فلانٌ. ويذكر اسمَ شيخه، وأيضاً متى وقع من بعضهم قولُ: أنا الحقُّ. و: ما في الجبة إلا الله. لم يبعُد أن يقعَ: أنا الخضر. وقد ثبت عن كثير منهم نظماً ونثراً قول: أنا آدمُ، أنا نوح، أنا إبراهيم، أنا موسى، أنا عيسى، أنا محمد، إلى غير ذلك مما لا يخفى عليك، وذكروا له محملاً صحيحاً عندهم، فليكن قولُ: أنا الخضر. ممن ليس بالخضر على هذا الطرز، ومع قيام هذا الاحتمال كيف يحصل اليقينُ؟ وحُسن الظنِّ لا يحصل منه ذلك.

وعن السابع: بأنَّا لا نسلِّم اجتماعَه بجَهَلة العبَّاد الخارجين عن الشريعة، ولا يلتفت إلى قولهم، فالكذَّابون الدجَّالون يكذبون على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، فلا يبعُد أن يكذبوا على الخضر عليه السلام، ويقولوا: قال، وجاء. إنَّما القولُ باجتماعه بأكابر الصوفية والعبَّاد المحافظين على الحدود الشرعية، فإنَّه قد شاع اجتماعُه بهم حتى إنَّ منهم مَن طلب الخضرُ مرافقتَه فأبى، ورُوي ذلك عن عليٍّ الخواص رحمة الله تعالى عليه في سفر حجِّه، وسُئل عن سبب إبائه فقال: خفت من النقص في توكُّلي حيث أعتمدُ على وجوده معي.

وتعقِّب بأنَّ اجتماعَه بهم واجتماعَهم به يحتمل أن يكونَ من قبيل ما يذكرونه من اجتماعهم بالنبيِّ ﷺ واجتماعه عليه الصلاة والسلام بهم، وذلك أنَّ الأرواحَ المقدَّسة قد تظهر متشكِّلة، ويجتمع بها الكاملون من العباد، وقد صحَّ أنه ﷺ رأى موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره[٢]، ورآه في السماء[٣]، ورآه يطوف

---

(١) الذي في سيرة ابن هشام ١/٦١٦ أنَّ هذا في غزوة بدرٍ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٥)، من حديث أنس، وسلف ص١٠٤ من هذا الجزء.

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧) من حديث مالك بن صعصعة ﷺ، وسلف ص١٠٤ من هذا الجزء.

بالبيت[١]. وادَّعى الشيخ الأكبر قدِّس سره الاجتماعَ مع أكثر الأنبياء عليهم السلام، لاسيما مع إدريس عليه السلام، فقد ذكر أنَّه اجتمع به مراراً وأخذ منه علماً كثيراً، بل قد يجتمع الكاملُ بمن لم يولَد بعد كالمهديِّ، وقد ذكر الشيخ الأكبر أيضاً اجتماعه معه، وهذا ظاهرٌ عند مَن يقول: إنَّ الأزلَ والأبد نقطةٌ واحدةٌ، والفرقُ بينهما بالاعتبار عند المتجرِّدين عن جلابيب أبدانهم، ولعلَّ كثرةَ هذا الظهور والتشكُّل من خصوصيات الخضر عليه السلام، ومع قيام هذا الاحتمال لا يحصل يقينٌ أيضاً بأنَّ الخضر المرئيَّ موجودٌ في الخارج كوجود سائر الناس فيه كما لا يخفى.

ومما ينبئ على اجتماعه عليه السلام بالكاملين من أهل الله تعالى بعضُ طرقِ إجازتنا بالصلاة البشيشية[٢] فإني أرويها من بعض الطرق عن شيخي علاء الدين علي أفندي الموصلي، عن شيخه ووالده صلاح الدين يوسف أفندي الموصلي، عن شيخه خاتمة المرشدين السيد علي البندنيجي، عن نبي الله تعالى الخضر عليه السلام، عن الوليِّ الكامل الشيخ عبد السلام بن بشيش قدِّس سره.

وعن الثامن: بأنَّا نسلِّم[٣] أنَّ القولَ بعدم إرساله ﷺ إليه عليه السلام كفرٌ، وبفرض أنَّه ليس بكفر هو قولٌ باطلٌ إجماعاً، ونختار أنَّه أتى وبايع، لكن باطناً حيث لا يشعُر به أحدٌ، وقد عدَّه جماعةٌ من أرباب الأصول في الصحابة. ولعلَّ عدم قبول روايته لعدم القطع في وجوده وشهوده في حال رؤيته. وهو كما ترى.

وعن التاسع: بأنَّه مجازفةٌ في الكلام، فإنَّه مِن أين يُعلَم نفْي ما ذكره من حضور الجهاد وغيره عن الخضر عليه السلام، مع أنَّ العالم بالعلم اللدنيِّ لا يكون مشتغلاً إلا بما علَّمه الله تعالى في كلِّ مكانٍ وزمانٍ بحسب ما يقتضي الأمرُ والشأن.

---

(١) لم نقف عليه، وعند البخاري (٣٤٤٠) من حديث ابن عمر أنه ﷺ رأى عيسى يطوف بالبيت، و(١٥٥٥) من حديث ابن عباس: «أما موسى: كأني أنظر إليه إذ انحدر في الوادي يلبِّي».

(٢) «البشيشية» ـ ورويت بالميم ـ هي صلاة على النبي ﷺ بألفاظ مخصوصة تنسب إلى عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر، أحد العارفين، قتله جماعة في سنة (٦٢٢هـ). جامع كرامات الأولياء ٢/ ٦٩، والأعلام ٤/ ٩.

(٣) في (م): لا نسلِّم. وهو خطأ.

وتعقّب بأنَّ النفْي مستندٌ إلى عدم الدليل، فنحن نقول به إلى أن يقوم الدليل، ولعله لا يقوم حتى يقومَ الناسُ لرب العالمين، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في العلم اللدنيِّ والعالم به.

وبالجملة قد ظهر لك حالُ معظم أدلَّة الفريقين وبقي ما استدلَّ به البعضُ من الاستصحاب، وأنت تعلم أنه حجةٌ عند الشافعيِّ والمزنيِّ وأبي بكر الصيرفيِّ[1] في كل شيء نفياً وإثباتاً ثبت تحقُّقه بدليلٍ ثم وقع الشك في بقائه إن لم يقع ظنٌّ بعدمه، وأما عندنا وكذا عند المتكلِّمين فهو من الحجَج القاصرة التي لا تصلح للإثبات، وإنما تصلح للدفع بمعنى أن لا يثبُت حكم، وعدمُ الحكم مستندٌ إلى عدم دليله، والأصلُ في العدم الاستمرارُ حتى يظهر دليلُ الوجود، فالمفقود يرث عنده لا عندنا؛ لأنَّ الإرث من باب الإثبات، فلا يثبت به ولا يورث، لأنَّ عدم الإرث من باب الدفع فيثبت به، ويتفرَّعُ على هذا الخلافِ فروعٌ أُخَرُ ليس هذا محلُّ ذكرها.

وإذا كان حكم الاستصحاب عندنا ما ذكر فاستدلال الحنفيِّ به على إثبات حياة الخضر عليه السلام اليومَ، وأنَّها متيقَّنةٌ لا يخلو عن شيء، بل استدلال الشافعيِّ به على ذلك أيضاً كذلك، بناءً على أنَّ صحةَ الاستدلال به مشروط بعدم وقوع ظنٍّ بالعدم، فإنَّ العادةَ قاضيةٌ بعدم بقاء الآدميِّ تلك المدةَ المديدةَ والأحقابَ العديدة.

وقد قيل: إنَّ العادةَ دليلٌ معتبرٌ، ولولا ذلك لم يُؤثِّر خرقُ العادة بالمعجزة في وجوب الاعتقاد والاتباع، فإن لم تُفِد يقيناً بالعدم فيما نحن فيه أفادت الظنَّ به، فلا يتحقَّق شرطُ صحة الاستدلال، وعلى هذا فالمعوَّل عليه الخالصُ من شوب الكدر الاستدلالُ بأحد الأدلة الأربعة، وقد علمتَ حالَ استدلالهم بالكتاب والسنة وما سمَّوه إجماعاً، وأما الاستدلالُ بالقياس هنا فمما لا يُقدِمُ عليه عاقلٌ فضلاً عن فاضلٍ.

ثم اعلم بعد كلِّ حسابٍ أنَّ الأخبار الصحيحة النبوية والمقدِّماتِ الراجحةَ العقليةَ تُساعِد القائلين بوفاته عليه السلام أيَّ مساعدةٍ، وتعاضدُهم على دعواهم أيَّ معاضدةٍ، ولا مقتضي للعدول عن ظواهر تلك الأخبار إلَّا مراعاةُ ظواهرِ الحكايات المرويةِ ـ والله تعالى أعلم بصحتها ـ عن بعض الصالحين الأخيار، وحسنُ الظنِّ

(١) هو محمد بن عبد الله الصيرفي، الفقيه الأصولي، الشافعي، توفي بمصر سنة (٣٣٠هـ).

ببعض السادة الصوفية، فإنهم قالوا بوجوده إلى آخر الزمان على وجهٍ لا يقبل التأويلَ السابق، ففي الباب الثالث والسبعين من «الفتوحات المكية»:

اعلم أنَّ لله تعالى في كلِّ نوع من المخلوقات خصائصَ وصَفْوةً، وأعلى الخواصِّ فيه من العباد الرسلُ عليهم السلام، ولهم مقامُ الرسالة والنبوة والولاية والإيمان، فهم أركانُ بيت هذا النوع، والرسولُ أفضلُهم مقاماً وأعلاهم حالاً، بمعنى أنَّ المقامَ الذي أُرسل منه أعلى منزلةً عند الله تعالى من سائر المقامات، وهم الأقطاب والأئمة والأوتاد الذين يحفظ الله تعالى بهم العالم ويصون بهم بيتَ الدين القائم بالأركان الأربعة: الرسالة والنبوة والولاية والإيمان، والرسالةُ هي الركن الجامعُ، وهي المقصودةُ من هذا النوع، فلا يخلو من أن يكونَ فيه رسولٌ كما لا يزال دين الله تعالى، وذلك الرسول هو القطب الذي هو موضعُ نظر الحقِّ، وبه يبقى النوعُ في هذه الدار ولو كفر الجميعُ، ولا يصحُّ هذا الاسم على إنسان إلا أن يكونَ ذا جسم طبيعيٍّ وروحٍ، ويكون موجوداً في هذا النوع في هذه الدار بجسده وروحه يتغذَّى وهو مجلَّى الحقِّ من آدم عليه السلام إلى يوم القيامة.

ولمَّا توفي رسول الله ﷺ بعد ما قرَّر الدينَ الذي لا يُنسخ والشرع الذي لا يُبدَّل، ودخل الرسلُ كلُّهم عليهم السلام في ذلك الدين، وكانت الأرض لا تخلو من رسول حسيٍّ بجسمه لأنه قطبُ العالم الإنساني، وإن تعدَّد الرسلُ كان واحد منهم هو المقصود = أبقى الله تعالى بعد وفاته عليه الصلاة والسلام من الرسل الأحياء بأجسادهم في هذه الدار أربعةً: إدريسَ وإلياس وعيسى والخضر عليهم السلام، والثلاثة الأُوَل متفقٌ عليهم، والأخير مختلفٌ فيه عند غيرنا لا عندَنا، فأسكن سبحانه إدريسَ في السماء الرابعة، وهي وسائر السماوات السبع من الدار الدنيا؛ لأنها تتبدَّل في الدار الأخرى كما تتبدَّل هذه النشأةُ الترابيةُ مِنَّا بنشأة أخرى، وأبقى الآخرين في الأرض، فهم كلُّهم باقُون بأجسامهم في الدار الدنيا، وكلُّهم الأوتاد، واثنان منهم الإمامان، وواحدٌ منهم القطبُ الذي هو موضع نظر الحقِّ من العالم، وهو ركنُ الحجر الأسود من أركان بيت الدين، فما زال المرسَلون ولا يزالون في هذه الدار إلى يوم القيامة، وإن كانوا على شرع نبينا ﷺ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وبالواحد منهم يحفظ الله تعالى الإيمانَ، وبالثاني الولايةَ، وبالثالث النبوةَ، وبالرابع الرسالةَ، وبالمجموع الدينَ الحنفيَّ، والقطبُ من هؤلاء لا يموت أبداً، أي: لا يصعَقُ. وهذه المعرفةُ لا يعرفها من أهل طريقتنا إلا الأفراد الأمَناء، ولكلٍّ واحدٍ منهم من هذه الأمة في كلِّ زمان شخصٌ على قلبه مع وجودِهم ويقال لهم: النُّوَّاب، وأكثر الأولياء من عامة أصحابنا لا يعرفون إلا أولئكَ النوَّابَ، ولا يعرفون أولئك المرسَلين، ولذا يتطاوَلُ كلُّ واحدٍ من الأمة لنيل مقام القطبية والإمامية والوتدية، فإذا خُصُّوا بها عرفوا أنَّهم نُوَّابٌ عن أولئك المرسلين عليهم السلام.

ومن كرامة نبيِّنا ﷺ أن جعل مِن أمته وأتباعه رسلاً، وإن لم يُرسَلوا، فهم من أهل هذا المقام الذي منه يُرسَلون وقد كانوا أُرسِلوا، فلهذا صلى ﷺ ليلةَ الإسراء بالأنبياء عليهم السلام لتصحَّ له الإمامةُ على الجميع حيًّا بجسمانيته وجسمه، فلمَّا انتقل عليه الصلاة والسلام بقي الأمرُ محفوظاً بهؤلاء الرسُل عليهم السلام، فثبت الدينُ قائماً بحمد الله تعالى وإن ظهر الفسادُ في العالم، إلى أن يرثَ الله تعالى الأرضَ ومَن عليها، وهذه نكتةٌ فاعرف قدرَها فإنك لا تراها في كلام أحدٍ غيرنا. ولولا ما أُلقي عندي مِن إظهارها ما أظهرتُها لسرٍّ يعلمه الله تعالى ما أعلَمَنا به. ولا يَعرِف ما ذكرناه إلا نوابهم دون غيرهم من الأولياء، فاحمدوا الله تعالى يا إخواننا، حيث جعلكم الله تعالى ممن قرع سمعَه أسرارُ الله تعالى المخبوءةُ في خلقه، التي اختصَّ بها مَن شاء من عباده، فكُونُوا لها قابلين، وبها مؤمنين، ولا تُحرَموا التصديقَ بها فتُحرَموا خيرَها(١). انتهى.

وعلم منه القول برسالة الخضر عليه السلام وهو قولٌ مرجوحٌ عند جمهور العلماء، والقولُ بحياته وبقائه إلى يوم القيامة، وكذا بقاء عيسى عليه السلام، والمشهورُ أنَّه بعد نزوله إلى الأرض يتزوَّج ويُولَد له، ويُتوفَّى ويُدفَن في الحجرة الشريفة مع رسول الله ﷺ، وليُنظر ما وجهُ قولِه قدِّس سرُّه بإبقاء عيسى عليه السلام في الأرض، وهو اليومَ في السماء كإدريس عليه السلام.

ثم إنك إن اعتبرتَ مثل هذه الأقوال وتلقَّيتَها بالقبول لمجرَّد جلالة قائِلها

---

(١) الفتوحات المكية ٢/ ٥-٦.

وحُسن الظنّ فيه فقل بحياة الخضر عليه السلام إلى يوم القيامة، وإن لم تَعتبِر ذلك وجعلتَ الدليلَ وجوداً وعدماً مداراً للقبول والردِّ، ولم تغُرَّك جلالةُ القائل ـ إذ كلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويردُّ ما عدا رسول الله ﷺ، وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: لا تنظر إلى مَن قال، وانظر ما قال ـ فاستفتِ قلبك بعد الوقوف على أدلَّة الطرفين، وما لها وما عليها، ثم اعمل بما يفتيك.

وأنا أرى كثيراً من الناس اليومَ بل في كثير من الأعصار يُسمُّون مَن يخالف الصوفية في أيِّ أمرٍ ذهبوا إليه: منكِراً، ويعدُّونه سيِّئ العقيدة، ويعتقدون بمن يوافقهم ويؤمن بقولهم الخيرَ، وفي كلام الصوفية أيضاً نحو هذا، فقد نقل الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه في الباب السابق عن أبي يزيد البسطاميِّ قدِّس سرُّه أنه قال لأبي موسى الدبيلي(١): يا أبا موسى، إذا رأيتَ مَن يؤمن بكلام أهل هذه الطريقة فقل له يدعو لك، فإنه مجابُ الدعوة(٢).

وذكر أيضاً أنه سمع أبا عمران موسى بن عمران الإشبيلي يقول لأبي القاسم بن عفير الخطيب، وقد أنكر ما يذكر أهلُ الطريقة: يا أبا القاسم، لا تفعل، فإنك إن فعلتَ هذا جمعنا بين حرمانين لا ندري ذلك من نفوسنا، ولا نؤمن به مِن غيرنا، وما ثَمَّ دليلٌ يردُّه ولا قادحٌ يقدح فيه شرعاً أو عقلاً. انتهى.

ويُفهم منه أنَّ ما يردُّه الدليل الشرعيُّ أو العقليُّ لا يقبل، وهو الذي إليه أذهب وبه أقول، وأسأل الله تعالى أن يوفقني وإياك لكلِّ ما هو مرضيٌّ لديه سبحانه ومقبول.

والتنوين في قوله تعالى: (رَحْمَةً) للتفخيم، وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: علماً لا يُكتنه كنهُه ولا يقادَرُ قدرُه، وهو علمُ الغيوب وأسرارُ العلوم الخفية، وذكر «لدنا» قيل: لأنَّ العلمَ مِن أخصِّ صفاته تعالى الذاتية، وقد قالوا: إنَّ القدرةَ لا تتعلَّقُ بشيءٍ ما لم تتعلَّق الإرادةُ، وهي لا تتعلَّق ما لم يتعلَّق العلم، فالشيء يُعلَم أوَّلاً، فيراد، فتتعلَّق به القدرةُ فيوجد.

---

(١) هو ابن أخت أبي يزيد البسطامي، ينظر الطيوريات (١١٤٠).

(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٦.

وذُكر أنَّه يفهم من فحوى «من لدنا» أو من تقديمه على «علماً» اختصاصُ ذلك بالله تعالى، كأنه قيل: علماً يختصُّ بنا، ولا يُعلَم إلا بتوفيقنا(١)، وفي اختيارِ «علَّمناه» على «آتيناه» من الإشارة إلى تعظيم أمر هذا العلم ما فيه.

وهذا التعليم يحتمل أن يكونَ بواسطة الوحي المسموع بلسان الملك، وهو القسم الأولُ من أقسام الوحي الظاهريِّ، كما وقع لنبينا ﷺ في إخباره عن الغيب الذي أوحاه الله تعالى إليه في القرآن الكريم، وأن يكون بواسطةِ الوحي الحاصل بإشارة الملك من غير بيانٍ بالكلام، وهو القسم الثاني من ذلك، ويسمَّى بالنفث كما في حديث: «إنَّ روح القدس نفث في رُوعي أنَّه لن تموتَ نفسٌ حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله تعالى وأجمِلوا في الطلب»(٢).

والإلهامُ على ما يشير إليه بعض عباراتِ القوم من هذا النوع، ويُثبِتون له مَلَكاً يسمونه مَلَكَ الإلهام، ويكون للأنبياء عليهم السلام ولغيرهم بالإجماع، ولهم في الوقوف على المغيَّبات طرقٌ تتشعَّبُ من تزكية الباطن.

والآية عندهم أصلٌ في إثبات العلم اللَّدنيِّ، وشاع إطلاقُ علمِ الحقيقة والعلمِ الباطن عليه، ولم يَرتضِ بعضُهم هذا الإطلاقَ، وقال العارف بالله تعالى الشيخ عبد الوهاب الشعرانيُّ عليه الرحمة في كتابه المسمَّى بـ «الدرر المنثورة في بيان زبد العلوم المشهورة» ما لفظه: وأما زُبدةُ علم التصوُّف الذي وضع القومُ فيه رسائلَهم فهو نتيجة العمل بالكتاب والسنة، فمن عمِل بما علم تكلَّم بما تكلَّموا، وصار جميعُ ما قالوه بعضَ ما عنده؛ لأنَّه كلَّما ترقَّى العبد في باب الأدب مع الله تعالى دقَّ كلامُه على الأفهام، حتى قال بعضهم لشيخه: إنَّ كلامَ أخي فلان يدقُّ عليَّ فهمه، فقال: لأنَّ لك قميصين، وله قميصٌ واحد، فهو أعلى مرتبةً منك، وهذا هو الذي دعا الفقهاءَ ونحوَهم من أهل الحجاب إلى تسمية علم الصوفية بالعلم الباطن، وليس ذلك بباطنٍ، إذ الباطنُ إنما هو علمُ الله تعالى، وأما جميعُ ما علَّمه

---

(١) في الأصل و(م): بتوقيفنا، وهو تحريف، والمثبت من تفسير البيضاوي ٦/ ١١٩ (بهامش حاشية الشهاب) والكلام منه.

(٢) أخرجه الشهاب في مسنده (١١٥١) عن ابن مسعود بهذا اللفظ، وأخرجه البزار (٢٩١٤) من حديث حذيفة بلفظ: «. . . هذا رسول رب العالمين جبريل نفث في روعي. . .».

الخلقَ على اختلاف طبقاتهم فهو من العلم الظاهر، لأنَّه ظهر للخلق فاعلم ذلك[١]. انتهى.

والحقُّ أنَّ إطلاقَ العلم الباطن اصطلاحاً على ما وقفوا عليه صحيح، ولا مشاحَّةَ في الاصطلاح، ووجهُه أنه غيرُ ظاهرٍ على أكثر الناس، ويتوقَّف حصولُه على القوَّة القدسية دون المقدِّمات الفكرية، وإن كان كلُّ علم يتصف بكونه باطناً وكونه ظاهراً بالنسبة للجاهل به والعالم به، وهذا كإطلاقِ «العلم الغريب» على علم الأوفاق والطِّلَّسمات والجفر[٢]، وذلك لقلَّةِ وجوده والعارفين به، فاعرف ذلك.

وزعم بعضُهم أنَّ أحكامَ العلم الباطن وعلمِ الحقيقة مخالفةٌ لأحكام الظاهر وعلم الشريعة، وهو زعمٌ باطلٌ عاطلٌ، وخيالٌ فاسدٌ كاسدٌ، وسيأتي إن شاء الله تعالى نقلُ نصوص القوم فيما يردُّه، وأنّه لا مستندَ لهم في قصة موسى والخضر عليهما السلام.

وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو: «لَدُنَا» بتخفيف النون[٣]، وهي إحدى اللغات في «لَدُنْ».

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من السياق، كأنه قيل: فما جرى بينهما من الكلام؟ فقيل: قال له موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ استئذانٌ منه عليه السلام في اتباعه له بشرط التعليم، ويُفهَم ذلك من «على» فقد قال الأصوليون: إنَّ «على» قد تُستَعمل في معنًى يُفهَم منه كونُ ما بعدها شرطاً لِمَا قبلها، كقوله تعالى: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ﴾ [الممتحنة:١٢] أي: بشرط عدم الإشراك، وكونُها للشرط بمنزلة الحقيقة عند الفقهاء كما في «التلويح»، لأنَّها في أصل الوضع للإلزام، والجزاءُ لازمٌ للشرط، ويلوح بهذا أيضاً كلامُ الفناري في

(١) الدرر المنثورة ص ٥٦، وسلف ٤/ ١١٧ و٧/ ٣١٣.

(٢) علم الأوفاق من فروع علم العدد، والوفق جداول مربعة، لها بيوت مربعة، يوضع في تلك البيوت أرقام عددية، أو حروف بدل العدد بشروط، وتترتب عليه آثار وتصرفات عجيبة. أبجد العلوم ٢/ ٧٩ وسلف الكلام عن الطلمسات ٢/ ٣٦٧، وعن الجفر ٤/ ٢١٦.

(٣) البحر ٦/ ١٤٧.

«بدائع الأصول»، وهو ظاهرٌ في أنها ليست حقيقةً في الشرط، وذكر السرخسيُّ[١] أنَّه معنًى حقيقيٌّ لها، لكن النحاةَ لم يتعرَّضُوا له، وقد تردَّد السبكيُّ في وُرُوده في كلام العرب، والحقُّ أنَّه استعمالٌ صحيحٌ يشهدُ به الكتابُ، حقيقةً كان أو مجازاً، ولا ينافي انفهامُ الشرطية تعلُّقَ الحرف بالفعل الذي قبله؛ كما قالوا فيما ذكرنا من الآية، كما أنَّه لا ينافيه تعلُّقَه بمحذوفٍ يقع حالاً كما قيل به هنا، فيكون المعنى: هل أتبعك باذلاً تعليمَك إياي؟ ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝﴾ أي: علماً ذا رُشدٍ، وهو إصابةُ الخير.

وقرأ أبو عمرو والحسن والزهريُّ وأبو بحرية وابن محيصن وابن مناذر ويعقوب وأبو عبيد واليزيديُّ: «رَشَداً» بفتحتين[٢]، وأكثرُ السبعة بالضمِّ والسكون[٣]، وهما لغتان كالبُخْل والبَخَل.

ونصبُه في الأصل على أنه صفةٌ للمفعول الثاني لـ «تعلِّمني»، ووُصِف به للمبالغة، لكن أقيم مقامَه بعد حذفه، والمفعول الثاني لـ «عُلِّمت» الضمير العائد على «ما» الموصولة، أي: مِن الذي عُلِّمته، والفعلان مأخوذان من «عَلِمَ» المتعدِّي إلى مفعول واحد.

وجوِّز أن يكون «مما علِّمتَ» هو المفعول الثاني لـ «تعلِّمني»، و«رشدا» بدلٌ منه، وهو خلافُ الظاهر. وأن يكون «رشداً» مفعولاً له لـ «أتبعك»، أي: هل أتبعك لأجل إصابة الخير، فيتعيَّن أن يكونَ المفعولُ الثاني لـ «تعلِّمني» «مما علِّمت»؛ لتأويله بـ: بعض ما عُلِّمت، أو: علماً مما علِّمت. وأن يكون مصدراً بإضمار فعله ـ أي: أَرْشُد رشداً ـ والجملة استئنافية والمفعول الثاني «مما علمت» أيضاً.

واستشكل طلبه عليه السلام بأنه رسولٌ من أولي العزم، فكيف يتعلَّم من غيره، والرسولُ لا بدَّ أن يكونَ أعلمَ أهل زمانه؟ ومن هنا قال نوف وأضرابه: إنَّ موسى هذا ليس هو ابن عمران[٤]. وإن كان ظاهر إطلاقه يقتضي أن يكونَ إياه.

---

(١) في أصوله ١/ ٢٢٢.

(٢) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١١-٣١٢ عن أبي عمرو ويعقوب، والكلام من البحر ٦/ ١٤٨.

(٣) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١٢.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠) (١٧٠).

وأجيب بأنَّ اللازمَ في الرسول أن يكونَ أعلم في العقائد وما يتعلَّق بشريعته، لا مطلقاً، ولذا قال نبينا ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[1]. فلا يضرُّ في منصبه أن يتعلَّم علوماً غيبيةً وأسراراً خفيةً لا تعلُّقَ لها بذلك من غيره، لا سيما إذا كان ذلك الغير نبيًّا أو رسولاً أيضاً، كما قيل في الخضر عليه السلام، ونظيرُ ما ذكر من وجهٍ تعلُّمُ عالمٍ مجتهدٍ كأبي حنيفة والشافعيِّ رضي الله عنهما علمَ الجفر مثلاً ممن دونه، فإنَّه لا يخلُّ بمقامه، وإنكارُ ذلك مكابرة.

ولا يَرِدُ على هذا أنَّ علمَ الغيب ليس علماً ذا رُشدٍ، أي: إصابةِ خيرٍ، وموسى عليه السلام كان بصددِ تعلُّم علم يصيب به خيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وقال بعضهم: اللازم كونُ الرسول أعلمَ من أمته، والخضر عليه السلام نبيٌّ لم يُرسَل إليه، ولا هو مأمورٌ باتباع شريعته، فلا ينكَر تفرُّدُه بما لم يعلمه غيرُه، ولا يخفى أنَّه على هذا ليس الخضرُ عليه السلام من بني إسرائيل؛ لأنَّ الظاهرَ إرسالُ موسى عليه السلام إليهم جميعاً. كذا قيل.

ثم إنَّ الذي أميل إليه أنَّ لموسى عليه السلام علماً بعلم الحقيقة المسمَّى بالعلم الباطن والعلم اللدني، إلا أنَّ الخضر أعلم به منه، وللخضر عليه السلام سواءٌ كان نبيًّا أو رسولاً علماً بعلم الشريعة المسمَّى بالعلم الظاهر، إلا أنَّ موسى عليه السلام أعلمُ به منه، فكلٌّ منهما أعلمُ مِن صاحبه من وجهٍ، ونعت الخضر عليه السلام في الأحاديث السابقة بأنَّه أعلمُ من موسى عليه السلام، ليس على معنى أنه أعلمُ منه من كلِّ وجهٍ، بل على معنى أنه أعلمُ من بعض الوجوه وفي بعض العلوم، لكن لمَّا كان الكلامُ خارجاً مخرج العتب والتأديب أُخرِج على وجهٍ ظاهرُه العمومُ، ونظيرُ هذا آياتُ الوعيد على ما قيل من أنها مقيَّدةٌ بالمشيئة؛ لكنها لم تُذكر لمزيد الإرهاب.

وأفعل التفضيل وإن كان للزيادة في حقيقة الفعل إلا أنَّ ذلك على وجهٍ يعمُّ الزيادةَ في فردٍ منه، ويدلُّ على ذلك صحةُ التقييد بقسم خاصٍّ، كما تقول: زيد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه، وسلف ١٤/ ٢٦٣.

أعلمُ من عمرو في الطبِّ، وعمرو أعلم منه في الفلاحة. ولو كان معناه الزيادةَ في مطلق العلم كان قولك: زيدٌ أعلمُ من عمرو، مستلزماً لأن لا يكونَ عمرو أعلمَ منه في شيء من العلوم، فلا يصحُّ تفضيلُ عمرو عليه في علم الفلاحة، وإنكارُ صدق الأعلم المطلق مع صدق المقيد التزامٌ لصدق المقيَّد بدون المطلق، وقد جاء إطلاقُ أفعل التفضيل والمرادُ منه التفضيلُ من وجهٍ على ما ذكره الشيخ ابن الحاجب في «أمالي القرآن» ضمنَ عدادِ الأوجه في حلِّ الإشكال المشهور في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف:٤٨] من أنَّ المراد: إلا هي أكبرُ من أختها من وجه، ثم قال: وقد يكون الشيئان كلٌّ واحدٍ منهما أفضلُ من الآخر من وجه.

وقد أشبع الكلامَ في هذا المقام مولانا جلال الدين الدواني فيما كتبه على «الشرح الجديد للتجريد» وحقَّقه بما لا مزيد عليه.

ومما يدلُّ على أنَّ لموسى عليه السلام علماً ليس عند الخضر عليه السلام ما أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ من حديث ابن عباس مرفوعاً، أن الخضر عليه السلام قال: «يا موسى، إني على عِلْم من عِلْم الله تعالى علَّمنيه، لا تعلمه أنت، وأنتَ على علمٍ من علم الله تعالى علَّمكه الله سبحانه لا أعلمه»(١).

وأنت تعلم أنه لو لم يكن قولُه تعالى لموسى عليه السلام المذكورُ في الأحاديث السابقة: «إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلمُ منك»(٢). على معنى: أعلم في بعض العلوم، بل كان على معنى: أعلم في كلِّ العلوم، أَشْكَلَ الجمعَ بينه وبين ما ذكرنا من كلام الخضر عليه السلام.

ثم على ما ذكرنا ينبغي أن يراد من العلم الذي ذكر الخضرُ أنه يعلمه هو ولا يعلمه موسى عليهما السلام بعضُ علم الحقيقة، ومن العلم الذي ذكر أنه يعلمه موسى ولا يعلمه هو عليهما السلام بعضُ علم الشريعة، فلكلٍّ من موسى

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠)، وسنن الترمذي (٣١٤٩)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٢٤٥) وهي قطعة من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب ﷺ، وهو عند أحمد (٢١١١٤).

(٢) المصادر السابقة.

والخضر عليهما السلام علمٌ بالشريعة والحقيقة إلا أنَّ موسى عليه السلام أزيَدُ بعلم الشريعة، والخضرَ عليه السلام أزيَدُ بعلم الحقيقة، ولكن نظراً للحالة الحاضرة كما ستعلم وجهَه إن شاء الله تعالى، وعدمُ علم كلٍّ ببعضِ ما عند صاحبه لا يضرُّ بمقامه.

وينبغي أن يُحمَل قولُ مَن قال كالجلال السيوطيِّ: ما جُمِعت الحقيقةُ والشريعةُ إلا لنبينا ﷺ، ولم يكن للأنبياء إلا أحدُهما = على معنى أنَّها ما جُمعت على الوجه الأكمل إلا له ﷺ، ولم يكن للأنبياء عليهم السلام على ذلك الوجه إلا أحدهما.

والحملُ على أنَّهما لم يُجمَعا على وجه الأمر بالتبليغ إلا لنبينا ﷺ، فإنه عليه الصلاة والسلام مأمورٌ بتبليغ الحقيقة كما هو مأمورٌ بتبليغ الشريعة لكن للمستعدِّين لذلك = لا يخلو عن شيء.

ويُفهَم من كلام بعض الأكابر أنَّ علم الحقيقة من علوم الولاية، وحينئذٍ لا بدَّ أن يكون لكل نبيٍّ حظٌّ منه، ولا يلزم التساوي في علومها. ففي «الجواهر والدرر»: قلتُ للخواص عليه الرحمة: هل يتفاضَل الرسلُ في العلم؟ فقال: العلم تابعٌ للرسالة، فإنَّه ليس عند كلِّ رسولٍ من العلم إلا بقدرِ ما تحتاج إليه أمتُه فقط. فقلتُ له: هذا من حيث كونهم رسلاً، فهل حالُهم من حيث كونهم أولياء كذلك؟ فقال: لا، قد يكون لأحدهم من علوم الولاية ما هو أكثر من علوم ولايةِ أولي العزم من الرسل الذين هم أعلى منهم. انتهى.

وأنا أرى أنَّ ما يحصُل لهم من علم الحقيقة ـ بناءً على القول بأنه من علوم الولاية ـ أكثرُ مما يحصل للأولياء الذين ليسوا بأنبياء. ولا تراني أُفضِّل وليًّا ليس بنبيٍّ في علم الحقيقة على وليٍّ هو نبيٌّ، ولا أقول بولاية الخضر عليه السلام دون نبوته، وقائلو ذلك يلزمهم ظاهراً القولُ بأنَّ ما عنده من علم الحقيقة مع كونه وليًّا أكثرُ مما عند موسى عليه السلام منه، إن أثبتوا له عليه السلام شيئاً من ذلك مع كونه نبيًّا، ولكنهم لا يرون في ذلك حطًّا لقدر موسى عليه السلام. وظاهرُ كلام بعضهم أنَّه عليه السلام لم يُؤتَ شيئاً من علم الحقيقة أصلاً، ومع هذا لا ينحطُّ قَدْرُه عن قَدْرِ الخضر عليهما السلام إذ له جهاتُ فضلٍ أُخَرُ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقُ ما يقوله الذاهبون إلى ولايته عليه السلام.

ثم ما أراه أنا ولله تعالى الحمدُ أبعدُ عن القول بما نقل عن بعض الصوفية من أنَّ الولايةَ مطلقاً أفضلُ من النبوَّةِ، وإن كان الوليُّ لا يبلُغ درجةَ النبيِّ. وهو مردودٌ عند المحقِّقين بلا تردُّد، نعم، قد يقع تردُّدٌ في نبوة النبيِّ وولايته أيهما أفضل؟ فمن قائلٍ بأنَّ نبوتَه أفضلُ من ولايته، ومن قائلٍ بأنَّ ولايتَه أفضل. واختار هذا بعضُ العرفاء معلِّلاً له بأنَّ نبوةَ التشريع متعلِّقةٌ بمصلحة الوقت، والولايةُ لا تعلُّقَ لها بوقتٍ دون وقتٍ، وهي في النبيِّ على غاية الكمال. والمختارُ عندي الأول.

وقد ضلَّ الكراميةُ في هذا المقام فزعموا أنَّ الوليَّ قد يبلغ درجة النبيِّ بل أعلى، وردُّه ظاهرٌ، والاستدلالُ له بما في هذه القصة بناءً على القول بولاية الخضر عليه السلام ليس بشيء كما لا يخفى.

هذا، ولا يخفى على مَن له أدنى ذوقٍ بأساليب الكلام ما راعاه[١] موسى عليه السلام في سوق كلامه على علوِّ مقامه من غايةِ التواضُع مع الخضر عليه السلام، ونهايةِ الأدب واللطف، وقد عدَّ الإمامُ من ذلك أنواعاً كثيرةً أوصلها إلى اثني عشر نوعاً، إن أردتَها فارجع إلى تفسيره[٢]، وسيأتي إن شاء الله عزَّ وجلَّ ما تدلُّ عليه هذه الآيةُ في سرد ما تدلُّ عليه آياتُ القصة بأسرها مما ذكر في كتب الحديث وغيرها.

﴿قَالَ﴾ أي: الخضرُ لموسى عليهما السلام: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ نفيٌ لأن يصبرَ معه على أبلغ وجهٍ، حيث جيء بـ «إنَّ» المفيدةِ للتأكيد، وبـ «لن» ونفيُها آكدُ من نفي غيرها، وعُدِل عن: لن تصبر، إلى «لن تستطيع» المفيدِ لنفي الصبر بطريقٍ برهانيٍّ؛ لأنَّ الاستطاعةَ مما يَتوقَّف عليه الفعلُ فيلزم من نفيِه نفيُه، ونُكِّر «صبراً» في سياق النفي وذلك يفيدُ العمومَ، أي: لا تصبر معي أصلاً شيئاً من الصبر، وعلَّلَ ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ إيذاناً بأنَّه عليه السلام يتولَّى أموراً خفيَّةَ المدار[٣] منكَرةَ الظواهرِ، والرجلُ الصالح لا سيَّما صاحبُ الشريعة لا يتمالَكُ أن يشمئزَّ عند مشاهدَتِها، وكأنه عَلِم مع ذلك حدَّةَ موسى عليه السلام ومزيدَ غيرته التي أوصلته إلى أن أخَذَ برأس أخيه يجرُّه.

---

(١) في الأصل: رعاه. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٦/ ١١٩، والكلام منه.
(٢) ٢١/ ١٥١.
(٣) في (م): المراد، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٤، والكلام منه.

ونصبُ «خُبراً» على التمييز المحوَّلِ عن الفاعل، والأصلُ: ما لم يُحِط به خُبرُك، وهو من «خَبر» الثلاثيِّ من باب نصر وعلم، ومعناه: عَرَف، وجوَّز أن يكون مصدراً وناصبُه «تُحِطْ»، لأنَّه يلاقيه في المعنى؛ لأنَّ الإحاطةَ تُطلَق إطلاقاً شائعاً على المعرفةِ، فكأنَّه قيل: لم تَخْبَرْه خبراً.

وقرأ الحسن وابن هرمز «خُبُرا» بضم الباء[1].

واستدلوا بالآية كما قال الإمام[2] وغيرُه على أنَّ الاستطاعةَ لا تحصُل قبلَ الفعل، قالوا: لو كانت الاستطاعةُ حاصلةً قبلَ حصول الفعل لكانت الاستطاعةُ على الصبر حاصلةً قبلَ حصول الصبر، فيكون نفيُها كذباً، وهو باطلٌ، فتعيَّن أن لا تكون قبلَ الفعل.

وأجاب الجبائيُّ بأنَّ المرادَ من هذا القول أنَّه يثقُل عليك الصبرُ، كما يقال في العرف: إنَّ فلاناً لا يستطيع أن يرى فلاناً وأن يُجالِسَه. إذا كان يثقُل عليه ذلك[3].

وتعقَّبه الإمامُ بأنَّه عدولٌ عن الظاهرِ، وأيَّد الاستدلالَ بما أيّد.

والإنصاف أنَّ الاستدلالَ بها على ما ذكر غيرُ ظاهرٍ؛ لأنَّ المراد ليس إلا نفْيَ الصبر بنفْي مَا يتوقَّف هو عليه، أعني: الاستطاعة، وهذا حاصلٌ سواء كانت حاصلةً قبلُ أو مقارنةً، ثم إنَّ القولَ بأنَّ الاستطاعةَ قبل الفعل ليس خاصًّا بالمعتزلة، بل المفهوم من كلام الشيخ إبراهيم الكوراني أنه مذهبُ السلف أيضاً، وتحقيقُ ذلك في محله.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غيرَ معترضٍ عليك ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ۝٦٩﴾ عطفٌ على «صابراً»، والفعلُ يُعطَف على المفرد المشتقِّ كما في قوله تعالى ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك:١٩] بتأويلِ أحدهما بالآخر، والأَولى فيما نحن فيه التأويلُ في جانب المعطوف، أي: ستجدني صابراً وغيرَ عاصٍ، وفي وعدِ هذا الوجدان من المبالغة ما ليس في الوعد بنفس الصبر وترك

---

(١) البحر ٦/١٤٨.

(٢) في التفسير الكبير ٢١/١٥٢.

(٣) المصدر السابق، والكلام وما بعده منه.

العصيان، أو على «ستجدني»، والجملةُ على الأول في محل نصبٍ لأنها معطوفةٌ على المفعول الثاني للوجدان، وعلى الثاني لا محلَّ لها من الإعراب على ما في «الكشاف»(١).

واستشكل بأنَّ الظاهرَ أنَّ محلَّها النصبُ أيضاً لتقدُّم القول. وأجيب بأنَّ مقولَ القول هو مجموعُ المعطوف والمعطوفِ عليه، فلا يكون لأجزائه محلٌّ باعتبار الأصل.

وقيل: مرادُ الزمخشريِّ بيانُ حال العطف في القول المحكيِّ عن موسى عليه السلام. وقيل: مرادُه أنَّه ليس مؤوَّلاً بمفردٍ كما في الأول. وقيل: إنَّه مبنيٌّ على أنَّ مقول القول محذوفٌ وهذه الجملة مفسِّرةٌ له.

والظاهرُ الجواب الأول. وأوَّلُ الوجهين في العطف هو الأَوْلَى؛ لِمَا عرفتَ، ولظهور تعلُّقِ المعطوف بالاستثناء عليه. وذكر المشيئةِ إن كان للتعليق فلا إشكال في عدم تحقُّق ما وعد به.

ولا يقال إنه عليه السلام أخلف وعدَه وإن كان للتيمُّن، فإن قلنا: إنَّ الوعدَ كالوعيد إنشاءٌ لا يحتمل الصدق والكذب، أو إنَّه مقيَّدٌ بقيدٍ يُعلم بقرينة المقام كـ: إن أردتُ، أو: إن لم يمنع مانعٌ شرعيٌّ، أو غيره = فكذلك لا إشكال.

وإن قلنا: إنه خبرٌ، وإنه ليس على نية التقييد، جاء الإشكالُ ظاهراً، فإنَّ الخُلف حينئذٍ كَذِبٌ، وهو غيرُ لائق بمقام النبوة لمنافاته العصمة.

وأجيب بأنَّ ما صدر منه عليه السلام في المرتين الأخيرتين كان نسياناً كما في المرَّةِ الأولى، ولا يضرُّ مثلُ هذا الخلف بمقام النبوة؛ لأنَّ النسيان عذرٌ.

وتعقِّب بأنَّه لا نسلِّم النسيانَ في المرتين الأخيرتين، ففي البخاري وشرحه لابن حجر: «وكانت الأولى نسياناً، والثانيةُ شرطاً، والثالثة عمداً». وفي رواية: «والثانيةُ عمداً والثالثةُ فراقاً»(٢).

---

(١) ٢/ ٤٩٣.

(٢) الرواية الأولى في صحيح البخاري (٤٧٢٦)، والثانية أخرجها ابن مردويه كما ذكر الحافظ في فتح الباري ٨/ ٤١٩، وفيه: عذر، بدل: عمد.

وقال بعضُهم: لك أن تقول: لم يقع منه عليه السلام ما يُخلُّ بمقامه؛ لأنَّ الخُلفَ في المرة الأولى معفوٌّ عنه، وحيث وقع لم تكن الأخيرتان خلفاً. وفيه تأمُّلٌ.

وقال القشيريُّ: إنَّ موسى عليه السلام وَعَد من نفسه بشيئين: بالصبر وقَرَنه بالمشيئة، فصبر فيما كان من الخضر عليه السلام من الفعل، وبأنْ لا يعصيه، فأطلَقَ ولم يَقرنه بالمشيئة، فعصاه حيث قال: «فلا تسألني»، فكان يسأله، فما قرنه بالاستثناء لم يُخلِف فيه، وما أطلقه وقع فيه الخُلف(١). انتهى.

وهو مبنيٌّ على أنَّ العطف على «ستجدني»، وقد علمتَ أنه خلافُ الأولى، وأيضاً المرادُ بالصبر الثباتُ والإقرارُ على الفعل وعدمُ الاعتراض، كما يُنبئ عنه المحاورةُ الآتية، وهو لم يتحقَّق منه عليه السلام، وأيضاً يبقى الكلامُ في الخلف كما لا يخفى، وأنت تعلم أنه يبعُد من حال موسى عليه السلام القطعُ بالصبر وعدمِ عصيان الأمر بعد أن أشار له الخضر عليه السلام أنه سيصدُر منه أمورٌ منكَرةٌ مخالِفةٌ لقضيةِ شريعته، فلا يبعُد منه اعتبارُ التعليق في الجملتين، ولم يأت به بعدَهما بل وسَّطه بين مفعولي الوجدان من الجملة الأولى لمزيد الاعتناء بشأنه، وبه يرتفع الإشكال من غير احتياج إلى القيل والقال، وفيه دليلٌ على أنَّ أفعالَ العبد بمشيئته تعالى لأنه إذا صدر بعض الأفعال الاختيارية بمشيئته سبحانه لزم صدورُ الكلِّ بها؛ إذ لا قائلَ بالفرق.

والمعتزلةُ اختاروا أنَّ ذكرَ المشيئة للتيمُّن، وهو لا يدلُّ على ما ذكر، وقال بعضُ المحققين: إنَّ الاستدلالَ جارٍ أيضاً على احتمال التيمُّن؛ لأنَّه لا وجهَ للتيمُّن بما لا حقيقةَ له، وقد أشار إلى ذلك الإمامُ(٢) أيضاً فافهم، وقد استَدَلَّ بالآية على أن الأمرَ للوجوب، وفيه نظرٌ.

ثم إنَّ الظاهرَ أنَّه لم يُرَد بالأمر مقابلُ النهي، بل أريد مطلقُ الطلب، وحاصلُ الآية نَفْي أن يعصيَه في كلِّ ما يطلبه.

---

(١) لطائف الإشارات ٢/ ٤٠٩.

(٢) في التفسير الكبير ٢١/ ١٥٣.

﴿قَالَ﴾ الخضر عليه السلام: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ إذنٌ له عليه السلام في الاتباع بعد اللتيَّا والتي، والفاءُ لتفريع الشرطية على ما مرَّ من وعد موسى عليه السلام بالصبر والطاعة.

﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾ تُشاهِده من أفعالي فضلاً عن المناقشة والاعتراض ﴿حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ۝٧٠﴾ أي: حتى أبتَدِئَك ببيانه. والغايةُ ـ على ما قيل ـ مضروبةٌ لِمَا يُفهَم من الكلام، كأنه قيل: أنكِرْ بقلبك على ما أفعل حتى أبيِّنه لك، أو هي لتأبيد تركِ السؤال، فإنه لا ينبغي السؤالُ بعد البيان بالطريق الأولى، وعلى الوجهين فيها إيذانٌ بأنَّ كلَّ ما يصدُر عنه فله حكمةٌ وغايةٌ حميدةٌ البتةَ.

وقيل: «حتى» للتعليل، وليسَ بشيء.

وقرأ نافع وابن عامر: «فلا تسئَلَنِّي» بالنون المثقَّلة مع الهمز[(1)]، وعن أبي جعفر: «فلا تَسَلَنِّي» بفتح السين واللام والنون المثقَّلة من غير همز[(2)].

وكلُّ القراء كما قال أبو بكر[(3)] بياءٍ في آخره، وعن ابن عامر[(4)] في حذف الياء خلافٌ غريبٌ.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي: موسى والخضرُ عليهما السلام، ولم يُضمَّ يوشع عليه السلام لأنه في حكم التبع، وقيل: ردَّه موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل.

أخرج البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن ابن عباس مرفوعاً: «أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرَّت بهما سفينةٌ، فكلَّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضرَ فحملوهما بغير نَولٍ»[(5)].

---

(١) التيسير ص١٤٢.
(٢) البحر ٦/ ١٤٧، وفي النشر ٢/ ٣١٢ أنَّه قرأ مثل قراءة نافع وابن عامر.
(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أبو علي، كما في البحر ٦/ ١٤٨.
(٤) في الأصل و(م): ابن عباس رضي الله عنهما، والمثبت من البحر ٦/ ١٤٨ والكلام منه، والقراء العشرة أجمعوا على إثبات الياء ما عدا ابن ذكوان (الراوي عن ابن عامر)، فروي عنه الإثبات والحذف في الحالين. التيسير ص١٤٧، والنشر ٢/ ٣١٢.
(٥) صحيح البخاري (٤٧٢٧)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٠) ومسند أحمد (٢١١١٤).

وفي رواية ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس: أنَّ أهل السفينة ظنُّوا أنَّهم لصوصٌ لأنَّ المكان كان مخوفاً فأبوا أن يحملوهم، فقال كبيرُهم: إني أرى رِجالاً على وجوههم النورُ، لأحملنَّهم. فحملهم[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ «أل» فيها لتعريف الجنس؛ إذ لم يتقدَّم عهدٌ في سفينةٍ مخصوصةٍ، وكانت ـ على ما في بعض الروايات ـ سفينةً جديدةً وثيقةً لم يمرَّ بهما من السفن سفينةٌ أحسنُ منها ولا أجملُ ولا أوثق[2]. وكانت أيضاً على ما يدلُّ عليه بعضُ الروايات الصحيحة من سفن صغارٍ يُحمل بها أهلُ هذا الساحل إلى أهل الساحل الآخر[3]. وفي رواية أبي حاتم أنَّها كانت ذاهبةً إلى أيلة.

وصحَّ: أنهما حينَ رَكِبا جاء عصفورٌ حتى وقع على حرف السفينة، ثم نقر في البحر، فقال له الخضر: «ما نَقَصَ عِلْمي وعِلْمُك من عِلْم الله تعالى إلَّا مثلَ ما نقص هذا العصفورُ من البحر»[4]. وهو جارٍ مَجرى التمثيل.

واستعمالُ الركوب في أمثال هذه المواقع بكلمة «في» مع تجريده عنها في مثل قوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨] على ما يقتضيه تعديتُه بنفسه، قد مرَّت الإشارة إلى وجهه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ [هود:٤١].

وقيل: إنَّ ذلك لإرادة معنى الدخول؛ كأنه قيل: حتى إذا دخلا في السفينة.

﴿خَرَقَهَا﴾ صحَّ أنهما لمَّا ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواحها بالقدوم، فقال له موسى عليه السلام: قومٌ حملونا بغير نَولٍ عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتَها[5].

وصحَّ أيضاً أنه عليه السلام خرقها ووَتَد فيها وتداً[6].

وقيل: قلع لَوْحَيْن مما يلي الماء.

---

(١) عزاه لابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/٢٣٨.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/٣٢٨ عن ابن عباس عن أُبيّ.
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٢٦)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٤) صحيح البخاري (٤٧٢٧)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠).
(٥) صحيح البخاري (٤٧٢٥) و(٤٧٢٧)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٦) صحيح البخاري (٤٧٢٦)، وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.

وفي رواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً: «أنَّهما لمَّا ركبا واطمأنَّا فيها ولجَّجَت بهما مع أهلها أخرج مثقاباً له ومِطرَقةً، ثم عَمد إلى ناحيةٍ منها، فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها، ثم أخذ لوحاً فطبَّقه عليها، ثم جلس عليها يَرقَعُها»[(١)].

وهذه الرواية ظاهرةٌ في أنَّ خرْقَه إياها كان حين وصولها إلى لُجِّ البحر، وهو معظمُ مائه، وفي الرواية عن الربيع أنَّ أهلَ السفينة حملوهما فساروا حتى إذا شارفوا على الأرض خرقها[(٢)]. ويمكن الجمع بأنَّ أولَ العزم كان وهي في اللُّجِّ، وتمامُ الفعل كان وقد شارفت على الأرض.

وظاهرُ الأخبار يقتضي أنه عليه السلام خرقها وأهلُها فيها، وهو ظاهرُ قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، سواءٌ كانت اللام للعاقبة بناءً على أنَّ موسى عليه السلام حَسَّنَ الظنَّ بالخضر، أو للتعليل بناءً على أنه الأنسب بمقام الإنكار، وبعضهم لم يجوِّز هذا توهُّماً منه أنَّ فيه سوءَ أدبٍ، وليس كذلك، بل يوشك أن يتعيَّن كونُها للتعليل لأنَّ الظاهرَ بناءُ الجواب عليه كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى.

وفي حديث أخرجه عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه قال: «فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة فخرج مَن كان فيها، وتخلَّف ليخرقها، فقال له موسى: تخرقها لتُغرق أهلها؟ فقال له الخضر ما قصَّ الله تعالى»[(٣)].

وهذا ظاهرٌ في أنَّه عزم على الخرق فاعترض عليه موسى عليه السلام، وهو خلاف ما تقتضيه الآية، فإن أُوِّل بأنه بتقدير: وتخلَّف ليخرقها فخرقها، وأنَّ تعبيرَ موسى عليه السلام بالمضارع استحضاراً للصورة، أو قيل بأنَّه وقع من الخضر

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير ١٥/٣٢٨، من حديث ابن عباس عن أبيٍّ، وفي إسناده: الحسن بن عمارة وهو متروك. وقوله: لجَّجت، أي: فاضت اللُّجَّة، بالضمِّ، وهي معظم الماء. تاج العروس (لجج).

(٢) سلف تخريجه ص ٤٦١.

(٣) مسند عبد بن حميد (١٦٩)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢)، وهو عند أحمد (٢١١١٨)، ولم يسق مسلم لفظه.

عليه السلام أولاً تصميمٌ على الخرق وتهيئةٌ لأسبابه، وثانياً خرقٌ بالفعل، ووقع من موسى عليه السلام اعتراضٌ على الأوَّل أوَّلاً، وعلى الثاني ثانياً، فنُقِل في الحديث أوَّلُ ما وقع من كلٍّ في هذه المادَّةِ، وفي الآية ثاني ما وقع من كلٍّ فيها = بقي بين ظاهر الحديث وظاهر الآية مخالفةٌ أيضاً = على ما قيل، من حيث إنَّ الأولَ يقتضي أنَّ أهلَ السفينة لم يكونوا فيها إذ خُرقت، والثاني يقتضي أنَّهم كانوا فيها حينئذٍ.

وأجيب أنَّه ليس في الحديث أكثرُ من أنَّهم خرجوا منها وتخلَّف للخرق، وليس فيه أنهم خرجوا فخرقها، فيمكن أن يكونَ عليه السلام تخلَّف للخرق إذ خرجوا، لكنه لم يفعله إلا بعد رجوعهم إليها وحصولهم فيها.

وأنتَ تعلم أنَّه ينافي هذا ما قيل في وجه الجمع بين الرواية عن سعيد والرواية عن الربيع؛ وبالجملة الجمعُ بين الأخبار الثلاثة وبينها وبين الآية صعبٌ، وقال بعضهم في ذلك: إنَّه يحتمل أنَّ السفينةَ لمَّا لجَّجت بهم صادفوا جزيرةً في اللُّجِّ فخرجوا لبعض حوائجهم وتخلَّف الخضرُ عازماً على الخرق ومعه موسى عليه السلام، فأحسَّ منه ذلك، فعجَّل بالاعتراض، ثم رجع أهلُها وركبوا فيها، والعزم هو العزم، فأخذ عليه السلام في مباشرةِ ما عزم عليه ولم يشعُر موسى عليه السلام حتى تمَّ، وقد شارفت على الأرض. ولا يخفى ما في ذلك من البعد.

وذكر بعضُهم أنَّ ظاهرَ الآية يقتضي أنَّ خرقَه إياها وقع عقب الركوب؛ لأنَّ الجزاءَ يعقب الشرطَ.

وأجيب بأنَّ ذلك ليس بلازم، وإنما اللازم تسبُّبُ الجزاء عن الشرط ووقوعه بعده، ألا تراك تقول: إذا خرج زيدٌ على السلطان قتله، وإذا أعطيتَ السلطان قصيدةً أعطاك جائزةً. مع أنَّه كثيراً ما لا يعقب القتلُ الخروجَ، والإعطاءُ الإعطاءَ، وقد صرَّح ابنُ الحاجب بأنَّه لا يلزم وقوعُ الشرط والجزاءِ في زمانٍ واحدٍ؛ فيقال: إذا جئتني اليومَ أُكرمك غداً، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦] ومَن التزم ذلك كالرضي جعل الزمان المدلولَ عليه بـ «إذا» ممتدًا، وقدَّر في الآية المذكورة: أإذا ما متُّ وصرتُ رميماً، وعليه أيضاً لا يلزم التعقيبُ.

نعم، قال بعضُهم: إنَّ خبرَ «لمَّا ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضرُ قد قلع لوحاً من ألواحها»(١) يدلُّ على تعقيب الخرق للركوب، وأيضاً جَعْلُ غايةِ انطلاقهما مضمونَ الجملة الشرطية يقتضي ذلك؛ إذ لو كان الخرقُ متراخياً عن الركوب لم يكن غايةُ الانطلاق مضمونَ الجملة؛ لعدم انتهائه به.

وأجيب بأنَّ المبادرةَ التي دلَّ عليها الخبر عرفيَّةٌ(٢)، بمعنى أنه لم تمضِ أيام ونحوه، وبأنَّه لا مانعَ من كون الغاية أمراً ممتدًّا، ويكون انتهاءُ المغيَّا بابتدائه؛ كقولك: ملك فلانٌ حتى كانت سنةُ كذا ملكه. فتأمَّل.

ثم إنَّ في القلب من صحة رواية الربيع شيئاً، والله تعالى أعلم بصحَّتها.

والظاهر أنَّ أهل السفينة لم يروه لمَّا باشر خَرْقَها، وإلا لمَا مكَّنوه، وقد نصَّ على ذلك علي القاري، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية من طريق حماد بن زيد، عن شعيب بن الحبحاب أنَّه قال: كان الخضر عبداً لا تراه إلا عينُ مَن أراد الله تعالى أن يُريه إياه، فلم يره مِن القوم إلا موسى عليه السلام، ولو رآه القوم لحالوا بينه وبين خرق السفينة، وكذا بينه وبين قتل الغلام(٣). وليس هذا بالمرفوع، والله تعالى أعلم بصحته. نعم، سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً عن الربيع أيضاً أنَّهم علموا بعد ذلك أنَّه الفاعل.

والظاهر أيضاً أنَّ موسى عليه السلام لم يُرِد إدراجَ نفسه الشريفة في قوله: «لتغرق أهلها»، وإن كان صالحاً لأن يدرج فيه بناءً على أنَّ المراد من «أهلها» الراكبين فيها.

وقرأ الحسن وأبو رجاء: «لتُغرِّق» بالتشديد، لتكثير المفعول(٤).

وقرأ حمزة والكسائيُّ وزيد بن عليٍّ والأعمش وطلحة وابن أبي ليلى وخلف وأبو عبيد وابن سعدان وابن عيسى الأصبهانيُّ: «ليغرَق أهلُها» على إسناد الفعل إلى

---

(١) سلف ص٤٦٨.

(٢) في (م): عرفته، وهو خطأ.

(٣) عزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطيُّ في الدر ٤/ ٢٣٦.

(٤) القراءات الشاذة ص٨١.

الأهل[1]، وكونُ اللام على هذه القراءة للعاقبة ظاهرٌ جدًّا.

﴿لَقَدْ جِئْتَ﴾ أتيتَ وفعلتَ ﴿شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ أي: داهياً منكَراً، من أَمِر الأمرُ، بمعنى كَثُر، قاله الكسائيُّ، فأصله: كثيرٌ، والعربُ ـ كما قال ابن جني في «سر الصناعة» ـ تصف الدواهي بالكثرة[2]. وهو عند بعضهم في الأصل على وزن «كَبِد» فخُفِّف. قيل: ولم يقل: أمراً إِمْراً، مع ما فيه من التجنيس؛ لأنَّه تكلُّفٌ لا يلتفت إلى مثله في الكلام البليغ، كما صرَّح به الإمام المرزوقي في شرح قول السموءل:

يقرِّب حبُّ الموتِ آجالَنا لنا ... وتكرهُه آجالُهم فتطولُ

ردًّا لاختيارِ بعضهم رواية: يقصِّر حبُّ الموت، وأيَّد ذلك بقول أبي ذؤيب الهذليِّ:

وشيكَ الفُصول بعيدَ القُفُول

حيث أمكن له أن يقول: بطيء القفول، ولم يقل[3].

وربما يقال هنا: إنَّه لم يقل ذلك لِمَا ذكر مع إيهامه خلافَ المراد، وقصورِه عن درجةِ ما في النظم الجليل من زيادةِ التفظيع. وفي الرواية عن الربيع أنَّ موسى عليه السلام لمَّا رأى من الخضر ما رأى امتلأ غضباً وشدَّ عليه ثيابَه وأراد أن يقذف الخضرَ عليه السلام في البحر، فقال: أردتَ هلاكَهم فستعلم أنك أولُ هالكٍ. وجعل كلَّما ازداد غضباً استعر البحرُ، وكلَّما سكن كان البحرُ كالدهن، وأنَّ يوشع بن نون قال له: ألا تذكر العهدَ والميثاق الذي جعلتَ على نفسك، وأنَّ الخضر عليه السلام أقبل عليه يذكِّره ما قاله من قبل ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾[4] وهو متضمِّنٌ للإنكار على عدمِ وقوع الصبر منه عليه السلام، فأدركه عند ذلك الحلمُ.

---

(١) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١٢ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٦/ ١٤٩.

(٢) سرّ صناعة الإعراب ص٦٢٣، وقول الكسائي فيه.

(٣) شرح ديوان الحماسة ١/ ١١٦، وقيل: البيت للحارثي، والسموءل: هو ابن عاديا اليهودي، صاحب الحصن المعروف بالأبلق، يضرب به المثل في الوفاء. الأغاني ٢٢/ ١١٧، وبيت أبي ذؤيب في شرح ديوان الهذليين ١/ ٣٠٣، وتمامه: إلّا مُشاحاً به أو مُشِيحا.

(٤) عزاه السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٨ لابن أبي حاتم، وقد سلف ص٤٦٨.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ اعتذارٌ بنسيان الوصية على أبلغ وجهٍ؛ كأنَّ نسيانَه أمرٌ محقَّقٌ عند الخضر عليه السلام لا يحتاج أن يفيدَه إياه استقلالاً، وإنما يُلتَمس منه تركُ المؤاخذة به، فـ «ما» مصدريةٌ، والباء صلةُ المؤاخذة، أي: لا تؤاخذ بنسياني وصيتَك في ترك السؤال عن شيءٍ حتى تُحدِثَ لي منه ذكراً، والتَمَسَ تركَ المؤاخذة بالنسيان لأنَّ الكاملَ قد يُؤاخَذ به، وهي مؤاخذةٌ بقلة التحفُّظ التي أدَّت إليه كما وقعت لأول ناسٍ وهو أولُ الناس، وإلا فالمؤاخذةُ به نفسه لا تصحّ؛ لأنَّه غيرُ مقدور.

وقيل: الباءُ للسببية وهي متعلِّقةٌ بالفعل، والنسيانُ وإن لم يكن سبباً قريباً للمؤاخَذة، بل السبب القريبُ لها هو ترك العمل بالوصية، لكنه سببٌ بعيدٌ؛ لأنَّه لولاه لم يكن التركُ.

وجوِّز أن تكونَ متعلِّقةً بمعنى النهي، كما قيل في «بنعمة ربك» من قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [ن:٢]: إنَّه متعلِّق بمعنى النفي، فيكون النسيانُ سبباً للنهي عن المؤاخذة بترك العمل بالوصية. وزعم بعضُهم تعيُّنَ كونِها للملابسة.

ويجوز في «ما» أن تكونَ موصولةً، وأن تكونَ موصوفةً، أي: لا تؤاخذني بالذي - أو بشيء - نسيتُه، وهو الوصيةُ، لكن يحتاج هذا ظاهراً إلى تقدير مضافٍ، أي: بتركِ ما نسيتُه، لأنَّ المؤاخذة بترك الوصية، أي: تركِ العمل بها، لا بنفس الوصية.

وقيل: قد لا يحتاج إلى تقدير المضاف، فإنَّ الوصية سببٌ للمؤاخذة، إذ لولاها لم يكن تركُ العلم ولا المؤاخذةُ، ونظيرُ ذلك ما قيل في قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠] ثمَّ كونُ ما ذُكر اعتذاراً بنسيان الوصية هو الظاهرُ، وقد صح في البخاري: أنَّ المرة الأولى كانت نسياناً[١].

وزعم بعضهم أنَّه يحتمل أنَّه عليه السلام لم ينسَ الوصية، وإنما نهى عن مؤاخذته بالنسيان مُوهِماً أنَّ ما صدر منه كان عن نسيانها مع أنَّه إنَّما عنى نسيانَ شيءٍ آخر، وهذا من مَعاريض الكلام التي يُتَّقى بها الكذبُ مع التوسُّل إلى

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٢٦).

الغرض، كقول إبراهيم عليه السلام: «هذه أختي»، و«إني سقيم»[(١)]. وروى هذا ابنُ جرير عن أبي بن كعب وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٢)].

وجوَّز أن يكون النسيانُ مجازاً عن الترك، أي: لا تؤاخذني بما تركتُ من وصيتك أوَّلَ مرة.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾ لا تغْشَني[(٣)] ولا تحمِّلني ﴿مِنْ أَمْرِى﴾ وهو اتِّباعه إياه ﴿عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: صعوبةً، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «تُرْهِقْني»، والمراد: لا تُعسِّر عليَّ متابعتك ويَسِّرها عليَّ بالإغضاء وترك المناقشة.

وقرأ أبو جعفر: «عُسُراً» بضمَّتين[(٤)].

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ الفاء فصيحة، أي: فقبل عذرَه، فخرجا من السفينة فانطلقا يمشيان على الساحل، كما في الصحيح[(٥)]، وفي رواية «أنَّهما مرَّا بقرية»[(٦)].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ يزعمون ـ كما قال البخاريُّ ـ أنَّ اسمَه: جيسور، بالجيم، ورُوي بالحاء[(٧)]، وقيل: إن اسمه جنبتور[(٨)]، وقيل غير ذلك. وصحَّ أنه كان يلعب مع الغلمان، وكانوا ـ على ما قيل ـ عشرةٌ، وأنه لم يكن فيهم أحسنُ ولا أنظفُ منه فأخذه[(٩)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد سلف ١/ ٤٣٢.

(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٣٣٨. ولم نقف على رواية ابن أبي حاتم. وذكره عن ابن عباس أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢/ ٣٠٧.

(٣) من غشيَه كذا: إذا عرض له، وهو تفسير للإرهاق. حاشية الشهاب ٦/ ١٢١-١٢٢.

(٤) النشر ٢/ ٢١٦، وإتحاف الفضلاء ص١٨٥، والبدور الزاهرة ص١٩٤، وتحرف في مطبوع النشر إلى: أبي عمرو.

(٥) صحيح البخاري (٤٧٢٥)، وصحيح مسلم (٢٣٨٠) (١٧٠).

(٦) مسند أحمد (٢١١١٤)، وسنده صحيح على شرط الشيخين.

(٧) في مطبوع البخاري (٤٧٢٦) وفتح الباري ٨/ ٤٢٠ بالحاء، وقال الحافظ: وفي رواية بالجيم.

(٨) القاموس المحيط (جبر).

(٩) في صحيح البخاري (٤٧٢٦) «غلاماً كافرا ظريفاً»، وفي مسند أحمد (٢١١١٨) «ليس في الغلمان غلام أنظف منه» وليس فيهما أنهم عشرة، وينظر تفسير الطبري ١٥/ ٣٢٨.

﴿فَقَنَلَهُۥ﴾ أخرج البخاريُّ في روايةٍ: «أنَّه عليه السلام أخذ برأسه من أعلاه فاقتلعه بيده»(١). وفي رواية أخرى «أنه أخذه فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين»(٢). وقيل: ضرب رأسه بالجدار حتى قتله. وقيل: رضَّه بحَجَر(٣). وقيل: ضربه برجله فقتله. وقيل: أدخل أصبعه في سُرَّته فاقتلعها فمات.

وجُمع بين الروايات الثلاث الأُوَل بأنه ضرب رأسَه بالجدار أولاً، ثم أضجعه وذبحه، ثم اقتلع رأسه، وربما يجمع بين الكلِّ، وفي كلا الجمعين بُعدٌ.

والظاهر أنَّ الغلام لم يكن بالغاً؛ لأنه حقيقةُ الغلام الشائعةُ في الاستعمال، وإلى ذلك ذهب الجمهور، وقيل: كان بالغاً شابًّا، وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز أنه كان ابن عشرين سنة(٤). والعرب تُبقي على الشابِّ اسمَ الغلام، ومنه قول ليلى الأخيلية في الحجاج:

شفاها من الداء الذي قد أصابها ... غُلامٌ إذا هزَّ القناةَ سَقاها(٥)

وقوله:

تَلَقَّ ذُبابَ السَّيفِ عنِّي فإنَّني ... غلامٌ إذا هوجيتُ لستُ بشاعر(٦)

وقيل: هو حقيقةٌ في البالغ لأنَّ أصلَه من الاغتلام، وهو شدَّة الشَّبَق، وذلك إنما يكون فيمن بلغ الحُلُمَ، وإطلاقه على الصبيِّ الصغير تجوُّزٌ من باب تسمية الشيء باسم ما يَؤُول إليه.

ويؤيِّد قولَ الأولين قولُه تعالى: ﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿أَقَنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أي: طاهرةً من الذنوب، فإنَّ البالغَ قلَّما يزكو من الذنوب. وقد جاء في

---

(١) صحيح البخاري (١٢٢). وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٢) صحيح البخاري (٤٧٢٦). وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٣) البحر ٦/ ١٥٠.
(٤) عزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٦.
(٥) البيت في البحر المحيط ٦/ ١٥٠، وفيه رواية أخرى، سلفت ٤/ ١٧٨.
(٦) البيت لصفوان بن معطل، قاله لحسان بن ثابت، وهو في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٥، وتاريخ الطبري ٢/ ٦١٨، ودلائل النبوة ٤/ ٧٥، وتفسير القرطبي ١٥/ ٣٣١، والبحر ٦/ ١٥٠، ولفظ الدلائل: عنك، بدل: عنِّي. وذباب السيف: حدُّه. القاموس (ذبب).

حديث ابن جبير عن ابن عباس مرفوعاً تفسيرُ «زكية» بصغيرةٍ[١]، وهو تفسيرٌ باللازم.

ومَن قال: كان بالغاً، قال: وَصَفه عليه السلام بذلك لأنَّه لم يره أَذْنَب، فهو وصفٌ ناشئٌ من حُسن الظنِّ.

واستُدلَّ على كونه بالغاً بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير حقِّ قصاص لك عليها، فإنَّ الصبيَّ لا قصاصَ عليه.

وأجاب النوويُّ والكرمانيُّ بأنَّ المراد التنبيهُ على أنَّه قتله بغير حقٍّ، إلا أنَّه خصَّ حقَّ القصاص بالنفي؛ لأنَّه الأنسبُ بمقام القتل، أو أنَّ شرعَهم كان إيجابَ القصاص على الصبيِّ[٢]. وقد نقل المحدِّثون كالبيهقي في كتاب «المعرفة» أنَّه كان في شرعنا كذلك قبل الهجرة[٣]. وقال السبكيُّ: قبل أُحُدٍ، ثم نُسِخ.

والجارُّ والمجرور قال أبو البقاء: متعلِّقٌ بـ «قتلتَ»، كأنه قيل: أي: قتلتَ نفساً بلا حقٍّ، وجوَّز أن يتعلَّق بمحذوفٍ، أي: قتلاً بغير نفس، وأن يكون في موضع الحال، أي: قَتَلْتَها ظالماً لها، أو مظلومة[٤].

وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وحميد والزهريُّ ونافع واليزيديُّ وابن مسلم وزيد وابن بكير عن يعقوب ورويس عنه أيضاً وأبو عبيد وابن جبير الأنطاكيُّ وابن كثير وأبو عمرو: «زاكية» بتخفيف الياء وألفٍ بعد الزاي[٥].

و(زَكِيَّةً) بالتشديد من غير ألف ـ كما قرأ زيد بن عليٍّ والحسن والجحدريُّ وابن عامر والكوفيون ـ أبلغُ من ذلك؛ لأنَّه صفةٌ مشبَّهةٌ دالَّةٌ على الثبوت، مع كون

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٣٢٨.

(٢) شرح النووي ١٥/ ١٤٠. وقول الكرماني نقله المصنف من حاشية الشهاب ٦/ ١٢٣.

(٣) معرفة السنن والآثار ٩/ ٩٥، وفيه: إنما صارت الأحكام متعلقة بالبلوغ بعد الهجرة. اهـ. وينظر السنن الصغير ٢/ ٣٥٠. والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ١٢٣.

(٤) الإملاء ٣/ ٥٢٩-٥٣٠.

(٥) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/ ٣١٣ عن نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ورويس، والكلام من البحر ٦/ ١٥٠.

«فعيل» المحوَّل من «فاعل» ـ كما قال أبو حيان[١] ـ يدلُّ على المبالغة.

وفرَّق أبو عمرو بين «زاكية» و«زكية» بأنَّ «زاكية» بالألف هي التي لم تُذنِب قطُّ، و«زكيَّة» بدون الألف هي التي أذنَبت ثم غُفِرت[٢].

وتعقِّب بأنَّه فرقٌ غيرُ ظاهر؛ لأنَّ أصلَ معنى الزكاة النموُّ والزيادة، فلذا وردت للزيادة المعنوية وأُطلِقت على الطهارة من الآثام ولو بحسب الخلقة والابتداء كما في قوله تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٩] فمن أين جاءت هذه الدلالة؟ ثم وجِّه ذلك بأنه يحتمل أن تكونَ لكون «زاكية» بالألف من زَكِيَ اللازم، وهو يقتضي أنَّه ليس بفعلٍ آخر وأنَّه ثابتٌ له في نفسه، و«زكية» بمعنى مزكَّاة، فإن «فعيلاً» قد يكونُ من غير الثلاثيِّ، كرضيع بمعنى مُراضِع، وتطهيرُ غيره له من الذنوب إنما يكون بالمغفرة، وقد فهمه من كلام العرب فإنه إمام العربية واللغة، فتكون بهذا الاعتبار «زاكية» بالألف أبلغ وأنسب بالمقام، بناءً على أنه يرى أنَّ الغلام لم يبلغ الحُلُم، ولذا اختار القراءةَ بذلك وإن كان كلٌّ من القراءتين متواتراً عنه ﷺ.

وهذا ـ على ما قيل ـ لا ينافي كونَ «زكية» بلا ألف أبلغَ باعتبار أنها تدلُّ على الرفع، وهو أقوى من الدفع. فافهم.

وأيًّا ما كان فوصف النفس بذلك لزيادة تفظيع ما فعل، وقد أخرج ابن مردويه عن أبيِّ بن كعب أنَّ الخضر عليه السلام لمَّا قتل الغلام ذُعِر موسى عليه السلام ذعرةً منكَرة، وقال: أقتلتَ نفساً زكيةً بغير نفس[٣]؟!

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ منكَراً جدًّا.

قال الإمام: النُّكر[٤] ما أنكرته العقول ونفرت عنه النفوس، وهو أبلغ في تقبيح الشيء من الإمر. وقيل بالعكس.

---

(١) في البحر ٦/ ١٥٠.

(٢) حجة القراءات لابن زنجلة ص٤٢٤.

(٣) عزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٦.

(٤) في (م): المنكر، والمثبت من الأصل والتفسير الكبير ٢١/ ١٥٥.

وقال الراغب: النُّكر[١]: الدهاء والأمرُ الصعبُ الذي لا يعرف. ولهذه الأبلغية قال بعضهم: المراد شيئاً أَنْكَرَ من الأول.

واختار الطيبيُّ أنَّه دونَ الإمر، وقال: إنَّ الذي يقتضيه النظمُ أنه ذَكَر الأغلظ ثم تنزَّل إلى الأهون، فقتلُ النفس أهونُ من الخرق لِمَا فيه من إهلاك جماعةٍ، وأغلظُ من إقامة الجدار بلا أجرة[٢].

وقال في «الكشف»: الظاهر أبلغيةُ النُّكرِ، أما بحسب اللفظ فظاهرٌ، ألا ترى كيف فسَّر الشاعرُ، أي: في قوله:

لقد لقي الأقرانُ منِّي نُكراً ... داهيةً دهياءَ إدّاً إمرا[٣]

النُّكْرَ بداهيةٍ من صفتها كيت وكيت، وجعل الإمرَ بعضَ أوصافها. وأما بحسب الحقيقة فلأنَّ خرق السفينة تسبُّبٌ إلى الهلاك، وهذا مباشَرةٌ، على أنَّ ذلك لم يكن سبباً مفضياً، وقول من قال: إنه تنزُّلٌ، استدلالاً بأنَّ إقامةَ الجدار أهونُ من القتل = ليس بشيء؛ لأنَّه حكي على ترتيب الوجود لا تنزُّلَ فيه ولا ترقِّي، وإنما يلاحظ ذلك بالنسبة إلى ما ذيِّل. انتهى.

وروي القولُ بالأبلغية عن قتادة[٤]، ومما يؤيِّد ذلك ما حكاه القرطبيُّ عن صاحب «العرس والعرائس»[٥] أنَّ موسى عليه السلام حين قال للخضر عليه السلام ما قال، غضب الخضرُ واقتلع كتفَ الصبيِّ الأيسر، وقشر اللحمَ عنه، وإذا مكتوبٌ فيه: كافرٌ لا يؤمن بالله تعالى أبداً.

وبُني وجهُ تغيير النظم الجليل على أقبحيَّة القتل، فقيل: إنما غيِّر النظمُ إلى

---

(١) في (م): المنكر، والمثبت من الأصل والمفردات (نكر).

(٢) حاشية الطيبي عند تفسير هذه الآية.

(٣) ورد هنا في هامش الأصل و(م): في نسخة: منكم. اهـ. أي: بدل: مني. والرجز في مجاز القرآن ١/ ٤٠٩، وتفسير الطبري ١٥/ ٣٣٧، وفيه: منك، والصحاح (أمر)، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٢٩، واللسان (أمر). وعند الجميع: قد، بدل: لقد، ولم ينسبوه.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٢.

(٥) كذا ذكر، والصواب: عرائس المجالس، وهو اسم كتاب قصص الأنبياء للثعلبي، والكلام فيه ص ٢٢٨، وفي تفسير القرطبي ١٣/ ٣٣١.

ما ترى لأنَّ القتلَ أقبحُ، والاعتراضُ عليه أدخل وأحقُّ، فكان الاعتراضُ جديراً بأن يُجعَل عمدةَ الكلام، وهو مبنيٌّ على أنَّ الحكم في الكلام الشرطيِّ هو الجزاءُ، والشرطُ قيدٌ له بمنزلة الحال عند أهل العربية. وتحقيق ذلك في «المطول» وحواشيه.

وكان العطفُ بالفاء التعقيبيَّة ليفيدَ أنَّ القتلَ وقع عقيبَ اللقاء من غير ريثٍ كما يُشعِر به الاعتراض؛ إذ لو مضى زمانٌ بين اللقاء والقتل أمكن ـ نظراً للأمور العادية ـ اطِّلاعُ الخضر فيه من حاله على ما لم يطَّلع عليه موسى عليه السلام، فلا يعترض عليه هذا الاعتراض، ولا يضرُّ في هذا ادعاءُ أنَّ الخرقَ أيضاً كذلك؛ لأنَّ المقصودَ توجيهُ اختيار الفاء دون الواو أو «ثم» بعد توجيه اختيار أصل العطف بأنَّ ذلك لِيتأتَّى(١) جَعْلُ الاعتراضِ عمدةً، والحاصل أنَّه لمَّا كان الاعتراضُ في القصة الثانية معتنًى بشأنه وأهمَّ، جُعل جزاءَ «إذا» الشرطية، وبعد أن تعيَّن للجزائية لذلك لم يكن بدٌّ من جعل القتل من جملة الشرط بالعطف، واختيرت الفاءُ من بين حروفه ليفاد التعقيبُ، ولمَّا لم يكن الاعتراضُ في القصة الأولى مثلَه في الثانية جُعِل مستأنفاً، وجُعل الخرقُ جزاءً.

وزعم التاشكنديُّ(٢) جوازَ كون الاعتراضَين في القصَّتين مستأنفين، والجزاءُ فيهما فعلُ الخضر عليه السلام، إلا أنَّه لا بدَّ من تقدير «قد» في الجزاء الثاني؛ لأنَّ الماضي المثبَت الغير المقترن بها لفظاً أو تقديراً لا يصلح للجزائية، واعتبر هذا في الثانية ولم يعتبر مثله في الأول؛ لأنَّ القتل أقبحُ فهو جديرٌ بأن يؤكَّد، ولا كذلك الخرقُ.

وتعقَّبه بعض الفضلاء بأنَّ الفاءَ الجزائيةَ لا يجوز أن تدخُل على الماضي المثبت إلا بتقدير «قد»، لتحقُّق تأثير حرف الشرط فيه بأن يقلب معناه إلى الاستقبال، فلا حاجةَ إلى الرابطة في كونه جواباً، وأما بتقدير «قد» فتدخل الفاءُ لعدم تأثير حرف الشرط فيه، فهو محتاجٌ إلى الرابطة، فقوله تعالى: ﴿خَرَقَهَا﴾

---

(١) في (م): يتأتى، دون اللام.

(٢) هو محمد كمال الدين الشاشي الحنفي، له حاشية على تفسير البيضاوي. توفي سنة (٩٨٠هـ). إيضاح المكنون ١/ ١٤١.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَقَتَلَهُ﴾ لكونهما مستقبَلين بالنسبة إلى ما قبلهما يقعان جزاءً بلا حاجةٍ إلى ربط الفاء الجزائية، فلا مجالَ في الثاني لجعل الفاء جزائيةً، وكذا لا مجالَ في الأول لفرض تقدير «قد» لإصلاح[١] إدخالِ الفاء عليه. فتدبَّر فإنَّه لا يخلو عن شيء.

وقال مير بادشاه[٢] في الردِّ على ذلك: إنَّ الذوق السليم يأبى عن تقدير «قد» لو جعل القتلُ جزاءً؛ لعدم اقتضاء المقام إياها، كيف وقد سبق الخرقُ جزاءً بدونها، وقد عُلم أنه يصدُر عن الخضر عليه السلام ما لا يستطيع المتشرِّع أن يصبر عليه، وما المحتاج إلى التحقيق إلا اعتراضُ موسى عليه السلام ثانياً بعد ما سلف منه من الكلام وكونِه عليه السلام مرسَلاً منه تعالى للتعلُّم.

وفيه إعراضٌ عن بيان النكتة في التحقيق وعدمُ التفاتٍ إليها، وغفلةٌ ـ على ما قال بعضُ الفضلاء ـ عن موضع الفاء الجزائية وتقدير «قد»، ولعلَّ الحقَّ أن يقال: إنَّ التقديرَ ـ وإن جاز ـ خلافُ الظاهر جدًّا.

وزعم أيضاً أنه يمكن أن يقال في بيان إخراج القصتين على ما أُخرِجَتا[٣] عليه: إنَّ لقاء الغلام سببٌ للشفقة والرفق لا القتلِ، فلذا لم يحسن جعلُه جزاءً، وجُعل جزاءَ الشرط، وركوبُ السفينة قد يكون سبباً لخرقها فلذا جُعل جزاءً.

وفيه أنَّ للخصم أن يمنع الفرقَ ويقول: كما أنَّ لقاءَ الغلام سببٌ للرفق لا القتل، كذلك ركوبُ السفينة سببٌ لحفظها وصيانتِها لا الخرق، كيف وسلامتُها سببٌ لسلامة الخضر عليه السلام ظاهراً، ومن الأمثال العامية: لا تَرْمِ في البئر التي تشرب منها حجراً. وإذا سلّم له أن يقول: إنَّ لقاء الغلام سببٌ للرفق لا للقتل، فالقتلُ أغربُ، والاعتراض عليه أدخلُ، فالاعتراض جديرٌ بأن يجعل جزاءً، فيَؤُول الأمرُ في بيان النكتة إلى نحو ما تقدَّم، والأمرُ في هذا سهلٌ كما لا يخفى.

---

(١) في (م): لاصطلاح.

(٢) هو محمد أمين بن الشريف، المعروف بـ : أمير بادشاه البخاري الحنفي، من تصانيفه حاشية على تفسير البيضاوي، وتيسير التحرير لابن الهمام، وشرح ألفية العراقي، توفي في حدود (٩٧٢هـ). هدية العارفين ٢/ ٢٤٩.

(٣) في (م): أخرجنا.

وقال شيخ الإسلام في وجه التغيير: إنَّ صدورَ الخوارق عن الخضر عليه السلام خرَّج بوقوعه مرَّةً مخرج العادة، واستأنست النفسُ به كاستئناسها بالأمور العادية، فانصرفت عن ترقُّب سماعه إلى ترقُّب سماع حالِ موسى عليه السلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده عند مشاهدة خارقٍ آخر، أو يسارعُ إلى المناقشة كما في المرة الأولى؟ فكان المقصودُ إفادةَ ما صدر عنه عليه السلام، فجُعل الجزاءُ اعتراضَه دون ما صَدر عن الخضر عليهما السلام، ولله تعالى درُّ شأن التنزيل.

وأما ما قيل من أنَّ القتل أقبحُ والاعتراضُ عليه أدخلُ فكان جديراً بأن يُجعل عمدةَ الكلام، فليس من دفع الشبهة في شيء، بل هو مؤيِّد لها، فإنَّ كونَ القتل أقبحَ من مبادي قلَّة صدوره عن المؤمن العاقل، وندرةِ وصول خبره إلى الأسماع، وذلك مما يستدعي جعلَه مقصوداً، وكون الاعتراض عليه أدخلَ من موجبات كثرة صدوره عن كلِّ عاقلٍ فضلاً عن النبيِّ، وذلك لا يقتضي جعلَه كذلك[1]. انتهى.

وتعقُّب بأنَّ ما ذكره من النكتة ـ على تقدير تسليمه ـ لا يضرُّ مَن بينها بما تقدم؛ إذ لا تزاحُمَ في النكات، وأما اعتراضه فقوله: مما يستدعي جعله مقصوداً، إن أراد أنه مقصودٌ في نفسه فليس بصحيح، وإن أراد أنه مقصودٌ بأن يُعترض عليه ويُمنع منه، فهذا يقتضي جعلَ الاعتراض جزاءً كما مرَّ. وأما كونُه من موجبات كثرةِ صدوره عن كلِّ عاقلٍ فمقتضٍ للاهتمام بالاعتراضِ عليه.

وأنت تعلم أنَّ الشيء كلَّما ندر كان الإخبارُ به وإفادتُه السامعَ أوقعَ في النفس، وأنَّ الأخبارَ الغريبةَ يُهتمُّ بإفادتها ما لا يُهتمُّ بإفادة غير الغريبة، إذ العالِمُ بالغريب قليلٌ بخلاف العالم بغيره، وإنكارُ ذلك مكابرةٌ، فمراد الشيخ أنَّ كونَ القتل أقبحَ من مبادي قلَّة صدوره عن المؤمن العاقل، وندرةِ وصول خبره إلى الأسماع، وذلك مما يستدعي جعلَه مقصوداً بالإفادة كما هو شأنُ الأمور القليلة الصدورِ النادرة الوقوعِ، وكون الاعتراض عليه أدخلَ من مُوجِبات كثرة الصدور، وذلك لا يقتضي أن يعامَل كذلك، وعلى هذا لا غبارَ على ما ذكره عند المُنْصِف.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٦.

ثم إنَّ ما ذكره من النكتة يتأتى على القول بأنَّ القتلَ أقبحُ من الخرق، وعلى القول بالعكس أيضاً، وهذا بخلاف ما تقدَّم، فإنَّه كان مبنيًّا على أقبحية القتل، فمَن لايقول بها يَحتاج في بيان النكتة إلى غير ذلك، وقد رُجِّح بذلك على ما تقدَّم.

واستأنس له أيضاً بأنَّ مساق الكلام من أوَّله لشرح حال موسى عليه السلام، فجعلُ اعتراضِه عمدةَ الكلام أوفَقُ بالمساق، إلا أنَّه عُدِل عن ذلك في قصة الخرق وجُعل ما صدر عن الخضر عليه السلام عمدةً دون اعتراضِه لأنَّ النفس لمَّا سمعَتْ وصفَ الخضر ظمأَتْ لسماع ما يصدُر منه؛ فبُلَّ غليلُها وجُعل ما صدر منه مقصوداً بالإفادة لأنَّه مطلوبٌ للنفس وهي منتظرةٌ إياه، ثم بعد أن سمعتْ ذلك وسكن أُوامها سُلك بالكلام مسلكه الأول وقُصد بالإفادة حالُ من سِيقَ الكلامُ مِن أوله لشرح حاله.

ولا يخفى أنَّ هذا قولٌ بأنَّ الأصل نظراً إلى السوق أن تكون القصةُ الأولى على طرز القصة الثانية، إلا أنه عُدِل عن ذلك لِمَا ذكر، والخروجُ عن الأصل يُتقدَّر بقدر الحاجة ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٧٣] وهو مخالفٌ لِمَا يُفهم من كلام الشيخ في الجملة، فافهم والله تعالى أعلم.

وقرأ نافع وأبو بكر وابن ذكوان وأبو جعفر وشيبة وطلحة ويعقوب وأبو حاتم: «نُكُراً» بضمتين، حيث كان منصوباً(١).

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ زيادةُ «لك» لزيادة المكافحة على رفض الوصيَّة وقلَّةِ التثبُّت والصبر لمَّا تكرَّر منه الاشمئزاز والاستنكار، ولم يرعوِ بالتذكير، حتَّى زادَ في النكير في المرة الثانية.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ﴾ تفعلُه من الأعاجيب ﴿بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرة، أو بعد هذه المسألة ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾.

وقرأ عيسى ويعقوب: «فلا تَصحبني»(٢) بفتحِ التاء من صحِبَه، أي: فلا تكن صاحبي.

---

(١) التيسير ص١٤٤، والنشر ٢/٢١٦ عن نافع وابن ذكوان وأبي بكر وأبي جعفر ويعقوب، والكلام من البحر ٦/١٥٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/٥٣٢، والبحر المحيط ٦/١٥١، وانظر قراءة يعقوب في النشر ٢/٣١٣. ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨١ لعيسى وابن عامر في رواية عنه.

وعن عيسى أيضاً: «فلا تُصحِبني» بضمِّ التاء وكسر الحاء، من أَصْحَبَه، ورواها سهل عن أبي عمرو(١)، أي: فلا تُصحبني إيَّاك ولا تجعلني صاحبَك، وقدَّر بعضُهم المفعولَ الثاني: عِلْمَك، وليس بذاك.

وقرأ الأعرج: «فلا تَصْحَبَنِّي» بفتح التاء والباء وشدِّ النون(٢)، والمراد المبالغة في النهي، أي: فلا تكن صاحبي البتة. وهذا يؤيِّدُ كونَ المراد من النهي فيما لا تأكيد فيه التحريم، والمراد به الحزمُ بالترك والمفارقة، لا الترخيص؛ على معنى: إن سألتُك بعدُ فأنت مرخَّصٌ في ترك صحبتي.

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ أي: وجدت عذراً من قِبَلي، وقال النوويُّ: معناه: قد بلغتَ إلى الغاية التي تُعذَرُ بسببها في فراقي(٣)، حيثُ خالفتُك مرَّةً بعد مرَّة.

وصحَّ عن النبيِّ ﷺ قال: «رحمةُ الله علينا وعلى موسى، لو صبرَ على صاحبه لرأى العجب، لكن أخذتهُ من صاحبه ذَمامة، فقال ذلك»(٤).

وقرأ نافع وعاصم: «من لَدُني» بتخفيف النون(٥)، وهي حجَّةٌ على سيبويه في منعه ذلك(٦). والأكثرون على أنَّه حَذَف نون الوقاية، وأبقى النونَ الأصليَّة المكسورةَ، على ما هو القياس في الأسماء المضافة من أنَّها لا تلحقُها نونُ الوقاية، كوطني ومقامي.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢، والبحر المحيط ٦/ ١٥١. ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨١ للجحدري والنخعي.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٢، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٣، والبحر المحيط ٦/ ١٥١، ونسبها في القراءات الشاذة ص٨١ لابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٤١.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢) وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبي بن كعب. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٥/ ١٤٤-١٤٥: وقوله: «ذمامة» بفتح الذال المعجمة، أي: استحياء لتكرار مخالفته. وقيل: ملامة. والأول هو المشهور.

(٥) وضمِّ الدال، وكذا قرأ أبو جعفر من العشرة، وقرأ عاصم - برواية أبي بكر عنه - بإسكان الدال مع إشمامها الضم كما سيذكر المصنف قريباً، وقراءة حفص عن عاصم كقراءة الجمهور: لَدُنِّي. انظر التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٣.

(٦) انظر الكتاب ٢/ ٣٧٠.

وقيل: إنَّه يحتملُ أنْ يكون المذكورُ نونَ الوقاية، والمضافُ إنَّما هو «لد» بلا نون، لغةٌ في لدن، فلا حذفَ أصلاً.

وتُعقِّبَ بأنَّ نون الوقاية إنَّما هي في المبنيِّ على السكون لتَقِيَه الكسر، و«لد» بلا نون مضموم.

ورُدَّ بأنَّه لا مانعَ أن يقال: إنَّها وَقَتْه من زوال الضم.

وأشمَّ شعبةُ الضمَّ في الدال، ورُوي عن عاصم أنَّه سكَّنَها. وقال [ابن] مجاهد: هو[1] غلط[2]، ولعله أراد روايةً، وإلَّا فقد ذكروا أنَّ «لَدْ» بالفتح والسكون لغةٌ في «لدن»[3].

وقرأ عيسى: «عُذُراً» بضمِّ الذال، ورويت عن أبي عمرو. وعن أبيّ: «عذري» بالإضافة إلى ياء المتكلِّم[4].

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ الجمهور على أنها أنطاكية، وحكاه الثعلبيُّ عن ابن عباس[5]، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق قتادة عنه أنَّها برقة[6]، وهي - كما في «القاموس» - اسمٌ لمواضع[7]. وفي «المواهب» أنَّها قريةٌ بأرض الروم، والله تعالى أعلم.

---

(١) في (م): سوء. بدل: هو. وهو تحريف.

(٢) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٦/ ١٥١، والذي خطأه ابن مجاهد في السبعة ص٣٥٩ تسكينُ الدال مع ضمِّ اللام: «لُدْني» وليس تسكينَ الدال فحسب. وانظر الحجة لأبي علي ٥/ ١٦٢، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٣، ومعجم القراءات للدكتور عبد اللطيف الخطيب ٥/ ٢٧٣.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٥١، وما سلف بين حاصرتين منه. وانظر المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٣، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٣، والبحر المحيط ٦/ ١٥١. وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٥) عرائس المجالس ص٢٢٩.

(٦) الدر المنثور ٤/ ٢٣٧.

(٧) القاموس (برق).

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن السُّدِّيِّ أنَّها باجروان[١]. وهي أيضاً اسمٌ لمتعدِّد، إلَّا أنه ذكرَ بعضهم أنَّ المرادَ بها قرية بنواحي أرمينية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين أنَّها الأُبُلَّة بهمزةٍ وباء موحَّدة ولامٍ مشددة[٢].

وقيل: قريةٌ على ساحل البحر يقال لها ناصرة، وإليها تنسبُ النصارى، قال في «مجمع البيان»: وهو المروي عن أبي عبد الله ﷺ[٣].

وقيل: قريةٌ في الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس.

قال ابن حجر: والخلاف هنا كالخلافِ في مجمع البحرين، ولا يوثَقُ بشيءٍ منه[٤].

وفي الحديث: «أتيا أهل قريةٍ لئاماً»[٥].

﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ في محلِّ الجر، على أنَّه صفةٌ لـ «قرية»، وجوابُ «إذا»: «قال» الآتي إن شاء الله تعالى، وسلك بذلك نحو ما سلك في القصة الثانية من جعل الاعتراض عمدةَ الكلام؛ للنكتة التي ذكرها هناك شيخ الإسلام[٦]. وذهب أبو البقاء وغيره إلى أنَّه هو الجواب[٧]، والآتي مستأنفٌ نظير ما في القصَّة الأولى، والوصفيَّة مختارُ المحققين، كما ستعلمه إن شاء الله تعالى.

وهاهنا سؤالٌ مشهورٌ، وقد نظمَه الصلاحُ الصفديُّ ورفعه إلى الإمام تقيِّ الدين السبكيِّ فقال:

أسيدَنا قاضي القضاةِ ومن إذا ... بدا وجهُه استحيى له القمرانِ
ومن كفُّه يومَ الندى ويراعُه ... على طِرْسِهِ بحرانِ يلتقيانِ

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٣٧.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٣٧.
(٣) مجمع البيان ١٦/ ١٩٢.
(٤) فتح الباري ٨/ ٤٢٠.
(٥) صحيح مسلم (٢٣٨٠): (١٧٢). وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.
(٦) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٦. وسلف عند تفسير الآية (٧٤) من هذه السورة.
(٧) الإملاء ٣/ ٥٣١.

ومن إن دَجَتْ في المشكلات مسائلٌ جلاها بفكرٍ دائمِ اللمعانِ
رأيتُ كتابَ الله أعظمَ معجزٍ لأفضل من يُهْدَى به الثقلانِ
ومن جملةِ الإعجاز كونُ اختصاره بإيجاز ألفاظٍ وبسطِ معاني
ولكنني في «الكهف» أبصرتُ آيةً بها الفكرُ في طول الزمان عناني
وما هي إلَّا «استطعما أهلها» فقد نرى(١) استطعماهم مثلَه ببيانِ
فما الحكمةُ الغرَّاء في وضعِ ظاهرٍ مكانَ ضميرٍ إنَّ ذاك لشانِ(٢)
فأرشِدْ على عاداتِ فضلك حَيرتي فما لي إلى هذا الكلام يدانِ

فأجاب السبكيُّ بأنَّ جملةَ «استطعما» محتَمِلةٌ لأنْ تكونَ في محلِّ جرٍّ صفةٍ لـ «قرية»، وأن تكون في محلِّ نصب صفة لـ «أهل»، وأن تكون جواب «إذا»، ولا احتمال لغير ذلك، ومن تأمَّل عَلِمَ أنَّ الأوَّلَ متعيِّنٌ معنًى، وأنَّ الثاني والثالث ـ وإن احتمَلَتْهما الآيةُ ـ بعيدان عن مغزاها؛ أمَّا الثالث فلأنَّه يلزمُ عليه كون المقصود الإخبار بالاستطعام عند الإتيان، وأنَّ ذلك تمامُ معنى الكلام، ويلزمه أنْ يكونَ معظمُ قصدهما أو هو: طلبَ الطعام، مع أنَّ القصدَ هو ما أرادَ ربُّك ممَّا قصَّ بعدُ، وإظهارُ الأمر العجيب لموسى عليه السلام.

وأمَّا الثاني فلأنَّه يلزمُ عليه أنْ تكون العنايةُ بشرح حالِ الأهل من حيث هم هم، ولا يكون للقرية أثرٌ في ذلك، ونحن نجدُ بقيَّةَ الكلام مشيراً إليها نفسِها، فيتعيَّنُ الأول، ويجبُ فيه: «استطعما أهلها» ولا يجوزُ استطعماهم أصلاً؛ لخلوِّ الجملةِ عن ضمير الموصوف.

وعلى هذا يفهم من مجموع الآيات أنَّ الخضرَ عليه السلام فعلَ ما فعل في قريةٍ مذموم أهلُها، وقد تقدَّم منهم سوءُ صنيعٍ من الإباء عن حقِّ الضيف مع طلبه، وللبقاعِ تأثيرٌ في الطباع، ولم يهم فيها مع أنَّها حَرِيَّةٌ بالإفساد والإضاعة، بل باشرَ الإصلاح لمجرَّد الطاعة، ولم يعبأ عليه السلام بفعلِ أهلها اللئام.

(١) في فتاوى السبكي ـ والأبيات فيه ـ ١/ ٧٥: يرى.
(٢) هذا البيت ليس في فتاوى السبكي. وهو في الأشباه والنظائر للسيوطي ١٤٦/٧.

وينضاف إلى ذلك من الفوائد أن «الأهل» الثاني يحتملُ أن يكونوا هم الأوَّلون، أو غيرَهم، أو منهم ومن غيرهم، والغالب أنَّ مَن أتى قريةً لا يجدُ جملةَ أهلِها دفعةً، بل يقعُ بصرُه أوَّلاً على البعض، ثمَّ قد يستقريهم، فلعلَّ هذين العبدين الصالحين لما أتيا قدَّرَ الله تعالى لهما استقراء الجميع على التدريج؛ ليتبيَّن به كمال رحمته سبحانه وعدم مؤاخذته تعالى بسوء صنيع بعض عباده، ولو قيل: استطعماهم، تعيَّنَ إرادةُ الأوَّلين، فأتَى بالظاهر إشعاراً بتأكيد العمومِ فيه، وأنهما لم يتركا أحداً من أهلها حتى استطعماه وأبى، ومع ذلك قُوبلوا بأحسن الجزاء.

فانظر إلى هذه الأسرار كيفَ احتجبت عن كثيرٍ من المفسّرين تحت الأستار، حتى إنَّ بعضهم لم يتعرَّض لشيءٍ، وبعضَهم ادَّعى أنَّ ذلك تأكيدٌ، وآخرُ زعم ما لا يعوَّلُ عليه، حتى سمعتُ عن شخصٍ أنَّه قال: إنَّ العدولَ عن استطعماهم؛ لأنَّ اجتماع الضميرين في كلمةٍ واحدة مستثقلٌ. وهو قولٌ يُحكَى ليُرَدّ، فإنَّ القرآنَ والكلامَ الفصيح مملوءٌ من ذلك، ومنه ما يأتي في الآية.

ومن تمامِ الكلام فيما ذكر أنَّ «استطعما» إن جُعِل جواباً فهو متأخِّرٌ عن الإتيان، وإذا جعلَ صفةً احتمل أنْ يكون الإتيان قد اتَّفقَ قبلَ هذه المرَّة، وذُكر تعريفاً وتنبيهاً على أنَّه لم يحملهما على عدم الإتيان لقصد الخير، فهذا ما فتحَ الله تعالى عليَّ، والشعرُ قد يضيقُ عن الجواب، وقد قلت:

لأسرارِ آياتِ الكتاب معاني ... تَدِقُّ فلا تبدو لكلِّ مُعاني
وفيها لمرتاضٍ لبيبٍ عجائبٌ ... سنا برقِها يعنو له القمرانِ
إذا بارقٌ منها لقلبيَ قد بدا ... هَممت قريرَ العين بالطيرانِ
سروراً وإبهاجاً وصولاً على العلا ... كأني عَلَا فوقَ السماك مكاني
فما المُلْكُ والأكوان ما البيض والقنا[1] ... وعندي وجوهٌ أسفرت بتهاني
وهاتيك منها قد أبحتُك سرَّها ... فشكراً لمن أولاك حسنَ بياني
أرى «استطعما» وصفاً على «قرية» جرَى ... وليس لها[2] والنحوُ كالميزانِ

(١) في (م): ما القنا. وهذا البيت ليس في فتاوى السبكي. وهو في الأشباه والنظائر للسيوطي ١٥١/٧.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: أي: صفة جرت على غير من هي له. اهـ منه.

صناعتُه تقضي بأنَّ استتارَ ما ... يعودُ عليه ليس في الإمكانِ
وليس جواباً لا ولا وصفَ أهلها ... فلا وجهَ للإضمار والكتمانِ
وهذي ثلاثٌ ما سواها بممكنٍ ... تعيَّن منها واحدٌ فسباني
ورُضْتُ بها فكري إلى أنْ تمخَّضت ... به زبدةُ الأحقاب منذ زمانِ[(١)]
وإنَّ حياتي[(٢)] في تموُّجِ أبحرٍ ... من العلم في قلبي يمدُّ لساني[(٣)]

إلى آخرِ ما تحمَّسَ به، وفيه من المناقشةِ ما فيه.

وقد اعترضَ بعضُهم بأنَّه على تقدير كون الجملةِ صفةً للقرية يمكنُ أن يؤتَى بتركيبٍ أخصَر ممَّا ذُكِر، بأنْ يُقالَ: فلما أتيا قريةً استطعما أهلها، فما الداعي إلى ذكر الأهل أوَّلاً على هذا التقدير؟

وأُجيبَ بأنَّه جيء بالأهل للإشارة إلى أنَّهم قُصِدوا بالإتيان في قريتهم، وسُئلوا فمَنعوا، ولا شكَّ أنَّ هذا أبلغُ في اللؤم، وأبعدُ عن صدور جميلٍ في حقِّ أحدٍ منهم، فيكون صدور ما صدر من الخضر عليه السلام غريباً جدًّا. لا يقال: ليكن التركيب كذلك، وليكنْ على إرادة[(٤)] الأهل تقديراً أو تجوُّزاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]؛ لأنَّا نقول: إنَّ الإتيان ينسبُ للمكان، كـ: أتيتُ عرفات، ولمن فيه، كـ: أتيتُ أهلَ بغداد، فلو لم يذكر كان فيه تفويتاً[(٥)] للمقصود، وليس ذلك نظيرَ ما ذُكر من الآية؛ لامتناعِ سؤال نفسِ القريةِ عادةً.

واختارَ الشيخُ عزُّ الدين[(٦)] عليٌّ الموصليُّ في جواب الصفديِّ أنَّ تكرار الأهلِ

---

(١) من البيت السابع إلى هنا ليست في فتاوى السبكي.
(٢) في فتاوى السبكي ١/ ٧٧: جناني.
(٣) فتاوى السبكي ١/ ٧٥-٧٨، والمسألة في الأشباه والنظائر للسيوطي ٧/ ١٤٥-١٥٣ شعراً ونثراً مع زيادة في الأبيات على ما في الفتاوى وعلى ما ذكره الآلوسي رحمه الله.
(٤) في (م): الإرادة.
(٥) كذا في الأصل و(م).
(٦) لقبه ـ كما في كتب التراجم، وكما سيذكر المصنف ص ٤٨٤ من هذا الجزء ـ: زين الدين، وهو ابن شيخ العوينة، علي بن الحسين بن القاسم بن منصور، أبو الحسن توفي سنة (٧٥٥هـ). انظر ترجمته في الوافي بالوفيات ٢١/ ٥٢-٦٢. وذُكر فيها سؤال الصفدي له، وجوابه عليه.

والعدول عن استطعماهم إلى «استطعما أهلها» للتحقير، وهو أحدُ نكات إقامة الظاهر مقام الضمير، وبسطَ الكلامَ في ذلك نثراً، وقال نظماً:

سألتَ لماذا «استطعما أهلها» أتى … عن استطعماهم إنَّ ذاك لشانِ
وفيه اختصارٌ ليس ثَمَّ ولم تقف … على سبب الرُّجحان منذُ زمانِ
فهاكَ جواباً رافعاً لنقابهِ … يصيرُ به المعنى كرأي عيانِ
إذا ما استوى الحالانِ في الحكم رُجِّحَ الضـ … ـميرُ وأمَّا حين يختلفانِ
بأنْ كان في التصريح إظهارُ حكمةٍ … كرفعةِ شانٍ أو حقارة جاني
كمثل أمير المؤمنين يقول ذا … وما نحنُ فيه صرَّحوا[1] بأمانِ
وهذا على الإيجازِ والبسطِ جاء في … جوابي منثوراً بحسن بيانِ

وذكر في النثر وجهاً آخر للعدول[2]، وهو ما نقله السبكيُّ وردَّه، وقد ذكره أيضاً النيسابوريُّ[3]، وهو لعمري كما قال السبكيُّ، ويؤول إلى ما ذُكر من أنَّ الإظهار للتحقير قولُ بعض المحققين: إنَّه للتأكيد المقصودِ منه زيادةُ التشنيع، وهو وجهٌ وجيهٌ عندَ كل نبيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الآية [البقرة: ٥٩] ومثلُه كثيرٌ في الفصيح.

وقال بعضُهم: إنَّ الأهلَيْنِ متغايران، فلذا جيء بهما معاً. وقولهم: إذا أُعيدَ المذكورُ أوَّلاً معرفةً كان الثاني عينَ الأوَّل، غيرُ مطَّرِدٍ؛ وذلك لأنَّ المرادَ بالأهل الأول البعض، إذ في ابتداء دخول القرية لا يتأتَّى عادةً إتيانُ جميعِ أهلها، لا سيما على ما رُوي من أنَّ دخولَهما كان قبل غروب الشمس، وبالأهل الثاني الجميع؛ لما ورد أنَّهما عليهما السلام كانا يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم، فلو جيء بالضمير لَفُهِمَ أنَّهما استطعما البعض.

---

(١) في الوافي بالوفيات ٢١/٥٧: صوحوا.
(٢) انظر الجواب في الوافي بالوفيات ٢١/٥٧-٦١، وأعيان العصر ٣/٣٣٨-٣٤٣، والأشباه والنظائر ٧/ ١٥٤-١٦٠.
(٣) في غرائب القرآن ١٦/١٣.

وعكسَ بعضُهم الأمر فقال: المراد بالأهل الأول الجميع، ومعنى إتيانهم الوصول إليهم والحلول فيما بينهم؛ وهو نظيرُ إتيانِ البلد، وهو ظاهرٌ في الوصول إلى بعضٍ منه والحلول فيه، وبالأهل الثاني البعض، إذ سؤال فردٍ فردٍ من كبار أهل القرية وصغارهم وذكورهم وإناثهم وأغنيائهم وفقرائهم مستبعدٌ جدًّا، والخبر لا يدلُّ عليه، ولعلَّهُ ظاهرٌ في أنَّهما استطعما الرجال. وقد رُوي عن أبي هريرة ـ والله تعالى أعلم بصحة الخبر ـ أنَّه قال: أطعمتهما امرأةٌ من بريرٍ بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما، فدعيا لنسائهم ولعنا رجالهم. فلذا جيء بالظاهر دون الضمير، ونُقِل مثلُه عن الإمام الشافعيِّ عليه الرحمة في «الرسالة»[١].

وأورد عليهما أنَّ فيهما مخالفة لما هو الغالبُ في إعادة الأول معرفةً، وعلى الثاني أنَّه ليس في المغايرة المذكورة فيه فائدةٌ يعتدُّ بها، ولا يوردُ هذا على الأوَّل؛ لأنَّ فائدة المغايرة المذكورة فيه زيادةُ التشنيع على أهل القرية، كما لا يخفى.

واختار بعضُهم على القول بالتأكيد أنَّ المرادَ بالأهل في الموضعين الذين يُتوقَّع من ظاهر حالهم حصولُ الغرض منهم، ويحصلُ اليأس من غيرهم باليأس منهم، من المقيمين المتوطِّنين في القرية، ومن لم يُحَكِّم العادةَ يقول: إنَّهما عليهما السلام أتوا الجميع وسألوهم؛ لما أنَّهما ـ على ما قيل ـ قد مسَّتهما الحاجة.

﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ بالتشديد، وقرأ ابنُ الزبير والحسن وأبو رجاء وأبو رزين وابن محيصن[٢] وعاصم في رواية المفضَّل وأبان بالتخفيف من الإضافة، يقال: ضافَه إذا كان له ضيفاً، وأضافَه وضيَّفه: أنزله وجعله ضيفاً، وحقيقةُ ضاف: مال، من ضافَ السهمُ عن الهدف يضيفُ، ويقال: أضافتِ الشمس للغروب وتضيَّفَتْ: إذا مالت، ونظيره زارَه من الازورار.

ولا يخفى ما في التعبير بالإباء من الإشارة إلى مزيد لؤمِ القوم؛ لأنَّه ـ كما قال الراغب ـ شدَّةُ الامتناع[٣]، ولهذا لم يقل: فلم يضيفوهما، مع أنَّه أخصُ، فإنَّه دون ما في النظم الجليل في الدلالة على ذمِّهم.

---

(١) ص٥٥ في باب بيان ما نزل من الكتاب عامًّا يراد به العام، ويدخله الخصوص.
(٢) في الأصل و(م): وأبو محيصن. والمثبت من البحر المحيط ٦/ ١٥١، وعنه نقل المصنف.
(٣) المفردات (أبى).

ولعلَّ ذلك الاستطعام كان طلباً للطعام على وجهِ الضيافة، بأن يكونا قد قالا: إنَّا غريبان فضيِّفونا، أو نحو ذلك، كما يشيرُ إليه التعبير بقوله تعالى: ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ دون: فأبوا أن يطعموهما، مع اقتضاء ظاهر «استطعما أهلها» إيَّاه. وإنَّما عبَّر بـ «استطعما» دون استضافا؛ للإشارة إلى أنَّ جُلَّ قصدهما الطعامُ، دونَ الميل بهما إلى منزل، وإيوائهما إلى محلّ.

وذكر بعضُهم أنَّ في «أبوا أن يضيفوهما» من التشنيع ما ليس في: أبوا أن يطعموهما؛ لأنَّ الكريمَ قد يردُّ السائلَ المستطعِمَ، ولا يُعاب، كما إذا ردَّ غريباً استضافه، بل لا يكادُ يردُّ الضيفَ إلَّا لئيم. ومن أعظم هجاءِ العرب: فلانٌ يطردُ الضيف.

وعن قتادة: شرُّ القُرى التي لا يُضَافُ فيها الضيفُ، ولا يُعرَفُ لابن السبيل حقُّه.

وقال زينُ الدين الموصلي: إنَّما خصَّ سبحانه الاستطعامَ بموسى والخضر عليهما السلام والضيافةَ بالأهل لأنَّ الاستطعامَ وظيفة السائل، والضيافة وظيفة المسؤول؛ لأنَّ العرفَ يقضي بذلك، فيدعو المقيمُ القادمَ إلى منزله يسأله، ويحمله إليه. انتهى(١). وهو كما ترى.

وممَّا يضحكُ منه العقلاء ما نقلَه النيسابوريُّ وغيرُه أنَّ أهلَ تلك القرية لمَّا سمعوا نزولَ هذه الآية استحيوا، وأتوا إلى رسول الله ﷺ بحِمْلٍ من ذهب، فقالوا: يا رسولَ الله نشتري بهذا الذهب أن تجعل الباء من «أبوا» تاء، فأبى عليه الصلاة والسلام(٢).

وبعضُهم يحكي وقوعَ هذه القصة في زمن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، ولا أصلَ لشيءٍ من ذلك، وعلى فرض الصحة يُعلَم منه قلَّة عقولِ أهل القرية في الإسلام، كما عُلِم لؤمُهم من القرآن والسنة من قبل.

---

(١) انظر كلام زين الدين الموصلي في الوافي بالوفيات ٢١/ ٦٠، وأعيان العصر ٣/ ٣٤١-٣٤٢، والأشباه والنظائر للسيوطي ٧/ ١٥٩.

(٢) غرائب القرآن ١٦/ ١٤.

﴿فَوَجَدَا﴾ عطفٌ ـ كما قال السبكيُّ ـ على «أتيا»[(١)] ﴿فِيهَا جِدَارًا﴾ رُويَ أنَّهما التجأا إليه حيث لم يجدا مأوًى، وكانت ليلتُهما ليلةً باردةً، وكان على شارع الطريق.

﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يسقط، وماضيه انقضَّ على وزن انفعلَ، نحو انجرَّ، والنون زائدةٌ؛ لأنَّه من قضضته بمعنى كسرته، لكن لمَّا كان المنكسر يتساقط، قيل الانقضاض للسقوط[(٢)]، والمشهورُ أنَّه السقوطُ بسرعة، كانقضاضِ الكوكب والطير.

قال صاحب «اللوامح»: هو من القِضَّة، وهي الحصى الصغار، ومنه طعامٌ قَضَضٌ: إذا كان فيه حصًى، فعلى هذا: المعنى: يريد أنْ يتفتَّتَ فيصير حصى. انتهى.

وذكر أبو علي في «الإيضاح» أنَّ وزنَه افْعَلَّ من النقض، كاحمرَّ. وقال السهيليُّ في «الروض»[(٣)]: هو غلط. وتحقيق ذلك في محلِّه. والنون على هذا أصليَّة.

والمراد من إرادة السقوط قربُه من ذلك، على سبيل المجاز المرسل بعلاقةِ تسبُّبِ إرادة السقوط لقربه، أو على سبيل الاستعارة بأن يُشَبَّهَ قربُ السقوط بالإرادة؛ لما فيهما من الميل، ويجوز أنْ يعتبر في الكلام استعارةٌ مكنيةٌ وتخييليةٌ، وقد كثر في كلامهم إسنادُ ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم، ومن ذلك قوله:

يريدُ الرمحُ صدرَ أبي براءٍ ... ويعدلُ عن دماءِ بني عقيلِ[(٤)]

وقول حسان رضي الله عنه:

إنَّ دهراً يلفُّ شملي بجُمْلٍ ... لزمانٌ يَهُمُّ بالإحسان[(٥)]

---

(١) فتاوى السبكي ١/ ٧٧، والأشباه والنظائر للسيوطي ٧/ ١٥٠.

(٢) في (م): السقوط.

(٣) ٣/ ١٢٩.

(٤) البيت في مجاز القرآن ١/ ٤١٠ منسوباً للحارثي. وهو في تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٧، والأضداد للأنباري ص١٧٢، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٧٣، والصناعتين ص٢٨٤ دون نسبة.

(٥) ونسبه لحسان أيضاً الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٤، والأساس (لفف)، والخفاجي في حاشيته ٦/ ١٢٦. وأنشده الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٥٦، والطبري ١٥/ ٣٤٨ دون نسبة. والبيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ ص٢٩١ بتحقيق محيي الدين عبد الحميد، وفيه: بسعدى، بدل: بجمل.

وقول الآخر:

أبتِ الروادفُ والثُّديُّ لقُمْصِها   مسَّ البطون وأنْ تمسَّ ظهورا[(١)]

وقول أبي نواس:

فاستنْطِق العودَ قد طالَ السكوتُ به   لا ينطقُ اللهو حتى ينطقَ العودُ[(٢)]

إلى ما لا يُحصى كثرةً، حتى قيل: إنَّ من له أدنى اطلاعٍ على كلام العرب لا يحتاجُ إلى شاهدٍ على هذا المطلب. ونقل بعض أهل أصول الفقه عن أبي بكر محمد بن داود الأصبهانيِّ أنَّه ينكرُ وقوعَ المجاز في القرآن، فيؤوِّل الآيةَ بأنَّ الضميرَ في «يريد» للخضر أو لموسى عليهما السلام. وجُوِّزَ أنْ يكونَ الفاعلُ الجدار، وأنَّ اللهَ تعالى خلق فيه حياةً وإرادةً، والكلُّ تكلُّفٌ وتعسُّفٌ تُغْسَلُ به بلاغةُ الكلام.

وقال أبو حيان: لعلَّ النقل لا يصحُّ عن الرجل، وكيف يقولُ ذلك وهو أحدُ الأدباء الشعراء الفحول المُجيدين في النظم والنثر[(٣)].

وقرأ أبيّ: «يُنقَضَ» بضمِّ الياء وفتح القاف والضاد مبنيّاً للمفعول[(٤)]، وفي حرف عبد الله وقراءة الأعمش: «يريد ليُنْقَضَ»[(٥)] كذلك، إلَّا أنَّه منصوبٌ بـ «أن» المقدَّرة بعد اللام.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وعكرمة وخليد بن سعد ويحيى بن يعمر:

---

(١) أمالي القالي ١/ ٢٣، والحماسة بشرح المرزوقي ٣/ ١٢٨٤، والعقد الفريد ٣/ ٤٦٢، قال البكري في سمط اللآلي ١/ ١٠٧: لا أعلم أحداً نسب هذا الشعر. اهـ. ويصف فيه امرأة بأنها ناهدة الثديين عظيمة الرِّدف، فالثُّديُّ تمنع القُمص أن تلتصق ببطنها، والرِّدف يمنعها أن تلتصق بظهرها.
والبيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٤٩٢ ضمن الشعر المنسوب إليه، وليس في أصول ديوانه.

(٢) ديوان أبي نواس ص١٨٧.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٥١.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤، والبحر المحيط ٦/ ١٥٢، ونسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣١ للنبي ﷺ.

(٥) المحتسب ٢/ ٣١، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤، والبحر المحيط ٦/ ١٥٢.

«يَنْقاصَ» بالصاد المهملة مع الألف[١]، ووزنه ينفعل اللازم، من: قِصْته فانقَاصَ، إذا كَسَرته فانكسر، وقال ابن خالويه: تقولُ العرب: انقاصت السنُّ إذا انشقَّت طولاً[٢]. قال ذو الرمة يصفُ ثورَ وحش:

يَغشَى الكِناس بِرَوْقَيْهِ ويَهْدِمُهُ من هائل الرمل مُنْقَاصٌ ومُنْكَثِبُ[٣]

وفي «الصحاح»: قَيْصُ السنِّ: سقوطُها من أصلِها، وأنشدَ قولَ أبي ذؤيب:

فراقٌ كَقَيْصِ السِّنِّ فالصبرَ إنَّه لِكُلِّ أناسٍ عثرةٌ وحبورُ[٤]

وقال الأمويُّ: انقاصَتِ البئر: انهارت. وقال الأصمعيُّ: المُنْقاسُ: المُنْقَعِر. والمنقاض ـ بالضاد المعجمة ـ: المُنْشَقُّ طولاً. وقال أبو عمرو: هما بمعنى واحد[٥].

وقرأ الزهريُّ: «يَنْقَاض» بألفٍ وضادٍ معجمة[٦]، والمشهورُ تفسيره بينهدم.

وذكر أبو عليٍّ: أنَّ المشهورَ عن الزهريِّ أنه «يَنْقَاص» بالمهملة.

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ مسحَهُ بيده فقام، كما روي عن ابن عباس وابن جبير. وقال القرطبيُّ: إنَّه هو الصحيح، وهو أشبه بأحوالِ الأنبياء عليهم السلام[٧].

واعترضَ بأنَّه غيرُ ملائمٍ لما بعد؛ إذ لا يستحقُّ بمثله الأجر.

ورُدَّ بأنَّ عدمَ استحقاقِ الأجر مع حصول الغرض غيرُ مسلَّم، ولا يضرُّه سهولتُه على الفاعل.

وقيل: أقامَه بعمودٍ عمده به. وقال مقاتل: سوَّاه بالشِّيد.

وقيل: هدمَه، وقعَدَ يبنيه.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣١، والبحر المحيط ٦/ ١٥٢.
(٢) القراءات الشاذة ص٨١.
(٣) ديوان ذي الرمة ١/ ٨٨.
(٤) كذا بالحاء المهملة في الأصل و(م). وهي في شرح أشعار الهذليين ١/ ٦٦، وأمالي أبي علي القالي ٢/ ٢٣ بالجيم: وجبور. وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤ وفيه: عبرة وحبور. ثم قال: ويروى: عثرة وجبور، بالثاء والجيم.
(٥) الصحاح (قيص).
(٦) البحر المحيط ٦/ ١٥٢.
(٧) تفسير القرطبي ١٣/ ٣٣٩-٣٤٠.

وأخرج ابنُ الأنباريِّ في «المصاحف» عن أبيٍّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنَّه قرأ: «فوجدا فيها جداراً يريدُ أنْ يَنقضَّ فهدمَه ثم قعدَ يبنيه»[1].

وكان طولُ هذا الجدارِ إلى السماء ـ على ما نقل النوويُّ عن وهب بن منبه ـ مئةَ ذراع[2]، ونقل السفيريُّ عن الثعلبيّ أنَّه كان سمكه مئتي ذراعٍ بذراعِ تلك القرية[3]، وكان طولُه على وجه الأرض خمسَ مئة ذراع، وكان عرضُه خمسين ذراعاً، وكان الناسُ يمرُّون تحتَه على خوفٍ منه.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ تحريضاً للخضر عليه السلام، وحثّاً على أخذِ الجعل والأجرة على فعلِه؛ ليحصل لهما بذلك الانتعاشُ والتقوِّي بالمعاش، فهو سؤالٌ له؛ لِمَ لَمْ يأخذ الأجرة؟ واعتراضٌ على تركِ الأخذ، فالمراد لازمُ فائدةِ الخبر، إذ لا فائدةَ في الإخبار بفعله.

وقيل: لم يقل ذلك حثّاً، وإنَّما قاله تعريضاً بأنَّ فعلَه ذلك فضولٌ وتبرُّعٌ بما لم يُطْلَب منه، من غير فائدةٍ ولا استحقاقٍ لمن فُعِل له، مع كمال الاحتياج إلى خلافه. وكانَ الكليمُ عليه السلام لمَّا رَأى الحرمانَ ومساسَ الحاجةِ والاشتغال بما لا يعني لم يتمالك الصبرَ فاعترض.

واتخذ: افتعلَ، فالتاءُ الأولى أصليَّة، والثانية تاء الافتعال، أُدغِمت فيها الأولى، ومادَّته تَخِذَ، لا أخذ، وإنْ كان بمعناه؛ لأنَّ فاءَ الكلمة لا تبدل إذا كانت همزةً أو ياءً مبدلةً منها، ولذا قيل: إن اتَّزر[4] خطأٌ أو شاذٌّ، وهذا شائعٌ في فصيح الكلام، وأيضاً إبدالها في الافتعال لو سلِّم لم يكن لقولهم: «تخذ» وجهٌ. وهذا مذهب البصريين. وقال غيرُهم: إنَّ[5] الاتخاذ افتعالٌ من الأخذ، ولا يسلّم

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٣٧.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٤١.
(٣) جاء في عرائس المجالس ص٢٢٩: أن سمك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعاً بذراع ذلك القرن.
(٤) في الأصل و(م): ايتزر، والمثبت من حاشية الشهاب ٦/ ١٢٦، والكلام منه، ومثله في الدر المصون ١/ ٣٥٥.
(٥) في (م): إنه.

ما تقدَّم، ويقول: المَدَّةُ العارضة تُبدَلُ تاءً أيضاً، ولكثرة استعماله هنا أجروه مُجْرَى الأصليِّ، وقالوا: تَخِذ، ثلاثياً جرياً عليه، وهذا كما قالوا: تَقِيَ من اتَّقى.

وقرأ عبد الله والحسن وقتادة وأبو بحريَّة وابنُ محيصن وحميد واليزيديُّ ويعقوب وأبو حاتم وابنُ كثير وأبو عمرو: «لتَخِذت» بتاءٍ مفتوحةٍ وخاءٍ مكسورةٍ[1]، أي: لأخذت، وأظهر ابن كثير ويعقوب وحفص الذال وأدغمها باقي السبعة[2].

﴿قَالَ﴾ أي: الخضر عليه السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ﴾ على إضافة المصدر إلى الظرف اتساعاً، وابن الحاجب يجعلُ الإضافة في مثله على معنى «في» وقد تقدَّم ما ينفعك هنا فتذكَّر.

وقرأ ابن أبي عبلة: «فراقٌ بيني» بالتنوين[3]، ونصب «بين» على الظرفية.

وأعيد «بين» وإن كان لا يضاف إلَّا لمتعددٍ؛ لأنَّه لا يعطفُ على الضمير المجرور بدون إعادة الجار. قال أبو حيان: والعدولُ عن «بيننا»؛ لمعنى التأكيد[4].

والإشارةُ إلى الفراق المدلول عليه بقوله قبل: «لا تصاحبني». والحمل مفيدٌ؛ لأنَّ المخبَرَ عنه الفراقُ باعتبار كونه في الذهن، والخبر الفراق باعتبار أنَّه في الخارج كما قيل. أو إلى الوقتِ الحاضر، أي: هذا الوقت وقتُ فراقنا. أو إلى الاعتراض الثالث، أي: هذا الاعتراضُ سببُ فراقنا حسبما طلبت، فوجهُ تخصيصِ الفراق بالثالث ظاهر.

وقال العلَّامة الأول: إنَّما كان هذا سبب الفراق دون الأولين؛ لأنَّ ظاهرهما منكر، فكان معذوراً، بخلاف هذا، فإنَّه لا يُنْكَرُ الإحسانُ للمسيء، بل يُحْمَد.

---

(١) التيسير ص ١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤ عن ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٤، والبحر ٦/ ١٥٢.
(٢) التيسير ص٤٤، والنشر ٢/ ١٥-١٦.
(٣) الكشاف ٢/ ٤٩٥، والبحر المحيط ٦/ ١٥٢.
(٤) البحر المحيط ٦/ ١٥٢.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في وجهه أنَّ قول موسى عليه السلام في السفينة والغلام كان لله تعالى، وفي هذا لنفسه لطلب الدنيا، فكان سببَ الفراق. وحَكى القشيريُّ[(١)] نحوَه عن بعضهم.

ورَدَّ ذلك في «الكشف» بأنّه لا يليقُ بجلالتهما، ولعلَّ الخبرَ عن الحبر غيرُ صحيح.

ونقل في «البحر» عن أرباب المعاني أنَّ هذه الأمورَ التي وقعت لموسى مع الخضر حجَّةٌ على موسى عليه السلام؛ وذلك أنَّه لمَّا أنكرَ خرقَ السفينة نوديَ: يا موسى أين كان تدبيرُك هذا وأنت في التابوت مطروحاً في اليم؟ ولما أنكر قتل الغلام قيل له: أين إنكارُك هذا ووكز القبطيِّ والقضاء عليه؟ ولما أنكر إقامةَ الجدار نودي: أينَ هذا من رفعك الحجرَ لبنات[(٢)] شعيب عليه السلام بدون أجرة؟[(٣)].

ورأيتُ أنا في بعض الكتب أنَّ الخضرَ عليه السلام قال: يا موسى، اعترضت عليّ بخرقِ السفينة وأنت ألقيتَ ألواحَ التوراة فتكسَّرت، واعترضتَ عليَّ بقتل الغلام وأنتَ وكزتَ القبطيَّ فقضي عليه، واعترضتَ عليَّ بإقامة الجدار بلا أجرٍ وأنتَ سقيتَ لبنات شعيب أغنامهن[(٤)] بلا أجرٍ، فمَن فَعَلَ نحوَ ما فعلتُ لن يعترض عليَّ.

والظاهرُ أنَّ شيئاً من ذلك لا يصحّ، والفرقُ ظاهرٌ بين ما صدرَ من موسى عليه السلام وما صدرَ من الخضر، وهو أجلُّ من أنْ يَحتجَّ على صاحب التوراة بمثل ذلك، كما لا يخفى.

وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» وابن عساكر عن أبي عبد الله ـ وأظنُّه الملطيّ ـ قال: لمَّا أرادَ الخضرُ أنْ يفارقَ موسى قال له: أوصني. قال: كن نفَّاعاً ولا تكن ضَرَّاراً، كن بشَّاشاً[(٥)] ولا تكن غضباناً، ارجع

---

(١) في لطائف الإشارات ٢/ ٤١١.

(٢) في (م): لبنتي، والمثبت من الأصل والبحر.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٥٣. وانظر عرائس المجالس للثعلبي ص٢٣١-٢٣٢، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٤٧.

(٤) في (م): لبنتي شعيب أغنامهما.

(٥) في (م): بشاشياً.

عن اللجاجة، ولا تمشِ من غير حاجة، ولا تعيِّر امرأً بخطيئته، وابكِ على خطيئتك يا ابنَ عمران[(١)].

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن يوسف بن أسباط قال: بلغني أنَّ الخضرَ قال لموسى لما أراد أن يفارقه: يا موسى تعلَّم العلمَ لتعملَ به، ولا تعلَّمْه لتحدِّث به[(٢)].

وبلغني أنَّ موسى قال للخضر: ادعُ لي، فقال الخضر: يَسَّرَ اللهُ تعالى عليك طاعتَه. والله تعالى أعلم بصحَّة ذلك أيضاً.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ وقرأ ابن أبي وثاب: «سأنبيك» بإخلاص الياء من غير همز[(٣)]. والسين للتأكيد لعدم تراخي الإنباء، أي: أخبرك البتة ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾ والظاهر أنَّ هذا لم يكن عن طلبٍ من موسى عليه السلام. وقيل: إنَّه لمَّا عزمَ الخضر على فراقه، أخذَ بثيابه وقال: لا أفارقُكَ حتى تخبرني بما أباح لك فعلَ ما فعلت ودعاك إليه، فقال: «سأنبئك» إلخ.

والتأويلُ ردُّ الشيء إلى مآله، والمراد به هنا المآل والعاقبة، إذ هو المنبَّأ به، دون التأويل بالمعنى المذكور.

و«ما» عبارةٌ عن الأفعال الصادرة من الخضر عليه السلام، وهي خرقُ السفينة، وقتلُ الغلام، وإقامةُ الجدار، ومآلُها خلاصُ السفينة من اليدِ الغاصبة، وخلاصُ أبوي الغلام من شرِّه مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراجُ اليتيمين للكنز.

وفي جعل الموصول عدمَ استطاعة موسى عليه السلام للصبر دون أنْ يقال: بتأويل ما فعلتُ، أو بتأويل ما رأيتَ، ونحوهما = نوعُ تعريضٍ به عليه السلام وعتاب. ويجوز أن يُقال: إنَّ ذلك لاستثارةِ[(٤)] مزيدِ توجُّهه وإقباله لتلقِّي ما يُلقى إليه.

---

(١) شعب الإيمان (٦٦٩٤)، وتاريخ دمشق ١٦/ ٤١٦. وقوله: أظنه الملطي. هو من كلام البيهقي.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٣٩، وهو في تاريخ دمشق ١٦/ ٤١٦.
(٣) البحر ٦/ ١٥٢.
(٤) في (م): لاستشارة. وهو تصحيف.

و«صبراً» مفعول «تستطع»، و«عليه» متعلِّقٌ به، وقُدِّمَ رعايةً للفاصلة.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ التي خرقتُها[1] ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة، جمعُ مِسكين بكسر الميم وفتحها، ويجمعُ على مساكين ومسكينون؛ وهو الضعيف العاجز، ويشمل هذا ما إذا كان العجزُ لأمرٍ في النفس أو البدن، ومن هنا قيل: سُمُّوا مساكين لزمانتهم.

وقد كانوا عشرةً خمسةٌ منهم زَمْنَى، وإطلاق مساكين عليهم على هذا من باب التغليب.

وهذا المعنى للمسكين غير ما اختلف الفقهاء في الفرق بينَه وبين الفقير، وعليه لا تكون الآيةُ حجَّةً لمن يقول: إنَّ المسكينَ من يملكُ شيئاً ولا يكفيه؛ لأنَّ هذا المعنى مقطوعٌ فيه النظر عن المال وعدمه. وقد يُفَسَّر بالمحتاج، وحينئذٍ تكونُ الآيةُ ظاهرةً فيما يدَّعيه القائلُ المذكور.

وادَّعى من يقول: إنَّ المسكينَ من لا شيءَ له أصلاً - وهو الفقير عند الأول - أنَّ السفينة لم تكنْ ملكاً لهم، بل كانوا أُجَراء فيها. وقيل: كانت معهم عاريةً، واللام للاختصاص لا للملك.

ولا يخفى أنَّ ذلك خلافُ الظاهر، ولا يُقْبَلُ بلا دليل.

وقيل: إنَّهم نُزِّلُوا منزلة من لا شيءَ له أصلاً، وأطلق عليهم المساكين ترحُّماً.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: «لمسَّاكين» بتشديد السين[2]، جمع تصحيح لمسَّاك، فقيل: المعنى: لملَّاحين. وقيل: المسَّاكُ من يُمسِكُ رجل السفينة، وكانوا يتناوبون ذلك.

وقيل: المسَّاكون دَبَغَةُ المُسُوك، وهي الجلود واحدها مَسْك، ولعلَّ إرادة الملَّاحين أظهر.

---

(١) في (م): خرقها.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٥٣، والدر المصون ٧/ ٥٣٦. قال السمين الحلبي: ولا أظنُّها إلا تحريفاً على أمير المؤمنين.

﴿يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي: يعملون بها فيه، ويتعيَّشُون بما يحصلُ لهم، وإسناد العمل إلى الكلِّ على القول بأنَّ منهم زَمْنَى على التغليب، أو لأنَّ عملَ الوكلاء بمنزلة عمل الموكِّلين.

﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ أي: أجعلها ذاتَ عيبٍ بالخرق، ولم أُرِد إغراقَ من بها كما حسبت. ولإرادة هذا المعنى جيء بالإرادة، ولم يقل: فأعبتها. وهذا ظاهرٌ في أنَّ اللام في الاعتراض للتعليل، ويحتاجُ حملُها على العاقبة إلى ارتكاب خلاف الظاهر هنا، كما لا يخفى على المتأمِّل.

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾ أي: أمامهم، وبذلك قرأ ابنُ عباس وابن جبير(١)، وهو قولُ قتادةَ وأبي عُبيد وابنِ السكِّيت والزَّجَّاج(٢). وعلى ذلك جاء قول لبيد:

أليسَ ورائي إنْ تراخت منيَّتي ... لزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ(٣)

وقول سوار بن المضرَّب السعدِيّ:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي ... وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا(٤)

وقول الآخر:

أليس ورائي أنْ أدبَّ على العصا ... فيأمنَ أعدائي ويسأمَني أهلي(٥)

وفي القرآن كثيرٌ أيضاً.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٤٩، والبحر المحيط ٦/ ١٥٤. وأخرجها البخاري (٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠)، والطبري في تفسيره ١٥/ ٣٥٤ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٥٤، وانظر كلام ابن السكيت في الأضداد له ص١٧٦، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٣٠٥.

(٣) ديوان لبيد ص١٧٠.

(٤) النوادر لأبي زيد ص٤٥، والكامل للمبرد ٢/ ٦٢٨، والأضداد لابن السكيت ص١٧٦. ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٠ لمساور بن حمآن، ونسبه ابن دريد في الجمهرة ٣/ ٤٩٥ للفرزدق.

(٥) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص١١٤. وفيه: فيشمت. بدل: فيأمن.

ولا خلافَ عند أهل اللغة في مجيء وراء بمعنى أمام، وإنَّما الخلافُ في غير ذلك، وأكثرُهم على أنَّه معنًى حقيقيٌّ يصحُّ إرادتُه منها في أيِّ موضعٍ كان، وقالوا: هي من الأضداد، وظاهرُ كلام البعض أنَّ لها معنًى واحداً يشملُ الضِّدَّين، فقال ابنُ الكمال نقلاً عن الزمخشريّ[1]: إنَّها اسمٌ للجهة التي يُواريها الشخص من خلفٍ أو قُدَّام.

وقال البيضاويُّ ما حاصلُه: إنَّها في الأصل مصدرُ وَرَا يَرِي، كقضى يقضي، وإذا أضيف إلى الفاعل يُراد به المفعول، أعني المستور، وهو ما كان خلفاً، وإذا أُضيف إلى المفعول يراد به الفاعل، أعني[2] الساتر، وهو ما كان قدَّاماً[3]. ورُدَّ عليه بقوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فإنَّ «وراء» أضيفت فيه إلى المفعول، والمراد بها الخلف.

وقال الفرَّاء: لا يجوزُ أن يُقَال للرجل بين يديك: هو وراءك، وكذا في سائر الأجسام، وإنَّما يجوزُ ذلك في المواقيتِ من الليالي والأيَّام[4].

وقال أبو عليّ: إنَّما جاز استعمالُ «وراء» بمعنى أمام على الاتِّساع؛ لأنَّها جهةٌ مقابلةٌ لجهة، فكانت كلُّ واحدةٍ من الجهتين وراءَ الأخرى إذا لم يُرَدْ معنى المواجهة، ويجوز ذلك في الأجرام التي لا وجهَ لها، مثل حجرين متقابلين، كلُّ واحدٍ منهما وراءَ الآخر.

وقيل: أي: خلفهم، كما هو المشهور في معنى وراء.

واعتُرض بأنَّه إذا كانَ خلفهم، فقد سَلِموا منه.

وأُجيب بأنَّ المرادَ أنَّه خلفهم، مدركٌ لهم ومارٌّ بهم، أو بأنَّ رجوعَهم عليه.

واسمه ـ على ما يزعمون ـ هُدَدُ بن بَدَد، وكان كافراً. وقيل: جُلَنْدى بن كركر،

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥١٠.
(٢) قوله: الفاعل أعني. ليس في الأصل.
(٣) انظر تفسير البيضاوي ١/ ١٧٠.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٧.

ملك غسان. وقيل: مفوار[1] بن الجلند بن سعيد الأزدي، وكان بجزيرة الأندلس.

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي: صالحةٍ، وقد قرأ كذلك أبيٌّ بنُ كعب[2]، ولو أُبقيَ العمومُ على ظاهره لم يكن للتعييب فائدةٌ.

﴿غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ من أصحابها، وانتصابُه على أنَّه مصدرٌ مبيِّنٌ لنوع الأخذ، والظاهرُ أنَّه كان يغصبُ السفنَ من أصحابها، ثم لا يردُّها عليهم. وقيل: كان يسخِّرها ثمَّ يردُّها.

والفاء في «فأردت» للتفريع، فيفيد أنَّ سببَ إرادة التعييب كونُها لقومٍ مساكين عجزةٍ، لكن لمَّا كانت مناسبةُ هذا السبب للمسبَّب خفيَّةً بَيَّنَ ذلك بذكرِ عادة الملك في غصب السفن، ومآلُ المعنى: أمَّا السفينةُ فكانت لقومٍ مساكين عجزة يكتسبون بها، فأردتُ بما فعلت إعانتَهم على ما يخافونه ويعجزون عن دفعه من غصبِ ملكٍ وراءهم عادتُه غصب السفن الصالحة.

وذكرَ بعضُهم أنَّ السببَ مجموعُ الأمرين؛ المسكنة والغصب، إلَّا أنَّه وَسَّطَ التفريعَ بين الأمرين ـ وكان الظاهرُ تأخيرَه عنهما ـ للعناية[3] به من حيث إنَّ ذلك الفعل كان هو المنكر المحتاج إلى بيان تأويله، وللإيذان بأنَّ الأقوى في السببيَّة هو الأمر الأول، ولذلك لم يبال بتخليص سفنِ سائر الناس، مع تحقُّق الجزء الأخير من السبب، ولأنَّ في تأخيره فصلاً بين السفينة وضميرها، مع توهُّم رجوعه إلى الأقرب. فليفهم.

---

(١) في (م): مفواد، وفي تفسير البيضاوي ٣/ ٢٣٣: منوار، وفي فتح الباري ٨/ ٤٢٠، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٨، وحاشية الشهاب ٦/ ١٢٧: منولة، وكذا في تفسير البيضاوي المطبوع بهامشه.

(٢) أخرجها الطبريُّ في تفسيره ١٥/ ٣٥٦ عن ابن عباس عن أبيٍّ، وهي عنه أيضاً في الكشاف ٢/ ٤٩٥، وفي البحر المحيط ٦/ ١٥٤.
وأخرجها البخاري (٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠) عن ابن عباس.
وأخرجها الطبري ١٥/ ٣٥٦ عن ابن مسعود، وذكرها عنه أيضاً الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٥، وأبو حيان في البحر ٦/ ١٥٤.
وأوردها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٥، والقرطبي في تفسيره ١٣/ ٣٤٩ عن عثمان بن عفان ﷺ.

(٣) في (م): للغاية. وهو تصحيف.

وظاهرُ الآيةِ أنَّ موسى عليه السلام ما عَلِمَ تأويل هذا الفعل قبلُ، ويشكلُ عليه ما جاء عن الربيع أنَّ الخضرَ عليه السلام بعدَ أن خرقَ السفينةَ، وسلمت من الملك الظالم أقبلَ على أصحابها، فقال: إنَّما أردتُ الذي هو خيرٌ لكم، فحمدوا رأيَه وأصلحَها لهم كما كانت[١]. فإنَّه ظاهرٌ في أنَّه عليه السلام أوقفَهم على حقيقة الأمر، والظاهرُ أنَّ موسى عليه السلام كان حاضراً يسمعُ ذلك. وقد يقال: إنَّ هذا الخبر لا يعوَّل عليه. واحتمال صحَّته مع عدم سماع موسى عليه السلام ممَّا لا يُلتفَت إليه.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتله ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ﴾ أي: أبوه وأمُّه، ففيه تغليب. واسم الأب ـ على ما في «الإتقان» ـ كازير، والأم سهوا[٢].

وفي مصحف أبيٍّ وقراءة ابن عباس: «وأمَّا الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين»[٣]، والمعنى على ذلك في قراءة السبعة، إلَّا أنَّه تُرِكَ التصريحُ بكفره إشعاراً بعدم الحاجة إلى الذكر؛ لظهوره، واستَدلَّ بتلك القراءة من قال: إنَّ الغلام كان بالغاً؛ لأنَّ الصغيرَ لا يوصفُ بكفرٍ وإيمانٍ حقيقيين.

وأجاب النوويُّ عن ذلك بوجهين؛ الأوَّلُ: أنَّ القراءةَ شَاذَّةٌ لا حجَّةَ فيها، الثاني: أنَّه سمَّاه بما يؤول إليه لو عاش[٤].

وفي «صحيح مسلم»: «أنَّ الغلامَ طُبِعَ يوم طُبِعَ كافراً»[٥]، وأوِّلَ بنحو هذا. وكذا ما مرَّ من خبرِ صاحب العرس والعرائس[٦]، لكن في صحَّتِه توقُّفٌ عندي؛ لأنَّه ربما يقتضي بظاهره علمَ موسى عليه السلام بتأويل القتل قبل الفراق.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس كما في الدر المنثور ٤/ ٢٣٨-٢٣٩ مطولاً.

(٢) في الإتقان ٢/ ١٠٩٧ والتعريف والإعلام ص١٠٥: اسم الأب: كازيرا.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٥٤. وأخرج حرف أبيٍّ الطبريُّ في تفسيره ١٥/ ٣٥٧، وذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦. وأخرج قراءة ابن عباس البخاريُّ (٤٧٢٥)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٤٠.

(٥) صحيح مسلم (٢٣٨٠) وهو قطعة من حديث ابن عباس عن أبيٍّ.

(٦) يريد كتاب عرائس المجالس للثعلبي، وانظر ما سلف عند تفسير الآية (٧٤) من هذه السورة.

وعلى ما سمعت من التأويل لا يَرِدُ شيءٌ ممَّا ذُكر على القول المنصورِ في الأطفال، وهو أنَّهم مطلقاً في الجنَّة، على أنه قيلَ: الكلامُ في غير من أَخْبَرَ الصادقُ بأنَّه كافر.

وقرأ أبو سعيد الخدريُّ والجحدريُّ: «فكان أبواه مؤمنان»(١)، وخرَّجه الزمخشريُّ وابنُ عطيَّة وأبو الفضلِ الرازيُّ على أنَّ في «كان» ضمير الشأن، والجملة في موضع الخبر لها(٢)، وأجاز أبو الفضل أنْ يكون «مؤمنان» على لغة بني الحارث بن كعب، فيكون منصوباً، وأجاز أيضاً أن يكون في «كان» ضمير «الغلام»، والجملة في موضع الخبر.

﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ فخفنا خوفاً شديداً أنْ يَغشَى الوالدين المؤمنين لو بقي حيّاً ﴿طُغْيَٰنًا﴾ مجاوزةً للحدود الإلهية ﴿وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ بالله تعالى، وذلك بأنْ يَحملهُما حبُّه على متابعته، كما رُوي عن ابن جبير. ولعلَّ عطف الكفر على الطغيان؛ لتفظيع أمره، ولعلَّ ذكرَ الطغيان ـ مع أنَّ ظاهر السياق الاقتصارُ على الكفر ـ ليتأتَّى هذا التفظيع، أو ليكون المعنى: فخشينا أنْ يدنِّس إيمانَهما أوَّلاً ويزيلَه آخِراً، ويُلتزم على هذا القولُ بأنَّ ذلك أشنعُ وأقبحُ من إزالتِه بدون سابقيَّة تدنيس.

وفسَّر بعض شُرَّاح البخاري الخشية بالعلم، فقال: أي: علمنا أنَّه لو أدركَ وبلغَ لدعا أبويه إلى الكفر، فيجيبانه ويدخلان معه في دينه لفرطِ حبِّهما إيَّاه.

وقيل: المعنى: خشينا أن يُغشيهما طغياناً(٣) عليهما، وكفراً لنعمتهما عليه، من تربيتهما إيَّاه وكونهما سبباً لوجوده؛ بسبب عقوقه وسوء صنيعه، فيلحَقَهُما شرٌّ وبلاء.

وقيل: المعنى: خشينا أنْ يُغشيهما، ويَقرِنَ بإيمانهما طغيانَه وكفرَه، فيجتمعَ في بيتٍ واحدٍ مؤمنان وطاغٍ كافرٌ.

---

(١) المحتسب ٢/ ٣٣، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦، والكشاف ٢/ ٤٩٥، والبحر ٦/ ١٥٥.
(٢) الكشاف ٢/ ٤٩٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦، والبحر المحيط ٦/ ١٥٥، وعنه نقل المصنف.
(٣) قوله: يغشيهما، من الإفعال أو التفعيل، أي: يعرض لهما منه ذلك. حاشية الشهاب ٦/ ١٢٨.

وفي بعض الآثار أنَّ الغلام كان يفسِدُ، وفي روايةٍ: يقطع الطريق، ويقسمُ لأبويه أنَّه ما فعل، فيقسمان على قسمِه، ويحميانِه ممن يطلبُه. واستَدلَّ بذلك من قال: إنَّه كان بالغاً.

والذاهبُ إلى صغره يقول: إنَّ ذلك لا يصحُّ. ولعلَّ الحقَّ معه.

والظاهر أنَّ هذا من كلام الخضر عليه السلام، أجاب به موسى عليه السلام من جهته.

وجوَّزَ الزمخشريُّ[1] أنْ يكون ذلك حكايةً لقول الله عزَّ وجلَّ، والمراد: فكرهنا، بجعل الخشيةِ مجازاً مرسلاً عن لازمها، وهو الكراهة على ما قيل.

قال في «الكشف»: وذلك لاتحاد مقامِ المخاطبة، كأنَّ سؤالَ موسى عليه السلام منه تعالى، والخضرُ عليه السلام بإذن الله تعالى يجيبُ عنه، وفي ذلك لطفٌ، ولكنَّ الظاهرَ هو الأول. انتهى.

وقيل: هو على هذا الاحتمال بتقدير: فقال الله: خشينا، والفاء من الحكاية. وهو أيضاً بعيدٌ، ولا يكادُ يلائمُ هذا الاحتمالُ الآيةَ بعد، إلَّا أن يُجعل التعبيرُ بالظاهر فيها التفاتاً.

وفي مصحف عبد الله وقراءة أبيٍّ: «فخاف ربُّك»[2]. والتأويل ما سمعت.

وقال ابن عطية: إنَّ الخوفَ والخشيةَ ـ كالترجِّي بلعلَّ ونحوها الواقعِ في كلامه تعالى ـ مصروفٌ إلى المخاطبين، وإلَّا فالله جلَّ جلالُه منزَّهٌ عن كلِّ ذلك[3].

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ بأنْ يرزقَهما بدلَه ولداً خيراً منه ﴿زَكَوٰةً﴾ قال ابن عباس: أي: ديناً، وهو تفسيرٌ باللازم، والكثيرُ قالوا: أي: طهارةً من الذنوبِ والأخلاقِ الرديئة.

---

(١) في الكشاف ٢/ ٤٩٥-٤٩٦.

(٢) أخرج الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٥٧ قراءة ابن مسعود ﷺ، وذكرها عنه أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦، والقرطبيُّ في تفسيره ١٣/ ٣٥٢، وأبو حيان في البحر ٦/ ١٥٥. وقراءة أبيّ ذكرها الفراء في معانيه ٢/ ١٥٧، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٥.

(٣) انظر المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦.

وفي التعرُّضِ لعنوان الربوبيَّة والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ أي: رحمة، قال رؤبةُ بن العجاج:

يا مُنْزِلَ الرُّحمِ على إدريسَا ومُنْزِلَ اللعنِ على إبليسَا[1]

وهما مصدران كالكُثر والكَثرة، والمراد: أقرب رحمةً عليهما، وبرّاً بهما. واستظهرَ ذلك أبو حيان[2]، ولعلَّ وجهَه كثرةُ استعمال المصدر مبنيّاً للفاعل، مع ما في ذلك هنا من موافقة المصدر قبله.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطيَّة أنَّ المعنى: هما به أرحمُ منهما بالغلام[3]، ولعلَّ المراد على هذا أنَّه أحبُّ إليهما من ذلك الغلام، إمَّا لزيادة حسن خُلقه أو خَلْقه، أو الاثنين معاً.

وهذا المعنى أقربُ للتأسيس من المعنى الأول، على تفسير المعطوف عليه بما سمعت، إلَّا أنه يؤيِّد ذلك التفسيرَ ما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّهما أُبدِلَا جاريةً ولدت نبيّاً[4].

وقال الثعلبيُّ: إنها أدركت يونس بن متَّى، فتزوَّجها نبيٌّ من الأنبياء، فولدت نبيّاً هدى الله تعالى على يده أُمَّةً من الأمم[5]. وفي رواية ابن المنذر عن يوسف بن عمر[6] أنَّها ولدت نبيين.

وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس وجعفر الصادق ﵄ أنَّها ولدت سبعين نبيّاً.

---

(١) الرجز في المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٥٣، والبحر المحيط ٦/ ١٥٥. والبيت الأول منه في ديوان رؤبة ص١٧٥ (الملحق) وفيه: إدريسِ، بدل: إدريسا.

(٢) في البحر ٦/ ١٥٥.

(٣) عزاه لابن المنذر عن عطية ابن حجر في الفتح ٨/ ٤٢١، وورد ضمن حديث ابن عباس عن أبيٍّ عند البخاري (٤٧٢٦).

(٤) عزاه ابن حجر في الفتح ٨/ ٤٢٢ للنسائي.

(٥) عرائس المجالس ص٢٣٠.

(٦) في مطبوع الدر المنثور ٤/ ٢٣٨ ـ والخبر فيه ـ: عمر بن يوسف. وهو خطأ. انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/ ٤١٤، والتاريخ الكبير للبخاري ٢/ ١٢٦، ولسان الميزان ٢/ ٢٨١.

واستبعد هذا ابنُ عطيَّة، وقال: لا يعرفُ كثرةُ الأنبياء عليهم السلام إلَّا في بني إسرائيل، ولم تكن هذه المرأة منهم[١]. وفيه نظرٌ ظاهر.

ووجهُ التأييد أنَّ الجاريةَ بحسب العادة تحبُّ أبويها وترحمهما وتعطفُ عليهما وتبرُّ بهما أكثرَ من الغلام.

وقيل: أبدلهما غلاماً مؤمناً مثلهما.

وانتصابُ المصدرين على التمييز، والعامل ما قبل كلٍّ من أفعل التفضيل.

ولا يخفى ما في الإبهام أوَّلاً ثم البيان ثانياً من اللطف، ولذا لم يقل: فأردنا أن يبدلهما ربُّهما أزكى منه وأرحم، على أنَّ في: خير زكاة، من المدح ما ليس في أزكى، كما يظهر بالتأمُّل الصادق.

وذكر أبو حيان أنَّ «أفعل» ليس للتفضيل هنا؛ لأنَّه لا زكاة في ذلك الغلام ولا رحمة[٢].

وتُعقِّب بأنَّه كان زكيّاً طاهراً من الذنوب بالفعل إنْ كان صغيراً، وبحسب الظاهر إنْ كان بالغاً؛ فلذا قال موسى عليه السلام: «نفساً زكيَّةً» وهذا في مقابلته، فخيرٌ منه[٣] زكاةً مَنْ هو زكيٌّ في الحال والمآل بحسب الظاهر والباطن، ولو سلِّم فالاشتراك التقديريُّ يكفي في صحة التفضيل، وأن قوله: ولا رحمة، قولٌ بلا دليل. انتهى.

وقال الخفاجيُّ: إنَّ الجواب الصحيح هنا أنْ يُكتفى بالاشتراك التقديريّ؛ لأنَّ الخضر عليه السلام كان عالماً بالباطن، فهو يعلم أنَّه لا زكاةَ فيه ولا رحمة، فقوله: إنَّه لا دليلَ عليه، لا وجه له[٤].

وأنت تعلمُ أنَّ الرحمة على التفسير الثاني ممَّا لا يصحُّ نفيها؛ لأنَّها مدارُ الخشية، فافهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٦.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٥٥.
(٣) في الأصل و(م): من، والمثبت من حاشية الشهاب ٦/ ١٢٩، وعنه نقل المصنف.
(٤) حاشية الشهاب الخفاجي ٦/ ١٢٩.

والظاهر أنَّ الفاء للتفريع، فيفيدُ سببيَّةَ الخشية للإرادة المذكورة، ويفهم منه تفريع القتل، ولم يفرعه نفسَه ـ مع أنَّه المقصود تأويلهُ ـ اعتماداً على ظهور انفهامه من هذه الجملة على ألطف وجه، وفيها إشارةٌ إلى ردِّ ما يلوِّحُ به كلامُ موسى عليه السلام من أنَّ قتله ظلمٌ وفسادٌ في الأرض.

وقرأ نافعٌ وأبو عمرو وأبو جعفر وشيبة وحميد والأعمش وابنُ جرير: «يُبَدِّلهما» بالتشديد(١).

وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ـ في رواية ـ ويعقوب وأبو حاتم: «رُحُماً» بضمِّ الحاء(٢).

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «رَحِماً» بفتح الراء وكسر الحاء(٣).

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ المعهود ﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾ قيل: إنهما أصرم وصريم ﴿يَتِيمَيْنِ﴾ صغيرين مات أبوهما، وهذا هو الظاهر؛ لأنَّ يُتْمَ بني آدمَ بموت الأب، وفي الحديث: «لا يُتْمَ بعد بلوغ»(٤).

وقال ابن عطية: يحتمل أنَّهما كانا بالغين، والتعبيرُ عنهما بما ذُكِرَ باعتبار ما كان على معنى الشفقة عليهما(٥). ولا يخفى أنَّه بعيدٌ جدّاً.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٥٥. وانظر قراءة نافع وأبي عمرو وأبي جعفر في التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٥٥. وانظر قراءة ابن عامر وأبي جعفر ويعقوب في التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٢١٦.

(٣) زاد المسير ٥/ ١٨٠، والبحر المحيط ٦/ ١٥٥.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٥٧ من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً، ولفظه: «لا يتم بعد احتلام».
قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٠١: وقد أعلَّه العقيلي وعبد الحق وابن القطان والمنذري وغيرهم، وحسنه النووي متمسكاً بسكوت أبي داود عليه. ورواه البيهقي في الصغير [(٢٦٦)] بسند آخر عن علي، ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده [(١٨٧٦) من حديث جابر] وفي الباب حديث حنظلة بن حنيفة عن جده، وإسناده لا بأس به، وهو في الطبراني [في الكبير (٣٥٠٢)] وغيره. وعن جابر رواه ابن عدي في ترجمة حرام بن عثمان [٢/ ٨٥٢-٨٥٣] وهو متروك. وعن أنس.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٥٣٧.

﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي القرية المذكورة فيما سبق، ولعلَّ التعبير عنها بالمدينة هنا؛ لإظهار نوع اعتدادٍ بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وما هو من أهلها، وهو أبوهما الصالح.

ولمَّا كان سوقُ الكلام السابق على غير هذا المساق عبَّر بالقرية فيه.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ مالٌ مدفونٌ من ذهبٍ وفضَّةٍ، كما أخرجه البخاريُّ في «تاريخه» والترمذيُّ والحاكم وصححه من حديث أبي الدرداء[(١)]، وبذلك قال عكرمة وقتادة. وهو في الأصل مصدرٌ، ثمَّ أريد به اسم المفعول.

قال الراغب: الكنز: جعلُ المال بعضَه على بعض وحفظُه، وأصله من: كَنَزْتُ التمرَ في الوعاء[(٢)].

واستشكل تفسير الكنز بما ذُكر بأنَّ الظاهر أنَّ الكانزَ له أبوهما؛ لاقتضاء «لهما» له؛ إذ[(٣)] لا يكون لهما إلَّا إذا كان إرثاً أو كانا قد استخرجاه، والثاني منتفٍ، فتعيَّن الأول، وقد وُصِفَ بالصلاح، ويعارض ذلك ما جاء في ذمِّ الكانز.

وأجيب بأنَّ المذمومَ ما لم تؤدَّ منه الحقوق، بل لا يقال لما أدِّيت منه كنزٌ شرعاً، كما يدلُّ عليه عند القائلين بالمفهوم حديثُ: «كلُّ مالٍ لا تؤدَّى زكاته فهو كنز»[(٤)]، فإنَّ النبيَّ ﷺ بصدد بيان الأحكام الشرعية، لا المفاهيم اللغوية؛ لأنَّها

---

(١) التاريخ الكبير ٨/ ٣٦٩، وسنن الترمذي (٣١٥٢)، والمستدرك للحاكم ٢/ ٣٦٩ وصححه، وتعقبه الذهبي فقال: بل يزيد بن يوسف متروك، وإن كان حديثه أشبه بمسمى الكنز. اهـ. وانظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٠٤.

(٢) المفردات (كنز).

(٣) في الأصل و(م): إذا.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٧١٤٠)، (٧١٤١)، (٧١٤٢)، والشافعي في مسنده ١/ ٨٧، والبيهقي في الكبرى ٤/ ٨٢ عن ابن عمر موقوفاً. وأخرجه مرفوعاً الطبراني في الأوسط (٨٢٧٩). وقال الطبراني: لم يرفع هذا الحديث عن عبيد الله بن عمر إلا سويد بن عبد العزيز. اهـ. ورجح الموقوف البيهقيُّ في الكبرى ٤/ ٨٢، والمنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٥٨٤، والذهبي في ميزان الاعتدال ترجمة سويد بن عبد العزيز برقم (٣٤٥١). وانظر فتح الباري ٣/ ٢٧٢.

وأخرج ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٦٤٧ نحوه من حديث جابر مرفوعاً. وفي إسناده يحيى بن =

معلومةٌ للمخاطَبين، ولا يعتبرُ في مفهومه اللغويّ ـ المرادِ هنا ـ شيءٌ من الإخراج وعدمه، والوصف بالصلاح قرينةٌ على أنَّه لم يكن من الكنز المذموم، ومن قال: إنَّ الكنز حرامٌ مطلقاً، ادَّعى أنَّه لم يكن كذلك في شرع من قبلنا، واحتجَّ عليه بما أخرجه الطبرانيُّ عن أبي الدرداء في هذه الآية قال: أحلَّت لهم الكنوز وحُرِّمت عليهم الغنائم، وأحلَّت لنا الغنائمُ وحرِّمت علينا الكنوز(١).

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة نحو ذلك، وفيه: فلا يعجبنَّ الرجلُ فيقول: ما شأن الكنز حلَّ لمن قبلنا وحُرِّمَ علينا، فإنَّ الله تعالى يُحلُّ من أمره ما يشاء، ويُحرِّمُ ما يشاء، وهي السنن والفرائض تَحلُّ لأمةٍ، وتحرم على أخرى(٢).

وأخرج الحاكم وصحَّحه عن ابن عباس أنَّه قال: ما كان ذهباً ولا فضَّةً، ولكن كان صحف علم(٣). وروي ذلك أيضاً عن ابن جبير(٤).

وأخرجَ ابنُ مردويه من حديث عليٍّ كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً، والبزَّارُ عن أبي ذرٍّ كذلك، والخرائطيُّ عن ابن عباس موقوفاً أنَّه كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه: عجبتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبتُ لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبتُ لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبتُ لمن يعرف الدنيا وتقلُّبها بأهلها كيف يطمئنُّ إليها، لا إله إلَّا الله، محمدٌ رسول الله ﷺ(٥).

= أبي أنيسة، وهو ضعيف. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣/ ١٩٠ موقوفاً على جابر. وفي الباب عند أبي داود (١٥٦٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، قال ﷺ: «ما بلغ أن تؤدَّى زكاته فزكي، فليس بكنز» وينظر ما سلف ١٠/ ٣٠٥.

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٤: رواه الطبراني، وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، وهو متروك.

(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ٤٠٧، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٤/ ٢٣٨، وأخرجه الطبري ١٥/ ٣٦٥.

(٣) المستدرك ٢/ ٣٦٩.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٦٢.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٣٤، وحديث أبي ذرٍّ مرفوعاً في مسند البزار (٤٠٦٥)، قال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن أبي ذر إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.
=

وفي رواية عطاء عن ابن عباس أنَّه مكتوبٌ في أحد شقيه: بسم الله الرحمن الرحيم عجبت.. إلخ، وفي الشقِّ الآخر: أنا الله لا إله إلَّا أنا وحدي لا شريك لي، خلقتُ الخير والشرَّ، فطوبى لمن خلقتُه للخير، وأجريتُه على يديه، والويل لمن خلقتُه للشرِّ، وأجريته على يديه.

وجمع بعضُهم بأنَّ المرادَ بالكنز ما يشملُ جميع ذلك، بناءً على أنَّه المالُ المدفونُ مطلقاً، وكلٌّ من المذكورات مالٌ كان مدفوناً، إلَّا أنَّه اقتصرَ في كلٍّ من الروايات على واحدٍ منها.

وفيه أنَّه ـ على بعده ـ يأباه ظاهرُ قول ابن عباس رضي الله عنهما: ما كان ذهباً ولا فضَّة.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ الظاهرُ أنَّه الأبُ الأقرب الذي وَلدهما، وذُكر أنَّ اسمه كاشح، وأنَّ اسم أمِّهما دهنا. وقيل: كان الأبَ العاشر. وعن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه كان الأب السابع.

وأيَّاما كان ففي الآية دلالةٌ على أنَّ صلاح الآباء يفيدُ العناية بالأبناء، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في «الزهد» وابن أبي حاتم عن خيثمة قال: قال عيسى عليه السلام: طوبى لذرية المؤمن، ثمَّ طوبى لهم كيف يُحفظون مِن بعدِه. وتلا خيثمةُ هذه الآية[1].

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن وهب قال: إنَّ الله تعالى ليحفظُ بالعبد الصالح القبيلَ من الناس[2].

= وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٣: رواه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات. اهـ.
وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: بشر بن المنذر هذا يقال له قاضي المصيصة، قال الحافظ أبو جعفر العقيلي: في حديثه وهم.
وخبر ابن عباس أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٦/ ٤١٥.
وانظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٠٤.

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٣٨. وهو في الزهد لأحمد ص٧٢، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٤٤٩ من قول خيثمة دون نسبة لعيسى عليه السلام.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٣٨.

وعن الحسن بن عليٍّ ﷺ أنَّه قال لبعض الخوارج في كلامٍ جرى بينهما: بم حفظ الله تعالى مالَ الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدِّي خيرٌ منه. فقال الخارجيُّ: أنبأنا الله تعالى أنَّكم قومٌ خَصِمون[١].

وذُكر من صلاح هذا الرجل أنَّ الناس كانوا يضعون عنده الودائع، فيردُّها إليهم كما وضعوها. ويروى أنَّه كان سياحاً.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ مالكُكَ ومدبِّرُ أمورك. ففي إضافة الربِّ إلى ضمير موسى عليه السلام دونَ ضميرهما تنبيهٌ له على تحتُّم كمالِ الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوبِ الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبهما؛ التي يشمُّ منها طلبُ ما يحصل به تربيةُ البدن وتدبيره.

﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ قيل: أي: الحلم وكمال الرأي، وفي «الصحاح»: القوة[٢]. وهو ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين، وهو واحدٌ جاء على بناء الجمع، مثل آنُك[٣]، ولا نظير لهما. ويقال: هو جمعٌ لا واحدَ له من لفظه، مثل: آسال، وأبابيل، وعباديد، ومذاكير، وكان سيبويه يقول: واحدُه: شِدَّة، وهو حسنٌ في المعنى؛ لأنَّه يقال: بلغ الغلام شدَّتَه، ولكن لا يجمع فِعْلة على أَفْعُل، وأما أنْعُم، فإنما هو جمع نُعْم، من قولهم: يوم بُؤس ويوم نُعْم، وأمَّا قول من قال: واحدُه شَدٌّ مثل كلب وأكلب، أو شِدٌّ مثل ذئب وأذؤب، فإنَّما هو قياسٌ، كما يقولون في واحد الأبابيل: إبَّول، قياساً على عِجَّول، وليس هو شيئاً يُسمعُ من العرب.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ من تحت الجدار، ولولا أنِّي أقمتُه لانقضَّ، وخرج الكنزُ من تحته قبلَ اقتدارهما على حفظه والانتفاع به.

وذكروا أنَّ اليتيمين كانا غير عالمين بالكنز، ولهما وصيٌّ يعلمُ به، لكنه كان غائباً، والجدارُ قد شارفَ، فلو سقطَ لضاع، فلذا أقامه.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٤٩٦، والرازي في التفسير الكبير ٢١/ ١٦٢، وجاء في الكشاف: الحسين، بدل: الحسن.
(٢) الصحاح (شدد).
(٣) بالمدّ وضم النون، وهو الرصاص. اللسان (أنك).

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعولٌ له لـ «أراد»، وأقيم الظاهرُ مقامَ الضمير، وليس مفعولاً له لـ «يستخرجا» لاختلاف الفاعل، وبعضهم أجازَ ذلك؛ لعدم اشتراطه الاتحاد، أو جعلَ المصدر من المبنيِّ للمفعول، وأجازَ أن يكون النصب على الحال، وهو من ضمير «يستخرجا» بتأويل مرحومَين، والزمخشريُّ[1] النصبَ على أنَّه مفعولٌ مطلق لـ «أراد»، فإنَّ إرادة ذلك رحمةٌ منه تعالى.

واعترض بأنَّه إذا كان «أراد ربك» بمعنى رحم كانت الرحمةُ من الربِّ لا محالةَ، فأيُّ فائدةٍ في ذكر قوله تعالى: «من ربك»، وكذا إذا كان مفعولاً له.

وقيل: في الكلام حذفٌ، والتقدير: فعلتُ ما فعلت رحمةً من ربِّك، فهو حينئذٍ مفعولٌ له بتقدير: إرادةَ أو رجاءَ رحمةِ ربك، أو منصوبٌ بنزع الخافض.

والرحمةُ بمعنى الوحي، أي: برحمة ربِّك ووحيه، فيكون قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ ـ أي: عن رأيي واجتهادي ـ تأكيداً لذلك.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من العواقب المنظومة في سلك البيان، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجته في الفخامة.

﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ أي: تستطع، وهو مضارعُ اسطَاع بهمز الوصل، وأصله استطاعَ على وزن استفعل، ثم حذفَ تاء الافتعال تخفيفاً، وبقيت الطَّاءُ التي هي أصل.

وزعم بعضهم أنَّ السينَ عوضُ قلب الواو ألفاً، والأصل: أطاع. ولا حاجةَ تدعو إلى أنَّ المحذوف هي الطاء التي هي فاء الفعل، ثم دعوى أنَّهم أبدلوا من تاء الافتعال طاءً لوقوعها بعد السين.

ويقال: تستتيع بإبدال الطاء تاءً، و: تستيع، بحذف تاء الافتعال، فاللغاتُ أربعٌ كما قال ابن السكيت.

وما ألطف حذفَ أحد المتقاربين وبقاء الآخر في آخر هذا الكلام الذي وقعَ عنده ذهابُ الخضر عن موسى عليهما السلام.

---

(١) في الكشاف ٢/٤٩٦.

وقال بعض المحققين: إنَّما خص هذا بالتخفيف؛ لأنَّه لمَّا تكرَّر في القصة ناسبَ تخفيف الأخير.

وتُعقِّب بأنَّ ذلك مكرَّرٌ أيضاً، وذاك أخف منه، فلِمَ لم يؤت به؟ وفيه أنَّ الفرقَ ظاهرٌ بين هذا وذلك.

وقيل: إنَّما خُصَّ بالتخفيف للإشارة إلى أنَّه خفَّ على موسى عليه السلام ما لقيه ببيان سببه.

وتُعقِّبَ بأنَّه يبعده أنَّه في الحكاية لا المحكيّ، وأنت تعلم هذا، وكذا ما ذكرناه زهرةٌ لا تتحمَّل الفركَ، والتأويلُ بالمعنى السابق الذي ذكر أنَّه المراد، أي: ذلك مآلُ وعاقبةُ الذي لم تستطع ﴿عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ من الأمور التي رأيتَ، فيكون إنجازاً للتنبئة الموعودة.

وجُوِّزَ أن تكون الإشارة إلى البيان نفسه، فيكون التأويل بمعناه المشهور. وعلى كلِّ حالٍ فهو فذلكةٌ لما تقدَّم.

وفي جعل الصلة عينَ(١) ما مرَّ تكريرٌ للتنكير(٢)، وتشديدٌ للعتاب.

قيل: ولعلَّ إسناد الإرادة أوَّلاً إلى ضمير المتكلِّم وحدَه لأنه(٣) الفاعلُ المباشر للتعييب، وثانياً إلى ضمير المتكلم ومعه غيره؛ لأنَّ إهلاكَ الغلام بمباشرته وفعلِه، وتبديلُ غيره موقوفٌ عليه، وهو بمحضِ فعل الله تعالى وقدرته، فضمير «نا» مشتركٌ بين الله تعالى والخضر عليه السلام، وثالثاً إلى الله تعالى وحده؛ لأنَّه لا مدخلَ له عليه السلام في بلوغ الغلامين.

واعترض توجيهُ ضمير الجمع بأنَّ اجتماعَ المخلوق مع الله تعالى في ضميرٍ واحدٍ ـ لا سيَّما ضمير المتكلم ـ فيه من ترك الأدب ما فيه، ويدلُّ على ذلك ما جاء من أنَّ ثابت بن قيس بن شماس كان يخطُبُ في مجلسه ﷺ إذا وردت وفودُ

---

(١) في (م): غير. وهو خطأ. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٩، والكلام منه.
(٢) في تفسير أبي السعود: للنكير.
(٣) في الأصل و(م): أنه، والصواب ما أثبتناه. ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ١٣٠.

العرب، فاتَّفقَ أنْ قدِمَ وفدُ تميم، فقام خطيبهم وذكر مفاخرهم ومآثرهم، فلمَّا أتمَّ خطبته، قام ثابت وخطب خطبةً قال فيها: من يطع الله عزَّ وجلَّ ورسولَه ﷺ فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال له النبيُّ ﷺ: «بئس خطيبُ القوم أنت»[(١)].

وصرَّح الخطابيُّ أنَّه عليه الصلاة والسلام كره منه ما فيه من التسوية[(٢)].

وأجيب بأنَّه قد وقع نحو ذلك في الآيات والأحاديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فإنَّ الظاهرَ أنَّ ضميرَ «يصلُّون»[(٣)] راجعٌ إلى الله تعالى وإلى الملائكة، وقوله ﷺ في حديث الإيمان: «أنْ يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما»[(٤)]. ولعلَّ ما كرهه ﷺ من ثابتٍ أنَّه وقفَ على قوله «يعصهما» لا التسوية في الضمير، وظاهر هذا أنَّه لا كراهةَ مطلقاً في هذه التسوية، وهو أحدُ الأقوال في المسألة، وثانيها ما ذهبَ إليه الخطابيُّ أنَّها تكرهُ تنزيهاً، وثالثها ما يفهمه كلام الغزاليِّ أنَّها تكرهُ تحريماً.

وعلى القول بالكراهة التنزيهية استظهر بعضُهم أنَّها غير مطَّردةٍ، فقد تكره في مقامٍ دونَ مقام، وبنى الجواب عمَّا نحن فيه على ذلك، فقال: لمَّا كان المقامُ الذي قام فيه ثابتٌ مقام خطابةٍ وإطناب، وهو بحضرة قومٍ مشركين، والإسلام غضٌّ طريٌّ، كَرِهَ ﷺ التسويةَ منه فيه، وأمَّا مثل هذا المقام الذي القائلُ فيه والمخاطَبُ مَنْ عرفتَ، وقصد فيه نكتة وهو عدم استقلاله، فلا كراهةَ للتسوية فيه.

وخصَّ بعضٌ الكراهةَ بغير النبيِّ ﷺ، وحينئذٍ يَقوَى الجوابُ عمَّا ذُكِر؛ لأنَّه إذا جازت للنبيِّ ﷺ فهو في كلام الله تعالى وما حكاه سبحانه بالطريق الأولى.

وخلاصةُ ما قُرِّر في المسألة أنَّ الحقَّ أنَّه لا كراهةَ في ذلك في كلام الله تعالى

---

(١) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٦/ ١٣٠ أن الخطيب هو ثابت بن قيس رضي الله عنه، ولعله وهم، فالذي في صحيح مسلم (٨٧٠) من حديث عديِّ بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال. . . فذكره، وأخرجه بنحوه أبو داود (٤٩٨١)، والنسائي ٦/ ٩٠. وليس في مصادر التخريج ذكر اسم الخطيب.

(٢) معالم السنن ٤/ ١٣١.

(٣) بعدها في (م): على.

(٤) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ورسوله ﷺ كما أشير إليه في شروح البخاريِّ، وأمَّا في حقِّ البشر، فلعلَّ المختارَ أنَّه مكروهٌ تنزيهاً في مقامٍ دون مقام.

هذا وأنا لا أقول باشتراك هذا الضمير بينَ الله تعالى والخضر عليه السلام، لا لأنَّ فيه تركَ الأدب، بل لأنَّ الظاهرَ أنَّه كضمير «خشينا»، والظاهر في ذاك عدم الاشتراك؛ لأنَّه مُحوِجٌ لارتكاب المجاز، على أنَّ النكتة التي ذكروها في اختيار التشريك في ضمير «أردنا» لا تَظهر في اختياره في ضمير «فخشينا»؛ لأنَّه لم يتضمَّن الكلامُ الأولُ فعلين على نحو ما تضمَّنهما الكلامُ الثاني، فتدبَّر.

وقيل في وجه تغاير الأسلوب: إنَّ الأوَّلَ شرٌّ، فلا يليقُ إسناده إليه سبحانه، وإن كان هو الفاعل جلَّ وعلا، والثالث خيرٌ، فأفرد إسناده إلى الله عزَّ وجلَّ، والثاني ممتزجٌ خيره وهو تبديله بخيرٍ منه، وشرُّه وهو القتل، فأسند إلى الله تعالى وإلى نفسه نظراً لهما.

وفيه أنَّ هذا الإسناد في «فخشينا» أيضاً، وأين امتزاجُ الخير والشرِّ فيه؟ وجَعْلُ النكتة في التعبير بـ «نا» فيه مجرَّدَ الموافقة لتاليه، ليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وقيل: الظاهرُ أنَّه أسندَ الإرادة في الأوَّلين إلى نفسه، لكنَّه تفنَّنَ في التعبير، فعبَّر عنها بضمير المتكلِّم مع الغير بعد ما عبَّر بضمير المتكلِّم الواحد؛ لأنَّ مرتبةَ الانضمام مؤخَّرةٌ عن مرتبة الانفراد، مع أنَّ فيه تنبيهاً على أنَّه من العظماء في علوم الحكمة، فلم يُقْدِم على هذا القتل إلَّا لحكمةٍ عاليةٍ، بخلاف التعييب، وأسندَ فعل الإبدالِ إلى الله تعالى إشارةً إلى استقلاله سبحانه بالفعل، وأنَّ الحاصلَ للعبد مجرَّدُ مقارنة إرادة الفعل دون تأثيرٍ فيه، كما هو المذهب الحقُّ. انتهى.

وأنت تعلمُ أنَّ الإبدالَ نفسه ممَّا ليس لإرادة العبد مقارنةٌ له أصلاً، وإنَّما لها مقارنةٌ للقتل الموقوف هو عليه، على أنَّ في هذا التوجيه بعدُ ما فيه.

وفي «الانتصاف»: لعلَّ إسناد الأوَّل إلى نفسه خاصةً من باب الأدب مع الله تعالى؛ لأنَّ المراد ثَمَّ عيبٌ، فتأدَّبَ ـ عليه السلام ـ بأنْ نَسبَ الإعابةَ إلى نفسه. وأما إسناد الثاني إلى «نا» فالظاهر أنَّه من باب قول خواصِّ الملك: أمرنا بكذا،

ودبَّرنا كذا، وإنَّما يعنون: أمَرَ الملكُ العظيم ودَبَّر. ويدلُّ على ذلك قوله في الثالث: «فأرادَ ربُّك أن يبلغا أشُدَّهما»(١). وهو كما ترى.

وقيل: اختلافُ الاسلوب لاختلاف حال العارف بالله سبحانه، فإنَّه في ابتداء أمره يَرى نفسَه مؤثِّرةً، فلذا أسندَ الإرادة أوَّلاً إلى نفسه، ثم يتنبَّه إلى أنَّه لا يستقلُّ بالفعل بدون الله تعالى، فلذا أسندَ إلى ذلك الضمير، ثم يرى أنَّه لا دخلَ له، وأنَّ المؤثِّر والمريدَ(٢) إنَّما هو الله تعالى، فلذا أسندَه إليه سبحانه فقط، وهذا مقامُ الفناء، ومقام: كان الله ولا شيء معه، وهو الآن كما كان.

وتُعقِّب بأنَّه إن أريد أنَّ هذه الأحوالَ مرَّت على الخضر عليه السلام واتَّصفَ بكلٍّ منها أثناءَ المحاورة؛ فهو باطلٌ، وكيف يليقُ أنْ يكون إذ ذاكَ ممَّن يتَّصفُ بالمرتبة الثانية فضلاً عن المرتبة الأولى وهو الذي قد أوتي من قبلُ العلمَ اللدنيَّ، وإن أريدَ أنَّه عبَّر تعبيرَ من اتَّصفَ بكلِّ مرتبةٍ من تلك المراتب وإنْ كان هو عليه السلام في أعلاها، فإنْ كان ذلك تعليماً لموسى عليه السلام، فموسى عليه السلام أجلُّ من أن يعلِّمه الخضرُ عليه السلام مسألة خلق الأعمال، وإنْ كان تعليماً لغيره عليه السلام، فليس المقامُ ذلك المقام، على تقدير أنْ يكونَ هناك غيرٌ يسمعُ منه هذا الكلام، وإن أريد أنَّه عبَّر في المواضع الثلاثة بأسلوبٍ مخصوصٍ من هاتيك الأساليب، إلَّا أنَّه سبحانه عبَّر في كلِّ موضعٍ بأسلوب، فتعدَّدت الأساليب في حكايته تعالى القصَّة لنا تعليماً وإشارةً إلى هاتيك المراتب، وإنْ لم يكن كلامُ الخضر عليه السلام كذلك، فالله تعالى أجلُّ وأعظمُ من أنْ ينقل عن أحدٍ كلاماً لم يقله، أو لم يقل ما بمعناه، فالقول بذلك نوعُ افتراءٍ عليه سبحانه.

والذي يخطرُ ببال العبد الفقير أنَّه رُوعي في الجواب حالُ الاعتراض وما تضمَّنه وأشارَ إليه، فلمَّا كان الاعتراضُ الأوَّل ـ بناءً على أنَّ لام «لتغرق» للتعليل ـ متضمِّناً إسنادَ إرادة الإغراق إلى الخضر عليه السلام، وكان الإنكار فيه دون الإنكار فيما يليه؛ بناءً على ما اختاره المحقِّقون من أنَّ «نكراً» أبلغُ من

(١) الانتصاف ٢/ ٤٩٦.

(٢) في الأصل: والمؤيد، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٦/ ١٣١، والكلام منه.

«إمراً» = ناسبَ أنْ يُصرِّح(١) بإسناد إرادة التعييب إلى نفسه، المشير إلى نفي إرادة الإغراق عنها، التي يشير كلام موسى عليه السلام إليها، وأنْ لا يأتيَ بما يدلُّ على التعظيم، أو ضمِّ أحدٍ معه في الإرادة؛ لعدمِ تعظيم أمرِ الإنكار المحوجِ لأنْ يقابَلَ بما يدلُّ على تعظيم إرادة خلافِ ما حسبَه عليه السلام وأنكرَه.

ولمَّا كان الاعتراضُ الثاني في غاية المبالغة، والإنكارُ هناك في نهاية الإنكار، ناسبَ أن يشيرَ إلى أنَّ ما اعتُرِض عليه وبُولِغَ في إنكاره قد أريد به أمرٌ عظيم، ولو لم يقع لم يؤمَنْ من وقوع خطبٍ جسيم، فلذا أسندَ الخشيةَ والإرادة إلى ضميرِ المعظِّمِ نفسَهُ، أو المتكلِّم ومعه غيرُه، فإنَّ في إسناد الإرادة إلى ذلك تعظيماً لأمرها، وفي تعظيمه تعظيم أمر المراد، وكذا في إسناد الخشية إلى ذلك تعظيمُ أمرها، وفي تعظيمه تعظيمُ أمر المخشيِّ. وربما يقال ـ بناء على إرادة الضمِّ منا ـ: إنَّ في ذلك الإسناد إشارة إلى أنَّ ما يُخشَى وما يراد قد بلغ في العظم إلى أنْ يشارِكَ موسى عليه السلام في الخشية منه وفي إرادته الخضر، لا أن يستقلَّ بإنكار ما هو من مبادي ذلك المراد، وبه ينقطعُ عن الأصلين عِرْقُ الفساد.

ولما كان الاعتراض الثالث هيِّناً جدّاً، حيث كان بلفظٍ لا تصلُّبَ فيه ولا إزعاجَ في ظاهره وخافيه، ومع هذا لم يكن على نفس الفعل، بل على عدم أخذ الأُجرة عليه ليُستعانَ بها على إقامة جدار البدن، وإزالة ما أصابَهُ من الوهن، فناسب أنْ يلين في جوابه المقام، ولا ينسب لنفسه استقلالاً ولا(٢) مشاركةً شيئاً ما من الأفعال، فلذا أسندَ الإرادة إلى الربِّ سبحانه وتعالى، ولم يكتفِ بذلك حتى أضافه إلى ضميره عليه السلام، ولا ينافي ذلك تكرير النكير والعتاب؛ لأنَّه متعلِّقٌ بمجموع ما كان أوَّلاً من ذلك الجناب.

هذا والله تعالى أعلم بحقيقة أسرار الكتاب، وهو سبحانه الموفق للصواب.

واستَدلَّ بقوله: «وما فعلته عن أمري» القائلون بنبوَّته عليه السلام، وهو ظاهرٌ في ذلك، واحتمالُ أنْ يكون هناك نبيٌّ أمرَه بذلك عن وحيٍ ـ كما زعمه القائلون

---

(١) في (م): يشرح.
(٢) في (م): أو.

بولايته ـ احتمالٌ بعيدٌ، على أنَّه ليس في وصفه بقوله تعالى: (ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) على هذا كثيرُ فائدة، بل قد يقال: أيُّ فائدةٍ في هذا العلم اللَّدُنِّيِّ إذا احتاج في إظهار العجائب لموسى عليه السلام إلى توسيط نبيٍّ مثله؟

وقال بعضهم: كان ذلك عن إلهام، ويلزمُه القول بأنَّ الإلهامَ كان حُجَّةً في بعض الشرائع، وأنَّ الخضرَ من المكلَّفين بتلك الشريعة، وإلَّا فالظاهرُ أنَّ حُجِّيَّتهُ ليست في شريعة موسى عليه السلام، وكذا هو ليس بحجَّةٍ في شريعتنا على الصحيح، ومن شذَّ وقال بحجِّيَّته اشترطَ لذلك أن لا يعارضَهُ نصٌّ شرعيٌّ، فلو أطلعَ اللهُ تعالى بالإلهام بعضَ عباده على نحو ما أَطلع عليه الخضرَ عليه السلام من حال الغلام؛ لم يحلَّ له قتله، وما أخرجه الإمام أحمد عن عطاء أنَّه قال: كتب نجدة الحروريُّ إلى ابن عباس يسألُه عن قتل الصبيان، فكتب إليه: إنْ كنتَ الخضرَ تعرفُ الكافر من المؤمن فاقتلهم[1] = إنَّما قصد به ابن عباس ـ كما قال السبكيُّ ـ المحاجَّةَ والإحالة على ما لم يمكن قطعاً؛ لطمعه في الاحتجاج بقصَّة الخضر، وليس مقصودُه ـ رضي الله عنه ـ أنَّه إن حصلَ ذلك يجوزُ القتل، فما قاله اليافعيُّ في «روضه» من أنَّه لو أذن الله تعالى لبعض عباده أن يلبسَ ثوبَ حريرٍ مثلاً، وعلم الإذن يقيناً، فلبسه، لم يكن منتهكاً للشرع، وحصولُ اليقين له من حيث حصوله للخضر بقتله للغلام، إذ هو وليٌّ لا نبيٌّ على الصحيح. انتهى = عثرةٌ يكاد أنْ لا يقال لصاحبها: لعا[2]؛ لأنَّ مظنَّة حصول اليقين اليوم الإلهام، وهو ليس بحجَّة عند الأئمة، ومن شذَّ اشترط ما اشترط، وحصولُه بخبر عيسى عليه السلام إذا نزل متعذِّرٌ؛ لأنَّه عليه السلام ينزلُ بشريعة نبينا ﷺ، ومن شريعته تحريمُ لبس الحرير على الرجال إلَّا للتداوي، وما ذكره من نفي نبوَّةِ الخضر لا يعوَّلُ عليه ولا يلتفتُ إليه.

وممَّن صرَّح بأنَّ الإلهام ليس بحجَّة من الصوفية الإمام الشعرانيُّ، وقال: قد زلَّ في هذا الباب خلقٌ كثير، فضلُّوا وأضلُّوا، ولنا في ذلك مؤلَّفٌ سميته: «حدُّ الحسام في عنق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام» وهو مجلدٌ لطيفٌ. انتهى.

---

(١) مسند أحمد (١٩٦٧)، وأخرجه بنحوه مسلم (١٨١٢).

(٢) أي: أن لا يُدْعى له بالسلامة؛ لأن قولهم: لعاً له، دعاء للعاثر بأن ينتعش، أي: يسلم وينجو.

وقال أيضاً في كتابه المسمَّى بـ «الجواهر والدرر»: قد رأيتُ من كلام الشيخ محيي الدين قدِّس سره ما نصُّه: اعلم أنَّا لا نعني بمَلَكِ الإلهام حيثُ أطلقناه إلَّا الدقائقَ الممتدَّةَ من الأرواح الملكيَّة، لا نفس الملائكة، فإنَّ المَلَكَ لا ينزلُ بوحي على غير قلب نبيٍّ أصلا، ولا يأمرُ بأمرٍ إلهيٍّ جملةً واحدة، فإنَّ الشريعةَ قد استقرَّت، وتبيَّن الفرضُ والواجبُ وغيرهما، فانقطعَ الأمر الإلهيُّ بانقطاع النبوَّة والرسالة، وما بقيَ أحدٌ يأمرُه الله تعالى بأمرٍ يكون شرعاً مستقلًّا يُتعبَّد به أبداً؛ لأنَّه إنْ أمَره بفرضٍ كان الشارعُ قد أمر به، وإن أمره بمباحٍ فلا يخلو؛ إمَّا أن يكونَ ذلك المباحُ المأمورُ به صار واجباً أو مندوباً في حقِّه، فهذا عينُ نسخ الشرع الذي هو عليه، حيث صيَّر المباحَ الشرعيَّ واجباً أو مندوباً، وإن أبقاه مباحاً كما كان، فأيُّ فائدةٍ للأمر الذي جاء به ملكُ الإلهام لهذا المدَّعي؟ فإن قال: لم يجئني ملكُ الإلهام بذلك، وإنَّما أمرني الله تعالى بلا واسطة. قلنا: لا يصدَّق في مثل ذلك، وهو تلبيسٌ من النفس. فإن ادَّعى أنَّ الله سبحانه كلَّمه كما كلَّم موسى عليه السلام، فلا قائل به، ثمَّ إنه تعالى لو كلَّمه ما كان يلقي إليه في كلامه إلَّا علوماً وأخباراً، لا أحكاماً وشرعاً، ولا يأمره أصلاً. انتهى(١).

وقد صرَّح الإمام الربانيُّ مجدِّدُ الألف الثاني قُدِّس سرُّه العزيز في «المكتوبات» في مواضعَ عديدة، بأنَّ الإلهام لا يُحِلُّ حراماً ولا يُحَرِّمُ حلالاً، ويعلم من ذلك أنَّه لا مخالفةَ بين الشريعة والحقيقة والظاهرِ والباطن.

وكلامُه قُدِّس سرُّه في «المكتوبات» طافحٌ بذلك، ففي المكتوب الثالث والأربعين من الجلد الأول: إنَّ قوماً مالوا إلى الإلحاد والزندقة يتخيَّلون أنَّ المقصودَ الأصليَّ وراء الشريعة، حاشا وكلَّا، ثمَّ حاشا وكلَّا، نعوذُ بالله سبحانه من هذا الاعتقاد السوء، فكلٌّ من الطريقة والشريعة عينُ الآخر لا مخالفةَ بينهما بقدر رأس الشعيرة، وكلُّ ما خالف الشريعة مردودٌ، وكلُّ حقيقةٍ رَدَّتها الشريعةُ فهي زندقة(٢).

وقال في أثناء المكتوب الحادي والأربعين من الجلد الأول أيضاً في مبحث

(١) انظر الفتوحات المكية ٣/ ٣٨.
(٢) المكتوبات ١/ ٥٧-٥٨.

الشريعة والطريقة والحقيقة: مثلاً عدمُ نطق اللسان بالكذب شريعةٌ، ونفيُ خاطر الكذب عن القلب، إنْ كان بالتكلُّف والتعمُّل؛ فهو طريقةٌ، وإن تيسَّر بلا تكلُّفٍ؛ فهو حقيقة، ففي الجملة: الباطنُ الذي هو الطريقة والحقيقة مكمِّلٌ الظاهرَ الذي هو الشريعة، فالسالكونَ سبيلَ الطريقة والحقيقة، إنْ ظهر منهم في أثناء الطريق أمورٌ ظاهرُها مخالفٌ للشريعة ومنافٍ لها، فهو من سُكْر الوقت وغَلَبَة الحال، فإذا تجاوزوا ذلك المقامَ، ورَجعوا إلى الصحو، ارتفعت تلك المنافاةُ بالكلِّيَّة، وصارت تلك العلوم المضادَّة(١) بتمامها هباءً منثوراً.

وقال ـ نفعنا الله تعالى بعلومه في أثناء المكتوب السادس والثلاثين من الجلد الأول ـ أيضاً: للشريعة ثلاثةُ أجزاء: علمٌ وعملٌ وإخلاص، فما لم تتحقَّق هذه الأجزاء لم تتحقَّق الشريعة، وإذا تحقَّقت الشريعةُ حصلَ رضاءُ الحقِّ سبحانه وتعالى، وهو فوق جميع السعادات الدنيويَّة والأخرويَّة ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] فالشريعة متكفِّلةٌ بجميع السعادات، ولم يبق مطلبٌ وراء الشريعة، فالطريقةُ والحقيقةُ اللتان امتازَ بهما الصوفيَّة، كلتاهما خادمتان للشريعة في تكميل الجزء الثالث الذي هو الإخلاص، فالمقصودُ منهما تكميلُ الشريعة، لا أمرٌ آخر وراء ذلك. إلى آخر ما قال(٢).

وقال عليه الرحمة في أثناء المكتوب التاسع والعشرين من الجلد المذكور بعد تحقيقٍ كثير: فتقرَّر أنَّ طريقَ الوصول إلى درجاتِ القرب الإلهيِّ جلَّ شأنه ـ سواءٌ كان قرب النبوَّة، أو قرب الولاية ـ منحصرٌ في طريق الشريعة التي دعا إليها رسول الله ﷺ، وصار مأموراً بها في آيةِ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] وآيةُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] تدلُّ على ذلك أيضاً، وكلُّ طريقٍ سوى هذا الطريق ضلالٌ ومنحرفٌ عن المطلوب الحقيقيِّ، وكلُّ طريقةٍ ردَّتها الشريعة فهي زندقةٌ، وشاهدُ ذلك آية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] وآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] وآية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥]، وحديثُ: خطَّ لنا النبيُّ ﷺ،

(١) في المكتوبات ١/ ٥٤ ـ والكلام فيه ـ: المتضادة.
(٢) المكتوبات ١/ ٥٠.

الخبر[١]، وحديث: «كلُّ بدعةٍ ضلالة»[٢]، وأحاديثُ أخر. إلى آخر ما قال عليه رحمةُ الملك المتعال.

وقال قُدِّس سرُّه في معارف الصوفية: اعلم أنَّ معارفَ الصوفية وعلومَهم في نهاية سيرهم وسلوكهم إنَّما هي علومُ الشريعة، لا أنَّها علومٌ أخر غير علوم الشريعة، نعم يَظهرُ في أثناء الطريق علومٌ ومعارفُ كثيرة، ولكن لا بدَّ من العبور عنها، ففي نهايات[٣] النهايات علومُهم علومُ العلماء، وهي علوم الشريعة، والفرق بينهم وبين العلماء أنَّ تلك العلوم بالنسبة إلى العلماء نظريَّةٌ واستدلاليَّةٌ، وبالنسبة إليهم تصيرُ كشفيَّةً وضروريَّةً.

وقال أيضاً: اعلم أنَّ الشريعةَ والحقيقة متَّحدان في الحقيقة، ولا فرقَ بينهما إلَّا بالإجمال والتفصيل، وبالاستدلال والكشف، وبالغيب والشهادة، وبالتعمُّل وعدم التعمُّل، وللشريعة من ذلك الأوَّل، وللحقيقة الثاني، وعلامةُ الوصول إلى حقيقة حقِّ اليقين مطابقةُ علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها، وما دامت المخالفةُ موجودةً، ولو أدنى شعرة، فذلك دليلٌ على عدم الوصول، وما وقع في عبارة بعض المشايخ من أنَّ الشريعة قشرٌ والحقيقة لبٌّ، فهو وإن كان مشعراً بعدم استقامة قائله، ولكن يمكنُ أنْ يكونَ مرادُه أنَّ المجملَ بالنسبة إلى المفصَّل حكمُه حكم القشر بالنسبة إلى اللبِّ، وأنَّ الاستدلال بالنسبة إلى الكشف كذلك، والأكابرُ المستقيمةُ أحوالُهم لا يجوِّزون الإتيان بمثل هذه العبارات الموهمة. إلى غير ذلك من عباراته الشريفة التي لا تكادُ تحصى[٤].

وقال سيدي القطبُ الربانيُّ الشيخ عبد القادر الكيلانيُّ قدِّس سرُّه: جميعُ الأولياء لا يستمدُّون إلَّا من كلام الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا يعملون إلَّا بظاهرهما.

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٤١٤٢)، (٤٤٣٧)، وابن حبان (٦)، (٧) عن ابن مسعود ﷺ قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: «هذه سبيل الله»، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه سبل، على كل سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

(٢) هو قطعة من حديث جابر في خطبة النبي ﷺ، أخرجه مسلم (٨٦٧).

(٣) في (م): نهاية.

(٤) انظر المكتوبات ١/ ٢٠-٢١.

وقال سيِّدُ الطائفة الجنيد قدَّسَ سرُّه: الطرقُ كلُّها مسدودةٌ إلَّا على من اقتفى أثرَ الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقال أيضاً: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا العلم؛ لأنَّ علمنا مقيَّدٌ بالكتاب والسنة.

وقال السَّريُّ السقطيُّ: المتصوِّف[1] اسمٌ لثلاثة معانٍ؛ وهو لا يطفئ نورُ معرفته نورَ ورعه، ولا يتكلَّم بسرٍّ باطنٍ في علمٍ ينقضُه عليه ظاهرُ الكتاب، ولا تحملُه الكرامات على هتك محارم الله.

وقال أيضاً قدِّس سرُّه: من ادَّعى باطنَ علمٍ ينقضُه ظاهرُ حكم فهو غالط.

وقال أبو الحسين النوري: من رأيتَه يدَّعي مع الله تعالى حالةً تخرجُه عن حدِّ العلم الشرعيِّ فلا تقربه، ومن رأيتَه يدَّعي حالةً لا يشهدُ لها حفظ[2] ظاهر فاتَّهمه على دينه.

وقال أبو سعيدٍ الخرَّاز: كلُّ فيضٍ باطنٍ يخالفُه ظاهرٌ فهو باطل.

وقال أبو العباس أحمد الدينوريُّ: لسانُ الظاهر لا يغيِّرُ حكمَ الباطن.

وفي «التحفة» لابن حجر: قال الغزاليُّ: من زعمَ أنَّ له مع الله تعالى حالاً أسقطَ عنه نحوَ الصلاة أو تحريمَ شرب الخمر؛ وجب قتلُه، وإن كان في الحكم بخلوده في النار نظر، وقتلُ مثله أفضلُ من قتل مئة كافر؛ لأنَّ ضررَه أكثر. انتهى.

ولا نظرَ في خلوده؛ لأنَّه مرتدٌّ؛ لاستحلاله ما عُلِمت حرمتُه، أو نفيِهِ وجوبَ ما علِم وجوبه ضرورةً فيهما، ومن ثَمَّ جزمَ في «الأنوار» بخلوده. انتهى.

وقال في «الإحياء»: من قال: إنَّ الباطن يخالفُ الظاهر، فهو إلى الكفر أقربُ منه إلى الإيمان[3]. إلى غير ذلك. وفي «رسالة القشيري» طرفٌ منه.

---

(١) في (م): التصوف.

(٢) في الأصل: حسن. وانظر حلية الأولياء ١٠/ ٢٥٢.

(٣) الإحياء ١/ ١٠٠.

والذي ينبغي أنْ يُعلَم أنَّ كلام العارفين المحقِّقين، وإنْ دلَّ على أنَّه لا مخالفةَ بين الشريعة والطريقة والحقيقة في الحقيقة؛ لكنَّه يدلُّ أيضاً على أنَّ في الحقيقة كشوفاً وعلوماً غيبيَّةً، ولذا تراهم يقولون: علم الحقيقة: هو العلم اللدنيُّ، وعلمُ المكاشفة، وعلم الموهبة، وعلم الأسرار، والعلم المكنون، وعلم الوراثة، إلَّا أنَّ هذا لا يدلُّ على المخالفة، فإنَّ الكشوفَ والعلوم الغيبيَّةَ ثمرةُ الإخلاص الذي هو الجزء الثالث من أجزاء الشريعة، فهي بالحقيقة مترتِّبةٌ على الشريعة ونتيجةٌ لها، ومع هذا لا تغيِّرُ تلك الكشوفُ والعلوم الغيبية حكماً شرعيّاً، ولا تقيِّدُ مطلقاً، ولا تطلقُ مقيَّداً، خلافاً لما توهمه ساجقلي زاده[1]، حيث قال في شرح عبارة «الإحياء» السابقة آنفاً: يريدُ الغزاليُّ من الباطن ما ينكشفُ لعلماء الباطن من حِلِّ بعض الأشياء لهم، مع أنَّ الشارع حرَّمه على عباده مطلقاً، فيجب أن يقال: إنَّما انكشفَ حِلُّه لهم لِمَا انكشف لهم من سببٍ خفيٍّ يُحلّله لهم، وتحريمُ الشارع تعالى ذلك على عباده مقيَّدٌ بانتفاء انكشاف السبب المحلِّل لهم، فمن انكشفَ له ذلك السببُ حَلَّ له، ومَن لا فلا، لكنَّ الشارع سبحانه حرَّمه على عباده على الإطلاق، وترك ذلك القيد لندرةِ وقوعه، إذ من ينكشفُ له قليلٌ جدًّا، مثاله: انكشافُ محلِّل خرق السفينة وقتلِ الغلام للخضر عليه السلام، فحلَّ له بذلك الانكشافِ الخرقُ والقتلُ، وحِلُّهما له مخالفٌ لإطلاق نهي النبيِّ ﷺ أمَّته عن الضرر وعن قتل الصبيّ، لكنَّهما مقيَّدان، فالأوَّل مقيَّدٌ بما إذا لم يُعلم هناك غاصبٌ مثلاً، والثاني بما إذا لم يُعلم أنَّ الصبيَّ سيصير ضالًّا مُضِلًّا، لكنَّ الشارع تركَ القيدين لندرة وقوعهما، واعتماداً على فهم الراسخين في العلم إيَّاهما. إلى آخر ما قال، فإنَّ النصوصَ السابقة تنادي بخلافه كما سمعت.

ثمَّ إنَّ تلك الغيوبَ والمكاشفات ـ بل سائر ما يحصل للصوفية من التجلِّيات ـ ليست من المقاصد بالذات، ولا يقف عندها الكاملُ ولا يَلتفتُ إليها.

وقد ذكر الإمام الربانيُّ قُدِّس سرُّه في المكتوب السادس والثلاثين المتقدِّم نقلُ بعضِه: أنَّها تَربَّى بها أطفالُ الطريق، وأنَّه ينبغي مجاوزتُها والوصولُ إلى مقام

---

(١) هو محمد المرعشي، له «تسهيل الفرائض»، و«ترتيب العلوم» وغيرها، توفي سنة (١١٥٠هـ). معجم المؤلفين ٣/ ٧١١.

الرضى الذي هو نهايةُ مقامات السلوك والجذبة، وهو عزيزٌ لا يصلُ إليه إلَّا واحدٌ من ألوف.

ثم قال: إنَّ الذين هم قليلو النظر يَعُدُّون الأحوالَ والمواجيدَ من المقامات، والمشاهدات والتجلّيات من المطالب، فلا جرم بَقُوا في قيد الوهم والخيال، وصاروا محرومين من كمالات الشريعة ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. انتهى[١].

ويُعلم منه أنَّ الكاملين في الشريعة يَعبُرون على ذلك، ولا يلتفتونَ إليه، ولا يعدُّونه مقصداً، وجلُّ مقصدِهم تحصيلُ مقام الرضى، وعلى هذا يخرَّج بيت «المثنوي»[٢] حيث يقول:

زَان طَرَف كِه عِشْق مي أَفْزُود درِدْ بو حنيفة شافعي دَرْسِي نَكَرْد[٣]

وقد يحجبُ الكامل عن جميع ذلك، ويُلحَق من هذه الحيثيَّة بعوامِّ النَّاس.

ويعلم ممَّا ذُكرَ أنَّ موسى عليه السلام أكملُ من الخضر، وأعلميَّةُ الخضر عليه السلام بعلم الحقيقة كانت بالنسبة إلى الحالة الحاضرة، فإنَّ موسى عليه السلام عَبَرَ على ذلك، ولم يقف عنده؛ لأنَّه في مقام التشريع، ولعلَّ طلبَه التعليم كان بالأمر ابتلاءً له بسبب تلك الفلتة. وقد ذكروا أنَّ الكاملَ كلَّما كان صعودُه أعلى كان هبوطُه أنزل، وكلَّما كان هبوطُه أنزل كان في الإرشاد أكمل، وفي الإفاضة أتم؛ لمزيد المناسبة حينئذٍ بين المرشد والمسترشد، ولهذا قالوا فيما يُحكى أنَّ الحسن البصريَّ وقفَ على شطِّ نهرٍ ينتظرُ سفينةً، فجاء حبيب العجميُّ[٤]، فقال له: ما تنتظر؟ فقال: سفينة، فقال: أيُّ حاجةٍ إلى السفينة، أَمَا لَكَ يقين؟ فقال الحسن:

---

(١) المكتوبات ١/ ٥٠.

(٢) لجلال الدين محمد بن محمد القونوي الرومي، المتوفى سنة (٦٧٠ هـ). كشف الظنون ٢/ ١٥٨٧.

(٣) المعنى العام للبيت: إن أمراً أو مقاماً زاد به عشقي هو أمر لم يعلِّمني إياه أبو حنيفة والشافعي.

(٤) هو حبيب بن محمد، زاهد أهل البصرة وعابدهم، كان مجاب الدعوة. انظر تهذيب الكمال ٥/ ٣٩١، وسير أعلام النبلاء ٦/ ١٤٣، وتهذيب التهذيب ١/ ٣٥٢.

أَمَا لَكَ علم؟ ثم عبر حبيبٌ على الماء بلا سفينة، ووقف الحسن: إنَّ الفضل للحسن، فإنَّه كان جامعاً بين علم اليقين وعين اليقين. وعَرف الأشياءَ كما هي، وفي نفس الأمر جُعلت القدرة مستورةً خلف الحكمة، والحكمة في الأسباب، وحبيب صاحبُ سكرٍ لم يرَ الأسباب، فعوملَ برفعها. ومن هنا يظهرُ سرُّ قلَّةِ الخوارق في الصحابة، مع قول الإمام الربانيِّ: إنَّ نهاية أويسٍ سيد التابعين بدايةُ وحشيٍّ قاتلِ حمزة يوم أسلم، فما الظنُّ بغير أويس مع غير وحشيٍّ؟

وأنا أقول: إنَّ الكامل وإن كان مَن عَلِمْتَ، إلَّا أنَّ فوقه الأكمل، وهو من لم يزل صاعداً في نزوله، ونازلاً في صعوده، وليس ذلك إلَّا رسولُ الله ﷺ، ولولا ذلك ما أمدَّ العالم العلويَّ والسفليَّ، وهذا مرجعُ الحقيقة والشريعة له عليه الصلاة والسلام على الوجه الأتمِّ كما أشرنا إليه سابقاً، والحمد لله تعالى على أنْ جعلنا من أمَّته وذريَّته.

ولا يعكِّر على ما ذكرنا ما قاله الإمام الغزاليُّ في «الإحياء»، وهو أنَّ علم الآخرة قسمان: علم مكاشفة، وعلم معاملة؛ أمَّا علم المكاشفة فهو علم الباطن، وهو غايةُ العلوم، وهو علم الصديقين والمقرَّبين، وهو عبارةٌ عن نورٍ يظهرُ في القلب عند تطهيره وتزكيته من الصفات المذمومة، وينكشف بذلك ما كان يسمعُ من قبل أسمائها، ويتوهَّمُ لها معانٍ مجملةً غير متضحة، فتتضحُ إذ ذاك حتى تحصلَ المعرفةُ بذات الله تعالى، وبصفاته التامَّات، وبأفعاله، وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة. انتهى[1] = لأنَّ المراد أنَّ ذلك من علم الباطن الذي هو علمُ الحقيقة، وهذا البعضُ لا يمكن أن يخلو منه نبيٌّ، كيف ورتبةُ الصديقين دون رتبة الأنبياء عليهم السلام، كما قرروه في آية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩]؟

وممَّا ذكرنا من عدم المخالفة بين الشريعة والحقيقة يُعْلَم ما في كلام البلقيني في دفع ما استشكله من قول الخضر لموسى عليهما السلام: «إنِّي على علم» الحديث السابق[2]، حيثُ زعم أنَّه يدلُّ بظاهره على امتناع تعليم العلمين معاً، مع

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ١٩-٢٠.

(٢) سلف ص٤٦١ من هذا الجزء.

أنَّه لا يمتنع، وأجاب بأنَّ علم الكشوف والحقائق ينافي علم الظاهر، فلا ينبغي للعالم الحاكم بالظاهر أنْ يعلمَ الحقائقَ؛ للتنافي، وكذا لا ينبغي للعالم بالحقيقة أنْ يعلم العلمَ الظاهر الذي ليس مكلَّفاً به وينافي ما عنده من الحقيقة.

ولعمري لقد أخطأ فيما قال، وبالحقِّ تعرفُ الرجال، وكأنَّه لم يعتمد عليه، فأردفه بجوابٍ آخر هو خلافُ الظاهر، وأنت تعلمُ أنَّه لا حاجةَ إلى شيءٍ من ذلك، والاستشكالُ من ضعف النظر.

ثمَّ إنَّ قصة الخضر عليه السلام لا تصلحُ حجَّةً لمن يزعمُ المخالفة بين العلمين؛ فإنَّ أعظمَ ما يُشكل فيها قتل الغلام؛ لكونه طبعَ كافراً، وخُشي من بقائه حيّاً ارتدادُ أبويه، وذلك أيضاً شريعةٌ، لكنها مخصوصةٌ به عليه السلام؛ لأنَّه ـ كما قال العلَّامة السبكيُّ ـ أوحيَ إليه أنْ يعملَ بالباطن وخلافِ الظاهر الموافق للحكمة، فلا إشكال فيه، وإنْ عُلم من شريعتنا أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ كائناً مَن كان قتلُ صغيرٍ، لا سيما بين أبوين مؤمنين، وكيف يجوزُ قتلُه بسببٍ لم يحصل، والمولودُ لا يوصف بكفرٍ حقيقيٍّ، ولا إيمانٍ حقيقيٍّ، واتفاقُ الشرائع في الأحكام ممَّا لم يذهب إليه أحدٌ من الأنام، فضلاً عن العلماء الأعلام، وهذا ظاهرٌ على القول بنبوَّته.

وأمَّا على القول بولايته: فيقال: إنَّ عملَ الوليِّ بالإلهام كان إذ ذاك شرعاً، أو كما قيل: إنَّه أُمر بذلك على يد نبيٍّ غير موسى عليه السلام.

وأمَّا إقامةُ الجدار بلا أجر فلا إشكالَ فيها؛ لأنَّها إحسانٌ، وغاية ما يُتخيَّل أنَّه للمسيء، فليكن كذلك ولا ضيرَ، فإنَّه من مكارم الأخلاق.

وأمَّا خرق السفينة لتسلَم من غصب الظالم، فقد قالوا: إنَّه ممَّا لا بأسَ به، حتى قال العزُّ بن عبد السلام: إنَّه إذا كان تحت يد الإنسان مالُ يتيمٍ أو سفيهٍ أو مجنونٍ، وخاف عليه أنْ يأخذه ظالمٌ، يجبُ عليه تعييبُه؛ لأجل حفظه، وكان القولُ قولَ من عيَّب مال اليتيم ونحوِه إذا نازعَه اليتيمُ ونحوُه بعد الرشد ونحوِه، في أنَّه فعلَه لحفظِه على الأوجه، كما قال القاضي زكريا في «شرح الروض» قبيلَ باب الوديعة.

ونظيرُ ذلك ما لو كان تحت يده مالُ يتيمٍ مثلاً، وعلم أنَّه لو لم يَبذُل منه شيئاً لقاضي سوءٍ، لانتزعَه منه وسلَّمهُ لبعضِ الخوَنة، وأدَّى ذلك إلى ذهابه، فإنَّه يجبُ

عليه أنْ يدفعَ إليه شيئاً، ويتحرَّى في أقلِّ ما يمكنُ إرضاؤه به، ويكون القولُ قوله أيضاً.

وقال بعضهم: قصارى ما تدلُّ عليه القصة ثبوتُ العلم الباطن، وهو مسلَّم، لكنَّ إطلاقَ الباطن عليه إضافيٌّ كما تقدم. وكان في قوله ﷺ: «إنَّ من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلَّا العلماء بالله تعالى، فإذا قالوه لا ينكرُه إلَّا أهل الغرة بالله تعالى»(١) إشارةً إلى ذلك، والمراد بأهل الغرة علماء الظاهر الذين لم يؤتوا ذلك. وبعض مثبتيه يستدلُّون بقول أبي هريرة: حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءَيْن من العلم، فأمَّا أحدهما فبثثتُه، وأمَّا الآخرُ فلو بثثتُه لقُطعَ مني هذا البلعوم(٢). واستُدِلَّ به أيضاً على المخالفة بين العلمين.

وأنت تعلم أنَّه يحتملُ أنْ يكون أراد بالآخر الذي لو بثَّه لقُتِل علمَ الفتن، وما وقعَ من بني أمية، وذمَّ النبيِّ ﷺ لأناسٍ معينين منهم، ولا شكَّ أنَّ بثَّ ذلك في تلك الأعصار يجرُّ إلى القتل. وعلى تسليم أنَّه أرادَ به العلم الباطن المسمَّى بعلم الحقيقة، لا نسلِّمُ أنَّ قطعَ البلعوم منه على بثِّه لمخالفته العلم الظاهر في نفس الأمر، بل لتوهم من بيده الحلُّ والعقدُ والأمر والنهي من أمراء ذلك الزمان المخالفةَ. فافهم.

واستدلَّ العلماء بما في القصَّة حسبما ذكره شُرَّاح الحديث وغيرهم على استحبابِ الرحلة للعلم، وفضل طلبه، واستحباب استعمال الأدب مع العالم، واحترام المشايخ، وترك الاعتراض عليهم، وتأويل ما لا يُفهَم ظاهره من أفعالهم وحركاتهم وأقوالهم، والوفاءِ بعهودهم، والاعتذار عند مخالفتهم، وعلى جواز اتِّخاذِ الخادم في السفر، وحملِ الزاد فيه، وأنَّه لا ينافي التوكُّل، ونسبةِ النسيان ونحوه من الأمور المكروهة إلى الشيطان مجازاً وتأدُّباً عن نسبتها إلى الله تعالى، واعتذارِ العالم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه ممَّا لا يحتمله طبعُه، وتقديمِ المشيئة في الأمر، واشتراطِ المتبوع على التابع، وعلى أنَّ النسيانَ غيرُ مؤاخَذ به،

---

(١) أورده الديلمي في الفردوس (٨٠٢). قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار ص٢٠: رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (١٢٠). وسلف ٧/ ٣١٢.

وأنَّ للثلاث اعتباراً في التكرار ونحوه، وعلى جوازِ ركوب السفينة، وفيه الحكمُ بالظاهر حتى يتبيَّن خلافُه؛ لإنكار موسى عليه السلام، وعلى جواز أن يطلب الإنسان الطعامَ عند احتياجه إليه، وعلى أنَّ صنعَ الجميل لا يترك ولو مع اللئام، وجواز أخذ الأجر على الأعمال، وأنَّ المسكينَ لا يخرج عن المسكنة بملكِ آلةٍ يكتسبُ بها، أو شيءٍ لا يكفيه، وأنَّ الغصبَ حرامٌ، وأنَّه يجوزُ دفنُ المال في الأرض. وفيه إثباتُ كرامات الأولياء، على قول من يقول: الخضرُ وليٌّ، إلى غير ذلك ممَّا يظهرُ للمتتبِّع أو للمتأمِّل.

وبالجملة قد تضمَّنت هذه القصة فوائدَ كثيرة، ومطالبَ عاليةً خطيرة، فأمعِن النظرَ في ذاك، والله سبحانه يتولَّى هداك.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات على ما ذكره بعض أهلِ الإشارة:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ لله تعالى خواصَّ أضافهم سبحانه إليه[١]، وقطعَهم عن غيره، وأخصُّ خواصِّه عزَّ وجل من أضافه إلى الاسم الجليل، وهو اسم الذات الجامع لجميع الصفات، أو إلى ضمير الغيبة الراجع إليه تعالى، وليس ذاك إلَّا حبيبه الأكرمُ ﷺ.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ وهي مرتبةُ القرب منه عزَّ وجلَّ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ وهو العلمُ الخاصُّ الذي لا يُعلم إلَّا من جهته تعالى.

وقال ذو النون: العلمُ اللدنيُّ هو الذي يَحكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان.

وقال الجنيدُ قدِّس سرُّه: هو الاطِّلاع على الأسرار من غير ظنٍّ فيه ولا خلافِ واقع، لكنَّه مكاشفاتُ الأنوار عن مكنون المغيَّبات، ويحصلُ للعبد إذا حفظ جوارحَه عن جميع المخالفات، وأفنى حركاته عن كلِّ الإرادات، وكان شبحاً بين يدي الحقِّ بلا تمنِّي ولا مراد.

---

(١) في الأصل: إليهم.

وقيل: هو علمٌ يُعرِّفُ به الحقُّ سبحانه أولياءَه ما فيه صلاحُ عباده.

وقال بعضهم: هو علمٌ غيبيٌّ يتعلَّقُ بعالَم الأفعال، وأخصُّ منه الوقوف على بعض سرِّ القدر قبلَ وقوع واقعته، وأخصُّ من ذلك علمُ الأسماء والنعوت الخاصَّة، وأخصُّ منه علم الذات.

وذكر بعض العارفين أنَّ من العلوم ما لا يعلمُه إلَّا النبيُّ، واستدلَّ له بقوله ﷺ في حديثِ المعراج ـ كما ذكره القسطلانيُّ في «مواهبه» وغيره ـ: «وسألني ربِّي فلم أستطع أن أُجيبَه، فوضعَ يده بين كتفيَّ، فوجدت بردها، فأورثني علمَ الأوَّلين والآخرين، وعلمني علوماً شتى؛ فعِلْمٌ أخذ عليَّ كتمانَه، إذ عَلِمَ أنَّه لا يقدرُ على حملهِ أحدٌ غيري، وعلمٌ خيَّرني فيه، وعلَّمني القرآن، فكان جبريلُ عليه السلام يذكِّرني به، وعلمٌ أمرني بتبليغه إلى العامِّ والخاصِّ من أمَّتي». انتهى[1]. ولله تعالى علمٌ استأثر به عزَّ وجلَّ، لم يُطلِع عليه أحداً من خلقه.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قاله عن ابتلاءٍ إلهيٍّ كما قدمنا. وقال فارس كما في «أسرار القرآن»: إنَّ موسى عليه السلام كان أعلمَ من الخضر فيما أخذَ عن الله تعالى، والخضر كان أعلمَ من موسى فيما وقعَ إلى موسى عليه السلام.

وقال أيضاً: إنَّ موسى كان باقياً بالحقِّ، والخضر كان فانياً بالحقِّ.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ قيل: عَلِمَ الخضرُ أنَّ موسى عليه السلام أكرمُ الخلق على الله تعالى في زمانه، وأنَّه ذو حدَّةٍ عظيمةٍ، ففزعَ من صحبته؛ لئلَّا يقعَ منه معه ما لا يليقُ بشأنه.

وقال بعضهم: آيسهُ من نفسه؛ لئلَّا يشغله صحبته عن صحبة الحقِّ.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ قال بعضهم: لو قال كما قال الذبيحُ عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]

---

(١) المواهب اللدنية (مع شرح الزرقاني) ٦/٩٣-٩٤. ونقل الزرقاني عن الشامي أنه قال في هذا الخبر: وهو كذب بلا شك.

لوفِّقَ للصبر كما وفِّقَ الذبيح. والفرقُ أنَّ كلام الذبيحِ أظهرُ في الالتجاء وكسر النفس، حيثُ علَّق بمشيئة الله تعالى وِجْدَانَهُ واحداً من جماعةٍ متَّصفين بالصبرِ، ولا كذلك كلام موسى عليه السلام.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا﴾ سلكا طريقَ السؤالِ الذي يتعلَّقُ بذلِّ النفس في الطريقة، وهو لا ينافي التوكُّل، وكذا الكسب.

﴿قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ كأنَّه عليه السلام أرادَ دفعَ ما أحوجهما إلى السؤال من أولئك اللئام، وفيه نظرٌ إلى الأسباب، وهو من أحوال الكاملين، كما مرَّ في حكاية الحسن البصري وحبيب، ففي هذا إشارةٌ إلى أنَّه أكملُ من الخضر عليهما السلام.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ أي: حسبما أردت. وقال النصرأبادي: لما علمَ الخضرُ بلوغَ موسى إلى منتهى التأديب، وقصورَ علمه عن علمه، قال ذلك؛ لئلَّا يسأله موسى بعدُ عن علمٍ أو حالٍ فيفتضح.

وقيل: خافَ أن يسأله عن أسرار العلوم الربانيَّة الصفاتيَّة الذاتيَّة فيعجزَ عن جوابه، فقال ما قال.

﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ قيل: كانَ حسنَ الوجه جدًّا، وكان محبوباً في الغاية لوالديه، فخشي فتنتهما به.

والآيةُ من المشكل ظاهراً؛ لأنَّه إن كان قد قَدَّر اللهُ تعالى عليهما الكفرَ، فلا ينفعهما قتلُ الولد، وإنْ لم يكن قدَّر سبحانه ذلك، فلا يضرُّهما بقاؤه.

وأجيبَ بأنَّ المقدَّر بقاؤُهما على الإيمان إن قُتِل، وقتلَه ليبقيا على ذلك.

وقيل: إنَّ المقدَّرَ قد يغيَّر، ولا يلزم من ذلك سوى التغيُّر في تعلُّق صفته تعالى، لا في الصفة نفسها ليلزم التغيُّر فيه عزَّ وجلَّ. وقد تقدَّم الكلامُ في ذلك عند قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

واستشكل أيضاً بأنَّ المحذورَ يزولُ بتوفيقه للإيمان، فما الحاجة إلى القتل؟

وأجيب بأنَّ الظاهرَ أنَّه غيرُ مستعدٍّ لذلك، فهو منافٍ للحكمة، وكأنَّ الخضرَ عليه السلام علم[١] أنَّ فيما قال نوعَ مناقشةٍ، فتخلَّصَ من ذلك بقوله: «وما فعلته عن أمري» أي: بل فعلتُه بأمرِ الله عزَّ وجلَّ، ولا يُسأل سبحانه عمَّا أمرَ وفعلَ، ولعلَّ قوله لموسى عليه السلام ما قال حين نقرَ العصفورُ في البحر[٢] سدٌّ لبابِ المناقشة فيما أمرَ الله تعالى شأنه، ولعلَّ علمَ مثل هذه المسائل من العلم الذي استأثرَ الله سبحانه به ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وأوَّلَ بعضُهم مجمعَ البحرين بمجمع ولايةِ الشيخ وولاية المريد، والصخرةَ بالنفس، والحوتَ بالقلب المملَّح بملح حبِّ الدنيا وزينتها، والسفينة بالشريعة، وخَرْقَها بهدم الناموس في الظاهر مع الصلاح في الباطن، وإغراقَ أهلها بإيقاعهم في بحار الضلال، والغلامَ بالنفس الأمَّارة، وقتلَه بذبحه بسيف الرياضة، والقريةَ بالجسد، وأهلَها بالقوى الإنسانيَّة من الحواسِّ، واستطعامَهم بطلب أفاعيلها التي تختصُّ بها، وإباءَ الضيافة بمنعِها إعطاءَ خواصِّها كما ينبغي؛ لكلالها وضعفها، والجدارَ بالتعلُّق الحائل بين النفس الناطقة وعالم المجرَّدات، وإرادةَ الانقضاض بمشارفة قطع العلائق، وإقامتَه بتقوية البدن والرفق بالقوى والحواس، ومشيئةَ اتخاذِ الأجر بمشيئة الصبر على شدَّة الرياضة؛ لنيل الكشوف وإفاضة الأنوار، والمساكينَ بالعوام، والبحرَ الذي يعملون فيه ببحر الدنيا، والمَلِكَ بالشيطان، والسفن التي يغصبُها العبادات الخالية عن الانكسار والذلِّ والخشوع، والأبوين المؤمنين بالقلب والروح، والبدلَ الخيِّر بالنفس المطمئنة والملهمة، والكنز بالكمالات النظريَّة والعلميَّة[٣]، والأبَ الصالح بالعقل المفارق الذي كمالاته بالفعل، وبلوغَ الأشُدِّ

---

(١) في (م): رأى.

(٢) يشير إلى قطعة من حديث أبيٍّ الطويل الذي أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠): (١٧٢) مرفوعاً. وفيه: «فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلَّا كنقرة هذا العصفور في البحر».
وسلف بعض هذا الحديث في مواضع.

(٣) في غرائب القرآن للنيسابوري ١٦/١٨: العملية.

بوصولهما بتربية الشيخ وإرشاده إلى المرتبة الكاملة. وهذا ما اختاره النيسابوريُّ[١]، واختار غيرُه تأويلاً آخر هو أدهى منه.

هذا والله تعالى الموفِّقُ للصواب، وإليه المرجعُ والمآب.

❁ ❁ ❁

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ كان السؤال على وجه الامتحان، والسائلون في المشهور قريشٌ بتلقين اليهود. وقيل: اليهودُ أنفسهم، وروي ذلك عن السُّدِّيِّ.

وأكثر الآثار تدلُّ على أنَّ الآية نزلت بعد سؤالهم، فالتعبيرُ بصيغة[٢] الاستقبال، لاستحضار الصورة الماضية؛ لِمَا أنَّ في سؤالهم على ذلك الوجه مع مشاهدتهم من أمره ﷺ ما شاهدوا نوعَ غرابة.

وقيل: للدلالة على استمرارهم على السؤال إلى ورود الجواب.

وبعض الآثار يدلُّ على أنَّ الآيةَ نزلت قبلُ، فعن عقبة بن عامر قال: إنَّ نفراً من أهل الكتاب جاؤوا بالصحف أو الكتب، فقالوا لي: استأذن لنا على رسول الله ﷺ لندخلَ عليه، فانصرفتُ إليه عليه الصلاة والسلام فأخبرته بمكانهم، فقال ﷺ: «مالي ولهم، يسألونني عمَّا لا أعلم، إنَّما أنا عبدٌ لا علم لي إلَّا ما علَّمني ربِّي» ثم قال: «ائتني بوَضوء أتوضَّأ به» فأتيتُه فتوضأ، ثمَّ قام إلى مسجد في بيته، فركع ركعتين، فانصرفَ حتى بدا السرورُ في وجهه، ثم قال: «اذهبْ فأَدْخِلْهُم ومَن وجدتَ بالباب من أصحابي» فأدخلتُهم، فلمَّا رآهم النبيُّ ﷺ قال: «إنْ شئتم أخبرتُكم بما سألتموني عنه، وإنْ شئتم غير ذلك فافعلوا»[٣]، والجمهور

---

(١) في غرائب القرآن ١٦/ ١٧-١٨.

(٢) في الأصل: بصورة.

(٣) في الدر المنثور ٤/ ٢٤١: «إن شئتم أخبرتكم بما جئتم تسألوني عنه من قبل أن تكلموا، وإن شئتم فتكلموا قبل أن أقول» وكذا في بقية المصادر ما هو قريب منه. وهو قطعة من خبر طويل أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر ص١٠٣-١٠٤، والطبري في تفسيره ١٥/ ٣٦٨-٣٦٩، وأبو الشيخ في العظمة (٩٧٦)، والبيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٢٩٥-٢٩٦. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية بعد ذكر قطعة منه: وفيه طول ونكارة، ورفعه لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل.

على الأوَّل، ولم تثبتْ صحَّة هذا الخبر.

واختُلف في ذي القرنين، فقيل: هو مَلَكٌ أهبطَه الله تعالى إلى الأرض وآتاه من كل شيءٍ سبباً، وروي ذلك عن جبير بن نفير، واستُدِلَّ على ذلك بما أخرجه ابنُ عبد الحكم وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباريِّ في كتاب «الأضداد» وأبو الشيخ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه سمع رجلاً ينادي بمنى: يا ذا القرنين، فقال له عمر: هاأنتم قد سمَّيتم بأسماءِ الأنبياء، فما لكم وأسماء الملائكة(١)؟!

وهذا قولٌ غريبٌ، بل لا يكادُ يصحُّ، والخبرُ على فرض صحَّته ليس نصًّا في ذلك، إذ يحتملُ ـ ولو على بعد ـ أن يكونَ المراد أنَّ هذا الاسم من أسماء الملائكة عليهم السلام، فلا تسمَّوا به أنتم، وإن تسمَّى به بعضُ مَن قبلكم من الناس.

وقيل: هو عبدٌ صالحٌ ملَّكه الله تعالى الأرضَ، وأعطاه العلمَ والحكمة، وألبسَهُ الهيبةَ، ولا نعرف من هو، وذكر في تسميته بذي القرنين وجوه:

الأول: أنَّه دعا إلى طاعة الله تعالى، فضُرِبَ على قرنه الأيمن فمات، ثم بعثَه الله تعالى، فدعا، فضُرِب على قرنه الأيسر فمات، ثم بعثه الله تعالى، فسُمِّيَ ذا القرنين ومَلَك ما مَلك، وروي هذا عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه.

والثاني: أنَّه انقرضَ في وقته قرنان من الناس.

الثالث: أنَّه كانت صفحتا رأسه من نحاس، وروي ذلك عن وهب بن منبه.

الرابع: أنَّه كان في رأسه قرنان كالظلفين، وهو أوَّل من لبس العمامة ليسترهما، وروي ذلك عن عبيد بن يعلى.

الخامس: أنَّه كان لتاجه قرنان.

السادس: أنَّه طافَ قرنَي الدنيا، أي: شرقها وغربها، وروي ذلك مرفوعاً(٢).

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٤١، وهو في فتوح مصر ص١٠٥، والأضداد ص ٣٥٣، والعظمة (٩٨٧)، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٩٠. وهو من طريق خالد بن معدان عن عمر، وخالد لم يدرك عمر رضي الله عنه.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٠٤: لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه الدارقطني في «المؤتلف»، من رواية عبد العزيز بن عمران، عن سليمان بن أسيد، عن

السابع: أنَّه كان له غديرتان، وروي ذلك عن قتادة ويونس بن عبيد.

الثامن: أنَّه سُخِّر له النورُ والظُّلمة، فإذا سَرى يهديه النورُ من أمامه، وتمتدُّ الظلمة من ورائه.

التاسع: أنَّه دخلَ النور والظلمة.

العاشر: أنَّه رأى في منامه كأنَّه صعد إلى الشمس وأخذ بقرنيها.

الحادي عشر: أنَّه يجوزُ أن يكون قد لُقِّبَ بذلك لشجاعته، كأنَّه ينطح أقرانه، كما لقب أزدشيربهمن بطويل اليدين؛ لنفوذ أمره حيث أراد.

ولا يخفى أنَّه يَبعدُ عدمُ معرفة رجلٍ مُكِّن له ما مُكِّن في الأرض، وبلغَ من الشهرةِ ما بلغ في طولها والعرض، وأمَّا الوجوه المذكورة في وجه تسميته، ففيها ما لا يكادُ يصحُّ، ولعلَّه غيرُ خفيٍّ عليكَ.

وقيل: هو فريدون بن أثفيان بن جمشيد، خامس ملوك الفرس الفيشدادية، وكان ملكاً عادلاً مطيعاً لله تعالى.

وفي كتاب «صور الأقاليم» لأبي زيد البلخي أنَّه كان مؤيَّداً بالوحي.

وفي عامَّة التواريخ أنَّه مَلَكَ الأرضَ وقسَّمها بين بنيه الثلاثة: إيرج وسلم وتور، فأعطى إيرج العراقَ والهند والحجاز، وجعله صاحب التاج، وأعطى سلم الروم وديار مصر والمغرب، وأعطى تور الصين والترك والمشرق، ووضعَ لكلٍّ قانوناً يحكمُ به، وسُمِّيت القوانين الثلاثة سياسةً، فهي معربة سي إيسا، أي: ثلاثة قوانين.

ووجهُ تسميته ذا القرنين أنَّه مَلَكَ طرفي الدنيا، أو طُول أيام سلطنته، فإنها كانت ـ على ما في «روضة الصفاء»(١) ـ خمسَ مئة سنة، أو عِظَمُ شجاعته وقهره الملوك.

= الزهري قال: إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها.

(١) في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، فارسي، لميرخواند المؤرخ، محمد بن خاوند شاه بن محمود المتوفى سنة (٩٠٣هـ). انظر كشف الظنون ١/ ٩٢٦-٩٢٧.

ورُدَّ بأنَّه قد أجمعَ أهل التاريخ على أنَّه لم يسافر لا شرقاً ولا غرباً؛ وإنما دَوَّخَ له البلاد كاوه الأصفهانيُّ الحداد الذي مَزَّقَ الله تعالى على يده ملكَ الضحَّاك، وبقي رئيسَ العساكر إلى أن مات.

ويلزم على هذا القول أيضاً أنْ يكون الخضر عليه السلام على مقدِّمته، بناءً على ما اشتهر أنَّه عليه السلام كان على مقدمة ذي القرنين، ولم يذكر ذلك أحدٌ من المؤرِّخين.

وأجيبَ بأنَّ من يقول: إنَّه الإسكندر، يثبتُ جميع ما ثبتَ للإسكندر في الآيات والأخبار، ولا يبالي بعدم ذكر المؤرِّخين لذلك، وهو كما ترى.

وقيل: هو إسكندر اليونانيُّ ابن فيلقوس، وقيل: قلفيص، وقيل: قليص.

وقال ابنُ كثير: هو ابن فيليس بن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومى بن ليطي بن يونان بن يافث بن نونة بن شرخون بن تونط بن يوفيل بن رومى بن الأصفر بن العزير بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام(١).

وكان سريرُ ملكه مقدونيا، وهي بلدةٌ من بلاد الروم غربي دار السلطنة السنية قسطنطينية المحميَّة، بينهما من المسافة قدر خمسة عشر يوماً أو نحو ذلك عند مدينة شيروز.

وقول ابن زيدون: إنَّها مصر، وهمٌ.

وهو الذي غلب دارا الأصغر، واستولى على ملك الفرس، وكان مولدُه في السنة الثالثة عشر من ملك دارا الأكبر. وزعم بعضُهم أنَّه أبوه، وذلك أنَّه تزوَّج بنتَ فيلقوس، فلمَّا قربها وجد منها رائحةً منكرةً، فأرسلَها إلى أبيها وقد حملت بالإسكندر، فلما وضعته بقي في كفالة أبيها، فنسب إليه.

---

(١) نص نسبه كما في مطبوع البداية والنهاية لابن كثير ٢/ ٥٤١-٥٤٢: هو ابن فيليبس بن مضريم بن هرمس بن هردس بن ميطون بن رُومى بن لِنْطى بن يونان بن يافث بن نونة بن سرحون بن رومة بن ثرنط بن توفيل بن رومى بن الأصفر بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وقيل: إنَّ دارا الأكبر تزوَّج بنتَ ملك الزنج هلابي، فاستخبثَ ريحها، فأمر أنْ يُحتال لذلك، فكانت تغتسلُ بماء السندروس، فأذهبَ كثيراً من ذفرها، ثمَّ عافها وردَّها إلى أهلها، فولدت الإسكندر، وكان يسمَّى الإسكندروس.

ويدلُّ على أنَّه ولده أنَّه لما أدرك دارا الأصغر بن دارا الأكبر وبه رمقٌ، وضع رأسه في حجره وقال له: يا أخي أخبرني عمَّن فعل هذا بك لأنتقم منه. وهو زعمٌ باطل، وقوله: يا أخي، من باب الإكرام ومخاطبة الأمثال.

وإنما سُمِّيَ ذا القرنين لملكه طرفي الأرض، أو لشجاعته، واستُدِلَّ لهذا القول بأنَّ القرآن دلَّ على أنَّ الرجلَ بلغ ملكُه إلى أقصى المغرب وأقصى المشرق وجهة الشمال، وذلك تمامُ المعمور من الأرض، ومثلُ هذا الملك يجبُ أن يبقى ذكرهُ مخلَّداً.

والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ أنَّه بلغَ ملكُه إلى هذا الحدِّ ليس إلَّا هذا الإسكندر، وذلك لأنَّه لمَّا مات أبوه جمعَ ملوك الروم والمغرب وقهرهم(١)، وانتهى إلى البحر الأخضر، ثم عاد إلى مصر، وبَنَى الإسكندرية، ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل، وورد بيتَ المقدس، وذَبح في مذبحه، ثمَّ انعطفَ إلى أرمينية وباب الأبواب، ودانت له العراقيون والقبط والبربر، واستولى على دارا، وقصد الهند والصين، وغزا الأمم البعيدة، ورجع إلى خراسان، وبنى المدن الكثيرة، ورجع إلى العراق، ومرض بشهرزور وماتَ بها.

وقيل: مات برومية المدائن، ووضعوه في تابوت من ذهب، وحملوه إلى الإسكندرية، وعاش اثنين وثلاثين سنةً، ومدَّةُ ملكه اثنا عشرة سنة.

وقيل: عاش ستّاً وثلاثين، ومدَّةُ ملكِه ست عشرة سنة. وقيل غير ذلك.

فلما ثبتَ بالقرآن أنَّ ذا القرنين مَلَكَ أكثر المعمورة، وثبتَ بالتواريخ أنَّ الذي هذا شأنه هو الإسكندر، وجبَ القطعُ بأنَّ المرادَ بذي القرنين هو الإسكندر، كذا

(١) في الآثار الباقية عن القرون الخالية ص٣٦-٣٧، وتفسير الرازي ٢١/ ١٦٣- والكلام منه -: جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف، ثم قصد ملوك المغرب وقهرهم.

ذكره الإمام[١]. ثم قال: وهذا القول هو الأظهر للدليل المذكور، إلَّا أنَّ فيه إشكالاً قويّاً، وهو أنَّه كان تلميذَ أرسطو الحكيم المقيم بمدينة أثينة، أسلمه إليه أبوه، فأقام عنده خمس سنين، وتعلَّم منه الفلسفة وبرع فيها، وكان على مذهبه، فتعظيمُ الله تعالى إيَّاه يوجبُ الحكم بأنَّ مذهب أرسطو حقٌّ، وذلك ممَّا لا سبيل إليه[٢].

وأجيب بأنَّا لا نُسلِّم أنَّه كان على مذهبه في جميع ما ذهبَ إليه، والتلمذةُ على شخصٍ لا توجبُ الموافقةَ في جميع مقالات ذلك الشخص، ألا ترى كثرةَ مخالفة الإمامين لشيخهما الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، فيَحتملُ أنْ يكون مخالفاً له فيما يوجِبُ الكفر، وفي ذبحه في مذبح بيت المقدس دليلٌ على أنَّه لم يكن يَرى جميعَ ما يراه الحكماء.

ولا يخفى أنَّه احتمالٌ بعيد، والمشهورُ أنَّه كان قائلاً بما يقوله الحكماء، والذبحُ المذكورُ غير متحقِّق، والاستدلال به ضعيف.

وقيل: إنَّ قوله بذلك وتَمَذْهُبَه بمذهب أرسطو لا يوجبُ كفرَه إذ ذاك؛ فإنَّه كان مُقِرّاً بالصانع تعالى شأنه، معظِّماً له، غيرَ عابدٍ سواه من صنم أو غيره، كما يدلُّ عليه ما نقله الشهرستانيُّ أنَّ الحكماءَ تشاوروا في أن يسجدُوا له إجلالاً وتعظيماً، فقال: لا يجوزُ السجود لغير بارئ الكلّ[٣].

ولم يكن مبعوثاً إليه رسولٌ، فإنَّه كان قبل مبعث عيسى عليه السلام بنحو ثلاثِ مئة سنة، وكان الأنبياء عليهم السلام إذ ذاك من بني إسرائيل، ومبعوثين إليهم، ولم يكن هو منهم، فكان حكمه حكم أهل الفترة.

وتُعقِّبَ بأنَّه على تسليم ذلك لا يحسم مادة الإشكال؛ لأنَّ الله تعالى لا يكاد يعظِّم مَن حُكْمُه حُكْمَ أهل الفترة مثلَ هذا التعظيم الذي دلَّت عليه الآيات والأخبار، وأيضاً الثابت في التواريخ أنَّ الإسكندر المذكورَ كان أرسطو بمنزلة

(١) تفسير الرازي ٢١/١٦٣.
(٢) تفسير الرازي ٢١/١٦٥.
(٣) الملل والنحل ٢/١٣٨. ووقع في (م): بادئ الكل.

الوزير عنده، وكان يستشيره في المهمَّات، ويعمل برأيه، ولم يُذكر فيها أنَّه اجتمع مع الخضر عليه السلام فضلاً عن اتخاذه إيَّاه وزيراً، كما هو المشهور في ذي القرنين.

واعترضَ أيضاً بأنَّ إسكندر المذكور لم يتحقَّق له سفرٌ نحو المغرب في كتب التواريخ المعتبرة، وقد نبَّه على ذلك كاتب جلبي عليه الرحمة(١).

وقيل: هو الإسكندر الروميُّ، وهو متقدِّمٌ على اليونانيِّ بكثير، ويقال له: ذو القرنين الأكبر. واسمه قيل: مرزبان بن مردبة من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وكان أسود.

وقيل: اسمه عبد الله بن الضحَّاك.

وقيل: مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان.

وجعل بعضُهم هذا الخلاف في اسم ذي القرنين اليونانيّ، بعد أن نقل القول بأنَّ اسمه الإسكندر بن فيلقوس، وذكر في اسم الروميِّ ونسبه ما نقل سابقاً عن ابن كثير.

وذهب بعض المحققين إلى أنَّ الإسكندرَ اليونانيّ والإسكندر الروميّ كلاهما يطلقان على غالب دارا الأصغر، والتاريخُ المشهور بالتاريخ الرومي - ويسمى أيضاً السريانيّ والعجمي - يُنسَبُ إليه في المشهور، وأوَّله(٢) شروق يوم الاثنين من أول سنةٍ من سني ولايته عند ابن البنَّاء(٣)، ومن أوَّل السنة السابعة، وهي سنة

---

(١) هو مصطفى بن عبد الله، المعروف بحاج خليفة، المؤرخ البحاثة، التركي الأصل. له «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، قال الزركلي: وهو أنفع وأجمع ما كتب في موضوعه بالعربية، وتحفة الكبار في أسفار البحار، وتقويم التواريخ؛ وهو جداول تاريخية بلغ بها سنة (١٠٥٨هـ) وغيرها توفي سنة (١٠٦٧هـ). الأعلام ٧/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: قوله: وأوله.. إلى آخره، وقع استطراداً. اهـ منه.

(٣) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي، أبو العباس، رياضيٌّ باحث، من أهل مراكش، له: حاشية على الكشاف، وكليات في المنطق وشرحها، وكتاب في النجوم، وغيرها. توفي سنة (٧٢١ هـ). الأعلام ١/ ٢٢٢.

خروجه لتملك البلاد، كما في «زيج الصوفي»[١]، أو من أوَّل السنة التي مات فيها، كما في «المبادي والغايات»[٢].

وبعضُ المحققين ينسبُه إلى سولونس بن الطبوخوس الذي أمر ببناء أنطاكية، وهو الذي صحَّحه ابن أبي الشكر[٣]، وتوقَّف بعضهم كألغ بك[٤] عن نسبتِهِ إلى أحدهما؛ لتعارض الأدلَّة. ونَفى بعضُهم أن يكون في الزمن المتقدِّم بين الملوك إسكندران، وزعم أنَّه ليس هناك إلَّا الإسكندر الذي غلب دارا، واستولى على ملك فارس، وقال: إنَّ ذا القرنين المذكور في القرآن العظيم يحتملُ أنْ يكون هو، ويحتمل أنْ يكون غيره.

والذي عليه الكثير أنَّ المسمَّى بالإسكندر بين الملوك السالفة اثنان، بينهما نحو ألفي سنة، وأنَّ أوَّلهما هو المراد بذي القرنين، ويسمِّيه بعضُهم الروميّ، وبعضُهم اليونانيّ، وهو الذي عُمِّر دهراً طويلاً، فقيل: عُمِّر ألفاً وستَّ مئة سنة، وقيل: ألفي سنة، وقيل: ثلاثة آلاف سنة. ولا يصحُّ في ذلك شيء.

وذكر أبو الريحان البيرونيُّ[٥] المنجِّم في كتابه المسمَّى بـ «الآثار الباقية عن

(١) الزيج: كتاب يحسب فيه سير الكواكب، وتستخرج التقويمات، أعني: حساب الكواكب سنة سنة، وهو بالفارسية: زه، أي: الوَتَر، ثم عُرِّب فقيل: زيج. وجمعوه على زيجة كقردة. تاج العروس (زوج).
وزيج الصوفي ذكره صاحب كشف الظنون ٢/ ٩٧٠ فقال: زيج الشيخ أبي الفتح الصوفي الذي تصدى فيه لإصلاح الزيج السمرقندي.

(٢) للشيخ أبي علي حسن بن علي المراكشي. كان حيّاً سنة (٧٥٠هـ) كما في هدية العارفين ١/ ٢٨٦.

(٣) يحيى بن محمد بن أبي الشكر، محيي الدين، أبو الفتح، ويعرف بالحكيم المغربي، عالم بالفلك، أندلسي من أهل قرطبة. صنف كتباً، منها: الأربع مقالات في النجوم، وملخص المجسطي، توفي نحو (٦٨٠هـ). الأعلام ٨/ ١٦٦.

(٤) هو محمد بن شاه رخ بن تيمورلنك، ويعرف بألوغ بك صاحب سمرقند من قبل أبيه، وصنع به رَصَدًا عظيماً، ودام على ذلك إلى أن قتله ولده عبد اللطيف سنة أربع وخمسين وثمانمئة. وله زيج سمي به. انظر الضوء اللامع للسخاوي ٧/ ٢٦٥، والدليل الشافي على المنهل الصافي لابن تغري بردي ١/ ١٥٤، وكشف الظنون ٢/ ٩٦٦.

(٥) في الأصل و(م)، ومطبوع تفسير أبي السعود ٥/ ٢٣٩: البيروتي. وهو خطأ.

=

القرون الخالية» أنَّ ذا القرنين هو أبو كرِب سمي بن عمير بن إفريقيس[١] الحميري، وهو الذي افتخرَ به تُبَّع اليمانيُّ، حيث قال:

قد كان ذو القرنين جدِّيَ مسلماً ... مَلِكاً علا في الأرض غيرَ مُفَنَّدِ[٢]

بلغ المغاربَ والمشارقَ يَبتغي ... أسبابَ مُلكٍ من حكيمٍ مرشدِ

فرأى مغيبَ الشمس عند غروبها ... في عين ذي خُلُبٍ وثَأْطٍ حرْمدِ[٣]

ثم قال: ويشبهُ أن يكون هذا القول أقربَ؛ لأنَّ الأذواءَ كانوا من اليمن، كذي المنار، وذي نواس، وذي رعين، وذي يزن، وذي جدن. واختارَ هذا القول كاتب چلبي، وذَكر أنَّه كان في عصر إبراهيم عليه السلام، وأنَّه اجتمع معه في مكَّة المكرمة، وتعانقا، وأنَّ شهرةَ بلوغ مُلْكِ الإسكندر اليونانيِّ تلميذِ أرسطو الغايةَ القصوى في كتب التواريخ ـ كما ذكر الإمام ـ دون هذا إنَّما هي لقربِ زمان اليونانيِّ بالنسبة إليه، فإنَّ بينهما نحو ألفي سنة.

وتواريخ هاتيك الأعصار قد أصابها إعصار، ولم يبقَ ما يعوَّل عليه، ويُرْجَع في حلِّ المشكلات إليه، وربما يقال: إنَّ عدمَ شهرة من ذُكِرَ تُقَوِّي كونَه المسؤول عنه، إذ غرضُ اليهود من السؤال الامتحان، وذلك إنَّما يحسنُ فيما خفيَ أمرُه ولم يُشهَر، إذ الشهرةُ ـ لا سيَّما إذا كانت تَامَّةً ـ مظنَّةُ العلم.

وإلى كون ذي القرنين في زمان إبراهيم عليه السلام ذهبَ غيرُ واحد، وقد ذكر الأزرقيُّ أنَّه أسلمَ على يده عليه السلام وطافَ معه بالكعبة، وكان ثالثهما إسماعيل

= والبيروني هو محمد بن أحمد الخوارزمي، فيلسوف رياضي مؤرخ، من مؤلفاته: الاستيعاب في صنعة الاسطرلاب، والجماهر في معرفة الجواهر، وتاريخ الأمم الشرقية، وغيرها. توفي سنة (٤٤٠هـ). الأعلام ٥/ ٣١٤.

(١) في مطبوع الآثار الباقية ص٤٠: شمَّر يرعش بن إفريقيس... وانظر ما سيذكره المصنف في هذا التحريف بعد قليل.

(٢) في البحر المحيط ٦/ ١٥٨: غير مبعد، بدل: غير مفند، ووقع في فتوح مصر ١/ ١٠٣، وتاريخ دمشق ١٧/ ٣٣٢: ملكاً تَدين له الملوك وتَحْشُد. وفي البداية والنهاية ٢/ ٥٤٠: وتُحْشَد. وفي عرائس المجالس ص٣٦٦، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٧٠: وتسجد. وأورده بمثل ما ذكر المصنف الرازيُّ في تفسيره ٢١/ ١٦٤.

(٣) الحرمد، كجَعْفَر، وكزِبْرِج: الطين الأسود. القاموس (حرمد).

عليه السلام، ورويَ أنَّه حجَّ ماشياً، فلمَّا سمع إبراهيمُ عليه السلام بقدومه تلقَّاه ودعا له وأوصاه بوصايا(١).

وقيل: أُتيَ بفرسٍ ليركب، فقال: لا أركبُ في بلدٍ فيه الخليل، فعند ذلك سُخِّر له السحاب، ومُدَّ له في الأسباب، وبَشَّره إبراهيم عليه السلام بذلك، فكانت السحابةُ تحملُه وعساكرَه وجميعَ آلاتهم إذا أرادوا غزوَ قوم. وهؤلاء لم يصرِّحوا بأنَّ ذا القرنين هذا هو الحميريُّ الذي ذُكر، لكنَّ مقتضى كلامِ كاتب چلبي أنَّه هو.

وذكر أنَّه يمكن أن يكون إسكندر لقباً لمن ذُكر معرَّباً عن أَلِكْسَنْدر، ومعناه في اللغة اليونانية آدميٌّ جيد.

وربَّما يقال: إنَّ من قال: اسم الإسكندر مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور، إلى آخر النسب السابق المنتهي إلى قحطان، عنى هذا الرجل الحميريَّ لا الرومي، ولا اليوناني، لكن وهم الناقل؛ لأنَّه لم يقل أحدٌ بأنَّ الروم من أبناء قحطان وكذا اليونان.

نعم ذكر يعقوب بن إسحاق الكنديُّ أنَّ يونان أخو قحطان، وردَّ عليه أبو العباس الناشئ في قصيدته، حيث قال:

أبا يوسفٍ إنِّي نظرتُ فلم أجد ... على الفحصِ رأياً صحَّ منك ولا عقدا
وصرتَ حكيماً عند قوم إذا امرؤٌ ... بلاهُمْ جميعاً لم يجد عندهم عهدا
أتقرنُ إلحاداً بدينِ محمَّدٍ ... لقد جئتَ شيئاً يا أخا كندة إدَّا
وتخلطُ يوناناً بقحطان ضلَّةً ... لعمري لقد باعَدْتَ بينهما جدّا(٢)

والمذكورُ في كتب التواريخ أنَّ ملوكَ اليمن إلى أن غلبت الحبشةُ عليها من أبناء قحطان.

وأورد على هذا القول في ذي القرنين أنَّه لم يوجد في كتب التواريخ المعتبرة سمي بن عمير بن إفريقيس في عداد ملوك اليمن، والمذكورُ إنَّما هو شَمَّر بصيغة

---

(١) ينظر تاريخ مكة لأبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي ١/ ٧٤.
(٢) الأبيات في مروج الذهب ٢/ ٢٤٥، وفي الديوان المجموع لأبي العباس الناشئ، المقطوعة ٣١، مطبوع في مجلة المورد، العدد الثالث، المجلد ١١/ ١٩٨٢.

فِعل الماضي من التشمير، بن إفريقيس، ولم يذكروا بينه وبين إفريقيس عميراً، وقد ذكر بعضُهم فيه أنَّه ذو القرنين، وقالوا: إنه يقال له: شمّر يرعش؛ لارتعاش كان فيه، فلعلَّ: سمي محرَّفٌ عن شمر، وابن عمير محرف من يرعش.

وقد ذكروا في أبيه إفريقيس أنَّه غزا نحو المغرب في أرض البربر، حتى أتى طنجة، ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى مساكنهم اليوم، وأنَّه هو الذي بنى إفريقية، وبه سمِّيت، وكان ملكه مئةً وأربعاً وستين سنة.

وفيه أنَّه خرج نحو العراق، وتوجَّه نحو الصين، وأنه قلعَ المدينة التي تسمَّى اليوم سمرقند، وقالوا: إنَّها معرَّب شمركند، وإلى ذلك يشيرُ دِعبل الخزاعيُّ بقوله يفتخر بملوك اليمن:

هُمُ كتبوا الكتابَ بباب مرو وباب الشاش كانوا الكاتبينا
وهم سموا بشمرٍ سمرقندا وهم غرسوا هناك النابتينا(١)

وأنَّه إنَّما لُقِّب بذي القرنين لذؤابتين كانتا له، وكان ملكه ـ على ما قال ابن قتيبة ـ مئةً وسبعاً وثلاثين سنةً، وعلى ما قال المسعوديُّ: ثلاثاً وخمسين سنةً، وعلى ما قال غيرهما: سبعاً وثمانين سنةً، ثم إنَّ هذا لم يكن بأبي كرب، وإنَّما المكنَّى به ـ على ما رأيناه في بعض التواريخ ـ أسعدُ بن كليكرب، ويقال له تبع الأوسط، ويذكر أنَّه آمن بنبينا ﷺ قبل مبعثه، وفي ذلك يقول:

شهدتُ على أحمدَ أنَّه رسولٌ من الله باري النسم
فلو مُدَّ عمري إلى عمره لكنتُ وزيراً له وابن عم(٢)

وذكروا أنَّه كانَ شديدَ الوطأة، كثيرَ الغزو، فملَّهُ قومُه، فأغروا ابنه حسان على قَتْلِه فقَتَلَه.

ولا يخفى أنَّ كلا هذين الشخصين لا يصحُّ أنْ يكونَ المراد بذي القرنين الذي ذُكر أنَّه لقيَ إبراهيم السلام، أمَّا الأولُ، فلأنَّهم ذكروا أنَّه ملك بعد ياسر ينعم بن

---

(١) ديوان دعبل ص٢٥٦، وفيه: التبتينا.

(٢) المعارف لابن قتيبة ص ٦٠، والعمدة لابن رشيق ٢/٢٢٦.

عمرو، وملك ياسر بعدَ بلقيس زوجة سليمان عليه السلام، وكان عمَّها، فكيف يتصوَّر أنْ يكونَ هذا ذاك، مع بُعْدِ زمان ما بين إبراهيم وسليمان عليهما السلام؟

وأمَّا الثاني، فلأنَّه بعدَ هذا بكثيرٍ، مع أنَّه لم يُطلِق عليه أحدٌ ذا القرنين، ولا نَسب إليه غزواً في مشارق الأرض ومغاربها.

ورأيتُ في بعض الكتب أنَّ في زمن منوجهر بن إيرج بن أفريدون بُعثَ موسى عليه السلام، وكان ملك اليمن في زمانه شمر أبا الملوك، وكان في طاعته. انتهى.

وعليه أيضاً لا يمكنُ أنْ يكون شمر هذا هو ذا القرنين السابق، وهو ظاهر.

وإذا أسقطتَ جميع هذه الأقوال عن الاعتبار؛ بناءً على ما قيل: إنَّ أخبار ملوك اليمن مضطربةٌ، لا يكاد يوقَفُ على روايتين متفقتين فيها، واعتبرتَ القولَ بأنَّه كان في زمن إبراهيم عليه السلام ملكٌ منهم هو ذو القرنين، بناءً على حسن الظنِّ بقائل ذلك، أشكل الأمرُ من وجهٍ آخر، وهو أنَّ كتب التواريخ قاطبةً ناطقةٌ بأنَّ فريدون كان في زمان إبراهيم عليه السلام، وأنَّه قسَّم المعمورةَ بين بنيه الثلاثة حسبما تقدَّم، فكيف يتسنَّى مع هذا القولُ بأنَّ ذا القرنين رجلٌ من ملوك اليمن كان في ذلك الزمان أيضاً.

ويجيء نحوُ هذا الإشكال إذا قلنا: إنَّ ذا القرنين هو أحد الإسكندرين اليوناني والرومي، وقلنا بأنَّه كان في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً.

والحاصل أنَّ القولَ بأنَّ فريدون كان في ذلك الزمان وكان مالكاً المعمورة ـ كما في عامة تواريخ الفرس ـ يمنعُ القولَ بأنَّ ذا القرنين في ذلك الزمان غيره، بل القول بوجودِ أحد الثلاثة من فريدون وذي القرنين التُّبَّعيّ وأحد الإسكندرين في ذلك الزمان وملْكِه المعمورة يمنعُ من القول بوجود غيره منهم في ذلك الزمان وملكه المعمورة أيضاً، واستشكل كونُ ذي القرنين أيّاً كان من هؤلاء الثلاثة في زمان إبراهيم عليه السلام بأنَّ نمرود كان في زمانه أيضاً، وقد جاء: ملك الدنيا مؤمنان وكافران؛ أمَّا المؤمنان فسليمان عليه السلام وذو القرنين، وأمَّا الكافران فنمرود وبختنصر[1]. ولا مخلصَ من ذلك ـ على تقدير صحَّة الخبر ـ إلَّا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٥٦٤ والطبري ٤/ ٥٧١-٥٧٢ من قول مجاهد.

بأن يقال: كان زمان إبراهيم عليه السلام ممتدّاً، ووقع ملكُهما الدنيا متعاقباً. وهو كما ترى.

ورأيتُ في بعض الكتب القولَ بأنَّ ذا القرنين مَلَكَ بعد نمرود، وينحلُّ به الإشكال.

وقال بعضهم: الذي تقتضيه كتبُ التواريخ عدمُ صحة الخبر أو تأويلُه، إذ ليس في شيءٍ منها عمومُ ملك سليمان عليه السلام أو ملك نمرود أو بختنصر، والظاهر عدم الصحة.

واستشكل أيضاً كونه في ذلك الزمان بأنَّه لم يُذكر في التوراة، كما يدعيه اليهود اليوم كافَّةً، ويَبعدُ ذلك غايةَ البعد على تقدير وجوده، فالظاهر من عدم ذكره عدمُ كونه موجوداً.

وأُجيب بأنَّا لا نُسلِّم عدمَ ذكره، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ أنَّ اليهود قالوا للنبيِّ ﷺ: يا محمد إنَّك إنَّما تذكر إبراهيم وموسى وعيسى والنبيين لأنَّك سمعتَ ذكرهم منَّا، فأخبرنا عن نبيٍّ لم يذكره الله تعالى في التوراة إلَّا في مكانٍ واحد، قال: «ومن هو»؟ قالوا: ذو القرنين. الخبر[1]، بل الظاهر من سؤالهم أنَّ له ذكراً في كتابهم، وإنكارُهم اليومَ ذلك لا يُلتفتُ إليه، على أنَّ ما ذُكر في الاستشكال مجرَّدُ استبعاد، ولا يخفى أنَّه ليس مانعاً قويّاً.

هذا وبالجملة لا يكاد يَسلمُ في أمر ذي القرنين شيءٌ من الأقوال عن قيل وقال، وكأنِّي بك بعد الاطلاع على الأقوال وما لها وما عليها تختارُ أنَّه الإسكندر بن فليقوس غالبُ دارا، وتدَّعي أنَّه يقالُ له اليوناني، كما يقال له الروميّ، وأنَّه كان مؤمناً بالله تعالى لم يرتكب مكفِّراً من عَقْدٍ أو قولٍ أو فعل، وتقول: إنَّ تلمذَتَه على أرسطو لا تمنعُ من ذلك:

فموسى الذي ربَّاه جبريلُ كافرٌ ... وموسى الذي ربَّاه فرعون مرسلُ[2]

وقد تتلمذَ الأشعريُّ على المعتزلة، ورئيسُ المعتزلة على الحسن، وقد خالفَ أرسطو أفلاطون في أكثر المسائل وكان تلميذه.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤٠.

(٢) سلف عند التفسير الإشاري للآيات [٦٥-٩١] من سورة آل عمران.

والقولُ بأنَّ أرسطو كان بمنزلة الوزير عنده وكان يستشيره في المهمَّات ويعملُ برأيه، لا يدلُّ على اتِّباعه له في سائر اعتقاداته، فإنَّ ذلك على تقدير ثبوته إنَّما هو في الأمور الملكية، لا المسائل الاعتقاديَّة، على أنَّ المُلَّا صدر الدين الشيرازيّ[1] ذَكَرَ أنَّ أرسطو كان حكيماً عابداً موحِّداً قائلاً بحدوث العالم ودثوره المشار إليه بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وما شاعَ عنه في أمر العالم توهُّمٌ ناشئٌ من عدم فهم كلامه، ومثله في ذلك سائر أساطين الحكماء.

ولا نسلِّم عدم سفره نحو المغرب، ولا ثبوتَ أنَّ الخضر كان وزير ذي القرنين، وإن اشتهرَ، ليقدح عدمُ كونه وزيراً عنده في كونه ذا القرنين.

وقيل: إنَّه كان وزيراً عند ملكٍ يقال له ذو القرنين أيضاً، لكنَّه غير هذا، ووقع[2] الاشتباه في ذلك.

وقيل: يمكن أنْ يكونَ عليه السلام في جملة الحكماء الذين معه، وكان كالوزير عنده، ولا يقدح في ذلك استشارةُ غيره في بعض الأمور، وكان مشتهراً إذ ذاك بالحكمة دون النبوَّة، وفي الأعصار القديمة كانوا يسمُّون النبيَّ حكيماً، ولعلَّه كان مشتهراً أيضاً باسمٍ آخر، وعدمُ تعرُّض المؤرِّخين لشيءٍ من ذلك لا يدلُّ على العدم.

وقيل: لا نسلِّم عدم التعرُّض، بل قولُهم: إنَّ الخضرَ كان وزير ذي القرنين، قولٌ بأنَّه كان وزيرَ الإسكندر المذكور عند القائل بأنَّه ذو القرنين، ولا يمنع من ذلك كون الخضرِ على الأصحِّ نبياً والإسكندر ليس كذلك، كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى قريباً عن الجمهور؛ لأنَّ المرادَ من وزارته له تدبيرُ أموره ونصرتُه، ولا ضررَ في نصرة نبيٍّ وتدبيرِه أمورَ ملكٍ صالح غيرِ نبيّ، وهو واقعٌ في بني إسرائيل.

---

(١) هو محمد بن إبراهيم بن يحيى القوامي الشيرازي، فيلسوف من القائلين بوحدة الوجود، فارسي المحتد، عربي التصانيف، من كتبه: الأسفار الأربعة في الحكمة، وشرح أصول السكاكي، وغيرها، توفي سنة (١٠٥٩هـ). الأعلام ٥/٣٠٣.

(٢) في الأصل: ودفع.

وإن لم تختر ما ذُكر، فإن اخترتَ أنَّه من ملوك اليمن، أو إسكندرٌ آخر، يلزمُكَ إمَّا القولُ بأنَّه لم يكن في زمن إبراهيم عليه السلام، وإمَّا القولُ بأنَّه كان في زمنه بعد نمرود، أو معه، إلَّا أنَّه تحت إمرته، ولم يكن فريدون إذ ذاك، ويلزمك طيُّ الكشح عن كتب التواريخ، كما يلزمُك على أتمِّ وجهٍ لو اخترت أنه فريدون.

والأقرب عندي لإلزام أهل الملل والنحل الضالِّين الذين يشقُّ عليهم نبذُ كتب التواريخ وعدمُ الالتفات إلى ما فيها بالكليَّة مع كثرتِها وانتشارها في مشارق الأرض ومغاربها، وتباينِ أديان مؤلِّفيها، واختلافِ أعصارهم = اختيارُ أنَّه الإسكندر بن فيلقوس غالبُ دارا:

دَعِ الجهولَ يظنّ الجهلَ عدوانا ... وما عليَّ إذا ما قلتُ معتقدي[1]

واليهودُ قاطبةً على هذا، لكنَّهم لعنهم الله تعالى وقعوا في الإسكندر، ونسبوهُ أقبحَ نسبة، مع أنَّهم يذكرونَ أنَّه أكرمَهم حين جاء إلى بيت المقدس، وعظَّم أحبارهم، والله تعالى أعلم.

ثم إنَّ السؤالَ ليس عن ذاتِ ذي القرنين، بل عن شأنه، فكأنَّه قيل: ويسألونك عن شأن ذي القرنين ﴿قُلْ﴾ لهم في الجواب: ﴿سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ الخطاب للسائلين، والهاء لذي القرنين، و«من» تبعيضيَّة، والمراد: من أنبائه وقصصه، والجارُّ والمجرور صفةُ «ذكراً» قُدِّم عليه فصار حالاً، والمراد بالتلاوة الذكر، وعُبِّرَ عنه بذلك لكونه حكايةً من[2] جهة الله عزَّ وجلَّ، أي: سأذكر لكم نبأً مذكوراً من أنبائه.

ويجوزُ أن يكون الضمير له تعالى، و«من» ابتدائية، ولا حذف، والتلاوة على ظاهرها، أي: سأتلو عليكم من جهته سبحانه وتعالى في شأنه ذكراً، أي: قرآناً.

والسين للتأكيد والدلالةِ على التحقُّق المناسب لتقدُّم تأييده ﷺ وتصديقه بإنجاز وعده، أي: لا أترك التلاوة البتَّة، كما في قوله:

---

(١) البيت لتاج الدين السبكي في مطلع قصيدة يمدح بها والده تقيَّ الدين. طبقات الشافعية الكبرى ١٠/١٤٣. وفيه: السوء، بدل: الجهل.

(٢) في (م): عن.

سأشكرُ عمراً إنْ تراخت منيَّتي أيادي لم تُمنن وإن هي جلَّتِ[١]

لا للدلالة على أنَّ التلاوةَ ستقعُ فيما يستقبلُ كما قيل؛ لأنَّ هذه الآية ما نزلت بانفرادها قبل الوحي بتمام القصة، بل موصولةً بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شروعٌ في تلاوة الذكر المعهود حسبما هو الموعود، والتمكينُ هاهنا: الإقدارُ وتمهيدُ الأسباب، يقال: مكَّنه، ومكَّن له، كنصحتُه ونصحتُ له، وشكرتُه وشكرتُ له. وفُرِّقَ بينهما بأنَّ معنى الأول: جعلَه قادراً، ومعنى الثاني: جَعَلَ له قدرةً وقوَّةً، ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يُستعملُ كلٌّ منهما في محلِّ الآخر. وهكذا إذا كان التمكينُ مأخوذاً من المكان بناءً على توهُّم ميمه أصليَّةً، والمعنى: إنَّا جعلنا له مُكنةً وقدرةً على التصرُّف في الأرض من حيث التدبيرُ والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار.

وقيل: تمكينُه في الأرض من حيث إنَّه سُخِّر له السحاب، ومُدَّ له في الأسباب، وبُسط له النور، فكان الليلُ والنهار عليه سواءً، وفي ذلك أثرٌ، ولا أراه يصحّ.

وقيل: تمكينُه بالنبوَّة وإجراء المعجزات، ورَوى القول بنبوَّته أبو الشيخ في «العظمة» عن أبي الورقاء عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه[٢]، وإلى ذلك ذهب مقاتل، ووافقه الضحَّاك، ويعارضُه ما أخرجه ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في «المصاحف» وابن أبي عاصم في «السنة» وابن مردويه من طريق أبي الطفيل[٣] أنَّ ابنَ الكوَّاء سأل عليّاً كرَّم الله تعالى وجهَه عن ذي القرنين: أنبيّاً كان أم مَلِكاً؟ قال: لم يكن نبيّاً ولا ملكاً، ولكن كان عبداً صالحاً أحبَّ الله تعالى فأحبَّه، ونصح الله تعالى فنصحه[٤].

---

(١) سلف ١٣/ ٢٣٢.

(٢) العظمة (٩٧٠).

(٣) في الأصل و(م): الفضل، والتصويب من المصادر الآتية.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٤١، وهو في فتوح مصر لابن عبد الحكم ١/ ١٠٥، والسنة لابن أبي عاصم (١٣١٨). وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٧٠.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنَّه قال: ذو القرنين بلغ السدَّين وكان نذيراً، ولم أسمع بحقٍّ أنَّه كان نبيًّا(١).

وإلى أنَّه ليس بنبيٍّ ذهبَ الجمهور، وتوقَّفَ بعضُهم؛ لِمَا أخرجَه عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصحَّحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدري أتُبَّع كان لعيناً أم لا، وما أدري أذو القرنين كان نبيّاً أم لا، وما أدري الحدود كفاراتٌ لأهلها أم لا»(٢).

وأنت تعلم أن هذا النفي لم يكن ليستمر لرسول الله ﷺ، فيمكنُ أنْ يكون دَرَى عليه الصلاة والسلام فيما بعد أنَّه لم يكن نبيّاً كما يدلُّ عليه ما رُوي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، فإنَّه لم يكن يقول ذلك إلَّا عن سماع، ويشهدُ لذلك ما أخرجه ابنُ مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال: سئل عليٌّ كرم الله تعالى وجهه عن ذي القرنين: أنبيٌّ هو؟ فقال: سمعتُ نبيَّكم ﷺ يقول: «هو عبدٌ ناصَحَ الله تعالى فنصحه»(٣).

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده من مهمَّات ملكه ومقاصده المعلَّقة بسلطانه.

﴿سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ أي: طريقاً يوصلُه إليه، وهو كلُّ ما يُتَوصَّلُ به إلى المقصود من علمٍ أو قدرةٍ أو آلةٍ، لا العلم فقط، وإن وقع الاقتصارُ عليه في بعض الآثار.

و«من» بيانية، والمبيَّنُ «سبباً»، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: من أسباب كلِّ شيءٍ. والمراد بذلك الأسباب العادية، والقول بأنَّه يلزمُ على التقدير المذكور أنْ يكونَ لكلِّ شيءٍ أسبابٌ لا سبب وسببان، ليس بشيءٍ.

وجُوِّز أنْ تكون «من» تعليليَّة، فلا تقدير، واختارَهُ بعضُهم، فتأمَّل.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٤١.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٤٠، وهو في المستدرك ٢/ ٤٥٠، ومن طريق عبد الرزاق أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٥٥٣)، وذكر القاضي عياض في إكمال المعلم ٥/ ٥٥٠ أنه لا تعارض بين هذا الحديث وحديث عبادة بن الصامت عند البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩) الذي فيه أن الحدود كفارة؛ لاحتمال أن يكون حديث أبي هريرة قبل حديث عبادة، فلم يعلم أولاً حتى أعلمه الله أخيراً.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٤٠-٢٤١.

واستدلَّ بعضُ من قال بنبوَّته بالآية على ذلك، وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

﴿فَأَتْبَعَ﴾ بالقطع، والفاء فصيحة، والتقدير: فأراد بلوغَ المغرب فأتبع ﴿سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ يوصلُه إليه، ولعلَّ قَصْدَ بلوغ المغرب ابتداءً لأنَّه أقربُ إليه. وقيل: لمراعاة الحركة الشمسيَّة، وليس ذلك لكون جهة المغرب أفضلَ من جهة المشرق كما زعمه بعضُ المغاربة، فإنَّه ـ كما قال الجلال السيوطيُّ ـ لا قَطْعَ بتفضيل إحدى الجهتين على الأخرى؛ لتعارضِ الأدلَّة.

وقرأ نافع وابن كثير: «فاتَّبعَ» بهمزة الوصل وتشديد التاء(١)، وكذا فيما يأتي، واستظهرَ بعضُهم أنَّهما بمعنًى، ويتعديان لمفعولٍ واحد.

وقيل: إنَّ «أتبعَ» بالقطع يتعدَّى لاثنين، والتقدير هنا: فأتبعَ سبباً سبباً آخر، أو فأتبع أمرَه سبباً، كقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [القصص: ٤٢].

وقال أبو عبيد: «اتّبع» بالوصل في السير، و«أتبع» بالقطع معناه اللحاق، كقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

وقال يونس: «أتبع» بالقطع للمُجِدِّ المسرِع الحثيث الطلب، و«اتَّبع» بالوصل إنَّما يتضمَّن مجردَ الانتقال والاقتفاء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يتمكَّنُ أحدٌ من مجاوزته، ووقف كما هو الظاهر على حافَّةِ البحر المحيط الغربيِّ الذي يقال له: أوقيانوس، وفيه الجزائر المسمَّاة بالخالدات، التي هي مبدأ الأطوال على أحد الأقوال.

﴿وَجَدَهَا﴾ أي: الشمس ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: ذات حَمْأَةٍ، وهي الطينُ الأسود، من حَمِئَت البئرُ تَحْمَأُ حَمْأً: إذا كثُرت حمأتُها.

وقرأ عبدُ الله وطلحةُ بن عبيد الله وعمرو بن العاص وابنه عبد الله وابن عمر

---

(١) وقرأ بها أيضاً أبو عمرو من السبعة، وأبو جعفر ويعقوب من العشرة. انظر التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤.

ومعاوية والحسن وزيد بن عليّ وابنُ عامر وحمزةُ والكسائيُّ: «حاميةً» بالياء، أي حارَّةً[1].

وأنكر هذه القراءة ابنُ عباس رضي الله عنهما أوَّلَ ما سمعها، فقد أخرج عبدُ الرزاق وسعيد بن منصور وابنُ جرير وابنُ المنذر وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبي حاضر[2] أنَّ ابنَ عباسٍ ذَكَر له أنَّ معاوية قرأ: «في عينٍ حامية»، فقال له: ما نقرؤها إلَّا «حمئة»، فسأل معاويةُ عبدَ الله بن عمرو، كيف تقرؤها؟ فقال: كما قرأتَها. فقلت: في بيتي نزلَ القرآنُ، فأَرْسَلَ إلى كعب، فقال له: أين تجدُ الشمسَ تغربُ في التوراة، فقال كعب: سل أهل العزيمة[3]، فإنَّهم أعلمُ بها، وأمَّا أنا، فإنِّي[4] أجدُ الشمسَ تغربُ في التوراة في ماءٍ وطين، وأشارَ بيده إلى المغرب، قال ابن أبي حاضر: لو أنِّي عندكما أيَّدتُك بكلامٍ تُزاد به بصيرةً في «حمئة». قال ابنُ عباس: وما هو؟ قلت: قول تبَّع فيما ذَكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم واتِّباعه إيَّاه:

قــد كــان ذو الــقــرنــيــن

إلى آخر الأبيات الثلاثة السابقة، ومحلُّ الشاهدِ قوله:

فرأى مغيبَ الشمس عند غروبها   في عين ذي خُلُبٍ وثَأْطٍ حَرْمَدِ

فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قال ابن أبي حاضر: الطين بكلامهم، فقال: فما الثأط؟ قال: الحمأة، فقال: فما الحرمد؟ قال: الأسود، فدعا ابنُ عباس غلاماً فقال: اكتب ما يقولُ هذا الرجل[5].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٥٩. وقراءة ابن عامر وحمزة والكسائي في التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٤، وقرأ بها أيضاً من السبعة شعبة عن عاصم، ومن العشرة أبو جعفر وخلف.

(٢) كذا في تفسير عبد الرزاق، والدر المنثور، وجاء في تفسير الطبري: عثمان بن حاضر. وكذا ذكره المزي في تهذيب الكمال. ثم قال: وقال عبد الرزاق: عثمان بن أبي حاضر. اهـ، ووهَّم الحافظ في التقريب من قال: ابن أبي حاضر.

(٣) كذا في الأصل و(م). وهو تحريف. والصواب: العربية. وانظر مصادر تخريج الخبر.

(٤) بعدها في (م): لم.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٤٨، وهو في تفسير عبد الرزاق ١/ ٤١١، وتفسير الطبري ١٥/ ٣٧٥ =

ولا يخفى أنَّه ليس بين القراءتين منافاةٌ قطعيةٌ؛ لجواز كون العين جامعةً بين الوصفين، بأنْ تكونَ ذات طينٍ أسود، وماؤها حارّ، ولجواز كون القراءة بالياء أصلُها من المهموز، قلبت همزتُه ياءً لانكسار ما قبلها، وإنْ كان ذلك إنَّما يطَّرِدُ إذا كانت الهمزةُ ساكنةً، كذا قيل.

وتُعقِّبَ بأنَّه يأباهُ ما جرى بين ابن عباس ومعاوية.

وأُجيبَ بأنَّه إذا سلِّم صحته فمبناه السماع، والتحكيمُ لترجيح إحدى القراءتين، وظاهر ما سمعتَ ترجيحُ قراءة ابن عباس رضي الله عنهما، وكأنَّ رجوع معاوية لقراءة ابن عباس ـ على ما ذكرهُ القرطبيُّ[1] ـ كان لذلك.

نعم ما أخرجَه ابنُ أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي ذرٍّ قال: كنتُ رِدْفَ رسول الله ﷺ وهو على حمار، فرأى الشمسَ حين غربت، فقال: «أتدري حيث تغرب؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّها تغربُ في عين حامية» غيرَ مهموزة[2] = يوافق قراءة معاوية، ويدلُّ على أنَّ «في عين» متعلِّق بـ «تغرب» كما هو الظاهر.

وقول بعض المتعسِّفين: إنه[3] متعلِّقٌ بمحذوف وقع حالاً من فاعل «وجدها» ممَّا لا ينبغي أنْ يُلتَفت إليه، وكأنَّ الذي دعاه إلى القول بذلك لزومُ إشكالٍ على الظاهر، فإنَّ جرم الشمس أكبر من جرم الأرض بأضعافٍ مضاعفة، فكيف يمكن دخولُها في عين ماءٍ في الأرض؟

وهو مدفوعٌ بأنَّ المراد: وجدها في نظر العين كذلك، إذ لم ير هناك إلَّا الماء،

= وأخرجه أيضاً الثعلبي في عرائس المجالس ص٣٦٦، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن ابن أبي حاتم بإسناده، واللفظ له.

(١) لم يرد في تفسير القرطبي ذِكْرُ رجوع معاوية إلى قراءة ابن عباس، بل جاء فيه ١٣/ ٣٧٠ إثر ذكر كلام كعب في الحادثة: فوافق ابن عباس. اهـ. يقصد أن كعباً وافق ابن عباس. والله أعلم.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٤٨، وأخرجه الحاكم ٢/ ٢٤٤، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٤٦٠) مطولاً، وأبو داود (٤٠٠٢). وليس عندهما قوله: غير مهموزة.

(٣) في (م): بأنه.

لا أنَّها كذلك حقيقةً، وهذا كما أنَّ راكبَ البحر يراها كأنَّها تطلعُ من البحر، وتغيبُ فيه، إذا لم ير الشطّ، والذي في أرض ملساء واسعة يراها أيضاً كأنَّها تطلعُ من الأرض وتغيبُ فيها.

ولا يَرِدُ على هذا أنَّه عبّر بـ «وجد»، والوجدان يدلُّ على الوجود؛ لما أنَّ «وجد» يكون بمعنى رأى، كما ذكره الراغب[1]، فليكنْ هنا بهذا المعنى. ثمَّ المراد بالعين الحمئة؛ إمَّا عينٌ في البحر، أو البحر نفسه، وتسميتُه عيناً ممَّا لا بأسَ به، خصوصاً وهو بالنسبة لعظمة الله تعالى كقطرة، وإن عَظُم عندنا.

وزعم بعض البغداديين أنَّ «في» بمعنى عند، أي: تغرب عند عين.

ومن الناس من زعم أنَّ الآيةَ على ظاهرها، ولا يُعجز اللهَ تعالى شيءٌ. ونحن نقرُّ بعِظَم قدرة الله عزَّ وجلَّ، ولا نلتفتُ إلى هذا القول، ومثلُه ما نقلَه الطرطوشيُّ[2] من أنَّها يبلعُها حوتٌ، بل هذا كلامٌ لا يقبلُه إلَّا الصبيان ونحوهم، فإنَّها قد تبقى طالعةً في بعض الآفاقِ ستَّةَ أشهرٍ، وغاربةً كذلك، كما في أفق عرض تسعين، وقد تغيبُ مقدارَ ساعةٍ ويظهر نورها من قبل المشرق في بعض العروض، كما في بلغار في بعض أيام السنة، فالشمسُ على ما هو الحقُّ لم تزل سائرةً طالعةً على قومٍ، غاربةً على آخرين بحسب آفاقهم، بل قال إمامُ الحرمين: لا خلافَ في ذلك. ويدلُّ على ما ذُكر ما أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس قال: الشمسُ بمنزلةِ الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت الليلَ في فلكها تحت الأرض، حتى تطلع من شرقها، وكذلك القمر[3].

وكذا ما أخرجه ابنُ عساكر عن الزهريِّ أنَّ خزيمة بن حكيم السُّلمي سأل رسول الله ﷺ عن سخونة الماء في الشتاء وبرده في الصيف، فقال: «إنَّ الشمس

---

(١) في المفردات (وجد).

(٢) هو محمد بن الوليد بن خلف، الفهري الأندلسي، شيخ المالكية، له كتاب «سراج الملوك»، وغيره، توفي سنة (٥٢٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٩٠، ونقل المصنف كلامه عن الحاوي للسيوطي ٢/ ٥١٨.

(٣) سلف عند تفسير الآية (٣٣) من سورة إبراهيم.

إذا سقطت تحت الأرض سارت حتى تطلع من مكانها، فإذا طال الليلُ كثر لبثها في الأرض، فيسخن الماء لذلك، فإذا كان الصيفُ مرَّت مسرعةً، لا تلبث تحت الأرض لقصر الليل، فثبتَ الماء على حاله بارداً»[١].

ولا يخفى أنَّ هذا السير تحتَ الأرض تختلفُ فيه الشمسُ من حيث المسامتة بحسب الآفاق والأوقات، فتُسامِتُ الأقدامَ تارةً، ولا تسامتُها أخرى، فما أخرجه أبو الشيخ عن الحسن قال: إذا غربتِ الشمسُ دارت في فلك السماء ممَّا يلي دبر القبلة، حتى ترجع إلى المشرق الذي تطلعُ منه، وتجري منه في السماء من شرقها إلى غربها، ثم ترجعُ إلى الأفق ممَّا يلي دبر القبلة إلى شرقها، كذلك هي مسخَّرةٌ في فلكها، وكذلك القمر[٢] = لا يكاد يصحُّ.

ويشكل على ما ذُكر ما أخرجهُ البخاريُّ عن أبي ذرٍّ قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: «يا أبا ذر، أتدري أين تغربُ الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنَّها تذهبُ حتى تسجدَ تحت العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾[٣] [يس: ٣٨]».

وأجيب بأنَّ المراد أنَّها تذهب تحت الأرض حتى تصلَ إلى غاية الانحطاط، وهي عند وصولها دائرةٌ نصفَ النهار في سمت القدم بالنسبة إلى أفق القوم الذين غربت عنهم، وذلك الوصول أشبهُ شيءٍ بالسجود، بل لا مانعَ أنْ تسجدَ هناك سجوداً حقيقيّاً لائقاً بها، فالمراد من «تحت العرش» مكاناً مخصوصاً مسامتاً[٤] لبعض أجزاء العرش، وإلَّا فهي في كلِّ وقتٍ تحت العرش وفي جوفه، وهذا مبنيٌّ على أنَّه جسمٌ كريٌّ محيطٌ بسائر الأفلاك والفلكيات، وبه تحدَّد الجهات، وهذا قول الفلاسفة، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى في سورة طه ما يتعلَّق بذلك.

---

(١) تاريخ دمشق ١٦/ ٣٧٤-٣٧٥، وهو قطعة من حديث طويل، وإسناده ضعيف مع انقطاعه، وفي لفظه نكارة، وينظر الإصابة ٣/ ٩٧.

(٢) العظمة (٦٣٤).

(٣) صحيح البخاري (٤٨٠٢)، وأخرجه مسلم أيضاً (١٥٩).

(٤) كذا في الأصل و(م).

وعلى ما ذُكر فالمرادُ بمستقرِّها محلُّ انتهاء انحطاطها، فهي تجري عند كلِّ قوم لذلك المحلِّ، ثمَّ تشرع في الارتفاع.

وقال الخطابيُّ(١): يَحتملُ أن يكون المرادُ باستقرارها تحت العرش أنَّها تستقرُّ تحته استقراراً لا نُحيطُ به نحن، وليس في سجودها كلَّ ليلةٍ تحت العرش ما يعيقُ عن دورانها في سيرها. انتهى. وسيأتي إنْ شاء الله تعالى تمامُ الكلام في ذلك في سورة يس.

وبالجملة لا يلزمُ على هذا التأويل خروجُ الشمس عن فلكها الممثل، بل ولا عن خارج المركز، وإن اختلفَ قربها وبعدها من العرش بالنسبة إلى حركتها في ذلك الخارج.

نعم ورد في بعض الآثار ما يدلُّ على خروجها عن حيزها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الشمسَ إذا غربت رفع بها إلى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة، وتحبسُ تحت العرش، فتستأذنُ من أين تؤمر بالطلوع، ثم ينطلقُ بها ما بين السماء السابعة وبين أسفل درجات الجنان في سرعة طيران الملائكة، فتنحدرُ حيال المشرق من سماءٍ إلى سماء، فإذا وصلت إلى هذه السماء، فذلك حين ينفجر الصبح، فإذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء، فذلك حين تطلعُ الشمس.

وهو وإن لم تأباه قواعدنا من شمول قدرة الله تعالى سائرَ الممكنات، وعدم امتناع الخرق والالتئام على الفلك مطلقاً، إلَّا أنَّه لا يتسنَّى مع تحقُّق غروبها عند قومٍ وطلوعها عند آخرين، وبقائها طالعةً نحو ستة أشهر في بعض العروض، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يخفى، فلعلَّ الخبرَ غيرُ صحيح، وقد نصَّ الجلال السيوطيُّ على أنَّ أبا الشيخ رواه بسندٍ واهٍ(٢).

ثمَّ إنَّ الظاهر على رواية البخاري ورواية ابن أبي شيبة ومن معه أنَّ أبا ذرّ رضي الله عنه سُئِل مرتين، إلَّا أنَّه ردَّ العلمَ في الثانية إلى الله تعالى ورسوله ﷺ؛ طلباً لزيادة الفائدة، ومبالغةً في الأدب مع الرسول عليه الصلاة والسلام، والله تعالى أعلم.

---

(١) في أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ٣/ ١٨٩٣، ١٨٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الحاوي ٢/ ٥٢٠.

(٢) الحاوي للسيوطي ٢/ ٥٢١، والأثر في العظمة (٦٤٧) مطولٌ.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي: عند تلك العين على ساحل البحر ﴿قَوْمًا﴾ لباسهم - على ما قيل - جلود السباع وطعامُهم ما لَفَظَه البحر.

وقال وهب بن منبه: هم قومٌ يقال لهم: ناسك، لا يحصيهم كثرةً إلَّا الله تعالى.

وقال أبو زيد السهيليُّ: هم قومٌ من نسل ثمود كانوا يسكنون جابرسا[1]؛ وهي مدينةٌ عظيمة لها اثنا عشر باباً، ويقال لها بالسريانية: جرجيسا. وروي نحو ذلك عن ابن جريج.

وزعمَ ابنُ السائب أنَّه كان فيهم مؤمنون وكافرون، والذي عليه الجمهور أنَّهم كانوا كفَّاراً فخيَّره الله تعالى بين أن يعذِّبهم بالقتل، وأن يدعوهم إلى الإيمان، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل من أوَّل الأمر ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ أي: أمراً ذا حُسنٍ، على حذف المضاف، أو على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة، وذلك بالدعوة إلى الحقِّ والإرشادِ إلى ما فيه الفوزُ بالدرجات؛ ومحلُّ «أنْ» مع صلته: إمَّا الرفع على الابتداء، أو على الخبر، وإمَّا النصب على المفعوليَّة؛ [أي:][2] إمَّا تعذيبُك واقعٌ، أو: إمَّا أمرك تعذيبك، أو: إمَّا تفعل أو توقع تعذيبَك، وهكذا الحال في الاتِّخاذ.

وقدَّم التعذيبَ؛ لأنَّه الذي يستحقونه في الحال لكفرهم. وفي التعبير بـ «إمَّا أنْ تتخذَ فيهم حسناً» دونَ: إمَّا أنْ تدعوَهم، مثلاً = إيماءٌ إلى ترجيح الشقِّ الثاني.

واسْتَدَلَّ بالآية من قال بنبوَّته، والقولُ عند بعضهم بواسطة ملك، وعند آخرين كفاحاً.

ومن لم يقل بنبوَّته قال: كان الخطابُ بواسطة نبيٍّ في ذلك العصر، أو كان ذلك إلهاماً لا وحياً، بعد أن كان ذلك التخييرُ موافقاً لشريعة ذلك النبيّ.

وتُعقِّب هذا بأنَّ مثل هذا التخيير المتضمِّن لإزهاق النفوس لا يجوزُ أن يكون بالإلهام دون الإعلام، وإن وافق الشريعة.

---

(١) في مطبوع التعريف والإعلام ص١٠٨: جابرس.
(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٥/٢٤٢، والكلام منه.

ونُقض ذلك بقصَّة إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه بالرؤيا، وهي دون الإلهام.

وفيه أنَّ رؤيا الأنبياء عليهم السلام وإلهاماتهم وحيٌ كما بُيِّن في محلِّه. والكلام هنا على تقدير عدم النبوَّة وهو ظاهر.

وقال عليُّ بن عيسى: المعنى: قلنا: يا محمد قالوا ـ أي: جندُه الذين كانوا معه ـ: يا ذا القرنين، فحذف القول اعتماداً على ظهور أنَّه ليس بنبيٍّ.

وهو من التكلُّف بمكان، وقريبٌ منه دعوى أنَّ القائلَ العلماءُ الذين معه، قالوه عن اجتهاد ومشاورةٍ له بذلك، ونسبَه اللهُ تعالى إليه مجازاً.

والحقُّ أنَّ الآيةَ ظاهرةُ الدلالة في نبوَّته، ولعلَّها أظهر في ذلك من دلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ على نبوَّة الخضر عليه السلام. وكأنَّ الداعيَ إلى صرفها عن الظاهر الأخبارُ الدالَّة صريحاً[1] على خلافها، وحينئذٍ فلعلَّ الأولَى في تأويلها أنْ يقال: كان القولُ بواسطة نبيٍّ.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين لذلك النبيِّ أو لمن عنده من خواصِّه بعد أنْ تَلَقَّى أمرَه تعالى مختاراً للشقِّ الأخير من شقَّي التخيير حسبما أرشد إليه: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسَه، ولم يقبل دعوتي، وأصرَّ على ما كان عليه من الظلم العظيم الذي هو الشرك ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل، والظاهرُ أنَّه كان بالسيف.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ قال: كان عذابُه أنْ يجعلَهم في بقر من صُفْرٍ، ثم يوقدَ تحتهم النار حتَّى يتقطَّعوا فيها[2]. وهو بعيدٌ عن الصحَّة.

وأتى بنون العظمة على عادة الملوك، وإسنادُ التعذيب إليه لأنَّه السببُ الآمر، ودعوى صدور ذلك منه بالذات في غاية البعد.

وقيل: أرادَ من الضمير الله تعالى ونفسه، والإسناد باعتبار الخلق والكسب. وهو أيضاً بعيدٌ، مع ما فيه من تشريك الله تعالى مع غيره في الضمير، وفيه من الخلاف ما علمت.

---

(١) لفظة: صريحاً. ليست في (م).
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٤٩.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ فيها ﴿عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧﴾ أي: منكراً فظيعاً، وهو العذابُ في نار جهنم. ونصب «عذاباً» على أنَّه مصدر «يعذِّبه». وقيل: تَنازعَ فيه هو و«نعذِّبه».

والمراد بالعذاب النكر ـ نظراً إلى الأول ـ ما روي عن السُّدِّيِّ، وهو خلافُ الظاهر كما لا يخفى.

وفي قوله: «إلى ربِّه» دون إليك دلالةٌ على أنَّ الخطابَ السابق لم يكن بطريق الوحي إليه، وأنَّ مقاولته كانت مع النبيِّ أو مع خواصه.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بموجب دعوتي ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: فله المثوبةُ الحسنى، أو: الفعلة الحسنى، أو: الجنَّةُ جزاءً، على أنَّ «جزاء» مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمون الجملة، قُدِّمَ على المبتدأ اعتناءً به، أو منصوبٌ بمضمرٍ، أي: يُجزى بها جزاءً، والجملة حاليةٌ أو معترضةٌ بين المبتدأ والخبر المتقدِّم عليه، أو هو حالٌ، أي: مجزيًّا بها. وتعقَّب ذلك أبو الحسن بأنَّه لا تكادُ العربُ تتكلَّمُ بالحال مقدَّماً إلَّا في الشعر. وقال الفرَّاء: هو نصبٌ على التمييز[(١)].

وقرأ ابنُ عباس ومسروق: «جزاءَ» منصوباً غيرَ منوَّن[(٢)]، وخرَّجَ ذلك المهدويُّ على حذف التنوين لالتقاء الساكنين، وخرَّجه غيرُه على أنَّه حذف للإضافة، والمبتدأ محذوفٌ لدلالة المعنى عليه، أي: فله الجزاءُ جزاءَ الحسنى.

وقرأ عبد الله بن أبي إسحاق بالرفع والتنوين[(٣)]، على أنَّه المبتدأ[(٤)]، و«الحسنى» بدله، والخبر الجارُّ والمجرور.

وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة بالرفع بلا تنوين[(٥)]، وخُرِّجَ على أنَّه مبتدأ مضاف.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٥٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٤٧١، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٧٤، والبحر المحيط ٦/ ١٦٠.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٠، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٧٤، والبحر المحيط ٦/ ١٦٠. ووقع في الدر المصون ٧/ ٥٤٣ واللباب لابن عادل ١٢/ ٥٥٩: عبد الله وابن أبي إسحاق.

(٤) في (م): للمبتدأ. وهو خطأ.

(٥) هي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وشعبة راوية عاصم، كما في التيسير =

قال أبو عليّ: والمراد على الإضافة: جزاء الخلال الحسنة التي أتاها وعملها[1]، أو المراد بالحسنى: الجنة، والإضافةُ كما في: دار الآخرة.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ممَّا نَأمرُ به ﴿يُسْرًا ۝٨٨﴾ أي: سهلاً ميسَّراً غيرَ شاقٍّ، وتقديره: ذا يسر، وأُطلِقَ عليه المصدرُ مبالغةً.

وقرأ أبو جعفر: «يُسُراً» بضمتين، حيث وقع هذا[2].

وقال الطبريُّ: المراد من اتِّخاذ الحُسن الأسرُ[3]، فيكون قد خُيِّر بين القتل والأسر. والمعنى: إمَّا أنْ تعذِّب بالقتل، وإمَّا أنْ تُحسِن إليهم بإبقاء الروح والأسر.

وما حُكي من الجواب على هذا الوجه، قيل: من الأسلوب الحكيم؛ لأنَّ الظاهر أنَّه تعالى خيَّره في قتلهم وأسرهم وهم كفار، فقال: أمَّا الكافرُ فيُراعَى فيه قوَّة الإسلام، وأمَّا المؤمن فلا يُتعرَّض له إلَّا بما يجب.

وفي «الكشف» أنَّه روعي فيه على الوجهين نكتةٌ بتقديم ما مِنَ الله تعالى في جانب الرحمة؛ دلالة على أنَّ ما منه تابعٌ وتتميمٌ، وما منه في جانب العذاب رعايةً لترتيب الوجود مع الترقِّي ليكون أغيظ. وكأنَّه حمل «فله» إلخ على معنى: فله من الله تعالى.. إلخ، وهو الظاهر.

وجُوِّز حمل «إمَّا أنْ تُعذِّبَ وإمَّا أن تتَّخذَ» على التوزيع دون التخيير، والمعنى - على ما قيل -: ليكن شأنُك معهم إمَّا التعذيب وإمَّا الإحسان؛ فالأوَّل لمن بقيَ على حاله، والثاني لمن تاب. فتأمَّل.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩﴾ أي: طريقاً راجعاً من مغربِ الشمس موصلاً إلى مشرقها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني الموضعَ الذي تطلعُ عليه الشمس أوَّلاً من معمورة الأرض، أي: غايةَ الأرض المعمورة من جهة المشرق.

= ص١٤٥. وقرأ بها أيضاً أبو جعفر ويعقوب من العشرة. انظر النشر ٢/ ٣١٥.

(١) الحجة ٥/ ١٧٠.

(٢) النشر ٢/ ٢١٦.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٥/ ٣٧٩.

وقرأ الحسن وعيسى وابنُ محيصن: «مطلَع» بفتح اللام، ورُويت عن ابن كثير وأهل مكَّة[١]. وهو عند المحققين مصدرٌ ميميٌّ، والكلام على تقدير مضاف، أي: مكانَ طلوع الشمس، والمراد: مكاناً تطلعُ عليه.

وقال الجوهريُّ[٢]: إنَّه اسمُ مكان، كمكسور اللام. فالقراءتان متَّفقتان من غير تقدير مضاف.

وقد صرَّحَ بعضُ أئمَّة التصريف أنَّ المطلعَ جاء في المكان والزمان فتحاً وكسراً.

وما آثره المحقِّقون مبنيٌّ على أنَّه لم يرِد في كلام الفصحاء بالفتح إلَّا مصدراً، ولا حاجةَ إلى تخريج القرآن على الشاذِّ؛ لأنَّه قد يُخِلُّ بالفصاحة.

وقال أبو حيان: إنَّ الكسرَ سماعٌ في أحرفٍ معدودة، وهو مخالفٌ للقياس، فإنَّه يقتضي أنْ يكونَ مضارعه تطلِع بكسر اللام. وكان الكسائيُّ يقول: هذه لغةٌ ماتت في كثيرٍ من لغات العرب، يعني ذهبَ من يقول من العرب: تطلِع، بكسر اللام، وبقي مطلِع بكسرها في اسم الزمان والمكان على ذلك القياس. انتهى[٣]. فافهم.

ثمَّ إنَّ الظاهرَ من حال ذي القرنين وكونه قد أوتي من كل شيءٍ سبباً أنَّه بلغ مطلع الشمس في مدَّةٍ قليلة. وقيل: بلغه في اثنتي عشرةَ سنة، وهو خلاف الظاهر، إلَّا أنْ يكون أقامَ في أثناء سيره، فإنَّ طول المعمورة يقطعه بأقلَّ من هذه المدَّة بكثير السائرُ على الاستقامة، كما لا يخفى على العارف بالمساحة.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ أخرج ابنُ المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن جريج قال: حُدِّثت عن الحسن، عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ في الآية: «﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦١، وهي في القراءات الشاذة ص٨١-٨٢ عن عيسى وابن محيصن وابن كثير في رواية شبل.

(٢) في الصحاح (طلع).

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٦١.

سِتْرًا﴾ بناءٌ، لم يُبْنَ فيها بناءٌ قط، كانوا إذا طلعت الشمسُ دخلوا أسراباً لهم حتى تزولَ الشمس»(١).

وأخرجَ جماعةٌ عن الحسن ـ وذَكَر أنَّه حديث سمرة ـ أنَّ أرضَهم لا تحملُ البناء، فإذا طلعت الشمسُ تغوَّروا في المياه، فإذا غابت خرجوا يتراعون كما تراعى البهائم(٢).

وقيل: المراد: لا شيء لهم يسترُهم من اللباس والبناء، وهم ـ على ما قيل ـ قومٌ من الزنج. وقيل: من الهنود. وعن مجاهد: من لا يلبسُ الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثرُ من أهل الأرض.

وعن بعضهم: خرجتُ حتى جاوزتُ الصين، فسألتُ عن هؤلاء، فقالوا: بينك وبينهم مسيرةُ يومٍ وليلة، فبلغتُهم، فإذا أحدهم يفرشُ إحدى أذنيه ويلبس الأخرى، ومعي صاحبٌ يعرفُ لسانهم، فقالوا له: جئتنا تنظرُ كيف تطلع الشمس، فبينما نحن كذلك إذ سمعنَا كهيئة الصَّلصلة، فغشيَ عليَّ، ثم أفقتُ وهم يمسحونني بالدهن، فلمَّا طلعت الشمسُ على الماء، إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت، فأدخلونا سِرْباً لهم، فلمَّا ارتفعَ النهار، خرجوا إلى البحر يصطادون السمك، ويطرحونَه في الشمس فينضجُ لهم. انتهى.

وأنت تعلمُ أنَّ مثلَ هذه الحكايات لا ينبغي أنْ يُلتفتَ إليها ويعوَّلَ عليها، وما هي إلَّا أخبارٌ عن هيَّان بن بيَّان(٣)، يحكيها العجائز وأمثالهنَّ لصغار الصبيان.

وعن وهب بن منبِّه أنَّه يقال لهؤلاء القوم: منسك.

وظاهر الآية ـ لوقوع النكرة فيها في سياق النفي ـ يقتضي أنَّهم ليس لهم ما يسترُهم أصلاً، وذلك ينافي أنْ يكون لهم سرب ونحوه.

وأجيبَ بأنَّ ألفاظَ العموم لا تتناولُ الصور النادرة، فالمراد نفي الساتر المتعارف، والسرب ونحوه ليس منه.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٤٩، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٧٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٣٨٢، وجاء في آخره: ثم قال الحسن: هذا حديث سمُرة.

(٣) تقول العرب إذا ذكرت من لا يعرف: هذا هيَّان بن بيَّان. اللسان (ببب).

وأنت تعلمُ أنَّ عدم التناول أحدُ قولين في المسألة.

وقال ابنُ عطيَّة: الظاهرُ أنَّ نفي جعل ساترٍ لهم من الشمس عبارةٌ عن قربها إليهم، وتأثيرِها بقدرة الله تعالى فيهم، ونيلها منهم، ولو كانت لهم أسرابٌ لكان لهم سترٌ كثيف. انتهى[1].

وحينئذٍ فالنكرةُ على عمومها. وأنا أختارُ ذلك إلى أن تثبتَ صحَّةُ أحدِ الأخبار السابقة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: أمرُ ذي القرنين كذلك[2]، والمشار إليه ما وصف به قبلُ من بلوغ المغرب والمشرق وما فعله، وفائدةُ ذلك تعظيمُه وتعظيم أمره. أو: أمرُه فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار.

ويجوزُ أن يكون صفةَ مصدرٍ محذوفٍ لـ «وجد»، أي: وجدَها تطلعُ وجداناً كوجدانها تغربُ في عينٍ حمئة.

أو صفة مصدرٍ محذوف لـ «نجعل» أي: لم نجعل لهم ستراً جعلاً كائناً كالجعل الذي لكم فيما تفضَّلنا به عليكم من الألبسة الفاخرة والأبنية العالية.

وفيه أنَّه لا يتبادرُ إلى الفهم.

أو صفة «ستراً» والمعنى عليه كسابقه، وفيه ما فيه.

أو صفة «قوم» أي: على قومٍ مثل ذلك القبيل الذي تغربُ عليهم[3] الشمس في الكفرِ والحكمِ.

أو معمول «بلغ» أي: بلغ مغربها كما بلغ مطلعها.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود والآلات وأسباب الملك ﴿خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ علماً تعلَّق بظواهره وخفاياه، ويفيد هذا على الأوَّل زيادةَ تعظيم الأمر، وأنَّه وراءَ ما وصف بكثير ممَّا لا يحيطُ به إلَّا علمُ اللطيف الخبير.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤١.

(٢) في الأصل و(م): ذلك، والمثبت من حاشية الشهاب ٦/ ١٣٤، والكلام منه.

(٣) في (م): عليه.

وهو على الأخير تهويلٌ لما قاسى في السَّير إلى أنْ بلغَ، فيكون المعنى: وقد أحطنا بما لاقاه وحصَلَ له في أثناء سيره خُبْراً، أو: تعظيمٌ للسبب الموصل إليه في قوله تعالى: (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)، أي: أحطنا بما لديه من الأسباب الموصلة إلى هذا الموضع الشاسع مما لم نؤتِ غيره، وهذا ـ كما في الكشف ـ أظهرُ من التهويل.

وعلى الثاني تتميمٌ يفيدُ حسن اختياره، أي: أحطنا بما لديه من حُسنِ التلقِّي وجودةِ العمل خُبْراً.

وعلى الثالث لبيان أنَّه كذلك في رأي العين، وحقيقتُه لا يحيطُ بعلمها غيرُ الله تعالى.

وعلى الرابع والخامس تذييلٌ للقصة أو القصتين، فلا يأباهما كما تُوهِّم.

وعلى السادس تتميمٌ يؤكِّدُ أنَّه سنَّ بهم سنَّته فيمن وجدهم في مغرب الشمس.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من مطلع الشمس إلى الشمال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ أي: الجبلين، قال في «القاموس»: السدُّ: الجبل والحاجز[1]. وإطلاقُ السدِّ عليه؛ لأنَّه سَدَّ فجّاً من الأرض. وقيل: إطلاقُ ذلك عليه هنا لعلاقة المجاورة، وليس بذاك.

وقرأ نافع وابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وأبو بكر ويعقوب بضمِّ السين[2]. والمعنى ـ على ما قال الكسائيُّ ـ واحد.

وقال الخليل وسيبويه: السدُّ بالضمِّ الاسم، وبالفتح المصدر.

وقال ابن أبي إسحاق: الأوَّل ما رأته عيناك، والثاني ما لا تريانه.

وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة: الأوَّلُ ما كان من خلق الله تعالى لا دخل لصنع البشر فيه، والثاني ما كان لصنع البشر دخلٌ فيه[3]، ووجهُ

---

(١) القاموس (سدد).

(٢) التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٥.

(٣) انظر مجاز القرآن ١/ ٤١٤.

دلالة المضموم على ذلك أنَّه بمعنى مفعول، ولكونه لم يذكر فاعلُه فيه دلالة على تعيُّنه وعدم ذهاب الوهم إلى غيره، فيقتضي أنَّه هو الله تعالى، وأمَّا دلالةُ المفتوح على أنَّه من عمل العباد، فللاعتبار بدلالة الحدوث، وتصويرِ أنَّه هاهو ذا يفعله، فليشاهد[1]، وهذا يناسبُ ما فيه مدخل العباد، على أنَّه يكفي فيه فوات ذلك التفخيم.

وأنتَ تعلمُ أنَّ القراءةَ بهما ظاهرةٌ في توافقهما، وعدم ذكر الفاعل والحدوث أمران مشتركان.

وعكسَ بعضهم فقال: المفتوحُ ما كان من خلقه تعالى، إذ المصدر لم يذكر فاعله، والمضموم ما كان بعمل العباد؛ لأنَّه بمعنى مفعول، والمتبادر منه ما فعله العباد. وضعفُه ظاهر.

وانتصاب «بين» على المفعوليَّة؛ لأنَّه مبلوغ، وهو من الظروف المتصرِّفة ما لم يركَّب مع آخر مثله.

وقيل: إنَّه ظرفٌ، والمفعول به محذوفٌ، وهو: ما أراده، أو نحوه.

وهذان السدَّان فيما يقرب من عرض تسعين من جهة الشمال، وهو المراد بآخر الجربياء في كتاب حزقيال عليه السلام. وقد ذَكر بعضُ أحبار اليهود أنَّ يأجوجَ ومأجوج في منتهى الشمال، حيث لا يستطيعُ أحدٌ غيرهم السكنى فيه، وهم في زاويةٍ من ذلك، لكنهم لم يتحقَّق عندهم أنَّهم فيما يلي المشرقَ من الشمال أو فيما يلي المغرب منه، وهذا موافقٌ لما ذكرناه في موضع السدَّين، وهو الذي مال إليه كاتب چلبي.

وقيل: هما جبلا أرمينية وأَذْرَبيجان، ونسب ذلك إلى ابن عباس ﵄، وإليه يميلُ صنيعُ البيضاويّ[2].

وتُعقِّبَ بأنَّه توهُّمٌ، ولعلَّ النسبةَ إلى الحبر غيرُ صحيحة، وكأنَّ من يَزعُم ذلك يَزعُم أنَّ سدَّ ذي القرنين هو السدُّ المشهور في باب الأبواب، وهو ـ مع استلزامه

---

(١) في حاشية الخفاجي ٦/ ١٣٤ ـ والكلام فيه بنحوه ـ: وتصويره بأنه هاهو ذا يفعل ويشاهد.
(٢) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٦/ ١٣٤.

أنْ يكونَ يأجوجُ ومأجوج الخزر(١) والترك ـ خلافُ ما عليه المؤرِّخون، فإنَّ باني ذلك السدِّ عندهم كسرى أنوشروان، وقيل: إسفنديار، وهو أيضاً لم يبقَ إلى الآن، بل خرب من قبل هذا بكثير، وزَعْمُ أنَّ السدَّ ويأجوج ومأجوج هناك، وأنَّ الكلَّ قد تلطَّف بحيث لا يُرى ـ كما يراه عصريُّنا رئيسُ الطائفة المسماة بالكشفيَّة السيد كاظم الرشتي ـ ضربٌ من الهذيان، وإحدى علامات الخذلان.

وقال ابنُ سعيد(٢): إنَّ ذلك الموضع حيثُ الطول مئة وثلاثة وستون درجةً، والعرض أربعون درجةً.

وفيه أنَّ في هذا الطول والعرض بلاد الختا والجين، وليس هناك يأجوج ومأجوج، نعم هناك سدٌّ عظيمٌ يقرب من مئتين وخمسين ساعةً طولاً، لكنَّه ليس بين السدَّين، ولا بانيه ذو القرنين، ولا يكاد يَصدُقُ عليه ما جاء في وصف سدِّه. ويمنعُ من القول بذلك أيضاً ما لا يخفى.

وقيل: هو بموضعٍ من الأرض لا نعلمه، وكم فيها من أرضٍ مجهولةٍ، ولعلَّه قد حال بيننا وبين ذلك الموضع مياهٌ عظيمةٌ، ودعوى استقراءِ سائر البراري والبحار غيرُ مسلَّمة، ويجوِّزُ العقل أنْ يكون في البحر أرضٌ نحو أمريقا(٣) لم يُظفَر بها إلى الآن، وعدم الوجدان لا يستلزمُ عدمَ الوجود، وبَعْدَ إخبارِ الصادق بوجود هذين السدَّين وما يتبعهما يلزمُنا الإيمان بذلك، كسائر ما أخبر به من الممكنات، والالتفاتُ إلى كلام المنكرين ناشئٌ من قلَّة الدين.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي السدَّين ﴿قَوْمًا﴾ أمَّةً من الناس، قيل: هم الترك. وزعم بعضُهم أنَّ القومَ كانوا من الجان، وهو زعمٌ باطلٌ، لا بعيدٌ كما قال أبو حيان(٤).

---

(١) في (م): الخزز.

(٢) هو المغربي، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد، أبو الحسن، نور الدين، من ذرية عمار بن ياسر، مؤرِّخ أندلسي من الشعراء العلماء بالأدب، من تأليفه: وصف الأرض، وبسط الأرض؛ كلاهما في الجغرافيا. توفي سنة (٦٨٥هـ). بغية الوعاة ٢/ ٢٠٩، والأعلام ٥/ ٢٦.

(٣) يعني أمريكا.

(٤) في البحر المحيط ٦/ ١٦٣.

﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ من أقوال أتباع ذي القرنين، أو من أقوال مَن عَدَاهم؛ لغرابة لغتهم، وبعدها عن لغات غيرهم، وعدم مناسبتها لها، مع قلَّة فطنتهم، إذ لو تقاربت فهموها، ولو كثرت فطنتهم فهموا ما يراد من القول بالقرائن، فتعلَّموه.

والظاهر إبقاء القول على معناه المتبادر، وزعم بعضُهم أنَّ الزمخشريَّ جعله مجازاً عن الفهم مطلقاً، أو عمَّا من شأنه أن يقال؛ ليشمل الإشارة ونحوها، حيث قال: أي: لا يكادون يفهمونه إلَّا بجهدٍ ومشقَّة من إشارةٍ ونحوها[(١)]. وفيه نظر. والظاهر أنَّه فهمَ من نفي «يكاد» إثباتَ الفهم لهم، لكن بعسرٍ، وهو بناء على قولِ بعضهم: إنَّ نفيها إثباتٌ، وإثباتَها نفيٌ، وليس بالمختار.

وقرأ الأعمشُ وابن أبي ليلى وخلف وابنُ عيسى الأصبهانيُّ وحمزة والكسائيُّ: «يُفقِهونَ»[(٢)] من الإفعال، أي: لا يكادون يُفهِمونَ الناسَ؛ لتلعثمهم وعدم تبيينهم الحروف.

﴿قَالُوا۟﴾[(٣)] بواسطة مترجمهم، فإسنادُ القول إليهم مجازٌ، ولعلَّ هذا المترجِم كان من قومٍ بقرب بلادهم، ويؤيِّدُ ذلك ما وقع في مصحف ابنِ مسعود: «قال الذين من دونهم»[(٤)].

أو بالذات على أنْ يكون فهمُ ذي القرنين كلامَهم وإفهامه إيَّاهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الأسباب.

وقال بعضهم: لا يبعدُ أن يقال: القائلون قومٌ غيرُ الذين لا يفهمون قولاً، ولم يقولوا ذلك على طريق الترجمة لهم، وأيِّد بما في مصحف ابن مسعود، وأياً ما كان، فلا منافاة بين «لا يكادون يفقهون قولاً» و«قالوا».

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٩٨.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٣، وانظر قراءة حمزة والكسائي وخلف في التيسير ص١٤٥، والنشر ٢/ ٣١٥.

(٣) بعدها في (م): أي. وضرب عليها في الأصل.

(٤) تفسير البيضاوي ٣/ ٢٣٥.

﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبيلتان من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وبه جزم وهب بن منبِّه وغيره، واعتمده كثيرٌ من المتأخِّرين.

وقال الكسائيُّ في «العرائس»(١): إنَّ يافث سار إلى المشرق، فولد له هناك خمسةُ أولادٍ: جومر وبنرش وأشار وأسقويل ومياشح، فمن جومر جميع الصقالبة والروم وأجناسهم، ومن مياشح جميعُ أصناف العجم، ومن أشار يأجوج ومأجوج وأجناسهم، ومن أسقويل جميع الترك، ومن بنرش القفجق واليونان.

وقيل: كلاهما من الترك، وروي ذلك عن الضحاك.

وفي كلام بعضهم أنَّ الترك منهم؛ لما أخرجه ابنُ جرير وابن مردويه من طريق السُّدِّيِّ من أثرٍ قويٍّ: الترك سريَّةٌ من سرايا يأجوج ومأجوج، خرجت فجاء ذو القرنين فبنى السد، فبقوا خارجين عنه(٢).

وفي رواية عبد الرزاق عن قتادة أنَّ يأجوج ومأجوج ثنتان وعشرون قبيلةً، بنى ذو القرنين السدَّ على إحدى وعشرين، وكانت واحدةٌ منهم خارجةً للغزو، فبقت خارجة، وسميت الترك لذلك(٣).

وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الديلم. وقيل: من الجيل.

وعن كعب الأحبار أنَّ يأجوج ومأجوج من ولد آدم عليه السلام من غير حواء، وذلك أنَّه عليه السلام نام فاحتلم، فامتزجت نطفتُه في التراب، فخلق منها يأجوج ومأجوج.

ونقل النوويُّ في «فتاواه» القولَ بأنَّهم أولادُ آدم عليه السلام من غير حواء عن

---

(١) كذا قال المصنف، وكتاب العرائس ـ وهو قصص الأنبياء المسمى «عرائس المجالس» ـ هو لأبي إسحاق الثعلبي، وللكسائي هذا وهو أبو الحسن محمد بن عبد الله كتاب اسمه قصص الأنبياء أيضاً. ينظر الإعلان بالتوبيخ للسخاوي ص ١٦٠، وتفسير القرطبي ٨/ ٤٣٧.

(٢) لم أقف على من نسبه لابن جرير، ونسبه السخاوي في المقاصد الحسنة ١/ ٥٦، وابن حجر في فتح الباري ١٣/ ١٠٧، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٨ لابن مردويه فقط.

(٣) عزاه السخاوي في المقاصد الحسنة ١/ ٥٦، وابن حجر في فتح الباري ١٣/ ١٠٧، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٥٠، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٣٨-٣٩ لابن أبي حاتم. ولم أقف على من نسبه لعبد الرزاق.

جماهير العلماء، وتَعقَّب دعوى الاحتلام بأنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يحتلمون.

وأُجيبَ بأنَّ المنفيَّ الاحتلامُ بمن لا تحلُّ لهم، فيجوزُ أن يحتلموا بنسائهم، فلعلَّ احتلامَ آدم عليه السلام من القسم الجائز. ويحتمل أيضاً أنْ يكون منه عليه السلام إنزالٌ من غير أنْ يرى نفسَه أنَّه يجامعُ، كما يقع كثيراً لأبنائه.

واعتُرِضَ أيضاً بأنَّه يلزمُ على هذا أنَّهم كانوا قبل الطوفان ولم يهلكوا به.

وأجيبَ بأنَّ عموم الطوفان غيرُ مجمعٍ عليه، فلعلَّ القائل بذلك ممَّن لا يقول بعمومه.

وأنا أرى هذا القول حديثَ خرافة.

وقال الحافظ ابنُ حجر: لم يَرِد ذلك عن أحدٍ من السلف إلَّا عن كعب الأحبار، ويردُّه الحديثُ المرفوع أنَّهم من ذرِّيَّة نوح عليه السلام، ونوح من ذرِّيَّة حواء قطعاً(١).

وكأنه عَنَى بالحديث غيرَ ما روي عن أبي هريرة مرفوعاً: «ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العربُ وفارس والروم، وولد لحام القبط والبربر والسودان، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة»، فإنَّه صرَّح بأنَّه ضعيفٌ(٢).

وفي التوراة في السفر الأول في الفصل العاشر التصريحُ بأنَّ يأجوج من أبناء يافث(٣). وزعم بعضُ اليهود أنَّ مأجوجَ اسمٌ للأرض التي كان يسكنُها يأجوج، وليس اسماً لقبيلة، وهو باطلٌ بالنصِّ.

---

(١) فتح الباري ١٣/١٠٧. وقال ابن حجر في موضع آخر من الفتح ٦/٣٨٦: وهو قول منكر جدًا، لا أصل له إلا عن بعض أهل الكتاب.

(٢) في الفتح ١٣/١٠٧، وأخرجه البزار (٢١٨ - كشف الأستار)، وقال في إثره: لا نعلم أسنده عن النبي ﷺ إلا أبو هريرة بهذا الإسناد، تفرد به يزيد بن سنان، وتفرد به ابنه عنه، ورواه غيره مرسلاً، وإنما جعله من قول سعيد. اهـ.
وأخرجه أحمد في العلل ٣/ ٣٥، وابن سعد في الطبقات ١/ ٤٢-٤٣، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٦٣ من قول سعيد بن المسيب.
وسيذكر المصنف نحو هذا الخبر، عند تفسير الآية (٧٧) من سورة الصافات، ويقول بعده: ولا أعرف حال الخبر!؟

(٣) العهد القديم، سفر التكوين ص٨٣.

والظاهر أنَّهما اسمان أعجميَّان، فمنع صرفهما للعَلَمية والعجمة. وقيل: عربيان، من أَجَّ الظليمُ إذا أسرع، وأصلهما الهمزة، كما قرأ عاصم والأعمش ويعقوب في رواية[١]، وهي لغة بني أسد، ووزنهما مفعول، وبناء مفعول من ذلك مع أنَّه لازمٌ؛ لتعدِّيه بحرف الجر.

وقيل: إنْ كان ما ذُكر منقولاً فللتعدِّي، وإنْ كان مرتجلاً فظاهر.

وقال الأخفش: إنْ جعلنا ألفهما أصليَّة، فيأجوج يفعول، ومأجوج مفعول، كأنَّه من أجيج النار، ومن لم يهمزهما جعلها زائدةً، فياجوج من يججت، وماجوج من مججت[٢].

وقال قطرب في غير الهمز: ماجوج فاعول من المجِّ، وياجوج فاعول من اليج.

وقال أبو الحسن علي بن عبد الصمد السخاويُّ[٣]: الظاهرُ أنَّه عربيٌّ، وأصله الهمز، وتركه على التخفيف، وهو إمَّا من الأجَّة وهو الاختلاف، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]، أو من الأجِّ، وهو سرعة العَدْو، قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] أو من الأَجَّة، وهي شدَّة الحرِّ، أو من أَجَّ الماء يؤجُّ أجوجاً إذا كان مِلْحاً مرّاً. انتهى.

وعلَّة منع الصرف على القول بعربيتهما العلميَّة والتأنيثُ باعتبار القبيلة.

وقرأ العجاج ورؤبة ابنه: «آجوج» بهمزة بدل الياء[٤].

وربما يقال: جوج، بلا همزة ولا ياء في غير القرآن، وجاء بهذا اللفظ في كتاب حزقيال عليه السلام[٥].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٣، وانظر قراءة عاصم في التيسير ص١٤٥-١٤٦، والنشر ١/ ٣٩٤-٣٩٥.
(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٢١.
(٣) هو العلامة شيخ القراء، علم الدين، له شرح الشاطبية، وجمال القراء، وغيرها، توفي سنة (٦٤٣ هـ). سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٢٢-١٢٤.
(٤) القراءات الشاذة ص٨٢، والبحر المحيط ٦/ ١٦٣.
(٥) العهد القديم، سفر حزقيال ص١٨٣٢.

﴿مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرضنا بالقتل والتخريب، وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر.

وقيل: بأخذ الأقوات وأكلها، روي أنَّهم كانوا يخرجونَ أيام الربيع، فلا يتركون شيئاً أخضر إلَّا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن حبيب الأوصافيّ(١) أنَّه قال: كان فسادهم أنَّهم يأكلون الناس.

واستُدِلَّ بإسناد «مفسدون» إلى «يأجوج ومأجوج» على أنَّ أقلَّ الجمع اثنان، وليس بشيءٍ أصلاً.

﴿فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا﴾ أي: جعلاً من أموالنا، والفاء لتفريع العرض على إفسادهم في الأرض.

وقرأ الحسن والأعمش وطلحة وخلف وابنُ سعدان وابن عيسى الأصبهانيُّ وابنُ جبير الأنطاكيُّ وحمزة والكسائيُّ: «خراجاً» بألف بعد الراء(٢)، وكلاهما بمعنى واحد، كالنول والنوال.

وقيل: الخرج المصدر أطلق على الخراج، والخراجُ الاسم لما يخرج.

وقال ابن الأعرابيّ: الخرجُ على رؤوس، يقال: أدِّ خراج رأسك، والخراج على الأرض، يقال(٣): أدِّ خراج أرضك.

وقال ثعلب: الخرج أخصُّ من الخراج.

وقيل: الخرج المال يُخْرَجُ مَرَّةً، والخراج الخرج المتكرِّر.

وقيل: الخرج ما تبرَّعْتَ به، والخراج ما لزمك أداؤه.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ حاجزاً يمنعهم من الوصول إلينا. وقرأ نافع

---

(١) في الدر المنثور ٤/ ٢٥١: الأرجاني.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٤. وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٥، وقراءة خلف من العشرة في النشر.

(٣) من قوله: أدِّ خراج.. إلى هنا ساقط من (م).

وابن عامر وأبو بكر: «سُدًّا» بضم السين[(١)].

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ بالإدغام، وقرأ ابنُ كثير وحميد بالفكِّ[(٢)]، أي: الذي مكنني ﴿فِيهِ رَبِّي﴾، وجعلني فيه سبحانه مكيناً قادراً من الملك والمال وسائر الأسباب ﴿خَيْرٌ﴾ أي: ممَّا تريدون أنْ تبذُلوه إليَّ من الخرج، فلا حاجةَ بي إليه.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بما يُتقوَّى به على المقصود من الآلات، كزُبَر الحديد، أو من الناس، أو[(٣)] الأعمِّ منهما.

والفاءُ لتفريع الأمر بالإعانة على خيريَّة ما مكَّنهُ الله تعالى فيه من مالِهم، أو على عدم قبول خرجهم.

﴿أَجْعَلْ﴾ جواب الأمر ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾ تقديمُ إضافة الظرف إلى ضمير المخاطبين على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج؛ لإظهار كمال العناية بمصالحهم، كما راعوه في قولهم: «بيننا وبينهم».

﴿رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ أي: حاجزاً حصيناً، وحجاباً متيناً، وهو أكبر من السدِّ وأوثق، يقال: ثوبٌ مُرَدَّمٌ، أي: فيه رقاعٌ فوق رقاع، ويقال: سحابٌ مُرَدَّمٌ، أي: متكاثفٌ بعضُه فوق بعض.

وذُكر أنَّ أصلَ معناه: سدُّ الثُّلمة بالحجارة ونحوها، وقيل: سدُّ الخلل مطلقاً، ومنه قول عنترة:

هل غادرَ الشعراءُ من متردَّمِ[(٤)]

ثمَّ أُطلِق على ما ذكر.

وقيل: هو والسدُّ بمعنى.

---

(١) التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٥. وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٤، وقراءة ابن كثير في التيسير ص١٤٦، والنشر ١/ ٣٠٣ و٢/ ٣١٥.
(٣) بعدها في الأصل: من.
(٤) هو صدر البيت الأول من معلقة عنترة، وعجزه:
أم هل عرفت الدار بعد توهُّم
انظر ديوان عنترة ص١٨٢. طبعة المكتب الإسلامي.

ويؤيِّدُ الأولَ ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ أنَّه قال: هو كأشدِّ الحجاب[1]، وعليه يكون قد وعدَهم بالإسعاف بمرامهم فوق ما يرجونه، وهو اللائق بشأن الملوك.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ﴾ جمع زُبرة، كغُرَف في غرفة، وهي القطعة العظيمة، وأصل الزبر الاجتماع، ومنه زَبرتُ الكتابَ: جمعت حروفه، وزُبرة الأسد لما اجتمعَ على كاهله من الشَّعر. وأخرج الطستيُّ عن ابن عباس أنَّ نافع بنَ الأزرق سأله عن «زبر الحديد» فقال: قطعه، وأنشدَ قول كعب بن مالك:

تلظَّى عليهم حين شدَّ حميُّها   بزبر الحديد والحجارة شاجِرُ[2]

وطَلَبُ إيتاءِ الزبر لا ينافي أنَّه لم يَقبل منهم شيئاً؛ لأنَّ المراد من الإيتاء المأمور به الإيتاءُ بالثمن، أو مجرد المناولة والإيصال، وإن كان ما آتوه له، لا إعطاء ما هو لهم، فهو معونةٌ مطلوبة، وعلى تسليم كون الإيتاء بمعنى الإعطاء لا المناولة يقال: إنَّ إعطاءَ الآلة للعمل لا يلزمه تملُّكها، ولو تملَّكها لا يعدُّ ذلك جُعلاً، فإنَّه إعطاءُ المال لا إعطاء مثل هذا، وينبئ عن أنَّ المرادَ ليس الإعطاءَ قراءةُ أبي بكر عن عاصم: «ردماً ائتوني» بكسر التنوين ووصل الهمزة[3]، من أتاه بكذا: إذا جاء به له، وعلى هذه القراءة نصب «زبراً» بنزع الخافض، أي: جيئوني بزبر الحديد.

وتخصيص زبرِ الحديد بالذكر دون الصخور والحطب ونحوهما؛ لما أنَّ الحاجة إليها أمسُّ، إذ هي الركن القويُّ في السدِّ، ووجودُها أعزُّ.

وقرأ الحسن: «زُبُر» بضمِّ الباء كالزاي[4].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ في الكلام حذفٌ، أي: فآتوه إيَّاها، فأخذَ يبني شيئاً

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥١.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٥١. والبيت في ديوان كعب ص١٦٧ بلفظ:
تلظى عليهم وهي قد شب حميها   بزبر الحديد والحجارة ساجر
(٣) التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٥.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٨٦، والبحر المحيط ٦/ ١٦٤.

فشيئاً، حتى إذا جعل ما بين جانبَي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلوِّ، فـ «بين» مفعولُ «ساوى»، وفاعله ضميرُ ذي القرنين.

وقيل: الفاعل ضميرُ السدِّ المفهومُ من الكلام، أي: فآتوه إيَّاها، فأخذَ يسدُّ بها حتى إذا ساوى السدُّ الفضاءَ الذي بين الصدفين، ويفهم من ذلك مساواةُ السدِّ في العلوِّ للجبلين.

والصدفُ كما أشرنا إليه جانبُ الجبل، وأصله على ما قيل: الميل، ونقل في «الكشف» أنَّه لا يقال للمنفرد صدف، حتى يصادفَه الآخر، ثم قال: فهو من الأسماء المتضايفة، كالزوج وأمثاله.

وقال أبو عبيدة: هو كلُّ بناءٍ عظيمٍ مرتفع. ولا يخفى أنَّه ليس بالمراد هنا.

وزعم بعضهم أنَّ المرادَ به هنا الجبل، وهو خلاف ما عليه الجمهور.

وقرأ قتادةُ: «سَوَّى» من التسوية[(١)].

وقرأ ابن أبي أمية عن أبي بكر عن عاصم: «سُووِيَ» بالبناء للمجهول[(٢)].

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وابن عامر والزهريُّ ومجاهد والحسن: «الصُّدُفين» بضمِّ الصاد والدال[(٣)]، وهي لغة حِمير، كما أنَّ فتحهما في قراءة الأكثرين لغةُ تميم[(٤)].

وقرأ أبو بكر وابن محيصن وأبو رجاء وأبو عبد الرحمن: «الصُّدْفين» بضمٍّ فسكون[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٣، والبحر المحيط ٦/ ١٦٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٢، والبحر المحيط ٦/ ١٦٤.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٦٤، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر في التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٦. وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٤) هي قراءة نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبي جعفر وخلف. انظر التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٦.

(٥) البحر المحيط ٦/ ١٦٤. وقراءة أبي بكر - راوية عاصم - في التيسيرص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٦.

وقرأ ابنُ جندب بفتح فسكون، وروي ذلك عن قتادة. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه قرأ بضمٍّ ففتح، وهي قراءةُ أبان عن عاصم، وقرأ الماجشون بفتحٍ فضم[١].

﴿قَالَ﴾ للعَمَلة ﴿ٱنفُخُواْ﴾ أي: بالكيران في زبر الحديد الموضوعة بين الصدَفين، ففعلوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي: جعل المنفوخَ فيه ﴿نَارًا﴾ أي: كالنار في الحرارة والهيئة، فهو من التشبيه البليغ، وإسنادُ الجعل المذكور إلى ذي القرنين مع أنَّه فِعْلُ الفَعَلة؛ للتنبيه على أنَّه العمدةُ في ذلك، وهم بمنزلة الآلة.

﴿قَالَ﴾ للذين يتولَّون أمرَ النحاس من الإذابة وغيرها. وقيل: لأولئك النافخين، قال لهم بعد أن نفخوا في ذلك حتى صار كالنار، وتمَّ ما أراده منهم أوّلاً: ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ من الذين يتولَّون أمرَ النحاس ﴿أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا ۝٩٦﴾ أي: آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه. وبه تمسَّك البصريُّون على أنَّ إعمال الثاني في باب التنازع أولى، إذ لو كان «قطراً» مفعول «آتوني» لأضمر مفعول «أفرغ»، وحذفُه وإن جاز لكونه فَضْلةً إلَّا أنَّه يوقعُ في لبس.

والقطر كما أشرنا إليه النُّحاسُ المذاب، وهو قول الأكثرين. وقيل: الرصاص المذاب. وقيل: الحديدُ المذاب. وليس بذاك.

وقرأ الأعمش وطلحة وحمزة وأبو بكر بخلافٍ عنه: «ائتوني» بهمزة الوصل[٢]، أي: جيئوني، كأنَّه يستدعيهم للإعانة[٣] باليد عند الإفراغ، وإسناد الإفراغ إلى نفسه للسرِّ الذي وقفت عليه آنفاً، وكذا الكلام في قوله: «أجعل»، وقوله: «ساوى» على أحد القولين.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفاً وحذراً عن تلاقي المتقاربين في المخرج، وهما الطاء والتاء.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٤-١٦٥. وانظر المحتسب ٢/ ٣٤، والقرطبي ١٣/ ٣٨٧.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٥، وقراءة حمزة وأبي بكر راوية عاصم في التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٥.

(٣) في (م): للإغاثة.

وقرأ حمزة وطلحة بإدغام التاء في الطاء[1]، وفيه جمعٌ بين الساكنين على غير حده، ولم يجوِّزْهُ أبو عليّ[2]، وجوَّزه جماعة.

وقرأ الأعشى عن أبي بكر: «فما اصطاعوا» بقلب السين صاداً لمجاورة الطاء[3].

وقرأ الأعمش: «فما استطاعوا» بالتاء من غير حذف[4].

والفاء فصيحة، أي: ففعلوا ما أُمروا به من إيتاء القطر أو الإتيان، فأفرغَ عليه، فاختلط والتصق بعضه ببعض، فصار جبلاً صلداً، فجاء يأجوجُ ومأجوج، وقصدُوا أنْ يعلوه وينقبوه، فما اسطاعوا ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾[5] أي: يعلوه ويرقوا فيه؛ لارتفاعه وملاسته، قيل: كان ارتفاعُه مئتي ذراع، وقيل: ألف وثمان مئة ذراع.

﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ لصلابته وثخانته. قيل: وكان عرضه خمسين ذراعاً، وكان أساسه قد بلغ الماء، وقد جعل فيه الصخر والنحاس المذاب، وكانت زبر الحديد للبناء فوق الأرض، ولا يخفى أنَّ إفراغ القطر عليها بعد أن أثَّرت فيها حرارةُ النار حتى صارت كالنار، مع ما ذكروا من أنَّ امتدادَ السدِّ في الأرض مئة فرسخ = لا يتمُّ إلَّا بأمرٍ إلهيٍّ خارجٍ عن العادة، كصرف تأثير حرارة النار العظيمة عن أبدان المباشرين للأعمال، وإلَّا فمثلُ تلك الحرارة عادةً ممَّا لا يقدرُ حيوانٌ على أن يحومَ حولها، ومثل ذلك النفخُ في هاتيك الزبر العظيمة الكثيرة حتى تكون ناراً.

ويجوزُ أنْ يكون كلٌّ من الأمرين بواسطة آلاتٍ غريبةٍ، أو أعمالٍ أُوتيها هو أو أحدٌ ممَّن معه، لا يكاد أحدٌ يعرفها اليوم، وللحكماء المتقدِّمين - بل والمتأخرين - أعمالٌ عجيبةٌ يتوصَّلون إليها بآلاتٍ غريبةٍ تكادُ تخرجُ عن طور العقل، وهذا ممَّا لا شُبهة فيه، فليكن ما وقعَ لذي القرنين من ذلك القبيل.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٥، وقراءة حمزة في التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٦.

(٢) في الحجة ٥/ ١٧٨.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٦٥.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٨٩، والبحر المحيط ٦/ ١٦٥.

(٥) جاء في هامش الأصل ما نصه: قيل: أي: يظهروا عليه، فحذف، وأوصل الفعل. اهـ منه.

وقيل: كان بناؤه من الصخور مرتبطاً بعضُها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذابٍ في تجاويفها، بحيث لم يبق هناك فرجةٌ[(١)] أصلاً.

وأخرج ابنُ جرير وابن مردويه عن أبي بكرة الثقفي[(٢)] أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، قد رأيتُ سدَّ يأجوج ومأجوج، قال: «انعته لي»، قال: كالبُرْد المحبَّر، طريقةٌ سوداء، وطريقةٌ حمراء. قال: «قد رأيتَه»[(٣)].

والظاهر أنَّ الرؤيةَ بصريَّةٌ لا مناميَّة، وهو أمرٌ غريبٌ إنْ صحَّ الخبر.

وأمَّا ما ذكره بعضُهم من أنَّ الواثق بالله العباسي أرسلَ سلاماً الترجمان للكشف عن هذا السدِّ، فذهبَ جهة الشمال في قصَّة تطول، حتى رآه ثم عاد، وذكر له من أمره ما ذكر؛ فثقاتُ المؤرِّخين على تضعيفه، وعندي أنَّه كذبٌ؛ لما فيه ممَّا تأبى عنه الآية، كما لا يخفى على الواقف عليه تفصيلاً.

ولا يخفى لطفُ الإتيان بالتاء في «استطاعوا» هنا.

﴿قَالَ﴾ أي: ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى السدِّ. وقيل: إلى تمكُّنه من بنائه، والفضل للمتقدِّم ليتَّحد مرجع الضمير المتأخِّر، أي: هذا الذي ظهر على يدي، وحصل بمباشرتي من السدِّ الذي شأنُه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي: أثَرُ رحمةٍ عظيمةٍ، وعبَّر عنه بها

---

(١) في (م): فجوة.

(٢) تحرف في الأصل و(م) إلى: الشفي، وفي مطبوع الدر المنثور ٤/ ٢٥٠- وعنه نقل المصنف - إلى: النسفي.

(٣) لم أقف عليه في تفسير الطبري عن أبي بكرة الثقفي، بل أخرجه عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبي الله...، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٧٥٨) من طريق قتادة عن رجل عن أبي بكرة الثقفي أن رجلاً أتى النبي ﷺ... فذكر نحوه.
وأخرجه الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق ٤/ ١٢ عن قتادة عن رجل من أهل المدينة أنه قال للنبي ﷺ... فذكر نحوه ثم قال: هذا إسناد صحيح إلى قتادة، فإن كان سمعه من هذا الرجل فهو حديث صحيح؛ لأن عدم معرفة اسم الصحابي لا تضر عند الجمهور؛ لأنهم كلهم عدول، ولكن قد اختلف فيه عن قتادة...
ثم بين الحافظ ابن حجر الخلاف عن قتادة، ذاكراً طرق الحديث، ومبيناً ما فيها، فانظره ثمة إن شئت.

للمبالغة ﴿مِّن رَّبِّى﴾ على كافَّة العباد، لا سيما على مجاوريه.

وكون السد رحمةً على العباد ظاهرٌ، وإذا جعلتَ الإشارةَ إلى التمكُّن، فكونه رحمةً عليهم باعتبار أنَّه سببٌ لذلك، وربما يرجَّح المتقدِّم أيضاً باحتياج المتأخِّر إلى هذا التأويل، وإنْ كان الأمرُ فيه سهلاً.

وفي الإخبار عنه بما ذُكر إيذانٌ ـ على ما قيل ـ بأنَّه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادةً، بل هو إحسانٌ إلهيٌّ محضٌ، وإن ظهر بالمباشرة.

وفي التعرُّض لوصف الربوبيَّة تربيةُ معنى الرحمة.

وقرأ ابن أبي عبلة: «هذه رحمة»[1] بتأنيث اسم الإشارة، وخُرِّجَ على أنَّه رعاية للخبر، أو جعل المشار إليه القدرة والقوة على ذلك.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ أي: وقت وعده تعالى، فالكلام على حذف مضاف، أو الإسنادُ[2] إلى الوعد مجاز، وهو لوقته حقيقة. ويجوزُ أن يكون الوعدُ بمعنى الموعود، وهو وقته أو وقوعه، فلا حذف ولا مجاز في الإسناد، بل هناك مجازٌ في الطرف.

والمراد من وقت ذلك يوم القيامة. وقيل: وقت خروج يأجوج ومأجوج. وتُعقِّب بأنَّه لا يساعده النظم الكريم.

والمراد بمجيئه ما ينتظمُ مجيئَه ومجيء مباديه، من خروجهم، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، ونحو ذلك، لا دنوُّ وقوعه فقط كما قال الزمخشريُّ[3] وغيره، فإنَّ بعضَ الأمور التي ستُحكى تقعُ بعد مجيئه حتماً.

﴿جَعَلَهُۥ﴾ أي: السدَّ المشار إليه مع متانته ورصانته ﴿دَكَّآءَ﴾ بألف التأنيث الممدودة، والموصوفُ مؤنَّثٌ مقدَّر، أي: أرضاً مستوية. وقال بعضهم: الكلامُ على تقدير مضاف، أي: مثل دكاء. وهي ناقةٌ لا سنامَ لها، ولا بد من التقدير؛ لأنَّ السدَّ مذكَّرٌ لا يوصف بمؤنَّث.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٤، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٩٠، والبحر المحيط ٦/ ١٦٥.

(٢) في (م): والإسناد.

(٣) في الكشاف ٢/ ٤٩٩.

وقرأ غير الكوفيين: «دكّاً»[١] على أنَّه مصدر دكَكْتُه، وهو بمعنى المفعول، أي: مدكوكاً مسوًّى بالأرض، أو على ظاهره والوصف به للمبالغة، والنصب على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل»، وهي بمعنى صيَّر.

وزعم ابنُ عطية أنها بمعنى خلق[٢]. وليس بشيء.

وهذا الجعلُ وقتَ مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه، وفيه بيانٌ لعظم قدرته تعالى شأنه بعد بيان سعة رحمته عزَّ وجل.

وكأنَّ علمه بهذا الجعل ـ على ما قيل ـ من توابع علمه بمجيء الساعة، إذ من مباديها دكُّ الجبال الشامخة الراسخة ضرورةَ أنَّه لا يتمُّ بدونها، واستفادتُه العلمَ بمجيئها ممَّن كان في عصره من الأنبياء عليهم السلام، ويجوزُ أنْ يكون العلم بجميع ذلك بالسماع من النبيِّ، وكذا العلمُ بمجيء وقت خروجهم، على تقديرِ أن يكون ذلك مراداً من الوعد، يجوز أن يكون عن اجتهاد، ويجوز أنْ يكون عن سماع.

وفي كتاب حزقيال عليه السلام الإخبارُ بمجيئهم في آخر الزمان من آخر الجربياء في أممٍ كثيرةٍ لا يحصيهم إلَّا الله تعالى، وإفسادهم في الأرض، وقصدهم بيت المقدس، وهلاكهم عن آخرهم في بريته بأنواعٍ من العذاب، وهو عليه السلام قبل إسكندر غالب دارا، فإذا كان هو ذا القرنين، فيمكنُ أن يكون وقفَ على ذلك فأفاده علماً بما ذكر. والله تعالى أعلم.

ثمَّ إنَّ في الكلام حذفاً، أي: وهو يستمرُّ إلى آخر الزمان، فإذا جاء وعدُ ربِّي جعله دكاء.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أي: وعده سبحانه المعهود، أو كلُّ ما وعدَ عزَّ وجلَّ به، فيدخلُ فيه ذلك دخولاً أوَّليًّا.

﴿حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ ثابتاً لا محالة، واقعاً البتة، وهذه الجملة تذييلٌ من ذي القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية، وتأكيدٌ لمضمونها، وهو آخر ما حكي من قصَّته.

---

(١) التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٢٧١.
(٢) المحرر الوجيز ٦/ ٥٤٤.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾ كلامٌ مسوقٌ من جنابه سبحانه وتعالى، وضمير الجمع المجرور عند بعض المحققين للخلائق، والتركُ بمعنى الجعل، وهو من الأضداد، والعطفُ على قوله تعالى: (جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ)، وفيه تحقيقٌ لمضمونه، ولا يضرُّ ذلك كونُه محكيّاً عن ذي القرنين، أي: جعلنا بعض الخلائق ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم إذ جاء الوعدُ بمجيء بعض مباديه ﴿يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ آخرَ منهم. والموجُ مجازٌ عن الاضطراب، أي: يضطربون اضطرابَ البحر، يختلطُ إنسهم وجنُّهم من شدَّة الهول، وروي هذا عن ابن عباس، ولعلَّ ذلك لعظائم تقعُ قبل النفخة الأولى.

وقيل: الضمير للناس، والمراد: وجعلنا بعضَ الناس يوم إذ جاء الوعدُ بخروج يأجوج ومأجوج يموجُ في بعضٍ آخر؛ لفزعهم منهم وفرارهم. وفيه بعد.

وقيل: الضميرُ للناس أيضاً، والمراد: وجعلنا بعض النَّاس يوم إذ تمَّ السدُّ يموجُ في بعضهم؛ للنظر إليه والتعجُّب[1] منه. ولا يخفى أنَّ هذا يُتَعجَّب منه.

وقال أبو حيَّان: الأظهر كونُ الضمير ليأجوج ومأجوج[2]، أي: وتركنا بعض يأجوج ومأجوج يموجُ في بعض آخر منهم حين يخرجون من السدِّ مزدحمين في البلاد، وذلك بعد نزول عيسى عليه السلام، ففي «صحيح مسلم» من حديث النواس بن سمعان بعد ذكر الدجَّال وهلاكه بباب لُدٍّ على يده عليه السلام: «ثمَّ يأتي عيسى عليه السلام قوماً[3] قد عصمهم الله تعالى من الدجَّال، فيمسحُ [عن] وجوههم، ويحدِّثُهم بدرجاتهم في الجنَّة، فبينما هو[4] كذلك، إذ أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: إنِّي قد أخرجتُ عباداً لي لا يدانِ لأحدٍ بقتالهم، فحرِّز عبادي إلى الطور[5]، ويبعث الله تعالى يأجوجَ ومأجوج، فيخرجون على الناس فينشفون الماء، ويتحصَّن الناسُ منهم في حصونهم، ويضمُّون إليهم مواشيهم، فيشربون مياه الأرض، حتى إنَّ بعضَهم ليمرُّ بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه

---

(١) في (م): والتعجيب.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٥.
(٣) في صحيح مسلم: «قومٌ».
(٤) في الأصل و(م): هم. والمثبت من صحيح مسلم.
(٥) صحيح مسلم (٢٩٣٧): (١١٠)، وما سلف بين حاصرتين منه.

يبساً، حتى إنَّ مَنْ يمرُّ من بعدهم ليمرُّ بذلك النهر، فيقول: قد كان هاهنا ماءٌ مرَّةً[(١)]، ويُحصَر عيسى نبيُّ الله وأصحابُه، حتى يكون رأسُ الثور ورأسُ الحمار لأحدهم خيراً من مئة دينار»[(٢)].

وفي رواية مسلم وغيره: «فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلمَّ نقتل من في السماء، فيرمونَ نشابهم إلى السماء، فيردُّها الله تعالى عليهم مخضوبةً دماً»[(٣)] للبلاء والفتنة، «فيرغبُ نبيُّ الله وأصحابه إلى الله تعالى، فيرسل عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فَرْسى»[(٤)]. وفي رواية: «دُوداً[(٥)] كالنَّغَفِ في أعناقهم فيصبحونَ موتى، كموت نفسٍ واحدة، لا يسمع لهم حسٌّ، فيقول المسلمون: ألَا رجلٌ يشري لنا نفسه، فينظر ما فعلَ هذا العدوُّ، فيتجرَّد رجلٌ منهم محتسباً نفسه، قد وطَّنها على أنَّه مقتولٌ، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشرَ المسلمين، ألا أبشروا، إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد كفاكم عدوَّكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، فيسرِّحون مواشيهم، فما يكون لها مرعى إلَّا لحومُهم، فتشكر أحسنَ ما شكرت عن شيء».

«ويهبط نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدونَ فيها موضع شبرٍ إلَّا ملأه زهمهم ونتنهم»[(٦)] «فيستغيثون بالله تعالى فيبعثُ الله سبحانه ريحاً يمانيةً غبراء، فتصيرُ على الناس غمّاً ودخاناً، ويقع عليهم الزكمةُ، ويكشف

---

(١) من قوله: «ويبعث الله تعالى يأجوج... إلى هنا ليس في صحيح مسلم، بل أخرجه ابن ماجه (٤٠٧٩)، وأحمد (١١٧٣١)، والطبري ١٥/ ٣٩٩-٤٠٠، وابن حبان (٦٨٣٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ثم عاد إلى رواية النواس.

(٢) من قوله: «ويحصر عيسى... إلى هنا» تتمة حديث النواس، وقوله: «ورأس الحمار» ليس في صحيح مسلم ولم أقف عليه.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٣٧): (١١١).

(٤) من قوله: «فيرغب نبي الله» إلى هنا عاد إلى رواية النواس.

(٥) في (م): داود. وهو تحريف. وهذه الرواية من بقية حديث أبي سعيد الخدري السالف بعضه قريباً. ووقع في سنن ابن ماجه: دواب. بدل: دوداً.

(٦) من قوله: «ويهبط نبي الله عيسى...» إلى هنا في صحيح مسلم من تتمة حديث النواس بن سمعان السالف بعضه قريباً.

ما بهم بعد ثلاثة أيام، وقد قذفت الأرضُ جيفَهم في البحر»[١] وفي رواية: «فيرغب نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله عزَّ وجلَّ فيرسل طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله تعالى»[٢] وفي رواية: «فترميهم في البحر» وفي أخرى: «في النار» ولا منافاةَ كما يظهر بأدنى تأمُّل.

ثمَّ يرسلُ الله عزَّ وجلَّ مطراً لا يُكِنُّ منه بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ، فيغسلُ الأرضَ حتى يتركها كالزلقة[٣]، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ورُدِّي بركتك، فيومئذٍ تأكلُ العصابةُ من الرمانة، ويستظلُّون بقِحْفِها، ويبارك في الرِّسْلِ، حتى إنَّ اللّقحةَ من الإبل لتكفي الفئام[٤] من الناس»[٥].

و«يوقد المسلمون من قسيِّ يأجوجَ ومأجوجَ ونشابهم وأترستهم سبع سنين»[٦].

ولعلَّ الله تعالى يحفظُ ذلك في الأودية ومواضع السيول زيادةً في سرور المسلمين، أو يحفظُها حيث هلكوا، ، ولا يلقيها معهم حيث شاء، ولا يُعجِز اللهَ تعالى شيءٌ.

والحديث يدلُّ على كثرتهم جدّاً، ويؤيِّدُ ذلك ما أخرجه ابنُ حبَّان في «صحيحه» عن ابن مسعود مرفوعاً: «إنَّ يأجوجَ ومأجوج أقلُّ ما يتركُ أحدهم من صلبه ألفاً من الذريَّة»[٧]. وحملَه بعضُهم على طول العمر.

---

(١) أخرجها نعيم بن حماد كما ذكر ابن كثير في «النهاية في الفتن والملاحم» ١/ ١٣٣ ضمن حديث طويل تحت عنوان: خبر عجيب ونبأ غريب. ثم قال في آخره: قال شيخنا الذهبي: وهذا الحديث شبه موضوع. .

(٢) هي قطعة من حديث النواس بن سمعان عند مسلم.

(٣) في صحيح مسلم: كالزلفة. قال النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٨/ ٦٩: روي بفتح الزاي واللام والقاف، وروي: «الزُّلْفَة» بضم الزاي وإسكان اللام وبالفاء، وروي: «الزَّلَفَة» بفتح الزاي واللام وبالفاء. وقال القاضي: روي بالفاء والقاف وبفتح اللام وبإسكانها. وكلها صحيحة.

(٤) جاء فوق هذه الكلمة في الأصل ما نصه: بالفاء: الجماعة. اهـ منه.

(٥) قطعة من حديث النواس السالف.

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤٠٧٦) من حديث النواس بلفظ: «سيوقد المسلمون. . .».

(٧) صحيح ابن حبان (٦٨٢٨).

وفي «البحر» أنَّه قد اختُلِفَ في عددهم وصفاتهم، ولم يصحَّ في ذلك شيء[١].

وأعجبُ ما روي في ذلك قولُ مكحول: الأرضُ مسيرةُ مئة عام؛ ثمانون منها يأجوج ومأجوج، وهي أمَّتان، كلُّ أمَّةٍ أربعمئة ألف أمَّة، لا تشبهُ أمَّةٌ الأخرى. وهو قولٌ باطل. ومثله ما روي عن أبي الشيخ عن أبي أمامة: الدنيا سبعةُ أقاليم، فليأجوج ومأجوج ستَّة، وللباقي إقليمٌ واحدٌ[٢]. وهو كلامُ من لا يعرفُ الأرض ولا الأقاليم.

نعم أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق البكاليّ، عن ابن عمر[٣]: أنَّ الله تعالى جَزَّأَ الإنس عشرةَ أجزاء؛ فتسعةٌ منهم يأجوج ومأجوج، وجزءٌ سائرُ الناس[٤]. إلَّا أنِّي لم أقف على تصحيحه لغيرِ الحاكم، وحُكم تصحيحه مشهورٌ.

ويعلم ممَّا تقدَّم وممَّا سيأتي إنْ شاءَ الله تعالى بطلانُ ما يزعمه بعض الناس من أنَّهم التاتار الذين أكثروا الفسادَ في البلاد وقتَّلوا الأخيار والأشرار، ولعمري إنَّ ذلك الزعم من الضلالة بمكان، وإنْ كان بين يأجوج ومأجوج وأولئك الكفرة مشابهةٌ قويةٌ[٥] لا تخفى على الواقفين على أخبار ما يكون وما كان[٦].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ الظاهر أنَّ المرادَ النفخةُ الثانية؛ لأنَّه المناسبُ لما بعد. ولعلَّ عدمَ التعرُّض لذكر النفخة الأولى؛ لأنَّها داهيةٌ عامَّةٌ، ليس فيها حالةٌ مختصَّةٌ بالكفَّار. وقيل: لئلَّا يقعَ الفصلُ بين ما يقعُ في النشأة الأولى من الأحوال والأهوال، وبين ما يقعُ منها في النشأة الآخرة.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٣.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٥٠، وهو في العظمة (٩٤٤). وفيهما: عن عبدة بن أبي لبابة، بدل: عن أبي أمامة.

(٣) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور ٦/ ٢٤٩. والصواب عبد الله بن عمرو كما في المصادر على ما يأتي التخريج الآتي ذكرها.

(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٨، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٤٥، والمستدرك ٤/ ٤٩٠ وهو عند عبد الرزاق عن البكالي قوله.

(٥) في (م): تامة.

(٦) بعدها في (م): إبطال ما يزعمه بعض الناس من أنهم التتار. وليست في الأصل.

والصُّورُ قرنٌ، جاء في الآثار من وصفه ما يُدهش العقول. وقد صحَّ عن أبي سعيد الخدريِّ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنْعَم وقد التقمَ صاحبُ القرنِ القرنَ، وحنا جبينه، وأصغى سمعَه، ينتظر أنْ يؤمرَ فينفخ»(١).

وزعمَ أبو عبيدة أنَّه جمع صورة(٢)، وأُيِّد بقراءة الحسن: «الصُّوَر» بفتح الواو(٣)، فيكون كسُورةٍ وسُوَر.

ورَدُّ ذلك أظهرُ من أن يخفى، ولذلك قال أبو الهيثم على ما نقل عنه الإمام القرطبيُّ(٤): من أنكرَ أنْ يكون الصورُ قرناً فهو كمن أنكر العرشَ والصراطَ والميزان، وطلب لها تأويلات. وذكر(٥) أنَّ الأمَمَ مجمعةٌ على أنَّ النافخَ فيه إسرافيل عليه السلام.

﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾ أي: الخلائق بعدما تفرَّقت أوصالُهم وتمزَّقت أجسادُهم، في صعيدٍ واحدٍ للحساب والجزاء ﴿جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ أي: جمعاً عجيباً لا يُكتنَه كنهُه.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ﴾ أظهرناها وأبرزناها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ جمعنا الخلائقَ كافَّةً ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ منهم حيثُ جعلناها بحيثُ يرونَها ويسمعونَ لها تغيُّظاً وزفيراً ﴿عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: عرضاً فظيعاً هائلاً لا يُقادر قَدْرُه.

وتخصيصُ العرض بهم مع أنَّها بمرأًى من أهل الجمع قاطبةً؛ لأنَّ ذلك لأجلهم خاصَّةً.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِى غِطَآءٍ﴾ كثيفٍ وغِشاوةٍ غليظةٍ محاطةٍ بذلك من جميع الجوانب ﴿عَن ذِكْرِى﴾ عن الآياتِ المؤدِّية لأولي الأبصار المتدبِّرين فيها إلى ذكري بالتوحيد والتمجيد. فالذكر مجازٌ عن الآيات المذكورةِ، من باب

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣)، وأحمد (١١٠٣٩).

(٢) مجاز القرآن ١/ ١٩٦، ٤١٦، ٢/ ١٦٢.

(٣) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٣٠٩، وأبو حيان في البحر ٤/ ١٦١ كلاهما عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام.

(٤) تفسيره ١٣/ ٤٣٠.

(٥) أي: القرطبي.

إطلاق المسبَّب وإرادة السبب، وفيه أنَّ من لم ينظر نظراً يؤدِّي به إلى ذكرِ التعظيم؛ كأنَّه لا نظرَ له البتة. وهذا فائدةُ التجوُّز.

وقيل: الكلام على حذف مضاف، أي: عن آيات ذكري. وليس بذاك.

ويجوزُ أنْ يكون المرادُ بالأعين البصائرَ القلبيَّة، والمعنى: كانت بصائرُهم في غطاءٍ عن أنْ يذكروني على وجهٍ يليقُ بشأني، أو عن ذكري الذي أنزلته على الأنبياء عليهم السلام، ويجوزُ أن يُخَصَّ بالقرآنِ الكريم.

﴿وَكَانُوا﴾ مع ذلك ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ نفيٌ لسماعهم على أتمِّ وجه، ولذا عدل عن: وكانوا صمًّا، الأخصرِ إليه. والمرادُ أنَّهم مع ذلك كفاقدي حاسَّة السمع بالكليَّة، وهو مبالغةٌ في تصوير إعراضهم عن سماع ما يرشدُهم إلى ما ينفعُهم بعد تصويرِ تعاميهم عن الآيات المشاهَدَةِ بالأبصار، فلا حاجةَ إلى تقدير: لذكري، المراد منه القرآن، أو مطلق الشرائع الإلهيَّة، فإنَّه بعد تخصيص الذكر المذكور في النظم الكريم أوَّلاً بالآيات المشاهدة لا يصيرُ قرينةً على هذا الحذف.

قال ابن هشام في «المغني»: إنَّ الدليلَ اللفظيَّ لا بدَّ من مطابقته للمحذوف معنًى، فلا يصحُّ: زيدٌ ضاربٌ وعمرٌو، أي: ضاربٌ، على أنَّ الأول بمعناه المعروف، والثاني بمعنى مسافر(١). وتقديرُ ذلك، وإرادة معنى الآيات منه مجازاً لتحقُّق الآيات في ضمن الكلام المعجِز = لا يخفى حالُه، وحالُ إرادةِ الآيات ثمَّ إرادة الكلام المعجز منها مجازاً بعد المجاز = أظهرُ.

وقال بعض المحققين: إنَّ تقديرَ ذلك إنَّما هو بقرينة قوله تعالى: (سَمْعًا)، وأنَّ الكافرين هذا حالُهم، لا بقرينة ذكر الذكر قبلُ ليجيء كلام ابن هشام.

ولا يخفى أنَّه لا كلامَ في تقدير الذكر بمعنى القرآن أو الشرائع الإلهيَّة إذا أريد من الذكر المذكور ذلك.

والموصولُ نعتُ الكافرين، أو بدلٌ منه، أو بيانٌ جيء به لذمِّهم بما في حيِّز الصلة، وللإشعار بعلِّيته لإصابة ما أصابهم من عَرْضِ جهنَّم لهم.

---

(١) مغني اللبيب ص٧٩٠.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: كفروا بي، كما يُعْرِب عنه قوله تعالى: (عِبَادِى)، والحسبان بمعنى الظنّ، وقد قرأ عبدُ الله: «أفظنّ»[١].

والهمزةُ للإنكار والتوبيخ، على معنى إنكار الواقع واستقباحه، والفاء للعطف على مقدَّرٍ يُفصِح عنه الصلة، على توجيه الإنكار والتوبيخ إلى[٢] المعطوفين جميعاً على ما اختاره شيخُ الإسلام[٣]. والمعنى: أكفروا بي مع جلالة شأني فحسبوا ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى﴾ من الملائكة وعيسى ونحوهم عليهم السلام من المقرَّبين، كما تشعر به الإضافة، فإنَّ الأكثر أنْ تكونَ في مثل هذا اللفظ لتشريف المضاف.

واقتصرَ قتادة في المراد من ذلك على الملائكة، والظاهرُ إرادة ما يعمُّهم وغيرَهم ممَّن ذكرنا، واختارَه أبو حيان[٤] وغيرُه.

ورُوي عن ابن عباس أنَّ المرادَ منه الشياطين. وفيه بعد، ولعلَّ الرواية لا تصحُّ.

وعن مقاتل أنَّ المرادَ الأصنامُ. وهو كما ترى.

وجَوَّزَ بعضُ المحقِّقين أنْ يُرَاد ما يعمُّ المذكورين والأصنامَ وسائرَ المعبودات الباطلة من الكواكبِ وغيرها تغليباً، ولعلَّ المقام يقتضي أنْ لا تكونَ الإضافةُ فيه للتشريف، أي: أفظنُّوا أنْ يتَّخذوا عبادي الذينَ هم تحتَ ملكي وسلطاني ﴿مِن دُونِىٓ﴾ أي: مجاوزينَ لي ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أي: معبودين أو أنصاراً لهم من بأسي.

وما في حيِّز صلة «أنْ»؛ قيل: سادٌّ مسدَّ مفعولي «حسب»، أي: أفحسبوا أنَّهم يتَّخذونهم أولياء. وكان مصبُّ الإنكار أنَّهم يتخذونهم كذلك، إلَّا أنَّه أقحمَ الحسبان للمبالغة.

وقيل: المراد ما ذكر على معنى أنَّ ذلك ليس من الاتِّخاذ في شيءٍ؛ لما أنَّه إنَّما يكونُ من الجانبين، والمتَّخَذون بمعزلٍ عن ولايتهم؛ لقولهم: ﴿سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥، والبحر المحيط ٦/ ١٦٦.
(٢) في (م): وإلى. وهو خطأ.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٨.
(٤) في البحر المحيط ٦/ ١٦٥.

وقيل: «أن» وما بعدها في تأويل مصدر مفعولٍ أوَّل لـ «حسب». والمفعول الثاني محذوف، أي: أفحسبوا اتخاذَهم نافعهم، أو سبباً لرفع العذاب عنهم، أو نحو ذلك. وهو مبنيٌّ على تجويز حذف أحد المفعولين في باب علم، وهو مذهبُ بعض النحاة.

وتُعقِّب بأنَّ فيه تسليماً لنفس الاتِّخاذ واعتداداً به في الجملة، والأوْلَى ما خلا عن ذلك.

هذا وفي «الكشف» أنَّ التحقيقَ أنَّ قوله تعالى: (أَفَحَسِبَ) معطوفٌ على «كانت» و«كانوا» دلالةً على أنَّ الحسبان ناشئٌ عن التعامي والتصامِّ، وأدخلَ عليه همزة الإنكار ذمّاً على ذمٍّ، وقطعاً له عن المعطوف عليهما لفظاً لا معنًى؛ للإيذان بالاستقلال المؤكِّد للذمِّ، كأنَّه قيل: لا يزيلون ما بهم من مَرَضَي الغشاوة والصمم، ويزيدون عليهما الحسبان المترتِّب عليهما. وقوله تعالى: (ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) من وضع الظاهر مقامَ المضمر زيادةً للذمِّ. انتهى.

وفي «إرشاد العقل السليم» ـ بعد نقل ما ذكر إلى قوله: كأنَّه قيل.. إلخ ـ: أنَّه يأبى ذلك تركُ الإضمار، والتعرُّض لوصفٍ آخرَ غير التعامي والتصامِّ، على أنَّهما أُخرجا مخرجَ الأحوال الجِبليَّة لهم، ولم يذكرا من حيث إنَّهما من أفعالهم الاختياريَّة الحادثة كحسبانهم ليحسنَ تفريعُه عليهما، وأيضاً فإنَّه دينٌ قديمٌ لهم لا يمكن جعله ناشئاً عن تصامِّهم عن كلام الله عزَّ وجلَّ، وتخصيصُ الإنكار بحسبانهم المتأخِّر عن ذلك تعسُّفٌ لا يخفى. انتهى[1]. ولا يخلو عن بحثٍ فتأمَّل.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، وزيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم، والشافعيُّ عليه الرحمة، ويحيى بن يعمر، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، ونعيم بن ميسرة، والضحاك، وابن أبي ليلى، وابنُ محيصن، وأبو حيوة، ومسعود بن صالح، وابن كثير ويعقوب بخلافٍ عنهما: «أفحسْبُ» بإسكان السين وضم الباء، مضافاً إلى «الذين»[2]، وخُرِّجَ ذلك على أنَّ «حسب» مبتدأ، وهو بمعنى مُحْسِب، أي: كافي،

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٨.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٦، وانظر القراءات الشاذة ص٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٤، وقراءة ابن كثير ويعقوب المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.

و«أنْ يتَّخذوا» خبرُه، أي: أفكافيهم اتِّخاذهم عبادي من دوني أولياء، وفيه دلالةٌ على غاية الذمِّ؛ لأنَّه جعل ذلك مجموعَ عدَّتهم يوم الحساب، وما يكتفون به عن سائر العقائد والفضائل التي لا بدَّ منها للفائز في ذلك اليوم.

وجعل الزمخشريُّ[1] المصدرَ المتحصِّلَ من «أنْ» والفعل فاعلاً لـ «حَسْب»؛ لأنَّه اعتمدَ على الهمزة، واسم الفاعل إذا اعتمدَ ساوى الفعل في العمل.

واعترض عليه أبو حيَّان بأنَّ «حَسْب» مؤوَّلٌ باسم الفاعل، وما ذكر مخصوصٌ بالوصف الصريح. ثم أشار إلى جوابه بأن سيبويه أجاز في: مررت برجلٍ خيرٌ منه أبوه، وبرجلٍ سواءٌ عليه الخير والشرُّ، وبرجلٍ أبٌ له صاحبه، وبرجلٍ أيُّما[2] رجلٍ هو، وبرجلٍ حسبُك من رجل [هو][3] = الرفع[4] بالصفات المؤوَّلة، وذكرَ أنَّهم أجازوا في: مررتُ برجلٍ أبي عشرةٍ أبوه، ارتفاعَ أبوه بأبي عشرة؛ لأنَّه في معنى والد عشرة، وحينئذٍ فلا كلام فيما ذكر الزمخشريُّ.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ أي: هيأناها، وهو ظاهرٌ في أنَّها مخلوقةٌ اليوم ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المعهودين، عدلَ عن الإضمار ذمّاً لهم، وإشعاراً بأنَّ ذلك الاعتداد بسبب كفرهم المتضمِّن لحسبانهم الباطل.

﴿نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي: شيئاً يتمتَّعون به عند ورودهم، وهو ما يُقامُ به للنزيل - أي: الضيف - ممَّا حضرَ من الطعام، واختارَ هذا جماعةٌ من المفسرين. وفي ذلك - على ما قيل - تخطئةٌ لهم في حِسْبانهم، وتهكُّمٌ بهم[5]، حيث كان اتِّخاذُهم إيَّاهم أولياءَ من قبيل إعتادِ العتاد، وإعداد الزاد ليوم المعاد، فكأنَّه قيل: إنَّا أعتدنا لهم مكانَ ما أعدُّوا لأنفسِهم من العِدَّة والذخر جهنَّمَ عدَّةً.

---

(١) في الكشاف ٢/ ٥٠٠.

(٢) في الأصل و(م): إنما. والتصويب من البحر المحيط ٦/ ١٦٦- وعنه نقل المصنف - وكتاب سيبويه ٢/ ٢٦، والدر المصون ٧/ ٥٥٢.

(٣) ما بين حاصرتين من الكتاب والدر المصون.

(٤) في الأصل: بالرفع.

(٥) في الأصل و(م): به، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٨، والكلام منه.

وفي إيرادِ النزل إيماءٌ إلى أنَّ لهم وراءَ جهنَّم من العذاب ما هي أنموذجٌ له، ولا يأبى ذلك قولُه تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الكهف: ١٠٦]؛ لأنَّ المرادَ هناك أنَّها جزاؤهم بما فيها. فافهم.

وقال الزَّجَّاج: النزل موضع النزول[١]. وروي ذلك عن ابن عباس.

وقيل: هو جمعُ نازل، ونصبه على الحال.

وقرأ أبو حيوة وأبو عمرو بخلافٍ عنه: «نُزْلاً» بسكون الزاي[٢].

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ خطابٌ للكفرة، وإذا حُمِل الاستفهامُ على الاستئذان كان فيه من التهكُّم ما فيه، والجمع في صيغة المتكلِّم؛ قيل: لتعيينه من أوَّل الأمر، وللإيذان بمعلوميَّة النبأ للمؤمنين أيضاً.

﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ نصب على التمييز. وجُمِع مع أنَّ الأصل في التمييز الإفراد، والمصدرُ شاملٌ للقليل والكثير كما ذكر ذلك النحاة؛ للإيذان بتنوُّع أعمالهم، وقصد شمول الخسران لجميعها.

وقيل: جُمع لأنَّ ما ذكره النحاة إنَّما هو إذا كان المصدرُ باقياً على مصدريَّته، أمَّا إذا كان مؤوَّلاً باسم فاعل، فإنَّه يعاملُ معاملته، وهنا عمل بمعنى عامل، فجمع على أعمال، والمراد عاملين، والصفةُ تقع تمييزاً، نحو: لله تعالى درُّه فارساً.

وزعم بعضهم أنَّ «أعمالاً» جمع عامل. وتُعقِّب بأنَّ جمع فاعل على أفعال نادرٌ، وقد أنكره بعض النحاة في غير ألفاظٍ مخصوصة؛ كأشهاد جمع شاهد.

وقيل: جمع عَمِل، ككتف، بمعنى ذو عَمَل، كما في «القاموس»[٣]. وهو كما ترى.

وزعم بعضُ المتأخِّرين أنَّه إذا اعتبر «أعمالاً» بمعنى عاملين؛ كان «الأخسرين» بمعنى الخاسرين؛ لأنَّ التمييز إذا كان صفةً كان عبارةً عن المنتصِب عنه، متَّحداً

---

(١) ونصُّ كلام الزجاج، كما في معاني القرآن له ٣/ ٣١٤: ونزلاً بمعنى منزلاً.
(٢) القراءات الشاذة ص٨٢، والبحر المحيط ٦/ ١٦٦.
(٣) مادة (عمل).

معه بالذات، محمولاً عليه بالمواطأة، حتى إنَّ النحاةَ صرَّحوا بأنَّه يحتملُ[1] الحال أيضاً، وهو خبرٌ عن ذي الحال معنًى، ومن البيِّن أنَّ أفعل التفضيل يمتنعُ أن يتَّحدَ مع اسم الفاعل؛ لمكان الزيادة، فحيث وقع اسمُ الفاعل تمييزاً وانتصبَ بـ «أفعل»، وجبَ أنْ يكونَ بمعنى فاعل ليتَّحدا.

وتعقَّبه بعضهم بأنَّ «أفعل» لا يكون مع اللام مُجَرَّداً عن معنى التفضيل، كما أنَّه لا يكون مجرَّداً عنه مع الإضافة، وإنَّما يكون ذلك إذا كان مع «من» كما صرَّح به ابنُ مالك في «التسهيل»[2] وذكره الرضيّ.

ولا يَخفى عليك ما في جميع ذلك من النظر، والحقُّ أنَّ الجمعيَّة ليست إلَّا لما ذكر أوَّلاً. نعم ذكر أبو البقاء أنَّه جمع لكونه منصوباً على أسماء الفاعلين[3]، وأوَّل ذلك بأنَّه أراد باسم الفاعل المعنى اللغويَّ، وأراد أنَّه جمع ليفيد التوزيع. على أنَّه لا يخلو عن شيء.

ثم إنَّ هذا ـ على ما في «إرشاد العقل السليم» ـ بيانٌ لحال الكفرة باعتبار ما صَدَرَ عنهم من الأعمال الحسنة في أنفسها، وفي حِسبانهم أيضاً، حيث كانوا معجبين بها، واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها، غبَّ بيانِ أحوالهم باعتبار أعمالهم السيئة في أنفسها مع كونها حسنة في حسبانهم[4].

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ﴾ أي: ضاعَ وبطل بالكلية عندَ الله عزَّ وجلَّ ﴿سَعْيُهُمْ﴾ في إقامة تلك الأعمال ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلِّق بـ «سعي» لا: «ضَلَّ»؛ لأنَّ بطلان سعيهم غيرُ مختصٍّ بالدنيا.

قيل: المراد بهم أهل الكتابين، وروي ذلك عن ابن عباس وسعد بن أبي وقاص ومجاهد، ويدخل في الأعمال حينئذٍ ما عملوه من الأحكام المنسوخة المتعلِّقة بالعبادات.

---

(١) في (م): يجعل. وهو تحريف.
(٢) ص١٣٤.
(٣) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٠٩.
(٤) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٩.

وقيل: الرهبان الذين يحبسون أنفسهم في الصوامع، ويحملونَها على الرياضات الشاقَّة.

وقيل: الصابئة، وسأل ابنُ الكواء عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه عنهم فقال: منهم أهل حروراء، يعني الخوارج.

واستشكل بأنَّ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلخ يأباهُ؛ لأنَّهم لا ينكرون البعث، وهم غير كفرة.

وأجيب بأنَّ «من» اتصالية، فلا يلزم أن يكونوا متصلين بهم من كلِّ الوجوه، بل يكفي كونهم على الضلال، مع أنَّه يجوزُ أنْ يكون ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ معتقداً لكفرهم، واستُحسِن أنَّه تعريضٌ بهم على سبيل التغليظ، لا تفسير للآية.

والمذكور في «مجمع البيان» أنَّ العياشيَّ روى بسنده أنَّ ابن الكوَّاء سأل أمير المؤمنين كرَّم الله تعالى وجهه عن أهل هذه الآية فقال: أولئك أهلُ الكتاب كفروا بربِّهم، وابتدعوا في دينهم، فحبطت أعمالهم، وما أهل النهر منهم ببعيد[1]. وهذا يؤيِّد الجوابَ الأول، وأخبر أنَّ المراد ما يعمُّ سائر الكفرة.

ومحلُّ الموصول الرفع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف؛ لأنَّه جوابٌ للسؤال، كأنَّه قيل: من هم؟ فقيل: الذين. . إلخ. وجُوِّز أنْ يكون في محل جرٍّ، عطف بيان على «الأخسرين». وجُوِّزَ أنْ يكون نعتاً أو بدلاً، وأنْ يكونَ منصوباً على الذمِّ، على أنَّ الجواب ما سيأتي إنْ شاء الله تعالى من قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ.

وتُعقِّبَ بأنَّه يأبى ذلك أنَّ صدره ليس منبئاً عن خسران الأعمال وضلال السعي، كما يستدعيه مقام الجواب، والتفريعُ الأول، وإنْ دلَّ على هبوطها، لكنَّه ساكتٌ عن إنباءٍ بما هو العمدة في تحقيق معنى الخسران من الوثوق بترتُّب الربح، واعتقادِ النفع فيما صنعوا، على أنَّ التفريع الثاني ممَّا يقطعُ ذلك الاحتمال رأساً، إذ لا مجال لإدراجه تحتَ الأمر بقضية نون العظمة. والجواب عن ذلك لا يتمُّ إلَّا بتكلُّفٍ، فتأمَّل.

---

(١) مجمع البيان ١٦/ ٢١٣.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ الإحسان: الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق، وهو حسنُها الوصفيُّ المستلزمُ لحسنها الذاتي، أي: يعتقدون أنَّهم يعملونَ ذلك على الوجهِ اللائق؛ لإعجابهم بأعمالهم التي سعوا في إقامتها، وكابدوا في تحصيلها.

والجملة حالٌ من فاعل «ضلَّ»، أي: ضلَّ سعيُهم المذكور، والحالُ أنَّهم [يحسبون أنهم][1] يحسنون في ذلك وينتفعون بآثاره، أو من المضاف إليه في «سعيهم»؛ لكونه في محلِّ الرفع، أي: بطل سعيهم والحال أنهم.. إلخ.

والفرقُ بين الوجهين أنَّ المقارِنَ لحال حِسبانهم المذكور في الأول ضلالُ سعيهم، وفي الثاني نفسُ سعيهم. قيل: والأول أدخلُ في بيان خطئهم.

ولا يخفى ما بين «يحسبون» و«يحسنون» من تجنيس التصحيف، ومثل ذلك قولُ البحتري[2]:

ولم يكن المغترُّ بالله إذْ سرى ... ليُعْجِزَ والمعتزُّ بالله طالبه

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ من جنابه تعالى، مسوقٌ لتكميل تعريف «الأخسرين»، وتبيينِ خُسرانهم وضلال سعيهم، وتعيينهم بحيثُ ينطبقُ التعريف على المخاطبين، غيرُ داخلٍ تحت الأمر كما قيل، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر من ضلال السعي والحِسبان المذكور ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بدلائله سبحانه الداعيةِ إلى التوحيد، الشاملة للسمعيَّة والعقليَّة. وقيل: بالقرآن، والأوَّل أولى.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبيَّة لزيادة تقبيح حالهم في الكفر المذكور.

﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ هو حقيقةٌ في مقابلة الشيء ومصادفته، وليس بمراد، والأكثرون على أنَّه كنايةٌ عن البعث والحشر وما يتبع ذلك من أمور الآخرة، أي: لم يؤمنوا بذلك على ما هو عليه.

وقيل: الكلامُ على حذف مضاف، أي: لقاء عذابه تعالى. وليس بذاك.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٩، والكلام منه.
(٢) ديوانه ١/ ٢١٥.

﴿فَحَبِطَتْ﴾ بكسر الباء، وقرأ ابنُ عباس وأبو السمَّال بفتحها[1]، والفاء للتفريع، أي: فحبطت لذلك ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ المعهودة حبوطاً كلياً ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ﴾ أي: لأولئك الموصوفين بما مرَّ من حبوط الأعمال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ أي: فنزدري بهم ونحتقرُهم، ولا نجعلُ لهم مقداراً أو اعتباراً؛ لأنَّ مدارَ الاعتبار والاعتناء الأعمال الصالحة، وقد حبطت بالمرَّة.

وحيث كان هذا الازدراءُ والاحتقارُ من عواقب حبوط الأعمال عُطِفَ عليه بطريق التفريع، وأمَّا ما هو من أجزية الكفر، فسيجيء إنْ شاء الله تعالى بعد ذلك.

وزعم بعضهم أنَّ حقَّه على هذا أنْ يُعطف بالواو عَطْفَ أحد المتفرِّعين على الآخر؛ لأنَّ منشأ ازدرائهم الكفرُ لا الحبوط، وبه اعترض على ذلك، وهو ناشئ من فرط الذهول كما لا يخفى.

أو: لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزاناً؛ لأنَّها قد حبطت وصارت هباءً منثوراً.

ونفي هذا بعد الإخبار بحبوطها من قبيل التأكيد، بخلاف النفي على المعنى الأول، ولذلك رجح عليه، وليس من الاعتزال في شيء.

وقرأ مجاهد وعبيد بن عمير: «فلا يقيم» بالياء[2]؛ لتقدُّم قوله تعالى: (بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ).

وعن عبيد أيضاً: «فلا يَقيم»[3] بفتح ياء المضارعة، كأنَّه جعل قام متعدِّياً.

وعن مجاهد وابن محيصن ويعقوب بخلافٍ عنهم: «فلا يَقومُ لهم يوم القيامة وزنٌ» على أن «يقوم» مضارع قام اللازم، و«وزنٌ» فاعله[4].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥، والبحر المحيط ٦/ ١٦٧، وهي في تفسير القرطبي ١٣/ ٣٩٣ عن ابن عباس فقط.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٧، وهي في المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٥، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٩٣ عن مجاهد، وفي القراءات الشاذة ص٨٢ عن عبيد بن عمير.

(٣) كذا في الأصل و(م). ولعله تصحيف، فقد وقع في المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٦، وتفسير القرطبي ١٣/ ٣٩٣، والبحر المحيط ٦/ ١٦٧ ـ وعنه نقل المصنف ـ والدر المصون ٧/ ٥٥٤ : «يقوم».

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٦٧، وهي في تفسير القرطبي ١٣/ ٣٩٣ عن مجاهد فقط.

﴿ذَلِكَ﴾ بيانٌ لمآل كفرهم وسائر معاصيهم، إثر بيان أعمالهم المحبَطَة بذلك، وهو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الأمر والشأن ذلك، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملةٌ مفسِّرة له، فلا محلَّ لها من الإعراب.

وجُوِّز أن يكون «ذلك» مبتدأ و«جزاؤهم» بدل منه بدلَ اشتمالٍ، أو بدلَ كلٍّ من كلٍّ، إن كانت الإشارة إلى الجزاء الذي في الذهن، و«جهنم» خبره، والتذكير - وإن كان الخبرُ مؤنَّثاً - لأنَّ المشار إليه الجزاء، ولأنَّ الخبر في الحقيقة للبدل.

وأن يكون «ذلك» مبتدأ، و«جزاؤهم» خبره، و«جهنم» عطف بيان للخبر، والإشارة إلى جهنم الحاضرة في الذهن.

وأن يكون مبتدأ، و«جزاؤهم جهنم» مبتدأ وخبر خبرٌ له، والعائدُ محذوف، والإشارة إلى كفرهم وأعمالهم، والتذكيرُ باعتبار ما ذُكر، أي: ذلك جزاؤهم به جهنم.

وتُعقِّب بأنَّ العائد المجرور إنَّما يكثرُ حذفه في مثل ذلك إذا جُرَّ بحرفِ تبعيض[١]، أو ظرفيَّةٍ، أو جرَّ عائدٌ قبلَه بمثل ما جُرَّ به، كقوله:

... فـالـذي تُـدْعَـى بـه أنـت مـفـلـحُ[٢]

أي: به.

وجَوَّز أبو البقاء[٣] أن يكون «ذلك» مبتدأ، و«جزاؤهم» بدل أو عطف بيان، و«جهنم» بدل من جزاء، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو جهنم، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ خبرُ «ذلك». وقال بعد أن ذكرَ من وجوه الإعراب ما ذَكر: إنَّه لا يجوز أن يتعلَّق الجارُّ بـ «جزاؤهم» للفصل بينهما بـ «جهنم».

---

(١) في الأصل و(م): بتبعيض، والمثبت من الدر المصون ٧/ ٥٥٥، وجاء في حاشية الشهاب ٦/ ١٣٩: إذا جُرَّ بتبعيض. . . .

(٢) أورده السمين في الدر المصون ٧/ ٥٥٥، والشهاب في الحاشية ٦/ ١٣٩، وعزاه محقق الدر إلى كتاب المساعد لابن عقيل ١/ ٢٣٤، وتمامه:

أصـخ فـالـذي تدعى بـه أنـت مـفـلـحُ   فـلا تـك إلَّا فـي الـفـلاح مـنـافـسـاً

(٣) في الإملاء ٣/ ٥٤١.

وقيل: الظاهر تعلُّقه به، ولا يضرُّ الفصل في مثل ذلك، وهو تصريحٌ بأنَّ ما ذُكر جزاءٌ لكفرهم المتضمِّن لسائر القبائح التي أنبأ عنها قوله تعالى المعطوف على «كفروا»: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي: مهزوءاً بهما، فإنَّهم لم يقنعوا بمجرَّد الكفر بالآيات والرسل عليهم السلام، بل ارتكبوا مثلَ تلك العظيمة أيضاً.

وجُوِّزَ أنْ تكون الجملةُ مستأنفةً. وهو خلاف الظاهر.

والمراد من «الآيات» قيل: المعجزات الظاهرة على أيدي الرسل عليهم السلام، والصحف الإلهية المنزلةُ عليهم عليهم الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بيانٌ بطريق الوعد لمآل الذين اتَّصفوا بأضداد ما اتَّصف به الكفرة، إثر بيان ما لهم بطريق الوعيد، أي: إنَّ الذين آمنوا بآيات ربهم ولقائه سبحانه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الأعمال ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده، فالمضيُّ باعتبار ما ذكر.

وفيه ـ على ماقال شيخ الإسلام ـ إيماءٌ إلى أنَّ أثرَ الرحمة يصلُ إليهم بمقتضى الرأفة الأزليَّة، بخلاف ما مرَّ من جعل جهنَّم للكافرين نزلاً، فإنَّه بموجب ما حدث من سوء اختيارهم[١].

وقيل: يجوزُ أنْ يكون ما وعدوا به لتحقُّقه نُزِّلَ منزلةَ الماضي، فجيء بـ «كان» إشارةً إلى ذلك.

ولم يقل: أعتدنا لهم، كما قيل فيما مرَّ؛ للإشارة إلى أنَّ أمرَ الجنات لا يكادُ يتمُّ، بل لا يزال ما فيها يزدادُ، فإنَّ إعتاد[٢] الشيء وتهيئتَه يقتضي تماميَّة أمره وكماله، وقد جاء في الآثار أنَّه يُغْرَس للمؤمن بكلِّ تسبيحةٍ يسبِّحُها شجرةٌ في الجنة[٣].

وقيل: التعبيرُ بما ذُكر أظهرُ في تحقُّق الأمر من التعبير بالإعتاد، ألا ترى أنَّه قد تُهيَّأ دارٌ لشخصٍ ولا يسكنها، ولا يخلو عن لطفٍ فافهم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٠.

(٢) في الأصل: اعتبار.

(٣) يشير إلى ما أخرجه الترمذي (٣٤٦٤) من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة».

﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد أنَّ الفردوسَ هو البستان بالروميَّة(١).

وأخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ أنَّه الكَرْمُ بالنبطية، وأصله فرداسا(٢).

وأخرج ابن أبي شيبةَ وغيره عن عبد الله بن الحارث أنَّ ابن عباس سأل كعباً عن الفردوس فقال: هي جنَّةُ الأعناب بالسريانية(٣).

وقال عكرمة: هي الجنَّة بالحبشيَّة.

وقال القفال: هي الجنة الملتفَّةُ بالأشجار.

وحَكى الزَّجَّاج أنَّها الأودية التي تُنبت ضروباً من النبات(٤).

وقال المبرّد: هي فيما سمعت من العرب الشجرُ الملتفُّ، والأغلب عليه العنب.

ونصَّ الفرَّاء(٥) على أنَّه عربيٌّ أيضاً، ومعناه البستان الذي فيه كرم، وهو ممَّا يذكَّر ويؤنَّث.

وزعم بعضُهم أنَّها لم تُسمع في كلام العرب إلَّا في قول حسان:

وإنَّ ثوابَ الله كلَّ موحِّدٍ ... جنانٌ من الفردوس فيها يخلَّدُ(٦)

وهو لا يصح، فقد قال أميَّةُ بن أبي الصلت:

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً ... فيها الفراديسُ ثم الفوم والبصلُ(٧)

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٤، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٤٣٢.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٥٤.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٥٤، وهو في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٤٩ من طريق عبد الله بن الحارث عن كعب، ولم يذكر ابن عباس، وليس فيه قوله: بالسريانية.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٤-٣١٥.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣١.

(٦) ديوان حسان بن ثابت ص٩٢، طبعة دار صادر.

(٧) ديوان أمية بن أبي الصلت ص٩٨. وفيه: والفومان. بدل: ثم الفوم.

وجاء في شعر جرير في أبياتٍ يَمدحُ بها خالد بن عبد الله القسريّ، حيث قال:

وإنَّا لنرجو أن نرافقَ رفقة ... يكونون في الفردوس أوَّل واردِ[(١)]

وممَّا سمعه أهلُ مكة قبل إسلام سعد قولُ هاتف:

أجيبا إلى داعي الهدى وتمنَّيا ... على الله في الفردوس مُنيةَ عارفِ[(٢)]

والحق أنَّ ذكرَها في شعر الإسلاميين كثيرٌ، وفي شعر الجاهليين قليل.

وأخرج البخاريُّ ومسلم وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس، فإنَّه وسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه[(٣)] تفجَّر أنهار الجنة»[(٤)].

وعن أبي عبيدة بن الجرَّاح مرفوعاً: «الجنَّة مئة درجةٍ، ما بينَ كلِّ درجتين ما بين السماء والأرض، والفردوسُ أعلى الجنة، فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس»[(٥)].

وروي عن كعب أنَّه ليس في الجنَّة أعلى من جنَّة الفردوس، وفيها الآمرونَ بالمعروف والناهونَ عن المنكر[(٦)].

وصحَّ أنَّ أهل الفردوسِ ليسمعونَ أطيط العرش[(٧)].

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٦٠٤. وفيه: ترافق، بدل: نرافق.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في هواتف الجنان (٧٥)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٢٥٣، والضمير في «أجيبا» يعود على سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رضي الله عنهما.

(٣) في (م): ومنها.

(٤) صحيح البخاري (٢٧٩٠)، ولم أره في صحيح مسلم، والمصنف تبع السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٥٤ في نسبته لمسلم. وانظر تحفة الأشراف ١٠/ ٢٧٨. وسلف بعضه ٤/ ٥٧.

(٥) أخرجه النجاد في جزء التراجم، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٥٤-٢٥٥.
وأخرج الترمذي (٢٥٣٠)، وابن ماجه (٤٣٣١)، وأحمد (٢٢٠٨٧) نحوه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، وأخرج الترمذي (٢٥٣١)، وأحمد (٢٢٦٩٥) نحوه أيضاً من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٤٣١، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٨٠.

(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٩٦٦) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٨: وفيه جعفر بن الزبير وهو متروك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً: «الفردوسُ مقصورةُ الرحمن»[(١)].

وكلُّ ذلك لا ينافي كونَ الفردوس في اللغة البستان كما تُوهِّم، إذ لا مانعَ من أن يكون أعلى الجنة بستاناً، لكنَّه لكونه في غاية السعة أُطلِق على كلِّ قطعةٍ منه جنَّة، فقيل: جنَّات الفردوس، كذا قيل.

واستُشكِل بأنَّ الآيةَ حينئذٍ تُفيدُ أنَّ كلَّ المؤمنين في الفردوس المشتمل على جنات، وهذا لا يصحُّ على القول بأنَّ الفردوسَ أعلى الدرجات، إذ لا شبهةَ في تفاوت مراتبهم. وكونُ المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات طائفةً مخصوصةً من مطلق المؤمنين، مع كونه في مقابلة الكافرين = ليس بشيء.

وقال أبو حيان: الظاهرُ أنَّ معنى «جنَّات الفردوس»: بساتينُ حول الفردوس، ولذا أضيفت الجنَّاتُ إلى الفردوس[(٢)].

وأنت تعلم أنَّ هذا لا يشفي الغليل؛ لما أنَّ الآيةَ حينئذٍ تفيدُ أنَّ جميع المؤمنين في جناتٍ حول الفردوس، ومن المعلوم أنَّ منهم من هو في الفردوس.

وقيل: الأمر كما ذكر أبو حيَّان، إلَّا أنَّه يلتزم الاستخدام في الآية، بأن يراد مطلق الجنَّات فيما بعد. وفيه ـ مع كونه خلافَ الظاهر ـ ما لا يخفى.

وقيل: المراد من جنَّات الفردوس جميع الجنات، والإضافة إلى الفردوس التي هي أعلاها باعتبار اشتمالها عليها، ويكفي في الإضافة هذه الملابسة.

ولعلك تختارُ أنَّ الفردوسَ في الآثار بمعنًى، وفي الآية بمعنًى آخر، وتختار من معانيه ما تكلف في الإضافة فيه، كالشجر الملتفّ ونحوه، وظاهرُ بيت حسان وبيت أمية شاهدٌ على أنَّ للفردوس معنًى غير ما جاء في الآثار، فليتدبَّر.

واعلم أنَّه استشكل أيضاً ما جاء من أمر السائل بسؤال الفردوس لنفسِه، مع كونه أعلى الجنَّة، بخبر أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا صلَّيتم عليَّ، فاسألوا الله

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٤.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٨.

تعالى ليَ الوسيلة؛ أعلى درجةٍ في الجنَّة، لا ينالها إلَّا رجلٌ واحدٌ، وأرجو أنْ أكون أنا هو»(١).

وأجيبَ بأنَّه لا مانعَ من انقسام الدرجة الواحدة إلى درجات بعضُها أعلى من بعض، وتكون الوسيلةُ عبارةً عن أعلى درجات الفردوس التي هي أعلى درجات الجنان، ونظيرُ ذلك ما قيل في حدِّ الإعجاز، فتذكَّر.

وقيل: المراد من الدرجة في حديث الوسيلة درجةُ المكانة لا المكان، بخلافها فيما تقدَّم، فلا إشكال.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوف؛ على أنَّه حالٌ من قوله تعالى: (نُزُلًا)، أو على أنه بيانٌ كما في: سقياً(٢) لك، وخبر «كان» في الوجهين «نزلاً»، أو على أنَّه الخبر، و«نزلاً» حالٌ من «جنات»، فإنْ جُعل بمعنى ما يُهيَّأ للنازل، فالمعنى: كانت لهم ثمارُ جنات الفردوس نزلاً أو جعلت نفسُ الجنات نزلاً، مبالغةً في الإكرام، وفيه إيذانٌ بأنَّها عند ما أعدَّ الله تعالى لهم على لسان النبوة من قوله تعالى: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر»(٣) = بمنزلةِ النزل بالنسبة إلى الضيافة، وإنْ جعلت بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصب على الحالية، وهي حالٌ(٤) مقدَّرةٌ عند البعض، وحقق أنَّها حالٌ مقارنة، والمعتبر في المقارنة زمانُ الحكم، وهو كونهم في الجنَّة، وهم بعد حصولهم فيها مقارنون له، إذ لا آخر له، فتأمَّل ولا تغفل.

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ هو - كما قال ابن عيسى وغيره - مصدرٌ كالعِوَج والصغر والعِوَد في قوله: عادني حبها عِوَداً(٥)، أي: لا يطلبون عنها تحوُّلاً، إذ

---

(١) مسند أحمد (٧٥٩٨) من طريق ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، به وأخرجه الترمذي (٣٦١٢) دون قوله: «إذا صلَّيتم عليَّ» وقال: هذا حديث غريب، إسناده ليس بالقوي، وكعب ليس هو بمعروف، ولا نعرف أحداً روى عنه غير ليث بن أبي سليم. اهـ. وليث بن أبي سليم ضعيف، ولسؤال الوسيلة للنبي ﷺ شاهد من حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم (٣٨٤).

(٢) في (م): سعيا.

(٣) سلف ١٤/٣٦.

(٤) لفظة: حال. ليست في (م).

(٥) في الأصل: عادني من حبها عِوَد.

لا يُتصوَّر أنْ يكون شيءٌ أعزَّ عندهم وأرفع منها حتى تنازعهم إليه أنفسهم، وتطمح عنه أبصارهم، وإن تفاوتت درجاتهم، والحاصلُ أنَّ المراد من عدم طلب التحوُّل عنها كونُها أطيبَ المنازل وأعلاها.

وقال ابن عطيَّة: كأنَّه اسم جمع، وكأنَّ واحده حوالة[1]. ولا يخفى بعده.

وقال الزَّجَّاج عن قوم: هو بمعنى الحيلة في التنقل[2]. وهو ضعيفٌ متكلَّفٌ.

وجُوِّزَ أنْ يُراد نفيُ التحوُّل والانتقال، على أنْ يكون تأكيداً للخلود؛ لأنَّ عدمَ طلب الانتقال مستلزمٌ للخلود، فيؤكِّده، أو لأنَّ الكلامَ على حدِّ:

ولا تـرى الـضـبَّ بـهـا يـنـجـحـر[3]

أي: لا يتحوَّلون عنها فيبغوه.

وقيل في وجه التأكيد: إنهم إذا لم يريدوا الانتقال لا ينتقلون؛ لعدم الإكراه فيها، وعدم إرادة النقلة عنها، فلم يبق إلَّا الخلود، إذ لا واسطة بينهما كما قيل.

والجملة حالٌ من صاحب «خالدين»، أو من ضميره فيه، فتكون حالاً متداخلة، وفيها إيذانٌ بأنَّ الخلودَ لا يورثهم مللاً.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي: جنسُ البحر ﴿مِدَادًا﴾ هو في الأصل اسمٌ لكلِّ ما يُمَدُّ به الشيء، واختصَّ في العرف لما تُمَدُّ به الدواةُ من الحبر.

﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ أي: معدًّا لكتابة كلماته تعالى، والمراد بها ـ كما روي عن قتادة ـ معلوماتُه سبحانه، وحكمته عزَّ وجلَّ.

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ مع كثرته، ولم يبق منه شيءٌ لتناهيه ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ لعدم تناهيها.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ عوناً وزيادةً؛ لأنَّ مجموعَ المتناهيين متناهٍ، بل

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٥٤٦.

(٢) انظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١٥.

(٣) عجز بيت لعمرو بن أحمر سلف عند تفسير الآية (١٥١) من سورة آل عمران، وصدره:

لا تُـفْـزِعِ الأرنـبَ أهـوالُـهـا

جميعُ ما يدخل في الوجود على التعاقب أو الاجتماع متناهٍ ببرهان التطبيق وغيره من البراهين.

وهذا كلامٌ من جهته تعالى شأنُه غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، جيء به لتحقيق مضمونه وتصديق مدلوله على أتمِّ وجه.

والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها، المحذوفةِ لدلالة المذكور عليها دلالةً واضحةً، أي: لنفدَ البحرُ قبلَ أن تنفدَ كلماته تعالى، لو لم نجئ بمثله مدداً، ولو جئنا بمثله مدداً. والكلام في جواب «لو» مشهور.

وليس قوله تعالى: (قَبْلَ أَن تَنفَدَ) للدلالة على أنَّ ثَمَّ نفاداً في الجملة محقَّقاً أو مقدَّراً؛ لأنَّ المراد منه: لنفِدَ البحرُ وهي باقيةٌ، إلَّا أنَّه عدلَ إلى المنزَّل لفائدةِ المزاوجة، وأنَّ ما لا ينفدُ عند العقول العامية ينفدُ دون نفادها، وكلّما فرضتَ من المدِّ فكذلك، والمِثْلُ للجنس شائعٌ على أمثالٍ كثيرةٍ تُفْرَض كلٌّ منه مدداً، وهذا كما في «الكشف» أبلغُ من وجهٍ من قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]، وذلك أبلغ من وجهٍ آخر، وهو ما في تخصيصِ هذا العدد من النكتة، ولم يرد تخصيص العدَّة، ثمَّ فيه زيادةُ تصوير لما استقرَّ في عقائد العامَّة من أنَّها سبعةٌ، حتى إذا بالغوا فيما يتعذَّرُ الوصول إليه قالوا: هو خلفَ سبعة أبحر.

وفي إضافة الكلماتِ إلى اسم الربِّ المضافِ إلى ضميره ﷺ في الموضعين من تفخيم المضافِ وتشريف المضاف إليه ما لا يخفى.

وإظهارُ البحر والكلمات في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

ونصب «مدداً» على التمييز كما في قوله:

فإنَّ الهوى يَكْفِيكَه مثله صبرا(١)

---

(١) هو في البحر المحيط ٦/ ١٦٩، والدر المصون ٧/ ٥٥٨، واللباب ١٢/ ٥٧٨ دون نسبة. ونسبه المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ٢/ ٣٨٣ لجرير، وصدره:

إذا خفت يوماً أن يلج بك الهوى

وليس في ديوانه.

وجَوّز أبو الفضل الرازيُّ نصبه على المصدر، على معنى: ولو أمددنا بمثله إمداداً، وناب المدد عن الإمداد على حدٍّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] وفيه تكلُّفٌ.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وعمرو بن عبيد والأعمشُ وطلحة وابنُ أبي ليلى: «قبل أنْ ينفدَ» بالياء آخر الحروف[١].

وقرأ السلميُّ: «أن تنفَّد» بالتشديد على تفعَّل على المضي، وجاء كذلك عن عاصم وأبي عمرو فهو مطاوع نَفَّد مشدداً، نحو كسَّرته فتكسَّر[٢].

وقرأ الأعرجُ: «بمثله مِدداً» بكسر الميم[٣]، على أنَّه جمع مُدَّة، وهو ما يستمدُّه الكاتب فيكتب به.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس ومجاهد، والأعمش بخلاف، والتيميُّ وابن محيصن وحميد، والحسن في روايةٍ، وأبو عمرو كذلك، وحفص كذلك أيضاً: «مِدَاداً» بألف بين الدالين وكسر الميم[٤].

وسبب النزول أنَّ حيي بن أخطب ـ كما رواه الترمذيُّ عن ابن عباس[٥] ـ قال: في كتابكم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] ثم تقرؤون: (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[٦]. ومراده الاعتراض بأنَّه وَقع في كتابكم تناقضٌ بناءً

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٦٩، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٦. وهي أيضاً قراءة خلف من العشرة.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٩، والدر المصون ٧/ ٥٥٧-٥٥٨. وقراءة عاصم وأبي عمرو المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.

(٣) القراءات الشاذة ص٨٢، والكشاف ٢/ ٥٠١، والبحر المحيط ٦/ ١٦٩.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٦٩، وانظر القراءات الشاذة ص٨٢، والمحتسب ٢/ ٣٥.

(٥) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٦/ ١٤١، ولم نقف عليه في سنن الترمذي، وينظر التعليق الذي بعده.

(٦) أورده بهذا اللفظ الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٠١، ولم يعزه.
وأخرج الترمذي (٣١٤٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه عن الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].
=

على أنَّ الحكمةَ هي العلم، وأنَّ الخير الكثير هو عينُ الحكمة لا آثارها وما يترتَّب عليها؛ لأنَّ الشيءَ الواحد لا يكون قليلاً وكثيراً في حالةٍ واحدة، فالآية جوابٌ عن ذلك بالإرشاد إلى أنَّ القلَّة والكثرةَ من الأمور الإضافيَّة، فيجوز أن يكون الشيء كثيراً في نفسه، وهو قليلٌ بالنسبة إلى شيءٍ آخر، فإنَّ البحر مع عظمته وكثرته خصوصاً إذا ضُمَّ إليه أمثاله قليلٌ بالنسبة إلى كلماته عزَّ وجلَّ.

وقيل: سبب ذلك أنَّ اليهود قالوا للرسول ﷺ: كيف تزعم أنَّك نبيُّ الأمم كلِّها، ومبعوثٌ إليها، وأنك أُعطيتَ من العلم ما يحتاجه الناس، وقد سئلتَ عن الروح فلم تُجب فيه؟ ومرادهم الاعتراض بالتناقض بين دعواه عليه الصلاة والسلام وحاله في زعمهم، بناءً على أنَّ العلم بحقيقة الروح ممَّا يحتاجُه الناس، وأنه ﷺ لم يفده عبارةً ولا إشارة. والجواب عن هذا منعُ كون العلم بحقيقة الروح ممَّا يحتاجُه الناس في أمر دينهم المبعوث له الأنبياء عليهم السلام، والقائل: «أنتم أعلمُ بأمور دنياكم»[1] لا يدَّعي علمَ ما يحتاجُه الناس مطلقاً. وأنت تعلم أنَّ الآيةَ لا تكونُ جواباً عمَّا ذُكر على تقدير صحَّة كونِ ذلك سببَ النزول إلَّا بضمِّ الآية الآتية إليها، ومع هذا يَحتاجُ ذلك إلى نوع تكلُّف.

﴿قُلْ﴾ بعد أنْ بيَّنتَ شأن كلماته عزَّ شأنه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدَّعي الإحاطة بكلماته جلَّ وعلا ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من تلك الكلمات ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وإنَّما تميَّزتُ عنكم بذلك، و«أنْ» المفتوحة ـ وإنْ كُفَّت بـ «ما» ـ في تأويل المصدر القائم مقام فاعل «يُوحَى»، والاقتصارُ على ما ذُكر لأنَّه ملاك الأمر.

والقصرُ في الموضعين ـ بناءً على القول بإفادة «إنَّما» بالكسر و«أنَّما» بالفتح الحصرَ ـ من قصر الموصوف على الصفة قصرَ قلب، والمقصور عليه في الأول «أنا»، والمقصور البشريَّةُ مثل المخاطبين، وهو على ما قيل مبنيٌّ على تنزيلهم ـ لاقتراحهم عليه عليه الصلاة والسلام ما لا يكون من بشرٍ مثلِهم ـ منزلةَ من

= قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة، فقد أوتي خيراً كثيراً، فأنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ إلى آخر الآية.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(١) سلف ١٤/ ٢٦٣.

يعتقدُ خلافَه، أو على تنزيلهم منزلةَ من ذُكر؛ لزعمهم أنَّ الرسالة التي يدَّعيها ﷺ مبرهنةٌ بالبراهين الساطعة تنافي ذلك.

وقيل: إنَّ المقصودَ بأنْ يقصر عليه الإيحاء إليه ﷺ على معنى أنَّه ﷺ مقصورٌ على إيحاء ذلك إليه[1]، لا يتجاوزه إلى عدم الإيحاء، كما يزعمون.

والمقصور في[2] الثاني «إلهكم» أي: معبودكم بالحقِّ[3]، والمقصور عليه الوحدانية المعبَّر عنها بـ «إله واحد» أي: لا يتجاوزُ معبودُكم بالحقِّ تلك الصفة التي هي الوحدانية ـ أي: الوحدة في الألوهية ـ إلى صفةٍ أخرى كالتعدُّد فيها الذي تعتقدونه أيُّها المشركون.

وزعم بعضُهم أنَّ القصرَ في الثاني من قصر الصفة على الموصوف قصرَ إفراد، وأنَّ المقصور الألوهيَّة مصدر «إلهكم»، والمقصور عليه هو الله تعالى المعبَّر عنه بـ «إله واحد». ولا يخفى ما فيه من التكلُّف والعدول عما هو الأليق.

وممَّا يوضح ما ذكرنا أنَّه لو قيل: إنَّما إلهكم واحدٌ، لم يكن إلَّا من قصر الموصوف على الصفة، فزيادة «إله» للتوطئة للوصف بـ «واحد»، والإشارةُ إلى أنَّ المرادَ الوحدةُ في الألوهية لا تُغيِّرُ ذلك.

وأمَّا جعله من قصر الصفة على الموصوف قصرَ إفراد، على أنَّ الله تعالى هو المقصور عليه، والوحدانيَّةُ هي المقصور، فباطلٌ قطعاً؛ لأنَّ قصر الصفة على الموصوف كذلك إنَّما يُخاطَب به من يعتقدُ اشتراكَ الصفة بين موصوفَين ـ كما تقرَّر في محلِّه ـ وهذا الاعتقادُ لا يُتصوَّر هنا من عاقلٍ؛ لبداهة استحالة اشتراك موصوفين في الوحدانية، أي: الوحدة في الألوهية، وما يوهم إرادة هذا القصر من كلام الزمخشريِّ في نظير هذه الآية مؤوَّلٌ كما لا يخفى على المنصف.

وجُوِّزَ أنْ يكون من قصر التعيين، وليس بذاك، فتأمَّل جميع ذلك، والله تعالى يتولَّى هداك.

---

(١) في الأصل: عليه.
(٢) لفظة: في. ليست في (م).
(٣) في (م): الحق.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الرجاءُ: طمعُ حصول ما فيه مسرَّةٌ في المستقبل، ويستعمل بمعنى الخوف، وأنشدوا:

إذا لسعَتْهُ النحلُ لم يرجُ لَسْعَها وحالفها في بيت نُوبٍ عواملِ[1]

ولقاءُ الربِّ سبحانه هنا؛ قيل: مَثَلٌ للوصول إلى العاقبة؛ من تلقِّي ملك الموت، والبعث، والحساب، والجزاء، مُثِّلت تلك الحالُ بحال عبدٍ قَدِم على سيِّده بعد عهدٍ طويل، وقد اطَّلع مولاهُ على ما كان يأتي ويَذر، فإمَّا أن يلقاه ببشرٍ وترحيب؛ لما رَضِيَ من أفعاله، أو بضدِّ ذلك؛ لما سخطه منها، فالمعنى على هذا وحَمْلِ الرجاء على المعنى[2] الأول: من كان يأمل تلك الحال، وأنْ يلقى فيها الكرامةَ من ربِّه تعالى والبشرى ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ لتحصيل ذلك والفوز به ﴿عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

وقيل: هو كنايةٌ عن البعث وما يتبعُه، والكلامُ على حذف مضاف، أي: من كان يؤمِّلُ حسنَ البعث، فليعمل إلخ.

وقيل: لا حذف، والمراد: من توقَّعَ البعث فليعمل صالحاً، أي: إنَّ ذلك العمل مطلوبٌ ممَّن يتوقَّع البعثَ، فكيف من يتحقَّقه؟!

وقيل: اللقاءُ على حقيقته، والكلام على حذف مضاف أيضاً، أي: من كان يؤمِّلُ لقاءَ ثواب ربِّه فليعمل.. إلخ.

وقيل: المراد منه رؤيته سبحانه، أي: من كان يؤمِّل رؤيتَه تعالى يومَ القيامة وهو راضٍ عنه فليعمل.. إلخ.

وجُوِّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف، على معنى: من خاف سوء لقاءِ ربِّه، أو خافَ لقاءَ جزائه تعالى فليعمل.. إلخ.

وتفسير الرجاء بالطمع أولى، وكذا كون المرجوِّ الكرامة والبشرى، وعلى هذا فإدخالُ الماضي على المستقبل للدلالة على أنَّ اللائقَ بحال العبد الاستمرارُ والاستدامة على رجاء الكرامة من ربِّه، فكأنَّه قيل: فمن استمرَّ على رجاء كرامتِه

---

(١) سلف ١١/٣٨.

(٢) قوله: المعنى. ليس في الأصل.

تعالى، فليعمل عملاً صالحاً في نفسه، لائقاً بذلك المرجوِّ، كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ إشراكاً جليّاً، كما فعله الذين كفروا بآيات ربِّهم ولقائِه، ولا إشراكاً خفيًّا، كما يفعلُه أهلُ الرياء، ومن يطلب بعمله دنيا. واقتصر ابنُ جبير على تفسير الشرك بالرياء، وروي نحوُه عن الحسن.

وصحَّ في الحديث تسميتُه بالشرك الأصغر[(١)]، ويؤيِّدُ إرادةَ ذلك تقديمُ الأمر بالعمل الصالح على هذا النهي، فإنَّ وجهه حينئذٍ ظاهرٌ؛ إذ يكون الكلام في قوَّة قولك: من كان يرجو لقاء ربِّه فليعمل عملاً صالحاً في نفسه، ولا يراءِ بعمله أحداً فيفسده. وكذا ما روي من أنَّ جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ: إنِّي أعملُ العملَ لله تعالى، فإذا اطُّلِع عليه سرَّني، فقال[(٢)]: «إنَّ الله تعالى لا يقبلُ ما شُورك فيه» فنزلت الآية تصديقاً له ﷺ[(٣)].

نعم لا يأبى ذلك إرادة العموم كما لا يخفى. وقد تضافرت الأخبار أنَّ كلَّ عملٍ عُمِل لغرضٍ دنيويٍّ لا يقبل، فقد أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ يرويه عن ربه تعالى أنَّه قال: «أنا خيرُ الشركاء، فمن عمل عملاً أشركَ فيه غيري فأنا بريءٌ منه، وهو للذي أشرك»[(٤)].

وأخرج البزَّار والبيهقيُّ عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تُعرَضُ أعمال بني آدم بين يدي الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة في صحفٍ مختَّمة، فيقول الله تعالى: ألقوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يا ربِّ، والله ما رأينا منه إلَّا خيراً، فيقول الله سبحانه: إنَّ عملَه كان لغير وجهي، ولا أقبلُ اليومَ من العمل إلَّا ما أُريدَ به وجهي»[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦٣٠)، (٢٣٦٣١)، (٢٣٦٣٦) عن محمود بن لبيد.

(٢) بعدها في (م): لي.

(٣) قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٠٥: ذكره الواحدي في أسباب النزول [ص٣٠٨] عن ابن عباس ولم يَسُقْ سنده.

(٤) مسند أحمد (٧٩٩٩)، وصحيح مسلم (٢٩٨٥). وسلف ١٤/ ٤٥٨.

(٥) مسند البزار (٣٤٣٥ - كشف الأستار)، وشعب الإيمان (٦٨٣٦). وأخرجه أيضاً الطبراني في الأوسط (٢٦٠٣) و(٦١٣٣)، والدارقطني في السنن (١٣٢).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٠: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، ورواه البزار.

وأخرج أحمد والنسائيُّ وابنُ حبان والطبرانيُّ والحاكم وصحَّحه عن يحيى بن الوليد بن عبادة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «من غزا وهو لا ينوي في غزاته إلَّا عقالاً، فله ما نوى»[١].

وأخرج أبو داود والنسائيُّ والطبرانيُّ بسندٍ جيِّدٍ عن أبي أمامة قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ فقال: أرأيتَ رجلاً غزا يلتمسُ الأجرَ والذكر، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له»، فأعادها ثلاثَ مرار، يقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: «لا شيء له»، ثم قال: «إنَّ الله تعالى لا يقبلُ من العمل إلَّا ما كان له خالصاً، وابتُغِيَ به وجهه»[٢]. إلى غير ذلك من الأخبار.

واستُشكِل كونُ السرور بالعمل إشراكاً فيه محبطاً له، مع أنَّ الإتيان به ابتداءً كان بإخلاص النية، كما يدلُّ عليه: إنِّي أعملُ العمل لله تعالى.

وأجيبَ بما أشار إليه في «الإحياء» من أنَّ العمل لا يخلو إذا عُمِلَ من أن ينعقدَ من أوَّله إلى آخره على الإخلاص من غير شائبةِ رياء، وهو الذهبُ المصفَّى، أو ينعقدَ من أوَّله إلى آخره على الرياء، وهو عملٌ محبَطٌ لا نفع فيه، أو ينعقدَ من أوَّل أمره إلى الإخلاص، ثم يطرأ عليه الرياء، وحينئذٍ لا يخلو طروُّه عليه من أن يكون بعد تمامه أو قبلَه، والأوَّل غيرُ مُحبِطٍ، لا سيما إذا لم يتكلَّف إظهاره، إلَّا أنَّه إذا ظهرت رغبةٌ وسرورٌ تامٌّ بظهوره يُخشى عليه، لكن الظاهر أنه مثابٌ عليه، والثاني ـ وهو المراد هنا ـ فإن كان باعثاً له على العمل أو مؤثِّراً فيه فسدَ ما قارنه وأحبطَه، ثمَّ سرى إلى ما قبله[٣].

---

(١) مسند أحمد (٢٢٦٩٢)، والمجتبى ٦/ ٢٤، وصحيح ابن حبان (٤٦٣٨)، والمستدرك ٢/ ١٠٩.

(٢) أخرجه النسائي ٦/ ٢٥، والطبراني في الكبير (٧٦٢٨). ولم أقف عليه في سنن أبي داود. وانظر تحفة الأشراف ٤/ ١٦٨، وتبع المصنفُ السيوطيَّ في الدر المنثور ٤/ ٢٥٦، في عزوه له.

ونسبه لأبي داود أيضاً المنذري في الترغيب والترهيب (١٩٩١)، وابن حجر في فتح الباري ٦/ ٢٨. وقال ابن القطان كما في فيض القدير ٢/ ٢٧٥: إنه ليس عنده. وفي سنن أبي داود قريبٌ منه من حديث أبي هريرة برقم (٢٥١٦).

(٣) انظر الإحياء ٣/ ٣٠٧-٣٠٨.

وأخرج ابنُ منده وأبو نعيم في «الصحابة» وغيرهما من طريق السُّدِّيِّ الصغير، عن الكلبيِّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان جندب بن زهير إذا صلَّى أو صام أو تصدَّق فذُكِرَ بخيرٍ ارتاحَ له، فزاد في ذلك لمقالة الناس، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ الآية[١]، ولا شكَّ أنَّ العملَ الذي يقارِنُ ذلك محبَطٌ.

وذكر بعضُهم: قد يثاب الرجل على الإعجاب إذا اطّلع على عمله، فقد رَوى الترمذيُّ وغيره عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله إني أعملُ العمل فيُطَّلع عليه، فيعجبني، فقال عليه الصلاة والسلام: «لك أجران؛ أجر السرِّ، وأجرُ العلانية»[٢].

وهذا محمولٌ على ما إذا كان ظهورُ عمله لأحدٍ باعثاً له على عمل مثله والاقتداء به فيه ونحو ذلك، ولم يكن إعجابُه بعمله ولا بظهوره، بل بما يترتَّب عليه من الخير، ومثله دفع سوء الظنّ، ولذا قيل: ينبغي لمن يُقتَدى به أنْ يُظهِر أعماله الحسنة.

والظاهر أنَّ النبيَّ ﷺ علم حال كلٍّ من هذا الرجل وجندب بن زهير، فأجابَ كلّاً على حسب حاله، وما ألطف جوابه عليه الصلاة والسلام لجندب، كما لا يخفى على الفطن.

وأخرج ابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن عباس ﷺ أنَّه قال: أنزلت الآيةُ في المشركين الذين عَبدوا مع الله تعالى إلهاً غيره، وليست في المؤمنين[٣].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٥، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١١/ ٣٠٤ والكلبي وكذا السدي الصغير ـ وهو محمد بن مروان ـ متهمان بالكذب.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٨٤)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٤٢٢٦)، وابن حبان في صحيحه (٣٧٥). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقد رَوَى الأعمش وغيره عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي صالح عن النبي ﷺ مرسلاً. وأصحاب الأعمش لم يذكروا فيه عن أبي هريرة ﷺ. وقال ابن أبي حاتم في العلل ١/ ١٠١-١٠٢: قال أبي: الصحيح عندي مرسل.
وكذا رجح أبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٥٠، والدارقطني في العلل ٨/ ١٨٣-١٨٤ المرسل.
وانظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٠٥.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٥٥، وهو في شعب الإيمان (٦٨٥٣).

وهو ظاهرٌ في أنَّه حمل الشرك على الجليّ، وأنت تعلم أنَّه لا يظهرُ حينئذٍ وجهُ تقديم الأمر بالعمل الصالح على النهي عن الشرك المذكور إلَّا بتكلُّفٍ، فلعلَّ العموم أولى، وإن كان الشرك أكثر شيوعاً في الشرك الجليّ.

ويدخل في العموم قراءة القرآن للموتى بالأجرة، فلا ثواب فيها للميِّت ولا للقارئ أصلاً، وقد عمَّت البلوى بذلك، والناس عنه غافلون، وإذا نُبِّهوا لا يتنبَّهون، فإنَّا لله تعالى وإنَّا إليه راجعون.

وقد بالغ في العموم من جعل الاستعانة في الطاعات كالوضوء شركاً منهيّاً عنه، فقد قال الراغب في «المحاضرات»: إنَّ عليَّ بن موسى الرضا ﷺ كان عند المأمون، فلمَّا حضر وقتُ الصلاة رأى الخدمَ يأتونَه بالماء والطست، فقال الرضا ﷺ: لو تولَّيتَ هذا بنفسك، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

ولعلَّ المرادَ بالنهي هذا مطلقُ طلب الترك؛ ليعمَّ الحرامَ والمكروه. والظاهرُ أنَّ الفاء للتفريع على قصر الوحدانية عليه تعالى، ووجهُ ذلك على أنَّ كون الإله الحقِّ واحداً يقتضي أن يكون في غاية العظمة والكمال، واقتضاءُ ذلك عملَ الطامع في كرامته عملاً صالحاً وعدم الإشراك بعبادته ممَّا لا شبهة فيه، كذا قيل.

وقيل: الأمر بالعمل الصالح متفرِّعٌ على كونه تعالى إلهاً، والنهي عن الشرك متفرِّعٌ على كون الإله واحداً، وجعل هذا وجهاً لتقديم الأمر على النهي على ما روي عن ابن عباس، وهو كما ترى.

وقيل: التفريعُ على مجموع ما تقدَّم، فليفهم.

ووضع الظاهر موضعَ الضمير في الموضعين مع التعرُّض لعنوان الربوبيَّة لزيادة التقرير، وللإشعار بعلِّيَّة العنوان للأمر والنهي ووجوب الامتثال فعلاً وتركاً.

وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي: «ولا تشرك» بالتاء الفوقية[2] على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ويكون قوله تعالى: «بربِّه» التفاتاً أيضاً من الخطاب إلى الغيبة.

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني ٤/ ١٨٢.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٩، والدر المصون ٧/ ٥٥٨.

هذا وعن معاوية بن أبي سفيان أنَّ هذه الآية: «فمن كان يرجو» إلخ آخرُ آية نزلت. وفيه كلامٌ، والحقُّ خلافُه، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: قيل: «ذو القرنين» إشارةٌ إلى القلب. وقيل: إلى الشيخ الكامل. و«يأجوج ومأجوج» إشارةٌ إلى الدواعي والهواجس الوهميَّة، والوساوس والنوازع الخياليَّة. وقيل: إشارةٌ إلى القوى والطبائع، و«الأرض» إشارةٌ إلى البدن.

وهكذا فعلوا في باقي ألفاظِ القصة، وراموا التطبيق بين ما في الآفاق وما في الأنفس، ولعمري لقد تكلَّفوا غايةَ التكلُّف، ولم يأتوا بما يشرحُ الخاطرَ ويسرُّ الناظر. ولعلَّ الأولى أن يقال: الإشارةُ في القصَّة إلى إرشاد الملوك لاستكشاف أحوالِ رعاياهم، وتأديب مسيئهم، والإحسان إلى محسنهم، وإعانة ضعفائهم، ودفع الضَّرر عنهم، وعدم الطمع بما في أيديهم، وإن سمحت به أنفسهم لمصلحتهم.

وقد يقال: فيها إشارةٌ إلى اعتبار الأسباب. وقال الأشاعرة: الأسباب في الحقيقة ملغاةٌ، وعلى هذا قول شيخهم: يجوزُ لأعمى الصين أنْ يرى بقة[1] أندلس. ومذهب السلف أنَّها معتبرة، وإن لم يتوقَّف عليها فعلُ الله تعالى عقلاً، وتحقيق هذا المطلب في محلِّه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ إشارةٌ إلى المرائين على ما في «أسرار القرآن»، ومنهم الذين يجلسونَ في الخانقاه؛ لأجل نظر الخلق، وصرف وجوه الناس إليهم، واصطياد أهل الدنيا بشباك حيلهم، وذكر من خسرانهم في الدنيا افتضاحَهم فيها، وإظهارَ الله تعالى حقيقةَ حالهم للناس.

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ ... وإنْ خالها تخفى على الناس تُعلَم[2]

---

(١) في (م): بقعة.
(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٣٢.

وأمَّا خسرانهم في الآخرة فالطَّردُ عن الحضرة والعذاب الأليم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إشارةٌ إلى جهة مشاركته ﷺ للناس، وجهة امتيازه، ولولا تلك المشاركة ما حصلت الإفاضة، ولولا ذلك الامتيازُ ما حصلت الاستفاضة.

وقد أشار مولانا جلال الدين القونويُّ قدس سره إلى ذلك بقوله:

كفت بيغمبر كِه أصحابي نجوم ره روان راشمع وشيطان را رجوم
هركسي راكر نظر بودي زدور كو كرفتي زا فتاب جرخ نور
كي ستاره حاجتي بوداي ذليل كي بدي برنور خورشيد أودليل
ماه ميكويد بأبر وخاك في من بشر من مثلكم يوحى إلي
چون شما تاريك بودم درنهاد وحي خورشيدم چنين نوري بداد
ظلمتي دارم به نسبت باشموس نور دارم بهر ظلمات نفوس
زان ضعيفم تاتو بابي آوري كه ني مردي آفتاب أنوري

هذا ونسأل الله تعالى بحرمة نبيِّه المكرَّم المعظَّم - ﷺ - أنْ يوفِّقنا لما يرضيه، ويوقِفَنا على أسرار كتابه الكريم ومعانيه.

(١٩) سورة مريم مكية وآياتها ثمان وتسعون

سورةُ مريم من السور المكية التي تقرر توحيدَ الله ، وقدرتَه ، وتنزيهَه عما لا يليق به ، وتُقرّر عقيدةَ البعثِ والجزاءِ ، وهي إحدى تسع وعشرين سورة بُدئت بالحروف الهجائية ، ومحورُ هذه السورة يدور حول التوحيد ، ونفي الولدِ والشريك ، ويتناول أيضاً قَصَص بعض الأنبياء ، بدءاً من قصة زكريا وولده يحي ، ثم قصةِ مريم البتول ومولد عيسى ، ثم قصةِ إبراهيمَ مع أبيه ، ثم تذكر بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام : إسحاقَ ويعقوبَ ، وموسى وهارونْ ، وإسماعيلَ وإدريسَ ، وآدم ونوح ، ويستغرق الحديث عن قصص هؤلاء الأنبياء حواليْ ثلثي السورة ، ويستهدفُ إثباتَ الوحدانية ، ونفيَ الولد والشريك ، وبيانَ منهجِ المهتدين ، ومنهج الضالين المنحرفين عن هداية النبيّين .

سُميتْ السورةُ الكريمة « سورة مريم » لذكر قصتها وقصة ولدها عيسى عليه السلام بالتفصيل وقد جاء الحديث عن حملها بالسيدِ المسيح بعد تلك المخاوف التي كانت تساور نفسها ، ثم ارتياب قومها بذلك الحمل لأنها عذراء ، ثم تمنيها الموت قبل أن تلقى ذلك الاتهام الشنيع ، ثم إكرام الله لها بإنطاق الغلام وهو طفل في المهد إلى آخر ما هنالك من أحداثٍ غريبة تتعلق بميلاد عيسى عليه السلام .

بدأت السورة الكريمة بقصةِ نبيٍّ اللهِ زكريا وولده يحي ، وقبل أن تذكر قصته الغريبة بدأت بدءاً غير مألوف ليكون البدء الغريب قرعاً

للأسماع وتنبيهاً لقدرة الله العظيمة في إبداع الأشياء العجيبة ﴿كهيعص . ذكرُ رحمةِ ربك عبدَه زكريا . إذ نادى ربَّه نداءً خفياً . قال ربِّ إني وَهَن العظمُ مني واشتعلَ الرأسُ شيباً ولم أكنْ بدعائِك ربِّ شقياً﴾ وبعد ذلك الدعاء المنيب في ضراعةٍ وخفية ، يأتي الطلب الرفيق بأن يهبَ الله له الولد ، ليكون عوناً له في حياته سيَّما بعد بلوغ الشيخوخة ، ووارثاً له من بعد مماته يرثه في مقام الدعوةِ إلى الخير ، وميراثِ النبوة التي ورثها عن آبائه وأجداده ، ويقدّم بين يدي هذا الدعاء التلطف والرجاء ، فامرأته عاقر لا تلد ، وهو شيخٌ هرم قد بلغ من الكِبَر عتياً ، ولكنه لا ييأس من رَوْح الله لأن الله السميع البصير يسمع دعاء المكروب ﴿وإني خِفْتُ الموالِيَ من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهبْ لي من لَدُنْكَ ولياً . يرثني ويرثُ من آلِ يعقوبَ واجعلْه ربِّ رضياً﴾ ويستجيب الله دعاءه وتأتيه البشارة بالغلام النبيه ، مغموراً بالرعاية والعطف والرضى ، ﴿يا زكريا إنَّا نبشّركَ بغلامٍ اسمُهُ يَحْيَي لم نجعلْ له من قَبْلُ سَمِيّاً﴾ والعبرةُ في قصة زكريا أنَّ أقربَ الدعاءِ إلى الإجابة ما كان نابعاً من القلب ، مقروناً بالذلةِ والحاجة والانكسار ، خفياً عن الأسماع والأبصار ، مقصوداً به وجهُ الله تعالى . وتنتقل السورة إلى قصةٍ أعجب وأغرب من قصة ميلاد يحي ، تلك هي قصةُ مريم العذراء وإنجابها لطفلٍ من غير بعل ، وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخ البشرية ، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الباهرة في مولد عيسى من غير أب ، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلةً أمام الأبصار في الخلق والإيجاد ، والإفناء والإعدام ﴿واذكرْ في الكتاب مريم إذْ انتبذتْ من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذتْ من دونهم حجاباً فأرسلْنا إليها رُوحَنا فتمثَّلَ لها بَشَراً سَوِيّاً . قالتْ إني أعوذُ بالرحمنِ منكَ إن كُنْتَ تَقِياً . قال إنما أنا رسولُ ربك لأَهَبَ لكِ غلاماً زكياً﴾ ويتمُّ الأمرُ ، وينتهي

الجَدَلُ ، وتُبدعُ القدرة الإلهية ذلك الحدثَ الغريب الذي كثر حوله القيلُ والقال ، فمن زاعمٍ أنه ابنُ الله ، ومن أنه ولدُ بغيّ ، ويحسم القرآن ذلك في هذه الكلماتِ الموجزة ،التي فيها العظةُ والاعتبار بقدرة الله الواحد القهار ﴿ ذلك عيسى ابنُ مريم قولَ الحقّ الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كنْ فيكون . وإنَّ الله ربي وربُّكُمْ فاعبدوه ، هذا صراطٌ مستقيم﴾ .

ومن الحديث عن قصة عيسى ابن مريم إلى بعض مشاهد القيامة ، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث ﴿ فاختلف الأحزابُ من بينهم فويلٌ للذين كفروا من مَشْهدِ يومٍ عظيم . أَسْمِعْ بهم وأَبْصِرْ يوم يأتوننا لَكِنِ الظالمون اليوم في ضلالٍ مبين . وأنذرهُمْ يومَ الحسرةِ إذ قُضيَ الأمرُ وهم في غفلةٍ وهم لا يُؤْمنون . إنّا نحنُ نرثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرْجَعُون﴾ ثم يأتي الحديثُ عن أسلوب إبراهيم في الدعوة إلى الله ، وهو أسلوبُ الدعوةِ بالحلمِ الواسعِ ، والأدب الجمّ ، الذي من شأنه أن يجذب إليه القلوب النافرة ، والنفوس الشاردة ، مع وضوحِ الحجة وقوتها ، والتنبيه على مواضع الخطأ والفساد ﴿ واذكرْ في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يسمعُ ، ولا يُبصرُ ، ولا يُغْني عنك شيئاً ؟ يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتكَ فاتَّبعْني أَهْدِكَ صراطاً سوياً﴾ وهكذا يسلك إبراهيم في دعوة أبيه طريق الحكمة والموعظةِ الحسنة ، فيقابله أبوه بالشدةِ والجفوةِ والإنكارِ والتهديد ﴿ قال أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيمُ لئن لم تنته لأرجمنَّك واهجرني ملياً﴾ فيقابل إبراهيم تهديد أبيه بالسلام والدعاء والاستغفار ﴿ قال سلامٌ عليك سأستغفر لكَ ربي إنه كان بي حفياً﴾ وبعد أن تتحدث السورة عن جملة من الأنبياء الكرام تنتقل إلى الحديث عن المعاندين المكذبين ، وتردُّ على حججهم الواهية بالبراهين القاطعة

التي تقصم ظهر الباطل ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لسوف أُبْعَثُ حياً؟ أَوَ لا يذكُرُ الإنسانُ أنا خلقناه من قبلُ ولم يكُ شيئاً فوربِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطينَ ثُمَّ لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ ومن هذا المشهد المفزع الذي يجثو فيه العُتاة المتجبرون جثوَّ الخزي والمهانة تنتقل الآيات إلى عَرْضٍ لمصارع المشركين والمكذبين، وإلى مقالتهم الشنيعة التي يصورها القرآن بصورةٍ حسيّة حيث يرى الإنسان السمواتِ والأرضَ والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تتفطر وتنشقُّ من هول ذلك الكلام ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا إدّاً. تكادُ السمواتُ يتفطَّرْنَ منه، وتنشقُّ الأرضُ، وتخِرُّ الجبالُ هدّاً. أَنْ دَعَوْا للرحمنِ ولداً، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً. إنْ كلّ مَنْ في السموات والأرض إلا آتي الرحمنِ عبداً﴾ ثم تختم السورة الكريمة بوَضع صورتَيْنِ متباينتيْن: صورةِ المؤمنين الذين ترتبط قلوبهم برباطِ المودةِ والمحبة، لأنهم كانوا في الدنيا متحابين في الله، وصورة الكافرين الجاحدين تمزِّق العداوة قلوبهم وتقطع ما بينهم من صلات ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمنُ وُدّاً. فإنما يسرناه بلسانك لتُبشّر به المتقين وتُنْذِر به قوماً لُدّاً﴾.

سورة مريم

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] الآية.

[٥٩٣] أخرج البخاري(1) عن ابن عباس قال: قال رسول الله [ﷺ] لجبريل: «**ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا**» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾(2).

[٥٩٤] وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: أبطأ جبريل في النزول أربعين يوماً فذكر نحوه.

[٥٩٥] وأخرج ابن مردويه(3) عن أنس قال: سأل النبي [ﷺ] جبريل «**أي البقاع أحب إلى الله وأبغض إلى الله فقال ما أدري حتى أسأل**» فنزل جبريل وكان قد أبطأ عليه فقال: «**لقد أبطأت علي حتى ظننت أن ترى علي موجدة**» فقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾(4) الآية.

[٥٩٦] وأخرج ابن إسحاق عن ابن عباس أن قريشاً لما سألوا عن أصحاب الكهف مكث خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً فلما نزل جبريل قال له أبطأت فذكره.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [مريم: ٧٧] الآية.

[٥٩٧] أخرج الشيخان وغيرهما(5) عن خباب بن الأرت قال: جئت

---

[٥٩٣] (1) رواه البخاري في صحيحه عن أبي نعيم عن ذر به مثله ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٧٢) و(١٧٣) من طريق عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله.

(2) سورة مريم الآية (٦٤).

[٥٩٥] (3) انظر مجمع الزوائد للهيثمي (٦/٢).

(4) سورة مريم: الآية (٦٤).

[٥٩٧] (5) رواه البخاري في صحيحه عن الحميدي عن سفيان ومسلم في صحيحه عن الأشج عن وكيع كلاهما عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن خباب والواحدي في أسباب النزول ص (١٧٣) ورواه الواحدي بلفظ آخر من طريق أبي معاوية عن الأعمش به نحوه.

العاصي بن وائل السهمي أتقاضاه حقاً لي عنده فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا حتى تموت وحتى تبعث قال: فإني لميت ثم مبعوث فقلت: نعم فقال: إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيك فنزلت: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾.

قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [مريم: ٩٦] الآية.

[٥٩٧م] أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن عوف لما هاجر إلى المدينة وجد في نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾(١) قال محبة في قلوب المؤمنين.

* * *

[٥٩٧م](١) سورة مريم: الآية (٩٦).

سورة مريم

وهي ثمانٍ وتسعون آية، مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ﴾

قبل الخوض في القراءات لا بد من مقدمات ثلاثة:

المقدمة الأولى: أن حروف المعجم على نوعين ثنائي وثلاثي، وقد جرت عادة العرب أن ينطقوا بالثنائيات مقطوعة ممالة فيقولوا: با تا ثا وكذلك أمثالها، وأن ينطقوا بالثلاثيات التي في وسطها الألف مفتوحة مشبعة فيقولوا: دال ذال صاد ضاد وكذلك أشكالها، أما الزاي وحده من بين حروف المعجم فمعتاد فيه الأمران، فإن من أظهر ياءه في النطق حتى يصير ثلاثيًّا لم يُمله، ومن لم يُظهر ياءه في النطق حتى يشبه الثنائي يُمله.

أما المقدمة الثانية: ينبغي أن يُعلم أن إشباع الفتحة في جميع المواضع أصل والإمالة فرع عليه؛ ولهذا يجوز إشباع كل ممال ولا يجوز إمالة كل مشبع من الفتحات.

المقدمة الثالثة: للقراء في القراءات المخصوصة بهذا الموضع ثلاثة طرق: **أحدها:** أن يتمسكوا بالأصل وهو إشباع فتحة الهاء والياء. **وثانيها:** أن يُميلوا الهاء والياء. **وثالثها:** أن يجمعوا بين الأصل والفرع فيقع الاختلاف بين الهاء والياء فيفتحوا أحدهما أيهما كان ويكسروا الآخر، ولهم في السبب الموجب لهذا الاختلاف قولان: الأول: أن الفتحة المشبعة أصل والإمالة فرع مشهور كثير الاستعمال، فأُشبع أحدهما وأُميل الآخر ليكون جامعًا لمراعاة الأصل والفرع، وهو أحسن من مراعاة أحدهما وتضييع الآخر. القول الثاني: أن الثنائية من حروف المعجم إذا كانت مقطوعة كانت بالإمالة، وإذا كانت موصولة كانت بالإشباع، وها ويا في قوله تعالى: ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ مقطوعان في اللفظ موصولان في الخط فأميل أحدهما وأشبع الآخر ليكون كلا الجانبين مرعيًّا جانب القطع اللفظي وجانب الوصل الخطي، إذا عرفت هذا فنقول: فيه قراءات:

إحداها: وهي القراءة المعروفة فيه فتحة الهاء والياء جميعًا. **وثانيها:** كسر الهاء وفتح الياء، وهي قراءة أبي عمرو وابن مبادر والقطعي عن أيوب، وإنما كسروا الهاء دون الياء ليكون فرقًا بينه وبين الهاء الذي للتنبيه فإنه لا يكسر قط. **وثالثها:** فتح الهاء وكسر الياء، وهو قراءة حمزة والأعمش وطلحة والضحاك عن عاصم، وإنما كسروا الياء دون الهاء لأن الياء أخت الكسرة وإعطاء الكسرة أختها أولى من إعطائها إلى أجنبية مفتوحة للمناسبة. **ورابعها:** إمالتهما جميعًا، وهي قراءة الكسائي والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن أسلم عن ابن عامر والزهري وابن

جرير، وإنما أمالوهما للوجهين المذكورين في إمالة الهاء وإمالة الياء. **وخامسها:** قراءة الحسن وهي ضم الهاء وفتح الياء، وعنه أيضًا فتح الهاء وضم الياء، وروى صاحب (الكشاف) عن الحسن بضمهما، فقيل له: لمَ تُثبت هذه الرواية عن الحسن لأنه أورد ابن جني في كتاب (المكتسب) أن قراءة الحسن ضم أحدهما وفتح الآخر لا على التعيين، وقال بعضهم: إنما أقدم الحسن على ضم أحدهما لا على التعيين لأنه تصور أن عين الفعل في الهاء والياء ألف منقلب عن الواو، كالدار والمال، وذلك لأن هذه الألفات وإن كانت مجهولة لأنها لا اشتقاق لها فإنها تُحمل على ما هو مشابه لها في اللفظ. والألف إذا وقع عينًا فالواجب أن يعتقد أنه منقلب عن الواو، لأن الغالب في اللغة ذلك، فلما تصور الحسن أن ألف الهاء والياء منقلب عن الواو جعله في حكم الواو وضم ما قبله لأن الواو أخت الضمة. **وسادسها:** ها يا بإشمامهما شيئًا من الضمة.

المسألة الثالثة: قرأ أبو جعفر كهيعص يفصل الحروف بعضها من بعض بأدنى سكتة مع إظهار نون العين، وباقي القراء يصلون الحروف بعضها ببعض ويخفون النون.

المسألة الثالثة: القراءة المعروفة (صاد، ذكر) بالإدغام، وعن عاصم ويعقوب بالإظهار.

البحث الثاني: المذاهب المذكورة في هذه الفواتح قد تقدمت، لكن الذي يختص بهذا الموضع ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى (كهيعص) ثناء من الله على نفسه، فمن الكاف وصفه بأنه كافٍ ومن الهاءِ هادٍ ومن العين عالم ومن الصاد صادق. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا أنه حمل الكاف على الكبير والكريم، ويحكى أيضًا عنه أنه حمل الياء على الكريم مرة وعلى الحكيم أخرى، وعن الربيع بن أنس في الياء أنه من مجير، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في العين أنه من عزيز ومن عدل، وهذه الأقوال ليست قوية لما بينا أنه لا يجوز من الله تعالى أن يودع كتابه ما لا تدل عليه اللغة لا بالحقيقة ولا بالمجاز؛ لأنا إن جوزنا ذلك فتُح علينا قول من يزعم أن لكل ظاهر باطنًا، واللغة لا تدل على ما ذكروه فإنه ليست دلالة الكاف أولى من دلالته على الكريم أو الكبير أو على اسم آخر من أسماء الرسول ﷺ أو الملائكة أو الجنة أو النار، فيكون حَمْله على بعضها دون البعض تحكمًا لا تدل عليه اللغة أصلاً.

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: في لفظة (ذكر) أربع قراءات: صيغة المصدر أو الماضي مخففة أو مشددة أو الأمر: أما صيغة المصدر فلا بد فيها من كسر (رحمة ربك) على الإضافة ثم فيها ثلاثة أوجه: أحدها: نصب الدال من (عبده) والهمزة من (زكرياء) وهو المشهور. وثانيها: برفعهما والمعنى وتلك الرحمة هي عبده زكرياء عن ابن عامر. وثالثها: بنصب الأول وبرفع الثاني والمعنى رحمة ربك عبده وهو زكرياء. وأما صيغة الماضي بالتشديد فلا بد فيها من نصب رحمة. وأما صيغة

الماضي بالتخفيف ففيها وجهان: أحدهما: رفع الباء من (ربك) والمعنى ذكر ربك عبده زكرياء. وثانيها: نصب الباء من (ربك) والرفع في (عبده زكرياء) وذلك بتقديم المفعول على الفاعل. وهاتان القراءتان للكلبي، وأما صيغة الأمر فلا بد من نصب (رحمة) وهي قراءة ابن عباس. واعلم أن على تقدير جعله صيغة المصدر والماضي يكون التقدير: هذا المتلو من القرآن ذكر رحمة ربك.

المسألة الثانية: يحتمل أن يكون المراد من قوله (رحمة ربك) أعني عبده زكرياء. ثم في كونه رحمة وجهان: أحدهما: أن يكون رحمة على أمته لأنه هداهم إلى الإيمان والطاعات. والآخر: أن يكون رحمة على نبينا محمد ﷺ وعلى أمة محمد؛ لأن الله تعالى لما شرح لمحمد ﷺ طريقه في الإخلاص والابتهال في جميع الأمور إلى الله تعالى، صار ذلك لفظًا داعيًا له ولأمته إلى تلك الطريقة فكان زكرياء رحمة، ويحتمل أن يكون المراد أن هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي رحم بها عبده زكرياء.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ راعى سنة الله في إخفاء دعوته؛ لأن الجهر والإخفاء عند الله سيان، فكان الإخفاء أولى لأنه أبعد عن الرياء وأدخل في الإخلاص. وثانيها: أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في زمان الشيخوخة. وثالثها: أسره من مواليه الذين خافهم. ورابعها: خفي صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ (صوته خفات وسمعه تارات).

فإن قيل: من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيًّا؟

والجواب من وجهين: الأول: أنه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت إلا أن الصوت كان ضعيفًا لنهاية الضعف بسبب الكبر فكان نداء نظرًا إلى قصده وخفيًّا نظرًا إلى الواقع. الثاني: أنه دعا في الصلاة لأن الله تعالى أجابه في الصلاة لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩] فكون الإجابة في الصلاة يدل على كون الدعاء في الصلاة فوجب أن يكون النداء فيها خفيًّا.

القراءة فيها مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (وَهَنَ) بالحركات الثلاث.

المسألة الثانية: إدغام السين في الشين (مِنَ الرَّأْسِ شَيْبًا) عن أبي عمرو.

المسألة الثالثة: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ بفتح الياء وعن الزهري بإسكان الياء من (الموالي) وقرأ عثمان وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وسعيد بن جبير وزيد بن ثابت وابن عباس (خفت) بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر التاء، وهذا يدل على معنيين: أحدهما: أن يكون (ورائي) بمعنى (بعدي) والمعنى أنهم قلوا وعجزوا عن إقامة الدين بعده، فسأل ربه تقويتهم بولي يرزقه. والثاني: أن يكون بمعنى (قدامي) والمعنى أنهم خفوا قدامه ودرجوا ولم يبق من به تَقَوٌّ واعتضاد.

المسألة الرابعة: القراءة المعروفة: (مِنْ وَرائِي) بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة، وعن حميد بن مقسم كذلك لكن بفتح الياء، وقرأ ابن كثير (وَرَايَ) كعصاي.

المسألة الخامسة: في يرثني ويرث وجوه: أحدها: القراءة المعروفة بالرفع فيهما صفة. وثانيها: وهي قراءة أبي عمرو والكسائي والزهري والأعمش وطلحة بالجزم فيهما جوابًا للدعاء. وثالثها: عن علي بن أبي طالب وابن عباس وجعفر بن محمد والحسن وقتادة: ﴿يَرِثُنِي﴾ جزم وارث بوزن فاعل. ورابعها: عن ابن عباس: ﴿يَرِثُنِي﴾ وارث من آل يعقوب. وخامسها: عن الجحدري ﴿وَيَرِثُ﴾ تصغير وارث على وزن أفيعل. (اللُّغَةُ) الوهن: ضعف القوة، قال في (الكشاف) شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه كل مأخذ كاشتعال: النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس، وأخرج الشيب مميزًا ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثَمَ فصحت هذه الجملة، وأما الدعاء فطلب الفعل ومقابله الإجابة كما أن مقابل الأمر الطاعة، وأما أصل التركيب في (وَلِيٍّ) فيدل على معنى القرب والدنو، يقال: وليته أليه وليًا، أي دنوت، وأوليته: أدنيته منه وتباعد ما بعده وولي، ومنه قول ساعدة (ابن جؤية):

وَعَدَتْ عَوَادٍ دُونَ وَلْيِكَ تَشْعَبُ(١)

وكُلْ مما يليك وجلست مما يليه، ومنه الولي وهو المطر الذي يلي الوسمي، والولية البرذعة لأنها تلي ظهر الدابة وولي اليتيم والقتيل وولي البلد لأن من تولى أمرًا فقد قرب منه، وقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠] مِنْ قَوْلِهِمْ: وَلاَهُ بِرُكْنِهِ أَيْ جَعَلَهُ مِمَّا يَلِيهِ، أَمَّا وَلَّى عَنِّي إِذَا أَدْبَرَ فَهُوَ مِنْ بَابِ تَثْقِيلِ الْحَشْوِ لِلسَّلْبِ(٢) وقولهم فلان أولى من

---

(١) هذا الشطر الثاني من البيت للشاعر ساعدة الهذلي وهو من البحر الكامل، والبيت كاملاً هكذا:

هَجَرَت غَضوبُ وَحُبَّ مَن يَتَجَنَّبُ وَعَدَت عَوادٍ دونَ وَلِيِكَ تَشعَبُ

وساعده هو ساعدة الهذلي هو: ساعدة بن جؤية بن كعب بن كاهل من سعد هذيل. شاعر، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، أسلم وليست له صحبة، قال الأمدي: شعره محشو بالغريب والمعاني الغامضة.

(٢) التثقيل هنا التشديد والحشو هنا وسط الكلمة والسلب هنا معناه الضد والمعنى أنه شدد اللام من ولي ليفهم الضد فإن (ولي) مكسورة اللام مخففة معناه أقبل و (ولي) مفتوحة اللام مشددة معناها أدبر والأدبار ضد الأقبال وهذا معنى تثقيل الحشو للسلب والله أعلم.

فلان، أي أحق، أفعل التفضيل من الوالي أو الولي كالأدنى والأقرب من الداني والقريب، وفيه معنى القرب أيضًا لأن من كان أحق بالشيء كان أقرب إليه، والمولى اسم لموضع الولي كالمرمى والمبنى اسم لموضع المرمى والبناء، وأما العاقر فهي التي لا تلد، والعقر في اللغة الجرح، ومنه أخذ العاقر لأنه نقص أصل الخلقة، وعقرتُ الفرس بالسيف إذا ضربت قوائمه، وأما الآل فهم خاصة الرجل الذين يؤول أمرهم إليه، ثم قد يؤول أمرهم إليه للقرابة تارة وللصحبة أخرى، كآل فرعون وللموافقة في الدين كآل النبي ﷺ.

واعلم أن زكرياء عليه السلام قدم على السؤال أمورًا ثلاثة:

أحدها: كونه ضعيفًا.

والثاني: أن الله تعالى ما رد دعاءه ألبتة.

والثالث: كون المطلوب بالدعاء سببًا للمنفعة في الدين. ثم بعد تقرير هذه الأمور الثلاثة صرح بالسؤال.

أما المقام الأول وهو كونه ضعيفا: فأثر الضعف إما أن يظهر في الباطن أو في الظاهر، والضعف الذي يظهر في الباطن يكون أقوى مما يظهر في الظاهر؛ فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذي في الباطن وهو قوله: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ وتقريره هو أن العظام أصلب الأعضاء التي في البدن، وجُعلت كذلك لمنفعتين:

إحداهما: لأن تكون أساسًا وعمدًا يعتمد عليها سائر الأعضاء الأُخر إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام، والحامل يجب أن يكون أقوى من المحمول.

والثانية: أنه احتيج إليها في بعض المواضع لأن تكون جُنة يقوى بها ما سواها من الأعضاء بمنزلة قحف الرأس وعظام الصدر، وما كان كذلك فيجب أن يكون صُلبًا ليكون صبورًا على ملاقاة الآفات بعيدًا من القبول لها.

إذا ثبت هذا فنقول: إذا كان العظم أصلب الأعضاء فمتى وصل الأمر إلى ضعفها كان ضعف ما عداها مع رخاوتها أولى، ولأن العظم إذا كان حاملاً لسائر الأعضاء كان تطرق الضعف إلى الحامل موجبًا لتطرقه إلى المحمول؛ فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الأعضاء. وأما أثر الضعف في الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس.

فثبت أن هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر، وذلك مما يزيد الدعاء توكيدًا لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة.

المقام الثاني: أنه ما كان مردود الدعاء ألبتة ووجه التوسل به من وجهين:

أحدهما: ما روي أن محتاجًا سأل واحدًا من الأكابر وقال: أنا الذي أحسنت إليَّ وقت كذا. فقال: مرحبًا بمن توسل بنا إلينا! ثم قضى حاجته. وذلك أنه إذا قَبِله أولاً فلو أنه رده ثانيًا لكان الرد محبطًا للإنعام الأول والمنعم لا يسعى في إحباط إنعامه.

والثاني: وهو أن مخالفة العادة شاقة على النفس، فإذا تعود الإنسان إجابة الدعاء فلو صار مردودًا بعد ذلك لكان في غاية المشقة، ولأن الجفاء ممن يُتوقع منه الإنعام يكون أشق فقال زكرياء عليه السلام: إنك ما رددتني في أول الأمر مع أني ما تعودت لطفك وكنت قوي البدن قوي القلب، فلو رددتني الآن بعد ما عودتني القبول مع نهاية ضعفي لكان ذلك بالغًا إلى الغاية القصوى في ألم القلب، واعلم أن العرب تقول: سعد فلان بحاجته، إذا ظفر بها وشقي بها إذا خاب ولم ينلها، ومعنى (بدعائك) أي بدعائي إياك، فإن الفعل قد يضاف إلى الفاعل تارة وإلى المفعول أخرى.

المقام الثالث: بيان كون المطلوب منتفعًا به في الدين، وهو قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ **وفيه أبحاث:**

الأول: قال ابن عباس والحسن: إني خفت الموالي، أي الورثة من بعدي. وعن مجاهد: العصبة. وعن أبي صالح: الكلالة. وعن الأصم: بنو العم وهم الذين يلونه في النسب. وعن أبي مسلم: المولي يراد به الناصر وابن العم والمالك والصاحب، وهو هاهنا من يقوم بميراثه مقام الولد، والمختار أن المراد من الموالي: الذين يخلفون بعده إما في السياسة أو في المال الذي كان له أو في القيام بأمر الدين، فقد كانت العادة جارية أن كل من كان إلى صاحب الشرع أقرب فإنه كان متعينًا في الحياة.

الثاني: اختلفوا في خوفه من الموالي: فقال بعضهم: خافهم على إفساد الدين. وقال بعضهم: بل خاف أن ينتهي أمره إليهم بعد موته في مال وغيره مع أنه عرف من حالهم قصورهم في العلم والقدرة عن القيام بذلك المنصب. وفيه قول ثالث وهو أنه يحتمل أن يكون الله تعالى قد أعلمه أنه لم يبق من أنبياء بني إسرائيل نبي له أب إلا واحد، فخاف أن يكون ذلك من بني عمه إذ لم يكن له ولد، فسأل الله تعالى أن يهب له ولدًا يكون هو ذلك النبي، وذلك يقتضي أن يكون خائفًا من أمر يهتم بمثله الأنبياء وإن لم يدل على تفصيل ذلك. ولا يمتنع أن زكرياء كان إليه مع النبوة السياسة من جهة الملك وما يتصل بالإمامة، فخاف منهم بعده على أحدهما أو عليهما. أما قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ﴾ فهو وإن خرج على لفظ الماضي، لكنه يفيد أنه في المستقبل أيضًا، كذلك يقول الرجل: قد خفت أن يكون كذا وخشيت أن يكون كذا. أي أنا خائف. لا يريد أنه قد زال الخوف عنه وهكذا قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي أنها عاقر في الحال، وذلك لأن العاقر لا تُحول ولودًا في العادة، ففي الإخبار عنه بلفظ الماضي إعلام بتقادم العهد في ذلك، وغرض زكرياء من هذا الكلام بيان استبعاد حصول الولد، فكان إيراده بلفظ الماضي أقوى وإلى هذا يرجع الأمر في قوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ لأنه إنما قصد به الإخبار عن تقادم الخوف ثم استغنى بدلالة الحال وما يوجب مسألة الوارث وإظهار الحاجة عن الإخبار بوجود الخوف في الحال، وأيضًا فقد يوضع الماضي مكان المستقبل وبالعكس، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ

﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]والله أعلم.

وأما قوله ﴿مِن وَرَآءِى﴾ **ففيه قولان: الأول:**قال أبو عبيدة: أي قدامي وبين يدي وقال آخرون أي بعد موتي. وكلاهما محتمل. فإن قيل: كيف خافهم من بعده وكيف علم أنهم يبقون بعده فضلاً من أن يخاف شرهم؟ قلنا: إن ذلك قد يُعرف بالأمارات والظن وذلك كافٍ في حصول الخوف، فربما عرف ببعض الأمارات استمرارهم على عادتهم في الفساد والشر.

واختلف في تفسير قوله: ﴿فَهَبۡ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ فالأكثرون على أنه طلب الولد وقال آخرون: بل طلب من يقوم مقامه، ولدًا كان أو غيره، والأقرب هو الأول لثلاثة أوجه:

الأول:قوله تعالى في سورة آل عمران حكاية عنه: ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

والثاني:قوله في هذه السورة: ﴿فَهَبۡ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ .

والثالث:قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِى فَرۡدًا﴾ [الأنبياء: ٨٩]وهذا يدل على أنه سأل الولد لأنه قد أخبر في سورة مريم أن له موالي وأنه غير منفرد عن الورثة، وهذا وإن أمكن حمله على وارث يصلح أن يقوم مقامه، لكن حمله على الولد أظهر.

واحتج أصحاب القول الثالث بأنه لما بُشر بالولد استعظم على سبيل التعجب فقال: إنى يكون لي غلام؟! ولو كان دعاؤه لأجل الولد لما استعظم ذلك. **الجواب:** أنه عليه السلام سأل عما يوهب له أيوهب له وهو وامرأته على هيئتهما أو يوهب بأن يحولا شابين يكون لمثلهما ولد؟ وهذا يحكى عن الحسن وقال غيره: إن قول زكرياء عليه السلام في الدعاء: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِى عَاقِرًا﴾ إنما هو على معنى مسألته ولدًا من غيرها أو منها بأن يصلحها الله للولد، فكأنه عليه السلام قال: إني أيست أن يكون لي منها ولد فهب لي من لدنك وليًّا كيف شئت إما بأن تصلحها فيكون الولد منها أو بأن تهب لي من غيرها، فلما بُشر بالغلام سأل أيُرزق منها أو من غيرها. فأُخبر بأنه يُرزق منها.

واختلفوا في المراد بالميراث على وجوه: **أحدها:** أن المراد بالميراث في الموضعين هو وراثة المال. وهذا قول ابن عباس والحسن والضحاك. **وثانيها:** أن المراد به في الموضعين وراثة النبوة. وهو قول أبي صالح. **وثالثها:** يرثني المال ويرث من آل يعقوب النبوة. وهو قول السدي ومجاهد والشعبي وروي أيضًا عن ابن عباس والحسن والضحاك. **ورابعها:** يرثني العلم ويرث من آل يعقوب النبوة. وهو مروي عن مجاهد.

واعلم أن هذه الروايات ترجع إلى أحد أمور خمسة وهي المال ومنصب الحبورة والعلم والنبوة والسيرة الحسنة، ولفظ الإرث مستعمل في كلها: أما في المال فلقوله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٢٧] وأما في العلم فلقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [غافر: ٥٣] وقال عليه السلام: «**العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا**

دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم» (١) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ [النمل: ١٥، ١٦] وهذا يحتمل وراثة الملك ووراثة النبوة، وقد يقال: أورثني هذا غمًّا وحزنًا، وقد ثبت أن اللفظ محتمل لتلك الوجوه.

واحتج من حمل اللفظ على وراثة المال بالخبر والمعقول:

أما الخبر فقوله عليه السلام: «**رحم الله زكريا ما كان له من يرثه**» (٢) وظاهره يدل على أن المراد إرث المال وأما المعقول فمن وجهين.

الأول: أن العلم والسيرة والنبوة لا تورث بل لا تحصل إلا بالاكتساب، فوجب حمله على المال.

الثاني: أنه قال ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ولو كان المراد من الإرث إرث النبوة لكان قد سأل جعل النبي ﷺ رضيًا وهو غير جائز لأن النبي لا يكون إلا رضيًّا معصومًا، وأما قوله عليه السلام: «**إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ**» (٣) فهذا لا يمنع أن يكون خاصًّا به. واحتج من حمله على العلم أو المنصب والنبوة بما علم من حال الأنبياء أن اهتمامهم لا يشتد بأمر المال كما يشتد بأمر الدين، وقيل: لعله أوتي من الدنيا ما كان عظيم النفع في الدين فلهذا كان مهتمًّا به. أما قوله: النبوة كيف تورث؟ قلنا: المال إنما يقال ورثه الابن بمعنى قام فيه مقام أبيه وحصل له من فائدة التصرف فيه ما حصل لأبيه، وإلا فملك المال من قبل الله لا من قبل المورث، فكذلك إذا كان المعلوم في الإبن أن يصير نبيًّا بعده فيقوم بأمر الدين بعده جاز أن يقال ورثه أما قوله عليه السلام: «**إِنَّا مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ**» فهذا وإن جاز حمله على الواحد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] لكنه مجاز وحقيقته الجمع، والعدول عن الحقيقة من غير موجب لا يجوز لا سيما وقد روي قوله: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لاَ نُورَثُ**».

والأَوْلى أن يُحمل ذلك على كل ما فيه نفع وصلاح في الدين وذلك يتناول النبوة والعلم والسيرة الحسنة والمنصب النافع في الدين والمال الصالح، فإن كل هذه الأمور مما يجوز توفر

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود في كتاب (العلم) باب (الحث على طلب العلم) (٣/ ٣١٦) حديث رقم/ ٣٦٤١ من طريق عبد الله بن داود... به. وابن ماجه في كتاب (المقدمة) باب (فضل العلماء والحث على طلب العلم) (١/ ٨١) حديث رقم/ ٢٢٣ من طريق عبد الله بن داود... به. وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٩٦) من طريق ابن عياش... به. والدارمي في كتاب (المقدمة) باب (في فضل العلم والعالم) (١/ ٩٤) حديث رقم/ ٣٤٣ كلاهما (عبد الله بن داود، ابن عياش) عن عاصم... به. جميعًا من طريق داود بن جميل عن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا مع أبي الدرداء... فذكره.

(٢) **إسناده ضعيف**: رواه الطبري في (تفسيره) (١٦/ ٤٨) من طريق معمر عن قتادة... فذكره. ورواه أيضًا في (١٦/ ٤٨) من طريق جابر بن نوح عن مبارك عن الحسن... نحوه.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الاعتصام بالسنة) باب (ما يُكره من التعمق والتنازع) (١٣/ ٢٩٠) حديث رقم/ ٧٣٠٥ ومسلم في كتاب (الجهاد) باب (حكم الفيء) (٣/ ٤٩/ ١٣٧٧) كلاهما من طريق ابن شهاب... به.

الدواعي على بقائها ليكون ذلك النفع دائمًا مستمرًا. **السابع**: اتفق أكثر المفسرين على أن يعقوب هاهنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام لأن زوجة زكرياء هي أخت مريم، وكانت من ولد سليمان بن داود من ولد يهوذا بن يعقوب، وأما زكرياء عليه السلام فهو من ولد هارون أخي موسى عليه السلام، وهارون وموسى عليهما السلام من ولد لاوى بن يعقوب بن إسحاق، وكانت النبوة في سبط يعقوب لأنه هو إسرائيل ﷺ وقال بعض المفسرين: ليس المراد من يعقوب هاهنا ولد إسحاق بن إبراهيم عليه السلام بل يعقوب بن ماثان، أخو عمران بن ماثان وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكرياء. وهذا قول الكلبي ومقاتل.

وقال الكلبي: كان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وملوكهم، وكان زكريا رأس الأحبار يومئذٍ فأراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بني ماثان ملكهم.

واعلم أنهم ذكروا في تفسير الرضي وجوهًا:

أحدها: أن المراد واجعله رضيًّا من الأنبياء. وذلك لأن كلهم مرضيون فالرضي منهم مفضل على جملتهم فائق لهم في كثير من أمورهم، فاستجاب الله تعالى له ذلك فوهب له سيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين، لم يعص ولم يهم بمعصية، وهذا غاية ما يكون به المرء رضيًّا.

وثانيها: المراد بالرضي أن يكون رضيًّا في أمته لا يُتلقى بالتكذيب ولا يواجَه بالرد.

وثالثها: المراد بالرضي أن لا يكون متهمًا في شيء ولا يوجد فيه مطعن ولا يُنسب إليه شيء من المعاصي.

ورابعها: أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قالا في الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[البقرة: ١٢٨] وكانا في ذلك الوقت مسلمين، وكأن المراد هناك ثبّتنا على هذا. أو المراد: اجعلنا فاضلَين من أنبيائك المسلمين. فكذا هاهنا واحتج أصحابنا في مسألة خلق الأفعال بهذه الآية لأنه إنما يكون رضيًّا بفعله، فلما سأل الله تعالى جعله رضيًّا دل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى. فإن قيل: المراد منه أن يلطف له بضروب الألطاف فيختار ما يصير مرضيًّا فينسب ذلك إلى الله تعالى. والجواب من وجهين: الأول: أن جعله رضيًّا لو حملناه على جعل الألطاف وعندها يصير المرء باختياره رضيًّا لكان ذلك مجازًا وهو خلاف الأصل. والثاني: أن جعل تلك الألطاف واجبة على الله تعالى لا يجوز الإخلال به، وما كان واجبًا لا يجوز طلبه بالدعاء والتضرع.

قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في من المنادي بقوله: (يا زكريا): فالأكثرون على أنه هو الله

تعالى، وذلك لأن ما قبل هذه الآية يدل على أن زكريا عليه السلام إنما كان يخاطب الله تعالى ويسأله، وهو قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]وقوله: ﴿فَهَبْ لِي﴾ [مريم: ٥]وما بعدها يدل على أنه كان يخاطب الله تعالى وهو يقول: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]وإذا كان ما قبل هذه الآية وما بعدها خطابًا مع الله تعالى، وجب أن يكون النداء من الله تعالى وإلا لفسد النظم. ومنهم من قال: هذا نداء المَلَك واحتج عليه بوجهين: **الأول:**قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩]. **الثاني:**أن زكريا عليه السلام لما قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٨، ٩]وهذا لا يجوز أن يكون كلام الله، فوجب أن يكون كلام المَلَك. **والجواب عن الأول:** أنه يحتمل أن يقال: حصل النداءان نداء الله ونداء الملائكة. **وعن الثاني:** أنا نبين إن شاء تعالى أن قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩] يمكن أن يكون كلام الله.

المسألة الثانية: فإن قيل: إن كان الدعاء بإذن فما معنى البشارة، وإن كان بغير إذن فلماذا أقدم عليه؟ والجواب هذا أمر يخصه، فيجوز أن يسأل بغير إذن، ويحتمل أنه أذن له فيه ولم يعلم وقته فبُشر به.

المسألة الثالثة: اختلف المفسرون في قوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ على وجهين:

أحدهما: وهو قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة أنه لم يسم أحد قبله بهذا الاسم.

الثاني: أن المراد بالسمي: النظير، كما في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] واختلفوا في ذلك على وجوه: أحدها: أنه سيد وحصور لم يعص ولم يهم بمعصية، كأنه جواب لقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦] فقيل له: إنا نبشرك بغلام لم نجعل له من قبل شبيهًا في الدين، ومن كان هكذا فهو في غاية الرضا. وهذا الوجه ضعيف لأنه يقتضي تفضيله على الأنبياء الذين كانوا قبله كآدم ونوح وإبراهيم وموسى، وذلك باطل بالاتفاق. وثانيها: أن كل الناس إنما يسميهم آباؤهم وأمهاتهم بعد دخولهم، في الوجود، وأما يحيى عليه السلام فإن الله تعالى هو الذي سماه قبل دخوله في الوجود فكان ذلك من خواصه فلم يكن له مثل وشبيه في هذه الخاصية. **وثالثها:** أنه وُلد بين شيخ فان وعجوز عاقر.

واعلم أن الوجه الأول أَوْلى وذلك لأن حمل السمي على النظير وإن كان يفيد المدح والتعظيم، ولكنه عدول عن الحقيقة من غير ضرورة. وإنه لا يجوز، وأما قول الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] فهناك إنما عدلنا عن الظاهر لأنه قال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] ومعلوم أن مجرد كونه تعالى مسمى بذلك الاسم لا يقتضي وجوب عبادته، فلهذه العلة عدلنا عن الظاهر، أما هاهنا لا ضرورة في العدول عن الظاهر فوجب إجراؤه عليه،

ولأن في تفرده بذلك الاسم ضربًا من التعظيم لأنا نشاهد أن الملك إذا كان له لقب مشهور فإن حاشيته لا يتلقبون به بل يتركونه تعظيمًا له فكذلك هاهنا.

المسألة الرابعة: في أنه عليه السلام سمي بيحيى، روى الثعلبي فيه وجوهًا: **أحدها**: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تعالى أحيا به عقر أمه. **وثانيها**: عن قتادة أن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والطاعة، والله تعالى سمى المطيع حيًّا والعاصي ميتًا بقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقال: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. **وثالثها**: إحياؤه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية لما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ عَصَى أَوْ هَمَّ إِلاَّ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَإِنَّهُ لَمْ يَهُمَّ وَلَمْ يَعْمَلْهَا**»(١) **ورابعها**: عن أبي القاسم بن حبيب أنه استشهد وأن الشهداء أحياء عند ربهم لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. **وخامسها**: ما قاله عمرو بن عبد الله المقدسي: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن قل ليسارة، وكان اسمها كذلك: بأني مُخرج منها عبدًا لا يهم بمعصية اسمه يحيى. فقال: هبي له من اسمكِ حرفًا. فوهبته حرفًا من اسمها فصار يحيى، وكان اسمها يسارة فصار اسمها سارة. **وسادسها**: أن يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى فصار قلبه حيًّا بذلك الإيمان، وذلك أن أم يحيى كانت حاملاً به فاستقبلتها مريم وقد حملت بعيسى فقالت لها أم يحيى: يا مريم أحامل أنت؟ فقالت: لماذا تقولين؟ فقالت: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك. **وسابعها**: أن الدين يحيا به لأنه إنما سأله زكريا لأجل الدين.

واعلم أن هذه الوجوه ضعيفة لأن أسماء الألقاب لا يُطلب فيها وجه الاشتقاق، ولهذا قال أهل التحقيق: أسماء الألقاب قائمة مقام الإشارات، وهي لا تفيد في المسمى صفة ألبتة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (عتيًّا وصليًّا وجثيًّا وبكيًّا) بكسر العين والصاد والجيم والباء، وقرأ حفص عن عاصم بكيًّا بالضم والباقي بالكسر، والباقون جميعًا بالضم، وقرأ ابن

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٢٥٤) حديث رقم/ ٢٢٩٤ قال: حدثنا عفان... به. وأبو يعلى في (مسنده) (٤/ ٤١٨) حديث رقم/ ٢٥٤٤ من طريق عفان... به. وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٢٢٢) حديث رقم/ ٦٦٥ من طريق حماد بن سلمة... به. والبيهقي في (سننه الكبرى) (١٠/ ١٨٦) من طريق حماد بن سلمة... به. والحديث مداره على علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف. ورواه ابن أبي شيبة في (مصنفه) (١١/ ٥٦١) حديث رقم/ ٣٢٥٧٠ من طريق يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو وقال... فذكره موقوفًا وهو صحيح موقوف.

مسعود بفتح العين والصاد من عتيًا وصليًا. وقرأ أُبي بن كعب وابن عباس عسيًّا بالسين غير المعجمة، والله أعلم.

المسألة الثانية: في الألفاظ وهي ثلاثة: الأول: الغلام الإنسان الذكَر في ابتداء شهوته للجماع، ومنه اغتلم إذا اشتدت شهوته للجماع ثم يستعمل في التلميذ يقال: غلام ثعلب. الثاني: العتي والعبسي واحد، تقول: عتا يعتو عتوًّا وعتيًّا فهو عاتٍ وعسا يعسو عسوًّا وعسيًّا فهو عاسٍ والعاسي هو الذي غيَّره طول الزمان إلى حال البؤس. وليل عاتٍ: طويل. وقيل: شديد الظلمة. الثالث: لم يقل عاقرة لأن ما كان على فاعل من صفة المؤنث مما لم يكن للمذكر فإنه لا تدخل فيه الهاء، نحو امرأة عاقر وحائض، قال الخليل: هذه الصفات مذكرة وُصف بها المؤنث كما وصفوا المذكر بالمؤنث حين قالوا: رجل ملحة وربعة وغلام نفعة.

المسألة الثالثة: في هذه الآية سؤالان: **الأول**: أن زكريا عليه السلام لمَ تعجَّب بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ مع أنه هو الذي طلب الغلام؟ السؤال الثاني: أن قوله: أنى يكون لي غلام لم يكن هذا مذكورًا بين أمته لأنه كان يخفي هذه الأمور عن أمته، فدل على أنه ذكره في نفسه، وهذا التعجب يدل على كونه شاكًا في قدرة الله تعالى على ذلك وذلك كفر وهو غير جائز على الأنبياء عليهم السلام. **والجواب عن السؤال الأول**: أما على قول من قال: (إنه لم يطلب خصوص الولد) فالسؤال زائل، وأما على قول من قال (إنه طلب الولد) فالجواب عنه أن المقصود من قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ هو التعجب من أنه تعالى يجعلهما شابين ثم يرزقهما الولد، أو يتركهما شيخين ويرزقهما الولد مع الشيخوخة بطريق الاستعلام لا بطريق التعجب، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠] وما هذا الإصلاح إلا أنه أعاد قوة الولادة، وقد تقدم تقرير هذا الكلام، وذكر السدي في الجواب وجهًا آخر فقال: إنه لما سمع النداء بالبشارة جاءه الشيطان فقال: إن هذا الصوت ليس من الله تعالى بل هو من الشيطان يسخر منك. فلما شك زكريا قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ واعلم أن غرض السدي من هذا أن زكريا عليه السلام لو علم أن المبشر بذلك هو الله تعالى لما جاز له أن يقول ذلك فارتكب هذا، وقال بعض المتكلمين: هذا باطل قطعًا إذ لو جوز الأنبياء في بعض ما يرد عن الله تعالى أنه من الشيطان، لجوزوا في سائره ولزالت الثقة عنهم في الوحي وعنا فيما يوردونه إلينا ويمكن أن يجاب عنه بأن هذا الاحتمال قائم في أول الأمر، وإنما يزول بالمعجزة فلعل المعجزة لم تكن حاصلة في هذه الصورة فحصل الشك فيها دون ما عداها، والله أعلم، والجواب عن السؤال الثاني من وجوه: **الأول**: أن قوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧] ليس نصًا في كون ذلك الغلام ولدًا له، بل يحتمل أن زكريا عليه السلام راعى الأدب ولم يقل هذا الكلام هل يكون لي ولد أم لا، بل ذكر أسباب تعذر حصول الولد في العادة حتى أن تلك البشارة إن كانت بالولد فالله تعالى يزيل الإبهام ويجعل

الكلام صريحًا، فلما ذكر ذلك صرح الله تعالى بكون ذلك الولد منه فكان الغرض من كلام زكريا هذا لا أنه كان شاكًّا في قدرة الله تعالى عليه. **الثاني:** أنه ما ذكر ذلك للشك لكن على وجه التعظيم لقدرته، وهذا كالرجل الذي يرى صاحبه قد وُهب الكثير الخطير فيقول: إنَّى سمحَتْ نفسك بإخراج مثل هذا من ملكك؟! تعظيمًا وتعجبًا. **الثالث:** أن من شأن من بُشر بما يتمناه أن يتولد له فرط السرور به عند أول ما يرد على استثبات ذلك الكلام، إما لأن شدة فرحه به توجب ذهوله عن مقتضيات العقل والفكر، وهذا كما أن امرأة إبراهيم عليه السلام بعد أن بُشرت بإسحاق قالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢] فأزيل تعجبها بقوله: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود: ٧٣] وإما طلبًا للالتذاذ بسماع ذلك الكلام مرة أخرى، وإما مبالغة في تأكيد التفسير.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وجوه: أحدها: أن الكاف رفع، أي الأمر كذلك تصديقًا له. ثم ابتدأ قال ربك. وثانيها: نصب يقال وذلك إشارة إلى مبهم تفسيره هو عليّ هين، وهو كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] وثالثها: أن المراد لا تعجب فإنه كذلك قال ربك لا خُلْف في قوله ولا غلط ثم قال بعده: هو عليَّ هين بدليل خلقتك من قبل ولم تك شيئًا. ورابعها: أنا ذكرنا أن قوله: (إنَّى يكون لي غلام) معناه تعطيني الغلام بأن تجعلني وزوجتي شابين أو بأن تتركنا على الشيخوخة ومع ذلك تعطينا الولد، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي نهب الولد مع بقائك وبقاء زوجتك على الحاصلة في الحال.

المسألة الثانية: قرأ الحسن (وهو عليَّ هين) وهذا لا يخرج إلا على الوجه الأول، أي الأمر كما قلت ولكن قال ربك هو مع ذلك عليَّ هين.

المسألة الثالثة: إطلاق لفظ الهين في حق الله تعالى مجاز؛ لأن ذلك إنما يجوز في حق من يجوز أن يصعب عليه شيء، ولكن المراد أنه إذا أراد شيئًا كان.

المسألة الرابعة: في وجه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ فنقول: إنه لما خلقه من العدم الصرف والنفي المحض كان قادرًا على خلق الذوات والصفات والآثار، وأما الآن فخلق الولد من الشيخ والشيخة لا يحتاج فيه إلا إلى تبديل الصفات، والقادر على خلق الذوات والصفات والآثار معًا أَوْلى أن يكون قادرًا على تبديل الصفات، وإذا أوجده عن عدم فكذا يرزقه الولد بأن يعيد إليه وإلى صاحبته القوة التي عنها يتولد الماءان اللذان من

اجتماعهما يُخلق الولد؛ ولذلك قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠] فهذا وجه الاستدلال.

المسألة الخامسة: الجمهور على أن قوله: (قال كذلك قال ربك) يقتضي أن القائل لذلك ملك مع الاعتراف بأن قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧] قول الله تعالى. وقوله: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ قول الله تعالى وهذا بعيد؛ لأنه إذا كان ما قبل هذا الكلام وما بعده قول الله تعالى فكيف يصح إدراج هذه الألفاظ فيما بين هذين القولين؟! والأَوْلى أن يقال: قائل هذا القول أيضًا هو الله تعالى، كما أن الملك العظيم إذا وعد عبده شيئًا عظيمًا فيقول العبد: من أين يحصل لي هذا؟! فيقول: إن سلطانك ضمن لك ذلك. كأنه ينبه بذلك على أن كونه سلطانًا مما يوجب عليه الوفاء بالوعد، فكذا هاهنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم: (طَلَب الآية لتحقيق البشارة) وهذا بعيد لأن بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون إظهار الآية أقوى في ذلك من صريح القول، وقال آخرون: البشارة بالولد وقعت مطلقة فلا يُعرف وقتها بمجرد البشارة، فطلب الآية ليعرف بها وقت الوقوع وهذا هو الحق.

المسألة الثانية: اتفقوا على أن تلك الآية هي تعذر الكلام عليه، فإن مجرد السكوت مع القدرة على الكلام لا يكون معجزة، ثم اختلفوا على قولين: أحدهما: أنه اعتقل لسانه أصلاً. والثاني: أنه امتنع عليه الكلام مع القوم على وجه المخاطبة مع أنه كان متمكنًا من ذكر الله ومن قراءة التوراة. وهذا القول عندي أصح لأن اعتقال اللسان مطلقًا قد يكون لمرض وقد يكون من فعل الله، فلا يعرف زكريا عليه السلام أن ذلك الاعتقال معجزًا إلا إذا عرف أنه ليس لمرض بل لمحض فعل الله تعالى مع سلامة الآلات، وهذا مما لا يُعرف إلا بدليل آخر فتفتقر تلك الدلالة إلى دلالة أخرى، أما لو اعتقل لسانه عن الكلام مع القوم مع اقتداره على التكلم بذكر الله تعالى وقراءة التوراة، علم بالضرورة أن ذلك الاعتقال ليس لعلة ومرض، بل هو لمحض فعل الله فيتحقق كونه آية ومعجزة، ومما يقوي ذلك قوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ خص ذلك بالتكلم مع الناس، وهذا يدل بطريق المفهوم أنه كان قادرًا على التكلم مع غير الناس.

المسألة الثالثة: اختلفوا في معنى ﴿سَوِيًّا﴾ فقال بعضهم: هو صفة لليالي الثلاث. وقال أكثر

المفسرين: هو صفة لزكريا والمعنى: آيتك أن لا تكلم الناس في هذه المدة مع كونك سويًا لم يحدث بك مرض.

قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ قيل: كان له موضع ينفرد فيه بالصلاة والعبادة ثم ينتقل إلى قومه، فعند ذلك أوحى إليهم. وقيل: كان موضعًا يصلي فيه هو وغيره إلا أنهم كانوا لا يدخلونه للصلاة إلا بإذنه، وأنهم اجتمعوا ينتظرون خروجه للإذن، فخرج إليهم وهو لا يتكلم فأوحى إليهم.

المسألة الثانية: لا يجوز أن يكون المراد من قوله (أوحى إليهم) الكلام لأن الكلام كان ممتنعًا عليه، فكان المراد غير الكلام وهو أن يعرفهم ذلك، إما بالإشارة أو برمز مخصوص أو بكتابة، لأن كل ذلك يفهم منه المراد، فعلموا أنه قد كان ما بُشر به، فكما حصل السرور له حصل لهم، فظهر لهم إكرام الله تعالى له بالإجابة، واعلم أن الأشبه بالآية هو الإشارة لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]والرمز لا يكون كناية للكلام.

المسألة الثالثة: اتفق المفسرون على أنه أراد بالتسبيح الصلاة، وهو جائز في اللغة، يقال: سبحة الضحى، أي صلاة الضحى، وعن عائشة رضي الله عنها في صلاة الضحى: (إني لأسبحها) أي لأصليها، إذا ثبت هذا فنقول: روي عن أبي العالية أن البكرة صلاة الفجر والعشي صلاة العصر. ويحتمل أن يكون إنما كانوا يصلون معه في محرابه هاتين الصلاتين، فكان يخرج إليهم فيأذن لهم بلسانه، فلما اعتقل لسانه خرج إليهم كعادته فأذن لهم بغير كلام، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى وصف (يحيى) في هذه الآية بصفات تسع:

الصفة الأولى:كونه مخاطبًا من الله تعالى بقوله: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ . **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: أن قوله: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يدل على أن الله تعالى بلغ بيحيى المبلغ الذي يجوز أن يخاطبه بذلك، فحذف ذكره لدلالة الكلام عليه.

المسألة الثانية: الكتاب المذكور يحتمل أن يكون هو التوراة التي هي نعمة الله على بني إسرائيل لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية: ١٦]ويحتمل أن يكون

كتابًا خص الله به يحيى، كما خص الله تعالى الكثير من الأنبياء بذلك، والأول أَوْلى لأن حمل الكلام هاهنا على المعهود السابق أَوْلى ولا معهود هاهنا إلا التوراة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿ بِقُوَّةٍ﴾ ليس المراد منه القدرة على الأخذ لأن ذلك معلوم لكل أحد، فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على القيام بأمر النبوة، وحاصلها يرجع إلى حصول ملكة تقتضي سهولة الإقدام على المأمور به والإحجام عن المنهي عنه.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ اعلم أن في الحكم أقوالاً: الأول: أنه الحكمة، ومنه قول الشاعر:

وَاحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ إِذْ نَظَرَتْ ... إِلَى حَمَامٍ سِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ (١)

وهو الفهم في التوراة والفقه في الدين. والثاني: وهو قول معمر أنه العقل، روي أنه قال: ما للعب خلقنا. والثالث: أنه النبوة فإن الله تعالى أحكم عقله في صباه وأوحى إليه، وذلك لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان، لا كما بعث موسى ومحمدًا عليهما السلام وقد بلغا الأشد، والأقرب حمله على النبوة لوجهين: الأول: أن الله تعالى ذكر في هذه الآية صفات شرفه ومنقبته، ومعلوم أن النبوة أشرف صفات الإنسان فذِكرها في معرض المدح أولى من ذكر غيرها، فوجب أن تكون نبوته مذكورة في هذه الآية، ولا لفظ يصلح للدلالة على النبوة إلا هذه اللفظة فوجب حملها عليها. الثاني: أن الحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره ولغيره على الإطلاق، وذلك لا يكون إلا بالنبوة. فإن قيل: كيف يعقل حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا؟ قلنا: هذا السائل إما أن يمنع من خرق العادة أو لا يمنع منه: فإن منع منه فقد سد باب النبوات لأن بناء الأمر فيها على المعجزات، ولا معنى لها إلا خرق العادات، وإن لم يمنع فقد زال هذا الاستبعاد فإنه ليس استبعاد صيرورة الصبي عاقلاً أشد من استبعاد انشقاق القمر وانفلاق البحر.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ اعلم أن الحنان أصله من الحنين وهو الارتياح والجزع للفراق، كما يقال: (حنين الناقة) وهو صوتها إذا اشتاقت إلى ولدها، ذكر الخليل ذلك في الحديث: «**أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُصَلِّي إِلَى جِذْعٍ من الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا اتُّخِذَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَتَحَوَّلَ إِلَيْهِ، حَنَّتْ تِلْكَ الْخَشَبَةُ حَتَّى سُمِعَ حَنِينُهَا**» (٢) فهذا هو الأصل ثم قيل: تحنن فلان على فلان إذا تعطَّف

---

(١) البيت للشاعر النابغة الذبياني وهو: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة. ١٨ ق. هـ/ ٦٠٥ م، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها. وكان الأعشى وحسان والخنساء ممن يعرض شعره.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (المناقب) باب (علامات النبوة في الإسلام) (٦/ ٦٩٦) حديث رقم/ ٣٥٨٣ والترمذي في كتاب (أبواب الصلاة) باب (ما جاء في الخطبة على المنبر) (٢/ ٣٧٩) حديث رقم/ ٥٠٥ والدارمي في كتاب (المقدمة) باب (ما أكرم النبي ﷺ بحنين المنبر) (١/ ١٨) حديث رقم/ ٣١ جميعًا من طريق عثمان بن عمر... به.

عليه ورحمه، وقد اختلف الناس في وصف الله بالحنان: فأجازه بعضهم وجعله بمعنى الرؤوف الرحيم، ومنهم من أباه لما يرجع إليه أصل الكلمة، قالوا: لم يصح الخبر بهذه اللفظة في أسماء الله تعالى. إذا عرفت هذا فنقول: الحنان هنا فيه وجهان.

أحدهما: أن يُجعل صفة لله.

وثانيهما: أن يُجعل صفة ليحيى، أما إذا جعلناه صفة لله تعالى فنقول: التقدير وآتيناه الحكم حنانًا أي رحمة منا. **ثم هاهنا احتمالات:**

الأول: أن يكون الحنان من الله ليحيى، المعنى: آتيناه الحكم صبيًّا، ثم قال: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي إنما آتيناه الحكم صبيًّا حنانًا من لدنا عليه، أي رحمة عليه وزكاة، أي وتزكية له وتشريفًا له. **الثاني:** أن يكون الحنان من الله تعالى لزكريا عليه السلام، فكأنه تعالى قال: إنما استجبنا لزكريا دعوته بأن أعطيناه ولدًا ثم آتيناه الحكم صبيًّا وحنانًا من لدنا عليه، أي على زكريا فعلنا ذلك. ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي وتزكية له عن أن يصير مردود الدعاء. **والثالث:** أن يكون الحنان من الله تعالى لأمة يحيى عليه السلام، كأنه تعالى قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا﴾ منا على أمته لعظيم انتفاعهم بهدايته وإرشاده.

أما إذا جعلناه صفة ليحيى عليه السلام ففيه وجوه:

الأول: آتيناه الحكم والحنان على عبادنا، أي التعطف عليهم وحسن النظر على كافتهم فيما أوليه من الحكم عليهم، كما وصف نبيه فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ثم أخبر تعالى أنه آتاه زكاة، ومعناه أن لا تكون شفقته داعية له إلى الإخلال بالواجب، لأن الرأفة واللين ربما أورثا ترك الواجب ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢] وقال: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] وقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] فالمعنى إنما جعلنا له التعطف على عباد الله مع الطهارة عن الإخلال بالواجبات، ويحتمل آتيناه التعطف على الخلق والطهارة عن المعاصي فلم يعص ولم يهم بمعصية، وفي الآية وجه آخر وهو المنقول عن عطاء بن رباح: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ والمعنى آتيناه الحكم صبيًّا تعظيمًا إذ جعلناه نبيًّا وهو صبي ولا تعظيم أكثر من هذا، والدليل عليه ما روي أنه مر ورقة بن نوفل على بلال وهو يعذب قد ألصق ظهره برمضاء البطحاء، ويقول: أحد أحد!! فقال: والذي نفسي بيده لئن قتلتموه لأتخذنه حنانًا!! أي معظمًا.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ وفيه وجوه:

أحدها: أن المراد: وآتيناه زكاة، أي عملاً صالحًا زكيًّا، عن ابن عباس وقتادة والضحاك وابن جريج.

وثانيها: زكاة لمن قبل منه حتى يكونوا أزكياء، عن الحسن.

وثالثها: زكيناه بحسن الثناء كما تُزكي الشهود الإنسان.

ورابعها: صدقة تصدق الله بها على أبويه عن الكلبي.

وخامسها: بركة ونماء وهو الذي قال عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

واعلم أن هذا يدل على أن فعل العبد خلق لله تعالى؛ لأنه جعل طهارته وزكاته من الله تعالى، وحَمْله على الألطاف بعيد لأنه عدول عن الظاهر.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ وقد عرفت معناه، وبالجملة فإنه يتضمن غاية المدائح لأنه هو الذي يتقي نهي الله فيجتنبه ويتقي أمره فلا يهمله، وأَوْلى الناس بهذا الوصف من لم يعص الله ولا يهم بمعصية، وكان يحيى عليه الصلاة والسلام كذلك، فإن قيل: ما معنى: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ وهذا حين ابتداء تكليفه؟ قلنا: إنما خاطب الله تعالى بذلك الرسول وأخبر عن حاله حيث كان كما أخبر عن نعم الله عليه.

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ وذلك لأنه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، ولهذا السبب قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ والمراد وصفه بالتواضع ولين الجانب، وذلك من صفات المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولأن رأس العبادات معرفة الإنسان نفسه بالذل ومعرفة ربه بالعظمة والكمال، ومن عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والتجبر؟! ولذلك فإن إبليس لما تجبر وتمرد صار مبعدًا عن رحمة الله تعالى وعن الدين. وقيل: الجبار هو الذي لا يرى لأحد على نفسه حقًّا، وهو من العظم والذهاب بنفسه عن أن يلزمه قضاء حق أحد، وقال سفيان في قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: إنه الذي يقبل على الغضب. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] وقيل: كل من عاقب على غضب نفسه من غير حق فهو جبار؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

الصفة الثامنة: قوله: ﴿عَصِيًّا﴾ وهو أبلغ من العاصي، كما أن العليم أبلغ من العالم.

الصفة التاسعة: قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ وفيه أقوال:

أحدها: قال محمد بن جرير الطبري: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ أي أمان من الله يوم وُلد من أن يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم: ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ أي وأمان عليه من عذاب القبر: ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي ومن عذاب القيامة.

وثانيها: قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه

خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا ما شاهدهم قط، ويوم يُبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله يحيى عليه الصلاة والسلام فخصه بالسلام عليه في هذه المواطن الثلاثة.

وثالثها: قال عبد الله بن نفطويه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ أي أول ما يرى الدنيا ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ أي أول يوم يرى فيه أول أمر الآخرة ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ أي أول يوم يرى فيه الجنة والنار وهو يوم القيامة. وإنما قال: ﴿حَيّٗا﴾ تنبيهًا على كونه من الشهداء لقوله تعالى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فروع. الأول: هذا السلام يمكن أن يكون من الله تعالى وأن يكون من الملائكة، وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لا تختلف لأن الملائكة لا يسلمون إلا عن أمر الله تعالى.

الثاني: ليحيى مزية في هذا السلام على ما لسائر الأنبياء عليهم السلام كقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]. ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩] لأنه قال و﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ وليس ذلك لسائر الأنبياء عليهم السلام.

الثالث: روي أن عيسى عليه السلام قال ليحيى عليه السلام: أنت أفضل مني لأن الله تعالى سلم عليك وأنا سلمت على نفسي. وهذا ليس يقوى لأن سلام عيسى على نفسه يجري مجرى سلام الله على يحيى لأن عيسى معصوم لا يفعل إلا ما أمره الله به.

الرابع: السلام عليه يوم ولد لا بد وأن يكون تفضلاً من الله تعالى لأنه لم يتقدم منه ما يكون ذلك جزاء له، وأما السلام عليه يوم يموت ويوم يبعث في المحشر - فقد يجوز أن يكون ثوابًا كالمدح والتعظيم، والله تعالى أعلم.

القول في فوائد هذه القصة:

الفائدة الأولى: تعليم آداب الدعاء وهي من جهات: أحدها: قوله: ﴿نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣] وهو يدل على أن أفضل الدعاء ما هذا حاله، ويؤكده قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] ولأن رفع الصوت مُشعر بالقوة والجلادة وإخفاء الصوت مُشعر بالضعف والانكسار، وعمدة الدعاء الانكسار والتبري عن حول النفس وقوتها والاعتماد على فضل الله تعالى وإحسانه. وثانيها: أن المحتسب أن يذكر في مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها، كما في قوله تعالى عنه: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: ٤] ثم يذكر كثرة نعم الله على ما في قوله: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤]. وثالثها: أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ [مريم: ٥]. ورابعها: أن يكون الدعاء بلفظ (يا رب) على ما في هذا الموضع.

الفائدة الثانية: ظهور درجات زكريا ويحيى عليهما السلام: أما زكريا فأمور: أحدها: نهاية تضرعه في نفسه وانقطاعه إلى الله تعالى بالكلية. وثانيها: إجابة الله تعالى دعاءه. وثالثها: أن الله تعالى ناداه وبشره أو الملائكة أو حصل الأمران معًا. ورابعها: اعتقال لسانه عن الكلام

دون التسبيح. وخامسها: أنه يجوز للأنبياء عليهم السلام طلب الآيات لقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [آل عمران: ٤١].

الفائدة الثالثة: كونه تعالى قادرًا على خلق الولد وإن كان الأبوان في نهاية الشيخوخة؛ ردًا على أهل الطبائع.

الفائدة الرابعة: صحة الاستدلال في الدين لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

الفائدة الخامسة: أن المعدوم ليس بشيء والآية نص في ذلك، فإن قيل: المراد: ولم تك شيئًا مذكورًا كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] قلنا: الإضمار خلاف الأصل. وللخصم أن يقول: الآية تدل على أن الإنسان لم يكن شيئًا. ونحن نقول به لأن الإنسان عبارة عن جواهر متألفة قامت بها أعراض مخصوصة، والجواهر المتألفة الموصوفة بالأعراض المخصوصة غير ثابتة في العدم، إنما الثابت هو أعيان تلك الجواهر مفردة غير مركبة وهي ليست بإنسان، فظهر أن الآية لا دلالة فيها على المطلوب.

الفائدة السادسة: أن الله تعالى ذكر هذه القصة في سورة آل عمران وذكرها في هذا الموضع، فلنعتبر حالها في الموضعين فنقول: الأول: أنه تعالى بَيَّن في هذه السورة أنه دعا ربه ولم يبين الوقت وبَيَّنه في آل عمران بقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٧، ٣٨] والمعنى أن زكريا عليه السلام لما رأى خرق العادة في حق مريم عليها السلام طمع فيه في حق نفسه فدعا. الثاني: وهو أن الله تعالى صرح في آل عمران بأن المنادي هو الملائكة لقوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩] وفي هذه السورة الأظهر أن المنادي بقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧] هو الله تعالى، وقد بينا أنه لا منافاة بين الأمرين. الثالث: أنه قال في آل عمران: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٤٠] فذكر أولاً كبر نفسه ثم عقر المرأة، وهو في هذه السورة قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] وجوابه أن الواو لا تقتضي الترتيب. الرابع: قال في آل عمران: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [آل عمران: ٤٠] وقال هاهنا ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ﴾ [مريم: ٨] وجوابه أن ما بلغك فقد بلغته. الخامس: قال في آل عمران: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] وقال هاهنا: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] وجوابه: دلت الآيتان على أن المراد ثلاثة أيام بلياليهن، والله أعلم.

القصة الثانية: قصة مريم وكيفية ولادة عيسى عليه السلام: اعلم أنه تعالى إنما قدم قصة يحيى على قصة عيسى عليهما السلام، لأن خلق الولد من شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات – من

تخليق الولد لا من الأب ألبتة، وأحسن الطرق في التعليم والتفهيم الأخذ من الأقرب فالأقرب مترقيًا إلى الأصعب فالأصعب.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: (إذ) بدل من (مريم) بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها، وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقت هذا الوقوع لهذه القصة العجيبة فيه.

المسألة الثانية: النبذ أصله الطرح والإلقاء، والانتباذ افتعال منه، ومنه: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وانتبذت: تنحَّت، يقال: جلس نبذة من الناس و(نبذة) بضم النون وفتحها أي ناحية وهذا إذا جلس قريبًا منك حتى لو نبذت إليه شيئًا وصل إليه. ونبذت الشيء رميته، ومنه النبيذ لأنه يُطرح في الإناء، وأصله منبوذ فصُرف إلى فعيل ومنه قيل للقيط منبوذ لأنه يرمى به، ومنه النهي عن المنابذة في البيع وهو أن يقول: إذا نبذت إليك هذا الثوب أو الحصاة فقد وجب البيع إذا عرفت.

هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ معناه تباعدت وانفردت على سرعة إلى مكان يلي ناحية الشرق، ثم بَيَّن تعالى أنها مع ذلك اتخذت من دون أهلها حجابًا مستورًا، وظاهر ذلك أنها لم تقتصر على أن انفردت إلى موضع، بل جعلت بينها وبينهم حائلاً من حائط أو غيره، ويحتمل أنها جعلت بين نفسها وبينهم سترًا، وهذا الوجه الثاني أظهر من الأول، ثم لا بد من احتجابها من أن يكون لغرض صحيح وليس مذكورًا، واختلف المفسرون فيه على وجوه: الأول: أنها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد؛ للعبادة لكي تنتظر الطهر فتغتسل وتعود، فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام. والثاني: أنها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة. والثالث: قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بشيء يسترها. والرابع: أنها كان لها في منزل زوج أختها زكرياء محراب على حدة تسكنه، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها، فتمنت (على) الله (أن) تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها، فانفرج السقف لها فخرجت إلى المفازة فجلست في المشرفة وراء الجبل فأتاها الملك. وخامسها: عطشت فخرجت إلى المفازة لتستقي.

واعلم أن كل هذه الوجوه محتمل وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها.

المسألة الثالثة: المكان الشرقي هو الذي يلي شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة! لقوله تعالى: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة.

المسألة الرابعة: أنها لما جلست في ذلك المكان أرسل الله إليها الروح، واختلف المفسرون في هذا الروح: فقال الأكثرون: إنه جبريل عليه السلام. وقال أبو مسلم: إنه الروح الذي تصور في بطنها بشرًا. والأول أقرب لأن جبريل عليه السلام يسمى روحًا قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]وسُمي روحًا لأنه روحاني وقيل: خلق من الروح وقيل لأن الدين يحيا به أو سماه الله تعالى بروحه على المجاز محبة له وتقريبًا، كما تقول لحبيبك (روحي) وقرأ أبو حيوة روحنا بالفتح لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدة المتقين في قوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربنا وذا روحنا، وإذا ثبت أنه يسمى روحًا فهو هنا يجب أن يكون المراد به هو لأنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩] ولا يليق ذلك إلا بجبريل عليه السلام. **واختلفوا في أنه كيف ظهر لها. فالأول:**أنه ظهر لها على صورة شاب أمرد حسن الوجه سوي الخلق. **والثاني:**أنه ظهر لها على صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس. وكل ذلك محتمل ولا دلالة في اللفظ على التعيين: ثم قال: وإنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، فلو ظهر لها في صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه. **ثم هاهنا إشكالات:**

أحدها:وهو أنه لو جاز أن يظهر الملك في صورة إنسان معين، فحينئذٍ لا يمكننا القطع بأن هذا الشخص الذي أراه في الحال هو زيد الذي رأيته بالأمس؛ لاحتمال أن الملك أو الجني تمثل في صورته وفَتْح هذا الباب يؤدي إلى السفسطة، لا يقال هذا إنما يجوز في زمان جواز البعثة، فأما في زماننا هذا فلا يجوز لأنا نقول: هذا الفرق إنما يُعلم بالدليل، فالجاهل بذلك الدليل يجب أن لا يقطع بأن هذا الشخص الذي أراه الآن هو الشخص الذي رأيته بالأمس.

وثانيها:أنه جاء في الأخبار أن جبريل عليه السلام شخص عظيم جدًّا، فذلك الشخص العظيم كيف صار بدنه في مقدار جثة الإنسان؟ أبأن تساقطت أجزاؤه وتفرقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبريل؟ أو بأن تداخلت أجزاؤه وذلك يوجب تداخل الأجزاء وهو محال؟

وثالثها:وهو أنا لو جوزنا أن يتمثل جبريل عليه السلام في صورة الآدمي، فلِمَ لا يجوز تمثله في صورة جسم أصغر من الآدمي حتى الذباب والبق والبعوض، ومعلوم أن كل مذهب جر إلى ذلك فهو باطل.

ورابعها:أن تجويزه يفضي إلى القدح في خبر التواتر، فلعل الشخص الذي حارب يوم بدر لم يكن محمدًا بل كان شخصًا آخر تَشَبَّه به، وكذا القول في الكل. **والجواب عن الأول:**أن ذلك التجويز لازم على الكل لأن من اعترف بافتقار العالم إلى الصانع المختار، فقد قطع بكونه تعالى قادرًا على أن يخلق شخصًا آخر مثل زيد في خلقته وتخطيطه، وإذا جوزنا ذلك فقد لزم الشك في أن زيدًا المشاهد الآن هو الذي شاهدناه بالأمس أم لا، ومن أنكر الصانع المختار وأسند

الحوادث إلى اتصالات الكواكب وتشكلات الفلك، لزمه تجويز أن يحدث اتصال غريب في الأفلاك يقتضي حدوث شخص مثل زيد في كل الأمور، وحينئذٍ يعود التجويز المذكور.

وعن الثاني: أنه لا يمتنع أن يكون جبريل عليه السلام له أجزاء أصلية وأجزاء فاضلة، والأجزاء الأصلية قليلة جدًا فحينئذٍ يكون متمكنًا من التشبه بصورة الإنسان، هذا إذا جعلناه جسمانيًا، أما إذا جعلناه روحانيًا، فأي استبعاد في أن يتدرع تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالهيكل الصغير.

وعن الثالث: أن أصل التجويز قائم في العقل، وإنما عُرف فساده بدلائل السمع، وهو الجواب عن السؤال الرابع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾

وفيه وجوه: أحدها: أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فإني عائذة به منك. وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي، وهو كقوله: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٧٨] أي أن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يُخشى في حال دون حال. وثانيها: أن معناه ما كنت تقيًا حيث استحللت النظر إليَّ وخلوت بي. وثالثها: أنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقى يتبع النساء، فظنت مريم عليها السلام أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقى. والأول هو الوجه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لما علم جبريل خوفها قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ليزول عنها ذلك الخوف، ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول، بل لا بد من دلالة تدل على أنه جبريل عليه السلام وما كان من الناس، فههنا يحتمل أن يكون قد ظهر معجز عرفت به جبريل عليه السلام، ويحتمل أنها من جهة زكريا عليه السلام عرفت صفة الملائكة، فلما قال لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أظهر لها من باطن جسده ما عرفت أنه ملك، فيكون ذلك هو العلم. وسأل القاضي عبد الجبار في تفسيره نفسه فقال: إذا لم تكن نبية عندكم وكان من قولكم أن الله تعالى لم يرسل إلى خلقه إلا رجالاً، فكيف يصح ذلك؟! وأجاب أن ذلك إنما وقع في زمان زكريا عليه السلام، وكان رسولاً وكل ذلك كان عالمًا به وهذا ضعيف لأن المعجز إذا كان مفعولاً للنبي فأقل ما فيه أن يكون عليه السلام عالمًا به، وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعله معجزًا له؟ بل الحق أن ذلك إما أن يكون كرامة لمريم أو إرهاصًا لعيسى عليه السلام.

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر ونافع (ليهب) بياء مفتوحة بعد اللام، أي ليهب الله لك، والباقون بهمزة مفتوحة بعدها، أما قوله (لأهب لك) ففي مجازه وجهان: الأول: أن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي نفخ في جيبها بأمر الله تعالى، جعل نفسه كأنه هو الذي وهب

لها، وإضافة الفعل إلى ما هو سبب له مستعمل، قال تعالى في الأصنام: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[إبراهيم: ٣٦] . الثاني: أن جبريل عليه السلام لما بشَّرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة.

فإن قال قائل: ما الدليل على أن جبريل عليه السلام لا يقدر على تركيب الأجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها؟ والذي يقال فيه: إن جبريل عليه السلام جسم والجسم لا يقدر على هذه الأشياء: أما أنه جسم فلأنه محدث وكل محدث إما متحيز أو قائم بالمتحيز، وأما أن الجسم لا يقدر على هذه الأشياء فلأنه لو قدر جسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لأن الأجسام متماثلة، وهو ضعيف لأن للخصم أن يقول: لا نسلم أن كل محدث إما متحيِّز أو قائم به، بل هاهنا موجودات قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز، ولا يلزم من كونها كذلك كونها أمثالاً لذات الله تعالى؟ لأن الاشتراك في الصفات الثبوتية لا يقتضي التماثل، فكيف في الصفات السلبية؟! سلَّمنا كونه جسمًا فلمَ قلتُ الجسم لا يقدر عليه. قوله: الأجسام متماثلة. قلنا: نعني به أنها متماثلة في كونها حاصلة في الأحياز ذاهبة في الجهات، أو نعني به أنها متماثلة في تمام ماهياتها. والأول مسلَّم لكن حصولها في الأحياز صفات لتلك الذوات، والاشتراك في الصفات لا يوجب الاشتراك في ماهيات المواصفات، سلَّمنا أن الأجسام متماثلة فلمَ لا يجوز أن يقال: إن الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض حتى أنه يصح منها ذلك ولا يصح من البشر ذلك. والجواب الحق أن المعتمد في دفع هذا الاحتمال إجماع الأمة فقط، والله أعلم.

المسألة الثالثة: الزكي يفيد أمورًا ثلاثة: الأول: أنه الطاهر من الذنوب. والثاني: أنه ينمو على التزكية لأنه يقال فيمن لا ذنب له: زكي، وفي الزرع النامي زكي. والثالث: النزاهة والطهارة فيما يجب أن يكون عليه ليصح أن يُبعث نبيًّا، وقال بعض المتكلمين: الأولى أن يُحمل على الكل. وهو ضعيف لما عرفت في أصول الفقه أن اللفظ الواحد لا يجوز حمله على المعنيين، سواء كان حقيقة فيهما أو في أحدهما مجازًا وفي الآخر حقيقة.

المسألة الرابعة: سماه زكيًّا مع أنه لم يكن له شيء من الدنيا، وأنت إذا نظرت في سوقك فمن لم يملك شيئًا فهو شقي عندك. وإنما الزكي من يملك المال والله يقول كان زكيًّا، لأن سيرته الفقر وغناه الحكمة والكتاب، وأنت فإنما تسمي بالزكي من كانت سيرته الجهل وطريقته المال.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنها إنما تعجبت بما بشَّرها جبريل عليه السلام لأنها عرفت بالعادة أن

الولادة لا تكون إلا من رجل، والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور وإن جوزوا خلاف ذلك في القدرة، فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء، وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد، ولأنها كانت منفردة بالعبادة، ومن يكون كذلك لا بد من أن يعرف قدرة الله تعالى على ذلك.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يدخل تحته قولها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فلماذا أعادتها؟ ومما يؤكد هذا السؤال أن في سورة آل عمران قالت: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧]فلم تذكر البغاء. والجواب من وجوه: أحدها: أنها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه لقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]والزنا ليس كذلك، إنما يقال فجر بها أو ما أشبه ذلك ولا يليق به رعاية الكنايات. وثانيها: أن إعادتها لتعظيم حالها كقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]فكذا ههنا إن من لم تُعرف من النساء بزوج فأغلظ أحوالها إذا أتت بولد أن تكون زانية، فأفرد ذكر البغاء بعد دخوله في الكلام الأول لأنه أعظم ما في بابه.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): البغي الفاجرة التي تبغي الرجال، وهو فَعول عند المبرد بَغُوى فأُدغمت الواو في الياء، وقال ابن جني في كتاب (التمام): هو فعيل ولو كان فعولاً لقيل بَغُوا كما قيل نَهوا عن المنكر.

المسألة الرابعة: أن جبريل عليه السلام أجابها بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وهو كقوله في آل عمران: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]لا يمتنع عليه فعل ما يريد خلقه، ولا يحتاج في إنشائه إلى الآلات والمواد.

المسألة الخامسة: الكناية في: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وفي قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ تحتمل وجهين: الأول: أن تكون راجعة إلى الخلق، أي أن خلقه عليَّ هين ولنجعل خلقه آية للناس إذ وُلد من غير ذكر ورحمة منا يرحم عبادنا بإظهار هذه الآيات حتى تكون دلائل صدقه أبهر، فيكون قبول قوله أقرب. الثاني: أن ترجع الكنايات إلى الغلام وذلك لأنها لما تعجبت من كيفية وقوع هذا الأمر على خلاف العادة، أُعلمت أن الله تعالى جاعل ولدها آية على وقوع ذلك الأمر الغريب، فأما قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ فيحتمل أن يكون معطوفًا على ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي فعلنا ذلك: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ فعلنا ذلك، ويحتمل أن يكون معطوفًا على الآية أي: ولنجعله آية ورحمة فعلنا ذلك.

المسألة السادسة: قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ المراد منه أنه معلوم لعلم الله تعالى فيمتنع وقوع خلافه؛ لأنه لو لم يقع لانقلب علم الله جهلاً، وهو محال والمفضي إلى المحال محال فخلافه محال فوقوعه واجب، وأيضًا فلأن جميع الممكنات منتهية في سلسلة القضاء والقدر إلى

واجب الوجود، والمنتهي إلى الواجب انتهاء واجبًا يكون واجب الوجود، وإذا كان واجب الوجود فلا فائدة في الحزن والأسف، وهذا هو سر قوله عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ سِرَّ اللَّهِ فِي الْقَدَرِ هَانَتْ عليه المصائب»(١).

قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] أي في عيسى عليه السلام، كما قال لآدم عليه السلام: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] وقال فنفخنا فيها لأن عيسى عليه السلام كان في بطنها، واختلفوا في النافخ: فقال بعضهم: كان النفخ من الله تعالى لقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وظاهره يفيد أن النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل، وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فكذا هاهنا. وقال آخرون: النافخ هو جبريل عليه السلام لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم: ١٩] أنه أمر أن يكون من قبله حتى يحصل الحمل لمريم عليها السلام، فلا بد من إحالة النفخ إليه. ثم اختلفوا في كيفية ذلك النفخ على قولين: الأول: قول وهب: إنه نفخ جبريل في جيبها حتى وصلت إلى الرحم. الثاني: في ذيلها فوصلت إلى الفرج. الثالث: قول السدي: أخذ بكمها فنفخ في جنب درعها فدخلت النفخة صدرها فحملت، فجاءتها أختها امرأة زكريا تزورها فالتزمتها فلما التزمتها علمت أنها حبلى وذكرت مريم حالها، فقالت امرأة زكريا: إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك. فذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩]. الرابع: أن النفخة كانت في فيها فوصلت إلى بطنها فحملت في الحال، إذا عرفت هذا ظهر أن في الكلام حذفًا وهو: وكان أمرًا مقضيًّا، فنفخ فيها فحملته.

المسألة الثانية: قيل: حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل: بنت عشرين، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل. وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأحوال.

المسألة الثالثة: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ أي اعتزلت وهو في بطنها، كقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي تنبت والدهن فيها، واختلفوا في علة الانتباذ على وجوه: **أحدها:** ما رواه الثعلبي في العرائس عن وهب قال: إن مريم لما حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان يوسف ومريم

(١) تقدم تخريجه.

يخدمان ذلك المسجد، ولا يُعلم في أهل زمانهما أحد أشد اجتهادًا ولا عبادة منهما، وأول من عرف حمل مريم يوسف فتحير في أمرها، فكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل، فأول ما تكلم أن قال: إنه وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك، فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري. فقالت: قل قولاً جميلاً. قال: أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث، وهل يكون ولد من غير ذكَر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر إنما حصل من الزرع الذي أنبته من غير بذر، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعد ما خلق كل واحد منهما على حدة؟ أو تقول: إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها، فقال يوسف: لا أقول: هذا ولكني أقول إن الله قادر على ما يشاء فيقول له كن فيكون، فقالت له مريم: أو لم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟

فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب، فلما دنا نفاسها اوحى الله إليها أن أخرجي من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك. فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له، فلما بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها إلى أصل نخلة، وذلك في زمان برد فاحتضنتها فوضعت عندها.

وثانيها: أنها استحيت من زكريا فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا.

وثالثها: أنها كانت مشهورة في بني إسرائيل بالزهد لنذر أمها وتشاح الأنبياء في تربيتها وتكفُّل زكريا بها، ولأن الرزق كان يأتيها من عند الله تعالى، فلما كانت في نهاية الشهرة استحيت من هذه الواقعة، فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا.

ورابعها: أنها خافت على ولدها لو ولدته فيما بين أظهرهم، واعلم أن هذه الوجوه محتملة، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها.

المسألة الرابعة: اختلفوا في مدة حملها على وجوه: الأول: قول ابن عباس رضي الله عنهما: إنها كانت تسعة أشهر كما في سائر النساء، بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها في هذا الموضع، فلو كانت عادتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر. الثاني: أنها كانت ثمانية أشهر، ولم يعش مولود وُضع لثمانية إلا عيسى ابن مريم عليه السلام. الثالث: وهو قول عطاء وأبي العالية والضحاك: سبعة أشهر. الرابع: أنها كانت ستة أشهر. الخامس: ثلاث ساعات حملته في ساعة وصُوِّر في ساعة ووضعته في ساعة. السادس: وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا: كانت مدة الحمل ساعة واحدة. ويمكن الاستدلال عليه من وجهين: الأول: قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ [مريم: ٢٢] ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ [مريم: ٢٣] ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ [مريم: ٢٤] والفاء للتعقيب فدلت هذه الفاءات على أن كل واحد من هذه

الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل، وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة، لا يقال انتباذها مكانًا قصيًّا كيف يحصل في ساعة واحدة؟! لأنا نقول: السُّدي فسره بأنها ذهبت إلى أقصى موضع في جانب محرابها. الثاني: أن الله تعالى قال في وصفه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فثبت أن عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وهذا مما لا يُتصور فيه مدة الحمل، وإنما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة.

المسألة الخامسة: ﴿قَصِيًّا﴾ أي بعيدًا من أهلها، يقال: مكان قاصٍ وقَصِي بمعنى واحد، مثل عاص وعَصِي، ثم اختلفوا فقيل: أقصى الدار، وقيل: وراء الجبل، وقيل: سافرت مع ابن عمها يوسف. وقد تقدمت هذه الحكاية.

المسألة السادسة: قال صاحب (الكشاف): (أَجَاءَ) منقول من (جاء) إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء فإنك لا تقول: جئت المكان، وأجاءنيه زيد، كما تقول: بلغنيه وأبلغته، والمعنى أن طلقها ألجأها إلى جذع النخلة، ثم يُحتمل أنها إنما ذهبت إلى النخلة طلبًا لسهولة الولادة للتشبث بها. ويحتمل للتقوية والاستناد إليها، ويحتمل للتستر بها ممن يخشى منه القالة إذا رآها، ولذلك حكى الله عنها أنها تمنت الموت.

المسألة السابعة: قال في (الكشاف): قرأ ابن كثير في رواية (المِخاض) بالكسر يقال: مخضت الحامل مَخاضًا ومِخاضًا وهو تمخض الولد في بطنها.

المسألة الثامنة: قال في (الكشاف): كان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة، وكان الوقت شتاء، والتعريف إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس، فإذا قيل: (جذع النخلة) فُهم منه ذلك، دون سائره، وإما أن يكون تعريف الجنس أي إلى جذع هذه الشجرة خاصة، كأن الله أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو أشد الأشياء موافقة للنفساء، ولأن النخلة أقل الأشياء صبرًا على البرد ولا تثمر إلا عند اللقاح، وإذا قطعت رأسها لم تثمر، فكأنه تعالى قال: كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكَر، فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح، ثم إني أُظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكَر.

المسألة التاسعة: لمَ قالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل إليها، وخلَق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام، ووعدها بأن يجعلها وابنها آية للعالمين؟ والجواب من وجهين: **الأول**: قال وهب: أنساها كربة الغربة وما سمعته من الناس (مِنْ) بشارة الملائكة بعيسى عليه السلام. **الثاني**: أن عادة الصالحين إذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك. وروي عن أبي بكر أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال: طوبى لك يا طائر تقع على الشجرة وتأكل من الثمر! وددت أني ثمرة ينقرها الطائر! وعن عمر أنه أخذ تبنة من الأرض وقال: ليتني

هذه التبنة يا ليتني لم أك شيئًا! وقال علي يوم الجمل: يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وعن بلال: ليت بلالاً لم تلده أمه. فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الأمر عليهم. **الثالث:** لعلها قالت ذلك لكيلا تقع المعصية ممن يتكلم فيها، وإلا فهي راضية بما بُشرت به.

المسألة العاشرة: قال صاحب (الكشاف): النسي ما من حقه أن يُطرح ويُنسى كخرقة الطمث ونحوها، كالذِّبح اسم ما من شأنه أن يُذبح، كقوله: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[الصافات: ١٠٧] تمنت لو كانت شيئًا تافهًا لا يؤبه به ومن حقه أن ينسى في العادة. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة (نَسيًا) بالفتح والباقون (نسيًا) بالكسر قال الفراء: هما لغتان كالوَتر والوِتر والجَسر والجِسر. وقرأ محمد بن كعب القرظي نسيئًا بالهمزة وهو الحليب المخلوط بالماء ينساه أهله لقلته وقرأ الأعمش (مِنِسيًّا) بالكسر على الإتباع كالمِغير والمِنخر، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: (فناداها من تحتها) القراءة المشهورة (فناداها) وقرأ زر وعلقمة (فخاطبها) وفي الميم فيها قراءتان: فتح الميم وهو المشهور، وكسره وهو قراءة نافع وحمزة والكسائي وحفص، وفي المنادي ثلاثة أوجه: **الأول:** أنه عيسى عليه السلام. وهو قول الحسن وسعيد بن جبير. **والثاني:** أنه جبريل عليه السلام وأنه كان كالقابلة للولد. **والثالث:** أن المنادي على القراءة بالكسر هو المَلَك وعلى القراءة بالفتح هو عيسى عليه السلام وهو مروي عن ابن عيينة وعاصم. والأول أقرب لوجوه: **الأول:** أن قوله: (فناداها مَن تحتها) بفتح الميم إنما يستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحدًا والذي علم كونه حاصلاً تحتها هو عيسى عليه السلام، فوجب حمل اللفظ عليه، وأما القراءة بكسر الميم فهي لا تقتضي كون المنادي جبريل عليه السلام، فقد صح قولنا. **الثاني:** أن ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة، وذلك لا يليق بالملائكة. **الثالث:** أن قوله (فناداها) فعل ولا بد وأن يكون فاعله قد تقدم ذكره، ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليهما السلام، إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾[مريم: ٢٢] والضمير هاهنا عائد إلى المسيح فكان حمله عليه أولى. **والرابع:** وهو دليل الحسن بن علي عليه السلام أن عيسى عليه السلام لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق، فما كانت تشير إلى عيسى عليه السلام بالكلام. فأما من قال: (المنادي هو عيسى عليه السلام) فالمعنى أنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطييبًا لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد في أول

الأمر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد ومن قال: (المنادي جبريل عليه السلام) قال: إنه أُرسل إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أُرسل إليها في أول الأمر ليكون ذلك تذكيرًا لها بما تقدم من أصناف البشارات.

وأما قوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ فإن حملناه على الولد فلا سؤال، وإن حملناه على الملك ففيه وجهان: الأول: أن يكونا معًا في مكان مستو، ويكون هناك مبدأ معين كتلك النخلة ههنا، فكل من كان أقرب منها كان فوق، وكل من كان أبعد منها كان تحت. وفسر الكلبي قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]بذلك وعلى هذا الوجه، قال بعضهم: إنه ناداها من أقصى الوادي. والثاني: أن يكون موضع أحدهما أعلى من موضع الآخر، فيكون صاحب العلو فوق صاحب السفل، وعلى هذا الوجه روي عن عكرمة أنها كانت حين ولدت على مثل رابية. وفيه وجه ثالث: يحكى عن عكرمة وهو أن جبريل عليه السلام ناداها من تحت النخلة. ثم على التقديرات الثلاثة يحتمل أن تكون مريم قد رأته، وأنها ما رأته وليس في اللفظ ما يدل على شيء من ذلك.

المسألة الثانية: اتفق المفسرون إلا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السري هو النهر والجدول، سُمي بذلك لأن الماء يسري فيه. وأما الحسن وابن زيد فجعلا السري عيسى، والسري هو النبيل الجليل، يقال: فلان من سروات قومه، أي من أشرافهم. وروي أن الحسن رجع عنه وروي عن قتادة وغيره أن الحسن تلا هذه الآية وبجنبه حميد بن عبد الرحمن الحميري: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ فقال: إن كان لسريًّا وإن كان لكريمًا. فقال له حميد: يا أبا سعيد إنما هو الجدول. فقال له الحسن من ثم تعجبنا مجالستك.

واحتج من حمله على النهر بوجهين: **أحدهما**:أنه سأل النبي ﷺعن السري فقال: هو الجدول [(١)]. **والثاني**:أن قوله: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ يدل على أنه نهر حتى ينضاف الماء إلى الرطب فتأكل وتشرب. واحتج مَن حَمَله (على) عيسى بوجهين: **الأول**:أن النهر لا يكون تحتها بل إلى جانبها، ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد منه أنه جعل النهر تحت أمرها يجري بأمرها ويقف بأمرها، كما في قوله: ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]لأن هذا حمل للفظ على مجازه، ولو حملناه على عيسى عليه السلام لم يحتج إلى هذا المجاز. **الثاني**:أنه موافق لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]والجواب عنه ما تقدم أن المكان المستوي إذا كان فيه مبدأ معين، فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان من تحت. فرعان: الأول: إن حملنا السري على النهر ففيه وجهان: أحدهما: أن جبريل عليه السلام ضرب برجله فظهر ماء عذب. والثاني: أنه كان هناك ماء جارٍ. والأول

---

(١)أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٠٥) حديث رقم/ ٣٤١٣ من طريق سفيان عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب... فذكره موقوفًا. وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

أقرب لأن قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ مُشعر بالحدوث في ذلك الوقت ولأن الله تعالى ذكره تعَظيمًا لشأنها، وذلك لا يَثبت إلا على الوجه الذي قلناه. **الثاني:** اختلفوا في أن السري هو النهر مطلقًا، وهو قول أبي عبيدة والفراء، أو النهر الصغير على ما هو قول الأخفش.

المسألة الثالثة: قال القفال: الجذع من النخلة هو الأسفل وما دون الرأس الذي عليه الثمرة. وقال قطرب: كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع. وأما الباء في قوله (بجذع النخلة) فزائدة والمعنى: هزي إليك، أي حركي جذع النخلة، قال الفراء: العرب تقول هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام وزوجتك فلانة وبفلانة. وقال الأخفش: يجوز أن يكون على معنى (هزي إليك رطبًا بجذع النخلة) أي على جذعها.

إذا عرفت هذا فنقول: قد تقدم أن الوقت كان شتاء وأن النخلة كانت يابسة، واختلفوا في أنه هل أثمر الرطب وهو على حاله أو تغير، وهل أثمر مع الرطب غيره؟ والظاهر يقتضي أنه صار نخلة لقوله (بجذع النخلة) وأنه ما أثمر إلا الرطب.

المسألة الرابعة: قال صاحب (الكشاف): تساقط فيه تسع قراءات: (تسَّاقطِ) بإدغام التاء و(تتساقط) بإظهار التاءين و(تساقط) بطرح الثانية و(يسَّاقط) بالياء وإدغام التاء و(تساقط) و(تسقط) و(يَسقط) و(تُسقط) و(يُسقط) التاء للنخلة والياء للجذع.

المسألة الخامسة: رطبًا تمييز أو مفعول على حسب القراءة (الجني) المأخوذ طريًا وعن طلحة بن سليمان جِنيًا بكسر الجيم للإتباع والمعنى: جمعنا لكِ في السري والرطب فائدتين: إحداهما: الأكل والشرب. والثانية: سلوة الصدر بكونهما معجزتين. فإن قال قائل: فتلك الأفعال الخارقة للعادات لمن؟ قلنا: قالت المعتزلة: إنها كانت معجزة لزكريا وغيره من الأنبياء. وهذا باطل لأن زكرياء عليه السلام ما كان له علم بحالها ومكانها، فكيف بتلك المعجزات؟! بل الحق أنها كانت كرامات لمريم أو إرهاصًا لعيسى عليه السلام.

المسألة السادسة: (فكلي واشربي وقري عينًا) قرئ بكسر القاف لغة نجد. ونقول: قدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء، ثم قال: (وقري عينًا).

وهاهنا سؤال، وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش، والدليل عليه أمران: **أحدهما:** أن الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن، وألم الروح أقوى من ألم البدن. **والثاني:** ما روي أنه أجيعت شاة ثم قُدم العلف إليها ورُبط عندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها الشديد خوفًا من الذئب، ثم كُسرت رجلها وقُدم العلف إليها فتناولت العلف مع ألم البدن، دلت هذه الحكاية على أن ألم الخوف أشد من ألم البدن.

إذا ثبت هذا فنقول: فلمَ قدم الله تعالى في الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف؟ والجواب أن هذا الخوف كان قليلاً؛ لأن بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت

فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى.

المسألة السابعة: قال صاحب (الكشاف) قرأ: (ترئن) بالهمزة ابن الرومي عن أبي عمرو، وهذا من لغة من يقول لبأت بالحج وحلأت السويق: (وذلك) لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال ﴿صَوْمًا﴾ صمتًا، وفي مصحف عبد الله (صمتًا) وعن أنس بن مالك مثله وقيل صيامًا إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم، فعلى هذا كان (ذكر) الصوم دالاً على الصمت وهذا (النوع) من النذر كان جائزًا في شرعهم، وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا؟ قال القفال: لعله يجوز لأن الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر لذكر الله تعالى قربة، ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس، وروي أنه دخل أبو بكر على امرأة قد نذرت أنها لا تتكلم فقال أبو بكر: إن الإسلام هدم هذا فتكلمي. والله أعلم.

المسألة الثامنة: أمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع من اتهمها في الكلام لمعنيين: أحدهما: أن كلام عيسى عليه السلام أقوى في إزالة التهمة من كلامها وفيه دلالة على أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى. والثاني: كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهًا.

المسألة التاسعة: اختلفوا في أنها هل قالت معهم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ فقال قوم: إنها ما تكلمت معهم بذلك لأنها كانت مأمورة بأن تأتي بهذا النذر عند رؤيتها، فإذا أتت بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها أمسكت وأومأت برأسها. وقال آخرون: إنها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وهذه الصيغة وإن كانت عامة إلا أنها صارت بالقرينة مخصوصة في حق هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أنها كيف أتت بالولد؟ على أقوال: **الأول**: ما روي عن وهب قال: أنساها كرب الولادة وما سمعته من الناس ما كان من كلام الملائكة من البشارة بعيسى عليه السلام، فلما كلمها جاءها مصداق ذلك فاحتملته وأقبلت به إلى قومها. **الثاني**: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف انتهى بمريم إلى غار، فأدخلها فيه أربعين يومًا حتى طهرت من النفاس ثم أتت به قومها تحمله فكلمها عيسى في الطريق، فقال: يا أماه أبشري فإني عبد الله

ومسيحه . وهذان الوجهان محتملان وليس في القرآن ما يدل على التعيين .

المسألة الثانية: الفرئ: البديع وهو من فري الجلد، يروى أنهم لما رأوها ومعها عيسى عليه السلام قالوا لها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ فيحتمل أن يكون المراد شيئًا عجيبًا خارجًا عن العادة، من غير تعيير وذم، ويحتمل أن يكون مرادهم شيئًا عظيمًا منكرًا، فيكون ذلك منهم على وجه الذم وهذا أظهر لقولهم بعده: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ لأن هذا القول ظاهره التوبيخ، وأما هارون ففيه أربعة أقوال: **الأول**: أنه رجل صالح من بني إسرائيل، يُنسب إليه كل من عرف بالصلاح، والمراد أنكِ كنت في الزهد كهرون فكيف صرتِ هكذا؟! وهو قول قتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة، ذكر أن هارون الصالح تبع جنازته أربعون ألفًا كلهم يسمون هارون تبركًا به وباسمه. **الثاني**: أنه أخو موسى عليه السلام وعن النبي ﷺ إنما عنوا هارون النبي وكانت من أعقابه، وإنما قيل (أخت هارون) كما يقال: يا أخا همدان أي يا واحدًا منهم. **والثالث**: كان رجلاً معلنًا بالفسق فنسبت إليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة. **الرابع**: كان لها أخ يسمى هارون من صلحاء بني إسرائيل فعيرت به، وهذا هو الأقرب لوجهين: الأول: أن الأصل في الكلام الحقيقة، وإنما يكون ظاهر الآية محمولاً على حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بهارون. الثاني: أنها أضيفت إليه ووصف أبواها بالصلاح، وحينئذٍ يصير التوبيخ أشد؛ لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش.

المسألة الثالثة: القراءة المشهورة: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ وقرأ عمرو بن رجاء التميمي: (مَا كَانَ أَبَاكِ امْرُؤُ سَوْءٍ).

المسألة الرابعة: أنهم لما بالغوا في توبيخها سكتت وأشارت إليه، أي إلى عيسى عليه السلام، أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه. وعن السدي: لما أشارت إليه غضبوا غضبًا شديدًا وقالوا: لَسخريتُها بنا أشد من زناها. روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته، وقيل: كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغًا يتكلم فيه الصبيان. وقيل: إن زكرياء عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود إياها، فقال لعيسى عليه السلام: انطق بحجتك إن كنت أُمرت بها. فقال عيسى عليه السلام عند ذلك: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] فإن قيل: كيف عرفت مريم من حال عيسى عليه السلام أنه يتكلم؟ قلنا: إن جبريل عليه السلام أو عيسى عليه السلام - ناداها من تحتها أن لا تحزني وأمَرها عند رؤية الناس بالسكوت، فصار ذلك كالتنبيه لها على أن المجيب هو عيسى عليه السلام، أو لعلها عرفت ذلك بالوحي إلى زكرياء أو لعلها عرفت بالوحي إليها على سبيل الكرامة. **بقي هاهنا بحثان**:

البحث الأول: قوله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي حصل في المهد فـ(كان) ههنا بمعنى حصل ووجد، وهذا هو الأقرب في تأويل هذا اللفظ، وإن كان الناس قد ذكروا وجوهًا أُخر.

البحث الثاني: اختلفوا في المهد: فقيل: هو حجرها لما روي أنها أخذته في خرقة فأتت به قومها، فلما رأوها قالوا لها ما قالوا، فأشارت إليه وهو في حجرها، ولم يكن لها منزل معد حتى يعد لها المهد، أو المعنى: كيف نكلم صبيًّا سبيله أن ينام في المهد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾

اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع: الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ **وفيه فوائد:**

الفائدة الأولى: أن الكلام منه في ذلك الوقت كان سببًا للوهم الذي ذهبت إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام وإن كان موهمًا من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية.

الفائدة الثانية: أنه لما أقر بالعبودية، فإن كان صادقًا في مقاله فقد حصل الغرض، وإن كان كاذبًا لم تكن القوة قوة إلهية بل قوة شيطانية، فعلى التقديرين يبطل كونه إلهًا.

الفائدة الثالثة: أن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام، ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك، وإنما نص على إثبات عبودية نفسه، كأنه جعل إزالة التهمة عن الله تعالى أَوْلى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها.

الفائدة الرابعة: وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم؛ لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة. وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى، فكان الاشتغال بذلك أَوْلى. فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد.

واعلم أن مذهب النصارى متخبط جدًّا، وقد اتفقوا على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز، ومع ذلك فإنا نذكر تقسيمًا حاصرًا يُبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول: إما أن يعتقدوا كونه متحيزًا أو لا: فإن اعتقدوا كونه متحيزًا أبطلنا قولهم بإقامة الدلالة على حدوث الأجسام، وحينئذٍ يبطل كل ما فرعوا عليه. وإن اعتقدوا أنه ليس بمتحيز يبطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم؛ لأن ذلك لا يعقل إلا في الأجسام، فإذا لم يكن جسمًا استحال ذلك، ثم نقول: للناس قولان في الإنسان: منهم من قال: إنه هو هذه البنية أو جسم موجود في داخلها. ومنهم من يقول: إنه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول في الأجسام. فنقول: هؤلاء النصارى إما أن يعتقدوا أن الله أو صفة من

صفاته اتحد ببدن المسيح أو بنفسه، أو يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته حل في بدن المسيح أو في نفسه، أو يقولوا: لا نقول بالاتحاد ولا بالحلول ولكن نقول: إنه تعالى أعطاه القدرة على خلق الأجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب إلهًا، أو لا يقولوا بشيء من ذلك ولكن قالوا: إنه على سبيل التشريف اتخذه ابنًا، كما اتخذ إبراهيم على سبيل التشريف خليلاً.

فهذه هي الوجوه المعقولة في هذا الباب، والكل باطل:

أما القول الأول بالاتحاد: فهو باطل قطعًا؛ لأن الشيئين إذا اتحدا فهما حال الاتحاد إما أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجودًا والآخر معدومًا، فإن كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل، وإن عدما وحصل ثالث فهو أيضًا لا يكون اتحادًا بل يكون قولاً بعدم ذينك الشيئين وحصول شيء ثالث، وإن بقي أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالوجود لأنه يستحيل أن يقال: المعدوم بعينه هو الموجود، فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتحاد محال.

وأما الحلول فلنا فيه مقامان:

المقام الأول: أن التصديق مسبوق بالتصور، فلا بد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا أن نعلم أنه هل يصح على الله تعالى أو لا يصح، وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة: أحدها: كون الشيء في غيره ككون ماء الورد في الورد والدهن في السمسم والنار في الفحم، واعلم أن هذا باطل لأن هذا إنما يصح لو كان الله تعالى جسمًا، وهم وافقونا على أنه ليس بجسم. وثانيها: حصوله في الشيء على مثال حصول اللون في الجسم فنقول: المعقول من هذه التبعية حصول اللون في ذلك الحيز تبعًا لحصول محله فيه، وهذا أيضًا إنما يعقل في حق الأجسام لا في حق الله تعالى. وثالثها: حصوله في الشيء على مثال حصول الصفات الإضافية للذوات، فنقول: هذا أيضًا باطل لأن المعقول من هذه التبعية الاحتياج، فلو كان الله تعالى في شيء بهذا المعنى لكان محتاجًا فكان ممكنًا فكان مفتقرًا إلى المؤثر، وذلك محال، وإذا ثبت أنه لا يمكن تفسير هذا الحلول بمعنى ملخص يمكن إثباته في حق الله تعالى امتنع إثباته.

المقام الثاني: احتج الأصحاب على نفي الحلول مطلقًا بأن قالوا: لو حل لحل إما مع وجوب أن يحل أو مع جواز أن يحل، والقسمان باطلان، فالقول بالحلول باطل، وإنما قلنا: إنه لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل لأن ذلك يقتضي إما حدوث الله تعالى أو قدم المحل، وكلاهما باطلان؛ لأنا دللنا على أن الله قديم، وعلى أن الجسم محدث، ولأنه لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجًا إلى المحل، والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته لا يكون واجبًا لذاته، وإنما قلنا: إنه لا يجوز أن يحل؛ مع جواز أن يحل لأنه لما كانت ذاته واجبة الوجود لذاته وحلوله في المحل أمر جائز، والموصوف بالوجوب غير ما هو موصوف بالجواز، فيلزم أن يكون حلوله في المحل أمرًا زائدًا على ذاته، وذلك محال لوجهين:

أحدهما: أن حلوله في المحل لو كان زائدًا على ذاته، لكان حلول ذلك الزائد في محله زائدًا على ذاته أو لزم التسلسل، وهو محال.

والثاني: أن حلوله في ذلك لما كان زائدًا على ذاته، فإذا حل في محل وجب أن يحل فيه صفة محدثة، وذلك محال لأنه لو كان قابلاً للحوادث لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته، وكانت حاصلة أزلاً، وذلك محال لأن وجود الحوادث في الأزل محال، فحصول قابليتها وجب أن يكون ممتنع الحصول، فإن قيل: لمَ لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل؛ لأنه يلزم، إما حدوث الحال أو قدم المحل، قلنا: لا نسلم وجوب أحد الأمرين، ولمَ لا يجوز أن يقال: إن ذاته تقتضي الحلول بشرط وجود المحل، ففي الأزل ما وُجد المحل فلم يوجد شرط هذا الوجوب، فلا جرم لم يجب الحلول، وفيما لا يزال حصل هذا الشرط فلا جرم وجب، سلمنا أنه يلزم إما حدوث الحال أو قدم المحل فلمَ لا يجوز. قوله: إنا دللنا على حدوث الأجسام، قلنا: لمَ لا يجوز أن يكون محله ليس بجسم ولكنه يكون عقلاً أو نفسًا أو هيولى على ما يثبته بعضهم، ودليلكم على حدوث الأجسام لا يقبل حدوث هذه الأشياء. قوله ثانيًا: لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجًا إلى المحل. قلنا: لا نسلم وجوب أحد الأمرين بل هاهنا احتمالان آخران:

أحدهما: أن العلة وإن امتنع انفكاكها عن المعلول لكنها لا تكون محتاجة إلى المعلول، فلمَ لا يجوز أن يقال: إن ذاته غنية عن ذلك المحل، ولكن ذاته توجب حلول نفسها في ذلك المعلول، فيكون وجوب حلولها في ذلك المحل من معلولات ذاته، وقد ثبت أن العلة وإن استحال انفكاكها عن المعلول لكن ذلك لا يقتضي احتياجها إلى المعلول.

الثاني: أن يقال: إنه في ذاته يكون غنيًا عن المحل وعن الحلول، إلا أن المحل يوجب لذاته صفة الحلول، فالمفتقر إلى المحل صفة من صفاته وهي حلوله في ذلك المحل، فأما ذاته فلا ولا يلزم من افتقار صفة من صفاته الإضافية إلى الغير افتقار ذاته إلى الغير؛ وذلك لأن جميع الصفات الإضافية الحاصلة له مثل كونه أولاً وآخرًا ومقارنًا ومؤثرًا ومعلومًا ومذكورًا مما لا يتحقق إلا عند حصول التحيز، وكيف لا والإضافات لا بد في تحققها من أمرين، سلَّمنا ذلك فلمَ لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل. قوله: يلزم أن يكون حلوله فيه زائدًا عليه، ويلزم التسلسل. قلنا: حلوله في المحل لما كان جائزًا كان حلوله في المحل زائدًا عليه. أما كون ذلك الحلول حالاً في المحل أمر واجب فلا يلزم أن يكون حلول الحلول زائدًا عليه فلا يلزم التسلسل. قوله ثانيًا: يلزم أن يصير محل الحوادث. قلنا: لمَ لا يجوز ذلك. قوله: يلزم أن يكون قابلاً للحوادث في الأزل. قلنا: لا شك أن تمكنه من الإيجاد ثابت له إما لذاته أو لأمر ينتهي إلى ذاته، وكيف كان فيلزم صحة كونه مؤثرًا في الأزل، فكل ما ذكرتموه في المؤثرية فنحن نذكره في القابلية، **والجواب**: أنا نقرر هذه الدلالة على وجه آخر بحيث تسقط عنها هذه

الأسئلة، فنقول: ذاته، إما أن تكون كافية في اقتضاء هذا الحلول أو لا تكون كافية في ذلك، فإن كان الأول استحال توقف ذلك الاقتضاء على حصول شرط فيعود ما قلنا إنه يلزم إما قدم المحل أو حدوث الحال. وإن كان الثاني كان كونه مقتضيًا لذلك الحلول أمرًا زائدًا على ذاته حادثًا فيه، فعلى التقديرات كلها يلزم من حدوث حلوله في محل حدوث شيء فيه، لكن يستحيل أن يكون قابلاً للحوادث، وإلا لزم أن يكون في الأزل قابلاً لها وهو محال على ما بيناه، وأما المعارضة بالقدرة فغير واردة لأنه تعالى لذاته قادر على الإيجاد في الأزل، فهو قادر على الإيجاد فيما لا يزال، فهاهنا أيضًا لو كانت ذاته قابلة للحوادث لكانت في الأزل قابلة لها فحينئذ يلزم المحال المذكور.

هذا تمام القول في هذه الأدلة ولنا في إبطال قول النصارى وجوه أخر.

أحدها: أنهم وافقونا على أن ذاته سبحانه وتعالى لم تحل في ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا: الكلمة حلت فيه، والمراد من الكلمة العلم. فنقول: العلم لما حل في عيسى ففي تلك الحالة إما أن يقال: إنه بقي في ذات الله تعالى أو ما بقي فيها، فإن كان الأول لزم حصول الصفة الواحدة في محلين. وذلك غير معقول، ولأنه لو جاز أن يقال: العلم الحاصل في ذات عيسى عليه السلام هو العلم الحاصل في ذات الله تعالى بعينه، فلمَ لا يجوز في حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى؟ وإن كان الثاني لزم أن يقال: إن الله تعالى لم يبق عالمًا بعد حلول علمه في عيسى عليه السلام، وذلك مما لا يقوله عاقل.

وثانيها: مناظرة جرت بيني وبين بعض النصارى، فقلت له: هل تُسلِّم أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول أم لا؟ فإن أنكرت لزمك أن لا يكون الله تعالى قديمًا لأن دليل وجوده هو العالم، فإذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم في الأزل عدم الصانع في الأزل، وإن سلَّمت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فنقول: إذا جوزت اتحاد كلمة الله تعالى بعيسى أو حلولها فيه، فكيف عرفت أن كلمة الله تعالى ما دخلت في زيد وعمرو، بل كيف أنها ما حلت في هذه الهرة وفي هذا الكلب؟ فقال لي: إن هذا السؤال لا يليق بك لأنا إنما أثبتنا ذلك الاتحاد أو الحلول بناء على ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فإذا لم نجد شيئًا من ذلك ظهر على يد غيره فكيف نثبت الاتحاد أو الحلول؟! فقلت له: إني عرفت من هذا الكلام أنك ما عرفت أول الكلام لأنك سلَّمت لي أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول، فإذا كان هذا الحلول غير ممتنع في الجملة فأكثر ما في الباب أنه وجد ما يدل على حصوله في حق عيسى عليه السلام ولم يوجد ذلك الدليل في حق زيد وعمرو، ولكن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول، فلا يلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد وعمرو وعلى السنور والكلب عدم ذلك الحلول، فثبت أنك مهما جوزت القول بالاتحاد

والحلول لزمك تجويز حصول ذلك الاتحاد، وذلك الحلول في حق كل واحد بل في حق كل حيوان ونبات، ولا شك أن المذهب الذي يسوق قائله إلى مثل هذا القول الركيك يكون باطلاً قطعًا، ثم قلت له: وكيف دل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على ما قلت؟ أليس أن انقلاب العصا ثعبانًا أبعد من انقلاب الميت حيًّا، فإذا ظهر ذلك على يد موسى عليه السلام ولم يدل على إلهيته فبأن لا يدل هذا على إلهية عيسى أولى.

وثالثها: أنا نقول: دلالة أحوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية؛ لأنه كان مجتهدًا في العبادة والعبادة لا تليق إلا بالعبيد، فإنه كان في نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى: إن اليهود قتلوه. ومن كان في الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية؟!

ورابعها: المسيح إما أن يكون قديمًا أو محدثًا، والقول بقدمه باطل لأنا نعلم بالضرورة أنه وُلد وكان طفلاً ثم صار شابًا وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر، وإن كان محدثًا كان مخلوقًا ولا معنى للعبودية إلا ذلك، فإن قيل: المعنى بإلهيته أنه حلت صفة الإلهية فيه. قلنا: هب أنه كان كذلك لكن الحال هو صفة الإله، والمسيح هو المحل، والمحل محدث مخلوق فما هو المسيح (إلا) عبد محدث فكيف يمكن وصفه بالإلهية.

وخامسها: أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد، فإن كان لله ولد فلا بد وأن يكون من جنسه، فإذن قِد اشتركا من بعض الوجوه، فإن لم يتميز أحدهما عن الآخر بأمر ما فكل واحد منهما هو الآخر، وإن حصل الامتياز فما به الامتياز غير ما به الاشتراك، فيلزم وقوع التركيب في ذات الله وكل مركب ممكن، فالواجب ممكن، هذا خلف محال، هذا كله على الاتحاد والحلول.

أما الاحتمال الثالث: وهو أن يقال: معنى كونه إلهًا أنه سبحانه خص نفسه أو بدنه بالقدرة على خلق الأجسام والتصرف في هذا العالم. فهذا أيضًا باطل لأن النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وأن اليهود قتلوه، ولو كان قادرًا على خلق الأجسام لما قدروا على قتله، بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكرًا يذبون عنه.

وأما الاحتمال الرابع: وهو أنه اتخذه ابنًا لنفسه على سبيل التشريف، فهذا قد قال به قوم من النصارى يقال لهم الأرميوسية، وليس فيه كثير خطأ إلا في اللفظ.

فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ما حكاه الله تعالى عنه أنه قال: إني عبد الله.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلف الناس فيه: فالجمهور على أنه قال هذا الكلام حال صغره. وقال أبو القاسم البلخي: إنه إنما قال ذلك حين كان كالمراهق الذي يفهم وإن لم يبلغ حد التكليف. أما

الأولون فلهم قولان: أحدهما: أنه كان في ذلك الصغر نبيًا. الثاني: روي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: المراد بأن حكم وقضى بأنه سيبعثني من بعد ولما تكلم بذلك سكت وعاد إلى حال الصغر. ولما بلغ ثلاثين سنة بعثه الله نبيًا، واحتج من نص على فساد القول الأول بأمور: أحدها: أن النبي لا يكون إلا كاملاً، والصغير ناقص الخلقة بحيث يعد هذا التحدي من الصغير منفرًا بل هو في التنفير أعظم من أن يكون امرأة. وثانيها: أنه لو كان نبيًا في هذا الصغر لكان كمال عقله مقدمًا على ادعائه للنبوة، إذ النبي لا بد وأن يكون كامل العقل لكن كمال عقله في ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجز متقدمًا على التحدي، وإنه غير جائز. وثالثها: أنه لو كان نبيًا في ذلك الوقت لوجب أن يشتغل ببيان الأحكام وتعريف الشرائع، ولو وقع ذلك لاشتهر ولنُقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا أنه ما كان نبيًا في ذلك الوقت. أجاب الأولون عن الكلام الأول بأن كون الصبي ناقصًا ليس لذاته بل الأمر يرجع إلى صغر جسمه ونقصان فهمه، فإذا أزال الله تعالى هذه الأشياء لم تحصل النفرة بل تكون الرغبة إلى استماع قوله وهو على هذه الصفة أتم وأكمل. وعن الكلام الثاني: لمَ لا يجوز أن يقال: إكمال عقله وإن حصل مقدمًا على دعواه إلا أنه معجزة لزكريا عليه السلام، أو يقال: إنه إرهاص لنبوته أو كرامة لمريم عليها السلام، وعندنا الإرهاص والكرامات جائزة، وعن الكلام الثالث: لمَ لا يجوز أن يقال: مجرد بعثته إليهم من غير بيان شيء من الشرائع والأحكام جائز، ثم بعد البلوغ أخذ في شرح تلك الأحكام، فثبت بهذا أنه لا امتناع في كونه نبيًا في ذلك الوقت.

وقوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يدل على كونه نبيًا في ذلك الوقت فوجب إجراؤه على ظاهره بخلاف ما قاله عكرمة، أما قول أبي القاسم البلخي فبعيد، وذلك لأن الحاجة إلى كلام عيسى عليه السلام إنما كانت عند وقوع التهمة على مريم عليها السلام.

المسألة الثانية: اختلفوا في ذلك الكتاب: فقال بعضهم: هو التوراة لأن الألف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود، والكتاب المعهود لهم هو التوراة، وقال أبو مسلم: المراد هو الإنجيل لأن الألف واللام ههنا للجنس، أي آتاني من هذا الجنس، وقال قوم: المراد هو التوراة والإنجيل؛ لأن الألف واللام تفيد الاستغراق.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أنه متى آتاه الكتاب ومتى جعله نبيًا لأن قوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ يدل على أن ذلك كان قد حصل من قبل، إما ملاصقًا لذلك الكلام أو متقدمًا عليه بأزمان، والظاهر أنه من قبل أن كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبيًا وأمَره بالصلاة والزكاة وأن يدعو إلى الله تعالى وإلى دينه وإلى ما خص به من الشريعة، فقيل: هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه. وقيل: لما انفصل من الأم آتاه الله الكتاب والنبوة، وأنه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم بما يدل على براءة حالها، فلهذا أشارت إليه بالكلام.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ قال بعضهم: أخبر أنه نبي ولكنه ما كان رسولاً لأنه في ذلك

الوقت ما جاء بالشريعة ومعنى كونه نبيًّا أنه رفيع القدر على الدرجة. وهذا ضعيف لأن النبي في عرف الشرع هو الذي خصه الله بالنبوة وبالرسالة خصوصًا إذا قرن إليه ذكر الشرع وهو قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فلقائل أن يقول: كيف جعله مباركًا والناس كانوا قبله على الملة الصحيحة، فلما جاء صار بعضهم يهودًا وبعضهم نصارى قائلين بالتثليث، ولم يبق على الحق إلا القليل، والجواب ذكروا في (تفسير المبارك) وجوهًا: **أحدها:** أن البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير، فمعناه جعلني ثابتًا على دين الله مستقرًّا عليه. **وثانيها:** أنه إنما كان مباركًا لأنه كان يُعلم الناس دينهم ويدعوهم إلى طريق الحق، فإن ضلوا فمن. قبل أنفسهم لا من قبله، وروى الحسن عن النبي ﷺ قال: أَسْلَمَتْ أُمُّ عِيسَى عَلَيْهَا السَّلَامُ عِيسَى إِلَى الْكُتَّابِ فَقَالَتْ لِلْمُعَلِّمِ: أَدْفَعُهُ إِلَيْكَ عَلَى أَنْ لاَ تَضْرِبَهُ. فَقَالَ لَهُ الْمُعَلِّمُ: اكْتُبْ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَكْتُبُ؟ فَقَالَ: اكْتُبْ أَبْجَدْ. فَرَفَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا أَبْجَدْ؟ فَعَلاَهُ بِالدِّرَّةِ لِيَضْرِبَهُ فَقَالَ: يَا مُؤَدِّبُ لاَ تَضْرِبْنِي إِنْ كُنْتَ لاَ تَدْرِي فَاسْأَلْنِي فَأَنَا أُعَلِّمُكَ الْأَلِفُ مِنْ آلاَءِ اللَّهِ، وَالْبَاءُ مِنْ بَهَاءِ اللَّهِ، وَالْجِيمُ مِنْ جَمَالِ اللَّهِ، وَالدَّالُ مِنْ أَدَاءِ الْحَقِّ إِلَى اللَّهِ (١). **وثالثها:** البركة: الزيادة والعلو فكأنه قال: جعلني في جميع الأحوال غالبًا مفلحًا منجحًا لأني ما دمت أبقى في الدنيا أكون على الغير مستعليًا بالحجة، فإذا جاء الوقت المعلوم يكرمني الله تعالى بالرفع إلى السماء. **ورابعها:** مبارك على الناس بحيث يحصل بسبب دعائي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، عن قتادة أنه رأته امرأة وهو يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص فقالت: طوبى لبطن حملك وثدي أُرضعت به!! فقال عيسى عليه السلام مجيبًا لها: طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جبارًا شقيًّا. أما قوله: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ فهو يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل: إنه عاد إلى حال الصغر وزوال التكليف.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فإن قيل: كيف أمر بالصلاة والزكاة مع أنه كان طفلاً صغيرًا والقلم مرفوع عنه على ما قاله ﷺ: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاَثٍ: عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ...**» (٢) الحديث، وجوابه من وجهين: الأول: أن قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ

---

(١) **ضعيف جدًّا**: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١/ ٥٣) من طريق إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود سمعه ابن كدام عن عطية عن أبي سعيد... فذكره. وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٧/ ٢٥١) من طريق مسعر عن عطية عن أبي سعيد... به. وابن عدي في (الكامل) (١/ ٣٠٤) من طريق إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي... به. وقال: إسماعيل بن يحيى بن عبيد الله التيمي مدني يحدث عن الثقات بالبواطيل.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود) باب (في المجنون يسرق أو يصيب حدًّا) (٤/ ١٣٧) حديث رقم/ ١٣٩٨ من طريق يزيد بن هارون... به. والنسائي في كتاب (الطلاق) باب (من لا يقع طلاقه من الأزواج) (٦/ ٤٦٨) حديث رقم/ ٣٤٣٢ من طريق عبد الرحمن بن مهدي... به. وابن ماجه في كتاب (الطلاق) باب (طلاق=

﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ، فلعل المراد أنه تعالى أوصاه بهما وبأدائهما في الوقت المعين له وهو وقت البلوغ. الثاني: لعل الله تعالى لما انفصل عيسى عن أمه صيره بالغًا عاقلاً تام الأعضاء والخلقة، وتحقيقه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] فكما أنه تعالى خلق آدم تامًا كاملاً دفعة، فكذا القول في عيسى عليه السلام، وهذا القول الثاني أقرب إلى الظاهر لقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فإنه يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته. ولكن لقائل أن يقول: لو كان الأمر كذلك لكان القوم حين رأوه فقد رأوه شخصًا كامل الأعضاء تام الخلقة، وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجبًا فكان ينبغي أن لا يعجبوا، فلعل الأول أن يقال: إنه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة، والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الأرض وحين رُفع إلى السماء وحين ينزل مرة أخرى.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي جعلني برًّا بوالدتي. وهذا يدل على قولنا: إن فعل العبد مخلوق لله تعالى لأن الآية تدل على أن كونه برًّا إنما حصل بجعل الله وخلقه، وحَمْله على الألطاف عدول عن الظاهر. ثم قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ إشارة إلى تنزيه أمه عن الزنا إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأمورًا بتعظيمها. قال صاحب (الكشاف): جعل ذاته برًّا لفرط بره، ونصبه بفعل في معنى (أوصاني) وهو كلفني لأن أوصاني بالصلاة وكلفني بها واحد.

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وهذا أيضًا يدل على قولنا لأنه لما بيَّن أنه جعله برًّا وما جعله جبارًا فهذا إنما يحسن لو أن الله تعالى جعل غيره جبارًا وغيره بار بأمه، فإن الله تعالى لو فعل ذلك بكل أحد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك، ومعلوم أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك في معرض التخصيص. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أي ما جعلني متكبرًا بل أنا خاضع لأني متواضع لها، ولو كنت جبارًا لكنت عاصيًا شقيًّا. وروي أن عيسى عليه السلام قال: قلبي لين وأنا صغير في نفسي. وعن بعض العلماء لا تجد العاق إلا جبارًا شقيًّا وتلا: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ولا تجد سيئ الملكة إلا مختالاً فخورًا وقرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

الصفة الثامنة: هي قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال بعضهم: لام التعريف في (السلام) منصرف إلى ما تقدم في قصتي يحيى عليه السلام من قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم: ١٥] أي السلام الموجه إليه في المواطن الثلاثة موجه

=المعتوه والصغير والنائم) (١/ ٦٥٨) حديث رقم/ ٢٠٤١ من طريق عبد الرحمن بن مهدي... به. وأحمد في (مسنده) (٦/ ١٠٠) من طريق عفان... به. والدارمي في كتاب (الحدود) باب (رُفع القلم عن ثلاثة) (٢/ ١٩) حديث رقم/ ٢٢٩٦ من طريق حماد بن سلمة... به. جميعًا عن حماد بن سلمة... به.

إليَّ أيضًا وقال صاحب (الكشاف): الصحيح أن يكون هذا التعريف تعويضًا باللعن على من اتهم مريم بالزنا وتحقيقه أن اللام للاستغراق، فإذا قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ فكأنه قال: وكل السلام عليَّ وعلى أتباعي فلم يبقَ للأعداء إلا اللعن، ونظيره قول موسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧] بمعنى أن العذاب على من كذَّب وتولى، وكان المقام مقام اللجاج والعناد ويليق به مثل هذا التعريض.

المسألة الثانية: روى بعضهم عن عيسى عليه السلام أنه قال ليحيى: أنت خير مني، سلَّم الله عليك وسلمت على نفسي وأجاب الحسن فقال: إن تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه.

المسألة الثالثة: قال القاضي: السلام عبارة عما يحصل به الأمان، ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات، فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى، ولا بد في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة، وأعظم أحوال الإنسان احتياجًا إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة، وهي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث، فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طلبها ليكون مصونًا عن الآفات والمخافات في كل الأحوال.

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم في زمان الطفولية، واحتجوا عليه بأن هذا من الوقائع العجيبة التي تتوافر الدواعي على نقلها، فلو وُجدت لنُقلت بالتواتر، ولو كان ذلك لعرفه النصارى لا سيما وهم من أشد الناس بحثًا عن أحواله وأشد الناس غلوًّا فيه حتى زعموا كونه إلهًا، ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة، فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله، عَلِمنا أنه لم يوجد، ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة، فلو أنه عليه السلام تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم، فحيث لم يحصل شيء من ذلك، علمنا أنه ما تكلم، أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم، فإنه لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا، لما تركوا إقامة الحد على الزنا عليها، ففي تركهم لذلك دلالة على أنه عليه السلام تكلم في المهد، وأجابوا عن الشبهة الأولى بأنه ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين فلذلك لم يشتهر وعن الثاني: لعل اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه، فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وابن عامر: (قَوْلَ الْحَقِّ) بالنصب وعن ابن مسعود: (قال الحق)

و(قال اللَّهُ) وعن الحسن: (قُولَ الْحَقِّ) بضم القاف وكذلك في الأنعام قوله: (الْحَقُّ) والقَول والقال والقُول في معنى واحد كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْب، أما ارتفاعه فعلى أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فُسر بكلمة الله أو على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كقولك هو عند الله الحق لا الباطل، والله أعلم.

المسألة الثانية: لا شبهة أن المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ الإشارة إلى ما تقدم وهو قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠] أي ذلك الموصوف بهذه الصفات هو عيسى ابن مريم، وفي قوله: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى أنه ولد هذه المرأة وابنها لا أنه ابن الله. فأما قوله: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ ففيه وجوه: أحدها: وهو أن نفس عيسى عليه السلام هو قول الحق، وذلك لأن الحق هو اسم الله فلا فرق بين أن نقول: (عيسى كلمة الله) وبين أن نقول: (عيسى قول الحق). وثانيها: أن يكون المراد: (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الْقَوْلُ الْحَقُّ) إلا أنك أضفت الموصوف إلى الصفة فهو كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] وفائدة قولك: (القول الحق) تأكيد ما ذكرت أولاً من كون عيسى عليه السلام ابنًا لمريم. وثالثها: أن يكون ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف كأنه قيل ذلك عيسى ابن مريم ووَصْفنا له هو قول الحق. فكأنه تعالى وصفه أولاً ثم ذكر أن هذا الموصوف هو عيسى ابن مريم، ثم ذكر أن هذا الوصف أجمع هو قول الحق على معنى أنه ثابت لا يجوز أن يبطل كما بطل ما يقع منهم من المرية، ويكون في معنى إن هذا لهو الحق اليقين.

فأما امتراؤهم في عيسى عليه السلام فالمذاهب التي حكيناها من قول اليهود والنصارى، وقد تقدم ذكر ذلك في سورة آل عمران، روي أن عيسى عليه السلام لما رُفع حضر أربعة من أكابرهم وعلمائهم فقيل للأول ما تقول في عيسى؟ فقال: هو إله والله إله وأمه إله. فتابعه على ذلك ناس وهم الإسرائيلية، وقيل للرابع: ما تقول؟ فقال: هو عبد الله ورسوله وهو المؤمن المسلم، وقال: أما تعلمون أن عيسى كان يطعم وينام وأن الله تعالى لا يجوز عليه ذلك؟ فخصمهم.

أما قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ فهو يحتمل أمرين: أحدهما: أن ثبوت الولد له محال، فقولنا: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ كقوله: (ما كان لله أن يقول لأحد إنه ولدي) لأن هذا الخبر كذب والكذب لا يليق بحكمة الله تعالى وكماله، فقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ كقولنا: (ما كان لله أن يظلم) أي لا يليق ذلك بحكمته وكمال إلهيته، واحتج الجبائي بالآية بناء على هذا التفسير أنه ليس لله أن يفعل كل شيء لأنه تعالى صرح بأنه ليس له هذا الإيجاد، أي ليس له هذا الاختيار. وأجاب أصحابنا عنه بأن الكذب محال على الله تعالى، فلا جرم قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾.

أما قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: أنه تعالى لما قال ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ ثم قال عقيبه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن

﴿فَيَكُونُ﴾ كان كالحجة على تنزيهه عن الولد، وبيان ذلك أن الذي يجعل ولدًا لله إما أن يكون قديمًا أزليًا أو يكون محدثًا: فإن كان أزليًا فهو محال لأنه لو كان واجبًا لذاته لكان واجب الوجود أكثر من واحد. هذا خلف. وإن كان ممكنًا لذاته كان مفتقرًا في وجوده إلى الواجب لذاته غنيًا لذاته فيكون الممكن محتاجًا لذاته فيكون عبدًا له لأنه لا معنى للعبودية إلا ذلك، وأما إن كان الذي يجعل ولدًا يكون محدثًا فيكون وجوده بعد عدمه بخلق ذلك القديم وإيجاده وهو المراد من قوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيكون عبدًا له لا ولدًا له، فثبت أنه يستحيل أن يكون لله ولد.

المسألة الثانية: احتج الأصحاب بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ على قدم كلام الله تعالى، قالوا: لأن الآية تدل على أنه تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له: (كن فيكون) فلو كان قوله: (كن) محدثًا لافتقر حدوثه إلى قول آخر ولزم التسلسل وهو محال، فثبت أن قول الله قديم لا محدث.

واحتج المعتزلة بالآية على حدوث كلام الله تعالى من وجوه:

أحدها: أنه تعالى أدخل عليه كلمة (إذا) وهذه الكلمة دالة على الاستقبال، فوجب أن لا يحصل القول إلا في الاستقبال.

وثانيها: أن حرف الفاء للتعقيب والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ يدل على تأخر ذلك القول عن ذلك القضاء، والمتأخر عن غيره محدث.

وثالثها: الفاء في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ يدل على حصول ذلك الشيء عقيب ذلك القول من غير فصل، فيكون قول الله متقدمًا على حدوث الحادث تقدمًا بلا فصل، والمتقدم على المحدث تقدمًا بلا فصل يكون محدثًا، فقول الله محدث.

واعلم أن استدلال الفريقين ضعيف، أما استدلال الأصحاب فلأنه يقتضي أن يكون قوله: ﴿كُن﴾ قديمًا وذلك باطل بالاتفاق، وأما استدلال المعتزلة فلأنه يقتضي أن يكون قول الله تعالى هو المركب من الحروف والأصوات وهو محدث وذلك لا نزاع فيه إنما المدعى قدم شيء آخر.

المسألة الثالثة: من الناس من أجرى الآية على ظاهرها، فزعم أنه تعالى إذا أحدث شيئًا قال له: (كن) وهذا ضعيف لأنه إما أن يقول له (كن) قبل حدوثه أو حال حدوثه: فإن كان الأول كان ذلك خطابًا مع المعدوم وهو عبث، وإن كان الثاني فهو حال حدوثه قد وُجد بالقدرة والإرادة فأي تأثير لقوله كن فيه؟ ومن الناس من زعم أن المراد من قوله: ﴿كُن﴾ هو التخليق والتكوين وذلك لأن القدرة على الشيء غير وتكوين الشيء غير، فإن الله سبحانه قادر في الأزل وغير مكون في الأزل، ولأنه الآن قادر على عوالم سوى هذا العالم وغير مكون لها، والقادرية غير المكونية والتكوين ليس هو نفس المكون؛ لأنا نقول: المكون إنما حدث لأن الله تعالى كَوَّنه فأوجده، فلو كان التكوين نفس المكون لكان قولنا (المكون إنما وجد بتكوين الله تعالى) نازلاً

منزلة قولنا (المكوَّن إنما وجد بنفسه) وذلك محال، فثبت أن التكوين غير المكون فقوله: ﴿كُن﴾ إشارة إلى الصفة المسماة بالتكوين، وقال آخرون قوله: ﴿كُن﴾ عبارة عن نفاذ قدرة الله تعالى ومشيئته في الممكنات. فإن وقوعها بتلك القدرة والإرادة من غير امتناع واندفاع يجري مجرى العبد المطيع المسخر المنقاد لأوامر مولاه، فعبر الله تعالى عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ . فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح (أن)، ومعناه ولأنه ربي وربكم فاعبدوه، وقرأ الكوفيون وأبو عبيدة بالكسر على الابتداء، وفي حرف أُبي (إن الله) بالكسر من غير واو، أي بسبب ذلك فاعبدوه.

المسألة الثانية: أنه لا يصح أن يقول الله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ فلا بد وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى، وفيه قولان: الأول: التقدير: فقل يا محمد: إن الله ربي وربكم بعد إظهار البراهين الباهرة في أن عيسى هو عبد الله. الثاني: قال أبو مسلم الأصفهاني: الواو في (وإن الله) عطف على قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠]كأنه قال: إني عبد الله وإنه ربي وربكم فاعبدوه. وقال وهب بن منبه: عهد إليهم حين أخبرهم عن بعثه ومولده ونعته أن الله ربي، وربكم أي كلنا عبيد الله تعالى.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ يدل على أن مدبر الناس ومصلح أمورهم هو الله تعالى، على خلاف قول المنجمين: إن مدبر الناس ومصلح أمورهم في السعادة والشقاوة هي الكواكب ويدل أيضًا على أن الإله واحد لأن لفظ (الله) اسم علم له سبحانه فلما قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أي لا رب للمخلوقات سوى الله تعالى وذلك يدل على التوحيد.

أما قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فقد ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مُشعر بالعلية فهاهنا الأمر بالعبادة وقع مرتبًا على ذكر وصف الربوبية فدل على أنه إنما تلزمنا عبادته سبحانه لكونه ربًّا لنا، وذلك يدل على أنه تعالى إنما تجب عبادته لكونه منعمًا على الخلائق بأصول النعم وفروعها، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام لما منع أباه من عبادة الأوثان قال: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]يعني أنها لما لم تكن مُنعمة على العباد لم

تجز عبادتها، وبهذه الآية ثبت أن الله تعالى لما كان ربًّا ومربيًا لعباده وجبت عبادته، فقد ثبت طردًا وعكسًا تعلق العبادة بكون المعبود منعمًا. أما قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يعني القول بالتوحيد ونفي الولد والصاحبة صراط مستقيم وأنه سمي هذا القول بالصراط المستقيم تشبيهًا بالطريق لأنه المؤدي إلى الجنة، أما قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ ففي الأحزاب أقوال: **الأول:** المراد فِرق النصارى على ما بينا أقسامهم. **الثاني:** المراد النصارى واليهود فجعله بعضهم ولدًا وبعضهم كذابًا. **الثالث:** المراد الكفار الداخل فيهم اليهود والنصارى والكفار الذين كانوا في زمن محمد ﷺ وإذا قلنا: المراد بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي قل يا محمد: إن الله ربي وربكم. فهذا القول أظهر لأنه لا تخصيص فيه، وكذا قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مؤكد لهذا الاحتمال، وأما قوله: ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فالمشهد إما أن يكون هو الشهود وما يتعلق به، أو الشهادة وما يتعلق بها: أما الأول: فيحتمل أن يكون المراد من المشهد نفس شهودهم هول الحساب، والجزاء في القيامة أو مكان الشهود فيه وهو الموقف، أو وقت الشهود. وأما الشهادة فيحتمل أن يكون المراد شهادة الملائكة والأنبياء وشهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال، وأن يكون مكان الشهادة أو وقتها، وقيل: هو ما قالوه وشهدوا به في عيسى وأمه، وإنما وصف ذلك المشهد بأنه عظيم لأنه لا شيء أعظم مما يشاهد في ذلك اليوم من محاسبة ومساءلة، ولا شيء من المنافع أعظم مما هنالك من الثواب ولا شيء من المضار أعظم مما هنالك من العقاب.

أما قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾. **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قالوا: التعجب هو استعظام الشيء مع الجهل بسبب عظمه، ثم يجوز استعمال لفظ التعجب عند مجرد الاستعظام من غير خفاء السبب أو من غير أن يكون للعظم سبب حصول، قال الفراء: قال سفيان: قرأت عند شريح: (بل عجبتُ ويسخرون) [الصافات: ١٢] فقال: إن الله لا يعجب من شيء إنما يُعَجب من لا يعلم. فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: إن شريحًا شاعر يعجبه علمه، وعبد الله أعلم بذلك منه قرأها: (بل عجبتُ ويسخرون) [الصافات: ١٢] ومعناه أنه صدر من الله تعالى فعل لو صدر مثله عن الخلق لدل على حصول التعجب في قلوبهم، وبهذا التأويل يضاف المكر والاستهزاء إلى الله تعالى.

وإذا عرفت هذا فنقول: للتعجب صفتان: إحداهما: ما أفعله. والثانية: أفعِلْ به كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ والنحويون ذكروا له تأويلات: **الأول:** قالوا: (أكرِم بزيد) أصله أكرَمَ زيد، أي صار ذا كرم كأغَدَّ البعير، أي صار ذا غدة، إلا أنه خرج على لفظ الأمر ومعناه الخبر، كما خرج على لفظ الخبر ما معناه الأمر كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥] أي يمد له الرحمن مدًّا، وكذا قولهم: (رحمه الله) خبر وإن كان معناه الدعاء والباء زائدة.

الثاني: أن يقال: إنه أمر لكل أحد بأن يجعل زيدًا كريمًا، أي بأن يصفه بالكرم، والباء زائدة مثل قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]ولقد سمعت لبعض الأدباء فيه تأويلاً ثالثًا وهو أن قولك: (أكرم بزيد) يفيد أن زيدًا بلغ في الكرم إلى حيث كأنه في ذاته صار كرمًا حتى لو أردت جعل غيره كريمًا فهو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك، كما أن من قال: (أكتب بالقلم) فمعناه أن القلم هو الذي يلصقك بمقصودك ويحصل لك غرضك.

المسألة الثانية: قوله ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ **فيه ثلاثة أوجه.**

أحدها:- وهو المشهور الأقوى - أن معناه: ما أسمعهم وما أبصرهم. والتعجب على الله تعالى محال كما تقدم، وإنما المراد أن أسماعهم وأبصارهم يومئذٍ جدير بأن يُتعجب منهما بعدما كانوا صمًّا وعميًا في الدنيا، وقيل: معناه التهديد مما سيسمعون وسيبصرون مما يسوء بصرهم ويصدع قلوبهم.

وثانيها:قال القاضي: ويحتمل أن يكون المراد أسمِع هؤلاء وأبصِرهم، أي عَرِّفهم حال القوم الذين يأتوننا ليعتبروا وينزجروا.

وثالثها:قال الجبائي: ويجوز أسمع الناس بهؤلاء وأبصِرهم بهم ليعرفوا أمرهم وسوء عاقبتهم فينزجروا عن الإتيان بمثل فعلهم.

أما قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ **ففيه قولان: الأول**:لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وفي الآخرة يعرفون الحق. **والثاني**:﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهم في الآخرة في ضلال عن الجنة بخلاف المؤمنين.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ فلا شبهة في أنه أمر لمحمد ﷺبأن ينذر مَن في زمانه فيصلح بأن يجعل هذا كالدلالة على أن قوله: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أراد به اختلاف جميعهم في زمن الرسول ﷺوأما الإنذار فهو التخويف من العذاب لكي يحذروا من ترك عبادة الله تعالى، وأما يوم الحسرة فلا شبهة في أنه يوم القيامة من حيث يكثر التحسر من أهل النار، وقيل: يتحسر أيضًا في الجنة إذا لم يكن من السابقين الواصلين إلى الدرجات العالية. والأول هو الصحيح لأن الحسرة غم وذلك لا يليق بأهل الثواب. أما قوله تعالى: ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ففيه وجوه: **أحدها**: إذ قُضى الأمر ببيان الدلائل وشرح أمرالثواب والعقاب. **وثانيها**: إذ قُضى الأمر يوم الحسرة بفناء الدنيا وزوال التكليف. والأول أقرب لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فكأنه تعالى بَيَّن أنه ظهرت الحجج والبينات وهم في غفلة وهم لا يؤمنون. **وثالثها**: روي أنه سئل النبي ﷺعن قوله: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فقال: «**حِينَ يُجَاءُ بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُذْبَحُ وَالْفَرِيقَانِ يَنْظُرَانِ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا عَلَى فَرَحٍ، وَأَهْلُ النَّارِ غَمًّا عَلَى غَمٍّ**»(١) واعلم أن الموت عَرَضٌ فلا يجوز أن يصير جسمًا حيوانيًا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٨٨/ ٢٨٤٩) وأحمد في (مسنده) (٣/ ٩) حديث رقم/ ١١٠٨١ كلاهما من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد . . . به .

بل المراد أنه لا موت ألبتة بعد ذلك. وأما قوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي عن ذلك اليوم وعن كيفية حسرته، وهم لا يؤمنون أي بذلك اليوم. ثم قال بعده: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي هذه الأمور تؤول إلى أن لا يملك الضر والنفع إلا الله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي إلى محل حكمنا وقضائنا لأنه تعالى منزه عن المكان حتى يكون الرجوع إليه، وهذا تخويف عظيم وزجر بليغ للعصاة.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

القصة الثالثة: قصة إبراهيم عليه السلام.

اعلم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر، والمنكرون للتوحيد هم الذين أثبتوا معبودًا سوى الله تعالى، وهؤلاء فريقان: منهم من أثبت معبودًا غير الله حيًا عاقلاً فاهمًا وهم النصارى، ومنهم من أثبت معبودًا غير الله جمادًا ليس بحي ولا عاقل ولا فاهم وهم عبدة الأوثان، والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم، فلما بيَّن تعالى ضلال الفريق الأول تكلم في ضلال الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ والواو في قوله: (واذكر) عطف على قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢] كأنه لما انتهت قصة عيسى وزكريا عليهما السلام قال (قد ذكرت حال زكريا فاذكر حال إبراهيم) وإنما أمر بذكره لأنه عليه السلام ما كان هو ولا قومه ولا أهل بلدته مشتغلين بالعلم ومطالعة الكتب، فإذا أخبر عن هذه القصة كما كانت من غير زيادة ولا نقصان كان ذلك إخبارًا عن الغيب ومعجزًا قاهرًا دالاً على نبوته. وإنما شرع في قصة إبراهيم عليه السلام لوجوه:

أحدها: أن إبراهيم عليه السلام كان أب العرب، وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠] فكأنه تعالى قال للعرب: إن كنتم مقلدين لآبائكم على ما هو قولكم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ومعلوم أن أشرف آبائكم وأجلهم قدرًا هو إبراهيم عليه السلام، فقلِّدوه في ترك عبادة الأوثان، وإن كنتم من المستدلين فانظروا في هذه الدلائل التي ذكرها إبراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الأوثان، وبالجملة فاتبِعوا إبراهيم إما تقليدًا وإما استدلالاً.

وثانيها: أن كثيرًا من الكفار في زمن الرسول ﷺ كانوا يقولون: كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا؟! فذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وبَيَّن أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل ورجح متابعة الدليل على متابعة أبيه، ليعرف الكفار أن ترجيح جانب الأب على جانب الدليل رد على الأب الأشرف الأكبر الذي هو إبراهيم عليه السلام.

وثالثها: أن كثيرًا من الكفار كانوا يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال، على ما قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] و﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣] فحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام التمسك بطريقة الاستدلال تنبيهًا لهؤلاء على سقوط هذه الطريقة، ثم قال تعالى في وصف إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ وفي الصِّديق قولان:

أحدهما: أنه مبالغة في كونه صادقًا وهو الذي يكون عادته الصدق لأن هذا البناء ينبئ عن ذلك، يقال: رجل خِمير وسِكير، للمولع بهذه الأفعال.

والثاني: أنه الذي يكون كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهورًا به والأول أَوْلى وذلك لأن المصدق بالشيء لا يوصف بكونه صِديقًا إلا إذا كان صادقًا في ذلك التصديق فيعود الأمر إلى الأول. فإن قيل: أليس قد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ [الحديد: ١٩] قلنا: المؤمنون بالله ورسله صادقون في ذلك التصديق، واعلم أن النبي يجب أن يكون صادقًا في كل ما أخبر عنه لأن الله تعالى صدقه ومصدق الله صادق، وإلا لزم الكذب في كلام الله تعالى فيلزم من هذا كون الرسول صادقًا في كل ما يقول، ولأن الرسل شهداء الله على الناس على ما قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] والشهيد إنما يُقبل قوله إذا لم يكن كاذبًا. فإن قيل: فما قولكم في إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] و﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] قلنا: قد شرحنا في تأويل هذه الآيات بالدلائل الظاهرة أن شيئًا من ذلك ليس بكذب، فلما ثبت أن كل نبي يجب أن يكون صِديقًا ولا يجب في كل صديق أن يكون نبيًا ظهر بهذا قرب مرتبة الصِّديق من مرتبة النبي فلهذا انتقل من ذكر كونه صِديقًا إلى ذكر كونه نبيًا. وأما النبي فمعناه كونه رفيع القدر عند الله وعند الناس، وأي رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه وبين عباده. وقوله: ﴿كَانَ صِدِّيقًا﴾ قيل: إنه صار وقيل: إن معناه وُجد صديقًا نبيًا، أي كان من أول وجوده إلى انتهائه موصوفًا بالصدق والصيانة. قال صاحب (الكشاف): هذه الجملة وقعت اعتراضًا بين المبدل منه وبدله أعني إبراهيم وإذ قال، ونظيره قولك: رأيت زيدًا ونعم الرجل أخاك. ويجوز أن يتعلق إذ بـ(كان) أو بصديقًا نبيًا أي كان جامعًا لخصائص الصِّديقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات.

أما قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ فالتاء عوض عن ياء الإضافة ولا يقال (يا أبتي) لئلا يجمع بين العوض والمعوض عنه وقد يقال: يا أبتا لكون الألف بدلاً من الياء.

واعلم أنه تعالى حكى أن إبراهيم عليه السلام تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام:

النوع الأول: قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ ووصف الأوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة في الإلهية، وبيان ذلك من وجوه: **أحدها:** أن العبادة غاية التعظيم فلا يستحقها إلا من له غاية الإنعام، وهو الإله الذي منه أصول النعم وفروعها على ما قررناه في تفسير قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦] وقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٨] وكما يُعلم بالضرورة أنه لا يجوز الاشتغال بشكرها ما لم تكن منعمة وجب أن لايجوز الاشتغال بعبادتها. **وثانيها:** أنها إذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميز من يطيعها عمن يعصيها، فأي فائدة في عبادتها؟! وهذا ينبهك على أن الإله يجب أن يكون عالمًا بكل المعلومات حتى يكون العبد آمنًا من وقوع الغلط للمعبود. **وثالثها:** أن الدعاء مخ العبادة (١) فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي فأي منفعة في عبادته؟! وإذا كانت لا تبصر بتقرب من يقترب إليها فأي منفعة في ذلك التقرب؟! **ورابعها:** أن السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عاريًا عن كل ذلك، والإنسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن، فكيف يليق بالأفضل عبادة الأخس؟! **وخامسها:** إذا كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يُخاف من ضررها فأي فائدة في عبادتها؟! **وسادسها:** إذا كانت لا تحفظ أنفسها عن الكسر والإفساد على ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه كسرها وجعلها جذاذًا، فأي رجاء للغير فيها.

واعلم أنه عاب الوثن من ثلاثة أوجه: أحدها: لا يسمع. وثانيها: لا يبصر. وثالثها: لا يغني عنك شيئًا كأنه قال له: بل الإلهية ليست إلا لربي فإنه يسمع ويجيب دعوة الداعي ويبصر، كما قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ويقضي الحوائج: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] واعلم أن قوله هاهنا: ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ محمول على نفس العبادة، وأما قوله في المقام الثالث: ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لا يقال ذلك بل المراد الطاعة لأنهم ما كانوا يعبدون الشيطان فوجب حمله على الطاعة، ولأنا نقول: ليس إذا تركنا الظاهر هاهنا لدليل وجب ترك الظاهر في المقام الأول بغير دليل.

فإن قيل: إما أن يقال: إن أبا إبراهيم كان يعتقد في تلك الأوثان أنها آلهة بمعنى أنها قادرة مختارة موجدة للناس والحيوانات، أو يقال: إنه ما كان يعتقد ذلك بل كان يعتقد أنها تماثيل الكواكب والكواكب هي الآلهة المدبرة لهذا العالم، فتعظيم تماثيل الكواكب بموجب تعظيم

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٥٦) حديث رقم/ ٣٣٧١ من طريق الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبان بن صبيح عن أنس بن مالك... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة ورواه الطبراني في (الأوسط) (٣/ ٢٩٣) حديث رقم/ ٣١٩٦ من طريق ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبان بن صالح عن أنس بن مالك... به. وقال: لم يرو هذا الحديث عن أبان إلا عبيد الله، تفرد به ابن لهيعة.

الكواكب، أو كان يعتقد أن هذه الأوثان تماثيل أشخاص معظمة عند الله تعالى من البشر، فتعظيمها يقتضي كون أولئك الأشخاص شفعاء لهم عند الله تعالى، أو كان يعتقد أن تلك الأوثان طلسمات رُكبت بحسب اتصالات مخصوصة للكواكب قلما يتفق مثلها، وأنها مشفع بها، أو غير ذلك من الأعذار المنقولة عن عبدة الأوثان.

فإن كان أبو إبراهيم من القسم الأول كان في نهاية الجنون لأن العلم بأن هذا الخشب المنحوت في هذه الساعة ليس خالقًا للسماوات والأرض - من أجلى العلوم الضرورية، فالشاك فيه يكون فاقدًا لأجلى العلوم الضرورية فكان مجنونًا والمجنون لا يجوز إيراد الحجة عليه والمناظرة معه. وإن كان من القسم الثاني فهذه الدلائل لا تقدح في شيء من ذلك لأن ذلك المذهب إنما يبطل بإقامة الدلالة على أن الكواكب ليست أحياء، ولا قادرة على خلق الأجسام وخلق الحياة، ومعلوم أن الدليل المذكور هاهنا لا يفيد ذلك المطلوب، فعَلِمنا أن هذه الدلالة عديمة الفائدة على كل التقديرات. قلنا: لا نزاع أنه لا يخفى على العاقل أن الخشبة المنحوتة لا تصلح لخلق العالم، وإنما مذهبهم هذا على الوجه الثاني، وإنما أورد إبراهيم عليه السلام هذه الدلالة عليهم لأنهم كانوا يعتقدون أن عبادتها تفيد نفعًا إما على سبيل الخاصية الحاصلة من الطلسمات أو على سبيل أن الكواكب تنفع وتضر، فبَيَّن إبراهيم عليه السلام أنه لا منفعة في طاعتها ولا مضرة في الإعراض عنها فوجب أن لا تحسن عبادتها.

النوع الثاني: قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ ومعناه ظاهر، وطمع في التمسك به أهل التعليم وأهل التقليد: أما أهل التعليم فقالوا: إنه أمره بالاتباع في الدين وما أمره بالتمسك بدليل لا يستفاد إلا من الاتباع، وأما أهل التقليد فقد تمسكوا به أيضًا من هذا الوجه، ومن الناس من طعن أنه أمره بالاتباع لتحصل الهداية، فإذن لا تحصل الهداية إلا باتباعه، ولا تبعية إلا إذا اهتدى لقولنا: إنه لا بد من اتباعه فيقع الدور وإنه باطل. (والجواب) عن الأول: أن المراد بالهداية بيان الدليل وشرحه وإيضاحه، فعند هذا عاد السائل فقال: أنا لا أنكر أنه لا بد من الدلالة، ولكني أقول: الوقوف على تلك الدلالة لا يستفاد إلا ممن له نفس كاملة بعيدة عن النقص والخطأ، وهي نفس النبي المعصوم أو الإمام المعصوم، فإذا سلَّمت أنه لا بد من النبي في هذا المقصود فقد سلمت حصول الغرض، أجاب المجيب وقال: أنا ما سلمت أنه لا بد في الوقوف على الدلائل من هداية النبي، ولكني أقول: هذا الطريق أسهل وإن إبراهيم عليه السلام دعاه إلى الأسهل. والجواب عن سؤال الدور أن قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ ليس أمر إيجاب بل أمر إرشاد.

والنوع الثالث: قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ أي لا تطعه لأنه عاصٍ لله. فنفره بهذه الصفة عن القبول منه؛ لأنه أعظم الخصال المنفرة، واعلم أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص لم يذكر من جنايات الشيطان إلا كونه عاصيًا لله، ولم يذكر

معاداته لآدم عليه السلام كأن النظر في عظم ما ارتكبه من ذلك العصيان غمى فكره وأطبق على ذهنه، وأيضًا فإن معصية الله تعالى لا تصدر إلا عن ضعيف الرأي، ومن كان كذلك كان حقيقًا أن لا يُلتفت إلى رأيه ولا يُجعل لقوله وزن. فإن قيل: إن هذا القول يتوقف على إثبات أمور: أحدها: إثبات الصانع. وثانيها: إثبات الشيطان. وثالثها: إثبات أن الشيطان عاصٍ لله. ورابعها: أنه لما كان عاصيًا لم تجز طاعته في شيء من الأشياء. وخامسها: أن الاعتقاد الذي كان عليه ذلك الإنسان كان مستفادًا من طاعة الشيطان، ومن شأن الدلالة التي تورد على الخصم أن تكون مركبة من مقدمات معلومة مسلمة، ولعل أبا إبراهيم كان منازعًا في كل هذه المقدمات، وكيف والمحكى عنه أنه ما كان يُثبت إلهًا سوى نمروذ فكيف يسلم وجود الإله الرحمن؟! وإذا لم يسلم وجوده، فكيف يمكنه تسليم أن الشيطان كان عاصيًا للرحمن؟! ثم إن على تسليم ذلك فكيف يسلم الخصم بمجرد هذا الكلام أن مذهبه مقتبس من الشيطان؟! بل لعله يقلب ذلك على خصمه. قلنا: الحجة المعول عليها في إبطال مذهب آزر هو الذي ذكره أولاً من قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ فأما هذا الكلام فيجري مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر في تلك الدلالة، وعلى هذا التقدير يسقط السؤال.

النوع الرابع: قوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ قال الفراء: معنى أخاف: أعلم. والأكثرون على أنه محمول على ظاهره، والقول الأول إنما يصح لو كان إبراهيم عليه السلام عالمًا بأن أباه سيموت على ذلك الكفر، وذلك لم يثبت، فوجب إجراؤه على ظاهره فإنه كان يجوز أن يؤمن فيصير من أهل الثواب ويجوز أن يُصِر فيموت على الكفر، فيكون من أهل العقاب، ومن كان كذلك كان خائفًا لا قاطعًا، واعلم أن من يظن وصول الضرر إلى غيره فإنه لا يسمى خائفًا إلا إذا كان بحيث يلزم من وصول ذلك الضرر إليه تألم قلبه، كما يقال: أنا خائف على ولدي. أما قوله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ فذكروا في الولي وجوهًا: أحدها: أنه إذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النار، والولاية سبب للمعية، وإطلاق اسم السبب على المسبب مجاز وإن لم يجز حمله على الولاية الحقيقية لقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] وحكى عن الشيطان أنه يقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] واعلم أن هذا الإشكال إنما يتوجه إذا كان المراد من العذاب عذاب الآخرة، أما إذا كان المراد منه عذاب الدنيا فالإشكال ساقط. وثانيها: أن يُحمل العذاب على الخذلان، أي إني أخاف أن يمسك خذلان الله فتصير مواليًا للشيطان ويبرأ الله منك، على ما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩]. وثالثها: وليًّا، أي تاليًا للشيطان، تليه كما يسمى المطر الذي يأتي تاليًا وليًا.

فإن قيل: قوله: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يقتضي أن تكون ولاية

الشيطان أسوأ حالاً من العذاب نفسه وأعظم، فما السبب لذلك.

والجواب: أن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب على ما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٧٢] فوجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام رتب هذا الكلام في غاية الحسن لأنه نبه أولاً على ما يدل على المنع من عبادة الأوثان، ثم أمَره باتباعه في النظر والاستدلال وترك التقليد، ثم نبه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغي، ثم إنه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن مقرونًا باللطف والرفق فإن قوله في مقدمة كل كلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب، وختم الكلام بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه، وإنما فعل ذلك لوجوه: أحدها: قضاء لحق الأبوة على ما قال تعالى: ﴿وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[الإسراء: ٢٣] والإرشاد إلى الدين من أعظم أنواع الإحسان، فإذا انضاف إليه رعاية الأدب والرفق كان ذلك نورًا على نور. **وثانيها:** أن الهادي إلى الحق لا بد وأن يكون رفيقًا لطيفًا يورد الكلام لا على سبيل العنف؛ لأن إيراده على سبيل العنف يصير كالسبب في إعراض المستمع فيكون ذلك في الحقيقة سعيًا في الإغواء. **وثالثها:** ما روى أبو هريرة أنه قال عليه السلام: «**أَوْحَى اللَّهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّكَ خَلِيلِي، فَحَسِّنْ خُلُقَكَ وَلَوْ مَعَ الْكُفَّارِ تَدْخُلْ مَدَاخِلَ الأَبْرَارِ، فَإِنَّ كَلِمَتِي سَبَقَتْ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ أَنْ أُظِلَّهُ تَحْتَ عَرْشِي وَأَنْ أُسْكِنَهُ حَظِيرَةَ قُدْسِي وأُدْنِيهِ مِنْ جِوَارِي**» والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما دعا أباه إلى التوحيد، وذكر الدلالة على فساد عبادة الأوثان، وأردف تلك الدلالة بالوعظ البليغ، وأورد كل ذلك مقرونًا باللطف والرفق، قابله أبوه بجواب يضاد ذلك، فقابل حجته بالتقليد، فإنه لم يذكر في مقابلة حجته إلا قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فأصر على ادعاء إلهيتها جهلاً وتقليدًا، وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب والشتم، وقابل رفقه في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾[مريم: ٤٤] بالعنف حيث لم يقل له يا بني بل قال: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وإنما حكى الله تعالى ذلك لمحمد ﷺ ليخفف على قلبه ما كان يصل إليه من أذى المشركين، فيعلم أن الجهال منذ كانوا على هذه السيرة المذمومة، أما قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ

ءَالِهَتِى يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ فإن كان ذلك على وجه الاستفهام فهو خذلان؛ لأنه قد عرف منه ما تكرر منه من وعظه وتنبيهه على الدلالة، وهو يفيد أنه راغب عن ذلك أشد رغبة، فما فائدة هذا القول؟ وإن كان ذلك على سبيل التعجب فأي تعجب في الإعراض عن حجة لا فائدة فيها، وإنما التعجب كله من الإقدام على عبادتها، فإن الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها، فكأن أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبني على الدليل - بتعجب فاسد غير مبني على دليل وشبهة، ولا شك أن هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه.

أما قوله: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِى مَلِيًّا﴾ . **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في الرجم هاهنا قولان: **الأول:** أنه الرجم باللسان، وهو الشتم والذم، ومنه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤] أي بالشتم، ومنه الرجيم، أي المرمي باللعن، قال مجاهد: الرجم في القرآن كله بمعنى الشتم. **والثاني:** أنه الرجم باليد، وعلى هذا التقدير ذكروا وجوهًا: **أحدها:** لأرجمنك بإظهار أمرك للناس ليرجموك ويقتلوك. **وثانيها:** لأرجمنك بالحجارة لتتباعد عني. **وثالثها:** عن المؤرج: (لأقتلنك) بلغة قريش. **ورابعها:** قال أبو مسلم: لأرجمنك المراد منه الرجم بالحجارة إلا أنه قد يقال ذلك في معنى الطرد والإبعاد اتساعًا، ويدل على أنه أراد الطرد قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِى مَلِيًّا﴾ واعلم أن أصل الرجم هو الرمي بالرجام فحَمْله عليه أَوْلى، فإن قيل: أفما يدل قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِى مَلِيًّا﴾ على أن المراد به الرجم بالشتم؟ قلنا: لا، وذلك لأنه هدده بالرجم إن بقي على قربه منه وأمَره أن يبعد هربًا من ذلك، فهو في معنى قوله: ﴿وَٱهۡجُرۡنِى مَلِيًّا﴾ .

المسألة الثانية: في قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِى مَلِيًّا﴾ قولان: أحدهما: المراد واهجرني بالقول. والثاني: بالمفارقة في الدار والبلد. وهي هجرة الرسول والمؤمنين، أي تباعَدْ عني لكيلا أراك. وهذا الثاني أقرب إلى الظاهر.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿مَلِيًّا﴾ قولان: **الأول:** مليًا، أي مدة بعيدة، مأخوذ من قولهم (أتى على فلان مُلاوة من الدهر) أي زمان بعيد. **والثاني:** مليًا بالذهاب عني والهجران قبل أن أثخنك بالضرب حتى لا تقدر أن تبرح، يقال فلان ملي بكذا، إذا كان مطيقًا له مضطلعًا به.

المسألة الرابعة: عطف (اهجرني) على معطوف عليه محذوف يدل عليه لأرجمنك، أي فاحذرني واهجرني لئلا أرجمنك. ثم إن إبراهيم عليه السلام لما سمع من أبيه ذلك أجاب عن أمرين. أحدهما: أنه وعده التباعد منه، وذلك لأن أباه لما أمره بالتباعد أظهر الانقياد لذلك الأمر وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ توادع ومتاركة كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِى ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وهذا دليل على جواز متاركة المنصوح إذا ظهر منه اللجاج، وعلى أنه تحسن مقابلة الإساءة بالإحسان، ويجوز أن

يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له، ألا ترى أنه وعده بالاستغفار، ثم إنه لما ودع أباه بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ضم إلى ذلك ما دل به على أنه وإن بعد عنه فاشفاقه باقٍ عليه كما كان، وهو قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾.

واحتج بهذه الآية من طعن في عصمة الأنبياء، وتقريره أن إبراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز لأنه استغفر لأبيه وهو كافر، والاستغفار للكافر لا يجوز، فثبت بمجموع هذه المقدمات أن إبراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز، إنما قلنا. إنه استغفر لأبيه لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[الشعراء: ٨٦] وأما أن أباه كان كافرًا فذاك بنص القرآن وبالإجماع، وأما أن الاستغفار للكافر لا يجوز فلوجهين: الأول: قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[التوبة: ١١٣]. الثاني: قوله في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الممتحنة: ٤] إلى قوله ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة: ٤] وأمَر الناس إلا في هذا الفعل فوجب أن يكون ذلك معصية منه.

والجواب: لا نزاع إلا في قولكم (الاستغفار للكافر لا يجوز) فإن الكلام عليه من وجوه:

أحدها: أن القطع على أن الله تعالى يعذب الكافر لا يُعرف إلا بالسمع، فلعل إبراهيم عليه السلام لم يجد في شرعه ما يدل على القطع بعذاب الكافر، فلا جرم استغفر لأبيه.

وثانيها: أن الاستغفار قد يكون بمعنى الاستماحة، كما في قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[الجاثية: ١٤] والمعنى سأسأل ربي أن لا يجزيك بكفرك ما كنت حيًا بعذاب الدنيا المعجل.

وثالثها: أنه عليه السلام إنما استغفر لأبيه لأنه كان يرجو منه الإيمان، فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار، ولعل في شرعه جواز الاستغفار للكافر الذي يرجي منه الإيمان، والدليل على وقوع هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣] فبيّن أن المنع من الاستغفار إنما يحصل بعد أن يعرفوا أنهم من أصحاب الجحيم. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التوبة: ١١٤] فدلت الآية على أنه وعده بالاستغفار لو آمن، فلما لم يؤمن لم يستغفر له بل تبرأ منه، فإن قيل: فإذا كان الأمر كذلك فلم مُنعنا من التأسي به في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الممتحنة: ٤] إلى قوله ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة: ٤] قلنا: الآية تدل على أنه لا يجوز لنا التأسي به في ذلك لكن المنع من التأسي به في ذلك لا يدل على أن ذلك كان معصية، فإن كثيرًا من الأشياء هي من خواص رسول الله ﷺ ولا يجوز لنا التأسي به مع أنها كانت مباحة له عليه السلام.

ورابعها: لعل هذا الاستغفار كان من باب ترك الأَوْلى وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

أما قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي لطيفًا رفيقًا يقال: أحفى فلان في المسألة بفلان إذا لطف به وبالغ في الرفق، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾[محمد: ٣٧] أي وإن لطفت المسألة، والمراد أنه سبحانه للطفه بي وإنعامه عليّ عودني الإجابة، فإذا أنا استغفرت لك حصل المراد. فكأنه جعله بذلك على يقين إن هو تاب أن يحصل له الغفران. (الجواب الثاني) من الجوابين قوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الاعتزال للشيء هو التباعد عنه، والمراد أني أفارقكم في المكان وأفارقكم في طريقتكم أيضًا وأبعد عنكم، وأتشاغل بعبادة ربي الذي ينفع ويضر والذي خلقني وأنعم علي، فإنكم بعبادة الأصنام سالكون طريقة الهلاك، فواجب عليَّ مجانبتكم، ومعنى قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أرجو أن لا أكون كذلك، وإنما ذكر ذلك على سبيل التواضع كقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[الشعراء: ٨٢] وأما قوله: ﴿شَقِيًّا﴾ مع ما فيه من التواضع لله ففيه تعريض بشقاوتهم في دعاء آلهتهم، على ما قرره أولاً في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾[مريم: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

اعلم أنه ما خسر على الله أحد، فإن إبراهيم عليه السلام لما اعتزلهم في دينهم وفي بلدهم واختار الهجرة إلى ربه إلى حيث أمره - لم يضره ذلك دينًا ودنيا، بل نفعه فعوضه أولادًا أنبياء ولا حالة في الدين والدنيا للبشر أرفع من أن يجعل الله له رسولاً إلى خلقه، ويُلزم الخلق طاعته والانقياد له، مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة، فصار جعله تعالى إياهم أنبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة، ثم بَيَّن تعالى أنه مع ذلك وهب لهم من رحمته أي وهب لهم من النبوة ما وهب، ويدخل فيه المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة. ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ ولسان الصدق: الثناء الحسن، وعَبَّر باللسان عما يوجد باللسان، كما عبر باليد عما يعطي باليد وهو العطية، واستجاب الله دعوته في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾[الشعراء: ٨٤] فصيره قدوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم، وقال عز وجل: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾[الحج: ٧٨] ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[النحل: ١٢٣] قال بعضهم: إن الخليل اعتزل عن الخلق على ما قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم: ٤٨] فلا جرم بارك الله في أولاده فقال: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

وثانيها: أنه تبرأ من أبيه في الله تعالى على ما قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٤] لا جرم أن الله سماه أبًا للمسلمين فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]

وثالثها: تل ولده للجبين ليذبحه على ما قال: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] لا جرم فداه الله تعالى على ما قال: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٧].

ورابعها: أسلم نفسه فقال: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] فجعل الله تعالى النار عليه بردًا وسلامًا فقال: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وخامسها: أشفق على هذه الأمة فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: ١٢٩] لا جرم أشركه الله تعالى في الصلوات الخمس، كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

وسادسها: في حق سارة في قوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] لا جرم جعل موطئ قدميه مباركًا: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ [البقرة: ١٢٥].

وسابعها: عادى كل الخلق في الله فقال: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] لا جرم اتخذه الله خليلاً على ما قال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥] ليعلم صحة قولنا أنه ما خسر على الله أحد.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ۝٥٣﴾

(القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام)

اعلم أنه تعالى وصف موسى عليه السلام بأمور:

أحدها: أنه كان مخلصًا فإذا قرئ بفتح اللام فهو من الاصطفاء والاحتباء، كأن الله تعالى اصطفاه واستخلصه، وإذا قرئ بالكسر فمعناه أخلص لله في التوحيد في العبادة والإخلاص هو القصد في العبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده، ومتى ورد القرآن بقراءتين فكل واحدة منهما ثابت مقطوع به، فجعل الله تعالى من صفة موسى عليه السلام كلا الأمرين. **وثانيها**: كونه رسولاً نبيًا، ولا شك أنهما وصفان مختلفان، لكن المعتزلة زعموا كونهما متلازمين فكل رسول نبي وكل نبي رسول، ومن الناس من أنكر ذلك، وقد بينا الكلام فيه في سورة الحج في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]. **وثالثها**: قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ من اليمين أي من ناحية اليمين، والأيمن صفة الطور أو الجانب. **ورابعها**: قوله: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ ولما ذكر كونه رسولاً قال: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ وفي قوله: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾ قولان: **أحدهما**: المراد قرب المكان، عن أبي العالية: قرَّبه حتى سمع صرير القلم حيث كُتبت التوراة في الألواح. **والثاني**: قرب المنزلة، أي رفعنا قدره وشرفناه بالمناجاة، قال القاضي: وهذا أقرب لأن استعمال القرب في الله قد صار بالتعارف لا يراد به إلا المنزلة، وعلى هذا الوجه يقال في العبادة تقرب، ويقال في الملائكة عليهم السلام: إنهم مقربون وأما ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ فقيل فيه: أنجيناه من أعدائه.

وقيل: هو من المناجاة في المخاطبة. وهو أَوْلى. **وخامسها:** قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هارون عليه السلام أكبر من موسى عليهما السلام، وإنما وهب الله له نبوته لا شخصه وأخوته وذلك إجابة لدعائه في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾[طه: ٢٩-٣٢] فأجابه الله تعالى إليه بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه: ٣٦] وقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[القصص: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾

(القصة الخامسة قصة إسماعيل عليه السلام)

اعلم أن إسماعيل هذا هو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، واعلم أن الله تعالى وصف إسماعيل عليه السلام بأشياء: **أولها:** قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ وهذا الوعد يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى، ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس: أما الأول: فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيئًا مما يؤمر به من طاعة ربه، وذلك لأن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمَرهم بتأدية الشرع، فلا بد من ظهور وعد منهم يقتضي القيام بذلك، ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة. **وأما الثاني:** فهو أنه عليه السلام كان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده، فالله تعالى وصفه بهذا الخُلق الشريف. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه وعد صاحبًا له أن ينتظره في مكان فانتظره سنة، وأيضًا وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به حيث قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[الصافات: ١٠٢] ويروى أن عيسى عليه السلام قال له رجل: انتظرني حتى آتيك. فقال عيسى عليه السلام: نعم. وانطلق الرجل ونسي الميعاد فجاء لحاجة إلى ذلك المكان وعيسى عليه السلام هنالك للميعاد، وعن رسول الله ﷺ: **«أَنَّهُ وَاعَدَ رَجُلاً وَنَسِيَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَانْتَظَرَهُ مِنَ الضُّحَى إِلَى قَرِيبٍ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ»**(١) وسئل الشعبي عن الرجل يعد ميعادًا إلى أي وقت ينتظره؟ فقال: إن واعده نهارًا فكل النهار، وإن واعده ليلاً فكل الليل. وسئل إبراهيم بن زيد عن ذلك فقال: إذا واعدته في وقت الصلاة فانتظره إلى وقت صلاة أخرى. **وثانيها:** قوله: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ وقد مر تفسيره. **وثالثها:** قوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ والأقرب في الأهل أن المراد به من يلزمه أن يؤدي إليه الشرع فيدخل فيه كل أمته من حيث لزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة، هذا إذا حُمل الأمر على المفروض من الصلاة والزكاة، فإن حُمل على الندب فيهما كان المراد أنه كما كان يتهجد بالليل يأمر أهله، أي

---

(١) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

من كان في داره في ذلك الوقت بذلك، وكان نظره لهم في الدين يغلب على شفقته عليهم في الدنيا بخلاف ما عليه أكثر الناس، وقيل: كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]وأيضًا فهم أحق أن يتصدق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أَوْلى، فأما الزكاة فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها طاعة الله تعالى والإخلاص فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه، والظاهر أنه إذا قرنت الزكاة إلى الصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة، وكانُ يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة فيأمرهم بذلك أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء. **ورابعها:**قوله؛ ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ وهو في نهاية المدح لأن المَرضى عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات.

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

(القصة السادسة قصة إدريس عليه السلام)

اعلم أن إدريس عليه السلام هو جد أبي نوح عليه السلام، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، قيل: سمي إدريس لكثرة دراسته واسمه أخنوخ، وَوَصفه الله تعالى بأمور: **أحدها:**أنه كان صِديقًا. **وثانيها:**أنه كان نبيًا وقد تقدم القول فيهما. **وثالثها:**قوله: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أنه من رفعة المنزلة كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فإن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خط بالقلم، ونظر في علم النجوم والحساب، وأول من خاط الثياب ولبسها وكانوا يلبسون الجلود. الثاني: أن المراد به الرفعة في المكان إلى موضع عالٍ وهذا أَوْلى؛ لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة في المكان لا في الدرجة، ثم اختلفوا: فقال بعضهم: إن الله رفعه إلى السماء وإلى الجنة وهو حي لم يمت. وقال آخرون: بل رُفع إلى: السماء وقبض روحه، سأل ابن عباس رضي الله عنهما كعبًا عن قوله: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: جاءه خليل له من الملائكة فسأله حتى يكلم ملك الموت حتى يؤخر قبض روحه، فحمله ذلك الملك بين جناحيه فصعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة فإذا ملك الموت يقول: بُعثت وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة. وأنا أقول: كيف ذلك وهو في الأرض؟! فالتفت إدريس فرآه ملك الموت فقبض روحه هناك. واعلم أن الله تعالى إنما مدحه بأن رفعه إلى السماء لأنه جرت العادة أن لا يرفع إليها إلا من كان عظيم القدر والمنزلة، ولذلك قال في حق الملائكة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]وهاهنا آخر القصص.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الأنبياء بما يخصه من الثناء، ثم جمعهم آخرًا فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ أي بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه و(أولئك) إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس، ثم جمعهم في كونهم من ذرية آدم ثم خص بعضهم بأنه من ذرية من حمل مع نوح، والذي يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام، فقد كان سابقًا على نوح على ما ثبت في الأخبار، والذين هم من ذرية من حمل مع نوح، هو إبراهيم عليه السلام لأنه من ولد سام بن نوح وإسماعيل وإسحاق ويعقوب من ذرية إبراهيم، ثم خص بعضهم بأنهم من ولد إسرائيل أي يعقوب، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى من قبل الأم، فرتب الله سبحانه وتعالى أحوال الأنبياء عليهم السلام الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبهًا بذلك على أنهم كما فُضلوا بأعمالهم فلهم مزيد في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء، ثم بَيَّن أنهم ممن هدينا واجتبينا منبهًا بذلك على أنهم اختصوا بهذه المنازل لهداية الله تعالى لهم، ولأنه اختارهم للرسالة ثم قال: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ تتلى عليهم أي على هؤلاء الأنبياء، فبَيّن تعالى أنهم مع نعم الله عليهم قد بلغوا الحد الذي عند تلاوة آيات الله يخرون سجدًا وبكيًّا خضوعًا وخشوعًا وحذرًا وخوفًا، والمراد بآيات الله ما خصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة عليهم. وقال أبو مسلم: المراد بالآيات التي فيها ذكر العذاب المنزل بالكفار. وهو بعيد لأن سائر الأيات التي فيها ذكر الجنة والنار إلى غير ذلك أولى أن يسجدوا عنده ويبكوا، فيجب حمله على كل آية تتلى مما يتضمن الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لأن كل ذلك إذا فكر فيه المتفكر صح أن يسجد عنده وأن يبكي، واختلفوا. فقال بعضهم في السجود: إنه الصلاة. وقال بعضهم: المراد سجود التلاوة على حسَب ما تعبدنا به. وقيل: المراد الخضوع والخشوع. والظاهر يقتضي سجودًا مخصوصًا عند التلاوة، ثم يحتمل أن يكون المراد سجود التلاوة للقرآن، ويحتمل أنهم عند الخوف كانوا قد تعبدوا بالسجود فيفعلون ذلك لا لأجل ذكر السجود في الآية. قال الزجاج في بكيًّا: جمع باك مثل شاهد وشهود وقاعد وقعود، ثم قال: الإنسان في حال خروره لا يكون ساجدًا، فالمراد خروا مقدرين للسجود. ومن قال في بكيًّا: إنه مصدر. فقد أخطأ لأن سجدًا جمع ساجد وبكيًا معطوف عليه وعن رسول الله ﷺ: «اتْلُوا الْقُرْآنَ وَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا» (١). وعن صالح المري قال: قرأت

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الدورقي في (مسند سعد) (١/ ٢١٤) حديث رقم/ ١٢٨ من طريق وكيع، حدثنا=

القرآن عن رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه. وعن رسول الله ﷺ: «القرآن نزل فاقرأوه بحُزنٍ»(١) وعن رسول الله ﷺ: «مَا اغْرَوْرَقَتْ عَيْنٌ بِهِ بِمَاءٍ إِلاَّ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ جَسَدَهَا»(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «لاَ يَلِجُ النَّارَ مَنْ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ»(٣) وقال العلماء: يدعو في سجود التلاوة بما، يليق بها فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك. وإن قرأ سجدة سبحان قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك. وإن قرأ هذه السجدة قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهتدين الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آيات كتابك.

=عبد الرحمن بن أبي بكر... به. وأخرجه ابن ماجه في كتاب (الزهد) باب (الحزن والبكاء) (٢/ ١٤٠٣) حديث رقم/ ٤١٩٦ من طريق بشير بن ذكوان الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبو رافع عن ابن أبي مليكة عن عبد الرحمن بن السائب... به. والبيهقي في (السنن الكبرى) (١٠/ ٢٣١) من طريق الوليد بن مسلم... به. والبزار في (مسنده) (٤/ ٦٩) حديث رقم/ ١٢٣٥ من طريق الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر... به. وأبو يعلى في سنده (٢/ ٤٩) حديث رقم (٦٨٩). من طريق الوليد قال: حدثنا إسماعيل بن رافع أبو رافع... به. وضَعَّف إسناده الألباني في ضعيف ابن ماجة. قلت وعلته عبد الرحمن بن أبي بكر فهو ضعيف والوليد بن مسلم يدلس وعنعنه في بعض طبقات السنة والله أعلم.

(١) ضعيف: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (١/ ٤٢٤) حديثص رقم/ ١٣٣٧ وأبو يعلى في (مسنده) (٢/ ٤٩) حديث رقم/ ٦٨٩ والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٣٦٢) حديث رقم/ ٢٠٥١ جميعًا من طريق الوليد بن مسلم حدثنا أبو رافع عن ابن أبي مليكة عن عبد الرحمن بن السائب عن سعد بن أبي وقاص... به. وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (٤٨٣٥) وقال: ضعيف.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) (١١/ ١٨٩) قال: أخبرنا شيخ من أهل البصرة عن شيخ لهم عن عمر بن سعيد عن مسلم بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ... به. ورواه ابن عدي في (الكامل) (٢/ ٨٥) حديث رقم/ ٣٠٥ من طريق تميم بن خرشف عن قتادة عن أنس... به. وقال: تميم بن خرشف هذا لا أعرف له هذا الحديث، وهذا الحديث عن قتادة لم يروه عنه غيره وهو منكر.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (فضائل الجهاد) باب (فضل الغبار في سبيل الله) (٤/ ١٤٧) حديث رقم/ ١٦٣٣ من طريق عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في كتاب (الجهاد) باب (فضل من عمل في سبيل الله على قدمه) (٣/ ٣١٠، ٣١١) حديث رقم/ ٣١٠٨ من طريق هناد بن السري عن ابن المبارك عن المسعودي... به. وابن ماجة في كتاب (الجهاد) باب (الخروج في التغبر) (٢/ ٩٢٧) حديث رقم/ ٢٧٧٤ من طريق سفيان بن عيينة... به. والحميدي في (مسنده) (٢/ ٤٦٦) حديث رقم/ ١٠٩١ قال: حدثنا مسعر. وأحمد في (مسنده) (٢/ ٥٠٥) من طريق المسعودي... به. جميعًا (المسعودي، سفيان، مسعر) عن محمد بن عبد الرحمن... به.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف هؤلاء الأنبياء بصفات المدح ترغيبًا لنا في التأسي بطريقتهم، ذكر بعدهم من هو بالضد منهم فقال: فخلف من بعدهم خلف، وظاهر الكلام أن المراد من بعد هؤلاء الأنبياء خلف من أولادهم، يقال: خلفه، إذا أعقبه ثم قيل في عقب الخير خلف بفتح اللام وفي عقب الشر (خَلف) بالسكون، كما قالوا: وعد في ضمان الخير ووعيد في ضمان الشر وفي الحديث: «فِي اللَّهِ خَلَفٌ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ» (١) وفي الشعر للبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ (٢)

ثم وصفهم بإضاعة الصلاة واتباع الشهوات، فإضاعة الصلاة في مقابلة قوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ [السجدة: ١٥] واتباع الشهوات في مقابلة قوله: ﴿وَبُكِيّٗا﴾ لأن بكاءهم يدل على خوفهم واتباع هؤلاء لشهواتهم يدل على عدم الخوف لهم، وظاهر قوله: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوها، لكن تركها قد يكون بأن لا تُفعل أصلاً وقد يكون بأن لا تفعل في وقتها، وإن كان الأظهر هو الأول وأما اتباع الشهوات فقال ابن عباس رضي الله عنهما. هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب.

واحتج بعضهم بقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ على أن تارك الصلاة كافر، واحتج أصحابنا بها في أن الإيمان غير العمل لأنه تعالى قال: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ فعطف العمل على الإيمان والمعطوف غير المعطوف عليه، أجاب الكعبي عنه: بأنه تعالى فرق بين التوبة والإيمان والتوبة من الإيمان، فكذلك العمل الصالح يكون من الإيمان وإن فرق بينهما. وهذا الجواب ضعيف

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٣/ ٦٠) حديث رقم/ ٤٣٩٢ والطبراني في (الأوسط) (٨/ ١٠٩) حديث رقم/ ٨١٢٠ كلاهما من طريق محمد بن بشر بن مطر، حدثنا كامل بن طلحه حدثنا عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك. . . به. وقال الحاكم: عباد بن عبد الصمد ليس من شرط هذا الكتاب. ورواه البيهقي في (سننه الكبرى) (٤/ ٦٠) حديث رقم/ ٦٨٨٣ والشافعي في (مسنده) (١/ ٣٦١) كلاهما من طريق القاسم بن عبد الله بن عمر عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده. . . فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٣/ ٣) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عباد بن عبد الصمد أبو معمر، ضَعَّفه البخاري وقال الهيثمي أيضًا (٩/ ٣٥) رواه الطبراني، وفيه عبد الله بن ميمون القداح وهو واهب الحديث.

(٢) هذا البيت من البحر الكامل للشاعر الأمير الصنعاني وهو الأمير الصنعاني، وهو: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكحلاني الصنعاني أبو إبراهيم عز الدين. ١٠٩٩-١١٨٢ هـ/ ١٦٨٨-١٧٦٨ م مجتهد من بيت الإمامة في اليمن، يلقب (المؤيد بالله) بن المتوكل على الله. أصيب بمحن كثيرة من الجهلة والعوام، له نحو مائة مؤلف، ذكر صديق حسن خان أن أكثرها عنده (في الهند) ولد بمدينة كحلان ونشأ وتوفي بصنعاء.

لأن عطف الإيمان على التوبة يقتضي وقوع المغايرة بينهما، لأن التوبة عزم على الترك والإيمان إقرار بالله تعالى وهما متغايران، فكذا في هذه الصورة.

ثم بيَّن تعالى أن مَن هذه صفته ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وذكروا في الغي وجوهًا:

أحدها: أن كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد، قال الشاعر[1]:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لاَئِمَا

وثانيها: قال الزجاج: ﴿يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي يلقون جزاء الغي، كقوله تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي مجازاة الآثام.

وثالثها: غيًّا عن طريق الجنة.

ورابعها: الغي وادٍ في جهنم يستعيذ منه أوديتها. والوجهان الأولان أقرب فإن كان في جهنم موضع يسمى بذلك جاز، ولا يخرج مَن أن يكون المراد ما قدمنا لأنه المعقول في اللغة، ثم بين سبحانه أن هذا الوعيد فيمن لم يتب، وأما من تاب وآمن وعمل صالحًا فلهم الجنة لا يلحقهم ظلم.

وهاهنا سؤالان: الأول: الاستثناء دل على أنه لا بد من التوبة والإيمان والعمل الصالح وليس الأمر كذلك؛ لأن من تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة، أو كانت المرأة حائضًا فإنه لا يجب عليها الصلاة والزكاة أيضًا غير واجبة، وكذا الصوم، فهاهنا لو مات في ذلك الوقت كان من أهل النجاة، مع أنه لم يصدر عنه عمل، فلم يجز توقف الأجر على العمل الصالح، والجواب أن هذه الصورة نادرة، والمراد منه الغالب. السؤال الثاني: قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ هذا إنما يصح لو كان الثواب مستحقًّا على العمل؛ لأنه لو كان الكل بالتفضل لاستحال حصول الظلم، لكن من مذهبكم أنه لا استحقاق للعبد بعمله إلا بالوعد. الجواب: أنه لما أشبهه أجري على حكمه.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في التائب أنه يدخل الجنة، وصف الجنة بأمور:

أحدها: قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ والعدن: الإقامة، وصفها بالدوام على خلاف حال الجنان في الدنيا التي لا تدوم، ولذلك فإن حالها لا يتغير في مناظرها، فليست

(١) هذا البيت من البحر الطويل للشاعر المرقشي الأصغر وهو: ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة. ٥٤ ق. هـ/ ٥٧٠ م شاعر جاهلي من أهل نجد، من شعراء الطبقة الثانية، أشعر المرقشين، وكان من أجمل الناس وجهًا وأحسنهم شعرًا، كلف بفاطمة بنت الملك المنذر وأكثرَ من ذكرها في شعره، وهو عم طرفة بن العبد.

كجنان الدنيا التي حالها يختلف في خضرة الورق وظهور النور والثمر، وبَيَّن تعالى أنها وعد الرحمن لعباده. وأما قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أنه تعالى وعدهم إياها وهي غائبة عنهم غير حاضرة، أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها.

والثاني: أن المراد وعد الرحمن للذين يكونون عبادًا بالغيب أي الذين يعبدونه في السر بخلاف المنافقين فإنهم يعبدونه في الظاهر ولا يعبدونه في السر، وهو قول أبي مسلم. والوجه الأول أقوى لأنه تعالى بَيَّن أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد حاصل؛ لذلك قال بعده: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا﴾ أما قوله: ﴿مَأۡتِيًّا﴾ فقيل: إنه مفعول بمعنى فاعل، والوجه أن الوعد هو الجنة وهم يأتونها، قال الزجاج: كل ما وصل إليك فقد وصلت إليه، وما أتاك فقد أتيته. والمقصود من قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا﴾ بيان أن الوعد منه تعالى وإن كان بأمر غائب فهو كأنه مشاهد وحاصل، والمراد تقرير ذلك في القلوب.

وثانيها: قوله: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ واللغو من الكلام ما سبيله أن يلغي ويُطرح وهو المنكر من القول، ونظيره قوله: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾[الغاشية: ١١] وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو حيث نزه الله تعالى عنه الدار التي لا تكليف فيها، وما أحسن قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾[الفرقان: ٧٢]، ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[القصص: ٥٥].

أما قوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ ففيه بحثان:

البحث الأول: أن فيه إشكالاً وهو أن السلام ليس من جنس اللغو، فكيف استثنى السلام من اللغو؟ **والجواب عنه من وجوه:**

أحدها: أن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة، وأهل الجنة لا حاجة بهم إلى هذا الدعاء، فكان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث، لولا ما فيه من فائدة الإكرام.

وثانيها: أن يُحمل ذلك على الاستثناء المنقطع.

وثالثها: أن يكون هذا من جنس قول الشاعر:

وَلاَ عَيبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ(١)

البحث الثاني: أن ذلك السلام يحتمل أن يكون من سلام بعضهم على بعض أو من تسليم الملائكة أو من تسليم الله تعالى، على ما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾[الرعد: ٢٣، ٢٤] وقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[يس: ٥٨].

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾.

---

(١) هذا البيت للشاعر النابغة الذبياني، وقد تقدمت ترجمته.

وفيه سؤالان:

السؤال الأول: أن المقصود من هذه الآيات وصف الجنة بأحوال مستعظمة، ووصول الرزق إليهم بكرة وعشيًا ليس من الأمور المستعظمة.

والجواب من وجهين: الأول: قال الحسن: أراد الله تعالى أن يرغب كل قوم بما أحبوه في الدنيا، ولذلك ذكر أساور من الذهب والفضة ولبس الحرير التي كانت عادة العجم، والأرائك التي هي الحجال المضروبة على الأسرة وكانت من عادة أشراف العرب في اليمن، ولا شيء كان أحب إلى العرب من الغداء والعشاء فوعدهم بذلك. الثاني: أن المراد دوام الرزق كما تقول: (أنا عند فلان صباحًا ومساء وبكرة وعشيًا) تريد الدوام ولا تقصد الوقتين المعلومين.

السؤال الثاني: قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] وقال عليه السلام: «لا صباح عند ربك ولا مساء» والبكرة والعشي لا يوجدان إلا عند وجود الصباح والمساء. والجواب: المراد أنهم يأكلون عند مقدار الغداة والعشي، إلا أنه ليس في الجنة غدوة وعشي إذ لا ليل فيها، ويحتمل ما قيل: إنه تعالى جعل لقدر اليوم علامة يعرفون بها مقادير الغداة والعشي، ويُحتمل أن يكون المراد لهم رزقهم متى شاءوا كما جرت العادة في الغداة والعشي. وخامسها: قوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ وفيه أبحاث: الأول: قوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ هذه الإشارة إنما صحت لأن الجنة غائبة. وثانيها: ذكروا في (نورث) وجوهًا: الأول: نورث استعارة أي نبقي عليه الجنة كما نبقي على الوارث مال المورث. الثاني: أن المراد أنا ننقل تلك المنازل ممن لو أطاع لكانت له إلى عبادنا الذين اتقوا ربهم، فجعل هذا النقل إرثًا، قاله الحسن. الثالث: أن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة وقد انقضت أعمالهم وثمراتها باقية وهي الجنة، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يرث الوارث المال من المتوفى. ورابعها: معنى (من كان تقيًا) مَن تمسك باتقاء معاصيه وجعله عادته واتقى ترك الواجبات، قال القاضي: فيه دلالة على أن الجنة يختص بدخولها من كان متقيًا، والفاسق المرتكب للكبائر لا يوصف بذلك. والجواب: الآية تدل على أن المتقي يدخلها، وليس فيها دلالة على أن غير المتقي لا يدخلها، وأيضًا فصاحب الكبيرة متقٍ عن الكفر، ومَن صدق عليه أنه متقٍ عن الكفر فقد صدق عليه أنه متقٍ لأن المتقي جزء من مفهوم قولنا المتقي عن الكفر، وإذا كان صاحب الكبيرة يصدق عليه أنه متقٍ وجب أن يدخل تحته، فالآية بأن تدل على أن صاحب الكبيرة يدخل الجنة أَوْلى من أن تدل على أنه لا يدخلها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

اعلم أن في الآية إشكالاً وهو أن قوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]

كلام الله وقوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ كلام غير الله، فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل؟ والجواب: أنه إذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح، كما أن قوله سبحانه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥] هو كلام الله وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [مريم: ٣٦] كلام غير الله وأحدهما معطوف على الآخر، واعلم أن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ خطاب جماعة لواحد، وذلك لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول، ويحتمل في سببه ما روي أن قريشًا بعثت خمسة رهط إلى يهود المدينة يسألونهم عن صفة محمد ﷺ وهل يجدونه في كتابهم، فسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه، وقالت اليهود: نجده في كتابنا وهذا زمانه وقد سألنا رحمن اليمامة عن خصال ثلاث فلم يعرف، فاسألوه عنهن، فإن أخبركم بخصلتين منهما فاتبعوه، فاسألوه عن فتية أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح قال: فجاءوا فسألوه عن ذلك فلم يدر كيف يجيب، فوعدهم أن يجيبهم بعد ذلك، ولم يقل (إن شاء الله) فاحتبس الوحي عنه أربعين يومًا وقيل: خمسة عشر يومًا. فشق عليه ذلك مشقة شديدة وقال المشركون: ودعه ربه وقلاه. فنزل جبريل عليه السلام فقال له النبي ﷺ: «**أبطأت عني حتى ساء ظني واشتقت إليك**» قال: إني كنت أشوق ولكني عبد مأمور إذا بُعثت نزلت وإذا حُبست احتبست. فأنزل الله تعالى هذه الآية[١] وأنزل قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] وسورة الضحى، ثم أكدوا ذلك بقولهم: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي هو المدبر لنا في كل الأوقات الماضي والمستقبل وما بينهما، أو الدنيا والآخرة وما بينهما، فإنه يعلم إصلاح التدبير مستقبلاً وماضيًا وما بينهما، والغرض أن أمرنا موكول إلى الله تعالى يتصرف فينا بحسب مشيئته وإرادته وحكمته، لا اعتراض لأحد عليه فيه. وقال أبو مسلم: قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ يجوز أن يكون قول أهل الجنة، والمراد: وما نتنزل الجنة إلا بأمر ربك، له ما بين أيدينا، أي في الجنة، مستقبلاً، وما خلفنا مما كان في الدنيا، وما بين ذلك أي ما بين الوقتين، وما كان ربك نسيًا لشيء مما خلق فيترك إعادته لأنه عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ ابتداء كلام منه تعالى في مخاطبة الرسول ﷺ ويتصل به: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي بل هو ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ﴾ قال القاضي: وهذا مخالف للظاهر من وجوه: أحدها: أن ظاهر التنزل نزول الملائكة إلى الرسول ﷺ لقوله (بأمر ربك) وظاهر الأمر بحال التكليف أليق، وثانيها: أنه خطاب من جماعة لواحد وذلك لا يليق بمخاطبة بعضهم لبعض في الجنة. وثالثها: أن ما في سياقه من قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لا يليق إلا بحال التكليف ولا يوصف به الرسول ﷺ فكأنهم قالوا

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) (١١/ ٤٣٠) حديث رقم/ ٢٠٩١٨ من طريق معمر عن قتادة قال: قال النبي ﷺ. . . به.

للرسول: وما كان ربك يا محمد نسيًّا يجوز عليه السهو حتى يضرك إبطاؤنا بالتنزل عليك إلى مثل ذلك. **ثم هاهنا أبحاث:**

البحث الأول: قال صاحب (الكشاف): التنزل على معنيين: أحدهما: النزول على مهل. والثاني: بمعنى النزول على الإطلاق، والدليل عليه أنه مطاوع نزل ونزل يكون بمعنى أنزل وبمعنى التدريج، واللائق بمثل هذا الموضع هو النزول على مهل، والمراد أن نزولنا في الأحايين وقتًا بعد وقت ليس إلا بأمر الله تعالى.

البحث الثاني: ذكروا في قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وجوهًا: **أحدها**: له ما قدامنا وما خلفنا من الجهات وما نحن فيه، فلا نتمالك أن ننتقل من جهة إلى جهة ومن مكان إلى مكان إلا بأمره ومشيئته، فليس لنا أن ننقلب من السماء إلى الأرض إلا بأمره. **وثانيها**: له ما بين أيدينا ما سلف من أمر الدنيا، وما خلفنا ما يستقبل من أمر الآخرة، وما بين ذلك وما بين النفختين وهو أربعون سنة. **وثالثها**: ما مضى من أعمارنا وما غبر من ذلك والحال التي نحن فيها. **ورابعها**: ما قبل وجودنا وما بعد فنائنا. **وخامسها**: الأرض التي بين أيدينا إذا نزلنا والسماء التي وراءنا وما بين السماء والأرض. وعلى كل التقديرات فالمقصود أنه المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة، فكيف نقدم على فعل إلا بأمره وحكمه؟!

البحث الثالث: قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي تاركًا لك، كقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] أي ما كان امتناع النزول إلا لامتناع الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إياك. أما قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فالمراد أن من يكون ربًّا لها أجمع لا يجوز عليه النسيان إذ لا بد من أن يمسكها حالاً بعد حال، وإلا بطل الأمر فيهما وفيمن يتصرف فيهما.

واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى؛ لأن فعل العبد حاصل بين السماء والأرض. والآية دالة على أنه رب لكل شيء حصل بينهما، قال صاحب (الكشاف): رب السماوات والأرض بدل من (ربك) ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي هو رب السماوات والأرض فاعبده واصطبر لعبادته، فهو أمر للرسول ﷺ بالعبادة والمصابرة على مشاق التكاليف في الأداء والإبلاغ وفيما يخصه من العبادة، فإن قيل: لِمَ لم يقل (واصطبر على عبادته) بل قال (واصطبر لعبادته) قلنا: لأن العبادة جُعلت بمنزلة القرن في قولك للمحارب (اصطبر لقرنك) أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته. والمعنى أن العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن، ولا يضق صدرك من إلقاء أهل الكتاب إليك الأغاليط عن احتباس الوحي عنك مدة وشماتة المشركين بك.

أما قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ فالظاهر يدل على أنه تعالى جعل علة الأمر بالعبادة والأمر بالمصابرة عليها أنه لا سَمي له، والأقرب هو كونه منعمًا بأصول النعم وفروعها وهي خلق الأجسام والحياة والعقل وغيرها، فإنه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه، فإذا كان هو

قد أنعم عليك بغاية الإنعام، وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهي العبادة، ومن الناس من قال: المراد أنه سبحانه ليس له شريك في اسمه وبينوا ذلك من وجهين: **الأول:** أنهم وإن كانوا يطلقون لفظ الإله على الوثن، فما أطلقوا لفظ الله على شيء سواه وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسمى بالرحمن غيره. **الثاني:** هل تعلم من سمي باسمه. على الحق دون الباطل؟ لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كلا تسمية، والقول الأول هو الصواب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر بالعبادة والمصابرة عليها، فكأن سائلاً سأل وقال: هذه العبادات لا منفعة فيها في الدنيا، وأما في الآخرة فقد أنكرها قوم فلا بد من ذكر الدلالة على القول بالحشر حتى يظهر أن الاشتغال بالعبادة مفيد، فلهذا حكى الله تعالى قول منكري الحشر فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ وإنما قالوا ذلك على وجه الإنكار والاستبعاد، وذكروا في الإنسان وجهين: **أحدهما:** أن يكون المراد الجنس بأسره، فإن قيل: كلهم غير قائلين بذلك فكيف يصح هذا القول؟ قلنا: الجواب من وجهين: **الأول:** أن هذه المقالة لما كانت موجودة فيما هو من جنسهم صح إسنادها إلى جميعهم، كما يقال: (بنو فلان قتلوا فلانًا) وإنما القاتل رجل منهم. **والثاني:** أن هذا الاستبعاد موجود ابتداء في طبع كل أحد إلا أن بعضهم ترك ذلك الاستبعاد المبني على محض الطبع بالدلالة القاطعة التي قامت على صحة القول به. **الثاني:** أن المراد بالإنسان شخص معين فقيل: هو أبو جهل، وقيل: هو أُبي بن خلف، وقيل: المراد جنس الكفار القائلين بعدم البعث.

ثم إن الله تعالى أقام الدلالة على صحة البعث بقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ والقراء كلهم على (يذَّكَّر) بالتشديد إلا نافعًا وابن عامر وعاصمًا فقد خففوا، أي أو لا يتذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل، وإذا قرئ أو لا (يذكّر) فهو أقرب إلى المراد إذ الغرض التفكر والنظر في أنه إذا خُلق من قبل لا من شيء فجائز أن يعاد ثانيًا. قال بعض العلماء: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها، إذ لا شك أن الإعادة ثانيًا أهون من الإيجاد أولاً، ونظيره قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن المعدوم ليس بشيء. وهو ضعيف لأن الإنسان عبارة عن مجموع جواهر متألفة قامت

بها أعراض، وهذا المجموع ما كان شيئًا، ولكن لمَ قلت: إن كل واحد من تلك الأجزاء ما كان شيئًا قبل كونه موجودًا؟ فإن قيل: كيف أمر تعالى الإنسان بالذكر مع أن الذكر هو العلم بما قد علمه من قبل ثم تخللهما سهو؟ قلنا: المراد أوَ لا يتفكر فيعلم. خصوصًا إذا قرئ: أو لا يَذَّكر الإنسان بالتشديد، أما إذا قرئ: أو لا يَذْكر بالتخفيف فالمراد أو لا يعلم ذلك من حال نفسه لأن كل أحد يعلم أنه لم يكن حيًّا في الدنيا ثم صار حيًّا.

ثم إنه سبحانه لما قرر المطلوب بالدليل أردفه بالتهديد من وجوه:

أحدها:قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ وفائدة القسم أمران: أحدهما: أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين. والثاني: أن في إقسام الله تعالى باسمه مضافًا إلى اسم رسوله ﷺ تفخيم لشأنه ﷺ ورفع منه كما رفع من شأن السماء والأرض في قوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]والواو في ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ يجوز أن تكون للعطف وأن تكون بمعنى (مع) وهي بمعنى (مع) أوقع، والمعنى أنهم يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يُقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة.

وثانيها:قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ وهذا الإحضار يكون قبل إدخالهم جهنم، ثم إنه تعالى يحضرهم على أذل صورة لقوله تعالى: ﴿جِثِيًّا﴾ لأن البارك على ركبتيه صورته صورة الذليل أو صورته صورة العاجز، فإن قيل: هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]والسبب فيه جريان العادة أن الناس في مواقف المطالبات من الملوك يتجاثون على ركبهم لما في ذلك من الاستنظار والقلق، أو لما يدهمهم من شدة الأمر الذي لا يطيقون معه القيام على أرجلهم، وإذا كان هذا عامًّا للكل فكيف يدل على مزيد ذل الكفار؟ قلنا: لعل المراد أنهم يكونون من وقت الحشر إلى وقت الحضور في الموقف على هذه الحالة وذلك يوجب مزيد الذل في حقهم. **وثالثها**:قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ والمراد بالشيعة وهي فِعلة كفِرقة وفِئة: الطائفة التي شاعت، أي تبعت غاويًا من الغواة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]والمراد أنه تعالى يحضرهم أولاً حول جهنم جثيًّا ثم يَميز البعض من البعض، فمن كان أشدهم تمردًا في كفره خص بعذاب أعظم؛ لأن عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يضل تبعًا لغيره، وليس عذاب من يتمرد ويتجبر كعذاب المقلد، وليس عذاب من يورد الشُّبه في الباطل كعذاب من يقتدي به مع الغفلة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]. وقال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]فبيَّن تعالى أنه ينزع من كل فرقة من كان أشد عتوًّا وأشد تمردًا ليعلم أن عذابه أشد، ففائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب، فلذلك قال في جميعهم: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ولا يقال (أَوْلى) إلا مع اشتراك القوم في العذاب، واختلفوا في إعراب (أيهم) فعن

الخليل أنه مرتفع على الحكاية تقديره (لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد) وسيبويه على أنه مبني على الضم لسقوط صدر الجملة التي هي صلة حتى لو جيء به لأعُرب وقيل (أيهم هو أشد).

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما قال من قبل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨] ثم قال: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ [مريم: ٦٨] أردفه بقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ يعني جهنم. واختلفوا: فقال بعضهم: المراد: مَن تقدم ذكره من الكفار، فكنى عنهم أولاً كناية الغيبة، ثم خاطب خطاب المشافهة. قالوا: إنه لا يجوز للمؤمنين أن يردوا النار، ويدل عليه أمور: **أحدها**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] والمبعد عنها لا يوصف بأنه واردها. **والثاني**: قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢] ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها. **وثالثها**: قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النحل: ٨٩] وقال الأكثرون: إنه عام في كل مؤمن وكافر لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلم يخص. وهذا الخطاب مبتدأ مخالف للخطاب الأول، ويدل عليه قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي من الواردين من اتقى، ولا يجوز أن يقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ إلا والكل واردون، والأخبار المروية دالة على هذا القول.

ثم هؤلاء اختلفوا في تفسير الورود. **فقال بعضهم**: الورود: الدنو من جهنم، وأن يصيروا حولها وهو موضع المحاسبة، واحتجوا على أن الورود قد يراد به القرب بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ [يوسف: ١٩] ومعلوم أن ذلك الوارد ما دخل الماء، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] وأراد به القرب. ويقال: (وردَتِ القافلة البلدة) وإن لم تدخلها فعلى هذا معنى الآية أن الجن والإنس يحضرون حول جهنم: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] أي واجبًا مفروغًا منه بحكم الوعيد، ثم ننجي، أي نبعد الذين اتقوا عن جهنم، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ومما يؤكد هذا القول ما روي أنه ﷺ قال: «لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ» (١) فقالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَإِن

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٦/ ٣٦٢) حديث رقم/ ٢٧٠٨٧ وابن راهويه في (مسنده) (٤/ ١٩٦) حديث رقم/ ١٩٩٥ جميعًا من طريق الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة... فذكره. والبزار في مسنده (٥/ ٣٧) حديث رقم/ ٣٣٤٠ من طريق عيسى بن يونس، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن ابن أبي أوفى، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ. قال أورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ١٦٠) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه ا.هـ وعبد الله بن جعفر الرقي قال الحافظ: ثقة لكنه تغير بآخرة فلم يفحش اختلاطه.

﴿مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال عليه السلام: «فمه ثم ننجي الذين اتقوا» ولو كان الورود عبارة عن الدخول لكان سؤال حفصة لازمًا.

القول الثاني: أن الورود هو الدخول، ويدل عليه الآية والخبر: أما الآية فقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقال: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] والمبعد هو الذي لولا التبعيد لكان قريبًا، فهذا إنما يحصل لو كانوا في النار، ثم إنه تعالى يبعدهم عنها، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ وهذا يدل على أنهم يبقون في ذلك الموضع الذي وردوه وهم إنما يبقون في النار، فلا بد وأن يكونوا قد دخلوا النار. وأما الخبر فهو أن عبد الله بن رواحة قال: «**أَخْبَرَ اللَّهُ عَنِ الْوُرُودِ وَلَمْ يخبر بالصُّدُورِ**. فقال عليه السلام: **يَا بن رَوَاحَةَ اقْرَأْ مَا بَعْدَهَا: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**» وذلك يدل على أن ابن رواحة فهم من الورود الدخول والنبي ﷺ ما أنكر عليه في ذلك. وعن جابر: أنه سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الْوُرُودُ: الدُّخُولُ، لاَ يَبْقَى بَرٌّ وَلاَ فَاجِرٌ إِلاَّ دَخَلَهَا فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَرْدًا وَسَلاَمًا حَتَّى إِنَّ لِلنَّاسِ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهَا**»(١).

والقائلون بهذا القول يقولون: المؤمنون يدخلون النار من غير خوف وضرر ألبتة بل مع الغبطة والسرور، وذلك لأن الله تعالى أخبر عنهم أنهم ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ولأن الآخرة دار الجزاء لا دار التكليف، وإيصال الغم والحزن إنما يجوز في دار التكليف، ولأنه صحت الرواية عن رسول الله ﷺ: «**أَنَّ الْمَلاَئِكَةَ تُبَشِّرُ فِي الْقَبْرِ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الثَّوَابِ بِالْجَنَّةِ حَتَّى يَرَى مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ وَيَعْلَمَهُ**»(٢) وكذلك القول في حال المعاينة، فكيف يجوز أن يردوا القيامة وهم شاكُّون في أمرهم، وإنما تؤثر هذه الأحوال في أهل النار لأنهم لا يعلمون كونهم من أهل النار والعقاب.

ثم اختلفوا في أنه كيف يندفع عنهم ضرر النار: **فقال بعضهم:** البقعة المسماة بجهنم لا يمتنع أن يكون في خلالها ما لا نار فيه، ويكون من المواضع التي يسلك فيها إلى دركات جهنم، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يدخل الكل في جهنم، فالمؤمنون يكونون في تلك المواضع الخالية عن النار، والكفار يكونون في وسط النار. **وثانيها:** أن الله تعالى يخمد النار فيعبرها المؤمنون وتنهار

---

(١) أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ٣٢٨) حديث رقم/ ١٤٥٦٠ والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٦٣٠) حديث رقم/ ٨٧٤٤ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٣٣٣) حديث رقم/ ١١٠٦ والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ٣٣٦) حديث رقم/ ٣٧٠. جميعًا من طريق غالب بن سليمان عن كثير بن زياد البرساني عن أبي سمية عن جابر بن عبد الله... به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ٣٦٠) وقال: قلت لجابر في الصحيح وهذا رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٢) لم أجده.

بغيرهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (يَرِدُونَهَا كَأَنَّهَا إِهَالَةٌ) وعن جابر بن عبد الله: أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ وَعَدَنَا رَبُّنَا بِأَنْ نَرِدَ النَّارَ فَيُقَالُ لَهُمْ: قَدْ وَرَدْتُمُوهَا وَهِيَ خَامِدَةٌ» (١) **وثالثها:** أن حرارة النار ليست بطبعها فالأجزاء الملاصقة لأبدان الكفار يجعلها الله عليهم محرقة مؤذية، والأجزاء الملاصقة لأبدان المؤمنين يجعلها الله بردًا وسلامًا عليهم، كما في حق إبراهيم عليه السلام. وكما أن الكوز الواحد من الماء كان يشربه القبطي فكان يصير دمًا ويشربه الإسرائيلي فكان يصير ماء عذبًا. واعلم أنه لا بد من أحد هذه الوجوه في الملائكة الموكلين بالعذاب حتى يكونوا في النار مع المعاقبين.

فإن قيل: إذا لم يكن على المؤمنين عذاب في دخولهم النار فما الفائدة في ذلك الدخول؟ **قلنا فيه وجوه:**

أحدها: أن ذلك مما يزيدهم سرورًا إذا علموا الخلاص منه.

وثانيها: أن فيه مزيد غم على أهل النار، حيث يرون المؤمنين الذين هم أعداؤهم يتخلصون منها وهم يبقون فيها.

وثالثها: أن فيه مزيد غم على أهل النار من حيث تظهر فضيحتهم عند المؤمنين، بل وعند الأولياء وعند من كان يخوفهم من النار فما كانوا يلتفتون إليه.

ورابعها: أن المؤمنين إذا كانوا معهم في النار يبكتونهم، فزاد ذلك غمًّا للكفار وسرورًا للمؤمنين.

وخامسها: أن المؤمنين كانوا يخوفونهم بالحشر والنشر ويقيمون عليهم صحة الدلائل، فما كانوا يقبلون تلك الدلائل، فإذا دخلوا جهنم معهم أظهروا لهم أنهم كانوا صادقين فيما قالوا، وأن المكذبين بالحشر والنشر كانوا كاذبين.

وسادسها: أنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب صار ذلك سببًا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة كما قال الشاعر:

وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ (٢)

فأما الذين تمسكوا بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فقد بينا أنه أحد ما يدل على الدخول في جهنم، وأيضًا فالمراد عن عذابها، وكذا قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢] **فإن قيل:** هل ثبت بالأخبار كيفية دخول النار ثم خروج المتقين منها إلى الجنة؟ **قلنا:** ثبت

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (١/ ١٢٢) حديث رقم/ ٤٠٧ من طريق سفيان عن رجل عن خالد بن معدان... فذكره. وهناد في (الزهد) (١/ ١٦٥) حديث رقم/ ٢٣١ من طريق سفيان عن ثور عن خالد بن معدان قال... به. وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٥/ ٢١٢) من طريق عيسى بن يونس عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان... به.

(٢) هذا شطر البيت الآخر بن قصيدة من البحر الكامل للمتنبي، وقد تقدمت ترجمته.

بالأخبار أن المحاسبة تكون في الأرض أو حيث كانت الأرض، ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وجهنم قريبة من الأرض والجنة في السماء، ففي موضع المحاسبة يكون الاجتماع فيدخلون من ذلك الموضع إلى جهنم، ثم يرفع الله أهل الجنة وينجيهم ويدفع أهل النار فيها. أما قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ فالحتم مصدر حتم الأمر إذا أوجبه فسمى المحتوم بالحتم، كقولهم: خَلْق الله وضَرْب الأسير.

واحتج من أوجب العقاب عقلاً فقال: إن قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ يدل على وجوب ما جاء من جهة الوعيد والأخبار لأن كلمة (على) للوجوب والذي ثبت بمجرد الأخبار لا يسمى واجبًا.

والجواب: أن وعد الله تعالى لما استحال تطرق الخلف إليه جرى مجرى الواجب.

أما قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قرئ نُنَجِّي ونُنْجي وينجى على ما لم يسم فاعله. قال القاضي: الآية دالة على قولنا في الوعيد لأن الله تعالى بَيَّن أن الكل يَرِدونها ثم بَيَّن صفة من ينجو وهم المتقون والفاسق لا يكون متقيًا، ثم بَيَّن تعالى أن من عدا المتقين يذرهم فيها جثيًّا، فثبت أن الفاسق يبقى في النار أبدًا. قال ابن عباس: المتقي هو الذي اتقى الشرك بقول لا إله إلا الله. واعلم أن الذي قاله ابن عباس هو الحق الذي يشهد الدليل بصحته، وذلك لأن من آمن بالله وبرسله صح أن يقال: إنه متقٍ عن الشرك، ومن صدق عليه أنه متقٍ عن الشرك صدق عليه أنه متقٍ لأن المتقي جزء من المتقي عن الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد، فثبت أن صاحب الكبيرة متقٍ، وإذا ثبت ذلك وجب أن يخرج من النار لعموم قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ فصارت هذه الآية التي توهموها دليلاً من أقوى الدلائل على فساد قولهم.

قال القاضي: وتدل الآية أيضًا على فساد قول من يقول: إن من المكلفين من لا يكون في الجنة ولا في النار. قلنا: هذا ضعيف لأن الآية تدل على أنه تعالى ينجي الذين اتقوا، وليس فيها ما يدل على أنه ينجيهم إلى الجنة، ثم هب أنها تدل على ذلك ولكن الآية تدل على أن المتقين يكونون في الجنة والظالمين يبقون في النار، فيبقى هاهنا قسم ثالث خارج عن القسمين وهو الذي استوت طاعته ومعصيته، فتسقط كل واحدة منهما بالأخرى فيبقى لا مطيعًا ولا عاصيًا، فهذا القسم إن بطل فإنما يبطل بشيء سوى هذه الآية، فلا تكون هذه الآية دالة على الحصر الذي ادعاه. ومن المعتزلة من تمسك في الوعيد بقوله: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ولفظ الظالمين لفظ جمع دخل عليه حرف التعريف فيفيد العموم. والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم مرارًا كثيرة في هذا الكتاب، أما قوله: ﴿جِثِيًّا﴾ قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وأن المؤمنين يفارقون الكفرة إلى الجنة بعد نجاتهم، وتبقى الكفرة في مكانهم جاثين.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث، أتبعه بالوعيد على ما تقدم ذكره عنهم أنهم عارضوا حجة الله بكلام فقالوا: لو كنتم أنتم على الحق وكنا على الباطل، لكان حالكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا؛ لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في العذاب والذل وأعداءه المعروضين عن خدمته في العز والراحة، ولما كان الأمر بالعكس فإن الكفار كانوا في النعمة والراحة والاستعلاء، والمؤمنين كانوا في ذلك الوقت في الخوف والذل، دل على أن الحق ليس مع المؤمنين، هذا حاصل شبهتهم في هذا الباب، ونظيره قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]ويروى أنهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنون ويتطيبون ويتزينون بالزينة الفاخرة، ثم يدعون مفتخرين على فقراء المسلمين أنهم أكرم على الله منهم.

بقي بحثان:

الأول: قوله: ﴿ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أنها مرتلات الألفاظ مبينات المعاني إما محكمات أو متشابهات فقد تبعها البيان بالمحكمات أو بتبيين الرسول قولاً أو فعلاً. وثانيها: أنها ظاهرات الإعجاز تحدى بها فما قدروا على معارضتها. وثالثها: المراد بكونها آيات بينات أي دلائل ظاهرة واضحة لا يتوجه عليها سؤال ولا اعتراض، مثل قوله تعالى في إثبات صحة الحشر: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

البحث الثاني: قرأ ابن كثير: (مُقامًا) بالضم وهو موضع الإقامة والمنزل، والباقون بالفتح وهو موضع القيام، والمراد والنديّ: المجلس، يقال: نديّ ونادٍ، والجمع الأندية، ومنه قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]وقال: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ [العلق: ١٧]ويقال: ندوت القوم أندوهم، إذا جمعتهم في المجلس، ومنه دار الندوة بمكة وكانت مجتمع القوم.

ثم أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ .

وتقرير هذا الجواب أن يقال: إن من كان أعظم نعمة منكم في الدنيا قد أهلكهم الله تعالى وأبادهم، فلو دل حصول نعم الدنيا للإنسان على كونه حبيبًا لله تعالى، لوجب في حبيب الله أن لا يوصل إليه غمًّا في الدنيا ووجب عليه أن لا يُهلك أحدًا من المنعمين في دار الدنيا، وحيث أهلكهم دل إما على فساد المقدمة الأولى وهي أن من وجد الدنيا كان حبيبًا لله تعالى، أو على فساد المقدمة الثانية وهي أن حبيب الله لا يوصل الله إليه غمًّا، وعلى كلا التقديرين فيفسد ما ذكرتموه من الشبهة.

بقي البحث عن تفسير الألفاظ فنقول: أهل كل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم و(هم أَحْسَنُ) في محل النصب صفة (لِكَمْ)، ألا ترى أنك لو تركت (هُمْ) لم يكن لك بد من نصب (أحسن) على الوصفية، والأثاث متاع البيت، أما رئيًا فقرئ على خمسة أوجه لأنها إما أن تُقرأ بالراء التي ليس فوقها نقطة، أو بالزاي التي فوقها نقطة: فأما الأول فإما أن يجمع بين الهمزة والياء أو يكتفى بالياء. أما إذا جمع بين الهمزة والياء ففيه وجهان: أحدهما: بهمزة ساكنة بعدها ياء وهو المنظر والهيئة، فِعل بمعنى مفعول من رأيت رئيًا. والثاني: ريئًا على القلب كقولهم راء في رأى، أما إن اكتفينا بالياء فتارة بالياء المشددة على قلب الهمزة ياء والإدغام، أو من الري الذي هو النعمة والترفه، من قولهم: ريان من النعيم. والثاني: بالياء على حذف الهمزة رأسًا، ووجهه أن يخفف المقلوب وهو ريئًا بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الياء الساكنة قبلها، وأما بالزاي المنقطة من فوق زيًا فاشتقاقه من الزي وهو الجمع؛ لأن الزي محاسن مجموعة، والمعنى أحسن من هؤلاء، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

اعلم أن هذا الجواب الثاني عن تلك الشبهة وتقريره: لنفرض أن هذا الضال المتنعم في الدنيا قد مد الله في أجله وأمهله مدة مديدة حتى ينضم إلى النعمة العظيمة المدة الطويلة، فلا بد وأن ينتهي إلى عذاب في الدنيا أو عذاب في الآخرة، بعد ذلك سيعلمون أن نعم الدنيا ما تنقذهم من ذلك العذاب، فقوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مذكور في مقابلة قولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ [مريم: ٧٣] ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ في مقابلة قولهم: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] فبيَّن تعالى أنهم وإن ظنوا في الحال أن منزلتهم أفضل من حيث فضَّلهم الله تعالى بالمقام والنديّ فسيعلمون من بعد أن الأمر بالضد من ذلك وأنهم شر مكانًا، فإنه لا مكان شر من النار والمناقشة في الحساب. ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ فقد كانوا يظنون وهم في الدنيا أن اجتماعهم ينفع، فإذا رأوا أن لا ناصر لهم في الآخرة عرفوا عند ذلك أنهم كانوا في الدنيا مبطلين فيما ادعوه.

بقي البحث عن الألفاظ وهو من وجوه:

أحدها: (مد له الرحمن) أي أمهله وأملى له في العمر فأخرج على لفظ الأمر إيذانًا بوجوب ذلك وأنه مفعول لا محالة، كالمأمور الممتثل ليقطع معاذير الضال، ويقال له يوم القيامة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] وكقولهم: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وثانيها: أن قوله: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يدل على أن المراد بالعذاب عذاب يحصل قبل يوم القيامة لأن قوله: ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ المراد منه يوم القيامة، ثم العذاب الذي يحصل قبل يوم القيامة

يمكن أن يكون هو عذاب القبر، ويمكن أن يكون هو العذاب الذي سيكون عند المعاينة لأنهم عند ذلك يعلمون ما يستحقون، ويمكن أيضًا أن يكون المراد تغير أحوالهم في الدنيا من العز إلى الذل، ومن الغنى إلى الفقر، ومن الصحة إلى المرض، ومن الأمن إلى الخوف، ويمكن أن يكون المراد تسليط المؤمنين عليهم، ويمكن أيضًا أن يكون المراد ما نالهم يوم بدر، وكل هذه الوجوه مذكورة. واعلم أنه تعالى بَيَّن بعد ذلك أنه كما يعامل الكفار بما ذكره فكذلك يزيد المؤمنين المهتدين هدى، واعلم أنا نبين إمكان ذلك بحسب العقل، فنقول: إنه لا يبعد أن يكون بعض أنواع الاهتداء مشروطًا بالبعض، فإن حاصل الاهتداء يرجع إلى العلم، ولا امتناع في كون بعض العلم مشروطًا بالبعض، فمن اهتدى بالهداية التي هي الشرط صار بحيث لا يمتنع أن يعطي الهداية التي هي المشروط، فصح قوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًىۗ﴾ مثاله الإيمان هدى والإخلاص في الإيمان زيادة هدى، ولا يمكن تحصيل الإخلاص إلا بعد تحصيل الإيمان، فمن اهتدى بالإيمان زاده الله الهداية بالإخلاص، هذا إذا أجرينا لفظ الهداية على ظاهره، ومن الناس مَن حمل الزيادة في الهدى على الثواب، أي ويزيد الله الذين اهتدوا ثوابًا على ذلك الاهتداء. ومنهم من فسر هذه الزيادة بالعبادات المترتبة على الإيمان، قال صاحب (الكشاف): (يزيد) معطوف على موضع (فليمدد) لأنه واقع موقع الخبر وتقديره: من كان في الضلالة يمد له الرحمن مدًّا ويزيد، أي يزيد في ضلال الضُّلال بخذلانه بذلك المد، ويزيد المهتدين هداية بتوفيقه.

ثم إنه تعالى بَيَّن أن ما عليه المهتدون هو الذي ينفع في العاقبة فقال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ وذلك لأن ما عليه المهتدون ضرر قليل متناهٍ يعقبه نفع عظيم غير متناهٍ، والذي عليه الضالون نفع قليل متناهٍ يعقبه ضرر عظيم غير متناهٍ، وكل أحد يعلم بالضرورة أن الأول أَوْلى، وبهذا الطريق تسقط الشبهة التي عولوا عليها. واختلفوا في المراد بالباقيات الصالحات فقال المحققون. إنها الإيمان والأعمال الصالحة، سماها باقية لأن نفعها يدوم ولا يبطل. ومنهم من قال: المراد بها بعض العبادات. ولعلهم ذكروا ما هو أعظم ثوابًا فبعضهم ذكر الصلوات وبعضهم ذكر التسبيح، وروي عن أبي الدرداء قال: جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ وَأَخَذَ عُودًا يَابِسًا، فَأَزَالَ الْوَرَقَ عَنْهُ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ قَوْلَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ - يَحُطُّ الْخَطَايَا حَطًّا كَمَا يَحُطُّ وَرَقَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الرِّيحُ، خُذْهُنَّ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ، هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهُنَّ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: لأَعْلَمَنَّ ذَلِكَ وَلأُكْثِرَنَّ مِنْهُ حَتَّى إِذَا رَآنِي جَاهِلٌ حَسِبَ أَنِّي مَجْنُونٌ». والقول الأول أَوْلى لأنه تعالى إنما وصفها بالباقيات الصالحات من حيث يدوم ثوابها ولا ينقطع، فبعض العبادات وإن كان أنقص ثوابًا من البعض فهي مشتركة في الدوام، فهي بأسرها باقية صالحة نظرًا إلى آثارها التي هي الثواب، ثم

إنه تعالى أخبر أنها: ﴿ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ ولا يجوز أن يقال: (هذا خير) إلا والمراد أنه خير من غيره، فالمراد إذن أنها خير مما ظنه الكفار بقولهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل أولاً على صحة البعث، ثم أورد شبهة المنكرين، وأجاب عنها، أورد عنهم الآن ما ذكروه على سبيل الاستهزاء طعنًا في القول بالحشر فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قرأ حمزة والكسائي (وُلْدًا) وهو جمع وَلَد كأُسْد في أَسَد أو بمعنى الوَلَد كالعُرب في العَرب، وعن يحيى بن يعمر (وِلْدًا) بالكسر، وعن الحسن: نزلت الآية في الوليد بن المغيرة والمشهور أنها في العاص بن وائل، قال خباب بن الأرت: كان لي عليه دين فاقتضيته فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد قلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ لا حيًا ولا ميتًا ولا حين تُبعث!! فقال: فإني إذا مت بُعثت؟ قلت: نعم. قال: إني إذا بعثت وجئتني فسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك. وقيل: صاغ خباب له حليًا فاقتضاه فطلب الأجرة فقال: إنكم تزعمون أنكم تبعثون، وأن في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا، فأنا أقضيك ثم، فإني أوتى مالاً وولدًا حينئذٍ!! ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله: ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ قال صاحب (الكشاف): أطلع الغيب من قولهم (أطلع الجبل) أي ارتقى إلى أعلاه ويقال (مر مطلعًا لذلك الأمر) أي غالبًا له مالكًا له، والاختيار في هذه الكلمة أن تقول: أو قد بلغ من عظم شأنه أنه ارتقى إلى علم الغيب الذي توحَّد به الواحد القهار، والمعنى أن الذي ادعى أن يكون حاصلاً له لا يتوصل إليه إلا بأحد هذين الأمرين: إما علم الغيب وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إليه؟ وقيل: في العهد. كلمة الشهادة، عن قتادة: هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بذلك ما يقول؟

ثم إنه سبحانه بَيَّن من حاله ضد ما ادعاه، فقال: ﴿ كَلَّا﴾ وهي كلمة ردع وتنبيه على الخطأ، أي هو مخطئ فيما يقوله ويتمناه. فإن قيل: لمَ قال: ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ بسين التسويف وهو كما قاله كتب من غير تأخير، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؟ قلنا: فيه وجهان: أحدهما: سيظهر له ويعلم أنا كتبنا. الثاني: أن المتوعد يقول للجاني سوف أنتقم منك وإن كان في الحال في الانتقام ويكون غرضه من هذا الكلام محض التهديد، فكذا ههنا. أما قوله تعالى: ﴿ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي نُطول له من العذاب ما يستأهله ونزيده من العذاب ونضاعف له من المدد، ويقال: مده وأمده بمعنى، ويدل عليه قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام (ويُمد له) بالضم، أما قوله ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي يزول عنه ما وعده من مال وولد فلا يعود كما لا يعود الإرث إلى من خلفه، وإذا سلب ذلك في الآخرة يبقى فردًا فلذلك قال: ﴿ وَيَأْتِينَا

فَرْدًا﴾ فلا يصح أن ينفرد في الآخرة بمال وولد: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم في مسألة الحشر والنشر، تكلم الآن في الرد على عباد الأصنام، فحكى عنهم أنهم إنما اتخذوا آلهة لأنفسهم ليكونوا لهم عزًّا، حيث يكونون لهم عند الله شفعاء وأنصارًا، ينقذونهم من الهلاك. ثم أجاب الله تعالى بقوله: ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع لهم وإنكار لتعززهم بالآلهة، وقرأ ابن نهيك: (كُلًّا سيكفرون بعبادتهم) أي كلهم سيكفرون بعبادة هذه الأوثان، وفي (محتسب ابن جني) (كَلًّا) بفتح الكاف والتنوين وزعم أن معناه كُلَّ هذا الاعتقاد والرأي كَلًّا، قال صاحب الكشاف: إن صحت هذه الرواية فهي كلا التي هي للردع قَلَب الواقف عليها ألفها نونًا كما في (قواريرا) واختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ يعود إلى المعبود أو إلى العابد: فمنهم من قال: إنه يعود إلى المعبود. ثم قال بعضهم: أراد بذلك الملائكة لأنهم في الآخرة يكفرون بعبادتهم ويتبرءون منهم ويخاصمونهم، وهو المراد من قوله: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] وقال آخرون: إن الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة حتى يوبخوا عُبادهم ويتبرءوا منهم فيكون ذلك أعظم لحسرتهم. ومن الناس من قال: الضمير يرجع إلى العباد، أي أن هؤلاء المشركين يوم القيامة ينكرون أنهم عبدوا الأصنام، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أما قوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ فذكر ذلك في مقابلة قوله: ﴿لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١] والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أن يكونون عليهم ضدًّا لما قصدوه وأرادوه، كأنه قيل: ويكونون عليهم ذلاًّ لهم لا عزًا، أو يكونون عليهم عونًا والضد: العون، يقال من أضدادكم، أي من أعوانكم، وكأن العون يسمى ضدًّا لأنه يضاد عدوك وينافيه بإعانته لك عليه، فإن قيل: ولِمَ وحد؟ قلنا: وحد توحيد قوله عليه السلام: «وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ»[1] لاتفاق كلمتهم فإنهم كشيء واحد لفرط انتظامهم

(١) أخرجه أبو داود في كتاب (الديات) باب (أيقاد المسلم بالكافر) (٤/ ١٩٤٢) حديث رقم/ ٤٥٣٠ والنسائي في كتاب (القسامة) باب (القود بين الأحرار والمماليك) (٨/ ٣٨٧) حديث رقم/ ٤٧٤٨ وأحمد في (مسنده) (١/ ١٢٢) حديث رقم/ ٩٩٣ جميعًا من طريق يحيى بن سعيد... به.

وتوافقهم، ومعنى كون الآلهة عونًا عليهم أنهم وقود النار وحصب جهنم، ولأنهم عُذبوا بسبب عبادتها.

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال هؤلاء الكفار مع الأصنام في الآخرة، ذكر بعده حالهم مع الشياطين في الدنيا، فإنهم يسألونهم وينقادون لهم فقال: ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج الأصحاب بهذه الآية على أن الله تعالى مريد لجميع الكائنات، فقالوا: قول القائل: (أرسلت فلانًا على فلان) موضوع في اللغة لإفادة أنه سلطه عليه لإرادة أن يستولي عليه. قال عليه السلام: «سمِّ الله وأرسِل كلبك عليه» إذا ثبت هذا فقوله: ﴿أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يفيد أنه تعالى سلطهم عليهم لإرادة أن يستولوا عليهم، وذلك يفيد المقصود، ثم يتأكد هذا بقوله: ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ فإن معناه: إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين لتؤزهم أزًّا ويتأكد بقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾ [الإسراء: ٦٤]قال القاضي: حقيقة اللفظ توجب أنه تعالى أرسل الشياطين إلى الكفار كما أرسل الأنبياء بأن حملهم رسالة يؤدونها إليهم، فلا يجوز في تلك الرسالة إلا ما أرسل عليه الشياطين من الإغواء، فكان يجب في الكفار أن يكونوا بقبولهم من الشياطين مطيعين. وذلك كفر من قائله، ولأن من العجب تعلّق المجبرة بذلك لأن عندهم أن ضلال الكفار من قِبله تعالى بأن خلق فيهم الكفر وقدر الكفر، فلا تأثير لما يكون من الشيطان، وإذا بطل حمل اللفظ في ظاهره، فلا بد من التأويل، فنحمله على أنه تعالى خلى بين الشياطين وبين الكفار وما منعهم من إغوائهم، وهذه التخلية تسمى إرسالاً في سعة اللغة، كما إذا لم يمنع الرجل كلبه من دخول بيت جيرانه يقال: أرسل كلبه عليه وإن لم يرد أذى الناس، وهذه التخلية وإن كان فيها تشديد للمحنة عليهم، فهم متمكنون من أن لا يقبلوا منهم ويكون ثوابهم على ترك القبول أعظم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]هذا تمام كلامه، ونقول: لا نسلم أنه لا يمكن حمله على ظاهره فإن قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ لو أرسلهم الله إلى الكفار لكان الكفار مطيعين له بقبول قول الشياطين، قلنا: الله تعالى ما أرسل الشياطين إلى الكفار بل أرسلها عليهم، والإرسال عليهم هو التسليط لإرادة أن يصير مستوليًا عليه، فأين هذا من الإرسال إليهم؟ قوله: ضلال الكافر من قبل الله تعالى فأي تأثير للشيطان فيه؟ قلنا: لمَ لا يجوز أن يقال: إن إسماع الشيطان إياه تلك الوسوسة يوجب في قلبه ذلك الضلال، بشرط سلامة فهم السامع لأن كلام الشيطان من خلق الله تعالى، فيكون ذلك الضلال الحاصل في قلب الكافر منتسبًا إلى الشيطان وإلى الله تعالى من هذين الوجهين، قوله: لمَ لا يجوز أن يكون المراد بالإرسال التخلية؟ قلنا: كما خلى بين الشيطان والكفرة فقد خلى بينهم وبين الأنبياء، ثم إنه تعالى خص

الكافر بأنه أرسل الشيطان عليه فلا بد من فائدة زائدة هاهنا، ولأن قوله: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تحركهم تحريكًا شديدًا كالغرض من ذلك الإرسال، فوجب أن يكون الأز مرادًا لله تعالى ويحصل المقصود منه، فهذا ما في هذا الموضع، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال ابن عباس: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ أي تزعجهم في المعاصي إزعاجًا. نزلت في المستهزئين بالقرآن وهم خمسة رهط، قال صاحب الكشاف: الأز والهز والاستفزاز أخوات في معنى التهييج وشدة الإزعاج، أي تغريهم على المعاصي وتحثهم وتهيجهم لها بالوساس والتسويلات.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ يقال: (عجلت عليه بكذا) إذا استعجلته به، أي لا تعجل عليهم بأن يهلكوا أو يبيدوا حتى تستريح أنت والمسلمون من شرورهم، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥]عن ابن عباس أنه كان إذا قرأها بكى وقال: آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد دخول قبرك، آخر العدد فراق أهلك!! وعن ابن السماك رحمه الله أنه كان عند المأمون فقرأها فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد!! وذكروا في قوله: ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ وجهين آخرين: الأول: نعد أنفاسهم وأعمالهم فنجازيهم على قليلها وكثيرها. والثاني: نعد الأوقات إلى وقت الأجل المعين لكل أحد الذي لا يتطرق إليه الزيادة والنقصان. ثم بيَّن سبحانه ما سيظهر في ذلك اليوم من الفصل بين المتقين وبين المجرمين في كيفية الحشر فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال صاحب الكشاف: نصب يوم بمضمر أي يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يحيط به الوصف. أو اذكر يوم نحشر. ويجوز أن ينتصب بلا يملكون، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الْمُتَّقِينَ إِذَا خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمُ اسْتُقْبِلُوا بِنُوقٍ بِيضٍ لَهَا أَجْنِحَةٌ عَلَيْهَا رِحَالُ الذَّهَبِ» (١) ثم تلا هذه الآية.

وفيها مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي: هذه الآية أحد ما يدل على أن أهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين؛ لأن المتقين من الابتداء يُحشرون على هذا النوع من الكرامة فهم آمنون من الخوف فكيف يجوز أن تنالهم الأهوال؟

المسألة الثانية: المشبهة احتجوا بالآية وقالوا: قوله: ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يفيد أن انتهاء حركتهم

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه ابن أبي الدنيا في (صفة الجنة) (١/ ٩/ ٦) من طريق الضحاك بن مزاحم يُحدث عن الحارث عن علي... به. وأورده الألباني في (ضعيف الترغيب) (٢/ ٢٤٢) حديث رقم/ ٢١٨١ وقال: ضعيف جدًّا وفي إسناده الحارث الأعور.

يكون عند الرحمن. وأهل التوحيد يقولون: المعنى: يوم نحشر المتقين إلى محل كرامة الرحمن.

المسألة الثالثة: طعن الملحد فيه فقال قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ هذا إنما يستقيم أن لو كان الحاشر غير الرحمن، أما إذا كان الحاشر هو الرحمن فهذا الكلام لا ينتظم. أجاب المسلمون بأن التقدير يوم نحشر المتقين إلى كرامة الرحمن.

أما قوله: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ فقوله: ﴿وَنَسُوقُ﴾ يدل على أنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف، كأنهم نَعَمٌ عطاش تساق إلى الماء، والورد اسم للعطاش؛ لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش. وحقيقة الورود: السير إلى الماء فسمي به الواردون.

أما قوله: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي فليس لهم، والظاهر أن المراد شفاعتهم لغيرهم أو شفاعة غيرهم لهم فلذلك اختلفوا، وقال بعضهم: لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم كما يملك المؤمنون. وقال بعضهم: بل المراد لا يملك غيرهم أن يشفعوا لهم. وهذا الثاني أَوْلى لأن حمل الآية على الأول يجري مجرى إيضاح الواضحات، وإذا ثبت ذلك دلت الآية على حصول الشفاعة لأهل الكبائر لأنه قال عقيبه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ والتقدير أن هؤلاء لا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم، إلا إذا كانوا قد اتخذوا عند الرحمن عهدًا التوحيد والنبوة، فوجب أن يكون داخلاً تحته، ومما يؤكد قولنا: ما روى ابن مسعود أنه عليه السلام قال لأصحابه ذات يوم: «أَيعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَتَّخِذَ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا؟ قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: يَقُولُ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، إِنِّي أَعْهَدُ إِلَيْكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تُقَرِّبْنِي مِنَ الشَّرِّ وَتُبْعِدْنِي مِنَ الْخَيْرِ، وَإِنِّي لاَ أَثِقُ إِلاَّ بِرَحْمَتِكَ، فَاجْعَلْ لِي عَهْدًا تُوَفِّينِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ. فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِطَابَعٍ وَوُضِعَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: أَيْنَ الَّذِينَ لَهُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدٌ؟ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»(١)، فظهر بهذا الحديث أن المراد من العهد كلمة الشهادة، وظهر وجه دلالة الآية على أن الشفاعة لأهل الكبائر. وقال القاضي: الآية دالة على مذهبه، وقد ظهر أن الآية قوية في الدلالة على قولنا، والله أعلم.

---

(١) ذكره الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٢/ ٣٣٩) وقال: قلت غريب مرفوعًا، ولم أجده إلا موقوفًا، رواه الحاكم في مستدركه والطبراني في معجمه وابن أبي شيبة في مصنفه في كتاب الدعاء وأبو نعيم في الحلية، كلهم من حديث المسعودي عن عون بن عبد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبي فاختة عن الأسود بن يزيد عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ فليقم قال: فقلنا: فعلِّمنا يا ابا عبد الرحمن. فقال: قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض... إلى قوله: إنك لاتخلف الميعاد. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما رد على عبده الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولدًا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]وقالت العرب: الملائكة بنات الله. والكل داخلون في هذه الآية، ومنهم من خصها بالعرب الذي أثبتوا أن الملائكة بنات الله، قالوا: لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة، أما الآن فإنه لما رد على العرب الذين قالوا بعبادة الأوثان تكلم في إفساد قول الذين قالوا بعبادة الملائكة لكونهم بنات الله.

أما قوله: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ فقرئ (إدًّا) بالكسر والفتح. قال ابن خالويه الإد والأد. العجب وقيل: المنكر العظيم والأدة الشدة و(أدّني) الأمر وآدني، أثقلني. قرئ (يتفطرن) بالتاء بعد الياء، أعني المعجمة من تحتها واختلفوا في (يكاد) فقرأ بعضهم بالياء المعجمة من تحتها وبعضهم بالتاء من فوق، والانفطار من فطره، إذا شقه والتفطر من فطره، إذا شققه، وكرر الفعل فيه، وقرأ ابن مسعود: (يتصدعن) وقوله: ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تهد هدًّا أو مهدودة أو مفعول له أي لأنها تهد، والمعنى أنها تتساقط أشد ما يكون تساقط البعض على البعض، فإن قيل: من أين يؤثر القول بإثبات الولد لله تعالى في انفطار السماوات وانشقاق الأرض وخرور الجبال؟ قلنا: فيه وجوه: أحدها: أن الله سبحانه وتعالى يقول: أفعل هذا بالسماوات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبًا مني على من تفوه بها لولا حلمي وأني لا أعجل بالعقوبة. كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. وثانيها: أن يكون استعظامًا للكلمة وتهويلاً من فظاعتها وتصويرًا لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده. وثالثها: أن السماوات والأرض والجبال تكاد أن تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول. وهذا تأويل أبي مسلم. ورابعها: أن السماوات والأرض والجبال كانت سليمة من كل العيوب، فلما تكلم بنو آدم بهذا القول ظهرت العيوب.

فيها أما قوله: ﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في إعرابه ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون مجرورًا بدلاً من الهاء في (منه) أو منصوبًا بتقدير سقوط اللام وإفضاء الفعل، أي هذا لأن دعوا. أو مرفوعًا بأنه فاعل ﴿هَدًّا﴾ أي هدها دعاء الولد للرحمن، والحاصل أنه تعالى بيّن أن سبب تلك الأمور العظيمة هذا القول.

المسألة الثانية: إنما كرر لفظ الرحمن مرات تنبيهًا على أنه سبحانه وتعالى هو الرحمن وحده

من قِبل أن أصول النعم وفروعها ليست إلا منه .

المسألة الثالثة : قوله : ﴿دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ هو من (دعا) بمعنى (سمى) المتعدي إلى مفعولين ، فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلبًا للعموم والإحاطة بكل من ادعى له ولدًا ، أو من (دعا) بمعنى (نسب) الذي هو مطاوعة (ما) في قوله ﷺ: «من ادعى إلى غير مواليه» (١) قال الشاعر :

إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لاَ نَدَّعِي لِأَبٍ (٢)

أي لا ننتسب إليه .

ثم قال تعالى : ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي هو محال ، أما الولادة المعروفة فلا مقال في امتناعها ، وأما التبني فلأن الولد لا بد وأن يكون شبيهًا بالوالد ولا مشبه لله تعالى ، ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله من سروره به واستعانته به وذكر جميل ، وكل ذلك لا يليق به . ثم قال : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ والمراد أنه ما من معبود لهم في السماوات والأرض من الملائكة والناس ، إلا وهو يأتي الرحمن أي يأوي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبدًا منقادًا مطيعًا خاشعًا راجيًا كما يفعل العبيد ، ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة ، والأول أَوْلى لأنه لا تخصيص فيه . وقوله : ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا﴾ أي كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته ، فهو سبحانه محيط بهم ، ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لا يفوته شيء من أحوالهم ، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردًا ، ليس معه من هؤلاء المشركين أحد وهم براء منهم .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما رد على أصناف الكفرة ، وبالغ في شرح أحوالهم في الدنيا والآخرة ، ختم

---

(١) **صحيح** : أخرجه الترمذي في كتاب (الوصايا) باب (لا وصية لوارث) (٤/ ٣٧٧) حديث رقم/ ٢١٢١ من طريق أبي عوانة . . . به . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . والنسائي في كتاب (الوصايا) باب (إبطال الوصية للوارث) (٦/ ٥٥٧) حديث رقم/ ٣٦٤٣ من طريق أبي عوانة . . . به . وابن ماجه في كتاب (الوصايا) باب (لا وصية لوارث) (٢/ ٩٠٥) حديث رقم/ ٢٧١٢ من طريق سعيد بن أبي عروبة . . . به . وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٨٦) من طريق سعيد ويزيد هارون . . . به . والدارمي في كتاب (السير) باب (في الذي ينتمي إلى غير مواليه) (٢/ ١١٢) حديث رقم/ ٢٥٢٩

(٢) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر البسيط للشاعر نهشل بن حري ، وهو نهشل بن حري بن ضمرة الدارمي . ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية وعاش في الإسلام ، وكان من خير بيوت بني دارم ، أسلم ولم ير النبي صى الله عليه وسلم ، وصحب عليًا كرم الله وجهه في حروبه ، وكان معه في صفين فقُتل فيها أخ له اسمه مالك فرثاه بمراث كثيرة ، وبقي إلى أيام معاوية .

السورة بذكر أحوال المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ وللمفسرين في قوله: ﴿وُدًّا﴾ قولان:

القول الأول: -وهو قول الجمهور- أنه تعالى سيُحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي يكتسب الناس بها مودات القلوب؛ من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك، وإنما هو اختراع منه تعالى وابتداء تخصيصًا لأوليائه بهذه الكرامة، كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب والهيبة إعظامًا لهم وإجلالاً لمكانهم، والسين في (سيجعل) إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون حينئذٍ ممقوتين بين الكفرة، فوعدهم الله تعالى ذلك إذا جاء الإسلام، وإما أن يكون ذلك يوم القيامة يحببهم إلى خلقه بما يعرض من حسناتهم وينشر من ديوان أعمالهم، عن النبي ﷺ في هذه الآية: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُنَادِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا فَمِثْلُ ذَلِكَ»[(١)] وعن كعب قال: مكتوب في التوراة والإنجيل: لا محبة لأحد في الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله تعالى ينزلها على أهل السماء ثم على أهل الأرض، وتصديق ذلك في القرآن قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ .

القول الثاني: -وهو اختيار أبي مسلم- معنى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي يهب لهم ما يحبون والود والمحبة سواء، يقال: آتيت فلانًا محبته، وجعل لهم ما يحبون، وجعلت له وده، ومن كلامهم: يود لو كان كذا، ووددت أن لو كان كذا، أي أحببت، ومعناه سيعطيهم الرحمن ودهم أي محبوبهم في الجنة.

والقول الأول أولى لأن حمل المحبة على المحبوب مجاز، ولأنا ذكرنا أن الرسول ﷺ قرأ هذه الآية وفسرها بذلك، فكان ذلك أَوْلى، وقال أبو مسلم: بل القول الثاني أَوْلى لوجوه:

أحدها: كيف يصح القول الأول مع علمنا بأن المسلم المتقي يبغضه الكفار، وقد يبغضه كثير من المسلمين؟!

وثانيها: أن مثل هذه المحبة قد تحصل للكفار والفساق أكثر، فكيف يمكن جعله إنعامًا في حق المؤمنين؟!

وثالثها: أن محبتهم في قلوبهم من فعلهم، لا أن الله تعالى فعله، فكان حمل الآية على إعطاء المنافع الأخروية أولى.

والجواب عن الأول أن المراد يجعل لهم الرحمن محبة عند الملائكة والأنبياء، وروي عنه

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٣/ ١١٧٥) حديث رقم/ ٣٠٣٧ من طريق موسى بن عقبة عن نافع عن أبي هريرة. . . به. ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٣٠/ ٢٦٣٧) من طريق سهيل عن أبيه عن أبي هريرة. . . به. كلاهما (نافع، أبو صالح) عن أبي هريرة. . . به.

عليه السلام أنه حكى عن ربه عز وجل أنه قال: «إِذَا ذَكَرَنِي عَبْدِي الْمُؤْمِنُ فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي. وَإِذَا ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ أَطْيَبَ مِنْهُمْ وَأَفْضَلَ»(١).

وهذا هو الجواب عن الكلام الثاني لأن الكافر والفاسق ليس كذلك. والجواب عن الثالث: أنه محمول على فعل الألطاف وخلق داعية إكرامه في قلوبهم.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فهو كلام مستأنف بين به عظيم موقع هذه السورة لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر والرد على فِرق المضلين المبطلين، فبَيَّن تعالى أنه يسر ذلك بلسانه ليبشر به وينذر، ولولا أنه تعالى نقل قصصهم إلى اللغة العربية لما تيسر ذلك على الرسول ﷺ فأما أن القرآن يتضمن تبشير المتقين وإنذار من خرج منهم فبيِّن، لكنه تعالى لما ذكر أنه يبشر به المتقين ذكر في مقابلته من هو في مخالفة التقوى أبلغ، وأبلغهم الألد الذي يتمسك بالباطل ويجادل فيه ويتشدد وهو معنى لدًّا.

ثم إنه تعالى ختم السورة بموعظة بليغة فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ لأنهم إذا تأملوا وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا والانتهاء إلى الموت - خافوا ذلك وخافوا أيضًا سوء العاقبة في الآخرة، فكانوا فيها إلى الحذر من المعاصي أقرب، ثم أكد تعالى في ذلك فقال: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ لأن الرسول عليه السلام إذا لم يحس منهم برؤية أو إدراك أو وجدان: ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وهو الصوت الخفي، ومنه ركز الرمح، إذا غيب طرفه في الأرض، والركاز: المال المدفون - دل ذلك على انقراضهم وفنائهم بالكلية، والأقرب في قوله: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أن المراد به الانقراض بالموت، وإن كان من المفسرين مَن حَمَله على العذاب المعجل في الدنيا، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

تم الجزء الحادي والعشرون، ويليه الجزء الثاني والعشرون، وأوله سورة طه.

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (التوحيد) باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[آل عمران :٢٨] (٦/ ٢٦٩٤) حديث رقم/ ٦٩٧٠ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٦١/ ٢٦٧٥) كلاهما من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة. . . به.

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهي مكيةٌ بإجماع، وهي تسعونَ وثمانِ آياتٍ

ولمَّا كانت وقعةُ بدر، وقتلَ الله فيها صناديدَ الكفار، قال كفارُ قريش: إنَّ ثأركم بأرضِ الحبشة، فأهدُوا إلى النجاشي، وابعثوا إليه رجلين من ذوي رأيكم لعلَّه يعطيكم مَنْ عندَه من قريش، فتقتلونهم بمَن قُتِل منكم ببدر، فبعثَ كفارُ قريش عمرَو بنَ العاص وعبدَ الله بنَ أبي ربيعة، فسمعَ رسولُ الله ﷺ ببعثهما، فبعثَ رسولُ الله ﷺ عمرَو بنَ أمية الضَّمْريَّ، وكتب معه إلى النجاشي، فقَدِمَ على النجاشي، فقرأ كتابَ رسولِ الله ﷺ، ثم دعا جعفرَ بنَ أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمَعهم، ثم أمر جعفرَ أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورةَ مريم «كهيعص»، وقاموا تفيضُ أعينهم من الدَّمع، فهم الذين أنزلَ الله تعالى فيهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. وقرأ إلى قوله: ﴿ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾. ذكره أبو داود[١]. وفي «السيرة»[٢]: فقال النجاشي: هل معك ممَّا جاء به عن اللهِ شيءٌ؟ قال جعفرُ: نعم، فقال له النجاشي: اقرأه عليَّ. قال: فقرأ «كهيعص» فبكى واللهِ النجاشيُّ حتى أخضَل لحيتَه، وبكت أساقفتُهم حتى أخضَلوا لِحَاهم حين سمعوا ما يُتلى عليهم، فقال النجاشي: هذا والذي جاءَ به موسى[٣] لَيخرجُ من مِشكاةٍ واحدة، انطلقا فواللهِ لا أُسلمُهم إليكما أبداً، وذكرَ تمامَ الخبر.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير ص١٣٤ من طريق أبي داود، وليس هو في سنن أبي داود كما يوهم كلام المصنف، وسلف ٨/ ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٦ ، والنقل من الدرر لابن عبد البر ص١٤٠ - ١٤١ .

(٣) في سيرة ابن هشام: جاء به عيسى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ
رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ
أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ
رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ
ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ
وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ
ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟
بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن
لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ
يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ تقدَّم الكلامُ في أوائل السور[١]. وقال ابنُ عباس في «كهيعص»: إنَّ الكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق؛ ذكره ابنُ عُزيز[٢] القُشيري عن ابنِ عباس معناه: كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يدُه فوق أيديهم، عالمٌ بهم، صادقٌ في وعدِه[٣]؛ ذكره الثعلبي عن الكلبي والسُّدِّي، ومجاهد والضحاك. وقال الكلبي أيضاً: الكافُ من كريمٍ وكبيرٍ

(١) ١/ ٢٣٧ وما بعدها.

(٢) في نزهة القلوب ص٥٨، وأخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣.

(٣) الوسيط ٣/ ١٧٥.

وكافٍ، والهاءُ من هادٍ، والياءُ من رحيم، والعينُ من عليم وعظيم، والصادُ من صادق[١]. والمعنى واحد. وعن ابنِ عباس أيضاً: هو اسمٌ من أسماءِ الله تعالى. وعن عليٍّ ﷺ: هو اسمُ اللهِ عزَّ وجلَّ وكان يقول: يا كهيعص، اغفرْ لي[٢]؛ ذكره الغَزنوي. السُّديُّ: هو اسمُ اللهِ الأعظم الذي إذا سُئِل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب. قتادةُ: هو اسمٌ من أسماءِ القرآنِ؛ ذكره عبدُ الرزاقِ، عن مَعْمَرٍ، عنه[٣]. وقيل: هو اسمٌ للسورةِ[٤]، وهو اختيارُ القشيري في أوائلِ الحروف.

وعلى هذا قيل: تمامُ الكلامِ عندَ قوله: «كهعيص» كأنه إعلامٌ باسمِ السورة، كما تقول: كتابُ كذا أو بابُ كذا ثم تَشرعُ في المقصودِ. وقرأ ابنُ جعفر هذه الحروفَ متقطعةً، ووصلَها الباقون، وأمالَ أبو عمروٍ الهاءَ وفتحَ الياء، وابنُ عامر وحمزةُ بالعكس، وأمالهما جميعاً الكسائيُّ وأبو بكر وخلف، وقرأهما بينَ اللفظين أهلُ المدينةِ نافعٌ وغيرُه، وفتحهما الباقون[٥]. وعن خارجةَ أنَّ الحسنَ كان يضمُّ كاف، وحَكَى غيرُه أنه كان يضمُّ ها، وحكى إسماعيل بنُ إسحاق أنه كان يضمُّ يا. قال أبو حاتم: ولا يجوزُ ضمُّ الكافِ والهاءِ والياء؛ قال النَّحاسُ[٦]: قراءةُ أهلِ المدينة من أحسن ما في هذا، والإمالةُ جائزةٌ في هَا ويَا.

وأمَّا قراءةُ الحسن؛ فأشكلت على جماعةٍ حتى قالوا: لا تجوزُ، منهم أبو حاتم، والقولُ فيها ما بيَّنه هارون القارئ، قال: كان الحسنُ يُشِمُّ الرفعَ، فمعنى هذا أنَّه كان يُومئ، كما حكى سيبويهِ، أنَّ من العرب مَن يقول: الصلاةُ والزكاةُ يُومئ إلى الواو،

(١) نسبه البغوي في التفسير ٣/ ١٨٨ لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٥١ - ٤٥٢ ، عن ابن عباس وعلي ﷺ.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣ ، وأخرجه الطبري أيضاً ١٥/ ٤٥٢ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٥٢ - ٣٥٣ ، وزاد المسير ٥/ ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٥) التيسير ص١٤٧-١٤٨ ، والسبعة ص٤٠٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣ - ٤ ، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣١٧ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٣ ، وما قبله منه.

ولهذا كتبها في المصحفِ بالواو[١]. وأظهرَ الدالَ من هجاءِ «ص» نافعٌ وابنُ كثير، وعاصمٌ ويعقوب، وهو اختيارُ أبي عُبيد، وأدغمها الباقون[٢].

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ في رفع «ذكر» ثلاثةُ أقوال: قال الفراء[٣]: هو مرفوعٌ بـ «كهيعص». قال الزَّجاجُ[٤]: هذا محالٌ؛ لأنَّ «كهيعص» ليس هو ممَّا أَنبأنا اللهُ عزَّ وجلَّ به عن زكريا، وقد خَبَّر اللهُ تعالى عنه وعن ما بُشِّر به، وليس «كهيعص» من قصته. وقال الأخفشُ[٥]: التقديرُ: فيما نَقُصُّ[٦] عليكم ذكرُ رحمةِ ربك. والقول الثالث: أنَّ المعنى: هذا الذي يتلُوه عليكم ذكرُ رحمةِ ربك[٧]. وقيل: «ذكرَ رحمة ربك» رُفِع بإضمارِ مبتدإٍ، أي: هذا ذكرُ رحمةِ ربك[٨]. وقرأ الحسنُ: «ذَكَر رحمةَ ربِّكَ» أي: هذا المتلوُّ من القرآنِ ذَكَر رحمةَ ربك. وقُرِئ: «ذَكِّرْ» على الأمرِ[٩]. «ورحمة» تكتب ويُوقف عليها بالهاء، وكذلك كلُّ ما كان مثلَها، لا اختلافَ فيها بين النَّحْويين، واعتلُّوا في ذلك أنَّ هذه الهاءَ لتأنيثِ الأسماءِ فرقاً بينها وبينَ الأفعال[١٠].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤ .

(٢) السبعة ص٤٠٦ ، والتيسير ص١٤٨ ، والنشر ٢/ ١٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٦١ .

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣١٨ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٤ .

(٦) في (م) و(د): يقص، والمثبت من (ظ) و(ف) ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٢٤ .

(٧) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣١٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤.

(٨) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٦١ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٤ .

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ قال الأخفش[(١)]: هو منصوبٌ بـ «رحمة». «زكريا» بدلٌ منه[(٢)]، كما تقول: هذا ذكرُ ضربِ زيدٍ عمراً، فـ «عمراً» منصوبٌ بالضرب، كما أنَّ «عبده» منصوبٌ بالرحمة. وقيل: هو على التقديمِ والتأخير، معناه: ذِكرُ ربِّك عبدَه زكريا برحمة[(٣)]، فـ «عبده» منصوبٌ بالذكر؛ ذكره الزجاج والفراء[(٤)]. وقرأ بعضُهم: «عَبْدُهُ زكرِيا» بالرفع، وهي قراءةُ أبي العالية[(٥)]. وقرأ يحيى بن يعمر: «ذَكَرَ» بالنصب على معنى هذا القرآنُ ذَكَرَ رحمةَ عبده زكريا[(٦)]. وتقدَّمت اللغاتُ والقراءةُ في «زكريا» في «آل عمران»[(٧)].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ مثلُ قولِه: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] وقد تقدّم[(٨)]. والنداءُ: الدعاءُ والرغبةُ، أي: ناجَى ربَّه بذلك في محرابِه. دليلُه قولُه: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩] فبيَّن أنه استجابَ له في صلاتِه، كما نادى في الصلاة. واختُلِف في إخفائِه هذا النداء، فقيل: أَخفاه من قومِه؛ لئلَّا يُلامَ على مسألةِ الولدِ عند كبرِ السن؛ ولأنه أمرٌ دنيوي، فإنْ أُجيب فيه، نالَ بغيتَه، وإنْ لم يُجبْ، لم يعرفْ بذلك أحدٌ. وقيل: مخلصاً فيه لم يَطَّلع عليه إلا اللهُ تعالى. وقيل: لمَّا كانت الأعمالُ الخفية أفضلَ وأبعدَ من الرياء، أخفاه. وقيل: «خَفِيًّا» سِرًّا من قومه في جوفِ الليل[(٩)]، والكلُّ محتملٌ والأوّلُ أظهر. والله أعلم. وقد تقدَّم أنَّ المستحبَّ من الدعاء

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥ .

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٤٥٣ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦١ .

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٣ إلى يحيى بن يعمر.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤ .

(٧) ٥/ ١٠٧ .

(٨) ٩/ ٢٤٤ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٥٤ ، والكشاف ٢/ ٥٠٢ .

الإخفاءُ في سورةِ الأعراف[١]، وهذه الآيةُ نصٌّ في ذلك؛ لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا. وروى إسماعيل قال: حدَّثنا مسددٌ قال: حدَّثنا يحيى بنُ سعيد، عن أسامةَ بن زيد، عن محمد بنِ عبد الرحمن وهو ابنُ أبي كبشة، عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ خيرَ الذكر الخفيُّ، وخيرَ الرزقِ ما يكفي»[٢] وهذا عامٌّ. قال يونسُ بنُ عبيد: كان الحسنُ يرى أن يدعوَ الإمامُ في القنوتِ، ويُؤَمِّنَ مَن خلفَه من غيرِ رفعِ صوتٍ، وتلا يونسُ: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا». قال ابنُ العربي[٣]: وقد أسرَّ مالكٌ القنوتَ وجهرَ به الشافعي، والجهرُ به أفضلُ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو به جهراً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ **فيه مسألتان**[٤]:

الأولى: قولُه تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ» قرئ «وَهَنَ» بالحركاتِ الثلاث، أي: ضَعُف. يقال: وَهَن يَهِن وَهْناً، إذا ضَعُف فهو واهنٌ[٥]. وقال أبو زيد: يقال: وَهَن يَهِن ووَهِن يَوْهَن. وإنَّما ذكرَ العظمَ؛ لأنَّه عمودُ البدن، وبه قوامُه، وهو أَصلُ بنائه، فإذا وَهنَ تداعى وتساقَط سائرُ قوته؛ ولأنه أشدُّ ما فيه وأَصلبُه، فإذا وهنَ كان ما وراءَه أَوهنَ منه، ووَحَّده؛ لأنَّ الواحدَ هو الدالُّ على معنى الجنسية، وقصده إلى أنَّ هذا الجنسَ الذي هو العمودُ والقوام، وأشدُّ ما تركَّب منه الجسدُ قد أصابه الوهنُ، ولو جَمَع لكان قَصَد إلى معنًى آخر، وهو أنَّه لم يهنْ منه بعضُ عظامِه ولكن كلُّها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أدغمَ السينَ في الشين أبو عمرو[٦]. وهذا من أحسنِ الاستعارة في كلامِ العرب. والاشتعالُ: انتشارُ شعاعِ النار، شبَّه به

---

(١) ٩/ ٢٤٤ .

(٢) سلف ٩/ ٢٤٤ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٣٨ .

(٤) كذا في النسخ، وقد ذكر المصنف ثلاث مسائل لا ثنتين.

(٥) تهذيب اللغة ٦/ ٤٤٤ ، ومقاييس اللغة ٦/ ١٤٩ (وهن).

(٦) الكشاف ٢/ ٥٠٢ ، وما قبله منه.

انتشارَ الشيبِ في الرأس[١]، يقول: شِختُ وضَعُفْت، وأضافَ الاشتعالَ إلى مكان الشعر ومَنْبِته وهو الرأسُ، ولم يُضِف الرأسَ اكتفاءً بعلمِ المخاطبِ أنّه رأسُ زكريا عليه السلام[٢]. «وشيباً» في نصبه وجهان: أحدهما: أنه مصدرٌ؛ لأنَّ معنى اشتعل شاب؛ وهذا قولُ الأخفش[٣]. وقال الزجاج[٤]: وهو منصوبٌ على التمييز. النحاسُ[٥]: قولُ الأخفشِ أولى؛ لأنَّه مشتقٌّ من فعلٍ، فالمصدرُ أولى به. والشيبُ مخالطةُ الشعرِ الأبيضِ الأسودَ.

الثالثة: قال العلماءُ: يُستحبُّ للمرء أن يذكُرَ في دعائه نِعمَ الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع؛ لأنَّ قولَه تعالى: «وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي» إظهارٌ للخضوع، وقولَه: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا» إظهارٌ لعاداتِ تَفضُّلِه في إجابتِه أدعيتَه[٦]، أي: لم أكن بدعائي إياك شقيًّا، أي: لم تكنْ تُخيِّب دعائي إذا دَعوتُك، أي: إنك عوَّدتني الإجابةَ فيما مضى[٧]. يقال: شَقي بكذا، أي: تعبَ فيه ولم يُحَصِّل مقصودَه. وعن بعضِهم أنَّ محتاجاً سأله وقال: أنا الذي أَحسنتَ إليه في وقت كذا، فقال: مرحباً بمن تَوسَّل بنا إلينا، وقضى حاجَته[٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ **فيه سبعُ مسائل**:

الأولى: قولُه تعالى: «وإني خِفْتُ المواليَ» قرأ عثمانُ بن عفان، ومحمدُ بن

---

(١) الوسيط ٣/ ١٧٥ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٥٥ .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٢ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٤ .

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣١٩ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٥ .

(٦) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٦٩ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٨٨ .

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٩ ، والكشاف ٢/ ٥٠٢ .

علي، وعلي بنُ الحسين رضي الله تعالى عنهم، ويحيى بن يعمر: «خَفَّتِ» بفتح الخاءِ وتشديدِ الفاء وكسرِ التاء وسكونِ الياء من «الموالي» لأنه في موضعِ رفعٍ بـ «خَفَّت» ومعناه: انقطعت بالموتِ[١]. وقرأ الباقون: «خِفْتُ» بكسرِ الخاء وسكونِ الفاء وضمِّ التاء ونصبِ الياء من «الْمَوَالِيَ»؛ لأنه في موضعِ نصبٍ بـ «خفت». و«الموالي» هنا الأقاربُ وبنو العم والعصبةُ الذين يلونَه في النسبِ[٢]، والعربُ تُسمي بني العم الموالِيَ؛ قال الشاعر:

مَهْلاً بَني عمِّنَا مَهْلاً مَوَالِينَا لا تَنْبُشُوا بَيْنَنَا ما كان مَدْفُونا[٣]

قال ابنُ عباس ومجاهدٌ وقتادة: خاف أن يَرثوا مالَه، وأن تَرِثه الكلالةُ، فأشفقَ أن يرثه غيرُ الولد[٤]. وقالت طائفة: إنَّما كان مواليه مُهمِلين للدين، فخافَ بموتِه أن يضيع الدين، فطلبَ وليًّا يقوم بالدين بعده؛ حكى هذا القولَ الزجاج[٥]، وعليه: فلم يَسَلْ مَن يرثُ ماله؛ لأن الأنبياءَ لا تُورَث. وهذا هو الصحيحُ من القولين في تأويل الآية[٦]، وأنه عليه الصلاةُ والسلام أرادَ وِراثةَ العلم والنبوةِ لا وراثةَ المال؛ لِمَا ثبتَ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّا معشرَ الأنبياء لا نُورَث ما تركنا صدقةٌ»[٧] وفي «كتاب» أبي داود: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياءَ لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، ورَّثُوا العلم»[٨]. وسيأتي في هذا مزيدُ بيانٍ عند قوله: «يرثني».

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٢ دون ذكر يحيى بن يعمر، وذكر الطبري ١٥/ ٤٥٧ عثمانَ فقط، وذكر قراءة ابن يعمر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥ .

(٢) زاد المسير ٥/ ٢٠٧ .

(٣) البيت للأخضر اللهبي، وهو الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب، والبيت في الكامل للمبرد ٣/ ١٤١٠ ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٤١ ، ومعجم الشعراء للمرزباني ص١٧٨ .

(٤) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٤٥٥ - ٤٥٧ .

(٥) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٠ ، وقول الزجاج وما قبله في المحرر الوجيز ٤/ ٤-٥ .

(٦) زاد المسير ٥/ ٢٠٩ .

(٧) أخرجه البخاري (٦٧٢٥) و(٦٧٢٦) و(٦٧٢٧)، ومسلم (١٧٥٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها، دون قوله: إنا معشر الأنبياء.

(٨) سنن أبي داود (٣٦٤١)، وهو عند الترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء ﷺ.

الثانية: هذا الحديثُ يدخلُ في التفسير المسند لقولِه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦] وعبارةٌ عن قولِ زكريا: «فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» وتخصيصٌ للعمومِ في ذلك، وأنَّ سليمان لم يرثْ من داود مالاً خلَّفه داودُ بعده، وإنَّما ورثَ منه الحكمةَ والعلم، وكذلك ورثَ يحيى من آلِ يعقوب، هكذا قال أهلُ العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض، وإلَّا ما رُوي عن الحسنِ أنه قال: «يرثني» مالاً، «ويرث من آل يعقوب» النبوَّة والحكمة[١]. وكلُّ قولٍ يخالفُ قولَ النبي ﷺ فهو مدفوعٌ مهجور؛ قاله أبو عمر[٢]. قال ابن عطية: و الأكثر من المفسرين على أنَّ زكريا إنَّما أرادَ وِراثةَ المال، ويحتملُ قولُ النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نُورَث» ألَّا يريدَ به العموم، بل على أنه غالبُ أمرِهم، فتأملْه، والأظهرُ الأليقُ بزكريا عليه السلام أن يريدَ وراثةَ العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارةً، ألا ترى أنَّه لما طلب وليًّا ولم يُخصِّص ولداً بلَّغه الله تعالى أملَه على أكملِ الوجوه. وقال أبو صالح وغيرُه: قوله «من آل يعقوب» يريدُ العلم والنبوة[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ قرأ ابنُ كثير بالمدِّ والهمزِ وفتح الياء[٤]، وعنه أنَّه قرأ أيضاً مقصوراً مفتوح الياء مثل: عصايَ. الباقون بالهمزِ والمدِّ وسكون الياء[٥]. والقُراءُ على قراءةِ «خِفْتُ» مثل: نِمت إلَّا ما ذَكرنا عن عثمان[٦]، وهي قراءةٌ شاذة بعيدة جدًّا، حتى زعمَ بعض العلماءِ أنها لا تجوز. قال: كيف يقول: خَفَّتِ الموالي مِن بعدي، أي: من بعدِ موتي وهو حيٌّ؟!. النحاس[٧]: والتأويلُ لها ألَّا يعني بقوله:

(١) أخرجه الطبري ١٥/٤٥٩ بلفظ: نبوته وعلمه.
(٢) في التمهيد ٨/ ١٧٥ .
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥ .
(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٨٨ .
(٥) السبعة ص٤٠٧ ، والكشاف ٢/ ٥٠٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٥ .
(٦) في المسألة الأولى من هذه الآية.
(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٥ ، وما قبله منه.

«من ورائي» أي: من بعد موتي، ولكن من ورائي في ذلك الوقت، وهذا أيضاً بعيدٌ يحتاج إلى دليلٍ أنَّهم خَفُّوا في ذلك الوقت وقلُّوا، وقد أخبرَ الله تعالى بما يدلُّ على الكثرةِ حين قالوا: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. ابن عطية[(١)]: «من ورائي» من بعدي في الزمن، فهو الوراءُ على ما تقدَّم في «الكهف»[(٢)].

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ امرأتُه هي إشياع بنت فاقود[(٣)] بن قبيل، وهي أختُ حَنَّةَ بنتِ فاقود؛ قاله الطبريُّ[(٤)]، وحَنةُ هي أمُّ[(٥)] مريم حسبَ ما تقدَّم في «آل عمران» بيانُه[(٦)]. وقال القتبي: امرأةُ زكريا هي إشياع بنتُ عمران، فعلى هذا القولِ يكونُ يحيى ابنَ خالةِ عيسى عليهما السلام على الحقيقةِ، وعلى القولِ الآخر يكون ابنَ خالة أمِّه، وفي حديثِ الإسراء: قال عليه الصَّلاة والسلام: «فلقيتُ ابنَي الخالةِ يحيى وعيسى»[(٧)] شاهداً للقولِ الأوّل[(٨)]. والله أعلم[(٩)]. والعاقرُ التي لا تلدُ لكبرِ سنِّها، وقد مضى بيانُه في «آل عمران»[(١٠)]. والعاقرُ من النساءِ أيضاً التي لا تلدُ من غيرِ كبر[(١١)]. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠]. وكذلك العاقرُ من الرجالِ، ومنه قولُ عامر بن الطفيل:

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٥ .

(٢) ص٣٤٩ من هذا الجزء.

(٣) في (م): إيشاع بنت فاقوذا، والمثبت من النسخ الخطية ومن التعريف والإعلام ص١١٠ ، وفي (ف): كافودا بدل فاقوذ.

(٤) في التاريخ ١/ ٥٨٥ ، ونقل المصنف عنه بواسطة التعريف والإعلام ص١١٠ .

(٥) في (د) و(ظ): أخت.

(٦) ٥/ ٩٩ .

(٧) أخرجه أحمد (١٧٨٣٥)، والبخاري (٣٤٣٠)، ومسلم (١٦٢)، من حديث مالك بن صعصعة ﷺ.

(٨) أي: قول القتبي.

(٩) التعريف والإعلام ص١١٠ .

(١٠) ٥/ ١٢١ .

(١١) المحرر الوجيز ٤/ ٥ .

لبئسَ الفتى إنْ كنتُ أعورَ عاقراً جباناً فما عُذْرِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ[(١)]

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ سؤالٌ ودعاء، ولم يُصرِّح بولد؛ لِما عَلِم من حالِه وبُعدِه عنه بسببِ المرأة. قال قتادة: جرى له هذا الأمرُ وهو ابنُ بضعٍ وسبعين سنة. مقاتل: خمس وتسعين سنة، وهو أشبه؛ فقد كان غَلب على ظنِّه أنه لا يولد له لكبرِه[(٢)]؛ ولذلك قال: «وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبرِ عِتِيًّا». وقالت طائفة: بل طَلبَ الولدَ، ثم طلبَ أن تكون الإجابةُ في أن يعيشَ حتى يرثه، تَحفُّظاً من أن تقعَ الإجابةُ في الولدِ ولكن يُخْتَرمُ، ولا يَتحصَّل منهُ الغرضُ[(٣)].

السادسة: قال العلماء: دعاءُ زكريا عليه السلام في الولد إنَّما كان لإظهارِ دينه، وإحياءِ نبوَّته، ومضاعفة لأجره لا للدنيا، وكان ربه قد عَوَّده الإجابة، ولذلك قال: «ولَمْ أكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا»، أي: بدعائي إياك، وهذه وسيلةٌ حسنة أن يَتشفَّع إليه بنعَمِه، يَستدِرُّ فضلَه بفضله، يُروى أنَّ حاتمَ الجودِ لَقِيَهُ رجل فسأله، فقال له حاتم: مَن أنت؟ قال: أنا الذي أحسنتَ إليه عامَ أول، فقال: مرحباً بمَن تَشفَّع إلينا بنا[(٤)].

فإن قيل: كيف أَقدمَ زكريا على مسألةِ ما يَخرِقُ العادةَ دون إذن؟ فالجواب أنَّ ذلك جائزٌ في زمانِ الأنبياء، وفي القرآنِ ما يكشفُ عن هذا المعنى؛ فإنه تعالى قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فلمَّا رأى خارقَ العادة، استحكم طمعُه في إجابةِ دعوتِه، فقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ

---

(١) الديوان ص٩٩.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥ - ٦، دون ذكر مقاتل، وذكر غير ذلك الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣١٩، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٠٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٣٩، وقد ذكر هذه الحادثة في المسألة الثالثة عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ الآية[١] [آل عمران: ٣٨].

السابعة: إن قال قائلٌ: هذه الآيةُ تدل على جوازِ الدعاء بالولد، والله سبحانه وتعالى قد حذَّرنا من آفاتِ الأموال والأولاد، ونبَّه على المفاسد الناشئةِ من ذلك، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. فالجوابُ أنَّ الدعاءَ بالولد معلومٌ من الكتاب والسنة حسبَ ما تقدَّم في «آل عمران» بيانُه[٢].

ثم إنَّ زكريا عليه السلام تحرَّز فقال: «ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً» وقال: «وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا»، والولدُ إذا كان بهذه الصفةِ نفعَ أبويه في الدنيا والآخرة، وخَرَج من حدِّ العداوةِ والفتنة إلى حدِّ المسرةِ والنعمة. وقد دعا النبيُّ ﷺ لأنسٍ خادمِه فقال: «اللهمَّ أكثِرْ مالَه وولدَه، وبارِكْ له فيما أعطيته»[٣] فدعا له بالبركةِ تحرزاً ممَّا يؤدِّي إليه الإكثارُ من الهلكة. وهكذا فليتضرعِ العبدُ إلى مولاه في هدايةِ ولدِه، ونجاته في أُولاه وأُخراه اقتداءً بالأنبياء عليهم الصلاةُ والسلام والفضلاءِ؛ وقد تقدَّم في «آل عمران» بيانُه[٤].

قولُه تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ **فيه أربعُ مسائل**:

الأولى: قولُه تعالى: «يَرِثُنِي» قرأ أهلُ الحرمين والحسنُ، وعاصم وحمزة: «يَرِثُنِي ويَرِثُ» بالرفع فيهما. وقرأ يحيى بنُ يعمر وأبو عمرو ويحيى بنُ وثَّاب والأعمش والكسائيُّ بالجزمِ فيهما[٥]، وليس هما جوابَ «هب» على مذهب سيبويه، إنَّما تقديرُه: إن تَهبْه يَرِثْني ويرث، والأوَّل أصوبُ في المعنى؛ لأنه طلبَ وارثاً موصوفاً[٦]، أي: هبْ لي من لدنك الوليَّ الذي هذه حالُه وصفتُه؛ لأنَّ الأولياء منهم

---

(١) أحكام القرآن للهراسي ٤/ ٢٧٠.

(٢) ٥/ ١١٠.

(٣) سلف ٥/ ١١١ و ١١٢.

(٤) ٥/ ١١١ - ١١٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦. وقراءة أبي عمرو والكسائي في السبعة ص٤٠٧، والتيسير ص١٤٨.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥.

مَن لا يرث، فقال: هبْ لي الذي يكون وارثي؛ قاله أبو عبيد، وردَّ قراءةَ الجزم، قال: لأنَّ معناه: إن وهبتَ وَرِث، وكيف يخبرُ اللهَ عزَّ وجلَّ بهذا وهو أعلمُ به منه؟! النحاس(١): وهذه حجةٌ مستفيضة(٢)؛ لأنَّ جوابَ الأمرِ عند النحويين فيه معنى الشرطِ والمجازاة؛ تقول: أطعِ الله يُدخلْك الجنة، أي: إن تُطعْه يُدخلْك الجنة.

الثانية: قال النحاس(٣): فأمَّا معنى «يرثني ويرث من آل يعقوب» فللعلماءِ فيه ثلاثةُ أجوبة: قيل: هي وراثةُ نبوَّة. وقيل: هي وراثةُ حكمة. وقيل: هي وراثةُ مال.

فأمَّا قولُهم: وراثةُ نبوَّةٍ فمُحَال؛ لأنَّ النبوَّة لا تُورَث، ولو كانت تورثُ لقالَ قائل: الناسُ ينتسبون إلى نوحٍ عليه السلام وهو نبيٌّ مرسل.

ووراثةُ العلمِ والحكمة مذهبٌ حسن، وفي الحديثِ: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء».

وأمَّا وِراثةُ المالِ فلا يمتنع، وإن كان قومٌ قد أنكروه؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «لا نُورَث ما تركنا صدقة»(٤) فهذا لا حجةَ فيه؛ لأنَّ الواحدَ يُخبر عن نفسه بأخبار الجمع، وقد يُؤوَّل هذا بمعنى: لا نُورَث، الذي تركنا صدقة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لم يُخلِّف شيئاً يُورَث عنه، وإنَّما كان الذي أباحه الله عزَّ وجلَّ إياه في حياتِه بقوله تبارك اسمه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١] لأنَّ معنى (لله) لسبيلِ الله، ومِن سبيل الله ما يكونُ في مصلحةِ الرسولِ ﷺ ما دام حيًّا.

فإن قيل: ففي بعضِ الراويات «إنَّا معاشرَ الأنبياءَ لا نُورَث ما تركنا صدقة» ففيه التأويلان(٥) جميعاً، أن يكون «ما» بمعنى الذي. والآخر لا يُورَث مَن كانت هذه حاله(٦).

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٦ - ٧.

(٢) في (م): متقصاة، وفي إعراب النحاس: مقتصاة، والمثبت من النسخ الخطية.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٦ - ٧.

(٤) سلف هذا الحديث والذي قبله في المسألة الأولى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): التأويلات، وسقطت من (ف).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦ - ٧.

وقال أبو عمر[١]: واختلفَ العلماءُ في تأويلِ قولِه عليه الصلاة والسلام: «لا نُورَث ما تركنا صدقة» على قولين: أحدهما ـ وهو الأكثرُ وعليه الجمهورُ ـ أنَّ النبي ﷺ لا يُورَث وما تركَ صدقةٌ. والآخر: أنَّ نبيَّنا عليه الصلاة والسلام لم يُورَث؛ لأنَّ الله تعالى خصَّه بأن جعلَ ماله كلَّه صدقةً زيادةً في فضيلته، كما خُصَّ في النكاح بأشياءَ أباحها له وحرَّمها على غيره، وهذا القولُ قالَه بعضُ أهل البصرةِ منهم ابنُ عُلَية، وسائرُ علماءِ المسلمين على القولِ الأوَّل.

الثالثة: قولُه تعالى: «مِنْ آلِ يَعْقُوب» قيل: هو يعقوبُ إسرائيل، وكان زكريا متزوجاً بأخت مريم بنتِ عمران، ويرجع نسبُها إلى يعقوب؛ لأنها من ولدِ سليمان بن داود وهو من ولدِ يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولدِ هارون أخي موسى، وهارون وموسى من ولدِ لاوي بن يعقوب، وكانت النبوَّة في سبطِ يعقوب بن إسحاق. وقيل: المعنيُّ بيعقوب هاهنا يعقوبُ بنُ ماثان أخو عمران بن ماثان أبي مريم، أخوانِ من نسل سليمان بنِ داود عليهما السلام؛ لأنَّ يعقوب وعمران ابنا ماثان، وبنو ماثان رؤساء بني إسرائيل؛ قاله مقاتلٌ وغيره. وقال الكلبي: وكان آلُ يعقوب أخوالَه، وهو يعقوبُ بن ماثان، وكان فيهم الملك، وكان زكريا من ولد هارون بن عمران أخي موسى. وروى قتادةُ أنَّ النبي ﷺ قال: «يرحمُ الله تعالى زكريا ما كان عليه من ورثتِه»[٢]. ولم يَنصرف يعقوبُ؛ لأنَّه أعجمي[٣].

الرابعة: قولُه تعالى: «واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» أي: مرضيًّا في أخلاقِه وأفعالِه. وقيل: راضياً بقضائك وقدرك. وقيل: رجلاً صالحاً ترضَى عنه. وقال أبو صالح: نبيًّا كما جعلتَ أباه نبيًّا[٤].

---

(١) في التمهيد ٨/ ١٦٠ - ١٦١ ، والاستذكار ٢٧/ ٣٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٥٦ ، والكشاف ٢/ ٥٠٣ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١٨٤ - ١٨٥ . والحديث أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣ ، ومن طريقه الطبري ١٥/ ٤٦٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٥٦ ، دون قوله: رجلاً صالحاً ترضى عنه، ولم ينسب القول الأخير لأبي صالح.

قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ في الكلام حذفٌ، أي: فاستجابَ الله دعاءَه فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾[١] فتضمَّنت هذه البشرى ثلاثةَ أشياءَ: أحدُها: إجابةُ دعائِه وهي كرامة. الثاني: إعطاؤه الولدَ وهو قوةٌ. الثالث: أن يُفرَد بتسميتِه، وقد تقدَّم معنى تسميتِه في «آل عمران»[٢]. وقال مقاتل: سمَّاه يحيى؛ لأنَّه حَييَ بين أبٍ شيخٍ وأمٍّ عجوز[٣]، وهذا فيه نظرٌ؛ لِمَا تقدَّم من أنَّ امرأته كانت عقيماً لا تلد. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ أي: لم نسمِّ أحداً قبل يحيى بهذا الاسم؛ قاله ابنُ عباس وقتادة، وابنُ أسلم والسُّدِّي[٤]. ومَنَّ عليه تعالى بأنْ لم يَكِل تَسميتَه إلى الأبوين[٥]. وقال مجاهدٌ وغيره: «سَمِيًّا» معناه: مِثلاً ونظيراً[٦]، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] معناه: مثلاً ونظيراً كأنَّه من المساماةِ والسُّموِّ، وهذا فيه بعدٌ؛ لأنه لا يُفضَّل على إبراهيم وموسى، اللهمَّ إلَّا أن يُفضَّل في خاصٍّ كالسُّؤدد والحصر[٧] حسبَ ما تقدَّم بيانُه في «آل عمران»[٨]. وقال ابنُ عباسٍ أيضاً: معناه: لم تلدِ العواقرُ مثلَه ولداً[٩]. وقيل: إنَّ الله تعالى اشترطَ القَبْلَ؛ لأنَّه أرادَ أن يخلقَ بعدَه أفضلَ منه وهو محمدٌ ﷺ.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ وشاهدٌ على أنَّ الأسامي السُّنُعَ[١٠] جديرةٌ بالأثرةِ، وإيَّاها

---

(١) البغوي ٣/ ١٨٩.

(٢) ٥/ ١١٥.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٥٦.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٦٢ - ٤٦٣ عن قتادة وابن أسلم والسدي، وقول ابن عباس ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢١٠.

(٥) الوسيط ٣/ ١٧٦.

(٦) تفسير مجاهد ١/ ٣٨٤، وتفسير الطبري ١٥/ ٤٦٢.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٦.

(٨) ٥/ ١١٦ وما بعدها.

(٩) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٦١ - ٤٦٢.

(١٠) والسَّنَعُ: الجَمال. القاموس (سنع).

كانت العربُ تنتحي في التسميةِ؛ لكونها أَنبهَ وأنزَه عن النَّبزِ حتى قال قائل:

سُنُعُ الأسَامِي مُسْبِلي أُزُرٍ حُمْرٍ تَمَسُّ الأرضَ بالهُدبِ

وقال رؤبةُ للنَّسابة البكريِّ وقد سأله عن نَسبه: أنا ابنُ العَجَّاج، فقال: قَصَّرتَ وعَرَّفتَ[١].

قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ ليس على معنى الإنكارِ لِمَا أخبرَ الله تعالى به، بل على سبيلِ التعجب من قدرةِ الله تعالى أن يخرج ولداً من امرأةٍ عاقر وشيخٍ كبير[٢]. وقيل غيرُ هذا ممَّا تقدَّم في «آل عمران» بيانُه[٣]. ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ يعني: النهاية في الكبرِ واليبسِ والجفاف، ومثلُه العسِي، قال الأصمعي: عَسَا الشيءُ يَعسُو عُسُوًّا وعَسَاء ممدودٌ، أي: يَبِس وصَلُب، وقد عسا الشيخُ يعسو عُسِيًّا: وَلَّى وكَبِر مثل عَتَا، يقال: عَتَا الشيخُ يَعتو عُتيًّا وعِتيًّا كبر وولَّى، وعتوتَ يا فلانُ تعتو عُتوًّا وعتيًّا[٤]. والأصلُ عُتوٌّ؛ لأنه من ذواتِ الواو، فأَبدلوا من الواو ياء؛ لأنَّها أختُها وهي أخفُّ منها، والآياتُ على الياءات، ومَن قال: «عِتِيًّا» كره الضمةَ مع الكسرةِ والياء[٥]، وقال الشاعر:

إنَّما يُعذَرُ الوليدُ ولا يُعـ ذَرُ مَن كان في الزمان عِتِيًّا[٦]

وقرأ ابنُ عباس: «عُسِيًّا» وهو كذلك في مصحفِ أُبيٍّ[٧]. وقرأ يحيى بنُ وثَّاب وحمزةُ، والكسائي وحفص: «عِتِيًّا» بكسر العينِ وكذلك «جِثيًّا» و«صِلِيًّا» حيثُ كنَّ،

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٣، والبيت لأبي نواس وهو في ديوانه ص٧٧، وفيه: شنع.

(٢) الكلام بنحوه عند السمرقندي ٢/ ٣١٩، والرازي ٢١/ ١٨٧ - ١٨٨.

(٣) ٥/ ١٢٠ وما بعدها.

(٤) الصحاح (عتو) و(عسو).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨.

(٦) البيت لإبراهيم بن هرمة في ديوانه ص٢٢٦، وفيه: «عاش في الزمان» بدل «كان في الزمان».

(٧) النكت والعيون ٣/ ٣٥٧ - ٣٥٨، ومعاني الفراء ٢/ ١٦٢.

وضَمَّ حفصٌ «بُكِيًّا» خاصةً، وكذلك الباقون في الجميع، وهما لغتان[١]. وقيل: «عِتيًّا» قَسِيًّا؛ يقالُ: مَلِكٌ عاتٍ إذا كان قاسيَ القلبِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: قال له الملَكُ: «كذلك قال ربك» والكافُ في موضعِ رفعٍ، أي: الأمرُ كذلك[٢]، أي: كما قيل لك: «هو عليَّ هين». قال الفراءُ[٣]: خَلْقُه عليَّ هيِّنٌ. ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل يحيى[٤]، وهذه قراءةُ أهلِ المدينة والبصرةِ وعاصم، وقرأ سائرُ الكوفيين: «وَقَدْ خَلَقْنَاكَ» بنونٍ وألف بالجمع على التعظيم[٥]. والقراءةُ الأولى أشبهُ بالشَّواذ[٦]، ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: كما خلقَك الله تعالى بعدَ العدم ولم تكُ شيئاً موجوداً، فهو القادرُ على خلقِ يحيى وإيجادِه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ طلبَ آيةً على حَملِها بعد بشارة الملائكةِ إياه[٧]، وبعدَ قولِه تعالى: «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً» زيادةَ طمأنينةٍ، أي: تَمم النعمةَ بأن تجعلَ لي آية، وتكونَ تلك الآيةُ زيادةَ نعمةٍ وكرامة. وقيل: طلب آيةً تدلُّه على أنَّ البشرى منه بيحيى لا من الشيطان؛ لأنَّ إبليسَ أوهمه ذلك. قاله الضحاك[٨] وهو معنى قول السُّدي، وهذا فيه نظرٌ؛ لإخبارِ الله تعالى بأن الملائكة

(١) التيسير ص١٤٨ ، والسبعة ص٤٠٧ ، والكشاف ٢/ ٥٠٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٦ ، والبغوي ٣/ ١٨٩ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٢١ ، والكشاف ٢/ ٥٠٣ ، وتفسير الرازي ٢١/ ١٨٨ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٦٢ .

(٤) البغوي ٣/ ١٨٩ .

(٥) التيسير ص١٤٨ ، والسبعة ص٤٠٨ ، والكشاف ٢/ ٥٠٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٦ ، وزاد المسير ٥/ ٢١٢ .

(٦) في (م): بالسَّواد.

(٧) قال الرازي في التفسير ٢١/ ١٨٩ : وهذا بعيد؛ لأنَّ بقول الله تعالى قد تحققت البشارة فلا يكون إظهار الآية أقوى في ذلك من صريح القول.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٣٥٨ .

نادته حسبَ ما تقدَّم في «آل عمران»[١]. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ تقدَّم في «آل عمران» بيانُه[٢] فلا معنى للإعادة.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ **فيه خمسُ مسائل:**

الأولى: قولُه تعالى: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ» أي: أشرفَ عليهم من المصلى، والمحرابُ أرفعُ المواضع، وأشرفُ المجالس، وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض؛ دليلُه محرابُ داودَ عليه السلام على ما يأتي.

واختلف الناسُ في اشتقاقِه، فقال فرقةٌ: هو مأخوذٌ من الحَرْب كأنَّ ملازِمَه يُحارب الشيطانَ والشهوات. وقالت فرقة: هو مأخوذٌ من الحَرَب بفتحِ الراء كأنَّ ملازمَه يلقى منه حرباً وتعباً ونصباً[٣].

الثانية: هذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ ارتفاعَ إمامِهم على المأمومين كان مشروعاً عندهم في صلاتهم، وقد اختلفَ في هذه المسألة فقهاءُ الأمصار، فأجازَ ذلك الإمامُ أحمد وغيره متمسكاً بقصةِ المنبر، ومنع مالكٌ ذلك في الارتفاعِ الكثير دون اليسير، وعَلَّل أصحابُه المنعَ بخوف الكِبْر على الإمامِ[٤].

قلت: وهذا فيه نظر، وأحسنُ ما فيه ما رواه أبو داود[٥]، عن همام، أنَّ حذيفة أَمَّ الناس بالمدائنِ على دكانٍ، فأخذَ أبو مسعود بقميصِه فَجبذَه، فلما فرغَ من صلاتِه

---

(١) ٥/ ١١٢.

(٢) ٥/ ١٢٣ وما بعدها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٧.

(٤) المفهم ٢/ ١٥٣ - ١٥٤، والمراد بقصة المنبر ما أخرجه أحمد (٢٢٨٧١)، والبخاري (٤٤٨) و(٢٠٩٤)، ومسلم (٥٤٤)، عن سهل بن سعد، عن النبي ﷺ...، فعمل المنبر ثلاث درجات، فأرسلَتْ به إلى النبي ﷺ، فوضع في موضعه هذا الذي ترون، فجلس عليه أول يوم وضع، فكبَّر وهو عليه، ثم ركع ثم نزل القهقرى فسجد وسجد الناس معه، ثم عاد حتى فرغ...

(٥) في السنن (٥٩٧).

قال: ألم تعلمْ أنهم كانوا يُنهون عن هذا، أو يُنهَى عن ذلك؟ قال: بلى، قد ذكرتُ حينَ مددتني. ورَوى أيضاً[١] عن عدي بنِ ثابت الأنصاري قال: حدَّثني رجلٌ أنه كان مع عمار بنِ ياسر بالمدائن، فأُقيمتِ الصلاة فتقدَّم عمار بنُ ياسر، وقام على دكان يصلي والناسُ أسفلُ منه، فتقدَّم حذيفةُ فأخذَ على يديه فاتبعه عمار حتى أنزله حذيفة، فلما فرغ عمار من صلاته، قال له حذيفة: ألم تسمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا أَمَّ الرجلُ القوم، فلا يقمْ في مكانٍ أرفعَ من مقامِهم» أو نحو ذلك؟ فقال عمَّار: لذلك اتبعتُك حين أَخذتَ على يدي.

قلت: فهؤلاء ثلاثةٌ من الصحابةِ قد أَخبروا بالنَّهي عن ذلك، ولم يحتجَّ أحدٌ منهم على صاحبه بحديث المنبرِ، فدل على أنه منسوخٌ. ومما يدلُّ على نسخِه أنَّ فيه عملاً زائداً في الصلاةِ، وهو النزولُ والصعودُ، فنُسِخ كما نُسخ الكلامُ والسلامُ.

وهذا أَولى ممَّا اعتذرَ به أصحابُنا من أنَّ النبيَّ ﷺ كان معصوماً من الكِبْر؛ لأنَّ كثيراً من الأئمةِ يوجد لا كِبْرَ عندهم، ومنهم مَن علَّله بأنَّ ارتفاعَ المنبرِ كان يسيراً. والله أعلم[٢].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال الكلبي وقتادةُ وابنُ منبِّه: أَوحى إليهم: أشار[٣]. القتبي[٤]: أومأ. مجاهد: كتبَ على الأرض[٥]. عكرمة: كتبَ في كتاب. والوحي في كلامِ العرب: الكتابةُ[٦]؛ ومنه قولُ ذي الرُّمَّةِ:

---

(١) أي أبو داود في السنن (٥٩٨)، وقال المنذري في مختصر السنن ١/ ٣٠٩: في إسناده رجل مجهول.

(٢) المفهم ٢/ ١٥٤.

(٣) ذكر قول الكلبي الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٣٥٩، وذكر قول قتادة وابن منبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧، وأخرج الطبري ١٥/ ٤٧١ - ٤٧٢ قولَ ابن منبه فقط.

(٤) في تفسير غريب القرآن ص٢٧٣.

(٥) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٤٧٢، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٨٤ بلفظ: أشار إليهم.

(٦) الصحاح (وحى).

سوى الأربعِ الدُّهْمِ اللَّواتي كأنَّها بَقِيَّةُ وَحْيٍ في بُطونِ الصَّحَائِفِ[١]

وقال عَنْترة:

كوحي صحائفٍ من عهدِ كسرى فأهداها لأعجمَ طِمْطِمِيِّ[٢]

و«بكرة وعشيًّا» ظرفان، وزعم الفراءُ أنَّ العشيَّ يُؤنث، ويجوزُ تذكيرُه إذا أَبْهَمْتَ؛ قال: وقد يكونُ العشيُّ جمعَ عشيَّة[٣].

الرابعة: قد تقدَّم الحكمُ في الإشارة في «آل عمران»[٤].

واختلف علماؤُنا فيمَن حلف ألَّا يكلم إنساناً فكتب إليه كتاباً، أو أرسل إليه رسولاً، فقال مالك: إنه يحنث إلا أن ينويَ مشافهتَه، ثم رجع فقال: لا يُنَوَّى في الكتابِ ويحنثُ إلا أن يرتجعَ الكتابَ قبل وصولِه. قال ابنُ القاسم: إذا قرأ كتابَه حنث، وكذلك لو قرأ الحالفُ كتابَ المحلوف عليه. وقال أشهب: لا يحنثُ إذا قرأه الحالف، وهذا بَيِّن؛ لأنه لم يكلِّمْه ولا ابتدأه بكلامٍ، إلا أن يريدَ ألا يعلمَ معنى كلامِه، فإنَّه يحنثُ وعليه يُخرجُ قولُ ابن القاسم، فإنْ حلفَ ليكلمنَّه، لم يَبرَّ إلا بمشافهتِه، وقاله[٥] ابن الماجشون. وإن حلفَ: لَئِن عَلِمَ كذا ليُعلِمنَّه أو ليُخبِرنَّه، فكتبَ إليه أو أرسلَ إليه رسولاً بَرَّ، ولو علماه جميعاً لم يبر، حتى يُعلِمَه؛ لأنَّ علمهما مختلفٌ.

الخامسة: واتفق مالكٌ والشافعيُّ والكوفيون أنَّ الأخرسَ إذا كتبَ الطلاقَ بيده

---

(١) الديوان ٣/ ١٦٢٢ ، وفيه: أللأربع الدهم.

(٢) الديوان ص٧٨ ، ورجلٌ طِمطِميٌّ: في لسانه عجمة. القاموس (طمم).

(٣) المذكر والمؤنث للفراء ص٣٠ ، ونقل عنه المصنف بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩ .

(٤) ٥/ ١٢٣ وما بعدها.

(٥) في (م): وقال، والمثبت من (ظ) و(د)، وكلام ابن الماجشون وما قبله في النوادر والزيادات ٤/ ١٢٥ - ١٢٧ ، وكلام مالك في المدونة ٢/ ١٣٠ - ١٣١ .

لزمه[١]، قال الكوفيون: إلا أن يكونَ رجل أُصمِت أياماً فكتبَ لم يَجزْ من ذلك شيءٌ. قال الطحاوي[٢]: الخَرسُ مخالفٌ للصمتِ العارض، كما أنَّ العجزَ عن الجماع العارضِ لمرضٍ ونحوه يوماً أو نحوه مخالفٌ للعجزِ المأيوس منه الجماع، نحو الجنون في بابِ خيار المرأةِ في الفرقةِ.

قوله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ في الكلامِ حذفٌ، المعنى: فوُلِد له ولدٌ، وقال الله تعالى للمولود: «يا يحيى خذ الكتب بقوّة». وهذا اختصار يدلُّ الكلام عليه. و«الكتاب» التوراةُ بلا خلاف[٣]. «بقوّة» أي: بجد واجتهادٍ، قاله مجاهد[٤]. وقيل: العلمُ به، والحفظُ له، والعملُ به، وهو الالتزامُ لأوامرِه، والكفُّ عن نواهيه، قاله زيدُ بن أسلم[٥]، وقد تقدّم في «البقرة»[٦]. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ قيل: الأحكام والمعرفة بها. وروى معمر أنَّ الصبيان قالوا ليحيى: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للَّعِب خُلِقت. فأنزلَ الله تعالى: «وآتيناه الحكم صبيًّا»[٧]. وقال قتادةُ: كان ابنَ سنتين أو ثلاثِ سنين. وقال مقاتل: كان ابنَ ثلاث سنين[٨]. و«صبيًّا» نصب على الحال[٩]. وقال ابنُ عباس: مَن قرأ القرآنَ قبل أن يحتلمَ؛ فهو ممَّن أُوتي الحكم صبيًّا[١٠].

---

(١) مالك في المدونة ٣/ ٢٤ ، والشافعي في الأم ٥/ ٢٢٧ ، والكوفيون في مختصر اختلاف العلماء للجصَّاص ٢/ ٤٥١ .

(٢) في مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٤٥١ ، وما قبله منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٧ .

(٤) في التفسير ١/ ٣٨٤ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٦٠ .

(٦) ٢/ ١٦٥ .

(٧) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٤٧٤ .

(٨) زاد المسير ٥/ ٢١٣ ، ونقل قول مقاتل فقط الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٦٠ .

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩ .

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢١٣ .

ورُوي في تفسيرِ هذه الآية من طريقِ عبدِ الله بن عمرو[١]، عن النبيِّ ﷺ قال: «كلُّ بني آدمَ يأتي يومَ القيامة وله ذَنْبٌ إلا ما كان من يحيى بنِ زكريا»[٢]. وقال قتادة: إنَّ يحيى عليه السلام لم يعصِ الله قطُّ بصغيرةٍ ولا كبيرةٍ ولا هَمَّ بامرأةٍ[٣]. وقال مجاهد: وكان طعامُ يحيى عليه السلامُ العشبَ، وكان للدمعِ في خدَّيه مجارٍ ثابتةٌ[٤]. وقد مضى الكلامُ في معنى قوله: «وَسَيِّداً وَحَصُوراً» في «آل عمران»[٥].

قولُه تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: «حناناً» عطفٌ على «الحكم»[٦]. ورُوي عن ابنِ عباسٍ أنه قال: والله ما أدري ما «الحنان»؟. وقال جمهورُ المفسرين: الحنانُ: الشفقةُ والرحمة والمحبة، وهو فعلٌ من أفعالِ النفس[٧]. النحاس: وفي معنى الحنانِ عن ابن عباس قولان: أحدهما: قال: تَعطُّفُ اللهِ عزَّ وجلَّ عليه بالرحمةِ. والقولُ الآخر ما أُعطيهُ من رحمةِ الناس حتى يخلِّصهم من الكفر والشرك[٨]. وأصلُه من حنين الناقةِ على ولدها[٩]. ويقال: حنانك وحنانيك، قيل: هما لغتان بمعنى واحد. وقيل: حنانيك تثنية الحنان[١٠]. وقال أبو عبيدة: والعرب تقول: حنانَك ياربُّ، وحنانيكَ

(١) في النسخ: عمر، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ٨، والكلام منه.

(٢) لم نقف عليه من حديث عبد الله بن عمرو، وأخرجه الطبري ٥/ ٣٧٧ - ٣٧٨، والحاكم ٢/ ٣٧٣ و ٤/ ٢٤٤، من حديث عمرو بن العاص.
وأخرجه الطبري ٥/ ٣٧٨، عن سعيد بن المسيب قال: قال ابن العاص ـ إمَّا عبد الله وإمَّا أبوه ـ: ما أحد...، فذكره من قوله، ولم يرفعه.
وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٦، ومن طريقه الطبري ١٥/ ٤٨١، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال رسول الله ﷺ: ما من أحد...، فذكره.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨١، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٥، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن، عن النبي ﷺ قال: ما أذنب يحيى بن زكريا ذنباً، ولا هَمَّ بامرأة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٨، وما قبله منه.

(٥) ٥/ ١١٦ وما بعدها.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٧ - ٨.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩.

(٩) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٢٠.

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ٧.

ياربُّ بمعنى واحد[١]، تريد رحمتك. وقال امرؤ القيس[٢]:

وَيَمْنَحُهَا بَنُو شَمَجَى بنِ جَرْمٍ مَعِيزَهُمُ حَنَانَكَ ذا الحَنَانِ

وقال طرفة[٣]:

أبا مُنْذرٍ أفنيتَ فاستبقِ بَعضَنَا حَنَانَيْك بعضُ الشَّرِّ أهونُ مِنْ بَعْضِ

وقال الزمخشري[٤]: «حناناً» رحمةً لأبويه وغيرِهما وتعطفاً وشفقة؛ وأنشد سيبويهِ[٥]:

فقالتْ حَنَانٌ ما أَتَى بكَ هَاهُنَا أَذُو نَسَبٍ أَمْ أنت بالحيِّ عارفُ

قال ابنُ الأعرابي: الحنَّان من صفةِ الله تعالى مشدَّداً: الرحيمُ. والحَنَان مخففٌ: العطفُ والرحمة. والحَنان: الرزقُ والبركة[٦]. ابنُ عطية: والحنانُ في كلام العربِ أيضاً ما عُظِّم من الأمور في ذاتِ الله تعالى، ومنه قولُ زيد بنِ عمرو بنِ نُفَيل في حديثِ بلالٍ: واللهِ لئن قتلتم هذا العبدَ لأتخذنَّ قبرَه حَنَاناً[٧]. وذكرَ هذا الخبرَ الهرويُّ، فقال: وفي حديثِ بلال: ومرَّ عليه ورقةُ بنُ نوفل وهو يُعذَّب فقال: والله لئن قَتلتموه لأَتخذنَّه حَنَاناً، أي: لأَتمسحنَّ به[٨]. وقال الأزهريُّ: معناه لأَتعطفنَّ عليه ولأَترحمنَّ عليه؛ لأنَّه من أهلِ الجنة.

قلتُ: فالحنانُ العطفُ، وكذا قال مجاهدٌ. و«حناناً» أي: تَعطُّفاً منَّا عليه، أو منه

(١) الكلام بنحوه في الطبري ١٥/ ٤٧٨ .

(٢) في ديوانه ص١٤٣ ، وسلف ٩/ ٧٨ .

(٣) في ديوانه ص٦٦ ، وسلف ٥/ ١٤٨ .

(٤) في الكشاف ٢/ ٥٠٤ .

(٥) في الكتاب ١/ ٣٢٠ و ٣٤٩ ، وهو للمنذر بن درهم الكلبي كما في خزانة الأدب ٢/ ١١٤ .

(٦) تهذيب اللغة ٣/ ٤٤٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٧ - ٨ .

(٨) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ١٤٨ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٠/ ٤٤٠ - ٤٤١ و ٦٣/ ٢٥، وابن حجر في تغليق التعليق ٣/ ٢٦٨ ، من حديث عروة بن الزبير قال: كان ورقة بن نوفل يمر ببلال... وأورده الذهبي في السير ١/ ١٢٩ وقال: هذا مرسل. وورقة لو أدرك هذا لعُدَّ من الصحابة، وإنما مات الرجل في فترة الوحي بعد النبوة وقبل الرسالة كما في الصحيح.

على الخلقِ؛ قال الحطيئةُ[١]:

تَحنَّنْ عليَّ هَدَاكَ المليك ... فإنَّ لكلِّ مقامٍ مَقالا

عكرمة: محبة[٢]. وحَنَّةُ الرجلِ: امرأتُه[٣]؛ لتوادِّهما؛ قال الشاعر:

فقالتْ حنانٌ ما أَتى بكَ هاهنا ... أَذو نسبٍ أم أنتَ بالحيِّ عارفُ[٤]

قولُه تعالى: ﴿وَزَكَوٰةً﴾ الزكاةُ: التطهيرُ والبركةُ والتنمية في وجوهِ الخير والبر[٥]، أي: جعلناه مباركاً للناس يهديهم. وقيل: المعنى: زكَّيناه بحسنِ الثناءِ عليه كما تُزكِّي الشهودُ إنساناً[٦]. وقيل: «زكاة» صدقةً به على أبويه؛ قاله ابنُ قتيبة[٧]. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي: مطيعاً لله تعالى، ولهذا لم يعمل خطيئةً ولم يُلمَّ بها[٨].

قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ البَرُّ بمعنى البار: وهو الكثيرُ البرِّ[٩]. و﴿جَبَّارًا﴾ متكبراً، وهذا وصفٌ ليحيى عليه السلام بلينِ الجانبِ وخفضِ الجناح.

قولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ قال الطبري[١٠] وغيرُه: معناه: أمانٌ. ابنُ عطية: والأظهرُ عندي أنها التحيةُ المتعارفةُ فهي أشرفُ وأَنبهُ من الأمان؛ لأنَّ الأمان مُتحصَّلٌ له بنفي العصيانِ عنه وهي أقلُّ درجاتِه، وإنَّما الشرفُ في أن سلَّم اللهُ عليه، وحيَّاه في المواطن التي الإنسانُ فيها في غايةِ الضَّعفِ والحاجةِ، وقلةِ الحيلة والفقرِ إلى الله تعالى، وعظيمِ الهول[١١].

---

(١) في ديوانه ص٢٢٢.
(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٧٧.
(٣) تهذيب اللغة ٣/ ٤٤٨.
(٤) سلف آنفاً.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٨.
(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٦٠.
(٧) في تفسير غريب القرآن ص٢٧٣، ونقله عنه المصنف بواسطة النكت والعيون ٣/ ٣٦١.
(٨) الوسيط ٣/ ١٧٨.
(٩) الوسيط ٣/ ١٧٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٨.
(١٠) في التفسير ١٥/ ٤٨١.
(١١) في (م) و(د): عظيم الحول، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٨، والكلام منه، وقد سقط هذا الموضع من (ز) و(ف) و(خ).

قلت: وهذا قولٌ حسن، وقد ذكرنا معناه عن سفيانَ بنِ عيينة في سورة سبحان[١] عند قتلِ يحيى.

وذكر الطبريُّ عن الحسن، أنَّ عيسى ويحيى التقيا ـ وهما ابنا الخالة ـ فقال يحيى لعيسى: ادعُ الله لي؛ فأنتَ خيرٌ مني. فقال له عيسى: بل أنت ادعُ الله لي؛ فأنتَ خير مني؛ سلَّم الله عليك وأنا سلَّمت على نفسي[٢]. فانتزعَ بعضُ العلماء من هذه الآية في التسليمِ فضلَ عيسى، بأن قال: إدلالُه[٣] في التسليمِ على نفسِه، ومكانتُه من الله تعالى التي اقتضتْ ذلك حين قُدِّر[٤] وحُكي في محكمِ التنزيلِ أعظمُ في المنزلةِ من أن يُسلَّم عليهِ. قال ابنُ عطية[٥]: ولكلٍّ وجهٌ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ القصة إلى آخرها. هذا ابتداءُ قصةٍ ليست

---

(١) ص٢٧ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٤ ، والطبري ١٥/ ٤٨٢ ، ونقله المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ٨ .

(٣) في (د): إذلاله، وهي كذلك في المحرر الوجيز ٤/ ٨ ، والكلام منه، ومعنى إدلاله: ثقته، من قولهم: فلانٌ يُدِلُّ بفلان، أي: يثق به، كما في الصحاح (دلل).

(٤) في (م): قرر.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٨ ، والكلام بنحوه عند الرازي ٢١/ ١٩٤ .

من الأُولى، والخطابُ لمحمدٍ ﷺ[١]، أي: عَرِّفهم قصتَها ليعرفوا كمالَ قدرتِنا. ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ أي: تَنحَّت وتباعدت. والنبذُ: الطرحُ والرمي، قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ أي: ممَّن كان معها.

و«إذ» بدل من «مريم» بدل اشتمال؛ لأنَّ الأحيان مشتملةٌ على ما فيها، والانتباذُ: الاعتزالُ والانفراد[٢].

واختلف الناسُ لِمَ انتبذت؟ فقال السُّدِّيُّ: انتبذتْ لتَطَّهَّر من حيضٍ[٣]. وقال غيره: لتعبدَ الله، وهذا حسنٌ؛ وذلك أنَّ مريمَ عليها السلامُ كانت وقفاً على سدانةِ المعبدِ وخدمتِه والعبادةِ فيه، فتنحَّت من الناسِ لذلك، ودخلت في المسجدِ إلى جانبِ المحراب في شرقيِّه لتخلو للعبادةِ، فدخل عليها جبريل عليه السلام. فقوله: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ أي: مكاناً من جانب الشرقِ. والشَّرْقُ بسكون الراء: المكانُ الذي تُشرق فيه الشمسُ. والشَّرَقُ بفتحِ الراء: الشمسُ[٤]. وإنَّما خُصَّ المكان بالشرق؛ لأنهم كانوا يُعظمون جهةَ المشرق، ومن حيثُ تطلع الأنوار، وكانت الجهاتُ الشرقية من كل شيء أفضلَ من سواها، حكاه الطبري[٥]. وحَكى عن ابنِ عباس أنه قال: إني لأعلمُ الناسِ لِمَ اتخذ النَّصارى المشرقَ قبلةً؛ لقول الله عزَّ وجلَّ: «إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً» فاتخذوا ميلادَ عيسى عليه السلام قبلة، وقالوا: لو كان شيءٌ من الأرض خيراً من المشرق لوضعت مريمُ عيسى عليه السلام فيه.

واختلف الناس في نبوَّةِ مريم، فقيل: كانت نبيَّة بهذا الإرسال والمحاورة للملك. وقيل: لم تكن نبيَّة، وإنما كلَّمها مثالُ بشر، ورؤيتها للملك كما رُئِيَ جبريلُ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٥.

(٣) بعدها في (م) و(د): أو نفاس، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ٩ والكلام منه، وقد سقط هذا الموضع من بقية النسخ.

(٤) تهذيب اللغة ٨/ ٣١٦.

(٥) في التفسير ١٥/ ٤٨٤ - ٤٨٥، وقول ابن عباس الآتي فيه.

في صفة دِحْية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام. والأولُ أظهر[١]. وقد مضى الكلامُ في هذا المعنى مستوفى في «آل عمران»[٢] والحمدُ لله.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قيل: هو روحُ عيسى عليه السلام؛ لأنَّ الله تعالى خلق الأرواحَ قبل الأجساد، فركَّب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها. وقيل: هو جبريلُ، وأُضيف الروحُ إلى الله تعالى تخصيصاً وكرامةً[٣]. والظاهرُ أنَّه جبريلُ عليه السلام؛ لقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي: تمثل الملكُ لها ﴿بَشَرًا﴾ تفسير أو حالٌ[٤] ﴿سَوِيًّا﴾ أي: مستوي الخلقة؛ لأنَّها لم تكن لتطيقَ أن[٥] تنظر جبريلَ في صورته. ولمَّا رأتْ رجلاً حسن الصورة في صورةِ البشر قد خرق عليها الحجاب ظنَّت أنه يريدها بسوء، فـ ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: ممَّن يتقي الله. البِكَالي: فنكصَ جبريلُ عليه السلام فزعاً من ذكرِ الرحمن تبارك وتعالى. الثعلبي: كان رجلاً صالحاً فتعوَّذت به تعجباً. وقيل: تقي فعيل بمعنى مفعول، أي: كنت ممَّن يُتَّقى منه. في «البخاري»: قال أبو وائل: علمتْ مريمُ أنَّ التقي ذو نُهْيَةٍ حين قالت: «إن كنت تقيًّا»[٦]. وقيل: تقي: اسمُ فاجرٍ معروف في ذلك الوقت، قاله وهب بن منبه، حكاه مكي وغيرُه. ابنُ عطية[٧]: وهو ضعيفٌ ذاهبٌ مع التَّخرُّص. فقال لها جبريلُ عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ جعلَ الهبةَ من قِبَله لما كان الإعلامُ بها من قِبَله. وقرأ ورش، عن نافع: «لِيَهَبَ لَكِ»[٨] على معنى: أرسلني الله ليهبَ لك. وقيل: معنى: «لأهب» بالهمز

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩ .

(٢) ٥/ ١٢٦ وما بعدها.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٦٢ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٢٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠ .

(٥) في (د) و(م): أو، والمثبت من (ظ)، وسقط هذا الموضع من (ف) و(ز) و(خ).

(٦) صحيح البخاري قبل حديث (٤٧٣٠)، وأخرجه الطبري ١٥/ ٤٨٧ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٩ ، وما قبله منه.

(٨) التيسير ص١٤٨ ، والبغوي ٣/ ١٩١ ، وزاد المسير ٥/ ٢١٧ ، والرازي ٢١/ ١٩٨ .

محمولٌ على المعنى، أي: قال: أرسلتُه لأهبَ لك. ويحتمل «ليهب» بلا همزٍ أن يكونَ بمعنى المهموزِ ثم خُفِّفتِ الهمزة. فلما سمعت مريمُ ذلك من قولِه، استفهمت عن طريقِه فـ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي: بنكاح، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي: زانيةً، وذكرت هذا تأكيداً؛ لأنَّ قولَها: لم يمسسني بشرٌ، يشملُ الحلالَ والحرام. وقيل: ما استَبعدتْ من قدرةِ الله تعالى شيئاً، ولكن أرادتْ كيفَ يكونُ هذا الولد؟ من قِبَل الزوجِ في المستقبلِ أم يخلقه اللهُ ابتداءً[1]؟ وروي أنَّ جبريل عليه السلام حينَ قال لها هذه المقالةَ نفخَ في جيبِ درعِها وكمها؛ قاله ابن جريج[2]. ابنُ عباس: أخذَ جبريل عليه السلام رُدْنَ قميصِها بإصبعِه فنفخَ فيه، فحملت من ساعتِها بعيسى[3]. قال الطبري[4]: وزعمتِ النَّصارى أنَّ مريم حملت بعيسى ولها ثلاثَ عشرةَ سنة، وأنَّ عيسى عاش إلى أن رُفِع اثنتين وثلاثين سنة وأياماً، وأنَّ مريمَ بقيت بعد رفعه ستَّ سنين، فكان جميعُ عمرِها نيفاً وخمسين سنة.

وقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ متعلقٌ بمحذوف، أي: ونخلقه لنجعلَه ﴿ءَايَةً﴾ دلالةً على قدرتِنا عجيبة ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمنَ به ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدراً في اللوحِ مسطوراً[5].

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: تنحَّت بالحملِ إلى مكانٍ بعيد، قال ابنُ عباس: إلى أقصى الوادي، وهو وادي بيتِ لحم بينَه وبينَ إيلياء أربعةُ أميال، وإنَّما بَعُدت فراراً من تعييرِ قومِها إياها بالولادةِ من غير زوجٍ[6]. قال ابنُ عباس: ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحالِ[7]. وهذا هو الظاهرُ؛ لأنَّ الله تعالى ذكر الانتباذَ عقبَ الحمل[8]. وقيل غيرُ ذلك على ما يأتي.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٩١ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٠ .

(٤) في التاريخ ١/ ٥٨٥ .

(٥) الكشاف ٢/ ٥٠٥ .

(٦) الوسيط ٣/ ١٨٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠ .

(٧) أخرجه الطبري ١٥/ ٤٩٧ .

(٨) زاد المسير ٥/ ٢١٩ .

قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ «أجاءَهَا» اضطرها، وهو تعديةُ جاء بالهمز[١]. يقال: جاء به وأجاءه إلى موضعٍ كذا، كما يقال: ذهبَ به وأذهبه[٢]. وقرأ شبيل ورويت عن عاصم: «فاجأها» من المفاجأة. وفي مصحف أُبيٍّ: «فلما أجاءها المخاض». وقال زهير:

وَجَارٍ سَارَ مُعْتَمِداً إليْنَا أَجَاءَتْهُ المخَافَةُ والرجَّاءُ

وقرأ الجمهورُ: «المَخَاضُ» بفتح الميم، وابنُ كثير فيما رُوي عنه بكسرها وهو الطَّلقُ وشدَّة الولادةِ وأوجاعُها[٣]. مَخِضت المرأةُ تمخَض مَخَاضاً ومِخَاضاً، وناقةٌ ماخض، أي: دنا وِلادُها[٤]. «إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ» كأنَّها طلبت شيئاً تستندُ إليه وتتعلقُ به، كما تتعلقُ الحامل لشدَّةِ وجعِ الطلق. والجذعُ: ساقُ النخلةِ اليابسة في الصحراءِ الذي لا سعفَ عليه ولا غصنَ، ولهذا لم يقل: إلى النخلةِ[٥].

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ تَمنَّت مريمُ عليها السلام الموتَ من جهة الدِّين لوجهين: أحدهما: أنَّها خافت أن يُظَن بها الشرُّ في دينها وتُعيَّر فيفتنها ذلك[٦]. الثاني: لئلا يقع قومٌ بسببها في البهتان والنسبةِ إلى الزنى، وذلك مهلك[٧]. وعلى هذا الحدِّ يكون تمني الموت جائزاً، وقد مضى هذا المعنى مبيناً في سورةِ يوسف[٨] عليه السلام. والحمد لله.

قلت: وقد سمعتُ أنَّ مريمَ عليها السلام سمعت نداءَ من يقول: اخرجْ يا مَن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠ .

(٢) شرح ديوان زهير ص٧٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠ ، وبيت زهير في شرح ديوانه ص٧٧ .

(٤) تهذيب اللغة ٧/ ١٢٢ .

(٥) الكلام بنحوه عند البغوي ٣/ ١٩٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٠ .

(٧) زاد المسير ٥/ ٢٢٠ .

(٨) ٩/ ٢٦٩ وما بعدها.

يُعبَد من دونِ الله، فحزنت لذلك، و﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ النِّسي في كلامِ العرب: الشيءُ الحقير الذي شأنُه أن يُنسى ولا يُتألم لفقده كالوتدِ والحبلِ للمسافر ونحوه[١]. وحُكي عن العربِ أنَّهم إذا أرادوا الرحيلَ عن منزلٍ قالوا: احفظوا أنساءَكم[٢]. الأنساء جمع نِسي: وهو الشيءُ الحقيرُ يُغفَل فيُنسى. ومنه قولُ الكميت[٣] ﷺ:

أتجعلنا جِسْراً لكلبِ قُضاعةٌ ... ولستُ بنِسْي في مَعَدٍّ ولا دَخل

وقال الفراء[٤]: النِّسيُ: ما تُلقيه المرأةُ من خِرَقِ اعتلالِها، فقولُ مريم: «نسياً منسيًّا»، أي: حيضة مُلقاة، وقُرِئ «نَسْياً» بفتح النون[٥]، وهما لغتان مثل: الحِجْر والحَجْر، والوِتْر والوَتْر.

وقرأ محمدُ بن كعب القرظي بالهمزِ: «نِسْئاً» بكسرِ النون، وقرأ نوفٌ البِكَاليُّ: «نَسْئاً» بفتح النون من: نسأ اللهُ تعالى في أجلِه، أي: أخَّره، وحكاها أبو الفتح والدَّاني عن محمد بنِ كعب. وقرأ بكر بنُ حبيب «نَسًّا» بتشديدِ السين وفتحِ النون دونَ همز[٦].

وقد حكى الطبريُّ[٧] في قصصها أنَّها لما حملت بعيسى عليه السلام حملت أيضاً أختُها بيحيى، فجاءتها أختُها زائرةً فقالت: يا مريمُ، أشعرتِ أنتِ أني حَملت؟ فقالت لها: و إني أجِد ما في بطني يسجدُ لِما في بطنِك، فذلك أنَّه روى أنَّها أحسَّت بجنينها يخرُّ برأسِه إلى ناحيةِ بطنِ مريم، قال السدي: فذلك قولُه: «مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠ .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٦ .

(٣) في ديوانه ص٢٦٢ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٥) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي بكسر النون. وقرأ حمزة وحفص بالفتح، واختلف عن عاصم. السبعة ص٤٠٨ ، والتيسير ص١٤٨ .

(٦) المحتسب ٢/ ٤٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠ - ١١ وفي المحتسب أنَّ قراءة بكر بن حبيب السهمي: نَسْئاً بفتح النون مهموزة.

(٧) في التاريخ ١/ ٥٩٩ .

اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِياً مِنَ الصَّالِحِينَ».

وذكر أيضاً[١] من قصصها أنها خرجت فارَّةً مع رجلٍ من بني إسرائيل يقال له يُوسف النجار، كان يخدمُ معها في المسجدِ، وطَوَّل في ذلك. قال الكلبي: قيل ليوسف، وكانت سُميت له: إنها حملتْ من الزنى، فالآن يقتلُها الملك، فهربَ بها، فهمَّ في الطريق بقتلها، فأتاه جبريلُ عليه السلام وقال له: إنه من روح القدس[٢].

قال ابنُ عطية[٣]: وهذا كلُّه ضعيف، وهذه القصةُ تقتضي أنها حملت، واستمرَّت حاملاً على عرفِ النساء، وتظاهرتِ الرواياتُ بأنَّها ولدته لثمانيةِ أشهر. قاله عكرمة؛ ولذلك قيل: لا يعيشُ ابنُ ثمانية أشهرٍ حفظاً لخاصةِ عيسى. وقيل: ولدته لسبعةٍ[٤]. وقيل: لستةٍ. وما ذكرناه عن ابنِ عباس أصحُّ وأظهرُ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قُرِئ بفتح الميمِ وكسرها[٥]. قال ابنُ عباس: المرادُ بـ «من» جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومَها؛ وقاله علقمةُ والضَّحاكُ وقتادة، ففي هذا لها آيةٌ وأمارةٌ أنَّ هذا من الأمورِ الخارقة للعادةِ التي لله فيها مرادٌ عظيم[٦]. وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ تفسيرُ النداءِ، «وأنْ» مفسِّرة بمعنى أي، المعنى: فلا تحزني بولادتك. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يعني عيسى. والسريُّ من الرجالِ العظيمُ الخصالِ السيِّدُ. قال الحسن: كان واللهِ سريًّا من الرجال. ويقال: سَرِي فلانٌ على فلان، أي: تكرم، وفلانٌ سَرِيٌّ من قومٍ سَرَاة. وقال الجمهورُ: أشارَ لها إلى الجدولِ

(١) أي الطبري في التاريخ ١/ ٥٩٥ .

(٢) عرائس المجالس ص٣٨٦ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ١٠ - ١١ .

(٤) في (م): لتسعة، والمثبت من (ظ) و(د)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١١ ، وذكر الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٣٦٢ أربعة أقوال في مدة حملها وهي: تسعة أشهر، وستة أشهر، ويوماً واحداً، وثمانية أشهر.

(٥) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وشعبة بفتح الميم، والباقون بكسرها. السبعة ص٤٠٨-٤٠٩، والتيسير ص١٤٨ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١١ ، وفي (د) و(ظ): عكرمة بدل علقمة.

الذي كان قريب جذعِ النخلة[١]. قال ابنُ عباس: كان ذلك نهراً قد انقطعَ ماؤه، فأجراه الله تعالى لمريم[٢]، والنهرُ يسمَّى سَرِيًّا؛ لأنَّ الماءَ يسري فيه، قال الشاعر:

سَلْمٌ تَرَى الدَّالِيَّ منه أَزْوَرَا إذا يَعُجُّ في السَّرِيِّ هَرْهَرَا[٣]

وقال لبيد:

فَتَوسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وصَدَّعا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِراً قُلَّامُهَا[٤]

وقيل: ناداها عيسى، وكان ذلك معجزةً وآيةً وتسكيناً لقلبها، والأولُ أظهر[٥].

وقرأ ابنُ عباس: «فناداها ملك مِن تحتها» قالوا: وكان جبريلُ عليه السلام في بقعةٍ من الأرض أخفضَ من البقعةِ التي كانت هي عليها.

قولُه تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: «وَهُزِّي» أمرَها بهزِّ الجذعِ اليابس لترى آيةً أخرى في إحياء مواتِ الجذع، والباء في قوله: «بجذع» زائدةٌ مؤكِّدةٌ[٦] كما يقال: خذ بالزمامِ، وأعطِ بيدك؛ قال الله تعالى: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] أي: فليمدد سبباً[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٦٥ - ٣٦٦ ، وزاد المسير ٥/ ٢٢٢ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٢٥ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٠٦ - ٥٠٧ بنحوه.

(٣) البيت في معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٢٥ ، والكامل للمبرد ٣/ ١١٤٥ ، وتهذيب اللغة ٥/ ٣٦١ بدون نسبة، وفي (م): «يعبُّ» بدل «يعج»، والمثبت من النسخ الخطية والكامل ومعاني القرآن، وفي الكامل فقط الدالج بدل الدالي، وخطَّأ المبردُ رواية الدالي، وقال: السَّلْم: الدلو الذي له عروة واحدة، وهو دلو السَّقائين، والدالج: الذي يمشي بالدلو بين البئر والحوض.

(٤) شرح ديوان لبيد ص٣٠٧ ، وقال شارحه: عرض: ناحية، السري: نهر صغير: مسجورة: مملوءة يعني عيناً، القلَّام: نبت، وقيل: هو القصب.

(٥) الوسيط ٣/ ١٨١ ، والنكت والعيون ٣/ ٣٦٤ ، وزاد المسير ٥/ ٢٢١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١١ - ١٢ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٥ ، والوسيط ٣/ ١٨١ ، والكشاف ٢/ ٥٠٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢٢٢ .

وقيل: المعنى: وهزي إليك رطباً على جذعِ النخلة. و«تَسَّاقَطْ» أي: تتساقط فأدغمَ التاءَ في السين. وقرأ حمزةُ: «تَسَاقَطْ» مخففاً، فحذفَ التي أدغمها غيرُه. وقرأ عاصم في روايةِ حفص: «تُسَاقِطْ» بضمِّ التاءِ مخففاً وكسر القاف[١]. وقرئ: «تَتَسَاقَطْ» بإظهارِ التاءين و: «يَسَّاقَطْ» بالياء وإدغامِ التاء: و«تُسْقِط» و«يُسْقِط» و«تَسقط» و«يَسقط» بالتاءِ للنخلة وبالياءِ للجذع، فهذه تسعُ قراءات ذكرها الزمخشري[٢] رحمةُ الله تعالى عليه. «رطباً» نُصِب بالهزِّ[٣]، أي: إذا هَزَزتِ الجِذعَ هززتِ بهزِّه «رطباً جنياً». وعلى الجملةِ ف «رطباً» يختلفُ نصبُه بحسبِ معاني القراءات، فمرةً يستندُ الفعلُ إلى الجذع، ومرةً إلى الهزِّ، ومرةً إلى النخلةِ. «وجنيًّا» معناه: قد طابت وصلحتْ للاجتناء، وهي من جنيتُ الثمرةَ[٤]. ويُروى عن ابنِ مسعود ـ ولا يصحُّ ـ أنَّه قرأ: «تُساقط عليك رطباً جنيًّا بَرْنيًّا»[٥]. وقال مجاهد: «رطباً جنِيًّا» قال: كانت عجوة[٦]. وقال عباس بنُ الفضل: سألت أبا عمرو بنَ العلاء عن قوله: «رطباً جنياً» فقال: لم يَذْوِ[٧]. قال: وتفسيره: لم يجف ولم ييبسْ ولم يبعد عن يدي مُجتنيه، وهذا هو الصحيحُ. قال الفراء[٨]: الجَنيُّ والمَجنيُّ واحدٌ. يذهبُ إلى أنهما بمنزلةِ القتيل والمقتولِ والجريحِ والمجروح. وقال غيرُ الفراء: الجَنيُّ: المقطوعُ من نخلةٍ واحدة[٩]، والمأخوذُ من مكانِ نشأته، وأنشدوا:

---

(١) السبعة ص٤٠٩، والتيسير ص١٤٩.

(٢) في الكشاف ٢/ ٥٠٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣. وقال أيضاً ٣/ ١٢، والزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٢٦: إنها منصوبة على التمييز، وقال الزمخشري ٢/ ٥٠٧، والرازي ٢١/ ٢٠٦: رطباً تمييز أو مفعول.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢.

(٥) لم نقف عليها عند غير المصنف، والبَرْنيُّ: ضَربٌ من التمر. الصحاح (برن).

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٦٧، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٥١٢.

(٧) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٣٦٧.

(٨) في معاني القرآن ٢/ ١٦٦.

(٩) ذكر نحو هذا الطبريُّ ١٥/ ٥١٤ - ٥١٥.

وطيبُ ثمارٍ في رياضٍ أريضةٍ وأغصانُ أشجارٍ جناها على قُربِ[١]

يريدُ بالجَنَى ما يُجنَى منها، أي: يُقطع ويُؤخذ. قال ابنُ عباس: كان جِذعاً نخراً[٢]، فلمَّا هَزَّت نظرتْ إلى أعلى الجِذع فإذا السَّعَفُ[٣] قد طَلع، ثم نظرتْ إلى الطلعِ قد خرجَ من بينِ السَّعَف، ثم اخضرَّ فصار بلحاً، ثم احمرَّ فصار زَهْواً، ثم رُطباً، كلُّ ذلك في طرفةِ عين، فجعلَ الرطبُ يقعُ بين يديها لا ينشدخُ[٤] منه شيءٌ.

الثانية: استدلَّ بعضُ الناسِ من هذه الآية على أنَّ الرزقَ وإن كان محتوماً، فإنَّ الله تعالى قد وَكَل ابنَ آدم إلى سعيٍ ما فيه؛ لأنه أمرَ مريم بهزِّ النخلةِ لترى آيةً، وكانت الآيةُ تكونُ بألّا تَهُزَّ[٥].

الثالثة: الأمرُ بتكليفِ الكسب في الرزقِ سنةُ الله تعالى في عبادِه، وإنَّ ذلك لا يقدحُ في التوكل، خلافاً لما تقولُه جُهالُ المُتزهدة، وقد تقدَّم هذا المعنى والخلافُ فيه. وقد كانت قبلَ ذلك يأتيها رزقُها من غير تكسبٍ كما قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٧]، فلما وَلدتْ أُمِرت بهزِّ الجِذع. قال علماؤنا: لمَّا كان قلبُها فارغاً، فرَّغ اللهُ جارحتَها عن النصبِ، فلمَّا وَلدت عيسى وتعلَّق قلبُها بحبه، واشتغلَ سِرُّها بحديثِه وأمْرِه، وَكَلها إلى كسبِها، وردَّها إلى العادةِ بالتعلقِ بالأسباب في عبادِه[٦].

وحكى الطبريُّ عن ابنِ زيدٍ، أنَّ عيسى عليه السلام قالَ لها: لا تحزني، فقالت له: وكيفَ لا أحزنُ وأنتَ معي؟! لا ذات زوجٍ ولا مملوكة! أيُّ شيءٍ عُذري عندَ

(١) البيت لبعض الأعراب كما في الأضداد لابن الأنباري ص٢١٩، وهو أيضاً في ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي ص١٢٨، وزهر الآداب للقيرواني ٢/ ٩٩٩.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٥/ ٥١١ بلفظ: كان جذعاً يابساً، فقال لها: هُزِّيه تساقط عليك رطباً جنيًّا.

(٣) السَّعَف: جمع سَعَفَة وهي غصن النخل. الصحاح (سعف).

(٤) الشَّدْخ: كسرُ الشيء الأجوف. الصحاح (شدخ).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٠.

الناس؟! «يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا» فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلامَ(١).

الرابعة: قال الربيعُ بنُ خُثَيم: ما للنفساءِ عندي خيرٌ من الرُّطبِ(٢) لهذهِ الآية، ولو علم اللهُ شيئاً هو أفضلَ من الرطبِ للنفساءِ لأطعمَه مريمَ، ولذلك قالوا: التمرُ عادةٌ للنفساءِ من ذلك الوقت، وكذلك التَّحنيكُ. وقيل: إذا عَسُر وِلادُها لم يكن لها خيرٌ من الرطبِ، ولا للمريضِ خيرٌ من العسلِ؛ ذكره الزمخشري(٣).

قال ابنُ وهب: قال مالكٌ: قال الله تعالى: ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ الجَنيُّ من التمرِ ما طابَ من غيرِ نَقْشٍ ولا إفسادٍ. والنَّقْشُ أن يُنقَش من أسفلِ البسرةِ حتى تُرطِبَ، فهذا مكروه. يعني مالكٌ أنَّ هذا تعجيلٌ للشيء قبلَ وقته، فلا ينبغي لأحدٍ أن يفعله، وإن فَعله فاعلٌ ما كانَ ذلك مُجوِّزاً لبيعه، ولا حُكْماً بطيبِه، وقد مضى هذا القولُ في «الأنعامِ»(٤). والحمد لله.

عن طلحة بن سليمان «جِنِيًّا» بكسر الجيم للإتباع، أي: جمعنا(٥) لكِ في السريِّ والرطبِ فائدتين: إحداهما: الأكلُ والشربُ، الثانيةُ: سَلوةُ الصدرِ؛ لكونهما معجزتين، وهو [في معنى] قولِه تعالى: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: فكُلي من الجَنيِّ، واشربي من السَّريِّ، وقَرِّي عيناً برؤيةِ الولدِ النبيِّ. وقُرئ بفتحِ القاف وهي قراءةُ الجمهورِ. وحكى الطبريُّ قراءةَ: «وَقِرِّي» بكسرِ القافِ وهي لغةُ نجد(٦). يقال: قَرَّ عيناً يَقُرُّ ويَقِر بضمِّ القافِ وكسرِها، وأقرَّ اللهُ عينَه فقرَّت. وهو مأخوذٌ من القُرِّ

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٠٥ و ٥١٨، ونقل عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٢.

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٢٢، والبغوي ٣/ ١٩٣.

(٣) في الكشاف ٢/ ٥٠٧.

(٤) ٨/ ٤٧٦، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤١.

(٥) في (د) و(م): جعلنا، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ٥٠٧، والكلام منه، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥١٦.

والقِرَّة وهما البَرْد. ودمعةُ السرورِ باردةٌ، ودمعةُ الحُزنِ حارةٌ. وضَعَّف فرقةٌ هذا وقالت: الدمعُ كلُّه حارٌّ، فمعنى أقرَّ الله عينَه، أي: سَكَّن الله عينَه بالنظرِ إلى مَن يُحبُّه حتى تقرَّ وتسكن، وفلانٌ قُرةُ عيني، أي: نفسي تسكنُ بقربِه. وقال الشَّيباني: «وقرِّي عيناً» معناه: نامي، حضَّها على الأكلِ والشربِ والنوم. قال أبو عمرو: أقرَّ اللهُ عينَه، أي: أنامَ عينَه، وأذهبَ سهره. و«عيناً» نُصِب على التمييزِ؛ كقولك: طب نفساً. والفعلُ في الحقيقةِ إنَّما هو للعين، فنُقل ذلك إلى ذي العين، ويُنصبُ الذي كان فاعلاً في الحقيقةِ على التفسير. ومثلُه: طبتُ نفساً، وتَفقَّأتُ شحماً، وتَصببتُ عرقاً، ومثلُه كثيرٌ[1].

قولُه تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ **فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى: قولُ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ الأصلُ في «تَرينَّ»: «تَرْأَيِين»، فحُذِفت الهمزةُ كما حُذِفت من «ترى»، ونُقِلت فتحتُها إلى الراء فصارَ «تريين»، ثم قُلِبت الياءُ الأولى ألفاً؛ لتحركِها وانفتاحِ ما قبلها، فاجتمعَ ساكنان الألفُ المنقلبةُ عن الياءِ وياءُ التأنيث، فحُذِفت الألفُ؛ لالتقاءِ الساكنين، فصار «تَرَيْنَ» ثم حُذِفت النونُ علامةً للجزم؛ لأنَّ «إن» حرفُ شرطٍ و«ما» صلةٌ فبقي تَرَيْ، ثم دخله نونُ التوكيدِ وهي مثقلةٌ، فكُسِر ياءُ التأنيثِ؛ لالتقاءِ الساكنين؛ لأنَّ النونَ المثقلة بمنزلةِ نونين الأولى ساكنةٌ، فصار تَرَينَّ[2]. وعلى هذا النحوِ قولُ ابنِ دُريد:

إِمَّـا تَـرَيْ رأسِـيَ حَـاكَـى لـونُـهُ[3]

وقولُ الأفوهِ: إِمَّا تَرَيْ رأسيَ أَزْرَى به[4]

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣ ، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٧٦ ، وما بعدها.

(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ١٢٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢ - ١٣ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٤٨٩ ، وما بعدها.

(٣) شرح مقصورة ابن دريد للتبريزي ص٣ ، وعجزه: طُرةُ صبحٍ تحت أذيالِ الدُّجى.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٢ ، والمعري في رسالة الملائكة ص١٣ ، وعجزه: مأسُ زمان ذي انتكاس مؤوس.

وقال المعري: مَأَسَ بين القوم إذا أفسدَ بينهم.

وإنَّما دخلتِ النونُ هنا بتوطِئة «ما» كما يوطِّئ لدخولِها أيضاً لامُ القسم، وقرأ طلحةُ وأبو جعفر وشيبةُ: «تَرَيْنَ» بسكونِ الياءِ وفتحِ النون خفيفة، قال أبو الفتح[١]: وهي شاذةٌ.

الثانية: قولُه تعالى: «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ» هذا جوابُ الشرطِ وفيه إضمارٌ، أي: فسألَكِ عن ولدكِ «فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً» أي: صَمْتاً[٢]؛ قاله ابنُ عباسٍ وأنسُ بن مالك[٣]. وفي قراءةِ أُبيِّ بنِ كعب: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرحمنِ صَوْماً صَمْتاً». وروي عن أنس[٤]. وعنه[٥] أيضاً «وصمتاً» بواو، واختلافُ اللفظين يدلُّ على أنَّ الحرفَ ذُكِر تفسيراً لا قرآناً، فإذا أَتت معه واوٌ فممكنٌ أن يكونَ غيرَ الصوم، والذي تتابعتْ به الأخبارُ عن أهلِ الحديث ورواةِ اللغةِ[٦] أنَّ الصومَ هو الصَّمتُ؛ لأنَّ الصومَ إمساكٌ، والصمتَ إمساكٌ عن الكلامِ. وقيل: هو الصومُ المعروفُ، وكان يلزمُهم الصمتُ يومَ الصومِ إلَّا بالإشارةِ[٧]، وعلى هذا تُخرجُ قراءةُ أنسٍ: «وصمتاً» بواو، وأن الصمتَ كان عندَهم في الصومِ ملتزماً بالنذرِ، كما أنَّ مَن نذرَ منا المشيَ إلى البيتِ اقتضى ذلك الإحرامَ بالحج أو العمرة. ومعنى هذه الآيةِ أنَّ الله تعالى أمرها على لسانِ جبريلَ عليه السلام ـ أو ابنِها على الخلافِ المتقدم ـ بأن تمسكَ عن مخاطبةِ البشرِ، وتحيلَ على ابنِها في ذلك؛ ليرتفعَ عنها خجلُها، وتتبينَ الآيةُ فيقومَ عذرُها. وظاهرُ الآيةِ أنَّها أُبيحَ لها أن تقولَ هذه الألفاظَ التي في الآية، وهو قولُ الجمهور.

---

(١) في المحتسب ٢/ ٤٢، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ١٢ - ١٣.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٩٣، والوسيط ٣/ ١٨١.

(٣) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٥١٦ - ٥١٧.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٦٧، والكشاف ٢/ ٥٠٧، وزاد المسير ٥/ ٢٢٥.

(٥) أي: عن أنس بن مالك ﷺ، وأخرجه الطبري ١٥/ ٥١٧، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٤.

(٦) كما في الصحاح (صوم)، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٧) الكلام بنحوه في الطبري ١٥/ ٥٢٠، وتفسير السمرقندي ٢/ ٣٢٢.

وقالت فرقة: معنى «قولي» بالإشارةِ لا بالكلامِ[١]. الزمخشريُّ: وفيه أنَّ السكوتَ عن السفيهِ واجب، ومِن أذلِّ الناسِ سفيهٌ لم يجدْ مُسافهاً[٢].

الثالثة: مَنِ التزمَ بالنذر ألا يكلم أحداً من الآدميين، فيحتملُ أن يقالَ: إنَّه قُربةٌ فيَلزَمُ بالنذرِ، ويحتمل أن يقالَ: ذلك لا يجوزُ في شرعِنا لما فيه من التضييقِ وتعذيبِ النفس، كنذرِ القيام في الشمس ونحوه. وعلى هذا كان نذرُ الصمتِ في تلكَ الشريعةِ لا في شريعتنا، وقد تقدَّم[٣]. وقد أَمرَ ابنُ مسعود مَن فعل ذلك بالنطقِ بالكلامِ[٤]، وهذا هو الصحيحُ؛ لحديثِ أبي إسرائيل، خرَّجه البخاريُّ[٥] عن ابنِ عباس. وقال ابنُ زيد والسُّديُّ: كانت سنةُ الصيامِ عندهم الإمساكَ عن الأكلِ والكلامِ[٦].

قلتُ: ومِن سنتِنا نحنُ في الصيامِ الإمساكُ عن الكلامِ القبيح، قال عليه الصلاةُ والسلام: «إذا كان أحدُكم صائماً، فلا يَرفُثْ ولا يجهلْ، فإنِ امرؤٌ قاتله أو شاتَمه؛ فليقل: إني صائم»[٧]. وقال عليه الصلاةُ والسلام: «مَن لم يدعْ قولَ الزور والعملَ به؛ فليسَ لله حاجةٌ في أن يدعَ طعامَه وشرابه»[٨].

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ روي أنَّ مريمَ لمَّا اطمَأنَّت بما رأتْ من

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣ .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٧ .

(٣) ٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣ .

(٥) البخاري (٦٧٠٤)، وسلف ٣/ ٢٣٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٣ .

(٧) أخرجه أحمد (٧٣٤٠)، ومسلم (١١٥١)، من حديث أبي هريرة.

(٨) أخرجه البخاري (١٩٠٣)، من حديث أبي هريرة، وسلف ٣/ ١٢٣ .

الآيات، وعلمت أنَّ الله تعالى سَيبينُ عذرَها، أتتْ به تحملُه من المكانِ القصي الذي كانت انتبذتْ فيه(١). قال ابنُ عباس: خرجتْ من عندِهم حين أشرقتِ الشمس، فجاءتهم عندَ الظهرِ ومعها صبيٌّ تحملُه، فكان الحملُ والولادةُ في ثلاثِ ساعاتٍ من النهار(٢). وقال الكلبي: ولدت حيثُ لم يشعرْ بها قومُها، ومكثت أربعينَ يوماً للنفاس، ثم أتت قومَها تحمله، فلما رأوها ومعها الصبيُّ حزنوا وكانوا أهلَ بيتٍ صالحين، فقالوا منكِرين: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: جئتِ بأمرٍ عظيم كالآتي بالشيء يفتريه(٣). قال مجاهد: «فريًّا» عظيماً(٤). وقال سعيدُ بنُ مسعدة: أي: مختلقاً مفتعلاً، يقال: فَرَيْتَ وأَفريتَ بمعنى واحد(٥). والولدُ من الزنى كالشيءِ المفترَى. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢] أي: بولدٍ بقصدِ إلحاقه بالزوجِ وليس منه. يقال: فلانٌ يفرِي الفَرِيَّ، أي: يعملُ العمل البالغ، وقال أبو عبيدة(٦): الفَريُّ العجيبُ النادر، وقاله الأخفشُ(٧). قال: فريًّا عجيباً. والفَرْي: القطعُ، كأنَّه مما يخرقُ العادةَ، أو يقطعُ القول بكونِه عجيباً نادراً(٨). وقال قطرب: الفري: الجديدُ من الأسقية، أي: جئت بأمرٍ جديد بديعٍ لم تُسبقي إليه. وقرأ أبو حيوة: «شَيْئاً فَرْياً» بسكون الراء(٩). وقال السُّديُّ ووهبُ بنُ منبه: لمَّا أتتْ به قومَها تحملُه، تسامعَ بذلك بنو إسرائيل، فاجتمعَ رجالُهم ونساؤهم، فمدَّت امرأةٌ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٧ ، والطبري ١٥/ ٤٩٧ ، بلفظ: ليس إلا أن حملته ثم وضعت.

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٢ .

(٤) تفسير مجاهد ١/ ٣٨٦ ، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٥) الذي في الصحاح، ومقاييس اللغة (فرى)، وتهذيب اللغة ١٥/ ٢٤٢ : أنَّ أَفْرَيت الأديم: قطعته على جهة الإفساد، وفريته: قطعته على جهة الإصلاح.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٧ .

(٧) نقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٦٨ .

(٨) الكلام بنحوه في مقاييس اللغة (فري).

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ١٣ ، وذكر قول قطرب السابق دون نسبة.

يدَها إليها لتضربَها، فأجفَّ الله شطرَها فَحُمِلت كذلك. وقال آخر: ما أراها إلا زَنتْ، فأخرسَه الله تعالى، فتحامَى الناسُ من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمةً تُؤذيها، وجعلوا يخفضون إليها القولَ ويلينون، فقالوا: «يا مريم لقد جئت شيئاً فريًّا»، أي: عظيماً؛ قال الراجز:

قد أطعمتني دَقَلاً حَوْلِيَّا   مُسوّساً مُدَوّداً حَجْرِيَّا

قد كنتِ تَفْرِين بِهِ الفَرِيَّا[1]

أي: [تُعظِّمينه][2].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ اختلف الناسُ في معنى هذه الأُخوةِ، ومَن هارونُ؟ فقيل: هو هارون أخو موسى؛ والمرادُ: مَن كنَّا نظنُّها مثلَ هارونَ في العبادةِ تأتي بمثل هذا. وقيل: على هذا كانت مريمُ من ولد هارون أخي موسى، فنُسبت إليه بالأُخوة؛ لأنها مِن ولده، كما يقالُ للتميمي: يا أخا تميم، وللعربي: يا أخا العرب[3]. وقيل: كان لها أخٌ من أبيها اسمُه هارون؛ لأنَّ هذا الاسمَ كان كثيراً في بني إسرائيل تبركاً باسمِ هارون أخي موسى، وكان أمثلَ رجلٍ في بني إسرائيل؛ قاله الكلبي[4]. وقيل: هارونُ هذا رجلٌ صالح في ذلك الزمان تَبع جنازتَه يومَ مات أربعون

(١) الرجز لزرارة بن صعب كما في اللسان (دود) (سوس) (فرا)، وهي دون نسبة في الاقتضاب ص٣٨٥ - ٣٨٦، وذكر ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٣٩٠ الأول والثاني، وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٦٧، والطبري ١٥/ ٥٢١، والأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٢٤١ الأول والثالث فقط.

وقال ابن السيد البطليوسي في الاقتضاب ص٣٨٦: والدقل نوع من التمر رديء، وحجري منسوب إلى حجر وهي قصبة اليمامة، وقوله: قد كنت تفرين به الفريا، أي: قد كنت تكثرين فيه القول وتعظمين أمره.

(٢) في (ظ) و(د): تطعمينه، ولم يرد هذا الموضع في (ف) و(ز)، والمثبت من (م)، وينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٢٤١، والاقتضاب ص٣٨٦.

(٣) نسبه الطبري ١٥/ ٥٢٥، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٦٩، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٢٧ إلى السُّدي.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ١٩٤.

ألفاً كلُّهم اسمُه هارون[١]. وقال قتادة[٢]: كان في ذلك الزمانِ في بني إسرائيل عابدٌ منقطعٌ إلى الله عزَّ وجلَّ يُسمَّى هارون فنسبوها إلى أُخوتِه من حيثُ كانت على طريقتِه قبلُ؛ إذ كانت موقوفةً على خدمة البِيَع، أي: يا هذه المرأةُ الصالحةُ، ما كُنتِ أهلاً لذلك. وقال كعبُ الأحبار بحضرةِ عائشةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها: إنَّ مريمَ ليست بأختِ هارونَ أخي موسى. فقالت له عائشةُ: كَذبتَ. فقال لها: يا أمَّ المؤمنين، إن كان رسولُ الله ﷺ قالَه؛ فهو أصدقُ وأخبر، وإلَّا فإني أجدُ بينَهما من المدَّةِ ستَّ مئةِ سنةٍ. قال: فَسكتت[٣]. وفي «صحيح» مسلمٍ عن المغيرةِ بنِ شعبة قال: لمَّا قدِمتُ نجرانَ سألوني فقالوا: إنكم تقرؤون: «يا أخت هارون» وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قدِمتُ على رسولِ الله ﷺ سألتُه عن ذلك، فقال: «إنَّهم كانوا يُسمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلَهم»[٤]. وقد جاء في بعضِ طرقِه في غيرِ الصحيح، أنَّ النصارى قالوا له: إنَّ صاحبَك يزعمُ أنَّ مريم هي أختُ هارون وبينَهما في المدَّةِ ستُّ مئة سنة؟! قال المغيرةُ: فلم أدرِ ما أقول[٥]، وذكر الحديث. والمعنى: أنَّه اسمٌ وافقَ اسماً[٦]. ويُستفاد من هذا جوازُ التسميةِ بأسماء الأنبياء، والله أعلم.

قلت: فقد دلَّ الحديثُ الصحيح أنه كان بينَ موسى وعيسى وهارون زمانٌ مديد. الزمخشري: كان بينَهما وبينَه ألفُ سنةٍ أو أكثر[٧]. فلا يُتخيَّل أنَّ مريم كانت أختَ موسى وهارون، وإن صحَّ فكما قال السُّدي: لأنها كانت من نسلِه، وهذا كما تقول للرجل من قبيلة: يا أخا فلان. ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ أخا صُدَاء قد

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٨.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٧ - ٨ ، ومن طريقه الطبري ١٥/ ٥٢٣ .

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٢٣ - ٥٢٤ ، وأورده ابن كثير في تفسير هذه الآية، وقال: وفي هذا التاريخ نظر.

(٤) صحيح مسلم (٢١٣٥)، وهو عند أحمد (١٨٢٠١).

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٢٤ ، دون ذكر المدة بينهما.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٢٤ ، عن ابن زيد، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ١٣ .

(٧) الكشاف ٢/ ٥٠٨ .

أذَّن، فمَنْ أذَّنَ فهو يُقيم»[١] وهذا هو القولُ الأوَّل. ابنُ عطية[٢]: وقالت فرقةٌ: بل كان في ذلك الزمان رجلٌ فاجر اسمُه هارون فنسبوها إليه على جهةِ التعيير والتوبيخِ؛ ذكره الطَّبري[٣] ولم يُسمِّ قائلَه.

قلت: ذكره الغَزنويُّ عن سعيد بنِ جبير، أنَّه كان فاسقاً مَثَلاً في الفجورِ، فنُسبت إليه[٤]. والمعنى: ما كان أبوكِ ولا أمك أهلاً لهذه الفعلةِ، فكيف جئتِ أنتِ بها؟![٥] وهذا من التعريضِ الذي يقومُ مقامَ التصريح، وذلك يُوجبُ عندنا الحدَّ، وسيأتي في سورةِ النور[٦] القولُ فيه إن شاءَ الله تعالى. وهذا القولُ الأخيرُ يردُّه الحديثُ الصحيح، وهو نصٌّ صريح فلا كلامَ لأحدٍ معه، ولا غبار عليه. والحمد لله. وقرأ عمرُ بنُ لجأ التَّيْمي: «مَا كَانَ أَبَاكِ امْرُؤُ سَوْءٍ»[٧].

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ التزمت مريمُ عليها السلام ما أُمِرت به من تركِ الكلام، ولم يردْ في هذه الآيةِ أنَّها

---

(١) سلف ٨/ ٦٩، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ١٣.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٤.

(٣) في التفسير ١٥/ ٥٢٥.

(٤) ونسبه ابن الجوزي أيضاً في زاد المسير ٥/ ٢٢٧ إلى سعيد بن جبير.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤.

(٦) في تفسير الآية (٤) و(٥) في المسألة الخامسة.

(٧) الكشاف ٢/ ٥٠٨، والقراءات الشاذة ص٨٥.

نطقت بـ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم:٢٦] وإنَّما وردَ بأنها أشارت، فيَقوَى بهذا قولُ مَن قال: إنَّ أمرَها بـ «قولي» إنَّما أُريد به الإشارةُ.

ويُروى أنَّهم لمَّا أشارت إلى الطفلِ قالوا: استخفافُها بنا أشدُّ علينا من زناها، ثم قالوا لها على جهةِ التقريرِ: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ و«كان» هنا ليسَ يرادُ بها الماضي؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ قد كان في المهدِ صبيًّا، وإنَّما هي في معنى هو[١].
وقال أبو عبيدة: «كان» هنا لغو[٢]، كما قال:

وجِيرانٍ لنا كانوا كرامِ[٣]

وقيل: هي بمعنى الوجود والحدوث[٤] كقوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠] وقد تقدّم[٥]. وقال ابنُ الأنباري: لا يجوزُ أن يقالَ: زائدةٌ، وقد نَصبتْ «صبيًّا»، ولا أن يقال: «كان» بمعنى حَدث؛ لأنه لو كانت بمعنى الحدوثِ والوقوعِ؛ لاستغنى فيه عن الخبرِ، تقول: كان الحَرُّ وتكتفي به[٦]. والصحيحُ أنَّ «من» في معنى الجزاء، و«كان» بمعنى يكن، التقديرُ: مَن يكن في المهدِ صبيًّا، فكيفَ نُكلِّمه؟! كما

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤، وبعدها في (م): الآن.

(٢) نقله عنه الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٨، وذكر أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٧ - ٨ عدة مواضع لـ «كان».

(٣) عجز بيت للفرزدق في ديوانه ص٢٩٠، وصدره: فكيف إذا رأيت ديار قومٍ، وسلف ٥/ ٢٦٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٨.

(٥) ٤/ ٤١٨.

(٦) كذا هنا، وقال أبو البركات ابن الأنباري في البيان ٢/ ١٢٥: كان فيها ثلاثة أوجه: الأول: أن تكون بمعنى حدث ووقع، فيكون «صبيًّا» منصوباً على الحال من الضمير في «كان». والثاني: أن يكون بمعنى صار، فيكون «صبيًّا» منصوباً؛ لأنه خبر صار. والثالث: أن تكون «كان» زائدة، و«صبيًّا» منصوبٌ على الحال، والعامل فيها على هذا الاستقرار. ولا يجوز أن تكون «كان» ههنا الناقصة؛ لأنه لا اختصاص لعيسى في ذلك؛ لأنه ما من أحد إلا كان صبيًّا في المهد يوماً من الأيام، وإنما تعجبوا من كلام من وُجد وصار في حال الصبي في المهد.

وقال أبو بكر الأنباري في الأضداد ص٦٢: وقول أبي عبيدة: «كان» زائدة في قوله تبارك وتعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ليس بصحيح؛ لأنها لا تُلغى مبتدأةً ناصبة للخبر.

تقول: كيف أُعطي مَن كان لا يقبلُ عطيةً، أي: مَن يكن لا يقبل. والماضي قد يُذكر بمعنى المستقبلِ في الجزاء[١]؛ كقولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفرقان: ١٠] أي: إن يشأْ يجعل. وتقول: مَن كان إليَّ منه إحسانٌ كان إليهِ مني مثلُه، أي: مَن يكن منه إليَّ إحسانٌ يكن إليه مني مثلُه.

و«المهد» قيل: كان سريراً كالمهد. وقيل: «المهد» هاهنا حِجرُ الأم[٢]. وقيل: المعنى: كيف نكلمُ مَن كان سبيلُه أن ينوَّم في المهدِ لصغرِه، فلمَّا سمع عيسى عليه السلام كلامَهم، قالَ لهم من مرقدِه: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وهي:

الثانية: فقيل: كان عيسى عليه السلام يرضعُ، فلما سمع كلامَهم تركَ الرضاعةَ وأقبل عليهم بوجهه، واتكأ على يساره، وأشار إليهم بسبابته اليمنى، و«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ»[٣] فكان أوّلُ ما نطق به الاعترافَ بعبوديته لله تعالى وربوبيته، ردًّا على مَن غلا مِن بعده في شأنه[٤]. والكتابُ: الإنجيلُ[٥]، قيل: آتاه في تلك الحالةِ الكتاب، وفهمَه وعلمَه، وآتاه النبوَّة كما علَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها، وكان يصومُ ويصلي. وهذا في غايةِ الضعفِ على ما نبينُه في المسألةِ بعد هذا. وقيل: أي: حكم لي بإيتاءِ الكتابِ والنبوةِ في الأزلِ، وإن لم يكنِ الكتابُ منزلاً في الحال[٦]، وهذا أصحُّ. ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ أي: ذا بركاتٍ ومنافعَ في الدين والدعاء إليه ومعلِّماً له. التُّسْتَريُّ: وجعلني آمرُ بالمعروف، وأَنهى عن المنكر، وأُرشدُ الضال، وأَنصرُ المظلوم، وأُغيثُ الملهوف، ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: لأؤدِّيهما إذا أدركني التكليفُ، وأمكنني

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/٣٢٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/١٥، والوسيط ٣/١٨٢ - ١٨٣، وزاد المسير ٥/٢٢٨.

(٢) النكت والعيون ٣/٣٦٩ - ٣٧٠، وأخرج القول الثاني الطبري ١٥/٥٢٧، عن قتادة.

(٣) الكشاف ٢/٥٠٨، والبغوي ٣/١٩٤، والمحرر الوجيز ٤/١٤.

(٤) الوسيط ٣/١٨٣، والنكت والعيون ٣/٣٧٠، وزاد المسير ٥/٢٢٨.

(٥) الكشاف ٢/٥٠٨.

(٦) الوسيط ٣/١٨٣، والبغوي ٣/١٩٤.

أداؤُهما[١]، على القولِ الأخيرِ الصحيح، ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ في موضعِ نصبٍ على الظرف[٢]، أي: دوام حياتي.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ قال ابنُ عباس: لما قال: «وَبَرًّا بِوَالِدَتِي» ولم يقل: بوالديَّ، عُلِمَ أنه شيءٌ من جهةِ الله تعالى، ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أي: متعظماً متكبراً يقتلُ ويضرب على الغضب[٣]. وقيل: الجبارُ الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقًّا قطُّ، ﴿شَقِيًّا﴾ أي: خائباً من الخير. ابن عباس: عاقًّا. وقيل: عاصياً لربه[٤]. وقيل: لم يجعلني تاركاً لأمرِه فأَشقَى كما شقي إبليسُ لمَّا تركَ أمرَه.

الثالثة: قال مالك بنُ أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية: ما أشدَّها على أهلِ القدر! أخبرَ عيسى عليه السلام بما قُضِي من أمرِه، وبما هو كائنٌ إلى أن يموت. وقد روي في قصصِ هذه الآية عن ابنِ زيدٍ وغيره أنهم لمَّا سمعوا كلامَ عيسى أذعنوا وقالوا: إنَّ هذا الأمر[٥] عظيمٌ. ورُوي أنَّ عيسى عليه السلام إنَّما تكلم في طفولَتِه بهذه الآية، ثم عادَ إلى حالة الأطفالِ، حتى مشى على عادةِ البشر إلى أن بلغَ مبلغ الصبيان، فكان نطقُه إظهارَ براءةِ أمه لا أنَّه كان ممَّن يعقلُ في تلك الحالة، وهو كما يُنطِقُ الله تعالى الجوارحَ يومَ القيامة. ولم يُنقَل أنَّه دامَ نطقُه، ولا أنه كان يصلي وهو ابنُ يومٍ أو شهر، ولو كان يدومُ نطقُه وتسبيحُه، ووعظُه وصلاتُه في صغره من وقت الولادةِ؛ لكان مثلُه ممَّا لا ينكتم، وهذا كلُّه مما يدلُّ على فسادِ القولِ الأول، ويصرحُ بجهالةِ قائله. ويدلُّ أيضاً على أنه تكلم في المهد خلافاً لليهود والنصارى. والدليلُ على ذلك إجماعُ الفِرقِ على أنَّها لم تُحَدَّ. وإنَّما صحَّ براءتُها من الزنى بكلامِه في المهد.

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ١٩٥ .

(٢) البيان لابن الأنباري ٢/ ١٢٥ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٣ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٧ .

(٤) زاد المسير ٥/ ٢٣٠ .

(٥) في (د) و(م): لأمر، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ١٥ ، والكلام منه.

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ الصلاةَ والزكاةَ وبرَّ الوالدين كان واجباً على الأمم السالفةِ[(١)]، والقرونِ الخاليةِ الماضية، فهو ممَّا يثبتُ حكمُه، ولم يُنسَخ في شريعة أمرِه. وكان عيسى عليه السلام في غايةِ التواضع؛ يأكلُ الشجر، ويلبسُ الشَّعر، ويجلسُ على التراب، ويأوي حيثُ جَنَّه الليل، لا مسكنَ له، ﷺ[(٢)].

الرابعة: الإشارةُ بمنزلةِ الكلام، وتُفهِم ما يُفهِم القولُ. كيف لا، وقد أَخبر الله تعالى عن مريم فقال: «فأشارت إليه» وفَهِم منها القومُ مقصودَها وغَرَضها، فقالوا: «كيف نكلم» وقد مضى هذا في «آل عمران»[(٣)] مستوفى.

الخامسة: قال الكوفيون: لا يصحُّ قذفُ الأخرس ولا لعانُه[(٤)]. ورُوي مثلُه عن الشعبي، وبه قال الأوزاعيُّ وأحمدُ وإسحاق[(٥)]، وإنَّما يصحُّ القذف عندهم بصريحِ الزنى دون معناه، وهذا لا يصحُّ من الأخرسِ ضرورةً، فلم يكن قاذفاً، ولا يتميزُ بالإشارة الزنى[(٦)] من الوطءِ الحلالِ والشبهةِ. قالوا: واللعانُ عندنا شهاداتٌ، وشهادةُ الأخرسِ لا تقبلُ بالإجماع. قال ابنُ القصار: قولُهم: إنَّ القذفَ لا يصحُّ إلا بالتصريحِ فهو باطلٌ بسائرِ الألسنة ما عدا العربية، فكذلك إشارةُ الأخرس. وما ذكروه من الإجماعِ في شهادةِ الأخرسِ فغلطٌ. وقد نصَّ مالك أنَّ شهادتَه مقبولةٌ إذا فُهِمت إشارتُه[(٧)]، وأنها تقوم مقامَ اللفظِ بالشهادة، وأمَّا مع القدرة باللفظ؛ فلا تقعُ منه إلا باللفظ. قال ابنُ المنذر: والمخالفونَ يُلزِمون الأخرسَ الطلاقَ والبيوع وسائرَ الأحكام، فينبغي أن يكونَ القذفُ مثلَ ذلك. قال المهلبُ: وقد تكونُ الإشارة في كثيرٍ من أبوابِ الفقه أقوى من الكلام، مثلُ قولِه عليه الصلاة والسلام: «بُعِثت أنا والساعة

(١) في (ظ): السابقة.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٥ .
(٣) ٥/ ١٢٣ وما بعدها.
(٤) المبسوط ٧/ ٤٢ ، وبدائع الصنائع ٥/ ٤٦ .
(٥) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٢/ ٥٠٨ - ٥٠٩ ، والمغني ١١/ ١٢٧ - ١٢٨ ، والإشراف ٤/ ٢٦٦ .
(٦) في (م): بالزنى.
(٧) المدونة ٣/ ١١٧ .

كهاتين»[١] نعرفُ قربَ ما بينهما بمقدارِ زيادة الوسطى على السَّبابة. وفي إجماع العقولِ على أنَّ العِيان أقوى من الخبرِ دليلٌ على أنَّ الإشارةَ قد تكون في بعضِ المواضع أقوى من الكلام.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ أي: السلامة عليَّ من الله تعالى[٢]. قال الزَّجاج[٣]: ذُكِرَ السلامُ قبل هذا بغيرِ ألفٍ ولام، فحَسُنَ في الثانية ذِكرُ الألف واللام. وقوله: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ يعني: في الدنيا. وقيل: مِن هَمز الشيطان كما تقدَّم في «آل عمران»[٤]. ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يعني: في القبر، ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يعني: في الآخرة؛ لأنَّ له أحوالاً ثلاثةً: في الدنيا حيًّا، وفي القبرِ ميتاً، وفي الآخرةِ مبعوثاً، فسَلَّم في أحوالِه كلها، وهو معنى قولِ الكلبي. ثم انقطعَ كلامُه في المهدِ حتى بلغَ مبلغَ الغِلمان[٥]. وقال قتادةُ: ذُكِر لنا أنَّ عيسى عليه السلام رأته امرأةٌ يُحيي الموتى، ويُبرئُ الأكْمَه والأبرص في سائرِ آياته، فقالت: طُوبَى للبطنِ الذي حَملك، والثديِ الذي أَرضعك، فقال لها عيسى عليه السلام: طُوبَى لمن تلا كتابَ الله تعالى، واتبعَ ما فيه وعَمِل به[٦].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: ذلك الذي ذكرناه عيسى ابنُ مريم،

---

(١) سلف ١٢/ ٢٦٨ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٨٣ .

(٣) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٩ .

(٤) ٥/ ١٠٣ - ١٠٤ ، والكلام في النكت والعيون ٣/ ٣٧١ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٣٣ .

فكذلك اعتقدوه، لا كما تقولُ اليهود: إنَّه لغير رَشْدَة، وأنه ابنُ يوسف النجار، ولا كما قالت النصارى: إنَّه الإلهُ أو ابنُ الإله[١] ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ قال الكسائي: «قَوْلُ الْحَقِّ» نعتٌ لعيسى[٢]، أي: ذلك عيسى ابنُ مريم [قولُ الحق][٣]. وسُمِّي قولَ الحق كما سُمي كلمةَ الله[٤]، والحقُّ هو اللهُ عزَّ وجلَّ. وقال أبو حاتم: المعنى: هو قولُ الحق. وقيل: التقديرُ: هذا الكلامُ قولُ الحق[٥]. قال ابنُ عباس: يريدُ هذا كلامُ عيسى ﷺ قولُ الحقِّ ليس بباطلٍ، وأُضيف القولُ إلى الحقِّ كما قال: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[٦] [الأحقاف:١٦] أي: الوعد الصدق. وقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف:١٠٩]، أي: وللدَّارُ[٧] الآخرةُ. وقرأ عاصمٌ وعبدُ الله بنُ عامر: «قَوْلَ الْحَقِّ» بالنصب[٨] على الحال، أي: أقولُ قولاً حقًّا، والعاملُ معنى الإشارةِ في «ذلك». الزجاج: هو مصدرٌ، أي: أقولُ قولَ الحق؛ لأنَّ ما قبلَه يدلُّ عليه[٩]. وقيل: مدح[١٠]. وقيل: إغراء.

وقرأ عبدُ الله: «قَالُ الحقِّ»[١١]. وقرأ الحسنُ: «قُولُ الحقِّ» بضمِّ القاف، وكذلك

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٧٢ ، والوسيط ٣/ ١٨٣ ، والطبري ١٥/ ٥٣٤ - ٥٣٥ ، وقوله: لغير رَشْدة، أي: لِزَنية، كما في القاموس (رشد).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦ .

(٣) زيادة يقتضيها السياق، وينظر الطبري ١٥/ ٥٣٥ .

(٤) الكشاف ٢/ ٥٠٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥٣٥ ، والبغوي ٣/ ١٩٥ ، دون ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) في (د) و(م): ولا الدار، والمثبت من (ظ)، وقد سقط هذا الموضع من (ف) و(ز)، والكلام في معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٨ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦ ، والتيسير ص١٤٩ .

(٩) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٩ ، ونقل عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦ - ١٧ .

(١٠) الكشاف ٢/ ٥٠٩ .

(١١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٣٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥ ، والقراءات الشاذة ص٨٤ .

في «الأنعام» ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام:٧٣]. والقَوْلُ والقَالُ والقُولُ بمعنى واحد، كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْبِ(١)، ﴿الَّذِي﴾ من نعتِ عيسى، ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، أي: يَشكُّون(٢)، أي: ذلك عيسى ابنُ مريم الذي فيه يمترون القولَ الحقَّ. وقيل: «يمترون» يختلفون(٣).

ذكر عبدُ الرزاق قال: أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: اجتمعَ بنو إسرائيلَ، فأخرجوا منهم أربعةَ نفر، أَخرج كلُّ قوم عالمهم، فامترَوا في عيسى حينَ رُفع، فقال أحدُهم: هو اللهُ هبَط إلى الأرضِ فأحيا مَن أحيا، وأَمات مَن أمات، ثم صَعِد إلى السماءِ. وهم اليعقوبيةُ، فقالت الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنانِ منهم للثالث: قل فيه، قال: هو ابن الله. وهم النُّسطُورية، فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحدُ الاثنين للآخر: قل فيه، فقال: هو ثالثُ ثلاثة، اللهُ إلهٌ، وهو إله، وأمُّه إلهٌ، وهم الإسرائيليةُ ملوكُ النَّصارى. قال الرابع: كذبت، بل هو عبدُ الله ورسولُه وروحُه وكلمته. وهم المسلمون، فكان لكلِّ رجلٍ منهم أتباعٌ، على ما قال، فاقتَتلوا فظُهِر على المسلمين، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:٢١]. وقال قتادةُ: وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم:٣٧]، اختلفوا فيه فَصاروا أحزاباً(٤).

فهذا معنى قولِه: «الذي فيه تمترون» بالتاءِ المعجمةِ من فوق، وهي قراءةُ أبي عبدِ الرحمن السُّلَميِّ وغيرِه(٥). قال ابنُ عباس: ففرَّ(٦) بمريم ابنُ عمِّها ومعها ابنُها إلى مصرَ، فكانوا فيها اثنتي عشرةَ سنة حتى ماتَ الملكُ الذي كانوا يخافونه؛

---

(١) الكشاف ٢/٥٠٩ .

(٢) الوسيط ٣/١٨٣ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٧٢ .

(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/٨ ، وأخرجه من طريقه الطبري ١٥/ ٥٣٧ - ٥٣٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٥ ، وهي قراءة علي بن أبي طالب كما في الكشاف ٢/ ٥٠٩ .

(٦) في (م) و(ظ) و(د): فمرَّ، وسقط هذا الموضع من (ف) و(ز)، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٣٧٣ .

ذكره الماوردي.

قلت: ووقعَ في «تاريخِ مصرَ» فيما رأيتُ: وجاءَ في الإنجيلِ[١]: الظاهرُ أنَّ السيدَ المسيحَ لمَّا وُلد في بيتِ لحم كان هيرودس في ذلك الوقت ملكاً، وأنَّ الله تعالى أوحى إلى يوسفَ النجار في الحُلم وقال له: قم فخذِ الصبيَّ وأمَّه، واذهب إلى مصرَ، وكن هناك حتى أقولَ لك، فإنَّ هيرودس مُزمعٌ أن يطلبَ عيسى لِيُهلكَه، فقام من نومه: وامتثل أمرَ ربِّه، وأخذ السيدَ المسيح ومريمَ أمَّه وجاءَ إلى مصر[٢]، وفي حالِ مجيئِه إلى مصر نزلَ ببئرِ البَلَسان[٣] التي بظاهرِ القاهرة، وغَسلتْ ثيابَه على ذلك البئر، فالبَلَسانُ لا يطلعُ ولا ينبت إلا في تلك الأرض، ومنه يخرجُ الدهنُ الذي يخالطُ الزيتَ الذي تُعمِّدُ به النصارى، ولذلك كانت قاروةٌ واحدة في أيامِ المصريين لها مقدارٌ عظيم، وتقع في نفوسِ ملوك النصارى مثل ملكِ القُسْطَنطينيَّة، وملكِ صِقِلِّية[٤]، وملكِ الحبشة، وملك النُّوبة، وملك الفِرَنْجة، وغيرهم من الملوكِ عندما يهاديهم به ملوكُ مصرَ موقعاً جليلاً جدًّا، وتكون أحبَّ إليهم من كل هديةٍ لها قدرٌ، وفي تلك السَّفْرةِ وصل السيدُ المسيح إلى مدينةِ الأُشمونين[٥] وقسقام المعروفة الآن بالمحرقة[٦]، فلذلك يُعظمها النصارى إلى الآن، ويحضرون إليها في عيد الفصح

---

(١) إنجيل متى ص٣٧ - ٣٩.

(٢) الكلام بنحوه في تاريخ الطبري ١/ ٦٠٥.

(٣) البَلَسانُ: شجر صغار كشجر الحناء لا ينبت إلا بعين شمس ظاهر القاهرة، يُتنافس في دهنها. القاموس (بلس).

(٤) القُسطنطينية: اصطنبول، وهي دار ملك الروم، وصِقلية، بكسرات مشددة اللام: أكبر جُزر البحر الأبيض المتوسط. معجم البلدان ٤/ ٣٤٧، ودائرة معارف البستاني ١٠/ ٧٤٥.

(٥) الأُشمونين: مدينة قديمة أزلية عامرة آهلة وهي قصبة كورة من كُوَر الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير، سُميت باسم عامرها، وهو أُشمن بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح. معجم البلدان ١/ ٢٠٠.

(٦) وهي ديرُ المُحَرَّق في غربي النيل بمصر على رأس جبل من الصعيد الأدنى. معجم البلدان ٢/ ٥٣٢ - ٥٣٣، وتعرف اليوم باسم الدير المحرق، وهي تابعة لمركز منفلوط.

من كل مكان؛ لأنها نهايةُ ما وصلَ إليها من أرضِ مصر، ومنها عادَ إلى الشام. والله أعلم.

قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾، أي: ما ينبغي له ولا يجوز ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ «من» صلةٌ للكلام، أي: أن يتخذَ ولداً[١]. و«أن» في موضعِ رفع اسم «كان»[٢]، أي: ما كان لله أن يتخذَ ولداً، أي: ما كان من صفتِه اتخاذُ الولد، ثم نَزَّه نفسَه تعالى عن مقالتهم فقال: ﴿سُبْحَانَهُۥٓ﴾[٣] أن يكون له ولدٌ، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تقدم في «البقرة»[٤] مستوفى.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ قرأ أهلُ المدينة، وابنُ كثير، وأبو عمرو بفتح «أن»، وأهلُ الكوفة «وإن» بكسر الهمزةِ على أنه مستأنف[٥]، تدلُّ عليه قراءةُ أبيٍّ: «كُنْ فَيَكُون. إنَّ اللهَ» بغير واوٍ[٦] على العطف على: «قَالَ إنِّي عبدُ اللهِ».

وفي الفتح أقوالٌ: فمذهبُ الخليلِ وسيبويه أنَّ المعنى: ولأنَّ الله ربي وربُّكم، وكذا ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨] ف «أن» في موضعِ نصب عندهما. وأجاز الفراءُ أن يكونَ في موضعِ خفضٍ على حذف اللام، وأجاز أن يكون أيضاً في موضعِ خفضٍ بمعنى: وأَوصاني بالصلاةِ والزكاةِ ما دمتُ حيًّا، وبأنَّ الله ربي وربكم. وأجازَ الكسائيُّ أن يكون في موضعِ رفعٍ بمعنى: والأمرُ أنَّ الله ربي وربُّكم. وفيها قولٌ خامس حكى أبو عبيد أنَّ أبا عمرو بنَ العلاء قاله، وهو أن يكون المعنى: وقضى أنَّ الله ربي وربكم[٧]، فهي معطوفةٌ على قوله: «أمراً» من قوله: «إِذَا قَضَى أَمْراً»

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٢٩، والبيان ٢/ ١٢٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧، والطبري ١٥/ ٥٣٨.

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٣.

(٤) ٢/ ٣٣٦ وما بعدها.

(٥) السبعة ص٤١٠، والتيسير ص١٤٩، والطبري ١٥/ ٥٣٩ - ٥٤٠.

(٦) الطبري ١٥/ ٥٤٠، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٨، والكشاف ٢/ ٥٠٩، والمحرر الوجيز ٤/ ١٦، وهي قراءة شاذة.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧ - ١٨.

والمعنى: إذا قضى أمراً وقضى أنَّ الله. ولا يبتدأ بـ «أن» على هذا التقدير، ولا على التقديرِ الثالث، ويجوز الابتداءُ بها على الأوجه الباقية، ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي: دينٌ قويم لا اعوجاجَ فيه.

قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ «من» زائدة، أي: اختلفَ الأحزاب بينهم[1]. وقال قتادة: أي: ما بينهم. فاختلفت الفرقُ من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام، فاليهودُ بالقدحِ والسحر. والنَّصارى قالت النُّسطوريةُ منهم: هو ابنُ الله. والملكانيةُ: ثالث ثلاثة. وقالت اليعقوبية: هو الله، فأفرطتِ النصارى وغَلَت، وفرَّطتِ اليهودُ وقصَّرت[2]. وقد تقدَّم هذا في «النساء»[3]. وقال ابنُ عباس: المرادُ من الأحزابِ الذين تَحزَّبوا على النبي ﷺ وكذَّبوه من المشركين .﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: من شهودِ يومِ القيامة[4]، والمشهدُ بمعنى المصدر، والشهودُ الحضورُ، ويجوزُ أن يكونَ الحضور لهم، ويضاف إلى الظرفِ لوقوعِه فيه، كما يقال: ويلٌ لفلانٍ من قتال يومِ كذا، أي: من حضورِه ذلك اليوم. وقيل: المشهد بمعنى الموضع الذي يشهدُه الخلائقُ[5]، كالمحشر للموضعِ الذي يُحشَر إليه الخلقُ. وقيل: فويلٌ للذين كفروا من حضورِهم المشهدَ العظيم الذي اجتمعوا فيه للتشاور، فأَجمعوا على الكفرِ بالله، وقولِهم: إنَّ الله ثالثُ ثلاثة[6].

قوله تعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ﴾ قال أبو العباس: العربُ تقولُ هذا في

---

(١) الوسيط ٣/ ١٨٤ .

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٣٢٤ ، والكشاف ٢/ ٥٠٩ ، وزاد المسير ٥/ ٢٣٢ - ٢٣٣ . والنسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمن المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. والملكانية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم، واستولى عليها، ومعظم الروم ملكانية. واليعقوبية: أصحاب يعقوب، وهذه الفرق كبار فرق النصارى. الملل والنحل ١/ ٢٢٢ - ٢٢٥ .

(٣) ٧/ ٢٣٠ - ٢٣٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦ ، ومعاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٣٠ .

(٥) تهذيب اللغة ٦/ ٧٥ .

(٦) الكلام بنحوه في الكشاف ٢/ ٥٠٩ .

موضعِ التعجب، فتقول: أسمعْ بزيد وأبصرْ بزيد، أي: ما أَسمعه وأَبصره[١]. قال: فمعناه أنه عَجَّب نبيَّه منهم. قال الكلبي: لا أحدَ أسمعُ منهم يومَ القيامة ولا أبصرُ، حين يقولُ الله تبارك وتعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٢] [المائدة:١١٦]. وقيل: «أسمع» بمعنى الطاعة، أي: ما أَطوعهم لله في ذلك اليوم، ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: في الدنيا[٣] ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأيُّ ضلالٍ أبينُ من أن يعتقدَ المرءُ في شخصٍ مثلِه حَملته الأرحامُ، وأكلَ وشربَ، وأحدثَ واحتاجَ أنَّه إله؟! ومَن هذا وصفُه، فهو أصمُّ أعمى ولكنه سيبصرُ ويسمع في الآخرة إذا رأى العذاب، ولكنَّه لا ينفعه ذلك؛ قال معناهُ قتادةُ وغيره[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ رُوي عن عبدِ الله بنِ مسعود أنه قال: ما من أحدٍ يدخل النارَ إلا وله بيتٌ في الجنة فيتحسر عليه. وقيل: تقع الحسرةُ إذا أُعطي كتابَه بشماله[٥]. «إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ» أي: فُرِغ من الحساب، وأُدخِل أهلُ الجنة الجنةَ، وأهلُ النار النار. وفي «صحيح» مسلم من حديث أبي سعيدٍ الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخلَ أهلُ الجنة الجنةَ، وأهلُ النارِ النار يُجاء بالموتِ يومَ القيامة كأنه كبشٌ أَمْلَحُ، فيوقفُ بين الجنةِ والنار، فيقال: يا أهلَ الجنة، هل تعرفونَ هذا؟ فيَشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. قال: ثم يقال: يا أهلَ النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. قال: فيُؤمر به فيذبحُ، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلودٌ فلا موت، ويا أهلَ النار، خلودٌ فلا موت. ثم قرأَ رسولُ الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾»[٦]

(١) ذكر نحو هذا الكلام في المقتضب ٤/ ١٨٣.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١٩٦.

(٣) الطبري ١٥/ ٥٤٤.

(٤) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٥٤٣، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٧٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨.

(٦) صحيح مسلم (٢٨٤٩): (٤٠) (٤١)، وهو عند أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠). والأملح: =

خرَّجه البخاري بمعناه عن ابنِ عمر[١]، وابنُ ماجه من حديثِ أبي هريرة[٢]، والترمذي[٣] عن أبي سعيدٍ يرفعُه وقال فيه: حديثٌ حسن صحيح. وقد ذكرنا ذلك في كتابِ «التذكرة»[٤] وبيَّنا هناكَ أنَّ الكفار مخلَّدون بهذه الأحاديثِ والآي ردًّا على مَن قال: إنَّ صفةَ الغضب تنقطع، وإنَّ إبليسَ ومَن تبعه من الكفرة كفرعونَ وهامانَ وقارونَ وأشباهِهم يدخلون الجنةَ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نُميت سكانَها فنرثُها[٥]، ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يومَ القيامةِ فنجازي كلًّا بعمله، وقد تقدَّم هذا في «الحجرِ»[٦] وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ المعنى: واذكر في

= الذي بياضُه أكثر من سواده، وقيل: هو النقي البياض. النهاية في غريب الحديث (ملح).

(١) صحيح البخاري (٦٥٤٨)، وهو عند أحمد (٥٩٩٣)، ومسلم (٢٨٥٠).

(٢) سنن ابن ماجه (٤٣٢٧)، وهو عند أحمد (٧٥٤٦).

(٣) في السنن (٢٥٥٨).

(٤) ص٤٣٥ وما بعدها.

(٥) الوسيط ٣/ ١٨٥ .

(٦) ١٢/ ٢٠٠ .

الكتاب الذي أُنزِلَ عليك ـ وهو القرآن ـ قصةَ إبراهيم وخبرَه[١]. وقد تقدَّم معنى الصِّدِّيق في «النساء»[٢]، واشتقاق الصدق في «البقرة»[٣] فلا معنى للإعادة. ومعنى الآية: اقرأ عليهم يا محمد في القرآن أمرَ إبراهيم، فقد عرفوا أنَّهم من ولده، فإنَّه كان حنيفاً مسلماً وما كان[٤] يتَّخِذُ الأنداد، فهؤلاء لِمَ يتخذون[٥] الأنداد؟! وهو كما قال: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر، وقد تقدَّم[٦]: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ قد تقدَّم القولُ فيه في «يوسف»[٧] ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ أي: لأيِّ شيءٍ تعبد ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ يريد الأصنام[٨].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: من اليقين والمعرفة بالله وما يكون بعد الموت، وأنَّ مَنْ عبَدَ غيرَ الله عُذِّب ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ﴾ إلى ما أدعوكَ إليه. ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: أُرشِدُكَ إلى دينٍ مستقيمٍ فيه النجاة[٩].

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تُطِعْه فيما يأمرك به من الكفر، ومَن أطاع شيئاً في معصية فقد عبَدَه[١٠]. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ «كان» صلة زائدة. وقيل: بمعنى صار[١١]. وقيل: بمعنى الحال[١٢]، أي: هو للرحمن. وعصيًّا وعاصٍ بمعنى

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣١ .

(٢) ٦/ ٤٤٩ .

(٣) ١/ ٣٥١ .

(٤) كلمة «كان» ليست في النسخ الخطية، وهي في (م).

(٥) في النسخ الخطية: يتخذوا، وفي (م) على الصواب.

(٦) ٨/ ٤٣٣ .

(٧) ١١/ ٢٤٥ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٢ .

(٩) الوسيط ٣/ ١٨٥ .

(١٠) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٤ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ .

(١١) تقدم هذا المعنى في سورة البقرة ١/ ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(١٢) تفسير البغوي ٣/ ١٩٧ .

واحد. قاله الكسائي[١].

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: إن مِتَّ على ما أنت عليه[٢]. ويكون «أخاف» بمعنى أعلم[٣]. ويجوز أن يكون «أخاف» على بابها، فيكون المعنى: إني أخافُ أن تموت على كفرك فيمسَّكَ العذاب[٤]. ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ أي: قريناً في النار[٥].

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ أي: أترغب عنها إلى غيرها. ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ﴾ قال الحسن: يعني بالحجارة. الضحاك: بالقول؛ أي: لأشتمنَّك[٦]. ابن عباس: لأضربنَّك[٧]. وقيل: لأُظهرَنَّ أمرَك. ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾. قال ابن عباس: أي: اعتزِلْني سالمَ العِرْضِ لا يُصِبْكَ مني مَعرَّة[٨]. واختاره الطبري[٩]، فقوله: «مليًّا» على هذا حالٌ من إبراهيم. وقال الحسن ومجاهد: «مليًّا»: دهراً طويلاً؛ ومنه قول المُهلهل:

فَتَصدَّعَتْ صُمُّ الجبالِ لموته وبَكَتْ عليه المُرْمِلاتُ مليًّا[١٠]

قال الكسائي: يقال: هجرتُه مليًّا ومَلْوةً ومُلْوةً ومَلَاوةً ومُلَاوةً[١١]، فهو على هذا القول ظرف[١٢]، وهو بمعنى الملاوة من الزمان، وهو الطويل منه.

---

(١) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٩ .
(٢) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥١ .
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٩ .
(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥١ ، ومجمع البيان ٢١/ ٤٢ بمعناه.
(٥) الوسيط ٣/ ١٨٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٩٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢٣٦ .
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨ . وأخرج الطبري ١٥/ ٥٥٢ قول الضحاك.
(٧) تفسير البغوي ٣/ ١٩٧ .
(٨) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٣٣٥ عن الضحاك. وكذلك أخرجه الطبري ٥/ ٥٥٥ .
(٩) في تفسيره ١٥/ ٥٥٥ .
(١٠) النكت والعيون ٣/ ٣٧٤ .
(١١) نقله عنه النحاس في معاني القرآن ٤/ ٣٣٥ .
(١٢) إملاء ما منَّ به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٢/ ٥٥٨ ، ومجمع البيان ١٦/ ٤١ .

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ لم يُعارِضْه إبراهيم عليه السلام بسوء الردِّ؛ لأنَّه لم يؤمَرْ بقتاله على كفره. والجمهور على أنَّ المرادَ بسلامه المسالمةُ التي هي المتاركةُ لا التحية؛ قال الطبري: معناه: أمنةً مني لك، وعلى هذا لا يُبدَأ الكافرُ بالسلام. وقال النقَّاش: حليمٌ خاطبَ سفيهاً، كما قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو تحية مفارق؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها[1]. قيل لابن عُيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [الممتحنة: ٤]؛ وقال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾[2].

قلت: الأظهرُ من الآية ما قاله سفيان بن عيينة، وفي الباب حديثان صحيحان؛ روى أبو هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهودَ والنصارى بالسلام، فإذا لقيتُم أحدَهم في الطريق فاضطرُّوه إلى أضيقِه» خرَّجه مسلم[3]. وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أنَّ النبيَّ ﷺ ركبَ حماراً عليه إكافٌ تحته قطيفةٌ فَدَكيَّةٌ، وأردف وراءه أسامة بن زيد، وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مرَّ في مجلسٍ فيه أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عَبَدةِ الأوثان واليهودِ، وفيهم عبد الله بن أُبيٍّ ابنِ سلول، وفي المجلس عبد الله بن رَوَاحة، فلما غشيتِ المجلسَ عجاجةُ الدابَّة، خَمَّرَ عبدُ الله بن أُبيٍّ أنفَه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا. فسلَّم عليهم النبيُّ ﷺ... الحديث[4]. فالأولُ يُفيد ترك السلام عليهم ابتداءً؛ لأنَّ ذلك

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩ .

(٢) عزاه الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٩ إلى الطبري.

(٣) صحيح مسلم (٢١٦٧). ووقع في (د) و(م): خرجه البخاري ومسلم. والحديث أخرجه أحمد (٧٥٦٧).

(٤) صحيح البخاري (٥٦٦٣)، وصحيح مسلم (١٧٩٨). وأخرجه أحمد (٢١٧٦٧). قال السندي في حاشيته على المسند: إكاف: هو للحمار كالسرج للفرس. فدكية: نسبة إلى فدك. عجاجة الدابة: غبارها الذي يثيره مشي الدابة. خمَّر: غطى.

إكرام، والكافرُ ليس أهلَه. والحديث الثاني يُجَوِّزُ ذلك. قال الطبري: ولا يُعارَضُ ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، فإنه ليس في أحدهما خلافٌ للآخر؛ وذلك أنَّ حديثَ أبي هريرة مَخرَجُه العموم، وخبر أسامةَ يُبيِّن أنَّ معناه الخصوص. وقال النَّخعَي: إذا كانت لك حاجةٌ عند يهوديٍّ أو نصرانيٍّ فابدأه بالسلام. فبان بهذا أنَّ حديث أبي هريرة «لا تبدؤوهم بالسلام» إذا كان لغير سببٍ يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسلام، من قضاء ذِمامٍ أو حاجةٍ تَعرُضُ لكم قِبَلَهم، أو حقِّ صحبةٍ أو جوارٍ أو سفر. قال الطبري: وقد رُوي عن السَّلف أنَّهم كانوا يُسلِّمون على أهل الكتاب. وفعله ابن مسعود بدهقانٍ صحِبَه في طريقه؛ قال علْقَمة: فقلتُ له: يا أبا عبد الرحمن، أليس يُكرَهُ أن يُبدَؤوا بالسلام؟ قال: نعم، ولكن حقُّ الصحبة. وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمرُّ بمسلمٍ ولا نصرانيٍّ ولا صغيرٍ ولا كبيرٍ إلا سلَّمَ عليه، فقيل له في ذلك، فقال: أُمِرْنا أن نُفشي السلام. وسُئِلَ الأوزاعيُّ عن مسلمٍ مَرَّ بكافرٍ فسلَّم عليه، فقال: إن سلَّمتَ فقد سلَّمَ الصالحون قبلك، وإن تركت فقد تركَ الصالحون قبلك. ورُوي عن الحسن البصريِّ أنه قال: إذا مررتَ بمجلسٍ فيه مسلمونَ وكفارٌ فسَلِّمْ عليهم.

قلت: وقد احتجَّ أهلُ المقالة الأولى بأنَّ السلام الذي معناه التحية إنَّما خُصَّ به هذه الأمة؛ لحديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى أعطى أمتي ثلاثاً لم يُعطِ[1] أحداً قبلهم السلام، وهي تحية أهل الجنة» الحديث[2]. ذكره الترمذيُّ الحكيم؛ وقد مضى في الفاتحة بسنده[3]. وقد مضى الكلام في معنى قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾. وارتفعَ السلامُ بالابتداء، وجاز ذلك مع نكرته؛ لأنه نكرةٌ مُخصَّصةٌ، فقرنتِ المعرفة[4].

---

(١) في (م): تُعط.

(٢) كلمة الحديث ليست في النسخ الخطية، وهي في (م).

(٣) نوادر الأصول ٢/ ١٨٥، وقد سلف ١/ ٢٠١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٩. وفيه: فقربت من المعرفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾: الحفيُّ: المبالِغُ في البرِّ والإلطاف، يُقال: حَفِيَ به وتَحفَّى إذا بَرَّه[1]. وقال الكسائيُّ: يقال: حَفِي بي حَفاوةً وحِفْوةً[2]. وقال الفراء[3]: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ أي: عالماً لطيفاً يُجيبني إذا دعوتُه.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ العزلة: المفارقة، وقد تقدَّم في «الكهف» بيانُها[4]. وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ قيل: أراد بهذا الدعاء أن يهَبَ اللهُ تعالى له أهلاً وولداً يتقوَّى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزالِ عن قومه. ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: آنسنا وحشته بولد. عن ابن عباس وغيره[5]. وقيل: «عسى» يدلُّ على أنَّ العبد لا يُقطَعُ بأنه يبقى على المعرفة أم لا في المستقبل. وقيل: دعا لأبيه بالهداية. فـ«عسى» شكٌّ؛ لأنه كان لا يدري هل يُستجابُ له فيه أم لا؟ والأول أظهر. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي: أثنَيْنا عليهم ثناءً حسناً[6]؛ لأنَّ جميع المِلل تُحسِنُ الثناءَ عليهم[7]. واللسان يُذكَّر ويؤنَّث، وقد تقدَّم[8].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: واقرأ عليهم من القرآن قصَّة موسى. ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخلِصاً﴾ في عبادته غيرَ مُراءٍ. وقرأ أهل الكوفة: بفتح اللام[9]، أي:

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٦ .
(٢) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٩ .
(٣) في معاني القرآن له ٢/ ١٦٩ .
(٤) ص٢٢٥ من هذا الجزء.
(٥) تفسير البغوي ٣/ ١٩٨ من غير نسبة.
(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٣٦ ، والوسيط ٣/ ١٨٦ .
(٧) مجمع البيان ١٦/ ٤٤ بمعناه.
(٨) ٥/ ١٨٤ .
(٩) السبعة ص٤١٠ ، والتيسير ص١٤٩ .

أخلصناه فجعلناه مختاراً[(١)] . ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾ أي: كلَّمناه ليلةَ الجمعة . ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: يمين موسى، وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبلَ من مَدْين إلى مصر، قاله الطبريُّ[(٢)] وغيره، فإنَّ الجبالَ لا يمينَ لها ولا شمال[(٣)].

﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ نصب على الحال[(٤)]، أي: كلَّمناه من غير وحي[(٥)]. وقيل: أدنيناه لتقريب المنزلة حتى كلَّمناه[(٦)]. وذكر وكيع وقبيصة عن سفيان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: «وقرَّبناه نجيًّا» أي: أُدنيَ حتى سمعَ صريرَ الأقلام[(٧)] . ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾ وذلك حين سأل فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَـٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩-٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ﴾ اختلف فيه، فقيل: هو إسماعيل ابن حزقيل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جِلْدة رأسه، فخيَّره الله تعالى فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضي بثوابه، وفوَّض أمرهم إليه في عفوه وعقوبته. والجمهور أنَّه

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٦ .

(٢) في التفسير ١٥/ ٥٥٩ .

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢١ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٦ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٣ .

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٣٣ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٧٣ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

إسماعيل الذبيح أبو العرب ابن إبراهيم[١]. وقد قيل: إنَّ الذبيحَ إسحاق[٢]، والأول أظهر على ما تقدَّم، ويأتي في «والصافات»[٣] إن شاء الله تعالى. وخصَّه الله تعالى بصِدْق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء؛ تشريفاً له وإكراماً، كالتلقيب بنحو الحليم والأوَّاه والصِّدِّيق؛ ولأنَّه المشهور المتواصف من خصاله[٤].

الثانية: صِدْق الوعد محمود، وهو من خُلُق النبيِّين والمرسلين، وضدُّه ـ وهو الخُلْف ـ مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدَّم بيانه في «براءة»[٥].

وقد أثنى الله تعالى على نبيِّه إسماعيل فوصفَه بصِدْق الوعد، واختلف في ذلك، فقيل: إنَّه وعد من نفسه بالصبر على الذبح، فصبر حتى فدي[٦]. هذا في قول من يرى أنَّه الذبيح. وقيل: وعَد رجلاً أن يلقاه في موضع، فجاء إسماعيل وانتظر الرجلَ يومه وليلته، فلما كان في اليوم الآخر جاء فقال له: ما زلت هاهنا في انتظارك منذ أمس[٧]. وقيل: انتظره ثلاثةَ أيَّام[٨]. وقد فعل مثلَه نبيُّنا ﷺ قبل بعثه، ذكره النقَّاش، وخرَّجه الترمذيُّ وغيره[٩] عن عبد الله بن أبي الحَمْساء قال: بايعتُ النبيَّ ﷺ ببيع قبل

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٧٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠.

(٣) عند الآية (١٠٢).

(٤) الكشاف ٢/ ٥١٣.

(٥) ١٠/ ٣١٢.

(٦) الكشاف ٢/ ٥١٣.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢١.

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٦ وعزاه إلى مقاتل.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢١، والحديث أخرجه أبو داود (٤٩٩٦)، وابن سعد في الطبقات ٧/ ٥٩، وابن أبي الدنيا في الصمت (٤٦٠)، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص٣١ - ٣٢، والطبراني في الكبير ٣/ ٢٢٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٩٨، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٢٦ وقال: هذا حديث لا يصح. اهـ. ولم نقف عليه عند الترمذي.

أن يُبعَث، وبَقيتْ له بقيَّة، فوعدته أن آتيَه بها في مكانه فنسيتُ، ثم ذكرتُ بعد ثلاثة أيام، فجئتُ فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى لقد شَققت عليَّ، أنا هاهنا منذ ثلاثٍ أنتظرك» لفظ أبي داود. وقال يزيد الرقاشيُّ: انتظره إسماعيل اثنين وعشرين يوماً، ذكره الماورديُّ[(١)]. وفي كتاب ابن سلَّام أنَّه انتظره سنةً[(٢)]. وذكره الزمخشريُّ[(٣)] عن ابن عباس أنَّه وعدَ صاحباً له أن ينتظره في مكان، فانتظره سنةً. وذكره القشيريُّ قال: فلم يبرح من مكانه سنةً حتى أتاه جبريلُ عليه السلام، فقال: إنَّ التاجر الذي سألك أن تقعد له حتى يعودَ هو إبليس، فلا تقعد، ولا كرامةَ له. وهذا بعيدٌ ولا يصحُّ. وقد قيل: إنَّ إسماعيل لم يَعِد شيئاً إلا وَفَّى به، وهذا قول صحيح، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية، والله أعلم.

الثالثة: من هذا الباب قوله ﷺ: «العِدَة دَيْن»[(٤)]. وفي الأثر: «وَأي المؤمن واجب» أي: في أخلاق المؤمنين. وإنَّما قلنا: إنَّ ذلك ليس بواجب فرضاً؛ لإجماع العلماء على ـ ما حكاه أبو عمر[(٥)] ـ أنَّ من وعَد بمال ما كان لِيَضْرِب به مع الغرماء، فلذلك قلنا: إيجاب الوفاء به حسَن مع المروءة، ولا يقضى به. والعرب تمتدح بالوفاء، وتذمُّ بالخُلْف والغَدْر، وكذلك سائر الأمم، ولقد أحسن القائل:

متى ما يقلْ حُرٌّ لصاحبِ حاجةٍ   نَعَمْ يقضِها والحرُّ لِلوَأي ضامِن[(٦)]

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٣٧٦ ، وأخرجه عنه ابن أبي الدنيا في الصمت (٤٦١).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢١ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥١٣ .

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٥٣٧) عن ابن مسعود، وبرقم (٣٥٣٨) عن ابن مسعود وعلي، مع زيادة في حديث علي، وأبو نعيم في أخبار أصفهان ٢/ ٢٧٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ١/ ٤٠ ، عن علي ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٦٦ عن حديث ابن مسعود: وفيه حمزة بن داود، ضعفه الدارقطني. اهـ وينظر كشف الخفاء ٢/ ٧٣ - ٧٤ .

(٥) في التمهيد ٣/ ٢٠٦ - ٢٠٧ ، وما قبله منه، والأثر أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٢٣) عن زيد بن أسلم، وضعفه ابن حزم في المحلى ٨/ ٢٩ . وقال ابن عبد البر: والوأي: العِدَة.

(٦) التمهيد ٣/ ٢٠٧ ، ونسبه لسابق بن خديم، وما بعده منه.

ولا خلاف أنَّ الوفاءَ يستحقُّ صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخُلْف الذم. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفَّى بنذره، وكفى بهذا مدحاً وثناء، وبما خالفه ذمًّا.

الرابعة: قال مالك: إذا سأل الرجلُ الرجلَ أن يهب له الهبة، فيقول له: نعم، ثم يبدو له ألا يفعل، فما أرى يلزمه. قال مالك: ولو كان ذلك في قضاء دين فسأله أن يقضيَه عنه فقال: نعم، وثَمَّ رجالٌ يشهدون عليه، فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه اثنان. وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعيُّ والشافعيُّ وسائر الفقهاء: إنَّ العِدَة لا يلزم منها شيء؛ لأنَّها منافع لم يقبضها في العاريَّة؛ لأنَّها طارئة، وفي غير العاريَّة هي أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض، فلصاحبها الرجوع فيها(١).

وفي البخاري(٢): ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ وقضى ابن أَشْوَع بالوعد، وذُكر ذلك عن سَمُرة بن جُنْدب. قال البخاريُّ: ورأيت إسحاق بن إبراهيم يحتجُّ بحديث ابنِ أَشْوَع.

الخامسة: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قيل: أُرسل إسماعيلُ إلى جُرْهم(٣). وكلُّ الأنبياء كانوا إذا وعدوا، صَدَقوا، وخصَّ إسماعيل بالذكر؛ تشريفاً له، والله أعلم.

السادسة: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ﴾ قال الحسن: يعني أمَّته. وفي حرفِ ابنِ مسعود: «وكان يأمر أهله جُرْهم وولده بالصلاة والزكاة»(٤).

---

(١) التمهيد ٣/ ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) في صحيحه، في كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، قبل حديث (٢٦٨١). قال ابن حجر في تغليق التعليق ٣/ ٣٩٤: وأما ابن أشوع ـ واسمه سعيد بن عمرو بن أشوع ـ فرواه محمد بن خلف وكيع في كتاب «الغرر من الأخبار» له. اهـ. وقال في فتح الباري ٥/ ٢٩٠: وقد وقع بيان روايته [أي: ابن أشوع] كذلك عن سمرة بن جندب في تفسير إسحاق بن راهويه.

(٣) الوسيط ٣/ ١٨٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢١ ، وفيه أن حرف ابن مسعود: وكان يأمر قومه. وكذا جاءت في البحر المحيط ٦/ ١٩٩ .

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ أي: رضيًّا زاكياً صالحاً(١). قال الكسائيُّ والفرَّاء(٢): من قال: مرضيّ، بناه على رَضِيتُ، قالا: وأهل الحجاز يقولون: مرضوّ. وقال الكسائيُّ والفرَّاء: من العرب من يقول: رِضَوَان ورِضَيَان، فرِضوان على مرضوّ، ورِضَيَان على مرضيّ، ولا يجيز البصريون أن يقولوا إلا رِضوان وربوان. قال أبو جعفر النحَّاس(٣): سمعت أبا إسحاق الزجَّاج يقول: يخطئون في الخطِّ فيكتبون رباً بالياء، ثم يخطئون فيما هو أشدُّ من هذا، فيقولون: رِبيان، ولا يجوز إلا رِبوَان ورِضَوَان، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ إدريس عليه السلام أوَّل من خطَّ بالقلم، وأوَّل من خاط الثياب ولبس المخيط، وأوَّل من نظر في علم النجوم والحساب وسَيْرها. وسُمِّيَ إدريس؛ لكثرة دَرْسه لكتاب الله تعالى(٤). وأنزل الله تعالى عليه ثلاثينَ صحيفةً، كما في حديث أبي ذرٍّ(٥).

الزمخشري(٦): وقيل: سُمِّيَ إدريسُ إدريسَ؛ لكثرة دَرْسه كتاب الله تعالى، وكان اسمه أَخنوخ، وهو غيرُ صحيح؛ لأنَّه لو كان إفعيلاً من الدَّرْس، لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلميَّة وكان منصرفاً، فامتناعه من الصَّرْف دليلٌ على العجمة، وكذلك إبليس أعجميٌّ، وليس من الإبلاس كما يزعمون، ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرال، كما زعم ابنُ السكِّيت، ومن لم يحقِّق ولم يتدرَّب بالصناعة؛ كثرت

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٦.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٦٩ - ١٧٠ ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٠ - ٢١.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٢٠ - ٢١ وما قبله منه.

(٤) عرائس المجالس ص٥٠.

(٥) أخرجه ابن حبان (٣٦١)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٦٦، وفيه: إبراهيم بن هشام بن يحيى، قال عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل ٢/ ١٤٢: كذاب.

(٦) في الكشاف ٢/ ٥١٣.

منه أمثال هذه الهنات، يجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام في تلك اللغة قريباً من ذلك، فحسبه الراوي مشتقًا من الدرس.

قال الثعلبي والغزنوي وغيرهما: وهو جدُّ نوح، وهو خطأ، وقد تقدَّم في «الأعراف» بيانه[(١)]. وكذا وقع في السيرة أنَّ نوحاً عليه السلام بن لامك بن متوشلخ ابن أخنوخ وهو إدريس النبي فيما يزعمون، والله تعالى أعلم ـ وكان أوَّلَ من أُعطي النبوَّة من بني آدم، وخطَّ بالقلم ـ ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن يانش بن شيث بن آدم ﷺ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال أنس بن مالك[(٣)] وأبو سعيد الخدريُّ[(٤)] وغيرهما[(٥)]: يعني: السماء الرابعة. وروي ذلك عن النبي ﷺ، وقاله كعب الأحبار[(٦)]. وقال ابن عباس والضحَّاك: يعني: السماء السادسة[(٧)]، ذكره المهدوي.

قلت: ووقع في البخاري[(٨)] عن شرِيك بن عبد الله بن أبي نَمِر قال: سمعت أنس ابنَ مالك يقول: ليلة أُسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة، الحديث، وفيه: كلُّ سماء فيها أنبياء ـ قد سمَّاهم ـ منهم إدريس في الثانية. وهو وَهَمٌ، والصحيح أنَّه في السماء الرابعة، كذلك رواه ثابت البُنَانِيُّ عن أنس بنِ مالك عن النبي ﷺ، ذكره مسلم في «الصحيح»[(٩)]. وروى مالك بن صعصعة قال: قال النبي ﷺ: «لما عُرجَ بي إلى

---

(١) ٩/ ٢٥٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣.

(٣) أخرجه أحمد (١٣٧٣٩)، والترمذي (٣١٥٧)، وأبو يعلى (٢٩١٤)، والطبري ١٥/ ٥٦٥ عن أنس مرفوعاً. قال الترمذي: وهذا حديث حسن.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٥١، والطبري ١٥/ ٥٦٤ عن أبي سعيد الخدري موقوفاً.

(٥) منهم أبو هريرة وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٥٦٤.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢١.

(٧) أخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٥٦٤.

(٨) برقم (٧٥١٧)

(٩) برقم (١٦٢).

السماء أتَيتُ على إدريسَ في السماء الرابعة». خرَّجه مسلم أيضاً[١].

وكان سببُ رَفْعه على ما قال ابن عباس وكعب وغيرهما: أنَّه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يا ربِّ أنا مشيتُ يوماً فكيف بمن يحملها خمس مئة عام في يوم واحد! اللهمَّ خَفِّف عنه من ثقلها. يعني: الملَك الموكَّل بفلك الشمس، يقول إدريس: اللهمَّ خَفِّف عنه من ثقلها، واحمل عنه من حرِّها. فلما أصبح الملَك وجد من خفَّة الشمس والظلِّ ما لا يعرف، فقال: يا ربِّ خلقتني لحمل الشمس فما الذي قضيت فيه؟ فقال الله تعالى: أما إنَّ عبدي إدريس سألني أن أخفِّف عنك حملها وحرّها، فأَجبتُه، فقال: يا ربِّ اجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلَّة. فأذنَ الله له حتى أتى إدريسَ، وكان إدريس عليه السلام يسأله. فقال: أُخبِرت أنَّك أكرمُ الملائكة وأمكنهم عند مَلَك الموت، فاشفع لي إليه ليؤخِّر أَجَلي، فأزدادَ شكراً وعبادة. فقال الملَك: لا يؤخِّر اللهُ نفساً إذا جاء أجلها، فقال للملَك: قد علمت ذلك ولكنَّه أطيبُ لنفسي. قال: نعم. ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم قال لملَك الموت: لي صديق من بني آدم تشفَّع بي إليك لتؤخِّر أجله. فقال: ليس ذلك إليَّ ولكن إن أحببت عِلمه أعلمته متى يموت. قال: نعم. ثم نظر في ديوانه، فقال: إنَّك تسألني عن إنسان ما أراه يموت أبداً. قال: وكيف؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإني أتيتك وتركته هناك، قال: انطلق فما أَراك تجده إلا وقد مات، فواللهِ ما بقي من أجل إدريس شيء. فرجع الملَك فوجده ميتاً[٢].

وقال السدِّيُّ: إنَّه نام ذات يوم، واشتدَّ عليه حرُّ الشمس، فقام وهو منها في كرب، فقال: اللهمَّ خفِّف عن ملَك الشمس حرَّها، وأَعِنْه على ثقلها، فإنَّه يمارس ناراً حامية. فأصبح ملَك الشمس وقد نُصب له كرسيٌّ من نور، عنده سبعون ألف ملَك

(١) في صحيحه برقم (١٦٤).

(٢) عرائس المجالس ص٥٠ - ٥١ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٩٩ - ٢٠٠ .

عن يمينه، ومثلها عن يساره يخدمونه، ويتولّون أمره وعمله من تحت حكمه، فقال ملَك الشمس: يا ربِّ من أين لي هذا؟. قال: دعا لك رجل من بني آدم يقال له: إدريس. ثم ذكر نحو حديث كعب. قال: فقال له ملَك الشمس: أتريدُ حاجةً؟ قال: نعم، وددت أنّي لو رأيت الجنة. قال: فرفعه على جناحه، ثم طار به، فبينما هو في السماء الرابعة، التقى بملَك الموت ينظر في السماء، ينظر يميناً وشمالاً، فسلَّم عليه ملَك الشمس، وقال: يا إدريس هذا ملَك الموت فسلِّم عليه. فقال ملَك الموت: سبحانَ الله! ولأيِّ معنى رفعته هنا؟ قال: رفعته لأُريه الجنَّة. قال: فإنَّ الله تعالى أمرني أن أقبضَ روح إدريس في السماء الرابعة. قلت: يا ربِّ وأين إدريس من السماء الرابعة، فنزلت فإذا هو معك، فقبض روحَه، فرفعها إلى الجنة، ودفنت الملائكة جثّته في السماء الرابعة، فذلك قوله تعالى: «ورفعناه مكاناً علِياً».

قال وهب بن منبِّه: كان يُرفَع لإدريس كلَّ يوم من العبادة مثل ما يُرفَع لأهل الأرض في زمانه، فعجب منه الملائكة، واشتاق إليه ملَك الموت، فاستأذن ربَّه في زيارته، فأذن له، فأتاه في صورة آدميٍّ، وكان إدريس عليه السلام يصوم النهار، فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه، فأَبى أن يأكل، ففعل به ذلك ثلاثَ ليال، فأنكره إدريس، وقال له: من أنت! قال: أنا ملَك الموت، استأذنتُ ربِّي أن أصحبك فأذن لي، فقال: إنَّ لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: أن تقبضَ روحي. فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحَه، فقبضه وردَّه إليه بعد ساعة، وقال له ملَك الموت: ما الفائدة في قبض روحك؟ قال: لأذوقَ كُرَبَ الموت؛ فأكون له أشدَّ استعداداً. ثم قال له إدريس بعد ساعة: إنَّ لي إليك حاجة أُخرى. قال: وما هي؟ قال: أن ترفعني إلى السماء فأنظر إلى الجنَّة والنار، فأذن الله تعالى له في رَفْعه إلى السماوات، فرأى النار فصَعِقَ، فلما أفاق قال: أرني الجنَّة. فأدخله الجنة، ثم قال له ملَك الموت: اخرج لتعودَ إلى مقرِّك. فتعلَّق بشجرة وقال: لا أخرجُ منها. فبعث الله تعالى بينهما ملَكاً حكماً، فقال: مالك لا تخرج؟ قال: لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وأنا ذقتُه، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] وقد

وردتها، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] فكيف أخرج؟ قال الله تبارك وتعالى لملَك الموت: بإذني دخل الجنة وبأمري يخرج. فهو حيٌّ هنالك فذلك قوله تعالى: «ورفعناه مكاناً علياً»(١).

قال النحَّاس(٢): قول إدريس: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] يجوز أن يكون اللهُ أَعْلَمَ هذا إدريسَ، ثم نزل القرآنُ به.

قال وهب بنُ منبِّه: فإدريس تارةً يرتع في الجنة، وتارةً يعبد الله تعالى مع الملائكة في السماء(٣).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ يريد إدريسَ وحده. ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يريد إبراهيمَ وحده. ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يريد إسماعيلَ وإسحاق ويعقوب. ﴿وَ﴾ من ذرية ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى(٤). فكان لإدريس ونوح شَرَفُ القُرب من آدم، ولإبراهيم شَرَفُ القرب من نوح، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب شَرَفُ القُرب من إبراهيم(٥).

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ أي: إلى الإسلام ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ بالإيمان. ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وقرأ شِبل بن عبَّاد المكِّي: «يتلى» بالتذكير؛ لأنَّ التأنيث غيرُ حقيقيٍّ مع

(١) عرائس المجالس ص٥١ .
(٢) في معاني القرآن ٤/ ٣٣٨ .
(٣) عرائس المجالس ص٥١ .
(٤) زاد المسير ٥/ ٢٤٤ .
(٥) الوسيط ٣/ ١٨٧ .

وجود الفاصل[١].

﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ وصفَهم بالخشوع لله والبكاء. وقد مضى في «سبحان»[٢].

يقال: بكى يبكي بكاءً وبُكًى وبُكيًّا، إلا أنَّ الخليلَ قال: إذا قصرتَ البكاء فهو مثل الحزن، أي: ليس معه صوتٌ، كما قال الشاعر:

بكت عيني وحُقَّ لها بكاها ... وما يغني البكاءُ ولا العَويلُ

«وسجداً» نصبٌ على الحال، «وبكيًّا» عطف عليه[٣].

الثانية: في هذه الآية دلالة على أنَّ لآيات الرحمن تأثيراً في القلوب. قال الحسن: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ في الصلاة. وقال الأصمُّ: المراد بآيات الرحمن الكُتب المتضمِّنة لتوحيده وحُجَجه، وأنَّهم كانوا يسجدون عند تلاوتها، ويبكون عند ذكرها. والمروي عن ابن عباس أنَّ المرادَ به القرآنُ خاصَّة، وأنَّهم كانوا يسجدون ويبكون عند تلاوته. قال الكيا[٤]: وفي هذا دلالةٌ من قوله على أنَّ القرآنَ هو الذي كان يتلى على جميع الأنبياء، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مختصًّا بإنزاله إليه.

الثالثة: احتج أبو بكر الرازيُّ بهذه الآية على وجوب سجود القرآن على المستمِع والقارئ. قال الكيا[٥]: وهذا بعيدٌ، فإنَّ هذا الوصف شاملٌ لكلِّ آيات الله تعالى، وضم السجود إلى البكاء، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في تعظيمهم لله تعالى وآياته، وليس فيه دلالةٌ على وجوب ذلك عند آية مخصوصة.

الرابعة: قال العلماء: ينبغي لمن قرأ سجدةً أن يدعوَ فيها بما يليقُ بآياتها، فإن قرأ سورة السجدة: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ قال: اللهمَّ اجعلني من الساجدين لوجهك،

---

(١) الكشاف ٢/ ٥١٤ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص٨٥ .

(٢) عند الآية (١٠٧) من سورة الإسراء.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢١ ، والبيت لكعب بن مالك، يرثي فيه حمزة ﷺ، وهو في ديوانه ص٢٠٠ .

(٤) في أحكام القرآن له ٤/ ٢٧٠ ، وما قبله منه.

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ٢٧١ ، وما قبله منه.

المسبِّحين بحمدك، وأعوذ بِكَ أن أكون من المستكبرين عن أمْرِك. وإن قرأ سجدة «سبحان» قال: اللهمَّ اجعلني من الباكين إليك، الخاشعين لك. وإن قرأ هذه قال: اللهمَّ اجعلني من عبادك المنعم عليهم، المهديِّين الساجدين لكَ، الباكين عند تلاوة آياتك[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أي: أولاد سوء. قال أبو عبيد: حدَّثنا حجَّاج، عن ابنِ جريج، عن مجاهد قال: ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحي هذه الأمَّة أمَّة محمَّد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزِقَّة زنًى[(٢)]. وقد تقدَّم القول في «خَلْفٌ» في «الأعراف»[(٣)] فلا معنى للإعادة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقرأ عبد الله والحسن: «أَضَاعُوا الصَّلَوَات» على الجمع[(٤)]. وهو ذمٌّ ونصٌّ في أنَّ إضاعةَ الصلاة من الكبائر التي يوبق بها صاحبها، ولا خلافَ في ذلك. وقد قال عمر: ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع[(٥)].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥١٤ .

(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٧٠ من طريق الحسين، عن حجاج، به، وأخرجه أيضاً الطبري ١٥/ ٥٧٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢٨٢ من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد، به. وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٨٧ .

(٣) ٩/ ٣٧١ .

(٤) القراءات الشاذة ص٨٥ .

(٥) سلف ١/ ٢٥٣ .

واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية، فقال مجاهد: النصارى خَلَفوا بعد اليهود. وقال محمد بنُ كعب القرظيُّ ومجاهد أيضاً وعطاء: هم قومٌ من أمَّة محمَّد ﷺ في آخِر الزمان، أي: يكون في هذه الأمَّة مَن هذه صفته، لا أنَّهم المراد بهذه الآية[1].

واختلفوا أيضاً في معنى إضاعتها، فقال القرظيُّ: هي إضاعة كُفْر وجَحْد بها. وقال القاسم بن مخيمرة، وعبد الله بن مسعود: هي إضاعةُ أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها. وهو الصحيح، وأنها إذا صليت مخلًّى بها لا تصحُّ ولا تُجزِئ؛ لقوله ﷺ للرجل الذي صلَّى وجاء فسلَّم عليه: «ارْجِعْ فَصَلِّ فإنَّك لم تُصَلِّ» ثلاث مرات، خرَّجه مسلم[2].

وقال حذيفة لرجل يصلِّي فَطفَّفَ[3]: منذ كم تصلِّي هذه الصلاة؟ قال: منذ أربعينَ عاماً. قال: ما صليتَ، ولو مِتَّ وأنت تصلِّي هذه الصلاة لمتَّ على غيرِ فطرة محمَّد ﷺ. ثم قال: إنَّ الرجل ليخفِّف الصلاةَ ويتمُّ ويُحسِن. خرَّجه البخاريُّ، واللفظ للنسائي[4].

وفي الترمذي عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُجزِئ صلاةٌ لا يُقيم فيها الرجل، يعني: صلبَه في الركوع والسجود» قال: حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيِّ ﷺ ومَن بعدهم، يرون أن يقيم الرجلُ صلبَه في الركوع والسجود. قال الشافعيُّ وأحمد وإسحاق: من لم يُقِمْ صلبَه في الركوع والسجود، فصلاته فاسدة[5].

قال ﷺ: «تلك الصلاةُ صلاةُ المنافق يجلس يَرقُب الشمسَ حتى إذا كانت بين

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢، والكلام الآتي منه أيضاً، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٥/ ٥٧١.

(٢) في صحيحه (٣٩٧)، وهو عند البخاري أيضاً (٧٥٧)، وسلف ١/ ١٨٥.

(٣) من التطفيف، أي: نقص من الركوع والسجود.

(٤) البخاري (٣٨٩)، والنسائي في الكبرى (٦١١)، وهو عند أحمد (٢٣٢٥٨).

(٥) الترمذي (٢٦٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٨٥٥)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٨٣، وابن ماجه (٨٧٠)، وأحمد (١٧٠٧٣).

قرني الشيطان قام فنَقَرها أربعاً لا يَذكُر الله فيها إلا قليلاً»[١]. وهذا ذمٌّ لمن يفعل ذلك. وقال فروة بنُ خالد بنِ سنان: استبطأ أصحابُ الضَّحَّاك مرَّة أميراً في صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب، فقرأ الضَّحَّاك هذه الآيَةَ، ثم قال: واللهِ لَأنْ أدعها أحبُّ إليَّ من أن أضيِّعها.

وجملة القول في هذا الباب أنَّ من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها، ومن لم يُحافِظ عليها فقد ضيَّعها، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع، كما أنَّ من حافظ عليها حفظ اللهُ عليه دينَه، «ولا دينَ لمن لا صلاةَ له»[٢]. وقال الحسن: عطَّلوا المساجدَ، واشتغلوا بالصنائع والأسباب. ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ أي: اللذَّات والمعاصي.

الثالثة: روى الترمذيُّ وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبيِّ أنَّه أتى المدينةَ، فلقيَ أبا هريرة فقال له: يا فتى ألا أحدِّثك حديثاً لعلَّ اللهَ تعالى أن ينفعكَ به. قلت: بلى. قال: «إنَّ أوَّلَ ما يحاسَب به الناس يومَ القيامة من أعمالهم الصلاة، فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته ـ وهو أعلمُ ـ: انظروا في صلاة عبدي أتَمَّها أم نقصها، فإن كانت تامَّة، كتبت له تامَّة، وإن كان انتقص منها شيئاً، قال: انظروا هل لعبدي من تطوُّع فإن كان له تطوُّع، قال: أكملوا لعبدي فريضتَه من تطوُّعه، ثم تُؤخذ الأعمال على ذلك». قال يونس: وأحسِبه عن النبيِّ ﷺ، لفظ أبي داود[٣].

وقال: حدَّثنا موسى بنُ إسماعيل، حدَّثنا حماد، حدَّثنا داود بن أبي هند، عن

---

(١) أخرجه مسلم (٦٢٢)، وهو عند أحمد (١١٩٩٩).

(٢) التمهيد ٢٣/ ٣٠٠، والحديث أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٣١٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أبو داود (٨٦٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٩٠٢)، وابن ماجه (١٤٢٥)، وهو عند الترمذي (٤١٣) من رواية الحسن، عن حريث بن قبيصة، عن أبي هريرة ﷺ، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه. اهـ وسيأتي من رواية النسائي قريباً.

قال الدارقطني في العلل ٨/ ٢٤٨ بعد ما ذكر اضطراب الحديث: أشبهها بالصواب قول من قال: عن الحسن عن أنس بن حكيم عن أبي هريرة.

زُرارة بن أوفى، عن تميم الداريِّ، عن النبيِّ ﷺ بهذا المعنى، قال: «ثم الزكاة مثل ذلك، ثم تُؤخَذ الأعمال على حسب ذلك»[١].

وأخرجه النسائيُّ عن همَّام، عن الحسن، عن حُرَيث بن قَبِيصة، عن أبي هريرة، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّلَ ما يحاسَب به العبدُ يومَ القيامة بصلاته، فإن صلحت، فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت، فقد خابَ وخسر ـ قال همَّام: لا أدري هذا من كلام قتادة، أو من الرواية ـ فإن انتقصَ من فريضتِه شيءٌ، قال: انظروا هل لعبدي من تطوُّع، فيكمل به ما نقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك». خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة: أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ أوَّل ما يحاسَب به العبدُ يومَ القيامة صلاته، فإن وُجدت تامَّة، كتبت تامَّة، وإن كان انتقصَ منها شيءٌ، قال: انظروا هل تجدونَ له من تطوُّع يُكمِّل ما ضيَّع من فريضته من تطوُّعه، ثم سائر الأعمال تَجري على حسب ذلك»[٢]. قال النسائي: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم، قال: حدَّثنا النضر بن شميل، قال: أنبأنا حماد ابن سلمة، عن الأزرق بن قيس، عن يحيى بن يعمر، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «أوَّلُ ما يحاسب به العبد يومَ القيامة صلاته، فإن كان أكملها، وإلا قال الله عزَّ وجلَّ: انظروا لعبدي من تطوُّعٍ، فإن وجد له تطوُّعٍ، قال: أكملوا به الفريضة»[٣].

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب «التمهيد»[٤]: أمَّا إكمال الفريضة من التطوُّع فإنَّما يكون ـ والله أعلم ـ فيمَن سها عن فريضة فلم يأتِ بها، أو لم يُحسِن ركوعَها وسجودها ولم يَدْرِ قَدْرَ ذلك، وأمَّا من تركَها، أو نسي ثم ذكرها، فلم يأتِ بها عامداً، واشتغل بالتطوُّع عن أداءِ فرضها وهو ذاكرٌ له، فلا تكمل له فريضة من تطوُّعه، والله أعلم. وقد روي من حديث الشاميين في هذا الباب حديث منكر يرويه

(١) أبو داود (٨٦٦)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (١٤٢٦). من طريق سليمان بن حرب، عن حماد، به، ومن طريق عفان، عن حماد، عن حميد، عن الحسن، عن رجل، عن أبي هريرة به.
(٢) النسائي في المجتبى ٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣ ، وفي الكبرى (٣٢٢) مقتصراً على الراوية الأولى.
(٣) النسائي في المجتبى ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٤ ، وفي الكبرى (٣٢١).
(٤) ٢٤/ ٨١.

محمد بنُ حمير، عن عمرو بنِ قيس السَّكُوني، عن عبد الله بن قُرْط، عن النبيِّ ﷺ قال: «من صلَّى صلاةً لم يكمل فيها ركوعه وسجوده، زِيْدَ فيها من تسبيحاته حتى تتمَّ». قال أبو عمر: وهذا لا يحفظ عن النبيِّ ﷺ إلا من هذا الوجه، وليس بالقويِّ، وإن كان صحَّ كان معناه أنَّه خرج من صلاة كان قد أتمَّها عند نفسه، وليست في الحكم بتامَّة.

قلت: فينبغي للإنسان أن يُحسِن فرضَه ونَفْله، حتى يكون له نفل يجده زائداً على فرضه يقرِّبه من ربِّه، كما قال سبحانه وتعالى: «وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه»[(١)] الحديث. فأما إذا كان نفل يكمل به الفرض، فحكمه في المعنى حكم الفرض. ومن لا يُحسِن أن يصلِّي الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن التنفُّل، لا جرم تنفل الناس في أشدِّ ما يكون من النقصان والخلل؛ لخفَّته عندهم، وتهاونهم به، حتى كأنَّه غير معتدٍّ به. ولعَمْرُ اللهِ لقد يشاهد في الوجود من يشار إليه، ويظن به العلم تنفُّله كذلك، بل فرضه إذ ينقره نَقْرَ الديك لعدم معرفته بالحديث، فكيف بالجهَّال الذين لا يعلمون. وقد قال العلماء: ولا يُجزِئ ركوع ولا سجود، ولا وقوف بعد الركوع، ولا جلوسٌ بين السجدتين، حتى يعتدل راكعاً وواقفاً وساجداً وجالساً. وهذا هو الصحيح في الأَثَر، وعليه جمهور العلماء وأهل النظر. وهذه رواية ابنِ وهب وأبي مصعب عن مالك. وقد مضى هذا المعنى في «البقرة»[(٢)]. وإذا كان هذا فكيف يكمل بذلك التنفُّل ما نقص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو؟! بل كان ذلك غيرُ صحيح ولا مقبول؛ لأنَّه وقَع على غير المطلوب، والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وعن عليٍّ ﷺ في قوله تعالى: «واتبعوا الشهواتِ» هو من بنى الشديد، وركب المنظور، ولبس المشهور.

قلت: الشهوات عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه. وفي «الصحيح»: «حُفَّت الجنَّةُ بالمكاره، وحُفَّت النَّار بالشهوات»[(٣)]. وما ذكر عن عليٍّ ﷺ

---

(١) سلف ٧/ ٤١١ .
(٢) ١/ ٢٦٢ وما بعدها.
(٣) سلف ٥/ ٤٣ .

جزء من هذا.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال ابن زيد: شرًّا أو ضلالاً أو خيبة[(١)]، قال:

فمن يَلْقَ خيراً يَحمَدِ الناسُ أمْرَهُ ومن يَغْوَ لا يَعْدمْ على الغَيِّ لائما[(٢)]

وقال عبد الله بن مسعود: هو وادٍ في جهنم[(٣)]. والتقدير عند أهل اللغة: فسوف يلقون جزاء الغيِّ، كما قال جلَّ ذكره: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨]. والأظهر أنَّ الغيَّ اسم للوادي سُمِّيَ به؛ لأنَّ الغاوينَ يصيرون إليه[(٤)]. قال كعب: يظهر في آخر الزمان قوم بأيديهم سياط كأذناب البقر، ثم قرأ: «فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» أي: هلاكاً وضلالاً في جهنَّم.

وعنه: غيٌّ: وادٍ في جهنَّم أبعدها قعراً، وأشدّها حرًّا، فيه بئر يسمى البهيم، كلما خبت جهنم، فتح الله تعالى تلك البئر فتسعر بها جهنم. وقال ابن عباس: غيٌّ: وادٍ في جهنم، وإنَّ أودية جهنَّم لتستعيذ من حرِّه، أعدَّ الله تعالى ذلك الوادي للزاني المُصِرِّ على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه، ولأهل العقوق، ولشاهد الزور، ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً ليس منه[(٥)].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ أي: من تضييع الصلاة واتِّباع الشهوات، فرجع إلى طاعة ربِّه. ﴿وَءَامَنَ﴾ به ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾. قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر: «يُدْخَلُون» بفتح الخاء. وفتح الياء الباقون[(٦)].

---

(١) أخرجه عنه الطبري ١٥/ ٥٧٣ - ٥٧٤ .

(٢) القائل: المرقِّش الأصغر، وسلف ٩/ ١٧١ .

(٣) أخرجه هناد في الزهد (٢٧٦)، والطبري ١٥/ ٥٧٢ ، والطبراني في الكبير (٩١١٠).

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٦ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٠١ .

(٦) السبعة ص٢٣٧ - ٢٣٨ ، والتيسير ص٩٧ .

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقص من أعمالهم الصالحة شيء، إلا أنَّهم يكتب لهم بكلٍّ حسنة عشر إلى سبع مئة. ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدلاً من الجنَّة فانتصبت. قال أبو إسحاق الزجَّاج[١]: ويجوز «جَنَّاتُ عَدْنٍ» على الابتداء. قال أبو حاتم: ولولا الخطُّ لكان «جَنَّةَ عدنٍ» لأنَّ قبله: «يَدْخُلونَ الْجَنَّةَ». ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: من عَبده وحفظ عهده بالغيب. وقيل: آمنوا بالجنة ولم يَرَوْها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ «مأتياً» مفعول من الإتيان. وكلُّ ما وصل إليك فقد وصلتَ إليه، تقول: أتت عليَّ ستون سنةً، وأتيتُ على ستين سنة. ووصل إليَّ من فلان خير، ووصلتُ منه إلى خير[٢]. وقال القتبيُّ[٣]: «مأتياً» بمعنى آتٍ، فهو مفعول بمعنى فاعل. و«مأتِياً» مهموز؛ لأنَّه من أتى يأتي. ومن خفَّف الهمزة جعلها ألفاً[٤].

وقال الطبريُّ[٥]: الوعد هاهنا: الموعود، وهو الجنَّة، أي: يأتيها أولياؤه.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: في الجنَّة. واللغو معناه: الباطل من الكلام والفُحْش منه والفضول وما لا ينتفع به. ومنه الحديث: «إذا قلتَ لصاحبك يومَ الجمعة: أنصِت، والإمام يخطب؛ فقد لغوت»[٦] ويروى: «لغيت» وهي لغة أبي هريرة، كما قال الشاعر:

وَرَبِّ أسْرَابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ عن اللَّغا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ[٧]

قال ابن عباس: اللَّغو: كلُّ ما لم يكن فيه ذِكْر الله تعالى، أي: كلامهم في الجنَّة حمدُ الله وتسبيحه.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٣٦، ونقله عنه القرطبي بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/ ٢٢، وما بعده منه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٦.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص٢٧٤.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٢.

(٥) في التفسير ١٥/ ٥٧٥.

(٦) تقدم في ٤/ ١٧.

(٧) القائل: العجاج، والحديث سلف ٤/ ١٧، والبيت سلف ٣/ ١٨٨ و ٤/ ١٧.

﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ أي: لكن يسمعون سلاماً، فهو من الاستثناء المنقطع(١)، يعني: سلام بعضهم على بعض، وسلام الملَك عليهم، قاله مقاتل وغيره(٢). والسلام: اسمٌ جامع للخير، والمعنى أنَّهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبُّون(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرةً وعشيًّا، أي: في قدر هذين الوقتين، إذ لا بكرة ثَمَّ ولا عشيًّا، كقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] أي: قَدْرَ شهر، قال معناه ابن عباس وابن جريج وغيرهما. وقيل: عرَّفهم اعتدال أحوالِ أهل الجنَّة، وكان أهنأ النعمة عند العرب التمكينُ من المطعم والمشرب بكرةً وعشيًّا(٤).

قال يحيى بن أبي كثير وقتادة: كانت العرب في زمانها من وجد غداءً وعشاءً معاً، فذلك هو الناعم، فنزلت(٥). وقيل: أي: رِزْقهم فيها غير منقطع، كما قال: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣] وهو كما تقول: أنا أصبح وأمسي في ذِكْرك. أي: ذكري لك دائم. ويحتمل أن تكون البُكرة قبل تشاغلهم بلذَّاتهم، والعشي بعد فراغهم من لذَّاتهم؛ لأنه يتخلَّلها فترات انتقال من حال إلى حال. وهذا يرجع إلى القول الأوَّل.

وروى الزبير بن بكار عن إسماعيل بن أبي أويس، قال: قال مالك بن أنس: طعام المؤمنين في اليوم مرَّتان، وتلا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ثم قال: وعوَّض الله عزَّ وجلَّ المؤمنين في الصيام السحور بدلاً من الغداء ليقووا به على عبادة ربِّهم. وقيل: إنَّما ذكر ذلك؛ لأنَّ صفة الغداء وهيئته غير صفة

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٣.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٨١.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٧.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٨١ بنحوه.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٢٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٣ عن قتادة بنحوه.

العشاء وهيئته، وهذا لا يعرفه إلا الملوك. وكذلك يكون في الجنة رِزْقُ الغداء غيرَ رزق العشاء، تتلوَّن عليهم النِّعم؛ ليزدادوا تنعُّماً وغبطة.

وخرَّج الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» من حديث أبان عن الحسن وأبي قِلابة قالا: قال رجل: يا رسولَ الله هل في الجنَّة من ليل؟ قال: «وما هيَّجك على هذا». قال: سمعتُ اللهَ تعالى يذكر في الكتاب: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلت: الليل بين البكرة والعشي. وقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليلٌ إنَّما هو ضوء ونور يَردُّ الغدوّ على الرَّواح، والرَّواح على الغدوِّ، وتأتيهم طُرَف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلُّون فيها في الدنيا وتسلِّم عليهم الملائكة» وهذا في غاية البيان لمعنى الآية، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(١)]. وقال العلماء: ليس في الجنَّة ليل ولا نهار، وإنَّما هم في نور أبداً، إنَّما يَعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب، ويَعرفون مقدار النهار برَفْع الحجب وفتح الأبواب. ذكره أبو الفرج الجوزيُّ والمهدويُّ وغيرهما.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي﴾ أي: هذه الجنَّة التي وصفنا أحوال أهلها ﴿نُورِثُ﴾ بالتخفيف. وقرأ يعقوب: «نُوَرِّثُ» بفتح الواو وتشديد الراء[(٢)]. والاختيار التخفيف؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ [فاطر: ٣٢]. ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ قال ابن عباس: أي: من اتَّقاني وعمل بطاعتي. وقيل: هو على التقديم والتأخير، تقديره: نورث من كان تقيًّا من عبادنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

روى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما منعك أن

(١) ص٥٠٤ - ٥٠٥ وما بعده منه.

(٢) رواها عنه رويس كما في النشر ٢/٣١٨ .

تزورنا أكثر ممَّا تزورنا» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية. قال: هذا حديث حسن غريب. ورواه البخاريُّ: حدَّثنا خلاد بن يحيى، حدَّثنا عمر بن ذرٍّ قال: سمعتُ أبي يحدِّث عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثرَ مما تزورنا» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية. قال: كان هذا الجواب لمحمَّد ﷺ[1].

وقال مجاهد: أبطأ الملَك على رسول الله ﷺ ثم أتاه، فقال: «ما الذي أبطأك» قال: كيف نأتيكم وأنتم لا تقصُّون أظفاركم، ولا تأخذون من شواربكم، ولا تُنَقُّون رَوَاجِبَكم، ولا تستاكون، قال مجاهد: فنزلت الآية في هذا. وقال مجاهد أيضاً وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي: احتبس جبريلُ عن النبيِّ ﷺ حين سأله قومه عن قصَّة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، ولم يَدْرِ ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريلُ بجواب ما سألوا عنه. قال عكرمة: فأبطأ عليه أربعين يوماً. وقال مجاهد: اثنتي عشْرة ليلةً. وقيل: خمسة عشر يوماً. وقيل: ثلاثة عشر. وقيل: ثلاثة أيام، فقال النبيُّ ﷺ: «أبطأت عليَّ حتى ساء ظنِّي واشتقت إليك» فقال جبريل عليه السلام: إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت، وإذا حُبست احتبست، فنزلت الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ وأنزل ﴿وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣]. ذكره الثعلبيُّ والواحديُّ والقشيريُّ وغيرهم[2].

وقيل: هو إخبار من أهل الجنَّة أنَّهم يقولون عند دخولها: وما نتنزل هذه الجنان

---

(١) الترمذي (٣١٥٨)، والبخاري (٧٤٥٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٤٣).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٣١٠ ، وذكره عنهم ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤١٤ (١٣١٧٢) و(١٣١٧٠)، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٤٩ أقوال إبطاء جبريل عن النبي ﷺ، إلا أنه ذكر خمسة وعشرين يوماً، بدل: ثلاثة عشر يوماً. وورد في أسباب النزول: براجمكم، بدل: رواجبكم. قال الجوهري في الصحاح (رجب): والراجبة في الإصبع: واحدة الرواجب، وهي مفاصل الأصابع اللاتي تلي الأنامل، ثم البراجم، ثم الأشاجع اللاتي يلين الكف.

إلا بأمر ربك[١]. وعلى هذا تكون الآية متَّصلة بما قبل. وعلى ما ذكرنا من الأقوال قيل: تكون غير متصلة بما قبلها، والقرآن سور، ثم السور تشتمل على جمل، وقد تنفصل جملة عن جملة.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ أي: قال الله تعالى: قل يا جبريل: «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ». وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: إنَّا إذا أُمرنا نَزَلنا عليك. الثاني: إذا أمرك ربُّك نزَّلنا عليك، فيكون الأمر على الأوَّل متوجِّهاً إلى النزول، وعلى الوجه الثاني متوجِّهاً إلى التنزيل[٢].

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله. ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: علم ما بين أيدينا ﴿وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ قال ابن عباس وابن جريج: ما مضى أمامنا من أَمْرِ الدنيا، وما يكون بعدَنا من أمرها وأمر الآخرة، «وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ»: من البَرْزخ[٣].

وقال قتادة ومقاتل: «له ما بين أيدينا»: من أمر الآخرة، «وما خلفنا»: ما مضى من الدنيا، «وما بين ذلك»: ما بين النفختين وبينهما أربعون سنة[٤].

الأخفش[٥]: «ما بين أيدينا»: ما كان قبل أن نخلق، «وما خلفنا»: ما يكون بعد أن نموت، «وما بين ذلك»: ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت.

وقيل: «ما بين أيدينا»: من الثواب والعقاب وأمور الآخرة. «وما خلفنا»: ما مضى من أعمالنا في الدنيا. «وما بين ذلك»: أي ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة[٦].

---

(١) زاد المسير ٥/ ٢٥٠ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٨٢ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٨٢ ونسبه للطبري، وأخرجه الطبري ١٥/ ٥٨٣ عن ابن جريج.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٨٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٠٢ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٦ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٧ .

ويحتمل خامساً: «ما بين أيدينا»: السماء، «وما خلفنا»: الأرض، «وما بين ذلك»: أي: ما بين السماء والأرض.

وقال ابن عباس في رواية: «له ما بين أيدينا»: يريد الدنيا إلى الأرض، «وما خلفنا»: يريد السماوات ـ وهذا على عكس ما قبله ـ «وما بين ذلك»: يريد الهواء، ذكر الأوّل الماورديُّ[1] والثاني القشيريُّ. الزمخشريُّ[2]: وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبَر منها، والحال التي نحن فيها. ولم يقل: ما بين ذينك؛ لأنَّ المرادَ ما بين ما ذكرنا، كما قال: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٦٨] أي: بين ما ذكرنا.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: ناسياً، إذا شاء أن يُرسِل إليك أرسل. وقيل: المعنى: لم يَنْسَكَ وإن تأخَّر عنك الوحي[3]. وقيل: المعنى أنَّه عالِم بجميع الأشياء متقدِّمها ومتأخِّرها، ولا ينسى شيئاً منها.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ربُّهما وخالقهما وخالقُ ما بينهما، ومالكهما ومالك ما بينهما، فكما إليه تدبير الأزمان، كذلك إليه تدبير الأعيان.

﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أي: وحِّده لذلك. وفي هذا دلالة على أنَّ اكتسابات الخَلْق مفعولةٌ لله تعالى، كما يقوله أهل الحقِّ، وهو القول الحقُّ؛ لأنَّ الربَّ في هذا الموضع لا يُمكن حمله على معنى من معانيه إلا على المالك، وإذا ثبت أنَّه مالك ما بين السماء والأرض، دخل في ذلك اكتساب الخَلْق، ووجبت عبادته؛ لما ثبت أنَّه المالك على الإطلاق، وحقيقة العبادة الطاعة بغاية الخضوع، ولا يستحقها أحدٌ سوى المالك المعبود.

﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: لطاعته، ولا تحزن لتأخير الوحي عنك، بل اشتغل بما أُمرت به. وأصل اصطبر: اصتبر، فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما، فأُبدل

(١) في النكت والعيون ٣/ ٣٨٢.
(٢) في الكشاف ٢/ ٥١٦.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٧ بنحوه.

من التاء طاء، كما تقول من الصوم: اصطام[١].

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس: يريد هل تعلم له ولداً، أي: نظيراً، أو مِثْلاً، أو شبيهاً يستحقُّ مثل اسمه الذي هو الرحمن. وقاله مجاهد. مأخوذ من المساماة[٢].

وروى إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابنِ عباس قال: هل تعلم له أحداً سُمِّي الرحمن. قال النحَّاس[٣]: وهذا أجلُّ إسناد علمته روي في هذا الحرف، وهو قول صحيح، لا يقال الرحمن إلا لله. قلت: وقد مضى هذا مبيَّناً في البسملة[٤] والحمد لله، روى ابن أبي نجيح عن مجاهد «هل تعلم له سمِيًّا» قال: مِثْلاً.

ابن المسيب: عدلاً[٥]. قتادة والكلبي: هل تعلم أحداً يُسمَّى اللهَ تعالى غير الله[٦]، أو يقال له: الله، إلا الله. و«هل» بمعنى «لا»، أي: لا تعلم. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ الإنسان هنا أبيُّ بن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٣.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٨٢، وأخرجه عنهما الطبري ١٥/ ٥٨٥ - ٥٨٦.

(٣) في معاني القرآن ٤/ ٣٤٤ وما قبله منه.

(٤) ١/ ١٥٩ وما بعدها.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٣ ونسبه لابن جبير.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٨٢.

خَلَف، وجد عظاماً باليةً ففتَّها بيده، وقال: زعم محمد أنَّا نبعث بعد الموت، قاله الكلبي. ذكره الواحديُّ[١] والثعلبيُّ والقشيريُّ. وقال المهدويُّ: نزلت في الوليد بنِ المغيرة وأصحابه، وهو قول ابنِ عباس[٢].

واللام في: «لسوف أُخرج حيًّا» للتأكيد.كأنَّه قيل له: إذا ما متَّ لسوف تُبعَث حيًّا فقال: «أئذا ما متُّ لسوف أُخرج حيًّا»! قال ذلك منكراً؛ فجاءت اللام في الجواب كما كانت في القول الأول، ولو كان مبتدئاً لم تدخل اللام؛ لأنَّها للتأكيد والإيجاب وهو مُنكِر للبعث.

وقرأ ابن ذكوان: «إذا ما مِتُّ» على الخبر، والباقون بالاستفهام على أصولهم بالهمز[٣]. وقرأ الحسن وأبو حيوة: «لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا»[٤]، قاله استهزاء؛ لأنَّهم لا يُصدِّقون بالبعث، والإنسان هاهنا الكافر.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: أَوَلا يذكر هذا القائل ﴿أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل سؤاله وقولِه هذا القول ﴿وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ فالإعادة مثل الابتداء، فلم يناقض.

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً، وأهل مكَّة وأبو عمرو وأبو جعفر: «أَوَلَا يَذَّكَّرُ». وقرأ شيبة ونافع وعاصم: «أَوَلَا يَذْكُرُ» بالتخفيف ـ والاختيار التشديد، وأصله يتذكَّر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩] وأخواتها ـ وفي حرف أبيٍّ: «أَوَلَا يَتَذَكَّرُ» وهذه القراءة على التفسير، لأنَّها مخالفة لخطِّ المصحف: ومعنى «يَتَذَكَّرُ»: يتفكَّر، ومعنى «يَذْكُرُ»: يتنبَّه ويَعلم، قاله النحَّاس[٥].

---

(١) في أسباب النزول ص٣١٠ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٩٠ .

(٣) التيسير ص١٤٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص٨٥ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٣ إلا ما بين معترضتين فمن الطبري ١٥/ ٥٨٧ بنحوه، والقراءة في السبعة ص٤١٠ ، والتيسير ص١٤٩ ، وتحرفت لفظة: شيبة، في مطبوع إعراب القرآن للنحاس إلى: شعبة.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنَّه يَحشرهم من قبورهم إلى المَعاد كما يحشر المؤمنين. ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي: ولنحشرنَّ الشياطين قرناءَ لهم. قيل: يُحشر كلُّ كافر مع شيطان في سلسلة[1]، كما قال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾. الزمخشري[2]: والواو في: «والشَّيَاطِين» يجوز أن تكون للعطف، وبمعنى «مع»، وهي بمعنى «مع» أوقع. والمعنى أنَّهم يُحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم، يقرنون كلَّ كافر مع شيطان في سلسلة. فإن قلت: هذا إذا أُريد بالإنسان الكَفَرة خاصة، فإن أُريد الأناسي على العموم فكيف يستقيم حشرُهم مع الشياطين؟ قلت: إذا حشر جميع الناس حشراً واحداً وفيهم الكَفَرة مقرونين بالشياطين، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكَفَرة.

فإن قلت: هلَّا عُزل السعداء عن الأشقياء في الحشر كما عُزلوا عنهم في الجزاء؟ قلت: لم يفرق بينهم في المحشر، وأُحضروا حيث تجاثوا حول جهنَّم، وأُوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التي نجَّاهم الله منها وخلَّصهم، فيزدادوا لذلك غبطةً، وسروراً إلى سرور، ويشمتوا بأعداء الله تعالى وأعدائهم، فتزداد مَساءتهم وحسرتهم، وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم[3].

فإن قلت: ما معنى إحضارهم جِثيًّا؟ قلت: أمَّا إذا فُسِّر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنَّهم يعتلون[4] من المحشر إلى شاطئ جهنَّم عَتْلاً على حالهم التي كانوا عليها في الموقف، جثاة على رُكَبِهم غير مشاة على أقدامهم. وذلك أنَّ أهل الموقف وصفوا بالجثوِّ، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨] على الحالة

(١) الوسيط ٣/ ١٩٠.

(٢) في الكشاف ٢/ ٥١٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٥١٩، وما بعده منه.

(٤) في الكشاف ٢/ ٥١٩: يقبلون. قال الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٠: وقال الليث: العَتْل: أن تأخذ بتلبيب الرجل فتعتِلَه، أي: تجرّه إليك وتذهب به إلى حبس أو بليّة.

المعهودة في مواقف المقاولات والمناقلات[١]، من تجاثي أهلها على الرُّكَب، لما في ذلك من الاستيفاز[٢] والقَلَق، وإطلاق الحُبَى[٣]، وخلاف الطمأنينة، أو لما يَدهمهم من شدَّة الأمر التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على رُكَبهم جثواً[٤]. وإن فُسِّر بالعموم فالمعنى أنَّهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنَّم. على أنَّ «جِثِيًّا» حال مقدَّرة كما كانوا في الموقف متجاثين؛ لأنَّه من توابع التواقف للحساب، قبل التواصل إلى الثواب والعقاب.

ويقال: إنَّ معنى ﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ أي: جِثِيًّا على رُكَبهم، عن مجاهد وقتادة[٥]، أي: إنَّهم لشدَّة ما هم فيه لا يقدرون على القيام.

و«حول جهنَّم» يجوز أن يكون: داخلها، كما تقول: جلس القوم حول البيت، أي: داخله مطيفين به[٦]. فقوله: «حول جهنَّم» على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول، ويجوز أن يكون قبل الدخول.

و«جِثِيًّا» جمع جاثٍ. يقال: جثا على رُكْبتيه يَجْثو ويَجْثِي جُثُوًّا وجُثِيًّا على فُعُول فيهما. وأَجثاه غيرُه. وقوم جُثِيٌّ أيضاً، مثل جلس جلوساً وقوم جلوس، وجِثِي أيضاً بكسر الجيم لما بعدها من الكسر[٧].

وقال ابن عباس: «جثيًّا»: جماعات. وقال مقاتل: جمعاً جمعاً، وهو على هذا التأويل جمع جُثْوة وجَثْوَة وجِثْوة، ثلاث لغات، وهي الحجارة المجموعة والتراب

---

(١) في (د) و(ظ): والمثاقلات.

(٢) قال الجوهري في الصحاح (وفز): قعد مستوفزاً: أي: غير مطمئن.

(٣) الحَبْوة: الثوب الذي يحتبى به، والجمع: حِبًى وحُبًى. متن اللغة (حبو).

(٤) في الكشاف: فيحبون على ركبهم حبواً.

(٥) الوسيط ٣/ ١٩٠ عن مجاهد، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٦ عن قتادة.

(٦) الوسيط ٣/ ١٩٠ .

(٧) الصحاح (جثا).

المجموع[١]، فأهل الخمر على حِدَة، وأهل الزنى على حِدَة، وهكذا، قال طرفة[٢]:

تَرَى جُثْوتين من تُرابٍ عليهما صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ

وقال الحسن والضَّحَّاك: جاثية على الركب[٣]. وهو على هذا التأويل جمع جاثٍ على ما تقدَّم. وذلك لضيق المكان، أي: لا يمكنهم أن يجلسوا جلوساً تامًّا. وقيل: جثيًّا على رُكَبهم للتخاصم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]. وقال الكُميت:

هم تَركُوا سَرَاتَهُمُ جثيًّا وهم دون السَّراةِ مقرَّنينَا[٤]

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: لنستخرجنَّ من كلِّ أمَّة وأهل دين ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ النحَّاس[٥]: وهذه آية مُشكِلة في الإعراب؛ لأنَّ القرَّاء كلَّهم يقرؤون: «أيُّهم» بالرفع إلا هارون القارئ الأعور، فإنَّ سيبويه حكى عنه: «ثم لننزِعنَّ مِن كلِّ شِيعةٍ أَيَّهُمْ» بالنصب أوقع على «أيهم» لننزعنَّ[٦].

قال أبو إسحاق[٧]: في رفع «أيُّهم» ثلاثة أقوال، قال الخليل بن أحمد ـ حكاه عنه سيبويه[٨] ـ: إنَّه مرفوع على الحكاية، والمعنى: ثم لننزعنَّ من كلِّ شيعة الذي يقال من أجل عتوِّه أَيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتيًّا، وأنشد الخليل، فقال[٩]:

---

(١) الوسيط ٣/ ١٩٠.

(٢) في ديوانه ص٣٣.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٣.

(٤) ديوان الكميت ص٤٥٨ وعجزه فيه هكذا: وما دون السراة مغربلينا

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٢٣ - ٢٤.

(٦) الكتاب ٢/ ٣٩٩، ونسبها هارون إلى الكوفيين، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ إلى معاذ الهراء وطلحة بن مصرف.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٩، ونقله عنه القرطبي بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٤.

(٨) في الكتاب ٢/ ٣٩٩.

(٩) القائل هو الأخطل، والبيت في ديوانه ص٨٤.

ولقد أبيتُ من الفتاة بمنزلٍ فأبيتُ لا حرِجٌ ولا محرومُ

أي: فأبيت بمنزلة الذي يقال له: لا هو حَرِجٌ ولا مَحرومٌ. وقال أبو جعفر النحَّاس[١]: ورأيت أبا إسحاق[٢] يختار هذا القولَ ويستحسنه، قال: لأنَّه معنى قول أهل التفسير. وزعم أنَّ معنى «ثم لننزعنَّ من كلِّ شيعة»: ثم لننزعنَّ من كلِّ فرقة الأعتى فالأعتى. كأنَّه يبتدأ بالتعذيب بأشدِّهم عتيًا ثم الذي يليه، وهذا نصُّ كلام أبي إسحاق في معنى الآية. وقال يونس: «لننزعنَّ» بمنزلة الأفعال التي تُلغى، ورفع «أيهم» على الابتداء.

المهدويُّ: والفعل الذي هو «لننزعنَّ» عند يونس معلَّق، قال أبو عليٍّ[٣]: معنى ذلك أنَّه يعمل في موضع «أيهم أشدُّ» لا أنَّه ملغًى. ولا يعلَّق عند الخليل وسيبويه مثل «لننزعنَّ»، إنَّما يعلَّق بأفعال الشَّكِّ وشِبْهها ما لم يتحقَّق وقوعه.

وقال سيبويه: «أيُّهم» مبنيٌّ على الضمِّ؛ لأنَّها خالفت أخواتها في الحذف؛ لأنَّك لو قلت: رأيتُ الذي أفضلُ، ومَنْ أفضلُ، كان قبيحاً، حتى تقول: من هو أفضلُ، والحذف في «أيهم» جائز.

قال أبو جعفر[٤]: وما علمتُ أحداً من النَّحْويِّين إلا وقد خطَّأ سيبويه في هذا، وسمعت أبا إسحاق يقول: ما يتبيَّن لي أنَّ سيبويه غَلِطَ في كتابه إلا في موضعين هذا أحدهما، قال: وقد عَلمنا أنَّ سيبويه أعرب «أيًّا» وهي مفردة؛ لأنَّها تُضاف، فكيف يَبْنيها وهي مضافة؟! ولم يذكر أبو إسحاق فيما علمتُ إلا هذه الثلاثة الأقوال. أبو عليٍّ: إنَّما وجب البناء على مذهب سيبويه؛ لأنَّه حذف منه ما يتعرَّف به وهو الضمير مع افتقار إليه، كما حذف في «مِن قَبْلُ» و«مِن بَعْدُ» ما يتعرَّفان به مع افتقار المضاف

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤ .

(٢) أي: الزجاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٣٤٠ .

(٣) نقله عنه القرطبي بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٤ ، وما قبله منه.

إلى المضاف إليه؛ لأنَّ الصلة تبيِّن الموصولَ وتوضِّحه، كما أنَّ المضاف إليه يبيِّن المضاف ويخصِّصه. قال أبو جعفر: وفيه أربعة أقوال سوى هذه الثلاثة التي ذكرها أبو إسحاق، قال الكسائيُّ: «لننزعنَّ» واقعة على المعنى، كما تقول: لبستُ من الثياب، وأكلتُ من الطعام، ولم يقع «لننزعنَّ» على «أيهم» فينصبها.

زاد المهدويُّ: وإنَّما الفعل عنده واقع على موضع «من كلِّ شيعة» وقوله: «أيهم أشدُّ» جملة مستأنفة مرتفعة بالابتداء، ولا يرى سيبويه زيادة «من» في الواجب.

وقال الفرَّاء[1]: المعنى: ثم لننزعنَّ بالنداء، ومعنى «لننزعن»: لنناديَنَّ. المهدوي: و«نادى» فعل يعلَّق إذا كان بعده جملة، كظننت فتعمل في المعنى ولا تعمل في اللفظ. قال أبو جعفر[2]: وحكى أبو بكر بن شقير أنَّ بعضَ الكوفيين يقول في «أيهم» معنى الشرط والمجازاة، فلذلك لم يعمل فيها ما قبلها، والمعنى: ثم لننزعنَّ من كلِّ فرقة إن تشايعوا أو لم يتشايعوا، كما تقول: ضربت القومَ أيَّهم غَضِبَ، والمعنى: إن غضبوا، أو لم يغضبوا. قال أبو جعفر[3]: فهذه ستَّة أقوال، وسمعت عليَّ بن سليمان يحكي عن محمد بنِ يزيد قال: «أيهم» متعلِّق بـ «شيعة» فهو مرفوع بالابتداء، والمعنى: ثم لننزعنَّ من الذين تشايعوا أيهم، أي: من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشدّ على الرحمن عتيًّا، وهذا قول حسن. وقد حكى الكسائيُّ أنَّ التشايعَ التعاون. و«عتيًّا» نصب على البيان.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: أحقُّ بدخول النار. يقال: صَلَى يَصْلِي صِليًّا، نحو مضى الشيء يمضي مُضِيًّا: إذا ذهب، وهوى يهوي هُوِيًّا. وقال

(١) نقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٢٥ ، وما قبله منه.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٢٥ ، وتنظر المسألة بتمامها في الكتاب لسيبويه ٢/ ٣٩٨ - ٤٠٢ ، وإعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ٤٥٨ - ٤٦٠ ، والبيان ٢/ ١٣٠ - ١٣٣ ، والإنصاف ٢/ ٧٠٩ - ٧١٦ لابن الأنباري.

الجوهريُّ[(١)]: ويقال: صَلَيْتُ الرجلَ ناراً، إذا أدخلته النار وجعلته يَصلاها، فإن ألقيته فيها إلقاءً كأنَّك تريد الإحراقَ قلت: أَصْلَيْتُه، بالألف، وصَلَّيْتُه تصلية. وقرئ: «ويُصَلَّى سَعِيراً»[(٢)] [الانشقاق:١٢]. ومن خفَّف فهو من قولهم: صَلِي فلانٌ بالنار ـ بالكسر ـ يَصْلَى صلِيًّا: احترق، قال الله تعالى: ﴿هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾. قال العجّاج[(٣)]:

والـلـهِ لـولا الـنـارُ أن نَـصْـلاهـا

ويقال أيضاً: صَلِيَ بالأمر: إذا قاسى حرَّه وشدَّته. قال الطُّهَوِي[(٤)]:

وَلَا تَـبْـلَـى بَـسَـالَـتُـهُـمْ وإنْ هُـمْ صَـلُـوا بـالـحرب حِـينـاً بـعـد حيـنِ

واصطليتُ بالنار وتصلَّيتُ بها. قال أبو زُبَيد:

وقـد تَـصـلَّـيـت حَـرَّ حَـرْبِـهـمُ كـمَـا تَـصلَّى الـمقْرورُ من قَـرَسِ[(٥)]

وفلانٌ لا يُصطَلَى بناره: إذا كان شجاعاً لا يُطاق.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ **فيه خمس مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْكُمْ» هذا قسَم، والواو يتضمَّنه[(٦)]. ويفسِّره حديث النبيِّ ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثةٌ من الولد فتمسّه النار إلا تَحِلَّة القسم»

---

(١) في الصحاح (صلا).

(٢) وهي قراءة ابن كثير ونافع وعامر والكسائي. السبعة ص٦٧٧ ، والتيسير ص٢٢١ .

(٣) الصحاح (صلا)، ولم نقف عليه عند العجّاج، ونسبه ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٤٧٥ لرؤبة، ولم نقف عليه أيضاً، وذكر الصغاني في التكملة والذيل والصلة ٦/ ٣٥٣ أن الجوهريَّ نسبه للعجاج، والأزهريَّ لرؤبة، وكلاهما غلط، وإنما هو للزَّفَيان. اهـ. والزَّفَيان هو عطاء بن أسيد. معجم الشعراء للمرزباني ص١٥٩ .

(٤) أمالي القالي ١/ ٢٦٠ ، وبهجة المجالس ٢/ ٥١٨ ، والطُّهَوي: ذو الخِرَق، واسمه: ذو الخرق بن قرط من بني طُهَيَّة. المؤتلف والمختلف ص١٧٢ .

(٥) طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦١١ ، ودرة الغواص ص٢٤٦ ، وأبو زبيد هو: حرملة بن المنذر الطائي، والمقرور: الذي أصابه القُرُّ، وهو البَرْد. والقرس: البرد الشديد. القاموس (قرر) و(قرس).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧ .

قال الزهريُّ: كأنَّه يريد هذه الآية: «وإن مِنكم إلا وارِدها» ذكره أبو داود الطيالسي[(١)]، فقوله: «إلا تحِلة القسم» يخرج في التفسير المسند؛ لأنَّ القسَم المذكور في هذا الحديث معناه عند أهل العلم قوله تعالى: «وإن مِنكم إلا وارِدها»[(٢)]. وقد قيل: إنَّ المراد بالقسَم قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الذاريات: ١-٥] والأوَّل أشهر، والمعنى متقارب.

الثانية: واختلف الناس في الورود، فقيل: الورود: الدخول، روي عن جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الورود: الدخول، لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾» أسنده أبو عمر في كتاب «التمهيد»[(٣)]. وهو قول ابن عباس[(٤)] وخالد بن معدان[(٥)] وابن جريج[(٦)] وغيرهم. وروي عن يونس أنَّه كان يقرأ: «وإن منكم إلا وارِدها» الورود: الدخول، على التفسير للورود، فغلط فيه بعض الرواة فألحقه بالقرآن.

وفي «مسند الدارمي»[(٧)] عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يَرِدُ الناس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فمنهم كَلَمْح البصر، ثم كالريح، ثم كحُضْر[(٨)] الفرس، ثم كالراكب المجِدّ في رَحْله، ثم كشدِّ الرَّجُلِ في مشيته».

---

(١) في مسنده (٢٤٢٣)، وهو عند أحمد (٧٢٦٥)، والبخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢).

(٢) الاستذكار ٨/ ٣٢٦.

(٣) ٦/ ٣٥٥ - ٣٥٦، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٥٢٠).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١، وهناد في الزهد (٢٢٩)، والطبري ١٥/ ٥٩٠ - ٥٩١.

(٥) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤٠٧)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦١، وهناد في الزهد (٢٣١)، والطبري ١٥/ ٥٩٢.

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥٩١، وأخرجه أيضاً عن ابن مسعود ﷺ.

(٧) برقم (٢٨١٣)، وأخرجه أيضاً أحمد (٤١٢٨)، والترمذي (٣١٥٩) وقال: هذا حديث حسن. اهـ.

(٨) قال ابن الأثير في النهاية (حضر): الحُضْر بالضم: العَدْو، وأحضر يُحْضِر فهو محضر: إذا عدا.

وروي عن ابن عباس أنَّه قال في هذه المسألة لنافع بن الأزرق الخارجيِّ: أما أنا وأنت فلابُدَّ أن نردها، أما أنا فينجيني الله منها، وأما أنت فما أظنُّه ينجيك؛ لتكذيبك[١]. وقد أشفق[٢] كثيرٌ من العلماء من تحقُّق الورود والجهل بالصَّدَر، وقد بيَّنَّاه في «التذكرة»[٣].

وقالت فرقةٌ: الورود: الممرُّ على الصراط. وروي عن ابنِ عباس[٤] وابنِ مسعود[٥] وكعب الأحبار[٦] والسدي[٧]، ورواه السدي عن ابنِ مسعود عن النبيِّ ﷺ[٨]، وقاله الحسن أيضاً، قال: ليس الورود الدخول، إنَّما تقول: وردت البصرة ولم أدخلها. قال: فالورود أن يمرُّوا على الصراط[٩]. قال أبو بكر الأنباري: وقد بنى على مذهب الحسن قوم من أهل اللغة، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] قالوا: فلا يَدخل النار من ضمن اللهُ أن يبعده منها. وكان هؤلاء يقرؤون «ثَمَّ» بفتح الثاء[١٠] «نُنجي الَّذينَ اتَّقَوْا». واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأنَّ معنى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ عن العذاب فيها، والإحراق بها. قالوا: فمن دخلها وهو لا يشعر بها، ولا يحسُّ منها وجعاً ولا ألماً، فهو مبعد عنها في الحقيقة. ويستدلون بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ بضمِّ الثاء، فـ«ثم» تدلُّ على نجاء بعد الدخول.

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١١، وهناد في الزهد (٢٢٩)، والطبري ١٥/ ٥٩٠، ٥٩٨.

(٢) في (د) و(ظ): اشتق.

(٣) ص٣٣٣ - ٣٣٦.

(٤) التمهيد ٦/ ٣٥٦، والاستذكار ٨/ ٣٢٧.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٩٥، والطبراني في الكبير (٩٠٨٤).

(٦) أخرجه أبو الليث في التفسير ٢/ ٣٣٠ - ٣٣١.

(٧) التمهيد ٦/ ٣٥٦، والاستذكار ٨/ ٣٢٧.

(٨) تقدم تخريجه قريباً.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤١ بنحوه.

(١٠) قرأ بها ابن عباس والجحدري وابن أبي ليلى. القراءات الشاذة ص٨٦.

قلت: وفي «صحيح مسلم»[١]: «ثم يُضرَبُ الجسر عل جهنَّم وتَحِلُّ الشفاعة فيقولون: اللَّهُمَّ سَلِّم سَلِّم» قيل: يا رسول الله وما الجِسرُ؟ قال: «دَحْضٌ مَزَلَّةٌ فيه خَطَاطيفُ وكَلَاليبُ وحَسَكٌ تكون بنجد فيها شُوَيْكَة يقال لها: السَّعْدان، فيمرُّ المؤمنون كطَرْف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والرِّكاب، فناجٍ مسلَّمٌ، ومخدوشٌ مُرْسَل، ومَكْدُوس في نار جهنم» الحديث. وبه احتج من قال: إنَّ الجواز على الصراط هو الورود الذي تضمَّنته هذه الآية لا الدخول فيها.

وقالت فرقة: بل هو ورودُ إشراف واطِّلاع وقُرب. وذلك أنَّهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنَّم، فيرونها وينظرون إليها في حالة الحساب، ثم ينجي الله الذين اتقوا مما نظروا إليه، ويصار بهم إلى الجنة. ﴿وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يؤمر بهم إلى النار، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] أي: أشرف عليه لا أنَّه دخله[٢]. وقال زهير:

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخيِّم[٣]

وروت حفصة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل النارَ أحدٌ من أهل بدر والحديبية» قالت: فقلت: يا رسولَ الله وأين قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «فَمَه ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾». أخرجه مسلم من حديث أم مُبَشِّر، قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول عند حفصة. الحديث[٤]. ورجَّح الزجَّاج[٥] هذا القولَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. وقال مجاهد[٦]: وُرود المؤمنين النارَ: هو الحمى التي تصيب المؤمن

(١) برقم (١٨٣)، وهو عند البخاري (٧٤٣٩)، وأحمد (١١١٢٧).

(٢) التذكرة ص٣٣٥.

(٣) ديوان زهير ص١٣ - ١٤، قال شارحه: الجمام: ما اجتمع من الماء. وَضَعْنَ عِصِيَّ: أي أَقَمْنَ.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٢٧٠٤٢)، وهو عند مسلم (٢٤٩٦) بنحوه.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤١.

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٩٧، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٣٥٨.

في دار الدنيا، وهي حظُّ المؤمن من النار فلا يردها.

روى أبو هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ عاد مريضاً من وَعك به، فقال له النبيُّ ﷺ: «أَبشر فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول: هي ناري أُسلِّطها على عبدي المؤمن لتكون حظَّه من النار» أسنده أبو عمر قال: حدَّثنا عبد الوارث بنُ سفيان، قال: حدَّثنا قاسم بنُ أَصبغ، قال: حدَّثنا محمد بن إسماعيل الصائغ، قال: حدَّثنا أبو أسامة، قال: حدَّثنا عبد الرحمن بنُ يزيد بنِ جابر، عن إسماعيل بنِ عبيد الله [عن أبي صالح] الأشعري، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ عاد مريضاً فذكره[١]. وفي الحديث: «الحُمَّى حَظُّ المؤمن من النار»[٢].

وقالت فرقة: الورود: النظر إليها في القبر، فينجَّى منها الفائز، ويَصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى. واحتجوا بحديث ابن عمر: «إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ» الحديث[٣].

وروى وكيع، عن شعبةَ، عن عبد الله بنِ السائب، عن رجل، عن ابنِ عباس أنَّه قال في قول الله تعالى: «وإِن مِنكم إِلا وارِدها» قال: هذا خطابٌ للكفار. وروي عنه أنَّه كان يقرأ: «وإن مِنهم» ردًّا على الآيات التي قبلها في الكفار: قوله «فَوَرَبِّكَ

---

(١) التمهيد ٦/ ٣٥٩، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٠٨٨)، وابن ماجه (٣٤٧٠)، وأحمد (٩٦٧٦)، والحاكم في المستدرك ١/ ٣٤٥ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. اهـ وما بين حاصرتين سقط من التمهيد والنسخ، واستدركناه من مصادر التخريج.

(٢) ورد هذا الحديث عن عدد من الصحابة منهم: عائشة وأخرجه عنها البزار (٧٦٥ كشف الأستار) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٠٦ : وإسناده حسن. اهـ

وأبو أمامة وأخرجه عنه أحمد (٢٢١٦٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢١٦)، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٣٥٩.

وأنس وأخرجه عنه الطبراني في الأوسط (٧٥٣٦).

قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٧ : وكلها ضعيفة.

(٣) التذكرة ص٣٣٤، والحديث أخرجه البخاري (٦٥١٥)، ومسلم (٢٨٦٦) واللفظ له، وهو عند أحمد (٤٦٥٨).

لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا. ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا. ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا. وَإِنْ مِنْهُمْ» وكذلك قرأ عكرمة وجماعة[١]. وعليها فلا شغب في هذه القراءة.

وقالت فرقة: المراد بـ«منكم» الكفرة، والمعنى: قل لهم يا محمد[٢]. وهذا التأويل أيضاً سهل التناول، والكاف في «منكم» راجعة إلى الهاء في «لنحشرنهم والشياطين. ثم لنحضرنَّهم حول جهنَّم جثيًّا» فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهاء، فقد عرف ذلك في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢] معناه: كان لهم، فرجعت الكاف إلى الهاء[٣].

وقال الأكثر: المخاطب العالم كلُّه، ولابُدَّ من ورود الجميع، وعليه نشأ الخلاف في الورود[٤]. وقد بينَّا أقوالَ العلماء فيه. وظاهر الورود الدخول؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «فتمسّه النار»[٥] لأنَّ المسيسَ حقيقته في اللغة المماسَّة، إلا أنَّها تكون بَرْداً وسلاماً على المؤمنين، وينجون منها سالمين. قال خالد بنُ معدان: إذا دخل أهلُ الجنَّة الجنَّةَ قالوا: ألم يقل ربنا: إنَّا نرد النار؟ فيقال: لقد وردتموها فألفيتموها رماداً[٦].

قلت[٧]: وهذا القول يجمع شتات الأقوال، فإنَّ من وردها ولم تُؤذِه بلهبها وحرِّها، فقد أُبعد عنها ونُجِّي منها. نجَّانا الله تعالى منها بفضله وكرمه، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالماً، وخرج منها غانماً.

---

(١) التذكرة ص٣٣٥ ، وأخرج قول ابن عباس الطبري ١٥/ ٥٩٦ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص٨٦ .

(٢) التذكرة ص٣٣٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٧ .

(٣) الاستذكار ٨/ ٣٢٨ - ٣٢٩ وعزاه إلى ابن الأنباري وغيره.

(٤) التذكرة ص٣٣٥ ، وما بعده منه.

(٥) سلف ص٤٩١ من هذا الجزء.

(٦) أخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ١٩١ - ١٩٢ بنحوه.

(٧) القائل هو القرطبي في التذكرة ص٣٣٥ .

فإن قيل: فهل يدخل الأنبياء النار؟ قلنا: لا نُطلِق هذا، ولكن نقول: إنَّ الخَلْق جميعاً يردونها كما دلَّ عليه حديث جابر أوَّل الباب، فالعصاة يدخلونها بجرائمهم، والأولياء والسعداء لشفاعتهم، فبين الدخولَين بَوْنٌ.

وقال ابن الأنباري محتجًّا لمصحف عثمان وقراءة العامة: جائز في اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب، كما قال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢] فأبدل الكاف من الهاء[١]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «يونس»[٢].

الثالثة: الاستثناء في قوله عليه الصلاة والسلام: «إلا تَحِلَّة القَسَم» يحتمل أن يكون استثناء منقطعاً: لكن تحلَّة القسَم، وهذا معروف في كلام العرب، والمعنى ألا تمسه النار أصلاً، وتمَّ الكلام هنا، ثم ابتدأ: «إلا تحلة القسم» أي: لكن تحلَّة القسَم لابُدَّ منها في قوله تعالى: «وإن مِنكم إلا وارِدها» وهو الجواز على الصراط، أو الرؤية، أو الدخول دخولَ سلامة، فلا يكون في ذلك شيء من مسيس؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يموت لأحدكم ثلاثةٌ من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنَّة من النار» والجُنَّة: الوِقاية والستر، ومن وُقي النارَ وسُتر عنها فلن تمسَّه أصلاً، ولو مسَّته لما كان موقى[٣].

الرابعة: هذا الحديث يفسر الأوَّل؛ لأنَّ فيه ذكر الحِسْبة، ولذلك جعله مالك بإثره مفسِّراً له. ويقيد هذا الحديث الثاني أيضاً ما رواه البخاريُّ[٤] عن أبي هريرة،

---

(١) الاستذكار ٨/ ٣٢٨ - ٣٢٩ ، والتمهيد ٦/ ٣٥٧ .

(٢) ١٠/ ٤٧٤ .

(٣) التمهيد ٦/ ٣٦١ - ٣٦٢ ، والحديث أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٢٣٥ ، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢١٦٦)، من حديث أبي النضر السلمي. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ٨٧ : أبو النضر هذا مجهول في الصحابة والتابعين. اهـ وأصل الحديث في الصحيحين كما مرَّ معنا.

(٤) معلَّقاً في صحيحه، قبل حديث (١٣٨١)، وأخرجه مسنداً برقم (١٢٥٠) بنحوه، وهو عند مسلم (٢٦٣٢): (١٥١)، وأحمد (٨٩١٦).

عن النبيِّ ﷺ: «من مات له ثلاثةٌ من الولد لم يبلغوا الحِنْث، كان له حجاباً من النار، أو دخل الجنَّة» فقوله عليه الصلاة والسلام: «لم يبلغوا الحِنْث»: ومعناه عند أهل العلم لم يبلغوا الحُلُم، ولم يبلغوا أنَّ يلزمهم حِنْث دليلٌ على أنَّ أطفال المسلمين في الجنَّة، والله أعلم؛ لأنَّ الرحمةَ إذا نزلت بآبائهم استحال أن يُرحَموا من أجل [من](١) ليس بمرحوم. وهذا إجماع من العلماء في أنَّ أطفال المسلمين في الجنَّة، ولم يخالف في ذلك إلا فرقةٌ شذَّت من الجَبْرِيَّة فجعلتهم في المشيئة، وهو قول مهجور، مردود بإجماع الحجة الذين لا تجوز مخالفتهم، ولا يجوز على مثلهم الغَلَط، إلى ما روي عن النبيِّ ﷺ من أخبار الآحاد الثقات العدول، وأنَّ قوله عليه الصلاة والسلام: «الشقيُّ من شقي في بطن أمِّه، والسعيد من سعد في بطن أمِّه، وأنَّ الملَك ينزل فيكتب أجله وعمله ورزقه» الحديث مخصوص، وأنَّ من مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو ممن سعد في بطن أمِّه ولم يَشْقَ؛ بدليل الأحاديث والإجماع(٢).

وكذلك قوله ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها: «يا عائشة إنَّ اللهَ خَلَق الجنَّة وخَلَق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخَلَق النار وخَلَق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم» ساقط ضعيف، مردود بالإجماع والآثار، وطلحة بن يحيى الذي يرويه ضعيف لا يُحتَجُّ به، وهذا الحديث مما انفرد به فلا يعرَّج عليه(٣).

وقد روى شعبة، عن معاوية بنِ قُرَّة بن إياس المزني، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ أنَّ

---

(١) ما بين حاصرتين ليست في النسخ، واستدركناه من التمهيد ٦/ ٣٤٨ - ٣٤٩ والكلام منه.

(٢) التمهيد ٦/ ٣٤٩ - ٣٥٠ ، والحديث بشطره الأول أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١٠٥٧)، والبزار (٢١٥٠ كشف الأستار) عن أبي هريرة مرفوعاً، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٩٣ : رواه البزار والطبراني في الصغير، ورجال البزار رجال الصحيح. اهـ وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٠٤٠) عن ابن مسعود من قوله، والشطر الثاني عند البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، وأحمد (٣٦٢٤)، وينظر كشف الخفاء ١/ ٥٤٨ .

(٣) التمهيد ٣/ ٣٥٠ - ٣٥١ ، والحديث أخرجه مسلم (٢٦٦٢)، وأحمد (٢٤١٣٢)، وطلحة بن يحيى مختلف فيه، وقد انتقى له مسلم هذا الحديث. تهذيب التهذيب ٢/ ٢٤٤ .

رجلاً من الأنصار مات له ابن صغير فَوَجد عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «أما يَسرُّك ألا تأتي باباً من أبواب الجنَّة إلا وجدتَه يَستفتح لك» فقالوا: يا رسول الله أله خاصَّة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة» قال أبو عمر(١): هذا حديث ثابت صحيح، يعني ما ذكرناه مع إجماع الجمهور، وهو يُعارِض حديث [طلحة بن] يحيى ويَدْفعه. قال أبو عمر(٢): والوجه عندي في هذا الحديث وما أَشبهه من الآثار أنَّها لمن حافظ على أداء فرائضه، واجتنب الكبائر، وصبر واحتسب في مصيبته، فإنَّ الخطاب لم يتوجَّه في ذلك العصر إلا إلى قوم الأَغلب من أمرهم ما وصفنا، وهم الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وذكر النقَّاش عن بعضهم أنَّه قال: نَسَخَ قولَه تعالى: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا» قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وهذا ضعيف، وهذا ليس موضع نَسْخٍ(٣). وقد بينا أنَّه إذا لم تمسَّه النار فقد أبعد عنها. وفي الخبر: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جُزْ يامؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»(٤).

الخامسة: قوله تعالى: «كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا» الحَتْم: إيجاب القضاء، أي: كان ذلك حتماً. «مقضيًّا» أي: قضاه الله تعالى عليكم. وقال ابن مسعود: أي: قسماً واجباً(٥).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: نخلصهم ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ وهذا مما يدل على أنَّ الورود الدخول؛ لأنَّه لم يقل: وندخل الظالمين. وقد مضى

---

(١) في التمهيد ٦/ ٣٤٩ - ٣٥١ ، وما قبله منه، وما بين حاصرتين ليست في النسخ واستدركناه من التمهيد، والحديث أخرجه أحمد (١٥٥٩٥)، والنسائي في المجتبى ٤/ ٢٢ - ٢٣ بنحوه.

(٢) في التمهيد ٦/ ٣٦٢ .

(٣) الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٢٥٨ (٦٦٨)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٩٠ ، وأبو نعيم في الحلية ٩/ ٣٢٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٣٩ - ٣٤٠ ، وقال: تفرد به سليم بن منصور، وهو منكر.

(٥) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٠٦ .

هذا المعنى مستوفًى.

والمذهب أنَّ صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنَّه يُعاقَب بقَدْر ذنبه ثم ينجو. وقالت المرجئة: لا يدخل. وقالت الوعيديَّة: يُخلَّد. وقد مضى بيان هذا في غير موضع.

وقرأ عاصم الجحدريُّ ومعاوية بن قرَّة: «ثُمَّ نُنْجِي» مخفَّفة من أنجى. وهي قراءة حميد ويعقوب والكسائي. وثقَّل الباقون. وقرأ ابن أبي ليلى: «ثَمَّهْ» بفتح الثاء، أي: هناك. و«ثَمَّ» ظرف إلا أنَّه مبنيٌّ؛ لأنَّه غيرُ محصَّل فبُنيَ كما بُنيَ ذا، والهاء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتحذف في الوصل، ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فتثبت في الوصل تاءً[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: على الكفار الذين سبق ذِكْرهم في قوله تعالى: «أئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا». وقال فيهم: «ونذر الظالمين فِيها جِثِيّاً» أي: هؤلاء إذا قُرِئَ عليهم القرآن تَعزَّزوا بالدنيا، وقالوا: فما بالنا ـ إن كنَّا على باطل ـ أكثرَ أموالاً وأعزَّ نفراً. وغَرَضهم إدخال الشُّبْهة على المستضعفين، وإيهامهم أنَّ من كثر ماله دلَّ ذلك على أنَّه المحقُّ في دينه، وكأنَّهم لم يروا في الكفار فقيراً ولا في المسلمين غنيًّا، ولم يعلموا أنَّ الله تعالى نَحَّى أولياءَه عن الاغترار بالدنيا، وفَرْطِ الميل إليها.

و«بيناتٍ» معناه: مرتَّلات الألفاظ، ملخَّصة المعاني، مبيَّنات المقاصد، إما

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٦، وفيه أن عاصماً الجحدي ومعاوية بن قرة قرآ: بفتح الثاء، وقراءة الكسائي في السبعة ص٤١١، والتيسير ص١٤٩، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣١٨، وقراءة ابن أبي ليلى في القراءات الشاذة ص٨٦، وينظر البحر المحيط ٦/ ٢١٠.

محكمات، أو متشابهات، قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبيين الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً. أو ظاهرات الإعجاز تُحدِّي بها فلم يُقدَر على معارضتها. أو حججاً وبراهين(١). والوجه أن تكون حالاً مؤكدة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١] لأنَّ آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججاً.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يريد مشركي قريش النضرَ بنَ الحارث وأصحابَه ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يعني فقراءَ أصحابِ النبيِّ ﷺ، وكانت فيهم قشافة، وفي عيشهم خُشونة، وفي ثيابهم رَثاثة، وكان المشركون يرجِّلون شعورَهم، ويدهنون رؤوسهم، ويلبسون خيرَ ثيابهم، فقالوا للمؤمنين: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عبَّاد: «مُقاماً» بضمِّ الميم، وهو موضع الإقامة. ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإقامة. الباقون «مَقاماً» بالفتح، أي: منزلاً ومسكناً(٢). وقيل: المقام: الموضع الذي يُقام فيه بالأمور الجليلة، أي: أيُّ الفريقين أكثر جاهاً وأنصاراً.

«وَأَحْسَنُ نَدِيًّا» أي: مجلساً، عن ابن عباس(٣). وعنه أيضاً: المنظر، وهو المجلس في اللغة وهو النادي. ومنه دار الندوة؛ لأنَّ المشركين كانوا يتشاورون فيها في أمورهم(٤). وناداه: جالسه في النادي. قال:

أُنادي به آلَ الوليد وجعفراً

والنَّدِيُّ على فعيل: مجلس القوم ومتحدَّثهم، وكذلك النَّدْوة والنَّادي والمُنْتَدى(٥)، فإنْ تفرَّق القوم فليس بنديٍّ، قاله الجوهريُّ.

(١) تفسير الرازي ٢١/٢٤٦.

(٢) تفسير البغوي ٣/٢٠٧، وقراءة ابن كثير في السبعة ص٤١١، والتيسير ص١٤٩، وينظر حجة القراءات للفارسي ٥/٢٠٥، والبحر المحيط ٦/٢١٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/٦٠٨.

(٤) غريب القرآن ص٢٧٥.

(٥) في النسخ: والمتندى، والمثبت من الصحاح (ندي) والكلام منه ونسب البيت فيه إلى المرقش.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمَّة وجماعة. ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ أي: متاعاً كثيراً، قال:

وفَـرْعٍ يَـزِيـنُ الـمَـتْـنَ أسـودَ فـاحِـمٍ أَثِيثٍ كقِنْوِ النَّخلَةِ المُتَعَثْكِلِ[١]

والأثاث: متاع البيت. وقيل: هو ما جدَّ من الفَرْش، والخُرْثيُّ: ما لُبس منها، وأنشد الحسن بن عليٍّ الطوسي فقال:

تـقـادم الـعـهـدُ مـن أمِّ الـولـيـد بـنـا دهـراً وصـار أثـاثُ الـبـيـت خُرْثِيًّا[٢]

وقال ابن عباس: هيئة. مقاتل: ثياباً[٣].

«وَرِئْياً» أي: منظراً حسناً[٤]. وفيه خمس قراءات: قرأ أهل المدينة: «ورِيًّا» بغير همز. وقرأ أهل الكوفة: «ورِئياً» بالهمز. وحكى يعقوب أنَّ طلحة قرأ: «وَرِياً» بياء واحدة مخفَّفة. وروى سفيان، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس: «هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وزِيًّا» بالزاي، فهذه أربع قراءات. قال أبو إسحاق[٥]: ويجوز «هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ورِيْئاً» بياء بعدها همزة.

النحَّاس[٦]: وقراءة أهل المدينة في هذا حسنة، وفيها تقديران: أحدهما: أن تكون من رأيت، ثم خفِّفت الهمزة فأبدل منها ياء، وأُدغمت الياءُ في الياء، وكان هذا حسناً؛ لتتفق رؤوس الآيات؛ لأنَّها غيرُ مهموزات. وعلى هذا قال ابن عباس: الرئي: المنظر، فالمعنى: هم أحسن أثاثاً ولباساً.

---

(١) القائل امرؤ القيس، وسلف ١٢/ ٣٩٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٢١.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٧.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٦١٢ وعزاه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤٢، ونقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٦ والكلام منه، وقراءة أهل الكوفة والمدينة في السبعة ص٤١١، والتيسير ص١٤٩، وقراءة طلحة في القراءات الشاذة ص٨٦، والمحتسب ٢/ ٤٣، وقراءة ابن عباس في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٢٦ - ٢٧.

والوجه الثاني: أنَّ جلودَهم مرتوية من النِّعمة، فلا يجوز الهمز على هذا. وفي رواية ورش عن نافع، وابن ذكوان عن ابن عامر: «ورئياً» بالهمز تكون على الوجه الأوَّل، وهي قراءة أهل الكوفة وأبي عمرو من رأيت على الأصل. وقراءة طلحة بن مُصَرِّف: «ورِياً» بياء واحدة مخفَّفة، أحسبها غلطاً. وقد زعم بعضُ النحويين أنَّه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزةُ ياء، ثم حُذفت إحدى اليائين. المهدوي: ويجوز أن يكون: «رِيْئاً» فقلبت ياءً، فصارت ريياً، ثم نقلت حركة الهمزة على الياء وحذفت. وقد قرأ بعضهم «ورياً» على القلب، وهي القراءة الخامسة. وحكى سيبويه رَاءَ بمعنى رأى.

الجوهريُّ[1]: من هَمَزه جعله من المنظر من رَأَيْتُ، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة. وأنشد أبو عبيدة لمحمَّد بنِ نمير الثقفي فقال:

أشاقَتْك الظعائنُ يوم بانوا ... بذِي الرِّئي الجميلِ من الأثاث

ومن لم يهمز إمَّا أن يكون على تخفيف الهمز، أو يكون من رَوِيَتْ ألوانهم وجلودهم رِيًّا، أي: امتلأتْ وحسُنت.

وأما قراءة ابن عباس وأُبيّ بنِ كعب وسعيد بنِ جبير والأعسم المكيِّ ويزيد البربري: «وزِيًّا» بالزاي، فهو الهيئة والحُسن. ويجوز أن يكون من زَوَيتُ، أي: جمعت، فيكون أصلها زِوْياً، فقلبت الواو ياء[2]. ومنه قول النبيِّ ﷺ: «زُوِيت لي الأرض» أي: جمعت[3]. أي: فلم يُغْنِ ذلك عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى، فليعش هؤلاء ما شاؤوا، فمصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عُمِّروا، أو العذاب العاجل يأخذهم الله تعالى به.

---

(١) في الصحاح (رأى)، والبيت الآتي سلف ١٢/ ٣٩٣ .

(٢) المحتسب ٢/ ٤٤ - ٤٥ دون أن ينسب القراءة لابن عباس، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩ .

(٣) الحديث أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (٣٩٥٢)، والطبراني في الأوسط (٨٣٩٢)، وابن عبد البر في التمهيد ١٩/ ١٩٨ عن ثوبان ﷺ، وهو عند أحمد (٢٢٣٩٥)، ومسلم (١٩٢٠) بلفظ: إن الله زوى لي الأرض... الحديث.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ أي: في الكفر ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: فليدعه في طغيان جَهْله وكفره، فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر، أي: من كان في الضلالة مدَّه الرحمنُ مدًّا حتى يطول اغترارُه فيكون ذلك أشدَّ لعقابه، نظيره: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠][١] ومثله كثير، أي: فليعش ما شاء، وليوسِّع لنفسه في العمر، فمصيره إلى الموت والعقاب[٢]. وهذا غاية في التهديد والوعيد. وقيل: هذا دعاء أُمِرَ به النبي ﷺ، تقول: من سرق مالي، فليقطع اللهُ تعالى يدَه، فهو دعاء على السارق. وهو جواب الشرط. وعلى هذا فليس قوله: «فليمدد» خبراً.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ قال: «رأوا» لأنَّ لفظ «من» يصلح للواحد والجمع. و«إذا» مع الماضي بمعنى المستقبل، أي: حتى يروا ما يوعدون. والعذاب هنا إمَّا أن يكون بنَصْر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر، وإمَّا أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار[٣]. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي: تنكشف حينئذٍ الحقائق. وهذا ردٌّ لقولهم: «أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن ندياً».

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ أي: ويثبِّت الله المؤمنين على الهدى، ويزيدهم في النُّصرة، وينزِّل من الآيات ما يكون سببَ زيادة اليقين، مجازاةً لهم. وقيل: يزيدهم هدًى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذي كفر به غيرُهم، قال معناه الكلبيُّ ومقاتل. ويحتمل ثالثاً: أي: «ويزيد الله الذين اهتدوا» إلى الطاعة «هدًى» إلى الجنَّة[٤]. والمعنى متقارب. وقد تقدَّم القول في معنى زيادة الأعمال

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣١ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٧ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٨ ، وزاد المسير ٥/ ٢٥٩ بنحوه.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٨٧ .

وزيادة الإيمان والهدى في «آل عمران»[١] وغيرها.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ تقدَّم في «الكهف» القول فيها[٢]. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: في الآخرة مما افتخر به الكفار في الدنيا. و«الْمَرَدّ» مصدر كالرَّدِّ، أي: وخير ردًّا على عاملها بالثواب، يقال: هذا أَرَدُّ عليك، أي: أنفع لك[٣]. وقيل: «خير مردًّا» أي: مرجعاً، فكلُّ أحد يردُّ إلى عمله الذي عمله.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ روى الأئمة ـ واللفظ لمسلم ـ عن خبَّاب قال: كان لي على العاص بنِ وائل دَيْنٌ، فأتيتُه أتقاضاه، فقال لي: لن أقضيَك حتى تَكْفُر بمحمَّد. قال: فقلت له: لن أكفرَ به حتى تموتَ ثم تُبعَث. قال: وإنِّي لمبعوثٌ من بعد الموت؟! فسوف أقضيكَ إذا رَجعتُ إلى مال وولد. قال وكيع: كذا قال الأعمش، فنزلت هذه الآية: «أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً» إلى قوله: «ويأتينا فرداً». في رواية قال: كنت قَيْناً في الجاهلية فعملت للعاص بنِ وائل عملاً فأتيتُه أتقاضاه. خرَّجه البخاريُّ أيضاً[٤].

وقال الكلبيُّ ومقاتل: كان خبَّاب قَيْناً، فصاغ للعاص حَلْياً ثم تقاضاه أجرتَه، فقال العاص: ما عندي اليوم ما أقضيك. فقال خبَّاب: لست بمفارقك حتى تقضيني، فقال العاص: يا خبَّاب، ما لَكَ؟! ما كنت هكذا، وإن كنت لحسن الطلب. فقال

---

(١) ٥/ ٤٢٣.

(٢) عند الآية (٤٦).

(٣) الوسيط ٣/ ١٩٤.

(٤) البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، والواحدي في أسباب النزول ص٣١١، والقَيْن: الحداد والصائغ. النهاية (قين).

خبَّاب: إنِّي كنت على دينك، فأمَّا اليوم فأنا على دين الإسلام مفارقٌ لدينك. قال: أَوَلستم تزعمون أنَّ في الجنَّة ذهباً وفضة وحريراً؟ قال خبَّاب: بلى. قال: فأخِّرني حتى أقضيك في الجنَّة ـ استهزاء ـ فواللهِ لئن كان ما تقول حقًّا إنِّي لأقضيك فيها، فواللهِ لا تكون أنت يا خبَّاب وأصحابك أولى بها مني، فأنزل الله تعالى: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا» يعني: العاصَ بنَ وائل، الآيات(١).

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ قال ابن عباس: أنظرَ في اللوح المحفوظ؟!. وقال مجاهد: أَعَلِمَ الغيبَ حتى يعلم أفي الجنَّة هو أم لا؟!(٢) ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال قتادة والثوريُّ: أي: عملاً صالحاً(٣). وقيل: هو التوحيد. وقيل: هو من الوعد(٤). وقال الكلبيُّ: عاهد الله تعالى أن يدخله الجنَّة(٥).

﴿كَلَّآ﴾ ردٌّ عليه، أي: لم يكن ذلك، لم يطلع الغيب، ولم يتَّخذ عند الرحمن عهداً(٦)، وتمَّ الكلام عند قوله: «كَلَّا». وقال الحسن: إنَّ الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة(٧). والأوَّل أصحُّ؛ لأنَّه مدوَّن في الصِّحاح.

وقرأ حمزة والكسائيُّ «وَوُلْداً» بضمِّ الواو، والباقون بفتحها(٨). واختلف في الضمِّ والفتح على وجهين: أحدهما: أنهما لغتان معناهما واحد، يقال: وَلَد ووُلْد كما يقال: عَدَم وعُدْم. وقال الحارث بن حِلِّزة:

ولقد رأيتُ معاشراً قد ثَمَّرُوا مَالاً ووُلْدَا(٩)

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣١٢ .
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٨ .
(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٢١ عن قتادة.
(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٢ بنحوه.
(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٨ .
(٦) الوسيط ٣/ ١٩٤ .
(٧) زاد المسير ٥/ ٢٦٠ ، وتفسير الرازي ٢١/ ٢٤٩ .
(٨) السبعة ص٤١٢ ، والتيسير ص١٥٠ .
(٩) النكت و العيون ٣/ ٣٨٧ ، والبيت ذكره أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٧٣ ، والطبري ١٥/ ٦٢٠ .

وقال آخر:

فليتَ فلاناً كان في بطن أُمِّه ... وليت فلاناً كان وُلْدَ حِمارِ[١]

والثاني: أنَّ قيساً تجعل الوُلد بالضمِّ جمعاً، والولَد بالفتح واحداً. قال الماورديُّ[٢]: وفي قوله تعالى: «لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً» وجهان: أحدهما: أنَّه أراد في الجنَّة استهزاءً بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته، قاله الكلبيُّ. الثاني: أنَّه أراد في الدنيا، وهو قول الجمهور، وفيه وجهان محتملان: أحدهما: إن أقمتُ على دين آبائي وعبادة آلهتي لأُوتينَّ مالاً وولداً. الثاني: ولو كنت على باطل لَمَا أُوتيت مالاً وولداً.

قلت: قول الكلبيِّ أشبه بظاهر الأحاديث، بل نصُّها يدلُّ على ذلك، قال مسروق: سمعت خبَّاب بن الأرتِّ يقول: جئت العاصيَ بنَ وائل السَّهْميَّ أتقاضاه حقًّا لي عنده. فقال: لا أُعطيك حتى تكفُر بمحمَّد. فقلت: لا حتى تموتَ ثم تُبعَث. قال: وإنِّي لميِّت ثم مبعوث؟!. فقلت: نعم. فقال: إنَّ لي هناك مالاً وولداً فأقضيك، فنزلت هذه الآية، قال الترمذيُّ: هذا حديث حسن صحيح[٣].

قوله تعالى: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ» ألفه ألفُ استفهام لمجِيء «أم» بعدها، ومعناه التوبيخ، وأصله: أأطلع، فحذفت الألف الثانية؛ لأنَّها ألف وصل[٤]. فإن قيل: فهلَّا أتوا بمَدَّة بعد الألف فقالوا: آطلع كما قالوا: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ [النمل:٥٩] ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ [الأنعام:١٤٣] قيل له: كان الأصل في هذا «أالله»، «أالذكرين» فأبدلوا من

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٧٣، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٦٥، والطبري ١٥/ ٦٢٠ دون نسبة، ونسبه التبريزي في تهذيب إصلاح المنطق ١/ ٥٨، والعكبري في المشرف المعلم ٢/ ٨٤١ لنافع ابن صفار الأسلمي يهجو الأخطل، وجاء في المحتسب: زياداً، بدل: فلاناً، في الموضعين.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٨٨، وما قبله منه.

(٣) الترمذي (٣١٦٢)، وسلف تمام تخريجه قريباً.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٧.

الألف الثانية مدَّة ليفرِّقوا بين الاستفهام والخبر، وذلك أنَّهم لو قالوا: الله خير، بلا مدٍّ، لالتبسَ الاستفهام بالخبر(١)، ولم يحتاجوا إلى هذه المدَّة في قوله: «أطَّلع» لأنَّ ألف الاستفهام مفتوحة، وألف الخبر مكسورة، وذلك أنَّك تقول في الاستفهام: أَطَّلع؟ أفترى؟ أَصطفى؟ أَستغفرت؟ بفتح الألف، وتقول في الخبر: اِطلع، اِفترى، اِصطفى، اِستغفرت لهم، بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر، ولم يحتاجوا إلى فرق آخر.

قوله تعالى: «كَلَّا» ليس في النصف الأوَّل ذكر «كلّا» وإنَّما جاء ذكره في النصف الثاني(٢). وهو يكون بمعنيين: أحدهما: بمعنى حقًّا. والثاني: بمعنى «لا». فإذا كانت بمعنى حقًّا جاز الوقف على ما قبله، ثم تبتدئ «كلا» أي: حقًّا. وإذا كانت بمعنى «لا»، كان الوقف على «كلا» جائزاً، كما في هذه الآية؛ لأنَّ المعنى: لا ليس الأمر كذا. ويجوز أن تقف على قوله: «عَهْداً» وتبتدئ «كلا» أي: حقًّا «سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ». وكذا قوله تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] يجوز الوقف على «كلا» وعلى «تركت». وقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ قَالَ كَلَّاۖ﴾ [الشعراء: ١٤-١٥] الوقف على «كلا» لأنَّ المعنى: لا، وليس الأمر كما تظن ﴿فَٱذۡهَبَا﴾. فليس للحقِّ في هذا المعنى موضع(٣).

وقال الفرَّاء(٤): «كلا» بمنزلة سوف؛ لأنَّها صلة، وهي حرف رَدٍّ، فكأنَّها «نعم» و«لا» في الاكتفاء. قال: وإن جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها، كقولك: كلّا ورَبِّ الكعبة، لا تقف على كلَّا؛ لأنَّه بمنزلة: إي وربِّ الكعبة. قال الله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢] فالوقف على «كلّا» قبيح؛ لأنَّه صلة لليمين. وكان أبو جعفر محمد ابن سعدان يقول في «كلا» مثل قولِ الفرَّاء. وقال الأخفش: معنى «كلا» الردع

(١) سر صناعة الإعراب لابن جني ١/ ٣٤٠.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٢.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٢٥ - ٤٢٧.

(٤) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٩/ ١٦.

والزجر. وقال أبو بكر بن الأنباري[(١)]: وسمعت أبا العباس يقول: لا يُوقَف على «كلا» في جميع القرآن؛ لأنَّها جواب، والفائدة تقع فيما بعدها. والقول الأول هو قول أهل التفسير.

قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنحفظ عليه قوله فنجازيه به في الآخرة. ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: سنزيده عذاباً فوق عذاب[(٢)]. ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نسلبه ما أعطيناه في الدنيا من مال وولد. وقال ابن عباس وغيره: أي: نرثه المالَ والولدَ بعد إهلاكنا إيَّاه. وقيل: نحرمه ما تمنَّاه في الآخرة من مال وولد[(٣)]، ونجعله لغيره من المسلمين. ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي: منفرداً لا مالَ له ولا ولد ولا عشيرة تنصره.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ يعني: مشركي قريش. و«عِزًّا» معناه: أعواناً ومنَعة، يعني: أولاداً. والعِزُّ: المطر الجُودُ[(٤)] أيضاً، قاله الهرويُّ[(٥)]. وظاهر الكلام أنَّ «عزًّا» راجع إلى الآلهة التي عبدوها من دون الله. ووحَّد؛ لأنَّه بمعنى المصدر، أي: لينالوا بها العزَّ ويمتنعون بها من عذاب الله، فقال الله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ظنُّوا وتوهَّموا، بل يكفرون بعبادتهم، أي: ينكرون أنَّهم عبدوا الأصنام، أو تجحد الآلهةُ عبادةَ المشركين لها، كما قال: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣]. وذلك أنَّ الأصنامَ جمادات لا تعلم العبادة[(٦)].

---

(١) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٢٥ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٩٥ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٨٨ ، دون قول ابن عباس وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٦٢٣ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٦١ .

(٤) المطرُ الجود: أي المطر الغزير.

(٥) وينظر الصحاح (عزز).

(٦) زاد المسير ٥/ ٢٦٢ .

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي: أعواناً في خصومتهم وتكذيبهم. عن مجاهد[١]، والضحَّاك: يكونون لهم أعداء[٢]. ابن زيد: يكونون عليهم بلاء[٣]. فتحشر آلهتهم، وتركَّب لهم عقول فتنطق، وتقول: يا ربِّ عَذِّبْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك.

و«كلا» هنا يحتمل أن تكون بمعنى «لا»، ويحتمل أن تكون بمعنى حقًّا، أي: حقًّا «سيكفرون بِعِبادتهِم». وقرأ أبو نَهِيك: «كَلًّا سيكفرون» بالتنوين[٤]. وروي عنه مع ذلك ضمُّ الكاف وفتحُها[٥].

قال المهدويُّ: «كلا» ردع وزَجْر وتنبيه وردٌّ لكلامٍ متقدِّم، وقد تقع لتحقيق ما بعدها والتنبيه عليه كقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق:٦] فلا يوقف عليها على هذا، ويوقف عليها في المعنى الأول، فإن صلح فيها المعنَيان جميعاً، جاز الوقف عليها والابتداء بها. فمن نوَّن «كلا» من قوله: «كلًّا سيكفرون بِعِبادتهِم» مع فتح الكاف فهو مصدر كَلَّ، ونصبه بفعل مضمَر، والمعنى: كَلَّ هذا الرأيُ والاعتقادُ كَلًّا، يعني: اتخاذَهم الآلهةَ «لِيكونوا لهم عِزًّا» فيوقف على هذا على «عِزًّا» وعلى «كَلًّا». وكذلك في قراءة الجماعة؛ لأنَّها تصلح للردِّ لما قبلها، والتحقيق لما بعدها[٦]. ومن روى ضمَّ الكاف مع التنوين، فهو منصوب أيضاً بفعل مضمَر، كأنَّه قال: سيكفرون «كُلًّا سيكفرون بِعِبادتهِم»[٧] يعني: الآلهة.

قلت: فتحصَّل في «كلَّا» أربعة معانٍ: التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقًّا، والنفي، والتنبيه، وصلة للقسَم، ولا يوقف منها إلا على الأوَّل. وقال الكسائيُّ: «لا»

---

(١) تفسير مجاهد ١/ ٣٩٠ - ٣٩١، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٦٢٤.
(٢) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٢٥.
(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٨٩.
(٤) القراءات الشاذة ص٨٦، والمحتسب ٢/ ٤٥.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣١.
(٦) المحتسب ٢/ ٤٥، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٢٥ وما بعدها، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٦٧ بنحوه.
(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣١.

تنفي فحسب، و«كلّا» تنفي شيئاً وتُثبِت شيئاً، فإذا قيل: أكلتَ تمراً، قلت: كلَّا إنِّي أكلتُ عسلاً لا تمراً، ففي هذه الكلمة نفيُ ما قبلها، وتحقُّق ما بعدها. والضِّدُّ يكون واحداً ويكون جمعاً، كالعدوِّ والرسول. وقيل: وقع الضِّدُّ موقع المصدر، أي: ويكونون عليهم عوناً، فلهذا لم يجمع، وهذا في مقابلة قوله: «لِيكونوا لهم عِزاً» والعِزُّ مصدر، فكذلك ما وقع في مقابلته. ثم قيل: الآية في عبدة الأصنام، فأَجرى الأصنام مجرى من يعقل، جرياً على توهُّم الكفرة. وقيل: فيمن عبد المسيح أو الملائكة أو الجنَّ أو الشياطين، فالله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعلى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: سلَّطناهم عليهم بالإغواء، وذلك حين قال لإبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]. وقيل: «أرسلنا» أي: خلَّينا، يقال: أرسلت البعير، أي: خلَّيته. أي: خلَّينا الشياطين وإيَّاهم ولم نَعصِمْهم من القبول منهم[(١)]. الزجَّاج[(٢)]: قيَّضنا.

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قال ابن عباس: تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية. وعنه تغريهم إغراءً بالشَّرِّ: امْضِ امْضِ في هذا الأمر، حتى تُوقعَهم في النار. حكى الأوَّل الثعلبيُّ، والثاني الماورديُّ[(٣)]، والمعنى واحد. الضحَّاك: تغويهم إغواء[(٤)]. مجاهد:

---

(١) الوسيط ٣/ ١٩٥.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٤٥.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٣٨٩، وذكر قول ابن عباس الأول الواحدي في الوسيط ٣/ ١٩٥، وأخرج الثاني الطبري ١٥/ ٦٢٧.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٨٩، وأخرجه عنه الطبري ١٥/ ٦٢٧، بلفظ: تُغريهم إغراء.

تُشليهم إشلاءً[١].

وأصله الحركة والغَلَيان، ومنه الخبر المرويُّ عن النبيِّ ﷺ قام إلى الصلاة ولجوفه أزيزٌ كأزيز المِرْجل من البكاء. وائْتَزَّتِ القِدْر ائْتِزازاً: اشتدَّ غليانها. والأَزُّ: التَّهييج والإغراء، قال الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» أي: تُغْريهم على المعاصي. والأَزُّ: الاختلاط. وقد أَزَزْتُ الشيءَ أَؤُزُّهُ أَزًّا، أي: ضممتُ بعضه إلى بعض. قاله الجوهريُّ[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تطلب العذابَ لهم. ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال الكلبيُّ: آجالهم، يعني الأيَّام والليالي والشهور والسنين إلى انتهاء أَجَلِ العذاب[٣]. وقال الضحَّاك: الأنفاس. ابن عباس: أي: نعدُّ أنفاسَهم في الدنيا كما نعدُّ سنيهم[٤]. وقيل: الخطوات. وقيل: اللَّذات. وقيل: اللحظات. وقيل: الساعات. وقال قطرب: نعدُّ أعمالَهم عدًّا[٥]. وقيل: لا تعجل عليهم فإنَّما نؤخِّرهم ليزدادوا إثماً.

روي أنَّ المأمونَ قرأ هذه السورة، فمرَّ بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء، فأشار برأسه إلى ابنِ السماك أن يَعِظَه، فقال: إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد. وقيل في هذا المعنى:

حياتُك أنفاسٌ تُعدُّ فكلَّما ... مَضَى نَفَسٌ منك انتقصت به جُزْءَا
يميتك ما يحييك في كلِّ ليلة ... ويَحدُوك حَادٍ ما يُريد به الهُزءا[٦]

---

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٢٧ ونسبه لابن زيد.

(٢) في الصحاح (أزز)، والحديث أخرجه أحمد (١٦٣١٢)، وأبو داود (٩٠٤)، والنسائي في المجتبى ٣/ ١٣، وفي الكبرى (٥٤٩) عن عبد الله بن الشِّخِّير ﷺ.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٩، والنكت والعيون ٣/ ٣٨٩ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٢٨.

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٦٣.

(٦) القائل علي بن أبي طالب، والبيتان في ديوانه ص١١، وذكرهما ابن عبد البر في بهجة المجالس =

ويقال: إنَّ أنفاسَ ابنِ آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس؛ اثنا عشر ألف نفس في اليوم، واثنا عشر ألفاً في الليلة ـ والله أعلم ـ فهي تعدُّ وتحصى إحصاءً، ولها عدد معلوم، وليس لها مدد، فما أسرع ما تَنفد.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ في الكلام حذف، أي: إلى جنَّة الرحمن، ودار كرامته[١]، كقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩]، وكما في الخبر: «من كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله»[٢].

والوفد: اسمٌ للوافدين، كما يقال: صَوْم وفَطْر وزَوْر، فهو جمع الوافد، مثل رَكْب وراكب، وصَحْب وصاحب، وهو من وَفَد يَفِدُ وَفْداً ووفوداً ووِفادة، إذا خرج إلى مَلِكٍ في فتحٍ أو أمر خطير[٣]. الجوهريُّ[٤]: يقال: وفَد فلانٌ على الأمير، أي: وَرَدَ رسولاً، فهو وافد، والجمع وَفْد، مثل صاحب وصَحْب، وجمع الوَفْد: أوفاد ووفود، والاسم: الوِفادة، وأوفَدْته أنا إلى الأمير، أي: أرسلته.

وفي التفسير: «وفداً» أي: ركباناً على نجائب طاعتهم[٥]. وهذا لأنَّ الوافدَ في الغالب يكون راكباً، والوفد: الركبان، ووحِّد؛ لأنَّه مصدر. ابن جريج: وفداً على النجائب[٦].

وقال عمرو بنُ قيس الْمُلَائي: إنَّ المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسنِ صورة وأطيبِ رِيْح، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أنَّ الله قد طيَّب

= ٣/ ٣٣٩ ونسبها إلى محمود الوراق، وابن الجوزي في المدهش ص٤٥٣ ولم ينسبها، وجاءت رواية البيت الثاني في الديوان هكذا:

ويحييك ما يفنيك في كل حالة ... ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهزءا

(١) الوسيط ٣/ ١٩٥ .

(٢) سلف ٣/ ٢٧٠ .

(٣) الوسيط ٣/ ١٩٥ .

(٤) في الصحاح (وفد).

(٥) لطائف الإشارات ٢/ ١٥١ .

(٦) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٣٠ - ٦٣١ .

رِيْحك وحسَّن صورتك. فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك الصالح، طالما ركبتُك في الدنيا، اركبني اليوم، وتلا: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً». وإنَّ الكافر يستقبله عمله في أقبح صورة وأنتن رِيْح، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أنَّ الله قد قبَّح صورتك وأنتنَ رِيْحك. فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك السَّيِّئ، طالما ركبتني في الدنيا وأنا اليوم أركبك. وتلا: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١]. ولا يصحُّ من قِبل إسناده، قاله ابن العربي في «سراج المريدين»[١]، وذكَر هذا الخبر في تفسيره أبو نصر عبد الرحيم بنُ عبد الكريم القشيريُّ، عن ابن عباس بلفظه ومعناه.

وقال أيضاً عن ابن عباس: من كان يحبُّ الخيلَ وفَد إلى الله تعالى على خيل لا تَرُوث ولا تَبول، لجمها من الياقوت الأحمر، ومن الزَّبرجد الأخضر، ومن الدُّرِّ الأبيض، وسُروجها من السندس والإستبرق، ومن كان يحبُّ ركوبَ الإبل فعلى نجائب لا تَبْعَر ولا تبول، أزمَّتها من الياقوت والزَّبرجد، ومن كان يحبُّ ركوب السفن، فعلى سفن من ياقوت، قد أَمِنُوا الغرق، وأَمِنُوا الأهوال.

وقال أيضاً عن عليٍّ ﷺ: ولما نزلت الآية قال عليٌّ ﷺ: يا رسولَ الله! إني قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أرَ وفداً إلا ركباناً، فما وَفْد الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّهم لا يُحشَرون على أقدامهم ولا يُساقون سَوقاً، ولكنَّهم يؤتون بنُوق من نوق الجنَّة، لم ينظر الخلائق إلى مِثْلها، رحالها الذَّهب، وزمامها الزَّبرجد، فيركبونها حتى يقرعوا بابَ الجنَّة»[٢]. ولفظ الثعلبيِّ في هذا الخبر عن عليٍّ أبينُ.

وقال عليٌّ: لما نزلت هذه الآية، قلت: يا رسول الله! إنِّي رأيت الملوك

---

(١) التذكرة ص١٨٩ - ١٩٠ ، والخبر أخرجه الطبري ١٥/ ٦٣٠ مقتصراً على الطرف الأول، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم في التفسير ٤/ ١٢٨١ (٧٢٢٩)، والطبري ٩/ ٢١٧ عن السدي بنحوه.

(٢) التذكرة ص٢٠١ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١١٩ ، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٥٣)، والطبري ١٥/ ٦٢٩ ، والحاكم ٤/ ٥٦٥ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٨). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وردَّه الذهبي بقوله: لا.

ووفودَهم، فلم أَرَ وفداً إلا ركباناً. قال: «يا عليّ إذا كان المنصرَف من بين يدي الله تعالى تلقَّت الملائكة المؤمنين بنُوق بِيْض رحالها، وأزمَّتها الذهب، على كلِّ مركب حُلَّة لا تساويها الدنيا، فيلبس كلُّ مؤمن حُلَّة، ثم تسير بهم مراكبهم فتهوي بهم النوق حتى تنتهي بهم إلى الجنَّة، فتتلقاهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

قلت: وهذا الخبر ينصُّ على أنَّهم لا يَركبون ولا يلبسون إلا من الموقف، وأمَّا إذا خرجوا من القبور فمشاةً حُفاةً عُراةً غُرلاً إلى الموقف؛ بدليل حديث ابن عباس قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنَّكم تُحشَرون إلى الله ـ تعالى ـ حُفَاةً عُراة غُرْلاً» الحديث خرَّجه البخاريُّ ومسلم[(١)]، وسيأتي بكماله في سورة «المؤمنين» إن شاء الله تعالى، وتقدَّم في «آل عمران» من حديث عبد الله بنِ أنيس بمعناه، والحمد لله تعالى[(٢)]. ولا يَبْعُد أن تحصل الحالتان للسعداء، فيكون حديث ابنِ عباس مخصوصاً، والله أعلم.

وقال أبو هريرة: «وفداً»: على الإبل[(٣)]. ابن عباس: ركباناً يؤتون بنوق من الجنَّة، عليها رحائل من الذهب، وسُروجها وأزمَّتها من الزَّبرجد فيحشرون عليها.

وقال عليٌّ: ما يُحشَرون واللهِ على أرجلهم، ولكن على نُوقٍ رحالها من ذهب، ونُجُبٍ سروجها يواقيت، إن هَمُّوا بها سارت، وإن حركوها طارت[(٤)]. وقيل: يَفدُون على ما يحبُّون من إبل أو خيل أو سفن، على ما تقدَّم عن ابن عباس. والله أعلم. وقيل: إنَّما قال: «وفداً» لأنَّ من شأن الوفود عند العرب أن يَقدموا بالبِشارات، وينتظرون الجوائز، فالمتَّقون ينتظرون العطاءَ والثواب.

---

(١) البخاري (٤٦٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠) واللفظ له.

(٢) لم نقف عليه في سورة المؤمنين، وتقدم في آل عمران ٥/ ٤١٣ مختصراً، وفي المائدة ٨/ ٣٠٤ بتمامه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ١١٩، والطبري ١٥/ ٦٢٩ - ٦٣٠.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٩.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ السَّوق: الحثُّ على السير. و«وِرداً»: عِطاشاً، قاله ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما والحسن(١). والأخفش والفرَّاء(٢) وابن الأعرابي: حفاةً مشاةً. وقيل: أفواجاً. وقال الأزهريُّ(٣): أي: مشاةً عِطاشاً، كالإبل تَرِدُ الماء، فيقال: جاء وِرد بني فلان. القشيريُّ: وقوله «وِرداً» يدلُّ على العطش؛ لأنَّ الماءَ إنَّما يورد في الغالب للعطش. وفي «التفسير»: مشاةً عِطاشاً(٤)، تتقطَّع أعناقهم من العطش(٥)، وإذا كان سَوق المجرمين إلى النار، فحشر المتقين إلى الجنة.

وقيل: «وِرداً» أي: الورود، كقولك: جئتك إكراماً لك، أي: لإكرامك، أي: نسوقهم لورود النار.

قلت: ولا تناقضَ بين هذه الأقوال، فيساقون عِطاشاً حفاةً مشاةً أفواجاً. قال ابنُ عرفة: الوِرد: القوم يَرِدُون الماء، فسُمِّي العطاش ورداً؛ لطلبهم ورود الماء؛ كما تقول: قوم صَوْم، أي: صيام، وقوم زَوْر، أي: زوَّار، فهو اسم على لفظ المصدر، واحدهم وارد.

والوِرد أيضاً: الجماعة التي تَرِدُ الماءَ من طير وإبل. والورد: الماء الذي يوردُ(٦). وهذا من باب الإيماء بالشيء إلى الشيء.

والوِرْد: الجزء. يقال: قرأت وِردي. والوِرد: يوم الحمَّى إذا أخذت صاحبها لوقت ـ فظاهره لفظ مشترك ـ وقال الشاعر يصف قَلِيباً:

---

(١) أخرجه عنهم الطبري ١٥/ ٦٣١ -٦٣٢ ، وعلقه عن ابن عباس البخاري في كتاب التفسير، قبل حديث ٤٧٣٠ ، وأخرجه أيضاً عن الحسنِ ابنُ أبي شيبة ١٣/ ١٧٢ ، وهناد في الزهد (٢٨٦) و(٢٨٧).

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٧٢ ، وفيه: مشاة عطاشاً.

(٣) في تهذيب اللغة ١٤/ ١٦٤ .

(٤) نزهة القلوب ص٤٧١ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٩ .

(٦) تهذيب اللغة ١٤/ ١٦٤ .

يَـطْـمـو إذا الـوِرْدُ عـلـيـه الْـتَـكَّـا[١]

أي: الورَّاد الذين يَرِدُونَ الماءَ.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعةَ لأحد ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ وهم المسلمون فيملكون الشفاعة، فهو استثناء الشيء من غير جنسه، أي: لكن «منِ اتخذ عِند الرحمنِ عهداً» يشفع، فـ «مَن» في موضع نصب على هذا. وقيل: هو في موضع رَفْع على البدل من الواو في «يملكون»، أي: لا يملك أحد عند الله الشفاعة «إلا منِ اتخذ عِند الرحمنِ عهداً» فإنَّه يملك[٢]، وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً.

و«المجرمين» في قوله: «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً» يعمُّ الكفرةَ والعصاة، ثم أَخبر أنَّهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنون، فإنَّهم يملكونها بأن يشفع فيهم. قال رسول الله ﷺ: «لا أزالُ أَشفع حتى أقول: يا ربِّ شفِّعني فيمن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول: يا محمَّد إنَّها ليست لك ولكنها لي»[٣] خرَّجه مسلم بمعناه، وقد تقدَّم[٤].

وتظاهرت الأخبار بأنَّ أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيُشفَّعون[٥]، وعلى القول الأول يكون الكلام متصلاً بقوله: «واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» فلا تقبل غداً شفاعة عبدة الأصنام لأحد، ولا شفاعة الأصنام لأحد، ولا يملكون شفاعة أحد لهم، أي: لا تنفعهم شفاعة، كما قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقيل: أي: نحشر المتَّقين والمجرمين، ولا يملك أحدٌ شفاعةً «إلا منِ اتخذ عِند

---

(١) الصحاح (ورد)، وقبله: صبَّحن من وشحا قليباً سُكَّا
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤٦ بنحوه.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٢ - ٣٣.
(٤) مسلم (١٩٣): (٣٢٦)، وهو بهذا اللفظ عند أبي يعلى في مسنده (٢٧٨١).
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣.

الرحمنِ عهداً» أي: إذا أذن له الله في الشفاعة، كما قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهذا العهد هو الذي قال: «أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً» وهو لفظ جامعٌ للإيمان وجميع الصالحات التي يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع.

وقال ابن عباس: العهد: لا إله إلا الله. وقال مقاتل وابن عباس أيضاً: لا يَشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله، وتبرَّأ من الحول والقوَّة لله، ولا يرجو إلا الله تعالى(١).

وقال ابن مسعود: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كلَّ صباح ومساء عند الله عهداً» قيل: يا رسول الله وما ذاك؟ قال: «يقول عند كلِّ صباح ومساء: اللَّهمَّ فاطرَ السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، إنِّي أَعهد إليك في هذه الحياة بأنِّي أشهد أن لا إله إلا أنتَ، وحدك لا شريك لك، وأنَّ محمداً عبدك ورسولك، فإنَّك إن تكلني إلى نفسي تباعدني من الخير وتقرِّبني من الشَّرِّ، وإنِّي لا أَثِقُ إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً توفِّينيه يوم القيامة، إنَّك لا تخلف الميعاد، فإذا قال ذلك، طبع الله عليها طابعاً، ووضعها تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين لهم عند الله عهدٌ. فيقوم فيدخل الجنة»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ يعني اليهود والنصارى، ومَنْ زعم أنَّ

(١) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٣٣ ، والطبراني في الدعاء (١٥٧٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٠٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٢٥ ، والثعلبي كما في الكافي الشاف ص١٠٨ ، وأخرجه أحمد (٣٩١٦) بنحوه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٤ : رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عون بن عبد الله لم يسمع من ابن مسعود. اهـ وأخرجه أيضاً الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٧٧ - ٣٧٨ عن ابن مسعود من قوله. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

الملائكةَ بناتُ الله[١]. وقرأ يحيى والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ وخلف[٢]: «وُلْداً» بضمِّ الواو وإسكان اللام، في أربعة مواضع: من هذه السورة قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وقد تقدَّم[٣]، وقوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾. وفي سورة نوح: ﴿مَالُهُ وَوَلَدُهُ﴾ [الآية: ٢١]. ووافقهم في «نوحٍ» خاصَّةً ابنُ كثير ومجاهدٌ وحميد وأبو عمرو ويعقوب. والباقون في الكُلِّ بالفتح في الواو واللام[٤]، وهما لغتان، مثل: العَرَبُ والعُرْبُ والعَجَمُ والعُجْمُ. قال:

ولقد رأيتُ معاشراً قد ثَمَّرُوا مالاً وَوُلْدا

وقال آخر:

وليتَ فلاناً كان في بطنِ أمِّهِ وليتَ فلاناً كان وُلْدَ حِمارِ

وقال في معنى ذلك النابغة[٥]:

مَهْلاً فداءً لكَ الأقوامُ كلُّهمُ وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومِن وَلَدِ

ففتح. وقيسٌ يجعلون الوُلْدَ بالضمِّ جمعاً، والوَلَدَ بالفتح واحداً[٦]. قال الجوهري[٧]: الوَلَدُ قد يكون واحداً وجمعاً، وكذلك الوُلْدُ بالضمِّ. ومن أمثال بني أسد: وُلْدُكِ من دَمَّى عَقِبَيْكِ.[٨] وقد يكون الوُلْدُ جمعَ الوَلَدِ مثلَ أُسْدٍ وأَسَدٍ: والوِلْدُ

(١) الوسيط ٣/ ١٩٦، وتفسير البغوي ٣/ ٢٠٩، وزاد المسير ٥/ ٢٦٤.

(٢) قبلها في (د) و(م) زيادة: وعاصم، وهي خطأ.

(٣) ص٥٠٦-٥٠٧ من هذا الجزء.

(٤) قرأ الكسائي وحمزة: «وُلْداً» بضمِّ الراء وسكون اللام في جميع تلك المواضع، ووافقهم في آية نوح: ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف. وقرأ الباقون بفتح الواو واللام في جميع المواضع. ينظر الحجة في القراءات ٥/ ٢١١، والسبعة ص٤١٢، والتيسير ص١٥٠ و ٢١٥، والنشر ٣/ ٢٩١.

(٥) وهو الذبياني في ديوانه ص٣٦.

(٦) من قوله: و هما لغتان إلى هذا الموضع ـ دون بيت النابغة ـ من النكت والعيون ٣/ ٣٨٧، وقد سلف قريباً.

(٧) في الصحاح (ولد).

(٨) أي: من نَفِسْتِ به. مجمع الأمثال للميداني ١/ ٣٩.

بالكسر لغةٌ في الوُلْد. النحَّاس[١]: وفرَّقَ أبو عبيدٍ بينهما، فزعم أنَّ الوَلَدَ يكون للأهل والوَلَدِ جميعاً. قال أبو جعفر: وهذا قولٌ مردودٌ لا يعرفه أحدٌ من أهل اللغة، ولا يكون الوَلَدُ والوُلْدُ إلا وَلَدَ الرجلِ ووَلَدَ وَلَدِه، إلا أنَّ وَلَداً أكثرُ في كلام العرب؛ كما قال:

مَهْلاً فداءً لَكَ الأقوامُ كلُّهمُ وما أُثَمِّرُ مِنْ مالٍ ومن وَلَدِ

قال أبو جعفر: وسمعتُ محمد بن الوليد يقول: يجوز أن يكون وُلْدٌ جمعَ وَلَدٍ، كما يُقال: وَثَنٌ ووُثْنٌ وأَسَدٌ وأُسْدٌ، ويجوز أن يكون وَلَدٌ ووُلْدٌ بمعنًى واحد، كما يُقال: عَجَمٌ وعُجْمٌ، وعَرَبٌ وعُرْبٌ، كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي: منكراً عظيماً. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما[٢]. قال الجوهري[٣]: الإِدُّ والإِدَّة: الداهِيةُ والأمرُ الفظيع؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ وكذلك الآدُّ مثل فاعل. وجَمْعُ الإِدَّةِ إِدَدٌ، وأَدَّتْ فلاناً داهِيةٌ تؤدُّه أدًّا، بالفتح. والأَدُّ أيضاً: القوَّة[٤]؛ قال الراجز:

نَضَوْتُ[٥] عَنِّي شِرَّةً[٦] وأَدَّا من بَعْدِ ما كنْتُ صُمُلًّا[٧] جَلْدا[٨]

انتهى كلامه. وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي: «أَدًّا» بفتح الهمزة[٩]. النحَّاس[١٠]: يُقال: أَدَّ يَؤُدُّ أدًّا فهو آدٌّ، والاسم الإِدُّ؛ إذا جاء بشيءٍ عظيمٍ منكر. وقال الراجز:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨.
(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٩٠، وأخرجه الطبري ١٥/ ٦٣٥ - ٦٣٦ عنهما وعن قتادة.
(٣) في الصحاح (أدد).
(٤) في (د) و(م): والإِدُّ أيضاً الشدة، والأَدُّ الغلبة والقوة.
(٥) في (د) و(م): نضَوْنَ. ونضا: خلع. الصحاح (نضا).
(٦) في (م): شدةً. والشِّرَّة: مصدر الشر. الصحاح (شرر).
(٧) أي: شديد الخُلُق. الصحاح (صمل).
(٨) أي: صلباً. الصحاح (جلد). وفي الصحاح: نهداً، بدل: جلداً، والنَّهْدُ: أقوى القوم. تاج العروس (نهد).
(٩) المحتسب ٢/ ٤٥، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ ونسبها إلى علي ﷺ.
(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٢٨.

قَـد لَـقِـيَ الأقـرانُ مِـنِّـي نُـكـرا داهِـيـةً دهـيـاءَ إدًّا إمْـرا

عن غير النحاس، الثعلبي: وفيه ثلاث لغات «إدًّا» بالكسر، وهي قراءة العامة، و«أدًّا» بالفتح، وهي قراءة السُّلَمي، و«آدّ» مثل مادّ، وهي لغةٌ لبعض العرب[(١)]، رويت عن ابن عباس وأبي العالية، وكأنها مأخوذةٌ من الثِّقَل، آدَه الحملُ يؤوده أَوْداً: أثقله.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قراءة العامة هنا وفي «الشورى» بالتاء، وقراءة نافع ويحيى والكسائي: «يكاد» بالياء[(٢)]؛ لتقدُّم الفعل[(٣)]. ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشقَّقن[(٤)]. وقرأ نافع وابن كثير وحفص وغيرهم بتاء بعد الياء وشدِّ الطَّاء من التفطُّرِ هنا وفي «الشورى»، ووافقهم حمزة وابن عامر في «الشورى». وقرأا هنا: «ينفَطِرْنَ» من الانفطار، وكذلك قرأها أبو عمرو وأبو بكر والمفضَّل في السورتين[(٥)]. وهي اختيار أبي عبيد[(٦)]؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾[(٧)] [المزمل: ١٨]. وقوله: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: تتصدَّع. ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ قال ابن عباس: هدماً[(٨)]؛ أي: تسقط بصوتٍ شديد.

وفي الحديث: «اللهمَّ إني أعوذُ بِكَ من الهَدِّ والهَدَّة». قال شَمِر: قال أحمد بن غياث المَرْوَزي: الهدُّ: الهدمُ، والهَدَّةُ: الخسوف. وقال الليث: هو الهدم الشديد، كحائطٍ يهدُّ بمرة؛ يقال: هدَّني الأمرُ وهدَّ ركني، أي: كسرني وبلغَ مني. قاله

---

(١) قال نحوه الطبري في تفسيره ١٥/ ٦٣٦ - ٦٣٧ ، والرجز سلف ص٣٢٩ من هذا الجزء.
(٢) السبعة ص٤١٣ ، والتيسير ص١٥٠ عن نافع والكسائي.
(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٣٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٠٩ .
(٤) مجاز القرآن ٢/ ١٢ ، وتفسير الطبري ١٥/ ٦٣٧ .
(٥) السبعة ص٤١٣ ، والتيسير ص١٥٠ عنهم دون ذكر المفضل.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩ .
(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٩ .
(٨) أخرجه الطبري ١٥/ ٦٣٩ .

الهروي[١]. الجوهري[٢]: وهدَّ البناءَ يهُدُّه هَدًّا: كسَرَه وضَعْضَعَه، وهَدَّتْه المصيبةُ، أي: أوهنَتْ رُكنَه، وانهدَّ الجبلُ: انكسر. الأصمعيُّ: والهَدُّ: الرجل الضعيف؛ يقول الرجلُ للرجلِ إذا أوعدَه: إني لَغيرُ هدٍّ، أيْ: غيرُ ضعيفٍ. وقال ابن الأعرابي: الهَدُّ من الرجال: الجواد الكريم، وأما الجبان الضعيف: فهو الهِدُّ بالكسر، وأنشد:

لَيسُوا بِهِدِّينَ في الحُرُوبِ إذا ... تُعْقَدُ فوقَ الحراقِفِ النُّطُقُ[٣]

والهَدَّةُ: صوتُ وَقْعِ الحائط ونحوه، وتقول منه: هَدَّ يهِدُّ ـ بالكسر ـ هَدِيداً. والهادُّ: صوتٌ يسمعه أهل الساحل، يأتيهم من قِبَلِ البحر له دويٌّ في الأرض، وربما كانت منه الزَّلزلة، ودويُّه هديدُه.

النحاس[٤]: «هَدًّا» مصدر؛ لأنَّ معنى «تخِرُّ» تُهَدُّ. وقال غيره: حال[٥]، أي: مهدودة[٦]. ﴿أَن دَعَوۡا۟ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ «أن» في موضع نصبٍ عند الفراء، بمعنى: لأَنْ دَعَوا ومن أن دَعَوا، فموضع «أن» نصبٌ بسقوط الخافض. وزعمَ الفرَّاءُ أنَّ الكسائيَ قال: هي في موضع خفض بتقدير الخافض[٧]. وذكر ابن المبارك: حدثنا مِسْعر، عن واصل، عن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله بن مسعود: إنَّ الجبل ليقول للجبل: يا فلان، هل مَرَّ بِكَ اليومَ ذاكِرٌ لله؟ فإن قال: نعم، سُرَّ به. ثم قرأ عبد الله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ الآية، قال: أفتراهُنَّ يسمَعْنَ الزُّورَ ولا يسمَعْنَ الخير؟![٨]. قال:

---

(١) وقاله الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٣٥٣ .

(٢) في الصحاح (هدد).

(٣) الحراقف، جمع حُرْقُفة: وهي رأس الورك. والنُّطُق، جمع نطاق: وهو ما يُشدُّ به الوسط. تهذيب اللغة ٥/ ٣٠٠ ، والصحاح (نطق).

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٢٩ .

(٥) إملاء ما من به الرحمن على هامش الفتوحات الإلهية ٣/ ٥٦٨ .

(٦) تفسير الرازي ٢١/ ٢٥٤ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٢ .

(٨) الزهد لابن المبارك (٣٣٣). عون بن عبد الله لم يسمع من عبد الله بن مسعود. تهذيب التهذيب ٣/ ٣٣٨ .

وحدَّثني عوف، عن غالب بن عَجْرَد قال: حدَّثني رجلٌ من أهل الشام في مسجد منى، قال: إنَّ اللهَ تعالى لمَّا خلقَ الأرضَ وخلقَ ما فيها من الشجر، لم تَكُ في الأرض شجرةٌ يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعةً، وكان لهم منها منفعةٌ، فلم تزلِ الأرضُ والشجَرُ كذلك حتى تكلَّم فَجَرةُ بني آدم تلكَ الكلمةَ العظيمة، قولهم: اتَّخذَ الرحمنُ ولداً، فلما قالوها اقشعرَّتِ الأرضُ وشاكَ الشجر[1].

وقال ابن عباس: اقشعرَّتِ الجبالُ وما فيها من الأشجار، والبحارُ وما فيها من الحيتان، فصار من ذلك الشوكُ في الحيتان، وفي الأشجار الشوك.

وقال ابن عباس أيضاً وكعب: فزعتِ السماواتُ والأرضُ والجبال وجميع المخلوقات إلا الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبتِ الملائكةُ فاستعَرَتْ جهنَّم، وشاكَ الشجر، واكفهرَّتِ الأرضُ وجَدَبَتْ[2] حين قالوا: اتخذ اللهُ ولداً. وقال محمد بن كعب: لقد كاد أعداءُ الله أن يقيموا علينا الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ قال ابن العربي[3]: وصدق، فإنه قولٌ عظيمٌ سبق به القضاء والقدر، ولولا أن الباري تبارك وتعالى لا يضَعُه كُفْرُ الكافر، ولا يرفعُه إيمانُ المؤمن، ولا يزيدُ هذا في ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لما جرى شيءٌ من هذا على الألسنة، ولكنه القدوس الحكيم الحليم، فلم يُبالَ بعد ذلك بما يقوله المبطلون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ نفى عن نفسه سبحانه

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٧). غالب بن عجرد فيه جهالة، روى عنه اثنان فيما ذكر البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ١٠٠ ، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٧/ ٤٧ . وذكره ابن حبان في الثقات ٥/ ٢٩٠ على عادته في توثيق المجاهيل.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢١٠ دون قوله: وشاك الشجر، واكفهرت الأرض وجدبت.

(٣) في أحكام القرآن له ٣/ ١٢٤١ .

وتعالى الولد؛ لأنَّ الولد يقتضي الجنسيةَ والحدوثَ على ما بيَّناه في «البقرة»[١] أي: لا يليق به ذلك ولا يوصَفُ به ولا يجوز في حقه[٢]؛ لأنه لا يكون ولدٌ إلا من والدٍ، يكون له والدٌ وأصل، والله سبحانه يتعالى عن ذلك ويَتقدَّس. قال:

في رأسِ خَلْقَاءَ من عَنْقَاءَ مُشْرِفةٍ ما ينبغي دونها سَهْلٌ ولا جَبَلُ[٣]

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ «إن» نافية بمعنى ما[٤]، أي: ما كلُّ من في السماوات والأرض إلا وهو يأتي يوم القيامة مُقِرًّا له بالعبودية، خاضعاً ذليلاً كما قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] أي: صاغرين أذِلَّاء، أي: الخلق كلُّهم عبيده، فكيف يكون واحدٌ منهم ولداً له عزَّ وجلَّ، تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيراً.

و«آتي» بالياء في الخطِّ، والأصل التنوين، فحُذِفَ استخفافاً وأُضيف[٥].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على أنه لا يجوز أن يكون الولدُ مملوكاً للوالد، خلافاً لمن قال: إنه يشتريه فيملِكُه ولا يَعتِقُ عليه إلا إذا أعتقه. وقد أبانَ اللهُ تعالى المنافاة بين الأولاد والملك[٦]، فإذا ملَكَ الوالدُ ولدَه بنوعٍ من التصرفات عَتَقَ عليه. ووجه الدليل عليه من هذه الآية أنَّ الله تعالى جعل الولدية والعبدية في طرَفَي تقابل، فنفى أحدَهما وأثبتَ الآخر، ولوِ اجتمعا لَما كان لهذا القول فائدةٌ يقع الاحتجاجُ بها. وفي الحديث الصحيح: «لا يَجْزي ولدٌ والداً إلا أن يجِدَه مملوكاً فيشتريَه فيَعتِقَه» خرَّجه مسلم[٧]. فإذا لم يملِكِ الأبُ ابنَه مع مرتبته عليه، فالابنُ بعدم مِلْكِ الأبِ أولى؛

---

(١) ٢/ ٣٣.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢١٠.

(٣) قائله عمرو بن أحمر، وهو في كتاب الحيوان ٢/ ٣٠٤. والخلقاء: الصخرة الملساء. والعنقاء: أكمة في جبلٍ مشرف. تهذيب اللغة ٧/ ٢٩ و ١/ ٢٥٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٩.

(٦) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٧١.

(٧) برقم (١٥١٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٧١٤٣).

لقصوره عنه[١].

الثالثة: ذهب إسحاق بن راهويه في تأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «من أعتقَ شِرْكاً له في عبد»[٢] أنَّ المرادَ به ذكورُ العبيد دونَ إناثِهم، فلا يُكَمَّلُ على من أعتق شِرْكاً في أنثى، وهو على خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومَنْ بعدَهم، فإنَّهم لم يفرِّقوا بين الذكر والأنثى؛ لأنَّ لفظ العبد يُراد به الجنس، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبد قطعاً. وتمسَّكَ إسحاق بأنه قد حُكيَ عبدةٌ في المؤنث[٣].

الرابعة: روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقولُ الله تبارك وتعالى: كذَّبني ابن آدم ولم يكُنْ له ذلك، وشتَمني ولم يكُنْ له ذلك، فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقوله: ليس يُعيدني كما بدأني، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته، وأما شَتْمُه إيَّايَ فقوله: اتَّخذَ اللهُ ولداً، وأنا الأحدُ الصمدُ، لم يلِدْ ولم يولَدْ، ولم يكُنْ لي كفواً أحد»[٤] وقد تقدَّم في «البقرة»[٥] وغيرها، وإعادتُه في مثل هذا الموضع حسنٌ جدًّا.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ أي: علِمَ عددَهم ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ تأكيد، أي: فلا يخفى عليه أحدٌ منهم[٦].

قلت: ووقع لنا في أسمائه سبحانه المحصِي؛ أعني في السُّنَّة من حديث أبي هريرة. خرَّجه الترمذي[٧]، واشتقاق هذا الفعل يدلُّ عليه. وقال الأستاذ أبو إسحاق

(١) من قوله: ووجه الدليل إلى هذا الموضع من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤١ - ١٢٤٢ .

(٢) سلف ٦/ ٢٤١ .

(٣) المفهم ٤/ ٣١١ .

(٤) صحيح البخاري (٤٤٨٢).

(٥) ٢/ ٣٣٣ .

(٦) الوسيط ٣/ ١٩٧ .

(٧) برقم (٣٥٠٧)، وقد سلف الكلام عليه ٩/ ٣٩١ .

الإسفراييني: ومنها المُحصِي، ويختصُّ بأنه لا تشغله الكثرةُ عن العلم، مثل ضوء النور، واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك أجزاءَ الحركات في كلِّ ورقة، فكيف لا يعلم، وهو الذي يخلق، وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1] [الملك: ١٤]. ووقع في تفسير ابن عباس أنَّ معنى ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ يريد أقرُّوا له بالعبودية، وشهدوا له بالربوبية.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أي: واحداً لا ناصرَ له ولا مالَ معه ينفعه[2]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩] فلا ينفعه إلا ما قدَّم من عمل، وقال: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ﴾ على لفظ كلٍّ، وعلى المعنى: آتُوه. قال القُشيري: وفيه إشارةٌ إلى أنَّكم لا ترضَون لأنفسكم باستعبادِ أولادكم والكلُّ عبيدُه، فكيفَ رضيتُم له ما لا ترضَون لأنفسكم؟! وقد ردَّ عليهم في مثل هذا، في أنهم لا يرضَون لأنفسهم بالبنات، ويقولون: الملائكةُ بناتُ الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ وقولهم: الأصنامُ بناتُ الله. وقال: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي: حُبًّا في قلوب عباده[3]. كما رواه الترمذي من حديث أبي هريرة[4]، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله عبداً نادى جِبريلَ إنِي قد أحببتُ فلاناً فأحِبَّه ـ قال ـ فيُنادي في السماء، ثم تنزل له المحبةُ في أهل الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ وإذا أبغضَ اللهُ عبداً نادى

---

(١) وقد ذكر المصنف هذا الكلام في كتابه الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ص٢٦٨ .

(٢) الوسيط ٣/ ١٩٧ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤٦ .

(٤) في (د) و(م): سعد وأبي هريرة.

جِبريلَ إني أبغضتُ فلاناً، فيُنادي في السماء، ثم تنزل له البغضاءُ في الأرض» قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح[١]. وخرَّجه البخاري ومسلم بمعناه، ومالك في الموطأ[٢].

وفي «نوادر الأصول»: وحدَّثنا أبو بكر بن سابق الأموي قال: حدَّثنا أبو مالك الْجَنْبي، عن جُوَيبر، عن الضحَّاك، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله أعطى المؤمنَ المِقةَ[٣] والمَلاحةَ والمحبةَ في صدور الصالحين والملائكة المقرَّبين» ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[٤]. واختُلِفَ فيمن نزلت؛ فقيل: في عليٍّ ؓ؛ روى البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ لعليِّ بن أبي طالب: «قُلْ يا علي: اللهمَّ اجعَلْ لي عندكَ عهداً، واجعَلْ لي في قلوب المؤمنين مودَّة» فنزلت الآية. ذكره الثعلبي[٥]. وقال ابن عباس: نزلت في عبد الرحمن بن عوف؛ جعل الله تعالى له في قلوب العباد مودَّة، لا يلقاه مؤمنٌ إلَّا وقَّره، ولا مشركٌ ولا منافقٌ إلَّا عظَّمه. وكان هَرِمُ بنُ حيَّانَ يقول: ما أقبلَ أحدٌ بقلبه على الله تعالى إلَّا أقبلَ اللهُ تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه، حتى يرزقَه مودَّتهم ورحمتَهم[٦]. وقيل: يجعل الله تعالى لهم مودَّةً في قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة[٧].

قلتُ: إذا كان محبوباً في الدنيا فهو كذلك في الآخرة؛ فإنَّ الله تعالى لا يحبُّ إلَّا مؤمناً تقيًّا، ولا يرضى إلا خالصاً نقيًّا، جعلنا اللهُ تعالى منهم بِمَنِّه وكرمِه. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى إذا أَحَبَّ عبداً دعا جبريلَ عليه السلام فقال: إني أُحِبُّ فلاناً فأَحِبَّه، فيُحِبُّه جبريلُ، ثم ينادي في السماء

---

(١) سنن الترمذي (٣١٦١).

(٢) صحيح البخاري (٧٤٨٥)، وصحيح مسلم (٢٦٣٧)، والموطأ ٢/ ٩٥٣ . وأخرجه أحمد (٧٦٢٥).

(٣) في (د) و(م): الألفة. والمِقَةُ: المحبة. الصحاح (ومق).

(٤) نوادر الأصول ص٣٧٣ ، وضعَّفه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٧ .

(٥) وذكره الديلمي في الفردوس (١٩٣٢) من غير ذكر سبب النزول.

(٦) الوسيط ٣/ ١٩٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٠ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٤ .

فيقول: إنَّ الله يُحِبُّ فلاناً فأحِبُّوه، فيُحِبُّه أهل السماء ـ قال ـ ثم يوضَعُ له القبول في الأرض، وإذا أبغضَ عبداً دعا جبريلَ عليه السلام وقال: إني أُبغِضُ فلاناً فأبغِضْه، فيُبغِضُه جبريلُ، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ اللهُ يُبغِضُ فلاناً فأبغضوه ـ قال ـ فيُبغِضونه، ثم توضَعُ له البغضاءُ في الأرض»[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: القرآن، يعني: بيَّنَّاه بلسانك العربي، وجعلناه سهلاً على من تدبَّره وتأمَّله. وقيل: أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهُلَ عليهم فهمه.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ اللُّد جمع الألد: وهو الشديدُ الخصومة[٢]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقال الشاعر:

أبيتُ نجِيًّا للهمومِ كأنَّني أُخاصِمُ أقواماً ذَوِي جَدلٍ لُدًّا

وقال أبو عبيدة[٣]: الألَدُّ: الذي لا يقبل الحقَّ ويدَّعي الباطل. الحسن: اللُّدُّ: الصُّمُّ عن الحق[٤]. قال الربيع: صُمُّ آذان القلوب. مجاهد: فُجَّاراً[٥]. الضحَّاك: مجادلين في الباطل[٦]. ابن عباس: شداداً في الخصومة[٧]. وقيل: الظالم الذي لا يستقيم[٨]. والمعنى واحد، وخُصُّوا بالإنذار؛ لأنَّ الذي لا عِنادَ عنده يسهلُ انقيادُه.

---

(١) مسلم (٢٦٣٧) (١٣٧). وقد ساقه المصنف آنفاً بلفظ الترمذي.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٤٧ .

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ١٣ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢١٠ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٣٩١ .

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩١ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ١٩٨ عن قتادة.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢١٠ من غير نسبة.

(٨) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٦٦ عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من أمةٍ وجماعةٍ من الناس؛ يخوِّف أهلَ مكة. ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ في موضع نصب[1]، أي: هل ترى منهم أحداً أو تجِدُ. ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: صوتاً. عن ابن عباس وغيره[2]، أي: قد ماتوا وحصلوا على أعمالهم[3]. وقيل: حِسًّا. قاله ابن زيد. وقيل: الرِّكزُ: ما لا يُفهَمُ من صوتٍ أو حركة. قاله اليزيدي[4] وأبو عبيدة؛ كركز الكتيبة، وأنشد أبو عبيدة بيت لبيد:

وتَـوَجَّـسَـتْ رِكْـزَ الأَنِـيـسِ فَـرَاعَـهَـا عن ظَهْرِ غَيبٍ والأنيسُ سَقَامُها[5]

وقيل: الصوت الخفي، ومنه ركَزَ الرُّمح إذا غَيَّبَ طرَفَه في الأرض[6]. وقال طرفة:

وَصـادِقَـتـا سَـمْـعِ الـتَّـوَجُّـسِ لـلـسُّـرَى لِـرِكْـزٍ خَـفِـيٍّ أو لِـصَـوْتٍ مُـنَـدَّدِ[7]

وقال ذو الرُّمة يصف ثوراً تسمَّع إلى صوت صائد وكلاب:

إذا تـوجَّـسَ رِكْـزاً مُـقْـفِـرٌ نَـدِسٌ بنبأةِ الصوت ما في سمعه كَذِبُ[8]

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٤، والنكت والعيون ٣/ ٣٩١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٠.

(٤) فيما نقله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩١.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٤، والبيت في ديوان لبيد ص١٧٣، ووقع فيه: «رزّ» بدل «ركز». التوجُّس: التسمع إلى الصوت الخفي. الصحاح (سقم).

(٦) الكشاف ٢/ ٥٢٧، وتفسير الرازي ٢١/ ٢٥٦.

(٧) ديوان طرفة ص٢٧. السُّرى: سير الليل. والمندد: الصوت المبالغ في النداء. اللسان (سرى) و(ندد).

(٨) الديوان ١/ ٨٩.

أي: ما في استماعه كذب؛ أي: هو صادق الاستماع. والنَّدِس: الحاذق؛ يقال: نَدِسٌ ونَدُس، كما يقال: حَذِرٌ وحَذُر، ويَقِظٌ ويَقُظ. والنبأة: الصوت الخفيُّ، وكذلك الرِّكز، والرِّكاز: المال المدفون. والله تعالى أعلم بالصواب.

تم الجزء الثالث عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الرابع عشر، ويبدأ بسورة طه

سُورَةُ مَرْيَمَ

مَكِّيَّةٌ إلا آيةَ السَّجدةِ[1]، وهي ثمانٍ أو تسعٌ وتسعونَ آيةً

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أمالَ أبو عمرٍو الهاءَ لأنَّ أَلِفاتِ أسماءِ التَّهجِّي ياءاتٌ، وابنُ عامرٍ وحمزةُ الياءَ، والكِسائيُّ وأبو بكرٍ كِلَيهما، ونافعٌ بينَ بينَ[2].

ونافعٌ وابنُ كثيرٍ وعاصمٌ يُظهرون دالَ الهجاءِ عند الذال، والباقون يدغمونها[3].

(٢) ـ ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ خبرُ ما قبلَه إنْ أُوِّلَ بالسُّورةِ أو القرآنِ فإنَّه مُشتَمِلٌ عليه، أو خبرُ مَحذوفٍ؛ أي: هذا المتلوُّ ذِكرُ رَحمةِ ربِّكَ، أو مُبتدأٌ حُذِفَ خبرُهُ؛ أي: فيما يُتلى عليكَ ذكرُها.

---

(١) وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٢/ ٦١٩)، وذكره الحافظ في «فتح الباري» (٩/ ٤١).

وقال بمكيتها دون استثناء: يحيى بن آدم في «تفسيره» (١/ ٢١٣)، وابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص: ٢٩٢)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٤٣)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٧/ ٢١٨)، والنحاس في «معاني القرآن» (٤/ ٣٠٧)، وأبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٦٧)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٢١)، ومكي في «الهداية» (٧/ ٤٤٨٧)، والداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ١٨١)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٧٤)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٢١٥). وغيرهم كثير من أئمة التفسير.

(٢) وقرأ ابن كثير وحفص بفتح الهاء والياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٧).

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٨).

وقرئ: (ذَكَّرَ رحمةَ ربِّك) على الماضي[١]، و: (ذَكِّرْ) على الأمرِ[٢].

﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعولُ الرَّحمةِ، أو الذِّكرِ علـى أنَّ الرَّحمةَ فاعلُهُ على الاتِّساعِ كقولك: ذَكَرَني جُودُ زَيدٍ ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدلٌ منهُ، أو عطفُ بيانٍ له.

(٣) ـ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ لأنَّ الإخفاءَ والجهرَ عندَ اللهِ سِيَّانِ، والإخفاءُ أَشَدُّ إخباتًا وأكثَرُ إخلاصًا، أو لئلَّا يُلامَ على طلبِ الولدِ في إبَّانِ الكبرِ، أو لئلَّا يطَّلِعَ عليه مَوالِيْهِ الذين خافَهُم، أو لأنَّ ضعفَ الهرمِ أَخْفَى صوتَهُ.

واختُلفَ في سنِّهِ حينَئذٍ؛ فقيل: سِتُّونَ، وقيل: سبعونَ، وخمسٌ وسبعونَ، وخمسٌ وثمانون.

(٤) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ تفسيرٌ للنِّداءِ، والوهنُ: الضَّعفُ. وتخصيصُ العَظْمِ لأنَّه دِعامَةُ البدنِ وأصلُ بنائِهِ، ولأنَّه أصلَبُ ما فيهِ، فإذا وَهَنَ كان ما وراءَهُ أوهنَ، وتوحيدُه لأنَّ المرادَ به الجنسُ.

وقُرِئَ (وَهـنَ) بالضمِّ والكسرِ[٣]، ونظيرُه (كمل) في الحركاتِ الثَّلاثِ.

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ شبَّهَ الشَّيبُ في بياضِهِ وإنارَتِه بشُوَاظِ النَّارِ، وانتشارُهُ وفشوُّهُ في الشَّعرِ باشتِعالِها، ثمَّ أُخرِجَ مُخرجَ الاستعارةِ، وأُسندَ الاشتعالُ إلى الرَّأسِ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦) عن يحيى بن يعمر، و«المحتسب» (٢/ ٣٧)، و«الكشاف» (٥/ ٢٣٢)، عن الحسن. والمعنى كما في «الكشاف»: هذا المتلوُّ من القرآن ذكَّر رَحمَةَ رَبِّك.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٧) عن يحيى بن يعمر.

(٣) كلاهما في «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨٦) عن بعضهم، ونسب أبو حيان في «البحر» (١٤/ ٣٩١) الكسر للأعمش.

الذي هو مكانُ محلِّ الشَّيبِ مُبالغةً، وجَعَلَهُ مميِّزًا إيضاحًا للمَقصودِ، واكتَفى باللامِ عَنِ الإضافةِ للدَّلالةِ على أنَّ علمَ المُخاطبِ بتعيُّنِ المرادِ يُغني عن التَّقييدِ.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ بل كلَّما دعوتُكَ استَجَبْتَ لي، وهو توسُّلٌ بما سلفَ معَهُ من الاستجابةِ، وتنبيهٌ على أنَّ المدعوَّ له وإن لم يَكُن مُعتادًا فإجابَتُه مُعتادةٌ، وأنَّه تَعالى عوَّدَه بالإجابةِ وأطمعَهُ فيها، ومن حقِّ الكَريمِ أن لا يُخيِّبَ مَن أطمعَهُ.

(٥ ـ ٦) ـ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ يعني: بني عمِّه، وكانوا أشرارَ بني إسرائيلَ، فخافَ أن لا يُحسِنُوا خلافتَهُ على أمَّته ويبدِّلُوا عليهِمْ دينَهُم.

﴿مِن وَرَآءِى﴾: بعدَ مَوْتي. وعَن ابنِ كثيرٍ المدُّ والقصرُ بفتحِ الياءِ[1]، وهو مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ أو بمَعنى الولايةِ في الموالي؛ أي: خِفتُ فِعلَ الموالي مِن ورائي، أو الذين يَلُونَ الأَمرَ مِن وَرائي.

وقُرِئَ: (خَفَّتِ الموالي مِن وَرائي)[2]؛ أي: قَلُّوا وعَجَزُوا عن إقامةِ الدِّينِ بَعدِي، أو: خَفُّوا ودَرَجُوا[3] قُدَّامِي، فعلى هذا كانَ الظَّرفُ مُتعلِّقًا بـ(خَفَّت).

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ لا تَلِدُ ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ فإنَّ مِثلَهُ لا يُرجَى إلا

---

(١) ذكر ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٤٠٧)، والأزهري في «معاني القراءات» (٢/ ١٢٩)، وابن خالويه في «إعراب القرآن» (ص: ٢٤٦ ـ ٢٤٧) روايتين عن ابن كثير: الأولى عن قنبل مهموزةً ممدودةً مفتوحة الياء، والثانية عن شبل بغير همز وبفتح الياء مثل عصاي. والأولى في «التيسير» (ص: ٢٧٠) و(ص: ٤٢٨)، وهي المعتمدة عن ابن كثير. والثانية عُدَّت من الشواذ. انظر: «المختصر في شواذ القرءات» (ص: ٨٦)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٧).

(٢) نسبت لعثمان وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦)، و«المحتسب» (٢/ ٣٧).

(٣) أي: مضوا وذهبوا.

مِن فَضلِكَ وكمالِ قُدرَتِكَ فإنِّي وامرأتي لا نصلُحُ للوِلادةِ ﴿وَلِيًّا﴾ مِن صُلْبي ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ صِفَتانِ له، وجَزَمَهُما أبو عمرٍو والكِسائيُّ[1] على أنَّهما جوابُ الدُّعاءِ، والمرادُ: وراثةُ الشَّرعِ والعلمِ؛ فإنَّ الأَنبِيَاءَ لا يورِّثونَ المالَ.

وقيل: ﴿يَرِثُنِي﴾ الحُبُورةَ[2] فإنَّه كانَ حَبْرًا ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ الملكَ، وهو يعقوبُ بن إسحاقَ عليهِما السَّلامُ.

وقيل: كان يعقوبُ أخا زكريَّا، أو عمرانَ بنِ ماثانَ مِن نَسلِ سُليمان[3].

وقرئ (يَرِثُني وارثَ آلِ يَعقوبَ)[4] على الحالِ مِن أحدِ الضَّميرينِ.

و: (أُوَيْرِثَ) بالتَّصغيرِ لِصِغَرِه[5].

و(وارثٌ مِن آلِ يَعقوبَ)[6] على أنَّه فاعلُ ﴿يَرِثُنِي﴾ وهذا يُسمَّى: (التَّجريدَ) في علمِ البَيانِ؛ لأنَّه جرِّدَ عن المذكورِ أوَّلًا مع أنَّه المرادُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٢) قال الزمخشري: كأنَّها مصدرُ حَبُرَ الرَّجلُ كقَضُوَ: إذا تُعجِّبَ مِن قضائِه، وإلاَّ الحُبورُ هو السُّرورُ. «فتوح الغيب» (٩/ ٥٧٢). وانظر: «الكشاف» (٥/ ٢٣٦).

(٣) يعني: يعقوبُ هذا وعِمرانُ أبو مريم أَخَوان من نسل سُليمان بن داوُد عليهم السلام. انظر: «الكشاف» (٥/ ٢٣٥).

(٤) نسبها الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٢٣٥) إلى ابن عباس والجحدري.

(٥) ضبط (أويرثَ) في النسخ الخطية لـ«الكشاف» بالنصب كما بيَّنَّا في تحقيقه، فهو حال كما في القراءة السابقة، لكن من ضمير الفاعل فقط؛ لعدم ملاءمة التصغير لضمير المفعول المختص بزكريا عليه السلام. وضبط في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦) بالرفع واقتصر فيه على لفظ (أويرث)، ويؤيد الرفع أن القراءة عند أبي حيان في «البحر المحيط» (١٤/ ٣٩٥) بلفظ: (أويرثٌ من آل يعقوب). وقال ابن خالويه: كأنه أراد (وُوَيْرِثٌ) فقلبت الواو همزة لانضمامها واجتماعها مع الأخرى.

(٦) نسبت لابن عباس رضي الله عنه والجحدري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦)، ونسبها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٣٨)، لعلي رضي الله عنه وابن يعمر والحسن والجحدري وقتادة وغيرهم.

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: تَرضاه قَوْلًا وعَمَلًا.

(٧) ـ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ جوابٌ لِندائهِ ووعدٌ بإجابةِ دُعائِه، وإنَّما تَولَّى تسميتَهُ تشريفًا له.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾: لم يُسمَّ أحدٌ بـ(يحيى) قبلَه، وهو شاهدٌ بأنَّ التَّسمِيَةَ بالأسامي الغريبةِ تنويهٌ للمُسمَّى.

وقيل: ﴿سَمِيًّا﴾: شَبِيهًا؛ كقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] لأنَّ المُتماثلَينِ يَتشاركانِ في الاسمِ.

والأظهرُ أنَّه اسمٌ أَعجَمِيٌّ، وإن كانَ عربيًّا فمنقولٌ مِن فِعْلٍ كـ(يعيشَ) و(يعمرَ) قيل: سُمِّيَ بِهِ لأنَّه حَيِيَ به رَحِمُ أمِّهِ، أو لأنَّ دينَ اللهِ حَيِيَ بدَعوَتِه.

(٨ ـ ٩) ـ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عُتِيًّا﴾ جَسَاوَةً[1] وقحولاً[2] في المفاصل، وأصلُه: عتوٌّ[3] كـ: قُعودٍ، فاستَثْقَلوا توالِيَ الضمَّتينِ والواوينِ، فكسروا التاءَ فانقلبتِ الواوُ الأولى ياءً، ثم قُلبت الثانيةُ وأُدغمتْ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ: ﴿عِتِيًّا﴾ بالكسر[4].

وإنما استَعْجَبَ الولدَ من شيخٍ فانٍ وعجوزٍ عاقرٍ اعترافًا بأنَّ المؤثِّر فيه كمالُ قدرتِه، وأن الوسائطَ عند التحقيقِ مُلغاةٌ، ولذلك ﴿قَالَ﴾؛ أي: اللهُ، أو الملَكُ المبلِّغُ

---

(١) جسا: ضد لطف، وجسا الشيخ جسواً: بلغ غاية السن، وجسيت اليد وغيرها جسواً: يبست. انظر: «الصحاح» (مادة: جسا).

(٢) أي: يَبَساً

(٣) في نسخة الخيالي: «عتوو» وفي نسخة في الهامش كالمثبت، وكلاهما صواب.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

للبِشارةِ تَصديقًا له: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الأمرُ كذلك، ويجوزُ أَنْ تكونَ الكافُ مَنصوبةً بـ(قال) في ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ و(ذلك) إشارةٌ إلى مُبهَمٍ يفسِّرُه ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، ويؤيِّدُ الأوَّلَ قراءةُ مَن قرأَ: (وهو عليَّ هيِّنٌ)[1]؛ أي: الأمرُ كمَا قلتَ أو كما وُعدتَ وهو على ذلك يَهونُ عليَّ، أو كما وعدتُ وهو عليَّ هَيِّنٌ لا أحتاجُ فيما أريدُ أَنْ أفعلَهُ إلى الأسبابِ، ومفعولُ ﴿قَالَ﴾ الثَّاني محذوفٌ.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ بل كنتَ مَعدومًا صِرْفًا، وفيه دليلٌ على أنَّ المعدومَ ليسَ بشيءٍ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿وَقَدْ خَلَقْناكَ﴾[2].

(١٠) ـ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾: علامةً أعلمُ بها وقوعَ ما بشَّرْتَني به ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ سَوِيَّ الخَلْقِ ما بك من خَرَسٍ ولا بَكَم.

وإنَّما ذكرَ اللياليَ هاهنا والأيامَ في (آلِ عمرانِ)[3] للدَّلالةِ على أنَّه استمرَّ عليه المنعُ مِن كلامِ النَّاسِ والتَّجرُّدُ للذِّكرِ والشُّكرِ ثلاثةَ أيامٍ ولياليهنَّ.

(١١) ـ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾: مِن المُصلَّى، أو: من الغرفةِ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾: فأومَأَ إليهم؛ لقوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، وقيل: كتبَ لَهُم على الأرضِ.

﴿أَن سَبِّحُوا﴾: صَلُّوا، أو: نزِّهوا ربَّكُم ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ طرَفَي النَّهارِ، ولعلَّهُ كانَ مأمورًا بأن يسبِّحَ ويأمرَ قومَهُ بأَنْ يُوافِقوهُ، و﴿أَن﴾ تَحتمِلَ أَنْ تكونَ مصدريةً وأن تكونَ مفسِّرةً.

---

(١) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦). وهي تؤيد الوجه الأول لأن الواو لا يناسبُها أن يكونَ ما بعدَها مقولاً لما قبلَها، بخلاف تركها.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٣) في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

(١٢) ـ ﴿يَٰيَحۡيَىٰ﴾ على تقديرِ القولِ ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: التَّوراةَ ﴿بِقُوَّةٖ﴾: بجدٍّ واستظهارٍ بالتَّوفيقِ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ يعني: الحكمةَ وفهمَ التَّوراةِ.

وقيل: النبوَّةَ، أحكمَ اللهُ عقلَهُ في صِباهُ واستنبأَهُ.

(١٣) ـ ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾: ورحمةً مِنَّا عليه، أو: رحمةً وتعطُّفًا في قلبِهِ على أبويهِ وغيرهما، عطفٌ على ﴿ٱلۡحُكۡمَ﴾.

﴿وَزَكَوٰةٗ﴾: وطهارةً مِن الذُّنوبِ، أو: صدقةً؛ أي: تصدَّقَ اللهُ به على أبويهِ، أو مكَّنه ووفَّقَه للتَّصدُّقِ على النَّاسِ.

﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾: مُطيعًا مُتجنِّبًا عن المعاصِي.

(١٤) ـ ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾: وبارًّا بهما ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾: عاقًّا أو عاصيَ ربِّه.

(١٥) ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ مِن اللهِ ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ مِن أَنْ ينالَه الشَّيطانُ بما ينالُ به بني آدمَ ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ مِن عذابِ القبرِ ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ مِن عذابِ النَّارِ وهولِ القيامةِ.

(١٦) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾: في القُرآنِ ﴿مَرۡيَمَ﴾ يعني: قصَّتَها ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾: اعتزلَتْ، بدلٌ مِن ﴿مَرۡيَمَ﴾ بدلَ الاشتمالِ لأنَّ الأحيانَ مُشتمِلةٌ على ما فيها، أو: بدلَ الكلِّ لأنَّ المرادَ بمريمَ قصَّتها وبالظَّرفِ الأمرَ الواقعَ فيه وهما واحدٌ، أو: ظرفٌ لِمُضافٍ مُقدَّرٍ(١).

وقيل: ﴿إِذِ﴾ بمعنى (أنْ) المصدريَّةِ كقولِك: لا أكرمتُكَ إذ لم تُكرِمْني، فتكونُ بَدلًا لا مَحالةَ(٢).

---

(١) قوله: «أو ظرف لمضافٍ مقدَّرٍ» تقديره: خبرَ مريمَ، وهو أَولى من كونه بدلًا؛ لأن حذف مفردٍ أَولى من حذفِ جملةٍ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٦٠٩).

(٢) قوله: «وقيل: ﴿إِذِ﴾ بمعنى (أنْ) المصدريَّةِ...» كون (إذ) مصدرية ذكره أبو البقاء، وهو قول ضعيف =

﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ شرقيَّ بيتِ المَقدسِ، أو شرقيَّ دارِها، ولذلك اتَّخذَ النَّصارَى المشرقَ قِبلةً. و﴿مَكَانًا﴾ ظرفٌ، أو مفعولٌ لـ﴿انتَبَذَتْ﴾ مُتضمِّنةً معنى: أَتَتْ.

(١٧) ـ ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾: سِترًا ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ قيل: قَعَدَتْ في مَشْرُقَةٍ[1] للاغتسالِ مِن الحيضِ محتجِبةً بشَيءٍ يَسترُهَا، وكانَتْ تتحوَّلُ مِن المَسجدِ إلى بيتِ خالتِها إذا حاضَت وتعودُ إليه إذا طهرَتْ، فبينَما هي في مُغتَسَلِها أتاها جِبريلُ مُتمثِّلًا بصورةِ شَابٍّ أمردَ سويِّ الخلقِ[2]؛ لتستأنسَ بكَلامِه.

ولعلَّهُ ليهيِّجَ شهوتَها فتنحدرَ نُطفَتُها إلى رَحِمِها[3].

(١٨) ـ ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ مِن غايةِ عفافِها ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تَتَّقي اللهَ وتحتفِلُ[4] بالاستعاذةِ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه؛ أي: فإنِّي عائذةٌ منكَ، أو: فتَتَّعظُ بتعويذِي، أو: فلا تتعرَّضْ لي.

= للنحاة، وقوله: «لا أكرمتك إذ لم تكرمني»؛ أي: لعدم إكرامك لي، والظاهر أنها ظرفية أو تعليلية إن قلنا به، وقوله: «فتكون»؛ أي: ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ على هذا القول وهو بدل اشتمال أيضاً. انظر: «حاشية الشهاب».

(١) المَشرقةُ ـ مثلثة الراء ـ: محل شروق الشمس والقعود فيه شتاء. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٥٠) عن عكرمة.

(٣) قال السيوطي في «حاشيته» (٨/ ٥٣٠): كانَ المُصنِّفُ في غُنيَةٍ عن هذا الكَلامِ الفاسدِ. وقال أبو السعود في «تفسيره» (٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١): وأما ما قيل من أن ذلك لتهييج شهوتِها فتنحدر نطفتُها إلى رحمها فمع مخالفته لمقام بيانِ آثارِ القدرة الخارقةِ للعادة يكذبه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ فإنه شاهدُ عدْلٍ بأنه لم يخطُر ببالها شائبةُ ميل ما إليه، فضلاً عما ذُكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتبِ الميل والشهوة، نعم كان تمثلُه على ذلك الحسنِ الفائقِ والجمالِ الرائقِ ابتلائها وسبْر عِفّتها، ولقد ظهر منها من الورع والعَفافِ ما لا غايةَ وراءَه.

(٤) أي: تُبالي.

ويجوزُ أن يكونَ للمُبالغَةِ؛ أي: إن كنتَ تَقِيًّا مُتورِّعًا فإنِّي أَعوذُ مِنكَ فكيفَ إذا لم تكُن كذلك؟

(١٩) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذتِ به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾: لأكونَ سَببًا في هِبَتِه بالنَّفخِ في الدِّرعِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ حِكايةً لقَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ، ويُؤيِّدُه قراءةُ أبي عمرٍو، والأكثرِ عَن نافعٍ، ويعقوبَ بالياءِ[1].

﴿زَكِيًّا﴾: طاهرًا مِن الذُّنوبِ، أو: ناميًا على الخيرِ؛ أي: مترقِّياً مِن سنٍّ إلى سنٍّ على الخيرِ والصلاح.

(٢٠) ـ ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾: ولم يُباشِرْني رَجلٌ بالحَلالِ؛ فإنَّ هذه الكناياتِ إنَّما تُطلَقُ فيه، أمَّا الزِّنا فإنَّما يقالُ فيه: (خَبُثَ بها) و(فَجَرَ) ونحوَ ذلك، ويعضُدُهُ عَطفُ قولِه: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيًّا﴾ عليه، وهو فَعُولٌ مِن البغيِ قُلِبَت واوُه ياءً وأُدغِمَت، ثمَّ كُسِرَت الغينُ إتْباعًا ولذلك لم تلحَقْهُ التَّاءُ، أو: فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، ولم تَلْحَقْه التاءُ لأنَّه للمُبالغةِ، أو للنَّسبِ كطالقٍ.

(٢١) ـ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ﴾؛ أي: ونفعلُ ذلك لنجعلَهُ آيةً، أو: لنبيِّنَ به قُدرتَنا ولنجعلَهُ، وقيل: عطفٌ على ﴿لِيَهَبَ﴾ على طريقةِ الالتفاتِ.

﴿ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾: علامةً لَهم وبرهانًا على كمالِ قُدرتِنا ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ على العبادِ يَهتَدونَ بإرشادِه ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾؛ أي: تعلَّقَ به قضاءُ اللهِ في الأَزَلِ، أو: قُدِّرَ وسُطِّرَ في اللوحِ، أو: كانَ أمرًا حقيقًا بأن يُقضَى ويُفعلَ لكونِه آيةً ورحمةً.

---

(١) أي: ﴿لِيَهَبَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٣١٧).

(٢٢) ـ ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بأَنْ نفخَ في دِرْعِها فدَخلت النَّفخَةُ في جوفِها، وكانَتْ مُدَّةُ حملِها سبعةَ أشهُرٍ، وقيل: ستَّةٌ، وقيل: ثمانيَةٌ. ولم يَعِش مولودٌ وُضِعَ لثمانيةٍ غيرُهُ[1].

وقيل: ساعةٌ كما حَمَلَتْه نبذَتْهُ[2].

وسِنُّها ثلاثَ عشرَة سنةً[3]. وقيل: عشرَ سِنينَ وقد حاضَتْ حَيْضَتَينِ[4].

﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾: فاعتزلَتْ وهو في بَطنِها؛ كقولِه:

تَدُوسُ بِنَا الجَمَاجِمَ والتَّرِيبَا[5]

والجارُّ والمَجرورُ في مَوضعِ الحالِ.

﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾: بَعيدًا مِن أَهلِهَا وراءَ الجَبلِ، وقيل: أقصى الدَّارِ.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٣٥٥)، قال الألوسي في «روح المعاني» بعد ذكره لهذه الأقوال: وقد يعيش المولود لثمان إلا أنه قليل فليس ذلك من خواصه عليه السّلام إن صح. ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال المضطربة المتناقضة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٩٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) قاله مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٦٢٤).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٥٦)، وقاله مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٦٢٤).

(٥) عجز بيت للمتنبي، وهو في «ديوانه» (١/ ٢٦٥)، وقبله:

كأن خيولنا كانت قديماً ... تُسقى في قحوفهم الحليبا

فمرت غيرَ نافرةٍ عليهم ... تدوس بنا الجماجم والتريبا

التريب: جمع التريبة وهي عظام الصدر. والعرب تسقي اللبن كرام خيولهم، يقول: إن خيلنا كانت تُسقى اللبن في أقحاف رؤوس الأعداء وأَلِفَت بها، فلذلك وطئت رؤوسهم وصدورهم ونحن عليها ولم تنفر.

(٢٣) ـ ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾: فألْجَأَهَا، وهو في الأَصْلِ مَنقولٌ مِن (جاء) لكنَّهُ خصَّ بهِ في الاستعمالِ كـ(آتى) في (أَعْطَى).

وقُرِئَ: (المِخاض) بالكسرِ[١]، وهما مصدرُ مَخِضَتِ المرأةُ: إذا تحرَّكَ الوَلَدُ في بَطنِهَا للخُروجِ.

﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستَتِرَ به وتَعتَمِدَ عليهِ عندَ الوِلادَةِ، وهو ما بينَ العِرقِ والغصنِ، وكانَتْ نخلةً يابسةً لا رأسَ لها ولا خضرَةَ، وكان الوقتُ شِتاءً.

والتَّعريفُ إمَّا للجنسِ، أو للعَهدِ إذ لم يَكُن ثمَّةَ غيرُهَا، وكانَتْ كالمُتعالَم عند الناسِ، ولعلَّه تعالى ألهمَها ذلك ليُرِيَها مِن آياتِها ما يسكِّنُ رَوْعَتَها، ويُطعمَها الرُّطَبَ الذي هو خُرسةُ النُّفَساءِ[٢] الموافقةُ لَهَا.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ استحياءً من الناس ومخافةَ لومِهم.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر وأبو عمرٍو وابنُ عامر: ﴿مُتُّ﴾ مِن ماتَ يَموت[٣].

﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ ما مِن شأنه أن يُنسى ولا يُطلبَ، ونظيرُهُ: الذِّبحُ، لِمَا يذبحُ.

وقرأ حمزَةُ وحفصٌ بالفتحِ[٤]، وهو لغةٌ فيه، أو مصدرٌ سُمِّيَ به، وقُرِئَ به وبالهمزِ[٥]، وهو الحليبُ المَخلوطُ بالماءِ يَنسؤهُ أهلُهُ[٦] لقِلَّتِه.

---

(١) رواية عن ابن كثير في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، وكذا نسبت لأبي عمرو في غير المشهور عنه. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٨).

(٢) أي: طعامُ الوِلادةِ.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٨)، و«التيسير» (ص: ٩١).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٥) أي: (نَسْئاً)، نسبت لمحمد بن كعب القرظي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«المحتسب» (٢/ ٤٠).

(٦) أي يخلطوه بالماء.

﴿مَنسِيًّا﴾: منسيَّ الذِّكرِ بحيثُ لا يخطرُ ببالِهم، وقُرِئَ بكسرِ الميمِ على الإتباعِ[١].

(٢٤) ـ ﴿فَنَادَىٰهَا مَنْ تَحْتَهَا﴾: عيسى، وقيل: جبريلُ عليهِمَا السَّلامُ، كان يَقْبُلُ الولدَ[٢]، وقيل: ﴿تحتَها﴾: أسفلَ مِن مكانِها.

وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ ورَوْحٌ: ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ بالكَسرِ والجرِّ[٣]، على أنَّ في (نادى) ضميرَ أَحَدِهِما، وقيل: الضَّميرُ في ﴿تَحْتِهَآ﴾ للنَّخلةِ.

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾: أي لا تحزَني، أو: بأنْ لا تَحزَني.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: جَدْوَلًا، هَكذا رُوِيَ مَرفوعًا[٤]. وقيل: سَيِّدًا من السَّروِ، وهو عِيسَى.

(٢٥) ـ ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: وأَمِيليهِ إليكِ، والباءُ مَزيدَةٌ للتَّأكيدِ، أو: افعَلِي الهَزَّ والإِمالةَ به، أو: هُزِّي الثَّمرةَ بهزِّه، والهَزُّ: التَّحريكُ بجَذبٍ ودَفعٍ.

---

(١) نسبت للأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧).

(٢) أي: كان يَقْبُلُه كالقابلة، كما في «الكشاف» (٥/ ٢٥٣).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٨ ـ ٤٠٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٣١٨). ومن قرأ بكسر الميم كسَر التاء من ﴿تَحْتِهَآ﴾، ومن فتح الميم فتح التاء.

(٤) رواه الطبراني في «الصغير» (٦٨٥) من طريق بقية بن الوليد، عن معاوية بن يحيى الصدفي، عن أبي سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: في قوله عز وجل: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال: «النهر». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٤): فيه معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف.

وذكرَه البُخاريُّ قبل الحديث (٣٤٣٦) تعليقًا موقوفًا على البراء، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٥٨)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٠٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤١٣) عن البراء موقوفاً، وصححه.

﴿تَسَّاقَطْ عَلَيْكِ﴾: تتساقطْ، فأُدغِمَت التاءُ الثانية في السين، وحذَفَها حمزة، وقرأ يعقوبُ بالياء[١]، وحفصٌ: ﴿تُسَٰقِطْ﴾[٢] مـن ساقَطَتْ بمعنى: أَسْقَطتْ.

وقرئ: (تَتَسَاقَطْ) و: (تُسْقِطْ) و: (يُسْقِطْ)[٣]، فالتاءُ للنَّخلةِ والياءُ للجِذع.

﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ تمييزٌ، أو مَفعولٌ.

رُوِيَ: أَنَّها كانَتْ نخلةً يابِسَةً لا رأسَ لها ولا ثمرَ، وكانَ الوقتُ شِتاءً، فهَزَّتْه فجعلَ اللهُ تَعالى له رأسًا وخَوْصًا ورُطَبًا، وتَسْلِيَتُها بذلك: لِمَا فيه مِن المُعجزاتِ الدَّالَّةِ على براءةِ ساحَتِها، فإنَّ مِثلَهَا لا يُتصوَّرُ لِمَن يَرتَكِبُ الفَواحِشَ، والمنبِّهةِ[٤] لِمَن رآها عليه على أنَّ مَن قدرَ أن يُثْمِّرَ النَّخلةَ اليابسةَ في الشِّتاءِ قدرَ أن يُحبِلَها مِن غيرِ فَحلٍ، وأنَّه ليسَ ببِدْعٍ مِن شَأنِها مَع ما فيه مِن الشَّرابِ والطَّعامِ، ولذلك رَتَّبَ عليه الأمرينِ فقال:

(٢٦) ـ ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾؛ أي: مِن الرُّطَبِ وماءِ السَّرِيِّ، أو مِن الرُّطَبِ وعَصيرِه ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾: وطَيِّبِي نَفسَكِ وارفُضِي عَنْها ما أحزنَكِ.

وقُرِئَ: (وقِرِّي) بالكسرِ[٥] وهو لغَةُ نَجْدٍ، واشتقاقُهُ مِن القرارِ، فإنَّ العينَ إذا

---

(١) بالياء على التذكير مع فَتْحِها وتشديدِ السين وفتح القاف.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٣١٨).

(٣) (تَتَسَاقَطْ) نسبت لأبي السمال، و(تُسْقَطْ) و(يُسْقَطْ) نسبتا لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٢٩٩)، وذكر فيها ابن خالويه تسعة وجوه، وأوصلها الكرماني إلى خمسة عشر وجهاً، وذكر عن أبي حيوة ست قراءات لهذه الكلمة.

(٤) عطف على «الدالة».

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٥١٦)، و«الكشاف» (٥/ ٢٥٧)، و«التفسير الكبير» للرازي (٢١/ ٥٢٨)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٢٣).

رَأَتْ ما يَسُرُّ النَّفسَ سكنَتْ إليهِ مِن النَّظَرِ إلى غيرِهِ، أو: من القَرِّ فإنَّ دمعةَ السُّرورِ باردَةٌ ودمعةَ الحُزنِ حارَّةٌ، ولذلك يقال: (قُرَّةُ العَينِ) و(سُخْنَتُها) للمَحبوبِ والمكروهِ.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾: فإنْ تَرَي آدَمِيًّا. وقُرِئَ: (ترئنَّ)[1] على لغةِ مَن يقولُ: (لَبَّأْتُ بالحجِّ)[2] لتآخٍ بينَ الهمزةِ وحرفِ اللِّينِ.

﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾: (صَمْتًا)، وقَدْ قُرِئَ به[3]، أو: صِيامًا، وكانوا لا يَتكلَّمونَ في صيامِهِم.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ بعدَ أَنْ أَخبَرْتُكُم بنَذرِي، وإنَّما أُكَلِّمُ الملائكةَ وأُناجي ربِّي.

وقيل: أخبَرَتْهُم بنَذرِها بالإشارةِ، وأمرَهَا بذلك لكَراهةِ المُجادلةِ والاكتفاءِ بكَلامِ عِيسَى عليهِ السَّلامُ فإنَّه قاطِعٌ في قَطعِ الطَّاعنِ.

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾: مع وَلَدِها ﴿قَوْمَهَا﴾ راجعةً إليهِمْ بعد ما طهرَتْ مِن النِّفاسِ ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾: حامِلَةً إيَّاه ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾: بديعًا منكَرًا، مِن فَرَى الجلدَ: إذا قطَعه ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ يعنُونَ: هارونَ النبيَّ، وكانَتْ مِن أعقابِ مَن كان معه في طبقةِ الأخوةِ.

---

(١) رواية غير مشهورة عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«المحتسب» (٢/ ٤١)، و«جامع البيان في القراءات» (٣/ ١٣٤٢).

(٢) قال الطِّيبيُّ: أصله: لَبَّيْتُ تَلبيةً، ثم أُبدلَ التَّضعيفَ بالياءِ، ثم أُبدلَ الياءُ بالهمزَةِ. «فتوح الغيب» (١٠/ ١١).

(٣) نسبت لعبد الله وأنس رضي الله عنهما في «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٣٦٦). وروى الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥١٧) عن أنس أنه قرأ: (صوماً وصمتاً)، وكذا ذكرها عنه ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧).

وقيل: كانَتْ مِن نَسلِهِ وكان بينَهُما ألفُ سنةٍ.

وقيل: هو رَجلٌ صالحٌ ـ أو طالِحٌ ـ كانَ في زَمانِهِم شَبَّهُوهَا به[1]؛ تَهَكُّمًا، أو لِمَا رَأَوا قبلُ مِن صَلاحِها، أو شَتَموها به.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقريرٌ لأنَّ ما جاءَتْ به فريٌّ، وتنبيهٌ على أنَّ الفواحشَ مِن أولادِ الصَّالحينَ أفحَشُ.

(٢٩) ـ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾: إلى عيسى؛ أي: كلِّموهُ ليُجيبَكُم ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نَعهَدْ صبيًّا في المهدِ كلَّمَه عاقلٌ.

و﴿كَانَ﴾ زائدةٌ، والظَّرفُ صلةُ ﴿مَن﴾، و﴿صَبِيًّا﴾ حالٌ مِن المستكنِّ فيه، أو تامةٌ، أو دائمَةٌ كقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، أو بمعنى: صارَ.

(٣٠ ـ ٣٢) ـ ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقَهُ اللهُ به أوَّلًا لأنَّه أوَّلُ المقاماتِ، وللردِّ على مَن يزعمُ رُبوبيَّتَه ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: الإنجيلَ ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾: نفَّاعًا معلِّمًا للخيرِ.

والتَّعبيرُ بلفظِ المُضِيِّ إمَّا باعتبارِ ما سبقَ في قضائِه، أو بجعلِ المحقَّقِ وقوعُه كالواقعِ.

وقيل: أكملَ اللهُ عقلَهُ واستَنْبأَهُ طِفلًا.

﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾: حيثُ كنتُ ﴿وَأَوْصَـٰنِى﴾: وأمرَني ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾: زكاةِ

---

(١) رواه في التشبيه بالرجل الصالح عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٦٤)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٢٣)، عن قتادة قال: كان رجلاً صالحًا في بني إسرائيل يسمى هارون، فشبَّهوها به، فقالوا: يا شبيهة هارون في الصلاح.

وفي التشبيه بالطالح ذكره الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٢٥) دون سند ولا نسبة.

المالِ إن ملَكْتُهُ، أو تطهيرِ النَّفسِ عن الرَّذائلِ ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾: وبارًّا بها، عطفٌ على ﴿مُبَارَكًا﴾.

وقُرِئَ بالكسرِ[1] على أنَّه مَصدرٌ وُصِفَ به، أو منصوبٌ بفعلٍ دلَّ عليه (أَوْصاني)؛ أي: وكلَّفَني بِرًّا، ويؤيِّدُه القراءةُ بالكَسرِ والجرِّ عطفًا على (الصَّلاةِ)[2].

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عندَ اللهِ من فَرْطِ تكبُّرِه[3].

(٣٣) - ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو على يحيى، والتَّعريفُ للعَهدِ، والأظهَرُ أنَّه للجنسِ والتَّعريضِ باللَّعنِ على أعدائِه، فإنَّه لَمَّا جعلَ جنسَ السَّلامِ على نفسِهِ عرَّضَ بأنَّ ضدَّهُ عليهم؛ كقولِه تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧] فإنَّه تَعريضٌ بأنَّ العَذابَ على مَن كذَّبَ وتَوَلَّى.

(٣٤) - ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: الذي تقدَّمَ نَعتُه هو عيسى ابنُ مريمَ لا ما تَصِفُه النَّصارى، وهو تكذيبٌ لَهُم فيما يَصِفونَه على الوجهِ الأبلغِ والطَّريقِ البرهانيِّ حيثُ جعلَهُ الموصوفَ[4] بأضدادِ ما يَصِفونَه ثمَّ عكسَ الحُكم[5].

﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ خبرُ مَحذوفٍ؛ أي: هو قولُ الحَقِّ الذي لا ريبَ فيه، والإضافَةُ للبَيانِ، والضَّميرُ للكلامِ السَّابقِ أو لتمامِ القصَّةِ.

وقيل: صفةُ ﴿عِيسَى﴾، أو بدلُه، أو خبرٌ ثانٍ، ومعناه: كلمةُ الله.

---

(١) أي: بكسر الباء، نسبت لأبي نهيك وأبي مجلز. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، و«المحتسب» (٢/ ٤٢).

(٢) أي: (وبـرٍّ) بكسر الباء وجر الراء. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٥)، و«البحر» (١٤/ ٤٢٩).

(٣) قوله: «من فرط تكبره» بيان لـ «جبَّار».

(٤) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «موصوفاً».

(٥) في هامش نسخة الفاروقي: «بقوله: ذلك عيسى ابن مريم».

وقرأَ عاصِمٌ وابنُ عامرٍ ويَعقوبُ: ﴿قَوْلَ﴾ بالنَّصبِ[١] على أنَّه مصدرٌ مُؤكِّدٌ.

وقُرِئَ: (قالُ الحقِّ) وهو بمَعنى القولِ[٢].

﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾: في أمرِه يَشُكُّونَ، أو: يَتنازعونَ، فقالَت اليَهودُ: ساحِرٌ، وقالت النَّصارى: ابنُ اللهِ. وقُرِئَ بالتَّاءِ على الخطابِ[٣].

(٣٥) ـ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ تكذيبٌ للنَّصارَى وتَنزيهٌ للهِ عمَّا بَهَتُوهُ.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيتٌ لهم بأَنَّ مَن إذا أرادَ شيئًا أوجدَهُ بـ(كن) كان مُنزَّهًا من شَبَهِ الخلقِ والحاجةِ في اتِّخاذِ الولدِ بإحبالِ الإناثِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿فيكونَ﴾ بالنَّصبِ على الجوابِ[٤].

(٣٦) ـ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ سبقَ تفسيرُه في (سورةِ آلِ عِمرانَ).

وقرأ الحِجازِيَّانِ والبَصرِيَّانِ: ﴿وأَنَّ﴾ بالفتحِ[٥] على: ولِأَنَّ، وقيل إنَّه مَعطوفٌ على (الصَّلاةِ).

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٩)، و«التيسير» (ص: ١٤٩)، و«النشر» (٢/ ٣١٨).

(٢) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«الكشاف» (٥/ ٢٦٢) وفيه: (قالُ الحقِّ وقالُ الله).

(٣) نسبت لعلي رضي الله عنه وأبي عبد الرحمن السلمي وداود بن أبي هند ونافع في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«الكشاف» (٥/ ٢٦٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٥)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٢٩). وتحرفت في مطبوع «الشواذ» إلى: «يمترون» على لفظ المشهورة.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٩)، و«النشر» (٢/ ٢٢٠).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٩)، و«النشر» (٢/ ٣١٨).

(٣٧) ـ ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ ﴾: من اليَهودِ والنَّصارَى، أو فرقِ النَّصارَى: نَسْطُورِيَّةٌ قالوا: إنَّه ابنُ اللهِ، ويَعْقُوبيَّةٌ قالوا: هو اللهُ هبطَ إلى الأرضِ ثمَّ صعدَ إلى السَّماءِ، ومَلْكَانيَّةٌ[1] قالوا: هو عبدُ اللهِ ونبيُّهُ.

﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾: مِن شُهودِ يومٍ عَظيمٍ هولُهُ وحِسابُهُ وجَزاؤُهُ وهو يومُ القِيامَةِ، أو: مِن وقتِ الشُّهودِ، أو مِن مَكانِهِ فيهِ، أو: مِن شَهادةِ ذلك اليومِ عَلَيهِم، وهو أَنْ تشهدَ عليهم الملائكَةُ والأَنبياءُ وأَلسِنَتُهُم وآرابُهُم بالكُفرِ والفُسوقِ، أو: مِن وَقتِ الشَّهادةِ، أو مِن مَكانِها.

وقيل: هو ما شَهِدُوا به في عيسى وأُمِّه.

(٣٨) ـ ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ﴾ تعجُّبٌ مَعناه: أنَّ استِماعَهُم وإبصارَهُم ﴿يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ ـ أي: يومَ القيامةِ ـ جديرٌ بأَنْ يُتعَجَّبَ مِنْهُما بعدما كانوا صُمًّا عُمْيًا في الدُّنيا، أو: التَّهديدُ[2] بما سَيَسْمَعُونَ ويبصرونَ يومَئذٍ.

وقيل: أَمرٌ بأَنْ يُسْمِعَهم ويُبَصِّرَهُم مواعيدَ ذلك اليومِ وما يَحيقُ بهم فيه.

والجارُّ والمَجرورُ على الأَوَّلِ في مَوضعِ الرَّفعِ، وعلى الثَّاني في محلِّ النَّصبِ.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أوقعَ (الظَّالِمينَ) موقِعَ الضَّميرِ إشعارًا بأَنَّهُم ظلَمُوا أنفُسَهُم حيثُ أغفَلُوا الاستماعَ والنَّظرَ حينَ يَنفعُهُم، وسجَّلَ على إغفالِهِم بأَنَّهُ ضَلالٌ مُبينٌ.

(٣٩) ـ ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾: يومَ يَتحسَّرُ النَّاسُ: المُسيءُ على إساءَتِه، والمُحسِنُ على قِلَّةِ إحسانِه.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «وملكائية».

(٢) قوله: «أو التهديد» عطف على «أنَّ استماعَهم». وفي نسخة الخيالي: «أو تهديد».

﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: فرُغَ مِن الحسابِ وتصادرَ الفَريقانِ إلى الجنَّةِ والنَّارِ، و﴿إِذْ﴾ بدلٌ مِن اليومِ أو ظرفٌ لـ﴿ٱلْحَسْرَةِ﴾.

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حالٌ مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما بينَهُما اعتِراضٌ، أو بـ(أَنذِرْهُم)؛ أي: أَنذِرْهُم غافِلينَ غيرَ مُؤمنينَ، فتكونُ حالًا مُتضمِّنَةً للتَّعليلِ.

(٤٠) ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يَبْقَى لأَحدٍ غَيرِنا عليها وعليهم مِلكٌ ولا مُلكٌ، أو: نتوفَّى الأرضَ[1] ومَن عَلَيها بالإفناءِ والإهلاكِ تَوَفِّيَ الوارثِ لإرثِهِ ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: يُرَدُّونَ للجزاءِ.

(٤١) ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾: مُلازِمًا للصِّدقِ كثيرَ التَّصديقِ؛ لكثرةِ ما صدَّقَ به مِن غُيوبِ اللهِ وآياتِه وكُتبِهِ ورُسلِه.

﴿نَّبِيًّا﴾: استَنْبَأَهُ اللهُ.

(٤٢ ـ ٤٤) ـ ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدلٌ مِن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿كَانَ﴾ أو بـ﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ التَّاءُ مُعوَّضَةٌ مِن ياءِ الإضافةِ، ولذلك لا يُقال: يا أبتي[2]، ويقال: (يا أَبتَا)، وإنَّما تُذكَرُ للاستعطافِ ولذلك كرَّرَها.

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فيعرفَ[3] حالكَ ويسمعَ ذكرَكَ ويَرى خضوعَكَ ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ في جلبِ نَفعٍ ودفعِ ضُرٍّ؟!

---

(١) أي: نأخذها ونقبضها.

(٢) قال في «الكشاف» (٥/ ٢٦٧): لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه.

(٣) بالنَّصبِ في جوابِ النَّفي.

دعاهُ إلى الهُدَى وبيَّن ضلالَهُ، واحتجَّ عليه أبلغَ احتجاجٍ وأرشقَهُ[١] برفقٍ وحسنِ أدبٍ، حيثُ لم يُصرِّح بضلالِهِ بل طلبَ العِلَّةَ التي تَدعُوه إلى عبادةِ ما يَستخِفُّ به العَقلُ الصَّريحُ ويأبى الرُّكونَ إليه، فضلًا عَن عبادتِه التي هي غايةُ التَّعظيمِ، ولا تحقُّ إلَّا لِمَن له الاستغناءُ التَّامُّ والإنعامُ العامُّ، وهو الخالقُ الرازقُ المُحيي المُميتُ المُعاقبُ المُثيبُ، ونبَّه على أنَّ العاقلَ ينبغي أَنْ يفعلَ ما يفعلُ لغرضٍ صَحيحٍ، والشَّيءُ لو كانَ حيًّا مميِّزًا سميعًا بَصيرًا مُقتدِرًا على النَّفعِ والضرِّ ولكنْ ممكنًا لاستنكفَ العقلُ القويمُ عَن عبادَتِه وإن كانَ أشرفَ الخلقِ كالمَلائكةِ والنَّبيِّينَ؛ لِمَا يراهُ مثلَهُ في الحاجةِ والانقيادِ للقُدرةِ الواجبةِ، فكيفَ إذا كانَ جمادًا لا يَسمعُ ولا يبصرُ؟

ثمَّ دعاه إلى أن يَتَّبِعَهُ ليَهْديَهُ الحقَّ القويمَ والصِّراطَ المُستقيمَ لمَّا لم يَكُن مَحظوظًا مِن العلمِ الإلهيِّ مُستقلًّا بالنَّظرِ السَّوِيِّ، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ ولم يَسِمْ أباه[٢] بالجهلِ المفرطِ ولا نفسَه بالعلمِ الفائقِ، بل جعلَ نفسَه كرفيقٍ له في مَسيرٍ يكونُ أعرفَ بالطَّريقِ.

ثمَّ ثبَّطَه عمَّا كانَ عليه بأنَّه مع خلوِّهِ عَن النَّفعِ مُستلزِمٌ للضرِّ، فإنَّه في الحَقيقَةِ عبادةُ الشَّيطانِ مِن حيثُ إنَّه الآمرُ به فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾.

واستَهْجنَ ذلك، وبيَّنَ وجهَ الضرِّ فيهِ بأنَّ الشَّيطانَ مُستَعْصٍ على ربِّكَ المُوْلي للنِّعمِ كُلِّها بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ ومَعلومٌ أنَّ المطاوعَ للعاصي عاصٍ، وكلُّ عاصٍ حَقيقٌ بأَنْ تُستَرَدَّ مِنه النِّعَمُ ويُنتقَم منه، ولذلك عقَّبَه بتخويفِه سوءَ عاقِبَتِه وما يجرُّه إليه فقال:

---

(١) في نسخة الخيالي: «وأوثقه»، وفي نسخة التفتازاني: «وأرشده». ومعنى «أرشقَه»؛ أي: أحسنَه، من قولهم: رجلٌ رشيقٌ؛ أي: حسنُ القَدِّ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٦٢١ ـ ٦٢٢).

(٢) أي: لم يصفه.

(٤٥) ـ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾: قـرينًا في اللعنِ أو العذابِ تليه ويَلِيكَ، أو: ثابتًا في مُوالاتِه فإنَّه أكبرُ مِن العَذابِ كمَا أنَّ رضوانَ اللهِ أكبرُ مِن الثَّوابِ.

وذكرُ الخَوفِ والمسِّ وتَنكيرُ العَذابِ: إمَّا للمُجاملةِ، أو لخفاءِ العاقِبَةِ.

ولعلَّ اقتِصارَهُ على عِصيانِ الشَّيطانِ مِن جناياتِه لارتقاءِ هِمَّتِه في الرَّبَّانيَّةِ، أو لأنَّه مِلاكُها، أو لأنَّه مِن حيثُ إنَّه نتيجةُ مُعاداتِه لآدمَ وذرِّيَّتِه فنبَّه عليها[1].

(٤٦) ـ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ قابلَ استعطافَهُ ولُطفَهُ في الإرشادِ بالفَظاظةِ وغلظةِ العنادِ، فناداه باسمِهِ ولم يقابِل ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بـ: يا بنيَّ، وأخَّرَه وقدَّمَ الخبرَ على المبتدأِ وصَدَّرَه بالهمزةِ لإنكارِ نفسِ الرَّغبةِ على ضربٍ مِن التَّعجُّبِ كأنَّها ممَّا لا يَرغَبُ عنها عاقلٌ، ثمَّ هدَّدَه فقال:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن مقالكَ فيها أو الرَّغبةِ عنها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بلِساني، يعني: الشَّتمَ والذَّمَّ، أو بالحجارةِ حتَّى تَمُوتَ أو تبعدَ مِنِّي.

﴿وَٱهْجُرْنِي﴾ عطفٌ على ما دلَّ عليه ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾؛ أي: فاحـذَرْني واهجُرْني ﴿مَلِيًّا﴾: زمانًا طَويلًا، مِن الملاوةِ، أو: مَلِيًّا بالذَّهابِ عني.

(٤٧) ـ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾: تَوديعٌ ومُتاركَةٌ، ومقابلَةٌ للسَّيِّئَةِ بالحَسنةِ؛ أي: لا أُصيبُكَ بمَكروهٍ ولا أقولُ لك بعدُ ما يؤذيكَ، ولكنْ ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ لعلَّه

---

(١) قوله: «لارتقاء همته»؛ أي: همةِ إبراهيم عليه السلام «في الرَّبانية»؛ أي: فلم يذكُرْ من جنايات الشيطان إلا ما يختصُّ بربِّ العزَّة من معاداته بعصيانه له ـ دونَ معاداته لآدمَ وذرِّيَّته ـ لأن ذلك أعظمُ ما ارتكبَه «أو لأنه»؛ أي: العصيانَ «ملاكها»؛ أي: الجناياتِ، وملاكُ الشيء: ما يقومُ به؛ كما يقال: القلبُ مِلاكُ الجسدِ، «فنبه عليها»؛ أي: على نتيجة معاداته. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٦٢١ ـ ٦٢٢). ووقع في نسخة الفاروقي: «مُنبِّهٌ»، وفي نسخة التفتازاني: «مبنية».

يوفِّقُكَ للتَّوبةِ والإيمانِ، فإنَّ حقيقةَ الاستغفارِ للكافرِ استدعاءُ التَّوفيقِ لِمَا يُوجِبُ مَغفِرتَهُ، وقد مرَّ تَقريرُهُ في (سُورةِ التَّوبةِ).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾: بليغًا في البِرِّ والإلطافِ.

(٤٨) ـ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمُهاجرةِ بدِيني ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾: وأعبدُهُ وَحدَه ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾: خائبًا ضائعَ السَّعيِ مِثلَكُم في دُعاءِ آلِهَتِهِم.

وفي تَصديرِ الكلامِ بـ(عسى): التَّواضُعُ، وهضمُ النَّفسِ، والتَّنبيهُ على أنَّ الإجابةَ والإثابَةَ تفضُّلٌ غيرُ واجبٍ، وأنَّ مِلاكَ الأَمرِ خاتِمَتُه وهو غَيْبٌ.

(٤٩) ـ ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالهجرةِ إلى الشَّامِ ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدلَ مَن فارقَهُم مِن الكفَرَةِ.

قيل: إنَّه لَمَّا قصدَ الشَّامَ أتى أوَّلًا حَرَّانَ وتَزوَّجَ بسارةَ وولدَتْ له إسحاقَ ووُلِدَ منه يعقوبُ.

ولعلَّ تَخصيصَهُما بالذِّكرِ لأنَّهما شَجَرتا الأَنبياءِ، أو لأنَّه أرادَ أن يذكرَ إسماعيلَ بفضلِه على الانفرادِ.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾: وكُلًّا مِنْهُما أو مِنْهُم.

(٥٠) ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ النبوَّةَ والأموالَ والأَولادَ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يَفتخرُ بهم النَّاسُ ويُثنونَ عليهم استجابةً لدَعوَتِه: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، والمرادُ باللسانِ: ما يوجَدُ به، ولسانُ العَرَبِ: لُغَتُهُم، وإضافَتُه إلى الصِّدقِ وتَوصيفُهُ بالعُلُوِّ للدَّلالةِ على أنَّهُم أَحِقَّاءُ بما يُثنونَ عليهِم، وأنَّ مَحامِدَهُم لا تَخفَى على تَباعُدِ الأَعصارِ وتحوُّلِ الدُّوَلِ وتَبدُّلِ المِلَلِ.

(٥١) ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلِصًا﴾: مُوَحِّدًا، أخلصَ عِبادَتَهُ عَن الشِّركِ والرِّياءِ، أو أسلمَ وجهَهُ للهِ، وأخلَصَ نفسَهُ عمَّا سِواه.

وقرأ الكُوفِيُّونَ بالفتحِ[1] على أنَّ اللهَ أخلَصَه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أرسلَهُ اللهُ إلى الخلقِ فأنبأَهُم عنه، ولذلك قَدَّمَ ﴿رَسُولًا﴾ مع أنَّه أخصُّ وأعلى.

(٥٢) ـ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾: مِن ناحِيَتِه اليُمنَى، مِن اليَمينِ وهي التي تَلِي يمينَ مُوسَى عليهِ السَّلامُ، أو: مِن جانبِهِ المَيمونِ، مِن اليُمن بأَنْ تمثَّلَ له الكَلامُ مِن تلكَ الجِهَةِ.

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ تقريبَ تَشريفٍ، شَبَّهَهُ بمَن قَرَّبَهُ الملِكُ لِمُناجاتِه.

﴿نَجِيًّا﴾ مُنَاجِيًا، حالٌ مِن أَحدِ الضَّميرينِ.

وقيل: مُرتَفِعًا، مِن النَّجوَةِ وهو الارتفاعُ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه رُفِعَ فوقَ السَّماواتِ حتى سَمِعَ صَريرَ القلمِ[2].

(٥٣) ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ﴾: مِن أَجلِ رَحْمَتِنَا، أو بعضَ رَحْمَتِنَا ﴿أَخَاهُ﴾: مُعاضدةَ أخيهِ ومُوازرَتِه إجابةً لدَعوَتِه: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩] فإنَّه كانَ أَسَنَّ مِن موسى، وهو مفعولٌ أو بدلٌ.

﴿هَٰرُونَ﴾ عطفُ بيانٍ له ﴿نَبِيًّا﴾ حالٌ مِنه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٠)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه» ـ تكملة التفسير (١٣٩٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٨٦) عن سعيد بن جبير، ورواه هناد بن السري في «الزهد» (١٥٣)، والثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٣٩٤) عن ميسرة، ورواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥٥) عن مجاهد.

(٥٤) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ ذكرَهُ بذلك لأنَّه المَشهورُ به، والمَوصوفُ بأشياءَ في هذا البابِ لم تُعهَدْ مِن غيرِه، وناهيكَ أنَّه وَعَدَ الصَّبرَ على الذبحِ فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] فوَفَّى.

﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ يَدُلُّ على أنَّ الرَّسُولَ لا يلزَمُ أَنْ يكونَ صاحِبَ شَريعَةٍ، فإنَّ أولادَ إبراهيمَ كانُوا على شَريعَتِه.

(٥٥) ـ ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ اشتغالًا بالأَهَمِّ، وهو أَنْ يُقبِلَ الرَّجلُ على نفسِه ومَن هو أقرَبُ النَّاسِ إليه بالتَّكميلِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢]، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦].

وقيل: أهلُهُ: أمَّتُه، فإنَّ الأَنبياءَ آباءُ الأُمَمِ.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ لاستقامَةِ أَقوالِهِ وأَفعالِه.

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَ﴾ هو سِبطُ شِيث وجَدُّ أبي نُوحٍ، واسمُهُ أَخْنُوخُ، واشتِقاقُ إدريسَ مِن الدرسِ يردُّهُ مَنْعُ صَرفِه، نَعَمْ لا يَبعدُ أَنْ يكونَ معناه في تلك اللغَةِ قَريبًا مِن ذلك فلُقِّبَ به لكثرةِ دَرسِهِ، إذ رُوِيَ أنَّه تَعالَى أنزلَ عليهِ ثَلاثينَ صَحيفَةً، وأنَّه أوَّلُ مَن خطَّ بالقَلَمِ ونَظَرَ في علمِ النُّجومِ والحِسابِ(١).

---

(١) روى ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١) عن أبي ذر رضي الله عنه من حديث طويل، وفيه: «أخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم»، ثم قال: «وأنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة»، وقال ابن كثير في «تفسيره»: روى هذا الحديث بطوله الحافظ ابن حبان في كتابه ووسمه بالصحة، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي، فذكر هذا الحديث في كتابه «الموضوعات»، واتهم به إبراهيم بن هشام هذا، ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث.

أما قوله: (إنه أول من نظر في النجوم) فذكره الكرماني في «لباب التفسير» عند تفسير هذه الآية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ يعني: شرفَ النُّبوَّةِ والزُّلفى عندَ الله، وقيل: الجنَّةُ.

وقيل: السَّماءُ السَّادسَةُ[1] أو الرَّابعةُ[2].

(٥٨) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورينَ في السُّورةِ مِن زكريَّا إلى إدريسَ ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواعِ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيانٌ للمَوصولِ ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدلٌ مِنه بإعادةِ الجارِّ، ويَجوزُ أَنْ تكونَ (مِن) فيه للتَّبعيضِ لأنَّ المُنعَمَ عليهم أعَمُّ مِن الأَنبياءِ وأَخَصُّ مِن الذُّرِّيَّةِ.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: ومِن ذُرِّيَّةِ مَن حملنَا خُصوصًا، وهُم مَن عدا إدريسَ فإنَّ إبراهيمَ كانَ مِن ذُرِّيَّةِ سامِ بنِ نوحٍ.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الباقونَ ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عطفٌ على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: ومِن ذُرِّيَّةِ إسرائيلَ وكان مِنهُم مُوسى وهارونُ وزَكريَّا ويحيَى وعِيسى، وفيه دَليلٌ على أنَّ أَولادَ البَناتِ من الذُّرِّيَّةِ.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾: ومن جُملةِ مَن هَدَيْنا إلى الحقِّ ﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ للنُّبوَّةِ والكَرامَةِ.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبرٌ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إنْ جَعلْتَ الموصولَ صِفتَهُ، واستئنافٌ إن جعلتَهُ خبرَهُ لبيانِ خَشيَتِهِم مِن اللهِ وإخباتِهِم لَهُ مع ما لَهُم مِن عُلُوِّ الطَّبقَةِ في شَرفِ النَّسبِ وكَمالِ النَّفسِ والزُّلفى مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وعَن النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ: «اتلُوا القرآنَ وابْكُوا، فإنْ لم تَبْكُوا فتَباكَوا»[3].

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٦٤) عن ابن عباس والضحاك، وخبر ابن عباس إسناده ضعيف.

(٢) ورد هذا في حديث الإسراء الطويل عن أنس في «صحيح مسلم» (١٦٢).

(٣) رواه ابن ماجه (١٣٣٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٨٩)، مِن حَديثِ سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ. وفي إسنادهما: أبو رافع، واسمه إسماعيل بن رافع بن عويمر الأنصاري، قال عنه الحافظ في «الكافي =

والبُكِيُّ: جمعُ باكٍ؛ كالسُّجُودِ في جمعِ ساجِدٍ.

وقُرِئَ: (يتلى)[1] بالياءِ؛ لأنَّ التَّأنيثَ غيرُ حَقيقيٍّ.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿بِكِيًّا﴾ بكسر الباء[2].

(٥٩) - ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: فعقبَهُم وجاءَ بَعدَهُم عَقِبُ سوءٍ؛ يقال: (خَلَفُ صدقٍ) بالفتحِ، و: (خَلْفُ سوءٍ) بالسُّكونِ.

﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: تركوها، أو أَخَّروها عَن وَقتِها.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ كشُربِ[3] الخمرِ، واستحلالِ نكاحِ الأُختِ مِن الأَبِ، والانهماكِ في المعاصي.

وعَن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: مَن بَنى الشَّديدَ، وركبَ المنظورَ، ولبسَ المَشهورَ[4].

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾: شَرًّا؛ كقولِه:

= الشاف» (ص: ١٠٦): (لين). لكن جوَّد إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢٢٦).

(١) نسبت لشبل بن عباد المكي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٣) في نسخة الخيالي والفاروقي: «بشرب».

(٤) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٣٩٥) تكملة التفسير، وذكره الثعلبيُّ في «تفسيره» (١٧/ ٤٠٨) بلفظ: (هذا إذا بُني المشيد...).

وروي مرفوعاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ: (من أشراط الساعة أن يركب المنظور، ويلبس المشهور، ويبني المشذور، ويصبح الناس إخوان العلانية، أعداء السريرة). رواه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٠٧) من طريق سعيد بن سنان الحمصي، وقال: لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به. وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٨٩) وقال: فيه كذابان.

فمَن يَلْقَ خيْراً يَحْمَدِ النـاسُ أَمْـرَهُ ومَـن يَغْوِ لَا يَعْدَمْ عَلى الغَيِّ لائِما(١)

أو: جزاءَ غَيٍّ؛ كقولِه: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، أو: غَيًّا عَن طريقِ الجنَّةِ.

وقيل: هو وادٍ في جَهنَّمَ تَستعيذُ منه أَودِيَتُها.

(٦٠) ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يَـدُلُّ على أنَّ الآيـةَ في الكَفَرَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقـرأ ابـنُ كثيـرٍ وأبو عمرٍو وأبـو بكرٍ ويَعقـوبُ على البنـاءِ للمَفعولِ مِن أدخلَ(٢).

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾: ولا يُنْقَصونَ شيئًا مِن جزاءِ أَعمَالِهِم، ويَجوزُ أَنْ يَنتَصِبَ ﴿شَيْـًٔا﴾ على المصدَرِ، وفيه تَنبيهٌ بأَنَّ كُفرَهُم السَّابقَ لا يَضرُّهُم ولا ينقصُ أُجورَهُم.

(٦١) ـ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بَـدَلٌ مِـن ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ بَـدَلَ البَعـضِ لاشـتِمالِها علَيْها، أو مَنصـوبٌ علـى المدحِ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ(٣) على أنَّه خبرُ مبتدأ مَحذوفٍ.

و﴿عَدْنٍ﴾ علَمٌ لأنَّه المضافُ إليه في العَلَمِ، أو عَلَمٌ للعَدْنِ بمَعْنَى الإقامةِ كبَرَّةَ، ولذلك صَحَّ وصفُ ما أُضيفَ إليه بقولِه: ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾(٤)؛ أي:

---

(١) البيت من قصيدة للمرقش الأصغر. انظر: «المفضليات» (ص: ٢٤٤ ـ ٢٤٧)، و«إصلاح المنطق» (ص: ١٥١)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٢١٠).

(٢) انظر: «السبعة» (٢٣٧)، و«التيسير» (ص: ٩٧)، و«النشر» (٢/ ٢٥٢).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨) عن الحسن البصري.

(٤) قوله: «و﴿عَدْنٍ﴾ عَلَم»؛ أي: علمُ شخصٍ لأرضٍ في الجنة «لأنه المضاف إليه في العلَم»؛ أي: في بابـه «أو علم»؛ أي: عَلَمُ جنسٍ «للعَدْن»؛ أي: لمعنى العَدْن المفسَّرِ بقوله: «بمعنى الإقامة»؛ أي: في الجنةِ «كبَرَّة»؛ أي: فإنها علمُ جنسٍ للمَبَرَّة بمعنى البـرِّ «ولذلك»؛ أي: ولكون ﴿عَدْنٍ﴾ علمَ جنسٍ «صح وصف ما أضيف إليه» وهو ﴿جَنَّٰتِ﴾ «بقوله: ﴿ٱلَّتِى﴾..»؛ لدلالته على عموم المعنى =

وَعدَها إيَّاهُم وهي غائبةٌ عَنْهُم، أو هم غائبونَ عنها، أو: وعدَهُم بإيمانِهِم بالغيبِ.

﴿إِنَّهُۥ﴾: إنَّ اللهَ ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ الذي هو الجنَّةُ ﴿مَأْتِيًّا﴾ يَأتيها أهلُها الموعودُ لهم لا مَحالةَ.

وقيل: هو مِن أَتَى إليه إحسانًا؛ أي: مَفعولًا مُنجزًا.

(٦٢) ـ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾: فُضولَ الكَلامِ ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾: ولكنْ يَسمَعُونَ قَوْلًا يسلَمونَ فيه من العَيبِ والنَّقِيصَةِ، أو: إلا تَسليمَ المَلائكةِ عليهِمْ وتَسليمَ بَعضِهِم على بَعضٍ، على الاستثناءِ المُنقَطِعِ، أو على مَعنى: أنَّ التَّسليمَ إن كانَ لغوًا فلا يسمعونَ لَغْوًا سِواهُ كقولِه:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[1]

أَوْ: عَلَى أَنَّ مَعناهُ: الدُّعاءُ بالسَّلامةِ، وأهلُهَا أَغنياءُ عنه، فهو مِن بابِ اللَّغوِ ظاهِرًا وإنَّما فائِدَتُه الإكرامُ.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ على عادةِ المُتنعِّمِينَ، والتَّوسُّطِ بينَ الزَّهادَةِ والرَّغابَةِ.

وقيل: المرادُ: دوامُ الرِّزقِ ودُرُورُه.

(٦٣) ـ ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾: نُبقِيهَا عَلَيهِمْ مِن ثَمرةِ تَقْواهُم كما نُبْقِي على الوَارثِ مالَ مُورِّثِه، والوراثةُ أَقْوَى لَفظٍ يُستَعمَلُ في التَّمليكِ والاستحقاقِ مِن حيثُ إنَّها لا تُعْقَبُ بفسخٍ ولا استرجاعٍ، ولا تَبْطُلُ بردٍّ ولا إسقاطٍ.

= المعروف في عَلَم الجنسِ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٦٢٩).

(١) البيت للنَّابغَةِ الذُّبيانِيِّ يمدَحُ بها النُّعْمَانَ بنَ الحارثِ. انظر: «ديوانه» (ص: ١٣ ـ ١٥)، ط دار المعرفة، بيروت.

وقيل: يُورَّثُ المتقونَ من الجنَّةِ المَساكنَ التي كانَتْ لأَهلِ النَّارِ لَوْ أَطاعُوا؛ زيادةً في كَرَامَتِهِم.

وعَن يَعقوبَ: ﴿نُوَرِّثُ﴾ بالتَّشديدِ[1].

(٦٤) ـ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكايةُ قولِ جِبريلَ عليهِ السَّلامُ حينَ استَبْطَأَه رَسولُ اللهِ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَن قصَّةِ أَصحابِ الكَهفِ وذي القَرْنَينِ والرُّوحِ ولَمْ يَدْرِ ما يُجيبُ، ورَجَا أَنْ يُوحَى إليه فيه، فأبطأَ عليهِ خمسَةَ عشَرَ يومًا ـ وقيلَ: أربعينَ ـ حتَّى قال المُشركونَ: وَدَّعَهُ رَبُّهُ وقَلَاهُ، ثمَّ نزلَ ببيانِ ذلك[2].

والتَّنَزُّلُ: النُّزُولُ على مهلٍ لأنَّه مُطاوِعُ نزلَ، وقد يُطلَقُ بمَعنى النُّزولِ مُطلقًا كما يُطلَقُ نَزَلَ بمَعنى أَنْزَلَ، والمَعْنَى: وما ننزلُ وقتًا غِبَّ وَقتٍ إلَّا بأمرِ اللهِ على ما تَقتضيهِ حِكمَتُه.

وقُرِئَ: (وما يَتَنَزَّلُ) بالياءِ[3] والضَّميرُ للوَحيِ.

﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وهو ما نحنُ فيه مِن الأماكنِ والأحايينِ، لا ننتقِلُ مِن مَكانٍ إلى مكانٍ، ولا ننزلُ في زَمانٍ دونَ زَمانٍ، إلَّا بأَمرِه ومَشيئَتِه.

---

(١) هي رواية رويس عن يعقوب. انظر: «النشر» (٢/ ٣١٨).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤١٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠١)، عن عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي.

ورواه بنحوه دون ذكر الآية ابن إسحاق في «السيرة» (٢٥٧) ـ ومن طريقه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧٠) ـ قال: حَدَّثَني رجلٌ من أهل مكة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه رجل مبهم.

وروى البخاري (٣٢١٨) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ لجبريل: «ألا تَزورُنا أكثرَ ممَّا تَزورُنا؟»، قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآيَةَ.

(٣) نسبت للأعرج. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: تاركًا لكَ؛ أي: ما كان عَدمُ النُّزولِ إلا لعدمِ الأَمرِ بهِ، ولم يَكُن ذلك عن تَركِ اللهِ لكَ وتوديعِهِ إيَّاكَ كما زَعمتِ الكَفَرَةُ، وإنَّما كان لحكمةٍ رآها فيه.

وقيل: أوَّلُ الآيةِ حكايةُ قولِ المُتَّقينَ حينَ يَدخلونَ الجنَّةَ، والمَعنى: وما ننزلُ الجنَّةَ إلا بأمرِ اللهِ ولطفِه، وهـو مالكُ الأُمورِ كلِّها السَّالِفَة والمترقَّبَةِ والحاضرةِ، فما وَجدناهُ وما نَجِدُه مِن لطفِه وفضلِه، وقولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تقريرٌ مِن اللهِ لقَولِهِم؛ أي: وما كان ناسِيًا لأعمالِ العاملينَ وما وَعَدَ لَهُم مِن الثَّوابِ علَيْها.

وقوله: (٦٥) ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيانٌ لامتناعِ النِّسيانِ عليهِ وهو خبرُ مَحذوفٍ، أو بدلٌ مِن ﴿رَبُّكَ﴾.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ خطابٌ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ مُرَتَّبٌ عليه؛ أي: لَمَّا عرفتَ ربَّكَ بأنَّه لا ينبغي لَهُ أن ينساكَ، أو أعمالَ العُمَّالِ، فأقبِلْ على عبادتِه واصطَبِر علَيْها ولا تتَشَوَّش بإبطاءِ الوَحيِ وهزءِ الكَفَرةِ، وإنَّما عُدِّيَ باللامِ لتَضمُّنِه مَعنى الثَّباتِ للعبادةِ فيما يُورَدُ عليه مِن الشَّدائدِ والمشاقِّ؛ كقولِكَ للمُحارِبِ: اصطَبِر لقَرِنكَ.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: مِثْلًا يَستَحِقُّ أَنْ يُسمَّى إلهًا، أو: أحدًا يُسمَّى اللهَ، فإنَّ المُشركينَ وإنْ سَمَّوا الصَّنَمَ إلهًا لم يُسَمُّوهُ اللهَ قَطُّ، وذلك لظهورِ أَحَدِيَّتِه وتَعالي ذاتِه عَن المُماثَلَةِ بحيثُ لم يَقبل اللبسَ والمُكابرةَ، وهو تَقريرٌ للأمرِ؛ أي: إذا صَحَّ أَنْ لا أحدَ مِثلُه، ولا يَستَحِقُّ العِبادةَ غيرُه، لم يَكُن بُدٌّ مِن التَّسليمِ لأَمرِهِ والاشتغالِ بعِبادَتِه والاصطبارِ على مَشاقِّهَا.

(٦٦) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المرادُ بهِ: الجنسُ بأَسرِهِ، فإنَّ المَقولَ مقولٌ فيمَا بَينَهُم وإنْ لَمْ يَقُلْ كُلُّهم، كقولِكَ: (بنو فلانٍ قَتَلوا فُلانًا) والقاتِلُ واحِدٌ مِنْهُم.

أو: بَعضُهم المعهودُ وهم الكفرةُ.

أو: أُبيُّ بنُ خَلَفٍ فإنَّه أَخذَ عِظامًا باليَةً ففتَّها وقال: يَزعُمُ مُحمَّدٌ أنَّا نُبْعَثُ بعدَما نَموتُ(١).

﴿أَءِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ مِن الأَرضِ، أو مِن حالِ الموتِ، وتَقديمُ الظَّرفِ وإيلاؤُه حرفَ الإنكارِ لأنَّ المنكرَ كونُ ما بعدَ الموتِ وقتَ الحياةِ، وانتصابُهُ بفعلٍ دَلَّ عليه ﴿أُخْرَجُ﴾ لا بهِ؛ فإنَّ ما بعدَ اللامِ لا يعملُ فيما قبلَها، وهي هاهنا مُخلَصةٌ للتَّوكيدِ مُجرَّدَةٌ عَن مَعنى الحالِ كما خلصتْ الهمزةُ واللامُ في (يا أللهُ) للتَّعويضِ فساغَ اقترانُها بحرفِ الاستقبالِ.

ورُوي عن ابن ذَكْوان: ﴿إذا ما مِتُّ﴾ بهمزةٍ واحدةٍ مكسورةٍ على الخبر(٢).

(٦٧) ـ ﴿أَوَلَا يَذَّكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطفٌ على (يقول)، وتَوسيطُ همزَةِ الإنكارِ بينَهُ وبينَ العاطفِ ـ مع أنَّ الأصلَ أن تَتقدَّمَهُما ـ للدَّلالةِ على أنَّ المنكرَ بالذَّاتِ هو المعطوفُ، وأنَّ المعطوفَ عليه إنَّما نَشَأَ مِنه؛ فإنَّه لو تَذكَّرَ وتأمَّلَ ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ ـ بَلْ كانَ عَدَمًا صِرْفًا ـ لم يَقُل ذلك، فإنَّه أعجَبُ مِن جمعِ الموادِّ بعد التَّفريقِ وإيجادِ مثلِ ما كانَ فيها مِن الأعراضِ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ وعاصِمٌ وقالونُ عَن يعقوبَ: ﴿يَذْكُرُ﴾(٣) مِن الذِّكرِ الذي يُرادُ به التَّفكُّرُ. وقُرِئَ: (يَتَذَكَّر) على الأصلِ(٤).

---

(١) ذكره في سبب نزول هذه الآية: الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠١) عن الكلبي، ومقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٢/ ٦٣٤)، ويحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٢٣٤). وسيأتي في نهاية سورة (يس).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩).

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩)، و«النشر» (٢/ ٣١٨)، ولم أقف عليها من طريق قالون عن يعقوب.

(٤) نسبت لأبي. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٧١)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨).

(٦٨) ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ إقسامٌ باسمِهِ مُضافًا إلى نبيِّهِ تَحقيقًا للأمرِ وتَفخِيمًا لشَأنِ الرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطفٌ[١]، أو مَفعولٌ مَعَهُ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّ الكَفرَةَ يُحشَرُونَ مع قُرنائِهِم مِن الشَّياطينِ الذينَ أَغْوَوْهُم كلٌّ مَع شَيطانِه في سِلسِلَةٍ[٢].

وهذا وإن كانَ مَخصوصًا بِهِم ساغَ نِسبَتُه إلَى الجنسِ بأَسْرِه[٣]، فإنَّهُم إذا حُشِرُوا وفِيهِم الكَفَرَةُ مَقرونينَ بالشَّياطينَ فقَدْ حُشِرُوا جَمِيعًا مَعَهُم.

﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ﴾ لِيَرَى السُّعَداءُ ما نَجَّاهُم اللهُ مِنْه فيزدادوا غبطةً وسُرورًا، وينالَ الأشقياءُ ما ادَّخَرُوا لِمَعادِهِم عُدَّةً، ويَزدادُوا غَيْظًا مِن رُجوعِ السُّعداءِ عَنْهُم إلى دارِ الثَّوابِ وشَمَاتَتِهِم عليهِم.

﴿جِثِيًّا﴾ على رُكَبِهِم لِمَا يدهَمُهُم مِن هَوْلِ المَطلَعِ، أو لأَنَّهُ مِن تَوابعِ التَّواقُفِ للحِسابِ قبلَ التَّواصُلِ إلى الثَّوابِ والعِقابِ، وأهلُ الموقفِ جاثونَ؛ لقولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾ [الجاثية: ٢٨] على المعتادِ في مَواقِفِ التَّقَاوُلِ.

وَإِنْ كانَ المُرَادُ بالإنسانِ الكَفَرَةَ فلَعَلَّهُم يُسَاقُونَ جُثَاةً مِن المَوْقِفِ إلى شَاطئِ جَهنَّمَ إهانةً بِهِم، أو لعَجزِهِم عَن القِيامِ لِمَا عَرَاهُم مِن الشدَّةِ، وإنْ فسِّر الإنسانُ بالعموم فالمعنى: أنهم يتجاثَوْن عند موافاةِ شاطئ جهنَّمَ على أنَّ ﴿جِثِيًّا﴾ حالٌ مقدَّرة[٤].

---

(١) قوله: «﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطف»؛ أي: على ضمير ﴿لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ﴾.

(٢) ذكر بلا نسبة في «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٤٢١)، و«البسيط» للواحدي (١٤/ ٢٨٦)، وذكره مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ٦٠٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢].

(٣) قوله: «وهذا»؛ أي: حشرُ الكفرة مقرونينَ معَ الشياطينِ «وإن كان مخصوصاً بهم»؛ أي: بالكفرةِ «ساغ نسبته»؛ أي: الحشرِ «إلى الجنس بأسره»؛ أي: جنسِ الإنسانِ.

(٤) قوله: «وإن فسر الإنسان بالعموم...» إلى هنا من نسخة الخيالي فقط.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ: ﴿جِثِيًّا﴾ بكسرِ الجيم[1].

(٦٩) ـ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾: مِـن كلِّ أُمَّةٍ شاعَتْ دينًا ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾: مَن كانَ أَعْصَى وأَعْتَى مِنْهُم فنَطْرَحُهم فيها.

وفي ذِكْرِ الأَشَدِّ تَنْبيهٌ على أَنَّهُ تَعالَى يَعْفُو كَثِيرًا[2] مِن أَهْلِ العِصْيَانِ، وَلَوْ خُصَّ ذلكَ بالكَفَرَةِ فالمُرَادُ أَنَّهُ يميزُ طوائِفَهُم: أَعتَاهُمْ فَأَعْتَاهُمْ، وَيَطْرَحُهُم في النَّار على التَّرتيبِ، أو يُدخلُ كُلًّا طَبَقَتَها التي تَلِيقُ بِهِم.

و﴿أَيُّهُمْ﴾ مَبْنِيٌّ على الضَّمِّ عندَ سِيبويهِ؛ لأنَّ حَقَّه أن يُبْنَى كسائرِ الموصولاتِ، لكنَّه أُعرِبَ حَمْلًا على (كلٍّ) و(بعضٍ) للزُومِ الإضافةِ، فإذا حُذِفَ صدرُ صِلَتِه زادَ نَقصُهُ فعادَ إلى حَقِّهِ مَنصوبَ المحلِّ بـ(ننزعنَّ)[3]، ولذلكَ قُرِئَ مَنصوبًا[4].

ومَرفوعٌ عندَ غيرِه: إمَّا بالابتداءِ على أَنَّه استِفهامِيٌّ وخبرُهُ ﴿أَشَدُّ﴾ والجملَةُ مَحكِيَّةٌ، وتقديرُ الكَلامِ: لنَنزِعَنَّ مِن كلِّ شِيعةٍ الذينَ يُقالُ فيهِم: أَيُّهُم أَشَدُّ[5]؟ أو

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٨).

(٢) قوله: «كثيراً» منصوب بنزع الخافض، وهو (عن). انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) وملخص هذا الكلام الذي هو مذهب سيبويه: أنَّه مبنيٌّ على الضَّم لسقوط صدرِ الجملة التي هي صلتُـه، حتـى لو جيءَ به لأُعرِبَ وقيل: أَيُّهُم هو أَشَـدُّ، هذه عبارة الزمخشـري، قـال ابن الحاجب: فهـي علـى هـذا موصولـة بمعنـى الذي فـي موضـع نصـب مفعـولاً لـ(ننزعـن). انظـر: «الكتاب» (٢/ ٣٩٩ـ ٤٠٠)، و«الكشاف» (٥/ ٢٩٥)، و«أمالي ابن الحاجب» (١/ ١٤٨).

(٤) انظـر: «المختصـر فـي شـواذ القـرآن» (ص: ٨٨ـ٨٩)، عـن معـاذ بن مسـلم الهراء أسـتاذ الفراء، وطلحـة بـن مصرف.

(٥) وهذا مذهب الخليل، ولكونها استفهامية قدِّر القول ليصح وقوع الاستفهام بعده كما ذكر ابن الحاجب. انظر: «أمالي ابن الحاجب» (١/ ١٤٧). وقول الخليل في «الكتاب» (٢/ ٣٩٩ـ ٤٠٠)، و«الكشاف» (٥/ ٢٩٥).

مُعلَّقٌ عنها[١] ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ لتَضَمُّنِه مَعنى التَّمييزِ اللازمِ للعلمِ، أو مُستأنفَةٌ والفعلُ واقِعٌ على ﴿كُلِّ شِيعَةٍ﴾ على زيادةِ ﴿مِن﴾، أو على مَعنى: لنَنزِعَنَّ بعضَ كلِّ شيعةٍ.

وإمَّا بـ﴿شِيعَةٍ﴾[٢] لأنَّها بمَعنى: تَشيعُ.

و﴿عَلَى﴾ للبيانِ أو مُتعلِّقٌ بـ(أفعل)[٣] وكذا الباءُ في قولِه:

(٧٠) ـ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صُلِيًّا﴾؛ أي: لنَحْنُ أعلَمُ بالذين هُمْ أَوْلَى بالصُّلِيِّ ـ أو: صُلِيُّهُم أَوْلَى ـ بالنَّارِ، وهُمْ المُنتَزَعُونَ.

ويجوزُ أَنْ يُرادَ بِهِم وبِأشدِّهِم عِتيًّا رؤساءُ الشِّيَعِ، فإنَّ عَذابَهُم مُضاعَفٌ لضَلالِهِم وإضلالِهِم.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ: ﴿صِلِيًّا﴾ بكسرِ الصاد[٤].

(٧١) ـ ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾: وما مِنكُم، التِفاتٌ إلى الإنسانِ، ويُؤيِّدُه أنَّهُ قُرِئَ: (وإنْ منهم)[٥].

﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾: إلا واصِلُها وحاضِرٌ[٦] دونَها، يَمُرُّ بها المُؤمِنونَ وهيَ خامِدَةٌ وتَنهارُ بغَيْرِهِم.

وعَن جابرٍ: أنَّه عليهِ السَّلامُ سُئِلَ عنه فقال: «إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ قالَ بعضُهُم لبَعضٍ: أليسَ قَد وعدَنَا ربُّنَا أنْ نَرِدَ النَّارَ؟ فيقالُ لهم: قَدْ وَرَدْتُموهَا وهِيَ خامِدَةٌ»[٧].

---

(١) قوله: «أو معلق عنها» عطف على «محكيَّةٌ».

(٢) قوله: «وإما بـ﴿شِيعَةٍ﴾» عطف على «إما بالابتداء».

(٣) قوله: «أو متعلق بأفعل»؛ أي: وهو ﴿أَشَدُّ﴾.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٠٧).

(٥) نسبت لابن عباس وعكرمة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٦) في نسخة التفتازاني: «وجائز».

(٧) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٤٠٧ ـ زوائد نعيم)، وأبو عبيد في «غريب الحديث» (٥/ ٣٨٢)، وابن =

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فالمرادُ: عَن عذابِها.

وقيل: (وُرودُهَا): الجَوازُ على الصِّراطِ فإنَّه مَمدودٌ عَلَيها.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾: كانَ وُرودُهُم واجِبًا أوجبَهُ اللهُ على نَفسِهِ وقَضَى بأَنْ وَعَدَ به وعدًا لا يمكنُ خُلفُهُ. وقيل: أَقسَمَ عليه.

(٧٢) ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ فيُساقونَ إلى الجنَّةِ. وقرَأَ الكِسائيُّ ويَعقوبُ: ﴿نُنْجِي﴾ بالتَّخفيفِ[(١)].

وقُرِئَ: (ثَمَّ) بفَتحِ الثَّاءِ[(٢)]؛ أي: هُناكَ.

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾: مُنهارَةً بهم كما كانُوا، وهـو دَليلٌ على أنَّ المُرادَ بالوُرودِ الجُثُوُّ حَوالَيْهَا، وأنَّ المُؤمنينَ يُفارِقُونَ الفَجَرَةَ إلى الجنَّةِ بعدَ تَجَاثِيهِم، وتَبْقَى الفَجَرَةُ فيها مُنْهَارًا بِهِم على هَيْئَاتِهِم.

(٧٣) ـ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾: مُرَتَّلاتِ الأَلْفَاظِ مُبَيَّنَاتِ المَعاني بنَفسِها أو ببيانِ الرَّسولِ، أو: واضحاتِ الإعجازِ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: لأَجلِهِم أو مَعَهُم: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾: المؤمنينَ والكافِرينَ ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا﴾: مَوضِعَ قِيامٍ، أو: مَكانًا.

= أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٤٢٩)، وهناد في «الزهد» (٢٣١)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٥٩٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢١٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٥٧٥)، جميعهم من قول خالد بن معدان التابعي. وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣٣٢).

ووقع في بعض المصادر: «جامدة» بالجيم، وهو من اختلاف الرواة كما أفاد أبو عبيد والطبري في روايتيهما.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١١)، و«التيسير» (ص: ١٤٩)، و«النشر» (٢/ ٢٥٩).

(٢) نسبت لابن عباس والجحدري وابن أبي ليلى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ بالضمِّ[١]؛ أي: مَوضِعَ إِقَامَةٍ ومَنزِلٍ.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾: مَجلِسًا ومُجتمَعًا، والمَعنى: أَنَّهُم لَمَّا سَمِعُوا الآياتِ الواضِحاتِ، وعَجَزُوا عَن مُعارَضَتِها والدَّخَلِ عليها، أَخذُوا في الافتخارِ بما لهم مِن حُظوظِ الدُّنيَا، والاستدلالِ بزيادَةِ حَظِّهِم فيها على فَضلِهِم وحسنِ حالِهِم عندَ اللهِ تَعالى؛ لقُصورِ نَظَرِهِم على الحالِ، وعِلْمِهِم بظاهرِ مِن الحياةِ الدُّنيَا، فردَّ عَلَيهِم ذلك أيضًا مع التَّهديدِ نقضًا بقولِه:

(٧٤) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ (كم) مفعولُ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّن قَرْنٍ﴾ بيانُه، وإنَّما سُمِّيَ أَهلُ كُلِّ عصرٍ قَرْنًا لأنَّه يَتقدَّمُ مَن بَعدَهُم، و﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ صِفةٌ لِـ(كم)، و﴿أَثَٰثًا﴾ تَمييزٌ عَن النِّسبَةِ، وهو مَتاعُ البَيتِ، وقيل: هو ما جدَّ مِنْهُ، والخُرْثِيُّ ما رَثَّ.

والرِّئْيُ: المنظَرُ، فِعْلٌ مِن الرُّؤيَةِ لِمَا يُرَى كالطِّحْنِ[٢] والخِبزِ[٣].

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿ورِيًّا﴾[٤] على قلبِ الهمزةِ وإدغامِها، أو على أنَّه مِن الرِّيِّ الذي هو النِّعمَةُ.

وأبو بكرٍ: (ورِيئاً) على القلبِ[٥].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١١)، و«التيسير» (ص: ١٤٩).

(٢) الحبّ المطحون.

(٣) كذا وقعت في النسخ التي عندنا وسقطت من نسخة الفاروقي، وضبطها الخفاجي في «حاشيته» براء مهملة في آخرها؛ أي: (الخِبْر) من خبر الأرض: إذا زرعها.

(٤) هي رواية قالون عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩). في نسخة الخيالي: «قرأ قالون وابن ذكوان».

(٥) ذكرها أبو علي الفارسي في «الحجة للقراء السبعة» (٥/ ٢٠٩) فقال: وذكر غير أحمد بن موسى (وهو ابن مجاهد صاحب كتاب «السبعة» أن الأعشى روى عن أبي بكر عن عاصم: (وريئاً) مثل: وريعاً.

وقُرِئَ: (ورِيًا) بحذفِ الهَمزَةِ(١).

و: (زِيًّا) مِن الزِّيِّ(٢) وهو الجمعُ، فإنَّه محاسنُ مَجموعةٌ.

ثمَّ بيَّنَ أنَّ تَمتيعَهُم استدراجٌ وليسَ بإكرامٍ ـ وإنَّما العيارُ على الفضلِ والنَّقصِ ما يكونُ في الآخرةِ ـ بقولِه:

(٧٥) ـ ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾: فيُمِدُّهُ ويُمهِلُهُ بطولِ العمرِ والتَّمتُّعِ به، وإنَّما أخرجَهُ على لفظِ الأمرِ إيذانًا بأنَّ إمهالَهُ ممَّا يَنبَغِي أن يفعلَهُ استِدراجًا وقطعًا لِمَعاذيرِه؛ كقولِه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وكقولِه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ غايةُ المدِّ، وقيل: غايةُ قولِ الذين كَفَرُوا للَّذين آمَنُوا: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ... حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾.

﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيلٌ للمَوعودِ فإنَّه: إمَّا العذابُ في الدُّنيا وهو غَلَبَةُ المُسلمينَ علَيْهِم وتَعذيبهُم إيَّاهُم قتلًا وأَسْرًا، وإمَّا يومَ القيامةِ وما ينالُهُم فيه مِن الخزيِ والنَّكالِ.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مِن الفَريقينِ بأَنْ عايَنُوا الأمرَ على عكسِ ما قدَّروهُ، وعادَ ما مُتِّعُوا به خذلانًا ووبالًا عليهِمْ، وهو جوابُ الشَّرطِ، والجملةُ مَحكِيَّةٌ بعدَ (حتى).

﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾؛ أي: فئةً وأَنصارًا، قابلَ به ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مِن حيثُ إنَّ حُسنَ النَّادي باجتماعِ وُجوهِ القَومِ وأَعيانهم وظُهورِ شَوكَتِهم واستِظهارِهِم.

---

(١) بالقصر والتخفيف عن طلحة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٢) نسبت لسعيد بن جبير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٧٦) ـ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ عَطفٌ على الشَّرطيَّةِ المَحكيَّةِ بعدَ القولِ؛ كأنَّه لَمَّا بيَّنَ أنَّ إمهالَ الكافرِ وتمتيعَهُ بالحياةِ الدُّنيا ليسَ لفَضلِه، أرادَ أَنْ يُبيِّنَ أَنَّ قُصورَ حَظِّ المُؤمنِ مِنْها ليسَ لنَقصِه، بَلْ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرادَ بِهِ ما هو خيرٌ وعوَّضَهُ مِنه.

وقيل: عطفٌ على ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ لأنَّه في مَعنى الخبرِ؛ كأنَّه قيل: مَن كانَ في الضَّلالةِ يزيدُ اللهُ في ضَلالِه ويزيدُ المقابلَ لَهُ هِدايةً.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: الطَّاعاتُ التي تبقى عائدَتُها أبدَ الآبادِ، ويدخُلُ فيها ما قيلَ مِن الصَّلواتِ الخَمسِ، وقولِ: سُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ ولَا إلهَ إلَّا اللهُ واللهُ أكبرُ[١].

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾: عائدةً ممَّا مُتِّعَ بهِ الكَفَرةُ مِن النِّعَمِ المخدَجةِ[٢] الفانيَةِ التي يَفتخرونَ بها، سِيَّمَا ومآلُها[٣] النَّعيمُ المُقيمُ ومآلُ هذه الحسرَةُ والعَذابُ الدَّائمُ كما أشارَ إليه بقولِه:

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ والخيرُ هاهنا: إمَّا لِمُجرَّدِ الزِّيادَةِ، أو على طَريقَةِ قَولِهِم: (الصَّيفُ أَحَرُّ مِن الشِّتاءِ)؛ أي: أبلَغُ في حَرِّهِ مِنه في بَردِه.

(٧٧) ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ نزلَتْ في العاصِ بنِ وائلٍ، كانَ لخَبَّابِ بنِ الأرتِّ عليهِ مالٌ فتَقاضاهُ، فقالَ له: لا، حتَّى تَكفُرَ بمُحمَّدٍ، قال: لا واللهِ لا أَكفرُ بمُحمَّدٍ حَيًّا ولا ميتًا ولا حينَ تُبعَثُ، قال: فإني إذا متُّ بُعِثْتُ؟ قال: نعم، قال: فإذا بُعِثْت جِئتَنِي فيكونُ لي ثَمَّ مالٌ ووَلَدٌ فأُعطيكَ[٤].

---

(١) تقدم الكلام على الباقيات الصالحات في (سورة الكهف).

(٢) أي: النَّاقصة.

(٣) في نسخة الفاروقي: «ومآلهما» وفي الهامش كالمثبت نسخة.

(٤) رواه البخاري (٢٤٢٥)، ومسلم (٢٧٩٥)، من حديث خباب رضي الله عنه.

ولَمَّا كانَتِ الرُّؤيَةُ أقوى سَندِ الإخبارِ استعملَ (أرأيت) بمعنى الإخبارِ، والفاءُ على أصلِها، والمعنى: أَخبِرْ بقِصَّةِ هذا الكافرِ عقيبَ حَديثِ أُولئك.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿وُلْدًا﴾[1] وهو جمعُ وَلدٍ كأُسْدٍ في أَسَدٍ، أو لغةٌ فيه كالعُرْبِ والعَرَبِ.

(٧٨) ـ ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾: أَقَدْ بلغَ من عِظَمِ شَأنِه إلى أَنِ ارتَقى إلى علمِ الغَيبِ الذي توحَّدَ به الواحدُ القَهَّارُ حتَّى ادَّعى أَنْ يؤتَى في الآخرةِ مالًا وولدًا وتَأَلَّى عليه ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: أَو اتَّخذَ مِن عالِمِ الغُيوبِ عهدًا بذلك، فإنَّه لا يتوصَّلُ إلى العلمِ به إلا بأحدِ هذينِ الطَّريقينِ.

وقيل: العَهدُ كلمَةُ الشَّهادةِ والعملُ الصَّالحِ، فإنَّ وعْدَ اللهِ بالثَّوابِ عليهِمَا كالعَهدِ عليه.

(٧٩) ـ ﴿كَلَّا﴾: رَدعٌ وتَنبيهٌ على أَنَّه مُخطِئٌ فيما تَصوَّرَه لنَفسِه ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾: سنُظهِرُ له أَنَّا كَتَبْنَا قولَه، على طريقَةِ قولِه:

إِذَا مَا انْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَةٌ[2]

أي: تَبيَّنَ أَنِّي لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَةٌ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٢)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).

(٢) أورده الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٦١)، والطبري في «التفسير» (٢/ ٥٧)، ولم ينسباه، ونسبه البغدادي في «شرح أبيات المغني» (١/ ١٢٥) لزائد بن صعصعة الفقعسي، وعجزه:

ولم تَجِدي من أن تُقِرِّي به بدّا

«لم تلدني» جواب «إذا»، وهو ليس في معنى الاستقبال؛ لأن الولادة كانت قبلُ. يقول: إذا انتسبتُ علمتِ يا فلانةُ أني لست بابن لئيمة، وظهر لك ما تضطرين به إلى الإقرار بذلك. قال: «لم تلدني لئيمةٌ»؛ لأن الأم إذا كانت من الكرام فالأب أولى. قاله الطيبي.

أو: سَنَنْتَقِمُ مِنه انتقامَ مَن كتبَ جريمةَ العَدُوِّ وحَفِظَها عليه، فإنَّ نفسَ الكِتْبَةِ[١] لا تتأخَّرُ عَن القَولِ لقولِه تَعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾: ونطوِّلُ لَه مِن العَذابِ ما يَستأهِلُه، أو نزيدُ عَذابَه ونُضاعَفُ له لكُفرِهِ وافترِائِه واستهزائِه على اللهِ، ولذلك أكَّدَه بالمَصدَرِ دلالةً على فَرْطِ غَضبِه عليه.

(٨٠) ـ ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموتِه ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني: المالَ والولدَ ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يومَ القِيامةِ ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحَبُه مالٌ ولا ولدٌ كانَ له في الدُّنيا فَضْلًا أَنْ يُؤتَى ثَمَّ زائدًا.

وقيل: ﴿فَرْدًا﴾: رافِضًا لهذا القولِ مُنفرِدًا عنه.

(٨١) ـ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾: ليَتعزَّزُوا بهم حيثُ يَكونُونَ لَهُم وُصلَةً إلى اللهِ تعالى وشُفعاءَ عِندَه.

(٨٢) ـ ﴿كَلَّا﴾ رَدعٌ وإنكارٌ لتَعزُّزِهم بها ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾: ستجحدُ الآلهةُ عِبادَتَهُم ويَقولون: ما عَبَدْتُمونا، كقولِه تَعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦] أو سَيُنْكِرُ الكفرَةُ لسوءِ العاقبَةِ أَنَّهُم عَبَدُوها كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يُؤَيِّدُ الأوَّلَ إذا فُسِّرَ[٢] الضِّدُّ بضِدِّ العزِّ؛ أي: ويَكونونَ

---

(١) بكسرِ الكاف: الكتابة.

(٢) في نسخة الفاروقي: «إلا إذا فسر»، وعليها شرح الشهاب في «الحاشية»، وينظر كلامه ثمة، والمثبت من باقي النسخ، وهو الأقرب، وعليه شرح ابن التمجيد في «الحاشية» (١٢/ ٢٩٠) فقال: قوله: «يُؤَيِّدُ الأوَّلَ إذا فُسِّرَ الضِّدُّ بضِدِّ العزِّ» فيكون المعنى: وتكون الآلهة ذلًّا لعابديها، وجه التأييد: أن هذا المعنى لا يناسب الثاني؛ لأنه لا معنى لأن يقال: ويكون الكفرة ذلًّا لآلهتهم؛ لأن الذل بمعنى إيصال الهوان وإلحاق العار لا يتصور في الجماد. =

عليهم ذلًّا، أو بضِدِّهِم على مَعنى: أنَّها تكونُ معونةً في عَذابِهم بأنْ تُوقَدَ بها نِيرانُهُم، أو جُعِلَ الواوُ للكفرةِ؛ أي: يكونونَ كافرينَ بِهِم بعدَ أَنْ كانُوا يَعبدونَها، وتَوحيدُه لوحدةِ المعنى الذي بِهِ مُضادَّتُهم، فإنَّهُم بذلك كالشَّيءِ الواحدِ، ونَظيرُهُ قولُه عليهِ السَّلامُ: «وهُمْ يَدٌ على مَن سِواهُم»(١).

وقُرِئَ: (كَلًّا) بالتَّنوينِ(٢) على قلبِ الأَلِفِ نونًا في الوقفِ قلبَ ألفِ الإطلاقِ في قولِه:

أَقِلِّي اللَّومَ عَاذِلُ وَالعِتَابَنْ(٣)

= قلت: ويؤيد هذا كلام الآلوسي في تفسير الآية: ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ على الأول ـ على ما قيل ـ: تكون الآلهة التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزًّا ضدًّا للعز؛ أي: ذلا وهوانا.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٧٩٧)، وأبو داود (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢٦٨٥)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، بلفظ: «المسلمون تَتكافأ دِمَاؤُهُم: يَسعَى بذمَّتهم أدناهم، ويُجيرُ عليهم أقْصاهُم، وهم يَدٌ...».
ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٩٥٩)، وأبو داود (٤٥٣٠)، والنسائي (٤٧٣٥)، ولفظه: «المؤمِنونَ تتكافأُ دِماؤُهُم، وهم يد...». والنسائي (٤٧٣٥)، من حديث علي رضي الله عنه.
ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٥٩٩٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ورواه أيضاً ابن ماجه (٢٦٨٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، و(٢٦٨٤) من حديث معقل بن يسار.

(٢) نسبت لأبي نهيك. انظر: «المحتسب» (٢/ ٤٥)، ويوهم صنيع المؤلف أنها بضم الكاف، حيث أتبعها المشهورة التي بضم الكاف ولم يضبط الكاف فيها. والصواب أنها بفتح الكاف لما سيأتي في تفسيرها من قوله: «أو على مَعنى: كَلَّ هذا الرَّأيُ كَلًّا»، وبه صرح في «الكشاف» (٥/ ٣١١) فقال: وفي «مُحْتَسَب» ابن جِنِّي: (كَلًّا) بفتح الكافِ والتنوين، وزعم أنَّ مَعناه: كَلَّ هذا الرأيُ والاعتِقادُ كَلًّا.

(٣) صدر بيت لجرير من قصيدة يهجو فيها الراعي النميري، وهو في «ديوانه» (٢/ ٨١٣)، و«الكتاب» (٤/ ٢٠٥)، و«النوادر» لأبي زيد (ص: ٣٨٧)، و«المقتضب» (١/ ٢٤٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٢١٨)، وعجزه:

وقولي إن أصبت لقد أصابا

أو على مَعنى: كَلَّ هذا الرَّأيُ كَلًّا.

و: (كُلًّا)[1] على إضمارِ فعلٍ يُفسِّرُه ما بعدَهُ؛ أي: سيَجحدونَ كُلًّا سيكفرونَ بعِبادَتِهم.

(٨٣) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بأَنْ سَلَّطْناهُم عَلَيهِم، أو قَيَّضْنَا لَهُم قُرَناءَ ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: تَهُزُّهم وتُغْريهِم على المعاصي بالتَّسويلاتِ وتَحبيبِ الشَّهواتِ، والمرادُ: تَعجيبُ رَسولِ اللهِ ﷺ مِن أَقاويلِ الكفرةِ وتمادِيهِم في الغَيِّ وتَصميمِهِم على الكفرِ بعدَ وُضوحِ الحقِّ على ما نطقَتْ به الآياتُ المُتقدِّمَةُ.

(٨٤) ـ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأَنْ يَهْلِكُوا حتى تستريحَ أنتَ والمؤمنونَ مِن شُرورِهِمْ، وتطهرَ الأرضُ مِن فَسادِهِم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ أيامَ آجالِهِم ﴿عَدًّا﴾ والمعنى: لا تَعجَلْ بهَلاكِهِم فإنَّه لم يبق لَهُم إلا أيامٌ مَحصورةٌ وأَنفاسٌ مَعدودةٌ.

(٨٥) ـ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: نَجمَعُهُم ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: إلى رَبِّهِم الذي غَمَرَهُم برَحمَتِه.

ولاختيارِ هذا الاسمِ في هذه السُّورةِ شأنٌ، ولعلَّهُ لأنَّ مَساقَ الكلامِ فيها لتعدادِ نِعَمِه الجسامِ وشرحِ حالِ الشَّاكرينَ لها والكافرينَ بها.

﴿وَفْدًا﴾: وافدينَ عليهِ كما يَفِدُ[2] الوُفَّادُ على الملوكِ مُنتظرينَ لكَرامَتِهِم وإنعامِهِم.

(٨٦) ـ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تُساقُ البَهائِمُ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾: عِطاشًا، فإنَّ مَن يَرِدُ الماءَ لا يَرِدُه إلا لِعَطَشٍ، أو كالدَّوابِّ التي تَرِدُ الماءَ.

---

(١) نسبت لأبي نهيك. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩)، و«الكشاف» (٥/ ٣١١).

(٢) في نسخة التفتازاني: «يقدم».

(٨٧) ـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ الضَّميرُ فيه للعبادِ المدلولِ عليه بذكرِ القِسمينِ وهو النَّاصبُ لليومِ.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: إلَّا مَن تَحلَّى بما يَستَعِدُّ به ويَستَأهِلُ أنَّ يشفعَ للعُصاةِ مِن الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ على ما وعدَ اللهُ.

أو: إلَّا مَن اتَّخذَ مِن اللهِ إذنًا فيها؛ كقولِه: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ١٠٩] مِن قَولِهِم: عَهِدَ الأَميرُ إلى فُلانٍ بكَذَا: إذَا أَمَرَهُ بهِ.

وَمَحلُّهُ الرَّفعُ على البَدلِ مِن الضَّميرِ، أو النَّصبُ على تَقديرِ مُضافٍ؛ أي: إلا شَفاعةَ مَن اتَّخذَ، أو على الاستثناءِ.

وقيل: الضَّميرُ للمُجرمينَ، والمعنى: لا يَملِكُونَ الشَّفاعةَ فيهِم إلَّا مَن اتَّخذَ عندَ الرَّحمنِ عَهْدًا يَستَعِدُّ بهِ أن يشفعَ له بالإسلامِ.

(٨٨) ـ ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ الضَّميرُ يَحتَمِلُ الوَجهينِ؛ لأنَّ هذا لَمَّا كانَ مَقُولًا فيما بينَ النَّاسِ جازَ أَنْ يُنسبَ إليهِم.

(٨٩) ـ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ على الالتفاتِ للمُبالغَةِ في الذَّمِّ، والتَّسجيلِ عَلَيهِم بالجَراءةِ عَلى اللهِ، والإِدُّ بالفَتحِ والكَسرِ: العَظيمُ المُنكَرُ، والإِدَّةُ: الشِّدَّةُ، وأَدَّنِي الأَمرُ وآدَنِي: أثقَلَنِي وعَظُمَ عَلَيَّ.

(٩٠) ـ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقرأَ نافِعٌ والكِسائيُّ بالياءِ[1] ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾: يَتشقَّقْنَ مَرَّةً بعدَ أُخرى.

وقرأَ أبو عَمرٍو وابنُ عامرٍ وحمزَةُ وأبو بكرٍ ويَعقوبُ: ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾[2]، والأوَّلُ أبلَغُ لأنَّ التَّفَعُّلَ مُطاوِعُ فَعَّلَ والانفِعالَ مُطاوِعُ فَعَلَ، ولأنَّ أصلَ التَّفعُّلِ للتَّكلُّفِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٢ ـ ٤١٣)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٢ ـ ٤١٣)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).

﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾: تُهَدُّ هَدًّا، أو: مَهدودةً، أو: لأنَّها تُهَدُّ[1]؛ أي: تُكسَرُ، وهو تقريرٌ لكونِه إدًّا.

والمعنى: أنَّ هولَ هذه الكلمةِ وعِظَمَها بحيثُ لو تُصوِّرَ بصُورَةٍ مَحسوسَةٍ لم تَتحمَّلْهَا هذه الأجرامُ العِظامُ وتَفتَّتَتْ مِن شِدَّتِها، أو أنَّ فَظاعَتَها مُجلِبَةٌ لغَضبِ اللهِ بحيثُ لولا حِلمُهُ لخَرَّبَ العالمَ وبدَّدَ قوائِمَهُ غضبًا على مَن تَفوَّهَ بها.

(٩١) ـ ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ يحتمِلُ النَّصبَ على العِلَّةِ لـ﴿تَكَادُ﴾ أو لـ﴿هَدًّا﴾ على حَذفِ اللامِ وإفضاءِ الفعلِ إليه، والجَرَّ بإضمارِ اللامِ أو بالإبدالِ مِن الهاءِ في ﴿مِنْهُ﴾، والرَّفعَ على أنَّه خبرُ مَحذوفٍ تقديرُهُ: الموجبُ لذلك أَنْ دَعَوْا، أو فاعلُ ﴿هَدًّا﴾؛ أي: هَدَّها دعاءُ الوَلدِ للرَّحمنِ.

وهو مِن (دعا) بمعنى سمَّى المُتعدِّي إلى مَفعُولَيْنِ، وإنَّما اقتصرَ على المفعولِ الثَّاني ليُحيطَ بكلِّ ما دُعِي له وَلدًا، أو مِن (دعا) بمعنى: نَسَبَ، الذي مُطاوعُه: ادَّعَى إلى فلانٍ: إذا انتسبَ إليه.

(٩٢ ـ ٩٣) ـ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾: ولا يليقُ به اتِّخاذُ الولدِ، ولا يَنطلِبُ[2] له لو طُلبَ مثلًا لأنَّه مُستحيلٌ، ولعلَّ تَرتيبَ الحكمِ بصِفَةِ الرَّحمانيَّةِ للإشعارِ بأنَّ كلَّ ما عداه نِعمَةٌ ومُنعَمٌ عليهِ، فلا يجانسُ مَن هو مبدَأُ النِّعَمِ كُلِّها ومُوْلي أُصولِها وفُروعِهَا، فكيفَ يُمكِنُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلدًا؟

ثمَّ صَرَّحَ به في قولِه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ما مِنْهُم ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾: إلَّا وهُوَ مملوكٌ له يَأوِي إليه بالعُبوديَّةِ والانقيادِ.

---

(١) قوله: «أو لأنها تهد»؛ أي: على أن ﴿هَدًّا﴾ مفعولٌ له.

(٢) انفعال من الطَّلب؛ أي: لا يحصل.

وقُرِئَ: (آتِ الرَّحمنَ) على الأصلِ[١].

(٩٤) ـ ﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾: حَصَرَهُم وأحاطَ بهم بحيثُ لا يخرجونَ عَن حَوْزَةِ علمِهِ وقَبضَةِ قُدرَتِه.

﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾: عَدَّ أَشخاصَهُم وأَنْفاسَهُم وأَفْعالَهُم فإنَّ كلَّ شيءٍ عندَه بمِقدارٍ.

(٩٥) ـ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾: مُنفرِدًا عن الأتباعِ والأنصارِ، فلا يُجانِسُه شيءٌ مِن ذلك ليتَّخِذَه ولدًا ولا يناسبهُ ليشركَ به.

(٩٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ سيُحدِثُ لَهُم في القُلوبِ مَوَدَّةً مِن غَيرِ تَعرُّضٍ مِنْهُم لأَسبابِها، وعن النبيِّ ﷺ: «إذا أحبَّ اللهُ عَبْدًا يقولُ لجبريلَ: أحبَبْتُ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فيُحِبُّهُ جِبريلُ، ثمَّ يُنادِي في أهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أَهلُ السَّماءِ، ثمَّ تُوضَعُ له المَحبَّةُ في الأرضِ»[٢].

والسِّينُ إما لأنَّ السُّورةَ مَكِّيَّةٌ وكانوا مَمقوتينَ حينئذٍ بينَ الكفرَةِ فوعَدَه ذلك إذا دجا[٣] الإِسلامُ، أو لأنَّ الموعودَ في القيامَةِ حينَ تُعْرَضُ حَسناتُهُم على رُؤوسِ الأَشهادِ فيُنزَعُ ما في صُدورِهِم مِن الغلِّ.

(٩٧) ـ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ﴾: بأَنْ أَنْزَلناهُ بلُغَتِكَ، والباءُ بمَعنى (على)، أو على أَصلِهِ لتَضمُّنِ (يَسَّرْنَا) مَعنى (أنزلنا)؛ أي: أنزلناهُ بلُغَتِك.

---

(١) نسبت لابن مسعود ويعقوب وأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أي: عمَّ وكثر.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: الصَّائرينَ[١] إلى[٢] التَّقوَى ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾: أشدَّاءَ الخُصومةِ آخذينَ في كُلِّ لَديدٍ؛ أي: كلِّ شقٍّ مِن المراءِ والجدالِ لِفرطِ لَجاجِهم، فبَشِّرْ بهِ وأَنْذِرْ.

(٩٨) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تَخويفٌ للكَفرَةِ وتَجسيرٌ للرَّسولِ عليهِ السَّلامُ على إنذارِهِم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾: هل تشعرُ بأَحدٍ مِنْهُم وتَراه ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ وقُرِئَ: (تُسْمَعُ)[٣] مِن أُسْمِعْتَ.

والرِّكزُ: الصَّوتُ الخَفِيُّ، وأَصلُ التَّركيبِ هو الخفاءُ، ومِنهُ: رَكَزَ الرُّمْحَ: إذا غَيَّبَ طَرْفَهُ في الأرضِ، والرِّكَازُ: المالُ المَدفونُ.

عَن رَسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرَأَ سُورةَ مَريمَ أُعطِيَ عشرَ حَسَناتٍ بعَددِ مَن كذَّبَ زَكريَّا وصَدَّقَ بهِ ويحيى ومَريمَ وعِيسى وسائرَ الأنبياءِ المذكورينَ فيها، وبعَددِ مَن دعَا اللهَ في الدُّنيا ومَن لَمْ يَدْعُ اللهَ»[٤].

***

---

(١) أي: الراجعين.

(٢) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «الصابرين على».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨) عن حنظلة.

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٢٠٥) من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» (٢/ ٨٢٠)، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١٩) سورة مريم مكية وآياتها ثمان وتسعون

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة، أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿ذكر رحمت ربك﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا، وزكريا يمد ويقصر، قراءتان مشهورتان، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي صحيح البخاري، أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة، وقوله ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، حكاه الماوردي، وقال الآخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾: إن الله يعلم القلب التقيّ، ويسمع الصوت الخفيّ، وقال بعض السلف: قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب يا رب يا رب، فقال الله له: لبيك لبيك لبيك ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾أي ضعفت وخارت القوى﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ أي اضطرم المشيب في السواد. والمراد من هذا الإخبارُ عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة، وقوله: ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك، وقوله: ﴿وإني خفت الموالي من ورائي﴾، قال مجاهد وقتادة والسدي: أراد بالموالي العصبة، ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحي إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه

دونهم هذا وجه. (**الثاني**) أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء ، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا. (**الثالث**) أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: « لا نورث، ما تركناه صدقة » . وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: « نحن معشر الأنبياء لا نورث ». وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿ ويرث من آل يعقوب﴾ كقوله: ﴿وورث سليمان داود﴾ أي في النبوة . إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: « نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة »، قال مجاهد: كان وراثته علماً وقال الحسن: يرث نبوته وعلمه، وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب، وعن أبي صالح في قوله﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ قال: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره. وقوله: ﴿ واجعله رب رضياً﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه .

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ ﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له: ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾، كما قال تعالى: ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾، وقوله: ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً﴾. قال قتادة: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم(١) ، وقال مجاهد: ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أي شبيهاً، أخذه من معنى قوله: ﴿ هل تعلم له سمياً﴾ ؟ أي شبيهاً، وقال ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها ، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما، ولهذا قال: ﴿ أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾ مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ ﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبشر بالولد ففرح فرحاً شديداً وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها(٢) ، ومع أنه

---

(١) واختار هذا القول ابن جرير رحمه الله .

(٢) ذكر السهيلي: أن امرأته اسمها (إيشاع بنت قافوذ) ، وهي أخت حنة بنت قافوذ، قاله الطبري، وحنة هي أم مريم . وقال العتبي : امرأة زكريا هي (إيشاع بنت عمران)، فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى على الحقيقة، وعلى القول=

قد كبر وعتا، أي عسا عظمه، ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عتا، وقال مجاهد: ﴿ عتياً ﴾ يعني قحول العظم، وقال ابن عباس وغيره، عتياً يعني الكبر، والظاهر أنه أخص من الكبر، ﴿ قال ﴾ أي الملَك مجيباً لزكريا عما استعجب منه ﴿ كذلك قال ربك هو عليَّ هين ﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، ﴿ هين ﴾ أي يسير سهل على الله، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾.

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى « قال أو لم تؤمن ؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾، ﴿ قال آيتك ﴾ أي علامتك ﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ أي أن يُحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي، من غير مرض ولا علة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة. قال زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبّح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة، وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ ثلاث ليال سوياً ﴾ أي متتابعات[1] وقال مالك، عن زيد ابن أسلم: ﴿ ثلاث ليال سوياً ﴾ من غير خرس، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿ إلا رمزاً ﴾ أي إشارة، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي أشار، إشارة خفية سريعة ﴿ أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، شكراً لله على ما أولاه. قال مجاهد ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي أشار[2]. وقال مجاهد: أي كتب لهم في الأرض.

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب وهو (التوراة) التي كانوا يتدارسونها بينهم، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره وبما أنعم

= الأول يكون ابن خالة أمه، وفي حديث الإسراء قال عليه السلام: « فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى »، وهذا شاهد للقول الأول.

(١) القول الأول عن ابن عباس وعن الجمهور أصح كما في آل عمران ﴿ قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً، واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار ﴾.

(٢) وهذا القول أرجح، وبه قال وهب وقتادة.

به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث. قال عبد الله بن المبارك، قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للّعب خلقنا. وقوله: ﴿وحناناً من لدنا﴾ قال ابن عباس: يقول ورحمة من عندنا. وزاد قتادة: رحم الله بها زكريا، وقال مجاهد: ﴿وحناناً من لدنا﴾ وتعطفاً من ربه عليه، وقال عكرمة: محبة عليه، وقال عطاء بن أبي رباح: تعظيماً من لدنا، والظاهر من السياق أن قوله ﴿وحناناً﴾ معطوف على قوله ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي وآتيناه الحكم وحناناً، وزكاة أي وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، وفي المسند للإمام أحمد، عن أنَس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يبقى رجل في النار ينادي ألف سنة يا حنان يا منان». وقد يثنى كما قال طرفة:

أبا منـذر أفنيتَ فاستبق بعضَنا حنانيك بعضُ الشر أهون من بعض

وقوله تعالى ﴿وزكاة﴾ معطوف على ﴿وحنانا﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة الزكاة: العمل الصالح، وقال الضحّاك: العمل الصالح الزكي، وقال ابن عباس ﴿وزكاة﴾ قال: بركة ﴿وكان تقياً﴾ طاهراً فلم يذنب، وقوله﴿وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة، وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً، ولهذا قال: ﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾، ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[1]، وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا، فقال له عيسى استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني سلمتُ على نفسي وسلّم الله عليك، فعرف والله فضلهما.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً، مباركاً،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: وفي إسناده ضعف.

عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿ واذكر في الكتاب مريم﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة، أي تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك[1] ﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسناً﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات، المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبيِّ بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء كما تقدم بيانه في سورة آل عمران، فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي اعتزلتهم، وتنحت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس، عن ابن عباس، قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك ﴿ فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً فصلوا قبل مطلع الشمس[2]. وعنه قال: إني لأعلم خلق الله لأيِّ شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة، لقول الله تعالى: ﴿ فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة، وقال قتادة: ﴿ مكاناً شرقياً﴾ شاسعاً متنحياً، وقوله ﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ أي استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي على صورة إنسان تام كامل.

قال مجاهد والضحّاك ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾: يعني جبرائيل عليه السلام، وهذا هو ظاهر القرآن، قال تعالى: ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾، ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله، قال أبو وائل: قد علمت أن التقي ذو نهية، حين قالت: ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك﴾ أي فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها، لست مما تظنين، ولكني رسول ربك أي بعثني الله إليك ﴿ لأهب لك غلاماً زكياً﴾، ﴿ قالت أنى يكون لي غلام﴾ أي فتعجبت مريم من هذا، وقالت كيف

---

(١) ذكر السهيلي: أن القرآن لم يذكر امرأة باسمها إلا (مريم ابنة عمران) فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعاً، لحكمة ذكرها بعض الأشياخ، وذكر أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأ ولا يبتذلون أسماءهن، بل يكنون عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال، ولم يصونوا أسماء الإماء عن الذكر، فصرح الله باسم مريم لما قالت النصارى في مريم تأكيداً لعبوديتها، وإجراء الكلام على عادة العرب من ذكر إمائها، وتكرر ذكر عيسى منسوباً إلى أمه لتشعر القلوب بنفي أبوة الله وبنزاهة أمه الطاهرة عن مقالة اليهود.

(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وهذه هي العلة في توجه النصارى جهة المشرق.

يكون لي غلام، أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور. ولهذا قالت: ﴿ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغياً﴾ والبغي هي الزانية، ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هيّن﴾ أي فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت، إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم ﴿ورحمة منا﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله، نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته. قال ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال، قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني وإذا كنت مع الناس، سبّح في بطني وكبّر، وقوله: ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾، وقال: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا﴾، قال محمد بن إسحاق ﴿وكان أمراً مقضياً﴾: أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره ولم يحك غيره، والله أعلم.

* ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم، انها لما قال لها جبريل ما قال، استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف، أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد، بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعاً، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا، وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم، فقامت إليها فاعتنقتها وقالت: أشعرت يا مريم أني حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أني حبلى، وذكرت لها شأنها، وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، قال مالك رحمه الله: بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام، لأن الله جعله يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص[1].

ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر، وقال عكرمة: ثمانية أشهر، وقال ابن جريج، عن ابن عباس، وسئل عن حمل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت[2]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) قال ابن كثير: هذا القول عن ابن عباس غريب، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى: ﴿فحملته فانتبذت به مكان قصياً﴾ =

والمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن. ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرَّض لها في القول، فقال: يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عليَّ، قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حبّ؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه، أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر، فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر، وهل يكون ولد من غير أب، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم، فصدقها، وسلم لها حالها، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي قاصياً منهم بعيداً عنهم لئلا تراهم ولا يروها. قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم، وتغير اللون، حتى فطر لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا وشاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: إنما صاحبها يوسف، ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه.

وقوله تعالى: ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾ أي فاضطرها وألجأها إلى جذع النخلة، في المكان الذي تنحت إليه. وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس، وقال وهب ابن منبه: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، في قرية يقال لها بيت لحم، وهذا هو المشهور، الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا يشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت ﴿يا ليتني متُّ قبل هذا﴾ أي قبل هذا الحمل ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً قاله ابن عباس، وقال قتادة ﴿وكنت نسياً منسياً﴾: أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر، ولا يدري الناس من أنا. وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت إلا عند الفتنة عند قوله: ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

= فأجاءها المخاض﴾ فالفاء للتعقيب ولكن تعقيب كل شيء بحسبه.

اختلف المفسرون في المراد بذلك من هو ؟ فقال ابن عباس: ﴿ فناداها من تحتها﴾ جبريل[1] ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت بـه قومها، أي ناداها من أسفل الوادي، وقال مجاهد ﴿ فناداها من تحتها﴾ قال: عيسى بن مريم، وقال الحسن: هو ابنها[2] . قال: أو لم تسمع الله يقول ﴿ فأشارت إليه﴾، وقوله ﴿ أن لا تحزني﴾ أي ناداها قائلاً لا تحزني ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً﴾، عن البراء بن عازب، وعن ابن عباس: السري النهر، وقال الضحّاك: هو النهر الصغير بالسريانية، وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز، وقال السدي: هو النهر، واختار هذا القول ابن جرير، وقال آخرون: المراد بالسري عيسى عليه السلام[3] . والقول الأول أظهر، ولهذا قال بعده : ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة﴾ أي وخذي إليك بجذع النخلة، قيل: كانت يابسة قاله ابن عباس، وقيل: مثمرة، والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه: ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال: ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴿ فكلي واشربي وقري عيناً﴾ أي طيبي نفساً، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى: ﴿ فإما ترين من البشر أحداً﴾ أي مهما رأيت من أحد، ﴿ فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾، المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد بـه القول اللفظي، لئلا ينافي ﴿ فلن أكلم اليوم إنسياً﴾، قال أنَس بن مالك في قوله ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً﴾ قال: صمتاً، وكذا قال ابن عباس والضحّاك، وفي رواية عن أنَس: صوماً وصمتاً، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام. روى ابن إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال: ما شأنك ؟ قال أصحابه: حلف أن لا يكلم النـاس اليوم. فقال عبدالله بن مسعود: كلم الناس وسلم عليهم، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها، أنها حملت من غير زوج، يعني بذلك مريم عليها السلام، ليكون عذراً لها إذا سئلت[4] . وقال عبدالرحمن بن زيد : لمـا قال عيسى لمريم ﴿ لا تحزني﴾ قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند النـاس ؟ ﴿ يا ليتني مت قبل هـذا وكنت نسياً منسياً﴾ .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

(١) وهو قول الضحاك والسدي وقتادة وسعيد بن جبير

(٢) وهو رواية سعيد بن جبير واختاره ابن جرير .

(٣) وبه قال الحسن والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد ، وهو ضعيف والقول الأول أظهر كما قال ابن كثير .

(٤) رواه ابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن جرير .

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وأن لا تكلم أحـداً من البشر، فإنها ستكفى أمرها ويقـام بحجتها، فسلمت لأمر الله عزّ وجلّ واستسلمت لقضائه؛ فأخذت ولدهـا فأتت بـه قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرهـا واستنكروه جداً، وقالوا ﴿ يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ أي أمراً عظيماً، ﴿ يا أخت هرون﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة، ﴿ ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال السدي: قيل لها ﴿ يا أخت هرون﴾ أي أخي موسى وكانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر، وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون[1]، فكانت تقاس بـه في الزهادة والعبادة. وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم. كما قال الإمام أحمد، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرأون ﴿ يا أخت هرون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»[2].

وقال ابن جرير، عن قتادة قوله ﴿ يا أخت هرون﴾ الآية قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد، ومن النـاس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون بـه، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر، قال وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل. وقوله: ﴿ فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي أنهم لمـا استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لهـا ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها هذا صائمة صامتة، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بهـا ظانين أنهـا تزدري بهم وتلعب بهم ﴿ كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾؟ قال السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هـذا الصبي أشد علينا من زناها ﴿ قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي من هو موجود في مهده في حـال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ ﴿ قال: إني عبد الله﴾ أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه، وقوله: ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ تبرئـة لأمّه مما نسبت إليه من الفاحشة، قال نوف البكالي: لما قالوا لأمه ما قالوا كان يرتضع ثديه، فنزع الثدي من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر وقال: ﴿ إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً - إلى قوله - ما دمت حياً﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وجعلني مباركاً أينما كنت﴾، قال مجاهد: وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عنه: نفاعاً، وقوله: ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾. وقوله: ﴿ وبراً بوالدتي﴾ أي وأمرني ببر والدتي، ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾، وقوله: ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً﴾

---

(١) قال السهيلي: هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تشبه به في اجتهادها، ليس بهارون أخي موسى بن عمران، فإن بينهما من الدهر الطويل والقرون الماضية والأمم الخالية ما قد عرفه الناس.

(٢) وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

أي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك، قال سفيان الثوري: الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب، وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿ وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾. وقوله: ﴿ والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ إثبات منه لعبوديته لله عزّ وجلّ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ أي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن بـه وكفر بـه، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة، فقال: ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه ﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾، أي إذا أراد شيئاً فإنما يأمر بـه، فيصير كما يشاء كما قال: ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾، وقوله: ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أي ومما أمر بـه عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته فقال ﴿ فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أي هذا الذي جئتكم بـه عن الله صراط مستقيم أي قويم من اتبعـه رشد وهدي ومن خالفـه ضل وغوى، وقوله: ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهـم ﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طـائفة منهم وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله، على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر، وقالت طائفة أخرى: إنمـا تكلم الله، وقال آخرون: بل هو ابن الله، وقال آخرون: ثالث ثلاثة، وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقـد روي نحو هذا عن ابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم. أن (قسطنطين) جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفـة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلفوا في عيسى بن مريم عليه السلام اختلافاً متبايناً جداً، فقالت كل شرذمة فيه قولاً، ولم يجتمع على مقـالة واحدة أكثر من ثلثمائة وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه فمال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة بل هي الخيـانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرفوا دين المسيح وغيروه، فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها، بلاد الشام والجزيرة والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة، وقوله: ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ تهديد

ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى، وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجّلهم حلماً فإنه الذي لا يعجّل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم» وقد قال تعالى: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾، ولهذا قال ههنا ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ أي يوم القيامة. وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: ﴿أسمع بهم وأبصر﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يوم يأتوننا﴾ يعني يوم القيامة، ﴿لكن الظالمون اليوم﴾ أي في الدنيا ﴿في ضلال مبين﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ أي أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿إذ قضي الأمر﴾: أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿وهم﴾ أي اليوم ﴿في غفلة﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿وهم لا يؤمنون﴾ أي: لا يصدقون به. عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال، فيشرئبون وينظرون ويقولون، نعم هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال، فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال، فيؤمر به فيذبح، قال، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾، وأشار بيده ثم قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا»[1].

وقال السُّدي، عن ابن مسعود في قوله ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أتي بالموت في صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين، ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادي مناد: يا أهل النار هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشهق

(١) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري واللفظ له وأخرجه الشيخان عن ابن عمر ولفظهما قريب من ذلك.

أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا، فذلك قوله تعالى ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾: يقول إذا ذبح الموت[1]. وقال ابن عباس: ﴿يوم الحسرة﴾ من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذره عباده، وقال عبدالرحمن بن زيد، في قوله ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ قال يوم القيامة، وقرأ: ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾، وقوله: ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة .

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم﴾ أي اتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، خبر إبراهيم خليل الرحمن، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً، ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ يقول: وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك، لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه ولا جاءك ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ أي طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب، ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به كما قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين﴾، وقوله ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه ﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾: أي على شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿فتكون للشيطان ولياً﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم﴾ .

۞ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره .

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه إنه قال: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾؟ يعني إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لأرجمنك﴾، قاله ابن عباس[1]، وقوله: ﴿واهجرني ملياً﴾ قال مجاهد: يعني دهراً، وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً، وقال السدي ﴿واهجرني ملياً﴾ قال: أبداً. وقال ابن عباس ﴿واهجرني ملياً﴾ قال: سوياً سالماً، قبل أن تصيبك مني عقوبة[2]، فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾، كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾، ومعنى قول إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة ﴿سأستغفر لك ربي﴾، ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إنه كان بي حفياً﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أي في أن هداني لعبادته. وقال قتادة ومجاهد ﴿إنه كان بي حفياً﴾ قالا: عوده الإجابة، وقال السدي: الحفي الذي يهتم بأمره، وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في قوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾، وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله - إلى قوله - إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ الآية، يعني إلا في هذا القول فلا تتأسوا به، ثم بيَّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه أن إبراهيم لأواه حليم﴾، وقوله: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي﴾ أي أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وأدعو ربي﴾ أي وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ويعقوب نافلة﴾، وقال: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وكلا جعلنا

(١) وقاله أيضاً السدي وابن جريج والضحّاك وغيرهم.

(٢) وكذا قال الضحّاك وقتادة وأبو مالك، واختاره ابن جرير.

نبياً﴾ فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبئ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف. فإنه نبي أيضاً . وقوله: ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾، قال ابن عباس: يعني الثناء الحسن، وقال ابن جرير: إنما قال ﴿علياً﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم فقال: ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً﴾ بكسر اللام من الإخلاص في العبادة، وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إني اصطفيتك على الناس﴾، ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار، أولي العزم الخمسة، وهم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وقوله: ﴿وناديناه من جانب الطور﴾ أي الجانب ﴿الأيمن﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، فرآها تلوح فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غربيه عند شاطئ الوادي، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه. روى ابن جرير، عن ابن عباس ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: أدني حتى سمع صريف القلم. وقال السدي ﴿وقربناه نجياً﴾ قال: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه، وروى ابن أبي حاتم، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء قال: يا موسى إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً، وقوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾، وقال: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى﴾، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾، قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب نبوته له[1]

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جريج لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها، ووفاها حقها. وقال ابن جرير، عن سهل بن عقيل، إن (إسماعيل) النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه،

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم .

فجاء ونسي الرجل فظل بـه إسماعيل، وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا ؟ قال: لا، قال: إني نسيت، قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني، فلذلك ﴿ كان صادق الوعد﴾ ، وقد روى أبو داود في سننه، عن عبدالله بن أبي الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له عليَّ بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، قال فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك، فقال لي: « يا فتى لقد شققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك »، وقال بعضهم: إنما قيل له ﴿ صادق الوعد﴾ لأنه قال لأبيه ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ فصدق في ذلك، فصدقُ الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾، وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان »[1] ، ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب فقال: « حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي »

وقوله تعالى : ﴿ وكان رسولاً نبياً﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه، وقوله: ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾، هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة، حيث كان صابراً على طاعة ربه عزّ وجلّ، آمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ الآية. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء »[2]. وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات »[3]

۞ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه، بأنه كان صدِّيقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مرَّ به في ليله الإسراء وهو في السماء الرابعة. وعن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً فكان لا يغرز إبرة إلا قال سبحان الله، فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه ، وقال مجاهد في قوله ﴿ ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى. وقال سفيان، عن مجاهد ﴿ ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: السماء الرابعة، وقال الحسن وغيره في قوله ﴿ ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال: الجنة .

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجة .

(٣) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة واللفظ له .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨﴾

يقول تعالى: هؤلاء النبيون، وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس، ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم﴾ الآية. قال السدي وابن جرير رحمه الله: فالذي عنى بـه من ذرية آدم (إدريس)، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح (إبراهيم)، والذي عنى بـه من ذرية إبراهيم (إسحاق ويعقوب وإسماعيل) ، والذي عنى بـه من ذرية إسرائيل (موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم)، قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس، فإنه جد نوح، (**قلت**) : هـذا هو الأظهر، أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام، وقد قيل إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذاً من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولم يقل والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام، وفي صحيح البخاري عن مجاهد: «أنه سأل ابن عباس أفي ﴿ص﴾ سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فنبيكم ممن أمر أن يقتدي بهم، قـال وهو منهم يعني داود. وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي جمع باك فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم. قال سفيان الثوري قرأ عمر بن الخطاب رضي عنه سورة مريم فسجد «وقال هذا السجود، فأين البكي؟ يريـد البكاء»(١)

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره، ذكر أنه ﴿خلف من بعدهم خلف﴾ أي قرون أخر، ﴿أضاعوا الصلاة﴾، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بهـا، فهؤلاء سيلقون غياً، أي خساراً يوم القيامة، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا، فقال قائلون المراد بإضاعتها تركها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي والسدي واختاره ابن جرير، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو مشهور عن الإمـام أحمد، إلى تكفير تارك الصلاة للحديث: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»(٢)، والحديث الآخر: «العهد الذي

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) الحديث: أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بلفظ «بين الرجل وبين الشرك والكفر ...».

بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر »، وليس هذا محل بسط هذه المسألة. وقال الأوزاعي: إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً. وقيل لابن مسعود: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، و ﴿على صلاتهم دائمون﴾، و ﴿ على صلاتهم يحافظون﴾، فقال ابن مسعود: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال: ذلك الكفر، وقال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة ؛ وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن، وقال الأوزاعي: قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت، وقال مجاهد: ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحي أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض في الأزقة. وقال ابن جرير، عن مجاهد ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ قال: هم في هذه الأمة، يتراكبون تراكب الأنعام والحمر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون من الناس في الأرض. وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عزّ وجلّ: شرّابين للقهوات، ترّاكين للصلوات، لعّابين بالكعبات، رقّادين عن العتمات، مفرطين في الغدوات، تراكين للجماعات، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾، وقال الحسن البصري: عطّلوا المساجد ولزموا الضيعات. وقال أبو الأشهب: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي، وقوله: ﴿فسوف يلقون غياً﴾، قال ابن عباس: أي خسراناً، وقال قتادة شراً، وقال عبدالله بن مسعود ﴿ فسوف يلقون غياً﴾ قال: وادٍ في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم. وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله ﴿ فسوف يلقون غياً﴾ قال: وادٍ في جهنم من قيح ودم. وقوله ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾ ذلك لأنَّ التوبة تجبُّ ما قبلها. وفي الحديث الآخر «التائب من الذنب كمن لا ذنب له »[1] ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدراً وترك نسياً، وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم، وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق - إلى قوله - وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

۞ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون هي ﴿ جنات عدن﴾ أي إقامة ﴿ التي وعد الرحمن عباده﴾ بظهر الغيب، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿ إنه كان

(١) أخرجه ابن ماجة عن ابن مسعود والحكيم الترمذي عن أبي سعيد الخدري .

وعده مأتياً﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله ﴿ كان وعده مفعولاً﴾ أي كائناً لا محالة، وقوله ههنا ﴿ مأتياً﴾ أي العباد صائرون إليه وسيأتونه، ومنهم من قال ﴿ مأتياً﴾ بمعنى آتياً، لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت عليَّ خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد، وقوله: ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾، أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا، وقوله ﴿إلا سلاماً﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً﴾، وقوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبّحون الله بكرة وعشياً»⁽¹⁾. وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً»⁽²⁾. وقال الضحّاك عن ابن عباس ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ قال: مقادير الليل والنهار. وقال ابن جرير، عن الوليد بن أسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ قال: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب. ويعرفون مقدار النهار، برفع الحجب وبفتح الأبواب. وقال قتادة: فيها ساعتان بكرة وعشي، ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشي، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا. وقوله: ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عزّ وجلّ في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾.

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال، فنزلت: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾⁽³⁾. وقال العوفي عن ابن عباس: احتبس جبرائيل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأتاه جبرائيل وقال: يا محمد ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ الآية. وقوله: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾، قيل: المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا، وما خلفنا أمر الآخرة ﴿وما بين ذلك﴾ ما بين النفختين، وهذا قول عكرمة ومجاهد والسدي، وقيل ﴿ما بين أيدينا﴾: ما يستقبل من أمر الآخرة، ﴿وما خلفنا﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ورواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند. (٣) أخرجه البخاري في باب التفسير ورواه الإمام أحمد.

أي ما مضى من الدنيا، ﴿وما بين ذلك﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة، واختاره ابن جرير، والله أعلم. وقوله: ﴿وما كان ربك نسياً﴾، قال مجاهد والسدي: معناه ما نسيك ربك، وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله: ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾، وعن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما كان ربك نسياً﴾[1]. وقوله: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، ﴿فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾ قال ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً[2]. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

يخبر تعالى عن الإنسان، أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾، وقال: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾، وقال ههنا: ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾، يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده؟ وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من آخره، وأما أذاه إياي فقوله: إن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[3]، وقوله: ﴿فوربك لنحشرهم والشياطين﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة، أنه لا بدّ أن يحشرهم جميعاً، وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾، قال ابن عباس: يعني قعوداً كقوله: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ وقال السدي في قوله ﴿جثياً﴾ يعني قياماً، وروي عن ابن مسعود مثله. وقوله: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ يعني من كل أمة قاله مجاهد، ﴿أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ قال الثوري عن ابن مسعود قال: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾، وقال قتادة: ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر، وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف، وهذا كقوله تعالى، ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم

---

(١) رواه ابن أبي حاتم. (٢) وهو قول مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾، وقوله: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾، المراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب كما قال في الآية المتقدمة: ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

روى الإمام أحمد، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا في الورود، فقال: يردونها جميعاً، وأهوى بأصبعه إلى أذنيه، وقال: صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً». وعن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى، فبكت امرأته، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال إني ذكرت قول الله عزّ وجلّ ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا، وكان مريضاً[1]. وقال ابن جرير عن ابي إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها، وعن الحسن البصري قال، قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك، قال: فما رئي ضاحكاً حتى لحق بالله، وقال عبد الرزاق خاصم ابن عباس نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود الدخول، فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم، أنتم لها واردون﴾ وردوا أم لا؟ وقال: ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ أوردهم أم لا؟ أمّا أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، فضحك نافع. وقال: عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق. فقال له: يا ابن عباس، أرأيت قول الله: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾، قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا؟

وعن عبد الله بن مسعود ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم»[2]. وقد رواه أسباط عن السدي، عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجُل، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط، والصراط دحض مزلة، عليه حسك كحسك القتاد، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس[3]، وقال ابن جرير، عن عبد الله قوله

---

(١) أخرجه عبد الرزاق.

(٢) رواه أحمد والترمذي.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون اللهم سلم سلم، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما. عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة، قالت كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال: «لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية»، قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ الآية، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم» يعني الورود. وقال قتادة قوله: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ هو الممر عليها. وقال عبد الرحمن بن زيد: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها، وورود المشركين أن يدخلوها، والزالون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم» وقال السدي، عن ابن مسعود في قوله ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ قال: قسماً واجباً، وقال مجاهد: حتماً، قال قضاء، وقوله ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار، والعصاة، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم، وهي مواضع السجود، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ أي أحسن منازل، وأرفع دوراً، وأحسن ندياً، وهو مجتمع الرجال للحديث، أي ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل؟ كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾، وقال قوم نوح، ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) وقال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين)؟ ولهذا قال تعالى، راداً عليهم شبهتهم: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾: أي وكم من أمة وقرن من المكذبين، قد أهلكناهم بكفرهم ﴿هم أحسن أثاثاً ورئياً﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً. قال ابن عباس ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئي: المنظر، وهو كما قال الله تعالى ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ فالمقام المسكن والنعيم، والندي: المجلس، والمجمع، الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ والعرب تسمي المجلس النادي، وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة وفيهم

قشافة، فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾، ومنهم من قال في الأثاث هو المال، ومنهم من قال الثياب، ومنهم من قال المتاع، والرئي المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصري يعني الصوَر، وكذا قال مالك ﴿أثاثاً ورئياً﴾ أكثر أموالاً وأحسن صوراً، والكل متقارب صحيح.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم، المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل ﴿من كان في الضلالة﴾ أي منا ومنكم ﴿فليمدد له الرحمن مداً﴾ أي فليمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقى ربه وينقضي أجله، ﴿إما العذاب﴾ يصيبه، ﴿وإما الساعة﴾ بغتة تأتيه، ﴿فسيعلمون﴾ حينئذ ﴿من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي، قال مجاهد في قوله: ﴿فليمدد له الرحمن مداً﴾ فليدعه الله في طغيانه، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه، وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ الآيتين. وقوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ قد تقدم تفسيرها في سورة الكهف ﴿خير عند ربك ثواباً﴾ أي جزاء ﴿وخير مرداً﴾ أي عاقبة ومرداً على صاحبها. عن أبي سلمة بن عبدالرحمن، قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه، ثم قال: «إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال لأهللن الله ولأكبرن الله ولأسبحن الله، حتى إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون(١)

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

روى الإمام أحمد، عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على (العاص بن وائل) دين فأتيته أتقاضاه منه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ، حتى تموت ثم

(١) رواه عبد الرزاق وظاهره أنه مرسل ولكن وقع في سنن ابن ماجة عن أبي سلمة عن أبي الدرداء فذكره وهو حديث مرفوع.

تبعث، قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثمَّ مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً - إلى قوله - ويأتينا فرداً﴾[١]، وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه، فذكر الحديث وقال ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: موثقاً.

وروى عبدالرزاق، عن مسروق قال، قال خباب بن الأرت: كنت قيناً بمكة فكنت أعمل للعاص بن وائل، فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت لأتقاضاها، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد، قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ الآيات. وقال ابن عباس: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون (العاص بن وائل) بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى، قال: فإن موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالاً وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به فضرب الله مثله في القرآن فقال: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا - إلى قوله - ويأتينا فرداً﴾، وقوله: ﴿لأوتين مالاً وولداً﴾، قرأ بعضهم بفتح الواو من ﴿ولداً﴾ وقرأ آخرون بضمها وهو بمعناه، وقيل: إن الولد بالضم جمع، والولد بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أطلع الغيب﴾ إنكار على هذا القائل ﴿لأوتين مالاً وولداً﴾ يعني يوم القيامة، أي أعلم ماله في الآخرة، حتى تألى وحلف على ذلك ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق، وقال ابن عباس: ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها، وقال القرظي: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾، وقوله ﴿كلا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيد لما بعدها ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي من طلبه ذلك، وحكمه لنفسه بما يتمناه وكفره بالله العظيم، ﴿ونمد له من العذاب مداً﴾ أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا، ﴿ونرثه ما يقول﴾ أي من مال وولد، نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى في الدار الآخرة مالاً وولداً، زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتينا فرداً﴾ أي من المال والولد، قال مجاهد ﴿ونرثه ما يقول﴾: ماله وولده، وقال قتادة ﴿ونرثه ما يقول﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لأوتين مالاً وولداً﴾ ﴿ويأتينا فرداً﴾ لا مال له ولا ولد، وقال عبد الرحمن بن زيد ﴿ونرثه ما يقول﴾ قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها، ﴿ويأتينا فرداً﴾ قال: فرداً من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير.

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم، أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون لهم تلك الآلهة ﴿عزاً﴾ يعتزون بها ويستنصرونها، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا، فقال ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾: أي

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد عن خباب بن الأرت.

يوم القيامة ﴿ ويكونون عليهم ضداً﴾ أي بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾، وقال السدي ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾: أي بعبادة الأوثان، وقوله ﴿ ويكونون عليهم ضداً﴾ أي بخلاف ما رجوا منهم. وقال ابن عباس ﴿ ويكونون عليهم ضداً﴾ قال: أعواناً، قال مجاهد: عوناً عليهم تخاصمهم وتكذبهم، وقال قتادة: قرناء في النار، يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم ببعض، وقال الضحاك ﴿ ويكونون عليهم ضداً﴾ قال: أعداء. وقوله: ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً﴾ قال ابن عباس: تغويهم إغواء، وقال العوفي عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه، وقال مجاهد: تشليهم إشلاء، وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالاً، وقال السدي: تطغيهم طغياناً، وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾، وقوله: ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا﴾ أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿ إنما نعد لهم عدا﴾ أي إنما نؤخرهم لأجل معدود ومضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، كما قال تعالى: ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾، ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾، ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾، وقال السدي: ﴿ إنما نعد لهم عدا﴾ السنين والشهور والأيام والساعات، وقال ابن عباس: ﴿ إنما نعد لهم عدا﴾ قال: نعد أنفاسهم في الدنيا

يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله، وصدقوهم فيما أخبروهم وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما زجروهم أنه يحشرهم يوم القيامة، وفداً إليه، والوفد هم القادمون ركباناً ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿ ورداً﴾ عطاشاً[1]، وقال ابن أبي حاتم، عن ابن مرزوق ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عملك الصالح وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه، فطالما ركبتك في الدنيا، فهلم اركبني فيركبه، فذلك قوله: ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾[2]. قال ابن عباس: ركباناً. وقال أبو هريرة ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: على الإبل. وقال الثوري: على الإبل النوق، وقال قتادة ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: إلى الجنة، عن ابن النعمان بن سعيد قال: كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية ﴿ يوم

(١) قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال: لا والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة[١]

وقوله تعالى ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ أي عطاشاً، ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾، وقوله: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها. قال ابن عباس: العهد (شهادة إن لا إله إلا الله)، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عزّ وجلّ. وقال ابن أبي حاتم، عن الأسود بن يزيد، قال: قرأ عبدالله بن مسعود هذه الآية﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: من كان له عند الله عهد فليقم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن فعلمنا، قال قولوا: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا، أنك إن تكلني إلى عملي يقربني من الشر ويباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. قال المسعودي: وكان يلحق بهن: خائفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك.

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً فقال: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم﴾ أي في قولكم، هذا ﴿شيئاً إداً﴾، قال ابن عباس: أي عظيماً، وقوله: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن ادعو للرحمن ولداً﴾ أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجَرَة بني آدم إعظاماً للرب و إجلالاً، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وأنه لا إله إلا هو، قال ابن جرير، عن ابن عباس في قوله ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً﴾ قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة»، فقالوا: يا رسول الله فمن قالها في صحته؟ قال: «تلك أوجب وأوجب»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لو جيء بالسماوات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن»[٢]، وقال

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد: عليها رحائل من ذهب وأزمتها الزبرجد.

(٢) هكذا رواه ابن جرير ويشهد له حديث البطاقة والله أعلم.

الضحاك ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه﴾ أي يتشققن فرقـاً من عظمة الله. وقال عبدالرحمن بن زيد ﴿ وتنشق الأرض﴾ أي غضباً له عزّ وجلّ، ﴿ وتخر الجبال هداً﴾ قال ابن عباس: هدماً، وقال سعيد بن جبير هداً ينكسر بعضها على بعض متتابعات. عن عون بن عبدالله: قال إن الجبل لينادي الجبل باسمه: يا فلان هل مر بك اليوم ذكر الله عزّ وجلّ؟ فيقول: نعم ويستبشر، قال عون: لهي للخير أسمع، أفيسمعن الزور والبـاطل، إذا قيل ولا يسمعن غيره؟ ثم قرأ ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه﴾[1] الآية وعن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويُجعل له ولد، وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم»، أخرجاه في الصحيحين. وفي لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم». وقوله: ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾ أي لا يصلح له ولا يليق بـه لجلاله وعظمته، لأنه لا كفءَ له من خلقه، لأن جميع الخلائق عبيد له، ولهذا قال: ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً ۔ لقد أحصاهم وعدهم عداً﴾ أي قد علم عددهم، منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم، ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ أي لا ناصر ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم في خلقه بمـا يشاء، هو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ولا يظلم أحداً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

يخبر تعالى: أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه. فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه - قال - فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، قال فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل، فقال: يا جبريل إني أبغض فلاناً فابغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء، إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال، فيبغضه أهل السماء، ثم بوضع لـه البغضـاء في الأرض»[2] وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليلتمس مرضاة الله عزّ وجلّ، فلا يزال كذلك، فيقول الله عزّ وجلّ لجبريل إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني ألا وإن رحمتي عليه، فيقول جبريـل: رحمة الله على فلان، ويقولها حملة العرش ويقولها من حولهم، حتى يقولها أهل السماوات السبع، ثم يهبط إلى الأرض»[3] وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأحبه فينادي في السماء ثم ينزل له المحبـة في أهل الأرض، فذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿ إن الذين

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد، واللفظ لأحمد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾[1] ، وقال ابن عباس: ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ قال: حباً، وقال مجاهد عنه ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ قال: محبة في النـاس في الدنيا. وقال سعيد بن جبير: يحبهم ويحببهم يعني إلى خلقه المؤمنين، وقال العوفي، عن ابن عباس: الود من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن واللسان الصادق، وقال قتادة ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ إي والله في قلوب أهل الإيمان، وذكر لنـا أن هرم بن حيان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم، وقـال قتادة: وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول: ما من عبد يعمل خيراً أو شراً إلا كساه الله عزّ وجلّ رداء عمله.

وقوله تعالى: ﴿ فإنما يسرناه ﴾ يعني القرآن ﴿ بلسانك ﴾: أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيـح الكامل، ﴿ لتبشر بـه المتقين ﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿ وتنذر بـه قوماً لداً ﴾: أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل، وقـال مجاهد ﴿ قوماً لداً ﴾ لا يستقيمون، وقال الثوري، عن أبي صالح ﴿ وتنذر به قوماً لداً ﴾: عوجاً عن الحق. وقال الضحّاك: الألد الخصم، وقال القرظي: الألد الكذّاب، وقال الحسن البصري ﴿ قوماً لداً ﴾ صمـاً، وقـال غيره: صم آذان القلوب، وقال ابن عباس ﴿ قوماً لداً ﴾: فجاراً، وكذا روي عن مجاهد، وقـال ابن زيد: الألد الظلوم، وقرأ قوله تعالى: ﴿ وهو ألد الخصام ﴾، وقوله: ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾: أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾: أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً. قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة: يعني صوتاً، وقال الحسن وقتادة: هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً، والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي، قال الشاعر

فتوجست ركز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها

[آخر تفسير سورة مريم . ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲

(١) ورواه مسلم والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

تفسير سورة مريم [عليها السلام][1]

وهى مكية.

وقد روى محمد بن إسحاق فى السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود، فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه[2].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كهيعص ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة.

وقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أى: هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا.

وقرأ يحيى بن يعمر «ذَكَّرَ رحمة ربك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا».

[و][3] ﴿زَكَرِيَّا﴾: يمد ويقصر قراءتان مشهورتان. وكان نبياً عظيماً من أنبياء بنى إسرائيل. وفى صحيح البخارى: أنه كان نجارًا، أى: كان يأكل من عمل يديه فى النجارة.

وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾: قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لئلا ينسب فى طلب الولد إلى الرعونة لكبره. حكاه الماوردى.

وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله. كما قال قتادة فى هذه الآية ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾: إن الله يعلم القلب التقى[4]، ويسمع الصوت الخفى.

وقال بعض السلف: قام من الليل، عليه السلام، وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يارب، يارب، يارب فقال الله: لبيك، لبيك، لبيك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أى: ضعفت[5] وخارت القوى، ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أى:

---

(١) زيادة من ت، ف، أ.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أم سلمة (٥/ ٢٩٠) ومن حديث ابن مسعود (١/ ٤٦١).

(٣) زيادة من ت، ف.

(٤) فى ت: «النقى».

(٥) فى ت، ف: «ضعف».

اضطرم المشيب فى السواد، كما قال ابن دُرَيد فى مقصورته [(١)]:

إمَّا[(٢)] تَرَىْ رأسِى حَاكىَ لونُهُ   طُرَّةَ صُبْـحٍ تَحتَ أذْيَال الدُّجى
واشْتَعَلَ المُبْيَض فى مُسْوَدِّه   مِثْلَ اشتِعَال النَّارِ فى جَمرِ[(٣)] الغَضَا

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أى: ولم أعهد منك إلا الإجابة[(٤)] فى الدعاء، ولم تردنى قط فيما سألتك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾: قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من ﴿الْمَوَالِى﴾ على أنه مفعول، وعن الكسائى أنه سكن الياء، كما قال الشاعر:

كَأَنَّ أيْديهنّ فى القَاع الفَرِقْ   أيدى جَوَارٍ يَتَعَاطَيْنَ الوَرِقْ[(٥)]

وقال الآخر:

فَتَى لو يُبَارى الشَّمسَ ألْقَتْ قِنَاعَها   أو القَمَرَ السَّارى لألْقَى المَقَالدَا

ومنه قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى:

تَغَايَر الشّعْرُ فيه[(٦)] إذ سَهِرت لَهُ   حَتَّى ظَنَنْتُ قَوافيه ستَقتتل[(٧)]

وقال مجاهد، وقتادة، والسدى: أراد بالموالى العصبة. وقال أبو صالح: الكلالة.

وروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى اللَّه عنه، أنه كان يقرؤها: «وإنى خَفَّت الموالى من ورائى» بتشديد «الفاء» بمعنى: قلت عصباتى[(٨)] من بعدى.

وعلى القراءة الأولى، وجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا [من][(٩)] بعده فى الناس تصرفاً سيئاً، فسأل اللَّه ولداً، يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب فى ذلك، لا أنه خشى من وراثتهم له ماله، فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلي ما هذا حده[(١٠)] أن يأنف[(١١)] من وراثة عصباته[(١٢)] له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز[(١٣)] ميراثه دونه دونهم. **هذا وجه.**

الثانى: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب[(١٤)] يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم كانوا أزهد شىء فى الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت فى الصحيحين من غير وجه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا نُورَث، ما

---

(١) انظر: شرح مقصورة ابن دريد (ص ٢) . ا. هـ. مستفاداً من حاشية ط ـ الشعب.
(٢) فى أ: «ما». (٣) فى ت، ف، أ: «جزل». (٤) فى أ: «إجابة».
(٥) الرجز فى اللسان مادة (فرق) غير منسوب.
(٦) فى ت: «منه».
(٧) البيت فى ديوان أبى تمام (٢٢٧) أ. هـ. مستفادًا من حاشية ط ـ الشعب.
(٨) فى أ: «عصابتى». (٩) زيادة من ت، ف. (١٠) فى أ: «حسده».
(١١) فى أ: «يأتنف». (١٢) فى أ: «عصابته». (١٣) فى ف، أ: «ليجوز».
(١٤) فى أ: «من عمل».

تركنا فهو صدقة»[١]. وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»[٢]. وعلى[٣] هذا فتعين حمل قوله: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي ﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل: ١٦] أى: فى النبوة ؛ إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته[٤] ما صح فى الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة».

قال مجاهد فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [قال][٥]: كان وراثته علماً وكان زكريا من ذرية يعقوب .

وقال هشيم: أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد، عن أبى صالح فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ قال: [قد][٦] يكون نبياً كما كانت آباؤه أنبياء.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن: يرث نبوته وعلمه.

وقال السُّدِّى: يرث نبوتى ونبوة آل يعقوب.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: نبوتهم.

وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون، كلاهما عن إسماعيل بن أبى خالد، عن أبى صالح فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ قال: يرث مالى، ويرث من آل يعقوب النبوة.

وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا[٧] معمر، عن قتادة: أن رسول الله[٨] ﷺ قال: «يرحم اللَّه زكريا، وما كان عليه من ورثة، ويرحم اللَّه لوطاً، إن كان ليأوى إلى ركن شديد»[٩].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك ـ هو[١٠] ابن فضالة ـ عن الحسن قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «رحم اللَّه أخى زكريا، ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾»[١١].

---

(١) جاء من حديث عائشة، وأبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وطلحة، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام أما حديث عائشة فرواه البخارى: (٦٧٣٠) ومسلم برقم (١٧٥٨). وأما حديث أبو بكر فرواه البخارى برقم (٣٧/١) ومسلم برقم (١٧٥٩). وأما حديث عمر بن الخطاب وعثمان وطلحة والزبير، فرواه البخارى برقم (٣٠٩٤، ٦٧٢٨، ٧٣٠٥) ومسلم برقم (١٧٥٧).

(٢) لم أجده فى سنن الترمذى المطبوع بهذا اللفظ. وانظر كلام الحافظ ابن حجر عن هذه الرواية والوجوه التى تحمل عليها فى الفتح (٨/١٢).

(٣) فى ف: «فعلى». (٤) فى أ: «ونبينه». (٥) زيادة من ف.

(٦) زيادة من ف، أ. (٧) فى ت: «حدثنا». (٨) فى ف، أ: «أن النبى».

(٩) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٥) وقد وصل طرفه الثانى: «يرحم الله لوطًا لقد كان يأوى إلى ركن شديد».

الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٠) من طريق الزهرى عن سعيد وأبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(١٠) فى ف: «وهو».

(١١) تفسير الطبرى (٣٧/١٦).

وهذه مرسلات لاتعارض الصحاح، والله أعلم .

وقوله: ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أى مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ⑦ ﴾ .

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل فى دعائه فقيل[له][1] : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمرن: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾: قال قتادة، وابن جريج، وابن زيد: أى لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير، رحمه الله.

وقال مجاهد: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى: شبيهاً.

أخذه من معنى قوله: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] أى: شبيهاً.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى لم تلد العواقر قبله مثله.

وهذا دليل على أن زكريا، عليه السلام، كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة، عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق على كبرهما[2] لا لعقرهما[3] ؛ ولهذا قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله[4]، إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑧ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑨ ﴾ .

هذا تعجب من زكريا، عليه السلام، حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذى يأتيه منه الولد، مع أن امرأته [كانت][5] عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أى عسا عظمه ونحل[6] ولم يبق فيه لقاح ولاجماع.

تقول العرب للعود إذا يبس: «عَتَا يَعْتو عِتيا وعُتُوا، وعَسَا يَعْسو عُسوا وعِسيا».

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى أ: «لكبرهما». (٣) فى أ: «لا لعقرها».
(٤) فى ت، أ: «أنه قد كان ولد له قبل»، وفى ف: «أنه كان ولد له قبل». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى أ: «وقحل».

وقال مجاهد: ﴿عِتِيًّا﴾ بمعنى: نحول [١] العظم.

وقال ابن عباس وغيره. ﴿عِتِيًّا﴾ يعنى: الكبر.

والظاهر أنه أخص من الكبر.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حُصَيْن، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: لقد علمت السنة كلها، غير أنى لا أدرى أكان رسول الله ﷺ يقرأ فى الظهر والعصر أم لا؟ ولا أدرى كيف كان يقرأ هذا الحرف: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أو ﴿عسياً﴾.

ورواه الإمام أحمد عن سُرَيْج[٢] بن النعمان، وأبو داود، عن زياد بن أيوب، كلاهما عن هشيم، به.

﴿قَالَ﴾ أى الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها﴿هَيِّنٌ﴾ أى: يسير سهل على الله.

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن زكريا، عليه السلام، أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أى: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتنى، لتستقر نفسى ويطمئن قلبى بما وعدتنى كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ أى: علامتك ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أى: أن تحبس[٤] لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة[٥].

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، ووهب[بن منبه][٦]، والسدى وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أى: متتابعات.

والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح[٧]، كما قال تعالى فى [أول][٨] آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ

---

(١) فى أ: «يعنى قحول».

(٢) فى ف، أ: «شريح».

(٣) تفسير الطبرى (١٦/٣٩)، والمسند (١/٢٤٩) وسنن أبى دوذ برقم (٨٠٩).

(٤) فى ف: «تحتبس». (٥) فى أ: «وعلامة». (٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٧) فى ف، أ: «واضح». (٨) زيادة من أ.

اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ من غير خرس.

وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿إِلاَّ رَمْزًا ﴾ أي: إشارة؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ أي: الذي بشر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: أشار إشارة خفية سريعة: ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أي: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، وشكراً لله على ما أولاه.

قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: أشار. وبه قال وهب، وقتادة.

وقال مجاهد في رواية عنه: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أي: كتب لهم في الأرض. كذا قال السدي.

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾.

وهذا أيضاً تضمن[١] محذوفاً، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيى، عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار. وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ أي: تعلم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ ﴾ أي: بجد وحرص واجتهاد ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث [السن][٢].

قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما للعب خلقت[٣]، قال: فلهذا أنزل الله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمة من عندنا. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك وزاد: لايقدر عليها غيرنا. وزاد قتادة: رُحِم بها زكريا.

وقال مجاهد: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: وتعطفاً من ربه عليه.

وقال عكرمة: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [قال: محبة عليه. وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة. وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾][٤]، قال: تعظيماً من لدنا[٥].

---

(١) في أ: «يضمن». (٢) زيادة من أ. (٣) في ف،أ: «خلقنا».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) في أ: «الدنيا».

وقال ابن جريج: أخبرنى عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة عن ابن عباس قال: لا واللَّه ما أدرى[١] ما حناناً .

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور: سألت سعيد بن جبير عن قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، فقال: سألت عنها عباس، فلم يحر[٢] فيها شيئاً .

والظاهر من هذا السياق أن: ﴿وَحَنَانًا [مِّن لَّدُنَّا][٣] ﴾معطوف على قوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: وآتيناه الحكم وحناناً، ﴿وَزَكَاةً﴾ أى: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة فى شفقة وميل كما تقول العرب: حنّت الناقة على ولدها، وحنت المرأة على زوجها. ومنه سميت المرأة «حَنَّة» من الحَنَّة، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر[٤]:

تَحَنَّنْ[٥] عَلَى هَدَاكَ المليكُ ... فإنَّ لِكُل مَقام مَقَالا

وفى المسند للإمام أحمد، عن أنس، رضى اللَّه عنه، أن[٦] رسول اللَّه ﷺ قال: «يبقى رجل فى النار ينادى ألف سنة: ياحنان يامنان»[٧].

وقد يُثَنَّى[٨] ،ومنهم من يجعل ما ورد من [٩]ذلك لغة بذاتها، كما قال طرفة :

أَنَا مُنْذر أفنيتَ فاستْبق بَعْضَنَا ... حَنَانَيكَ بَعْض الشَّر أهْونُ مِنْ بَعْض[١٠]

وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على﴿وَحَنَانًا ﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب.

وقال قتادة: الزكاة[١١] العمل الصالح.

وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكى .

وقال العوفيين ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً﴾ [قال: بركة][١٢] ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا﴾: طهر، فلم يعمل بذنب.

وقوله: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾: لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته[١٣] عقوقهما، قولاً وفعلاً [وأمراً][١٤] ونهياً؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ . ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أى: له الأمان فى هذه الثلاثة الأحوال.

وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن: يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم. ويوم يبعث، فيرى نفسه فى محشر عظيم. قال: فأكرم اللَّه فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ

(١) فى ت، أ: «لا أدرى».
(٢) فى ف، أ: «يخبر».
(٣) زيادة من ف، أ.
(٤) هو الحطيئة، والبيت فى اللسان، مادة «حنن».
(٥) فى أ: «تعطف».
(٦) فى ت، ف، أ: «عن».
(٧) المسند (٣/ ٢٣٠).
(٨) فى أ: «يعنى».
(٩) فى أ: «فى».
(١٠) البيت فى ديوانه (ص ٢٠٨) أ.هـ مستفادًا من حاشية ط ـ الشعب.
(١١) فى ت: «والزكاة».
(١٢) زيادة من ف،أ.
(١٣) فى ف: «ومجانبة».
(١٤) زيادة من أ.

يُبْعَثُ حَيًّا ﴾. رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزى عن صدقة بن الفضل عنه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمر، عن قتادة ،فى قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال النبى ﷺ: « ما من أحد يلقى اللَّه يوم القيامة إلا ذا ذنب، إلا يحيى بن زكريا ». قال قتادة ما أذنب ولا همّ بامرأة ، مرسل[١].

وقال محمد بن إسحاق،عن يحيى بن سعيد،عن سعيد بن المسيب، حدثنى ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال[٢]: « كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا»[٣] ابن إسحاق هذا مدلس ،وقد عنعن هذا الحديث، فاللَّه أعلم .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا على بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ، أو همَّ بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغى لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[٤].

وهذا أيضاً ضعيف ؛لأن على بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة، واللَّه أعلم.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة: أن حسن قال: إن يحيى وعيسى، عليهما السلام، التقيا، فقال له عيسى: استغفر لى،أنت خير منى . فقال له الآخر:استغفر لى فأنت[٥] خير منى. فقال له عيسى: أنت خير منى، سَلَّمتُ على نفسى، وسلم اللَّه عليك، فَعرُف واللَّه فضلهما .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾ .

لما ذكر تعالى قصة زكريا، عليه السلام، وأنه أوجد منه، فى حال كبره وعقم زوجته، ولداً زكياً طاهراً مباركاً ـ عطف بذكر قصة مريم فى إيجاده ولدها عيسى، عليهما[٦] السلام، منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة[٧]؛ ولهذا ذكرهما فى آل عمران وههنا وفى سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما فى المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧).
(٢) فى ت: «أنه قال».
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٤) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٧٣) من طريق محمد بن إسحاق به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى، ورجح أبو حاتم وقفه، وقال لابنه: «لا يرفعون هذا الحديث».
(٤) المسند (١/ ٢٥٤).
(٥) فى أ: «أنت». (٦) فى ف، أ : «عليه». (٧) فى أ: «ومتشابهة».

قادر[١] ، فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهى مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب فى بنى إسرائيل. وقد ذكر اللَّه تعالى قصة ولادة أمّها لها فى« آل عمران»، وأنها نذرتها محررة، أى: تخدم[٢] مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت فى بنى إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت[٣] إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة[٤] والتبتل والدؤوب، وكانت فى كفالة زوج أختها ـ وقيل: خالتها ـ زكريا نبى بنى إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذى يرجعون إليه فى دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر[٥] الشتاء فى الصيف وثمر[٦] الصيف فى الشتاء، كما تقدم بيانه فى« آل عمران». فلما أراد اللَّه تعالى ـ وله الحكمة والحجة البالغة ـ أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام، ﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أى: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

قال السدى: لحيض أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كُدَيْنَة، عن قابوس بن أبي ظَبْيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿فَانتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً، فصلوا قبل مطلع الشمس. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا خالد بن عبد اللَّه، عن داود، عن عامر، عن ابن عباس قال: إنى لأعلم خلق اللَّه لأى شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة؛ لقول اللَّه تعالى[٧]: ﴿فَانتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واتخذوا[٨] ميلاد عيسى قبلة[٩].

وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: شاسعاً متنحياً .

وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها تستقى [من][١٠] الماء .

وقال نَوْف البِكَالِّى: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه. فاللَّه[١١] أعلم.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أى: استترت منهم وتوارت، فأرسل اللَّه تعالى إليها جبريل، عليه السلام، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أى: على صورة إنسان تام كامل.

قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن جُرَيْج[١٢]، ووهب بن مُنَبِّه، والسُّدِّى فى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعنى: جبريل، عليه السلام.

---

(١) فى ت، أ: «قدير».
(٢) فى أ: «لخدمة».
(٣) فى ت: «وكانت».
(٤) فى ت: «والعظمة».
(٥ ، ٦) فى أ: «ثمرة».
(٧) فى ت: «لقول الله عز وجل»، وفى ف: «لقوله».
(٨) فى أ: «فاتخذوا».
(٩) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٥).
(١٠) زيادة من ت، ف، أ.
(١١) فى ت: «والله».
(١٢) فى ت: «وابن جرير».

وهذا الذى قالوه هو ظاهر القرآن؛ فإنه تعالى قد قال فى الآية الأخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

وقال أبو جعفر الرازى[(١)]، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب قال: إن روح عيسى، عليه السلام، من جملة الأرواح التى أخذ عليها العهد فى زمان آدم، وهو الذى تمثل لها بشراً سوياً، أى: روح عيسى، فحملت الذى خاطبها وحل فى فيها.

وهذا فى غاية الغرابة والنكارة، وكأنه إسرائيلى.

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ أى: لما تَبدى لها الملك فى صورة بشر، وهى[(٢)] فى مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أى: إن كنت تخاف الله. تذكير[(٣)] له بالله، وهذا هو المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله، عز وجل .

قال ابن جرير: حدثنى أبو كُرَيْب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل ـ وذكر قصة مريم ـ فقال: قد علمت أن التقى ذو نُهْيَة حين قالت: ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً ما[(٤)] حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكنى رسول ربك، أى: بعثنى إليك ، ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقا[(٥)] وعاد إلى هيئته وقال :«إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكيا».

[هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهورى القراء. وقرأ الآخرون: ﴿ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾][(٦)] وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكل تستلزم[(٧)] الأخرى.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لى غلام؟ أى: على أى صفة يوجد هذا الغلام منى، ولست بذات زوج، ولايتصور منى الفجور؛ ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. والبغى: هى الزانية؛ ولهذا جاء فى الحديث نهى عن مهر البغى. ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا توجد[(٨)] منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر[(٩)]؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أى: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذى نوع[(١٠)] فى خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أى ونجعل[(١١)] هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة

---

(١) فى أ: «وقال أبو جعفر الرازى عن أبيه ».
(٢) فى ت، ف، أ: «وهو».
(٣) فى أ: «تذكر».
(٤) فى أ: «لما».
(٥) فى ف، أ: «فزعًا».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى أ: «يستلزم».
(٨) فى ت ،ف، أ: «ولا يوجد».
(٩) فى أ: «قدير».
(١٠) فى ت، ف، أ: «تنوع».
(١١) فى ت، ف، أ: «ويجعل».

اللَّه تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أي: يدعو إلى عبادة الله ربه فى مهده(١) وكهولته.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم ـ دُحَيْمُ ـ حدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفى، عن مجاهد قال: قالت مريم، عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثنى عيسى وكلمنى وهو فى بطنى، وإذا كنت مع الناس سبح فى بطنى وكبر.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم اللَّه تعالى وقدره ومشيئته. ويحتمل أن يكون من خبر اللَّه تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ فى فرجها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أى: أن اللَّه قد عزم على هذا، فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير فى تفسيره، ولم يحك غيره، واللَّه أعلم.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن اللَّه تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء اللَّه تعالى(٢). فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك ـ وهو جبريل عليه السلام ـ عند ذلك نفخ فى جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت فى الفرج، فحملت بالولد بإذن اللَّه تعالى. فلما حملت به ضاقت ذرعاً به(٣)، ولم تدر ماذا تقول(٤) للناس، فإنها تعلم أن الناس لايصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا. وذلك أن زكريا، عليه السلام، كان قد سأل اللَّه الولد، فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها، وقالت: أشعرت يامريم أني حبلى ؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أنى حبلى؟ وذكرت لها شأنها وماكان من خبرها وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت(٥) مريم تجد الذى فى جوفها(٦) يسجد للذى فى بطن مريم، أى: يعظمه ويخضع له، فإن السجود كان فى ملتهم عند السلام مشروعاً، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر اللَّه الملائكة أن تسجد(٧) لآدم، عليه السلام، ولكن حرم فى ملتنا هذه تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين قال: قرئ على الحارث بن مسكين وأنا أسمع، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال: قال مالك، رحمه اللَّه: بلغنى أن عيسى ابن مريم ويحيى بن

(١) فى ت، أ: «المهد». (٢) فى ت: «الله عز وجل». (٣) فى أ: «بهما».
(٤) فى ت: «يقول». (٥) فى أ: «وجهت». (٦) فى ف: «بطنها». (٧) فى ف، أ: «يسجدوا».

زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم: إنى أرى أن ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك . قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى، عليه السلام؛ لأن اللَّه جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص.

ثم اختلف المفسرون فى مدة حمل عيسى، عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر ـ قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر.

وقال ابن جُرَيْج: أخبرنى المغيرة بن عثمان[١] بن عبد اللَّه الثقفى، سمع ابن عباس وسئل عن حَبَل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت[٢].

وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب[٣] كل شىء بحسبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ [المؤمنون: ١٢ـ١٤]، فهذه الفاء للتعقيب بحسبها. وقد ثبت فى الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يوماً [٤]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] . فالمشهور الظاهر ـ واللَّه على كل شىء قدير ـ أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها وكان معها فى المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له: يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما[٥] يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمّل ما هى فيه، فجعل أمرها يجوس فى فكره، لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها فى القول، فقال: يا مريم، إنى سائلك عن أمر فلا تعجلى علىّ . قالت: وما هو ؟ قال: هل يكون قط شجر[٦] من غير حَب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم ـ فهمت[٧] ما أشار إليه ـ أما قولك: «هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟» فإن اللَّه قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب، ولا بذر «وهل خلق يكون من غير أب؟»[٨] ، فإن اللَّه قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدقها، وسلَّم لها حالها.

ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم، لئلا تراهم ولا يروها.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها[٩] ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والترحم وتغير اللون، حتى فَطَرَ لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث فى بنى إسرائيل، فقالوا: « إنما صاحبها يوسف»، ولم يكن معها فى الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا[١٠] يراها أحد ولا

(١) فى أ: «ابن عتبة». (٢) فى ت، أ: «وضعت». (٣) فى أ: «تعقب».
(٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وسيأتى عند تفسير الآية: ٥ من سورة الحج.
(٥) فى ف : «لما». (٦) فى ف: «شجر قط». (٧) فى أ: «وفهمت».
(٨) فى أ :« وهل يكون ولد من غير أب». (٩) فى أ:« قلبها»». (١٠) فى ف، أ: «فلم».

تراه.

وقوله: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [أي: فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة][(١)]. وهى نخلة فى المكان التى تنحت إليه.

وقد اختلفوا فيه، فقال السدى: كان شرقى محرابها الذى تصلى فيه من بيت المقدس.

وقال وهب بن مُنَبِّه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر، ضربها الطلق.

وفى رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، فى قرية هناك يقال لها: «بيت لحم».

قلت: وقد تقدم فى حديث[(٢)] الإسراء، من رواية النسائى عن أنس، رضى الله عنه، والبيهقى عن شَدَّاد بن أوس، رضى اللّه عنه: أن ذلك ببيت لحم. فاللّه أعلم، وهذا هو المشهور الذى تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس. وقد ورد به الحديث إن صح .

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾، فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة؛ فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها فى خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية ،فقالت :﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ أى: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى: لم أخلق ولم أك شيئاً. قاله ابن عباس.

وقال السدى: قالت وهى تطلق من الحبل ـ استحياء من الناس: يا ليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه، والحزن بولادتى المولود من غير بَعْل ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ نُسِىَ فتُرِك طلبه، كخِرَق الحيض التى إذا ألقيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر. وكذلك كل شىء نُسِى وترك فهو نَسِىّ.

وقال قتادة :﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى: شيئاً لا يعرف، ولا يذكر، ولايدرى من أنا.

وقال الربيع بن أنس: ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾: وهو[(٣)] السقط.

وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط.

وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهى عن تمنى الموت إلا عند الفتنة، عند قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) ﴾.

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ت، ف: «أحاديث». (٣) فى ف، أ: «أى».

قرأ بعضهم: ﴿ مَن تَحْتِهَا ﴾ بمعنى[1] : الذى تحتها. وقرأ آخرون. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على أنه حرف جر.

واختلف المفسرون فى المراد بذلك من هو؟ فقال العوفى وغيره، عن ابن عباس: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدى، وقتادة: إنه الملك جبريل، عليه الصلاة والسلام، أى: ناداها من أسفل الوادى.

وقال مجاهد: ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ قال: عيسى ابن مريم. وكذا قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها. وهو إحدى[2] الروايتين عن سعيد بن جبير: أنه ابنها، قال: أو لم[3] تسمع اللَّه يقول: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾؟ [مريم: ٢٩] واختاره ابن زيد، وابن جرير فى تفسيره[4].

وقوله: ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ أى: ناداها قائلاً: لا تحزنى، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال سفيان الثورى وشعبة، عن أبى إسحاق، عن البراء بن عازب: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ قال: الجدول. وكذا قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: السرىّ: النهر. وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب منه.

وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية .

وقال سعيد بن جُبَيْر: السرى: النهر الصغير بالنبطية.

وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية .

وقال إبراهيم النَّخَعِى: هو النهر الصغير.

وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز.

وقال وهب بن مُنَبِّه: السرى: هو ربيع الماء.

وقال السدى: هو النهر. واختار هذا القول ابن جرير. وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع، فقال الطبرانى:

حدثنا أبو شعيب الحَرَّانى: حدثنا يحيى بن عبد اللَّه البَابلُتِّى[5]، حدثنا أيوب بن نَهِيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول: سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « إن السرى الذى قال اللَّه لمريم : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: نهر أخرجه اللَّه لتشرب منه»[6]. وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلى[7] ،قال فيه أبو حاتم الرازى: ضعيف . وقال أبو زُرْعَة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدى: متروك الحديث.

---

(١) فى أ: «أى». (٢) فى ت: «أحد». (٣) فى ت، أ: «ولم».
(٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٢).
(٥) فى أ: «يحيى بن عبد النابلتى».
(٦) المعجم الكبير (١٢/ ٣٤٦).
(٧) فى، أ : «الحلبى».

وقال آخرون: المراد بالسرى: عيسى، عليه السلام. وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد ابن عَبَّاد بن جعفر. وهو إحدى الروايتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والقول الأول أظهر؛ ولهذا قال بعده: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أى: وخذى إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مثمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. وقال الثورى، عن أبى داود[١] نُفَيْع الأعمى: كانت صَرَفَانة[٢].

والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن فى إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه؛ ولهذا امتن عليها بذلك، أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أى: طيبى نفساً؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شىء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا شَيْبَان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمى[٣]، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى، عن عُرْوة بن رُوَيْم، عن على بن أبى طالب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم، عليه السلام، وليس من الشجر شىء[٤] يُلَقَّح غيرها ». وقال رسول اللَّه ﷺ: « أطعموا نساءكم الولْدَ الرطَبَ، فإن لم يكن رطب فتمر، وليس من الشجرة شجرة أكرم على اللَّه من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران».

هذا حديث منكر جداً، ورواه أبو يعلى، عن شيبان، به[٥].

وقرأ بعضهم قوله: ﴿ تُسَاقِطْ ﴾ بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها. وقرأ أبو نَهِيك: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، وروى أبو إسحاق عن البـراء: أنه قرأها: ﴿ تُسَاقِطْ ﴾[٦] أى: الجذع. والكل متقارب .

وقوله: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أى: مهما رأيت من أحد، ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾، المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك. لا أن[٧] المراد به القول اللفظى، لئلا ينافى: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾.

قال أنس بن مالك فى قوله: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أى: صمتاً[٨]. وكذا قال ابن عباس، والضحاك. وفى رواية عن أنس: «صوماً وصمتاً»، وكذا قال قتادة وغيرهما.

والمراد أنهم كانوا إذا صاموا فى شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدى،

---

(١) فى ت: «عن أبى الأسود». (٢) فى ف، أ: « صوفانة». (٣) فى ت: «التيمى».

(٤) فى ف: «وليس شىء من الشجر».

(٥) مسند أبى يعلى (١/ ٣٥٣) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٢٣) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤٣١) من طريق مسرور بن سعد التميمى به، وقد ذكر له ابن عدى ثلاث علل:

١ ـ تفرد به مسرور عن الأوزاعى فهو منكر.

٢ ـ أنه منقطع بين عروة بن رويم وعلى بن أبى طالب.

٣ ـ أن مسرور بن سعيد غير معروف. قلت: وضعفه ابن حبان والعقيلى.

(٦) فى أ: «يساقط». (٧) فى ت: «لأن». (٨) فى أ: «صوتًا».

وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال أبو إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف ألا يكلم الناس اليوم. فقال عبد اللَّه بن مسعود: كَلِّم الناس وسلم عليهم، فإنما تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج. يعنى بذلك مريم، عليها السلام، ليكون عذراً لها إذا سئلت. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير، رحمهما اللَّه.

وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾، قالت: وكيف لا أحزن وأنت معى؟! لا ذاتُ زوج ولا مملوكة، أى شيء عذرى عند الناس؟ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾، قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه. وكذا قال وهب.

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر، فإنها[(١)] ستكفى أمرها ويقام بحجتها[(٢)]، فسلمت لأمر اللَّه، عز وجل، واستسلمت لقضائه، وأخذت ولدها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾، فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا: ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى: أمراً عظيماً. قاله مجاهد، وقتادة، والسدى، وغير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد اللَّه بن أبى زياد، حدثنا سَيَّار[(٣)]، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن نوف البِكَالىّ قال: وخرج قومها فى طلبها، وكانت من أهل بيت نبوة وشرف. فلم يحسوا[(٤)] منها شيئاً، فرأوا[(٥)] راعى بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نَعْتُها؟ قال: لا، ولكن رأيت الليلة من بقرى ما لم أره منها قط. قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها[(٦)] سُجَّداً نحو هذ الوادى . قال عبد اللَّه بن أبى زياد: وأحفظ عن سيار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً. فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها، فجاؤوا حتى قاموا عليها، ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أمراً عظيماً. ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ أى: يا شبيهة هارون فى العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ أى: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح

---

(١) فى ف، أ: «فإنه». (٢) فى ف: «وتقام حجتها». (٣) فى ت: «سفيان»، وفى أ: «شيبان».
(٤) فى ت: «يحسبوا». (٥) فى أ: «فَلَقوا». (٦) فى ف، أ: «رأيتها الليلة».

والعبادة والزهادة[١] ، فكيف صدر هذا منك؟

قال على بن أبى طلحة[٢]، والسدى: قيل لها: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ أى: أخى موسى، وكانت من نسله[٣]، كما يقال للتميمى: يا أخا تميم، وللمضرى: يا أخا مضر.

وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس[٤] به فى العبادة، والزهادة.

وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم. يقال له: هارون. ورواه ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير.

وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبى حاتم.

حدثنا على بن الحسين الهِسْنْجَانى[٥] ،حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا المفضل بن فَضَالة، حدثنا أبو صخر، عن القُرَظى فى قول اللَّه عز وجل: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾، قال: هي أخت هارون لأبيه وأمه، وهى أخت موسى أخى هارون التى قَصَّت أثر موسى، ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

وهذا القول خطأ محض؛ فإن اللَّه تعالى قد ذكر فى كتابه أنه قفَّي بعيسى بعد الرسل، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثاً وليس بعده إلا محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه[٦]؛ ولهذا ثبت فى الصحيح عند البخارى، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، عن النبى[٧] ﷺ أنه قال: « أنا أولى الناس بابن مريم، إلا أنه[٨] ليس بينى وبينه نبى» ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظى، لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد. ولكان قبل سليمان و[٩] داود؛ فإن اللَّه قد ذكر أن داود بعد موسى، عليهما السلام، فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فذكر القصة إلى أن قال: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ الآية [البقرة:٢٥١]، والذى جرأ القرظى على هذه المقالة ما فى التوراة بعد خروج موسى وبنى إسرائيل من البحر، وإغراق فرعون وقومه، قال: وكانت مريم بنت عمران أخت موسى وهارون النبيين، تضرب بالدف هى والنساء معها يسبحن اللَّه ويشكرنه على ما أنعم به على بنى إسرائيل. فاعتقد القرظى أن هذه هى أم عيسى. وهى[١٠] هفوة وغلطة شديدة، بل هى باسم هذه، وقد كانوا يسمون بأسماء[١١] أنبيائهم وصالحيهم، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد اللَّه بن إدريس، سمعت أبي يذكره[١٢] عن سِمَاك، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة ابن شعبة قال: بعثنى رسول اللَّه ﷺ إلى نجران ،فقالوا: أرأيت ماتقرؤون: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾،

(١) فى ت: «والزهاد». (٢) فى أ: «طالب». (٣) فى ت: «قبيلتة».
(٤) فى ت، ف: «تقاسى» . (٥) فى : «الحجستانى». (٦) فى ف: «عليه وسلامه».
(٧) فى ف، أ: «عن رسول الله » . (٨) فى أ: «إن أولى الناس بابن مريم لأنَا إن». (٩) فى أ: «بن».
(١٠) فى ف، أ: «وهذه». (١١) فى ف، أ : «باسم». (١٢) فى أ: «يذكر».

وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يَتَسَمّون[١] بالأنبياء والصالحين قبلهم؟ ».

انفرد بإخراجه مسلم، والترمذى، والنسائى، من حديث عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن سماك، به[٢]، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سعيد بن أبى صدقة، عن محمد بن سيرين قال نُبِّئت أن كعباً قال: إن قوله: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾: ليس بهارون أخى موسى. قال: فقالت له عائشة: كذبت، قال[٣]: يا أم المؤمنين، إن كان النبى ﷺ قاله، فهو أعلم وأخبر، وإلا فإنى أجد بينهما ستمائة سنة. قال: فسكتت[٤]. وفى هذا التاريخ نظر .

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح، ولايعرفون بالفساد، [ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد][٥] ويتوالدون به. وكان هارون مصلحاً محبباً، فى عشيرته، وليس بهارون أخى[٦] موسى، ولكنه هارون آخر، قال: وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً، كلهم يسمون هارون، من بنى إسرائيل .

وقوله: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أى: إنهم لما استرابوا فى أمرها واستنكروا قضيتها[٧]، وقالو لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرْية، وقد كانت يومها ذلك صائمة، صامتة فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾؟

قال ميمون بن مِهْران: ﴿ فَأَشَارَتْ [إِلَيْهِ][٨] ﴾، قالت: كلموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان فى المهد صبيا!.

وقال السدى: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لَسُخْرِيَتُها[٩] بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبى أشد علينا من زناها.

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أى: من هو موجود فى مهده فى حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ، أول شىء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى[١٠]، وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقوله: ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة.

---

(١) فى ف، أ: «يسمون».
(٢) المسند (٤/ ٢٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٣٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣١٥).
(٣) فى ف، أ: «فقال».
(٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨).
(٥) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(٦) فى أ: «وليس أخى بهارون».
(٧) فى ف، أ: «قصتها».
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى أ: « لسخرتها».
(١٠) فى ف، أ: «عز وجل».

قال نوف البكَالي: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فنزع الثدى من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر، وقال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾.

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت البُنَانى: رفع إصبعه السبابة فوق منكبه، وهو يقول: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآية .

وقال عكرمة: ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ أى: قضى أنه[١] يؤتينى الكتاب فيما قضى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا يحيى بن سعيد[٢]، عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك، رضى اللَّه عنه، قال: كان عيسى ابن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه[٣] فى بطن أمه فذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

يحيى بن سعيد العطار الحمصى: متروك.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾، قال مجاهد، وعمرو بن قيس، والثورى: وجعلنى معلماً للخير. وفى رواية عن مجاهد: نفَّاعاً .

وقال ابن جرير: حدثنى سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد[٤] بن خُنَيْس المخزومى، سمعت وُهَيْب بن الورد مولى بنى مخزوم قال: لقى عالم عالماً هو فوقه فى العلم، فقال له: يرحمك اللَّه، ما الذى أعلن من عملى؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ فإنه دين اللَّه الذى بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد أجمع الفقهاء على قول اللَّه :﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾، وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أينما كان.

وقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس فى قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾، قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت[٥]، ما أثبتها لأهل القدر .

وقوله: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ أى: وأمرنى ببر والدتى، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن اللَّه تعالى كثيراً ما يقرن[٦] بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى: ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتى، فأشقى بذلك.

قال سفيان الثورى: الجبار الشقى: الذى يقبل[٧] على الغضب.

---

(١) فى ف، أ: «أن». (٢) فى أ: «يحيى بن سعيد العطار». (٣) فى أ: «واحكمها».
(٤) فى أ: «زيد». (٥) فى أ: «أمره حتى يموت». (٦) فى أ: «قرن كثيرًا».
(٧) فى ف: «يقتل».

وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، قال: ولاتجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال قتادة: ذكر لنا أن أمرأة رأت ابن مريم يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، فى آيات سلطه اللَّه عليهن، وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذى حملك والثدى الذى أرضعت به، فقال نبى اللَّه عيسى، عليه السلام، يجيبها: طوبى لمن تلا كلام(١) اللَّه، فاتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً.

وقوله: ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: إثبات منه لعبوديته للّه عز وجل، وأنه مخلوق من خلق اللَّه يحيا(٢)، ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة فى هذه الأحوال التى هى أشق ما يكون على العباد، [صلوات اللَّه وسلامه عليه](٣).

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٣٧) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: عليه ذلك الذى قصصنا(٤) عليك من خبر عيسى، ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به؛ ولهذا قرأ الأكثرون: «قول الحق» برفع قول. وقرأ عاصم، وعبد اللَّه بن عامر: ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ﴾.

وعن ابن مسعود أنه قرأ: «ذلك عيسى ابن مريم قَالُ الحق»، والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمرن: ٦٠].

ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً، نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ أى: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً، ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى: إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به، فيصير(٥) كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ .الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقوله ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: ومما(٦) أمر عيسى به(٧) قومه وهو فى مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن اللَّه ربهم وربه(٨)، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا

---

(١) فى أ: «كتاب».
(٢) فى أ: «يحيى ويميت».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف: «قصصناه».
(٥) فى ت: «فتصير».
(٦) فى ت: «ربما».
(٧) فى ت، ف، أ: «به عيسى».
(٨) فى ت، ف: «ربه وربهم».

صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى: هذا الذى جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أى: قويم، من اتبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوى .

وقوله: ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أى: اختلفت[(١)] أقوال أهل الكتاب فى عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده[(٢)] ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصَمَّمَت طائفة ـ وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله ـ على أنه ولد زنْيَة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم[(٣)] الله. وقال آخرون: هو ابن اللَّه. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذى أرشد الله إليه[(٤)] المؤمنين. وقد روى [نحو هذا][(٥)] عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

قال عبد الرزاق: أخبرنا[(٦)] مَعْمَر، عن قتادة فى قوله: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾، قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا[(٧)] فى عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء ـ وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل[(٨)] أنت فيه. قال: هو ابن الله ـ وهم النسطورية. فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله ـ وهم الإسرائيلية ملوك[(٩)] النصارى، عليهم لعائن اللَّه. قال الرابع: كذبت، بل هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته، وهم المسلمون. فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا، فاقتتلوا فَظُهِرَ على المسلمين ، وذلك قول الله تعالى: ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٢١] وقال[(١٠)] قتادة: وهم الذين قال اللَّه: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً[(١١)].

وقد روى ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريباً من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جمعهم فى محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة[(١٢)] منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلفوا فى عيسى ابن مريم، عليه السلام، اختلافاً متبايناً، فقالت كل شرذمة فيه قولاً، فمائة تقول فيه قولا[(١٣)]، وسبعون تقول[(١٤)] فيه قولاً آخر، وخمسون تقول[(١٥)] فيه شيئاً آخر، ومائة وستون تقول شيئاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصَمَّمُوا عليه[(١٦)]، ومال[(١٧)] إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هى الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرَّعوا له أشياء[(١٨)]،

(١) فى أ: «اختلف».
(٢) فى ت: «عبد الله».
(٣) فى ف، أ : «يكلم».
(٤) فى ت: «فيه».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت: «حدثنا».
(٧) فى أ: «فامتتروا».
(٨) فى أ: «قلت».
(٩) فى ت: «ملك».
(١٠) فى ت، ف، أ: «قال».
(١١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٩).
(١٢) فى ت: «الأساومة».
(١٣) فى أ: «شيئا».
(١٤، ١٥) فى ف، أ: «يقولون».
(١٦) فى ت: «عليهم».
(١٧) فى ف، أ : «فمال».
(١٨) فى أ: «شيئًا».

وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرَّفوا دين المسيح، وغيروه، فابتنى حينئذ لهم[١] الكنائس الكبار فى مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائس فى أيامه ما يقارب اثنتى عشرة[٢] ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قُمَامة على المكان الذى صلب فيه المصلوب[٣] الذى تزعم اليهود والنصارى أنه المسيح، وقد كذبوا بل، رفعه الله إلى السماء.

وقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾: تهديد ووعيد شديد لمن كذب على اللّه، وافترى، وزعم أن له ولدا. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذى لا يعجل على من عصاه، كما جاء فى الصحيحين: « إن الله ليملى[٤] للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]. وفى الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أحد أصبر على أذىً سمعه[٥] من اللّه، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم»[٦]. وقد قال اللّه تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم:٤٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى: يوم القيامة. وقد جاء فى الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن عبادة بن الصامت، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله [ورسوله][٧]، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »[٨].

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار [يوم القيامة][٩] أنهم أَسْمَعُ شىء وأبْصَرُه كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢] أى: يقولون ذلك حين لاينفعهم ولا يجدى[١٠] عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله؛ لهذا قال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ[١١] وَأَبْصِرْ ﴾ أى: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أى: فى الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

(٢) فى ت، ف، أ: «فابتنى لهم حينئذ».
(٢) فى أ: «اثنى عشر»، وهو خطأ والصواب ما بالأصل.
(٣) فى ت: «المصلون».
(٤) فى ت: «إنه ليملى».
(٥) فى ت: «يسمعه».
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤).
(٧) زيادة من ف، أ، والبخارى ومسلم.
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٤٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩).
(٩) زيادة من ف، أ.
(١٠) فى ت: «يجزى».
(١١) فى أ: «به».

ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أى: أنذر الخلائق يوم الحسرة، ﴿ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أى: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه ،﴿ وَهُمْ﴾ أى: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به ﴿وَهُمْ لا يُؤْمِنُون ﴾ أى :لايُصدّقون به .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد [الخدرى][(١)] قال: قال رسول الله ﷺ:« إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟» قال:«فيشرئبون [فينظرون][(٢)] ويقولون: نعم، هذا الموت». قال: «فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: «فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت» قال: «فيؤمر به[(٣)] فيذبح» قال: «ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت » قال: ثم قرأ رسول اللّهﷺ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ وأشار بيده[(٤)]. قال: « أهل الدنيا فى غفلة الدنيا».

هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما، من حديث الأعمش، به[(٥)] .ولفظهما قريب من ذلك. وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة: حدثنى أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعاً، مثله. وفى سنن ابن ماجه وغيره، من حديث محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، بنحوه[(٦)]. وهو فى الصحيحين عن ابن عمر[(٧)].ورواه ابن جُرَيْج قال : قال ابن عباس: فذكر من قبله نحوه[(٨)]. ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول فى قصصه: يؤتى بالموت كأنه دابة، فيذبح والناس ينظرون[(٩)] . وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، حدثنا أبو الزعراء، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فى قصة ذكرها، قال: فليس نفس إلا وهى تنظر إلى بيت فى الجنة وبيت فى النار، وهو يوم الحسرة.[فيرى أهل النار البيت الذى كان قد أعده الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتم صالحا، كان لكم هذا الذى ترونه فى الجنة. فتأخذهم الحسرة][(١٠)]. قال: ويرى أهل الجنة البيت الذى فى النار، فيقال: لولا أن مَنَّ الله عليكم... [(١١)].

وقال السدى، عن زياد، عن زرّ بن حُبَيْش، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتى بالموت فى صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادى مناد: ياأهل الجنة، هذا الموت الذي كان يُميتُ الناس فى الدنيا، فلا يبقى أحد فى أهل عليين ولا فى أسفل درجة فى الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادى : يا أهل

---

(١) زيادة من ف.
(٢) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٣) فى ت: «فيؤتى بهم».
(٤) المسند(٣/ ٩).
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٩).
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٧).
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٨) وصحيح مسلم برقم(٢٨٥٠).
(٨) أخرجه الطبرى فى تفسيره(١٦/ ٦٦).
(٩) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٦٧).
(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٦٦).

النار، هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا، فلا يبقى أحد فى ضحضاح من نار ولا فى أسفل درك من جهنم، إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة، هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار، هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا فذلك قوله: ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ** ﴾ . يقول: إذا ذبح الموت. رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ**﴾: من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ**﴾ قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** ﴾: يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو، تعالى وتقدس ولا أحد يَدّعى مُلْكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقى بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

قال ابن أبى حاتم: ذكر هدبة بن خالد القيسى: حدثنا حزم بن أبى حزم القُطَعى قال: كتب عمر ابن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل من كتابه الصادق الذى حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على خلقه: أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.

﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)** ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ[1]: واذكر فى الكتاب إبراهيم واتلُه على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين[2] هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وهو[3] كان صديقاً نبياً ـ مع أبيه ـ كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا** ﴾ أى: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً .

﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ** ﴾: يقول: فإن كنت من صلبك وترى أنى أصغر منك، لأنى ولدك، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد، ﴿ **فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ أى: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

---

(١) فى ف: «صلوات الله وسلامه عليه». (٢) فى ت، ف: «الذى». (٣) فى ف: «وقد».

﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ أى: لا تطعه[١] فى عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك، والراضى به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧].

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ أى: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله .

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أى: على شركك وعصيانك لما آمرك به، ﴿فَتَكُونَ[٢] لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعنى: فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شىء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبى إبراهيم [لولده إبراهيم][٣] فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ يعنى: [إن كنت لا][٤] تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصتُ منك وشتمتك وسببتك، وهو[٥] قوله: ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابن عباس، والسدى، وابن جريج، والضحاك، وغيرهم .

وقوله: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾: قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن إسحاق: يعنى دهراً .

وقال الحسن البصرى: زماناً طويلاً .

وقال السدى : ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال: أبداً .

وقال على بن أبى طلحة، والعوفى، عن ابن عباس: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال: سوياً سالماً، قبل أن تصيبك منى عقوبة. وكذا قال الضحاك، وقتادة وعطية الجدلى و[أبو][٦] مالك، وغيرهم، واختاره ابن جرير .

فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ ﴾ كما قال تعالى فى صفة المؤمنين: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

---

(١) فى أ: «لا تطيعه» وهو خطأ، والصواب ما بالأصل. (٢) فى ت: «فيكون». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) زيادة من ف، أ، وفى هـ : «أما». (٥) فى أ: «وهى». (٦) زيادة من ف، أ.

ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ يعنى: أما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة، ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ أى: ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أى: فى أن هدانى لعبادته والإخلاص له. وقال مجاهد وقتادة، وغيرهما: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ قال[١]: [و][٢]عوّده الإجابة.

وقال السدى: «الحفي»: الذى يَهْتَم بأمره.

وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق، عليهما السلام، فى قوله: ﴿ رَبَّنَا[٣] اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾[إبراهيم: ٤١].

وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ الآية [الممتحنة: ٤]، يعنى إلا فى هذا القول، فلا[٤] تتأسوا به. ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك، ورجع عنه، فقال[٥] تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة ١١٣، ١١٤].

وقوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أى: أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها [من دون الله][٦]، ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أى: وأعبد ربى وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ و«عسى» هذه موجبة لا محالة، فإنه، عليه السلام، سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾.

يقول: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه فى الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب، يعنى ابنه وابن إسحاق، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن فى سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب، أى: جعلنا له نسلا وعقبا أنبياء، أقر الله بهم

---

(١) فى أ: «قالوا». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت، ف، أ: «رب».
(٤) فى ت: «ولا». (٥) فى ت: «وقال». (٦) زيادة من ف، أ.

عينه في حياته؛ ولهذا قال: ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾، فلو لم يكن يعقوب قد نُبئَ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبى أيضاً كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبى اللَّه، ابن يعقوب نبى اللَّه، ابن إسحاق نبي اللَّه، ابن إبراهيم خليل الله»[(١)] . وفي اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»[(٢)].

وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعني الثناء الحسن. وكذا قال السدي، ومالك بن أنس.

وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿ عَلِيًّا ﴾؛ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾.

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عَطَف بذكر الكليم، فقال: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص في العبادة.

قال الثوري[(٣)]، عن عبد العزيز بن رُفَيع[(٤)]، عن أبى لبابة[(٥)] قال: قال الحواريون: يا روح اللَّه، أخبرنا عن المخلص للّه. قال: الذي يعمل للّه، لا يحب أن يحمده الناس.

وقرأ الآخرون[(٦)] بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾[الأعراف: ١٤٤] .

﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾، جُمِع له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي[(٧)] العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين .

وقوله: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ ﴾ أي: الجبل ﴿الأَيْمَنِ ﴾ أي: من جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة، رآها تلوح فقصدها، فوجدها في جانب الطور الأيمن منه[(٨)]، عند شاطئ الوادي. فكلمه الله تعالى، ناداه وقربه وناجاه[(٩)] . قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار[(١٠)]، حدثنا يحيى ـ هو القطان ـ حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب[(١١)]، عن سعيد بن جبير ،عن ابن عباس: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ قال: أدْنِي حتى سمع[(١٢)] صريف القلم.

(١) صحيح البخاري برقم (٣٣٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٨).
(٢) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٨).
(٣) في أ: «قال العوفي».
(٤) في ت: «نفيع».
(٥) في ت: «تمامة».
(٦) في أ: «قرأ آخرون».
(٧) في ت: «وأولي».
(٨) في ت، ف،أ: «منه غربية».
(٩) في ت: «ناداه أو قربه فناجاه».
(١٠) في ت: «ابن يسار».
(١١) في ت: «ابن يساري»، وفي أ: «ابن يسار».
(١٢) في ت: «يسمع».

وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، وغيرهم. يعنون صريف القلم بكتابة التوراة.

وقال السدى: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾قال: أدخل فى السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ قال: نجا بصدقه(١).

قال ابن أبى حاتم: حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثنا محمد بن سلمة الحرانى، عن أبى الوصل، عن شهر بن حَوْشَب، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء، قال: يا موسى، إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً.

وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أى: وأجبنا سؤاله وشفاعته فى أخيه، فجعلناه نبياً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤]، وقال(٢) : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٣، ١٤]؛ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد فى أحد شفاعة فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ ، قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وقد ذكره ابن أبى حاتم معلقاً، عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقى، به .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ .

هذا(٣) ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ .

قال(٤) ابن جريج: لم يَعِدْ ربه عدة إلا أنجزها، يعنى: ما التزم قط عبادة(٥) بنذر إلا قام بها، ووفاها حقها.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، أن سهل بن عقيل حدثه، أن إسماعيل النبى، عليه السلام، وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه، فجاء ونسى الرجل، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا ؟ قال: لا. قال: إنى نسيت. قال: لم أكن لأبرح حتى تأتينى. فلذلك ﴿ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾.

---

(١) فى ت: «لصدقه». (٢) فى ت، ف: «إلى أن قال». (٣) فى أ: «وهذا».
(٤) فى ت: «قالت». (٥) فى ف، أ: «عبادة قط».

وقال سفيان الثورى: بلغنى أنه أقام فى ذلك المكان ينتظره حولاً حتى جاءه.

وقال ابن[١] شوْذَب: بلغنى أنه اتخذ ذلك الموضع سكناً .

وقد روى أبو داود فى سننه، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطى فى كتابه «مكارم الأخلاق» من طريق إبراهيم بن طَهْمَان، عن عبد الله [٢]بن مَيْسَرة، عن عبد الكريم ـ يعنى: ابن عبد الله بن شَقيق ـ عن أبيه، عن عبد الله بن أبى الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له علىّ بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت[٣] يومى والغد، فأتيته فى اليوم الثالث وهو فى مكانه ذلك، فقال لى: «يا فتى، لقد شققت[٤] علىّ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك » لفظ الخرائطى[٥]، وساق آثاراً حسنة فى ذلك.

ورواه ابن مَنْده أبو عبد الله فى كتاب «معرفة الصحابة»، بإسناده[٦] عن إبراهيم بن طَهْمَان، عن بُدَيْل بن ميسرة، عن عبد الكريم، به [٧].

وقال بعضهم: إنما قيل له : ﴿ **صَادِقَ الْوَعْدِ** ﴾؛ لأنه قال لأبيه: ﴿**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٢]، فصدق فى ذلك .

فَصدْقُ الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خُلْفَه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال رسول الله ﷺ: « آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان »[٨].

ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفّى له به، وقد أثنى على أبى العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: « حدثنى فصدقنى، ووعدنى فوفى لى»[٩]. ولما توفى النبى ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: من كان له عند رسول الله ﷺ عدةٌ أو دَيْن فليأتنى أنجز له، فجاءه[١٠] جابر بن عبد الله، فقال: إن رسول الله ﷺ كان قال: «لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا»، يعنى: ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً، فغرف بيديه من المال، ثم أمره بِعَدّه، فإذا هو خمسمائة درهم، فأعطاه مثليها معها[١١].

وقوله: ﴿ **وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا** ﴾ : فى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما

---

(١) فى ت: «أبو». (٢) فى سنن أبى داود: «بديل». (٣) فى ت: «نسيت».

(٤) فى ت: «لو أشفقت».

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٩٩٦) ومكارم الأخلاق برقم (١٧٧).

(٦) فى ت، أ: «إنه بإسناده».

(٧) ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (٣/١١٣) بإسناده إلى إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة مثله.

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٥٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٧٢٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضى الله عنه.

(١٠) فى أ: «فجاء».

(١١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٦٨٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣١٤).

وصف[١] بالنبوّة فقط، وإسماعيل وصف[٢] بالنبوّة والرسالة. وقد ثبت فى صحيح مسلم[٣] أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل....» وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾: هذا أيضاً من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة[٤]، حيث كان مثابراً على طاعة ربه آمراً بها لأهله[٥]، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ ﴾ الآية [التحرم: ٦] أى: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نَضَح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت[٦] فى وجهه الماء» أخرجه أبو داود، وابن ماجه[٧].

وعن أبى سعيد، وأبى هريرة، رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، واللفظ له[٨].

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) ﴾.

وهذا[٩] ذكر إدريس، عليه السلام، بالثناء عليه، بأنه[١٠] كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ مرّ به فى ليلة الإسراء وهو فى السماء الرابعة.

وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً، فقال: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شَمِر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً، وأنا حاضر، فقال له: ما قول الله ـ عز وجل ـ لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه أنى أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم، فأحب أن يزداد عملاً[١١]، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إلىّ كذا وكذا، فكلم لى[١٢] ملك الموت، فَلْيؤخرنى حتى أزداد عملاً. فحمله بين جناحيه، حتى صعد به إلى السماء، فلما كان فى السماء الرابعة تلقاهم مَلَك الموت منحدراً، فكلم ملكَ الموت فى الذى كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هو ذا على ظهرى. قال ملك الموت: فالعجب! بعثت وقيل لى: اقبض روح إدريس

(١، ٢) فى ف: «وصفه».
(٣) لفظه عند مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٧٦): «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشًا»، والله أعلم.
(٤) فى ت: «الشديدة». (٥) فى ف: «أهله». (٦) فى ت: «فنضحت».
(٧) سنن أبى داود برقم (١٤٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٦).
(٨) سنن أبى داود برقم (١٤٥١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٤٠٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٥).
(٩) فى ت: «وهكذا». (١٠) فى أ: «فإنه». (١١) فى ف، أ: «تزداد علمًا».
(١٢) فى ت: «له».

فى السماء الرابعة». فجعلت أقول: كيف[١] أقبض روحه فى السماء الرابعة، وهو فى الأرض؟ فقبض روحه هناك، فذلك[٢] قول الله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[٣].

هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفى بعضه نكارة، والله أعلم.

وقد رواه[٤] ابن أبى حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً، فذكر نحو ماتقدم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله ـ يعنى: ملك الموت ـ كم بقي من أجلى لكى أزداد من العمل وذكر باقيه[٥]، وفيه: أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال[٦]: لا أدرى حتى أنظر. ثم نظر، قال: إنك تسألنى[٧] عن رجل ما بقى من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك[٨] تحت جناحه إلى إدريس، فإذا[٩] هو قد قبض، عليه السلام، وهو لا يشعر به.

ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً، فكان[١٠] لا يغرز إبرة إلا قال: «سبحان الله»، فكان يمسى حين يمسى[١١]، وليس فى الأرض أحد أفضل عملاً منه. وذكر بقيته كالذى قبله، أو نحوه.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد فى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت، كما رفع عيسى.

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: [رفع إلى][١٢] السماء الرابعة.

وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك بن مُزَاحم.

وقال الحسن، وغيره، فى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: الجنة.

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾.

يقول تعالى: هؤلاء النبيون ـ وليس المراد [هؤلاء][١٣] المذكورين فى هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء، عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ـ ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ الآية.

---

(١) فى ف: «فكيف». (٢) فى ف: «فهذا».
(٣) تفسير الطبرى (١٦/ ٧٢).
(٤) فى أ: «وقد روى». (٥) فى أ: «وذكر ما فيه». (٦) فى ف، أ: «فقال».
(٧) فى ف، أ: «لتسألنى». (٨) فى أ: «ملك الموت». (٩) فى ت: «قال».
(١٠) فى ف: «وكان». (١١) فى أ: «وكان يمشى حين يمشى». (١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) زيادة من ف، أ.

قال السدى وابن جرير، رحمه الله: [فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذى عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم][١]، والذى عنى به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذى عنى به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى وعيسى ابن مريم.

قال ابن جرير: ولذلك[٢] فرّق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح.

قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس فى عمود نسب نوح، عليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بنى إسرائيل، أخذا من حديث الإسراء، حيث قال فى سلامه على النبى ﷺ: «مرحباً بالنبى الصالح، والأخ الصالح»، ولم يَقُل: «والولد الصالح»، كما قال آدم وابراهيم[٣]، عليهما السلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عبد الله بن محمد[٤] أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: «لا إله إلا الله»، ويعملوا[٥] ما شاؤوا فأبوا، فأهلكهم الله عز وجل.

[ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنسُ الأنبياء، أنها كقوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ][٦] إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ـ ٩٠] وقال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ[٧]﴾ [غافر: ٧٨]. وفى صحيح البخارى، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفى «ص» سجدة؟ قال[٨]: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، فنبيكم ممن أُمِرَ أن يقتدى بهم، قال: وهو منهم، يعنى داود[٩].

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أى: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَجه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة.

«والبُكىّ»: جمع باك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم[١٠].

قال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى مَعْمَر قال: قرأ عمر بن الخطاب، رضى

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى أ: «وكذلك». (٣) فى ت: «إبراهيم وآدم».
(٤) فى ف، أ: «ابن عمر» (٥) فى ف، أ: «ويعملون» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.
(٦) زيادة من ت، ف، أ. (٧) فى ت، ف، أ: «عليك وكلم الله موسى تكليما». (٨) فى ف، أ: «فقال».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٧).
(١٠) فى ف، أ: «لمواليهم».

الله عنه، سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكى؟ يريد البكاء.

رواه ابن أبى حاتم وابن جرير، وسَقَط من روايته ذكر «أبى معمر» فيما رأيت[1]، ولله[2] أعلم.

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) ﴾.

لما ذكر تعالى حزْبَ السعداء، وهم الأنبياء، عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله، التاركين لزواجره ـ ذكر أنه ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أى: قرون أخر، ﴿ أَضَاعُوا الصَّلاةَ ﴾ ـ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد ـ وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيا، أى: خَسَاراً يوم القيامة.

وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة هاهنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تَرْكُها بالكلية، قاله محمد بن كعب القُرَظى، وابن زيد بن أسلم، والسدى، واختاره ابن جرير. ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعى إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث[3]: « بين العبد وبين الشرك تَرْكُ الصلاة»[4]، والحديث الآخر: « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر »[5]. وليس هذا محل بسط هذه المسألة.

وقال الأوزاعى، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مُخَيمرة فى قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ﴾، قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كفراً.

وقال وكيع، عن المسعودى، عن القاسم بن عبد الرحمن، والحسن بن سعد، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ و ﴿عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ و ﴿عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾؟ قال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذاك[6] الكفر.

[و][7] قال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس، فيكتب من الغافلين ، وفى إفراطهن الهلكة، وإفراطهن: إضاعتهن عن وقتهن.

وقال الأوزاعى، عن إبراهيم بن يزيد[8]: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، ثم قال: لم تكن[9] إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت.

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٧٣).
(٢) فى ف، أ: «فالله». (٣) فى أ: «الحديث».
(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٨٢) من حديث جابر رضى الله عنه.
(٥) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٢١) والنسائى فى السنن (١/ ٢٣١) من حديث بريدة بن الحصيب رضى الله عنه وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح غريب».
(٦) فى ت، ف، أ: «ذلك». (٧) زيادة من ت، ف. (٨) فى أ: « زيد». (٩) فى ت، ف،أ: «يكن».

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ قال: عند قيام الساعة، وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة، وكذا روى ابن جُرَيج، عن مجاهد، مثله [(١)].

وروى جابر الجُعْفي، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبى رباح: أنهم من هذه الأمة. يعنون فى آخر الزمان.

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث، حدثنا الحسن الأشيب، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾، قال: هم فى هذه، الأمة[(٢)]، يتراكبون تراكب الأنعام والحمر فى الطرق، لا يخافون الله فى السماء، ولا يستحيون الناس فى الأرض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطى، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبى عمرو الخولانى: أن الوليد بن قيس حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر». قال بشير[(٣)]: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به. والمنافق كافر به، والفاجر يأكل به.

وهكذا رواه أحمد عن أبى عبد الرحمن، المقرئ[(٤)]، به[(٥)].

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنى أبى، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونس، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن مَوْهَب[(٦)]، عن مالك، عن[(٧)] أبى الرجال؛ أن عائشة كانت ترسل بالشيء صدقة لأهل الصُّفَّة، وتقول: لا تعطوا منه بربريا ولا بربرية، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخلف الذين قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ ﴾». هذا حديث غريب[(٨)].

وقال أيضاً: حدثنى أبي، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا حَرِيز[(٩)]، عن شيخ من أهل المدينة؛ أنه سمع محمد بن كعب القُرَظِي يقول فى قوله[(١٠)]: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الآية، قال: هم أهل الغرب[(١١)]، يملكون وهم شر من ملك.

---

(١) فى ت: «منكم». (٢) فى ت، ف: «الآية». (٣) فى ف، أ: «بشر».
(٤) فى ف، أ: «المقبرى».
(٥) المسند (٣/٣٨).
(٦) فى ف، أ: «ابن وهب». (٧) فى ف: «ابن».
(٨) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٢٤٤) من طريق الحسن بن على عن إبراهيم بن موسى به.
وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبى بقوله: «عبيد الله مختلف فى توثيقه، ومالك لا أعرفه ثم هو منقطع».
(٩) فى ت، ف، أ: «ابن جرير». (١٠) فى ف: «قول الله عز وجل». (١١) فى ت: «القرى»، وفى أ: «المغرب».

وقال كعب الأحبار: والله إنى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عز وجل: شرابين للقهوات تراكين[١] للصلوات، لعابين بالكعبات، رقادين عن العتمات، مفرطين فى الغدوات، تراكين للجمعات[٢] قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

وقال الحسن البصرى: عطلوا المساجد، ولزموا الضيعات.

وقال أبو الأشهب العُطَارِدى: أوحى الله ـ تعالى ـ إلى داود: يا داود، حَذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات؛ فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا آثر شهوة من شهواته على[٣] أن أحرمه طاعتى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب حدثنا أبو [السمح][٤] التميمى، عن أبي قبيل[٥]، أنه سمع عقبة[٦] بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى أخاف على أمتى اثنتين: القرآن [واللبن، أما اللبن][٧] فيتبعون الرّيف، ويتبعون الشهوات ويتركون الصلوات، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون، فيجادلون به المؤمنين»[٨].

ورواه عن حسن بن موسى، عن ابن[٩] لهيعة، حدثنا أبو قبيل، عن عقبة، به مرفوعاً بنحوه تفرد به[١٠].

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أى: خسرانا. وقال قتادة: شراً.

وقال سفيان الثورى، وشعبة، ومحمد بن إسحاق، عن أبى إسحاق السَّبيعى، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال: واد فى جهنم، بعيد القعر، خبيث الطعم.

وقال الأعمش، عن زياد، عن أبى عياض فى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال: واد فى جهنم من قيح ودم.

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثني عباس بن أبى طالب، حدثنا محمد بن زياد بن زبان، حدثنا شرقى بن قطامى، عن لقمان بن عامر الخزاعى قال: جئت أبا أمامة صُدَىّ بن[١١] عَجْلان الباهلى فقلت: حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فدعا بطعام، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر[١٢] أواق قذف بها من شفير جهنم، ما بلغت قعرها خمسين خريفاً،

---

(١) فى أ: «تاركين». (٢) فى أ: «للجماعات». (٣) فى أ: «عليه».
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند. (٥) فى أ: «عن ابن قنبل». (٦) فى ت: «عبد الله».
(٧) فى هـ، ت، ف، أ: «الكنى، أما الكنى» والمثبت فى المسند.
(٨) المسند (٤/١٥٦) والمراد باللبن كما قال الحربى: «أظنه أراد يتباعدون عن الأمصار وعن صلاة الجماعة، ويطلبون مواضع اللبن فى المراعى والبوادى».
(٩) فى ت: «أبى».
(١٠) المسند (٤/١٤٦).
(١١) فى ت: «حدثنى». (١٢) فى ف: «عشر عشر»، وفى أ: «عشر عشراوات».

ثم تنتهى إلى غى وآثام ». قال: قلت: وما غى وآثام؟ قال: « بئران فى أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللتان[(١)] ذكر الله في كتابه: ﴿ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾» وقوله فى الفرقان: ﴿ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[(٢)].

هذ حديث غريب ورفعه منكر.

وقوله: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾، أى: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم؛ ولهذا قال: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وذلك؛ لأن التوبة تجُبُّ ما قبلها. وفى الحديث الآخر: « التائب من الذنب كمن لا ذنب له »[(٣)]؛ ولهذا لا يُنْقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئاً، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص[(٤)] لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هَدَراً وترك نسيا، وذهب مَجَّانا، من كرم الكريم، وحلم الحليم.

وهذ الاستثناء ههنا كقوله فى سورة الفرقان: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) ﴾.

يقول تعالى: الجنات التى يدخلها[(٥)] التائبون من ذنوبهم، هى﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أى: هى من الغيب الذى يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾، تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿و كَانَ[(٦)] وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمل: ١٨] أى: كائنا لا محالة.

وقوله ههنا: ﴿ مَأْتِيًّا﴾ أى: العباد صائرون إليه، وسيأتونه.

ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنى: آتيا؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت عليّ خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى[واحد][(٧)].

---

(١) فى ف: «اللذان».
(٢) تفسير الطبرى (١٦/ ٧٥).
(٣) جاء من حديث أنس بن مالك، وابن مسعود، وأبو سعيد الأنصارى، وابن عباس، رضى الله عنهم، وأجودها حديث ابن مسعود. أخرجه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٢٥٠) لكنه فيه انقطاع.
(٤) فى ف: «فنقص».
(٥) فى ت: «يدخل إليها».
(٦) فى ت: «إنه كان» وهو خطأ، وفى أ: «كان وعده مفعولاً» وهو الصواب.
(٧) زيادة من ف، أ.

وقوله: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً ﴾ أى: هذه[١] الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد فى الدنيا .

وقوله: ﴿ إِلاَّ سَلاماً ﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً [٢]. إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أى: فى مثل وقت البُكُرات ووقت العَشيّات، لا أن[٣] هناك ليلا أو نهارًا [٤]، ولكنهم فى أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معْمَر ، عن هَمَّام، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « أول زُمْرَة تلج الجنة صُوَرهم على صورة القمر ليلة البدر، لايبصُقون فيها، ولا يتمخطون[٥] فيها، ولا يتَغَوّطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم [٦] الألوّة، ورَشْحُهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مُخّ ساقيهما[٧] من وراء اللحم؛ من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث معمر، به[٨] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن[٩] ابن إسحاق، حدثنى الحارث بن[١٠] فضيل الأنصارى، عن محمود بن لبيد الأنصارى، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ:«الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، فى قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً»[١١] . تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ قال: مقادير الليل والنهار.

وقال ابن جرير :حدثنا على بن سهم، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله تعالى :﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ قال : ليس فى الجنة ليل، هم فى نور أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب، وبفتح [١٢]الأبواب .

وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خُلَيْد، عن الحسن البصرى، وذكر أبواب الجنة، فقال: أبواب[١٣] يُرى ظاهرها من باطنها، فتكلم وتكلم، فَتُهَمْهِم[١٤] انفتحى انغلقى، فتفعل.

---

(١) فى ت، ف: «أى: فى هذه» . (٢) فى ت: «تأثيم». (٣) فى ت: «إلا أن» .
(٤) فى ف: «ونهاراً» . (٥) فى ف: «يمتخطون». (٦) فى أ: « ومجامرهم من».
(٧) فى ف: «ساقها» .
(٨) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح البخارى برقم (٣٢٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤) .
(٩) فى ت: «عن موسى بن إسحاق». (١٠) فى ت: «ثم» .
(١١) المسند (١/ ٢٦٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٩٤): «إسناد رجاله ثقات» .
(١٢) فى ت، ف : «فتح» . (١٣) فى ت: «أبواب الجنة». (١٤) فى ت: «فيفهمهم»، وفى ف، أ:«فتفهم» .

وقال قتادة فى قوله : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: فيها ساعتان: بكرة وعشى: ليس ثم[١] ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور .

وقال مجاهد ليس [فيها] [٢] بكرة ولا عشى، ولكن يُؤتون به على ما كانوا يشتهون فى الدنيا.

وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: كانت العرب، الأنْعَم فيهم، من يتغدّى ويتعشى، ونزل[٣] القرآن على ما فى أنفسهم[٤] من النعيم ،فقال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

وقال ابن مهدى، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن الحسن :﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: البكور يرد على العشى، والعشى يرد على البكور، ليس فيها ليل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سليم[٥] بن منصور بن عمار، حدثنى أبى، حدثنا محمد بن زياد قاضى أهل شَمْشَاط[٦] عن عبد الله بن جرير[٧] ،عن أبى سلمة بن عبدالرحمن، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات، إلا أنه يزف إلى ولى الله فيها زوجة من الحور العين، أدناهن التى خلقت من الزعفران»[٨].

قال أبو محمد: هذا حديث منكر.

[وقوله تعالى][٩]: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ أى: هذه الجنة التى وصفنا بهذه الصفات العظيمة هى التى نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون للّه ـ عز وجل ـ فى السراء والضراء، والكاظمون[١٠] الغيظ والعافون[١١] عن الناس، وكما قال تعالى فى أول سورة المؤمنين : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ـ١١] .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا(٦٤)رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا(٦٥) ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلى ووَكيع قالا: حدثنا عمر بن ذَرّ، عن أبيه، عن سعيد بن جُبَيْر،عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل: « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » قال: فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية .

انفرد بإخراجه البخارى، فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبى نعيم، عن عمر بن ذَرّ، به. ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير، من حديث عمر بن ذر، به[١٢] .وعندهما زيادة فى آخر الحديث، فكان

---

(١) فى أ: «ثمت». (٢) زيادة من ف، أ . (٣) فى أ: «فنزل» .
(٤) فى ف : «نفوسهم» . (٥) فى جميع النسخ: «سليمان» والمثبت من الجرح والتعديل ١٧٦/١/٤ .
(٦) فى أ: «شمياط» . (٧) فى ت ،ف، أ : «جدير » .
(٨) ورواه ابن عدى فى الكامل (٦/ ٣٩٤) من طريق سليم بن منصور بن عمار به وقال: «ولايعرف هذا إلا لمنصور بهذا الإسناد»، ومنصور بن عمار ضعفه العقيلى وقال أبو حاتم: ليس بالقوى .
(٩) زيادة من ت، وفى أ: «وقوله» . (١٠) فى ت، ف: «والكاظمين» . (١١) فى ت، ف: «والعافين».
(١٢) المسند (١/ ٢٣١)، (١/ ٢٣٣) وصحيح البخارى برقم (٤٧٣١) وتفسير الطبرى (٧٨/١٦) .

ذلك الجواب لمحمد ﷺ.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحَزَن، فأتاه جبريل وقال: يا محمد، ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ .

وقال مجاهد: لبث جبريل عن محمد ﷺ اثنتى عشرة ليلة، ويقولون [قُلِيَ][1] ، فلما جاءه قال: ياجبريل، لقد رِثْتَ عليّ ،حتى ظن المشركون كل ظن. فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ [لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ][2] وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قال: وهذه الآية كالتى فى الضحى.

وكذلك قال الضحاك بن مُزَاحم، وقتادة، والسدى، وغير واحد: إنها نزلت فى احتباس جبريل.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريل النـزول على رسول الله ﷺ أربعين يومًا، ثم نزل، فقال له النبى ﷺ :«ما نزلت حتى اشتقت إليك ». فقال له جبريل: بل أنا كنت إليك أشوق، ولكنى مأمور، فأوحىَ إلى جبريل أن قل له: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية. رواه ابن أبى حاتم، رحمه الله، وهو غريب .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد قال: أبطأت الرسلُ على النبى ﷺ، ثم أتاه جبريل فقال لـه: ما حبسك يا جبريل؟ فقال له جبريل: وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تُنْقُون براجمكم، ولا تأخذون شواربكم، ولا تستاكون؟ ثم قرأ :﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية.

وقد قال الطبرانى: حدثنا أبو عامر النحوى، حدثنا محمد بن إبراهيم الصورى، حدثنا سليمان ابن عبد الرحمن [الدمشقى][3] حدثنا إسماعيل بن عياش، أخبرنى ثعلبة بن مسلم، عن أبى كعب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ؛ أن جبريل أبطأ عليه، فذكر ذلك له ، فقال: وكيف وأنتم لاتَسْتَنّون، ولا تُقَلّمُون أظفاركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تُنْقُون رواجبكم .

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبى اليمان، عن إسماعيل بن عياش، به نحوه[4] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المغيرة بن حبيب ـ [ختن][5] مالك بن دينار ـ حدثنى شيخ من أهل المدينة، عن أم سلمة قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «أصلحى لنا المجلس ، فإنه ينزل[6] ملك إلى الأرض، لم ينزل إليها قط»[7] .

وقوله :﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ قيل: المراد: ما بين أيدينا: أمر الدنيا، وما خلفنا: أمر الآخرة، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾: ما بين النفختين. هذا قول أبى العالية، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن

---

(١) زيادة من ت، ف، أ . (٢) فى ت، ف ، أ: «إلى قوله» . (٣) زيادة من ت، ف، أ .

(٤) المعجم الكبير (١١/ ٤٣١) والمسند (١/ ٢٤٣) وفى إسناده أبو كعب مولى ابن عباس، قال أبو زرعة: «لايسمى ولا يعرف إلا فى هذا الحديث» .

(٥) فى هـ، ت، ف: «عن»، والمثبت من أ، والمسند . (٦) فى ف، أ :«يتنزل» .

(٧) المسند (٦/ ٢٩٦) .

جبير. وقتادة ،فى رواية عنهما، والسدى، والربيع بن أنس .

وقيل :﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾: ما نستقبل من أمر الآخرة ،﴿وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أى :ما مضى من الدنيا، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أى: ما بين الدنيا والآخرة . يروى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، والثورى. واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم .

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: قال مجاهد [والسُدِّى](١) : معناه: ما نسيك ربك .

وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله :﴿وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١ـ٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقى، حدثنا محمد بن عثمان(٢)ـ يعنى أبا الجماهر(٣) ـ حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن أبيه، عن أبى الدرداء يرفعه قال: « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت [عنه](٤) فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى(٥) شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٦) .

وقوله :﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [أى: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذى لا معقب لحكمه، ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ] (٧)هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبها.

وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج وغيرهم.

وقال عكرمة ،عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى ، وتقدس اسمه .

﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) ﴾.

يُخْبِر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ

---

(١) زيادة من ت ،ف . (٢) فى ت: «ابن عباس» . (٣) فى أ: «أبا الجماهير» .
(٤) زيادة من ت، ف، أ . (٥) فى أ: «لينسنا» .
(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٢٣) من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن إسماعيل بن عياش به وقال: «إسناده صالح» .
ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٧٥) ومن طريقه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ١٢) عن طريق أبى نعيم الفضل بن دكين عن عاصم بن رجاء عن أبيه به وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» .
وله شاهد من حديث سلمان رضى الله عنه .
(٧) زيادة من ت، ف ، أ .

فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وقال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩]، وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا. أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ يستدل، تعالى، بالبداءة على الإعادة، يعني أنه، تعالى [قد][1] خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وفى الصحيح: «يقول الله تعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى، أما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون علىّ من آخره، وأما أذاه إياى فقوله: إن لى ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد[2]، ولم يكن له[3] كفواً أحد»[4].

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب، تبارك وتعالى، بنفسه الكريمة، أنه لابد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

قال العَوْفى، عن ابن عباس: يعنى: قعوداً، كقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨].

وقال السدى فى قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾: يعنى: قياماً، وروى عن مرة، عن ابن مسعود [مثله][5].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعنى: من كل أمة. قاله مجاهد، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾.

قال الثورى، عن [على بن الأقمر][6]، عن أبى الأحوص، عن ابن مسعود قال: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة[7]، أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جرما، وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾.

وقال قتادة: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ قال: ثم لننزعن من أهل كل[8] دين قادتهم [ورؤساءهم][9] فى الشر. وكذا قال ابن جريج، وغير واحد من السلف. وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾: «ثم» ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلَّد فيها، وبمن[10] يستحق تضعيف

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ت، ف، أ: «ألد ولم أولد». (٣) فى ف، أ: «لى».
(٤) صحيح البخاى برقم (٤٩٧٥).
(٥) زيادة من ف، أ. (٦) زيادة من ت، ف، أ، وفى هـ: «أبى» والمثبت من الطبرى.
(٧) فى ت: «المغيرة». (٨) فى ت، ف: «من كل أهل». (٩) زيادة من ت، ف، أ.
(١٠) فى ت، ف، أ: «ومن».

العذاب، كما قال فى الآية المتقدمة: ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا خالد بن سليمان، عن كثير بن زياد البُرْسانى، عن أبى سُمَيَّة قال: اختلفنا فى الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً، ثم ينجى الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا فى الورود، فقال: يردونها جميعاً ـ وقال سليمان مَرَّةً [١] يدخلونها جميعاً ـ وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه، وقال: صُمَّتا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن[٢] برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجى الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً»[٣]. غريب ولم يخرجوه.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية، عن بكار بن[٤] أبى مروان، عن خالد بن مَعْدَان قال: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار؟ قال: قد مررتم عليها وهى خامدة.

وقال عبد الرزاق، عن ابن عيينة، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم قال: كان عبد الله بن رَوَاحة واضعاً رأسه فى حِجْر امرأته، فبكى، فبكت امرأته فقال[٥]: ما يبكيك؟ فقالت:[٦] رأيتك تبكى فبكيت. قال: إنى ذكرت قول الله عز وجل: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ[٧] إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾، فلا أدرى أنجو منها أم لا؟[٨]، وفى رواية: وكان مريضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن يَمَان، عن مالك بن مِغْوَل، عن أبى إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمى لم تلدنى ثم يبكى، فقيل: مايبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها، ولم نُخْبَرْ أنا صادرون عنها[٩].

وقال عبد الله بن المبارك، عن الحسن البصرى قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك؟ [قال فما رُئى ضاحكاً حتى لحق بالله][١٠].

---

(١) فى أ: «سليمان بن مرة». (٢) فى ف: «المؤمنين».
(٣) المسند (٣/٣٢٨) وقال المنذرى فى الترغيب (٢/٣٠٦): «رجاله ثقات».
(٤) فى ف: «عن». (٥) فى ف: «قال». (٦) فى أ: «قالت».
(٧) فى ت: «وما منكم».
(٨) تفسير عبد الرزاق (٢/١١).
(٩) تفسير الطبرى (١٦/٨٢).
(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيَيْنَة، عن عمرو، أخبرنى من سمع ابن عباس يخاصم نافع ابن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود[١] :الدخول؟ فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُون** ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وردوا أم لا؟ وقال: ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**﴾ [هود: ٩٨]: أوردٌ هو[٢] أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع[٣] .

وروى ابن جريج، عن عطاء قال: قال أبو راشد الحَرُورى ـ وهو نافع بن الأزرق ـ: ﴿ **لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا**﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، فقال ابن عباس: ويلك: أمجنون أنت؟ أين قوله: ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**﴾[هود: ٩٨]، ﴿ **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا** ﴾[مريم: ٨٦]، ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾؟ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجنى من النار سالماً ، وأدخلنى الجنة غانماً[٤] .

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن عبيد المحاربى، حدثنا أسباط، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس، أرأيت قول الله: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا** ﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر: هل نصدر عنها أم لا[٥] .

وقال أبو داود الطيالسى: قال شعبة، أخبرنى عبد الله بن السائب، عمن سمع ابن عباس يقرؤها [كذلك][٦] : «وإن منهم إلا واردها» يعنى: الكفار [٧] .

وهكذا روى عمرو بن الوليد الشَّنِّى[٨] ، أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك: «وإن منهم إلا واردها»، قال: وهم الظلمة. كذلك كنا نقرؤها. رواه ابن أبى حاتم وابن جرير.

وقال العوفى ، عن ابن عباس قوله: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا**﴾ يعنى: البر والفاجر ، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون: ﴿**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ** ﴾ ﴿ **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا** ﴾، فسمى الورود فى النار دخولاً، وليس بصادر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن إسرائيل، عن السدى، عن مُرَّة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾: قال رسول الله ﷺ: « يرد الناس [النار][٩] كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم » .

(١) فى ت: «المورود» .
(٢) فى ت: «أوردهم»، وفى أ: «أوردوها » .
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١١) .
(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٨٢) .
(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٨٤) .
(٦) زيادة من ت، ف، أ .
(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٨٣) .
(٨) فى أ: «السنى».
(٩) زيادة من ت، ف،أ، والمسند.

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد، عن عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدى به[١]. ورواه من طريق شعبة، عن السدى، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفا[٢] [٣].

هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً. وقد رواه أسباط، عن السدى، عن مُرّة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق[٤]، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضعى[٥] إبهامى قدميه، يمر يتكفأ[٦] به الصراط، والصراط دَحْضٌ مَزَلّة، عليه حَسَك كحَسَك القتَاد، حافتاه ملائكة، معهم كلاليب من نار، يختطفون بها الناس. وذكر تمام الحديث. رواه[٧] ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبى الأحوص[٨] عن عبد الله: قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سَلّم سَلّم.

ولهذا شواهد فى الصحيحين وغيرهما، من رواية أنس، وأبى سعيد، وأبى هريرة، وجابر، وغيرهم، من الصحابة، رضى الله عنهم[٩].

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة عن الجُرَيرى، عن [أبى السليل][١٠]، عن غُنَيْم ابن قيس قال: ذكروا ورود النار، فقال كعب: تمسك النار للناس[١١] كأنها مَتْن[١٢] إهالة حتى يستوى عليها أقدام الخلائق، برهم وفاجرهم، ثم يناديها مناد: أن امسكى أصحابك، ودعى أصحابى. قال: فتخسف بكل ولى لها، ولهى أعلم بهم[١٣] من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم. قال كعب: ما بين منكبى الخازن من خزنتها مسيرة سنة، مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين[١٤]، يدفع به الدفع فيصرع به فى النار سبعمائة ألف[١٥].

---

(١) المسند (١/ ٤٣٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٩) وقال: «حديث حسن، ورواه شعبة عن السدى فلم يرفعه».

(٢) فى ت، ف: «مرفوعا».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٦٠).

(٤) فى ف، أ: «البرق الخاطف». (٥) فى أ: «موضع». (٦) فى أ: «فيمر فيكفأ».

(٧) فى ت، ف: «ورواه». (٨) فى ت: «مولى الأحوص».

(٩) أما حديث أنس فرواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٣٦٧) وضعَّف إسناده.
وأما حديث أبى هريرة فهو فى صحيح البخارى برقم (٦٥٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٢).
وأما حدث أبى سعيد فهو فى صحيح البخارى برقم (٦٥٧٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٣).

(١٠) فى هـ: «ابن أبى ليلى» والمثبت من ت، ف، أ، والطبرى.

(١١) فى ف، أ: «الناس». (١٢) فى أ: «بين». (١٣) فى أ: «فتخسف بكل وليها وهى أعلم بهم».

(١٤) فى ت، ف، أ: «عمود وشعبتين».

(١٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٨٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، عن أم مُبَشِّر، عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: « إنى لأرجو ألا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ أحد شهد بدراً والحديبية » قالت[١]: فقلت: أليس الله يقول ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾؟ قالت[٢]: فسمعته يقول: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [٣].

وقال [الإمام][٤] أحمد أيضاً: حدثنا ابن إدريس، حدثنا الأعمش، عن أبى سفيان[٥]، عن جابر، عن أم مبشر ـ امرأة زيد بن حارثة ـ قالت: كان رسول الله ﷺ فى بيت حفصة، فقال: « لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية » قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾[٦].

وفى الصحيحين، من حديث الزهرى، عن سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار، إلا تَحِلَّة القسم » [٧].

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرنى الزهرى، عن ابن المسيب، عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: « من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم » يعنى الورود [٨].

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا زَمْعَة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد، تمسه النار إلا تحلة القسم ». قال الزهرى: كأنه يريد هذه الآية: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [٩].

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن بكار الكلاعى[١٠]، حدثنا أبو المغيرة[١١]، حدثنا عبد الرحمن ابن يزيد بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وعكًا، وأنا معه، ثم قال: « إن الله تعالى يقول: هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن؛ لتكون حظه من النار فى الآخرة » غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه [١٢].

وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: « من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يختمها عشر

(١) فى ت: «قال». (٢) فى أ: «قال».
(٣) المسند (٦/ ٢٨٥).
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «شقيق».
(٦) المسند (٦/ ٣٦٢).
(٧) صحيح البخارى برقم(٦٦٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٣٢).
(٨) تفسير عبد الرزاق(٢/ ١١).
(٩) مسند الطيالسى برقم (٢٣٠٤).
(١٠) فى ت: «الخلاعى». (١١) فى ت: «أبو شعبة».
(١٢) تفسير الطبرى (٦/ ٨٣١) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٣/ ٣٨٢) من طريق محمد بن يحيى عن أبى المغيرة به.

مرات، بنى الله له قصراً فى الجنة ». فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله، فقال رسول الله [ﷺ]: «الله[(١)] أكثر وأطيب»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ ألف آية فى سبيل الله، كُتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، إن شاء الله. ومن حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعاً لا بأجرة[(٣)] سلطان، لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾، وإن الذكر فى سبيل [الله][(٤)] يُضْعَفُ فوق النفقة بسبعمائة ضعف». وفى رواية: «بسبعمائة ألف ضعف»[(٥)].

وروى أبو داود، عن أبى الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب [وسعيد بن أبى أيوب][(٦)] كلاهما عن زبان[(٧)]، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: « إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف »[(٨)].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال: هو الممر عليها[(٩)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾، قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين: أن يدخلوها، وقال النبى ﷺ: « الزالون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سِمَاطان من الملائكة، دعاؤهم: يا ألله سلم سلم »[(١٠)].

وقال السدى، عن مرة، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾قال: قسماً واجباً.

وقال مجاهد: [حتماً][(١١)]، قال: قضاء. وكذا قال ابن جريج[(١٢)].

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أى: إذا مرّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوى المعاصى، بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم. فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التى كانت فى الدنيا، ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون[(١٣)]، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم ـ وهى مواضع السجود ـ وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما فى قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذى يليه، ثم الذى يليه، [ثم الذى يليه][(١٤)] حتى يخرجوا من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار

---

(١) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٢) المسند(٣/ ٤٣٧).
(٣) فى ت، ف: «بأجر».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) رواه أحمد فى مسنده(٣/ ٤٣٧) من حديث معاذ بن أنس رضى الله عنه.
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى أ: «ريان».
(٨) سنن أبى داود برقم (٢٤٩٨).
(٩) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١١).
(١٠) تفسير الطبرى(١٦/ ٨٣).
(١١) زيادة من ف، أ.
(١٢) فى ت: «ابن جرير».
(١٣) فى ت: «فيشفع الله الملائكة والنبيين والمؤمنين».
(١٤)زيادة من ف، أ.

من قال يوماً من الدهر: « لا إله إلا الله»[١] وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى فى النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤) ﴾.

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى[٢] عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [أى: أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً][٣]، وهو مجمع الرجال للحديث، أى: ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك [الذين هم][٤] مختفون مستترون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من[٥] الدور على الحق؟. كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. وقال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أى: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴾ أى: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالا.

[و][٦] قال الأعمش، عن أبى ظَبْيَان، عن ابن عباس: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ قال: المقام: المنزل، والندى: المجلس، والأثاث: المتاع، والرائى: المنظر.

وقال العوفى، عن ابن عباس: المقام: المسكن، والندى: المجلس والنعمة والبهجة التى كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين[٧] أهلكهم وقص شأنهم فى القرآن: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ [٨]وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندى: المجلس والمجمع الذى كانوا يجتمعون فيه، وقال [الله][٩] فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط[١٠]: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والعرب تسمى المجلس: النادى.

وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ فى عيشهم خشونة، وفيهم قشافة، تَعَرّض[١١] أهل الشرك بما تسمعون[١٢]: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾. وكذا قال مجاهد، والضحاك.

ومنهم من قال فى الأثاث: هو المال. ومنهم من قال: المتاع. ومنهم من قال: الثياب، والرئى: المنظر كما قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد.

---

(١) فى ف: «من قال: لا إله إلا الله يوما من االدهر». (٢) فى ف: «يتلى». (٣، ٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ت: «فى». (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «حتى».
(٨) فى ت، ف، أ: «وكنوز». (٩) زيادة من: ت، ف. (١٠) فى أ: «لوط إذ قال».
(١١) فى ت: «وفيهم». (١٢) فى ت، ف، أ: «يسمعون».

وقال الحسن البصرى: يعنى الصور. وكذا قال مالك: ﴿ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾: أكثر أموالاً وأحسن صوراً. والكل متقارب صحيح.

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) ﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين بربهم المدعين، أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أى: منا ومنكم، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أى: فأمهله الرحمن[١] فيما هو فيه، حتى يلقى ربه وينقضى[٢] أجله، ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يصيبه، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ بغتة تأتيه، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ [أى][٣]: فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى.

قال مجاهد فى قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾: فليدعه الله فى طغيانه. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه[٤] ،كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] أى: ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت[٥] إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة «البقرة» مبسوطا، ولله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى فى سورة «آل عمران» حين[٦] صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُجَجه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال[٧] بعد ذلك: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فنكلوا أيضاً عن ذلك.

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) ﴾.

لما ذكر [الله][٨] تعالى إمداد من هو فى الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هُدى كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

---

(١) فى ت، ف، أ: «الله». (٢) فى أ: «ويقضى». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ: «وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون على هدى قيامهم» .
(٥) فى ف: « أى ادعوا بالموت على المبطل منا ومنكم». وفى أ: «أى ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم».
(٦) فى أ: «حتى ». (٧) فى ت: «وقال». (٨) زيادة من ت.

وقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: قد تقدم تفسيرها، والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف».

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومراداً على صاحبها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم، فأخذ عوداً يابساً فَحَطَّ ورقة ثم قال: «إن قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح[(١)]، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات، وهن[(٢)] من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأُهللنّ الله، ولأكبرن الله، ولأسبحن الله، حتى إذا رآنى الجاهل حسب أنى مجنون[(٣)].

وهذا ظاهره[(٤)] أنه مرسل، ولكن قد يكون من رواية أبي سلمة، عن أبي الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع في سنن ابن ماجه، من حديث أبي معاوية، عن عُمر[(٥)] بن راشد، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي الدرداء، فذكر نحوه[(٦)].

﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد[(٧)] [فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ][(٨)] حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد، فأعطيتك. فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما، من غير وجه، عن الأعمش به[(٩)]، وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه. فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي الضُّحَى، عن مسروق قال: قال خَبَّاب

---

(١) في أ: «كما يحط ورق هذا الشجر الريح».
(٢) في أ: «وهو».
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٢).
(٤) في أ: «وهذا ظاهر».
(٥) في ت: «عمرو».
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٣٨١٣) وقال البوصيري في الزوائد(٣/ ١٩٤): «هذا إسناد ضعيف».
(٧) في ت: «محمد».
(٨) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٩) المسند (٤/ ١١١) وصحيح البخاري برقم (٢٠٩١)، (٤٧٣٤، ٤٧٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٥).

ابن الأرت: كنت قيناً بمكة، فكنت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لى عليه دراهم، فجئت لأتقاضاه[١]، فقال لى: لا أقضيك[٢] حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا بعثت كان لى مال وولد. قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[٣].

وقال العَوْفِىّ عن ابن عباس: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمى بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألستم تزعمون أن فى الجنة ذهباً وفضة وحريراً، ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم[٤] الآخرة، فوالله لأوتين مالاً وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذى جئتم به. فضرب الله مثله فى القرآن فقال[٥]: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغيرهم: إنها نزلت فى العاص بن وائل.

وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾: قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولداً» وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، قال رُؤْبَة:

الحمْدُ للهِ العــــزيز فَرْداً ... لَمْ يتخــذ مِنْ وُلْد شىءٍ وُلْدا[٦]

وقال الحارث بن حلزة:

ولَقَد رأيتُ معَـــاشراً ... قد ثمـــــرُوا مالاً وَوُلْدا[٧]

وقال الشاعر:

فَلَيت فُلاناً كانَ فى بَطْن أمه ... وَليتَ فُلاناً كان وُلْدَ حِمَار[٨]

وقيل: إن «الوُلْد» بالضم جمع، «والوَلَد» بالفتح مفرد، وهى لغة قيس، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾: إنكار على هذا القائل، ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ يعنى: يوم القيامة، أى: أعلم ماله فى الآخرة حتى تَألى[٩] وحلف على ذلك، ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخارى: أنه الموثق.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله، فيرجو بها[١٠]. وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ[١١] عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾.

---

(١) فى ف، أ: «أتقاضاه».
(٢) فى أ: «فقال لى أقضيك».
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٣).
(٤) فى ت: «قال فموعدكم».
(٥) فى ت: «فقالوا».
(٦) الرجز فى تفسير الطبرى (١٦/ ٩٢).
(٧) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٩٢).
(٨) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٩٢) واللسان مادة «ولد» غير منسوب.
(٩) فى أ: «حتى مالا».
(١٠) فى أ: «فيرجونها».
(١١) فى ف: «أم اتخذ»، وفى هـ: «إلا من اتخذ»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

وقوله: ﴿ كَلاَّ ﴾: هى حرف رَدْع لما قبلها وتأكيد لما بعدها، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أى: منْ طَلَبَه ذلك وحُكْمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أى: فى الدار الآخرة، على قوله ذلك، وكفره [بالله][1] فى الدنيا، ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أى: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤْتى فى الدار الآخرة مالاً وولداً، زيادة على الذى له فى الدنيا، بل فى الآخرة يُسلَب مِنَ الذى كان له فى الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أى: من المال والولد.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، [قال: نرثه][2].

وقال مجاهد: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾: ماله وولده، وذلك الذى قال العاص بن وائل.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ وفى حرف ابن مسعود: «ونرثه ما عنده».

وقال قتادة: ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾: لا مال له، ولا ولد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدنيا، وما عمل فيها، قال: ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ قال: فرداً من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) ﴾.

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة، لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويستنصرونها.

ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا، فقال: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أى: بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ[3]﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقرأ أبو نَهِيك: «كلّ سيكفرون بعبادتهم».

وقال السدى [4]: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أى: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أى: بخلاف ما رَجَوا منهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال: أعواناً.

قال مجاهد: عوناً عليهم، تُخاصِمُهم وتُكذّبهم.

(١، ٢) زيادة من ف.
(٣) فى ت: «كافرون»، وهو خطأ.
(٤) فى ت: «السندى».

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: قرناء.

وقال قتادة: قرناء فى النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض.

وقال السدى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: الخصماء الأشداء فى الخصومة.

وقال الضحاك: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعداء.

وقال ابن زيد: الضد: البلاء.

وقال عكرمة: الضد: الحسرة.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: تغويهم إغواء.

وقال العوفى عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه.

وقال مجاهد: تُشليهم إشلاء[1].

وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصى الله.

وقال سفيان الثورى: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالا.

وقال السدى: تطغيهم طغيانا.

وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[الزخرف: ٣٦].

وقوله: ﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أى: لا تعجل يا محمد على هؤلاء فى وقوع العذاب بهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أى: إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾[آل عمران: ١٧٨]، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[لقمان: ٢٤]، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

قال السدى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: السنين، والشهور، والأيام، والساعات.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال: نعد أنفاسهم فى الدنيا.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)﴾.

---

(١) فى ف: «تمليهم إملاء».

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين، الذين خافوه فى الدار الدنيا[١]، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم: أنه[٢] يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه. والوفد: هم القادمون ركباناً، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفا إلى النار، ﴿وِرْدًا﴾: عطاشاً، قاله [عطاء][٣]، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وههنا يقال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن خالد[٤]، عن عمرو بن قيس الملائى، عن ابن مرزوق: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها، وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفنى؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عملك الصالح، وهكذا كنت فى الدنيا، حسن العمل طيبه، فطالما ركبتك فى الدنيا ، فهلم اركبنى. فيركبه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ،عن ابن عباس : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: ركباناً.

وقال ابن جرير: حدثنى ابن المثنى، حدثنا ابن مهدى، عن شعبة[٥]، عن إسماعيل، عن رجل، عن أبى هريرة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: على الإبل.

وقال ابن جُريج: على النجائب.

وقال الثورى: على الإبل النوق .

وقال قتادة : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: إلى الجنة .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه: حدثنا سُوَيْد بن سعيد، أخبرنا على بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا النعمان بن سعد قال: كنا جلوساً عند علىّ، رضى الله عنه، فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: لا، والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير[٦] الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها، حتى يضربوا أبواب الجنة[٧] .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدنى، به. وزاد: «عليها رحائل الذهب، وأزمتها الزبرجد» والباقى مثله.

وروى ابن أبى حاتم ههنا حديثا غريباً جداً مرفوعاً، عن على، فقال:

حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدى، حدثنا مسلمة بن جعفر البَجَلى،

---

(١) فى ف: «الآخرة» . (٢) فى أ: «أن» . (٣) زيادة من ف،أ.
(٤) فى ف: «أبو خالد» . (٥) فى أ: «سعيد» . (٦) فى ف، أ: «لم تر» .
(٧) زوائد المسند (١/ ١٥٥) وتفسير الطبرى (١٦/ ٩٦) .

سمعت أبا معاذ البصرى قال: إن عليا كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ فقال: ما أظن الوفد إلا الركب[١] يا رسول الله. فقال رسول الله[٢] ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون ـ أو: يؤتون ـ بنوق بيض لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شُرُك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما، فتغسل ما فى بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجرى عليهم نضرة النعيم، فينتهو أو: فيأتون باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة[٣] فيسمع[٤] لها طنين يا على، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قيمها فيفتح له، فإذا رآه خرّ له – قال مسلمة[٥]: أراه قال: ساجداً – فيقول: ارفع رأسك، إنما أنا قيمك، وكلت بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلةُ فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت ـ حبّى، وأنا حبّك، وأنا الخالدة التى لا أموت، وأنا الناعمة التى لا أبأس، وأنا الراضية التى لا أسخط، وأنا المقيمة التى لا أظعن. فيدخل بيتاً من أسّه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق: أصفر وأحمر وأخضر، ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها. وفى البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الحلل، يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتهم تطرد، أنهار من ماء غير آسن ـ قال: صاف لا كَدَر فيه[٦] ـ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، لم يخرج من ضروع الماشية، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لم يعتصرها[٧] الرجال بأقدامهم[٨]، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل، فيستحلى[٩] الثمار، فإن شاء أكل قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤]، فيشتهى الطعام، فيأتيه طير أبيض، وربما قال: أخضر[١٠]، فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها أى الألوان شاء، ثم تطير فتذهب، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف: ٧٢]، ولو أن شعرة من شعر الحوراء[١١] وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواد فى نور»[١٢].

هكذا وقع فى هذه الرواية مرفوعاً، وقد رويناه فى المقدمات من كلام على، رضى الله عنه، بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أى: عطاشا، ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أى: ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن

---

(١) فى أ: «الركوب». (٢) فى أ: «النبى». (٣) فى ف: «الصفحة».
(٤) فى أ: «فلو تسمع». (٥) فى ف، أ: «سلمة». (٦) فى ف: «فيها».
(٧) فى ف، أ: «يعصرها». (٨) فى أ: «بأقدامها». (٩) فى ف، أ: «فيستميل».
(١٠) فى ف، أ: «خضر». (١١) فى ف: «الحور العين، وفى، أ: «من شعر الحور».
(١٢) ورواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة برقم (٧) من طريق الضحاك بن مزاحم، عن الحارث، عن على أنه سأل النبى ﷺ عن هذه الآية: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ فذكر نحوه.

شَافِعِينَ . وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾[الشعراء: ١٠٠، ١٠١] .

وقوله: ﴿ **إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا** ﴾: هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ **إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا** ﴾ قال: العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله، عز وجل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عثمان بن خالد الواسطى، حدثنا محمد بن الحسن الواسطى، عن المسعودى، عن عون بن عبد الله، عن أبى فاختَةَ، عن الأسود بن يزيد قال: قرأ عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ هذه الآية: ﴿ **إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا** ﴾، ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: «من كان له عند الله عهد فليقم» قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فَعلمنا. قال: قولوا: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، فإنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلنى إلى عمل تقربنى من الشر وتباعدنى[(١)] من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل[(٢)] لى عندك عهداً تُؤدّيه إلىّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.

قال المسعودى: فحدثنى زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يُلْحِقُ بهن: خائفاً مستجيراً مستغفراً، راهباً راغباً إليك[(٣)] .

ثم رواه من وجه آخر، عن المسعودى، بنحوه.

﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)** ﴾ .

لما قرر تعالى فى هذه السورة الشريفة عبودية عيسى، عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع فى مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ـ تعالى وتقدّس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ـ فقال: ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ** ﴾ أى: فى قولكم هذا، ﴿ **شَيْئًا إِدًّا** ﴾[(٤)] قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أى عظيماً.

ويقال: ﴿ **إِدًّا** ﴾ بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدّها أيضاً، ثلاث لغات، أشهرها الأولى.

---

(١) فى ف، أ: «ويباعدونى» . (٢) فى أ: «فاجعله» .

(٣) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٧٧) من طريق عبد الرحمن بن سعد عن المسعودى عن عون عن الأسود بن يزيد عن ابن مسعود بنحوه، ولم يذكر أبا فاختة، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» .

(٤) فى ف: « ﴿شيئا إدًا﴾ أى: فى قولكم هذا» .

وقوله : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أى: يكاد يكون ذلك عند سماعهن[١] هذه المقالة من فجرة بنى آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له ،ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد:

وفى كُل شَىءٍ له آيـةٌ ... تَدُل على أنه واحِدُ

قال ابن جرير: حدثنى على، حدثنا عبد الله، حدثنى معاوية، عن علىّ، عن ابن عباس، فى قوله : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ قال: إن الشرك[٢] فزعت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة». قالوا: يا رسول الله، فمن قالها فى صحته ؟ قال: «تلك أوجب وأوجب». ثم قال: «والذى نفسى بيده، لو جىء بالسموات والأرضين[٣] وما فيهن، وما بينهن، وما تحتهن، فوضعن فى كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى، لرجحت بهن»[٤] .

هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم .

وقال الضحاك: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أى: يتشققن فَرَقاً [٥] من عظمة الله .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ﴾ أى: غضباً لله، عز وجل .

﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ قال ابن عباس: هدماً .

وقال سعيد بن جبير: ﴿هَدًّا ﴾: ينكسر بعضها على بعض متتابعات .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سُوَيْد المقبرى، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مِسْعَر، عن عون بن[٦] عبد الله قال: إن الجبل لينادى الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكرُ الله عز وجل [٧]؟ فيقول: نعم، ويستبشر. قال عون: لهى[٨] للخير أسمع، أفيسمعن[٩] الزور والباطل إذا قيل ولايسمعن[١٠] غيره، ثم قرأ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾[١١] .

---

(١) فى ف، أ: «سماعهم» . (٢) فى أ: «الشريك» . (٣) فى أ: «والارض» .
(٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٩٨) .
(٥) فى ف: «فرعًا»، وفى أ: «أى ينشق فزعًا» . (٦) فى ف: «ابن» .
(٧) فى ف، أ: «ذاكر الله تعالى» . (٨) فى أ: «فهى» . (٩) فى ف، أ: «أفيستمعن» .
(١٠) فى ف، أ: «يستمعن» .
(١١) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١١٧٦) من طريق ابن أبى عمر، عن سفيان، عن مسعر به، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٩/ ١٠٧) من طريق سعيد بن منصور، عن سفيان، عن مسعر ، عن عون، عن ابن مسعود، بنحوه. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٧٩): «رجاله رجال الصحيح» .

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هَوْذَة، حدثنا عوف، عن غالب بن عَجْرَد، حدثنى رجل من أهل الشام فى مسجد مِنًى قال: بلغنى أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر، لم يكن فى الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال: كان لهم فيها منفعة ـ ولم تزل الأرض والشجر بذلك، حتى تكلم فجرة بنى آدم بتلك الكلمة العظيمة، قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض، وشكاك الشجر.

وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واستعرت النار[١]، حين قالوا ما قالوا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبى عبدالرحمن السلمى، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد[٢] أصبر على أذى يسمعه[٣] من الله، إنه يشرك به، ويجعل له ولداً، وهو يعافيهم ويدفع عنهم، ويرزقهم».

أخرجاه فى الصحيحين[٤]. وفى لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزُقُهم ويعافيهم».

وقوله: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أى: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه[٥]؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أى: قد علم عدَدَهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذَكَرهم وأنثاهم، وصغيرهم وكبيرهم، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أى: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم فى خلقه بما يشاء، وهو العادل الذى لا يظلم مثقال ذَرّة، ولا يظلم أحداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)﴾.

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهى الأعمال التى ترضى الله، عزوجل، لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم فى قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لابد منه، ولا محيد[٦] عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوَانة، حدثنا سُهَيْل، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنى أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل». قال: «ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يحب فلاناً». قال: «فيحبه أهل السماء، ثم يُوضَع له القبول فى الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنى أبغضُ فلاناً

---

(١) فى ف، أ: «وأسعرت جهنم». (٢) فى ف: «لا أحد». (٣) فى ف، أ: «سمعه».
(٤) المسند (٤/٤٠٥) وصحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤).
(٥) فى ف، أ: «الخلق». (٦) فى أ: «فلا محيد».

فأبغضه». قال: «فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: «فيُبْغضُه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض».

ورواه مسلم من حديث سُهَيْل[١] . ورواه أحمد والبخارى، من حديث ابن جُرَيْج، عن موسى ابن عتبة[٢] ، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، بنحوه[٣] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر[٤]، حدثنا ميمون أبو محمد المرئى، حدثنا محمد بن عباد المخزومى، عن ثوبان، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال:[٥] «إن العبد ليلتمس مرضات[٦] الله، فلا يزال كذلك[٧] فيقول الله، عز وجل، لجبريل: إن فلاناً عبدى يلتمس أن يرضينى؛ ألا وإن رحمتى عليه، فيقول جبريل: «رحمة الله على فلان»، ويقولها[٨] حملة العرش، ويقولها من حولهم، حتى يقولها أهل السموات السبع، ثم يهبط إلى الأرض»[٩].

غريب، ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شَرِيك، عن محمد بن سعد الواسطى، عن أبى ظَبْيَة، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقة من الله ـ قال شريك: هى المحبة ـ والصيت من السماء، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل، عليه السلام: إنى أحب فلاناً، فينادى جبريل: إن ربكم يمق[١٠] ـ يعنى: يحب ـ فلاناً، فأحبوه ـ وأرى شريكاً قد قال: فتنزل له المحبة فى الأرض ـ وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إنى أبغض فلاناً فأبغضه»، قال: «فينادى جبريل: إن ربكم يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: أرى شريكاً قد قال : فيجرى له البغضُ فى الأرض»[١١] .

غريب ولم يخرجوه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو داود الحَفَرِىّ، حدثنا عبد العزيز - يعنى ابن محمد، وهو الدّرَاوَرْدى ـ عن سهيل بن[١٢] أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إنى قد أحببت فلاناً، فأحبه، فينادى فى السماء، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض، فذلك قول الله، عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾».

---

(١) المسند (٢/ ٤١٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٣٧) .
(٢) فى ف، أ: «ابن عيينة» .
(٣) المسند (٢/٤/٥) وصحيح البخارى برقم (٦٠٤٠) .
(٤) فى ف، أ: «ابن بكير» . (٥) فى ف، أ: «أنه قال». (٦) فى أ: «فرحات» .
(٧) فى أ: «بذلك» . (٨) فى ت: «ويقول» .
(٩) المسند (٥/٢٧٩) .
(١٠) فى أ: «يمقه» .
(١١) المسند (٥/٢٦٣) .
(١٢) فى ف: «عن» .

رواه مسلم والترمذى كلاهما عن قتيبة، عن الدراوردى، به[١] . وقال الترمذى: حسن صحيح .

وقال على بن أبى طلحة ،عن ابن عباس فى قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال :حباً .

وقال مجاهد، عنه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: محبة فى الناس فى الدنيا.

وقال سعيد بن جبير، عنه: يحبهم ويُحببهم، يعنى: إلى خلقه المؤمنين. كما قال مجاهد أيضاً، والضحاك وغيرهم .

وقال العوفى، عن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين فى الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق .

وقال قتادة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾: إى والله، فى قلوب أهل الإيمان، ذكر[٢] لنا أن هَرِم بن حَيَّان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان، رضى الله عنه، يقول: ما من عبد يعمل خيراً، أو شراً، إلا كساه الله، عز وجل، رداء عمله .

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِى، عن الربيع بن صَبِيح، عن الحسن البصرى، رحمه الله قال: قال رجل: والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فكان لا يرى فى حين صلاة إلا قائماً يصلى، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا: «انظروا إلى هذا المرائى»، فأقبل على نفسه فقال: لا أرانى أذكر إلا بِشَرّ ،لأجعلن عملى كله لله، عز وجل، فلم يزد على أن[٣] قلب نيته، ولم يزد على العمل الذى كان يعمله، فكان يمر بعد بالقوم، فيقولون: رحم الله فلاناً الآن، وتلا الحسن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت فى هجرة عبد الرحمن بن عوف. وهو خطأ، فإن هذه السورة بتمامها[٤] مكية لم ينزل منها شىء بعد الهجرة ، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ يعنى: القرآن ، ﴿بِلِسَانِكَ ﴾ أى: يا محمد، وهو اللسان العربى المبين الفصيح الكامل ، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أى: عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل .

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿ قَوْمًا لُّدًّا﴾: لا يستقيمون.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٣٧) وسنن الترمذى برقم (٣١٦١) .

(٢) فى أ: «وذكر» . (٣) فى أ: «أنه». (٤) فى أ: «بكمالها» .

وقال الثورى، عن إسماعيل ـ وهو السُّدِّى ـ عن أبى صالح: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾: عوجاً عن الحق .

[وقال الضحاك: هو الخصم. وقال القرظى: الألد: الكذاب](١) .

وقال الحسن البصرى : ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: صماً.

وقال غيره صم آذان القلوب(٢) .

وقال قتادة: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: يعنى قريشاً .

وقال العوفى، عن ابن عباس : ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: فجاراً .وكذا روى ليث بن أبى سليم عن مجاهد.

وقال ابن زيد: الألد: الظلوم ،وقرأ قول الله : ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[البقرة: ٢٠٤] .

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أى: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أى: هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً.

قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصرى، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وابن زيد: يعنى: صوتاً .

وقال الحسن، وقتادة: هل ترى عيناً، أو تسمع صوتاً.

والركز فى أصل اللغة: هو الصوت الخفى، قال الشاعر(٣):

فَتَوجست(٤) رِكْز الأنيس فَرَاعَهَا ... عَنْ ظَهْر غَيب والأنيسُ سَقَامُها

آخر تفسير «سورة مريم» ولله الحمد والمنة. ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير «سورة طه» والحمد لله

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى أ: «وقال غيرهم آذان القلوب» .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ١٠٢) غير منسوب، وهو للبيد بن ربيعة من معلقته فى ديوانه (ص٣١١) ا.هـ. مستفاداً من حاشية ط ـ الشعب .

(٤) فى ف: «فتوحشت» .

/ سورة مريم [١ظ]

ثمانٍ وتسعون آيةً، كلُّها مكّيّة إلّا آيةَ السجدة.[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ٣﴾

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ بإمالة الهاء والياء[٢] وإظهار الدال.[٣] وقُرئ بفتح الهاء وإمالةِ الياء،[٤] وبتفخيمهما،[٥] وبإخفاء النون قبل الصادِ لتقارُبهما.[٦] وقد سلف أنّ ما لا تكون مِن هذه الفواتح مُفرَدةً ولا مُوازِنةً لمُفرَد فطريقُ التلفُّظ بها الحكاية فقط ساكنة الأعجاز على الوقف، سواءٌ جُعلت أسماءً للسوَر أو مَسرودةً على نمط التعديد، وإن لَزِمها التقاء الساكنين لكونه مُغتفرًا في باب الوقف قطعًا،[٧] فحقُّ هذه الفاتحة الكريمة أن يُوقَف عليها جريًا على الأصل. وقُرئ بإدغام الدال فيما بعدها لتقارُبهما في المَخرَج.[٨]

فإن جُعلت اسمًا للسورة على ما[٩] عليه إطباقُ الأكثر فمحلّه الرفع، إمّا على أنّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذا ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، أي: مُسمًّى به. وإنّما صحّت الإشارة إليه مع عدم جرَيان ذِكْره؛ لأنّه باعتبار كونه على جناح الذِّكر صار في حُكم الحاضر المُشاهَد، كما يقال: "هذا ما اشترى فلان"؛ أو على أنّه مبتدأ،

١ س: سورة مريم عليها السلام، وهي تسعون وثمان آيات.

٢ قرأ بها الكسائي وعاصم في رواية أبي بكر عنه. النشر لابن الجزري، ٦٧/٢-٦٨.

٣ قرأ بإظهار الدال التي في لفظ "صاد" نافع وابن كثير وعاصم ويعقوب. النشر لابن الجزري، ١٧/٢.

٤ قرأ بها ابن عامر وحمزة. النشر لابن الجزري، ٦٨/٢.

٥ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن. شواذُّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٦-٢٩٧.

٦ قرأ بها العشرة إلّا أبا جعفر. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٩١.

٧ سلف في الكلام على الآية الأولى من سورة البقرة.

٨ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ١٧/٢.

٩ س + هي.

خبرُه ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: المُسمّى به ذِكْر رحمة... إلخ، فإنّ ذِكْرها لمّا كان مَطلَعَ السورة الكريمة ومُعظمَ ما انطوت هي عليه جُعلت كأنّها نفسُ ذِكْرها. والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ ما يُجعَل عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون معلومَ الانتساب إليه عند المُخاطَب، وإذ لا عِلمَ بالتسمية مِن قَبلُ فحقُّها الإخبار بها كما في الوجه الأوّل.

وإن جُعلت مَسرودةً على نمط التعديد حسبما جنَح إليه أهل التحقيق فـ﴿ذِكْرُ﴾... إلخ خبرٌ لمبتدأ محذوف هو ما يُنبئ عنه تعديد الحروف، كأنّه قيل: المُؤلَّف مِن جنس هذه الحروف المَبسوطة مُرادًا به السورةُ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ﴾... إلخ؛ أو اسمُ إشارة أُشير به إليه تنزيلًا لحضور المادّة مَنزِلة المُؤلَّف منها، أي: هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ﴾... إلخ. وقيل: هو مبتدأ قد حُذف خبره، أي: فيما يتلى عليك ذِكْرها.[١] وقُرئ "ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ"[٢] على صيغة الماضي مِن التذكير، أي: هذا المَتلوُّ ذَكَّرها. وقُرئ "ذَكِّرْ"[٣] على صيغة الأمر.

والتعرُّض لوصف الربوبيّة المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأنّ تنزيل السورة عليه عليه السلام تكميل له عليه لسلام.

وقوله تعالى: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعول لـ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ على أنّها مفعول لِما أُضيف إليها.[٤] وقيل: لـ"الذِّكر" على أنّه مصدر أُضيف إلى فاعله على الاتِّساع.[٥] ومعنى ذِكْر الرحمة بلوغُها وإصابتُها، كما يقال: ذكَرني معروفُ فلان، أي: بلغني.[٦] وقوله عزّ وعلا: ﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل منه، أو عطف بيانٍ له.

[٢و] ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ ظرف لـ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾. وقيل: / لـ﴿ذِكْرُ﴾[٧] على أنّه مضاف إلى فاعله اتِّساعًا لا على الوجه الأوّل[٨] لفساد المعنى.[٩] وقيل:

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١.
٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.
٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.
٤ انظر هذا الوجه في معاني القرآن للأخفش، ٤٣٧/٢.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١-٣٦٠.
٦ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٩/١-٣٦٠.
٧ القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥٦٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٦/١٣.
٨ م: وهو كون الذِّكر مضافًا إلى مفعوله. «منه».
٩ م: لأنّ الذِّكر ليس في وقت النِّداء. «منه».

هو بدل اشتمال مِن ﴿زَكَرِيَّآ﴾ كما في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ [مريم، ١٩/١٦].[١]

ولقد راعى عليه السلام حُسن الأدب في إخفاء دُعائِه، فإنّه مع كونه بالنسبة إليه عزّ وجلّ كالجهر أَدخَلُ في الإخلاص وأَبعَدُ مِن الرِّياء وأقربُ إلى الخلاص عن لائمة الناس على طَلَب الولد، لتوقُّفه على مبادٍ[٢] لا يَليق به تعاطيها في أوان الكِبَر والشيخوخة، وعن غائلة مَواليه الذين كان يخافهم. وقيل: كان ذلك منه عليه السلام لضَعف الهرَم. قالوا: كان سِنُّه حينئذ ستّين، وقيل: خمسًا وستّين، وقيل: سبعين، وقيل: خمسًا وسبعين، وقيل: ثمانين، وقيل: أكثرَ منها،[٣] كما مرّ في تفسير سورة آل عِمران.[٤]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤﴾

﴿قَالَ﴾ جملة مُفسِّرة لـ﴿نَادَىٰ﴾[٥] لا محلَّ لها مِن الإعراب. ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ إسناد الوهن إلى العَظْم لِما أنّه عماد البدن ودِعام الجَسد، فإذا أصابه الضَّعف والرخاوة أصاب كُلَّه، أو لأنّه أشدُّ أجزائه صلابة وقِوامًا وأقلُّها تأثُّرًا مِن العِلَل، فإذا وهَن كان ما وراءه أَوهَنَ. وإفراده للقصد إلى الجنس المُنبِئ عن شمول الوَهْن لكلّ فردٍ مِن أفراده. و﴿مِنِّي﴾ مُتعلِّق بمحذوف هو حال مِن ﴿ٱلۡعَظۡمُ﴾. وقُرئ "وَهِنَ" بكسر الهاء وبضمّها أيضًا.[٦] وتأكيد الجملة لإبراز كمال الاعتناءِ بتحقيق مضمونها.

﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ شبّه عليه السلام الشيبَ في البياض والإنارة بشُواظ النار، وانتشارَه في الشعر وفُشوِّه[٧] فيه وأخذَه منه كلَّ مأخَذ باشتعالها، ثمّ أخرجه

---

[١] القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥/٥٦٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٦.

[٢] ط س: مبادئ. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٣] هذه الأقوال جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٠.

[٤] في الكلام على الآية الأربعين منها.

[٥] في الآية السابقة.

[٦] قراءتان شاذّتان، غير منسوبتين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.

[٧] كذا ضُبطت في نسخة المؤلّف.

مُخرجَ الاستعارة، ثم أَسند الاشتعالَ إلى مَحلّ الشَّعر ومَنبته، وأخرجه مُخرج
[٢ظ] التمييز، وأطلَق الرأسَ اكتفاءً / بما قيّد به العَظْم. وفيه مِن فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى، حيث كان الأصل: "اشتعل شيبُ رأسي" فأسنَد الاشتعال إلى الرأس -كما ذُكر- لإفادة شمولِه لكلِّها، فإنّ وِزانه بالنسبة إلى الأصل وِزان "اشتعل بيته نارًا" بالنسبة إلى "اشتعل النار في بيته"، ولزيادة تقريره بالإجمال أوّلًا والتفصيل ثانيًا ولمَزيد تفخيمه بالتنكير. وقُرئ بإدغام السين في الشين.[١]

﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: لم أكن بدعائي إيّاك خائبًا في وقت مِن أوقات هذا العمر الطويل؛ بل كلَّما دعوتُك استجبتَ لي. والجملة معطوفة على ما قبلها، أو حال مِن ضمير المُتكلِّم، إذِ المعنى واشتعل رأسي شيبًا. وهذا توسُّل منه عليه السلام بما سلف منه مِن الاستجابة عند كلّ دعوة إثرَ تمهيدِ ما يستدعي الرحمة ويَستجلِب الرأفة من كِبَر السنّ وضَعْف الحال، فإنّه تعالى بعد ما عوَّد عبده بالإجابة دهرًا طويلًا لا يكاد يُخيِّبه أبدًا لاسيّما عند اضطراره وشدّة افتقاره.

والتعرّض في الموضوعَين لوَصْف الربوبيّة المُنبِئة عن إضافة ما فيه صلاح
[٤٨ظ] المَربوب، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام، / لاسيّما توسيطه بين "كان" وخبرها لتحريك سلسلة الإجابة بالمُبالغة في التضرُّع. ولذلك قيل: إذا أراد العبد أن يُستجاب له دُعاؤه فليَدعُ الله تعالى بما يُناسبه مِن أسمائه وصفاتِه.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَهَنَ﴾[٢] مُترتِّب مضمونه على مضمونه، فإنّ ضَعْف القُوى وكِبَر السنّ مِن مَبادي خوفه عليه السلام مَن يلي أمرَه بعد موته. ومَواليه: بنو عمّه وكانوا شِرارَ بني إسرائيلَ فخاف ألّا
[٣و] يُحسِنوا / خلافتَه في أُمّته ويُبدِّلوا عليهم دينهم.

---

[١] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ١/٢٩٢.
[٢] في الآية السابقة.

وقوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ أي: بعد موتي، مُتعلِّق بمَحذوف يَنساق إليه الذِّهن، أي: فِعلَ المَوالي مِن بعدي، أو جَور المَوالي، وقد قُرئ كذلك.[١] أو بما في المَوالي مِن معنى الوِلاية، أي: خِفتُ الذين يَلُون الأمر مِن ورائي لا بـ﴿خِفْتُ﴾ لفساد المعنى. وقُرئ "وَرَايَ" بالقصر وفتح الياء،[٢] وقُرئ "خَفَّتِ المَوَالي مِن وَرَائِي"،[٣] أي: قلُّوا وعجَزوا عن القيام بأمور الدِّين بعدي، أو خفَّت المَوالي القادرون على إقامة مَراسم المِلّة ومَصالح الأمّة مِن خفَّ القوم، أي: ارتحلوا مُسرعين، أي: درَجوا قُدّامي ولم يبقَ منهم مَن به تَقوٍّ واعتضادٌ.[٤] فالظرف حينئذ مُتعلِّق بـ"خفَّتْ". ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي: لا تلِد مِن حين شبابها.

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارّين مُتعلِّق بـ﴿هَبْ﴾ لاختلاف معنييهما، فاللام صلة له، و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية مَجازًا. وتقديم الأوّل لكون مدلوله أهمَّ عنده، ويجوز تعلُّق الثاني بمحذوف وقع حالًا[٥] مِن المفعول. و"لَدُنْ" في الأصل ظرف بمعنى أوّل غايةِ زمانٍ أو مكان أو غيرِهما مِن الذوات، وقد مرّ تفصيله في أوائل سورة آل عمران، أي: أعطِني مِن مَحْض فضلِك الواسع وقدرتِك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العاديّة.

﴿وَلِيًّا﴾ أي: ولدًا مِن صُلبي. وتأخيره عن الجارَّين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهِبة له على ذلك الوجه البديع مع ما فيه مِن التشويق إلى المُؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفسُ مُستشرِفة له فعند وروده لها يتمكَّن عندها فَضْل تمكُّن، ولأنّ فيه نوعَ طُول بما بعده مِن الوصف، فتأخيرهما عن الكلّ أو توسيطهما بين الموصوف والصفة ممّا لا يليق بجزالة النظم الكريم.

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الزُّهري. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٥/٥٦٦؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٨.

٢ قرأ بها ابن كثير. السبعة لابن مجاهد، ص ٤٠٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عثمان بن عفّان وابن عبّاس وسعيد بن جبير ومحمد بن عليّ وعليّ بن الحسَن وزيد بن ثابت والوليد بن مُسلم وابن مِقسَم والجُعفي والأهوازي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٩٣.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٦.

٥ وفي هامش م: إذ لو تأخّر صار صفةً له. «منه».

[٣ظ] والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ ما / ذكَره عليه السلام مِن كِبَر السنّ وضَعْف القُوى وعُقر المَرأة مُوجِب لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسّط الأسباب العاديّة واستيهابه على الوجه الخارق للعادة، ولا يَقدَح في ذلك أن يكون هناك[١] داعٍ آخرُ إلى الإقبال على الدعاء المذكورِ مِن مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة في حقّ مريمَ، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ الآية، [آل عمران، ٣٨/٣]. وعدمُ ذِكره ههنا للتعويل على ذِكره هناك، كما أنّ عدم ذِكر مُقدِّمة الدعاء هناك للاكتفاء بذِكره ههنا، فإنّ الاكتفاء بما ذُكر في مَوطِن عمّا تُرك في مَوطَن آخرَ مِن النُّكت التنزيليّة.

وقوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي﴾ صفة لـ﴿وَلِيًّا﴾. وقُرئ هو وما عُطف عليه بالجزم[٢] جوابًا للدعاء، أي: يرثني مِن حيث العِلمُ والدِّين والنبوّة، فإنّ الأنبياء عليهم والسلام لا يُورِّثون المالَ، قال عليه السلام: «نحن معاشرَ الأنبياءِ لا نُورَث، ما تركنا صدقة».[٣] وقيل: يَرِثني الحُبورة وكان عليه السلام حَبْرًا.[٤]

﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يقال: ورِثه وورِث منه لغتان.[٥] وآلُ الرجل: خاصّته الذين يَئول إليه أمرهم للقَرابة أو الصُّحبة أو المُوافَقة في الدِّين. وكانت زوجة زكريَّا أختَ أمّ مريمَ، أي: ويَرِث منهم المُلكَ.

قيل: هو يعقوبُ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم السلام. وقال الكلبيُّ ومُقاتل: هو يعقوبُ بنُ ماثانَ أخو عمرانَ بنِ ماثانَ مِن نسل سليمانَ عليه السلام، وكان آلُ يعقوبَ أخوال يحيى بن زكريَّا، قال الكلبيّ: كان بنو ماثانَ رءوسَ بني إسرائيلَ وملوكَهم، وكان زكريَّا رئيسَ الأحبار يومئذ، فأراد أن يَرِثه ولدُه حُبورتَه ويَرِثَ من بني ماثانَ مُلكَهم.[٦]

---

[١] س: هنا.
[٢] قرأ بها أبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.
[٣] بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٨٨/١ (٩)؛ وصحيح البخاري، ٧٩/٤ (٣٠٩٣)؛ وصحيح مسلم، ١٣٧٧/٣ (١٧٥٧).
[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.
[٥] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.
[٦] هذه الأقوال جميعها في اللباب لابن عادل، ١٤/١٣.

وقُرئ "ويَرِثُ وارثَ آلِ يَعقُوبَ"[١] / على أنّه حال مِن المُستكِنّ في ﴿يَرِثُ﴾، [٤و]
وقُرئ: "أُوَيْرِثَ آلِ يَعقُوبَ"[٢] بالتصغير، ففيه إيماء إلى وِراثته عليه السلام، لِما يَرِثه في حالة صِغَره. وقُرئ: "وَارِثٌ مِن آلِ يَعقُوبَ"[٣] على أنّه فاعلُ ﴿يَرِثُنِى﴾ على طريقة التجريد، أي: يَرِثُني به وارث. وقيل: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، إذ لم يكن كلُّ آل يعقوبَ عليه السلام أنبياءَ ولا علماءَ.[٤]

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مَرضيًا عندك قولًا وفعلًا. وتوسيطُ ﴿رَبِّ﴾ بين مفعولَي الجَعْل للمُبالغة في الاعتناء بشأن ما يَستدعيه.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾

﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ على إرادة القول، أي: قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ لكن لا بأن يُخاطِبه عليه السلام بذلك بالذات؛ بل بواسطة المَلَك، على أن يَحكيَ له[٥] عليه السلام هذه العبارة عنه عزّ وجلّ على نهج قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ الآية، [الزمر، ٥٣/٣٩]. وقد مرّ تحقيقه في سورة آل عمران.[٦]

وهذا جواب لندائه عليه السلام ووعدٌ بإجابة دعائه، لكن لا كُلًّا كما هو المُتبادر مِن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ إلخ، [الأنبياء، ٩٠/٢١]؛ بل بعضًا حسبما تقتضيه المَشيئة الإلهيّة المَبنيّة على الحِكَم البالغة، فإنّ الأنبياء عليهم السلام وإن كانوا مُستجابي الدعوةِ لكنّهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات. ألا يُرى إلى دعوة إبراهيمَ عليه السلام في حقّ أبيه، وإلى دعوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث قال: «وسألتُه ألّا يُذيق بعضهم بأس بعض فمَنعنيها».[٧]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والجَحدري. الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير والجَحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.
٣ مع جزم الفعل. قراءة شاذّة، مرويّة عن علي وابن عبّاس ويحيى بن يعمر والحسن وقتادة والجَحدري وجعفر بن محمّد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٧؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٩٤.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.
٥ م: أي: المَلَك. «منه».
٦ في الكلام على الآية التاسعة والثلاثين منها.
٧ مسند أحمد، ٤٤٩/٣٦ (٢٢١٣٦)؛ سنن الترمذي، ٤٧١/٤ (٢١٧٥)؛ المعجم الكبير للطبراني، ٢٨٠/٢ (٢١٧١).

وقد كان مِن قضائه عزّ وعلا أن يَهَبه يحيى نبيًا مَرضيًا ولا يَرِثه، فاستُجيب دعاؤه في الأوّل دون الثاني حيث قُتل قبل موت أبيه عليهما السلام على ما هو المشهورُ. وقيل: بقي بعده بُرهةً فلا إشكالَ حينئذ.[١]

وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه السلام. وفي تخصيصه به حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي: شريكًا له في الاسم، حيث لم يُسمَّ أحد قبله بيحيى، مزيدُ تشريفٍ وتفخيم له[٢] عليه السلام، فإنّ التسمية بالأسامي البديعة المُمتازة عن أسماء / سائر الناس تنويه بالمُسمّى لا محالةَ. وقيل: سَميًا شبيهًا في الفضل والكمال كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم، ٦٥/١٩]، فإنّ المُتشارِكين في الوصف بمنزلة المُتشارِكين في الاسم.[٣] [٤ظ]

قالوا: لم يكن له عليه السلام مِثْل في أنّه لم يعصِ الله تعالى، ولم يَهُمَّ بمعصية قطّ، وأنّه وُلِد مِن شيخ فانٍ وعجوز عاقر، وأنّه كان حَصورًا. فيكون هذا إجمالًا لِما نزَل بعده مِن قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران، ٣٩/٣]. والأظهر أنه اسم أعجمي، وإن كان عربيًا فهو مَنقول عن الفعل كـ"يَعمَرَ" و"يَعيشَ".[٤] قيل: سُمّي به لأنّه حيِيَ به رحِمُ أُمّه، أو حيِيَ دينُ الله تعالى بدعوته.[٥]

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مَبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام حينئذ؟ فقيل: ﴿قال﴾: ﴿رَبِّ﴾. ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى إليه بتوسُّط المَلَك، للمبالغة في التضرُّع والمناجاة، والجِدِّ في التبتُّل إليه تعالى، والاحترازِ عمّا عسى يُوهِم خطابُه للمَلَك مِن توهُّم أنّ عِلمه تعالى بما يَصدُر عنه مُتوقِّف على توسُّطه، كما أنّ عِلم البشر بما يصدُر عنه سبحانه مُتوقِّف على ذلك في عامّة الأوقات.

---

١ ما وجدتُه فيما وقفتُ عليه من المصادر.
٢ السياق: وفي تخصيصه به... مَزيد تشريف...
٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.
٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦/٣.
٥ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦١/٢.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ كلمة ﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى "كيف" أو "مِن أين". و"كان" إمّا تامّة و﴿أَنَّىٰ﴾ واللام مُتعلِّقتان بها. وتقديم الجارّ على الفاعل لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم والتشويق إلى ما أُخِر، أي: كيف أو مِن أين يحدُث لي غلام؟ ويجوز أن تتعلّق اللام بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿غُلَٰمٞ﴾، إذ لو تأخّر لكان صفةً له، أي: أنّى يحدُث كائنًا لي غلام؛ أو ناقصة[1] اسمُها ظاهر، وخبرُها إمّا ﴿أَنَّىٰ﴾، و﴿لِي﴾ مُتعلِّق بمحذوف، كما مرّ؛ أو هو الخبر، و﴿أَنَّىٰ﴾ نَصْب على الظرفيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ حال مِن ضمير المُتكلِّم بتقدير "قد"، وكذا / قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ حال منه مُؤكِّدة للاستبعاد إثْرَ [٥و]
تأكيد، أي: كانت امرأتي عاقرًا لم تلِد في شبابها وشبابي، فكيف؟ وهي الآن عجوز، وقد بلغتُ أنا مِن أجل كِبَر السنّ جَساوة وقُحولًا[2] في المَفاصل والعِظام؛ أو بلغتُ مِن مَدارج الكِبَر ومراتبه ما يُسمَّى عِتِيًّا مِن عتا يعتو، وأصله: "عُتُووٌ" كـ"قُعود"، فاستُثقل توالي الضمّتين والواوين فكُسرت التاء فانقلبت الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، ثمّ قُلبت الثانية أيضًا لاجتماع الواو والياء وسَبْقِ إحداهما بالسكون، وكُسرت العين إتباعًا لها لِما بعدها. وقُرئ بضمِّها.[3]

ولعلّ البدايةَ ههنا بذِكر حال امرأته على عكس ما في سورة آل عمرانَ لِما أنّه قد ذُكر حاله في تضاعيف دعائه، وإنّما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكِبَر تتمّة لِما ذُكر قبلُ، وأمّا هنالك فلم يَسبِق في الدُّعاء ذِكر حاله، فلذلك قدّمه على ذِكر حال امرأته لِما أنّ المسارعة إلى بيان قصور شأنه أنسب، وإنّما قاله عليه السلام مع سَبْق دعائه بذلك وقوّة يقينه بقُدرة الله عزّ وجلّ -لاسيّما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آلِ عمران- استعظامًا لقدرة الله تعالى وتعجيبًا مِنها واعتدادًا بنعمته تعالى عليه في ذلك بإظهار أنّه مِن مَحض لُطف الله عزّ وجلّ وفضله، مع كونه في نفسه مِن الأمور المُستحيلة عادة لا استبعادًا له.

---

[1] السياق: و"كان" إمّا تامّة... أو ناقصة...

[2] جسا الرجُل جَسْوًا وجُسُوًّا: صلُب. ويد جاسية: يابسة العظام قليلة اللحم. وجسا الشيخ جُسُوًّا: بلغ غاية السِّنّ. والقُحول: اليُبس. لسان العرب لابن منظور، «جسا»، «قحل».

[3] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

وقيل: إنّما قاله ليُجابَ بما أُجيب به فيزداد المؤمنون إيقانًا ويَرتدع المُبطلون.[١] وقيل: كان ذلك منه عليه السلام استفهامًا عن كيفيّة حدوثه. وقيل: بل كان ذلك بطريق الاستبعاد، حيث كان بين الدعاء والبِشارة ستّون سنةً، وكان قد نسِيَ دعاءَه، وهو بعيد.[٢]

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾

[٥ظ] / ﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ مَبنيّ على سؤال نشأ ممّا سلف. والكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ مُقحمَة كما في: "مِثلُك لا يَبخل"، مَحلُّها: إمّا النصب على أنّه مَصدر تشبيهيّ[٣] لـ﴿قَالَ﴾ الثاني، و"ذلك" إشارة إلى مصدره الذي هو عبارة عن الوعد السابقِ لا إلى قولٍ آخرَ شُبِّه هذا به، وقد مرّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢].

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ جملة مُقرّرة للوعد المذكور دالّة على إنجازه داخلة في حيّز ﴿قَالَ﴾ الأوّل. كأنّه قيل: قال الله عزّ وجلّ: مِثلَ ذلك القول البديع قلتُ، أي: مثلَ ذلك الوعدِ الخارقِ للعادة وعدتُ، هو عليّ خاصّةً هيّن وإن كان في العادة مُستحيلًا. وقُرئ "وَهُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ"،[٤] فالجملة حينئذ حال مِن ﴿رَبُّكَ﴾، والياء عبارة عن ضميره -كما ستعرِفه- أو اعتراض، وعلى كلّ حال فهي مُؤكِّدة ومُقرِّرة لِما قبلها.

ثمّ أُخرِج القول الثاني مُخرَج الالتفات جريًا على سَنن الكبرياء لتربية المَهابة وإدخال الروعة، كقول الخلفاء: "أميرُ المؤمنين يرسم لك" مكانَ "أنا أرسم"،[٥] ثمّ أُسند إلى اسم الربّ المضاف إلى ضميره عليه السلام تشريفًا له وإشعارًا بعِلّة الحُكم. فإنّ تذكير جرَيان أحكام ربوبيّته تعالى عليه عليه السلام مِن إيجاده مِن العدم وتصريفِه في أطوار الخلق مِن حال إلى حال شيئًا فشيئًا

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٧/٣.
٢ ما وجدته فيما وقفت عليه من المصادر.
٣ م: أي: نعتٌ لمصدر مؤكِّد له، أي: حالٌ قولًا كائنًا مثل ذلك القول. «منه».
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٧/٣.

إلى أن يبلغ كمالَه اللائقَ به ممّا يَقلَع أساسَ استبعاده عليه السلام لحصول الموعود ويُورثه عليه السلام الاطمئنانَ بإنجازه لا محالةَ.

ثمّ التُفت مِن ضمير الغائب العائد إلى الربّ إلى ياء العظمةِ إيذانًا بأنّ مَدار كونه هيّنًا عليه سبحانه هو القدرة الذاتيّة لا ربوبيّتُه تعالى له عليه السلام خاصّة وتمهيدًا لِما يَعقُبه. وقيل: ذلك إشارة إلى مُبهَم يُفسّره قولُه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ على طريقة قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر، ٦٦/١٥]. ولا يَخرُج هذا الوجه على القراءة بالواو لأنّها لا تدخُل بين المُفسِّر والمُفسَّر.

/ وإمّا الرفع[١] على أنّه خبر مبتدأ محذوف، و"ذلك" إشارةٌ إلى ما تقدَّم مِن وعده تعالى، أي: قال عزّ وعلا: الأمر كما وعدتُ، وهو واقع لا محالةَ. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾... إلخ، استئناف مُقرِّر لمضمونه. والجملة المَحكيّة على القراءة الثانية[٢] معطوفة على المَحكيّة الأولى، أو حال مِن المُستكِنّ في الجارّ والمجرور. [٦و]

وأيًّا ما كان فتوسيطُ ﴿قَالَ﴾ بينهما مُشعِر بمَزيد الاعتناء بكلّ منهما. والكلام في إسناد القول إلى الربّ ثمّ الالتفاتِ إلى التكلُّم كالذي مرّ آنفًا. وقيل: "ذلك" إشارة إلى ما قاله زكريّا عليه السلام،[٣] أي: قال تعالى: الأمرُ كما قلتَ تصديقًا له فيما حكاه مِن الحالة المُباينة للولادة في نفسه وفي امرأته. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾... إلخ، استئناف مَسوق لإزالة استبعاده بعد تقريره، أي قال تعالى: هو مع بُعده في نفسه عليّ هيّن. والقراءة الثانية[٤] أدخَل في إفادة هذا المعنى، على أنّ الواو للعطف، وأمّا جَعْلها للحال فمُخِلّ بسداد المعنى؛ لأنّ مآله تقريرُ صعوبته حالَ سهولته عليه تعالى، مع أنّ المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته في نفسه.

---

١ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "إمّا النَّصب". «منه».

٢ وفي هامش م: أي: القراءة بالواو. «منه».

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦١/١.

٤ وفي هامش م: أي: القراءة بالواو. «منه».

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ جملة مستأنفة مُقرِّرة لِما قبلها، والمراد به ابتداء خَلْقِ البشر، إذ هو الواقعُ إثرَ العدم المَحضِ، لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد، وإنّما لم يُنسَب ذلك إلى آدمَ عليه السلام، وهو المخلوق مِن العدم حقيقةً بأن يقال:[١] وقد خلقتُ أباك أو آدمَ مِن قبل ولم يك شيئًا مع كفايته في إزالة الاستبعاد بقياس حال ما بُشِّر به على حاله عليه السلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس، حيث نبَّه على أنّ كلّ فرد مِن أفراد البشر / له حظٌّ مِن إنشائه عليه السلام مِن العدم، إذ لم تكن فطرته البديعة [٦ظ] مقصورةً على نفسه؛ بل كانت أنموذجًا مُنطويًا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواءً إجماليًا مُستتبعًا لجريان آثارِها على الكلّ، فكان إبداعُه عليه السلام على ذلك الوجه إبداعًا لكلّ أحد مِن فروعه كذلك.

ولمّا كان خَلْقه عليه السلام على هذا النمط الساري إلى جميع أفراد ذرّيّته أبدعَ مِن أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه، كما هو المفهوم مِن نسبة الخلق المذكور إليه وأدلَّ على عِظَم قُدرتِه تعالى وكمال علمِه وحكمتِه، وكان عدم زكريّا حينئذٍ أظهرَ عنده وأجلى، وكان حاله أَولى بأن يكون مِعيارًا لحال ما بُشِّر به، نُسِب الخَلْق المذكور إليه،[٢] كما نُسب الخَلْق والتصوير إلى المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ [الأعراف، ١١/٧] توفيةً لمَقام الامتنانِ حقَّه، فكأنّه قيل: وقد خلقتُك مِن قبلُ في تضاعيف خَلْق آدمَ ولم تكن إذ ذاك شيئًا أصلًا؛ بل عدمًا بحتًا ونفيًا صِرفًا.

هذا، وأمّا حَمل الشيء على المُعتدّ به، أي: ولم تكن شيئًا مُعتدًّا به،[٣] فيأباه المقام ويَردّه نظم الكلام. وقُرئ "خَلَقْنَاكَ".[٤]

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامةً تدلُّني على تحقّق المَسئول ووقوع الحبَل. ولم يكن هذا السؤال منه عليه السلام لتأكيد البِشارة وتحقيقها كما قيل.[٥]

---

١ السياق: وإنّما نُسِب... بأن يُقال...
٢ السياق: ولمّا كان خلقه... نُسِب الخلق...
٣ أجاز حَمله على ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٧/٣.
٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.
٥ انظر القول في اللباب لابن عادل، ٢٢/١٣.

فإنّ ذلك ممّا لا يَليق بمَنصِب الرسالة، وإنّما كان ذلك لتعريف وقت العُلوق، حيث كانت البِشارة مُطلَقة عن تعيينه، وهو أمر خفيّ لا يُوقَف عليه، فأراد أن يُطلعَه الله عليه ليَتلقّى تلك النعمة الجليلة بالشكر مِن حين حُدوثها، ولا يُؤخّرَه إلى أن تظهَر ظهورًا مُعتادًا.

وقد مرَّت الإشارة في تفسير سورة آل عمران[١] إلى أنّ هذا السؤال ينبغي أن يكون بعد ما مضى بعد البِشارة بُرهةٌ مِن الزمان، لِما يروى أنّ يحيى كان أكبرَ مِن عيسى عليهما السلام بستّة أشهر أو بثلاث سنين، ولا ريبَ في أنّ دعاء زكريّا عليه السلام كان في صِغَر مريمَ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران، ٣٨/٣]، وهي إنّما وَلدت عيسى عليه السلام وهي بنت عشرِ سنينَ أو بنت ثلاثَ عشرةَ سنةً.[٢]

/ والجَعْل إبداعي، واللام مُتعلّقة به. وتقديمُها على المفعول به لِما مرّ مِرارًا [٧و] مِن الاعتناء بالمُقدَّم والتشويق إلى المُؤخَّر، أو بمَحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةً﴾، إذ لو تأخر لكان صفةً لها. وقيل: بمعنى التصيير المُستدعي لمفعولين، أوّلُهما: ﴿ءَايَةً﴾، وثانيهما: الظرفُ. وتقديمُه لأنّه لا مُسوّغ لكون ﴿ءَايَةً﴾ مبتدأً عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سِوى تقديمِ الظرف، فلا يتغيَّر حالُهما بعد ورودِ الناسخ.[٣]

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: ألّا تَقدِر على أن تُكلِّمهم بكلام الناس مع القدرة على الذِّكر والتسبيح. ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ مع أيّامهنّ للتصريح بها في سورة آل عمران.[٤] ﴿سَوِيًّا﴾ حال مِن فاعل ﴿تُكَلِّمَ﴾ مُفيد لكون انتفاءِ التكلُّم بطريق الاضطرار دون الاختيار، أي: تُمنَع الكلامَ فلا تُطيق به حالَ كونك سويَّ الخلق سليمَ الجوارح ما بك شائبةُ بَكَم ولا خَرَس.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١﴾

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: مِن المُصلّى أو مِن الغرفة، وكانوا مِن وراء المِحراب ينتظرونه أن يَفتح لهم الباب فيدخلوه ويُصلّوا إذ خرج عليهم

---

١ في الكلام على الآية الحادية والأربعين منها.

٢ سيأتي هذا وتخريجه في الكلام على مريم، ٢٢/١٩.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠٨/٥ (آل عمران، ٤١/٣).

٤ في آل عمران، ٤١/٣.

مُتغيِّرًا لونُه فأنكروه وقالوا: ما لك؟ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أومأ إليهم، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران، ٤١/٣]. وقيل: كتب على الأرض.[١] و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾: إمّا مُفسِّرة لـ"أوحى"، أو مصدريّة. والمعنى: أن صلُّوا، أو بأن صلُّوا ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ هما ظرفا زمان للتسبيح. عن أبي العالية: أنّ المراد بهما صلاةُ الفجر وصلاةُ العصر.[٢] أو نزِّهوا ربّكم طرفَي النهار. ولعلّه كان مأمورًا بأن يُسبّح شكرًا ويأمرَ قومه بذلك.[٣]

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ استئناف طُويَ قبله جُمل كثيرة مُسارَعةً إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم، أي: قلنا: يا يحيى ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجِدّ واستظهار بالتوفيق. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ / قال ابن عبّاس رضي الله [٧٧ظ] عنهما: الحُكم: النبوّة، استنبأه وهو ابن ثلاثِ سنينَ.[٤] وقيل: الحُكم: الحِكمة وفَهم التوراة والفقه في الدِّين.[٥] رُوي أنه دعاه الصبيان إلى اللعب، فقال: ما لِلَّعب خُلِقنا.[٦]

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطف على الحُكم. وتنوينه للتفخيم، وهو التحنُّن والاشتياق، ومِن مُتعلِّقة بمحذوف وقَع صفةً له مُؤكِّدةً لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفَخامة الإضافيّة، أي: وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنةً مِن جنابنا أو رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما. ﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: طهارة مِن الذُّنوب أو صدَقة تصدَّقنا به علي أبويه أو وفَّقناه للتصدّق على الناس. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مُطيعًا مُتجنِّبًا عن المعاصي.

---

١ مَرويٌّ عن مجاهد وابن عبّاس. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٧٢/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٨/٣.
٢ لم أجده فيما وقفت عليه من المصادر.
٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٢/٢.
٤ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢١/٥؛
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٨/٣.
٦ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٧٤/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٨/٣.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ۝١٥﴾

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ عطف على ﴿تَقِيّٗا﴾ أي: بارًّا بهما لطيفًا بهما مُحسِنًا إليهما. ﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ مُتكبِّرا عاقًّا لهما أو عاصيًا لربّه.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ مِن الله عزّ وجلّ ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ مِن أن يَناله الشيطانُ بما يَنال به بني آدمَ. ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ مِن عذاب القبر. ﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ مِن هول القيامة وعذاب النار.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كلام مستأنَف خُوطِب به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأُمر بذِكر قصّة مريمَ إثْرَ قصّةِ زكريّا لِما بينهما مِن كمال الاشتباك. والمراد بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ السورة الكريمة لا **القرآن**، إذ هي التي صُدِّرت بقصّة زكريّا المستتبعة لذِكر قصّتها وقَصص الأنبياء المذكورين فيها، أي: واذكر للناس فيها[1] ﴿مَرۡيَمَ﴾ أي: نبأَها، فإنّ الذِّكر لا يَتعلّق بالأعيان.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ ظرف لذلك المُضاف، لكن لا على أن يكون المأمور به ذِكرَ نبئها عند انتباذِها فقط؛ بل كلُّ ما عُطف عليه وحُكيَ بعده بطريق الاستئناف داخلٌ في حيّز الظرف مُتمِّم للنبأ. وقيل: بدلُ اشتمالٍ مِن مريمَ، على أنّ المراد بها نبؤها، فإنّ الظروف مُشتمِلة على ما فيها.[2] وقيل: بدلُ الكلّ، على أنّ المراد بالظرف ما وقَع فيه. وقيل: ﴿إذ﴾ بمعنى "أنْ" المصدريّة كما في قولك: "أكرمتُك إذ لم تُكرمني"، أي: لأنْ لم تُكرمني، / فهو بدلُ [٩٨و] اشتمالٍ لا محالةَ.[3]

---

١ ط س - فيها.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/٨.
٣ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٢.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ مُتعلِّق بـ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾. وقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ مفعول له[١] باعتبار ما في ضمنه مِن معنى الإتيانِ المُترتِّب وجودًا واعتبارًا على أصل معناه[٢] العامل في الجارّ والمجرور، وهو السرّ في تأخيره[٣] عنه، أي: اعتزلتْ وانفردتْ منهم وأتتْ مكانًا شرقيًّا مِن بيت المَقدِس أو مِن دارها لتتخلّى هنالك للعبادة.

وقيل: قعدتْ في مَشْرَقة[٤] لِتغتسلَ مِن الحيض مُحتجبةً بحائط أو بشيء يَسترُها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾. وكان مَوضِعها المَسجِد فإذا حاضتْ تحوّلتْ إلى بيت خالتها وإذا طهُرت عادت إلى المَسجِد، فبينا هي في مُغتسَلها أتاها المَلَك عليه السلام في صورة آدميّ شابّ أمردَ وضيءِ الوجه جَعْدِ الشَّعر، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: جبريل عليه السلام،[٥] عُبّر عنه بذلك توفيةً للمَقام حقَّه. وقُرئ بفتح الراء[٦] لكونه سببًا لِما فيه رَوحُ العباد الذي هو عُدّة المُقرَّبين في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۞ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة، ٥٦/٨٨-٨٩].

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ سويَّ الخلق كاملَ البنية لم يَفقِد مِن حِسان نعوت الآدميّة شيئًا. وقيل: تمثَّل في صورة تِرْب لها اسمه يوسفُ مِن خدَم بيت المَقدِس،[٧] وذلك لتستأنسَ بكلامه وتتلقّى منه ما يُلقى إليها مِن كلماته تعالى، إذ لو بدا لها على الصورة المَلَكيّة لنفرتْ منه ولم تستطع مُفاوضته.

وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك لتهيج شهوتُها فتنحدر نطفتُها إلى رَحِمها،[٨] فمع مخالفته لمَقام بيان آثار القُدرة الخارقة للعادة يُكذِّبه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾؛ فإنّه شاهد عَدْل بأنّه لم يَخطُر ببالها شائبة مَيْل ما إليه فضلًا

---

١ وفي هامش م: أي:لـ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾. «منه».

٢ وفي هامش م: وهو الانفراد؛ لأنّ الإشارة إنّما تحصل بعده. «منه».

٣ وفي هامش م: أي: تأخير ﴿مَكَانًا﴾ من الجارّ والمجرور. «منه».

٤ س: شُرفة.

٥ القول بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٨.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٦-٨٧.

٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٩.

٨ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٣.

عمّا ذُكر مِن الحالة المُترتِّبة على أقصى مراتب المَيْل والشهوة. نعم كان تمثيله على ذلك الحُسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسَبر عِفَّتها، ولقد ظهَر منها مِن الورع والعَفاف ما لا غايةَ وراءه. وذِكرُه تعالى بعنوان الرحمانيّة للمُبالغة في العِياذ به تعالى واستجلابِ آثار الرحمة الخاصّة التي هي العِصمةُ ممّا دَهِمها.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تتَّقي الله تعالى وتُبالي بالاستعاذة به. / وجواب الشرط مَحذوف ثقةً بدلالة السياق عليه، أي: فإنّي عائذة به، أو فتَعوَّذ بتعوُّذي، أو فلا تتعرَّض لي. [٨ظ]

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يريد عليه السلام أنّي لست ممّن يُتوقَّع منه ما تَوهَّمتِ مِن الشرّ، وإنّما أنا رسول ربّك الذي استعذتِ به ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا﴾ أي: لأكون سببًا في هِبته بالنفخ في الدِّرْع. ويجوز أن يكون ذلك حكايةً لقوله تعالى، ويُؤيّده القراءة بالياء.[١] والتعرُّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتسليتِها والإشعارِ بعِلّة الحُكم، فإنّ هِبة الغلام لها مِن أحكام تربيتها. وفي بعض المَصاحف "أَمَرَني أَنْ أَهَبَ لكِ غُلَامًا".[٢] ﴿زَكِيًّا﴾ طاهرًا مِن الذُّنوب، أو ناميًا على الخير، أي: مُترقِّيًا مِن سنّ إلى سنّ على الخير والصلاح.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ﴾ كما وصفتَ ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ أي: والحال أنّه لم يُباشرني بالنكاح رجل. وإنّما قيل: ﴿بَشَرٌ﴾ مُبالغةً في بيان تنزُّهها مِن مَبادي الولادة.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ عطف على ﴿لَمْ يَمْسَسْنِى﴾ داخل معه في حُكم الحاليّة مُفصِح عن كون المِساس عبارةً عن المباشَرة بالنكاح، أي: ولم أكن فاجرة

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب ونافع في رواية ورش عنه. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

تبغي الرجالَ. وهي فَعول بمعنى الفاعل أصلها "بَغُويٌ" فأُدِغمت الواو بعد قلبها ياء في الياء وكُسرت الغين للياء. وقيل: هي فعيل بمعنى الفاعل، وإلّا لقيل: "بَغُوٌّ" كما يقال: "فلانٌ[1] نَهُوٌّ عن المُنكَر".[2] وإنما لم تَلحَقه التاء لأنّها مِن باب النسب كـ"طالق"،[3] أو بمعنى المفعول، أي: يَبغيها الرجال للفجور بها.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾

﴿قَالَ﴾ أي: المَلَك تقريرًا لمَقالته وتحقيقًا لها. ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي: الأمر كما قلتُ لكِ. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾... إلخ استئناف مُقرِّر له، أي: قال ربّك الذي أرسلني إليك: ﴿هُوَ﴾ أي: / ما ذكرتُ لكِ مِن هِبة الغلام مِن غير أن يَمسَّك [٩و]
بشرٌ أصلًا ﴿عَلَيَّ﴾ خاصّة ﴿هَيِّنٌ﴾ وإن كان مُستحيلًا عادةً لِما أنّي لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط.

وقوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: إمّا عِلّة لمُعلَّل محذوف، أي: ولِنجعلَ وَهْب الغلام آيةً لهم وبرهانًا يَستدلّون به على كمال قدرتِنا نفعلُ ذلك؛ أو معطوفٌ على عِلّة أخرى مُضمَرة، أي: لنُبيِّن به عِظَم قدرتنا ولنجعله آية... إلخ. والواو على الأوّل اعتراضيّة. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الجلالة. ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّنَّا﴾ عليهم يَهتدون بهدايته ويَسترشدون بإرشاده.

﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مُحكَمًا قد تعلّق به قضاؤنا الأزلي، أو قُدِّر وسُطِّر في اللوح لا بدّ مِن جريانه عليك البتّةَ، أو كان أمرًا حقيقًا بأن يُقضى ويُفعلَ لتضمُّنه حِكَمًا بالغة.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢﴾

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ بأن نفخ جبريلُ عليه السلام في دِرعها فدخلتِ النفخة في جوفها.[4]

---

[1] س - فلان.
[2] نقل هذا القول الزمخشري في الكشّاف، ٩/٣ عن كتاب التمام لابن جنّي. ولم أجِده في مطبوعه.
[3] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٣/٢.
[4] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٤/٢.

قيل: إنّه عليه السلام رفَع دِرعَها فنفخ في جيبه[١] فحمَلت.[٢] وقيل: نفَخ عن بُعد فوصل الريحُ إليها فحملت في الحال. وقيل: إنّ النفخة كانت في فيها.[٣] وكانت مدّةُ حملها سبعةَ أشهر. وقيل: ثمانيةً، ولم يعِش مولود وُضع لثمانية أشهر غيره. وقيل: تسعةَ أشهُر. وقيل: ثلاثَ ساعات.[٤] وقيل: ساعةً كما حملتْ وضعَته.[٥] وسِنُّها حينئذ ثلاثَ عشرةَ سنةً.[٦] وقيل: عشرَ سنينَ، وقد حاضت حيضتَين.[٧]

﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي: فاعتزلت وهو في بطنها، كما في قوله:

تـــدوسُ بـنـا الـجَـمـاجـمَ والـتَّـريـبـا[٨]

فالجارّ والمجرور في حيّز النصب على الحاليّة، أي: فانتبذتْ مُلتبِسةً به ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ بعيدًا مِن أهلها وراء الجبل. وقيل: / أقصى الدار.[٩] وهو الأنسبُ بقِصر مُدّة الحَمْل. [٩ظ]

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ أي: فألجأها، وهو في الأصل منقول مِن "جاء"، لكنّه لم يُستعمَل في غير كـ"آتى" في "أعطى".[١٠] وقُرئ "المِخَاضُ" بكسر الميم.[١١] وكلاهما مصدر "مَخِضتِ المرأةُ" إذا تحرّك الولدُ في بطنها للخروج.[١٢]

---

١ س: جيبها.

٢ مَرويّ عن السدّي بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٥/٤٩٠-٤٩١. وهو بلا نسبة في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤. وعن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

٣ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤.

٤ الأقوال السابقة بلا نسبة في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤-٢٢٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

٥ بلفظ قريب عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

٦ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

٧ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٢٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

٨ عجز بيت لأبي الطيّب المتنبي، وصدره:
فـمـرّت غـيـر نـافـرة عـلـيـهـم
والبيت في شرح الواحدي لديون المتنبّي، ٢/٨٤٦. ومثّل الزمخشري بعجزه على ما نحن فيه في الكشّاف، ٣/١٠. يصف المتنبي خيلًا ذكرها في البيت قبله. وقال الواحدي في معنى هذا البيت: «أي: وطِئت رءوسهم وصدورَهم، فنحن عليها، ولم تنفِر عنهم».

٩ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٤.

١٠ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠.

١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأفطس عن ابن كثير وابن جُبير عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٩٨.

١٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٤.

﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمِد عليه عند الوِلادة، وهو ما بين العِرْق والغُصن. وكانت نخلةً يابسةً لا رأسَ لها ولا خُضرةَ وكان[1] الوقت شتاءً. والتعريف إمّا للجنس أو للعهد؛ إذ لم يكن ثمَّة غيرُها وكانت كالمُتعالَم عند الناس. ولعلّه تعالى ألهمها ذلك ليُريَها مِن آياتها ما يُسكِّن رَوْعتها ويُطعِمها الرُّطَب الذي هو خُرْسة النُّفَساء المُوافقة لها.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ﴾ بكسر الميم مِن مات يَماتُ، كـ"خِفتُ". وقُرئ بضمِّها[2] مِن مات يموتُ. ﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾ أي: هذا الوقت الذي لقِيتُ فيه ما لقِيتُ. وإنّما قالته -مع أنّها كانت تعلَم ما جرى بينها وبين جبريلَ عليه السلام مِن الوعد الكريم- استحياءً مِن الناس وخوفًا مِن لائمتهم، أو حِذارًا مِن وقوع الناس في المعصية بما تكلّموا فيها، أو جريًا على سَنن الصالحين عند اشتدادِ الأمر عليهم، كما رُوي عن عمرَ رضي الله عنه أنّه أخذ تِبْنة مِن الأرض فقال: «يا ليتني هذه التِّبنة ولم أكن شيئًا»،[3] وعن بلال أنّه قال: «ليت بلالًا لم تلِده أمُّه».[4]

﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ أي: شيئًا تافهًا شأنُه أن يُنسى ولا يُعتدَّ به أصلًا. وقُرئ بالكسر.[5] قيل: هما لغتان في ذلك كـ"الوَتر" و"الوِتر".[6] وقيل: هو بالكسر اسم لِما يُنسى كـ"النِّقْض" اسم لما يُنقض، وبالفتح مصدر سُمِّي به المفعول مبالغة.[7] وقُرئ بهما مهموزًا،[8] مِن "نسأتُ اللَّبن" إذا صببتَ عليه الماء فصار مُستهلَكًا فيه. / وقُرئ "نَسًا"[9] كـ"عصًا". [١٠و]

---

١ ط س: كانت.

٢ قرأ بها أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٣.

٣ شرح السنّة للبغوي، ١٤/٣٧٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٤١.

٤ المُصنَّف لابن أبي شيبة، ١/٢٠١ (٢٣٠٧)؛ شرح السنّة للبغوي، ١٤/٣٧٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٤١.

٥ قرأ بها العشرة إلّا حمزة وعاصمًا في رواية حفص عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٨.

٦ ذكر ذلك الفرّاء في معاني القرآن، ٢/١٦٤، ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٣/١١.

٧ نقله عن ابن الأنباري ابنُ عادل في اللباب، ١٣/٤١.

٨ قراءتان شاذّتان: بفتح النون مع الهمز مرويّة عن محمّد بن كعب القُرظي وبكر بن حبيب، وبكسر النون مع الهمز مرويّة عن نوفل. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٩٨.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن بكر بن حبيب. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧/٥٨٢؛ واللباب لابن عادل، ١٣/٤٢.

﴿مَنسِيًّا﴾ لا يَخطُر ببال أحد مِن الناس، وهو نعتٌ للمبالغة. وقُرئ بكسر الميم[١] إتباعًا له بالسين.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ أي: جبريلُ عليه السلام ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾. قيل: إنّه كان يَقبَل الولد.[٢] وقيل: مِن تحتها، أي: مِن مكان أسفلَ منها تحت الأَكَمَة.[٣] وقيل: مِن تحت النخلة.[٤] وقيل: ناداها عيسى عليه السلام.[٥] وقُرئ "فَخَاطَبَهَا مَنْ تَحْتَهَا"[٦] بفتح الميم. ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ أي: لا تَحزَني، على أنّ "أنْ" مُفسِّرة؛ أو بألّا تَحزني، على أنّها مصدريّة قد حُذف عنها الجارّ.

﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ﴾ أي: بمكان أسفل منك. وقيل: تحت أمركِ إنْ أمرْتِ بالجَري جرى، وإن أمرتِ بالإمساك أَمسَك.

﴿سَرِيّٗا﴾ أي: نهرًا صغيرًا حسبما رُوي مَرفوعًا، قال ابن عبّاس رضي الله عنه: إنّ جبريلَ عليه السلام ضرب برجله الأرضَ فظهرت عينُ ماء عَذْب فجرى جَدْولًا.[٧] وقيل: فعَله عيسى عليه السلام.[٨] وقيل: كان هناك نهر يابس أجرى الله عزّ وجلّ فيه الماءَ حينئذ كما فعَل مِثلَه بالنخلة، فإنّها كانت نخلةً يابسة لا رأسَ لها ولا ورق فضلًا عن الثمر، وكان الوقت شتاءً، فجعَل الله تعالى[٩]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٩.

٢ أي: يَقبَله كالقابلة. والقول في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

٤ مَرويٌّ عن قتادة في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

٥ مَرويٌّ عن مجاهد والحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠٤/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥. وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن زِرّ بن حُبيش وعلقمة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١١٩٩.

٧ وهو مَرويٌّ أيضًا عن الضحّاك وقتادة. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠١/١٥-٥٠٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥.

٨ مَرويٌّ عن سعيد بن جُبير والحسن ومجاهد. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠٣/١٥-٥٠٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

٩ س - تعالى.

لها إذ ذاك رأسًا وخُوصًا[1] وثمرًا.[2] وقيل: كان هناك ماءٌ جارٍ.[3] والأوّل هو المُوافِق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر مِن النظم الكريم.

وقيل: ﴿سَرِيًّا﴾، أي: سيِّدًا نبيًّا رفيعَ الشأن جليلًا وهو عيسى عليه السلام.[4] فالتنوين للتفخيم، والجملة تعليل لانتفاء الحُزْن المفهوم مِن النهي عنه، والتعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾

﴿وَهُزِّىٓ﴾ هزُّ الشيء: تحريكُه إلى الجهات المُتقابلة تحريكًا عنيفًا مُتدارِكًا.

[١٠ظ] والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجَذْب والدفع،[5] / لقوله تعالى: ﴿إِلَيْكِ﴾ أي: إلى جهتكِ. والباء في قوله عزّ وعلا: ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾: صلة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ﴾... إلخ [البقرة، ١٩٥/٢]. قال الفرّاء: «تقول العرب: هَزّه وهزّ به وأخذ الخِطامَ وأخذ بالخِطام»؛[6] أو لإلصاق الفعل بمدخولها، أي: افعلي الهزَّ بجِذعها، أو هُزِّي الثمرة بهزِّه. وقيل: هي مُتعلِّقة بمحذوف وقع حالًا مِن مفعول الهَزّ، أي: هُزِّي إليك الرُّطَب كائنًا بجِذعها.[7] ﴿تُسَٰقِطْ﴾ أي: تُسقِط النخلة ﴿عَلَيْكِ﴾ إسقاطًا مُتواترًا حسَب تواتُر الهزّ.

وقُرئ "تُسْقِطْ"[8] و"يُسْقِطْ"[9] مِن الإسقاط بالتاء والياء، و"تَتَسَاقَطْ"[10] بإظهار التاءين،

---

[1] الخوص: ورق النخل. لسان العرب لابن منظور، «خوص».

[2] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

[3] القول في اللباب لابن عادل، ٤٥/١٣.

[4] مَرويٌّ عن الحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ٥٠٩/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٢٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ١١/٣.

[5] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٥/٢.

[6] معاني القرآن للفرّاء، ١٦٥/٢؛ اللباب لابن عادل، ٤٦/١٣.

[7] القول في اللباب لابن عادل، ٤٦/١٣.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢٠٠.

[9] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

[10] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

و"تَسَاقَطْ"[١] بطرح الثانية، و"تَسَّاقَطْ"[٢] بإدغامها في السين، و"يَسَّاقَطْ"[٣] بالياء كذلك، و"تَسْقُطْ"[٤] و"يَسْقُطْ"[٥] مِن السُّقوط. على أنّ التاء في الكلّ للنخلة والياءَ للجِذع.

وقوله تعالى: ﴿رُطَبًا﴾ على القراءات الثلاث الأُوَل مفعول، وعلى الستّ البواقي تمييز. وقوله تعالى: ﴿جَنِيًّا﴾ صفة له. وهو ما قُطع قبل يُبسه، فعيل بمعنى مفعول، أي: رُطَبًا مَجنيًا، أي: صالحًا للاجتناء. وقيل: بمعنى فاعل، أي: طريًا طيّبًا.[٦] وقُرئ "جِنِيًا"[٧] بكسر الجيم للإتباع.

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ أي: ذلك الرُّطبَ وماءَ السَّريّ، أو مِن الرُّطَب وعصيره، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ وطِيبي نفسًا وارفُضي عنها ما أحزَنك وأهمَّك، فإنّه تعالى قد نزَّه ساحتَك عمّا اختلج في صدور المُتَقيّدين بالأحكام العاديّة، بأن أظهرَ لهم مِن البسائط العنصريّة والمُركَّبات النباتيّة ما يَخرِق العاداتِ التكوينيّة ويُرشِدهم إلى الوقوف على سريرة أمرِك.

وقُرئ: "وقِرّي"[٨] / بكسر القاف، وهي لغة نجد.[٩] واشتقاقه مِن القَرار، فإنّ العين إذا رأت ما يَسرّ النفسَ سكنتْ إليه مِن النظر إلى غيره، أو مِن القُرّ فإنّ دَمعة السُّرور باردة ودَمعة الحُزن حارّة. ولذلك يقال: قُرّة العين وسُخْنة العين للمحبوب والمكروه.[١٠] [١١و]

---

١ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٨.

٢ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبو بكر بخلاف عنه وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٨.

٣ قرأ بها يعقوب وأبو بكر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٠.

٦ القول في اللباب لابن عادل، ١٣/٤٩.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان ويحيى بن وثّاب والصرصري والمَلَطي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٠.

٨ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣/١٢.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣/١٢.

١٠ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٥.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: آدميًا كائنًا مَن كان، وقُرئ "تَرَئِنَّ"[١] على لغة مَن يقول: "لَبَأْتُ بالحَجّ"،[٢] لِما بين الهمزة والياءِ مِن التآخي. ﴿فَقُولِي﴾ له إن استَنطقكِ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتًا، وقد قُرئ كذلك؛[٣] أو صيامًا، وكان صيامُهم بالسكوت.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي: بعد أن أَخبرتُكم بنَذري، وإنّما أُكلِّم الملائكة وأناجي ربّي. وقيل: أُمِرتْ بأن تُخبرَ بنَذرها بالإشارة.[٤] وهو الأظهرُ. قال الفرّاء: العرب تُسمِّي كلَّ ما وصل إلى الإنسان "كلامًا" بأيّ طريق وصَل ما لم يُؤكَّد بالمصدر، فإذا أُكِّد لم يكن إلّا حقيقةَ الكلام.[٥] وإنّما أُمرتْ بذلك لكراهة مُجادلة السفهاء ومُناقلتهم والاكتفاءِ بكلام عيسى عليه السلام، فإنّه نصّ قاطع في قَطْع الطَّعْن.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا﴾ أي: جاءتهم مع ولدها راجعة إليهم عندما طهُرت مِن نَفاسها. ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ أي: حاملةً له. ﴿قَالُوا۟﴾ مُؤنِّبةً لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ أي: فعلتِ ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: عظيمًا بديعًا مُنكَرًا، مِن فرَى الجلدَ، أي: قطَعه؛[٦] أو جئتِ مَجيئًا عجيبًا عُبِّر عنه بـ"الشيء" تحقيقًا للاستغراب.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنَوا به هارونَ النبيَّ عليه السلام، وكانت مِن أعقاب مَن كان معه في طبقة الأُخوَّة. وقيل:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يونس واللؤلؤي عن أبي عمرو والحلواني عن الدُّوري عن اليزيدي عنه. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٧؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢٠١.

٢ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ١٢/٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك وابن مسعود وأُبيّ بن كعب وابن الزُّبير وعمرو بن ميمون. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٠؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢٠٢.

٤ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ١٢/٣.

٥ نقله عن الفرّاء البغويُّ في **معالم التنزيل**، ٣١١/٢ (النساء، ١٦٤/٤).

٦ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ١٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٦٦/٢.

كانت مِن نسله وكان بينهما ألفُ سنة. / وقيل: هو رجلٌ صالح أو طالح كان [١١ظ]
في زمانهم شبَّهوها به، أي: كنتِ عندنا مِثلَه في الصلاح، أو شتموها به.[١] ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقرير لكون ما جاءت به فَرِيًّا مُنكَرًا، وتنبيه على أنّ ارتكابَ الفواحش مِن أولاد الصالحين أفحشُ.[٢]

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عيسى عليه السلام أنْ كلِّموه. والظاهر أنّها بيَّنت حينئذ نَذْرَها وأنّها بمَعزِل مِن مُحاورة[٣] الإنس حسبما أُمرت. ففيه دلالة على أنّ المأمور به بيانُ نَذْرها بالإشارة لا بالعبارة، والجمعُ بينهما ممّا لا عهدَ به.

﴿قَالُوا۟﴾ مُنكِرين لجوابها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم نَعهَد فيما سلف صبيًّا يُكلِّمه عاقل. وقيل: ﴿كَانَ﴾ لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماضٍ مُبهَمٍ صالح لقريبه وبعيده، وهو ههنا لقريبه خاصّة بدليل أنّه مَسُوق للتعجّب. وقيل: هي زائدة والظرف صلة ﴿مَن﴾. و﴿صَبِيًّا﴾ حال مِن المُستكِنّ فيه، أو هي تامّة أو دائمة،[٤] كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء، ١٧/٤].

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مَبنيّ على سؤال نشأ مِن سياق النظم الكريم، / كأنه قيل: [٥١ظ]
فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾. أنطَقه الله عزّ وجلّ بذلك آثرَ ذي أثير[٥] تحقيقًا للحقّ وردًّا على مَن يزعُم ربوبيّته. قيل: كان المُستنطِق لعيسى زكريا عليهما السلام.[٦] وعن السدّي رضي الله عنه:

---

[١] القولان في الكشّاف للزمخشري، ١٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٦/٢.
[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٦/٢.
[٣] ط س: مجاورة.
[٤] الأقوال وتفصيل الكلام على "كان" ههنا بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٥٤/١٣-٥٥. والكلام على زيادتها في مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٧/٢-٨.
[٥] آثر ذي أثير: أوّل كلّ شيء. لسان العرب لابن منظور، «أثر».
[٦] القول في الكشّاف للزمخشري، ١٣/٣.

لمّا أشارت إليه غضِبوا وقالوا: لَسُخرِيَتُها بنا أشدُّ علينا ممّا فعلتِ.[١] ورُوي أنّه عليه السلام كان يَرضَع فلمّا سمِع ذلك ترَك الرَّضاع وأقبَل عليهم بوجهه واتّكأ على يساره وأشار بسبّابته فقال ما قال... إلخ.[٢] وقيل: كلّمهم بذلك ثمّ لم يتكلّم حتّى بلغ مَبلغًا يتكلّم فيه الصبيان.[٣]

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الإنجيلَ. ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١﴾

﴿وَجَعَلَنِي﴾ مع ذلك ﴿مُبَارَكًا﴾ نفّاعًا مُعلِّمًا للخير. والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة إمّا باعتبار ما سبَق في القضاء المحتوم، أو بجَعْل ما في شرَف
[١٢و] الوقوع لا محالةَ واقعًا. / وقيل: أكمَله الله عقلًا واستنبأه طفلًا.[٤] ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: حيثما كنتُ ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: أمرني بها أمرًا مُؤكّدًا، ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ زكاة المال إن مَلكتُه، أو بتطهير النفسِ عن الرذائل ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ في الدنيا.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣﴾

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ عطفٌ على ﴿مُبَارَكًا﴾،[٥] أي: جعلني بارًّا بها، وقُرئ بالكسر على أنّه مصدرٌ وُصف به مبالغةً، أو منصوبٌ بمُضمَر دلّ عليه ﴿أَوْصَٰنِي﴾،[٦] أي: وكلّفني بِرًّا، ويُؤيّده القراءةُ بالكسر والجرّ عطفًا على الصلاة والزكاة، والتنكيرُ للتفخيم. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ عنيدًا[٧] لله تعالى لفَرْط تكبّره.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ كما هو على يحيى. على أنّ التعريف للعهد، والأظهرُ أنّه للجنس والتعريضِ باللعن على أعدائه، فإنّ إثبات جنس السلام لنفسه تعريض بإثبات ضدّه لأضداده، كما في قوله تعالى:

---

١ لم أجِده في مظانّه. وهو مَرويٌّ عنه في الكشّاف للزمخشري، ١٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٥/١٣.

٢ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٩/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ١٤/٣.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٥٥/١٣.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ١٣/٣.

٥ في الآية السابقة.

٦ في الآية السابقة.

٧ ط س: عند.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه، ٢٠/٤٧]، فإنّه تعريض بأنّ العذاب على مَن كذَّب وتولّى.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَن فُصّلت نعوته الجليلة، وما فيه مِن معنى البُعد للدلالة على عُلوّ رتبته وبُعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلةَ المشاهَد المحسوس، ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لا ما يصفه النصارى، وهو تكذيب لهم فيما يزعُمونه على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني، حيث جعَله موصوفًا بأضداد ما يصفونه.

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ بالنصب على أنّه مصدر مؤكِّد لـ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾... إلى آخره،[1] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله، وقرئ بالرفع[2] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو قول الحقّ الذي لا ريبَ فيه، والإضافةُ للبيان، والضميرُ للكلام السابق أو لتمام القصّة. وقيل: صفة عيسى أو بدله أو خبر ثانٍ، ومعناه / كلمةُ الله.[3] وقرئ: "قالُ الحقِّ"[4] و"قَوْلُ الحَقِّ"،[5] فإنّ "القَول" و"القُول" و"القال" في معنى واحد. [١٢ظ]

﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكّون أو يتنازعون، فيقول اليهود: ساحر، والنصارى: ابن الله سبحانه. وقرئ بتاء الخطاب.[6]

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ أي: ما صحّ وما استقام له تعالى ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عمّا بَهتوه، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا

---

[1] مريم، ١٩/٣٠.

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٨.

[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٦٧.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١١٨٨.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش ويحيى وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي وداود بن هند والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٩٤.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيت لهم ببيان أنّ شأنه تعالى إذا قضى أمرًا مِن الأمور أن[1] يعلِّق به إرادته فيكون حينئذ بلا تأخير، فمَن هذا شأنه كيف يُتوهَّم أن يكون له ولد. وقرئ: "فَيَكُوْنَ"[2] بالنصب على الجواب.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٣٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ مِن تمام كلام عيسى عليه السلام. قيل: هو عطفٌ على قوله: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾[3] داخلٌ تحت القول.[4] وقد قُرئ بغير واو، وقرئ بفتح الهمزة على حذف اللام،[5] أي: ولأنّه تعالى ربّي وربّكم فاعبدوه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن، ١٨/٧٢]. وقيل: معطوف على ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾.[6] ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي ذكرتُه مِن التوحيد ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ لا يضِلّ سالكُه.

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيهًا على سوء صنيعهم بجَعْلهم ما يوجب الاتّفاق منشأً للاختلاف، فإنّ ما حُكي مِن مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصًا قاطعةً في كونه عبده تعالى ورسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، أو فِرَق النصارى، فقالت النَّسطوريّة: هو ابن الله، وقالت اليعقوبيّة: هو الله هبَط إلى الأرض ثمّ صعِد إلى السماء -تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- وقالت المَلكانيّة: هو عبدُ الله ونبيُّه.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المختلِفون، عبّر عنهم بالموصول إيذانًا بكفرهم جميعًا وإشعارًا بعلّة الحُكم. ﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: مِن شهود يوم

---

١ وفي هامش م: خبر "أنّ".

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٠.

٣ مريم، ٣٠/١٩.

٤ القول في اللباب لابن عادل، ٦٦/١٣.

٥ قرأ بها ابن عامر والكسائي وحمزة وعاصم وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢.

٦ مريم، ٣١/١٩. والقول في اللباب لابن عادل، ٦٦/١٣.

عظيم الهَول والحِساب والجزاء وهو يوم القيامة، أو مِن وقت شُهوده، / أو [١٣و]
مِن مكان الشهود فيه، أو مِن شهادة ذلك اليوم عليهم، وهو أن يشهد عليهم الملائكة والأنبياء عليهم السلام وألسنتهم وآذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق، أو مِن وقت الشهادة أو مِن مكانها. وقيل: هو ما شهِدوا به في حقّ عيسى وأمِّه.[١]

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجّبٌ مِن حِدّة سَمْعهم وأبصارهم يومئذ، ومعناه أنّ أسماعهم وأبصارهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ للحساب والجزاء، أي: يوم القيامة جدير بأن يُتعجَّب منهما بعد أن كانوا في الدنيا صُمًّا عُميًا، أو تهديدٌ بما سيسمعون ويُبصرون يومئذ. وقيل: أمرٌ بأن يُسمِعهم ويُبصِرهم مواعيدَ ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه.[٢] والجارُّ والمجرور على الأوّل في موقع الرفع وعلى الثاني في حيّز النصب.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لا تُدرك غايته، حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلّيّة، ووَضْع الظالمين موضعَ الضمير للإيذان بأنّهم في ذلك ظالمون لأنفسهم.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أي: يوم يتحسَّر الناس قاطبةً، أمّا المسيء فعلى إساءته وأمّا المحسِن فعلى قلّة إحسانه. ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فُرغ مِن الحساب وتصادر الفريقان إلى الجنّة والنار. ورُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سُئل عن ذلك، فقال: «حين يُجاء بالموت على صورة كبش أملحَ فيُذبح والفريقان
ينظرون، فينادي المنادي يا أهلَ الجنّة خلود فلا موتَ ويا أهل النار / خلود فلا [١٣ظ]
موتَ، فيزداد أهل الجنّة فرحًا إلى فرح وأهل النار غمًّا إلى غمّ».[٣] و﴿إِذْ﴾ بدل

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ١٦/٣.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٧/٢.
٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٩٣/٦ (٤٧٣٠)؛ وصحيح مسلم، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٤٥/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٣٢/٥.

مِن ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، أو ظرف لـ﴿ٱلْحَسْرَةِ﴾، فإنّ المصدر المعرّف باللام يعمل في المفعول الصريح عند بعضِهم فكيف بالظرف؟

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: عمّا يُفعل بهم في الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهما جملتان حاليّتان مِن الضمير المستتر في قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾،[١] أي: مستقِرّون في ذلك وهم في تَينك الحالتين، وما بينهما اعتراض، أو مِن مفعول ﴿أَنذِرْهُمْ﴾، أي: أنذرهم غافلين غيرَ مؤمنين فيكون حالًا متضمّنةً لمعنى التعليل.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى لأحد غيرِنا عليها وعليهم مُلك ولا مِلك، أو نتوفّى الأرض ومَن عليها بالإفناء والإهلاك توَفّيَ الوارثِ لإرثه ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: يُردّون للجزاء لا إلى غيرنا استقلالًا أو اشتراكًا.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ﴾ عطفٌ على ﴿أَنذِرْهُمْ﴾[٢] ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في السورة أو في القرآن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: اتلُ على الناس قصّته وبلِّغها إيّاهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء، ٦٩/٢٦]، فإنّهم ينتمّون إليه عليه السلام، فعساهم باستماع قصّته يُقلِعون عمّا هم فيه مِن القبائح.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازِمًا للصدق في كلّ ما يأتي ويذَر، أو كثيرَ التصديق لكثرة ما صدّق به مِن غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله. والجملة استئناف مَسُوق لتعليل موجَب الأمر، فإنّ وصفه عليه السلام بذلك مِن دواعي ذِكره. ﴿نَّبِيًّا﴾ خبرٌ آخرُ لـ﴿كَانَ﴾ مقيّد للأوّل مخصِّص له كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ الآية [النساء، ٦٩/٤]، أي: كان جامعًا بين الصدِّيقيّة والنبوّة، ولعلّ / هذا الترتيبَ للمبالغة في الاحتراز عن توهّم تخصيص الصدِّيقيّة بالنبوّة [١٤و] فإنّ كلّ نبيّ صدِّيق.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] مريم، ٣٩/١٩.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾

﴿إِذۡ قَالَ﴾ بدلُ اشتمال مِن ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾[١] وما بينهما اعتراض مقرِّر لِما قبله أو متعلِّق بـ﴿كَانَ﴾ أو بـ﴿نَبِيًّا﴾.[٢] وتعليقُ الذِّكر بالأوقات مع أنّ المقصود تذكير ما وقَع فيها مِن الحوادث قد مرّ سِرُّه مرارًا، أي: كان جامعًا بين الأثرَتين حين قال ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزرَ متلطِّفًا في الدعوة مستمِيلًا له: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ أي: يا أبي، فإنّ "التاء" عِوض مِن "ياء" الإضافة ولذلك لا تجتمعان، وقد قلّ: "يا أبتا" لكون "الألف" بدلًا مِن "الياء". ﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ﴾ ثناءَك عليه عند عبادتِك له[٣] وجُؤارك إليه ﴿وَلَا يُبۡصِرُ﴾ خضوعَك وخشوعَك بين يديه، أو لا يسمع ولا يبصر شيئًا مِن المسموعات والمُبصَرات، فيدخُل في ذلك ما ذُكر دخولًا أوّليًا، ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ أي: لا يقدر على أن يغنيَ ﴿عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ في جَلْب نفع أو دَفْع ضُرّ.

ولقد سلَك عليه السلام في دعوته أحسنَ مِنهاج وأقومَ سبيل، واحتجّ عليه أبدع احتجاجٍ بحُسن أدب وخُلق جميل لئلّا يركَب متن المكابرة والعِناد ولا ينكبَ[٤] بالكلّيّة عن مَحَجّة الرشاد، حيث طلَب منه عِلّة عبادته لِما يستخفّ به عَقْل كلّ عاقل مِن عالم وجاهل، ويأبى الركون إليه فضلًا عن عبادته التي هي الغاية القاصية مِن التعظيم، مع أنّها لا تحِقّ إلّا لمَن له الاستغناء التامّ والإنعام العامّ الخالقِ الرازقِ المحيي المُميت المثيب المعاقب، ونبّه على أنّ العاقل يجب أن يفعل كلّ ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح.

والشيء لو كان حيًّا مميّزًا سميعًا بصيرًا قادرًا على النفع والضرّ مُطيقًا بإيصال الخير والشرّ / لكن كان ممكِنًا، لَاستنكف العقل السليم عن عبادته وإن كان [١٤ظ]
أشرفَ الخلائق، لِما يراه مِثلَه في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة، فما ظنُّك بجماد مصنوع مِن حجَر أو شجر ليس له مِن أوصاف الإحياءِ عين ولا أثَر؟

---

[١] في الآية السابقة.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] ط س - له.
[٤] وفي هامش م: نكب عنه: عدَل، كـ"نصَر" و"فرِح". قاموس. | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «نكب».

ثمّ دعاه إلى أن يتّبعه ليهديَه إلى الحقّ المبين، لِما أنّه لم يكن محظوظًا مِن العِلم الإلهي مستقلًّا بالنظر السوي مصدِّرًا لدعوته بما مرّ مِن الاستمالة والاستعطاف حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يَسِم أباه بالجهل المُفرِط وإن كان في أقصاه، ولا نفسَه بالعِلم الفائق وإن كان كذلك؛ بل أبرز نفسه في صورة رفيق له أعرفَ بأحوال ما سلكاه مِن الطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: مستقيمًا موصِلًا إلى أسنى المطالب منجيًا عن الضلال المؤدّي إلى مهاوي الردى والمعاطب.

ثم ثبّطه عمّا كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كلّ عاقل ببيان أنّه مع عرائه عن النفع بالمرّة مستجلِبٌ لضَرر عظيم، فإنّه في الحقيقة عبادة الشيطان لِما أنّه الآمر به، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ فإنّ عبادتك للأصنام عبادة له إذ هو الذي يُسوِّلها لك ويغريك عليها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ تعليل لموجَب النهي وتأكيد له ببيان أنّه مستعصٍ على ربّك الذي أنعَم عليك بفنون النِّعم، ولا ريبَ في أنّ المطيع للعاصي عاصٍ، وكلُّ مَن هو عاصٍ حقيق بأن يُستردّ منه النعم ويُنتقَم منه. والإظهار في موقع[١] الإضمار لزيادة التقرير، والاقتصار على ذِكر عصيانه مِن بين سائر جناياته، لأنّه مِلاكها، أو لأنّه نتيجة مُعاداته لآدمَ عليه السلام وذرّيّته، فتذكيرُه داعٍ لأبيه إلى الاحتراز عن موالاته وطاعته. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لإظهار كمال شناعة عصيانه.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تحذير مِن سوء عاقبة ما كان عليه مِن عبادة الشيطان، وهو ابتلاؤه / بما ابتُليَ به معبوده مِن العذاب الفظيع. وكلمةُ ﴿مِنَ﴾ متعلِّقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكِّدةً لِما أفاده التنكير مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة. وإظهار ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ للإشعار [١٥و]

---

١ س: موضع.

بأنّ وَصْف الرحمانيّة لا يدفَع حلول العذابِ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار، ٦/٨٢].

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ أي: قرينًا له في اللعن المخلّد. وذِكرُ "الخوف" للمجاملة وإبراز الاعتناء بأمره.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذه النصائحَ الواجبة القبولِ؟ فقيل: قال مُصرًّا على عِناده: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: أمُعرِض ومُنصرِف أنت عنها بتوجيه الإنكار إلى نفس الرغبة مع ضرب مِن التعجيب؟ كأنّ الرغبة عنها ممّا لا يصدُر عن العاقل فضلًا عن ترغيب الغير عنها.

وقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ تهديد وتحذير عمّا كان عليه مِن العِظة والتذكير، أي: والله لئن لم تنتهِ عمّا كنت عليه مِن النهي عن عبادتها لأرجُمنّك بالحجارة. وقيل: باللسان.[1] ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾ أي: فاحذَرني واترُكني ﴿مَلِيًّا﴾ أي: زمانًا طويلًا، أو مليًا بالذهاب مطيقًا به.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلَف ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ توديع ومُتارَكة على طريقة مقابلةِ السيّئة بالحسنة، أي: لا أصيبُك بمكروهٍ بعدُ ولا أشافِهك بما يؤذيك، ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى﴾ أي: أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفِّقك للتوبة ويهديَك إلى الإيمان، كما يلوِّح به تعليلُ قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء، ٨٦/٢٦].

والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبيّنِ أنّه يموت على الكفر ممّا لا ريبَ في جوازه، وإنّما المحظور استدعاء المغفرة له / مع بقائه على الكفر، [١٥ظ]

---

[1] في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٩/٢.

فإنّه ممّا لا مساغَ له عقلًا ولا نقلًا. وأمّا الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا يأباه قضيّة العقل، وإنّما الذي يمنعه السمعُ؛ ألا يُرى إلى أنّه عليه السلام قال لعمّه أبي طالب: «لا أزال أستغفر لك ما لم أُنهَ عنه»،[١] فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة، ١١٣/٩].

ولا اشتباهَ في أنّ هذا الوعد مِن إبراهيمَ عليه السلام، وكذا قولُه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وما ترتَّب عليهما مِن قوله تعالى: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ الآية، إنّما كان قبل انقطاع رجائه عن إيمانه لعدم تبيُّن أمره، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة، ١١٤/٩]، كما مرّ في تفسير سورة التوبة.

واستثناؤه عمّا يؤتَسى به في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة، ٤/٦٠] لا يقدَح في جوازه، لكن لا لأنّ ذلك كان قبل ورود النهي أو لمَوعِدة وعَدها إيّاه كما قيل، لِما أنّ النهيَ إنّما ورد في شأن الاستغفار بعد تبيّن الأمر، وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبيّن فلم يتناوله النهيُ أصلًا، وأن الوعد بالمحظور لا يرفع حظرَه؛ بل لأنّ المراد بما يؤتَسى به ما يجب الائتساء به حتمًا لورود الوعيد على الإعراض عنه بقولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة، ٦/٦٠]، فاستثناؤه عن ذلك إنّما يفيد عدم وجوب استدعاء الإيمان للكافر المَرجوّ إيمانه لاسيّما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء، وذلك ممّا لا يتردَّد فيه أحد مِن العقلاء.

وأمّا عدم جوازه قبل تبيّن الأمرِ فلا دلالةَ للاستثناء عليه قطعًا. وتوجيه الاستثناءِ إلى العِدَة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ الآية؛ لأنّها كانت هي الحاملة له عليه السلام عليه. وتخصيص تلك العِدَة بالذِّكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج / التأكيد القَسَمي، وأمّا جَعْل الاستغفار دائرًا [١٦و]
عليها وترتيبُ التبرُّؤ على تبيّن الأمر فقد مرّ تحقيقه في تفسير سورة التوبة.

---

[١] صحيح البخاري، ٩٥/٢ (١٣٦٠)؛ صحيح مسلم، ٥٤/١ (٣٩)؛ جامع البيان للطبري، ٢٠/١٢ (التوبة، ١١٣/٩)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٠٠/٤ (التوبة، ١١٣/٩).

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: بليغًا في البرّ والإلطاف، تعليلٌ لمضمون ما قبله.

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ أي: أتباعد عنك وعن قومك ﴿وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجَرة بديني حيث لم يؤثِّر فيكم نصائحي. ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أعبده وحدَه. وقد جُوّز أن يراد به دعاؤه المذكور في سورة الشعراء،[1] ولا يبعُد[2] أن يُراد به استدعاء الولد أيضًا بقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧] حسبما يساعده السِّباق والسِّياق.

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ أي: خائبًا ضائعَ السعي، وفيه تعريض بشقائهم في عبادة آلهتهم. وفي تصدير الكلام بـ﴿عَسَىٰ﴾ مِن إظهار التواضُع ومراعاة حُسن الأدب والتنبيهِ على حقيقة الحقّ مِن أنّ الإجابة والإثابة بطريق التفضّل منه عزّ وجلّ لا بطريق الوجوب وأنّ العِبرة بالخاتمة وذلك مِن الغيوب المختصّة بالعليم الخبير، ما لا يخفى.

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة إلى الشام ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ بدلَ مَن فارقهم مِن أقربائه الكفَرة، لكن لا عَقيبَ المهاجرة فإنّ المشهور أنّ الموهوب حينئذ إسماعيلُ عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات، ١٠١/٣٧] إثرَ دعائه بقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات، ١٠٠/٣٧]. ولعلّ ترتيبَ هِبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عِظَم النِّعم التي أعطاها الله تعالى إيّاه بمقابلة مَن اعتزلهم مِن الأهل والأقرباء، فإنّهما شجرتا الأنبياء لهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير وذوو عدد كثير.

---

[1] وفي هامش م: هو قوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء، ٨٣/٢٦]. «منه».

[2] س: أن يبعد.

هذا وقد رُوي أنه عليه السلام لمّا قصد الشام أتى أوّلًا حَرّان،[١] وتزوّج بسارةَ وولدت له إسحاقَ ووُلد لإسحاقَ يعقوبُ.[٢] والأوّلُ هو الأقرب الأظهر.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلّ واحد منهما أو منهم،[٣] وهو مفعول أوّلُ لقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، / قُدِّم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة إلى مَن عداهم؛ بل بالنسبة إلى بعضهم، أي: كلّ واحد منهم جعلنا نبيًّا، لا بعضَهم دون بعض. [١٦ظ]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ هي النبوّة، وذِكرها بعد ذِكر جَعْلهم نبيًّا للإيذان بأنّها مِن باب الرحمة. وقيل: هي المال والأولاد وما بُسط لهم مِن سَعة الرزق. وقيل: هو الكتاب.[٤] والأظهرُ أنّها عامّة لكلّ خير دِيني ودُنيوي أُوتوه ممّا لم يُؤتَ أحد مِن العالمين.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ يفتخر بهم الناس ويُثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء، ٨٤/٢٦]. والمراد باللسان ما يوجد به مِن الكلام، ولسان العرب: لغتهم، وإضافتُه إلى الصدق ووصفُه بالعُلوّ للدلالة على أنّهم أحِقّاءُ بما يُثنون عليهم، وأنّ مَحامِدهم لا تخفى على تباعُد الأعصار وتبدّلِ الدول وتحوّل المِلَل والنِحَل.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰ﴾ قُدّم ذِكره على ذِكر إسماعيلَ عليهما السلام لئلّا ينفصِل عن ذِكر[٥] يعقوبَ عليهم السلام. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾[٦] موحِّدًا أخلصَ عبادته

---

[١] حرّان: هي مدينة عظيمة مشهورة، مِن جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر. وهي على طريق الموصل والشام والروم. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٣٥/٢.

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٩/٢.

[٣] وفي هامش م: وهو الأنسب بما بعده مِن ضميرَي الجمع. «منه».

[٤] القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٦/٥.

[٥] س – ذِكر.

[٦] ضُبطت في م بكسر "اللام"، وقرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٩٥/٢. وأثبتُّ قراءة حفص ههنا.

عن الشِّرك والرِّياء، أو أسلَم وجهه لله وأخلَص نفسَه عمّا سواه، وقرئ: "مُخْلَصًا"[١] على أنّ الله تعالى أخلصَه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أرسله الله تعالى إلى الخلق فأنبأهم عنه، ولذلك قُدّم ﴿رَسُولًا﴾ مع كونه أخصَّ وأعلى.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ ﴿ٱلطُّورِ﴾: جبل بين مصرَ ومَدْيَنَ، و﴿ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ صفة لـ"الجانب"، أي: ناديناه مِن ناحيته اليُمنى مِن اليمين، وهي التي تَلي يمينَ موسى عليه السلام، أو مِن جانبه الميمون مِن" اليُمن"، ومعنى ندائه منه أنه تمثَّل له الكلام مِن تلك الجهة.

﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا﴾ تقريبَ تشريف، مُثّل حاله عليه السلام بحال مَن قرّبه المَلِك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته. و﴿نَجِيًّا﴾، أي: مناجيًا حال مِن أحد الضميرين في ﴿نَٰدَيۡنَٰهُ﴾ أو ﴿قَرَّبۡنَٰهُ﴾. وقيل: مرتفعًا، لِما رُوي أنّه رُفع فوق السماوات حتّى سمع / صَريف القلم.[٢] [١٧و]

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَا﴾ أي: مِن أجل رحمتنا ورأفتنا له أو بعض رحمتنا ﴿أَخَاهُ﴾ أي: معاضَدة أخيه ومؤازرته إجابة لدعوته بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه، ٢٠/٢٩-٣٠] لا نفسَه، لأنّه كان أكبرَ منه عليهما السلام، وهو على الأوّل مفعول لـ﴿وَهَبۡنَا﴾ وعلى الثاني بدل، وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ عطف بيان له وقوله تعالى: ﴿نَبِيًّا﴾ حال منه.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤﴾

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾ فُصِل ذِكره عن ذِكر أبيه وأخيه لإبراز كمال

---

١ قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٥.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٧٠.

الاعتناء بأمره بإيراده مستقلًا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ تعليل لموجَب الأمر، وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به، وناهيك أنّه وعَد الصبرَ على الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾[١] [الكهف، ٦٩/١٨] فوفّى.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فيه دلالة على أنّ الرسول لا يجب أن يكون صاحبَ شريعة، فإنّ أولاد إبراهيمَ عليهم السلام كانوا على شريعته.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ اشتغالًا بالأهمّ وهو أن يُقبِل الرجل بالتكميل على نفسه ومَن هو أقربُ الناس إليه، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء، ٢١٤/٢٦] ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه، ١٣٢/٢٠] ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم، ٦/٦٦]، وقصدًا[٢] إلى تكميل الكلّ بتكميلهم لأنّهم قدوة يُؤتسى بهم. وقيل: ﴿أَهْلَهُۥ﴾ أمّته فإنّ الأنبياء عليهم السلام آباء الأمَم.[٣]

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ لاتّصافه بالنعوت الجليلة التي مِن جملتها ما ذُكر مِن خصاله الحميدة.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ وهو سِبط شيث وجدُّ أبي نوح فإنّه نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريسُ عليه السلام، واشتقاقُه مِن الدَّرس[٤] يردّه مَنْع صرفه. نعم لا يبعُد أن يكون معناه في تلك اللغة قريبًا مِن ذلك فلُقّب به لكثرة دراسته.[٥] رُوي أنّه تعالى / أنزل عليه ثلاثين صحيفةً وأنّه أوّلُ مَن خطّ [١٧ظ]
بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب.[٦]

---

١ كذا في م ط س، والآية المذكورة قالها موسى عليه السلام للخَضِر، وأمّا وعد إسماعيل بالصبر على الذبح فهو في قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات، ١٠٢/٣٧].

٢ السياق: اشتغالًا... وقصدًا...

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ١٩/٣.

٤ ذكَر ذلك البغوي في معالم التنزيل، ٢٣٧/٥.

٥ الردّ مع التوجيه المذكور ذكرهما الزمخشري في الكشّاف، ٢٠/٣.

٦ الكلام في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٧/٥-٢٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازِمًا للصدق في جميع أحوالِه ﴿نَّبِيًّا﴾ خبرٌ آخرُ لـ﴿كَانَ﴾ مخصِّص للأول، إذ ليس كلُّ صدِّيق نبيًا.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ هو شرَف النبوّة والزُّلفى عند الله عزّ وجلّ. وقيل: علوُّ الرتبة بالذِّكر الجميل في الدنيا،[١] كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح، ٩٤/٤]. وقيل: الجنّة.[٢] وقيل: السماء السادسة،[٣] أو الرابعة.[٤]

رُوي عن كعب وغيره في سبب رَفْع إدريسَ عليه السلام أنّه سُئل ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: «يا ربّ إنّي قد مشَيتُ فيها يومًا وقد أصابني منها ما أصابني، فكيف مَن يحمِلها مسيرةَ خمسمائة عامٍ في يوم واحد؟ اللّهمّ خفِّف عنه مِن ثِقَلها وحرِّها،» فلمّا أصبح المَلَك وجد مِن خفّة الشمس وحرِّها ما لا يعرف، فقال: «يا ربّ ما الذي قضيتَ فيه؟» قال: «إنّ عبدي إدريسَ سألني أن أخفِّف عنك حَمْلها وحرَّها فأجبتُه»، قال: «ربّ اجعل بيني وبينه خُلّةً،» فأذِن الله تعالى له فرفَعه إلى السماء.[٥]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين في السورة الكريمة وما فيه مِن معنى البُعد للإشارة بعلوّ رُتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ صفتُه، أي: أنعم عليهم بفنون النِّعَم الدينيّة والدنيويّة حسبما أشيرَ إليه مجمَلًا، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول.

وقوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدل منه بإعادة الجارّ. ويجوز أن تكون كلمةُ ﴿مِن﴾ فيه للتبعيض لأنّ المنعَم عليهم أعمُّ مِن الأنبياء وأخصُّ مِن الذرّيّة.

---

١ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٨/٥.
٢ مَرويّ عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.
٣ مَرويّ عن ابن عبّاس والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٥٦٤/١٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.
٤ مَرويّ عن أنس بن مالك وأبي سعيد الخُدري وأبي هريرة ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٥٦٤/١٥-٥٦٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٣٨/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.
٥ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٨/٥.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: ومِن ذرّيّة مَن حملنا معه خصوصًا، وهم مَن[١] عدا إدريسَ عليه السلام، فإنّ إبراهيم كان مِن ذرّيّة سام بن نوح. / ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [١٨و] وهم الباقون ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عطفٌ على ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: ومِن ذرّيّة إسرائيلَ وكان منهم موسى وهارونُ وزكريا ويحيى وعيسى. وفيه دليل على أنّ أولاد البنات مِن الذرّيّة. ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا﴾ أي: ومِن جملة مَن هديناهم إلى الحقّ واجتبيناهم للنبوّة والكرامة.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبر لـ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾. ويجوز أن يكون الخبر هو الموصول وهذا استئنافًا مَسوقًا لبيان خشيتهم مِن الله تعالى وإخباتهم له، مع ما لهم مِن عُلوّ الرتبة وسمُوّ الطبقة في شرَف النسَب وكمالِ النفس والزُّلفى مِن الله عزّ سلطانه. و﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ حالان مِن ضمير ﴿خَرُّوا۟﴾، أي: ساجدين باكين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «اتلُوا القرآن وابكُوا فإن لم تبكُوا فتباكوا».[٢] و"البُكِيُّ" جمع "باكٍ" كـ"السُّجود" جمع "ساجد"، وأصله "بُكُويٌ" فاجتمعت "الواو" و"الياء" وسُبقت إحداهما بالسكون، فقُلبت الواوُ ياءً وأُدغمت "الياء" في "الياء"، وحُرِّكت "الكاف" بالكسر المجانس لـ"الباء". وقرئ: "يُتْلَى"[٣] بـ"الياء" التحتانيّة لأنّ التأنيث غير حقيقي، وقرئ: "بِكِيًّا"[٤] بكسر "الباء" للإتباع.

قالوا: ينبغي أن يدعوَ الساجد في سجدته بما يليق بآيها، فهنا يقول: اللّٰهمّ اجعلني مِن عبادك المنعَم عليهم المهديّين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك. وفي آية الإسراء يقول: اللّٰهمّ اجعلني مِن الباكين إليك الخاشعين لك. وفي آية تنزيل السجدة يقول: اللّٰهمّ اجعلني مِن الساجدين لوجهك المسبِّحين بحمدك، وأعوذ بك مِن أن أكون مِن المستكبرين عن أمرك.[٥]

---

١ ط س: ما.

٢ بلفظ قريب في سنن ابن ماجه، ٣٦٢/٢ (١٣٣٧)؛ ومسند أبي يعلى، ٤٩/٢ (٦٨٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٤١٠/٣ (١٨٩١)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٢٠/٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وابن جُندب وأبي حَيْوَة وابن عامر وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٠٦.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

٥ القول بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢١/٣.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠﴾

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ يقال لعَقِب الخير: "خَلَف" بفتح اللام، ولعقِب الشرّ: "خَلْف" بالسكون، أي: فعقَبهم وجاء بعدهم عَقِب سوء، ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقُرئ "الصَّلَوَاتِ"،[1] أي: تركوها،[2] أو أخّروها[3] عن وقتها ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ مِن شُرب الخمر واستحلال نكاح الأخت مِن الأب / والانهماكِ في [١٨ظ] فنون المعاصي. وعن عليّ رضي الله عنه: «هم مَن بنى الشديد وركِب المنظور ولبِس المشهور».[4]

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي: شرًّا، فإنّ كلّ شرّ عند العرب غيّ وكلّ خير رشادٌ، كقوله:

فمَن يلقَ خيرًا يحمَدِ الناسُ أمرهُ ومَن يَغْوَ لا يَعدَمْ على الغيّ لائما[5]

وعن الضحّاك: جزاءَ غيّ،[6] كقوله تعالى: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ [الفرقان، ٦٨/٢٥] أي: جزاءَ أثامٍ، أو غيًّا عن طريق الجنّة. وقيل: "غَيّ" وادٍ في جهنّم يستعيذ منه أوديتها.[7]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ يدلّ على أنّ الآية في حقّ الكفَرة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة، وما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ مِرارًا، أي: فأولئك المنعوتون بالتوبة والإيمان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والحسن والضحّاك وابن مِقسَم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٨؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢٠٧.

٢ وفي هامش م: كما هو الظاهر.

٣ وفي هامش م: كما قاله بعضهم.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤٠٨/١٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٧٢/٢.

٥ البيت للمُرقّش الأصغر في **المفضّليّات** للضّبّي، ص ٢٤٧؛ **وإصلاح المنطق** لابن السكّيت، ص ١٥١؛ **والصحاح** للجوهري، «غوى»؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣. وهو بلا نسبة في **جامع البيان** للطبري، ٥٧٣/١٥.

٦ عن الزجّاج في **الكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣؛ وهو في **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ٣٣٥/٣؛ وعن الضحّاك: غيًا وخسرانًا. **معالم التنزيل** للبغوي، ٢٤١/٥.

٧ مرويّ بمعناه عن عبد الله بن عمرو وابن عبّاس وعطاء وغيرهم في **جامع البيان** للطبري، ٥٧٢/١٥؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٢٤١/٥؛ وبلفظه ههنا بلا عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٢١/٣.

والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بموجَب الوعد المحتوم. وقُرئ: "يُدْخَلُونَ"[١] على البناء للمفعول.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يُنقَصون مِن جزاء أعمالِهم شيئًا، أو لا ينقُصون شيئًا مِن "النقص". وفيه تنبيهٌ على أنّ كفرهم السابق لا يضرّهم ولا ينقُص أجورَهم.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ بدلَ البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض، أو نصب على المدح، وقُرئ بالرفع[٢] على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي أو تلك جنّات... إلخ. أو مبتدأ خبرُه ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ﴾... إلخ. وقُرئ: "جَنَّة عَدْنٍ" نصبًا[٣] ورفعًا.[٤]

و"عَدْن" عَلَم لمعنى العَدْن وهو الإقامة، كما أنّ "فَيْنَةَ" و"سَحَرَ" و"أمسَ" فيمَن لم يصرِفها أعلامٌ لمعاني "الفَينة" وهي الساعة التي أنت فيها و"السَّحَر" و"الأمس"، فجرى لذلك مَجرى العَدْن، أو هو عَلَم لأرض الجنّة خاصّة، ولولا
[١٩و] ذلك لَما ساغ إبدال ما أضيفَ إليه / مِن الجنّة بلا وصف عند غير البصريّين ولا وصفه[٥] بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾، وجَعْلُه بدلًا منه خلاف الظاهر، فإنّ الموصول في حُكم المشتقّ وقد نصّوا على أنّ البدَل بالمشتقّ ضعيف. والتعرّض لعنوان الرحمة للإيذان بأنّ وعدها وإنجازه لكمال سَعة رحمته تعالى.

والباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ متعلِّقة بمضمر هو حال مِن المضمر العائد إلى "الجنّات" أو مِن ﴿عِبَادَهُۥ﴾، أي: وعَدها إيّاهم ملتبِسةً أو ملتبِسين بالغيب،

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر وأبو بكر ورَوح. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٥٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والحسن وابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة والمُناذري عن نافع والقُورُسي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٢؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢٠٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة والأعمش والزُّهري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٢؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢٠٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإسحاق والأزرق عن نافع وقتادة. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢٠٧.

٥ وفي هامش م: أي: وَصْفُ ما أضيفَ إليه. «منه».

أي: غائبة عنهم غيرَ حاضرة أو غائبين عنها لا يرَونها، وإنّما آمنوا بها بمجرَّد الإخبار، أو بمضمر هو سبب للوعد، أي: وعدها إيّاهم بسبب إيمانهم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي: موعده كائنًا ما كان فيدخل فيه الجنّات الموعودة دخولًا أوّليًّا، ولمّا كانت هي مَثابة يُرجَع إليها قيل: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أي: يأتيه مَن وُعِد له لا محالةَ بغير خُلْف. وقيل: هو مفعول بمعنى فاعل. وقيل: مأتيًا، أي: مفعولًا مُنجَزًا مِن "أتى إليه إحسانًا"، أي: فعَلَه.[1]

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: فضولَ كلام لا طائلَ تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيه على أنّ اللغوَ ممّا ينبغي أن يُجتنَب عنه في هذه الدار ما أمكن. ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطِع، أي: لكن يسمعون تسليمَ الملائكة عليهم أو تسليمَ بعضهم على بعض، أو متّصلٌ بطريق التعليق بالمُحال، أي: لا يسمعون لغوًا ما إلّا سلامًا فحيث استحال كون السلام لغوًا استحال سماعُهم له بالكلّيّة، كما في قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفهم ... بهنّ فُلول مِن قِراع الكتائبِ[2]

أو على أنّ معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياءُ عنه، فهو مِن باب اللغو ظاهرًا، وإنّما فائدته الإكرام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ / فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم، ٦٢/١٩] وارد على عادة المتنعِّمين في هذه الدار. وقيل: المراد دوام رزقِهم ودُرورُه، وإلّا فليس فيها بكرةٌ ولا عشيّ.[3] [١٩ظ]

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر جيء به لتعظيم شأن الجنّة وتعيين أهلها، فإنّ ما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتها وعلوّ رتبتها ﴿ٱلَّتِى نُورِثُ﴾

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣.

٢ البيت للنابغة الذُبياني في ديوانه، ص ٦٠؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٣٢٦/٢؛ والإيضاح للقزويني، ص ٥٢٤؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٣/٢.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣.

أي: نورثها ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: نُبقيها عليهم بتقواهم ونُمتِّعهم بها كما نُبقي على الوارث مالَ مورثه ونمتِّعه به.

والوِراثة أقوى ما يُستعمَل في التملّك والاستحقاق مِن الألفاظ مِن حيث إنّها لا يعقَّب بفسخ ولا استرجاع ولا إبطال. وقيل: يُورَث المتَّقون مِن الجنّة المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة في كرامتهم.[١] وقرئ: "نُوَرِّثُ"[٢] بالتشديد.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية لقول جبرائيلَ حين استبطأه رسولُ الله عليهما السلام لمّا سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدرِ كيف يجيب ورجا أن يُوحى إليه فيه فأبطأ عليه أربعين يومًا أو خمسةَ عشرَ فشقّ ذلك عليه مشقّة شديدة، وقال المشركون: وَدَّعَه ربُّه وقلاه، ثمّ نزل ببيان ذلك، وأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية وسورة الضحى.[٣] والتنزّل النزول على مَهل لأنّه مطاوعٌ للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزولِ كما يطلَق التنزيل على الإنزال، والمعنى وما نتنزَّل وقتًا غِبَّ وقت إلّا بأمر الله تعالى على ما يقتضيه حكمتُه. وقرئ: "وَمَا يَتَنزَّلُ"[٤] بالياء والضمير للوحي.

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو ما نحن فيه مِن الأماكن والأزمنة، ولا ننتقل مِن مكان إلى مكان ولا ننزل في / زمان دون زمان إلّا بأمره ومشيئته. [٢٠و]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي: تاركًا لك يعني أنّ عدم النزول لم يكن إلّا لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه، ولم يكن لتَرْكه تعالى لك وتوديعه إيّاك كما زعمَتِ الكفرة.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة والحسن وقتادة وابن مِقسَم ومحبوب عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٠٨.

٣ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢٢/٣-٢٣. ومضى بتخريجه في تفسير الآية الثالثة والعشرين مِن سورة الكهف، والآية الثالثة والثمانين منها.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢.

وفى إعادة اسم الربّ المُعرِب عن التبليغ إلى الكمال اللائق مضافًا إلى ضميره عليه السلام مِن تشريفه عليه السلام والإشعار بعلّة الحُكم ما لا يخفى.

وقيل: أوّل الآية حكاية قول المتّقين حين يدخُلون الجنّة مخاطِبًا بعضُهم بعضًا بطريق التبجّح والابتهاج، والمعنى وما نتنزّل الجنّةَ إلّا بأمر الله تعالى ولطفه، وهو مالك الأمور كلّها سالِفها ومُترقِّبها وحاضرِها، فما وجدناه وما نجده مِن لطفه وفضلِه، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ تقرير لقولهم مِن جهة الله تعالى، أي: وما كان ناسيًا لأعمال العاملين وما وعدهم مِن الثواب عليها.[1]

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فإنّ مَن بيده ملكوت السماوات والأرض وما بينهما كيف يُتصوَّر أن يحوم حول ساحة سبحانِه الغفلةُ والنسيانُ؟ وهو خبرُ مبتدأ محذوف أو بدلٌ مِن ﴿رَبُّكَ﴾.[2]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لترتيب ما بعدها مِن موجَب الأمرين على ما قبلها مِن كونه تعالى ربَّ السماوات والأرض وما بينهما. وقيل: مِن كونه تعالى غيرَ تارك له عليه السلام أو غيرَ ناسٍ لأعمال العاملين، والمعنى: فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر مِن الربوبيّة الكاملة فاعبده... إلخ، فإنّ إيجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته ممّا لا ريبَ فيه، أو حين عرفتَ أنّه تعالى لا ينساك أو لا ينسى أعمال العاملين كائنًا مَن كان فأقبِلْ على عبادته، واصطبرْ على مشاقّها، ولا تحزن بإبطال الوحي وهُزْؤ الكفرة، فإنّه يُراقبك ويُراعيك ويلطُف بك في الدنيا والآخرة.[3]

وتعدية الاصطبار بـ"اللام" لا بحرف الاستعلاء، كما في قوله تعالى: / ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه، ١٣٢/٢٠] لتضمّنه معنى الثبات للعبادة فيما تُورِد عليه [٢٠ظ]

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٣/٣.

[2] في الآية السابقة.

[3] القول بإيجاز في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٤/٢.

مِن الشدائد والمشاقّ، كقولك للمبارز: "اصطبِر لقِرنك"، أي: اثبُت له فيما يُورد عليك مِن شَدّاته.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ السمِيُّ هو[1] الشريك في الاسم، والظاهر أن يراد به ههنا الشريك في اسم خاصّ قد عُبّر[2] عنه تعالى بذلك وهو ربُّ السماوات والأرض وما بينهما. والمراد بإنكار العِلم ونفيه إنكارُ المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكَده، فالجملة تقرير لِما أفاده "الفاء" مِن عِلّيّة ربوبيّته العامّة لوجوب عبادته؛ بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عزّ وجلّ بذلك الاسم وانتفاء إطلاقه على الغير بالكلّيّة حقًّا أو باطلًا.

وقيل: المراد هو الشريك في الاسم الجليل، فإنّ المشركين مع غلوّهم في المكابرة لم يسمُّوا الصنم بالجلالة أصلًا. وقيل: هو الشريك في اسم الإله، والمرادُ بالتسمية التسمية على الحقّ، فالمعنى هل تعلم شيئًا يسمّى بالاستحقاق إلهًا؟ وأمّا التسمية على الباطل فهي كلا تسميةٍ،[3] فتقريرُ الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما في الاسمين الكريمين مِن الإشعار باستحقاق العبادة، فتدبّر.

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ المراد به إمّا الجنسُ بأسره وإسنادُ القول إلى الكلّ لوجود القول فيما بينهم وإن لم يقلْه الجميع، كما يقال: "بنو فلان قتلوا فلانًا" وإنّما القاتل واحد منهم، وإمّا البعضُ المعهود منهم وهم الكفَرة أو أُبيُّ بن خَلَف، فإنّه أخذ عظامًا باليةً ففتّها فقال: يزعُم محمّد أنّا نُبعث بعد ما نموت ونصير إلى هذه الحال،[4] أي: يقول بطريق الإنكار والاستبعاد: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ أي: أُبعث مِن الأرض، أو مِن حال الموت.

وتقديم الظرف وإيلاؤه حرفَ الإنكار لِما أنّ المنكَر كون ما بعد الموت وقت الحياة، وانتصابُه بفعل دلّ عليه ﴿أُخْرَجُ﴾ لا به، فإنّ ما بعد "اللام" لا يعمَل

---

[1] س – هو.
[2] هكذا ضبطها المصنّف.
[3] القولان بمعناهما في الكشّاف للزمخشري، ٢٤/٣.
[4] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٤/٢.

فيما قبلها، وهي ههنا مخلَصة للتوكيد مجرّدة عن معنى الحال، كما خلَصت "الهمزة" و"اللام" للتعويض في "يا الله" فساغ اقترانها بحرف الاستقبال. وقرئ: "إِذَا مَا مِتُّ"[١] بهمزة واحدة مكسورة على الخبر.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مِن الذِكر الذي يراد به التفكّر. والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بأنّ الإنسانيّة مِن دواعي التفكّر فيما جرى عليه مِن شئون التكوين المُنجِية بالقلع على القول المذكور، وهو السرُّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان. والهمزة للإنكار التوبيخي، و"الواو" لعطف الجملة المنفيّة على مقدَّر يدلُّ عليه ﴿يَقُولُ﴾،[٢] أي: أيقول ذلك ولا يذكُر.

﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: والحال أنّه لم يكن حينئذ شيئًا أصلًا، فحيث خلقناه وهو في تلك الحالة المنافية للخَلْق بالكلّيّة / مع كونه أبعدَ مِن الوقوع فلأن نَبعثَه بجمع [٢١و] الموادّ المتفرّقة وإيجادِ مِثل ما كان فيها مِن الأعراض أَولى وأظهرُ، فما له لا يذكُره فيقعَ فيما يقع فيه مِن النكير؟ وقرئ: "يَذَّكَّرُ"[٣] و"يَتَذَكَّرُ"[٤] على الأصل.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ إقسامه باسمه عزّت أسماؤه مضافًا إلى ضميره عليه السلام لتحقيق الأمر بالإشعار بعلّيّته وتفخيم شأنه عليه السلام ورَفْع منزلته. ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعَنّ القائلين بالسَّوق إلى المَحشَر بعد ما أخرجناهم مِن الأرض أحياء، ففيه إثبات للبعث بالطريق البرهاني على أبلغ وجه وآكَده، كأنّه أَمر واضح غنيّ عن التصريح به، وإنّما المحتاج إلى البيان ما بعد ذلك مِن الأهوال. ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه.

---

١ قرأ بها ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ١/٣٧٢.

٢ في الآية السابقة.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٢.

رُوي أنّ الكفرة يُحشرون مع قرنائهم مِن الشياطين التي كانت تُغويهم، كلٌّ منهم معَ شيطانه في سلسلة، وهذا وإن كان مختصًّا بهم، لكن ساغ نسبته إلى الجنس[١] باعتبار أنّهم لمّا حُشروا وفيهم الكفَرة مقرونين بالشياطين فقد حُشروا معهم جميعًا كما ساغ نسبة القول المحكي إليه مع كون القائل بعضَ أفراده.[٢]

﴿ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾ ليرى السعداء ما نجّاهم الله تعالى منه فيزدادوا غِبطةً وسرورًا، وينالَ الأشقياء ما ادخَروا لمَعادهم عُدّةً ويزدادوا غيظًا مِن رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم بهم.و"الجِثيّ" جمع "جاثٍ" مِن "جثا" إذا قعَد على ركبته، وأصلُه "جُثُوْوٌ" بواوين فاستُثقل اجتماعهما بعد ضمّتين فكُسرت "الثاء" للتخفيف فانقلبت الواو الأولى ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها، فاجتمعَت واو وياء وسبقت إحداهما بالسكون فقُلبت الواو ياءً، وأُدغمت فيها "الياء" الأولى وكُسرت "الجيم" إتباعًا لها[٣] لِما بعدها. وقرئ / بضمّها.[٤] [٢١ظ]

ونصبُه على الحاليّة مِن الضمير البارز، أي: لنُحضرنّهم حول جهنّم جاثين على رُكَبهم لِما يدهَمُهم مِن هول المطلَع، أو لأنّه مِن توابع التواقُف للحساب قبل التواصُل إلى الثواب والعقاب، فإنّ أهل الموقف جاثون كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾ [الجاثية، ٢٨/٤٥] على ما هو المعتاد في مواقف التقاوُل، وإن كان المراد بالإنسان الكفَرة فلعلّهم يُساقون مِن الموقف إلى شاطئ جهنّم جُثاة إهانة بهم أو لعَجْزهم عن القيام لِما اعتراهم مِن الشدّة.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ۝٧٠﴾

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: مِن كلّ أمّة شاعت دينًا مِن الأديان ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾ أي: مَن كان منهم أعصى وأعتى فنطرَحهم فيها. وفي ذِكر "الأشدّ"

---

١ وفي هامش م: هو على تقدير كون المراد بـ"الإنسان" الجنس.

٢ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢٦/٣؛ وبعضه في معالم التنزيل للبغوي، ٢٤٥/٥.

٣ س – لها.

٤ قرأ بها نافع ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٧/٢.

تنبيه على أنّه تعالى يعفو عن بعض مِن أهل العصيان. وعلى تقدير تفسير ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾[١] بالكفَرة فالمعنى: إنّا نميّز مِن كلّ طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم في النار على الترتيب أو نُدخل كلًّا منهم طبقتها اللائقة به.

و﴿أَيُّهُمْ﴾ مبنيّ على الضمّ عند سيبويه،[٢] لأنّ حقّه أن يُبنى كسائر الموصولات لكنّه أعرِبَ حَمْلًا على "كلّ" و"بعض" للزوم الإضافة، وإذا حُذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقّه، ومنصوبٌ[٣] المحلّ بـ﴿نَنزِعَنَّ﴾، ولذلك قرئ منصوبًا،[٤] ومرفوعٌ[٥] عند غيره[٦] بالابتداء على أنّه استفهامي وخبره ﴿أَشَدُّ﴾، والجملةُ مَحكيّة، والتقدير: لننزعَنّ مِن كلّ شيعة الذين يقال لهم: أيُّهم أشدّ، أو مُعلَّقٌ عنها ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ لتضمّنه معنى التمييز اللازم للعِلم، أو مستأنَفةٌ والفعل واقع على ﴿كُلِّ شِيعَةٍ﴾، / على زيادة ﴿مِن﴾ أو على معنى لننزعنّ بعض كلّ شيعة، كقوله تعالى: [٢٢و]
﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم، ٥٣/١٩].

و﴿عَلَى﴾ للبيان فيتعلّق بمحذوف، كأنّ سائلًا قال: على مَن عتَوا؟ فقيل: على الرحمن، أو متعلِّقٌ بـ"أفعل".[٧] وكذا "الباء" في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: هم أَولى بصليّها أو صليُّهم أولى بالنار وهم المنتزَعون. ويجوز أن يراد بهم وبأشدِّهم عِتيًا رؤساءُ الشِّيَع، فإنّ عذابهم مُضاعَف لضلالهم وإضلالهم.[٨] و"الصِّليُّ" كـ"العِتيّ" صيغةً وإعلالًا، وقرئ بضمّ الصاد.[٩]

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ التفات لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام. وقيل: هو خطاب للناس مِن غير التفات إلى المذكور.[١٠] ويؤيِّد الأوّل أنّه قرئ:

---

١ مريم، ٦٧/١٩.
٢ انظر: **كتاب سيبويه**، ٤٠٠/٢.
٣ س: وهو منصوب.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والأعمش والصرصري والمَلَطي عن أبي بكر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٣؛ **المغني في القراءات** للنّوْزاوازي، ص ١٢١٠.
٥ السياق: مبنيّ على الضمّ... أو مرفوع...
٦ أي: غير سيبويه.
٧ هذه الوجوه في إعرابها مذكورة بلفظ قريب في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٧٥/٢.
٨ الوجه بلفظ قريب في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦/٣.
٩ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر ويعقوب وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣١٧/٢.
١٠ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧/٣.

"وَإِنْ مِنْهُمْ"،[١] أي: ما منكم أيها الإنسان. ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: واصلها وحاضر دونها، يمرّ بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم. وعن جابر أنّه عليه السلام سُئل عنه فقال: «إذا دخَل أهل الجنّة الجنّة قال بعضُهم لبعض: "أليس قد وعَدنا ربّنا أن نرِد النار؟" فيُقال لهم: "قد وردتُموها وهي خامدة"».[٢] وأمّا قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء، ٢١/١٠١]، فالمراد به[٣] الإبعاد عن عذابها. وقيل: ورودها: الجواز على الصراط الممدود عليها.

﴿كَانَ﴾ أي: ورودُهم إيّاها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ أي: أمرًا محتومًا أوجبه الله عزّ وجلّ على ذاته وقضى أنّه لا بدّ مِن وقوعه البتّةَ. وقيل: أقسم عليه.[٤]

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ۝٧٢﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الكفر والمعاصيَ / ممّا كانوا عليه مِن حال الجُثُوّ على الرُّكب على الوجه الذي سلَف، فيُساقون إلى الجنّة. وقرئ: "نُنْجِيْ"[٥] بالتخفيف، و"يُنَجِّى"[٦] و"يُنْجَى"[٧] على البناء للمفعول، وقرئ: "ثَمَّةَ نُنَجِّيْ"[٨] بفتح "الثاء"، أي: هناك نُنجّيهم. [٢٢ظ]

﴿وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثِيّٗا﴾ منهارًا بهم كما كانوا. قيل: فيه دليل على أنّ المراد بالورود الجثُوُّ حواليها وأنّ المؤمنين يفارقون الفجَرة بعد تجاثيهم حولها ويُلقى الفجرة فيها على هيئاتهم.[٩]

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ۝٧٣ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ۝٧٤﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٣.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٧؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٣٧٥. وانظر لتخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٢/٣٣٢.

٣ س – به.

٤ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٣٧٦.

٥ قرأ بها الكسائي ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٥٩.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٨.

٧ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٨.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي ليلى. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٨٩.

٩ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٨.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية إلى آخرها، حكاية لِما قالوا عند سماع الآياتِ الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامةَ مآلهم، أي: وإذا تتلى على المشركين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ التي مِن جملتها هاتيك الآياتُ الناطقة بحُسن حال المؤمنين وسوءِ حال الكفرة. وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: مرتّلاتِ الألفاظ مبيَّناتِ المعاني بنفسها أو ببيان الرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو بيّناتِ الإعجاز، حالٌ مؤكِّدة مِن ﴿ءَايَٰتُنَا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: قالوا، ووَضْع الموصولِ موضعَ الضمير للتنبيه على أنّهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادّين له، أو قال الذين مرَدوا منهم على الكفر ومرَنوا على العتوّ والعِناد وهم النَّضْر بن الحارث وأتباعه الفجَرة. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للتبليغ، كما في مِثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ [البقرة، ٢٤٧/٢]. وقيل: لام الأجْل،[١] كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦] أي: قالوا لأجلهم وفي حقّهم.

والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ قَولهم ليس في حقّ المؤمنين فقط كما ينطِق به / قوله تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: المؤمنين والكافرين، كأنّهم قالوا: أيّنا ﴿خَيْرٌ﴾ [٢٣و]
نحن أو أنتم ﴿مَّقَامًا﴾ أي: مكانًا. وقرئ بضمّ "الميم"،[٢] أي: موضِعَ إقامة ومنزل. ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: مجلِسًا ومجتمَعًا.

يُروى أنّهم كانوا يرجّلون شعورَهم ويدهنونها ويتطيّبون ويتزيّنون بالزِّيَن الفاخرة ثمّ يقولون ذلك لفقراء المؤمنين، يريدون بذلك أنّ خيريّتهم حالًا وأحسنيّتهم مآلًا ممّا لا يقبل الإنكار، وأنّ ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزُلفاهم عنده؛ إذ هو العِيار على الفضل والنقصان والرفعة والضَّعة، وأنّ مِن ضرورته هوانَ المؤمنين عليه تعالى لقصور حظِّهم العاجل، وما هذا القياس العقيم والرأي السقيم إلّا لكونهم جهَلةً لا يعلمون إلّا ظاهرًا مِن الحياة الدنيا، وذلك مبلغُهم مِن العلم.

---

[١] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٦/٢.

[٢] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣١٨/٢-٣١٩.

فرُدَّ عليهم ذلك مِن جهته تعالى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ أي: كثيرًا مِن القرون التي كانوا أفضل منهم فيما يفتخرون به مِن الحظوظ الدنيويّة كعاد وثمودَ وأضرابهم مِن الأمَم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب، ولو كان ما آتيناهم لِكرامتهم علينا لَما فعلنا بهم ما فعلنا. وفيه مِن التهديد والوعيد ما لا يخفى، كأنّه قيل: فلينتظِرْ هؤلاءِ أيضًا مثلَ ذلك. فـ﴿كَمْ﴾ مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِن قَرْنٍ﴾ بيان لإبهامها، وأهلُ كلّ عصر قَرنٌ لمَن بعدهم لأنّهم يتقدّمونهم، مأخوذ مِن "قَرْن الدابّة" وهو مقدَّمها.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ في حيّز النصب على أنّه صفة لـ﴿كَمْ﴾، و﴿أَثَٰثًا﴾ تمييز النسبة وهو متاع البيت. وقيل: هو ما جدّ منه، والجُرْثيُّ[١] ما لُبِس منه ورَثّ.[٢] والرِّئْيُ: المنظرُ، / "فِعْلٌ" مِن الرؤية لِما يُرَى، كـ"الطِّحْن" لِما يُطحَن، [٢٣ظ]
وقرئ: "رِيًّا"[٣] على قلب الهمزة ياءً وإدغامها، أو على أنّه مِن الرِّيِّ وهو النعمةُ والترفُّه، وقرئ: "رِيْئًا"[٤] على القلب، و"رِيَا"[٥] بحذف "الهمزة"، و"زِيًّا"[٦] بـ"الزاء" المعجَمة مِن الزَّيّ وهو الجمع، فإنّه عبارة عن المحاسن المجموعة.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ لمّا بيّن عاقبة أمر الأمَم المهلَكة مع ما كان لهم مِن التمتّع بفنون الحظوظ العاجلة أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يجيب هؤلاء المفتخِرين بما لهم مِن الحظوظ ببيان مآل أمر الفريقين، إمّا على وجه كلّي متناول لهم ولغيرهم مِن المنهمِكين في اللذة الفانية

---

١ كذا في الأصول الخطّيّة، ولعلّ صوابه "الخُرثيُّ". انظر: لسان العرب لابن منظور، «خرث».
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٩.
٣ قرأ بها ابن ذكوان وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٤.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير ويزيد البربري والحُلواني عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٣؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢١٢.

المبتهِجين بها على أنّ ﴿مَن﴾ على عمومها، وإمّا على وجه خاصّ بهم على أنّها عبارة عنهم ووَصْفهم بالتمكّن لذمّهم والإشعار بعلّة الحُكم، أي: مَن كان مستقرًا في الضلالة مغمورًا بالجهل والغَفلة عن عواقب الأمور فليمدُد له الرحمن، أي: يمُدّ له ويُمهِله بطول العُمر وإعطاءِ المال والتمكين مِن التصرّفات.

وإخراجه على صيغة الأمر للإيذان بأنّ ذلك ممّا ينبغي أن يُفعَل بموجَب الحِكمة لقطع المعاذير، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر، ٣٧/٣٥]، أو للاستدراج كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران، ١٧٨/٣]. وقيل: المراد به الدعاء بالمدّ والتنفيس.[1] واعتبارُ الاستقرار في الضلالة لِما أنّ المدّ لا يكون إلا للمُصِرّين عليها إذ رُبّ ضالّ يهديه الله عزّ وجلّ. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لِما أنّ المدّ مِن أحكام الرحمة الدنيويّة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية للمدّ الممتدّ لا لقول المفتخِرين كما قيل،[2] / إذ ليس فيه امتدادٌ بحسب الذات، وهو ظاهر، ولا استمرارٌ بحسب [٢٤و] التكرار لوقوعه في حيّز جواب ﴿إِذَا﴾.[3] وجَمْعُ الضمير في الفعلين باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد في الضميرين الأوّلين باعتبار لفظها.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيل للموعود بدل منه على سبيل البدل، فإنّه إمّا العذاب الدنيوي بغلَبة المسلمين واستيلائهم عليهم وتعذيبهم إيّاهم قتلًا وأسرًا، وإمّا يوم القيامة وما نالهم فيه مِن الخزي والنّكال على طريقة مَنْع الخلوّ دون مَنْع الجمعِ، فإنّ العذاب الأخروي لا ينفكّ عنهم بحال.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ جواب الشرط، والجملة محكيّة بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾، أي: حتّى إذا عاينوا ما يوعَدون مِن العذاب الدنيوي أو الأخروي فقط، فسيعلمون حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مِن الفريقين بأن يشاهِدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدّرونه، فيعلمون أنّهم شرٌّ مكانًا لا خيرٌ مقامًا ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي:

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٩/٣.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٧/٢.

٣ وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ الآية. «منه».

فئة وأنصارًا لا أحسنُ نديًّا كما كانوا يدّعونه، وليس المراد أنّ له ثمّة جندًا ضعفاء، كلّا، ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف، ٤٣/١٨]، وإنّما ذُكر ذلك ردًّا لِما كانوا يزعمون أنّ لهم أعوانًا مِن الأعيان وأنصارًا مِن الأخيار ويفتخرون بذلك في الأندية والمحافل.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝٧٦﴾

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان حال المهتدين إثرَ بيان حال الضالّين. وقيل: عطفٌ على ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾؛ لأنّه في معنى الخبر حسبما عرفتَه، كأنّه قيل: مَن كان في الضلالة يمُدّه الله، ويزيد المهتدين هداية،[١] كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد، ١٧/٤٧]. وقيل: عطفٌ على الشرطيّة المحكيّة بعد القول، كأنّه لمّا بيّن أنّ إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة ليس لفضله، عُقّب / ذلك ببيان أنّ قصور حظّ المؤمن منها ليس لنقصه؛ بل لأنّه تعالى أراد به ما هو خير مِن ذلك.[٢] [٢٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ على تقديرَي الاستئناف والعطف كلامٌ مستأنَف وارد مِن جهته تعالى لبيان فَضل أعمال المهتدين غيرُ داخل في حيّز الكلام الملقّن[٣] لقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: الطاعات التي تبقى فوائدها وتدوم عوائدها ومِن جملتها ما قيل مِن الصلوات الخمس، وما قيل مِن قول: "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر" خير عند الله تعالى.[٤] والتعرّض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره لتشريفه صلّى الله عليه وسلّم.

﴿ثَوَابًا﴾ أي: عائدةً ممّا يتمتّع به الكفَرة مِن النِّعم المُخدَجة الفانية التي يفتخرون بها، لاسيّما ومآلُها النعيم المقيم، ومآلُ هذه الحسرةُ السرمديّة والعذابُ الأليم، كما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: مرجعًا وعاقبةً. وتكرير "الخير" لمزيد الاعتناء ببيان الخيريّة وتأكيدٌ لها، وفي التفضيل مع أنّ ما للكفرة بمَعزِل مِن أن يكون له خيريّة في العاقبة تهكّمٌ بهم.

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٩/٣.
[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٧/٢.
[٣] س - الملقّن.
[٤] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ٧٧﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: بآياتنا التي مِن جملتها آيات البعث. نزلت في العاص بن وائل كان لخبّاب بن الأرتّ عليه مال فاقتضاه، فقال: «لا، حتّى تكفر بمحمّد»، قال: «لا والله لا أكفر به حيًا ولا ميتًا ولا حين بُعِثتُ،» قال: «فإذا بُعثتَ جئني فيكونُ لي ثمّة مال وولد فأعطيَك». وفي رواية قال: «لا أكفر به حتّى يُميتَك ثم تُبعثَ»، فقال: «إنّي لميّت ثمّ مبعوث؟» قال: «نعم»، قال: «دعني حتّى أموت وأُبعثَ فسأُوتى مالًا وولدًا فأقضيَك»، فنزلت.[1] فـ"الهمزة" للتعجيب مِن حاله والإيذان بأنّها مِن الغرابة والشناعة بحيث يجب أن تُرى ويُقضى منها العجب.

/ ومَن فرّق[2] بين "ألم ترَ" و"أرأيتَ" بعد بيان اشتراكهما في الاستعمال لقصد التعجيب بأنّ الأوّل يعلّق بنفس المتعجَّب منه، فيقال: "ألم ترَ إلى الذي صنع كذا" بمعنى انظُرْ إليه فتعجَّبْ مِن حاله، والثاني يعلّق بمثل المتعجَّب منه، فيقال: "أرأيتَ مِثلَ الذي صنع كذا" بمعنى أنّه مِن الغرابة بحيث لا يُرى له مِثلٌ،[3] فقد حفِظ[4] شيئًا وغابت عنه أشياءُ، وكأنّه ذهب عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون، ١/١٠٧]. [٢٥و]

و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أنظرْتَ فرأيتَ الذي كفَر بآياتنا الباهرة التي حقُّها أن يؤمِنَ بها كلُّ مَن يشاهدها.

﴿وَقَالَ﴾ مستهزئًا بها مصدّرًا لكلامه باليمين الفاجرة: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي: انظُر إليه فتعجّبْ مِن حالته البديعة وجُرأته الشنيعة. هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم، وقد قيل: إنّ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ بمعنى "أخبِر" و"الفاء" على أصلها والمعنى أخبِرْ بقصّة هذا الكافر عقيبَ حديث أولئك الذين قالوا:

---

[1] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦٠/٣ (٢٠٩١)؛ وصحيح مسلم، ٢١٥٣/٤ (٢٧٩٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٦١٧/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣-٣١.

[2] وفي هامش م: هو الفاضل التفتازاني، ذكره في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة، ٢٥٩/٢]. «منه».

[3] انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف ١٨٨و.

[4] السياق: ومَن فرّق... فقد حفظ...

﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ الآية،[١] وأنت خبير بأنّ المشهور استعمال "أرأيت" في معنى "أخبرني" بطريق الاستفهام جاريًا على أصله أو مُخرَجًا إلى ما يناسبه مِن المعاني لا بطريق الأمر بالإخبار لغيره.

وقرئ: "وُلْدًا"[٢] على أنه جَمْع "وَلَد" كـ"أُسْد" جَمْع "أَسَد" أو على أنّه لغة فيه كـ"العُرْب" و"العَرَب".

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ ردّ لكلمته الشنعاء وإظهار لبطلانها إثرَ ما أشيرَ إليه بالتعجيب منها، أي: قد بلغ مِن عظَمة الشأن إلى أن ارتقى إلى عِلم الغيب الذي استأثر به العليم الخبير حتّى ادّعى أن يؤتى في الآخرة مالًا وولدًا وأقسم عليه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ بذلك فإنّه لا يُتوصَّل إلى العِلم به إلّا بأحد هذين الطريقين. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة للإشعار بعلّيّة الرحمة / لإيتاء ما يدّعيه. [٢٥ظ] وقيل: العهد: كلمة الشهادة.[٣] وقيل: العمل الصالح،[٤] فإنّ وعده تعالى بالثواب عليهما كالعهد، وهذا مُجاراة مع اللعين بحسب منطوق مقاله كما أنّ كلامه مع خبّاب كان كذلك.

﴿كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩﴾

وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ ردع له عن التفوّه بتلك العظيمة وتنبيهٌ على خطائه. ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنُظهر أنّا كتبنا قوله، كقوله:

إذا ما انتسبنا لم تلِدني لئيمةٌ[٥]

أي: يتبيّن أنّي لم تلِدني لئيمة.

---

[١] مريم، ٧٣/١٩.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣.

[٤] مرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٦٢١/١٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٤/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠/٣.

[٥] صدر بيت لزائد بن صعصعة الفقعسي، وتمامه:
ولم تجدي مِن أن تُقِرّي بها بُدّا
وهو له في شرح أبيات المغني للبغدادي، ١٢٤/١؛ وبلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ٦١/١ (البقرة، ٩١/٢)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٥٧/٣ (البقرة، ٩١/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١/٣.

. أو سننتقم منه انتقام مَن كتب جريمة الجاني وحفِظها عليه، فإنّ نفس الكَتَبة لا تكاد تتأخّر عن القول، لقوله عزّ وعلا: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق، ١٨/٥٠]، فمبنى الأوّل تنزيل إظهار الشيء الخفيّ منزلةَ إحداث الأمر المعدوم بجامع أنّ كلًّا منهما إخراج مِن الكُمون إلى البُروز فيكون استعارة تبعيّة مبنيّة على تشبيه إظهار الكتابة على رءوس الأشهاد بإحداثها، ومدارُ الثاني تسمية الشيء باسم سببه فإنّ كتابة جريمة المجرم سبب لعقوبته قطعًا.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ مكان ما يدّعيه لنفسه مِن الإمداد بالمال والولد، أي: نُطوّل له مِن العذاب ما يستحقّه أو نزيد عذابه ونُضاعف له لكُفره وافترائه على الله سبحانه واستهزائه بآياته العِظام، ولذلك أُكّد بالمصدر دلالة على فَرْط الغضب.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝٨٠﴾

﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ بموته ﴿مَا يَقُولُ﴾ أي: مسمًّى ما يقول ومِصداقه وهو ما أوتيه في الدنيا مِن المال والولد، وفيه إيذان بأنّه ليس لِما يقول مِصداق موجود سوى ما ذُكر، أي: ننزِع عنه ما آتيناه. ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ لا يصحبه مال ولا ولد كان له في الدنيا فضلًا أن يؤتى ثمّة زائدًا. وقيل: نزوي عنه ما زعَم أنّه يناله في الآخرة ونعطيه مَن يستحقّه.[1] ويأباه معنى الإرث.

وقيل: المراد بـ﴿مَا يَقُولُ﴾ نفس القول المذكور لا مسمّاه، والمعنى إنّما يقول هذا القول ما دام حيًّا فإذا قبضناه حُلْنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضًا له منفردًا عنه.[2] وأنت خبير بأنّ ذلك مبنيّ على / أنّ صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد [٢٦و]
وأنّه مستمرّ على التفوّه به راجٍ لوقوع مضمونه، ولا ريبَ في أنّ ذلك مستحيل ممّن كفر بالبعث، وإنّما قال ما قال بطريق الاستهزاء وتعليق أداء دَينه بالمُحال.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١﴾

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ حكاية لجناية عامّة للكلّ مستتبِعةٌ لضدّ ما يرجُون ترتّبه عليها إثرَ حكاية مقالة الكافر المعهود واستتباعِها لنقيض مضمونها،

---

[1] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١/٣.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٨/٢.

أي: اتّخذوا الأصنام آلهةً متجاوزين الله تعالى. ﴿لِيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ أي: ليُعزّزوا بهم بأن يكونوا لهم وُصلةً إليه عزّ وجلّ وشفعاءَ عنده.

﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ۝٨٢﴾

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم مِن ذلك الاعتقاد الباطل وإنكار لوقوع ما علّقوا به أطماعهم الفارغة. ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ أي: ستجحد الآلهة بعبادتهم لها بأن يُنطِقها الله تعالى وتقولَ: ما عبدتمونا، أو سيُنكر الكفرة حين شاهدوا سوء عاقبة كفرهم عبادتهم لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٢٣/٦].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ على الأوّل تكون الآلهة التي كانوا يرجُون أن تكون لهم عِزًّا ضدًّا للعزّ، أي: ذلًّا وهَوانًا، أو تكون عونًا عليهم وآلةً لعذابهم حيث تُجعل وَقود النار وحصَب جهنّم، أو حيث كانت عبادتهم لها سببًا لعذابهم. وإطلاق الضدّ على العَون لِما أنّ عَون الرجل يُضادّ عدوّه وينافيه بإعانته له عليه.

وعلى الثاني يكون الكفَرة ضدًّا وأعداءً للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبّونها كحبّ الله ويعبدونها. وتوحيدُ الضدّ لوَحدة المعنى الذي عليه يدور مُضادّتهم، فإنّهم بذلك كشيء واحد، كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «وهم يد على مَن سواهم»،[1] وقرئ: "كَلًّا"[2] بفتح "الكاف" والتنوينِ على قلب "الألف" نونًا / في الوقف قلْبَ ألِفِ الإطلاق في قوله: [٢٦ظ]

أقِلّي اللومَ عاذِلَ والعِتابَنْ وقُولي إن أصبتُ لقد أصابَنْ[3]

أو على معنى كَلَّ هذا الرأي كلًّا، وقرئ: "كُلًّا"[4] على إضمار فعل يفسّره ما بعده، أي: سيجحدون كلًّا سيكفرون... إلخ.

---

[1] مسند أحمد، ٢٦٧/٢ (٩٥٩)؛ سنن أبي داود، ٣٧٩/٤ (٢٧٥١)؛ شعب الإيمان ٤٠/٣ (١٣٧٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٢/٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٩.

[3] البيت لجرير في ديوانه ٨١٣؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٢٠٥/٤؛ وسِرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ١٣٦/٢؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٤٠٠/٣ (الأحزاب، ١٠/٣٣).

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مجاهد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٣.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا نطَقت به الآيات الكريمة السالفة وحكَته عن هؤلاء الكفَرة الغُواة والمَرَدة العُتاة مِن فنون القبائح مِن الأقاويل والأفاعيل، والتمادي في الغيّ، والانهماكِ في الضلال، والإفراط في العِناد، والتصميمِ على الكفر مِن غير صارف يَلويهم ولا عاطف يَثنيهم، والإجماعِ على مدافَعة الحقّ بعد اتّضاحه وانتفاءِ الشكّ عنه بالكلّيّة؛ وتنبيهٌ على أنّ جميع ذلك منهم بإضلال الشياطين وإغوائهم؛ لا لأنّ له مسوِّغًا ما في الجملة.

ومعنى إرسال الشياطين عليهم إمّا تسليطهم عليهم وتمكينهم مِن إضلالهم وإمّا تقييضهم لهم، وليس المراد تعجيبه عليه السلام مِن إرسالهم عليهم،[1] كما يُوهِمه تعليق الرؤية به، بل ممّا ذُكر مِن أحوال الكفَرة مِن حيث كونها مِن آثار إغواء الشياطين كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ فإنّه إمّا حال مقدَّرة مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، أو استئناف وقَع جوابًا عمّا نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: ماذا يفعل الشياطين بهم حينئذ؟ فقيل: تؤزُّهم، أي: تُغريهم وتُهيِّجهم على المعاصي تهييجًا شديدًا بأنواع الوساوس والتسويلات، فإنّ الأزّ والهزّ والاستفزاز أخوات معناها شِدّةُ الإزعاج.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بأن يَهلكوا حسبما يقتضيه جناياتهم ويَبيدوا عن آخرهم وتطهُر الأرض مِن فساداتهم. و"الفاء" للإشعار / بكون ما قبلها مَظِنّة [٢٧و] لوقوع المنهيّ عنه مُحوِجةً إلى النهي كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه، ١١٧/٢٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ تعليل لموجَب النهي ببيان اقتراب هلاكهم، أي: لا تستعجِل بهلاكهم، فإنّه لم يبقَ لهم إلّا أيّام وأنفاس نعُدّها عدًّا.

---

[1] كما ذهب إليه الزمخشري في الكشّاف، ٣٢/٣.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ منصوب على الظرفيّة بفعل مؤخّر قد حُذف للإشعار بضيق العبارة عن حصره وشرحِه لكمال فظاعة ما يقع فيه مِن الطامّة التامّة والدواهي العامّة، كأنّه قيل: يوم نحشر المتّقين، أي: نجمعهم ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إلى ربّهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة ﴿وَفْدًا﴾ وافدين عليه كما يَفِدُ الوفود على الملوك منتظِرين لكرامتهم وإنعامِهم.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تُساق البهائم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عِطاشًا فإنّ مَن يرد الماء لا يُورِده إلّا العطشُ، أو كالدوابّ التي ترِد الماء، نفعل بالفريقين مِن الأفعال ما لا يفي ببيانه نِطاق المقال.

وقيل: منصوب على المفعوليّة بمضمر مقدَّم خُوطب به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يوم نحشر... إلخ. وقيل: على الظرفيّة لقوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.[1] والذي يقتضيه مقام التهويل وتستدعيه جزالة التنزيل أن ينتصب بأحد الوجهين الأوّلَين، ويكون هذا استئنافًا مبيّنًا لبعض ما فيه مِن الأمور الدالّة على هَوله، وضميره عائد إلى العباد المدلول عليهم بذِكر الفريقين لانحصارهم فيهما.

[٢٧ظ] وقيل: إلى المتّقين / خاصّة. وقيل: إلى المجرمين مِن الكفرة وأهل الإسلام.[2] والشفاعة على الأوّلَين مصدر مِن المبنيّ للفاعل، وعلى الثالث ينبغي أن يكون مصدرًا مِن المبنيّ للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ على الأوّل استثناء متّصل مِن ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾، ومحلّ المستثنى إمّا الرفع على البدل أو النصب على أصل الاستثناء، والمعنى لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم إلّا مَن استعَدّ له بالتحلّي بالإيمان والتقوى أو مَن أمر بذلك، مِن قولهم: "عَهِد الأمير إلى فلان بكذا" إذا أمرَه به، فيكون ترغيبًا للناس في تحصّل الإيمان والتقوى المؤدّي إلى نَيل هذه الرتبة.

---

[1] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٣.
[2] القولان في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤/٣٣.

وعلى **الثاني** استثناء مِن ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ على حذف المضافِ، والمستثنى منصوب على البدل أو على أصل الاستثناء، أي: لا يملك المتّقون الشفاعة إلّا شفاعةَ مَن اتّخذ العَهْد بالإسلام فيكون ترغيبًا في الإسلام.

وعلى **الثالث** استثناء مِن ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ أيضًا، والمستثنى مرفوع على البدل أو منصوب على الأصل، والمعنى لا يملك المجرمون أن يُشفَع لهم إلّا مَن كان منهم مسلمًا.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ حكاية لجناية اليهود والنصارى ومَن يزعُم مِن العرب أنّ الملائكة بنات الله -سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا- إثرَ حكاية جناية عبَدة الأصنام بطريق عطف القصّة على القصّة.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ ردّ لمقالتهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفات المنبئ عن كمال السخط وشدّة الغضب المُفصِح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة. و"الإِدّ" / بالكسر والفتح: العظيم المنكَر، والإدّة: الشِّدّة، و"أدّني الأمر وآدني": أثقلني [٢٨و]
وعظُم عليّ، أي: فعلتُم أمرًا منكَرًا شديدًا لا يقادَر قَدْره، فإنّ "جاء" و"أتى" يستعملان في معنى فعَل فيُعدَّيان تعدِيتَه.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾... إلخ، صفة لـ﴿إِدًّا﴾،[١] أو استئناف لبيان عِظَم شأنه في الشدّة والهَول. وقرئ: "يَكَادُ"[٢] بالتذكير. ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يتشقّقن مرّة بعد أخرى مِن عِظَم ذلك الأمر. وقرئ: "يَنْفَطِرْنَ"،[٣] والأوّل أبلغ؛ لأن "تفعّل" مُطاوِع "فعّل" و"انفعَل" مُطاوِع "فَعَل"، ولأنّ أصل التفعّل التكلّف.

---

١ في الآية السابقة.
٢ قرأ بها نافع والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.
٣ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: وتكاد تنشقّ الأرض ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: تسقُط وتتهدَّم، وقوله تعالى: ﴿هَدًّا﴾ مصدر مؤكِّد لمحذوف هو حال مِن الجبال، أي: تُهدّ هدًّا أو مصدر مِن المبنيّ للمفعول مؤكِّد لـ﴿تَخِرُّ﴾ على غير الصدر؛ لأنّه حينئذ بمعنى التهدّم والخُرور، كأنّه قيل: وتخِرّ الجبال خرورًا، أو مصدر بمعنى المفعول منصوب على الحاليّة، أي: مهدودة، أو مفعول له، أي: لأنّها تُهَدّ. وهذا تقرير لكونه إدًّا، والمعنى أنّ هَول تلك الكلمة الشنعاء وعِظَمها بحيث لو تَصوَّرَت بصورة محسوسة لم تُطِق بها هاتيك الأجرام العِظَام وتفتَّتت مِن شدَّتها، أو أنّ فظاعتها في استجلاب الغضب واستيجاب السخط بحيث لولا حِلمه تعالى لخُرِّب العالم وبُدِّدت قوائمه غضبًا على مَن تفوّه بها.

﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ منصوب على حَذْف "اللام" المتعلّقة بـ﴿تَكَادُ﴾[1] أو مجرور بإضمارها، أي: تكاد السماوات يتفطّرن والأرض تنشقّ والجبال تخِرّ لأن دعَوا له سبحانه ولدًا. وقيل: "اللام" متعلِّقة بـ﴿هَدًّا﴾.[2] وقيل: الجملة بدل مِن الضمير المجرور في ﴿مِنْهُ﴾،[3] كما في قوله:

على جُوده لضَنّ بالماء حاتِمُ[4]

[٢٨ظ] / وقيل: خبرُ مبتدأ محذوف، أي: الموجِبُ لذلك أن دعَوا... إلخ.[5] وقيل: فاعل ﴿هَدًّا﴾،[6] أي: هدّها دُعاء الولد.[7] والأَولى هو الأوّل. و﴿دَعَوْا۟﴾ مِن "دعا" بمعنى "سمَّى" المتعدّي إلى مفعولين، وقد اقتُصر على ثانيهما ليتناولَ كلّ ما دُعيَ له ولدًا، أو مِن "دعا" بمعنى "نسَب" الذي مُطاوِعه "ادّعى إلى فلان"، أي: انتسب إليه.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ حال مِن فاعل ﴿قَالُوا۟﴾ أو ﴿دَعَوْا۟﴾ مقرِّرة لبطلان مقالتهم واستحالة تحقُّق مضمونها، أي: قالوا: اتّخذ الرحمن ولدًا،

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] في الآية السابقة. والقولان في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٥.
[4] مضى بتخريجه في تفسير البقرة، ٢/١١٧.
[5] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٠.
[6] في الآية السابقة.
[7] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٥.

أو أن دعَوا للرحمن ولدًا والحالُ أنّه ما يليق به تعالى اتّخاذُ الولد ولا يُتطلّب له لو طُلب مثلًا لاستحالته في نفسه. ووَضْعُ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ موضع الضمير للإشعار بعلّة الحُكم بالتنبيه على أنّ كلّ ما سواه تعالى إمّا نعمة أو مُنعَم عليه، فكيف يتسنّى أن يجانس مَن هو مَبدأ النِّعم ومُولي أصولها وفروعها حتّى يُتوهّم أن يتّخذه ولدًا؟

وقد صرّح به قوله عزّ قائلًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما منهم أحد مِن الملائكة والثقلين ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ إلّا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبوديّة والانقياد. وقرئ: "آتٍ الرَّحْمَنَ"[1] على الأصل.

﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ أي: حصَرهم أو أحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد مِن حِيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، وكلُّ شيء عنده بمقدار.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ أي: كلّ واحد منهم آتٍ إيّاه تعالى منفردًا / مِن الأتباع والأنصار. وفي صيغة الفاعل مِن الدلالة على إتيانهم كذلك البتّة [٢٩و] ما ليس في صيغة المضارع لو قيل: يأتيه، فإذا كان شأنه تعالى وشأنهم كما ذُكر فأنّى يُتوهّم احتمال أن يتّخذ شيئًا منهم ولدًا؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لمّا فُصّلت قبائح أحوال الكفَرة عُقِّب ذلك بذِكر محاسن أحوال المؤمنين. ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي: سيُحدث لهم في القلوب مودّة مِن غير تعرّض منهم لأسبابها سوى ما لهم مِن الإيمان والعمل الصالح. والتعرّض لعنوان الرحمانيّة لِما أنّ الموعود مِن آثارها. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أحبّ الله عبدًا يقول لجبريلَ عليه السلام: أُحِبُّ فلانًا فأحِبّه،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأبي البَرَهسم وأبي حَيْوَة وطلحة والكَفَرتُوثي عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٨٩؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٧.

فيُحِبّه جبريلُ، ثـمّ ينادي في أهل السماء: إنّ الله أحبّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحبّه أهل السماء، ثـمّ يوضع له المحبّةُ في الأرض».[1]

و"السين" لأنّ السورة مَكيّة وكانوا إذ ذاك ممقوتين بين الكفرة فوعدهم ذلك ثـمّ أنجزه حين دجا الإسلام، أو لأنّ الموعود في القيامة حين تُعرَض حسناتهم على رءوس الأشهاد فيُنزع ما في صدورهم مِن الغِلّ الذي كان في الدنيا، ولعلّ إفرادَ هذا بالوعد مِن بين ما سيُؤتَون يوم القيامة مِن الكرامات السنيّة لِما أنّ الكفرة سيقع بينهم يومئذ تباغض وتضادّ وتقاطُع وتلاعُن.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ﴾ أي: القرآنَ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بأن أنزلناه على لغتك، و"الباء" بمعنى "على". وقيل: ضُمّن التيسير معنى الإنزال، أي: يسرنا القرآن منزِلين له بلغتك.[2]

[٢٩ظ] / و"الفاء" لتعليل أمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنّه قيل بعد إيحاء السورة الكريمة: بلِّغْ هذا المنزلَ أو بشِّر به وأنذِر فإنّما يسَّرناه بلسانك العربي المبين.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الصائرين إلى التقوى بامتثال ما فيه مِن الأمر والنهي ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ لا يؤمنون به لجَاجًا وعِنادًا. و"اللُّدّ" جمع "الألدّ"، وهو الشديد الخصومة اللَّجوج المعانِد.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ وعدٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في ضمن وعيد الكفَرة بالإهلاك، وحثٌّ له عليه السلام على الإنذار، أي: قَرنًا كثيرًا أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: هل تشعُر بأحد منهم وترى؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: صوتًا خفيًّا، وأصلُ التركيب

[1] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١١١/٤ (٣٢٠٩)؛ وصحيح مسلم، ٢٠٣٠/٤ (٢٦٣٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٥٧/٥؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٦/٣.

[2] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨١/٢.

هو الخفاء، ومنه "رَكَز الرُّمحَ" إذا غَيَّب طرَفه في الأرض، والرِّكاز: المال المدفون المَخفيّ. والمعنى أهلكناهم بالكلّيّة واستأصلناهم بحيث لا يُرى منهم أحد ولا يُسمَع منهم صوت خفيّ.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة مريمَ أُعطي عشرَ حسنات بعدد مَن كذّب زكريّا وصدّق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء المذكورين فيها، وبعدد مَن دعا الله تعالى في الدنيا ومَن لم يدْعُ الله تعالى».[1]

[1] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٢/١٧ (مريم، ١/١٩)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٧/٣. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٣٤٢/٢-٣٤٣. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد في أوائل جُمادى الأولى، سنة تسع وستّين وتسعمائة، حامدًا ومصلّيًا ومسلِّمًا.

١٩

سُورَةُ مَرْيَم

مكية أو إلّا سجدتَها فمدنية، أو إلاّ «فخلف من بعدهم خلف» الآيتين فمدنيتان، وهي ثمانٍ أو تسعٌ وتسعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿كهيعص﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

٢ ـ هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ﴾: مفعولُ «رحمة» ﴿زَكَرِيَّا﴾: بيانٌ له، ٣ ـ ﴿إِذْ﴾: مُتعلّق بـ«رحمة»

سُورَةُ مَرْيَم

قولُه: (اللهُ أعلَمُ) قيلَ: معناهُ: كافٍ لخلقِهِ، هادٍ لعبادِهِ، يدُهُ فوقَ أيديهم، عالمٌ ببريَّتِهِ، صادقٌ في وعدِهِ، ولكونِهِ مَوصوفاً بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ قالَ السُّدِّيُّ: إنَّه الاسمُ الأعظمُ[١]. وفي دعاءِ عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَه: «يا كهيعص»[٢].

قولُه: (هَذَا) مبتدأٌ مُقدَّرٌ.

قولُه: (بَيَانٌ) أو بدلٌ.

قولُه: (مُتَعَلِّقٌ) أي: ظرفٌ لها.

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (٢٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩/ ٢٩٣٨) (١٦٦٦٢) عن شعبة، قال: سألت السدي، عن قوله: ﴿الم﴾ و﴿حم﴾ و﴿طسم﴾ فقال: قال ابن عباس: هو اسم الله الأعظم.
وروى البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٦٩) عن السدي قال: فواتح السور من أسماء الله عز وجل.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٤١).

﴿نادَى رَبَّهُ نِداءً﴾ مُشتملاً على دعاء ﴿خَفِيًّا﴾: سِرًّا جوفَ الليل لأنه أسرعُ للإجابة، ٤ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، إنِّي وَهَنَ﴾: ضعُفَ ﴿العَظمُ﴾ جميعُه ﴿مِنِّي، واشتَعَلَ الرّأسُ﴾ منّي ﴿شَيبًا﴾: تمييزٌ محوَّل من الفاعل، أي: انتشر الشيب في شعري كما ينتشر شُعاع النار في الحطب، وإني أريد أن أدعوَك، ﴿ولَم أكُنْ بِدُعائكَ﴾ أي: بدعائي إيّاك ـ ﴿رَبِّ ـ شَقِيًّا﴾ أي: خائبًا فيما مضى. فلا تُخيّبْني فيما يأتي.

٥ ـ ﴿وإنِّي خِفتُ المَوالِيَ﴾ أي: الذين يلونني في النسب كبني العمّ، ﴿مِن وَرائي﴾ أي: بعدِ موتي، على الدِّين أن يُضيِّعوه كما شاهدتُه في بني إسرائيلَ من تبديل الدِّين، ﴿وكانَتِ امرأتي عاقِرًا﴾: لا تلدُ. ﴿فهَبْ لِي مِن لَدُنْكَ﴾: من عِندِك ﴿وَلِيًّا﴾: ابنًا، ٦ ـ ﴿يَرِثُني﴾ ـ بالجزم:.........

قولُه: (سِرًّا) كما هو المأمورُ به بقولِهِ تعَالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وهو أبعدُ عن الرِّياءِ، وأقربُ إلى الصَّفاءِ.

قولُه: (جَوْفَ اللَّيلِ) غيرُ مَفهومٍ من الكلامِ، فيَحتاجُ إلى نقلٍ.

قولُه: (لأَنَّهُ) علَّةٌ لهما، أو للأخيرِ.

قولُه: (ضَعُفَ) بضمِّ العينِ.

قولُه: (جَمِيعُهُ) الأظهَرُ: جنسُه، وخُصَّ لأنَّه عَمودُ البدنِ وأشدُّ ما فيه.

قولُه: (مِنِّي) ففيه إجمالٌ وتَفصيلٌ، أو: رأسي، وهو الأظهرُ، والمرادُ: شعرُهُ، وأُسنِدَ إلى منبَتِه مجازاً لإفادَةِ الشُّمولِ.

قولُه: (شَعرِهِ) أي: الرَّأسِ.

قولُه: (بِدُعَائِي) فهو مصدرٌ مُضافٌ إلى المفعولِ.

قولُه: (بَعْدَ مَوتِي) وقولُ صاحِبِ «المداركِ»[1]: وبالقصرِ وفتحِ الياءِ كـ﴿هُدايَ﴾ مكِّيٌّ. القصرُ غيرُ ثابتٍ[2].

قولُه: (لا تَلِدُ) وهي أختُ مريمَ بنت عِمرانَ[3].

قولُه: (بالجَزمِ) بَصريٌّ وكسائيٌّ[4].

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٢) كذا قال، وقد ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٤٠٧) رواية عن ابن كثير، ولم يذكرها الداني، وأوردها أيضا ابن خالويه في «المختصر في شواذ القرءات» (ص: ٨٦). فلعل قول المؤلف: «غير ثابت» يعني: في المتواتر.

(٣) وانظر: «فتوح الغيب» (٤/ ٨٥).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٣٨).

جوابُ الأمر، وبالرفع: صفةُ «وليًّا» ـ ﴿وَيَرِثُ﴾، بالوجهين، ﴿مِن آلِ يَعقُوبَ﴾ جَدّي العلمَ والنبوّةَ، ﴿واجعَلْهُ ـ رَبِّ ـ رَضِيًّا﴾ أي: مَرْضيًّا عِندك.

قال تعالى في إجابة طلبه الابنَ الحاصلَ به رحمتُه: ٧ ـ ﴿يا زَكَرِيّاءُ، إنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ﴾ يَرِثُ كما سألتَ، ﴿اسمُهُ يَحيَى، لَم نَجعَلْ لَهُ مِن قَبلُ سَمِيًّا﴾ أي: مُسمًّى يحيى. ٨ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، أَنّى﴾: كيفَ ﴿يَكُونُ لِي غُلامٌ، وكانَتِ امرأَتِي عاقِرًا، وقَد بَلَغتُ مِنَ الكِبَرِ عُتِيًّا﴾؟ من عَتا: يَبِسَ، أي: نهايةَ السنّ مِائةً وعشرين سنة، وقد بلغَتِ امرأتُه ثمانيَ وتسعين سنة. وأصل عُتِيّ «عُتُوْوٌ» كُسرَتِ التاء تخفيفًا، وقُلبَتِ الواوُ الأُولى ياء لمُناسبة الكسرة، والثانيةُ ياء لتُدغم فيها الياء. ٩ ـ ﴿قالَ﴾: الأمرُ ﴿كَذلِكَ﴾ من خلق غلام منكما. ﴿قالَ رَبُّكَ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: بأن أردَّ عليك قُوّة الجِماع وأفتقَ رَحِم امرأتك للعُلوق. ﴿وقَد خَلَقتُكَ مِن قَبلُ، ولَم تَكُ شَيئًا﴾..................................

قولُه: (الأَمرِ) أي: الدُّعاءِ.

قولُه: (العِلْمَ والنُّبُوَّةَ) لفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ على ما صرَّحَ به في «المداركِ»، قالَ: ومعنَى الوراثةِ: أنَّه يصلُحُ لأَن يوحَى إليه، ولم يُرِد أنَّ نفسَ النُّبوَّةِ تورَثُ[١].

قولُه: (مَرْضِيًّا) أو راضِياً عنك وبحُكمِكَ.

قولُه: (كَيفَ) وليسَ هذا باستِبعادٍ، بل هو استِكشافُ أنَّه بأيِّ طريقٍ يكونُ: أيوهَبُ لهُ وهو وامرأتُه بتلكَ الحالِ، أم يُحوَّلانِ شابَّينِ؟

قولُه: (عُتُوٌّ) وأصلُه: عُتُوْوٌ؛ كجُلُوس.

قولُه: (تَخفِيفاً) لاستِثقالِ تَوالي الضَّمَّتينِ والواوَينِ، وقرأَ حفصٌ وحمزَةُ والكسائيُّ بكسرِ الفاءِ، وكذا ﴿صِلِيًّا﴾ و﴿جِثِيًّا﴾ و(بِكِيًّا) إلَّا حفصاً في الأخيرِ[٢].

قالَ تعالى: (﴿قَالَ رَبُّكَ﴾) يدلُّ على أنَّ المبشِّرَ هو الملَكُ، ويؤيِّدُه: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩].

قولُه: (أَفْتُقَ) أي: أشقَّ.

قولُه: (للعَلُوقِ) كصَبُورٍ؛ أي: المنيِّ[٣].

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٢٢٧).

(٢) أي: قرأ: ﴿بُكيا﴾ بضم الباء، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٣٩).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٢٦/ ١٩٩).

قبلَ خلقك. ولإظهار الله هذه القُدرةَ العظيمة ألهمه السؤال، ليُجاب بما يدلّ عليها.

ولمّا تاقت نفسه إلى سُرعة المُبشَّر به ١٠ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، اجعَلْ لِيَ آيَةً﴾ أي: علامةً على حمل امرأتي. ﴿قالَ: آيَتُكَ﴾ عليه ﴿ألاّ تُكَلِّمَ النّاسَ﴾ أي: تمتنعَ من كلامهم بخِلاف ذكر الله ـ تعالى ـ ﴿ثَلاثَ لَيالٍ﴾ أي: بأيامها كما في آل عمران «ثلاثةَ أيّام» ﴿سَوِيًّا﴾: حالٌ من فاعل «تُكلّم» أي: بِلا عِلّة. ١١ ـ ﴿فخَرَجَ على قَومِهِ مِنَ المِحرابِ﴾ أي: المسجد، وكانوا ينتظرون فتحه ليُصلّوا فيه بأمره على العادة، ﴿فأوحَى﴾: أشار ﴿إلَيهِم: أن سَبِّحُوا﴾: صلُّوا ﴿بُكْرَةً وعَشِيًّا﴾: أوائلَ النهار وأواخرَه على العادة. فعَلم بمنعه من كلامهم حَملَها بيحيى.

وبعد ولادته بسنتين قال تعالى له: ١٢ ـ ﴿يا يَحيَى، خُذِ الكِتابَ﴾ أي: التوراةَ ﴿بِقُوّةٍ﴾: بجِدّ. ﴿وآتَيناهُ الحُكمَ﴾: النبوّة ﴿صَبِيًّا﴾:..

قولُه: (قَبْلَ خَلْقِكَ) لأنَّ المعدومَ ليسَ بشيءٍ، وحمزةُ والكِسائيُّ: (خَلَقْنَاكَ)[1].

قولُه: (تَاقَتْ) واشتاقَتْ.

قولُه: (حَالٌ) أي: حالَ كونِكَ سويَّ الأعضاءِ واللِّسانِ.

قولُه: (أي: المَسجِدِ) أي: مَوضِعِ صلاتِهِ.

قولُه: (أَشَارَ) بإصبعِهِ.

قولُه: (صَلُّوا) و﴿أنْ﴾ مفسِّرةٌ.

قولُه: (وَأَوَاخِرَهُ) صلاةَ الفَجرِ والعَصرِ[2].

قولُه: (بِسَنَتَينِ) وفي نسخةٍ: «بسِنينَ» وهو غيرُ صَحيحٍ لجَهالتِهِ، اللَّهمَّ إلّا أن يُقالَ: المرادُ به أقلُّ ما يُطلَقُ عليه لفظُ السِّنين، وهو ثلاثُ سنينَ؛ لما سيأتِي في كلامِهِ[3]، ويؤيِّدُ الأوَّلَ ما قالَ صاحبُ «المدارِكِ»: وقُلنا: بعد ولادتِهِ وأوانَ الخطَابِ[4].

قولُه: (بجِدٍّ) واستظهَارٍ بالتَّوفيقِ، حالٌ.

قولُه: (النُّبُوَّةَ) أو: فَهْمَ التَّوراةِ، والفقهَ في الدِّينِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٣٩).

(٢) رواه عبد الرزاق وعبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٨٤) عن قتادة.

(٣) وهو قوله: ابن ثلاث سنين.

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٢٨).

ابن ثلاث سنين، ١٣ ـ ﴿وَحَنَانًا﴾: رحمة للناس ﴿مِن لَّدُنَّا﴾: من عِندِنا ﴿وَزَكَاةً﴾: صدقة عليهم، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ـ رُوي أنه لم يعمل خطيئة ولم يهمّ بها ـ ١٤ ـ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي: مُحسنًا إليهما، ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾: مُتكبرًا ﴿عَصِيًّا﴾ عاصيًا لربّه. ١٥ ـ ﴿وَسَلَامٌ﴾ منّا ﴿عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ، وَيَوْمَ يَمُوتُ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي: في هذه الأيام المخوفة التي يرى فيها ما لم يره قبلها، فهو آمِنٌ فيها.

١٦ ـ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾: القُرآنِ ﴿مَرْيَمَ﴾ أي: خَبرَها، ﴿إِذِ﴾: حينَ ....

قولُه: (ابنَ ثَلاثٍ) حالٌ، قيل: دعاهُ الصِّبيانُ إلى اللَّعِبِ وهو صبيٌّ، فقال: ما للَّعِبِ خُلِقْنا[1].

قولُه: (للنَّاسِ) أي: لأبوَيهِ وغيرِهما، عطفاً على ﴿الْحُكْمَ﴾.

قولُه: (صَدَقَةً عَلَيْهِم) قالَ الكلبيُّ: صَدقةً تصدَّقَ اللهُ بها على أبوَيهِ[2].

والأظهرُ ما قالَ صاحبُ «المداركِ»: طَهارةً وصَلاحاً، فلم يعمَل بذَنبٍ[3].

قولُه: (مُحسِناً) لا يعصِيهِما، مبَالغَةُ بارٍّ.

قولُه: (مِنَّا) أو أمانٌ مِن اللهِ له.

قولُه: (الأيَّامِ المَخُوفَةِ) يومَ وُلِدَ من أن ينَالَه الشَّيطانُ، ويومَ يموتُ من فتَّاني القَبرِ، ويومَ البَعثِ[4] من الفزَعِ الأكبرِ. قالَ ابنُ عُيينةَ: إنَّها أوحَشُ المواطنِ[5].

قولُه: (أَيْ: خَبَرَهَا) أي: اقرَأْ عليهِم قصَّتَها ليقفُوا عليها، ويَعلَموا ما جَرى عليها.

قولُه: (حِيْنَ) يعني: ﴿إِذِ﴾ بدلٌ من ﴿مَرْيَمَ﴾ بدلَ اشتِمالٍ، إذِ الأحيانُ مشتَمِلةٌ على ما فيها، وفيهِ: أنَّ المقصِدَ[6] بذكرِ مريمَ ذِكرُ وَقتِها هذا لوُقوعِ هذه القصَّةِ العَجِيبةِ فيه، ولا يُتوهَّمُ أنَّه ظرفُ ﴿اذْكُرْ﴾، فإنَّه يُخِلُّ بالمعنى.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٨٢٣)، وعبد الرزاق في «التفسير» (٣٩٦)، وأحمد في «الزهد» (٤٦٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٥٥) عن معمر قوله.

ورواه الحاكم في «تاريخه» كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٨٥) من حديث ابن عباس مرفوعاً.

(٢) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٧/ ٣٤٤)، والواحدي في «التفسير البسيط» (١٤/ ٢٠٩).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٢٩).

(٤) في (ص): «يبعث».

(٥) رواه الخطابي في «شأن الدعاء» (١/ ٤٢) (٢١)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٥٩٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٤/ ١٧٤) (١٣٠٩٠) بأتم مما هنا.

(٦) في (ص): «المقصود».

﴿انتَبَذَتْ مِن أهلِها مَكانًا شَرقِيًّا﴾ أي: اعتزلتْ في مكانٍ نحو الشرق من الدار، ١٧ ـ ﴿فاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجابًا﴾: أرسلتْ سِترًا تَستتر به لِتَفلِيَ رأسها أو ثيابها أو تغتسلَ من حيضها، ﴿فأرسَلْنا إلَيها رُوحَنا﴾ جبريلَ، ﴿فتَمَثَّلَ لَها﴾ بعد لُبسها ثيابَها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾: تامَّ الخَلق. ١٨ ـ ﴿قالَتْ: إنِّي أعُوذُ بِالرَّحمنِ مِنكَ، إن كُنتَ تَقِيًّا﴾ فتنتهي عنّي بتعوّذي. ١٩ ـ ﴿قالَ: إنَّما أنا رَسُولُ رَبِّكِ، لِيَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ بالنبوّة.

٢٠ ـ ﴿قالَتْ: أنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ، ولَم يَمسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بتزوّج، ﴿ولَم أكُ بَغِيًّا﴾: زانية؟ ٢١ ـ ﴿قالَ﴾: الأمرُ ﴿كَذلِكِ﴾ من خلق غُلام منكِ من غير أب. ﴿قالَ رَبُّكِ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: بأن ينفخ بأمري جِبريلُ فيكِ فتحملي به. ولكونِ ما ذُكر في معنى العِلّة عُطف عليه: ....

قولُه: (اعْتَزَلَتْ) أي: تخلَّت للعِبادةِ.

قولُه: (مِنَ الدَّارِ) أي: دارِها، أو من بيتِ المقدِسِ.

قولُه: (جِبرِيلَ) والإضافَةُ للتَّشريفِ، وسُمِّي رُوحاً؛ لأنَّ الدِّينَ يحيا به وبوَحيِهِ.

قولُه: (تَامَّ الخَلْقِ) وإنَّما مُثِّلَ لها في صُورةِ الإنسانِ لتستأنِسَ بكلامِهِ ولا تنفِرَ منه، ولو بدا لها في الصُّورةِ الملَكيَّةِ لنفرَت ولم تقدِرْ على استِماعِ كلامِهِ.

قالَ تعَالى: (﴿لِيَهَبَ﴾) أي: اللهُ، قرأ به نافعٌ وأبو عَمرٍو بخلافٍ عن قالونَ، والباقونَ بالهمزِ[1]؛ أي: بإذنِ اللهِ، أو: لأكونَ سبباً في هِبَةِ الغُلامِ بالنَّفخِ في القَميصِ.

قولُه: (بالنُّبُوَّةِ) أو: طاهِراً من الذُّنوبِ، أو: نامياً على الخيرِ والبركَةِ.

قولُه: (زانيةً) تَبغِي الرِّجالَ؛ أي: تطلُبُ الشَّهوةَ من أيِّ رجلٍ كانَ، ولا يكونُ الولدُ عادةً إلَّا مِن أحدِ هذَين[2]، وهو فعولٌ أو فَعيلٌ بمعنَى: مَفعولٍ، ولذا لم تلحَقْه التَّاءُ.

قولُه: (مِن خَلْقِ) أو: الأمرُ كما قُلتِ، لم يمسَّكِ رجلٌ نِكاحاً أو سِفاحاً.

قولُه: (﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾) أي: إعطاءُ الولدِ بلا أبٍ عليَّ سَهلٌ.

قولُه: (ولِكَونِ ما ذُكِرَ) يعني: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أو هو معطوفٌ على تعليلٍ مُضمَرٍ؛ أي: لنُبيِّنَ به قدرتَنا، أو معلَّله محذوفٍ؛ وهو: فعَلنا ذلك.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٨).

(٢) أي: الزواج أو الزنا.

﴿ولِنَجعَلَهُ آيَةً لِلنّاسِ﴾ على قُدرتنا ﴿ورَحْمةً مِنّا﴾ لمَن آمن به. ﴿وكانَ﴾ خلقه ﴿أمرًا مَقضِيًّا﴾ به في عِلمي.

فنفخ جِبريلُ في جيب دِرعها، فأحسّت بالحمل في بطنها مُصوّرًا، ٢٢ _ ﴿فحَمَلَتْهُ، فانتبَذَتْ﴾: تَنَحَّت ﴿بِهِ مَكانًا قَصِيًّا﴾: بعيدًا من أهلها، ٢٣ _ ﴿فأجاءَها﴾: جاءَ بها ﴿المَخاضُ﴾: وجعُ الوِلادة ﴿إلَى جِذعِ النَّخْلةِ﴾ لتعتمد عليه، فولدتْ والحملُ والتصوير والولادة في ساعة. ﴿قالَتْ: يا﴾ للتنبيه ﴿لَيتَنِي مُتُّ قَبلَ هذا﴾ الأمرِ، ﴿وكُنتُ نِسْيًا مَنسِيًّا﴾: شيئًا متروكًا لا يُعرف ولا يُذكر.

٢٤ _ ﴿فناداها مَن تَحتَها﴾ أي: جِبريلُ،......................

قولُه: (فِي عِلْمِي) أو في اللَّوحِ.

قولُه: (فَنَفَخَ) أي: فلمَّا اطمأنَّتْ إلى قولِه دَنا منها فنفَخَ.

قالَ تعَالى: (﴿فَحَمَلَتْهُ﴾) أي: الموهوبَ، وكانَ سِنُّها ثلاثَ عشرَةَ سنةً، أو عشراً، أو عشرينَ.

قولُه: (تَنَحَّتْ) واعتزلَتْ، وهو في بَطنِها، فالجارُّ والمجرورُ في موضعِ الحالِ؛ أي: ملتَبِسةً به.

قولُه: (بَعِيداً) وراءَ الجبلِ، وذلك لأنَّها لمَّا أحسَّت بالحَملِ هربَتْ مِن قَومِها مخافَةَ اللَّائمةِ.

قولُه: (عَليهِ) أي: الجِذعِ، وهو الأصْلُ.

قولُه: (في سَاعَةٍ) قيلَ: حملَتْه في ساعَةٍ، وصُوِّرَ في ساعةٍ، ووضعَتْهُ في ساعةٍ.

وقيل: كانت مُدَّةُ الحملِ ستَّةَ أشهرٍ، وقيل: سبعةً، وقيل: ثمانيةً، ولم يَعِشْ مولودٌ وُضِعَ لثمانيةٍ إلَّا عيسَى[1].

قولُه: (الأَمْرِ) أو اليَومِ؛ جزَعاً ممَّا أصابَها.

قولُه: (ولا يُذَكَّرُ) وفتحَ النُّونَ حفصٌ وحمزةُ[2]، ومَعناهُما واحدٌ؛ وهو الشَّيءُ الذي حقُّه أن يُطرَحَ ويُنسَى لحقَارتِه[3].

قولُه: (أي: جِبرِيلُ) فـ﴿مَن﴾ موصُولةٌ.

---

(١) روى أبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» (٧٤٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٠/ ٩٢) عن ابن عباس قال: وضعت مريم لثمانية أشهر ولذلك لا يولد مولود لثمانية أشهر إلا مات لئلا تسب مريم بعيسى عليهما السلام.

وفي «البحر المحيط» لأبي حيان (٧/ ٢٥٠): وهذه أقوال مضطربة متناقضة كان ينبغي أن يضرب عنها صفحاً إلا أن المفسرين ذكروها في كتبهم وسودوا بها الورق.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤١).

(٣) انظر: «تاج العروس» (٤٠/ ٨٠).

وكان أسفل منها: ﴿أَنْ لَا تَحزَنِي ـ قَد جَعَلَ رَبُّكِ تَحتَكِ سَرِيًّا﴾: نهرَ ماءٍ كان انقطع ـ ٢٥ ـ ﴿وهُزِّي إِلَيكِ بِجِذعِ النَّخلَةِ﴾ كانت يابسة والباء: زائدة، ﴿تَسَاقَطْ﴾ أصله بتاءين قُلبت الثانية سِينًا وأُدغمت في السين وفي قراءةٍ تركُها، ﴿عَلَيكِ رُطَبًا﴾:........................

قولُه: (مِنهَا) أي: من مَكانِها، أو عيسى؛ لأنَّه خاطَبَها من تحتِ ذَيلِها، و: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ مدنيٌّ وكوفيٌّ سِوى شُعبةَ[١]، على أنَّ في ﴿نادى﴾ ضميرُ أحدِهمَا.

قالَ تعالى: (﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾) مفسِّرةٌ أو مصدريَّةٌ؛ أي: لا تهتمِّي بالوحدةِ وعدمِ الطَّعامِ والشَّرابِ ومقالةِ النَّاسِ.

قولُه: (نَهرَ مَاءٍ) أو نهراً صغيراً، وهو قولُ الجُمهورِ[٢]، وسُئلَ النَّبيُّ ﷺ عن السَّرِيِّ فقالَ: «هو الجَدوَلُ»[٣].

قولُه: (كَانَ انْقَطَعَ) قالَ ابنُ عبَّاسٍ: ضربَ عيسى أو جبريلُ بعَقبِهِ الأرضَ، فظهرَت عينُ ماءٍ عَذبٍ، فجرَى النَّهرُ اليابِسُ، واخضرَّتِ النَّخلةُ، وكانت نخلةً يابِسةً لا رأسَ لها ولا خُضرةَ، وكانَ الوقتُ شِتاءً، والنَّخلةُ أقلُّ شجرٍ صبراً على البردِ، وأثمرَت ونضجَتْ ثمرتُها[٤].

قولُه: (والبَاءُ زَائِدَةٌ) قالَ البَيضاويُّ: أو: افعَلي الهزَّ به، أو: هُزِّي الثَّمرةَ بهذِهِ، والهزُّ: التَّحريكُ بجَذبٍ ودفعٍ[٥].

وفي «القاموسِ»: هزَّهُ وهزَّ به؛ أي: حرَّكَه[٦]. فيدلُّ على أنَّه مُتعدٍّ بنفسِهِ وبالحرفِ.

وفي «المداركِ»: قال أبو عليٍّ: الباءُ زائدةٌ[٧]. ففيه إشارَةٌ إلى أنَّ هذا قولُهُ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزَةَ[٨].

قولُه: (بِتَركِهَا) أي: إحدَى التَّاءَينِ، وحفصٌ: ﴿تُسَاقِطْ﴾[٩] من ساقطَتْ بمعنى: أسقطَتْ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤١).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ١٧٥ ـ ١٧٧).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٦٨٥)، وابن عدي في «الكامل» (٨/ ١٤١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٤): فيه معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٥٨)، وابن الجعد في «مسنده» (٢١١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤١٣) وصححه، عن البراء بن عازب موقوفاً. وكذا علقه البخاري في «الصحيح» قبل الحديث (٣٤٣٦) تعليقاً مجزوماً به من قول البراء أيضاً.

(٤) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٧/ ٢٢٦)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٠).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٩).

(٦) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٥٢٩).

(٧) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٣٢).

(٨) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤٢).

(٩) انظر المصدرين السابقين.

تمييزٌ ﴿جَنِيًّا﴾: صفته. ٢٦ ـ ﴿فكُلِي﴾ من الرُّطب، ﴿واشرَبِي﴾ من السريّ، ﴿وقَرِّي عَينًا﴾ بالولد: تمييزٌ مُحوّل من الفاعل، أي: لِتقرَّ عينُك به أي: تسكنْ، فلا تطمحْ إلى غيره. ﴿فإمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطية في «ما» الزائدة ـ ﴿تَرَيِنَّ﴾، حُذفت منه لامُ الفعل وعينُه وأُلقيتْ حركتها على الراء وكُسرتْ ياء الضمير لِالتقاء الساكنين، ﴿مِنَ البَشَرِ أحَدًا﴾ فيسألْكِ عن ولدِكِ، ﴿فقُولِي: إنِّي نَذَرتُ لِلرَّحمنِ صَومًا﴾ أي: إمساكًا عن الكلام في شأنه وغيره مع الأناسيّ، بدليل: ﴿فلَن أُكَلِّمَ اليَومَ إنسِيًّا﴾ أي: بعد ذلك.

قولُه: (تَمْيِيزٌ) أو مفعُولٌ به على حسَبِ القِراءةِ.

قولُه: (مِن الرُّطَبِ) الَّذي هو طُعْمةٌ للنُّفَساءِ[1].

قولُه: (بالوَلَدِ) أو: طِيبي نفساً وارفُضِي عنكِ ما أحزنَكِ.

قولُه: (لامُ الفِعْلِ) أي: بالجَزمِ.

قولُه: (وَعَيْنُهُ) للتَّخفيفِ.

قولُه: (وأُلقِيَتْ) بعدَما أُلقيَتْ[2]، والواوُ للجَمعِ.

قولُه: (السَّاكنَينِ) الياءِ والنُّونِ الأولى.

قولُه: (أي: إِمْسَاكاً) يعني: صمتاً، وقُرِئَ به[3]، فالصَّومُ بمعناهُ اللُّغويِّ، أو: صِياماً، وكانوا لا يتكلَّمونَ في صيامِهِم[4].

قولُه: (مَعَ الأَنَاسِيِّ) وإنَّما أكلِّمُ الملائكَةَ وأناجي ربِّي.

قولُه: (أي: بَعْدَ ذلِكَ) أي: بعدَ أن أخبرتُكُم بنَذْري.

---

(١) روى أبو نعيم في «الطب النبوي» (٤٥٧) عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أطعموا نساءكم الرطب فإنه لو علم الله خيراً منه لأطعمه مريم...» الحديث.

قال السيوطي في «اللآلئ المصنوعة» (١/ ١٤٣): إسناده على شرط مسلم.

(٢) «ألقيت» الأولى بمعنى: نقلت، والثانية بمعنى: حذفت؛ أي: نقلت حركتها إلى ما قبلها بعدما حذفت.

(٣) أي: (نذرت للرحمن صوماً وصمتاً) ونسبت لأبي بن كعب وابن عامر وابن الزبير وأنس بن مالك. انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٠٠).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٨٣) عن الضحاك قال في قوله تعالى: ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال: كان من بني إسرائيل من إذا اجتهد صام من الكلام كما يصوم من الطعام، إلا مِن ذكر الله.

٢٧ ـ ﴿فأتَتْ بِهِ قَومَها تَحمِلُهُ﴾: حالٌ، فرأوه. ﴿قالُوا: يا مَريَمُ، لَقَد جِئتِ شَيئًا فَرِيًّا﴾: عظيمًا، حيثُ أتيتِ بولد من غير أب. ٢٨ ـ ﴿يا أُختَ هارُونَ﴾ ـ هو رجل صالح ـ أي: يا شَبيهتَه في العِفّة، ﴿ما كانَ أبوكِ امرَأَ سَوءٍ﴾ أي: زانيًا، ﴿وما كانَت أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي: زانية. فمِن أين لكِ هذا الولدُ؟ ٢٩ ـ ﴿فأشارَتْ﴾ لهم ﴿إلَيهِ﴾: أن كلّموه. ﴿قالُوا: كَيفَ نُكَلِّمُ مَن كانَ﴾ أي: وُجد ﴿في المَهدِ صَبِيًّا﴾؟

٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ﴿قالَ: إنِّي عَبدُ اللهِ، آتانِيَ الكِتابَ﴾ أي: الإنجيلَ، ﴿وجَعَلَنِي نَبِيًّا، وجَعَلَنِي مُبارَكًا أينَما كُنتُ﴾ أي: نفّاعًا للناس ـ إخبارٌ بما كُتب له ـ ﴿وأوصانِي بِالصَّلاةِ والزَّكاةِ﴾: أمرني بهما ﴿ما دُمتُ حَيًّا، وبَرًّا بِوالِدَتِي﴾: منصوبٌ بـ «جعلني» مُقدّرًا، ﴿ولَم يَجعَلْنِي جَبّارًا﴾: مُتعاظمًا ﴿شَقِيًّا﴾: عاصيًا لربّه، ....

قالَ تعَالى: (﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾) أي: معَ ولَدِها.

قولُه: (حَالٌ) أي: حامِلةً إيَّاهُ.

قولُه: (عَظِيْماً) أي: بديعاً مُنكَراً.

قولُه: (صَالِحٌ) شبَّهُوها به تهكُّماً، أو لِمَا رَأوا قبلُ من صلاحِهَا، أو طالح شَتمُوها به، أو يعنونَ: هارونَ النَّبيَّ، وكانت مِن أعقابِ مَن كانَ معهُ في طبقَةِ الأخُوَّة.

وقيل: كانت مِن نسلِهِ، وكانَ بينهما ألفُ سَنةٍ.

قولُه: (زَانِيَةٌ) تنبِيهٌ على أنَّ الفَواحِشَ من أولادِ الصَّالحينَ أفحَشُ، وإشارَةٌ إلى أنَّ الولدَ سِرُّ أبوَيهِ.

قولُه: (أي: وُجِدَ) يعني: ﴿كَانَ﴾ تامَّةٌ، فـ﴿صَبِيًّا﴾ حالٌ من المستكِنِّ.

وقيل: ﴿كَانَ﴾ زائدةٌ، والظَّرفُ صِلةُ ﴿مَنْ﴾ و﴿صَبِيًّا﴾ على حالِه.

قولُه: (إِخْبَارٌ) يعني: التَّعبيرُ بلفظِ الماضِي في ﴿آتَانِيَ﴾ و﴿جَعَلَنِي﴾ باعتِبارِ ما سبَقَ في قضائِهِ، أو بجعلِ المحقَّقِ وقوعُهُ كالواقعِ، وقيل: أكملَ اللهُ عقلَهُ واستنبأَهُ طِفلاً.

قولُه: (أَمَرَنِي) أي: بالصَّلاةِ وزكاةِ المالِ إن ملَكتُه، أو تَطهيرِ النَّفسِ عن[1] الرَّذائلِ، قالَ ابنُ عطاءٍ: أمرَني بمواصلتِهِ وطهارَةِ السِّرِّ عمَّا دونَه[2].

قولُه: (مُقَدَّراً) الظَّاهرُ أنَّه عطفٌ على ﴿مُبَارَكًا﴾.

قولُه: (مُتَعَاظِماً) متكبِّراً.

---

(١) في (ص): «من».

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (١/ ٤٢٦).

٣٣ ـ ﴿والسَّلامُ﴾ من الله ﴿عَلَيَّ يومَ وُلِدتُ، ويَومَ أَمُوتُ، ويَومَ أُبعَثُ حَيًّا﴾. يقال فيه ما تقدّم في السيّد يحيى.

٣٤ ـ قال تعالى: ﴿ذلِكَ عِيسَى بنُ مَريَمَ، قَولُ الحَقِّ﴾ ـ بالرفع: خبرُ مبتدأ مُقدّر أي: قولُ ابنِ مريم، وبالنصب بتقدير: قلتُ ـ والمعنى: القولَ ـ الحقّ ﴿الَّذِي فِيهِ يَمتَرُونَ﴾ من المِرية، أي: يشكّون. وهم النصارى، قالوا: إنّ عيسى ابنُ الله. كذبوا. ٣٥ ـ ﴿ما كانَ للهِ أن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ. سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له عن ذلك! ﴿إذا قَضَى أمرًا﴾ أي: أراد أن يُحدثه ﴿فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ. فَيَكُونُ﴾، بالرفع بتقدير: هو، وبالنصب بتقدير: أنْ. ومن ذلك خلقُ عيسى من غير أب.

٣٦ ـ ﴿وأنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكُم، فاعبُدُوهُ﴾ ـ بفتح «أنّ» بتقدير: اذكرْ، وبكسرها بتقدير: قلْ، بدليل «ما قُلتُ لَهُم إلاّ ما أمَرتَنِي بِهِ أنِ اعبُدُوا اللهَ رَبِّي ورَبَّكُم» ـ ﴿هذا﴾ المذكور ﴿صِراطٌ﴾: طريق ﴿مُستَقِيمٌ﴾: مُؤدٍّ إلى الجنّة.

قولُه: (فِيْهِ مَا تَقَدَّمَ) والأظهرُ أنَّ التَّعريفَ للجنسِ، والتَّعريض باللَّعنِ على أعدائِهِ، فإنَّه لمَّا جعلَ جنسَ السَّلامِ على نفسِهِ عرَّضَ بأنَّ ضدَّه عليهم، كقولِه تعَالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧]، فإنَّه يعرِّضُ بأنَّ العَذابَ على من كذَّبَ وتولَّى.

قولُه تعَالى: (﴿ذَلِكَ﴾) أي: الَّذي تقدَّمَ نعتُهُ هو عيسى ابنُ مريمَ، لا ما يصِفُه النَّصارى واليهودُ.

قولُه: (وبالنَّصْبِ) شاميٌّ وعاصمٌ[1] على أنَّه مصدَرٌ مؤكِّدٌ.

قولُه: (القَولَ الحَقَّ) أي: من بابِ إضافَةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ.

قولُه: (يَشُكُّونَ) في أمرِهِ، أو يتنازَعونَ، فقالت اليهودُ: ساحِرٌ، وقالت النَّصارى: ابنُ اللهِ.

قولُه: (كَذَبُوا) أي: النَّصارَى.

قولُه: (عن ذَلِكَ) أي: عمَّا بهتوا.

قولُه: (وبِالنَّصْبِ) شاميٌّ[2]، على الجوابِ.

قولُه: (بِفَتْحِ ﴿أَنَّ﴾) الحِرْميَّانِ والبَصريُّ[3].

قولُه: (بِتَقْدِيرِ: اذكُرْ) أو اللَّامِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٠٩).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر المصدر السابق: (ص: ٤١٠).

٣٧ ـ ﴿فاختَلَفَ الأحزابُ مِن بَينِهِم﴾ أي: النصارى في عيسى: أهو ابنُ الله، أو إلـٰـهٌ معه، أو ثالثُ ثلاثة؟ ﴿فوَيلٌ﴾: فشِدّةُ عذاب ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما ذُكر أو غيره ﴿مِن مَشهَدِ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ أي: حُضورِ يوم القيامة وأهواله. ٣٨ ـ ﴿أسمِعْ بِهِم! وأبصِرْ﴾ بهم! صِيغتا تعجّب بمعنى: ما أسمَعَهم! وما أبصَرَهم ﴿يَومَ يأتُونَنا﴾ في الآخرة! ﴿لكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ ـ من إقامة الظاهر مَقام المُضمَر ـ ﴿اليَومَ﴾ أي: في الدنيا ﴿في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي: بيّنٍ، به صَمُّوا عن سماع الحقّ وعَمُوا عن إبصاره، أي: اعجَبْ منهم ـ يا مُخاطب ـ في سمعهم وإبصارهم في الآخرة بعد أن كانوا في الدنيا صُمًّا عُميًا.

٣٩ ـ ﴿وأنذِرْهُم﴾: خوِّفْ ـ يا مُحمّد ـ كُفّارَ مكّة ﴿يَومَ الحَسْرةِ﴾ هو يوم القيامة، يتحسّر فيه المُسيء على ترك الإحسان في الدنيا، ....

قولُه: (أي: النَّصَارَى) أو: هم واليهودُ. أو فِرَقُ النَّصارى: نَسْطوريَّةٌ[١] قالُوا: إنَّه ابنُ اللهِ، ويعقُوبيَّةٌ[٢] قالُوا: هو اللهُ هبطَ إلى الأرضِ ثمَّ صعَدَ إلى السَّماءِ، وملكانيَّةٌ[٣] قالوا: هو عبدُ اللهِ ونبيُّهُ[٤].

قولُه: (أي: حُضُورِ) فالمشهَدُ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى الشُّهودِ؛ أي: الحضُورِ.

قولُه: (وأهوَالِهِ) أو: يومِ عظيمٍ هولُه وحسابُه وجزاؤُه.

قولُه: (مِن إقَامَةِ الظَّاهِرِ) ويمكنُ أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ﴾ للخَلقِ.

قولُه: (أي: اعجَبْ) قدَّرَه لإيضاحِ معنَى التَّعجُّبِ وليعطِفَ عليه قولَه: ﴿وَأَنْذِرْهُم﴾.

قولُه: (كُفَّارَ مكَّةَ) الظَّاهرُ الأعمُّ.

قولُه: (عَلَى تَركِ الإحسَانِ) وعلى إساءتِهِ، والمحسِنُ على قلَّةِ إحسانِهِ، وفي الحديثِ: «ليسَ يتحَسَّرُ أهلُ الجنَّةِ يومَ القِيامةِ إلَّا على ساعَةٍ مرَّت بهم ولم يَذْكُروا اللهَ فيها»[٥].

---

(١) وهم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. انظر: «الملل والنحل» (٢/ ٢٩).

(٢) وهم أصحاب يعقوب. انظر المصدر السابق: (٢/ ٣٠).

(٣) وهم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. انظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (١/ ٤٨)، و«الملل والنحل» (٢/ ٢٧).

(٤) وروى أقوال الفرق: النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٢٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣١٨٧٦)، والطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٣٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٢٣٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أنه نسب القول الثالث للمسلمين.

(٥) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٩٣) (١٨٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (ص: ٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٠٩) من حديث معاذ رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧٤): رواه الطبراني، ورجاله ثقات، وفي شيخ الطبراني: محمد بن إبراهيم الصوري خلاف.

﴿إذ قُضِيَ الأمرُ﴾ لهم فيه بالعذاب، ﴿وهُم﴾ في الدنيا ﴿في غَفْلَةٍ﴾ عنه، ﴿وهُم لا يُؤمِنُونَ﴾ به. ٤٠ ـ ﴿إنّا نحنُ﴾: تأكيدٌ ﴿نَرِثُ الأرضَ ومَن علَيها﴾ من العُقَلاء وغيرهم بإهلاكهم، ﴿وإلَينا يُرجَعُونَ﴾ فيه للجزاء.

٤١ ـ ﴿واذكُرْ﴾ لهم ﴿في الكِتابِ إبراهِيمَ﴾ أي: خَبَرَه ـ ﴿إنَّهُ كانَ صِدِّيقًا﴾: مُبالِغًا في الصدق ﴿نَبِيًّا﴾ ـ ويبدل مِن «خبَره»: ٤٢ ـ ﴿إذ قالَ لِأبِيهِ﴾ آزرَ: ﴿يا أبَتِ﴾ ـ التاء عوض عن ياء الإضافة، ولا يُجمع بينهما. وكان يعبد الأصنام ـ ﴿لِمَ تَعبُدُ ما لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ، ولا يُغني عَنكَ﴾: لا يكفيك ﴿شَيئًا﴾ من نفع أو ضُرّ؟ ٤٣ ـ ﴿يا أبَتِ، إنِّي قَد جاءَنِي مِنَ العِلمِ ما لَم يأتِكَ. فاتَّبِعْني، أهدِكَ صِراطًا﴾: طريقًا ﴿سَوِيًّا﴾: مستقيمًا. ٤٤ ـ ﴿يا أبَتِ، لا تَعبُدِ الشَّيطانَ﴾ بطاعتك إيّاه في عبادة الأصنام. ﴿إنَّ الشَّيطانَ كانَ لِلرَّحمنِ عَصِيًّا﴾: كثير العِصيان. ٤٥ ـ ﴿يا أبَتِ، إنِّيَ أخافُ أن يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحمنِ﴾، إن لم تتب، ﴿فتكُونَ لِلشَّيطانِ وَلِيًّا﴾: ناصرًا وقرينًا في النار.

٤٦ ـ ﴿قالَ: أراغِبٌ أنتَ عَن آلِهتِي، يا إبراهِيمُ﴾ فتعيبَها؟........................

قولُه: (بالعَذَابِ) و﴿إذْ﴾ بدلٌ من الـ﴿يوم﴾، أو ظرفٌ لـ﴿الحسرة﴾.

قولُه: (تَأكِيْدٌ) أو مبتَدأٌ.

قولُه: (وغَيرِهِم) ففيهِ تغليبٌ؛ أي: لا يَبقى لأحَدٍ غيرِنا عليها وعليهم مِلْكٌ ولا مُلْكٌ، أو: نتوفَّى الأرضَ ومَن عليها بالإفناءِ والإهلاكِ توفِّي الوارِثِ لإرثِهِ.

قولُه: (مِن «خَبَره») أو منهُ، وما بينَهُما اعتراضٌ، أو: معمُولٌ لـ(اذْكُرْ) مُقدَّراً.

قولُه: (ولا يُجمَعُ بَينَهُما) ولا يُقالُ: يا أبَتي، ويقالُ: يا أبَتَا، وقرأَ ابنُ عامرٍ: (يَا أَبَتَ) بفتح التَّاءِ[1]، وإنَّما يُذكَرُ للاستِعطافِ، ولذلك كُرِّرَ.

قولُه تعَالى: (﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾) فيَعرِفَ حالَكَ، ويسمَعَ ذكرَكَ، ويرَى خضوعَك، ومفعولُهُما منسيٌّ غيرُ مَنويٍّ، أو مُقدَّرٌ؛ أي: شيئاً.

قولُه: (كَثِيرَ العِصْيَانِ) والمطاوِعُ للعاصِي عاصٍ.

قولُه: (فِي النَّارِ) أو اللَّعنِ تَليهِ ويَليكَ.

قولُه: (فتَعِيبَها) بالنَّصبِ على جوابِ الاستفهامِ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٤٤).

﴿لَئِن لَم تَنتَهِ﴾ عن التعرّض لها ﴿لأَرجُمَنَّكَ﴾ بالحِجارة أو بالكلام القبيح. فاحذرني، ﴿واهجُرْني مَلِيًّا﴾: دهرًا طويلاً. ٤٧ ـ ﴿قالَ: سَلامٌ علَيكَ﴾ منّي، أي: لا أُصيبك بمكروه. ﴿سأستَغفِرُ لَكَ رَبِّيَ - إنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا﴾، مِن: حَفِيَ، أي: بارًّا فيُجيب دُعائي. وقد وفى بوعده بقوله المذكور في الشعراء: «واغفِرْ لِأبِيَ». وهذا قبل أن يتبيّنَ له أنه عدوّ لله كما ذُكر في «براءة» ـ ٤٨ ـ ﴿وأعتَزِلُكُم وما تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ، وأدعُو﴾: أعبدُ ﴿رَبِّي. عَسَى ألاّ أكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي﴾: بعِبادته ﴿شَقِيًّا﴾ كما شقيتم بعِبادة الأصنام.

٤٩ ـ ٥٠ ـ ﴿فلَمّا اعتَزَلَهُم وما يَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ بأن ذهب إلى الأرض المُقدّسة ﴿وَهَبْنا لَهُ﴾ ابنَينِ يأنسُ بهما ﴿إسحاقَ ويَعقُوبَ، وكُلًّا﴾ منهما ﴿جَعَلْنا نَبِيًّا، ووَهَبْنا لَهُم﴾: للثلاثة ﴿مِن رَحْمتِنا﴾ المالَ والولد، ﴿وجَعَلْنا لَهُم لِسانَ صِدقٍ عَلِيًّا﴾: رفيعًا،..

قولُه: (عَنِ التَّعرُّضِ) بمقالِكَ فيها، أو: عن الرَّغبةِ عنها.

قولُه: (فَاحذَرْني) أي: ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ عَطفٌ على ما دلَّ عليهِ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾.

قولُه: (دَهْراً) أي: زماناً، من الملاوَةِ ـ مثلَّثةُ الميمِ ـ بمعنى: الحينِ[1]، ظرفٌ.

قولُه: (لا أُصِيبُكَ بمَكرُوهٍ) ولا أقولُ لك بعدُ ما يؤذِيكَ، وهو سلامُ توديعٍ ومتارَكةٍ، ومقابلةٍ للسَّيِّئةِ بالحسَنةِ.

قولُه: (دُعَائِي) فلعلَّهُ يوفِّقُك للتَّوبةِ والإيمانِ، فإنَّ حقيقةَ الاستغفارِ للكافرينَ: استدعاءُ التَّوفيقِ لِمَا يوجِبُ مغفرتَهُ.

قولُه تعَالى: (﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾) بالمهاجَرةِ بديني.

قولُه: (كَمَا شَقِيتُم) وفي تصديرِ الكلامِ بـ﴿عسى﴾ للتَّواضُعِ والتَّنبيهِ على أنَّ الإجابةَ والإثابَةَ غيرُ واجبٍ، وأنَّ مِلاكَ الأمرِ خاتمتُهُ، وهو غيبٌ.

قولُه: (ابنَيْنِ) بدلَ مَن فارقَهُم من الكفَرةِ، قيل: إنَّه لمَّا قصدَ الشَّامَ أتى أوَّلاً حرَّانَ، وتزوَّجَ بسارةَ، وولدَت له إسحاقَ، ووُلِدَ منه يعقوبُ، ولعلَّ تخصيصَهُما بالذِّكرِ لأنَّهما شجَرةُ الأنبياءِ، أو لأنَّه أرادَ أن يذكُرَ إسماعيلَ مُنفرداً لفضلِهِ بكونِه جدَّ نبيِّنا عليهم السَّلامُ.

قولُه: (مِنهُما) أو منهُم، ويؤيِّدُه ما بعدَهُ.

قولُه: (المَالَ والوَلَدَ) والنُّبوَّةَ.

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١٥/ ٢٩١).

هو الثناء الحسن في جميع أهل الأديان.

٥١ ـ ٥٢ ـ ﴿واذكُرْ في الكِتابِ مُوسَى. إنَّهُ كانَ مُخلِصًا﴾ ـ بكسر اللام وفتحها من: أخلص في عبادته، وأخلصَه اللهُ من الدنَس ـ ﴿وكانَ رَسُولاً نَبِيًّا، ونادَيناهُ﴾ بقول: «يا مُوسَى إنِّيَ أنا اللهُ»، ﴿مِن جانِبِ الطُّورِ﴾ اسمُ جبلٍ ﴿الأيمَنِ﴾ أي: الذي يلي يمين مُوسَى حين أقبل من مَدْيَنَ، ﴿وقَرَّبْناهُ نَجِيًّا﴾: مناجيًا بأن أسمعه الله ـ تعالى ـ كلامه، ٥٣ ـ ﴿ووَهَبْنا لَهُ مِن رَحْمتِنا﴾: نعمتِنا ﴿أخاهُ هارُونَ﴾: بدلٌ أو عطفُ بيان، ﴿نَبِيًّا﴾: حال. هي المقصودة بالهِبة إجابةً لسُؤاله أن يُرسِل أخاه معه. وكان أسنَّ منه.

قولُه: (وهُوَ) أي: اللِّسانُ الصِّدقُ. قالَ ابنُ عطاءٍ: ألسنةُ الصِّدقِ هي المعبِّرةُ عن الحقِّ والصَّوابِ، المذكِّرةُ لنَعمائهِ على الدَّوامِ[1].

قولُه: (وفَتْحِهَا) الكوفيُّ[2].

قولُه: (مَنْ أَخْلَصَ) لفٌّ ونشرٌ.

قولُه: (فِي عِبَادَتِهِ) من الشِّركِ والرِّياءِ، أو: أسلمَ وجهَه للهِ وأخلَصَ نفسَه عمَّا سواهُ.

قولُه: (مِنَ الدَّنَسِ) وغيرِه.

قولُه: (يَمِينَ مُوسَى) أو: جانبِه الميمُون، من اليُمنِ، بأن يُمثَّلَ له الكلامُ من تلك الجهَةِ.

قولُه: (أَقْبَلَ) يريدُ مِصرَ.

قولُه: (مُنَاجِياً) أو: ناجياً من الأعداءِ، أو: مُناجياً مع ربِّ السَّماءِ، فهو حالٌ من المفعولِ. وقيل: حالٌ من الفاعلِ. والتَّقريبُ قربُ تشريفٍ ومكانَةٍ؛ لعدمِ إمكانِ المكانِ.

قولُه: (نِعْمَتِنَا) أي: إنعامِنا، و﴿مِنْ﴾ تعليليَّةٌ أو تبعيضيَّةٌ.

قولُه: (بَدَلٌ) و(﴿أَخَاهُ﴾) مفعولٌ أو بدَلٌ[3]؛ أي: معاضدَةَ أخيهِ ومؤازرتَهُ إجابَةً لدعوتِهِ: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩].

---

(١) وانظر: «حقائق التفسير» (١/ ٤٢٨).

(٢) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٤٤).

(٣) أي: ﴿أخاه﴾ مفعول لـ(وهبنا) إن كانت ﴿مِن﴾ تعليلية، أو بدلُ بعضٍ من كلٍّ، أو كلٍّ من كلٍّ، أو اشتمال، وهذا إذا كانت تبعيضية بمعنى: بعض، وهي مفعول (وهبنا) ولا يخفى ما فيه؛ لأن كون (مِن) اسماً لكونها بمعنى (بعض) خلاف الظاهر، وإبدال الاسم من الحرف لا نظير له، ولذا قال في «البحر»: الظاهر أن ﴿أخاه﴾ مفعول (وهبنا) ولا يرادف (مِن) بعضاً حتى يُبدل منها. انظر: «حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي» (٦/ ١٦٤).

٥٤ ـ ٥٥ ـ ﴿واذكُرْ في الكِتابِ إسماعِيلَ. إنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعدِ﴾: لم يَعِد شيئًا إلاّ وفى به، وانتظر مَن وعده ثلاثة أيام أو حولاً حتّى رجَع إليه في مكانه، ﴿وكانَ رَسُولاً﴾ إلى جُرهُمَ ﴿نَبِيًّا، وكانَ يأمُرُ أهلَهُ﴾ أي: قومه ﴿بِالصَّلاةِ والزَّكاةِ، وكانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾. أصله «مَرْضُوْوٌ»، قُلبَتِ الواوان ياءين والضمّةُ كسرة.

٥٦ ـ ٥٧ ـ ﴿واذكُرْ في الكِتابِ إدرِيسَ﴾ هو جدُّ أبي نُوحٍ. ﴿إنَّهُ كانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا، ورَفَعْناهُ مَكانًا عَلِيًّا﴾، هو حيّ في السماء الرابعة أو السادسة أو السابعة أو في الجنّة، أُدخلَها بعد أن أُذيق الموتَ وأُحيِيَ، ولم يخرج منها.

٥٨ ـ ﴿أُولئِكَ﴾: مبتدأٌ ﴿الَّذِينَ أنعَمَ اللهُ علَيهِم﴾: صِفةٌ له ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾: بيانٌ لهم ـ وهو في معنى الصفة، وما بعده إلى جملة الشرط صفة لـ «النبيّين» ـ فقوله ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ أي: إدريسُ،..........

قولُه: (لم يَعِدْ شَيئاً) ذكرَهُ بذلك؛ لأنَّه المشهورُ بِهِ، والموصوفُ بأشياء في هذا البابِ لم تُعهَد من غيرِهِ.

قولُه: (جُرهُمَ) قبيلَةٌ من اليَمنِ، وهم أصهارُ إسماعيلَ.

قولُه: (قَومَهُ) أي: عشيرتَهُ، وقيل: أهلَ ملَّتِهِ.

قولُه: (يَاءَينِ) الأُولَى بعد الثَّانيةِ.

قولُه: (كَسْرَةً) محافظَةً للياءِ.

قولُه: (هُو جَدٌّ) وسِبطُ شيثَ، وهو أوَّلُ من خطَّ بالقَلمِ[1].

قولُه: (الرَّابِعَةِ) كما في «الصَّحيحِ»[2]، كذا في «المُبهاتِ»[3]، أو المرادُ: شرَفُ النُّبوَّةِ والزُّلفى عندَ اللهِ.

قولُه: (مُبْتَدَأٌ) إشارَةٌ إلى ما ذُكِرَ من زكريَّا إلى إدريسَ.

قولُه: (صِفَةٌ لَهُ) أي: للمبتَدأِ، وقيلَ: خبرٌ و﴿إِذَا تُتْلَى﴾ استئنافٌ؛ يعني: بأنواعِ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ.

قولُه: (لَهُ) أي: للمَوصولِ.

قولُه: (صِفَةٌ) يعني: مَعنًى.

قولُه: (أَي: إِدْرِيسُ) بدلٌ ممَّا قبلَهُ بإعادَةِ الجارِّ[4].

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) جاء ذلك في حديث الإسراء والمعراج الذي رواه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٣) وانظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٧١).

(٤) أي: ﴿من ذرية آدم﴾ بدلٌ مِن ﴿من النبيين﴾ بإعادةِ الجارِّ الذي هو ﴿مِن﴾.

﴿ومِمَّن حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة أي: إبراهيمُ ابنُ ابنِه سام، ﴿ومِن ذُرِّيَّةِ إبراهِيمَ﴾ أي: إسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ، ﴿و﴾ مِن ذُرِّيَّة ﴿إسرائيلَ﴾ ـ وهو يعقوب ـ أي: موسى وهارونُ وزكرياءُ ويحيى وعيسى، ﴿ومِمَّن هَدَينا واجتَبَينا﴾ أي: من جُملتهم، وخبر «أولئك»: ﴿إذا تُتلَى علَيهِم آياتُ الرَّحمنِ خَرُّوا سُجَّدًا وبُكِيًّا﴾: جمع ساجِدٍ وباكٍ. أي: فكونوا مِثلهم. وأصل بُكِيّ «بُكُوْيٌ» قُلبت الواو ياء والضمة كسرة.

٥٩ ـ ﴿فخَلَفَ مِن بَعدِهِم خَلْفٌ، أضاعُوا الصَّلاةَ﴾ بتركها كاليهود والنصارى، ﴿واتَّبَعُوا الشَّهَواتِ﴾ من المعاصي، ﴿فسَوفَ يَلقَونَ غَيًّا﴾ ـ هو وادٍ في جهنّم ـ.........

قولُه: (فِي السَّفِينَةِ) أي: من ذرِّيةِ من حَملنا خُصوصاً، وهم مَن عدا إدريسَ.

قولُه: (ابنُ ابنِهِ) بوسائطَ.

قولُه: (أي: إسمَاعِيلُ) يعني: الباقِينَ مِن الأنبياءِ بوَسطٍ أو غيرِهِ.

قولُه: (مِن ذُرِّيَّةِ) يعني: ﴿إِسْرَائِيْلَ﴾ عطفٌ على: ﴿إِبْرَاهِيْمَ﴾.

قولُه: (وبَاكٍ) كرُكَّعٍ وقُعودٍ، جمعُ: راكعٍ وقاعِدٍ.

قولُه تعالى: (﴿فَخَلَفَ﴾) أي: فعَقَبَهُم وجاءَ بعدَهُم عَقِبُ سوءٍ، يقالُ: «خلَفُ صدقٍ» بالفتحِ، و«خَلْفُ سُوءٍ» بالسُّكونِ[1]، وهو جمعُ خالفٍ، كصَحْبٍ جمعُ صاحِبٍ.

قولُه: (مِنَ المَعَاصِي) وعن عليٍّ: ﴿اتَّبَعُوا الشَّهواتِ﴾ من بَنى الشَّديدَ، ورَكِبَ المنظورَ، ولبِسَ المشهورَ[2].

قولُه: (هُو وَادٍ) هو المشهورُ عن السَّلفِ[3]، وإن ذكرَهُ القاضي بـ«قيلَ»[4].

قولُه: (فِي جَهنَّمَ) تستعيذُ منه أوديتُها[5].

---

(١) منهم من قال: بأنه بالتحريك والتسكين سواء، ومنهم من قال: بأنه بالسكون للأشرار خاصة وبالتحريك ضده. انظر: «تاج العروس» (٢٣/ ٢٤٥).

(٢) رواه سعيد بن منصور في «السنن» (١٣٩٥).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩١٠٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

ورواه لبيهقي في «البعث والنشور» (٤٦٩) عن البراء رضي الله عنه.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢١٨) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٤).

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٧/ ٤٠٩).

أي: يقعون فيه، ٦٠ ـ ﴿إلاّ﴾: لكن ﴿مَن تابَ وآمَنَ، وعَمِلَ صالِحًا. فأُولئِكَ يُدخَلُونَ الجَنّةَ، ولا يُظلَمُونَ﴾: يُنقَصون ﴿شَيئًا﴾ من ثوابهم، ٦١ ـ ﴿جَنّاتِ عَدْنٍ﴾: إقامةٍ، بدلٌ من «الجنّة» ﴿الّتِي وَعَدَ الرَّحمنُ عِبادَهُ بِالغَيبِ﴾: حالٌ، أي: غائبين عنها ـ ﴿إنّهُ كانَ وَعدُهُ﴾ أي: موعوده، ﴿مَأتِيًّا﴾ بمعنى: آتيًا، وأصله «مَأْتُوِي»، أو موعودُه هنا الجنّةُ يأتيه أهله ـ ٦٢ ـ ﴿لا يَسمَعُونَ فِيها لَغوًا﴾ من الكلام، ﴿إلاّ﴾ لكن يسمعون ﴿سَلامًا﴾ من الملائكة عليهم أو من بعضهم على بعض، ﴿ولَهُم رِزقُهُم فِيها بُكرَةً وعَشِيًّا﴾ أي: على قدرهما في الدنيا. وليس في الجنّة نهار ولا ليل، بل ضوء ونور أبدًا..........

قولُه: (لَكِن) قالَ الزَّجّاجُ: مُنقطِعٌ، وظاهرُه الاتِّصالُ، كذا في «الإعرَابِ»[١].

قولُه: (﴿يَدْخُلُونَ﴾) ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو وشعبةُ على بناءِ المفعولِ[٢].

قولُه: (مِن ثَوَابِهِم) أي: جَزاءِ أعمالِهِم.

قولُه: (بَدَلٌ) بدلُ البَعضِ لاشتِمالِها عليها، كذا قالَ القاضِي[٣]، وقالَ الفاضِلُ: لأنَّ اسمَ الجِنسِ في حُكمِ الجَمعِ، وقيل: منصوبٌ بتقديرِ: أعني.

قولُه: (أي: غَائِبِينَ) أو: غائبَةً عنهُم.

قولُه تعالى: (﴿إِنَّهُ﴾) أي: الرَّحمنَ، أو الشَّأنَ.

قولُه: (بِمَعنَى: آتِياً) يعني: على خلافِ القياسِ، وقالَ الرَّضيُّ: الأولَى أنّه بمَعنى المفعولِ، من أَتَيتُ الأمرَ: فعلتُه، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨][٤].

قولُه: (أَهْلُهُ) أي: أهلُها الموعودُ لهم لا محالَةَ.

قولُه: (مِنَ الكَلامِ) وهو الفضُولُ[٥].

قولُه: (مِنَ المَلائِكَةِ) أو قولاً يسلمونَ فيه من العَيبِ، أو الاستِثناءُ متَّصلٌ على معنى: أنَّ التَّسليمَ إن كانَ لغواً فلا يسمَعونَ لغواً سِواهُ، فيكونُ من بابِ تأكيدِ المدحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ مُبالغةً.

قولُه: (عَلَى قَدْرِهِمَا) على عادَةِ المتنعِّمينَ والمتوسِّطينَ بينَ الزَّهادَةِ والرَّغابَةِ، أو: نوعٌ من الطَّعامِ يؤكَلُ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٣٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٥)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٧/ ٢٧٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص. ٢٣٧، ٢٣٨).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٤).

(٤) انظر: «شرح الرضي على الكافية» (٣/ ٤١٥).

(٥) في (ص): «المفضول».

٦٣ ـ ﴿تِلكَ الجَنّةُ الَّتِي نُورِثُ﴾: نُعطِي ونُنزِل ﴿مِن عِبادِنا مَن كانَ تَقِيًّا﴾ بطاعته.

ونزل لمّا تأخّر الوحي أيامًا، وقال النبيّ لجبريل: «ما يَمنَعُكَ أن تَزُورَنا أكثَرَ مِمّا تَزُورُنا»؟: ٦٤ ـ ﴿وما نَتَنَزَّلُ إلاّ بِأمرِ رَبِّكَ، لَهُ ما بَينَ أيدِينا﴾ أي: أمامَنا من أُمور الآخرة ﴿وما خَلفَنا﴾ من أُمور الدنيا، ﴿وما بَينَ ذلِكَ﴾ أي: ما يكون في هذا الوقت إلى قيام الساعة، أي: له علم ذلك جميعِه، ﴿وما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ بمعنى: ناسيًا، أي: تاركًا لك بتأخير الوحي عنك. ٦٥ ـ هو ﴿رَبُّ﴾: مالكُ ﴿السَّماواتِ والأرضِ، وما بَينَهُما. فاعبُدْهُ واصطَبِرْ لِعِبادتِهِ﴾ أي: اصبر عليها. ﴿هَل تَعلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي: مُسمًّى بذلك؟ لا.

٦٦ ـ ﴿ويَقُولُ الإنسانُ﴾ المُنكِر للبعث، هو أُبيُّ بن خلف.............................

فيهما، أو المرادُ: دوامُ الرِّزقِ(١).

قولُه: (نُعْطِي) عطاءً لا يُعقَبُ بنَسخٍ ولا استِرجاعٍ، ولا يبطُلُ بردٍّ وإسقاطٍ، أو نجعَلُها ميراثَ أعمالِهم؛ يعني: ثمرَتَها وعاقِبتَها.

قولُه: (أيَّاماً) قيل: خمسةَ عشَرَ يوماً، وقيل: أربعينَ، حتَّى قالَ المشركونَ: ودَّعَه ربُّه وقَلاهُ(٢).

قولُه تعالى: (﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾) حكايَةُ قولِ جبريلَ، وقيل: بتقديرِ: قُل يا جبريلُ(٣).

قولُه: (أي: مَا يَكُونُ... إلخ)، أو: ما نحنُ فيه من الأماكِنِ أو الأحايينِ؛ لا ننتَقِلُ من مكانٍ إلى مكانٍ، ولا نَنزِلُ في زمانٍ دونَ زمانٍ، إلَّا بأمرِهِ ومشيئَتِهِ.

قولُه: (تَارِكاً لَكَ) أي: ما كانَ عَدمُ نزولِ الوَحيِ إلَّا لحكمَةٍ رآها فيه.

قولُه: (هُوَ) يعني: ﴿رَبُّ﴾ خبرُ محذوفٍ، وقيل: بدلٌ من ﴿رَبُّكَ﴾.

قولُه: (أي: اصْبِرْ) أي: بالِغْ في الصَّبرِ.

قولُه: (مُسَمًّى) أحداً يُسمِّي: «الله»، فإنَّ المشركينَ وإن سمَّوا الصَّنمَ إلهاً لم يُسمُّوهُ اللهَ قطُّ. أو: شبيهاً ومثلاً.

---

(١) روى أبو نعيم في «صفة الجنة» (٢٢١) عن قتادة في قوله: ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ قال: لهم رزقهم فيها كل ساعة.

(٢) انظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٦).

(٣) روى البخاري (٣٢١٨)، والترمذي (٣١٥٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٥٧)، وأحمد في «مسنده» (٢٠٧٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟»، قال: فنزلت: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ [مريم: ٦٤] الآية.

أو الوليدُ بن المُغيرة النازلُ فيه الآيةُ: ﴿أإذا﴾ ـ بتحقيق الهمزة الثانية وتسهيلها، وإدخال ألف بينها بوجهيها وبين الأُخرى ـ ﴿ما مُتُّ لَسَوفَ أُخرَجُ حَيًّا﴾ من القبر كما يقول محمد؟ فالاستفهام بمعنى النفي أي: لا أحيا بعد الموت. وما: زائدة للتأكيد، وكذا اللام. ورُدّ عليه بقوله تعالى: ٦٧ ـ ﴿أَوَلا يَذَّكَّرُ الإنسانُ﴾ ـ أصله «يَتَذَكَّرُ» أُبدلت التاء ذالاً وأُدغمت في الذال. وفي قراءةٍ تركُها وسكونُ الذال وضمُّ الكاف ـ ﴿أنّا خَلَقْناهُ مِن قَبلُ، ولَم يَكُ شَيئًا﴾، فيستدلَّ بالابتداء على الإعادة؟

٦٨ ـ ﴿فوَرَبِّكَ لَنَحشُرَنَّهُم﴾ أي: المُنكرينَ للبعث ﴿والشَّياطِينَ﴾ أي: نجمعُ كُلًّا منهم وشيطانَه في سِلسلة، ﴿ثُمَّ لَنُحضِرَنَّهُم حَولَ جَهَنَّمَ﴾..........

قولُه: (أَو الوَلِيدُ) وقيلَ: أميَّةُ بنُ خلَفٍ[١].

قولُه: (النَّازِلُ فِيهِ الآيَةُ) لكنَّ العبرَةَ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ، فالمرادُ به الجِنسُ بأسرِهِ، فإنَّ القولَ مَقولٌ فيما بينَهم وإن لم يقُلْ كلُّهُم، كقولِكَ: بنو فلانٍ قتَلوا فلاناً، والقاتلُ واحدٌ منهم. أو: بعضُهم المعهودُ؛ وهم الكفَرةُ، أو: أُبيُّ بنُ خلَفٍ ونحوُه ممَّن أنكرَ البعثَ وتفوَّهَ بمثلِ هذه المقالةِ.

قولُه: (بتَحقِيقِ... إلخ)، تقدَّمَ التَّحقيقُ في روايةٍ لابنِ ذكوانَ بالإخبارِ[٢].

قولُه: (مِنَ القَبرِ) أو من حالِ الموتِ.

قولُه: (والاستِفهَامُ) أي: المذكورُ، أو المقدَّرُ.

قولُه: (وَكَذَا اللَّامُ) لأنَّ لامَ الابتِداءِ الدَّاخلةَ على المضارعِ تُعطي معنَى الحالِ، نحو: ﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ [يوسف: ١٣] وتؤكِّدُ مضمونَ الجملةِ، فلمَّا جامعَتْ حرفَ الاستقبالِ خلُصَت للتَّوكيدِ واضمحَلَّ معنى الحالِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لنافعٍ وشاميٍّ وعاصِمٍ[٣].

قولُه: (بِتَرْكِهَا)؛ أي: التَّاءِ، من الذِّكرِ الَّذي يُرادُ به التَّفكُّر.

قولُه: (أَي: المُنكِرِينَ) ﴿والشَّياطينَ﴾ عطفٌ أو مفعولٌ معه، وهذا وإن كانَ مخصُوصاً بمُنكِري البَعثِ ساغَ نِسبتُه إلى الجنسِ بأسرِهِ، فإنَّهم إذا حُشِروا وفيهِمُ الكفَرةُ مقرُونينَ بالشَّياطينِ فقد حُشِروا جميعاً معهم.

---

(١) ذكر الثلاثة السيوطي في «الإتقان» (٤/ ١٠٣). وانظر: «زاد المسير» (٣/ ١٤١).

(٢) أي: ﴿إذا ما مت﴾ بهمزة واحدة مكسورة على الخبر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩)، وانظر ما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم إئذا كنا....﴾ [الرعد: ٥].

انظر: «تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٤٢١).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٢).

من خارجها ﴿جُثِيًّا﴾ على الرُّكَب جمعُ جاثٍ ـ وأصله «جُثُوٌّ» أو «جُثُويٌ»، من: جَثا يَجثُو ويَجثِي، لغتانِ ـ ٦٩ ـ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾: فِرقةٍ منهم ﴿أَيُّهُم أَشَدُّ عَلَى الرَّحمنِ عُتِيًّا﴾: جراءةً، ٧٠ ـ ﴿ثُمَّ لَنَحنُ أَعلَمُ بِالَّذِينَ هُم أَولَى بِهَا﴾: أحقُّ بجهنَّم، الأشدِّ وغيرِهِ منهم، ﴿صُلِيًّا﴾: دخولاً واحتراقًا، فنبدأ بهم ـ وأصله «صُلُوْيٌ» من: صَلي، بكسر اللام وفتحها ـ ٧١ ـ ﴿وإن﴾ أي: ما ﴿مِنكُم﴾ أحدٌ ﴿إلاّ وارِدُها﴾ أي: داخلُ جهنَّمَ ـ ....

قولُه: (مِن خَارِجِهَا) ليرى السُّعداءُ ما نجَّاهُم اللهُ منه فيَزدادوا غِبطةً وسُروراً، وينالَ الأشقِياءُ ما ادَّخَروا لمعادِهِم عُدَّةً ويزدادوا غَيظاً من رجُوعِ السُّعداءِ عنهُم إلى دارِ الثَّوابِ وشماتتِهِم عليهِم.

قولُه: (عَلَى الرُّكَبِ) وهو حالٌ؛ أي: باركينَ لما يدهَمُهم من هَولِ المطلَعِ.

قولُه: (فِرقَةٍ) شاعَتْ وتبعَتْ دُنيا.

قولُه: (جَرَاءَةً) أي: مَن كانَ أعتى وأعصَى منهم، فنطرَحُهم فيها، وفي ذِكرِ الأشدِّ تنبيهٌ على أنَّه تعالى يعفو كثيراً من أهلِ العِصيانِ، ولو خُصَّ ذلك بالكفَرةِ فالمرادُ: أنَّه يُميِّزُ طوائفَهُم أعتاهُم فأعتاهُم، يطرحُهُم في النَّارِ على التَّرتيبِ.

و﴿أَيُّهُمْ﴾ مبنيٌّ على الضمِّ عندَ سيبَويه، منصوبُ المحلِّ بـ﴿نَنْزِعَنَّ﴾ ولذلك قُرئ منصوباً[1].

قولُه: (أَحَدٌ) التِفاتٌ إلى الإنسانِ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرئَ: (وَإِنْ مِنْهُم)[2].

وقيل: من الكفَّارِ.

قولُه: (أي: دَاخِلٌ) وهو قولُ عليٍّ[3] وابن عبَّاسٍ[4]، وعليهِ جمهورُ أهلِ السُّنَّةِ، كذا في «المدارك»[5] و«المعالمِ»[6]؛ أي: واصِلُها، أو: حاضرٌ دونَها، يمرُّ بها المؤمنونَ وهي خامِدةٌ وتنهارُ بغيرِهِم، أو: مارٌّ عليها؛ أي: على جِسْرِها.

وقيل: من ورودِها الحُمَّى في الدُّنيا للمُؤمنِ، وفي الحديثِ: «مَنْ صبرَ على حرِّ مكَّةَ ساعةً تباعَدَ من نارِ جهنَّمَ مائتَي سَنةٍ»[7].

---

(١) أي: (أيَّهم) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨٨) ونسبت لمعاذ بن مسلم، وطلحة بن مصرف.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٨٩) ونسبت لابن عباس وعكرمة.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٨٠)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٣٠).

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٣٤٧).

(٦) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٤٣).

(٧) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (١٥٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ودون قوله: «مائتي سنة».

﴿كانَ علَى رَبِّكَ حَتمًا مَقضِيًّا﴾: حتَمَه وقضَى به لا يتركه ـ ٧٢ ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾، مُشدّدًا ومُخففًا، ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشِّركَ والكُفر منها، ﴿ونَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ بالشِّرك والكُفر ﴿فِيها جُثِيًّا﴾ على الرُّكَب.

٧٣ ـ ﴿وإذا تُتلَى علَيهِم﴾ أي: المؤمنين والكافرين ﴿آياتُنا﴾ من القُرآن ﴿بَيِّناتٍ﴾: واضحاتٍ حالٌ ﴿قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا: أيُّ الفَرِيقَينِ﴾ ....

قولُه: (وقَضَى بِهِ) على نفسِهِ، بأن وعَدَ به وعداً لا يمكِنُ خُلفُه، وقيل: أقسَمَ عليه، وقيل: القسَمُ فيه مضمَرٌ؛ أي: واللهِ ما منكُم، ويؤيِّدُه ما في حديثِ: «لا يدخُلُ النَّارَ إلَّا تحِلَّةَ القسَمِ»[1].

قولُه: (ومُخَفَّفاً) كِسائيٌّ[2].

قولُه: (عَلَى الرُّكَبِ) كما كانوا، وهو دليلٌ على أنَّ المرادَ بالوُرودِ الجُثُوُّ حَوالَيها، كذا قالَهُ القاضي[3]، وهو غيرُ ظاهرٍ؛ لأنَّ المرادَ بتَركِ الظَّالمينَ هنا: في النَّارِ، لا في حَوالَيها، بل هو دليلٌ على أنَّ المرادَ بالوُرودِ الدُّخولُ، ولذا قالَ بعضُ الصَّحابةِ لآخَرَ: أيقنتَ بالورودِ؟ قالَ: نعم، فقالَ: أيقنْتَ بالصَّدَرِ؟ قال: لا، قال: ففيمَ الضَّحكُ، وفيمَ التَّثاقلُ[4]؟

قولُه: (واضِحَاتٍ) حالٌ مؤكِّدةٌ؛ إذ آياتُ اللهِ لا تكونُ إلَّا واضِحاتٍ؛ أي: واضِحاتِ الإعجازِ، أو مبيِّناتِ المعانِي بنَفسِها، أو ببَيانِ الرَّسولِ، والمتشابهُ يتبيَّنُ بالمحكَمِ.

قولُه تعالى: (﴿لِلَّذِيْنَ آمَنُوا﴾) أي: لأجلِهِم، أو معهُم.

= ورواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ٢٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وآخره: «باعد الله جهنم منه سبعين خريفاً» وقال: هذا حديث باطل لا أصل له.

(١) رواه البخاري (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢)، والترمذي (١٠٦٠)، والنسائي (١٨٧٥)، وابن ماجه (١٦٠٣)، ومالك في «الموطأ» (ص: ٢٣٥) (٣٨)، وأحمد في «مسنده» (١٠٢١٠) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه عند أحمد: «من قدم ثلاثة من صلبه لم يدخل النار إلا تحلة القسم».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١١)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤٦).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٣٠، ٢٣٣) عن عمرو، قال: أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود: الدخول، وقال نافع: لا فقرأ ابن عباس: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) أورود هو أم لا؟ وقال (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود) أورود هو أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك، قال: فضحك نافع.

وعن مجاهد، قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يقال له أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس أرأيت قول الله (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا؟.

نحن وأنتم ﴿خَيرٌ مَقامًا﴾: منزلاً ومسكنًا، بالفتح مِن: قامَ، وبالضم مِن: أقامَ، ﴿وأحسَنُ نَدِيًّا﴾ بمعنى النادي؟ وهو مُجتمع القوم يتحدّثون فيه. يعنون: نحن، فنكون خيرًا منكم. ٧٤ ـ قال تعالى: ﴿وكَم﴾ أي: كثيرًا ﴿أهلَكْنا قَبلَهُم مِن قَرنٍ﴾ أي: أُمّة من الأُمم الماضية، ﴿هُم أحسَنُ أثاثًا﴾: مالاً ومتاعًا ﴿ورِئيًا﴾ مَنظرًا! من الرؤية. فكما أهلكناهم لكُفرهم نُهلِكُ هؤلاء.

٧٥ ـ ﴿قُلْ: مَن كانَ في الضَّلالةِ﴾: شرطٌ جوابه: ﴿فلْيَمدُدْ﴾ بمعنى الخبر، أي: يَمُدّ ﴿لَهُ الرَّحمنُ مَدًّا﴾ في الدنيا يستدرجُه ـ ﴿حَتّى إذا رأَوا ما يُوعَدُونَ، إمّا العَذابَ﴾..........................

قولُه: (وَأَنتُم) أو هُم.

قولُه: (مَنزِلاً) أي: مَكاناً، أو: مَوضِعَ قيامٍ.

قولُه: (وبالضَّمِّ) مكّيٌّ[1]؛ أي: مَوضِعَ الإقامَةِ.

قولُه: (بِمَعنَى النَّادِي) النَّديُّ: مَكانُ القومِ، ويُرادُ به القومُ أيضاً، وهو الظَّاهرُ في[2] الآيةِ، لمقابلتِهِ فيما يأتي ﴿شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥] ويمكِنُ تقديرُ: أهل.

قولُه: (مِنَ الرُّؤيَةِ) أي: فِعْلٌ منها بمعنى: مفعولٍ، وقولُ البَيضاويِّ: وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ ـ أي: بروايةِ قالون وابنِ ذكوانَ[3] ـ على قلبِ الهمزَةِ وإدغامِها[4]، وأمَّا قولُه: وأبو بكرٍ: (وريْئاً) على القلبِ[5]؛ فلعلَّه روايةٌ شاذَّةٌ.

قولُه: (أي: يمدُّ) أي: يمدُّهُ ويُمهِلُه بطولِ العمرِ والتَّمتُّعِ به، وإنَّما أخرجَهُ على لفظِ الأمرِ إيذاناً بأنَّ إمهالَهُ ممَّا ينبَغِي أن يفعلَهُ استِدراجاً وقطعاً لمعاذيرِهِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وكقولِهِ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقولُه تعَالى: (﴿حَتَّى﴾) غايَةٌ للمدِّ.

وقولُه: (﴿إِمَّا العَذَابَ﴾... إلخ) تفصيلٌ للمَوعودِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١١)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤٦).

(٢) في (ص): «من».

(٣) يعني: برواية قالون عن نافع وابن ذكوان عن ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٧).

(٥) انظر المصدر السابق، وهذه القراءة ذكرها أبو علي الفارسي في «الحجة» (٥/ ٢٠٩) فقال: وذكر غير أحمد بن موسى (وهو ابن مجاهد صاحب كتاب «السبعة») أن الأعشى روى عن أبي بكر عن عاصم: (وريئاً) مثل: وريعاً. وانظر: «البحر المحيط» (٧/ ٢٩١).

كالقتل والأسر ﴿وإمّا السّاعةَ﴾ المُشتملةَ على جهنّم فيدخلونها، ﴿فسَيَعلَمُونَ: مَن هُوَ شَرٌّ مَكانًا وأضعَفُ جُندًا﴾: أعوانًا هم أم المؤمنون؟ وجُندهم الشياطينُ وجُند المؤمنين عليهم الملائكةُ ـ ٧٦ـ ﴿ويَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهتَدَوا﴾ بالإيمان ﴿هُدًى﴾ بما يُنزّل عليهم من الآيات. ﴿والباقِياتُ الصّالِحاتُ﴾ هي الطاعة تبقى لصاحبها، ﴿خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوابًا، وخَيرٌ مَرَدًّا﴾ أي: ما يُرَدّ إليه ويُرجَع بخلاف أعمال الكُفّار. والخيريّة هنا في مُقابلة قولهم: «أيُّ الفَرِيقَينِ خَيرٌ مَقامًا»؟

٧٧ـ ﴿أفرَأَيتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا﴾ القائلَ ـ هو العاص بنُ وائل ـ ﴿وقالَ﴾ لخبّابِ بنِ الأرتّ القائلِ له: «تُبعَثُ بَعدَ المَوتِ» والمُطالبِ له بمال: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ على تقدير البعث ﴿مالاً ووَلَدًا﴾ فأقضِيَنّكَ؟ قال تعالى: ٧٨ ـ ﴿أَطَّلَعَ الغَيبَ﴾ أي: أعلِمَه وأن يُؤتى ما قاله ـ واستُغنِي بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل فحُذفتْ ـ ﴿أمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهدًا﴾..........................

قولُه: (تَبقَى) عائِدتُها ومنفَعتُها أبدَ الآبادِ، ويدخلُ فيها ما قيلَ من الصَّلواتِ الخمسِ، وقولِ: «سُبحانَ اللهِ»... إلخ[1].

قولُه: (والخَيرِيَّةُ هُنَا) يعني: للمُشاكَلةِ، وإلّا فالمرادُ بها مجرَّدُ الزِّيادةِ، أو على طريقةِ قولِهم: الصَّيفُ أحرُّ من الشّتاءِ؛ أي: أبلَغُ في حرِّهِ منه في بردِهِ، وكذلك: العسَلُ أحلَى من الخلِّ.

قولُه: (ابنَ وَائِلٍ) السَّهميَّ، كما أخرجَهُ البخاريُّ[2].

قولُه: (لِخَبَّاب) وكانَ له عليه مالٌ، فتقاضَاهُ، فقال: لا، حتَّى تكفُرَ بمحمَّدٍ، قال: لا واللهِ لا أكفُرُ بمحمَّدٍ حيًّا ولا ميِّتاً، ولا حينَ تُبعَثُ، فقال: فإذا بُعِثتَ جئتني فيكونُ لي ثمَّ مالٌ وولَدٌ فأُعطيكَ، ولمَّا كان الرُّؤيةُ أقوَى سندِ الأخبارِ استعملَ: أرأيتَ، بمعنى الإخبارِ، والفاءُ للتَّعقيبِ، والمعنَى: أخبِر بقصَّةِ هذا الكافرِ عقِبَ حديثِ أولئكَ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿وُلْداً﴾ بضمِّ الواو وسكونِ اللَّامِ[3].

قولُه: (وأَنْ) عَطفٌ على الضَّميرِ المنصوبِ.

قولُه: (فحُذِفَتْ) فيه: أنَّ حقَّ همزةِ الوصلِ أن تُحذَفَ في الوصلِ، ولا دخلَ للاستغناءِ، اللَّهمَّ إلَّا أن يقالَ: فحُذِفَت في الكتابَةِ، أو ما أُبدِلَت كما في ﴿الآن﴾ لِدلالَةِ همزةِ الاستِفهامِ هنا بلا لَبْسٍ، بخلافِهِ هناك.

---

(١) انظر: الآية (٤٦) من سورة الكهف.

(٢) رواه البخاري (٤٧٣٢)، ومسلم (٢٧٩٥) من حديث خباب رضي الله عنه.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٤٧).

بأن يُؤتى ما قاله؟ ٧٩ ـ ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا يُؤتى ذلك، ﴿سَنكتُبُ﴾: نأمر بكتب ﴿ما يَقُولُ، ونَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذابِ مَدًّا﴾: نزيده بذلك عذابًا فوق عذاب كُفره، ٨٠ ـ ﴿ونَرِثُهُ ما يَقُولُ﴾ من المال والولد، ﴿ويأتِينا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ لا مال له ولا ولد.

٨١ ـ ﴿واتَّخَذُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ الأوثانَ ﴿آلِهةً﴾ يعبدونهم، ﴿لِيَكُونُوا لَهُم عِزًّا﴾: شُفعاءَ عِند الله بألاّ يُعذّبوا. ٨٢ ـ ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا مانعَ من عذابهم، ....

قولُه: (بأَنْ يُؤتَى) وقيل: العَهدُ: كلمةُ الشّهادةِ والعملُ الصّالحُ، فإنَّ وعدَ اللهِ بالثّوابِ عليهما كالعهدِ عليه، وفي الحديثِ عن ابنِ مسعودٍ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أيعجزُ أحدُكُم أن يتَّخِذَ كُلَّ صباحٍ ومَساءٍ عِندَ اللهِ عهداً؟» قالُوا: كيف ذلك؟ قال: «يقولُ: اللّهمَّ فاطِرَ السّماواتِ والأرضِ، عالمَ الغَيبِ والشّهادةِ، إنّي أعهَدُ إليك بأنّي أشهَدُ أن لا إلهَ إلّا أنتَ وحدَكَ لا شَريكَ لكَ، وأنَّ محمَّداً عبدُكَ ورسُولُك، وإنَّكَ إنْ تكِلْني إلى نفسِي تُقرِّبْني من الشَّرِّ، وتُباعِدْني منَ الخَيرِ، وإنّي لا أثِقُ إلّا برَحمتِكَ، فاجعَلْ لي عندَكَ عَهْداً تُوفِّينِيهِ يومَ القِيامةِ، إنَّكَ لا تُخلِفُ الميعَادَ»[1] كذا في تفسيرِ الفاضلِ.

قولُه: (نَأمُرُ) الظّاهرُ: سنُظهِرُ له أنّا كتَبْنا قولَهُ، أو: سننتَقِمُ منه انتِقامَ من كتبَ جريمَةَ العدوِّ، فإنَّ نفسَ الكِتبَةِ لا تتأخَّرُ عن القولِ، لقولِه تعَالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

قولُه: (مِنَ المَالِ والوَلَدِ) بموتِهِ.

قولُه: (وَلا وَلَدَ) كذا في نُسخةٍ، وهو الصَّوابُ؛ أي: لا يصحَبُه مالٌ ولا ولدٌ كانَ له في الدُّنيا، فضلاً أن يُؤتى ثَمَّ زائداً.

قولُه: (الأَوْثَانَ) مفعولٌ أوَّلُ.

قولُه: (شُفَعَاءَ) أي: ليتَعزَّزوا بهم، حيثُ يكونُون لهم شُفعاءَ.

قولُه: (بأَنْ لا يُعَذَّبُوا) أي: الكفّارُ.

قولُه: (أي: لَا مَانِعَ) يعني: رَدعٌ وإنكارٌ لتعزُّزِهم بها.

---

(١) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣٣٩): غريب مرفوعاً، ولم أجده إلا موقوفاً.

قلت: رواه أحمد في «مسنده» (٣٩١٦) من حديث ابن مسعود مرفوعاً، إلا أنه لم يذكر أوله، بل اقتصر فيه على الدعاء. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٧٤): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن عون بن عبد الله لم يسمع من ابن مسعود.

وأما الموقوف فرواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٥٢٦)، وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٣٤)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١٨٦) (٨٩١٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٢٦) وصححه، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٧١) موقوفاً على ابن مسعود.

﴿سَيَكفُرُونَ﴾ أي: الآلهةُ ﴿بِعِبادتِهِم﴾ أي: ينفونها كما في آية أُخرى: «ما كانُوا إيّانا يَعبُدُونَ»، ﴿ويَكُونُونَ علَيهِم ضِدًّا﴾: أعوانًا أو أعداء. ٨٣ ـ ٨٤ ـ ﴿ألَم تَرَ أنّا أرسَلْنا الشَّياطِينَ﴾: سَلّطناهم ﴿علَى الكافِرِينَ، تَؤُزُّهُم﴾: تُهيّجهم إلى المعاصي ﴿أزًّا؟ فلا تَعجَلْ علَيهِم﴾ بطلب العذاب. ﴿إنَّما نَعُدُّ لَهُم﴾ الأيّام والليالي أو الأنفاس ﴿عَدًّا﴾، إلى وقت عذابهم.

٨٥ ـ اذكرْ ﴿يَومَ نَحشُرُ المُتَّقِينَ﴾ بإيمانهم ﴿إلَى الرَّحمنِ وَفدًا﴾: جمع وافد، بمعنى: راكب، ٨٦ ـ ﴿ونَسُوقُ المُجرِمِينَ﴾ بكُفرهم ﴿إلَى جَهَنَّمَ وِردًا﴾: جمع وارد، بمعنى: ماش عطشان، ٨٧ ـ ﴿لا يَملِكُونَ﴾ أي: الناسُ ﴿الشَّفاعةَ، إلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهدًا﴾ أي: شهادةَ أنْ لا إلٰـهَ إلاّ اللهُ، ولا حولَ ولا قُوّةَ إلاّ باللهِ.

٨٨ ـ ﴿وقالُوا﴾ أي: اليهودُ والنصارى ومَن زعم أنّ الملائكة بنات الله: ﴿اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَدًا﴾. قال تعالى لهم: ٨٩ ـ ﴿لَقَد جِئتُم شَيئًا إدًّا﴾ أي: مُنكرًا عظيمًا، ....

قولُه: (أَعْوَانًا) أي: معونةً في عذابِهِم بأن توقَدَ بها نيرانُهُم، أو المرادُ بالضِّدِّ: ضدُّ العزِّ؛ أي: يكونونَ عليهم ذُلًّا.

قولُه: (تُهَيِّجُهُم) وتهزُّهُم وتُغريهم عليها بالتَّسويلاتِ وتحبيبِ الشَّهواتِ.

قولُه: (الأَيَّامَ) أو: أيَّامَ آجالِهِم.

قولُه: (بإِيْمَانِهِم)[1] والحشرُ: الجَمعُ.

وقولُه تعالى: (﴿إِلَى الرَّحْمَنِ﴾) إلى ربِّهِم الذي عمَّهُم برحمتِهِ، ولاختيارِ هذا الاسمِ في هذه السُّورةِ شأنٌ مع ابتدائِها بذِكرِ الرَّحمَةِ.

قولُه: (جَمْعُ وَافِدٍ) أي: وافِدِينَ، كما تَفِدُ الوُفَّادُ على السُّلطانِ، منتَظِرينَ لكرامتِهِ وإنعامِهِ.

قولُه: (بكُفْرِهِم) كما تُساقُ البهائمُ.

قولُه: (عَطْشَانَ) فإنَّ مَن يَرِدُ الماءَ لا يردُه إلَّا لعطَشٍ، أو كالدَّوابِّ التي تَرِدُ الماءَ.

قولُه: (أي: النَّاسُ) الضَّميرُ فيه للعبادِ المدلولِ عليه بذكرِ القِسمَينِ، وهو النَّاصبُ لليومِ.

قولُه: (أي: شَهَادَة) أي: إلَّا مَن أذِنَ له الرَّحمنُ.

قولُه: (أي: مُنكَرًا) والالتِفاتُ للمُبالغَةِ في الذَّمِّ والتَّسجيلِ عليهم بالجُرأةِ على اللهِ.

---

(١) في (د): «بالإيمان».

٩٠ ـ ﴿تَكادُ﴾ ـ بالتاء والياء ـ ﴿السَّماواتُ يَنفَطِرْنَ﴾ ـ بالنون. وفي قراءة بالتاء وتشديد الطاء ـ بالانشقاق ﴿مِنهُ، وتَنشَقُّ الأرضُ، وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا﴾ أي: تنطبق عليهم من أجل ٩١ ـ ﴿أن دَعَوا لِلرَّحمنِ وَلَدًا﴾.

٩٢ ـ قال تعالى: ﴿وما يَنبَغِي للرَّحمنِ أن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي: ما يليق به ذلك. ٩٣ ـ ﴿إن﴾ أي: ما ﴿كُلُّ مَن في السَّماواتِ والأرضِ إلاّ آتِي الرَّحمنِ عَبدًا﴾: ذليلاً خاضعًا يوم القيامة، منهم عُزَيرٌ وعِيسَى. ٩٤ ـ ﴿لَقَد أحصاهُم وعَدَّهُم عَدًّا﴾، فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم ولا واحد منهم، ٩٥ ـ ﴿وكُلُّهُم آتِيهِ يَومَ القِيامةِ فَردًا﴾: بلا مال ولا نصير يمنعه. ٩٦ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحمنُ وُدًّا﴾ فيما بينهم، يتوادّون ويتحابّون، ويُحبّهم الله تعالى.

قولُه: (والياءِ) التَّذكيرُ: نافعٌ والكِسائيُّ[1].

قولُه: (بالنُّونِ) بَصريٌّ وشاميٌّ وشعبةُ وحمزةُ[2].

وقولُه تعَالى: (﴿هَدًّا﴾) أي: تُهدُّ هداً، أو: مهدودةً؛ لأنَّها تُهَدُّ؛ أي: تُكسَرُ.

قولُه: (أي: تَنطَبِقُ) وتسقُطُ.

قولُه: (مِن أَجْلِ) إشارةٌ إلى أنَّ محلَّ ﴿أَنْ دَعَوْا﴾ جرٌّ بإضمارِ لامِ العِلَّةِ.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: اتِّخاذُ الوَلدِ.

قولُه: (ولا وَاحِد) وعدَّ[3] أشخاصَهُم وأنفاسَهُم وأموالَهُم، فإنَّ كلَّ شيءٍ عندَهُ بمقدارٍ.

قولُه: (فِيمَا بَينَهُم) أي: سيُحدِثُ لهم في القُلوبِ مودَّةً من غيرِ تعرُّضٍ منهم لأسبابِها.

قولُه: (ويُحِبُّهُم) لعلَّهُ بمعنى: أو، أخرجَ الشَّيخان عن النَّبيِّ ﷺ: «إذا أحَبَّ اللهُ عَبْداً يقُولُ لجبريلَ: أحبَبْتُ فُلاناً فأحِبَّهُ، فيُحِبُّه جبريلُ، ثمَّ يُنادِي في أَهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ تعالى قد أحَبَّ فُلاناً فأَحِبُّوهُ، فيُحِبُّه أهلُ السَّماءِ، ثمَّ تُوضَعُ المحبَّةُ في الأَرضِ»[4].

والسِّين[5]؛ لأنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، وكانوا مَبغوضينَ حينئذٍ بين الكفَرةِ، فوعدَهُ ذلك إذا قَوِيَ الإسلامُ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٤٨).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) هذا تفسير قوله تعالى: ﴿وعدهم عدا﴾.

(٤) رواه البخاري (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أي في قوله تعالى: ﴿سيجعل﴾.

٩٧ ـ ﴿فإنّما يسّرناه﴾ أي: القرآن ﴿بلسانك﴾ العربيّ، ﴿لتبشّر به المتّقين﴾ النار بالإيمان، ﴿وتنذر﴾: تخوّف ﴿به قومًا لُدًّا﴾: جمع ألدّ، أي: جدلٍ بالباطل، وهم كفّار مكّة. ٩٨ ـ ﴿وكم﴾ أي: كثيرًا ﴿أهلكنا قبلهم من قرنٍ﴾ أي: أمّةٍ من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل! ﴿هل تحسُّ﴾: تجدُ ﴿منهم من أحدٍ، أو تسمع لهم ركزًا﴾: صوتًا خفيًّا؟ لا. فكما أهلكنا أولئك نُهلك هؤلاء.

قوله: (بالإيمان) أي: الصّادقين إلى التّقوى.

قوله: (جدل) أي: شديد الخصومة.

قوله: (بتكذيبهم) تخويفٌ للكفرة، وتشجيعٌ للرّسول على إنذارهم.

قوله: (تجد) أي: هل تشعرُ منهم وترى؟ والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

* * *

سورة مريم

المشهورُ تسميتها بذلك، ورويت عن رسول الله ﷺ؛ فقد أخرجَ الطبرانيُّ وأبو نعيم والديلميُّ من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغسانيّ عن أبيه عن جدِّه قال: أتيتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: ولدتْ لي الليلةَ جاريةٌ، فقال: «والليلة أنزلت عليَّ سورةُ مريم...»[1].

وجاء فيما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما تسميتُها بسورة «كهيعص»[2].

وهي مكيَّةٌ كما روي عن عائشة وابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم.

وقال مقاتل: هي كذلك إلَّا آية السجدة[3]، فإنَّها مدنيةٌ نزلت بعد مهاجرة المؤمنين إلى الحبشة[4]. وفي «الإتقان»[5] استثناءُ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [الآية: ٧١] أيضاً.

---

(١) الدر المنثور ٤/٢٥٨، و«المعجم الكبير» ٢٢/(٨٣٤)، و«مسند الشاميين» (١٤٧٨).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/ ٥٤: وفيه سليمان بن سلمة الخبائري، وهو متروك.
قلت: وأبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني ضعيف. انظر «تقريب التهذيب»، و«تهذيب التهذيب».

(٢) قال الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» ١٦/ ٥٧: وكذلك وقعت تسميتها في «صحيح البخاري» في كتاب التفسير في أكثر النسخ وأصحِّها، ولم يعدها جلال الدين في «الإتقان» في عداد السور المسماة باسمين، ولعله لم يَرَ الثاني اسماً.

(٣) الآية: ٥٨.

(٤) وتعقب الطاهر بن عاشور هذا القول في «التحرير والتنوير» ١٦/ ٥٧، فقال: ولا يستقيم هذا القول؛ لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها، إلا أن تكون ألحقت بها في النزول، وهو بعيد.

(٥) ١/ ٤٧.

وهي عند العراقيين والشاميين ثمانٌ وتسعون آيةً، وعند المكيين تسعٌ وتسعون، وللمدنيين قولان، ووجهُ مناسبتها لسورةِ الكهف اشتمالُها على نحو ما اشتملت عليه من الأعاجيب، كقصة ولادة يحيى، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام، ولهذا ذُكرت بعدها، وقيل: إنَّ أصحاب الكهف يبعثونَ قبل الساعة، ويحجُّون مع عيسى عليه السلام حين ينزل، ففي ذكر هذه السورة بعد تلك مع ذلك إنْ ثبت ما لا يخفى من المناسبة، ويقوِّي ذلك ما قيل إنَّهم من قومه عليه السلام. وقيل غير ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ أخرج ابن مردويه عن الكلبيِّ أنه سُئل عن ذلك، فحدَّث عن أبي صالح، عن أم هانئ، عن رسول الله ﷺ قال: «كاف هاد عالم صادق»(١).

واختلفت الروايات عن ابن عباس. ففي رواية أنَّه قال: كاف من كريم، وها من هاد، ويا من حكيم، وعين من عليم، وصاد من صادق.

وفي رواية أنَّه قال: كبيرٌ، هادٍ، أمين، عزيز، صادق.

وفي أخرى أنَّه قال: هو قَسَمٌ أقسم الله تعالى به، وهو من أسماء الله تعالى.

وفي أخرى أنَّه كان يقول: «كهيعص»، و«حم»، و«يس»، وأشباه هذا؛ هو اسمُ الله تعالى الأعظم.

ويستأنسُ له بما أخرجه عثمانُ بن سعيد الدارمي وابنُ ماجه وابن جرير عن فاطمة بنت عليّ قالت: كان عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه يقول: يا «كهيعص» اغفر لي(٢).

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وناسٍ من الصحابة أنَّهم قالوا: «كهيعص» هو الهجاء المقطَّع؛ الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من المصوِّر.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨، وأخرجه ابن ماجه في تفسيره ـ كما في تهذيب الكمال ٢٩/ ٢٨٤ ـ والطبري في تفسيره ١٥/ ٤٥١.

وأخرج أيضاً عن محمد بن كعب نحو ذلك إلَّا أنَّه لم يذكر الياء، وقال: الصاد من الصمد.

وأخرج أيضاً عن الربيع بن أنس أنَّه قال في ذلك: يا من يجيرُ ولا يُجَارُ عليه(١).

وأخرج عبدُ الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة: أنَّه اسمٌ من أسماء القرآن(٢).

وقيل: إنَّه اسمٌ للسورة، وعليه جماعة.

وقيل: حروف مسرودةٌ على نمط التعديد. ونُسِبَ إلى جمعٍ من أهل التحقيق.

وفوَّض البعضُ علم حقيقة ذلك إلى حضرة علام الغيوب.

وقد تقدَّم تمام الكلام في ذلك وأمثاله في أول سورة البقرة، فتذكَّر.

وقرأ الجمهور: «كاف» بإسكان الفاء، ورُوي عن الحسن ضمُّها(٣). وأمال نافعٌ «ها» و«يا» بين اللفظين(٤)، وأظهر دال «صاد» ولم يدغمها في الذال بعد، وعليه الأكثرون(٥).

وقرأ الحسن بضم الهاء(٦)، وعنه أيضاً ضمُّ الياء وكسر الهاء(٧)، وعن عاصم ضمُّ الياء، وعنه أيضاً كسرهما(٨)، وعن حمزة فتح الهاء وكسر الياء(٩).

وقال أبو الفضل عبدُ الرحمن بن أحمد بن الحسن المقرئ الرازي في كتاب

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨، وهي في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٩٦ (١٣٠٢٤) و(١٣٠٢٦) و(١٣٠٢٧).

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٧٢، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٠٥.

(٤) النشر ٢/ ٧١، والتيسير ص١٤٨.

(٥) وقرأ أيضاً بعدم الإدغام ابن كثير وعاصم وأبو جعفر ويعقوب. انظر التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ١٧.

(٦) القراءات الشاذة ص٨٣.

(٧) البحر المحيط ٦/ ١٧٢.

(٨) البحر المحيط ٦/ ١٧٢. والمتواتر عنه كقراءة الجمهور.

(٩) التيسير ص١٤٧، والنشر ٢/ ٧١.

«اللوامح»: إنَّ الضمَّ في هذه الأحرف ليس على حقيقته، وإلَّا لوجب قلبُ ما بعدهنَّ من الألفات واوات، بل المرادُ أن يُنحى هذه الألفات نحو الواو على لغة أهل الحجاز، وهي التي تسمَّى ألفَ التفخيم ضدّ الإمالة، وهذه الترجمة كما ترجموا عن الفتحة الممالة المقرَّبة من الكسر بالكسر؛ لتقريب الألف بعدها من الياء. انتهى.

ووجه الإمالة والتفخيم أنَّ هذه الألفات لمَّا لم يكن لها أصلٌ حملوها على المنقلبة عن الواو تارة، وعن الياء أخرى، فجوَّزَ الأمران دفعاً للتحكُّم.

وقرأ أبو جعفر بتقطيع هذه الحروف وتخليص بعضها من بعض[1]، واقتضى ذلك إسكانَ آخرهنّ، والتقاءُ الساكنين مغتفرٌ في باب الوقف.

وأدغم أبو عمرو دالَ «صاد» في الذال بعد[2]. وقرأ حفص عن عاصم وفرقةٌ بإظهار النون من «عين»، والجمهور على إخفائها.

واختلف في إعرابه، فقيل على القول بأنَّ كلَّ حرفٍ من اسم من أسمائه تعالى لا محلَّ لشيءٍ من ذلك ولا للمجموع من الإعراب. وقيل: إنَّ كلَّ حرفٍ على نية الإتمام خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هو كافٍ، هو هاد، وهكذا، أو الأولُ على نيَّة الإتمام كذلك، والبواقي خبرٌ بعدَ خبر.

وعلى ما روي عن الربيع قيل: هو منادى، وهو اسمٌ من أسمائه تعالى معناه الذي يجيرُ ولا يُجار عليه. وقيل: لا محلَّ له من الإعراب أيضاً، وهو كلمةٌ تقال في موضع نداء الله تعالى بذلك العنوان، مثل ما يقال: مهيم، في مقام الاستفسار عن الحال، وهو كما ترى.

وعلى القول بأنَّه حروفٌ مسرودةٌ على نمط التعديد قالوا: لا محلَّ له من الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ على هذه الأقوال خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هذا المتلو «ذكر» إلخ.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٧٢.
(٢) النشر ١/ ٤٢٤.
(٣) تقدم ذكر من قرأ بعدم الإدغام قريباً، والباقون يدغمونها.

ويقال على الأخير[1]: المؤلفُ من جنس هذه الحروف المبسوطة مراداً به السورة «ذكرُ» إلخ.

وقيل: مبتدأ خبره محذوف، أي: فيما يتلى عليك «ذكر» إلخ.

وعلى القول بأنَّه اسمٌ للسورة قيل: محلُّه الرفع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا «كهيعص»، أي: مسمًّى به. وإنما صحَّت الإشارة إليه مع عدم جريان ذكره؛ لأنه باعتبار كونه على جناح الذكر صار في حكم الحاضر المشاهد، كما قيل في قولهم: هذا ما اشترى فلان. وفي «ذكر» وجهان؛ كونه خبراً لمبتدأ محذوف، وكونُه مبتدأ خبره محذوف.

وقيل: محلُّه الرفع على أنَّه مبتدأ، و«ذكر» إلخ خبره، أي: المسمَّى به ذكر إلخ، فإنَّ ذكر ذلك لمَّا كان مطلعَ السورة الكريمة ومعظمَ ما انطوت هي عليه، جعلت كأنها نفس ذكره، أو الإسنادُ باعتبار الاشتمال، أو هو بتقدير مضافٍ، أي: ذو ذكر إلخ، أو بتأويل: مذكورٌ فيه رحمةُ ربك.

وعلى القول بأنه اسمٌ للقرآن، قيل: المراد بالقرآن ما يصدقُ على البعض ويراد به السورة، والإعراب هو الإعراب، وحينئذٍ لا تقابل بين القولين.

وقيل: المراد ما هو الظاهر، وهو مبتدأ خبره «ذكر» إلخ، والإسناد باعتبار الاشتمال، أو التقدير، أو التأويل.

وقوله تعالى: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعولٌ لـ «رحمة ربك» على أنَّها مفعولٌ لما أضيف إليه، وهي مصدرٌ مضافٌ لفاعله، موضوعٌ هكذا بالتاء، لا أنَّها للوحدة حتى تمنع من العمل؛ لأنَّ صيغة الوحدة ليست الصيغة التي اشتقَّ منها الفعل، ولا الفعل دالٌّ على الوحدة، فلا يعمل المصدرُ لذلك عملَ الفعل إلَّا شذوذاً، كما نصَّ عليه النحاة.

وقيل: مفعولٌ للذكر، على أنَّه مصدرٌ أضيفَ إلى فاعله على الاتِّساع، ومعنى ذكر الرحمة بلوغُها وإصابتها، كما يقال: ذَكَرني معروفُك، أي: بلغني.

---

(١) أي على أنها حروف مسرودة على نمط التعديد. انظر تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٢.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ بدلٌ منه بدلَ كلٍّ من كلّ، أو عطفُ بيان له، أو نُصب بإضمار: أعني.

وقوله تعالى شأنه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ ظرفٌ لـ «رحمة ربك». وقيل: لـ «ذكر» على أنَّه مضافٌ لفاعله، لا على الوجه الأول؛ لفساد المعنى. وقيل: هو بدل اشتمال من «زكريا» كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا﴾ [مريم:١٦].

وقرأ الحسن وابن يعمر ـ كما حكاه أبو الفتح[١] ـ: «ذكَّر» فعلاً ماضياً مشدَّداً، و«رحمةَ» بالنصب على أنَّه ـ كما في «البحر» ـ مفعولٌ ثانٍ لـ «ذكَّر»، والمفعولُ الأول محذوف، و«عبدَه» مفعولٌ لـ «رحمة»، وفاعل «ذكر» ضميرُ القرآن المعلوم من السياق، أي: ذكَّر القرآنُ الناسَ أنْ رحم سبحانه عبدَه[٢].

ويجوز أنْ يكون فاعل «ذكَّر» ضمير «كهيعص» بناءً على أنَّ المرادَ منه القرآن، ويكونُ مبتدأ، والجملة خبره، وأنْ يكون الفاعلُ ضميره عزَّ وجلَّ، أي: ذكَّر الله تعالى الناسَ ذلك.

وجُوِّزَ أن يكون «رحمة ربك» مفعولاً ثانياً، والمفعول الأول هو «عبده» والفاعل ضميره سبحانه، أي: ذَكَّر الله تعالى عبدَه رحمتَه، أي: جعل العبدَ يذكرُ رحمتَه، وإعراب «زكريا» كما مرَّ.

وجُوِّز أن يكون مفعولاً لـ «رحمة»، والمراد بـ «عبده» الجنس، كأنَّه قيل: ذَكَّر عباده رحمتَه زكريا. وهو كما ترى. ويجوزُ على هذا أن يكون الفاعلُ ضمير القرآن.

وقيل: يجوزُ أنْ يكون الفاعل ضميره تعالى، والرحمة مفعولاً أولاً، و«عبده» مفعولاً ثانياً، ويرتكب المجاز، أي: جعل الله تعالى الرحمةَ ذاكرةً عبدَه.

---

(١) في المحتسب ٢/ ٣٧ عن الحسن، دون ذكر ابن يعمر. وأوردها عنه ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٣.
قال ابن حيان في البحر ٦/ ١٧٢: وذكر صاحب «اللوامح» أن ذكَّر بالتشديد ماضياً عن الحسن باختلاف، وهو صحيح عن ابن يعمر. اهـ.
(٢) انظر البحر ٦/ ١٧٢.

وقيل: «رحمة» نصب بنزع الخافض، أي: ذكر برحمة، وذكر الداني عن ابن يعمر[(١)] أنَّه قرأ: «ذكِّر» على الأمر والتشديد، و«رحمةَ» بالنصب، أي: ذكر الناسَ رحمةً، أو برحمةِ ربك عبدَه زكريا.

وقرأ الكلبيّ: «ذَكَرَ» فعلاً ماضياً خفيفاً، و: «رحمةَ ربك» بالنصب على المفعولية لـ «ذكر»، و: «عبدُه» بالرفع على الفاعلية له[(٢)].

وزكريا عليه السلام من ولد سليمان بن داود عليهما السلام، وأخرج الحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود أنَّه آخرُ أنبياء بني إسرائيل[(٣)]، وهو ابن آزر بن مسلم، من ذرية يعقوب، وأخرج إسحاق بن بشر وابنُ عساكر عن ابن عباس أنَّه ابن دان، وكان من أبناءِ الأنبياء الذين يكتبون الوحي في بيت المقدس[(٤)]. وأخرج أحمد وأبو يعلى والحاكم وصحَّحه وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً: «أنه عليه السلام كان نجاراً»[(٥)].

وجاءَ في اسمه خمس لغات؛ أولها: المد، وثانيها: القصر، وقُرئ بهما في السبع[(٦)]. وثالثها: زكريّ، بتشديد الياء. ورابعها: زكري، بتخفيفها. وخامسها: زَكَرْ، كقلم. وهو اسمٌ أعجميّ[(٧)].

والنداءُ في الأصل رفعُ الصوت وظهورُه، وقد يقال لمجرد الصوت، بل لكلِّ ما يدلُّ على شيءٍ وإن لم يكن صوتاً، على ما حققه الراغب[(٨)]. والمرادُ هنا: إذ

---

(١) في الأصل و(م): أبي يعمر. والمثبت من القراءات الشاذة ص٨٣، والبحر المحيط ٦/ ١٧٢، والدر المصون ٧/ ٥٦٣.
(٢) البحر المحيط ٦/ ١٧٢.
(٣) المستدرك ٢/ ٥٨٩-٥٩٠.
(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٥٩، وهو عند ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٩/ ٤٨-٤٩.
(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٥٨، وهو عند أحمد (٧٩٤٧)، وأبي يعلى (٦٤٢٦)، والحاكم في مستدركه ٢/ ٥٩٠. وأخرجه أيضاً الإمام مسلم في صحيحه (٢٣٧٩).
(٦) قرأ بالمدِّ من السبعة حفص وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون بالهمز. التيسير ص٨٧.
(٧) والقول الأخير ضعفه الزبيدي في «تاج العروس» (زكر) قال: وشذَّ بعض المفسرين فزاد لغة خامسة: زكر، كجبل. اهـ. وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١/ ٤٧٤ ـ طبعة دار الفيحاء).
(٨) في المفردات (ندا).

دعا ربه ﴿نِدَآءً﴾ أي: دعاء ﴿خَفِيًّا ۝٣﴾ مستوراً عن الناس لم يسمعه أحدٌ منهم، حيثُ لم يكونوا حاضريه. وكان ذلك ـ على ما قيل ـ في جوف الليل.

وإنَّما أَخفَى دعاءَه عليه السلام؛ لأنَّه أدخلُ في الإخلاص، وأبعدُ عن الرياء، وأقربُ إلى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد؛ لتوقُّفه على مباديَ لا يليقُ به تعاطيها في أوان الكبر والشيخوخة، وعن غائلة مواليه.

وعلى ما ذكرنا لا منافاةَ بين النداء، وكونه خفيًّا، بل لا منافاة بينهما أيضاً إذا فُسِّر النداءُ برفع الصوت؛ لأنَّ الخفاءَ غيرُ الخفوت، ومن رفعَ صوتَه في مكانٍ ليس بمرأى ولا مسمعٍ من الناس فقد أخفاه. وقيل: هو مجازٌ عن عدم الرياء، أي: الإخلاص، ولم ينافه النداءُ بمعنى رفعِ الصوت لهذا.

وفي «الكشف» أنَّ الأشبهَ أنَّه كنايةٌ مع إرادة الحقيقة؛ لأنَّ الخفاءَ في نفسه مطلوبٌ أيضاً، لكنَّ المقصودَ بالذات الإخلاص. وقيل: مستوراً عن الناس بالمخافتة، ولا منافاة بناءً على ارتكاب المجاز، أو بناءً على أن النداءَ لا يلزمهُ رفعُ الصوت. ولذا قيل:

يا من ينادَى بالضمير فيَسمع[(١)]

وكان نداؤه عليه السلام كذلك؛ لما مرَّ آنفاً، أو لضعفِ صوته بسبب كبره، كما قيل: الشيخ صوتُه خُفات وسمعه تارات.

قيل: كان سنُّه حينئذٍ ستين سنة، وقيل: خمساً وستين، وقيل: سبعين، وقيل: خمساً وسبعين، وقيل: ثمانين، وقيل: خمساً وثمانين، وقيل: اثنتين وتسعين، وقيل: تسعاً وتسعين، وقيل: مئةً وعشرين. وهو أوفق بالتعليل المذكور.

وزعم بعضهم أنَّه أشير إلى كون النداء خفيًّا ليس فيه رفعٌ بحذفِ حرفه في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، والجملةُ تفسيرٌ للنداء، وبيانٌ لكيفيَّته، فلا محلَّ لها من الإعراب.

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ١٤٣، والمشهور:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعدّ لكل ما يتوقع

وهو في التدوين في أخبار قزوين للرافعي ٣/ ١٤ مع أبيات أخر، ونسبها لعبد الرحمن بن أبي الحسين الخثعمي، وذكرها أيضاً الأبشيهي في المستطرف ٢/ ٥٤٢ وغيرهما.

﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ أي: ضَعُف، وإسنادُ ذلك إلى العَظم لما أنَّه عمادُ البدن ودِعام الجسد، فإذا أصابه الضعفُ والرخاوة تداعى ما وراءه، وتساقطت قوَّته؛ ففي الكلام كنايةٌ مبنيَّةٌ على تشبيه مضمرٍ في النفس، أو لأنَّه أشدُّ أجزائه صلابةً وقواماً، وأقلُّها تأثُّراً من العلل، فإذا وَهَن كان ما وراءه أوهن؛ ففي الكلام كنايةٌ بلا تشبيه. وأُفرِد ـ على ما قاله العلامة الزمخشريّ[1] وارتضاه كثيرٌ من المحققين ـ لأنَّ المفردَ هو الدالُّ على معنى الجنسيَّة، والقصد إلى أنَّ هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشدُّ ما تركب من الجسد قد أصابه الوهن، ولو جُمِع لكان القصدُ إلى معنًى آخر، وهو أنَّه لم يهن منه بعضُ عظامه، ولكن كلُّها، حتى كأنَّه وقعَ من سامعٍ شكٌّ في الشمول والإحاطة؛ لأنَّ القيد في الكلام ناظرٌ إلى نفي ما يقابلُه، وهذا غيرُ مناسبٍ للمقام. وقال السكاكيُّ[2]: إنَّه تركَ جمع «العظم» إلى الإفراد؛ لطلب شمولِ الوهن العظام فرداً فرداً، ولو جمع لم يتعيَّن ذلك؛ لصحَّة: وهَنت العظامُ، عند حصولِ الوهن لبعضٍ منها دون كلِّ فرد، وهو مسلكٌ آخرُ مرجوحٌ عند الكثير. وتحقيقُ ذلك في موضعه.

وعن قتادة أنَّه عليه السلام اشتكى سقوطَ الأضراس. ولا يخفى أنَّ هذا يحتاجُ إلى خبرٍ يدلُّ عليه، فإنَّ انفهامه من الآية ممَّا لا يكادُ يسلَّم.

و«منِّي» متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من العَظْم، ولم يقل: عظمي، مع أنَّه أخصر؛ لما في ذلك من التفصيل بعد الإجمال، ولأنَّه أصرحُ في الدلالة على الجنسيَّة المقصودة هنا، وتأكيدُ الجملة لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها.

وقرأ الأعمش: «وَهِن» بكسر الهاء، وقُرِئ بضمِّها أيضاً[3].

﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ شبَّه الشيبَ في البياض والإنارة بشُواظِ النار، وانتشارَه في الشعر وفشوَّه فيه وأخذه منه كلَّ مأخذ باشتعالها، ثمَّ أخرجَه مخرج الاستعارة، ففي الكلام استعارتان، تصريحية تبعيَّة في «اشتعل»، ومكنيَّة في الشيب؛

---

(١) في الكشاف ٢/ ٥٠٢.

(٢) في مفتاح العلوم ص٢٦.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٧٣.

وانفكاكها[١] عن التخيلية ممَّا عليه المحققون من أهل المعاني، على أنه يمكن ـ على بُعدٍ ـ القولُ بوجود التخييليَّة هنا أيضاً. وتكلَّف بعضُهم لزعمه عدمَ جواز الانفكاك، وعدمَ ظهور وجود التخييلية: إخراجَ ما في الآية مخرجَ الاستعارة التمثيلية، وليس بذاك.

وأُسندَ الاشتعال إلى محلِّ الشعر ومنبته، وأُخرج مخرج التمييز؛ للمبالغة وإفادة الشمول، فإنَّ إسناد معنًى إلى ظرفِ ما اتَّصف به زمانيًّا أو مكانيًّا يفيدُ عمومَ معناه لكلِّ ما فيه في عرف التخاطب، فقولُك: اشتعل بيتُه ناراً، يفيد احتراق جميع ما فيه، دون: اشتعلَ نار بيته.

وزعم بعضُهم أنَّ «شَيباً» نصب على المصدرية؛ لأنَّ معنى «اشتعل الرأس» شاب. وقيل: هو حال، أي: شائباً، وكلا القولين لا يرتضيهما كاملٌ كما لا يخفى.

واكتفي باللام عن الإضافة؛ لأنَّ تعريفَ العهد المقصود هنا يفيدُ ما تفيده، ولما كان تعريفُ «العظم» السابق للجنس كما علمت؛ لم يُكتَفَ به، وزاد قوله «منِّي». وبالجملة ما أفصَح هذه الجملة وأبلغها، ومنها أخذَ ابنُ دريد قوله:

واشتعل المُبيَضُّ في مُسودِّه   مثل اشتعال النَّار في جزل الغضا[٢]

وعن أبي عمرو أنه أدغم السين في الشين[٣].

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ أي: لم أكن بدعائي إيَّاك خائباً في وقتٍ من أوقات هذا العُمر الطويل، بل كلَّما دعوتُك استجبتَ لي. والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلها، وقيل: حالٌ من ياء المتكلم، إذ المعنى: واشتعل رأسي. وهو غريب.

وهذا توسُّلٌ منه عليه السلام بما سلفَ منه تعالى من الاستجابة عند كلِّ دعوةٍ إثرَ تمهيد ما يستدعي الرحمةَ من كبر السِّنِّ وضعف الحال، فإنَّه تعالى بعد ما عَوَّد عبده الإجابة دهراً طويلاً لا يكادُ يخيبه أبداً، لا سيما عند اضطراره وشدَّة افتقاره، وفي هذا التوسُّل من الإشارة إلى عظم كرم الله عزَّ وجلَّ ما فيه.

---

(١) أي: انفكاك الاستعارة المكنية. وانظر حاشية الخفاجي ٦/ ١٤٤.

(٢) شرح مقصورة ابن دريد للخطيب التبريزي ص٣.

(٣) التيسير ص٢٤، والنشر ١/ ٢٩٢.

وقد حُكي أنَّ حاتماً الطائيّ ـ وقيل: معن بن زائدة ـ أتاه محتاجٌ، فسأله وقال: أنا الذي أحسنتَ إليه وقتَ كذا، فقال: مرحباً بمن توسَّل بنا إلينا. وقضى حاجتَه.

وقيل: المعنى: ولم أكن بدعائك إيايَّ إلى الطاعة شقيًّا، بل كنت ممن أطاعَك وعبدَك مخلصاً، فالكافُ على هذا فاعل، والأوَّل أظهرُ وأولى، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والتعرُّض في الموضعين لوصفِ الربوبية المنبئة عن إفاضة ما فيه صلاحُ المربوب مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام، لا سيما توسيطه بين «كان» وخبرها، لتحريك سلسلةِ الإجابة بالمبالغة في التضرُّع.

وقد جاء في بعض الآثار: أنَّ العبدَ إذا قال في دعائه: يا ربِّ، قال الله تعالى له: لبيك عبدي.

وروي أنَّ موسى عليه السلام قال يوماً في دعائه: يا رب. فقال الله سبحانه وتعالى له: لبيك يا موسى. فقال موسى: أهذا لي خاصَّة؟ فقال الله تبارك تعالى: لا، ولكن لكلِّ من يدعوني بالربوبية.

وقيل: إذا أرادَ العبدُ أن يُستجاب له دعاؤه، فليدعُ الله تعالى بما يناسبُه من أسمائه وصفاته عزَّ وجلَّ.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ هم عَصَبة الرجل على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد.

وعن الأصمِّ أنَّهم بنو العمِّ، وهم الذين يلونه في النسب.

وقيل: من يلي أمره من ذوي قرابته مطلقاً.

وكانوا على سائر الأقوال شرارَ بني إسرائيل، فخاف عليه السلام أن لا يحسنوا خلافتَه في أمَّته.

والجملة عطفٌ على قوله: «إنِّي وهن العظمُ مني» مترتِّبٌ مضمونُها على مضمونه؛ فإنَّ ضعفَ القوى وكبر السِّنِّ من مبادي خوفه عليه السلام مَن يلي أمرَه بعد موته، حسبما يدلُّ عليه قوله: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ فإنَّ المرادَ منه بإجماعِ من عَلمنا

من المفسِّرين: من بعد موتي، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ ينساق إليه الذهن، أي: خفتُ فعلَ الموالي من ورائي، أو جور الموالي؛ وقد قرئ ـ كما في «إرشاد العقل السليم» ـ كذلك[١].

وجوِّز تعلُّقه بالموالي، ويكفي في ذلك وجودُ معنى الفعل فيه في الجملة؛ فقد قالوا: يكفي في تعلُّق الظرف رائحةُ الفعل، ولا يشترط فيه أنْ يكون دالًّا على الحدوث، كاسم الفاعل والمفعول حتى يُتكلَّف له. ويقال: إنَّ اللام في «الموالي» على هذا موصولٌ، والظرفُ متعلِّقٌ بصلته، وإنَّ مولى مخفف مُولًّى، كما قيل في مُعنى أنه مخفف مُعنًّى، فإنَّه تعسُّفٌ لا حاجة إليه، نعم قالوا في حاصل المعنى على هذا: خفتُ الذين يَلُونَ الأمرَ من ورائي.

ولم يجوِّز الزمخشريُّ تعلُّقه بـ «خفت» لفساد المعنى[٢]، وبيَّن ذلك في «الكشف» بأنَّ الجارَّ ليس صلةَ الفعل؛ لتعدِّيه إلى المحذور بلا واسطة، فتعيَّن أن يكون للظرفية على نحو: خفتُ الأسدَ قبلك، أو من قبلك، وحينئذٍ يلزمُ أن يكون الخوفُ ثابتاً بعد موته. وفسادُه ظاهر.

وبعضُهم رأى جواز التعلُّق بناءً على أنَّ كون المفعول في ظرف مصحِّحٌ لتعلُّق ذلك الظرف بفعله، كقولك: رميتُ الصيد في الحرم، إذا كان الصيدُ فيه دون رميك. والظاهرُ عدم الجواز فافهم.

وقال ابن جنِّي: هو حالٌ مقدَّرة من «الموالي»[٣].

وعن ابن كثير أنَّه قرأ: «ومن وراءَيَ» بالقصر وفتح الياء، كعصاي[٤].

وقرأ الزهريُّ: «الموالي» بسكون الياء[٥].

وقرأ عثمان بن عفَّان وابنُ عباس وزيد بن ثابت وعليُّ بن الحسين وولداه

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤٥.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٢.
(٣) المحتسب ٢/ ٣٧.
(٤) القراءات الشاذة ص٨٣، والبحر المحيط ٦/ ١٧٤.
(٥) تفسير الرازي ٢١/ ١٨٠، والبحر المحيط ٦/ ١٧٤، والدر المصون ٧/ ٥٦٦.

محمدٌ وزيد[١] وسعيد بن العاص وابنُ جبير وابن يعمر[٢] وشبيلُ بن عَزْرَة والوليد بن مسلم لابن عامر: «خَفَّتِ» بفتح الخاء والفاء مشددة وكسر تاء التأنيث، «الموالي» بسكون الياء[٣]، على أنَّ «خَفَّت» من الخفَّة ضدّ الثقل، ومعنى «من ورائي» كما تقدَّم؛ والمراد: وإنّي قلَّ الموالي وعَجَزوا عن القيام بأمور الدين من بعدي. أو: من الخفوف بمعنى السير السريع، ومعنى «من ورائي» من قُدَّامي وقبلي، والمراد: وإني ماتَ الموالي القادرون على إقامة مراسم الملَّة ومصالح الأمَّة وذهبوا قُدَّامي، ولم يَبْقَ منهم من به تقوٍّ واعتضاد، فيكونُ محتاجاً إلى العقب؛ لعجز مواليه عن القيام بعدَه بما هو قائم به، أو لأنَّهم ماتُوا قبلَه فبقيَ محتاجاً إلى من يعتضدُ به. وتعلُّق الجارِّ والمجرور على الوجه الثاني بالفعل ظاهر، وأمَّا على الوجه الأوَّل فإنْ لُوحظ أنَّ عجزَهم وقلَّتهم سيقعُ بعدَه لا أنَّه واقعٌ وقتَ دعائه: صحَّ تعلُّقه بالفعل أيضاً، وإن لم يكن كذلك تعلَّق بغير ذلك.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي: لا تلد من حين شبابها إلى شَيبها، فالعقر بالفتح والضمِّ: العقم، ويقال: عاقر، للذكر والأنثى.

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارَّين متعلِّق بـ «هب»، واللام صلةٌ له، و«من» لابتداء الغاية مجازاً، وتقديم الأول لكون مدلوله أهمَّ عنده، وجُوِّز تعلُّق الثاني بمحذوفٍ وقع حالاً من المفعول الآتي. وتقدَّم الكلام في «لدن». والمراد: أعطني من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة، بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العادية. وقيل: المراد: أعطني من فضلك كيف شئت ﴿وَلِيًّا ۝٥﴾ أي: ولداً من صُلْبي، وهو الظاهر. ويؤيِّده قوله تعالى في سورة آل عمران حكايةً عنه عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [الآية:٣٨].

وقيل: إنَّه عليه السلام طلبَ من يقومُ مقامَه ويرثه؛ ولداً كان أو غيره.

---

(١) في البحر المحيط: وولده محمد وزيد.

(٢) في الأصل و(م): وأبو يعمر. والتصويب من المحتسب، والبحر المحيط.

(٣) انظر القراءات الشاذة ص٨٣، والمحتسب ٢/ ٣٧، وتفسير الرازي ٢١/ ١٨٠، والبحر المحيط ٦/ ١٧٤.

وقيل: إنَّه عليه السلام أيسَ أن يولدَ له من امرأته، فطلبَ من يرثه ويقومُ مقامَه من سائر الناس. وكلا القولين لا يعوَّل عليه.

وزعم الزمخشريُّ أنَّ «من لدنك» تأكيدٌ لكونه وليًّا مرضيًّا[1]. ولا يخفى ما فيه.

وتأخيرُ المفعول عن الجارَّين لإظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخَّر، ولأنَّ فيه نوعَ طول بما بعده من الوصف، فتأخيرُهما عن الكلِّ وتوسيطهما بين الموصوف والصفة ممَّا لا يليقُ بجزالة النظم الكريم، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلَها، فإنَّ ما ذكره عليه السلام من كبر السِّنِّ، وضعف القوى، وعقر المرأة؛ موجبٌ لانقطاع رجائه عليه السلام عن حصول الولد بتوسُّط الأسباب العاديَّة، واستيهابه على الوجه الخارق للعادة.

وقيل: لأنَّ ذلك موجبٌ لانقطاع رجائه عن حصول الولد منها وهي في تلك الحال، واستيهابه على الوجه الذي يشاؤه الله تعالى، وهو مبنيٌّ على القول الثاني في المراد من «هب لي من لدنك وليًّا»، والأول أولى.

ولا يقدح فيما ذكر أنْ يكون هناك داعٍ آخر إلى الإقبال على الدعاء من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرةِ في حقِّ مريم، كما يعربُ عنه قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ الآية [آل عمران:٣٨]. وعدم ذكره ها هنا للتعويل على ما ذُكر هنالك، كما أنَّ عدمَ ذكر مقدمة الدعاء هنالك؛ للاكتفاء بذكرها هاهنا، والاكتفاءُ بما ذكر في موطنٍ عما ترك في موطنٍ آخر من السنن التنزيليّة.

وقوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ صفةٌ لـ «وليًّا» كما هو المتبادر من الجمل الواقعة بعد النكرات، ويقال: ورثَه، وورث منه، لغتان كما قيل، وقيل: «من» للتبعيض، لا للتعدية، وآل الرجل خاصَّته الذين يؤول إليه أمرُهم؛ للقرابة، أو الصحبة، أو الموافقة في الدين.

ويعقوب ـ على ما رويَ عن السُّدِّيّ ـ هو يعقوبُ بن إسحاق بن إبراهيم، فإنَّ زكريا من ولد هارون، وهو من ولد لاوي بن يعقوب، وكان متزوِّجاً بأخت مريم

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٢.

بنت عمران، وهي من ولد سليمان بن داود عليهما السلام، وهو من ولد يهوذا بن يعقوب أيضاً. وقال الكلبيُّ ومقاتل: هو يعقوب بن ماثان[1]، وأخوه عمران بن ماثان، أبو مريم. وقيل: هو أخو زكريا عليه السلام.

والمراد من الوراثة في الموضعين العلمُ، على ما قيل.

وقال الكلبيُّ: كان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وملوكَهم، وكان زكريا عليه السلام رئيسَ الأحبار يومئذٍ، فأرادَ أن يرثه ولدُه الحبورةَ، ويرثَ من بني ماثان ملكَهم، فتكون الوراثةُ مختلفةً في الموضعين. وأُيِّد ذلك بعدم اختيار العطف على الضمير المنصوب والاكتفاء بـ «يرث» الأول.

وقيل: الوراثة الأولى وراثة النبوَّة، والثانية وراثةُ الملك، فتكون مختلفةً أيضاً، إلَّا أنَّ قوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾ أي: مرضيًّا عندك قولاً وفعلاً، وقيل: راضياً، والأول أنسب = يكونُ على هذا تأكيداً؛ لأنَّ النبيَّ شأنُهُ أن يكون كذلك، وعلى ما قلنا يكونُ دعاءً بتوفيقه للعمل، كما أنَّ الأوَّل متضمِّنٌ للدعاء بتوفيقه للعلم، فكأنَّه طلبَ أنْ يكون ولده عالماً عاملاً.

وقيل: المرادُ: اجعله مرضيًّا بين عبادك، أي: متَّبعاً، فلا يكون هناك تأكيدٌ مطلقاً.

وتوسيط «ربِّ» بين مفعولَي الجعل على سائر الأوجه للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه.

واختار السكاكيُّ[2] أنَّ الجملتين مستأنفتان استئنافاً بيانيًّا؛ لأنَّه يردُ أنَّه يلزمُ على الوصفيَّة أنْ لا يكونَ قد وُهِب لزكريا عليه السلام من وُصِف؛ لهلاك يحيى عليه السلام قبل هلاكِه؛ لقتل يحيى عليه السلام قبل قتله.

وتعقَّب ذلك في «الكشف» بأنَّه مدفوعٌ بأنَّ الروايات متعارضة، والأكثرُ على هلاك زكريا قبله عليهما السلام، ثم قال: وأمَّا الجواب بأنَّه لا غضاضةَ في أن يُستجابَ للنبيِّ بعضُ ما سأل دون بعض، ألا ترى إلى دعوةِ نبينا ﷺ في حقِّ أمته،

(١) وضعفه السيوطي رحمه الله في الإتقان ٢/ ١٠٦٥.
(٢) مفتاح العلوم ص٣٢١.

حيث قال عليه الصلاة والسلام: «وسألتُه أنْ لا يذيقَ بعضَهم بأس بعض، فمنعنيها»(١)، وإلى دعوة إبراهيم عليه السلام في حقِّ أبيه = فإنَّما يتمُّ لو كان المحذورُ ذلك، وإنَّما المحذورُ لزومُ الخلف في خبره تعالى، فقد قال سبحانه وتعالى في «الأنبياء»: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الآية: ٩٠] وهو يدلُّ على أنَّه عليه السلام أُعطي ما سَأل، من غير تفرقةٍ بين بعض وبعض، وكذلك سياقُ الآيات الأُخَر. ولك أنْ تستدلَّ بظاهر هذه الآية على ضعف روايةٍ من زعم أنَّ يحيى هَلك قبل أبيه عليهما السلام.

وأمَّا الإيرادُ بأنَّ ما اختير من الحمل على الاستئناف لا يدفعُ المحذور؛ لأنَّه وصل معنويّ = فليس بشيء؛ لأنَّ الوصلَ ثابتٌ، ولكنه غيرُ داخلٍ في المسؤول؛ لأنَّه بيانُ العلة الباعثة على السؤال، ولا يلزمُ أنْ يكونَ علَّة السؤال مسؤولة. انتهى.

وأجاب بعضُهم بأنَّه حيث كان المراد من الوراثة هنا وراثةَ العلم لا يضرُّ هلاكُه قبل أبيه عليهما السلام؛ لحصول الغرض، وهو أخذ ذلك وإفاضتُه على الغير، بحيثُ تبقى آثاره بعد زكريا عليه السلام زماناً طويلاً، ولا يخفى أنَّ المعروف بقاءُ ذات الوارث بعدَ الموروث عنه.

وقرأ أبو عمرو والكسائيُّ والزهريُّ والأعمش وطلحة واليزيديُّ وابنُ عيسى الأصفهاني وابن محيصن وقتادة بجزم الفعلين(٢)؛ على أنَّهما جوابُ الدعاء، والمعنى: إن تهبْ لي ذلك يرثني إلخ. والمراد أنه كذلك في ظنِّي ورجائي.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهَه وابنُ عباس وجعفر بن محمد رضي الله عنهم والحسنُ وابن يعمر والجحدريّ وأبو حرب بن أبي الأسود وأبو نهيك: «يرثُني» بالرفع «وأرث» فعلاً مضارعاً من ورث(٣)، وخُرِّجَ ذلك على أنَّ المعنى يرثني العلم، وأرثُ أنا به الملكَ من آل يعقوب، وذلك بجعل وراثة الوليِّ الملكَ وراثةً لزكريا عليه السلام؛ لأنَّ رفعةَ الولد رفعةٌ للوالد. والواو لمطلق الجمع، وقال بعضهم: والواو للحال، والجملة حالٌ من أحد الضميرين، وقال صاحب «اللوامح»: فيه تقديم، ومعناه:

---

(١) سلف بتمامه في سورة الأنعام، عند تفسير الآية ٦٥.

(٢) قراءة أبي عمرو والكسائي في التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٧، وانظر قراءة الباقين في البحر المحيط ٦/ ١٧٤.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٧٤.

فهب لي وليًّا من آل يعقوب يرثني النبوَّة إن متُّ قبلَه، وأرثُه مالَه إنْ ماتَ قبلي. وفيه ما ستعلمه إن شاء الله تعالى قريباً.

ونُقل عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وجماعة أنَّهم قرؤوا: «يرثني وارثٌ» برفع وارث بزنة فاعل، على أنَّه فاعل يرثني على طريقة التجريد، كما قال أبو الفتح[(١)] وغيره، أي: يرثني وليٌّ من ذلك الوليِّ أو به، فقد جرَّد من الوليِّ وليًّا، كما تقول: رأيتُ منه أو به أسداً.

وعن الجحدري أنه قرأ: «وارث» بإمالة الواو[(٢)].

وقرأ مجاهد: «أُوَيْرِث» تصغير وارث[(٣)]. وأصله: وويرث، بواوين؛ الأولى فاءُ الكلمة الأصلية، والثانية بدلُ ألف فاعل؛ لأنَّها تقلبُ واواً في التصغير، كضويرب، ولما وقعت الواو مضمومةً قبل أخرى في أوله قلبت همزةً، كما تقرّر في التصريف، ونُقِل عنه[(٤)] أنه قال: التصغير لصغره، فإنَّه عليه السلام لمَّا طلبه في كبره عَلم ولو حَدْساً أنَّه يرثه في صغر سِنِّه، وقيل: للمدحِ. وليس بذاك.

هذا واستدلَّ الشيعةُ بالآية على أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام تُورَث عنهم أموالُهم؛ لأن الوراثةَ حقيقةٌ في وراثة المال، ولا داعي إلى الصرف عن الحقيقة، وقد ذكر الجلال السيوطيّ في «الدر المنثور» عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبي صالح أنَّهم قالوا في الآية: يرثني مالي[(٥)].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن، أنه ﷺ قال في الآية: «يرحمُ الله تعالى أخي زكريا، ما كان عليه من ورثه»؟[(٦)] وفي رواية: «ما كان عليه ممن يرثُ مالَه»؟.

---

(١) في المحتسب ٢/ ٣٨.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٣، والبحر المحيط ٦/ ١٧٤.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٠٣، والبحر المحيط ٦/ ١٧٤. وزاد الزمخشري نسبتها إلى الجحدري. والذي سينقله المصنف قريباً في تفسير هذه القراءة من كلامه. انظر حاشية الخفاجي ٦/ ١٤٦.

(٤) أي: عن الجحدري، كما سلف في التعليق السابق.

(٥) في الدر المنثور ٤/ ٢٥٩ عن ابن عباس فقط.

(٦) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٣، وتفسير الطبري ١٥/ ٤٦٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٩٧ (١٣٠٣٧).

وقال بعضهم: إنَّ الوراثةَ ظاهرةٌ في ذلك، ولا يجوز هاهنا حملُها على وراثة النبوة؛ لئلَّا يلغو قوله: «واجعله ربِّ رضيًّا»، ولا على وراثة العلم؛ لأنَّه كسبيٌّ، والموروثُ حاصلٌ بلا كسب.

ومذهب أهل السنة أنَّ الأنبياءَ عليه السلام لا يرثون مالاً ولا يورِّثون؛ لما صحَّ عندهم من الأخبار(١). وقد جاء ذلك أيضاً من طريق الشيعة، فقد روى الكليني في «الكافي» عن أبي البختري عن أبي عبد الله جعفر الصادق ﷺ أنَّه قال: إنَّ العلماءَ ورثة الأنبياء، وذلك أنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا درهماً ولا ديناراً، وإنَّما ورَّثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيءٍ منها فقد أخذ بحظٍّ وافر.

وكلمة «إنَّما» مفيدةٌ للحصر قطعاً باعتراف الشيعة، والوراثة في الآية محمولةٌ على ما سمعت، ولا نسلِّم كونَها حقيقةً لغويَّة في وراثة المال، بل هي حقيقةٌ فيما يعمُّ وراثةَ العلم والمنصب والمال، وإنَّما صارت لغلبة الاستعمال في عرف الفقهاء مختصَّةً بالمال، كالمنقولات العرفيَّة، ولو سلَّمنا أنَّها مجاز في ذلك، فهو مجازٌ متعارفٌ مشهورٌ، خصوصاً في استعمال القرآن المجيد، بحيث يساوي الحقيقة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢]، وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف:١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الشورى:١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٨٠]. قولهم(٢): لا داعي إلى الصرف عن الحقيقة، قلنا: الداعي متحقِّقٌ، وهي صيانةُ قول المعصوم عن الكذب، ودون تأويله خرط القتاد، والآثار الدالَّة على أنَّهم يورِّثون المال لا يعوَّل عليها عند النقاد.

وزعم البعضُ أنَّه لا يجوزُ حملُ الوراثة هنا على وراثة النبوَّة؛ لئلَّا يلغو قوله: «واجعله رب رضيًّا» قد قدَّمنا ما يُعلم منه ما فيه.

وَزْعمُ أنَّ كسبيةَ الشيء تمنعُ من كونه موروثاً، ليسَ بشيءٍ، فقد تعلَّقت الوراثةُ

(١) منها ما أخرجه البخاري (٦٧٢٥) و(٦٧٢٦) و(٦٧٢٧) عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة».

(٢) أي: قول الشيعة، وسلف قريباً في الصفحة السابقة.

بما ليس بكسبيٍّ في كلام الصادق، ومن ذلك أيضاً ما رواه الكليني في «الكافي» عن أبي عبد الله رضي الله عنه قال: إن سليمانَ ورثَ داود، وإنَّ محمداً ﷺ ورث سليمان.

فإنَّ وراثة النبيِّ ﷺ سليمانَ عليه السلام لا يتصوَّر أنْ تكونَ وراثةَ غيرِ العلم والنبوَّة ونحوهما. ومما يؤيِّد حملَ الوراثة هنا على وراثة العلم ونحوه دون المال؛ أنَّه ليس في الأنظار العالية والهمم العلياء للنفوس القدسية التي انقطعت من تعلُّقات هذا العالم المتغير الفاني، واتصلت بالعالم الباقي ميلٌ للمتاع الدنيويِّ قدرَ جناح بعوضة، لا سيَّما جنابُ زكريا عليه السلام، فإنَّه كان مشهوراً بكمال الانقطاع والتجرُّد، فيستحيلُ عادةً أن يخاف من وراثة المال والمتاع الذي ليس له في نظره العالي أدنى قدرٍ، أو يُظهِر من أجله الكَلَفَ والحزنَ والخوفَ، ويستدعي من حضرة الحق سبحانه وتعالى ذلك النحو من الاستدعاء، وهو يدلُّ على كمال المحبة وتعلُّق القلب بالدنيا.

وقالت الشيعة: إنَّه عليه السلام خاف أن يَصرف بنو عمِّه مالَه بعد موته فيما لا ينبغي، فطلب له الوارث المرضيَّ لذلك.

وفيه أنَّ ذلك مما لا يخافُ منه؛ إذ الرجل إذا مات وانتقلَ مالُه بالوراثة إلى آخر صارَ المال مال ذلك الآخر، فصرفُه على ذمَّته؛ صواباً أو خطأً، ولا مؤاخذةَ على الميت من ذلك الصرف، بل لا عتاب أيضاً، مع أنَّ دفع هذا الخوف كان ميسَّراً له عليه السلام بأنْ يصرفه قبل موته، ويتصدَّق به كلِّه في سبيل الله تعالى، ويتركَ بني عمِّه الأشرار خائبين؛ لسوء أحوالهم وقبح أفعالهم، وللأنبياء عليهم السلام عند الشيعة خبرٌ بزمن موتهم وتخييرٌ فيه، فما كان له خوفُ موت الفجأة أيضاً؛ فليس قصدُه عليه السلام من مسألة الولد سوى إجراء أحكام الله تعالى، وترويج الشريعة، وبقاء النبوَّة في أولاده، فإنَّ ذلك موجبٌ لتضاعف الأجر إلى حيث شاء الله تعالى من الدهر، ومَنْ أنصفَ لم يتوقَّف في قبول ذلك، والله تعالى الهادي إلى أقوم المسالك.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ على إرادة القول، أي: قيل له، أو قال الله تعالى: يا زكريا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ لكن لا بأن يخاطبه سبحانه وتعالى بذلك بالذات، بل

بواسطة المَلَك كما يدلُّ عليه آيةٌ أخرى[١] على أن يحكي عليه السلام العبارةَ عنه عزَّ وجلَّ على نهج قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الزمر: ٥٣].

وهذا جوابٌ لندائه عليه السلام، ووعدٌ بإجابة دعائه، كما يفهمه التعبيرُ بالبشارة دون الإعطاء أو نحوه.

وما في الوعد من التراخي لا ينافي التعقيب في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ الآية [٩٠ من سورة الأنبياء]؛ لأنَّه تعقيبٌ عرفيٌّ، كما في: تزوَّج فولد له ولد[٢]، ولأن المراد بالاستجابة الوعدُ أيضاً؛ لأنَّ وعدَ الكريم نقدٌ.

والمشهور أنَّ هذا القولَ كان إثر الدعاء، ولم يكن بين البشارة والولادة إلا أشهر. وقيل: إنَّه رُزِق الولد بعد أربعين سنةً من دعائه. وقيل: بعد ستين.

والغلام: الولد الذكر، وقد يقال للأنثى: غلامة، كما قال:

تهان لها الغلامة والغلام[٣]

وفي تعيين اسمه عليه السلام تأكيدٌ للوعد، وتشريفٌ له عليه السلام، وفي تخصيصه به حسبما يعربُ عنه قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ أي: شريكاً له في الاسم، حيث لم يُسمَّ أحدٌ قبلَه بيحيى، على ما روي عن ابن عباس وقتادة والسُّدِّي وابن أسلم = مزيدُ تشريفٍ وتفخيم له عليه السلام، وهذا ـ كما قال الزمخشريُّ ـ شاهدٌ على أنَّ الأسماءَ النادرة التي لا يكاد الناس يستعملونها جديرةٌ بالأثرة، وإيَّاها كانت العرب تنحى في التسمية، لكونها أنبهَ وأنوهَ وأنزه عن النبز، حتى قال القائل في مدح قوم:

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ٣٩].

(٢) لفظة: ولد، ليست في (م).

(٣) هو عجز بيت صدره: ومُركضةٍ صريحيٌّ أبوها.

وهو لأوس بن غلفاء الهجيمي كما في جمهرة اللغة لابن دريد ٣/١٤٩، واللسان (ركض)، وأورده الجاحظ في كتاب الحيوان ١/٣٢٩، والنحاس في معاني القرآن ١/٢٢٣ دون نسبة.

شُنعٍ(١) الأسامي مُسْبِلي أُزُرٍ   حُمْرٍ تمسُّ الأرضَ بالهُدُبِ

وقيل للصلت بن عطاء: كيف تقدَّمت عند البرامكة، وعندهم من هو آدبُ منك؟ فقال: كنتُ غريب الدار، غريبَ الاسم، خفيف الجرم، شحيحاً بالأشلاء. فذكر مما قدَّمه كونه غريب الاسم.

وأخرج أحمد في «الزهد» وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد، أنَّ «سميًّا» بمعنى شبيهاً(٢). ورُوي عن عطاء وابن جبير مثله، أي: لم نجعل له شبيهاً، حيث إنَّه لم يَعْصِ ولم يهمَّ بمعصية؛ فقد أخرج أحمد والحكيم الترمذيّ في «نوادر الأصول» والحاكم وابنُ مردويه عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال: «ما من أحدٍ من ولد آدم إلَّا وقد أخطأ، أو همَّ بخطيئةٍ، إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام لم يهمَّ بخطيئة ولم يعملها»(٣).

والأخبار في ذلك متضافرة، وقيل: لم يكن له شبيه لذلك، ولأنه ولد بين شيخٍ فانٍ وعجوز عاقر.

وقيل: لأنه كان كما وصف الله تعالى ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩] فيكون هذا إجمالاً لذلك، وإنما قيل للشبيه سَميّ؛ لأنَّ المتشابهَين يتشاركان في الاسم. ومن هذا الإطلاق قولُه تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، لأنَّه الذي يقتضيه التفريع.

والأظهرُ أنَّه اسمٌ أعجميّ؛ لأنَّه لم تكن عادتهم التسمية بالألفاظ العربية، فيكون مَنعَهُ الصرفَ على القول المشهور في مثله العلميَّةُ والعجمة.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وديوان أبي نواس ص٧٧ ـ والبيت له ـ والبحر المحيط ٦/ ١٧٥: شُنع بالشين المعجمة. يقال: اسم شنيع، و: قوم شُنُع الأسامي، من القبح. كما في «أساس البلاغة» (شنع).
ووقع عند الزمخشري في «الكشاف» ٢/ ٥٠٣، والقرطبي في «تفسيره»١٣/ ٤١٨ نقلاً عنه: سُنُع، بالسين المهملة. وهو جمع سَنِع؛ والسَّنَعُ: الجَمال. كما في «القاموس» (سنع).

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٦٠.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٦٢، ومسند أحمد (٢٢٩٤)، ونوادر الأصول ص١٨٥، ومستدرك الحاكم ٢/ ٥٩١.

وقيل: إنَّه عربيٌّ، ولتلك العادة مدخلٌ في غرابته، وعلى هذا فهو منقولٌ من الفعل، ك: يعمر ويعيش، وقد سمَّوا ب: يموت، وهو يموت بن المزرّع بن أخت الجاحظ(١).

ووجهُ تسميته بذلك على القول بعربيته، قيل: الإشارة بأنَّه يعمَّر، وهذا في معنى التفاؤل بطول حياته، وكأنَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّه عليه السلام يرثُ حسبما سأل زكريا عليه السلام. وقيل: سُمِّي بذلك لأنه حيي به رحم أمِّه. وقيل: لأنَّه حيي بين شيخ فانٍ وعجوز عاقر. وقيل: لأنَّه يحيا بالحكمة والعفة. وقيل: لأنَّه يحيا بإرشاد الخلق وهدايتهم، وقيل: لأنه يستشهد والشهداء أحياء، وقيل غير ذلك.

ثم لا يخفى أنَّه على العربية والعجمة يختلف الوزن والتصغير كما بُيِّن في محلِّه.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على السؤال، كأنَّه قيل: فماذا قال عليه السلام حينئذٍ؟ فقيل: قال: ﴿رَبِّ﴾ ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى إليه بواسطة الملك؛ للمبالغة في التضرُّع والمناجاة والجدِّ في التبتُّل إليه عزَّ وجل. وقيل لذلك: والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملَك من توهُّم أنَّ علمه تعالى بما يصدرُ عنه متوقِّفٌ على توسُّطه، كما أنَّ علم البشر بما يصدرُ عنه تعالى متوقِّفٌ على ذلك في عامَّة الأوقات؛ ولا يخفى أنَّ الاقتصار على الأوَّل أولى.

﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ كلمةُ «أنَّى» بمعنى كيف، أو: من أين.

و«كان» إمَّا تامَّةٌ، و«أنى» واللام متعلقان بها، وتقديمُ الجارِّ على الفاعل؛ لما مرَّ غير مرَّة، أي: كيف، أو: من أين يحدثُ لي غلام؟ ويجوزُ أن يتعلَّق اللام بمحذوف وقع حالاً(٢) من «غلام» أي: أنَّى يحدثُ كائناً لي غلام.

أو ناقصةٌ، واسمُها ظاهر، وخبرها إمَّا «أنَّى»، و«لي» متعلِّق بمحذوف، كما مرَّ. أو هو الخبر و«أنَّى» نصب على الظرفية.

---

(١) العلامة الأخباري، أبو بكر العبدي البصري الأديب، له تآليف، مات سنة أربع وثلاث مئة. سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٤٧-٢٤٨.

(٢) قوله: حالاً. ليس في الأصل. وانظر تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٦. والكلام منه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ حالٌ من ضمير المتكلم، بتقدير «قد»، وكذا قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨﴾ حالٌ منه مؤكِّدةٌ للاستبعاد إثرَ تأكيد، و«من» للابتداء العِلِّيّ، والعِتِيّ من عتا يعتو: اليبسُ والقُحُول[1] في المفاصل والعظام.

وقال الراغب[2]: هو حالةٌ لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها، وقيل: إلى رياضتها، وهي الحالة المشارُ إليها بقول الشاعر:

ومـن الـعَـنـاءِ ريـاضـة الـهَـرَمِ[3]

وأصله: عُتُوْوٌ كقعود، فاستثقل توالي الضمتين والواوين، فكُسِرت التاء فانقلبت الأولى ياءً لسكونها وانكسارِ ما قبلها، ثمَّ انقلبت الثانيةُ أيضاً؛ لاجتماع الواو والياء، وسبقِ إحداهما بالسكون، وكسرتِ العين إتباعاً لما بعدَها، أي: كانت امرأتي عاقراً لم تلد في شبابها وشبابي، فكيف وهي الآن عجوز، وقد بلغتُ أنا من أجل كبر السنِّ يبساً وقحولاً، أو حالةً لا سبيل إلى إصلاحها. وقد تقدَّم لك الأقوال في مقدار عمره عليه السلام إذ ذاك.

وأمَّا عمرُ امرأته، فقد قيل: إنَّه كان ثمانٍ وتسعين.

وجُوِّز أنْ تكون «من» للتبعيض، أي: «بَلَغتُ» من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى «عتيًّا». وجعلها بعضُهم بيانيَّةً تجريديَّةً، وفيه بحث.

والجارُّ والمجرور إمَّا متعلِّق بما عنده، أو بمحذوف وقع حالاً من «عتيًّا»، وهو نصب على المفعولية، وأصل المعنى متَّحدٌ مع قوله تعالى في «آل عمران» حكايةً عنه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ [الآية: ٤٠] والتفاوت في المسند إليه لا يضرُّ، فإن ما بلغَكَ من المعاني فقد بلغتَه. نعم بين الكلامين اختلافٌ من حيثيَّةٍ أخرى لا تخفى،

---

(١) القحول: يبس الجلد على العظم. انظر القاموس (قحل).
(٢) المفردات (عتا).
(٣) هو عجز بيت، صدره:

وتَـروضُ عِـرسَـكَ بـعـدمـا هَـرِمَـتْ

ذكره الجاحظ في البيان والتبيين ١/ ١٢٠، وفي الحيوان ١/ ٤١ دون نسبة.

فيحتاجُ اختيار كلٍّ منهما في مقام إلى نكتة، فتدبَّر ذاك. وكذا وجهُ البداءة ها هنا بذكر حال امرأته عليه السلام، على عكس ما في تلك السورة.

وفي «إرشاد العقل السليم»(١): لعلَّ ذلك لما أنَّه قد ذكر حاله في تضاعيف دعائه، وإنَّما المذكور ها هنا بلوغُه أقصى مراتب الكبر تتمَّةً لما ذكر قبل، وأما هنالك فلم يَسبق في الدعاء ذكرُ حاله، فلذلك قدَّمه على ذكر حال امرأته؛ لما أنَّ المسارعةَ إلى بيان قصور شأنه أنسب. اهـ.

وقال بعضُهم: يحتملُ تكرُّر الدعاء والمحاورة، واختلاف الأسلوب للتفنُّن، مع تضمُّن كلٍّ ما لم يتضمَّنه الآخر، فتأمل والله تعالى الموفِّق.

والظاهر أنَّه عليه السلام كان يعرف من نفسه أنَّه لم يكن عاقراً، ولذلك ذكر الكبر، ولم يذكر العقر.

وإنَّما قال عليه السلام ما ذُكر مع سبق دعائه بذلك، وقوَّة يقينه بقدرة الله تعالى، لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة «آل عمران»؛ استعظاماً لقدرة الله تعالى، واعتداداً بنعمته تعالى عليه في ذلك، بإظهار أنَّه من محض فضل الله تعالى ولطفه مع كونه في نفسه من الأمور المستحيلة عادةً، ولم يكن ذلك استبعاداً، كذا قيل.

وقيل: هو استبعادٌ، لكنَّه ليس راجعاً إلى المتكلِّم، بل هو بالنسبة إلى المبطلين، وإنَّما طلب عليه السلام ما يزيل شوكةَ استبعادهم، ويجلبُ ارتداعهم من سيِّئ عادتهم، وذلك ممَّا لا بأس به من النبيِّ، خلافاً لابن المنير. نعم أورد على ذلك أن الدعاء كان خفيًّا عن المبطلين.

وأجيبَ بأنَّه يَحتمل أنَّه جهر به بعد ذلك إظهاراً لنعمة الله تعالى عليه وطلباً لما ذكر، فتذكر.

وقيل: هو استبعادٌ راجعٌ إلى المتكلم حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة، وكان قد نسي عليه السلام دعاءَه. وهو بعيدٌ جدًّا.

---

(١) ٥/ ٢٥٦.

وقال في «الانتصاف»[(١)]: الظاهرُ ـ والله تعالى أعلم ـ أنَّ زكريا عليه السلام طلب ولداً على الجملة، وليس في الآية ما يدلُّ أنَّه يوجدُ منه وهو هرم، ولا أنَّه من زوجته وهي عاقر، ولا أنَّه يعادُ عليهما قوَّتُهما وشبابهما، كما فعل بغيرهما، أو يكون الولد من غير زوجته العاقر، فاستبعدَ الولدَ منهما، وهما بحالهما، فاستخبر: أيكون وهما كذلك؟ فقيل له: «كذلك»، أي: يكون الولد وأنتما كذلك.

وتُعقِّب بأنَّ قوله: «فهب لي من لَدُنْكَ» ظاهرٌ في أنَّه طلب الولد وهما على حالةٍ يستحيلُ عادةً منهما الولد.

والظاهر عندي كونه استبعاداً من حيث العادة، أو هو بالنسبة إلى المبطلين، وهو ـ كما في «الكشف» ـ أولى.

وقرأ أكثر السبعة: «عُتيًّا» بضمِّ العين[(٢)]. وقرأ ابن مسعود بفتحها، وكذا بفتح صاد «صليًّا»[(٣)] [مريم: ٩٠]، وأصلُ ذلك ـ كما قال ابن جنِّيّ ردًّا على قول ابن مجاهد: لا أعرف لهما في العربية أصلاً ـ: ما جاء من المصادر على فعيل، نحو الحويل[(٤)] والزويل[(٥)].

وعن ابن مسعود أيضاً ومجاهد أنهما قرأا: «عُسِيًّا» بضمِّ العين وبالسين مكسورة[(٦)]، وحكى ذلك الدانيّ عن ابن عباس[(٧)]. والزمخشريُّ عن أُبيّ ومجاهد[(٨)]. وهو من عسا العودُ يعسو، إذا يبس.

---

(١) ٢/ ٥٠٣.
(٢) وقرأ بكسر العين: حمزة والكسائي وحفص. التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٧.
(٣) القراءات الشاذة ص٨٣، والمحتسب ٢/ ٣٩، والكلام الآتي منه.
(٤) هو الشاهد، وموضع، والكفيل. القاموس (حول).
(٥) يقال: زال يزول زوالاً وزويلاً وزؤولاً وزَولاً وزولاناً، من الذهاب والاستحالة. انظر القاموس المحيط، ولسان العرب (زول).
(٦) القراءات الشاذة ص٨٣.
(٧) البحر المحيط ٦/ ١٧٥.
(٨) الكشاف ٢/ ٥٠٣.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ قرأ الحسن: «وهو عليَّ هيِّن» بالواو، وعنه أنَّه كسر ياء المتكلم[١]، كما في قول النابغة:

عليَّ لعمرٍو نعمةٌ بعد نعمةٍ لوالدِه ليست بذات عقارب[٢]

ونحو ذلك قراءة حمزة: «وما أنتم بمصرخيِّ» [إبراهيم: ٢٢] بكسر الياء[٣].

والكاف إمَّا رفع على الخبريَّة لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك، وضمير «قال» للربِّ عزَّ وجلَّ، لا للملك المبشِّر؛ لئلَّا يُفَكَّ النظم، و«ذلك» إشارةٌ إلى قول زكريا عليه السلام، والخطاب في «قال ربك» له عليه السلام، لا لنبينا ﷺ، بدليل السابق واللاحق، وجملة «هو عليَّ هيِّن» مفعول «قال» الثاني، وجملةُ الأمر كذلك مع جملة «قال ربك» إلخ؛ مفعول «قال» الأول، وإنْ لم يتخلَّل بين الجملتين عاطفٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا﴾ الآية [٨٢-٨٣ من سورة المؤمنون]، وكم وكم، وجيء بالجملة الأولى تصديقاً منه تعالى لزكريا عليه السلام، وبالثانية جواباً لما عسى يُتوهَّم من أنَّه إذا كان ذلك في الاستبعاد بتلك المنزلة وقد صَدَّقْتَ فيه، فأنى يتسنى، فهي في نفسها استئنافيةٌ لذلك، ولا يحسنُ تخلُّل العاطف في مثل هاتين الجملتين إذا كان المحكيُّ عنه قد تَكلَّم بهما معاً من غير عاطف؛ ليدلَّ على الصورة الأولى للقول بعينها، وكذلك لا يحسنُ إضمارُ قولٍ آخر؛ لأنه يكون استئنافاً جواباً للمحكيِّ له، فلا يدلُّ على أنَّه استئنافٌ أيضاً في الأول إلَّا بمنفصل، أمَّا لو تكلَّم بهما في زمانين، أو بدون ذلك الترتيب، فالظاهر العطف أو الاستئناف بإضمار القول.

ثم لو كان الاقتصار في جواب زكريا عليه السلام على «هو عليَّ هيِّن» من دون إقحام «قال ربك»، لكان مستقيماً، لكن إنَّما عدل إليه للدلالة على تحقيق الوعد وإزالة الاستبعاد بالكليَّة، على منوال ما إذا وعد مَلِكٌ بعض خواصِّه ما لا يجدُ نفسَه تستأهل ذلك، فأخذ يتعجَّب مستبعداً أن يكون من المَلِك بتلك المنزلة، فحاول أنْ

(١) انظر القراءات الشاذة ص٨٣، والبحر المحيط ٦/ ١٧٥.

(٢) ديوان النابغة ص٩.

(٣) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨.

يحقق مرادَه ويزيلَ استبعادَه، فإمَّا أنْ يقول: لا تستبعد، إنَّه أهونُ شيء عليَّ، على الكلام الظاهر، وإمَّا أن يقول: لا تستبعد، قد قلت: إنه أهونُ شيءٍ عليَّ، إشارةً منه إلى أنَّه وعدٌ سبقَ القول به وتحتَّم، وأنَّه من جلالة القدر بحيث لا يرى في إنجازه لباغيه كائناً من كان وقعاً، فكيف لمن استحقَّ منه لصدق قدمه في عبوديته إجلالاً ورفعاً، وهذا قولٌ بلسان الإشارة يصدق، وإنْ لم يكن قد سبقَ منه نطقٌ به؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ علوَّ المكانة، وسَعة القدرة، وكمال الجود، يقضي بذلك قَبِلَ[1] أوَّلاً أوْ لا. ثم إذا أراد ترشيحَ هذا المعنى عدلَ عن الحكاية قائلاً: قد قال من أنت غرسُ نعمائه: إنَّه أهونُ شيءٍ عليّ، ثم إذا حكى الملكُ القصَّة مع بعض خلصائه كان له أن يقول: قلتُ: لعبدي فلان كيتَ وكيت، قال: أنَّى وليت! قلت: قال: من أنت إلخ، وأن يقول بدلَه: قال سيِّد فلانٍ له، ويسرد الحديث، فهذا وِزانُ الآية فيما جَرى لزكريا عليه السلام وحُكيَ لنبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام.

وقد لاح من هذا التقرير أنَّ فواتَ نكتة الإقحام مانعٌ من أن يجعل المرفوع من صلة «قال» الثاني، والمجموعُ صلةَ الأول. والظاهر في توجيه قراءة الحسن على هذا أنَّ جملة «هو عليَّ هيِّن» عطف على محذوفٍ من نحو: أفعل وأنا فاعل، ويجوز أن يقال ـ وربما أشعرَ كلام الزمخشريِّ[2] بإيثاره ـ إنَّه عطف على الجملة السابقة نظراً إلى الأصل؛ لما مرَّ من أن «قال» مقحمٌ لنكتة، فكأنه قيل: الأمرُ كذلك، وهو على ذلك يهون عليّ.

وإما نصب بـ «قال» الثاني[3]، وهي الكاف التي تستعمل مقحمةً في الأمر العجيب الغريب؛ لتثبيته، و«ذلك» إشارةٌ إلى مبهم يفسِّر ما بعدَه، أعني «هو عليَّ هين»، وضمير «قال» للربِّ ـ كما تقدَّم ـ والخطابُ لنبيِّنا ﷺ أيضاً، أي: قال ربُّ زكريا له: قال ربُّك: مثلُ ذلك القول العجيب الغريب هو عليَّ هينٌ، على أنَّ «قال» الثاني مع ما في صلته مقولُ القول الأوَّل، وإقحامُ القول الثاني لما سلف، ولا ينصب الكافُ بـ «قال» الأول، وإلَّا لكان «قال» ثانياً تأكيداً لفظيًّا؛ لئلَّا يقعَ

---

(١) في الأصل و(م): قيل. ولعلَّ المثبت هو الصواب.

(٢) في الكشاف ٢/ ٥٠٤.

(٣) هذا عطفٌ على قوله السالف: والكاف إمَّا رفع على الخبرية...

الفصل بين المفسِّر والمفسَّر بأجنبيٍّ، وهو ممتنع، إذ لا ينتظمُ أنْ يقال: قال ربُّ زكريا: قال ربُّكَ. ويكونُ الخطاب لزكريا عليه السلام والمخاطَبُ غيره، كيف وهذا النوع من الكلام يقعُ فيه التشبيه مقدَّماً لا سيما في التنزيل الجليل من نحو ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً﴾ [البقرة:١٤٣]، ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٤٠] إلى غير ذلك، وهذا الوجه لا يتمشَّى في قراءة الحسن؛ لأنَّ المفسَّر لا يدخله الواو، ولا يجوزُ حذفه حتى يجعل عطفاً عليه؛ لأنَّ الحذفَ والتفسير متنافيان.

وجوَّزَ على احتمال النصب أنْ تكون الإشارةُ إلى ما تقدَّم من وعد الله تعالى إيَّاه عليه السلام بقوله: «إنَّا نبشرك» إلخ، أي: قال ربُّه سبحانه له: قال ربُّك مثل ذلك، أي: مثل ذلك القول العجيب الذي وُعِدتَه وعرفته، وهو: «إنَّا نبشرك» إلخ، وأداةُ التشبيه مقحمةٌ كما مرَّ، فيكونُ المعنى: وَعد ذلك وحقَّقه وفرغ منه، فكن فارغَ البال من تحصيله على أوثق بال، ثم قال: «هو عليَّ هيِّن» أي: قال ربُّك: هو عليَّ هيِّن، فيضمر القول ليتطابقا في البلاغة، ولأنَّ قولَه مثل ذلك مفردٌ فلا يحسن أن تقرنَ الجملة به، وينسحبُ عليه ذلك القول بعينه، بل إنَّما يضمر مثله استئنافاً إيفاءً بحقِّ التناسب. وإن شئت لم تنوِه ليكونَ محكيًّا منتظماً في سلك: «قال ربك» منسحباً عليه القول الأول، أي: قال ربُّ زكريا له: هو عليَّ هين. لأنَّ الله تعالى هو المخاطِب لزكريا عليه السلام، فلا منعَ من جعله مقولَ القول الأول من غير إضمار؛ لأنَّ القولين ـ أعني: قال ربُّك: مثل ذلك هو عليَّ هيِّن ـ صادران معاً محكيَّان على حالهما.

ولو قُدِّرا أنَّ المخاطِبَ غيرُه تعالى ـ أعني الملك ـ تعيَّن إضمارُ القول؛ لامتناع أنْ يكون «هو علي هيِّن» من مقولِه، فلا ينسحبُ عليه الأول.

وأمَّا على قراءة الحسن، فإنْ جعل عطفاً على «قال ربك» لم يحتج إلى إضمار؛ لصحَّة الانسحاب، وإن أريدَ تأكيدُه أيضاً قُدِّرَ القول؛ لئلَّا تفوتَ البلاغة ويكون التناسبُ حاصلاً. وجعلُه عطفاً على ما بعد «قال» الثاني من دون التقدير يفوتُ به رعايةُ التناسب لفظاً، فإنَّ ما بعدَه مفردٌ، والملائمة معنًى لما عرفت أنْ لا قولَ على الحقيقة، والمعنى: قال ربُّه: قد حُقِّق الموعودُ، وفُرِغ عنه، فلا بدَّ من تقديره على: «هو عليَّ هين»؛ ليفيد تحقيقه أيضاً.

ولو قدر أنَّ المخاطِب غيره تعالى تعيَّن الإضمار؛ لعدم الانسحاب دونَه. فافهم.

وهذا ما حقَّقه صاحب «الكشف» وقرَّر به عبارةَ «الكشاف» بأدنى اختصار، ثمَّ ذكر أنَّ خلاصةَ ما وجده من قول الأفاضل أنَّ التقديرَ على احتمال أنْ تكون الإشارةُ إلى ما تقدَّم من الوعد: قال ربُّ زكريا له، قال ربُّك قولاً مثلَ قوله سبحانه السابق عِدَةً في الغرابة والعجب، فاتَّجه له عليه السلام أنْ يَسأل: ماذا قلت يا رب، وهو مثله؟ فيقول: «هو عليَّ هين» أي: قلت، أو قال ربك. والأصل على هذا التقدير: قلتُ قولاً مثلَ الوعد في الغرابة، فعدل إلى الالتفات أو التجريد ـ أيًّا شئتَ تسمِّيه ـ لفائدته المعلومة. وليس في الإتيان بأصل القول خروجٌ عن مقتضى الظاهر، إذ لا بدَّ منه لينتظم الكلام، وذلك لأنَّ المعنى على هذا التقدير: ولا تعجب من ذلك القول، وانظر إلى مثله واعجب، فقد قلناه. وكذلك يتَّجه لنبينا ﷺ السؤال، فيجاب بأنَّه قال له ربه: «هو عليَّ هين»، وصحَّةُ وقوعه جواباً عن سؤال نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو الأظهر على هذا الوجه؛ لأنَّ الكلام معه.

وإذ قد صحَّ أن يُجعلَ جواباً له جازَ إضمارُ القول، لأنَّه جوابٌ له ﷺ بما يدلُّ على أنه خوطِب به زكريا عليه السلام أيضاً، وجاز أنْ لا يضمر؛ لأنَّ المخاطِب لهما واحدٌ، والخطابُ مع نبينا ﷺ، وعُلِم من ضرورة المماثلة أنَّه قيل لزكريا أيضاً هذه المقالة، ولو كان الحاكي والقائل الأول مختلفين في هذه الصورة لم يكن بدٌّ من إضماره؛ لأنَّه إذا قال عمرو لبكر: ماذا قال زيدٌ لخالد مما يماثل مقالتَه السابقة له؟ فيقول: إنَّك محبَّبٌ مرضيٌّ، وجب أن يكون التقدير: قال زيد لخالد هذه المقالة لا محالة، ولا بعد في تنزيل كلام الزمخشريِّ عليه، وهذا ما لوَّح إليه صاحب «التقريب» وآثره الإمام الطيبيّ، وفيه فوات النكتة المذكورة في «قال ربك» ثمَّ إنَّه إن لم يكن سبق القول كان كذباً من حيث الظاهر، إذ ليس من القول بلسان الإشارة إلَّا أن يُؤَوَّلَ بأنَّه مستقبلٌ معنًى، هذا والكلام مسوقٌ لما يزيل الاستبعاد ويحقِّق الموعود المرتاد، وفي ذلك التقدير خروجٌ عنه إلى معنًى آخر ربما يستلزمُ هذا المعنى تبعاً، وما سيق له الكلام ينبغي أنْ يجعل الأصل. انتهى.

وهو كلام تحقيقٍ وتدقيق لا يرشدُ إليه إلَّا توفيق. وفي الآية وجهٌ آخر هو ما أشار إليه صاحب «الانتصاف».

و«هين» فَيعِل، من هان الشيء يهون إذا لم يصعب، والمراد: إنِّي كاملُ القدرةِ على ذلك إذا أردتُه كان.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾ تقريرٌ لما قبل، والشيء هنا بمعنى الموجود، أي: ولم تَكُ موجوداً، بل كنتَ معدوماً، والظاهر أنَّ هذا إشارةٌ إلى خلقه بطريق التولُّد[1] والانتقال في الأطوار، كما يُخلق سائر أفراد الإنسان.

وقال بعض المحققين: المراد به ابتداء خلق البشر، إذ هو الواقع إثر العدم المحض، لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد، فكأنَّه قيل: وقد خلقتُك من قبلُ في تضاعيف خلق آدم، ولم تكُ إذ ذاك شيئاً أصلاً، بل كنت عدماً بحتاً، وإنَّما لم يقل: وقد خلقت أباك أو آدم من قبل ولم يكُ شيئاً، مع كفايته في إزالة الاستبعاد بقياس حال ما بُشِّر به على حاله عليه السلام؛ لتأكيد الاحتجاج، وتوضيح منهاج القياس، من حيث نبَّه على أنَّ كلَّ فردٍ من أفراد البشر له حظٌّ من إنشائه عليه السلام من العدم؛ لأنَّه عليه السلام أُبدِع أنموذجاً منطوياً على سائر آحاد الجنس، فكان إبداعُه على ذلك الوجه إبداعاً لكلِّ أحدٍ من فروعه كذلك.

ولما كان خلقُه عليه السلام على هذا النمط الساري إلى جميع ذريَّته أبدعَ من أن يكون مقصوراً على نفسه ـ كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور إليه ـ وأدلَّ على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته، وكان عدم زكريا حينئذٍ أظهر عنده، وكان حاله أولى بأن يكون معياراً لحال ما بُشِّر به = نُسِب الخلقُ المذكور إليه، كما نُسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] توفيةً لمقام الامتنان حقَّه. انتهى.

ولا يخلو عن تكلُّف.

وجُوِّز أن يكون الشيءُ بمعنى المعتدِّ به، وهو مجازٌ شائع، ومنه قول المتنبي:

---

(١) في (م): التوالد.

وضاقت الأرضُ حتى كان هاربهم إذا رأى غيرَ شيء ظنَّه رجلا[١]

وقولهم: عجبت من لا شيء. وليس بشيء، إذ يأباه المقام، ويردُّه نظم الكلام.

وقرأ الأعمش وطلحة وابن وثاب وحمزة والكسائي: «خلقناك»[٢].

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامةً تدلُّني على تحقُّق المسؤول ووقوع الخبر، وكأن هذا السؤال ـ كما قال الزَّجَّاج ـ لتعريف وقت العلوق، حيث كانت البشارة مطلقةً عن تعيينه، وهو أمرٌ خفيٌّ لا يوقف عليه، لا سيما إذا كانت زوجته ممن انقطعَ حيضها لكبرها، وأراد أن يطلعه الله تعالى ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها، ولا يؤخره إلى أن تظهر ظهوراً معتاداً. وقيل: طلب ذلك ليزداد يقيناً وطمأنينةً، كما طلب إبراهيم عليه السلام كيفية إحياء الموتى لذلك، والأول أولى.

وبالجملة لم يطلبه لتوقُّفٍ منه في صدق الوعد، ولا لتوهُّم أنَّ ذلك من عند غير الله تعالى.

ورواية هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما لا تصحُّ؛ لعصمة الأنبياء عليهم السلام عن مثل ذلك.

وذُكِر أنَّ هذا السؤال ينبغي أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهةٌ من الزمان؛ لما روي أنَّ يحيى كان أكبر من عيسى عليهما السلام بستة أشهر، أو بثلاث سنين، ولا ريبَ في أنَّ دعاءه عليه السلام كان في صغر مريم؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران:٣٨] وهي إنَّما ولدت عيسى عليه السلام وهي بنت عشر سنين، أو بنتُ ثلاث عشرة سنة.

والجعل إبداعيٌّ، واللام متعلِّقة به، والتقديم على «آية» الذي هو المفعول؛ لما تقدَّم مراراً. أو بمحذوف وقع حالاً من «آية».

---

(١) ديوان المتنبي ٣/ ٢٨٧.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٧٥، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٧.

وقيل: بمعنى التصيير المستدعي لمفعولين؛ أوَّلهما: «آية»، وثانيهما: الظرف وتقديمه؛ لأنَّه لا مسوغ لكون «آية» مبتدأ عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف، فلا يتغيَّر حالُهما بعد ورود الناسخ.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أنْ لا تقدرَ على تكليمهم بكلامهم المعروف في محاوراتهم.

روي عن ابن زيد(١) أنَّه لما حملت زوجتُه عليه السلام أصبحَ لا يستطيعُ أن يكلِّم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراة، فإذا أراد مناداة أحدٍ لم يطقها.

﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ مع أيامهنَّ؛ للتصريح بالأيام في سورة «آل عمران»، والقصَّة واحدة. والعربُ تتجوَّزُ أو تكتفي بأحدهما عن الآخر كما ذكره السيرافيّ، والنكتة في الاكتفاء بالليالي هنا وبالأيَّام ثمَّة ـ على ما قيل ـ أنَّ هذه السورة مكيَّةٌ سابقةُ النزول، وتلك مدنيَّةٌ، والليالي عندهم سابقةٌ على الأيام؛ لأنَّ شهورَهم وسنيَّهم قمريَّة، إنَّما تُعرف بالأهلة، ولذلك اعتبروها في التاريخ كما ذكره النحاة، فأعطي السابق للسابق.

و «الليالي» جمع: ليل، على غير قياس، كأهل وأهال، أو جمع: ليلاة، ويجمع أيضاً على: ليايل.

﴿سَوِيًّا ۝١٠﴾ حالٌ من فاعل «تكلم» مفيدٌ لكون انتفاء التكلُّم بطريق الإعجاز وخرق العادة، لا لاعتقال اللسان بمرض، أي: يتعذَّر عليك تكليمهم، ولا تطيقُه حال كونك سويَّ الخَلق، سليمَ الجوارح ما بك شائبةُ بكمٍ ولا خرس، وهذا ما عليه الجمهور.

وعن ابن عباس أنَّ «سويًّا» عائدٌ على الليالي، أي: كاملات مستويات، فيكون صفةً لـ «ثلاث».

وقرأ ابن أبي عبلة وزيدُ بن علي رضي الله عنهما: «أن لا تكلمُ»(٢) بالرفع، على أنَّ «أن» المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أي: أنه لا تكلُّمُ.

---

(١) في الأصل و(م): أبي زيد. والتصويب من المصادر.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٧٦.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أي: من المصلَّى، كما روي عن ابن زيد، أو من الغرفة، كما قيل.

وأصل المحراب ـ كما قال الطبرسيُّ ـ مجلسُ الأشراف الذي يُحارَب دونه ذبًّا عن أهله[1].

ويسمَّى محلُّ العبادة محراباً؛ لما أن العابد كالمحارب للشيطان فيه. وإطلاق المحراب على المعروف اليوم في المساجد لذلك، وهو محدثٌ لم يكن على عهد رسول الله ﷺ. وقد ألَّف الجلال السيوطي في ذلك رسالةً صغيرةً سمَّاها: «إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب».

رُوي أن قومه كانوا من وراء المحراب ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلُّوا، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم متغيِّراً لونُه، فأنكروه وقالوا: مالك؟ (فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ) أي: أومأ إليهم وأشار، كما روي عن قتادة وابن منبه والكلبيِّ والقرطبيّ[2]، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد. ويشهدُ له قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

وروي عن ابن عباس: كتب لهم على الأرض: ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ وهو الروايةُ الأخرى عن مجاهد، لكن بلفظ: على التراب، بدل على الأرض.

وقال عكرمة: كتب على ورقة. وجاء إطلاقُ الوحي على الكتابة في كلام العرب، ومنه قول عنترة:

كوحي صحائفٍ من عهد كسرى ... فأهداها لأعجم طِمْطِمِي[3]

وقول ذي الرمة:

سوى الأربع الدُّهم اللواتي كأنَّها ... بقيَّة وحي في بطون الصحائف[4]

---

(١) مجمع البيان ١٦/ ١٧.

(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٤٢١.

(٣) ديوان عنترة ص٢٦٨ ـ طبعة المكتب الإسلامي.
قال شارحه: شبَّه ما بقي من آثار الدار بكتاب في صحائف... لأعجم طمطمي: وهو الذي لا يكاد يفصح.

(٤) ديوان ذي الرمة ٣/ ١٦٢٢. وفيه: ألَّلأربع، بدل: سوى الأربع.

و«أن» إمَّا مفسِّرة، أو مصدريَّة فتقدر قبلها الباء الجارَّة. والمراد بالتسبيح الصلاة مجازاً، بعلاقة الاشتمال، وهو المرويُّ عن ابن عباس وقتادة وجماعة. و«بكرةً وعشيًّا» ظرفا زمان له. والمراد بذلك ـ كما أخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية ـ: صلاة الفجر وصلاة العصر(١).

وقال بعض: التسبيحُ على ظاهره، وهو التنزيه، أي: نزِّهوا ربَّكم طرفي النهار، ولعله عليه السلام كان مأموراً بأنْ يسبِّح شكراً ويأمرَ قومه.

وقال صاحب «التحرير والتحبير»(٢): عندي في هذا معنًى لطيفٌ، وهو أنَّه إنَّما خَصَّ التسبيحَ بالذكر؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ أنَّ كلَّ من رأى أمراً عجب منه أو رأى فيه بديعَ صنعة أو غريب حكمة. يقول: سبحان الله تعالى، سبحان الخالق، جلَّ جلاله، فلمَّا رأى حصولَ الولد من شيخٍ وعاقر عجب من ذلك، فسبَّح وأمر بالتسبيح(٣). اهـ.

فأمرُهم بالتسبيح إشارةٌ إلى حصول أمر عجيب.

وقيل: إنَّه عليه السلام كان قد أخبر قومَه بما بُشِّر به قبل جعل العلَامة، فلما تعذَّر عليه الكلام أشار إليهم بحصول ما بُشِّر به من الأمر العجيب، فسرُّوا بذلك.

وقرأ طلحة: «أن سبحوه» بهاء الضمير عائدةً إلى الله تعالى، وروى ابن غزوان عن طلحة: «أن سبحنَّ» بنون مشددة(٤).

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ على تقدير القول وكلام آخر حُذف مسارعةً إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم، أي: فلمَّا ولد وبلغ سنًّا يؤمَرُ مثله فيه قلنا: «يا يحيى» ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٦٠. وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠٠ (١٣٠٥٩).

(٢) هو التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير للشيخ العلامة جمال الدين أبي عبد الله، محمد بن سليمان، المعروف بابن النقيب المقدسي الحنفي، المتوفى سنة ثمان وتسعين وست مئة. وهو كبير في نيف وخمسين مجلداً. كشف الظنون ١/ ٣٥٨ ويكثر أبو حيان رحمه الله في «البحر» النقل عن «التحرير والتحبير». انظر مقدمة البحر المحيط ١/ ١١ و«التفسير والمفسرون» ١/ ٣٢١.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٧٦.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٧٦.

أي: التوراة، وادَّعى ابن عطيَّة الإجماع على ذلك[(١)]؛ بناءً على أن «أل» للعهد ولا معهود إذ ذاك سواها، فإنَّ الإنجيل لم يكن موجوداً حينئذٍ، وليس كما قال، بل قيل: له عليه السلام كتابٌ خُصَّ به كما خُصَّ كثيرٌ من الأنبياء عليهم السلام بمثل ذلك. وقيل: المراد بالكتاب صحف إبراهيم عليه السلام. وقيل: المراد الجنس، أي: كتب الله تعالى.

﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ واستظهار وعملٍ بما فيه. وقائلُ ذلك هو الله تعالى على لسان الملَك، كما هو الغالب في القول للأنبياء عليهم السلام.

وأبعدَ التبريزيُّ فقدَّر: قال له أبوه حين ترعرع ونشأ: «يا يحيى» إلخ. ويزيدُه بعداً قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

أخرج أبو نعيم وابن مردويه والديلميُّ عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال في ذلك: «أعطي الفهمَ والعبادة وهو ابنُ سبع سنين»[(٢)].

وجاء في روايةٍ أخرى عنه مرفوعاً أيضاً: «قال الغلمان ليحيى بن زكريا عليهما السلام: اذهب بنا نلعب. فقال: أَلِلَّعب خُلِقْنا، اذهبوا نصلِّي[(٣)]، فهو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝﴾»[(٤)].

والظاهر أنَّ الحكم على هذا بمعنى الحكمة.

وقيل: هي بمعنى العقل، وقيل: معرفة آداب الخدمة، وقيل: الفراسة الصادقة. وقيل: النبوَّة، وعليه كثير. قالوا: أوتيَها وهو ابنُ سبع سنين، أو ابن ثلاث، أو ابن سنتين. ولم ينبَّأ أكثر الأنبياء عليهم السلام قبل الأربعين.

والجملة عطفٌ على قلنا المقدَّر. ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطفٌ على «الحكم»، وتنوينه للتفخيم، وهو في الأصل من: حَنَّ، إذا ارتاح واشتاق، ثمَّ استعمل في الرحمة والعطف، ومنه الحنان لله تعالى، خلافاً لمن منع إطلاقه عليه عزَّ وجلَّ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٧. وعبارته ثمة: و«الكتاب»: التوراة بلا اختلاف...

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٦٠، والفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٤٠٢.

(٣) في الأصل: فصلى.

(٤) أورده السيوطي في «الدر المنثور» ٤/ ٢٦١. وعزاه للحاكم في «تاريخه».

وإلى تفسيره بالرحمة هنا ذهب الحسن وقتادة والضحاك وعكرمة والفرَّاء وأبو عبيدة، وهو روايةٌ عن ابن عباس[(١)]، ويروى أنَّه أنشدَ في ذلك لابن الأزرق قول طرفة:

أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبق بعضنا حنانيكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعض[(٢)]

وأنشد سيبويه قولَ المنذر بن درهم الكلبيّ:

وأحدثُ عهدٍ من أمينة نظرةٌ على جانب العلياء إذ أنا واقفُ
تقول: حنانٌ ما أتى بك هاهنا أذو نسبٍ أم أنت بالحيِّ عارفُ[(٣)]

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً مؤكِّدةً لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، أي: وآتيناه رحمةً عظيمةً عليه كائنةً من جنابنا، وهذا أبلغُ من: ورحمناه. وروي هذا التفسير عن مجاهد.

وقيل: المراد: وآتيناه رحمةً في قلبه وشفقةً على أبويه وغيرهما، وفائدةُ الوصف على هذا الإشارةُ إلى أنَّ ذلك كان مرضيًّا لله عزَّ وجلَّ، فإنَّ من الرحمة والشفقة ما هو غير مقبولٍ، كالذي يؤدِّي إلى ترك شيءٍ من حقوق الله سبحانه، كالحدود مثلاً. أو الإشارةُ إلى أنَّ تلك الرحمة زائدةٌ على ما في جبلَّة غيره عليه السلام؛ لأنَّ ما يهبه العظيمُ عظيمٌ. وأورد على هذا أنَّ الإفراطَ مذمومٌ كالتفريط، وخيرُ الأمور أوسطها. ورُدَّ بأنَّ مقامَ المدح يقتضي ذلك، ورُبَّ إفراطٍ يحمدُ من شخصٍ ويذمُّ من آخر، فإنَّ السلطان يهبُ الألوفَ، ولو وهبها غيره كان إسرافاً مذموماً.

وعن ابن زيد أنَّ الحنان هنا المحبة، وهو روايةٌ عن عكرمة، أي: وآتيناه محبَّةً من لدنَّا، والمراد ـ على ما قيل ـ جعلناه محبَّباً عند الناس، فكلُّ من رآه أحبَّه، نظير

---

(١) البحر المحيط٦/ ١٧٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٣، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢.

(٢) إجابة ابن عباس لنافع الأزرق أوردها السيوطي في «الدر المنثور» ٤/ ٢٦١، وعزاها للطستي. وبيت طرفة في ديوانه ص١٧٢، طبعة مجمع اللغة العربية.

(٣) ذكر سيبويه في «الكتاب» ١/ ٣٢٠ البيت الثاني دون نسبة. ولفظه عنده: فقالت حنان...
وهما منسوبين في شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي ١/ ٢٣٥، وخزانة الأدب ٢/ ١١٢-١١٤.
ووقع في الكتاب، والخزانة: أمية، بدل: أمينة.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] وجوَّز بعضُهم أن يكون المعنى نحو ما تقدم على القول السابق.

وقيل: هو منصوبٌ على المصدريَّة، فيكون من باب: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ﴾ [فصلت: ١٢].

وجوَّزَ أن يجعل مفعولاً لأجله، وأن يُجعل عطفاً على «صبيًّا»، وذلك ظاهرٌ على تقدير أن يكون المعنى: رحمةً لأبويه وغيرهما، وعلى تقدير أن يكون: وحناناً من الله تعالى عليه، لا يجيءُ الحال، وباقي الأوجه بحاله. ولا يخفى على المتأمِّل الحالُ، على ما روي عن ابن زيد.

﴿وَزَكَوٰةًۖ﴾ أي: بركةً، كما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس(١). وهو عطفٌ على المفعول، ومعنى إيتائه البركة ـ على ما قيل ـ جعلُه مباركاً نفَّاعاً معلِّماً للخير.

وقيل: الزكاة: الصدقة، والمراد ما يتصدَّقُ به. والعطف على حاله، أي: آتيناه ما يَتصدَّق به على الناس. وهو كما ترى.

وقيل: هي بمعنى الصدقة، والعطف على الحال، والمراد: آتيناه الحكم حال كونه متصدِّقاً به على أبويه، وروي هذا عن الكلبيِّ وابن السائب. وجُوِّزَ عليه العطف على «حناناً» بتقدير العلِّيَّة. وقيل: العطفُ على المفعول. ومعنى إيتائه الصدقة عليهما كونُه عليه السلام صدقةً عليهما.

وعن الزجَّاج: هي الطهارة من الذنوب(٢).

ولا يضرُّ في مقام المدح الإتيانُ بألفاظٍ ربَّما يُستغنى ببعضها عن بعض.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾ مطيعاً متجنِّباً عن المعاصي. وقد جاء في غير ما حديثٍ أنَّه عليه السلام ما عمل معصيةً ولا همَّ بها.

وأخرج مالك وأحمد في «الزهد» وابنُ المبارك وأبو نعيم عن مجاهد قال: كان طعامُ يحيى بن زكريا عليهما السلام العشب، وإنَّه كان ليبكي من خشية الله تعالى،

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٦١، وانظر تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠١ (١٣٠٦٤).
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٢.

حتى لو كان القار على عينه لخرقه[١]، وقد كانت الدموع اتخذت مجرى في وجهه[٢].

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ كثير البرِّ بهما والإحسان إليهما؛ والظاهر أنَّه عطف على خبر «كان». وقيل: هو من باب:

علفتُها تبنًا وماءً باردا[٣]

والمراد: وجعلناه برًّا. وهو يناسبُ نظيره حكايةً عن عيسى عليه السلام.

وقرأ الحسن وأبو جعفر في رواية وابن نهيك وأبو مجلز: «وَبِرًّا» في الموضعين بكسر الباء، أي: وذا برٍّ[٤].

﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبِّراً متعالياً عن قبول الحق والإذعان له، أو متطاولاً على الخَلْق. وقيل: الجبَّار هو الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقًّا.

وعن ابن عباس أنَّه الذي يقتلُ ويضرب على الغضب.

وقال الراغب: هو في صفة الإنسان يقال لمن يَجبرُ نقيصَته بادِّعاء منزلة من التعالي لا يستحقُّها[٥].

﴿عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ مخالفاً أمرَ مولاه عزَّ وجلَّ. وقيل: عاقًّا لأبويه، وهو فعول، وقيل: فعيل. والمراد المبالغةُ في النفي، لا نفي المبالغة.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ قال الطبريُّ: أمانٌ من الله تعالى عليه[٦] ﴿يَوۡمَ وُلِدَ﴾ من أن يناله الشيطانُ بما ينال به بني آدم ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾ من وحشة فراق الدنيا، وهول المطلع،

---

(١) في مطبوع «حلية الأولياء»، وتاريخ دمشق ٦٤/ ١٩٨-٢٠١: لحرقه. وفي الدر المنثور ٤/ ٢٦٣: لأحرقه.

(٢) الزهد لابن المبارك (١٧٧- زوائد نعيم)، والزهد لأحمد ص١١٤، وحلية الأولياء ٣/ ٢٩٠ من طريق مالك عن حميد الأعرج عن مجاهد.
ولم يعزه السيوطي في الدر المنثور لمالك، ولم نقف عليه في الموطأ.

(٣) سلف ٥/ ٢٩١.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٧٧.

(٥) المفردات (جبر).

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٤٨١.

وعذاب القبر. وفيه دليلٌ على أنَّه يقال للمقتول: ميت؛ بناءً على أنَّه عليه السلام قُتل لبغيٍّ من بغايا بني إسرائيل.

﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ من هول القيامة وعذاب النار. وجيء بالحال للتأكيد. وقيل: للإشارة إلى أنَّ البعث جسمانيٌّ لا روحانيّ، وقيل: للتنبيه على أنه عليه السلام من الشهداء.

وقال ابنُ عطية(١): الأظهرُ أنَّ المراد بالسلام التحية المتعارفة، والتشريفُ بها لكونها من الله تعالى في المواطن التي فيها العبد في غاية الضعف والحاجة، وقلة الحيلة، والفقر إلى الله عزَّ وجلَّ.

وجاء في خبر رواه أحمد في «الزهد» وغيره عن الحسن: أنَّ عيسى ويحيى عليهما السلام التقيا ـ وهما أبناء الخالة ـ فقال يحيى لعيسى: ادعُ الله تعالى لي فأنت خيرٌ مني، فقال له عيسى: بل أنت ادعُ لي فأنت خيرٌ مني، سلَّم الله تعالى عليك، وإنَّما سلَّمتُ على نفسي(٢).

وهذه الجملة ـ كما قال الطيبيّ ـ عطفٌ من حيث المعنى على «آتيناه الحكم» كأنه قيل: وآتيناه الحكم صبيًّا وكذا وكذا، وسلَّمناه أو سلمنا عليه في تلك المواطن. فعدل إلى الجملة الاسميَّة؛ لإرادة الدوام والثبوت، وهي كالخاتمة للكلام السابق.

ومن ثم شرع في قصَّة أخرى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلخ فهو كلامٌ مستأنفٌ خوطب به النبيُّ ﷺ، وأُمر عليه الصلاة والسلام بذكر قصة مريم إثر قصة زكريا عليه السلام؛ لما بينهما من كمال الاشتباك والمناسبة.

والمراد بالكتاب عند بعض المحققين(٣) السورة الكريمة، لا القرآن كما عليه الكثير؛ إذ هي التي صُدِّرت بقصَّة زكريا عليه السلام المستتبعة لقصتها وقصصِ الأنبياء عليهم السلام المذكورين فيها، أي: واذكر للناس فيها ﴿مَرْيَمَ﴾ أي: نبأها، فإنَّ الذكر لا يتعلَّق بالأعيان.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/٨.

(٢) الدر المنثور ٩/٢٦٢، وأخرجه أحمد في الزهد ص٩٦.

(٣) هو أبو السعود، كما في تفسيره ٥/٢٥٩.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ ظرفٌ لذلك المضاف، لكن لا على أن يكون المأمورُ به ذكرَ نبئها عند انتباذها فقط، بل كلُّ ما عطف عليه وحكيَ بعده بطريق الاستئناف داخلٌ في حيِّز الظرف، متمِّمٌ للبناء.

وجعله أبو حيَّان ظرفاً لفعل محذوف، أي: واذكر مريم وما جرى لها إذ انتبذَت[(١)]. وما ذكرناه أولى.

وقيل: هو ظرفٌ لمحذوف وقع حالاً من ذلك المضاف. وقيل: بدل اشتمال من «مريم»؛ لأنَّ الأحيان مشتملةٌ على ما فيها، وفيه تفخيمٌ لقصتها العجيبة[(٢)].

وتعقَّبه أبو البقاء بأنَّ الزمانَ إذا لم يقع حالاً من الجثة ولا خبراً عنها ولا صفة لها لم يكن بدلاً منها[(٣)].

وردَّ بأنه لا يلزم من عدم صحة ما ذُكر عدمُ صحة البدلية، ألا ترى: سُلِبَ زيدٌ ثوبُه، كيف صحَّ فيه البدلية، مع عدم صحة ما ذكر في البدل، وكون ذلك حال الزمان فقط غيرُ بيِّن ولا مبيَّن.

وقيل: بدل كلٍّ من كلّ، على أنَّ المراد بـ «مريم» قصَّتها، وبالظرف الواقع فيه. وفيه بعد.

وقيل: «إذ» بمعنى «أن» المصدريَّة، كما في قوله: لا أكرمتكَ إذ لم تكرمني، أي: لأنْ لم تكرمني، أي: لعدم إكرامك لي. وهذا قولٌ ضعيفٌ للنحاة.

والظاهر أنها ظرفيَّة أو تعليلية إن قلنا به، ويتعيَّن على ذلك بدلُ الاشتمال.

والانتباذ: الاعتزال والانفراد، وقال الراغب: يقال: انتبذَ فلانٌ: اعتزلَ اعتزالَ من تقلُّ[(٤)] مبالاتُه بنفسه فيما بين الناس. والنبذُ: إلقاءُ الشيء وطرحه لقلَّة الاعتداد به.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٧.

(٢) هو قول الزمخشري. انظر الكشاف ٢/ ٥٠٤-٥٠٥.

(٣) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١١١ (مصورة دار الكتب العلمية).

(٤) في مطبوع المفردات (نبذ): من لا يقل.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ متعلِّقٌ بـ «انتبذت»، وقوله سبحانه: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ قيل: نصب على الظرف، وقيل: مفعولٌ به لـ «انتبذت» باعتبار ما في ضمنه من معنى الإتيان المترتِّب وجوداً واعتباراً على أصل معناه العامل في الجارِّ والمجرور، وهو السرُّ في تأخيره عنه. واختاره بعضُ المحقِّقين[1].

أي: اعتزلت وانفردَت من أهلها، وأتت مكاناً شرقيًّا من بيت المقدس، أو من دارها؛ لتتخلَّى هناك للعبادة.

وقيل: قعدت في مشرقة؛ لتغتسلَ من الحيض، محتجبةً بحائطٍ، أو بجبلٍ على ما رُوي عن ابن عباس. أو بثوب على ما قيل، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ وكونه شرقيًّا كان أمراً اتفاقيًّا.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنَّ أهل الكتاب كُتب عليهم الصلاة إلى البيت، والحجُّ إليه، وما صرفهم عنه إلا قِيْلُ ربِّك: «فانتبذتْ من أهلها مكاناً شرقيًّا» فلذلك صلَّوا قِبَل مطلع الشمس.

وفي روايةٍ: إنَّما اتخذت النصارى المشرقَ قبلةً؛ لأنَّ مريم انتبذت من أهلها مكاناً شرقيًّا[2]. وقد قدَّمنا عن بعضٍ أنَّهم كانوا في زمن عيسى عليه السلام يستقبلون بيتَ المقدس، وأنهم ما استقبلوا الشرقَ إلَّا بعد رفعه عليه السلام؛ زاعمين أنَّه ظهر لبعض كبارهم، فأمرَه بذلك.

وجُوِّزَ أن يكون اختاره الله تعالى لها؛ لأنَّه مطلع الأنوار، وقد علم سبحانه أنَّه حان ظهور النور العيسويّ منها، فناسب أنْ يكون ظهورُ النور المعنوي في جهة ظهور النور الحسيّ. وهو كما ترى.

وروي أنَّه كان موضعها في المسجد، فإذا حاضت تحوَّلت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في مغتسلها أتاها المَلَكُ عليه السلام في صورة شابٍّ أمرد، وضيءِ الوجه، جعد الشعر، وذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥٩. وعنه نقل المصنف.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٦٤-٢٦٥، والأثر في تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠٢ (١٣٠٧٣)، (١٣٠٧٢).

﴿إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ أي: جبرائيل عليه السلام، كما قاله الأكثر. وعبَّر عنه بذلك؛ لأنَّ الدين يحيا به وبوحيه. فهو مجاز. والإضافةُ للتشريف، كبيت الله تعالى.

وجُوِّز أن يكون ذلك كما تقول لحبيبك: أنت روحي؛ محبةً له وتقريباً. فهو مجازٌ أيضاً، إلَّا أنَّه مخالفٌ للأول في الوجه، والتشريف عليه في جعله روحاً.

وقال أبو مسلم: المراد من الروح عيسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١] وضمير «تمثَّل» الآتي للمَلَك. وليس بشيء.

وقرأ أبو حيوة وسهل: «رَوحنا» بفتح الراء[1]. والمراد به جبريلُ عليه السلام أيضاً؛ لأنه سببٌ لما فيه روح العباد، وإصابة الروح عند الله تعالى الذي هو عِدة المقرَّبين في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٌ وَرَيۡحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩]، أو لأنه عليه السلام من المقرَّبين وهم الموعودون بالروح، أي: مقرَّبنا أو ذا روحنا.

وذكر النقاش أنه قُرئ: «روحنَّا» بتشديد النون، اسم مَلَك من الملائكة عليهم السلام[2].

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ مشتق من المثال، وأصلُه: أن يتكلَّف أنْ يكون مثالَ الشيءِ، والمراد: فتصوَّر لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ سويَّ الخلق كامل البنية لم يفقد من حِسان نعوت الآدميَّة شيئاً.

وقيل: تمثَّل في صورة تِرْبٍ[3] لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس، وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقَّى منه ما يُلقي إليها من كلماته، إذ لو بدا لها على الصورة الملكيَّة لنفرت منه ولم تستطع مفاوضتَه، وما قيل من أنَّ ذلك لتهييجِ شهوتها فتنحدرَ نطفتُها إلى رحمها، فمع ما فيه من الهجنة التي ينبغي أن تنزَّه مريمُ عنها يكذبه قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ فإنّه شاهد عدل بأنّه لم يخطر ببالها شائبةُ ميلٍ ما إليه، فضلاً عن الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٨٠، وذكرها في الكشاف ٢/ ٥٠٥ ونسبها لأبي حيوة فقط.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٨٠.

(٣) في الأصل و(م): قريب. والمثبت من الكشاف ٢/ ٥٠٥، وتفسير الرازي ٢١/ ١٩٦، والبحر المحيط ٦/ ١٨٠، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٠. والتِّرْب: اللِّدَة والسِّنُّ، ومن وُلدَ معك، وهي تربي. القاموس (ترب).

نعم كان تمثُّله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق؛ لأنَّ عادة الملَك إذا تمثَّل أن يتمثَّل بصورة بشرٍ جميل، كما كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية رضي الله عنه(١).

أو لابتلائها وسبر عفَّتها، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غايةَ وراءه. وإرادةُ القائل أنَّه وقع كذلك ليكون مظنَّةً لما ذُكر فيظهر خلافُه فيكون أقوى في نزاهتها = بعيدٌ جدًّا عن كلامه.

وقال بعضُ المتأخرين: إنَّ استعاذتها بالله تعالى تنبئُ عن تهييج شهوتها وميلانها إليه ميلاً طبيعيًّا، على ما قال تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ [يوسف:٣٣]، فقد قيل: المرادُ بالصبوة فيه: الميلُ بمقتضى الطبيعة وحكم القوة الشهوية، ثمَّ إنَّه لا ينافي عفَّتها بل يحقِّقها؛ لكونه طبيعيًّا اضطراريًّا غير داخلٍ تحت التكليف، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:٢٤]، ومع هذا قد استعاذ يوسفُ عليه السلام بما حَكى الله تعالى عنه من قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف:٢٣] فدعوى أنَّ الاستعاذةَ تكذب التهييجَ والميلَ الطبيعيَّ كذبٌ، والقول بأنَّه يأبى ذلك مقامُ بيان آثار القدرة الخارقة للعادة ليس بشيء؛ لأنَّ خلق الإنسان من ماءٍ واحد أثرٌ من آثار القدرة الخارقة للعادة أيضاً. والأسبابُ في هذا المقام ليست بمرفوضةٍ بالكليَّة كما يرشد إلى ذلك قصةُ يحيى عليه السلام، على أنه قد يُدَّعَى أنَّ خلق شيءٍ لا من شيءٍ أصلاً محالٌ، فلا يكون من مراتب القدرة ومادة الجعل الإبداعيِّ الأعيانُ الثابتة، وهي قديمةٌ. اهـ.

ولا يخلو عن بحث، وما ذكرناه في التعليل أسلمُ من القال والقيل، فتدبَّر.

ونصب «بشراً» على الحالية المقدَّرة أو التمييز، وقيل: على المفعولية بتضمين «تَمثَّلَ» معنى اتخذ.

---

(١) رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام على صورة دحية أخرجها مسلم (١٦٧) من حديث جابر رضي الله عنه. وفيه: «ورأيت جبريل عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية»، وأخرج البخاري (٤٩٨٠) ومسلم (٢٤٥١) خبر رؤية أم سلمة لجبريل عن رسول الله فحسبته دحية. وانظر ما ذكره ابن حجر في «الإصابة» ٣/ ١٩١ عند ترجمة دحية من الأخبار الدالة على ذلك.

واستُشكِل أمرُ هذا التمثُّل بأنَّ جبريلَ عليه السلام شخصٌ عظيم الجثَّة حسبما نطقت به الأخبار[١]، فمتى صار في مقدار جثَّة الإنسان يلزمُ أنْ لا يبقى جبريل إن تساقطت الأجزاءُ الزائدةُ على جثَّة الإنسان، وأن تتداخلَ الأجزاء، إنْ لم يذهب شيءٌ. وهو محال. وأيضاً لو جاز التمثُّل ارتفعَ الوثوق، وامتنع القطعُ بأن هذا الشخصَ الذي يُرى الآن هو زيد الذي رُئي أمس؛ لاحتمال التمثُّل.

وأيضاً لو جاز التمثُّل بصورة الإنسان، فلم لا يجوزُ تمثُّله بصورة أخرى غيرِ صورة الإنسان، ومن ذلك البعوضُ ونحوه، ومعلومٌ أنَّ كلَّ مذهبٍ يَجرُّ إلى ذلك فهو باطل.

وأيضاً لو جاز ذلك ارتفعَ الوثوقُ بالخبر المتواتر، كخبر مقاتلة النبيِّ عليه الصلاة والسلام يومَ بدر؛ لجواز أنْ يكون المقاتلُ المتمثلَ به.

وأجيب عن الأول بأنَّه لا يمتنعُ أنْ يكون لجبريل عليه السلام أجزاءٌ أصليَّةٌ قليلةٌ، وأجزاءٌ فاضلةٌ، فبالأجزاءِ الأصلية يكونُ متمكِّناً من التمثُّل بشراً، هذا عند القائلين بأنَّه جسم. وأمَّا عند القائلين بأنَّه روحانيٌّ فلا استبعادَ في أن يتدرَّع تارةً بالهيكل العظيم، وأخرى بالهيكل الصغير.

وعن الثاني: بأنَّه مشتركُ الإلزام بين الكل، فإنَّ من اعترف بالصانع القادر يلزمه ذلك أيضاً؛ إذ يجوز أن يخلقَ سبحانه مثلَ زيدٍ مثلاً، ومع هذا الجواز يرتفعُ الوثوق، ويمتنع القطع على طرز ما تقدَّم. وكذا من لم يعترف، وأسندَ الحوادث إلى الاتصالات والتشكُّلات الفلكيَّة يلزمُه ذلك؛ لجواز حدوث اتِّصالٍ يقتضي حدوثَ مثل ذلك، وحينئذٍ يمتنعُ القطع أيضاً.

ولعله لمَّا كان مثلُ ذلك نادراً، لم يلزم منه قدحٌ في العلوم العادية المستندة إلى الإحساس، فلا يلزم الشكُّ في أنَّ زيداً الذي نشاهده الآن هو الذي شاهدناه بالأمس.

---

(١) منها ما أخرجه البخاري (٣٢٣٢) ومسلم (١٧٤): (٢٨٠) من حديث أبي إسحاق الشيباني قال: سألت زِرَّ بن حبيش عن قول الله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٨] قال: حدثنا ابن مسعود أنه - يعني النبي ﷺ - رأى جبريل له ستُّ مئة جناح.

وأجيب عن الثالث بأن أصل التجويز قائمٌ في العقل، وإنَّما عُرِف فسادُه بدلائل السمع. وهو الجواب عن الرابع. كذا قال الإمام الرازيُّ(١).

وعندي أن مسألة التمثُّل على القول بالجسميَّة ممَّا ينبغي تفويضُ الأمر فيها إلى علَّام الغيوب، ولا سبيل للعقل إلى الجزم فيها بشيءٍ تنشرحُ له القلوب.

وإنَّما ذَكَرَتْهُ تعالى بعنوان الرحمانيَّة؛ تذكيراً لمن رأته بالرحمة، ليرحمَ ضعفَها وعجزها عن دفعه، أو مبالغةً للعياذة به تعالى، واستجلاباً لآثار الرحمة الخاصَّة التي هي العصمةُ ممَّا دهمها.

وما قيل من أنَّ ذلك تذكير(٢) لمن رأت بالجزاء لينزجر، فإنَّه يقال: يا رحمن الآخرة = ليس بشيءٍ؛ لأنَّه ورد: «رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما»(٣).

﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨﴾ شرطٌ جوابه محذوف ثقةً بدلالة السباق(٤) عليه، أي: إن كان يُرجى منك أن تتقي الله تعالى وتخشاه وتحتفل بالاستعاذة به، فإني عائذٌ(٥) به منك، كذا قدَّره الزمخشريُّ.

وفي «الكشف» أنَّه أشار إلى أنَّ وجهَ هذا الشرط مع أنَّ الاستعاذة بالرحمن إن لم يكن تقيًّا أولى = أنَّ أثر الاستجارة بالله تعالى ـ أعني: مكافَتَهُ وأمنَها منه ـ إنَّما يتمُّ ويظهرُ بالنسبة إلى المتَّقي، وفيه دلالةٌ على أنَّ التقوى ممّا تقتضي للمستعيذ بالله تعالى حقَّ الذمام والمحافظة، وعلى عظم مكان التقوى، حيثُ جُعِلت شرطاً للاستعاذة لا تتمُّ دونها، وقال: إن كان يرجى؛ إظهاراً لمعنى «إن» وأنَّها إنما أوثرت دلالةً على أنَّ رجاء التقوى كان فضلاً عن العلم بها.

والحاصلُ أنَّ التقوى لم تُجعل شرط الاستعاذة، بل شرط مكافَّته وأمنِها منه، وكَنَّت عن ذلك بالاستعاذة بالله تعالى؛ حثًّا له على المكافَّة بألطف وجهٍ وأبلغه، وإنَّ من تعرَّض للمستعيذِ به، فقد تعرَّض لعظيمِ سخطه. انتهى.

---

(١) في تفسيره ٢١/ ١٩٧.

(٢) في الأصل: تذكيراً.

(٣) سلف تخريجه ١/ ٢٣٣.

(٤) كذا في الأصل وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٠. ووقع في (م): السياق.

(٥) في (م) والكشاف ٢/ ٥٠٥: عائذة.

وقدَّر الزجَّاج[1]: إن كنت تقيًّا فتتعظَ بتعويذي. والأولى عليه: تتعظُ، بإسقاط الفاء؛ لأنَّ المضارعَ الواقعَ جواباً لا يقترن بالفاء، فيحتاجُ إلى جعله مرفوعاً بتقدير مبتدأ.

وقدَّر بعضهم: فاذهب عني، وبعضُهم: فلا تتعرض بي. وقيل: إنَّها أرادت: إنْ كنت تقيًّا متورِّعاً فإنِّي أعوذُ منك، فكيف إذا لم تكن كذلك. وكأنَّه أراد أنها استعاذت بهذا الشرط ليُعلَم استعاذتُها بما يقابله من باب أولى.

وقال الشهاب: الظاهر أن «إن» على هذا القول وصليَّة، وفي مجيئها بدون الواو كلام. وذكر أنَّ الجملة على هذا حاليَّة، والمقصود بها الالتجاءُ إلى الله تعالى من شرِّه، لاحثُّه على الانزجار[2].

وقيل: نافية، والجملة استئنافٌ في موضع التعليل، أي: ما كنتَ تقيًّا متورِّعاً بحضورك عندي وانفرادك بي، وهو خلافُ الظاهر. وأيًّا ما كان فالتُّقى وصفٌ من التقوى، وقول من قال: إنَّه اسم رجل صالح أو طالح، ليس بسديد.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ المالك لأمرك، والناظرِ في مصلحتك، الذي استعذتِ به، ولستُ ممن يتَوقَّع منه ما توهَّمت من الشر.

روي عن ابن عباس أنَّها لما قالت: «إني أعوذ» إلخ، تبسَّم جبريلُ عليه السلام وقال: «إنَّما أنا رسول ربك» ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا﴾ أي: لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدِّرْع. ويجوزُ أن يكون حكايةً لقوله تعالى بتقدير القول، أي: ربك الذي قال: أرسلتُ هذا الملك لأهبَ لك، ويؤيِّده قراءةُ شيبة وأبي الحسن وأبي بحرية والزهريّ وابن مناذر ويعقوب واليزيديّ وأبي عمرو ونافع في رواية: «ليهب» بالياء[3]، فإنَّ فاعله ضميرُ الربِّ تعالى. وما قيل من أنَّ أصل «ليهب» لأهب، فقلبت الهمزةُ ياءً لانكسار ما قبلها = تعسُّفٌ من غير داعٍ له.

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٣٢٣.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ١٥٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٨٠. وقراءة أبي عمرو وورش عن نافع، والحلواني عن قالون عن نافع، ويعقوب في النشر ٢/ ٣١٧. وانظر التيسير ص١٤٨.

وفي بعض المصاحف: أمرني أن أهب لك غلاماً[1] ﴿زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ طاهراً من الذنوب. وقيل: نبيًّا. وقيل: نامياً على الخير، أي: مترقِّياً من سنٍّ إلى سن على الخير والصلاح، فالزكاء شاملٌ للزيادة المعنوية والحسية.

واستدلَّ بعضُهم برسالة المَلَك إليها على نبوَّتها.

وأجيب: بأنَّ الرسالةَ لمثل ذلك لا تستدعي النبوَّة.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي: والحال أنَّه لم يباشرني بالحلال رجلٌ، وإنما قيل: «بشر» مبالغةً في تنزُّهها من مبادئ الولادة.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي: ولم أكن زانيةً، والجملة عطفٌ على «لم يمسسني»، داخلٌ معه في حكم الحاليَّة، مفصحٌ عن كون المساس عبارةً عن المباشرة بالحلال، وهو كنايةٌ عن ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٧]، «أو لمستم[2] النساء» [النساء:٤٣] ونحوه، كما قيل: دخلتم بهنَّ، وبنى عليها.

وأمَّا الزنى فليس بقمِن أنْ يكنى عنه، لأنَّ مقامه؛ إما تطهيرُ اللسان، فلا كناية ولا تصريح، وإمَّا التقريعُ، فحينئذٍ يستحقُّ الزيادة على التصريح. والألفاظ التي يُظَنُّ أنَّها كناية فيه قد شاعت حتى صارت حقيقةً صريحةً فيه، ومنها ما في النظم الكريم. ولا يردُ على ذلك ما في سورة «آل عمران» من قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [الآية:٤٧] مقتصرةً عليه، فإنَّ غاية ما قيل فيه: إنَّه كنايةٌ عن النكاح والزنى على سبيل التغليب، ولم يجعل كنايةً عن الزنى وحدَه.

ولقائلٍ أن يقول: إنَّه ثمَّ كنايةٌ عن النكاح فقط كما هنا.

واستَوعبَت الأقسام ها هنا، لأنَّه مقامُ البسط، واقتصَرت على نفي النكاح ثمَّ، لعدم التهمة، ولعلمها أنَّهم ملائكة ينادون، لا يتخيَّلون فيها التهمة، بخلاف هذه الحالة، فإنَّ جبريل عليه السلام كان قد أتاها في صورة شابٍّ أمرد، ولهذا تعوَّذت منه، ولم يكن قد سكن رَوعُها بالكليَّة إلى أن قال: «إنَّما أنا رسول ربك».

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٤، والبحر ٦/ ١٨٠.

(٢) في (م): لامستم. وهي قراءة الجمهور. والمثبت من الأصل، وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر التيسير ص٩٦.

على أنه قيل: إنَّ ما في «آل عمران» من الاكتفاء، وترك الاكتفاء في هذه؛ لأنَّه تقدَّم نزولُها، فهي محلُّ التفصيل، بخلاف تلك؛ لسبق العلم.

وقيل: المَساس هنا كنايةٌ عن الأمرين على سبيل التغليب، كما في تلك السورة، «ولم أك بغيًّا» تخصيصٌ بعد التعميم؛ لزيادة الاعتناء بتنزيه ساحتها عن الفحشاء، ولذا آثرت «كان» في النفي الثاني، فإنَّ في ذلك إيذاناً بأنَّ انتفاءَ الفجور لازمٌ لها.

وكأنَّها عليها السلام من فرط تعجُّبها وغايةِ استبعادها لم تلتفت إلى الوصف في قول الملك عليه السلام: «لأهبَ لك غلاماً زكيًّا» النافي كلَّ ريبةٍ وتهمةٍ، ونبذته وراءَ ظهرها، وأتت بالموصوف وحده، وأخذت في تقرير نفيه على أبلغ وجه، أي: ما أبعد وجودَ هذا الموصوف مع هذه الموانع بَلْهَ الوصف، وهذا قريبٌ من الأسلوب الحكيم.

و«بغيّ» فعول عند المبرِّد، وأصلُه «بغويّ»، فلمَّا اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، قُلبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، وكسرت الغين إتباعاً، ولذا لم تلحقه هاءُ التأنيث؛ لأن فعولاً يستوي فيه المذكَّر والمؤنث، وإن كان بمعنى فاعل كصبور. واعترضَه ابنُ جنِّي في كتاب «التمام»[1] بأنَّه لو كان فعولاً لقيل: بغوٌّ، كما قيل: نهوٌّ عن المنكر. ورُدَّ بأنه لا يقاس على الشاذِّ، وقد نصُّوا على شذوذ: نهو؛ لمخالفته قاعدةَ اجتماع الواو والياء، وسبق إحداهما بالسكون. وأختارُ أنَّه فعيل، وهو على ما قال أبو البقاء[2] بمعنى فاعل. وكان القياسُ أنْ تلحقَه هاءُ التأنيث؛ لأنَّه حينئذٍ ليس مما يستوي فيه المذكَّر والمؤنث، كفعول. ووجهُ عدم اللحوق بأنَّه للمبالغة التي فيه حُمِل على فعول؛ فلم تلحقه الهاء.

وقال بعضهم: هو من باب النسب، كطالق، ومثله يستوي فيه المذكَّر والمؤنث.

وقيل: ترك تأنيثه لاختصاصه في الاستعمال بالمؤنَّث، ويقال للرجل: باغ.

---

(١) لم أقف عليه في كتاب التمام، ونقله عنه الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٠٥.
(٢) في الإملاء ٢/ ١١.

وقيل: فعيل بمعنى مفعول، كـ: عين كحيل، وعلى هذا معنى بغيّ: يبغيها الرجالُ للفجور بها. وعلى القول بأنه بمعنى فاعل: فاجرة تبغي الرجال.

وأيًا ما كان فهو للشيوع في الزانية صار حقيقةً صريحةً فيه، فلا يَرِدُ أنَّ اعتبارَ المبالغة فيه لا يناسبُ المقام؛ لأنَّ نفيَ الأبلغ لا يستلزمُ نفي أصل الفعل، ولا يحتاجُ إلى الجواب بالتزام أنَّ ذلك من باب النسب، أو بأنَّ المرادَ نفيُ القيد والمقيَّد معاً، أو المبالغة في النفي لا نفي المبالغة.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أطلقوا الكلام في أنه نظيرُ ما تقدَّم في قصة زكريا عليه السلام. وفي «الكشف» أنه لا يجري فيه تمامُ الأوجه التي ذكرها الزمخشريّ هناك؛ لأنَّ «قال» أولاً فيه ضميرُ الرسول إليها، فـ «كذلك» إن عُلِّق بالثاني يكون المعنى: قال الرسول: قال ربك كذلك. ثمَّ فسَّره بقوله: «هو عليَّ هيِّن».

أو المعنى: مثلُ ذلك القول العجيب الذي سمعته ووعدتك قال ربك، على إقحام الكاف، ثمَّ استأنف: «هو عليَّ هيِّن» ولا بدَّ من إضمار القول، لأنَّ المخاطِبَ لها جبريلُ عليه السلام.

وقوله: «هو عليَّ هيِّن» كلامُ الحقِّ تعالى شأنه حكاه لها.

وإن عُلِّق بالأول يكون المعنى: الأمرُ كذلك تصديقاً لها. أو: كما وعدتُ تحقيقاً له. ثم استأنف: «قال ربك هو عليَّ هين» لإزالة الاستبعاد، أو لتقرير التحقيق. ولا يبعدُ أن يجعل «قال ربك» على هذا تفسيراً، و«كذلك» مبهماً. انتهى. ولا أرى ما نُقل عن ابن المنيِّر هناك وجهاً هنا.

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً﴾ تعليلٌ لمعلَّلٍ محذوف، أي: لنجعل وهب الغلام «آية» وبرهاناً ﴿لِّلنَّاسِ﴾ جميعِهم، أو المؤمنين ـ على ما روي عن ابن عباس ـ يستدلُّون به على كمال قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمةً كائنةً ﴿مِّنَّا﴾ عليهم يهتدون بهدايته، ويسترشدون بإرشاده = فعلنا ذلك.

وجُوِّزَ أنْ يكون معطوفاً على علَّةٍ أخرى مضمرةٍ، أي: لنبيِّن به عظمَ قدرتنا «ولنجعله آيةً» إلخ.

قال في «الكشف»: إنَّ مِثل هذا يطَّرد فيه الوجهان، ويرجَّح كلٌّ واحدٍ بحسب المقام، وحذفُ المعلِّل هنا أرجح؛ إذ لو فُرِض علَّةٌ أخرى لم يكن بدٌّ من معلَّل محذوفٍ أيضاً، فليس قبلُ ما يصلح، فهو تطويلٌ للمسافة.

وهذه الجملة ـ أعني العلَّة مع معلَّلها ـ معطوفةٌ على قوله: «هو عليَّ هيِّن». وفي إيثار الأولى اسميَّةً دالَّة على لزوم الهُوْن، مزيلةً للاستبعاد، والثانية فعليةً دالَّةً على أنَّه تعالى أنشأه لكونه آيةً ورحمةً خاصةً، لا لأمرٍ آخر ينافيه، مراداً بها التجدُّد؛ لتجدُّد الوجود؛ لينتقل من الاستبعاد إلى الاستحماد = مالا يَخفى من الفخامة. انتهى.

ولا يَرِدُ أنَّه إذا قُدِّر علَّة، نحو: لنبين، جاز أن يكون ذلك متعلِّقاً بما يدلُّ عليه «هو عليَّ هين» من غير حذف شيءٍ، فلا يصحُّ قولُه: لم يكن بدٌّ من مُعَلَّلٍ محذوفٍ. لظهور ما فيه.

وما ذكره من العطف خالف فيه بعضُهم فجعلَ الواو على الأول اعتراضية.

ومن الناس من قال: إن «لنجعلَه» على قراءة: «ليهب» عطفٌ عليه على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم.

وجوز أيضاً العطفُ على «لأهب» على قراءةِ أكثر السبعة. ولا يخفى بُعد هذا العطف على القراءتين.

﴿وَكَانَ﴾ ذلك ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ محكماً قد تعلَّق به قضاؤنا الأزليُّ، أو قُدِّر وسُطِّر في اللوح لابدَّ لك منه، أو كان أمراً حقيقاً بمقتضى الحكمة والتفضُّل أنْ يُفعل؛ لتضمُّنه حِكماً بالغةً؛ وهذه الجملة تذييلٌ إما لمجموع الكلام أو للأخير.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ الفاء فصيحة، أي: فاطمأنَّت إلى قوله، فدنا منها فنفخَ في جيبها، فدخلت النفخةُ في جوفها فحملته. وروي هذا عن ابن عباس.

وقيل: لم يَدْنُ عليه السلام، بل نفخَ عن بُعْدٍ، فوصل الريح إليها فحملت.

وقيل: إنَّ النفخةَ كانت في كمِّها، وروي ذلك عن ابن جريج.

وقيل: كانت في ذيلها. وقيل: كانت في فمها.

واختلفوا في سنِّها إذ ذاك، فقيل: ثلاث عشرة سنة. (١وعن وهب ومجاهد: خمس عشرة سنة١). وقيل: أربع عشرة سنة. وقيل: اثنتا عشرة سنة. وقيل: عشر سنين، وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل. وحكى محمد بن الهيصم(٢) رئيس الهيصميَّة من الكرَّاميَّة أنها لم تكن حاضت بعد. وقيل: إنَّها عليها السلام لم تكن تحيضُ أصلاً، بل كانت مطهَّرة من الحيض.

وكذا اختلفوا في مدَّة حملها، ففي روايةٍ عن ابن عباس أنَّها تسعة أشهر كما في سائر النساء، وهو المرويُّ عن الباقر ﵁؛ لأنها لو كانت مخالفةً لهنَّ في هذه العادة لناسب ذكرها في أثناء هذه القصة الغريبة. وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّها كانت ساعةً واحدة، كما حملته نبذته. واستدلَّ لذلك بالتعقيب الآتي، وبأنَّه سبحانه قال في وصفه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فإنَّه ظاهرٌ في أنَّه عزَّ وجلَّ قال له: «كن فيكون» فلا يُتصوَّرُ فيه مدَّة الحمل.

وعن عطاء وأبي العالية والضحَّاك أنَّها كانت سبعة أشهر. وقيل: كانت ستة أشهر، وقيل: حملته في ساعةٍ، وصوِّرَ في ساعة، ووضعته في ساعةٍ حين زالت الشمس من يومها. والمشهور أنَّها كانت ثمانية أشهر(٣)، قيل: ولم يعش مولودٌ وُضِع لثمانيةٍ غيرُه عليه السلام.

ونقل النيسابوريُّ عن أهل التنجيم أنَّ ذلك لأنَّ الحملَ يعودُ إلى تربية القمر، فتستولي عليه البرودة والرطوبة(٤). وهو ظاهرٌ في أنَّ مربيَ الحمل في أول شهور الحمل القمرُ، وفي الثامن يعود الأمر إليه عند المنجِّمين، وهو مخالفٌ لما في

(١-١) ليست في الأصل.

(٢) هو أبو عبد الله، شيخ الكرَّامية وعالمهم في وقته بخراسان، وهو من المتوفين بعد الأربع مئة ظنًّا. قال الذهبي: وليس للكرَّامية مثله في معرفة الكلام والنظر. تاريخ الإسلام ٩/ ١٧١-١٧٢.

وعدَّ الشهرستاني في الملل والنحل ١/ ١٠٨ الهيصمية أقرب طوائف الكرَّامية.

(٣) قال أبو حيان في البحر ٦/ ١٨١ بعد أن ذكر هذا الاختلاف: وهذه أقوالٌ مضطربة متناقضة، كان ينبغي أن يضرب عنها صفحاً، إلا أن المفسرين ذكروها في كتبهم، وسوَّدوا بها الورق.

(٤) غرائب القرآن ١٦/ ٤٨.

«كفاية التعليم»(١) عنهم من أنَّ أول الشهور منسوبٌ إلى زحل، والثاني إلى المشتري، وهكذا إلى السابع، وهو منسوبٌ إلى القمر، ثم ترجعُ النسبة إلى زحل، ثمَّ إلى المشتري. وفيها أيضاً أنَّ جهَّال المنجِّمين يقولون: إنَّ النطفة في الشهر الأول تقبلُ البرودة من زحل فتجمد، وفي الثاني تقبلُ القوَّة النامية من المشتري، فتأخذ في النمو، وفي الثالث تقبلُ القوَّة الغضبيَّة من المريخ، وفي الرابع قوَّة الحياة من الشمس، وفي الخامس قوَّة الشهوة من الزهرة، وفي السادس قوة النطق من عطارد، وفي السابع قوة الحركة من القمر، فتتمُّ خلقة الجنين، فإنْ ولد في ذلك الوقت عاش، وإلَّا فإن ولد في الثامن لم يعش؛ لقبوله قوَّة الموت من زحل، وإنْ ولد في التاسع عاش؛ لأنَّه قبل قوة المشتري.

ومثل تلك الكلمات خرافات، وكلُّ امرأةٍ تعرفُ أن النطفة إذا مضت عليها ثلاثةُ أشهر تتحرك.

وقد ذكر حكماء الطبيعة أنَّ أقلَّ مدَّة الولادة ستة أشهر، ومدة الحركة ثُلث مدة الولادة، فيكون أقلُّها شهرين، ومن امتحن الأسقاط، يعلمُ أنَّ الخلقة تتمُّ في أقل من خمسين يوماً. انتهى.

وكلام المتشرعين لا يخفى عليك في هذا الباب.

وقد يعيش المولود لثمانٍ، إلَّا أنَّه قليل، فليس ذلك من خواصِّه عليه السلام إن صحَّ.

ولم يصح عندي شيءٌ من هذه الأقوال المضطربة المتناقضة، بيد أنِّي أميلُ إلى أوَّلها، والاستدلال للثاني ممَّا سمعت لا يخلو عن نظر.

﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي: فاعتزلت وهو في بطنها، فالباء للملابسة والمصاحبة، مثلُها في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقول المتنبي يصفُ الخيول:

فمرَّت غير نافرةٍ عليهم ... تدوسُ بنا الجماجم والرؤوسا(٢)

---

(١) لعله «كفاية التعليم في صناعة التنجيم» فارسي، للإمام ظهير الدين أبي المحامد، محمد بن المسعود بن الزكي الغزنوي. كشف الظنون ٢/ ١٤٩٧.

(٢) ديوان المتنبي ١/ ٢٦٥، وفيه وفي الكشاف ٢/ ٥٠٦، وتفسير البيضاوي ٤/ ٥، والبحر

والجارُّ والمجرور ظرفٌ مستقرٌّ وقع حالاً من ضميرها المستتر، أي: فانتبذَت ملتبسةً به ﴿مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢﴾ بعيداً من أهلها وراءَ الجبل.

وأخرج عبد الله بن أحمد في «زوائد الزُّهدِ» عن نوف أنَّ جبريلَ عليه السلام نفخَ في جيبها فحملت، حتى إذا أثقلت وَجِعَت ما يجع النساء، وكانت في بيت النبوَّة، فاستحيت وهربت حياءً من قومها، فأخذت نحو المشرق، وخرجَ قومها في طلبها، فجعلوا يسألون: رأيتم فتاةً كذا وكذا، فلا يخبرهم أحدٌ، فكان ما أخبر الله تعالى به(١).

وروى الثعلبيُّ في «العرائس»(٢) عن وهب قال: إنَّ مريمَ لما حملت كان معها ابنُ عمٍّ لها يسمَّى: يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكانا معاً يخدمان ذلك المسجد، ولا يُعلَم أنَّ أحداً من أهل زمانهما أشدُّ اجتهاداً وعبادةً منهما، وأوَّلُ من عَلِمَ أمرَها يوسف، فتحيَّر في ذلك؛ لعلمه بكمال صلاحها وعفَّتها، وأنَّه لم تغب عنه ساعةً، فقال لها: قد وقع في نفسي شيءٌ من أمرك لم أستطع كتمانه، وقد رأيتُ الكلام فيه أَشْفَى لصدري، فقالت: قل قولاً جميلاً. فقال: يا مريم أخبريني هل ينبتُ زرعٌ بغير بذر؟ وهل تنبتُ شجرةٌ من غير غيث؟ وهل يكون ولدٌ من غير ذَكَر؟ فقالت: نعم، ألم تعلم أنَّ الله تعالى أنبتَ الزرع يومَ خلقه من غير بذر؟ ألم تعلم أنَّ الله تعالى أنبت الشجرةَ من غير غيث؟ وبالقدرة جعل الغيثَ حياة الشجر بعد ما خلق كلَّ واحدٍ منهما على حدة؟ أتقول: إنَّ الله سبحانه لا يقدرُ على أنَّ ينبتَ الشجرة حتى يستعينَ بالماء؟ قال: لا أقول هذا، ولكنِّي أقولُ: إنَّ الله تعالى يقدرُ على ما يشاء بقول: كن فيكون، فقالت: ألم تعلم أنَّ الله تعالى خلقَ آدم وامرأته من غير ذكرٍ ولا أنثى؟ فعند ذلك زال ما يجدُه وكان ينوبُ عنها في خدمة المسجد؛ لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب، فلمَّا دنا نفاسها أوحى الله تعالى إليها أن اخرجي من أرض قومك؛ لئلَّا

= المحيط ٦/ ١٨١، والدر المصون ٧/ ٥٧٩، وتفسير أبي السعود ٥/ ٢٦١: والتريبا، بدل: والرؤوسا.

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٦٦.

(٢) عرائس المجالس ص٣٨٤-٣٨٥.

يقتلوا ولدك، فاحتملَها يوسف إلى أرض مصر على حمارٍ له، فلما بلغت تلك البلاد أدركَها النفاس[1]، فكان ما قصَّ سبحانه.

وقيل: انتبذت أقصى الدار، وهو الأنسبُ بقِصَر مدَّة الحمل.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي: ألجأها، كما قال الزمخشريُّ[2] وجماعة، وفي «الصحاح»: أَجَأْتُه إلى كذا، بمعنى ألجأته واضطررته إليه. قال زهير بن أبي سلمى:

وجارٍ سارَ معتمداً عليكم[3] أجاءته المخافةُ والرجاءُ

قال الفرَّاء: أصله من جئت، وقد جعلته العربُ إلجاءً، وفي المثل: شرُّ ما يجيئك إلى مُخَّةِ عرقوب[4]. انتهى.

واختار أبو حيان أنَّ المعنى: جاء بها. واعترضَ على الزمخشريِّ وأطالَ[5] بما لا يخفى ردُّه[6].

و«المخاض» بفتح الميم، كما في قراءة الأكثرين، وبكسرها كما في رواية عن ابن كثير[7]، مصدرُ مَخِضَتِ المرأةُ بفتح الخاء وكسرها، إذا أخذَها الطلقُ، وتحرّك الولدُ في بطنها للخروج.

وقرأ الأعمشُ وطلحة: «فأجاءها» بإمالة فتحة الجيم[8]، وقرأ حماد بن سلمة

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: قيل: إنها نفست بكورة أهباس من أعمال مصر. اهـ. منه.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٠٦.

(٣) كذا في النسخ. وفي ديوان زهير ص٧٧: إلينا، وفي الصحاح (جيأ): إليكم. وهي رواية الأعلم كما ذكر محقق ديوان زهير.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٤. وانظر مجمع الأمثال ١/ ٣٥٨. قال الميداني: والمعنى: ما ألجأك إليها إلا شرٌّ، أي: فقر وفاقة، وذلك أن العرقوب لا مخَّ له، وإنما يحوَج إليه من لا يقدر على شيء.

(٥) بعدها في (م): القول.

(٦) البحر المحيط ٦/ ١٨١-١٨٢.

(٧) القراءات الشاذة ص٨٤، والبحر المحيط٦/ ١٨٢. والقراءة المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٨) البحر المحيط ٦/ ١٨٢.

عن عاصم: «فاجأها» من المفاجأة[1]، ورُوي ذلك عن مجاهد[2]، ونقلَهُ ابنُ عطية عن شبيل بن عزرة أيضاً[3]، وقال صاحب «اللوامح»: إنَّ قراءته تحتملُ أنْ تكون الهمزةُ فيها قد قلبت ألفاً، ويحتملُ أن تكون بين بين غيرَ مقلوبة.

﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستند إليه عند الولادة، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدِّيّ: أو لذلك ولتستر به، كما قيل.

والجِذع: ما بين العِرْق ومتشعّب الأغصان من الشجرة. وقد يقال للغصن أيضاً: جذع. والنخلة معروفة. والتعريفُ إمَّا للجنس، فالمراد واحدةٌ من النخل لا على التعيين، أو للعهد، فالمراد نخلةٌ معيَّنةٌ، ويكفي لتعيُّنها تعيُّنها في نفسها، وإنْ لم يعلمها المخاطَبُ بالقرآن عليه الصلاة والسلام، كما إذا قلت: أكلَ السلطانُ ما أتى به الطباخُ، أي: طباخه، فإنَّه المعهود. وقد يقال إنَّها معيَّنةٌ له ﷺ بأنْ يكون الله تعالى أراها له عليه الصلاة والسلام ليلةَ المعراج.

وزعم بعضُهم أنَّها موجودةٌ إلى اليوم. والظاهر أنَّها كانت موجودةً قبل مجيء مريم إليها، وهو الذي تدلُّ عليه الآثار، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّها عليها السلام لمَّا اشتدَّ عليها الطلق نظرت إلى أكمةٍ، فَصَعِدَت مسرعةً، فإذا عليها جِذع نخلةٍ نخِرَة، ليس عليها سَعَف.

وقيل: إنَّ الله تعالى خلقها لها يومئذ. وليس بذاك. وكان الوقتُ شتاءً.

ولعلَّ الله تعالى أرشدَها إليها ليريها فيما هو أشبهُ الأشجار بالإنسان من آياته ما يسكِّن روعَتها، كإثمارها بدون رأس، وفي وقت الشتاء الذي لم يعهد ذلك فيه، ومن غير لقاح كما هو المعتاد. وفي ذلك إشارةٌ أيضاً إلى أنَّ أصلَها ثابتٌ، وفرعها في السماء، وإلى أنَّ ولدها نافعٌ كالتمرة الحلواء[4] وأنه عليه السلام سيحيي

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٤، والبحر المحيط ٦/ ١٨٢.

(٢) المحتسب ٢/ ٣٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠. وقال ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٩: قراءة شبيل بن عزرة «فأجأها» مثل فألجأها.

(٤) في الأصل: الحلو.

الأمواتَ كما أحيى الله تعالى بسببه الموات، مع ما في ذلك من اللطف بجعل ثمرتِها خُرسة[١] لها.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «أجاءها»، وعلى القراءة الأخرى متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً، أي: مستندةً إلى جذع النخلة.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ﴾ بكسر الميم من مات يَمات، كخاف يخاف، أو من مات يميت كجاء يجيء.

قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر ويعقوب بضمِّها[٢]، من مات يموتُ، كقال يقول.

﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾ الوقتِ الذي لقيتُ فيه ما لقيت، أو قبلَ هذا الأمر. وإنما قالته عليها السلام، مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم؛ استحياءً من الناس، وخوفاً من لائمتِهم، أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بما يتكلَّمون فيها.

وروي أنها سمعت نداءً: اخرج يا مَنْ يُعبَدُ من دون الله تعالى. فحزنت لذلك، وتمنَّت الموت. وتمنِّي الموت لنحو ذلك مما لا كراهةَ فيه.

نعم يُكره تمنِّيه لضررٍ نزلَ به من مرضٍ، أو فاقةٍ، أو محنة من عدوٍّ، أو نحوِ ذلك من مشاقِّ الدنيا، ففي «صحيح مسلم» وغيره قال ﷺ: «لا يتمنينَّ أحدُكم الموتَ لضَرَرٍ نزل، فإن كان لا بدَّ متمنِّياً، فليقل: اللهمَّ أحيني ما كانت الحياةُ خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي»[٣].

ومن ظنَّ أنَّ تمنِّيها عليها السلام ذلك كان لشدَّة الوجع، فقد أساء الظنَّ، والعياذُ بالله تعالى.

---

(١) الخرسة: بخاء معجمة مضمومة، وراء مهملة ساكنة، وسين مهملة: ما تأكله النفساء. حاشية الشهاب ٦/ ١٥٢.

(٢) التيسير ص٩١، والنشر ٢/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) صحيح مسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس بن مالك. وهو أيضاً عند البخاري (٦٣٥١).

﴿وَكُنتُ نَسْيًا﴾ أي: شيئاً تافهاً، شأنُه أن ينسى ولا يعتدّ به أصلاً، كخرقة الطَّمْث.

وقرأ الأكثرون: «نِسياً» بالكسر(١). وقال الفرَّاء: هما لغتان في ذلك، كالوَتر والوِتر، والفتحُ أحبُّ إليَّ(٢).

وقال الفارسيُّ: الكسرُ أعلى اللغتين(٣)، وقال ابنُ الأنباريّ: هو بالكسر اسمٌ لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض، وبالفتح مصدرٌ نائبٌ عن الاسم.

وقرأ محمد بن كعب القرظي: «نِسئاً» بكسر النون والهمزة مكان الياء، وهي قراءة نوف الأعرابيّ(٤). وقرأ بكر بن حبيب السهميّ ومحمد بن كعب أيضاً في رواية: «نَسئاً» بفتح النون والهمز(٥)، على أنَّ ذلك من نسأتُ اللبن إذا صببت عليه ماءً، فاستهلك اللبن فيه لقلَّته، فكأنَّها تمنَّت أنْ تكون مثل ذلك اللبن الذي لا يُرى ولا يتميَّز من الماء. ونقل ابنُ عطية عن بكر بن حبيب أنه قرأ: «نَسَا» بفتح النون والسين من غير همزٍ كعصا(٦).

﴿مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ لا يخطر ببال أحدٍ من الناس. ووصف النسي بذلك؛ لما أنَّه حقيقةٌ عرفيَّةٌ فيما يقلُّ الاعتدادُ به، وإن لم ينسَ.

وقرأ الأعمش وأبو جعفر في روايةٍ بكسر الميم إتباعاً لحركة السين(٧)،

---

(١) قرأ بفتح النون حمزة وحفص، والباقون بكسرها. التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/٣١٨.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/١٦٤-١٦٥.

(٣) الحجة للقراء السبعة ٥/١٩٦.

(٤) ذكرها عنهما أبو حَيّان في البحر ٦/١٨٣، وعن محمد بن كعب ابنُ عطية في المحرر ٤/١٠، والقرطبي ١٣/٤٣٢.

(٥) المحتسب ٢/٤٠، والبحر المحيط ٦/١٨٣، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/١٠ - وتبعه القرطبي ١٣/٤٣٢ - لنوف البكالي، ونقل عن ابن جني والداني نسبتها لمحمد بن كعب.

(٦) كذا في البحر المحيط ٦/١٨٣، والدر المصون ٧/٥٨٢ نقلاً عن ابن عطية. والذي في المحرر الوجيز لابن عطية ٤/١٠ وتفسير القرطبي ١٣/٤٣٢ أن بكر بن حبيب قرأ: «نسًّا» بتشديد السين، وفتح النون دون همز.

(٧) البحر المحيط ٦/١٨٣ عنهما، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٤، =

كما قالوا: مِنْتِنٍ، بإتباع حركة الميم لحركة التاء.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ أي: جبريل عليه السلام كما روي عن ابن عباس ونوف.

وقرأ علقمة: فخاطبها. قال أبو حيان: وينبغي أنْ تكون تفسيراً؛ لمخالفتها سوادَ المصحف[1]. وقرأ الحبر: «فناداها مَلَكٌ من تحتها»[2] وينبغي أنْ يكون المراد به جبريل عليه السلام؛ ليوافق ما روي عنه أوَّلاً.

ومعنى ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ من مكانٍ أسفلَ منها، وكان واقفاً تحت الأكمة التي صعدتها مسرعةً، كما سمعت آنفاً.

ونقل في «البحر»[3] عن الحسن أنَّه قال: ناداها جبريلُ عليه السلام، وكان في بقعةٍ من الأرض أخفضَ من البقعة التي كانت عليها، ،وأقسمَ على ذلك. ولعلَّه إنَّما كان موقفُه عليه السلام هناك إجلالاً لها، وتحاشياً من حضوره بين يديها في تلك الحال. والقول بأنَّه عليه السلام كان تحتَها يُقَبِّل الولدَ، ممّا لا ينبغي أن يُقال؛ لما فيه من نسبة ما لا يليق بشأن أمين وحي الملك المتعال.

وقيل: ضمير «تحتها» للنخلة.

واستظهر أبو حيان[4] كونَ المنادي عيسى عليه السلام. والضمير لـ «مريم»، والفاء فصيحة، أي: فولدت غلاماً فأنطقَه الله تعالى حين الولادة، فناداها المولود من تحتها.

ورُوي ذلك عن مجاهد، ووهب، وابن جبير، وابن جرير[5]، وابن زيد،

= والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٠٧ منسوبةً للأعمش فقط. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه كقراءة الجمهور.

(١) البحر المحيط ٦/ ١٨٣، وانظر القراءات الشاذة ص٨٤.

(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٤٣٤، والبحر المحيط ٦/ ١٨٣.

(٣) ٦/ ١٨٣.

(٤) في البحر المحيط ٦/ ١٨٣.

(٥) تفسير الطبري ١٥/ ٥٠٤-٥٠٥.

والجبَّائيّ، ونقله الطبرسيُّ عن الحسن أيضاً[1]، وقرأ الابنان والأبوان[2]، وعاصم والجحدريّ، وابن عباس والحسن في رواية عنهما: «مَن» بفتح الميم[3] بمعنى «الذي»، فاعل نادى، و«تحتَها» ظرفٌ منصوب، صلةٌ لـ «مَن»، والمرادُ به إمَّا عيسى أو جبريل عليهما الصلاة والسلام.

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي: أي لا تحزني، على أنَّ «أنْ» مفسِّرة، أو: بأن لا تحزني، على أنَّها مصدريَّة قد حُذِف عنها الجارّ.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ بمكانٍ أسفَل منك. وقيل: تحتَ أمرك، إنْ أمرت بالجري جرى، وإنْ أمرت بالإمساك أمسك. وهو خلاف الظاهر.

﴿سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ أي: جدولاً، كما أخرجُه الحاكم في «مستدركه» عن البراء، وقال: إنَّه صحيحٌ على شرط الشيخين[4]. وذكرهُ البخاريُّ تعليقاً موقوفاً عليه[5]، وأسندَه عبد الرزاق وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم عنه موقوفاً عليه أيضاً[6]، ولم يصحَّ الرفعُ كما أوضحه الجلالُ السيوطيّ. وعلى ذلك جاء قولُ لبيد يصف عيراً وأتاناً:

فتوسَّطا عُرْضَ السريِّ فصدَّعَا ... مسجورة متجاوِزاً قُلَّامُها[7]

وأنشد ابنُ عباس قول الشاعر:

سهلُ الخليقة ماجدٌ ذو نائل ... مثل السَّريِّ تمدُّه الأنهارُ[8]

---

(١) مجمع البيان ١٦/ ٣١، وأخرجها عن الحسن الطبريُّ في تفسيره ١٥/ ٥٠٣.

(٢) الابنان هما ابن عامر وابن كثير، والأبوان هما أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم، فقوله بعدهما: وعاصم، فيه نظر، فقد ذكر رواية أبي بكر عنه، أما قراءة حفص عنه فهي: «مِن» بكسر الميم.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٨٣، وقراءة الابنين والأبوين في التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٨، وقرأ بها أيضاً من العشرة يعقوب من طريق رويس.

(٤) المستدرك ٢/ ٣٧٣.

(٥) قبل الحديث (٣٤٣٦).

(٦) الدر المنثور ٤/ ٢٦٨، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٦-٧، وتفسير الطبري ١٥/ ٥٠٦.

(٧) ديوان لبيد ص٣٠٧.

(٨) أنشده ابن عباس رضي الله عنهما في معرض إجابته على سؤالات نافع بن الأزرق. انظر إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ص٩٠، والدر المنثور ٤/ ٢٦٨.

وكان ذلك ـ على ما رويَ عن ابن عباس ـ جدولاً من الأردنّ، أجراه الله تعالى منه لمَّا أصابها العطش[١].

ورويَ أنَّ جبريل عليه السلام ضربَ برجله الأرض، فظهرت عينُ ماءٍ عذبٍ، فجرى جدولاً.

وقيل: فعل ذلك عيسى عليه السلام، وهو المرويُّ عن أبي جعفرٍ ﷺ.

وقيل: كان ذلك موجوداً من قبل، إلَّا أنَّ الله تعالى نبَّهها عليه.

وما تقدَّم هو الموافقُ لمقام بيان ظهور الخوارق، والمتبادر من النظم الكريم.

وسمِّيَ الجدولُ سريًّا؛ لأنَّ الماء يسري فيه، فلامُه على هذا المعنى ياء. وعن الحسن وابن زيد والجبائيّ أنَّ المرادَ بالسريّ عيسى عليه السلام. وهو من السَّرو، بمعنى الرفعة، كما قال الراغب[٢]، أي: جعل ربُّك تحتك غلاماً رفيعَ الشأن، سامي القدر، وفي «الصحاح»: هو سخاءٌ في مروءة[٣]. وإرادةُ الرفعة أرفعُ قدراً، ولامُه على هذا المعنى واو.

والجملة تعليلٌ لانتفاء الحزن المفهوم من النهي عنه.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها؛ لتشريفها، وتأكيد التعليل، وتكميل التسلية.

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ﴾ أي: إلى جهتِك. والهزُّ تحريكٌ يميناً وشمالاً، سواءٌ كان بعنفٍ أو لا، أو تحريكٌ بجذب ودفع، وهو مضمَّنٌ معنى الميل، فلذا عُدِّيَ بـ «إلى»، أو أنَّه مجازٌ عنه، أو اعتُبر في تعديته ذلك؛ لأنَّه جزءُ معناه، كذا قيل.

ومنع أبو حيان[٤] تعلُّقَه بـ «هزِّي»، وعَلَّل ذلك بأنَّه قد تقرَّر في النحو أنَّ الفعل لا يُعدَّى إلى الضمير المتصل، وقد رفع الضمير المتصل، وليس من باب ظَنَّ،

---

(١) في الأصل: من العطش.
(٢) في المفردات (سرى).
(٣) الصحاح (سرو).
(٤) في البحر ٦/ ١٨٤.

ولا فَقَد ولا عَدِم، وهما لمدلولٍ واحد، فلا يقال: ضربتَكَ، وزيدٌ ضربُه، على معنى ضربتَ نفسك، وضربَ نفسه. والضميرُ المجرورُ عندهم كالضمير المنصوب، فلا يقال: نظرتَ إليك وزيدٌ نظر [إليه][1]، على معنى نظرتَ إلى نفسك، ونظرَ إلى نفسه. ومن هنا جعلوا «على» في قوله:

هــوِّن عــلــيــك فــإنَّ الأمــور ... بــكــفِّ الإلــه مــقــاديــرُهــا[2]

اسماً، كما في قوله:

غـدتْ مِـن عـلـيـه بـعـدَ مـا تـمَّ ظِـمْـؤُهـا[3]

وجعلَ الجارّ والمجرور هنا متعلِّقاً بمحذوف، أي: أعني إليك، كما قالوا في: سقياً لك، ونحوه، مما جيءَ به للتبيين. وأنت تعلم أنهم قالوا بمجيء «إلى» للتبيين، لكن قال ابن مالك وكذا صاحب «القاموس»: إنَّها المبيِّنةُ لفاعليَّةِ مجرورِها بعدَ ما يفيدُ حبًّا أو بغضاً من فعل تعجُّبٍ أو اسم تفضيل[4]. وما هنا ليس كذلك. وقال في «الإتقان»[5]: حكى ابنُ عصفور في شرح أبيات «الإيضاح» عن ابن الأنباريّ أنَّ «إلى» تُستعمل اسماً، فيقال: انصرفت من إليك، كما يقال: غدوتُ من عليه. وخرَّجَ عليه من القرآن: «وهزِّي إليك». وبه يندفعُ إشكالُ أبي حيان فيه. انتهى.

وكان عليه أن يبيِّن ما معناها على القول بالاسمية، ولعلَّها حينئذٍ بمعنى: «عند»، فقد صرَّح بمجيئها بهذا المعنى في «القاموس»[6]، وأنشد:

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق. وانظر البحر المحيط ٦/ ١٨٤.

(٢) هو للأعور الشنِّي، كما في الكتاب ١/ ٦٣-٦٤، والحماسة البصرية ٢/ ٢.

(٣) هو صدر بيت، عجزه: تصِلُّ وعن قيضٍ ببيداء مَجْهَل.
ذكره سيبويه في الكتاب ٤/ ٢٣١، والمبرد في المقتضب ٣/ ٥٣، والكامل ٢/ ١٠٠١، دون نسبة. ونسبه ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٥٠٤، وعبد القادر البغدادي في خزانة الأدب ١٠/ ١٥٠ لمزاحم العُقيليّ.

(٤) القاموس المحيط: باب الألف اللينة (إلى) ص١٣٤٨.

(٥) ١/ ٤٨٣.

(٦) في باب الألف اللينة (إلى) ص١٣٤٩. والبيت الآتي لأبي كبير الهذلي، كما في شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٠٦٩.

أم لا سبيلَ إلى الشباب وذِكْرُه أشهى إليَّ من الرحيقِ السلسلِ

لكن لا يحلو هذا المعنى في الآية.

ومثله ما قيل: إنها في ذلك اسمُ فعل. ثم إنَّ حكاية استعمالها اسماً إذا صحَّت تقدحُ في قول أبي حيان(١): لا يمكن أنْ يُدَّعى أنَّ «إلى» تكونُ اسماً؛ لإجماع النحاة على حرفيتها.

ولعله أراد إجماع من يُعتَدُّ به منهم في نظره.

والذي أميلُ إليه في دفع الإشكال أنَّ الفعلَ مضمَّنٌ معنى الميل، والجارُّ والمجرور متعلِّق به، لا بالفعل الرافع للضمير؛ وهو مغزًى بعيدٌ لا ينبغي أنْ يُسارَع إليه بالاعتراض، على أنَّ في القلب من عدم صحة نحو هذا التركيب للقاعدة المذكورة شيئاً؛ لكثرة مجيء ذلك في كلامهم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ومنه البيت المارُّ آنفاً. وقول الشاعر:

دعْ عنك نهباً صِيح في حجراتهِ ولكن حديثاً ما حديثُ الرواحلِ(٢)

وقولهم: اذهبْ إليك، وسرْ عنك، إلى غير ذلك ممَّا لا يخفى على المتتبِّع. وتأويلُ جميع ما جاء لا يخلو عن تكلُّف. فتأمَّل وأنصف.

ثم الفعل هنا منزَّل منزلة اللازم كما في قول ذي الرمة:

فإنْ تعتذر بالمحلِ من ذي ضروعها إلى الضيف يجرح في عراقيبها نَصْلِي(٣)

فلذا عُدِّيَ بالباء، أي: افعلي الهزَّ ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ فالباء للآلة كما في: كتبت بالقلم.

وقيل: هو متعدٍّ والمفعول محذوفٌ، والكلام على تقدير مضاف، أي: هُزِّي الثمرةَ بهزِّ جذع النخلة. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف، وأن هزَّ الثمرة لا يخلو عن ركاكة.

---

(١) البحر ٦/ ١٨٤.

(٢) هو لامرئ القيس. وهو في ديوانه ص٩٤.

(٣) ديوان ذي الرمة ١/ ١٥٧.

وعن المبرِّد أنَّ مفعوله «رُطَباً» الآتي، والكلامُ من باب التنازع. وتُعقِّب بأن الهزَّ على الرطب لا يقع إلَّا تبعاً، فجعلُه أصلاً، وجعلُ الأصل تبعاً، حيث أدخَل عليه الباء للاستعانة = غيرُ ملائم، مع ما فيه من الفصل بجواب الأمر بينَه وبين مفعوله، ويكون فيه إعمال الأول، وهو ضعيف لا سيما في هذا المقام.

وما ذكر من التعكيس واردٌ على ما فيه من التكلُّف، وهو ظاهر.

وما قيل من أنَّ الهزَّ وإن وقع بالأصالة على الجذع، لكن المقصود منه الثمرة، فلهذه النكتة المناسبة جُعلت أصلاً؛ لأنَّ هزَّ الثمرة ثمرةُ الهزِّ = لا يدفع الركاكة التي ذكرناها، مع أنَّ المفيد لذلك ما يُذكر في جواب الأمر. وجعل بعضُهم «بجذع النخلة» في موضع الحال على تقدير جَعل المفعول «رطباً» أو الثمرة، أي: كائنةً، أو كائناً بجذع النخلة. وفيه ثمرة ما لا تسمن ولا تغني.

وقيل: الباء مزيدةٌ للتأكيد، مثلها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] وقول الشاعر:

هنَّ الحرائرُ لا ربَّاتُ أحمرةٍ(١) سودُ المحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّورِ(٢)

والوجهُ الصحيحُ الملائم لما عليه التنزيل من غرابة النظم ـ كما في «الكشف» ـ هو الأول.

وقول الفرَّاء(٣): إنَّه يقال: هزَّه وهزَّ به إنْ أرادَ أنَّهما بمعنًى كما هو الظاهر، لا يلتَفتُ إليه، كما نصَّ عليه بعض من يعوِّل عليه.

---

(١) في الأصل و(م): أخمرة. بالخاء المعجمة. والمثبت من المصادر.
قال الجواليقي في شرح أدب الكاتب ص٣٧٨: أحمرة جمع حمار، جمع قلَّة، والكثير حمر، وخص الحمير لأنها رُذَال المال وشرُّه. اهـ.
وقال البغدادي في الخزانة ٩/ ١٠٩-١١٠: وكذا ضبط هذه الكلمة صاحب كتاب «اللصوص»، وابن المستوفي. وقد صَحّف الدمامينيّ في الحاشية الهندية هذه الكلمة بالخاء المعجمة. وقال: والأخمرة: جمع خمار، وهو ما تستر به المرأة رأسها... وتبعه من بعده.

(٢) البيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص١٢٢، أو للقتَّال الكلابي، وهو في ديوانه ص٥٣. وانظر بالإضافة للمصادر السابقة أدب الكاتب ص٥٢١.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٥.

﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ﴾ من ساقطت بمعنى: أسقطت، والضميرُ المؤنَّث للنخلة، ورجوع الضمير للمضاف إليه شائعٌ، ومن أنكره فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وجوَّز أبو حيَّان[١] أن يكون الضميرُ للجذع؛ لاكتسابه التأنيثَ من المضاف إليه، كما في قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف:١٠] في قراءة من قرأ بالتاء الفوقيَّة[٢]، وقول الشاعر:

كـمـا شَـرِقَـتْ صَـدْرُ الـقـنـاةِ مـن الـدَّمِ[٣]

وتُعقِّب بأنَّه خلاف الظاهر، وإنْ صحَّ.

وقرأ مسروق وأبو حيوة في رواية: «تُسقِط» بالتاء من فوق مضمومة وكسر القاف[٤]. وفي روايةٍ أخرى عن أبي حيوة أنَّه قرأ كذلك، إلا أنَّه بالياء من تحت[٥].

وقوله تعالى: ﴿رُطَبًا﴾ في جميع ذلك نصب على المفعولية، وهو نضيج البُسر، واحدتُه بِهاء، وجُمِع شاذّاً على أرطاب، كربع وأرباع، وعن أبي حيوة أيضاً أنَّه قرأ: «تَسقُط» بالتاء من فوق مفتوحةً، وضمِّ القاف، وعنه أيضاً كذلك، إلَّا أنَّه بالياء من تحت، فنصب «رطباً» على التمييز، وروي عنه أنَّه رفعه في القراءة الأخيرة على الفاعليَّة[٦].

وقرأ أبو السمَّال: «تتَساقط» بتاءين، وقرأ البراء بن عازب: «يَسَّاقط» بالياء من تحت، مضارع: اسَّاقط[٧].

---

(١) في البحر ٦/ ١٨٥.

(٢) قرأ بها مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة. انظر إعراب القرآن للنحاس ٢/٣١٦، وتفسير القرطبي ١١/ ٢٦٤. وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٢ عن الحسن فقط.

(٣) هو عجز بيت للأعشى، وصدره:

وتَـشـرق بـالـقـول الـذي قـد أذَعْـتَـه

وهو في ديوانه ص١٧٣، وسلف ٤/ ٣٦٦.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٨٤، ونقل الطبري في تفسيره ٥/ ٥١٤ نسبتها لأبي نهيك.

(٥) البحر المحيط ٦/ ١٨٥.

(٦) البحر المحيط ٦/ ١٨٥.

(٧) البحر المحيط ٦/ ١٨٤. وبالأخيرة قرأ أيضاً يعقوب من العشرة، انظر النشر ٢/ ٣١٨.

وقرأ الجمهور: «تَسَّاقَط» بفتح التاء من فوق، وشدِّ السين بعدها ألف، وفتح القاف[١]. والنصب على هذه الثلاثة على التمييز أيضاً.

وجُوّزَ في بعض القراءات أنْ يكونَ على الحالية الموطِّئة، وإذا أُضمِر ضمير مذكَّر على إحدى القراءات فهو للجذع، وإذا أضمر ضميرٌ مؤنث فهو للنخلة، أو له على ما سمعت.

﴿جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ أي: مجنيًّا، ففعيل بمعنى مفعول، أي: صالحاً للاجتناء. وفي «القاموس»: ثمرٌ جنيٌّ: جُنِي من ساعته[٢]. وعليه قيل: المعنى: رطباً يقول من يراه: هو جنيّ، وهو صفةُ مدح، فإنَّ ما يُجنى أحسنُ مما يسقط بالهزِّ، وما قَرُب عهده أحسنُ مما بَعُدَ عهده.

وقيل: فعيل بمعنى فاعل، أي: رطباً طريًّا، وكأن المراد ـ على ما قيل ـ أنَّه تمَّ نضجُه.

وقرأ طلحةُ بن سليمان: «جِنيًّا» بكسر الجيم للإتباع[٣]، ووجه التذكير ظاهر.

وعن ابن السيد أنَّه قال في «شرح أدب الكاتب»: كان يجب أنْ يقال: جنيَّة، إلَّا أنَّه أخرجَ بعضَ الكلام على التذكير وبعضَه على التأنيث[٤]. وفيه نظر.

روي عن ابن عباس أنَّه لم يكن للنخلة إلَّا الجذع، ولم يكن لها رأسٌ، فلمَّا هزته إذ السعف قد طلع، ثمَّ نظرت إلى الطلع يخرجُ من بين السعف، ثم اخضرَّ فصار بلحاً، ثمَّ احمرَّ فصار زهواً، ثم رطباً، كلُّ ذلك في طرفة عين، فجعل الرطب يقعُ بين يديها، وكان برنيًّا. وقيل: عجوة، وهو المرويُّ عن أبي عبد الله ﷺ.

---

(١) وهي قراءة نافع، وشعبة عن عاصم، وابن عامر، وابن كثير، وأبي عمرو البصري، والكسائي، وأبي جعفر، وخلف.
وقرأ حمزة: «تَسَاقط» بفتح التاء والقاف مع التخفيف.
وقرأ حفص: «تُسَاقط» بضم التاء وكسر القاف وتخفيف السين. انظر التيسير ص١٩٤، والنشر ٢/ ٣١٨.

(٢) القاموس (جني).

(٣) المحتسب ٢/ ٤١، والبحر المحيط ٦/ ١٨٥.

(٤) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ٢/ ٣٠٣.

والظاهر أنَّها لم تحمل سوى الرطب، وقيل: كان معه موز، وروي ذلك عن أبي روق، وإنَّما اقتصرَ عليه لغاية نفعه للنفساء، فعن الباقر ﷺ: لم تستشف النفساءُ بمثل الرطب، إنَّ الله أطعمهُ مريم في نفاسها.

وقالوا: ما للنفساء خيرٌ من الرطب، ولا للمريض خيرٌ من العسل. وقيل: المرأة إذا عسر ولادها لم يكن لها خيرٌ من الرطب، وذكر أنَّ التمر للنفساء عادةٌ من ذلك الوقت، وكذا التحنيكُ.

وفي أمرها بالهزِّ إشارةٌ إلى أنَّ السعي في تحصيل الرزق في الجملة مطلوبٌ، وهو لا ينافي التوكل، وما أحسنَ ما قيل:

ألم تر أنَّ الله أوحى لمريم ... وهزِّي إليك الجذع يَسَّاقط الرُّطبْ
ولو شاء أحنى الجذعَ من غير هزِّه ... إليها ولكن كلُّ شيء له سببْ(١)

﴿فَكُلِي﴾ من ذلك الرطب ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من ذلك السريّ. وقيل: من عصير الرطب، وكان في غاية الطراوة، فلا يتمُّ الاستدلال بذكر الشرب على تعيُّن تفسير السريِّ بالجدول.

وما ألطفَ ما أرشد إليه النظم الكريم من إحضار الماء أولاً والطعام ثانياً، ثم الأكل ثالثاً والشرب رابعاً، فإنَّ الاهتمام بالماء أشدُّ من الاهتمام بالأكل، لا سيما ممَّن يريد أن يأكل ما يحوج إلى الماء، كالأشياء الحلوة الحارَّة، والعادةُ قاضيةٌ بأنَّ الأكل بعد الشرب، ولذا قدَّم الأكلَ على الشرب حيث وقع.

وقيل: قدَّم الماء لأنَّه أصلٌ في النفع، ونفعُه عامٌّ للتنظيف ونحوه، وقد كان جارياً، وهو أظهرُ في إزالة الحزن، وأخَّرَ الشرب للعادة.

وقيل: قدَّم الأكلَ؛ ليجاور ما يشاكلُه، وهو الرطب.

والأمر، قيل: يحتملُ الوجوب والندب، وذلك باعتبار حالها، وقيل: هو للإباحة.

---

(١) البيتان في ثمار القلوب للثعالبي ص٣٠٦-٣٠٧ دون نسبة. ورواية البيت الثاني فيه:
ولو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته ولكن كلُّ شيء له سبب

﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ وطيبي نفساً وارفضي عنها ما أحزنكِ.

وقرئ بكسر القاف، وهي لغة نجد[1]، وهم يفتحون عين الماضي، ويكسرون عين المضارع، وغيرهم يكسرهما، وذلك من القَرِّ بمعنى السكون، فإنَّ العين إذا رأت ما يسرُّ النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره، ويشهد له قوله تعالى: ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ [الأحزاب:١٩] من الحزن. أو بمعنى البرد؛ فإنَّ دمعةَ السرور باردةٌ، ودمعةَ الحزن حارَّة، ويشهد له قولهم: قُرَّةُ العين وسُخْنَتُها للمحبوب والمكروه.

وتسليتُها عليها السلام بما تضمَّنته الآية من إجراء الماء وإخراج الرطب، من حيثُ إنَّهما أمران خارقان للعادة، فكأنَّه قيل: لا تحزني، فإنَّ الله تعالى قديرٌ، ينزِّه ساحتك عما يختلجُ في صدور المتقيدين بالأحكام العادية، بأن يرشِدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك بما أظهرَ لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية، ما يخرق العادات التكوينية، وفرَّع على التسلية الأمر بالأكل والشرب؛ لأنَّ الحزينَ قد لا يتفرَّغُ لمثل ذلك، وأكَّد ذلك بالأمر الأخير.

ومن فسَّر السريّ برفيع الشأن سامي القدر؛ جعل التسليةَ بإخراج الرطب كما سمعت، وبالسريِّ من حيثُ إنَّ رفعةَ الشأن مما يتبعها تنزيهُ ساحتها، فكأنه قيل: لا تحزني، فإنَّ الله سبحانه قد أظهر لك ما ينزِّه ساحتك قالاً وحالاً.

وقد يؤيَّد هذا في الجملة بما روي عن ابن زيد قال: قال عيسى عليه السلام لها: لا تحزني، فقالت: كيف لا أحزن وأنت معي ولستُ ذاتَ زوج ولا مملوكة، فأيُّ شيءٍ عذري عند الناس، ليتني متُّ قبل هذا، فقال لها عليه السلام: أنا أكفيك الكلام ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ أي: آدميًّا كائناً من كان.

وقرأ أبو عمرو فيما روى عنه ابنُ الروميّ: «ترئنَّ» بالإبدال من الياء همزة. وزعم ابن خالويه أن هذا لحن عند أكثر النحويين[2].

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥١٦، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٣٧، والبحر المحيط ٦/ ١٨٥.
قال العكبري في الإملاء ٢/ ١١٣ ـ مصورة دار الكتب العلمية: والكسر قراءة شاذة.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٤، وأوردها ابن جني في المحتسب ٢/ ٤٢ ـ وضعفها ـ وأبو حيان في البحر ٦/ ١٨٥.

وقال الزمخشريُّ: إنَّه من لغة من يقول: لبأتُ بالحجِّ، وحَلأتُ السويق، وذلك لتآخٍ بين الهمزة وحروف اللين في الإبدال[(١)].

وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة: «تَرَيْنَ» بسكون الياء وفتح النون خفيفة[(٢)]. قال ابن جنِّي[(٣)]: هي شاذَّةٌ.

وكان القياسُ حذف النون للجازم، كما في قول الأفوه الأوديّ:

إمَّـــا تَـــرَي رأسِـــيَ أزرى بـــه   مـأسُ زمـانٍ ذي انـتـكـاسٍ مَـؤُوْسْ[(٤)]

﴿فَقُولِيٓ﴾ له إن استنطقك: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ وقرأ زيدُ بن عليٍّ ﷺ: «صياماً». والمعنى واحد، أي: صمتاً، كما في مصحف عبد الله، وقرأ به أنسُ بن مالك[(٥)].

فالمراد بالصوم الإمساك، وإطلاقه على ما ذكر باعتبار أنَّه بعضُ أفراده، كإطلاق الإنسان على زيد، وهو حقيقة.

وقيل: إطلاقه عليه مجاز، والقرينة التفريعُ الآتي، وهو ظاهر على ذلك.

وقال بعضهم: المراد به الصوم عن المفطرات المعلومة وعن الكلام، وكانوا لا يتكلمون في صيامهم، وكان قربةً في دينهم، فيصح نذره. وقد نهى النبيُّ ﷺ عنه[(٦)]، فهو منسوخٌ في شرعنا كما ذكره الجصاص في كتاب «الأحكام»[(٧)].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٠٧.

(٢) المحتسب ٢/ ٤٢ عن طلحة، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٣٩، والبحر المحيط ٦/ ١٨٥. وقراءة أبي جعفر المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) في المحتسب ٢/ ٤٢.

(٤) ديوان الأفوه الأودي ص١٦ (الطرائف الأدبية).
قال المعري في رسالة الملائكة ص١٣: مأس بين القوم إذا أفسد بينهم.

(٥) قراءة زيد بن علي في البحر المحيط ٦/ ١٨٥، وقراءة أنس في تفسير الرازي ٢١/ ٢٠٦، والبحر المحيط ٦/ ١٨٥.

(٦) كما في حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبيُّ ﷺ: «مره فليتكلم، وليستظلَّ، وليقعد، وليتمَّ صومه» أخرجه البخاري (٦٧٠٤) عن ابن عباس ﷺ.

(٧) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢١٧.

وروي عن أبي بكر ﷺ أنَّه دخل على امرأةٍ قد نذرت أن لا تتكلم، فقال: إنَّ الإسلامَ هدمَ هذا، فتكلَّمي[(١)].

وفي «شرح البخاريِّ» لابن حجر عن ابن قدامة أنَّه ليس من شريعة الإسلام[(٢)]. وظاهرُ الأخبار تحريمه، فإن نذرَه لا يلزمُه الوفاء به، ولا خلافَ فيه بين الشافعية والحنفية لما فيه من التضييق، وليس في شرعنا، وإنْ كان قربةً في شرع من قبلنا، فتردُّد القفَّالِ في الجواز وعدمِه ناشئٌ من قلَّة الاطلاع.

وفي بعض الآثار ما يدل ظاهره على أن نذر الصمت كان من مريم عليها السلام خاصة، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن حارثة بن مضرب قال: كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان، فسلَّم أحدهما ولم يسلِّم الآخر، ثمَّ جلسا، فقال القوم: ما لصاحبك لم يُسلِّم؟ قال: إنَّه نذرَ صوماً، لا يكلِّم اليوم إنسيًّا. فقال له ابن مسعود: بئس ما قلت، إنَّما كانت تلك المرأة قالت ذلك ليكون عذراً لها إذا سئلت، وكانوا ينكرون أنْ يكون ولدٌ من غير زوج، إلَّا زنًى، فكلِّم وَأْمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكر، فإنَّه خيرٌ لك[(٣)].

والظاهر على المعنى الأخير للصوم أنَّه باعتبار الصمت فيه فرع قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ أي: بعد أن أخبرتُكم بنذري، فيكون[(٤)] قد نذرَتْ أن لا تكلِّم إنسيًّا بغير هذا الإخبار، فلا يكونُ مبطلاً له؛ لأنَّه ليس بمنذورٍ، ويحتملُ أنَّ هذا تفسيرٌ للنذر بذكر صيغته.

وقالت فرقة: أمِرت أن تخبر بنذرها بالإشارة، قيل: وهو الأظهر.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٧٦ بإسناده عن زيد بن وهب عن أبي بكر.
قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٧/ ١٥٠: ولا يقول أبو بكر مثل هذا إلا عن توقيف، فيكون في حكم المرفوع. اهـ.
وفي «صحيح البخاري» (٣٨٣٤) نحوه من حديث قيس بن أبي حازم قال: دخل أبو بكر على امرأة...

(٢) فتح الباري ٧/ ١٥٠. وكلام ابن قدامة في «المغني» ٤/ ٤٨١.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٦٩-٢٧٠. وانظر تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠٦.

(٤) في (م): فتكون.

قال الفراء: العربُ تسمِّي كلَّ ما وصلَ إلى الإنسان كلاماً، بأيِّ طريق وصل، ما لم يؤكَّد بالمصدر، فإذا أكِّد لم يكن إلَّا حقيقة الكلام.

ويفهم من قوله تعالى: «إنسيًّا» دون: أحداً، أنَّ المراد: فلن أكلِّم اليوم إنسيًّا، وإنَّما أكلِّم المَلَك وأناجي ربِّي.

وإنَّما أمرت عليها السلام بذلك ـ على ما قاله غير واحدٍ ـ لكراهة مجادلة السفهاء، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام، فإنَّه نصٌّ قاطعٌ في قطع الطعن.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ أي: جاءتهم مع ولدها حاملةً إيَّاه، على أنَّ الباءَ للمصاحبة، ولو جُعلت للتعدية صحَّ أيضاً. والجملة في موضع الحال من ضمير «مريم»، أو من ضمير ولدها.

وكان هذا المجيء على ما أخرج سعيدُ بن منصور وابن عساكر عن ابن عباس: بعد أربعين يوماً، حين طهرت من نفاسها[١].

قيل: إنَّها حنَّت إلى الوطن، وعلمت أن ستُكفى أمرها، فأتَت به، فلمَّا دخلت عليهم تباكوا، وقيل: همُّوا برجمها، حتى تكلم عيسى عليه السلام.

وجاء في روايةٍ عن الحبر أنَّها لمَّا انتبذت من أهلها وراء الجبل فقدوها من محرابها، فسألوا يوسفَ عنها، فقال: لا علم لي بها، وإنَّ مفتاحَ باب محرابها عند زكريَّا، فطلبوا زكريا وفتحوا الباب فلم يجدوها، فاتَّهموه فأخذوه ووبَّخوه، فقال رجل: إنِّي رأيتُها في موضع كذا، فخرجوا في طلبها، فسمعوا صوت عقعق في رأس الجذع الذي هي من تحته، فانطلقوا إليه، فلما رأتهم قد أقبلوا إليها احتملت الولد إليهم، حتى تلقتهم به، ثم كان ما كان.

وظاهر الآية والأخبار أنَّها جاءتهم به من غير طلبٍ منهم.

وقيل: أرسلوا إليها: لتحضري إلينا بولدك، وكان الشيطان قد أخبرَهم بولادتها، فحضرت إليهم به، فلمَّا رأوهما ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾ فعلت ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ قال قتادة: عظيماً. وقيل: عجيباً. وأصله من فَرى الجلد: قطعه على

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٧٠، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧٠/ ٩٦.

وجه الإصلاح أو الإفساد، وقيل: من أفراه كذلك. واختير الأول لأنَّ فعيلاً إنَّما يصاغ قياساً من الثلاثيّ، وعدمُ التفرقة بينه وبين المزيد في المعنى هو الذي ذهب إليه صاحب «القاموس»[1].

وفي «الصحاح»[2] عن الكسائيِّ أنَّ الفريَ القطعُ على وَجْه الإصلاح، والإفراءَ على وجه الإفساد، وعن الراغب[3] مثلُ ذلك. وقيل: الإفراء عامٌّ.

وأيًّا ما كان فقد استُعير الفري لما ذكر في تفسيره.

وفي «البحر»[4]: أنَّه يستعمل في العظيم من الأمر؛ شرًّا أو خيراً، قولاً أو فعلاً. ومنه في وصف عمر رضي الله عنه: «فلم أرَ عبقريًّا يفري فَرِيَّهُ»[5] وفي المثل: جاء يفري الفرِيَّ[6].

ونصب «شيئاً» على أنَّه مفعولٌ به. وقيل: على أنَّه مفعولٌ مطلق، أي: لقد جئتِ مجيئاً عجيباً. وعبَّر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب.

وقرأ أبو حيوة ـ فيما نقل ابن عطية ـ[7]: «فَرْياً» بسكون الراء، وفيما نقل ابن خالويه: «فرئاً»[8] بالهمزة.

﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ استئنافٌ لتجديد التعيير، وتأكيد التوبيخ. وليس المرادُ بهارون أخا موسى بن عمران عليهما السلام؛ لما أخرج أحمدُ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ

---

(١) مادة (فرى).
(٢) مادة (فرى).
(٣) المفردات (فرى).
(٤) ٦/ ١٧٠.
(٥) أخرجه البخاري(٣٦٣٤)، ومسلم (٢٣٩٣)، وأحمد (٤٨١٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه أيضاً البخاري (٧٤٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) مجمع الأمثال ١/ ١٧٧.
(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ١٣.
(٨) كذا رسمت في الأصل، ومثله في مطبوع البحر المحيط ٦/ ١٨٦. وعنه نقل المصنف. ووقع في القراءات الشاذة ص٨٤، والدر المصون ٧/ ٥٩٢، وتاج العروس (فرأ): فريئاً. ولعله الصواب.

والطبرانيُّ وابنُ حبان وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسولُ الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا: أرأيتَ ما تقرؤون: «يا أخت هارون»، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، قال: فرجعتُ فذكرت ذلك لرسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: «ألا أخبرتَهم أنَّهم كانوا يسمُّون بالأنبياء والصالحين قبلهم»[(١)]، بل هو ـ على ما روي عن الكلبيِّ ـ أخٌ لها من أبيها.

وأخرج عبدُ الرزاق وعبدُ بن حميد عن قتادة قال: هو رجلٌ صالحٌ في بني إسرائيل[(٢)].

وروي عنه أنَّه قال: ذكر لنا أنَّه تبعَ جنازته يوم مات أربعون ألفاً من بني إسرائيل، كلُّهم يسمَّى هارون.

والأختُ على هذا بمعنى المشابهة، وشبَّهوها به تهكماً، أو لما رأوا قبلُ من صلاحها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه رجلٌ طالحٌ فَشَبّهوها به شتماً لها[(٣)].

وقيل: المراد: هارون أخو موسى عليهما السلام، وأخرجَ ذلك ابنُ أبي حاتم أيضاً عن السُّدِّيّ وعليٍّ بن أبي طلحة. وكانت من أعقاب من كان معه في طبقةِ الإخوة، فوصفها بالأخوَّة؛ لكونها وصفَ أصلها.

وجُوِّزَ أنْ يكون هارون مطلقاً على نسله، كهاشم وتميم، والمراد بالأخت أنَّها واحدةٌ منهم، كما يقال: أخا العرب، وهو المرويُّ عن السُّدِّي.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ تقريرٌ لكون ما جاءت به فريًّا، أو تنبيهٌ على أنَّ ارتكابَ الفواحش من أولاد الصالحين أفحشُ.

---

(١) مسند أحمد (١٨٢٠١)، وصحيح مسلم (٢١٣٥)، وسنن الترمذي (٣١٥٥)، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٥٣)، والمعجم الكبير للطبراني ٢٠/(٩٨٦)، وصحيح ابن حبان (٦٢٥٠).

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٧-٨.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٧٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠٧ (١٣١٢٠).

وفيه دليلٌ على أنَّ الفروعَ غالباً تكونُ زاكيةً إذا زكت الأصول، ويُنكَر عليها إذا جاءت بضدِّ ذلك.

وقرأ عمر بن بجاء(١) التيميُّ الشاعر الذي كان يُهاجي جريراً: «ما كان أباكِ امرُؤُ سَوْءٍ»(٢) بجعل الخبر المعرفة، والاسم النكرة. وحسَّن ذلك قليلاً وجودُ مسوِّغِ الابتداء فيها، وهو الإضافة.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى عيسى عليه السلام أنْ كلِّموه. قال شيخ الإسلام(٣): والظاهر أنَّها بيَّنت حينئذٍ نذرَها، وأنَّها بمعزلٍ من محاورة الإنس حسبما أُمرت، ففيه دلالة على أنَّ المأمورَ به بيانُ نذرها بالإشارة لا بالعبارة، والجمعُ بينهما مما لا عهد به.

﴿قَالُوا﴾ منكرين لجوابها. وفي بعض الآثار أنَّها لمَّا أشارت إليه أنْ كلِّموه، قالوا: استخفافُها بنا أشدُّ من زناها. وحاشاها، ثم قالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ قال قتادة: «المهد»: حِجْر أمِّه. وقال عكرمة: المرباة، أي: المرجحة. وقيل: سريره. وقيل: المكان الذي يستقرُّ عليه.

واستشكلت الآية بأنَّ كلَّ من يكلِّمُه الناس كان في المهد صبيًّا قبل زمان تكليمه، فلا يكون محلًّا للتعجُّب والإنكار.

وأجاب الزمخشريُّ(٤) عن ذلك بوجهين:

الأول: أن «كان» لإيقاع مضمون الجملة في زمانٍ ماضٍ مبهم، يصلحُ لقريبه وبعيده، وهو هاهنا لقريبه خاصَّة، والدَّالّ عليه أنَّ الكلام مسوقٌ للتعجب، فيكون المعنى: كيف نكَلِّمُ من كان بالأمس وقريباً منه من هذا الوقت في المهد، وغرضُهم من ذلك استمرار حال الصبيِّ به لم يبرح بعد عنه. ولو قيل: من هو في المهد، لم

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وهو تحريف، والصواب: لجأ، كما في المصادر.
(٢) القراءات الشاذة ص٨٥، والكشاف ٢/ ٥٠٨، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٤٤. وتحرفت في مطبوع البحر المحيط ٦/ ١٨٦ ـ وعنه نقل المصنف ـ إلى: «ما كان أبوك امرء سوء». ويدل على تحريفه ما ذكره أبو حيان بعده.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٣.
(٤) في الكشاف ٢/ ٥٠٨.

يكن فيه تلك الوكادة من حيث السابق، كالشاهد على ذلك، و«من» على هذا موصولةٌ يرادُ بها عيسى عليه السلام.

الثاني: أن يكون «نكلِّم» حكاية حالٍ ماضية، و«من» موصوفة، والمعنى: كيف نكلِّم الموصوفين بأنَّهم في المهد، أي: ما كلَّمناهم إلى الآن حتى نكلِّم هذا، وفي العدول عن الماضي إلى الحال إفادةُ التصوير والاستمرار. وهذا كما في «الكشف» وجهٌ حسنٌ ملائم.

وقال أبو عبيدة: «كان» زائدةٌ لمجرَّد التأكيد من غير دلالة على الزمان، و«صبيًّا» حالٌ مؤكِّدةٌ، والعامل فيها الاستقرار[١]. فقول ابن الأنباريّ: إنَّ «كان» نصبت هنا الخبر، والزائدة لا تنصبه[٢]. ليس بشيء، والمعنى: كيف نكلِّم من هو في المهد الآن حالَ كونه صبيًّا. وعلى قول من قال: إنَّ «كان» الزائدة لا تدلُّ على حدثٍ، لكنَّها تدل على زمانٍ ماضٍ مقيَّد به ما زيدت فيه، كالسيرافي = لا يندفعُ الإشكال بالقول بزيادتها.

وقال الزجاج: الأجودُ أن تكون «من» شرطية، لا موصولة ولا موصوفة، أي: من كان في المهد فكيف نكلِّمه[٣]. وهذا كما يقال: كيف أعظُ من لا يعمل بموعظتي. والماضي بمعنى المستقبل في باب الجزاء، فلا إشكال في ذلك. ولا يخفى بعده.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم، كأنه قيل: فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ رُوي أنَّه عليه السلام كان يرضع، فلمَّا سمع ما قالوا ترك الرضاع، وأقبلَ عليهم بوجهه، واتكأ على يساره، وأشار بسبابته، فقال ما قال.

وقيل: إنَّ زكريا عليه السلام أقبَل عليه يستنطقه، فقال ذلك.

وذكر عبوديته لله تعالى أولاً؛ لأنَّ الاعتراف بذلك ـ على ما قيل ـ أوَّلُ مقامات السالكين.

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٧.
(٢) انظر الأضداد لأبي بكر الأنباري ص٦٢.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٢٨.

وفيه ردٌّ على من يزعم ربوبيَّته. وفي جميع ما قال تنبيهٌ على براءة أمِّه؛ لدلالته على الاصطفاء، والله سبحانه أجلُّ من أن يصطفي ولد الزنى، وذلك من المسلَّمات عندهم. وفيه من إجلال أمِّه عليهما السلام ما ليس في التصريح. وقيل: لأنه تعالى لا يَخصُّ بولدٍ موصوفٍ بما ذُكر إلَّا مبرَّأة مصطفاة.

واختلف في أنَّه بعد أن تكلَّم بما ذكر هل بقيَ يتكلَّم كعادة الرجال، أو لم يتكلَّم حتى بلغ مبلغاً يتكلَّم فيه الصبيان، وعدُّه عليه السلام في عداد الذين تكلَّموا في المهد[1] ثمَّ لم يتكلموا إلى وقت العادة ظاهرٌ في الثاني.

﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الظاهر أنَّه الإنجيل. وقيل: التوراة. وقيل: مجموعهما.

﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِى﴾ مع ذلك ﴿مُبَارَكًا﴾ قال مجاهد: نفَّاعاً، ومن نفعِه إبراءُ الأكمه والأبرص.

وقال سفيان: معلم الخير. [وقيل][2]: آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر.

وعن الضحاك: قاضياً للحوائج. والأول أولى؛ لعمومه، والتعبيرُ بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة، إمَّا باعتبار ما في القضاء المحتوم، أو بجعل ما في شرف الوقوع لا محالة كالذي وقع.

وقيل: أكملَه الله تعالى عقلاً، واستنبأه طفلاً. وروي ذلك عن الحسن.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس أنَّ عيسى عليه السلام درسَ الإنجيل وأحكَمه في بطن أمِّه، وذلك قوله: «آتانيَ الكتاب»[3].

﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: حيثما كنت. وفي «البحر» أنَّ هذا شرطٌ، وجزاؤه محذوفٌ، تقديره: جعلني مباركاً، وحذفَ لدلالة ما تقدَّم عليه.

ولا يجوزُ أنْ يكون معمولاً لـ «جعلني» السابق؛ لأنَّ «أين» لا تكونُ إلَّا

---

(١) الحديث في الثلاثة الذين تكلموا في المهد أخرجه البخاري (٣٤٣٦) ومسلم (٢٥٥٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) ما بين حاصرتين من البحر المحيط ٦/ ١٨٧ وعنه نقل المصنف.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٧٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٠٨ (١٣١٢٤).

استفهاماً أو شرطاً، والأول لا يجوز هنا، فتعيَّن الثاني، واسمُ الشرط لا ينصبُه فعلٌ قبلَه، وإنَّما هو معمولٌ للفعل الذي يليه.

﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: أمرني بهما أمراً مؤكَّداً. والظاهر أنَّ المرادَ بهما ما شُرِع في البدن والمال على وجه مخصوص. وقيل: المراد بالزكاة زكاة الفطر. وقيل: المرادُ بالصلاة الدعاء، وبالزكاة تطهير النفس عن الرذائل.

ويتعيَّن هذا في الزكاة على ما نُقِل عن ابن عطاء الله، وإنْ كان منظوراً فيه من أنَّه لا زكاةَ على الأنبياء عليهم السلام؛ لأنَّ الله تعالى نزَّههم عن الدنيا، فما في أيديهم لله تعالى، ولذا لا يورثون، أو لأنَّ الزكاة تطهيرٌ وكسبهم طاهر.

وقيل لا يتعيَّن؛ لأنَّ ذلك أمرٌ له بإيجاب الزكاة على أمته. وهو خلافُ الظاهر.

وإذا قيل بحمل الزكاة على الظاهر، فالظاهر أنَّ المراد: «أوصاني» بأداء زكاة المال إنْ ملكتُه، فلا مانع من أنْ يشمل التوقيت بقوله سبحانه: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ مدَّةَ كونه عليه السلام في السماء، ويلتزمُ القول بوجوب الصلاة عليه عليه الصلاة والسلام هناك، كذا قيل.

وأنت تعلم أنَّ الظاهرَ المتبادرَ من المدَّة المذكورة مدَّةُ كونه عليه الصلاة والسلام حيًّا في الدنيا على ما هو المتعارف، وذلك لا يشملُ مدَّة كونه عليه السلام في السماء. ونقل ابنُ عطية أنَّ أهل المدينة وابنِ كثير وأبا عمرو قرؤوا: «دِمْتُ» بكسر الدال(١). ولم نجد ذلك لغيره، نعم قيل: إنَّ ذلك لغة.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٥. قال أبو حيان في البحر ٦/ ١٨٧ بعد نقله كلام ابن عطية: والذي في كتب القراءات أن القراء السبعة قرؤوا: «دُمت حيًّا» بضم الدال، وقد طالعنا جملة من الشواذ، فلم نجدها لا في شواذ السبعة، ولا في شواذ غيرهم. . .
وقال السمين في الدر المصون ٧/ ٥٩٦ مثل ذلك ثم قال: فيجوز أن يكون اطلع عليه في مصحف غريب.
وقال صاحب «الدر اللقيط» بهامش البحر ٦/ ١٨٧: حكاها ابن غلبون في كتاب «تصرف الخاصة في القراءات الشاذة» عن يحيى بن وثاب وطلحة، ونص على أنها بكسر الدال، فاعلمه. اهـ.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ عطفٌ على «مباركاً» على ما قال الحوفيُّ وأبو البقاء(١). وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّ فيه بعداً؛ للفصل بالجملة ومتعلقها، واختار إضمارَ فعل، أي: وجعلَني بارًّا بها(٢). قيل: هذا كالصريح في أنَّه عليه السلام لا والدَ له، فهو أظهرُ الجمل في الإشارة إلى براءتها عليها السلام.

وقُرِئ: «بِرًّا» بكسْرِ الباء(٣). ووجه نصبه نحو ما مرَّ في القراءة المتواترة.

وجعل ذاته عليه السلام برًّا من باب:

فإنما هي إقبالٌ وإدبار(٤)

وجوِّز أنْ يكون النصبُ بفعلٍ في معنى: «أوصاني»، أي: وألزمني، أو: وكلَّفني برًّا، فهو من باب:

علفتُها تبناً وماءً باردا(٥)

وأقربُ منه على ما في «الكشف»؛ لأنَّه مثل: زيداً مررتُ به، في التناسب وإنْ لم يكن من بابه.

وجُوِّز أن يكون معطوفاً على محلِّ: «بالصلاة»، كما قيل في قراءة «أرجلكم» بالنصب(٦)، وقيل: إنَّ «أوصى» قد يتعدَّى للمفعول الثاني بنفسه، كما وقع في البخاري: أوصيناكَ ديناً واحداً(٧). والظاهرُ أنَّ الفعلَ في مثل ذلك مضمَّنٌ معنى ما يتعدَّى بنفسه.

---

(١) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١١٤ مصوَّرة دار الكتب العلمية.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٨٨.

(٣) القراءات الشاذة ص٨٤، والمحتسب ٢/ ٤٢، والبحر المحيط ٦/ ١٨٨.

(٤) هو عجز بيت للخنساء وصدره:

ترتع ما رتعت حتى إذا ادَّكرت

وسلف ١/ ٢٦٨.

(٥) سلف ٥/ ٢٩١.

(٦) في سورة المائدة، الآية: ٦. وهي قراءة نافع وابن عامر والكسائي وحفص من السبعة. انظر التيسير ص٩٨. وسلف الكلام عنها في موضعها ٦/ ٧٣.

(٧) «صحيح البخاري»، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإيمان على خمس». قبل الحديث رقم (٨). وهو من قول مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ [الشورى: ١٣].

وحكى الزهراويُّ وأبو البقاء أنه قُرِئ: «وبِرٌّ» بكسر الباء والراء[1]، وهو معطوفٌ على الصلاة والزكاة قولاً واحداً، والتنكير للتفخيم.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ أي: لم يقضِ عليَّ سبحانه بذلك في علمه الأزليّ، وقد كان عليه السلام في غاية التواضع، يأكلُ الشجر، ويلبسُ الشعر، ويجلسُ على التراب، ولم يتَّخذ مسكنًا، وكان عليه السلام يقول: سلوني فإني ليِّنُ القلبِ، صغيرٌ في نفسي.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾ تقدَّم الكلامُ في وجه تخصيص هذه المواطن بالذكر، فتذكَّر فما في العهد من قدم.

والأظهرُ، بل الصحيح[2] أنَّ التعريفَ للجنس، جيء به تعريضاً باللعنة على متهمي مريم وأعدائها عليها السلام من اليهود، فإنَّه إذا قال: جنسُ السلام عليَّ خاصَّة، فقد عرَّض بأنَّ ضدَّه عليكم، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه:٤٧] يعني: أنَّ العذاب على من كذَّب وتولى. وكان المقامُ مقامَ مناكرةٍ وعناد، فهو مئنَّةٌ لنحو هذا من التعريض.

والقول بأنَّه لتعريف العهد خلافُ الظاهر، بل غيرُ صحيح، لا لأنَّ المعهودَ سلامُ يحيى عليه الصلاة والسلام، وعينُه لا يكونُ سلاماً لعيسى عليه الصلاة والسلام؛ لجوازِ أن يكونَ من قبيل: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة:٢٥]، بل لأنَّ هذا الكلامَ منقطعٌ عن ذلك وجوداً وسرداً، فيكون معهوداً غيرَ سابقٍ لفظاً ومعنًى، على أنَّ المقام يقتضي التعريض، ويفوتُ على ذلك التقدير؛ لأن التقابل إنَّما ينشأُ من اختصاص جميع السلام به عليه السلام. كذا في «الكشف»، والاكتفاءُ في العهد به لتصحيحه بذكره في الحكاية لا يخفى حاله.

وسلامُ يحيى عليه السلام، قيل: لكونه من قول الله تعالى، أرجحُ من هذا

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٨٨، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ١١٤.

(٢) قوله: الأظهر، بل الصحيح، وقوله الآتي: خلاف الظاهر، بل غير صحيح. فيه ترجيح لما في «الكشاف» ٢/ ٥٠٨ من تصحيح هذا القول. وردٌّ على البيضاوي في تفسيره ٤/ ٧ حيث عدل عن عبارة «الكشاف» بالتصحيح إلى: الأظهر، وانظر حاشية الخفاجي ٦/ ١٥٦.

السلام؛ لكونه من قول عيسى عليه السلام. وقيل: هذا أرجح؛ لما فيه من إقامة الله تعالى إيَّاه في ذلك مقامَ نفسه، مع إفادة اختصاصِ جميع السلام به عليه السلام، فتأمَّل.

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «يوم وُلِدَتْ» بتاء التأنيث وإسنادِ الفعل إلى والدته[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة على من فُصِّلَت نعوتُه الجليلة، وفيه إشارةٌ إلى علوِّ رتبتِه، وبعدِ منزلته، وامتيازِه بتلك المناقب الحميدة عن غيره، ونزوله منزلةَ المحسوس المشاهد. وهو مبتدأٌ خبره قوله تعالى: ﴿عِيسَى﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفةُ «عيسى»، أو خبرٌ بعدَ خبر، أو بدل، أو عطفُ بيان. والأكثرون على الصفة.

والمراد: ذلك هو عيسى ابن مريم، لا ما يصفُه النصارى، وهو تكذيبٌ لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهانيّ، حيث جُعِل موصوفاً بأضداد ما يصفونَه، كالعبودية لخالقه سبحانه، المضادَّة لكونه عليه السلام إلهاً وابناً لله عزَّ وجل، فالحصرُ مستفادٌ من فحوى الكلام. وقيل: هو مستفادٌ من تعريف الطرفين بناء على ما ذكره الكرمانيّ من أنَّ تعريفهما مطلقاً يفيدُ الحصر.

وهو على ما فيه مخالفٌ لما ذكره أهلُ المعاني من أنَّ ذلك مخصوصٌ بتعريف المسند باللام أو بإضافته إلى ما هي فيه، كـ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [يونس: ١] على ما في بعض شروح «الكشاف».

وقيل: استفادتُه من التعريف على ما ذكروه أيضاً؛ بناءً على أنَّ عيسى مؤولٌ بالمعرف باللام، أي: المسمَّى بعيسى، وهو كما ترى، فعليك بالأول.

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ نصب على المدح، والمرادُ بالحقِّ الله تعالى، وبالقول كلمتُه تعالى، وأُطلقت عليه عليه السلام بمعنى أنَّه خُلِق بقول: «كن» من غير أب.

وقيل: نصب على الحال من «عيسى»، والمراد بالحقِّ والقول ما سمعت.

وقيل: نصب على المصدر، أي: أقول قولَ الحق.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٨٨.

وقيل: هو مصدرٌ مؤكِّد لمضمون الجملة، منصوبٌ بـ «أحقّ» محذوفاً وجوباً.

وقال شيخ الإسلام: هو مصدرٌ مؤكِّد لـ «قال: إنِّي عبدُ الله» إلخ. وقوله سبحانه: «ذلك عيسى بن مريم» اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله[1]. وفيه بعد.

و«الحقّ» في الأقوال الثلاثة بمعنى الصدق، والإضافةُ عند جمعٍ بيانيَّة، وعند أبي حيان[2] من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وقرأ الجمهور: «قولُ» بالرفع[3]، على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو قولُ الحقِّ الذي لا ريبَ فيه، والضمير المقدَّر للكلام السابق، أو لتمام القصة.

وقيل: صفةٌ لـ «عيسى» أو بدلٌ منه، أو خبرٌ بعدَ خبر لـ «ذلك»، أو هو الخبر و«عيسى» بدل أو عطف بيان. والمراد في جميع ذلك كلمةُ الله تعالى.

وقرأ ابن مسعود: «قالُ الحق»، و«قالُ الله» برفع «قال» فيهما[4].

وعن الحسن: «قُولُ الحقِّ» بضمِّ القاف واللام[5].

والقولُ والقَال والقُول بمعنًى واحد، كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْب، ونصَّ أبو حيان على أنَّها مصادر[6]، وعن ابن السكِّيت: القالُ، وكذا القيل: اسمٌ لا مصدر.

وقرأ طلحة والأعمش في رواية: «قال الحقُّ» برفع لام[7] «قال» على أنَّه فعلٌ ماض، ورفع «الحق» على الفاعلية، وجعل «ذلك عيسى ابن مريم» على هذا مقولَ القول، أي: قال الله تعالى: ذلك الموصوفُ بما ذُكر عيسى ابن مريم ﴿ٱلَّذِى فِيهِ

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٥.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٨٩.

(٣) هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي وأبي جعفر وخلف من العشرة. وقرأ بالنصب عاصم وابن عامر ويعقوب. التيسير ص١٤٩، والنشر ٢/ ٣١٨.

(٤) القراءات الشاذة ص٨٤، والكشاف ٢/ ٥٠٩.

(٥) القراءات الشاذة ص٨٥، والكشاف ٢/ ٥٠٩.

(٦) البحر المحيط ٦/ ١٨٩.

(٧) قوله: برفع لام «قال» سبق قلم. فلم أرَ من قيدها بذلك، بل مقتضى كونها فعلاً ماضياً أن تكون بالفتح. انظر البحر المحيط ٦/ ١٨٩، والدر المصون ٧/ ٥٩٨. وروي عن الأعمش أيضاً ضم اللام، كقراءة ابن مسعود السابقة قريباً. فلعلَّ الوهم تسرب إليه من ذلك.

﴿يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: يشكُّون، أو يتنازعون، فيقول اليهود: هو ساحرٌ. وحاشاه. ويقولُ النصارى: ابنُ الله. سبحانَ الله عمَّا يقولون.

والموصول صفةُ القول، أو الحق، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو الذي.. إلخ. وذلك بحسب اختلاف التفسير والقراءة.

وقرأ عليٌّ كرم لله تعالى وجهه والسلميُّ وداود بن أبي هند ونافع في رواية والكسائيُّ كذلك: «تمترون» بتاء الخطاب[1].

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُۥ﴾ أي: ما صحَّ وما استقامَ له جلَّ شأنه اتِّخاذُ ذلك، وهو تكذيبٌ للنصارى، وتنزيهٌ له عزَّ وجلَّ عما افتروه عليه تبارك وتعالى، وقوله جلَّ وعلا: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ تبكيتٌ له ببيان أنَّ شأنَه ـ تعالى شأنُه ـ إذا قضى أمراً من الأمور أنْ يوجَد بأسرع وقتٍ، فمن يكون هذا شأنه كيف يتوهَّمُ أنْ يكون له ولدٌ، وهو من أماراتِ الاحتياج والنقص.

وقرأ ابن عامر: «فيكونَ» بالنصب على الجواب[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ عطفٌ ـ على ما قال الواحديُّ[3] ـ على قوله: «إنِّي عبدُ الله» فهو من تمام قول عيسى عليه السلام، تقريراً لمعنى العبودية[4]، والآيتان معترضتان، ويؤيِّدُ ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقرأ أبيّ بغير واو[5]. والظاهرُ أنَّه على هذا بتقدير القول خطاباً لسيِّد المخاطبين ﷺ، أي: قل يا محمد: إنَّ الله.. إلخ.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو: «وأنَّ» بالواو وفتح الهمزة[6]، وخَرَّجَه الزمخشريُّ على حذف حرف الجرِّ، وتعلقه بـ «اعبدوه»، أي: ولأنَّه تعالى ربي وربُّكم فاعبدوه.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٨٩. وقراءة نافع والكسائي المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.

(٢) التيسير ص٧٦، والنشر ٢/ ٢٢٠.

(٣) انظر الوسيط ٣/ ١٨٤.

(٤) قوله: تقريراً لمعنى العبودية. ليس في الأصل.

(٥) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ١٨٩.

(٦) التيسير ص١٤٩، وقرأ بها أيضاً من العشرة خلف. النشر ٢/ ٣١٨.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] وهو قول الخليل وسيبويه[١].

وأجاز الفرَّاء[٢] أنْ يكون «أن» وما بعدها في تأويل مصدرٍ عطفاً على «الزكاة»، أي: وأوصاني بالصلاة والزكاة، وبأنَّ الله ربِّي وربُّكم.. إلخ.

وأجاز الكسائيُّ أن يكونَ ذلك خبر مبتدأ محذوف، أي: والأمر أنَّ الله ربِّي وربكم.

وحكى أبو عبيدة[٣] عن أبي عمرو بن العلاء أنَّه عطف على «أمراً» من قوله تعالى: «إذا قضى أمراً»، أي: إذا قضى أمراً، وقضَى أنَّ الله ربِّي وربُّكم. وهو تخبيطٌ في الإعراب، فلعلَّه لا يصح عن أبي عمرو، فإنَّه من الجلالة في علم النحو بمكان.

وقيل: إنَّه عطفٌ على الكتاب. وأكثر الأقوال كما ترى.

وفي حرف أبيٍّ ﷺ أيضاً: «وبأنَّ» بالواو وباءِ الجرِّ[٤]، وخرَّجهُ بعضهم بالعطف على الصلاة أو الزكاة[٥]، وبعضهم بأنَّه متعلِّق بـ «اعبدوه» أي: بسبب ذلك فاعبدوه.

والخطاب إمَّا لمعاصري عيسى عليه السلام، وإمَّا لمعاصري نبيِّنا ﷺ.

﴿هَـٰذَا﴾ أي: ما ذكر من التوحيد ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ لا يضلُّ سالكه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلها؛ تنبيهاً

---

(١) الكتاب ٣/ ١٢٦-١٢٧.

(٢) معاني القرآن له ٢/ ١٦٨.

(٣) لم أقف عليه في مجاز القرآن له، ونسبه له أيضاً أبو حيان في البحر ٦/ ١٩٠، والسمين في الدر ٧/ ٦٠١. وعلَّلاه ـ كما صنع المصنف ـ بضعف أبي عبيدة في النحو.
ووقع في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٨، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٥٣: أبو عبيد بدل أبي عبيدة.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٩٠.

(٥) في الأصل: والزكاة.

على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجبُ الاتفاقَ منشأً للاختلاف، فإنَّ ما حُكيَ من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصاً قاطعةً في كونه عبدَ الله تعالى ورسولَه قد اختلفَ اليهود والنصارى بالتفريط والإفراط، فالمرادُ بـ «الأحزاب»: اليهودُ والنصارى، وهو المرويُّ عن الكلبيّ.

ومعنى «من بينهم» أنَّ الاختلافَ لم يخرج عنهم، بل كانوا هم المختلفين، و«بين» ظرفٌ استعمل اسماً بدخول «من» عليه.

ونقل في «البحر» القولَ بزيادة «من»، وحكى أيضاً القول بأنَّ البينَ هنا بمعنى البعد، أي: اختلفوا فيه لبعدهم عن الحق، فتكون سببيَّةً[١]. ولا يخفى بعده.

وقيل: المرادُ بـ «الأحزاب» فِرَقُ النصارى، فإنَّهم اختلفوا بعد رفعه عليه السلام فيه، فقال نسطور: هو ابنُ الله ـ تعالى عن ذلك ـ أظهره ثمَّ رفعه. وقال يعقوب: هو الله تعالى، هبط ثم صعد. وقال ملكا: هو عبد الله تعالى ونبيُّه. وفي «الملل والنحل» أنَّ الملكانيَّة قالوا: إنَّ الكلمةَ ـ يعني: أقنوم العلم ـ اتَّحدت بالمسيح عليه السلام، وتدرَّعت بناسوته.

وقالوا أيضاً: إنَّ المسيح عليه السلام ناسوتٌ كليٌّ لا جزئيّ، وهو قديمٌ، وقد ولدت مريم إلهاً قديماً أزليًّا، والقتلُ والصلبُ وقعَ على الناسوت واللاهوت معاً[٢]. وقد قدَّمنا من أمر النصارى ما فيه كفايةٌ، فليتذكَّر.

وقيل: المراد بهم المسلمون واليهود والنصارى.

وعن الحسن: أنَّهم الذين تحزَّبوا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمَّا قص عليهم قصة عيسى عليه السلام، اختلفوا فيه من بين الناس.

قيل: إنَّهم مطلق الكفار، فيشملُ اليهودَ والنصارى والمشركين الذين كانوا في زمن نبينا ﷺ وغيرهم. ورجَّحه الإمام بأنَّه لا مخصِّص فيه[٣].

ورُجِّحَ القولُ بأنَّهم أهلُ الكتاب بأنَّ ذكرَ الاختلاف عقيب قصَّة عيسى عليه

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٠.
(٢) الملل والنحل ١/ ٢٢٢.
(٣) تفسير الرازي ١/ ٢٢٠.

السلام يقتضي ذلك، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فالمراد بهم الأحزاب المختلفون، وعبَّر عنهم بذلك؛ إيذاناً بكفرهم جميعاً، وإشعاراً بعلَّة الحكم، وإذا قيل بدخول المسلمين أو الملكانية ـ وقيل: إنَّهم قالوا بأنَّه عليه السلام عبدُ الله ونبيُّه ـ في الأحزاب، فالمراد من الذين كفروا بعض الأحزاب، أي: فويل للذين كفروا منهم.

﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: من مشهود يومٍ عظيم الهول والحساب والجزاء، وهو يوم القيامة. أو من وقت شهودِه، أو مكان الشهود فيه، أو من شهادةِ ذلك اليوم عليهم؛ وهو أنْ تشهدَ الملائكة والأنبياء عليهم السلام عليهم وألسنتهم وسائر جوارحهم بالكفر والفسوق، أو من وقتِ الشهادة أو من مكانها.

وقيل: هو ما شهدوا به في حقِّ عيسى عليه السلام وأمِّه، وعِظَمُه لعظَم ما فيه أيضاً، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥].

وقيل: هو يومُ قتل المؤمنين حين اختلف الأحزاب. وهو كما ترى.

والحقُّ أنَّ المرادَ بذلك اليوم يوم القيامة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجيبٌ من حدَّة سمعِهم وأبصارهم يومئذٍ، ومعناه أنَّ أسماعَهم وأبصارهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ للحساب والجزاء، أي: يوم القيامة: جديرٌ بأنْ يُتعجَّب منهما، بعد أنْ كانوا في الدنيا صمًّا وعمياً. وروي ذلك عن الحسن وقتادة.

وقال علي بن عيسى: هو وعيدٌ وتهديدٌ، أي: سوف يسمعونَ ما يخلعُ قلوبَهم، ويبصرون ما يسوِّد وجوههم.

وعن أبي العالية أنَّه أمر حقيقة للرسول ﷺ بأنْ يسمِعهم ويبصِّرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيقُ بهم فيه.

والجارُّ والمجرور على الأولين في موضع الرفع على القول المشهور. وعلى الأخير في محلِّ نصبٍ؛ لأنَّ «أَسْمِع» أمرٌ حقيقيٌّ، وفاعلُه مستترٌ وجوباً.

وقيل: في التعجُّب أيضاً إنه كذلك، والفاعل ضمير المصدر.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ لا يدرك غايتُه، حيث أغفَلوا الاستماعَ والنظر بالكليَّة.

ووضع «الظالمين» موضعَ الضمير؛ للإيذان بأنَّهم في ذلك ظالمون لأنفسهم.

والاستدراك ـ على ما نُقِل عن أبي العالية ـ يتعلَّق بقوله تعالى: «فويلٌ للذين كفروا».

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ أي: الظالمين على ما هو الظاهر. وقال أبو حيَّان(١): الضميرُ لجميع الناس، أي: خوِّفهم ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ يوم يتحسَّرُ الظالمون على ما فرَّطوا في جنب الله تعالى. وقيل: الناسُ قاطبةً، وتحسُّر المحسنين على قلَّة إحسانهم.

﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فرغ من الحساب، وذهبَ أهل الجنة إلى الجنة، وأهلُ النار إلى النار، وذبح الموت، ونودي كلٌّ من الفريقين بالخلود.

وعن السُّدِّيّ وابن جريج: الاقتصارُ على ذبح الموت، وكان ذلك لما رَوى الشيخان والترمذيُّ عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتَى بالموت كهيئة كبشٍ أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبُّونَ وينظرون، فيقول: هل تعرفونَ هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلُّهم قد رأوه، ثمَّ ينادي منادٍ: يا أهل النار، فيشرئبُّونَ وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلُّهم قد رأوه، فيذبَح بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهلَ النار خلودٌ فلا موت». ثم قرأ: (وَأَنذِرْهُمْ) الآية(٢).

وفي روايةٍ عن ابن مسعود أنَّ يوم الحسرة حين يرى الكفارُ مقاعدَهم من الجنَّة لو كانوا مؤمنين.

وقيل: حين يقال لهم وهم في النار: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

وقيل: حين يقال: ﴿وَٱمْتَـٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩].

وقال الضحاك: ذلك إذا برزت جهنَّم ورَمَت بالشرر.

وقيل: المراد بذلك يوم القيامة مطلقاً، وروي ذلك عن ابن زيد، وفيه حسراتٌ في مواطن عديدة، ومن هنا قيل: المرادُ بالحسرة جنسُها، فيشمل ذلكَ حسرتهم

(١) في البحر المحيط ٦/ ١٩١.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩): (٤٠) (٤١)، وسنن الترمذي (٣١٥٦). وهو عند أحمد (١١٠٦٦).

فيما ذُكر، وحسرتَهم عند أخذ الكتب بالشمائل، وغير ذلك، والمراد[1] بقضاء الأمر الفراغُ من أمر الدنيا بالكليَّة، ويعتبر وقتُ ذلك ممتدًّا.

وقيل: المرادُ بـ «يوم الحسرة» يومُ القيامة، كما روي عن ابن زيد، إلَّا أنَّ المرادَ بقضاء الأمر الفراغُ ممَّا يوجبُ الحسرة. وجوَّزَ ابنُ عطية[2] أنْ يُرادَ بـ «يوم الحسرة» ما يَعمُّ يوم الموت.

وأنتَ تعلم أنَّ ظاهرَ الحديث السابق ـ وكذا غيره كما لا يخفى على المتتبِّع ـ قاضٍ بأنَّ يوم الحسرة يوم يذبح الموت، وينادَى بالخلود، ولعلَّ التخصيصَ لما أنَّ الحسرةَ يومئذٍ أعظمُ الحسرات؛ لأنَّه هناك تنقطعُ الآمال، وينسدُّ باب الخلاص من الأهوال.

ومن غريب ما قيل: إنَّ المراد بقضاء الأمر سدُّ باب التوبة حين تطلعُ الشمس من مغرِبها. وليس بشيء. و«إذ» على سائر الأقوال بدلٌ من «يوم»، أو متعلِّقٌ بـ «الحسرة»، والمصدرُ المعرَّفُ يعمل بالمفعول الصريح عند بعضهم، فكيف بالظرف.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩﴾ قال الزمخشريُّ: متعلِّقٌ بقوله تعالى شأنه: «في ضلال مبين» عن الحسن[3].

ووجَّهَ ذلك بأنَّ الجملتين في موضع الحال من الضمير المستتر في الجارِّ والمجرور، أي: مستقرُّون في ذلك، وهم في تينك الحالتين.

واستظهر في «الكشف» العطف على قوله تعالى: «الظالمون في ضلال مبين» أي: هم في ضلال وهم في غفلة. وعلى الوجهين تكونُ جملة: «أنذرهم» معترضةً، والواو اعتراضيَّة، ووجه الاعتراض أنَّ الإنذار مؤكِّدٌ ما هم فيه من الغفلة والضلال.

وجوَّز أنْ يكون ذلك متعلِّقًا بـ «أنذرهم» على أنَّه حالٌ من المفعول، أي: أنذرهم غافلين غير مؤمنين.

وتُعقِّب بأنَّه لا يلائم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: داخل في حيز قيل. اهـ. منه.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧.
(٣) الكشاف ٢/ ٥١٠.

وقال في «الكشف»: إنَّه غير واردٍ؛ لأنَّ ذلك بالنسبة إلى النفع، وهذا بالنسبة إلى تنبيه الغافل؛ لبيان أنَّ النفع في الآخرة، وهذه وظيفةُ الأنبياء عليهم السلام عن آخرهم. ثمَّ لو سلِّم لا مناقضة، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، كيف وقد تكرَّر هذا المعنى في القرآن، إلى قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:٦].

وأمَّا أن قوله سبحانه: «وهم لا يؤمنون» نفيٌ مؤكَّد يشتملُ على الماضية والآتية، فلا يسلَّم لو جعل حالاً، ولو سلِّم فقد عُلِم جوابُه مما سبق، وما على الرسول إلا البلاغ.

نعم لا نمنع أنَّ الوجه الأول أرجحُ وأشدُّ طباقاً للمقام، وحاصلُ المعنى على الأخير «أنذرهم» لأنَّهم في حالة يحتاجون فيها للإنذار.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ لا يبقى لأحدٍ غيره تعالى مِلْك ولا مُلْك، فيكونُ كلُّ ذلك له تعالى استقلالاً ظاهراً وباطناً، دون ما سواه، وينتقل إليه سبحانه انتقالَ الموروث من المورِّث إلى الوارث، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] أو نتوفى الأرضَ ومن عليها بالإفناء والإهلاك توفِّيَ الوارثِ لإرثه، واستيفاءه إيَّاه.

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: يردُّون إلى الجزاء، لا إلى غيرنا استقلالاً أو اشتراكاً.

وقرأ الأعرج: «ترجعون» بالتاء الفوقيَّة. وقرأ السلميُّ وابنُ أبي إسحاق وعيسى بالياء التحتية مبنيًّا للفاعل، وحَكى عنهم الدانيُّ أنَّهم قرؤوا بالتاء الفوقية[1]. والله تعالى أعلم.

* * *

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ هو وأمثاله على الصحيح سرٌّ من أسرار الله تعالى، وقيل في وجه افتتاح هذه السورة به: إنَّ الكاف إشارةٌ إلى الكافي الذي اقتضاه حالُ ضعف زكريا عليه السلام وشيخوخته وعجزه، والهاءَ إشارةٌ إلى

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩١.

الهادي الذي اقتضاه عنايته سبحانه به وأدائه مطلوبَه له، والياء إشارةٌ إلى الواقي الذي اقتضاه حالُ خوفه من الموالي، والعين إشارةٌ إلى العالم الذي اقتضاه إظهاره لعدم الأسباب، والصاد إشارة إلى الصادق الذي اقتضاه الوعد.

والإشارة في القصتين إجمالاً إلى أنَّ الله تعالى شأنه يهبُ بسؤالٍ وغير سؤال. وطبق بعضُ أهل التأويل ما فيهما على ما في الأنفس، فتكلَّفوا وتعسَّفوا.

وفي نذر الصوم ـ والمرادُ به الصمت ـ إشارةٌ إلى ترك الانتصار للنفس، فكأنَّه قيل لها عليها السلام: اسكتي ولا تنتصري، فإنّ في كلامك وانتصارك لنفسك مشقَّةً عليك، وفي سكوتك إظهار ما لنا فيك من القدرة، فلزمتِ الصمتَ، فلمَّا علم الله سبحانه صدقَ انقطاعها إليه، أنطقَ جلَّ وعلا عيسى عليه السلام ببراءتها.

وذكر أنَّه عليه السلام طَوى كلَّ وصفٍ جميلٍ في مطاوي قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، وذلك لما قالوا من أنه لا يُدْعَى أحدٌ بعبد الله إلَّا إذا صار مظهراً لجميع الصفات الإلهية المشير إليها الاسم الجليل، وجعل على هذا قولُه: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلخ، كالتعليل لهذه الدعوى.

وذكروا أنَّ العبدَ مضافاً إلى ضميره تعالى أبلغُ مدحاً مما ذُكر، وأنَّ صاحبَ ذلك المقام هو نبيُّنا ﷺ. وكأنَّ مرادَهم أنَّ العبد مضافاً إلى ضميره سبحانه كذلك إذا لم يُقرن بعلم، كـ ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وإلَّا فدعوى الاختصاص لا تتمّ، فليتدبَّر.

وذكر ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أنَّ الجبار الذي لا ينصح، والشقيَّ الذي لا ينتصح، نعوذُ بالله سبحانه من أن يجعلنا كذلك.

❁ ❁ ❁

﴿وَٱذْكُرْ﴾ عطفٌ على «أنذرهم» عند أبي السعود[1]. وقيل: على «اذكر» السابق، ولعلَّه الظاهر. ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه السورة، أو في القرآن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: اتلُ على الناس قصَّته، كقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩] وإلَّا فَذاكِرُ ذلك في الكتاب هو الله تعالى كما في «الكشاف»[2].

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٦.
(٢) ٢/ ٥١٠.

وفيه أنَّه عليه الصلاة والسلام لكونه الناطقَ عنه تعالى، ومبلغ أوامره ونواهيه، وأعظم مظاهره سبحانه ومجاليه، كأنَّه الذاكر في الكتاب ما ذكره ربُّه جلَّ وعلا[١].

ومناسبة هذه الآية لما قبلها اشتمالُها على تضليل من نسب الألوهية إلى الجماد اشتمالَ ما قبلها على ما أشار إلى تضليل من نسبها إلى الحيّ، والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلَّا أنَّ الفريق الثاني أضلّ.

ويقال على القول الأول في العطف: إنَّ المراد: أنذرهم ذلك، واذكر لهم قصة إبراهيم عليه السلام، فإنَّهم ينتمون إليه ﷺ، فعساهم باستماع قصَّته يقلعون عمَّا هم فيه من القبائح.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ أي: ملازمَ الصدق لم يكذب قطّ ﴿نَّبِيًّا ۝٤١﴾ استنبأه الله تعالى، وهو خبر آخر لـ «كان»، مقيِّدٌ للأول، مخصِّص له، أي: كان جامعاً بين الوصفين.

ولعلَّ هذا الترتيبَ للمبالغة في الاحتراز عن توهُّم تخصيص الصدِّيقيَّة بالنبوَّة، فإنَّ كل نبيٍّ صدِّيق، وقيل: الصدِّيق: من صَدَقَ بقوله واعتقاده، وحقَّقَ صدقَه بفعله. وفي «الكشاف»: الصِّدِّيق من أبنية المبالغة، والمراد فرط صدقه، وكثرةُ ما صدَّق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله، وكأن الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل، أي: كان مصدِّقاً بجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبيًّا في نفسه، كقوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧] أو كان بليغاً في الصدق؛ لأنَّ ملاك أمر النبوَّة الصدق، ومصدِّقُ الله تعالى بآياته ومعجزاته حريٌّ أن يكون كذلك[٢]. انتهى.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المبالغة تَحتملُ أن تكون باعتبار الكمِّ، وأنْ تكون باعتبار الكيف، ولك أنْ تُريد الأمرين؛ لكون المقام مقام المدح والمبالغة، وقد ألَمَّ بذلك الراغب[٣].

وأما أنَّ التكثير باعتبار المفعول، كما في: قطعت الحبال، فقد عدَّه في «الكشف» من الأغلاط. فتأمَّل.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: لم يقصد به الاعتراض. اهـ. منه.
(٢) الكشاف ٢/ ٥١٠.
(٣) في المفردات (صدق).

واستُظهِر أنَّه من الصدق لا من التصديق، وأُيِّد بأنَّه قرئ: «إنَّه كان صادقاً»[١]، وبأنَّه قلَّما يوجدُ فعيل من مفعِّل، والكثيرُ من الفاعل.

وفسَّر بعضُهم النبيَّ هنا برفيع القدر عند الله تعالى وعند الناس. والجملة استئناف مسوق لتعليل موجبِ الأمر؛ فإنَّ وصفَه عليه السلام بذلك من دواعي ذكرِه، وهي ـ على ما قيل ـ اعتراضٌ بين المبدل منه وهو «إبراهيم»، والبدل وهو «إذ» في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ﴾. وتعقَّبه صاحبُ «الفرائد» بأنَّ الاعتراضَ بين البدل والمبدل منه بدون الواو بعيدٌ عن الطبع، وفيه منعٌ ظاهر[٢]. وفي «البحر» أنَّ بدلية «إذ» من «إبراهيم» تقتضي تصرُّفها، والأصحُّ أنَّها لا تتصرف[٣]. وفيه بحث.

وقيل: «إذ» ظرفٌ لـ «كان»، وهو مبنيٌّ على أنَّ «كان» الناقصة وأخواتها تعملُ في الظروف، وهي مسألةٌ خلافية.

وقيل: ظرف لـ «نبيًّا»، أي: منبئٌ في وقت قوله ﴿لِأَبِيهِ﴾. وتُعقِّب بأنَّه يقتضي أنَّ الاستنباءَ كان في ذلك الوقت.

وقيل: ظرف لـ «صدِّيقاً». وفي «البحر»: لا يجوزُ ذلك؛ لأنَّه قد نُعِتَ، إلَّا على رأي الكوفيين[٤]. وفيه أن «نبيًّا» خبرٌ كما ذكرنا، لا نعت.

نعم تقييد الصديقيَّة بذلك الوقت لا يخلو عن شيء.

وقيل: ظرف لـ «صدِّيقاً نبيًّا» وظاهرُه أنَّه معمولٌ لهما معاً. وفيه أنَّ توارُدَ عاملين على معمولٍ واحدٍ غيرُ جائز على الصحيح، والقول بأنَّهما جُعلا بتأويل اسمٍ واحدٍ، كتأويل: حلو حامض، بمزٍّ، أي: جامعاً لخصائص الصديقين والأنبياء عليهم السلام حين خاطب أباه = لا يخفى ما فيه.

والذي يقتضيه السياق ويشهدُ به الذوق البدليَّةُ، وهو بدل اشتمال.

---

(١) هي قراءة أبي البَرَهْسم كما في البحر ٦/ ١٩٣.

(٢) وتعقب الشهاب صاحبَ الفرائد فقال: لا وجه له، وليس الردُّ والقبول بالتشهي. حاشية الشهاب ٦/ ١٦٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ١٩٣.

(٤) البحر المحيط ٦/ ١٩٣.

وتعليقُ الذكر بالأوقات مع أنَّ المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيها من الحوادث قد مرّ سرُّه مراراً، فتذكر.

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أي: يا أبي، فإنَّ التاء عوضٌ عن[1] ياء الإضافة، ولذلك لا يُجمَع بينهما إلَّا شذوذاً، كقوله:

يـــا أبـــتـــي أرّقـــنـــي الـــقِـــذَّان[2]

والجمع في «يا أبتا» قيل: بين عوضين، وهو جائزٌ كجمع صاحبِ الجبيرة بين المسح والتيمُّم، وهما عوضان عن الغسل، وقيل: المجموع فيه عوض. وقيل: الألف للإشباع، وأنت تعلم حال العلل النحوية.

وقرأ ابن عامر والأعرج وأبو جعفر: «يا أبتَ» بفتح التاء[3]، وزعم هارون أنَّ ذلك لحنٌ. والحقُّ خلافه. وفي مصحف عبد الله: «وا أبت»[4] بواو بدل ياء، والنداءُ بها في غير الندبة قليل. وناداه عليه السلام بذلك استعطافاً له.

وأخرج أبو نعيم والديلميُّ عن أنسٍ مرفوعاً: «حقُّ الوالد على ولده أن لا يسمِّيه إلا بما سمَّى إبراهيم عليه السلام به أباه؛ يا أبت، ولا يسميه باسمه»[5].

وهذا ظاهرٌ في أنَّه كان أباه حقيقةً.

وصحَّح جمعٌ أنَّه كان عمَّه، وإطلاق الأب عليه مجاز.

﴿لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ﴾ ثناءَك عليه عند عبادتك له، وجؤارك إليه ﴿وَلَا يُبۡصِرُ﴾ خضوعَك وخشوعك بين يديه، أو: لا يسمعُ ولا يبصرُ شيئاً من المسموعات والمبصَرات، فيدخلُ في ذلك ما ذكرَ دخولاً أوّليًّا.

---

(١) في (م): من.
(٢) الرجز لرؤبة بن العجاج، وانظر المؤتلف والمختلف للآمدي ص١٧٦، وخزانة الأدب ١/ ٩٢. وفيهما: يا أبتا.
والقِذَّان جمع قذذ، كصُرَد، وهو البرغوث. انظر تاج العروس (قذذ). وذكره الخفاجي في حاشيته ٦/ ١٦٠ بمثل الرواية التي ذكرها المصنف.
(٣) التيسير ص١٢٧، والنشر ٢/ ٢٩٣. وقراءة الأعرج في البحر المحيط ٦/ ١٩٣.
(٤) البحر المحيط ٦/ ١٩٣.
(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٧٢، وهو عند أبي نعيم في الحلية ٥/ ١٤٢ لكن عن عبد الله بن محيريز بنحوه موقوفاً.

و«ما» موصولةٌ، وجوَّزوا أن تكون نكرة موصوفة.

﴿وَلَا يُغْنِى﴾ أي: لا يقدرُ على أنْ يغني ﴿عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ من الأشياء، أو شيئاً من الإغناء، فهو نصب على المفعوليَّة أو المصدريَّة.

ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج، واحتجَّ عليه أبدع احتجاج؛ بحسن أدبٍ وخُلقٍ ليس له مِن هاج؛ لئلَّا يَرْكَبَ متن المكابرة والعناد، ولا ينكب بالكليَّة عن سبيل الرشاد، حيث طلب منه علَّة عبادته، لما يستخفُّ به عقل كلِّ عاقل من عالمٍ وجاهلٍ ويأبى الركون إليه، فضلاً عن عبادته التي هي الغايةُ القاصية من التعظيم، مع أنَّها لا تحقُّ إلَّا لمن له الاستغناء التامُّ، والإنعام العامُّ، الخالق الرازق، المحيي المميت، المثيب المعاقب، ونبَّه على أن العاقل يجب أنْ يفعل كلَّ ما يفعل لداعيةٍ صحيحة، وغرضٍ صحيح، والشيءُ لو كان حيًّا مميِّزاً، سميعاً بصيراً، قادراً على النفع والضر، لكن كان ممكناً، لاستنكف ذو العقل السليم عن عبادته، وإن كان أشرف الخلائق؛ لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبية، فما ظنُّك بجمادٍ مصنوع، ليس له من أوصاف الأحياء عينٌ ولا أثر. ثم دعاه إلى أن يتَّبعه ليهديه إلى الحقِّ المبين، لما أنَّه لم يكن محظوظاً من العلم الإلهيّ، مستقلًّا بالنظر السويّ، مُصَدِّراً لدعوته بما مرَّ من الاستعطاف، حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ ولم يَسِم أباه بالجهل المفرط، وإن كان في أقصاه، ولا نفسَه بالعلم الفائق، وإن كان كذلك، بل أبرزَ نفسه في صورة رفيقٍ[1] له، يكون أعرفَ بأحوال ما سلكاه من الطريق، فاستماله برفق حيث قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ أي: مستقيماً موصِلاً إلى أسنى المطالب، منجياً عن الضلال المؤدِّي إلى مهاوي الردى والمعاطب.

وقوله: «جاءني» ظاهرٌ في أنَّ هذه المحاورة كانت بعد أن نُبِّئ عليه السلام.

والذي جاءه، قيل: العلم بما يجبُ لله تعالى وما يمتنع في حقِّه وما يجوز، على أتمِّ وجه وأكمله. وقيل: العلم بأمور الآخرة وثوابها وعقابها. وقيل: العلم بما يعمُّ ذلك.

---

(١) في (م): رقيق.

ثم ثبَّطه عمَّا هو عليه بتصويره بصورةٍ يستنكرها كلُّ عاقل، ببيان أنَّه مع عرائه عن النفع بالمرَّة مستجلِبٌ لضررٍ عظيم، فإنَّه في الحقيقة عبادةُ الشيطان؛ لما أنَّه الآمر به فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ فإنَّ عبادتك الأصنام عبادة له، إذ هو الذي يسوِّلها لك ويغريكَ عليها. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾﴾ تعليلٌ لموجب النهي وتأكيدٌ له، ببيان أنَّهُ مستعصٍ على من شملتكَ رحمتُه وعمَّتك نعمته.

ولا ريب في أنَّ المطيعَ للعاصي عاصٍ، وكلُّ من هو عاصٍ حقيقٌ بأن تُستَردَّ منه النعم ويُنْتَقَمَ منه. وللإشارة إلى هذا المعنى جيء بـ «الرحمن». وفيه أيضاً إشارةٌ إلى كمال شناعة عصيانه. وفي الاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته؛ لأنَّه ملاكها، أو لأنَّه نتيجةُ معاداته لآدم عليه السلام، فتذكيره داعٍ لأبيه عن[1] الاحتراز عن موالاته وطاعته، والإظهارُ في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تحذيرٌ من سوء عاقبة ما هو فيه من عبادة الأصنام.

والخوفُ ـ كما قال الراغب ـ: توقُّع المكروه عن أمارةٍ مظنونَة، أو معلومة[2]. فهو غير مقطوعٍ فيه بما يخاف، ومن هنا قيل: إنَّ في اختياره مجاملة.

وحمله الفرَّاء والطبريُّ على العلم[3]، وليس بذاك.

وتنوين «عذاب» ـ على ما اختاره السعد في «المطول» ـ يحتملُ التعظيم والتقليل، أي: عذابٌ هائل، أو أدنى شيء منه. وقال: لا دلالة للفظ المسِّ وإضافةِ العذاب إلى الرحمن على ترجيح الثاني ـ كما ذكره بعضهم ـ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤] ولأنَّ العقوبةَ من الكريم الحليم أشدّ. اهـ. واختار أبو السعود أنَّه للتعظيم، وقال: كلمة «من» متعلِّقةٌ بمضمرٍ وقع صفةً للعذاب، مؤكِّدةٌ لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتيَّة بالفخامة الإضافيَّة، وإظهار «الرحمن» للإشعار بأنَّ وصف الرحمانيَّة لا يدفعُ حلولَ العذاب، كما في

---

(١) كذا في الأصل و(م). ووقع في تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٧ ـ وعنه نقل المصنف: إلى.
(٢) المفردات (خوف).
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٦٩، وتفسير الطبري ١٥/ ٥٥١.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]. انتهى[1].

وفي «الكشف» أنَّ الحمل على التفخيم في «عذاب» ـ كما جوَّزه صاحب «المفتاح»[2] ـ مما يأباه المقام، أي: لأنَّه مقام إظهار مزيد الشفقة ومراعاة الأدب وحسن المعاملة، وإنَّما قال: «من الرحمن» لقوله أوَّلاً: «كان للرحمن عصيًّا»، وللدلالة على أنَّه ليس على وجه الانتقام، بل ذلك أيضاً رحمةٌ من الله تعالى على عباده، وتنبيهٌ على سَبْقِ الرحمة الغضب، وأن الرحمانيَّة لا تنافي العذاب، بل الرحيمية على ما عليه الصوفية؛ فقد قال المحقق القونويّ في «تفسير الفاتحة»: «الرحيم» ـ كما بيَّنا ـ لأهل اليمين والجمال، والرحمن الجامعُ بين اللطف والقهر لأهل القضية[3] الأخرى والجلال. إلى آخر ما قال[4].

وأُيِّد الحملُ على التفخيم بقوله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ أي: قريناً تليه ويليك في العذاب، فإنَّ الولاية للشيطان بهذا المعنى إنَّما تترتَّب على مسِّ العذاب العظيم.

وأجيبَ عن كون المقام مقام إظهارِ مزيد الشفقة ـ وهو يأبى ذلك ـ بأنَّ القسوة أحياناً من الشفقة أيضاً، كما قيل:

فقسا ليزدجروا ومن يكُ حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم[5]

وقد تقدَّم هذا مع أبياتٍ أخر بهذا المعنى[6].

ويكفي في مراعاة الأدب والمجاملة عدمُ الجزم باللحوق والمسّ، وإن كان مُشعِراً بالقِلَّةِ عند الجلَّة، لكن قالوا: إنَّ الكثرةَ والعظمةَ باعتبار ما يلزمُه ويتبعه، لا بالنظر إليه في نفسه، فإنَّه غيرُ مقصودٍ بالذات، وإنَّما هو كالذوق مقدمةٌ للمقصود، فيصحُّ وصفه بكلٍّ من الأمرين باعتبارين. وكأنِّي بك تختار التفخيم؛ لأنَّه أنسب بالتخويف، وتدَّعي أنَّه ها هنا من معدن الشفقة. فتدبَّر.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٧.
(٢) مفتاح العلوم ص١٩٤.
(٣) في تفسير سورة الفاتحة ص١٥٠: القبضة. وهي الصواب الموافق لسياق الكلام ثمة.
(٤) تفسير سورة الفاتحة ص١٤٩ ـ ١٥٠.
(٥) سلف ٥/ ٨٨.
(٦) ١٠/ ٥٨٣.

وجوّز أنْ يكون «فتكون» إلخ مترتِّباً على مسِّ العذاب القليل.

و«الولي» من الموالاة، وهي المتابعة والمصادقة، والمراد: تفريع الثبات على حكم تلك الموالاة، وبقاء آثارها من سخط الله تعالى وغضبه، ولا مانع من أنْ يتفرَّع من قليلٍ أمرٌ عظيم.

ثمَّ الظاهر أنَّ المرادَ بالعذاب عذابُ الآخرة، وتأوَّله بعضُهم بعذاب الدنيا، وأراد به الخذلان، أو شيئاً آخر ممَّا أصابَ الكفرة في الدنيا من أنواع البلاء. وليس بذاك.

وزعم بعضُهم أنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً، والأصل: إنِّي أخافُ أن تكون وليًّا للشيطان، أي: تابعاً له في الدنيا؛ فيَمسَّك عذابٌ من الرحمن، أي: في العقبى. وكأنَّه أشكلَ عليه أمرُ التفريع، فاضطر لما ذكر، وقد أغناكَ الله تعالى عن ذلك بما ذكرنا.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من صدر الكلام، كأنَّه قيل: فماذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذا النصائحَ الواجبة القبول؟ فقيل: قال مصرًّا على عناده، مقابلاً الاستعطافَ واللطفَ بالفظاظة والغلظة: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ اختار الزمخشريُّ كون «راغب» خبراً مقدَّماً «وأنت» مبتدأ، وفيه توجيه الإنكار إلى نفس الرغبة، مع ضَرْبٍ من التعجيب[1].

وذهب أبو البقاء[2] وابن مالك وغيرهما إلى أنَّ «أنت» فاعلُ الصفة؛ لتقدُّم الاستفهام، وهو مغنٍ عن الخبر، وذلك لئلَّا يلزمَ الفصل بين «أراغب» ومعموله وهو «عن آلهتي» بأجنبيٍّ هو المبتدأ.

وأجيبَ بأنَّ «عن» متعلِّقٌ بمقدَّر بعد «أنت» يدلُّ عليه «أراغب». وقال صاحب «الكشف» المبتدأ ليس أجنبيًّا من كلّ وجه، لاسيما والمفصول ظرف، والمقدم في نيةِ التأخير، والبليغ يَلتفتُ لِفتَ المعنى بعد أن كان لما يرتكبه وجهٌ مساغٌ في العربية، وإن كان مرجوحاً. ولعلَّ سلوك هذا الأسلوب قريبٌ من ترجيح

(١) الكشاف ٢/ ٥١١.
(٢) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١١٤.

الاستحسان لقوَّة أثره على القياس. ولا خفاء أنَّ زيادة الإنكار إنَّما نشأ من تقديم الخبر، كأنَّه قيل: أراغبٌ أنت عنها لا طالبٌ لها راغبٌ فيها؟ منبِّهاً له على الخطأ في صدوفه ذلك، ولو قيل: أترغب. لم يكن من هذا الباب في شيء. انتهى.

ورجَّح أبو حيَّان إعراب أبي البقاء ومن معه بعدم لزوم الفصل فيه، وبسلامة الكلام عليه عن خلاف الأصل في التقديم والتأخير(١).

وتوقَّف البدرُ الدمامينيُّ في جواز ابتدائية المؤخَّر في مثل هذا التركيب، وإن خلا عن فصلٍ أو محذورٍ آخر، كما في: أطالعٌ الشمس، وذلك نحو: أقائم زيدٌ؛ للزوم التباس المبتدأ بالفاعل، كما في: ضرب زيد. فإنه، لا يجوز فيه ابتدائية زيد.

وأجابَ الشُّمُني بأنَّ زيداً في الأول يحتملُ أمرين؛ كلٌّ منهما بخلاف الأصل، وذلك إجمالٌ لا لبس، بخلافه في الثاني. فتأمَّل.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ تهديدٌ وتحذيرٌ عمَّا(٢) كان عليه من العظة والتذكير، أي: والله لئن لم تَنْتَهِ عما أنت عليه من النهي عن عبادتها، والدعوة إلى ما دعوتني إليه، لأرجمنَّك بالحجارة، على ما روي عن الحسن. وقيل: باللسان، والمرادُ لأشتمنَّك، وروي ذلك عن ابن عباس والسديِّ والضحَّاك وابنُ جريج.

وقدَّر بعضُهم متعلَّق النهي الرغبةَ عن الآلهة، أي: لئن لم تَنْتَهِ عن الرغبة عن آلهتي لأرجمنَّك. وليس بذاك.

﴿وَاهْجُرْنِي﴾ عطفٌ على محذوف يدلُّ عليه التهديد، أي: فاحذرني واتركني، وإلى ذلك ذهب الزمخشريُّ(٣). ولعلَّ الداعيَ لذلك وعدمِ اعتبار العطف على المذكور = أنَّه لا يصحُّ أو لا يحسنُ التخالف بين المتعاطفَين إنشائيَّةً وإخباريَّة، وجوابُ القسم غير الاستعطافيِّ لا يكونُ إنشاءً، وليست الفاء في «فاحذرني» عاطفةً حتى يعود المحذور.

ومن الناس من عطفَ على الجملة السابقة؛ بناءً على تجويز سيبويه العطفَ مع

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٢) في الأصل: لما.
(٣) الكشاف ٢/ ٥١١.

التخالف في الإخبار والإنشاء. والتقديرُ أوقع في النفس.

﴿مَلِيًّا ۝٤٦﴾ أي: دهراً طويلاً، عن الحسن ومجاهد وجماعة.

وقال السُّدِّيّ: أبداً. وكأنه المراد، وأصلُه ـ على ما قيل ـ من الإملاء، أي: الإمداد، وكذا الملاوة بتثليث الميم، وهي بمعناه، ومن ذلك المَلَوان؛ الليل والنهار، ونصبه على الظرفيَّة كما في قول مُهَلْهِل:

فتصدَّعت صمُّ الجبال لموته وبكت عليه المرملات مليّا[1]

وأخرج ابنُ الأنباريّ عن ابن عباس أنَّه فسره بـ: طويلاً[2]. ولم يذكر الموصوف، فقيل: هو نصب على المصدرية، أي: هجراً مليًّا.

وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس أنَّ المعنى: سالماً سويًّا. والمراد: قادراً على الهجر مطيقاً له، وهو حينئذٍ حالٌ من فاعل «اهجرني»، أي: اهجرني مليًّا بالهجران والذهاب عني، قبل أن أثخنكَ بالضرب حتى لا تقدرَ أن تبرح. وكأنَّه على هذا من تملَّى بكذا؛ تمتَّع به مَلاوَةً من الدهر.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما سلف ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ توديعٌ ومتاركةٌ، على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، فإنَّ ترك الإساءة للمسيء إحسانٌ، أي: لا أصيبك بمكروهٍ بعد، ولا أشافهُك بما يؤذيك، وهو نظيرُ ما في قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥] في قول.

وقيل: هو تحيَّة مفارقٍ. وجوَّزَ قائلُ هذا تحيَّة الكافر، وأن يُبْدَأ بالسلام المشروع، وهو مذهب سفيان بن عيينة مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ الآية [٨ من سورة الممتحنة]، وقوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [٤ من سورة الممتحنة].

وما استدلَّ به متأوَّلٌ، وهو محجوجٌ بما ثبتَ في «صحيح مسلم»: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام»[3].

---

(١) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٣٧٤، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٥٨، والبحر المحيط ٦/ ١٩٥.

(٢) الوقف والابتداء ص٩١. واستشهد له ابن عباس بالبيت السابق.

(٣) صحيح مسلم (٢١٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وهو عند أحمد (٧٥٦٧).

وقرئ: «سلاماً» بالنصب على المصدريَّة. والرفعُ على الابتداء(١).

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أي: أستدعيه سبحانَه أن يغفر لك، بأنْ يوفِّقك للتوبة، ويهديَك إلى الإيمان، كما يلوِّح به تعليلُ قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ﴾ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٨٦] كذا قيل، فيكونُ استغفاره في قوَّة قوله: ربِّي اهده إلى الإيمان، وأخرجه من الضلال. والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبيُّن تحتُّم أنَّه يموتُ على الكفر ممَّا لا ريب في جوازه، كما أنَّه لا ريبَ في عدم جوازه عند تبيُّن ذلك؛ لما فيه من طلب المحال، فإنَّ ما أخبر الله تعالى بعدم وقوعه محالٌ وقوعه، ولهذا لمَّا تبيَّن له عليه السلام بالوحي ـ على أحد القولين المذكورين في سورة التوبة ـ أنَّه لا يؤمن، تركَه أشدَّ الترك، فالوعدُ والإنجاز كانا قبل التبيُّن، وبذلك فارقَ استغفارُه عليه السلام لأبيه استغفارَ المؤمنين لأولي قرابتهم من المشركين؛ لأنَّه كان بعد التبيُّن، ولذا لم يؤذنوا بالتأسِّي به عليه السلام في الاستغفار.

قال العلامة الطيبيُّ: إنَّه تعالى بيَّن للمؤمنين أنَّ أولئك أعداءُ الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١] وأنْ لا مجال لإظهار المودَّة بوجهٍ ما، ثمَّ بالغَ جلَّ شأنه في تفصيل عداوتهم بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:٢]، ثمَّ حرَّضهم تعالى على قطيعة الأرحام بقوله سبحانه: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الممتحنة:٣] ثمَّ سلَّاهم عزَّ وجلَّ بالتأسِّي في القطيعة بإبراهيم عليه السلام وقومه بقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى شأنه: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤] فاستثنى من المذكورِ ما لم يحتمله المقام، كما احتمله(٢) ذلك المقام؛ للنصِّ القاطع، يعني: لكم التأسِّي بإبراهيم عليه السلام مع هؤلاء الكفار في القطيعة والهجران لا غير، فلا تجاملوهم

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٥، والدر المصون ٧/ ٦٠٧.

(٢) في الأصل: تحمله.

ولا تُبدوا لهم الرأفةَ والرحمة، كما أبدى إبراهيم عليه السلام لأبيه في قوله: (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ) لأنَّه لم يتبيَّن له حينئذٍ أنَّه لا يؤمن، كما بدا لكم كفرُ هؤلاء وعداوتهم. انتهى. واعتُرِضَ بأنَّ ما ذُكِر ظاهرٌ في أنَّ الاستغفار الذي وقع من المؤمنين لأولي قرابتهم، فنهوا عنه؛ لأنَّه كان بعد التبيُّن، كان كاستغفار إبراهيم عليه السلام؛ بمعنى طلب التوفيق للتوبة والهداية للإيمان. والذي اعتمدَه كثيرٌ من العلماء أنَّ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية [التوبة: ١١٣] نزلَ في استغفاره ﷺ لعمِّه أبي طالب بعدَ موته(١)، وذلك الاستغفارُ ممَّا لا يكون بمعنى طلب الهداية أصلاً، وكيف تُعقلُ الهداية بعد الموت، بل لو فُرِض أنَّ استغفارَه عليه الصلاة والسلام له كان قبل الموت لا يتصوَّر أيضاً أن يكونَ بهذا المعنى؛ لأنَّ الآيةَ تقتضي أنَّه كان بعد تبيُّن أنَّه من أصحاب الجحيم، وإذا فُسِّر بتحتُّم الموت على الكفر كان ذلك دعاءً بالهداية إلى الإيمان، مع العلم بتحتُّم الموت على الكفر، ومُحاليتُه إذا كانت معلومةً لنا بما مرَّ فهي أظهرُ شيءٍ عنده ﷺ، بل وعند المقتبسين من مشكاتِه عليه الصلاة والسلام.

وهو اعتراضٌ قويٌّ بحسب الظاهر، وعليه يجبُ أن يكون استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه بذلك المعنى في حياته؛ لعدم تصوُّر ذلك بعد الموت. وهو ظاهر. قال الزمخشريُّ(٢) في جواب السؤال، بأنَّه كيف جاز له عليه السلام أنْ يستغفرَ للكافر، وأنْ يعدَه ذلك؟: قالوا: أرادَ اشتراط التوبة عن الكفر، وقالوا: إنَّما استغفرَ له بقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي﴾ [الشعراء: ٨٦]؛ لأنَّه وعده أنْ يؤمن، واستشهدوا بقوله تعالى:

---

(١) أخرج البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة. قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أشهدُ لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالبٍ آخر ما كلمهم: هو على ملَّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك»، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية [التوبة: ١١٣].

(٢) الكشاف ٢/ ٥١٢.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ثم قال: ولقائلٍ أن يقول: الذي منع من الاستغفار للكافر إنما هو السمع، فأمَّا قضية العقل فلا تأباه، فيجوزُ أن يكون الوعد بالاستغفار والوفاء به قبل ورود السمع، ويدلُّ على صحَّته أنَّه استثنى قولَ إبراهيم عليه السلام: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ في آية ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلخ [الممتحنة: ٤] عمَّا وجبت فيه الأسوة، ولو كان بشرط الإيمان والتوبة لما صحَّ الاستثناء، وأما كون الوعد من أبيه، فيخالفُ الظاهر الذي يشهد له قراءة الحسن وغيره: «وعدها أباه» بالباء الموحدة[1]. قال في «الكشف»: واعترض الإمام حديث الاستثناء بأنَّ الآيةَ دلَّت على المنع من التأسِّي، لا أنَّ ذلك كان معصيةً، فجاز أن يكون من خواصِّه، ككثير من المباحات التي اختُصَّ بها النبيُّ ﷺ[2]. وليس بشيء؛ لأنَّ الزمخشريَّ لم يذهب إلى أنَّ ما ارتكبه إبراهيم عليه السلام كان منكراً، بل إنَّما هو منكر علينا؛ لورود السمع. واعترض صاحب «التقريب» بأنَّ نفي اللازم ممنوعٌ، فإنَّ الاستثناءَ عمَّا وجبت فيه الأسوة دلَّ على أنَّه غيرُ واجب، لا على أنَّه غير جائز، فكان ينبغي عمَّا جازت فيه الأسوة بدل عما وجبت.. إلخ. والآيةُ لا دلالة فيها على الوجوب.

والجواب أنَّ جعله مستنكراً ومستثنًى يدلُّ على أنَّه منكرٌ، لا الاستثناء عما وجبت فيه فقط، وإنَّما أتى الاستنكارُ لأنَّه مستثنًى عن الأسوة الحسنة، فلو اتُّسِيَ به فيه لكان أسوةً قبيحة. وأمَّا الدلالة على الوجوب فبيِّنةٌ من قوله تعالى آخراً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦] كما تقرَّر في الأصول. والحاصل أنَّ فعل إبراهيم عليه السلام يدلُّ على أنَّه ليس منكراً في نفسه، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾ [التوبة: ١١٣] إلخ يدلُّ على أنَّه الآن منكرٌ سمعاً، وأنَّه كان مستنكراً في زمن إبراهيم عليه السلام أيضاً بعد ما كان غير منكر، ولذا تبرَّأ منه، وهو ظاهر، **إلَّا أنَّ** الزمخشريَّ جعلَ مدركَ الجواز قبل النهي العقل، وهي مسألةٌ خلافيَّةٌ، وكم قائلٍ: إنَّه السمع؛ لدخوله تحت برِّ الوالدين، والشفقة على أمَّة الدعوة. بل قيل: إنَّ

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٥، والبحر المحيط ٥/ ١٠٥.

(٢) تفسير الرازي ٢١/ ٢٢٩.

الأول مذهب المعتزلة، وهذا مذهبُ أهل السنة. انتهى مع تغييرٍ يسير. واعترض القول بأنَّه استنكر في زمن إبراهيم عليه السلام بعدَ ما كان غيرَ منكر؛ بأنَّه لو كان كذلك لم يفعله نبيُّنا ﷺ، وقد جاءَ أنَّه عليه الصلاة والسلام فَعَلَه لعمِّه أبي طالب.

وأجيب بجواز أنَّه لم يبلغه إذ فعل عليه الصلاة والسلام.

والتحقيق في هذه المسألة أنَّ الاستغفارَ للكافر الحيِّ المجهول العاقبة بمعنى طلب هدايته للإيمان = ممَّا لا محذورَ فيه عقلاً ونقلاً. وطلب ذلك للكافر المعلوم أنَّه قد طُبع على قلبه، وأخبر الله تعالى أنَّه لا يؤمن، وعلم أنْ لا تعليق في أمره أصلاً = ممَّا لا مساغ له عقلاً ونقلاً. ومثلُه طلب المغفرة للكافر مع بقائه على الكفر على ما ذكره بعض المحققين، وكان ذلك ـ على ما قيل ـ لما فيه من إلغاء أمر الكفر الذي لا شيء يعدله من المعاصي، وصيرورة التكليف بالإيمان الذي لا شيء يعدلُه من الطاعات عبثاً، مع ما في ذلك ممَّا لا يليقُ بعظمة الله عزَّ وجلَّ، ويكاد يُلحَق بذلك فيما ذكر طلبُ المغفرة لسائر العصاة مع البقاء على المعصية، إلَّا أنْ يفرَّق بين الكفر وسائر المعاصي. وأمَّا طلب المغفرة للكافر بعد موته على الكفر فلا تأباه قضيَّة العقل، وإنَّما يمنعه السمع، وفُرِّقَ بينه وبين طلبها للكافر مع بقائه على الكفر بعدم جريان التعليل السابق فيه. ويحتاج ذلك إلى تأمُّل. واستدلَّ على جواز ذلك عقلاً بقوله ﷺ لعمِّه: «لا أزالُ أستغفر لك ما لم أُنْهَ»[1]، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية، وحمل قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] على معنى: من بعد ما ظهر لهم أنَّهم ماتوا كفاراً، والتُزمَ القول بنزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] بعد ذلك، وإلَّا فلا يتسنَّى استغفارُه ﷺ لعمِّه بعد العلم بموتِه كافراً، وتقدَّم السماعُ بأنَّ الله تعالى لا يغفر الكفر.

وقيل: لا حاجةَ إلى التزام ذلك؛ لجواز أنْ يكون عليه الصلاة والسلام لوفور شفقته وشدَّة رأفته قد حملَ الآية على أنَّه تعالى لا يغفرُ الشرك إذا لم يُشفع فيه، أو

---

(١) سلف قريباً تخريج نحوه.

الشركَ الذي تواطأ فيه القلب وسائرُ الجوارح، وعلم من عمِّه أنَّه لم يكن شركُه كذلك، فطلب المغفرةَ حتى نُهي ﷺ.

وقيل غير ذلك، فتأمَّل، فالمقامُ محتاجٌ بعد إلى كلام، والله تعالى الموفق.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ بليغاً في البرِّ والإكرام، يقال: حفيَ به إذا اعتنى بإكرامه. والجملةُ تعليلٌ لمضمون ما قبلها، وتقديمُ الظرف لرعاية الفواصل مع الاهتمام.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ الظاهرُ أنَّه عطف على «سأستغفر»، والمراد: أتباعدُ عنك وعن قومك. ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالمهاجرة بديني، حيث لم تؤثِّر فيكم نصائحي. ويُروى أنَّه عليه السلام هاجر إلى الشام. وقيل: إلى حرَّان، وهو قريبٌ من ذلك، وكانوا بأرض كوثا، وفي هجرته هذه تزوَّج سارة، ولقي الجبارَ الذي أخدم سارة هاجر.

وجُوِّز حملُ الاعتزال على الاعتزال بالقلب والاعتقاد، وهو خلافُ الظاهر المأثور.

﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أي: أعبدُه سبحانه وحده، كما يفهم من اجتناب غيره تعالى من المعبودات، وللتغاير بين العبادتين غُوير بين العبارتين.

وذكر بعضُهم أنَّه عبَّر بالعبادة أولاً؛ لأنَّ ذلك أوفقُ بقول أبيه: «أراغبٌ أنت عن آلهتي» مع قوله فيما سبق: «يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمع» إلخ، وعبَّر ثانياً بالدعاء؛ لأنَّه أظهرُ في الإقبال المقابل للاعتزال. وجُوِّز أن يُراد بذلك الدعاء مطلقاً، أو ما حكاه سبحانه في سورة «الشعراء»، وهو قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية: ٨٣].

وقيل: لا يبعدُ أنْ يراد استدعاءُ الولد أيضاً بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠] حسبما يساعدُه السياق والسباق.

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ خائباً ضائعَ السعي. وفيه تعريضٌ بشقاوتهم في عبادة آلهتهم.

وفي تصدير الكلام بـ «عسى» من إظهار التواضع، ومراعاة حسن الأدب، والتنبيه على حقيقة الحقِّ من أنَّ الإثابة والإجابة بطريق التفضُّل منه عزَّ وجلَّ، لا بطريق الوجوب، وأنَّ العبرةَ بالخاتمة، وذلك من الغيوب المختصَّة بالعليم الخبير = ما لا يخفى.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ بالمهاجرة إلى ما تقدَّم ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدلَ من فارقه[1] من أبيه وقومه الكفرة، لكن لا عقيبَ المهاجرة، والمشهور أنَّ أولَ ما وُهبَ له عليه السلام من الأولاد إسماعيل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] إثر دعائه بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وكان من هاجر، فغارت سارة، فحملت بإسحاق عليه السلام، فلما كبر ولد له يعقوبُ عليه السلام. ولعلَّ ترتيب هبتهما على اعتزاله ها هنا؛ لبيان كمال عظم النعم التي أعطاها الله تعالى إيَّاه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء، فإنهما شجرتا الأنبياء، ولهما أولادٌ وأحفادٌ أولو شأنٍ خطير، وذوو[2] عددٍ كثير، مع أنَّه سبحانه أراد أن يَذكر إسماعيلَ عليه السلام بفضله على الانفراد.

ورُوي أنه عليه السلام لما قصدَ الشام أتى أوَّلاً حرَّان، وتزوَّج سارة وولدت له إسحاق، وولد لإسحاق يعقوب. والأوَّل هو الأقرب الأظهر.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحدٍ من إسحاق ويعقوب، أو منهما ومن إبراهيم عليهم السلام. وهو مفعولٌ أول لقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾ قُدِّم عليه للتخصيص، لكن لا بالنسبة إلى من عداهم، بل بالنسبة إلى بعضهم، أي: كلَّ واحدٍ منهم «جعلنا نبيًّا» لا بعضهم دون بعض. ولا يظهر في هذا الترتيب على الوجه الثاني في «كلًّا» كونُ إبراهيم عليه السلام نبيًّا قبل الاعتزال.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ قال الحسن: النبوَّة. ولعلَّ ذكر ذلك بعد ذكر جعلهم أنبياء؛ للإيذان بأنَّ النبوَّة من باب الرحمة التي يختصُّ بها من يشاء.

وقال الكلبيُّ: هي المال والولد. وقيل: هو الكتاب.

---

(١) في (م): فارقهم.
(٢) لفظة: ذوو. ليست في الأصل.

والأظهر أنَّها عامَّةٌ لكلِّ خيرٍ دينيٍّ ودنيويٍّ أوتوه ممَّا لم يؤتَ أحدٌ من العالمين.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ تفتخرُ بهم الناس، ويثنونَ عليهم، استجابةً لدعوته عليه السلام بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وزيادةً على ذلك.

والمراد باللسان ما يوجدُ به من الكلام، فهو مجازٌ بعلاقة السببيَّة، كاليد في العطية، ولسان العرب لغتهم. ويطلق على الرسالة الرائعة كما في قول أعشى باهلة:

إنــي أتــتــنــي لــســانٌ لا أسَــرُّ بــهــا[1]

ومنه قولُ الآخر:

نــدمــتُ عــلــى لــســانٍ كــان مــنــي[2]

وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوِّ للدلالة على أنَّهم أحقَّاء بما يثنون عليهم، وأنَّ محامدَهم لا تخفى، كأنَّها نار على علم، على تباعد الأعصار، وتبدُّل الدول، وتغيُّر الملل والنحل.

وخصَّ بعضُهم لسان الصدق بما يُتلى في التشهُّد: كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. والعمومُ أولى.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ قيل: قدَّم ذكرَه على إسماعيل عليهما السلام لئلَّا ينفصلَ عن ذكر يعقوب عليه السلام. وقيل: تعجيلاً لاستجلاب أهل الكتاب بعد ما فيه استجلاب العرب.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ موحِّداً أخلصَ عبادته عن الشرك والرياء، أو: أسلمَ وجهه لله

---

(١) الكامل ٣/ ١٤٣١، وخزانة الأدب ٦/ ٥١١. وعجزه:
مـن عَـلـو لا عـجـبٌ مـنـهـا ولا سَـخَـرُ

(٢) ديوان الحطيئة ص٣٤٧. وفيه: لسانٍ فات... بدل: لسان كان... وهو بمثل رواية المصنف في الخزانة ٤/ ١٥٢. وعجزه كما في الديوان: فليت بيانه في جوف عكمِ.

عزَّ وجلَّ، وأخلص عن سواه. وقرأ الكوفيون وأبو رزين ويحيى وقتادة: «مخلَصاً» بفتح اللام[١]، على أنَّ الله تعالى أخلصَه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ مرسلاً من جهة الله تعالى إلى الخلق بتبليغ ما شاء من الأحكام ﴿نَّبِيًّا ۝٥١﴾ رفيعَ القدر على كثيرٍ من الرسل عليهم السلام، أو على سائر الناس الذين أُرسل إليهم، فالنبيُّ من النبوَّة بمعنى الرفعة، ويجوز أن يكون من النبأ، وأصله نبيء، أي: المنبِّئ عن الله تعالى بالتوحيد والشرائع[٢].

ورُجِّح الأول بأنَّه أبلغ، قيل: ولذلك قال ﷺ: «لستُ بِنَبِيْءِ الله تعالى ـ بالهمزة ـ ولكن نبيُّ الله تعالى»[٣] لمن خاطبه بالهمز، وأراد أنْ يغضَّ منه. والذي ذكره الجوهريُّ[٤] أنَّ القائلَ أرادَ أنَّه عليه الصلاة والسلام أخرجَه قومُه، من نَبَأ، فأجابه ﷺ بما يدفعُ ذلك الاحتمال.

ووجه الإتيان بالنبيِّ بعد الرسول على الأول ظاهر، ووجهُ ذلك على الثاني موافقةُ الواقع بناءً على أنَّ المرادَ: أرسلَه الله تعالى إلى الخلق، فأنبأهم عنه سبحانه. واختار بعضُهم أنَّ المرادَ من كلا اللفظين معناهما اللغويّ، وأنَّ ذكر النبيِّ بعد الرسول؛ لما أنَّه ليس كلُّ مرسَلٍ نبيًّا؛ لأنَّه قد يُرسل بعطيَّةٍ أو مكتوبٍ أو نحوهما.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ «الطور»: جبلٌ بين مصر ومدين، و«الأيمن» صفةٌ لـ «جانب»؛ لقوله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠] بالنصب، أي: ناديناه من ناحيته اليمنى، من اليمين المقابل لليسار.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٨. وقراءة الكوفيين في التيسير ص١٤٧، والنشر ٢/ ٢٩٥.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصُّه: وحكى الأزهريُّ عن الكسائي أن النبيء الطريق، والأنبياء طرق الهدى. اهـ. منه. وكلام الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٤٨٦.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٣١ من طريق حمران بن أعين عن أبي الأسود الديلي عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
وتعقبه الذهبي فقال: بل منكر لم يصح. قال النسائي: حمران ليس بثقة. وقال أبو داود: رافضي روى عن موسى بن عبيدة، وهو واه. اهـ. وسلف ٢/ ٢١٢.

(٤) الصحاح (نبأ).

والمراد به يمين موسى عليه السلام، أي: الناحية التي تلي يمينه، إذ الجبل نفسه لا ميمنةَ له ولا ميسرة.

ويجوز أنْ يكون الأيمن من اليُمن، وهو البركة، وهو صفةٌ لـ «جانب» أيضاً، أي: من جانبه الميمون المبارك. وجُوِّزَ على هذا أنْ يكون صفةً للطور. والأوَّل أولى.

والمراد من ندائه من ذلك ظهورُ كلامه تعالى من تلك الجهة، والظاهرُ أنَّه عليه السلام إنَّما سمع الكلام اللفظيَّ. وقال بعض: إنَّ الذي سمعه كان بلا حرفٍ ولا صوت، وأنَّه عليه السلام سمعَه بجميع أعضائه من جميع الجهات، وبذلك تيقَّن[١] أنَّ المنادي هو الله تعالى، ومن هنا قيل: إنَّ المراد ناديناه مقبلاً من جانب الطور المبارك، وهو طورُ ما وراء طور العقل، وفي الأخبار ما ينادي على خلافه.

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ تقريبَ تشريف، مثَّل حالَه عليه السلام بحال من قرَّبه الملكُ لمناجاته، واصطفاه لمصاحبته، ورفع الوسائط بينه وبينه. و«نجيًّا» فعيلٌ بمعنى مُفاعل، كجليس بمعنى مُجالس، ونديم بمعنى منادم، من المناجاة: المسارَّة بالكلام. ونصبه على الحاليَّة من أحد ضميري موسى عليه السلام في: «ناديناه» و«قربناه»، أي: ناديناه أو قربناه حال كونه مُناجياً.

وقال غير واحد: مرتفعاً، على أنَّه من النجو، وهو الارتفاع. فقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنَّ جبرائيل عليه السلام أردفَه حتى سمعَ صرير القلم والتوراةُ تكتبُ له[٢]. أي: كتابةً ثانيةً، وإلَّا ففي الحديث الصحيح الوارد في شأن محاجَّة آدم وموسى عليهما السلام أنَّها كتبت قبلَ خلق آدم عليه السلام بأربعين سنة[٣]، وخبر رفعه عليه السلام إلى السماء حتى سمع صرير القلم، رواه غيرُ واحد، وصحَّحه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما[٤]، وعلى ذلك لا يكون المعراج مطلقاً مختصًّا بنبينا ﷺ، بل المعراجُ الأكمل.

---

(١) في (م): يتيقن.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٧٣. وأخرجه أيضاً أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٨٦.

(٣) خبر محاجَّة موسى وآدم عليهما السلام أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٤) المستدرك ٢/ ٣٧٣. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/ ٥٣٣، والطبري في تفسيره ١٥/ ٥٥٩ - ٥٦٠. ووقع فيها: صريف. بدل: صرير.

وقيل: معنى «نجيًّا» ناجياً بصدقه، وروي ذلك عن قتادة. ولا يخفى بعده.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ أي: من أجل رحمتنا له ﴿أَخَاهُ﴾ أي: معاضدةَ أخيه ومؤازرتَه؛ إجابةً لدعوته بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩-٣٠] لا نفسَه عليه السلام؛ لأنَّه كان أكبر من موسى عليه السلام سنًّا، فوجودُه سابقٌ على وجوده، وهو مفعول «وهبنا»، وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ عطفُ بيانٍ له، وقوله سبحانه: ﴿نَبِيًّا ۝٥٣﴾ حالٌ منه.

ويجوزُ أنْ تكون «من» للتبعيض، قيل: وحينئذٍ يكون «أخاه» بدل بعضٍ من كل، أو كلٍّ من كل، أو اشتمال من «من». وتُعقِّبَ بأنَّها إن كانت اسماً مرادفةً لبعض، فهو خلافُ الظاهر، وإن كانت حرفاً، فإبدال الاسم من الحرف ممَّا لم يوجد في كلامهم.

وقيل: التقديرُ: وهبنا له شيئاً من رحمتنا، فـ «أخاه» بدلٌ من شيئاً المقدَّر. وأنت تعلم أنَّ الظاهر[1] كونُه مفعولاً.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ الظاهرُ أنَّه ابن إبراهيم عليهما السلام، كما ذهب إليه الجمهور. وهو الحقّ. وفصَل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه عليهم السلام؛ لإبراز كمال الاعتناء بأمره، بإيراده مستقلًّا.

وقيل: إنَّه إسماعيلُ بن حزقيل، بعثَه الله تعالى إلى قومه، فسلخوا جلدةَ رأسه، فخيَّره الله تعالى فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضيَ بثوابه سبحانه، وفوَّضَ أمرهم إليه عزَّ وجلَّ في العفو والعقوبة. ورَوى ذلك الإماميَّة عن أبي عبد الله رضي الله عنه. وغالبُ الظنِّ أنَّه لا يصحُّ عنه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ تعليلٌ لموجب الأمر، وإيرادُه عليه السلام بهذا الوصف؛ لكمال شهرته بذلك. وقد جاء في بعض الأخبار أنَّه وعَد رجلاً أن يُقيم له بمكانٍ، فغابَ عنه حولاً، فلمَّا جاءه قال له: ما برحتَ من مكانك، فقال: لا والله ما كنتُ لأخلفَ موعدي. وقيل: غابَ عنه اثني عشر يوماً. وعن مقاتل: ثلاثةَ أيام. وعن سهل بن سعد: يوماً وليلة.

---

(١) بعدها في (م): هو.

والأوَّل أشهر، ورواه الإماميَّة أيضاً عن أبي عبد الله ﷺ، وإذا كان هو الذبيح، فناهيكَ في صِدقه أنَّه وعدَ أباه الصبرَ على الذبح بقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢] فوفى. وقال بعضُ الأذكياء ـ طال بقاؤه ـ: لا يبعدُ أنْ يكون ذلك إشارةً إلى هذا الوعد، والصدقُ فيه من أعظم ما يتصوَّر.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ الكلامُ فيه كالكلام في السابق، بيدَ أنَّهم قالوا هنا: إنَّ فيه دلالة على أنَّ الرسولَ لا يجبُ أن يكون صاحبَ شريعةٍ مستقلَّةٍ، فإنَّ أولادَ إبراهيم عليهم السلام كانوا على شريعته، وقد اشتهر خلافه، بل اشترط بعضُهم فيه أنْ يكون صاحبَ كتابٍ أيضاً. والحقُّ أنَّه ليس بلازم.

وقيل: إنَّ المرادَ بكونه صاحب شريعةٍ أن يكون له شريعةٌ بالنسبة إلى المبعوث إليهم، وإسماعيلُ عليه السلام كذلك؛ لأنَّه بعث إلى جُرْهم بشريعةِ أبيه، ولم يبعث إبراهيم عليه السلام إليهم. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ اشتغالاً بالأهمّ، وهو أنْ يبدأ الرجلُ بعد تكميل نفسه بتكميل من هو أقربُ الناس إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه:١٣٢]، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]. أو قصداً إلى تكميل الكلِّ بتكميلهم؛ لأنَّهم قدوةٌ يؤتسى بهم. وقال الحسن: المراد بأهله أمته[(١)]؛ لكون النبيِّ بمنزلة الأب لأمَّته. ويؤيِّد ذلك أنَّ في مصحف عبد الله: «وكان يأمر قومه»[(٢)].

والمراد بالصلاة والزكاة، قيل: معناهما المشهور. وقيل: المراد بالزكاة مطلق الصدقة. وحُكي أنَّه عليه السلام كان يأمرُ أهلَه بالصلاة ليلاً، والصدقة نهاراً. وقيل: المرادُ بها تزكية النفس وتطهيرها.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا ۝٥٥﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله، وهو اسم مفعول، وأصلُه: مَرْضُوْوٌ، فأعِلَّ بقلب واوه ياءً؛ لأنَّها طرفٌ بعد واوٍ ساكنة، فاجتمعت الواو والياء، وسُبِقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياءُ في

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: أي أمة الإجابة. اهـ منه.
(٢) البحر المحيط ٦/١٩٩.

الياء، وقلبت الضمَّةُ كسرة. وقرأ ابن أبي عبلة: «مرضوًّا» من غير إعلال[(١)]. وعن العرب أنَّهم قالوا: أرضٌ مَسْنِيَّة ومَسْنوَّة، وهي التي تسقى بالسواني[(٢)].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ هو نبيٌّ قبلَ نوح، وبينهما ـ على ما في «المستدرك» عن ابن عباس ـ ألف سنة[(٣)]، وهو: أخنوخ[(٤)] بن يرد، بن مهلاييل، بن أنوش، بن قينان، بن شيث، بن آدم عليه السلام.

وعن وهب بن منبه أنَّه جدُّ نوحٍ عليه السلام. والمشهورُ أنَّه جدُّ أبيه، فإنَّه ابن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ.

وهو أوَّل من نظر في النجوم والحساب، وجعل الله تعالى ذلك من معجزاته ـ على ما في «البحر»[(٥)] ـ وأوَّلُ من خطَّ بالقلم، وخاطَ الثياب، ولبس المخيط، وكان خيَّاطاً، وكانوا قبلُ يلبسون الجلود، وأول مُرسَلٍ بعد آدم، وقد أنزلَ الله تعالى عليه ثلاثين صحيفةً، وأوَّل من اتَّخذ الموازين والمكاييل والأسلحة فقاتل بني قابيل.

وعن ابن مسعود أنَّه إلياس، بُعثَ إلى قومه أنْ يقولوا: لا إله إلا الله، ويعملوا ما شاؤوا، فأبوا وأهلكوا.

والمعوَّل عليه الأول، وإن رَوى القولَ بأنَّه إلياس ابنُ أبي حاتم بسندٍ حسن عن ابن مسعود[(٦)].

وهذا اللفظ سريانيٌّ عند الأكثرين، وليس مشتقًّا من الدرس؛ لأنَّ الاشتقاقَ من غير العربيِّ ممَّا لم يقل به أحد، وكونُه عربيًّا مشتقًّا من ذلك يردُّه منعُ صرفه. نعم،

---

(١) البحر المحيط ٦/ ١٩٩.

(٢) السواني جمع سانية، وهي الناقة يسقى عليها.

(٣) المستدرك ٢/ ٥٤٨.

(٤) جاء في هامش الأصل ما نصه: بضم الهمزة وفتحها. اهـ. منه.

(٥) ٦/ ١٩٩.

(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٣٦ (٧٥٥٦)، وأخرجه الطبري في تفسيره ٩/ ٣٨٣، وعلقه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾... إثر الحديث (٣٣٤١)، وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٦/ ٣٧٣.

لا يبعدُ أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك؛ فلقِّب به لكثرة دراسته.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦﴾ هو كما تقدم. ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ هو شرفُ النبوَّة والزلفى عند الله تعالى، كما روي عن الحسن، وإليه ذهب الجبائيُّ وأبو مسلم.

وعن أنس وأبي سعيد الخدريّ وكعب ومجاهد: السماء الرابعة.

وعن ابن عباس والضَّحَّاك: السماء السادسة.

وفي روايةٍ أخرى عن الحسن: الجنَّة لا شيء أعلى من الجنَّة.

وعن النابغةِ الجعديِّ أنَّه لما أنشد رسولَ الله ﷺ الشعرَ الذي آخرُه:

بلغنا السماءَ مجدنا وسناؤنا وإنَّا لنرجو فوقَ ذلك مظهرا[1]

قال عليه الصلاة والسلام له: «إلى أين المظهرُ يا أبا ليلى؟» قال: إلى الجنة يا رسول الله. قال: «أجل إن شاء الله تعالى»[2]. وعن قتادة: أنَّه عليه السلام يعبدُ الله تعالى مع الملائكة عليهم السلام في السماء السابعة، ويرتعُ تارةً في الجنَّة حيث شاء.

وأكثر القائلين برفعه حسًّا قائلونَ بأنَّه حيٌّ حيث رفع.

وعن مقاتل أنَّه ميت في السماء، وهو قولٌ شاذّ.

وسبب رفعه على ما رُوي عن كعب وغيره: أنَّه مرَّ ذات يومٍ في حاجةٍ، فأصابه وهجُ الشمس، فقال: يارب إنِّي مشيتُ يوماً في الشمس فأصابني منها ما أصابني، فكيف بمن يحملُها مسيرةَ خمس مئة عام في يومٍ واحد، اللهمّ خفِّف عنه من ثقلها وحَرِّها، فلمَّا أصبحَ الملَكُ وجد من خفَّة الشمس وحرِّها ما لا يعرف، فقال:

---

(١) ديوان النابغة ص٧٣.

(٢) أخرجه البزار (٢١٠٤) كشف الأستار، وأبو نُعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٧٣-٧٤)، وفي دلائل النبوة (٣٨٥)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٣٢). واضطربت رواية البيت في هذه المصادر، وفي الخبر: يعلى بن الأشدق، وهو ضعيف. انظر مجمع الزوائد ٨/ ١٢٦، والإصابة: ١٠/ ١١٨. وقد توسع الحافظ ابن حجر في طرق الحديث، ثم نقل عن ابن عبد البر قوله: قصيدة النابغة مطولة نحو مئتي بيت... وما أظنه إلا أنشدها النبي ﷺ كلها. اهـ. وانظر كلام ابن عبد البر في الاستيعاب ١٠/ ٣٤٦ بهامش الإصابة.

يارب خلقتني لحمل الشمس فماذا الذي قضيتَ فيه؟ قال: إنَّ عبدي إدريس سألني أنْ أُخفِّف عنك حملها وحرَّها، فأجبته، قال: يارب فاجمع بيني وبينه، واجعل بيني وبينه خلَّة، فأذِن له حتى أتى إدريس، ثمَّ إنه طلبَ منه رفعه إلى السماءِ، فأذن الله تعالى له بذلك، فرفعه.

وأخرج ابنُ المنذر عن عمر مولى غُفْرة[1] يرفع الحديث إلى النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ إدريس كان نبيًا تقيًا زكيًا، وكان يَقسمُ دهرَه على نصفين؛ ثلاثةِ أيَّام يُعلِّم الناسَ الخير، وأربعة أيَّام يسيحُ في الأرض، ويعبدُ الله تعالى مجتهداً، وكان يصعدُ من عمله وحدَه إلى السماء من الخير مثلُ ما يصعدُ من جميع أعمال بني آدم، وإنَّ ملك الموت أحبَّه في الله تعالى، فأتاه حين خرج للسياحة، فقال له: يا نبيَّ الله، إنِّي أريد أن تأذنَ لي في صحبتك، فقال له إدريس وهو لا يعرفه: إنَّك لن تَقوى على صحبتي، قال: بلى، إنِّي أرجو أن يقوِّيني الله تعالى على ذلك، فخرج معه يومَه ذلك، حتى إذا كان من آخر النهار مرًّا براعي غنم، فقال ملك الموت: يا نبيَّ الله، إنَّا لا ندري حيث نمسي، فلو أخذنا جفرةً من هذه الغنم، فأفطرنا عليها، فقال له: لا تَعُد إلى مثل هذا، أتدعوني إلى أخذ ما ليس لنا، من حيث نمسي يأتينا الله تعالى برزق، فلمَّا أمسى أتاه الله تعالى بالرزق الذي كان يأتيه، فقال لملك الموت: تقدَّم فَكُلْ، فقال: لا والذي أكرمك بالنبوة ما أشتهي، فأكل وحده، وقاما جميعاً إلى الصلاة، ففتر إدريس ونَعَس، ولم يفتر الملك ولم ينعس، فعجبَ منه، وصغرت عنده عبادته ممَّا رأى، ثمَّ أصبحا فساحا، فلمَّا كان آخر النهار مرَّا بحديقة عنب، فقال له مثل ما قال أوَّلاً، فلما أمسيا أتاه اللهُ تعالى بالرزق، فدعاه إلى الأكل فلم يأكل، وقاما إلى الصلاة، وكان من أمرهما ما كان أوَّلاً، فقال له إدريس: لا والذي

(١) في الأصل و(م): عفرة. والتصويب من الدر المنثور ٤/ ٢٧٤-٢٧٥ ومصادرِ الترجمة، وهو عمر بن عبد الله المدني، مولى غفرة بنت رباح أخت بلال بن رباح، ويقال: مولى غفرة بنت شيبة، أدرك ابن عباس، وسأل سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد. قال أحمد: ليس به بأس، ولكن أكثر حديثه مراسيل، وضعفه ابن معين والنسائي. ولم يسمع من أحد من أصحاب النبي ﷺ، كما قال يحيى بن معين. وقال أبو حاتم: حديثه عن ابن عباس مرسل. وقال ابن حجر: ضعيف وكان كثير الإرسال، مات سنة خمس أو ست وأربعين ومئة. انظر تهذيب الكمال ٢١/ ٤٢٠-٤٢٢، وتهذيب التهذيب ٣/ ٢٣٨، وتقريب التهذيب ص٤٨٣.

نفسي بيده ما أنت من بني آدم، فقال: أجل لست منهم، وذكر له أنَّه ملَكُ الموت، فقال: أُمرتَ فيَّ بأمرٍ، فقال: لو أمرتُ فيك بأمرٍ ما ناظرتك، ولكنِّي أحبُّك في الله تعالى، وصحبتُك له، فقال له: إنَّك معي هذه المدة لم تقبض روحَ أحدٍ من الخلق، قال: بلى إنِّي معك، وإنِّي أقبضُ نفسَ من أمرتُ بقبض نفسه في مشارق الأرض ومغاربها، وما الدنيا كلُّها عندي إلَّا كمائدةٍ بين يدي الرجل يتناولُ منها ما شاء، فقال له: يا ملك الموت، أسألُكَ بالذي أحببتني له وفيه إلَّا قضيتَ لي حاجةً أسألكها، فقال: سلني يا نبيَّ الله، فقال: أحبُّ أن تذيقني الموتَ، ثم تردَّ عليَّ روحي، فقال: ما أقدرُ إلَّا أن أستأذنَ، فاستأذن ربَّه تعالى فأذنَ له، فقبضَ روحه، ثُمَّ ردَّها الله تعالى إليه، فقال له ملك الموت: يا نبيَّ الله كيف وجدت الموت؟ قال: أعظمُ ممَّا كنت أحدَّثُ وأسمع، ثمَّ سأله رؤية النار، فانطلقَ إلى أحد أبواب جهنم، فنادَى بعض خزنتها، فلمَّا علموا أنَّه ملكُ الموت ارتعدت فرائصهم وقالوا: أمرتَ فينا بأمر، فقال: لو أمرتُ فيكم بأمرٍ ما ناظرتكم، ولكنَّ نبي الله تعالى إدريس سألني أن تُروه لمحةً من النار، ففتحوا له قدر ثقب المِخْيَط، فأصابه ما صعق منه، فقال ملك الموت: أغلقوا. فغلقوا، وجعل يمسحُ وجه إدريس ويقول: يا نبيَّ الله تعالى، ما كنت أحبُّ أن يكون هذا حظَّك من صحبتي، فلمَّا أفاق سأله: كيف رأيت؟ قال: أعظم ممَّا كنتُ أحدَّث وأسمع، ثم سأله أن يريه لمحةً من الجنَّة، ففعل نظيرَ ما فعل قبل، فلمَّا فتحوا له أصابهُ من بردها وطيبها وريحانها ما أخذ بقلبه، فقال: يا ملكَ الموت إنِّي أحبُّ أن أدخل الجنَّة فآكلَ أكلةً من ثمارها، وأشربَ شربة من مائها، فلعلَّ ذلك أنْ يكون أشدَّ لطلبتي ورغبتي، فدخل وأكل وشرب، فقال له ملك الموت: اخرج يا نبيَّ الله تعالى، قد أصبت حاجتَك، حتى يردَّكَ الله عزَّ وجلَّ مع الأنبياء عليهم السلام يوم القيامة، فاحتضن بساق شجرةٍ من أشجارها وقال: ما أنا بخارج، وإنْ شئت أن أخاصمكَ خاصمتُك، فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت: قاضه الخصومة، فقال له: ما الذي تخاصمني به يا نبيَّ الله تعالى، فقال إدريس: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقد ذقتُه، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقد وردتها، وقال جلَّ وعلا لأهل الجنة: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] أفأخرجُ من شيءٍ ساقه الله عزَّ وجلَّ إليَّ، فأوحى الله تعالى إلى ملك الموت:

خَصَمَك عبدي إدريس، وعزَّتي وجلالي، إنَّ في سابق علمي أنْ يكون كذلك، فدعه فقد احتجَّ عليك بحجَّة قوية». الحديث. والله تعالى أعلمُ بصحته، وكذا بصحَّة ما قبلَه من خبر كعب.

وهذا الرفعُ لاقتضائه علوَّ الشأن ورِفعةَ القدر كان فيه من المدح ما فيه، وإلَّا فمجردُ الرفع إلى مكان عالٍ حسًّا ليس بشيء:

فالنارُ يعلوها الدخانُ وربَّما ... يعلو الغبارُ عمائمَ الفرسان[1]

وادَّعى بعضهم أنَّ الأقربَ أنَّ العلوَّ حسيٌّ؛ لأنَّ الرفعة المقترنة بالمكان لا تكون معنويَّة. وتُعُقِّب بأنَّ فيه نظراً؛ لأنَّه وَرد مثلُه، بل ما هو أظهرُ منه، كقوله:

وكن في مكانٍ إذا ما سقطت ... تقومُ ورجلُكَ في عافية[2]

فتأمَّل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين في السورة الكريمة، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلوِّ مرتبتهم، وبعد منزلتهم في الفضل. وهو مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: بفنون النعم الدينيَّة والدنيويَّة حسبما أشير إليه مجملاً = خبرُه على ما استظهره في «البحر»[3].

والحصر عند القائل به إضافيٌّ بالنسبة إلى غير الأنبياء الباقين عليهم الصلاة والسلام؛ لأنَّهم معروفون بكونهم مُنْعَماً عليهم، فينزلُ الإنعام على غيرهم منزلةَ العدم. وقيل: يُقَدَّر مضاف، أي: بعض الذين أنعم الله عليهم. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيانٌ للموصول. وقيل: «من» تبعيضيَّة بناء على أنَّ المراد: أولئك المذكورونَ الذين أنعم الله تعالى عليهم بالنِّعم المعهودةِ المذكورة هنا. فيكون الموضوع والمحمول مخصوصاً بمن سمعت، وهم بعض النبيين. وعموم المفهوم

(١) معاهد التنصيص ٣/ ٧٠.

(٢) هو لأبي الفتح نصر بن محمد بن مقلد القضاعي الشيزري، كما في وفيات الأعيان ٢/١٠٦. وفيه: ورجلاك. بدل: ورجلك.

(٣) ٦/ ٢٠٠.

المراد من المحمول في نفسه ومن حيث هو في الذهن لا ينافي أنْ يُقصَد به أمرٌ خاصٌّ في الخارج، كما لا يخفى.

واختير حمل التعريف في الخبر عن الجنس للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢] والمحذور مندفعٌ بما ذكرنا.

و«من» في قوله سبحانه: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ قيل: بيانيَّة، والجارُّ والمجرور بدلٌ من الجارِّ والمجرور السابق، والمجرور بدلٌ من المجرور بإعادة الجارِّ، وهو بدلُ بعض من كلّ؛ بناءً على أنَّ المرادَ ذريته الأنبياء، وهي غيرُ شاملة لآدم عليه السلام. ولا يخفى بعده.

وقيل: هي تبعيضيَّة؛ لأنَّ المنعمَ عليه أخصُّ من الذرية من وجه؛ لشمولها ـ بناءً على الظاهر المتبادر منها ـ غيرَ من أنعم عليه دونه، ولا يضرُّ في ذلك كونها أعمّ منها من وجهٍ؛ لشموله آدم والملك ومؤمني الجنِّ دونها.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: ومن ذرية من حملناهم معه عليه السلام خصوصاً، وهم من عدا إدريس عليه السلام؛ لما سمعت من أنَّه قبل نوح، وإبراهيم عليه السلام كان بالإجماع من ذريَّة سام بن نوح عليهما السلام.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهم الباقون ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عطفٌ على «إبراهيم» أي: ومن ذرية إسرائيل، أي: يعقوب عليه السلام، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ أولادَ البنات من الذريَّة؛ لدخول عيسى عليه السلام، ولا أبَ له. وجعلُ إطلاق الذريَّة عليه بطريق التغليب خلافُ الظاهر.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: «من ذرية آدم». و«من» للتبعيض، أي: ومن جملة من هديناهم إلى الحقِّ واخترناهم للنبوَّة والكرامة. وجوِّز أن يكون عطفاً على قوله سبحانه: «من النبيين»، و«من» للبيان. وأورد عليه أنَّ ظاهر العطف المغايرة، فيحتاج إلى أن يقال: المرادُ ممن جمعنا له بين النبوَّة والهداية، والاجتباء للكرامة. وهو خلافُ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استئنافٌ مساقٌ لبيان

خشيتهم من الله تعالى، وإخباتهم له سبحانه، مع مالهم من علوِّ الرتبة وسموِّ الطبقة في شرف النسب وكمال النفس، والزُّلفى من الله عَزّ سلطانه.

وقيل: خبرٌ بعد خبر لاسم الإشارة. وقيل: إنَّ الكلامَ انقطع عند قوله تعالى: «وإسرائيل»، وقوله سبحانه: «وممن هدينا» خبرُ مبتدأ محذوف، وهذه الجملة صفةٌ لذلك المحذوف، أي: وممن هدينا واجتبينا قومٌ إذا تتلى عليه... إلخ. ونُقل ذلك عن أبي مسلم.

ورَوى بعضُ الإماميَّة عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنَّه قال: نحن عُنينا بهؤلاء القوم.

ولا يخفى أنَّ هذا خلافُ الظاهر جدًّا، وحالُ روايات الإمامية لا يخفى على أرباب التمييز.

وظاهر صنيع بعض المحقِّقين اختيارُ أنْ يكون الموصول صفةً لاسم الإشارة، على ماهو الشائع فيما بعدَ اسم الإشارة، وهذه الجملةُ هي الخبر؛ لأنَّ ذلك أمدحُ لهم. ووجه ذلك ظاهرٌ عند من يعرفُ حكم الأوصاف والأخبار.

و«سُجَّداً» جمع: ساجد، وكذا «بكيًّا» جمع: باكٍ، كشاهد وشهود، وأصله بُكُويٌ، اجتمعت الواو والياء، وسُبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء وحُرِّكت الكاف بالكسر لمناسبة الياء، وجمعه المقيس: بكاة، كـ: رامٍ ورُماة، إلَّا أنَّه لم يُسمع على ما في «البحر»[1]، وهو مخالف لما في «القاموس»[2] وغيره.

وجَوَّز بعضُهم أنْ يكون مصدر بكى، كجلوساً مصدر جلس. وهو خلاف الظاهر. نعم ربَّما يقتضيه ما أخرجه ابنُ أبي الدنيا في «البكاء» وابنُ جرير وابن أبي حاتم والبيهقيُّ في «الشعب» عن عمر رضي الله عنه أنَّه قرأ سورة مريم، فسجد، ثم قال: هذا السجود، فأين البكيّ[3]؟

---

(١) ٦/ ٢٠٠.
(٢) مادة (بكى).
(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٧٧، وتفسير الطبري ١٥/ ٥٦٧، وشعب الإيمان (٢٠٥٩).

وزعم ابن عطية[١] أن ذلك متعيّنٌ في قراءة عبد الله ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي: «بِكيًّا» بكسر أوله[٢]. وليس كما زعم، لأنَّ ذلك إتباع، وظاهرٌ أنَّه لا يعيِّنُ المصدريَّة.

ونصب الاسمين على الحاليَّة من ضمير «خَرُّوا» أي: ساجدين وباكين، والأوَّل حالٌ مقدَّرةٌ، كما قال الزجاج[٣].

والظاهرُ أنَّ المراد من السجود معناهُ الشرعيُّ، والمراد من الآيات ما تضمنته الكتبُ السماوية، سواءٌ كان مشتملاً على ذكر السجود أم لا، وسواء كان متضمِّناً لذكر العذاب المنزل بالكفار أم لا. ومن هنا استُدِلَّ بالآية على استحباب السجود والبكاء عند تلاوة القرآن. وقد أخرج ابنُ ماجه وإسحاق بن راهويه والبزّار في «مسنديهما» من حديث سعد[٤] بن أبي وقاص مرفوعاً: «اتلوا القرآن وابكوا، فإنْ لم تبكوا فتباكوا»[٥].

وقيل: المراد من السجود سجودُ التلاوة، حسبما تُعبِّدْنا به عند سماع بعض الآيات القرآنية، فالمراد بآيات الرحمن آياتٌ مخصوصةٌ متضمِّنةٌ لذكر السجود.

وقيل: المراد منه الصلاة. وهو قولٌ ساقطٌ جدًّا.

وقيل: المراد منه الخشوع والخضوع، والمراد من الآيات ما تضمَّن العذابَ المنزل بالكفار، وهذا قريبٌ من سابقه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٠٠. وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٧.
(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٣٣٥.
(٤) في الأصل و(م): سعيد. وهو خطأ. والتصويب من المصادر.
(٥) سنن ابن ماجه (١٣٣٧) من طريق أبي رافع عن ابن أبي مليكة... وأبو رافع، إسماعيل بن أبي رافع: قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٦: ليِّن. وانظر مصباح الزجاجة ١/ ٢٤٠. وأخرجه البزار في مسنده (١٢٣٥) من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة... وقال: هذا الحديث لا يروى عن سعد إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد، وعبد الرحمن بن أبي بكر هذا لين الحديث.

ونقل الجلال السيوطيُّ[١] عن الرازيِّ[٢] أنَّه استدلَّ بالآية على وجوب سجود التلاوة، وهو ـ كما قال الكيا ـ بعيد[٣]. وذكروا أنَّه ينبغي أن يدعوَ الساجد في سجدته بما يليقُ بآيتها، فها هنا يقول: اللهمَّ اجعلني من عبادك المنعم عليهم، المهتدين الساجدين لك، الباكينَ عند تلاوة آياتك. وفي آية «الإسراء»: اللهمَّ اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك، وفي آية تنزيل «السجدة»: اللهمَّ اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبِّحين بحمدك ورحمتك، وأعوذُ بك من أنْ أكون من المستكبرين عن أمرك. وقرأ عبد الله وأبو جعفر، وشيبة وشبل بن عباد وأبو حيوة، وعبدُ الله بن أحمد العجليّ عن حمزة وقتيبة في رواية، وورش في رواية النحَّاس، وابنُ ذكوان في رواية التغلبيّ: «يُتلى» بالياء التحتية[٤]؛ لأنَّ التأنيثَ غيرُ حقيقيّ، ولوجود الفاصل.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: جاء بعدهم عقبُ سوءٍ، فإنَّ المشهورَ في الخلف ساكنَ اللام ذلك، والمشهور في مفتوح اللام ضدُّه، وقال أبو حاتم: الخلف بالسكون: الأولاد؛ الجمع والواحد فيه سواء، وبالفتح: البدل، ولداً كان أو غيره.

وقال النضر بن شميل: الخلف بالتحريك والإسكان: القرنُ السوء، أمَّا الصالح، فالتحريك لا غير.

وقال ابن جرير: أكثرُ ما جاء في المدح بفتح اللام، وفي الذمِّ بتسكينها، وقد يعكس[٥]، وعلى استعمال المفتوح في الذمِّ جاءَ قول لبيد:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافهم وبقيتُ في خَلْفٍ كجلد الأجربِ[٦]

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص١٧٤.
(٢) هو أبو بكر الجصاص الرازي، وانظر أحكام القرآن له ٣/ ٢١٨، وتفسير القرطبي ١٣/ ٤٧١.
(٣) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٢٧١.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٠٠. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٥، والقرطبي في تفسيره ١٣/ ٤٧٠ عن شبل بن عباد المكي فقط. وهي عنهم قراءة شاذة، كما صرح بذلك السمين في الدر المصون ٧/ ٦٠٨.
(٥) تفسير الطبري ١٠/ ٥٣٤.
(٦) سلف ٩/ ٤٤٠.

﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقرأ عبد الله والحسن وأبو رزين العقيليّ والضحّاك وابن مقسم: «الصلوات» بالجمع[١]، وهو ظاهر. ولعلَّ الإفراد للاتفاق في النوع.

وإضاعتُها ـ على ما روي عن ابن مسعود والنخعيّ والقاسم بن مخيمرة ومجاهد وإبراهيم وعمر بن عبد العزيز ـ تأخيرُها عن وقتها. ورَوى ذلك الإماميَّةُ عن أبي عبد الله ﵁.

واختار الزَّجّاج أنَّ إضاعتها الإخلال بشروطها من الوقت وغيره[٢].

وقيل: إقامتها في غير جماعة. وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظيّ أنَّ إضاعتَها تركها[٣].

وقيل: عدمُ اعتقاد وجوبها. وعلى هذا الآيةُ في الكفار، وعلى ما قبله لا قطع، واستظهر أنَّها عليه في قوم مسلمين؛ بناءً على أنَّ الكفّار غير مكلَّفين بالفروع، إلَّا أنْ يقال: المرادُ أنَّ من شأنهم ذلك. فتدبر، وعلى ما قبلهما في قوم مسلمين قولاً واحداً. والمشهور عن ابن عباس ومقاتل أنَّها في اليهود، وعن السُّدِّيّ أنَّها فيهم وفي النصارى، واختيرَ كونُها في الكفرة مطلقاً؛ لما سيأتي إنْ شاء الله تعالى قريباً، وعليه بُنِيَ حسنُ موقع حكاية قول جبريل عليه السلام الآتي.

وكونها في قومٍ مسلمين من هذه الأمَّة مرويٌّ عن مجاهد وقتادة وعطاء وغيرهم، قالوا: إنَّهم يأتون عند ذهاب الصالحين، يتبادرون بالزنى، ينزو بعضهم على بعضٍ في الأزقَّة كالأنعام، لا يستحيون من الناس، ولا يخافون من الله تعالى.

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ وانهمكوا في المعاصي المختلفة الأنواع. وفي «البحر»[٤]: «الشهوات» عامٌّ في كلِّ مشتهًى يشغلُ عن الصلاة وعن ذكر الله تعالى.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٠١. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٥ عن عبد الله بن مسعود والحسن والضحاك فقط.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣٥.
(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٧٧.
(٤) ٦/ ٢٠١.

وعدَّ بعضُهم من ذلك نكاح الأخت من الأب، وهو على القول بأنَّ الآية فيما يعمُّ اليهود؛ لأنَّ من مذهبهم ـ فيما قيل ـ ذلك، وليس بحقّ.

والذي صحَّ عنهم أنَّهم يجوِّزون نكاح بنت الأخ وبنت الأخت ونحوهما.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: من بنى المشيد، وركبَ المنظور، ولبس المشهور.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ أخرج ابنُ جرير والطبرانيُّ وغيرهما من حديث أبي أمامة مرفوعاً: «أنَّه نهرٌ في أسفل جهنم، يسيلُ فيه صديدُ أهل النار». وفيه: «لو أنَّ صخرةً زِنَةَ عشر عشراوات قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً، ثمَّ تنتهي إلى غيٍّ وأثام»(١).

ويعلم منه سِرُّ التعبير بـ «سوف يلقون». وأخرج جماعة من طرق عن ابن مسعود أنَّه قال: الغيُّ نهرٌ أو وادٍ في جهنَّم من قيح، بعيدُ القعر، خبيث الطعم، يقذف فيه الذين يتَّبعون الشهوات(٢).

وحكى الكرمانيُّ أنَّه آبارٌ في جهنَّم يسيلُ إليها الصديدُ والقيح. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنَّ الغيَّ السوء(٣)، ومن ذلك قولُ مرقش الأصغر:

فمَنْ يَلْقَ خيراً يَحْمَد الناسُ أمرَه ... ومن يغوِ لا يعدم على الغيِّ لائما(٤)

وعن ابن زيد أنَّه الضلالُ، وهو المعنى المشهور، وعليه قيل: المراد جزاءُ غيٍّ. ورُوِيَ ذلك عن الضَّحَّاك، واختارَه الزجَّاج(٥).

وقيل: المراد غيًّا عن طريق الجنة.

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٥٧١ ـ ٥٧٢، والمعجم الكبير للطبراني (٧٧٣١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨٩: وفيه ضعفاء قد وثقهم ابن حبان وقال: يخطئون. ووقع في المصادر: بئران. بدل: نهر، وعند الطبري: خمسين. بدل: سبعين.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٥٧٢-٥٧٣، والطبراني في المعجم الكبير (٩١٠٦-٩١١٣)، والحاكم في مستدركه ٢/ ٣٧٤-٣٧٥، والبيهقي في البعث والنشور (٥١٨) و(٥١٩).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٧٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤١٣ (١٣١٦٣).

(٤) سلف ٣/ ٤٠٤.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

وقُرئ ـ فيما حكى الأخفش ـ: «يُلَقَّون» بضمِّ الياء وفتح اللام وشدِّ القاف[١].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناءٌ منقطعٌ عند الزَّجَّاج[٢]. وقال في «البحر»[٣]: ظاهره الاتصال، وأيّد بذكر الإيمان كون الآية في الكفر، أو عامَّةً لهم ولغيرهم؛ لأنَّ «من آمن» لا يقال إلَّا لمن كان كافراً، إلَّا بحسب التغليظ.

وحَمْلُ الإيمان على الكامل خلافُ الظاهر، وكذا كَوْنُ المراد: إلَّا من جمع التوبة والإيمان.

وقيل: المراد من الإيمان الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] ويكون ذكره في مقابلة إضاعة الصلاة، وذكر العمل الصالح في مقابلة اتِّباع الشهوات.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بموجب الوعد المحتوم. ولا يخفى ما في ترك التسويف مع ذكر «أولئك» من اللطف.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب: «يُدْخَلون»[٤] بالبناء للمفعول من أدخل. وقرأ ابن غزوان عن طلحة: «سيَدخلون»[٥] بسين الاستقبال مبنيًا للفاعل.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ أي: لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً، أو لا ينقصون شيئاً من النقص، وفيه تنبيهٌ على أنَّ فعلهم السابق لا يضرُّهم، ولا ينقص أجورهم.

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ العملَ شرطُ دخول الجنة.

وأجيب بأنَّ المراد: يدخلون الجنة بلا تسويفٍ، بقرينة المقابلة، وذلك بتنزيل الزمان السابق على الدخول لحفظهم فيه عمَّا ينالُ غيرَهم منزلةَ العدم، فيكون العملُ شرطاً لهذا الدخول لا للدخول مطلقاً.

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٥، والبحر ٦/ ٢٠١.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٣٣٦.

(٣) ٦/ ٢٠١.

(٤) التيسير ص٩٧، والنشر ٢/ ٢٥٢. وقراءة يعقوب من رواية روح عنه. وقرأ بها أيضاً من العشرة أبو جعفر.

(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٠١.

وأيضاً يجوزُ أنْ يكون شرطاً لدخول جنَّة عدن، لا مطلق الجنة.

وقيل: هو شرطٌ لعدم نقص شيءٍ من ثواب الأعمال. وهو كما ترى، وقيل غير ذلك.

واعترَض بعضُهم على القول بالشرطية بأنَّه يلزمُ أن لا يكون من تاب وآمن ولم يتمكَّن من العمل الصالح ممَّن يدخل الجنة.

وأجيبَ بأنَّ ذلك من الصور النادرة، والأحكامُ إنَّما تناطُ بالأعمِّ الأغلب. فتأمَّل.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ بدلٌ من «الجنة» بدل البعض؛ لاشتمالها عليها اشتمالَ الكلِّ على الجزء؛ بناءً على ما قيل: إنَّ «جنات عدن» عَلَمٌ لإحدى الجنات الثمان، كعَلَميَّة: بنات أَوْبَر[١].

وقيل: إنَّ العلَم هو جنة عدن، إلَّا أنه أقيم[٢] الثاني بعد حذف الأول مقامَ المجموع، كما في شهر رمضان ورمضان، فكان الأصل: جنَّات جنة عدن[٣]. والذي حسَّن هذه الإقامةَ أنَّ المعتبرَ علميَّته في المنقول الإضافيِّ هو الجزءُ الثاني، حتى كأنَّه نُقِل وحده، كما قُرِّر في موضعه من كتب النحو المفصلة.

وفي «الكشف»: إذا كانت التسميةُ بالمضاف والمضاف إليه جعلوا المضاف إليه في نَحوه مقدَّر العلميَّة؛ لأنَّ المعهودَ في كلامهم في هذا الباب الإضافةُ إلى الأعلام والكنى، فإذا أضافوا إلى غيرها أجروه مجراها، كأبي تراب، ألا ترى أنَّهم لا يجوِّزون إدخالَ اللام في ابن دَأْيَةَ وأبي تراب، ويوجبونَه في نحو: امرئ القيس وماء السماء، كلُّ ذلك نظراً إلى أنَّه لا يُغيِّر من حاله، كالعلم. إلى آخر ما فيه. ويدلُّ على ذلك أيضاً منعُه من الصرف في: بناتِ أَوْبَرَ، وأبي قِتْرَةَ، وابنِ دَأْيَةَ[٤]، إلى غير ذلك، فـ «جنات عدن» على القولين معرفة، أمَّا على الأوَّل فللعلميَّة، وأمَّا على

---

(١) بنات أوبر: ضربٌ من الكمأة صغارٌ مُزَغَّبةٌ بلون التراب. ولقيت منه بنات أوبر، أي: الداهية. القاموس (وبر).

(٢) بعدها في (م): الجزء.

(٣) قوله: فكان الأصل جنات جنة عدن. ليس في الأصل.

(٤) أبو قِتْرَةَ: إبليس لعنه الله تعالى، وهي كنيته. وابن دَأْيَة: الغراب. القاموس (قتر) و(دأى).

الثاني فللإضافة المذكورة، وإن لم يكن «عدن» في الأصل عَلَماً ولا معرفة، بل هو مصدر عَدَن بالمكان يعدِن ويعدُن: أقام به.

واعتبار كون «عدن» قبل التركيب عَلَماً لإحدى الجنات يَستدعي أنْ تكون الإضافة في «جَنَّةِ عدن» من إضافة الأعمِّ مطلقاً إلى الأخصّ؛ بناءً على أنَّ المتبادرَ من الجنَّة المكان المعروف، لا الأشجار ونحوها، وهي لا تحسُن مطلقاً، بل منها حسنٌ كشجر الأراك ومدينة بغداد، ومنها قبيحٌ كإنسان زيد، ولا فارق بينهما إلَّا الذوق، وهو غير مضبوط.

وجوِّز أنْ يكون «عدن» عَلَماً للعَدن بمعنى الإقامة[1]، كسَحَر علمٌ للسَّحَر، وأمس للأمس. وتعريف «جنات» عليه ظاهرٌ أيضاً، وإنَّما قالوا ما قالوا تصحيحاً للبدليَّة؛ لأنَّه لو لم يعتبر التعريف لزم إبدالُ النكرة من المعرفة، وهو على رأي القائل لا يجوز إلَّا إذا كانت النكرةُ موصوفةً، وللوصفيَّة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾.

وجَوَّز أبو حيان[2] اعتبارَ «جنات عدن» نكرةً على معنى جنات إقامةٍ واستقرار، وقال: إنَّ دعوى أنَّ «عدناً» علمٌ لمعنى العدن تحتاج إلى توقيفٍ وسماعٍ من العرب، مع ما في ذلك مما يوهم اقتضاء البناء، وكذا دعوى العلميَّة الشخصيَّة فيه، وعدم جواز إبدال النكرة من المعرفة إلَّا موصوفة شيءٌ قاله البغداديون، وهم محجوجون بالسماع. ومذهبُ البصريين جوازُ الإبدال، وإن لم تكن النكرةُ موصوفةً[3].

وقال أبو علي: يجوز ذلك إذا كان في إبدال النكرة فائدة لا تستفاد من المبدَل منه، مع أنَّه لا تتعيَّن البدلية؛ لجواز النَّصب على المدح، وكذا لا يتعيَّن كون الموصول صفة لجواز الإبدال. انتهى بأدنى زيادة.

وتعقب إبدال الموصول بأنه في حكم المشتقِّ، وقد نَصّوا على أنَّ إبدال المشتَقّ

---

(١) قوله: علماً للعدن بمعنى الإقامة. ليس في الأصل.

(٢) البحر ٦/٢٠٢.

(٣) جاء في هامش الأصل ما نصه: وقال الرضي: الوصف شرط إذا كان البدل بدل كل. اهـ منه.

ضعيف، ولعلَّ أبا حيان لا يُسلِّم ذلك، ثم إنَّه جوَّز كون «جنات عدن» بدل كلّ، وكذا جوَّز كونه عطف بيان، وجملة: «لا يظلمون» على وجهي البدلية والعطف اعتراض أو حال.

وقرأ الحسن وأبو حيوة وعيسى بن عمر والأعمش وأحمد بن موسى عن أبي عمرو: «جناتُ عدنٍ» بالرفع، وخرَّجه أبو حيان على أنه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: تلك جنات، وغيره على أنَّها مبتدأ، والخبر الموصول.

وقرأ الحسن بن حيّ وعلي بن صالح: «جنةَ عدن» بالنصب والإفراد، ورويت عن الأعمش، وهي كذلك في مصحف عبد الله. وقرأ اليمانيُّ والحسن في رواية وإسحاق الأزرق عن حمزة: «جنةُ عدن» بالرفع والإفراد[1]، والعائد إلى الموصول محذوف، أي: وعدَها الرحمن، والتعرُّضُ لعنوان الرحمة؛ للإيذان بأنَّ وعدها وإنجازه؛ لكمال سعة رحمته سبحانه وتعالى.

والباء في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ للملابسة، وهي متعلِّقةٌ بمضمرٍ هو حال من العائد، أو «من عباده» أي: وعدها إيَّاهم ملتبسةً أو ملتبسين بالغيب، أي: غائبةً عنهم غير حاضرة، أو غائبين عنها لا يرونها. أو للسببيَّة، وهي متعلِّقة بـ «وعد» أي: وعدها إيَّاهم بسبب تصديق الغيب والإيمان به. وقيل: هي صلة «عباده» على معنى: الذين يعبدونه سبحانه بالغيب، أي: بالسِّرِّ[2]. وهو كما ترى.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الرحمن. وجُوِّز كونُ الضمير للشأن ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي: موعوده سبحانه، وهو الجنات، كما روي عن ابن جريج. أو موعوده كائناً ما كان، فيدخلُ فيه ما ذُكر دخولاً أوليًّا، كما قيل. وجوِّزَ إبقاءُ الوعد على مصدريَّته، وإطلاقه على ما ذكر للمبالغة، والتعبير بـ «كان» للإيذان بتحقُّق الوقوع، أي: كان ذلك ﴿مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ أي: يأتيه من وُعد له لا محالة.

وقيل: «مأتيًّا» مفعول بمعنى فاعل، أي: آتياً.

وقيل: هو مفعولٌ من: أتى إليه إحساناً، أي: فعل به ما يعدُّ إحساناً وجميلاً،

---

(١) البحر ٦/٢٠١ - ٢٠٢. وقراءة أبي عمرو وحمزة المتواترة عنهما كقراءة الجمهور.
(٢) في (م): في السر.

والوعد على ظاهره. ومعنى كونه مفعولاً كونه منجَّزاً، لأنَّ فعل الوعد بعد صدوره وإيجاده إنَّما هو تَنجيزُه، أي: إنَّه كان وعدُه عبادَه منجَّزاً.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فضولَ كلام لا طائل تحته، بل هو جارٍ مجرى اللَّغا، وهو صوتُ العصافير ونحوها من الطير.

والكلامُ كنايةٌ عن عدم صدور اللغو عن أهلها، وفيه تنبيهٌ على أنَّ اللغو ممَّا ينبغي أن يُجتنب عنه في هذه الدار ما أمكن.

وعن مجاهد تفسيرُ اللغو بالكلام المشتملِ على السَّبِّ، والمراد لا يتسابُّون. والتعميم أولى.

﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناءٌ منقطع، والسلام إمَّا بمعناه المعروف، أي: لكن يسمعون تسليمَ الملائكة عليهم السلام عليهم، أو تسليمَ بعضهم على بعض، أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص، أي: لكن يسمعون كلاماً سالماً من العيب والنقص.

وجُوِّزَ أن يكون متَّصلاً، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذَّمَّ، كما في قوله:

ولا عيبَ فيهم غير أنَّ سيوفَهم بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائبِ(١)

وهو يفيد نفيَ سماع اللغو بالطريق البرهانيِّ الأقوى، والاتصال على هذا على طريق الفرض والتقدير، ولولا ذلك لم يقع موقعَه من الحسن والمبالغة.

وقيل: اتِّصال الاستثناء على أنَّ معنى السلام: الدعاء بالسلامة من الآفات، وحيثُ إنَّ أهل الجنة أغنياء عن ذلك، إذ لا آفةَ فيها، كان السلام لغواً بحسب الظاهر، وإن لم يكن كذلك نظراً للمقصود منه، وهو الإكرام وإظهار التحابب، ولذا كان لائقاً بأهل الجنَّة.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ واردٌ على عادة المتنعمين في هذه الدار، أخرج ابن المنذر عن يحيى بن كثير قال: كانت العرب في زمانها إنَّما لها أكلةٌ واحدةٌ، فمن أصاب أكلتين سُمِّي: فلانٌ الناعم، فأنزل الله تعالى هذا يرغِّب عبادَه فيما عنده. وروي نحو ذلك عن الحسن.

---

(١) سلف ٥/ ٤٠٧.

وقيل: المراد: دوامُ رزقهم ودُروره، وإلَّا فليس في الجنة بكرة ولا عشيّ، لكن جاء في بعض الآثار أنَّ أهل الجنة يعرفونَ مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفونَ مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب.

وأخرج الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» من طريق أبان عن الحسن وأبي قلابة قالا: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله هل في الجنة من ليل؟ قال: «وما هيَّجك على هذا»؟ قال: سمعتُ الله تعالى يذكر في الكتاب: «ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيًّا» فقلت: الليلُ من البكرة والعشيّ. فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليلٌ، وإنَّما هو ضوء ونور، يَرِدُ الغدوُّ على الرواح، والرواحُ على الغدو، وتأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلُّون فيها في الدنيا، وتسلِّم عليهم الملائكة عليهم السلام»[(١)].

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ استئنافٌ جيء به لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها، فاسمُ الإشارة مبتدأ، «والجنة» خبرٌ له، والموصول صفةٌ لها، والجملةُ بعده صلته، والعائد محذوفٌ، أي: نورثها، وبذلك قرأ الأعمش[(٢)].

وقرأ الحسن والأعرج وقتادة ورويس وحميد وابن أبي عبلة وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو: «نورِّث» بفتح الواو وتشديد الراء[(٣)]، والمراد: نبقيها على من كان تقيًّا من ثمرة تقواه، ونمتِّعه بها، كما نبقي على الوارث مال مورِّثه، ونمتِّعه به، فالإيراث[(٤)] مستعارٌ للإبقاء، وإيثاره على سائر ما يَدُلُّ على ذلك كالبيع والهبة؛ لأنَّه أتمُّ أنواع التمليك، من حيث إنَّه لا يعقب بفسخٍ ولا استرجاع ولا إبطال.

وقيل: يورَّث المتقون من الجنة المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: ليس من أحدٍ إلَّا وله في الجنة منزلٌ وأزواج، فإذا كان يوم القيامة وَرَّث اللهُ تعالى المؤمنَ كذا وكذا منزلاً من منازل الكفار، وذلك قوله تعالى: «تلك الجنة التي نورث» الآية[(٥)].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٧٨. ولم أقف عليه في مطبوع نوادر الأصول.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٠٢.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٠٢، وقراءة رويس عن يعقوب ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣١٨.

(٤) جاء في هامش الأصل ما نصه: وقيل: يحتمل الكلام التمثيل. اهـ منه.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٧٨. وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤١٣ (١٣١٦٨).

ولا يخفى أنَّ هذا إن صحَّ فيه أثرٌ عن رسول الله ﷺ فعلى العين والرأس، وإلَّا فقد قيل عليه: إنَّه ضعيف؛ لأنه يدلُّ على أنَّ بعض الجنَّة موروث، والنظم الجليل يدلُّ على أنها كلَّها كذلك، ولأنَّ الإيراثَ ينبئُ عن ملكٍ سابق لا على فرضه، مع أنَّه لا داعي للفرض هنا. لكن تعقِّب بأنَّه يكفي في الإيراث كون الموروث كان موعوداً[(١)]، لكن بشرط التقوى، بناءً على ما ذهب إليه بعضهم في قوله تعالى: «جنات عدن التي وعدَ الرحمنُ عبادَه»، حيث قال: المرادُ من العباد ما يعمُّ المؤمن التقيَّ وغيره، ووعدُ غير المؤمن التقيِّ مشروطٌ بالإيمان والتقوى.

نعم اختارَ الأكثرون أنَّ المراد من العباد هناك المتقون، والمراد منهم هنا الأعمّ.

والمراد من التقيِّ من آمن وعمل صالحاً، على ما قيل. ولا دلالةَ في الآية على أنَّ غيره لا يدخل الجنةَ مطلقاً، وأخرج ابنُ أبي حاتم عن داود بن أبي هند: أنَّه الموحِّد[(٢)]. فتذكَّر ولا تغفل.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكاية قول جبرائيل صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه، فقد روي أنَّه احتبس عنه ﷺ أياماً حين سُئِل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فلم يدرِ عليه الصلاة والسلام كيف يجيب، حتى حزنَ واشتدَّ عليه ذلك، وقال المشركون: إنَّ ربَّه ودَّعه وقلاه، فلمَّا نزل قال له عليه الصلاة والسلام: «يا جبريل احتبستَ عنِّي حتى ساءَ ظنِّي واشتقتُ إليك» فقال: إنِّي كنتُ أشوق، ولكني عبدٌ مأمور، إذا بعثت نزلت، وإذا حُبست احتبست، وأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الضحى. قاله غيرُ واحد[(٣)]. فهو من عطف

---

(١) في (م): موجوداً.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٧٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤١٤ (١٣١٦٩).
(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣١٠ من قول عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي. قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٧: ذكره الثعلبي عن عكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي فقالوا: احتبس... فذكره سواء. وكأنه ملفَّقٌ عندهم، فقد ذكره ابن إسحاق في السيرة، قال: حدثني شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس أن قريشاً جاؤوا فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، فذكر القصة. وفيها: فمكث فيما يذكرون خمسة عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك، وصار لا يأتيه جبريل... فذكره

القصة على القصة على ما قاله الخفاجيّ[١].

وفي «الكشف»: وجهُ وقوع ذلك هذا الموقع أنَّه تعالى لمَّا فرغ من أقاصيص الأنبياء عليهم السلام تثبيتاً له ﷺ، وذنَّب بما أحدث بعدَهم الخُلُوف، واستثنى الإخلاف، وذكر جزاءَ الفريقين، عقَّبَ بحكاية نزول جبريل عليه السلام، وما رماه المشركون به من توديع ربِّه سبحانه إيَّاه؛ زيادةً في التسلية، وأنَّ الأمر ليس على ما زعم هؤلاء الخُلُوف، وأدمجَ فيه مناسبته لحديث التقوى بما دلَّ على أنَّهم مأمورون في حركةٍ وسكون، منقادون، مفوَّضون لطفاً له ولأمته ﷺ، ولهذا صرَّح بعده بقوله تعالى: «فاعبده واصطبر لعبادته». وفيه أنَّك لا ينبغي أنْ تكترثَ بمقالة المخالفين إلى أن تلقى ربَّك سعيداً، وعطف عليه مقالةَ الكفَّار بياناً لتباين ما بين المقالتين، وما عليه الملَكُ المعصوم، والإنسان الجاهل الظلوم، فهو استطرادٌ شبيهٌ بالاعتراض حسنُ الموقع. انتهى.

ولا يأبى ما تقدَّم في سبب النزول ما أخرجه أحمد والبخاريُّ والترمذيُّ والنسائيُّ وجماعة في سببه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه الصلاة والسلام: «ما يمنعُك أن تزورَنا أكثر ممَّا تزورنا»؟ فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[٢]؛ لجواز أنْ يكون ﷺ قال ذلك في أثناء محاورته السابقة أيضاً، واقتصر في كلِّ روايةٍ على شيءٍ ممَّا وقعَ في المحاورة. وقيل: يجوزُ أنْ يكون النزول متكرِّراً. نعم ما ذكر في التوجيه إنَّما يحسنُ على بعض الروايات السابقة في المراد بالخَلْف الذين أضاعوا الصلاة واتَّبعوا الشهوات. وقال بعضهم: إنَّ التقدير: هذا، وقال جبريل: وما نتنزل إلخ، وبه يظهرُ حسن العطف ووجهه. انتهى. وتُعقِّب بأنَّه لا محصّل له.

وحكى النقَّاش عن قوم أنَّ الآيَةَ متَّصلةٌ بقول جبريل عليه السلام أوَّلاً[٣]: ﴿وَقَالَ

= بتغير وزيادة ونقص. ورواه أبو نعيم في «الدلائل» من طريقه، ومن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس نحوه. وقال: أبطأ عليه خمسة عشر يوماً لتركه الاستثناء. اهـ.

(١) في حاشيته ٦/ ١٧٠.

(٢) مسند أحمد (٢٠٤٣)، وصحيح البخاري (٤٧٣١) و(٧٤٥٥)، وسنن الترمذي (٣١٥٨)، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٥٧).

(٣) بعدها في الأصل: بقوله.

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٩]. وهو قولٌ نازلٌ عن درجة القَبول جدًّا.

والتنزُّل: النزول على مَهْل؛ لأنَّه مطاوع نَزَّل، يقال: نَزَّلته فتنزَّل، وقد يطلقُ بمعنى النزول مطلقاً، كما يطلق نَزَل بمعنى أنزل، وعلى ذلك قوله:

فَلَسْتَ لإنسيٍّ ولكن لِمَلأَكٍ تَنَزَّل من جوِّ السماء يصوبُ[(١)]

إذ لا أثرَ للتَّدرُّج في مقصود الشاعر، والمعنى: ما نتنزَّل وقتاً غِبَّ وقتٍ إلَّا بأمر الله تعالى، على ما تقتضيه حكمته سبحانه.

وقرأ الأعرج: «وما يتنزَّل» بالياء[(٢)]، والضميرُ للوحي بقرينة الحال وسبب النزول، والكلامُ لجبريل عليه السلام.

وقيل: إنَّ الضمير له عليه السلام، والكلام له عزَّ وجلَّ، أخبر سبحانه أنَّه لا يتنزَّلُ جبريلُ إلَّا بأمره تعالى قائلاً: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما قُدَّامنا من الزمان المستقبل ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من الزمان الماضي ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الزمان الحالِّ، فلا تنزل في زمانٍ دونَ زمان إلَّا بأمره سبحانه ومشيئته عزَّ وجلَّ.

وقال ابن جريج: ما بين الأيدي هو ما مرَّ من الزمان قبل الإيجاد، وما خلف هو ما بعدَ موتهم إلى استمرار الآخرة، وما بين ذلك هو مدَّةُ الحياة.

وقال أبو العالية: ما بين الأيدي الدنيا بأسرها إلى النفخة الأولى، وما خلفَ ذلك الآخرة من وقت البعث، وما بين ذلك ما بين النفختين، وهو أربعون سنة.

وفي كتاب «التحرير والتحبير»: ما بين الأيدي الآخرة، وما خلف الدنيا. ورواه العوفيُّ عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير وقتادة ومقاتل وسفيان.

وقال الأخفش[(٣)]: ما بينَ الأيدي هو ما قبل الخَلْق، وما خلف هو ما بعدَ الفناء، وما بين ذلك ما بين الدنيا والآخرة، فالماءات على هذه الأقوال من

---

(١) سلف ١٢/ ٣١٢.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٥، والبحر المحيط ٦/ ٢٠٤.

(٣) معاني القرآن له ٢/ ٦٢٦.

الزمان. وقال صاحب «الغنيان»: ما بين أيدينا السماءُ، وما خلفنا الأرض، وما بين ذلك ما بين الأرض والسماء.

وقيل: ما بين الأيدي الأرض، وما خلف السماء.

وقيل: ما بين الأيدي المكان الذي ينتقلون إليه، وما خلف المكانُ الذي ينتقلون منه، وما بين ذلك المكان الذين هم فيه، فالماءات من الأمكنة.

واختارَ بعضُهم تفسيرها بما يعمُّ الزمان والمكان، والمراد أنَّه تعالى المالكُ لكلِّ ذلك، فلا ننتقل من مكانٍ إلى مكان، ولا ننزلُ في زمان دون زمان إلَّا بإذنه عزَّ وجلَّ. وقال البغويُّ: المراد: له علمُ ما بينَ أيدينا . . . إلخ[1]، أي: فلا نقدِمُ على ما لم يكن موافقَ حكمته سبحانه وتعالى. واختار بعضهم التعميم، أي: له سبحانه ذلك ملكاً وعلماً.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ أي: تاركاً أنبياءَه عليهم السلام، ويدخلُ ﷺ في ذلك دخولاً أوَّليًّا، أي: ما كان عدمُ النزول إلَّا لعدم الأمر به، ولم يكن عن تركِ الله تعالى لك وتوديعه إيَّاك، كما زعمت الكفرة، وإنما كان لحكمة بالغةٍ.

وقيل: النسيان على ظاهره، يعني أنه سبحانه بإحاطة علمه وملكه لا يطرأ عليه الغفلة والنسيان حتى يغفل عنك وعن الإيحاء إليك، وإنَّما كان تأخيرُ الإيحاء لحكمةٍ علمَها جلَّ شأنه.

واختير الأوَّل لأنَّ هذا المعنى لا يجوزُ عليه سبحانه، فلا حاجة إلى نفيه عنه عزَّ وجلَّ، مع أنَّ الأولَ هو الأوفقُ لسبب النزول. ورُجِّح الثاني بأنَّه الأوفقُ[2] بصيغة المبالغة، فإنَّها باعتبار كثرةٍ من فرض التعلُّق به، وهي أتمُّ على الثاني، مع ما في ذلك من إبقاء اللفظ على حقيقته، وكثيراً ما جاء في القرآن نفيُ ما لا يجوز عليه سبحانه وتعالى. وفيه نظر.

نعم لا شبهةَ في أنَّ المتبادر الثاني، وأمر الأوفقيَّة لسبب النزول سهلٌ.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٢.
(٢) في (م): أوفق.

وفي إعادة اسم الربِّ المعرِب عن التبليغ إلى الكمالِ اللائق، مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، من تشريفه ﷺ والإشعار بعلَّة الحكم ما لا يخفى.

وقال أبو مسلم وابن بحر: أوَّلُ الآية إلى «وما بين ذلك» من كلام المتَّقين حين يدخلون الجنة، والتنزُّل فيه من النزول في المكان، والمعنى: وما نَحِلُّ الجنَّة ونتخذُها منازلَ إلَّا بأمر ربِّك تعالى ولطفِه، وهو سبحانه مالكُ الأمورِ كلها؛ لسالفها ومترقَّبها وحاضرها، فما وجدنا وما نجدُه من لطفه وفضله، وقوله سبحانه: «وما كان ربُّك نسيًّا» تقريرٌ من جهته تعالى لقولهم، أي: وما كان سبحانَه تاركاً لثواب العاملين، أو: ما كان ناسياً لأعمالهم والثوابِ عليها حسبما وعدَ جلَّ وعلا.

وفيه أنَّ حملَ التنزُّل على ما ذكر خلافُ الظاهر، وأيضاً مقتضاه بأمر ربنا؛ لأنَّ خطابَ النبيِّ ﷺ كما في الوجه الأول غيرُ ظاهر، إلَّا أنْ يكون حكاه الله تعالى على المعنى؛ لأنَّ ربَّهم وربَّه واحد، ولو حكي على لفظهم لقيل: ربنا. وإنَّما حُكي كذلك؛ ليُجعل تمهيداً لما بعده، وكونُ ذلك خطابَ جماعة المتقين لواحدٍ منهم بعيدٌ، وكذا: «وما كان ربك نسيًّا» إذ لم يقل: ربُّهم. وأيضاً لا يوافقُ ذلك سببَ النزول بوجه، وكأنَّ القائل إنَّما اختارَه ليناسبَ الكلامُ ما قبلَه، ويظهر عطفه عليه. وقد تحقَّق أنَّا في غنًى عن ارتكابه لهذا الغرض.

وقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ بيانٌ لاستحالة النسيان عليه تعالى، فإنَّ من بيده ملكوتُ السماوات والأرض وما بينهما، كيف يُتصوَّرُ أنْ يحومَ حول ساحة عظمته وجلاله الغفلةُ والنسيان، أو تركُ وقلاء من اختاره واصطفاه لتبليغ رسالته.

و«ربّ» خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو ربُّ السماوات. إلخ، أو بدلٌ من «ربك» في قوله تعالى: «وما كان ربُّك نسيًّا».

والفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لترتيب ما بعدَها من موجب الأمرين على ما قبلها من كونه تعالى ربَّ السماوات والأرض وما بينهما. وقيل: من كونه تعالى غيرَ تاركٍ له عليه الصلاة والسلام، أو غيرَ ناسٍ لأعمال العاملين.

والمعنى: فحين عرفتَه تعالى بما ذُكر من الربوبيَّة الكاملة، فاعبده... إلخ، فإنَّ إيجابَ معرفته سبحانه كذلك لعبادته ممَّا لا ريب فيه. أو: حين عرفتَ أنَّه عزَّ وجلَّ لا ينساك، أو لا ينسى أعمالَ العاملين، فأقبل على عبادتِه، واصطبر على مشاقِّها ولا تحزن بإبطاء الوحي، وكلام الكفرة؛ فإنَّه سبحانه يراقبُك ويراعيك، ويلطفُ بك في الدنيا والآخرة. وَجوَّزَ أبو البقاء[1] أن يكون «ربُّ السماوات» مبتدأ، والخبرُ «فاعبده»، والفاء زائدة على رأي الأخفش. وهو كما ترى. وجَوَّز الزمخشريُّ أن يكون قوله تعالى: «وما كان ربك نسيًّا» من تتمَّة كلام المتقين، على تقدير أن يكون «رب» خبرَ مبتدأ محذوف[2]. ولم يجوِّز ذلك على تقدير الإبدال؛ لأنَّه لا يظهرُ حينئذٍ ترتُّب قوله سبحانه: «فاعبده» إلخ عليه؛ لأنَّه من كلام الله تعالى لنبيه ﷺ في الدنيا بلا شكّ. وجعلُه جوابَ شرطٍ محذوف، على تقدير: ولمَّا عرفت أحوالَ أهل الجنة وأقوالهم فأقبل على العمل = لا يلائمُ ـ كما في «الكشف» ـ فصاحةَ التنزيل؛ للعدول عن السبب الظاهر إلى الخفي.

وتعديةُ الاصطبار باللام مع أنَّ المعروف تعديته بـ «على»، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: ١٣٢] لتضمُّنه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاقِّ، كقولك للمبارز: اصطبر لقِرْنِكَ، أي: اثبت له فيما يورد عليك من شدَّاته.

وفيه إشارةٌ إلى ما يكابد من المجاهدة، وأنَّ المستقيم من ثَبت لذلك، ولم يتزلزل وَشْمَةً[3]، من معنى: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[4].

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ۝٦٥﴾ أي: مثلاً، كما جاء في رواية جماعةٍ عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة. وأصله الشريك في الاسم، وإطلاقه على ذلك؛ لأنَّ الشركة في الاسم تقتضي المماثلة. وقال ابن عطية: السميُّ على هذا بمعنى المسامي والمضاهي[5]. وأبقاه بعضُهم على الأصل.

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/ ١١٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٥١٦ ـ ٥١٧.

(٣) يقال: ما عصاهُ وشمةً، أي: طرفة عين. انظر اللسان (وشم).

(٤) سلف ٦/ ٢٣٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٥.

واستُظهِر أنْ يُراد ها هنا الشريك في اسمٍ خاصٍّ، قد عبَّر عنه تعالى بذلك، وهو ربُّ السماوات والأرض.

وقيل: المراد هو الشريك في الاسم الجليل، فإنَّ المشركين مع غلوِّهم في المكابرة لم يسمُّوا الصنم بالجلالة أصلاً.

وقيل: المرادُ هو الشريك فيما يختصُّ به تعالى، كالاسم الجليل والرحمن، ونقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً.

وقيل: هو الشريكُ في اسم الإله، والمراد بالتسمية التسمية على الحق، وأما التسميةُ على الباطل فهي كلا تسمية.

وأخرج الطستيُّ عن ابن عباس أنَّ نافع بن الأزرق سأله عن ذلك فقال: السميُّ الولد، وأنشد له قول الشاعر:

أمَّا السميُّ فأنت منه مكثِّرٌ والمال مالٌ يغتدي ويروحُ[(١)]

وروي ذلك أيضاً عن الضَّحَّاك.

وأيًّا ما كان، فالمرادُ بإنكار العلم ونفيه إنكارُ المعلوم ونفيُه على أبلغ وجه وآكده.

والجملة تقريرٌ لوجوب عبادته عزَّ وجلَّ، وإن اختلفَ الاعتبارُ حسب اختلاف الأقوال. فتدبَّر. وقرأ الأخوان وهشام، وعلي بن نصر وهارون كلاهما عن أبي عمرو، والحسن، والأعمش، وعيسى، وابن محيصن: «هل تَّعْلَمُ» بإدغام اللام في التاء[(٢)]، وهو ـ على ما قال أبو عبيدة ـ لغةٌ كالإظهار، وأنشدوا لذلك قول مزاحم العقيليّ:

فذر ذا ولكن هتُّعين متيَّماً على ضوء برقٍ آخرَ الليل ناصبِ[(٣)]

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ أخرج ابن المنذر عن ابن جريج

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٧٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٠٤. وهي عن الأخوين حمزة والكسائي في السبعة ص٤١٠، والنشر ٢/ ٧.

(٣) كتاب سيبويه ٤/ ٤٥٩، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٤٨، وشرح المفصل ١٠/ ١٤١ ـ ١٤٢.

أنَّها نزلت في العاصي بن وائل[١]. وعن عطاء عن ابن عباس أنَّها نزلت في الوليد بن المغيرة. وقيل: في أبي جهل. وعن الكلبيّ أنَّها في أبيِّ بن خلف، أخذَ عظماً بالياً، فجعل يفتُّه بيده ويذريه في الريح، ويقول: زعم فلانٌ أنَّا نبعثُ بعد أن نموتَ ونكونَ مثل هذا، إنَّ هذا شيءٌ لا يكون أبداً.

فـ «أل» في «الإنسان» ـ على ما قيل ـ للعهد، والمراد به أحد هؤلاء الأشخاص. وقيل: المراد بـ «الإنسان» جماعةٌ معيَّنون، وهم الكفرة المنكرون للبعث. وقال غيرُ واحد: يجوز أن تكون «أل» للجنس ويكون هناك مجازٌ في الطرف؛ بأن يطلق جنسُ الإنسان ويراد بعضُ أفراده، كما يطلق الكلُّ على بعض أجزائه، أو يكون هناك مجازٌ في الإسناد بأنْ يسند إلى الكلِّ ما صدرَ عن البعض، كما يقال: بنو فلانٍ قتلوا قتيلاً، والقاتل واحدٌ منهم، ومن ذلك قوله:

فسيفُ بني عبسٍ وقد ضربوا به ... نبا بيدَيْ ورقاءَ عن رأس خالدِ[٢]

واعترض هذا بأنَّه يُشترط لصحَّة ذلك الإسناد رضا الباقين بالفعل، أو مساعدتهم عليه، حتى يعدَّ كأنَّه صدر منهم، ولا شكَّ أنَّ بقيَّة أفراد الإنسان من المؤمنين لم يرضوا بهذا القول.

وأجاب بعض مشترطي ذلك للصحة بأنَّ الإنكار مركوزٌ في طبائع الكلِّ قبل النظر في الدليل، فالرضا حاصلٌ بالنظر إلى الطبع والجبلَّة. وقال الخفاجيُّ: الحقُّ عدمُ اشتراط ذلك لصحَّته، وإنما يشترطُ لحسنه نكتةٌ يقتضيها مقامُ الكلام حتى يعدَّ الفعلُ كأنَّه صدرَ عن الجميع، فقد تكون الرِّضا، وقد تكون المظاهرة، وقد تكون عدم الغوث والمدد، ولذا أوجبَ الشرعُ القَسَامة والدِّية، وقد تكون غيرَ ذلك، وكأنَّ النكتَة هنا أنَّه وقع بينهم إعلانُ قولٍ لا ينبغي أن يقالَ مثلُه، وإذا قيل لا ينبغي أن يُترَك قائلُه بدون منعٍ أو قتل، جعل ذلك بمنزلة الرضا حثًّا لهم على إنكاره قولاً أو فعلاً[٣]. انتهى.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٧٩.

(٢) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ١٥٧.

(٣) حاشية الخفاجي ٦/ ١٧٢.

وقيل: لعلَّ الحقَّ أنَّ الإسنادَ إلى الكلِّ هنا للإشارة إلى قلَّة المؤمنين بالبعث على الوجه الذي أخبر به الصادقُ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] فتأمل.

وعبَّر بالمضارع؛ إمَّا استحضاراً للصورة الماضية لنوع غرابة، وإمَّا لإفادة الاستمرار التجدُّديّ، فإنَّ هذا الأمرَ(١) لا يزال يتجدَّد حتى يُنفخَ في الصور.

والهمزةُ للإنكار، و«إذا» ظرف متعلق بفعلٍ محذوف دلَّ عليه «أُخْرَج»، ولم يجوِّزوا تعلُّقه بالمذكور؛ لأنَّ ما بعد اللام لا يعملُ فيما قبله. وعدَّ ابنُ عطيَّة توسط «سوف» مانعاً من العمل أيضاً، ورُدَّ عليه بقوله:

فلمَّا رأته أمُّنا هانَ وَجْدُها وقالت أبونا هكذا سوف يَفْعَلُ(٢)

وغير ذلك ممَّا سمع. ونقل عن الرضيّ أنه جعل «إذا» هنا شَرطيَّة، وجعلَ عاملَها الجزاء، وقال: إنَّ كلمةَ الشرط تدلُّ على لزوم الجزاء للشرط، ولتحصيل هذا الغرض عمل في «إذا» جزاؤه، مع كونه بعد حرفٍ لا يعمل ما بعدَه فيما قبله، كالفاء في ﴿فَسَبِّحْ﴾ [النصر: ٣]، و«إنَّ» في قولك: إذا جئتني فإنِّي مكرم، ولام الابتداء في قوله تعالى: «أئذا ما متُّ لسوف أُخرَجُ حيًّا».

ومختارُ الأكثرين أنَّ «إذا» هنا ظرفيَّة، وما ذكره الرضيُّ ليس بمتَّفقٍ عليه، وتحقيقُ ذلك في كتب العربية.

وفي الكلام معطوفٌ محذوف؛ لقيام القرينة عليه، أي: أئذا ما متُّ وصرتُ رميماً لسوف.. إلخ. واللامُ هنا لمجرد التوكيد، ولذا ساغَ اقترانها بحرف الاستقبال، وهذا على القول بأنَّها إذا دخلت المضارع خلَّصته للحال، وأمَّا على القول بأنَّها لا تخلِّصه، فلا حاجةَ إلى دعوى تجريدها للتوكيد، لكن الأول هو المشهور. و«ما» في «إذا ما» للتوكيد أيضاً.

والمراد من الإخراج الإخراجُ من الأرض، أو من حال الفناء، والخروج على الأول حقيقة، وعلى الثاني مجازٌ عن الانتقال من حالٍ إلى أخرى.

---

(١) في (م): القول.

(٢) هو للنمر بن تولب كما في ديوانه ص٣٧١ (شعراء إسلاميون).

وإيلاءُ الظرف همزةَ الإنكار دون الإخراج؛ لأنَّ ذلك الإخراج ليس بمنكرٍ مطلقاً، وإنَّما المنكر كونُه وقت اجتماع الأمرين، فقُدِّم الظرف؛ لأنَّه محلُّ الإنكار، والأصل في المنكر أن يلي الهمزة.

ويجوزُ أن يكون المراد إنكار وقت ذلك بعينه، أي: إنكار مجيء وقتٍ فيه حياةٌ بعد الموت، يعني أنَّ هذا الوقتَ لا يكونُ موجوداً، وهو أبلغُ من إنكار الحياة بعد الموت؛ لما أنَّه يفيدُ إنكاره بطريقٍ برهانيّ.

وبعضهم لم يقدِّر معطوفاً، واعتبر زمانَ الموت ممتدًّا، لا أول زهوق الروح كما هو المتبادر.

وقيل: لا حاجةَ إلى جميع ذلك؛ لأنَّهم إذا أحالوه في حالة الموت عُلِم إحالتُه إذا كانوا رفاتاً بالطريق الأولى. وأيًّا ما كان فلا إشكال في الآية.

وقرأ جماعةٌ منهم ابن ذكوان بخلافٍ عنه: «إذا» بدون همزة الاستفهام[١]، وهي مقدَّرة معه؛ لدلالة المعنى على ذلك. وقيل: لا تقدير، والمراد الإخبار على سبيل الهزء والسخرية بمن يقول ذلك.

وقرأ طلحة بن مصرف: «سَأُخْرج» بسين الاستقبال وبغير لام[٢]، وعلى ذلك تكون «إذا» متعلِّقةً بالفعل المذكور على الصحيح. وفي رواية أخرى عنه: «لَسَأُخْرج» بالسين واللام[٣].

وقرأ الحسن وأبو حيوة: «أَخْرُجُ» مبنيًّا للفاعل[٤].

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ من الذكر الذي يُراد به التفكُّر. والإظهارُ في موضع الإضمار لزيادة التقرير، والإشعار بأنَّ الإنسانية من دواعي التفكُّر فيما جرى عليه من شؤون التكوين المانعةِ عن القول المذكور، وهو السرُّ في إسناده إلى الجنس أو إلى الفرد بذلك العنوان على ما قيل.

---

(١) التيسير ص١٤٩، والنشر ١/ ٣٧٢.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٥، والبحر المحيط ٦/ ٢٠٦.

(٣) الكشاف ٢/ ٥١٧، والبحر المحيط ٦/ ٢٠٦.

(٤) القراءات الشاذة ص٨٥، والبحر المحيط ٦/ ٢٠٧.

والهمزة للإنكار التوبيخيّ، وهي على أحد المذهبين المشهورين في مثل هذا التركيب داخلةٌ على محذوفٍ معطوفٍ عليه ما بعد، والتقدير ها هنا: أيقول ذلك ولا يذكرُ ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل الحالة التي هو فيها، وهي حالة بقائه. وقيل: أي: من قبل بعثه ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ أي: والحالُ أنَّه لم يكن حينئذٍ موجوداً، فحيث خلقناه وهو في تلك الحالة المنافية للخلق بالكليَّة، مع كونه أبعد من الوقوع، فَلَأَنْ نبعثَه بإعادة ما عُدِم منه وقد كان متَّصفاً بالوجود في وقت، على ما اختاره بعض أهل السنة، أو بجمع الموادِّ المتفرِّقة وإيجاد مثلِ ما كان فيها من الأعراض، على ما اختاره بعضٌ آخرُ منهم أيضاً = أولى وأظهر، فما له لا يذكرُه فيقع فيما يقع فيه من النكير؟!

وقيل: إنَّ العطف على «يقول» المذكور سابقاً، والهمزة لإنكار الجمع؛ لدخولها على الواو المفيدة له، ولا يخلُّ ذلك بصدارتها؛ لأنها بالنسبة إلى جملتها، فكأنه قيل: أيجمعُ بين القول المذكور وعدم الذكر، ومحصَّله: أيقول ذلك ولا يذكر أنَّا خلقنَاه.. إلخ.

وقرأ غيرُ واحدٍ من السبعة: «يَذَّكَّر» بفتح الذال والكاف وتشديدهما[(١)]، وأصله: يتذكَّر، فأدغم التاء في الذال، وبذلك قرأ أبيّ[(٢)].

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ إقسامه باسمه ـ عزَّت أسماؤه ـ مضافاً إلى ضميره ﷺ؛ لتحقيق الأمر بالإشعار بعلَّته، وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام، ورفع منزلته.

﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي: لنجمعنَّ القائلين ما تقدَّم بالسَّوق إلى المحشر بعد ما أخرجناهم أحياء.

وفي القَسَم على ذلك دون البعث إثباتٌ له على أبلغ وجه وآكده، كأنَّه أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عن التصريح به بعد بيان إمكانه بما تقدَّم من الحجَّة البالغة، وإنَّما المحتاجُ إلى البيان ما بعد ذلك من الأهوال.

---

(١) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائي. انظر التيسير ص١٤٩. وقرأ بها أيضاً أبو جعفر ويعقوب وخلف ـ من العشرة ـ انظر النشر ٢/ ٣١٨.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٢٠٧. قال النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٢٣: وهذه القراءة على التفسير لأنها مخالفةٌ لخط المصحف.

وكون الضمير للكفرة القائلين هو الظاهر نظراً إلى السياق، وإليه ذهب ابنُ عطية[١] وجماعة. ولا ينافي ذلك إرادة الواحد من الإنسان، كما لا يخفى. واستظهر أبو حيان[٢] أنَّه للناس كلِّهم؛ مؤمنهم وكافرهم.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ معطوفٌ على الضمير المنصوب، أو مفعول معه. رُوي أنَّ الكفرةَ يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين كانوا يغوونهم؛ كلٌّ منهم مع شيطانه في سلسلة، ووجه ذلك على تقدير عود الضمير للناس أنَّهم لما حُشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حُشِروا معهم جميعاً على طرز ما قيل في نسبة القول إلى الجنس.

وقيل: يحشرُ كلُّ واحدٍ من الناس مؤمنهم وكافرهم مع قرينه من الشياطين، ولا يختصُّ الكافر بذلك. وقد يُستأنس له بما في الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: «ما منكم من أحدٍ إلَّا وُكِّل به قرينه من الجِنِّ». قالوا: وإيَّاك يا رسول الله. قال: «وإيَّايَ، إلا أنَّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلَّا بخير»[٣].

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾ باركين على الرُّكَب، وأصله: جُثُوْوٌ بواوين، فاستثقل اجتماعُهما بعد ضمَّتين، فكسرت الثاء للتخفيف، فانقلبت الواو الأولى ياءً لسكونها وانكسار ما قبلها، فاجتمعت واو وياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، فأدغمت الياء في الياء، وكسرت الجيم إتباعاً لما بعدها. وقرأ غير واحدٍ من السبعة بضمِّها[٤]، وهو جمعُ: جاثٍ، في القراءتين، وجَوَّزَ الراغب[٥] كونَه مصدراً، نظير ما قيل في بكى. وقد مرَّ.

ولعلَّ إحضارَ الكفرة بهذه الحال إهانةٌ لهم، أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٠٨.
(٣) أخرجه مسلم (٣٦٤٨)، وليس في صحيح البخاري، وصرح ابن كثير في تفسيره ٤/ ٤٣٩ بأنه من أفراد مسلم.
(٤) هي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو. التيسير ص١٤٨. وقرأ بها أيضاً من العشرة أبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر ٢/ ٣١٧.
(٥) المفردات (جثى).

من الشِّدَّة. وقال بعضهم: إنَّ المحاسبةَ تكون حولَ جهنم، فيجثون لمخاصمة بعضهم بعضاً، ثم يتبرَّأ بعضُهم من بعض.

وقال السُّدِّيّ: يجثون لضيق المكان بهم، فالحال على القولين مقدَّرةٌ بخلافه على ما تقدَّم. وقيل: إنَّها عليه مقدرة أيضاً؛ لأنَّ المراد الجثيُّ حول جهنم.

ومن جعل الضمير للكفرة وغيرهم قال: إنَّه يحضرُ السعداء والأشقياء حول جهنَّم؛ ليرى السعداء ما نجَّاهم الله تعالى منه، فيزدادوا غبطةً وسروراً، وينال الأشقياء ما ادَّخروا لمعادهم، ويزدادوا غيظاً من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم بهم، ويجثون كلُّهم ثَمَّ؛ لمَا يدهمهم من هول المطلع، أو لضيق المكان، أو لأنَّ ذلك من توابع التواقُف للحساب والتقاول قبل الوصول إلى الثواب والعقاب.

وقيل: إنَّهم يجثون على ركبهم إظهاراً للذلّ في ذلك الموقف[1] العظيم، ويدلُّ على جثيِّ جميع أهل الموقف ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية:٢٨]. لكن سيأتي قريباً إنْ شاء الله تعالى ما هو ظاهرٌ في عدم جثيِّ الجميع من الأخبار، والله تعالى أعلم.

والحال قيل: مقدرة، وقيل: غير مقدرة، إلَّا أنَّه أسند ما للبعض إلى الكلّ، وجعلُها مقدَّرةً بالنسبة إلى السعداء، وغيرَ مقدَّرةٍ بالنسبة إلى الأشقياء لا يصح.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه فسَّر «جثيًّا» بجماعات، على أنَّه جمع: جثْوَة، وهو المجموعُ من التراب والحجارة، أي: لنحضرنَّهم جماعاتٍ.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: جماعةٍ تشايعت وتعاونت على الباطل، أو: شاعت وتبعت الباطلَ، على ما يقتضيه كونُ الآية في الكفرة، أو جماعةٍ شاعت ديناً مطلقاً، وعلى ما يقتضيه كونها في المؤمنين وغيرهم ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ أي: نُبُوًّا عن الطاعة وعصياناً. وعن ابن عباس: جراءةً. وعن مجاهد: كفراً. وقيل: افتراءً، بلغة تميم. والجمهور على التفسير الأول.

---

(١) في (م): الموطن.

وهو على سائر التفاسير مصدرٌ، وفيه القراءتان السابقتان في «جثيًّا»[١]. وزعم بعضهم أنَّه فيهما جمع: جاثٍ عاتٍ[٢]، وهو خلاف الظاهر هنا.

والنزعُ: الإخراج، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ [الأعراف:١٠٨] والمراد استمرار ذلك، أي: إنّا نخرج ونفرز من كلِّ جماعةٍ من جماعات الكفر أعصاهم فأعصاهم إلى أن يحاطَ بهم، فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب، نُقدِّم أَوْلَاهم بالعذاب فأولاهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ فالمراد بالذين هم أولى المُنْتَزَعون باعتبار الترتيب، وقد يراد بهم أولئك باعتبار المجموع، فكأنه قيل: ثمَّ لنحن أعلم بتصلية هؤلاء، وهم أولى بالصليِّ من بين سائر الضَّالين، ودركاتُهم أسفل، وعذابهم أشدّ، ففي الكلام إقامةُ المظهَر مقام المضمر.

وفَسَّر بعضُهم النزع بالرمي، من نزعت السهم عن القوس، أي: رميتُه، فالمعنى: لنرمينَّ فيها الأعصى فالأعصى من كلِّ طائفة من تلك الطوائف، ثمَّ لنحن أعلم بتصليتهم.

وحملُ الآية على البدء بالأشدِّ فالأشدّ مرويٌّ عن ابن مسعود ﷺ. وجُوِّزَ أنْ يراد بأشدِّهم عتيًّا رؤساء الشيع وأئمتهم؛ لتضاعفِ جُرمهم بكونهم ضُلَّالاً مضلِّين، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]، ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣] وأخرج ذلك ابنُ أبي حاتم عن قتادة[٣]. وعليه: لا يجبُ الاستمرار والإحاطة.

وأُوردَ على القول بالعموم أنَّ قوله تعالى: «أشدُّ.. عتيًّا» يقتضي اشتراكَ الكلِّ في العتيّ، بل في أشديَّته، وهو لا يناسب المؤمنين.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وحفص: بكسر العين، وباقي العشرة بضمها. انظر التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/ ٣١٧.

(٢) في الأصل: جمع عات، وفي (م): جمع حاث. والمثبت من نسخة نعمان الألوسي. وانظر المفردات (جثا) و(عتا).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٨٠.

وأجيب عنه بأنَّ ذلك من نسبة ما للبعض إلى الكلّ، والتفضيلُ على طائفة لا يقتضي مشاركةَ كلِّ فردٍ فردٍ، فإذا قلت: هو أشجعُ العرب، لا يلزمه وجودُ الشجاعة في جميع أفرادهم، وعلى هذا يكون في الآية إيماءٌ إلى التجاوز عن كثير، حيث خصَّ العذاب بالأشدِّ معصيةً.

و«أيهم» مفعول «ننزعنَّ» وهو اسمٌ موصول بمعنى «الذي»، مبنيٌّ على الضمِّ، محلُّه النصب، و«أشدُّ» خبر مبتدأ محذوف، أي: هو أشدّ، والجملة صلة، والعائد المبتدأ، و«على الرحمن» متعلِّق بـ «أشدّ»، «وعتيًّا» تمييزٌ محوّل عن المبتدأ، ومن زعم أنَّه جمعٌ جعله حالاً. وجُوِّزَ في الجارِّ أنْ يكون للبيان، فهو متعلِّقٌ بمحذوف كما في: سقيًا لك، ويجوزُ تعلُّقه بـ «عتيًّا»، أمَّا إن كان وصفاً فبالاتفاق، وأمَّا إذا كان مصدراً فعند القائل بجواز تقدُّم معمول المصدر، لاسيَّما إذا كان ظرفاً. وكذا الكلام في «بها» من قوله تعالى: «هم أولى بها صليًّا». فإنَّه جُوِّز أن يكون الجارُّ للبيان، وأن يكون متعلِّقاً بـ «أولَى»، وأن يكون متعلِّقاً بـ «صليًّا».

وقد قُرئ بالضمِّ والكسر(١)، وجوِّز فيه المصدريَّة والوصفيَّة، وهو على الوصفيَّة حالٌ، وعلى المصدريَّة تمييزٌ على طرز ما قيل في: «عتيًّا» إلَّا أنَّه جُوِّز فيه أنْ يكون تمييزاً عن النسبة بين «أولى» والمجرور، وقد أشير إلى ذلك فيما مرَّ.

والصليُّ من صَلِيَ النار ـ كرضي ـ وبها: قاسى حرَّها، وقال الراغب(٢): يقال: صَليَ بالنار وبكذا، أي: بلي به.

وعن الكلبيِّ أنه فسَّر الصليَّ بالدخول. وعن ابن جريج أنَّه فَسَّرَه بالخلود. وليس كلٌّ من المعنيين بحقيقيٍّ له كما لا يخفى.

ثمَّ ما ذكر من بناء «أيّ» هنا هو مذهبُ سيبويه(٣)، وكان حقُّها أن تبنى في كلِّ موضع، كسائر الموصولات؛ لشبهها الحرفَ بافتقارها لما بعدها من الصلة، لكنَّها لما لزمت الإضافة إلى المفرد لفظاً أو تقديراً، وهي من خواصِّ الأسماء بعد الشبه،

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي بكسر الصاد، والباقون بضمها. انظر التيسير ص١٤٨، والنشر ٢/٣١٧.

(٢) المفردات (صلا).

(٣) الكتاب ٢/٣٩٨.

فرجعتْ إلى الأصل في الأسماء وهو الإعراب، ولأنَّها إذا أضيفتْ إلى نكرةٍ كانت بمعنى «كل»، وإذا أضيفت إلى معرفة كانت بمعنى «بعض»، فحملت في الإعراب على ما هي بمعناه. وعادت هنا عندَه إلى ما هو حقُّ الموصول وهو البناء؛ لأنَّه لما حذف صدرُ صلتها ازداد نقصُها المعنويُّ، وهو الإبهام والافتقار للصلة، بنقص الصلة التي هي كجزئها، فقويت مشابهتُها للحرف.

ولم يرتضِ كثيرٌ من العلماء ما ذهب إليه. قال أبو عمرو الجرميّ: خرجتُ من البصرة، فلم أسمع منذ فارقتُ الخندق إلى مكَّة أحداً يقول: لأضربنَّ أيُّهم قائمٌ. بالضم.

وقال أبو جعفر النحاس: ما علمت أحداً من النحويين إلَّا وقد خطَّأ سيبويه في هذه المسألة. وقال الزجَّاج: ما تبين [لي] أنَّ سيبويه غلط في «كتابه» إلَّا في موضعين، هذا أحدهما، فإنَّه يقول بإعراب «أي» إذا أفردت عن الإضافة، فكيف يبنيها إذا أضيفت[1]؟

وقد تكلَّف شيخنا علاء الدين - أعلا الله تعالى مقامه في عليين - للذبِّ عن سيبويه في ذلك بما لا يفي بمؤنَة نقله، وقد ذكرنا بعضاً منه في حواشينا على «شرح القطر» للمصنِّف. نعم يؤيِّد ما ذهبَ إليه سيبويه من المفعوليَّة قراءةُ طلحة بن مصرِّف ومعاذ بن مسلم الهرّاء أستاذ الفراء وزائدة عن الأعمش: «أيَّهم» بالنصب[2]، لكنها تَرُدُّ ما نُقل عنه من تَحتُّم البناء إذا أضيفت وحُذف صدر صلتها، وينبغي إذا كان واقفاً على هذه القراءة أنْ يقول بجواز الأمرين فيها حينئذ.

وقال الخليل: مفعول «ننزعنّ» موصولٌ محذوف، و«أي» هنا استفهامية مبتدأ، و«أشدُّ» خبره، والجملة محكيَّة بقولٍ وقعَ صلة للموصول المحذوف، أي: لننزعنَّ الذين يقال فيهم: أيُّهم أشدّ[3].

وتُعقِّب بأنَّه لا معنى لجعل «النزع» لمن يسأل عنه بهذا الاستفهام.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٢٤. وكلام الزجاج فيه. وما بين حاصرتين منه.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٠٩، وهي في القراءات الشاذة ص٨٦ عن معاذ بن مسلم وطلحة فقط.
(٣) انظر الكتاب ٢/ ٣٩٩.

وأجيب بأنَّ ذلك مجازٌ عن تقارب أحوالهم وتشابهها في العتوّ، حتى يستحقَّ أن يُسأل عنها، أو المراد: الذين يجابُ بهم عن هذا السؤال، وحاصله: لننزعنَّ الأشدَّ عتيًّا، وهو مع تكلُّفه فيه حذفُ الموصول مع بعض الصلة، وهو تكلُّفٌ على تكلُّفٍ، ومثله لا ينقاس. نعم مثله في الحذف على ما قيل قول الشاعر:

ولقد أبيتُ من الفتاة بمنزلٍ فأبيتُ لا حَرِجٌ ولا مَحْرُومُ[1]

وذهب الكسائيُّ والفرَّاء[2] إلى ما قاله الخليل، إلَّا أنَّهما جعلا الجملةَ في محلِّ نصب بـ «ننزعنّ»، والمراد: لننزعنَّ من يقعُ في جواب هذا السؤال، والفعلُ معلَّقٌ بالاستفهام؛ وساغَ تعليقُه عندهما؛ لأنَّ المعنى: لننادينَّ، وهما يريان تعليق النداء، وإنْ لم يكن من أفعال القلوب، وإلى ذلك ذهبَ المهدويّ.

وقيل: لمَّا كان النزع متضمِّناً معنى الإفراز والتمييز، وهو مما يلزمهُ العَلَم، عُوملَ معاملةَ العلم، فساغَ تعليقه. ويونُس لا يرَى التعليق مختصًّا بصنفٍ من الأفعال، بل سائر أصنافها سواءٌ في صحَّة التعليق عنده.

وقيل: الجملة الاستفهامية استئنافيةٌ، والفعل واقعٌ على «كل شيعة» على زيادة «من» في الإثبات، كما يراه الأخفش، أو على معنى: لننزعنَّ بعضَ كلِّ شيعة. بجعل «من» مفعولاً لتأويلها باسم، ثمَّ إذا كان الاستئناف بيانيًّا واقعاً في جواب: من المنزوعون؟ احتيجَ إلى التأويل، كأن يقال: المراد الذين يقعون في جواب «أيهم أشدُّ»، أو نحو ذلك. وإذا كانت «أي» على تقدير الاستئناف ووقوعِ الفعل ـ على ما ذكر ـ موصولةً، لم يحتج إلى التأويل، إلَّا أنَّ في القول بالاستئناف عدولاً عن الظاهر من كون الكلام جملةً واحدةً إلى خلاف الظاهر من كونه جملتين. ونقل بعضهم عن المبرِّد أنَّ «أيهم» فاعل «شيعة»؛ لأنَّ معناه: يشيع، والتقدير: لننزعنَّ من كلِّ فريقٍ يشيعُ أيُّهم هو أشدّ، و«أي» على هذا ـ على ما قال أبو البقاء[3] ونُقِل عن الرضيّ ـ بمعنى «الذي».

---

(١) هو للأخطل، وهو في ديوانه ص٨٤.

(٢) معاني القرآن ١/٤٧، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ﴾ [البقرة:٦٩].

(٣) في الإملاء ٢/١١٦.

وفي «البحر»: قال المبرِّد: «أيُّهم» متعلِّقٌ بـ «شيعة» فلذلك ارتفع، والمعنى: من الذين تشايعوا أيُّهم أشدُّ، كأنهم يتبادرون إلى هذا، ويلزمه أن يقدِّرَ مفعولاً لـ «لننزعنَّ» محذوفاً، وقُدِّر أيضاً في هذا المذهب: من الذين تشايعوا أيُّهم أشدُّ، على معنى: من الذين تعاونوا فنظروا أيُّهم أشدُّ. قال النحاس: وهذا قول حسن[1]. انتهى.

وهو خلاف ما نُقل أولاً، ولعمري إنَّ ما نُسب إلى المبرِّد أوَّلًا وأخيراً أبردُ من يَخْ[2].

وقيل: إنَّ الجملة استفهامية وقعت صفةً لـ «شيعة» على معنى: لننزعنَّ من كلِّ شيعةٍ مقولٍ فيهم أيُّهم أشدُّ، أي: من كلِّ شيعةٍ متقاربي الأحوال، و«من» مزيدة و«النزع» الرمي.

وحكى أبو بكر بن شقير أنَّ بعضَ الكوفيين يقول: في «أيهم» معنى الشرط، تقول: ضربتُ القوم أيَّهم غضب، والمعنى: إن غضبوا أو لم يغضبوا.

قال أبو حيان: فعلى هذا يكونُ التقدير هنا: إن اشتدَّ عتوُّهم أو لم يشتدّ[3]. انتهى. وهو كما ترى.

والوجه الذي ينساق إليه الذهن ويساعدُه اللفظ والمعنى هو ما ذهبَ إليه سيبويه، ومدارُ ما ذهب إليه في أيٍّ من الإعراب والبناء هو السماع في الحقيقة، وتعليلاتُ النحويين ـ على ما فيها ـ إنَّما هي بعد الوقوع، وعدم سماع غيره لا يقدحُ في سماعه. فتدبر.

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ التفاتٌ إلى خطاب الإنسان، سواءٌ أريد منه العموم أو خصوص الكَفَرة؛ لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام.

وقيل: هو خطابٌ للناس، وابتداءُ كلام منه عزَّ وجلَّ بعد ما أتَمَّ الغرضَ من الأول، فلا التفات أصلاً. ولعلَّه الأسبقُ إلى الذهن، لكن قيل: يؤيِّدُ الأول قراءةُ

---

(١) البحر ٦/ ٢٠٨، وكلام النحاس في إعراب القرآن له ٣/ ٢٥.

(٢) كلمة فارسية معناها ثلج أو جليد. المعجم الذهبي ص٦١٨.

(٣) البحر ٦/ ٢٠٩.

ابن عباس وعكرمة وجماعة: «وإن منهم»(١) أي: وما منكم أحدٌ ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: داخلها، كما ذهب إلى ذلك جمعٌ كثير من السلف المفسِّرين وأهل السنة، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨] وقوله تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨].

واحتجَّ ابنُ عباس بما ذُكر على ابن الأزرق حين أنكرَ عليه تفسير الورود بالدخول، وهو جارٍ على تقدير عموم الخطاب أيضاً، فيدخلها المؤمنُ إلَّا أنَّها لا تضرُّه على ما قيل؛ فقد أخرج أحمدُ والحكيم الترمذيّ وابنُ المنذر والحاكم وصححه وجماعةٌ عن أبي سميَّة قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضُنا: لا يدخلها مؤمن، وقال آخر: يدخلونَها جميعاً، ثمَّ ينجِّي الله تعالى الذين اتَّقوا، فلقيتُ جابرَ بن عبد الله ﷺ فذكرت له فقال ـ وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه ـ: صُمَّتَا إنْ لم أكن سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يبقى برٌّ ولا فاجرٌ إلَّا دخلَها، فتكونُ على المؤمن برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم عليه السلام، حتى إنَّ للنَّارِ ضجيجاً من بردهم، ثمَّ ينجِّي الله تعالى الذين اتَّقوا»(٢).

وقد ذكر الإمامُ الرازيُّ لهذا الدخول عدَّة فوائد في «تفسيره» فليراجع(٣).

وأخرج عبدُ بن حميد وابن الأنباريّ والبيهقيُّ عن الحسن: الورودُ: المرورُ عليها من غير دخول(٤). وروي ذلك أيضاً عن قتادة، وذلك بالمرور على الصراط الموضوع على مَتْنِها، على ما رواه جماعةٌ عن ابن مسعود ﷺ، ويمرُّ المؤمن ولا يشعرُ بها؛ بناءً على ما أخرج ابن أبي شيبة وعبدُ بن حميد والحكيم وغيرهم عن خالد بن معدان قال: إذا دخلَ أهلُ الجنَّة الجنَّة قالوا: ربَّنا ألم تعدنا أنْ نرِد النار؟ قال: بلى، ولكنكم مررتم عليها وهي خامدة(٥).

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٢١٠.

(٢) مسند أحمد (١٤٥٢٠)، ونوادر الأصول ص٢٥، ومستدرك الحاكم ٤/ ٥٨٧. ووقع عند الحاكم: عن عبد الرحمن بن شيبة. بدل: أبي سمية. وانظر الكافي الشاف ص١٠٧.

(٣) تفسير الرازي ٢١/ ٢٤٤.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٨١.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٨١، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٦١، ونوادر الأصول ص ٢٥.

ولا ينافي هذا ما أخرجهُ الترمذيُّ(١) والطبرانيُّ وغيرهما عن يعلى بن أمية عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تقولُ النار للمؤمن يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن، فقد أطفأ نورُك لهبي»، لجوازِ أن لا يكون متذكِّراً هذا القولَ عند السؤال، أو لم يكن سمعَه لاشتغاله.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال في الآية: ورودُ المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين أن يدخلوها(٢).

ولا بدَّ على هذا من ارتكاب عموم المجاز عند من لا يرى جواز استعمال اللفظ في معنيين.

وعن مجاهد أنَّ ورودَ المؤمن النار هو مسُّ الحمَّى جسدَه في الدنيا، لما صحَّ من قوله ﷺ: «الحمَّى من فيح جهنم»(٣). ولا يخفى خفاء الاستدلال به على المطلوب.

واستدلَّ بعضُهم على ذلك بما أخرجه ابنُ جرير عن أبي هريرة قال: خرج رسولُ الله ﷺ يعودُ رجلاً من أصحابه وَعِكاً وأنا معه، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى يقول: هي ناري أُسَلِّطُها على عبدي المؤمن؛ لتكونَ حَظَّه من النار في الآخرة»(٤). وفيه خفاء أيضاً.

والحقُّ أنَّه لا دلالة فيه على عدم ورود المؤمن المحموم في الدنيا النارَ في الآخرة، وقصارى ما يدلُّ عليه أنَّه يُحفظ من ألم النار يوم القيامة.

وأخرج عبد بن حميد عن عبيد بن عمير أنَّ الورودَ الحضور والقرب(٥)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣].

---

(١) هو الحكيم الترمذي كما صرح بذلك السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٢، والحديث في نوادر الأصول ص٢٥، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٩٠، والطبراني في الكبير ٢٢/ (٦٦٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٦٠: وفيه سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٨١.

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٦٣)، ومسلم (٢٢١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ٥٩٧. وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٠٨٨)، وابن ماجه (٣٤٧٠)، وأحمد (٩٦٧٦).

(٥) الدر المنثور ٤/ ٢٨١.

واختار بعضُهم أنَّ المرادَ حضورهم جاثين حواليها، واستدلَّ عليه بما ستعلمُه إن شاء الله تعالى.

ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] لأنَّ المراد: مبعدون عن عذابها.

وقيل: المراد إبعادُهم عنها بعد أن يكونوا قريباً منها.

﴿كَانَ﴾ أي: ورودهم إيَّاها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا﴾ أمراً واجباً، كما روي عن ابن عباس. والمراد بمنزلة الواجب في تحتُّم الوقوع، إذ لا يجبُ على الله تعالى شيءٌ عند أهل السنة. ﴿مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ قضى بوقوعه البتة.

وأخرج الخطيب عن عكرمة أنَّ معنى «كان حتماً مقضيًّا»: كان قسماً واجباً[١]. وروي ذلك أيضاً عن ابن مسعود والحسن وقتادة. قيل: والمراد منه إنشاء القسم.

وقيل: قد يقال: إنَّ «على ربك» المقصود منه اليمين، كما تقول: لله تعالى عليَّ كذا، إذ لا معنى له إلَّا تأكُّد اللزوم، والقَسَم لا يذكر إلَّا لمثله، و«على» ورد في كلامهم كثيراً للقَسَم، كقوله:

عليَّ إذا ما جئتُ ليلى أزورُها ... زيارة بيت الله رَجلانَ حافيا[٢]

فإنَّ صيغةَ النذر قد يراد بها اليمين كما صرَّحوا به، ويجوز أن يكون المراد بهذه الجملة القَسَم، كقولهم: عزمت عليك إلَّا فعلتَ كذا. انتهى.

ويُعلم ممَّا ذكر المراد من القَسَم فيما أخرجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتُ لمسلمٍ ثلاثة من الولد فيلج النار، إلَّا تحلَّة القَسَم»[٣]. وقال أبو عبيدة[٤] وابن

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣. وعزاه لـ «تالي التلخيص» للخطيب البغدادي.

(٢) ديوان مجنون ليلى ص٣٠٦، والشطر الأول فيه:

عليَّ لئن لاقيت ليلى بخلوةٍ

وهو بالرواية التي ذكرها المصنف في حاشية الخفاجي ٦/ ١٧٥. والكلام منه.

(٣) صحيح البخاري (١٢٥١)، وصحيح مسلم (٢٦٣٢)، وسنن الترمذي (١٠٣٠)، وسنن النسائي (١٨٧٦)، وسنن ابن ماجه (١٦٠٣).

(٤) كذا في الأصل و(م). ووقع في حاشية الخفاجي ٦/ ١٧٦، وتهذيب اللغة للأزهري ٣/ ٤٣٨: أبو عبيد.

عطية[١] وتبعهما غيرُ واحد: إنَّ القسم في الخبر[٢] إشارةٌ إلى القسم في المبتدأ، أعني: «وإن منكم إلَّا واردُها»، وصرَّح بعضُهم أنَّ الواو فيه للقسم.

وتعقَّب ذلك أبو حيان بأنَّه لا يذهب نحويٌّ إلى أنَّ مثل هذه الواو واو قسم؛ لأنَّه يلزمُ من ذلك حذف المجرور وإبقاءُ الجارِّ، وهو لا يجوزُ إلَّا إن وقع في شعر، أو نادر كلام، بشرط أنْ تقوم صفة المحذوفِ مقامَه، كما في قوله:

والله ما لَيْلِي بنامَ صاحِبُهْ[٣]

وقال أيضاً: نصَّ النحويون على أنَّه لا يُستغنَى عن القسم بالجواب لدلالة المعنى، إلَّا إذا كان الجواب باللام أو بـ «أن»[٤]. وأين ذلك في الآية؟

وجعل ابنُ هشام تحلَّة القسم كناية عن القلَّة، وقد شاع في ذلك، ومنه قول كعب:

تَخْذِي على يَسَراتٍ وهي لاحقةٌ ذوابلٌ مَسُّهنَّ الأرضَ تحليلُ[٥]

فإنَّ المعنى: مسّهنَّ الأرض قليلٌ، كما يحلف الإنسان على شيءٍ ليفعلنَّه، فيفعل منه اليسير؛ ليتحلَّل به من قسمه. ثم قال: إنَّ فيما قاله جماعةٌ من المفسِّرين من أنَّ القسمَ على الأصل، وهو إشارةٌ إلى قوله تعالى: «وإن منكم إلا واردها» إلخ نظراً؛ لأنَّ الجملةَ لا قسمَ فيها إلَّا إن عطفت على الجمل التي أجيب بها القسم من قوله تعالى: «فوربِّكَ لنحشرنَّهم» إلى آخرها، وفيه بعد[٦]. انتهى.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٧.

(٢) يريد في قوله ﷺ: «إلَّا تحلة القسم».

(٣) الرجز في أمالي ابن الشجري ٢/ ٤٠٥، وخزانة الأدب ٩/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩، وبعده: ولا مخالطُ اللَّيَّان جانبه. قال عبد القادر البغدادي: والبيت مع كثرة دورانه في كتب النحو غير معلومٍ قائله. والله أعلم به.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٠٩.

(٥) ديوان كعب بن زهير ص٨٧. وفيه: وقعهنَّ. بدل: مسُّهنَّ. وقوله: تخذي. الخذي والخذيان والوخذ: ضرب من السير. واليَسَرات: القوائم الخفاف. واللاحقة: الضامرة أي الخفيفة اللحم. وقوله: مسهن الأرض تحليل: إشارة إلى سرعة قوائمها، وذلك لأن التحليل من تحلة اليمين. شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام ص٦٢.

(٦) شرح قصيدة بانت سعاد ص٦٢ ـ ٦٣.

والخفاجيُّ جوَّز الحالية والعطف، وقال: حديث البُعد غيرُ مسموعٍ؛ لعدم تخلل الفاصل[1]. وهو كما ترى.

ولعلَّ الأسلم من القيل والقال جعلُ ذلك مجازاً عن القلة، وهو مجازٌ مشهور فيما ذكر، ولا يعكِّر على هذا ما أخرجه أحمد والبخاريُّ في «تاريخه» والطبرانيُّ وغيرهم عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله تعالى متطوِّعاً لا يأخذُه سلطانٌ، لم ير النارَ بعينه إلَّا تحلَّة القسم، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾»[2]. فإنَّ التعليلَ صحيحٌ مع إرادة القلَّة من ذلك أيضاً، فكأنَّه قيل: لم ير النارَ إلَّا قليلاً؛ لأنَّ الله تعالى أخبرَ بورود كلِّ أحدٍ إيَّاها، ولا بدَّ من وقوع ما أخبرَ به، ولولا ذلك لجاز أنْ لا يراها أصلاً.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ بالإخراج منها، على ما ذهب إليه الجمعُ الكثير. ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ على رُكَبهم، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد.

وهذه الآيةُ ظاهرةٌ عندي في أنَّ المرادَ بالورود الدخول، وهو الأمرُ المشترك. وقال بعضهم: إنَّها دليلٌ على أنَّ المراد بالورود الجثوّ حواليها، وذلك لأنَّ «ننجي»، و«نذر» تفصيلٌ للجنس، فكأنَّه قيل: نُنجي هؤلاء ونترك هؤلاء على حالهم الذي أُحضروا فيه جاثين. ولا بدَّ على هذا من أن يكون التقدير في حواليها. وأنت تعلمُ أنَّ الظاهر عدمُ التقدير، والجثوّ لا يوجبُ ذلك.

وخولف بين قوله تعالى: «اتقوا» وقوله سبحانه: «الظالمين»؛ ليؤذن بترجيح جانب الرحمة، وأنَّ التوحيدَ هو المنجي، والإشراك هو المردي، فكأنَّه قيل: ثم ننجي من وجدَ منه تقوًى ما، وهو الاحترازُ من الشرك، ونهلك من اتَّصفَ بالظلم، أي: بالشرك، وثبت عليه.

وفي إيقاع «نذر» مقابلاً لـ «ننجي» إشعارٌ بتلك اللطيفة أيضاً.

---

(١) حاشية الخفاجي ٦/ ١٧٦.

(٢) مسند أحمد (١٥٦١٢)، والتاريخ الكبير للبخاري ٣/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٤٠٢).

قال الراغب: يقال: فلانٌ يذرُ الشيء، أي: يقذفُه لقلَّة اعتداده به. ومن ذلك قيل لقطعة اللحمِ التي لا يعتدُّ بها: وَذْر(١).

وجيء بـ «ثم» للإيذان بالتفاوت بين فعل الخَلْق وهو ورودهم النار، وفعل الحقِّ سبحانه وهو النجاة والدمار زماناً ورتبةً. قاله العلَّامة الطيبيّ طيَّب الله تعالى ثراه.

والذي تقتضيه الآثار الواردة في عصاة المؤمنين أنْ يقال: إنَّ التنجيةَ المذكورة ليست دفعيَّةً، بل تحصلُ أوَّلاً فأولاً، على حسب قوة التقوى وضعفها، حتى يخرجَ من النار من في قلبه وزنُ ذرَّةٍ من خير، وذلك بعد العذاب حسب معصيته، وما ظاهرهُ من الأخبار ـ كخبر جابر السابق ـ أنَّ المؤمنَ لا تضرُّه النار = مؤوَّلٌ بحمل المؤمن على المؤمن الكامل؛ لكثرة الأخبار الدالَّة على أنَّ بعض المؤمنين يعذبون. ومن ذلك ما أخرجه الترمذيُّ عن جابر ﷺ أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «يعذَّب ناس من أهل التوحيد في النار، حتى يكونوا حُمماً، ثم تدركُهم الرحمةُ فيُخْرَجُون، فيُطْرَحون على أبواب الجنة، فيَرُشُّ عليهم أهلُ الجنة الماء، فينبتُون كما ينبتُ الغُثاء في حميل السيل»(٢).

ومن هنا حظر بعضُ العلماء أن يقال في الدعاء: اللهمَّ اغفر لجميع أمّة محمد ﷺ جميعَ ذنوبهم، أو: اللهمَّ لا تعذِّب أحداً من أمَّة محمَّدٍ ﷺ.

هذا، وقال بعضهم: إنَّ المرادَ من التنجية ـ على تقدير أنَّ الخطاب خاصٌّ

---

(١) كذا في الأصل و(م). والذي في المفردات، والقاموس مادة (وذر): ذرة.
قال ابن الأثير في النهاية (وذر): الوَذْرة بالسكون: القطعة من اللحم، والوذْر بالسكون أيضاً جمعها.

(٢) سنن الترمذي (٢٥٩٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٥١٩٨). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجهٍ عن جابر. وقوله: «حمماً» بضم الحاء وفتح الميم الأولى المخففة، وهو الفحم، الواحدة حممة. وقوله: «الغُثَاء» هو في الأصل كل ما حمله السيل من عيدان وورق وبزور وغيرها، والمراد به هنا ما حمله من البزور خاصة. وقوله: «في حميل السيل»: ما يحمله السيل من غثاء أو طين، والمراد أن الغثاء الذي يجيء به السيل يكون فيه الحبة، فيقع في جانب الوادي فتصبح من يومها نابتة. انظر تحفة الأحوذي ٧/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

بالكفرة ـ أن يُساقَ الذين اتَّقوا إلى الجنة بعد أنْ كانوا على شفير النار، وجيء بـ «ثم» لبيان التفاوت بين ورود الكافرين النَّار، وسوقِ المذكورين إلى الجنَّة، وأنَّ الأول للإهانة، والآخرَ للكرامة. وأنتَ تعلمُ أنَّ الذين يُذْهَبُ بهم إلى الجنَّة من الذين اتَّقوا من غير دخولٍ في النار أصلاً ليسوا إلَّا الخواصّ. والمعتزلة خصُّوا الذين اتَّقوا بغيرِ أصحاب الكبائر، وأدخلوهم في الظالمين، واستدلُّوا بالآية على خلودهم في النار، وكانوا ظالمين.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، وابن عباس وابن مسعود وأبيٌّ ﷺ، والجحدريُّ ومعاويةُ بن قرَّة ويعقوب: «ثَمَّ» بفتح الثاء[1]، أي: هناك. وابن أبي ليلى: «ثَمَّهْ» بالفتح مع هاء السكت[2]، وهو ظرف متعلِّقٌ بما بعده.

وقرأ يحيى والأعمش والكسائيُّ وابنُ محيصن ويعقوب: «نُنْجِي» بتخفيف الجيم[3].

وقرئ: «يُنْجى» و«يُنَجَّى» بالتشديد والتخفيف مع البناء للمفعول[4].

وقرأت فرقةٌ: «نُجِّي» بنونٍ واحدةٍ مضمومة وجيمٍ مشدَّدة.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه: «نُنَحِّي» بحاءٍ مهملة[5]، وهذه القراءةُ تؤيِّد بظاهرها تفسيرَ الورود بالقرب والحضور.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآيةُ إلى آخرها حكايةٌ لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعةَ حالهم ووخامةَ مآلهم، أي: وإذا تتلى على المشركين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ التي من جملتها الآيات السابقة ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: ظاهراتِ الإعجاز، تُحدِّيَ بها فلم يُقْدَر على معارضتها. أو مُرَتَّلاتِ الألفاظ، ملخَّصات المعنى، مبيَّنات المقاصد؛ إمَّا

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١٠، وهي في القراءات الشاذة ص٨٦ منسوبة لابن عباس والجحدري وابن أبي ليلى.
(٢) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٢١٠.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٠. والقراءة عن الكسائي في التيسير ص١٤٩، وعنه وعن يعقوب في النشر ٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩، ٣١٨.
(٤) انظر الكشاف ٢/ ٥٢٠.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٨، والبحر المحيط ٦/ ٢١٠.

محكمات، أو متشابهات قد تبعَها البيانُ بالمحكمات، أو تبيين الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً.

والوجه كما في «الكشاف»[1] أنْ يكون «بينات» حالاً مؤكِّدةً لمضمون الجملة، وإن لم يكن عقدها من اسمين؛ لأنَّ المعنى عليه.

وقرأ أبو حيوة والأعرج وابن محيصن: «وإذا يُتلى» بالياء التحتية[2]؛ لأنَّ المرفوعَ مجازيُّ التأنيث مع وجود الفاصل.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: قالوا. ووضعَ الموصول موضع الضمير؛ للتنبيه على أنَّهم قالوا ما قالوا كافرين بما يُتلى عليهم، رادِّين له. أو: قال الذين مَرَدُوا منهم على الكفر، وأصرُّوا على العتوِّ والعناد، وهم النضر بن الحارث وأتباعه الفجرة، فإنَّ الآيةَ نزلت فيهم.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ للتبليغ، كما في: قلت له كذا، إذا خاطبته به، وقيل: لام الأجل، أي: قالوا لأجلهم وفي حقهم. ورُجِّح الأول بأنَّ قولَهم ليس في حقِّ المؤمنين فقط، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: المؤمنين والكافرين، كأنهم قالوا: أيُّنا ﴿خَيْرٌ﴾ نحن أو أنتم ﴿مَّقَامًا﴾ أي: مكاناً ومنزلاً. وأصله موضعُ القيام، ثُمَّ استُعملَ لمطلق المكان.

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد والجعفيّ وأبو حاتم عن أبي عمرو: «مُقَاماً» بضمِّ الميم[3]، وأصلُه موضع الإقامة، والمراد به أيضاً المنزل والمكان، فتتوافق القراءتان. وجَوَّز في «البحر» احتمالَ المفتوح والمضموم للمصدرية، على أنَّ الأصلَ مصدرُ قَام يَقوم، والثاني مصدر أَقام يُقيم، ورأيتُ في بعض المجموعات كلاماً يُنسب لأبي السعود عليه الرحمة في الفرق بين المقام بالفتح والمقام بالضم، وقد سألَه بعضهم عن ذلك بقوله:

يا وحيدَ الدهر يا شيخَ الأنام ... نبتغي فرق المَقَام والمُقَام

---

(١) ٢/ ٥٢١.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٠، وقراءة ابن كثير في التيسير ص١٤٩، والنشر ٢/ ٣١٨ - ٣١٩. وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

وهو أنَّ الأولَ ـ يعني المفتوح الميم ـ موضعُ قيام الشيء، أعمُّ من أنْ يكون قيامُه فيه بنفسه، أو بإقامة غيره، ومن أنْ يكون ذلك بطريق المكث فيه، أو بدونه. والثاني: موضعُ إقامة الغير إيَّاه، أو موضعُ قيامه بنفسه قياماً ممتدًّا، فإنْ كان الفعل الناصبُ ثلاثيًّا، فمقتضى المقام هو الأول، وكذا إنْ كان رباعيًّا ولم يُقصَد بيانُ كون المقام موضعَ قيام المضاف إليه بإقامة غيره، أو موضعَ قيامه الممتدّ، وأمَّا إذا قُصِد ذلك، فمقتضَاه الثاني، كما إذا قلت: أقيمت تاءُ القسم مقامَ الواو، تنبيهاً على أنها خَلَفٌ عن الباء التي هي الأصلُ من أحرف القسم. ومقام[1] الكلمات كلِّها، وإنْ كانت منوطةً بوضع الواضع، لكنَّ مقامَها المنوط بأصل الوضع ـ لكونه مقاماً أصليًّا ـ لها قد نزلَ منزلةَ موضعِ قيامها بأنفسها، وجُعِل مقامها المنوط بالاستعمال الطارئ جارياً مجرى المقام الاضطراريِّ لذوات الاختيار. هذا إذا كان المقامُ ظرفاً، أمَّا إذا كان مصدراً ميميًّا والفعل الناصب رباعيّ، فحقُّه ضمُّ الميم. انتهى المرادُ منه.

وأنت تعلم أنَّه في هذا المقام ليس منصوباً على الظرفية، ولا على المصدرية، بل منصوبٌ على التمييز، وهو محوَّل عن المبتدأ على ما قيل، أي: أيُّ الفريقين مقامه خير.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ أي: مجلساً ومجتمعاً. وفي «البحر»: هو المجلسُ الذي يجتمع فيه لحادثة أو مشورة[2]. وقيل: مجلس أهل الندى، أي: الكرم، وكذا النادي.

يروى أنَّهم كانوا يرجِّلون شعورَهم ويدهنونها، ويتطيَّبون، ويلبسونَ مفاخرَ الملابس، ثمَّ يقولون ذلك لفقراء المؤمنين الذين لا يقدرون على ذلك إذا تليت عليهم الآيات.

قال الإمام: ومرادهم من ذلك معارضة المؤمنين، كأنهم قالوا: لو كنتم على الحق وكنَّا على الباطل، كان حالُكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا؛ لأن الحكيمَ لا يليقُ به أن يوقعَ أولياءه المخلصين في العذاب والذلّ، وأعداءه

---

(١) في (م): ومقامات.

(٢) عبارة البحر المحيط ٦/ ٢١٢: الندي هو المجلس الجامع لوجوه القوم والأعوان والأنصار.

المعرضين[١] عن خدمته في العزِّ والراحة، لكنَّ الكفار كانوا في النعمة والراحة، والمؤمنين كانوا بعكس ذلك، فعلم أنَّ الحقَّ ليس مع المؤمنين.

وهذا مع ظهور أنَّه قياسٌ عقيمٌ ناشئٌ من رأيٍ سقيم، نقضَه الله تعالى وأبطله بقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ وحاصلُه: أنَّ كثيراً ممن كان أعظمَ نعمةً منكم في الدنيا، كعادٍ وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية، قد أهلكهم الله تعالى، فلو دلَّ حصول نعمةِ الدنيا للإنسان على كونه مكرَّماً عند الله تعالى، وجبَ أن لا يهلك أحداً من المتنعمين في الدنيا. وفيه من التهديد والوعيد ما لايخفى، كأنه قيل: فلينظر هؤلاء أيضاً مثل ذلك.

و«كم» خبرية للتكثير، مفعولُ «أهلكنا»، وقُدِّمت لصدارتها. وقيل: استفهاميَّة. والأوَّل هو الظاهر. و«من قرن» بيان لإبهامها.

والقرن: أهلُ كلِّ عصر، وقد اختُلفَ في مدَّته، وهو من قرنِ الدابة، سمِّيَ به لتقدُّمه، ومنه قرنُ الشمس لأول ما يطلعُ منها.

و«هم أحسن» في حيِّز النصب ـ على ما ذهب إليه الزمخشريُّ وتبعَه أبو البقاء[٢] ـ صفةٌ لـ «كم»، وردَّه أبو حيان بأنَّه قد صَرَّح الأصحاب بأنَّ «كم» سواءٌ كانت خبريَّةً أو استفهامية لا توصف، ولا يُوصف بها، وجعلَه صفةَ «قرن»، وضمير الجمع لاشتمال القرن على أفرادٍ كثيرة، ولو أفرد الضمير لكان عربيًّا أيضاً[٣]. ولا يرد عليه ـ كما قال الخفاجيّ ـ: كم من رجلٍ قام، وكم من قريةٍ هلكت، بناءً على أنَّ الجارَّ والمجرور يتعيَّن تعلُّقه بمحذوف هو صفة لـ «كم». كما ادَّعى بعضُهم أنَّ الرضي أشار إليه؛ لأنه يجوزُ في الجارِّ والمجرور أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، والجملة مفسِّرة لا محلَّ لها من الإعراب، فما ادعى غير مسلَّم عنده[٤].

و«أثاثاً» تمييز، وهو متاعُ البيت من الفرش والثياب وغيرها، واحدها: أثاثة،

---

(١) في الأصل: المفرطين. وفي مطبوع تفسير الرازي ٢١/ ٢٤٥: المعروضين.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٢١، والإملاء ٢/ ١١٦.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٠.

(٤) حاشية الشهاب ٦/ ١٧٧.

وقيل: لا واحد لها، وقيل: الأثاث ما جَدَّ من المتاع، والخُرْثيُّ ما قَدِمَ وبَلِيَ، وأنشد الحسن بن عليٍّ الطوسيّ:

تقادم العهدُ من أمِّ الوليد بنا ... دهراً وصار أثاثُ البيت خرثيّا[1]

والرِّئي: المنظر، كما قال ابن عباس وغيره. وهو فِعْلٌ بمعنى مفعول من الرؤية، كالطِّحن والسِّقي.

وقرأ الزهريُّ وأبو جعفر وشيبة، وطلحةُ في رواية الهمداني، وأيوب وابن سعدان وابن ذكوان وقالون: «ريًّا» بتشديد الياء من غير همز[2]، فاحتمل أنْ يكون من ذلك على قلب الهمزة ياءً وإدغامها. واحتمل أن يكون من الريّ، ضد العطش، والمراد به النضارةُ والحُسْن.

وقرأ أبو بكر في رواية الأعمش: «رِيْئاً» بياءٍ ساكنةٍ بعدها همزة[3]، وهو على القلب، ووزنه: فِلْعاً.

وقرئ: «رِياء» بياء بعدها ألف بعدها همزة، حكاها اليزيديّ[4]. ومعناها ـ كما في «الدر المصون»[5] ـ مراءاةُ بعضهم بعضاً.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «رِياً»[6] بحذف الهمزة والقصر، فتجاسَر بعضُ الناس وقال: هي لحن، وليس كذلك، بل خُرِّجَت على وجهين:

أحدهما: أنْ يكون الأصل «ريًّا» بتشديد الياء، فخفِّفَ بحذف إحدى الياءين وهي الثانية؛ لأنَّها التي حصل بها الثقل، ولأنَّ الآخِرَ محلُّ التغيير، وذلك كما حذفت في: لا سيما.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٢١، وتفسير القرطبي ١٣/ ٥٠٢.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٠، وقراءة ابن ذكوان راوي ابن عامر، وقالون راوي نافع في التيسير ص١٤٩. وانظر النشر ١/ ٤٧١.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٠. وذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢١ دون نسبة.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢١١. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ من حكاية البزي.

(٥) ٧/ ٦٣١.

(٦) من رواية طلحة بن مصرف عنه كما في البحر ٦/ ٢١١. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦، وابن جني في المحتسب ٢/ ٤٣ من قراءة طلحة.

والثاني: أن يكون الأصل «ريئاً» بياء ساكنة بعدها همزة، فنُقِلت حركةُ الهمزة إلى الياء، ثمَّ حذفت على القاعدة المعروفة.

وقرأ ابن عباس أيضاً وابنُ جبير ويزيد البربريّ والأعسم المكي: «زيًّا» بالزاي وتشديد الياء[1]، وهو المحاسن المجموعة يقال: زواه زيًّا، بالفتح، أي: جمعه، ويراد منه الأثاث أيضاً، كما ذكره المبرِّد[2] في قول الثقفيّ:

أشاقتكَ الظعائنُ يوم بانوا   بذي الزِّيِّ الجميل من الأثاثِ[3]

والظاهر في الآية المعنى الأول.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ إلخ. أمرٌ منه تعالى لرسوله ﷺ بأنْ يجيب هؤلاء المفتخرين بما لهم من الحظوظ الدنيويَّة على المؤمنين ببيان مآل أمر الفريقين، إمَّا على وجهٍ كليٍّ متناولٍ لهم ولغيرهم من المنهمكين في اللذة الفانية، المبتهجين بها، على أن «مَنْ» على عمومها؛ وإمَّا على وجهٍ خاصٍّ بهم، على أنَّها عبارةٌ عنهم.

ووصفهم بالتمكُّن في الضلالة؛ لذمِّهم، والإشعار بعلَّة الحكم، أي: من كان مستقرًّا في الضلالة مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أي: يمدُّ سبحانَه له، ويمهله بطول العمر، وإعطاء المال، والتمكُّن من التصرُّفات، فالطلب في معنى الخبر، واختير للإيذان بأنَّ ذلك مما ينبغي أنْ يفعَل بموجب الحكمة، لقطع المعاذير، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيكون حاصل المعنى: من كان في الضلالة فلا عذر له، فقد أمهلَه الرحمنُ، ومدَّ له مدًّا.

وجُوِّز أنْ يكون ذلك للاستدراج، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وحاصلُ المعنى: من كان في الضلالة فعادةُ الله تعالى أن يَمدَّ له ويستدرجَه ليزداد إثماً.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١١، وانظر القراءات الشاذة ص٨٦، والمحتسب ٢/ ٤٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٩، وتفسير القرطبي ١٣/ ٥٠٢.

(٢) في الكامل ٢/ ٧٨٦، والثقفي هو: محمد بن عبد الله بن نمير.

(٣) الأغاني ٦/ ١٩٦، وفيه: أهاجتك، بدل: أشاقتك.

وقيل: المرادُ الدعاء بالمدِّ؛ إظهاراً لعدم بقاء عذرٍ بعد هذا البيان الواضح، فهو على أسلوب: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس:٨٨] إن حمل على الدعاء.

قال في «الكشف»: الوجهُ الأول أوفقُ بهذا المقام، والتعرُّض لعنوان الرحمانية؛ لما أنَّ المَدَّ من أحكامها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ إلى آخره غايةٌ للمدِّ، وجمع الضمير في الفعلين باعتبار معنى «من» كما أنَّ الإفراد في الضميرين الأوَّلين باعتبار لفظِها، و«ما» اسمٌ موصول، والجملةُ بعده صلة، والعائد محذوف، أي: الذي يوعدونه، واعتبار «ما» مصدريَّةً خلافُ الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بدلٌ من «ما» وتفصيلٌ للموعود على طريقة منع الخلوّ. والمراد بالعذاب العذابُ الدنيويّ بغلبةِ المؤمنين واستيلائهم عليهم، والمراد بالساعة، قيل: يوم القيامة. وهو الظاهر.

وقيل: ما يشمل حين الموت ومعاينة العذاب، و«من مات فقد قامت قيامته»[١]، وذلك لتتصل الغاية بالمغيَّى، فإنَّ المدَّ لا يتَّصل بيوم القيامة.

وأجيب بأنَّ أمرَ الفاصل سهلٌ؛ لأنَّ أمورَ هذه الدنيا لزوالها وتقضِّيها لا تعدُّ فاصلةً، كما قيل[٢] ذلك في قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ جواب الشرط، وهما في الحقيقة الغاية، إن قلنا: إنَّ المجموع هو الكلام، أو مفهومه فقط إنْ قلنا: إنَّه هو الكلام والشرط قيدٌ له.

و«حتى» عند ابن مالك جارَّةٌ[٣]، وهي لمجرَّد الغاية لا جارَّةٌ ولا عاطفةٌ عند الجمهور، وهكذا هي كلَّما دَخلت على «إذا» الشرطية، وهي منصوبةٌ بالشرط أو الجزاء على الخلاف المشهور، والجملةُ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب.

والمراد: حتى إذا عاينوا ما يُوعدون من العذاب الدنيويِّ أو الأخرويّ فقط،

---

(١) سلف ١/ ٢٨٥.
(٢) جاء في هامش الأصل عند هذه الكلمة ما نصه: قاله المعتزلة. اهـ منه.
(٣) انظر التسهيل ص١٤٦، ومغني اللبيب ص١٧٤، وحاشية الخفاجي ٦/ ١٧٨.

فسيعلمون حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين، بأنْ يشاهدوا الأمرَ على عكس ما كانوا يُقَدِّرونه، فيعلمون أنَّهم شرٌّ مكاناً، لا خير مقاماً.

وفي التعبير بالمكان هنا دون المقام المعبَّر به هناك مبالغةٌ في إظهار سوء حالهم.

﴿وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾ أي: فئةً وأنصاراً، لا أحسن نديًّا، ووجه التقابل أنَّ حُسن النديّ باجتماع وجوهِ القوم وأعيانهم، وظهور شوكتهم واستظهارهم.

وقيل: إنَّ المرادَ من النديّ هناك من فيه، كما يقال: المجلسُ العالي للتعظيم، وليس المراد أنَّ له ثمَّة جنداً ضعيفاً، كلا ﴿وَلَمْ يَكُن(١) لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف:٤٣]، وإنَّما ذكر ذلك ردًّا لما كانوا يزعمونه من أنَّ لهم أعواناً من شركائهم.

والظاهر أنَّ «مَن» موصولة، وهي في محل نصب مفعول «يعلمون»، وتعدَّى إلى واحد؛ لأنَّ العِلْمَ بمعنى المعرفة. وجملة «هو شرٌّ» صلة الموصول. وجَوَّز أبو حيان(٢) كونَها استفهاميَّةً، والعِلْمُ على بابه، والجملة في موضع نصبٍ سادَّةٌ مسدَّ المفعولين. و«هو» عند أبي البقاء فصلٌ لا مبتدأ(٣).

وجوَّزَ الزمخشريُّ ـ وظاهرُ صنيعه اختياره ـ أنْ يكون ما تقدَّم غايةً لقولِ الكفرة: «أيُّ الفريقين خيرٌ» إلخ، وقولُه تعالى: «كم أهلكنا» إلخ، و«قل من كان» إلخ جملتان معترضتان للإنكار عليهم، أي: لا يبرحون يقولون هذا القول ويتولعون به، لا يتكافّون عنه، إلى أن يشاهدوا الموعود رأي عين، إما العذاب في الدنيا بأيدي المؤمنين، وإمَّا يومَ القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال، فحينئذٍ يعلمونَ أنَّ الأمرَ على عكس ما قدَّروه(٤). وتعقَّبه في «البحر» بأنَّه في غايةِ البعد، لطول الفصل بين الغاية والمغيَّى، مع أنَّ الفصلَ بجملتي اعتراض فيه خلافُ أبي عليّ، فإنَّه لا يجيزه(٥).

---

(١) كذا قراءة حمزة والكسائي. وقرأها باقي السبعة بالتاء. التيسير ص١٤٣.

(٢) في البحر ٦/ ٢١٢.

(٣) الإملاء ٢/ ١١٧.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٢١.

(٥) البحر المحيط ٦/ ٢١٢.

وأنت تعلم أيضاً بعد إصلاح أمر انقطاع القول حين الموت وعدم امتداده إلى يوم القيامة أنَّ اعتبارَ استمرار القول وتكرُّرِه لا يتمُّ بدون اعتبار استمرارِ التلاوة؛ لوقوع القول في حيِّز جواب «إذا». وهو كما ترى.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان حال المهتدين إثر بيان حال الضالِّين، كما اختاره أبو السعود[١].

واختار الزمخشريُّ ـ وتبعه أبو البقاء ـ أنَّه عطف على موضع «فليمدد» إلخ[٢].

ولم يجوِّزه أبو حيان سواء كان «فليمدد» دعاءً أو خبراً في صورة الطلب؛ لأنَّه في موضع الخبر إن كانت «من» موصولة، وفي موضع الجزاء إن كانت شَرطية، وموضع المعطوف موضع المعطوف عليه، والجملةُ التي جعلت معطوفةً خاليةٌ من ضمير يربط الخبر بالمبتدأ، والجواب بالشرط[٣].

وقيل عليه أيضاً: إنَّ العطف غير مناسبٍ من جهة المعنى، كما أنَّه غير مناسبٍ من جهة الإعراب، إذ لا يتَّجه أنْ يقال: من كان في الضلالة يزيدُ الله الذين اهتدوا هدى.

وأجيب عن هذا بأنَّ المعنى: من كان في الضلالة زيد في ضلالته، وزيد في هداية أعدائه؛ لأنَّه مما يغيظه. وعمَّا سبق بأنَّ «من» شرطية لا موصولة، واشتراطُ ضميرٍ يعود من الجزاء على اسم الشرط غيرِ الظرف ممنوعٌ، وهو غير متَّفقٍ عليه عند النحاة كما في «الدر المصون»[٤]، مع أنَّه مقدَّر كما سمعت. ولا يخفى أنَّ هذا العطف لا يخلو عن تكلُّف.

واختار البيضاويُّ[٥] أنَّه عطفٌ على مجموع قوله تعالى: «من كان في الضلالة فليمدد» إلخ؛ ليتمَّ التقابل، فإنه ﷺ أمِرَ أن يجيبهم عن قولهم للمؤمنين: «أي الفريقين» إلخ، فليأت بذكر القسمين أصالةً.

---

(١) في تفسيره ٥/ ٢٧٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٢٢، وإملاء ما من به الرحمن ٢/ ١١٦.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٢.

(٤) ٧/ ٦٣٤.

(٥) في تفسيره ٤/ ١٤.

قال الطيبيُّ: فكأنَّه قيل: قل من كان في الضلالة من الفريقين فليمهله الله تعالى، وينفس في مدة حياته؛ ليزيد في الغيّ، ويجمع الله تعالى له عذابَ الدارين، ومن كان في الهداية منهما يزيدُ الله تعالى هدايته، فيجمع سبحانه له خير الدارين. وهذا الجواب من الأسلوب الحكيم، وفيه معنى قول حسان:

أتهجوه ولستَ له بكُفءٍ فشرُّكما لخيركما فداءُ[1]

في الدعاء والاحتراز عن المواجهة.

وفي «الكشف» أنَّ هذا أولى ممَّا اختاره الزمخشريّ.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قد تقدَّمت الأقوال المأثورة في تفسيرها، واختيرَ أنَّها الطاعات التي تبقى فوائدُها وتدوم عوائدها؛ لعمومه، وكلُّها ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ بمعناه المتعارَف. وقيل: عائدةٌ ممَّا مُتِّع به الكفرةُ من النعم المخدجة الفانية التي يفتخرون بها ﴿وَخَيْرٌ﴾ من ذلك أيضاً ﴿مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ أي: مرجعاً وعاقبةً، لأنَّ عاقبتَها المسرَّة الأبديَّة والنعيم المقيم، وعاقبة ذلك الحسرة السرمديَّة والعذابُ الأليم.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من اللطف والتشريفِ ما لا يخفى. وتكرير الخير لمزيد الاعتناء ببيان الخيريَّة[2] وتأكيدٌ لها.

وفي الآية ـ على ما ذكره الزمخشريُّ ـ ضربٌ من التهكُّم بالكفرة حيث أشارت إلى تسمية جزائهم ثواباً. والمفاضلة ـ على ما قال ـ على طريقة: الصيفُ أحرُّ من الشتاء. أي: أبلغُ في حرِّه من الشتاء في برده[3].

وليست على التهكُّم؛ لأنك لو قلت: النارُ خير من الزمهرير، أو بالعكس تهكُّماً. كان التهكُّم على بابه في المفضل والمفضل عليه، وذلك مما لا يتمشَّى فيما نحن فيه.

وحاصل ما أراده أنَّ المراد: ثوابُ هؤلاء أبلغُ من ثواب أولئك، أي: عقابهم[4].

---

(١) ديوان حسان ص٦٤.
(٢) في الأصل: الخبرية.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٢٢.
(٤) في الأصل: عقباهم. والمثبت من (م) وهو موافق لحاشية الخفاجي ٦/ ١٧٩.

وقول صاحب «التقريب» فيه: إنَّه غيرُ معلوم، جوابهُ: كيف لا، وقد سبقت الرحمةُ الغضب، وفي الجنَّة من الضِّعف والإفضال ما لا يُقَادر قدره، والنار من عدله تعالى. وقوله[١]: إنَّه غيرُ مناسبٍ لمقام التهديد. مع ما فيه من المنع يَرِدُ عليه أنَّ الكلامَ مبنيٌّ على التقابل، وأنَّه على المشاكلة في قولهم: «أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسن نديًّا» فوعدُ هؤلاء ليس لمجرد تهديد أولئك، بل مقصودٌ لذاته، قاله في «الكشف».

وقال صاحب «الفرائد»: ما قاله الزمخشريُّ بعيدٌ عن الطَّبع والاستعمال، وليس في كلامهم ما يشهدُ له، ويمكنُ أن يقال: المراد ثوابُ الأعمال الصالحة في الآخرة خيرٌ من ثوابهم في الدنيا، وهو ما حصلَ لهم منها من الخير بزعمهم، وممَّا أوتوا من المال والجاه والمنافع الحاصلة منهما. اهـ.

وردَّ إنكاره له بأنَّ الزجَّاج[٢] ذكرَه في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥] وأنَّ له نظائر، والبعد عن الطبع في حيِّز المنع.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ «أفعل» في الآية للدلالة على الاتِّصاف بالحدث، وعلى الزيادة المطلقة، كما قيل في يوسف عليه السلام: أحسنُ إخوته، وهي إحدى حالاته الأربع التي ذكرها بعضُ علماء العربيَّة، فالمعنى أنَّ ثوابَهم ومردَّهم مُتَّصفٌ بالزيادة في الخيريَّة على المتَّصفِ بها، بقطع النظر عن هؤلاء المفتخرين بدنياهم، فلا يلزم مشاركتهم في الخيريَّة. فتأمَّل.

والجملةُ ـ على ما ذهب إليه أبو السعود[٣] ـ على تقديري الاستئناف والعطف فيما قبلها: مستأنفةٌ واردةٌ من جهته تعالى لبيان فضل أعمال المهتدين، غيرُ داخلةٍ في حيِّز الكلام الملقَّن لقوله سبحانه: «عند ربك».

وقال العلَّامة الطيبيّ: الذي يقتضيه النظمُ الكريم أنَّ هذه الجملة تتميمٌ لمعنى قوله سبحانه: «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى» ومشتملة على تسلية قلوب المؤمنين ممَّا

---

(١) أي: صاحب التقريب، وتمام عبارته كما صرح بها الخفاجي في حاشيته ٦/ ١٧٩: الاعتراض بأن كون ثوابهم في بابه أبلغ من عقابهم في بابه غير محقق ولا مناسب للتهديد، فالأولى حمله على التهكُّم.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ٦٠.

(٣) في تفسيره ٥/ ٢٧٨.

عسى أن يختلجَ فيها من مفاخرة الكفرة شيء، كما أنَّ قوله تعالى: «حتى إذا رأوا» إلى «جنداً» تتميمٌ لوعيدهم، وكلاهما من تتمَّة الأمر بالجواب عن قولهم: «أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نديًّا»، وجعل التعبير بـ «خير» وارداً على طريق المشاكلة.

وما ذكره من كون ذلك من تتمَّة الجواب هو المنساق إلى الذهن، إلَّا أنَّ ظاهرَ الخطاب يأباه، وقد يُتكلَّف له. ولعلَّنا قد أسلفنا في هذه السورة ما ينفعُك في أمره، فتذكَّر.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بآياتنا التي من جملتها آياتُ البعث. أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والطبرانيُّ وابنُ حبّان وغيرهم عن خبَّاب بن الأرتّ قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاصي بن وائل دينٌ، فأتيتُه أتقاضَاه، فقال: لا والله، لا أقضيكَ حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا والله، لا أكفر بمحمدٍ ﷺ حتى تموت ثم تبعث، قال: فإنِّي إذا متُّ ثم بعثتُ جئتني ولي ثَمَّ مالٌ وولدٌ، فأعطيك. فأنزل الله تعالى: «أفرأيت» إلخ[1]. وفي روايةٍ: أنَّ خبَّاباً قال له: لا والله لا أكفرُ بمحمد ﷺ حيًّا ولا ميتاً ولا إذا بعثت، فقال العاصي: فإذا بعثت جئتني.. إلخ[2].

وفي رواية: أنَّ رجالاً من أصحابِ النبي ﷺ أتوه يتقاضَونَ ديناً لهم عليه، فقال: ألستم تزعمون أنَّ في الجنَّة ذهباً وفضَّةً وحريراً ومن كلِّ الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: موعدكم الآخرة، والله لأوتينَّ مالاً وولداً، ولأوتينَّ مثل كتابكم الذي جئتُم به، فنزلت[3].

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وقد كانت له أقوالٌ تشبه ذلك.

وقال أبو مسلم: هي عامَّةٌ في كلِّ من له هذه الصفة.

والأول هو الثابت في كتب الصحيح.

---

(١) صحيح البخاري (٢٠٩١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٥)، وسنن الترمذي (٣١٦٢)، والمعجم الكبير للطبراني (٣٦٥١)، وصحيح ابن حبان (٤٨٨٥)، وهو أيضاً عند أحمد (٢١٠٦٨).

(٢) الكشاف ٢/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣، وتفسير البيضاوي ٤/ ١٤.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٦١٨.

والهمزةُ للتعجيب من حال ذلك الكافر، والإيذانِ بأنَّها من الغرابة والشناعة بحيث يجبُ أن تُرى، ويقضى منها العجب. والفاءُ للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أَنَظَرْتَ فرأيت الذي كفر بآياتنا الباهرة التي حقُّها أنْ يؤمِن بها كلُّ من وَقف عليها ﴿وَقَالَ﴾ مستهزءاً بها، مصدِّراً كلامه باليمين الفاجرة: والله ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ في الآخرة. وإرادةُ في الدنيا ـ كما حكاه الطبرسيُّ[1] عن بعضِهم ـ تأباهُ الأخبارُ الصحيحة، إلَّا أنْ يُحملَ الإيتاء ـ على ما قيل ـ على الإيتاء المستمرِّ إلى الآخرة، أي: لأوتينَّ إيتاءً مستمرًّا ﴿مَالًا وَوَلَدًا ۝﴾ والمراد: انظر إليه، فتعجب من حالته البديعة، وجرأته الشنيعة.

وقيل: إنَّ الرؤية مجازٌ عن الإخبار، من إطلاق السبب وإرادة المسبَّب، والاستفهامُ مجازٌ عن الأمر به؛ لأنَّ المقصودَ من نحو قولك: ما فعلتَ: أخبرني. فهو إنشاءٌ تجوِّز به عن إنشاءٍ آخر، والفاء على أصلها. والمعنى: أخبر بقصة هذا الكافر عقيب حديث أولئك الذين قالوا: «أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً» الآية.

وقيل: عقيبَ حديث من قال: «أئذا ما متُّ» إلخ. وما قدَّمنا في معنى الآية هو الأظهر، واختاره العلَّامة أبو السعود. وتَعقَّبَ الثاني بقوله: أنتَ خبيرٌ بأنَّ المشهورَ استعمال «أرأيت» في معنى: أخبرني، بطريق الاستفهام جارياً على أصله، أو مخرَّجاً إلى ما يناسبه من المعاني، لا بطريق الأمر بالإخبار لغيره[2]. وإرادة: أخبرني، هنا ممَّا لا يكاد يصحُّ، كما لا يخفى. وقيل: المراد: لأوتينَّ في الدنيا. ويأباه سببُ النزول. قال العلَّامة: إلَّا أن يحمل على الإيتاء المستمرِّ إلى الآخرة، فحينئذٍ ينطبق على ذلك.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمش وطلحةُ وابن أبي ليلى وابن عيسى الأصبهاني: «وُلْداً» بضمِّ الواو وسكون اللام[3]، فقيل: هو جمع: وَلَد، كأَسَد وأُسْد، وأنشدوا له قوله:

ولقد رأيتُ معاشراً قد ثمَّروا مالاً ووُلْدَا[4]

(١) مجمع البيان ١٦/ ٦٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٧٩.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢١٣. وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٤٩-١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩.

(٤) هو للحارث بن حلزة. ديوانه ص١١٦. وفيه: جمعوا، بدل: ثمروا.

وقيل: هو لغةٌ في ولد، كالعَرَب والعُرْب، وأنشدوا له قوله:

فليتَ فلاناً كان في بطن أمّه وليت فلاناً كان وُلْدَ حمارِ[(١)]

والحقُّ أنَّه وردَ في كلام العرب مفرداً وجمعاً، وكلاهما صحيحٌ هنا.

وقرأ عبد الله ويحيى بن يعمر: «وِلداً» بكسر الواو وسكون اللام[(٢)]، وهو بمعنى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ ردٌّ لكلمته الشنعاء، وإظهارٌ لبطلانها إثرَ ما أشير إليه بالتعجيب منها، فالجملةُ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب. وقيل: إنَّها في محلِّ نصب، واقعةٌ موقع مفعولٍ ثانٍ لـ «أرأيتَ» على أنَّه بمعنى: أخبرني، وهو كما ترى.

والهمزة للاستفهام؛ والأصل: أأطّلع، فحذفت همزة الوصل تخفيفاً.

وقرئ «اطّلع» بكسر الهمز وحذف همزة الاستفهام لدلالة «أم» عليها، كما في قوله:

بسبعٍ رمينَ الجمرَ أم بثمانِ[(٣)]

والفعل مُتَعدٌّ بنفسه، وقد يتعدَّى بـ «على» وليس بلازم حتى تكون الآية من الحذف والإيصال.

والمراد من الطُّلوع الظهور على وجه العلوّ والتملُّك، ولذا اختيرَ على التعبير بالعلم ونحوه، أي: أقد بلغ من عظمة الشأن إلى أن ارتقَى علم الغيب الذي استأثَر به العليمُ الخبير جلَّ جلاله، حتى ادَّعى علم أن يُؤْتَى في الآخرة مالاً وولداً وأقسمَ عليه.

وعن ابن عباس أنَّ المعنى: أَنَظَرَ في اللوح المحفوظ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ قال: لا إله إلا الله يرجو بها ذلك.

وعن قتادة: العهد: العملُ الصالح الذي وعد الله تعالى عليه الثواب. فالمعنى: أعلمَ الغيب أم عملَ عملاً يرجو ذلك في مقابلته.

---

(١) سلف ١٣/ ٣٣٦ بلفظ: فليت زياداً... وليت زياداً.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٣.

(٣) هو لعمر بن أبي ربيعة. شرح ديوانه ص٢٦٦. وصدره فيه: فوالله ما أدري وإنِّي لحاسب.

وقال بعضهم: العهد على ظاهره. والمعنى: أعلمَ الغيبَ أم أعطاه الله تعالى عهداً وموثقاً، وقال له: إنَّ ذلك كائنٌ لا محالة. ونُقِل هذا عن الكلبيّ. وهذه مجاراةٌ مع اللعين بحسب منطوق مقاله، كما أنَّ كلامه كذلك.

والتعرُّض لعنوان الرحمانية؛ للإشعار بعليَّة الرحمة لإيتاء ما يدعيه.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجر عن التفوُّه بتلك العظيمة، وفي ذلك تنبيهٌ على خطئِه. وهذا مذهبُ الخليل وسيبويه(١) والأخفش والمبرِّد وعامَّة البصريين في هذا الحرف، وفيه مذاهب، لعلَّنا نشيرُ إليها إنْ شاء الله تعالى.

وهذا أوَّلُ موضعٍ وقعَ فيه من القرآن، وقد تكرَّر في النصف الأخير، فوقع في ثلاثةٍ وثلاثين موضعاً.

ولم يجوِّز أبو العباس الوقفَ عليه في موضع(٢).

وقال الفرَّاء: هو على أربعة أقسام:

أحدها: ما يحسنُ الوقفُ عليه، ويحسنُ الابتداءُ به.

والثاني: ما يحسنُ الوقف عليه، ولا يحسنُ الابتداء به.

والثالث: ما يحسنُ الابتداء به، ولا يحسن الوقف عليه.

والرابع: ما لا يحسنُ فيه شيءٌ من الأمرين.

أمَّا القسمُ الأول، ففي عشرة مواضع؛ ما نحن فيه، وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا﴾ [مريم: ٨١ـ ٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا﴾ [سبأ: ٢٧]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا﴾ [المعارج: ٣٨ـ٣٩]، وقوله جَلَّ وعلا: ﴿أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا﴾ [المدثر: ١٥ـ١٦] وقوله عزَّ اسمه: ﴿صُحُفًا مُّنَشَّرَةً * كَلَّا﴾ [المدثر: ٥٢ـ ٥٣]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا﴾ [الفجر: ١٦ـ ١٧]، وقوله تبارك اسمه: ﴿أَخْلَدَهُ * كَلَّا﴾ [الهمزة: ٣ـ ٤]، وقوله تعالى شأنه: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ *

(١) الكتاب ٤/ ٢٣٥.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٤٢٥.

كَلَّآ﴾ [المعارج: ١٤ـ ١٥]، فمَن جعله في هذه المواضع ردًّا لما قبلَه وقفَ عليه، ومن جعلَه بمعنى «ألا» التي للتنبيه، أو بمعنى: حقًّا: ابتدأ به، وهو يَحتمل ذلك فيها.

وأمَّا القسمُ الثاني، ففي موضعين؛ قوله جلَّ جلاله حكايةً: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ١٤ـ ١٥]، وقوله عزَّ شأنه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١ـ ٦٢].

وأمَّا الثالث، ففي تسعة عشر موضعاً؛ قوله تعالى شأنه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]، ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢]، ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦]، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١]، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤]، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٣]، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]، ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ [المطففين: ٧]، ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [المطففين: ١٨]، ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ﴾ [المطففين: ١٥] ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الفجر: ٢١]، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦]، ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ [العلق: ١٥]، ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق: ١٩]، ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣]، ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٥]؛ لأنَّه ليس للردِّ في ذلك.

وأمَّا القسم الرابع، ففي موضعين؛ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤]، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٥]، فإنَّه لا يحسن الوقف على «ثمَّ»؛ لأنه حرف عطف، ولا على «كلا»؛ لأنَّ الفائدةَ فيما بعد.

وقال بعضهم: إنَّه يحسنُ الوقف على «كلا» في جميع القرآن؛ لأنه بمعنى: انْتَهِ، إلَّا في موضعٍ واحد، وهو قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢]؛ لأنَّه موصولٌ باليمين، بمنزلة قولك: إي وربِّي.

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي: سنُظهِر أنَّا كتبنا قوله، كقوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمةٌ ولم تجدي من أن تُقِرِّي به بُدًّا(١)

أي: إذا انتسبنا علمتِ وتبيَّن أنِّي لست بابن لئيمة.

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ١/ ٦١، والطبري في تفسيره ٢/ ٥٧ دون نسبة، ونسبه عبد القادر البغدادي في شرح أبيات مغني اللبيب ١/ ١٢٥ لزائد بن صعصعة الفقعسي.

أو: سننتقم منه انتقام من كتبَ جريمة الجاني وحفظَها عليه، فإنَّ نفس كِتبة ذلك لا تكاد تتأخَّرُ عن القول؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، وقوله سبحانه جلَّ وعلا: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، فمبنَى الأول تنزيلُ إظهار الشيء الخفيِّ منزلةَ إحداث الأمر المعدوم، بجامع أنَّ كلًّا منهما إخراجٌ من الكمون إلى البروز، فيكون استعارةً تبعيَّةً مبنيَّةً على تشبيه إظهار الكتابة على رؤوس الأشهاد بإحداثها.

ومدار الثاني: تسميةُ الشيء باسم سببه، فإنَّ كِتبة جريمة المجرم سببٌ لعقوبته قطعاً؛ قاله أبو السعود[(١)].

وقيل: إنَّ الكتابة في المعنى الثاني استعارةٌ للوعيد بالانتقام. وفيه خفاء.

وقال بعضهم: لا مجاز في الآية، بَيْدَ أنَّ السين للتأكيد، والمراد: نكتب في الحال.

ورُدَّ بأن السين إذا أكَّدت فإنَّما تؤكِّد الوعد أو الوعيد، وتفيد أنَّه كائنٌ لا محالةَ في المستقبل، وأمَّا أنها تؤكِّدُ ما يراد به الحال، فلا. كذا قيل، فليراجع.

وقرأ الأعمش: «سيُكتَب» بالياء التحتية والبناء للمفعول، وذكرت عن عاصم[(٢)].

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩﴾ مكانَ ما يدَّعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد، أي: نطوِّل له من العذاب ما يستحقُّه، أو نزيدُ عذابه ونضاعفه له من المدد، يقال: مدَّه وأمَدَّه بمعنى، وتدلُّ عليه قراءة عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: «ونُمِدُّ» بالضم[(٣)]، وهو بهذا المعنى يجوزُ أن يستعملَ باللام وبدونها، ومعناه على الأول: نفعل المدَّ له، وهو أبلغُ من: نمدُّه، وأُكِّد بالمصدر إيذاناً بفرطِ غضب الله تعالى عليه؛ لكفره وافترائه على الله سبحانه، واستهزائه بآياته العظام، نعوذ بالله عزَّ وجلَّ ممَّا يستوجبُ الغضب.

---

(١) في تفسيره ٥/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٤. وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) القراءات الشاذة ص٨٦، والكشاف ٢/ ٥٢٣، والبحر٦/ ٢١٤.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: نسلب ذلك ونأخذُه بموته أخذَ الوارث ما يرثُه، والمراد بـ «ما يقول» مسمَّاه ومصداقه، وهو ما أوتيه في الدنيا من المال والولد، يقول الرجل: أنا أملك كذا، فتقول: ولي فوق ما تقول، والمعنى على المضيّ، وكذا في «يقول» السابق. وفيه إيذانٌ بأنَّه ليسَ لما قال مصداقٌ موجودٌ سوى ما ذكر، و«ما» إمَّا بدلٌ من الضمير بدل اشتمال، وإمَّا مفعولٌ به، أي: نرث منه ما آتيناه في الدنيا.

﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا ۝٨٠﴾ لا يصحبه مالٌ ولا ولدٌ كان له، فضلاً أن يؤتَى ثمَّة زائداً.

وفي حرف ابن مسعود: «ونرثه ما عندَه ويأتينا فرداً لا مال له ولا ولد»[(١)]، وهو ظاهرٌ في المعنى المذكور.

وقيل: المعنى: نحرمُه ما زعم أنَّه ينالُه في الآخرة من المال والولد ونعطيه لغيره من المستحقِّين. وروي هذا عن أبي سهل، وتفسيرُ الإرث بذلك تفسيرٌ باللازم. و«ما يقول» مرادٌ منه مسمَّاه أيضاً.

والولد الذي يُعطى للغير ينبغي أنْ يكون ولدَ ذلك الغير الذي كان له في الدنيا، وإعطاؤه إيَّاه بأنْ يجمع بينه وبينه حسبما يشتهيه، وهذا مبنيٌّ على أنَّه لا توالد في الجنَّة، وقد اختلف العلماء في ذلك، فقال جمعٌ منهم مجاهد وطاوس وإبراهيم النخعيّ بعدم التوالد، احتجاجاً بما في حديث لقيط رضي الله عنه الطويل الذي عليه من الجلالة والمهابة ونور النبوة ما ينادي على صحته، وقال فيه أبو عبد الله ابن منده[(٢)]: لا ينكرُه إلَّا جاحدٌ أو جاهل، وقد خرَّجه جماعةٌ من أئمة السنة، من قوله: قلت يا رسولَ الله أوَلنا فيها أزواجٌ، أوَ منهنَّ مُصْلحات؟ قال ﷺ: «المصلحات للمصلحين تلذّذونهنَّ ويلذذونكم مثل لذَّاتكم في الدنيا، غيرَ أن لا توالد»[(٣)]،

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٨٤.

(٢) ونقله عنه ابن القيم في زاد المعاد ٣/ ٥٩٢ بتمامه مطولاً. فانظره ثمة.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (١٦٢٠٦)، وسيأتي عند المصنف في سورة الزخرف، الآية: ٧١ التوسعُ في ذِكر من خرَّجه فينظر ثمة.

وبما روي عن أبي رزين[(١)] العقيليّ عن النبيّ ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة لا يكون لهم ولد»[(٢)].

وقالت فرقة بالتوالد احتجاجاً بما أخرجه الترمذيُّ في «جامعه» عن أبي سعيد الخدريّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعُه وسِنُّه في ساعةٍ واحدة كما يشتهي». وقال: حسن غريب[(٣)].

وبما أخرجه أبو نعيم عن أبي سعيد أيضاً؛ قيل: يا رسول الله، أيولد لأهل الجنَّة، فإنَّ الولَد من تمام السرور؟ فقال عليه الصلاة السلام: «نعم، والذي نفسي بيده، وما هو إلَّا كَقَدْرِ ما يتمنَّى أحدُكم، فيكون حملُه ورضاعه وشبابه»[(٤)].

وأجابت عمَّا تقدَّم بأنَّ المراد نفيُ أن يكون توالدٌ أو ولدٌ على الوجه المعهود في الدنيا.

وتُعقِّبَ ذلك بأنَّ الحديثَ الأخيرَ ضعيفٌ، كما قال البيهقيُّ[(٥)]. والحديثُ الأول قال فيه السفارينيّ[(٦)]: أجودُ أسانيده إسنادُ الترمذيّ، وقد حكم عليه بالغرابة، وأنه لا يُعرف إلَّا من حديث أبي الصديق النَّاجي[(٧)]، وقد اضطربَ لفظُه، فتارةً يُروى عنه: «إذا اشتهى الولد» وتارةً: «إنه يشتهي الولد»، وتارةً: «إنَّ الرجل من أهل الجنة ليولد له»[(٨)]، وإذا قلنا بأنَّ له على الرواية السابقة سنداً حسناً،

---

(١) في الأصل و(م): أبي ذر. والمثبت من المصادر. وسيذكره المصنف على الصواب عند تفسير الآية ٧١ من سورة الزخرف.

(٢) أورده الترمذي تعليقاً إثر الحديث (٢٥٦٣) من حديث أبي رزين العقيلي ـ وهو لقيط بن عامر ـ قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٧/ ٢٨٦: لم أقف على من أخرج هذا الحديث بهذا اللفظ، وروى أحمد في «مسنده» عن أبي رزين العقيلي حديثاً طويلاً وفيه: «الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا، ويلذذن بكم غير أن لا توالد». اهـ. وهو حديث لقيط بن عامر أبي رزين السالف آنفاً.

(٣) سنن الترمذي (٢٥٦٣). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٤٣٣٨)، وأحمد (١١٠٦٣).

(٤) صفة الجنة لأبي نعيم (٢٧٥)، وأخرجه أيضاً البيهقي في البعث (٤٤٠).

(٥) في البعث والنشور إثر الحديث (٤٤٠).

(٦) في البحور الزاخرة، كما صرح بذلك المصنف عند تفسير الآية ٧١ من سورة الزخرف.

(٧) في الأصل و(م): التاجي. والمثبت من المصادر.

(٨) هو بهذا اللفظ في أخبار أصبهان لأبي نعيم ٢/ ٢٩٦.

كما أشار إليه الترمذيُّ، فلقائلٍ أن يقول: إنَّ فيه تعليقاً بالشرط، وجازَ أن لا يقع، و«إذا» وإنْ كانت ظاهرةً في المحقَّق، لكنَّها قد تُستعملُ لمجرَّد التعليق الأعمّ.

وأمَّا الجوابُ عن الحديثين السابقين بما مرَّ فأوهنُ من بيت العنكبوت، كما لا يخفى.

وبالجملة المرجَّحُ عند الأكثرين عدمُ التوالد، ورجَّح ذلك السفاريني بعشرةِ أوجه، لكن للبحث في أكثرها مجال، والله تعالى أعلم.

وقيل: المراد بـ«ما يقول» نفس القول المذكور، لا مسمَّاه، والمعنى: إنَّما يقول هذا القول ما دام حيًّا، فإذا قبضناه حُلْنَا بينه وبين أن يقوله، ويأتينا رافضاً له مفرداً عنه.

وتُعقِّبَ بأنَّ هذا مبنيٌّ على صدور القول المذكور عنه بطريق الاعتقاد، وأنه مستمرٌّ على التفوه به، راجٍ لوقوع مضمونه، ولا ريب في أنَّ ذلك مستحيلٌ ممَّن كفر بالبعث، وإنَّما قال ما قال بطريق الاستهزاء.

وأجيبَ بأنَّا لا نسلم البناء على ذلك؛ لجواز أنْ يكون المراد: إنَّما يقولُ ذلك ويستهزئُ ما دام حيًّا، فإذا قبضنَاه حُلْنَا بينه وبين الاستهزاء بما ينكشف له ويحلُّ به. أو يقال: إنَّ مبنَى ما ذُكر على المجاراة مع اللعين، كما تقدم.

وقيل: المعنى: نحفظُ قوله لنضربَ به وجهَه في الموقف ونعيِّرهُ به، ويأتينا على فقره ومسكنته فرداً من المال والولد، لم نولِه سؤلَه، ولم نؤته متمنَّاه، فيجتمع عليه أمْرَان أمَرَّان؛ تبعةُ قوله ووباله، وفقدُ المطموع فيه.

وإلى تفسير الإرث بالحفظ ذهبَ النحَّاس(١)، وجعلَ من ذلك: «العلماءُ ورثة الأنبياء»(٢)، أي: حفظةُ ما قالوه. وأنتَ خبيرٌ بأنَّ حِفظَ قوله قد عُلِمَ من قوله تعالى: «سنكتب ما يقول».

وفي «الكشاف»: يحتملُ أنَّه قد تمنَّى وطمع أن يؤتيه الله تعالى مالاً وولداً في الدنيا، وبلغت به أشعبيَّتهُ أنْ تألَّى على ذلك، فقال سبحانه: هب أنَّا أعطيناه

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٣٥٨.
(٢) سلف ٥/ ٣٤١.

ما اشتهاه؛ أمَا نرثُه منه في العاقبة ويأتينا غداً فرداً بلا مال ولا ولد، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤] فما يجدي عليه تمنِّيه وتألِّيه(١). انتهى.

ولا يخفى أنَّه احتمالٌ بعيدٌ جدًّا في نفسه ومن جهة سبب النزول، والتكلُّف لتطبيقه عليه لا يُقَرِّبُه كما لا يخفى.

و«فرداً» حالٌ على جميع الأقوال، لكن قيل: إنَّه حالٌ مقدَّرة حيث أريد حرمانه عن المال والولد وإعطاء ذلك لمستحقِّه؛ لأنَّ الانفرادَ عليه يقتضي التفاوت بين الضالِّ والمهتدي، وهو إنَّما يكون بعد الموقف، بخلاف ما إذا أريد غير ذلك مما تضمَّنته الأقوالُ؛ لعدم اقتضائه التفاوت بينهما، وكفايةِ فردية الموقف في الصحة، وإن كانت مشتركة.

وزعم بعضُهم أنَّ الحال مقدَّرة على سائر الأقوال؛ لأنَّ المرادَ دوامُ الانفرادِ عن المال والولد، أو عن القول المذكور، والدوام غيرُ محقَّق عند الإتيان، بل مقدَّرٌ، كما في قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] ولا يخفى ما فيه.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ حكايةٌ لجنايةٍ عامَّةٍ للكلِّ مستتبعةٍ لضدِّ ما يرجون ترتُّبه عليها، إثر حكاية مقالةِ الكافر المعهود واستتباعِها لنقيض مضمونها، أي: اتَّخذَ الكفرةُ الظالمون الأصنام، أو ما يعمُّهم وسائر المعبودات الباطلة آلهةً، متجاوزين الله تعالى ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ أي: ليتعزّزوا بهم بأن يكونوا لهم وصلةً إليه عزَّ وجلَّ وشفعاءَ عنده.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم وزجر عن ذلك، وفيه إنكارٌ لوقوع ما علَّقوا به أطماعهم الفارغة ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: ستجحدُ الآلهةُ عبادةَ أولئك الكفرة إيَّاها، ويُنطِقُ الله تعالى من لم يكن ناطقاً منها، فتقول جميعاً: ما عبدتمونا كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦]. أو: ستنكر الكفرة حين يشاهدونَ عاقبة سوء كفرهم عبادتَهم إيَّاها، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٢٣.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ على الأول ـ على ما قيل ـ: تكون الآلهة التي كانوا يرجون أن تكون لهم عزًّا ضدًّا للعزِّ، أي: ذلًّا وهوانًا، أو أعواناً عليهم، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو أظهرُ من التفسير السابق، وكونهم أعواناً عليهم؛ لأنَّهم يلعنونَهم. وقيل: لأنَّ عبادتَهم كانت سبباً للعذاب.

وتعقِّبَ بأنَّ هذا لم يحدث يوم القيامة، وظاهرُ الآية الحدوث ذلك اليوم. والأمر فيه هيِّن.

وقيل: لأنَّهم يكونونَ آلةً لعذابهم، حيثُ يجعلونَ وَقود النار وحصبَ جهنم، وهذا لا يتسنَّى إلَّا على تقدير أنْ يُرَاد بالآلهة الأصنام.

وإطلاقُ الضدِّ على العون؛ لما أنَّ عونَ الرجل يضادُّ عدوَّه وينافيه بإعانته له عليه.

وعلى الثاني يكون الكفرةُ على الآلهة، أي: أعداءً لها، من قولهم: الناسُ عليكم، أي: أعداؤكم. ومنه: اللهمَّ كن لنا ولا تكن علينا(١). «ضدًّا» أي: منافينَ ما كانوا عليه كافرين بها بعد ما كانوا يعبدونَها، فـ «عليهم» ـ على ما قيل ـ خبرُ يكون، و«ضدًّا» حالٌ مؤكدة، والعداوةُ مرادةٌ ممَّا قبله. وقيل: إنَّها مرادةٌ منه، وهو الخبر، و«عليهم» في موضع الحال. وقد فسَّره بأعداء الضَّحَّاكُ، وهو ـ على ما نقل عن الأخفش ـ كالعدوِّ يستعملُ مفرداً وجمعاً. وبذلك قال صاحب «القاموس» وجعل ما هنا جمعاً(٢).

وأنكر بعضُهم كونَه ممَّا يطلق على الواحد والجمع، وقال: هو للواحد فقط، وإنَّما وُحِّد هنا لوحدة المعنى الذي يدورُ عليه مضادتهم، فإنَّهم بذلك كالشيء الواحد، كما في قوله ﷺ فيما رواه النسائيُّ: «وهم يدٌ على من سواهم»(٣).

وقال صاحبُ «الفرائد»: إنَّما وحّد؛ لأنَّه ذكر في مقابلة قوله تعالى: «عزًّا»،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٨٧ من دعاء الجنيد.

(٢) القاموس (ضدد).

(٣) قطعة من حديث علي رضي الله عنه أخرجه النسائي في المجتبى ٨/ ١٩، ٢٠، ٢٤، والسنن الكبرى (٦٩١٠) و(٨٦٢٨)، وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٥٣٠)، وأحمد (٩٥٩). وانظر الكافي الشاف ص١٠٧.

وهو مصدرٌ يصلحُ لأنْ يكون جمعاً، فهذا وإنْ لم يكن مصدراً، لكن يصلح لأنْ يكونَ جمعاً نظراً إلى ما يُراد منه، وهو الذل.

وهذا إذا تمَّ فإنَّما يتمُّ على المعنى الأول، وقد صرَّح في «البحر» أنَّه على ذلك مصدرٌ يوصف به الجمع، كما يوصف به الواحد، فليراجع(١).

وقرأ أبو نهيك هنا وفيما تقدَّم: «كَلًّا» بفتح الكاف والتنوين(٢)، فقيل: إنَّها الحرف الذي للردع، إلَّا أنَّه نوي الوقفُ عليها، فصار ألفها كألف الإطلاق، ثم أبدلت تنويناً، ويجوز أنْ لا يكون نوى الوقف، بل أجريت الألف مجرى ألف الإطلاق؛ لما أنَّ ألف المبنيِّ لم يكن لها أصل، ولم يجز أن تقعَ رويًّا، ويسمَّى هذا تنوين الغالي وهو يَلحقُ الحروفَ وغيرها، ويجامعُ الألِفَ واللام، كقوله:

أقلّي اللومَ عاذل والعتابنْ وقولي إنْ أصبتُ لقد أصابنْ(٣)

وليس هذا مثل ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ [الإنسان: ١٥] كما لا يخفى، خلافاً لمن زعمه(٤). وفي «محتسب» ابن جني(٥) أنَّ «كَلًّا» مصدرٌ من كلَّ السيف إذا نبا، وهو منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ من لفظه، والتقدير هنا: كَلَّ هذا الرأيُ والاعتقاد كَلًّا، والمراد ضعُف ضعفاً، وقيل: هو مفعولٌ به بتقدير: حملوا كَلًّا. ويقال نظير ذلك فيما تقدَّم.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١٥.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٣، ٢١٤، والدر المصون ٧/ ٦٣٨.
(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٨١٣. ولفظه فيه: والعتابا... أصابا. بألف الإطلاق، وأنشده بالتنوين بنو تميم، كما ذكر ذلك الزمخشري في المفصل مع شرحه لابن يعيش ٩/ ٢٩، وابن هشام في المغني ص٤٤٧. وتبع المصنفُ الخفاجيَّ ٦/ ١٨٢ في إيراد هذا البيت شاهداً على التنوين الغالي، وإنما ذكروا هذا البيت شاهداً على تنوين الترنم، وهو الذي يلحق القوافي المطلقة بدلاً من حرف الإطلاق، وهو الألف والواو والياء، والترنم يحصل بهذه الأحرف لقبولها مد الصوت، فإذا أنشدوا ولم يترنموا جاؤوا بالنون في مكانها. أما التنوين الغالي، وهو الذي يلحق القوافي المقيدة، فذكروا شاهداً عليه قول رؤبة:

وقاتم الأعماق خاوي المخترقن

انظر الكتاب ٤/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧، ومغني اللبيب ص٤٤٧، وأوضح المسالك ص١٢، وشرح ابن عقيل ١/ ١٨ ـ ٢٠.
(٤) هو الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢٣.
(٥) ٢/ ٤٥.

وقال ابن عطية: هو نعتٌ لـ «آلهة»[(١)]، والمراد به الثقيل الذي لا خيرَ فيه، والإفرادُ لأنه بزنة المصدر، وهو كما ترى.

والأوفق بالمعنى ما تقدَّم، وإنْ قيل: فيه تعسُّف لفظيٌّ، وأنه يلزم عليه إثباتُ التنوين خطًّا، كما في أمثال ذلك. وحكى أبو عمرو الدانيّ عن أبي نَهيك أنَّه قرأ: «كُلًّا» بضم الكاف والتنوين[(٢)]، وهي على هذا منصوبةٌ بفعل محذوف دلَّ عليه «سيكفرون» على أنَّه من باب الاشتغال، نحو: زيداً مررتُ به، أي: يجحدون كُلًّا، أي: عبادة كلٍّ من الآلهة، ففيه مضافٌ مقدَّرٌ، وقد لا يقدر.

وذكر الطبريُّ عنه أنه قرأ: «كُلّ»[(٣)] بضمِّ الكاف والرفع، وهو على هذا مبتدأ، والجملةُ بعده خبره.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ قيَّضناهم وجعلناهم قرناءَ لهم مسلَّطين عليهم، أو سلَّطناهم عليهم ومكَّنَّاهم من إضلالهم.

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ تغريهم وتهيِّجُهم على المعاصي تهييجاً شديداً بأنواع التسويلات والوساوس، فإنَّ الأزَّ والهزَّ والاستفزاز أخواتٌ، معناها شدَّة الإزعاج.

وجملة «تؤزهم» إمَّا حالٌ مقدَّرةٌ من الشياطين، أو استئنافٌ وقع جواباً عما نشأ من صدر الكلام، كأنه قيل: ماذا تفعل الشياطينُ بهم؟ فقيل: تؤزُّهم.. إلخ.

والمراد من الآية تعجيب رسول الله ﷺ مما تضمَّنته الآياتُ السابقة الكريمة من قوله سبحانه: «ويقول الإنسان أئذا ما مت» إلى هنا، وحَكَتْهُ عن هؤلاء الكفرة الغواة والمردة العتاة، من فنون القبائح من الأقاويل والأفاعيل، والتمادي في الغيِّ، والانهماك في الضلال، والإفراط في العناد، والتصميم على الكفر، من غير صارفٍ يلويهم ولا عاطف يثنيهم، والإجماعِ على مدافعة الحقِّ بعد إيضاحه وانتفاءِ الشرك عنه بالكليَّة، وتنبيهٌ على أنَّ جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم، لا لأنَّ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣١، وانظر القراءات الشاذة ص٨٦.

(٣) كذا في الأصل و(م) والبحر المحيط ٦/ ٢١٤، والدر المصون ٧/ ٦٣٩، ونسخة من تفسير الطبري كما في هامشه ١٥/ ٦٢٦. ووقع في مطبوعه: كُلًّا.

هناك قصوراً في التبليغ أو مسوّغاً في الجملة، وفيها تسليةٌ لرسول الله ﷺ، فهي تذييلٌ لتلك الآيات لما ذكر. وليس المرادُ منها تعجيبَه عليه الصلاة والسلام من إرسال الشياطين عليهم، كما يوهمه تعليقُ الرؤية به، بل ممَّا ذُكِر من أحوالهم من حيثُ كونها من آثار إغواء الشياطين، كما ينبئُ عن ذلك قوله سبحانه: «تؤزُّهم أزًّا».

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يَهلكوا حسبما تقتضيه جناياتهم، ويَبيدوا عن آخرهم، وتُطهَّر الأرضُ من خباثاتهم. والفاء للإشعار بكون ما قبلَها مظنَّةً لوقوع المنهيِّ عنه محوجةً إلى النهي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ تعليلٌ لموجب النهي ببيان اقتراب هلاكهم، فإنَّه لم يبقَ لهم إلَّا أيامٌ وأنفاسٌ نعدُّها عدًّا، أي: قليلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] ولا ينافي هذا ما مرَّ من أنَّه يمدُّ لمن كان في الضلالة، أي: يطوِّل؛ لأنَّه بالنسبة لظاهر الحال عندهم، وهو قليلٌ باعتبار عاقبته وعند الله عزَّ وجل.

وقيل: إنَّ التعليلَ بما ذُكر دلَّ على أنَّ أنفاسَهم وأيَّامهم تنتهي بانتهاء العدِّ، ولا شكَّ أنَّها على كثرتها يُستوفَى إحصاؤها في ساعة، فعبَّر بهذا المعنى عن القليل، فكأنَّه قيل: ليس بينك وبين هلاكهم إلَّا أيَّامٌ محصورةٌ، وأنفاسٌ معدودةٌ، كأنَّها في سرعة تقضِّيها الساعة التي تُعَدُّ فيها لو عُدَّت، وهذا ليس مبينًا على أنَّ كلَّ ما يُعدُّ فهو قليل. انتهى.

والأول هو الظاهر، وهذا أبعدُ مغزًى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه كان إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: آخرُ العدد خروجُ نفسك، آخرُ العدد فراقُ أهلك، آخرُ العدد دخول قبرك.

وعن ابن السمَّاك أنَّه كان عند المأمون فقرأها، فقال: إذا كانت الأنفاسُ بالعدد، ولم يكن لها مَدد، فما أسرعَ ما تنفد.

ولله تعالى درُّ من قال:

إنَّ الحبيبَ من الأحباب مختلَسُ لا يمنعُ الموتَ بوابٌ ولا حَرَسُ
وكيفَ يفرحُ بالدنيا ولذّتِها فتًى يُعَدُّ عليه اللفظُ والنفسُ(١)

وقيل: المرادُ: إنَّما نعدُّ أعمالهم لنجازيهم عليها.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: ركباناً، كما أخرجه جماعةٌ عن ابن عباس ﷺ، وأخرجَ ابنُ أبي الدنيا في «صفة الجنة» وابنُ أبي حاتم وابن مردويه من طرقٍ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: يا رسول الله، هل الوفدُ إلَّا الركب؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده، إنَّهم إذا خرجُوا من قبورهم استُقبِلوا بنوقٍ بيض، لها أجنحةٌ وعليها رحالُ الذهب، شركُ نعالِهم نورٌ، يتلألأ كلَّ خطوة منها مثل مدِّ البصر، وينتهون إلى باب الجنَّة». الحديثُ(٢)، وهذه النوقُ من الجنَّة كما صرَّح به في حديث أخرجَه عبد الله بن الإمام أحمد وغيره موقوفاً على عليّ كرَّم الله تعالى وجهه(٣). وروي عن عمرو بن قيس أنَّهم يركبونَ على تماثيل من أعمالهم الصالحة، هي في غاية الحسن. ويُروى أنَّه يَركبُ كلٌّ منهم ما أحبَّ من إبلٍ أو خيلٍ أو سفنٍ تجيءُ عائمةً بهم.

وأصل الوفد جمع وَافد، كالوفود والأوفَاد، والوفدُ من وفد إليه وعليه، يفدُ وَفْداً ووُفوداً ووفادةً وإفادة. قَدِمَ، ووَرَدَ.

وفي «النهاية»: الوفدُ: هم القومُ يجتمعون ويَرِدُون البلاد، واحدُهم: وافدٌ، وكذلك الذين يقصدونَ الأمراء لزيارةٍ واسترفادٍ وانتجاعٍ وغير ذلك(٤).

---

(١) أوردهما النيسابوري في غرائب القرآن ١٦/ ٨٢، والخفاجي في حاشيته ٦/ ١٨٣. وذكر ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٠ البيت الأول منهما، ونسبه للحسن البصري.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٨٥. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧ وقال: ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً والبيهقي وغيرهما عن عاصم بن ضمرة عن عليٍّ موقوفاً بنحوه، وهو أصح وأشهر. اهـ. وكذا رجح الحافظ ابن كثير في تفسيره ٥/ ٢٦٤ الموقوف، وقال في ٧/ ١٢٥: هذا حديث غريب وكأنه مرسل.

(٣) مسند الإمام أحمد (١٣٣٣). قال محققوه: إسناده ضعيف؛ لضعف عبد الرحمن بن إسحاق، وهو أبو شيبة الواسطي، وجهالة النعمان بن سعد.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (وفد).

وقال الراغب: الوفدُ والوفود هم الذين يَقدَمون على الملوك مستنجزِينَ الحوائج، ومنه الوفد من الإبل، وهو السابق لعيرِها[١]، وهذا المعنى الذي ذكَره هو المشهور، ومن هنا قيل: إنَّ لفظة الوفد مشعرةٌ بالإكرام والتبجيل، حيثُ آذنت بتشبيه حالة المتقين بحالة وفودِ الملوك، وليس المراد حقيقةَ الوفادة من سائر الحيثيات؛ لأنَّها تتضمَّن الانصرافَ من الموفود عليه، والمتَّقون مقيمونَ أبداً في ثواب ربِّهم عزَّ وجلَّ.

والكلام على تقدير مضاف، أي: إلى كرامة الرحمن أو ثوابه، وهو الجنَّة، أو إلى دار كرامته، أو نحو ذلك.

وقيل: الحشر إلى الرحمن كنايةٌ عن ذلك، فلا تقدير. وكان الظاهر الضمير، بأن يقال: يومَ نحشرُ المتَّقين إلينا، إلَّا أنَّه اختير «الرحمن» إيذاناً بأنهم يجمعون من أماكنَ متفرقة وأقطارٍ شاسعة إلى من يرحمهم.

قال القاضي: ولاختيار «الرحمن» في هذه السورة شأن، ولعلَّه أنَّ مساقَ الكلام فيها لتعداد النعم الجسام، وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها، فكأنَّه قيل: هنا يومَ نحشر المتقين إلى ربِّهم الذي غمرهم من قبلُ برحمتِه، وشملَهم برأفته، وحاصله: يوم نحشرهم إلى من عَوَّدهم الرحمة، وفي ذلك من عظيم البشارة ما فيه[٢].

وقد قابل سبحانه ذلك بقوله جلَّ وعلا: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تساق البهائم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ أي: عطاشاً، كما روي عن ابن عباس وأبي هريرة والحسن وقتادة ومجاهد. وأصله مصدر وَرَدَ، أي: سار إلى الماء، قال الراجز:

رِدي رِدي وِردَ قطاةٍ صمَّا

كُدْرِيَّةٍ أعجبها بردُ الما[٣]

---

(١) المفردات (وفد)، وفيه: ومنه: الوافد من الإبل، وهو السابق لغيره. ومثله في القاموس واللسان (وفد).

(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ١٥.

(٣) الرجز دون نسبة في كتاب الحيوان للجاحظ ٤/ ٣٨٦، وديوان المعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٣١٤، والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني ص٤٠٢.

وإطلاقه على العطاش مجازٌ لعلاقة اللزوم؛ لأن من يرد الماءَ، لا يردُهُ إلّا لعطش.

وجُوِّزَ أنْ يكون المراد من الورد: الدوابُّ التي تردُ الماء، والكلام على التشبيه، أي: نسوقهم كالدوابِّ التي تردُ الماء.

وفي «الكشف»: في لفظ الورد تهكُّمٌ واستخفافٌ عظيم، لا سيما وقد جعل المورد جهنَّم، أعاذنا الله تعالى منها برحمته، فلينظر ما بين الجملتين من الفرق العظيم.

وقرأ الحسن والجحدريُّ: «يحشر المتقون»، و«يساق المجرمون» ببناء الفعلين للمفعول[١].

واستدلَّ بالآية على أنَّ أهوال القيامة تختصُّ بالمجرمين؛ لأنَّ المتقين من الابتداء يحشرونَ مكرمين، فكيف ينالُهم بعد ذلك شدَّة. وفي «البحر»[٢]: الظاهرُ أنَّ حشر المتقين إلى الرحمن وفداً بعدَ انقضاء الحساب، وامتيازِ الفريقين. وحكاه ابن الجوزيّ عن أبي سليمان الدمشقيّ[٣]، وذكر ذلك النيسابوريُّ[٤] احتمالاً بحثاً في الاستدلال السابق.

وأنت تعلم أن ذلك لا يتأتَّى على ما سمعت في الخبر المرويِّ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، فإنَّه صريحٌ في أنَّهم يركبونَ عند خروجهم من القبور، وينتهونَ إلى باب الجنَّة، وهو ظاهرٌ في أنَّهم لا يُحاسَبون.

وقال بعضهم: إنَّ المرادَ بالمتَّقين الموصوفونَ بالتقوى الكاملة، ولا يبعدُ أن يدخلوا الجنَّة بلا حساب، فقد صحَّت الأخبار بدخول طائفةٍ من هذه الأمة الجنة كذلك، ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج إلينا رسولُ الله ﷺ ذات يوم فقال: «عُرِضت عليَّ الأممُ، يمرُّ النبيُّ معه الرجلُ، والنبيُّ معه الرجلان، والنبيُّ

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١٧. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ عن الحسن فقط.
(٢) ٦/ ٢١٧.
(٣) زاد المسير ٥/ ٢٦٣.
(٤) غرائب القرآن ١٦/ ٨٢.

ليس معه أحد، والنبيُّ معه الرهط، فرأيتُ سواداً كثيراً، فرجوت أن يكون أمَّتي، فقيل: هذا موسى وقومُه، ثم قيل: انظر، فرأيت سواداً كثيراً، فقيل: هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعونَ ألفاً يدخلون الجنَّة بغير حساب» فتفرَّق الناس، ولم يبيِّن لهم رسول الله ﷺ، فتذاكر أصحابه فقالوا: أمَّا نحنُ فولدنا في الشرك، ولكن قد آمنَّا بالله تعالى ورسوله ﷺ، هؤلاء أبناؤنا، فقال رسول الله ﷺ: «هم الذين لا يسترقُون، ولا يكتوون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكَّلون». الحديث[(١)].

وأخرج الترمذيُّ وحسَّنه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «وعدني ربي أنْ يُدخل الجنة من أمَّتي سبعين ألفاً لا حسابَ عليهم ولا عذاب، مع كلِّ ألفٍ سبعين ألفاً وثلاثَ حثياتٍ من حثيات ربِّي»[(٢)].

وأخرج الإمامُ أحمد والبزَّارُ والطبرانيُّ عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ ربي أعطاني سبعينَ ألفاً من أمَّتي يدخلون الجنَّة بغير حساب»، فقال عمر رضي الله عنه: هلَّا استزدته؟ قال: «قد استزدتُه فأعطاني [مع كلِّ رجلٍ سبعين ألفاً»، قال عمر: فهلَّا استزدته. قال: «قد استزدتُه فأعطاني] هكذا» وفرجَ بين يديه وبسطَ باعَيْه وحَثَا. قال هشام[(٣)]: هذا من الله عزَّ وجلَّ لا يُدْرَى ما عدده[(٤)].

وأخرج الطبرانيُّ والبيهقيُّ عن عمرو بن حزم الأنصاريّ رضي الله عنه قال: احتبَس عنَّا رسولُ الله ﷺ ثلاثاً لا يخرجُ إلَّا إلى صلاةٍ مكتوبة ثم يرجع، فلمَّا كان اليوم الرابع خرج إلينا ﷺ، فقلنا: يا رسولَ الله احتبستَ عنَّا حتى ظننا أنَّه حدثَ حدث، قال: «لم يحدث إلَّا خير؛ إنَّ ربِّي وعدني أنْ يدخل من أمتي الجنةَ سبعينَ ألفاً لا حساب [عليهم]، وإني سألتُ ربِّي في هذه الثلاث أيَّام المزيد، فوجدتُ ربِّي ماجداً كريماً، فأعطاني مع كلِّ واحد سبعين ألفاً»[(٥)]. الخبر، إلى غير ذلك من الأخبار، وفي

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٠٥)، وصحيح مسلم (٢٢٠).

(٢) سنن الترمذي (٢٤٣٧)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٤٢٨٦)، وأحمد (٢٢٣٠٣).

(٣) هو هشام بن حسان من رجال الإسناد.

(٤) مسند أحمد (١٧٠٦)، ومسند البزار (٢٢٦٨)، ومسند الشاميين (٣٦١٣). وما بين حاصرتين من المصادر، والحديث ضعيف. انظر مجمع الزوائد ١٠/ ٤١٠، والتعليق عليه في مسند أحمد.

(٥) أورده البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٢٥٢ إثر الحديث (٢٦٨). قال الهيثمي في مجمع =

بعضها ذكرُ من يدخل الجنة بغير حسابٍ بوصفِهِ، كالحامدينَ الله تعالى شأنُه في السرَّاء والضَّراء، وكالذين تتجافَى جنوبُهم عن المضاجع، وكالذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله تعالى(١)، وكالذي يموتُ في طريق مكَّة ذاهباً أو راجعاً(٢)، وكطالب العلم، والمرأةِ المطيعة لزوجها، والولد البارِّ بوالديه(٣)، وكالرحيم

= الزوائد ١٠/ ٤١٠: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني، وذكر الاختلاف في اسم راويه.

(١) هذه الثلاثُ الأُوَل جاءت في حديث مرفوع أخرجه هناد في الزهد (١٧٦)، وأبو الليث في تفسيره ٣/ ٣٠ ـ ٣١ من طريق عبد الرحمن بن إسحاق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد، عن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الناس يوم القيامة في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، ثم يقوم منادٍ فينادي يقول: سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم، فيقول: أين الذين يحمدون الله في السَّراء والضراء؟ فيقومون وهم قليلون فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يعود فينادي: أين الذين ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فيقومون وهم قليلون، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يعود فينادي، فيقول: أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون وهم قليلون، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم سائر الناس فيحاسبون». وإسناده ضعيف لضعف عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي. انظر التقريب.

وأخرجه بألفاظ قريبة عبدُ بن حميد في مسنده (١٥٨١)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق١/ ٥٠٣-٥٠٤ من طريق أبان بن أبي عياش عن شهر بن حوشب. وأبان متروك كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

وأخرج الحاكم في مستدركه ٢/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩ نحوه مختصراً من طريق عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر ﷺ مرفوعاً وصححه. غير أن عبد الله بن عطاء لم يدرك عقبة بن عامر، كما ذكر المزي في تهذيب الكمال ١٥/ ٣١٢. وله شاهد موقوف على ابن عباس أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣ ـ زوائد نعيم)، والحارث بن أبي أسامة (١١٢٢ ـ بغية الباحث). وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٤/ ٣٧٥، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٨٠.

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه الحارث بن أبي أسامة (٣٥٣ ـ بغية الباحث) والأصبهاني (١٠٣٦) عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات في طريق مكة ذاهباً أو راجعاً لم يعرض ولم يحاسب». قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٤٣٣): رواه الحارث عن إسحاق بن بشر وهو ضعيف. اهـ.

وفيه أيضاً أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو ضعيف أيضاً. انظر تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٤.

(٣) يشير إلى الحديث الذي أخرجه الرافعي في «تاريخ قزوين» ١/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦ عن أبي بكر محمد بن الحسن النقاش عن الحسن بن علي عن يزيد بن هارون عن دؤاد بن أبي هند عن

الصبور[١]، وغير ذلك. ووجهُ الجمع بين الأخبار ظاهر.

ويلزم على تخصيصِ المتَّقين بالموصوفين بالتَّقوى الكاملة دخولُ عصاة المؤمنين في المجرمين، أو عدمُ اشتمال[٢] الآية على بيان حالهم.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على ما روي من الخبر على عدم إحضار المتقين جثيًّا حولَ جهنم، فما يدلُّ على العموم مخصَّصٌ بمثل ذلك، فتأمَّل والله تعالى الموفق.

ونصب «يوم» على الظرفية بفعلٍ محذوف مؤخَّر، أي: يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين من الأفعال ما لا يحيطُ ببيانه نطاقُ المقال.

وقيل: على المفعوليَّة بمحذوف مقدَّم خوطب به سيدُ المخاطبين ﷺ، أي: اذكر لهم بطريق الترغيب والترهيب يومَ نحشر.. إلخ.

وقيل: على الظرفية بـ «نَعُدُّ» باعتبار معنى المجازاة. وقيل: بقوله سبحانه وتعالى: «سيكفرون بعبادتهم» وقيل: بقوله جلَّ وعلا: «يكونون عليهم ضدًّا». وقيل: بقوله تعالى شأنه: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾.

والذي يقتضيه مقامُ التهويل وتستدعيه جزالةُ التنزيل أنْ ينتصبَ بأحد الوجهين الأوَّلين، ويكون هذا استئنافاً مبيِّناً لبعض ما في ذلك اليوم من الأمور الدالَّة على هوله.

= الشعبي عن ابن أبي ليلى عن أبي أيوب الأنصاري مرفوعاً: «مسألة واحدة يتعلمها المؤمن خير له من عبادة سنة، وخير له من عتق رقبة من ولد إسماعيل، وإن طالب العلم والمرأة المطيعة لزوجها والولد البار بوالديه يدخلون الجنة مع الأنبياء بغير حساب». قال الألباني في السلسلة الضعيفة ٦/ ٣٠١: وهذا موضوع ظاهر البطلان، كل رجال إسناده ثقات رجال الصحيح، وضعه عليهم النقاش هذا؛ فإنه كذاب كما قال الذهبي تبعاً لبعض من سلف من الأئمة.

(١) يشير إلى ما أخرجه ابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال (٢٧١) قال: حدثنا أحمد بن محمد بن شيبة، حدثنا محمد بن عمرو بن حنان، حدثنا بقية، عن معاوية بن يحيى، عن سفيان الثوري، عن رجل، عن مكحول، عن أبي هريرة قال: يا رسول الله، هل من رجل يدخل الجنة بغير حساب؟ قال: «نعم، كل رحيم صبور» وواضح أن في الإسناد مبهماً، إضافة إلى أنه فيه بقية بن الوليد الحمصي، وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء ـ كما ذكر ابن حجر في التقريب ـ وقد عنعن هنا. فالحديث ضعيف.

(٢) في (م): احتمال. وهو تصحيف.

وضميرُ الجمع لما يعمُّ المتقين والمجرمين، أي: العباد مطلقاً، وقيل: للمتقين، وقيل: للمجرمين من أهل الإيمان وأهل الكفر. و«الشفاعة» على الأوَّلين مصدرُ المبنيِّ للفاعل، وعلى الثالث ينبغي أنْ يكون مصدرَ المبنيِّ للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ استثناءٌ متَّصلٌ من الضمير على الأول[١]، ومحلُّ المستثنى إمَّا الرفعُ على البدل، أو النصب على أصل الاستثناء، والمعنى: لا يملكُ العبادُ أنْ يشفعوا لغيرهم، إلَّا من اتَّصفَ منهم بما يستأهلُ معه أنْ يشفع، وهو المرادُ بالعهد. وفسَّره ابنُ عباس بشهادةِ أن لا إله إلا الله.

والتبرِّي من الحول والقوة عدمُ رجاء أحدٍ إلَّا الله تعالى، وأخرج ابنُ أبي شيبة وابنُ أبي حاتم والطبرانيُّ وابنُ مردويه والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود أنَّه قرأ الآية وقال: إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: من كان له عندي عهدٌ فليقم، فلا يقوم إلَّا من قال هذا في الدنيا: «اللهمَّ فاطرَ السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، إنِّي أعهدُ إليك في هذه الحياة الدنيا أنَّك إنْ تكلني إلى نفسي تقرِّبني من الشر وتباعدني من الخير، وإنِّي لا أثقُ إلَّا برحمتك، فاجعله لي عندك عهداً تؤدِّيه إليَّ يوم القيامة، إنَّك لا تخلفُ الميعاد»[٢].

وأخرج ابنُ أبي شيبة عن مقاتل أنه قال: العهدُ الصلاح[٣]. وروي نحوه عن السُّدِّيّ وابن جريج[٤].

وقال الليث: هو حفظُ كتاب الله تعالى.

وتسميةُ ما ذكر عهداً على سبيل التشبيه.

---

(١) أي: على القول بأن ضمير الجمع يعمُّ المتقين والمجرمين.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٨٦، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠، والمعجم الكبير للطبراني (٨٩١٨)، والمستدرك ٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٨٤: رواه الطبراني، وفيه المسعودي، وهو ثقة، ولكنه قد اختلط، وبقية رجاله ثقات.

(٣) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور ٤/ ٢٨٦. ووقع في مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٣: الصلاة، بدل: الصلاح.

(٤) قول السدي أورده أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢١٧، بلفظ: العهد: الطاعة، وقول ابن جريج أخرجه الطبري في تفسيره ١٥/ ٦٣٣. ونصه: ﴿عَهْدًا﴾: عملاً صالحاً.

وقيل: المرادُ بالعهد الأمر والإذن، من قولهم: عهدَ الأميرُ إلى فلانٍ بكذا، إذا أمره به، أي: لا يملكُ العباد أنْ يشفعوا إلَّا من أذن الله عزَّ وجلَّ له بالشفاعة، وأمرَه بها، فإنَّه يملك ذلك. ولا يأبى «عند» الاتخاذ أصلاً، فإنَّه كما يقال: أخذتُ الإذنَ في كذا، يقال: اتَّخذته. نعم في قوله تعالى: «عند الرحمن» نوعُ إباءٍ عنه، مع أنَّ الجمهور على الأول.

والمراد بالشفاعة على القولين ما يعمُّ الشفاعة في دخول الجنة، والشفاعةَ في غيره، ونازعَ في ذلك المعتزلة، فلم يجوِّزوا الشفاعةَ في دخول الجنة، والأخبارُ تكذِّبهم، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرجلَ من أمَّتي ليشفع للفئام[1] من الناس، فيدخلونَ الجنَّة بشفاعته، وإن الرجلَ ليشفع للرجلِ وأهل بيته، فيدخلونَ الجنَّة بشفاعته»[2]. وجَوَّزَ ابنُ عطيَّة أنْ يُراد بـ «الشفاعة» الشفاعةُ العامة في فصل القضاء، وبـ «من اتَّخذ» النبيُّ ﷺ، و«بالعهد» الوعدُ بذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[3] [الإسراء:٧٩]. وهو خلافُ الظاهر جدًّا.

وعلى الوجه الثاني[4] في ضمير الجمع الاستثناءُ من الشفاعة بتقدير مضاف، وهو متصلٌ أيضاً. وفي المستثنى الوجهان السابقان[5]، أي: لا يملكُ المتَّقون الشفاعة إلَّا شفاعة من اتَّخذ عند الرحمن عهداً، والمراد به الإيمان، وإضافة المصدر إلى المفعول. وقيل: المستثنى منه محذوفٌ على هذا الوجه، أي: لا يملك المتقون الشفاعةَ لأحدٍ إلَّا من اتخذ.. إلخ، أي: إلَّا لمن اتَّصف بالإيمان.

وجُوِّزَ أنْ يكون الاستثناء من الشفاعة بتقدير المضاف على الوجه الأول في

(١) جاء عند هذه الكلمة في الأصل ما نصه: بالفاء، أي: الجماعة. اهـ منه.
(٢) أخرجه أحمد (١١٦٠٥).
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٣.
(٤) وهو أن ضمير الجمع للمتقين.
(٥) أي: إما الرفع على البدل، أو النصب على أصل الاستثناء.

الضمير أيضاً، وأن يكونَ المصدرُ مضافاً لفاعِله، أو مضافاً لمفعوله.

وجُوِّز عليه أيضاً أن يكون المستثنى منه محذوفاً كما سمعت.

وعلى الوجه الثالث[1]: الاستثناءُ من الضمير، وهو متَّصلٌ أيضاً، وفي المستثنى الوجهان، أي: لا يملكُ المجرمونَ أنْ يشفع لهم إلَّا من كانَ مؤمناً، فإنَّه يملك أن يشفع له.

وقيل: الاستثناءُ على تقدير رجوع الضمير إلى المجرمين منقطعٌ؛ لأنَّ المراد بهم الكفار، وحملُ ذلك على العصاةِ والكفَّار بعيدٌ، كما قال أبو حيان[2]، والمستثنى حينئذٍ لازم النصب عند الحجازيين، جائزٌ نصبُه وإبدالُه عند تميم. وجَوَّزَ الزمخشريُّ أنْ تكون الواو في «لا يملكون» علامةَ الجمع كالتي في: أكلوني البراغيث، والفاعل «من اتخذ» لأنَّه في معنى الجمع[3].

وتعقَّبه أبو حيان بقوله: لا ينبغي حملُ القرآن على هذه اللغة القليلة مع وضوح جعل الواو ضميراً، وذكر الأستاذ أبو الحسن بن عصفور أنَّها لغةٌ ضعيفة، وأيضًا فالواو والألف والنون التي تكونُ علاماتٍ لا يحفظُ ما يجيء بعدها فاعلاً إلَّا بصريح الجمع وصريحِ التثنية، أو العطف؛ أمَّا أنْ تأتي بلفظ مفردٍ يطلق على جمعٍ أو مثنى، فيحتاج في إثباته إلى نقل، وأمَّا عود الضمائر مثناةً ومجموعةً على مفردٍ في اللفظ يرادُ به المثنى والمجموع، فمسموعٌ معروفٌ في لسان العرب، فيمكن قياسُ هذه العلامات على تلك الضمائر، ولكن الأحوط أن لا يقال ذلك إلَّا بسماع[4]. انتهى.

وتعقَّبهُ أيضاً ابنُ المنير بأنَّ فيه تعسُّفاً؛ لأنَّه إذا جعل الواوَ علامةً لـ «من» ثمَّ أعاد على لفظها بالإفراد ضمير «اتخذ» كان ذلك إجمالاً بعد إيضاح، وهو تعكيسٌ في طريق البلاغة التي هي الإيضاح بعد الإجمال، والواو على إعرابه وإنْ لم تكن

(١) أي: على القول بأن ضمير الجمع للمجرمين من أهل الإيمان وأهل الكفر.
(٢) البحر المحيط ٦/٢١٨.
(٣) الكشاف ٢/٥٢٤ ـ ٥٢٥.
(٤) البحر المحيط ٦/٢١٧.

عائدةً على «من» إلَّا أنَّها كاشفةٌ لمعناها كشفَ الضمير العائد لها، ثم قال: فتنبَّه لهذا النَّقد[1] فإنه أروج من النَّقْد:

وفي عنق الحسناء يستحسنُ العقد[2]

انتهى.

ومنه يعلم أنَّ القول بجواز رجوع الضمير لها أولاً باعتبار معناها، وثانياً باعتبار لفظها لا يخلو عن كدر.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾ حكايةٌ لجناية القائلين: عزيرٌ ابن الله، وعيسى ابن الله، والملائكةُ بنات الله، من اليهود والنصارى والعرب، تعالى شأنه عمَّا يقولونَ علوًّا كبيراً = إثرَ حكايةِ جناية من عَبد ما عُبِد من دونه عزَّ وجلَّ، بطريق عطفِ القصَّة على القصَّة، فالضمير راجعٌ لمن علمت، وإنْ لم يُذكر صريحاً؛ لظهور الأمر. وقيل: راجعٌ للمجرمين. وقيل: للكافرين. وقيل: للظالمين. وقيل: للعباد المدلول عليه بذكر الفريقين المتقين والمجرمين، وفيه إسنادُ ما للبعض إلى الكلِّ، مع أنَّهم لم يرضوه، وقد تقدم البحث فيه.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ ردٌّ لمقالتهم الباطلة وتهويلٌ لأمرها؛ بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدَّة الغضب، المفصحِ عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيلٌ عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجراءة.

وقيل: لا التفات، والكلامُ بتقدير: قل لهم: «لقد جئتم» إلخ.

والإِدُّ بكسر الهمزة، كما في قراءة الجمهور، وبفتحِها كما قرأ السلميُّ[3]: العَجَب، كما قال ابنُ خالويه[4]. وقيل: العظيم المنكر، والإدَّة: الشدَّة، وأَدَّني الأمرُ وآدني: أثقلني وعَظُمَ عليَّ.

---

(١) في مطبوع الانتصاف ٢/ ٥٢٥: العقد.

(٢) هو عجز بيت للمتنبي كما في ديوانه ٢/ ١١١، وصدره: وأصبح شعري منهما في مكانه.

(٣) المحتسب ٢/ ٤٦.

(٤) القراءات الشاذة ص٨٦. ونسبة القراءة فيه لعليٍّ بن أبي طالب.

وقال الراغب[1]: الإدُّ: المنكر فيه جَلَبة، من قولهم: أدَّتِ الناقةُ تَئِدُّ، أي: رجَّعت أنينَها[2] ترجيعاً شديداً. وقيل: الأدُّ بالفتح مصدر، وبالكسر اسم، أي: فعلتم أمراً عجباً، أو منكراً شديداً، لا يُقَادرُ قدرُه، فإنَّ: جاء وأتى، يستعملان بمعنى: فعل، فيتعدَّيان تعديته.

وقال الطبرسيُّ: هو من باب الحذف والإيصال، أي: جئتم بشيءٍ إدّ[3].

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ في موضع الصفة لـ «إدًّا»، أو استئنافٌ لبيان عظم شأنه في الشدَّة والهول، والتفطُّر ـ على ما ذكره الكثير ـ التشقُّقُ مطلقاً، وعلى ما يدلُّ عليه كلام الراغب: التشقُّق طولاً، حيث فسَّر الفَطْر ـ وهو منه ـ بالشَّقِّ كذلك[4].

ومواردُ الاستعمال تقتضي عدم التقييد بما ذُكر. نعم قيل: إنَّها تقتضي أنْ يكون الفطر من عوارضِ الجسم الصلب، فإنَّه يقال: إناءٌ مفطور، ولا يقال: ثوبٌ مفطور، بل: مشقوق، وهو عندي في أعراف الردِّ والقبول، وعليه يكون في نسبة التفطُّر إلى السماوات، والانشقاق إلى الأرض في قوله تعالى: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ السماءَ أصلبُ من الأرض، والتكثيرُ الذي تدلُّ عليه صيغة التفعُّل، قيل: في الفعل؛ لأنَّه الأوفقُ بالمقام، وقيل: في متعلَّقه، ورُجِّحَ بأنَّه قد قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر عن عاصم ويعقوب[5] وأبو بحريَّة والزهريُّ وطلحة وحميد واليزيديُّ وأبو عبيد: «ينفطرن» مضارعُ: انفطرَ[6]، وتوافقُ القراءتين يقتضي ذلك، وبأنَّه قد اختير الانفعال في «تنشق الأرض» حيثُ لا كثرة في المفعول، ولذا أُوِّلَ: «ومن الأرض مثلهنّ» بالأقاليم ونحوه، كما سيأتي إنْ شاء الله تعالى.

ووجَّه بعضهم اختلاف الصيغة على القول بأنَّ التكثيرَ في الفعل بأنَّ السماوات

---

(١) المفردات: (أدد).

(٢) في (م) والمفردات: حنينها.

(٣) مجمع البيان ١٦/ ٧٥.

(٤) المفردات (فطر).

(٥) التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩. وقرأ بها أيضاً خلف من العشرة.

(٦) البحر المحيط ٦/ ٢١٨.

لكونها مقدَّسةً لم يُعْصَ الله تعالى فيها أصلاً نوعاً ما من العصيان لم يكن لها إلفٌ ما بالمعصية، ولا كذلك الأرض، فهي تتأثَّر من عظم المعصية ما لا تتأثَّر الأرض.

وقرأ ابن مسعود: «يتصدَّعنَ»(١)، قال في «البحر»: وينبغي أن يجعلَ ذلك تفسيراً لا قراءةً، لمخالفته سوادَ المصحف المجمع عليه، ولروايةِ الثقات عنه أنَّه قرأ كالجمهور(٢). انتهى.

ولا يَخفى عليك أنَّ في ذلك كيفما كان تأييداً لمن ادَّعى أن الفَطْر من عوارض الجسم الصلب، بناء على ما في «القاموس» من أنَّ الصدعَ شقٌّ في شيءٍ صلب(٣). وقرأ نافعٌ والكسائيُّ وأبو حيوة والأعمش: «يكاد» بالياء من تحت(٤).

﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾ تسقط وتنهدُّ ﴿هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ نُصب على أنَّه مفعول مطلق لـ «تَخِرُّ»، لأنَّه بمعنى تنهدُّ، كما أشرنا إليه، وإليه ذهب ابن النَّحاس(٥).

وجُوِّز أن يكون مفعولاً مطلقاً لـ «تنهدُّ» مقدَّراً. والجملةُ في موضع الحال.

وقيل: هو مصدرٌ بمعنى المفعول، منصوبٌ على الحال، من هَدَّ المتعدِّي، أي: مهدودةً.

وجُوِّز أنْ يكون مفعولاً له، أي: لأنَّها تنهدُّ، على أنَّه من هَدَّ اللازم بمعنى انهدم، ومجيئُه لازماً ممَّا صرَّح به أبو حيَّان(٦)، وهو إمامُ اللغة والنحو، فلا عبرةَ بمن أنكره، وحينئذ يكون الهدُّ من فعل الجبال، فيتَّحدُ فاعل المصدر والفعلِ المعلَّلِ به. وقيل: إنَّه ليس من فعلها، لكنَّها إذا هدَّها أحد يحصل لها الهدُّ، فَصَحَّ أن يكون مفعولاً له.

وفي الكلام تقرير لِكَوْنِ ذلكَ إدًّا، والكيدودةُ فيه على ظاهرها من مقاربةِ

(١) في مطبوع القراءات الشاذة ص٨٦: ينصدعن.
(٢) البحر المحيط ٦/٢١٨.
(٣) القاموس (صدع).
(٤) البحر المحيط ٦/٢١٨. وقراءة نافع والكسائي في التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/٣١٩.
(٥) في إعراب القرآن له ٣/٢٩.
(٦) البحر ٦/٢١٩.

الشيء. وفسَّرها الأخفشُ هنا[١] وفي قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] بالإرادة، وأنشدَ شاهداً على ذلك قول الشاعر:

كـادت وكِـدْتُ وتـلـك خـيـرُ إرادةٍ لو عادَ من زمنِ الصبابةِ ما مضى[٢]

ولا حجَّة له فيه.

والمعنى: أنَّ هولَ تلك الكلمة الشنعاء وعظمَها بحيثُ لو تَصوَّر بصورةٍ محسوسةٍ لم تتحملها هذه الأجرام العظام وتفرَّقتْ أجزاؤها من شدَّتها، أو أنَّ حقَّ تلك الكلمة لو فهمتها تلك الجماداتُ العظام أنْ تتفطَّر وتَنْشَقَّ وتخرَّ من فظاعتها.

وقيل: المعنى: كادت القيامةُ أنْ تقوم، فإنَّ هذه الأشياء تكونُ حقيقةً يوم القيامة.

وقيل: الكلامُ كنايةٌ عن غضب الله تعالى على قائل تلك الكلمة، وأنَّه لولا حلمه سبحانه وتعالى لوقعَ ذلك، وهلكَ القائلُ وغيره، أي: كدتُ أفعل ذلك غضباً لولا حلمي.

وأخرج ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ الشرك فزعت منه السماواتُ والأرض والجبال وجميعُ الخلائق إلَّا الثقلين، وكدن أنْ يَزُلْنَ منه تعظيماً لله تعالى[٣].

وفيه إثباتُ فهمٍ لتلك الأجرام والأجسام لائقٍ بهنّ، وقد تقدَّم ما يتعلَّق بذلك.

وفي «الدر المنثور»[٤] في الكلام على هذه الآية: أخرجَ أحمدُ في «الزهد» وابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو الشيخ في «العظمة» وابن أبي حاتم والطبرانيُّ والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» من طريق عون عن ابن مسعود

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٦٢٧.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٩٦، ووقع في مطبوعه عند تفسير الآية العاشرة من سورة الرعد. وحقه أن يذكر ـ كما ذكره الآلوسي ـ عند قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، والبيت أيضاً في تفسير الطبري ١٦/ ٣٩، والأضداد للأنباري ص٩٧، والمحتسب ٢/ ٣١ دون نسبة. وفيها: لهو الصبابة، بدل: زمن الصبابة.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٦٣٧.

(٤) ٤/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

قال: إنَّ الجبلَ لينادي الجبلَ باسمه: يا فلان هل مرَّ بكَ اليومَ أحدٌ ذاكرٌ لله تعالى؟ فإذا قال: نعم، استبشرَ. قال عون: أفلا يسمعنَ الزور إذا قيل، ولا يسمعن الخير؟ هنَّ للخير أسمع، وقرأ: «وقالوا» الآيات[1]. اهـ. وهو ظاهرٌ في الفهم.

وقال ابن المنير: يظهر لي في الآية معنًى لم أرَهُ لغيري، وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى قد استعارَ لدلالة هذه الأجرام على وجوده عزَّ وجلَّ موصوفاً بصفات الكمال الواجبة له سبحانه أنْ جعلَها مسبِّحةً بحمده، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وممَّا دلَّت عليه السماوات والأرض والجبال بل وكلُّ ذرةٍ من ذرَّاتها أنَّ الله تعالى مقدَّسٌ عن نسبةَ الولد إليه:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدل على أنه واحد[2]

فالمعتقدُ نسبةَ الولد إليه عزَّ وجلَّ قد عطَّل دلالة هذه الموجودات على تنزيه الله تعالى وتقديسه، فاستعير لإبطال ما فيها من روح الدلالة التي خلقت لأجلها، إبطالُ صورها بالهدِّ والانفطار والانشقاق[3]. اهـ.

واعترضَ عليه بأنَّ الموجودات إنما تدلُّ على خالقٍ قادرٍ عالم حكيم؛ لدلالة الأثر على المؤثِّر، والقدرةِ على المقدور، وإتقانُ العمل يدلُّ على العلم والحكمة، وأمَّا دلالتها على الوحدانيَّة فلا وجه له، ولا يثبتُ مثله بالشعر.

ورُدَّ بأنَّها لو لم تدلّ جاء حديث التمانع، كما حقَّقه المولى الخياليّ في «حواشيه» على «شرح عقائد النسفيّ» للعلامة الثاني.

وقال بعضهم: إنها تدلُّ على عظم شأنه تعالى، وأنه لا يشابهه ولا يدانيه شيءٌ، فلزمَ أنْ لا يكون له شريكٌ ولا ولد؛ لأنَّه لو كان كذلك لكان نظيراً لله عزَّ وجلَّ، ولذا عبَّر عن هذه الدلالة بالتسبيح والتنزيه. ولعلَّ ما أشرنا إليه أولى وأدقّ، وليس مراد من نسبَ الولد إليه عزَّ وجل إلَّا الشرك، فتأمَّل.

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٣)، وابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٥، والعظمة (١١٩١)، والمعجم الكبير (٨٥٤٢)، وشعب الإيمان (٥٣٨). ورواية عون عن عبد الله بن مسعود مرسلة، كما في تهذيب التهذيب ٣/ ٣٣٨.

(٢) سلف ١/ ٢٧١.

(٣) الانتصاف ٢/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦.

والجمهورُ على أنَّ الكلام لبيان بشاعة تلك الكلمة، على معنى أنَّها لو فَهمتْها الجماداتُ لاستعظمتها، وتَفتَّت من بشاعتها، ونحو هذا مهيعٌ للعرب، قال الشاعر:

لما أتى خبرُ الزبير تواضعتْ سورُ المدينة والجبالُ الخشَّعُ[(١)]

وقال الآخر:

فأصبح بطنُ مكَّة مقشعرًّا كأنَّ الأرضَ ليس بها هشامُ[(٢)]

وقال الآخر:

ألم ترَ صدعاً في السماء مبينا على ابن لبينى الحارث بن هشام[(٣)]

إلى غير ذلك، وهو نوعٌ من المبالغة، ويقبل إذا اقترنَ بنحو «كاد»، كما في الآية الكريمة، وقد بيِّن ذلك في محلِّه.

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ بتقدير اللام التعليليَّة، ومحلُّه بعد الحذف نصبٌ عند سيبويه[(٤)]، وجرٌّ عندَ الخليل والكسائي[(٥)]، وهو علَّة للعليَّة التي تضمَّنها «منه» لكن باعتبار ما تدلُّ عليه الحال، أعني قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾. وقيل: علَّةٌ لـ «تكاد» إلخ.

واعتُرِض بأنْ كون «يكاد» إلخ معلَّلاً بذلك قد عُلِم من «منه»، فيلزم التكرار. وأجيبَ بما لا يخلو عن نظر.

وقيل: علةٌ لـ «هدًّا»، وهو علَّةٌ للخرور. وقيل: ليس هناك لامٌ مقدَّرة، بل «أن» وما بعدَها في تأويل مصدرٍ مجرورٍ بالإبدال من الهاء في «منه»، كما في قوله:

على حالةٍ لو أنَّ في القوم حاتماً على جودِه لضنَّ بالماء حاتمِ[(٦)]

---

(١) هو لجرير. ديوانه ٢/ ٩١٣.

(٢) هو للحارث بن أمية الصغري، كما في الاشتقاق لابن دريد ص١٠١، وشرح أبيات مغني اللبيب ٤/ ١٧٠ ـ ١٧١. وهو في الكامل ٢/ ٦٧١ دون نسبة.

(٣) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٤، وأبو حيان في البحر ٦/ ٢١٨ دون نسبة.

(٤) الكتاب ٣/ ١٢٦ ـ ١٢٨.

(٥) نقله عنه الفراء في معانيه ٢/ ١٧٣.

(٦) سلف ٥/ ١٢٣.

بجرٍّ: حاتم، بالإبدال من الهاء في: جوده.

واستبعدَه أبو حيَّان؛ للفصل بجملتين بين البدل والمبدَل منه(١).

وقيل: المصدرُ مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ محذوف، أي: الموجب لذلك دعاؤُهم للرحمن ولداً، وفيه بحث.

وقيل: هو مرفوعٌ على أنَّه فاعل «هدًّا»، ويعتبر مصدراً مبنيًّا للفاعل، أي: هدَّها دعاؤُهم للرحمن ولداً. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ فيه بعداً؛ لأنَّ الظاهرَ كونُ هذا المصدر تأكيديًّا، والمصدر التأكيديُّ لا يعمل، ولو فرض غير تأكيديٍّ لم يعمل بقياسٍ إلَّا إذا كان أمراً، كـ: ضَرْباً زيداً، أو بعد استفهام، كـ: أَضَرْباً زيداً؟ وما هنا ليس أحدَ الأمرين، وما جاء عاملاً وليس أحدَهما، كقوله:

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم

نادر(٢).

والتزامُ كون ما هنا من النادر لا يدفع البعد.

ولعلَّ ما ذكرناه أدنى(٣) الأوجه وأولاها، فتدبَّر والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

و«دَعوا» عند الأكثرين بمعنى: سمَّوا، والدعاءُ بمعنى التسمية يتعدَّى لمفعولين بنفسه، كما في قوله:

دعتني أخاها أمُّ عمرٍو ولم أكن   أخاها ولم أرضع لها بلبانِ(٤)

وقد يتعدَّى للثاني بالباء، فيقال: دعوتُ ولدي بزيدٍ، واقتصرَ هنا على الثاني

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢١٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢١٩. والشعر صدر بيت لامرئ القيس، عجزه:

يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وسلف ٧/ ٤٥٧.

(٣) في الأصل و(م): أدق. والمثبت من مسودة المصنف.

(٤) هو لعبد الرحمن بن أم الحكم كما نسبه ابن عبد ربه في العقد الفريد ٦/ ٣٤٤. وذكره المبرد في الكامل ١/ ١٦١ دون نسبة.

وحذف الأوَّل دلالةً على العموم والإحاطة لكلِّ ما دُعي له عزَّ وجلَّ ولداً من عيسى وعزير عليهما السلام وغيرهما.

وجُوِّزَ أن يكونَ من: دعا، بمعنى نسب الذي مطاوعه ما في قوله ﷺ: «من ادَّعى إلى غير مواليه»[١]. وقول الشاعر:

إنَّـا بـنـي نـهـشـلٍ لا نـدَّعـي لأبٍ عـنـه ولا هـو بـالأبـنـاء يـشـريـنـا[٢]

فيتعدَّى لواحد.

والجارُّ والمجرور جُوِّزَ أنْ يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً من «ولداً»، وأن يكون متعلِّقاً بما عنده. وجملة «ما ينبغي» حالٌ من فاعل «دعوا»، وقيل: من فاعل «قالوا». و«ينبغي» مضارع انبغى، مطاوع بغى بمعنى طَلَب، وقد سُمع ماضيه، فهو فعلٌ متصرِّفٌ في الجملة. وعدَّه ابنُ مالك في «التسهيل»[٣] من الأفعال التي لا تتصرَّف، وغلَّطهُ في ذلك أبو حيان[٤]. ويمكن أن يقال: مرادُه أنَّه لا يتصرَّف تامًّا، و«أن يتخذ» في تأويل مصدر فاعله، والمراد: لا يليقُ به سبحانه اتخاذُ الولد، ولا ينطلبُ[٥] له عزَّ وجلَّ؛ لاستحالة ذلك في نفسه، لاقتضائه الجزئيَّة أو المجانسة، واستحالةُ كلٍّ ظاهرة.

ووضع الرحمن موضع الضمير؛ للإشعار بعلَّة الحكم بالتنبيه على أنَّ كلَّ ما سواه تعالى إمَّا نعمةٌ أو مُنعَمٌ عليه، وأين ذلك ممن هو مُبدئ النعم ومُولي

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٨٤٩٧) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله سبعة من خلقه...» وعدَّ منهم من ادعى إلى غير مواليه. وأخرجه الطبري في تهذيب الآثار مسند علي (٣٣٠) من حديث سعد قال: قال رسول الله: «من ادعى إلى غير أبيه أو ادعى إلى غير مواليه فقد كفر». وهذا المعنى ورد في صحيح البخاري (٣١٧٢)، وصحيح مسلم (١٣٧٠) من حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً، بلفظ: «من انتمى إلى غير مواليه».

(٢) نسبه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨ لنهشل بن حري النهشلي، ونسبه المبرد في الكامل ١/ ١٤٥ لأبي مخزوم رجل من بني نهشل. وأورده البغدادي في الخزانة ٨/ ٣٠٢، وذكر الخلاف في قائله، ورجح أنه لبشامة بن حزن. انظر الخزانة ٨/ ٣١١ ـ ٣١٢.

(٣) ص٢٤٧.

(٤) البحر ٦/ ٢١٩.

(٥) في (م): يتطلب.

أصولها وفروعها! وقد أشير إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما منهم أحدٌ من الملائكة والثقلين ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ أي: إلَّا وهو مملوكٌ له تعالى، يأوي إليه عزَّ وجلَّ بالعبودية والانقياد لقضائه وقدره سبحانه، فالإتيانُ معنويّ. وقيل: هو حسيّ، والمراد: إلَّا آتي محلَّ حكمه، وهو أرضُ المحشر، منقاداً لا يدَّعي لنفسه شيئاً ممَّا نسبوه إليه. وليس بذاك كما لا يخفى.

و«من» موصولة بمعنى «الذي»، و«كل» تدخل عليه؛ لأنَّه يُراد منه الجنس، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ [الزمر:٣٣]، وقوله:

وكـلُّ الـذي حـمَّـلـتـنـي أتـحـمَّـلُ[١]

وقيل: موصوفةٌ لأنَّها وقعت بعد «كل» نكرة وقوعَها بعد «ربّ» في قوله:

ربَّ مـن أنـضـجـتُ غـيـظـاً صدرَه قـد تـمـنَّـى لـي مـوتـاً لـم يـطـع[٢]

ورجَّح في «البحر»[٣] الأولَ بأنَّ مجيئها موصوفةً بالنسبة إلى مجيئها موصولة قليل. وقرأ عبد الله وابن الزبير وأبو حيوة وطلحة وأبو بحريَّة وابن أبي عبلة ويعقوب: «آتٍ» بالتنوين، «الرحمنَ» بالنصب على الأصل[٤]. ونصب «عبداً» في القراءتين على الحال.

واستُدِل بالآية على أنَّ الوالد لا يملكُ ولدَه، وأنه يَعتقُ عليه إذا ملكَه.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ حصرهم وأحاطَ بهم بحيث لا يكاد يخرجُ أحدٌ منهم من حيطة علمه وقبضة قدرته جلَّ جلاله.

﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ أي: عدَّ أشخاصَهم وأنفاسَهم وأفعالَهم، فإنَّ كلَّ شيءٍ عنده تعالى بمقدار.

---

(١) هو في البحر المحيط ٦/ ٢٢٠، والدر المصون ٧/ ٦٥١ هكذا ودون نسبة.

(٢) البيت لسويد بن أبي كاهل، وهو في الشعر والشعراء ١/ ٤٢١، والأغاني ١٣/ ١٠١، وخزانة الأدب ٦/ ١٢٣.

(٣) ٦/ ٢٢٠.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٢٠، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ عن ابن مسعود ويعقوب وأبي حيوة.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ أي: منفرداً من الأتباع والأنصار، منقطعاً إليه تعالى غاية الانقطاع، محتاجاً إلى إعانته ورحمته عزَّ وجل، فكيف يجانسه ويناسبه ليتَّخذَه ولداً وليشرك به سبحانه وتعالى عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيراً.

وقيل: أي: كلُّ واحدٍ من أهل السماوات والأرض العابدين والمعبودين آتيه عزَّ وجلَّ منفرداً عن الآخر، فينفردُ العابدون عن الآلهة التي زعموا أنَّها أنصارٌ أو شفعاء، والمعبودون عن الأتباع الذين عبدوهم، وذلك يقتضي عدمَ النفع، وينتفي بذلك المجانسةُ لمن بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ تبارك وتعالى.

وفي «آتيه» من الدلالة على إتيانهم كذلك ألبتَّة ما ليس في: يأتيه، فلذا اختير عليه، وهو خبر «كلهم»، و«كل» إذا أضيفَ إلى معرفةٍ ملفوظٍ بها نحو: كلّهم، أو كلّ الناس، فالمنقول أنَّه يجوزُ عود الضمير عليه مفرداً؛ مراعاةً للفظه، فيقال: كلُّكم ذاهب، ويجوز عودُه عليه جمعاً مراعاةً لمعناه، فيقال: كلُّكم ذاهبون.

وحكى إبراهيم بن أصبغ في كتاب «رؤوس المسائل» الاتفاقَ على جوازِ الأمرين. وقال أبو زيد السهيليّ: إنَّ «كُلَّا» إذا ابتدئ به وكان مضافاً لفظاً ـ أي: إلى معرفة ـ لم يحسن إلَّا إفرادُ الخبر؛ حملاً على المعنى؛ لأنَّ معنى: كلكم ذاهبٌ، مثلاً: كلُّ واحدٍ منكم ذاهبٌ، وليسَ ذلك مراعاةً للفظ، وإلَّا لجازَ: القومُ ذاهبٌ؛ لأنَّ كلَّا من «كل» والقوم اسمُ جمعٍ مفردُ اللفظ. اهـ.

وفي «البحر»: يحتاج في إثبات: كلُّكم ذاهبون، بالجمع، إلى نقل عن العرب[1]. والزمخشريُّ في تفسير هذه الآية استعملَ الجمع[2]، وحسنُ الظنِّ فيه أنَّه وجدَ ذلك في كلامهم.

وإذا حذف المضاف إليه المعرفة، فالمسموعُ من العرب الوجهان، ولا كلام في ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ أي: مودةً في

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٢٠.

(٢) بقوله في الكشاف ٢/ ٥٢٧: وكلهم متقلبون في ملكوته مقهورون بقهره. وانظر البحر المحيط ٦/ ٢٢٠.

القلوب لإيمانهم وعملهم الصالح. والمشهورُ أنَّ ذلك الجعلَ في الدنيا، فقد أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وعبد بن حميد وغيرهم عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله تعالى عبداً نادى جبريل: إنِّي قد أحببتُ فلاناً فأحبَّه، فينادي في السماء، ثم تنزلُ له المحبَّة في الأرض، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية»[1].

والتعرُّض لعنوان الرحمانيَّة لما أنَّ الموعودَ من آثارها، والسين لأنَّ السورةَ مكِّيةٌ وكانوا ممقوتين حينئذٍ بين الكفرة، فوعدهم سبحانه ذلك، ثم نجَّزه حين كثر الإسلام وقويَ بعد الهجرة. وذكر أنَّ الآية نزلت في المهاجرين إلى الحبشة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وَعَدَ سبحانه أنْ يجعلَ لهم محبَّةً في قلب النجاشيّ. وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف أنَّه لمَّا هاجرَ إلى المدينة وَجَدَ في نفسه على فراق أصحابه بمكَّة، منهم شيبة بن ربيعة وعتبة[2] بن ربيعة وأميَّة بن خلف، فأنزلَ الله تعالى هذه الآية[3].

وعلى هذا تكونُ الآية مدنية.

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: «قل: اللهمَّ اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في صدور المؤمنين ودًّا» فأنزلَ الله سبحانه هذه الآية[4].

وكان محمدُ بن الحنفية رضي الله عنه يقول: لا تجدُ مؤمناً إلَّا وهو يحبُّ عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه وأهلَ بيته.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٨٧، وصحيح البخاري (٧٤٨٥)، وصحيح مسلم (٢٦٣٧)، وسنن الترمذي (٣١٦١). وهو أيضاً عند أحمد (٧٦٢٥). ولم يرد ذكر الآية إلا في رواية الترمذي.

(٢) في الأصل و(م): عقبة، والتصويب من المصادر.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٨٧، وتفسير الطبري ١٥/ ٦٤٤.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٨٧، وهو في الفردوس للديلمي (١٩٣٢) دون ذكر سبب النزول. وقال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٨: أخرجه الثعلبي والطبراني في «مسند حمزة الزيات» وابن مردويه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. وفيه إسحاق بن بشر عن خالد بن زياد. وهما متروكان. اهـ.

وروى الإماميَّة خبرَ نزولها في عليٍّ كرم الله تعالى وجهه عن ابن عباس والباقر ﷺ، وأيَّدوا ذلك بما صحَّ عندهم أنَّه كرَّم الله تعالى وجهه قال: لو ضربت خيشومَ المؤمن بسيفي هذا على أنْ يبغضني ما أبغضني، ولو صببتُ الدنيا بجملتِها على المنافق على أنْ يحبَّني ما أحبَّني، وذلك أنَّه قضي فانقضى على لسان النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا يبغضكَ مؤمنٌ، ولا يحبُّك منافق»(١). والمراد المحبَّة الشرعيَّة التي لا غلوَّ فيها.

وزعم بعض النصارى حبَّه كرم الله تعالى وجهه، فقد أنشد الإمام اللغوي رضيُّ الدين أبو عبد الله محمد بن عليّ بن يوسف الأنصاريّ الشاطبيّ(٢) لابن إسحاق النَّصْرانيّ الرسغنيّ(٣):

عديٌّ وتيمٌ لا أحاولُ ذكرهم ... بسوءٍ ولكني محبٌّ لهاشمِ
وما تعتريني في عليٍّ ورهطِه ... إذا ذُكروا في الله لومةُ لائم
يقولون ما بالُ النصارى تحبُّهم ... وأهل النهى من أعربٍ وأعاجم
فقلت لهم إنِّي لأحسب حبَّهم ... سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

وأنت تعلم أنَّه إذا صحَّ الحديث ثبتَ كذبه، وأظنُّ أنَّ نسبةَ هذه الأبيات للنصرانيِّ لا أصلَ لها، وهي من أبيات الشيعة بيت الكذب، وكم لهم مثل هذه المكايد، كما بين في «التحفة الإثني عشرية».

والظاهر أنَّ الآيةَ على هذا مدنيَّةٌ أيضاً، ثمَّ العبرةُ على سائر الروايات في سبب النزول بعموم اللفظ لا بخصوصِ السبب. وذهب الجبائيُّ إلى أنَّ ذلك في الآخرة؛

---

(١) نص الحديث المرفوع أخرجه مسلم (٧٨)، وأحمد (٧٣١).

(٢) شيخ أبي حيان، وروى عنه هو والمزي والقطب الحلبي وآخرون، له حواشٍ على الصحاح وتوفي سنة ٦٨٤ هـ. بغية الوعاة ١/ ١٩٤، والأعلام ٦/ ٢٨٣.

(٣) وقع في البحر المحيط ٦/ ٢٢١ ـ وعنه نقل المصنف ـ: أن الأبيات لزبينا بن إسحاق النصراني الرسغي. وفي نفح الطيب ٢/ ٣٧٧ ـ نقلاً عن البحر ـ: لزينب بنت إسحاق النصراني الرسعني، بالمهملة. وذكر الأبيات صاحب المحاسن والمساوئ ص٦٩، ونسبها للموصلي النصراني. وأوردها ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ٧٥٧، ونسبها لزبيا النصراني.

فقيل: في الجنَّة إذ يكونون إخواناً على سُرُرٍ متقابلين. وقيل: حين تعرضُ حسناتهم على رؤوس الأشهاد. وأمر السين على ذلك ظاهر.

ولعلَّ إفراد هذا الوعد من بين ما سيولون يوم القيامة من الكراماتِ السنية؛ لما أنَّ الكفرةَ سيقعُ بينهم يومئذٍ تباغضٌ وتضادٌّ وتقاطعٌ وتلاعن.

وذُكر في وجه الربط أنَّه لما فُصِّلت قبائحُ أحوال الكفرة عَقَّبَ ذلك بذكر محاسنِ أحوال المؤمنين، وقد يقال فيه ـ بناءً على أنَّ ذلك في الآخرة ـ: إنَّه جلَّ شأنه لما أخبر بإتيان كلٍّ من أهل السماوات والأرض إليه سبحانه يوم القيامة فرداً آنسَ المؤمنين بأنَّه جلَّ وعلا يجعلُ لهم ذلك اليوم ودًّا، وفَسَّرَه ابنُ عطية على هذا الوجه بمحبَّته تعالى إيَّاهم، وأراد منها إكرامَه تعالى إيَّاهم ومغفرته سبحانه ذنوبَهم[1].

وجُوِّز أنْ يكون الوعد بجعل الودِّ في الدنيا والآخرة، ولا أراه بعيداً عن الصواب. ولا يأبَى هذا ولا ما قبلَه التعرُّضُ لعنوان الرحمانية؛ لجواز أن يدَّعَى العموم، فقد جاء «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما»[2]. وقرأ أبو الحارث الحنفي: «وَدًّا» بفتح الواو[3]. وقرأ جناح بن حبيش: «وِدًّا» بكسرها[4]. وكلٌّ ذلك لغةٌ فيه، وكذا في الوداد.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: القرآن، بأن أنزلناه ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: بلغتك، وهو في ذلك مجازٌ مشهور. والباء بمعنى «على»، أو على أصله وهو الإلصاق؛ لتضمين «يسَّرنا» معنى أنزلنا، أي: يسَّرناه منزلين له بلغتك. والفاءُ لتعليل أمرٍ ينساقُ إليه النظم الكريم، كأنَّه قيل: بعد إيحاء هذه السورة الكريمة بَلِّغ هذا المنزَّل، أو بشِّر به[5] وأنذر، فإنَّما يسَّرناه بلسانك العربيِّ المبين. ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المتَّصفينَ بالتَّقوى؛ لامتثال ما فيه من الأمر والنهي، أو الصائرين إليها، على أنَّه من مجاز الأوْل.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤.

(٢) سلف ١/ ٢٣٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٣٤، والبحر المحيط ٦/ ٢٢١.

(٤) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٢٢١.

(٥) في (م): وأبشر به.

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ لا يؤمنون به لجاجاً وعناداً. واللدُّ جمعُ: الألَدّ، وهو كما قال الراغب: الخصمُ الشديدُ التأبِّي، وأصله الشديد اللديد، أي: صفحة العنق، وذلك إذا لم يمكن صرفُه عما يريده(١). وعن قتادة: اللُّدّ: ذوو الجدل بالباطل، الآخذون في كلِّ لديد ـ أي: جانبٍ ـ بالمراء.

وعن ابن عباس تفسيرُ اللدِّ بالظَّلَمة، وعن مجاهد تفسيره بالفُجَّار، وعن الحسن تفسيره بالصُّمّ، وعن أبي صالح تفسيرُه بالعوج، وكلٌّ ذلك تفسير باللازم. والمرادُ بهم أهلُ مكَّة كما روي عن قتادة.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ وعدٌ لرسول الله ﷺ في ضمن وعيد هؤلاء القوم بالإهلاك، وحثٌّ له عليه الصلاة والسلام على الإنذار، أي: قرناً كثيراً أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين.

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، والاستفهام في معنى النفي، أي: ما تشعر بأحدٍ منهم.

وقرأ أبو حيوة وأبو بحريَّة وابن أبي عبلة وأبو جعفر المدنيّ: «تَحُسُّ» بفتح التاء وضمِّ الحاء(٢).

﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ أي: صوتاً خفيًّا، وأصل التركيب هو الخفاء(٣)، ومنه رَكَز الرمح، إذا غَيَّبَ طرفه في الأرض، والركاز للمال المدفون. وخصَّ بعضُهم الركز بالصوت الخفيّ دونَ نطقٍ بحروف ولا فم، والأكثرون على الأول، وخُصَّ الصوتُ الخفيُّ؛ لأنَّه الأصلُ الأكثر، ولأنَّ الأثرَ الخفيَّ إذا زال فزوالُ غيره بطريق الأولَى. والمعنى: أهلكناهم بالكليَّة واستأصلناهم، بحيث لا ترى منهم أحداً ولا تسمعُ منهم صوتاً خفيًّا فضلاً عن غيره.

---

(١) المفردات (لدد) ووقع فيه: الخصيم. بدل: الخصم. و: الشديد اللدد، بدل: الشديد اللديد. وفي اللسان (لدد): اللديدان: صفحتا العنق دون الأذنين... أبو عمرو: اللديد: ظاهر الرقبة.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٢١، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٦ عن أبي حيوة، وأبي جعفر المدني. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) يعني معانيه كلها تدور عليه، ولو قلبت حروفه. انظر حاشية الشهاب ٦/ ١٨٦.

وقيل: المعنى: أهلكناهم بالكليَّة بحيث لا تَرى منهم أحداً، ولا تسمعُ مَن يخبرُ عنهم ويذكرهم بصوتٍ خفيٍّ. والحاصل: أهلكناهم فلا عين ولا خبر.

والخطاب إمَّا لسيِّد المخاطبين ﷺ، أو لكلٍّ من يصلح للخطاب.

وقرأ حنظلة: «تُسمَعُ» مضارع أسمعت مبنيًّا للمفعول، والله تعالى أعلم(١).

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ أمرٌ للحبيب أنْ يذكرَ الخليل، وما منَّ الله تعالى به عليه من أحكام الخلَّة؛ ليستثير المستعدِّين إلى التحلِّي بما أمكن لهم منها.

والصدِّيقُ ـ على ما قال ابنُ عطاء ـ: القائمُ مع ربِّه سبحانه على حدِّ الصدق في جميع الأوقات، لا يعارضُه في صدقه معارض بحال.

وقال أبو سعيد الخرَّاز: الصدِّيقُ: الآخذُ بأتمِّ الحظوظ من كلِّ مقامٍ سنيّ، حتى يقرب من درجات الأنبياء عليهم السلام.

وقال بعضهم: من تواترت أنوارُ المشاهدة واليقين عليه، وأحاطت به أنوار العصمة. وقال القاضي: هو الذي صعدت نفسه تارةً بمراقي النظر في الحجج والآيات، وأخرى بمعارج التصفية والرياضة إلى أوج العرفان، حتى اطَّلع على الأشياء وأخبرَ عنها على ما هي عليه(٢).

ومقام الصديقية قيل: تحت مقام النبوة وليس بينهما مقام. وعن الشيخ الأكبر قُدِّس سره إثباتُ مقامٍ بينهما، وذكر أنَّه حصلَ لأبي بكرٍ الصديق ﷺ(٣).

والمشهور بهذا الوصف بين الصحابة ﷺ أبو بكر ﷺ وليس ذلك مختصًّا به، فقد أخرج أبو نعيم في «المعرفة» وابنُ عساكر وابن مردويه من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه أبي ليلى الأنصاريّ عن النبيِّ ﷺ قال: «الصديقونَ ثلاثة، حبيب

(١) القراءات الشاذة ص٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٢٢١.
(٢) تفسير البيضاوي ٢/ ٩٨، عند تفسير الآية ٧٩ من سورة النساء.
(٣) انظر الفتوحات المكية ٢/ ١٧ و٢٤.

النجار مؤمن آل يس الذي قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، وهو أفضلهم»[(١)].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ إلخ فيه من لطف الدعوة إلى اتِّباع الحقِّ والإرشادِ إليه ما لا يخفى، وهذا مطلوبٌ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا سيما إذا كان ذلك مع الأقارب ونحوهم.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ هذا سلامُ الإعراض عن الأغيار، وتلطّف الأبرار مع الجهّال، قال أبو بكر بن طاهر: إنه لما بدا من آزر في خطابه عليه السلام ما لا يبدو إلّا من جاهل، جعل جوابه السلام؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أهاجرُ عنكم بديني، ويفهمُ منه استحبابُ هجر الأشرار. وعن أبي تراب النخشبيّ[(٢)]: صحبةُ الأشرار تورثُ سوء الظن بالأخيار.

وقد تضافرت الأدلة السمعيَّةُ والتجربة على أنَّ مصاحبتَهم تورثُ القسوة، وتثبِّطُ عن الخير.

﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ فيه من الدلالة على مزيد أدبه عليه السلام مع ربِّه عزَّ وجل ما فيه، ومقام الخلّة يقتضي ذلك، فإنَّ من لا أدبَ له لا يصلح أنْ يُتَّخذَ خليلاً.

﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ كأنَّ ذلك كان عوضاً عمَّن اعتزلَ من أبيه وقومه؛ لئلَّا يضيقَ صدره، كما قيل. ولما اعتزل نبيُّنا ﷺ الكون أجمع ما زاغ البصر وما طغى عُوِّضَ عليه الصلاة والسلام بأنْ قال له

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣٣٨). قال ابن تيمية في منهاج السنة ٣/ ٧ ـ طبعة بولاق ـ: هذا كذب على رسول الله ﷺ.

(٢) هو عسكر بن الحصين، شيخ الطائفة، كتب العلم وتفقه، ثمَّ تألَّه وتعبد، وساح وتجرد. توفي بطريق الحج، انقطع فنهشته السباع سنة (٢٤٥هـ). سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٤٥-٥٤٦.

سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

﴿وَٱذْكُرْ﴾ أيُّها الحبيب ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ الكليم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ لله تعالى في سائر شؤونه. قال الترمذيُّ: المخلص على الحقيقة من يكون مثلَ موسى عليه السلام، ذهبَ إلى الخضر عليه السلام ليتأدَّب به، فلم يسامحه في شيءٍ ظهر له منه.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قالوا: النداء بداية والنجوى نهاية، والنداء مقام الشوق، والنجوى مقام كشف السِّرِّ(١).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ قيل: علم الله تعالى ثقل الأسرار على موسى عليه السلام فاختار له أخاه هارون مستودعاً لها، فهارون عليه السلام مستودعُ سرِّ موسى عليه السلام.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ بالصبر على بذل نفسه، أو بما وعد به استعدادُه من كمال التقوى لربِّه جلَّ وعلا والتحلِّي بما يرضيه سبحانه من الأخلاق.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وهو نوعٌ من القرب منَّ اللهُ تعالى به عليه عليه السلام. وقيل: السماء الرابعة، والتفضُّل عليه بذلك؛ لما فيه من كشف بعض أسرار الملكوت.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بما لا يحيطُ نطاق الحصر به من النعم الجليلة.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ ممَّا كُشِف لهم من آياته تعالى، وقد ذُكر أنَّ القرآن أعظم مجلّى لله عز وجل ﴿وَبُكِيًّا﴾ من مزيد فرحهم بما وجدوه، أو من خوف عدم استمرار ما حصلَ لهم من التجلِّي:

ونبكي إنْ نأوا شوقاً إليهم ... ونبكي إن دنوا خوفَ الفراق(٢)

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قيل: الرزق ها هنا مشاهدةُ الحقِّ سبحانه ورؤيته

(١) في الأصل: الشر.
(٢) هو دون نسبة في أمالي الزجاجي ص٤٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٣٩.

عزَّ وجلَّ، وهذا لعموم أهل الجنة، وأما المحبوبونَ والمشتاقونَ فلا تنقطعُ عنهم المشاهدةُ لمحةً، ولو حجبوا لماتُوا من ألم الحجاب.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ مِثلاً يُلتَفتُ إليه ويطلب منه شيء. وقال الحسين بن الفضل: هل يستحقُّ أحدٌ أن يُسمَّى باسم من أسمائه تعالى على الحقيقة.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ وذلك لتظهر عظمةُ قهره جلَّ جلالُه، وآثار سطوته لجميع خلقه عزَّ وجلَّ. ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ جزاء تقواهم ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ جزاءَ ظلمهم. وهذه الآية لك أجرت من عيون العيون العيون، فعن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنَّه كان يبكي ويقول: قد علمتُ أنِّي واردُ النار، ولا أدري كيف الصدر بعد الورود. وعن الحسن كان أصحابُ رسول الله ﷺ إذا التقوا يقول الرجلُ لصاحبه: هل أتاك أنَّك وارد؟ فيقول: نعم، فيقول: هل أتاك أنا خارج؟ فيقول: لا، فيقول: ففيم الضحك إذن؟

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ لمَّا افتخروا بحظوظ الدنيا التي لا يفتخرُ بها إلَّا ذوو الهمم الدنيَّة ردَّ الله تعالى عليهم بأنَّ ذلك استدراجٌ ليس بإكرام، والإشارة فيه أنَّ كلَّ ما يشغلُ عن الله تعالى والتوجُّه إليه عزَّ وجلَّ فهو شرٌّ لصاحبه.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ركباناً على نجائب النور، وقال ابن عطاء: بلغني عن الصادق رضي الله عنه أنَّه قال: ركباناً على متونِ المعرفة. ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ فقيراً ذليلاً منقاداً مسلوبَ الأنانية بالكليَّة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ في القلوب المفطورة على حبِّ الله تعالى، وذلك أثرُ محبته سبحانه لهم، وفي الحديث: «لا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يبصر به»(1) إلخ، ولا يُشكِل على هذا أنَّا نَرى كثيراً من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ممقوتين؛ لأنَّ الذين يمقتونهم قد فُطِرت قلوبهم على

(١) سلف ١/ ١٣٢.

الشر، وإن لم يشعروا بذلك، ومن هنا يُعلَم أنَّ بغضَ الصالحين علامةُ خبث الباطن ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠].

وقيل: معنى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ سيجعلُ لهم لذَّةً وحلاوةً بالطاعة.

والأخبار تؤيِّد ما تقدَّم، والله تعالى أعلم، وله الحمدُ على إتمام تفسيرِ سورة «مريم»، ونسألُه جلَّ شأنه التوفيق لإتمام تفسيرِ سائر سور كتابه المعظَّم، بحرمة نبيه ﷺ.

(٢٠) سورة طه مكية
وآياتها خمس وثلاثون ومائة

سورةُ طه من السور المكية وأهدافها هي نفس الأهداف التي تعالجها السور المكية حول أصول الدين من التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، وفيها تظهر شخصية الرسول الأعظم ﷺ في شدّ أزره ، وتقويةِ روحه ، حتى لا يتأثر بما يُلقىَ إليه من الكيد والعناد . ولإرشاده إلى وظيفته وحدود تكليفه ، فمهمتُه التبليغُ والتذكير ، والإنذارُ والتبشير ، ولهذا اسميت السورة سورة طه وهو اسم من أسمائه الشريفة عليه السلام ، خوطب به تطييباً لقلبه ، وتسليةً لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد ، وقد جاء في هذه السورة الكريمة بعضُ قصص الأنبياء تسليةً لرسول الله عليه الصلاة والسلام وتطميناً له . فذكر تعالى فيها قصة موسى وهارون مع فرعون الطاغية مفصّلةً مطولة ، وبخاصة موقف المناجاة بين موسى وبين ربه ، وموقف النقاش والجدال بين موسى وفرعون . وموقف المبارزة بينه وبين السحرة . وتتجلى في ثنايا تلك القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه ، واصطفاه لنفسه ، وخصَّه بالكلام والخطاب فكان «كليمَ الله» من بين سائر المرسلين ، وتعرض السورة كذلك قصة آدم سريعةً قصيرة ، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد الخطيئة ، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، ثم تركه الخيار لهم لاختيار طريق السعادة أو الشقاوة بعد التذكير والإنذار ، وفي خلال السورة الكريمة تَبْرُز مشاهدُ القيامة في عباراتٍ

يرتجف لها الكون ، ويهتز لها القلب هَلَعاً وجَزعَاً . ويعتري الناسَ الذهول والسكون «وخَشَعَتِ الأصواتُ للرحمنِ فلا تسمعُ إلا هَمْسَاً» .. «وعَنَتِ الوجوهُ للحيِّ القيومِ وقدْ خابَ من حَمَلَ ظلماً» وهكذا تعرض السورة للموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر ، حيث يعود الطائعون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار ، تصديقاً لوعد الله بإثابة المتقين وعقاب المجرمين . **تبتدىء السورة الكريمة** : بخطابِ الرسول الأعظم ﷺ بخطابٍ رفيقٍ رقيقٍ ، تُبيِّنُ مهمتهِ ، وغايةَ الوحي المنزَّل عليه وأنها مهمةُ التبليغ والتذكير ، فلا عليه إن آمن الناس أم لم يؤمنوا ، ويكفي أنه بلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصحَ الأمة ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي . إلا تذكرةً لمن يخشى . تنزيلاً ممن خَلَقَ الأرضَ والسمواتِ العُلى . الرحمنُ على العرش استوى﴾ ثم تُجمل له أوصاف الجلالْ والجمال ، في كلمة التبليغ التي أُمر أن يُذكِّرَ بها الناسٍ ﴿اللهُ لا إلَه إلا هو له الأسماءُ الحُسْنى﴾ ثم تُتَابع السورة الكريمة فتقُصُّ على رسول الله ﷺ نبأ أخيه موسى بأسلوبٍ مشوّقٍ يَشِفُّ عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالتِه ، وتبليغ دعوته ، تطميناً وتسليةً لرسول الله ﷺ ، فهذه هي رعايةُ الله لموسى ترافقه في طفولته فتحرسُه ، وتتعهده إلى أن يبلغ سِنَّ الفتوة ، ثم يغادر مصرَ وحيداً فريداً ، بعد أن قتل فيها قبطياً من جماعة فرعون رآه يقتتل مع إسرائيلي ، ثمَّ ها هو الآن يرجع إلى وطنه بعد أن غاب عنه عشر سنين ، ويضلُّ في طريقه في الصحراء ومعه زوجه ، ثم يبصر ناراً من بعيد ، فإذا بها قبسٌ من نور الله الذي يُضيء به الحَياة ﴿وهلْ أَتَاكَ حديثُ موسى ؟ إذْ رأى نَاراً فقالَ لأهلِهِ امكثُوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكم مِنها بقَبَسٍ أو أجدُ على النار هُدَىً . فلما آتاها نُودِيَ يا موسَى إني أنا ربُّكَ فاخلَعْ نَعْلَيْكَ إنَّكَ بالوادِ المُقدَّسِ طُوَى﴾ ثم تمضي السورة تتحدث عن

مناجاة موسى لربه ، وعن تذكير اللهِ له برعايته من الطفولةِ ، وإنقاذه من كيد فرعون ، وعن تكليفه مع أخيه موسى بتبليغ فرعون رسالةَ ربه مع الملاطفة ولينِ الجانب ، وما جرى من المناظرة والمحاورة ﴿ إذهبْ أنت وأخوك بآياتي ولاتنيا في ذكري . إذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكّرُ أو يخشى ، قالا ربنا إننا نخاف أنْ يَفْرُطَ علينا أو أنْ يطْغَى . قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى . فأْتِيَاه فقولا إنا رسولا ربّك فأرسلْ معنا بني إسرائيل ولا تُعَذّبهم قد جئناك بآيةٍ من ربك ، والسلامُ على مَنْ اتّبعَ الهُدَى﴾ ثم يأتي الحديث عن طغيان فرعون بعد رؤيته تلك الآياتِ الباهرة ، ويجمع السحرة ليستعين بهم على إطفاء نور الله ﴿ ولقد أريناه آياتِنا كلَّها فكذَّب وأبي . قال أجئتنا لتُخْرِجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينَّك بسحرٍ مثلِه فاجعلْ بيننا وبينك موعداً لا نُخْلِفُه نَحنُ ولا أنتَ مكاناً سُوَى . قال موعُدكم يومُ الزينة وأن يُحْشَر الناسُ ضُحَى﴾ وتكون المفاجأة الضخمة التي يرتعد لها فرعون شُروداً وذُهولاً وهي إيمانُ السحرة وسجودُهم لرب العالمين ﴿ فأُلقي السحرةُ سُجَّداً قالوا آمنا برب هارون وموسى ، قال آمنتم له قبل أن آذنَ لكم إنه لكبيركم الذي علَّمكم السحر ، فلأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خِلاَف ، ولأُصَلِّبَنَّكُمْ في جذوع النخل ولَتَعلَمُنَّ أيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ؟) ولا يفزع السحرة للوعيد والتهديد بعد أن امتلأتْ قلوبُهم بالأيمان ، وأشرقت عليهم أنواره فيعلنون مرةً أخرى استمساكهم بدعوةِ الله مهما كلَّفهم ذلك من شدائد ونكبات ﴿ قالوا لن نُؤْثركَ على ما جاءنا من البيِّنَاتِ والذي فَطَرنا فَاقضِ ما أنتَ قاضٍ ، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنّا امنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، واللهُ خيرٌ وأبقى﴾ وتنتهي قصةُ موسى مع فرعون حَلَقاتٍ متتابعة فيها التذكير بنعمة الله على بني إسرائيل ، وتختم بهذا

البيان الذي يعلنه القرآن وهو « وحدانية الله » التي بعث الله بها الأنبياء والمرسلين ، وفيها دعوة الرسول إلى الاعتبار بتلك القِصَص والأخبار ﴿ إنما إلهكُمُ اللهُ الذي لا إلهَ إلا هُو وَسِعَ كلَّ شيءٍ عِلْماً . كذلكَ نقصُّ عليكَ من أنباءِ ما قد سَبَقَ وقد آتيناكَ من لَدُنَّا ذِكْراً . من أَعْرَضَ عنه فإنه يَحْمِلُ يومَ القيامةِ وِزْراً . خالدينَ فيه وسَاءَ لهم يومَ القيامةِ حِمْلاً ﴾ ثم تتحدث عن أهوال الآخرة وشدائدها ، وترسم مشهداً من مشاهد القيامة تتضاءل فيه أيامُ الحياة الدنيا ، وتَتَفتَّتُ الجبال ، وتخشع الأصواتُ ، وتعنو الوجوه للحي القيوم ﴿ ويسألونكَ عن الجبالِ فقل يَنْسفها ربي نَسْفاً . فيذرُهَا قَاعَاً صَفْصَفاً لا تَرَى فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً . يومئذٍ يَتَّبعونَ الداعي لا عِوَجَ له ، وخَشَعَتِ الأصواتُ للرحمنِ فلا تَسْمعُ إلا هَمْسَاً ﴾ ثم تذكر قصة آدم وإبليس وما فيها من العظةِ والعبرة ، ثم تختم السورة الكريمة بتسلية الرسول ﷺ عن إعراضِ المعرضين ، وتكذيب المكذبين ، فلا يشقى بهم ولا يَحْزَنْ عليهم ، فلهم أجلٌ معلوم لهلاكهم ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآيةٍ من ربه أو لم تأتِهم بينةُ ما في الصُحُفِ الأُولى . ولو أنا أهلكناهم بعذابٍ من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلتَ الينا رسولاً فنتبَّعَ آياتِك من قبل أن نذِلَّ ونَخْزَى . قل كلٌّ متربصٌ فتربصوا فستعلمون من أصحابُ الصراط السَوِيّ ومن اهتدى ﴾ .

سورة طه

[٥٩٨] أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي [ﷺ] كان أول ما أنزل الله عليه الوحي يقوم على صدور قدميه إذا صلى فأنزل الله ﴿طه۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ۝﴾(١).

[٥٩٩] وأخرج عبد بن حميد في تفسيره عن الربيع بن أنس قال كان النبي [ﷺ] يراوح بين قدميه ليقوم على كل رجل حتى نزلت ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ۝﴾(٢).

[٦٠٠] وأخرج ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس قال: قالوا لقد شقى هذا الرجل بربه فأنزل الله ﴿طه۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ۝﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥] الآية.

[٦٠١] أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: قالت قريش يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾(٤) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ﴾ [طه: ١١٤] الآية.

[٦٠٢] أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال كان النبي [ﷺ] إذا نزّل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه فيخاف أن يصعد جبريل ولم يحفظه فأنزل الله ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾(٥) الآية. وتقدم في سورة النساء سبب آخر وهذا أصح.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١] الآية.

---

[٥٩٨] (١) سورة طه: الآية (١و ٢).
[٥٩٩] (٢) سورة طه: الآية (٢).
[٦٠٠] (٣) سورة طه: الآية (١و ٢).
[٦٠١] (٤) سورة طه: الآية (١٠٥).
[٦٠٢] (٥) سورة طه: الآية (١١٤).

[٦٠٣] أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه والبزار وأبو يعلى[١] عن أبي رافع قال أضاف النبي [ﷺ] ضيفاً فأرسلني إلى رجل من اليهود «**أن أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب**» فقال لا إلا برهن فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «**أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض**» فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾[٢].

* * *

---

[٦٠٣] (١) والطبراني في الجامع الكبير (١/ ٣١٢).

(٢) سورة طه: الآية (١٣١).

سورة طه

وهي مائة وثلاثون وخمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿طه﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء، وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر، وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء والهاء، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الطاء والهاء، قال الزجاج: وقرئ (طَهْ) بفتح الطاء وسكون الهاء، وكلها لغات. قال الزجاج: من فتح الطاء والهاء فلأن ما قبل الألف مفتوح، ومن كسر الطاء والهاء فأمال الكسرة لأن الحرف مقصور، والمقصور يغلب عليه الإمالة إلى الكسرة.

المسألة الثانية: للمفسرين فيه قولان: **أحدهما**: أنه من حروف التهجي. **والآخر**: أنه كلمة مفيدة.

أما على القول الأول: فقد تقدم الكلام فيه في أول سورة البقرة، والذي زادوه هاهنا أمور: أحدها: قال الثعلبي: طا شجرة طوبى والهاء الهاوية، فكأنه أقسم بالجنة والنار. **وثانيها**: يحكى عن جعفر الصادق عليه السلام: الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم. **وثالثها**: يا مطمع الشفاعة للأمة ويا هادي الخلق إلى الملة. **ورابعها**: قال سعيد بن جبير: هو افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادي. **وخامسها**: الطاء من الطهارة والهاء من الهداية، كأنه قيل: يا طاهرًا من الذنوب ويا هاديًا إلى علام الغيوب. **وسادسها**: الطاء طول القراء والهاء هيبتهم في قلوب الكفار. قال الله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١]. **وسابعها**: الطاء تسعة في الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر، ومعناه يا أيها البدر. وقد عرفت فيما تقدم أن أمثال هذه الأقوال لا يجب أن يُعتمد عليها.

القول الثاني: قول من قال: إنها كلمة مفيدة وعلى هذا القول ذكروا وجهين: أحدهما: معناه يا رجل. وهو مروي عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي

رضي الله عنهم. ثم قال سعيد بن جبير: بلسان النبطية. وقال قتادة: بلسان السريانية. وقال عكرمة: بلسان الحبشة. وقال الكلبي: بلغة عك. وأنشد الكلبي لشاعرهم:

إِنَّ السَّفَاهَةَ طَهَ فِي خَلَائِقِكُمْ لاَ قَدَّسَ اللَّه أَرْوَاحَ الْمَلاَعِينِ[١]

وقد تكلم الناس على هذا القول من وجهين: الأول: أنه بمعنى يا رجل في اللغة حمل عليه لكنه لا يجوز إن ثبت على هذا المعنى إلا في لغة العرب إذ القرآن بهذه اللغة نزل فيحتمل أن تكون لغة العرب في هذه اللفظة موافقة لسائر اللغات التي حكيناها، فأما على غير هذا الوجه فلا يحتمل ولا يصح. الثاني: قال صاحب (الكشاف): إن كان طه في لغة عك بمعنى يا رجل فلعلهم تصرفوا في (يا هذا) فقلبوا الياء طاء فقالوا: (طا) واختصروا في هذا واقتصروا على (ها) فقوله (طه) بمعنى (يا هذا) واعترض بعضهم عليه وقالوا: لو كان كذلك لوجب أن يكتب أربعة أحرف طا ها. **وثانيهما:** أنه عليه السلام كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معًا وكان الأصل (طأ) فقلبت همزته هاء كما قالوا (هياك) في (إياك) و(هرقت) في (أرقت) ويجوز أن يكون الأصل من (وطئ) على ترك الهمزة فيكون أصله (طأ يا رجل) ثم أثبت الهاء فيها للوقف والوجهان ذكرهما الزجاج.

أما قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ . **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): إن جعلت طه تعديدًا لأسماء الحروف فهذا ابتداء كلام، وإن جعلتها اسمًا للسورة احتمل أن يكون قوله: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ خبرًا عنها وهي في موضع المبتدأ، والقرآن ظاهر أوقع موقع المضمر لأنها قرآن، وأن يكون جوابًا لها وهي قسم.

المسألة الثانية: قرىء (مَا نزل عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى).

المسألة الثالثة: ذكروا في سبب نزول الآية وجوهًا: أحدها: قال مقاتل: إن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك!! فقال عليه السلام: «بَلْ بُعِثْتُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ»[٢] قالوا: بل أنت

---

(١) ابن السائب الكلبي هو (ابن السائب الكلبي) (. . - ١٤٦ هـ. = ٧٦٣ م) محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي، أبو النضر: نسابة، راوية، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب. من أهل الكوفة. مولده ووفاته فيها. وهو من (كلب بن وبرة) من قضاعة. قال ابن النديم: حُكي أن سليمان بن علي العباسي والي البصرة استقدمه إليها وأجلسه في داره، فجعل يملي على الناس تفسير آيات من القرآن، حتى بلغ إلى آية في (سورة براءة) ففسرها على خلاف المعروف، فقالوا: لا نكتب هذا التفسير، فقال محمد: والله لا أمليت حرفًا حتى يكتب تفسير هذه الآية على ما أنزل الله. فرُفع ذلك إلى سليمان بن علي، فقال: اكتبوا ما يقول ودعوا ما سوى ذلك. وشهد وقعة دير الجماجم مع ابن الاشعث. وصنَّفَ كتابًا في تفسير القرآن وهو ضعيف الحديث، قال النسائي: حَدَّث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير، واما في الحديث ففيه مناكير.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٠٦/ ٢٥٩٩) والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ١١٩) حديث رقم/ ٣٢١ كلاهما من طريق أبي حازم عن أبي هريرة. . . به.

تشقى!! فأنزل الله تعالى هذه الآية ردًا عليهم وتعريفًا لمحمد ﷺ بأن دين الإسلام هو السلام، وهذا القرآن هو السلام إلى نيل كل فوز والسبب في إدراك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها. **وثانيها:** أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام: «أَبْقِ عَلَى نَفْسِكَ فَإِنَّ لَهَا عَلَيْكَ حَقًّا»[١] أي ما أنزلناه لتهلك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة، وما بُعثتَ إلا بالحنيفية السمحة. وروي أيضًا أنه عليه السلام: «كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ رَبَطَ صَدْرَهُ بِحَبْلٍ حَتَّى لاَ يَنَامَ»[٢] وقال بعضهم: كان يقوم على رجل واحدة. وقال بعضهم: كان يسهر طول الليل فأراد بقوله: ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ ذلك، قال القاضي: هذا بعيد لأنه عليه السلام إن فعل شيئًا من ذلك فلا بد وأن يكون قد فعله بأمر الله تعالى، وإذا فعله بأمره فهو من باب السعادة فلا يجوز أن يقال له: ما أمرناك بذلك. **وثالثها:** قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد: لا تشق على نفسك ولا تعذبها بالأسف على كفر هؤلاء؛ فإنا إنما أنزلنا عليك القرآن لتُذكر به، فمن آمن وأصلح فلنفسه، ومن كفر فلا يحزنك كفره، فما عليك إلا البلاغ. وهو كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: ٣] الآية، ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: ٦٥]. **ورابعها:** أنك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦] أي ليس عليك كفرهم إذا بَلَّغت ولا تؤاخذ بذنبهم. **وخامسها:** أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة، وفي ذلك الوقت كان عليه السلام مقهورًا تحت ذل أعدائه، فكأنه سبحانه قال له: لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة أبدًا بل يعلو أمرك ويظهر قدرك، فإنا ما أنزلنا عليك مثل هذا القرآن لتبقى شقيًا فيما بينهم بل تصير معظمًا مكرمًا.

وأما قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ . **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في كلمة (إلا) هاهنا قولان: أحدهما: أنه استثناء منقطع بمعنى (لكن). والثاني: التقدير: ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ إلا ليكون تذكرة. كما يقال: ما شافهناك بهذا الكلام لتتأذى إلا ليعتبر بك غيرك.

المسألة الثانية: إنما خص من يخشى بالتذكرة لأنهم المنتفعون بها وإن كان ذلك عامًا في الجميع، وهو كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وقال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦] وقال: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] وقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

المسألة الثالثة: وجه كون القرآن تذكرة أنه عليه السلام كان يعظمهم به وببيانه، فيدخل تحت قوله: ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ الرسول ﷺ لأنه في الخشية والتذكرة بالقرآن كان فوق الكل.

---

(١) أورده الزيلعي في (تخريج أحاديث الكشاف) (٢/ ٣٤٨) وقال: رواه البيهقي في الدعوات الكبير.
(٢) لم أجده.

وأما قوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ . **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى : ذكروا في نصب (تنزيلاً) وجوهًا . **أحدها:** تقديره : نُزل تنزيلاً ممن خلق الأرض ، فنصب تنزيلاً بمضمر . **وثانيها:** أن ينصب بأنزلنا لأن معنى ما أنزلناه إلا تذكرة أنزلناه تذكرة . **وثالثها:** أن ينصب على المدح والاختصاص . **ورابعها:** أن ينصب بيخشى مفعولاً به ، أي أنزله الله تعالى ﴿تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ تنزيل الله . وهو معنى حسن وإعراب بين وقرئ : (تنزيلُ) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

المسألة الثانية : فائدة الانتقال من لفظ التكلم إلى لفظ الغيبة أمور : **احدها:** أن هذه الصفات لا يمكن ذكرها إلا مع الغيبة . **وثانيها:** أنه قال أولا (أنزلنا) ففخم بالإسناد إلى ضمير الواحد المطاع ، ثم ثنى بالنسبة إلى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين . **وثالثها:** يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه .

المسألة الثالثة : أنه تعالى عظَّم حال القرآن بأن نسبه إلى أنه تنزيل ممن خلق الأرض وخلق السموات على علوها ، وإنما قال ذلك لأن تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه ، وإنما عظم القرآن ترغيبًا في تدبره والتأمل في معانيه وحقائقه ، وذلك معتاد في الشاهد فإنه تعظم الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل إليه أقرب إلى الامتثال .

المسألة الرابعة : يقال : سماء عليا وسموات علا . وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبُعد مرتقاها .

أما قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ . **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى : قرئ (الرحمنِ) مجرورًا صفة لمن خلق ، والرفع أحسن لأنه إما أن يكون رفعًا على المدح ، والتقدير : هو الرحمن . وإما أن يكون مبتدأ مشارًا بلامه إلى من خلق . فإن قيل : الجملة التي هي على العرش استوى ما محلها إذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح؟ **قلنا:** إذا جررت فهو خبر مبتدأ محذوف لا غير ، وإن رفعت جاز أن يكون كذلك ، وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدأ .

المسألة الثانية : المشبهة تعلقت بهذه الآية في أن معبودهم جالس على العرش . وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه : **احدها:** أنه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ، ولما خلق الخلق لم يحتج إلى مكان بل كان غنيًّا عنه ، فهو بالصفة التي لم يزل عليها إلا أن يزعم زاعم أنه لم يزل مع الله عرش . **وثانيها:** أن الجالس على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في يسار العرش ، فيكون في نفسه مؤلفًا مركبًا ، وكل ما كان كذلك احتاج إلى المؤلف والمركب ، وذلك محال . **وثالثها:** أن الجالس على العرش إما أن يكون متمكنًا من الإنتقال والحركة أو لا يمكنه ذلك : فإن كان الأول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثًا لا محالة ، وإن كان الثاني كان كالمربوط بل كان كالزمِن بل أسوأ حالاً منه ، فإن الزمِن إذا

شاء الحركة في رأسه وحدقته أمكنه ذلك، وهو غير ممكن على معبودهم . **ورابعها:** هو أن معبودهم إما أن يحصل في كل مكان أو في مكان: دون مكان فإن حصل في كل مكان لزمهم أن يحصل في مكان النجاسات والقاذورات، وذلك لا يقوله عاقل، وإن حصل في مكان دون مكان افتقر إلى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجًا وهو على الله محال . **وخامسها:** أن قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] يتناول نفي المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء، فإنه يحسن أن يقال (ليس كمثله شيء إلا في الجلوس وإلا في المقدار وإلا في اللون) وصحة الاستثناء تقتضي دخول جميع هذه الأمور تحته، فلو كان جالسًا لحصل من يماثله في الجلوس، فحينئذٍ يبطل معنى الآية . **وسادسها:** قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] فإذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم، وذلك غير معقول لأن الخالق هو الذي يحفظ المخلوق، أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله . **وسابعها:** أنه لو جاز أن يكون المستقر في المكان إلهًا فكيف يُعلم أن الشمس والقمر ليس بإله لأن طريقنا إلى نفس إلهية الشمس والقمر أنهما موصوفان بالحركة والسكون، وما كان كذلك كان محدثًا ولم يكن إلهًا، فإذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح في إلهية الشمس والقمر . **وثامنها:** أن العالم كرة فالجهة التي هي فوق بالنسبة إلينا هي تحت بالنسبة إلى ساكني ذلك الجانب الآخر من الأرض وبالعكس، فلو كان المعبود مختصًا بجهة فتلك الجهة وإن كانت فوقًا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين، وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال: المبعود تحت جميع الأشياء . **وتاسعها:** أجمعت الأمة على أن قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصًا بالمكان لكان الجانب الذي منه يلي ما على يمينه غير الجانب الذي منه يلي ما على يساره فيكون مركبًا منقسمًا، فلا يكون أحدًا في الحقيقة فيبطل قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] . **وعاشرها:** أن الخليل عليه السلام قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ولو كان المعبود جسمًا لكان آفلاً أبدًا غائبًا أبدًا، فكان يندرج تحت قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] .

فثبت بهذه الدلائل أن الإستقرار على الله تعالى محال، وعند هذا للناس فيه قولان: **الأول:** أنا لا نشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية، وروى الشيخ الغزالي عن بعض أصحاب الإمام أحمد بن حنبل أنه أَوَّلَ ثلاثة من الأخبار: قوله عليه السلام «**الْحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ**»(١)، وقوله عليه السلام: «**قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ**

---

(١) **ضعيف:** أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) (٥/ ٣٩) حديث رقم/ ٨٩١٩ من طريق محمد بن عباد يحدث أنه سمع ابن عباس يقول . . . فذكره موقوفًا . وأبو نعيم في (طبقات المحدثين) (٢/ ٣٦٥) والخطيب في (تاريخ بغداد) (٦/ ٣٢٨) كلاهما من طريق إسحاق بن بشر قال حدثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر عن جابر . . . به . وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٤١٧) حديث رقم/ ١١٠٩ وقال: رواه الطبراني في معجمه وأبو عبيد القاسم بن سلام عن=

مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ»(١) وقوله عليه السلام: «إِنِّي لَأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمَنِ مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ»(٢).

واعلم أن هذا القول ضعيف لوجهين: الأول: أنه إن قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة، فقد قطع بأنه ليس مراد الله تعالى من الاستواء الجلوس وهذا هو التأويل. وإن لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقي شاكًا فيه فهو جاهل بالله تعالى، اللهم إلا أن يقول: أنا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى ما يُشعر به ظاهره بل مراده به شيء آخر، ولكني لا أعين ذلك المراد خوفًا من الخطأ. فهذا يكون قريبًا، وهو أيضًا ضعيف لأنه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا يريد باللفظ إلا موضوعه في لسان العرب، وإذا كان لا معنى للاستواء في اللغة إلا الاستقرار والاستيلاء وقد تعذر حمله على الاستقرار، فوجب حمله على الاستيلاء وإلا لزم تعطيل اللفظ وإنه غير جائز.

والثاني: وهو دلالة قاطعة على أنه لا بد من المصير إلى التأويل، وهو أن الدلالة العقلية لما قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار، فإما أن نعمل بكل واحد من الدليلين، وإما أن نتركهما معًا، وإما أن نرجح النقل على العقل، وإما أن نرجح العقل ونؤول النقل، والأول: باطل، وإلا لزم أن يكون الشيء الواحد منزهًا عن المكان وحاصلاً في المكان وهو محال. والثاني: أيضًا محال لأنه يلزم رفع النقيضين معًا وهو باطل. والثالث: باطل لأن العقل أصل النقل فإنه ما لم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم

=ابن عباس رضي الله عنهما رفعه، وذكر ابن أبي الفوارس في تاسع مخلصياته، عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا أنه قال: الحجر يمين الله عز وجل في الأرض، فمن لم يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الحجر، فقد بايع الله ورسوله. وكذا أخرجه الأزرقي في تاريخه وأخرجه أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الركن يمين الله في الأرض يصافح بها عباده كما يصافح أحدكم أخاه وفي لفظ إن هذا الركن الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يصافح بها عباده مصافحة الرجل أخاه ورواه القضاعي أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عليه، لكنه صحيح بلفظ الركن يمين الله عز وجل يصافح بها خلقه والذي نفس ابن عباس بيده ما من مسلم يسأل الله عنده شيئًا إلا أعطاه إياه. ومثله مما لا مجال للرأي فيه، وله شواهد فالحديث حسن وإن كان ضعيفًا بحسب أصله كما قال بعضهم منها ما رواه الديلمي عن أنس بلفظ: الحجر يمين الله فمن مسحه بيمينه فقد بايع الله. ومنها ما رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن جابر بلفظ: الحجر يمين الله في الأرض يصافح الله بها عباده. ومعناه كما قال المحب الطبري أن كل ملك إذا قدم عليه قُبلت يمينه ولما كان الحاج والمعتمر يسن لهما تقبيله نُزل منزلة يمين الملك على سبيل التمثيل ولله المثل؛ الأعلى ولذلك من صافحه كان له ثَم الله عهد كما أن الملك يعطي العهد بالمصافحة. لطيفة نقل المناوي عن السيوطي أنه قال في الساجعة: ورد في الأثر: ما بعث الله قط ملكًا ولا سحابًا إلا طاف بالبيت أولاً ثم مضى. انتهى.

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (القدر) باب (تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء) (٤/ ٢٠٤٥/ ٢٦٥٤) قال: حدثني زهير بن حرب وابن نمير، كلاهما عن المقرئ قال زهير: حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ قال حدثنا حيوة أخبرني أبو هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول أنه سمع رسول الله صلى اله عليه وسلم يقول... فذكره. والنسائي في (السنن الكبرى) (٤/ ٤١٤) حديث رقم/ ٧٧٣٩ من طريق عبد الله عن حيوة بن شريح... به. وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٦٨) حديث رقم/ ٦٥٦٩ قال: حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة... به.

(٢) أورده القاري في (المطبوع) (١/ ٦٩/ ٧٠) وقال: قال العراقي: لم أجد له أصلاً

يثبت النقل فالقدح في العقل يقتضي القدح في العقل والنقل معًا، فلم يبق إلا أن نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل، وهذا برهان قاطع في المقصود.

إذا ثبت هذا فنقول: قال بعض العلماء: المراد من الاستواء: الإستيلاء، قال الشاعر:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ (١)

فإن قيل: هذا التأويل غير جائز لوجوه: **أحدها:** أن الاستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك في حق الله تعالى محال. **وثانيها:** أنه إنما يقال (فلان استولى على كذا) إذا كان له منازع ينازعه، وكان المستولى عليه موجودًا قبل ذلك، وهذا في حق الله تعالى محال؛ لأن العرش إنما حدث بتخليقه وتكوينه. **وثالثها:** الاستيلاء حاصل بالنسبة إلى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة. **والجواب:** أنا إذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية، قال صاحب الكشاف: لما كان الاستواء على العرش، وهو سرير المُلك، لا يحصل إلا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا: (استوى فلان على البلد) يريدون ملك، وإن لم يقعد على السرير ألبتة، وإنما عبروا عن حصول الملك بذلك لأنه أصرح وأقوى في الدلالة من أن يقال (فلان ملك) ونحوه قولك: (يد فلان مبسوطة)، و(يد فلان مغلولة)، بمعنى أنه جواد وبخيل، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت حتى أن من لم تبسط يده قط بالنوال أو لم يكن له يد رأسًا قيل فيه يده مبسوطة لأنه لا فرق عندهم بينه وبين قوله جواد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [المائدة: ٦٤]أي هو بخيل ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]أي هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط، والتفسير بالنعمة والتمحل بالتسمية من ضيق العطن. **وأقول:** إنا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية، فإنهم أيضًا يقولون: المراد من قوله: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١٢]الاستغراق في خدمة الله تعالى من غير تصور فعل. وقوله: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [ابراهيم: ٦٩]المراد منه تخليص إبراهيم عليه السلام من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب ألبتة، وكذا القول في كل ما ورد في كتاب الله تعالى، بل القانون أنه يجب حمل كل لفظ ورد في القرآن على حقيقته إلا إذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه، وليت من لم يعرف شيئًا لم يخض فيه، فهذا تمام الكلام في هذه الآية، ومن أراد الاستقصاء في الآيات والأخبار المتشابهات فعليه بكتاب (تأسيس التقديس) وبالله التوفيق.

أما قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ فاعلم أنه سبحانه لم شرح ملكه بقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ والمُلك لا ينتظم إلا بالقدرة والعلم، لا جرم عقَّبه

---

(١) هذا البيت للشاعر الأخطل وهو الاخطل (١٩- ٩٠ هـ = ٦٤٠- ٧٠٨ م) غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة ابن عمرو، من بني تغلب، أبو مالك: شاعر، مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اشتهر في عهد بني أمية بالشام، وأكثر من مدح ملوكهم، وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير، والفرزدق، والأخطل.

بالقدرة ثم بالعلم: أما القدرة فهي هذه الآية والمراد أنه سبحانه مالك لهذه الأقسام الأربعة فهو مالك لما في السموات من ملك ونجم وغيرهما، ومالك لما في الارض من المعادن والفلزات[1] ومالك لما بينهما من الهواء. ومالك لما تحت الثرى، فإن قيل: الثرى هو السطح الأخير من العالم فلا يكون تحته شيء، فكيف يكون الله مالكًا له؟ قلنا: الثرى في اللغة التراب الندي، فيحتمل أن يكون تحته شيء وهو إما الثور أو الحوت أو الصخرة أو البحر أو الهواء على اختلاف الروايات، أما العلم فقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ وفيه قولان: **أحدهما:** أن قوله: ﴿وَأَخْفَى﴾ بناء المبالغة، وعلى هذا القول نقول: إنه تعالى قسم الأشياء إلى ثلاثة أقسام: الجهر، والسر، والأخفى. فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذي يجهر به، وقد يسر في النفس وإن ظهر البعض، وقد يسر ولا يظهر على ما قال بعضهم. ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالأخفى ما ليس بقول، وهذا أظهر، فكأنه تعالى بَيَّن أنه يعلم السر الذي لا يُسمع وما هو أخفى منه فكيف لا يعلم الجهر؟! والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة، والترغيب في الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة، فعلى هذا الوجه ينبغي أن يُحمل السر والأخفى على ما فيه ثواب أو عقاب، والسر هو الذي يُسره المرء في نفسه من الأمور التي عزم عليها، والأخفى هو الذي لم يبلغ حد العزيمة، ويُحتمل أن يفسر الأخفى بما عزم عليه وما وقع في وهمه الذي لم يعزم عليه، ويحتمل ما لم يقع في سره بعد، فيكون أخفى من السر، ويحتمل أيضًا ما سيكون من قِبل الله تعالى من الأمور التي لم تظهر، وإن كان الأقرب ما قدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب، القول الثاني: أن (أخفى) فعل يعني أنه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعلمه، وهو كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإن قيل: كيف يطابق الجزاء الشرط؟ قلنا: معناه إن تجهر بذكر الله تعالى من دعاء أو غيره، فاعلم أنه غني عن جهرك، وإما أن يكون نهيًا عن الجهر كقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وإما تعليمًا للعباد أن الجهر ليس لاستماع الله تعالى، وإنما هو لغرض آخر، واعلم أن الله تعالى لذاته عالم وأنه عالم بكل المعلومات في كل الأوقات بعلم واحد، وذلك العلم غير متغير، وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفًا بالحدوث أو الإمكان، والعبد لا يشارك الرب إلا في السدس الأول وهو أصل العلم، ثم هذا السدس بينه وبين عباده أيضًا نصفان فخمسة دوانيق ونصف جزء من العلم مُسلَّم له والنصف الواحد لجملة عباده، ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم من الملائكة الكروبية والملائكة الروحانية وحملة العرش وسكان السموات وملائكة الرحمة وملائكة العذاب وكذا جميع الأنبياء الذين أولهم آدم وآخرهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين وكذا

---

(١) في الأصل الأميري: والفلوات جمع فلاوة وهي الخلاء والفضاء في الأرض، كالصحاري لا نبات بها، وهي محرفة عن الفلزات وهي جواهر الأرض وعناصرها المكونة منها.

جميع الخلائق - كلهم في علومهم الضرورية والكسبية والحِرف والصناعات وجميع الحيوانات في إدراكاتها وشعوراتها والاهتداء إلى مصالحها في أغذيتها ومضارها ومنافعها، والحاصل لك من ذلك الجزء أقل من الذرة المؤلفة، ثم إنك بتلك الذرة عرفت أسرار إلهيته وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة. فإذا كنت بهذه الذرة عرفت هذه الأسرار، فكيف يكون علمه بخمسة دوانيق ونصف. أفلا يعلم بذلك العلم أسرار عبوديتك؟ فهذا تحقيق قوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ بل الحق أن الدينار بتمامه له؛ لأن الذي عَلِمته فإنما علمته بتعليمه، على ما قال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]وقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]ولهذا مثال وهو الشمس فإن ضوءها يجعل العالم مضيئًا، ولا ينتقص ألبتة من ضوئها شيء، فكذا هاهنا، فكيف لا يكون عالمًا بالسر والأخفى؟!

فإن من تدبيراته في خلق الأشجار وأنواع النبات أنها ليس لها فم ولا سائر آلات الغذاء، فلا جرم أصولها مركوزة في الأرض تمتص بها الغذاء، فيتأدى ذلك الغذاء إلى الأغصان ومنها إلى العروق ومنها إلى الأوراق، ثم إنه تعالى جعل عروقها كالأطناب التي بها يمكن ضرب الخيام. وكما أنه لا بد من مد الطنب من كل جانب لتبقى الخيمة واقفة، كذلك العروق تذهب من كل جانب لتبقى الشجرة واقفة، ثم لو نظرت إلى كل ورقة وما فيها من العروق الدقيقة المبثوثة فيها ليصل الغذاء منها إلى كل جانب من الورقة ليكون ذلك تقوية لجرم الورقة فلا يتمزق سريعًا، وهي شبه العروق المخلوقة في بدن الحيوان لتكون مسالك للدم والروح فتكون مقوية للبدن، ثم انظر إلى الأشجار فإن أحسنها في المنظر الدلب والخلاف، ولا حاصل لهما، وأقبحها شجرة التين والعنب، و[لكن] انظر إلى منفعتهما، فهذه الأشياء وأشباهها تُظهر أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

أما قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فالكلام فيه على قسمين. الأول: في التوحيد، اعلم أن دلائل التوحيد ستأتي إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]وإنما ذكره هاهنا ليبين أن الموصوف بالقدرة وبالعلم على الوجه الذي تقدم واحد لا شريك له، وهو الذي يستحق العبادة دون غيره.

ولنذكر هاهنا نكتًا متعلقة بهذا الباب وهي أبحاث:

البحث الأول: اعلم أن مراتب التوحيد أربع: **أحدها**:الإقرار باللسان. **والثاني**:الاعتقاد بالقلب. **والثالث**:تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة. **والرابع**:أن يصير العبد مغمورًا في بحر التوحيد بحيث لا يدور في خاطره شيء غير عرفان الأحد الصمد. أما الإقرار باللسان: فإن وُجد خاليًا عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق. وأما الاعتقاد بالقلب: إذا وُجد خاليًا عن الإقرار باللسان ففيه صور. **الصورة الأولى**:أن من نظر وعرف الله تعالى وكما عرفه مات قبل أن يمضي عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة، فقال قوم: إنه لا يتم إيمانه. والحق أنه يتم لأنه أدى ما

كلف به وعجز عن التلفظ به فلا يبقى مخاطبًا، ورأيت في [بعض] الكتب أن مَلَك الموت مكتوب على جبهته (لا إله إلا الله) لكي إذا رآه المؤمن تذكَّر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكر عن الذكر. **الصورة الثانية:** أن من عرف الله ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بالكلمة ولكنه قصر فيه، قال الشيخ الغزالي: يحتمل أن يقال: اللسان ترجمان القلب، فإذا حصل المقصود في القلب كان امتناعه من التلفظ جاريًا مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة، وكيف يكون من أهل النار، وقد قال عليه السلام: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ**» وقلب هذا الرجل مملوء من الإيمان؟ وقال آخرون: الإيمان والكفر أمور شرعية نحن نعلم أن الممتنع من هذه الكلمة كافر. **الصورة الثالثة:** من أقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد، والاختلاف في صحة إيمانه مشهور.

أما المقام الثالث: وهو إثبات التوحيد بالدليل والبرهان: فقد بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] أنه يمكن إثبات هذا المطلوب بالدلائل العقلية والسمعية واستقصينا القول فيها هناك.

أما المقام الرابع: وهو الفناء في بحر التوحيد: فقال المحققون: العرفان مبتدأ من تفريق ونقض وترك ورفض ممكن في جميع صفات هي من صفات الحق للذات المريدة بالصدق منتبه إلى الواحد القهار، ثم وقوف هذه الكلمات محيطة بأقصى نهايات درجات السائرين إلى الله تعالى.

البحث الثاني: في الأخبار الواردة في التهليل: أولها: عن النبي ﷺ قال: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ: أَسْتَغْفِرُ اللَّه ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾**»(١) **وثانيها:** قال عليه السلام: «**إِنَّ اللَّه تَعَالَى خَلَقَ مَلَكًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ قَبْلَ أن خلق السَّموات وَالأَرْضَ وَهُوَ يَقُولُ: (أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه) مَادًّا بِهَا صَوْتَهُ لاَ يَقْطَعُهَا وَلاَ يَتَنَفَّسُ فِيهَا وَلاَ يُتِمُّهَا، فَإِذَا أَتَمَّهَا أَمَرَ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ وَقَامَتِ الْقِيَامَةُ تَعْظِيمًا للَّه عَزَّ وَجَلَّ**»(٢) **وثالثها:** عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال عليه السلام: «**مَا زِلْتُ أَشْفَعُ إِلَى رَبِّي وَيُشَفِّعُنِي وَأَشْفَعُ إِلَيْهِ وَيُشَفِّعُنِي حَتَّى قُلْتُ: يَا رَبِّ شَفِّعْنِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه قَالَ يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ لَيْسَتْ لَكَ وَلاَ لِأَحَدٍ وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَدَعُ أَحَدًا فِي النَّارِ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه**»(٣). **ورابعها:** قال سفيان الثوري: سألت جعفر بن محمد عن حم عسق قال: الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٦٢) حديث رقم/ ٣٣٨٣ وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٢٤٩) حديث رقم/ ٣٨٠٠ وابن حبان في (صحيحه) (٣/ ١٢٦) حديث رقم/ ٨٤٦ جميعًا من طريق طلحة بن خراش عن جابر بن عبد الله... به.

(٢) ذكره ابن عراق في (تنزيه الشريعة) (٢/ ٤٧٦) وقال: في سنده من لم أعرفهم.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو يعلى في (مسنده) (٥/ ١٧٢) حديث رقم/ ٢٧٨٦ وابن أبي عاصم في (السنة) (٢/ ٣٩٥) حديث رقم/ ٨٢٨ وابن خزيمة في (التوحيد) (١/ ٤٣٢) حديث رقم/ ٤٣٩ وأبو نعيم في (أخبار أصفهان) (٣/ ٣٣٧) حديث رقم/ ٨٥٣ جميعًا من طريق حماد بن مسعدة عن عمران المنقري عن الحسن عن أنس... به.

سناؤه والقاف قدرته، يقول الله جل ذكره: بحكمي وملكي وعظمتي وسنائي وقدرتي، لا أعذب بالنار من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله. **وخامسها:** أن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَامَ فِي السُّوقِ فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ لَهُ اللَّهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**»(١).

البحث الثالث: في النكت: **أحدها:** ينبغي لأهل لا إله إلا الله أن يُحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا إله إلا الله: التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية: فمن ليس له التصديق فهو منافق، ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع، ومن ليس له الحلاوة فهو مُراءٍ، ومن ليس له الحرية فهو فاجر. **وثانيها:** قال بعضهم: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤] إنه لا إله إلا الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] لا إله إلا الله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر: ٣] لا إله إلا الله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] لا إله إلا الله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] عن قول لا إله إلا الله ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧] هو لا إله إلا الله ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] هو لا إله إلا الله ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧] عن قول لا إله إلا الله. **وثالثها:** أن موسى بن عمران عليه السلام قال: «**يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ! فَقَالَ: قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. قال: إنما أردتُ شيئًا تحصني به! قال: يا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَمَنْ فِيهِنَّ فِي كِفَّةٍ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فِي كِفَّةٍ لَمَالَتْ بِهِنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**»(٢).

البحث الرابع: في إعرابه: قالوا: كلمة (لا) هاهنا دخلت على الماهية، فانتفت الماهية، وإذا انتفت الماهية انتفت كل أفراد الماهية. وأما الله فإنه اسم علم للذات المعينة إذ لو كان اسم معنى لكان كلها محتملاً للكثرة، فلم تكن هذه الكلمة مفيدة للتوحيد، فقالوا: لا استحقت عمل إن لمشابهتها لها من وجهين، أحدهما: ملازمة الأسماء، والآخر تناقضهما، فإن أحدهما لتأكيد

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الأدب) باب (تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي) (١٠/ ٥٨٧) حديث رقم/ ٦١٨٨ من طريق أيوب السختياني . . . به. ومسلم في كتاب (الأدب) باب (النهي عن التكني بأبي القاسم) (٣/ ١٦٨٤) من طريق أيوب . . . به. كلاهما (أيوب، هشام) عن محمد بن سيرين . . . به.

(٢) **إسناده ضعيف:** أخرجه ابن حبان في (صحيحه) (١٤/ ١٠٢) حديث رقم/ ٦٢١٨ والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٢٠٨) حديث رقم/ ١٠٦٧٠ والحاكم في (المستدرك) (١/ ٧١٠) حديث رقم/ ١٩٣٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأبو يعلى في (مسنده) (٢/ ٥٢٨) حديث رقم/ ١٣٩٣ وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٨/ ٣٢٨) جميعا من طريق ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجًا حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري . . . به. وأورده الألباني في (ضعيف الترغيب) (١/ ٢٣٢) حديث رقم/ ٩٢٣ وقال: ضعيف وعلته دراج، وهو أبو السحح، صدوق، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف، وهذا منها.

الثبوت والآخر لتأكيد النفي، ومن عادتهم تشبيه أحد الضدين بالآخر في الحكم. إذا ثبت هذا فنقول: لما قالوا: (إن زيدًا ذاهب) كان يجب أن يقولوا (لا رجلاً ذاهب) إلا أنهم بنوا (لا) مع ما دخل عليه من الاسم المفرد على الفتح، أما البناء فلشدة اتصال حرف النفي بما دخل عليه كأنهما صارا اسمًا واحدًا، وأما الفتح فلأنهم قصدوا البناء على الحركة المستحقة توفيقًا بين الدليل الموجب للإعراب والدليل الموجب للبناء. **الثاني**: خبره محذوف والأصل لا إله في الوجود ولا حول ولا قوة لنا. وهذا يدل على أن الوجود زائد على الماهية.

البحث الخامس: قال بعضهم: تصور الثبوت مقدم على تصور السلب، فإن السلب ما لم يضف إلى الثبوت لا يمكن تصوره، فكيف قُدم ههنا السلب على الثبوت؟! وجوابه: أنه لما كان هذا السلب من مؤكدات الثبوت لا جرم قدم عليه.

القسم الثاني من الكلام في الآية: البحث عن أسماء الله تعالى.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: قال عليه السلام: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا جَعَلْتُ لَكُمْ نَسَبًا وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ نَسَبًا، أَنَا جَعَلْتُ أَكْرَمَكُمْ عِنْدِي أَتْقَاكُمْ، وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمْ أَكْرَمَكُمْ أَغْنَاكُمْ، فَالْآنَ أَرْفَعُ نَسَبِي وَأَضَعُ نَسَبَكُمْ، أَيْنَ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ!**»(١).

واعلم أن الأشياء في قسمة العقول على ثلاثة أقسام: كامل لا يحتمل النقصان، وناقص لا يحتمل الكمال، وثالث يقبل الأمرين: أما الكامل الذي لا يحتمل النقصان فهو الله تعالى، وذلك في حقه بالوجوب الذاتي وبعده الملائكة فإن من كمالهم أنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦] ومن صفاتهم أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] ومن صفاتهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا. وأما الناقص الذي لا يحتمل الكمال فهو الجمادات والنبات والبهائم. وأما الذي يقبل الأمرين جميعًا فهو الإنسان، تارة يكون في الترقي بحيث يخبر عنه بأنه ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] وتارة في التسفل بحيث يقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] وإذا كان كذلك استحال أن يكون الإنسان كاملاً لذاته، وما لا يكون كاملاً لذاته استحال أن يصير موصوفًا بالكمال إلى أن يصير منتسبًا إلى الكامل لذاته، لكن الانتساب قسمان: قسم يعرض للزوال وقسم لا يكون يعرض للزوال. أما الذي يكون يعرض للزوال، فلا فائدة فيه، ومثاله الصحة والمال والجمال، وأما الذي لا يكون يعرض للزوال فعبوديتك لله تعالى، فإنه كما يمتنع زوال صفة الإلهية عنه يمتنع زوال صفة العبودية عنك، فهذه النسبة لا تقبل الزوال، والمنتسب إليه

(١) **ضعيف جدًا**: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٠٢) حديث رقم/ ٣٧٢٦ والطبراني في (الصغير) (١/ ٣٨٣) حديث رقم/ ٦٤٢ وفي (الأوسط) (٤/ ٣٨٨) حديث رقم/ ٤٥١١ جميعًا من طريق طلحة بن عمرو عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة. . . به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٨٤) وفيه طلحة بن عمرو وهو متروك. والحارث في (مسنده) (٢/ ٨٢١) حديث رقم/ ٨٥٦ وذكره الألباني في (ضعيف الجامع) (١٧٦٣) وقال: ضعيف جدًا.

وهو الحق سبحانه لا يقبل الخروج عن صفة الكمال. ثم إذا كنت من بلد أو منتسبًا إلى قبيلة فإنك لا تزال تبالغ في مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضي، فلأن تشتغل بذكر الله تعالى ونعوت كبريائه بسبب الانتساب الذاتي - كان أولى فلهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠] وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ .

البحث الثاني: في تقسيم أسماء الله تعالى: اعلم أن اسم كل شيء إما أن يكون واقعًا عليه بحسب ذاته أو بحسب أجزاء ذاته أو بحسب الأمور الخارجة عن ذاته: أما القسم الأول: فقد اختلفوا في أنه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه، وهذه المسألة مبنية على أن حقيقة الله تعالى هل هي معلومة للبشر أم لا؟ فمن قال: إنها غير معلومة للبشر. قال: ليس لذاته المخصوصة اسم؛ لأن المقصود من الاسم أن يشار به إلى المسمى، وإذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة امتنعت الإشارة العقلية إليها، فامتنع وضع الاسم لها. وقد تكلمنا في تحقيق ذلك في تفسير اسم الله. وأما الاسم الواقع عليه بحسب أجزاء ذاته، فذلك محال لأنه ليس لذاته شيء من الأجزاء لأن كل مركب ممكن، وواجب الوجود لا يكون ممكنًا فلا يكون مركبًا، وأما الاسم الواقع بحسَب الصفات الخارجة عن ذاته، فالصفات إما أن تكون ثبوتية حقيقية أو ثبوتية إضافية أو سلبية أو ثبوتية مع إضافية أو ثبوتية مع سلبية أو إضافية مع سلبية أو ثبوتية وإضافية وسلبية، ولما كانت الإضافات الممكنة غير متناهية، وكذا السلوب غير متناهية، أمكن أن يكون للباري تعالى أسماء متباينة لا مترادفة غير متناهية. فهذا هو التنبيه على المأخذ.

البحث الثالث: يقال: إن لله تعالى أربعة آلاف اسم، ألف لا يعلمها إلا الله تعالى وألف لا يعلمها إلا الله والملائكة، وألف لا يعلمها إلا الله والملائكة والأنبياء، وأما الألف الرابع فإن المؤمنين يعلمونها فثلثمائة منها في التوراة وثلثمائة في الإنجيل وثلثمائة في الزبور ومائة في الفرقان، تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم، فمن أحصاها دخل الجنة.

البحث الرابع: الأسماء الواردة في القرآن منها ما ليس بانفراده ثناء ومدحًا، كقوله جاعل وفالق وخالق، فإذا قيل: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[الأنعام: ٩٦] صار مدحًا، وأما الاسم الذي يكون مدحًا فمنه ما إذا قُرن بغيره صار أبلغ، نحو قولنا: (حي) فإذا قيل (الحي القيوم) أو (الحي الذي لا يموت) كان أبلغ، وأيضًا قولنا: (بديع) فإنك إذا قلت: (بديع السموات والأرض) ازداد المدح، ومن هذا الباب ما كان اسم مدح ولكن لا يجوز إفراده كقولك: (دليل، وكاشف) فإذا قيل: (يا دليل المتحيرين، ويا كاشف الضر والبلوى) جاز، ومنه ما يكون اسم مدح مفردًا أو مقرونًا كقولنا (الرحمن الرحيم).

البحث الخامس: من الأسماء ما يكون مقارنتها أحسن، كقولك الأول الآخر المبدئ المعيد الظاهر الباطن، ومثاله قوله تعالى في حكاية قول المسيح: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨] وبقية الأبحاث قد تقدمت في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم.

البحث السادس: في النكت [أولها]: رأى بشر الحافي كاغدًا مكتوبًا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطَيَّبه بالمسك وبلعه، فرأى في النوم قائلاً يقول: يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك في الدنيا والآخرة. **وثانيها:** قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وليس حُسْن الأسماء لذواتها لأنها ألفاظ وأصوات، بل حُسْنها لحسن معانيها، ثم ليس حُسن أسماء الله حسنًا يتعلق بالصورة والخلقة، فإن ذلك محال على من ليس بجسم، بل حُسن يرجع إلى معنى الإحسان، مثلاً اسم الستار والغفار والرحيم إنما كانت حسناء لأنها دالة على معنى الإحسان، ورُوي أن حكيمًا ذهب إليه قبيح وحسن، والتمسا الوصية، فقال للحسن: أنت حسن والحسن لا يليق به الفعل القبيح. وقال للآخر أنت قبيح والقبيح إذا فعل الفعل القبيح عظم قبحه.

فنقول: إلهنا أسماؤك حسنة وصفاتك حسنة، فلا تُظهر لنا من تلك الأسماء الحسنة والصفات الحسنة إلا الإحسان، إلهنا يكفينا قبح أفعالنا وسيرتنا، فلا نضم إليه قبح العقاب ووحشة العذاب. **وثالثها:** قوله عليه السلام: «اطْلُبُوا الْحَوائِجَ عِنْدَ حِسَانِ الْوُجُوهِ»(1) إلهنا حسن الوجه عَرَضي، أما حسن الصفات والأسماء فذاتي، فلا تردنا عن إحسانك خائبين خاسرين. **رابعها:** ذُكر أن صيادًا كان يصيد السمك فصاد سمكة، وكان له ابنة فأخذتها ابنته فطرحتها الماء وقالت: إنها ما وقعت في الشبكة إلا لغفلتها، إلهنا تلك الصبية رحمت غفلة هاتيك السمكة وكانت تلقيها مرة أخرى في البحر، ونحن قد اصطادتنا وسوسة إبليس وأخرجَتْنا من بحر رحمتك، فارحمنا بفضلك وخلِّصنا منها وألقنا في بحار رحمتك مرة أخرى. **وخامسها:** ذكرت من الأسماء خمسة في الفاتحة، وهي (الله والرب والرحمن والرحيم والملك) فذكرت الإلهية

---

(1) **ضعيف:** أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٤/ ١٢٩) حديث رقم/ ٣٧٨٧ من طريق صنوان بن عيسى عن طلحة بن عمرو عن عطاء عن أبي هريرة... به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ١٩٥) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه طلحة بن عمرو وهو متروك. وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ١٥٢) حديث رقم/ ٣٩٤ وقال: هذه رواية الأكثر عن أنس وجابر وابن عباس وعائشة وغيرهم وفي رواية للطبراني من حديث يزيد بن خصيفة مرفوعًا بلفظ (التمسوا الخير) ورواه الدارقطني في الأفراد عن أبي هريرة بلفظ (ابتغوا الخير ثم حسان الوجه) وفي رواية القسملي (اذا طلبتم الحاجات فاطلبوها الى حسان الوجوه) وفي لفظ (اطلبوا الحوائج والخير وفي آخر (اطلبوا الخير او قال العرف) وكلاهما ثم بعضهم من الزيادة فإن قضي حاجتك قضاها بوجه طلق وان ردك ردك بوجه طلق فرب حسن الوجه دميمه ثم طلب الحاجة ورب دميم الوجه قضاء للحوائج. قال: إنما يعني حسن الوجه ثم الطلب وطرقه كلها كمال وبعضها أشد في ذلك من بعض، وأحسنها ما أخرجه تمام عن ابن عباس رفعه بلفظ (التمسوا الخير) وكذا ما أخرجه البخاري في تاريخه عن ابن عباس وقيل عن أبي هريرة بسند فيه متروك، وكذا أخرجه الطبراني عن ابن عباس بسند رجاله موثقون الاعبد الله بن خراش فقال ابن حبان: ربما أخطأ وإن كان ثقة وضَعَّفه غيره ومع هذا فلا يتهيأ الحكم على الحديث بالوضع الذي قاله الصغاني وكثيرون، كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر وغيره، وروى العسكري عن رجل من جهينة رفعه وشر ما أعطي الرجل قلب سوء في صورة حسنة وروى البزار عن بريدة رفعه (اذا أبردتم إلى بردا فأبردوه حسن الوجه حسن الاسم. وله عن أبي هريرة اذا بعثتم إلى رجلا فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم وأحدهما يقوي الآخر. وفي رواية للخطيب اطلبوا الخير عند صباح الوجوه إ. هـ بتصرف.

وهي إشارة إلى القهارية والعظمة، فعُلم أن الأرواح لا تطيق ذلك القهر والعلو، فذكر بعده أربعة أسماء تدل على اللطف: (الرب) وهو يدل على التربية، والمعتاد أن من ربى أحدًا فإنه لا يهمل أمره. ثم ذكر (الرحمن الرحيم) وذلك هو النهاية في اللطف والرأفة. ثم ختم الأمر بالمَلِك، والمَلِك العظيم لا ينتقم من الضعيف العاجز، ولأن عائشة قالت لعلي عليه السلام: (مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ، فَأَنْتَ أَوْلَى بِأَنْ تَعْفُوَ عَنْ هَؤُلاَءِ الضُّعَفَاءِ)(١). **وسادسها:** عن محمد بن كعب القرظي قال موسى عليه السلام: «**إِلَهِي أَيُّ خَلْقِكَ أَكْرَمُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: الَّذِي لاَ يَزَالُ لِسَانُهُ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِي، قَالَ: فَأَيُّ خَلْقِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: الَّذِي يَلْتَمِسُ إِلَى عِلْمِهِ عِلْمَ غَيْرِهِ، قَالَ:**

فَأَيُّ خَلْقِكَ أَعْدَلُ؟ قَالَ: الَّذِي يَقْضِي عَلَى نَفْسِهِ كَمَا يَقْضِي عَلَى النَّاسِ. قَالَ: فَأَيُّ خَلْقِكَ أَعْظَمُ جُرْمًا؟ قَالَ: الَّذِي يَتَّهِمُنِي وَهُوَ الَّذِي يَسْأَلُنِي ثُمَّ لاَ يَرْضَى بِمَا قَضَيْتُهُ لَهُ»(٢). إلهنا إنا لا نتهمك فإنا نعلم أن كل ما أحسنت به فهو فضل، وكل ما تفعله فهو عدل، فلا تؤاخذنا بسوء أعمالنا. **وسابعها:** قال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: سيعلم الجمع من أولى بالكرم، أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع؟ فيقومون فيتخطون رقاب الناس، ثم يقال: أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟ ثم ينادي منادٍ: أين الحامدون لله على كل حال؟ ثم تكون التبعة والحساب على من بقي. إلهنا فنحن حمدناك وأثنينا عليك بمقدار قدرتنا ومنتهى طاقتنا، فاعف عنا بفضلك ورحمتك. ومن أراد الاستقصاء في الأسماء والصفات فعليه بكتاب (لوامع البينات في الأسماء والصفات) وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾

اعلم أنه تعالى لما عظَّم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه، أتبع ذلك بما يقوي قلب رسول الله ﷺ من ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام تقوية لقلبه في الإبلاغ، كقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] وبدأ بموسى عليه السلام لأن المحنة والفتنة الحاصلة له كانت أعظم ليسلي قلب الرسول ﷺ بذلك ويصبره على تحمل المكاره، فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ وهاهنا مسائل:

(١) رواه ابن راهويه في (مسنده) (٢/ ٣٢) من طريق عصام بن قدامة عن عكرمة عن ابن عباس... به. أورده الذهبي في (سير أعلام النبلاء) (٢/ ١٧٨)

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ٤٥١) حديث رقم/ ٦٨٢ وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٦١/ ١٤٣) كلاهما من طريق حاتم بن إسماعيل حدثنا عبد الملك بن حسن عن محمد بن كعب القرظي قال: قال موسى عليه السلام... فذكره. محمد بن كعب القرظي من التابعين فهو مرسل.

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ يحتمل أن يكون هذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام فقال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ أي لم يأتك إلى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له. وهذا قول الكلبي. ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك في الزمان المتقدم، فكأنه قال: أليس قد أتاك، وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ وإن كان على لفظ الاستفهام الذي لا يجوز على الله تعالى، لكن المقصود منه تقرير الجواب في قلبه، وهذه الصيغة أبلغ في ذلك كما يقول المرء لصاحبه: هل بلغك خبر كذا؟ فيتطلع السامع إلى معرفة ما يرمي إليه، ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قِبل النبي عليه السلام لا من قِبل الله تعالى.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ أي هل أتاك حديثه حين رأى نارًا؟ **قال المفسرون**: استأذن موسى عليه السلام شعيبًا في الرجوع إلى والدته فأذِن، له فخرج فوُلد له ابن في الطريق في ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة، وقد حاد عن الطريق، فقدح موسى عليه السلام النار فلم تور المقدحة شيئًا، فبينا هو مزاولة ذلك إذ نظر نارًا من بعيد عن يسار الطريق. قال السدي: ظن أنها نار من نيران الرعاة. وقال آخرون: إنه عليه السلام رآها في شجرة. وليس في لفظ القرآن ما يدل على ذلك، واختلفوا فقال بعضهم الذي رآه لم يكن نارًا بل تخيله نارًا. والصحيح أنه رأى نارًا ليكون صادقًا في خبره إذ الكذب لا يجوز على الأنبياء، قيل: النار أربعة أقسام: نار تأكل ولا تشرب وهي نار الدنيا، ونار تشرب ولا تأكل وهي نار الشجر لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠]ونار تأكل وتشرب وهي نار المعدة، ونار لا تأكل ولا تشرب وهي نار موسى عليه السلام. وقيل أيضًا: النار على أربعة أقسام: **أحدها**:نار لها نور بلا حرقة وهي نار موسى عليه السلام. **وثانيها**:حرقة بلا نور وهي نار جهنم. **وثالثها**:الحرقة والنور وهي نار الدنيا. **ورابعها**:لا حرقة ولا نور وهي نار الأشجار. فلما أبصر النار توجه نحوها ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا﴾ فيجوز أن يكون الخطاب للمرأة وولدها والخادم الذي معها، ويجوز أن يكون للمرأة وحدها ولكن خرج على ظاهر لفظ الأهل فإن الأهل يقع على الجمع، وأيضًا فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تفخيمًا، أي أقيموا في مكانكم: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرت، والإيناس: الإبصار البين الذي لا شبهة فيه، ومنه إنسان العين فإنه يبين به الشيء والإنس لظهورهم كما قيل: الجن لاستتارهم وقيل هو أيضًا ما يؤنس به، ولما وجد منه الإيناس وكان منتفيًا حقيقة لهم أتى بكلمة (إني) لتوطين أنفسهم، ولما كان الإيناس بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بني الأمر فيهما على الرجاء والطمع فقال: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم﴾ ولم يقطع فيقول (إني آتيكم) لئلا يَعِد ما لم يتيقن الوفاء به. والنكتة فيه أن قومًا قالوا: كذب إبراهيم للمصلحة وهو محال لأن موسى عليه السلام قبل نبوته احترز عن الكذب فلم يقل (آتيكم) ولكن قال (لعلي

آتيكم) ولم يقطع فيقول: (إني آتيكم) لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به والقبس: النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ والهدى ما يُهتدى به وهو اسم مصدر فكأنه قال: أجد على النار ما أهتدي به من دليل أو علامة، ومعنى الاستعلاء على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها، ولأن المصطلين بها إذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي أتى النار، قال ابن عباس: رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها، كأنها نار بيضاء، فوقف متعجبًا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة، فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار، فسمع تسبيح الملائكة ورأى نورًا عظيمًا، قال وهب: فظن موسى عليه السلام أنها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها، فمالت إليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها، ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها، ثم لم يكن أسرع من خمودها، فكأنها لم تكن، ثم رمى موسى بنظره إلى فرعها فإذا خضرته ساطعة في السماء، وإذا نور بين السماء والأرض له شعاع تكلّ عنه الأبصار، فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودي يا موسى. قال القاضي: الذي يروى من أن الزند ما كان يورى فهذا جائز، وأما الذي يروى من أن النار كانت تتأخر عنه فإن كانت النبوة قد تقدمت له جاز ذلك، وإلا فهو ممتنع إلا أن يكون معجزة لغيره من الأنبياء عليهم السلام، وفي قوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] دلالة على أن في هذه الحالة أوحى الله إليه وجعله نبيًّا، وعلى هذا الوجه يبعد ما ذكروه من تأخر النار عنه، وبين فساد ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ وإن كانت تتأخر عنه حالاً بعد حال لما صح ذلك ولما بقي لفاء التعقيب فائدة. قلنا: القاضي إنما بني هذا الاعتراض على مذهبه في أن الإرهاص غير جائز، وذلك عندنا باطل فبطل قوله، وأما التمسك بفاء التعقيب فقريب لأن تخلل الزمان القليل فيما بين المجيء والنداء لا يقدح في فاء التعقيب.

المسألة الرابعة: قرأ أبو عمرو وابن كثير (أني) بالفتح، أي نودي بأني أنا ربك. والباقون بالكسر أي نودي فقيل: يا موسى. أو لأن النداء ضرب من القول فعومل معاملته.

المسألة الخامسة: قال الأشعري: إن الله تعالى أسمعه الكلام القديم الذي ليس بحرف ولا صوت. وأما المعتزلة فإنهم أنكروا وجود ذلك الكلام فقالوا: إنه سبحانه خلق ذلك النداء في جسم من الأجسام كالشجرة أو غيرها؛ لأن النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه ومتى شاء فعله. وأما أهل السنة من أهل ما وراء النهر فقد أثبتوا الكلام القديم، إلا أنهم زعموا أن الذي سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى في الشجرة، واحتجوا بالآية على أن المسموع هو الصوت المحدث، قالوا: إنه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث.

المسألة السادسة: اختلفوا في أن موسى عليه السلام كيف عرف أن المنادي هو الله تعالى؟

فقال أصحابنا: يجوز أن يخلق الله تعالى له علمًا ضروريًا بذلك. ويجوز أن يعرفه بالمعجزة. قالت المعتزلة: أما العلم الضروري فغير جائز لأنه لو حصل العلم الضروري بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضروري بوجود الصانع العالم القادر لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال، ولو كان وجود الصانع تعالى معلومًا له بالضرورة لخرج موسى عن كونه مكلفًا؛ لأن حصول العلم الضروري ينافي التكليف، وبالاتفاق لم يخرج موسى عن التكليف فعَلِمنا أن الله تعالى عرفه ذلك بالمعجز، ثم اختلفوا في ذلك المعجز على وجوه: **أولها:** منهم من قال: نعلم قطعًا أن الله تعالى عرفه ذلك بواسطة المعجز، ولا حاجة بنا إلى أن نعرف ذلك المعجز ما هو. **وثانيها:** يروى أن موسى عليه السلام لما شاهد النور الساطع من الشجرة إلى السماء وسمع تسبيح الملائكة، وضع يديه على عينيه فنودي: يا موسى. فقال: لبيك إني أسمع صوتك ولا أراك فأين أنت؟ قال: أنا معك وأمامك وخلفك ومحيط بك وأقرب إليك منك. ثم إن إبليس أخطر بباله هذا الشك وقال: ما يدريك أنك تسمع كلام الله؟ فقال: لأني أسمعه من فوقي ومن تحتي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي كما أسمعه من قدامي، فعلمت أنه ليس بكلام المخلوقين. ومعنى إطلاقه هذه الجهات أني أسمعه بجميع أجزائي وأبعاضي حتى كأن كل جارحة مني صارت أذنًا. **وثالثها:** لعله سمع النداء من جماد كالحصى وغيرها فيكون ذلك معجزًا. **ورابعها:** أنه رأى النار في الشجرة الخضراء بحيث أن تلك الخضرة ما كانت تطفىء تلك النار، وتلك النار ما كانت تضر تلك الخضرة، وهذا لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه.

المسألة السابعة: قالوا: إن تكرير الضمير في ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ كان لتوكيد الدلالة وإزالة الشبهة.

المسألة الثامنة: ذكروا في قوله: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ وجوهًا: **أحدها:** كانتا من جلد حمار ميت فلذلك أُمر بخلعهما صيانة للوادي المقدس ولذلك قال عقيبه: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ وهذا قول علي عليه السلام وقول مقاتل والكلبي والضحاك وقتادة والسدي. **والثاني:** إنما أُمر بخلعهما لينال قدميه بركة الوادي. وهذا قول الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد. **وثالثها:** أن يحمل ذلك على تعظيم البقعة من أن يطأها إلا حافيًا ليكون معظمًا لها وخاضعًا عند سماع كلام ربه، والدليل عليه أنه تعالى قال عقيبه: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ وهذا يفيد التعليل فكأنه قال تعالى: اخلع نعليك لأنك بالوادي المقدس طوى.

وأما أهل الإشارة فقد ذكروا فيها وجوهًا: أحدها: أن النعل في النوم يفسر بالزوجة والولد، فقوله: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ إشارة إلى أن لا يلفت خاطره إلى الزوجة والولد، وأن لا يبقى مشغول القلب بأمرهما. **وثانيها:** المراد بخلع النعلين ترك الالتفات إلى الدنيا والآخرة، كأنه أمره بأن يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى، ولا يلتفت بخاطره إلى ما سوى الله تعالى،

والمراد من الوادي المقدس: قُدْس جلال الله تعالى وطهارة عزته، يعني أنك لما وصلت إلى بحر المعرفة فلا تلتفت إلى المخلوقات. **وثالثها:** أن الإنسان حال الاستدلال على الصانع لا يمكنه أن يتوصل إليه إلا بمقدمتين، مثل أن يقول: العالم المحسوس محدث أو ممكن، وكل ما كان كذلك فله مدبر ومؤثر وصانع. وهاتان المقدمتان تشبهان النعلين لأن بهما يتوصل العقل إلى المقصود ويتنقل من النظر في الخلق إلى معرفة الخالق، ثم بعد الوصول إلى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتًا إلى تينك المقدمتين لأن بقدر الاشتغال بالغير يبقى محرومًا عن الاستغراق فيه، فكأنه قيل له: لا تكن مشتغل القلب والخاطر بتينك المقدمتين فإنك وصلت إلى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله تعالى ولُجَّة ألوهيته.

المسألة التاسعة: استدلت المعتزلة بقوله: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ على أن كلام الله تعالى ليس بقديم إذ لو كان قديمًا لكان الله قائلاً قبل وجود موسى: (اخلع نعليك يا موسى) ومعلوم أن ذلك سفه، فإن الرجل في الدار الخالية إذا قال: (يا زيد افعل ويا عمرو لا تفعل) مع أن زيدًا وعمرًا لا يكونان حاضرين بعد ذلك جنونًا وسفهًا فكيف يليق ذلك بالإله سبحانه وتعالى؟

وأجاب أصحابنا عنه من وجهين: **الأول:** أن كلامه تعالى وإن كان قديمًا إلا أنه في الأزل لم يكن أمرًا ولا نهيًا. **والثاني:** أنه كان أمرًا بمعنى أنه وجد في الأزل شيء لما استمر إلى ما لا يزال صار الشخص به مأمورًا من غير وقوع التغير في ذلك الشيء، كما أن القدرة تقتضي صحة الفعل، ثم إنها كانت موجودة في الأزل من غير هذه الصحة، فلما استمرت إلى ما لا يزال حصلت الصحة، كذا ههنا، وهذا الكلام فيه غموض وبحث دقيق.

المسألة العاشرة: ليس في الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف في النعل، والصحيح عدم الكراهة؛ وذلك لأنا إن عللنا الأمر بخلع النعلين بتعظيم الوادي وتعظيم كلام الله، كان الأمر مقصورًا على تلك الصورة، وإن عللناه بأن النعلين كانا من جلد حمار ميت فجائز أن يكون قد كان محظورًا لبس جلد الحمار الميت، وإن كان مدبوغًا فإن كان كذلك فهو منسوخ بقوله عليه السلام: «أَيُّمَا إِهَابٍ دُبِغَ فَقَدْ طَهُرَ» (١) وقد صلى النبي ﷺ في نعليه ثم خلعهما في الصلاة فخلع الناس نعالهم، فلما سَلَّم قال: «مَا لَكُمْ خَلَعْتُمْ نِعَالَكُمْ؟!» قالوا: خلعت فخلعنا. قال: «فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهِمَا قَذَرًا» (٢) فلم يكره النبي ﷺ الصلاة في النعل، وأنكر على الخالعين

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الحيض) باب (طهارة جلود الميتة بالدباغ) (١/ ١٠٥/ ٢٧٧) من طريق أبي سفيان... به. وأبو داود في كتاب (اللباس) باب (في أهب الميتة) (٤/ ٦٦) حديث رقم/ ٤١٢٣ من طريق سفيان... به. والترمذي في كتاب (اللباس) باب (في جلود الميتة) (٤/ ١٩٣) حديث رقم/ ١٧٢٨ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في كتاب (اللباس) باب (لبس جلود الميتة) (٢/ ١١٩٣) حديث رقم/ ٣٦٠٩ وأحمد في (مسنده) (١/ ٢١٩) حديث رقم/ ١٨٩٥ من طريق سفيان... به. والدارمي في كتاب (الأضاحي) باب (الاستمتاع بجلود الميتة) (١/ ٥٥١) حديث رقم/ ١٩٨٥ جميعًا عن سفيان... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (الصلاة في النعل) (١/ ١٧٤) حديث رقم/ ٦٥٠ من طريق=

خلعهما وأخبرهم بأنه إنما خلعهما لما فيهما من القذر .

المسألة الحادية عشرة : قرىء طوى بالضم والكسر منصرفًا وغير منصرف ، فمن نَوَّنه فهو اسم الوادي ومن لم ينونه ترك صرفه لأنه معدول عن (طاوي) فهو مثل عمر المعدول عن عامر ، ويجوز أن يكون اسمًا للبقعة .

المسألة الثانية عشرة : في طوى وجوه : **الأول:** أنه اسم للوادي وهو قول عكرمة وابن زيد . **والثاني:** معناه مرتين نحو مَثْنى ، أي قُدس الوادي مرتين أو نودي موسى عليه السلام نداءين ، يقال : ناديته طوى ، أي مَثْنى . **والثالث:** طوى أي طيًّا ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه مر بذلك الوادي ليلاً فطواه ، فكان المعنى : بالوادي المقدس الذي طويتَه طيًّا ، أي قطعته حتى ارتفعت إلى أعلاه . ومن ذهب إلى هذا قال : طوى مصدر خرج عن لفظه كأنه قال : طويته طوى كما يقال هدى يهدي هُدى ، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾

قرأ حمزة: (وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ) وقرأ أُبي بن كعب : (وإني اخترتك) .

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى : معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذي خصصتك به ، وهذه الآية تدل على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق ؛ لأن قوله : ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ يدل على أن ذلك المنصب العلي إنما حصل لأن الله تعالى اختاره له ابتداء ، لا أنه استحقه على الله تعالى .

المسألة الثانية : قوله : ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ فيه نهاية الهيبة والجلالة ، فكأنه قال : لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له ، واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفًا إليه . فقوله : ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ يفيد نهاية اللطف والرحمة . وقوله : ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾ يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الأول نهاية الرجاء ، ومن الثاني نهاية الخوف .

المسألة الثالثة : قوله : ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ يدل على أن علم الأصول مقدم على علم الفروع ؛ لأن التوحيد من علم الأصول والعبادة من علم الفروع . وأيضًا الفاء في قوله : ﴿فَٱعْبُدْنِي﴾ تدل على أن عبادته إنما لزمت لإلهيته وهذا هو تحقيق العلماء أن الله هو المستحق للعبادة .

=موسى بن إسماعيل . . . به . وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢٠) قال : حدثنا يزيد . وفي (٣/ ٩٢) قال : حدثنا أبو كامل . والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (الصلاة في النعلين) (١/ ٣٤٠) حديث رقم/ ١٣٧٨ وابن خزيمة في (صحيحه) (٢/) حديث رقم/ ١٠١٧ من طريق يزيد بن هارون وأبي الوليد وأبي النعمان . . . به . جميعًا (موسى ، أبو كامل ، يزيد ، أبو الوليد ، أبو النعمان) عن حماد بن سلمة . . . به .

المسألة الرابعة: أنه سبحانه بعد أن أمره بالتوحيد أولاً ثم بالعبادة ثانيًا، أمره بالصلاة ثالثًا، احتج أصحابنا بهذه الآية على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز من وجهين: **الأول**:أنه أمره بالعبادة ولم يذكر كيفية تلك العبادة، فثبت أنه يجوز ورود المجمل منفكًا عن البيان. **الثاني**:أنه قال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ ولم يبين كيفية الصلاة. قال القاضي: لا يمتنع أن موسى عليه السلام قد عرف الصلاة التي تَعَبَّد الله تعالى بها شعيبًا عليه السلام وغيره من الأنبياء، فصار الخطاب متوجهًا إلى ذلك. ويحتمل أنه تعالى بَيَّن له في الحال وإن كان المنقول في القرآن لم يُذكر فيه إلا هذا القدر. **والجواب**:أما العذر الأول فإنه لا يتوجه في قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ وأيضًا فحَمْل مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة أَوْلى من حمله على أمر معلوم؛ لأن موسى عليه السلام ما كان يشك في وجوب الصلاة التي جاء بها شعيب عليه السلام، فلو حملنا قوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على ذلك لم يحصل من هذا الخطاب العظيم فائدة زائدة، أما لو حملناه على صلاة أخرى لحصلت الفائدة الزائدة، قوله: (لعل الله تعالى بَيَّنه في ذلك الموضع وإن لم يحكه في القرآن) قلنا: لا نشك أن البيان أكثر فائدة من المجمل، فلو كان مذكورًا لكان أَوْلى بالحكاية.

المسألة الخامسة: في قوله: ﴿ لِذِكۡرِيٓ﴾ وجوه: **أحدها**:لذكري، يعني لتذكرني، فإن ذكري أن أُعبد ويُصلَّى لي. **وثانيها**:لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار. عن مجاهد. **وثالثها**: لأني ذكرتها في الكتب وأمرت بها. **ورابعها**:لأن أذكرك بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق. **وخامسها**:لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري. **وسادسها**:لإخلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضًا آخر. **وسابعها**:لتكون لي ذاكرًا غير ناسٍ فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] **وثامنها**: لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]. **وتاسعها**:﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ حين تذكرها، أي أنك إذا نسيت صلاة فاقضها إذا ذكرتها. روى قتادة عن أنس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَسِيَ صَلاَةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، لاَ كَفَّارَةَ لَهَا إِلاَّ ذَلِكَ**» [(١)] ثم قرأ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ قال الخطابي: يحتمل هذا الحديث وجهين: **أحدهما**:أنه لا يكفرها غير قضائها. والآخر: أنه لا يلزم في نسيانها غرامة ولا كفارة كما تلزم الكفارة في ترك صوم رمضان من غير عذر، وكما يلزم المحرم إذا ترك شيئًا من نسكه فدية من إطعام أو دم. وإنما يصلي ما ترك فقط. فإن قيل: حق العبارة أن يقول (أقم الصلاة لذكرها) كما قال عليه السلام: «**فليصلها إذا ذكرها**» قلنا: قوله: ﴿ لِذِكۡرِيٓ﴾ معناه للذكر

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (في من نام عن الصلاة أو نسيها) (١/ ٢٢٣) حديث رقم/ ٤٤٢ والنسائي في كتاب (الجمعة) باب (التشديد في التخلف عن الجمعة) (٣/ ٩٩) حديث رقم/ ١٣٧٠ وابن خزيمة في (صحيحه) باب (الدليل على أن فرض الجمعة على البالغين دون الأطفال) (٣/ ١١٠) حديث رقم/ ١٧٢١ من طريق نافع. . . به.

الحاصل بخلقي. أو بتقدير حذف المضاف، أي: لذكر صلاتي.

المسألة السادسة: لو فاتته صلوات يستحب أن يقضيها على ترتيب الأداء، فلو ترك الترتيب في قضائها جاز عند الشافعي رحمه الله، ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكَّر فائتة نظر: إن كان في الوقت سعة استحب أن يبدأ بالفائتة، ولو بدأ بصلاة الوقت جاز، وإن ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة فات الوقت، يجب أن يبدأ بصلاة الوقت حتى لا تفوت، ولو تذكر الفائتة بعدما شرع في صلاة الوقت، أتمها ثم قضى الفائتة، ويستحب أن يعيد صلاة الوقت بعدها ولا يجب، وقال أبو حنيفة رحمه الله: يجب الترتيب في قضاء الفوائت ما لم تزد على صلاة يوم وليلة. حتى قال: لو تذكر في خلال صلاة الوقت فائتة تركها اليوم، يبطل فرض الوقت فيقضي الفائتة ثم يعيد صلاة الوقت، إلا أن يكون الوقت ضيقًا فلا تبطل.

حجة أبي حنيفة رحمه الله الآية والخبر والأثر والقياس: أما الآية فقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي لتذكرها، واللام بمعنى (عند) كقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي عند دلوكها، فمعنى الآية أقم الصلاة المتذكرة عند تذكرها. وذلك يقتضي رعاية الترتيب. وأما الخبر فقوله عليه السلام: «**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها**» والفاء للتعقيب، وأيضًا روى جابر بن عبد الله قال: جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النبي ﷺ يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول: يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس. قال النبي ﷺ: «**وَأَنَا واللَّه مَا صَلَّيْتهَا بَعْدُ**» قال: «**فنَزَلَ إلى البَطْحَاءِ وَصَلَّى العصْرَ بَعْدَ مُا غَابَتِ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى الْمَغْرِبَ بَعْدَهَا**»[(١)] وهذا الحديث مذكور في (الصحيحين) قالت الحنفية والاستدلال به من وجهين: **أحدهما**: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[(٢)] فلما صلى الفوائت على الولاء وجب علينا ذلك. **والثاني**: أن فعل النبي ﷺ إذا خرج مخرج البيان للمجمل كان حجة، وهذا الفعل خرج بيانًا لمجمل قوله تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النور: ٥٦] ولهذا قلنا: إن الفوائت إذا كانت في حد القلة يجب مراعاة الترتيب فيها، وإذا دخلت في حد الكثرة يسقط الترتيب. وأما الأثر فما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «**مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةٌ فَلَمْ يَذْكُرْهَا**

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الصلاة) باب (من صلى بالناس جماعة بعد ذهاب الوقت) (٢/ ٨٢) حديث رقم/ ٥٩٦ من طريق معاذ بن فضالة. ومسلم في كتاب (المساجد) باب (الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هى صلاة العصر) (١/ ٢٠٩/ ٤٣٨). والنسائي في كتاب (السهو) باب (اذا قيل للرجل: صليت؟ هل يقول: لا؟) (٢/ ١٨٨) حديث رقم (١٣٦٥). من طريق معاذ بن هشام. كلاهما (معاذ بن فضالة، معاذ بن هشام) قالا حدثنا هشام... به.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأذان) باب (من قال: ليؤذن في السفر مؤذن واحد) (٢/ ١٣٠) حديث رقم/ ٦٢٨ من طريق وهيب... به. ومسلم في كتاب (المساجد) باب (من أحق بالإمامة؟) (١/ ٢٩٢/ ٤٦٥/ ٤٦٦) من طريق إسماعيل بن إبراهيم وحماد بن عبد الوهاب... به. جميعًا (وهيب، إسماعيل، حماد، عبد الوهاب) عن أيوب... به.

إلاَّ فِي صَلاَةِ الإِمَامِ، فَلْيَمْضِ فِي صِلاَتِهِ، فَإِذَا قَضَى صَلاَتَهُ مَعَ الإِمَامِ يُصَلِّي مَا فَاتَهُ، ثُمَّ لْيُعِدِ الَّتِي صَلاَّهَا مَعَ الإِمَامِ»(١) وقد يروى هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وأما القياس فهو أنهما صلاتان فريضتان جمعهما وقت واحد في اليوم والليلة، فأشبهتا صلاتي عرفة والمزدلفة، فلما لم يجب إسقاط الترتيب فيهما وجب أن يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة كذلك.

حجة الشافعي رحمه الله أنه روي في حديث أبي قتادة: (أَنَّهُمْ لَمَّا نَامُوا عَنْ صَلاَةِ الْفَجْرِ ثُمَّ انْتَبَهُوا بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُودُوا رَوَاحِلَهُمْ ثُمَّ صَلاَّهَا)(٢) ولو كان وقت التذكر معينًا للصلاة لما جاز ذلك، فعلمنا أن ذلك الوقت وقت لتقرر الوجوب عليه، لكن لا على سبيل التضييق بل على سبيل التوسع إذا ثبت هذا فنقول: إيجاب قضاء الفوائت وإيجاب أداء فرض الوقت الحاضر - يجري مجرى التخيير بين الواجبين، فوجب أن يكون المكلف مخيرًا في تقديم أيهما شاء، ولأنه لو كان الترتيب في الفوائت شرطًا لما سقط بالنسيان، ألا ترى أنه إذا صلى الظهر والعصر بعرفة في يوم غيم ثم تبين أنه صلى الظهر قبل الزوال والعصر بعد الزوال، فإنه يعيدهما جميعًا ولم يسقط الترتيب بالنسيان لما كان شرطًا فيهما، فهاهنا أيضًا لو كان شرطًا فيهما لما كان يسقط بالنسيان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾

اعلم أنه تعالى لما خاطب موسى عليه السلام بقوله: ﴿فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: ١٤] أتبعه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ وما أليق هذا بتأويل من تأول قوله: ﴿لِذِكْرِيٓ﴾ أي لأذكرك بالأمانة والكرامة. فقال عقيب ذلك: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ لأنها وقت الإثابة ووقت المجازاة.

---

(١) إسناده ضعيف: البيهقي في (سننه الكبرى) (٢/ ٢٢٢) حديث رقم/ ٣٠١٣ من طريق علي بن حجر حدثنا عمر بن أبي عمر عن مكحول عن بن عباس... به. وقال: عمر بن أبي عمر مجهول. والدارقطني في (سننه) (١/ ٤٢١/ ١) من طريق بقية حدثني عمر بن أبي عمر عن مكحول عن عبد الله بن عباس... به. وقال عمر بن أبي عمر مجهول. وابن أبي حاتم في (العلل) (١/ ١٠٨) حديث رقم/ ٢٩٣ وقال: قال أبو زرعة: هذا خطأ رواه مالك عن نافع عن ابن عمر موقوف وهو الصحيح، وأخبرت أن يحي بن معين انتخب على اسماعيل بن إبراهيم فلما بلغ هذا الحديث جاوزه فقبل له: كيف لاتكتب هذا الحديث؟! فقال يحيى فعل الله بي إن كتبت هذا الحديث.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الصلاة) باب (الأذن بعد ذهاب الوقت) (٢/ ٧٩/ ٨٠) حديث رقم/ ٥٩٥ من طريق محمد بن فضيل... به. وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (من نام عن الصلاة أو نسبها) (١/ ١١٩) حديث رقم/ ٤٤٠ قال: حدثنا عبثر. والنسائي في كتاب (الإمامة) باب (الجماعة للفائت من الصلاة) (١/ ٥٦٦) حديث رقم/ ٨٤٥ وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣٠٧) من طريق هشيم... به. وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٢١٣) حديث رقم/ ٤٠٩ من طريق ابن فضيل... به. جميعًا (محمد بن فضيل، عبثر، هشيم) عن حصين... به.

ثم قال: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ **وفيه سؤالان:**

السؤال الأول: هو أن (كاد) نفيه إثبات وإثباته نفي؛ بدليل قوله: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]أي وفعلوا ذلك. فقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقتضي أنه ما أخفاها. وذلك باطل لوجهين: **احدهما:** قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. **والثاني:** أن قوله: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ إنما يليق بالإخفاء لا بالإظهار.

والجواب: من وجوه، **احدها:** أن (كاد) موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفي والإثبات فقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ معناه قرب الأمر فيه من الإخفاء وأما أنه هل حصل ذلك الإخفاء أو ما حصل فذلك غير مستفاد من اللفظ بل من قرينة قوله: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ فإن ذلك إنما يليق بالإخفاء لا بالإظهار. **وثانيها:** أن (كاد) من الله واجب، فمعنى قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي أنا أخفيها عن الخلق. كقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]أي هو قريب، قاله الحسن. **وثالثها:** قال أبو مسلم: ﴿أَكَادُ﴾ بمعنى أريد، وهو كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦] ومن أمثالهم المتداولة (لا أفعل ذلك ولا أكاد) أي ولا أريد أن أفعله. **ورابعها:** معناه: (أكاد أخفيها من نفسي) وقيل: إنها كذلك في مصحف أبي وفي حرف ابن مسعود: (أكاد أخفيها من نفسي فكيف أعلنها لكم) قال القاضي: هذا بعيد لأن الإخفاء إنما يصح فيمن يصلح له الإظهار وذلك مستحيل على الله تعالى؛ لأن كل معلوم معلوم له، فالإظهار والإسرار منه مستحيل، ويمكن أن يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير، يعني لو صح مني إخفاؤه على نفسي لأخفيته عني. والإخفاء وإن كان محالاً في نفسه إلا أنه لا يمتنع أن يذكر ذلك على هذا التقدير مبالغة في عدم إطلاع الغير عليه. قال قطرب: هذا على عادة العرب في مخاطبة بعضهم بعضًا يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء: (كتمته حتى من نفسي) فالله تعالى بالغ في إخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب في مثله. **وخامسها:** ﴿أَكَادُ﴾ صلة في الكلام والمعنى: إن الساعة آتية أخفيها، قال زيد الخيل:

سَرِيعٌ إِلَى الْهَيْجَاءِ شَاكٍ سِلَاحَهُ ... فَمَا إِنْ يَكَادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ(١)

والمعنى: فما يتنفس قرنه. **وسادسها:** قال أبو الفتح الموصلي: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ تأويله: أكاد أظْهرها، وتلخيص هذا اللفظ: أكاد أزيل عنها إخفاءها لأن (أفعل) قد يأتي بمعنى السلب والنفي كقولك: (أعجمت الكتاب وأشكلته) أي أزلت عجمته وإشكاله. وأشكيته، أي أزلت شكواه.

وسابعها: قرئ (أخفيها) بفتح الألف، أي أكاد أظهرها، من خفاه إذا أظهره، أي قرب إظهاره، كقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]قال امرؤ القيس:

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لاَ نُخْفِهِ ... وَإِنْ تَمْنَعُوا الْحَرْبَ لاَ نَقْعُدِ(٢)

---

(١) الشاعر زيد الخيل تقدمت ترجمته.

(٢) امرؤ القيس تقدمت ترجمته.

أي لا نظهره: قال الزجاج: وهذه القراءة أبين لأن معنى أكاد أظهرها يفيد أنه قد أخفاها.
وثامنها: أراد أن الساعة آتية أكاد، وانقطع الكلام ثم قال (أخفيها) ثم رجع الكلام الأول إلى أن الأولى الإخفاء: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ وهذا الوجه بعيد، والله أعلم.

السؤال الثاني: ما الحكمة في إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت؟

الجواب: لأن الله تعالى وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية إلى قريب من ذلك الوقت، ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالإغراء بفعل المعصية، وإنه لا يجوز.

أما قوله: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ . **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: أنه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة، ذكر الدليل عليه وهو أنه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصي والمحسن عن المسيء، وذلك غير جائز، وهو الذي عناه الله تعالى بقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

المسألة الثانية: احتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الثواب مستحق على العمل؛ لأن الباء للالصاق فقوله: ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ يدل على أن المؤثر في ذلك الجزاء هو ذلك السعي.

المسألة الثالثة: احتجوا بها على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى، وذلك لأن الآية صريحة في إثبات سعي العبد، ولو كان الكل مخلوقًا لله تعالى لم يكن للعبد سعي ألبتة.

أما قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ فالصد: المنع.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: في هذين الضميرين وجهان: **أحدهما:** قال أبو مسلم: لا يصدنك عنها، أي عن الصلاة التي أمرتك بها من لا يؤمن بها، أي بالساعة. فالضمير الأول عائد إلى الصلاة والثاني إلى الساعة، ومثل هذا جائز في اللغة، فالعرب تلف الخبرين ثم ترمي بجوابهما جملة ليرد السامع إلى كل خبر حقه. **وثانيهما:** قال ابن عباس: فلا يصدنك عن الساعة، أي عن الإيمان بمجيئها، من لا يؤمن بها. فالضميران عائدان إلى يوم القيامة. قال القاضي: وهذا أَوْلى لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورين وههنا الأقرب هو الساعة، وما قاله أبو مسلم فإنما يصار إليه عند الضرورة ولا ضرورة هاهنا.

المسألة الثانية: الخطاب في قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ يحتمل أن يكون مع موسى عليه السلام وأن يكون مع محمد ﷺ، والأقرب أنه مع موسى؛ لأن الكلام أجمع خطاب له، وعلى كلا الوجهين فلا معنى لقول الزجاج إنه ليس بمراد وإنما أريد به غيره وذلك لأنه ظن أن النبي ﷺ لما لم يجز عليه مع النبوة أن يصده أحد عن الإيمان بالساعة، لم يجز أن يكون مخاطبًا بذلك، وليس الأمر كما ظن؛ لأنه إذا كان مكلفًا بأن لا يقبل الكفر بالساعة من أحد وكان قادرًا على

ذلك، جاز أن يخاطب به، ويكون المراد هو وغيره، ويحتمل أيضًا أن يكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ النهي له عن الميل إليهم ومقاربتهم.

المسألة الثالثة: المقصود نهي موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث، ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لم يؤمن عن صد موسى عليه السلام، وفيه وجهان: **أحدهما**: أن صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب، فذكر السبب ليدل على المسبب. **والثاني**: أن صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين، فذكر المسبب ليدل حمله على السبب. كقوله: (لا أرينك هاهنا) المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته، فكذا هاهنا كأنه قيل: لا تكن رخوًا بل كن في الدين شديدًا صُلبًا.

المسألة الرابعة: الآية تدل على أن تعلم علم الأصول واجب لأن قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ يرجع معناه إلى صلابته في الدين، وتلك الصلابة إن كان المراد بها التقليد لم يتميز المبطل فيه من المُحق، فلا بد وأن يكون المراد بهذه الصلابة كونه قويًا في تقرير الدلائل وإزالة الشبهات حتى لا يتمكن الخصم من إزالته عن الدين، بل هو يكون متمكنًا من إزالة المبطل عن بطلانه.

المسألة الخامسة: قال القاضي قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ يدل على أن العباد هم الذين يصدون، ولو كان تعالى هو الخالق لأفعالهم لكان هو الصادَّ دونهم، فدل ذلك على بطلان القول بالجبر. والجواب: المعارضة بمسألة العلم والداعي، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فالمعنى أن منكر البعث إنما أنكره اتباعًا للهوى لا لدليل، وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد؛ لأن المقلد متبع للهوى لا الحجة. أما قوله: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فهو بمعنى: ولا يصدنك فتردى وإن صدوك وقبلت فليس إلا الهلاك بالنار.

واعلم أن المتوغلين في أسرار المعرفة قالوا: المقام مقامان. **أحدهما**: مقام المحو والفناء عما سوى الله تعالى. **والثاني**: مقام البقاء بالله. والأول مقدم على الثاني لأن من أراد أن يكتب شيئًا في لوح مشغول بكتابة أخرى، فلا سبيل له إليه إلا بإزالة الكتابة الأولى ثم بعد ذلك يمكن إثبات الكتابة الثانية، والحق سبحانه راعى هذا الترتيب الحسن في هذا الباب لأنه قال لموسى عليه السلام أولا: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ وهو إشارة إلى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك أمره بتحصيل ما يجب تحصيله، وأصول هذا الباب ترجع إلى ثلاثة: علم المبدأ وعلم الوسط وعلم المعاد: فعلم المبدأ هو معرفة الحق سبحانه وتعالى، وهو المراد بقوله: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] وأما علم الوسط فهو علم العبودية ومعناها الأمر الذي يجب أن يشتغل الإنسان به في هذه الحياة الجسمانية، وهو المراد بقوله: ﴿فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] ثم في هذا أيضًا تعثر لأن قوله: ﴿فَٱعْبُدْنِى﴾ إشارة إلى الأعمال الجسمانية، وقوله: ﴿لِذِكْرِىٓ﴾ إشارة إلى الأعمال الروحانية والعبودية أولها الأعمال الجسمانية وآخرها الأعمال الروحانية. وأما علم المعاد فهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ثم إنه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف

وهو قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] واختتمها بمحض القهر وهو قوله: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ تنبيهًا على أن رحمته سبقت غضبه وإشارة إلى أن العبد لا بد له في العبودية من الرغبة والرهبة والرجاء والخوف، وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف أن هذا الترتيب هو النهاية في الحسن والجودة، وأن ذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات!!

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ لفظتان، فقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ إشارة إلى العصا، وقوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ إشارة إلى اليد، وفي هذا نكت: **إحداها:** أنه سبحانه لما أشار إليهما جعل كل واحدة منهما معجزًا قاهرًا وبرهانًا باهرًا، ونقله من حد الجمادية إلى مقام الكرامة، فإذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانًا، وصار الجسم الكثيف نورانيًا لطيفًا، ثم إنه تعالى ينظر كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة إلى قلب العبد، فأي عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان إلى سعادة الطاعة ونور المعرفة؟! **وثانيها:** أن بالنظر الواحد صار الجماد ثعبانًا يبتلع سحر السحرة، فأي عجب لو صار القلب بمدد النظر الإلهي بحيث يبتلع سحر النفس الأمارة بالسوء؟! **وثالثها:** كانت العصا في يمين موسى عليه السلام، فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعبانًا وبرهانًا، وقَلْب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، فإذا حصلت ليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة، فأي عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب إصبعي الرحمن من ظلمة المعصية إلى نور العبودية؟!

ثم ههنا سؤالات: الأول: قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤال، والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال، فما الفائدة فيه؟ **والجواب فيه فوائد: إحداها:** أن من أراد أن يُظهر من الشيء الحقير شيئًا شريفًا فإنه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم: هذا ما هو؟ فيقولون: هذا هو الشيء الفلاني. ثم إنه بعد إظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم: خذوا منه كذا وكذا. فالله تعالى لما أراد أن يُظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية، وكضربه البحر حتى انفلق، وفي الحجر حتى انفجر منه الماء، عَرَضه أولاً على موسى فكأنه قال له: يا موسى هل تعرف حقيقة هذا الذي بيدك وأنه خشبة لا تضر ولا تنفع، ثم إنه قلبه ثعبانًا عظيمًا، فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته، من حيث إنه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده، فهذا هو الفائدة من قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾. **وثانيها:** أنه سبحانه لما أطلعه على تلك الأنوار المتصاعدة من الشجرة إلى السماء، وأسمعه تسبيح الملائكة، ثم أسمعه كلام نفسه، ثم إنه مزج اللطف بالقهر، فلاطفه أولاً بقوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ ثم قهره بإيراد التكاليف الشاقة عليه وإلزامه علم المبدأ والوسط والمعاد، ثم ختم كل

ذلك بالتهديد العظيم، تحير موسى ودهش وكاد لا يعرف اليمين من الشمال، فقيل له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ليعرف موسى عليه السلام أن يمينه هي التي فيها العصا. أو لأنه لما تكلم معه أولاً بكلام الإلهية وتحير موسى من الدهشة تكلم معه بكلام البشر إزالة لتلك الدهشة والحيرة، والنكتة فيه أنه لما غلبت الدهشة على موسى في الحضرة، أراد رب العزة إزالتها فسأله عن العصا وهو لا يقع الغلط فيه. كذلك المؤمن إذا مات ووصل إلى حضرة ذي الجلال، فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام، فيسألونه عن الأمر الذي لم يغلط فيه في الدنيا وهو التوحيد، فإذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه. **وثالثها:** أنه تعالى لما عَرَّف موسى كمال الإلهية، أراد أن يعرفه نقصان البشرية، فسأله عن منافع العصا فذكر بعضها فعرَّفه الله تعالى أن فيها منافع أعظم مما ذكر، تنبيهًا على أن العقول قاصرة عن معرفة صفات النبي الحاضر، فلولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول إلى معرفة أجَلِّ الأشياء وأعظمها؟! **ورابعها:** فائدة هذا السؤال أن يقرر عنده أنه خشبة حتى إذا قلبها ثعبانًا لا يخافها.

السؤال الثاني: قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة، ولم يحصل ذلك لمحمد ﷺ فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد.

الجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمدًا عليه السلام في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] إلا أن الفرق بينهما أن الذي ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الله إلى الخلق، والذي ذكره مع محمد ﷺ كان سرًّا لم يستأهل له أحد من الخلق. **والثاني:** إن كان موسى تكلم معه وهو [تكلم] مع موسى، فأمة محمد ﷺ يخاطبون الله في كل يوم مرات على ما قال ﷺ: «**الْمُصَلِّي يُنَاجِي رَبَّهُ**»(1) والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد ﷺ يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكليم في قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

السؤال الثالث: ما إعراب قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ **الجواب:** قال صاحب (الكشاف): (تِلْكَ بِيَمِينِكَ) كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] في انتصاب الحال بمعنى الإشارة، ويجوز أن يكون تلك اسمًا موصولاً وصلته ﴿بِيَمِينِكَ﴾ قال الزجاج: معناه وما التي بيمينك؟ قال

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ٦٧) حديث رقم/ ٥٣٤٩ من طريق أبي حمزة السكري عن ابن أبي ليلى... به. وأيضًا في (مسنده) (٢/ ٣٦) حديث رقم/ ٤٩٢٨ من طريق رباح عن معمر عن صدقة... به. وابن خزيمة في (صحيحه) (٣/ ٣٥٠) حديث رقم/ ٢٢٣٧ من طريق مالك بن سعير حدثنا ابن أبي ليلى... به. والطبراني في (الكبير) (١٢/ ٤٢٨) حديث رقم/ ١٣٥٧٢ من طريق رباح بن زيد عن معمر عن صدقة بن يسار... به. وفي إسناده ابن أبي ليلى وهو ضعيف، ولكن تابعه معمر عند أحمد والطبراني، فصَحَّ به الحديث، أخرجه البخاري في كتاب (الصلاة) باب (حك البزاق باليدين في المسجد) (١/ ٦٣٣) حديث رقم/ ٤٠٥ من طريق إسماعيل بن جعفر... به. وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٩٩) من طريق يزيد بن هارون... به. والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (القول عند دخول المسجد) (١/ ٣٤٧) حديث رقم/ ١٣٩٦ من طريق يزيد بن هارون... به. كلاهما (ابن جعفر، يزيد بن هارون) عن حميد الطويل... به. بلفظ (أن أحدكم اذا صلى يناجي ربه...) الحديث، اللفظ للبخاري.

الفراء: معناه ما هذه التي في يمينك.

واعلم أنه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك، أجاب موسى عليه السلام بأربعة أشياء، ثلاثة على التفصيل وواحد على الإجمال. **الأول:** قوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ قرأ ابن أبي إسحاق: (هي عصي) ومثلها: (يا بشرى) وقرأ الحسن (هي عصاي) بسكون الياء. والنكت هاهنا ثلاثة: **إحداها:** أنه قال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ فذكر العصا، ومن كان قلبه مشغولاً بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقًا في بحر معرفة الحق، ولكن محمدًا ﷺ عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت إلى شيء: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] ولما قيل له: امدحنا. قال: «لاَ أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ» ثم نسي نفسه ونسي ثناءه فقال: «أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» (١) **وثانيها:** لما قال: ﴿عَصَايَ﴾ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلْقِهَا﴾، فلما ألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ليعرف أن كل ما سوى الله فالالتفات إليه شاغل وهو كالحية المهلكة لك. ولهذا قال الخليل عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧] وفي الحديث: «يُجَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَاحِبِ الْمَالِ الَّذِي لَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، وَيُؤْتَى بِذَلِكَ الْمَالِ عَلَى صُورَةِ شُجَاعٍ أَقْرَعَ...» الحديث بتمامه. **وثالثها:** أنه قال: (هي عصاي) فقد تم الجواب، إلا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الأُخر لأنه كان يحب المكالمة مع ربه، فجعل ذلك كالوسيلة إلى تحصيل هذا الغرض. **الثاني:** قوله: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ والتوكي والاتكاء، واحد كالتوقي والاتقاء، معناه أعتمد عليها إذا عييت أو وقفت على رأس القطيع أو عند الطفرة. فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئًا على العصا، وقال الله تعالى لمحمد ﷺ: «أتكئ على رحمتي» (٢) بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فإن قيل: أليس قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] يقتضي كون محمد يتوكأ على المؤمنين؟ قلنا قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] معطوف على الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٤] والمعنى: الله حسبك، وحسب من اتبعك من المؤمنين. **الثالث:** قوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ أي أخبط بها، فأضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمي فتأكله. وقال أهل اللغة: هش على غنمه يُهش بضم الهاء في المستقبل، وهششت الرجل أَهَش بفتح الهاء في المستقبل، وهش الرغيف يهِش بكسر الهاء. قاله ثعلب. وقرأ عكرمة: (وأهس) بالسين غير المنقوطة. والهش: زجر الغنم.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (ما يقال في الركوع والسجود) (١/ ٢٢٢/ ٣٥٢) وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (في الدعاء في الركوع والسجود) (١/ ٣٨٩) حديث رقم/ ٨٧٩ وابن ماجه في كتاب (الدعاء) باب (ما تعوذ منه النبي) (٢/ ١٢٦٢/ ١٢٦٣) حديث رقم/ ٣٨٤١ والنسائي في كتاب (الطهارة) باب (ترك الوضوء من مس رجل) (١/ ١١١) حديث رقم/ ١٦٩ وأحمد في (مسنده) (٦/ ٢٠١) وابن خزيمة باب (نصب القدمين في السجود) حديث رقم/ ٦٥٥ جميعًا من طريق عبد الله بن عمر... به.

(٢) لم أجده.

واعلم أن غنمه رعيته فبدأ بمصالح نفسه في قوله: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ ثم بمصالح رعيته في قوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ فكذلك في القيامة يبدأ بنفسه فيقول: نفسي نفسي ومحمد ﷺ لم يشتغل في الدنيا إلا بإصلاح أمر الأمة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]. «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ» فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضًا بأمته فيقول: «أُمَّتِي أُمَّتِي».

والرابع: قوله: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي حوائج ومنافع، واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها، وحكى ابن الأعرابي وقطرب بكسر الراء أيضًا، والأرب بفتح الراء، والإربة بكسر الألف وسكون الراء: الحاجة، وإنما قال (أخرى) لأن المآرب في معنى جماعة فكأنه قال: جماعة من الحاجات أخرى، ولو جاءت أُخر لكان صوابًا كما قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ثم هاهنا نكت: إحداها: أنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ عرف أن لله فيه أسرارًا عظيمة فذكر ما عرف وعَبَّر عن البواقي التي ما عرفها إجمالاً لا تفصيلاً بقوله: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾. **وثانيها:** أن موسى عليه السلام أحس بأنه تعالى إنما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة، فقال موسى: إلهي ما هذه العصا إلا كغيرها، لكنك لما سألت عنها عرفت أن لي فيها مآرب أخرى، ومن جملتها أنك كلمتني بسببها، فوجدت هذا الأمر العظيم الشريف بسببها. **وثالثها:** أن موسى عليه السلام أجملَ رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك. **ورابعها:** أنه بسبب اللطف انطلق لسانه ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه وتشوش فكره، فأجمل مرة أخرى.

ثم قال وهب: كانت ذات شعبتين كالمحجن، فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا حاول كسره لواه بالشعبتين، [و] إذا سار وضعها على عاتقه يعلق فيها أدواته من القوس والكنانة والثياب، وإذا كان في البرية ركزها وألقى كساء عليها فكانت ظلاً. وقيل: كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوًا، ويصيران شمعتين في الليالي، وإذا ظهر عدو حاربت عنه. وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت. وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت تماشيه، ويركزها فينبع الماء فإذا رفعها نضب، وكانت تقيه الهوام.

واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات أمَره الله تعالى بإلقاء العصا فقال: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ وفيه نكت: **إحداها:** أنه عليه السلام لما قال: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أراد الله أن يعرفه أن فيها مأربة أخرى لا يفطن لها ولا يعرفها وأنها أعظم من سائر مآربه فقال: ﴿أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾. **وثانيتها:** كان في رجله شيء وهو النعل وفي يده شيء وهو العصا، والرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب، فقال أولاً: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢] إشارة إلى ترك الهرب، ثم قال: ألقها يا موسى وهو إشارة إلى ترك الطلب. كأنه سبحانه قال: إنك ما دمت في مقام الهرب والطلب كنت مشتغلاً بنفسك وطالبًا لحظِّك فلا تكون خالصًا لمعرفتي، فكن تاركًا للهرب والطلب لتكون خالصًا لي. **وثالثتها:** أن موسى عليه السلام مع علو درجته، وكمال منقبته

لما وصل إلى الحضرة ولم يكن معه إلا النعلان والعصا، أمره بالقائهما حتى أمكنه الوصول إلى الحضرة، فأنت مع ألف وقر من المعاصي كيف يمكنك الوصول إلى جنابه؟! **ورابعتها:** أن محمدًا ﷺ كان مجردًا عن الكل ما زاغ البصر، فلا جرم وجد الكل لعمرك، أما موسى لما بقي معه تلك العصا لا جرم أمره بإلقاء العصا.

واعلم أن الكعبي تمسك به في أن الاستطاعة قبل الفعل فقال: القدرة على إلقاء العصا إما أن توجد والعصا في يده، أو خارجة من يده فإن أتته القدرة وهي في يده فذاك قولنا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وإذا أتته وليست في يده وإنما استطاع أن يلقي من يده ما ليس في يده فذلك محال.

أما قوله: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ **ففيه أسئلة:**

السؤال الأول: ما الحكمة في قلب العصا حية في ذلك الوقت؟

الجواب فيه وجوه: أحدها: أنه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه، وذلك لأنه عليه السلام إلى هذا الوقت ما سمع إلا النداء، والنداء وإن كان مخالفًا للعادات إلا أنه لم يكن معجزًا لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن، فلا جرم قَلَب الله العصا حية ليصير ذلك دليلاً قاهرًا، والعجب أن موسى عليه السلام قال: (أتوكأ عليها) فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له. **وثانيها:** أن النداء كان إكرامًا له فقلب العصا حية مزيدًا في الكرامة ليكون توالي الخلع والكرامات سببًا لزوال الوحشة عن قلبه. **وثالثها:** أنه عرض عليه ليشاهده أولاً فإذا شاهده عند فرعون لا يخافه. **ورابعها:** أنه كان راعيًا فقيرًا ثم إنه نُصب للمنصب العظيم فلعله بقي في قلبه تعجب من ذلك، فقلب العصا حية تنبيهًا على أني لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد مني نصرة مثلك في إظهار الدين؟! **وخامسها:** أنه لما قال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ فقيل له: ﴿أَلْقِهَا﴾ فلما ألقاها وصارت حية، فر موسى عليه السلام منها، فكأنه قيل له: ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب أخرى فلمَ تفر منها؟! تنبيهًا على سر قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١].

السؤال الثاني: قال ههنا حية وفي موضع آخر ثعبان وجان، أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأما الثعبان والجان فبينهما تنافٍ لأن الثعبان: العظيم من الحيات، والجان: الدقيق، وفيه وجهان: **أحدهما:** أنها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانًا، فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها. **والثاني:** أنها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠].

السؤال الثالث: كيف كانت صفة الحية. **الجواب:** كان لها عُرف كعُرف الفرس، وكان بين لحييها أربعون ذراعًا، وابتلعت كل ما مرت به من الصخور والأشجار حتى سمع موسى صرير الحجر

في فمها وجوفها.

أما قوله تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ . **ففيه سؤالات:**

السؤال الأول: لما نودي موسى وخُص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه معبوث من عند الله تعالى إلى الخلق فلمَ خاف؟!

والجواب من وجوه: أحدها: أن ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لأنه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط. وأيضًا: فهذه الأشياء معلومة بدلائل العقول، وعند الفزع الشديد قد يذهل الإنسان عنه. قال الشيخ أبو القاسم الأنصاري رحمه الله تعالى: وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة؛ لأن الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه فلا يخافه ألبتة. **وثانيها:** قال بعضهم: خافها لأنه عليه السلام عرف ما لقي آدم منها. **وثالثها:** أن مجرد قوله: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ لا يدل على حصول الخوف، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[الأحزاب: ١] لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾[النمل: ١٠] يدل عليه، ولكن ذلك الخوف إنما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد ﷺ فإنه عليه السلام أظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان، وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة في الجنة ولا النفرة عن النار.

السؤال الثاني: متى أخذها؟ بعد انقلابها عصا أو قبل ذلك؟

والجواب: روي أنه أدخل يده بين أسنانها فانقلبت خشبة، والقرآن يدل عليه أيضًا بقوله: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وذلك يقع في الاستقبال، وأيضًا فهذا أقرب للكرامة لأنه كما أن انقلاب العصا حية معجزة، فكذلك إدخال يده في فمها من غير ضرر معجزة، وانقلابها خشبًا معجز آخر، فيكون فيه توالي المعجزات، فيكون أقوى في الدلالة.

السؤال الثالث: كيف أخذه؟ أمع الخوف أو بدونه؟

والجواب: روي مع الخوف. ولكنه بعيد؛ لأن بعد توالي الدلائل يبعد ذلك. وإذا علم موسى عليه السلام أنه تعالى عند الآخذ سيعيدها سيرتها الأولى، فكيف يستمر خوفه، وقد علم صدق هذا القول؟ وقال بعضهم: لما قال له ربه: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ بلغ من ذلك ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه إلى أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها.

السؤال الرابع: ما معنى سيرتها الأولى؟

والجواب: قال صاحب (الكشاف): السيرة من السير كالرِّكبة من الركوب، يقال: (سار فلان سيرة حسنة) ثم اتسع فيها فنقلت إلى معنى المذهب والطريقة.

السؤال الخامس: علام انتصب سيرتها؟

الجواب فيه وجهان: أحدهما: بنزع الخافض يعني: إلى سيرتها. **وثانيهما:** أن يكون سنعيدها مستقلاً بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى أنها كانت أولاً عصًا فصارت حية فسنجعلها عصًا كما كانت، فنصب (سيرتها) بفعل مضمر، أي تسير سيرتها الأولى، يعني سنعيدها سائرة بسيرتها

الأولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها.

قوله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو المعجزة الثانية وفيه مسائل:

المسألة الأولى: يقال لك ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطرفيه وجناحا الإنسان جنباه، والأصل المستعار منه جناحا الطائر لأنه يجنحهما عند الطيران، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما (إلى جناحك: إلى صدرك) والأول أَوْلى لأن يدي الإنسان يشبهان جناحي الطائر لأنه قال: ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ﴾ ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله: ﴿تَخۡرُجۡ﴾ معنى.

واعلم أن معنى ضم اليد إلى الجناح ما قال في آية أخرى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ [النمل: ١٢] لأنه إذا أدخل يده في جيبه، كان قد ضم يده إلى جناحه، والله أعلم.

المسألة الثانية: السوء: الرداءة والقبح في كل شيء، فكنى به عن البَرَص كما كنى عن العورة بالسوأة، والبرص أبغض شيء إلى العرب فكان جديرًا بأن يكنى عنه، يروى أنه عليه السلام كان شديد الأدمة، فكان إذا أدخل يده اليمنى في جيبه وأدخلها تحت إبطه الأيسر وأخرجها، كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير برص، ثم إذا ردها عادت إلى لونها الأول بلا نور.

المسألة الثالثة: (بيضاء وآية) حالان معًا و(من غير سوء) من صلة البيضاء كما تقول (ابيضت من غير سوء) وفي نصب (آية) وجه آخر وهو أن يكون بإضمار نحو (خذ ودونك) وما أشبه ذلك حذف لدلالة الكلام، وقد تعلق بهذا المحذوف لنريك أي (خذ هذه الآية أيضًا بعد قلب العصا لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا. أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك)، فإن قيل: الكبرى من نعت الآيات فلم لم يقل الكُبَر؟ **قلنا**: بل هي نعت الآية والمعنى: لنريك الآية الكبرى. ولئن سَلَّمنا ذلك فهو كما قدمنا في قوله: ﴿مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، و﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨].

المسألة الرابعة: قال الحسن: اليد أعظم في الإعجاز من العصا؛ لأنه تعالى ذكر ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ عقيب ذكر اليد. وهذا ضعيف لأنه ليس في اليد إلا تغير اللون، وأما العصا ففيه تغير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر، ثم عاد عصا بعد ذلك، فقد وقع التغير مرة أخرى في كل هذه الأمور فكانت العصا أعظم.

وأما قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ فقد بينا أنه عائد إلى الكل وأنه غير مختص باليد.

المسألة الخامسة: أنه سبحانه وتعالى لما أظهر له هذه الآية، عَقَّبها بأن أمره بالذهاب إلى فرعون وبَيَّن العلة في ذلك وهي أنه طغى، وإنما خص فرعون بالذكر مع أن موسى عليه السلام

كان مبعوثًا إلى الكل لأنه ادعى الإلهية وتكبر وكان متبوعًا، فكان ذكره أولى. قال وهب: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: «اسْمَعْ كَلاَمِي وَاحْفَظْ وَصِيَّتِي وَانْطَلِقْ بِرِسَالَتِي، فَإِنَّكَ بِعَيْنِي وَسَمْعِي، وَإِنَّ مَعَكَ يَدِي وَبَصَرِي، وَإِنِّي أَلْبَسْتُكَ جُنَّةً مِنْ سُلْطَانِي لِتَسْتَكْمِلَ بِهَا الْقُوَّةَ فِي أَمْرِي، أَبْعَثُكَ إِلَى خَلْقٍ ضَعِيفٍ مِنْ خَلْقِي بَطَرَ نِعْمَتِي وَأَمِنَ مَكْرِي وَغَرَّتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى جَحَدَ حَقِّي وَأَنْكَرَ رُبُوبِيَّتِي، وَإِنِّي أُقْسِمُ بِعِزَّتِي لَوْلاَ الْحُجَّةُ وَالْعُذْرُ الَّذِي وَضَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ خَلْقِي، لَبَطَشْتُ بِهِ بَطْشَةَ جَبَّارٍ، وَلَكِنْ هَانَ عَلَيَّ وَسَقَطَ مِنْ عَيْنِي، فَبَلِّغْهُ عَنِّي رِسَالَتِي وادعُهُ إلى عِبَادَتِي وحَذِّرهِ نِقْمَتِي: وَقُلْ لَهُ قَوْلاً لينًا لاَ يَغْتَرَّنَّ بِلِبَاسِ الدُّنْيَا فَإِنَّ نَاصِيَتَهُ بِيَدِي، لاَ يَطْرِفُ وَلاَ يَتَنَفَّسُ إِلاَّ بِعِلْمِي - فِي كَلاَمٍ طَوِيلٍ - قَالَ: فَسَكَتَ مُوسَى سَبْعَةَ أَيَّامٍ لاَ يَتَكَلَّمُ، ثُمَّ جَاءَهُ مَلَكٌ فَقَالَ: أَجِبْ رَبَّكَ فِيمَا أَمَرَكَ بِعَبْدِهِ».

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون وكان ذلك تكليفًا شاقًا، فلا جرم سأل ربه أمورًا ثمانية، ثم ختمها بما يجري مجرى العلة لسؤال تلك الأشياء.

المطلوب الأول: قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ واعلم أنه يقال: شرحت الكلام، أي بينته وشرحت صدره، أي وسعته. والأول يقرب منه لأن شرح الكلام لا يحصل إلا ببسطه.

والسبب في هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: ١٣] فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة، وقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ فأفهم عنك ما أنزلت عليَّ من الوحي. وقيل: شجّعني لأجترئ به على مخاطبة فرعون.

ثم الكلام فيه يتعلق بأمور:

أحدها: فائدة الدعاء وشرائطه. **وثانيها:** ما السبب في أن الإنسان لا يذكر وقت الدعاء من أسماء الله تعالى إلا الرب. **وثالثها:** ما معنى شرح الصدر؟ **ورابعها:** بماذا يكون شرح الصدر؟ **وخامسها:** كيف كان شرح الصدر في حق موسى عليه السلام ومحمد ﷺ؟ **وسادسها:** صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحًا أو لم يكن منشرحًا؟ فإن كان منشرحًا كان طلب شرح الصدر تحصيلاً للحاصل وهو محال، وإن لم يكن منشرحًا فهو باطل من وجهين: **الأول:** أنه سبحانه بيَّن له فيما تقدم كل ما يتعلق بالأديان من معرفة الربوبية والعبودية وأحوال المعاد، وكل ما يتعلق بشرح الصدر في باب الدين فقد حصل، ثم إنه سبحانه تلطَّف له بقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣] ثم كلمه على سبيل الملاطفة بقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] ثم أظهر له المعجزات العظيمة والكرامات الجسيمة، ثم أعطاه منصب الرسالة بعد أن كان فقيرًا وكل ما يتعلق به الإعزاز والإكرام فقد حصل، ولو أن ذرة من هذه المناصب حصلت لأدون

الناس لصار منشرح الصدر، فبعد حصولها لكليم الله تعالى يستحيل أن لا يصير منشرح الصدر.
والثاني: أنه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الأشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة إليه، فإن من كان ضيق القلب مشوش الخاطر - لا يصلح للقضاء على ما قال عليه السلام: «لاَ يَقْضِي الْقَاضِي وَهُوَ غَضْبَانُ» (١) فكيف يصلح للنبوة التي أقل مراتبها القضاء؟

فهذا مجموع الأمور التي لا بد من البحث عنها في هذه الآية.

أما البحث الأول: وهو فائدة الدعاء وشرائطه: فقد تقدم في تفسير قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلا أنه نذكر منها هاهنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول: اعلم أن للكمال مراتب ودرجات، وأعلاها أن يكون كاملاً في ذاته مكملاً لغيره: أما كونه كاملاً في ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته، وكل ما كان كذلك كان كاملاً في الأزل، ولكنه يستحيل أن يكون مكملاً في الأزل؛ لأن التكميل عبارة عن جعل الشيء كاملاً وذلك لا يتحقق إلا عند عدم الكمال، فإنه لو كان حاصلاً في الأزل لاستحال التأثير فيه، فإن تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع، فلا جرم أنه سبحانه وإن كان كاملاً في الأزل إلا أنه يصير مكملاً فيما لا يزال، فإن قيل: إذا كان التكميل من صفات الكمال فحيث لم يكن مكملاً في الأزل فقد كان عاريًا عن صفات الكمال فيكون ناقصًا وهو محال. قلنا: النقصان إنما يلزم لو كان ذلك ممكنًا في الأزل، لكنا بينا أن الفعل الأزلي محال، فالتكميل الأزلي محال، فعدمه لا يكون نقصانًا، كما أن قولنا: إنه لا يقدر على تكوين مثل نفسه لا يكون نقصانًا لأنه غير ممكن الوجود في نفسه، وكقولنا: إنه لا يعلم عددًا مفصلاً كحركات أهل الجنة لأن كل ما له عدد مفصل فهو متناهٍ، وحركات أهل الجنة غير متناهية فلا يكون له عدد مفصل، فامتنع ذلك لا لقصور في العلم، بل لكونه في نفسه ممتنع الحصول.

إذا ثبت هذا فنقول: إنه سبحانه وتعالى لما قصد إلى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين لأن الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال، فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات، فأجلس على المائدة بعض المعدومات دون البعض لأسباب.

أحدها: أن المعدومات غير متناهية، فلو أجلس الكل على مائدة الوجود، لدخل ما لا نهاية له في الوجود.

وثانيها: أنه لو أوجد الكل لما بقي بعد ذلك قادرًا على الإيجاد؛ لأن إيجاد الموجود محال،

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الأحكام) باب (هل يقضي القاضي أو يقضي وهو غضبان) (١٣/ ١٤٦) حديث رقم/ ٧١٥٨ من طريق شعبة . . . به. ومسلم في كتاب (الأقضية) باب (كراهية قضاء القاضي وهو غضبان) (٣/ ١٦/ ١٣٤٢) من طريق أبي عوانة . . . به. كلاهما (شعبة، أبو عوانة) عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي بكرة . . . به.

فكان ذلك وإن كان كمالاً للناقص لكنه يقتضي نقصان الكامل، فإنه ينقلب القادر من القدرة إلى العجز.

وثالثها: أنه لو دخل الكل في الوجود لما بقي فيه تمييز فلا يتميز القادر على الموجب والقدرة كمال والإيجاب بالطبع نقصان، فلهذه الأسباب أخرج بعض الممكنات إلى الوجود. فإن قيل عليه سؤالان: أحدهما: أن الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية، ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي، فتكون أيضًا الضيافة ضيافة للأقل، وأما الحرمان فإنه عدد لما لا نهاية له، وهذا لا يكون وجودًا. الثاني: أن البعض الذي خصه بهذه الضيافة إن كان لاستحقاق حصل فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل؟ وإن كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثًا وهو محال، كما قيل:

يُعْطِي وَيَمْنَعُ لاَ بُخْلاً وَلاَ كَرَمًا (١)

وإنه لا يليق بأكرم الأكرمين.

والجواب عن الكل: أن هذه الشبهات إنما تدور في العقول والخيالات؛ لأن الإنسان يحاول قياس فعله على فعلنا، وذلك باطل؛ لأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

إذا عرفت هذا فهذا الوجود الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الضيافة العامة والمائدة الشاملة، وهو المراد من قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ثم إن الموجودات انقسمت إلى الجمادات وإلى الحيوانات، ولا شك أن الجماد بالنسبة إلى الحيوان كالعدم بالنسبة إلى الوجود؛ لأن الجماد لا خبر عنده من وجوده، فوجوده بالنسبة إليه كالعدم وعدمه كالوجود، وأما الحيوان فهو الذي يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة إليه، ولأن الجماد بالنسبة إلى الحيوان آلة لأن الحيوانات تستعمل الجمادات في أغراض أنفسها ومصالحها، وهي كالعبد المطيع المسخر والحيوان كالمالك المستولي، فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية، فكما أن إحسان الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض، كذلك اقتضيا وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض، فلا جرم جعل بعض الموجودات أحياء دون البعض، والحياة بالنسبة إلى الجمادية كالنور بالنسبة إلى الظلمة، والبصر بالنسبة إلى العمى، والوجود بالنسبة إلى العدم، فعند ذلك صار بعض الموجودات حيًّا مدركًا

---

(١) هذا الشطر الثاني من البيت ضمن قصيدة من البحر البسيط للشاعر دعبل الخزاعي، والبيت هكذا:

لَكِنَّها خَطَراتٌ مِن وَساوِسِهِ يُعطي وَيَمنَعُ لا بُخلاً وَلا كَرَما

دعبل الخزاعي هو: دعبل بن علي بن رزين الخزاعي، أبو علي. ١٤٨- ٢٤٦ هـ/ ٧٦٥= ٨٦٠ م شاعر هَجّاء، أصله من الكوفة، أقام ببغداد. في شعره جودة، كان صديق البحتري وصَنَّف كتابًا في طبقات الشعراء. قال ابن خلكان: كان بذيء اللسان مولعًا بالهجو والحط من أقدار الناس، هجا الخلفاء: الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق ومن دونهم. وطال عمره فكان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك. وكان طويلاً ضخماً أطروشاً. توفي ببلدة تدعى الطيب بين واسط وخوزستان.

للمنافي والملائم واللذة والألم والخير والشر، فمن ثَم قالت الأحياء عند ذلك: يا رب الأرباب إنا وإن وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفتنا بذلك، لكن ازدادت الحاجة لأنا حال العدم وحال الجمادية ما كنا نحتاج إلى الملائم والموافق، وما كنا نخاف المنافي والمؤذي، ولما حصل الوجود والحياة احتجنا إلى طلب الملائم ودفع المنافي، فإن لم تكن لنا قدرة على الهرب والطلب والدفع والجذب، لبقينا كالزمِن المُقعَد على الطريق عرضة للآفات وهدفًا لسهام البليات، فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التي بها نتمكن من الطلب تارة والهرب أخرى. فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الأحياء بالقدرة، كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة، وتخصيص بعض المعدومات بالوجود. فقال القادرون عند ذلك: إلهنا الجواد الكريم إن الحياة والقدرة بلا عقل لا تكون إلا لأحد القسمين: إما للمجانين المقيدين بالسلاسل والأغلال، وإما للبهائم المستعملة في حمل الأثقال، وكل ذلك من صفات النقصان، وأنت قد رقيتنا من حضيض النقصان إلى أوج الكمال، فأفض علينا من العقل الذي هو أشرف مخلوقاتك وأعز مبدعاتك الذي شرفته بقولك: (بك أهين وبك أثيب وبك أعاقب) حتى تفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة. فأعطاهم العقل وَبَعث في أرواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية، فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الأربعة: الوجود والحياة والقدرة والعقل، فالعقل خاتم الكل والخاتم يجب أن يكون أفضل، ألا ترى أن رسولنا ﷺ لما كان خاتم النبيين كان أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ والإنسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان أفضلها؟ فكذلك العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذي الجلال كان أفضل الخلع وأكملها، ثم نظر العقل في نفسه فرأى نفسه كالجفنة المملوءة من الجواهر النفيسة بل كأنها سماء مملوءة من الكواكب الزاهرة وهي العلوم الضرورية البديهية المركوزة في بدائه العقول وصرائح الأذهان، وكما أن الكواكب المركوزة في السموات علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فكذلك الجواهر المركوزة في سماء العقل كواكب زاهرة يهتدي بها السائرون في ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار العالم الروحانية وفسحة السموات وأضوائها. فلما نظر العقل إلى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك الجواهر وعلى جميع تلك الخلع، فاستدل بتلك الأرقام على راقم، وبتلك النقوش على ناقش، وعند ذلك عرف أن النقاش بخلاف النقش والباني بخلاف البناء، فانفتح له من أعلى سماء عالم المحدثات روازن إلى أضواء لوائح عالم القدم وطالع عالم القدم الأزلية والجلال، وكان العقل إنما نظر إلى أضواء عالم الأزلية من ظلمات عالم الحدوث والإمكان، فغلبته دهشة أنوار الأزلية فعميت عيناه فبقي متحيرًا، فالتجأ بطبعه إلى مفيض الأنوار، فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ فإن البحار عميقة والظلمات متكاثفة، وفي الطريق قطاع من الأعداء الداخلة والخارجة، وشياطين الإنس والجن كثيرة، فإن لم تشرح لي صدري ولم تكن لي عونًا في كل الأمور، انقطعت،

وصارت هذه الخلع سببًا لنيل الآفات لا للفوز بالدرجات. فهذا هو المراد من قوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾.

ثم قال: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات فما لم يصر العبد مريدًا له استحال أن يصير فاعلاً له، فهذه الإرادة صفة محدثة ولا بد لها من فاعل، وفاعلها إن كان هو العبد افتقر في تحصيل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى، ولزم التسلسل، بل لا بد من الانتهاء إلى إرادة يخلقها مدبر العالم، فيكون في الحقيقة هو الميسر للأمور وهو المتمم لجميع الأشياء، وتمام التحقيق أن حدوث الصفة لا بد له من قابل وفاعل، فعبر عن استعداد القابل بقوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ وعبر عن حصول الفاعل بقوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ وفيه التنبيه على أنه سبحانه وتعالى هو الذي يعطي القابل قابليته والفاعل فاعليته؛ ولهذا كان السلف رضي الله عنهم يقولون: يا مبتدئًا بالنعم قبل استحقاقها. ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع على أن جميع الحوادث في هذا العالم واقعة بقضائه وقدره وحكمته وقدرته.

ويمكن أن يقال أيضًا: كأن موسى عليه السلام قال: إلهي لا أكتفي بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الأمر وتحصيل الغرض. فلهذا قال: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ أو يقال: إنه سبحانه وتعالى لما أعطاه الخلع الأربع وهي الوجود والحياة والقدرة والعقل، فكأنه قال له: يا موسى أعطيتك هذه الخلع الأربع فلا بد في مقابلتها من خدمات أربع لتقابل كل نعمة بخدمة. فقال موسى عليه السلام: ما تلك الخدمات؟ فقال: وأقم الصلاة لذكري فإن فيها أنواعًا أربعة من الخدمة، القيام والقراءة والركوع والسجود، فإذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة. ثم إنه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهي خلعة الرسالة قال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ حتى أعرف أني بأي خدمة أقابل هذه النعمة؟ فقيل له بأن تجتهد في أداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب. فقال موسى: يا رب إن هذا لا يتأتى مني مع عجزي وضعفي وقلة آلاتي وقوة خصمي، فاشرح لي صدري ويسِّر لي أمري.

الفصل الثاني في قوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾: اعلم أن الدعاء سبب القرب من الله تعالى، وإنما اشتغل موسى بهذا الدعاء طلبًا للقرب. فنفتقر إلى بيان أمرين: إلى بيان أن الدعاء سبب القرب، ثم إلى بيان أن موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء.

أما بيان أن الدعاء سبب القرب فيدل عليه وجوه: الأول: أن الله تعالى ذكر السؤال والجواب في كتابه في عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية: أما الأصولية: فأولها: في البقرة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]. وثانيها: في بني إسرائيل ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. وثالثها: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ [طه: ١٠٥]. ورابعها: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢] وأما الفروعية فستة: منها في البقرة على التوالي: أحدها: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]

وثانيها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٧] وثالثها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] ورابعها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] وخامسها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وسادسها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٢٢] وسابعها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال: ١] وثامنها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣] وتاسعها: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾ [يونس: ٥٣] وعاشرها: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾ [النساء: ١٧٦] والحادية عشر: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

إذا عرفت هذا فنقول: جاءت هذه الأسئلة والأجوبة على صور مختلفة، فالأغلب فيها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد ﷺ(قل) وفي صورة أخرى جاء الجواب بصيغة (فقل) مع فاء التعقيب وفي صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب، وهو قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٧]وفي صورة رابعة ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ (قل) ولا لفظ (فقل) وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ولا بد لهذه الأشياء من الفائدة فنقول:أما الأجوبة الواردة بلفظ (قل) فلا إشكال فيها لأن قوله تعالى (قل) كالتوقيع المحدد في ثبوت نبوة محمد ﷺوكالتشريف المحدد في كونه مخاطبًا من الله تعالى بأداء الوحي والتبليغ.

وأما الصورة الثانية وهي قوله:﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥]فالسبب أن قولهم: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]سؤال، إما عن قدمها أو عن وجوب بقائها، وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين، فلا جرم أمر الله تعالى محمدًا ﷺأن يجيب بلفظ الفاء المفيد للتعقيب، كأنه سبحانه قال: يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال ولا تقتصر، فإن الشك فيه كفر، ولا تمهل هذا الأمر لئلا يقعوا في الشك والشبهة، ثم كيفية الجواب أنه قال: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥]ولا شك أن النسف ممكن لأنه ممكن في حق كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه، فوجب أن يكون ممكنًا في حق كل الجبل، وذلك يدل على أنه ليس بقديم ولا واجب الوجود؛ لأن القديم لا يجوز عليه التغير والنسف، فإن قيل: إنهم قالوا: أخبرنا عن إلهك أهو ذهب أو فضة أو حديد؟ فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]ولم يقل (فقل هو الله أحد) مع أن هذه المسألة من المهمات؟ قلنا: إنه تعالى لم يحكِ في هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعي سبق كلام، فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف هاهنا، فإنه تعالى حكى سؤالهم فحسُن عطف الجواب عليه بحرف الفاء.

وأما الصورة الثالثة:فإنه تعالى لم يذكر الجواب في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٧]فالحكمة فيه أن معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التي شرحناها فيما سبق؛

فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب، وذلك يدل على أن من الأسئلة ما لا يجاب عنها.

وأما الصورة الرابعة: وهي قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[البقرة: ١٨٦] ولم يذكر في جوابه (قل): ففيه وجوه: أحدها: أن ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وأنه من أعظم العبادات، فكأنه سبحانه قال: يا عبادي أنت إنما تحتاج إلى الواسطة في غير الدعاء، أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك. يدل عليه أن كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات، قال لرسوله ﷺ: اذكر لهم تلك القصة، كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾[المائدة: ٢٧]. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾[الأعراف: ١٧٥]. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾[مريم: ٥١]، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾[مريم: ٥٤]. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾[مريم: ٥٦]. ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾[الحجر: ٥١]، ثم قال في قصة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[يوسف: ٣] وفي أصحاب الكهف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾[الكهف: ١٣]. وما ذاك إلا لما في هاتين القصتين من العجائب والغرائب، والحاصل كأنه سبحانه وتعالى قال: يا محمد إذا سئلت عن غيري فكن أنت المجيب، وإذا سئلت عني فاسكت أنت حتى أكون أنا القائل. وثانيها: أن قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾[البقرة: ١٨٦] يدل على أن العبد له [أن يسأل] وقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[البقرة: ١٨٦] يدل على أن الرب قريب من العبد. وثالثها: لم يقل فالعبد مني قريب، بل قال أنا منه قريب. وهذا فيه سر نفيس فإن العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو، هو في مركز العدم وحضيض الفناء، فكيف يكون قريبًا، بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى، فإنه بفضله وإحسانه جعله موجودًا وقربه من نفسه، فالقرب منه لا من العبد فلهذا قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. ورابعها: أن الداعي ما دام يبقى خاطره مشغولاً بغير الله تعالى فإنه لا يكون داعيًا لله تعالى، فإذا فنى عن الكل وصار مستغرقًا بمعرفة الله الأحد الحق، امتنع أن يبقى في مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات إلى غير الله تعالى، فلا جرم رفعت الواسطة من البين فما قال: فقل إني قريب. بل قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

فثبت بما تقرر فضل الدعاء، وأنه من أعظم القربات، ثم من شأن العبد إذا أراد أن يتحف مولاه أن لا يتحفه إلا بأحسن التحف والهدايا، فلا جرم أول ما أراد موسى أن يتحف الحضرة الإلهية بتحف الطاعات والعبادات أتحفها بالدعاء فلا جرم قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

والوجه الثاني في بيان فضل الدعاء: قوله عليه السلام: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»(١) ثم إن أول شيء أمر الله تعالى به موسى عليه السلام (العبادة) لأن قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾[طه: ١٤] إخبار وليس بأمر إنما الأمر قوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾[طه: ١٤] فلما كان أول ما أورد على موسى من الأوامر هو الأمر بالعبادة، لا جرم أول ما أتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة

---

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٥٦) حديث رقم/ ٣٣٧١ من طريق الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر عن أبان بن صبيح عن أنس. . . به. وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. اهـ وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف لسوء حفظه.

الدعاء فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ .

والوجه الثالث وهو أن الدعاء نوع من أنواع العبادة: فكما أنه سبحانه وتعالى أمَر بالصلاة والصوم فكذلك أمَر بالدعاء، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ [الأعراف: ٥٦]. ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: ٥٥]. ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ [غافر: ٦٥]. ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ [الإسراء: ١١٠]. ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]وقال ﷺ: «ادْعُوا بيَا ذا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام» (١) فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة.

قال بعض الجهال: الدعاء على خلاف العقل من وجوه:

أحدها: أنه علام الغيوب يعلم ما في الأنفس وما تخفي الصدور، فأي حاجة بنا إلى الدعاء؟! وثانيها: أن المطلوب إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الدعاء، وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه. وثالثها: الدعاء يشبه الأمر والنهي، وذلك من العبد في حق المولى سوء أدب. ورابعها: المطلوب بالدعاء إن كان من المصالح فالحكيم لا يهمله، وإن لم يكن من المصالح لم يجز طلبه. وخامسها: فقد جاء أن أعظم مقامات الصِّديقين الرضا بقضاء الله تعالى وقد ندب إليه، والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالالتماس والطلب. وسادسها: قال عليه السلام رواية عن الله تعالى: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ» (٢) فدل على أن الأَوْلى ترك الدعاء، والآيات التي ذكرتموها تقتضي وجوب الدعاء. وسابعها: أن إبراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي» استحق المدح العظيم فدل على أن الأَوْلى ترك الدعاء.

والجواب عن الأول: أنه ليس الغرض من الدعاء الإعلام، بل هو نوع تضرع كسائر التضرعات.

وعن الثاني: أنه يجري مجرى أن نقول للجائع والعطشان: إن كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الأكل والشرب وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه. **وعن الثالث:** أن الصيغة وإن كانت صيغة الأمر إلا أن صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك. **وعن الرابع:** يجوز أن يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء. **وعن الخامس:** أنه إذا دعا إظهارًا للتضرع ثم رضي بما قدره الله تعالى، فذاك أعظم المقامات، وهو الجواب عن البقية إذا ثبت أنه من العبادات، ثم إنه تعالى أمره بالعبادة وبالصلاة أمرًا ورد مجملاً، لا جرم شرع في أجَلِّ العبادات وهو الدعاء.

الوجه الرابع في فضل الدعاء: أنه سبحانه لم يقتصر في بيان فضل الدعاء على الأمر به، بل بَيَّن في آية أخرى أنه يغضب إذا لم يُسأل فقال: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ١٧٧) حديث رقم/ ١٧٦٣٢ من طريق عبد الله بن المبارك عن يحيى بن حسان عن ربيعة بن عامر... به.

(٢) تقدم تخريجه.

لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣] وقال عليه السلام: «لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ»(١) ولكن يجزم فيقول: اللهم اغفر لي. فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب اشرح لي صدري.

الوجه الخامس في فضل الدعاء: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] وفيه كرامة عظيمة لأمتنا؛ لأن بني إسرائيل فضّلهم الله تفضيلاً عظيمًا فقال في حقهم: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] وقال أيضًا: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ [البقرة: ٦٨] وأن الحواريين مع جلالتهم في قولهم: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء، ثم إنه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة في أمتنا فقال مخاطبًا لهم من غير واسطة: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] وقال: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النساء: ٣٢] فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضيلة لهذه الأمة وكان موسى عليه السلام قد عرفها، لا جرم فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ»(٢) فلا جرم رفع يديه ابتداء فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾.

واعلم أنه تعالى قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] ثم إنه تعالى جعل العباد على سبعة أقسام:

أحدها: عبد العصمة: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وموسى عليه السلام كان مخصوصًا بمزيد العصمة: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١] فلا جرم طلب زوائد العصمة فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾. وثانيها: عبد الصفوة: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾ [النمل: ٥٩] وموسى عليه السلام كان مخصوصًا بمزيد الصفوة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] فلا جرم أراد مزيد الصفوة فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾. وثالثها: عبد البشارة: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وكان موسى عليه السلام مخصوصًا بذلك: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] فأراد مزيد البشارة فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾. ورابعها:

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الدعوات) باب (ليعزم المسألة فإنه لا مكره له) (٥/ ٢٣٣٤) حديث رقم/ ٥٩٨٠ من طريق الأعرج عن أبي هريرة... به. ورواه أيضًا في (صحيحه) (٦/ ٢٧١٨) حديث رقم/ ٧٠٣٩ من طريق همام عن أبي هريرة... به. ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٦٣/ ٢٦٧٩) من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة... به. ورواه أيضًا في نفس المصدر من طريق عطاء بن ميناء عن أبي هريرة... به.

(٢) **موضوع:** والعظمة لأبي الشيخ (٥/ ١٥٣٠) حديث رقم/ ٩٩٨١ والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦٧٤) حديث رقم/ ٤٢٣١ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي معلقًا في التلخيص: بل موضوع فسبح الله من وضعه. وأورده ابن الجوزي في (الموضوعات) (١/ ٢٠٠) جميعًا من طريق أحمد بن هاشم حدثنا يزيد أبو خالد البلوي حدثنا أبو إسحاق الحريثي حدثنا الأوزاعي عن مكحول عن أنس بن مالك... به. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع لا أصل له.

عبد الكرامة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ﴾ [الزخرف: ٦٨] وموسى عليه السلام كان مخصوصًا بذلك: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ [طه: ٤٦] فأراد الزيادة عليها فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾. وخامسها: عبد المغفرة: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، وكان موسى عليه السلام مخصوصًا بذلك: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ [ص: ٣٥] فغفر له فأراد الزيادة فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾. وسادسها: عبد الخدمة: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وموسى عليه السلام كان مخصوصًا بذلك: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ فطلب الزيادة فيها فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾. وسابعها: عبد القربة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] وموسى عليه السلام كان مخصوصًا بالقرب: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢] فأراد كمال القرب فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾.

الفصل الثالث: في قوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ وفيه وجوه: أحدها: أنه تعالى لما خاطبه بالأشياء الستة [التي] أحدها: معرفة التوحيد: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]، وثانيها: أمره بالعبادة والصلاة: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، وثالثها: معرفة الآخرة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ [طه: ١٥] ورابعها: حكمة أفعاله في الدنيا: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]، وخامسها: عرض المعجزات الباهرة عليه: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه: ٢٣]، وسادسها: إرساله إلى أعظم الناس كفرًا وعتوًّا، فكانت هذه التكاليف الشاقة سببًا للقهر، فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجز فعرفه أن كل من سأله قرب منه فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ فأراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ أو يقال: خاف شياطين الإنس والجن، فدعا ليصل بسبب الدعاء إلى مقام القرب، فيصير مأمونًا من غوائل شياطين الجن والإنس. وثانيها: أن المراد أنه أراد الذهاب إلى فرعون وقومه، فأراد أن يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية، فعرف أن من دعا ربه قربه له وقربه لديه، فحينئذٍ تنقطع الأطماع بالكلية فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾. وثالثها: الوجود كالنور والعدم كالظلمة، وكل ما سوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شيء هالك إلا وجهه، فالكل كأنهم في ظلمات العدم وإظلال عالم الأجسام والإمكان فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ حتى يجلس قلبي في بهي ضوء المعرفة وسادة شرح الصدر والجالس في الضوء لا يرى من كان جالسًا في الظلمة، فحين جلس في ضوء شرح الصدر لا يرى أحدًا في الوجود فلهذا عقبه بقوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ فإن العبد في مقام الاستغراق لا يتفرغ لشيء من المهمات. ورابعها: رب اشرح لي صدري فإن عين العين ضعيفة، فأطلع يا إلهي شمس التوفيق حتى أرى كل شيء كما هو، وهذا في معنى قول محمد ﷺ: «أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ» واعلم أن شرح الصدر مقدمة لسطوع الأنوار الإلهية في القلب، والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلام، فالله تعالى أعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهي ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣] فلا جرم نسج موسى على ذلك المنوال، فطلب المقدمة الأخرى فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ

لِي صَدْرِي﴾ ولما آل الأمر إلى محمد ﷺ قيل له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] والعلم هو المقصود، فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد ﷺ لا جرم أعطي المقدمة، ولما كان محمد كالمقصود لا جرم أُعطى المقصود، فسبحانه ما أدق حكمته في كل شيء.

وسادسها: الداعي له صفتان: إحداهما: أن يكون عبدًا للرب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وثانيتهما: أن يكون الرب له: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أضاف نفسه إلينا وما أضافنا إلى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملاً من هذين الوجهين، فأراد موسى عليه السلام أن يرتع في هذا البستان فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. وسابعها: أن موسى عليه السلام شرفه الله تعالى بقوله: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] فكأن موسى عليه السلام قال: إلهي لما قلت: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ صرتُ قريبًا منك، ولكن أريد قربك مني فقال: يا موسى أما سمعت قولي: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] فاشتغِل بالدعاء حتى أصير قريبًا منك. فعند ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. وثامنها: قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وقال لمحمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] ثم إنه تعالى ما تركه على هذه الحالة بل قال: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] فانظر إلى التفاوت، فإن شرح الصدر هو أن يصير الصدر قابلاً للنور، والسراج المنير هو أن يعطي النور، فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد ﷺ كالتفاوت بين الآخذ والمعطي، ثم نقول إلهنا إن ديننا وهي كلمة لا إله إلا الله نور، والوضوء نور، والصلاة نور، والقبر نور، والجنة نور، فبحق أنوارك التي أعطيتنا في الدنيا، لا تحرمنا أنوار فضلك وإحسانك يوم القيامة.

الفصل الرابع: في قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر فقال: **«نور يقذف في القلب»** فقيل: وما أمارته؟ فقال: **«التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل النزول»** (١)، ويدل على أن شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

واعلم أن الله تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور:

أحدها: وصف ذاته بالنور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. وثانيها: الرسول: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وثالثها: القرآن: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ورابعها: الإيمان: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]. وخامسها: عدل الله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. وسادسها: ضياء القمر: ﴿وَجَعَلَ

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا:** أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٣٤٦) حديث رقم/ ٧٨٦٣ وقال الذهبي معلقًا: عدي بن الفضل ساقط. والبيهقي في (شعب الإيمان) (٧/ ٣٥٢) حديث رقم/ ١٠٥٥٢ والطبري في (تفسيره) (١٢/ ١٠٢) حديث رقم/ ١٣٨٥٧ جميعًا من طريق عدي بن الفضل عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود. . . به.

﴿ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[نوح: ١٦]، وسابعها: النهار: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١]. وثامنها: البينات: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[المائدة: ٤٤]. وتاسعها: الأنبياء: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[النور: ٣٥]. وعاشرها: المعرفة: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[النور: ٣٥].

إذا ثبت هذا فنقول: كأن موسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك. وثانيها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، بالتخلق بأخلاق رسلك وأنبيائك. وثالثها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، باتباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك. ورابعها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، بنور الإيمان والإيقان بإلهيتك. وخامسها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ بالإطلاع على أسرار عدلك في قضائك وحكمك. وسادسها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ بالإنتقال من نور شمسك وقمرك إلى أنوار جلال عزتك كما فعله إبراهيم عليه السلام حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس إلى حضرة العزة. وسابعها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ من مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك. وثامنها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ بالإطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك في أرضك وسمواتك. وتاسعها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ في أن أكون خلف صور الأنبياء المتقدمين ومتشبهًا بهم في الإنقياد لحكم رب العالمين. وعاشرها: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ بأن تجعل سراج الإيمان في قلبي كالمشكاة التي فيها المصباح.

واعلم أن شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور في القلب حتى يصير القلب كالسراج، وذلك النور كالنار، ومعلوم أن من أراد أن يستوقد سراجًا احتاج إلى سبعة أشياء: زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن.

فالعبد إذا طلب النور الذي هو شرح الصدر افتقر إلى هذه السبعة.

فأولها لا بد من زند المجاهدة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت: ٦٩]. وثانيها: حجر التضرع: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[الأعراف: ٥٥]. وثالثها: حراق منع الهوى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠]. ورابعها: كبريت الإنابة: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾[الزمر: ٥٤] ملطخًا رؤوس تلك الخشبات بكبريت ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾[التحريم: ٨]. وخامسها: مسرجة الصبر: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة: ٤٥]. وسادسها: فتيلة الشكر: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم: ٧]. وسابعها: دهن الرضا: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[الطور: ٤٨] أي ارض بقضاء ربك فإذا صلحت هذه الأدوات فلا تعول عليها بل ينبغي أن لا تطلب المقصود إلا من حضرته: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾[فاطر: ٢] ثم اطلبها بالخشوع والخضوع: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[طه: ١٠٨] فعند ذلك ترفع يد التضرع وتقول: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ فهنالك تسمع. ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[طه: ٣٦] ثم نقول: هذا النور الروحاني المسمى بشرح الصدر - أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه:

أحدها: الشمس تحجبها غمامة، وشمس المعرفة لا يحجبها السموات السبع: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ

﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]. وثانيها: الشمس تغيب ليلاً وتعود نهارًا، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]أما شمس المعرفة فلا تغيب ليلاً: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ [المزمل: ٦]﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]بل أكمل الخلع الروحانية تحصل في الليل: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]. وثالثها: الشمس تفنى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]وشمس المعرفة لا تفنى: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. ورابعها: الشمس إذا قابلها القمر انكسفت أما هاهنا فشمس المعرفة وهي معرفة أشهد أن لا إله إلا الله ما لم يقابلها قمر أشهد أن محمدًا رسول الله – لم يصل نوره إلى عالم الجوارح. وخامسها: الشمس تُسَود الوجوه والمعرفة تبيضها: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. وسادسها: الشمس تحرق والمعرفة تنجي من الحرق، جُزيا مؤمن فإن نورك قد أطفأ لهبي. وسابعها: الشمس تصدع، والمعرفة تصعد: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]. وثامنها: الشمس منفعتها في الدنيا والمعرفة منفعتها في العقبى: ﴿وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٤٦]. وتاسعها: الشمس في السماء زينة لأهل الأرض، والمعرفة في الأرض زينة لأهل السماء. وعاشرها: الشمس فوقاني الصورة تحتاني المعنى وذلك يدل على الحسد مع التكبر، والمعارف الإلهية تحتانية الصورة فوقانية المعنى، وذلك يدل على التواضع مع الشرف. وحادي عشرها: الشمس تعرف أحوال الخلق، وبالمعرفة يصل القلب إلى الخالق. وثاني عشرها: الشمس تقع على الولي والعدو، والمعرفة لا تحصل إلا للولي، فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه الصفات النفيسة لا جرم قال موسى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾. وأما النكت:

فإحداها: الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]والمعرفة استوقدها للبقاء، فالذي خلقها للفناء لو قرب الشيطان منها لاحترق: ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩] والمعرفة التي خلقها للبقاء كيف يقرب منها الشيطان: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾. وثانيتها: استوقد الله الشمس في السماء وإنها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك، وأوقد شمس المعرفة في قلبك أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك؟! وثالثتها: من استوقد سراجًا فإنه لا يزال يتعهده ويمده، والله تعالى هو المُوقد لسراج المعرفة: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [الحجرات: ٧]أفلا يمده؟! وهو معنى قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾. ورابعتها: اللص إذا رأى السراج يوقد في البيت لا يقرب منه، والله قد أوقد سراج المعرفة في قلبك فكيف يقرب الشيطان منه؟! فلهذا قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾. وخامستها: المجوس أوقدوا نارًا فلا يريدون إطفاءها، والمَلِك القدوس أوقد سراج الإيمان في قلبك فكيف يرضى بإطفائه؟!

واعلم أنه سبحانه وتعالى أعطى قلب المؤمن تسع كرامات:

أحدها: الحياة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]فلما رغب موسى عليه السلام في الحياة الروحانية قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ ثم النكتة أنه عليه السلام قال: «من أحيا أرضًا ميتة

فهي له» فالعبد لما أحيا أرضًا فهي له، فالرب لما خلق القلب وأحياه بنور الإيمان، فكيف يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب؟! ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ٩١] وكما أن الإيمان حياة القلب بالكفر موته: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٢١]. **وثانيها:** الشفاء: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] فلما رغب موسى في الشفاء رفع الأيدي قال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ والنكتة أنه تعالى لما جعل الشفاء في العسل بقي شفاء أبدًا، فههنا لما وضع الشفاء في الصدر فكيف لا يبقى شفاء أبدًا؟! **وثالثها:** الطهارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [الحجرات: ٣] فلما رغب موسى عليه السلام في تحصيل طهارة التقوى قال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ والنكتة أن الصائغ إذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لا يدخله في النار، فهاهنا لما امتحن الله قلب المؤمن فكيف يدخله النار ثانيًا، ولكن الله يدخل في النار قلب الكافر: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]. **ورابعها:** الهداية ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١] ومن يؤمن بالله يهد قلبه فرغب موسى عليه السلام في طلب زوائد الهداية فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ والنكتة أن الرسول يهدي نفسك والقرآن يهدي روحك والمولى يهدي قلبك، فلما كانت الهداية من الكفر من محمد ﷺ لا جرم تارة تحصل وأخرى لا تحصل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦] وهداية الروح لما كانت من القرآن فتارة تحصل وأخرى لا تحصل: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ [البقرة: ٢٦] أما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فإنها لا تزول لأن الهادي لا يزول: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]. **وخامسها:** الكتابة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] فلما رغب موسى عليه السلام في تلك الكتابة قال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ **وفيه نكت:**

الأولى: أن الكاغدة ليس لها خطر عظيم وإذا كتب فيها القرآن لم يجز إحراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته، فكيف يليق بالكريم إحراقه؟! **الثانية:** بشر الحافي أكرم كاغدًا فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين، فإكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أَوْلى بذلك. **والثالثة:** كاغد ليس فيه خط إذا كتب فيه اسم الله الأعظم عظُم قدره حتى إنه لا يجوز للجُنب والحائض أن يمسه، بل قال الشافعي رحمه الله تعالى: ليس له أن يمس جلد المصحف، وقال الله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] فالقلب الذي فيه أكرم المخلوقات: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] كيف يجوز للشيطان الخبيث أن يمسه؟ والله أعلم. **وسادسها:** السكينة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] فلما رغب موسى عليه السلام في طلب السكينة قال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ والنكتة أن أبا بكر رضي الله عنه كان مع رسول الله ﷺ وكان خائفًا فلما نزلت السكينة عليه قال: (لا تحزن) فلما نزلت سكينة الإيمان فرجوا أن يسمعوا خطاب: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] وأيضًا لما نزلت السكينة صار من الخلفاء: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٥٥] أي أن يصيروا

خلفاء الله في أرضه. **وسابعها:** المحبة والزينة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] والنكتة أن من ألقى حبة في أرض فإنه لا يفسدها ولا يحرقها، فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة في أرض القلب فكيف يحرقها؟! **وثامنها:** ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] والنكتة أن محمدًا ﷺ ألَّف بين قلوب أصحابه ثم إنه ما تركهم [في] غيبة ولا حضور: «سَلَامٌ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّه الصَّالِحِينَ» فالرحيم كيف يتركهم؟! **وتاسعها:** الطمأنينة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وموسى طلب الطمأنينة فقال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ والنكتة أن حاجة العبد لا نهاية لها فلهذا لو أعطى كل ما في العالم من الأجسام، فإنه لا يكفيه لأن حاجته غير متناهية، والأجسام متناهية والمتناهي لا يصير مقابلاً لغير المتناهي، بل الذي يكفي في الحاجة الغير المتناهية الكمال الذي لا نهاية له، وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى فلهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه: **أحدها:** ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. **وثانيها:** ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧]. **وثالثها:** ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. **ورابعها:** ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]. **وخامسها:** ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧]. **وسادسها:** ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. **وسابعها:** ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. **وثامنها:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]. **وتاسعها:** ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨]. إلهنا وسيدنا بفضلك وإحسانك أغلق هذه الأبواب التسعة من خذلانك عنا، واجبرنا بإحسانك وافتح لنا تلك الأبواب التسعة من إحسانك بفضلك ورحمتك إنك على ما تشاء قدير.

الفصل الخامس: في حقيقة شرح الصدر، ذكر العلماء فيه وجهين:

الأول: أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا لا بالرغبة ولا بالرهبة: أما الرغبة فهي أن يكون متعلق القلب بالأهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم. وأما الرهبة فهي أن يكون خائفًا من الأعداء والمنازعين. فإذا شرح الله صدره صغر كل ما يتعلق بالدنيا في عين همته، فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة إليها ولا تمنعه رهبة عنها، فيصير الكل عنده كالعدم، وحينئذٍ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى، فإن القلب في المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير، فإذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل، فأما إذا انصب الكل في موضع واحد قوي، فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفورًا عنها، فإذا حصلت النفرة توجه إلى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية.

الثاني: أن موسى عليه السلام لما نُصب لذلك المنصب العظيم احتاج إلى تكاليف شاقة، منها ضبط الوحي والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى، ومنها إصلاح العالم الجسداني، فكأنه صار مكلفًا بتدبير العالمَين، والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر، ألا ترى أن

المشتغل بالإبصار يصير ممنوعًا عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعًا عن الإبصار والخيال، فهذه القوى متجاذبة متنازعة، وأن موسى عليه السلام كان محتاجًا إلى الكل، ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق، فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالاً من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين، فهذا هو المراد من شرح الصدر.

وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة:

المثال الأول: اعلم أن البدن بالكلية كالمملكة، والصدر كالقلعة، والفؤاد كالقصر، والقلب كالتخت، والروح كالملك، والعقل كالوزير، والشهوة كالعامل الكبير الذي يجلب النعم إلى البلدة والغضب كالاسفهسالار الذي يشتغل بالضرب والتأديب أبدًا، والحواس كالجواسيس، وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع، ثم إن الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك، والهوى والحرص وسائر الأخلاق الذميمة جنوده: فأول ما أخرج الروح وزيره وهو العقل، فكذا الشيطان أخرج في مقابلته الهوى، فجعل العقل يدعو إلى الله تعالى والهوى يدعو إلى الشيطان. ثم إن الروح أخرج الفطنة إعانة للعقل، فأخرج الشيطان في مقابلة الفطنة الشهوة، فالفطنة توقفك على معايب الدنيا، والشهوة تحركك إلى لذات الدنيا. ثم إن الروح أمَدَّ الفطنة بالفكرة لتقوى الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعائب على ما قال عليه السلام: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ»[1] فأخرج الشيطان في مقابلة الفكرة الغفلة. ثم أخرج الروح الحلم والثبات فإن العجلة ترى الحسن قبيحًا والقبيح حسنًا والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا، فأخرج الشيطان في مقابلته العجلة والسرعة؛ فلهذا قال عليه السلام: «مَا دَخَلَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ الْخَرَقُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ شانه»[2] ولهذا خلق السموات والأرض في ستة أيام ليتعلم منه الرفق والثبات. فهذه هي الخصومة الواقعة بين الصنفين، وقلبك وصدرك هو القلعة.

ثم إن لهذا الصدر الذي هو القلعة خندقًا وهو الزهد في الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو الرغبة الآخرة ومحبة الله تعالى، فإن كان الخندق عظيمًا والسور قويًّا، عجز عسكر الشيطان عن تخريبه، فرجعوا وراءهم، وتركوا القلعة كما كانت، وإن كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوي، قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها ويبيت فيها جنوده من الهوى والعُجْب والكِبْر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة والغيبة، فينحصر المَلِك في القصر ويضيق الأمر عليه، فإذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة، انفسح الأمر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان، ودخلت أنوار هداية رب العالمين، وذلك هو المراد

(١) قال القاري في (المطبوع) (١/ ٨٢/ ٩٤): هذا ليس بحديث، إنما هو من كلام السري السقطي رحمه الله تعالى.

(٢) أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٢/ ٣٤٤) حديث رقم/ ٢١٨٠ من طريق عبدان بن عثمان عن أبي حمزة عن رقبة بن مصقلة عن المقدام بن شريح عن أبيه عن عائشة... به.

بقوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ .

المثال الثاني: اعلم أن معدن النور هو القلب، واشتغال الإنسان بالزوجة والولد والرغبة في مصاحبة الناس والخوف من الأعداء - هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب إلى فضاء الصدر، فإذا قَوَّى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم في الدارين، صغروا في عينه، ولا شك في أنهم من حيث هم عدم محض على ما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨] فلا يزال العبد يتأمل فيما سوى الله تعالى إلى أن يشاهد أنهم عدم محض، فعند ذلك يزول الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى، وإذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح الصدر.

الفصل السادس: في الصدر: اعلم أنه يجيء والمراد منه القلب: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ [طه: ٢٥]، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] وقد يجيء والمراد الفضاء الذي فيه الصدر: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] واختلف الناس في أن محل العقل هل هو القلب أو الدماغ، وجمهور المتكلمين على أنه القلب، وقد شرحنا هذه المسألة في سورة الشعراء في تفسير قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال بعضهم: المواد أربعة: الصدر والقلب والفؤاد واللب، فالصدر مقر الإسلام: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢] والقلب مقر الإيمان: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧] والفؤاد مقر المعرفة: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦] واللب مقر التوحيد: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩] واعلم أن القلب أول ما بُعث إلى هذا العالم بعث خاليًا عن النقوش كاللوح الساذج، وهو في عالم البدن كاللوح المحفوظ، ثم إنه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات، وذلك يكون كالسطر الواحد إلى آخر قيام القيامة لهذا العالم الأصغر، وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة، ثم إن العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها في بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات، فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الإدبار أخرى، فربما وصلت سفينة النظر إلى جانب مشرق الجلال، فتسطع عليه أنوار الإلهية ويتخلص العقل عن ظلمات الضلالات، وربما توغلت السفينة في جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق، فحيثما تكون السفينة في ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة إلى التماس الأنوار والهدايات فيقول هناك: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ .

واعلم أن العقل إذا أخذ في الترقي من سفل الإمكان إلى علو الوجوب، كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومقارفة المجردات والمفارقات، ومعلوم أن كل ماهية فهي إما هي معه أو هي له: فإن كانت هي معه امتلأت البصيرة من أنوار جلال العزة الإلهية، فلا يبقى هناك مستطلعًا لمطالعة

سائر الأنوار، فيضمحل كل ما سواه من بصر وبصيرة، وإن وقعت المطالعة لما هو له حصلت هناك حالة عجيبة، وهي أنه لو وُضعت كرة صافية من البلور فوقع عليها شعاع الشمس فينعكس ذلك الشعاع إلى موضع معين، فذلك الموضع الذي إليه تنعكس الشعاعات يحترق، فجميع الماهيات الممكنة كالبلور الصافي الموضوع في مقابلة شمس القدس ونور العظمة ومشرق الجلال، فإذا وقع للقلب التفات إليها حصلت للقلب نسبة إليها بأسرها، فينعكس شعاع كبرياء الإلهية عن كل واحد منها إلى القلب فيحترق القلب، ومعلوم أنه كلما كان المحرق أكثر، كان الاحتراق أتم فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ حتى أقوى على إدراك درجات الممكنات فأصِل إلى مقام الاحتراق بأنوار الجلال، وهذا هو المراد بقوله عليه السلام: «أَرِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ»(١) فلما شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال: «لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ».

الفصل السابع: في بقية الأبحاث: إنما قال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ ولم يقل (رب اشرح صدري) ليظهر أن منفعة ذلك الشرح عائدة إلى موسى عليه السلام لا إلى الله، وأما كيفية شرح صدر رسول الله ﷺ والمفاضلة بينه وبين شرح صدر موسى عليه السلام، فنذكره إن شاء الله في تفسير قوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح: ١]، والله أعلم بالصواب.

المطلوب الثاني: قوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ والمراد منه عند أهل السنة خلقها، وعند المعتزلة تحريك الدواعي والبواعث بفعل الألطاف المسهلة، فإن قيل: كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى فأي فائدة في هذا السؤال؟ قلنا: يحتمل أن يكون هناك من الألطاف ما لا يحسن فعلها إلا بعد هذا السؤال، ففائدة السؤال حسن فعل تلك الألطاف.

المطلوب الثالث: قوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن النطق فضيلة عظيمة، ويدل عليه وجوه: **أحدها:** قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] ولم يقل (وعَلَّمه البيان) لأنه لو عطفه عليه لكان مغايرًا له، أما إذا ترك الحرف العاطف صار قوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ كالتفسير لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ كأنه إنما يكون خالقًا للإنسان إذا علمه البيان، وذلك يرجع إلى الكلام المشهور من أن ماهية الإنسان هي الحيوان الناطق. **وثانيها:** اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان، قال زهير:

لِسَانُ الْفَتَى نَصِفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ(٢)

وقال علي: ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة. والمعنى أنا لو أزلنا الإدراك الذهني والنطق اللساني لم يبق من الإنسان إلا القدر الحاصل في البهائم، وقالوا:

(١) لم أجده.

(٢) تقدمت ترجمة زهير.

(المرء بأصغريه قلبه ولسانه). وقال ﷺ: «الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ»[(١)] **وثالثها**: أن في مناظرة آدم مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة إلا بالنطق حيث قال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: ٣٣]. **ورابعها**: أن الإنسان جوهر مركب من الروح والقالب، وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد أبدًا صور المغيبات من عالم الملائكة، ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الأجسام، وواسطته في تلك الاستفادة هي الفكر الذهني، وواسطته في هذه الإفادة هي النطق اللساني، فكما أن تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل: (تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ) فكذلك الواسطة في الإفادة يجب أن تكون أشرف الأعضاء، فقوله: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ إشارة إلى طلب النور الواقع في الروح، وقوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ إشارة إلى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل، وعند ذلك يحصل الكمال في تلك الاستفادة الروحانية، فلا يبقى بعد هذا إلا المقام البياني وهو إفاضة ذلك الكمال على الغير، وذلك لا يكون إلا باللسان؛ فلهذا قال: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾. **وخامسها**: وهو أن العلم أفضل المخلوقات على ما ثبت، والجود والإعطاء أفضل الطاعات، وليس في الأعضاء أفضل من اليد، فاليد لما كانت آلة في العطية الجسمانية قيل: (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى) فالعلم الذي هو خير من المال لما كانت آلة إعطائه اللسان، وجب أن يكون أشرف الأعضاء، ولا شك أن اللسان هو الآلة في إعطاء المعارف، فوجب أن يكون أشرف الأعضاء.

ومن الناس من مدح الصمت لوجوه:

أحدها: قوله عليه السلام: «الصَّمْتُ حِكْمَةٌ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ»[(٢)] ويروى أن الإنسان تُفكر أعضاؤه اللسان ويقلن: اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا.

وثانيها: أن الكلام على أربعة أقسام: منه ما ضرره خالص أو راجح، ومنه ما يستوي الضرر والنفع فيه، ومنه ما نفعه راجح، ومنه ما هو خالص النفع، أما الذي ضرره خالص أو راجح فواجب الترك، والذي يستوي الأمران فيه فهو عيب، فبقي القسمان الأخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر، فالأولى ترك الكلام.

وثالثها: أن ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو موهوم، إلا واللسان يتناوله

---

(١) هذا ليس بحديث، وإنما هو ينسب للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. رواه الشجري في (الآمالي الشجرية) (١/ ١٠٩) من طريق أبي جعفر محمد بن علي الرضي عن أبيه عن آبائه عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي بن أبي طالب... فذكره. وفي إسناده مجاهيل.

(٢) رواه ابن أبي عاصم في (الزهد) (١/ ١٠٦) من طريق سفيان بن عبيد عن ابن أبي نجيح عن أبيه قال يعني نعمان... فذكره. أورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٤١) حديث رقم/ ١٦٢ وقال: قال في التمييز: أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس مرفوعًا بسند ضعيف بكذا أنه موقوف من قول لقمان الحكيم وقال النجم: رواه اليلمي عن ابن عمر به، وعند البيهقي عن أنس بلفظ (الصمت حكمة) ثلاثًا قال: والصحيح رواية ثابت عن أنس أن لقمان قال ذلك ولذا أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء بسند صحيح. انتهى.

ويتعرض له بإثبات أو نفي، فإن كل ما يتناوله الضمير يعبر عنه اللسان بحق أو باطل، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلا إلى الأصوات والحروف، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، بخلاف اللسان فإنه رحب الميدان ليس له نهاية ولا حد، فله في الخير مجال رحب، وله في الشر بحر سحب، وإنه خفيف المؤنة سهل التحصيل، بخلاف سائر المعاصي فإنه يحتاج فيها إلى مؤن كثيرة لا يتيسر تحصيلها في الأكثر؛ فلذلك كان الأوْلى ترك الكلام.

ورابعها: قالوا: ترك الكلام له أربعة أسماء: الصمت والسكوت والإنصات والإصاخة: فأما الصمت فهو أعمها لأنه يستعمل فيما يقوي على النطق وفيما لا يقوي عليه؛ ولهذا يقال: مال ناطق وصامت. وأما السكوت فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام. والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لا يقال له إنصات، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤] والإصاخة استماع إلى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد.

واعلم أن الصمت عدم ولا فضيلة فيه، بل النطق في نفسه فضيلة والرذيلة في محاورته، ولولاه لما سأل كليم الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾.

المسألة الثانية: اختلفوا في تلك العقدة التي كانت في لسان موسى عليه السلام على قولين: **الأول:** كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى، فسأل الله تعالى إزالته. **الثاني:** السبب فيه أنه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها، فهَمَّ فرعون بقتله وقال: هذا هو الذي يزول مُلكي على يده!! فقالت آسية: إنه صبي لا يعقل، وعلامته أن تقرب منه التمرة والجمرة فُقربا إليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه. وهؤلاء اختلفوا: فمنهم من قال: لم تحترق اليد ولا اللسان لأن اليد آلة أخذ العصا وهي الحجة واللسان آلة الذكر، فكيف يحترق؟! ولأن إبراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمروذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقي في التنور، فكيف يحترق هنا؟ ومنهم من قال: احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والمخاضبة. **الثالث:** احترق اللسان دون اليد لأن الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله: يا أبت. **والرابع:** احترقا معًا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أنه عليه السلام لَمَ طلب حل تلك العقدة على وجوه: **أحدها:** لئلا يقع في أداء الرسالة خلل ألبتة. **وثانيها:** لإزالة التنفير لأن العقدة في اللسان قد تفضي إلى الاستخفاف بقائلها وعدم الالتفات إليه. **وثالثها:** إظهارًا للمعجزة، فكما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزًا في حقه، فكذا إطلاق لسان موسى عليه السلام معجز في حقه. **ورابعها:** طلب السهولة لأن إيراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون في جبروته وكبره – عسر جدًا، فإذا انضم إليه تَعَقُّد اللسان، بلغ العسر إلى النهاية، فسأل ربه إزالة تلك العقدة تخفيفًا وتسهيلاً.

المسألة الرابعة: قال الحسن رحمه الله: إن تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] وهو ضعيف؛ لأنه عليه السلام لم يقل (واحلل العقدة من لساني) بل قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ فإذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله، والحق أنه انحل أكثر العقد وبقي منها شيء قليل لقوله حكاية عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي يقارب أن لا يبين، وفي ذلك دلالة على أنه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد في لسانه. وأجيب عنه من وجهين: **أحدهما**: المراد بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي لا يأتي ببيان ولا حجة. والثاني: إن (كاد) بمعنى (قرب) ولو كان المراد هو البيان اللساني لكان معناه أنه لا يقارب البيان، فكان فيه نفي البيان بالكلية وذلك باطل لأنه خاطب فرعون والجمع، وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفي البيان أصلاً؟! بل إنما قال ذلك تمويهًا ليصرف الوجوه عنه، قال أهل الإشارة: إنما قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ لأن حل العقد كلها نصيب محمد ﷺ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فلما كان ذلك حقًّا ليتيم أبي طالب، لا جرم ما دار حوله، والله أعلم.

المطلوب الرابع: قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ واعلم أن طلب الوزير إما أن يكون لأنه خاف من نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر فطلب المعين، أو لأنه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة في أمر الدعاء إلى الله، ولذلك قال عيسى ابن مريم: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقال لمحمد ﷺ: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] وقال عليه السلام: «**إِنَّ لِي فِي السَّمَاءِ وَزِيرَيْنِ وَفِي الْأَرْضِ وَزِيرَيْنِ: فَاللَّذَانِ فِي السَّمَاءِ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، وَاللَّذَانِ فِي الْأَرْضِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»(١) **وههنا مسائل**:

المسألة الأولى: الوزير من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزر وهو الجبل الذي يُتحصن به لأن الملك يعتصم برأيه في رعيته ويفوض إليه أموره، أو من الموازرة وهي المعاونة، والموازرة مأخوذة من إزار الرجل وهو الموضع الذي يشده الرجل إذا استعد لعمل أمر صعب، قاله الأصمعي، وكان القياس أزيرًا فقُلبت الهمزة إلى الواو.

المسألة الثانية: قال عليه السلام: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِمَلِكٍ خَيْرًا قَيَّضَ لَهُ وَزِيرًا صَالِحًا، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ وَإِنْ نَوَى خَيْرًا أَعَانَهُ وَإِنْ أَرَادَ شَرًّا كَفَّهُ**»(٢) وكان أنوشروان يقول: لا يستغني أجود السيوف عن الصقل، ولا أكرم الدواب عن السوط، ولا أعلم الملوك عن الوزير.

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٩٠) حديث رقم/ ٣٠٤٧ من طريق محمد بن سعد العوفي حدثنا سوار بن مصعب عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري... به. وابن الجعد في (مسنده) (١/ ٢٩٨) حديث رقم/ ٢٠٢٦ من طريق سوار بن مصعب عن عطية عن أبي سعيد... به. وفي إسناده العوفي ضعيف وأيضًا سوار بن مصعب ذكره ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل) (٤/ ٢٧١) وقال: قال أحمد بن حنبل: سوار بن مصعب الأعور متروك الحديث.

(٢) ذكره أهل التفسير من غير إسناد.

المسألة الثالثة: إن قيل: الاستعانة بالوزير إنما يحتاج إليها الملوك، أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والوحي من الله تعالى إلى قوم على التعيين، فمن أين ينفعه الوزير؟ وأيضًا فإنه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكًا له في النبوة فقال: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ فكيف يكون وزيرًا.

والجواب عن الأول: أن التعاون على الأمر والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة - له مزية عظيمة في تأثير الدعاء إلى الله تعالى، فكان موسى عليه السلام واثقًا بأخيه هارون، فسأل ربه أن يشد به أزره حتى يتحمل عنه ما يمكن من الثقل في الإبلاغ.

المطلوب الخامس: أن يكون ذلك الوزير من أهله، أي من أقاربه.

المطلوب السادس: أن يكون الوزير الذي من أهله هو أخوه هارون، وإنما سأل ذلك لوجهين: أحدهما: أن التعاون على الدين منقبة عظيمة، فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة إلا لأهله، أو: لأن كل واحد منهما كان في غاية المحبة لصاحبه والموافقة له، وقوله: (هارون) في انتصابه وجهان: أحدهما: أنه مفعول الجعل على تقدير اجعل هارون أخي وزيرًا لي. والثاني: على البدل من وزيرًا و(أخي) نعت لهارون أو بدل.

واعلم أن هارون عليه السلام كان مخصوصًا بأمور منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] ومنها أنه كان فيه رفق قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه: ٩٤] ومنها أنه كان أكبر سنًّا منه.

المطلوب السابع: قوله: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: القراءة العامة: (اشْدُدْ بِهِ * وأَشْرِكْهُ) على الدعاء. وقرأ ابن عامر وحده: (اشدد، وَأَشرِكْهُ) على الجزاء والجواب، حكاية عن موسى عليه السلام أي أنا أفعل ذلك. ويجوز لمن قرأ على لفظ الأمر أن يجعل (أخي) مرفوعًا على الابتداء و﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ﴾ خبره ويوقف على هارون.

المسألة الثانية: الأزر: القوة، وآزره: قوَّاه، قال تعالى: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ [الفتح: ٢٩] أي أعانه، قال أبو عبيدة (أَزْرِي) أي ظهري. وفي كتاب الخليل: (الأزر) الظهر.

المسألة الثالثة: أنه عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل هارون وزيرًا له، طلب منه أن يشد به أزره ويجعله ناصرًا له، لأنه لا اعتماد على القرابة.

المطلوب الثامن: قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ والأمر هاهنا النبوة، وإنما قال ذلك لأنه عليه السلام علم أنه يشد به عضده وهو أكبر منه سنًّا وأفصح منه لسانًا، ثم إنه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ والتسبيح يحتمل أن يكون باللسان وأن يكون بالاعتقاد، وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به، وأما الذكر فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء، ولا شك أن النفي مقدم على الإثبات.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ ففيه وجوه: **أحدها**: إنك عالم بأنا لا نريد بهذه الطاعات إلا وجهك ورضاك ولا نريد بها أحدًا سواك. **وثانيها**: ﴿كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ لأن هذه الاستعانة بهذه الأشياء لأجل حاجتي في النبوة إليها. **وثالثها**: إنك بصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا، وإنما قيد الدعاء بهذا إجلالاً لربه عن أن يتحكم عليه وتفويضًا للأمر بالكلية إليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أن السؤال هو الطلب (فُعْل) بمعنى (مفعول) كقولك (خُبْز) بمعنى مخبوز و(أُكْل) بمعنى مأكول، واعلم أن موسى عليه السلام لما سأل ربه تلك الأمور الثمانية، وكان من المعلوم أن قيامه بما كُلف به تكليف لا يتكامل إلا بإجابته إليها، لا جرم أجابه الله تعالى إليها ليكون أقدر على الإبلاغ على الحد الذي كُلف به فقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وعَدَّ ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ فنبه بذلك على أمور: أحدها: كأنه تعالى قال: إني راعيت مصلحتك قبل سؤالك، فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال؟! وثانيها: إني كنت قد ربيتك، فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك ردًّا بعد القبول وإساءة بعد الإحسان فكيف يليق بكرمي؟! وثالثها: إنا لما أعطيناك في الأزمنة السالفة كل ما احتجت إليه ورقيناك من حالة نازلة إلى درجة عالية، دل هذا على أنا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم، فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب؟! **وههنا سؤالان**:

السؤال الأول: لمَ ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع أن هذه اللفظة لفظة مؤذية والمقام مقام التلطف؟ **والجواب**: إنما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التي وصلت إليه ما كان مستحقًا لشيء منها بل إنما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والإحسان.

السؤال الثاني: لمَ قال ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ مع أنه تعالى ذكر مننًا كثيرة؟ **والجواب**: لم يعن بمرة أخرى مرة واحدة من المنن لأن ذلك قد يقال في القليل والكثير.

واعلم أن المنن المذكورة هاهنا ثمانية: المنة الأولى: قوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ أما قوله: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ﴾ فقد اتفق الأكثرون على أن أم موسى عليه السلام ما كانت من الأنبياء والرسل، فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحي هو الوحي الواصل إلى الأنبياء، وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والإمامة، بل عند الشافعي رحمه الله لا تُمكَّن من تزويجها نفسها، فكيف تصلح للنبوة؟! ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧]وهذا صريح في الباب، وأيضًا فالوحي قد جاء في القرآن لا بمعنى النبوة، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ [المائدة: ١١١].

ثم اختلفوا في المراد بهذا الوحي على وجوه: أحدها: المراد رؤيا رأتها أم موسى عليه السلام، وكان تأويلها وضع موسى عليه السلام في التابوت وقذفه في البحر وأن الله تعالى يرده إليها. وثانيها: أن المراد عزيمة جازمة وقعت في قلبها دفعة واحدة، فكل مَن تفكر فيما وقع إليه، ظهر له الرأي الذي هو أقرب إلى الخلاص، ويقال لذلك الخاطر إنه وحي. وثالثها: المراد منه الإلهام لكنا متى بحثنا عن الإلهام كان معناه خطور رأي بالبال وغلبة على القلب، فيصير هذا هو.

الوجه الثاني وهذه الوجوه الثلاثة يُعترض عليها بأن الإلقاء في البحر قريب من الإهلاك، وهو مساوٍ للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون، فكيف يجوز الإقدام على أحدهما لأجل الصيانة عن الثاني؟! والجواب: لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها، فكان إفضاء الإلقاء في البحر إلى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد في يد فرعون. ورابعها: لعله أوحى إلى بعض الأنبياء في ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم إن ذلك النبي عرفها، إما مشافهة أو مراسلة، واعترض عليه بأن الأمر لو كان كذلك لما لحقها من أنواع الخوف ما لحقها. والجواب: أن ذلك الخوف كان من لوازم البشرية، كما أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع أن الله تعالى كان يأمره بالذهاب إليه مرارًا. وخامسها: لعل الأنبياء المتقدمين كإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك وانتهى ذلك الخبر إلى تلك المرأة. وسادسها: لعل الله تعالى بعث إليها ملكًا لا على وجه النبوة، كما بعث إلى مريم في قوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]. وأما قوله: ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ فمعناه وأوحينا إلى أمك ما يجب أن يوحى. وإنما وجب ذلك الوحي لأن الواقعة واقعة عظيمة ولا سبيل إلى معرفة المصلحة فيها إلا بالوحي، فكان الوحي واجبًا.

أما قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: (أن) هي المفسرة لأن الوحي بمعنى القول.

المسألة الثانية: القذف مستعمل في معنى الإلقاء والوضع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

المسألة الثالثة: رُوي أنها اتخذت تابوتًا، وجعلت فيه قطنًا محلوجًا، ووضعت فيه موسى عليه السلام وقيرت رأسه وشقوقه بالقار، ثم ألقته في النيل وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون، فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية، إذ بتابوت يجيء به الماء، فلما رآه فرعون أمر الغلمان والجواري بإخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فإذا صبي من أصبح الناس وجهًا، فلما رآه فرعون أحبه، وسيأتي تمام القصة في سورة القصص، قال مقاتل: إن الذي صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون.

المسألة الرابعة: اليم هو البحر، والمراد به ههنا نيل مصر في قول الجميع، واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم.

المسألة الخامسة: قال الكسائي: الساحل فاعل بمعنى مفعول، سُمي بذلك لأن الماء يسحله، أي يقذفه إلى أعلاه.

المسألة السادسة: قال صاحب (الكشاف): الضمائر كلها راجعة إلى موسى عليه السلام، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت يؤدي إلى تنافر النظم، فإن قيل: المقذوف في البحر هو التابوت وكذلك الملقى إلى الساحل. قلنا: لا بأس بأن يقال المقذوف والملقى هو موسى عليه السلام في جوف التابوت، حتى لا تتفرق الضمائر ولا يحصل التنافر.

المسألة السابعة: لما كان تقدير الله تعالى أن يجري ماء اليم ويلقي بذلك التابوت إلى الساحل، سلك في ذلك سبيل المجاز، وجعل اليم كأنه ذو تمييز أُمر بذلك ليطيع الأمر ويمتثل رسمه فقيل ﴿ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أما قوله: ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ **ففيه أبحاث:**

البحث الأول: قوله: ﴿ يَأْخُذْهُ﴾ جواب الأمر، أي اقذفيه يأخذه.

البحث الثاني: في كيفية الأخذ قولان: أحدهما: أن امرأة فرعون كانت بحيث تستسقي الجواري، فبصرت بالتابوت فأمرت به، فأخذت التابوت، فيكون المراد من أخذ فرعون التابوت قَبوله له واستحبابه إياه. الثاني: أن البحر ألقى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ثم أداه النهر إلى بركة، فرعون فلما رآه أخذه.

البحث الثالث: قوله: ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ فيه إشكال وهو أن موسى عليه السلام لم يكن ذلك الوقت بحيث يعادى. وجوابه: أما كونه عدوًا لله من جهة كفره وعتوه فظاهر وأما كونه عدوًا لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث إنه لو ظهر له حاله لقَتَله ويحتمل أنه من حيث يؤول أمره إلى ما آل إليه من العداوة. المنة الثانية: قوله: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ وفيه قولان:

الأول: وألقيت عليك محبة هي مني قال الزمخشري: ﴿ مِّنِّى﴾ لا يخلو إما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى (على أني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب)، وإما أن يتعلق بمحذوف، وهذا هو القول الثاني، ويكون ذلك المحذوف صفة لمحبة أي: وألقيت عليك محبة حاصلة مني واقعة بخلقي فلذلك أحبتك امرأة فرعون حتى قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص: ٩]

يروى أنه كانت على وجهه مسحة جمال وفي عينيه ملاحة، لا يكاد يصبر عنه من رآه، وهو كقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]قال القاضي: هذا الوجه أقرب لأنه في حال صغره لا يكاد يوصف بمحبة الله تعالى التي ظاهرها من جهة الدين؛ لأن ذلك إنما يستعمل في المكلف من حيث استحقاق الثواب، والمراد أن ما ذكرنا من كيفيته في الخلقة يستحلى ويغتبط فكذلك كانت حاله مع فرعون وامرأته، وسَهَّل الله تعالى له منهما في التربية ما لا مزيد عليه. ويمكن أن يقال بل الاحتمال الأول أرجح لأن الاحتمال الثاني يُحوج إلى الإضمار وهو أن يقال: وألقيت عليك محبة حاصلة مني وواقعة بتخليقي. وعلى التقدير الأول لا حاجة إلى هذا الإضمار. بقي قوله: (إنه حال صباه لا يحصل له محبة الله تعالى) قلنا: لا نُسلِّم فإن محبة الله تعالى يرجع معناها إلى إيصال النفع إلى عباده، وهذا المعنى كان حاصلاً في حقه في حال صباه، وعَلِم الله تعالى أن ذلك يستمر إلى آخر عمره، فلا جرم أطلق عليه لفظ المحبة.

المنة الثالثة:قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ قال القفال: لتُرى على عيني، أي على وفق إرادتي، ومجاز هذا أن مَن صَنَع لإنسان شيئًا وهو حاضر ينظر إليه، صَنَعه له كما يحب، ولا يمكنه أن يفعل ما يخالف غرضه، فكذا ههنا. وفي كيفية المجاز قولان:

الأول:المراد من العين العلم، أي ترى على علم مني ولما كان العالِم بالشيء يحرسه عن الآفات كما أن الناظر إليه يحرسه عن الآفات، أطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما من هذا الوجه. **الثاني:**المراد من العين الحراسة، وذلك لأن الناظر إلى الشيء يحرسه عما يؤذيه، فالعين كأنها سبب الحراسة، فأطلق اسم السبب على المسبب مجازًا، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]ويقال: (عين الله عليك) إذا دعا لك بالحفظ والحياطة، قال القاضي: ظاهر القرآن يدل على أن المراد من قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ الحفظ والحياطة، كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له. بقي ههنا بحثان:

الأول:الواو في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ فيه ثلاثة أوجه: **أحدها:**كأنه قيل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ألقيت عليك محبة مني ثم يكون قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ متعلقًا بأول الكلام وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ و﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾.

وثانيها:يجوز أن يكون قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ متعلقًا بما بعده وهو قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ﴾ وذكرنا مثل هذين الوجهين في قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وثالثها:يجوز أن تكون الواو مقحمة، أي وألقيت عليك محبة مني لتصنع. وهذا ضعيف.

الثاني:قرئ (ولتصنع) بكسر اللام وسكونها والجزم على أنه أمر وقرئ (ولتَصنعَ) بفتح التاء والنصب، أي وليكون عملك وتصرفك على علم مني.

المنة الرابعة:قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ واعلم أن العامل في ﴿إِذْ تَمْشِيٓ﴾ ألقيت أو تصنع

ويروى أنه لما فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلامًا في النيل، وكان لا يرتضع من ثدي كل امرأة يؤتى بها لأن الله تعالى قد حرم عليه المراضع غير أمه، اضطروا إلى تتبع النساء، فلما رأت ذلك أخت موسى جاءت إليهم متنكرة فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ [القصص: ١٢] ثم جاءت بالأم فقبِل ثديها فرجع إلى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير.

أما قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ أي رددناك، وقال في موضع آخر: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: ١٣] وهو كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] أي ردوني إلى الدنيا، أما قوله: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ فالمراد أن المقصود من ردك إليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها، فإن قيل: لو قال: (كي لا تحزن وتقر عينها) كان الكلام مفيدًا لأنه لا يلزم من نفي الحزن حصول السرور لها، وأما لما قال أولاً كي تقر عينها كان قوله بعد ذلك: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ فضلاً لأنه متى حصل السرور وجب زوال الغم (لا محالة. قلنا): المراد أنه تقر عينها بسبب وصولك إليها فيزول عنها الحزن بسبب عدم وصول لبن غيرها إلى باطنك.

والمنة الخامسة: قوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ فالمراد به: (وقتلت بعد كبرك نفسًا) وهو الرجل الذي قتله خطأ بأن وكزه حيث استغاثه الإسرائيلي عليه وكان قبطيًا، فحصل له الغم من وجهين، أحدهما: من عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون منه ما حكى الله. تعالى عنه: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] والآخر: من عقاب الله تعالى حيث قتله لا بأمر الله. فنجاه الله تعالى من الغمين، أما من فرعون فحين وفق له المهاجرة إلى مدين، وأما من عقاب الآخرة فلأنه سبحانه وتعالى غفر له ذلك.

المنة السادسة: قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ **وفيه أبحاث:**

البحث الأول: في قوله: ﴿فُتُونًا﴾ وجهان: **أحدهما:** أنه مصدر كالعكوف والجلوس والمعنى (وفتناك حقًّا) وذلك على مذهبهم في تأكيد الأخبار بالمصادر كقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، **والثاني:** أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور في حجزة وبدرة، أي فتناك ضروبًا من الفتن. وهاهنا سؤالان:

السؤال الأول: إن الله تعالى عَدَّد أنواع مننه على موسى عليه السلام في هذا المقام، فكيف يليق بهذا الموضع قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾؟! **الجواب عنه من وجهين: أحدهما:** أن الفتنة تشديد المحنة، يقال: (فُتن فلان عن دينه) إذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] فالزلزلة المذكورة في الآية ومس البأساء والضراء هي الفتنة والفتون، ولما كان التشديد في المحنة مما يوجب كثرة

الثواب، لا جرم عده الله تعالى من جملة النعم. **وثانيها:** ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾ أي خلصناك تخليصًا. من قولهم: (فتنت الذهب من الفضة) إذا أردت تخليصه، وسأل سعيد بن جبير ابن عباس عن الفتون فقال: نستأنف له نهارًا يا بن جبير. ثم لما أصبح أخذ ابن عباس يقرأ عليه الآيات الواردة في شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره، فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بني إسرائيل، ثم قصة إلقاء موسى عليه السلام في اليم والتقاط آل فرعون إياه وامتناعه من الارتضاع من الأجانب، ثم قصة أن موسى عليه السلام أخذ لحية فرعون ووضعه الجمرة في فيه، ثم قصة قتل القبطي، ثم هربه إلى مدين وصيرورته أجيرًا لشعيب عليه السلام، ثم عَوده إلى مصر وأنه أخطأ الطريق في الليلة المظلمة واستئناسه بالنار من الشجرة، وكان عند تمام كل واحدة منها يقول: هذا من الفتون يا بن جبير.

السؤال الثاني: هل يصح إطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقًا من قوله: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾؟ **والجواب:** لا لأنه صفة ذم في العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لا سيما فيما يوهم ما لا ينبغي.

المنة السابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ واعلم أن التقدير: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾ فخرجت خائفًا إلى أهل مدين فلبثت سنين فيهم. أما مدة اللبث فقال أبو مسلم: إنها مشروحة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٢] إلى قوله ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] وهي إما عشرة وإما ثمانٍ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧] وقال وهب: لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانيًا وعشرين سنة، منها عشر سنين مهر امرأته. والآية تدل على أنه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ما ينفي الزيادة على العشر، واعلم أن قوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بعد قوله: ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾ كالدلالة على أن لبثه في مدين من الفتون، وكذلك كان، فإنه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محنًا كثيرة، واحتاج إلى أن آجر نفسه. أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ فلا بد من حذف في الكلام؛ لأنه على قدر أمر من الأمور، وذكروا في ذلك المحذوف وجوهًا: **أحدها:** أنه سبق في قضائي وقدري أن أجعلك رسولاً لي في وقت معين عينته لذلك، فما جئت إلا على ذلك القدر لا قبله ولا بعده. ومنه قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، **وثانيها:** على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء، وهو رأس أربعين سنة. **وثالثها:** أن القدر هو الموعد، فإن ثبت أنه تقدم هذا الموعد صح حمله عليه، ولا يمتنع ذلك لاحتمال أن شعيبًا عليه السلام أو غيره من الأنبياء كانوا قد عينوا ذلك الموعد، **فإن قيل:** كيف ذكر الله تعالى مجيء موسى عليه السلام في ذلك الوقت من جملة مننه عليه؟ **قلنا:** لأنه لولا توفيقه له لما تهيأ شيء من ذلك.

المنة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ والاصطناع اتخاذ الصنعة، وهي افتعا' الصنع، يقال: (اصطنع فلان فلانًا) أي اتخذه صنيعة، **فإن قيل:** إنه تعالى غني عن الكل فما

قوله لنفسي؟ **والجواب عنه من وجوه: الأول:** أن هذا تمثيل لأنه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مَثَّل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه أهلاً لأن يكون أقرب الناس منزلة إليه وأشدهم قربًا منه. **وثانيها:** قالت المعتزلة: إنه سبحانه وتعالى إذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم، ومن جملة الألطاف ما لا يُعلم إلا سمعًا، فلو لم يصطنعه بالرسالة لبقي في عهدة الواجب، فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه في أداء ما وجب على الله تعالى، فصَحَّ أن يقول: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾، قال القفال: و(اصطنعتك) أصله من قولهم اصطنع فلان فلانًا، إذا أحسن إليه حتى يضاف إليه فيقال: هذا صنيع فلان وجريح فلان. وقوله (لنفسي): أي لأُصَرفك في أوامري لئلا تشتغل بغير ما أمرتك به وهو إقامة حجتي وتبليغ رسالتي، وأن تكون في حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك ولا لغيرك.

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عَدَّد عليه المنن الثمانية في مقابلة تلك الالتماسات الثمانية، رتَّب على ذكر ذلك أمرًا ونهيًا: أما الأمر فهو أنه سبحانه وتعالى أعاد الأمر بالأول فقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ عَقَّبه بذكر ما له اصطنعه وهو الإبلاغ والأداء. **ثم ههنا مسائل:**

المسألة الأولى: الباء ههنا بمعنى (مع) وذلك لأنهما لو ذهبا إليه بدون آية معهما، لم يلزمه الإيمان وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد.

المسألة الثانية: اختلفوا في الآيات المذكورة ههنا على ثلاثة أقوال: **أحدها:** أنها اليد والعصا لأنهما اللذان جرى ذكرهما في هذا الموضع، وفي سائر المواضع التي اقتص الله تعالى فيها حديث موسى عليه السلام فإنه تعالى لم يذكر في شيء منها أنه عليه السلام قد أوتي قبل مجيئه إلى فرعون ولا بعد مجيئه حتى لقي فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين، قال تعالى عنه: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣١- ٣٣] وقال: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢] فإذا قيل لهؤلاء: كيف يطلق لفظ الجمع على الاثنين؟ **أجابوا بوجوه: الأول:** أن العصا ما كانت آية واحدة بل كانت آيات، فإن انقلاب العصا حيوانًا آية ثم إنها في أول الأمر كانت صغيرة لقوله تعالى: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى، ثم كانت تصير ثعبانًا وهذه آية أخرى. ثم إن موسى عليه السلام كان يُدخل يده في فيها فما كانت تضر موسى عليه السلام فهذه آية أخرى، ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى. وكذلك اليد فإن بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالهما بعد حصولهما آية أخرى، فصَحَّ أنهما كانتا آيات كثيرة لا آيتان. **الثاني:** هب أن العصا أمر واحد لكن فيها آيات كثيرة؛ لأن انقلابها حية يدل على وجود إله قادر على الكل عالم بالكل حكيم، ويدل على نبوة موسى عليه السلام، ويدل على جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيوانًا، فهذه آيات كثيرة ولذلك قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]

إلى قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ [آل عمران: ٩٧] فإذا وُصف الشيء الواحد بأن فيه آيات فالشيئان أَوْلى بذلك. **الثالث:** من الناس من قال: أقل الجمع اثنان على ما عرفت في أصول الفقه. **القول الثاني:** أن قوله: ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾ [الشعراء: ١٥] معناه أني أُمدكما بآياتي وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل من فرعون وقومه، فاذهبا فإن آياتي معكما. كما يقال (اذهب فإن جندي معك) أي أني أُمدك بهم متى احتجت. **القول الثالث:** أن الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه، وذلك أيضًا معجز، فكانت الآيات ثلاثة. هذا هو شرح الأمر.

أما النهي فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾ الوني الفتور والتقصير وقرئ (ولا تنيا) بكسر حرف المضارعة للإتباع. **ثم قيل فيه أقوال: أحدها:** المعنى: لا تنيا بل اتخذا ذكرى آلة لتحصيل المقاصد، واعتقدا أن أمرًا من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري، والحكمة فيه أن من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحدًا، ولأن مَن ذكر جلال الله تَقَوَى روحه بذلك الذكر فلا يضعف في المقصود، ولأن ذاكر الله تعالى لا بد وأن يكون ذاكرًا لإحسانه وذاكر إحسانه لا يفتر في أداء أوامره. **وثانيها:** المراد بالذكر تبليغ الرسالة، فإن الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها، فكان جديرًا بأن يطلق عليه اسم الذكر. **وثالثها:** قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾ عند فرعون وكيفية الذكر هو أن يذكرا لفرعون وقومه أن الله تعالى لا يرضى منهم بالكفر، ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب. **ورابعها:** أن يذكرا لفرعون آلاء الله ونعماءه وأنواع إحسانه إليه.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ **وفيه سؤالان:**

الأول: ما الفائدة في ذلك بعد قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ قال القفال فيه وجهان: أحدهما: أن قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورًا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى (اذهبا) ليعرفا أن المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعًا لا أن ينفرد به هارون دون موسى. والثاني: أن قوله: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ أمر بالذهاب إلى كل الناس من بني إسرائيل وقوم فرعون، ثم إن قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ أمر بالذهاب إلى فرعون وحده.

السؤال الثاني: قوله: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ خطاب مع موسى وهارون عليهما السلام، وهذا مشكل لأن هارون عليه السلام لم يكن حاضرًا هناك، وكذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ [طه: ٤٥] أجاب القفال عنه من وجوه: أحدها: أن الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده، إلا أنه كان متبوع هارون، فجعل الخطاب معه خطابًا مع هارون، وكلام هارون على سبيل التقدير، فالخطاب في تلك الحالة وإن كان مع موسى عليه السلام وحده إلا أنه تعالى أضافه إليهما، كما في قوله: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ [البقرة: ٧٢] وقوله: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ٨] وحكي أن القائل هو عبد الله بن أبي وحده. وثانيها: يحتمل أن الله تعالى لما قال: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سكت حتى لقي أخاه، ثم

إن الله تعالى خاطبهما بقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾. وثالثها: أنه حُكي أنه في مصحف ابن مسعود وحفصة: (قال ربنا إننا نخاف) أي قال موسى: أنا وأخي نخاف فرعون.

أما قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ ففيه سؤالان:

السؤال الأول: لِمَ أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد؟ الجواب لوجهين: الأول: أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون، فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق، وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الأبوين. الثاني: أن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادوا عتوًّا وتكبرًا، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر؛ فلهذا أَمَر الله تعالى بالرفق.

السؤال الثاني: كيف كان ذلك الكلام اللين؟ الجواب: ذكروا فيه وجوهًا: أحدها: ما حكى الله تعالى بعضه فقال: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] وذكر أيضًا في هذه السورة بعض ذلك فقال: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] إلى قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]. وثانيها: أن تَعِدَاه شبابًا لا يهرم بعده، ومُلكًا لا يُنزع منه إلا بالموت، وأن يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته. وثالثها: كَنِّياه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مُرة. ورابعها: حكي عن عمرو بن دينار قال: بلغني أن فرعون عُمِّر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام: إن أطعتني عُمِّرت مثل ما عُمِّرت، فإذا مِتَّ فلك الجنة.

واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة: أما الأول: فقيل: لو حصلت له هذه الأمور الثلاثة في هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالإلجاء إلى معرفة الله تعالى، وذلك لا يصح مع التكليف. وأما الثاني: فلأن خطابه بالكنية أمر سهل، فلا يجوز أن يُجعل ذلك هو المقصود من قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ بل يجوز أن يكون ذلك من جملة المراد. وأما الثالث: فالاعتراض عليه كما في الأول.

أما قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ فاعلم أنه ليس المراد أنه تعالى كان شاكًّا في ذلك لأن ذلك محال عليه تعالى، وإنما المراد: فقولا له قولاً لينًا، على أن تكونا راجيين لأن يتذكر هو أو يخشى. واعلم أن أحوال القلب ثلاثة: أحدها: الإصرار على الحق. وثانيها: الإصرار على الباطل. وثالثها: التوقف في الأمرين، وأن فرعون كان مصرًّا على الباطل، وهذا القسم أردأ الأقسام فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ فيرجع من إنكاره إلى الإقرار بالحق، وإن لم ينتقل من الإنكار إلى الإقرار لكنه يحصل في قلبه الخوف فيترك الإنكار، وإن كان لا ينتقل إلى الإقرار فإن هذا خير من الإصرار على الإنكار. واعلم أن هذا التكليف لا يعلم سره إلا الله تعالى، لأنه تعالى لما علم أنه لا يؤمن قط كان إيمانه ضدًّا لذلك العلم الذي يمتنع زواله، فيكون سبحانه عالمًا بامتناع ذلك الإيمان، وإذا كان عالمًا بذلك، فكيف أَمَر موسى عليه

السلام بذلك الرفق وكيف بالغ في ذلك الأمر بتلطيف دعوته إلى الله تعالى مع علمه استحالة حصول ذلك منه؟ ثم هب أن المعتزلة ينازعون في هذا الامتناع من غير أن يذكروا شبهة قادحة في هذا السؤال ولكنهم سَلَّموا أنه كان عالمًا بأنه لايحصل ذلك الإيمان، وسَلَّموا أن فرعون لا يستفيد ببعثة موسى عليه السلام إلا استحقاق العقاب، والرحيم الكريم كيف يليق به أن يدفع سكينًا إلى من علم قطعًا أنه يمزق بها بطن نفسه، ثم يقول: إني ما أردت بدفع السكين إليه إلا الإحسان إليه؟

يا أخى العقول قاصرة عن معرفة هذه الأسرار، ولا سبيل فيها إلا التسليم وتَرْك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان، ويروى عن كعب أنه قال: والذي يحلف به كعب إنه لمكتوب في التوراة: فقولا له قولاً لينًا وسأقسي قلبه فلا يؤمن.

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ فيه أسئلة:

السؤال الأول: قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ﴾ يدل على أن المتكلم بذلك موسى وهارون عليهما السلام، وهارون لم يكن حاضرًا هذا المقال، فكيف ذلك؟ وجوابه قد تقدم.

السؤال الثاني: أن موسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥] فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] وهذا يدل على أنه قد انشرح صدره وتيسر أمره، فكيف قال بعده: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾ فإن حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر؟ **والجواب**: أن شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الأوامر والنواحي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق إليه السهو والتحريف، وذلك شيء آخر غير زوال الخوف.

السؤال الثالث: أمَا عَلِم موسى وهارون وقد حَمَّلهما الله تعالى الرسالة أنه تعالى يؤمنهما من القتل الذي هو مقطعة عن الأداء؟ الجواب: قد أمِنا ذلك وإن جوزا أن ينالهما السوء من قبل تمام الأداء أو بعده، وأيضًا فإنهما استظهرا بأن سألا ربهما ما يزيد في ثبات قلبهما على دعائه، وذلك بأن ينضاف الدليل النقلي إلى العقلي زيادة في الطمأنينة كما قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

السؤال الرابع: لما تكرر الأمر من الله تعالى بالذهاب، فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على المعصية؟ **الجواب**: لو اقتضى الأمر الفور لكان ذلك من أقوى الدلائل على المعصية، لا سيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقوية القلب وإزالة الغم، ولكن ليس الأمر على

الفور فزال السؤال، وهذا من أقوى الدلائل على أن الأمر لا يقتضي الفور إذا ضممت إليه ما يدل على أن المعصية غير جائزة على الرسل. أما قوله تعالى: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ فاعلم أن في: ﴿أَن يَفْرُطَ﴾ وجوهًا: أحدها: فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذي يتقدم الواردة، وفرس فرط: يسبق الخيل، والمعنى نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة. وثانيها: أنه مأخوذ من (أفرط غيره) إذا حمله على العجلة، فكأن موسى وهارون عليهما السلام خافا من أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة، وذلك الحامل هو إما الشيطان أو ادعاؤه للربوبية أو حبه للرياسة، أو قومه وهم القبط المتمردون الذين حكى الله تعالى عنهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾[الأعراف: ٦٠]. وثالثها: يفرط من الإفراط في الأذية.

أما قوله: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ فالمعنى يطغى بالتخطي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي لجراءته عليك. واعلم أن مَن أُمِر بشيء فحاول دفعه بأعذار يذكرها، فلا بد وأن يختم كلامه بما هو الأقوى، وهذا كما أن الهدهد ختم عذره بقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[النمل: ٢٤] فكذا هاهنا بدأ موسى بقوله: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ وختم بقوله: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ لما أن طغيانه في حق الله تعالى أعظم من إفراطه في حق موسى وهارون عليهما السلام.

أما قوله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فالمراد لا تخافا مما عرض في قلبكما من الإفراط والطغيان. لأن ذلك هو المفهوم من الكلام، يبين ذلك أنه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة.

أما قوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ فهو عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال: (الله معك) على وجه الدعاء وأكد ذلك بقوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فإن من يكون مع الغير وناصرًا له وحافظًا يجوز أن لا يعلم كل ما يناله وإنما يحرسه فيما يعلم، فبَيَّن سبحانه وتعالى أنه معهما بالحفظ والعلم في جميع ما ينالهما، وذلك هو النهاية في إزالة الخوف. قال القفال: قوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ يحتمل أن يكون مقابلاً لقوله: ﴿أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ والمعنى: ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ بأن لا يسمع منا ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ بأن يقتلنا، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ أسمع كلامه معكما، فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه. واعلم أن هذه الآية تدل على أن كونه تعالى سميعًا وبصيرًا صفتان زائدتان على العلم لأن قوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ دل على العلم، فقوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ لو دل على العلم لكان ذلك تكريرًا، وهو خلاف الأصل، ثم إنه سبحانه أعاد ذلك التكليف فقال: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ لأنه سبحانه وتعالى قال في المرة الأولى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[طه: ٢٣، ٢٤] وفي الثانية: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾[طه: ٤٢] وفي الثالثة قال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[طه: ٤٣] وفي الرابعة قال ههنا: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾

فإن قيل: إنه تعالى أمَرهما في المرة الثانية بأن يقولا له: ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[طه: ٤٤] وفي هذه المرة الرابعة أمَرهما أن يقولا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وفيه تغليظ من وجوه: أحدها:

أن قوله : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ **فيه أبحاث:**

البحث الأول: انقياده إليهما والتزامه لطاعتهما، وذلك يعظم على الملك المتبوع.

البحث الثاني: قوله : ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيه إدخال النقص على ملكه؛ لأنه كان محتاجًا إليهم فيما يريده من الأعمال من بناء أو غيره.

البحث الثالث: قوله : ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ .

البحث الرابع: قوله : ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ فما الفائدة في التليين أولاً والتغليظ ثانيًا؟

قلنا: لأن الإنسان إذا ظهر لجاجه فلا بد له من التغليظ . **فإن قيل:** أليس كان من الواجب أن يقولا (إنا رسولا ربك قد جئناك بآية فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم)، لأن ذِكر المعجز مقرونًا بادعاء الرسالة أَوْلى من تأخيره عنه؟ **قلنا:** بل هذا أَوْلى من تأخيره عنه لأنهم ذكروا مجموع الدعاوى، ثم استدلوا على ذلك المجموع بالمعجزة . **أما قوله:** ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ **ففيه سؤال:** وهو أنه تعالى أعطاه آيتين وهما العصا واليد، ثم قال : ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾[طه: ٤٢] وذلك يدل على ثلاث آيات، وقال ههنا : ﴿جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ﴾ وهذا يدل على أنها كانت واحدة فكيف الجمع؟ **أجاب القفال** بأن معنى الآية الإشارة إلى جنس الآيات كأنه قال : (قد جئناك ببيان من عند الله) ثم يجوز أن يكون ذلك حجة واحدة أو حججًا كثيرة . **وأما قوله:** ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فقال بعضهم : هو من قول الله تعالى لهما، كأنه قال : فقولا إنا رسولا ربك، وقولا له : والسلام على من اتبع الهدى . وقال آخرون : بل كلام الله تعالى قد تم عند قوله : ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ فقوله بعد ذلك : ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وَعْد مِن قِبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة . والسلام بمعنى السلامة كما يقال رضاع ورضاعة، واللام وعلى ههنا بمعنى واحد، كما قال : ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٥] على معنى (عليهم) وقال تعالى : ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[فصلت: ٤٦] وفي موضع آخر : ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[الإسراء: ٧] .

أما قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فاعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أن عقاب المؤمن لا يدوم وذلك لأن الألف واللام في قوله : ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ تفيد الاستغراق أو تفيد الماهية، وعلى التقديرين يقتضي انحصار، هذا الجنس فيمن كذب وتولى، فوجب في غير المكذب المتولي أن لا يحصل هذا الجنس أصلاً، وظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأنه لا يعاقب أحدًا من المؤمنين بترك العمل به في بعض الأوقات، فوجب أن يبقى على أصله في نفي الدوام؛ لأن العقاب المتناهي إذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية - صار ذلك العقاب كأنه لا عقاب؛ فلذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال : إنه لا عقاب، وأيضًا فقوله : ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ، وقد فسرنا السلام بالسلامة، فظاهره يقتضي حصول السلامة لكل من اتبع الهدى، والعارف بالله قد اتبع الهدى فوجب أن يكون صاحب السلامة .

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

اعلم أنهما عليهما السلام لما قالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] قال لهما: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: أن فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر، ثم إن موسى عليه السلام لما دعاه إلى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والإيذاء، بل خرج معه في المناظرة لما أنه لو شرع أولاً في الإيذاء لنُسب إلى الجهل والسفاهة، فاستنكف من ذلك، وشرع أولاً في المناظرة، وذلك يدل على أن السفاهة من غير الحجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره، فكيف يليق ذلك بمن يدعي الإسلام والعلم؟! ثم إن فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك، قبل موسى ذلك السؤال واشتغل بإقامة الدلالة على وجود الصانع، وذلك يدل على فساد التقليد، ويدل أيضًا على فساد قول التعليمية الذين يقولون: (نستفيد معرفة الإله من قول الرسول) لأن موسى عليه السلام اعترف ههنا بأن معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول، وتدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون: (نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة).

المسألة الثانية: تدل الآية على أنه يجوز حكاية كلام المبطل؛ لأنه تعالى حكى كلام فرعون في إنكاره الإله، وحكى شبهات منكري النبوة وشبهات منكري الحشر، إلا أنه يجب أنك متى أوردت السؤال فاقرنه بالجواب، لئلا يبقى الشك، كما فعل الله تعالى في هذه المواضع.

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن المُحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير إيذاء ولا إيحاش، كما فعل موسى عليه السلام بفرعون ههنا، وكما أمر الله تعالى رسوله في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

المسألة الرابعة: اختلف الناس في أن فرعون هل كان عارفًا بالله تعالى؟ فقيل: إنه كان عارفًا إلا أنه كان يُظهر الإنكار تكبرًا وتجبرًا وزورًا وبهتانًا، **واحتجوا عليه بستة أوجه:**

أحدها: قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فمتى نصبت التاء في (علمت) كان ذلك خطابًا من موسى عليه السلام مع فرعون، فدل ذلك على أن فرعون

كان عالمًا بذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وثانيها: أنه كان عاقلاً وإلا لم يجز تكليفه، وكل من كان عاقلاً قد علم بالضرورة أنه وُجد بعد العدم، وكل من كان كذلك افتقر إلى مدبر، وهذان العلمان الضروريان يستلزمان العلم بوجود المدبر.

وثالثها: قول موسى عليه السلام ههنا: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وكلمة (الذي) تقتضي وصف المعرفة بجملة معلومة، فلا بد وأن تكون هذه الجملة قد كانت معلومة له.

ورابعها: قوله في سورة القصص في صفة فرعون وقومه: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩] وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فذلك يدل على أنهم كانوا عالمين بالمبدأ إلا أنهم كانوا منكرين للمعاد. **وخامسها:** أن مُلك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام، ولما هرب موسى عليه السلام إلى مدين قال له شعيب: ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] فمع هذا كيف يعتقد أنه إله العالم؟ **وسادسها:** أنه لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٤] قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] يعني أنا أطلب منه الماهية وهو يشرح الوصف، فهو لم ينازع موسى في الوجود بل طلب منه الماهية، فدل هذا على اعترافه بأصل الوجود. ومن الناس من قال: إنه كان جاهلاً بربه، واتفقوا على أن العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه أنه خالق هذه السموات والأرضين والشمس والقمر وأنه خالق نفسه؛ لأنه يعلم بالضرورة عجزه عنها ويعلم بالضرورة أنها كانت موجودة قبله، فيحصل العلم الضروري بأنه ليس موجدًا لها ولا خالقًا لها. واختلفوا في كيفية جهله بالله تعالى: فيحتمل أنه كان دهريًّا نافيًا للمؤثر أصلاً، ويحتمل أنه كان فلسفيًا قائلاً بالعلة الموجبة، ويحتمل أنه كان من عبدة الكواكب، ويحتمل أنه كان من الحلولية المجسمة. وأما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى أنه يجب عليهم طاعته والانقياد له، وعدم الاشتغال بطاعة غيره.

المسألة الخامسة: أنه سبحانه حكى عنه في هذه السورة أنه قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ وقال في سورة الشعراء: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] فالسؤال ههنا (بمَن) وهو عن الكيفية، وفي سورة الشعراء بـ(ما) وهو عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة، والأقرب أن يقال سؤال (مَن) كان مقدمًا على سؤال (مَا) لأنه كان يقول إني أنا الله والرب فقال فمن ربكما؟ فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلائه، عدل إلى المقام الثاني وهو طلب الماهية، وهذا أيضًا مما ينبه على أنه كان عالمًا بالله؛ لأنه ترك المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره، وشرع في المقام الصعب لأن العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر.

المسألة السادسة: إنما قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ ولم يقل: (فمن إلهكما) لأنه أثبت نفسه ربًّا في قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] فذكر ذلك على سبيل التعجب،

كأنه قال له: أنا ربك فلمَ تدعي ربًّا آخر؟! وهذا الكلام شبيه بكلام نمروذ لأن إبراهيم عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]قال نمروذ له: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]ولم يكن الإحياء والإماتة التي ذكرهما إبراهيم عليه السلام هما الذي عارضه بهما نمروذ إلا في اللفظ، فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام، ومراده أني أنا الرب لأني ربيتك ومعلوم أن الربوبية التي ادعاها موسى لله سبحانه وتعالى غير هذه الربوبية في المعنى، وأنه لا مشاركة بينهما إلا في اللفظ.

المسألة السابعة: اعلم أن موسى عليه السلام استدل على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وهذه الدلالة هي التي ذكرها الله تعالى لمحمد ﷺفي قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ١ - ٣] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٧، ٧٨] وإن موسى عليه السلام في أكثر الأمور يعول على دلائل إبراهيم عليه السلام، وسيأتي تقرير ذلك في سورة الشعراء إن شاء الله تعالى، واعلم أنه يشبه أن يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والأبدان، والهداية عبارة عن إبداع القوى المدركة والمحركة في تلك الأجسام، وعلى هذا التقدير يكون الخلق مقدمًا على الهداية ولذلك قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]فالتسوية راجعة إلى القالب ونَفْخ الروح إشارة إلى إبداع القوى. وقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢]إلى أن قال: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]فظهر أن الخلق مقدم على الهداية. والشروع في بيان عجائب حكمة الله تعالى في الخلق والهداية شروع في بحر لا ساحل له، ولنذكر منه أمثلة قريبة إلى الأفهام:

أحدها:أن الطبيعي يقول: الثقيل هابط والخفيف صاعد، وأشد الأشياء ثقلاً الأرض ثم الماء، وأشدها خفة النار ثم الهواء؛ فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والأرض أسفلها، ثم إنه سبحانه قلب هذا الترتيب في خلقة الإنسان، فجعل أعلى الأشياء منه العظم والشعر وهما أيبس ما في البدن وهما بمنزلة الأرض، ثم جعل تحته الدماغ الذي هو بمنزلة الماء، وجعل تحته النفس الذي هو بمنزلة الهواء، وجعل تحته الحرارة الغريزية التي في القلب التي هي بمنزلة النار، فجعل مكان الأرض من البدن الأعلى، وجعل مكان النار من البدن الأسفل ليعرف أن ذلك بتدبير القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة. **وثانيها**:إنك إذا نظرت إلى عجائب النحل في تركيب البيوت المسدسة وعجائب أحوال البق والبعوض في اهتدائها إلى مصالح أنفسها، لعرفت أن ذلك لا يمكن إلا بإلهام مدبر عالم بجميع المعلومات. **وثالثها**:أنه تعالى هو الذي أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح، ثم هداهم إلى كيفية الانتفاع بها، ويستخرجون الحديد من الجبال واللآلى من البحار، ويُركبون الأدوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الأشياء المختلفة فيستخرجون لَذَّات الأطعمة، فثبت

أنه سبحانه هو الذي خلق كل الأشياء، ثم أعطاهم العقول التي بها يتوصلون إلى كيفية الانتفاع بها، وهذا غير مختص بالإنسان بل عام في جميع الحيوانات، فأعطى الإنسان إنسانة والحمار حمارة والبعير ناقة، ثم هداه لها ليدوم التناسل وهدى الأولاد لثدي الأمهات، بل هذا غير مختص بالحيوانات، بل هو حاصل في أعضائها فإنه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوة الأخذ، وخلق الرِّجل على تركيب خاص وأودع فيها قوة المشي، وكذا العين والأذن وجميع الأعضاء، ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد وهو الإنسان.

وإنما دلت هذه الأشياء على وجود الصانع سبحانه لأن اتصاف كل جسم من هذه الأجسام بتلك الصفة - أعني التركيب والقوة والهداية - إما أن يكون واجبًا أو جائزًا، والأول باطل لأنا نشاهد تلك الأجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوى، فدل على أن ذلك جائز، والجائز لا بد له من مرجح وليس ذلك المرجح هو الإنسان ولا أبواه؛ لأن فعل ذلك يستدعي قدرة عليه وعلمًا بما فيه من المصالح والمفاسد، والأمران نائيان عن الإنسان لأنه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة، وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لايعرف من منافع الأعضاء ومصالحها إلا القدر القليل، فلا بد أن يكون المتولي لتدبيرها وترتيبها موجودًا آخر وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسمًا لأن الأجسام متساوية في الجسمية، فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لا بد وأن يكون جائزًا وإن كان جائزًا افتقر إلى سبب آخر والدور والتسلسل محالان، فلا بد من الانتهاء في سلسلة الحاجة إلى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسماني، ثم تأثير ذلك المؤثر إما أن يكون بالذات أو بالاختيار، والأول محال لأن الموجب لا يميز مثلاً عن مثل، وهذه الأجسام متساوية في الجسمية فلمَ اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية وبعضها بالحيوانية؟ فثبت أن المؤثر والمدبر قادر، والقادر لا يمكنه مثل هذه الأفعال العجيبة إلا إذا كان عالمًا، ثم إن هذا المدبر الذي ليس بجسم ولا جسماني لا بد وأن يكون واجب الوجود في ذاته وفي صفاته، وإلا لافتقر إلى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال، وإذا كان واجب الوجود في قادريته وعالميته والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض، وجب [أن] يكون عالمًا بكل ما صح أن يكون معلومًا وقادرًا على كل ما صح أن يكون مقدورًا.

فظهر بهذه الدلالة التي تمسك بها موسى عليه السلام ونبه على تقريرها استنادُ العالم إلى مدبر ليس بجسم ولا جسماني، وهو واجب الوجود في ذاته وفي صفاته، عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات، وذلك هو الله سبحانه وتعالى.

المسألة الثامنة: أن فرعون خاطب الاثنين بقوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ ثم وجه النداء إلى أحدهما وهو موسى عليه السلام لأنه الأصل في النبوة وهارون وزيره وتابعه، وإما لأن فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التي في لسان موسى عليه السلام، فأراد استنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحته

والرتة التي في لسان موسى عليه السلام، ويدل عليه قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

المسألة التاسعة: في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وجهان:

أحدهما: التقديم والتأخير، أي أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به.

وثانيهما: أن يكون المراد من الخلق الشكل والصورة المطابقة للمنفعة، فكأنه سبحانه قال: أعطى كل شيء الشكل الذي يطابق منفعته ومصلحته، وقرئ خلقه صفة للمضاف أو المضاف إليه، والمعنى أن كل شيء خلقه الله لم يخله من إعطائه وإنعامه.

وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فاعلم أن في ارتباط هذا الكلام بما قبله وجوهًا:

أحدها: أن موسى عليه السلام لما قرر على فرعون أمر المبدأ والمعاد، قال فرعون: إن كان إثبات المبدأ في هذا الحد من الظهور ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما أثبتوه وتركوه؟ فكان موسى عليه السلام لما استدل بالدلالة القاطعة على إثبات الصانع، قدح فرعون في تلك الدلالة بقوله: إن كان الأمر في قوة هذه الدلالة على ما ذكرت وجب على أهل القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها. فعارض الحجة بالتقليد.

وثانيها: أن موسى عليه السلام هدد بالعذاب أولاً في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨] فقال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فإنها كذبت ثم إنهم ما عُذبوا؟!

وثالثها: - وهو الأظهر - أن فرعون لما قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ فذكر موسى عليه السلام دليلاً ظاهرًا وبرهانًا باهرًا على هذا المطلوب فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فخاف فرعون أن يزيد في تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صدقه وفساد طريق فرعون، فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات فقال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فلم يلتفت موسى عليه السلام إلى ذلك الحديث بل قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾ ولا يتعلق غرضي بأحوالهم فلا أشتغل بها. ثم عاد إلى تتميم كلامه الأول وإيراد الدلائل الباهرة على الوحدانية فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ وهذا الوجه هو المعتمد في صحة هذا النظم.

ثم ههنا مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في قوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾ فإن العلم الذي يكون عند الرب كيف يكون في الكتاب؟ وتحقيقه هو أن علم الله تعالى صفته وصفة الشيء قائمة به، فأما أن تكون صفة الشيء حاصلة في كتاب فذاك غير معقول. فذكروا فيه وجهين:

الأول: معناه أنه سبحانه أثبت تلك الأحكام في كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم في الاستدلال على أنه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة، ولقائل أن يقول قوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ يوهم احتياجه سبحانه وتعالى في ذلك العلم إلى ذلك الكتاب، وهذا وإن كان غير واجب لا محالة، ولكنه لا أقل من أنه يوهمه في أول الأمر لا

سيما للكافر، فكيف يَحسن ذكره مع مُعاند مثل فرعون في وقت الدعوة؟

الوجه الثاني: أن تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات في علمه سبحانه كبقاء المكتوب في الكتاب، فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول شيء منها عن علمه، وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ .

المسألة الثانية: اختلفوا في قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ فقال بعضهم: معنى اللفظين واحد أي لا يذهب عليه شيء ولا يخفى عليه. وهذا قول مجاهد. والأكثرون على الفرق بينهما، ثم ذكروا وجوهًا: أحدها: - وهو الأحسن - ما قاله القفال: لا يضل عن الأشياء ومعرفتها وما علم من ذلك لم ينسه. فاللفظ الأول إشارة إلى كونه عالمًا بكل المعلومات واللفظ الثاني وهو قوله: (ولا ينسى) دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد، وهو إشارة إلى نفي التغير. وثانيها: قال مقاتل: لا يخطئ ذلك الكتاب ربي ولا ينسى ما فيه. وثالثها: قال الحسن لا يخطئ وقت البعث ولا ينساه. ورابعها: قال أبو عمرو: أصل الضلال الغيبوبة، والمعنى لا يغيب عن شيء ولا يغيب عنه شيء. وخامسها: قال ابن جرير: لا يخطئ في التدبير فيعتقد في غير الصواب كونه صوابًا، وإذا عرفه لا ينساه وهذه الوجوه متقاربة، والتحقيق هو الأول.

المسألة الثالثة: أنه لما سأله عن الإله وقال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ وكان ذلك مما سبيله الاستدلال، أجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة وأحسن معنى، ولما سأله عن شأن القرون الأولى وكان ذلك مما سبيله الإخبار ولم يأته في ذلك خبر وكله إلى عالم الغيوب.

واعلم أن موسى عليه السلام لما ذكر الدلالة الأولى وهي دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات من الإنسان وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات، ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهي ثلاثة. أولها: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وفيه أبحاث:

البحث الأول: قرأ أهل الكوفة ههنا وفي الزخرف (مَهْدًا) والباقون قرؤوا (مهادًا) فيهما، قال أبو عبيدة: الذي اختاره (مهادًا) وهو اسم و(المهد) اسم الفعل. وقال غيره: المهد الاسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش. أجاب أبو عبيدة بأن الفراش اسم والفرش فعل. وقال المفضل: هما مصدران لمهد إذا وطأ له فراشًا، يقال مهد مهدًا ومهادًا، وفرش فرشًا وفراشًا.

البحث الثاني: قال صاحب (الكشاف): (الَّذِي جَعَلَ) مرفوع لأنه خبر مبتدأ محذوف أو لأنه صفة لربي أو منصوب على المدح. وهذا من مظانه ومجازه، واعلم أنه يجب الجزم بكونه خبرًا لمبتدأ محذوف إذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام، ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

البحث الثالث: المراد من كون الأرض مهدًا أنه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع، وقد ذكرناه مستقصى في سورة

البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[البقرة: ٢٢] . وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ قال صاحب (الكشاف): سلك من قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الشعراء: ٢٠٠] أي جعل لكم فيها سبلاً ووسطها بين الجبال والأودية والبراري. وثالثها: قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ والكلام فيه قد مر في سورة البقرة. أما قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ فيه وجوه: أحدها: أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام، كأنه يقول ربي الذي جعل لكم كذا وكذا، فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجًا من نبات شتى. وثانيها: أن عند قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تم كلام موسى عليه السلام، ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلاً بالكلام الأول بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ ثم يدل على هذا الاحتمال قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾. وثالثها: قال صاحب (الكشاف): انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للإيذان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾[فاطر: ٢٧] ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[النمل: ٦٠] واعلم أن قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ إما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى، والأول باطل لأن قوله بعد ذلك: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ لا يليق بموسى عليه السلام، وأيضًا فقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ لا يليق بموسى لأن أكثر ما في قدرة موسى عليه السلام صرف المياه إلى سقي الأراضي، وأما إخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه السلام، فثبت أن هذا كلام الله ولا يجوز أن يقال كلام الله إبتداؤه من قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ لأن الفاء يتعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعالى وجعل ما قبله كلام موسى عليه السلام، فلم يبق إلا أن يقال: إن كلام موسى عليه السلام تم عند قوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ويكون التقدير هو الذي ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فيكون الذي خبر مبتدأ محذوف، ويكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب التفاتًا.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أنه سبحانه إنما يُخرج النبات من الأرض بواسطة إنزال الماء فيكون للماء فيه أثر، وهذا بتقدير ثبوته لا يقدح في شيء من أصول الإسلام لأنه سبحانه وتعالى هو الذي أعطاها هذه الخواص والطبائع، لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون: لا تأثير له فيه ألبتة.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي أصنافًا، سُميت بذلك لأنها مزدوجة مقرونة بعضها مع بعض ﴿شَتَّىٰ﴾ صفة للأزواج جمع شتيت، كمريض ومرضى، ويجوز أن يكون صفة للنبات

والنبات مصدر سمي به النابت كما يسمى بالنبت، فاستوى فيه الواحد والجمع، يعني أنها شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم.

أما قوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ فهو حال من الضمير في (أخرجنا) والمعنى: أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها. وقد تضمن قوله (كلوا) سائر وجوه المنافع فهو كقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾[البقرة: ١٨٨] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾[النساء: ١٠] وقوله: ﴿كُلُوا﴾ أمر إباحة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكرت من هذه النعم ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ أي لدلالات لذوي النهى، أي العقول، والنهية: العقل. قال أبو علي الفارسي: النُّهى يجوز أن يكون مصدرًا كالهدى، ويجوز أن يكون جمعًا.

أما قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما ذكر منافع الأرض والسماء بَيَّن أنها غير مطلوبة لذاتها، بل هي مطلوبة لكونها وسائل إلى منافع الآخرة فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ **وفيه سؤالان:**

السؤال الأول: ما معنى قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ مع أنه سبحانه وتعالى خلقنا من نطفة على ما بَيَّن ذلك في سائر الآيات؟ والجواب من وجهين: الأول: أنه لما خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب على ما قال: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[آل عمران: ٥٩] لا جرم أطلق ذلك علينا. الثاني: أن تولُّد الإنسان إنما هو من النطفة ودم الطمث، وهما يتولدان من الأغذية، والغذاء إما حيواني أو نباتي، والحيواني ينتهي إلى النبات، والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء والتراب، فصَحَّ أنه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافي كوننا مخلوقين من النطفة. والثالث: ذكرنا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾[آل عمران: ٦] خبر ابن مسعود أن الله يأمر ملك الأرحام أن يكتب الأجل والرزق والأرض التي يُدفن فيها، وأنه يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يُدخلها في الرحم.

السؤال الثاني: ظاهر الآية يدل على أن الشيء قد يكون مخلوقًا من الشيء، وظاهر قول المتكلمين يأباه. والجواب: إن كان المراد من خلق الشيء من الشيء إزالة صفة الشيء الأول عن الذات وإحداث صفة الشيء الثاني فيه، فذلك جائز لأنه لا منافاة فيه.

أما قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ فلا شبهة في أن المراد الإعادة إلى القبور حتى تكون الأرض مكانًا وظرفًا لكل من مات إلا من رفعه الله إلى السماء، ومن هذا حاله يحتمل أن يعاد إليها أيضًا بعد ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ففيه وجوه: أحدها: -وهو الأقرب- ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ يوم الحشر والبعث. وثانيها: ومنها نخرجكم ترابًا وطينًا ثم نحييكم بعد الإخراج. وهذا مذكور في بعض الأخبار. وثالثها: المراد عذاب القبر، عن البراء قال: «**خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَذَكَرَ عَذَابَ الْقَبْرِ وَمَا يُخَاطَبُ بِهِ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَأَنَّهُ تُرَدُّ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ عِنْدَ إِعَادَتِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ، إِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي**

مِنهَا خَلَقْنَهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنهَا أُخرِجُهُمْ تَارَةً أُخرَى»[١] .

واعلم أن الله تعالى عَدَّد في هذه الآيات منافع الأرض، وهي أنه تعالى جعلها لهم فراشًا ومهادًا يتقلبون عليها، وسَوَّى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف أرادوا وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلف دوابهم، وهي أصلهم الذي منه يتفرعون ثم هي كفاتهم إذا ماتوا، ومن ثم قال عليه السلام: «بِرُّوا بِالأَرْضِ فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ»[٢] .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى بَيَّن أنه أرى فرعون الآيات كلها ثم إنه لم يقبلها، واختلفوا في المراد بالآيات: فقال بعضهم: أراد كل الأدلة ما يتصل بالتوحيد وما يتصل بالنبوة: أما التوحيد فما ذكر في هذه السورة من قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] الآية، وما ذكر في سورة الشعراء: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤] الآيات، وأما النبوة فهي الآيات التسع التي خص الله بها موسى عليه السلام، وهي العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل، وعلى هذا التقرير معنى (أريناه) عَرَّفناه صحتها وأوضحنا له وجه الدلالة فيها. ومنهم من حمل ذلك على ما يتصل بالنبوة وهي هذه المعجزات، وإنما أضاف الآيات إلى نفسه سبحانه وتعالى مع أن المُظهر لها موسى عليه السلام لأنه أجراها على يديه، كما أضاف نفخ الروح إلى نفسه فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] مع أن النفخ كان من جبريل عليه السلام، فإن قيل: قوله: (كلها) يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات لأن من جملة الآيات ما أظهرها على الأنبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده. قلنا: لفظ الكل وإن كان للعموم لكن قد يُستعمل في الخصوص عند القرينة، كما يقال (دخلت السوق فاشتريت كل شيء) أو يقال إن موسى عليه السلام أراه آياته وعَدَّد عليه آيات غيره من الأنبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل. أو يقال: تكذيب بعض المعجزات يقتضي تكذيب الكل، فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذي يلزم، ثم إنه سبحانه وتعالى حكى عنه أنه كذب وأبى. قال القاضي: الإباء: الامتناع وإنه لا يوصف به إلا من يتمكن من الفعل والترك

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة) باب (في المسألة في القبر وعذاب القبر) (٤/ ٢٠٣٠) حديث (رقم/ ٤٧٥٣) وابن ماجه في كتاب (الجنائز) باب (ما جاء في الجلوس على المقابر) (١/ ٤٩٤) حديث (رقم/ ١٥٤٨) والنسائي في كتاب (الجنائز) باب (الوقوف للجنائز) (٤/ ٣٨١) حديث رقم/ ٢٠٠٠ من طريق المنهال بن عمرو . . . به.

(٢) لم أجده.

لأن الله تعالى ذمه بأنه كذب وبأنه أبى، ولو لم يقدر على ما هو فيه لم يصح. واعلم أن هذا السؤال مر في سورة البقرة في قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤] والجواب مذكور هناك.

ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهي قوله: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ وتركيب هذه الشبهة عجيب!! وذلك لأنه ألقى في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جدًّا وهو قوله: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا﴾ وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان في النهاية، ولذلك جعله الله تعالى مساويًا للقتل في قوله: ﴿أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦] ثم لما صاروا في نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة في نبوته عليه السلام، وهي أن ما جئتنا به سحر لا معجز، ولما علم أن المعجز إنما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾ فاعلم أن الموعد يجوز أن يكون مصدرًا ويجوز أن يكون اسمًا لمكان الوعد، كقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣] وأن يكون اسمًا لزمان الوعد، كقوله: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ [هود: ٨١] والذي في هذه الآية بمعنى المصدر، أي اجعل بيننا وبينك وعدًا لا نخلفه؛ لأن الوعد هو الذي يصح وصفه بالخلف. أما الزمان والمكان فلا يصح وصفهما بذلك، ومما يؤكد ذلك أن الحسن قرأ (يومَ الزينة) بالنصب وذلك لا يطابق المكان والزمان، وإنما نصب مكانًا لأنه هو المفعول الثاني للجعل والتقدير: اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانًا سوى. أما قوله: ﴿سُوٗى﴾ فاعلم أنه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر ﴿سُوٗى﴾ بضم السين، والباقون بكسرها، وهما لغتان مثل طُوى وطِوى، وقرئ أيضًا منونًا وغير منون، وذكروا في معناه وجوهًا: أحدها: قال أبو علي: مكانًا تستوي مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد: قال قتادة: منصفًا بيننا. وثانيها: قال ابن زيد: ﴿سُوٗى﴾ أي مستويًا لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض. فسوى على التقدير الأول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان، والمقصود أنهم طلبوا موضعًا مستويًا لا يكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل ما يجري. وثالثها: مكانًا يستوي حالنا في الرضاء به. ورابعها: قال الكلبي: مكانًا سوى: هذا المكان الذي نحن فيه الآن.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: يحتمل أن قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ﴾ أن يكون من قول فرعون فبيَّن

الوقت، ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام، قال القاضي: والأول أظهر لأنه المُطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام. وعندي: الأظهر أنه من كلام موسى عليه السلام لوجوه: أحدها: أنه جواب لقول فرعون ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾. وثانيها: وهو أن تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ما سيقع، فتعيينه إنما يليق بالمُحق الذي يعرف أن اليد له لا المبطل الذي يعرف أنه ليس معه إلا التلبيس. وثالثها: أن قوله: (موعدكم) خطاب للجمع، فلو جعلناه من فرعون إلى موسى وهارون لزم إما حمله على التعظيم، وذلك لا يليق بحال فرعون معهما أو على أن أقل الجمع اثنان وهو غير جائز، أما لو جعلناه من موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه استقام الكلام.

المسألة الثانية: ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ قرأ بعضهم بضم الميم، وقرأ الحسن بالنصب: قال الزجاج: إذا رُفع فعلى خبر المبتدأ، والمعنى (وقت موعدكم يوم الزينة) ومن نصب فعلى الظرف معناه (موعدكم يقع يوم الزينة) وقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ معناه موعدكم حشر الناس ضحى، فموضع أن يكون رفعًا ويجوز فيه الخفض عطفًا على الزينة كأنه قال: موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى. فإن قيل: ألستم قلتم في تفسير قوله: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ [طه: ٥٨]: إن التقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانًا سوى، فهذا كيف يطابقه الجواب بذكر الزمان؟ قلنا: هو مطابق معنى وإن لم يطابق لفظًا لأنهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان معين مشهود باجتماع الناس في ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان.

المسألة الثالثة: ذكر المفسرون في يوم الزينة وجوهًا: أحدها: أنه يوم عيد لهم يتزينون فيه. وثانيها: قال مقاتل: يوم النيروز. وثالثها: قال سعيد بن جبير: يوم سوق لهم. ورابعها: قال ابن عباس: يوم عاشوراء، وإنما قال (يحشر) فإنهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم، وقرئ وأن يحشر الناس بالياء والتاء يريد وأن تحشر الناس يا فرعون وأن يحشر اليوم. ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة، إما على العادة التي تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ وجعل ضمير يحشر لفرعون. وإنما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل - على رؤوس الأشهاد في المجمع العام ليكثر المحدث بذلك الأمر العجيب في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر، قال القاضي: إنه عين اليوم بقوله: ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ ثم عين من اليوم وقتًا معينًا بقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾.

وأما قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ فاعلم أن التولي قد يكون إعراضًا وقد يكون انصرافًا، والظاهر ههنا أنه بمعنى الانصراف وهو مفارقته موسى عليه السلام على الموعد الذي تواعدوا للاجتماع فيه، قال مقاتل: فتولى، أي أعرض وثبت على إعراضه عن الحق. ودخل تحت قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما

أوردته السحرة ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات، قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحرًا مع كل واحد منهم حبل وعصا. وقيل: كانوا أربعمائة. وقيل أكثر من ذلك ثم ضُربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر إليهم، وكان طول القبة سبعين ذراعًا، ثم بَيَّن تعالى أن موسى عليه السلام قَدَّم قبل كل شيء الوعيد والتحذير مما قالوه وأقدموا عليه فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تزعموا بأن الذي جئتُ به ليس بحق وأنه سحر فيمكنكم معارضتي. قال الزجاج: يجوز في انتصاب (ويلكم) أن يكون المعنى ألزمهم الله ويلاً إن افتروا على الله كذبًا. ويجوز على النداء كقوله: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]، ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢] وقوله: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي يعذبكم عذابًا مهلكًا مستأصلاً. وقرأ حمزة وعاصم والكسائي برفع الياء من الإسحات، والباقون بفتحها من السحت، والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم، والسحت لغة أهل الحجاز، فكأنه تعالى قال: من افترى على الله كذبًا حصل له أمران: أحدهما: عذاب الاستئصال في الدنيا أو العذاب الشديد في الآخرة، وهو المراد من قوله: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾. والثاني: الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ ثم بَيَّن سبحانه وتعالى أنه لما قال موسى عليه السلام ذلك أعرضوا عن قوله: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ وفي تنازعوا قولان: أحدهما: تفاوضوا وتشاوروا ليستقروا على شيء واحد. والثاني: قال مقاتل: اختلفوا فيما بينهم. ثم قال بعضهم: دخل في التنازع فرعون وقومه. ومنهم من يقول: بل هم السحرة وحدهم. والكلام محتمل وليس في الظاهر ما يدل على الترجيح. وذكروا في قوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ وجوهًا: أحدها: أنهم أسروها من فرعون. وعلى هذا التقدير فيه وجوه: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن نجواهم قالوا: إن غَلَبَنا موسى اتبعناه. والثاني: قال قتادة: إن كان ساحرًا فسنغلبه وإن كان من السماء فله أمر. الثالث: قال وهب: لما قال: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ الآية قالوا: ما هذا بقول ساحر. القول الثاني: أنهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [طه: ٦٣] وهو قول السدي. الوجه الثالث: أنهم أسروا النجوى من موسى وهارون ومن فرعون وقومه أيضًا، وكان نجواهم أنهم كيف يجب تدبير أمر الحبال والعصي، وعلى أي وجه يجب إظهارها فيكون أوقع في القلوب وأظهر للعيوب وهو قول الضحاك.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: القراءة المشهورة: (إنَّ هذان لساحران) ومنهم من ترك هذه القراءة وذكروا

وجوهًا أخر: أحدها: قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر: (إن هذين لساحران) قالوا: هي قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضي الله تعالى عنه. واحتج أبو عمرو وعيسى على ذلك بما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سئلت عن قوله: (إنَّ هذان لساحران) وعن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٦٩] في المائدة، وعن قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٢] إلى قوله ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢] فقالت: يا بن أخي هذا خطأ من الكاتب. وروي عن عثمان أنه نظر في المصحف فقال: أرى فيه لحنًا وستقيمه العرب بألسنتها. وعن أبي عمرو أنه قال: إني لأستحي أن أقرأ: (إِنَّ هذانِ لَساحِرانِ)، وثانيها: قرأ ابن كثير: (إنْ هذانِّ) بتخفيف إن وتشديد نون هذان. وثالثها: قرأ حفص عن عاصم (إن هذان) بتخفيف النونين. ورابعها: قرأ عبد الله بن مسعود: (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى أَنْ هَذَانِ سَاحِرانِ) بفتح الألف وجزم نونه (و) ساحران بغير لام. وخامسها: عن الأخفش: (إِنْ هذانِ لَساحِرانِ) خفيفة في معنى ثقيلة وهي لغة قوم يرفعون بها ويُدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى ما. وسادسها: رُوي عن أُبي بن كعب: (مَا هَذَانِ إِلاَّ سَاحِرَانِ) ورُوي عنه أيضًا: (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ) وعن الخليل مثل ذلك، وعن أبي أيضًا: (إِنْ ذَانِ لَسَاحِرَانِ) فهذه هي القراءات الشاذة المذكورة في هذه الآية.

واعلم أن المحققين قالوا: هذه القراءات لا يجوز تصحيحها لأنها منقولة بطريق الآحاد، والقرآن يجب أن يكون منقولاً بالتواتر، إذ لو جوزنا إثبات زيادة في القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذي هو عندنا كل القرآن؛ لأنه لما جاز في هذه القراءات أنها مع كونها من القرآن ما نقلت بالتواتر، جاز في غيرها ذلك، فثبت أن تجويز كون هذه القراءات من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير إلى القرآن، وذلك يُخرج القرآن عن كونه حجة، ولما كان ذلك باطلاً فكذلك ما أدى إليه. وأما الطعن في القراءة المشهورة فهو أسوأ مما تقدم من وجوه: أحدها: أنه لما كان نقل هذه القراءة في الشهرة كنقل جميع القرآن، فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله في جميع القرآن، وذلك يفضي إلى القدح في التواتر وإلى القدح في كل القرآن وأنه باطل، وإذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضًا بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة. وثانيها: أن المسلمين أجمعوا على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى، وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحنًا وغلطًا، فثبت فساد ما نُقل عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما أن فيه لحنًا وغلطًا. وثالثها: قال ابن الأنباري: إن الصحابة هم الأئمة والقدوة، فلو وجدوا في المصحف لحنًا لما فوضوا إصلاحه إلى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم في الاتباع، حتى قال بعضهم: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم. فثبت أنه لا بد من تصحيح القراءة المشهورة.

واختلف النحويون فيه وذكروا وجوهًا:

الوجه الأول: – وهو الأقوى – أن هذه لغة لبعض العرب، وقال بعضهم: هي لغة بلحارث بن

كعب، والزجاج نسبها إلى كنانة، وقطرب نسبها إلى بلحارث بن كعب ومراد وخثعم وبعض بني عذرة، ونسبها ابن جني إلى بعض بني ربيعة أيضًا، وأنشد الفراء على هذه اللغة:

فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ وَلَوْ يَرَى ... مَسَاغًا لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا (١)

وأنشد غيره:

تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أُذْنَاهُ ضَرْبَةً ... دَعَتْهُ إِلَى هَابِي التُّرَابِ عَقِيمِ

قال الفراء: وحكى بعض بني أسد أنه قال: (هذا خط يدا أخي أعرفه). وقال قطرب: هؤلاء يقولون: رأيت رجلان واشتريت ثوبان قال رجل من بني ضبة جاهلي:

أَعْرِفُ مِنْهَا الْجِيدَ وَالْعَيْنَانَا ... وَمَنْخِرَيْنِ أَشْبَهَا ظَبْيَانَا (٢)

وقوله (ومنخرين) على اللغة الفاشية وما وراء ذلك على لغة هؤلاء.

وقال آخر:

طَارُوا عَلَاهُنَّ فَطِرْ عَلَاهَا ... وَاشْدُدْ بِمَثْنَى حَقَبٍ حَقْوَاهَا

وقال آخر:

كَأَنَّ صَرِيفَ نَابَاهُ إِذَا مَا ... أَمَرَّهُمَا صَرِيرَ الْأَخْطَبَانِ

قال بعضهم: الأخطبان ذَكَر الصردان، فصيرهما واحدًا فبقي الاستدلال بقوله صريف ناباه، قال: وأنشدني يونس لبعض بني الحارث:

كَأَنَّ يَمِينَا سَحْبَلٍ وَمَصِيفَهُ ... مُرَاقُ دَمٍ لَنْ يَبْرَحَ الدَّهْرُ ثَاوِيَا

وأنشدوا أيضًا:

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا ... قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا (٣)

وقال ابن جني: روينا عن قطرب:

هُنَاكَ أَنْ تَبْكِي بِشَغْشَعَانِ ... رَحْبِ الْفُؤَادِ طَائِلِ الْيَدَانِ

ثم قال الفراء: وذلك وإن كان قليلًا أقيس؛ لأن ما قبل حرف التثنية مفتوح، فينبغي أن يكون ما بعده ألفًا ولو كان ما بعده ياء ينبغي أن تنقلب ألفًا لانفتاح ما قبلها. وقطرب ذكر أنهم يفعلون ذلك فرارًا إلى الألف التي هي أخف حروف المد. هذا أقوى الوجوه في هذه الآية، ويمكن أن يقال أيضًا: الألف في هذا من جوهر الكلمة، والحرف الذي يكون من جوهر الكلمة لا يجوز

---

(١) هذا البيت للمتلمس الضبعي من البحر الطويل. والمتلمس تقدمت ترجمته.

(٢) هذا البيت من الرجز، وهو للشاعر رؤية بن العجاج وهو رؤية بن عبد الله العجاج بن رؤية التميمي السعدي، أبو الجحاف أو أبو محمد. ؟- ١٤٥ هـ/ ؟- ٧٦٢ م راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مقامه في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة وكانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في للغة، مات في البادية، وقد أسن. وفي الوفيات: لما مات رؤية قال الخليل: دفنا الشعر واللغة والفصاحة!!

(٣) هذا البيت لرؤية بن العجاج وقد تقدم تخريجه قريبًا.

تغييره بسبب التثنية والجمع ؛ لأن ما بالذات لا يزول بالعَرَض ، فهذا الدليل يقتضي أن لا يجوز أن يقال : (إِنَّ هَذَيْنِ) فلما جوزناه فلا أقل من أن يجوز معه أن يقال إن هذان .

الوجه الثاني في الجواب: أن يقال : (إنَّ) ههنا بمعنى (نعم) قال الشاعر :

وَيَـقُـلْـنَ شَـيْـبٌ قَـدْ عَـلا ... ك وَقَـدْ كَـبِـرْتَ فَـقُـلْـتُ إِنَّـهُ

أي فقلت نعم فالهاء في (إنه) هاء السكت كما في قوله تعالى : ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩]

وقال أبو ذؤيب :

شَابَ الْمَفَارِقُ إِنْ إِنَّ مِنَ الْبِلَى ... شَيْبُ الْقَذَالِ مَعَ الْعِذَارِ الْوَاصِلِ

أي نعم إن من البلى ، فصار إن كأنه قال (نعم هذان لساحران) واعترضوا عليه فقالوا : اللام لا تدخل في الخبر على الاستحسان إلا إذا كانت إن داخلة في المبتدأ ، فأما إذا لم تدخل (إن) على المبتدأ فمحل اللام المبتدأ إذ يقال (لَزيد أعلم من عمرو) ولا يقال (زيد لأعلم من عمرو) ، وأجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين : الأول : لا نسلِّم أن اللام لا يحسن دخولها على الخبر ، والدليل عليه قوله :

أُمُّ الحليس لعجوز شهربه ... تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بِعَظْمِ الرَّقَبَهْ

وقال آخر :

خَالِي لَأَنْتَ وَمَنْ جَرِيرٌ خَالُهُ ... يَنَلِ الْعَلَاءَ وَيُكْرِمُ الْأَخْوَالَا

وأنشد قطرب :

أَلَمْ تَكُنْ حَلَفْتَ بِاللَّهِ الْعَلِيّ ... أَنَّ مَطَايَاكَ لَمِنْ خَيْرِ الْمَطِيّ

وإن رويت (إنّ) بالكسر لم يبق الاستدلال إلا أن قطربًا قال : سمعناه مفتوح الهمزة . وأيضًا فقد أدخلت اللام في خبر أمسى ، قال ابن جني : أنشدنا أبو علي :

مَرُّوا عُجَالَى فَقَالُوا كَيْفَ صَاحِبُكُمْ ... فَقَالَ مَنْ سُئِلُوا أَمْسَى لَمَجْهُودَا

وقال قطرب : وسمعنا بعض العرب يقول : أراك المسالمي وإني رأيته لشيخًا وزيد والله لواثق بك وقال كُثير :

وَمَا زِلْتُ مِنْ لَيْلَى لَدُنْ أَنْ عَرَفْتُهَا ... لَكَالْهَائِمِ الْمُقْصَى بِكُلِّ بِلَادِ

وقال آخر :

وَلَكِنَّنِي مِنْ حُبِّهَا لَعَمِيدُ

وقال المعترض : هذه الأشعار من الشواذ وإنما جاءت كذا لضرورة الشعر ، وجَلَّ كلام الله تعالى عن الضرورة ، وإنما تقرر هذا الكلام إذا بينا أن المبتدأ إذا لم يدخل عليه إنّ وجب إدخال اللام عليه لا على الخبر ، وتحقيقه أن اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدأ بالخبر ، واللام تدل على حالة من حالات المبتدأ وصفة من صفاته ، فوجب دخولها على المبتدأ لأن العلة الموجبة لحكم

في محل - لا بد وأن تكون مختصة بذلك المحل، لا يقال: هذا مشكل بما إذا دخلت إنَّ على المبتدأ فإن هاهنا يجب إدخال اللام على الخبر مع أن ما ذكرتموه حاصل فيه لأنا نقول ذلك لأجل الضرورة، وذلك لأن كلمة إنَّ للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا: (إن لزيدًا قائم) لكنا قد أدخلنا حرف التأكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع، فلما تعذر إدخالها على المبتدأ لا جرم أدخلناها على الخبر لهذه الضرورة، وأما إذا لم يدخل حرف (إنَّ) على المبتدأ كانت هذه الضرورة زائلة، فوجب إدخال اللام على المبتدأ، لا يقال: إذا جاز إدخال حرف النفي على حرف النفي في قوله:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلاَ سَمِعْتُ بِهِ كَالْيَوْمِ طَالَبْنِي أَيْنُقٌ أَجْرَبُ

والغرض به تأكيد النفي، فلمَ لا يجوز إدخال حرف التأكيد على حرف التأكيد؟ والغرض به تأكيد الإثبات لأنا نقول: الفرق بين البابين أن قولك (زيد قائم) يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام، فإذا قلت: (إن زيدًا قائم) فكلمة إنّ تفيد تأكيد ذلك الحكم، فلو ذكرت مؤكدًا آخر مع كلمة إنّ صار عبثًا، أما لو قلت: (رأيت فلانًا) فهذا للثبوت، فإذا أدخلت عليه حرف، النفي أفاد حرف النفي معنى النفي، ولا يفيد التأكيد لأنه مستقل بإفادة الأصل، فكيف يفيد الزيادة، فإذا ضممت إليه حرف نفي آخر صار الحرف الثاني مؤكدًا للأول فلا يكون عبثًا، فهذا هو الفرق بين البابين.

فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندي ضعيف؛ لأن الكل اتفقوا على أنه إذا اجتمع النقل والقياس فالنقل أَوْلى، ولأن هذه العلل في نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقل الظاهر.

الوجه الثاني في الجواب عن قولهم: (اللام لا يحسن دخولها على الخبر إلا إذا دخلت كلمة إن على المبتدأ) كما ذكره الزجاج فقال: إنّ وقعت موقع (نعم) واللام في موقعها والتقدير: (نعم هذان لهما ساحران) فكانت اللام داخلة على المبتدأ لا على الخبر. قال: وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى إسماعيل بن إسحاق فارتضياه وذكرا أنه أجود ما سمعناه في هذا. قال ابن جنى: هذا القول غير صحيح لوجوه: **الوجه الأول**:أن الأصل أن المبتدأ إنما يجوز حذفه لو كان أمرًا معلومًا جليًا، ولولا ذلك لكان في حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب، وإذا كان معروفًا فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام؛ لأن التأكيد إنما يُحتاج إليه حيث لم يكن العلم به حاصلاً. **الوجه الثاني**:أن الحذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الإطناب، فالجمع بينهما غير جائز، ولأن ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن في العقول من العكس. **الوجه الثالث**:امتناع أصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدأ في نحو قولك (زيد ضربت) فلا يجيزون (زيد ضربت نفسه) على أن يجعل النفس توكيدًا للهاء المؤكدة المقدرة في (ضربت) أي ضربته لأن الحذف لا يكون إلا بعد التحقيق والعلم به، وإذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا. **الوجه الرابع**:أن جميع النحويين حملوا قول

الشاعر: (أم الحليس لعجوز شهر به). على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة، ولو كان ما ذهب إليه الزجاج جائزًا لما عدل عنه النحويون ولما حملوا الكلام عليه على الاضطرار إذا وجدوا له وجهًا ظاهرًا، ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جنى بأنه إنما حسن حذف المبتدأ لأن في اللفظ ما يدل عليه وهو قوله: (هذان) أما لو حذف التأكيد فليس في اللفظ ما يدل عليه، فلا جرم كان حذف المبتدأ أَوْلى من حذف التأكيد، وأما امتناعهم من تأكيد الضمير في قولهم: (زيد ضربت نفسه) فذاك إنما كان لأن إسناد الفعل إلى المُظهر أَوْلى من إسناده إلى المضمر، فإذا قال: (زيد ضربت نفسه) كان قوله (نفسه) مفعولاً فلا يمكن جعله تأكيدًا للضمير، فتأكيد المحذوف إنما امتنع ههنا لهذه العلة لا لأن تأكيد المحذوف مطلقًا ممتنع. وأما قوله: (النحويون حملوا قول الشاعر: أم الحليس لعجوز شهربه. على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة فلو جاز ما قاله الزجاج لما عدل عنه النحويون)، فهذا اعتراض في نهاية السقوط لأن ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لا يقتضي كونه باطلاً، فما أكثر ما ذهل المتقدم عنه وأدركه المتأخر! فهذا تمام الكلام في شرح هذا.

الوجه الثالث في الجواب: أن كلمة (إنَّ) ضعيفة في العمل لأنها تعمل بسبب مشابهة الفعل، فوجب كونها ضعيفة في العمل، وإذا ضعفت جاز بقاء المبتدأ على إعرابه الأصلي وهو الرفع.

المقدمة الأولى: أنها تشبه الفعل وهذه المشابهة حاصلة في اللفظ والمعنى: أما اللفظ فلأنها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الأسماء كالأفعال. وأما المعنى فلأنها تفيد حصول معنى في الاسم وهو تأكيد موصوفيته بالخبر، كما أنك إذا قلت: (قام زيد) فقولك (قام) أفاد حصول معنى في الاسم.

المقدمة الثانية: أنها لما أشبهت الأفعال وجب أن تشبهها في العمل، فذلك ظاهر بناء على الدوران.

المقدمة الثالثة: أنها لم تنصب الاسم وترفع الخبر، فتقريره أن يقال: إنها لما صارت عاملة فإما أن ترفع المبتدأ والخبر معًا أو تنصبهما معًا أو ترفع المبتدأ وتنصب الخبر أو بالعكس: والأول باطل لأن المبتدأ والخبر كانا قبل دخول (إنَّ) عليهما مرفوعين فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما لما ظهر له أثر ألبتة، ولأنها أعطيت عمل الفعل، والفعل لا يرفع الاسمين فلا معنى للاشتراك. والقسم الثاني أيضًا باطل لأن هذا أيضًا مخالف لعمل الفعل لأن الفعل لا ينصب شيئًا مع خلوه عما يرفعه. والقسم الثالث أيضًا باطل لأنه يؤدي إلى التسوية بين الأصل والفرع فإن الفعل يكون عمله في الفاعل أولاً بالرفع وفي المفعول بالنصب، فلو جعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الأصل والفرع، ولما بطلت الأقسام الثلاثة تعين القسم الرابع وهو أنها تنصب الاسم وترفع الخبر، وهذا مما ينبه على أن هذه الحروف دخيلة في العمل لا أصيلة؛ لأن تقديم المنصوب على المرفوع في باب العمل عدول عن الأصل، فذلك يدل على

أن العمل بهذه الحروف ليس بثابت بطريق الأصالة بل بطريق عارض .

المقدمة الرابعة : لما ثبت أن تأثيرها في نصب الاسم بسبب هذه المشابهة، وجب جواز الرفع أيضًا، وذلك لأن كون الاسم مبتدأ يقتضي الرفع، ودخول إنَّ على المبتدأ لا يزيل عنه وصف كونه مبتدأ؛ لأنه يفيد تأكيد ما كان لا زوال ما كان، إذا ثبت هذا فنقول: وصف كونه مبتدأ يقتضي الرفع وحرف إنّ يقتضي النصب، ولكن المقتضى الأول أَوْلى بالاقتضاء من وجهين: **احدهما**: أن وصف كونه مبتدأ صفة أصلية للمبتدأ ودخول إنّ عليه صفة عَرَضية، والأصل راجح على العارض. **والثاني**: أن اقتضاء وصف المبتدأ للرفع أصلي، واقتضاء حرف (إنّ) للنصب صفة عارضة بسبب مشابهتها بالفعل، فيكون الأول أَوْلى، فثبت بمجموع ما قررنا أن الرفع أَوْلى من النصب، فإن لم تحصل الأولوية فلا أقل من أصل الجواز؛ ولهذا السبب إذا جئت بخبر إنّ ثم عطفت على الاسم اسمًا آخر، جاز فيه الرفع والنصب معًا.

الوجه الرابع في الجواب: قال الفراء: (هذا) أصله (ذا) زيدت الهاء لأن (ذا) كلمة منقوصة فكملت بالهاء عند التنبيه وزيدت ألفًا للتثنية فصارت هذا (ان) فاجتمع ساكنان من جنس واحد، فاحتيج إلى حذف واحد ولا يمكن حذف ألف الأصل لأن أصل الكلمة منقوصة فلا تُجعل أنقص، فحذف ألف التثنية لأن النون يدل عليه، فلا جرم لم تعمل إنّ لأن عملها في ألف التثنية. وقال آخرون: الألف الباقي إما ألف الأصل أو ألف التثنية. فإن كان الباقي ألف الأصل لم يجز حذفها لأن العامل الخارجي لا يتصرف في ذات الكلمة، وإن كان الباقي ألف التثنية فلا شك أنهم أنابوها مناب ألف الأصل، وعوض الأصل أصل لا محالة، فهذا الألف أصل فلا يجوز حذفه. ويرجع حاصل هذا إلى الجواب الأول.

الوجه الخامس في الجواب: حكى الزجاج عن قدماء النحويين أن الهاء ههنا مضمرة والتقدير (إنه هذان لساحران) وهذه الهاء كناية عن الأمر والشأن، فهذا ما قيل في هذا الموضع.

فأما من خفف فقرأ (إن هذان لساحران) فهو حسن فإن ما بعد الخفيفة رفع واللام بعدها في الخبر لازمة واجبة، وإن كانت في إنّ الثقيلة جائزة ليظهر الفرق بين إن المؤكدة وإن النافية.

قال الشاعر:

وَإِنْ مَالِكٌ لَلْمُرْتَجَى إِنْ تَضَعْضَعَتْ رَحَا الْحَرْبِ أَوْ دَارَتْ عَلَيَّ خُطُوبُ

وقال آخر:

إِنَّ الْقَوْمَ وَالْحَيَّ الَّذِي أَنَا مِنْهُمْ لَأَهْـلُ مَـقَـامَـاتٍ وَشَـاءٍ وَجَـامِـلِ

الجامل جمع جمل. ثم من العرب من يُعمل إن ناقصة كما يعملها تامة اعتبارًا بكان فإنها تعمل وإن نقصت في قولك: لم يكن لبقاء معنى التأكيد، وإن زال الشبه اللفظي بالفعل لأن العبرة للمعنى، وهذه اللغة تدل على أن العبرة في باب الإعمال الشبه المعنوي بالفعل وهو إثبات التوكيد دون الشبه اللفظي، كما أن التعويل في باب (كان) على المعنى دون اللفظ لكونه فعلاً

محضًا، وأما اللغة الظاهرة وهي ترك إعمال إن الخفيفة دالة على أن الشبه اللفظي في إن الثقيلة أحد جزأي العلة في حق عملها وعند الخفة زال الشبه فلم تعمل، بخلاف السكون فإنه عامل بمعناه لكونه فعلاً محضًا ولا عبرة للفظه.

المسألة الثانية: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر ما أَسَرُّوه من النجوى حكى عنهم ما أظهروه، ومجموعه يدل على التنفير عن موسى عليه السلام ومتابعة دينه: فأحدها: قولهم: ﴿هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وهذا طعن منهم في معجزات موسى عليه السلام، ثم مبالغة في التنفير عنه لما أن كل طبع سليم يقتضي النفرة عن السحر وكراهة رؤية الساحر، ومن حيث إن الإنسان يعلم أن السحر لا بقاء له، فإذا اعتقدوا فيه السحر قالوا: كيف نتبعه فإنه لا بقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه؟! وثانيها: قوله: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ وهذا في نهاية التنفير؛ لأن المفارقة عن المنشأ، والمولد شديدة على القلوب، وهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون في قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧] وكأن السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها. **وثالثها**: قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ وهذا أيضًا له تأثير شديد في القلب، فإن العدو إذا جاء واستولى على جميع المناصب والأشياء التي يرغب فيها، فذلك يكون في نهاية المشقة على النفس، فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة في التنفير عن موسى والترغيب في دفعه وإبطال أمره: **وههنا بحثان:**

البحث الأول: قال الفراء: الطريقة: الرجال الأشراف الذين هم قدوة لغيرهم، يقال: هم طريقة قومهم، ويقال للواحد أيضًا: هو طريقة قومه. وجعل الزجاج الآية من باب حذف المضاف أي ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى. وعلى التقديرين، فالمراد أنهم كانوا يحرضون القوم بأن موسى وهارون عليهما السلام يريدان أن يذهبا بأشراف قومكم وأكابركم وهم بنو إسرائيل لقول موسى عليه السلام: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧] وإنما سُموا بني إسرائيل بذلك لأنهم كانوا أكثر القوم يومئذٍ عددًا وأموالاً، ومن المفسرين من فسر الطريقة المثلى بالدين، سَموا دينهم بالطريقة المثلى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢] ومنهم من فسرها بالجاه والمنصب والرياسة.

البحث الثاني: ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ مؤنثة لتأنيث الطريقة، واختلفوا في أنه لمَ سُمي الأفضل بالأمثل فقال بعضهم: الأمثل: الأشبه بالحق. وقيل: الأمثل: الأوضح والأظهر، ثم إنه تعالى لما حكى عنهم مبالغتهم في التنفير عن موسى عليه السلام والترغيب في إبطال أمره، حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ قرأ أبو عمرو بوصل الألف وفتح الميم من (أجمعوا) يعني لا تدعوا شيئًا من كيدهم إلا جئتم به. دليله قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ وقرأ الباقون بقطع الألف وكسر الميم وله وجهان: **أحدهما**: قال الفراء: الإجماع: الإحكام والعزيمة على الشيء، يقال: أجمعت على الخروج مثل أزمعت. **والثاني**: بمعنى الجمع، وقد مضى الكلام في هذا عند

قوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] قال الزجاج: ليكن عزمكم كلكم كاليد مجمعًا عليه لا تختلفوا ثم ائتوا صفًا. ذكر أبو عبيدة والزجاج وجهين: أحدهما: أن الصف موضع الجمع، والمعنى ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم، والمعنى: ائتوا مصلى من المصليات أو كان الصف علمًا للمصلى بعينه فأُمروا بأن يأتوه. والثاني: أن يكون الصف مصدرًا والمعنى: ثم ائتوا مصطفين مجتمعين لكي يكون أنظم لأمركم وأشد لهيبتكم. وهذا قول عامة المفسرين، وقوله: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ اعتراض، يعني: وقد فاز من غلب فكانوا يقرون بذلك أنفسهم فيما اجتمعوا عليه من إظهار ما يظهرونه من السحر.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾

اعلم أنه لما تقدم ذكر الموعد وهو يوم الزينة، وتقدم أيضًا قوله: ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ﴾ [طه: ٦٤] صار ذلك مغنيًا عن قوله (فحضروا هذا الموضع) وقالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ لدلالة ما تقدم عليه وقوله: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ معناه إما أن تلقى ما معك قبلنا، وإما أن نلقي ما معنا قبلك، وهذا التخيير مع تقديمه في الذكر حسن أدب منهم وتواضع له، فلا جرم رزقهم الله تعالى الإيمان ببركته، ثم إن موسى عليه السلام قابل أدبهم بأدب فقال: ﴿بَلْ أَلْقُواْۖ﴾.

أما قوله: ﴿بَلْ أَلْقُواْۖ﴾ ففيه سؤالان:

السؤال الأول: كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام: ﴿بَلْ أَلْقُواْۖ﴾ فيأمرهم بما هو سحر وكفر لأنهم إذا قصدوا بذلك تكذيب موسى عليه السلام كان كفرًا. والجواب من وجوه: أحدها: لا نُسلِّم أن نفس الإلقاء كفر ومعصية لأنهم إذا ألقوا وكان غرضهم أن يظهر الفرق بين ذلك الإلقاء وبين معجزة الرسول عليه السلام وهو موسى، كان ذلك الإلقاء إيمانًا، وإنما الكفر هو القصد إلى تكذيب موسى، وهو عليه السلام إنما أمر بالإلقاء لا بالقصد إلى التكذيب، فزال السؤال. وثانيها: ذلك الأمر كان مشروطًا، والتقدير: (ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين) كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] أي إن كنتم قادرين. وثالثها: أنه لما تعين ذلك طريقًا إلى كشف الشبهة صار ذلك جائزًا. وهذا كالمُحق إذا علم أن في قلب واحد شبهة، وأنه لو لم يطالبه بذكرها وتقريرها بأقصى ما يقدر عليه لبقيت تلك الشبهة في قلبه، ويخرج بسببها عن الدين، فإن للمُحق أن يطالبه بتقريرها على أقصى الوجوه، ويكون غرضه من ذلك أن يجيب عنها ويزيل أثرها عن قلبه، فمطالبته بذكر الشبهة لهذا

الغرض تكون جائزة، فكذا ههنا. ورابعها: أن لا يكون ذلك أمرًا بل يكون معناه إنكم إن أردتم فعله فلا مانع منه حسًّا لكي ينكشف الحق. وخامسها: أن موسى عليه السلام لا شك أنه كان كارهًا لذلك، ولا شك أنه نهاهم عن ذلك بقوله: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١] وإذا كان الأمر كذلك استحال أن يكون قوله أمرًا لهم بذلك، لأن الجمع بين كونه ناهيًا وآمرًا بالفعل الواحد محال، فعَلِمنا أن قوله غير محمول على ظاهره، وحينئذٍ يزول الإشكال.

السؤال الثاني: لِمَ قدمهم في الإلقاء على نفسه مع أن تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز، فكذا تقديم إيراد الشبهة على إيراد الحجة وجب أن لا يجوز؛ لاحتمال أنه ربما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ لإدراك الحجة بعده، فيبقى حينئذٍ في الكفر والضلال، وليس لأحد أن يقول: إن ذلك كان بسبب أنهم لما قدموه على أنفسهم فهو عليه السلام قابل ذلك بأن قدمهم على نفسه، لأن أمثال ذلك إنما يحسن فيما يرجع إلى حظ النفس، فأما ما يرجع إلى الدليل والشبهة فغير جائز. والجواب: أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة، فما كان به حاجة إلى إظهارها مرة أخرى، والقوم إنما جاؤوا لمعارضته فقال عليه السلام: لو أني بدأت بإظهار المعجزة أولاً لكنت كالسبب في إقدامهم على إظهار السحر. وقصد إبطال المعجزة وذلك غير جائز، ولكني أفوض الأمر إليهم حتى أنهم باختيارهم يُظهرون ذلك السحر ثم أنا أُظهر المعجز الذي يُبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سببًا لإزالة الشبهة، وأما على التقدير الأول فإنه يكون سببًا لوقوع الشبهة فكان ذلك أَوْلى.

أما قوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس رضي الله عنهما: (فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ) ميلاً من هذا الجانب وميلاً من هذا الجانب، فخُيل إلى موسى عليه السلام أن الأرض كلها حيات وأنها تسعى فخاف، فلما قيل له: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ ألقى موسى عصاه فإذا هي أعظم من حياتهم، ثم أخذت تزداد عظمًا حتى ملأت الوادي، ثم صعدت وعلت حتى علقت ذَنَبها بطرف القبة، ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا في الميلين، والناس ينظرون إليها لا يحسبون إلا أنه سحر، ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعًا، فصاح بموسى عليه السلام فأخذها فإذا هي عصا كما كانت، ونظرت السحرة فإذا هي لم تدع من حبالهم وعصيهم شيئًا إلا أكلته، فعرفت السحرة أنه ليس بسحر وقالوا: أين حبالنا وعصينا لو لم تكن سحرًا لبقيت؟! فخروا سجدًا وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢].

المسألة الثانية: اختلفوا في عدد السحرة: قال القاسم بن سلام: كانوا سبعين ألفًا مع كل واحد عصا وحبل. وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألفًا مع كل واحد عصا وحبل. وقال وهب: كانوا خمسة عشر ألفًا، وقال ابن جريج وعكرمة: كانوا تسعمائة: ثلثمائة من الفرس

وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الإسكندرية . وقال الكلبي : كانوا اثنين وسبعين ساحرًا اثنان منهم من القبط وسبعون من بني إسرائيل، أكرههم فرعون على ذلك، واعلم أن الاختلاف والتفاوت واقع في عدد كثير، وظاهر القرآن لا يدل على شيء منه، والأقوال إذا تعارضت تساقطت.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): يقال في (إذا) هذه (إذا) المفاجأة والتحقيق فيها أنها (إذا) الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبًا لها وجملة تضاف إليها، خصت في بعض المواضع بأن تكون ناصبًا فعلاً مخصوصًا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير، فتقدير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل، والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعي . اهـ.

المسألة الرابعة: قرئ (عُصيهم) بالضم وهو الأصل، والكسر إتباع نحو دُلي ودلي وقُسي وقِسي وقرئ (تخيل) بالتاء المنقوطة من فوق بإسناد الفعل إلى الحبال والعصي وقرئ بالضم بالياء المنقطة من تحت بإسناد الفعل إلى الكيد والسحر، وقال الفراء: أي يخيل إليه سعيها.

المسألة الخامسة: الهاء في قوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ كناية عن موسى عليه السلام، والمراد أنهم بلغوا في سحرهم المبلغ الذي صار يخيل إلى موسى عليه السلام أنها تسعى كسعي ما يكون حيًّا من الحيات، لا أنها كانت حية في الحقيقة، ويقال إنهم حشوها بما إذا وقعت الشمس عليه يضطرب ويتحرك. ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن أنها تسعى. فأما ما رُوي عن وهب أنهم سحروا أعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلاً بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] وبقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ فهذا غير جائز؛ لأن ذلك الوقت وقت إظهار المعجزة والأدلة وإزالة الشبهة، فلو صار بحيث لا يميز الموجود عن الخيال الفاسد، لم يتمكن من إظهار المعجزة، فحينئذٍ يفسد المقصود، فإذن المراد أنه شاهد شيئًا لولا علمه بأنه لا حقيقة لذلك الشيء، لظن فيها أنها تسعى.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ فالإيجاس: استشعار الخوف، أي وجد في نفسه خوفًا، فإن قيل: إنه لا مزيد في إزالة الخوف على ما فعله الله تعالى في حق موسى عليه السلام، فإنه كلمه أولاً وعَرَض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد، ثم إنه تعالى صيرها كما كانت بعد أن كانت كأعظم ثعبان، ثم إنه أعطاه الاقتراحات الثمانية وذكر ما أعطاه قبل ذلك من المنن الثمانية، ثم قال له بعد ذلك كله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف في قلبه؟! والجواب عنه من وجوه. أحدها: أن ذلك الخوف إنما كان لِما طُبع الآدمي عليه من ضعف القلب، وإن كان قد علم موسى عليه السلام أنهم لا يصلون إليه وأن الله ناصره. وهذا قول الحسن. وثانيها: أنه خاف أن تُدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا أنهم قد ساووا موسى عليه السلام ويشتبه ذلك عليهم، وهذا التأويل

متأكد بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهذا قول مقاتل. وثالثها: أنه خاف حيث بدأوا وتأخر إلقاؤه أن ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يلقيه فيدوموا على اعتقاد الباطل. ورابعها: لعله عليه السلام كان مأمورًا بأن لا يفعل شيئًا إلا بالوحي، فلما تأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت، خاف أن لا ينزل الوحي في ذلك الوقت فيبقى في الخجالة. وخامسها: لعله عليه السلام خاف من أنه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين، فلعل فرعون قد أعد أقوامًا آخرين فيأتيه بهم، فيحتاج مرة أخرى إلى إبطال سحرهم، وهكذا من غير أن يظهر له مقطع وحينئذٍ لا يتم الأمر ولا يحصل المقصود. ثم إنه تعالى أزال ذلك الخوف بالإجمال أولاً وبالتفصيل ثانيًا: أما الإجمال فقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ودلالته على أن خوفه كان لأمر يرجع إلى أن أمره لا يظهر للقوم، فآمنه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وفيه أنواع من المبالغة. أحدها: ذكر كلمة التأكيد وهي إنّ. وثانيها: تكرير الضمير. وثالثها: لام التعريف. ورابعها: لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة. وأما التفصيل فقوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ وفيه سؤال، وهو أنه لمَ لم يقل وألق عصاك. والجواب: جاز أن يكون تصغيرًا لها، أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العُويد الفرد الصغير الجِرم الذي بيمينك، فإنه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها. وجائز أن يكون تعظيمًا لها، أي لا تحتفل بهذه الأجرام الكثيرة فإن في يمينك شيئًا أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء عندها فألقه يتلقفها بإذن الله تعالى ويمحقها.
أما قوله: ﴿تَلْقَفْ﴾ أي فإنك إذا ألقيتها فإنها تلقف ما صنعوا قراءة العامة (تلقَّفْ) بالجزم والتشديد أي فألقها تتلقفها، وقرأ ابن عامر (تلقَّفُ) بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال، أي ألقها متلقفة أو بالرفع على الاستئناف، وروى حفص عن عاصم بسكون اللام مع التخفيف، أي تأخذ بفيها ابتلاعًا بسرعة، واللقف والتلقف جميعًا يرجعان إلى هذا المعنى، و(صنعوا) ههنا بمعنى اختلقوا وزوّروا والعرب تقول في الكذب: هو كلام مصنوع وموضوع، وصحة قوله: ﴿تَلْقَفْ﴾ أنه إذا ألقى ذلك وصارت حية تلقفت ما صنعوا.

وفي قوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠] دلالة على أنه ألقى العصا وصارت حية وتلقفت ما صنعوه، وفي التلقف دلالة على أن جميع ما ألقوه تلقفته، وذلك لا يكون إلا مع عظم جسدها وشدة قوتها. وقد حُكي عن السحرة أنهم عند التلقف أيقنوا بأن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه: أحدها: ظهور حركة العصا على وجه لا يكون مثله بالحيلة. وثانيها: زيادة عظمه [١] على وجه لا يتم ذلك بالحيلة. وثالثها: ظهور الأعضاء عليه من العين والمنخرين والفم وغيرها ولا يتم ذلك بالحيلة. ورابعها: تلقف جميع ما ألقوه على كثرته وذلك

---

(١) الصواب: (عظمها) و (عليها) و(عودها) لأن العصي مؤنثة، وقد وردت في القرآن كذلك مؤنثة قال تعالى: (تلقف) (وما تلك بيمينك. . . قال هي. . . أهش بها. . . ولي فيها. . . قال ألقها) وعلى فرض عود الضمير على (ما) في قوله تعالى: ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه: ٦٩] فإن التأنيث أولى. (الصاوي).

لا يتم بالحيلة . وخامسها : عوده خشبة صغيرة كما كانت وشيء من ذلك لا يتم بالحيلة . ثم بَيَّن سبحانه وتعالى أن ما صنعوا كيد ساحر ، والمعنى أن الذي معك يا موسى معجزة إلهية ، والذي معهم تمويهات باطلة ، فكيف يحصل التعارض وقرئ كيد ساحر بالرفع والنصب ، فمَن رفع فعلى أن (ما) موصولة ومن نصب فعلى أنها كافة ، وقرئ (كيد سحر) بمعنى ذي سحر أو ذوي سحر أو هم لتوغلهم في سحرهم كأنهم السحر بعينه وبذاته أو بَيَّن الكيد لأنه يكون سحرًا وغير سحر ، كما يبين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو . **بقي سؤالات:**

السؤال الأول : لمَ وحَّد الساحر ، ولم يُجمع؟ **الجواب**:لأن القصد في هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد ، فلو جمع تخيل أن المقصود هو العدد ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي هذا الجنس .

السؤال الثاني : لمَ نكَّر أولاً ثم عرف ثانيًا؟ **الجواب**:كأنه قال : هذا الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر ، وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه ، ولا شك أن هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ .

السؤال الثالث : قوله : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ يدل على أن الساحر لا يحصل له مقصوده بالسحر خيرًا كان أو شرًّا ، وذلك يقتضي نفي السحر بالكلية . **الجواب**:الكلام في السحر وحقيقته قد تقدم في سورة البقرة فلا وجه للإعادة ، والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

اعلم أن في قوله : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ دلالة على أنه ألقى ما في يمينه وصار حية تلقف ما صنعوا وظهر الأمر ، فخَرُّوا عند ذلك سُجدًا ، وذلك لأنهم كانوا في الطبقة العليا من علم السحر ، فلما رأوا ما فعله موسى عليه السلام خارجًا عن صناعتهم ، عرفوا أنه ليس من السحر ألبتة ، ويقال : قال رئيسهم : كنا نغالب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا لو غلبنا ، فلو كان هذا سحرًا فأين ما ألقيناه؟ ! فاستدلوا بتغير أحوال الأجسام على الصانع العالم القادر ، وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولاً صادقًا من عند الله تعالى ، فلا جرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية في الخضوع وهو السجود ، أما قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ فليس المراد منه أنهم أُجبروا على السجود وإلا لما كانوا محمودين ، بل التأويل فيه ما قال الأخفش وهو أنهم من سرعة ما سجدوا كأنهم أُلقوا . وقال صاحب (الكشاف) : ما أعجب أمرهم ! ! قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ! ! ورُوِيَ أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها . وعن عكرمة : لما خروا سجدًا أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في

الجنة. قال القاضي: هذا بعيد لأنه تعالى لو أراهم عيانًا لصاروا ملجئين، وذلك لا يليق به قولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ [طه: ٧٣]. وجوابه: لما جاز لإبراهيم عليه السلام مع قطعه بكونه مغفورًا له أن يقول: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ [الشعراء: ٨٢] فلمَ لا يجوز مثله في حق السحرة؟! واعلم أن هذه القصة تنبه على أسرار عجيبة من أمور الربوبية ونفاذ القضاء الإلهي وقدره في جملة المحدثات، وذلك لأن ظهور تلك الأدلة كانت بمرأى من الكل ومسمع، فكان وجه الاستدلال فيها جليًّا ظاهرًا وهو أنه حدثت أمور فلا بد لها من مؤثر والعلم بذلك ضروري، وذلك المؤثر إما الخلق وإما غيرهم. والأول بديهي البطلان لأن كل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه أنه لا يقدر على إيجاد الحيوانات وتعظيم جثتها دفعة واحدة ثم يصغرها مرة أخرى كما كانت، وهذه العلوم الجلية متى حصلت في العقل أفادت القطع بأنه لا بد من مدبر لهذا العالم، فماذا يقول ألا ترى أن أولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات. وهذا في نهاية البعد؛ لأنا بينا أن كل واحد منها بحيث لا يمكن ارتياب العاقل فيه، وإذًا فقد عرفوا صحتها لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لأنفسهم وأحبوا تحصيل الجهل والشقاوة لأنفسهم، ما أرى أن عاقلاً يرضى بذلك لنفسه قط، فلم يبق إلا أن يقال: العقل والدليل لا يكفي، بل لا بد من مدبر يخلق هذه المقدمات في القلوب، ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاجها للنتيجة، حتى أنه متى فعل ذلك حصلت النتائج في القلوب، وذلك يدل على أن الكل بقضائه وقدره، فإنه لا اعتماد على العقول والقلوب في مجاريها وتصرفاتها، ومَن طرح التعصب عن قلبه ونظر إلى أحوال نفسه في مجاري أفكاره وأنظاره ازداد وثوقًا بما ذكرناه.

أما قوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ فاعلم أن التعليمية احتجوا بهذه الآية وقالوا: إنهم آمنوا بالله الذي عرفوه من قبل هارون وموسى، فدل ذلك على أن معرفة الله لا تستفاد إلا من الإمام، وهذا القول ضعيف بل في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ فائدتان سوى ما ذكروه:

الفائدة الأولى: وهي أن فرعون ادعى الربوبية في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] والإلهية في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] فلو أنهم قالوا: (آمنا برب العالمين) لكان فرعون يقول: (إنهم آمنوا بي لا بغيري) فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة، والدليل عليه أنهم قدموا ذكر هارون على موسى لأن فرعون كان يدعي ربوبيته لموسى بناء على أنه رباه في قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] فالقوم لما احترزوا عن إيهامات فرعون، لا جرم قدموا ذكر هارون على موسى قطعًا لهذا الخيال.

الفائدة الثانية: وهي أنهم لما شاهدوا أن الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة، لا جرم قالوا: (رب هارون وموسى) لأجل ذلك، ثم إن فرعون لما شاهد منهم السجود والإقرار خاف أن يصير ذلك سببًا لاقتداء سائر الناس بهم في الإيمان بالله تعالى

وبرسوله ففي الحال ألقى شبهة أخرى في النبي فقال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وهذا الكلام مشتمل على شبهتين: إحداهما: قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ وتقريره أن الاعتماد على الخاطر الأول غير جائز، بل لا بد فيه من البحث والمناظرة والاستعانة بالخواطر، فلما لم تفعلوا شيئًا من ذلك بل في الحال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ دل ذلك على أن إيمانكم ليس عن البصيرة بل عن سبب آخر. **وثانيها**: قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ يعني أنكم تلامذته في السحر فاصطلحتم على أن تُظهروا العجز من أنفسكم ترويجًا لأمره وتفخيمًا لشأنه.

ثم بعد إيراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرًا لهم عن الإيمان وتنفيرًا لغيرهم عن الاقتداء بهم في ذلك فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ قرئ (لأقطعنْ ولأصلبنْ) بالتخفيف. والقطع من خلاف أن تُقطع اليد اليمنى والرِّجل اليسرى لأن كل واحد من العضوين خلاف الآخر، فإن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال. وقوله: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ في محل النصب على الحال، أي: لأقطعنها مختلفات لأنها إذا خالف بعضها بعضًا فقد اتصفت بالاختلاف. ثم قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ فشبَّه تمكُّن المصلوب في الجذع بتمكن الشيء الموعى في وعائه؛ فلذلك قال (في جذوع النخل) والذي يقال (في) المشهور أن في بمعنى (على) فضعيف. ثم قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أراد بقوله: ﴿أَيُّنَآ﴾ نفسه لعنه الله لأن قوله: ﴿أَيُّنَآ﴾ يُشعر بأنه أراد نفسه وموسى عليه السلام بدليل قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ وفيه تصالف باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب، واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به؛ لأن موسى عليه السلام قط لم يكن من التعذيب في شيء، **فإن قيل**: إن فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية بتلك العظمة التي شرحتموها، وذكرتم أنها قصدت ابتلاع قصر فرعون، وآلَ الأمر إلى أن استغاث بموسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان، فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه، كيف يُعقل أن يهدد السحرة ويبالغ في وعيدهم إلى هذا الحد ويستهزئ بموسى عليه السلام في قوله: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ **قلنا**: لمَ لا يجوز أن يقال: إنه كان في أشد الخوف في قلبه إلا أنه كان يُظهر تلك الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجًا لأمره، ومن استقرى أحوال أهل العالم علم أن العاجز قد يفعل أمثال هذه الأشياء، ومما يدل على صحة ذلك أن كل عاقل يعلم بالضرورة أن عذاب الله أشد من عذاب البشر، ثم إنه أنكر ذلك، وأيضًا فقد كان عالمًا بكذبه في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ لأنه علم أن موسى عليه السلام ما خالطهم ألبتة وما لقيهم، وكان يعرف من سحرته أن أستاذ كل واحد من هو، وكيف حصل ذلك العلم، ثم إنه مع ذلك كان يقول هذه الأشياء، فثبت أن سبيله في كل ذلك ما ذكرناه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (كَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً، وَفِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ)[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٦/ ١٤٠) حديث رقم/ ٨٨٥٥ من طريق عمرو بن حماد حدثنا أشباط عن السدي قال: قال عبد الله بن عباس. . . به.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى تهديد فرعون لأولئك، حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم في أصول الدين، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وذلك يدل على أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان وإلا فعل بهم ما أوعدهم، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ جوابًا لما قاله، وبينوا العلة وهي أن الذي جاءهم بينات وأدلة، والذي يذكره فرعون محض الدنيا، ومنافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها، أما قوله: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ ففيه وجهان: **الأول:** أن التقدير: لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات وعلى الذي فطرنا، أي وعلى طاعة الذي فطرنا وعلى عبادته. **الوجه الثاني:** يجوز أن يكون خفضًا على القسم.

واعلم أنهم لما علموا أنهم متى أصروا على الإيمان فعل فرعون ما أوعدهم به فقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ لا على معنى أنهم أمروه بذلك، لكن أظهروا أن ذلك الوعيد لا يزيلهم ألبتة عن إيمانهم وعما عرفوه من الحق علمًا وعملاً، ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ وقرئ: (نقضي هذه الحياة الدنيا) ووجهها أن الحياة في القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع في الظرف باجرائه مجرى المفعول به، كقولك في صمت يوم الجمعة صيم، والمعنى أن قضاءك وحكمك إنما يكون في هذه الحياة الدنيا وهي كيف كانت فانية، وإنما مطلبنا سعادة الآخرة وهي باقية، والعقل يقتضي تحمُّل الضرر الفاني المتوصل به إلى السعادة الباقية، ثم قالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ ولما كان أقرب خطاياهم عهدًا ما أظهروه من السحر، قالوا: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ وذكروا في ذلك الإكراه وجوهًا.

أحدها: أن الملوك في ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونهم تعلم السحر، فإذا شاخ بعثوا إليه أحداثًا ليعلمهم ليكون في كل وقت من يحسنه، فقالوا هذا القول لأجل ذلك، أي كنا في التعلم أولاً والتعليم ثانيًا مكرهين. قاله ابن عباس.

وثانيها: أن رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين، اثنان من القبط، والباقي من بني إسرائيل فقالوا لفرعون: (أرنا موسى نائمًا) فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا: (ما هذا بساحر، الساحر

إذا نام بطل سحره) فأبى إلا أن يعارضوه.

وثالثها: قال الحسن: إن السحرة حُشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام، فأُحضروا بالحشر وكانوا مكرهين في الحضور، وربما كانوا مكرهين أيضًا في إظهار السحر.

ورابعها: قال عمرو بن عبيد: (دعوة السلطان إكراه) وهذا ضعيف لأن دعوة السلطان إذا لم يكن معها خوف لم تكن إكراهًا.

ثم قالوا: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ ثوابًا لمن أطاعه. ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ عقابًا لمن عصاه، وهذا جواب لقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]. قال الحسن: سبحان الله!! القوم كفار وهم أشد الكافرين كفرًا ثبت في قلوبهم الإيمان في طرفة عين، فلم يتعاظم عندهم أن قالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ في ذات الله تعالى، والله إن أحدكم اليوم ليصحب القرآن ستين عامًا، ثم إنه يبيع دينه بثمن حقير!! ثم ختموا هذا الكلام بشرح أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين في عرصة القيامة، فقالوا في المجرمين: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الهاء في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن، يعني أن الأمر والشأن كذا وكذا.

المسألة الثانية: استدلت المعتزلة بهذه الآية في القطع على وعيد أصحاب الكبائر، قالوا: صاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فإن له جهنم لقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ وكلمة (مَن) في معرض الشرط تفيد العموم، بدليل أنه يجوز استثناء كل واحد منها، والاستثناء يُخرج من الكلام ما لولاه لدخل. واعترض بعض المتكلمين من أصحابنا على هذا الكلام فقال: لا نُسلِّم أن صاحب الكبيرة مجرم، والدليل عليه أنه تعالى جعل المجرم في مقابلة المؤمن فإنه قال في هذه الآية: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [طه: ٧٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] وأيضًا فإنه قال: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ والمؤمن صاحب الكبيرة وإن عُذب بالنار لا يكون بهذا الوصف، وفي الخبر الصحيح: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان**».

واعلم أن هذه الاعتراضات ضعيفة: أما قوله: (إن الله تعالى جعل المجرم في مقابلة المؤمن) فهذا مسلَّم لكن هذا إنما ينفع لو ثبت أن صاحب الكبيرة مؤمن، ومذهب المعتزلة أنه ليس بمؤمن، فهذا المعترض كأنه بني هذا الاعتراض على مذهب نفسه وذلك ساقط، قوله ثانيًا: (إنه لا يليق بصاحب الكبيرة أن يقال في حقه: إن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى)، قلنا: لا نُسلِّم فإن عذاب جهنم في غاية الشدة قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢] وأما الحديث فيقال: القرآن متواتر فلا يعارضه خبر الواحد. ويمكن أن يقال: ثبت في أصول الفقه أنه يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد، وللخصم أن يجيب فيقول: ذلك يفيد الظن فيجوز الرجوع إليه في العمليات، وهذه المسألة ليست من العمليات بل من الاعتقادات، فلا

يجوز المصير إليها ههنا. فإن اعترض إنسان آخر وقال: أجمعنا على أن هذه الآية مشروطة بنفي التوبة وبأن لا يكون عقابه محبطًا بثواب طاعته والقدر المشترك بين الصورتين هو أن لا يوجد ما يحبط ذلك العقاب، ولكن عندنا العفو محبط للعقاب، وعندنا أن المجرم الذي لا يوجد في حقه العفو لا بد وأن يدخل جهنم، واعلم أن هذا الاعتراض أيضًا ضعيف، أما شرط نفي التوبة فلا حاجة إليه لأنه قال: ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ أي حال كونه مجرمًا والتائب لا يصدق عليه أنه أتى ربه حال كونه مجرمًا. وأما صاحب الصغيرة فلأنه لا يسمى مجرمًا؛ لأن المجرم اسم للذم فلا يجوز إطلاقه على صاحب الصغيرة.

بل الاعتراض الصحيح أن نقول: عموم هذا الوعيد معارض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ وكلامنا فيمن أتى بالإيمان والأعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض الكبائر. **فإن قيل**: عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة، قلنا: لمَ لا يجوز أن يقال: ثواب الإيمان يدفع عقاب المعصية؟ **فإن قالوا**: لو كان كذلك لوجب أن لا يجوز لعنه وإقامة الحد عليه. **قلنا**: أما اللعن للغير جائز عندنا، وأما إقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما في حق التائب وقد تكون على سبيل التنكيل.

قالت المعتزلة: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨] فالله تعالى نص على أنه يجب عليه إقامة الحد على سبيل التنكيل، وكل من كان كذلك استحال أن يكون مستحقًّا للمدح والتعظيم، وإذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا. فدلنا ذلك على أن عقاب الكبيرة أَولى بإزالة ثواب الطاعة المتقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة.

هذا منتهى كلامهم في مسألة الوعيد، قلنا: حاصل الكلام يرجع إلى أن النص الدال على إقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضًا للنصوص الدالة على كونه مستحقًّا للثواب، فلمَ كان ترجيح أحدهما على الآخر أَولى من العكس؟ وذلك لأن المؤمن كان ينقسم إلى السارق وغير السارق، فالسارق ينقسم إلى المؤمن وإلى غير المؤمن، فلم يكن لأحدهما مزية على الآخر في العموم والخصوص فإذا تعارضا تساقطا. ثم نقول: لا نسلِّم أن كلمة (مَن) في إفادة العموم قطعية بل ظنية ومسألتنا قطعية فلا يجوز التعويل على ما ذكرته، وتمام الكلام فيه مذكور في كتاب المحصول في الأصول.

المسألة الثالثة: تمسكت المجسمة بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ فقالوا: الجسم إنما يأتي ربه لو كان الرب في المكان. **وجوابه**: أن الله تعالى جعل إتيانهم موضع الوعد إتيانًا إلى الله مجازًا، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

المسألة الرابعة: الجسم الحي لا بد وأن يبقى إما حيًّا أو يصير ميتًا، فخلوه عن الوصفين محال، فمعناه في الآية أنه يكون في جهنم بأسوأ حال لا يموت موتة مريحة ولا يحيا حياة

ممتعة. ثم ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ واعلم أن قوله: ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقتضي أن يكون آتيًا بكل الصالحات، وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن، فينبغي أن يُحمل ذلك على أداء الواجبات، ثم ذكر أن من أتى بالإيمان والأعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى، ثم فسرها فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وفي الآية تنبيه على حصول العفو لأصحاب الكبائر؛ لأنه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالإيمان والأعمال الصالحة، فسائر الدرجات التي هي غير عالية لا بد وأن تكون لغيرهم وما هم إلا العصاة من أهل الإيمان: أما قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ فقال ابن عباس: يريد من قال: لا إله إلا الله. وأقول: لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هي جزاء من تزكى، أي تطهَّر عن الذنوب، وجب بحكم ذلك الخطاب أن الدرجات التي لا تكون عالية أن لا تكون جزاء من تزكى فهي لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصي وعفا الله بفضله ورحمته عنهم، واعلم أنه ليس في القرآن أن فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به، ولكن ثبت ذلك في الأخبار.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾

واعلم أن في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ دلالة على أن موسى عليه السلام في تلك الحالة كثر مستجيبوه، فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم، فأوحى إليه أن يسري بهم ليلاً، والسُّري اسم لسير الليل والإسراء مثله، **فإن قيل:** ما الحكمة في أن يسري بهم ليلاً؟ قلنا: لوجوه: **أحدها:** أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدو، فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم في ذلك. **وثانيها:** ليكون عائقًا عن طلب فرعون ومتبعيه. **وثالثها:** ليكون إذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابوهم.

أما قوله: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ **ففيه وجهان:**

الأول: أي (فاجعل لهم) من قولهم ضَرَب له في ماله سهمًا، وضرب اللبن عمله. **والثاني:** بَيِّن لهم طريقًا في البحر بالضرب بالعصا وهو أن يضرب البحر بالعصا حتى ينفلق، فعدى الضرب إلى الطريق. والحاصل أنه أريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبسًا.

ثم بَيَّن تعالى أن جميع أسباب الأمن كان حاصلاً في ذلك الطريق: أحدها: أنه كان يبسًا قرىء يابسًا ويبسًا بفتح الياء وتسكين الباء فمن قال: (يابسًا) جعله بمعنى الطريق ومن قال (يبَسًا) بتحريك الباء فاليبس واليابس شيء واحد والمعنى طريقًا أيبس. ومن قال: (يَبْسًا) بتسكين الباء

فهو مخفف عن اليبس، والمراد أنه ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلاً عن الماء. وثانيها: قوله: ﴿لَا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ أي لا تخاف أن يدركك فرعون فإني أحُول بينك وبينه بالتأخير. قال سيبويه: قوله: ﴿تَخَٰفُ﴾ رفعه على وجهين: أحدهما: على الحال كقولك: (غير خائف ولا خاش). والثاني: على الابتداء أي أنت لا تخاف وهذا قول الفراء، قال الأخفش والزجاج: المعنى (لا تخاف فيه) كقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ﴾[البقرة: ٤٨] أي لا تجزي فيه نفس. وقرأ حمزة (لا تخف) وفيه وجهان: أحدهما: أنه نهي. والثاني: قال أبو علي: جعله جواب الشرط على معنى (إن تضرب لا تخف) وعلى هذه القراءة ذكروا في قوله: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ ثلاثة أوجه: أحدهما: أن يستأنف كأنه قيل (وأنت لا تخشى) أي ومن شأنك أنك آمن لا تخشى. وثانيها: أن لا تكون الألف هي الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة، كقوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[الأحزاب: ٦٧] ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[الأحزاب: ١٠]. وثالثها: أن يكون مثل قوله:

[وَتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ] كَأَنْ لَمْ تَرَى قَبْلِي أسيرًا يمانيا[1]

وثالثها: قوله: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ والمعنى أنك لا تخاف إدراك فرعون ولا تخشى الغرق بالماء.

أما قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ قال أبو مسلم: زعم رواة اللغة أن (أتبعهم وتبعهم) واحد وذلك جائز، ويحتمل أن تكون الباء زائدة، والمعنى (أتبعهم فرعون جنوده) كقوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾[طه: ٩٤] ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[الإسراء: ١] وقال الزجاج: قرئ: (فأتبعهم فرعون وجنوده) أي ومعه جنوده وقرئ: ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ ومعناه ألحق جنوده بهم، ويجوز أن يكون بمعنى معهم. أما قوله: ﴿فَغَشِيَهُم﴾ فالمعنى: علاهم وسترهم و﴿مَا غَشِيَهُمۡ﴾ تعظيم للأمر أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى وقرئ: (فَغَشَّاهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) وفاعل غشاهم إما الله سبحانه وتعالى أو ما غشيهم أو فرعون لأنه الذي ورط جنوده وتسبب في هلاكهم. أما قوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ فاحتج القاضي به وقال: لو كان الضلال من خلق الله تعالى لما جاز أن يقال: وأضل فرعون قومه. بل وجب أن يقال: الله تعالى أضلهم. ولأن الله تعالى ذمه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقًا للكفر لأن من ذم غيره بشيء لا بد وأن يكون هو غير فاعل لذلك الفعل وإلا لاستحق ذلك الذم وقوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تهكم به في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[غافر: ٢٩].

ولنذكر القصة وما فيها من المباحث. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أمر الله تعالى

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل لعبد يغوث الحارثي وهو عبد يغوث بن صلاءة، وقيل عبد يغوث بن الحارث. ؟- ٤٣ ق هـ/ ؟- ٥٨٠ م، شاعر جاهلي يماني وفارس شجاع، وسيد لقومه من بني الحارث بن كعب، وكان قائدهم في يوم الكُلاب الثاني. وهو من أهل بيت عريق في الشعر في الجاهلية والإسلام منهم: اللجلاج الحارثي ومسهر بن يزيد بن عبد يغوث، وجعفر بن علبة.

موسى أن يقطع بقومه البحر وكان موسى عليه السلام وبنو إسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحُلي والدواب لعيد يخرجون إليه، فخرج بهم ليلاً وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف، ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين، وقد كان يوسف عليه السلام عهد إليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر، فلم يخرجوا بها فتحير القوم حتى دلتهم عجوز على موضع العظام فأخذوها، فقال موسى عليه السلام للعجوز: (احتكمي) فقالت: أكون معك في الجنة. وذكر ابن عباس أن محمدًا ﷺ وأبا بكر هجموا على رجل من العرب وامرأة ليس لهم إلا عنز فذبحوها لهما فقال عليه السلام: «إِذَا سَمِعْتَ بِرَجُلٍ قَدْ ظَهَرَ بِيَثْرِبَ فَأْتِهِ فَلَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُكَ مِنْهُ خَيْرًا»، فَلَمَّا سَمِعَ بِظُهُورِ الرَّسُولِ ﷺ أَتَاهُ مَعَ امْرَأَتِهِ فَقَالَ: أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: نَعَمْ عَرَفْتُكَ فقال له: «احْتَكِمْ»، فَقَالَ: ثَمَانُونَ ضَائِنَةً. فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَقَالَ لَهُ: «أَمَا إِنَّ عَجُوزَ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَيْرٌ مِنْكَ»[(١)] وخرج فرعون في طلب موسى عليه السلام وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب، فلما انتهى موسى إلى البحر قال: (ههنا أُمرت) ثم قال موسى عليه السلام للبحر: (انفرِق) فأبى، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام: (ادخلوا فيه) فقالوا: كيف وأرضه رطبة؟! فدعا الله فهبت عليه الصبا فجفت فقالوا: (نخاف الغرق في بعضنا) فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضًا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر، فأقبل فرعون إلى تلك الطرق فقال قومه له: إن موسى قد سحر البحر فصار كما ترى. وكان على فرس حصان وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة، فصار جبريل عليه السلام بين يدي فرعون وأبصر الحصان الفرس الحجر، فاقتحم بفرعون على أثرها، وصاحت الملائكة في الناس: (الحقوا المَلك) حتى إذا دخل آخرهم وكاد أولهم أن يخرج، التقى البحر عليهم، فغرقوا فسمع بنو إسرائيل خفقة البحر عليهم، فقالوا: ما هذا يا موسى؟ قال: قد أغرق الله فرعون وقومه!! فرجعوا لينظروا إليهم فقالوا: يا موسى ادع الله أن يُخرجهم لنا حتى ننظر إليهم، فدعا فلفظهم البحر إلى الساحل وأصابوا من سلاحهم. وذكر ابن عباس أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد لو رأيتني وأنا أدس فرعون في الماء والطين مخافة أن يتوب!! فهذا معنى قوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ **وفي القصة أبحاث:**

البحث الأول: روي في الأخبار أن موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقًا يابسًا يتهيأ طروقه، وبقي الماء قائمًا بين الطريق، والطريق كالطود العظيم وهو الجبل. فأخذ كل سبط من بني إسرائيل في طريق من هذه الطرق. ومنهم من قال: بل حصل طريق واحد. وحجة القول الأول الأخبار، ومن القرآن قوله تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الشعراء: ٦٣] وذلك لا يحصل إلا إذا حصل هناك طرق حتى يكون الماء القائم بين

---

(١) لم أجده.

الطريقين كالطود العظيم. وحجة القول الثاني ظاهر قوله: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ وذلك يتناول الطريق الواحد وإن أمكن حمله على الطرق نظرًا إلى الجنس.

البحث الثاني: روي أن بني إسرائيل بعد أن أظهر موسى عليه السلام لهم الطريق وبينها لهم - تعنتوا وقالوا: (نريد أن يرى بعضنا بعضًا) وهذا كالبعيد وذلك أن القوم لما أبصروا مجيء فرعون صاروا في نهاية الخوف والخائف إذا وجد طريق الفرار والخلاص كيف يتفرغ للتعنت البارد؟!

البحث الثالث: أن فرعون كان عاقلاً بل كان في نهاية الدهاء، فكيف اختار إلقاء نفسه إلى التهلكة فإنه كان يعلم من نفسه أن انفلاق البحر ليس بأمره؟! فعند هذا ذكروا وجهين. أحدهما: أن جبريل عليه السلام كان على الرمكة فتبعه فرس فرعون، ولقائل أن يقول: هذا بعيد لأنه يبعد أن يكون خوض الملك في أمثال هذه المواضع مقدمًا على خوض جميع العسكر، وما ذكروه إنما يتم إذا كان الأمر كذلك، وأيضًا فلو كان الأمر على ما قالوه لكان فرعون في ذلك الدخول كالمجبور وذلك مما يزيده خوفًا ويحمله على الإمساك في أن لا يدخل، وأيضًا فأي حاجة لجبريل عليه السلام إلى هذه الحيلة وقد كان يمكنه أن يأخذه مع قومه ويرميه في الماء ابتداء، بل الأَوْلى أن يقال: إنه أمر مقدمة عسكره بالدخول فدخلوا وما غرقوا، فغلب على ظنه السلامة، فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى.

البحث الرابع: أن الذي نُقل عن جبريل عليه السلام أنه كان يدسه في الماء والطين خوفًا من أن يؤمن، فبعيد لأن المنع من الإيمان لا يليق بالملائكة والأنبياء عليهم السلام.

البحث الخامس: الذي روي أن موسى عليه السلام كلم البحر قال له: انفلق لي لأعبر عليك. فقال البحر: لا يمر عليَّ رجلٍ عاصٍ. فهو غير ممتنع على أصولنا لأن عندنا البنية ليست شرطًا للحياة، وعند المعتزلة أن ذلك على لسان الحال لا على لسان المقال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم، ذكَّرهم إياها، ولا شك أن إزالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على إيصال المنفعة، ولا شك أن إيصال المنفعة الدينية أعظم في كونه نعمة من إيصال المنفعة الدنيوية؛ فلهذا بدأ الله تعالى بقوله: ﴿أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ وهو إشارة إلى إزالة الضرر فإن فرعون كان يُنزل بهم من أنواع الظلم كثيرًا من القتل والإذلال والإخراج والإتعاب في الأعمال، ثم ثَنَّى بذكر المنفعة الدينية وهي قوله: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ

﴿ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ ووجه المنفعة فيه أنه أنزل في ذلك الوقت عليهم كتابًا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم، ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهي قوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي﴾ ثم بَيَّن أن من عصى ثم تاب كان مقبولاً عند الله بقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ﴾ وهذا بيان المقصود من الآية.

ثم ههنا مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (قد أنجيتكم ووعدتكم) إلى قوله: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ كلها بالتاء إلا قوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ فإنها بالنون، وقرأ الباقون كلها بالنون، وقرأ نافع وعاصم (وواعدناكم) وقرأ حمزة والكسائي (وواعدتكم).

المسألة الثانية: قال الكلبي: لما جاوز موسى عليه السلام ببني إسرائيل البحر قالوا له: أليس وعدتنا أن تأتينا من ربنا بكتاب فيه الفرائض والأحكام؟ قال: بلى. ثم تعَجَّل موسى إلى ربه ليأتيهم بالكتاب ووعدهم أن يأتيهم إلى أربعين ليلة من يوم انطلق، وإنما قال: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ لأنه إنما واعد موسى أن يؤتيه التوراة لأجلهم. وقال مقاتل: إنما قال: (واعدناكم) لأن الخطاب له وللسبعين المختارة، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قال المفسرون: ليس للجبل يمين ولا يسار، بل المراد أن طور سيناء عن يمين مَن انطلق من مصر إلى الشام، وقرئ (الأيمنِ) بالجر على الجوار نحو (جُحر ضب خرب) وانتفاع القوم بذلك إما لأن الله تعالى أنزل التوراة عليهم وفيها شرح دينهم، وإما لأن الله تعالى لما كلم موسى على الطور حصل للقوم بسبب ذلك شرف عظيم.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿كُلُواْ﴾ ليس أمر إيجاب بل أمر إباحة، كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْ﴾ [المائدة: ٢].

المسألة الخامسة: في الطيبات قولان: أحدهما: اللذائذ لأن المن والسلوى من لذائذ الأطعمة. والثاني: وهو قول الكلبي ومقاتل: الحلال؛ لأنه شيء أنزله الله تعالى إليهم ولم تمسه يد الآدميين. ويجوز الجمع بين الوجهين لأن بين المعنيين معنى مشتركًا. وتمام القول في هذه القصة تقدم في سورة البقرة.

المسألة السادسة: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ فيه وجوه: أحدها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تطغوا، أي لا يظلم بعضكم بعضًا فيأخذه من صاحبه. وثانيها: قال مقاتل والضحاك: لا تظلموا فيه أنفسكم بأن تتجاوزوا حد الإباحة. وثالثها: قال الكلبي: لا تكفروا النعمة، أي لا تستعينوا بنعمتي على مخالفتي ولا تُعرضوا عن الشكر ولا تعدلوا عن الحلال إلى الحرام.

المسألة السابعة: قرأ الأعمش والكسائي (فيحل ومن يحلل) كلاهما بالضم، وروى الأعمش عن أصحاب عبد الله (فيحل) بالكسر (ومن يحلل) بالرفع وقراءة العامة بالكسر في الكلمتين،

أما مَن كسر فمعناه الوجوب من (حل الدين يحِل) إذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦] والمضموم في معنى النزول وقوله: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي شقي، وقيل: فقد وقع في الهاوية، يقال: هوى يهوي هويًا إذا سقط من علو إلى أسفل.

المسألة الثامنة: اعلم أن الله تعالى وصف نفسه بكونه غافرًا وغفورًا وغفارًا، وبأن له غفرانًا ومغفرة، وعبَّر عنه بلفظ الماضي والمستقبل والأمر: أما إنه وصف نفسه بكونه غافرًا فقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ [غافر: ٣] وأما كونه غفورًا فقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] وأما كونه غفارًا فقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ وأما الغفران فقوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥] وأما المغفرة فقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ [الرعد: ٦] وأما صيغة الماضي فقوله: في حق داود عليه السلام: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٥] وأما صيغة المستقبل فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وقوله في حق محمد ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢] وأما لفظ الاستغفار فقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] وفي حق نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] وفي الملائكة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

واعلم أن الأنبياء عليهم السلام كلهم طلبوا المغفرة: أما آدم عليه السلام فقال: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وأما نوح عليه السلام فقال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ [هود: ٤٧]، وأما إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وطلبها لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] وأما يوسف عليه السلام فقال في إخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] وأما موسى عليه السلام ففي قصة القبطي: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: ١٥١] وأما داود عليه السلام: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ [ص: ٢٤] أما سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص: ٣٥] وأما عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وأما محمد ﷺ فقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] وأما الأمة فقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ [الحشر: ١٠].

واعلم أن بسط الكلام ههنا أن نبين أولاً حقيقة المغفرة، ثم نتكلم في كونه تعالى غافرًا وغفورًا وغفارًا، ثم نتكلم في أن مغفرته عامة، ثم نبين أن مغفرته في حق الأنبياء عليهم السلام كيف تُعقل مع أنه لا ذنب لهم؟ ويتفرع على هذه الجملة استدلال أصحابنا في إثبات العفو، وتقريره أن الذنب إما أن يكون صغيرًا أو كبيرًا بعد التوبة، أو قبل التوبة والقسمان الأولان يقبح من الله عذابهما ويجب عليه التجاوز عنهما، وترك القبيح لا يسمى غفرانًا، فتعين أن لا يتحقق الغفران إلا في القسم الثالث وهو المطلوب، فإن قيل: هذا يناقض صريح الآية لأنه أثبت الغفران في حق من استجمع أمورًا أربعة: التوبة والإيمان والعمل الصالح والاهتداء، قلنا: إن من تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ثم أذنب بعد ذلك، كان تائبًا ومؤمنًا وآتيًا بالعمل الصالح

ومهتديًا، ومع ذلك يكون مذنبًا، فحينئذٍ يستقيم كلامنا، وههنا نكتة، وهي أن العبد له أسماء ثلاثة: الظالم والظلوم والظلام: فالظالم: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] والظلوم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] والظلام: إذا كثر ذلك منه، ولله في مقابلة كل واحد من هذه الأسماء اسم، فكأنه تعالى يقول: إن كنتَ ظالمًا فأنا غافر، وإن كنتَ ظلومًا فأنا غفور، وإن كنتَ ظلامًا فأنا غفار: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [طه: ٨٢].

المسألة التاسعة: كثر اختلاف المفسرين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ وسبب ذلك أن من تاب وآمن وعمل صالحًا فلا بد وأن يكون مهتديًا، فما معنى قوله ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ بعد ذكر هذه الأشياء؟ والوجوه الملخصة فيه ثلاثة: أحدها: المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة إذ المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه في المستقبل ويموت عليه، ويؤكده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] وكلمة (ثم) للتراخي في هذه الآية وليست لتباين المرتبتين بل لتباين الوقتين، فكأنه تعالى قال: الإتيان بالتوبة والإيمان والعمل الصالح مما قد يتفق لكل أحد ولا صعوبة في ذلك، إنما الصعوبة في المداومة على ذلك والاستمرار عليه. وثانيها: المراد من قوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي عَلِم أن ذلك بهداية الله وتوفيقه وبقي مستعينًا بالله في إدامة ذلك من غير تقصير، عن ابن عباس. وثالثها: المراد من الإيمان: الاعتقاد المبني على الدليل، والعمل الصالح إشارة إلى أعمال الجوارح، بقي بعد ذلك ما يتعلق بتطهير القلب من الأخلاق الذميمة وهو المسمى بالطريقة في لسان الصوفية، ثم انكشاف حقائق الأشياء له وهو المسمى بالحقيقة في لسان الصوفية، فهاتان المرتبتان هما المرادتان بقوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

المسألة العاشرة: منهم من قال: تجب التوبة عن الكفر أولاً، ثم الإتيان بالإيمان ثانيًا. واحتج عليه بهذه الآية فإنه تعالى قَدَّم التوبة على الإيمان. واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن العمل الصالح غير داخل في الإيمان؛ لأنه تعالى عطف العمل الصالح على الإيمان، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

اعلم أن في قوله: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ دلالة على أنه قد تقدم قومَه في المسير إلى المكان، ويجب أن يكون المراد ما نبه عليه في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠] في هذه السورة، وفي سائر السور كقوله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] يريد الميقات عند الطور. وعلى الآية سؤالات:

السؤال الأول: قوله: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ استفهام وهو على الله محال. الجواب: أنه إنكار في

صيغة الاستفهام ولا امتناع فيه.

السؤال الثاني: أن موسى عليه السلام لا يخلو إما أن يقال: إنه كان ممنوعًا عن ذلك التقدم أو لم يكن ممنوعًا عنه: فإن كان ممنوعًا كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية من الأنبياء، وإن قلنا إنه ما كان ممنوعًا كان ذلك الإنكار غير جائز من الله تعالى. **والجواب**: لعله عليه السلام ما وجد نصًا في ذلك إلا أنه باجتهاده تقدم، فأخطأ في ذلك الاجتهاد فاستوجب العتاب.

السؤال الثالث: قال: ﴿وَعَجِلْتُ﴾ والعجلة مذمومة. **والجواب**: إنها ممدوحة في الدين. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

السؤال الرابع: قوله: ﴿لِتَرْضَىٰ﴾ يدل على أنه عليه السلام إنما فعل ذلك لتحصيل الرضا لله تعالى وذلك باطل من وجهين: أحدهما: أنه يلزم تجدد صفة الله تعالى، والآخر: أنه تعالى قبل حصول ذلك الرضا وجب أن يقال: إنه تعالى ما كان راضيًا عن موسى لأن تحصيل الحاصل محال، ولما لم يكن راضيًا عنه وجب أن يكون ساخطًا عليه، وذلك لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام. الجواب: المراد تحصيل دوام الرضا، كما أن قوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ المراد دوام الاهتداء.

السؤال الخامس: قوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ﴾ يدل على أنه ذهب إلى الميعاد قبل الوقت الذي عَيَّنه الله تعالى له، وإلا لم يكن ذلك تعجيلاً، ثم ظن أن مخالفة أمر الله تعالى سبب لتحصيل رضاه، وذلك لا يليق بأجهل الناس فضلاً عن كليم الله تعالى. والجواب: ما ذكرنا أن ذلك كان بالاجتهاد وأخطأ فيه.

السؤال السادس: قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ يقتضي كون الله في الجهة لأن (إلى) لانتهاء الغاية. **الجواب**: توافقنا على أن الله تعالى لم يكن في الجبل، فالمراد إلى مكان وعدك.

السؤال السابع: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول: طلبت زيادة رضاك والشوق إلى كلامك، وأما قوله: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ فغير منطبق عليه كما ترى. والجواب من وجهين: الأول: أن سؤال الله تعالى يتضمن شيئين: أحدهما: إنكار نفس العجلة. والثاني: السؤال عن سبب التقدم، فكان أهم الأمرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثاني فقال: لم يوجد مني إلا تقدم يسير لا يُحتفل به في العادة، وليس بيني وبين من سبقته إلا تقدم يسير يتقدم بمثله الوفد عن قومهم، ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة فقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾. الثاني: أنه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ما ورد ذهل عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام.

واعلم أن في قوله: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ دلالة على أنه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين، واختلفوا في المراد بالقوم. فقال بعضهم: هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه إلى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقًا إلى ربه. وقال آخرون: القوم جملة بني إسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هارون وأمَره أن يقيم فيهم

خليفة له إلى أن يرجع هو مع السبعين فقال: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ يعني بالقرب مني ينتظرونني، وعن أبي عمرو ويعقوب (إثري) بالكسر وعن عيسى بن عمر (أُثري) بالضم، وعنه أيضًا (أُولى) بالقصر، والأثر أفصح من الإثر. وأما الأُثر فمسموع في فرند السيف وهو بمعنى الأثر غريب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ۝٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ۝٨٦ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ۝٨٧ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ۝٨٨ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۝٨٩﴾

اعلم أنه تعالى لما قال لموسى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾ [طه: ٨٣] وقال موسى في جوابه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] عرَّفه الله تعالى ما حدث من القوم بعد أن فارقهم مما كان يبعد أن يحدث لو كان معهم فقال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ وههنا مسائل:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة: لا يجوز أن يكون المراد أن الله تعالى خلق فيهم الكفر لوجهين: الوجه الأول: الدلائل العقلية الدالة على أنه لا يجوز من الله أن يفعل ذلك. الثاني: أنه قال: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامري فيه أثر وكان يبطل قوله: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ وأيضًا فلأن موسى عليه السلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة قال: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا: السبب فيه أن الله خلقه فينا لا ما ذكرت. فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام، وأيضًا فقال: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له، ولما بطل ذلك وجب أن يكون لقوله: ﴿فَتَنَّا﴾ معنى آخر وذلك لأن الفتنة قد تكون بمعنى الامتحان، يقال: (فتنت الذهب بالنار) إذا امتحنته بالنار لكي يتميز الجيد من الرديء، فههنا شدد الله التكليف عليهم، وذلك لأن السامري لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلفين بأن يستدلوا بحدوث جملة العالم والأجسام على أن لها إلهًا ليس بجسم، وحينئذٍ يعرفون أن العجل لا يصلح للإلهية، فكان هذا التعبد تشديدًا في التكليف فكان فتنة والتشديد في التكليف موجود قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] هذا تمام كلام المعتزلة. قال الأصحاب: ليس في ظهور صوت عن عجل متخذ من الذهب شبهة أعظم مما في الشمس والقمر، والدليل الذي ينفي كون

الشمس والقمر إلهًا أَوْلى بأن ينفي كون ذلك العجل إلهًا فحينئذٍ لا يكون حدوث ذلك العجل تشديدًا في التكليف، فلا يصح حمل الآية عليه فوجب حمله على خلق الضلال فيهم، قولهم: (أضاف الإضلال إلى السامري) قلنا: أليس أن جميع المسببات العادية تضاف إلى أسبابها في الظاهر وإن كان الموجد لها هو الله تعالى؟! فكذا ههنا وأيضًا قرىء (وأضلُّهم السامري) أي وأشدهم ضلالاً السامري، وعلى هذا لا يبقى للمعتزلة الاستدلال، ثم الذي يحسم مادة الشغب التمسك بفصل الداعي، على ما سبق تقريره في هذا الكتاب مرارًا كثيرة.

المسألة الثانية: المراد بالقوم ههنا هم الذين خلفهم مع هارون عليه السلام على ساحل البحر، وكانوا ستمائة ألف افتتنوا بالعجل غير اثني عشر ألفًا.

المسألة الثالثة: قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية سعيد بن جبير: كان السامري علجًا من أهل كرمان، وقع إلى مصر وكان من قوم يعبدون البقر. والذي عليه الأكثرون أنه كان من عظماء بني إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة، قال الزجاج: وقال عطاء عن ابن عباس: بل كان رجلاً من القبط جارًا لموسى عليه السلام وقد آمن به.

المسألة الرابعة: رُوي في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا: قد أكملنا العدة. ثم كان أمر العجل بعد ذلك. والتوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مقدمه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ من وجهين: الأول: أنه تعالى أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته. الثاني: أن السامري شرع في تدبير الأمر لما غاب موسى عليه السلام وعزم على إضلالهم حال مفارقة موسى عليه السلام، وكأنه قدر الفتنة موجودة.

المسألة الخامسة: إنما رجع موسى عليه السلام بعد ما استوفى الأربعين. ذا القعدة وعشر ذي الحجة.

المسألة السادسة: ذكروا في الأسف وجوهًا: أحدها: أنه شدة الغضب وعلى هذا التقدير لا يلزم التكرار لأن قوله: (غضبان) يفيد أصل الغضب وقوله: (أَسِفًا) يفيد كماله. وثانيها: قال الأكثرون: حزنًا وجزعًا، يقال: أسف يأسف أسفًا، إذا حزن فهو آسف. وثالثها: قال قوم: الآسف المغتاظ. وفرقوا بين الاغتياظ والغضب بأن الله تعالى لا يوصف بالغيظ ويوصف بالغضب من حيث كان الغضب إرادة الإضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغير يلحق المغتاظ، وذلك لا يصح إلا على الأجسام كالضحك والبكاء.

ثم إن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه عاتبهم بعد رجوعه إليهم قالت المعتزلة: وهذا يدل على أنه ليس المراد من قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أنه تعالى خلق الكفر فيهم وإلا لما عاتبهم، بل يجب أن يعاتب الله تعالى قال الأصحاب: وقد فعل ذلك بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾[الأعراف: ١٥٥] ومجموع تلك المعاتبات أمور: أحدها: قوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ

وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ **وفيه سؤالان:**

السؤال الأول: قوله: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ﴾ هذا الكلام إنما يتوجه عليهم لو كانوا معترفين بإله آخر سوى العجل، أما لما اعتقدوا أنه لا إله سواه على ما أخبر الله تعالى عنهم أنهم قالوا (هذا إلهكم وإله موسى) كيف يتوجه عليهم هذا الكلام؟ الجواب: أنهم كانوا معترفين بالإله لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذي يذكره عبدة الأصنام.

السؤال الثاني: ما المراد بذلك الوعد الحسن؟ الجواب: ذكروا وجوهًا: أحدها: أن المراد ما وعدهم من إنزال التوراة عليهم ليقفوا على الشرائع والأحكام، ويحصل لهم بسبب ذلك مزية فيما بين الناس، وهو الذي ذكره الله تعالى فيما تقدم من قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ [طه: ٨٠]. وثانيها: أن الوعد الحسن هو الوعد الصدق بالثواب على الطاعات. وثالثها: الوعد هو العهد وهو قول مجاهد، وذلك العهد هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ [طه: ٨١] إلى قوله: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] والدليل عليه قوله بعد ذلك: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فكأنه قال: أفنسيتم ذلك الذي قال الله لكم ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [طه: ٨١]. ورابعها: الوعد الحسن ههنا يحتمل أن يكون وعدًا حسنًا في منافع الدين وأن يكون في منافع الدنيا. أما منافع الدين فهو الوعد بإنزال الكتاب الشريف الهادي إلى الشرائع والأحكام والوعد بحصول الثواب العظيم في الآخرة. وأما منافع الدنيا فهو أنه تعالى قبل إهلاك فرعون كان قد وعدهم أرضهم وديارهم، وقد فعل ذلك. ثم قال: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فالمراد: أفنسيتم ذلك العهد أم تعمدتم المعصية؟ واعلم أن طول العهد يحتمل أمورًا:

أحدها: أفطال عليكم العهد بنعم الله تعالى من إنجائه إياكم من فرعون... وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة في أوائل سورة البقرة، وهذا كقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ [الحديد: ١٦].

وثانيها: يروى أنهم عرفوا أن الأجل أربعون ليلة، فجعلوا كل يوم بإزاء ليلة وردوه إلى عشرين. قال القاضي: هذا ركيك لأن ذلك لا يكاد يشتبه على أحد.

وثالثها: أن موسى عليه السلام وعدهم ثلاثين ليلة، فلما زاد الله تعالى فيها عشرة أخرى كان ذلك طول العهد. وأما قوله: ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فهذا لا يمكن إجراؤه على الظاهر؛ لأن أحدًا لا يريد ذلك ولكن المعصية لما كانت توجب ذلك، ومريد السبب مريد للمسبب بالعَرَض، صح هذا الكلام، واحتج العلماء بذلك على أن الغضب من صفات الأفعال لا من صفات الذات؛ لأن صفة ذات الله تعالى لا تنزل في شيء من الأجسام. أما قوله: ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ فهذا يدل على موعد كان منه عليه السلام مع القوم، وفيه وجهان: أحدهما: أن المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجيء على أثره. والثاني: ما وعدوه من الإقامة على دينه إلى

أن يرجع إليهم من الطور، فعند هذا قالوا: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ وفي أن قائل هذا الجواب من هو وجهان:

الأول: أنهم الذين لم يعبدوا العجل، فكأنهم قالوا: إنا ما أخلفنا موعدك بملكنا، أي بأمر كنا نملكه. وقد يضيف الرجل فعل قريبه إلى نفسه كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢] وإن كان الفاعل لذلك آباءهم لا هم، فكأنهم قالوا: الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه، ولم نقدر أيضًا على مفارقتهم لأنا خفنا أن يصير ذلك سببًا لوقوع التفرقة وزيادة الفتنة.

الوجه الثاني: أن هذا قول عبدة العجل، والمراد أن غيرنا أوقع الشبهة في قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب ومخلف الوعد هو الذي أوقع الشبهة فإنه كان كالمالك لنا. فإن قيل: كيف يعقل رجوع قريب من ستمائة ألف إنسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة إلى عبادة العجل الذي يعرف فسادها بالضرورة، ثم إن مثل هذا الجمع لما فارقوا الدين وأظهروا الكفر فكيف يُعقل رجوعهم دفعة واحدة عن ذلك الدين بسبب رجوع موسى عليه السلام وحده إليهم؟! قلنا: هذا غير ممتنع في حق البُله من الناس.

واعلم أن في (بمَلكنا) ثلاث قراءات: قرأ حمزة والكسائي بضم الميم، ونافع وعاصم بفتح الميم، وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالكسر: أما الكسر والفتح فهما واحد وهما لغتان مثل رِطل ورَطل. وأما الضم فهو السلطان، ثم إن القوم فسروا ذلك العذر المجمل فقالوا: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر (حَمَلنا) مخففة من الحمل، وقرأ ابن كثير ونافع وحفص وابن عامر: (حُمِّلنا) مشددة، فمن قرأ بالتخفيف فمعناه (حَمَلنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من القوم) ومَن قرأ بالتشديد ففيه وجوه:

أحدها: أن موسى عليه السلام حَمَلهم على ذلك، أي أمرهم باستعارة الحلي والخروج بها، فكأنه ألزمهم ذلك.

وثانيها: جُعلنا كالضامن لها إلى أن نؤديها إلى حيث يأمرنا الله.

وثالثها: أن الله تعالى حَمَّلهم ذلك على معنى أنه ألزمهم فيه حكم المغنم.

أما الأوزار فهي الأثقال ومن ذلك سُمي الذنب وزرًا لأنه ثقل، ثم فيه احتمالات. أحدها: أنه لكثرتها كانت أثقالاً. وثانيها: أن المغانم كانت محرمة عليهم فكان يجب عليهم حفظها من غير فائدة فكانت أثقالاً. وثالثها: المراد بالأوزار: الآثام، والمعنى حملنا آثامًا. روي في الخبر أن هارون عليه السلام قال: (إنها نجسة فتطهروا منها) وقال السامري: (إن موسى عليه السلام إنما احتبس عقوبة بالحلي) فيجوز أن يكونوا أرادوا هذا القول. وقد يقول الإنسان للشيء الذي يلزمه رده هذا كله إثم وذنب. ورابعها: أن ذلك الحلي كان القبط يتزينون به في مجامع لهم يجري فيها الكفر، لا جرم أنها وُصفت بكونها أوزارًا، كما يقال مثله في آلات المعاصي.

أما قوله: ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ **فذكروا فيه وجوهًا في أنهم أين قذفوها؟**

الوجه الأول: قذفوها في حفرة، كان هارون عليه السلام أمرهم بجمع الحلي فيها انتظارًا لعود موسى عليه السلام.

والوجه الثاني: قذفوها في موضع أمرهم السامري بذلك.

الوجه الثالث: في موضع جمع فيه النار.

ثم قالوا: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي فعل السامري مثل ما فعلنا، أما قوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ فاختلفوا في أنه هل كان ذلك الجسد حيًّا أم لا؟

فالقول الأول: لا؛ لأنه لا يجوز إظهار خرق العادة على يد الضال، بل السامري صَوَّر صورة على شكل العجل، وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل.

والقول الثاني: أنه صار حيًّا وخار كما يخور العجل. واحتجوا عليه بوجوه: أحدها: قوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦] ولو لم يصر حيًّا لما بقي لهذا الكلام فائدة. وثانيها: أنه تعالى سماه عجلاً والعجل حقيقة في الحيوان، وسماه جسدًا وهو إنما يتناول الحي. وثالثها: أثبت له الخُوار.

وأجابوا عن حجة الأولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعي الإلهية جائز لأنه لا يحصل الالتباس وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع.

وروى عكرمة عن ابن عباس أن هارون عليه السلام مر بالسامري وهو يصنع العجل فقال: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي. فقال: اللهم أعطه ما سأل. فلما مضى هارون قال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور! فخار وعلى هذا التقدير يكون ذلك معجزًا للنبي.

أما قوله: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ ففيه إشكال وهو أن القوم إن كانوا في الجهالة بحيث اعتقدوا أن ذلك العجل المعمول في تلك الساعة هو الخالق للسموات والأرض، فهم مجانين وليسوا بمكلفين، ولأن مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال وإن لم يعتقدوا ذلك، فكيف قالوا: هذا إلهكم وإله موسى؟

وجوابه: لعلهم كانوا من الحلولية فجوزوا حلول الإله أو حلول صفة من صفاته في ذلك الجسم، وإن كان ذلك أيضًا في غاية البعد لأن ظهور الخوار لا يناسب الإلهية، ولكن لعل القوم كانوا في نهاية البلادة والجلافة.

وأما قوله: ﴿فَنَسِىَ﴾ **ففيه وجوه:**

الأول: أنه كلام الله تعالى، كأنه أخبر عن السامري أنه نسي الاستدلال على حدوث الأجسام وأن الإله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، ثم إنه سبحانه بَيَّن المعنى الذي يجب الاستدلال به وهو قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لم يخطر ببالهم أن من

لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع - لا يكون إلهًا ولا يكون للإله تعلق به في الحالية والمحلية .

الوجه الثاني: أن هذا قول السامري وصف به موسى عليه السلام ، والمعنى أن هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى أن هذا هو الإله فذهب يطلبه في موضع آخر ، وهو قول الأكثرين .

الوجه الثالث: فنسي وقت الموعد في الرجوع .

أما قوله : ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فهذا استدلال على عدم إلهيتها بأنها لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر ، وهذا يدل على أن الإله لا بد وأن يكون موصوفًا بهذه الصفات ، وهو كقوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]وإن موسى عليه السلام في أكثر الأمر لا يعول إلا على دلائل إبراهيم عليه السلام **بقي ههنا بحثان.**

البحث الأول: قال الزجاج : الاختيار (أن لا يرجُع) بالرفع بمعنى أنه لا يرجع . وهذا كقوله : (وَحَسِبُوٓا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا) [المائدة: ٧١]بمعنى أنه لا تكون وقرئ بالنصب أيضًا على أن هذه هي الناصبة للأفعال .

البحث الثاني : هذه الآية تدل على وجوب النظر في معرفة الله تعالى ، وقال في آية أخرى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]وهو قريب في المعنى من قوله في ذم عبدة الأصنام : ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥]وليس المقصود من هذا أن العجل لو كان يكلمهم لكان إلهًا ؛ لأن الشيء يجوز أن يكون مشروطًا بشروط كثيرة ، ففوات واحد منها يقتضي فوات المشروط ، ولكن حصول الواحد فيها لا يقتضي حصول المشروط .

الثالث: قال بعض اليهود لعلي عليه السلام : ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم! فقال : إنما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه ، وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ! !

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

اعلم أن هارون عليه السلام إنما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق :

أما شفقته على نفسه فلأنه كان مأمورًا من عند الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان مأمورًا من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله : ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]فلو لم يشتغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان مخالفًا لأمر الله تعالى ولأمر موسى عليه السلام وذلك لا يجوز ، أوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون أني مهلك من قومك أربعين ألفًا من خيارهم وستين ألفًا من شرارهم . فقال : يا رب هؤلاء

الأشرار فما بال الأخيار؟ فقال: إنهم لم يغضبوا لغضبي.

وقال ثابت البناني: قال أنس: قال رسول الله ﷺ: «من أَصْبَحَ وَهَمُّهُ غَيْرُ اللَّه تَعَالَى فَلَيْسَ مِنَ اللَّه فِي شَيْءٍ، وَمَنْ أَصْبَحَ لاَ يَهْتَمُّ بِالْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ»(١).

وعن الشعبي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ في تَوَادِدِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»(٢) وقال أبو علي الحسن الغوري: كنت في بعض المواضع فرأيت زورقًا فيها دنان مكتوب عليها (لطيف) فقلت للملاح: إيش هذا؟ فقال: أنت صوفي فضولي وهذه خمور المعتضد، فقلت له: أعطني ذلك المدرى، فقال لغلامه: أعطه حتى نبصر إيش يعمل. فأخذت المدرى وصعدت الزورق فكنت أكسر دنًّا دنًّا والملاح يصيح حتى بقي واحد فأمسكت، فجاء صاحب السفينة فأخذني وحملني إلى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه، فلما وقع بصره عليَّ قال: من أنت؟ قلت: المحتسب. قال: من ولاك الحسبة؟ قلت: الذي ولاك الخلافة. قال: لَمَ كسرت هذه الدنان؟ قلت: شفقة عليك إذا لم تصل يدي إلى دفع مكروه عنك. قال: فلمَ أبقيت هذا الواحد؟ قلت: إني لما كسرت هذه الدنان فإني إنما كسرتها حمية في دين الله، فلما وصلت إلى هذا أعجبت فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته. فقال: اخرج يا شيخ فقد وليتك الحسبة. فقلت: كنت أفعله لله تعالى فلا أحب أن أكون شرطيًّا.

وأما الشفقة على المسلمين فلأن الإنسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقًا على أبناء جنسه، وأي شفقة أعظم من أن يرى جمعًا يتهافتون على النار فيمنعهم منها؟!

وعن أبي سعيد الخدري عنه عليه السلام: «يَقُولُ اللَّه تَعَالَى: اطْلُبُوا الْفَضْلَ عِنْدَ الرُّحَمَاءِ مِنْ عِبَادِي تَعِيشُوا فِي أَكْنَافِهِمْ فَإِنِّي جَعَلْتُ فِيهِمْ رَحْمَتِي، وَلاَ تَطْلُبُوهَا فِي الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ فَإِنَّ فِيهِمْ غَضَبِي»(٣).

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: خرجت أريد النبي ﷺ فإذا أبو بكر وعمر معه، فجاء صغير فبكى فقال لعمر: ضم الصبي إليك فإنه ضال. فأخذه عمر فإذا امرأة تولول كاشفة رأسها جزعًا على ابنها فقال رسول الله ﷺ: «أَدْرِكِ الْمَرْأَةَ» فناداها فجاءت فأخذت ولدها وجعلت تبكي

---

(١) أخرجه أبو نعيم في (حلية الأولياء) (٣/ ٤٨) من طريق محمد بن علي بن حبيب الطرائفي الرقي قال: حدثنا سليمان بن عمر الرقي قال: حدثنا وهب بن راشد عن فرقد عن أنس رضي الله تعالى عنه. . . به.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب) باب (رحمة الناس والبهائم) (٥/ ٢٢٣٨) حديث رقم/ ٥٦٦٥ وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٦٨) كلاهما من طريق عامر عن النعمان بن بشير. . . به.

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٤٠٦) حديث رقم/ ٧٠٠ من طريق عبد الغفار بن الحسن بن دينار عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد. . . به. وقال: تفرد به عبد الغفار بن الحسن بن دينار، وهو غريب. والخرائطي في (مكارم الأخلاق) (٢/ ٧١) حديث رقم/ ٥٣٢ من طريق داود بن أبي هند عن أبي بصرة عن أبي سعيد. . . به. وأورده الألباني في (الضعيفة) (١٥٧٧)

والصبي في حجرها، فالتفتت فرأت النبي ﷺ فاستحيت، فقال عليه السلام عند ذلك: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ رَحِيمَةً بِوَلَدِهَا ؟» قالوا: يا رسول الله كفى بهذه رحمة. فقال «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ اللَّه أَرْحَمُ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»(١) .

ويروى: أنه بينا رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه، إذ نظر إلى شاب على باب المسجد فقال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» فسمع الشاب ذلك فولى، فقال: إلهي وسيدي هذا رسولك يشهد عليَّ بأني من أهل النار وأنا أعلم أنه صادق، فإذا كان الأمر كذلك فأسألك أن تجعلني فداء أمة محمد ﷺ وتشعل النار بي حتى تبر يمينه ولا تشعل النار بأحد آخر!! فهبط جبريل عليه السلام وقال: «يَا مُحَمَّدُ بَشِّرِ الشَّابَّ بِأَنِّي قَدْ أَنْقَذْتُهُ مِنَ النَّارِ بِتَصْدِيقِهِ لَكَ وَفِدَائِهِ أُمَّتَكَ بِنَفْسِهِ وَشَفَقَتِهِ عَلَى الْخَلْقِ».

إذا ثبت ذلك فاعلم أن الأمر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب. ثم إن هارون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم، بل صرح بالحق فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ الآية، وههنا دقيقة وهي أن الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلي: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى» ثم إن هارون ما منعته التقية في مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح بالحق ودعا الناس إلى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره، فلو كانت أمة محمد ﷺ على الخطأ لكان يجب على علي عليه السلام أن يفعل ما فعله هارون عليه السلام وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول: ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الأمة كانوا على الصواب، واعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه، لأنه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى ثانيًا بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ثم دعاها ثالثًا إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ ثم دعاهم إلى الشرائع رابعًا بقوله: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ وهذا هو الترتيب الجيد لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله تعالى هي الأصل ثم النبوة ثم الشريعة، فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه، وإنما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فخص هذا الموضع باسم الرحمن؛ لأنه كان ينبئهم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لأنه هو الرحمن الرحيم، ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون، ثم إنهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ كأنهم قالوا: لا نقبل حجتك ولكن نقبل قول موسى. وعادة المقلد ليس إلا ذاك.

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه عبد بن حميد في (مسنده) (١/ ١٨٧) حديث رقم/ ٥٣٠ من طريق فائد أبي الورقاء عن عبد الله بن أبي أوفى الأسلمي... فذكره. وأورده الهيثمي في (المجمع) (١٠/ ٢١٣) وقال: رواه الطبراني، وفيه فائد أبو الورقاء وهو متروك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

اعلم أن الطاعنين في عصمة الأنبياء عليهم السلام يتمسكون بهذه الآية من وجوه: **أحدها**: أن موسى عليه السلام إما أن يكون قد أمر هارون باتباعه أو لم يأمره: فإن أمَره به فإما أن يكون هارون قد اتبعه أو لم يتبعه: فإن اتبعه كانت ملامة موسى لهارون معصية وذنبًا لأن ملامة غير المجرم معصية، وإن لم يتبعه كان هارون تاركًا للواجب فكان فاعلاً للمعصية، وأما إن قلنا: إن موسى عليه السلام ما أمره باتباعه، كانت ملامته إياه بترك الاتباع معصية، فثبت أن على جميع التقديرات يلزم إسناد المعصية إما إلى موسى أو إلى هارون. **وثانيها**: قول موسى عليه السلام: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ استفهام على سبيل الإنكار، فوجب أن يكون هارون قد عصاه، وأن يكون ذلك العصيان منكرًا، وإلا لكان موسى عليه السلام كاذبًا وهو معصية، فإذا فعل هارون ذلك فقد فعل المعصية. **وثالثها**: قوله: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ وهذا معصية لأن هارون عليه السلام قد فعل ما قدر عليه من النصيحة والوعظ والزجر، فإن كان موسى عليه السلام قد بحث عن الواقعة، وبعد أن علم أن هارون قد فعل ما قدر عليه، كان الأخذ برأسه ولحيته معصية، وإن فعل ذلك قبل تعرف الحال كان ذلك أيضًا معصية. **ورابعها**: إن هارون عليه السلام قال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ فإن كان الأخذ بلحيته وبرأسه جائزًا كان قول هارون (لا تأخذ) منعًا له عما كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية، وإن لم يكن ذلك الأخذ جائزًا كان موسى عليه السلام فاعلاً للمعصية. فهذه أمثلة لطيفة في هذا الباب. **والجواب عن الكل**: أنا بينا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] أنواعًا من الدلائل الجلية في أنه لا يجوز صدور المعصية من الأنبياء، وحاصل هذه الوجوه تمسك بظواهر قابلة للتأويل، ومعارضة ما يبعد عن التأويل بما يتسارع إليه التأويل غير جائز.

إذا ثبتت هذه المقدمة فاعلم أن لنا في الجواب عن هذه **الإشكالات وجوهًا**:

أحدها: أنا وإن اختلفنا في جواز المعصية على الأنبياء، لكن اتفقنا على جواز ترك الأَوْلى عليهم، وإن كان كذلك فالفعل الذي يفعله أحدهما ويمنعه الآخر، أعني بهما موسى وهارون عليهما السلام لعله كان أحدهما أَوْلى والآخر كان ترك الأولى، فلذلك فعَله أحدهما وتركه الآخر، فإن قيل: هذا التأويل غير جائز لأن كل واحد منهما كان جازمًا فيما يأتي به فعلاً كان أو تركًا، وفعل المندوب وتركه لا يجزم به. **قلنا**: تقييد المطلق بالدليل غير ممتنع، فنحن نحمل ذلك الجزم في الفعل والترك على أن المراد افعل ذلك أو اتركه إن كنت تريد الأصلح، وقد يترك ذلك الشرط إذا كان تواطؤهما على رعايته معلومًا متقررًا.

وثانيها: أن موسى عليه السلام أقبل وهو غضبان على قومه، فأخذ برأس أخيه وجره إليه كما يفعل الإنسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب، فإن الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه ويفتل أصابعه ويقبض لحيته، فأجرى موسى عليه السلام أخاه هارون مجرى نفسه لأنه كان أخاه وشريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه في حال الفكر والغضب. فأما قوله: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ فلا يمتنع أن يكون هارون عليه السلام خاف من أن يتوهم بنو إسرائيل من سوء ظنهم أنه منكر عليه غير معاون له، ثم أخذ في شرح القصة فقال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وثالثها: أن بني إسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام حتى أن هارون غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى عليه السلام: أنت قتلته. فلما واعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له في الألواح من كل شيء ثم رجع فرآى في قومه ما رآى، فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص عن كيفية الواقعة، فخاف هارون عليه السلام أن يسبق إلى قلوبهم ما لا أصل له فقال إشفاقًا على موسى: لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي لئلا يظن القوم ما لا يليق بك.

ورابعها: قال صاحب (الكشاف): كان موسى عليه السلام رجلاً حديدًا مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب في كل شيء، شديد الغضب لله تعالى ولدينه، فلم يتمالك حين رآى قومه يعبدون عجلاً من دون الله تعالى من بعد ما رأوا من الآيات العظام، أن ألقى ألواح التوراة لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة غضبًا لله تعالى وحمية وعنف بأخيه وخليفته على قومه، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشر. واعلم أن هذا الجواب ساقط لأنه يقال: هب أنه كان شديد الغضب، ولكن مع ذلك الغضب الشديد هل كان يبقى عاقلاً مكلفًا أم لا؟ فإن بقي عاقلاً مكلفًا فالأسئلة باقية بتمامها، أكثر ما في الباب أنك ذكرت أنه أتى بغضب شديد وذلك من جملة المعاصي فقد زدت إشكالاً آخر. فإن قلتم بأنه في ذلك الغضب لم يبق عاقلاً ولا مكلفًا. فهذا مما لا يرتضيه مسلم ألبتة. فهذه أجوبة من لم يجوز الصغائر وأما من جوزها فلا شك في سقوط السؤال، والله أعلم.

أما قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ **ففيه وجهان:**

الأول: أن (لا) صلة والمراد ما منعك أن تتبعني. **والثاني:** أن يكون المراد ما دعاك إلى أن لا تتبعني؟ فأقام (منعك) مقام دعاك وفي الاتباع قولان: **أحدهما:** ما منعك من اتباعي بمن أطاعك واللحوق بي وترك المقام بين أظهرهم؟ وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء. **والثاني:** أن تتبعني في وصيتي إذ قلت لك: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فلمَ تركت قتالهم وتأديبهم؟ وهذا قول مقاتل. ثم قال: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ ومعناه ظاهر وهذا يدل على أن تارك المأمور به عاصٍ، والعاصي مستحق للعقاب لقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣] ولقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا

فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]فمجموع الآيتين يدل على أن الأمر للوجوب، فأجاب هارون عليه السلام وقال: ﴿ يَبْنَؤُمَّ﴾ قيل: إنما خاطبه بذلك ليدفعه عنه فيتركه. وقيل: كان أخاه لأمه: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤]واعلم أنه ليس في القرآن دلالة على أنه فعل ذلك، فإن النهي عن الشيء لا يدل على كون المنهي فاعلاً للمنهي عنه، كقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨]وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]والذي فيه أنه أخذ برأس أخيه يجره إليه وهذا القدر لا يدل على الاستخفاف به، بل قد يفعل ذلك لسائر الأغراض على ما بيناه، ومن الناس من يقول: إنه أخذ ذؤابتيه بيمينه ولحيته بيساره ثم قال: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ولقائل أن يقول: إن قول موسى عليه السلام: (ما منعك أن لا تتبعن أفعصيت أمري) يدل على أنه أمره بشيء فكيف يحسن في جوابه أن يقال: إنما لم أمتثل قولك خوفًا من أن تقول: ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ فهل يجوز مثل هذا الكلام على العاقل؟ والجواب: لعل موسى عليه السلام إنما أمره بالذهاب إليه بشرط أن لا يؤدي ذلك إلى فساد في القوم، فلما قال موسى: «مَا مَنَعَكَ أَنْ لاَ تَتَّبِعَنِ» قال: لأنك إنما أمرتني باتباعك إذا لم يحصل الفساد، فلو جئتك مع حصول الفساد ما كنت مراقبًا لقولك. قال الإمام أبو القاسم الأنصاري: الهداية أنفع من الدلالة، فإن السحرة كانوا أجانب عن الإيمان وما رأوا إلا آية واحدة، فآمنوا وتحملوا العذاب الشديد في الدنيا ولم يرجعوا عن الإيمان، وأما قومه فإنهم رأوا انقلاب العصا ثعبانًا والتقم كل ما جمعه السحرة، ثم عاد عصا ورأوا اعتراف السحرة بأن ذلك ليس بسحر وأنه أمر إلهي ورأوا الآيات التسع مدة مديدة، ثم رأوا انفراق البحر اثني عشر طريقًا، وأن الله تعالى أنجاهم من الغرق وأهلك أعداءهم مع كثرة عددهم، ثم إن هؤلاء مع ما شاهدوا من هذه الآيات لما خرجوا من البحر ورأوا قومًا يعبدون البقر قالوا: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة. ولما سمعوا صوتًا من عجل عكفوا على عبادته، وذلك يدل على أنه لا يحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية. قرأ حمزة والكسائي: (يَا ابْنَ أُمِّ) بكسر الميم والإضافة ودلت كسرة الميم على الياء، والباقون بالفتح وتقديره (يا ابن أماه)، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

اعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هارون عليه السلام وعرف العذر له في

التأخير، أقبل على السامري، ويجوز أن يكون قد كان حاضرًا مع هارون عليه السلام، فلما قطع موسى الكلام مع هارون أخذ في التكلم مع السامري، ويجوز أن يكون بعيدًا ثم حضر السامري من بعد أو ذهب إليه موسى ليخاطبه، فقال موسى عليه السلام: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ والخطب مصدر خطب الأمر، إذا طلبه، فإذا قيل لمن يفعل شيئًا: ما خطبك؟ معناه ما طلبُك له؟ والغرض منه الإنكار عليه وتعظيم صنعه. ثم ذكر السامري عذره في ذلك فقال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرىء (بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصِرُوا بِهِ) بالكسر، وقرأ حمزة والكسائي (بما لم تبصروا بالتاء المعجمة من فوق والباقون بالياء أي بما لم يبصر به بنو إسرائيل.

المسألة الثانية: في الإبصار قولان: قال أبو عبيدة: علمت بما لم يعلموا به. ومنه قولهم: رجل بصير أي عالم، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الزجاج في تقريره: أبصرته بمعنى رأيته، وبصرت به بمعنى صرت به بصيرًا عالمًا. وقال آخرون: رأيت ما لم يروه. فقوله بصرت به بمعنى أبصرته، وأراد أنه رأى دابة جبريل عليه السلام فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ الحسن (قبُضة) بضم القاف وهي اسم للمقبوض كالغُرفة والضُّفة، وأما القَبضة فالمرة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الأمير وقرىء أيضًا (فقبصت قبصة) بالضاد والصاد، فالضاد بجميع الكف والصاد بأطراف الأصابع، ونظيرهما الخضم والقضم الخاء بجميع الفم والقاف بمقدمه. قرأ ابن مسعود (من أثر فرس الرسول).

المسألة الثانية: عامة المفسرين قالوا: المراد بالرسول جبريل عليه السلام، وأراد بأثره التراب الذي أخذه من موضع حافر دابته. ثم اختلفوا أنه متى رآه: فقال الأكثرون: إنما رآه يوم فلق البحر. وعن علي عليه السلام أن جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى عليه السلام إلى الطور أبصره السامري من بين الناس، واختلفوا في أن السامري كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس: فقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي: إنما عرفه لأنه رآه في صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بني إسرائيل، فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون، فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس، فكان السامري ممن أخذه جبريل عليه السلام، وجعل كف نفسه في فيه وارتضع منه العسل واللبن، فلم يزل يختلف إليه حتى عرفه، فلما رآه عرفه، قال ابن جريج: فعلى هذا قوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ﴾ بمعنى رأيت ما لم يروه. ومن فسر الكلمة بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت أن تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الإحياء.

قال أبو مسلم الأصفهاني : ليس في القرآن تصريح بهذا الذي ذكره المفسرون ، فههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذي أمر به ، فقد يقول الرجل : (فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره) إذا كان يمتثل رسمه ، والتقدير أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامري باللوم والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم في باب العجل ، فقال : بصرت بما لم يبصروا به ، أي عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أي شيئًا من سنتك ودينك ، فقذفته أي طرحته ، فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب في الدنيا والآخرة ، وإنما أُورد بلفظ الإخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : (ما يقول الأمير في كذا وبماذا يأمر الأمير) ، وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولاً مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله عنه قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الحجر : ٦] وإن لم يؤمنوا بالإنزال .

واعلم أن هذا القول الذي ذكره أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه :

أحدها: أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ، ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تُجعل لام التعريف إشارة إليه ، فإطلاق لفظ الرسول لإرادة جبريل عليه السلام كأنه تكليف بعلم الغيب .

وثانيها: أنه لا بد فيه من الإضمار وهو (قبضة من أثر حافر فرس الرسول) والإضمار خلاف الأصل .

وثالثها: أنه لا بد من التعسف في بيان أن السامري كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ، ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر؟ والذي ذكروه من أن جبريل عليه السلام هو الذي رباه فبعيد ؛ لأن السامري إن عرف جبريل حال كمال عقله عرف قطعًا أن موسى عليه السلام نبي صادق ، فكيف يحاول الإضلال؟ وإن كان ما عرفه حال البلوغ فأي منفعة لكون جبريل عليه السلام مربيًا له في الطفولية في حصول تلك المعرفة؟

ورابعها: أنه لو جاز إطلاع بعض الكفرة على ترابٍ هذا شأنه لكان لقائل أن يقول : فلعل موسى عليه السلام اطلع على شيء آخر يشبه ذلك فلأجله أتى بالمعجزات ، ويرجع حاصله إلى سؤال من يطعن في المعجزات ويقول : لمَ لا يجوز أن يقال : إنهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الأدوية التي لها خاصية أن تفيد حصول تلك المعجزة ، أتوا بتلك المعجزة؟ وحينئذٍ ينسد باب المعجزات بالكلية .

أما قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِى نَفۡسِى﴾ فالمعنى فعلت ما دعتني إليه نفسي . وسولت مأخوذ من السؤال فالمعنى لم يَدْعُني إلى ما فعلته أحد غيري بل اتبعت هواي فيه . ثم إن موسى عليه السلام لما سمع ذلك من السامري أجابه بأن بَيَّن حاله في الدنيا والآخرة وبَيَّن حال إلهه :

أما حاله في الدنيا فقوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ وفيه وجوه: **أحدها**: أن المراد: أني لا أَمس ولا أُمس. قالوا: وإذا مسه أحد حم الماس والمسوس، فكان إذا أراد أحد أن يمسه صاح خوفًا من الحمى وقال لا مساس. **وثانيها**: أن المراد بقوله: ﴿لَا مِسَاسَۖ﴾ المنع من أن يخالط أحدًا أو يخالطه أحد. وقال مقاتل: إن موسى عليه السلام أخرجه من محلة بني إسرائيل وقال له: (اخرج أنت وأهلك) فخرج طريدًا إلى البراري، اعترض الواحدي عليه فقال: الرجل إذا صار مهجورًا فلا يقول هو لا مساس وإنما يقال له ذلك. وهذا الاعتراض ضعيف لأن الرجل إذا بقي طريدًا فريدًا فإذا قيل له: (كيف حالك؟) فله أن يقول (لا مساس) أي لا يماسني أحد ولا أماس أحدًا، والمعنى: إني أجعلك يا سامري في المطرودية بحيث لو أردت أن تخبر غيرك عن حالك لم تقل إلا أنه لا مساس. وهذا الوجه أحسن وأقرب إلى نظم الكلام من الأول. **وثالثها**: ما ذكره أبو مسلم وهو أنه يجوز في حمله ما أريد مسي النساء فيكون من تعذيب الله إياه انقطاع نسله، فلا يكون له ولد يؤنسه فيخليه الله تعالى من زينتَي الدنيا اللتين ذكرهما بقوله: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٤٦] وقرئ (لا مسَاس) بوزن فَجارِ وهو اسم عَلَم للمرة الواحدة من المس. وأما شرح حاله في الآخرة فهو قوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدًا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ﴾ والموعد، بمعنى الوعد أي هذه عقوبتك في الدنيا ثم لك الوعد بالمصير إلى عذاب الآخرة، فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين. قرأ أهل المدينة والكوفة: (لن تخلفه) بفتح اللام أي لن تُخلَف ذلك الوعد أي سيأتيك به الله ولن يتأخر عنك، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن بكسر اللام، أي تجيء إليه ولن تغيب عنه، ولن تتخلف عنه وفتح اللام اختيار أبي عبيد كأنه قال: موعدًا حقًّا لا خلف فيه وعن ابن مسعود: (لن نخلفه) بالنون فكأنه عليه السلام حكى قول الله تعالى بلفظه كما مر بيانه في قوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم: ١٩]. وأما شرح حال إلهه فهو قوله: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ﴾ قال المفضل في ظلت: إنه يُقرأ بفتح الظاء وكسرها وكذلك: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥] وأصله (ظللت) فحذفت اللام الأولى وذلك إنما يكون إذا كانت اللام الثانية ساكنة تستحب العرب طرح الأولى، ومَن كسر الظاء نقل كسرة اللام الساقطة إليها، ومَن فتحها ترك الظاء على حالها وكذلك يفعلون في المضاعف يقولون: مسته ومستته. ثم قال: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ وفي قوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ وجهان: أحدهما: المراد إحراقه بالنار، وهذا أحد ما يدل على أنه صار لحمًا ودمًا؛ لأن الذهب لا يمكن إحراقه بالنار، وقال السدي: أمر موسى عليه السلام بذبح العجل فذُبح فسال منه الدم ثم أُحرق ثم نُسف رماده. وفي حرف ابن مسعود (لنذبحنه ولنحرقنه). وثانيهما: لنحرقنه أي لنبردنه بالمبرد، يقال: حرقه يحرقه، إذا برده، وهذه القراءة تدل على أنه لم ينقلب لحمًا ولا دمًا فإن ذلك لا يصح أن يبرد بالمبرد، ويمكن أن يقال: إنه صار لحمًا فذُبح ثم بُردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها. قراءة العامة بضم النون وتشديد الراء ومعناه لنحرقنه بالنار،

وقرأ أبو جعفر وابن محيصن (لنَحرُقنه) بفتح النون وضم الراء خفيفة يعني لنبردنه.

واعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من إبطال ما ذهب إليه السامري عاد إلى بيان الدين الحق فقال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ أي المستحق للعبادة والتعظيم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ قال مقاتل: يعلم من يعبده ومن لا يعبده.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولاً ثم مع السامري ثانيًا: أتبعه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ من سائر أخبار الأمم وأحوالهم تكثيرًا لشأنك وزيادة في معجزاتك، وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها في الدين: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ يعني القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ [الأنبياء: ٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر: ٦] ثم في تسمية القرآن بالذكر وجوه: أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم. وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ. وثالثها: فيه الذكر والشرف لك ولقومك، على ما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكرًا فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣].

وكما بَيَّن نعمته بذلك بَيَّن شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به من وجوه: أولها: قوله: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ والوزر هو العقوبة الثقيلة، سماها وزرًا تشبيهًا في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها الذي يثقل على الحامل وينقض ظهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم، وقرئ (يُحَمَّل)، ثم بَيَّن تعالى صفة ذلك الوزر من وجهين: أحدهما: أنه يكون مخلدًا مؤبدًا. والثاني: قوله: ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي وما أسوأ هذا الوزر حملاً أي محمولاً. وحملاً منصوب على التمييز. وثانيها: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ فالمراد بيان أن يوم القيامة هو يوم ينفخ في الصور، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو (ننفخ) بفتح النون، كقوله: ﴿وَنَحْشُرُ﴾ وقرأ الباقون (يُنفخ) على ما لم يسم فاعله (ونحشر) بالنون لأن النافخ مَلَك التقم الصور والحاشر هو الله تعالى، وقرئ (يوم يَنفخ) بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله تعالى أو لإسرافيل عليه السلام، وأما: (يحشر المجرمين) فلم يقرأ به إلا الحسن، وقرئ (في الصُّوَر) بفتح الواو جمع صورة.

المسألة الثانية : ﴿ فِي ٱلصُّورِ﴾ قولان : احدهما: أنه قرن ينفخ فيه يدعى به الناس إلى المحشر . والثاني: أنه جمع صورة والنفخ نفخ الروح فيه، ويدل عليه قراءة من قرأ: (الصُّوَر) بفتح الواو، والأول أولى لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] والله تعالى يُعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوهد في الدنيا، ومن عادة الناس النفخ في البوق عند الأسفار وفي العساكر .

المسألة الثالثة : المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية ؛ لأن قوله بعد ذلك : ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ كالدلالة على أن النفخ في الصور كالسبب لحشرهم، فهو نظير قوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

أما قوله: ﴿ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى : قالت المعتزلة : قوله : ﴿ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يتناول الكفار والعصاة فيدل على عدم العفو عن العصاة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد بالمجرمين : الذين اتخذوا مع الله إلهًا آخر . وقد تقدم هذا الكلام .

المسألة الثانية : اختلفوا في المراد بالزرقة على وجوه: أحدها: قال الضحاك ومقاتل: يعني زرق العيون سود الوجوه وهي زرقة تتشوه بها خلقتهم، والعرب تتشاءم بذلك، فإن قيل: أليس أن الله تعالى أخبر أنهم يُحشرون عميًا فكيف يكون أعمى وأزرق؟ قلنا: لعله يكون أعمى في حال وأزرق في حال. وثانيها: المراد من الزرقة العمى. قال الكلبي: زرقًا، أي عميًا. قال الزجاج: يخرجون بصراء في أول مرة، ويعمون في المحشر. وسواد العين إذا ذهب تزرق. فإن قيل: كيف يكون أعمى وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤١] وشخوص البصر من الأعمى محال، وقد قال في حقهم: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٤] والأعمى كيف يقرأ. فالجواب: أن أحوالهم قد تختلف. وثالثها: قال أبو مسلم: المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم والأزرق شاخص لأنه لضعف بصره يكون محدقًا نحو الشيء يريد أن يتبينه، وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره، وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤١]. ورابعها: زرقًا: عطاشًا، هكذا رواه ثعلب عن ابن الأعرابي قال: لأنهم من شدة العطش يتغير سواد عيونهم حتى تزرق. ويدل على هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]. وخامسها: حكى ثعلب عن ابن الأعرابي قال: طامعين فيما لا ينالونه .

الصفة الثالثة من صفات الكفار يوم القيامة: قوله تعالى : ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى : يتخافتون أي يتسارون . يقال: خفت يخفت وخافت مخافتة، والتخافت: السِّرار، وهو نظير قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] وإنما يتخافتون لأنه امتلأت صدورهم من الرعب والهول، أو لأنهم صاروا بسبب الخوف في نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر .

المسألة الثانية: اختلفوا في أن المراد بقوله: ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ﴾ اللبث في الدنيا أو في القبر:

فقال قوم: أرادوا به اللبث في الدنيا. وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك، واحتجوا عليه بقوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣]فإن قيل: إما أن يقال: إنهم نسوا قدر لبثهم في الدنيا، أو ما نسوا ذلك: والأول غير جائز إذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقى الإنسان خمسين سنة في بلد ثم ينساه. والثاني غير جائز لأنه كذب وأهل الآخرة لا يكذبون لا سيما وهذا الكذب لا فائدة فيه. **قلنا: فيه وجوه:**

أحدها:لعلهم إذا حُشروا في أول الأمر وعاينوا تلك الأهوال، فلشدة وقعها عليهم ذُهلوا عن مقدار عمرهم في الدنيا وما ذكروا إلا القليل فقالوا: ليتنا ما عشنا إلا تلك الأيام القليلة في الدنيا حتى لا نقع في هذه الأهوال. والإنسان عند الهول الشديد قد يذهل عن أظهر الأشياء، وتمام تقريره مذكور في سورة الأنعام في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وثانيها:أنهم عالمون بمقدار عمرهم في الدنيا، إلا أنهم لما قابلوا أعمارهم في الدنيا بأعمار الآخرة وجدوها في نهاية القلة، فقال بعضهم: ما لبثنا في الدنيا إلا عشرة أيام. وقال أعقلهم: بل ما لبثنا إلا يومًا واحدًا أي قدر لبثنا في الدنيا بالقياس إلى قدر لبثنا في الآخرة كعشرة أيام بل كاليوم الواحد بل كالعدم، وإنما خص العشرة والواحد بالذكر لأن القليل في أمثال هذه المواضع لا يعبر عنه إلا بالعشرة والواحد.

وثالثها:أنهم لما عاينوا الشدائد تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها، فوصفوها بالقِصر؛ لأن أيام السرور قصار.

ورابعها:أن أيام الدنيا قد انقضت وأيام الآخرة مستقبلة، والذاهب وإن طالت مدته قليل بالقياس إلى الآتي وإن قصرت مدته، فكيف والأمر بالعكس؟! ولهذه الوجوه رجح الله تعالى قول من بالغ في التقليل فقال: ﴿ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ .

القول الثاني:أن المراد منه اللبث في القبر، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].

فأما من جوز الكذب على أهل القيامة فلا إشكال له في الآية، أما من لم يجوز، قال: إن الله تعالى لما أحياهم في القبر وعذبهم ثم أماتهم ثم بعثهم يوم القيامة، لم يعرفوا أن قدر لبثهم في القبر كم كان، فخطر ببال بعضهم أنه في تقدير عشرة أيام، وقال آخرون: إنه يوم واحد، فلما وقعوا في العذاب مرة أخرى، تمنوا زمان الموت الذي هو زمان الخلاص لما نالهم من هول العذاب.

المسألة الثالثة:الأكثرون على أن قوله: ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي عشرة أيام، فيكون قول من

قال: ﴿إن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أقل. وقال مقاتل: ﴿إن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي عشر ساعات. كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وعلى هذا التقدير يكون اليوم أكثر، والله أعلم. واعلم أنه سبحانه وتعالى بَيَّن بهذا القول أعظم ما نالهم من الحيرة التي دُفعوا عندها إلى هذا الجنس من التخافت.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف أمر يوم القيامة، حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ وفي تقرير هذا السؤال وجوه: **أحدها:** أن قوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ [طه: ١٠٣] وصفٌ من الله تعالى لكل المجرمين بذلك، فكأنهم قالوا: كيف يصح ذلك والجبال حائلة ومانعة من هذا التخافت؟! **وثانيها:** قال الضحاك: نزلت في مشركي مكة قالوا: يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة؟ وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء. **وثالثها:** لعل قومه قالوا: يا محمد إنك تدعي أن الدنيا ستنقضي، فلو صح ما قلته لوجب أن تبتدئ أولاً بالنقصان ثم تنتهي إلى البطلان، لكن أحوال العالم باقية كما كانت في أول الأمر، فكيف يصح ما قلته من خراب الدنيا؟! وهذه شبهة تمسك بها جالينوس في أن السموات لا تفنى، قال: لأنها لو فنيت لابتدأت في النقصان أولاً حتى ينتهي نقصانها إلى البطلان، فلما لم يظهر فيها النقصان علمنا أن القول بالبطلان باطل.

ثم أَمَر الله تعالى رسوله بالجواب عن هذا السؤال، وضم إلى الجواب أمورًا أُخر في شرح أحوال القيامة وأهوالها:

الصفة الأولى: قوله: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: إنما قال: ﴿فَقُلْ﴾ مع فاء التعقيب لأن مقصودهم من هذا السؤال الطعن في الحشر والنشر، فلا جرم أَمَره بالجواب مقرونًا بفاء التعقيب؛ لأن تأخير البيان في مثل هذه المسألة الأصولية غير جائز، أما في المسائل الفروعية فجائزة؛ لذلك ذكر هناك (قل) من غير حرف التعقيب.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: ﴿يَنسِفُهَا﴾ عائد إلى الجبال والنسف: التذرية، أي تصير الجبال كالهباء المنثور تذرى تذرية، فإذا زالت الجبال الحوائل فيعلم صدق قوله: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾

قال الخليل: (يَنسِفُها) أي يُذهبها ويطيرها، أما الضمير في قوله: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فهو عائد إلى الأرض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما في عادة الناس من الإخبار عنها بالإضمار كقولهم: (ما عليها أكرم من فلان) وقال تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وإنما قال: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ ليبين أن ذلك النسف لا يزيل الاستواء لئلا يقدر أنها لما زالت من موضع إلى موضع آخر صارت هناك حائلة.

هذا كله إذا كان المقصود من سؤالهم الاعتراض على كيفية المخافتة، أما لو كان الغرض من السؤال ما ذكرنا من أنه لا نقصان فيها في الحال، فوجب أن لا ينتهي أمرها إلى البطلان، كان تقرير الجواب: أن بطلان الشيء قد يكون بطلانًا يقع توليديًا، فحينئذٍ يجب تقديم النقصان على البطلان، وقد يكون بطلانًا يقع دفعة واحدة، وههنا لا يجب تقديم النقصان على البطلان، فبيّن الله تعالى أنه يفرق تركيبات هذا العالم الجسماني دفعة بقدرته ومشيئته، فلا حاجة ههنا إلى تقديم النقصان على البطلان.

المسألة الثالثة: أنه تعالى وَصَف الأرض ذلك الوقت بصفات: **أحدها**:كونها قاعًا، وهو المكان المطمئن وقيل مستنقع الماء. **وثانيها**:الصفصف، وهو الذي لا نبات عليه. وقال أبو مسلم: القاع: الأرض الملساء المستوية وكذلك الصفصف. **وثالثها**:قوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ وقال صاحب (الكشاف): قد فرقوا بين العِوج والعَوج فقالوا: العِوج بالكسر في المعاني والعَوج بالفتح في الأعيان، فإن قيل: الأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ **قلنا**:اختيار هذا اللفظ له موقع بديع في وصف الأرض بالاستواء ونفي الاعوجاج، وذلك لأنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبالغت في التسوية، فإذا قابلتها المقاييس الهندسية وجدت فيها أنواعًا من العوج خارجة عن الحس البصري. قال: فذاك القدر في الاعوجاج لما لطف جدًّا ألحق بالمعاني فقيل فيه: عِوج بالكسر.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن الأرض تكون ذلك اليوم كرة حقيقية لأن المضلع لا بد وأن يتصل بعض سطوحه بالبعض لا على الاستقامة بل على الاعوجاج، وذلك يبطله ظاهر الآية. **ورابعها**:الأمت: النتوء اليسير، يقال: (مد حبله حتى ما فيه أمت) وتحصَّل من هذه الصفات الأربع أن الأرض تكون ذلك اليوم ملساء خالية عن الارتفاع والانخفاض وأنواع الانحراف والاعوجاج.

الصفة الثانية ليوم القيامة:قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ وفي الداعي قولان: **الأول**:أن ذلك الداعي هو النفخ في الصور، وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي لا يعدل عن أحد بدعائه بل يحشر الكل. **الثاني**:أنه مَلَك قائم على صخرة بيت المقدس ينادي ويقول: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب والجزاء. فيسمعون صوت الداعي فيتبعونه، ويقال: إنه إسرافيل عليه السلام يضع قدمه على الصخرة، **فإن قيل**:هذا الدعاء

يكون قبل الإحياء أو بعده؟ قلنا: إن كان المقصود بالدعاء إعلامهم وجب أن يكون ذلك بعد الإحياء لأن دعاء الميت عبث، وإن لم يكن المقصود إعلامهم بل المقصود مقصود آخر مثل أن يكون لطفًا للملائكة ومصلحة لهم، فذلك جائز قبل الإحياء.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ وفيه وجوه: أحدها: خشعت الأصوات من شدة الفزع وخضعت وخفتت فلا تسمع إلا همسًا وهو الذِّكر الخفي، قال أبو مسلم: وقد علم الإنس والجن بأن لا مالك لهم سواه فلا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلامًا يفهم بتحريك الشفتين لضعفه. وحُق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمه. وثانيها: قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وعكرمة وابن زيد: الهمس وطء الأقدام، فالمعنى أنه لا تسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ قال صاحب (الكشاف): مَن يصلح أن يكون مرفوعًا ومنصوبًا، فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف إليه، أي (لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن) والنصب على المفعولية.

وأقول: الاحتمال الثاني أولى لوجوه: **الأول:** أن الأول يحتاج فيه إلى الإضمار وتغيير الإعراب والثاني لا يحتاج فيه إلى ذلك. **والثاني:** أن قوله تعالى: ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ يراد به من يشفع بها والاستثناء يرجع إليهم، فكأنه قال: لا تنفع الشفاعة أحدًا من الخلق إلا شخصًا مَرضيًّا. **والثالث:** وهو أن من المعلوم بالضرورة أن درجة الشافع درجة عظيمة، فهي لا تحصل إلا لمن أذن الله له فيها وكان عند الله مَرضيًّا، فلو حملنا الآية على ذلك صارت جارية مجرى إيضاح الواضحات، أما لو حملنا الآية على المشفوع له لم يكن ذلك إيضاح الواضحات فكان ذلك أولى.

إذا ثبت هذا فنقول: المعتزلة قالوا: الفاسق غير مَرضي عند الله تعالى، فوجب أن لا يشفع الرسول في حقه لأن هذه الآية دلت على أن المشفوع له لا بد وأن يكون مرضيًا عند الله. واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفساق لأن قوله ﴿ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ يكفي في صدقه أن يكون الله تعالى قد رضي له قولاً واحدًا من أقواله، والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولاً واحدًا من أقواله وهو: (شهادة أن لا إله إلا الله) فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له لأن الاستثناء من النفي إثبات. **فإن قيل:** إنه تعالى استثنى عن ذلك النفي بشرطين: أحدهما: حصول الإذن. والثاني: أن يكون قد رضي له قولاً، فهب أن الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين وهو أنه تعالى قد رضي له قولاً، لكن لمَ قلتم: إنه أذن فيه، وهذا أول المسألة؟ **قلنا:** هذا القيد وهو أنه رضي له قولاً كافٍ في حصول الاستثناء بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فاكتفى هناك بهذا القيد، ودلت هذه الآية على أنه لا بد من الإذن فظهر من مجموعهما أنه إذا رضي له قولاً يحصل الإذن في الشفاعة، وإذا حصل القيدان حصل الاستثناء وتم المقصود.

الصفة الخامسة:قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى : الضمير في قوله : ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ عائد إلى الذين يتبعون الداعي ، ومن قال : إن قوله : ﴿ مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ المراد به الشافع . قال : ذلك الضمير عائد إليه ، والمعنى لا تنفع شفاعة الملائكة والأنبياء إلا لمن أذن له الرحمن في أن تشفع له الملائكة والأنبياء . ثم قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني ما بين أيدي الملائكة ، كما قال في آية الكرسي ، وهذا قول الكلبي ومقاتل وفيه تقريع لمن يعبد الملائكة ليشفعوا له . قال مقاتل : يعلم ما كان قبل أن يخلق الملائكة وما كان منهم بعد خلقهم .

المسألة الثانية : ذكروا في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ وجوهًا : أحدها : قال الكلبي : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الآخرة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا . وثانيها : قال مجاهد : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا والأعمال ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة والثواب والعقاب . وثالثها : قال الضحاك : يعلم ما مضى وما بقي ومتى تكون القيامة .

المسألة الثالثة : ذكروا في قوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ وجهين : الأول : أنه تعالى بيَّن أنه يعلم ما بين أيدي العباد وما خلفهم . ثم قال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ أي العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علمًا . الثاني : المراد لا يحيطون بالله علمًا . والأول أولى لوجهين : أحدهما : أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات والأقرب ههنا قوله : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ . وثانيهما : أنه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم أن سائر ما يُقْدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى .

الصفة السادسة:قوله : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ ومعناه أن في ذلك اليوم تعنو الوجوه ، أي تذل ويصير المُلك والقهر لله تعالى دون غيره ، ومن لفظ العنو أخذوا العاني وهو الأسير ، يقال : عنا يعنو عناء إذا صار أسيرًا ، وذكر الله تعالى : الوجوه وأراد به المكلفين أنفسهم لأن قوله : ﴿ وَعَنَتِ﴾ من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وهو كقوله : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۞ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨، ٩]وإنما خص الوجوه بالذكر لأن الخضوع بها يبين وفيها يظهر ، وتفسير ﴿ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قد تقدم ، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال : «اطْلُبُوا اسْمَ اللَّه الأَعْظَمَ فِي هَذِهِ السور الثلاث الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطه» قال الراوي : فوجدنا المشترك في السور الثلاث : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]فبيَّن تعالى على وجه التحذير أن ذلك اليوم لا يصح الامتناع مما ينزل بالمرء من المجازاة ، وأن حاله مخالفة لحال الدنيا التي يختار فيها المعاصي ويمتنع من الطاعات . أما قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ فالمراد بالخيبة الحرمان ، أي حُرم الثواب من حمل ظلمًا ، والمراد به من وافى بالظلم ولم يتب عنه . واستدلت المعتزلة بهذه الآية في المنع من العفو فقالوا : قوله : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ يعم كل ظالم ، وقد حكم الله تعالى فيه بالخيبة ، والعفو ينافيه . والكلام على عمومات الوعيد

قد تقدم مرارًا. واعلم أنه تعالى لما شرح أحوال يوم القيامة، ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ يعني: ومن يعمل شيئًا من الصالحات، والمراد به الفرائض، فكان عمله مقرونًا بالإيمان، وهو قوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[طه: ٧٥] فقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ في موضع جزم لكونه في موضع جواب الشرط والتقدير (فهو لا يخاف) ونظيره: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾[المائدة: ٩٥]، ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾[الجن: ١٣] وقرأ ابن كثير: (فلا يخف) على النهي وهو حسن لأن المعنى (فليأمن) والنهي عن الخوف أمر بالأمن. والظلم هو أن يعاقب لا على جريمة أو يُمنع من الثواب على الطاعة، والهضم أن يُنقص من ثوابه، والهضيمة النقيصة، ومنه (هضيم الكشح) أي ضامر البطن ومنه: ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾[الشعراء: ١٤٨] أي لازق بعضه ببعض، ومنه انهضم طعامي، وقال أبو مسلم: الظلم أن يُنقص من الثواب والهضم أن لا يوفى حقه من الإعظام لأن الثواب مع كونه من اللذات لا يكون ثوابًا إلا إذا قارنه التعظيم، وقد يدخل النقص في بعض الثواب ويدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفى الله تعالى عن المؤمنين كلا الأمرين.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطف على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾[طه: ٩٩] أي ومثل ذلك لا نزال وعلى نهجه أنزلنا القرآن كله. ثم وصف القرآن بأمرين: أحدهما: كونه عربيًّا لتفهمه العرب، فيقفوا على إعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلام البشر. والثاني: قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي كررناه وفصلناه، ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم؛ لأن الوعيد فعل يتعلق فتكريره يقتضي بيان الأحكام فلذلك قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ والمراد اتقاء المحرمات وترك الواجبات ولفظ (لعل) قد تقدم تفسيره في سورة البقرة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ٢١].

أما قوله: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ **ففيه وجهان:**

الأول: أن يكون المعنى: إنا إنما أنزلنا القرآن لأجل أن يصيروا متقين أي محترزين عما لا ينبغي أو يحدث القرآن لهم ذكرًا يدعوهم إلى الطاعات وفعل ما ينبغي، **وعليه سؤالات:**

السؤال الأول: القرآن كيف يكون محدثًا للذكر؟ **الجواب:** لما حصل الذكر عند قراءته أضيف الذكر إليه.

السؤال الثاني: لمَ أضيف الذكر إلى القرآن وما أضيفت التقوى إليه؟ **الجواب:** أن التقوى عبارة عن أن لا يفعل القبيح، وذلك استمرار على العدم الأصلي، فلم يجز إسناده إلى القرآن، أما

حدوث الذكر فأمر حدث بعد أن لم يكن فجازت إضافته إلى القرآن .

السؤال الثالث : كلمة (أو) للمنافاة ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لايصح الاتقاء إلا مع الذكر فما معنى كلمة (أو)؟ **الجواب**:هذا كقولهم (جالِس الحسن أو ابن سيرين) أي لا تكن خاليًا منهما فكذا ههنا .

الوجه الثاني:أن يقال : إنا أنزلنا القرآن ليتقوا ، فإن لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يُحدث القرآن لهم ذكرًا وشرفًا وصيتًا حسنًا ، فعلى هذين التقديرين يكون إنزاله تقوى . ثم إنه تعالى لما عظَّم أمر القرآن ردفه بأن عظَّم نفسه فقال : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ تنبيهًا على ما يلزم خلقه من تعظيمه ، وإنما وصفه بالحق لأن مُلكه لا يزول ولا يتغير ، وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أَوْلى به فلهذا وصف بذلك ، وتعالى تفاعَل من العلو ، وقد ثبت أن علوه وعظمته وربوبيته بمعنى واحد ، وهو اتصافه بنعوت الجلال وأنه لا تكيفه الأوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن المنافع والمضار ، فهو تعالى إنما أنزل القرآن ليحترزوا عما لا ينبغي وليقدموا على ما ينبغي ، وأنه تعالى منزه عن التكمل بطاعاتهم والتضرر بمعاصيهم ، فالطاعات إنما تقع بتوفيقه وتيسيره ، والمعاصي إنما تقع عدلاً منه ، وكلٌّ ميسر لما خُلق له .

أما قوله:﴿ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ ﴾ **ففيه مسائل**:

المسألة الأولى : في تعلقه بما قبله وجهان :

الوجه الأول:قال أبو مسلم : إن من قوله : ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]إلى ههنا يتم الكلام وينقطع ، ثم قوله : ﴿ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ خطاب مستأنف فكأنه قال : ويسألونك ولا تعجل بالقرآن. **الوجه الثاني**:رُوى أنه عليه السلام كان يخاف من أن يفوته منه شيء فيقرأ مع المَلَك ، فأمره بأن يسكت حال قراءة المَلَك ثم يأخذ بعد فراغه في القراءة ، فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين وبَيَّن أنه سبحانه متعالٍ عن كل ما لا ينبغي وأنه موصوف بالإحسان والرحمة ، ومن كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن السهو والنسيان في أمر الوحي ، وإذ حصل الأمان عن السهو والنسيان قال : ﴿ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ .

المسألة الثانية :قوله : ﴿ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ويحتمل أن يكون المراد لا تعجل بقراءته في نفسك ، ويحتمل أن لا تعجل في تأديته إلى غيرك ، ويحتمل في اعتقاد ظاهره ، ويحتمل في تعريف الغير ما يقتضيه ظاهره .

وأما قوله:﴿ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ ﴾ فيحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك تمامه ، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك بيانه ؛ لأن هذين الأمرين لا يمكن تحصيلهما إلا بالوحي ، ومعلوم أنه عليه السلام لا يُنهى عن قراءته لكي يحفظه ويؤديه ، فالمراد إذن أن لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتى يتبين بالوحي تمامه أو بيانه أو هما جميعًا ، لأنه يجب التوقف في معنى الكلام ما لم يأت عليه الفراغ لِما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو

شرط أو غيرهما من المخصصات فهذا هو التحقيق في تفسير الآية.

ولنذكر أقوال المفسرين: أحدها: أن هذا كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل مخافة النسيان، فقيل له: لا تعجل إلى أن يستتم وحيه فيكون أخذك إياه عن تثبت وسكون، والله تعالى يزيدك فهمًا وعلمًا. وهذا قول مقاتل والسدي، ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما. **وثانيها:** لا تعجل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحى إليك بيان معانيه. وهذا قول مجاهد وقتادة. **وثالثها:** قال الضحاك: إن أهل مكة وأسقف نجران قالوا: يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك أجلًا ثلاثة أيام. فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمدًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي بنزوله من قبل أن يقضى إليك وحيه من اللوح المحفوظ إلى إسرافيل ومنه إلى جبريل ومنه إليك: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. **ورابعها:** روى الحسن أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: زوجي لطم وجهي!! فقال: «**بينكما القصاص**» فنزل قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ فأمسك رسول الله ﷺ عن القصاص حتى نزل قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤][(١)] وهذا بعيد، والاعتماد على التفصيل الأول.

أما قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ فالمعنى أنه سبحانه وتعالى أمره بالفزع إلى الله سبحانه في زيادة العلم التي تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه.

المسألة الثالثة: الاستعجال الذي نُهي عنه إن كان فعله بالوحي فكيف نُهي عنه؟ الجواب: لعله فعله بالاجتهاد، وكان الأولى تركه، فلهذا نُهي عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

اعلم أن هذا هي المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام في القرآن: أولها في سورة البقرة، ثم في الأعراف، ثم في الحجر، ثم في الإسراء، ثم في الكهف، ثم ههنا.

واعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهًا: أحدها: أنه تعالى لما قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩] ثم إنه عظَّم أمر القرآن وبالغ فيه، ذكر هذه القصة إنجازًا للوعد في

(١) إسناده ضعيف: أورده القرطبي في (تفسيره) (٥/ ١٦٨) وقال: ذكر إسماعيل بن إسحاق قال: حدثنا حجاج بن المنهال وعارم بن الفضل، واللفظ لحجاج قال: حدثنا جرير بن حازم قال: سمعت الحسن... فذكره. وهذا مرسل من مراسيل الحسن البصري، ومراسيله ضعيفة.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩]. وثانيها: أنه لما قال: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] أردفه بقصة آدم عليه السلام، كأنه قال: إن طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه - أمر قديم فإنا قد عهدنا إلى آدم من قبل، أي من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد، وبالغنا في تنبيهه حيث قلنا: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ ثم إنه مع ذلك نسي وتَرَك ذلك العهد، فأمْر البشر في ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم. وثالثها: أنه لما قال لمحمد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ذكر بعده قصة آدم عليه السلام، فإنه بعدما عهد الله إليه وبالغ في تجديد العهد وتحذيره من العدو، نسي، فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ، فيحتاج حينئذٍ إلى الاستعانة بربه في أن يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان. ورابعها: أن محمدًا ﷺ لما قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤] دل على أنه كان في الجد في أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب، فلما وصفه بالإفراط وصف آدم بالتفريط في ذلك، فإنه تساهل في ذلك ولم يتحفظ حتى نسي، فوصف الأول بالتفريط والآخر بالإفراط ليعلم أن البشر لا ينفك عن نوع زلة. وخامسها: أن محمدًا ﷺ لما قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ [طه: ١١٤] ضاق قلبه وقال في نفسه: لولا أني أقدمت على ما لا ينبغي وإلا لما نُهيت عنه! فقيل له: إن كنتَ فعلتَ ما نُهيت عنه فإنما فعلتَه حرصًا منك على العبادة وحفظًا لأداء الوحي وإن أباك أقدم على ما لا ينبغي للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ فلا شك أن المراد بالعهد أمر من الله تعالى أو نهي منه، كما يقال في أوامر الملوك ووصاياهم (أشار الملك إليه وعهد إليه). قال المفسرون: عهدنا إليه أن لا يأكل من الشجرة ولا يقربها، وفي قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ وجوه: **أحدها:** من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد في القرآن. **وثانيها:** قال ابن عباس: من قبل أن يأكل من الشجرة عهدنا إليه أن لا يأكل منها. **وثالثها:** أي من قبل محمد ﷺ والقرآن. وهو قول الحسن. أما قوله: ﴿فَنَسِىَ﴾ فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة، ونعيد ههنا منه شيئًا قليلاً، وفي النسيان قولان: **أحدهما:** المراد ما هو نقيض الذكر، وإنما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان، وكان الحسن رحمه الله يقول: والله ما عصى قط إلا بنسيان. **والثاني:** أن المراد بالنسيان الترك، وأنه ترك ما عهد إليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل من ثمرتها، وقرئ: (فنُسِّي) أي فنسَّاه الشيطان، وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال: أقدم على المعصية من غير تأويل وأن يقال: أقدم عليها مع التأويل، والكلام فيه قد تقدم في سورة البقرة.

وأما قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ **ففيه أبحاث:**

البحث الأول: الوجود يجوز أن يكون بمعنى العلم، ومنه ولم نجد له عزمًا، وأن يكون

نقيض العدم كأنه قال: وعدمنا له عزمًا.

البحث الثاني: العزم هو التصميم والتصلب، ثم قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ يحتمل: ولم نجد له عزمًا على القيام على المعصية. فيكون إلى المدح أقرب، ويحتمل أن يكون المراد ولم نجد له عزمًا على ترك المعصية أو لم نجد له عزمًا على التحفظ والاحتراز عن الغفلة، أو لم نجد له عزمًا على الاحتياط في كيفية الاجتهاد إذا قلنا: إنه عليه السلام إنما أخطأ بالاجتهاد.

وأما قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ فهذا يشتمل على مسائل: إحداها: أن المأمورين كل الملائكة أو بعضهم. وثانيتها: أنه ما معنى السجود. وثالثتها: أن إبليس هل كان من الملائكة أم لا؟ وإن لم يكن فكيف صح الاستثناء وبأي شيء صار مأمورًا بالسجود؟ ورابعتها: أن هذا يدل على أن آدم أفضل من محمد ﷺ أم لا؟ وخامستها: أن قوله في صفة إبليس أنه أبى كيف لزم الكفر من ذلك الإباء وأنه هل كان كافرًا ابتداء أو كفر بسبب ذلك؟ واعلم أن هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة.

أما قوله: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ **ففيه سؤالات: الأول**: ما سبب تلك العداوة؟ الجواب من وجوه: أحدها: أن إبليس كان حسودًا، فلما رأى آثار نعم الله تعالى في حق آدم عليه السلام حسده فصار عدوًّا له. وثانيها: أن آدم كان شابًّا عالمًا، لقوله ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[البقرة: ٣١]، وإبليس كان شيخًا جاهلًا لأنه أثبت فضله بفضيلة أصله وذلك جهل، والشيخ الجاهل أبدًا يكون عدوًّا للشاب العالم. وثالثها: أن إبليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب، فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة.

السؤال الثاني: لمَ قال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ مع أن المُخرِج لهما من الجنة هو الله تعالى؟ **الجواب**: لما كان بوسوسته هو الذي فعل ما ترتب عليه الخروج صح ذلك.

السؤال الثالث: لمَ أسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما في الفعل؟ الجواب من وجهين: أحدهما: أن في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم، كما أن في ضمن سعادته سعادتهم، فاختص الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة. الثاني: أريد بالشقاء التعب في طلب القوت، وذلك على الرجل دون المرأة، وروي أنه أُهبط إلى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه.

أما قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ **ففيه مسائل**:

المسألة الأولى: قرئ (وإنك) بالفتح والكسر، ووجه الفتح العطف على (أن لا تجوع فيها)، فإن قيل: (أن) لا تدخل على (أن) فلا يقال (أن أن زيدًا منطلق) والواو نائبة عن (أن) وقائمة مقامها فلمَ أدخلت عليها؟ قلنا: الواو لم توضع لتكون أبدًا نائبة عن (أن)، إنما هي نائبة عن كل عامل، فلما لم تكن حرفًا موضوعًا للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما، كما امتنع اجتماع (أن) و(أن).

المسألة الثانية: الشبع والري والكسوة والاكتنان في الظل هي الأقطاب التي يدور عليها أمر الإنسان، فذكر الله تعالى حصول هذه الأشياء له في الجنة من غير حاجة إلى الكسب والطلب، وذكرها بلفظ النفي لأضدادها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحى؛ ليطرق سمعه شيئًا من أصناف الشقوة التي حذره منها حتى يبالغ في الاحتراز عن السبب الذي يوقعه فيها، وهذه الأشياء كلها كأنها تفسير الشقاء المذكور في قوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

واعلم أنه سبحانه بَيَّن أنه عظَّم آدم عليه السلام بأن جعله مسجودًا للملائكة، وبَيَّن أنه عَرَّفه شدة عداوة إبليس له ولزوجه، وأنه لعداوته يدعوهم إلى المعصية التي إذا وقعت زالت تلك النعم بأسرها، ثم إنه مع ذلك اتفق منه ومن حواء الإقدام على الزلة ما اتفق، والعجب ما روي عن أبي أمامة الباهلي قال: (لو أن أحلام بني آدم إلى قيام الساعة وُضعت في كفة ميزان ووُضع حلم آدم في الأخرى، لرجح حلمه بأحلامهم) ولكن المكادحة مع قضاء الله تعالى ممتنعة.

واعلم أن واقعة آدم عجيبة وذلك لأن الله تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٧-١١٩] ورغبه إبليس أيضًا في دوام الراحة بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ وفي انتظام المعيشة بقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه، هو الذي رغبه إبليس فيه إلا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة، وإبليس وقفه على الإقدام عليها، ثم إن آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه، أعلمه بأن إبليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعَرَّض نفسه للعنة بسبب عداوته، كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربي؟! ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الأمر أن هذه القصة كالتنبيه على أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه، وأن الدليل وإن كان في غاية الظهور ونهاية القوة فإنه لا يحصل النفع به إلا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدره.

وأما قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فقد تقدم في سورة البقرة أنه كيف وسوس، وبماذا وسوس. **فإن قيل**: كيف عدى وسوس تارة باللام في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[الأعراف: ٢٠] وأخرى بإلى؟ قلنا: قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾[الأعراف: ٢٠] معناه لأجله وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ معناه أنهى إليه الوسوسة، كقوله حدث له وأَسَرَّ إليه. ثم بَيَّن أن تلك الوسوسة كانت بتطميعه في أمرين:

أحدهما: قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود؛ لأن من أكل منها صار مخلدًا بزعمه.

الثاني: قوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي مَن أكل من هذه الشجرة دام مُلكه؟ قال القاضي: ليس في الظاهر أن آدم قبل ذلك منه بل لو وُجدت هذه الوسوسة حال كون آدم عليه السلام نبيًا لاستحال أن يكون آدم عليه السلام قَبِل ذلك منه؛ لأنه لا بد وأن تحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت، وبالمعنى فآدم لما كان نبيًا امتنع أن لا يعلم ذلك.

قلنا: لا نُسلِّم بأنه لا بد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة، ولمَ لا يجوز أن يقال: لا حاجة إلى الفترة أصلاً؟ وإن كان ولا بد فيكفي حصول الفترة بغشي أو نوم خفيف. ثم إن كان ولا بد من حصول الفترة بالموت فلمَ قلت: النبي لا بد وأن يعلم ذلك؟ أليس قوم منكم يقولون: إن موسى عليه السلام إنما سأل الرؤية لأنه ما كان يعرف امتناعها على الله تعالى. فإذا جاز ذلك الجهل فلمَ لا يجوز هذا الجهل؟ ثم ما الدليل على أن آدم كان نبيًا في ذلك الوقت؟ فإن مذهبنا أن واقعة الزلة إنما حصلت قبل رسالته لا بعدها، ثم إن الذي يدل على أن آدم عليه السلام قَبِل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾، وهذا الترتيب مُشعر بالعِلية كقولهم: (زَنَى مَاعِزٌ فَرُجِمَ) (وَسَهَا رَسُولُ اللَّه فَسَجَدَ) فإن هذه الفاء تدل على أن الرجم كالمسبب للزنا والسجود كالمسبب للسهو، فكذلك ههنا يجب أن يكون الأكل كالمعلل باستماع قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ وإنما يحصل هذا التعليل لو قَبِل آدم ذلك منه، فإنه لو رد قوله لما أقدم على الأكل بناء على قوله، فثبت أن آدم عليه السلام قبِل ذلك من إبليس.

ثم إنه سبحانه بيَّن أنهما لما أكلا بدت لهما سوآتهما، قال ابن عباس: عريا من النور الذي كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما، وإنما جمع فقيل سوآتهما كما قال: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] فإن قيل: هل كان ظهور سوآتهما كالجزاء على معصيتهما؟ قلنا: لا شك أن ذلك كالمعلق على ذلك الأكل، لكن يحتمل أن لا يكون عقابًا عليه، بل إنما ترتب عليه لمصلحة أخرى.

أما قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ **ففيه أبحاث:**

البحث الأول: قال صاحب (الكشاف): (طفق يفعل كذا) مثل جعل يفعل وأخذ وأنشأ، وحكمها حكم (كاد) في وقوع الخبر فعلاً مضارعًا وبينها وبينه مسافة قصيرة، وهي للشروع في أول الأمر، (وكاد) لمقاربته والدنو منه.

البحث الثاني: قرئ ﴿يَخْصِفَانِ﴾ للتكثير والتكرير من خصف النعل، وهو أن يخرز عليها الخصاف، أي يلزقان الورقة على سوآتهما للستر وهو ورق التين.

أما قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ فمن الناس من تمسك بهذا في صدور الكبيرة عنه من وجهين:

الأول: أن العاصي اسم للذم فلا ينطلق إلا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾[النساء: ١٤] ولا معنى لصاحب الكبيرة إلا مَن فعل فعلاً يعاقب عليه.

والوجه الثاني: أن الغواية والضلالة اسمان مترادفان، والغي ضد الرشد، ومثل هذا الاسم لا يتناول إلا الفاسق المنهمك في فسقه.

أجاب قوم عن الكلام الأول فقالوا: المعصية مخالفة الأمر، والأمر قد يكون بالواجب والندب فإنهم يقولون: أشرت عليه في أمر ولده في كذا فعصاني، وأمرته بشرب الدواء فعصاني، وإذا كان الأمر كذلك لم يمتنع إطلاق اسم العصيان على آدم لا لكونه تاركًا للواجب بل لكونه تاركًا للمندوب. فأجاب المستدل عن هذا الاعتراض بأنا بينا أن ظاهر القرآن يدل على أن العاصي مستحق للعقاب، والعُرف يدل على أنه اسم ذم فوجب تخصيص اسم العاصي بتارك الواجب، ولأنه لو كان تارك المندوب عاصيًا لوجب وصف الأنبياء بأسرهم بأنهم عصاة في كل حال؛ لأنهم لا ينفكون من ترك المندوب، **فإن قيل:** وَصْف تارك المندوب بأنه عاصٍ مجاز والمجاز لا يَطّرد. **قلنا:** لما سلمت كونه مجازًا فالأصل عدمه، أما قوله: أشرت عليه في أمر ولده في كذا فعصاني وأمرته بشرب الدواء فعصاني قلنا: لا نُسلِّم أن هذا الاستعمال مروي عن العرب، ولئن سلمنا ذلك، ولكنهم إنما يطلقون ذلك إذا جزموا على المستشير بأنه لا بد وأن يفعل ذلك الفعل وأنه لا يجوز الإخلال بذلك الفعل، وحينئذٍ يكون معنى الإيجاب حاصلاً وإن لم يكن الوجوب حاصلاً، وذلك يدل على أن لفظ العصيان لا يجوز إطلاقه إلا عند تحقق الإيجاب، لكنا أجمعنا على أن الإيجاب من الله تعالى يقتضي الوجوب، فيلزم أن يكون إطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام إنما كان لكونه تاركًا للواجب.

ومن الناس من سَلَّم أن الآية تدل على صدور المعصية منه، لكنه زعم أن المعصية كانت من الصغائر لا من الكبائر، وهذا قول عامة المعتزلة، وهو أيضًا ضعيف؛ لأنا بينا أن اسم العاصي اسم للذم، ولأن ظاهر القرآن يدل على أنه يستحق العقاب وذلك لا يليق بالصغيرة، وأجاب أبو مسلم الأصفهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف، وكذلك القول في (غوى)، وهذا أيضًا بعيد لأن مصالح الدنيا تكون مباحة، ومن يفعلها لا يوصف بالعصيان الذي هو اسم للذم ولا يقال: (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ).

وأما التمسك بقوله تعالى: ﴿فَغَوَىٰ﴾ **فأجابوا عنه من وجوه:**

أحدها: أنه خاب من نعيم الجنة، وذلك لأنه لما أكل من تلك الشجرة ليصير مُلكه دائمًا، ثم لما أكل زال فلما خاب سعيه وما نجح قيل إنه غوى، وتحقيقه أن الغي ضد الرشد، والرشد هو أن يتوصل بشيء إلى شيء يوصل إلى المقصود، فمن توصل بشيء إلى شيء فحصل له ضد مقصوده كان ذلك غيًّا. **وثانيها:** قال بعضهم: غوى أي بشم من كثرة الأكل. قال صاحب

(الكشاف): هذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسورة ما قبلها ألفًا، فيقول في فنى وبقى فنا وبقا، وهم بنو طئ فهو تفسير خبيث.

واعلم أن الأَوْلى عندي في هذا الباب والأحسم للشغب أن يقال: هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك في سورة البقرة، وههنا بحث لا بد منه وهو أن ظاهر القرآن وإن دل على أن آدم عصى وغوى، لكن ليس لأحد أن يقول: (إن آدم كان عاصيًا غاويًا) ويدل على صحة قولنا أمور: **أحدها:** قال العتبي: يقال لرجل قطع ثوبًا وخاطه (قد قطعه وخاطه) ولا يقال: خائط ولا خياط حتى يكون معاودًا لذلك الفعل معروفًا به، ومعلوم أن هذه الزلة لم تصدر عن آدم عليه السلام إلا مرة واحدة، فوجب أن لا يجوز إطلاق هذا الاسم عليه. **وثانيها:** أن على تقدير أن تكون هذه الواقعة إنما وقعت قبل النبوة، لم يجز بعد أن قبل الله توبته وشرَّفه بالرسالة والنبوة - إطلاق هذا الاسم عليه، كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر (إنه كافر) بمعنى أنه كان كافرًا، بل وبتقدير أن يقال: هذه الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز أيضًا أن يقال ذلك لأنه عليه السلام تاب عنها، كما أن الرجل المسلم إذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته، لا يقال له بعد ذلك (إنه شارب خمر أو زانٍ) فكذا ههنا. **وثالثها:** أن قولنا: عاصٍ وغاوٍ يوهم كونه عاصيًا في أكثر الأشياء وغاويًا عن معرفة الله تعالى، ولم ترد هاتان اللفظتان في القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التي عصى فيها، فكأنه قال: عصى في كيت وكيت، وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذي ذكرناه. **ورابعها:** أنه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره، كما يجوز للسيد في عبيده وولده عند معصيته من إطلاق القول ما لا يجوز لغير السيد في عبده وولده.

أما قوله: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ فالمعنى: ثم اصطفاه فتاب عليه، أي عاد عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده حتى رجع إلى الندم والاستغفار وقبل الله منه ذلك، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لَوْ جُمِعَ بُكَاءُ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَى بُكَاءِ دَاوُدَ كَانَ بُكَاؤُهُ أَكْثَرَ، وَلَوْ جُمِعَ كُلُّ ذَلِكَ إِلَى بُكَاءِ نُوحٍ لَكَانَ بُكَاءُ نُوحٍ أَكْثَرَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ نُوحًا لِنَوْحِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَوْ جُمِعَ كُلُّ ذَلِكَ إِلَى بُكَاءِ آدَمَ لَكَانَ بُكَاءُ آدَمَ عَلَى خَطِيئَتِهِ أَكْثَرَ» وقال وهب: إنه لما كثر بكاؤه أوحى الله تعالى إليه وأمَره بأن يقول: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لِي إِنَّكَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ» فقالها آدم عليه السلام ثم قال: «قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» ثم قال: «قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ، عَمِلْتُ سُوءًا وَظَلَمْتُ نَفْسِي، فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الكلمات هي التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ

مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

اعلم أن على أول هذه الآية سؤالاً وهو أن قوله: ﴿ ٱهْبِطَا﴾ إما أن يكون خطابًا مع شخصين أو أكثر، فإن كان خطابًا لشخصين فكيف قال بعده: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ وهو خطاب الجمع؟ وإن كان خطابًا لأكثر من شخصين فكيف قال: ﴿ ٱهْبِطَا﴾؟ وذكروا في جوابه وجوهًا: أحدها:قال أبو مسلم: الخطاب لآدم ومعه ذريته ولإبليس ومعه ذريته، فلكونهما جنسين صح قوله: ﴿ ٱهْبِطَا﴾ ولأجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ قال صاحب (الكشاف): لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر والسبب اللذين منهما تفرعوا، جُعلا كأنهما البشر أنفسهم فخوطبا مخاطبتهم فقال: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ على لفظ الجماعة، أما قوله: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فقال القاضي: يكفي في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون إبليس والشياطين أعداء للناس والناس أعداء لهم، فإذا انضاف إلى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام، وقوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ فيه دلالة على أن المراد الذرية، وقد اختلفوا في المراد بالهدى: فقال بعضهم: الرسل وبعضهم قال: الآخر والأدلة وبعضهم قال القرآن. والتحقيق أن الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك. وفي قوله: ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ دلالة على أن المراد بالهدى الذي ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الأدلة، واتباعها لا يتكامل إلا بأن يستدل بها وبأن يعمل بها، ومَن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضل ولا يشقى، وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. وثانيها: لا يضل ولا يشقى في الآخرة لأنه تعالى يهديه إلى الجنة ويمكنه فيها. وثالثها: لا يضل ولا يشقى في الدنيا. فإن قيل: المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء في الدنيا. قلنا: المراد لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين، فإن حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس.

ولما وعد الله تعالى من يتبع الهدى أتبعه بالوعيد فيمن أعرض فقال: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ما تقدم بيانه، ويحتمل أن يراد به الأدلة، وقوله: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ فالضنك أصله الضيق والشدة، وهو مصدر ثم يوصف به فيقال: منزل ضنك، وعيش ضنك، فكأنه قال: معيشة ذات ضنك، واعلم أن هذا الضيق المتوعد به إما أن يكون في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين أو في كل ذلك أو أكثره: أما الأول: فقال به جمع من المفسرين، وذلك لأن المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشًا طيبًا، كما قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]والكافر بالله يكون حريصًا على الدنيا طالبًا للزيادة أبدًا، فعيشته ضنك وحالته مظلمة، وأيضًا فمن الكفرة من ضرب الله عليه

الذلة والمسكنة لكفره، قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] وقال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠- ١٢] وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝﴾ [الجن: ١٦]. وأما الثاني: وهو عذاب القبر، فهذا قول عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس ورفعه أبو هريرة إلى النبي ﷺ قال: «إِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ لِلْكَافِرِ قَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُسَلَّطُ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ تِنِّينًا»(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآية في الأسود بن عبد العزى المخزومي والمراد ضغطة القبر تختلف فيها أضلاعه. وأما الثالث: وهو الضيق في الآخرة في جهنم، فإن طعامهم فيها الضريع والزقوم، وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون. وهذا قول الحسن وقتادة والكلبي. وأما الرابع: وهو الضيق في أحوال الدين فقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعيشة الضنك هي أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها. سئل الشبلي عن قوله عليه السلام: «إِذَا رَأَيْتُمْ أَهْلَ الْبَلَاءِ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ»(٢) فقال: أهل البلاء هم أهل الغفلات عن الله تعالى فعقوبتهم أن يردهم الله تعالى إلى أنفسهم، وأي معيشة أضيق وأشد من أن يُرد الإنسان إلى نفسه؟! وعن عطاء قال: المعيشة الضنك هي معيشة الكافر لأنه غير موقن بالثواب والعقاب. وأما الخامس: وهو أن يكون المراد الضيق في كل ذلك أو أكثره، فروي عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: «عُقُوبَةُ الْمَعْصِيَةِ ثَلَاثَةٌ: ضِيقُ الْمَعِيشَةِ، وَالْعُسْرُ فِي الشِّدَّةِ، وَأَنْ لَا يَتَوَصَّلَ إِلَى قُوَّتِهِ إِلَّا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى»(٣).

أما قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ ففيه وجوه: أحدها: هذا مثل قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] وكما فسرت الزرقة بالعمى، ثم قيل: إنه يُحشر بصيرًا فإذا سيق إلى المحشر عَمِي، والكلام فيه وعليه قد تقدم في قوله: ﴿زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في كتاب (صفة القيامة) باب (٢٦) (٤/ ٥٥١) حديث رقم/ ٣٤٦٠ من طريق عطية... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأحمد في (مسنده) (٣/ ٣٨) من طريق أبي الهيثم... به. كلاهما عن أبي سعيد الخدري... به. والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (في شدة عذاب أهل النار) (٢/ ٢١٨) حديث رقم/ ٢٨١٥ من طريق عبد الله بن يزيد... به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٣/ ٥٥) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى موقوفًا، وفيه دراج وفيه كلام وقد وثق، ودراج قال الحافظ: صدوق في حديثه عن أبي الهيثم ضعف (قلت) يعني (ضعيف في غيره) وأبو الهيثم مقبول. والآجري في (الشريعة) (٢/ ٤٢٧) حديث رقم/ ٨٣٣ من طريق سعيد بن أبي ايوب قال: سمعت دراجًا ابا السمح يقول: سمعت أبا الهيثم يقول: سمعت أبا سعيد الخدري... به.

(٢) لم أجده.

(٣) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

وثانيها: قال مجاهد والضحاك ومقاتل: يعني أعمى عن الحجة. وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال القاضي: هذا القول ضعيف لأن في القيامة لا بد أن يعلمهم الله تعالى بطلان ما كانوا عليه حتى يتميز لهم الحق من الباطل، ومَن هذا حاله لا يوصف بذلك إلا مجازًا، والمراد به أنه كان من قبل ذلك كذلك، ولا يليق بهذا قوله: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ ولم يكن كذلك في حال الدنيا. أقول: ومما يؤكد هذا الاعتراض أنه تعالى علل ذلك العمى بما أن المكلف نسي الدلائل في الدنيا، فلو كان العمى الحاصل في الآخرة بين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر، كما أنه ما كان له في الدنيا بسبب ذلك ضرر، واعلم أن تحقيق الجواب عن هذا الاعتراض مأخوذ من أمر آخر، وهو أن الأرواح الجاهلة في الدنيا المفارقة عن أبدانها على جهالتها - تبقى على تلك الجهالة في الآخرة، وأن تلك الجهالة تصير هناك سببًا لأعظم الآلام الروحانية. وبين هذه الطريقة وبين طريقة القاضي المبنية على أصول الاعتزال بون شديد. **وثالثها:** قال الجبائي: المراد من حشره أعمى أنه لا يهتدي يوم القيامة إلى طريق ينال منه خيرًا، بل يبقى واقفًا متحيرًا كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء.

أما قوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ ففي تقرير هذا الجواب وجهان: أحدهما: أنه تعالى إنما أنزل به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهدى والإعراض عنه. والثاني: هو أن الأرواح البشرية إذا فارقت أبدانها جاهلة ضالة عن الاتصال بالروحانيات، بقيت على تلك الحالة بعد المفارقة وعظمت الآلام الروحانية؛ فلهذا علل الله تعالى حصول العمى في الآخرة بالإعراض عن الدلائل في الدنيا، ومن فسر المعيشة الضنك بالضيق في الدنيا، قال: إنه تعالى بَيَّن أن من أعرض عن ذكره في الدنيا فله المعيشة الضنك في الدنيا والعمى في الآخرة. أما قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ فقد اختلفوا فيه: فبعضهم قال: أشرك وكفر. وبعضهم قال: أسرف في أن عصى الله. وقد بَيَّن تعالى المراد بذلك بقوله: ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ لأن ذلك كالتفسير لقوله: (أسرف) وبَيَّن أنه يجزي مَن هذا حاله بما تقدم ذكره من المعيشة الضنك والعمى، وبَيَّن بعد ذلك أن ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أما الأشد فلِعظمه، وأما الأبقى فلأنه غير منقطع.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بَيَّن أن من أعرض عن ذكره كيف يُحشر يوم القيامة، أتبعه بما يعتبر [به] المكلف من الأحوال الواقعة في الدنيا بمن كذب الرسل فقال: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ والقراءة العامة

(أفلم يهد) بالياء المعجمة من تحت وفاعله هو قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ قال القفال: جعل كثرة ما أهلك من القرون مبينًا لهم، كما جعل مثل ذلك واعظًا لهم وزاجرًا. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي (أفلم نهد لهم) بالنون، قال الزجاج: يعني أفلم نبين لهم بيانًا يهتدون به لو تدبروا وتفكروا؟! وأما قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ فالمراد به المبالغة في كثرة من أهلكه الله تعالى من القرون الماضية. وأراد بقوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أن قريشًا يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم، وما حل بهم من ضروب الهلاك، وللمشاهدة في ذلك من الاعتبار ما ليس لغيره، وبيَّن أن في تلك الآيات آيات لأُولي النهى، أي لأهل العقول، والأقرب أن للنهية مزية على العقل، والنهى لا يقال إلا فيمن له عقل ينتهي به عن القبائح، كما أن لقولنا: (أولو العزم) مزية على (أولو الحزم) فلذلك قال بعضهم: أهل الورع وأهل التقوى. ثم بيَّن تعالى الوجه الذي لأجله لا ينزل العذاب معجلاً على من كذب وكفر بمحمد ﷺ فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ وفيه تقديم وتأخير، والتقدير: (ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزامًا) ولا شبهة في أن الكلمة هي إخبار الله تعالى ملائكته وكتبه في اللوح المحفوظ - أن أمته عليه السلام وإن كذبوا فسيؤخرون ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال، واختلفوا فيما لأجله لم يفعل ذلك بأمة محمد ﷺ: قال بعضهم: لأنه علم أن فيهم من يؤمن. وقال آخرون: علم أن في نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب لعمهم الهلاك. وقال آخرون: المصلحة فيه خفية لا يعلمها إلا هو. وقال أهل السنة: له بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة؛ إذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة إن كانت قديمة لزم قِدم الفعل، وإن كانت حادثة افتقرت إلى علة أخرى ولزم التسلسل؛ فلهذا قال أهل التحقيق: كل شيء صنيعه لا لعلة.

وأما الأجل المسمى ففيه قولان: أحدهما: ولولا أجل مسمى في الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر. **والثاني:** ولولا أجل مسمى في الآخرة لذلك العذب وهو أقرب، ويكون المراد (ولولا كلمة سبقت تتضمن تأخير العذاب إلى الآخرة) كقوله: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[القمر: ٤٦] لكان العقاب لازمًا لهم فيما يُقْدمون عليه من تكذيب الرسول وأذيتهم له، ثم إنه تعالى لما أخبر نبيه بأنه لا يهلك أحدًا قبل استيفاء أجله، أمَره بالصبر على ما يقولون، ولا شبهة في أن المراد أن يصبر على ما يكرهه من أقوالهم، فيحتمل أن يكون ذلك قول بعضهم: إنه ساحر أو مجنون أو شاعر... إلى غير ذلك، ويحتمل أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة، ويحتمل أيضًا تركهم القبول منه؛ لأن كل ذلك مما يغمه ويؤذيه، فرغَّبه تعالى في الصبر وبعثه على الإدامة على الدعاء إلى الله تعالى وإبلاغ ما حُمل من الرسالة، وأن لا يكون ما يُقْدمون عليه صارفًا له عن ذلك، ثم قال الكلبي ومقاتل: هذه الآية منسوخة بآية القتال.

ثم قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وهو نظير قوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة: ٤٥] **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع الحال، أي: وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه.

المسألة الثانية: إنما أمر عقيب الصبر بالتسبيح؛ لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى.

المسألة الثالثة: اختلفوا في التسبيح على وجهين: فالأكثرون على أن المراد منه الصلاة. وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه: **أحدها:** أن الآية تدل على أن الصلوات الخمس لا أزيد ولا أنقص، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: دخلت الصلوات الخمس فيه: فـ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ هو صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ هو الظهر والعصر لأنهما جميعًا قبل الغروب، ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ المغرب والعشاء الأخيرة، ويكون قوله: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ كالتوكيد للصلاتين الواقعتين في طرفي النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب، كما اختصت في قوله: ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] بالتوكيد. **القول الثاني:** أن الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة، أما دلالتها على الصلوات الخمس فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها، فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين، فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما، بقي قوله: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ وأطراف النهار للنوافل. **القول الثالث:** أنها تدل على أقل من الخمس، فقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ للفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ للعصر، ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ للمغرب والعتمة، فيبقى الظهر خارجًا. والقول الأول أقوى وبالاعتبار أَوْلى، هذا كله إذا حملنا التسبيح على الصلاة، قال أبو مسلم: لا يبعد حمله على التنزيه والإجلال، والمعنى اشتغِل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات. وهذا القول أقرب إلى الظاهر وإلى ما تقدم ذكره؛ وذلك لأنه تعالى صَبَّره أولاً على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر، والذي يليق بذلك أن يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائمًا مُظهرًا لذلك وداعيًا إليه؛ فلذلك قال ما يجمع كل الأوقات.

المسألة الرابعة: أفضل الذكر ما كان بالليل؛ لأن الجمعية فيه أكثر، وذلك لسكون الناس وهدء حركاتهم وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الأعمال؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[المزمل: ٦] وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[الزمر: ٩] ولأن الليل وقت السكون والراحة، فإذا صُرف إلى العبادة كانت على الأنفس أشق وللبدن أتعب، فكانت أدخل في استحقاق الأجر والفضل.

المسألة الخامسة: لقائل أن يقول: النهار له طرفان، فكيف قال: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ بل الأولى أن يقول كما قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾[هود: ١١٤]؟ **وجوابه:** من الناس من قال: أقل الجمع اثنان فسقط السؤال، ومنهم من قال: إنما جمع لأنه يتكرر في كل نهار ويعود.

أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ **ففيه وجوه: أحدها:** أن هذا كما يقول الملك الكبير: (يا فلان

اشتغل بالخدمة فلعلك تنتفع به) ويكون المراد إني أوصلك إلى درجة عالية في النعمة، وهو إشارة إلى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، **وثانيها:** لعلك ترضى ما تنال من الثواب. **وثالثها:** لعلك ترضى ما تنال من الشفاعة. وقرأ الكسائي وعاصم: (لَعَلَّكَ تُرْضَى) بضم التاء، والمعنى لا يختلف؛ لأن الله تعالى إذا أرضاه فقد رضيه، وإذا رضيه فقد أرضاه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما صَبَّر رسوله عليه السلام على ما يقولون، وأمره بأن يعدل إلى التسبيح، أتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه إلى ما متع به القوم، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ وجهان: **أحدهما:** المراد منه نظر العين. وهؤلاء قالوا: مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانًا للمنظور إليه إعجابًا به، كما فعل نظارة قارون حيث قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩] حتى واجههم أولو العلم والإيمان بقولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٨٠] وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه، وذلك كما إذا نظر الإنسان إلى شيء مرة ثم غض، ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز في الطباع قيل: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تفعل ما أنت معتاد له. ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظَّلَمة وعدد الفسقة في اللباس والمركوب وغير ذلك؛ لأنهم اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة، فالناظر إليها محصل لغرضهم وكالمقوي لهم على اتخاذها. **القول الثاني:** قال أبو مسلم: الذي نهى عنه بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ليس هو النظر، بل هو الأسف أي لا تأسف، على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا.

المسألة الثانية: قال أبو رافع: (نَزَلَ ضَيْفٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَبَعَثَنِي إِلَى يَهُودِيٍّ لِبَيْعٍ أَوْ سَلَفٍ، فَقَالَ: واللَّه لاَ أَفْعَلُ ذَلِكَ إِلاَّ بِرَهْنٍ. فَأَخْبَرْتُهُ بِقَوْلِهِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَذْهَبَ بِدِرْعِهِ إِلَيْهِ فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾)(١) وقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّه لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلاَ إِلَى أَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه البزار في (مسنده) (٥/ ٢٨٥) حديث رقم/ ٣٨٦٣ والروياني في (مسنده) (٢/ ٣١٢) حديث رقم/٦٧٨ والواحدي في (أسباب النزول) (١/ ٢٠٥) جميعًا من طريق موسى بن عبيدة قال: =

يَنظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَإِلَى أَعْمَالِكُمْ»[١] وقال أبو الدرداء: الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له[٢]. وعن الحسن: لولا حمق الناس لخربت الدنيا. وعن عيسى ابن مريم عليه السلام قال: لا تتخذوا الدنيا ربًّا فتتخذكم لها عبيدًا. وعن عروة بن الزبير أنه كان إذا رآى ما عند السلاطين يتلو هذه الآية، وقال: الصلاة يرحمكم الله.

أما قوله عز وجل: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ أي: ألذذنا به، والإمتاع الإلذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويُسمع من الأصوات المطربة ويُشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح، يقال: أمتعه إمتاعًا ومَتَّعه تمتيعًا، والتفعيل يقتضي التكثير. أما قوله: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي أشكالاً وأشباهًا من الكفار، وهي من المزاوجة بين الأشياء وهي المشاكلة، وذلك لأنهم أشكال في الذهاب عن الصواب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أصنافًا منهم. وقال الكلبي والزجاج: رجالاً منهم.

أما قوله: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ففي انتصابه أربعة أوجه:

أحدها: على الذم وهو النصب على الاختصاص، أو على تضمين (متعنا) معنى أعطينا وكونه مفعولاً ثانيًا له، أو على إبداله من محل الجار والمجرور، أو على إبداله من أزواجًا، على تقدير ذوي. فإن قيل: ما معنى الزهَرة فيمن حرك؟ قلنا: معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة. قرئ: أرنا الله جَهَرة، وأن يكون جمع زاهر وصفًا لهم بأنهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم، بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الألوان والتقشف في الثياب.

أما قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ فذكروا فيه وجوهًا:

أحدها: لنعذبهم به، كقوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥]. **وثانيها:** قال ابن عباس رضي الله عنهما: إضلالاً مني لهم. **وثالثها:** قال الكلبي

=يزيد بن قسيط عن أبي رافع مولى للنبي ﷺ . . . به. رواه الطبراني في (تفسيره) (١٦/ ٢٣٥) من طريق ابن وكيع قال: حدثنا أبي عن موسى بن عبيدة. . . به. والطبراني في (الكبير) (١/ ٣٣١) حديث رقم/ ٩٨٩ من طريق عبد الله بن نمير حدثنا موسى بن عبيدة. . . به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٤/ ١٢٦) وقال: رواه الطبراني في الكبير والبزار، وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف.

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ١٩٨٧/ ٢٥٦٤) وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٨٤) حديث رقم/ ٧٨١٤ كلاهما من طريق يزيد عن أبي هريرة. . . به.

(٢) أورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٤٩٣) حديث رقم/ ١٣١٥ وقال: رواه أحمد بسند رجاله ثقات عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا والمشهور على الألسنة إبدال (ومال من لا مال له) بقوله (ولها يجمع من لا عقل له) وعزاه في الجامع الصغير حصول والبيهقي عن هائشة رضي الله عنها والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا بلفظ (الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له، ولها يجمع من لا عقل له) قال المناوي قال المنذري والعراقي: إسناده جيد. وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال دريد وهو ثقة وذكره ابن حجر المكي في أسنى المطالب، وزاد وعليها (يعادي من لاعلم عنده وعليها).

ومقاتل: تشديدًا في التكليف عليهم لأن الإعراض عن الدنيا عند حضورها والإقبال إلى الله - أشد من ذلك عند عدم حضورها، ولذلك كان رجوع الفقراء إلى خدمة الله تعالى والتضرع إليه أكثر من تضرع الأغنياء، ولأن على من أوتي الدنيا ضروبًا من التكليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف، ولأن القادر على المعاصي يكون الاجتناب عن المعاصي أشق عليه من العاجز الفقير. فمن هذه الجهات تكون الزيادة في الدنيا تشديدًا في التكليف. ثم قال لرسوله: ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ والأظهر أن المراد أن مطلوبك الذي تجده من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى، لأنه يدوم ولا ينقطع، وليس كذلك حال ما أُوتوه من مَن الدنيا. ويحتمل أن يكون المراد ما أوتيته من يسير الدنيا إذا قرنته بالطاعة خير لك من حيث العاقبة وأبقى، فذكر الرزق في الدنيا ووصفه بحسن عاقبته إذا رضي به وصبر عليه. ويحتمل أن يكون المراد ما أُعطي من النبوة والدرجات الرفيعة.

وأما قوله:﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ فمنهم من حمله على أقاربه، ومنهم من حمله على كل أهل دينه، وهذا أقرب، وهو كقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥]وإن احتمل أن يكون المراد من يضمه المسكن إذ التنبيه على الصلاة والأمر بها في أوقاتها ممكن فيهم دون سائر الأمة، يعنى كما أمرناك بالصلاة فامر أنت قومك بها. أما قوله: ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فعلاً، فإن الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول، وكان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية يذهب إلى فاطمة وعلي عليهما السلام كل صباح ويقول: (الصلاة) وكان يفعل ذلك أشهرًا. ثم بَيَّن تعالى أنه إنما يأمرهم بذلك لمنافعهم وأنه متعالٍ عن المنافع بقوله: ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ **وفيه وجوه:**

أحدها:قال أبو مسلم: المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة، ولا يريد منه أن يرزقه، كما تريد السادة من العبيد الخراج، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧]. **وثانيها:**﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك، ففَرِّغ بالك لأمر الآخرة، وفي معناه قول الناس: من كان في عمل الله كان الله في عمله. **وثالثها:**المعنى أنا لما أمرناك بالصلاة، فليس ذلك لأنا ننتفع بصلاتك. فعَبَّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ بل نحن نرزقك في الدنيا بوجوه النعم وفي الآخرة بالثواب، قال عبد الله بن سلام: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺإِذَا نَزَلَ بِأَهْلِهِ ضِيقٌ أَوْ شِدَّةٌ، أَمَرَهُمْ بِالصَّلَاةِ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ) (١) واعلم أنه ليس في الآية رخصة في ترك التكسب لأنه تعالى قال في

---

(١) **إسناده ضعيف**:أخرجه الضياء في (الأحاديث المختارة) (٩/ ٤٥٩) حديث رقم/ ٤٣٤ والطبراني في (الأوسط) (١/ ٢٧٢) حديث رقم/ ٨٨٦ والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ١٥٣) حديث رقم/ ٣١٨٠ جميعًا من طريق عبد الله بن المبارك عن معمر عن محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام... فذكره. والهيثمي في (المجمع) (٧/ ٦٧) وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات. وفي إسناده انقطاع بين محمد بن حمزة بن يوسف وبين جد أبيه.

وصف المتقين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]، أما قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ والعاقبة للتقوى، فالمراد والعاقبة الجميلة لأهل التقوى، يعني تقوى الله تعالى.

ثم إنه سبحانه بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم، فكأنه من تمام قوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠] وهي قولهم: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أوهموا بهذا الكلام أنه يكلفهم الإيمان من غير آية، وقالوا في موضع آخر: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] وأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ وفيه وجوه: أحدها: أن ما في القرآن إذ وافق ما في كتبهم مع أن الرسول ﷺ لم يشتغل بالدراسة والتعلم وما رأى أستاذًا ألبتة، كان ذلك إخبارًا عن الغيب فيكون معجزًا. وثانيها: أن بينة ما في الصحف الأولى ما فيها من البشارة بمحمد ﷺ وبنبوته وبعثته. وثالثها: ذكر ابن جرير والقفال [أن] المعنى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ من أنباء الأمم التي أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة، فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم في سؤال الآيات كحال أولئك؟ وإنما أتاهم هذا البيان في القرآن، فلهذا وصف القرآن بكونه: ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ واعلم أنه إنما ذكَّر الضمير الراجع إلى البينة لأنها في معنى البرهان والدليل، ثم بَيَّن أنه تعالى أزاح لهم كل عذر وعلة في التكليف، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذرًا لهم، فأما الآن وقد أرسلناك وبينا على لسانك لهم ما عليهم وما لهم، فلا حجة لهم ألبتة بل الحجة عليهم.

ومعنى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ يحتمل من قبل إرساله، ويحتمل من قبل، ما أظهره من البينات فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟﴾ [طه: ١٣٤] والهالك لا يصح أن يقول قلنا: المعنى لكان لهم أن يقولوا ذلك يوم القيامة. ولذلك قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ وذلك لا يليق إلا بعذاب الآخرة، روي أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال عليه السلام: «يَحْتَجُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْهَالِكُ فِي الْفَتْرَةِ، يَقُولُ: لَمْ يَأْتِنِي رَسُولٌ وَإِلاَّ كُنْتُ أَطْوَعَ خَلْقِكَ لَكَ - وتلا قوله: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ - وَالْمَغْلُوبُ عَلَى عَقْلِهِ، يَقُولُ: لَمْ تَجْعَلْ لِي عَقْلاً أَنْتَفِعُ بِهِ. وَيَقُولُ الصَّبِيُّ: كُنْتُ صَغِيرًا لاَ أَعْقِلُ. فَتُرْفَعُ لَهُمْ نَارٌ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوهَا. فَيَدْخُلُهَا مَنْ كَانَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ شَقِيٌّ وَيَبْقَى مَنْ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ سَعِيدٌ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ: «عَصَيْتُمُ الْيَوْمَ فَكَيْفَ بِرُسُلِي لَوْ أَتَوْكُمْ؟»[1] والقاضي طعن في الخبر وقال: لا يحسن العقاب على من لا يعقل.

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٨/ ٤٠٧) من طريق فضيل بن مرزوق عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري... به. وابن المبارك في (الزهد) (١/ ٤٦٦) حديث رقم/ ١٣٢٣ من طريق الثقفي قال حدثنا أيوب عن أبي قلابة... به. في إسناد الطبري عطية العوفي وهو ضعيف، وفي إسناد ابن المبارك إرسال أبي قلابة.

واعلم أن في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال الجبائي: هذه الآية تدل على وجوب فعل اللطف؛ إذ المراد أنه يجب أن يفعل بالمكلفين ما يؤمنون عنده، ولو لم يفعل لكان لهم أن يقولوا: هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن؟ وهلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك؟ وإن كان المعلوم أنهم لا يؤمنون ولو بُعث إليهم الرسول لم يكن في ذلك حجة، فصح أنه إنما يكون حجة لهم إذا كان في المعلوم أنهم يؤمنون عنده إذا أطاعوه.

المسألة الثانية: قال الكعبي: قوله: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أوضح دليل على أنه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده، وأنه ليس قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]كما ظنه أهل الجبر من أن ما هو جور منا يكون عدلاً منه، بل تأويله: أنه لا يقع منه إلا العدل، فإذا ثبت أنه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما أُمروا به، لكان لهم فيه أعظم حجة.

المسألة الثالثة: قال أصحابنا: الآية تدل على أن العقاب لا يتحقق إلا بالشرع، إذ لو تحقق العقاب قبل مجيء الشرع لكان العقاب حاصلاً قبل مجيء الشرع.

ثم إنه سبحانه ختم السورة بضربٍ من الوعيد فقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي كل منا ومنكم منتظر عاقبة أمره، وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت، إما بسبب الأمر بالجهاد أو بسبب ظهور الدولة والقوة، ويحتمل أن يكون بالموت فإن كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه، ويحتمل أن يكون بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب، فإنه يتميز في الآخرة المُحق من المبطل بما يظهر على المُحق من أنواع كرامة الله تعالى، وعلى المبطل من أنواع إهانته ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عند ذلك ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إليه، وليس هو بمعنى الشك والترديد، بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار، والله أعلم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة طه

سورة طه مكيةٌ[(١)] في قول الجميع، نَزلت قبلَ إسلامِ عمر ﷺ. روى الدارقطنيُّ في «سننه»، عن أنس بن مالك ﷺ، قال: خرَج عمر متقلِّداً السيفَ، فقيل له: إن خَتَنَك وأختَك قد صَبُؤَا[(٢)]، فأتاهما عمر وعندهما رجُلٌ من المهاجرين يقال له: خَبَّابٌ، وكانوا يقرؤون «طه»، فقال: أعطوني الكتابَ الذي عندكم فأقرأه ـ وكان عمرُ ﷺ يقرأ الكتبَ ـ فقالت له أختُه: إنك رِجْس، ولا يَمَسُّه إلا المطهَّرون، فَقُمْ فاغتسل، أو توضَّأ. فقام عمر ﷺ فتوضأ، ثم أخذ الكتابَ[(٣)] فقرأ: «طه»[(٤)].

وذكره ابن إسحاق مطوَّلاً: وأن عمر خرج متوشِّحاً سيفَه يريد رسولَ الله ﷺ وقَتْلَه، فلقيه نُعيم بن عبد الله، فقال: أين تريد يا عمرُ؟ قال: أُريدُ محمداً هذا الصابئ الذي فرَّق أمرَ قريش، وسفَّه أحلامَها، وعابَ دينَها، وسبَّ آلهتَها فأقتله. فقال له نُعيم: واللهِ، لقد غرَّتك نفسُك من نفسك يا عمر، أترى بَني عبد مَناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلتَ محمداً؟! أفلا ترجعُ إلى أهلك[(٥)] فتُقيمَ أمرَهم؟!. فقال: وأيّ أهل بيتي؟. قال: خَتَنُك وابنُ عمِّك سعيد بن زيد، وأختُك

---

(١) المحرر الوجيز ٣٦/٤ ، وزاد المسير ٢٦٨/٥ .

(٢) صبأ، كمنَعَ وكَرُمَ: خرج من دين إلى دين آخر. القاموس المحيط (صبأ).

(٣) في (د) و(م): وتوضأ وأخذ الكتاب، وفي (ظ): فتوضأ واغتسل ثم أخذ الكتاب، والمثبت من (خ) و(ز)، وهو الموافق لسنن الدارقطني.

(٤) سنن الدارقطني (٤٤١)، وقد تفرَّد براويته القاسم بن عثمان، وسيرد الكلام عليه في الرواية المطولة الآتية.

(٥) في السيرة النبوية: أهل بيتك.

فاطمة بنت الخطّاب، فقد واللهِ أسلَما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. قال: فرجَع عمر عامداً إلى أخته وخَتَنِه، وعندهما خبَّاب بنُ الأرَتّ معه صحيفةٌ فيها «طه» يُقرِئهما إياها، فلما سمعوا حِسَّ عمر تغيَّب خَبَّابٌ في مَخدَعٍ لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنتُ الخطاب الصحيفةَ فجعلتها تحت فخِذِها، وقد سمعَ عمرُ حين دنا إلى البيت قراءةَ خبَّاب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمةُ(١) التي سمعتُ؟ قالا له: ما سمعتَ شيئاً. قال: بلى، واللهِ لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بختَنه سعيد بنِ زيد، فقامت إليه أُخته فاطمةُ بنت الخطاب لِتَكُفَّه عن زوجها، فضربها فشجَّها. فلما فعل ذلك قالت له أخته وختَنُه: نعم، قد أسلمنا وآمنَّا بالله ورسوله، فاصنَعْ ما بدا لك. ولما رأى عمر ما بأخته من الدم نَدِمَ على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أَعطيني هذه الصحيفةَ التي سمعتُكم تقرؤونها آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمدٌ ـ وكان عمر كاتباً ـ فلما قال ذلك قالت له أخته: إنَّا نخشاك عليها. قال لها: لا تخافي. وحلَف لها بآلهته لَيردَّنَّها إذا قرأها، فلما قال ذلك طَمِعتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نَجِسٌ على شِركك، وإنه لا يَمَسُّها إلا الطاهر. فقام عمر فاغتسَل، فأعطته الصحيفةَ وفيها «طه»، فقرأها، فلمَّا قرأ منها صدراً قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمَه! فلما سمع ذلك خَبَّابٌ خرَج إليه، فقال له: يا عمر، واللهِ إني لَأرجو أن يكون اللهُ قد خصَّك بدعوة نبيِّه، فإني سمعتُه أمسِ وهو يقول: «اللهم أيِّدِ الإسلامَ بأبي الحَكَم بنِ هشام، أو بعمرَ بنِ الخطاب». فاللهَ اللهَ يا عمر. فقال له عند ذلك: فدُلَّني يا خبَّاب على محمدٍ حتى آتيَه فأُسلم؛ وذكر الحديث(٢).

---

(١) أي: الصوت الخفي. القاموس (هنم).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٣٤٣ - ٣٤٥، وأخرج الخبر بطوله ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٦٧ - ٢٦٨، والبيهقي في الدلائل ٢/ ٢١٩. وفي إسناده القاسم بن عثمان البصري، قال البخاري: له أحاديث لا يتابع عليها، وقال الذهبي في الميزان ٣/ ٣٧٥: حدّث عنه إسحاق الأزرق بمتن محفوظ وبقصة إسلام عمر، وهي منكرة جداً. اهـ. وقوله: «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب» أخرجه بنحوه أحمد (٥٦٩٦)، والترمذي (٣٦٨١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأخرج أحمد (٤٣٦٢) ضمن حديث لابن مسعود يذكر فيه فضائل عمر رضي الله عنهما قوله ﷺ: «اللهم أيِّد الإسلام بعمر».

مسألة: أسند الدارميُّ أبو محمد في «مسنده» عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و«يس» قبل أن يخلُقَ السماواتِ والأرضَ بألفي عام، فلمَّا سمعت الملائكةُ القرآنَ قالت: طُوبى لأمةٍ ينزِلُ هذا عليها، وطوبى لأجوافٍ تحملُ هذا، وطوبى لألسنةٍ تتكلَّمُ بهذا»(١).

قال ابن فُورَك(٢) معنى قوله: «إن الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و«يس»»، أي: أظهَرَ وأسمَعَ وأفهمَ كلامَه مَن أراد مِن خلقه مِن الملائكة في ذلك الوقت، والعربُ تقول: قرأتُ الشيءَ: إذا تتبَّعته، وتقول: ما قرأتْ هذه الناقةُ في رَحِمها سَلًى(٣) قطُّ، أي: ما ظهرَ فيها ولدٌ. فعلى هذا يكون الكلام سائغاً، وقراءته: إسماعُه وإفهامه بعباراتٍ يَخلقها وكتابةٍ يُحدثها، وهي معنى قولِنا: قرأنا كلامَ الله، ومعنى قوله: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

ومن أصحابنا من قال: معنى قوله: «قرأ» أي: تكلَّم به، وذلك مجازٌ كقولهم: ذُقتُ هذا الأمرَ(٤) ذواقاً بمعنى اختبرته. ومنه قوله: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢] أي: ابتلاهم اللهُ تعالى به، فسمَّى ذلك ذوقاً، والخوف لا يُذاق على الحقيقة؛ لأن الذَّوقَ في الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح.

قال ابن فُورَك: وما قلناه أولاً أصحُّ في تأويل هذا الخبر؛ لأن كلامَ الله تعالى أَزَليٌّ قديمٌ سابقٌ لجملةِ الحوادث، وإنما أسمعَ وأفهمَ مَن أراد من خلقه على ما أراد

(١) مسند الدارمي (٣٤١٤). وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء الكبير ٦٦/١ ، وابن عدي في الكامل ٢١٨/١ ، وابن حبان في المجروحين ١٠٨/١ . وفي إسناده إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن عدي: لم أجد له حديثاً أنكر من حديث: قرأ: «طه» و«يس». وقال ابن حبان: وهذا متن موضوع.

(٢) في مشكل الحديث ص٢٨٩ - ٢٩٠ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٣) السَّلَى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه، وقيل: هو في الماشية السَّلَى، وفي الناس المشيمة. النهاية (سلي).

(٤) في (د) و(م): القول: والمثبت من (خ) و(ز)، وهو الموافق لمشكل الحديث لابن فورك.

في الأوقات والأزمنة، لا أن عينَ كلامِه يتعلَّق وجوده بمدةٍ وزمان.

قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿طه﴾ اختلف العلماء في معناه، فقال الصدِّيق رضي الله تعالى عنه: هو من الأسرار، ذكره الغزنويُّ. ابن عباس: معناه: يا رجل، ذكره البيهقيُّ[١]. وقيل: إنها لغةٌ معروفة في عُكْلٍ. وقيل: في عَكٍّ. قال الكلبيُّ: لو قلت في عَكّ لرجل: يا رجل، لم يُجب حتى تقول: طه[٢]. وأنشد الطبريُّ في ذلك فقال:

دعوتُ بطه في القتال فلم يُجِبْ فخفتُ عليه أن يكون مُوَائِلا[٣]

ويروى: مُزايلا.

وقال عبدُ اللهِ بنُ عمرو: يا حبيبي؛ بلغة عَكٍّ، ذكره الغزنوي. وقال قطرب: هو بلغة طيِّئ[٤]، وأنشد ليزيد بن المُهلهِل:

إنَّ السَّفاهةَ طَهَ من شمائلكم لا بارك اللهُ في القوم المَلَاعِينِ[٥]

وكذلك قال الحسن: معنى «طه»: يا رجل. وقاله عكرمة[٦]، وقال: هو بالسُّريانية

---

(١) في دلائل النبوة ١/١٥٨ - ١٥٩، وفي إسناده محمد بن السائب الكلبي، وهو متهم بالكذب كما في تقريب التهذيب.

(٢) ذكره البيهقي في دلائل النبوة ١/١٥٩ بعد خبر ابن عباس رضي الله عنهما السالف.

(٣) نسبه الطبري ١٦/٨ لمتمم بن نُويرة، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٣٦. والمُوائل: الطالب للنجاة. القاموس (وأل).

(٤) يعني: يا رجل. كما في النكت والعيون ٣/٣٩٣.

(٥) النكت والعيون ٣/٣٩٢، وتفسير الطبري ١٦/٨، والمحرر الوجيز ٤/٣٦.

(٦) أخرجه عنهما الطبري ١٦/٦ - ٧.

كذلك[١]؛ ذكره المهدويُّ، وحكاه الماورديُّ عن ابن عباس أيضاً ومجاهد[٢]. وحكى الطبريُّ[٣]: أنه بالنَّبَطِيّة: يا رجل. وهذا قولُ السديِّ وسعيد بنِ جُبير وابن عباس أيضاً، قال:

إن السفاهة طه من خلائقكم لا قدَّس اللهُ أرواحَ الملاعينِ[٤]

وقال عكرمة أيضاً: هو كقولك: يا رجل؛ بلسان الحبشة[٥]؛ ذكره الثعلبيُّ.

والصحيح أنها وإن وُجدت في لغة أُخرى؛ فإنها من لغة العرب كما ذكرنا، وأنها لغةٌ يَمنيَّة في عَكٍّ وطَيِّئ وعُكْل أيضاً.

وقيل: هو اسمٌ من أسماء اللهِ تعالى، وقَسَمٌ أقسَم به. وهذا أيضاً مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما[٦]. وقيل: هو اسمٌ للنبيِّ ﷺ؛ سماه اللهُ تعالى به كما سمَّاه محمداً[٧]. ورويَ عن النبي ﷺ أنه قال: «لي عندَ ربِّي عشرةُ أسماء»؛ فذكر أنَّ فيها طه ويس[٨]. وقيل: هو اسمٌ للسورة، ومِفتاحٌ لها. وقيل: إنه اختصارٌ من كلام الله خصَّ

---

(١) زاد المسير ٥/ ٢٦٩.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٣٩٢، وأخرجه الطبري ١٦/ ٦.

(٣) في تفسيره ١٦/ ٥- ٦.

(٤) نقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩٢، وسلف قبله برواية أخرى.

(٥) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٦٩.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٩٣. وأخرجه عنه الطبري ١٦/ ٧، ولم يرد أن (طه) اسم من أسماء الله تعالى في حديث صحيح يُستند إليه، ولا شك أن أسماء الله عز وجل توقيفية.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦.

(٨) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١٢٧٣، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٢٠) من طريق إسماعيل بن إبراهيم أبي يحيى التيمي عن سيف بن وهب عن أبي الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي عند ربي عشرةَ أسماء». قال أبو الطفيل: قد حفظت منها ثمانية: محمد، وأحمد، وأبو القاسم، والفاتح، والخاتم، والماحي، والعاقب، والحاشر. قال أبو يحيى: وزعم سيف أن أبا جعفر الهاشمي قال له: إن الاسمين الباقيين: يس وطه. وسيف هالك فيما نقله ابن عدي عن يحيى بن سعيد القطان. ويُغني عنه حديث جبير بن مطعم ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» أخرجه البخاري ومسلم وسلف ١٠/ ٤٥١.

اللهُ تعالى رسولَه بعلمه.

وقيل: إنها حروف مُقطَّعة، يدل كلُّ حرفٍ منها على معنى[١]. واختلف في ذلك، فقيل: الطاء شجرة طُوبى، والهاء النار الهاوية، والعرب تُعبِّر عن الشيء كلِّه ببعضه؛ كأنه أقسمَ بالجنة والنار. وقال سعيد بن جُبير: الطاء افتتاح اسمِه طاهر وطيِّب، والهاء افتتاح اسمه هادي. وقيل: «طاء» يا طامع الشفاعة للأُمة، «هاء» يا هادي الخَلْق إلى الله. وقيل: الطاء من الطهارة، والهاء من الهداية؛ كأنه يقول لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: يا طاهراً من الذنوب، يا هاديَ الخلقِ إلى علَّام الغيوب.

وقيل: الطاء طُبول الغُزاة، والهاءُ هَيبتُهم في قلوب الكافرين، بيانُه قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: ١٥١] وقوله: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[٢] [الأحزاب: ٢٦].

وقيل: الطاء طربُ أهل الجنة في الجنة، والهاء هَوانُ أهلِ النار في النار[٣].

وقول سادس: إن معنى «طه» طوبى لمن اهتدى، قاله مجاهد ومحمدُ بن الحنفية[٤]. وقولٌ سابع: إن معنى «طه» طَإِ الأرضَ؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يَتحمَّلُ مشقةَ الصلاة حتى كادت قدماه تَتورَّم[٥]، ويحتاجُ إلى الترويح بين قدميه، فقيل له: طَإِ الأرضَ؛ أي: لا تَتعب حتى تحتاجَ إلى الترويح، حكاه ابنُ الأنباري[٦].

وذكر القاضي عياض في «الشفاء» أن الربيع بن أنس قال: كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٣٩٣ .

(٢) ذكر هذه الأقوال الرازي في تفسيره ٢٢/ ٣ ، وليس فيها ولا في ما سيذكره المصنف بعدها في معناها ما يصحّ. وقال الرازي: إن أمثال هذه الأقوال لا يجب أن يعتمد عليها.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٣٦ ، وزاد المسير ٥/ ٢٧٠ .

(٤) نسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩٣ لمحمد الباقر زين العابدين ﷺ.

(٥) أخرج البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ قال: قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماه.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٩٣ .

قام على رِجْلٍ ورَفع الأُخرى، فأنزل الله تعالى: «طه»، يعني طَإِ الأرضَ يا محمد؛ ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾(١).

الزمخشريُّ(٢): وعن الحسن: «طَهْ»، وفُسِّر بأنه أمرٌ بالوطء، وأن النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان يقوم في تهجُّده على إحدى رجليه، فأُمِرَ أن يطأ الأرضَ بقدَميه معاً، وأن الأصل: طَأْ، فقلبت همزتُه هاءً أو قلبت(٣) [ألفاً] في «يطا» فيمن قال:

لا هَـنَـاكِ الـمـرتَـعُ(٤)

ثم بنى عليه هذا الأمر، والهاء للسكت.

وقال مجاهد: كان النبيُّ ﷺ وأصحابه يَربطون الحبالَ في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام، ثم نُسخ ذلك بالفرض، فنزلت هذه الآيةُ(٥).

وقال الكلبيُّ: لمَّا نزل على النبيِّ ﷺ الوحيُ بمكة اجتهد في العبادة، واشتدَّت عبادتُه، فجعل يصلِّي الليلَ كلَّه زماناً حتى نزلت هذه الآية، فأمره اللهُ تعالى أن يُخفِّف عن نفسه فيصلي وينام(٦)؛ فَنَسخَتْ هذه الآيةُ قيامَ الليل؛ فكان بعد هذه الآية يُصلِّي وينام.

وقال مقاتل والضحَّاك: فلما نزل القرآنُ على النبيِّ ﷺ قام هو وأصحابه فصلَّوا، فقال كفارُ قريش: ما أنزل اللهُ هذا القرآنَ على محمدٍ إلا ليشقى؛ فأنزل اللهُ تعالى:

---

(١) الشفا ١/ ١٠٧ وهو ضعيف لإرساله.

(٢) في الكشاف ٢/ ٥٢٨.

(٣) في (خ) و(د): وقلبت، وفي (م): كما قلبت، والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف)، وهو الموافق للكشاف، وما بين حاصرتين التالي منه. وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٨٧.

(٤) هذا جزء من بيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٠٨ ولفظه:

ومضَتْ لمسلمةَ الرِّكاب مُوَدَّعاً ... فارعَيْ فزارةَ لا هَنَاكِ المرتع

وسلف عجزه ١١/ ٢٧٣.

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٣٩٣.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢١١.

«طه» يقول: يا رجل، ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[١] أي: لتتعب، على ما يأتي. وعلى هذا القول: إن معنى[٢] «طه»: [طَأْها، أي:][٣] طإِ الأرض، وتكون الهاء والألف ضميرَ الأرض، أي: طَإِ الأرضَ برجليك في صلاتك، وخُفِّفت الهمزة فصارت ألفاً ساكنة.

وقرأت طائفةٌ: «طَهْ»[٤]، وأصله: طَأْ، بمعنى: طَإِ الأرض، فحذفت الهمزة، وأدخلت هاء السكت[٥].

وقال زِرُّ بن حُبيش: قرأ رجلٌ على عبد الله بن مسعود: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ فقال له عبدُ الله: «طِهِ» [بالكسر، قال:] فقال: يا أبا عبد الرحمن، أليس قد أُمِر أن يطأ الأرض برجِلِه[٦] ـ أو بقدميه؟ فقال: «طِهِ»، كذلك أقرأنيها رسولُ الله ﷺ[٧].

وأمال أبو عمرو وابن أبي إسحاق[٨] الهاءَ وفتَحا الطاء. وأمالهما جميعاً أبو بكر وحمزة والكسائيُّ والأعمش. وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين[٩]، واختاره أبو عُبيد. الباقون بالتفخيم. قال الثعلبي: وهي كلُّها لغاتٌ صحيحةٌ فصيحة.

النحاس[١٠]: لا وجهَ للإمالة عند أكثرِ أهل العربية لعلَّتين: إحداهما أنه ليس

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣١٣ .

(٢) لفظة: معنى، من (ظ).

(٣) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ. وأثبتناها من الدر المصون ٨/ ٦ .

(٤) قرأ بها الحسن، وسلفت قريباً.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٣٦ .

(٦) في (م): برجليه.

(٧) أخرجه الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٧٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٨) في (د) و(م): أبو إسحاق. بدل: ابن أبي إسحاق.

(٩) قرأ نافع في رواية ورش، وأبو عمرو: بفتح طا وإمالة ها، وعاصم في رواية شعبة، وحمزة والكسائي وخلف بإمالة طا وها معاً، والباقون من العشرة ـ ومنهم أبو جعفر ـ بفتحهما. السبعة ص٤١٦ ، والتيسير ص١٥٠ ، والنشر ٢/ ٦٧ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٣١ .

هاهنا ياء ولا كسرة فتكون الإمالة، والعِلَّة الأُخرى أن الطاء من الحروف الموانعِ للإمالة، فهاتان علتان بيِّنتان.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، وقُرئ: «مَا نُزِّلَ عَلَيكَ الْقُرْآنُ لِتَشْقَى»[1]. قال النحاس[2]: بعضُ النحويين يقول: هذه لام النفي، وبعضهم يقول: لامُ الجحود. وقال أبو جعفر: وسمعتُ أبا الحسن بنَ كَيسان يقول [في مثلها]: إنها لام الخفض، والمعنى: ما أنزلنا عليك القرآن للشقاء. والشقاء يُمَدّ ويُقْصَر، وهو من ذوات الواو.

وأصلُ الشقاء في اللغة العناء والتعب[3]، أي: ما أنزلنا عليك القرآنَ لِتتعب. قال الشاعر:

ذُو العقلِ يَشقَى في النعيم بعقلِهِ وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ يَنْعَم[4]

فمعنى لـ «تشقى»: لتتعب بفرط تأسُّفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسُّرِك على أن يؤمنوا، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف:٦] أي: ما عليك إلا أن تُبلِّغَ وتُذكِّر، ولم يُكتَب عليك أن يؤمنوا لا محالةَ بعد أن لم تُفرِّط في أداء الرسالة والموعظة الحسنة.

ورُويَ أن أبا جهل ـ لَعَنه اللهُ تعالى ـ والنضرَ بنَ الحارث قالا للنبيِّ ﷺ: إنك شقيٌّ، لأنك تركتَ دينَ آبائِك[5]؛ فأُريد ردُّ ذلك بأنَّ دينَ الإسلام وهذا القرآن هو السُّلَّم إلى نَيل كلِّ فوزٍ، والسببُ في دركِ كلِّ سعادة، وما فيه الكَفَرةُ هو الشقَّاوة بعينها.

---

(١) نسبها أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢٢٤ لطلحة.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢ ، وما سيرد بين حاصرتين منه. وأبو جعفر الآتي ذكره هو النحاس .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢١١ .

(٤) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ٢٥١ .

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣١٣ عن مقاتل، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢٨ - ٥٢٩ والكلام الذي قبله وبعده منه.

وعلى الأقوال المتقدِّمة أنه عليه الصلاة والسلام صلَّى بالليل حتى اسمغدَّت[١] قدماه، فقال له جبريل: أَبقِ على نفسك، فإنَّ لها عليك حقًّا[٢]. أي: ما أنزلنا عليك القرآن لِتُنهِك نفسَك في العبادة، وتُذيقَها المشقَّة الفادحةَ، وما بُعثتَ إلا بالحنيفية السَّمحة.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ قال أبو إسحاق الزجَّاجُ: هو بدلٌ من «تشقى»، أي: ما أنزلناه إلا تذكرةً. النحاس[٣]: وهذا وجهٌ بعيد. وأنكره أبو عليٍّ من أجل أن التذكرة ليست بشقاء، وإنما هو منصوبٌ على المصدر، أي: أنزلناه لِتُذكِّر به تذكرةً، أو على المفعول من أجله، أي: ما أنزلنا عليك القرآن لِتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة[٤]. وقال الحسين بن الفضل: فيه تقديمٌ وتأخير، مجازه: ما أنزلنا عليك القرآنَ إلا تذكرةً لمن يخشى، ولئلَّا تشقى[٥].

﴿تَنزِيلًا﴾ مصدر، أي: نزَّلناه تنزيلاً[٦]. وقيل: بدل من قوله: «تذكِرة»[٧]. وقرأ أبو حيوة الشاميُّ: «تنزيلٌ» بالرفع على معنى: هذا تنزيل[٨].

﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ أي: العاليةَ الرفيعةَ، وهي جمع العُليَا، كقوله:

---

(١) في (د) و(م): تورَّمت، وفي (ظ): ورمت، والمثبت من (خ) و(ز) و(ف) وهو الموافق للكشاف، وكلاهما بمعنى، وهي بالعين المهملة، وبالغين المعجمة أيضاً. القاموس (سمعد).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٨: لم أره هكذا، وفي الدعوات الكبير للبيهقي عن عائشة قالت: لما كانت ليلة النصف من شعبان ـ فذكر حديثاً طويلاً ـ وفيه: فما زال يصلي قائماً وقاعداً حتى أصبح، وحتى اسمعدت قدماه.. الحديث. وليس فيه كلام جبريل. اهـ.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٢، وعنه نقل المصنف قول الزجاج السالف.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ١٠، وينظر الدر المصون ٨/ ٨ - ٩.

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ١٥.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢.

(٧) الكشاف ٢/ ٥٢٩.

(٨) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢٩ دون نسبة، ونسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٢٥ لابن أبي عبلة.

كُبْرى وصُغْرى، وكُبَر وصُغَر[١]. أخبر عن عَظَمته وجبروته وجلاله، ثم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ويجوز النصب على المدح[٢]. قال أبو إسحاق[٣]: ويجوز الخفض على البدل من «مَنْ»[٤]. وقال سعيدُ بن مَسْعدة[٥]: الرفع بمعنى: هو الرحمن. النحاس: يجوز الرفعُ بالابتداء[٦]، والخبر: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فلا يُوقَف على «استوى»[٧]. وعلى البدل من المُضمر في «خلق»[٨] فيجوز الوقفُ على «اسْتَوَى». وكذلك إذا كان خبر ابتداءٍ محذوف، ولا يُوقَف على «العُلَا».

وقد تقدَّم القولُ في معنى الاستواء في «الأعراف»[٩]. والذي ذهبَ إليه الشيخ أبو الحسن[١٠] وغيرُه أنه مستوٍ على عرشه بغير حَدٍّ ولا كَيْفٍ كما يكون استواءُ المخلوقين.

وقال ابن عباس: يريد: خلَق ما كان وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة وبعد القيامة.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ يريد ما تحت الصخرة التي لا يعلمُ ما تحتها إلا اللهُ تعالى. وقال محمدُ بن كعب: يعني الأرضَ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢١١ ، وزاد المسير ٥/ ٢٧٠ .

(٢) يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٣) هو الزجَّاج، وكلامه في معاني القرآن ٣/ ٣٥٠ .

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٧ لجناح بن حبيش.

(٥) هو الأخفش، وقوله في معاني القرآن ٢/ ٦٢٩ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٢ - ٣٣ وقد نقل المصنف عنه قولي الزجاج والأخفش السالفين.

(٧) لم نقف على من ذكر أن قوله ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ هو الخبر. وقال السمين: والجملة من قوله: «على العرش استوى» خبر لقوله: «الرحمنُ».

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٣٧ ، قال أبو حيان في البحر ٦/ ٢٢٦ : وأرى أن مثل هذا لا يجوز؛ لأن البدل يحلُّ محلَّ المبدل منه، و«الرحمن» لا يمكن أن يحلَّ محلَّ الضمير؛ لأن الضمير عائد على «مَن» الموصولة، و«خلق» صلة، والرابط هو الضمير، فلا يحلُّ محلَّه الظاهر لعدم الرابط.

(٩) ٩/ ٢٣٨ وما بعدها.

(١٠) هو الأشعري، وينظر رسالة أهل الثغر ص٢٣٣ - ٢٣٦ .

السابعة[1]. ابن عباس: الأرضُ على نون، والنونُ على البحر، وإن طرفي النون رأسُه وذَنَبُه يَلتقيان تحت العرش، والبحرُ على صخرة خضراءَ خُضرةُ السماء منها، وهي التي قال تعالى فيها: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [لقمان: ١٦]، والصخرةُ على قرن ثورٍ، والثورُ على الثَّرى، وما يعلم ما تحت الثَّرى إلا اللهُ تعالى[2].

وقال وهب بن مُنَبِّه: على وجه الأرض سبعةُ أبحرٍ، والأَرَضون سبعٌ، بين كلِّ أرضَين بحرٌ، فالبحر الأسفل مطبقٌ على شَفِير جهنم، ولولا عِظَمه وكثرةُ مائه وبرده لَأحرقَتْ جهنمُ كلَّ من عليها. قال: وجهنمُ على متن الريح، ومتنُ الريح على حجابٍ من الظُّلمة لا يعلم غلظه[3] إلا اللهُ تعالى، وذلك الحجاب على الثرى، وإلى الثرى انتهى عِلمُ الخلائق.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ قال ابن عباس: السّر ما حَدَّث به الإنسانُ غيرَه في خَفاء، وأخفى منه ما أضمر في نفسه مما لم يُحدِّث به غيرَه. وعنه أيضاً: السِّرُّ حديثُ نفسك، وأخفى من السِّرِّ ما سَتُحدِّث به نفسك مما لم يكن وهو كائن، أنت تعلم ما تُسِرُّ به نفسُك اليوم، ولا تعلم ما تُسِرُّ به غداً، والله يعلم ما أسررتَ اليومَ وما تسرُّ غداً؛ والمعنى: اللهُ يعلم السِّرَّ وأخفى من السِّرّ.

وقال ابنُ عباس أيضاً: «السرُّ»: ما أسرَّ ابنُ آدم في نفسه، «وَأَخْفَى»: ما خَفِيَ على ابن آدم مما هو فاعلُه وهو لا يعلمه، فالله تعالى يعلم ذلك كلَّه، وعلمُه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علمٌ واحد، وجميعُ الخلائق في علمه كنفْسٍ واحدة. وقال قتادة وغيره: «السِّرُّ»: ما أضمره الإنسان في نفسه، و«أخفى» منه ما لم يكن ولا أضمره أحدٌ.

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره ٥/ ٢٧٣ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢١٢ ، وأخرجه ابن مردويه كما في روح المعاني ٢١/ ٨٨ . قال الآلوسي: الأقوى عندي وضع هذه الأخبار. وأورده بنحوه ابن القيم في المنار المنيف ١/ ٧٨ وقال: والعجب مِنْ مُسَوِّد كتبِه بهذه الهذيانات!

(٣) في (د) و(م): عظمه.

وقال ابن زيد: «السِّرُّ»: سرُّ الخلائق، «وأخفى» منه سِرُّه عزَّ وجلَّ، وأنكر ذلك الطبريُّ[١]، وقال: إن الذي هو[٢] «أخفى» ما ليس في سِرِّ الإنسان وسيكون في نفسه، كما قال ابنُ عباس.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ «الله» رفع بالابتداء، أو على إضمار مبتدأ، أو على البدل من الضمير في «يعلم»[٣].

وَحَّدَ نفْسَه سبحانه؛ وذلك أن رسولَ الله ﷺ دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحدَه لا شريكَ له، فكَبُر ذلك عليهم، فلمَّا سمعه أبو جهل يذكر الرحمنَ، قال للوليد ابن المغيرة: محمدٌ ينهانا أن ندعوَ مع الله إلهاً آخرَ وهو يدعو اللهَ والرحمن، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾، وأنزل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٤] [الإسراء: ١١٠]، وهو واحدٌ وأسماؤه كثيرةٌ. ثم قال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. وقد تقدَّم التنبيهُ عليها في سورة الأعراف[٥].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ قال أهل المعاني: هو استفهامُ إثباتٍ

---

(١) في تفسيره ١٦/ ١٣ - ١٧ ، وفيه الأخبار السابقة. وينظر النكت والعيون ٣/ ٣٩٤ .

(٢) لفظ: هو، ليس في (د) و(م).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٣ .

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ١٤٢، وليس فيه ذكر قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾.

(٥) ٩/ ٣٩١ وما بعدها.

وإيجاب، معناه: أليس قد أتاك؟ وقيل: معناه: وقد أتاك، قاله ابن عباس(١). وقال الكلبيّ: لم يكن أتاه حديثه بعدُ، ثم أخبره(٢).

﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ قال ابن عباس وغيره: هذا حين قضى الأجلَ وسار بأهله وهو مُقبلٌ من مدين يريد مصرَ، وكان قد أخطأ الطريقَ، وكان موسى عليه السلام رجلاً غيوراً، يصحبُ الناسَ بالليل ويُفارقهم بالنهار غَيْرةً منه، لئلا يَرَوا امرأتَه، فأخطأ الرُّفقةَ ـ لِما سبَق في علم الله تعالى ـ وكانت ليلةً مظلمة(٣). وقال مقاتل: وكانت ليلةَ الجمعة في الشتاء(٤).

وهب بن مُنَبِّه: استأذن موسى شعيباً في الرجوع إلى والدته، فأَذِنَ له، فخرج بأهله بغنمه، وولد له في الطريق غلامٌ في ليلة شاتيةٍ باردةٍ مثلجةٍ، وقد حاد عن الطريق وتفرَّقت ماشيته، فقدح موسى النار، فلم تورِ المِقْدَحة شيئاً، إذ بَصُرَ بنار من بعيد على يسار الطريق ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ أي: أَقيموا بمكانكم(٥) ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أَبصرت(٦). قال ابن عباس: فلما توجَّه نحوَ النارِ؛ فإذا النار في شجرة عُنَّابٍ، فوقف متعجِّباً من حُسن ضوء تلك النار(٧)، وشدةِ خُضرة تلك الشجرة، فلا شدةُ حرِّ النار تُغيِّر حسنَ خُضرة الشجرة، ولا كثرةُ ماء الشجرة ولا نعمةُ الخُضرة تُغيِّران حسنَ ضوءِ النار(٨).

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠١، وزاد المسير ٥/ ٢٧١.

(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ١٤.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٩ بنحوه، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠١.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٩٥.

(٥) زاد المسير ٥/ ٢٧٢، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٩ بنحوه.

(٦) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٧.

(٧) في (خ) و(ز) و(ف): من حسن ضوء ذلك النار، وفي (د) و(م): من حسن ذلك الضوء، والمثبت من (ظ).

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٢، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٥ - ١٦.

وذكر المهدويُّ: فرأى النار ـ فيما رُوي ـ وهي في شجرةٍ من العُلَّيق، فقصَدها فتأخَّرت عنه، فرجَع وأوجَس في نفسه خِيفةً، ثم دنَتْ منه، وكلَّمه الله عزَّ وجلَّ من الشجرة[1]. الماورديُّ[2]: كانت عند موسى ناراً، وكانت عند الله تعالى نوراً.

وقرأ حمزة: «لِأَهْلِهُ امْكُثُوا» بضم الهاء[3]، وكذا في «القصص»[4]. قال النحاس[5]: وهذا على لغة من قال: مررت بِهُ يا رجل، فجاء به على الأصل، وهو جائزٌ؛ إلا أن حمزةَ خالفَ أصلَه في هذين الموضعين خاصة.

وقال: «امكثوا» ولم يقل: أقيموا؛ لأنَّ الإقامة تقتضي الدوام، والمُكْثَ ليس كذلك[6].

«وآنستُ»: أبصرتُ، قاله ابن الأعرابي. ومنه قوله: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء:٦] أي: عَلِمتم[7]. وآنستُ الصوتَ: سمعتُه[8]، والقَبَس: شُعلةٌ من نار، وكذلك المِقباس. يقال: قَبَستُ منه ناراً أقبِس قَبْساً فأقبسني، أي: أعطاني منه قَبَساً، وكذلك اقتبست منه ناراً، واقتبستُ منه علماً أيضاً، أي: استفدته، قال اليزيدي: أقبستُ الرجل علماً وقَبَستُه ناراً؛ فإن كنتَ طلبتَها له قلت: أقبستُه. وقال الكسائي: أقبستُه ناراً أو علماً سواء. وقال: وقبسته أيضاً فيهما[9]. «هُدًى» أي: هادياً.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ يعني النار ﴿نُودِىَ﴾ أي: من الشجرة، كما في سورة

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٢ عن وهب بن منبه.
(٢) في النكت والعيون ٣/ ٣٩٥ .
(٣) السبعة ص٤١٧ ، والتيسير ص١٥٠ .
(٤) الآية (٢٩).
(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٣ .
(٦) النكت والعيون ٣/ ٣٩٥ .
(٧) غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٧ .
(٨) الصحاح (أنس).
(٩) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٨/ ٤١٩ .

القصص[١] أي: من جهتها وناحيتها على ما يأتي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ **فيه خمس مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ روى الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان على موسى يومَ كلَّمه ربُّه كساءُ صوفٍ، وجُبّةُ صوفٍ، وكُمَّة صوف، وسراويلُ صوف، وكانت نَعْلاه من جلد حمارٍ ميت» قال: هذا حديثٌ غريب لا نعرفه إلا من حديث حُميدٍ الأعرج [وحُميد هو ابنُ عليٍّ الكوفي] منكر الحديث، وحُميد بن قيس الأعرج المكي صاحبُ مجاهد ثقة، والكُمَّةُ: القَلَنْسُوة الصغيرة[٢].

وقرأ العامة: «إني» بالكسر؛ أي: نودي فقيل له: يا موسى إني، واختاره أبو عُبيد. وقرأ أبو عمرو وابن كثير[٣] وابن محيصن وحُميد: «أنِّي» بفتح الألف؛ بإعمال النداء.

واختلف العلماءُ في السبب الذي من أجله أُمِر بخلع النعلين ـ والخلع: النَّزْعُ، والنَّعل: ما جعلتَه وقاية لقدميك من الأرض ـ:

فقيل: أُمِر بطرح النعلين لأنها نَجِسة؛ إذ هي من جلدٍ غير مُذَكّى؛ قاله كعب وعِكرمة وقتادة.

وقيل: أُمر بذلك لِينال بركةَ الوادي المقدَّس، وتمسَّ قدماه تربةَ الوادي؛ قاله عليُّ بن أبي طالب ﷺ والحسن وابن جُريج[٤].

وقيل: أُمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى. وكذلك فعلَ السلفُ حين طافوا بالبيت[٥].

---

(١) الآية (٣٠).

(٢) سنن الترمذي (١٧٣٤)، وما بين حاصرتين منه.

(٣) السبعة ص٤١٧، والتيسير ص١٥٠، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٩٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٣٩٦.

(٥) الكشاف ٢/ ٥٣١.

وقيل: إعظاماً لذلك الموضع؛ كما أن الحرَمَ لا يُدْخَلُ بنعلين إعظاماً له[١]. قال سعيد بن جُبير: قيل له: طَأِ الأرضَ حافياً كما تدخل الكعبة حافياً[٢].

والعُرف عند الملوك أن تُخلعَ النِّعال، ويبلغَ الإنسانُ إلى غاية التواضع، فكأن موسى عليه السلام أُمر بذلك على هذا الوجه، ولا يُبَالَى[٣] كانت نَعْلاه من ميتة أو غيرها. وقد كان مالكٌ لا يرى لنفسه ركوبَ دابَّةٍ بالمدينة بِرًّا بتربتها المحتوية على الأَعْظُم الشريفة، والجُثَّة الكريمة[٤].

ومن هذا المعنى قولُه عليه الصلاة والسلام لبشير ابن الخَصَاصِيَة وهو يمشي بين القبور بنعليه: «إذا كنتَ في مثل هذا المكان فاخْلَعْ نعليك». قال: فخلعتُهما[٥].

وقول خامس: إن ذلك عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد. وقد يعبَّر عن الأهل بالنعل. وكذلك هو في التعبير: من رأى أنه لابسٌ نعلين، فإنه يتزوَّج[٦].

وقيل: لأن الله تعالى بسطَ له بساطَ النور والهُدى، ولا ينبغي أن يطأ على بساط ربِّ العالمين بنعله[٧]. وقد يَحتمِلُ أن يكون موسى أُمِر بخلع نعليه، وكان ذلك أوّلَ فرض عليه، كما كان أوّل ما قيل لمحمد ﷺ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[٨] [المدثر: ٢-٥]، والله أعلم بالمراد من ذلك.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩ .

(٣) في (ز) و(م): ولا تبالى، وفي المحرر الوجيز ٤/ ٣٩ (والكلام منه): ولا نبالي.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٤ .

(٥) أخرجه بهذا اللفظ ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٧٨ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٠٧٨٧)، وأبو داود (٣٢٣٠)، والنسائي ٤/ ٩٦ .

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ١٧ .

(٧) لطائف الإشارات ٢/ ٤٤٨ .

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٥ .

الثانية: في الخبر أنّ موسى عليه السلام خلَع نعليه وألقاهما من وراء الوادي[١]. وقال أبو الأحوص: زار عبدُ الله أبا موسى في داره، فأقيمت الصلاة[٢]، فقال أبو موسى لعبد الله: تقدَّم. فقال عبد الله: تقدَّم، أنت في دارك. فتقدَّم وخلع نعليه، فقال عبد الله: أَبالوادي المقدَّس أنت؟![٣].

وفي «صحيح» مسلم: عن سعيد بن يزيد قال: قلت لأنسٍ: أكان رسولُ الله ﷺ يصلِّي في نعلين؟ قال: نعم[٤]. ورواه النَّسائيُّ[٥] عن عبد الله بن السَّائب: أن النبيَّ ﷺ صلَّى يومَ الفتح، فوضَع نعلَيه عن يساره.

وروى أبو داود[٦] من حديث أبي سعيد الخدريِّ ﷺ قال: بينما رسولُ الله ﷺ يُصلِّي بأصحابه، إذ خلَع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلمَّا رأى ذلك القومُ خلعوا[٧] نعالَهم، فلمَّا قضَى رسولُ الله ﷺ صلاتَه قال: «مَن حَمَلَكم على إلقائكم نعالَكم؟» قالوا: رأيناك ألقيتَ نعليك فألقينا نعالَنا. فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قَذَراً». وقال: «إذا جاءكم أحدُكم المسجدَ فَلْينظر، فإن رأى في نعليه قذراً أو أذًى فليمسحه وَلْيُصلِّ فيهما». صحَّحه أبو محمد عبد الحق[٨]. وهو يجمع بين الحديثين قبلَه، ويرفع بينهما التعارض. ولم يختلف العلماء على جواز

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٣١ .

(٢) بعدها في (د) و(م): فأقام أبو موسى.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥٠٧)، وابن أبي شيبة ٢/ ٤١٨ ، وأخرجه من طريق آخر عن ابن مسعود ﷺ أحمد (٤٣٩٧)، وفيه قول ابن مسعود بعد ذلك: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يصلي في الخفين والنعلين.

(٤) صحيح مسلم (٥٥٥)، وأخرجه أحمد (١١٩٧٦)، والبخاري (٣٨٦).

(٥) في المجتبى ٢/ ٧٤ ، وفي الكبرى (٨٥٤)، وهو عند أحمد (١٥٣٩٢)، وأبي داود (٦٤٨).

(٦) في سننه (٦٥٠)، وأخرجه أحمد (١١١٥٣) بنحوه.

(٧) في (م) وسنن أبي داود: ألقوا.

(٨) في الأحكام الشرعية الصغرى ١/ ١٩٦ .

الصلاة في النعال[١] إذا كانت طاهرةً من ذَكيّ[٢]، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاةَ فيهما أفضلُ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ على ما تقدّم[٣]. وقال إبراهيم النَّخَعي في الذين يَخلعون نعالَهم: لَوَدِدْتُ أن مُحتاجاً جاء فأخذها[٤].

الثالثة: فإنْ خلعتَهما فاخْلَعهما بين رجليك، فإن أبا هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا صلَّى أحدُكم فَلْيجعل[٥] نعليه بين رجليه»[٦]. وقال أبو هريرة للمقبري: اخلعهما بين رجليك، ولا تُؤذِ بهما مسلماً[٧].

وما رواه عبدُ الله بن السائب ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره[٨]. فإنه كان إماماً، فإن كنتَ إماماً أو وحدَك؛ فافعل ذلك إنْ أحببت، وإن كنتَ مأموماً في الصف فلا تُؤذِ بهما مَن على يسارِك، ولا تضَعْهما بين قدميك فتشغلاك، ولكن قُدَّامَ قدميك.

وروي عن جُبير بن مُطْعِم أنه قال: وضعُ الرَّجلِ نعليه بين قدميه بدعةٌ[٩].

الرابعة: فإن تحقَّق فيهما نجاسةٌ مُجمَع على تنجيسها؛ كالدم والعَذِرة من بول بني آدم؛ لم يُطهِّرها إلا الغَسل بالماء عند مالك والشافعي وأكثرِ العلماء، وإن كانت النجاسة مُختَلَفاً فيها؛ كبول الدوابّ وأرواثها الرطبة؛ فهل يُطهِّرها المَسْحُ بالتراب من

(١) في (م): النعل.
(٢) المفهم ٢/ ١٦١ .
(٣) ٩/ ١٩٣ .
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٤١٦ .
(٥) في (د) و(م): فَلْيخلع.
(٦) أخرجه ابن شيبة ٢/ ٤١٨ ، وأخرجه أبو داود (٦٥٥) بنحوه.
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٤١٨ .
(٨) سلف في المسألة السابقة.
(٩) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٤١٨ عن نافع بن جبير بن مطعم.

النعل والخُفّ أوْ لا؟ قولان عندنا. وأطلقَ الإجزاء بمسح ذلك بالتراب مِن غير تفصيل الأوزاعيُّ وأبو ثور. وقال أبو حنيفة: يُزيله إذا يبس الحكُّ والفركُ، ولا يُزيل رطبَه إلا الغسل؛ ما عدا البول، فلا يُجزئ عنده فيه إلا الغَسْل. وقال الشافعيُّ: لا يطهِّر شيئاً من ذلك كلِّه إلا الماء. والصحيح قول مَن قال: بأن المسحَ يُطَهِّره من الخفِّ والنعل؛ لحديث أبي سعيد[(١)]. فأمَّا لو كانت النعل والخُفّ من جلد ميتة فإن كان غيرَ مدبوغ فهو نَجِسٌ باتفاق[(٢)]، ما عدا ما ذهب إليه الزُّهريُّ والليث، على ما تقدَّم بيانُه في سورة النحل[(٣)]. ومضى في سورة براءة القولُ في إزالة النجاسة، والحمد لله[(٤)].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ المقدَّس: المطهَّر. والقُدْس: الطهارة، والأرض المقدَّسة، أي: المطهَّرة[(٥)]؛ سُمِّيت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعَمَرها بالمؤمنين[(٦)]. وقد جعل اللهُ تعالى لبعض الأماكن زيادةَ فضلٍ على بعض، كما قد جعل لبعض الأزمان زيادةَ فضلٍ على بعض، ولبعض الحيوان كذلك. ولله أن يُفَضِّل ما شاء. وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدَّساً بإخراج الكافرين وإسكان المؤمنين، فقد شاركه في ذلك غيرُه.

و«طُوًى»: اسم الوادي؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما[(٧)]. وقال الضحاك: هو وادٍ عميقٌ مستدير مثل الطَوِيِّ[(٨)].

---

(١) سلف في المسألة الثانية.

(٢) إكمال المعلم ٢/٤٨٨، والمفهم ٢/١٦١ - ١٦٢.

(٣) ١٢/٣٩٨، ومذهب الزهري والليث جواز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ. فيما ذكره المصنف ثمة.

(٤) ١٠/٣٨٢ وما بعدها.

(٥) الصحاح (قدس).

(٦) فضائل القدس لابن الجوزي ص٦٧.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/٢٨ عنهما.

(٨) تفسير البغوي ٣/٢١٣، والطَّوِيّ: البئر المطويَّة بالحجارة. اللسان (طوى).

وقرأ عِكْرمة: «طِوًى»[١]. الباقون: «طُوًى»[٢]. قال الجوهري: و«طُوى» اسم موضع بالشام، تُكسر طاؤه وتُضَمّ، ويصرف ولا يصرف، فمن صرفه جعله اسمَ وادٍ ومكان وجعله نكرة، ومن لم يصرفه جعله [اسم] بلدة وبقعة وجعله معرفةً. وقال بعضهم: «طُوًى» مثل «طِوًى»، وهو الشيء المَثْنيُّ، وقالوا في قوله: «الْمُقَدَّسِ طُوًى»: طُويَ مرتين، أي: قُدِّس. وقال الحسن: ثُنِيَتْ فيه البركة والتقديس مرَّتين[٣].

وذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قيل له: «طُوى» لأنَّ موسى طواه بالليل إذ مرَّ به، فارتفع إلى أعلى الوادي، فهو مصدرٌ عمل فيه ما ليس من لفظه، فكأنه قال: «إنك بِالوادِ المقدسِ» الذي طويتَه طُوًى، أي: تجاوزتَه فطويتَه بسيرك[٤]. الحسنُ: معناه: أنه قُدِّسَ مرتين[٥]، فهو مصدر من طويته طُوًى أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتُك للرسالة. وقرأ أهلُ المدينة وأبو عمرو وعاصمٌ والكسائيُّ: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ». وقرأ حمزة: «وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ»[٦]، والمعنى واحد، إلا أنَّ «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ» هاهنا أولى من جهتين: إحداهما: أنها أشبهُ بالخط، والثانية: أنها أولى بنسق الكلام؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، وعلى هذا النَّسق جَرَت المُخاطبةُ، قاله النحاس[٧].

---

(١) نسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٣١ للحسن والأعمش وأبي حيوة وابن أبي إسحاق وأبي السمّال وابن محيصن.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي: «طُوًى» بضم الطاء والتنوين، والباقون من السبعة بضمها من غير تنوين. السبعة ص٤١٧، والتيسير ص١٥٠.

(٣) الصحاح (طوي)، وما بين حاصرتين منه.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧، وفيه قول ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤.

(٦) قرأ الجميع: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ إلا حمزة، السبعة ص٤١٧، والتيسير ص١٥١.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٣٤.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾

فيه مسألة واحدة: قال ابن عطية[١]: وحدثني أبي ـ رحمه الله ـ قال: سمعتُ أبا الفضل الجوهريَّ رحمه الله تعالى يقول: لمَّا قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه: «فاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى» وقَف على حَجَر، واستند إلى حجر، ووضع يمينَه على شماله، وألقى ذَقَنَه على صدره، ووقف يستمع، وكان كلُّ لباسه صوفاً.

قلت: حُسنُ الاستماع كما يجب قد مَدَحَ الله عليه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:١٨]، وذمَّ على خلاف هذا الوصف، فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ [الإسراء:٤٧] الآية. فمدح المُنصِتَ لاستماع كلامِه مع حضور العقل، وأمرَ عبادَه بذلك أدَباً لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤] وقال هاهنا: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ لأن بذلك يُنال الفهم عن الله تعالى.

رُوي عن وَهْب بن مُنَبِّه أنه قال: مِن أدب الاستماع سكونُ الجوارح، وغَضُّ البصر، والإصغاءُ بالسمع، وحضورُ العقل، والعزمُ على العمل، وذلك هو الاستماع كما يُحبُّ الله تعالى، وهو أن يكفَّ العبدُ جوارحَه، ولا يَشغلها. فيشتغلَ قلبُه عما يسمع، ويغضَّ طرفَه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحضُر عقلَه فلا يُحدِّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهَمَ، فيعمل بما يفهم.

وقال سفيان بن عُيينَة: أوّل العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحِفظ، ثم العمل، ثم النَّشر[٢]؛ فإذا استمع العبدُ إلى كتاب اللهِ تعالى وسنةِ نبيِّه عليه الصلاة والسلام بنيةٍ صادقة على ما يحبُّ الله؛ أفهمَه كما يحبّ، وجعل له في قلبه نوراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾

فيه سبعُ مسائل:

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٩ .

(٢) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٧٦١).

الأولى: اختُلف في تأويل قوله: «لِذِكرِي»؛ فقيل: يَحتمِل أن يريدَ: لتذكُرني فيها، أو يريدُ: لأَذْكرك بالمدح في عِلِّيِّين بها، فالمصدر على هذا يَحتمل الإضافةَ إلى الفاعل وإلى المفعول(١).

وقيل: المعنى: أي: حافِظْ بعد التوحيد على الصلاة. وهذا تنبيهٌ على عظم قدر الصلاة؛ إذْ هي تضرُّعٌ إلى الله تعالى، وقيامٌ بين يديه، وعلى هذا فالصلاةُ هي الذِّكر. وقد سمَّى الله تعالى الصلاةَ ذِكراً في قوله: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقيل: المرادُ: إذا نسيتَ فتذكَّرت فصلِّ، كما في الخبر «فَلْيصلِّها إذا ذَكَرها»(٢). أي: لا تَسقط الصلاةُ بالنسيان.

الثانية: روى مالكٌ وغيره أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن نام عن صلاة أو نَسِيَها؛ فَلْيُصلِّها إذا ذَكَرها؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾»(٣).

وروى أبو محمد عبد الغني بن سعيد، من حديث حجَّاج بن حجَّاج ـ وهو حجَّاج الأحول(٤) الذي روى عنه يزيد بن زُرَيع ـ قال: حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك، قال: سُئل رسولُ الله ﷺ عن الرجل يَرْقُد عن الصلاة ويغفُل عنها؛ قال: «كفارتُها أن يُصلِّيَها إذا ذكَرها». تابعه إبراهيم بن طَهْمان عن حجَّاج، وكذا يروي همَّام بن يحيى عن قتادة(٥).

وروى الدارقطنيُّ(٦) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «من نَسي صلاةً فَوَقتُها

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٩.

(٢) سيأتي في المسالة التالية.

(٣) هو بنحوه عند مالك في الموطأ ١/ ١٣ - ١٤، عن سعيد بن المسيب مرسلاًضمن حديث، ووصله مسلم (٦٨٠) عن أبي هريرة ﷺ. وقد ساق المصنف لفظه من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٦.

(٤) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): الأول، والمثبت من (خ). وهو حجاج بن حجاج الباهلي، البصري، الأحول، الحافظ. توفي سنة (١٣١هـ). السير ٦/ ١٥١.

(٥) أخرجه النسائي ٢/ ٥٩ وابن ماجه (٦٩٥) من طريق يزيد بن زريع عن حجاج، به. وأخرجه أحمد (١٣٨٤٨)، والبخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) من طريق همام بن يحيى عن قتادة، به.

(٦) في سننه (١٥٦٥).

إذا ذكرها».

فقوله: «فليصلِّها إذا ذكرها» دليلٌ على وجوب القضاء على النائم والغافل، كثرت الصلاة أو قَلَّت، وهو مذهبُ عامَّة العلماء. وقد حُكي خلافٌ شاذٌّ ـ لا يُعتدُّ به؛ لأنه مخالفٌ لنصِّ الحديث ـ عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات: أنه لا يَلزمه قضاء[1].

قلت: أمَرَ اللهُ تعالى بإقامة الصلاة، وَنَصَّ على أوقاتٍ معيَّنة، فقال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] الآية، وغيرها من الآي. ومن أقام بالليل ما أُمر بإقامته بالنهار، أو بالعكس؛ لم يكن فِعْلُه مطابقاً لِما أُمِرَ به، ولا ثوابَ له على فِعْله، وهو عاصٍ؛ وعلى هذا الحدّ كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته. ولولا قولُه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ نامَ عن صلاة أو نَسِيَها فَلْيُصَلِّها إذا ذَكَرها» لم ينتفِعْ أحدٌ بصلاةٍ وقعت في غير وقتها، وبهذا الاعتبار كان قضاءً لا أداء؛ لأن القضاء بأمر مُتجدِّد وليس بالأمر الأول.

الثالثة: فأمَّا مَن ترك الصلاةَ متعمداً، فالجمهور أيضاً على وجوب القضاء عليه، وإن كان عاصياً، إلا داود. ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعري الشافعي[2]، حكاه عنه ابن القصَّار. والفرق بين المُتعمِّد والناسي والنائم، حطُّ المَأْثَم، فالمُتعمِّد مأثومٌ، وجميعهم قاضون. والحُجَّة للجمهور قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، ولم يُفرِّق بين أن يكون في وقتها أو بعدها. وهو أمرٌ يقتضي الوجوب.

وأيضاً فقد ثبت الأمرُ بقضاء النائم والناسي، مع أنهما غير مُؤَثَّمَيْن[3]، فالعامدُ أولى. وأيضاً قوله: «من نام عن صلاة أو نسيها» والنِّسيان: الترك، قال الله تعالى:

---

(١) المفهم ٢/ ٣٠٩.

(٢) المفهم ٢/ ٣٠٩، وينظر إكمال المعلم ٢/ ٦٧٠.

(٣) في (خ) و(د) و(ف) و(م): مأثومين، والمثبت من (ظ) والمفهم ٢/ ٣٠٩ والكلام منه.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] و﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، سواء كان مع ذهول أو لم يكن؛ لأن اللهَ تعالى لا يَنْسى، وإنما معناه: تركهم وقال: ﴿مَا نَنْسَخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَاهَا﴾[1] [البقرة:١٠٦] أي: نتركها.

وكذلك الذِّكر يكون بعد نسيان وبعد غيره. قال الله تعالى: «مَن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي»[2]. وهو تعالى لا ينسى فيكون ذكره بعد نسيان، وإنما معناه: عَلِمتُ. فكذلك يكون معنى قوله: «إذا ذكرها» أي: عَلِمَها.

وأيضاً؛ فإن الديون التي للآدميين إذا كانت متعلِّقةً بوقت، ثم جاء الوقت لم يسقطْ قضاؤها بعد وجوبها، وهي مما يُسقِطُها الإبراءُ كان في ديون الله تعالى ألا يصحَّ فيها الإبراءُ أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذنٍ منه[3]. وأيضاً؛ فقد اتفقنا أنه لو ترك يوماً من رمضان متعمداً بغير عذر؛ لوجب قضاؤه، فكذلك الصلاة.

فإن قيل: فقد رُوي عن مالك: من ترك الصلاة متعمداً لا يقضي أبداً[4]. فالإشارة إلى أن ما مضى لا يعود، أو يكون كلاماً خرج على التغليظ، كما رُوي عن ابن مسعود وعليٍّ: أن مَن أفطر في رمضان عامداً لم يكفِّره صيام الدهر وإن صامه[5]. ومع هذا فلابدَّ من توفية التكليف حقَّه بإقامة القضاء مقامَ الأداء، وإتباعه بالتوبة، ويفعل اللهُ بعدَ ذلك ما يشاء.

وقد روى أبو المُطَوِّس، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن

(١) هي قراءة شاذة، ذكرها أبو حيان في البحر ١/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٨٦٥٠) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أحمد (٧٤٢٢)، والبخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عنه مطولاً بلفظ «يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي...» اللفظ للبخاري.

(٣) المفهم ٢/ ٣١٠ بنحوه.

(٤) قال ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٢٤٦ (والكلام منه): نسبوا ذلك إلى مالك، وحاشاه من ذلك.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ١٠٥ - ١٠٦ عنهما، وعلقه البخاري قبل الحديث (١٩٣٥) عن ابن مسعود ﷺ.

أفطر يوماً من رمضان مُتعمِّداً لم يجزِه صيامُ الدهر وإنْ صامه». وهذا يَحتمِلُ أن لو صحَّ كان معناه التغليظ، وهو حديثٌ ضعيفٌ خرجه أبو داود[١]. وقد جاءت الكفارة بأسانيد[٢] صحاح، وفي بعضها قضاءُ اليوم، والحمد للهِ تعالى.

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ نامَ عن صلاة أو نَسِيَها» الحديث، يُخصص عمومَ قوله عليه الصلاة والسلام: «رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ»[٣] والمراد بالرفع هنا رفعُ المأثَمِ، لا رفع الفرض عنه، وليس هذا من باب قوله: «وعن الصبيِّ حتى يحتلمَ»[٤] وإن كان ذلك جاء في أثرٍ واحد، فَقِفْ على هذا الأصل[٥].

الخامسة: اختلف العلماءُ من[٦] هذا المعنى فيمن ذكَر صلاةً فائتةً وهو في آخر وقت صلاة، أو ذكر صلاةً وهو في صلاة، فجملةُ مذهبِ مالك: أنَّ من ذكَر صلاةً وقد حضَر وقتُ صلاةٍ أُخرى، بدأ بالتي نَسِيَ إذا كان خمسَ صلواتٍ فأدنى، وإن فات وقتُ هذه. وإن كان أكثرَ من ذلك بدأ بالتي حضر وقتُها، وعلى نحو هذا مذهبُ أبي حنيفة والثوريِّ والليث، إلا أن أبا حنيفة وأصحابَه قالوا: الترتيبُ عندنا واجبٌ

---

(١) برقم (٢٣٩٦)، وأخرجه أحمد (٩٠١٤)، والترمذي (٧٢٣)، والنسائي في الكبرى (٣٢٦٥)، وعلّقه البخاري قبل الحديث (١٩٣٥) فقال: ويذكر عن أبي هريرة، رفعه: «من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا مرض لم يقضه صيام الدهر وإن صامه». قال الترمذي: حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وسمعت محمداً «يعني البخاري» يقول: أبو المطوِّس اسمه يزيد بن المطوس، ولا أعرف له غير هذا الحديث. قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٤/ ١٦١ : ..فيه ثلاث علل: الاضطراب، والجهل بحال أبي المطوِّس، والشك في سماع أبيه من أبي هريرة.

(٢) في (ظ): بأحاديث. والكلام من التمهيد ٧/ ١٧٣ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٦٩٤)، وأبو داود (٤٣٩٨)، والنسائي ٦/ ١٥٦ من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد (٩٤٠) من حديث علي ﷺ.

(٤) قطعة من الحديث السالف.

(٥) التمهيد ٦/ ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٦) في (د) و(م): في، والمثبت من (خ) و(ز) و(ف)، وفي (ظ): قال العلماء في هذا المعنى..

في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سَعةٌ للفائتة ولصلاة الوقت. فإن خَشِيَ فواتَ [صلاة] الوقت بدأ بها، فإنْ زاد على صلاة يومٍ وليلة لم يجب الترتيب عندهم. وقد رُوِيَ عن الثوريِّ وجوب الترتيب، ولم يفرِّق بين القليل والكثير. وهو تحصيلُ مذهب الشافعي. قال الشافعيُّ: الاختيارُ أن يبدأ بالفائتة ما لم يَخَفْ فواتَ هذه، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه. وذكر الأثرم أن الترتيبَ عند أحمد واجبٌ في صلاة ستين سنة وأكثر. وقال: لا ينبغي لأحدٍ أن يُصلِّي صلاةً وهو ذاكرٌ لِما قبلها لأنها تفسد عليه[(١)].

وروى الدَّارَقُطْنيُّ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام: «إذا ذكَر أحدُكم صلاةً وهو في صلاة مكتوبة فليبدَأْ بالتي هو فيها، فإذا فَرَغَ منها، صلَّى التي نَسِيَ». وعمرُ بن أبي عمر مجهول[(٢)].

قلت: وهذا لو صحَّ كانت حُجَّةً للشافعي في البُداءة بصلاة الوقت. والصحيح ما رواه أهلُ الصحيحِ[(٣)] عن جابر بن عبد الله: أنَّ عمر بن الخطاب يومَ الخندق جعل يَسبُّ كفارَ قريش، وقال: يا رسولَ اللهِ، واللهِ ما كدتُ أن أصليَ العصرَ حتى كادت أن تغربَ الشمسُ[(٤)]، فقال رسولُ الله ﷺ: «فواللهِ، إنْ صَلَّيتُها». فنزلنا بُطحانَ، فتوضأ رسولُ الله ﷺ، وتوضَّأنا، فصلَّى رسولُ الله ﷺ العصرَ بعد ما غَرَبَتِ الشمسُ، ثم صلَّى بعدها المغربَ.

وهذا نصٌّ في البُداءة بالفائتة قبل الحاضرة، ولا سيَّما والمغرب وقتُها واحدٌ

---

(١) التمهيد ٦/ ٤٠٤ ، وما بين حاصرتين منه.

(٢) سنن الدارقطني (١٥٥٨)، ولفظه عنده: «إذا نسي أحدكم صلاة، فذكرها وهو في صلاة مكتوبة..» وعمر بن أبي عمر ـ وهو الكَلاعي ـ أحد رجال الإسناد.

(٣) صحيح البخاري (٥٩٦) و(٩٤٥)، ومسلم (٦٣١)، وسلف ٧/ ١٠٥ .

(٤) في (د) و(ظ) و(م): حتى كادت الشمس تغرب، والمثبت من (خ) و(ز) و(ف)، هو الموافق لصحيح مسلم، واللفظ له.

مضيَّق غير ممتدٍ في الأَشهر عندنا وعند الشافعي كما تقدَّم. وقد روى الترمذيُّ عن أبي عُبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه: أنَّ المشركين شغَلوا رسولَ اللهِ ﷺ عن أربع صلواتٍ يومَ الخندق، حتى ذهب من الليل ما شاء اللهُ تعالى، فأَمَر بالأذان بلالاً فقَام فأذَّن، ثم أقام فصلَّى الظهْرَ، ثم أقام فصلَّى العصرَ، ثم أقام فصلَّى المغربَ، ثم أقام فصلَّى العشاء[1].

وبهذا استدلَّ العلماء على أنَّ مَن فاتته صلوات[2]؛ قضاها مرتَّبةً كما فاتته إذا ذكرها في وقتٍ واحد.

واختلفوا إذا ذكَر فائتةً في ضيق[3] وقتِ حاضرة على ثلاثة أقوال: يبدأ بالفائتة وإنْ خرَج وقتُ الحاضرةِ، وبه قال مالكٌ والليث والزهريُّ وغيرهم كما قدَّمناه. الثاني: يبدأ بالحاضرة، وبه قال الحسن والشافعيُّ وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبي وابن وهبٍ من أصحابنا. الثالث: يَتخيَّر فيقدِّم أيتَهما شاء، وبه قال أشهب[4].

وجه الأول: كثرة الصلوات، ولا خلافَ أنه يبدأ بالحاضرة مع الكَثْرة؛ قاله القاضي عياض[5]. واختلفوا في مقدار اليسير؛ فعن مالك: الخمس فدون، وقد قيل: الأربع فدون لحديث جابر. ولم يختلف المذهب أن السِّتَّ كثيرٌ.

السادسة: وأما مَن ذكَر صلاةً وهو في صلاة، فإن كان وراء الإمام فكلُّ مَن قال

---

(١) سنن الترمذي (١٧٩)، وهو عند أحمد (٣٥٥٥)، والنسائي ٢/ ١٧ - ١٨ قال الترمذي: حديث عبد الله ليس بإسناده بأس، إلا أن أبا عُبيدة لم يسمع من عبد الله. وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ﷺ عند أحمد (١١١٩٨)، والنسائي ٢/ ١٧ .

(٢) في (د) و(م): صلاة.

(٣) في (د) و(م): مضيق.

(٤) المفهم ٢/ ٢٥٧ دون ذكر المحاسبي.

(٥) في إكمال المعلم ٢/ ٥٩٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المفهم ٢/ ٢٥٧ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

بوجوب الترتيب ومن لم يقل به، يقول: يتمادَى مع الإمام حتى يُكمل صلاتَه[١].

والأصل في هذا ما رواه مالكٌ والدارقطني[٢]، عن ابن عمر قال: إذا نَسِيَ أحدُكم صلاةً فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام؛ فَلْيُصلِّ مع الإمام، فإذا فرغَ من صلاته، فليصلِّ الصلاةَ التي نَسِيَ، ثم ليعِدْ صلاتَه التي صلَّى مع الإمام. لفظ الدارقطني؛ وقال: قال موسى بن هارون: وحدثناه أبو إبراهيم التَّرْجُمانيُّ، قال: حدثنا سعيد [به] ورفعه إلى النبي ﷺ ووَهِمَ في رفعه، فإن كان قد رجَع عن رَفْعه فقد وفِّق للصواب.

ثم اختلفوا، فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: يُصلِّي التي ذكر، ثم يُصلِّي التي صلَّى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثرُ من خمس صلوات، على ما قدمنا ذِكْره عن الكوفيين. وهو مذهب جماعةٍ من أصحاب مالك المدنيين.

وذكر الخِرَقيُّ عن أحمد بن حنبل أنه قال: من ذكر صلاةً وهو في أخرى أنه يُتمُّها ويقضي المذكورةَ، وأعاد التي كان فيها إذا كان الوقت مُبقى[٣]، فإن خشيَ خروجَ الوقت وهو فيها أَعتقدُ ألَّا يُعيدُها، وقد أجزأته، ويقضي التي عليه.

وقال مالك: من ذكر صلاةً وهو في صلاة قد صلَّى منها ركعتين سَلَّم من ركعتيه، فإن كان إماماً انهدمت عليه وعلى من خلْفه وبطلت. هذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك؛ لأن قوله: فيمن ذكر صلاةً في صلاة قد صلى منها ركعة أنه يُضيف إليهاأُخرى ويُسلِّم. ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاثَ ركعات أضاف إليها رابعة وسلَّم، وصارت نافلة غير فاسدة، ولو انهدمت عليه كما ذكر وبطلت لم يُؤمَر أن يضيف إليها أخرى، كما لو أحدث بعد ركعة لم يُضِفْ إليها أخرى[٤].

---

(١) التمهيد ٦/ ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٢) الموطأ ١/ ١٦٨ ، وسنن الدارقطني (١٥٥٩) و(١٥٦٠)، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): واسعاً، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق للتمهيد ٦/ ٤٠٦ ، والكلام منه.

(٤) الكافي ١/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

السابعة: روى مسلمٌ عن أبي قَتادة قال: خطبَنا رسولُ الله ﷺ. فذكر حديثَ المِيْضأة بطوله، وقال فيه: ثم قال: «أَمَا لكم فيَّ أُسوة». ثم قال: «أَمَا إنه ليس في النوم تفريطٌ، إنما التفريط على مَن لم يُصَلِّ الصلاةَ حتى يَجيء وقتُ الصلاة الأُخرى، فمن فعَل ذلك فَلْيصلِّها حين ينتبهُ لها، فإذا كان الغد فَلْيُصلِّها عند وقتها». وأخرجه الدارقطنيُّ هكذا بلفظ مسلم سواء(١).

فظاهره يقتضي إعادةَ المَقضية مرتين؛ عند ذكرها وحضورِ مثلها من الوقت الآتي؛ ويعضد هذا الظاهرَ ما خرجه أبو داود من حديث عِمران بن حُصَين، وذكر القصة وقال في آخرها: «فمن أدركَ منكم صلاةَ الغَداة من غدٍ صالحاً فَلْيقضِ معها مثلَها»(٢).

قلت: وهذا ليس على ظاهره، ولا تُعاد غير مرة واحدة؛ لِما رواه الدارقطنيُّ عن عِمران بن حصين قال: سَرينا مع رسولِ اللهِ ﷺ في غَزاةٍ ـ أو قال في سريَّة ـ فلما كان وقتُ السَّحَر عَرَّسْنا، فما استيقظنا حتى أيقظَنا حَرُّ الشمسِ، فجعل الرَّجل منا يَثِب فَزِعاً دَهِشاً، فلما استيقظ رسولُ الله ﷺ أمرَنا فارتحلنا، ثم سِرنا حتى ارتفعت الشمسُ، فقضى القومُ حوائجَهم، ثم أمر بلالاً فأذَّن، فصلَّينا ركعتين، ثم أمره فأقام فصلَّينا الغَداة، فقلنا: يا نبيَّ اللهِ، ألا نَقضيها لوقتها من الغد؟ فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «أينهاكم اللهُ عن الرِّبا ويقبلُه منكم؟»(٣).

وقال الخطّابي(٤): لا أعلمُ أحداً قال بهذا وجوباً، ويُشبه أن يكون الأمر به استحباباً لِيُحرِزَ فضيلةَ الوقتِ في القضاء.

---

(١) صحيح مسلم (٦٨١)، وسنن الدارقطني (١٤٤٢)، وهو في مسند أحمد (٢٢٥٤٦).

(٢) المفهم ٢/٣١٦، والحديث في سنن أبي داود (٤٣٨) من حديث أبي قتادة ﷺ، أما حديث عمران بن حصين ﷺ عند أبي داود (٤٤٣) فليس فيه هذا اللفظ.

(٣) سنن الدارقطني (١٤٤١)، وهو في مسند أحمد (١٩٩٦٤).

(٤) في معالم السنن ١/١٣٩، ونقله المصنف عنه بواسطة المفهم ٢/٣١٦-٣١٧، والكلام منه.

والصحيحُ تركُ العملِ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أينهاكم اللهُ عن الرِّبا ويقبلُه منكم» ولأن الطُّرق الصحاحَ من حديث عِمران بن حُصَين ليس فيها من تلك الزيادة شيءٌ، إلا ما ذكر من حديث أبي قتادة وهو مُحتمِل كما بيَّنَّاه.

قلت: ذكر الكيا الطبريُّ في «أحكام القرآن»[١] له أنَّ من السلف مَن خالف قولَه عليه الصلاة والسلام: «مَن نَسِيَ صلاةً فَلْيصلِّها إذا ذكَرها، لا كفارةَ لها إلا ذلك»[٢] فقال: يصبر إلى مثل وقتِه فَلْيُصَلِّ، فإذا فات الصبحُ فليصل من الغد. وهذا قولٌ بعيد شاذٌّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ آيةٌ مشكلة؛ فرُوي عن سعيد بن جُبير أنه قرأ: «أَكَادُ أَخْفِيهَا» بفتح الهمزة، قال: أُظهرها. «لِتُجْزَىٰ» أي: الإظهارُ للجزاء؛ رواه أبو عُبيد، عن الكسائي، عن محمد بن سهل، عن وِقَاء ابن إياس، عن سعيد بن جُبير. وقال النحاس[٣]: وليس لهذه الرواية طريقٌ غير هذا.

قلت: وكذا رواه أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردّ»: حدثني أبي، حدثنا محمد ابن الجهم، حدثنا الفراء[٤]، حدثنا الكسائيُّ (ح) وحدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يوسف، حدثنا يحيى الحِمانيُّ، حدثنا محمد بن سهل.

قال النحاس[٥]: وأجودُ من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطّان، عن الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبير أنه قرأ: «أَكَادُ أُخْفيها» بضم الهمزة.

---

(١) ٣/ ٢٧٤.

(٢) هو عند أحمد (١٣٨٤٨)، والبخاري (٥٩٧) ومسلم (٦٨٤) من طريق همام بن يحيى، عن قتادة، عن أنس ﷺ، وقد أشار إليه المصنف في المسألة الثانية.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥، وما قبله منه. وقراءة سعيد بن جبير ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٧، وابن جني في المحتسب ٢/ ٤٧.

(٤) معاني القرآن له ٢/ ١٧٦.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥.

قلت: وأما قراءة ابنِ جُبير «أَخْفِيهَا» بفتح الهمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنباري: قال الفراء[١]: معناه: أُظهرها، من خَفيتُ الشيءَ أَخفيه: إذا أظهرتَه. وأنشد الفراء لامرئ القيس:

فإنْ تَدفِنُوا الدَّاءَ لا نَخْفِهِ وإنْ تَبعثُوا الحربَ لا نَقعُدِ[٢]

أراد: لا نُظهره، وقد قال بعض اللغويين: يجوز أن يكون «أُخْفِيهَا» بضم الهمزة معناه: أُظهرها؛ لأنه يقال: خَفيتُ الشيء وأَخفيته: إذا أظهرتَه؛ فأَخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار. وقال أبو عُبيدة[٣]: خَفيت وأَخفيت بمعنى واحد.

النحاس: وهذا حسن، وقد حكاه عن أبي الخَطَّاب، وهو رئيسٌ من رؤساء اللغةِ لا يُشكُّ في صدقه، وقد روى عنه سيبويه وأنشد:

وإنْ تَكتُموا الداءَ لا نُخْفِهِ وإنْ تَبعثُوا الحربَ لا نَقعُدِ

كذا رواه أبو عُبيدة، عن أبي الخطَّاب بضم النون.

وقال امرؤ القيس أيضاً:

خَفَاهنَّ من أنفاقِهنَّ كأنما خَفاهنَّ وَدْقٌ من عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

أي: أَظهرَهُنَّ[٤].

وروي: «من سحاب مركَّب» بدل: «من عَشيٍّ مجلِّب»[٥].

قال أبو بكر الأنباريُّ: وتفسيرٌ للآية آخرُ: «إنَّ الساعةَ آتيةٌ أكاد» انقطع الكلام

---

(١) في معاني القرآن ٢/١٧٦، وينظر الأضداد لابن الأنباري ص٩٦.

(٢) ديوان امرئ القيس ص١٨٦.

(٣) في مجاز القرآن ٢/١٦ بمعناه. وينظر الكلام الذي قبله فيه.

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/١٦ - ١٧، والبيت في ديوان امرئ القيس ص٥١. قال شارحه: الوَدْق: المطر، وخص مطر العشيّ لأنه أغزر. والمُجلِّب: الذي تسمع له جَلَبة؛ لشدة وقعه.

(٥) ذكر هذه الرواية الأزهري في تهذيب اللغة ٧/٥٩٦.

على «أكاد» وبعده مضمر: أكاد، آتي بها، والابتداء: «أُخفيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ». قال ضابئ البُرْجميُّ:

هَمَمْتُ ولم أَفعلْ وكِدتُ وليتَنِي تَركتُ على عثمانَ تَبْكي حَلَائِلُهْ

أراد: وكدت أفعل[1]، فأضمر مع «كدت» فعلاً كالفعل المضمر معه في القرآن.

قلت: هذا الذي اختاره النحاس[2]، وزيَّف القولَ الذي قبله، فقال: يقال: خَفَى الشيءَ يَخفيه: إذا أَظهره، وقد حُكِيَ أنه يقال: أخفاه أيضاً: إذا أظهره، وليس بالمعروف، قال: وقد رأيتُ علي بنَ سليمان لمَّا أشكل عليه معنى «أُخْفِيها» عدَل إلى هذا القول، وقال: معناه كمعنى «أَخْفيها».

قال النحاس: ليس المعنى على أُظهرها، ولا سيما و«أَخْفيها» قراءةٌ شاذة، فكيف تردُّ القراءة الصحيحة الشائعةُ إلى الشاذة، ومعنى المُضمر أولى، ويكون التقدير: إن الساعةَ آتيةٌ أكاد آتي بها؛ ودلَّ «آتية» على آتي بها، ثم قال: «أُخْفيها» على الابتداء. وهذا معنى صحيحٌ؛ لأن الله عزَّ وجلَّ قد أخفى الساعةَ التي هي القيامة، والساعةَ التي يموت فيها الإنسانُ؛ ليكون الإنسانُ يعمل والأمر عنه مبهمٌ، ولا يؤخِّر التوبةَ.

قلت: وعلى هذا القول تكون اللام في «لِتجزى» متعلقةٌ بـ «أُخفِيها».

وقال أبو علي[3]: هذا من باب السَّلب، وليس من باب الأضداد، ومعنى «أُخفِيها»: أُزيل عنها خفاءَها، وهو سترها، كخِفاء الأخفية ـ وهي: الأكسية ـ والواحد خِفاء، بكسر الخاء: ما تُلَفُّ به القِربة، وإذا زال عنها سترها ظهرت. ومن

(١) الكلام بنحوه في الأضداد لابن الأنباري ص٩٦ - ٩٧ ، ونقله عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٣٩٧ ، والبيت سلف ١١/ ٣١١ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٣٥ .

(٣) ذكره عنه ابن جني في المحتسب ٢/ ٤٧ ، والطبرسي في مجمع البيان ١٦/ ٨٧ .

هذا قولهم: أشكيته، أي: أزلت شكواه، وأعديته، أي: قبلت استعداءه، ولم أُحوجه إلى إعادته.

وحكى أبو حاتم عن الأخفش: أن «كاد» زائدة مُؤَكِّدة. قال: ومثله ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النور: ٤٠]، لأن الظُّلماتِ التي ذكرَها اللهُ تعالى بعضُها يحول بين الناظر والمنظور إليه. ورويَ معناه عن ابن جُبير[١]، والتقدير: إنَّ الساعةَ آتيةٌ أُخفيها لِتُجزى كلُّ نفس بما تسعى. وقال الشاعر:

سريعٌ إِلى الهيجاءِ شاكٍ سِلاحُهُ فما إِنْ يَكادُ قِرْنُهُ يَتنفَّسُ

أراد: فما يَتنفَّس[٢].

وقال آخر:

وألَّا ألومُ النفسَ فيما أصابني وألَّا أكادُ بالذي نِلتُ أَنجحُ

معناه: وألا أنجحُ بالذي نِلتُ؛ فأكاد توكيدٌ للكلام[٣].

وقيل: المعنى «أَكَادُ أُخۡفِيهَا» أي: أُقارب ذلك؛ لأنك إذا قلت: كاد زيدٌ يقوم، جاز أن يكون قام، وأن يكون لم يقم. ودلَّ على أنه قد أخفاها بدلالةٍ غير هذه على هذا الجواب[٤].

قال اللغويون: كِدْتُ أفعلُ، معناه عند العرب: قاربتُ الفعلَ ولم أفعل، وما كدت أفعل معناه: فعلت بعد إبطاءٍ. وشاهِدُه قولُ اللهِ عزّت عَظَمتُه: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، معناه: وفعلوا بعد إبطاءٍ؛ لِتعذُّر وُجدانِ البقرة عليهم.

---

(١) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٢٠.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٦/ ٣٩، والأضداد لابن الأنباري ص٩٧، والمحتسب ٢/ ٤٨، والبيت لزيد الخيل الطائي، وهو في ديوانه ص٧٤.

(٣) الأضداد لابن الأنباري ص٩٧ - ٩٨، والبيت لتميم بن مقبل، وهو في ديوانه ص٢٤، وفيه: أفرح، بدل: أنجح، وفي الأضداد: أبجح. ومعناها: أفرح.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦.

وقد يكون: ما كدتُ أفعل بمعنى: ما فعلت ولا قاربت إذا أكَّد الكلام بأكاد.

وقيل: معنى «أَكَادُ أُخْفِيها»: أُريد أُخفيها. قال الأنباري: وشاهدُ هذا قولُ الفصيح من الشعر:

كـادتْ وكِـدتُ وتِـلـكَ خـيـرُ إرادةٍ لـو عـادَ من لَـهْـوِ الـصَّـبابـةِ مـا مَـضـى

معناه: أرادتْ وأردتُ[1].

وقال ابن عباس[2] وأكثرُ المفسرين فيما ذكر الثعلبي: إن المعنى أكاد أُخفيها من نفسي، وكذلك هو في مصحف أُبيٍّ. وفي مصحف ابن مسعود: أكاد أُخفيها من نفسي، فكيف يَعلمها مخلوقٌ. وفي بعض القراءات: فكيف أُظهرها لكم؟. وهو محمولٌ على أنه جاء على ما جرتْ به عادةُ العرب في كلامها، من أن أحدَهم إذا بالغ في كِتمان الشيء قال: كِدتُ أُخفيه من نفسي. والله تعالى لا يَخفى عليه شيءٌ[3]، قال معناه قطرب[4] وغيره. وقال الشاعر:

أيـامَ تَـصـحـبـنـي هـنـدٌ وأُخـبـرُهَـا ما أَكتُم النفسَ من حَاجِي وأَسْرَارِي[5]

فكيف يُخبرها بما تكتُم نفسُه؟ ومن هذا الباب قولُه ﷺ: «ورجل تصدَّق بصدقةٍ، فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُه ما تُنفِقُ يمينُه»[6].

---

(١) الأضداد لابن الأنباري ص٩٨، وينظر الكلام الذي قبله فيه وفي تفسير الطبري ١٦/ ٣٩، وزاد المسير ٥/ ٢٧٦.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٤، وقراءة أُبيّ وابن مسعود رضي الله عنهما ذكرهما أيضاً الرازي في تفسيره ٢٢/ ٢٢.

(٤) ذكره عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠٣.

(٥) أورده أبو حيان في البحر ٦/ ٢٣٣، وعجز البيت عنده: ما كدتُ أكتمه عني من الخبر.

(٦) أخرجه أحمد (٩٦٦٥)، والبخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو قطعة من حديث: «سبعة يُظلُّهم الله في ظِلِّه..».

الزمخشريُّ[١]: وقيل: معناه: أكاد أُخفيها من نفسي، ولا دليلَ في الكلام على هذا المحذوف؛ ومحذوفٌ لا دليلَ عليه مُطَّرح، والذي غرَّهم منه أن في مصحف أُبَيّ: أكاد أُخفيها من نفسي؛ وفي بعض المصاحف: أكاد أُخفيها من نفسي، فكيف أُظهركم عليها؟.

قلت: وقيل: إن معنى قولِ من قال: أكاد أُخفيها من نفسي، أي: إنَّ إخفاءها كان من قِبَلي، ومن عندي، لا من قِبَل غيري. وروي عن ابن عباس أيضاً: أكاد أُخفيها من نفسي[٢]، ورواه طلحةُ بن عمرو عن عطاء. وروى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: لا أُظهر عليها أحداً[٣]. وروي عن سعيد بن جبير قال: قد أخفاها. وهذا على أن كاد زائدة. أي: إن الساعةَ آتيةٌ أُخفيها، والفائدةُ في إخفائها التخويف والتهويل[٤].

وقيل: تعلّق «لِتُجزى» بقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: أَقِمِ الصلاةَ لِتذكُرني ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي: بِسعيها ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾. واللهُ أعلم. وقيل: هي مُتعلِّقة بقوله: «آتيةٌ»، أي: إنَّ الساعةَ آتيةٌ لِتُجزى[٥].

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: لا يصرفنَّك عن الإيمان بها والتصديق لها ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فَتهْلِكَ. وهو في موضع نصب بجواب النهي[٦].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٢ .

(٢) سلف قريباً.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٤ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٠٤ ، وزاد المسير ٥/ ٢٧٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦ بمعناه.

(٦) البيان لابن الأنباري ٢/ ١٤٠ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ قيل: كان هذا الخطابُ من الله تعالى لموسى وحياً؛ لأنه قال: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [الآية:١٣]. ولابدَّ للنبيِّ في نفسه من معجزة يَعلم بها صحَّةَ نبوَّةِ نفسِه، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراه لذلك. ويجوز أن يكون ما أراه في الشجرة آيةً كافيةً له في نفسه، ثم تكون اليدُ والعصا زيادةَ توكيد، وبرهاناً يلقى به قومَه.

واختُلف في قوله: «وَمَا تِلْكَ»[(١)]، فقال الزجَّاج والفرَّاء[(٢)]: هي[(٣)] اسمٌ ناقص وُصلت بـ «يمينك»، أي: ما التي بيمينك؟ وقال أيضاً[(٤)]: «تلك» بمعنى هذه. ولو قال: ما ذلك، لجاز، أي: ما ذلك الشيء. ومقصود السؤال تقريرُ الأمر حتى يقولَ موسى: هي عصاي؛ لِيُثبتَ الحُجَّةَ عليه بعد ما اعترف، وإلَّا فقد علم اللهُ ما هي في الأزل[(٥)].

قال ابن الجوهري[(٦)]: وفي بعض الآثار: إنَّ الله تعالى عَتَبَ على موسى إضافةَ العصا إلى نفسه في ذلك الموطن، فقيل له: أَلْقِها لِترى منها العَجَب، فتعلمَ أنه لا مِلكَ لك عليها، ولا تُضافُ إليك.

---

(١) في (د) و(م): واختلف في «ما» في قوله: «وما تلك»، وفي (خ) و(ز): واختلف في قوله في تلك في قوله: «وما تلك» والمثبت من (ظ) و(ف).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٧٧ ، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٣ - ٣٥٤ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٦ .

(٣) يعني: تلك.

(٤) هو الفراء.

(٥) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٤ .

(٦) هو أبو الفضل الجوهري، وكلامه في المحرر الوجيز ٤/ ٤١ .

وقرأ ابن أبي إسحاق: «عَصَيَّ» على لغة هُذيل[١]؛ ومثلُه: «يا بُشْرَيَّ» و«مَحْيَيَّ» وقد تقدَّم[٢]. وقرأ الحسن: «عَصَايِ» بكسر الياء؛ لالتقاء الساكنين. ومثلُ هذا قراءةُ حمزة: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وعن ابن أبي إسحاق سكونُ الياء[٣].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على جواب السؤال بأكثرَ مما سُئل؛ لأنه لمَّا قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ذكر معانيَ أربعةً، وهي: إضافةُ العصا إليه ـ وكان حقُّه أن يقول: عصا ـ والتوكُّؤ، والهَشُّ، والمآربُ المُطلَقة[٤]. فذكر موسى من منافع عصاه عُظْمَها وجمهورَها، وأجملَ سائرَ ذلك[٥]. وفي الحديث: سُئل النبيُّ ﷺ عن ماء البحر فقال: «هو الطَّهورُ ماؤه، الحِلُّ مَيتتُه»[٦]. وسألته امرأةٌ عن الصغير حين رفعته إليه فقالت: ألهذا حجٌّ؟ قال: «نعم، ولكِ أجرٌ»[٧]. ومثلُه في الحديث كثير.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ أي: أتحامَلُ عليها في المشي والوقوف، ومنه الاتِّكاء.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ «وأَهِشُّ» أيضاً؛ ذكره النحاس[٨]. وهي قراءة النَّخَعي[٩]، أي: أَخبِط بها الورق، أي: أَضرِبُ أغصانَ الشجر ليسقطَ ورقُها، فيسهلَ على غنمي تناولُه، فتأكله. قال الراجز:

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٧، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٤، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١.

(٢) ١١/ ٢٩٢ - ٢٩٣ و ٩/ ١٣٩.

(٣) قراءة حمزة في السبعة ص٣٦٢، والتيسير ص١٣٤، وقراءة الحسن وقراءة ابن أبي إسحاق في المحتسب ٢/ ٤٨ - ٤٩.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤١.

(٦) سلف ٨/ ٢١٢.

(٧) أخرجه أحمد (٢١٨٧)، ومسلم (١٣٣٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦.

(٩) المحتسب ٢/ ٥٠.

أَهُشُّ بالعصا على أَغْنامي ... من ناعم الأراك والبَشَامِ[(١)]

يقال: هَشَّ على غنمه يَهُشُّ، بضمِّ الهاء في المستقبل. وهشَّ إلى الرجل يَهَشّ، بالفتح. وكذلك هشَّ للمعروف يَهَشُّ، وهَشِشتُ أنا. وفي حديث عمر: هَشِشْتُ يوماً، فقبَّلتُ وأنا صائم[(٢)]. قال شَمِر: أي: فرحتُ واشتهيتُ. قال: ويجوز: هَاشَ بمعنى: هَشَّ[(٣)]. قال الراعي:

فكَبَّرَ للرؤيا وهاشَ فؤادُهُ ... وبشَّر نفساً كان قبلُ يلومُها[(٤)]

أي: طَرِب. والأصل في الكلمة: الرّخاوة. يقال: رجلٌ هَشٌّ، وجوز هَشٌّ[(٥)].

وقرأ عكرمة: «وأَهُسُّ» بالسِّين غير معجمة[(٦)]، قيل: هما لغتان بمعنًى واحد. وقيل: معناهما مختلف؛ فالهشُّ بالإعجام: خَبْطُ الشجر، والهسُّ بغير إعجام: زَجْر الغنم؛ ذكره الماوردي[(٧)] وكذلك ذكر الزمخشري[(٨)].

وعن عكرمة: «وأَهُشُّ» بالشين[(٩)]، أي: أنحني[(١٠)] عليها زاجراً لها. والهَسُّ[(١١)]: زَجْر الغنم.

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ١٧، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٣، والنكت والعيون ٣/ ٣٩٩. والبَشام: شجر عَطِر الرائحة، ورقه يُسوِّد الشَّعر، ويُستاك بقُضُبه. القاموس (بشم).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٨)، وأبو داود (٢٣٨٥)، والنسائي (٣٠٣٦).

(٣) نقله عنه في اللسان (هشش).

(٤) ديوان الراعي ص٢٥٩.

(٥) في (م): وزوج هش.

(٦) القراءات الشاذة ص٨٧، والمحتسب ٢/ ٥٠.

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٣٩٩.

(٨) في الكشاف ٢/ ٥٣٣.

(٩) في (خ) و(ز) و(ظ) و(م): وأهس بالسين، والمثبت من (د)، وكذا قيَّدها السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٢٥: بضم الهاء وتخفيف الشين. ثم قال: ولا أعرف لها وجهاً إلا أن يكون قد استثقل التضعيف مع تفشي الشين فخفف، وهي بمعنى قراءة العامة.

(١٠) في (د): امحى عنها، وفي (م): أنحى عليها.

(١١) في (د) و(ظ): والهش.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: حوائجُ. واحدها: مَأْرُبة ومَأْرَبة ومَأْرِبة. وقال: «أُخرى» على صيغة الواحد؛ لأنَّ «مآرب» في معنى الجماعة، لكن المَهْيَع[1] في توابع جمعِ ما لا يَعقِل الإفرادُ، والكنايةُ عنه بذلك، فإنَّ ذلك يجري مَجرى الواحدةِ المؤنثة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وكقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وقد تقدَّم هذا في «الأعراف»[2].

الخامسة: تعرَّض قومٌ لتعديد منافعِ العصا، منهم ابنُ عباس، قال: إذا انتهيتُ إلى رأس بئرٍ فقَصُر الرِّشاءُ؛ وصلتُه بالعصا، وإذا أصابني حرُّ الشمس؛ غرزتُها في الأرض وألقيتُ عليها ما يُظِلُّني، وإذا خِفتُ شيئاً من هوامِّ الأرض؛ قتلتُه بها، وإذا مشيتُ؛ ألقيتُها على عاتقي، وعلَّقت عليها القوسَ والكِنانة والمِخْلاة، وأُقاتل بها السِّباعَ عن الغنم[3].

وروى عنه ميمون بنُ مِهْران قال: إمساك العصا سُنَّةٌ للأنبياء، وعلامةٌ للمؤمن. وقال الحسن البصري: فيها سِتُّ خِصال: سنةُ الأنبياء[4]، وزينةُ الصُّلَحاء، وسلاحٌ على الأعداء، وعونٌ للضعفاء، وغمٌّ للمنافقين، وزيادة في الطاعات. ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهربُ منه الشيطان، ويخشعُ منه المنافقُ والفاجر، وتكون قِبلتَه إذا صلَّى، وقوَّةً إذا أعيا.

ولقي الحَجَّاجُ أعرابيًّا فقال: مِن أين أقبلت يا أعرابي؟ قال: من البادية. قال: وما في يدك؟ قال: عصايَ، أرْكُزها لِصَلاتي، وأُعِدُّها لعِداتي، وأسوق بها دابَّتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمدُ بها في مشيتي لتتَّسعَ خُطوتي، وأَثِبُ بها النهر،

---

(١) المهيع: الطريق البيّن. القاموس (هيع).

(٢) ٩/ ٣٩٣.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢١٥، وتفسير الرازي ٢٢/ ٢٧ بنحوه.

(٤) في (م): للأنبياء.

وتُؤمنُني من العَثْر، وأُلقي عليها كِسائي فيقيني الحرّ، ويُدفئني من القُرّ، وتُدني إليَّ ما بَعُد مني، وهي مَحْمِل سُفرتي، وعِلَاقة إداوتي؛ أَعصِي بها[١] عند الضِّراب، وأَقرعُ بها الأبواب، وأتَّقي بها عَقورَ الكلاب، وتنوب عن الرُّمح في الطِّعان، وعن السَّيف عند منازلة الأقران، وَرِثْتُها عن أبي، وأُورثها بعدي ابني، وأَهشُّ بها على غنمي، ولي فيها مآربُ أخرى كثيرةٌ لا تُحصى.

قلت: منافع العصا كثيرة، ولها مدخلٌ في مواضعَ من الشريعة: منها أنها تُتَّخذ قِبلةً في الصحراء. وقد كان للنبيِّ عليه الصلاة والسلام عَنَزَةٌ تُركز له فيصلِّي إليها، وكان إذا خرج يومَ العيد، أَمر بالحَرْبة فتوضَعُ بين يديه، فيصلِّي إليها، وذلك ثابتٌ في الصَّحيح[٢]. والحَرْبةُ والعَنَزة والنَّيْزك والآلة اسمٌ لمسمًّى واحد. وكان له مِحْجَن ـ وهو عصاً معوجَّةُ الطَّرَف ـ يشير به إلى الحَجَر إذا لم يستطع أن يقبِّلَه؛ ثابتٌ في الصحيح أيضاً[٣].

وفي «الموطأ»[٤]: عن السائب بنِ يزيد أنه قال: أَمر عمر بنُ الخطاب ﷺ أُبيَّ بن كعب وتميماً الداريَّ أنْ يقوما للناس بإحدى عَشْرةَ ركعةً، وكان القارئ يقرأ بالمِئِين، حتى كنا نعتمد على العِصِيِّ من طول القيام، وما كنا ننصرف إلَّا في فروع الفجر[٥].

وفي «الصحيحين»: أنه عليه الصلاة والسلام كان له مِخْصَرة[٦].

(١) أي: أضرب بها. القاموس (عصو).

(٢) صحيح البخاري (٤٩٤) (٩٧٣)، وصحيح مسلم (٥٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٤٦١٤) (٥٧٣٤). والعنزة: مثل نصف الرمح، أو أكبر شيئاً، وفيها سنان مثل سنان الرمح. النهاية (عنز).

(٣) صحيح البخاري (١٦٠٧)، ومسلم (١٢٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (١٨٤١).

(٤) ١/ ١١٥ .

(٥) في (م): بزوغ. وفروع الفجر: أوائله وأول ما يبدو ويرتفع منه. مشارق الأنوار ٢/ ١٥٣ .

(٦) صحيح البخاري (١٣٦٢)، وصحيح مسلم (٢٦٤٧) من حديث علي ﷺ، وهو في مسند أحمد =

والإجماع منعقدٌ على أنَّ الخطيب يخطُب متوكِّئاً على سيفٍ أو عصاً، فالعصا مأخوذةٌ من أصل كريم، ومَعدِنٍ شريف، ولا يُنكرها إلَّا جاهل. وقد جمع اللهُ لموسى في عصاه مِن البراهين العِظَام، والآياتِ الجِسَام، ما آمن به السَّحَرةُ المعاندون. واتَّخذها سليمانُ لخطبته وموعظته وطولِ صلاته. وكان ابن مسعودٍ صاحبَ عصا النبيِّ ﷺ وعَنَزتِه[١]؛ وكان يخطب بالقضيب[٢]، وكفى بذلك فضلاً على شرف حالِ العصا. وعلى ذلك الخلفاءُ وكُبَراء الخطباء، وعادةُ العرب العَرْباء الفُصَحاءِ اللُّسْنِ البُلغاءِ أَخْذُ المِخْصرةِ والعصا، والاعتمادُ عليها عند الكلام، وفي المحافل والخُطَب.

وأنكرت الشُّعوبيةُ على خطباء العرب أخذَ المِخصرةِ والإشارةَ بها إلى المعاني. والشُّعوبيةُ تُبغض العرب وتفضِّل العَجم[٣].

قال مالك: كان عطاء بنُ السائب يُمسك المِخْصَرةَ يستعين بها. قال مالك: والرَّجل إذا كَبِر لم يكن مثلَ الشاب[٤]؛ يقوى بها عند قيامه.

قلت: وفي مَشْيه[٥]، كما قال بعضهم:

قد كنتُ أمشي على رِجلَين معتمداً فصرتُ أمشي على أخرى من الخشَبِ[٦]

= (١٠٦٧). والمخصرة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه، من عصاً، أو عكازة، أو قضيب، وقد يتكئ عليه. النهاية (خصر).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ١٥٣ عن القاسم بن عبد الرحمن بنحوه.

(٢) أخرج ابن سعد ١/ ٣٧٧، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص١٤٦ - ١٤٧ عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان يخطب بمِخْصَرة في يده. وأورده الهيثمي في المجمع ٢/ ١٨٧ وقال: رواه الطبراني في الكبير والبزار، وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام. اهـ.

(٣) ذكر هذا الكلام العيني في عمدة القاري ٢٢/ ٢٢٢.

(٤) في (د) و(م): الشباب.

(٥) في (د) و(م): مشيته.

(٦) لم نقف عليه.

قال مالك رحمه الله ورضي عنه: وقد كان الناسُ إذا جاءهم المطرُ خرجوا بالعِصِيِّ يتوكَّؤون عليها، حتى لقد كان الشبابُ يحبِسون عِصِيَّهم، وربما أخذ ربيعةُ العصا مِن بعض مَن يجلس إليه حتى يقوم.

ومِن منافع العصا ضربُ الرجلِ نساءه بها فيما يُصلحهم، ويُصلح حالَه وحالَهم معه. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وأما أبو جَهْمٍ فلا يَضَعُ عصاه عن عاتقه» في أحد التأويلات[1]. وقد روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لرجلٍ أوصاه: «لا ترفَعْ عصاك عن أهلك، أَخِفهم في الله». رواه عبادة بنُ الصامت؛ خرَّجه النَّسائي[2]. ومِن هذا المعنى قولُه ﷺ: «علِّق سَوْطَك حيث يراه أهلُك»[3] وقد تقدَّم هذا في «النساء»[4].

ومن فوائدها التنبيهُ على الانتقال من هذه الدار؛ كما قيل لبعض الزُّهَّاد: ما لَكَ تمشي على عصاً، ولست بكبير ولا مريض؟ قال: إني أعلمُ أني مسافر، وأنها دارُ قُلْعة، وأنَّ العصا من آلة السفر؛ فأخذه بعضُ الشعراء فقال:

حملتُ العصا لا الضَّعفُ أوجبَ حَملَها ... عليَّ ولا أني تَحنَّيتُ مِن كِبَرْ
ولكنَّني ألزمتُ نفسيَ حَملَها ... لِأُعلِمَها أنَّ المقيمَ على سَفَر[5]

---

(١) في (م): في إحدى الروايات. والحديث أخرجه أحمد ومسلم، وقد سلف ٦/ ٢٨٨ .

(٢) لم نقف عليه عند النسائي، ونسبه الهيثمي في المجمع ٤/ ٢١٦ للطبراني وقال: فيه سلمة بن شريح قال الذهبي: لا يعرف. وقد أخرجه أحمد (٢٢٠٧٥) من حديث معاذ ﷺ وإسناد ضعيف والطبراني في الأوسط (١٨٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وأورده السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٢٤ ونسبه لأبي نعيم في الحلية، ورمز لضعفه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٩٦٣)، والطبراني في الكبير (١٠٦٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ١٢٤، ورمز لضعفه.

(٤) ٦/ ٢٨٨ .

(٥) عيون الأخبار ٢/ ٣٢٣ ، دون نسبة، ونسبهما الصفدي في الوافي ٥/ ١٧٤ لمحمد بن وشاح بن عبد الله أبي علي. والقُلْعة: المال العارية. الصحاح (قلع).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾: لمَّا أراد اللهُ تعالى أن يُدرِّبَه في تلقِّي النُّبوَّةِ وتكاليفها، أمره بإلقاء العصا ﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ موسى، فقلَب الله أوصافَها وأعراضها. وكانت عصاً ذاتَ شُعبتين، فصارت الشُّعبتان لها فماً، وصارت حيَّةً تسعى، أي: تنتقل، وتمشي وتلتقم الحجارة، فلمَّا رآها موسى عليه السلام رأى عِبْرةً، فـ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]، فقال الله له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، وذلك أنه أَوْجَسَ في نَفْسِهِ خِيفَةً، أي: لَحِقه ما يَلحق البشر.

ورويَ أنَّ موسى تناولها بكُمِّي جُبَّته، فنُهي عن ذلك، فأخذها بيده، فصارت عصاً كما كانت أوَّلَ مرة، وهي سيرتُها الأولى[١]، وإنما أظهر له هذه الآيةَ؛ لئلَّا يَفزعَ منها إذا ألقاها عند فرعون. ويقال: إن العصا بعد ذلك كانت تُماشيه وتُحادثه، ويُعلِّق عليها أحمالَه، وتُضيء له الشُّعبتان بالليل كالشَّمع، وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشُّعبتان كالدَّلو، وإذا اشتهى ثمرةً ركَزها في الأرض، فأثمرت تلك الثمرة[٢].

وقيل: إنها كانت مِن آس الجَنة[٣]. وقيل: أتاه جبريلُ بها. وقيل: مَلَكٌ. وقيل: قال له شعيب: خُذْ عصاً من ذلك البيت، فوقعَتْ بيده تلك العصا، وكان عصا آدمَ عليه السلامُ هبط بها من الجنة[٤]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ النحَّاس[٥]: ويجوز «حَيَّةً»، يقال: خرجتُ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤١ - ٤٢ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢١٥ بنحوه.

(٣) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٧٩ لابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) عرائس المجالس ١٧٧ - ١٧٩ بنحوه.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٣٦ .

فإذا زيدٌ جالسٌ وجالساً. والوقف: «حَيَّه» بالهاء. والسعي: المشي بسرعة وخِفَّة.

وعن ابن عباس: انقلبت ثعباناً ذَكَراً يبتلع الصَّخرَ والشَّجر، فلما رآه يبتلع كلَّ شيء خافه ونَفَر منه. وعن بعضهم: إنما خاف منه؛ لأنه عَرَفَ ما لقي آدمُ منها. وقيل: لمَّا قال له ربُّه: «لَا تَخَفْ» بلغ مِن ذهاب خوفِه وطمأنينةِ نفسه أنْ أدخل يده في فمها وأخذ بلَحْيَيها[١].

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ سمعتُ عليَّ بن سليمان[٢] يقول: التقدير: إلى سيرتها، مثل ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ قال: ويجوز أن يكونَ مصدراً؛ لأن معنى[٣] سنعيدها: سنسيِّرها.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ يجوز في غير القرآن: ضُمَّ، بفتْح الميم وكسرها؛ لالتقاء الساكنين، والفتحُ أجودُ؛ لخِفَّته، والكسرُ على الأصل. ويجوز الضمُّ على الإتباع. ويَدٌ أصلها: يَدْيٌ على فَعْل[٤]، يدلُّ على ذلك: أَيْدٍ. وتصغيرُها: يُدَيَّة.

والجَناح: العَضُد؛ قاله مجاهد، وقال: «إلى» بمعنى تحت[٥]. قُطْرُب: «إِلَى جَنَاحِكَ»: إلى جنبك[٦]، ومنه قولُ الراجز:

أَضُمُّهُ[٧] للصدرِ والجَناحِ

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٤ . واللَّحْي: مَنْبِتُ اللحية، وهما لحيان. الصحاح (لحي).

(٢) القائل هو النحاس، وكلامه في إعراب القرآن ٣/ ٣٧ .

(٣) في النسخ الخطية: المعنى، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس.

(٤) في النسخ الخطية: ويد أصلها فعل يدي، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧ ، والكلام منه.

(٥) تفسير مجاهد ١/ ٣٩٥ ، وأخرجه عنه الطبري ١٦/ ٤٩ .

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(م): جيبك، والمثبت من (ظ).

(٧) في النسخ الخطية: أضمك، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في مجاز القرآن ٢/ ١٨ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٩ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٢ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٠ .

وقيل: إلى جيبك، فعبَّر عن الجَيب[١] بالجناح؛ لأنه مائلٌ في مَحلِّ الجناح. وقيل: إلى عندك. وقال مقاتل: «إلى» بمعنى مع، أي: مع جناحك.

و﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير بَرَصٍ؛ نوراً ساطعاً يُضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمرِ وأشدَّ ضوءاً؛ عن ابن عباس وغيره[٢]. فخرجتْ نوراً، مخالِفةً[٣] للونه. و«بَيْضَاءَ» نصب على الحال، ولا تنصرف؛ لأن فيها أَلِفَي التأنيث لا يُزايلانها، فكأنَّ لزومَها[٤] عِلَّةٌ ثابتة[٥]، فلم تنصرف في النكرة، وخالَفتا[٦] الهاء؛ لأن الهاءَ تُفارق الاسم. و«مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» «مِن» صِلةُ «بيضاء» كما تقول: ابيضَّت من غير سوء.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ سِوى العصا. فأخرج يدَه مِن مِدْرَعةٍ له مِصريَّةٍ[٧]، لها شعاعٌ مثلُ شعاع الشمسِ يُغشي[٨] البصر. و«آيةً» منصوبةٌ على البدل من «بيضاء»؛ قاله الأخفش[٩]. النحاس[١٠]: وهو قولٌ حسن. وقال الزجَّاج[١١]: المعنى: آتيناكَ آيةً أُخرى، أو نؤتيك؛ لأنه لمَّا قال: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ دلَّ على أنه قد آتاه آيةً أخرى.

---

(١) في (خ) و(ز) و(ظ) و(م): إلى جنبك، فعبّر عن الجنب...، والمثبت من (د).

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٤، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٥.

(٣) في (ظ): مخالفاً.

(٤) في (م): لزومهما، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٧، والكلام منه.

(٥) في (ظ) و(م)، وإعراب القرآن: ثانية.

(٦) في إعراب القرآن للنحاس: وخالفتها.

(٧) في (د) و(ز): مضربة، ولم تجود في (ظ).

(٨) في (م): يعشي.

(٩) في معاني القرآن ٢/ ٦٢٩.

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٣٧.

(١١) في معاني القرآن ٣/ ٣٥٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ يريد العظمى. وكان حقُّه أنْ يقول: الكبيرة، وإنما قال: «الكبرى»؛ لوِفاق رؤوسِ الآي. وقيل: فيه إضمار؛ معناه: لِنُريك من آياتنا الآيةَ الكبرى؛ دليلُه قولُ ابنِ عباس: يدُ موسى أكبرُ آياته[١].

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ لمَّا آنسه بالعصا واليد، وأراه ما يدلُّ على أنه رسول، أمره بالذَّهاب إلى فِرعون، وأن يدعوَه. و«طغى» معناه: عصى وتكبَّر، وكفر وتجبَّر، وجاوز الحدّ.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى . وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى . وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى . يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى . وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى . هَٰرُونَ أَخِى﴾ طلب الإعانةَ لتبليغ الرسالة.

ويقال: إنَّ الله أعلمه بأنه رَبَطَ على قلب فرعونَ وأنه لا يؤمن، فقال موسى: يا ربّ، فكيف تأمرني أنْ آتيَه وقد ربطتَ على قلبه؟ فأتاه مَلَكٌ من خُزَّان الريح فقال: يا موسى، انطلق إلى ما أمرك اللهُ به. فقال موسى عند ذلك: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، أي: وسِّعْه، ونوِّره بالإيمان والنبوَّة ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ أي: سهِّل عليَّ ما أمرتَني به من تبليغ الرسالةِ إلى فرعون[٢]. «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي» يعني العُجْمةَ التي كانت فيه مِن جمرة النارِ التي ألقاها[٣] في فِيهِ وهو طفل.

قال ابن عباس: كانت في لسانه رُتَّة[٤]. وذلك أنه كان في حِجر فرعونَ ذات يومٍ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢١٥.

(٢) الوجيز للواحدي ٢/ ١٧ على هامش مراح لبيد.

(٣) في (د) و(م): أطفأها.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٣٥، والرُّتَّة: العُجمة في الكلام. الصحاح (رتت).

وهو طفل، فلطَمه لَطْمةً، وأخذ بلحيته فنتفها، فقال فرعونُ لآسية: هذا عدوِّي، فهاتِ الذَّبَّاحين، فقالت آسية: على رِسْلك، فإنه صبيٌّ لا يُفرِّق بين الأشياء. ثم أتَتْ بطَسْتين، فجعلت في أحدهما جمراً، وفي الآخر جوهراً، فأخذ جبريلُ بيد موسى فوضعها على النار، حتى رفع جمرةً ووضعها في فيه على لسانه، فكانت تلك الرُّتَّة[1].

وروي أنَّ يده احترقت، وأنَّ فرعون اجتهد في علاجها فلم تبرأ. ولما دعاه قال: إلى أيِّ ربٍّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجَزتَ عنها. وعن بعضهم: إنما لم تبرأ يدُه؛ لئلَّا يُدخِلَها مع فرعون في قَصْعة واحدة، فتنعقدَ بينهما حُرمةُ المُؤاكلة.

ثم اختُلف هل زالت تلك الرُّتَّة، فقيل: زالت؛ بدليل قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾. وقيل: لم تَزُلْ كلُّها، بدليل قولِه حكايةً عن فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾. ولأنه لم يقل: ٱحلُل كلَّ لساني، فدلَّ على أنه بقي في لسانه شيءٌ من الاستمساك. وقيل: زالت بالكُلِّية، بدليل قوله: ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾، وإنما قال فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ لأنه عرفَ منه تلك العُقدةَ في التربية، وما ثبتَ عنده أنَّ الآفةَ زالتْ[2].

قلت: وهذا فيه نظر؛ لأنه لو كان ذلك، لَمَا قال فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حين كلَّمه موسى بلسانٍ ذَلِقٍ فصيح. والله أعلم[3].

وقيل: إن تلك العُقدةَ حدثتْ بلسانه عند مناجاة ربِّه، حتى لا يُكلِّمَ غيرَه إلَّا بإذنه[4].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/٥٣ - ٥٤ عن سعيد بن جبير وابن أبي نجيح ومجاهد والسدي.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٣٥ .

(٣) ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره ٤/ ١٣٠ أن اتهام فرعون لموسى عليه السلام بأنه لا يكاد يُبين إنما هو افتراءٌ من فرعون، حمله على ذلك الكفر والعنادُ، وليس عدم الإفصاح من موسى بسبب لثغته بالجمرة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٠١ .

﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ أي: يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه. والفِقه في كلام العرب: الفَهم. قال أعرابيٌّ لعيسى بنِ عمر: شَهِدتُ بالفقه. تقول منه: فَقِهَ الرجل، بالكسر، وفلانٌ لا يَفْقَه ولا يَنْقَه[١]، وأفقهتُكَ الشيء، ثم خُصَّ به عِلمُ الشريعة، والعالم به فقيهٌ. وقد فَقُه ـ بالضم ـ فَقَاهة، وفقَّهه اللهُ. وتَفقَّه: إذا تعاطى ذلك، وفاقهتُه: إذا باحثتَه في العلم؛ قاله الجوهريُّ[٢].

والوزير: المُؤازِر، كالأكيل: المُؤاكِل؛ لأنه يحمل عن السلطان وِزْرَه، أي: ثِقْله[٣].

وفي كتاب النَّسائي[٤] عن القاسم بنِ محمد: سمعتُ عمَّتي[٥] تقول: قال رسول الله ﷺ: «مَن وَلِيَ منكم عملاً فأراد اللهُ به خيراً، جعل له وزيراً صالحاً، إنْ نسي ذَكَّره، وإن ذَكَر أعانه». ومِن هذا المعنى قولُه عليه الصلاة والسلام: «ما بَعَثَ اللهُ مِن نبيٍّ ولا استخلف من خليفة إلَّا وله بِطانتان[٦]: بطانةٌ تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه، وبطانةٌ تأمره بالشرِّ وتَحضُّه عليه، فالمعصومُ مَن عَصَمه الله» رواه البخاري[٧].

فسأل موسى اللهَ تعالى أن يجعل له وزيراً، إلا أنه لم يُرِد أن يكون مقصوراً على الوزارة حتى يكون[٨] شريكاً له في النبوَّة، ولولا ذلك لَجاز أنْ يستوزرَه من غير مسألة.

(١) أي: لا يفهم. الصحاح (نقه).

(٢) في الصحاح (فقه).

(٣) الصحاح (وزر).

(٤) المجتبى ٧/ ١٥٩ ، والكبرى (٧٧٧٩)، وهو عند أحمد (٢٤٤١٤)، وأبي داود (٢٩٣٢).

(٥) هي السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٦) في (م): إلا كانت له بطانتان.

(٧) برقم (٦٦١١) و(٧١٩٨)، وسلف ٥/ ٢٧٤ .

(٨) في النسخ: لا يكون، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٤٠١ ، والكلام منه.

وعَيَّن فقال: «هَارُونَ». وانتصب على البدل مِن قوله: «وَزِيراً». أو يكونُ منصوباً بـ«اجعل» على التقديم والتأخير، والتقدير: واجعل لي هارونَ أخي وزيراً[١].

وكان هارونُ أكبرَ من موسى بسَنَة، وقيل: بثلاث[٢].

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ أي: ظهري. والأَزْر: الظهر من موضع الحَقْوين، ومعناه: تقوى به نفسي[٣]. والأزر: القوَّة، وآزره: قوَّاه. ومنه قوله تعالى: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾ [الفتح:٢٩]. وقال أبو طالب:

أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أَزْرَهُ ... وأوصى بنيه بالطِّعان وبالضَّرْبِ[٤]

وقيل: الأزر: العَوْن. أي: يكون عوناً يَستقيم به أمري. قال الشاعر:

شَددتُ به أَزْرِي وأيقنتُ أنَّهُ ... أخو الفقر مَن ضاقت عليه مذاهبُهْ[٥]

وكان هارونُ أكثرَ لحماً من موسى، وأتمَّ طولاً، وأبيضَ جِسماً، وأفصحَ لساناً[٦]. ومات قبل موسى بثلاثِ سنين[٧]. وكان في جبهة هارونَ شامَة، وعلى أرنبة أنفِ موسى شامة، وعلى طرف لسانِه شامة[٨]، ولم تكن على أحدٍ قبلَه، ولا تكونُ على أحد بعده، وقيل: إنها كانت سببَ العقدةِ التي في لسانه. والله أعلم.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ أي: في النُّبوَّة وتبليغِ الرسالة[٩]. قال المفسِّرون: كان هارون

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٤٦٣.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٠١، وتفسير البغوي ٢/ ١١٣.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٠١، والحقو: الخَصْر. الصحاح (حقو).

(٤) السيرة النبوية ١/ ٣٥٣، والنكت والعيون ٣/ ٤٠١.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٠١ دون نسبة.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢١٦، وعرائس المجالس ص١٧٤ بنحوه.

(٧) أخرجه الحاكم ٢/ ٥٧٨ عن وهب بن منبّه.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٤٠١.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٢١٦.

يومئذ بمصر، فأمر اللهُ موسى أن يأتيَ هو هارون[١]، وأوحى إلى هارون وهو بمصرَ أن يتلقَّى موسى، فتلقَّاه إلى مرحلة، وأخبره بما أُوحي إليه، فقال له موسى: إنَّ الله أمرني أن آتيَ فرعون، فسألتُ ربي أن يجعلَك معي رسولاً.

وقرأ العامة: ﴿أَخِى ٱشْدُدْ﴾ بوصل الألف، «وَأَشْرِكْهُ» بفتح الهمزة على الدعاء، أي: اشدد يا ربِّ أزري، وأشركه معي في أمري. وقرأ ابن عامر ويحيى بنُ الحارث وأبو حَيْوة والحسنُ وعبد الله بنُ أبي إسحاق: ﴿أَشْدُدْ﴾ بقطع الألف، ﴿وأُشْرِكه﴾ بضم الألف[٢]، أي: أنا أفعل ذلك، أشدد أنا به أزري «وَأُشرِكه» أنا يا ربِّ ﴿فِىٓ أَمْرِى﴾.

قال النحاس[٣]: جعلوا الفعلين في موضع جزمٍ جواباً لقوله: ﴿اجْعَلْ لِّي وَزِيرًا﴾، وهذه القراءةُ شاذَّةٌ بعيدة؛ لأن جواب مِثْلِ هذا إنما يتخرَّج بمعنى الشرطِ والمجازاة؛ فيكون المعنى: إن تجعل لي وزيراً من أهلي أَشدُدْ به أزري، وأُشركْه في أمري. وأمرُه النبوةُ والرِّسالة، وليس هذا إليه ﷺ فيخبِرَ به، إنما سأل اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يُشركَه معه في النبوَّة.

وفَتَحَ الياءَ من ﴿أَخِى﴾ ابنُ كثير وأبو عمرو[٤].

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ قيل: معنى «نسبحك»: نصلِّي لك[٥]. ويحتمل أن يكونَ التسبيحُ باللسان. أي: ننزِّهك عمَّا لا يَليق بجلالك. و«كَثِيراً» نعتٌ لمصدر محذوف.

---

(١) في النسخ الخطية: هو وهارون، والمثبت من (م). والكلام بنحوه في عرائس المجالس ص١٨٣-١٨٤.

(٢) قراءة ابن عامر في السبعة ص٤١٨، والتيسير ص١٥١. وقراءة الحسن وابن أبي إسحاق في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٨. ويحيى بن الحارث: هو الإمام الكبير أبو عمرو الغساني، الذِّماري، ثم الدمشقي، إمام جامع دمشق. قرأ على ابن عامر. السير ٦/ ١٨٩.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٣٨.

(٤) السبعة ص٤١٨، والتيسير ص٦٧ - ٦٨.

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٥، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٠.

ويجوز أن يكونَ نعتاً لوقت[١]. والإدغامُ حسن، وكذا ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾[٢].

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ قال الخطَّابي: البصير: المبصر، والبصير: العالم بخفيَّات الأمور، فالمعنى؛ أي: عالماً بنا، ومُدرِكاً لنا في صِغَرنا فأحسنت إلينا، فأحسِنْ إلينا كذلك يا ربّ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ لمَّا سأله شرحَ الصدر وتيسيرَ الأمر إلى ما ذكر، أجاب سُؤلَه، وآتاه طَلِبَته ومرغوبه[٣]. والسؤل: الطَّلِبة، فُعْل بمعنى مفعول، كقولك: خُبز بمعنى مخبوز، وأُكل بمعنى مأكول[٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ أي: قبل هذه، وهي[٥] حفظُه سبحانه له مِن شرِّ الأعداء في الابتداء، وذلك حين الذَّبح. والله أعلم. والمنُّ: الإحسان والإفضال. وقولُه: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ قيل: «أوحينا»: أَلهمنا[٦]. وقيل:

---

(١) يعني لوقت محذوف، أي: وقتاً كثيراً. ينظر الدر المصون ٨/ ٣٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩ .

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٥٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣ بنحوه.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٣٦ .

(٥) في النسخ الخطية: وهو، والمثبت من (م).

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٧ .

أَوحى إليها في النوم[١]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَوحى إليها كما أوحى إلى النبيِّين.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ قال مقاتل: مؤمن آلِ فرعونَ هو الذي صنع التابوت ونَجَره، وكان اسمُه حِزْقيل[٢]. وكان التابوت من جُمَّيز[٣]. ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: اطرحيه في البحر: نهر النيل.

﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أمرٌ، وفيه معنى المُجازاة، أي: اقذفيه، يُلقِه اليمُّ. وكذا قولُه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ يعني فرعون، فاتخذت تابوتاً، وجعلت فيه نِطعاً[٥]، ووضعت فيه موسى، وقَيَّرت[٦] رأسَه وخِصَاصه ـ يعني: شقوقَه ـ ثم ألقته في النيل، وكان يَشْرَع منه نهرٌ كبير في دار فرعون، فساقه اللهُ في ذلك النهرِ إلى دار فرعون.

ورويَ أنها جعلت في التابوت قطناً محلوجاً، فوضعته فيه وقَيَّرته وجَصَّصته، ثم ألقته في اليمّ؛ وكان يَشْرَع منه إلى بستان فرعونَ نهرٌ كبير، فبينا هو جالسٌ على رأس بِركةٍ مع آسية إذا بالتابوت، فأَمر به فأُخرج، ففتح، فإذا صبيٌّ أصبح الناس، فأحبَّه عدوُّ اللهِ حبًّا شديداً لا يتمالكُ أن يصبرَ عنه[٧]. وظاهرُ القرآن يدلُّ على أنَّ البحر ألقاه بساحله، وهو شاطئه، فرأى فرعونُ التابوتَ بالساحل، فأمر بأخذه. ويحتمل أن يكونَ إلقاءُ اليمِّ بموضعٍ من الساحل، فيه فُوَّهةُ نهرِ فرعون، ثم أدَّاه النهرُ إلى حيثُ[٨]

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٦، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٣.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٥٢.

(٣) ضرب من الشجر يشبه التين. اللسان (جمز).

(٤) في معاني القرآن ٢/ ١٧٩، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٣٩.

(٥) النطع: بساط من الأدم. القاموس (نطع).

(٦) أي: طلته بالقار. وهو شيء أسود يُطلى به السفن والإبل، أو هو الزفت. القاموس (قير).

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢١٧، وزاد المسير ٥/ ٢٨٤ بنحوه.

(٨) في (د) وف): جنب، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ٥٣٦، والكلام منه.

البِركة. والله أعلم.

وقيل: وجدَتْه ابنةُ فرعونَ وكان بها بَرَص، فلما فتحت التابوتَ شُفيت.

ورويَ أنهم حين التقطوا التابوت، عالجوا فتحَه فلم يقدِروا عليه، وعالجوا كسرَه فأعياهم، فدنت آسِيةُ فرأت في جوف التابوتِ نوراً، فعالجته ففتحته، فإذا صبيٌّ نورُه بين عينيه، وهو يَمَصُّ إبهامَه لبناً، فأحبُّوه. وكانت لفرعون بنتٌ برصاء، وقال له الأطبَّاء: لا تبرأُ إلَّا من قِبَل البحر، يوجد فيه شِبهُ إنسانٍ دواؤها رِيقُه، فلطَّخت البرصاءُ بَرَصَها بريقه فبرئت. وقيل: لمَّا نظرت إلى وجهه برئت[1]. والله أعلم.

وقيل: وجَدَتْه جَوارٍ لامرأة فرعون، فلما نظر إليه فرعون، فرأى صبيًّا مِن أصبح الناس وجهاً، فأحبَّه فرعون، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾. قال ابن عباس: أحبَّه اللهُ وحَبَّبه إلى خلقه. وقال عطية[2]: جعل عليه مسحةً مِن جمالٍ لا يكاد يصبر عنه مَن رآه. وقال قَتَادة: كانت في عيني موسى مَلَاحةٌ؛ ما رآه أحدٌ إلا أحبَّه وعَشِقَه[3]. وقال عِكْرمة: المعنى: جعلت فيك حُسناً ومَلاحة، فلا يراك أحدٌ إلا أحبَّك[4].

وقال الطبَري: المعنى: وألقيتُ عليك رحمتي. وقال ابن زيد: جعلتُ مَن رآك أحبَّك، حتى أحبَّك فرعونُ، فسلِمتَ من شرِّه، وأحبَّتك آسيةُ بنتُ مُزَاحم فتبنَّتك[5].

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ قال ابن عباس: يريد: إنَّ ذلك بعيني حيث جُعلتَ في التابوت، وحيث أُلقي التابوتُ في البحر، وحيث التقطكَ جواري امرأةِ فرعون؛ فأردنَ أنْ يفتَحن التابوتَ لينظرن ما فيه، فقالت منهنَّ واحدة: لا تَفتحْنه حتى تأتينَ به

---

(١) الكلام بنحوه في عرائس المجالس ص١٧٢ .

(٢) في (م): ابن عطية.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢١٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٨ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٠٢ .

سيِّدَتكنَّ، فهو أحظى لَكُنَّ عندها، وأجدرُ بألَّا تتَّهمَكُنَّ بأنكنَّ وجدتنَّ فيه شيئاً فأخذتنَّه لأنفسكنّ. وكانت امرأةُ فرعونَ لا تشرب من الماء إلَّا ما استقينه أولئك الجواري. فذهبنَ بالتابوت إليها مُغلَقاً، فلما فتحته رأتْ صبيًّا لم يُرَ مثلُه قط، وأُلقِيَ عليها محبَّته، فأخذته، فدخلت به على فرعون، فقالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ قال لها فرعون: أمَّا لكِ فنعَم، وأما لي فلا. فبلغَنا أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو أنَّ فرعون قال: نَعَم، هو قُرَّةُ عينٍ لي ولك، لآمن وصدَّق»؛ فقالت: هَبْه لي ولا تقتلْه؛ فوهبه لها[١].

وقيل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي: تُربَّى وتُغذَّى على مرأى مني؛ قاله قتادة[٢].

قال النحَّاس: وذلك معروفٌ في اللغة، يقال: صنعت الفرسَ وصنَّعته[٣]: إذا أحسنتَ القيامَ عليه. والمعنى: «ولِتصنع على عينِي» فعلتُ ذلك. وقيل: اللام متعلِّقةٌ بما بعدها مِن قوله: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ على التقديم والتأخير، فـ «إذ» ظرفُ «لِتُصنع». وقيل: الواو في «ولِتصنع» زائدة.

وقرأ ابنُ القَعْقَاع: «وَلْتُصْنعْ» بإسكان اللام على الأمر[٤]، وظاهرُه للمخاطَب، والمأمورُ غائب.

وقرأ أبو نُهَيك: «ولِتَصْنَعَ» بفتح التاء[٥]. والمعنى: ولِتكونَ حركتُك وتصرُّفك بمشيئتي وعلى عينٍ مني. ذكره المهدوي[٦].

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ العامل في «إِذ تمشِي»: «أَلْقَيْتُ» أو: «تُصْنَعَ»، ويجوز أن يكون بدلاً من «إِذْ أَوْحَيْنَا». وأختُه اسمُها مريم[٧].

---

(١) أخرجه بنحوه مطولاً النسائي في الكبرى (١١٢٦٣)، والطبري ١٦/ ٦٤ - ٦٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٩ .

(٣) في (ظ): واصطنعته، وفي (م): وأصنعته، والمثبت من باقي النسخ.

(٤) النشر ٢/ ٣٢٠ . وابن القعقاع: هو أبو جعفر من العشرة.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٦٠ .

(٦) نسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٤ ، لثعلب.

(٧) الكشاف ٢/ ٥٣٧ .

﴿فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ وذلك أنها خرجت متعرفة خبره، وكان موسى لما وهبه فرعون لامرأته طلبت له المراضع، وكان لا يأخذ من أحدٍ، حتى أقبلت أختُه، فأخذته ووضعته في حِجْرها وناولته ثديَها، فمصَّه وفَرِحَ به. فقالوا لها: تُقيمين عندنا، فقالت: إنه لا لبنَ لي، ولكن أَدلُّكم على مَن يَكْفُله وهم له ناصحون. قالوا: ومن هي؟ قالت: أمي: فقالوا: لها لبنٌ؟ قالت: لبنُ أخي هارون[١]. وكان هارون أكبرَ من موسى بسنة. وقيل: بثلاث. وقيل: بأربع، وذلك أنَّ فرعون رَحِمَ بني إسرائيل فرفع عنهم القتلَ أربعَ سنين، فَوُلِدَ هارونُ فيها؛ قاله ابنُ عباس. فجاءت الأمُّ فقبل ثديَها. فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾. وفي مصحف أُبيّ: «فرددناك».

﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ وروى عبد الحميد عن ابن عامر: «كَيْ تَقِرَّ عَيْنُهَا» بكسر القاف[٢].

قال الجوهري: وقرِرتُ به عيناً، وقرَرْتُ به قُرَّةً وقُروراً فيهما، ورجلٌ قريرُ العين، وقد قرَّت عينُه تَقِرُّ وتَقَرّ: نقيض سَخُنتْ. وأقرَّ اللهُ عينه، أي: أعطاه حتى تَقَرَّ، فلا تطمحُ إلى مَن هو فوقَه، ويقال: حتى تَبْرُدَ ولا تسخُن. فللسُّرور دمعةٌ باردة، وللحزن دمعةٌ حارَّة. وقد تقدَّم هذا المعنى في «مريم»[٣]. «وَلَا تَحْزَنَ» أي: على فقدك.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ قال ابن عباس: قتل قِبْطيًّا كافراً. قال كعب: وكان إذ ذاك ابنَ اثنتي عشرةَ سنة[٤]. في «صحيح» مسلم[٥]: وكان قتله خطأً؛ على ما يأتي.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٦، وزاد المسير ٥/ ٢٨٥.

(٢) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤٥ هذه القراءة دون نسبة، وقراءة ابن عامر المشهورة عنه كقراءة الجماعة وعبد الحميد هو ابن بكار، أبو عبد الله الكلاعي الدمشقي، نزيل بيروت. قرأ القرآن بحرف ابن عامر على أيوب بن تميم الداري. غاية النهاية لابن الجزري ١/ ٣٦٠، وتهذيب الكمال ١٦/ ٤٠٨-٤٠٩.

(٣) ١٣/ ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢١٧ - ٢١٨.

(٥) برقم (٢٩٠٥): (٥٠) من قول سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ.

﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: آمنَّاك من الخوف والقتل والحبس.

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك اختباراً حتى صلَحتَ للرِّسالة. وقال قتادة: بلوناك بلاءً. مجاهد: أخلصناك إخلاصاً[(١)]. وقال ابن عباس: اختبرناك بأشياء قبل الرسالة، أوَّلُها: حملته أُمُّه في السَّنة التي كان فرعون يَذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه في اليمّ، ثم مَنْعُه من الرَّضاع إلَّا مِن ثدي أمِّه، ثم جرُّه بلحية فرعون، ثم تناولُه الجمرةَ بدل الدُّرَّة، فدرأ ذلك عنه قَتْلَ فرعون، ثم قَتْلُه القِبطيَّ وخروجُه خائفاً يترقَّب، ثم رعايته[(٢)] الغنمَ ليتدرَّبَ بها على رعاية الخلق. فيقال: إنه نَدَّ له من الغنم جَدْيٌ فاتَّبعه أكثرَ النهار، وأتعبه، ثم أخذه فقبَّله وضمَّه إلى صدره، وقال له: أتعبتني وأتعبتَ نفسَك؛ ولم يغضَبْ عليه. قال وَهْب بنُ منبِّه: ولهذا اتَّخذه الله كليماً. وقد مضى في «النساء»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ يريد: عشرَ سنينَ أتمَّ الأجلين. وقال وَهْب: لبث عند شعيب ثماني وعشرين سنة، منها عشرٌ مهرُ امرأتِه صفورا ابنةِ شعيب، وثماني عشرةَ أقامها عنده حتى وُلِد له عنده[(٤)].

وقوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بنُ كيسان: يريد: موافقاً للنبوَّة والرسالة؛ لأن الأنبياء لا يُبعثون إلَّا أبناءَ أربعين سَنة[(٥)]. وقال مجاهدٌ ومقاتل: «على قَدَرٍ»: على وعد. وقال محمد بنُ كعب: ثم جئتَ على القَدَر الذي قدَّرتُ لك أنك تجيء فيه[(٦)]. والمعنى واحد، أي: جئتَ في الوقت الذي

---

(١) أخرجهما الطبري ١٦/ ٧٠ - ٧١ .

(٢) في النسخ الخطية: رعاية، والمثبت من (م). والخبر بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤٠٣ .

(٣) ٧/ ٢٢٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢١٨ .

(٥) ذكره البغوي ٣/ ٢١٨ عن عبد الرحمن بن كيسان، وأخرجه الطبري ١٦/ ٧٢ عن قتادة مختصراً.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٨ .

أردنا إرسالَك فيه. وقال الشاعر[١]:

نالَ الخلافةَ أو كانت له قَدَراً كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ قال ابن عباس: أي: اصطفيتك لوحيي ورسالتي[٢]. وقيل: «اصْطَنَعْتُكَ»: خلقتك، مأخوذٌ من الصَّنعة[٣]. وقيل: قوَّيتُك وعلَّمتُك لتبلِّغَ عبادي أمري ونهيي.

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ قال ابن عباس: يريد التِّسعَ الآياتِ التي أُنزلت عليه[٤]. ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ قال ابن عباس: تضعفا، أي: في أمر الرسالة؛ وقاله قتادة[٥]. وقيل: تفترا. قال الشاعر:

فما وَنَى محمدٌ مُذَ انْ غَفَرْ له الإلهُ ما مضى وما غَبَرْ[٦]

والْوَنَى: الضَّعفُ والفتور، والكَلَال والإعياء. وقال امرؤ القيس:

مِسَحٍّ إذا ما السَّابحاتُ على الوَنَى أثرنَ غُباراً بالكَدِيد المُركَّلِ[٧]

ويقال: وَنَيْتُ في الأمر أني وَنًى ووَنْياً، أي: ضَعُفت، فأنا وانٍ، وناقةٌ وانِية، وأَوْنيتُها أنا: أضعفتها وأتعبتها. وفلانٌ لا يَني كذا، أي: لا يزال[٨]. وبه فَسَّر أبانٌ معنى الآيةِ، واستشهد بقول طَرَفة:

---

(١) هو جرير، والبيت في ديوانه ١/ ٤١٦، وقد سلف ١/ ٣٢٥.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٠٤.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٨.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٧٣ - ٧٤ عنهما بنحوه.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٤٠٤، والرجز للعجاج، وهو في ديوانه ص٦٧، وسلف ٩/ ٢٧٩.

(٧) ديوان امرئ القيس ص٢٠. قال شارحه: قوله: مسحّ، أي: يسحّ العَدْوَ سحًّا مثل سح المطر، وهو انصبابه. والسابحات: التي تبسط يديها إذا عَدَت فكأنها تسبح. والكديد: ما غلظ من الأرض. والمُركَّل: الذي ركلته الخيل بحوافرها، فأثارت الغبار لصلابتها وشدة وقعها.

(٨) الصحاح (وني).

كـأنَّ الـقُـدورَ الـرَّاسـيـاتِ أمـامـهـم قِـبـابٌ بَـنَـوهـا لا تَـنـي أبـداً تَـغْـلـي[١]

وعن ابن عباس أيضاً: لا تُبطئا[٢]. وفي قراءة ابنِ مسعود: «وَلَا تَهِنا فِي ذِكرِي»[٣] وتحميدي وتمجيدي وتبليغ رسالتي.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ﴾ قال في أول الآية: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ وقال هنا: «اذهبا»، فقيل: أمر اللهُ تعالى موسى وهارونَ في هذه الآيةِ بالنُّفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطب أوَّلاً موسى وحدَه تشريفاً له[٤]، ثم كرَّر للتأكيد[٥]. وقيل: بَيَّن بهذا أنه لا يكفي ذهابُ أحدِهما. وقيل: الأول: أمرٌ بالذهاب إلى كل الناس، والثاني: بالذهاب إلى فرعون[٦].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ دليلٌ على جواز الأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وأنَّ ذلك يكون باللِّين من القول لمن معه القُوَّة وضُمنت له العِصمة، ألَا تراه قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، وقال: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٧] [الآية: ٤٦]. فكيف بنا، فنحن أَوْلى بذلك. وحينئذٍ يحصل الآمرُ والناهي على مرغوبه، ويظفَر بمطلوبه، وهذا واضحٌ.

---

(١) لم نقف عليه في ديوان طرفة والكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤٠٤ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٠١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٥ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٧ .

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ٥٨ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٨ .

الثالثة: واختلف الناس في معنى قوله: «لَيِّناً»؛ فقالت فِرقةٌ منهم الكلبيُّ وعكرمة: معناه: كَنِّياه. وقاله ابنُ عباس ومجاهد والسُّدِّي. ثم قيل: وكُنْيته أبو العباس. وقيل: أبو الوليد. وقيل: أبو مُرَّة[١]؛ فعلى هذا القولِ تكنيةُ الكافر جائزةٌ إذا كان وجيهاً[٢] ذا شرف، وطُمِع بإسلامه. وقد يجوز ذلك وإن لم يُطمَع بإسلامه؛ لأن الطمعَ ليس بحقيقة تُوجب عملاً.و قد قال ﷺ: «إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه»[٣] ولم يقل: وإنْ طَمِعتم بإسلامه[٤]، ومن الإكرام دعاؤه بالكُنية[٥].وقد قال ﷺ لصفوان بنِ أمية: «اِنْزِلْ أبا وهب»[٦] فكنَّاه. وقال لسعد: «ألم تسمع ما يقولُ أبو حُبَاب؟» يعني عبدَ الله بنَ أُبيّ[٧].

ورُوي في الإسرائيليَّات أنَّ موسى عليه السلام قام على باب فرعونَ سَنةً، لا يَجِدُ رسولاً يُبلِّغ كلاماً حتى خرج، فجرى له ما قصَّ اللهُ علينا من ذلك، وكان ذلك تسليةً لمن جاء بعده من المؤمنين في سيرتهم مع الظالمين، وربُّك أعلمُ بالمهتدين[٨].

وقيل: قال له موسى: تؤمنُ بما جئتُ به، وتعبد ربَّ العالمين، على أنَّ لك شباباً لا يَهْرَم إلى الموت، ومُلكاً لا يُنزع منك إلى الموت، ويُنسأ في أجلك أربع مئة سنة،

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧، وزاد المسير ٥/ ٢٨٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ .

(٢) في (خ) و(ف): وجهاً.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٧١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال البوصيري: في إسناده سعيد بن مسلمة، وهو ضعيف.

(٤) في (م): في إسلامه.

(٥) التمهيد ١٢/ ٣٥ .

(٦) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٥٤٣ - ٥٤٤ عن الزهري مرسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٢/ ١٩ : هذا الحديث لا أعلمه يتصل من وجه صحيح، وهو حديث مشهور، معلوم عند أهل السير... وشهرة هذا الحديث أقوى من إسناده إن شاء الله.

(٧) قطعة من حديث طويل أخرجه البخاري (٦٢٠٧)، ومسلم (١٧٩٨)، وسلف ٢/ ٣١٥ ، وسعد: هو ابن عبادة ﷺ.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٨ .

فإذا مِتَّ دخلتَ الجنة. فهذا القولُ اللَّيِّن.

وقال ابن مسعود: القولُ اللَّيِّن قولُه تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[1] [النازعات: ١٨-١٩].

وقد قيل: إنَّ القول اللَّيِّنَ قولُ موسى: يا فرعونُ، إنَّا رسولا ربِّك ربِّ العالمين. فسمَّاه بهذا الاسمِ؛ لأنه كان أحبَّ إليه ممَّا سواه[2] مما قيل له، كما يسمَّى عندنا الملكُ ونحوُه.

قلت: القول اللَّيِّن هو القولُ الذي لا خُشونةَ فيه، يقال: لان الشيءُ يَلِين لِيناً، وشيءٌ لَيِّن، ولَيْن مخفَّفٌ منه، والجمع: أَلْيِناء[3]. فإذا كان موسى أُمر بأن يقولَ لفرعون قولاً ليناً، فمَن دونَه أحرى بأنْ يقتديَ بذلك في خطابه، وأَمْرِه بالمعروف في كلامه. وقد قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. على ما تقدَّم في «البقرة» بيانه[4]، والحمدُ لله.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ معناه: على رجائكما وطَمَعِكما. فالتوقُّع فيها إنما هو راجعٌ إلى جهة البشر[5]؛ قاله كُبَراء النحويِّين؛ سيبويه وغيرُه[6]. وقد تقدَّم في أوَّل «البقرة»[7].

قال الزجَّاج[8]: «لعل» لفظةُ طمعٍ وتَرَجٍّ، فخاطبهم بما يعقلون. وقيل: «لعل»

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ .وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ٥٨ .

(٢) قوله: مما سواه، من (م).

(٣) الصحاح (لين).

(٤) ٢/ ٢٣٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٧ .

(٧) ١/ ٣٤٢ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٣٥٧ .

هاهنا بمعنى الاستفهام، والمعنى: فانظُر هل يتذكَّر[(١)]. وقيل: هي بمعنى كي[(٢)].

وقيل: هو إخبارٌ من الله تعالى عن قول هارونَ لموسى: لعله يتذكَّر أو يخشى؛ قاله الحسن.

وقيل: إنَّ لعل وعسى في جميع القرآنِ لِما قد وقع. وقد تذكَّر فرعونُ حين أدركه الغرقُ وخشي فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. ولكن لم يَنفعْه ذلك؛ قاله أبو بكر الورَّاق[(٣)] وغيرُه.

وقال يحيى بنُ معاذ في هذه الآية: هذا رِفقُك بمن يقول: أنا الإله، فكيف رفقُك بمن يقول: أنت الإله[(٤)]؟!.

وقد قيل: إنَّ فرعون رَكَنَ إلى قول موسى لمَّا دعاه، وشاور امرأتَه فآمنتْ، وأشارت عليه بالإيمان، فشاور هامانَ فقال: لا تفعل، بعد أن كنتَ مالكاً تصيرُ مملوكاً، وبعد أن كنتَ ربًّا تصير مربوباً[(٥)]. وقال له: أنا أردُّك شابًّا، فخَضَبَ لحيتَه بالسَّواد، فهو أوَّلُ مَن خضب[(٦)].

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ قال الضحَّاك: «يَفْرُطَ»: يَعْجَل. قال: و«يَطْغَى»: يعتدي. النحَّاس[(٧)]: التقدير: نخاف أن يفرطَ علينا

(١) ردَّ السمين في الدر ٨/ ٤٣ : كونها استفهامية وقال: يستحيل الاستفهام في حق الله تعالى كما يستحيل الترجّي.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٨ ، وزاد المسير ٥/ ٢٨٨ .

(٣) ذكره عنه البغوي ٣/ ٢١٩ .

(٤) أخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠٨ .

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٠٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ .

(٦) أورده السيوطي في الجامع الصغير (فيض القدير ٣/ ٩٣) وعزاه للديلمي في الفردوس، عن أنس ﷺ، ورمز لضعفه.

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٣٩ - ٤٠ .

منه أمر، أي: يبدر[١]. قال الفرَّاء[٢]: فَرَط منه أمرٌ[٣]؛ قال: وأفرط: أسرف. قال: وفَرَّط: ترك.

وقراءة الجمهور: «يَفْرُطَ» بفتح الياءِ وضمِّ الراء، ومعناه: يَعْجَل ويُبادِر بعقوبتنا. يقال: فَرَط منِّي أمرٌ، أي: بدر، ومنه: الفارطُ في الماء: الذي يتقدَّم القومَ إلى الماء[٤]. أي: يُعذِّبنا عذابَ الفارطِ في الذنب، وهو المتقدِّم فيه؛ قاله المبرّد[٥].

وقرأت فرقةٌ منهم ابنُ محيصِن: «يَفْرَطَ» بفتح الياء والراء؛ قال المهدوي: ولعلَّها لغة. وعنه أيضاً: بضم الياءِ وفتحِ الراء[٦]، ومعناها: أن يَحْمِلَه حاملٌ على التسرُّع إلينا. وقرأت طائفة: «يُفْرِط» بضم الياءِ وكسر الراء؛ وبها قرأ ابنُ عباس ومجاهدٌ وعكرمة وابن محيصن أيضاً. ومعناه: يشتط[٧] في أذيَّتنا[٨]، قال الراجز:

قـد أفـرطَ الـعِـلْـجُ عـلـيـنـا وعَـجِـلْ[٩]

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قال العلماء: لمَّا لَحِقَهما ما يَلحقُ البشرَ من الخوف على أنفسهما،

(١) قوله: أي: يبدر، ليس في (م).

(٢) معاني القرآن ٢/ ١٨٠ .

(٣) بعدها في (م): أي: بدر. والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠ ، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ .

(٥) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠٥ .

(٦) المحتسب ٢/ ٥٢ .

(٧) في (د) و(م): يشطط.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ . ولم ينسب القراءة لأحد.

(٩) النكت والعيون ٣/ ٤٠٥ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٧٦ ، وعندهما: فرطه بدل: أفرط.

عرَّفهما اللهُ سبحانه أنَّ فرعونَ لا يَصِلُ إليهما، ولا قومه. وهذه الآيةُ تردُّ على مَن قال: إنه لا يخاف؛ والخوفُ من الأعداء سُنَّةُ الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتِهم. ولقد أحسن البصريُّ رحمه الله حين قال للمخبِر عن عامر بنِ عبد الله[1] ـ أنه نزل مع أصحابه في طريق الشامِ على ماء، فحال الأسدُ بينهم وبين الماء، فجاء عامرٌ إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل له: قد خاطرتَ بنفسك، فقال: لأَن تختلفَ الأسنَّةُ في جَوْفي أحبُّ إليَّ مِن أنْ يعلمَ اللهُ أني أخاف شيئاً سواه ـ: قد خاف مَن كان خيراً من عامر؛ موسى ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠-٢١]، وقال: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، وقال حين ألقى السحرةُ حبالَهم وعصيَّهم: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٧-٦٨].

قلت: ومنه حَفْرُ النبيِّ ﷺ الخندقَ حولَ المدينةِ تحصيناً للمسلمين وأموالِهم، مع كونه من التوكُّل والثقةِ بربه بمحلٍّ لم يبلُغْه أحد، ثم كان مِن أصحابه ما لا يجهله أحدٌ مِن تحوُّلهم عن منازلهم، مرَّة إلى الحبشة، ومرةً إلى المدينة؛ تخوُّفاً على أنفسهم من مشركي مكة، وهرباً بدينهم أنْ يَفْتنوهم عنه بتعذيبهم. وقد قالت أسماء بنتُ عُمَيس لِعمرَ لمَّا قال لها: سبقناكم بالهجرة[2]؛ فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم: كذبتَ يا عمر؛ كلَّا واللهِ، كنتم مع رسول الله ﷺ، يُطعِم جائعَكم، ويَعِظُ جاهلَكم، وكنا في دارِ ـ أو أرض ـ البُعداءِ البُغَضاءِ في الحبشة؛ وذلك في الله وفي رسوله؛ وايمُ اللهِ، لا أَطْعَمُ طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكرَ ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنَّا نُؤذَى ونُخاف. الحديث بطوله خرَّجه مسلم[3].

(١) وهو عامر بن عبد قيس، أبو عبد الله، ويقال: أبو عمرو التميمي العنبري البصري، الزاهد. كان ثقة من عبَّاد التابعين. قيل: توفي في زمن معاوية ﷺ. السير ٤/ ١٥ . وقصته مذكورة بمعناها في تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٨٣٤).

(٢) في النسخ الخطية: للهجرة.

(٣) برقم (٢٥٠٣) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

قال العلماء: فالمخبِرُ عن نفسه بخلاف ما طَبَعَ اللهُ نفوسَ بني آدم كاذب؛ وقد طَبَعهم على الهرب ممَّا يضرُّها ويؤلمها ويُتْلفها. قالوا: ولا ضارَّ أضرُّ مِن سَبُع عادٍ في فلاة من الأرض على مَن لا آلةَ معه يدفعه بها عن نفسه، من سيف أو رمحٍ أو نَبْل أو قوس، وما أشبهَ ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ يريد: بالنصر والمعونةِ والقدرةِ على فرعون. وهذا كما تقول: الأمير مع فلان، إذا أردتَ أنه يَحميه. وقوله: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عبارةٌ عن الإدراك الذي لا تَخفى معه خافية، تبارك اللهُ ربُّ العالمين[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ في الكلام حذفٌ، والمعنى: فأتياه، فقالا له ذلك. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خَلِّ عنهم. ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾ أي: بالسُّخْرة والتعب في العمل، وكانت بنو إسرائيل عند فرعون في عذابٍ شديد، يُذبِّح أبناءهم، ويستخدم[(٢)] نساءهم، ويُكلِّفهم من العمل في الطِّين واللَّبِن وبناء المدائن ما لا يُطيقونه[(٣)]. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ قال ابن عباس: يريد العصا واليد[(٤)].

وقيل: إن فرعون قال له: وما هي؟ فأدخل يدَه في جيبِ قميصه، ثم أخرجها بيضاءَ لها شعاعٌ مثل شعاع الشمس، غلب نورُها على نور الشمس، فعَجِب منها. ولم يُرِه العصا إلا يومَ الزِّينة[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ ، وصفة السمع من الصفات الثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة والإجماع، فيجب إثباتها من غير تأويل ولا تحريف، وهو سمع حقيقي يليق بجلاله عز وجل.

(٢) في (د) و(م): يستحيي.

(٣) زاد المسير ٥/ ٢٩١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢١٩ بنحوه.

(٤) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٩٠ دون ذكر اليد.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢١٩ بنحوه.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ قال الزجاج[١]: أي: من اتَّبعَ الهدى سَلِمَ من سَخَطِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعذابه. قال: وليس بتحيةٍ، قال: والدليلُ على ذلك أنه ليس بابتداء لِقاءٍ ولا خِطاب. الفراء[٢]: السلامُ على مَن اتَّبع الهُدى ولمن اتَّبع الهُدى سواءٌ.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ يعني الهلاك والدَّمار في الدنيا، والخُلود في جهنم في الآخرة ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ أنبياءَ الله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أعرَضَ عن الإيمان. وقال ابن عباس: هذه أرْجى آيةٍ للموحِّدين؛ لأنهم لم يُكذِّبوا ولم يتولَّوا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ذكر فرعون موسى دون هارون لرؤوس الآي. وقيل: خصَّصه بالذِّكر؛ لأنه صاحبُ الرسالة والكلامِ والآية[٣]. وقيل: إنهما جميعاً بلَّغا الرسالةَ وإنْ كان ساكتاً؛ لأنه في وقت الكلام إنما يتكلَّم واحدٌ، فإذا انقطع وازَره الآخرُ وأيَّده. فصار لنا في هذا البناء فائدةُ علم: أنَّ الاثنين إذا قُلِّدا أمراً فقام به أحدُهما، والآخرُ شخْصُه هناك موجودٌ مُستغنًى عنه في وقتٍ دون وقت أنهما أدَّيا الأمرَ الذي قُلِّدا، وقاما به واستوجبا[٤] الثوابَ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، وقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾، فأمَرهما جميعاً بالذهاب وبالقول، ثم أعلَمَنا في وقت الخطاب بقوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ أنه كان حاضراً مع موسى.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي: إنه يُعرَف بصفاته، وليس له اسم علم حتى يقال: فلان، بل هو خالقُ العالَم، وهو الذي خصَّ كلَّ مخلوقٍ بهيئة وصورة. ولو كان الخِطاب معهما لقالا: قالا ربنا.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٥٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٠.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٨٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٦ بنحوه.

(٤) في (خ) و(ف): واستوفيا.

و«خَلْقَهُ» أول مفعولَي «أعطى»، أي: أعطى خَليقتَه كلَّ شيء يحتاجون إليه ويَرتفقون به، أو ثانيهما، أي: أعطى كلَّ شيءٍ صورته وشَكْلَه الذي يُطابق المنفعةَ المَنُوطةَ به[١]؛ على قول الضحاك على ما يأتي. ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال ابن عباس وسعيدُ بن جُبير والسديُّ: أعطى كلَّ شيء زوجَه من جنسه، ثم هداه إلى مَنْكَحِه ومَطْعمِه ومَشْربِه ومَسْكنِه. وعن ابن عباس: ثم هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة. وقال الحسنُ وقتادة: أعطى كلَّ شيءٍ صلاحَه، وهَداه لِما يُصلحه. وقال مجاهد: أعطى كل شيءٍ صورةً؛ لم يجعل خَلْقَ الإنسان في خَلْقِ البهائم، ولا خَلْق البهائم في خَلْق الإنسان، ولكن خَلَق كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً[٢].

وقال الشاعر:

ولــه فــي كــلِّ شــيءٍ خِــلْــقَــةٌ وكـذاك الـلـهُ مـا شـاء فَـعَـلْ[٣]

يعني بالخِلقة الصورة، وهو قولُ عطية ومقاتل. وقال الضحاك: أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقه من المنفعة المَنوطة به المُطابقةِ له. يعني اليد للبطش، والرِّجْل للمشي، واللسان للنُّطْق، والعين للنظر، والأُذن للسَّمع[٤].

وقيل: أعطى كلَّ شيء ما ألهمه من علم أو صناعة[٥].

وقال الفراء[٦]: خلق الرَّجُلَ للمرأة، ولكل ذَكَرٍ ما يُوافقه من الإناث، ثم هدى الذَّكر للأنثى. فالتقدير على هذا: أعطى كلَّ شيء مثلَ خَلْقِهِ.

قلت: وهذا معنى قولِ ابن عباس. والآيةُ بعمومها تتناول جميعَ الأقوال.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٩ .

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٨١ ، وزاد المسير ٥/ ٢٩١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠٦ ولم ينسبه، وفيه الأقوال السالفة.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ .

(٥) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٤٠٦ .

(٦) معاني القرآن له ٢/ ١٨١ بنحوه.

وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ: «الَّذِي أَعْطَى كُل شَيْءٍ خَلَقَهُ» بفتح اللام[١]؛ وهي قراءة ابنِ أبي إسحاق. ورواها نُصير عن الكسائي وغيره[٢]، أي: أعطى بني آدمَ كلَّ شيءٍ خَلَقه مما يحتاجون إليه. فالقراءتان متفقتان في المعنى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ﴾ البال: الحال، أي: ما حالُها وما شأنُها؟ فأعلَمه أنَّ علمها عند اللهِ تعالى، أي: إن هذا من علم الغيب الذي سألتَ عنه، وهو مما استأثر اللهُ تعالى به لا يَعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبدٌ مثلك؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علَّامُ الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوبٌ[٣] عند الله في اللوح المحفوظ.

وقيل: المعنى: فما بالُ القرون الأولى لم يُقِرُّوا بذلك؟. أي: فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربِّك.

وقيل: إنما سأله عن أعمال القرون الأولى، فأعلمه أنها مُحْصاة عند الله تعالى، ومحفوظةٌ عنده في كتاب. أي: هي مكتوبة، فسيجازيهم غداً بها وعليها. وعنَى بالكتاب اللوحَ المحفوظ[٤]. وقيل: هو كتاب مع بعض الملائكة.

الثانية: هذه الآية ونظائرها مما تقدَّم ويأتي تدلُّ على تدوين العلوم وكَتْبها لئلا

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٠ .

(٢) القراءات الشاذة ص٨٧ . ونُصير: هو ابن يوسف بن أبي نصر أبو المنذر، الرازي، ثم البغدادي، النحوي، من جِلة أصحاب الكسائي. طبقات القراء ٢/ ٣٤٠ . وقراءة الكسائي المشهورة عنه كقراءة الجماعة.

(٣) في النسخ: مكتوبة، والمثبت من الكشاف ٢/ ٥٣٩ ، والكلام منه.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ بنحوه.

تُنسى. فإنَّ الحِفْظَ قد تَعتريه الآفاتُ من الغَلَط والنِّسيان. وقد لا يَحفظُ الإنسان ما يسمع، فيقيده لئلَّا يذهبَ عنه. وروينا بالإسناد المتصل عن قتادةَ أنه قيل له: أنكتبُ ما نسمعُ منك؟ قال: وما يَمنعك أن تكتبَ وقد أخبرك اللطيفُ الخبير أنه يكتب، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[١].

وفي «صحيح» مسلم: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا قضَى اللهُ الخلقَ كَتَبَ في كتابه على نفسه، فهو موضوع عنده: إنَّ رحمتي تَغلِبُ غضبي»[٢].

وأسند الخطيب أبو بكر عن أبي هريرة قال: كان رجلٌ من الأنصار يَجلِسُ إلى النبيِّ ﷺ يستمع منه الحديثَ ويُعجبه ولا يَحفظه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أسمعُ منك الحديثَ يُعجبني ولا أحفظه، فقال له رسول الله ﷺ: «اِستعِنْ بِيمينِك» وأَوْمَأَ إلى الخَطِّ[٣]. وهذا نصٌّ.

وعلى جواز كَتْب العلم وتدوينه جمهورُ الصحابة والتابعين[٤]. وقد أَمَرَ ﷺ بكَتْب الخُطبة التي خطَب بها في الحَجِّ لأبي شاه ـ رجل من اليمن ـ لما سأله كَتْبَها. أخرجه مسلم[٥].

وروى عمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جدِّه، عن النبيِّ ﷺ قال: «قَيِّدوا العلمَ بالكتاب»[٦]. وقال معاويةُ بن قُرَّة: مَن لم يكتب العلمَ لم يُعَدَّ عِلْمُه عِلْماً[٧].

---

(١) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٧٢، والخطيب البغدادي في تقييد العلم ص١٠٣.

(٢) صحيح مسلم (٢٧٥١)، وسلف ١/ ٢٤٣.

(٣) تقييد العلم ص٦٧، والجامع لأخلاق الراوي والسامع ١/ ٣٨٢ - ٣٨٣، وأخرجه الترمذي (٢٦٦٦) وفي إسناده الخليل بن مرة، قال الترمذي: هذا حديث إسناده ليس بذلك القائم، وسمعت محمد بن إسماعيل (يعني البخاري) يقول: الخليل بن مرة منكر الحديث.

(٤) إكمال المعلم ٤/ ٤٧٤، والمفهم ٣/ ٤٧٦.

(٥) برقم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (٧٢٤٢)، والبخاري (٢٤٣٤).

(٦) في (م): بالكتابة. والحديث أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٦٥، والخطيب في تقييد العلم ص٩٦.

(٧) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٧٢، والخطيب في تقييد العلم ص١٠٩.

وقد ذهب قومٌ إلى المنع من الكَتْب، فروى أبو نضرة قال: قيل لأبي سعيد: أنكتبُ حديثكم هذا؟ قال: لِمَ تجعلونه قرآناً؟ ولكن احفظوا كما حَفِظنا[(١)].

وممن كان لا يكتب الشعبيُّ ويونس بن عبيد وخالد الحذّاء ـ قال خالد: ما كتبتُ شيئاً قطُّ إلا حديثاً واحداً؛ فلمَّا حفِظته محوتُه ـ وابن عون والزُّهريُّ.

وقد كان بعضُهم يكتبُ فإذا حَفِظَ مَحَاه؛ منهم محمدُ بن سيرين وعاصمُ بن ضَمْرة. وقال هشام بن حسان: ما كتبتُ حديثاً قطُّ إلا حديثَ الأعماق فلمَّا حَفِظتُه مَحَوْته[(٢)].

قلت: وقد ذكرنا عن خالد الحذَّاء مثل هذا. وحديث الأعماق خرَّجه مسلمٌ في آخر الكتاب: «لا تقومُ الساعةُ حتى ينزلَ الرومُ بالأعْماق أو بدابق» الحديث ذكره في كتاب الفتن[(٣)].

وكان بعضُهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ؛ منهم الأعمشُ، وعبد الله بن إدريس، وهُشيم وغيرهم[(٤)]. وهذا احتياطٌ على الحفظ.

والكَتْبُ أولى على الجُملة، وبه وَردت الآيُ والأحاديثُ، وهو مَرْويٌّ عن عمر، وعليٍّ، وجابر، وأنس ﷺ، ومَن يَليهم من كُبراء التابعين، كالحسن وعطاء وطاوس وعروة بن الزبير ومَن بعدَهم من أهل العلم[(٥)]. قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ

---

(١) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٧٩، والخطيب في تقييد العلم ص٣٦ - ٣٧. وأبو نضرة: هو المنذر بن مالك بن قُطَعة العبدي.

(٢) سنن الدارمي ١/ ١٣١ - ١٣٥، والمحدث الفاصل ص٣٨٠ - ٣٨٣، وتقييد العلم ص٥٩. وحديث الأعماق سيأتي ذكره بعده.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. والأعماق: كورة قرب دابق بين حلب وأنطاكية. ودابق: قرية قرب حلب. معجم البلدان ١/ ٢٢٢ و ٢/ ٤٠٦.

(٤) المحدث الفاصل ١/ ٣٨٤ - ٣٨٥.

(٥) المحدث الفاصل ص٣٨٥.

بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣]، وقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ إلى غير هذا من الآي. وأيضاً فإنَّ العلم لا يُضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابَلة والمُدارسة، والتعهد والتحفظ، والمُذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والثقة بما نقلوا.

وإنما كَرِه الكتاب مَن كَرِه من الصدر الأول لِقُرب العهد، وتقاربِ الإسناد ولئلَّا يعتمده الكاتب فيُهملَه، أو يَرغَبُ عن تحفظه[1] والعمل به، فأمّا والوقتُ مُتباعِدٌ، والإسناد غير مُتقارب، والطرق مختلفة، والنَّقَلة متشابهون، وآفةُ النسيان معترضة، والوهمُ غير مأمون؛ فإن تقييدَ العلم بالكتاب أولى وأشفى، والدليل على وجوبه أقوى.

فإن احتجَّ مُحتجٌّ بحديث أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لا تكتبوا عني، ومَن كتبَ عني غيرَ القرآن فَلْيَمْحُهُ» خرَّجه مسلم[2]، فالجواب أنَّ ذلك كان مُتقدِّماً، فهو منسوخٌ بأمره بالكتابة وإباحتِها لأبي شاه وغيره. وأيضاً كان ذلك لئلا يُخلَط بالقرآن ما ليس منه. وكذا ما رُوي عن أبي سعيدٍ أيضاً: حَرصنا أن يأذن لنا النبيُّ ﷺ في الكتابة فأبَى[3]؛ إن كان محفوظاً فهو قبلَ الهجرة، وحين كان لا يُؤمن الاشتغال به عن القرآن.

الثالثة: قال أبو بكر الخطيب[4]: ينبغي أن يُكتب الحديث بالسواد، ثم بالحبر

---

(١) في (د) و(م): حفظه، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق للمحدث الفاصل ص٣٨٥ - ٣٨٦، والكلام منه.

(٢) برقم (٣٠٠٤)، وهو في مسند أحمد (١١٠٨٥) و(١١١٥٨).

(٣) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل ص٣٨٦، وينظر المفهم ٣/ ٤٧٦ - ٤٧٧.

(٤) في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٣٨٣.

خاصةً دون المِداد؛ لأن السوادَ أصبغُ الألوان، والحبرَ أبقاها على مرِّ الدُّهور. وهو آلةُ ذوي العلم، وعدَّةُ أهلِ المعرفة.

ذكر عبدُ الله بنُ أحمد بن حنبل، حدثني أبي قال: رآني الشافعيُّ وأنا في مجلسه وعلى قميصي حِبرٌ وأنا أُخفيه؛ فقال: لم تُخفيه وتَستُره؟ إنَّ الحبرَ على الثوب من المروءة، لأن صورته في الأبصار سوادٌ، وفي البصائر بَيَاض.

وقال خالد بن يزيد: الحِبرُ في ثوب صاحب الحديث مثلُ الخَلُوق في ثوب العروس. وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البَلَوي فقال:

مِدادُ المَحَابرِ طيبُ الرجال ... وطِيب النساءِ من الزّعفرانْ
فهذا يَليقُ بأثواب ذَا ... وهذا يليقُ بثوب الحَصَانْ[١]

وذكر الماورديُّ[٢] أن عُبيدَ الله بن سليمان[٣] ـ فيما حكَى ـ رأى على بعض ثيابه أثر صُفرةٍ؛ فأخذ من مِداد الدواة فطلاه به، ثم قال: المِدادُ بنا أحسنُ من الزَّعفران؛ وأنشد:

إنَّما الزّعفرانُ عِطرُ العَذَارَى ... ومِدادُ الدُّويِّ عِطْرُ الرِّجالِ[٤]

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ اختلف في معناه على أقوال خمسة:

الأول: إنه ابتداء كلام، تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين، وقد كان الكلام تمَّ في قوله: «في كتاب»[٥]. وكذا قال الزجاج، وأن معنى «لا يضلُّ» لا يَهْلِك، من

---

(١) أخرج هذه الآثار الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٣٨٦.

(٢) في أدب الدنيا والدين ص٥٦.

(٣) في (م): عبد الله بن سليمان، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لأدب الدنيا والدين. ولعله عبيد الله بن سليمان بن وهب، الوزير الكبير، أبو القاسم وزير المعتضد، توفي سنة (٢٨٨هـ). السير ١٣/ ٤٩٧.

(٤) ذكر القصة والبيت التنوخي في نشوار المحاضرة ٣/ ٢٥٤ ونسبها لأبي علي ابن مُقْلة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧.

قوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]. «وَلَا يَنْسَى» شيئاً[١]، نزَّهه عن الهلاك والنِّسيان.

القول الثاني: «لَا يَضِلُّ»: لا يُخطئ؛ قاله ابن عباس[٢]؛ أي: لا يُخطئ في التدبير، فمن أنظره فَلِحِكمة أنظره، ومن عاجَله فَلِحِكمة عاجَله.

القول الثالث: «لا يضلُّ»: لا يغيب. قال ابن الأعرابي: أصلُ الضلال الغَيبوبة؛ يقال: ضلَّ الناسي: إذا غاب عنه حفظُ الشيء. قال: ومعنى «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» أي: لا يغيبُ عنه شيء، ولا يغيبُ عن شيءٍ[٣].

القول الرابع ـ قاله الزجاج أيضاً، وقال النحاس[٤]: وهو أشبهها بالمعنى ـ: أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنه لا يحتاج إلى كتاب، والمعنى: لا يضلُّ عنه علمُ شيءٍ من الأشياء ولا معرفتها، ولا يَنسى ما عَلِمَه منها.

قلت: وهذا القول راجعٌ إلى معنى قولِ ابن الأعرابي.

وقول خامس: إنَّ «لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» في موضع الصفة لـ «كتاب» أي: الكتاب غير ضالٍّ عن الله عزَّ وجلَّ[٥]، أي: غير ذاهب عنه. «وَلَا يَنْسَى» أي: غير ناسٍ له، فهما نعتان لـ «كتاب». وعلى هذا يكون الكلام متصلاً، ولا يُوقَفُ على «كتاب». تقول العرب: ضلَّني الشيءُ: إذا لم أجده، وأَضْلَلْتُه أنا: إذا تركتَه في موضع فلم تجده فيه[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١ ، ولم نقف على قول الزجاج في معاني القرآن له، ولم ينسبه النحاس له.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٨٣ ، والكلام الذي بعده فيه.

(٣) تهذيب اللغة ١١/ ٤٦٥ ، وفيه: أبو عمرو، بدل: ابن الأعرابي.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤١ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٧ بنحوه.

وقرأ الحسنُ وقتادة وعيسى بن عمر وابن مُحيصن وعاصم الجَحْدري وابن كثير فيما روى شِبل عنه: «لَا يُضِلُّ» بضم الياء على معنى لا يُضيعه ربّي ولا ينساه(١).

قال ابن عرفة: الضلالةُ عند العرب سلوكُ سبيل غير القصد؛ يقال: ضلَّ عن الطريق، وأضلَّ الشيء: إذا أضاعه. ومنه قرأ مَن قرأ: «لا يُضِلُّ رَبِّي» أي: لا يُضيع، هذا مذهبُ العرب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ «الذي» في موضع نعت لِـ«رَبِّي» أي: لا يضلُّ رَبي الذي جعل. ويجوز أن يكون خبرَ ابتداء مُضمر، أي: هو الذي. ويجوز أن يكون منصوباً بإضمار أعني(٢). وقرأ الكوفيون: «مَهْداً» هنا وفي «الزخرف»(٣) بفتح الميم وإسكان الهاء. الباقون: «مِهَاداً»(٤)، واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم لاتّفاقهم على قراءة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

النحاس(٥): والجمعُ أولى لأن «مهداً» مصدرٌ، وليس هذا موضع مصدر إلّا على حذف، أي: ذات مهد. المهدويّ: ومَن قرأ: «مَهْداً» جاز أن يكون مصدراً، كالفَرْش، أي: مَهَدَ لكم الأَرضَ مَهْداً، وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي: ذاتَ مهد. ومن قرأ: «مِهَاداً»؛ جاز أن يكون مفرداً، كالفراش، وجاز أن يكون

(١) القراءات الشاذة ص٨٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١، والبحر المحيط ٦/ ٢٤٨، والقراءة المتواترة عن ابن كثير كقراءة الجماعة.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٤٠.

(٣) الآية (١٠).

(٤) السبعة ص٤١٨، والتيسير ص١٥١.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤١.

جمع «مهدٍ» استُعمِلَ استعمالَ الأسماءَ فكُسِّر[١]. ومعنى «مِهَاداً» أي: فراشاً وقَراراً تستقرّون عليها.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: طرقاً[٢]. نظيره: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:١٠].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تقدَّم معناه[٣]. وهذا آخرُ كلام موسى. ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾. وقيل: كُلُّه من كلام موسى[٤]. والمعنى: «فأخرجنا به» أي: بالحرث والمعالجة؛ لأن الماءَ المنزلَ سببُ خروج النبات.

ومعنى ﴿أَزْوَاجًا﴾: ضروباً وأشباهاً، أي: أصنافاً من النبات المختلفة الأزواج والألوان[٥]. وقال الأخفش: التقدير أزواجاً شَتَّى من نبات. قال: وقد يكون النبات شَتَّى، فـ «شَتَّى» يجوز أن يكون نعتاً لأزواج، ويجوز أن يكون نعتاً للنبات[٦]. و«شَتَّى» مأخوذٌ من شتَّ الشيءُ، أي: تفرَّق. يقال: أمرٌ شَتٌّ، أي: متفرِّقٌ. وشَتَّ الأمرُ [يَشِتُّ] شَتًّا وشَتاتاً: تفرَّق؛ واسْتَشَتَّ[٧] مثله. وكذلك التَّشتت. وشَتَّته تَشْتِيتاً فرَّقه. وأشتَّ بي قومي، أي: فرَّقوا أمري. والشَّتيت المتفرِّق. قال رُؤْبة يصف إبلاً:

(١) الكلام بنحوه في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٩٧ - ٩٨ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٨٥ عن قتادة.

(٣) ٢/ ٤٩٧ .

(٤) قال الرازي في تفسيره ٢٢/ ٦٨ : «فأخرجنا» إما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى، والأول باطل؛ لأن قوله بعد ذلك: «كلوا وارعوا أنعامكم... منها خلقناكم وفيها نعيدكم..» لا يَليق بموسى عليه السلام.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٢٢٠ ، وزاد المسير ٥/ ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٦) لم نقف على قول الأخفش، وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ٦٩ .

(٧) في النسخ: اشتتَّ، والمثبت من الصحاح (شتت) وما بين حاصرتين منه.

جَـاءتْ مَـعـاً واطَّـرَقـتْ شَـتِـيـتـا وهـي تُـثـيـرُ الـسَّـاطِـعَ الـسِّـخْـتِـيـتَـا[١]

وثَغْرٌ شَتيتٌ، أي: مُفلَّج. وقومٌ شَتَّى، وأشياءُ شَتَّى، وتقول: جاؤوا أشتاتاً، أي: متفرِّقين، واحدهم شَتٌّ، قاله الجوهري[٢].

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرۡعَوۡا۟ أَنۡعَـٰمَكُمۡۚ﴾ أمر إباحة. «وَارْعَوْا» مِن: رعت الماشيةُ الكلأ، ورعاها صاحبها رعايةً، أي: أسامها وسرحها، لازم ومتعدٍّ[٣].

﴿إِنَّ فِی ذَ ٰلِكَ لَـَٔایَـٰتࣲ لِّأُو۟لِی ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: العقول. الواحدة: نُهْية. قال لهم ذلك؛ لأنهم الذين يُنْتهى إلى رأيهم. وقيل: لأنهم ينهَوْن النفس عن القبائح[٤]. وهذا كلُّه من موسى احتجاجٌ على فرعون في إثبات الصانع جواباً لقوله: «فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى». وبيَّن أنه إنما يُستدلُّ على الصانع اليوم بأفعاله.

قوله تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَـٰكُمۡ﴾ يعني آدم عليه السلام لأنه خُلق من الأرض، قاله أبو إسحاق الزجَّاج وغيره[٥]. وقيل: كلُّ نطفةٍ مخلوقةٌ من التراب، على هذا يدلُّ ظاهر القرآن[٦]. وروى أبو هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ مولودٍ إلا وقد ذُرَّ عليه مِن تراب حُفْرته» أخرجه أبو نُعيم الحافظ في باب ابن سيرين، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ من حديث [ابن] عَوْن لم نكتبه إلَّا من حديث أبي عاصم النبيل، وهو أحدُ الثقاتِ الأعلام من أهل البصرة[٧]. وقد مضى هذا المعنى مُبيَّناً في سورة الأنعام

(١) ديوان رؤبة ص١٧١ . والرجز يصف به إبلاً، يقول: جاءت مجتمعة، فلما صدرت تفرَّقت متشتِّتة. والسِّختيت: الشديد، وعنى به هاهنا الغبار الذي تثيره. شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٤٢٠ .

(٢) الصحاح (شتت).

(٣) الصحاح (رعي).

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٠٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ بنحوه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٥٩ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٢١٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١ .

(٧) حلية الأولياء ٢/ ٢٨٠ ، وما بين حاصرتين منه، وينظر تنزيه الشريعة ١/ ٣٧٣ .

عن ابن مسعود[١].

وقال عطاء الخراساني: إذا وقعت النطفة في الرَّحِم انطلق المَلَكُ المُوكَّلُ بالرَّحِم، فأخذ من تراب المكان الذي يُدفن فيه، فيذرُّه على النطفة، فيخلق الله النَّسَمة من النُّطفة ومن التراب، فذلك قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[٢].

وفي حديث البراء عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا خرجَتْ رُوحُه؛ صَعِدَتْ به الملائكةُ، فلا يمرون بها على مَلأٍ من الملائكة إلَّا قالوا: ما هذه الروحُ الطيِّبة؟ فيقولون: فلانُ بن فلان؛ بأحسن أسمائه التي كانوا يُسمُّونه بها في الدنيا، فيستفتحون لها، فيفتح؛ فَيُشيِّعه من كلِّ سماءٍ مُقرَّبوها إلى السماء التي تليها حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عزَّ وجلَّ: اكتبوا لعبدي كتاباً في عِلِّيين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أُعيدهم، ومنها أُخرجهم تارةً أخرى. فتعاد روحُه في جسده». وذكر الحديث[٣]. وقد ذكرناه بتمامه في كتاب «التذكرة»[٤]، ورُوي من حديث عليٍّ ﷺ، ذكره الثعلبي.

ومعنى ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: بعد الموت ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ أي: للبعث والحساب ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[٥]. يرجع هذا إلى قوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ لا إلى ﴿نُعِيدُكُمْ﴾. وهو كقولك: اشتريتُ ناقةً وداراً وناقةً أخرى. فالمعنى: من الأرض أخرجناكم، ونُخرجكم بعد الموت من الأرض تارةً أخرى[٦].

---

(١) ٨/ ٣١٨ - ٣١٩.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٩٣٤، وابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٤٠٠.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، وأخرجه أبو داود (٤٧٥٣) بنحوه.

(٤) ص١١٩ - ١٢١.

(٥) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٠.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨١.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي: المعجزاتِ الدالَّةَ على نُبوَّة موسى. وقيل: حُجج الله الدالة على توحيده[1]. ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ أي: لم يؤمن. وهذا يدلُّ على أنه كفرَ عِناداً، لأنه رأى الآياتِ عِياناً لا خبراً[2]. نظيره: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ لمَّا رأى الآياتِ التي أتاه بها موسى قال: إنها سحر. والمعنى: جئت لِتوهم الناس أنك جئتَ بآيةٍ توجب اتِّباعَكَ والإيمانَ بك، حتى تغلبَ على أرضنا وعلينا. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: لَنُعارِضَنَّكَ بمثل ما جئتَ به لِيتبيَّن للناس أنَّ ما أتيتَ به ليس من عند الله[3]. ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ هو مصدر، أي: وعداً. وقيل: الموعد اسمٌ لمكان الوعد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]. فالموعد هاهنا مكان. وقيل: الموعد اسمٌ لزمان الوعد، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾[4] [هود: ٨١] فالمعنى: اجعل لنا يوماً معلوماً، أو مكاناً معروفاً.

قال القشيري: والأظهر أنه مصدر ولهذا قال: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ أي: لا نخلف ذلك

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٠٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤١ .

(٣) ينظر زاد المسير ٥/ ٢٩٤ .

(٤) تفسير الرازي ٢٢/ ٧١ .

الوعد، والإخلاف أن يَعِدَ شيئاً ولا يُنجزه[١]. وقال الجوهري[٢]: والميعاد: المواعدة والوقت والموضع، وكذلك المَوْعِد.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة والأعرج: «لَا نُخْلِفْهُ»؛ بالجزم جواباً لقوله «اجْعَلْ»[٣]. ومن رفع فهو نعتٌ لـ «موعد»، والتقدير: موعداً غيرَ مُخْلَفٍ.

﴿مَكَانًا سُوًى﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة: «سُوًى» بضم السين. الباقون: بكسرها[٤]، وهما لغتان؛ مثل: عُداً وعِداً، وطُوًى وطِوًى[٥]. واختار أبو عُبيد وأبو حاتم كسر السين؛ لأنها اللغة العالية الفصيحة. وقال النحاس[٦]: والكسر أعرفُ وأشهرُ. وكلهم نَوَّنوا الواو[٧]، وقد رُويَ عن الحسن ـ واختُلِفَ عنه ـ ضمُّ السين بغير تنوين[٨].

واختُلِفَ في معناه؛ فقيل: سِوى هذا المكان، قاله الكلبي[٩]. وقيل: مكاناً مستوياً يتبيَّن للناس ما بينَّا فيه، قاله ابن زيد[١٠]. ابن عباس: نَصَفاً. مجاهد: مَنْصَفاً، وعنه أيضاً وقتادة: عَدْلاً بيننا وبينك[١١]. قال النحاس: وأهل التفسير على أن معنى «سُوًى» نَصَفٌ وعَدْلٌ، وهو قولٌ حسن[١٢]، قال سيبويه: يقال: سِوًى وسُوًى، أي:

---

(١) أورده أبو حيان في البحر ٦/ ٢٥٢ .

(٢) في الصحاح (وَعَدَ).

(٣) قراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٠ ، وقراءة شيبة ذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٥٣ .

(٤) السبعة ص٤١٨ ، والتيسير ص١٥١ .

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٨٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩ .

(٨) المحتسب ٢/ ٥٢ ، وينظر البحر المحيط ٦/ ٢٥٣ .

(٩) أورده البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢١ ، والرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٢ .

(١٠) أخرجه الطبري ١٦/ ٩٠ ، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٠٨ .

(١١) تفسير الطبري ١٦/ ٩٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١ .

(١٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ .

عَدْلٌ، يعني مكاناً عَدْلاً بين المكانين فيه النَّصَفة[١]، وأصلُه من قولك: جلس في سَواء الدار؛ بالمدّ، أي: في وسطها، ووسط كل شيء أعدَلُه، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: عَدْلاً[٢]»، وقال زهير:

أَرُونَا خُطَّةً لا ضَيْمَ فِيها ... يُسَوِّى بينَنا فيها السَّوَاءُ[٣]

وقال أبو عُبيدة والقُتبي: وَسَطاً بين الفريقين[٤]، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفي:

وإنَّ أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ ... سِوًى بين قيسٍ قيسِ عَيْلانَ والفِزْرِ

والفِزْر: سعد بن زيد مَناة بن تميم[٥].

وقال الأخفش: «سُوًى» إذا كان بمعنى غير، أو بمعنى العدل، يكون فيه ثلاثُ لغات: إنْ ضممتَ السين أو كسرتَ؛ قصرت فيهما جميعاً. وإن فتحت مددت، تقول: مكان سِوًى وسُوًى وسَواء، أي: عَدْلٌ ووسط فيما بين الفريقين. قال موسى بن جابر:

وجدنا أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ

البيتَ[٦]. وقيل: «مكاناً سُوًى» أي: قصداً، وأنشد صاحب هذا القول:

لو تمنَّتْ حَبِيبتي ما عَدَتْني ... أو تمنَّيتُ ما عَدوتُ سِواها[٧]

---

(١) الكلام بنحوه في الصحاح (سوى) منسوب للأخفش.

(٢) أخرجه أحمد (١١٠٦٨)، والترمذي (٢٩٦١)، وسلف ٢/ ٤٣٣ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ ، والبيت في ديوان زهير ص٨٤ .

(٤) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠ ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٧٩ ، وفيهما: القريتين، بدل: الفريقين.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٠ ، والبيت في المحرر الوجيز ٤/ ٤٩ ، وخزانة الأدب ١/ ٣٠٢ . وموسى بن جابر الحنفي: نصراني جاهلي، يلقب أزيرق اليمامة، كثير الشعر. معجم الشعراء ص٢٨٥ .

(٦) الصحاح (سوى)، وسلف البيت قبله.

(٧) سمط اللآلئ للبكري ١/ ٥٠٦ .

وتقول: مررت برجل سِواكَ وسُوَاكَ وسَوَائِكَ، أي: غيرِكَ. وهما في هذا الأمر سواء، وإن شئت: سَواءان. وهم سواءٌ للجميع، وهم أسواءٌ، وهم سَواسِية؛ مثل ثمانية؛ على غير قياس(١).

وانتصب «مكاناً» على المفعول الثاني لـ «جعل». ولا يَحْسُنُ انتصابُه بالموعد على أنه مفعول أو ظرف له؛ لأن الموعدَ قد وصف، والأسماء التي تعمل عمل الأفعال إذا وُصفت أو صُغِّرت لم يَسُغْ أن تعمل؛ لخروجها عن شبه الفعل، ولم يحسن حملُه على أنه ظرف وقع موقع المفعول الثاني؛ لأن الموعدَ إذا وقع بعده ظرف لم تُجرِه العرب مُجرى المصادر مع الظروف، لكنهم يتَّسعون فيه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] و﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾(٢).

واختُلِفَ في يوم الزينة، فقيل: هو يومُ عيد كان لهم يتزيَّنون ويجتمعون فيه، قاله قتادة والسُدِّيّ وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: كان يومَ عاشوراء. وقال سعيد بن المسيّب: يوم سوق كان لهم يتزيَّنون فيها، وقاله قتادة أيضاً. وقال الضحَّاك: يوم السبت. وقيل: يوم النيروز(٣)، ذكره الثعلبي(٤). وقيل: يومٌ يكسر فيه الخليج(٥)، وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون، وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قِبَلِ النيل.

وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفي والسُّلَميّ وهُبيرة عن حفص: «يَوْمَ الزِّينَةِ» بالنصب(٦). ورُويت عن أبي عمرو(٧)، أي: في يوم الزينة إنجازُ موعدنا. الباقون

(١) الصحاح (سوى).

(٢) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٨ - ٤٩.

(٣) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٩١ - ٩٢، وزاد المسير ٥/ ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٤) في عرائس المجالس ص١٨٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩.

(٦) المحتسب ٢/ ٥٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٤٩، وقراءة هبيرة عن حفص ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٢٩٤، والقراءة المشهورة عن حفص: يومُ، كقراءة الجماعة. وهبيرة: هو أبو عمر بن محمد البغدادي، الأبرش، التمّار، طبقات القراء ٢/ ٣٥٣.

(٧) وهي غير المشهورة عنه، وقد ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٥٣.

بالرفع على أنه خبر الابتداء.

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي: وجمعُ الناس، ف «أَنْ» في موضع رفع على قراءة من قرأ: «يَوْمُ» بالرفع[١]. وعطفُ «وَأَنْ يُحْشَرَ» يُقوّي قراءة الرفع؛ لأن «أَنْ» لا تكون ظرفاً، وإن كان المصدر الصريح يكون ظرفاً، كَمقْدَمِ الحاجّ؛ لأن من قال: آتيك مَقْدَمَ الحاجّ لم يقل: آتيكَ أن يقدَمَ الحاجُّ[٢]. النحاس: وأولى من هذا أن يكون في موضع خفضٍ عطفاً على الزينة. والضُّحى مؤنثة تُصغِّرها العرب بغير هاء لئلا يُشبهَ تصغيرُها تصغيرَ ضحوة، قاله النحاس[٣]. وقال الجوهري: ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضُّحَى، وهي حين تُشرق الشمس، مقصورة؛ تُؤنَّث وتُذكَّر، فمن أَنَّثَ ذهب إلى أنها جمع ضحوة، ومَن ذكَّر ذهب إلى أنه اسم على فُعَل، مثل: صُرَدٍ ونُغَرٍ، وهو ظرف غير متمكِّن مثل: سَحَر، تقول: لَقِيتُه ضُحًى وضُحَى، إذا أردتَ به ضُحَى يومك لم تُنوِّنه، ثم بعده الضَّحاء؛ ممدود مُذكَّر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى[٤]. وخَصَّ الضُّحى لأنه أول النهار، فلو امتدَّ الأمر فيما بينهم كان في النهار مُتَّسع.

ورُويَ عن ابن مسعود والجَحدريّ وغيرهما: «وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضُحاً» على معنى: وأن يَحْشُرَ اللهُ الناسَ ونحوه. وعن بعض القراء: «وَأَنْ تَحْشُرَ الناس»[٥] والمعنى: وأن تحشرَ أنت يا فرعون الناس. وعن الجَحدريّ أيضاً: «وَأَنْ نَحْشُرَ» بالنون[٦]. وإنما واعدهم ذلك اليوم؛ ليكون علوُّ كلمة الله وظهورُ دينه وكبت الكافر

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ .

(٢) ينظر مجمع البيان ١٦/ ١١١ - ١١٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٢ .

(٤) الصحاح (ضحا).

(٥) القراءات الشاذة ص٨٨ ، والمحتسب ٢/ ٥٤ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٤٩ دون نسبة.

وزهوقُ الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المَجمع الغاصِّ؛ لتقوَى رغبةُ من رَغِبَ في الحقِّ، ويكلَّ حدُّ المبطلين وأشياعِهم، ويَكثُرَ التحدُّثُ بذلك الأمر العام[(١)] في كل بدوٍ وحضرٍ، ويَشيعَ في جمع أهل الوَبَر والمدَر[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أي: حِيَلَه وسِحْرَه، والمراد جَمْعُ السَّحَرة[(٣)]. قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً، مع كل ساحرٍ منهم حبالٌ وعِصيٌّ. وقيل: كانوا أربع مئة. وقيل: كانوا اثني عشرَ ألفاً. وقيل: أربعةَ عشرَ ألفاً. وقال ابن المنكدر: كانوا ثمانين ألفاً. وقيل: كانوا مجمعين على رئيس يقال له: شمعون. وقيل: كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر نقيباً، مع كل نقيبٍ عشرون عريفاً، مع كل عريفٍ ألفُ ساحرٍ. وقيل: كانوا ثلاثَ مئة ألفِ ساحرٍ من الفيُّوم، وثلاثَ مئة ألفِ ساحر من الصعيد، وثلاثَ مئة ألفِ ساحرٍ من الريف، فصاروا تسعَ مئة ألفٍ، وكان رئيسهم أعمى[(٤)].

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: أتى الميعاد. ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ أي: قال لفرعون والسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ عليهم بالويل. وهو بمعنى المصدر. وقال أبو إسحاق الزجَّاج[(٥)]: هو منصوب بمعنى: ألزمهم الله وَيْلاً. قال: ويجوز أن يكون نداءً، كقوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا﴾ [يس: ٥٢].

﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تختلقوا عليه الكذب، ولا تُشركوا به، ولا تقولوا للمعجزات: إنها سحر[(٦)]. ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ مِن عِنده، أي: يستأصِلكم

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٧٣.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢١.

(٤) سلفت هذه الأقوال في الأعراف ٩/ ٢٩٥، قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٢/ ٤٣٨، وهذه الأقوال ليس لها سند يوقف عنده.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٢.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢ بنحوه.

بالإهلاك. يقال منه: سَحَت وأَسْحت بمعنًى. وأصله من استقصاء الشَّعر.

وقرأ الكوفيون: «فَيُسْحِتَكُمْ»(١) من أسْحَت، الباقون: «فَيَسْحَتَكُمْ» من سَحَت، وهذه لغةُ أهل الحجاز، [والأُولى لغة] بني تميم. وانتصب على جواب النهي. وقال الفرزدق:

وعَضُّ زمانٍ يا ابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ   من المالِ إلّا مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ(٢)

الزمخشري: وهذا بيتٌ لا تزال الركب تصطكُّ في تسوية إعرابه(٣).

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: خَسِرَ وهَلَكَ، وخاب من الرحمة والثواب من ادَّعى على الله ما لم يأذَن به.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: تشاوروا، يريد السَّحرة. ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾. قال قتادة: قَالُوا: إن كان ما جاء به سحراً فسنغلبه، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر، وهذا الذي أَسرُّوه. وقيل: الذي أسرُّوا قولهم: «إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ» الآية، قاله السُّدِّيّ ومقاتل. وقيل: الذي أسرُّوا قولهم: إن غَلَبنا اتَّبعناه، قاله الكلبي، دليله ما ظهر من عاقبة أمرهم. وقيل: كان سِرُّهم أن قالوا حين قال لهم موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: ما هذا بقول ساحرٍ(٤). و«النجوى»: المناجاة،

---

(١) قرأ بها عاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي. السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣ . وما بين حاصرتين زيادة ضرورية، وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ٧٣ ، وفتح القدير ٣/ ٣٧٢، والبيت في ديوان الفرزدق ص٥٥٦ ، وقد سلف ٥/ ٢٧٩ ، و ٧/ ٤٨٤ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥٤٣ ، وينظر ما ذكرناه في إعراب هذا البيت ٧/ ٤٨٤ - ٤٨٥ .

(٤) هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٦/ ٩٥ - ٩٧ ، والنكت والعيون ٣/ ٤١٠ .

يكون اسماً ومصدراً، وقد تقدَّم في «النساء» بيانه[١].

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ قرأ أبو عمرو: «إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ»[٢]. ورُويت عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة[٣]، وكذلك قرأ الحسنُ وسعيد بن جُبير وإبراهيم النَّخَعيّ وغيرهم من التابعين، ومن القُرَّاء عيسى بن عمر وعاصم الجَحدَرِيّ، فيما ذكر النحاس[٤]. وهذه القراءة موافقةٌ للإعراب مخالفةٌ للمصحف[٥]. وقرأ الزُّهريُّ والخليل بن أحمد والمفضَّل وأبان وابن مُحيصن وابن كثير وعاصم في رواية حفص عنه: «إِنْ هَذَانِ» ـ بتخفيف «إن» ـ «لساحران»، وابن كثير يشدّد نون «هذانّ»[٦]. وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب، ويكون معناها: ما هذان إلّا ساحران[٧]. وقرأ المدنيون والكوفيون: «إنَّ هَذَانِ» ـ بتشديد «إنَّ» ـ «لساحران»[٨]، فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب[٩]. قال النحاس[١٠]: فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة، ورُوِيَ عن عبد الله ابن مسعود أنه قرأ: «إنْ هذانِ إلّا ساحِرانِ»[١١] وقال الكسائي في قراءة عبد الله: «أنْ هَـذَانِ سَـاحِـرَانِ» بغير لام[١٢]، وقال الفرَّاء في حرف أُبيّ: «إنْ ذَانِ إِلّا

(١) ٧/ ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ .

(٣) زاد المسير ٥/ ٢٩٧ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٤ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤١٠ ، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٠٠ .

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣ ، وقراءة ابن كثير وحفص في السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ .

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤١٠ .

(٨) السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥١ ، والنشر ٢/ ٣٢١ .

(٩) النكت والعيون ٣/ ٤١٠ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٤٣ .

(١١) نسبها الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٦١ لأُبيّ.

(١٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٨٤ ، والرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٤ . قال السمين في الدر ٨/ ٦٨ : على أنها وما في حيِّزها بدل من «النجوى».

سَاحِرَانِ»[١]. فهذه ثلاثُ قراءات أُخرى تُحمل على التفسير، لا أنها جائزٌ أن يُقرأ بها؛ لمخالفتها المصحف.

قلت: وللعلماء في قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال؛ ذكرها ابن الأنباري في آخر كتاب «الردّ» له، والنحاس في إعرابه[٢]، والمهدويُّ في «تفسيره»، وغيرهم دخلَ[٣] كلامُ بعضهم في بعض.

وقد خطَّأها قومٌ حتى قال أبو عمرو: إني لأستحي من الله أن أقرأ: «إِنَّ هَذَانِ»[٤]. وروى عروةُ عن عائشة رضيَ الله عنها أنها سُئلت عن قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [النساء: ١٦٢]، ثم قال: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ [النساء: ١٦٢] وفي «المائدة»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩] و﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ فقالت: يا ابن أختي، هذا خطأٌ من الكاتب. وقال عثمان بن عفان ﷺ: في المصحف لحنٌ، وستقيمه العرب بألسنتهم[٥]. وقال أبان بن عثمان: قرأت هذه الآية عند أبي عثمانَ بن عفان، فقال: لحنٌ وخطأ، فقال له قائل: ألا تُغيِّروه؟ فقال: دَعُوه، فإنه لا يُحرِّم حلالاً ولا يُحلِّل حراماً[٦].

القول الأول من الأقوال الستة أنها لغة بني الحرث بن كعب وزَبيد وخَثْعم وكنانة ابن زيد؛ يجعلون رفعَ الاثنين ونصبَه وخفضَه بالألف، يقولون: جاء الزيدان، ورأيتُ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٤، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٨ لابن مسعود ﷺ.

(٢) ٣/ ٤٤ - ٤٦.

(٣) في (م): أدخل.

(٤) زاد المسير ٥/ ٢٩٧، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٤.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٣، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٤. وسلف حديث عائشة ٧/ ٢١٩، ونقل المصنف ثمة عن القشيري قوله: هذا المسلك باطل، لأن الذين جمعوا الكتاب كانوا قدوةً في اللغة، فلا يُظنُّ بهم أنهم يدرجون في القرآن ما لم ينزل. وينظر ما نقلناه عن الباقلاني في الردِّ على مثل هذه الأخبار.

(٦) لم نقف عليه.

الزيدان، ومررت بالزيدان، ومنه قوله تعالى: «ولا أدْرَأْتُكم به»[١] [يونس:١٦] على ما تقدم. وأنشد الفرَّاء[٢] لرجلٍ من بني أسد، قال: وما رأيتُ أفصحَ منه:

فأطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ ولو يَرَى ... مَساغاً لِنَابَاهُ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا[٣]

ويقولون: كَسرتُ يداه ورَكِبتُ عَلَاه؛ بمعنى: يديه وعليه؛ قال شاعرهم:

تَزوَّدَ مِنّا بينَ أُذْنَاهُ ضَرْبةً ... دعته إلى هابي التُّرابِ عَقِيمِ[٤]

وقال آخر:

طَارُوا عَلَاهُنَّ فَطِرْ عَلَاهَا[٥]

أي: عليهنّ، وعليها.

وقال آخر:

إنَّ أَبَاهَا وأَبَا أَبَاهَا ... قد بَلَغَا في المجدِ غايتاها[٦]

أي: إنَّ أبا أبيها وغايتيها. قال أبو جعفر النحاس[٧]: وهذا القولُ من أحسن ما

---

(١) هي قراءة الحسن، وأصلُها: «ولا أدْرَيْتُكم» أبدلت الياء ألفاً لانفتاح ما قبلها، على لغة بني الحارث بن كعب كما سلف ١٠/ ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٨٤ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٥ .

(٣) الضبعي، وهو في الأصمعيات ص٢٤٦ ، والشعر والشعراء ١/ ١٨٠ ، ومختارات ابن الشجري ص٢٩ ، وعند الأصمعي وابن الشجري: لنابيه. والشجاع: ضرب من الحيات، وصمَّمَ، أي: عضَّ ونيَّب فلم يرسل ما عضَّ. الصحاح (شجع) و(صمم).

(٤) البيت لهوبر الحارثي، وهو في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري ص٨٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ٥٠ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٧٦ . والهابي: تراب القبر. القاموس (هبو).

(٥) الرجز لبعض أهل اليمن كما في نوادر أبي زيد ص٥٨ ، وفيه:

أيُّ قَلوصِ راكبٍ تراها ... طاروا عليهن فَشُل علاها
واشدد بمثْنَي حَقَب حقواها ... ناجيةً وناجياً أباها

وأورده بلفظ المصنف الرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٥ .

(٦) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٢٢٧ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦ .

حُملت عليه الآية؛ إذ كانت هذه اللغةُ معروفةً، وقد حكاها من يُرتضى بعلمه وأمانته، منهم أبو زيد الأنصاري، وهو الذي يقول: إذا قال سيبويه: حدَّثني مَن أثِقُ به فإنما يعنيني، وأبو الخطَّاب الأخفش، وهو رئيسٌ من رؤساء اللغة، والكسائي والفرَّاء[١] كلهم قالوا هذا على لغة بني الحرث بن كعب. وحكى أبو عُبيدة[٢] عن أبي الخطَّاب أن هذه لغة بني كنانة. المهدويُّ: وحكى غيره أنها لغةٌ لخثعم[٣].

قال النحاس[٤]: ومن أبين ما في هذا قولُ سيبويه: واعلم أنك إذا ثنَّيتَ الواحد زِدْتَ عليه زائدتين، الأُولى منهما حرف مدّ ولين، وهو حرف الإعراب، قال أبو جعفر: فقول سيبويه: وهو حرف الإعراب، يُوجب أن الأصلَ ألَّا يتغيَّر، فيكون «إنَّ هَذَانِ» جاء على أصله ليعلم ذلك، وقد قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [المجادلة:١٩]، ولم يقل: استحاذ؛ فجاء هذا ليدلَّ على الأصل، وكذلك «إنَّ هَذَانِ»، ولا يُفكَّر في إنكار من أنكر هذه اللغة إذا كان الأئمة قد رَوَوْها.

القول الثاني: أن يكون «إنَّ» بمعنى «نعم»، كما حكى الكسائي عن عاصم قال: العرب تأتي بـ«إنَّ» بمعنى «نعم»، وحكى سيبويه أن «إنَّ» تأتي بمعنى «أَجَلْ»، وإلى هذا القول كان محمد بن يزيد وإسماعيل بن إسحاق القاضي يذهبان. قال النحاس: ورأيتُ أبا إسحاق الزجَّاج وعليَّ بن سليمان يذهبان إليه[٥]. الزمخشري[٦]: وقد أُعجِبَ به أبو إسحاق.

النحاس[٧]: وحدَّثنا عليُّ بن سليمان، قال: حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن عبد

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٨٤ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢١ .

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ٧٥ عن قطرب.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦ - ٤٧ .

(٥) معاني القرآن للزجاج، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤ .

(٦) الكشاف ٢/ ٥٤٣ .

(٧) في إعراب القرآن ٣/ ٤٤ .

السلام النيسابوريّ، ثم لقيت عبد الله بن أحمد فحدَّثني، قال: حدَّثني عُمير بن المتوكل، قال: حدَّثنا محمد بن موسى النَّوفلي من ولد حارث بن عبد المطلب، قال: حدثنا عمرو[1] بن جُميع الكوفي، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عليٍّ ـ وهو ابن الحسين ـ عن أبيه، عن عليِّ بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين، قال: لا أُحصي كم سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول على منبره: «إنَّ الحمدُ لله نحمده ونستعينه»[2] ثم يقول: «أنا أفصحُ قريش كلِّها وأفصحُها بعدي أبانُ بن سعيد بن العاص»[3]. قال أبو محمد الخفاف[4]: قال عُمير: إعرابُه عند أهل العربية والنحو: «إنَّ الحمدَ لله» بالنصب؛ إلا أن العربَ تجعل «إنَّ» في معنى نعم، كأنه أراد ﷺ: نعم، الحمدُ لله؛ وذلك أن خُطباء الجاهلية كانت تفتتح خُطَبها بنعم. وقال الشاعر في معنى نعم:

قالوا غَدَرْتَ فقلتُ إنَّ وربَّما ... نالَ العُلَا وشَفَى الغَليلَ الغادِرُ[5]

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيَّات:

بَكَرَ العواذلُ في الصَّبا ... حِ يَلُمْنَني وأَلُومُهُنَّهْ

(١) في (م): عمر، وهو خطأ، وعمرو بن جميع كذَّبه ابن معين، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: يتهم بالوضع. ميزان الاعتدال ٣/ ٢٥١ .

(٢) لم نقف عليه عند غير النحاس، وأورد ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥٠ المرفوعَ منه.

(٣) لم نقف عليه، وقوله منه: «أنا أفصح قريش كلها» قال السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا ص٥٢ : أورده أصحاب الغريب، ولا يُعرف له إسناد.

وأبان بن سعيد بن العاص: قرشيٌّ أموي، شهد بدراً مشركاً، وأسلم أيام خيبر، وشهدها مع النبي ﷺ، ومات النبي ﷺ وأبان على البحرين. وقتل في أجنادين سنة ثلاث عشرة، وقيل غير ذلك. الإصابة ١/ ١٥ - ١٧ ، وينظر فتح الباري ٩/ ١٩ .

(٤) هو عبد الله بن أحمد بن عبد السلام النيسابوري السالف ذكره في إسناد النحاس.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٤ ، والبيت في أمالي ابن الشجري ٢/ ٤٢ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ١٣٠ ، وخزانة الأدب ١١/ ٢١٥ .

ويَـقُـلْـنَ شـيـبٌ قـد عَـلَا ... كَ وقـد كَـبِـرتَ فـقـلـتُ إنَّـهْ[(١)]

فعلى هذا جائز أن يكون قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ بمعنى نعم، ولا تنصب. قال النحاس[(٢)]: أنشدني داود بن الهيثم[(٣)]، قال: أنشدني ثعلب:

لـيـت شعـري هـل لـلـمحـبِّ شـفـاءٌ ... مـن جَـوَى حُـبِّـهـنَّ إنَّ الـلـقـاءُ

قال النحاس[(٤)]: وهذا قول حسن؛ إلَّا أن فيه شيئاً؛ لأنه إنما يقال: نعم زيدٌ خارج، ولا تكاد تقع اللام هاهنا، وإن كان النحويون قد تكلَّموا في ذلك فقالوا: اللام يُنوَى بها التقديم، كما قال:

خـالـي لأنـتَ ومَـنْ جـريـرٌ خـالُـه ... يَـنـلِ الـعَـلَاء ويَـكـرُمِ الأخـوالَا[(٥)]

آخر:

أمُّ الـحُـلَـيْـسِ لَـعَـجُـوزٌ شَـهْـرَبَـهْ ... تَـرْضَـى مـن الـشَّـاةِ بـعَـظْـمِ الـرَّقَـبَـهْ[(٦)]

أي: لَخالي، ولَأُمّ الحُليس، وقال الزجَّاج[(٧)]: والمعنى في الآية: إنَّ هذان لهما ساحران، ثم حذف المبتدأ. المهدوي: وأنكره أبو عليّ[(٨)] وأبو الفتح بن جنيّ[(٩)]. قال

---

(١) ديوان عبيد الله (ويقال: عبد الله) بن قيس الرُّقيات ص٦٦ ، والبيت الأول فيه:

بَـكَـرَتْ عـلـيَّ عـواذلـي ... يَـلـحـيـنـنـي وألُـومـهـنَّـهْ

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٤٥ ، وما قبله منه.

(٣) أبو سعد التنوخي الأنباري، النحوي، اللغوي، أخذ الأدب عن ثعلب. توفي سنة (٣١٦ هـ). السير ١٤/ ٤٨٣ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦ .

(٥) هو في خزانة الأدب ١٠/ ٣٢٣ .

(٦) ذكره البغدادي في خزانة الأدب ١٠/ ٣٢٢ ، وقال: قال العيني: قائله رؤبة بن العجاج، ونسبه الصاغاني في العباب إلى عنترة بن عروش، وهو الصحيح. اهـ. والشهربة: العجوز الكبيرة.

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٦ .

(٨) الحجة ٥/ ٢٣٠ .

(٩) في سر صناعة الإعراب ١/ ٣٨٠ .

أبو الفتح: «هما» المحذوف لم يُحذَف إلا بعد أن عُرِف، وإذا كان معروفاً فقد استُغني بمعرفته عن تأكيده باللام، ويَقبُحُ أن يُحذفَ المؤكَّد ويُتركَ المؤكِّد.

القول الثالث: قاله الفرَّاء أيضاً[١]: وجدت الألف دعامةً ليست بلام الفعل، فزدت عليها نوناً ولم أغيرها، كما قلت: «الذي»، ثم زدت عليه نوناً فقلت: جاءني الذين عندك، ورأيت الذين عندك، ومررت بالذين عندك.

القول الرابع: قاله بعضُ الكوفيين، قال: الألف في «هذان» مُشبهة بالألف في يَفعلان، فلم تغير[٢].

القول الخامس: قال أبو إسحاق[٣]: النحويون القدماء يقولون: الهاء هاهنا مضمرة، والمعنى: إنه هذان لساحران.

قال ابن الأنباري: فأضمرت الهاء التي هي منصوب «إنَّ»، و«هذان» خبر «إنَّ»، و«ساحران» يرفعها «هما» المُضمر، [والتقدير:][٤] إنه هذان لهما ساحران. والأشبهُ عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم «إن»، و«هذان» رفع بالابتداء، وما بعده خبر الابتداء[٥].

القول السادس: قال أبو جعفر النحاس[٦]: وسألت أبا الحسن بن كَيسان عن هذه الآية، فقال: إنْ شئتَ أجبتك بجواب النحويين، وإنْ شئت أجبتك بقولي؛

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ١٨٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٦.

(٣) هو الزجَّاج، وكلامه في كتابه معاني القرآن ٣/ ٣٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٦.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) يعني والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر لـ «إنَّ» وقد ضُعِّفَ هذا القول ـ فيما ذكره السمين في الدر ٨/ ٦٧ ـ بأن حذف اسم إن غير جائز إلا في الشعر، وبأن اللام دخلت في الخبر.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٤٦.

فقلت: بقولك، فقال: سألني إسماعيل بن إسحاق عنها فقلت: القولُ عندي أنه لما كان يقال: «هذا» في موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحدة، وكانت التثنية يجب ألَّا يغير لها الواحد، أُجريت التثنية مُجرى الواحدة. فقال: ما أحسنَ هذا لو تقدَّمكَ أحدٌ بالقول به حتى يؤنس به! قال ابن كَيسان: فقلت له: فيقول القاضي[١] به حتى يؤنس به؛ فتبسَّم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ هذا من قول فِرعون للسحرة[٢]، أي: غرضُهما إفسادُ دينكم الذي أنتم عليه، كما قال فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]. ويقال: فلانٌ حسنُ الطريقة، أي: حسنُ المذهب. وقيل: طريقةُ القوم أفضلُ القوم[٣]، وهذا الذي ينبغي أن يسلكُوا طريقته ويقتدوا به، فالمعنى: ويذهبا بسادتكم ورؤسائكم؛ استمالةً لهم. أو يذهبا ببني إسرائيل وهم الأماثلُ وإن كانوا خَوَلاً لكم لما يرجعون إليه من الانتساب إلى الأنبياء. أو يذهبا بأهل طريقتكم، فحذف المضاف[٤].

و«المُثلى» تأنيث الأمثل، كما يقال: الأفضل والفُضلى. وأنَّثَ الطريقة على اللفظ، وإنْ كان يُراد بها الرجال. ويجوز أن يكون التأنيثُ على الجماعة[٥]. وقال الكسائي: «بطريقتكم»: بسنتكم وسَمْتكم. و«المثلى» نعتٌ، كقولك: امرأة كبرى. تقول العرب: فلان على الطريقة المُثلى، يعنون: على الهَدْي المستقيم[٦].

---

(١) يعني: القاضي إسماعيل بن إسحاق.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤١١ .

(٣) في (م): القول، وهو خطأ.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ١٠٢ - ١٠٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٤١١ - ٤١٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢٣ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٧ .

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٣ .

قوله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ الإجماع: الإحكام والعزم على الشيء. تقول: أجمعتُ الخروجَ وعلى الخروج، أي: عزمتُ(١).

وقراءة كل الأمصار: «فَأَجْمِعُوا» إلَّا أبا عمرو، فإنه قرأ: «فَاجْمَعُوا»، بالوصل وفتح الميم(٢)، واحتجَّ بقوله: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠].

قال النحاس(٣): وفيما حُكي لي عن محمد بن يزيد أنه قال: يجب على أبي عمرو أن يقرأ بخلاف قراءته هذه، وهي القراءة التي عليها أكثرُ الناس. قال: لأنه احتجَّ بـ «جمع». وقولُه عزَّ وجلَّ: «فَجمَعَ كيدَه» قد ثبتَ(٤)، فيبعد أن يكون بعده: «فَاجْمَعُوا»، ويقربُ أن يكون بعده: «فَأَجْمِعُوا» أي: اِعْزِموا وجِدُّوا، ولمَّا تقدَّم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه. يقال: أمر مُجْمَعٌ ومُجمعٌ عليه.

قال النحاس(٥): وتصحيح(٦) قراءة أبي عمرو: «فَاجْمَعُوا»، أي: اجمعوا كلَّ كيدٍ لكم وكلَّ حيلة، فضُمُّوه مع أخيه. وقاله أبو إسحاق(٧).

الثعلبي: القراءة بقطع الألف وكسر الميم لها وجهان:

أحدهما: بمعنى الجمع، تقول: أجمعتُ الشيء وجمعتُه، بمعنى واحد(٨). وفي «الصحاح»: وأجمعت الشيء: جعلته جميعاً، قال أبو ذُؤيب يَصِفُ حُمُراً:

فكأنَّها بالجِزْعِ بَيْنَ نُبايِعٍ وأولاتِ ذي العَرْجاءِ نَهْبٌ مُجمَعُ(٩)

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٥ .

(٢) السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٤٧ ، وما قبله منه.

(٤) بعدها في (م): هذا.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٤٧ .

(٦) في (م) و(د): ويصحح. والمثبت موافق لإعراب القرآن للنحاس.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٥ .

(٨) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٢٢٣ .

(٩) الصحاح (جمع)، والبيت في ديوان الهذليين ص٦ ضمن قصيدة يرثي بها الشاعر أولاده الخمسة. =

أي: مجموع.

والثاني: أنه بمعنى العزم والإحكام، قال الشاعر:

يا ليت شِعرِي والمُنَى لا تَنْفعُ هل أغدُوَنْ يوماً وأمرِي مُجمَعُ[(١)]

أي: مُحكَم.

﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفًّاۚ﴾ قال مقاتل والكلبي: جميعاً. وقيل: صفوفاً؛ ليكون أشدَّ لهيبتكم[(٢)]. وهو منصوب بوقوع الفعل عليه على قول أبي عُبيدة[(٣)]، قال: يقال: أتيتُ الصَّفَّ، يعني المُصلَّى، فالمعنى عنده: ائتوا الموضعَ الذي تجتمعون فيه يومَ العيد[(٤)].

وحُكيَ عن بعض فصحاء العرب[(٥)]: ما قدرتُ أن آتيَ الصَّفَّ، يعني المصلَّى. وقال الزجَّاج[(٦)]: يجوز أن يكون المعنى: ثم ائتوا والناس مُصطفُّون، فيكون على هذا مصدراً في موضع الحال. ولذلك لم يُجمع.

وقُرئ: «ثُمِّ ايْتُوا» بكسر الميم وياء[(٧)]. ومن ترك الهمز أبدل من الهمزة ألفاً[(٨)].

﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ أي: من غلب. وهذا كلُّه من قول السحرة بعضهم لبعض. وقيل: من قول فرعون لهم[(٩)].

= ونبايع: اسم مكان أو جبل في ديار هذيل، وروي بتقديم الياء (يُنابع). وأولات ذي العرجاء: مواضع نسبها إلى مكان فيه أكمة عرجاء. معجم البلدان ٥/ ٢٥٧ و ٤/ ٩٨.

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٥، وسلف البيت ١١/ ٢٢.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٣.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٧.

(٤) وهذا قول الزجاج أيضاً في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٥.

(٥) هو أبو العرب الكُليبي، كما في مجاز القرآن ٢/ ٢٣.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٥.

(٧) نسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٥١ لابن كثير في رواية شبل (وهي غير المشهورة عن ابن كثير). قال ابن مجاهد في السبعة ص٤٢٠: وهذا غلط، ولا وجه لكسرها.

(٨) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٢٣٤.

(٩) النكت والعيون ٣/ ٤١١ - ٤١٢.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ يريد السحرة. ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك من يدك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ تأدَّبوا مع موسى، فكان ذلك سبب إيمانهم[(١)]. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾ في الكلام حذف، أي: فألقوا، دلَّ عليه المعنى[(٢)].

وقرأ الحسن: ﴿وَعُصِيُّهُمْ﴾ بضم العين[(٣)]. قال هارون القارئ: لغة بني تميم «وعُصِيُّهُمْ»، وبها يأخذ الحسن[(٤)]. الباقون بالكسر إتباعاً لكسرة الصاد. ونحوه: دُلِيّ ودِلِيّ وقُسِيّ وقِسِيّ[(٥)].

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، وقرأ ابن عباس وأبو حيوة وابن ذكوان ورَوْح عن يعقوب: «تُخَيَّلُ» بالتاء[(٦)]، وردّوه إلى العِصِيّ والحبال؛ إذ هي مؤنثة. وذلك أنهم لطخوا العِصِيّ بالزئبق، فلمّا أصابها حرّ الشمس ارتهشت واهتزّت[(٧)]. قال الكلبي:

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٨١.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص٨٨، ونسبها لعيسى.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٨.

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ٨٣.

(٦) قراءة ابن ذكوان (وهو راوي ابن عامر) وقراءة رَوْح عن يعقوب في التيسير ص١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٤.

خُيِّل إلى موسى أن الأرض حيّات، وأنها تسعى على بطنها[١].

وقُرِئ: «تَخَيَّل» بمعنى تتخيل، وطريقُه طريق «تُخَيِّلُ»[٢]، ومن قرأ: «يُخَيَّلُ» بالياء ردَّه إلى الكيد[٣]. وقرئ: «نُخَيِّل» بالنون؛ على أن الله هو المُخيِّل، للمحنة والابتلاء[٤].

وقيل: الفاعل «أَنَّهَا تَسْعَى»، فـ«أنَّ» في موضع رفع، أي: يخيَّل إليه سعيُها، قاله الزجَّاج[٥]. وزعم الفرَّاء[٦] أن موضعها موضع نصب؛ أي: بأنها، ثم حذف الباء.

والمعنى في الوجه الأوّل: تشبَّه إليه من سحرهم وكيدهم حتى ظنَّ أنها تسعى. وقال الزجَّاج[٧]: ومن قرأ بالتاء جعل «أنَّ» في موضع نصب، أي: تُخَيَّل إليه ذاتَ سعي. قال: ويجوز أن تكون في موضع رفعٍ بدلاً من الضمير في «تُخيَّل»، وهو عائد على الحبال والعِصِيّ، والبدل فيه بدل اشتمال. و«تسعى» معناه: تمشي.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي: أضمر. وقيل: وَجَدَ. وقيل: أحسَّ، أي: من الحيّات، وذلك على ما يعرض من طباع البشر على ما تقدَّم[٨]. وقيل: خاف أن يفتتنَ الناسُ قبل أن يُلقيَ عصاه. وقيل: خاف حين أبطأ عليه الوحي بإلقاء العصا أن يفترق الناسُ قبل ذلك فيفتتنوا[٩].

وقال بعض أهل الحقائق: إنما كان السبب أن موسى عليه السلام لمّا التقى

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٤ .

(٢) نسبها السمين في الدر المصون ٨/ ٧٣ لأبي السمَّال.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٤ .

(٤) الكشاف ٢/ ٥٤٤ ، ونسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٥٩ لأبي حيوة.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٦ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ١٨٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٤٨ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس.

(٨) ص٦٧-٦٨ من هذا الجزء.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٨ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٨٤ .

بالسحرة وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١] التفت، فإذا جبريلُ على يمينه، فقال له: يا موسى، تَرفَّق بأولياء الله. فقال موسى: يا جبريلُ، هؤلاء سحرة جاؤوا بسحر عظيم ليبطلوا المُعجزة، وينصروا دينَ فرعون، ويردّوا دينَ الله، تقول: تَرفَّق بأولياء الله! فقال جبريل: هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، وبعد صلاة العصر في الجنة. فلما قال له ذلك، أُوجس في نفس موسى، وخَطَر أن ما يُدريني ما عِلْمُ الله فيَّ، فلعلِّي أكون الآن في حالة، وعِلْم الله فيَّ على خلافها كما كان هؤلاء. فلمّا علم الله ما في قلبه أوحى الله إليه: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: الغالب لهم في الدنيا، وفي الدرجات العلا في الجنة، للنبوَّة والاصطفاء الذي أتاك الله به.

وأصل «خِيفة»: خِوْفة، فانقلبت الواو ياء لانكسار الخاء[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا﴾ ولم يقل: وألق عصاك، فجائزٌ أن يكون تصغيراً لها، أي: لا تُبال بكثرة حبالهم وعِصِيّهم، و ألقِ العُوَيدَ الفَرْدَ الصغير الجِرْم الذي في يمينك، فإنه بقدرة الله يَتلقّفها على وحدته وكَثرتها، وصِغَره وعِظَمها. وجائزٌ أن يكون تعظيماً لها، أي: لا تَحفِل بهذه الأجرامِ الكثيرة الكبيرة، فإن في يمينك شيئاً أعظمُ منها كلِّها، وهذه على كثرتها أقلُّ شيء وأنزرُه عندها، فألقه يَتلقَّفْها بإذن الله ويمحقْها[٢].

و«تَلَقَّفْ» بالجزم جوابُ الأمر، كأنه قال: إنْ تُلقِهِ يتلقّف، أي: تأخذ وتبتلع.

وقرأ السُّلَميّ وحفص: «تَلْقَفْ» ساكنة اللام؛ من لَقِفَ يَلْقَفُ لَقْفاً. وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة الشامي ويحيى بن الحارث: «تَلَقَّفُ» بحذف التاء ورفع الفاء، على معنى فإنها تتلقف[٣].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ .

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٨٤ .

(٣) قراءة حفص راوي عاصم وقراءة ابن ذكوان راوي ابن عامر في السبعة ص٤٢٠ ، والتيسير ص١١٢ .

والخِطاب لموسى. وقيل: للعصا. واللَّقْف: الأخذ بسرعة؛ يقال: لَقِفتُ الشيء ـ بالكسر ـ أَلْقَفُه لَقْفاً، وتلقَّفتُه أيضاً، أي: تناولته بسرعة. عن يعقوب: يقال: رجلٌ لَقْفٌ ثَقْفٌ، أي: خفيفٌ حاذقٌ. واللَّقَفُ ـ بالتحريك ـ: سقوط الحائط. ولقد لَقِفَ الحوضُ لَقَفاً، أي: تَهوَّر من أسفله واتَّسع[١]. وتَلْقف وتَلقم وتَلهَم بمعنى. وقد مضى في «الأعراف»[٢]. لَقِمتُ اللُّقمة بالكسر لَقْماً، وتَلقَّمتُها: إذا ابتلعتها في مُهلة. وكذلك لَهِمَهُ بالكسر: إذا ابتلعه[٣].

﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ أي: الذي صنعوه، وكذا ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ أي: إنَّ الذي صنعوه. ﴿كَيْدُ﴾ بالرفع ﴿سِحْرٍ﴾ بكسر السين وإسكان الحاء، وهي قراءة الكوفيين إلَّا عاصماً[٤]. وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون الكيدُ مضافاً إلى السحر على الإتباع من غير تقدير حذف.

والثاني: أن يكون في الكلام حذفٌ، أي: كيدُ ذي سحر[٥].

وقرأ الباقون: «كَيْدَ»[٦] بالنصب بوقوع الصنع عليه، و«ما» كافَّة، ولا تُضمر هاءً.

«ساحِرٍ» بالإضافة. والكيدُ في الحقيقة على هذه القراءة مضافٌ للساحر؛ لا للسِّحر. ويجوز فتحُ «أنّ» على معنى: لأنَّ ما صنعوا كيدُ ساحر[٧].

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض. وقيل:

---

(١) الصحاح (لقف). ويعقوب: هو ابن السكيت، وقوله في إصلاح المنطق ص٧٤ . وقوله: ثَقْف لَقْف؛ قيده الفيروزآبادي في القاموس (لقف) بالفتح، وككتف، وأمير.

(٢) ٩/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣) الصحاح (لقم) و(لهم).

(٤) السبعة ص٤٢١ ، والتيسير ص١٥٢ .

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ٨٥ .

(٦) ظاهر العبارة يوهم أن قراءة «كيدَ» بالنصب هي من المتواتر، لكنها قراءة شاذة، قرأ بها ابن مسعود ﷺ وأبو عمران الجوني. زاد المسير ٥/ ٣٠٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٢ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ . وقوله: يجوز فتح «أن» يعني في اللغة لا في التلاوة.

حيث احتال. وقد مضى في «البقرة» حكمُ الساحر ومعنى السحر؛ فَتأمَّله هناك[١].

قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لِمَا رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة في العصا، فإنها ابتلعتْ جميعَ ما احتالوا به من الحبال والعِصيّ، وكانت حملَ ثلاث مئة بعير، ثم عادت عصاً لا يعلم أحدٌ أين ذهبت الحبالُ والعِصِيّ إلا اللهُ تعالى[٢]. وقد مضى في «الأعراف»[٣] هذا المعنى وأمر العصا مستوفًى.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ * قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: به، يقال: آمن له، وآمن به، ومنه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]، وفي «الأعراف» قَالَ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الآية:١٢٣] إنكارٌ منه عليهم، أي: تعدَّيتم وفعلْتُم ما لم آمرْكم به.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. أي: رئيسُكم في التعليم، وإنما غلبكم لأنه أحذقُ به منكم. وإنما أراد فرعونُ بقوله هذا لِيُشبِّهَ على الناس حتى لا يتَّبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم، وإلا فقد علم فرعونُ أنهم لم يتعلَّموا من موسى، بل قد عُلِّموا السحر قبلَ قُدوم موسى وولادته[٤]. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل[٥]. قال سُويد بن أبي كاهل:

هُمُ صَلَبُوا العبديَّ في جذع نخلةٍ فلا عَطَستْ شيبانُ إلَّا بأجْدَعا[٦]

فقطَّع وصلَّب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى.

وقرأ ابن مُحيصن هنا وفي «الأعراف» [الآية:١٢٤]: «فَلَأَقْطَعَنَّ»، «وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ»

---

(١) ٢/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ .

(٣) ٩/ ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٤٩ بنحوه.

(٥) مجاز القرآن ٢/ ٢٣ ، وتفسير الطبري ١٦/ ١١٥ .

(٦) أمالي ابن الشجري ٢/ ٦٠٦ ، ونسبه البصري في حماسته ١/ ٨٠ لقراد بن حنش الصاردي. والأجدع: المقطوع الأنف. شرح أبيات المغني للبغدادي ٤/ ٦٢ .

بفتح الألف والتخفيف؛ من قَطَع وصَلَب[١]. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يعني: أنا أَمْ ربُّ موسى[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ يعني السَّحرة ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أي: لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قال ابن عباس: يريدُ من اليقين والعلم[٣]. وقال عكرمة وغيره: لمَّا سجدوا أراهم اللهُ في سجودهم منازلَهم في الجنة؛ فلهذا قالوا: «لن نؤثِرك»[٤].

وكانت امرأةُ فرعون تسأل: من غلب؟ فقيل لها: غلبَ موسى وهارون، فقالت: آمنتُ بربِّ موسى وهارون. فأرسل إليها فرعونُ فقال: انظروا أعظمَ صخرةٍ؛ فإنْ مَضَتْ[٥] على قولها فألقُوها عليها، فلما أتَوْها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرَتْ منزلَها في الجنة، فمضت على قولها؛ فنزع اللهُ روحَها[٦]، وألقيت الصخرةُ على جسدها وليس فيها روح[٧].

وقيل: قال مقدّم السّحرة لمن يَثِقُ به لمَّا رأى مِن عصا موسى ما رأى: اُنظُر إلى

(١) القراءات الشاذة ص٨٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣، وزاد المسير ٥/ ٣٠٧.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٥ دون نسبة.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٤ - ٢١٥.

(٥) في النسخ الخطية: مرت، والمثبت من (م).

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(م): فانتزع روحها، والمثبت من (ظ).

(٧) أخرجه الطبري ٢٣/ ١١٥ عن القاسم بن أبي بزَّة.

هذه الحيَّة: هل تجوَّفت فتكون جنيًّا، أو لم تتجوَّف فهي من صنعة الصانع الذي لا يَعزُب عليه مصنوع؟ فقال: ما تجوَّفت[١]؛ فقال: آمنتُ بربِّ هارون وموسى.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ قيل: هو معطوفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات، ولا على الذي فَطَرَنا، أي: خَلَقَنا. وقيل: هو قسم؛ أي: واللهِ لن نؤثرك[٢].

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ التقدير: ما أنت قاضيه. وليست «ما» هاهنا التي تكونُ مع الفعل بمنزلة المصدر؛ لأنَّ تلك تُوصَلُ بالأفعال، وهذه موصولةٌ بابتداءٍ وخبر[٣]. قال ابن عباس: فاصنعْ ما أنت صانع[٤]. وقيل: فاحكم ما أنت حاكم، أي: من القَطْع والصَّلْب[٥]. وحُذفت الياء من قاضٍ في الوصلِ لسكونها وسكون التنوين. وأجاز[٦] سيبويه إثباتَها في الوقف لأنَّه قد زالت علَّة التقاء الساكنين.

﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: إنَّما ينفذُ أمرُك فيها. وهي منصوبةٌ على الظرف، والمعنى: إنَّما تقضي في متاع هذه الحياة الدنيا[٧]، أو وقت هذه الحياة الدنيا، فتقدِّر حذف المفعول. ويجوز أنْ يكون التقدير: إنَّما تقضي أمورَ هذه الحياة

---

(١) في (د) و(م): ..هل تخوفت.. أو لم تتخوف.. ما تخوفت.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٩ - ٥٠ .

(٣) جوَّز جماعة كثيرة أن توصل ما المصدرية بالجملة الاسمية، فيما قاله السمين في الدر المصون ٨/ ٧٨ . وقد ذكر الوجهين (يعني أن تكون ما موصولة أو مصدرية ظرفية) العكبري في إملاء ما منّ به الرحمن ٣/ ٥٨٩ (على هامش الفتوحات الإلهية).

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤١٤ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢١٥ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٥ دون نسبة.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤١٤ ، والواحدي في الوجيز ٢/ ٢٣ (على هامش مراح لبيد).

(٦) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠ (والكلام منه): واختار، والمثبت من باقي النسخ، وينظر الكتاب ٤/ ١٨٣ - ١٨٥ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠ .

الدنيا، فتَنْتَصِب انتصابَ المفعول، و«ما» كافَّةٌ لإنَّ[١]. وأجاز الفرَّاء الرفعَ على أنْ تجعل «ما» بمعنى الذي، وتحذف الهاء من تقضي، ورفعت «هذه الحياة الدنيا»[٢].

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ أي: صدَّقنا بالله وحدَه لا شريك له وما جاءنا به موسى ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ يريدون الشِّرْك الذي كانوا عليه[٣]. ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ «ما» في موضع نصبٍ معطوفةٌ على الخطايا. وقيل: لا موضعَ لها، وهي نافية، أي: ليغفرَ لنا خطايانا من السّحر وما أكرهتنا عليه.

النحاس[٤]: والأول أولى. المهدوي: وفيه بعد؛ لقولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]، وليس هذا بقول مُكْرَهين؛ ولأنَّ الإكراهَ ليس بذنب، وإنْ كان يجوز أنْ يكونوا أُكرهوا على تعلمه[٥] صغاراً. قال الحسن: كانوا يُعلَّمون السحر أطفالاً، ثمَّ عَمِلُوه مختارين بعد[٦]. ويجوز أنْ يكون «ما» في موضع رفعٍ بالابتداء ويُضمر الخبر، والتقدير: وما أكرهتنا عليه من السحر موضوعٌ عنَّا[٧]. و«من السحر» على هذا القول والقول الأوَّل يتعلَّق بـ «أكرهتنا». وعلى أنَّ «ما» نافيةٌ؛ يتعلق بـ «خطايانا»[٨].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: ثوابُه خيرٌ وأبقى. فحذف المضاف؛ قاله ابن عباس. وقيل: اللهُ خيرٌ لنا منك، وأبقى عذاباً لنا من عذابك لنا. وهو جوابُ قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ

(١) الكلام بنحوه في إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٨٨ (على هامش الفتوحات الإلهية).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٦٩-٤٧٠. وكلام الفراء في جواز رفع «الحياة» يعني في اللغة لا في التلاوة.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٥٠.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): تعليمه، والمثبت من (ظ).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٥ بنحوه.

(٧) البيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ١٤٩، وإملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٥٨٩ (بهامش الفتوحات الإلهية).

(٨) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠.

أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾. وقيل: الله خيرٌ لنا إنْ أطعناه، وأبقى عذاباً منك إنْ عصيناه[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ قيل: هو من قول السحرة لمَّا آمنوا. وقيل: ابتداءُ كلامٍ من الله عزَّ وجلَّ[٢]. والكناية في «إنه» ترجعُ إلى الأمر والشأن[٣]. ويجوز: إنَّ مَن يأتِ، ومنه قول الشاعر:

إنَّ مَن يَدخلِ الكنيسةَ يوماً ... يَلْقَ فيها جآذِراً وظِباء[٤]

أراد: إنَّه من يدخل.

أي: إنَّ الأمر هذا، وهو أنَّ المجرمَ يدخل النَّار، والمؤمنَ يدخلُ الجنَّة.

والمجرم: الكافر[٥]. وقيل: الذي يقترف المعاصي ويَكتسبها. والأول أشبهُ؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. وهذه صفةُ الكافر المُكذِّب الجاحد؛ على ما تقدَّم بيانُه في سورة «النّساء»[٦] وغيرها، فلا يَنتفع بحياته، ولا يَستريح بموته. قال الشاعر:

ألا مَنْ لنفسٍ لا تموت فينقضي ... شقاها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ[٧]

وقيل: نفسُ الكافر معلقةٌ في حَنْجَرته، كما أخبر الله تعالى عنه، فلا يموتُ بفراقها، ولا يحيا باستقرارها[٨].

---

(١) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤١٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٢٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٠ .

(٤) نسبه ابن السيد البطليوسي في الحلل ص٢٨٧ للأخطل، ولم نقف عليه في ديوانه من رواية السكري، وكذا قال البغدادي في الخزانة ١/ ٤٥٨ . والجآذر: جمع جُؤذُر، وهو ولد البقرة.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢١٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ٦/ ٩٢ .

(٧) البيت في النكت والعيون ٣/ ٤١٥ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٢١٥ ، وزاد المسير ٥/ ٣٠٩ ، واللسان (طعم).

(٨) النكت والعيون ٣/ ٤١٥ .

ومعنى ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾: من يأتِ موعدَ ربِّه. ومعنى ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ أي: يمت عليه، ويُوافيه مصدِّقاً به. ﴿قَدْ عَمِلَ﴾ أي: وقد عمل ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ أي: الطاعات وما أُمِر به ونُهِي عنه. ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أي: الرفيعةُ التي قصرت دونها الصفات. ودلَّ قولُه: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ على أنَّ المرادَ بالمجرم المشرك.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بيانٌ للدَّرجات وبدلٌ منها، والعَدْن: الإقامة، وقد تقدَّم بيانُه[1]. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت غُرَفها وسُرُرِها ﴿الْأَنْهَارُ﴾ من الخمر والعسل واللَّبن والماء، وقد تقدَّم[2]. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين دائمين. ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾ أي: من تَطهَّرَ من الكفر والمعاصي.

ومن قال: هذا من قول السَّحرة؛ قال: لعلَّ السَّحرة سمعوه من موسى، أو من بني إسرائيل إذْ كان فيهم بمصرَ أقوام، وكان فيهم أيضاً المؤمنُ من آل فرعون.

قلت: ويَحتمِلُ أنْ يكون ذلك إلهاماً من الله لهم، أنطقَهم بذلك لـمَّا آمنوا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ تقدَّم الكلام في هذا مستوفًى. ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: يابساً لا طينَ فيه ولا ماء، وقد مضى في «البقرة» ضربُ موسى البحرَ، وكُنيته إيَّاه[3]، وإغراقُ فرعون، فلا معنى للإعادة.

﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا﴾ أي: لَحاقاً من فرعون وجنوده. ﴿وَلَا تَخْشَى﴾. قال ابن جُريج:

---

(١) ١٣/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢) ١٢/ ٢١٨.

(٣) سلف ٢/ ٩٢ - ٩٣.

قال أصحابُ موسى له: هذا فرعون قد أدركَنا، وهذا البحرُ قد غَشِيَنا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي: لا تخاف دَرَكاً من فرعون، ولا تخشى غَرَقاً من البحر إنْ غَشِيَك[1].

وقرأ حمزة: «لا تَخفْ»[2] على أنَّه جواب الأمر. التقدير: إنْ تضربْ لهم طريقاً في البحر لا تَخَفْ. «ولا تخشى» مستأنفٌ على تقدير: ولا أنت تخشى[3]. أو يكون مجزوماً، والألف مشبعةٌ من فتحة، كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]، أو يكون على حدِّ قول الشاعر:

كَأَنْ لَم تَرَى قَبْلي أَسِيراً يَمانِيَا[4]

على تقدير حذف الحركة كما تُحذف حركةُ الصَّحيح. وهذا مذهبُ الفرَّاء[5].

وقال آخر:

هَجوتَ زَبَّان ثم جِئتَ معتذراً ... من هجوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو ولَمْ تَدَعِ[6]

وقال آخر:

أَلَمْ يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِي ... بِما لاقَتْ لَبُون بَني زِيادِ[7]

قال النحاس[8]: وهذا من أقبح الغلط أن يُحمل كتابُ الله عزَّ وجلَّ على الشذوذ

(١) في (د): أن يمسّك، وفي (م): أن يمسّك إن غشيك، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) و(ف)، وهو الموافق للنكت والعيون ٣/ ٤١٥ - ٤١٦ والكلام منه.

(٢) السبعة ص٤٢١ ، والتيسير ص١٥٢ .

(٣) في (خ) و(ز) و(ف): ولا أنت لا تخشى، وفي (د): ولا أنت ولا تخشى، والمثبت من (ظ) و(م). والكلام في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠ ، والبيان لأبي البركات الأنباري ٢/ ١٥٠ .

(٤) قائله عبد يغوث الحارثي اليمني، وصدره: وتضحك مني شيخة عبشميَّة، وهو في خزانة الأدب ٢/ ٢٠١ .

(٥) في معاني القرآن ٢/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٦) البيت لأبي عمرو بن العلاء البصري يخاطب به الفرزدق، وكان هجاه ثم جاءه معتذراً، وزبّان هو أبو عمرو نفسه. والبيت في معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٧ ، ومعجم الأدباء ١١/ ١٥٨ .

(٧) البيت لقيس بن زهير، وقد سلف ١١/ ٤٤٣ .

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٥١ ، وفيه البيتان السالفان.

من الشعر. وأيضاً فإنَّ الذي جاءَ به من الشِّعر لا يُشبه من الآية شيئاً؛ لأنَّ الياءَ والواو مُخالفتان للألف؛ لأنَّهما تتحركان، والألف لا تتحرك، فللشاعر إذا اضطُر أنْ يُقدِّرهما متحركتين، ثم يَحذف الحركةَ للجزم، وهذا محالٌ في الألف.

والقراءةُ الأُولى أَبين؛ لأنَّ بعده: «وَلَا تَخْشَى» مُجمعٌ عليه بلا جزم؛ وفيها ثلاثُ تقديرات:

الأول: أنْ يكون «لا تخاف» في موضع الحال من المُخاطب، التقدير: فاضرِبْ لهم طريقاً في البحر يَبَساً غيرَ خائف ولا خاشٍ.

الثاني: أنْ يكون في موضع النعت للطَّريق؛ لأنَّه معطوفٌ على «يَبَس» الذي هو صفة، ويكون التقدير: لا تخاف فيه، فحذفَ الراجع من الصفة.

والثالث: أنْ يكون منقطعاً خبرَ ابتداء محذوف، تقديره: وأنت لا تخاف[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي: أتبعهم ومعه جنودُه، وقُرئ: «فَاتَّبَعَهُمْ» بالتشديد[(٢)]، فتكون الباء في «بِجنودِهِ» عَدَّت الفعلَ إلى المفعول الثاني؛ لأنَّ اتَّبع يتعدَّى إلى مفعولٍ واحد. أي: تبعهم ليلحقهم بجنوده، أي: مع جنوده كما يُقال: ركب الأمير بسيفه، أي: مع سيفه.

ومن قطع، فأتبع يتعدَّى إلى مفعولين: فيجوز أنْ تكون الباء زائدة، ويجوز أنْ يكون اقتصرَ على مفعولٍ واحد. يقال: تَبِعَه وأَتْبعَه، ولَحِقَه وأَلْحقه بمعنًى واحد. وقوله: «بِجنودِهِ» في موضع الحال، كأنَّه قال: فأتبعهم سائقاً جنودَه[(٣)].

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: أصابهم من البحر ما غرَّقهم، وكرَّرَ على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٠، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠.

(٢) هي رواية عبيد عن أبي عمرو البصري كما في السبعة ص٤٢٢، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٥٥ بنحوه.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: أضلَّهم عن الرَّشد، وما هداهم إلى خيرٍ ولا نجاة؛ لأنَّه قدَّر أنَّ موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه؛ لأنَّ بين أيديهم البحر.

فلمَّا ضرب موسى البحرَ بعصاه انفلق منه اثنا عشرَ طريقاً، وبين الطرق الماءُ قائماً كالجبال. وفي سورة الشعراء ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الآية:٦٣]، أي: الجبل الكبير، فأخذَ كلُّ سِبْطٍ طريقاً. وأوحى الله إلى أطواد الماء أَنْ تَشبَّكي، فصارت شبكاتٍ يرى بعضُهم بعضاً، ويسمع بعضُهم كلامَ بعض، وكان هذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات، فلمَّا أقبل فرعون، ورأى الطرق في البحر، والماءَ قائماً، أوهمَهم أنَّ البحر فعلَ هذا لهيبته، فدخل هو وأصحابُه فانطبقَ البحر عليهم(١).

وقيل: إنَّ قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تأكيدٌ لإضلاله إيَّاهم. وقيل: هو جوابُ قول فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، فكذَّبه الله تعالى(٢). وقال ابن عباس: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: ما هدى نفسَه، بل أهلك نفسَه وقومَه.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ لمَّا أنجاهم من فرعون قال لهم هذا ليشكروا. ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ «جانب» نصب على المفعول الثاني لـ «واعدنا» ولا يحسن أنْ ينتصب على الظرف؛ لأنَّه ظرفُ مكانٍ مختص(٣) غير مبهم.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٥٢ دون ذكر تَشبُّك الماء ليرى بعضهم بعضاً.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٥٥ .

(٣) في النسخ: محض، والمثبت من مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧١ والكلام منه، وينظر الدر المصون ٨/ ٨٥ .

وإنَّما تتعدَّى الأفعالُ والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مُبهمةً.

قال مكيّ: هذا أصلٌ لا خلاف فيه، وتقديرُ الآية: وواعدناكم إتيانَ جانب الطُّور، ثمَّ حذف المضاف.

قال النحاس[١]: أي: أَمَرْنا موسى أنْ يأمرَكم بالخروج معه؛ لنُكلِّمه[٢] بحضرتكم، فتسمعوا الكلام.

وقيل: وعدَ موسى بعد إغراق فرعون أنْ يأتيَ جانبَ الطور الأيمنَ فَيُؤتيه التوراة[٣]، فالوعدُ كان لموسى، ولكن خُوطبوا به؛ لأنَّ الوعد كان لأجلهم.

وقرأ أبو عمرو: «وَوَعَدْنَاكُمْ» بغير ألف[٤]، واختاره أبو عُبيد؛ لأنَّ الوعد إنَّما هو من الله تعالى لموسى خاصة، والمُواعدةُ لا تكون إلَّا من اثنين؛ وقد مضى في «البقرة» هذا المعنى[٥].

و«الْأَيْمَنَ» نصب؛ لأنَّه نعتٌ للجانب، وليس للجبل يمينٌ ولا شمال، فإذا قيل: خُذْ عن يمين الجبل؛ فمعناه: خُذْ على يمينك من الجبل[٦]. وكان الجبل على يمين موسى إذْ أتاه.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ أي: في التِّيه، وقد تقدَّم القول فيه[٧].

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: من لذيذ الرزق. وقيل: من حلاله؛ إذْ لا صُنع فيه لآدميٍّ فتدخُلَه شُبهة.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٥٢ .

(٢) في (د) و(م) وإعراب القرآن للنحاس: ليكلمه.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٦ .

(٤) السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص٧٣ .

(٥) ٢/ ٩٨ .

(٦) تفسير الطبري ١٥/ ٥٥٩ عند قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] بنحوه.

(٧) ٢/ ١١٨ .

﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي: لا تحملنَّكم السَّعة والعافية أنْ تعصوا؛ لأنَّ الطُّغيان: التجاوزُ إلى ما لا يجوز[١]. وقيل: المعنى: أي لا تكفروا النِّعمة، ولا تنسَوْا شُكرَ المُنعم بها عليكم. وقيل: أي: ولا تستبدلوا بها شيئاً آخر، كما قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]. وقيل: لا تدَّخِروا منه لأكثرَ من يومٍ وليلة، قال ابن عباس: فدوّد عليهم ما ادَّخروه؛ ولولا ذلك ما دَوَّدَ[٢] طعامٌ أبداً.

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: يجب وينزل، وهو منصوبٌ بالفاء في جواب النهي من قوله: «وَلَا تَطْغَوْا».

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بنُ وثَّاب والكسائي: «فَيَحُلَّ» بضمِّ الحاء، «وَمَنْ يَحْلُلْ» بضمِّ اللّام الأولى[٣]. الباقون بالكسر، وهما لغتان. وحكى أبو عُبيدة[٤] وغيره أنَّه يقال: حَلَّ يَحِلُّ: إذا وجبَ، وحَلَّ يَحُلَّ: إذا نزل. وكذا قال الفراء[٥]: الضمُّ من الحُلول بمعنى الوقوع، والكسر من الوجوب. والمعنيان متقاربان؛ إلَّا أنَّ الكسر أولى؛ لأنَّهم قد أجمعوا على قوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[٦] [الزمر: ٤٠]. وغضبُ الله: عقابُه ونِقْمته وعذابه.

﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ قال الزَّجَّاج[٧]: فقد هلك، أي: صارَ إلى الهاوية، وهي قَعْرُ النار، من هَوَى يَهوي هَوِيًا، أي: سقط من عُلْوٍ إلى سُفْل، وهوى فلان، أي: مات[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٢ .

(٢) في النسخ: فتدَوَّد عليهم... ما تدوَّد، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ٤١٦ (والكلام منه) ومن معاجم اللغة.

(٣) قراءة الكسائي في السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص١٥٢ ، وقراءة الأعمش ذكرها البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٧ .

(٤) في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٢ والكلام منه: أبو عُبيد. ولم نقف على هذا الكلام في مجاز القرآن لأبي عبيدة.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ١٨٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٢ - ٥٣ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٣٧٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٣ .

(٨) تهذيب اللغة ٦/٤٨٨ - ٤٩٠ .

وذكر ابن المبارك: أخبرنا إسماعيل بن عيَّاش قال: حدثنا ثعلبةُ بن مسلم، عن أيوبَ بن بَشِير، عن شُفَيّ الأصبحيّ قال: إنَّ في جهنَّم جبلاً يُدعى صَعُوداً، يطلَع فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أنْ يرقاه، قال الله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧]، وإنَّ في جهنم قصراً يُقال له: هَوَى، يُرمى الكافرُ من أعلاه، فيهوي أربعينَ خريفاً قبل أنْ يبلُغ أصلَه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ وذكر الحديث[١]. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ أي: من الشرك. ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: أقامَ على إيمانه حتى مات عليه؛ قاله سفيانُ الثوري وقتادة وغيرهما[٣]. وقال ابن عباس: أي: لم يَشكَّ في إيمانه، ذكره الماوردي[٤] والمهدوي. وقال سهلُ ابن عبد الله التُّستَريّ وابن عباس أيضاً: أقام على السنَّة والجماعة[٥]، ذكره الثعلبي. وقال أنس: أخذ بسنَّة النبي ﷺ، ذكره المهدوي، وحكاه الماوردي عن الربيع بن أنس[٦]. وقول خامس: أصاب العمل، قاله ابن زيد[٧]، وعنه أيضاً: تعلَّمَ العلمَ لِيهتديَ كيف يَفعل[٨]، ذكر الأوّل المهدوي، والثاني الثعلبيّ. وقال الشعبيّ ومقاتل والكلبيّ: علم أنَّ لذلك ثواباً وعليه عقاباً[٩]؛ وقاله الفراء[١٠]. وقول ثامن: «ثم

---

(١) الزهد لابن المبارك (٣٣٦ - زوائد نعيم)، وهو مقطوع، وأيوب بن بشير مجهول، كما في ميزان الاعتدال ١/ ٢٨٥ .

(٢) ص٤٠١ - ٤٠٢ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٢٨ عن قتادة. وسيأتي الخبر عن سفيان.

(٤) في النكت والعيون ٣/ ٤١٦ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٢٧ - ١٢٨ .

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣١٢ عن سعيد بن جبير.

(٦) في النكت والعيون ٣/ ٤١٧ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٢٨ .

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ١٢٨ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤١٧ .

(٨) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢٢٧ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧ .

(١٠) في معاني القرآن ٢/ ١٨٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٣ .

اهتدى» في ولاية أهل بيت النبي ﷺ؛ قاله ثابت البُنَاني[(١)].

والقولُ الأول أحسنُ هذه الأقوال إنْ شاء الله، وإليه يرجع سائرها. قال وكيع عن سفيان: كنَّا نسمع في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ أي: من الشِّرك، ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: بعد الشِّرك ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: صلَّى وصام ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾: مات على ذلك[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: ما حملك على أنْ تسبقَهم؟ قيل: عَنى بالقوم جميعَ بني إسرائيل، فعلى هذا قيل: استخلف هارونَ على بني إسرائيل، وخرج معه بسبعين رجلاً للميقات.

فقوله: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ ليس يريد أنَّهم يسيرون خلفه متوجهين إليه، بل أراد أنهم بالقرب مني ينتظرون عودي إليهم[(٣)]. وقيل: لا، بل كان أَمَر هارونَ بأنْ يَتْبع في بني إسرائيل أثرَه ويلتحقوا به[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ١٢٩، وهو في النكت والعيون ٣/ ٤١٧، وزاد المسير ٥/ ٣١٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٣.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٩ بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٣٠ عن ابن إسحاق بنحوه.

وقال قوم: أرادَ بالقوم السبعين الذين اختارهم، وكان موسى لمَّا قرُب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله عزَّ وجلَّ(١).

وقيل: لما وَفد إلى طور سيناء بالوعد(٢) اشتاق إلى ربِّه، وطالت عليه المسافةُ من شدَّة الشوق إلى الله تعالى، فضاق به الأمرُ حتى شقَّ قميصَه، ثمَّ لم يصبر حتى خلَّفهم ومضى وحده، فلمَّا وقف في مقامه قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ فبقي ﷺ مُتحيراً عن الجواب وكنَى عنه بقوله: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾، وإنَّما سألَه عن السبب الذي أعجلَه بقوله: «ما» فأخبرَ عن مجيئهم بالأثر. ثم قال: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، فكنَى عن ذكر الشوق وصَرَفه(٣) إلى ابتغاء الرضا(٤).

ذكر عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة في قوله: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ قال: شوقاً. وكانت عائشةُ رضي الله عنها إذا أوتْ إلى فراشها تقول: هاتوا المجيد. فتُؤتَى بالمصحف، فتأخذه في صدرها، وتنام معه تتسلَّى بذلك؛ رواه سفيان عن مِسْعَر عن عائشة رضي الله عنها(٥). وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء خَلَع ثيابه، وتجرَّد حتى يُصيبه المطر، ويقول: «إنَّه حديثُ عهدٍ بربِّه»(٦). فهذا من الرسول ﷺ وممن بعدَه من قَبيل الشوق؛ ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يُروى عنه: «طال شوقُ الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشوقُ»(٧).

قال ابن عباس: كان الله عالماً ولكن قال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾ رحمةً لموسى، وإكراماً له بهذا القول، وتسكيناً لقلبه، ورِقَّةً عليه، فقال مُجيباً لربِّه: ﴿هُمۡ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٧، وزاد المسير ٥/ ٣١٣ بنحوه.

(٢) في (خ): بالوفد.

(٣) في (د) و(م): وصدقه.

(٤) تفسير الرازي ٢٢/ ٩٩ بنحوه.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) في (خ) و(م): بربي. والحديث أخرجه أحمد (١٢٣٦٥) ومسلم (٨٩٨) من حديث أنس ﷺ.

(٧) ذكره الديلمي في الفردوس (٨٠٦٧) عن أبي الدرداء ﷺ موقوفاً.

أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾: قال أبو حاتم: قال عيسى: بنو تميمٍ يقولون: «هُمْ أولَا» مقصورة مرسلة، وأهل الحجاز يقولون: «أولاءِ» ممدودة. وحكى الفراء[(١)]: «هُمْ أُولَايَ عَلَى أَثَرِي». وزعم أبو إسحاق الزَّجَّاج[(٢)] أنَّ هذا لا وجه له.

قال النحاس[(٣)]: وهو كما قال؛ لأنَّ هذا ليس مما يُضاف فيكون مثل: هُدَايَ. ولا يخلو من إحدى جهتين: إمَّا أنْ يكون اسماً مبهماً، فإضافتُه مُحال، وإمَّا أنْ يكون بمعنى الذين، فلا يُضاف أيضاً؛ لأنَّ ما بعدَه من تمامه، وهو معرفة.

وقرأ ابن أبي إسحاق، ونصر، ورُويس عن يعقوب: ﴿على إِثْرِي﴾ بكسر الهمزة وإسكان الثاء[(٤)]: وهو بمعنى أَثَر، لغتان.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي: عجلتُ إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عنّي[(٥)]. يقال: رَجلٌ عَجِلٌ وعَجُلٌ وعَجُولٌ وعَجْلَانٌ: بَيِّنُ العَجَلة، والعَجَلةُ: خلاف البُطء[(٦)].

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أي: اختبرناهم وامتحنَّاهم بأنْ يستدلُّوا على الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: دعاهم إلى الضلالة، أو هو سببُها.

وقيل: فتنَّاهم: ألقيناهم في الفتنة، أي: زيَّنَّا لهم عبادةَ العجل، ولهذا قال موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٨٨ ونسبه إلى بعض القراء. ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٣، وما قبله وما بعده منه.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٣٧١.

(٣) في إعراب القرآن له ٣/ ٥٣.

(٤) قراءة رُويس عن يعقوب في النشر ٢/ ٣٢١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤.

(٦) الصحاح (عجل).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان السامريُّ من قومٍ يعبدون البقر، فوقع بأرض مصر، فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر[(١)]. وقيل: كان رجلاً من القبط، وكان جاراً لموسى؛ آمن به وخرج معه. وقيل: كان عظيماً من عُظَماء بني إسرائيل، من قبيلةٍ تُعرف بالسَّامرة، وهم معروفون بالشام. قال سعيد بن جُبير: كان من أهل كَرْمَان[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾ حال. وقد مضى في «الأعراف» بيانه مستوفًى[(٣)]. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ وعدَهم عزَّ وجلَّ الجنَّة إذا أقاموا على طاعته[(٤)]، ووَعدهم أنَّ يُسمعهم كلامَه في التوراة على لسان موسى، ليعمَلوا بما فيها، فيستحقُّوا ثوابَ عملهم. وقيل: وعدَهم النصرَ والظَّفَر. وقيل: وَعْدُه قولُه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآية [طه: ٨٢][(٥)].

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: أفنسيتم؟ كما قيل: والشيءُ قد يُنسَى لطول العهدِ.

﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: «يحلّ» أي: يجب وينزل. والغضب: العقوبة والنّقمة. والمعنى: أَمْ أردتُم أنْ تفعلوا فعلاً يكون سببَ حلول غضب الله بكم؛ لأنَّ أحداً لا يطلب غضبَ الله، بل قد يرتكبُ ما يكون سبباً للغضب.

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ لأنَّهم وعدوه أنْ يُقيموا على طاعة الله عزَّ وجلَّ إلى أنْ يرجع

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ٣٥٢ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢١٧ ، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٦٣) مطولاً، وقد ذكره ابن كثير بطوله في تفسيره ٥/ ٢٨٥-٢٩٣ ثم قال: ..كأنه تلقّاه ابن عباس رضي الله عنهما مما أُبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم.

(٢) عرائس المجالس ص٢١٠ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٠١ . وكرمان: ولاية كبيرة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. معجم البلدان ٤/ ٤٥٤ .

(٣) ٩/ ٣٣٦ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤١٧ - ٤١٨ .

إليهم من الطُّور[١]. وقيل: وعدَهم أن يسيروا[٢] على أثره للميقات فتوقفوا[٣].

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ بفتح الميم، وهي قراءة نافع وعاصم وعيسى بن عمر[٤]. قال مجاهد والسديّ: ومعناه: بطاقتنا. ابن زيد: لم نملك أنفسنا، أي: كنا مضطرين[٥].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: «بِمِلْكِنَا» بكسر الميم[٦]. واختاره أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنَّها اللُّغة العالية. وهو مصدر مَلَكتُ الشيء أَمْلِكُه مِلْكاً. والمصدر مضافٌ إلى الفاعل، والمفعول محذوف، كأنَّه قال: بمِلْكنا الصواب، بل أخطأنا، فهو اعترافٌ منهم بالخطأ[٧].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «بِمُلْكنا» بضمِّ الميم[٨]، والمعنى: بسُلطاننا، أي: لم يكن لنا مُلك فنخلفَ موعدك[٩].

ثم قيل: قوله: «قَالُوا» عامٌّ يُراد به الخاص، أي: قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أنْ رجع[١٠] إليهم من الطُّور: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا﴾[١١]. وكانوا اثني عشر ألفاً، وكان جميعُ بني إسرائيل ستَّ مئة ألف[١٢].

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٠٢ بنحوه.

(٢) قوله: أن يسيروا، من (ظ).

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤١٨ .

(٤) قراءة نافع وعاصم في السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ١٣٤ ، والنكت والعيون ٣/ ٤١٨ .

(٦) السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٧) الحجة للفارسي ٥/ ٢٤٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧١ بنحوه.

(٨) السبعة ص٤٢٢ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٩) الحجة للفارسي ٥/ ٢٤٤ .

(١٠) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: يرجع.

(١١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤ .

(١٢) عرائس المجالس ص٢١٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ٢١٨ .

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة؛ قراءة نافعٌ وابن كثير وابن عامر وحفص ورُويس. الباقون بفتح الحرفين خفيفة[١]. واختارَه أبو عُبيد وأبو حاتم؛ لأنَّهم حَملوا حُلِيَّ القوم معهم وما حملوه كرهاً[٢].

﴿أَوْزَارًا﴾ أي: أثقالاً[٣] ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: من حُلِيِّهم. وكانوا استعاروه حين أرادوا الخروجَ مع موسى عليه السلام، وأوهموهم أنَّهم يجتمعون في عيدٍ لهم أو وليمةٍ. وقيل: هو ما أخذوه من آل فرعون، لمَّا قذفَهم البحرُ إلى الساحل. وسُمِّيت أوزاراً بسبب أنَّها كانت آثاماً، أي: لم يحلَّ لهم أخذُها، ولم تحلَّ لهم الغنائم[٤]، وأيضاً فالأوزار: هي الأثقالُ في اللُّغة[٥].

﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: ثَقُلَ علينا حملُ ما كان معنا من الحُلِيِّ، فقذفناه في النَّار ليذوب[٦]، أي: طرحناه فيها. وقيل: طرحناه إلى السامريّ؛ لترجعَ فترى فيها رأيك.

قال قتادة: إنَّ السامريّ قال لهم حين استبطأ القومُ موسى: إنَّما احتبسَ عليكم من أجل ما عندكم من الحُليّ. فجمعوه ودفعوه إلى السامريِّ، فرمى به في النار، وصاغَ لهم منه عجلاً، ثمَّ ألقى عليه قبضةً من أثر فرس الرسول؛ وهو جبريل عليه السَّلام. وقال معمر: الفرس الذي كان عليه جبريل هو الحياة، فلما ألقى عليه القبضةَ صار عجلاً جسداً له خُوار[٧]. والخُوار: صوت البقر.

وقال ابن عباس: لمَّا انسكبت الحُلِيُّ في النَّار، جاء السامريّ وقال لهارون:

---

(١) السبعة ص٤٢٣ ، والتيسير ص١٥٣ ، والنشر ٢/ ٣٢٢ . ورُويس: هو راوي يعقوب من العشرة.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٨ بنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٣٦ - ١٣٧ عن مجاهد.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٨ بنحوه، وسلف هذا الكلام ٩/ ٣٣٣ .

(٥) ينظر الصحاح (وزر).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٤ .

(٧) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٤١٩ .

يا نبيَّ الله، أَأُلقي ما في يدي؟ وهو يظنُّ أنَّه كبعض ما جاء به غيره من الحليّ؛ فقذف الترابَ فيه، وقال: كنْ عجلاً جسداً له خُوار، فكان كما قال؛ للبلاء والفتنة، فخار خَورةً واحدةً لم يُتبعها مثلَها[1].

وقيل: خُواره وصوته كان بالريح؛ لأنَّه كان عَمِل فيه خروقاً، فإذا دخلت الريح في جوفه خَار، ولم تكن فيه حياة. وهذا قولُ مجاهد.

وعلى القول الأوَّل كان عجلاً من لحم ودم، وهو قول الحسن وقتادة والسديّ[2].

وروى حمَّاد عن سِماك، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: مرَّ هارون بالسامريّ وهو يصنع العجل، فقال: ما هذا؟ فقال: ينفع ولا يضر، فقال: اللهم أعطه ما سألَك على ما في نفسه، فقال: اللهم إنِّي أسألك أنْ يخور. وكان إذا خار سجدوا، وكان الخُوار من أجل دعوة هارون[3].

قال ابن عباس: خار كما يخور الحيُّ من العُجول[4].

ورُويَ أنَّ موسى قال: يا رب، هذا السامريّ أخرجَ لهم عجلاً جسداً له خُوار من حُلِيِّهم، فمن جعل الجسد والخُوار؟ قال الله تبارك وتعالى: أنا. قال موسى ﷺ: وعزَّتكَ وجلالك وارتفاعك وعلوِّك وسلطانك[5]، ما أضلَّهم غيرُك. قال: صدقتَ يا حكيم الحكماء. وقد تقدَّم هذا كله في سورة «الأعراف»[6].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٦٧١ - ٦٧٢ مطولاً، وينظر عرائس المجالس ص٢١١ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤١٩ . قال الطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير ٩/ ١١٠ : ما وقع من القصص أنه كان لحماً ودماً ويأكل ويشرب، فهو من وضع القصاصين. وسلف هذا ٩/ ٣٣٤ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٥/ ٣١٠ - ٣١١ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٨ .

(٥) قوله: وارتفاعك وعلوك وسلطانك، ليس في (خ)، ووقع في (ظ): وعلو شأنك.

(٦) ٩/ ٣٣٢ - ٣٣٤ .

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ أي: قال السامريُّ ومن تَبعه وكانوا ميَّالين إلى التَّشبيه؛ إذ قالوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾. ﴿فَنَسِيَ﴾ أي: فضلَّ موسى [وذهب] يطلبه[1]، فلم يعلم مكانه، وأخطأ الطريق إلى ربِّه. وقيل معناه: فتركه موسى هنا وخرج يطلبه. أي: ترك موسى إلهه هنا[2].

ورَوى إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: أي: فنسي موسى أنْ يذكرَ لكم أنَّه إلهه[3]. وقيل: الخطابُ خبرٌ عن السامريّ، أي: ترك السامريُّ ما أمرَه به موسى من الإيمان فضلَّ[4]؛ قاله ابن الأعرابيّ.

فقال الله تعالى مُحتجًّا عليهم: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ أي: يعتبرون ويتفكرون في أنه لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً، أي: لا يُكلِّمهم. وقيل: لا يعودُ إلى الخُوار والصوت. ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ فكيف يكون إلهاً؟! والذي يعبدُه موسى ﷺ يضرُّ وينفع، ويُثيبُ ويُعطي ويمنع.

و«أَنْ لَا يَرْجِعُ» تقديره: أنَّه لا يرجع، فلذلك ارتفعَ الفعلُ، فخففت «أنْ» وحُذف الضمير. وهو الاختيار في الرؤية والعلم والظن[5]. قال:

في فتيةٍ كسيوف[6] الهندِ قد علموا   أَنْ هالكٌ كلُّ مَنْ يَحْفَى ويَنْتَعِلُ[7]

وقد يُحذف مع التشديد، قال:

---

(١) في (د) و(ز) و(خ): يطلب.

(٢) أخرج الطبري ١٦/ ١٤٢ نحو هذه الأخبار، وما بين حاصرتين منه، وينظر تفسير الرازي ٢٢/ ١٠٤ .

(٣) زاد المسير ٥/ ٣١٥ .

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ١٤١ عن ابن عباس.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٣ .

(٦) في (د) و(ز) و(خ) و(م): من سيوف، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٧) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٩ . والشطر الثاني فيه: أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيلُ. وهما روايتان للبيت فيما ذكره التبريزي في شرح القصائد العشر ص٣٣٨ .

فلو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قَرَابتي ولكنَّ زنجيٌّ عظيمُ المَشافِرِ[(١)]

أي: ولكنك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل أنْ يأتيَ موسى ويرجعَ إليهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: ابتُليتم وأُضللتم به، أي: بالعجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لا العجل ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ في عبادته ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى﴾ لا أمرَ السامريّ. أو: فاتَّبعوني في مَسيري إلى موسى ودعوا العجل. فعصَوه و﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ أي: لن نزالَ مُقيمين على عبادة العجل[(٢)] ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فننظرَ هل يعبدُه كما عبدناه؛ فتوهَّموا أنَّ موسى يعبدُ العجل، فاعتزلهم هارون في اثني عشر ألفاً من الذين لم يعبدوا العجل، فلما رَجَعَ موسى وسمع الصِّياح والجَلَبة، وكانوا يرقصون حول العجل، قال للسبعين معه: هذا صوتُ الفتنة؛ فلما رأى هارونَ أخذَ شعر رأسه بيمينه، ولحيتَه بشماله غضباً[(٣)]، و﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ أي: أخطؤوا الطريقَ وكفروا ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ «لا» زائدة أي: أنْ تتَّبع أمري ووصيتي. وقيل: ما منعك عن اتِّباعي في الإنكار عليهم[(٤)]. وقيل: معناه: هلَّا قاتلتهم إذْ قد علمتَ أني لو

(١) البيت للفرزدق كما في الكتاب ٢/ ١٣٦، وخزانة الأدب ١٠/ ٤٤٤. قال البغدادي: والبيت في هجو رجل من ضبَّة، نفاه عن ضبَّة ونسبه إلى الزنج. والمشافر: جمع مِشْفَر بكسر الميم وفتح الفاء، وهو شفة البعير، واستُعير هنا لشفة الإنسان لما قصد من بشاعة خلقه. ثم قال البغدادي: واعلم أن قافية البيت اشتهرت كذا عند النحويين، وصوابه: ولكنَّ زنجيًّا غلاظاً مشافرُه.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٩.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٩، وينظر عرائس المجالس ص٢١٦.

(٤) ذكره الماوردي عن مقاتل ٣/ ٤٢٠.

كنتُ بينهم لقاتلتُهم على كُفرهم. وقيل: ما منعك من اللُّحوق بي لما فُتنوا[١].

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ يريد: أنَّ مُقامَك بينهم وقد عبدوا غيرَ الله تعالى عِصيانٌ منك لي؛ قاله ابن عباس[٢]. وقيل: معناه: هلَّا فارقتهم، فتكون مفارقتك إيَّاهم تقريعاً لهم وزَجْراً[٣].

ومعنى «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي» قيل: إنَّ أمرَه ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢] فلما أقامَ معهم، ولم يُبالِغْ في مَنْعهم، والإنكارِ عليهم، نسبه إلى عِصيانه ومُخالفة أمره[٤].

مسألة: وهذا كلُّه أصلٌ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله، وأنَّ المقيمَ بينهم ـ لا سيَّما إذا كان راضياً ـ حُكْمُه كحكمهم. وقد مضى هذا المعنى في «آل عمران» و«النساء» و«المائدة» و«الأنعام» و«الأعراف» و«الأنفال»[٥].

وسُئِل الإمام أبو بكر الطُّرْطُوشيُّ رحمه الله: ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وأُعلِم ـ حرس الله مدته ـ أنَّه اجتمع جماعةٌ من رجال، فيُكثِرون من ذِكر الله تعالى، وذكر محمدٍ ﷺ، ثمَّ إنَّهم يُوقعون بالقضيب على شيءٍ من الأديم، ويقوم بعضُهم يرقص ويتواجد حتى يقع مَغْشيًّا عليه، ويُحضرون شيئاً يأكلونه. هل الحضور معهم جائزٌ أم لا؟ أفتونا مأجورين يرحمكم الله[٦]. وهذا القول الذي يذكرونه:

يا شيخُ كُفَّ عن الذُّنوبْ ... قبلَ التَّفرُّق والزَّلَلْ
واعْمَلْ لنفسكَ صالحاً ... ما دام ينفعُك العَمَلْ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٩ .
(٢) ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ١٠٨ بنحوه.
(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٢٩ .
(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٠ .
(٥) ٥/ ٧٣ ، ٧/ ١٨٥ ، ٨/ ١٠٥ ، ٩/ ٣٦٥ ، ٩/ ٤٨٦ .
(٦) لفظة: مأجورين من (م).

أمّا الشبابُ فقد مَضى ... ومَشيبُ رأسكَ قد نَزلْ

وفي مثل هذا ونحوه.

الجواب: ـ يرحمك الله ـ مذهبُ الصوفية بطالةٌ وجهالةٌ وضلالة، وما الإسلام إلّا كتابُ الله وسنةُ رسوله، وأمَّا الرقص والتواجد، فأولُ من أحدثَه أصحاب السامريّ، لما اتَّخذَ لهم عجلاً جسداً له خُوار؛ قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون، فهو دينُ الكفَّار وعُبَّاد العجل، وأمَّا القضيبُ فأوَّلُ من اتَّخذه الزنادقة لِيشغَلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى. وإنَّما كان يجلسُ النبيُّ ﷺ مع أصحابه كأنَّما على رؤوسهم الطير[1] من الوقار؛ فينبغي للسلطان ونُوَّابه أنْ يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يَحِلُّ لأحدٍ يؤمنُ بالله واليوم الآخر أنْ يَحضُرَ معهم، ولا يُعينهم على باطلهم. هذا مذهبُ مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ ابن عباس: أخذَ شعرَهُ بيمينه ولحيتَه بيساره[2]؛ لأنَّ الغَيْرةَ في الله مَلكته، أي: لا تفعل هذا، فيتوهَّموا أنه منك

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٥٤)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والنسائي في الكبرى (٥٨٤٤) من حديث أسامة بن شريك ﷺ.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٢٠.

استخفافٌ أو عقوبة. وقد قيل: إنَّ موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفافٍ ولا عقوبة كما يأخذ الإنسانُ بلحية نفسه. وقد مضَى هذا المعنى في «الأعراف» مستوفًى[١]. والله عزَّ وجلَّ أعلمُ بما أراد نبيُّه عليه السلام.

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خشيتُ أن أخرجَ وأتركَهم، وقد أمرتَني أن أخرجَ معهم، فلو خرجتُ لاتَّبعني قومٌ وتخلَّف[٢] مع العجل قومٌ، وربما أدّى الأمرُ إلى سفك الدماء، وخشيتُ إنْ زَجرتُهم أن يقع قتالٌ فتلومَني على ذلك[٣].

وهذا جوابُ هارونَ لموسى عليه السلام عن قوله: «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي»[٤] وفي «الأعراف» [الآية: ١٥٠]: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي[٥] فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ لأنك أمرتَني أن أكونَ معهم، وقد تقدَّم.

ومعنى ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾: لم تعمل بوصيَّتي في حِفظه؛ قاله مقاتل. وقال أبو عُبيدة[٦]: لن تنتظر عهدي وقُدومي.

فتركه موسى، ثم أقبل على السامريّ ف ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي: ما أَمرُك وشأنُك، وما الذي حملك على ما صنعتَ؟ قال قتادة: كان السامريُّ عظيماً في بني إسرائيلَ من قبيلة يقال لها: سامرة[٧]، ولكن عدوَّ الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى.

فلما مرَّتْ بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى

---

(١) ٩/ ٢٤٠.

(٢) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): يتخلف.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٢١٩.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢١.

(٥) بعدها في (د): على ذلك، وهذا جواب هارون لموسى عليه السلام.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٢٦، ونقله المصنف عنه مع قول مقاتل الذي قبله من النكت والعيون ٣/ ٤٢١.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٢١.

﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف:١٣٨]، فاغتنمها السامريّ، وعَلِمَ أنهم يميلون إلى عبادة العجل، فاتَّخذ العجل. ف ﴿قَالَ﴾ السامريّ مُجيباً لموسى: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ يعني: رأيتُ ما لم يَرَوْا؛ رأيتُ جبريلَ عليه السلام على فرس الحياة، فأُلقي في نفسي أن أقبضَ من أَثَره قبضةً، فما ألقيتُه على شيء إلا صار له روحٌ ولحمٌ ودمٌ، فلما سألوك أن تجعلَ لهم إلهاً زَيَّنَتْ لي نفسي ذلك[1].

وقال عليّ ﷺ: لما نزل جبريلُ لِيصعَدَ بموسى عليه السلام إلى السماء، أبصره السامريُّ من بين الناس، فقبض قبضةً من أثر الفرس.

وقيل: قال السامريّ: رأيتُ جبريلَ على الفرس، وهي بلقاء[2]، خَطْوُها مدُّ البصر، فأُلقي في نفسي أن أقبضَ من أثرها، فما ألقيتُه على شيء إلا صار له روحٌ ودمٌ. وقيل: رأى جبريلَ يومَ نزل على رَمَكة وَدِيقٍ[3]، فتقدَّم خيلَ فرعون في ورود البحر.

ويقال: إنّ أُمَّ السامريّ جعلته حين وضعَتْه في غارٍ خوفاً مِن أن يقتله فرعون، فجاءه جبريلُ عليه السلام، فجعل كفَّ السامريِّ في فم السامريّ، فَرَضِعَ العسلَ واللَّبن، فاختلف إليه فعرفه من حينئذ. وقد تقدَّم هذا المعنى في «الأعراف»[4].
ويقال: إن السامريّ سمع كلامَ موسى عليه السلام، حيث عمل تمثالين من شَمَعٍ؛ أحدهما ثور والآخر فرس، فألقاهما في النيل حين[5] طلب قبر يوسف عليه السلام وكان في تابوت من حجر في النيل، فأتى به الثورُ على قَرنه، فتكلَّم السامريّ بذلك

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٣، وعرائس المجالس ص٢١٠، والوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٠.

(٢) في (د) و(م): تلقى.

(٣) الرَّمَكَة: الفرس والبرذونة تُتَّخذ للنسل. القاموس (رمك). والوديق: التي تشتهي الفحل. النهاية (ودق).

(٤) ٩/ ٣٣٣ - ٣٣٤، وتنظر قصة السامري في تفسير الطبري ١/ ٦٦٩ وما بعدها، وعرائس المجالس ص٢١٠ - ٢١١، وهذه الأخبار من الإسرائيليات.

(٥) قوله: حين، من (ظ).

الكلام الذي سمعه من موسى، وألقى القبضةَ في جوف العجل فخار.

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش وخلف: «بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا» بالتاء على الخِطاب. الباقون بالياء على الخبر[(١)].

وقرأ أبيّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة: «فَقَبَصْتُ قَبْصَة» بصاد غير مُعجمة. ورُوي عن الحسن ضَمُّ القاف من «قبصة» والصاد غير معجمة[(٢)]. الباقون: ﴿قَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ بالضاد المعجمة.

والفرق بينهما أنَّ القبضَ بجميع الكفّ، والقبص بأطراف الأصابع، ونحوهما الخَضْم والقَضْم[(٣)]، والقُبْضة بضم القاف: القَدْر المقبوض؛ ذكره المَهْدوي. ولم يذكر الجوهري «قُبْصة» بضم القاف والصاد غير المعجمة، وإنما ذكر «القُبْضة» بضم القاف والضاد المعجمة، وهو ما قبضتَ عليه من شيء، يقال: أعطاه قُبْضةً من سَويق أو تمر، أي: كفًّا منه، وربما جاء بالفتح[(٤)]. قال: والقِبْصُ ـ بكسر القاف والصاد غير المعجمة ـ: العدد الكثير من الناس، قال الكُميت:

لكم مسجدا اللهِ المَزوران والحَصَى لكم قِبْصُهُ من بين أَثْرَى وأَقْتَرَى[(٥)]

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: طرحتُها في العجل.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: زيَّنته؛ قاله الأخفش. وقال ابن زيد: حدَّثتني

---

(١) السبعة ص٤٢٤، والتيسير ص١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢، وذكرها عن الأعمش أبو حيان في البحر ٦/ ٢٧٣.

(٢) قراءة ابن مسعود وأُبيّ في المحرر الوجيز ٤/ ٦١، وقراءة الحسن وقتادة في القراءات الشاذة ص٨٩.

(٣) الخضم: الأكل بأطراف الأضراس، والقضم: الأكل بأطراف الأسنان. القاموس (خضم) و(قضم).

(٤) الصحاح (قبض).

(٥) الصحاح (قبص)، والبيت في ديوان الكميت ص١٥٥، قال ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٥٢٧ في هذا البيت: يعني المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ، والحصى: العدد الكثير، وأثرى: أكثر، وأقتر: أقلّ، أراد الناس جميعاً.

نفسي[١]. والمعنى مُتقارب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ﴾ أي: قال له موسى: فاذهب، أي: من بيننا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ أي: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ طولَ الحياة. فنفاه موسى عن قومه، وأمر بني إسرائيل ألّا يُخالطوه، ولا يَقربوه، ولا يُكلِّموه، عقوبةً له، قال الشاعر:

تَـمـيـمٌ كـرهـط الـسّـامـريِّ وقـولـه ... ألَا لا يـريـدُ الـسـامـريُّ مِـسـاسـا[٢]

قال الحسن: جعل اللهُ عقوبةَ السامريّ ألا يُماسَّ الناسَ ولا يُماسُّوه؛ عقوبةً له ولمن كان منه إلى يوم القيامة، وكأن الله عزَّ وجلَّ شدَّد عليه المحنة، بأن جعله لا يُماسُّ أحداً، ولا يُمكِّن من أن يَمسَّه أحدٌ، وجعل ذلك عقوبةً له في الدنيا. ويقال: ابتُلي بالوسواس، وأصلُ الوسواس من ذلك الوقت[٣].

وقال قتادة: بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك: لا مساس، وإن مَسَّ واحدٌ من غيرهم أحداً منهم حُمَّ كلاهما في الوقت. ويقال: إن موسى هَمَّ بقتل السامريّ، فقال الله تعالى له: لا تَقتُلْه، فإنه سخيٌّ[٤].

ويقال: لمَّا قال له موسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ خاف فهربَ، فجعل يَهيم في البرّيّة مع السِّباع والوحش، لا يجد أحداً من الناس يَمَسُّه؛ حتى صار كالقائل: لا مساس، لبعده عن الناس وبُعدِ الناس عنه، كما قال الشاعر:

حَـمَّـالُ رايـاتٍ بـهـا قِـنْـعـاسـا ... حـتـى تـقـولَ الأزدُ لا مـسـاسـا[٥]

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٢٣ ، وعنه نقل المصنف قول الأخفش.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٣/ ٤٢٤ ، والبيت في مجاز القرآن ٢/ ٢٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٦٢ ، وعندهما: مَساسِ، بدل: مساساً.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٥٣ .

(٤) عرائس المجالس ص٢١٤ ، وينظر الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٠ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٢٣ ، وذكر الشطر الثاني من الرجز ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٦١ ، =

مسألة: هذه الآية أصلٌ في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم، وألا يُخالَطوا، وقد فعل النبيُّ ﷺ ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلِّفوا[(١)].

ومَن التجأ إلى الحرم وعليه قَتلٌ لا يُقْتَل عند بعض الفقهاء، ولكن لا يُعامل ولا يُبايع ولا يُشارى، وهو إرهاقٌ إلى الخروج. ومن هذا القَبيل التغريب في حدِّ الزنى، وقد تقدَّم جميعُ هذا كلِّه في موضعه، فلا معنى لإعادته[(٢)]. والحمد لله وحده.

وقال هارون القارئ: ولغةُ العرب: لا مَساسِ، بكسر السين وفتح الميم، وقد تكلَّم النحويون فيه، فقال سيبويه[(٣)]: هو مبنيٌّ على الكسر كما يقال: اضربِ الرجلَ. وقال أبو إسحاق[(٤)]: «لا مساس» نفي، وكُسرت السين لأن الكسرةَ من علامة التأنيث، تقول: فعلتِ يا امرأة[(٥)].

قال النحاس[(٦)]: وسمعتُ عليَّ بن سليمان يقول: سمعت محمدَ بن يزيد يقول: إذا اعتلَّ الشيء من ثلاث جهات وجبَ أن يُبنى، وإذا اعتلَّ من جهتين وجب ألا ينصرف، لأنه ليس بعد ترك الصرف إلا البناء، فمساسِ ودراكِ اعتلَّ من ثلاث جهات؛ منها: أنه معدول، ومنها أنه مؤنَّث، وأنه معرفة، فلما وجب البناءُ فيه، وكانت الألفُ قبل السين ساكنة كُسرت السين لالتقاء الساكنين، كما تقول: اضربِ الرّجلَ. ورأيتُ أبا إسحاق يذهب إلى أن هذا القولَ خطأٌ، وألزم أبا العباس إذا سمَّى

= ونسبه لرؤبة، ولم نقف عليه في المطبوع من ديوانه. ووقع في النسخ: قناعسا، بدل: قنعاسا. ووقع في (م): مسابساً، وفي النسخ الخطية: مسايساً، بدل: مساسا، والمثبت من المصدرين السالفين. وقوله: قِنعاسا، أي الرجل الشديد المنيع، والجمع: قناعيس. تاج العروس (قنعس).

(١) أخرج حديثهم البخاري ومسلم، وسلف ١٠/ ٤١٣ .

(٢) مسألة من التجأ إلى الحرم وعليه قتل سلفت ٢/ ٣٧٣ ، ومسألة التغريب في حدّ الزاني سلفت ٦/ ١٤٥ وما بعدها.

(٣) ينظر الكتاب ٤/ ١٥٢ .

(٤) هو الزجاج، وقوله في معاني القرآن ٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٥) في النسخ: المرأة، والمثبت من معاني القرآن للزجاج وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٦ والكلام منه.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٥٦ - ٥٧ .

امرأةً بفرعون أن ينيَه، هذا لا يقولُه أحدٌ.

وقال الجوهري في «الصحاح»: وأما قولُ العرب: لا مَساسِ، مثال: قَطامِ، فإنما بُني على الكسر؛ لأنه معدولٌ عن المصدر، وهو المَسُّ[(١)].

وقرأ أبو حيوة: «لا مَسَاسِ»[(٢)].

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ يعني يومَ القيامة. والموعد مصدر، أي: إنَّ لك وعداً لعذابك. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو: «تُخْلِفَهُ» بكسر اللام[(٣)]، وله معنيان: أحدهما: ستأتيه ولن تَجِده مُخلَفاً، كما تقول: أحمدته، أي: وجدته محموداً. والثاني: على التهديد، أي: لابدَّ لك من أن تصيرَ إليه[(٤)]. الباقون بفتح اللام؛ بمعنى: إنَّ الله لن يُخلفك إيَّاه.

قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ أي: دُمتَ وأَقمتَ عليه. ﴿عَاكِفًا﴾ أي: مُلازماً، وأصلُه: ظَلِلْت، قال:

خَلَا أنّ العِتاقَ من المَطايا أَحَسْنَ به فهنَّ إليه شُوسُ[(٥)]

أي: أَحْسَسْنَ. وكذلك قرأ الأعمشُ بلامين على الأصل[(٦)].

وفي قراءة ابن مسعود: «ظِلْتَ» بكسر الظاء. يقال: ظَلِلتُ أفعلُ كذا: إذا فعلته نهاراً، وظَلْت وظِلْت؛ فمن قال: ظَلْت حَذَفَ اللام الأُولى تخفيفاً، ومن قال:

---

(١) الصحاح (مسس).

(٢) المحتسب ٢/ ٥٦ .

(٣) السبعة ص٤٢٤ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٧ .

(٥) قائله أبو زُبيد الطائي، وهو في أمالي القالي ١/ ١٧٦ ـ وفيه: حَسِيْنَ، بدل: أَحَسْنَ ـ والاقتضاب ص٢٩٩ ، والبيت ضمن أبيات يصف فيها قوماً سروا والأسد يقفو آثارهم لكي ينتهز فيهم فرصة. وقوله: شُوس: الشَّوَس: النظر بِمُؤْخِرِ العين تكبُّراً وتغيُّظاً. القاموس (شوس).

(٦) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٩ لأُبيّ.

ظِلْت، ألقى حركةَ اللام على الظاء[١].

و﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ قراءة العامة بضم النون وشد الراء؛ من حرَّق يُحرِّق. وقرأ الحسنُ وغيره بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء، من أحرقه يُحرقه[٢]. وقرأ عليّ وابن عباس وأبو جعفر وابن مُحيصن وأشهب العُقيلي: «لَنَحْرُقَنَّهُ» بفتح النون وضم الراء خفيفة[٣]؛ من حَرَقْتُ الشيءَ أَحْرُقُه حرقاً: بردته وحَكَكْت بعضَه ببعض، ومنه قولهم: حَرَق نابَه يَحرِقه ويَحرُقه، أي: سَحقه حتى سُمِع له صَرِيف، فمعنى هذه القراءة: لَنبرُدَنَّه بالمَبارد[٤]، ويقال لِلمبرد: المِحْرَق. والقراءتان الأوليان معناهما الحرق بالنار. وقد يمكن جمع ذلك فيه.

قال السُّدِّيُّ: ذبحَ العجلَ، فسالَ منه كما يسيل من العجل إذا ذُبح، ثم بَرَد عظامه بالمِبرد وحَرَقه[٥].

وفي حرف ابن مسعود: «لَنذبحنَّه ثم لَنَحْرُقَنَّه»[٦] واللَّحمُ والدمُ إذا أُحرقا صارا رماداً، فيمكن تذريته في اليمّ، فأما الذهب فلا يصير رماداً. وقيل: عَرَفَ موسى ما صَيَّر به الذهبَ رماداً، وكان ذلك من آياته.

ومعنى ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾: لَنُطيِّرنه. وقرأ أبو رجاء: «لَنَنْسُفَنَّهُ» بضم السين[٧]، لغتان،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٧، وقراءة ابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص٨٩.

(٢) قرأ بها أبو جعفر ـ وهو من العشرة ـ في رواية ابن جماز. النشر ٢/ ٣٢٢، وذكرها عن الحسن ابن خالويه في الشاذة ص٨٩.

(٣) قراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في رواية ابن وردان في النشر ٢/ ٣٢٢، وذكرها عن علي وابن عباس ابنُ خالويه في الشاذة ص٨٩، وابن جني في المحتسب ٢/ ٥٨.

(٤) الصحاح (حرق).

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ١١٢ بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ١٥٦ عن قتادة. وينظر هذا الكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٦٢، وتفسير الرازي ٢٢/ ١١٢ - ١١٣ بنحوه.

(٧) القراءات الشاذة ص٨٩ ونسبها لعيسى.

والنَّسْف: نفضُ الشيء لتذهبَ به الريح، وهو التَّذرية، والمِنْسَف: ما يُنسف به الطعام، وهو شيء منصوب[(١)] الصَّدر، أعلاه مُرتَفِع، والنُّسَافة: ما يَسقط منه، يقال: اِعزِل النُّسَافة وكُلْ من الخالص. ويقال: أتانا فلانٌ كأنّ لحيته مِنْسف؛ حكاه أبو نصر أحمد بن حاتم[(٢)]. والمِنْسَفة: آلةٌ يُقلَع بها البناء، ونسفتُ البناء نسفاً: قلعته، ونَسفَ البعيرُ الكَلأَ يَنْسِفه ـ بالكسر ـ إذا اقتلعه بأصله، وانتسفتُ الشيء: اقتلعته؛ عن أبي زيد[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ لا العِجْل، أي: وَسِع كلَّ شيء عِلْمُه؛ يفعل الفعل عن العلم، ونصب على التفسير. وقرأ مجاهد وقتادة: «وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلماً»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف[(٥)]، أي: كما قصصنا عليك خبر موسى ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ قَصَصاً كذلك من أخبار ما قد سبق؛ ليكون تسليةً لك، وليدلَّ على صدقك.

---

(١) كذا في النسخ الخطية والصحاح والقاموس (نسف) وفي (م) وتهذيب اللغة ١٣/ ٦ : متصوب.

(٢) الباهلي، صاحب الأصمعي، روى عنه وعن أبي زيد، صنَّف: النبات والشجر، أبيات المعاني، ما يلحن به العامة.. توفي سنة (٢٣١هـ). بغية الوعاة ١/ ٣٠١ .

(٣) الصحاح (نسف).

(٤) القراءات الشاذة ص٨٩ ، والمحتسب ٢/ ٥٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٧ .

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ يعني القرآن. وسمَّى القرآن ذِكراً لما فيه من الذِّكر، كما سمَّى الرسولَ ذِكراً؛ لأن الذِّكر كان ينزل عليه. وقيل: «آتَيْنَاكَ منْ لَدُنَّا ذِكْراً» أي: شرفاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: شرفٌ وتنويهٌ باسمك[١].

قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أي: القرآن فلم يُؤمن به، ولم يَعملْ بما فيه ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: إثماً عظيماً، وحِمْلاً ثقيلاً. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ يُريد: مُقيمين فيه، أي: في جزائه، وجزاؤه جهنم. ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ يريد: بئس الحملُ حملوه يومَ القيامة. وقرأ داود بن رفيع: «فَإِنَّهُ يُحَمَّلُ»[٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ قراءة العامة «يُنْفَخُ» بضم الياء على الفعل المجهول. وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق بنون مسمى الفاعل[٣]. واستدلَّ أبو عمرو بقوله تعالى: «وَنَحْشُرُ» بنون[٤]. وعن ابن هُرْمُز: «يَنْفُخُ» بفتح الياء[٥]، أي: ينفخ إسرافيل.

أبو عياض: «فِي الصُّوَرِ»[٦]. الباقون: «في الصُّورِ» وقد تقدَّم هذا في «الأنعام»[٧] مستوفًى، وفي كتاب «التذكرة»[٨].

وقرأ طلحة بن مُصرِّف: «ويُحْشَرُ» بضم الياء، «الْمُجْرِمُونَ» رفعاً بخلاف المُصحف[٩]. والباقون: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: المشركين.

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٢/ ١١٣ .

(٢) القراءات الشاذة ص٩٠ ، ولم نقف على ترجمة داود بن رفيع. ووقع في (ظ): داود وابن رفيع.

(٣) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٤٢٤ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٤) ينظر الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٢٥٠ .

(٥) ذكرها الرازي في تفسيره ٢٢/ ١١٤ ، وأبو حيان في البحر ٦/ ٢٧٨ دون نسبة.

(٦) المحتسب ٢/ ٥٩ وفيه: عياض. وسلفت القراءة ٨/ ٤٣١ عن عياض أيضاً، وذكرها أبو حيان في البحر في موضعين: ٤/ ١٦١ عن عياض و ٦/ ٢٧٨ عن ابن عياض. ولم نعرفه.

(٧) ٨/ ٤٣٠ - ٤٣٢ .

(٨) ص١٦٦ وما بعدها.

(٩) القراءات الشاذة ص٩٠ ونسبها للحسن.

﴿زُرْقًا﴾ حال من المجرمين، والزَّرَق خلاف الكَحَل. والعرب تَتشاءم بزَرَق العيون وتذمّه، أي: تُشوِّه خِلْقَتُهم بِزُرْقة عيونهم وسوادِ وجوههم. وقال الكلبي والفراء[١]: «زُرقاً» أي: عُمياً. وقال الأزهري[٢]: عطاشا قد ازرقَّتْ أعينُهم من شِدَّة العطش؛ وقاله الزجاج[٣]، قال: لأن سوادَ العين يتغيَّر ويزرقُّ من العطش. وقيل: إنه الطمع الكاذب إذا تعقَّبته الخيبة؛ يقال: ابيضَّت عيني لطول انتظاري لكذا.

وقول خامس: إن المراد بالزُّرقة شخوص البصر من شدة الخوف، قال الشاعر:

لقد زَرِقتْ عيناك يا بنَ مُكَعْبِرٍ كما كُلُّ ضَبِّيٍّ من اللُّؤم أَزْرَقُ[٤]

يقال: رجل أزرقُ العين، والمرأة زرقاءُ بيِّنةُ الزَّرَق. والاسم الزُّرقة. وقد زَرِقت عينُه ـ بالكسر ـ وازْرقَّت عينه ازرقاقاً، وازْراقَّت عينُه ازريقاقاً[٥].

وقال سعيد بن جبير: قيل لابن عباس في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وقال في موضع آخر: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧] فقال: إنَّ ليوم القيامة حالاتٍ؛ فحالة يكونون فيه زُرقاً، وحالة عُمياً[٦].

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أصلُ الخَفْت في اللغة السكون، ثم قيل لمن خَفَضَ صوتَه: خَفَتَه، والمعنى[٧]: يتسارُّون؛ قاله مجاهد[٨]، أي: يقول بعضُهم لبعض في الموقف

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٩١، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٢٤ وما قبله وما بعده منه.

(٢) نقله عنه المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٢٤، وينظر تهذيب اللغة ٨/ ٤٢٨.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٣٧٦.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٤ - ٤٢٥، والبيت لسُوَيد بن أبي كاهل اليشكري، وهو في الحيوان للجاحظ ٥/ ٣٣٢، وجمهرة اللغة لابن دريد ٢/ ٣٢٤، والأغاني ٢١/ ٣٩٦. وابن مكعبر: هو محرز بن المكعبر الضَّبِّي، من شعراء المفضليات. المفضليات ص٢٥١.

(٥) الصحاح (زرق)، وفيه البيت السابق.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٠٧.

(٧) قوله: والمعنى، من (م).

(٨) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦١ عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة.

سرًّا: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم، يعني: في الدنيا، وقيل: في القبور ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ يريد: عشرَ ليال. وقيل: أراد ما بين النفختين، وهو أربعون سنة؛ يُرفع العذاب في تلك المدة عن الكفار ـ في قول ابن عباس ـ فيستقصرون تلك المدة. أو مدة مُقامهم في الدنيا لشدَّة ما يرون من أهوال يوم القيامة[١]، ويُخيَّل إلى أمْثَلِهِم أي: أعدلهم قولاً، وأعقلهم، وأعلمهم عند نفسه أنهم ما لبثوا إلا يوماً واحداً، يعني: لبثهم في الدنيا؛ عن قتادة؛ فالتقدير: إلا مثلَ يوم. وقيل: إنهم من شِدَّة هول المَطْلع نَسُوا ما كانوا فيه من نعيم الدنيا حتى رأوه كيوم. وقيل: أراد بيوم لبثهم ما بين النفختين، أو لبثهم في القبور على ما تقدَّم[٢]. «وعشراً» و«يوماً» منصوبان بـ «لبثتم».

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي: عن حال الجبال يوم القيامة. ﴿فَقُلْ﴾ جاء هذا بفاء، وكلّ[٣] سؤالٍ في القرآن «قل» بغير فاء إلَّا هذا؛ لأنَّ المعنى: إنْ سألوك عن الجبال فقل، فتضمَّن الكلامُ معنى الشرط. وقد عَلِمَ الله أنَّهم يسألونَه عنها، فأجاب[٤] قبل السؤال، وتلك أسئلةٌ تقدَّمت سألوا عنها النبيَّ ﷺ، فجاء الجواب عقب السؤال؛ فلذلك كان بغير فاء، وهذا سؤالٌ لم يسألوه عنه بعد؛ فتفهَّمه.

﴿يَنسِفُهَا﴾: يُطيِّرها. ﴿نَسْفًا﴾ قال ابن الأعرابي وغيره: يَقْلَعُها قَلْعاً من أصولها،

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٢١ بنحوه عن علي بن أحمد النيسابوري.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ١٦١ - ١٦٢ وزاد المسير ٥/ ٣٢١ بنحوه.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): جاء هذا بعد كل...، والمثبت من (د) و(م).

(٤) في (ظ): فأجابه، وفي (م): فأجابهم.

ثمَّ يُصيِّرها رملاً يسيل سيلاً، ثم يُصيِّرها كالصوف المنفوش تطيِّرها الرياح هكذا وهكذا. قال: ولا يكون العِهنُ من الصوف إلَّا المصبوغ[1]، ثمَّ كالهَباء المنثور.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: يذرُ مواضعَها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ القاع: الأرضُ الملساء بلا نباتٍ ولا بناء؛ قاله ابن الأعرابي[2].

وقال الجوهري[3]: والقاع: المستوي من الأرض، والجمع أَقْوُعٌ وأقواعٌ وقِيعانٌ، صارت الواو ياءً لكسر ما قبلها.

وقال الفراء: القاعُ: مستنقعُ الماء[4]. والصَّفصف: القرعاء[5].

الكلبي: هو الذي لا نباتَ فيه. وقيل: المستوي من الأرض كأنَّه على صفٍّ واحدٍ في استوائه؛ قاله مجاهد[6]. والمعنى واحدٌ في القاع والصَّفصف، فالقاعُ: الموضع المنكشف، والصَّفصف: المستوي الأملس. وأنشد سيبويه[7]:

وكَمْ دُونَ بيتكَ من صَفْصَفٍ ودَكْدَاكِ رَمْلٍ وأَعْقَادِهَا[8]

و«قاعاً» نصب على الحال والصفصف صفتُه[9]. و﴿لَّا تَرَىٰ﴾ في موضع الصفة. ﴿فِيهَا عِوَجًا﴾ قال ابن الأعرابي: العِوَج: التّعوجُ في الفِجاج. والأَمْتُ: النَّبك. وقال أبو عمرو: الأَمْت: النِّباك، وهي التِّلال الصِّغار، واحدُها نَبَكة[10]، أي: هي أرضٌ

(١) ياقوتة الصراط ص٣٥٠ .
(٢) ياقوتة الصراط ص٣٥١ .
(٣) في الصحاح (قوع).
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩١ .
(٥) ياقوتة الصراط ص٣٥١ .
(٦) النكت والعيون ٣/ ٤٢٦ .
(٧) في الكتاب ٢/ ٥٦ .
(٨) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٢٣ .
(٩) قوله: صفته من (ظ).
(١٠) في النسخ: نَبَك، والمثبت من المعاجم.

مستويةٌ، لا انخفاضَ فيها ولا ارتفاع. تقول: امتلأ [السِّقاء] فما به أَمْت[١]، وملأْتُ القِربة مَلْئاً لا أمتَ فيه، أي: لا استرخاء فيه[٢]. والأَمْتُ في اللغة: المكانُ المرتفع. وقال ابن عباس: «عِوَجاً»: مَيْلاً. قال: والأَمْتُ: الأثرُ مثل الشِّراك. وعنه أيضاً: «عِوَجاً»: وادياً، «وَلَا أَمْتاً»: رابية[٣]. وعنه أيضاً: العِوَج [الانخفاض] والأَمْتُ: الارتفاع[٤]. وقال قتادة: «عِوَجاً»: صَدْعاً، «وَلَا أَمْتاً» أي: أَكَمةً[٥]. وقال يمان: الأَمْتُ: الشقوقُ في الأرض[٦]. وقيل: الأمتُ أنْ يغلُظَ مكانٌ في الفضاء أو الجبل، ويَدِقَّ في مكان؛ حكاه الصُّولي[٧].

قلت: وهذه الآية تدخل في باب الرُّقَى؛ تُرقَى بها الثآليل، وهي التي تُسمَّى عندنا بالبراريق، واحدُها بروقة؛ تطلع في الجسد وخاصةً في اليد: تأخذُ ثلاثةَ أعوادٍ من تبنِ الشعير، يكون في طرف كلِّ عودٍ عُقدة، تُمِرُّ كلَّ عُقدةٍ على الثآليل، وتقرأ الآية مرة، ثم تدفن الأعواد في مكان نَدٍ؛ تعفَن وتعفَن الثآليل؛ فلا يبقى لها أثرٌ. جرَّبتُ ذلك في نفسي وفي غيري، فوجدتُه نافعاً إنْ شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ يريد إسرافيلَ عليه السلام إذا نَفَخَ في الصور ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا مَعْدِلَ لهم عنه، أي: عن دعائه، لا يَزيغون ولا ينحرفون، بل يُسرعون إليه ولا يَحيدون عنه. وعلى هذا أكثرُ العلماء. وقيل: «لَا عِوَجَ

---

(١) الصحاح (أمت) وما بين حاصرتين منه.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩١.

(٣) أخرجهما الطبري ١٦/ ١٦٤ و ١٦٦.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦٥ من قول مجاهد، وما بين حاصرتين منه.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦٥.

(٦) ذكره العيني في عمدة القاري ١٩/ ٥٨.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٢٦، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٧، والصولي هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول، البغدادي، صاحب التصانيف. توفي سنة (٣٣٥هـ) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٠١.

لَهُ﴾ أي: لدعائه(١). وقيل: يتَّبعون الداعيَ اتِّباعاً لا عِوَج له. فالمصدرُ مضمر، والمعنى: يتَّبعون صوتَ الداعي للمحشر. نظيره: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ الآية [ق: ٤١]. وسيأتي.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ أي: ذَلَّت وسكنت؛ عن ابن عباس(٢).

قال:

لمَّا أتى خبرُ الزُّبير تواضعَتْ سورُ المدينة والجبالُ الخُشَّعُ(٣)

فكلُّ لسانٍ ساكتٌ هناك للهيبة.

﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من أجله. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ الهمسُ: الصوتُ الخفيّ؛ قاله مجاهد(٤). عن ابن عباس: الحِسُّ الخفيّ. الحسن وابن جُريج: هو صوتُ وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المَحْشر؛ ومنه قولُ الراجز:

وهُنَّ يَمْشِينَ بِنا هَمِيسا

يعني: صوتَ أخفاف الإبل في سيرها(٥). ويُقال للأسد: الهَمُوس؛ لأنَّه يَهْمِس في الظُّلمة، أي: يطأُ وطئاً خفيًّا. قال رؤبةُ يصفُ نفسَه بالشِّدَّة:

لَيثٌ يَدُقُّ الأسدَ الهَمُوسا والأَقْهَبَينِ الفيلَ والجاموسَا(٦)

وهَمَسَ الطَّعامَ، أي: مضغَه وفُوه مُنْضَمٌّ؛ قال الراجز:

(١) تفسير الطبري ١٦/ ١٦٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣١ بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ١٦٨.

(٣) البيت لجرير، وسلف ٢/ ٢٠٩.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٧. وهو في تفسير مجاهد ١/ ٤٠٢ - ٤٠٣، وتفسير الطبري ١٦/ ١٦٩ بلفظ: الهمس: خفض الصوت.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ١٦٨، والنكت والعيون ٣/ ٤٢٧، والرجز سلف ٣/ ٣٢٢.

(٦) الصحاح (همس)، والرجز في ديوان رؤبة ص٦٩ والأقهب: ما كان لونه إلى الكدرة مع البياض للسواد، والأقهبان: الفيل والجاموس؛ كل واحدٍ منهما أقهب للونه. اللسان (قهب).

لقد رأيتُ عجباً مُذْ أمسا عجائزاً مثلَ السَّعالِي خَمْسا
يَأكلْنَ ما أصنعُ هَمْساً هَمْساً[١]

وقيل: الهمسُ: تحريكُ الشَّفَةِ واللِّسان. وقرأ أبيٌّ بن كعب: «فَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا هَمْساً»[٢]. والمعنى متقارب، أي: لا يُسمع لهم نطقٌ ولا كلامٌ ولا صوتُ أقدام.

وبناء (هـ م س) أصلُه الخَفاء كيفَما تصرَّف؛ ومنه الحروف المهموسة، وهي عشرةٌ يجمعُها قولك: حَثَّهُ شَخْصٌ فَسَكَتَ، وإنَّما سُمِّي الحرفُ مهموساً؛ لأنه ضَعُفَ[٣] الاعتمادُ في موضعه حتى جَرَى معه النَّفَس.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ «مَن» في موضع نصب على الاستثناء الخارج من الأوّل[٤]، أي: لا تنفعُ الشفاعة أحداً إلَّا شفاعةُ من أذن له الرحمن[٥]. ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي: رَضيَ قولَه في الشفاعة. وقيل: المعنى، أي: إنَّما تنفعُ الشفاعةُ لمن أَذِن له الرحمن في أنْ يُشفَع له، وكان له قولٌ يُرضَى. قال ابن عباس: هو قولُ: لا إله إلا الله[٦].

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من أمر السَّاعة. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِن أمرِ الدنيا؛ قاله قتادة. وقيل: يعلم ما يصيرون إليه من ثوابٍ أو عقاب، «وما خلفهم»: ما خلَّفوه وراءَهم في الدنيا[٧]. ثم قيل: الآيةُ عامةٌ في جميع الخلْق[٨]. وقيل: المراد:

---

(١) الرجز في نوادر أبي زيد ص٥٧، وكتاب سيبويه ٣/ ٢٨٥. قال البغدادي في خزانة الأدب ٣/ ٢٢٢ (طبعة دار صادر): والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي ما عُرف قائلها. وقال ابن المستوفي: وجدت هذه الأبيات الثمانية في كتاب نحو قديم للعجاج أبي رؤبة، وأراه بعيداً عن نمطه. والسعالي: جمع سِعلاة؛ وهي أنثى الغول. وقيل: ساحرة الجن. ويُروى: مثل الأفاعي.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٢٧.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) والصحاح (همس) والكلام منه: أضعف، والمثبت من (ظ) و(م).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٨.

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ١١٨.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٢.

(٧) تفسير الطبري ١٦/ ١٧٠ - ١٧١.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٦٥.

الذين يتَّبعون الداعي[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ الهاء في «به»: لله تعالى، أي: أحدٌ لا يحيطُ به علماً، إذ الإحاطةُ مُشعِرَةٌ بالحدِّ، ويتعالى الربُّ عن التحديد. وقيل: تَعود على العِلْم، أي: أحدٌ لا يحيطُ علماً بما يعلمه الله[٢].

وقال الطبري[٣]: الضميرُ في «أيديهم»، و«خلفَهم»، و«يحيطون»؛ يعودُ على الملائكة؛ أَعْلَمَ الله مَن يعبدُها أنَّها لا تعلمُ ما بين أيديها وما خلفها.

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ أي: ذلَّت وخضعَت؛ قاله ابن الأعرابي وغيره[٤]. ومنه قيل للأسير: عانٍ[٥]. قال أمية بن أبي الصَّلْت[٦]:

مَليكٌ على عرش السَّماءِ مُهَيْمِنٌ لعِزَّته تَعنُو الوجوهُ وتَسجدُ

وقال أيضاً:

وَعَنَا له وَجْهي وخَلْقي كُلُّه في السَّاجدين لوجهه مَشْكُورَا[٧]

قال الجوهري[٨]: عنا يعنو: خضعَ وذلَّ، وأعنَاه غيرُه، ومنه قوله تعالى:

---

(١) بعدها في (د) و(م): والحمد لله. وذكر هذا القول البغوي في تفسيره ٣/ ٢٣٢ .

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٢ .

(٣) في تفسيره ١٦/ ١٧١ ، ونسبه لبعضهم، وهو قول الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٩٢ .

(٤) ياقوتة الصراط ص٣٥٢ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٢٣٢ ، وينظر الصحاح (عنو).

(٦) في ديوانه ص٣٩ .

(٧) ديوانه ص٦٩ ، وفيه: في الخاشعين، بدل: في الساجدين. وهو في النكت والعيون ٣/ ٤٢٧ مثل رواية المصنف.

(٨) في الصحاح (عنو).

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾، ويقال أيضاً: عَنَا فيهم فلانٌ أسيراً، أي: أقامَ فيهم على إسارِه واحتُبِس. وعَنَّاه غيرُه تَعْنِيَةً: حبسَه. والعاني: الأسير، وقومٌ عُنَاة، ونسوةٌ عَوَانٍ. وعَنَتْ به أمورٌ: نزلت.

وقال ابن عباس: «عَنَت»: ذلَّت. وقال مجاهد: خشعت[١]. الماوردي[٢]: والفرقُ بين الذُّلِّ والخشوع - وإنْ تقاربَ معناهُما - هو[٣] أنَّ الذلَّ: أنْ يكون ذليلَ النفس، والخشوعَ: أنْ يتذلَّل لذي طاعة. وقال الكلبي: «عنت» أي: عملَت. عطية العَوْفي: استسلمَتْ. وقال طَلْق بن حبيب: إنَّه وضعُ الجبهةِ والأنفِ على الأرض في السجود[٤].

النحَّاس[٥]: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ في معناه قولان: أحدهما: أنَّ هذا في الآخرة. ورَوى عكرمةُ عن ابن عباس: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ قال: الركوعُ والسجود. ومعنى «عنت» في اللغة: القهرُ والغلبة، ومنه: فُتِحَت البلادُ عَنْوةً، أي: غلبةً، قال الشاعر:

فما أخذوها عَنْوةً عن مودَّةٍ ... ولكن بضرب المَشْرَفيِّ اسْتقَالَها[٦]

وقيل: هو من العناء بمعنى التعب. وكنَى عن النَّاس بالوجوه؛ لأنَّ آثارَ الذُّلِّ إنَّما تتبينُ في الوجه[٧].

---

(١) أخرجهما الطبري ١٦/ ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٢٧ ، وما قبله منه.

(٣) لفظة: هو. ليست في (د) و(م).

(٤) هذه الأقوال في النكت والعيون ٣/ ٤٢٨ . وقول طلق بن حبيب أخرجه الطبري ١٦/ ١٧٤ .

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٥٨ .

(٦) قائله كثير عزة، وهو في ديوانه ص٢٢٧ ، وفيه: فما تركوها، بدل: فما أخذوها. وبحدٍّ، بدل: بضرب. والبيت أورده الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٩٣ مثل رواية المصنف. والمشرفي: السيف المنسوب إلى المشارف، وهي قرى من أرض اليمن. اللسان (شرف).

(٧) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٠ بنحوه.

﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ وفي القيوم ثلاث تأويلات؛ أحدها: أنَّه القائمُ بتدبير الخلق. الثاني: أنَّه القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبت. الثالث: أنَّه الدائم الذي لا يَزول ولا يَبيد[١]. وقد مضى في «البقرة» هذا[٢]. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: خَسِرَ من حَمل شِركاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأنَّ العملَ لا يُقبل من غير إيمان. و«مِن» في قوله: «مِنَ الصَّالِحَاتِ» للتبعيض[٣]، أي: شيئاً من الصالحات. وقيل: للجنس[٤].

﴿فَلَا يَخَافُ﴾ قرأ ابن كثير ومجاهد وابن مُحيصن: «يَخَفْ» بالجزم[٥]، جواباً لقوله: «وَمَنْ يَعْمَلْ». الباقون: «يَخَافُ» رفعاً على الخبر، أي: فهو لا يَخَافُ، أو: فإنَّه لا يخاف. ﴿ظُلْمًا﴾ أي: نقصاً لثواب طاعته، ولا زيادة عليه في سيئاته. ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ بالانتقاص من حقِّه. والهضمُ: النقصُ والكسر؛ يقال: هَضَمتُ ذلك من حقِّي، أي: حَطَطْتُه وتركْتُه. وهذا يَهْضِمُ الطعام، أي: يَنْقُص ثِقَلَه. وامرأةٌ هَضِيمُ الكَشح: ضامرةُ البطن[٦]. الماوردي: والفرق بين الظلم والهضم؛ أنَّ الظلمَ: المنعُ من الحقِّ كُلِّه، والهَضْمَ: المنعُ من بعضه، والهضمُ: ظلمٌ وإنْ افترقا من وجه، قال المتوكل الليثي:

إنَّ الأذِلَّةَ واللِّئَامَ لَمَعشَرٌ مَوْلَاهُمُ المتهضَّمُ المظلومُ[٧]

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٢٨ .

(٢) ٤/ ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٦٥ .

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٢ ، وزاد المسير ٥/ ٣٢٤ .

(٥) قراءة ابن كثير في السبعة ص٤٢٤ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٦) تفسير الطبري ١٦/ ١٧٨ ، وزاد المسير ٥/ ٣٢٤ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٢٨ ، والبيت في ديوان المتوكل الليثي ص٧٩ ، وفي طبقات فحول الشعراء =

قال الجوهري[(١)]: ورجلٌ هَضيمٌ ومُهتضَم: أي: مظلوم. وتَهضَّمه، أي: ظلمَه، واهتضمَه: إذا ظلمه وكَسَر عليه حقَّه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما بيَّنَّا لك في هذه السُّورة من البيان، فكذلك جعلنَاه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: بيَّنَّا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يخافون الله فيجتنبون مَعَاصيَه، ويحذَرون عقابَه.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: موعظة. وقال قتادة: حذراً وورعاً. وقيل: شرفاً[(٢)]؛ فالذكرُ هاهنا بمعنى الشرف، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقيل: أي: ليتذكَّروا العذاب الذي تُوُعِّدوا به. وقرأ الحسن: «أَوْ نُحْدِثُ» بالنون، ورُوي عنه رفعُ الثاء وجزمُها[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ لمَّا عرَّف العبادَ عظيمَ نعمه وإنزالَ القرآن؛ نزَّه نفسَه عن الأولاد والأنداد فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: جلَّ الله الملك الحق، أي: ذو الحق.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ علَّم نبيَّه كيف يتلقَّى القرآن.

= ٢/ ٦٨٤ ، وفيه: معاشر، بدل: لمعشر. والمتوكل الليثي عدَّه ابن سلام في الطبقة السابعة من الإسلاميين، وقال: يكنى أبا جهمة كان كوفياً، وكان في عصر معاوية.

(١) الصحاح (هضم).

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ١٧٩ ، والنكت والعيون ٣/ ٤٢٨ .

(٣) الكشاف ٢/ ٥٥٤ ، وزاد المسير ٥/ ٣٢٥ ، والبحر المحيط ٦/ ٢٨١ . وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ٢/ ٥٩ عن الحسن بالياء وجزم الثاء.

قال ابن عباس: كان عليه الصلاة والسلام يُبادرُ جبريلَ، فيقرأُ قبل أنْ يَفْرُغ جبريلُ من الوحي حرصاً على الحِفْظ، وشفقةً على القرآن مخافةَ النسيان، فنهاه الله عن ذلك وأنـزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾. وهـذا كـقـولـه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[1] [القيامة:١٦] على ما يأتي.

وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: لا تَتْلُه قبل أنْ تتبيَّنه[2]. وقيل: «وَلَا تَعْجَلْ» أي: لا تسألْ[3] إنزالَه «قبل أن يُقْضَى» أي: يأتيَك «وَحْيُهُ». وقيل: المعنى: لا تُلْقِه إلى الناس قبل أنْ يأتيَك بيانُ تأويله[4].

وقال الحسن: نزلَتْ في رجلٍ لَطَم وجهَ امرأته، فجاءت إلى النبيِّ ﷺ تطلبُ القِصاص، فجعل النبيُّ ﷺ لها القِصَاص، فنزل ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤]، ولهذا قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [الكهف:١١٤] أي: فَهْماً؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام حكم بالقِصَاص وأبى الله ذلك[5].

وقرأ ابن مسعود وغيره: «مِن قَبْلِ أَنْ نَقْضِيَ» بالنون وكسر الضاد «وَحْيَهُ» بالنصب[6].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ قرأ الأعمشُ باختلافٍ عنه

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٣، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه البخاري (٤٩٢٩)، ومسلم (٤٤٨) بنحوه.

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٤٠٣، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٨٠ عنه، وفيهما: لا تتله على أحد حتى نُبيِّنه لك.

(٣) في (د) و(م): لا تسل.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٢٩.

(٥) أخرجه الطبري ٦/ ٦٨٨، والواحدي في أسباب النزول ص١٤٥، وهو مرسل. وسلف ٦/ ٢٧٩.

(٦) قرأ بها يعقوب من العشرة. النشر ٢/ ٣٢٢، وذكرها عن ابن مسعود ﷺ ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٢٦، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٠ للجحدري والحسن ومجاهد.

«فَنَسِيْ» بإسكان الياء[١]، وله معنيان:

أحدهما: تَرَكَ، أي: تَرَكَ الأمر والعهد؛ وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين[٢]، ومنه ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]. و[الثاني]: قال ابن عباس: «نسي» هنا من السهو والنسيان، وإنَّما أُخِذَ الإنسان منه لأنَّه عُهِد إليه فَنَسِيَ[٣]. قال ابن زيد: نَسِيَ ما عَهِدَ الله إليه في ذلك، ولو كان له عزمٌ ما أطاع عدوَّه إبليس[٤]. وعلى هذا القول يَحتمِلُ أنْ يكون آدمُ عليه السلام في ذلك الوقت مُؤاخذاً[٥] بالنسيان، وإنْ كان النسيان عنَّا اليومَ مرفوعاً.

ومعنى «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبل أنْ يأكل من[٦] الشجرة؛ لأنَّه نُهِيَ عنها.

والمرادُ تسليةُ النبيِّ ﷺ، أي: طاعةُ بني آدم للشيطان أمرٌ قديم، أي: إنْ نَقَضَ هؤلاء العهدَ؛ فإنَّ آدم أيضاً عهدنا إليه فَنَسي؛ حكاه القشيري وكذلك الطبري[٧]. أي: وإن يُعرِضْ يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتي، ويخالفوا رسُلي، ويطيعوا إبليس، فَقِدْماً فعلَ ذلك أبوهم آدم.

قال ابن عطية[٨]: وهذا التأويلُ ضعيف، وذلك كون آدمَ مثالاً للكفَّار الجاحدين بالله ليس بشيء، وآدم إنَّما عصى بتأويل، ففي هذا غَضاضةٌ عليه ﷺ، وإنَّما الظاهرُ في الآية إمَّا أن يكونَ ابتداءَ قصصٍ لا تعلُّقَ له بما قبله، وإمَّا أنْ يجعل تعلُّقه أنَّه لمَّا

---

(١) المحتسب ٢/ ٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٣٠ ، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٦/ ١٨٢ - ١٨٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٢ .

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): مأخوذاً، والمثبت من (ظ). والكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٢٣٣ .

(٦) لفظة: من، من (م)، وهذا القول ذكره الرازي في تفسيره ٢٢/ ١٢٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) في تفسيره ١٦/ ١٨١ .

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٦٦ ، وما قبله منه.

عَهِد إلى محمدٍ ﷺ ألَّا يَعْجَلَ بالقرآن، مثَّل له بنبيٍّ قبلَه عهدَ إليه فَنَسي فعُوقِب؛ ليكونَ أشدَّ في التحذير وأبلغَ في العهد إلى محمد ﷺ، والعهد هاهنا في معنى الوصية، «ونسيَ» معناه: ترك، ونسيانُ الذُّهول لا يمكن هنا؛ لأنَّه لا يتعلَّق بالناسي عقاب.

والعزم: المُضيُّ على المعتقد في أيِّ شيءٍ كان، وآدمُ عليه السلام قد كان يعتقد ألَّا يأكل من الشجرة، لكن لمَّا وسوس إليه إبليسُ لم يعزم على مُعتقده. والشيء الذي عُهِدَ إلى آدمَ هو ألَّا يأكل من الشجرة، وأُعلِمَ مع ذلك أنَّ إبليس عدوٌّ له.

واختُلف في معنى قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ فقال ابن عباس وقتادة: لم نجدْ له صبراً عن أكل الشجرة ومُواظبةً على التزام الأمر[١].

قال النحاس: وكذلك هو في اللغة، يقال: لفلانٍ عزمٌ، أي: صبرٌ وثَباتٌ على التحفُّظ من المعاصي حتى يَسلم منها، ومنه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وعن ابن عباس أيضاً وعطية العوفي: حِفْظاً لما أُمر به[٢]، أي: لم يتحفَّظ ممَّا نَهيتُه حتى نَسِيَ. وذَهبَ عن عِلْم ذلك بترك الاستدلال؛ وذلك أنَّ إبليس قال له: إنْ أكلتَها خُلِّدتَ في الجنة، يعني: عينَ تلك الشجرة، فلم يُطِعْه، فدعَاه إلى نظير تلك الشَّجرة ممَّا دخلَ في عُموم النهي، وكان يجب أنْ يستدلَّ عليه فلم يفعل، وظنَّ أنَّها لم تدخل في النهي، فأكلَها تأويلاً[٣]. ولا يكون ناسياً للشيء من يعلم أنَّه معصيةٌ.

وقال ابن زيد: «عزماً»: مُحافظةً على أمر الله[٤]. وقال الضحَّاك: عزيمةَ أمر. ابن كيسان: إصراراً ولا إضماراً للعود إلى الذنب.

قال القشيري: والأوَّلُ أقربُ إلى تأويل الكلام؛ ولهذا قال قوم: آدم لم يكن من

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٣ عن قتادة مختصراً.

(٢) أخرجه عنهما الطبري ١٦/ ١٨٣ - ١٨٤ .

(٣) تفسير الرازي ٣/ ١٣ بنحوه، وسلف نحو هذا الكلام ١/ ٤٥٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٤ .

أُولي العزم من الرسل؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. وقال المُعْظَم: كلُّ الرسل أولو العزم، وفي الخبر: «ما من نبيٍّ إلَّا وقد أخطأ ـ أو همَّ بخطيئة ـ ما خلا يحيى بن زكريا»[١]. فلو خرج آدمُ بسبب خطيئته من جُملة أُولي العزم؛ لخرج جميعُ الأنبياء سوى يحيى.

وقد قال أبو أُمامة: لو أنَّ أحلامَ بني آدم جُمعت منذ خلقَ اللهُ الخلقَ إلى يوم القيامة، ووُضِعت في كفَّة ميزان، وَوِضع حِلمُ آدم في كفةٍ أُخرى؛ لرجَحَهم، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ تقدَّم في «البقرة»[٣] مستوفًى.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ نهيٌ، ومَجازه: لا تقبلا منه، فيكون ذلك سبباً لخروجكما من الجنة[٤]. ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ يعني: أنت وزوجك؛ لأنَّهما في استواء العلَّة واحد[٥]، ولم يقل: فتشقَيا؛ لأنَّ المعنى معروف، وآدمُ عليه السلام هو

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ـ وعنده: أحد: بدل: نبي ـ، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف كما في ميزان الاعتدال ٣/ ١٢٧ - ١٢٨.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٨١٤ من طريق آخر عن ابن عباس، وقال: غريب من حديث شعبة وغيره، لا يرويه إلا إبراهيم السباك عن سليمان بن حرب عن شعبة. اهـ.

(٢) سلف ١/ ٤٥٧.

(٣) ١/ ٤٣٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٨.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٠.

المُخاطَب، وهو المقصود[١]. وأيضاً لمَّا كان الكادَّ عليها والكاسبَ لها؛ كان بالشقاء أخصَّ[٢].

وقيل: الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدمَ وحدَه، وهو شقاوة البدن، ألَا ترى أنه عقَّبهُ بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ أي: في الجنة ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾، فأعلَمه أنَّ له في الجنة هذا كلَّه: الكسوةُ والطعام والشراب والمسكن، وأنَّك إن ضَيَّعت الوصية، وأطعتَ العدوَّ؛ أخرجَكما من الجنة، فشقيت تعباً ونصَباً، أي: جُعْتَ وعريتَ وظَمِئتَ وأصابتك الشمس؛ لأنَّك تُرَدُّ إلى الأرض إذا أُخرِجت من الجَنَّة.

وإنَّما خصَّهُ بذكر الشقاء ولم يقل: فتشقيان؛ لِيُفهمنا[٣] أنَّ نفقة الزوجة[٤] على الزوج، فمن يومئذٍ جرتْ نفقةُ النساء على الأزواج، فلمَّا كانت نفقةُ حواءَ على آدم، كذلك نفقاتُ بناتها على بني آدم بحق الزوجيَّة.

وأعلمنا في هذه الآية أنَّ النفقةَ التي تجبُ للمرأة على زوجها هذه الأربعة: الطعام، والشراب، والكسوة، والمسكن، فإذا أعطاها هذه الأربعة، فقد خرجَ لها[٥] من نفقتها، فإنْ تفضَّل بعد ذلك فهو مأجور، فأمَّا هذه الأربعة فلابدَّ لها منها؛ لأنَّ بها إقامةَ المُهجة[٦].

قال الحسن: المراد بقوله: «فتشقى» شقاء الدنيا، لا يُرى ابنُ آدم إلَّا ناصباً. وقال الفرَّاء[٧]: هو أنْ يأكل من كَدِّ يديه.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٥٨.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٣٠.

(٣) في (د) فعلمنا، وفي (خ) و(ز) و(م): يعلمنا، والمثبت من (ظ).

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ): المرأة.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(م): إليها، والمثبت من (ظ).

(٦) المُهجة: الروح. القاموس المحيط (مهج).

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ١٩٣، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٨، وقول الحسن الذي قبله منه.

وقال سعيدُ بن جبير: أُهبِطَ إلى آدم ثورٌ أحمر، فكان يحرث عليه، ويمسحُ العرقَ عن جبينه، فهو شقاؤه الذي قال الله تبارك وتعالى[١].

وقيل: لمَّا أُهبِط من الجنة كانَ من أوَّل شقائه أنَّ جبريلَ أنزل عليه حباتٍ من الجنَّة، فقال: يا آدم، ازرع هذا. فحرث وزرع، ثمَّ حصد، ثمَّ نقَّى، ثمَّ طحن، ثمَّ عجن، ثمَّ خبز، ثم جلس ليأكلَ بعد التعب، فتدحرج رغيفُه من يده حتى صار أسفلَ الجبل، وجرى وراءه آدم حتى تعب وقد عَرِقَ جبينُه، قال: يا آدم، فكذلك رزقُك بالتعب والشقاء، ورزقُ ولدك من بعدك ما كنت في الدنيا[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾

فيه مسألتان[٣]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة. ﴿وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا﴾ أي: لا تعطش. والظَّمَأ: العطش. ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي: تبرز للشمس فتجد حرَّها. إذْ ليس في الجنة شمسٌ، إنَّما هو ظلٌّ ممدود[٤]، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

قال أبو العالية: نهارُ الجنة هكذا: وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر.

قال أبو زيد: ضَحَا الطريقُ يَضْحُو ضَحْواً[٥]: إذا بدا لك وظهر. وضَحِيتُ[٦] ـ بالكسر ـ ضَحاً: عرقت. وضَحِيتُ أيضاً للشمس ضَحَاءً، ممدود: بَرزتُ، وضَحَيتُ ـ بالفتح ـ مثلُه، والمستقبل: أَضْحَى، في اللغتين جميعاً[٧]، قال عمر بن أبي ربيعة:

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/١٨٦ .

(٢) تاريخ الطبري ١/١٢٨ - ١٢٩ ، وعرائس المجالس ص٣٩ - ٤٠ ، والخبر من الإسرائيليات.

(٣) كذا وقع، لكنه لم يرد إلا مسألة واحدة.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٥) قال الزبيدي في تاج العروس (ضحى): ضحا الطريق ضُحُوًّا؛ كعُلُوّ.. ونقله الجوهري [الصحاح (ضحى)] عن أبي زيد وضبط مصدره بالفتح.

(٦) قبلها في (م): وضَحَيْتُ. والكلام من هنا إلى قوله: برزت. ساقط من (د) و(ز) و(ظ).

(٧) الصحاح (ضحو).

رَأَتْ رَجُلاً أَيْمَا إذا الشمسُ عَارضَتْ فَيَضْحَى وأمّا بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ[١]

وفي الحديث أنَّ ابن عمر رأى رجلاً مُحرِماً قد استظلَّ، فقال: أَضْحِ لمن أحرمتَ له[٢]. هكذا يَرويه المُحدِّثون، بفتح الألف وكسر الحاء، من أضحيتُ. وقال الأصمعي: إنَّما هو: اِضْحَ لمن أحرمتَ له، بكسر الألف وفتح الحاء، من ضَحِيتُ أَضْحَى؛ لأنَّه إنَّما[٣] أَمَرَه بالبروز للشمس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[٤]. وأنشد:

ضَحِيتُ له كَيْ أستظلَّ بِظلِّهِ إذا الظلُّ أَضْحَى في القيامة قَالِصا[٥]

وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلَّا عاصماً في رواية أبي بكر عنه: «وَأَنَّكَ» بفتح الهمزة[٦] عطفاً على «أَلَّا تَجُوعَ». ويجوز أنْ يكون في موضع رفعٍ عطفاً على الموضع، والمعنى: ولك أنَّك لا تظمأ فيها. الباقون بالكسر على الاستئناف، وعلى العطف على «إِنَّ لَكَ»[٧].

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ تقدَّم في «الأعراف»[٨]. ﴿قَالَ﴾ يعني

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص٦٤، وفيه: أمَّا، بدل: أيما. وسلف البيت ١/٣٦٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٤/٣٠٩ (نشرة العمروي)، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/٧٠، ووقع في مطبوع ابن أبي شيبة: ضح لمن أحرمت له.

(٣) لفظة: إنما، ليست في (د) و(م).

(٤) الصحاح (ضحو).

(٥) ذكره المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ٢/٩٦ دون نسبة. وقَلَص الظلُّ: انقبض. القاموس (قلص).

(٦) وقرأ بها أيضاً ابن كثير المكي وابن عامر الشامي. السبعة ص٤٢٤، والتيسير ص١٥٣.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/٥٩.

(٨) ٩/١٧٤ - ١٧٥.

الشيطان: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾. وهذا يدلُّ على المُشافهة، وأنه دخل الجنة في جوف الحية على ما تقدَّم في «البقرة» بيانه[(١)]، وتقدَّم هناك تعيين الشجرة، وما للعلماء فيها، فلا معنى للإعادة. ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ تقدَّم في «الأعراف» مستوفًى[(٢)]. وقال الفرَّاء[(٣)]: «وَطَفِقا» في العربية: أقبَلَا، قال: وقيل: جعلَا يُلْصِقان عليهما ورق التين.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ **فيه ست مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ تقدَّم في «البقرة» القولُ في ذنوبِ الأنبياء[(٤)]، وقال بعضُ المتأخرين من علمائنا: والذي ينبغي أنْ يقال: إنَّ الله تعالى قد أخبرَ بوقوع ذنوبٍ من بعضهم، ونَسبَها إليهم، وعَاتبَهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم، وتنصَّلوا منها، واستغفروا منها، وتابوا، وكلُّ ذلك وردَ في مواضعَ كثيرةٍ لا يقبلُ التأويلَ جملتُها، وإنْ قَبِلَ ذلك آحادُها، وكلُّ ذلك مما لا يُزري بمناصبهم، وإنَّما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويلٍ دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم[(٥)] حسناتٌ، وفي حقِّهم سيئاتٌ بالنسبة إلى مناصبهم، وعلوِّ أقدارهم؛ إذ قد يُؤاخذُ الوزير بما يُثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة. قال: وهذا هو الحقُّ.

ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين[(٦)]. فهم

---

(١) ١/ ٤٦٤، وسلف الكلام أن خبر دخول إبليس الجنة في جوف الحية من الإسرائيليات.

(٢) ٩/ ١٧٩.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ١٩٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٥٩.

(٤) ١/ ٤٥٩ - ٤٦٠، والكلام الذي سيذكره المصنف حتى نهاية المسألة الأولى سلف ثمة.

(٥) لفظة: بالنسبة: من (م)، وفي (ظ): فهي لغيرهم.

(٦) ذكره العروسي في حاشيته على شرح الرسالة القشيرية للشيخ زكريا الأنصاري ١/ ١٤١، وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢/ ٦٥ ونسبه لأبي سعيد الخراز.

ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وإن كانوا قد شَهِدَت النصوصُ بوقوع ذنوبٍ منهم، فلم يُخِلَّ ذلك بمناصبهم، ولا قَدَح في رُتَبهم[١]، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحهم، وزكَّاهم، واختارهم، واصطفاهم، صلواتُ الله عليهم وسلامه.

الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي[٢]: لا يجوز لأحدٍ منا اليوم أنْ يُخبِر بذلك عن آدم إلَّا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيِّه، فأمَّا أن يَبتدئَ ذلك من قِبَل نفسه؛ فليس بجائزٍ لنا في آبائنا الأدنَين إلينا، المماثلين لنا، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبيِّ المُقدَّم، الذي عَذَره الله سبحانه وتعالى، وتاب عليه، وغَفَرَ له.

قلت: وإذا كان هذا في المخلوق لا يجوز، فالإخبارُ عن صفات الله عزَّ وجلَّ كاليد والرجل، والإصبع والجنب، والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع، وأنَّه لا يجوز الابتداءُ بشيءٍ من ذلك إلَّا في أثناء قراءةِ كتابه، أو سُنَّة رسوله. ولهذا قال الإمام مالك بن أنس ﷺ: من وصف شيئاً من ذات الله عزَّ وجلَّ مثل قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، فأشار بيده إلى عنقه قُطِعت يده، وكذلك في السمع والبصر يُقطَع ذلك منه؛ لأنه شبَّه الله تعالى بنفسه[٣].

الثالثة: روى الأئمة ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا، خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنَّة، فقال له آدم: يا موسى، اصطفاك الله عزَّ وجلَّ بكلامه، وخطَّ لك بيده[٤]، أتلومني[٥] على أمرٍ قدَّره الله عليَّ قبل أنْ يخلقني بأربعين سنة، فَحجَّ آدمُ موسى» ثلاثاً[٦].

---

(١) في (م): رتبتهم.

(٢) في أحكام القرآن له ٣/ ١٢٤٩ .

(٣) التمهيد ٧/ ١٤٥ .

(٤) بعدها في (د) و(م) لفظة: يا موسى.

(٥) في (خ) و(ز) و(ظ): تلومني.

(٦) صحيح البخاري (٦٦١٤)، وهو في مسند أحمد (٧٣٨٧)، وصحيح مسلم (٢٦٥٢) وسلف قسم منه ٢/ ٢١٥ و ٥/ ٣٧٥ .

قال المهلَّب: قوله: «فحجَّ آدمُ موسى» أي: غلَبه بالحُجَّة.

قال الليث بن سعد: وإنَّما صحَّت الحُجَّة في هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام، من أجل أنَّ الله تعالى قد غَفَرَ لآدم خطيئتَه وتاب عليه، فلم يكن لموسى أنْ يُعيِّره بخطيئةٍ قد غَفرَها الله تعالى له؛ ولذلك قال آدم: أنت موسى الذي آتاك اللهُ التوراةَ، وفيها عِلْم كلِّ شيءٍ، فوجدتَ فيها أنَّ الله قد قدَّر عليَّ المعصية، وقدَّر عليَّ التوبةَ منها، وأسقط بذلك اللَّومَ عنِّي، أفتلومني أنت، واللهُ لا يلومني؟.

وبمثل هذا احتجَّ ابن عمر على الذي قال له: إنَّ عثمان فرَّ يومَ أُحد، فقال ابن عمر: ما على عثمانَ ذنبٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد عفا عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾[1] [آل عمران: ١٥٥].

وقد قيل: إنَّ آدمَ عليه السلام أبٌ، وليس تعييره من بِرّه أنْ لو كان مما يُعيَّر به غيره[2]، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقولُ في الأبوين الكافرين: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]. ولهذا إنَّ إبراهيم عليه السلام لمَّا قال له أبوه وهو كافر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٦-٤٧]، فكيف بأبٍ هو نبيٌّ قد اجتباه ربُّه وتابَ عليه وهدى؟!

الرابعة: وأما مَن عَمِلَ الخطايا ولم تأتِهِ المغفرة، فإن العلماء مُجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتجَّ بمثل حُجَّة آدم فيقولَ: تلومني على أن قتلتُ أو زنيتُ أو سرقتُ وقد قدَّر الله عليَّ ذلك، والأمةُ مُجمعةٌ على جواز حمد المُحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته، وتعديد ذنوبه عليه[3].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَغَوَىٰ﴾ أي: ففَسَدَ عليه عيشُه، حكاه النقاش، واختاره

---

(١) أخرجه البخاري مطولاً (٤٠٦٦) وسلف بتمامه ٥/ ٣٧٤.

(٢) ذكره بنحوه أبو العباس القرطبي في المفهم ٦/ ٦٦٧ - ٦٦٨، ثم قال: وهذا نأي عن معنى الحديث، وعما سبق له.

(٣) التمهيد ١٨/ ١٥، والاستذكار ٢٦/ ٨٨.

القُشيريّ. وسمعتُ شيخنا الأستاذَ المقرئ أبا جعفر القرطبي[١] يقول: «فَغَوَى»: ففسد عيشُه بنزوله إلى الدنيا، والغَيُّ: الفساد. وهو تأويلٌ حسن، وهو أولى من تأويل من يقول: إنَّ[٢] «فغوى» معناه: ضلَّ، من الغَيِّ الذي هو ضد الرُّشد.

وقيل: معناه: جَهِلَ موضعَ رُشْده، أي: جَهِلَ أنَّ تلك الشجرة هي التي نُهيَ عنها، والغَيُّ: الجهل.

وعن بعضهم: «فغَوى»: فبَشِم[٣] من كثرة الأكل. الزمخشريّ[٤]: وهذا ـ وإن صحَّ على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفاً، فيقول في فَنِيَ وبَقِيَ: فَنَى وبَقَى، وهم بنو طيِّئ ـ تفسيرٌ خبيث.

السادسة: قال القشيري أبو نصر: قال قومٌ: يقال: عصى آدمُ وغوى، ولا يقال له: عاصٍ ولا غاوٍ، كما أنَّ من خاطَ مرةً يقالُ له: خاط، ولا يقال له: خيَّاط، ما لم تتكرر منه الخياطة[٥].

وقيل: يجوز للسيِّد أنْ يُطلِق في عِبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه[٦]. وهذا تكلُّفٌ، وما أُضيف مِن هذا إلى الأنبياء فإمَّا أنْ تكون صغائرَ، أو ترك الأولى، أو قبل النبوَّة.

قلت: هذا حسن.

قال الإمام أبو بكر بن فُورَك رحمه الله تعالى: كان هذا من آدمَ قبل النبوَّة، ودليلُ

---

(١) هو أحمد بن محمد القيسي المعروف بابن أبي حجة، توفي سنة (٦٤٣هـ). بغية الوعاة ١/ ٣٨٣، وسلف ذكره ٥/ ٤١٢.

(٢) لفظة: إن، ليست في (م).

(٣) البَشَم: التخمة. النهاية (بشم).

(٤) في الكشاف ٢/ ٥٥٧.

(٥) وهو قول ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن ص٣١٣.

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٨.

ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ فذكر أنَّ الاجتباءَ والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوَّة، فجائزٌ عليهم الذنوبُ وجهاً واحداً؛ لأنَّ قبل النبوّة لا شرعَ علينا في تصديقهم، فإذا بعثَهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين؛ لم يضرَّ ما قد سلفَ منهم من الذنوب. وهذا نفيسٌ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ﴾ خاطب آدم وإبليس[(١)]. «مِنها» أي: من الجنة وقد قال لإبليس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ﴾ [الأعراف:١٨]، فلعلَّه أُخرِج من الجنة إلى موضعٍ من السماء، ثم أُهبِط إلى الأرض.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ تقدَّم في «البقرة»[(٢)]، أي: أنت عدوٌّ للحيَّة ولإبليس، وهما عدوَّان لك. وهذا يدلُّ على أن قوله: «اهبِطا» ليس خطاباً لآدم وحوّاء؛ لأنَّهما ما كانا مُتعاديين، وتضمَّن هبوطُ آدمَ هبوطَ حوّاء.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي: رشداً وقولاً حقًّا. وقد تقدَّم في «البقرة»[(٣)].

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ يعني: الرسل والكتب. ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية. وعنه: من قرأ القرآن واتَّبع ما فيه هَدَاه الله من الضلالة،

(١) زاد المسير ٥/ ٣٣٠.

(٢) ١/ ٤٧٤.

(٣) ١/ ٤٨٨.

ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية[١].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: ديني، وتلاوة كتابي والعمل بما فيه. وقيل: عما أَنْزَلْتُ من الدلائل[٢]. ويَحتمِلُ أن يُحملَ الذِّكر على الرسول؛ لأنَّه كان منه الذِّكر.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: عيشاً ضَيِّقاً؛ يقال: منزلٌ ضَنْك، وعيشٌ ضَنْك، يستوي فيه الواحد والاثنان، والمذكر والمؤنث والجمع؛ قال عنترة:

إنْ يُلحَقوا أَكْرُرْ وإنْ يُستلحَمُوا أَشدُدْ وإنْ يُلْفَوْا بضَنْكٍ أنزلِ[٣]

وقال أيضاً[٤]:

إنَّ المنيةَ لو تُمثَّل مُثِّلتْ مثلي إذا نَزلُوا بضَنْكِ المنزلِ

وقُرِئ: «ضَنْكَى» على وزن فَعْلَى[٥]. ومعنى ذلك: أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعلَ مع الدين التسليمَ والقناعةَ والتوكُّلَ عليه وعلى قسمته، فصاحبُه يُنفقُ مما رزقَه الله عزَّ وجلَّ بسماحٍ وسهولةٍ، ويعيشُ عيشاً رافِغاً[٦]؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. والمُعرِض عن الدِّين مستولٍ عليه الحرصُ الذي لا يزال يَطمحُ به إلى الازدياد من الدنيا، مُسَلَّطٌ عليه الشُّحُّ، الذي يقبضُ يدَه عن الإنفاق، فعيشُه ضَنكٌ، وحالُه مظلِمةٌ؛ كما قال بعضهم: لا يُعرِضُ أحدٌ عن ذكر ربِّه إلا أظلَمَ عليه وقتُه، وتَشوَّش عليه رزقُه، وكان في عيشه في ضنك[٧].

وقال عكرمة: «ضَنْكاً»: كسباً حراماً. الحسن: طعامُ الضَّرِيع والزَّقُّوم. وقولٌ

---

(١) أخرجهما الطبري ١٦/ ١٩١ - ١٩٢ ، وأوردهما ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٣٠ .

(٢) مجمع البيان للطبرسي ١٦/ ١٥٢ بنحوه.

(٣) ديوان عنترة ص٥٧ ، والكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ١٩٢ .

(٤) ديوانه ص٥٨ .

(٥) قرأ بها الحسن. القراءات الشاذة ص٩٠ .

(٦) عيشٌ أرفغُ، ورافِغٌ، ورفيغٌ: خصيبٌ واسعٌ طيب. اللسان (رفغ).

(٧) في (م): في عيشة ضنك.

رابعٌ: وهو الصحيح؛ أنَّه عذابُ القبر؛ قاله أبو سعيد الخدري، وعبدُ الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعاً عن النبي ﷺ[١]، وقد ذكرناهُ في كتاب «التذكرة»[٢]. قال أبو هريرة: يضيقُ على الكافر قبرُه حتى تختلفَ فيه أضلاعه، وهو المعيشةُ الضنك[٣].

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ قيل: أعمى في حالٍ وبصيراً في حال، وقد تقدَّم في آخر «سبحان»[٤]. وقيل: أعمى عن الحجَّة، قاله مجاهد. وقيل: أعمى عن جهات الخير، لا يهتدي لشيءٍ منها[٥]. وقيل: عن الحِيلة في دفع العذاب عن نفسه، كالأعمى الذي لا حِيلةَ له فيما لا يراه.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ أي: بأيِّ ذنبٍ عاقبتني بالعَمَى. ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا، وكأنَّه يظنُّ أنْ[٦] لا ذنبَ له. وقال ابنُ عباس ومجاهد: أي: «لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى» عن حُجَّتي «وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً» أي: عالماً بحجتي[٧]. القشيري: وهو بعيدٌ إذ ما كان للكافر حجةٌ في الدنيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ أي: قال الله تعالى له: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ أي: دلالاتُنا على وحدانيتنا وقدرتنا. ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي: تركتَها ولم تنظر فيها، وأعرضتَ عنها. ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: تترك في العذاب؛ يريد جهنم.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤١٣ ، وقول أبي سعيد الخدري وابن مسعود رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٦/ ١٩٦ و ١٩٨ . وحديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أبو يعلى في مسنده (٦٦٤٤)، والطبري في تفسيره ١٦/ ١٩٨ - ١٩٩ ، وابن حبان في صحيحه (٣١٢٢).

(٢) ص١٣٣ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ١٩٧ .

(٤) ١٣/ ١٧٩ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣١ .

(٦) في (م): أنه.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٠٠ - ٢٠١ عن مجاهد.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ أي: وكما جزينا من أعرض عن القرآن، وعن النظر في المصنوعات والتفكر فيها، وجاوزَ الحدَّ في المعصية. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ أي: لم يُصدِّق بها.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ أي: أفظعُ من المعيشة الضَّنك وعذابِ القبر. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أدومُ وأثبت؛ لأنَّه لا ينقطع ولا ينقضي.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يريدُ أهلَ مكَّة، أي: أفلم يتبين لهم خبرُ من أهلكنا قبلهم من القرون، يمشون في مساكنهم؛ إذا سافروا وخرجوا في التجارة وطلبِ المعيشة، فيرون بلادَ الأُمم الماضية والقرون الخالية خاويةً، أي: أفلا يخافون أنْ يحُلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بالكفار قبلَهم.

وقرأ ابنُ عباس والسُّلَميُّ وغيرهما: «نَهْدِ لَهُمْ» بالنون[1]، وهي أَبْيَنُ. و«يهد» بالياء مشكلٌ لأجل الفاعل؛ فقال الكوفيون: ﴿كَمْ﴾ الفاعل. النحاس[2]: وهذا خطأ؛ لأنَّ «كم» استفهامٌ، فلا يَعملُ فيها ما قبلها. وقال الزَّجَّاج[3]: المعنى: أو لم يهدِ لهم الأمرُ بإهلاكنا مَن أهلكناه. وحقيقة «يهدي» يدلُّ على الهدى؛ فالفاعلُ هو الهدى، تقديره: أفلم يهدِ الهدى لهم. قال الزَّجَّاج: «كم»: في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

---

(١) ذكرها عنهما أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢٨٨ ، وذكرها الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٧٩ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٦٩ ، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٥٨ . دون نسبة.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٦٠ . وما قبله وقول الزجاج الآتي منه.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٣٧٩ .

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ فيه تقديمٌ وتأخير، أي: ولولا كلمةٌ سبقت من ربِّك وأجلٌ مسمى لكان لزاماً؛ قاله قتادة[١]. واللِّزام: المُلازمة، أي: لكان العذابُ لازماً لهم. وأضمر اسم كان.

قال الزجاج[٢]: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على «كلمة». قتادة: والمراد القيامة؛ وقاله القتبي. وقيل: تأخيرُهم إلى يوم بدر[٣].

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمرَه تعالى بالصبر على أقوالهم: إنَّه ساحر، إنَّه كاهن، إنَّه كذَّاب، إلى غير ذلك. والمعنى: لا تَحْفِل بهم[٤]، فإنَّ لعذابهم وقتاً مضروباً لا يتقدَّم ولا يتأخر. ثم قيل: هذا منسوخٌ بآية القتال[٥]. وقيل: ليس منسوخاً؛ إذ لم يستأصل الكفارَ بعد آية القتال، بل بقي المُعظم منهم.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قال أكثر المتأولين: هذا إشارةٌ إلى الصلوات الخمس: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة العصر، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ العَتَمَة، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ المغرب والظهر[٦]؛ لأنَّ الظهرَ في آخر طرف النهار الأوَّل، وأوَّلِ طرفِ النهار الآخر؛ فهي في طرفين منه، والطرفُ الثالث: غروب الشمس؛ وهو وقت المغرب[٧].

وقيل: النهار ينقسمُ قسمين فَصَلَهما الزَّوال، ولكلٍّ قسمٍ طرفانِ، فعند الزوال طرفان؛ الآخِر من القسم الأوّل، والأوَّلُ من القسم الآخر؛ فقال عن الطرفين أطرافاً

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٣٢ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٣٢ ، وكلام القتبي في غريب القرآن له ص٢٨٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٦٩ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٢٣٦ ، وابن الجوزي في الناسخ والمنسوخ ص٤٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

(٧) تفسير الطبري ١٦/ ٢٠٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٦ .

على نحو: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، وأشارَ إلى هذا النظر ابنُ فورك في «المشكل»[١].

وقيل: النهارُ للجنس، فلكلِّ يوم طرف؛ وهي التي[٢] جُمِع، لأنَّه يعودُ في كلِّ نهار. وآناء الليل: ساعاتُه، وواحدُ الآناء: إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى[٣].

وقالت فرقة: المرادُ بالآية صلاةُ التطوّع؛ قاله الحسن[٤].

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ بفتح التاء، أي: لعلَّك تُثابُ على هذه الأعمال بما ترضى به.

وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم: «تُرْضَى» بضمِّ التاء، أي: لعلَّك تُعطَى ما يُرضِيك[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ قد تقدَّم معناه في «الحجر»[٦]. و﴿أَزْوَٰجًا﴾ مفعول بـ «متَّعنا».

و﴿زَهْرَةَ﴾ نصب على الحال.

وقال الزجاج[٧]: «زهرة» منصوبة بمعنى «متَّعنا» لأنَّ معناه: جعلنا لهم الحياة

(١) ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

(٢) في (م): وهو إلى. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق للمحرر الوجيز ٤/ ٧٠ والكلام منه.

(٣) نزهة القلوب ص٨٦ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٥٢ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٣٢ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ ، وقراءة الكسائي وأبي بكر في السبعة ص٤٢٥ ، والتيسير ص١٥٣ .

(٦) ١٢/ ٢٥٣ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨٠ . ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦١ .

الدنيا زهرةً، أو بفعلٍ مضمر، وهو «جعلنا» أي: جعلنَا لهم زهرةَ الحياة الدنيا؛ عن الزجاج أيضاً.

وقيل: هي بدلٌ من الهاء في «به» على الموضع، كما تقول: مررتُ به أخاك. وأشار الفراءُ[١] إلى نصبه على الحال؛ والعاملُ فيه: «مَتَّعْنَا». قال: كما تقول: مررتُ به المسكينَ؛ وقدَّره: متَّعناهم به زهرةً في الحياة الدنيا وزينةً فيها.

ويجوزُ أنْ تنصبَ على المصدر مثل: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٨٨] و﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٦]، وفيه نظر. والأحسنُ أنْ ينصب على الحال، ويحذفَ التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة؛ كما قُرِئ: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ﴾[٢] [يس:٤٠] بنصب النَّهار بسابق، على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام، وتكون «الحياة» مخفوضةً على البدل من «ما» في قوله: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾، فيكون التقدير: ولا تمدنَّ عينيكَ إلى الحياة الدنيا زهرةً، أي: في حال زَهْرتها.

ولا يَحسُنُ أنْ تكون «زهرة» بدلاً من «ما» على الموضع في قوله: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾؛ لأنَّ «لِنَفْتِنَهُمْ» متعلقٌ بـ «متَّعنا»[٣].

و«زَهْرَةَ الْحَيَاة الدُّنْيَا» يعني: زينتَها بالنبات. والزَّهَرةُ؛ بالفتح في الزاي والهاء: نَوْر النبات. والزُّهَرة؛ بضمِّ الزاي وفتح الهاء: النَّجم. وبنو زُهْرة بسكون الهاء؛ قاله ابن عُزيز[٤].

وقرأ عيسى بن عمر: «زَهَرَةَ» بفتح الهاء[٥]، مثل: نَهْر ونَهَر. ويقال: سراجٌ زاهرٌ

(١) في معاني القرآن ٢/ ١٩٦، ونقله المصنف عنه بواسطة مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٤ والكلام منه.

(٢) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٣٣٨ لعمارة بن عقيل.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٤ - ٤٧٥، وللكلام تتمة فينظر فيه.

(٤) في نزهة القلوب ص٢٥٦.

(٥) وقرأ بها يعقوب من العشرة. النشر ٢/ ٣٢٢، وذكرها عن عيسى بن عمر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٠.

أي: له بريق. وزهرُ الأشجار: ما يَرُوق من ألوانها. وفي الحديث: كان النبي ﷺ أزهرَ اللون[١]، أي: نيِّر اللون؛ يقال لكلِّ شيءٍ مستنير: زاهر، وهو أحسن الألوان[٢].

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لِنَبْتَلِيَهم. وقيل: لنجعلَ ذلك فتنةً لهم وضلالاً[٣].

ومعنى الآية: لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وَزْناً، فإنَّه لا بقاءَ لها.

«وَلَا تَمُدَّنَّ» أبلغُ من: لا تنظرنَّ، لأنَّ الذي يمدُّ بصرَه، إنَّما يحملُه على ذلك حرصٌ مقترن، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه[٤].

مسألة: قال بعض الناس: سببُ نزول[٥] هذه الآية، ما رواه أبو رافع مولى رسول الله ﷺ، قال: نزل ضيفٌ برسول الله ﷺ، فأرسلني عليه الصلاة والسلام إلى رجلٍ من اليهود، وقال: «قل له: يقولُ لك محمدٌ: نزلَ بنا ضيفٌ، ولم يُلْفَ عندنا بعضُ الذي يُصلِحه، فبعني كذا وكذا من الدَّقيق، أو أسلفني إلى هلال رجب» فقال: لا، إلَّا برهن. قال: فرجَعتُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «واللهِ، إني لأمينٌ في السماء، أمينٌ في الأرض، ولو أسلفني أو باعني لأدَّيتُ إليه. اذهبْ بدرْعي إليه»[٦] ونزلت الآيةُ تعزيةً له عن الدنيا.

قال ابن عطية[٧]: وهذا معترَضٌ أنْ يكون سبباً؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، والقصة

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٣٣٨١)، ومسلم (٢٣٣٠) (٨٢) من حديث أنس ﷺ.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (زهر).

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

(٥) لفظة: نزول، من (م).

(٦) أخرجه بهذا اللفظ الواحدي في أسباب النزول ص٣١٤ ، وأخرجه الطبري مختصراً ١٦/ ٢١٤ . وفي إسناده موسى بن عُبيدة الرَّبَذي، قال أحمد: لا يكتب حديثه، وضعّفه النسائي وابن عدي. ميزان الاعتدال ٤/ ٢١٣ وحديث رهن النبي ﷺ درعه عند يهودي صحيح، وسيرد.

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ٧٠ .

المذكورة مدنيةٌ في آخر عُمر النبي ﷺ؛ لأنَّه ماتَ ودِرعُه مرهونةٌ عند يهودي[١] بهذه القصة التي ذكرت؛ وإنَّما الظاهرُ أنَّ الآيةَ متناسقةٌ مع ما قبلَها، وذلك أنَّ الله تعالى وبَّخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة، ثمَّ توعَّدهم بالعذاب المؤجَّل، ثمَّ أمَر نبيَّه بالاحتقار لشأنهم، والصبرِ على أقوالهم، والإعراضِ عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا؛ إذْ ذلك منصرمٌ عنهم؛ صائرٌ إلى خِزي.

قلت: وكذلك ما رويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنَّه مرَّ بإبلِ بني المصطلق وقد عَبِست في أبوالها[٢] من السِّمَن، فتقنَّع بثوبه ثم مضى؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآية[٣].

ثم سَلَّاه فقال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: ثوابُ الله على الصبر وقلَّةِ المبالاة بالدنيا أولى؛ لأنَّه يبقى والدنيا تفنى.

وقيل: يعني بهذا الرزق ما يفتحُ الله على المؤمنين من البلاد والغنائم.

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أمرَه تعالى بأن يأمرَ أهله بالصَّلاة ويمتثلَها معهم، ويصطبر عليها ويُلازمَها. وهذا الخطابُ للنبي ﷺ، ويدخلُ في عمومه جميعُ أُمَّته[٤]، وأهلُ بيته على التخصيص.

وكان عليه الصلاة والسلام بعد نزول هذه الآية يذهبُ كلَّ صباح إلى بيت فاطمةَ وعليٍّ رضوان الله عليهما فيقول: «الصلاة»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٠٩)، والترمذي (١٢١٤)، والنسائي ٧/ ٣٠٣.

(٢) في النسخ الخطية: بأبوالها، والمثبت من (م) قال ابن الأثير في النهاية (عبس): وإنما عدَّاه بفي؛ لأنه أعطاه معنى انغمست.

(٣) ذكره أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ٩، ولم نقف على من أخرجه. قال أبو عبيد: وعبست في أبوالها: يعني: أن تجف أبوالها وأبعارها على أفخاذها، وذلك إنما يكون من كثرة الشحم.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٧١.

(٥) أخرج أحمد (١٣٧٢٨) والترمذي (٣٢٠٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستَّة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: «الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ =

ويروى أنَّ عُرْوةَ بن الزبير ﷺ كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادرَ إلى منزله فدخلَه، وهو يقرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَأَبْقَىٰ﴾، ثمَّ ينادي بالصلاة: الصلاةَ يرحمكم الله؛ ويُصلِّي[١]. وكان عمرُ بن الخطاب ﷺ يُوقظُ أهلَ داره لصلاة الليل، ويُصلِّي وهو يتمثَّل بالآية[٢].

قوله تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نسألك أنْ ترزقَ نفسَك وإيَّاهم، وتشتغلَ عن الصلاة بسبب الرزق، بل نحن نتكفَّلُ برزقك وإيَّاهم؛ فكان عليه الصلاة والسلام إذا نزل بأهله ضِيْقٌ؛ أمرَهم بالصلاة[٣]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: الجنَّة لأهل التقوى، يعني: العاقبة المحمودة. وقد تكون لغير التقوى عاقبة، ولكنَّها مذمومةٌ، فهي كالمعدومة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ يريد كفارَ مكة، أي: لولا يأتينا محمدٌ بآيةٍ تُوجِبُ العلم الضروري، أو بآيةٍ ظاهرةٍ؛ كالناقة والعصا، أو: هلَّا يأتينا بالآيات التي نقترحُها نحن كما أتى الأنبياءُ من قبله.

= ﴿عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣]. ولم نقف على من ذكر أن ذلك بعد نزول الآية المذكورة أعلاه.

(١) أخرجه الطبري ١٦/٢١٧ .

(٢) أخرجه بنحوه مالك في الموطأ ١/١١٩ ، ومن طريقه عبد الرزاق في مصنفه (٤٧٤٣). والكلام من المحرر الوجيز ٤/٧١ .

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٠) من حديث عبد الله بن سلام ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٦٧ : رجاله ثقات.

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ يريد التوراةَ والإنجيل، والكتب المتقدمة، وذلك أعظمُ آيةٍ؛ إذ أخبرَ بما فيها[1]. وقُرِئ: «الصُّحْفِ» بالتخفيف[2].

وقيل: أو لم تأتهم الآيةُ الدَّالَّة على نبوَّته بما وجدوه في الكتب المتقدِّمة من البِشارة[3].

وقيل: أو لم يأتهم إهلاكُنا الأمَمَ الذين كفروا واقترحوا الآيات، فما يؤمِّنهم إنْ أتتهم الآيات أنْ يكون حالُهم حالَ أولئك[4].

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو ويعقوب وابن أبي إسحاق وحفص: «أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ»؛ بالتَّاء؛ لتأنيث البيِّنة. الباقون بالياء[5]؛ لتقدم[6] الفعل، ولأنَّ البيِّنة هي البيانُ والبرهان، فردُّوه[7] إلى المعنى، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم[8].

وحكى الكسائيُّ: «أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى» قال: ويجوزُ على هذا «بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى».

قال النحاس[9]: إذا نَوَّنت «بيِّنة» ورَفعت، جعلت «ما» بدلاً منها، وإذا نَصبتها فعلى الحال؛ والمعنى: أو لم يأتهم ما في الصُّحف الأولى مبيَّناً.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص٩١ ، والكشاف ٢/ ٥٦٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٣٧ .

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٢١٨ .

(٥) السبعة ص٤٢٥ ، والتيسير ص١٥٣ ، والنشر ٢/ ٣٢٢ .

(٦) في (خ) و(ز) و(ف): لتقديم، وفي (ظ): لتذكير، والمثبت من (د) و(م).

(٧) في (د): فيردوه، وفي (ز) و(ظ): فرده، والمثبت من (خ) و(ف) و(م).

(٨) الحجة للقراء السبعة للفارسي ٥/ ٢٥٣ بنحوه، والكشف عن وجوه القراءات لمكي ٢/ ١٠٨ بنحوه.

(٩) في إعراب القرآن ٣/ ٦١ . وما قبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن ﴿لَقَالُوا۟﴾ أي: يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي: هلّا أرسلتَ إلينا رسولاً[١].

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾. وقرئ: «نُذَلَّ وَنُخْزَى» على ما لم يُسَمَّ فاعله[٢].

وروى أبو سعيد الخدريّ قال: قال رسولُ الله ﷺ في الهالك في الفترة والمعتوه والمولود قال: «يقول الهالك في الفترة: لم يأتِني كتابٌ ولا رسول، ثم تلا: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية، ويقول المعتوه: ربِّ، لم تجعل لي عقلاً أعقِلُ به خيراً ولا شرًّا، ويقول المولود: ربِّ لم أُدرك العمل، فتُرفَع لهم نارٌ، فيقول لهم: رِدُوها وادخُلوها. قال: فيَرِدُها أو يدخلُها[٣] من كان في علم الله سعيداً لو أدرَك العمل، ويمسكُ عنها من كان في علم الله شقيًّا لو أدرك العمل، قال: فيقولُ الله تبارك وتعالى: إيَّاي عصيتُم، فكيف رُسلي لو أتتكم»[٤] ويروى موقوفاً عن أبي سعيدٍ قوله[٥]؛ وفيه نظر؛ وقد بيناه في كتاب «التذكرة»[٦]، وبه احتجَّ من قال: إنَّ الأطفالَ وغيرَهم يمتحنون في الآخرة.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٢٨ .

(٢) القراءات الشاذة ص٩١ عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية.

(٣) في (ظ): فيردونها ويدخلها.

(٤) أخرجه البزار (٢١٧٦ - كشف)، والطبري ١٦/ ٢١٩ ، وابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٢٧ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٣٨ : وفيه عطية، وهو ضعيف. وقال ابن عبد البر بعد ذكر أحاديث الباب: وهي كلها أسانيد ليست بالقوية، ولا يقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب؛ لأن الآخرة دار جزاء، وليست دار عمل ولا ابتلاء... الاستذكار ٨/ ٤٠٤ .

(٥) قال ابن عبد البر في التمهيد ١٨/ ١٢٨ : من الناس من يوقف هذا الحديث على أبي سعيد ولا يرفعه، منهم أبو نعيم المُلائي.

(٦) ص٥١٤ ، وينظر ما سلف ١٣/ ٤٤ .

«فَنَتَّبِعَ» نصب بجواب التحضيض[١]. «آياتِك» يريدُ: ما جاء به محمدٌ ﷺ. «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ» أي: في العذاب، «وَنَخْزَى» في جهنم؛ قاله ابن عباس. وقيل: «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ» في الدنيا بالعذاب، «ونَخزَى» في الآخرة بعذابها.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي: قل لهم يا محمد: كلٌّ مُتربِّص، أي: كلُّ المؤمنين والكافرين منتظرٌ دوائرَ الزمان ولمن يكون النصر.

﴿فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ يريد: الدين المستقيم والهدى؛ والمعنى: فستعلمون بالنصر من اهتدى إلى دين الحق. وقيل: فستعلمون يومَ القيامة من اهتدى إلى طريق الجنَّة[٢]. وفي هذا ضربٌ من الوعيد والتخويف والتهديد خَتَمَ به السورة.

وقُرِئ: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»[٣]. قال أبو رافع: حَفِظتُه من رسول الله ﷺ؛ ذكره الزمخشريّ[٤].

و«مَن» في موضع رفعٍ عند الزجاج[٥]. وقال الفراء[٦]: يجوزُ أنْ يكونَ في موضع نصبٍ مثل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. قال أبو إسحاق[٧]: هذا خطأ؛ لأنَّ الاستفهامَ لا يعملُ فيه ما قبلَه، و«مَن» هاهنا استفهامٌ في موضع رفعٍ بالابتداء، والمعنى: فستعلمون: أَأَصحابُ[٨] الصراط السَّويِّ؛ نحن أم أنتم؟.

(١) في (د) و(ز) و(ظ) و(ف) و(م): التخصيص، والمثبت من (خ).

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٣٤ ، وفيه وفي (خ) و(ز): أهدى، بدل: اهتدى (في الموضعين).

(٣) في (د) و(ظ): يعلمون.

(٤) في الكشاف ٢/ ٥٦١ ، وهي قراءة شاذة.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٨١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦١ - ٦٢ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ١٩٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس

(٧) هو الزجَّاج.

(٨) في (د) و(م): أصحاب، وفي (ف): من أصحاب.

قال النحاس(١): والفراء يذهبُ إلى أنَّ معنى ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾: مَن لم يضلَّ، وإلى أنَّ معنى ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾: من ضلَّ ثم اهتدى.

وقرأ يحيى بن يَعْمَر وعاصم الجحدَريُّ: «فَسَتَعْلَمُونَ(٢) مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السُّوَّى» بتشديد الواو؛ بعدها ألفُ التأنيث على فُعْلَى بغير همزة، وتأنيثُ الصراط شاذٌّ قليل، قال الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، فجاء مذكراً في هذا وفي غيره، وقد ردَّ هذا أبو حاتم قال: إنْ كان من السُّوء وجب أنْ يُقال: السُّوءَى، وإن كان من السَّواء وجب أن يقال: السِّيَّا بكسر السين، والأصل: السِّوْيَا(٣).

قال الزمخشري: وقرئ: «السَّواءِ» بمعنى: الوَسَط والعدل، أو المستوِي(٤).

النحاس(٥): وجوازُ قراءةِ يحيى بنِ يَعْمَر والجَحْدريِّ أن يكون الأصل «السُّوءَى»، والساكنُ ليس بحاجزٍ حَصِينٍ، فكأنه قَلَبَ(٦) الهمزة ضمةً، فأبدلَ منها واواً كما يُبدَلُ منها ألفٌ إذا انفتح ما قبلَها.

تمَّت، والحمد لله وحدَه.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ٦٢.

(٢) في (د) و(ز) و(ف) و(م): فسيعلمون.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٢. وقراءة يحيى بن يعمر والجحدري ذكرها أيضاً أبو حيان في البحر ٦/ ٢٩٢.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٦٠، ونسبها أبو حيان في البحر ٦/ ٢٩٢ إلى أبي مجلز وعمران بن حدير.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ٦٢.

(٦) في (خ) و(د) و(ز) و(ف): قبل، والمثبت من (م) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس، ووقعت العبارة في (ظ): فكأنه لما كان قبل الهمزة ضمة أبدل منها واو.

سُورَةُ طه

مَكيَّةٌ، وهي مئةٌ وأربعٌ وثلاثونَ آيةً[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿طه﴾ فخَّمَهما قالونُ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وحَفصٌ ويَعقوبُ على الأصلِ، وفخَّمَ الطَّاءَ وحدَهُ أبو عَمرٍو وورشٌ لاستعلائِه، وأمالَهُما الباقونَ[2].

وهُمَا مِن أَسماءِ الحُروفِ.

وقيل: مَعناه: يا رجلُ على لُغَةِ عَكٍّ[3]، فإِنْ صَحَّ فلعلَّ أصلَه: يا هذا! فتصرَّفُوا فيه بالقلبِ والاختصارِ، والاستشهادُ بقوله:

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٨٣)، وفيه: (مئة وثلاثون وآيتان بصري، وأربع مدنيان ومكي، وخمس كوفي، وأربعون شامي، اختلافها إحدى وعشرون آية...) ثم عدَّدها.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٠)، و«النشر» (٢/ ٦٨ و٧٠).

(٣) القول بأن المعنى: (يا رجل) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥ ـ ٧) عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والحسن. وجاء في خبر سعيد بن جبير وقتادة: بالسريانية، وفي خبر ابن عباس وعكرمة والضحاك: بالنبطية، والقول بأن ذلك في لغة عكٍّ ذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٣٨٩) من رواية أبي صالح عن ابن عباس، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٤٩١) عن الكلبي، وقاله أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٧)، ورجح بالاستناد إليه قول من قال: المعنى: (يا رجل)، فقال: والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه قول من قال: معناه: يا رجل، لأنها كلمة معروفة في عكّ فيما بلغني، وأن معناها فيهم: يا رجل. ثم استدل عليه بالبيت الآتي.
قال الطيبي في «فتوح الغيب» (١٠/ ١١٩): والزمخشري ما رضي بهذا القول حيث قال: والله أعلمُ بصحة ما يقال.

إِنَّ السَّــفَاهَةَ طَاهَــا فــي خَلَائِقِكُــمْ لَا قَــدَّسَ اللهُ أَخْــلَاقَ المَلَاعِيــنِ[(١)]

= ضَعيفٌ؛ لجَوازِ أَنْ يكونَ قَسَمًا كقوله: «حم لا يُنصَرُون»[(٢)].

وقُرِئَ: (طَهْ)[(٣)] على أنَّه أمرٌ للرَّسولِ بأَنْ يطَأَ الأرضَ بقدميهِ، فإنَّه كان يقومُ في تَهجُّدِه على إحدى رِجلَيْهِ[(٤)]، وأنَّ أَصلَهُ: طَأْ، فقُلِبَت همزَتُه هاءً، أَوْ قُلِبَت في (يطأ) ألفًا كقولِه:

لا هَـنَـــاكِ المَرْتَـــعُ[(٥)]

---

(١) البيت في «تفسير الطبري» (١٦/ ٧)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٤٠٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٧/ ٤٩١)، و«النكت والعيون» (٣/ ٣٩٢)، و«البسيط» (١٤/ ٣٤٨). وعزاه الماوردي ليزيد بن مهلهل. ورواية عجزه عند الطبري:

لا بــاركَ اللهُ فــي القــومِ المَلاعِيــنِ

قال الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٣٢٩): وأَثرُ الصَّنعة ظَاهِرٌ لا يَخفى في البَيت.

وعزاه البلاذري في «أنساب الأشراف» (٥/ ١١٤) إلى عقيل في قصة بينه وبين معاوية، والرواية فيه: «إن السفاهة قدماً...».

(٢) «حم لا ينصرون» كان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق. كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٢٦)، و«الطبقات الكبرى» (٢/ ٦٩)، وأخرجه أبو داود (٢٥٩٧)، والترمذي (١٦٨٢)، عن عن المهلب بن أبي صفرة، قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: «إن بيتم فليكن شعاركم: حم لا ينصرون».

(٣) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧).

(٤) رواه عبد بن حميد كما في «الكاف الشاف» (ص: ١٠٨) عن الربيع بن أنس مرسلًا، ورواه البزار في «مسنده» (٩٢٦) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٦): رواه البزار وفيه يزيد بن بلال، قال البخاري: فيه نظر. وكيسان أبو عمر، وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٥) قطعة من بيت للفرزدق وهو من جملة أبيات أنشدها لما عُزل مسلمة بن عبد الملك عن العراق، وهو =

ثمَّ بُنِيَ عليه الأمرُ وضُمَّ إليه هاءُ السَّكتِ، وعلى هذا يحتمِلُ أن يكونَ أصلُ ﴿طه﴾: (طَأْهَا) والألِفُ مُبدلَةٌ مِن الهمزةِ والهاءُ كِنايةٌ عن الأرضِ، لكنْ يردُّ ذلك كِتْبتُهُما[1] على صورةِ الحرفِ، وكذا التَّفسيرُ بـ: يا رجلُ، أو اكتفى بشَطْرَي الكَلِمتينِ وعبَّر عَنهُما باسمِهِما.

(٢) ـ ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ خبرٌ ﴿طه﴾ إنْ جعلتَهُ مُبتدأً على أنَّه مُؤوَّلٌ بالسُّورةِ أو القرآنِ، والقرآنُ فيه واقِعٌ موقِعَ العائدِ، وجوابٌ إنْ جعلتَهُ مُقسَمًا به، ومُنادًى له إنْ جعلتَهُ نِداءً، واستئنافٌ إنْ كانَتْ جملةً فِعليَّةً أو اسميَّةً بإضمارِ مُبتدأٍ، أو طائفةً من الحروفِ محكيَّةً.

والمعنى: ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لتَتْعَبَ بفَرْطِ تأسُّفِكَ على كُفرِ قُرَيشٍ إذ ما عليكَ إلَّا أَنْ تبلِّغَ، أو بكثرةِ الرِّياضةِ وكثرةِ التَّهجدِ والقيامِ على سَاقٍ، والشَّقاءُ شائِعٌ بمَعنى التَّعَبِ ومنه: (أَشْقَى مِن رائضِ المُهرِ)[2]،..............................

= في «ديوانه» (١/ ٤٠٨)، و«العين» (٤/ ٩٤)، و«الكتاب» (٣/ ٥٥٤)،و «الكامل» للمبرد (٢/ ٧٥) و(٣/ ٦٢)، و«الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٢٠٩)، وتمامه في «العين» و«الديوان»:

ومَضَتْ لمسلمةَ الرِّكابُ مُوَدَّعاً فارْعَيْ فزارةُ لا هَناكِ المَرْتَعُ

وصدره في غيرهما:

راحتْ بمَسْلَمةَ البغالُ عَشِيَّةً

الرواحُ: نقيضُ الغدو، لا هناكِ: دعاءٌ على الناقة؛ أي: لا هناك رعيُ هذا المرتع، فزارةُ حي من غطفان، يخاطب ناقته وقد رحل مسلمة بالبغال عشية، أي: ما مقامك هاهنا، فاقصدي بني فزارة ارعي مرعاها. قاله الطيبي.

(١) في نسخة الطبلاوي: «كتبتها».

(٢) أي: أتعبُ. وهو بهذا اللفظ في «الكشاف» (٥/ ٣٣٠)، وبلفظ: «أتعب من...» في «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (١/ ٢٨١)، و«مجمع الأمثال» للميداني (١/ ١٤٨)، و«المستقصى =

و: (سيِّدُ القَومِ أَشقاهُم)[١]، ولعلَّهُ عدَلَ إليه للإشعارِ بأَنَّه أُنزلَ عليه ليَسْعدَ.

وقيل: رَدٌّ وتَكذيبٌ للكَفرةِ، فإنَّهُم لَمَّا رَأَوا كثرةَ عِبادَتِه قالوا: إنَّكَ لَتَشقَى بتركِ دينِنَا، وإنَّ القُرآنَ أُنزِلَ عليكَ لِتَشقَى بهِ.

(٣) ـ ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾: لكنْ تذكيرًا، وانتصابُها على الاستثناءِ المُنقطعِ، ولا يَجوزُ أَنْ يكونَ بَدَلًا مِن محلِّ ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ لاختلافِ الجِنسَيْنِ، ولا مفعولًا له لـ﴿أَنزَلْنَا﴾، فإنَّ الفعلَ الواحدَ لا يَتعدَّى إلى عِلَّتينِ.

وقيل: هو مَصدرٌ في مَوضِعِ الحالِ مِن الكافِ أو ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾، أو مفعولٌ له على أنَّ ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ هو صِفَةُ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: ما أنزلنا عليكَ القُرآنَ المُنزَلَ لتتعبَ[٢] بتَبليغِهِ إلا تذكرةً.

﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: لِمَن في قلبِه خشيةٌ ورِقَّةٌ يتأثَّر بالإنذار، أو: لِمَن عَلِم اللهُ منه أنه يَخشى بالتخويفِ منه فإنه المنتفِعُ به.

(٤) ـ ﴿تَنزِيلًا﴾ نصبٌ بإضمارِ فعلِه، أو بـ﴿يَخْشَىٰ﴾، أو على المدحِ، أو البدلِ مِن ﴿تَذْكِرَةً﴾ إن جُعِلَ حالًا، وإنْ جُعِلَ مَفعولًا له لفظًا أو معنًى فلا؛ لأنَّ الشَّيءَ لا يُعلَّلُ بنَفسِه ولا بنوعِه.

﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ مع ما بعدَه إلى قولِه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾

= في الأمثال» (١/ ٣٥)، و«الكشاف» (٥/ ٣٣٠). قال الميداني: هذا كقولهم (لا يَعْدَمُ شَقِيٌّ مُهْراً) يعني: أن معالجة المِهارة شَقَاوة لما فيها من التعب.

(١) كذا أورده العسكري في «جمهرة الأمثال» (١/ ٥٢١)، وقال: لأنه يمارس الشدائد دون عشيرته فيقاتل عن العاجز ويتكلم عن العي ويحمل عن الغارم ويتجافى عن الواجب له ويتبرع بما لا يلزمه.

(٢) بعدها في نسخة الخيالي: «أي باحتمال متاعب تبليغه ومقاولة العتاة من أعداء الإسلام وغير ذلك».

تفخيمٌ لشأنِ المنزَلِ بغَرَضِ[1] تَعظيمِ المنزَلِ بذكرِ أَفعالِهِ وصفاتِه على التَّرتيبِ الذي هو عندَ العقلِ، فبدأَ بخلقِ الأرضِ والسَّماواتِ التي هي أصولُ العالمِ، وقدَّمَ الأرضَ لأنَّها أقربُ إلى الحسِّ وأظهَرُ عندَه مِن السَّماواتِ العُلَى، وهو جمعُ العُلْيَا تأنيثِ الأعلى.

ثمَّ أشارَ إلى وجهِ إحداثِ الكائناتِ وتدبيرِ أَمرِها بأَنْ قَصَدَ العَرشَ فأَجْرَى منه الأحكامَ والتَّقاديرَ، وأنزلَ منه الأسبابَ على ترتيبٍ ومقاديرَ حَسْبَ ما اقتضَتْه حكمَتُه وتعلَّقَتْ به مَشيئَتُه، فقال:

(٥ ـ ٦) ـ ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ ليدلَّ بذلك على كمالِ قُدرتِه وإرادتِهِ.

ولَمَّا كانَت القدرةُ تابعةً للإرادةِ وهي لا تنفَكُّ عن العلمِ عقَّبَ ذلك بإحاطةِ علمِهِ تَعالى بجليَّاتِ الأمورِ وخَفِيَّاتِها على سواءٍ[2]، فقال:

(٧) ـ ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾؛ أي: وإِنْ تَجْهَر بذكرِ اللهِ ودُعائِه فاعلَمْ أنَّهُ غَنِيٌّ عن جهرِكَ فإنَّه يعلَمُ السرَّ وأَخْفَى منه، وهو ضَميرُ النَّفسِ.

---

(١) في الخيالي: «يعرّض»، وفي نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «لغرض». وجاء في مطبوع البيضاوي مع كل من «حاشية شيخ زاده» (٥/ ٢٩٦)، و«حاشية الشهاب»، و«حاشية القونوي» (١٢/ ٣١٣): «بعرض»، وعليه شرحوا، فقال شيخ زاده: «بعرض تعظيم المنزل»؛ أي: بإظهار ما يدل على تعظيمه، الجوهري: عرضت الشيء فأعرض؛ أي: أظهرته فظهر، وهو من النوادر.

وقال الشهاب: قوله: «بعرض» الظاهر أنه بضم فسكون بمعنى التعريض به على طريق الكناية كما في بعض الحواشي، والباء فيه للمصاحبة أو السببية، ومَن فسره بإظهار تعظيمه جعله بفتح العين وسكون الراء، والظاهر الأول.

ونحوه كلام القونوي لكنه قال: ولا يخفى أن الكناية هنا ليس بمناسب.

(٢) في نسخة الخيالي: «السواء».

وفيـه تنبيـهٌ على أنَّ شَـرْعَ الذِّكـرِ والدُّعاءِ والجهـرِ فيهما[1] ليسَ لإعـلامِ اللهِ، بل لتَصويـرِ النَّفـسِ بالذِّكـرِ[2] ورُسـوخِهِ فيهـا، ومنعِهـا عن الاشـتغالِ بغَيـرِه، وهَضمِها بالتَّضـرُّعِ والجُؤارِ.

ثمَّ إنَّه لَمَّا ظهرَ بذلك أنَّه المستجمِعُ لصفاتِ الأُلوهيَّةِ بيَّـنَ أنَّه المتفرِّدُ بها والمتوحِّدُ بمُقتضاهَا فقال:

(٨) ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

و(مِن) في ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ صِلَةٌ لـ﴿تَنزِيلًا﴾ أو صِفَةٌ له، والانتقالُ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ للتَّفنُّنِ في الكلامِ، وتَفخيمِ المُنزَّلِ من وَجهينِ:

إسنادِ إنزالِه إلى ضَميرِ الواحدِ العَظيمِ الشَّأنِ.

ونسبتِه إلى المختصِّ بصفاتِ الجلالِ والإكرامِ.

والتَّنبيهِ[3] على أنَّه واجِبٌ الإيمانُ به والانقيادُ له مِن حيثُ إنَّه كَلامُ مَن هذا شأنُه.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿أَنزَلْنَا﴾ حكايةَ كلامِ جِبريلَ والملائكةِ النَّازلينَ معه.

وقُرِئَ: (الرحمنِ) بالجرِّ[4] صِفَةً لـ(مَن خلقَ) فيكونُ ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ خبرَ مَحذوفٍ، وكذا إن رفعَ (الرَّحمن) على المدحِ دونَ الابتداءِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ خبرًا ثانيًا.

و﴿ٱلثَّرَىٰ﴾: الطَّبقةُ التُّرابيَّةُ مِن الأرضِ وهي آخرُ طَبقاتِها.

---

(١) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «فيها».

(٢) قوله: «لتصوير النفس بالذكر»؛ أي: لإثبات صورته في النفس. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) قوله: «والتنبيه» عطف على «التفنُّن». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٩).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠) عن جناح بن حبيش.

و﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: تَأنيثُ الأحسنِ، وفضلُ أَسماءِ اللهِ تَعالى على سائرِ الأسماءِ في الحُسنِ لدلالَتِها على معانٍ هيَ أشرَفُ المعاني وأَفضَلُها.

(٩) - ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ قَفَّى تمهيدَ نُبوَّتِه بقصَّة موسى عليهِمَا السَّلامُ ليَأتمَّ به في تحمُّلِ أعباءِ النبوَّةِ وتبليغِ الرِّسالةِ، والصَّبرِ على مُقاساةِ الشَّدائِدِ، فإنَّ هذه السُّورةَ مِن أوائلِ ما نَزَل.

(١٠) - ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ ظرفٌ للحَديثِ لأنه حَدَثٌ، أو مَفعولٌ لـ: اذكر.

قيل: إنَّه استأذنَ شُعيبًا عليهِمَا السَّلامُ في الخُروجِ إلى أمِّه، وخرجَ بأهلِه، فلَمَّا وافى واديَ طُوًى وفيه الطُّورُ وُلِدَ له ابنٌ في ليلةٍ شاتيَةٍ مظلمَةٍ مُثلِجَةٍ، وكانَتْ ليلَةَ الجمعةِ، وقد أضَلَّ الطَّريقَ وتفرَّقَت ماشِيَتُه؛ إذ رأى مِن جانبِ الطُّورِ نارًا[1].

﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾: أَقيموا مَكانَكُم.

وقرأ حمزةُ: ﴿لأهلِهُ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ هنا وفي القصص [٢٩] بضمِّ الهاءِ في الوَصل، والباقون بكسرِها[2].

﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾: أبصَرْتُها إبصارًا لا شبهةَ فيه، وقيل: الإيناسُ: إبصارُ ما يؤنَسُ به.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾: بشُعلَةٍ مِن النَّارِ، وقيل: جمرةٍ.

﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾: هاديًا يَدُلُّني على الطَّريقِ، أو يَهدِيْني أبوابَ الدِّينِ، فإنَّ أفكارَ الأبرارِ مائلةٌ إليها في كلِّ ما يَعِنُّ لهم، ولَمَّا كان حُصولُهُما مُترقَّبًا بنَى الأمرَ

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٠/ ٤٤٢) عن مجاهد.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٧)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).

فيهِمَا على الرَّجاءِ، بخلافِ الإيناسِ فإنَّهُ كانَ مُتحقِّقًا[١]، ولذلك حقَّقَهُ لهم بـ(إنَّ) ليوطِّنوا أنفُسَهُم عليه.

ومَعنى الاستعلاءِ في ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أنَّ أهلَها مُشرِفُونَ عليها، أو مُستَعْلُونَ المكانَ القريبَ مِنْها، كما قالَ سيبويه في (مررتُ بزَيْدٍ): إنَّه لُصوقٌ بمكانٍ يقربُ مِنه[٢].

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾: أتى النَّارَ وجدَ نارًا بيضاءَ تتَّقِدُ في شجرةٍ خضراءَ.

﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فتحَهُ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو[٣]؛ أي: بأنِّي، وكسرَهُ الباقونَ بإضمارِ القولِ، أو إجراءِ النِّداءِ مُجراه، وتكريرُ الضَّميرِ للتَّوكيدِ والتَّحقيقِ.

قيل: إنَّه لَمَّا نُودِيَ قال: مَن المُتكلِّمُ؟ قال: إنِّي أنا اللهُ، فوَسْوَسَ إليه إبليسُ: لعلَّكَ تسمَعُ كلامَ شَيطانٍ، فقال: أنا عَرفْتُ أنَّه كلامُ اللهِ فإنِّي أسمَعُهُ مِن جميعِ الجهاتِ وبجَميعِ الأعضاءِ[٤].

وهو إشارةٌ إلى أنَّه عليهِ السَّلامُ تلقَّى مِن ربِّهِ كلامَه تَلقِّيًا روحانيًّا، ثمَّ تمثَّلَ ذلك الكلامُ لبَدَنِه[٥] وانتقلَ إلى الحسِّ المُشترَكِ فانتقَشَ بهِ مِن غيرِ اختِصاصٍ بعُضوٍ وجِهَةٍ.

﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أمرَهُ بذلك لأنَّ الحِفوةَ[٦] تواضعٌ وأدَبٌ، ولذلك طافَ السَّلفُ حافينَ[٧].

---

(١) في نسخة التفتازاني: «محققًا».

(٢) انظر: «الكشاف» (٥/ ٣٣٨).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٧)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).

(٤) قال الآلوسي في «روح المعاني» (١٦/ ٢٥٤): في صحة الخبر خفاء، ولم أر له سنداً يعول عليه.

(٥) في نسخة التفتازاني: «ببدنه».

(٦) بكسر الحاء، وجوِّز ضمها. انظر: «حاشية الشهاب».

(٧) وهذا استحباب؛ قال النووي في «روضة الطالبين» (٣/ ١١٨): «يستحب للحاج دخول البيت حافيًا =

وقيل: لنَجاسةِ نَعْلَيهِ، فإنَّهُما كانَتَا مِن جلدِ حِمارٍ غيرِ مَدبوغٍ[١].

وقيل: مَعناهُ: فَرِّغْ قلبَكَ مِن الأَهلِ والمالِ[٢].

﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ تعليلٌ للأمرِ باحترامِ البُقعةِ، و﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ يَحتَمِلُ المَعنيين[٣].

﴿طُوٗى﴾ عطفُ بيانٍ للوادي، ونوَّنَه ابنُ عامرٍ والكُوفِيُّونَ[٤] بتأويلِ المكانِ.

وقيل: هو[٥] كـ(ثُنًى) مِن الطَّيِّ مَصدرٌ لـ﴿نُودِيَ﴾ أو ﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾؛ أي: نُودِيَ نِداءَينِ، أو: قُدِّسَ مَرَّتينِ.

= ما لم يؤذ أو يتأذ بزحام أو غيره»، وقد ثبت أن النبي ﷺ طاف راكباً، كما رواه البخاري (1612) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (طاف النبي ﷺ بالبيت على بعير، كلما أتى على الركن أشار إليه).

(١) قطعة من حديث رواه الترمذي (١٧٣٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه: «.. وكانت نعلاه من جلد حمار ميت»، وفي إسناده حميد بن علي الأعرج، قال عنه البخاري كما ذكر الترمذي: منكر الحديث.
ورواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٩١٦) عن كعب الأحبار: أن رجلاً نزع نعليه، فقال: «لم خلعت نعليك؟ لعلك تأولت هذه الآية: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾»، قال: ثم قال كعب للرجل: (أتدري ما كانت نعلا موسى؟) ـ قال مالك: لا أدري ما أجابه الرجل ـ فقال كعب: (كانتا من جلد حمار ميت).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٥١٠) عن أهل الإشارة.

(٣) قوله: «والمقدس يحتمل المعنيين»: هما الاحترامُ، والتخلِّي من النجاسة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٢).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٧)، و«التيسير» (ص: ١٥٠).
قال الجوهري في «الصحاح» (مادة: طوى): ((طوى) اسم موضع بالشام، تكسر طاؤه وتضم، يصرف ولا يصرف. فمَن صرفه جعله اسم وادٍ ومكانٍ وجعله نكرة، ومن لم يصرفه جعله اسم بلدة وبقعة وجعله معرفة).

(٥) قوله: «هو»؛ أي: ﴿طُوٗى﴾ بمعنى مرتين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٢).

(١٣) - ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾: اصطفَيْتُكَ للنُّبوَّةِ، وقرأَ حمزةُ: ﴿وإنَّا اخْتَرْناكَ﴾[1].

﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾: للَّذي يُوحَى إليكَ، أو: للوَحيِ، واللامُ تحتَمِلُ التَّعلُّقَ بكُلٍّ مِن الفِعْلَين.

(١٤) - ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ بدلٌ من (ما يُوحى) دالٌّ على أنَّه مقصورٌ على تَقريرِ التَّوحيدِ الذي هو مُنتهَى العلمِ، والأمرِ بالعبادةِ التي هي كمالُ العَمَلِ.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ خصَّهَا بالذِّكرِ وأَفْرَدَها بالأَمرِ للعِلَّةِ التي أناطَ بها إقامَتَها، وهو تذكُّرُ المَعبودِ وشَغلُ القلبِ واللِّسانِ بذكرِه.

وقيل: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾: لأنِّي ذكَرْتُها في الكتبِ وأمرتُ بها، أو: لأنْ أَذكرَكَ[2] بالثَّناءِ، أو: لذِكْرِي خاصةً لا تُرائي بها ولا تَشوبُها بذكرِ غيرِي.

وقيل: لأوقاتِ ذكرِي، وهي مَواقيتُ الصَّلاةِ.

أو: لذكرِ صَلاتِي، لِمَا رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ قال: «مَن نامَ عَن صلاةٍ أو نَسِيَها فليقضِها إذا ذكرَهَا، إنَّ اللهَ تَعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾»[3].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٧)، و«التيسير» (ص: ١٥١).

(٢) في نسخة الخيالي: «أُذكَر».

(٣) رواه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤)، من حديث أنس، ومسلم (٦٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما.

ولم يرتض الزمخشري هذا القول؛ لأنه كما قال: كان حقَّ العبَارة أن يُقال: لِذِكْرها؛ كما قال رَسُول الله ﷺ: «إذا ذكرها». يريد: أن حمل ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ على ذكر الصلاة بعد نسيانها غير صحيح؛ لأنه لو أريد ذلك لقيل: أقم الصلاة لذكرها.

ثم قال: ومَن يَتمحَّلْ له يقول: إذا ذَكر الصلاةَ فقَد ذَكَر الله، أو بتقدير حَذفِ المضاف؛ أي: لِذِكر صَلاتي، أو لأنَّ الذِّكر والنسيَان من الله عزَّ وجلَّ في الحقيقة.

وتعقبه الجاربردي بأن ما رده هو الصواب، قال: والحق أن هذا التفسير تفسير صحيح لا يجوز رده =

(١٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾: كائنةٌ لا محالةَ ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾: أريدُ إخفاءَ وَقتِهَا، أو: أقرُبُ أَنْ أُخفِيَها فلا أقولَ: إنَّها آتِيَةٌ، ولَوْلا ما في الإخبارِ بإتيانِها مِن اللُّطفِ وقطعِ الأَعذارِ لَمَا أخبرتُ بهِ.

أو: أكادُ أظهرُهَا، مِن أَخفاهُ: إذا سلبَ خفاءَهُ، ويُؤيِّدُه القراءةُ بالفَتحِ[1] مِن خَفاهُ: إذا أظهرَهُ.

﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، أو بـ﴿أُخۡفِيهَا﴾ على المَعنى الأَخيرِ[2].

(١٦) ـ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا﴾: عَن تَصديقِ السَّاعةِ، أو عن الصَّلاةِ ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ نَهَى الكافرَ أن يصدَّ مُوسى عَنْها والمرادُ نَهيُهُ أن ينصدَّ عَنْها؛ كقولِه: (لا أَرَيَنَّكَ هاهنا) تنبيهًا على أنَّ فِطرَتَهُ السَّليمةَ لو خُلِّيت بحالِها اختارَها ولم يُعرِضْ عنها، وأنَّه يَنبَغِي أن يكونَ راسخًا في دينِهِ، فإنَّ صدَّ الكافرِ إنَّما يكونُ بسببِ ضعفِهِ فيه.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: ميلَ نفسِهِ إلى اللَّذاتِ المحسوسةِ المُخْدَجةِ، فقصَرَ نظَرَهُ عَن غيرِها. ﴿فَتَرۡدَىٰ﴾: فتَهْلِكَ بالانصدادِ بصدِّهِ.

= ولا الطعن فيه ولا استبعاده، فإنه ثبت وصح نقل هذا التفسير عن رسول الله ﷺ.

قلت: يشير إلى حديث أنس وأبي هريرة المتقدمين.

ثم قال: إذا ثبت بالحديث الصحيح هذا التفسير فكيف يجوز رده بمجرد الاحتياج إلى الحذف أو غير ذلك مما ذكره، فإن الوجوه الثلاثة التي ذكرها في غاية الحسن، والعجب منه أنه جعلها من التمحل. انظر: «حاشية الجاربردي» (ج٢/ و١٢٠ب).

(١) أي: (أَخفِيها)، نسبت لأبي الدرداء وسعيد بن جبير. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٧٦)، و«معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٤٠٢)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٣٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٣٥٢)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠)، و«المحتسب» (٢/ ٤٧).

(٢) قال الشهاب الخفاجي: قوله: على المعنى الأخير لأنه يصير المعنى أظهرها لأجل الجزاء، وهو صحيح بخلاف أخفيها وأسترها لأجل الجزاء فإنه لا وجه له. انظر: «حاشية الشهاب».

(١٧) ـ ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ استفهامٌ يَتضمَّنَ استيقاظًا لِمَا يُريهِ فيها مِن العَجائبِ.

﴿بِيَمِينِكَ﴾ حالٌ مِن مَعنى الإشارةِ، وقيل: صِلَةُ ﴿تِلْكَ﴾.

﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تكريرٌ لزيادةِ الاستئناسِ والتَّنبيهِ.

(١٨) ـ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ وقُرِئَ: (عَصَيَّ)[1] على لغةِ هُذَيلٍ.

﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾: أعتمدُ عليها إذا أَعييتُ، أو وقفتُ على رأسِ القَطيعِ.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾: وأخبطُ الورقَ بها على رؤوسِ غنمِي.

وقُرِئَ: (أَهِشُّ)[2]، وكلاهُما مِن هشَّ الخبزُ يَهِشُّ: إذا انكسرَ لهشاشتِه.

وقُرِئَ بالسِّينِ من الهسِّ[3]، وهو زجرُ الغنمِ؛ أي: أُنْحِي عليهَا زاجِرًا لها.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾: حاجاتٌ أُخَرُ، مثل: أن كان إذا سارَ ألقاها على عاتقِهِ فعلَّقَ بها أدواتِه، وعرضَ الزَّندَيْنِ[4] على شُعْبَتَيْها، وألقى عليها الكساءَ

---

(١) نسبت لابن أبي إسحاق. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠).

(٢) نسبت للنخعي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠)، و«المحتسب» (٢/ ٥٠)، و«الكشاف» (٥/ ٣٤٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٤١)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣٥).
وقد قيدها ابن خالويه بضم الهمزة وكسر الهاء، ونقل ذلك عنه أبو حيان، ونقله عن الزمخشري أيضاً، وكذا ضبطت في نسخ «الكشاف»، وضبطناها: (أَهِش) بفتح الهمزة وكسر الهاء، لأنه هو المراد هاهنا على ما سيأتي من شرح المؤلف، وعليه شرح الطيبي والجاربردي، وكذا نقل أبو حيان عن أبي الفضل الرازي وابن عطية، وهو الظاهر من كلام ابن جني في شرحه للقراءة. وقد فصلنا القول فيها في تحقيق «الكشاف»، وانظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ١٥٢)، و«حاشية الجاربردي على الكشاف» (ج٢/ و١٢١ب).

(٣) نسبت لعكرمة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠)، و«المحتسب» (٢/ ٥٠).

(٤) الزَّنْد والزِّناد: هو الذي يُقْدَح منه النّارُ، وهو العُودُ الأعْلى، فأما العُودُ الأسْفَل الذي فيه الفَرْضُ فالزَّنْدَةُ، فإذا اجتمعا قيل: زَنْدانِ، ولم يُقل زَنْدتانِ. انظر: «المنجد في اللغة» (ص: ٤٦)، و«الصحاح» (مادة: زند).

واستَظلَّ به، وإذا قَصُرَ الرِّشاءُ[(١)] وصلَه بها، وإذا تعرَّضَت السِّباعُ لغنمِه قاتلَ بها.

وكأنَّه عليهِ السَّلامُ فهم أنَّ المقصودَ مِن السُّؤالِ أن يتذكَّرَ حقيقتَها أو ما[(٢)] يرى من مَنافِعِها، حتَّى إذا رآها بعدَ ذلك على خلافِ تلكَ الحَقيقةِ، ووجدَ مِنْها خصائصَ أُخْرَى خارقةً للعادةِ مثل: أن تشتعلَ شُعبتاها بالليلِ كالشَّمعِ، وتَصِيرانِ دلواً عند الاستقاءِ، وتطولَ بطولِ البئرِ، وتحاربَ عنه إذا ظهرَ عدوٌّ، وينبعَ الماءُ بركزِهَا ويَنْضَبَ بنزعِها، وتُورقَ وتُثمِرَ إذا اشتَهى ثمرةً فركزَهَا= عَلِمَ أنَّ ذلكَ آياتٌ باهِرَةٌ ومُعجِزاتٌ قاهرةٌ أحدثَها اللهُ فيها لأجلِهِ وليسَتْ مِن خواصِّها، فذكرَ حقيقتَها ومنافِعَها مُفصَّلًا ومُجمَلًا على معنى أنَّها مِن جنسِ العَصا تنفعُ مَنافِعَ أمثالِها؛ ليطابقَ جوابُهُ الغرضَ الذي فَهِمَه.

(١٩ ـ ٢٠) ـ ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ قيل: لَمَّا أَلقاها انقلبَتْ حيَّةً صفراءَ بغلظِ العصا، ثم تَورَّمت وعَظُمَت، فلذلكَ سمَّاها جانًّا تارةً نظرًا إلى المبدأِ[(٣)]، وثُعبانًا مَرَّةً باعتبارِ المنتهى، وحيَّةً أُخرى بالاسمِ الذي يعمُّ الحالينِ.

وقيل: كانَت في ضَخامةِ الثُّعبانِ وجلادة الجانِّ، ولذلك قال: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠].

(٢١) ـ ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فإنَّه لمَّا رآها حيَّةً تُسرِعُ وتَبتَلِعُ الحجرَ والشَّجرَ خافَ وهربَ مِنْها.

---

(١) الرشاء: حبل الدلو. والجمع: أرشية. انظر: «المغرب» (مادة: رشو).

(٢) في نسخة الفاروقي: «وما».

(٣) الجان: الصغير من الحيات، جمعه: جنان. انظر: «الغريبين» (مادة: جنن)، و«المحكم» (٢/ ٩٦)، و«التيسير في التفسير» (١٠/ ٢٧٣).

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾: هيئتَها وحالتَها المتقدِّمَةَ، وهي فِعْلَةٌ مِن السَّيرِ تُجوِّزُ بها للطريقَةِ والهيئةِ، وانتِصَابُها على نزعِ الخافضِ، أو على أنَّ (أعادَ) مَنقولٌ مِن (عادَهُ) بمَعنى: عادَ إليه، أو على الظَّرفِ؛ أي: سنُعِيدُها في طريقَتِها، أو على تَقديرِ فعلِها؛ أي: سنعيدُ العَصَا بعدَ ذَهابِها تسيرُ سيرَتَها الأولى فتنتَفِعُ بها ما كنتَ تنتَفِعُه قبلُ.

قيل: لَمَّا قال له ربُّهُ ذلك اطمأنَّت نفسُهُ حتَّى أدخلَ يدَهُ في فَمِها وأخذَ بلَحيِها[1].

(٢٢) ـ ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾: إلى جنبِكَ تحتَ العَضُدِ، يقال: لكلِّ ناحِيتَينِ جناحانِ كجَناحَي العسكرِ استعارةً مِن جناحَي الطَّائرِ، سُمِّيَا بذلك لأنَّه يُجْنِحُهما عندَ الطَّيرانِ.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ كأنَّها مُشِعَّةٌ ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: مِن غيرِ عابةٍ وقبحٍ، كُنيَ به عن البَرَصِ كما كُنيَ بالسَّوأةِ عَن العورةِ لأنَّ الطِّباعَ تَعافُه وتنفِرُ عنه.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾: مُعجِزَةً ثانيةً، وهي حالٌ مِن ضَميرِ ﴿تَخْرُجْ﴾ كـ﴿بَيْضَآءَ﴾، أو مِن ضَميرِهَا، أو مَفعولٌ بإضمارِ (خُذ) أو (دونَك).

(٢٣) ـ ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ مُتعلِّقٌ بهذا المضمرِ، أو بما دلَّ عليه ﴿ءَايَةً﴾، أو القصَّة؛ أي: دلَلْنا بها ـ أو: فعَلْنَا ذلك ـ لنُريكَ.

و﴿ٱلْكُبْرَى﴾ صِفَةُ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، أو مفعولُ ﴿نريك﴾ و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حالٌ مِنْها.

(٢٤) ـ ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بهاتينِ الآيتينِ وادعُه إلى العِبادةِ ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾: عَصَى وتَكبَّرَ.

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ لمَّا أمرَهُ اللهُ بخطبٍ عَظيمٍ وأمرٍ جسيمٍ سألَهُ أن يشرحَ صدرَهُ ويَفسحَ قلبَه لتحمُّلِ أعبائِهِ والصَّبرِ

(١) في نسخة الطبلاوي: «لحييها».

على مشاقِّهِ والتَّلَقِّي لِمَا ينزِلُ عليه، ويسهِّلَ الأمرَ عليه، بإحداثِ الأسبابِ ورفعِ الموانعِ.

وفائدَةُ ﴿لِي﴾ إبهامُ المشروحِ والميسَّرِ أَوَّلًا ثمَّ رفعُهُ بذكرِ الصَّدرِ والأمرِ تأكيدًا ومُبالغةً.

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ فإنَّما يحسُنُ التَّبليغُ مِن البليغِ، وكانَ في لسانِه رُتَّةٌ مِن جمرةٍ أدخلَهَا فاهُ، وذلك أنَّ فِرعونَ حملَهُ يومًا فأخذَ لِحيتَهُ ونتفَها، فغَضِبَ فرعونُ وأمرَ بقتلِه، فقالَت آسيةُ: إنَّه صَبِيٌّ لا يفرِّقُ بينَ الجمرِ والياقوتِ، فأُحضِرَا بينَ يديهِ فأخذَ الجمرةَ ووضَعَها في فيه[١]، ولعلَّ تبييضَ يدِهِ كانَ لذلك.

وقيل: احترقَتْ يدُهُ واجتهدَ فرعونُ في عِلاجِها فلَمْ تَبْرَأ، ثمَّ لَمَّا دعاهُ قال: إلى أيِّ رَبٍّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرَأَ يَدِي وقد عَجَزْتَ عنه[٢].

واختُلفَ في زوالِ العقدةِ بكَمالِها:

فمَن قالَ به تمسَّكَ بقولِه: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ [طه: ٣٦].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٧/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥)، وروى نحو هذه القصة الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٣ ـ ٥٤) عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج والسدي، وورد معناها فيما رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٦٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦١٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه أنها قالت: اجعلْ بيني وبينك أمرًا يُعْرَفُ فيه الحقُّ، ائْتِ بجمرتين ولؤلؤتين فقَرِّبْهنَّ إليه، فإنْ بَطَشَ باللُّؤلؤ واجْتَنَبَ الجمرتين عَرَفْتَ أنه يَعْقِلُ، وإنْ تناول الجمرتين ولمْ يُرِدِ اللُّؤلؤتين عَلمتَ أنَّ أحدًا لا يُؤْثِرُ الجمرتين على اللُّؤلؤتين وهو يَعقلُ، فقَرَّب ذلك إليه فأخذ الجمرتين فانتزعوهما منه مخافة أن يحرقا يده. قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٩): وهذا يدل على أنه لم يرفعهما إلى فيه. وهو أصح ما ورد في ذلك.

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٣٥٤)، والقرطبي في «تفسيره» (١١/ ١٩٢) دون نسبة.

ومَن لم يَقُل احتجَّ بقولِه: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] وقولِه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، وأجابَ عن الأوَّلِ بأنه لم يَسأَلْ حلَّ عقدةِ لِسانِه مطلقًا، بل عقدةً تمنعُ الإفهامَ، ولذلك نكَّرَها وجعلَ ﴿يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ جوابَ الأمرِ.

و﴿مِّن لِّسَانِي﴾ يحتمِلُ أن يكونَ صِفَةَ ﴿عُقْدَةً﴾ وأن يكونَ صِلَةَ (احْلُلْ).

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي﴾ يُعينُني على ما كَلَّفْتَني به.

واشتقاقُ الوَزيرِ إمَّا من الوِزرِ لأنَّه يحملُ الثِّقْلَ عَن أميرِه، أو مِن الوَزَر وهو الملجأُ لأنَّ الأميرَ يَعتَصِمُ برَأيِهِ ويَلجَأُ[1] إليه في أُمورِه، ومنه: المُؤازرةُ.

وقيل: أصلُه: أَزيرٌ، مِن الأزرِ بمَعنى القُوَّةِ، فَعِيلٌ بمَعنى مُفاعلٍ كالعَشيرِ والجَلِيسِ، قُلِبَت همزَتُها كقَلبِها في مُوَازِرٍ.

ومَفعولا (اجعل): ﴿وَزِيرًا﴾ و﴿هَٰرُونَ﴾ قُدِّمَ ثانيهِمَا للعنايةِ به، و﴿لِّي﴾ صِلَةٌ أو حالٌ.

أو: ﴿لِّي وَزِيرًا﴾ و﴿هَٰرُونَ﴾ عطفُ بيانٍ للوزيرِ.

أو: ﴿وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ و﴿لِّي﴾ تبيينٌ كقولِه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

و﴿أَخِي﴾ على الوجوهِ بدلٌ مِن ﴿هَٰرُونَ﴾، أو مبتدأٌ خبرُه:

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ على لفظِ الأمرِ. وقرأَهُما ابنُ عامرٍ بلفظِ الخبرِ على أنَّهُما جوابُ الأمرِ[2].

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فإنَّ التَّعاوُنَ يُهيِّجُ الرَّغباتِ، ويؤدِّي إلى تَكاثُرِ الخيرِ وتزايُدِه.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «ويلتجئ».

(٢) أي: ﴿أَشْدُدْ﴾ و﴿أُشرِكْه﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٨)، و«التيسير» (ص: ١٥١).

(٣٥) ـ ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾: عالِمًا بأحوالِنا، وأنَّ التَّعاوُنَ ممَّا يُصلِحُنا، وأنَّ هارونَ نِعْمَ المعينُ لي فيما أمرتَنِي به.

(٣٦) ـ ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾؛ أي: مَسؤولَكَ، فُعْلٌ بمعنى مفعولٍ؛ كالخُبْزِ والأُكْلِ بمَعنى المَخبوز والمأكولِ.

(٣٧) ـ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾: أنعَمْنا عليكَ في وقتٍ آخرَ.

(٣٨) ـ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ ﴾ بإلهامٍ أو في منامٍ، أو على لسانِ نبيٍّ في وَقتِها، أو ملَكٍ، لا على وجهِ النبوَّةِ، كما أُوحي إلى مريمَ.

﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما لا يُعلمُ إلا بالوحيِ، أو: ممَّا ينبَغِي أَنْ يُوحَى ولا يُخَلَّ به؛ لعظمِ شأنِه وفرطِ الاهتمامِ به.

(٣٩) ـ ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ ﴾: بأنِ اقذفِيه، أو: أي اقذفيهِ؛ لأنَّ الوحيَ بمَعنى القولِ ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ والقذفُ يقال للإلقاءِ وللوضعِ؛ كقولِه تَعالى: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، وكذلك الرَّميُ كقولِه:

غُلامٌ رماهُ الله بالحُسن يَافِعاً[١]

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لَمَّا كانَ إلقاءُ البَحرِ إيَّاه إلى السَّاحلِ[٢] أمرًا واجبَ الحُصولِ

---

(١) صدر بيت لأسيد بن عنقاء الفزاري يمدح عميلة الفزاري حين قاسمه ماله. انظر: «الكامل» للمبرد (١/ ٢٢)، و«المقصور والممدود» لابن ولَّاد (ص: ٦٢)، و«الصحاح» (مادة: سوم)، و«زهر الآداب» للقيرواني (٤/ ١٠٢٨)، و«اللسان» (مادة: سوم). وهو دون نسبة في «عيون الأخبار» (٤/ ٢٧)، و«تفسير الطبري» (٦/ ٣٧)، و«ديوان المعاني» (١/ ٢٣). وعجزه:

لَـهُ سِـيمِياءٌ لا تَشُـقُّ علـى البَصَـرْ

السيمياء: العلامة. قاله الطيبي.

(٢) في نسخة الخيالي: «على الساحل».

لتعلُّقِ الإرادةِ به، جُعِلَ البَحرُ كأنَّه ذو تَمييزٍ مُطيعٌ أمرَهُ بذلك، وأُخرجَ الجوابُ مُخرجَ الأمرِ، والأَوْلَى أن تُجْعَلَ الضَّمائرُ كلُّها لِمُوسى مراعاةً للنَّظمِ، والمَقذوفُ في البحرِ والمُلقيُّ إلى السَّاحلِ وإن كانَ التَّابوتَ بالذَّاتِ فموسى بالعَرَضِ.

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جوابُ ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾، وتكريرُ ﴿عَدُوٌّ﴾ للمُبالغَةِ، ولأنَّ الأوَّلَ باعتبارِ الواقعِ والثَّاني باعتبارِ المتوقَّعِ.

قيل: إنَّها جَعَلَت في التَّابوتِ قُطنًا ووَضَعَتْهُ فيه، ثمَّ قَيَّرَتْهُ وأَلْقَتْهُ في اليَمِّ، وكانَ يَشْرَعُ منه إلى بُستانِ فِرعونَ نهرٌ، فدفعَهُ الماءُ إليه فأدَّاهُ إلى بِركةٍ في البستانِ، وكان فرعونُ جالسًا على رأسِها مع امرأتِه آسيةَ بنتِ مُزاحمٍ، فأَمَرَ بِهِ فأُخرِجَ ففُتِحَ، فإذا[1] صبيٌّ أصبَحُ النَّاسِ وَجْهًا، فأحبَّهُ حُبًّا شَديدًا كما قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]؛ أي: محبَّةً كائنةً مني قَدْ زَرَعْتُها في القُلوبِ بحيثُ لا يكادُ يصبرُ عنكَ مَن رآكَ فلذلك أحبَّكَ فِرعونُ.

ويجوزُ أَنْ يتعلَّقَ ﴿مِّنِّي﴾ بـ﴿أَلقيتُ﴾؛ أي: أحبَبْتُكَ، ومَن أحبَّهُ اللهُ أحبَّتْهُ القُلوبُ.

وظاهرُ اللفظِ: أنَّ اليَمَّ ألقاهُ بساحلِه ـ وهو شاطِئُه لأنَّ الماءَ يسحلُه ـ فالتُقِطَ منه، لكنْ لا يَبعُدُ أَنْ يؤوَّلَ السَّاحلُ بجنبِ[2] فوَّهةِ نَهرِه.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾: ولتُرَبَّى ويُحسَنَ إليك وأنا راعيكَ وراقِبُكَ، والعطفُ على عِلَّةٍ مُضمَرَةٍ مثل: ليُتعطَّفَ عليك، أو على الجملةِ السَّابقَةِ بإضمارِ فعلٍ مُعلَّلٍ مثل: فعلتُ ذلك[3].

---

(١) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «فإذا هو».

(٢) في نسخة الخيالي والفاروقي: «بحيث». وكتب فوقها في نسخة الفاروقي: «مكان» وضبطت الكلمة التي بعدها ـ وهي «فوهة» ـ فيها بالرفع.

(٣) أي: «ولتصنع فعلت ذلك».

وقُرِئَ: ﴿ولتُصْنَعْ﴾ بكسرِ اللامِ وسُكونِها والجزمِ على أنَّه أمرٌ[١].

و: (ولِتَصْنَعَ) بالنَّصبِ وفتحِ التَّاءِ[٢]؛ أي: وليكونَ عَملُكَ على عينٍ مِنِّي لئلَّا تُخالِفَ بهِ عَن أَمْري.

(٤٠) ـ ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ ظرفٌ لـ(ألقيتُ) أو لـ(تُصْنَعَ)، أو بدلٌ مِن ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ﴾ على أنَّ المرادَ بها وقتٌ مُتَّسعٌ.

﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ وذلك أنَّه كان لا يَقبلُ ثديَ المراضعِ، فجاءَتْ أختُه مَريمُ مُتفحِّصةً خبرَهُ، فصادَفَتْهُم يطلبونَ له مُرضِعَةً يقبلُ ثديَها، فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ فجاءَتْ بأمِّه فقَبِلَ ثديَها.

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وفاءً بقَوْلِنا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧].

﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائِكَ ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ هي بفراقِكَ، أو أنتَ[٣] على فراقِها وفَقْدِ إشفاقِها.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾: نفسَ القِبْطيِّ الذي استغاثَهُ عليه الإسرائيليُّ.

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾: غَمِّ قتلِهِ خوفًا مِن عقابِ اللهِ أو قصاصِ[٤] فِرعونَ، بالمغفرةِ والأمنِ مِنْه بالهجرةِ إلى مدينَ.

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾: وابتليناكَ ابتلاءً، أو: أنواعًا مِن الابتلاءِ، على أنَّه جمعُ فَتْنٍ،

---

(١) قرأ بسكون اللام والجزم أبو جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٠). والقراءة بكسر اللام والجزم ذكرها أبو حيان في «البحر» (١٤/ ٥٢) عن أبي جعفر أيضاً. والزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٣٥٩) دون نسبة.

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٥١) عن أبي نهيك.

(٣) في نسخة الخيالي: «وأنت».

(٤) في نسخة الخيالي والفاروق: «واقتصاص». وفي نسخة الطبلاوي: «وقصاص».

أو فِتْنةٍ على تركِ الاعتدادِ بالتَّاءِ كحُجُوزٍ وبُدُورٍ في حُجزَةٍ وبَدْرَةٍ، فخلَّصْناكَ مرَّةً بعدَ أخرى.

وهو إجمالٌ لِمَا نالَهُ في سفرِه: مِن الهجرةِ عَن الوطنِ، ومفارقةِ الأُلَّافِ، والمشيِ راجِلًا على حذرٍ، وفقدِ الزَّادِ، وأجرِ نفسِهِ، إلى غيرِ ذلكَ، أو له ولِمَا سبقَ ذكرُه(1).

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: لبثتَ فيهِمْ عشرَ سِنينَ قضاءً لأَوْفى الأَجَلينِ. ومَدينُ على ثماني مَراحِلَ مِن مصرَ.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قدَّرْتُه لأَنْ أُكَلِّمَكَ وأَستَنْبِئَكَ، غيرَ مُستقدِمٍ وقتَه المُعيَّنَ ولا مُستأخِرٍ، أو: على مِقدارٍ مِن السنِّ(2) يوحَى فيه إلى الأَنبياءِ.

﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ كرَّره عقيبَ ما هو غايةُ الحكايةِ للتَّنبيهِ على ذلك.

(٤١) ـ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾: واصطفيتُكَ لِمَحبَّتِي، مَثَّله فيما خوَّلَه مِن الكرامةِ بمَنْ قرَّبَه المَلِكُ واستخلَصَه لنَفسِه.

(٤٢) ـ ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾: بمُعجزاتي ﴿وَلَا تَنِيَا﴾: ولا تَفْتُرا ولا تُقَصِّرا، وقُرِئَ: (تِنِيَا) بكسرِ التَّاءِ(3).

﴿فِى ذِكْرِى﴾: لا تَنْسَياني حيثُمَا تَقَلَّبْتُمَا.

---

(١) قوله: «له...» معطوف على «لما ناله»؛ أي: هو إجمال لما ناله في سفره، أو له ولغيره مما سبق ذكره.

(٢) بعدها في نسخة التفتازاني: «فيما».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠)، وسقط اسم القارئ من مطبوعه، ونسبه أبو حيان في «البحر المحيط» (١٥/ ٦٠) إلى ابن وثاب، وهي في «الكشاف» (٥/ ٣٦٢) بلا نسبة.

وقيل: في تَبليغِ ذِكرِي[1] والدُّعاءِ إليَّ.

(٤٣) ـ ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أَمَـرَ بـه أوَّلًا مُوسـى وحـدَهُ، وهاهنـا إيَّـاه وأخـاه، فلا تكريـرَ، قيل: أوحى إلى هـارونَ أَنْ يتلقَّى مُوسَـى، وقيل: سـمعَ بمُقْبَلِه فاستقبلَه.

(٤٤) ـ ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ مـثـل: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨] فإنَّه دعوةٌ في صورةِ عَرْضٍ ومَشورةٍ؛ حذرًا أنْ تحملَهُ الحماقةُ على أنْ يَسطُوَ عليكُما، أو احترامًا لِمَا له مِنْ حقِّ التَّربيَةِ عليك[2].

وقيل: كَنِّيَاهُ[3]، وكان له ثلاثُ كُنًى: أبو العبَّاسِ، وأبو الوليدِ، وأبو مرَّةَ[4].

وقيل: عِدَاه شبابًا لا يَهْرَمُ بعدَه، وملكًا لا يزولُ إلَّا بالمَوتِ[5].

---

(١) بعدها في نسخة التفتازاني: «ودعائي».

(٢) قوله: «حذراً... أو احتراماً» الأولى من هاتين العلتين أن يقال: إن القول اللين هو الأجدر بقبول كلام الداعي كما قال تعالى لنبيه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. أما التعليل بالحذر من حماقته فهو منقوض بقوله تعالى: ﴿قَالَا لَا تَخَافَآ﴾ الآية [طه: ٤٦]، وأما التعليل بالاحترام لحق التربية فمنقوض بقول موسى عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] جواباً لقول فرعون: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨].

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٧٤) عن السدي، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٤٢٣) عن علي وسفيان.

(٤) هي أقوال في كنيته ذكرها الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٤٠٩)، وزاد ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ١٦٠) نقلاً عن أبي سليمان الدمشقي كنية رابعة، وهي: أبو مصعب.

(٥) ذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٠٠) عن السدي، وكذا رواه عنه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٢٠٧). وفيه نظر إذ هو مخالف لسنة الخلق وقواعد الإيمان والدعوة، فكيف يتصور أن يدعو موسى فرعون إلى الإيمان بالله على أساس هذه المرغبات، فمن ذا الذي يعطى الشباب بلا هرم والصحة بلا سقم؟! وأي إيمان هذا الذي بني على زهرة الحياة الدنيا التي هي فتنة للكفار =

﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿ٱذۡهَبَآ﴾ أو ﴿قولا﴾؛ أي: باشِرَا الأمرَ على رَجائِكُما وطَمعِكُمَا أنه يُثمِرُ ولا يخيبُ سعيُكُما، فإنَّ الرَّاجيَ مُجتَهِدٌ والآيسَ مُتكلِّفٌ.

والفائدةُ في إرسالِهما والمبالغةِ عليهما في الاجتهادِ مع علمِهِ بأنَّه لا يؤمنُ: إلزامُ الحُجَّةِ، وقَطعُ المعذرةِ، وإظهارُ ما حدثَ في تَضاعيفِ ذلك مِن الآياتِ.

والتَّذكُّرُ للمُتحقِّقِ والخشيةُ للمُتوهَّمِ، ولذلك قدَّمَ الأوَّلَ؛ أي: إن لَمْ يَتحقَّقْ صِدقَكُما ولم يَتذكَّرْ فلا أَقلَّ أَنْ يَتوهَّمَه فيَخشَى.

(٤٥) ـ ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾: أن يعجلَ علينا بالعُقوبةِ ولا يصبرَ إلى تمامِ[1] الدَّعوةِ وإظهارِ المعجزةِ، مِن فَرَطَ: إذا تقدَّمَ، ومِنه: الفارِطُ، وفرسٌ فُرُطٌ: يسبقُ الخيلَ.

وقُرِئَ: (يُفرَطَ)[2] مِن أَفْرَطتُه: إذا حمَلْتَه على العجلةِ؛ أي: نخافُ أن يحملَهُ حامِلٌ من استكبارٍ أو خوفٍ على الملكِ أو شيطانٍ إنسيٍّ أو جِنيٍّ على المعاجلةِ بالعقابِ.

و: (يُفْرِطَ)[3] من الإفراطِ في الأَذِيَّةِ.

﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾: أن يزدادَ طُغيانًا فيَتخطَّى إلى أَنْ يقولَ فيك ما لا يَنبَغِي لجُرأَتِه وقَساوَتِه، وإطلاقُه مِن حُسنِ الأَدبِ[4].

= وليست طريقاً للإيمان بالله سبحانه؟ كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، فأي ميزة لفرعون حتى يكون ما جعل لغيره فتنة سبيلاً له للإيمان؟

(١) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «إتمام».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠) عن ابن مسعود وأناس من أصحاب النبي ﷺ ويحيى والأعمش وسلام وأبي نوفل، و«المحتسب» (٢/ ٥٢) عن ابن محيصن.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠) عن ابن محيصن.

(٤) حيث لم يقيد بقوله: «عليك» كما قيد بقوله: ﴿عَلَيۡنَآ﴾. انظر: «حاشية القونوي» (١٢/ ٣٥٥).

(٤٦) ـ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى﴾ في كلِّ حالٍ ﴿مَعَكُمَآ﴾ بالحفظِ والنُّصرةِ ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ما يجري بينكُما وبينَه مِن قَولٍ وفعلٍ، فأُحدِثُ في كلِّ حالٍ ما يَصرِفُ شرَّهُ عنكما ويُوجِبُ نُصرَتِي لكما.

ويجوزُ أَنْ لا يُقدَّرَ شَيءٌ على معنى: إِنَّني حافِظُكُما سامِعًا مُبصِرًا، والحافظُ إذا كانَ قادرًا سميعًا بصيرًا تمَّ الحِفظُ.

(٤٧) ـ ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أطلِقْهُم ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ بالتَّكاليفِ الصَّعبةِ وقتلِ الولدانِ، فإنَّهُم كانوا في أَيدِي القِبْطِ يَستَخدِمونَهُم ويُتعبونَهُم في العَملِ، ويقتلونَ ذكورَ أولادِهم في عامٍ دونَ عامٍ.

وتَعقيبُ الإتيانِ بذلك دليلٌ على أنَّ تخليصَ المؤمنينَ مِن الكفرةِ أهمُّ مِن دَعوتِهِم إلى الإيمانِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ للتَّدريجِ في الدَّعوةِ.

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ جملةٌ مُقرِّرةٌ لِمَا تَضمَّنَه الكلامُ السَّابقُ مِن دَعوى الرِّسالةِ، وإنَّما وحَّدَ الآيةَ ـ وكان معَه آيتانِ ـ لأنَّ المرادَ إثباتُ الدَّعوى ببُرهانِها، لا الإشارةُ إلى وحدةِ الحُجَّةِ وتَعدُّدِها، وكذلك قولُه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ [الشعراء: ١٥٤]، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠].

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾: وسلامُ الملائكةِ وخَزَنةِ الجنَّةِ على المُهتدِينَ، أو: السَّلامةُ في الدَّارينِ لهم.

(٤٨) ـ ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: أنَّ عذابَ

المشركينَ على المكذِّبينَ[1] للرُّسلِ، ولعلَّ تغييرَ النَّظمِ والتَّصريحَ بالوَعيدِ والتَّوكيدَ فيه لأنَّ التَّهديدَ في أوَّلِ الأمرِ أهمُّ وأنجَعُ وبالواقعِ أليَقُ.

(٤٩) ـ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؛ أي: بعدَمَا أَتَيَاه وقالا لَه ما أُمِرَا به، ولعلَّه حُذِفَ لدَلالَةِ الحالِ، فإنَّ المُطيعَ إذا أُمرَ بشَيءٍ فعلَهُ لا محالةَ.

وإنَّما خاطبَ الاثنينِ وخَصَّ مُوسَى بالنداء لأنَّه الأصلُ وهارونُ وزيرُه وتابعُه، أو لأنَّه عَرَفَ أنَّ له رُتَّةً ولأخيهِ فَصاحَةً فأرادَ أن يُفحِمَهُ، ويَدُلُّ عليهِ قولُه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

(٥٠) ـ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مِن الأنواعِ ﴿خَلْقَهُۥ﴾: صورتَهُ وشكلَهُ الذي يُطابِقُ كمالَه المُمكِنَ له.

أو: أَعْطَى خليقتَهُ كلَّ شيءٍ يحتاجون إليه ويَرتفِقونَ به، فقُدِّمَ المفعولُ الثَّاني لأنَّه المَقصودُ بيانُه.

وقيل: أَعْطَى كلَّ حيوانٍ نظيرَهُ في الخَلْقِ والصُّورةِ زوجًا.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «عذاب المنزلين على المكذبين»، وفي نسخة التفتازاني: «أن العذاب المنزلين للمكذبين». قال الشهاب في «الحاشية»: قوله: «أن عذاب المشركين..» في عبارته قلق وركاكة، وقد اختلفت النسخ في ضبطها، والمشهور فيها: «المشركين» بشينٍ معجمة وراءٍ مهملة وكافٍ جمع مشركٍ، والمراد به هنا: مطلق الكافر فإنه أحد معنييه، ومراده دفع ما يتوهم من حصر العذاب فيهم ـ مع أن غيرهم معذب ـ بأنه إنما يفيده إذا كان التعريف للجنس أو الاستغراق أما إذا كان للعهد والمراد به العذاب المعد للكفرة وهو المخلد فلا يفيده، ولو سلم فلا محذور فيه... ووقع في بعض النسخ: «المنزلين»بالنون والزاي المعجمة واللام، ففي بعض الحواشي: بالتثنية وفتح الميم تثنية مَنْزِل، والمراد بهما: الدنيا والآخرة... وظاهر كلام بعضهم أنه حينئذ: «مُنْزِل» بضم الميم؛ أي: مُنزِلي العذاب وهم خزنة النار لوقوعه في مقابلة خزنة الجنة وهو بعيد جدًّا، والمعوَّل على النسخة الأولى عندهم.

وقُرِئَ: (خَلَقَه)[1] صِفةً للمُضافِ إليه، أو المضافِ على شُذوذٍ، فيكونُ المفعولُ الثَّاني مَحذوفًا؛ أي: أعطى كُلَّ مَخلوقٍ ما يُصلِحُه.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾: ثمَّ عرَّفَه كيفَ يَرتَفِقُ بما أُعطِيَ، وكيفَ يتوصَّلُ به إلى بقائِه وكمالِه اختيارًا أو طبعًا.

وهو جوابٌ في غايةِ البَلاغةِ؛ لاختصارِه وإعرابِه عَن الموجوداتِ بأَسرِها على مَراتِبِها، ودَلالَتِه على أنَّ الغنيَّ القادرَ بالذَّاتِ المنعِمَ على الإطلاقِ هو اللهُ تَعالى، وأنَّ جميعَ ما عَداه مُفتقِرٌ إليه منعَمٌ عليه في حدِّ ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، ولذلك بُهتَ الذي كفرَ وأُفحِمَ عَن الدَّخَلِ عليه، فلم يرَ إلا صرفَ الكَلامِ عَنه:

(٥١) ـ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾: فما حالُهُم بعدَ مَوتِهم مِن السَّعادةِ والشَّقاوةِ؟

(٥٢) ـ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾؛ أي: إنَّـه غيبٌ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وإنَّما أنا عبدٌ مثلُكَ لا أعلَمُ منه إلَّا ما أخبرَنِي به.

﴿فِي كِتَٰبٍ﴾: مثبَتٌ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ تَمثيلًا لتَمكُّنِه في عِلمِهِ بما استحفَظَه العالِمُ وقيَّدَه بالكِتْبةِ، ويؤيِّدُه:

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ والضَّلالُ: أَنْ تُخطِئَ الشَّيءَ في مَكانِه فلَمْ تَهتَدِ إليه، والنِّسيانُ: أَنْ تذهبَ عنه بحيثُ لا يخطرُ ببالِكَ، وهما محالانِ على العالمِ بالذَّاتِ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ سُؤالُه دَخَلًا على إحاطةِ قُدرةِ اللهِ بالأشياءِ كلِّها، وتخصيصِه أبعاضَها بالصُّوَرِ والخواصِّ المُختَلِفةِ، بأَنَّ ذلك يَستَدعِي عِلمَهُ بتَفاصيلِ الأَشياءِ

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠) عن أبي نهيك ونصير عن الكسائي، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٠٧) عن الأعمش ونصير.

وجُزئِيَّاتِها، والقُرونِ الخاليةِ مع كثرتِهم وتَمادِي مُدَّتِهم وتباعُدِ أَطرافِهم كيفَ أحاطَ عِلمُه بهم وبأَجزائِهم وأحوالِهم، فيكونُ مَعنى الجوابِ: أنَّ علمَهُ تَعالى محيطٌ بذلكَ كلِّه وأنَّه مُثبَتٌ عندَهُ[1] لا يَضِلُّ ولا يَنسى.

(٥٣) ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا﴾ مَرفوعٌ صِفةٌ لـ﴿رَبِّى﴾ أو خبرٌ لمَحذوفٍ، أو منصوبٌ على المدحِ.

وقرأَ الكوفِيُّونَ هنا وفي الزخرف: ﴿مَهْدًا﴾؛ أي: كالمهدِ تَتمهَّدونَها، وهو مَصدرٌ سُمِّيَ به، والباقونَ: ﴿مِهَادًا﴾[2]، وهو اسمُ ما يُمهَدُ كالفِراشِ، أو جمعُ مَهْدٍ، ولم يختلفوا في الذي في (النَّبأ)[3].

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: وجعلَ[4] لكم فيها سبلًا بينَ الجبالِ والأودِيَةِ والبَراري تَسلكونَها مِن أرضٍ إلى أرضٍ لتَبلُغوا مَنافِعَها.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: مَطرًا ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ عدلَ به مِن لفظِ الغيبةِ إلى صيغةِ التَّكلُّمِ على الحكايةِ لكَلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ تنبيهًا على ظهورِ ما فيه مِن الدَّلالةِ على كمالِ القُدرةِ والحِكمةِ، وإيذانًا بأنَّه مُطاعٌ تَنقادُ الأشياءُ المُختَلفَةُ لِمَشيئَتِه، وعلى هذا نظائرُهُ كقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

﴿أَزْوَٰجًا﴾: أصنافًا، سُمِّيَت بذلك لازدواجِها واقترانِ بَعضِها ببعضٍ.

---

(١) بعدها في نسخة الخيالي: «وأنه».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٨)، و«التيسير» (ص: ١٥١).

(٣) «ولم يختلفوا في الذي في النبأ» من نسخة الطبلاوي والتفتازاني.

(٤) في نسخة الفاروقي: « وحصَّلَ ».

﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ بيانٌ وصِفَةٌ لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾، وكذلك ﴿شَتَّىٰ﴾، ويحتمِلُ أن يكـونَ صفةً لـ﴿نَّبَاتٍ﴾ فإنَّه مِن حيثُ إنَّه مَصدرٌ في الأصلِ يَستَوِي فيه الواحِدُ والجَمعُ، وهو جمعُ شَتيتٍ كمَريضٍ ومَرْضَى؛ أي: مُتفرقاتٍ في الصُّوَرِ والأعراضِ والمنافعِ يصلحُ بعضُهَا للنَّاسِ وبعضُها للبهائمِ، فلذلك قال:

(٥٤) ـ ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ وهـو حـالٌ مِـن ضَميرِ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على إرادةِ القَولِ؛ أي: أخرَجْنَا أصنافَ النَّباتِ قـائلـينَ: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟﴾، والمعنى: مُعِدِّينها[1] لانتِفاعِكُم[2] بالأكلِ والعلفِ آذنينَ فيه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾: لذَوِي العقولِ النَّاهيَةِ عن اتِّباعِ الباطلِ وارتكابِ القَبائحِ، جمعُ: نُهْيَةٍ.

(٥٥) ـ ﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ فإنَّ التُّرابَ أصلُ خلقةِ أولِ آبائِكُم، وأوَّلُ موادِّ أبدانِكُم.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالموتِ وتَفكيكِ الأَجزاءِ.

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بتأليفِ أَجزائِكُم المتفتِّتةِ المختلطةِ بالتُّرابِ على الصُّورةِ السَّابقَةِ وردِّ الأرواحِ إليها.

(٥٦) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾: بصَّرْناه إيَّاها أو عرَّفناه صِحَّتَها.

﴿كُلَّهَا﴾ تأكيدٌ لشُمولِ الأنواعِ، أو لشُمولِ الأَفرادِ، على أنَّ المُرادَ بـ﴿ءَايَـٰتِنَا﴾: آياتٌ مَعهودَةٌ هي الآياتُ التسعُ المُختَصَّةُ بمُوسى، أو أنَّه عليهِ السَّلامُ أراه آياتِه وعدَّ عليه ما أُوتي غيرُهُ مِن المُعجِزَات.

﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى مِن فَرْطِ عنادِه ﴿وَأَبَىٰ﴾ الإيمانَ والطَّاعةَ لعُتُوِّه.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «ما نغديها».

(٢) في هامش نسخة التفتازاني: «والمعنى ما هو إلا لانتفاعكم».

(٥٧) ـ ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾: أرضِ مِصرَ ﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ هذا تَعلُّلٌ وتحيُّرٌ، ودليلٌ على أنَّهُ عَلِمَ كونَهُ مُحِقًّا حتَّى خافَ منه على مُلكِه؛ فإنَّ ساحرًا لا يقدِرُ أن يُخرِجَ ملِكًا مِثلَه من أرضِه.

(٥٨ـ٥٩)ـ ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾: مثلِ سحرِك ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾: وعدًا؛ لقوله: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ ﴾ فإنَّ الإخلافَ لا يلائمُ الزَّمانَ والمكانَ.

وانتصابُ ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ بفعلٍ دلَّ عليه المصدَرُ، لا به فإنَّه مَوصوفٌ، أو بأنَّه بدلٌ مِن ﴿مَوْعِدًا ﴾ على تقديرِ (مَكانَ) مُضافٍ إليه، وعلى هذا يكونُ طِباقُ الجَوابِ في قولِه:

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ مِن حيثُ المعنى؛ فإنَّ يومَ الزِّينةِ يدلُّ على مَكانٍ مُشتهِرٍ باجتماعِ النَّاسِ فيه في ذلك اليومِ، أو بإضمارٍ مثلَ: مَكانُ مَوعدِكُم مكانُ[1] يومِ الزِّينةِ، كما هو على الأوَّلِ، أو: وعدُكُم وعدُ يومِ الزِّينةِ.

وقُرِئَ: (يومَ) بالنَّصبِ[2]، وهو ظاهرٌ في أنَّ المرادَ بهما المصدَرُ.

ومعنى ﴿سُوًى﴾: مُنتصِفًا[3] يَستوِي مسافتُه إلينا وإليك، وهو في النَّعتِ كقولِهم: (قومٌ عِدًى) في الشُّذوذِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «نادي» وكتب تحتها: «مجلس»، وفي نسخة التفتازاني زيادة: «وكان في يوم الزينة يوم عاشوراء ويوم نيروز ويوم عيد كان».

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٥٣) عن الحسن والأعمش والثقفي ورواية عن أبي عمرو، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٠٨) عن الحسن والأعمش، وهي رواية غير مشهورة عن حفص من طريق هبيرة. انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٩٥)، و«جامع البيان في القراءات السبع» (٣/ ١٣٥٦).

(٣) في نسخة الخيالي: «منصفاً».

وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ ويَعقوبُ بالضمِّ[1].

وقيل: يومُ الزِّينةِ: يومُ عاشوراءَ ويومُ النَّيروزِ ويومُ عيدٍ كان لهم في كلِّ عامٍ، وإنَّما عيَّنَه ليظهرَ الحقُّ ويزهقَ الباطلُ على رؤوسِ الأَشهادِ ويشيعَ ذلك في الأَقطارِ.

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ عطفٌ على اليومِ أو الزِّينةِ.

وقُرِئَ على بناءِ الفاعلِ بالتَّاءِ على خطابِ فِرعونَ، والياءِ[2] على أنَّ فيه ضميرَ اليَومِ، أو ضميرَ فرعونَ على كونِ[3] الخطابِ لقَومِه.

(٦٠) ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾: ما يُكادُ به، يعني: السَّحرةَ وآلاتِهم ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ بالموعدِ.

(٦١) ـ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأَنْ تدَّعوا آياتِه سحرًا ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾: فيُهلِكَكُم ويَستأصِلَكُم به.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ ويعقوبُ بالضمِّ[4] من الإسحاتِ، وهو لغةُ نَجدٍ وتميمٍ، والسَّحْتُ لغةُ الحجازِ.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ كما خابَ فِرعونُ، فإنَّه افترى واحتالَ ليَبْقَى الملكُ عليه فلَمْ يَنفَعْه.

---

(١) أي: بضم السين من: (سوى)، وقرأ باقي العشرة بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٨)، و«التيسير» (ص: ١٥١)، و«النشر» (٢/ ٣٢٠).

(٢) أي: قرئ: (تَحْشُرَ)، و(يَحْشُرَ)، نسبت القراءتان لأبي عمران الجوني وأبي نهيك والجحدري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨)، و«المحتسب» (٢/ ٥٤).

(٣) في نسخة الطبلاوي والفاروقي: «أن».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٩)، و«التيسير» (ص: ١٥١)، و«النشر» (٢/ ٣٢٠)، وذكر أنها رواية رويس عن يعقوب.

(٦٢ ـ ٦٣) ـ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾؛ أي: تَنازَعتِ السَّحَرةُ في أمرِ مُوسى حينَ سَمِعُوا كلامَه، فقالَ بعضُهُم: ليسَ هذا مِن كلامِ السَّحَرةِ ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ بأنَّ موسى إنْ غَلَبَنا اتَّبعناه.

أو: تَنازَعُوا واختَلَفوا فيما يعارضونَ به مُوسى وتشاوَرُوا في السرِّ.

وقيل: الضَّميرُ لفرعونَ وقومِه، وقولُه: ﴿قالوا إنَّ هذانِ لسَاحرانِ﴾ تفسيرٌ لـ(أسرُّوا النَّجوى)، كأنَّهم تَشاوَرُوا في تلفيقِه حذرًا أن يَغلِبا فيتَّبعَهما النَّاسُ.

و﴿هَٰذَٰنِ﴾ اسمُ ﴿إنَّ﴾ علـى لغةِ بَلْحارثِ بن كعـبٍ[1]، فإنَّهُم جعَلُوا الألفَ للتَّثنيةَ وأعربوا المثنَّى تَقديرًا[2].

وقيل: اسمُها ضميرُ الشَّأنِ المحذوفُ، و﴿هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبرُها.

وقيل: ﴿إنَّ﴾ بمعنى: نَعَم، وما بعدَها مُبتدأٌ وخبرٌ.

وفيهِما: أنَّ اللامَ لا تدخلُ خبرَ المبتدأِ.

وقيل: أصلُه: (إنَّه[3] هذانِ لهما ساحرانِ) فحُذِفَ الضَّميرُ، وفيه أنَّ المؤكَّد باللامِ لا يليقُ به الحذفُ.

---

(١) انظر: «معجم ديوان العرب» (٣/ ٢٦٠)، و«الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه (ص: ٢٤٢)، و«الصحاح» (مادة: ذا) (٦/ ٢٥٥٠).

(٢) قوله: «فإنهم جعلوا الألف...»، يعني: أن هذه اللام عندهم علامة التثنية، لا علامة إعراب حتى تتغيرَ كغيرها، فأعربوه بحركات مقدرة كالمقصور. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «إن»، وهو الموافق لما في «حاشية القونوي» و«حاشية ابن التمجيد» (١٢/ ٣٧٩)، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «حاشية شيخ زاده» (٥/ ٦٣٤) وكلٌّ شرح على حسب ما وقع عنده، فعلى اعتبار أن اللفظ «إنه» جعله شيخ زاده جواباً عما أورد على الوجهين الأخيرين؛ أي: الوجه الثاني والثالث، وجه الجواب: أن اللام ليست داخلة على الخبر =

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿إنَّ هذينِ﴾ وهو ظاهرٌ.

وابنُ كثيرٍ وحفصٌ: ﴿إِنْ هَٰذَانِ﴾ على أنَّها هي المخفَّفَةُ واللامُ هي الفارقةُ أو النَّافيةُ، واللامُ بمَعنى (إلا)، وشدَّد ابنُ كثيرٍ نونَ ﴿هَٰذَانِ﴾[1].

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ بالاستيلاءِ عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾: بمَذهَبِكُم الذي هو أفضَلُ المذاهبِ، بإظهارِ مَذهبِه وإعلاءِ دينِه؛ لقولِه: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٢٦].

وقيل: أرادوا: أهلَ طَريقَتِكُم، وهم بنو إسرائيلَ فإنَّهُم كانوا أربابَ علمٍ فيما بينَهُم؛ لقولِ موسى عليهِ السَّلامُ: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧].

وقيل: الطَّريقَةُ اسمٌ لوُجوهِ القومِ وأَشرافِهِم مِن حيثُ إنَّهم قدوةٌ لغَيرِهِم.

(٦٤) ـ ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾: فأزمِعُوه واجعَلُوه مُجمَعًا عليه لا يتخلَّفُ عنه واحدٌ مِنكم.

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿فاجمعُوا﴾[2]، ويعضُدُه قولُه: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ [طه: ٦٠].

= وإنما على المبتدأ المقدر، وتقدير الكلام على الوجه الثاني: إن الشأن هذان لهما ساحران، وعلى الثالث: نعم هذان لهما ساحران.

أما على اعتبار ما وقع في نسخة الطبلاوي والخيالي: «إن» فقال ابن التمجيد: قوله: «وقيل: أصلُه: إنَّ هذانِ لهما ساحرانِ» فيكون ﴿هَٰذَانِ﴾ اسم (إنَّ)، و(هما) مبتدأ دخل عليه لام الابتداء و﴿ساحران﴾ خبره، وهذا المبتدأ مع خبره خبر (إنَّ).

قلت: وعلى هذا فهو ليس جواباً عما اعترض به على القولين المذكورين، بل هو قول جديد، والله أعلم.

(١) فقرأ: ﴿هَذَانِّ﴾، والباقون يخففونها. انظر: «السبعة» (ص: ٤١٩)، و«التيسير» (ص: ١٥١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤١٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٢).

والضَّميرُ في ﴿قَالُواْ﴾ إن كانَ للسَّحرَةِ فهو قولُ بعضِهِم لبَعضٍ.

﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾: مُصطَفِّينَ؛ لأنَّه أهيَبُ في صدورِ[1] الرَّائينَ؛ قيل: كانوا سبعينَ ألفًا مع كلٍّ منهم حبلٌ وعَصًا، وأقبَلُوا عليه إقبالَةً واحدَةً.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾: فازَ بالمطلوبِ مَن غلبَ. وهو اعتراضٌ.

(٦٥) ـ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾؛ أي: بعدما أَتَوْا مُراعاةً للأدبِ، و﴿أَن﴾ بما بعدَهُ مَنصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ، أو مرفوعٌ بخبريَّةِ مَحذوفٍ؛ أي: اختَرْ إلقاءَكَ أوَّلًا أو إلقاءَنا، أو: الأمرُ إلقاؤُكَ أو إلقاؤُنَا.

(٦٦) ـ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ مُقابلَةَ أدبٍ بأَدَبٍ، وعدمَ مُبالاةٍ بسِحرِهِم، وإسعافًا إلى ما أَوْهَموا مِن الميلِ إلى البدءِ بذكرِ الأوَّلِ في شقِّهِم وتغييرِ النَّظمِ إلى وجهٍ أبلغَ[2].

ولأَنْ يُبرِزُوا ما مَعَهُم ويَستنفِدُوا أقصَى وسعِهِم، ثمَّ يُظهِرُ اللهُ سُلطانَه فيقذفُ بالحقِّ على الباطلِ فيَدمَغُه.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾؛ أي: فألقَوا فإذا حِبالُهُم، وهي للمُفاجأةِ، والتَّحقيقُ: أنَّها أيضًا ظَرفِيَّةٌ تَستَدْعِي مُتعلَّقًا ينصبُها وجملةً تضافُ إليها، لكنَّها خُصَّتْ بأَنْ يكونَ المتعلَّقُ فعلَ المفاجأةِ، والجملةُ ابتدائيةً.

والمعنى: فألقَوْا ففاجأَ موسى وقتَ تخييلِ سَعيِ حِبالِهم وعصيِّهم مِن

---

(١) بعدها في نسخة التفتازاني: «الناس».

(٢) قوله: «تغيير» عطف على «بذكر الأول...»، يعني: أمران يدلان على رغبتهم في البدء: ذكرُ الأول في شقهم، وتغييرُ النظم إلى وجه أبلغ من أصل النظم، فإن الأصل أن يقولوا: وإما أن نلقي. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٢/ ٣٧٩).

سـحرِهِم، وذلـكَ أَنَّهُـم[1] لَطخُوها بالزِّئبقِ، فلَمَّـا ضُرِبَت عليها الشَّـمسُ اضطربَتْ فخُيِّـلَ إليه أَنَّها تتحـرَّك[2].

وقـرأ ابـنُ عامـرٍ ورَوْحٌ: ﴿تُخَيَّـلُ﴾ بالتَّـاءِ[3] علـى إسـنادِهِ إلى ضَميـرِ الحبالِ والعِصـيِّ، وإبـدالِ ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ منـه بدلَ الاشـتمالِ.

وقُرِئَ: (نُخَيِّلُ)[4] على إسنادِه إلى اللهِ تعالى، و: (تَخَيَّلُ)[5] بمعنى تَتَخَيَّلُ.

(٦٧) ـ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾: فأضمرَ فيها خوفًا مِن مُفاجأتِه على ما هو مُقتَضى الجبلَّةِ البشريَّةِ، أو من أن يخالجَ النَّاسَ شكٌّ فلا يتَّبعوهُ.

(٦٨) ـ ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ ما توهَّمْتَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ وتقريرٌ لغَلَبتِهِ مُؤكَّدًا[6] بالاستئنافِ، وحـرفِ التَّحقيقِ، وتَكريرِ الضَّميرِ، وتَعريفِ الخبرِ، ولفظِ العُلُوِّ الدَّالِّ على الغلبةِ الظَّاهرةِ، وصيغةِ التَّفضيلِ.

---

(١) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «بأنهم».

(٢) كذا جاء في هذه الرواية، وفيه نظر؛ فإنه لا يتصور أن تنطلي مثل هذه الحيلة على الناس الحاضرين جميعاً، وخصوصاً موسى عليه السلام وهو النبي الفطن الذي لا يتصور خداعه بالزئبق وأمثاله، وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وليس الطلي بالزئبق سحراً عظيماً، ولا يؤدي ذلك إلى تغيير الحبل بحيث يأخذ شكل الحية فالبون شاسع بين حبل مطلي بالزئبق وحية لها رأس وعينان وفم تتلوى وتتحرك.

(٣) وهي رواية ابن ذكوان عن ابن عامر وروح عن يعقوب. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٢)، و«النشر» (٢/ ٣٢١).

(٤) نسبت لأبي حنيفة في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٠٩)، ونسبت لأبي حيوة في: «البحر المحيط» (١٥/ ٩١).

(٥) نسبت لأبي السمال. انظر: «البحر المحيط» (ص: ٩١)، وذكرها الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٣٧٩) وزاد قراءة أخرى وهي: (تُخَيِّلُ) على كون الحبال والعِصيِّ مُخيِّلةً سعيَها، ونسبت لأبي السمال أيضاً كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

(٦) في نسخة الفاروقي: «مؤكد».

(٦٩) ـ ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أبهمَهُ ولم يقُل: (عصاكَ) تَحقيرًا لها؛ أي: لا تُبالِ بكَثرةِ حِبالِهم وعصيِّهم وألقِ العُوَيدةَ التي في يَدِكَ، أو تَعظيمًا لها؛ أي: لا تحتَفِل بكَثرةِ هذه الأَجرامِ وعِظَمِها فإنَّ في يمينِكَ ما هو أعظَمُ منها أثرًا فألقِه.

﴿تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوٓا﴾: تَبتَلِعْه بقدرةِ اللهِ تَعالى، وأصلُه: تتلقَّفْ، فحُذِفَت إحدى التَّاءينِ، وتاءُ المضارعةِ تحتملُ التَّأنيثَ، والخطابَ على إسنادِ الفعلِ إلى المسبِّبِ[١].

وقرأَ ابنُ عامرٍ بروايةِ ابنِ ذَكوان بالرَّفعِ على الحالِ أو الاستئنافِ، وحفصٌ بالجزمِ والتَّخفيفِ[٢] على أنَّه من لَقِفْتُهُ بمعنى: تَلَقَّفْتُه.

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾: إنَّ[٣] الذي زوَّرُوا وافتعَلوا.

﴿كَيْدُ سَـٰحِرٍ﴾، وقُـرِئَ بالنَّصبِ[٤] على أنَّ (ما) كافَّةٌ وهو مفعولُ ﴿صَنَعُوٓا﴾.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ ﴿سِحْرٍ﴾[٥] بمعنى: ذي سِحرٍ، أو بتَسمِيَةِ السَّاحرِ سِحْرًا على المُبالغةِ، أو بإضافةِ الكَيدِ إلى السِّحرِ للبَيانِ كقولِهم: علمُ فقهٍ.

وإنَّما وُحِّدَ السَّاحرُ لأنَّ المرادَ بـه الجـنسُ المُطلقُ، وكذلك قال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾؛ أي: هذا الجنسُ، وتنكيرُ الأوَّلِ لتَنكيرِ المُضافِ كقولِ العَجَّاج:

---

(١) في هامش نسخة الفاروقي: في نسخة: «إلى السبب».

(٢) وقرأ الباقون بالجزم وتشديد القاف، والبَزِّيُّ على أصله في تشديد التاء وصلاً. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٠)، و«التيسير» (ص: ١١٢ و١٥٢).

(٣) في نسخة التفتازاني: «أي».

(٤) الرفع قراءة الجمهور، والنصب ذكرها الهذلي في «الكامل» (ص: ٥٩٨) عن مجاهد وحميد، والكرماني في «شواذ القراءات» (ص: ٣٠٩) عن مجاهد.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢١)، و«التيسير» (ص: ١٥٢).

يومَ تَرى الـنُّـفوسُ مـا أَعَـدَّتِ   في سَعْيِ دُنْيَا طَالَمَا قَدْ مُدَّتِ[1]

كأنه قيل: إنَّما صَنعوا كيدٌ سِحرِيٌّ.

﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾: حيثُ كانَ وأينَ أقبَلَ.

(٧٠) ـ ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾؛ أي: فألْقَى فتَلَقَّفَتْ، فتَحقَّقَ عندَ السَّحرَةِ أنَّه ليسَ بسِحرٍ، وإنَّما هو آيةٌ مِن آياتِ اللهِ، ومُعجِزَةٌ مِن مُعجِزاتِه، فألقاهُم ذلك على وُجوهِهِم سُجَّدًا للهِ توبةً عمَّا صَنَعوا، وإعتابًا وتَعظيمًا لِمَا رَأَوا.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ قُدِّمَ هارونُ لكِبَرِ سنِّه، أو لـرَوِيِّ[2] الآيةِ، أو لأنَّ فِرعونَ ربَّى مُوسَى في صِغَرِه، فلو اقتُصرَ على مُوسى أو قُدِّمَ ذكرُه فربَّما تُوهِّمَ أنَّ المرادَ فرعونُ[3]، وذكرُ هارونَ على الاستتباعِ.

رُوِيَ أنَّهُم رَأَوا في سُجودِهِم الجنَّةَ ومَنازِلَهُم فيها[4].

(٧١) ـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾؛ أي: لِمُوسـى ـ والـلامُ لتَضـمينِ[5] الفعـلِ مَعنـى الاتِّبـاعِ[6] ـ ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ فـي الإيمـانِ لـه[7].

---

(١) انظر: «ديوان العجاج» (ص: ٢٦٢)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ١٣٥)، و«الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٣/ ٣٠١)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٢٩٦).

(٢) في نسخة التفتازاني: «برؤوس».

(٣) أي: أن المراد بـ(رب موسى): مَن رباه وهو فرعون.

(٤) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة كما في «الدر المنثور» (٥/ ٥٨٦)، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٤٦٥).

(٥) في نسخة الخيالي: «لتضمُّن».

(٦) كتب فوقها في نسخة الفاروقي: «الأولى بمعنى التسليم لأن الاتباع متعد بنفسه فلا يحتاج إلى الصلة. سعدي».

(٧) في هامش نسخة الطنطاوي: «وقرأ قنبل وحفص: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ على الخبر، والباقون على الاستفهام». انظر: «التيسير» (ص: ١٥٢).

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾: لَعَظيمُكم في فَنِّكُم وأعلمُكُم به، أو: لأُستاذُكُم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وأنتُم تَواطَأْتُم على ما فَعَلْتُم.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: اليَدُ اليُمْنَى والرِّجلُ اليُسرَى، و﴿مِّنْ﴾ ابتدائيَّةٌ كأنَّ القطعَ ابتدأَ مِن مُخالفةِ العُضوِ العُضْوَ، وهي مع المجرورِ بها في حيِّزِ النَّصبِ على الحالِ؛ أي: لأُقَطِّعَنَّها مُختَلِفاتٍ.

وقُرِئَ: (لَأَقْطَعَنَّ... ولأَصْلِبَنَّ) بالتَّخفيفِ[١].

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ شبَّهَ تمكُّنَ المَصلوبِ بالجذعِ بتَمكُّنِ المَظروفِ بالظَّرفِ، وهو أوَّلُ مَن صَلَبَ.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾ يريدُ نفسَهُ وموسى؛ لقولِه: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾، واللامُ مع الإيمانِ في كتابِ اللهِ لغيرِ اللهِ، أرادَ بهِ تَوضيعَ مُوسى والهزءَ بِهِ؛ فإنَّه لم يَكُن مِن التَّعذيبِ في شَيءٍ.

وقيل: ربَّ موسى الذي آمَنُوا به[٢].

﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾: وأدومُ عِقابًا.

(٧٢) ـ ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾: لَنْ نَختارَكَ ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ موسى به، ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ فيه لِـ﴿مَا﴾.

﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: المُعجِزَاتِ الواضِحَاتِ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عطفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا﴾ أو قَسمٌ ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾: ما أنتَ قاضيهِ؛ أي: صانِعُه أو[٣] حاكمٌ بِهِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١) عن ابن محيصن.

(٢) قوله: «وقيل: رب موسى» معطوف على «موسى» بحسب المعنى؛ أي: المراد من الضمير نفسُه وربُّ موسى، وقد أشار لتضعيفه، ووجه ضعفه ما مر من أن التعدية باللام تكون لغير الله. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) في نسخة الفاروقي: «أي»، وفي الهامش كالمثبت نسخة.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾: إنَّما تَصنَعُ ما تَهواهُ، أو تَحكُمُ بما تَراهُ في هذه الدُّنيا، والآخرةُ[1] خَيرٌ وأَبْقَى، فهو كالتَّعليلِ لِمَا قبلَهُ والتَّمهيدِ لِمَا بعدَه.

وقُرِئَ: (تُقْضَى هذه الحياةُ الدنيا)[2] كقولك: صِيمَ يَوْمُ الجُمعةِ.

(٧٣) - ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ من الكفرِ والمَعاصي ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ مِن مُعارضةِ المُعجِزَةِ.

رُوِيَ أنَّهُم قالوا لِفرعونَ: أَرِنَا مُوسَى نائمًا، فوَجدوهُ تَحرُسُه العَصَا، فقالوا: ما هذا بِسِحْرٍ فإنَّ السَّاحِرَ إذا نام بطلَ سِحرُهُ، فأبى إلا أَنْ يُعارِضُوه[3].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ جزاءً، أو: خَيرٌ ثوابًا وأبقى عِقابًا.

(٧٤) - ﴿إِنَّهُۥ﴾: إنَّ الأمرَ ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ بأَنْ يموتَ على كُفرِهِ وعِصيانِه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريحَ ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً مهنَّأَةً.

(٧٥) - ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في الدُّنيا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾: المنازلُ الرَّفيعةُ.

(٧٦) - ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ مِن ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ﴾ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ، والعامِلُ فيها مَعنى الإشارةِ، أو الاستقرارُ.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾: تطهَّرَ مِن أدناسِ الكُفرِ والمَعاصِي.

والآياتُ الثَّلاثُ يحتملُ أن تكونَ مِن[4] كَلامِ السَّحرةِ، وأن تكونَ ابتداءَ كَلامٍ مِن اللهِ.

(١) في نسخة الفاروقي والتفازاني: «وللآخرة».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١) عن أبي حيوة.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٢) عن عبد العزيز بن أبان.

(٤) في نسخة الخيالي: «معنى».

(٧٧) ـ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾؛ أي: مِن مصرَ ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾: فاجعَلْ لهم؛ مِن قولِهم: ضربَ له في مالِه سَهْمًا، أو[1]: فاتَّخِذْ؛ مِن ضَرَبَ اللَّبِنَ: إذا عَمِلَهُ.

﴿فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾: يابسًا، مَصدَرٌ وُصِفَ به؛ يقال: يَبِسَ يُبْسًا ويَبَسًا؛ كسَقِمَ سُقْمًا وسَقَمًا، ولذلك وُصِفَ به المؤنَّثُ، يقال[2]: (شاةٌ يَبَسٌ) لِلَّتي جفَّ لبنُها.

وقُرِئَ: (يَبْسًا)[3]، وهو: إما مخفَّفٌ منه، أو وصفٌ على فَعْلٍ كصَعْبٍ، أو جمعُ يابسٍ كصَحْبٍ؛ وُصِفَ به الواحدُ مُبالغةً كقولِه:

كَأَنَّ قُتُودَ رَحْلِي حِينَ ضَمَّتْ حَوَالِبَ غُرَّزًا ومِعًى جِيَاعَا[4]

أو لتَعدُّدِه مَعنًى، فإنَّه جَعَلَ لكلِّ سِبْطٍ مِنْهُم طريقًا.

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ حالٌ مِن المأمورِ؛ أي: آمنًا مِن أن يُدرِكَكُم العدوُّ، أو صِفةٌ ثانيةٌ والعائدُ مَحذوفٌ.

وقَرأَ حمزةُ ﴿لا تَخَفْ﴾[5] على أنَّه جوابُ الأَمرِ، و﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ استئنافٌ؛ أي: وأنتَ لا تخشى، أو عطفٌ عليه والأَلِفُ فيه للإطلاقِ كقولِه:

---

(١) في نسخة الخيالي: «أي».

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فقيل».

(٣) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

(٤) البيت للقطامي، وهو في «ديوانه» (ص: ٤١)، و«المذكر والمؤنث» لابن الأنباري (١/ ٣٩٧)، و«المقصور والممدود» للقالي (ص: ١٨٩)، و«تهذيب اللغة» (٣/ ١٥٩)، وفي بعض المصادر بدل (قتود): (نسوع)، وهو جمع نِسْعٍ، وهو سَيرٌ يضفر على هيئة النعال تشد به الرحال، ويجمع على أنساعٍ ونِسَعٍ. والقطعة منه: نِسْعَةٌ.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢١)، و«التيسير» (ص: ١٥٢).

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، أو حالٌ بالواوِ، والمعنى: ولا تخشى الغرقَ[1].

(٧٨) ـ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ وذلك أنَّ مُوسى عليهِ السَّلامُ خرجَ بهم أوَّلَ الليلِ، فأُخبِرَ فرعونُ بذلك فقَصَّ أثَرَهُم، والمعنى: فأتبَعَهُم فرعونُ نفسَهُ ومعه جُنودُهُ، فحُذِفَ المَفعولُ الثَّاني.

وقيل: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ بمَعنى: (فاتَّبعهم)، ويؤيِّدُه القراءةُ به[2].

والباءُ للتَّعدِيَةِ، وقيل: الباءُ مَزيدةٌ والمعنى: فأتبَعَهُم جنودَهُ وذادَهُم[3] خَلفَهُم.

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ الضَّميرُ لِـ﴿جُنودَه﴾ أو له ولَهُم، وفيه مُبالغةٌ ووجازةٌ؛ أي: غَشِيَهُم ما سمعتَ قصَّتَه ولا يَعرفُ كُنْهَه إلا الله.

وقُرِئَ: (فغَشَّاهم... ما غشَّاهُم)[4]؛ أي: غطَّاهُم ما غطَّاهُم، والفاعلُ هو اللهُ تعالى، أو (ما غشَّاهُم)، أو فرعونُ لأنَّه الذي وَرَّطَهُم للهَلاكِ.

(٧٩) ـ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾؛ أي: أضلَّهُم في الدِّينِ وما هداهُم، وهو تَهكُّمٌ به في قولِه: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، أو: أضلَّهُم في البَحرِ وما نَجا[5].

(٨٠ ـ ٨١) ـ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خطابٌ لهم بعد إنجائِهم مِن البَحرِ وإهلاكِ فرعونَ، على إضمارِ: قلنا، أو للَّذينَ مِنْهُم في عهدِ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ بما فُعِلَ بآبائِهم.

---

(١) هذه الوجوه الثلاثة في ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ هي على قراءة حمزة، تعليلًا لإثبات الألف، أما على قراءة الجمهور فالأمر فيه سهل لا يحتاج لتأويل.

(٢) هي رواية عن أبي عمرو، كما في «السبعة» (ص: ٤٢٢)، و«الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٤٠).

(٣) أي: ساقهم.

(٤) نسبت للأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

(٥) في نسخة التفتازاني زيادة: «بهم»، وفي نسخة الطبلاوي: «نجاهم».

﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾: فرعونَ وقومِه.

﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ لِمُناجاةِ موسى وإنزالِ التَّوراةِ عليه، وإنَّما عدَّى المواعَدةَ إليهِم ـ وهي لِمُوسى، أو لهُ وللسَّبعينَ المُختارينَ ـ للمُلابسَةِ.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ يعني: في التِّيهِ.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾: لذائذِه، أو: حلالاتِه.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿أَنْجَيتُكُم... وواعَدْتُكُم... ما رزقتُكُمْ﴾ على التَّاءِ[1].

وقُرِئَ: (ووعدْتُكم)[2]، ﴿ووعَدْناكم﴾[3]، و(الأَيمنِ) بالجرِّ[4] على الجوارِ مثل: جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ.

﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾: فيما رَزَقناكُم بالإخلالِ بشُكرِهِ والتَّعدِّي لِمَا حدَّ اللهُ لَكُم فيه؛ كالسَّرَفِ والبَطَرِ والمنعِ عَنِ المُستَحِقِّ.

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ فيلزَمَكُم عَذابِي ويَجِبَ لَكُم، مِن حلَّ الدَّينُ: إذا وجبَ أداؤُه.

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾: فقَدْ تَردَّى وهلكَ، وقيل: وقعَ في الهاويَةِ.

وقرأ الكِسائيُّ: ﴿يَحُلَّ﴾ و﴿يَحْلُلْ﴾ بالضَّمِّ[5] مِن حَلَّ يَحُلُّ: إذا نزلَ.

---

(١) وقرأ أبو عمرو: ﴿أَنْجَيْناكُمْ... ووَعَدْناكُمْ... ما رَزَقْناكُمْ﴾، والباقون: ﴿أَنْجَيْناكُمْ... ووَاعَدْناكُمْ... ما رَزَقْناكُمْ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٢)، و«التيسير» (ص: ٧٣ و١٥٢)، و«النشر» (٢/ ٣٢١).

(٢) بغير ألف من وعد، هي رواية غير مشهورة عن أبي عمرو. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣١٠).

(٣) هي قراءة أبي عمرو، وتقدم ذكرها.

(٤) رويت عن أبي عمرو في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٥٢).

(٨٢) ـ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ عَنِ الشِّركِ ﴿وَءَامَنَ﴾ بما يجبُ الإيمانُ به ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾: ثمَّ استقامَ على الهُدَى المَذكورِ.

(٨٣) ـ ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤالٌ عَن سببِ العَجَلةِ يَتضمَّنُ إنكارَهَا مِن حَيثُ إنَّها نقيصةٌ في نفسِها انضَمَّ إليها إغفالُ القومِ وإيهامُ التَّعظُّمِ عليهِمْ، فلذلك أجابَ مُوسى عَنِ الأَمرَينِ وقَدَّمَ جوابَ الإنكارِ لأنَّه أهَمُّ:

(٨٤) ـ ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾: ما تَقَدَّمْتُهُم إلا بخُطًى يَسيرَةٍ لا يُعتَدُّ بها عادةً، وليسَ بيني وبينَهُم إلا مسافةٌ قَريبةٌ يتقدَّمُ بها الرُّفقَةُ بَعضُهُم بعضًا.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ فإنَّ المُسارعةَ إلى امتثالِ أمرِكَ والوَفاءِ بعَهدِكَ تُوجِبُ مرضاتَكَ.

(٨٥) ـ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾: ابتَلَيْناهُم بعبادةِ العجلِ بعدَ خُروجِكَ مِن بَينِهِم، وهُم الذين خلَّفَهم مع هارونَ وكانوا ستَّ مئةِ ألفٍ، ما نجا مِن عبادةِ العجلِ مِنْهُم إلا اثنا عشرَ ألْفًا.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ باتِّخاذِ العجلِ والدُّعاءِ إلى عبادتِه.

وقُرِئَ: (وأضلُّهُم)[١]؛ أي: أشدُّهُم ضلالَةً؛ لأنَّه كانَ ضَالًّا مُضِلًّا.

وإن صَحَّ أنَّهُم أَقامُوا على الدِّينِ بعدَ ذَهابِه عشرينَ ليلَةً وحسَبوها بأيَّامِها أربعينَ، وقالوا: قد أكمَلْنَا العِدَّةَ، ثمَّ كانَ أَمرُ العجلِ، وأن هذا الخطابَ كان له عند مقدَمِه إذ ليسَ في الآيةِ ما يدلُّ عليه= كان ذلك إخبارًا مِن اللهِ لهُ عَن المترقَّبِ بلفظِ الواقعِ على عادَتِه، فإنَّ أَصلَ وُقوعِ الشَّيءِ أن يكونَ في علمِه ومُقتضى مَشيئَتِه.

والسَّامريُّ مَنسوبٌ إلى قبيلةٍ مِن بَنِي إسرائيلَ يقالُ لها: السَّامرةُ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١) عن أبي معاذ.

وقيل: كانَ عِلْجًا[١] مِن كَرْمَانَ[٢].

وقيل: مِن أهلِ باجَرْمَا[٣]، واسمُه: مُوسَى بنُ ظَفَر، وكان مُنافِقًا.

(٨٦) ـ ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعدَما استَوْفَى الأَربعينَ وأخذَ التَّوراةَ ﴿غَضْبَٰنَ﴾ عليهم ﴿أَسِفًا﴾: حزينًا بما فَعَلوا.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأَنْ يُعطِيَكُم التَّوراةَ فيها هُدًى ونُورٌ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾؛ أي: الزَّمانُ، يعني: زمانَ مُفارقتِه لَهُم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾: يَجِبَ عليكُم ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعبادةِ ما هو مَثَلٌ في الغباوةِ ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾: وعدَكُم إيَّايَ بالثَّباتِ على الإيمانِ باللهِ والقيامِ على ما أَمَرْتُكُم بِهِ.

وقيل: هو مِن أَخْلَفْتُ وعدَهُ: إذا وجدتَ الخُلفَ فيه؛ أي: فوجَدْتُم الخلفَ في وَعدِي لَكُم بالعَودِ بعدَ الأربعينَ، وهو لا يُناسِبُ التَّرتيبَ على التَّرديدِ، ولا على الشِّقِّ الذي يليه، ولا جوابَهُم له[٤].

---

(١) العِلْجُ: القَوِيُّ الضَّخمُ، والعِلْجُ: الرَّجلُ مِن كُفَّارِ العَجَمِ وغيرهم. انظر: «النهاية» لابن الاثير (٣/ ٢٨٦) مادة: (علج).

(٢) كرمان: بفتح الكاف أو كسرها، وسكون الراء. ناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٤٥٤).

(٣) بفتح الجيم وسكون الراء: قرية من أعمال البليخ قرب الرّقّة من أرض الجزيرة. انظر: «معجم البلدان» (١/ ٣١٣).

(٤) قوله: «وهو لا يناسب الترتيب»؛ أي: بالفاء «على الترديد»؛ أي: على كلا شقَّي الترديد بالهمزة و﴿أَمْ﴾، ولا على الأخير؛ لأنه إما عليهما أو على الأخير منهما، وأما ترتبه على الأول وإن احتمل فلا يحسن مع الفاصل بينهما لأن طول العهد ومباشرة ما يقتضي غضب الله لا يترتب عليه وجدان خلفه للعهد، وكذا الأخير، وكذا قولهم في الجواب: ﴿بِمَلْكِنَا﴾. فتأمل. انظر: «حاشية الشهاب».

(٨٧) ـ ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمِلۡكِنَا﴾: بأَنْ مَلَكْنا أمرَنا، إذ لو خُلِّينا وأَمْرَنا ولم يُسوِّلْ لنا السَّامريُّ لَمَا أخلفناهُ.

وقرأَ نافعٌ وعاصِمٌ: ﴿بِمَلۡكِنَا﴾ بالفتحِ، وحمزةُ والكِسائيُّ بالضَّمِّ[(١)]، وثلاثتُها في الأصلِ لغاتٌ في مصدرِ مَلَكْتُ الشَّيءَ.

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾: أحمالًا مِن حُليِّ القبطِ التي استَعَرْناها مِنْهُم حينَ هَمَمْنا بالخُروجِ مِن مصرَ باسمِ العُرسِ[(٢)].

وقيل: استعاروا لعيدٍ كانَ لَهُم ثمَّ لم يردُّوا عند الخروجِ مخافةَ أن يعلَمُوا به.

وقيل: هي ما ألقاه البحرُ على الساحلِ بعد إغراقِهم فأخذوه.

ولعلهم سمَّوها أوزاراً لأنها آثام، فإنَّ الغنائمَ لم تكن تحُلُّ بعدُ، ولأنهم كانوا مُستأمِنين وليس للمُستأمِن أن يأخذَ مالَ الحربي.

﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ في النَّارِ ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾؛ أي: ما كانَ معَهُ منها.

رُوِيَ أنَّهُم لَمَّا حَسِبُوا أنَّ العِدَّةَ قد كَمَلَتْ قال لهم السَّامريُّ: إنَّما أَخلفَ مُوسى ميعادَكُم لِمَا معكَم مِن حليِّ القَومِ وهو حرامٌ عليكُم، فالرَّأيُ أن نحفرَ حُفَيرةً ونُسجِّرَ فيها نارًا ونَقْذِفَ كلَّ ما معنا فيها، ففَعَلُوا.

وقرأَ أبو عَمرٍو وحمزةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ ورَوْحٌ: ﴿حَمَلۡنَا﴾ بالفتحِ والتَّخفيفِ[(٣)].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

(٢) قوله: «باسم العرس» الباء للسببية و«اسم» إمّا مقحم، أو المراد: بتسمية العرس، بأن قالوا لهم: إن لنا عرساً فأعيروها لنا لنتزين بها فيه. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٥٣)، و«النشر» (٢/ ٣٢٢).

(٨٨) ـ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ مِن تلك الحليِّ المُذابةِ ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: صوتُ العجلِ.

﴿فَقَالُوا۟﴾ يعني: السَّامريَّ ومَن افتتنَ به أوَّلَ ما رآه: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾؛ أي: فنَسِيَهُ موسى وذهبَ يطلبُه عندَ الطُّورِ، أو: فنَسِيَ السَّامريُّ؛ أي: ترك ما كانَ عليه مِن إظهارِ الإيمانِ.

(٨٩) ـ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾: أفلا يَعلمونَ ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾: أنَّه لا يرجعُ إليهِمْ كلامًا ولا يردُّ عليهِم جوابًا.

وقُرِئَ: (يَرْجِعَ) بالنَّصبِ[1]، وفيه ضعفٌ لأنَّ (أنْ) النَّاصبةَ لا تقعُ بعدَ أفعالِ اليقينِ.

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: ولا يقدرُ على إنفاعِهم وإضرارِهم[2].

(٩٠) ـ ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ رجوعِ مُوسى عليهِ السَّلامُ، أو قولِ السامريِّ، كأنَّه أولَ ما وقعَ عليه بصرُهُ حين طلعَ مِن الحفرةِ توهَّمَ ذلك وبادرَ تَحذيرَهُم[3]: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾: بالعجلِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لا غير ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ في الثَّباتِ على الدِّينِ.

---

(١) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩١ ـ ٩٢).

(٢) قوله: «على إنفاعهم وإضرارهم» قال الشهاب: لم يوجد في كتب اللغة (أنفع) وقد خطئ فيه المصنف رحمه الله، وكأنه لمشاكلة الإضرار هنا. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) قوله: «أو قول السامري» هو قوله: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ وقوله: «توهم»؛ أي: تفرَّس ولو بالظن؛ للقرائن المشاهَدة منهم، وإنما يكون هذا قبل قوله، وقوله: «وبادر تحذيرهم»؛ أي: إلى تحذيرهم. انظر: «حاشية الشهاب».

(٩١) ـ ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ﴾: على العجلِ وعِبادَتِه ﴿عَٰكِفِينَ﴾: مقيمينَ ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ وهذا الجوابُ يؤيِّدُ الوجهَ الأَوَّلَ[1].

(٩٢) ـ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ﴾؛ أي: قالَ له موسى لَمَّا رجعَ: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ بعبادةِ العجلِ.

(٩٣) ـ ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾[2]: أَنْ تتَّبعني في الغضبِ للهِ والمقاتلةِ مع مَن كفرَ بهِ، أو أن تأتيَ عَقِبي وتَلحقَني، و﴿لا﴾ مزيدةٌ كما في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ بالصَّلابةِ في الدِّينِ والمحاماةِ عليه.

(٩٤) ـ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ خصَّ الأمَّ استعطافًا وترقيقًا، وقيل: لأنَّه كان أخاهُ مِن الأمِّ، والجمهورُ على أنَّهما كانا مِن أبٍ وأُمٍّ.

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾؛ أي: بشعرِ رَأسي، قبضَ عليهِمَا يجرُّهُ إليه مِن شدَّةِ غيظِهِ وفَرْطِ غَضبهِ للهِ، وكانَ عليهِ السَّلامُ حَديدًا خَشِنًا مُتصلِّبًا في كلِّ شَيءٍ، فلَمْ يَتمالَك حينَ رآهُم يعبدونَ العِجلَ.

﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لو قاتلتُ، أو: فارَقْتَ بعضَهُم ببَعضٍ[3].

---

(١) قوله: «وهذا الجواب يؤيد الوجه الأول» وهو تفسير قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ بقوله: من قبل رجوع موسى. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) كتبت في نسخة الطبلاوي: «تتبعني» بالياء، وهذه الياء أثبتها في الوصل دون الوقف نافع وأبو عمرو، وأثبتها في الحالين ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب، إلا أن أبا جعفر فتحها وصلاً. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٣).

(٣) عبارة «الكشاف» (٥/ ٣٩٧): «لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا وتفانوا».

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ حين قلتُ: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فإنَّ الإصلاحَ كانَ في حفظِ الدَّهْماءِ والمداراةِ بهم إلى أَنْ ترجعَ إِلَيْهِم فتُدارِكَ الأَمرِ برَأيِكَ.

(٩٥) ـ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾؛ أي: ثمَّ أقبَلَ إليه[1] فقالَ لهُ مُنكِرًا: ما خطبُك؟ أي: ما طلبُكَ له، وما الذي حملكَ عليه؟ وهو مصدرُ خَطَبَ الشَّيءَ: إذا طَلَبَه.

(٩٦) ـ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ بالتَّاءِ على الخطابِ[2]؛ أي: عَلِمتُ ما لم تعلموهُ وفَطِنْتُ لِمَا لم تفطَنُوا له، وهو أنَّ الرَّسولَ الذي جاءكَ روحانيٌّ محضٌ لا يُمَسُّ أثرُه شيئًا إلَّا أحياه، أو: رأيتُ ما لم ترَوْهُ، وهو أنَّ جبريلَ جاءكَ على فرسِ الحياةِ.

قيل: إنَّما عرفَهُ لأنَّ أُمَّهُ أَلقَتْهُ حينَ ولدَتْهُ خوفًا مِن فِرعونَ، وكانَ جِبريلُ يَغذوهُ حتَّى استَقلَّ[3].

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ مِن تربةِ مَوْطِئِه[4]، والقبضَةُ: المرَّةُ من القَبضِ، وأُطلِقَ على المقبوضِ كـ: ضَرْبِ الأميرِ.

وقُرِئَ بالصَّادِ[5]، والأوَّلُ للأخذِ بجميعِ الكفِّ والثَّاني للأخذِ بأطرافِ الأصابعِ، ونحوُهما: الخَضْمُ والقَضْمُ[6].

---

(١) في نسخة الطبلاوي والفاروقي: «عليه».

(٢) أي: ﴿تبصروا﴾ انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦٥) عن السدي.

(٤) في نسخة التفتازاني: «من تربته التي وطئه فرسه».

(٥) أي: (فقَبَصْتُ قبْصَةً)، وفي قاف (قبصة) قراءتان: الضم والفتح، فقرأ بالضم الحسن بخلف، وبالفتح قرأ ابن مسعود وعبد الله بن الزبير وأبي بن كعب ونصر بن عاصم والحسن وقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢)، و«المحتسب» (٢/ ٥٥).

(٦) قال في «الكشاف» (٥/ ٣٩٨): «الخاء بجميع الفم والقافُ بمُقَدَّمه».

والرَّسولُ: جبريلُ عليهِ السَّلامُ، ولعلَّه لم يُسمِّهِ لأنَّه لم يعرِفْ أنَّه جبريلُ، أو أرادَ أنْ ينبِّهَ على الوقتِ، وهو حينَ أرسلَ إليه ليذهبَ به إلى الطُّورِ.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في الحليِّ المذابةِ[1]، أو في جوفِ العجلِ حتى حَيِيَ.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾: زيَّنَتْهُ وحَسَّنَتْه إليَّ.

(٩٧) - ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ عقوبةً على ما فعلتَ ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خوفًا من أن يمسَّكَ أحدٌ فتَأْخُذَكَ[2] الحُمَّى ومَن مسَّكَ، فتُحامي النَّاسَ ويُحاموكَ، وتكونُ طريدًا وحيدًا كالوحشيِّ النَّافرِ.

وقُرِئَ: (لا مَسَاسِ) كفَجَارِ[3]، وهو علمٌ للمسَّةِ.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرةِ ﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾: لن يُخْلِفَكَه اللهُ، ويُنجزُهُ لك في الآخرةِ بعدما عاقبَكَ في الدُّنيا.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ والبصريَّانِ بكسرِ اللامِ[4]؛ أي: لَنْ تُخلِفَ الواعدَ إيَّاه وستأتيهِ لا محالةَ، فحُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ لأنَّ المَقصودَ هو الموعدُ.

ويجوزُ أن يكونَ مِن أَخْلَفْتُ الوعدَ: إذا وجدتَه خُلْفًا.

وقُرِئَ بالنُّونِ[5] على حكايةِ قولِ اللهِ تعالى.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾: ظَلِلْتَ على عِبادَتِه مُقيمًا، فحذفَ اللامَ الأولى تخفيفًا. وقُرِئَ بكَسرِ الظَّاءِ[6] على نقلِ حركةِ اللامِ إلَيْها.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «المذاب».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «فتأخذ».

(٣) انظر: «المحتسب» (٢/ ٥٦)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣١٢) عن أبي حيوة.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٣)، و«النشر» (٢/ ٣٢٢).

(٥) انظر: «المحتسب» (٢/ ٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٦٢)، عن الحسن.

(٦) نسبت لابن مسعود وقتادة والأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢).

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾؛ أي: بالنَّارِ، ويُؤيِّدُه قِراءةُ: ﴿لنُحْرِقَنَّه﴾[١]، أو بالمِبْرَدِ على أنه مبالغةٌ في حَرَقَ: إذا بردَ بالمبردِ، ويعضدُهُ قراءةُ: ﴿لنَحْرُقَنَّه﴾[٢].

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾: ثم لنُذَرِّيَنَّهُ رمادًا أو مبرودًا، وقُرِئَ بضمِّ السِّينِ[٣].

﴿فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ فلا يُصادَفُ منه شيءٌ، والمقصودُ من ذلك: زِيادةُ عُقوبَتِه، وإظهارُ غَباوَةِ المُفتَتنينَ بهِ لِمَن لَهُ أَدْنَى نَظرٍ.

(٩٨) ـ ﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ﴾ المستحِقُّ لِعبادَتِكُم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا أحدَ يُماثِلُه أو يُدانيهِ في كمالِ العلمِ والقُدرةِ ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾: وسعَ علمُه كلَّ ما يَصِحُّ أن يُعلَمَ، لا العجلُ الذي يُصاغُ ويُحرقُ، وإن كانَ حَيًّا في نفسِهِ كانَ مَثلًا في الغباوةِ.

وقُرِئَ: (وَسَّعَ)[٤]، فيكونُ انتصابُ ﴿عِلْمًا﴾ على المَفعوليَّةِ؛ لأنَّه وإن انتصبَ على التَّمييزِ في المَشهورةِ لكنَّه فاعِلٌ في المعنى، فلَمَّا عُدِّيَ الفعلُ بالتَّضعيفِ إلى مفعولينِ صارَ مَفعولًا.

(٩٩) ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الاقتصاصِ ـ يَعني: اقتصاصَ قصَّةِ مُوسى عليهِ السَّلامُ ـ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾: مِن أخبارِ الأُمورِ الماضيةِ والأُمَمِ الدَّارجةِ؛ تبصرةً لك، وزيادةً في علمكَ، وتَكثيرًا لِمُعجزاتِكَ، وتَنبيهًا وتذكيرًا للمُستبصِرينَ مِن أُمَّتِك.

---

(١) قرأ بها أبو جعفر من رواية ابن جمَّاز، وقرأ من رواية ابن وردان: ﴿لَنَحْرُقَنَّهُ﴾. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٢).

(٢) تقدم أنها قراءة أبي جعفر في إحدى الروايتين عنه. وذكرها في «المحتسب» (٢/ ٥٨) عن علي وابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ وعمرو بن فائد.

(٣) نسبت لعيسى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢).

(٤) نسبت لمجاهد وقتادة. انظر: «المحتسب» (٢/ ٥٨)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢).

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾: كتابًا مُشتَمِلًا على هـذهِ الأقاصيصِ والأخبارِ، حَقيقًا بالتَّفكُّرِ والاعتبارِ.

والتَّنكيرُ فيه للتَّعظيمِ.

وقيل: ذكرًا جميلًا وصيتًا عظيمًا بينَ النَّاسِ.

(١٠٠) ـ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾: عَن الذِّكرِ الذي هو القُرآنُ الجامعُ لوُجوهِ السَّعادةِ والنَّجاةِ، وقيل: عـن اللهِ تعالى.

﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾: عقوبةً ثقيلةً فادحةً على كُفرِهِ وذُنوبِه. سَمَّاهَا وزرًا تَشبيهًا لثِقَلِها على المعاقَبِ وصعوبةِ احتمالِها بالحَمْلِ الذي يَفْدحُ الحاملَ[٥] ويَنقُضُ ظهرَهُ وزرًا.

أو: إثمًا عظيمًا.

(١٠١) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾: فـي الوزرِ، أو في حَملِه، والجمعُ فيه والتَّوحيدُ في ﴿أَعْرَضَ﴾ للحملِ على المَعنَى واللفظِ.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾؛ أي: بئسَ لَهُم، ففيه ضَميرٌ مُبهَمٌ يُفسِّرُه ﴿حِمْلًا﴾، والمخصوصُ بالذمِّ مَحذوفٌ؛ أي: ساءَ حملًا وزرُهُم، واللامُ فـي ﴿لَهُمْ﴾ للبَيانِ كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولو جُعلَ (ساءَ) بمَعنى: أحزنَ، والضَّميرُ الذي فيه لِلْوِزرِ = أشكلَ أمرُ اللامِ ونَصْبُ ﴿حِمْلًا﴾، ولـم يُفِد مَزيدَ مَعْنًى.

---

(٥) فـي نسـخة الطبلاوي: «يقدح الحامـل»، ويفدح: يثقل، يقـال: فدحه الدين أي أثقلـه. انظر: «تهذيب اللغة» (٤/ ٢٤٨).

(١٠٢) ـ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ وقرأ أبـو عَمرٍو بالنُّونِ[١] على إسنادِ النَّفخِ إلى الآمرِ بهِ تَعظيمًا له، أو للنَّافخ.

وقُرِئَ بالياءِ المفتوحةِ[٢] على أنَّ فيهِ ضميرَ اللهِ، أو ضميرَ إسرافيلَ ـ وإنْ لم يجرِ ذِكرُهُ ـ لأنَّه المَشهورُ بذلك.

وقُرِئَ: (في الصُّوَرِ)[٣] وهو جمعُ صورةٍ، وقد سبقَ بَيانُ ذلك.

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ وقُرِئَ: (يُحْشَرُ المجرمونَ)[٤].

﴿زُرْقًا﴾: زرقَ العيونِ، وُصِفُوا بذلك لأنَّ الزُّرقةَ أسوَأُ ألوانِ العينِ[٥] وأبغَضُها إلى العربِ؛ لأنَّ الرُّومَ كانوا أعدى أَعدائِهم وهم زُرْقٌ[٦]، ولذلك قالوا في صفَةِ العَدُوِّ: أسوَدُ الكبدِ، أصهبُ السِّبالِ[٧]، أزرقُ العَينِ.

أو: عُميًا، فإنَّ حدقةَ الأعمى تَزْراقُّ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

(٢) القراءة بلا نسبة في «الكشاف» (٥/ ٤٠٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٦٢)، وفي «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣١٣): وعن الأعرج ويعقوب والحسن: (يوم ينفخ) بفتح وضم.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٢)، و«المحتسب» (٢/ ٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٦٣)، و«البحر المحيط» (١٥/ ١٣٧)، عن الحسن.

(٤) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٥٩٩ ـ ٦٠٠) عن الحسن، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٦٢) دون نسبة. قال ابن عطية: وهي قراءة مخالفة لخط المصحف.

(٥) في نسخة التفتازاني: «الألوان للعين».

(٦) أي: زرق العيون، كما يفهم من السياق.

(٧) الصَّهَبُ والصُّهْبة: لوَن حمرة في شَعَر الرأسِ واللِّحية إذا كان في الظاهر حُمرة وفي الباطن سواد. انظر: «العين» (٣/ ٤١٣). والسبال: جمع سَبَلَة، وهي الشارب. انظر: «الصحاح» (مادة: سبل). أو مقدم اللحية وما أسبل منها على الصدر. انظر: «النهاية» (مادة: سبل).

(١٠٣) - ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾: يَخفِضُونَ أَصواتَهُم لِمَا يَملأُ صُدورَهُم مِن الرُّعبِ والهولِ، والخَفْتُ: خَفْضُ الصَّوتِ وإخفاؤُه.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾؛ أي: في الدُّنيا، يَستَقصِرُونَ مُدَّةَ لُبثِهِم فيها لزَوالِها، أو لاستطالَتِهِم مدَّةَ الآخرةِ، أو لتأسُّفِهِم عليها لمَّا عايَنُوا الشَّدائدَ وعَلِمُوا أَنَّهُم استَحقُّوهَا على إضاعَتِهَا في قضاءِ الأوطارِ واتِّباعِ الشَّهواتِ.

أو: في القبرِ؛ لقولِه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: ١٢] إلى آخرِ الآياتِ.

(١٠٤) - ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مُدَّةُ لُبثِهِم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أعدَلُهُم رأيًا أو عملًا: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ استرجاحٌ لقولِ مَن يكونُ أشدَّ تَقالًّا[١] مِنْهُم.

(١٠٥) - ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾: عَن مآلِ أمرِهَا، وقد سألَ عنه رجلٌ مِن ثقيف[٢] ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾: يجعَلُها كالرَّملِ ثمَّ يرسلُ عليها الرِّياح فتُفرِّقُها.

(١٠٦) - ﴿فَيَذَرُهَا﴾: فيذَرُ مقارَّها، أو الأرضَ وإضمارُها مِن غيرِ ذكرٍ لدلالةِ الجبالِ علَيها؛ كقولِه: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿قَاعًا﴾: خاليًا ﴿صَفْصَفًا﴾: مُستَوِيًا كأنَّ أجزاءها على صَفٍّ واحِدٍ.

(١٠٧) - ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾: اعوجاجًا ولا نُتوءًا إِنْ تأمَّلْتَ فيها بالقياسِ الهَندَسِي.

وثلاثتُها أحوالٌ مُترتِّبَةٌ، فالأَولانِ باعتبارِ الإحساسِ، والثَّالثُ باعتبارِ القِياسِ، ولذلك ذَكَر العِوَجَ بالكَسرِ وهو يُخصُّ بالمعاني، والأَمْتَ وهو النُّتوءُ اليَسيرُ.

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «ثقَالًا».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٤١)، وعزاه الواحدي في «البسيط» (١٤/ ٥٢١) لابن عباس على أن السائل رجال من ثقيف.

وقيل: ﴿لَّا تَرَىٰ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ للحالَين.

(١٠٨) ـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: يومَ إذ نُسِفَت، على إضافةِ اليَومِ إلى وقتِ النَّسفِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ بدلًا ثانيًا مِن ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [طه: ١٠١].

﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾: داعيَ اللهِ إلى المحشرِ، قيل: هو إسرافيلُ يَدْعُو النَّاسَ قائمًا على صَخرةِ بيتِ المقدسِ، فيُقبلونَ مِن كلِّ أَوْبٍ إلى صَوْبِه.

﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾: لا يعوجُّ له مَدعُوٌّ ولا يَعدلُ عنه.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾: خُفِضَت لِمَهابَتِه ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: صوتًا خَفِيًّا، ومنه: الهَمِيسُ لصوت أَخفافِ الإبلِ، وقد فُسِّرَ الهمسُ بخفقِ أَقدامِهم ونقلِها إلى المحشرِ.

(١٠٩) ـ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ الاستثناءُ مِن الشَّفاعةِ؛ أي: إلَّا شَفاعةُ مَن أذنَ، أو مِن أَعَمِّ المفاعيلِ؛ أي: إلَّا مَن أذنَ في أن يشفعَ له فإنَّ الشَّفاعةَ تنفعُهُ، فـ﴿مَنْ﴾ على الأوَّلِ مَرفوعٌ على البَدليَّةِ[١]، وعلى الثَّاني مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ.

و﴿أَذِنَ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مِن الإذْنِ[٢] أو مِن الأَذَنِ[٣].

﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾؛ أي: ورضيَ لِمَكانِه عندَ اللهِ قولَه في الشَّفاعةِ، أو: رضيَ لأَجلِه قولَ الشَّافعِ في شأنِه، أو قولَهُ لأجلِه وفي شأنِه.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بالبدلية».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «الآذان».

(٣) الأذن بفتحتين: الاستماع، والإذن بكسر الهمزة وسكون الذال: الإباحة والإطلاق. وقد نحو هذا الخلاف في حديث: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت أن يتغنى بالقرآن يجهر به». انظر: «فتح الباري» (٩/ ٦٩)، و«عمدة القاري» (٢٠/ ٤٠).

(١١٠) - ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما تقدَّمَهم مِن الأحوالِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: وما بعدَهُم ممَّا يَستقبلونَه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾: ولا يحيطُ عِلمُهُم بمَعلوماتِه، وقيل: بذاتِه.

وقيل: الضَّميرُ لأَحدِ المَوْصولَيْنِ، أو لِمَجموعِهِما، فإنَّهم لم يَعلَمُوا[1] جميعَ ذلك ولا تَفصيلَ ما عَلِموا مِنه.

(١١١) - ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾: ذلَّتْ وخَضَعت له خُضوعَ العُناةِ، وهم الأُسارى في يدِ المَلِكِ القهَّارِ، وظاهِرُها يَقتَضِي العُمومَ.

ويَجوزُ أَن يُرادَ بها وجوهُ المُجرمينَ، فتكُونُ اللامُ بدلَ الإضافةِ، ويؤيِّدُه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ وهو يحتمِلُ الحالَ، والاستئنافَ لبَيانِ ما لأجلِهِ عَنَتْ وُجوهُهُم.

(١١٢) - ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: بعضَ الطَّاعاتِ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ الإيمانُ شرطٌ في صِحَّةِ الطَّاعاتِ وقَبولِ الخَيراتِ ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾: مَنْعَ ثوابٍ مُستحَقٍّ بالوَعدِ ﴿وَلَا هَضْمًا﴾: ولا كَسرًا مِنه بنُقصانٍ.

أو: جزاءَ ظلمٍ وهَضمٍ؛ لأنَّه لم يَظلِمْ غيرَه ولم يَهضِم حقَّه.

وقُرِئَ: ﴿فلا يَخَفْ﴾ على النَّهيِ[2].

(١١٣) - ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾ [طه: ٩٩]؛ أي: مثلَ ذلك الإنزالِ، أو: مثلَ إنزالِ هذه الآياتِ المُتضمِّنَةِ للوَعيدِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ كلَّه على هذه الوَتيرةِ ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾: مُكَرِّرينَ فيه آياتِ الوَعيدِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصيَ فتصيرَ التَّقوى لَهُم مَلَكةً ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾: عِظةً واعتِبارًا حينَ يَسمَعونَها فتُثبِّطَهُم عنها، ولهذه النُّكتةِ أسندَ التَّقوى إليهم والإحداثَ إلى القُرآنِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «لا يعلمون»، وفي نسخة الطبلاوي: «لا يعلموا».

(٢) هي قراءة ابن كثير. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

(١١٤) ـ ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾ في ذاتِه وصِفاتِه عن مُماثلَةِ المَخلوقينَ لا يُماثل كلامُه كلامَهُم كما لا تُماثِلُ ذاتُه ذاتَهم.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾: النافِذُ أمرُه ونهيُه، الحقيقُ بأَنْ يُرجَى وعدُهُ ويُخشَى وَعيدُه.

﴿ٱلْحَقُّ﴾ في مَلَكوتِه يَستحقُّه لذاتِه، أو الثابتُ في ذاتِه وصفاته.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ نهيٌ عن الاستعجالِ في تَلَقِّي الوحيِ مِن جبريلَ ومُساوقَتِهِ في القراءة[1] حتى يَتمَّ وحيُهُ ـ بعدَ ذكرِ الإنزالِ ـ على سَبيلِ الاستِطرادِ.

وقيل: نهيٌ عن تبليغِ ما كانَ مُجمَلًا قبلَ أَنْ يأتيَ بَيانُه.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾؛ أي: سَلِ اللهَ زيادةَ العلمِ بدلَ الاستعجالِ، فإنَّ ما أُوحي إليك تنالُه لا محالةَ.

(١١٥) ـ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾: ولقَدْ أَمَرْناه، يقال: تقدَّمَ المَلَكُ إليه، وأوعزَ إليه، وعزَمَ عليه، وعَهِدَ إليه: إذا أمرَهُ، واللامُ جوابُ قسمٍ مَحذوفٍ، وإنَّما عَطَفَ قصَّةَ آدمَ على قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ أساسَ بني آدمَ على العصيانِ، وعِرقَهُم راسخٌ في النِّسيانِ.

﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قبلِ هذا الزَّمانِ ﴿فَنَسِيَ﴾ العهدَ ولم يُعْنَ بـهِ حتَّى غَفَلَ عنه، أو: تَرَكَ ما وُصِّيَ به مِن الاحترازِ عن الشَّجرةِ.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾: تصميمَ رأيٍ وثباتاً على الأَمرِ؛ إذ لو كان ذا عزيمةٍ وتَصلُّبٍ لم يُزِلَّهُ الشَّيطانُ ولم يَستَطِع تغريرَه، ولعلَّ ذلك كان في بدءِ أمرِهِ قبلَ أَنْ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «القرآن».

يُجرِّبَ الأمورَ ويذوقَ شَرْيَها وأريَها، وعن النبيِّ ﷺ: «لو وُزِنَتْ أحلامُ بني آدمَ بحِلْمِ آدمَ لرجحَ حِلمُهُ» وقد قالَ الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[1].

وقيل: عزمًا على الذَّنبِ؛ لأنَّه أخطأَ ولم يَتعمَّد.

و﴿لَمْ نَجِدْ﴾ إن كانَ مِن الوجودِ الذي بمَعنى العلمِ فـ﴿لَهُۥ عَزْمًا﴾ مفعولاهُ، وإن كانَ مِن الوجودِ المناقِضِ للعدمِ فـ﴿لَهُۥ﴾ حالٌ مِن ﴿عَزْمًا﴾ أو مُتعلِّقٌ بـ﴿نَجِدْ﴾.

(١١٦) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ مقدَّرٌ بـ: اذكُرْ؛ أي: اذكُرْ حالَه في ذلك الوقتِ ليتبيَّنَ لك أنَّه نَسِيَ ولم يَكُن مِن أُولي العَزيمةِ والثَّباتِ.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد سبقَ القولُ فيه.

﴿أَبَىٰ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ لبيانِ ما منعَهُ مِن السُّجودِ وهو الاستكبارُ، وعلى هذا لا يقدَّرُ له مَفعولٌ مثلَ (السُّجودَ) المدلولِ عليه بقولِه: ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ لأنَّ المعنى: أظهَرَ الإباءَ عَن المطاوعةِ.

(١١٧) ـ ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾: فلا يكونَنَّ سَبَبًا لإخراجِكُما، والمرادُ: نهيُهُما مِن أن يكونا بحيثُ يَتسبَّبُ الشَّيطانُ إلى إخراجِهِما.

﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أفردَهُ بإسنادِ الشَّقاءِ[2] إليه بعدَ إشراكِهِما في الخُروجِ اكتفاءً باستلزامِ شَقائِه شقاءَها مِن حيثُ إنَّه قيِّمٌ عليها، ومحافظةً على الفواصلِ.

---

(١) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» تكملة التفسير (٦/ ٢٧٥) (١٤٣٦)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ١٨٥)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (ص: ٢٣)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٥١٤٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٤٤)، عن أبي أمامة موقوفاً.

(٢) في نسخة التفتازاني: «الشقاوة».

أو لأنَّ المرادَ بالشَّقاءِ: التَّعبُ في طلبِ المعاشِ وذلك وظيفةُ الرِّجالِ، ويؤيِّدُه قـولـه:

(١١٨ ـ ١١٩) ـ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ فـإنَّه بيانٌ وتَذكيرٌ لِمَا له في الجنَّةِ مِن أَسبابِ الكِفايةِ وأقطابِ الكَفَافِ ـ التي هي: الشِّبَعُ والرِّيُّ والكِسوةُ والكِنُّ، مُستغنيًا عن اكتسابِها والسَّعي في تحصيلِ أعواضِ ما عَسى ينقطِعُ ويَزولُ منها ـ بذكرِ نَقائِضِها ليَطْرُقَ سمعَهُ بأصنافِ الشَّقوةِ المحذَّرِ منها.

والعاطفُ وإن نابَ عن (إنَّ) لكنَّه نابَ مِن حيثُ إنَّه حرفٌ عاملٌ لا مِن حيثُ إنَّه حَرفُ تحقيقٍ، فلا يمتنعُ دخولُهُ على (أنَّ) امتناعَ دُخولِ (إنَّ) عليه.

وقرأ نافعٌ وأبو بكر: ﴿وإِنَّكَ لا تَظْمَؤُاْ﴾ بكسر الهمزة، والباقون بفتحها[١].

(١٢٠) ـ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فأنهى إليه وَسْوسته ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾: الشَّجرةِ التي مَن أكلَ مِنْها خَلَدَ ولَمْ يَمُت أصلًا، فأضافَها إلى الخُلدِ ـ وهو الخلودُ ـ لأنَّها سببُهُ بزَعمِه.

﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾: لا يزولُ ولا يَضعُفُ.

(١٢١) ـ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾: أخذا يُلْزِقانِ الورقَ على سَوآتِهما للتَّستُّرِ، وهو ورقُ التِّينِ.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بـأكلِ الشَّـجرةِ ﴿فَغَوَىٰ﴾: فضَـلَّ عَـن المَطلـوبِ، وخـابَ حيـثُ طلـبَ الخُلـدَ بـأكلِ الشَّـجرةِ، أو: عَـن المأمـورِ بـهِ، أو: عـن الرُّشـدِ حيـثُ اغتـرَّ بقـولِ العَدُوِّ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

وقُرِئَ: (فغَوِيَ)[١] مِن غَوِيَ الفَصِيلُ: إذا أُتخمَ مِن اللَّبنِ.

وفي النَّعيِ عليه بالعِصيانِ والغوايةِ مع صِغَرِ زَلَّتِه تَعظيمٌ للزلَّةِ وزجرٌ بليغٌ لأولادِه عَنْها.

(١٢٢) ـ ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾: اصطفاهُ وقرَّبه بالحملِ على التَّوبةِ والتَّوفيقِ لها، مِن جُبِيَ إليَّ كذا فاجتبَيْتُه، مثل: جُلِيَتْ علَيَّ العروسُ فاجتَلَيْتُها[٢]، وأصلُ الكَلِمَةِ: الجمعُ.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: فقبِلَ توبتَهُ لَمَّا تاب ﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى الثَّباتِ على التَّوبةِ والتَّشبُّثِ بأسبابِ العِصمَةِ.

(١٢٣) ـ ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الخطابُ لآدمَ وحوَّاءَ، أو له ولإبليسَ، ولَمَّا كانا أصلَ الذُّرِّيَّةِ خاطَبَهُما مُخاطبَتَهُم فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأمرِ المَعاشِ[٣] كما عليه النَّاسُ مِن التَّجاذُبِ والتَّحاربِ، أو لاختلالِ حالِ كلٍّ مِن النَّوعينِ بواسطَةِ الآخرِ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ قولُه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾: كتابٌ ورسولٌ ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدُّنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرةِ.

(١٢٤) ـ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾: عَن الهدى الذَّاكرِ لي والدَّاعي إلى عِبادَتي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾: ضيِّقًا، مَصدرٌ وُصِفَ به، ولذلكَ يَستَوِي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ.

---

(١) انظر: «التبيان» للعكبري (٢/ ٩٠٦)، وفيه: وقرئ شاذًا بالياء وكسر الواو، وهو من غوي الفصيل: إذا بشم على اللبن، وليست بشيء.

(٢) قوله: «جُليت عليَّ العروسُ فاجتليتُها»؛ أي: نظرتُ إليها مجلوةً. انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٢٦٣).

(٣) أي: متعادين في أمر المعاش.

وقُرِئَ: (ضَنْكَى)[1] كسَكْرَى، وذلك لأنَّ مجامِعَ همِّهِ ومَطامِحَ نَظرِهِ تكونُ إلى أعراضِ الدُّنيا مُتهالكًا على ازديادِها خائفًا على انتقاصِها، بخلافِ المؤمنِ الطَّالبِ للآخرةِ، مع أنَّه تَعالى قد يُضيِّقُ بشُؤمِ الكُفرِ ويوسِّعُ ببركةِ الإيمانِ، كما قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟﴾ [الأعراف: ٩٦] الآيات.

وقيل: هو الضَّريعُ والزَّقُّومُ في النَّارِ.

وقيل: عذابُ القبرِ.

﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ قُرِئَ بسُكونِ الهاءِ على لَفظِ الوقفِ[2]، وبالجزمِ[3] عَطفًا على محلِّ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً﴾ لأنَّه جوابُ الشَّرطِ.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾: أعمَى البَصرِ، أو القَلبِ.

ويـؤيِّدُ الأوَّلَ:

(١٢٥) ـ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وقد أمالَهُما حمزَةُ والكِسائيُّ لأنَّ الألِفَ منقلبةٌ مِن الياءِ[4]، وفرَّقَ أبو عَمرٍو[5] بأنَّ الأوَّلَ رأسُ الآيةِ ومحلُّ الوَقفِ فهو جديرٌ بالتَّغييرِ.

---

(١) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٣)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣١٤)، وقيدها بالإمالة.

(٢) انظر: «الكشاف» (٥/ ٤٢٠) دون نسبة، وذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٣) عن أبان بن تغلب مقيدةً بجزم الراء والهاء.

(٣) أي: (ونَحْشُرْه). انظر: «المحتسب» (٢/ ٦٠)، عن أبان بن تغلب. وهي في «الكشاف» (٥/ ٤٢٠) دون نسبة.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٥)، و«التيسير» (ص: ٤٦).

(٥) يعني: فرق بينهما بأن أمال الأولى، ولم يُمل الثانية. انظر: «التيسير» (ص: ٦٤)، و«النشر» (٢/ ٤٣).

(١٢٦) ـ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ ذلكَ فعلْتَ، ثم فسَّرَه فقال: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ واضحَةً نيِّرَةً، ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ فعَمِيْتَ عَنْها وتركْتَها غيرَ مَنظورٍ إليها.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ تركِكَ إيَّاها ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾: تُترَكُ في العَمَى والعَذابِ.

(١٢٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماكِ في الشَّهواتِ والإعراضِ عَن الآياتِ ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بل كذَّبَها وخالَفَها.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو الحشرُ على العَمى، وقيل: عذابُ النَّارِ؛ أي: ولَلنَّارُ بعدَ ذلك ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ مِن ضنكِ العَيشِ، أو: منهُ ومِن العَمى، ولعلَّه إذا دخلَ النَّارَ زال عَمَاهُ ليرَى محلَّهُ وحالَهُ.

أو: ممَّا فعلَهُ مِن تركِ الآياتِ والكُفرِ بها.

(١٢٨) ـ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ مسندٌ إلى اللهِ، أو الرَّسولِ، أو ما دلَّ عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾؛ أي: إهلاكُنا إيَّاهُم، أو الجملةِ بمَضمونِها، والفِعلُ على الأوَّلَيْنِ معلقٌ يَجري مجرى (أَعْلَمَ)، ويدلُّ عليه القِراءةُ بالنُّونِ[1].

﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ ويشاهدونَ آثارَ هَلاكِهِم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾: لذَوِي العقولِ النَّاهيَةِ عن التَّغافُلِ والتَّعامي[2].

(١٢٩) ـ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بتأخيرِ عذابِ هذه الأمَّةِ إلى الآخرةِ ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾: لكانَ مثلُ ما نزلَ بعادٍ وثَمودَ لازمًا لهؤلاءِ الكَفرةِ، وهو مصدرٌ وُصِفَ به، أو اسمُ آلةٍ سُمِّيَ به اللازمُ لفَرْطِ لُزومِه؛ كقَولِهِم: لِزَازُ خَصْمٍ.

---

(١) أي: (نهدِ). انظر: «الكشاف» (٥/ ٤٢١)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٦٩)، دون نسبة، و«البحر المحيط» (١٥/ ١٦٣) عن ابن عباس والسلمي.

(٢) في نسخة التفتازاني: «والمعاصي»، وفي نسخة الطبلاوي: «التغافل والمعاصي والتعامي».

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿كَلِمَةٌ﴾؛ أي: ولولا العِدَةُ بتأخيرِ العذابِ وأجلٌ مُسمًّى لأعمارِهِم، أو لعَذابِهم وهو يومُ القيامَةِ أو يومُ بدرٍ = لكانَ العذابُ لِزامًا، والفصلُ للدَّلالةِ على استِقلالِ كلٍّ مِنْهُما بنفيِ لزومِ العَذابِ.

ويجوزُ عَطفُه على المُستكنِّ في (كان)؛ أي: لكانَ الأخذُ العاجِلُ وأجلٌ مُسمًّى لازِمَينِ له.

(١٣٠) ـ ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: وصَلِّ وأنتَ حامِدٌ لرَبِّكَ على هِدايَتِه وتَوفيقِه، أو: نزِّهْهُ عن الشِّركِ وسائرِ ما يضيفونَ إليه من النقائصِ حامدًا له على ما ميَّزكَ بالهُدى مُعترفًا بأنَّه المُوْلي للنِّعَمِ كلِّها.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعني: الفجرَ ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني: الظُّهرَ والعصرَ لأنَّهما في آخرِ النَّهارِ، أو العَصرَ وحدَه.

﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾: ومِن ساعاتِه، جمع إِنًى بالكسرِ والقصرِ، وأناءٍ بالفتحِ والمدِّ.

﴿فَسَبِّحْ﴾ يعني: المغربَ والعِشاءَ، وإنَّما قُدِّمَ الزَّمانُ فيه لاختصاصِه بمَزيدِ الفَضلِ، فإنَّ القلبَ فيه أجمَعُ والنَّفسَ أميَلُ إلى الاستراحةِ فكانَتِ العبادةُ فيه أحمَزَ[1]، ولذلك قالَ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ تكريرٌ لصَلاتَي الصُّبحِ والمَغربِ إرادةَ الاختصاصِ، ومجيئُهُ بلَفظِ الجمعِ لأمنِ الإلباسِ كقوله:

ظهراهما مثلُ ظهورِ التُّرسَيْنِ[2]

---

(١) أي: أشد وأشق، والحَمازَةُ: الشِّدَّةُ، وأحْمَزُ الأعْمالِ: أمْتَنُها. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: حمز).

(٢) الرجز لخطام المجاشعي، كما في «الكتاب» لسيبويه (٢/ ٤٨)، و«خزانة الأدب» (٢/ ٣١٤). ولهميان بن قحافة، كما في «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٦٢٢)، و«أمالي ابن الشجري» (٢/ ٤٩٦).

أو: أمرٌ بصَلاةِ الظُّهرِ؛ فإنَّه نِهايةُ النِّصفِ الأوَّلِ مِن النَّهارِ وبِدايَةُ النِّصفِ الأَخيرِ، وجمعُه باعتبارِ النِّصفَيْنِ، أو لأنَّ النَّهارَ جِنسٌ. أو بالتَّطوُّعِ في أَجزاءِ النَّهارِ.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(سبِّحْ)؛ أي: سَبِّحْ في هذه الأوقاتِ طَمَعًا أن تنالَ عندَ اللهِ ما بهِ ترضَى نفسُكَ.

وقرأَ الكِسائيُّ وأبو بكرٍ بالبناءِ للمَفعولِ(١)؛ أي: يرضيكَ رَبُّكَ.

(١٣١) ـ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾؛ أي: نظرَ عينيكَ ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ استحسانًا لهُ وتَمنِّيًا أن يكونَ لكَ مِثلُه.

﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾: أصنافًا مِن الكَفرةِ، ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِن الضَّميرِ، والمَفعولُ ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: إلى الذي مَتَّعنا بهِ ـ وهو أصنافٌ ـ بعضَهُم وناسًا مِنهم.

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منصوبٌ بمَحذوفٍ دَلَّ عليه ﴿مَتَّعْنَا﴾، أو ﴿بِهِۦٓ﴾ على تضمينِه مَعنى: أعطينَا، أو بالبدلِ مِن مَحلِّ ﴿بِهِۦٓ﴾، أو مِن ﴿أَزْوَٰجًا﴾ بتقديرِ مُضافٍ ودونَه، أو بالذمِّ.

وهي الزِّينَةُ والبهجةُ.

وقرأَ يَعقوبُ بالفَتحِ(٢)، وهي لغَةٌ كالجَهَرَةِ في الجَهْرَةِ، أو جمعُ زاهرٍ وصفٌ لهم بأَنَّهُم زاهِرُو الدُّنيا لتَنعُّمِهم وبهاءِ زِيِّهم، بخلافِ ما عليه المؤمنونَ الزُّهَّادُ.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: لنَبْلُوَهم ونَختَبِرَهُم فيه، أو: لنُعَذِّبَهُم في الآخرةِ بسببِه.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾: وما ادَّخرَ لكَ في الآخرةِ، أو: ما رزقكَ مِن الهُدَى والنُّبوَّةِ ﴿خَيْرٌ﴾ مما مَنَحَهم في الدُّنيا ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنَّه لا يَنقَطِعُ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٢).

(١٣٢) ـ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أمرَهُ بأَنْ يَأمُـرَ أهلَ بيتِه أو التَّابعينَ له مِن أُمَّتِه بالصَّلاةِ بعدما أمرَهُ بها؛ ليَتعاونوا على الاستعانةِ بها على خصاصَتِهِم، ولا يَهتَمُّوا بأَمرِ المعيشَةِ، ولا يلتفِتُوا لفتَ أربابِ الثَّروَةِ.

﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾: وداوِمْ عليهـا ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أن تـرزُقَ نفسَـكَ ولا أهلَـكَ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإيَّاهُـم، ففرِّغْ بالَـكَ لأمرِ الآخـرةِ ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ المحمودَةُ ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾: لذَوي التَّقوى.

رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ كان إذا أصابَ أهلَهُ ضرٌّ[1] أمرَهُم بالصَّلاةِ، وتلا هذه الآيةَ[2].

(١٣٣) ـ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾: بآيةٍ تدلُّ على صِدقِه في ادِّعاءِ[3] النُّبوَّةِ، أو: بآيةٍ مُقترَحةٍ إنكارًا لِمَا جاءَ به مِن الآياتِ أو للاعتدادِ به تعنُّتًا وعنادًا، فألزَمَهُم بإتيانِه بالقُرآنِ الذي هو أمُّ المُعجِزاتِ وأعظَمُها وأبقاها؛ لأنَّ حَقيقةَ المُعجزَةِ: اختصاصُ مُدَّعي النُّبوَّةِ بنَوعٍ مِن العلمِ أو العملِ على وجهٍ خارقٍ للعادةِ، ولا شَكَّ أنَّ العلمَ أَصلُ العَملِ وأعلى منه قَدْرًا وأبقى أثرًا، فكذا ما كانَ مِن هذا القَبيلِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «شر».

(٢) رواه سعيد بن منصور في «سننه ـ التفسير» (١٤٤٥)، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٨٨٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩١١)، من طريق سعيد بن منصور، ورواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٧٦) من طريق سعيد بن سليمان.

وبعضهم جعله من حديث عبد الله بن سلام، وبعضهم جعله من حديث محمد بن حمزة بن عبد الله بن سلام. قال الطبراني: تفرد به معمر. وقال أبو نعيم: غريب من حديث معمر وابن المبارك لم نكتبه إلا من هذا الوجه.

وصحح السيوطي إسناده في «حاشيته على البيضاوي» عند هذه الآية.

(٣) في نسخة الخيالي: «في دعوى»، وفي نسخة الطبلاوي: «بادعاء».

ونَبَّهَهُم أيضًا على وجهٍ أَبينَ مِن وُجوهِ إعجازِه المختصَّةِ بهذا البابِ فقال:

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ مِن التَّوراةِ والإنجيلِ وسائرِ الكُتبِ السَّماويَّةِ؛ فإنَّ اشتمالَها على زبدةِ ما فيها من العَقائدِ والأحكامِ الكُلِّيَّةِ ـ مع أنَّ الآتيَ بها أُمِّيٌّ لم يَرَها ولم يَتعَلَّم ممَّنْ عَلِمَها ـ إعجازٌ بيِّنٌ، وفيه إشعارٌ بأنَّه كمَا يدلُّ على نُبوَّتِه برهانٌ لِمَا تَقدَّمَه مِن الكتبِ مِن حيثُ إنَّه مُعجِزٌ، وتلك ليسَتْ كذلك بل هيَ مُفتقِرَةٌ إلى ما يَشهدُ على صِحَّتِها.

وقرأ نافعٌ وأبو عمرٍو وحفصٌ عن عاصمٍ: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ بالتاء، والباقون بالياء[1].

وقُرِئَ: (الصُّحْفَ) بالتَّخفيفِ[2].

(١٣٤) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾: مِن قبلِ محمَّدٍ عليهِ السَّلامُ، أو البَيِّنةِ، والتَّذكيرُ لأنَّها في مَعنى البرهانِ، أو المرادُ بها القُرآنُ.

﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالقتلِ والسَّبيِ في الدُّنيا ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بدخولِ النَّارِ يومَ القيامةِ، وقد قُرِئَا بالبناءِ للمَفعولِ[3].

(١٣٥) ـ ﴿قُلْ كُلٌّ﴾: كلُّ واحدٍ مِنَّا ومِنْكُم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾: مُنتظِرٌ لِمَا يَؤُولُ إليهِ أمرُنا وأَمرُكُم ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ وقُرِئَ: (فتمتَّعُوا)[4].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾: المستقيمِ، وقُرِئَ: (السَّواءِ)؛

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٣).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٣) عن ابن عباس وجماعة.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٣) عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية.

(٤) نسبت لأبي رافع. انظر: «الكشاف» (٥/ ٤٣٠)، وضبطت في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٣): (فَيُمتَّعوا).

أي: الوسطِ الجيِّدِ، و: (السُّوأى)، و: (السَّوءِ)؛ أي: الشرِّ، و: (السُّوَيِّ) وهو تَصغيرُه[١].

﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ مِن الضَّلالةِ.

و﴿مَن﴾ في الموضعينِ للاستفهامِ، ومحلُّها[٢] الرَّفعُ بالابتداءِ، ويجوزُ أن تكونَ الثَّانيةُ موصولةً، بخلافِ الأولى لعدمِ العائدِ، فتكونُ مَعطوفةً على محلِّ الجُملةِ الاستفهاميَّةِ المعلَّقِ عنها الفعلُ على أنَّ العلمَ بمعنى المعرفَةِ، أو على ﴿أَصْحَٰبُ﴾، أو على ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾ على أنَّ المُرادَ بهِ النَّبيُّ.

وعنه ﷺ: «مَن قرأَ طه أُعطِيَ يومَ القِيامَةِ ثوابَ المُهاجرينَ والأنصارِ»[٣].

***

---

(١) القراءات الأربع في «الكشاف» (٥/ ٤٢٩)، ونسبها في «البحر» (١٥/ ١٧٢ ـ ٧٣) الأولى لأبي مجلز وعمران بن حدير، والثانية للجحدري وابن يعمر، والثالثة لابن عباس، أما الرابعة فقد أوردها دون نسبة، ثم تعقب الزمخشري في قوله عنها: «تصغير السوء» بقوله: وليس بجيد؛ إذ لو كان تصغير (سَوْء) لثبتت همزته في التصغير، فكنت تقول: (سُوَيْء)، والأجودُ أن يكون تصغيرَ (سواء) كما قالوا في عطاء: عُطَيٌّ.

قلت: وعلى رسم (السويء) وردت في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٣) عن يحيى بن يعمر.

(٢) في نسخة التفتازاني: «ومحلهما».

(٣) قطعة من حديث أبي بن كعب الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» (٢/ ٨٢٥).

(٢٠) سورة طه مكية
وآياتها خمس وثلاثون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته .

روي عن ابن عباس قال: ﴿ طه﴾ يا رجل، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة والضحّاك، وأسند القاضي عياض في كتابه «الشفاء» عن الربيع بن أنس، قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى: ﴿ طه﴾ يعني طـأ الأرض يا محمد[1] ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ ثم قال: ولا يخفى ما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة، وقوله: ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ قال الضحّاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام بـه هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون ، بل من آتاه العلم فقد أراد بـه خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال، قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله بـه خيراً يفقهه في الدين». وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ الطبراني، عن ثعلبة بن الحكم، قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده، إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»[2] . وقال مجاهد في قوله ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ هي كقوله: ﴿ فاقرأوا ما تيسر منه﴾ وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة. وقال قتادة: لا والله ما جعله

---

(١) هذا التفسير غريب ولم ينكره ابن كثير رحمه الله ولم يثبت في أحاديث صحيحة عنه ﷺ أنه كان يقوم على رجل واحدة وإنما ثبت أنه كان يقوم من الليل حتى تفطرت قدماه، فتفسير (طه) بمعنى طأها مستبعد، والله أعلم .

(٢) قال ابن كثير : إسناده جيد، وثعلبة بن الحكم هو الليثي، نزل البصرة ثم تحول إلى الكوفة .

شقاء ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ أن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بهـا عباده ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بمـا سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه، وقوله: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السماوات العلى في ارتفاعها ولطافتها، وقد جاء في الحديث الذي صححه الترمذي وغيره، أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبعد ما بينها، والتي تليهـا مسيرة خمسمائة عام.

وقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ المسلك الأسلم طريقة السلف، وهو إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنّة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ أي الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه، وإلهه لا إله سواه، وقوله ﴿وما تحت الثرى﴾ قال محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة، ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ أي أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسماوات العلى الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض، إنه كان غفوراً رحيماً﴾، قال ابن عباس ﴿يعلم السر وأخفى﴾ قال: السر ما أسره ابن آدم في نفسه، ﴿وأخفى﴾ ما أخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك، وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾. وقال الضحاك ﴿يعلم السر وأخفى﴾ قال: السر ما تحدث بـه نفسك، وأخفى ما لم تحدث نفسك بـه بعد. وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم، ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غداً، وقال مجاهد ﴿وأخفى﴾ يعني الوسوسة، وقال أيضاً ﴿وأخفى﴾ أي ما هو عامله مما لم يحدث بـه نفسه، وقوله: ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾: أي الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف ولله الحمد والمنة.

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾

من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه، وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله: قيل قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً، أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم ﴿إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس﴾ أي شهاب من نار، وفي الآية الأخرى ﴿أو جذوة من النار﴾ وهي الجمر الذي معه لهب ﴿لعلكم تصطلون﴾ دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بقبس﴾ دل على وجود الظلام، وقوله: ﴿أو أوجد على النار هدى﴾ أي من يهديني الطريق، دل على أنه قـد

تاه عن الطريق كما قال ابن عباس في قوله ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ قال: من يهديني إلى الطريق وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار، قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى ﴿ فلما أتاها ﴾ أي النار واقترب منها ﴿ نودي يا موسى ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله ﴾، وقال ههنا: ﴿ إني أنا ربك ﴾ أي الذي يكلمك ويخاطبك ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قيل: كانتا من جلد حمار غير ذكي[1]، وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة، قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة، وقيل ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل، وقيل غير ذلك، و الله أعلم. وقوله ﴿ طوى ﴾ قال ابن عباس: هو اسم للوادي، وكذا قال غير واحد، وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه، والأول أصح كقوله ﴿ إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ﴾، وقوله: ﴿ وأنا اخترتك ﴾، كقوله: ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ أي على جميع الناس من الموجودين في زمانه، وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى أتدري لم اختصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا، قال: لأني لم يتواضع إليَّ أحد تواضعك، وقوله ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ أي واستمع الآن ما أقول لك، وأوحيه إليك ﴿ إنني أنا الله لا إله إلا أنا ﴾، هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وقوله ﴿ فاعبدني ﴾ أي وحّدني وقم بعبادتي من غير شريك، ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ قيل معناه: صلّ لتذكرني، وقيل معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لي، و يشهد لهذا الثاني ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قد قال: وأقم الصلاة لذكري»[2]. وفي الصحيحين عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»[3]

وقوله تعالى: ﴿ إن الساعة آتية ﴾: أي قائمة لا محالة وكائنة لا بد منها. وقوله ﴿ أكاد أخفيها ﴾ قال ابن عباس: أي لا أطلع عليها أحداً غيري، وقال السدي: ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة، وهي في قراءة ابن مسعود: إني أكاد أخفيها من نفسي، يقول: كتمتها من الخلائق، حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت. قال قتادة: لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الأنبياء والمرسلين، قلت وهذا كقوله تعالى: ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾، وقال: ﴿ ثقلت في السموات والأرض

(١) قاله علي بن أبي طالب وغير واحد من السلف.
(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أنس بن مالك. (٣) أخرجه الشيخان عن أنس أيضاً.

لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي ثقل علمها على أهل السماوات والأرض. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لتجزى كل نفس بما تسعى﴾ أي أقيمها لا محالة، لأجزي كل عامل بعمله ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، ﴿وإنما تجزون ما كنتم تعملون﴾، وقوله: ﴿فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها﴾ الآية. المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه في دنياه وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فتردى﴾: أي تهلك وتعطب، قال الله تعالى: ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردّى﴾.

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾
قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام، ومعجزة عظيمة وخرق للعادة باهر دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عزّ وجلّ، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾ قال بعض المفسرين إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له، وقيل وإنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾؟ استفهام تقرير، ﴿قال هي عصاي أتوكأ عليها﴾ أي اعتمد عليها، في حال المشي، ﴿وأهش بها على غنمي﴾ أي أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي، قال الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يخبط، وقوله: ﴿ولي فيها مآرب أخرى﴾ أي مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ألقها يا موسى﴾ أي هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها، ﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾ أي صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿تسعى﴾ أي تمشي وتضطرب. عن ابن عباس ﴿فألقاها فإذا هي حية تسعى﴾، ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعتها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها، فولى مدبراً، ونودي أن يا موسى خذها، ثم نودي الثانية أن خذها ولا تخف، فقيل له في الثالثة إنك من الآمنين، فأخذها. وقال وهب بن منبه: ألقاها على وجه الأرض، ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، يدب يلتمس كأنه يبغي شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه تتقدان ناراً، وقد عاد المحجن منها عرفاً، فلما عاين ذلك موسى ولّى مدبراً ولم يعقب، فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودي يا موسى أن ارجع حيث كنت، فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال ﴿خذها﴾ بيمينك ﴿ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾، وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها لف طرف المدرعة على يده، ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب، ثم قبض

فإذا هي عصاه التي عهدها وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها، إذا توكأ بين الشعبتين ولهذا قال تعالى ﴿ سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك .

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى . وههنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾، وقال في مكان آخر: ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه﴾، وقال مجاهد: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ كفك تحت عضدك؛ وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يـده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر ، وقوله ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي من غير برص ولا أذى، ومن غير شين[1] ، وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قـد لقي ربه عزّ وجلّ، ولهذا قال تعالى: ﴿ لنريك من آياتنا الكبرى﴾، وقال وهب، قال له ربه: أدنه، فلم يزل يدنيه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة فاستقر، وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده في العصا وخضع برأسه وعنقه. وقوله ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾: أي اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرجت فاراً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الرب الأعلى. قال وهب بن منبه: قال الله لموسى: انطلق برسالتي فإنك بسمعي وعيني، وقـد ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بهـا القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جندي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي وأمن مكري، وغرته الدنيا عني، حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي، وزعم أنه لا يعرفني فإني أقسم بعزتي لولا القدر الذي وضعت بيني و بين خلقي، لبطشت بـه بطشة جبار، يغضب لغضبه السماوات والأرض والجبال والبحـار ، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحـار غرقته، ولكنه هـان عليّ وسقط من عيني، ووسعه حلمي واستغنيت بمـا عندي وحقي، إني أنا الغني لا غني غيري، فبلغـه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذكره أيامي، وحذره من نقمتي وبأسي، وقل له فيما بـين ذلك قولاً لينـاً لعله يتذكر أو يخشى، وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك مـا ألبسته من لبـاس الدنيا، فإن ناصيته بيدي، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي، أم يظن الذي يعـاديني أن يعجزني، أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني[2]

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم .

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم من كلام وهب بن منبه ، و هو طويل اقتصرنا على بعضه .

﴿ **قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري** ﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عزّ وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفراً وأكثرهم جنوداً، وأبلغهم تمرداً، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه فهرب منهم، هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه عزّ وجلّ إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ أي إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلا فلا طاقة لي بذلك ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾. وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت. قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ أي يفصح بالكلام، وقال الحسن البصري ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ قال: حلّ عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي، وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتيل، وعقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردءاً ويتكلم عنه بكثير مما يفصح به لسانه، فآتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

وقوله تعالى: ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ﴾، وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له، قال ابن عباس: نبئ هارون ساعتئذ وحين نبئ موسى عليهما السلام. روي عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندري، قال أنا والله أدري! قالت، فقلت في نفسي في حلفه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: (موسى) حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله[1]. وقوله ﴿ اشدد به أزري ﴾ قال مجاهد: ظهري، ﴿ وأشركه في أمري ﴾ أي في مشاورتي، ﴿ كي نسبّحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وقوله: ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ أي في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾
أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً
مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ
كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام، فيما سأل من ربه عزّ وجلّ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه، فيما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

كان من أمر أمه، حين كانت ترضعه وتحذر عليه، من فرعون وملئه أن يقتلوه، حيث كانوا يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكم الله – وله السلطان العظيم والقدرة التامة – أن لا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى ﴿ يأخذه عدو لي وعدو له ۚ وألقيت عليك محبة مني ﴾ أي عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كهيل ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ قال: حببتك إلى عبادي، ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ : تربى بعين الله، وقال قتادة: تغذى على عيني، وقال ابن أسلم: يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف، وغذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة. وقوله: ﴿ إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ﴾، وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، وعرضوا عليه المراضع فأباها، قال الله تعالى: ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾، فجاءت أخته، وقالت: ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت بـه وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل، ولهـذا جاء في الحديث: « مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها »، وقال تعالى ههنا: ﴿ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾ أي عليك، ﴿ وقتلت نفساً ﴾ يعني القبطي ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقوله: ﴿ وفتناك فتوناً ﴾ .

(**حديث الفتون**) : روى الإمام أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي في سننه، عن سعيد بن جبير، قال: سألت عبدالله بن عباس عن قول الله عزّوجلّ لموسى عليه السلام: ﴿ وفتناك فتوناً ﴾، فسألته عن الفتون ما هو ؟ فقال: استأنف النهار يا أبا جبير ، فإن لهـا حديثاً طويلاً، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أبنـاء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه، وكانوا يظنون أنـه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام، فقال فرعون: كيف ترون ؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشـفار يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر واتركوا بناتهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون ، وتحتـاجون إليهم ، فـأجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهـارون في العـام الذي لا يذبح فيــه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ، فلمـــا كان من قـابل حملت بموسى عليــه السلام فوقع في قلبهـا الهم والحزن، وذلك من الفتون يا ابن جبير ، ما دخل عليه وهو في بطن أمــه ممـــا يراد به

فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت

بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليَّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه، فانتهى الماء به حتى أوفى به عند مرفعة مستقى جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه فأردن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن إن في هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً، حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير. فقالت لهم: أقرّوه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل، حتى آتي فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكم، فأتت فرعون فقالت: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك». فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها، لأن تختار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهاً فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكراً، حي ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد، وهو إلى جنبه، وهو لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له، هل تعرفينه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك، ورجاء منفعة الملك، فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها، فمصه حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً، فأرسلت إليها فأتت بها وبه. فلما رأت ما يصنع بها، قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئاً حبه قط، قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيراً، فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز وعده، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتاً حسناً، وحفظه لما قد قضى فيه. فلم يزل بنو إسرائيل، وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم.

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزيريني ابني، فوعدتها يوماً تزيرها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، لأرى ذلك، وأنا باعثة أميناً يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها بجلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى

الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير . بعد كل بلاء ابتلي به، وأريد به فتوناً، فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني، فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف الحق بـه، ائت بجمرتين ولؤلؤتين، فقدمهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحـداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين، وهو يعقل، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشده، وكان من الرجال، لم يكن أحـد من آل فرعون يخلص إلى أحـد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتنـاع، فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتـلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله، وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم النـاس إلا إنمـا ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عزّ وجلّ والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: هذا من عمل الشيطان إنه عدوّ مضل مبين، ثم قال: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنـه هو الغفور الرحيم﴾، فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنـا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخـذ لكم بحقكم، فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبتاً إذا بموسى من الغد قـد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلا من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قـد ندم على ما كان منه، وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لمـا فعل بالأمس واليوم إنك لغوي مبين، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لغوي مبين، أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، وإنمـا قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر، حين يقول: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس. فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هينتهم، يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عزّ وجلّ، فإنه قال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم، وإنمـا نسقي من فضول حياضهم، فسقى لهما، فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رب إني لمـا أنزلت

إليّ من خير فقير﴾، واستنكر أبوهما سرعة صدورهما، بغنمهما حفلاً بطاناً، فقال: إن لكما اليوم لشأناً، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه، قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته، وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إليّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت، فقال له: هل لك أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج، فإن أتممت عشراً فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين، ففعل، فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة، وكانت سنتان عدة فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً. قال سعيد بن جبير: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم، قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبي الله واجبة لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي كان وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه الله سؤله وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليه السلام، فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إنا رسولا ربك﴾، قال: فمن ربكما؟ فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن، قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بني إسرائيل. فأبى عليه، فقال: ائت بآية إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول، فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى، يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع لهما السحرة، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل فما أجرنا إن نحن غلبناه؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير فحدثني ابن عباس: أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة

هو يوم عاشوراء . فلما اجتمعوا في صعيد واحد، قـال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ يعنون موسى وهارون، استهزاء بهما ﴿ فقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ٭ قال بل ألقوا، فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك، فلما ألقاهـا صارت ثعباناً عظيماً فاغراً فاه فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جرزاً إلى الثعبان تدخل فيه، حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته، فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكن هذا أمر من الله عزّ وجلّ، آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله ونتوب إلى الله مما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾، وامرأة فرعون بارزة متبـذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنهـا ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهمها لموسى .

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جـاء بآية وعده عندها أن يرسل معـه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده، وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويواثقه على أن يرسل معـه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه أخلف موعده ونكث عهده، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلمـا أصبح فرعون ورأى أنهم قـد مضوا أرسل في المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التقي على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله . فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى : إنا لمدركون، افعل ما أمرك بـه ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر انفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر ؛ فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنـا إلهـاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ٭ إن هؤلاء متبر ما هم فيه﴾ الآية : قـد رأيتم من العبر ، وسمعتم ما يكفيكم، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً، وقال: أطيعوا هارون فإني قـد استخلفته عليكم فإني ذاهب إلى ربي، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يوماً وقـد صامهن ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه، ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت ؟ وهو أعلم بالذي كان ! قال: يا رب إني كرهت أن أكلمك إلا وفي طيب الريح، قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، ارجع فصم عشراً . ثم ائتني. ففعل موسى عليه السلام ما أمر بـه، فلما رأى قومه أنه لم

يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم، وقال: إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار وودائع ولكم فيهم مثل ذلك، فإني أرى أنكم تحتسبون مالكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك. ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقته، فقال: لا يكون لنا ولا لهم. وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا. فقضي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فمر بهارون، فقال له هارون عليه السلام: يا سامري إلا تلقي ما في يدك وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، لا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد، فألقاها ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً، فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح وله خوار! قال ابن عباس: لا والله ما كان له صوت قط إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، وكان ذلك الصوت من ذلك، فتفرق بنو إسرائيل فرقاً؛ فقالت فرقة يا سامري ما هذا وأنت أعلم به؟ قال هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق، فقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا، وإن لم يكن ربنا، فإنا نتبع قول موسى، وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا، ولا نؤمن ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾، قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً، ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت، وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده، ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾، فقال لهم: ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له وانصرف إلى السامري، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم ﴿فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي، قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس، وإن لك موعداً لن تخلفه، وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً، لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾. ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألو الخير، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾؟ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾، فقال: يا رب سألتك التوبة لقومي فقلت إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله

بالسيف ولا يبالي في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي أمرهم على موسى وهارون، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمرهم بـه أن يبلغهم من الوظائف. فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون، ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخـافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلـق منكر، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها، فقالوا: يا موسى! إن فيها قوماً جبـارين لا طاقة لنـا بهم ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون: قيل ليزيد هكذا قرأت؟ قال: نعم من الجبارين آمنـا بموسى، وخرجا إليه، قالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنمـا تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم البـاب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. ويقول أناس: إنهم من قوم موسى، فقـال الذين يخافون بنو إسرائيل: ﴿قـالوا يا موسى إنا لن ندخلهـا أبـداً ما داموا فيهـا فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾، فأغضبوا موسى فدعـا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لمـا رأى منهم من المعصية وإساءتهم، حتى كان يومئذ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين، وحرمهـا عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار، وظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيـاباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بـين ظهرانيهم حجراً مربعاً وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منـه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحيـة ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منهـا فلا يرتحلون من مكان إلا وجـدوا ذلك الحجر بينهم بالمكـان الـذي كان فيـه بالأمس[1]

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل مدين فاراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والامر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾ قال مجاهد: أي على موعد، وقال قتادة: على قدر الرسالة والنبوة، وقوله: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ أي اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي، أي كما

(١) أخرجه النسائي في سننه وابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما، قال ابن كثير: وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيح نقله من الإسرائيليات.

أريد وأشاء، روى البخاري عند تفسيرها عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجدته مكتوباً عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم، فحج آدم موسى »(١) وقوله ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ﴾ أي بحججي وبراهيني ومعجزاتي ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾ قال ابن عباس: لا تبطئا، وقال مجاهد عن ابن عباس: لا تضعفا، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له كما جاء في الحديث: « إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه »، وقوله ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي تمرد وعتا، وتجبر على الله وعصاه، ﴿ فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وعو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، وعن الحسن البصري ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ أعذرا إليه، قولا له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً، والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾، وقوله ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يخشى - أي يوجد طاعة من خشية ربه - كما قال تعالى: ﴿ لمن أراد أن يذكر أو يخشى ﴾ فالتذكر الرجوع عن المحذور، والخشية تحصيل الطاعة، وقال الحسن البصري: ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن اعذر إليه.

قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام: أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيين إليه ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك، قال عبدالرحمن بن زيد ﴿ أن يفرط ﴾ يعجل، وقال مجاهد: يسلط علينا، وقال ابن عباس ﴿ أو أن يطغى ﴾ يعتدي ﴿ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي لا تخافا منه فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني، وأنا معكم بحفظي ونصري، وتأييدي. ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك ﴾ قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس، أنه قال: مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما، حتى أذن لهما بعد حجاب شديد. وقوله ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ أي بدلالة ومعجزة من ربك، ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ أي والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله « بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل

(١) أخرجه في الصحيحين.

عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعـاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين »، ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ۝ إنا قـد أوحي إلينا أنَّ العذاب على من كذّب وتولى﴾ أي قـد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم، أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ۝ فإن الجحيم هي المـأوى﴾، وقال تعالى: ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ۝ لا يصلاها إلا الأشقى ۝ الذي كذب وتولى﴾، وقال تعالى ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى﴾ أي كذب بقلبه وتولى بفعله.

۞ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون، أنه قـال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق ﴿ قال فمن ربكما يا موسى﴾ أي الذي بعثك وأرسلك من هو؟ فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ قال ابن عباس: يقول خلق لكل شيء زوجه، وعنه: جعل الإنسان إنساناً والحمار حماراً والشاة شاة. وقال مجاهد: أعطى كل شيء صورته، وسوّى خلق كل دابة. وقال سعيد بن جبير في قوله ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ قال: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهيأ كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح، ﴿ قال فما بال القرون الأولى﴾؟ أصح الأقوال في معنى ذلك، أن فرعون لمـا أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله، هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتـج بالقرون الأولى، أي الذين لم يعبدوا الله، أي فما بالهم إذ كان الأمر كذلك، لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره، فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمار، ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى﴾ أي لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغـير ولا كبير ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتقدس، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان ۝ أحدهما عـدم الإحـاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه عزّ وجلّ، حين سأله فرعون عنه فقال: ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾، ثم اعترض الكلام بـين ذلك، ثم قال: ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ أي قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها، وتسافرون على ظهرها، ﴿ وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها

كما قال تعالى: ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون﴾، ﴿وأنزلنا من السماء ماء فأخرجنا بـه أزواجاً من نبات شتى﴾ أي من أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر، وسائر الأنواع، ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ أي شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً ويبساً، ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي لدلالات وحججاً وبراهين، ﴿لأولي النهى﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة، ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ أي من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، وفيها نعيدكم أي وإليها تصيرون إذا متم وبليتم ومنها نخرجكم تارة أخرى، ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾، وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر، وقال: منها خلقناكم، ثم أخذ أخرى وقال: وفيها نعيدكم، ثم أخرى وقال: ومنها نخرجكم تارة أخرى، وقوله: ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى﴾، يعني فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره فكذب بها وأباها كفراً وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ الآية.

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون: أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك فلا يغرنك ما أنت فيه ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ أي يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر، في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك ﴿قال﴾ لهم موسى ﴿موعدكم يوم الزينة﴾[1]، وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم، واجتماع جميعهم، ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وأن يحشر الناس﴾ أي جميعهم ﴿ضحى﴾ أي ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بيّن واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهاراً، ضحى، قال ابن عباس: وكان يوم الزينة، يوم عاشوراء، وقال السدي: كان يوم عيدهم. **قلت**: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده. كما ثبت في الصحيح، وقال وهب ابن منبه، قال فرعون: يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه، قال موسى: لم أؤمر بهذا، إنما أمرت بمناجزتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك، فأوحى الله إلى موسى: أن اجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له أن يجعل هو، قال فرعون اجعله إلى أربعين يوماً ففعل، وقال مجاهد وقتادة ﴿مكاناً سوى﴾ منصفاً، وقال السدي عدلاً، وقال عبد الرحمن بن زيد: مستوٍ بين الناس، وما فيه لا يكون صوت ولا شيء، يتغيب بعض ذلك عن بعض، مستوٍ حين يرى.

(١) روي عن ابن عباس أنه يوم عاشوراء، أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون: أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين، تولى: أي شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾، ثم أتى: أي اجتمع الناس، لميقات يوم معلوم: وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئاً على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقفت السحرة بين يدي فرعون صفوفاً وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم، يقولون ﴿أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين﴾. ﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وإنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله. ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ أي يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له، ﴿وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم﴾ قيل: معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وأسروا النجوى﴾: أي تناجوا فيما بينهم، ﴿قالوا إن هذان لساحران﴾ وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ ﴿إن هذين لساحران﴾، والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده فينصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم، وقوله: ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ أي ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم، وقد تقدم في حديث الفتون أن ابن عباس قال في قوله ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش، وعن علي في قوله ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما[1]، وقال مجاهد ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ قال: أولو الشرف والعقل والأسنان. ﴿فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً﴾ أي اجتمعوا كلكم صفاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ أي منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك، العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى ﴿إما أن تلقي﴾: أي أنت أولاً، ﴿وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا﴾: أي أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم، ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾، وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾، وقال ههنا: ﴿فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾.

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه، وتضطرب وتميد بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جماً غفيراً وجمعاً كثيراً، فألقى كل منهم عصاً وحبلاً حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضاً، وقوله: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ أي خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم، ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة، أن ألق ما في يمينك يعني عصاك فإذا هي تلقف ما صنعوا، وذلك أنها صارت تنيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: ﴿إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، ولهذا قال ابن عباس: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة، قال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً. قال الأوزاعي: لما خر السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها. قال وذكر عن سعيد بن جبير قوله ﴿وألقي السحرة سجداً﴾ قال: رأوا منازلهم تبين لهم وهم في سجودهم.

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ

لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه، ومكابرته الحق بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة، والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغلب كل الغلب، شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم، وقال ﴿آمنتم له﴾ أي صدقتموه ﴿قبل أن آذن لكم﴾ أي وما أمرتكم بذلك، وافتقتم عليّ في ذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ أي أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾، ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي لأجعلنكم مثلة، ولأقتلنكم ولأشهرنكم. ﴿ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾ أي أنتم تقولون إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله عزّ وجلّ ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات﴾ أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿والذي فطرنا﴾ يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ أي فافعل ما شئت، وما وصلت إليه يدك ﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ أي إنما لك تسلط في هذه الدار، وهي دار الزوال، ونحن قد رغبنا في دار القرار، ﴿إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾ أي ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر، لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيّه. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالفرماء، وقال علموهم تعلماً لا يعلمه أحد في الأرض، قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾[1]. وقوله: ﴿والله خير وأبقى﴾ أي خير لنا منك ﴿وأبقى﴾ أي أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا، وقال محمد بن كعب القرظي ﴿والله خير﴾: أي لنا منك إن أطيع ﴿وأبقى﴾: أي منك عذاباً إن عصي، والظاهر أن فرعون لعنه الله صمم على ذلك وفعله بهم رحمة لهم من الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء بررة.

* إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم

(١) رواه ابن أبي حاتم.

السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً ﴾ أي يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾، كقوله: ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾. عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً وأذن في الشفاعة جيء بهم ضبائر ضبائر، فبثوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة افيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية[1]. وقوله تعالى: ﴿ ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات ﴾ أي ومن لقي ربه يوم المعاد، مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿ فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ أي الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات والمساكن الطيبات، عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[2]، وفي الصحيحين: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم - قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»، وفي السنن وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما، وقوله: ﴿ جنات عدن ﴾ أي إقامة وهي بدل من الدرجات العلى ﴿ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين أبداً ﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾ أي طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خير وطلب.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى مخبراً: أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً، وأرسل من يجمعون له الجند من بلدانه، ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه، ساق في طلبهم فاتبعوهم مشرقين، أي عند طلوع الشمس، ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾: أي نظر كل من الفريقين إلى الآخر، ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ ووقف ببني إسرائيل أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿ أن اضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ فضرب البحر بعصاه، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، أي الجبل العظيم، فأرسل الله الريح على أرض البحر، فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض، فلهذا قال ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ﴾: أي من فرعون ﴿ ولا تخشى ﴾ يعني من البحر أن يغرق قومك، ثم قال تعالى ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ﴾: أي البحر ﴿ ما غشيهم ﴾ وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور كما قال تعالى ﴿ والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى ﴾.

---

(١) الحديث رواه مسلم والإمام أحمد.
(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد والترمذي.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

يذكر تعالى نعمه – على بني إسرائيل – العظام، ومننه الجسام، حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه، وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: ﴿وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾. عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه»[1]، ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون، جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل، كما يقصه الله تعالى قريباً، وأما المن والسلوى فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي﴾ أي كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به، ﴿فيحل عليكم غضبي﴾ أي أغضب عليكم، ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ أي فقد شقي، وقوله ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي كل من تاب إليَّ تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل، وقوله تعالى ﴿تاب﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق، قوله ﴿وآمن﴾ أي بقلبه، ﴿وعمل صالحاً﴾ أي بجوارحه، وقوله: ﴿ثم اهتدى﴾ عن ابن عباس: أي ثم لم يشكك، وقال سعيد بن جبير ﴿ثم اهتدى﴾: أي استقام على السنة والجماعة[2]، وقال قتادة ﴿ثم اهتدى﴾: أي لزم الإسلام حتى يموت، و «ثم» ههنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

* ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ﴾

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن ابن عباس.

(٢) وروى نحوه عن مجاهد والضحّاك وغير واحد من السلف.

لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، وواعد ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشراً فتمت أربعين ليلة، أي يصومها ليلاً ونهاراً، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك، فسارع موسى عليه السلام مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري﴾ أي قادمون ينزلون قريباً من الطور، ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ أي لتزداد عني رضا، ﴿قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلّهم السامري﴾، أخبر تعالى نبيّه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري، وقوله ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ أي رجع بعد ما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم، والأسف: شدة الغضب، وقال مجاهد ﴿غضبان أسفاً﴾، أي جزعاً، وقال قتادة والسدي: أسفاً حزيناً على ما صنع قومه من بعده، ﴿قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾ أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أيادي الله، ﴿أفطال عليكم العهد﴾ أي في انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف من نعمه ﴿أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم﴾ «أم» ههنا بمعنى بل، هي للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثاني؛ كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي، قالوا - أي بنو إسرائيل، في جواب ما أنبهم موسى وقرّعهم - ﴿ما أخلفنا موعدك بملكنا﴾ أي عن قدرتنا واختيارنا، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر، ﴿فقذفناها﴾ أي ألقيناها عنا، ودعا السامري أن يكون عجلاً، فكان عجلاً ﴿له خوار﴾ أي صوت، استدراجاً وإمهالاً ومحنة واختباراً ولهذا قال: ﴿فكذلك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار﴾.

عن ابن عباس، أن هارون مر بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع، فقال هارون: اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه، ومضى هارون وقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور، فخار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم، وقال السدي: كان يخور ويمشي، فقالوا: أي الضُّلّال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه ﴿هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسي﴾ أي نسيه ههنا وذهب يتطلبه، وعن ابن عباس ﴿فنسي﴾ أي نسي أن يذكركم أن هذا إلٰهكم، فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط، قال الله تعالى رداً عليهم وتقريعاً لهم وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي العجل، فلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، أي في دنياهم ولا في أخراهم، قال ابن عباس: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم، وعبدوا العجل فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر، أنه

سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلى فيه أم لا ؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما : انظروا إلى أهل العراق ! قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ، يعني الحسين، وهم يسألون عن دم البعوضة !

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل، وإخباره إياهم إنما هذا فتنة لكم، وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً. ذو العرش المجيد الفعّال لما يريد، ﴿ فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾ : أي فيما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه، ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾: اي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه وخالفوا هارون في ذلك، وحاربوه وكادوا أن يقتلوه

قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غضباً، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، فقال: ﴿ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن﴾ أي فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿ أفعصيت أمري﴾: أي فيما كنت قدمت إليك، وهو قوله: ﴿ اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾، قال ﴿ يا ابن أم﴾ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿ يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾ الآية. هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال ﴿إني خشيت﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم، ﴿ ولم ترقب قولي﴾ : أي وما راعيت ما أمرتك به، حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له.

* قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

يقول موسى عليه السلام للسامري: ما حملك على ما صنعت ؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت ؟

عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجر، وكان من قوم يعبدون البقر وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه (موسى بن ظفر)، وفي رواية عن ابن عباس أنه كان من كرمان، وقال قتادة: كان من قرية سامرا، ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾: أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول﴾ أي من أثر فرسه، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين، أو أكثرهم، وقال مجاهد: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع، قال مجاهد: نبذ السامري، أي ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلاً جسداً له خوار، حفيف الريح فيه فهو خواره. وقال ابن أبي حاتم، عن عكرمة: إن السامري رأى الرسول فألقى في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها في شيء فقلت له كن فكان، فقبض قبضة من أثر الرسول فيبست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامري: إن ما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجمعوه فجمعوه، فأوقدوا عليه فذاب، فرآه السامري، فألقي في روعة: أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه، فقلت كن فكان، فقذف القبضة وقال: كن فكان عجلاً جسداً له خوار، فقال: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾، ولهذا قال ﴿فنبذتها﴾ أي ألقيتها مع من ألقى، ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾: أي حسنته وأعجبها إذ ذاك ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾: أي كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس، أي لا تماس الناس ولا يمسونك، ﴿وإن لك موعداً﴾ أي يوم القيامة ﴿لن تخلفه﴾ أي لا محيد لك عنه. وقال قتادة ﴿أن تقول لا مساس﴾ قال: عقوبة لهم، وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس: وقوله ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ قال الحسن: لن تغيب عنه. وقوله ﴿وانظر إلى إلهك﴾ أي معبودك ﴿الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي أقمت على عبادته يعني العجل، ﴿لنحرقنه﴾ قال السدي: سحله بالمبارد وألقاه على النار، وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقى رماده في البحر، ولهذا قال: ﴿ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾. وقوله تعالى: ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾ يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكم إنما إلهكم الله الذي لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه عبد له، وقوله: ﴿وسع كل شيء علماً﴾ أي هو عالم بكل شيء، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ والآيات في هذا كثيرة جداً

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وقد آتيناك من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿ذكراً﴾ وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من

حكيم حميد، الذي لم يعط نبي من الأنبياء كتاباً مثله، ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن منه، وقوله تعالى: ﴿من أعرض عنه﴾ اي كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ أي إثماً، كما قال تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له، وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيه﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي بئس الحمل حملهم.

يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه». وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له»، فقالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»، وقوله ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً﴾، قيل معناه زرق العيون، من شدة ما هم فيه من الأهوال، ﴿يتخافتون بينهم﴾ قال ابن عباس: يتسارون بينهم، أي يقول بعضهم لبعض ﴿إن لبثتم إلا عشراً﴾ أي في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها. قال الله تعالى: ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾: أي في حال تناجيهم بينهم، ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة﴾: أي العاقل الكامل فيهم ﴿إن لبثتم إلا يوماً﴾: أي لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد، وكان غرضهم درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾، وقال تعالى: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾ ولو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف.

* وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ أي يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً[1] ﴿فيذرها﴾ أي الأرض ﴿قاعاً صفصفاً﴾ أي بساطاً واحداً، والقاع

---

(١) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: قالت قريش: يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة، فنزلت الآية.

هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل الذي لا نبات فيه، والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم، ولهذا قال: ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس وغير واحد من السلف ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾: أي يوم يرون هذه الأحوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم كما قال تعالى: ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾، وقال ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وقال محمد القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه، فذلك قوله: ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾[1]، وقال قتادة: لا عوج له لا يميلون عنه، وقال أبو صالح: لا عوج له لا عوج عنه، ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ قال ابن عباس: سكنت، وكذا قال السدي، ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني وطء الأقدام. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ الصوت الخفي، وقال سعيد بن جبير: الحديث وسره، ووطء الأقدام، فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر وهو مشيهم في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾.

يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

يقول تعالى ﴿ يومئذ ﴾: أي يوم القيامة ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ أي عنده ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾، كقوله: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾. وقوله: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾، وقال: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آتي تحت العرش وأخر لله ساجداً، ويفتح عليّ بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء أن يدعني ثم يقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع واشفع تشفع، قال: فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود»، فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء. وقوله: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ كقوله: ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾، وقوله: ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به. وقوله ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾: أي يوم القيامة فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء

---

(١) قال السهيلي: الداعي: هو إسرافيل عليه السلام، وهو المنادي المذكور في سورة (ق) في قوله تعالى: ﴿ واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب ﴾.

من الشاة القرناء، وفي الحديث: «يقول الله عزّ وجلّ: وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم». وقوله: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنّى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون أي لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء واقعاً لا محالة أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين ﴿وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون﴾ أي يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات، ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق، الذي وعده حق ووعيده حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، وقوله: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾، كقوله تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾ وثبت في الصحيح عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية يعني أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه فقال: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾ أي أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾، وقال في هذه الآية: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾ أي بل انصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده، ﴿وقل رب زدني علماً﴾ أي زدني منك علماً، ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عزّ وجلّ، وكان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال»[1]

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجة والترمذي والبزار عن أبي هريرة وزاد البزار في آخره: وأعوذ بالله من حال أهل النار.

عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي[1]، وقال مجاهد والحسن: ترك. وقوله: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله بـه على كثير ممن خلق تفضيلاً، ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ أي امتنع واستكبر، ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدوّ لك ولزوجك﴾ يعني حواء عليهما السلام، ﴿فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى﴾ أي إياك أن تسعى في إخراجك منها، فتتعب وتعنى وتشقى في طلب رزقك، فانك ههنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة، ﴿إن لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى﴾ إنما قرن بـين الجوع والعري لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر، ﴿وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر. وقوله: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ قـد تقدم أنه دلّاهما بغرور ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾، وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها. وقوله: ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما﴾، روي أن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فناداه الرحمن: يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا ولكن استحياء، أرأيت إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم، فذلك قوله: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾، قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما، وقوله: ﴿وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾، روى البخاري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه؟أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»، وفي رواية لابن أبي حاتم: «احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى. قال موسى: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك! قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم، قال: أفتلومني على أن عملت عملاً كتب الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحجَّ آدمُ موسى»[3]

قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب مرفوعاً، قال ابن كثير: وهو منقطع وفي رفعه نظر.

(٣) الحديث له طرق في الصحيحين والمسانيد، وهذه الرواية لابن أبي حاتم عن أبي هريرة.

وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس اهبطوا منها جميعاً: أي من الجنة كلكم ﴿ بعضكم لبعض عدو﴾ آدم وذريته، وإبليس وذريته، وقوله: ﴿ فإما يأتينكم مني هدى﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان، ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ ومن أعرض عن ذكري﴾ أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه، ﴿ فإن له معيشة ضنكاً﴾ أي ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة. قال ابن عباس ﴿ فإن له معيشة ضنكاً﴾ قال: الشقاء. وعنه: إن قوماً ضلالاً أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته فذلك الضنك. وقال الضحّاك: هو العمل السيء والرزق الخبيث. وروى سفيان بن عيينة، عن أبي سعيد في قوله ﴿ معيشة ضنكاً﴾ قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه.

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « المؤمن في قبره في روضة خضراء ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيم أنزلت هذه الآية ﴿ فإن له معيشة ضنكاً﴾ ؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون »(١). وروى البزار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قول الله عزّ وجل ﴿ فإن له معيشة ضنكاً﴾ قال: « المعيشة الضنك الذي قال الله إنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة ». وقوله: ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ قال مجاهد والسدي: لا حجة له، وقال عكرمة: عمي عليه كل شيء إلا جهنم، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً كما قال تعالى: ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم﴾ الآية، ولهذا يقول: ﴿ رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً﴾ ؟ أي في الدنيا ﴿ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وتناسيتها وأعرضت عنها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك، ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى، عن سعد بن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم »(٢)

---

(١) الحديث رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً وفي رفعه نظر، قال ابن كثير: رفعه منكر جداً.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد عن سعد بن عبادة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين، المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق﴾، ولهذا قال: ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ أي أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

يقول تعالى: ﴿أفلم يهد﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية، التي خلفوهم فيها يمشون فيها، ﴿إن في ذلك لآيات لأولى النهى﴾ أي العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾، وقال: ﴿أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم﴾ الآية؛ ثم قال تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضرب الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة، ولهذا قال لنبيّه مسلياً له: ﴿فاصبر على ما يقولون﴾ أي من تكذيبهم لك، ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس﴾ يعني صلاة الفجر ﴿وقبل غروبها﴾ يعني صلاة العصر، كما جاء في الصحيحين: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ هذه الآية، وقال رسول الله ﷺ: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»[1]. وفي الحديث الصحيح: «أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، وإن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى في اليوم مرتين»[2]. وقوله: ﴿ومن آناء الليل فسبح﴾: أي من ساعته فتهجد به، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وأطراف النهار﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿لعلك ترضى﴾، كما قال تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾. وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: إني أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

(١) رواه مسلم وأخرجه الإمام أحمد.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد ورواه أصحاب السنن عن عبدالله بن عمر.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور، وقال مجاهد ﴿أزواجاً منهم﴾: يعني الأغنياء، فقد آتاك خيراً مما آتاهم، ولهذا قال: ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾[1]، وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المَشْرُبة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير، وليس في البيت إلا صُبْرة من قَرَظ[2] واهية معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه! فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»، فكان ﷺ أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا»، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض»[3]. وقال قتادة والسدي ﴿زهرة الحياة﴾: يعني زينة الحياة الدنيا: وقال قتادة ﴿لنفتنهم فيه﴾ لنبتليهم، وقوله: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾. وقوله: ﴿لا نسألك رزقاً نحن نرزقك﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، ولهذا قال: ﴿لا نسألك رزقاً نحن نرزقك﴾، وقال الثوري: لا نسألك رزقاً: أي لا نكلفك الطلب. وقال ابن أبي حاتم، عن ثابت قال: كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله يا أهلاه صلوا، صلوا. قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة. وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك»[4]. وعن زيد بن ثابت قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»، وقوله ﴿والعاقبة

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه، عن أبي رافع قال: أضاف النبي ﷺ ضيفاً، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب، فقال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ وسلم فأخبرته، فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض، فلم أخرج من عنده حتى نزلت الآية: ﴿ولا تمدن عينيك ...﴾ كما في اللباب.

(٢) صبرة: مجموعة، قرظ: ورق السَلَم، وهو شجر شائك يستعمل ورقه في دبغ الجلود.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

(٤) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة.

للتقوى﴾: أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقى الله، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأنا في دار (عقبة بن رافع) وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأوّلت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن ديننا قد طاب».

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم ﴿لولا﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه؟ أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله. قال الله تعالى: ﴿أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة ولم يدارس أهل الكتاب، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[1]، وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها عليه السلام وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر، ثم قال تعالى: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾ أي لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا ﴿ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن بـه ونتبعه، كما قال: ﴿فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾، يبيّن تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾، كما قال تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾، وقال: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها﴾ الآيتين، ثم قال تعالى: ﴿قل﴾: أي يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كل متربص﴾ أي منا ومنكم، ﴿فتربصوا﴾: أي فانتظروا، ﴿فستعلمون من أصحاب الصراط السوي﴾: أي الطريق المستقيم، ﴿ومن اهتدى﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾، وقال: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾.

[اخر تفسير سورة طه . ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

تفسير سورة طه

وهى مكية.

روى إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة فى كتاب «التوحيد»، عن زياد بن أيوب، عن إبراهيم بن المنذر الحِزَامى، حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، عن عمر بن حفص بن ذَكْوَان، عن مولى الحُرقة - يعنى عبد الرحمن بن يعقوب ـ عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه قرأ «طه» و«يس» قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا[١]، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تتكلم[٢] بهذا»[٣].

هذا حديث غريب، وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تُكلِّم فيهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) ﴾.

تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شنبة[٤] الواسطى، حدثنا أبو أحمد - يعنى: الزبيرى ـ أنبأنا إسرائيل عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: طه: يا رجل. وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، [وعطاء][٥]، ومحمد بن كعب، وأبى مالك، وعطية العوفى، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدى، وابن أبزى أنهم قالوا: «طه» بمعنى: يا رجل.

وفى رواية عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والثورى: أنها[٦] كلمة بالنبطية معناها: يا رجل. وقال أبو صالح هى مُعَرّبة.

وأسند القاضى عياض فى كتابه «الشفاء» من طريق عبد بن حميد فى تفسيره: حدثنا هاشم بن

(١) فى ف: «هذا عليهم». (٢) فى أ: «تكلم».

(٣) التوحيد (ص ١٠٩) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٦٠٧) واللالكائى فى شرح السنة برقم (٣٦٨) من طريق إبراهيم بن المنذر به.

قال ابن حبان: «هذا متن موضوع»، وقال ابن عدى: «لم أجد لإبراهيم ـ أى: ابن مهاجر ـ حديثًا أنكر من هذا؛ لأنه لا يرويه غيره».

(٤) فى ف: «شيبة». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى أ: «أنه».

[القاسم][١] عن ابن جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبى ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل اللَّه تعالى ﴿طه﴾، يعنى: طأ الأرض يا محمد، ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾. ثم قال: ولا خفاء بما فى هذا من الإكرام وحسن [٢] المعاملة[٣].

وقوله ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ قال جُوَيبر، عن الضحاك: لما أنزل اللَّه القرآن على رسوله، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأنزل اللَّه تعالى: ﴿طه. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ. إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه اللَّه العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت فى الصحيحين، عن معاوية قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من يُرد اللَّه به خيراً يفقهه فى الدين»[٤].

وما أحسن الحديث الذى رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى ذلك حيث قال:

حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا إبراهيم الطالقانى، حدثنا ابن المبارك، عن سفيان، عن سِمَاك بن حرب، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يقول اللَّه تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قَعَد على كرسيه لقضاء عباده: إنى لم أجعل علمى وحكمتى فيكم[٥] إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم، ولا أبالى»[٦].

إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا [هو الليثى][٧] ذكره أبو عمر فى استيعابه، وقال: نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سماك بن حرب[٨].

وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾: هى كقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم فى الصلاة.

وقال قتادة: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾: لا، واللَّه ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: إن اللَّه أنزل كتابه، وبعث رسله[٩] رحمة، رحم بها العباد، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب اللَّه، وهو ذكر أنزل اللَّه فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تَنزِيلًا[١٠] مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ أى: هذا القرآن الذى جاءك يا محمد

---

(١) زيادة من ف، أ، والشفا. (٢) فى ف: «أو حسن»، وفى أ: «وأحسن».
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٢٦).
(٤) صحيح البخارى برقم (٧١) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٧).
(٥) فى ف: «علمى فيكم وحكمتى».
(٦) المعجم الكبير (٢/ ٨٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٢٦): «رجاله موثقون».
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) الاستيعاب (١/ ٢٠٤).
(٩) فى أ: «رسوله». (١٠) فى ف: «تنزيل».

[هو][١] تنزيل من [ربك][٢] رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذى خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى فى ارتفاعها ولطافتها. وقد جاء فى الحديث الذى صححه الترمذى وغيره. أن سُمْك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبُعْد ما بينها والتى[٣] تليها [مسيرة][٤] خمسمائة عام[٥].

وقد أورد[٦] ابن أبى حاتم ههنا حديث الأوعال[٧]، من رواية العباس عم رسول اللَّه ﷺ ورضى اللَّه عنه.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾: تقدم الكلام على ذلك فى سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم فى[٨] ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ أى: الجميع ملكه وفى قبضته، وتحت تصريفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ قال محمد بن كعب: أى ما تحت الأرض السابعة.

وقال الأوزاعى: إن يحيى بن أبى كثير حدثه أن كعباً سُئِل فقيل له: ما تحت هذه الأرض؟ فقال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: صخرة. قيل: وما تحت الصخرة؟ قال: ملك. قيل: وما تحت الملك؟ قال: حوت معلق طرفاه بالعرش، قيل: وما تحت الحوت؟ قال: الهواء والظلمة وانقطع العلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد اللَّه ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا عبد اللَّه بن عَيَّاش، حدثنا عبد اللَّه بن سليمان عن دَرَّاج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفى، عن عبد اللَّه بن عَمْرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن الأرضين بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام، والعليا منها على ظهر حوت، قد التقى طرفاه فى السماء، والحوت على صخرة، والصخرة بيد الملك، والثانية سجن[٩] الريح، والثالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت جهنم، والخامسة فيها حيات جهنم، والسادسة فيها عقارب جهنم، والسابعة فيها سَقَر، وفيها إبليس مُصَفَّد بالحديد، يد أمامه ويد خلفه،

(١، ٢) زيادة من ف، وفى أ: «يا محمد تنزيل من ربك». (٣) فى أ: «وبين التى».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٨) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».
(٦) فى ف: «روى».
(٧) سيأتى حديث الأوعال بطوله عند تفسير الآية: ٧ من سورة غافر.
(٨) فى أ: «من». (٩) فى أ: «مسجن».

فإذا أراد اللَّه أن يطلقه لما يشاء أطلقه»[١] .

هذا حديث غريب جداً ورفعه فيه نظر.

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا أبو موسى الهروى، عن العباس بن الفضل [قال]:[٢] قلت: ابن الفضل الأنصارى؟ قال: نعم، [عن القاسم][٣] بن عبد الرحمن، عن محمد بن على، عن جابر بن عبد اللَّه قال: كنت مع رسول اللَّه ﷺ فى غزوة تبوك، فأقبلنا راجعين فى حر شديد، فنحن متفرقون بين واحد واثنين، منتشرين، قال: وكنت فى أول العسكر: إذ عارضنا رجل فَسَلّم، ثم قال: أيكم محمد؟ ومضى أصحابى ووقفت معه، فإذا رسول اللَّه ﷺ قد أقبل فى وسط العَسْكر على جمل أحمر، مُقَنَّع بثوبه على رأسه من الشمس، فقلت: أيها السائل، هذا رسول اللَّه قد أتاك. فقال: أيهم هو؟ فقلت: صاحب البكْر الأحمر. فدنا منه، فأخذ بخطام راحلته، فكف عليه رسول اللَّه ﷺ، فقال[٤]: أنت محمد؟ قال: «نعم». قال: إنى أريد أن أسألك عن خصال، لا يعلمهن أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان، فقال رسول اللَّه ﷺ: «سل عما شئت». فقال: يا محمد، أينام النبى؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، مِنْ أين يشبه الولد أباه وأمه؟ قال[٥]: «ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأىّ الماءين غلب على الآخر نزع الولد». فقال[٦]: صدقت. فقال: ما للرجل من الولد وما للمرأة منه؟ فقال: «للرجل العظام والعروق والعصب، وللمرأة اللحم والدم والشعر[٧]» قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، ما تحت هذه، يعنى الأرض؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «خلق». فقال: فما تحتهم؟ قال: «أرض». قال: فما تحت الأرض؟ قال: «الماء». قال: فما تحت الماء؟ قال: «ظلمة». قال: فما تحت الظلمة؟ قال: « الهواء». قال: فما تحت الهواء؟ قال: « الثرى». قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عينا رسول اللَّه ﷺ بالبكاء، وقال: «انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق، أيها السائل، ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فقال: صدقت، أشهد أنك رسول اللَّه. فقال رسول اللَّه ﷺ: «أيها الناس، هل تدرون من هذا؟» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «هذا جبريل ﷺ[٨] »[٩] .

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، تفرد به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيى بن معين: «ليس يساوى شيئاً»، وضعفه أبو حاتم الرازى، وقال ابن عدى: لا يعرف .

---

(١) ورواه ابن منده فى كتاب التوحيد برقم (٦٣) من طريق حرملة بن يحيى عن عبد الله بن وهب بنحوه .
ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٥٩٤) من طريق بحر بن نصر عن عبد الله بن وهب عن عبد الله بن عياش عن عبد الله بن سليمان، عن دراج عن أبى الهيثم عن عيسى بن هلال عن عبد الله بن عمرو بمثله، فزاد أبو الهيثم فى إسناده .
وقال: «صحيح ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى. قلت: «بلى منكر فيه عبد الله بن عياش ضعفه أبو داود وعند مسلم أنه: ثقة، ودراج وهو كثير المناكير» .

(٢) فى ف، أ: «ابن عباس» . (٣) زيادة من ف . (٤) فى ف: «قال» .
(٥) فى أ: «فقال» . (٦) فى ف، أ: «قال» . (٧) فى ف، أ: «والكبد» .
(٨) فى ف: «عليه السلام» .
(٩) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٥/ ٥٥٢) من حديث جابر رضى الله عنه .

قلت: وقد خلط فى هذا الحديث، ودخل عليه شىء فى شىء، وحديث فى حديث. وقد يُحْتَمل أنه تَعَمَّد ذلك، أو أدخل عليه فيه، فاللّه أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أى: أنزل هذا القرآن الذى خلق [الأرض والسموات العلى، الذى يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي](١) السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان: ٦].

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر ما أسرّ ابن آدم فى نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾: ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه فاللّه يعلم ذلك كله، فَعلْمه فيما مضى من ذلك وما بقى عِلْم واحد، وجميع الخلائق فى ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال الضحاك: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى: ما لم تحدث به نفسك بعد.

وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم، ولا تعلم ما تسر غداً، واللّه يعلم ما تسر اليوم، وما تسر غداً.

وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾ يعنى: الوسوسة.

وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير: ﴿وَأَخْفَى﴾ أى: ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه.

وقوله: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [أى: الذى أنزل القرآن عليك هو اللّه الذى لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى](٢) والصفات العلى.

وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة فى الأسماء الحسنى فى أواخر سورة «الأعراف» وللّه الحمد والمنة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠)﴾.

من ههنا شَرَع، تبارك وتعالى، فى ذكر قصة موسى[عليه السلام](٣)، وكيف كان ابتداء الوحى إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجَل الذى كان بينه وبين صهْره فى رعاية الغنم وسار بأهله قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، فى برد وشتاء، وسحاب وظلام

---

(١) زيادة من ف.

(٢، ٣) زيادة من ف.

وضباب، وجعل يقدح بزند معه[١] ليُورِيَ ناراً، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينا هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور ناراً، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم : ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أي: شهاب[٢] من نار .وفى الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]، وهى: الجمر الذى معه لهب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] ،دلّ على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دلّ على وجود الظلام .

وقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أى: من يهدينى الطريق، دلّ على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال الثورى، عن أبى سعد الأعور، عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال: من يهدينى إلى الطريق. وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهدينى إلى الطريق آتكم[٣] بنار توقدون بها.

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أى: النار واقترب[٤] منها ، ﴿نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ وفى الآية الأخرى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال هاهنا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أى: الذى يكلمك ويخاطبك، ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال على بن أبى طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكىّ.

وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة.

قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل[٥] الكعبة .

وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل. وقيل: غير ذلك، واللَّه أعلم.

وقوله: ﴿ طُوًى﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادى.

وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان.

وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه.

---

(١) فى ف: «له» . (٢) فى ف: «بشهاب» . (٣) فى أ: «آتيتكم» .
(٤) فى ف: «وقرب»، وفى أ: «واقرب» . (٥) فى ف، أ: «أراد دخول».

وقيل: لأنه قُدِّس مرتين، وطوى له البركة وكررت: والأول أصح، كقوله[١]: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[النازعات: ١٦].

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[الأعراف: ١٤٤] أى: على جميع الناس منَ الموجودين فى زمانه.

و[قد][٢] قيل: إن اللَّه تعالى قال: ياموسى، أتدرى لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ [قال: لا. قال:][٣] لأنى لم يتواضع لى أحد تواضعك.

وقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أى: اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾: هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أى: وحّدنى وقُم بعبادتى من غير شريك، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل: معناه: صَلِّ لتذكرنى. وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لى.

ويشهد لهذا الثانى ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا المثنى بن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «إذا رَقَد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها؛ فإن اللَّه تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾»[٤].

وفى الصحيحين عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»[٥].

وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أى: قائمة لا محالة، وكائنة لابد منها.

وقوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «أكاد أخفيها من نفسى»، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: من نفسه. وكذا قال مجاهد، وأبو صالح، ويحيى بن رافع.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقول: لا أطلع عليها أحداً غيرى.

وقال السدى: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى اللَّه عنه علم الساعة، وهى فى قراءة ابن مسعود: «إنى أكاد أخفيها من نفسى»، يقول: كتمتها من الخلائق، حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسى لفعلت.

وقال قتادة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ وهى فى بعض القراءة أخفيها من نفسى، ولعمرى لقد أخفاها اللَّه من

---

(١) فى ف: «لقوله». (٢، ٣) زيادة من ف، أ.

(٤) المسند (٣/ ١٨٤).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٩٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨٤).

الملائكة المقربين، ومن الأنبياء والمرسلين.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾[الأعراف: ١٨٧] أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة حدثنا منْجَاب، حدثنا أبو نُمَيْلة، حدثنى محمد بن سهل الأسدى، عن وِقَاء قال: أقرأنيها سعيد بن جبير (أكاد أَخْفيها)، يعنى: بنصب[١] الألف وخفض الفاء، يقول: أظهرها، ثم [قال][٢]: أما سمعت قول الشاعر[٣]:

دَأَبَ شَهْرَين ، ثم شهراً دَميكاً ... بأريكَين يَخْفيـان غَميرًا

وقال الأسدى: الغَمير: نبت رطب، ينبت فى خلال يبس. والأريكين: موضع، والدميك: الشهر التام. وهذا الشعر لكعب بن زهير.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، أى: أقيمها لا محالة، لأجزى كل عامل بعمله، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ .وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[الزلزلة: ٧، ٨] ، و﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] .

وقوله : ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أى: لا تتبعوا [سبيل][٤] من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه فى دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أى: تهلك وتعطب[٥] قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ١١] .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (٢١) ﴾.

هذا برهان من اللَّه تعالى لموسى، عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر، دال[٦] على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا اللَّه عز وجل، وأنه لا يأتى به إلا نبى مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له

---

(١) فى أ: «ونصب» . (٢) زيادة من ف .

(٣) هو كعب بن زهير، والبيت فى ديوانه (ص١٧٤) أ.هـ مستفادا من حاشية الشعب.

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى ف، أ: «وتردى أى هلك وعطب» وفى أ: «ردى» .

(٦) فى ف، أ: «باهرة دالة» .

ذلك على وجه التقرير، أى: أما هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ استفهام تقرير. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أى: أعتمد عليها فى حال المشى ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أى: أهز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمى.

قال عبد الرحمن بن القاسم: عن الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المِحْجَن فى الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثَمَره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يَخْبط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

وقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أى: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك.

وقد تكلف[(١)] بعضهم لذكر شىء من تلك المآرب التى أبهمت، فقيل: كانت تضىء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة.

والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية[(٢)]، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم، عليه السلام. وقول الآخر: إنها هى الدابة التى تخرج قبل يوم القيامة. وروى عن ابن عباس أنه قال: كان اسمها ماشا. والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿[قَالَ][(٣)] أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ أى: هذه العصا التى فى يدك يا موسى، ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا[(٤)] فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أى: صارت فى الحال حَيَّة عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة سريعة، فإذا هى تهتز كأنها جان، وهو[(٥)] أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه فى غاية الكبر، وفى غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَىٰ﴾ أى: تمشى وتضطرب.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عَبْدَة، حدثنا حفص بن جُمَيْع، حدثنا سِمَاك، عن عكرمة، عن [ابن عباس][(٦)]: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾: ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعتها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها، فولى مدبراً، فنودى أن: ياموسى، خذها. فلم يأخذها، ثم نودى الثانية أن: خذها ولا تخف. فقيل له فى الثالثة: إنك من الآمنين. فأخذها.

وقال وهب بن مُنَبّه فى قوله: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ قال: فألقاها على وجه الأرض، ثم حانت نظرة فإذا أعظم[(٧)] ثعبان نظر إليه الناظرون، فَدَبَّ يلتمس كأنه يبتغى شيئاً يريد أخْذَه، يمر بالصخرة مثل الخَلِفَة من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه فى أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه توقدان ناراً، وقد عاد المِحْجَن منها عُرفاً. قيل: شعر مثل النيازك، وعاد الشعبتان منها مثل القَلِيب الواسع، فيه أضراس وأنياب، لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً ولم يُعَقِّب،

---

(١) فى أ: «تكلم». (٢) فى أ: «الإسرائيليات». (٣) زيادة من ف.
(٤) فى ف: «فالقيها». (٥) فى ف: «وهى». (٦) زيادة من ف.
(٧) فى ف: «بأعظم».

فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودى: يا موسى أنْ: ارجع حيث كنت. فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا﴾ بيمينك ﴿وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾، وعلى موسى حينئذ مدْرَعة من صوف، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها أدلى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك[1]: أرأيت ياموسى، لو أذن اللَّه بما تحاذر أكانت المدرعة تغنى عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكنى ضعيف، ومن ضَعْف خلقت. فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية، حتى سمع حسّ الأضراس والأنياب، ثم قَبض فإذا هى عصاه التى عهدها، وإذا يده فى موضعها الذى كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ أى: إلى حالها[2] التى تعرف قبل ذلك.

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾ .

وهذا بُرهان ثان لموسى، عليه السلام، وهو أن اللَّه أمره أن يدخل يده فى جيبه، كما صرح به فى الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، وقال فى مكان آخر: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[القصص: ٣٢].

وقال مجاهد: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾: كفه تحت عضده .

وذلك أن موسى، عليه السلام، كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر .

وقوله: ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى: من غير بَرَص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدى، وغيرهم.

وقال الحسن البصرى: أخرجها ـ واللَّه ـ كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقى ربه عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ .

وقال وهب: قال له ربه: ادنُهْ: فلم يزل يدنيه حتى شدّ ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده فى العصا، وخضع برأسه وعنقه.

وقوله: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أى: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذى خَرَجت فاراً منه

(١) فى ف: «مالك» . (٢) فى ف: «حالتها» .

وهارباً، فادعه إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، ومره فَلْيُحْسِن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبَغَى، وآثر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى.

قال وهب بن مُنَبِّه: قال اللَّه لموسى: انطلق برسالتى فإنك بعينى وسمعى، وإنى[(١)] معك أيدى ونَصْرى، وإنى قد ألبستك جُنَّةً من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى، فأنت جند عظيم من جندى، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى، بطر نعمتى، وأمن مكرى، وغرته الدنيا عنى، حتى جَحَد حقى، وأنكر ربوبيتى، وزعم أنه لا يعرفنى، فإنى أقسم بعزتى، لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقى، لبطشت به بطشة جبار، يغضب لغضبه السموات والأرض، والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان علىّ، وسقط من عينى، ووسعه حلمى، واستغنيت بما عندى، وحقى إنى أنا الغنىّ لا غنىّ غيرى، فبلغه رسالتى، وادعه إلى عبادتى وتوحيدى وإخلاصى، وذكره أيامى[(٢)]، وحذره نقمتى وبأسى، وأخبره أنه لا يقوم شىء لغضبى، وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، وخَبِّره[(٣)] أنى إلى العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدى، ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى. وقل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربعمائة سنة، فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة، تسبه وتتمثل به وتصدّ عباده عن سبيله وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، [و][(٤)] لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر [ولم تغلب][(٥)] ولو شاء أن يعَجِّل لك العقوبة لفعل، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم. وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده[(٦)]. فإنى لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفئة القليلة ـ ولا قليل منى ـ تغلب الفئة الكثيرة بإذنى، ولا تعجبنكما[(٧)] زينته، ولا ما متّع به، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما، فإنها زهر[(٨)] الحياة الدنيا، وزينة المترفين. ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة، ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما، فعلت، ولكنى أرغب بكما عن ذلك، وأزويه عنكما. وكذلك أفعل بأوليائى، وقديماً ما جرت عادتى فى ذلك، فإنى لأذودُهم عن نعيمها ورخائها، كما يذود الراعى الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذاك لهوانهم علىّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفراً لم تكْلَمْه الدنيا.

واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ مما[(٩)] عندى من الزهد فى الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباس يُعْرَفون به من السكينة والخشوع، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائى حقاً حقاً، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل قلبك ولسانك، واعلم أنه من أهان لى

---

(١) فى ف: «وإن». (٢) فى أ: «وذكره. آياتى». (٣) فى ف: «وأخبره».
(٤) زيادة من ف. (٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «وإنما يحتسب أن يجاهده».
(٧) فى ف، أ: «يعجبكما». (٨) فى ف، أ: «زهرة». (٩) فى ف، أ «فيما».

ولياً أو أخافه، فقد بارزنى بالمحاربة، وبادأنى وعرض لى نفسه ودعانى إليها، وأنا أسرع شىء إلى نصرة أوليائى، أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى، أم يظن الذى يعادينى أن يعجزنى، أم[١] يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى. وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة، لا أَكِلُ مضطرهم[٢] إلى غيرى.

رواه ابن أبى حاتم.

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى. وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾: هذا سؤال من موسى، عليه السلام، لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم. بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف اللَّه، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره.

هذا وقد مكث موسى فى داره مدة وليداً عندهم، فى حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى اللَّه عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى. وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى﴾ أى: إن لم تكن أنت عونى ونصيرى، وعضدى وظهيرى، وإلا فلا طاقة لى بذلك.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى . يَفْقَهُوا قَوْلِى﴾، وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتى بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث[٣] يزول العى، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال اللَّه تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أى: يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى.

وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

وقال ابن أبى حاتم: ذُكِرَ عن عَمْرو بن عثمان، حدثنا بَقِيّة، عن أرطاة بن المنذر، حدثنى بعض أصحاب محمد بن كعب، عنه قال: أتاه ذو قرابة له. فقال له: ما بك بأس لولا أنك تلحن فى كلامك، ولست تعرب فى قراءتك؟ فقال القرظى: يا بن أخى، ألست أفهمك إذا حدثتك[٤]؟ . قال:

---

(١) فى أ: «أو». (٢) فى ف، أ : «نصرتهم». (٣) فى أ: «بحيث ما».
(٤) فى أ : «حدثت».

نعم. قال: فإن موسى، عليه السلام، إنما سأل ربه أن يحل[١] عقدة من لسانه كى يفقه بنو إسرائيل كلامه، ولم يزد عليها. هذا لفظه.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي﴾: وهذا أيضاً سؤال من موسى فى أمر خارجى عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له.

قال الثورى، عن أبى سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: فَنُبِّئَ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى، عليهما السلام.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن ابن نُمَير، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة[٢]، عن أبيه، عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أىّ أخ كان فى الدنيا[٣] أنفع لأخيه؟ قالوا: ما ندرى. قال: والله أنا أدرى[٤]. قالت: فقلت فى نفسى: فى حلفه لا يستثنى، إنه ليعلم أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه. قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة. فقلت: صدق والله. قلت: وفى[٥] هذا قال الله تعالى فى الثناء على موسى، عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قال مجاهد: ظهرى ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أى: فى مشاورتى، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائما وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أى: فى اصطفائك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا (٤٠)﴾.

هذه[٦] إجابة من الله لرسوله موسى، عليه السلام، فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير[٧] له بنعمه السالفة عليه، فيما كان ألهم أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد فى السنة التى يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتاً، فكانت[٨] ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله فى البحر ـ وهو النيل ـ وتمسكه إلى منزلها بحبل فذهبت مرة لتربطه[٩] فانفلت منها

---

(١) فى ف، أ: «يحلل». (٢) فى أ: «هشام بن عون». (٣) فى ف، أ: «فى الدنيا كان».
(٤) فى ف: «أنا والله أدرى». (٥) فى أ: «ومن». (٦) فى ف، أ: «هذا».
(٧) فى ف، أ: «وتذكيرًا» (٨) فى ف، أ: «وكانت». (٩) فى ف، أ: «لتربط الحبل».

وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره اللَّه عنها فى قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] ،فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] ،أى قدراً مقدوراً[١] من اللَّه، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان[٢]من بنى إسرائيل، حذراً من وجود موسى،فحكم الله ـ وله السلطان العظيم، والقدرة التامة ـ ألا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له؛ ولهذا قال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [أى: عند عدوك، جعلته يحبك.

قال سلمة بن كُهَيْل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾][٣] قال :حببتك إلى عبادى.

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ قال أبو عمران الجونى: تربى بعين اللَّه.

وقال قتادة: تغذى على عينى .

وقال معمر بن المثنى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ بحيث أرى.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى أجعله فى بيت الملك ينعم ويترف، غذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة.

وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع، فأباها، قال اللَّه عز وجل: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فجاءت أخته وقالت[٤]: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص:١٢]. تعنى[٥]: هل أدلكم على من ترضعه[٦] لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة فى الدنيا وفى الآخرة[٧] أغنم وأجزل؛ ولهذا جاء فى الحديث: «مثل الصانع الذى يحتسب[٨] فى صنعته الخير، كمثل أم موسى، ترضع ولدها وتأخذ أجرها»[٩].

وقال تعالى هاهنا: ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أى: عليك، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعنى: القبطى، ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾: وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله[١٠]، ففر منهم هارباً، حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى، رحمه اللَّه، فى كتاب التفسير من سننه، قوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾:

---

(١) فى أ: «أى قدراً مقدراً». (٢) فى أ : «العلماء». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف، أ: «فقالت». (٥) فى ف، أ: «يعنى». (٦) فى ف: «يرضعه».
(٧) فى أ: «الأخرى». (٨) فى ف، أ : «يحسب».
(٩) روى أبو داود فى المراسيل برقم (٣٣٢) من طريق جبير بن نفير نحوه ولفظه «مثل الذين يغزون من أمتى ويأخذون الجعل ويتقوون على عدوهم به مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها».
(١٠) فى ف : «آل فرعون ليقتلوه» وفى أ: «ليقتله».

حديث الفتون

حدثنا عبد اللَّه بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبى أيوب، أخبرنى سعيد بن جبير، قال: سألت عبد اللَّه بن عباس عن قول اللَّه، عز وجل، لموسى، عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا بن جبير، فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى[(١)] ابن عباس لأنتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم، عليه السلام[(٢)]، أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك، ما [(٣)] يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار، يطوفون فى بنى إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: يوشك أن تفنوا بنى إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى[(٤)] كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر، فيقل أبناؤهم[(٥)]، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار؛ فإنهم لن يكثروا[(٦)] بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى، عليه السلام، فوقع فى قلبها الهَمّ والحزن، وذلك من الفتون ـ يا بن جبير ـ ما دخل عليه فى بطن أمه، مما يراد به، فأوحى اللَّه [جل ذكره][(٧)] إليها أن: ﴿لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه[(٨)] فى اليم. فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنُها أتاها الشيطان، فقالت فى نفسها: ما فعلت بابنى، لو ذبح عندى فواريته وكفنته، كان أحب إلىّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْضَة مستقى جوارى امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن[(٩)]: إن فى هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً حتى رفعنه[(١٠)] إليها. فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فألقى عليه منها[(١١)] محبة لم يلق منها على أحد قط. وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شىء، إلا من ذكر موسى.

فلما سمع الذباحون بأمره، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يابن

(١) فى ف، أ: «على».
(٢) فى ف، أ: «ﷺ».
(٣) فى ف: «ما كانوا».
(٤) فى أ: «الذى».
(٥) فى أ: «بناتهم».
(٦) فى أ: «يكبروا».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف، أ: «وتلقيه».
(٩) فى أ: « بعضهم».
(١٠) فى ف، أ: «دفعنه».
(١١) فى ف، أ: « عليها منه».

جبير، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل حتى آتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألُمْكُم.

فأتت فرعون فقالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص: ٩] فقال فرعون: يكون لك، فأما لى فلا حاجة لى فيه. فقال رسول اللَّه ﷺ: «والذى يُحْلَف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له[١]، كما أقرت امرأته، لهداه اللَّه كما هداها، ولكن [٢] حرمه ذلك». فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهاً، فقالت لأخته: قصى أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكراً، أحىّ ابنى أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان اللَّه وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون ـ والجُنُب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شىء بعيد[٣]، وهو إلى جنبه[٤]، وهو لا يشعر به ـ فقالت من الفرح حين أعياهم الظُّؤُرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه[٥]؟ حتى شكوا فى ذلك، وذلك من الفتون يابن جبير. فقالت: نصحهم[٦] له وشفقتهم عليه رغبتهم فى ظؤرة الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها[٧]، فأخبرتها الخبر. فجاءت أمه، فلما وضعته فى حجرها نزا إلى ثديها فمصَّه، حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً. فأرسلت إليها. فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثى ترضعى ابنى هذا، فإنى لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى، فيكون معى لا آلوه خيراً [فعلت، وإلا][٨] فإنى غير تاركة بيتى وولدى. وذكرت أم موسى ما كان اللَّه وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن اللَّه منجز وعده[٩]، فرجعت به إلى بيتها من يومها، [وأنبته][١٠] اللَّه نباتاً حسناً وحفظه[١١] لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل، وهم فى ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أترينى[١٢] ابنى؟ فَوَعَدَتْها يوماً [١٣] تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظُؤُرها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك[١٤]، وأنا باعثة أميناً يحصى[١٥] ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والنحل

---

(١) في ف، أ: « أن يكون له قرة عين».
(٢) فى أ: «ولكن الله حرمه».
(٣) فى ف، أ: «الشىء البعيد».
(٤) فى ف، أ: «ناحية».
(٥) فى ف، أ: «تعرفونه».
(٦) فى ف، أ: «نصيحتهم».
(٧) فى ف، أ: « أمه».
(٨) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(٩) فى ف، أ: «موعوده».
(١٠) فى ف: «فأنبته».
(١١) فى أ: «حفظ».
(١٢) فى أ: «ترينى».
(١٣) فى أ: «يوما أن».
(١٤) فى أ: «ذلك فيه».
(١٥) فى ف: «يحصى كل».

والكرامة[١] تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته[٢] وأكرمته، وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فَلَيَنْحَلَنَّه[٣] وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون يمدها[٤] إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء اللَّه لفرعون: ألا ترى ما وعد اللَّه إبراهيم نبيه، إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به، وأريد به [٥].

فجاءت امرأة فرعون فقالت[٦]: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال[٧]: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني! فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين، فَقَرِّبْهُنَّ إليه، فإن بطش باللؤلؤتين[٨] واجتنب الجمرتين فاعرف[٩] أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب إليه فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه اللَّه عنه بعد ما كان قد همّ به، وكان اللَّه بالغاً فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى، عليه السلام، يمشي في ناحية المدينة، إذا[١٠] هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضباً شديداً؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته[١١] من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون اللَّه[سبحانه][١٢] أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكز[١٣] موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا اللَّه عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿**هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ**﴾ [القصص:١٥]. ثم قال: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [القصص:١٦] فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا[١٤] ولا ترخص لهم. فقال: ابغوني قاتله، ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صَغْوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون ولا[١٥] يجدون ثبتاً، إذا بموسى[١٦] من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال:

---

(١) في ف: «والكرامة والنحل». (٢) في أ: «بجلته». (٣) في أ: «فليبجلنه».
(٤) في ف، أ: «فمدها». (٥) في ف، أ: «به فتونا». (٦) في أ:«فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون فقالت».
(٧) في ف: «فقالت». (٨) في ف: «باللؤلؤ». (٩) في أ: «فعرفت».
(١٠) في ف: «إذ». (١١) في ف: «منزله». (١٢) زيادة من أ.
(١٣) في ف، أ: «فوكزه». (١٤) في ف، أ: «بحقك». (١٥) في ف:«لا».
(١٦) في ف: «موسى».

للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾. فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده، وإنما أراد الفرعونى. فخاف الإسرائيلى وقال: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] وإنما قاله[١] مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فتتاركا، وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾. فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره[٢]. وذلك من الفتون يابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين، لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٢، ٢٣] يعنى بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا[٣]: ليس لنا قوة نزاحم القوم، إنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف فى الدلو ماء كثيراً، حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا[٤] بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى، عليه السلام، فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفَّلاً بطاناً فقال: إن لكما اليوم لشأنا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]. ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا فى مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته؟ وما أمانته؟ فقالت: أما قوته، فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى فى ذلك السقى منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلىّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنى امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه، حتى بلغته رسالتك. ثم قال لى: امشى خلفى، وانعتى لى الطريق. فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسرى عن أبيها وصدقها، وظن به الذى قالت.

فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧] ففعل فكانت على نبى اللَّه موسى ثمانى سنين واجبة، وكانت سنتان عدة منه، فقضى اللَّه عنه عدته فأتمها عشراً.

قال سعيد ـ وهو ابن جبير ـ: فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدرى أىّ

---

(١) فى ف، أ: «قال له». (٢) فى ف، أ: «فأخبره الخبر». (٣) فى ف: «فقالتا».
(٤) فى ف: «وانصرفتا».

الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا. وأنا يومئذ لا أدرى. فلقيت ابن عباس، فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبى اللّه واجبة، لم يكن لنبى اللّه أن ينقص[(١)] منها شيئاً، ويعلم أن اللّه كان قاضياً عن موسى عدته التى وعده فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك، فقال: الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص اللّه عليك فى القرآن، فشكا إلى اللّه تعالى[(٢)] ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردءاً، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه. فآتاه اللّه سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى اللّه إلى هارون وأمره أن يلقاه. فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون، عليهما[(٣)] السلام. فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧]. قال: فمن ربكما؟ فأخبره بالذى قص اللّه عليك فى القرآن؟ قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل، فاعتذر بما قد سمعت. قال: أريد أن تؤمن باللّه، وترسل معى بنى إسرائيل؟ فأبى عليه وقال: ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:١٥٤]. فألقى عصاه [فإذا هى][(٤)] حية تسعى عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون. فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه. ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ـ يعنى من غير برص ـ ثم ردها فعادت إلى لونها الأول. فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا[(٥)] له: هذان ساحران ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه:٦٣]، يعنى: ملكهم الذى هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة[(٦)]، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما. فأرسل إلى[(٧)] المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا واللّه ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل. وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربى وخاصتى، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثنى ابن عباس: أن يوم الزينة الذى أظهر اللّه فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا فى صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، يعنون موسى وهارون استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى ـ لقُدْرتهم بسحرهم ـ ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٦]، ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] فرأى

(١) فى ف: «نبى الله ﷺ لينقص». (٢) فى ف، أ: «الله سبحانه». (٣) فى ف: «عليه».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف: «فقالا». (٦) فى ف: «اجمع السحرة لهما».
(٧) فى ف، أ: «فى».

موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة فأوحى اللَّه إليه أن ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جَزَراً إلى الثعبان، تدخل فيه، حتى ما أبقت عصا ولا حبالاً[١] إلا ابتلعته، فلما عرفت[٢] السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من اللَّه عز وجل، آمنا باللَّه[٣] وبما جاء به موسى، ونتوب إلى اللَّه مما كنا عليه. فكسر اللَّه ظهر فرعون فى ذلك[٤] الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وامرأة فرعون بارزة متبذلة[٥] تدعو اللَّه بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟. فأرسل اللَّه على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويواثقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا كف ذلك أخلف موعده، ونكث عهده.

حتى أمر اللَّه موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى اللَّه إلى البحر: إذا ضربك عبدى موسى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقى بَعْدُ من فرعون وأشياعه. فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قَصِيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً للّه.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال وعدنى[٦] أن إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة، حتى أجاوزه. ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. قد رأيتم من العِبَر وسمعتم ما يكفيكم ومضى. فأنزلهم موسى منزلاً وقال[٧]: أطيعوا هارون، فإنى قد استخلفته عليكم، فإنى ذاهب إلى ربى. وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد

---

(١) فى ف، أ: «حبلا». (٢) فى ف: «عرف» وفى أ: «علم». (٣) فى أ: «به».
(٤) فى ف، أ: «هذا». (٥) فى ف: «مبتذلة». (٦) فى ف: «وعدنى ربى».
(٧) فى ف، أ: «وقال لهم».

أن يكلمه فى ثلاثين يوماً وقد صامهن، ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذى كان، قال: يارب، إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشراً ثم ائتنى. ففعل موسى، عليه السلام، ما أمر[١] به، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل، ساءهم ذلك. وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع، ولكم فيهم مثل ذلك وأنا[٢] أرى أنكم تحتسبون[٣] ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادّين إليهم شيئاً[٤] من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيراً، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال[٥]: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر، جيران لبنى إسرائيل ولم يكن من بنى إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا، فقضى له أن رأى أثراً فقبض[٦] منه قبضة، فمر بهارون، فقال له هارون، عليه السلام: يا سامرى، ألا تلقى ما فى يدك؟ وهو قابض عليه، لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشىء إلا أن تدعو اللَّه إذا ألقيتها أن يكون ما أريد. فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً. فاجتمع ما كان فى الحفيره من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف. ليس فيه روح، وله خوار.

قال ابن عباس: لا واللَّه، ما كان له صوت قط، إنما كانت الريح تدخل فى[٧] دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامرى ما هذا؟ وأنت أعلم به. قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل، وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾[طه: ٩٠]. قالوا[٨]: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت؟ وقال[٩] سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه.

فلما كلم اللَّه موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقى قومه من بعده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه:٨٦]، فقال لهم ما سمعتم فى القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى

---

(١) فى ف، أ: «أمره».
(٢) فى ف: «وإنى».
(٣) فى ف: «تحتسبوا».
(٤) فى ف: «شيئا إليهم».
(٥) فى ف: «وقال».
(٦) فى ف، أ: «فأخذ».
(٧) فى ف، أ: «من».
(٨) فى أ: «هكذا قالوا».
(٩) فى ف: «فقال».

الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له وانصرف[(١)] إلى السامرى فقال له: ما حملك على ماصنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وفطنت لها[(٢)] وعُمّيت عليكم فقذفتها **﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي . قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾** [طه: ٩٦، ٩٧]، ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا. فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك، لا يألو الخير، خيارَ بنى إسرائيل، ومن لم يشرك فى العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبى اللَّه من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: **﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾** [الأعراف: ١٥٥] وفيهم من كان اطلع الله منه[(٣)] على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: **﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾** [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومى، فقلت: إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى، هلا أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم[(٤)] مَنْ لقى من والد وولد، فيقتله بالسيف، ولا[(٥)] يبالى من قتل فى ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون واطلع اللَّه من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر اللَّه للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى، عليه السلام[(٦)]، متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذى أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يُقرّوا بها، فنتق اللَّه عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خَلْقُهُم خَلْق منكر ـ وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها ـ فقالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين، لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يُخَافُون ـ قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين، آمنا بموسى، وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا مَنَعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ـ ويقول أناس: إنهم[(٧)] من قوم موسى. فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل: **﴿[قَالُوا][(٨)] يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾** [المائدة: ٢٤]، فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما رأى

---

(١) فى ف: «فانصرف».
(٢) فى ف: «إليها».
(٣) فى ف: « الله اطلع منه».
(٤) فى ف: «منهم كل».
(٥) فى ف: «لا».
(٦) فى ف، أ: «ﷺ».
(٧) فى ف، أ: «إنهما».
(٨) زيادة من أ.

منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب اللَّه له وسماهم كما سماهم[(١)] فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون، ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم[(٢)] حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه. فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فى كل ناحية ثلاث[(٣)] أعين، وأعلم كل سِبْط عينهم[(٤)] التى يشربون منها، فلا يرتحلون من مَنْقَلَة إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذى كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى ﷺ، وصَدَّق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس يحدث[(٥)] هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل، فقال: كيف يُفْشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك؟. فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول اللَّه ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعونى، بما سمع من الإسرائيلى الذى شهد على ذلك وحضره.

هكذا رواه الإمام النسائى فى السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيريهما[(٦)]، كلهم من حديث يزيد بن هارون به[(٧)]، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس، رضى اللَّه عنه[(٨)]، مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، واللَّه أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً.

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) ﴾.

يقول تعالى مخاطباً لموسى، عليه السلام: إنه لبث مقيماً فى أهل «مدين» فاراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر اللَّه وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله للَّه[(٩)] تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ **ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ [يَا مُوسَىٰ]**[(١٠)] ﴾ قال مجاهد: أى على موعد.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة فى قوله: ﴿ **ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ** ﴾ قال: على قدر

---

(١) فى ف، أ: «كما سماهم موسى». (٢) فى ف: «أظهرهم». (٣) فى ف: «ثلاثة».
(٤) فى أ: «منهم». (٥) فى أ: «حدث». (٦) فى أ: «فى تفسيرهما».
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٢٦) وتفسير الطبرى (١٦/ ١٢٥).
(٨) فى ف، أ: «عنهما». (٩) فى ف: «له». (١٠) زيادة من ف، أ.

الرسالة والنبوّة.

وقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أى: اصطفيتك واجتبيتك رَسُولاً لنفسى، أى: كما أريد وأشاء.

وقال البخارى عند تفسيرها: حدثنا الصَّلْتُ بن محمد، حدثنا مهدىّ بن ميمون، حدثنا محمد ابن سِيرين عن أبى هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذى أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذى اصطفاك اللَّه برسالته واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدتَه قد كتب عَلَىّ قبل أن يخلقنى؟ قال: نعم. فحَجّ آدم موسى» أخرجاه (١).

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أى: بحُجَجى وبراهينى ومعجزاتى، ﴿وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس: لا تُبْطئا.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تَضْعُفا.

والمراد أنهما لا يفتران فى ذكر اللَّه، بل يذكران اللَّه فى حال مواجهة فرعون، ليكون ذكرُ اللَّه عوناً لهما عليه، وقوّة لهما وسلطاناً كاسراً له، كما جاء فى الحديث: «إن عبدى كل عبدى للذى (٢) يذكرنى وهو مُنَاجِز قِرْنه» (٣).

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، أى: تمرّد وعتا وتَجَهْرم على اللَّه وعصاه، ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة اللَّه من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشى عند قوله: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾: يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

وقال وهب بن مُنَبه: قولا له: إنى إلى العفو والمغفرة أقربُ منى إلى الغضب والعقوبة.

وعن عكرمة فى قوله: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾، قال: لا إله إلا اللَّه، وقال (٤) عمرو بن عبيد، عن الحسن البصرى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾: أعْذرا إليه، قولا له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً.

وقال بقيَّة، عن على بن هارون، عن رجل، عن الضحاك بن مُزَاحم، عن النَّزَّال بن سَبْرَة، عن على فى قوله: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ قال: كَنِّه.

وكذا روى عن سفيان الثورى: كَنّه بأبى مُرَّة.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٦).

(٢) فى أ: «الذى».

(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٨٠) من حديث عمارة بن زعكرة رضى الله عنه.

وقال: الترمذى «هذا حديث غريب ولانعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوى».

(٤) فى أ: «وعن».

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآية [النحل: ١٢٥].

[قوله][١]: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أى: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أى: يُوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: «لمن أراد أن يذكر أو يخشى»[٢] فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة.

وقال الحسن البصرى[فى قوله][٣]: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أهْلكه قبل أن أعذر[٤] إليه.

وهاهنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل ،ويروى لأمَيّة بن أبى الصَّلْت فيما ذكره ابن إسحاق:

وأنت الذى من فضل مَنٍّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له يا اذهب وهارون فادعُوَا ... إلى اللَّه فرعون الذى كان باغيا
فقولا له هل أنت سوّيت هذه ... بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له آأنت رَفَّعت هذه ... بلا عمد؟ أرفق إذن بك بانيا
وقولا له آأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جَنَّه الليل هاديا
وقولا له من يخرج الشمس بكرةً ... فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رؤوسه[٥] ... ففى ذاك آيات لمن كان واعيا[٦]

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون، عليهما السلام، أنهما قالا مستجيرين باللَّه تعالى شاكيَيْن

(١) زيادة من ف، وفى أ: «وقوله» .
(٢) هكذا في كل النسخ، وليست آية .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ف: «تعذرا»، وفى أ:«يعذر» .
(٥) فى أ: «دويبة».
(٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨) .

إليه: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾، يعنيان أن يَبْدُر إليهما بعقوبة، أو يعتدى عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك.

قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿ أَن يَفْرُطَ ﴾: يَعْجَل.

وقال مجاهد: يبسط علينا.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾: يعتدى.

﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أى: لا تخافا منه، فإننى معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى علىّ من أمركم شىء، واعلما أن ناصيته بيدى، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذنى وبعد أمرى، وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبى عبيدة، عن عبد اللَّه قال: لما بعث اللَّهُ عَزّ وجل موسى إلى فرعون قال: رب، أىّ شىء أقول؟ قال: قل: هيا شراهيا. قال الأعمش: فَسَّرَ ذلك: الحى قبل كل شىء، والحى بعد كل شىء .

إسناد جيد، وشىء غريب .

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾، قد تقدم فى حديث «الفتون» عن ابن عباس أنه قال: مكثا[(١)] على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد.

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار: أن موسى وأخاه هارون خرجا، فوقفا بباب فرعون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان: إنا رسل[(٢)] رب العالمين، فآذنوا بنا هذا الرجل، فمكثا فيما بلغنى سنتين يَغْدوان ويروحان، لا يعلم بهما ولا يجترئ أحد على أن يخبره بشأنهما، حتى دخل عليه بَطَّال له يلاعبه ويُضْحكه، فقال له: أيها الملك، إن على بابك رجلاً يقول قولاً عجيباً، يزعم أن له إلهاً[(٣)] غيرك أرسله إليك. قال: ببابى؟ قال: نعم. قال: أدخلوه، فدخل ومعه أخوه هارون وفى يده عصاه، فلما وقف على فرعون قال: إنى رسول رب العالمين. فعرفه فرعون.

وذكر السّدّى أنه لما قدم بلاد مصر، ضاف أمّه وأخاه وهما لا يعرفانه، وكان طعامهما[(٤)] ليلتئذ الطعثلل[(٥)] وهو اللفت، ثم عرفاه وسلما عليه، فقال له موسى: يا هارون، إن ربى قد أمرنى أن آتى هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى اللَّه، وأمر[(٦)] أن تعاوننى. قال: افعل ما أمرك ربك. فذهبا، وكان ذلك ليلاً، فضرب موسى باب القصر بعصاه، فسمع فرعون فغضب وقال[(٧)]: من يجترئ على هذا

---

(١) فى ف: «عن ابن عباس أنهما مكثا فى بابه»، وفى أ: «عن ابن عباس أنه قال: مكثا فى بابه».
(٢) فى أ: «رسول».
(٣) فى أ: «أن له إله» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.
(٤) فى أ: «وكان طعامهم».
(٥) فى أ: «الطفسل» .
(٦) في ف، أ: «وأمرك» .
(٧) فى ف، أ: «فقال» .

الصنيع؟ فأخبره السدنة والبوابون[١] بأن ههنا رجلاً مجنوناً يقول: إنه رسول اللَّه. فقال: علىّ به. فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذكر[٢] اللَّه فى كتابه .

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: بدلالة ومعجزة من ربك، ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أى: والسلام عليك إن اتبعت الهدى.

ولهذا لما كتب رسول اللَّه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم [كتاباً، كان أوله: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللَّه إلى هرقل عظيم الروم][٣] سلام على من اتبع الهدى. أما بعد،[فإنى أدعوك بدعاية الإسلام][٤] فأسلم تسلم يؤتك اللَّه أجرك مرتين» .

وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول اللَّه ﷺ كتاباً صُورَتُه: «من مسيلمة رسول اللَّه إلى محمد رسول اللَّه ،سلام عليك. أما بعد، فإنى قد أشركت[٥] فى الأمر مَعَكَ، فلك المدر[٦] ولى الوَبَر، ولكن قريش[٧] قوم يعتدون». فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»[٨] .

ولهذا قال موسى وهارون، عليهما السلام، لفرعون: ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أى: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحى المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى :﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات ٣٧ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ . لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى .الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ .وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢] . أى : كذب بقلبه وتولى بفعله.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلا يَنسَى (٥٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى منكرًا وجود الصانع الخالق، إله كل شيء وربه ومليكه، قال :﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ ، أى: الذى بعثك وأرسلك مَنْ هو؟ فإنى لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيرى، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: خلق لكل شيء زَوْجة.

(١) فى أ: «والبوابين» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه، .
(٢) فى ف: «ذكره» . (٣، ٤) زيادة من ف، أ .
(٥) فى ف، أ: «اشتركت» . (٦) فى أ: «فلك الدر». (٧) فى ف، أ: «قريشًا» .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٠٠) .

وقال الضحاك عن ابن عباس: جعل الإنسان إنسانًا، والحمار حمارًا، والشاة شاةً.

وقال ليث بن أبى سُلَيم، عن مجاهد: أعطى كل شىء صورته.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: سَوّى خلق كل دابة.

وقال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، قال: أعطى كل ذى خَلْق ما يصلحه من خَلْقه، ولم يجعل للإنسان من خَلْق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب[(١)] من خلق الشاة، وأعطى كل[(٢)] شىء ما ينبغى له من النكاح، وهيّأ كلّ شىء على ذلك، ليس شىء منها يشبه شيئًا من أفعاله[(٣)] فى الخَلْق والرزق والنكاح.

وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] أى: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، أى: كَتَب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذى خلق [الخلق][(٤)]، وقدر القَدَر، وجَبَل الخليقة على ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾: أصح الأقوال فى معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أى: الذين لم يعبدوا الله، أى: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك[(٥)]، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى فى جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم[(٦)] عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم فى كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، أى: لا يشذ عنه[(٧)] شىء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئًا. يصف علمه تعالى بأنه بكل شىء محيط، وأنه لا ينسى شيئًا، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان[(٨)] أحدهما: عدم الإحاطة بالشىء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦)﴾.

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه، عز وجل، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

---

(١) فى أ: «ولا للخلق».
(٢) فى ف، أ: «كل ذى».
(٣) فى ف: «من فعاله».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ف، أ: «لم يعبدوه».
(٦) فى ف، أ: «علمهم».
(٧) فى ف: «عليه».
(٨) فى ف، أ: «نقصان».

﴿مِهَادًا﴾، وفى قراءة بعضهم: «مهداً» أى: قراراً تستقرون[١] عليها وتقومون وتنامون عليها[٢] وتسافرون[٣] على ظهرها، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أى: جعل لكم طرقا تمشون فى مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أى: [من][٤] ألوان النباتات من زروع، وثمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أى: شىء لطعامكم وفاكهتكم، وشىء لأنعامكم لأقواتها خضرا ويابسًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أى: لدلالات وحججا[٥] وبراهين ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أى: لذوى العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أى: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أى: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وفى الحديث الذى فى السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر ثم قال[٦]: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ ثم [أخذ][٧] أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾. ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾، يعنى: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفراً وعناداً وبغيًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهى إلقاء عصاه فصارت ثعبانًا عظيما ونزع يده من تحت جناحه فخرجت[٨] بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل

---

(١) فى ف: «يستقرون». (٢) فى ف: «ويقومون وينامون عليها». (٣) فى ف: «ويسافرون».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى أ: «وحجج» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه. (٦) فى أ: «وقال».
(٧) زيادة من ، ف، أ. (٨) فى أ: «فتخرج».

سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أى: يومًا نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر فى مكان معين ووقت معين فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونَوروزُهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أى: جميعهم ﴿ضُحًى﴾ أى: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بيّن، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يقل «ليلاً» ولكن نهارًا ضحى.

قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء.

وقال السدى، وقتاده، وابن زيد: كان يوم عيدهم.

وقال سعيد بن جبير: يوم سوقهم.

ولا منافاة. قلت: وفى مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت فى الصحيح.

وقال وهب بن مُنَبِّه: قال فرعون: يا موسى، اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. قال موسى: لم أومر بهذا، إنما أمرت بمناجزتك، إن أنت لم تخرج دخلت إليك. فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً وقل له أن يجعل هو. قال فرعون: اجعله إلى أربعين يومًا. ففعل.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿مَكَانًا سُوًى[1]﴾: مَنْصَفًا. وقال السدى: عدلا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [مستوى][2] يتبين الناس ما[3] فيه، لا يكون صَوَب[4] ولا شىء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستوٍ حتى[5] يُرى.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى [6]،عليه السلام، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أى: شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب[7] إلى سحر فى ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيرًا نافقًا جدًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩].

---

(١) فى أ: «سويا».
(٢) زيادة من ف،أ.
(٣) فى أ: «وما».
(٤) فى أ: «ولاصوت».
(٥) فى ف، أ: «مستوى».
(٦) فى أ: «تواعد هو وموسى».
(٧) فى أ: «كل من يسب».

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أى: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدى فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ .قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ[(١)] إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[الشعراء: ٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ[(٢)] لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: لا تُخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أى: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ . فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبى. وقائل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله : ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾أى: تناجوا فيما بينهم، ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ هذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: ﴿إِنْ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾، وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة فى الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه.

والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون[(٣)] أن هذا الرجل وأخاه ـ يعنون: موسى وهارون ـ ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان فى هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أى: ويستبدا بهذه الطريقة، وهى السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون[(٤)]: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم.

وقد تقدم فى حديث الفتون عن[(٥)] ابن عباس [قال][(٦)] فى قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ يعنى: ملكهم الذى هم فيه والعيش.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هُشَيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبى يحدث عن على فى قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ قال: يصرفا[(٧)] وجوه الناس إليهما.

وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ قال: أولى الشرف والعقل والأسنان.

وقال أبو صالح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أشرافكم وسرواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم عددًا وأموالاً، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما.

---

(١) فى ف: «إنكم». (٢) فى أ: «فقال». (٣) فى ف، أ: «يعلمون».
(٤) فى ف: «يقولان». (٥) فى ف، أ: «أن». (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ف، أ: «يصرفان».

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾، بالذى أنتم عليه.

وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أى اجتمعوا كلكم[1] صفًا واحدًا، وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ أى: منا ومنه، أما نحن فقد وَعَدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى، عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ أى: أنت أولاً ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أى: أنتم أولاً ليُرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم، ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾. وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا[2] أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال هاهنا ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ .

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر[3] أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمًا غفيرًا وجمعًا كبيرًا[4]، فألقى كل منهم عصا وحبلا، حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضها بعضًا.

وقوله ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أى خاف على الناس أن يَفْتَتنوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه، فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعنى: عصاه، فإذا هى ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ وذلك أنها صارت تِنّينًا[5] عظيمًا هائلاً ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق[6] منها شيئًا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جَهْرة، نهارًا ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون[7]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن موسى الشيبانى[8]، حدثنا حماد بن خالد، حدثنا ابن معاذ ـ أحسبه الصائغ ـ عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله البجلى قال: قال رسول الله

---

(١) في أ: «كلهم».
(٢) فى ف: «فسحروا».
(٣) فى ف، أ: «للناظرين».
(٤) فى ف، أ: «كثيرًا».
(٥) فى ف، أ: «ثعبانًا».
(٦) فى ف: «لم يبق».
(٧) فى ف، أ: «ووقع الحق وبطل السحر».
(٨) فى ف: «ابن الشيبانى».

ﷺ «إذا أخذتم ـ يعنى: الساحر ـ فاقتلوه»، ثم قرأ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ قال: «لا يؤمن به حيث وجد».

وقد روى أصله الترمذى موقوفًا ومرفوعًا(١).

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجَّدًا لله وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

ولهذا قال ابن عباس، وعُبَيد بن عُمَير: كانوا أول النهار سحرة، وفى آخر النهار شهداء بررة.

قال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفًا، وقال القاسم بن أبى بَزَّة: كانوا سبعين ألفًا.

وقال السدى: بضعة وثلاثين ألفًا.

وقال الثورى: عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن أبى ثمامة: كان(٢) سحرة فرعون تسعة عشر ألفًا.

وقال محمد بن أبى إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفًا.

وقال كعب الأحبار: كانوا اثنى عشر ألفًا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن على بن حمزة، حدثنا(٣) على بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوى، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيب بن واضح بمكة، حدثنا ابن المبارك قال: قال الأوزاعى: لما خرَّ السحرة سُجَّدًا رُفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها.

قال: وذُكر عن سعيد بن سلام: حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال: رأوا منازلهم تبنى لهم وهم فى سجودهم. وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبى بَزَّة.

---

(١) سنن الترمذى برقم(١٤٦٠) من طريق إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب رضى الله عنه وقال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكى يضعف فى الحديث، وإسماعيل بن مسلم العبدى البصرى قال وكيع: هو ثقة ويروى عن الحسن أيضًا والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم».

تنبيه:

ذكر الحافظ المزي هذا الحديث في كتابه تحفة الأشراف(٢/٤٤٦) من مسند جندب الخير الأزدى لا من مسند جندب بن عبد الله البجلى رضى الله عنهما فليتنبه».

(٢) فى أ: «كانوا».

(٣) فى أ: «حدثنا محمد بن موسى حدثنى على بن الحسين».

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغُلب كل الغَلَب ـ شرع فى المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه فى[1] السحرة، فتهددهم وأوعدهم[2]، وقال ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أى: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى: وما أمرتكم بذلك، وافتتم[3] علىّ فى ذلك. وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بَهْت وكذب: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أى: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علىّ وعلى رعيتى، لتظهروه، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أى: لأجعلنكم مثلة [ولأقتلنكم][4] ولأشهرنكم.

قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ أى أنتم تقولون: إنى وقومى على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه.

فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم فى الله عز وجل، و ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أى: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين. ﴿وَالَّذِى فَطَرَنَا ﴾ يحتمل أن يكون قسمًا، ويحتمل أن يكون معطوفًا على البينات.

يعنون: لا[5] نختارك على فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت .

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أى: فافعل ما شئت وما وَصَلَت إليه يدك، ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما لك تَسَلُّط فى هذه الدار، وهى دار الزّوال ونحن قد رغبنا فى دار القرار[6].

---

(١) فى ف: «إلى». (٢) فى ف: «وتوعدهم» وفى أ: «فهددهم وتوعدهم». (٣) فى ف: «وأقسم» وفي أ: «وأقشم».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف، أ: «لن». (٦) فى أ: «البقاء».

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ أى: ما كان منا من الآثام، خصوصًا ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة، عن أبى سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلامًا من بنى إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالفَرَمَا، وقال: علموهم تعليمًا لا يعلمه[1] أحد فى الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿[إِنَّا][2] آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أى: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: أدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنيتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق، رحمه الله.

وقال محمد بن كعب القُرَظِى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ أى: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: منك عذابًا إن عُصِىَ.

وروى نحوه عن ابن إسحاق أيضًا:

والظاهر أن فرعون ـ لعنه الله ـ صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسَوْا شهداء.

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى (٧٦) ﴾.

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدى، ويرغبونه فى ثوابه الأبدى المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ أى: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ كقوله: ﴿لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى .ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا إسماعيل، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا

(١) فى أ: «يغلبهم».
(٢) زيادة من ف.

يحيون ولكن [الناس](١) تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا، أذن فى الشفاعة، جىء بهم ضبائر، ضبائر، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم(٢)، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية.

وهكذا أخرجه مسلم فى كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل، كلاهما عن أبى مَسْلَمة(٣) سعيد بن يزيد به(٤).

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدثنا أبى، حدثنا حيَّان، سمعت سليمان التَّيْمى، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد؛ أن رسول الله ﷺ خَطَب فأتى على هذه الآية: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾، قال النبى ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها، فإن النار تمسهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضبائر، فيؤتى(٥) بهم نهرا يقال له: الحياة ـ أو: الحيوان ـ فينبتون كما ينبت القثَّاء فى حميل السيل».

وقوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أى: ومن لقى ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أى: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا هَمَّام، حدثنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبادة بن الصامت، عن النبى ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج(٦) الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس».

ورواه الترمذى، من حديث يزيد بن هارون، عن همام، به(٧).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى، أخبرنا خالد بن يزيد ابن أبى مالك، عن أبيه قال: كان يقال: الجنة مائة درجة، فى كل درجة مائة درجة، بين(٨) كل درجتين كما بين السماء والأرض، فيهن الياقوت والحلى، فى كل درجة أمير، يرون له الفضل والسؤدد.

وفى الصحيحين: «أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «بلى والذى نفسى بيده، رجال

---

(١) زيادة من ف، والمسند. (٢) فى ف، أ: «علينا». (٣) فى ف، أ: «سلمة».
(٤) المسند (٣/١١)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥).
(٥) فى ف: «فيؤتون». (٦) فى ف: «يخرج».
(٧) المسند(٥/٣١٦)، وسنن الترمذى برقم (٢٥٣١).
(٨) فى ف، أ: «ما بين».

آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[١] . وفى السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما»[٢].

وقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى ﴾ أى: إقامة وهو بدل من الدرجات العلى، ﴿[تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ][٣] خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى: ماكثين أبدا، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أى: طهر نفسه من الدنس والخَبَث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق[٤] المرسلين فيما جاؤوا به من خبَر وطلب.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) ﴾.

يقول تعالى مخبرًا أنه أمر موسى، عليه السلام، حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل، أن يسرى بهم فى الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام فى غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببنى إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضبًا شديدًا وأرسل فى المدائن حاشرين، أى: من يجمعون له الجند من بلدانه ورَسَاتيقه، يقول: ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق فى طلبهم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أى: عند طلوع الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أى: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦١، ٦٢]، ووقف موسى ببنى إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن ﴿اضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ ، فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلق[٥] بإذن الله»، ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[الشعراء: ٦٣] أى: الجبل العظيم. فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض؛ ولهذا قال: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا ﴾ أى: من فرعون، ﴿وَلا تَخْشَىٰ﴾ يعنى: من البحر أن يغرق قومك .

ثم قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ[٦] ﴾ أى: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أى: الذى هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما[٧] قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِى شِعْرِى

أى: الذى يعرف، وهو مشهور.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه.
(٢) سنن أبى داود برقم (٣٩٨٧) وسنن ابن ماجه برقم (٩٦).
(٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ف: «واتبع». (٥) فى أ: «انفلق على».
(٦) فى ف، أ: «اليم ما غشيهم». (٧) فى ف: «وكما».

وكما تقدمهم[١] فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[هود:٩٨].

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾.

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل العظام، ومننه الجسام، حيث نَجَّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا فى صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال [تعالى][٢]: ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[البقرة: ٥٠].

وقال البخارى: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا رَوْح بن عبادة، حدثنا شعبة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذى أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» رواه مسلم أيضا فى صحيحه[٣].

ثم إنه تعالى واعد موسى وبنى إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذى كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك[٤]. وفى غُضُون ذلك عَبَدَ بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريبا.

وأما المن والسلوى، فقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «البقرة»[٥] وغيرها. فالمن: حُلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسّلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل، قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من الله، ورحمةً بهم، وإحسانًا إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي**﴾ أى: كلوا من هذا [الرزق][٦] الذى رزقتكم، ولا تطغوا فى رزقى، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به، ﴿**فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي**﴾ أى: أغضب عليكم ﴿**وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ**﴾. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى: فقد شقى.

وقال شُفَىّ بن ماتع: إن فى جهنم قصرًا يرمى الكافر من أعلاه، فيهوى فى جهنم أربعين خريفًا قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿**وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ**﴾ . رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ أى: كل من تاب إلىّ تبتُ عليه من أى ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب[٧] على من عبد العجل من بنى إسرائيل.

---

(١) فى ف: «يقدمهم». (٢) زيادة من ف.
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٧)، وصحيح مسلم برقم (١١٣٠).
(٤) فى ف، أ: «هنالك». (٥) عند تفسير الآية:٥٧ وما بعدها. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ف، أ: «أنه تاب تعالى».

وقوله: ﴿تَابَ﴾ أى :رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية.

وقوله: ﴿وَآمَنَ﴾ أى: بقلبه[١]، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أى: بجوارحه.

وقوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى ثم لم يشكك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أى: استقام على السنة والجماعة. ورُوِى نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وقال قتاده : ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أى: لزم الإسلام حتى يموت.

وقال سفيان الثورى: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أى: علم أن لهذا[٢] ثوابًا.

وثم هاهنا لرتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧].

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) ﴾.

لما سار موسى، عليه السلام، ببنى إسرائيل بعد هلاك فرعون، وافوا[٣] ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها[٤] له عشرًا، فتمت [له][٥] أربعين ليلة، أى: يصومها ليلاً ونهارًا. وقد تقدم فى حديث «الفتون» بيان ذلك. فسارع موسى، عليه السلام، مبادرًا إلى الطور، واستخلف على بنى إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ . قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أى: قادمون ينزلون قريبًا من الطور، ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أى: لتزداد عنى رضا، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث فى بنى إسرائيل، وعبادتهم العجل الذى عمله لهم ذلك

---

(١) فى ف: «قلبه». (٢) فى ف: «هذا». (٣) فى ف، أ: «واتوا».
(٤) فى ف، أ: «أتمها». (٥) زيادة من ف، أ.

السامرى. وفى الكتب الإسرائيلية: أنه كان اسمه هارون أيضًا، وكتب الله تعالى له فى هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أى: عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى.

وقوله ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: بعد ما أخبره تعالى بذلك، فى غاية الغضب والحَنَق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتَسَلَّم التوراة التى فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يَعْلَمُ كل عاقل له لب [وحزم][(١)] بطلان[(٢)] [ما هم فيه][(٣)] وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفًا، والأسف: شدة الغضب.

وقال مجاهد: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: جزعًا. وقال قتادة، والسدى: ﴿أَسِفًا﴾ أى: حزينًا على ما صنع قومه من بعده.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أى: أما وعدكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندكم؟ ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾، أى: فى انتظار ما وعدكم الله. ونسان ما سلف من[(٤)] نعمه، وما بالعهد من قدم. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «أم» هاهنا بمعنى «بل»، وهى للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثانى، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي .قَالُوا ﴾ أى: بنو إسرائيل فى جواب ما أنبهم[(٥)] موسى وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أى: عن قدرتنا واختيارنا.

ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم كما كان بأيديهم من حُلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أى: ألقيناها عنا. وقد تقدم فى حديث «الفتون» أن هارون، عليه السلام، هو الذى كان أمرهم بإلقاء الحلى فى حفيرة فيها نار.

وفى رواية السُّدِّىّ، عن أبى مالك، عن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمع الحلى كله فى تلك الحفيرة[(٦)]، ويجعل حجرًا واحدًا. حتى إذا رجع موسى يرى[(٧)] فيه ما يشاء. ثم جاء [بعد][(٨)] ذلك السامرى فألقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له فى دعوته، فدعا له هارون ـ وهو لا يعلم ما يريد ـ فأجيب له[(٩)]، فقال السامرى عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلاً. فكان عجلاً له خُوار، أى: صوت، استدراجًا وإمهالاً ومحنة واختبارًا؛ ولهذا قالوا: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ .فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبادة بن البَخْترى[(١٠)]، حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حَمَّاد

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: «بضلال». (٣) زيادة من ف، أ وفى هـ: «ما لقيه».
(٤) فى ف: «فى». (٥) فى أ: «نبيهم». (٦) فى ف: «الحفرة».
(٧) فى ف، أ: «رأى». (٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ف، أ: «فيه».
(١٠) فى ف: «البحترى».

[٣٠و]

/ سورة طه

مكّيّة، وهي مائة وأربع[١] وثلاثون[٢] آيةً.[٣]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾

﴿طه﴾ فخّمهما قالونُ[٤] وابن كثير وابن عامر وحفصٌ ويعقوبُ على الأصل، و"الطاء" وحدَه أبو عمرو ووَرشٌ[٥] لاستعلائه، وأمالَهما الباقون.[٦] وهو مِن الفواتح التي يُصدّر بها السوَر الكريمة، وعليه جمهورُ المتقِنين. وقيل: معناه "يا رجلُ"، وهو مرويّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وسعيد بن جُبير

---

١ ط س: وثلاثون.

٢ ط س: وأربع.

٣ ط س: آيات.

٤ هو عيسى بن ميناء بن وردان بن عيسى المدني، أبو موسى (ت. ٢٢٠هـ/٨٣٥م). الإمام المجوِّد النحوي، مولى الأنصار، ومُقرئ المدينة وتلميذ نافع القارئ. وقيل: ربيبه ولقّبه قالون لجَودة حفظه ومعناه بلغة الروم: جيّد. انتهت إليه الرياسة في علوم العربيّة والقراءة في زمانه في الحجاز. وكان أصمّ يُقرَأ عليه القرآن وهو ينظر إلى شفتي القارئ فيردّ عليه اللحن والخطأ. روى عن نافع وعن ابن كثير وعن ابن أبي الزّناد، روى عنه أبو زُرْعة وأبو ديزيل وإسماعيل القاضي وأحمد بن صالح وغيرهم، وتلا عليه ابنه أحمد والحُلواني وأبو نشيط وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٠/٣٢٦-٣٢٧؛ والأعلام للزركلي، ٥/١١٠.

٥ هو عثمان بن سعيد بن عديّ المصري، أبو سعيد وأبو عمرو (ت. ١٩٧هـ/٨١٢م). مِن كبار القرّاء، أصله مِن القيروان، ومولده ووفاته في مصر. جوّد ختمتين على أستاذه نافع ولقّبه نافع ورشًا لشدّة بياضه، والورش لبن يُصنَع، وكان لا يكرهه ويقول: نافع أستاذي سمّاني به. كان أشقرَ أزرقَ رَبْعة سمينًا. وكان ماهرًا بالعربيّة، ثقة في الحروف حجّة، جيّد القراءة، حسن الصوت، إذا قرأ يهمز ويمدّ ويشدِّد ويبيّن الإعراب، لا يملّه سامعه. انتهت إليه رئاسة الإقراء. تلا عليه أحمد بن صالح الحافظ، وداود بن أبي طيبة ويوسف الأزرق وغيرهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٩/٢٩٥؛ والأعلام للزركلي، ٤/٢٠٥.

٦ انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٦٨.

وقَتادةَ وعِكرمةَ والكلبي،[١] إلّا أنّه عند سعيد على اللغة النبطيّة،[٢] وعند قتادةَ على السُّريانيّة،[٣] وعند عِكرمةَ على الحبشيّة، وعند الكلبي على لغة عَكّ،[٤] وقيل: عُكْل،[٥] وهي لغة يمانيّة.[٦] قالوا: إن صحّ فلعلّ أصلَه "يا هذا" فتصرّفوا فيه بقلب "الياء" طاءً وحذفِ "ذا" مِن "هذا".[٧] وما استُشهد به مِن قول الشاعر:

إنّ السفاهة طه في خلائقكُمْ   لا قدّس الله أخلاقَ الملاعينِ[٨]

ليس بنصّ في ذلك؛ لجواز كونه قسمًا كما في «حم لا يُنْصرون».[٩]

وقد جُوّز أن يكون الأصل "طَأْها" بصيغة الأمر مِن "الوطء"، فقُلبت "الهمزة" في "يطأ" ألفًا لانفتاح ما قبلها، كما في قول مَن قال:

لا هَناكِ المَرتَعُ[١٠]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ١٦/٥-٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٦٢/٥؛ واللباب لابن عادل، ١٦٥/١٣.

٢ مرويّ عن ابن عبّاس وعِكرمةَ والضحّاك في جامع البيان للطبري، ١٦/٥-٦؛ وعن سعيد بن جُبير في اللباب لابن عادل، ١٦٥/١٣.

٣ مرويّ عن سعيد بن جُبير وابن عبّاس وعكرمةَ ومجاهد وقتادة في جامع البيان للطبري، ١٦/٦-٧؛ وعن قتادة في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٢/٥.

٤ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٢/٥. | عكّ: هم بنو عَكّ بن عرقان بن الأزد، بطن مِن الأزد القحطانيّة. وذهب آخرون أنّهم مِن العدنانيّة، وهم بنو عكّ بن الديث بن عدنان. ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم. انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ٣٢٨/١؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ٣٦٦/١-٣٦٧.

٥ عُكل: بطن مِن طابخة العدنانيّة، وهم بنو عوف بن وائل بن قيس بن عوف بن عبد مَناة بن أدّ بن طابخة. انظر: أنساب الأشراف للبلاذردي، ٢٦٢/١١؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ٣٦٧/١، ٣٨٣.

٦ القول في تفسير القرطبي، ١٦٥/١١؛ واللباب لابن عادل، ١٦٥/١٣.

٧ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٨/٣.

٨ البيت ليزيد بن المهلهل في تفسير القرطبي، ١٦٦/١١؛ وهو بلا عزو في جامع البيان للطبري، ٨/١٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٨/٣، وغمَز من البيت بأنّ أثر الصنعة ظاهر فيه.

٩ مسند أحمد، ١٦٢/٢٧ (١٦٦١٥)؛ سنن أبي داود، ٢٣٨/٤ (٢٥٩٧)؛ سنن الترمذي، ٤٨٣/٣ (١٦٨٢).

١٠ وفي هامش م: تمام البيت:

ذهبتْ بمسلمةَ البِغال عشيةً
فارعَي فزارةُ لا هَناكِ المرتعُ

والبيت للفرزدق في ديوانه، ٥٠٨/٢. وصدره فيه:

ومضتْ لمَسلَمة الرِّكاب مُودِّعًا

والبيت له في كتاب سيبويه، ٥٥٤/٣؛ وضرائر الشعر لابن عصفور، ص ٢٢٩؛ وهو بلا عزو في الحُجّة لأبي عليّ الفارسي، ٢١٨/٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٢٧٩/٣ (البقرة، ١١٩/٢)، والكشّاف للزمخشري، ٣٨/٣، وصدره في أكثر المصادر السالفة:

راحتْ بمَسلمة البِغال عشيّةً

وعجزه يُذكَر في الأمثال السائرة. انظر: مجمع الأمثال للمَيداني، ٢٨٩/١.

و"ها" ضميرُ الأرض، على أنّه خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يطأ الأرض بقدميه لِما كان يقوم في تهجّده على إحدى رجليه مبالغة في المجاهَدة.[١]

ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف، كما تأبى التفسير بـ"يا رجلُ"، فإنّ الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفّظ بخلافه مِن خصائص حروف المُعجم.

وقرئ: "طَهْ"[٢] إمّا على أنّ أصلَه "طَأْ" فقُلبت همزته هاءً كما في أمثال "هَرَقت"،[٣] أو قُلبت "الهمزة" في "يطأ" ألفًا كما مرّ، ثمّ بُني مِنه الأمر وألحِق به هاء السكْت، وإمّا على أنّه اكتُفي في التلفّظ بشطرَي الاسمين وأُقيما[٤] مُقامَهما[٥] في الدلالة على المسمّيين، فكأنّهما[٦] اسماهما[٧] الدالّان / عليهما.[٨] [٣١ظ]

وعلى هذا ينبغي أن يحمل قولُ مَن قال: أو اكتُفى بشطرَي الكلمتين وعبِّر عنهما باسمهما،[٩] وإلّا فالشطران لم يُذكرا مِن حيث إنّهما مسمَّيان لاسمَيهما ليقعا معبَّرًا عنهما؛ بل مِن حيث إنّهما جزءان لهما قد اكتُفيَ بذِكرهما عن ذِكرهما،[١٠] ولذلك وقع التلفّظ بأنفسهما لا باسميهما، بأن يُراد[١١] بضمير التثنية في الموضعَين الشطران مِن حيث هما مُسمّيان لا مِن حيث هما جزآن للاسمين، ويُراد باسمهما الشطران مِن حيث هما قائمان مقامَ الاسمين، فالمعنى اكتُفي في التلفّظ بشطرَي الكلمتين، أي: الاسمين فعُبّر عنهما، أي: عن الشطرين مِن حيث هما مسمَّيان بهما مِن حيث هما قائمان مقامَ الاسمين.[١٢]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعِكرمة وأبي حنيفة وورش في اختياره والوليد بن مسلم عن ابن عامر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢١٩.

٣ لأنّ أصله: أرقتُ.

٤ وفي هامش م: أي: الشطران. «منه».

٥ وفي هامش م: أي: مقام الاسمين. «منه».

٦ وفي هامش م: أي: الشطران. «منه».

٧ وفي هامش م: أي: اسما المسمَّيين. «منه».

٨ وفي هامش م: أي: على المسمَّيين. «منه».

٩ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٣٨.

١٠ وفي هامش م: أي: عن ذِكر الاسمين. «منه».

١١ السياق: أن يحمل... بأن يُراد...

١٢ وفي هامش م: ويجوز أن يرجع الضميران إلى الكلمتين، ويكون المعنى: اكتُفيَ بشطرَي الاسمين وعُبّر عنهما باسمهما، أي: بما يجري مَجرى اسمهما، وهما شطراها الدالّان عليها، وجَعْل الاسمين معبّرًا عنهما باعتبار أنّهما لم يُذكرا باسمهما، بل بما يدلّ عليهما. ولو قيل: "وعُبّر عنهما بهما" لكان أظهر. «منه».

وأمّا حَمْله على معنى أنّه اكتُفي في الكتابة بشطرَي الكلمتين يعني "طا" على تقديرَي كونه أمرًا وكونه حرفَ نداء، و"ها" على تقديرَي كونها كناية[١] الأرض وكونها حرفَ تنبيه، وعُبّر عن ذينك الشطرين في التلفّظ باسمهما،[٢] فبيّن البُطلان؛[٣] كيف؟ و"طا" و"ها" على ما ذُكر مِن التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين؛ بل الأوّل أمر أو حرفُ نداء والثاني ضمير الأرض أو حرفُ تنبيه، على أنّ كتابة صورة الحرف والتلفّظَ بغيره مِن خواصّ حروف المعجم كما مرّ.[٤]

فالحقّ ما سلَف مِن أنّها مِن الفواتح إمّا مسرودةً على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين في مطلع سورة البقرة،[٥] فلا محلَّ لها مِن الإعراب، وكذا ما بعدها مِن قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾، فإنّه استئناف، مَسوق لتسليته صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان يعتريه مِن جهة المشركين مِن التعب، فإنّ الشقاء شائع في ذلك المعنى، ومنه «أشقى مِن رائض مُهْر»،[٦] أي: ما أنزلناه عليك لتتعبَ / بالمبالغة في مكابدة الشدائد في مقاولة العُتاة ومحاورة الطُّغاة وفَرْط التأسّف على كفرهم به والتحسّر على أن يؤمِنوا، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ الآية [الكهف، ٦/١٨]؛ بل للتبليغ والتذكير، وقد فعلتَ فلا عليك إن لم يؤمنوا به بعد ذلك. [٣١و]

أو لصَرْفه[٧] عليه السلام عمّا كان عليه مِن المبالغة في المجاهدة في العبادة، كما يُروى أنّه عليه السلام كان يقوم بالليل حتّى ترِم قدماه، فقال له جبريلُ

---

١ س + عن.

٢ القول في شرح مشكلات الكشّاف لقطب الدين الرازي، ٤٤٤و.

٣ السياق: وأمّا حَمْله... فبيّن البطلان...

٤ وفي هامش م: نعم لو حُمل على معنى أنّه اكتُفيَ في التلفّظ بشطرَي الكلمتين، أعني "طا" و"ها" وعُبّر عنهما على تقديرَي كلّ منهما باسمهما، أي: بما يجري مَجرى اسمهما، أعني شطرَيهما الدالّين عليهما بطريق الرمز، على منهاج قوله:

قلتُ لها قفي فقالتْ لي قاف

لكان له وجه. «منه». | الرجز للوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط في شرح أبيات شواهد الشافية للبغدادي، ٢٧١/٤؛ وهو بلا نسبة في تفسير الطبري، ٢١٦/١ (البقرة، ١/٢)؛ ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٦٢/١ (البقرة، ١/٢). وروايتها فيها:

قلتُ لها قفي قالتْ قاف

٥ فصّل ذلك في تفسير الآية الأولى منها.

٦ في مجمع الأمثال للميداني، ١٤٨/١؛ والمستقصى للزمخشري، ٣٥/١، وفيهما «أتعَبُ» مكان «أشقى». جاء بلفظه ههنا في أساس البلاغة للزمخشري، «شقي».

٧ السياق: مَسوق لتسليته... أو لصرفه...

عليهما السلام: «أَبْقِ على نفسك فإنّ لها عليك حقًّا»،[١] أي: ما أنزلناه عليك لتتعب بنَهْك نفسك وحملِها على الرياضات الشاقّة والشدائد الفادحة، وما بُعثت إلّا بالحنيفيّة السَّمْحة.

وقيل: إنّ أبا جهل والنضر بن الحارث قالا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إنّك شقيّ حيث تركتَ دين آبائك، وإنّ القرآن نزَل عليك لتشقى به، فرُدّ ذلك بأنّا ما أنزلناه عليك لِما قالوا.[٢]

والأوّل هو الأنسب كما يشهد به الاستثناء الآتي.

هذا، وإمّا اسم للقرآن[٣] محلُّه الرفع على أنّه مبتدأ ما بعده خبره، و﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ ظاهر أوقِع موقعَ العائد إلى المبتدأ، كأنّه قيل: القرآن[٤] ما أنزلناه عليك لتشقى، أو النصبُ على إضمار فعل القسَم، أو الجرُّ بتقدير حرفه وما بعده جوابه.

وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسمًا للسورة أيضًا، بخلاف الوجه الأوّل[٥] فإنّه لا يتسنّى على ذلك التقدير، لكن لا لأنّ المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مَقامَه، فإنّ القرآن صادق على الصورة لا محالةَ، إمّا بطريق الاتّحاد بأن يُراد به القَدْر المشترَك بين الكلّ والبعض، أو باعتبار الاندراج إن أريدَ به الكلّ؛ بل لأنّ نفيَ كون إنزاله للشقاء يستدعي سَبْق وقوع الشقاء مترتّبًا على إنزاله قطعًا، إمّا بحسب الحقيقة / كما إذ أريدَ به معنى التعب، أو بحسب زَعْم الكفرة كما لو أريدَ به ضدّ السعادة، ولا ريبَ في أنّ ذلك إنّما يُتصوَّر في إنزال ما أُنزل مِن قبل. [٣١ظ]

وأمّا إنزال السورة الكريمة فليس ممّا يمكن ترتُّب الشقاء السابق عليه حتى يُتصدّى لنفيه منه، أمّا باعتبار الاتّحاد فظاهر، وأمّا باعتبار الاندراج فلأن مآله أن يقال: هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمِل عليها لتشقى. ولا يخفى أن جَعْلها

---

١ بمعناه في مسند أحمد، ١٣٨/٣٠ (١٨١٩٨)؛ وصحيح البخاري، ١٣٥/٦ (٤٨٣٧)؛ وسنن النسائي، ٢١٩/٣ (١٦٤٤)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٨/٣.

٢ القول في أسباب النزول للواحدي، ص ٣١٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٨/٣.

٣ السياق: إما مسرودة... وإمّا اسم للقرآن...

٤ س - القرآن.

٥ وفي هامش م: هو الرفع على الابتداء. «منه».

مُخبَرًا عنها مع أنّه لا دخلَ لإنزالها في الشقاء السابق أصلًا ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ نصب على أنّه مفعولٌ له لـ﴿أَنزَلْنَا﴾،[1] لكن لا مِن حيث إنّه معلَّل بالشقاء على معنى: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بتبليغه إلّا تذكرةً، الآية، كقولك: "ما ضربتُك للتأديب إلّا إشفاقًا" لِما أنّه يجب في أمثاله أن يكون بين العلّتين ملابسة بالسببيّة والمسبَّبيّة حتمًا كما في المثال المذكور، وفي قولك: "ما شافهتُك بالسوء لتتأذّى إلّا زجرًا لغيرك"، فإنّ التأديب في الأوّل مسبَّب عن الإشفاق والتأذّي في الثاني سبب لزجر الغير، وقد عرفتَ ما بين الشقاء والتذكرة مِن التنافي.

ولا يُجدي أن يرادَ به التعب في الجملة المجامِع للتذكرة لظهور ألّا ملابسةَ بينهما بما ذُكر مِن السببيّة والمسبّبيّة وإنّما يُتصوَّر ذلك أن لو قيل مكانَ ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾: إلّا تكثيرًا لثوابك، فإنّ الأجر بقَدْر التعب، ولا مِن حيث إنّه بدل مِن محلّ ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [النساء، ٤/٦٦] لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفتَ حالَهما؛ بل مِن حيث إنّه معطوفٌ عليه بحسب المعنى بعد نفيه بطريق الاستدراك المستفاد مِن الاستثناء المنقطع، كأنّه قيل: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب[2] في تبليغه ولكن تذكرة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

[٣٢و] / وقد جُرّد "التذكرة" عن "اللام" لكونها فعلًا لفاعل الفعل المعلّل، أي: لمَن مِن شأنه أن يخشى الله عزّ وعلا ويتأثرَ بالإنذار لرقّة قلبه ولِين عَريكته أو لمَن عَلِم الله تعالى أنّه يخشى بالتخويف. وتخصيصُها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لأنّهم المنتفعون بها.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا﴾ مصدر مؤكِّد لمضمر مستأنَف مقرِّر لِما قبله، أي: نُزّل تنزيلًا، أو لِما يفيده الجملة الاستثنائيّة فإنّها متضمِّنة لأن يقال: أنزلناه للتذكرة، والأوّل هو الأنسب بما بعده مِن الالتفات، أو منصوبٌ على المدح والاختصاص.

---

[1] طه، ٢٠/٢.

[2] وفي هامش م: على الوجه الأوّل.

وقيل: هو منصوب بـ﴿يَخْشَىٰ﴾ على المفعوليّة، أي: يخشى تنزيلًا مِن الله تعالى.[١] وأنت خبير بأنّ تعليقَ الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود، نعم قد يعلّق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة، ٩/٦٤].

وقيل: هو بدل مِن ﴿تَذْكِرَةً﴾ لكن لا على أنّه مفعول له لـ﴿أَنزَلْنَا﴾،[٢] إذ لا يعلّل الشيء بنفسه ولا بنوعه؛ بل على أنّه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقعَ الحال مِن "الكاف" في ﴿عَلَيْكَ﴾ أو مِن ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾،[٣] ولا مساغَ له إلّا بأن يكون قيدًا لـ﴿أَنزَلْنَا﴾[٤] بعد تقيّده بالقيد الأوّل. وقد عرفتَ حاله فيما سلَف، وقُرئ: "تَنْزِيلٌ"[٥] على أنّه خبرٌ لمبتدأ محذوف.

و﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ متعلّقة بـ﴿تَنزِيلًا﴾، أو بمضمر هو صفة له مؤكِّدة لِما في تنكيره مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغَيبة بعد نسبته إلى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب / الأفعال والصفات إثرَ بيانها بحسب الذات بطريق [٣٢ظ] الإبهام ثمّ التفسير لزيادة تحقيق وتقرير.

وتخصيصُ خلقهما بالذِّكر مع أنّ المراد خَلقهما بجميع ما يتعلّق بهما كما يفصِح عنه قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية،[٦] لأصالتهما واستتباعهما لِما عداهما. وتقديمُ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ لكونه أقرب إلى الحسّ أظهرَ عنده. ووصفُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بـ"العُلا"، وهو جَمْع "العَلياء" تأنيثُ "الأعلى"، لتأكيد الفخامة مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل.

وكلّ ذلك إلى قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٧] مَسوق لتعظيم شأن المنزل عزّ وجلّ المستتبع لتعظيم المنزَل الداعي إلى تربية المهابة وإدخالِ الروعة

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٠.
٢ طه، ٢٠/٢.
٣ طه، ٢٠/٢.
٤ طه، ٢٠/٢.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٠.
٦ طه، ٢٠/٦.
٧ طه، ٢٠/٨.

المؤدِّية إلى استنزال المتمرِّدين عن رتبة العتوّ والطُّغيان واستمالتهم نحو الخشية المُفضِية إلى التذكّر والإيمان.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ رفع على المدح، أي: هو الرحمن، وقد عرفتَ في صدر سورة البقرة[١] أنّ المرفوع مدحًا في حكم الصفة الجارية على ما قبله وإن لم يكن تابعًا له في الإعراب، ولذلك التزموا حَذْف المبتدأ ليكون في صورة متعلّق مِن متعلّقاته، وقد قُرئ بالجرّ[٢] على أنّه صفة صريحة للموصول. وما قيل مِن أنّ الأسماء الناقصة لا يُوصَف مِنها إلّا "الذي" وحدَه مذهبُ الكوفيّين.[٣]

وأيًّا ما كان فوَصْفه بالرحمانيّة إثرَ وصفه بخالقيّة السماوات والأرض للإشعار بأنّ خَلْقهما مِن آثار رحمته تعالى، كما أنّ قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [النبأ، ٣٧/٧٨] للإيذان بأنّ ربوبيّته تعالى بطريق الرحمة، وفيه إشارة إلى أنّ تنزيل القرآن أيضًا مِن أحكام رحمته تعالى، كما ينبّئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن، ٥٥/١-٢].

أو رَفْع على الابتداء[٤] و"اللام" للعهد والإشارة إلى الموصول، والخبرُ قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾. / وجعلُ الرحمة عنوانَ الموضوع الذي شأنه [٣٣و]
أن يكون معلوم الثُبوت للموضوع عند المخاطَب للإيذان بأنّ ذلك أمر بيّن لا سُترةَ به غنيّ عن الإخبار به صريحًا. و﴿عَلَى﴾ متعلّقة بـ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ قدّمت عليه لمراعاة الفواصِل، والجارُّ والمجرور على الأوّل[٥] خبرُ مبتدأ محذوف، كما في قراءة الجرّ. وقد جُوّز أن يكون خبرًا بعد خبر.[٦]

---

١ في تفسير طه، ٣/٢٠.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حُبيش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٣/١٧٥.
٤ السياق: رفع على المدح... أو رفع على الابتداء...
٥ وفي هامش م: هو كون ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ رفعًا على المدح. «منه».
٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٠.

والاستواء على العرش مجاز مِن المُلك والسلطانِ متفرّع على الكناية فيمَن يجوِّز عليه القعود على السرير، يقال: "استوى فلان على سرير المُلك" يراد به "مَلَك" وإن لم يقعُد على السرير أصلًا. والمرادُ بيان تعلّق إرادته الشريفة بإيجاد الكائنات وتدبير أمرها.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سواء كان ذلك بالجزئيّة مِنهما أو بالحلول فيهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن الموجودات الكائنة في الجوّ دائمًا كالهواء والسحاب، أو أكثريًا كالطير، أي: له وحدَه دون غيره لا شركةً ولا استقلالًا كلُّ ما ذُكر مُلكًا وتصرّفًا وإحياءً وإماتةً وإيجادًا وإعدامًا. ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي: ما واراه التراب. وذِكرُه مع دخوله تحت ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لزيادة التقرير، رُوي عن محمّد بن كعب: «أنّه ما تحت الأرضينَ السبع».[١] وعن السُّدّي: «أنّ الثرى هو الصخرة التي عليها الأرض السابعة».[٢]

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ بيان لإحاطة عِلمه تعالى بجميع الأشياء إثرَ بيان سَعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات، أي: وإن تجهَر بذِكره تعالى ودعائه فاعلَم أنّه تعالى غنيّ عن جهرك. ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي: ما أسررتَه إلى غيرك، وشيئًا أخفى مِن ذلك وهو ما أخطَرتَه ببالك مِن غير أن تتفوّه به أصلًا، أو ما أسررتَه / لنفسك وأخفى منه وهو ما ستُسِرّه فيها فيما سيأتي. [٣٣ظ]

وتنكيرُه للمبالغة في الخفاء. وهذا إمّا نَهي عن الجهر كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف، ٢٠٥/٧]، وإمّا إرشاد للعباد إلى أنّ الجهر ليس لإسماعه سبحانه؛ بل لغرض آخرَ مِن تصوير النفس بالذِّكر، وتثبيته فيها، ومنعِها مِن الاشتغال بغيره، وقطعِ الوسوسة عنها، وهضمِها بالتضرّع والجُؤار.

---

١ جامع البيان للطبري، ١٢/١٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠/٣.

٢ تفسير ابن أبي حاتم، ٢٤١٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠/٣.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة استئناف مَسوق لبيان أنّ ما ذُكر مِن صفات الكمال موصوفُها ذلك المعبود بالحقّ، أي: ذلك المنعوتُ بما ذُكر مِن النعوت الجليلة اللهُ عزّ وجلّ.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تحقيق للحقّ وتصريح بما تضمّنه ما قبله مِن اختصاص الألوهيّة به سبحانه، فإنّ ما أُسند إليه تعالى مِن خَلْق جميع الموجودات والرحمانيّة والمالكيّة للكلّ والعِلم الشامل ممّا يقتضيه اقتضاء بيّنًا.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بيان لكون ما ذُكر مِن الخالقيّة والرحمانيّة والمالكيّة والعالميّة أسماءَه وصفاتِه مِن غير تعدّد في ذاته تعالى. فإنّه رُوي أنّ المشركين حين سمعوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا الله يا رحمن»، قالوا: ينهانا أن نعبُد إلهين وهو يدعو إلهًا آخرَ.[1] و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تأنيث "الأحسن" يُوصَف به الواحدة المؤنَّثة والجمعُ مِن المذكَّر والمؤنَّث كـ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه، ١٨/٢٠] و﴿ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه، ٢٣/٢٠].

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ استئناف مَسوق لتقرير أمر التوحيد الذي إليه انتهى مَساق الحديث وبيانِ أنّه أمر مستمرّ فيما بين الأنبياء كابرًا عن كابر، وقد خُوطب به موسى عليه السلام حيث قيل له: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه، ١٤/٢٠]، وبه ختَم عليه السلام مقالَه حيث قال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه، ٩٨/٢٠].

[٣٤و] وأمّا ما قيل / مِن أنّ ذلك لترغيب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الائتساء بموسى عليه السلام في تحمّل أعباء النبوّة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة،[2] فيأباه أنّ مساقَ النظم الكريم لصَرْفه عليه السلام عن اقتحام المشاقّ.

---

[1] التفسير البسيط للواحدي، ٥١١/١٣ (الإسراء، ١١٠/١٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٢ (الإسراء، ١١٠/١٧).

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤١/٣.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ ظرف للحديث. وقيل: لمضمَر مؤخَّر، أي: حين رأى نارًا كان كيت وكيت. وقيل: مفعول لمضمر مقدّم، أي: اذكرْ وقتَ رؤيته نارًا.[١]

رُوي أنّه عليه السلام استأذن شعيبًا عليهما السلام في الخروج إلى أمّه وأخيه فخرج بأهله وأخَذ على غير الطريق مخافةً مِن ملوك الشام، فلمّا وافى واديَ طُوى وهو بالجانب الغربيّ مِن الطُّور وُلد له وَلد في ليلة مظلِمة شاتية مُثلِجة وكانت ليلةَ الجمعة وقد ضلّ الطريق وتفرّقت ماشيتُه ولا ماءَ عنده، وقَدَح فصَلَد زَندُه،[٢] فبينما هو في ذلك إذ رأى نارًا على يسار الطريق مِن جانب الطُّور.[٣]

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي: أقيموا مكانكم، أمرهم عليه السلام بذلك لئلّا يتّبعوه فيما عزَم عليه مِن الذهاب إلى النار كما هو المعتاد، لا لئلّا ينتقلوا إلى موضع آخرَ، فإنّه ممّا لا يخطُر بالبال. والخطابُ للمرأة والولد والخادم. وقيل: لها وحدَها، والجمعُ إمّا لظاهر لفظ الأهل،[٤] أو للتفخيم كما في قول مَن قال:

وإن شئتِ حرمتُ النساءَ سواكمُ[٥]

﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرتُها إبصارًا بيّنًا لا شُبهةَ فيه. وقيل: الإيناسُ خاصّ بإبصار ما يؤنَس به.[٦] والجملة تعليل للأمر أو المأمورِ به. ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي: أجيئكم[٧] مِن النار ﴿بِقَبَسٍ﴾ أي: بشُعلة مقتبَسة مِن معظم النار، وهي المرادة بـ"الجذوة" في سورة القَصص.[٨] وبـ"الشهاب القبس".[٩]

---

[١] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤١/٣.

[٢] صَلَد زَنده: صوَّت ولم يُخرِج نارًا. والزَّند: هو العودُ الأعلى الذي تُقتَدح به النار. لسان العرب لابن منظور، «صلد»، «زند».

[٣] الخبر بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٤/٢-٣٨٥.

[٤] القول في التفسير البسيط للواحدي، ٣٦٣/١٤.

[٥] وفي هامش م: تمامه:

وإن شئتِ لم أطعم نُقاخًا[(١)] ولا بَرْدا

| [(١)] هامش م: ماءً باردًا عذبًا. | ومضى البيت تامًّا بتخريجه عند تفسير الآية التاسعة والأربعين بعد المئتين من سورة البقرة.

[٦] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤١/٣.

[٧] وفي هامش م: فسّر بذلك للتنبيه على أنّه صيغة المضارع لا صيغة الفاعل. «منه».

[٨] في الآية التاسعة والعشرين منها.

[٩] في الآية السابعة مِن سورة النمل.

﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ هاديًا يدلُّني على الطريق على أنّه مصدر سُمّي به الفاعل مبالغةً، أو حُذف منه المضاف، أي: ذا هداية، أو على أنّه إذا وُجد الهادي فقد وُجد الهدى. وقيل: هاديًا يهديني إلى أبواب الدِّين، فإنّ أفكار الأبرار مغمورة بالهِمّة الدينيّة في عامّة أحوالهم لا يشغَلهم عنها شاغل.[١] / والأوّل هو الأظهر؛ لأنّ مساق النظم الكريم لتسلية أهله، وقد نُصّ عليه في سورة القَصص حيث قيل: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ﴾ الآية [القصص، ٢٨/٢٩]. [٣٤ظ]

وكلمة ﴿أَوۡ﴾ في الموضعين لمَنْع الخلوّ دون منع الجمع. ومعنى الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أنّ أهل النار يستعلون المكان القريب منها، أو لأنّهم عند الاصطلاء يكتنفونها قيامًا وقعودًا فيُشرفون عليها.

ولمّا كان الإتيان بهما مترقّبًا غيرَ محقَّق الوقوع صُدِّر الجملة بكلمة الترجّي، وهي إمّا علّة لفعل قد حُذف ثقةً بما يدلّ عليه مِن الأمر بالمُكث والإخبار بإيناس النار وتفاديًا عن التصريح بما يُوحشهم، وإمّا حال من فاعله،[٢] أي: فأذهبُ إليها لآتيَكم أو كي آتيَكم أو راجيًا أن آتيَكم مِنها بقبس... الآية. وقد مرّ تحقيق ذلك مفصّلًا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة، ٢/٢١].

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النار التي آنسها، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «رأى شجرة خضراءَ أطافت بها مِن أسفلها إلى أعلاها نار بيضاءُ تتّقدُ كأضوَأ ما يكون، فوقف متعجّبًا مِن شدّة ضوئها وشدّة خُضرة الشجرة، فلا النارُ تُغيّر خُضرتها ولا كثرةُ ماء الشجرة تُغيّر ضوءها».[٣]

قالوا: النار أربعة أصناف: صنف يأكل ولا يشرب وهي نار الدنيا، وصنف يشرب ولا يأكل وهي نار الشجر الأخضر، وصنف يأكل ويشرب وهي نار جهنّم،

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤١.

[٢] ط س - وإمّا حال مِن فاعله.

[٣] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٥؛ واللباب لابن عادل، ١٣/١٨٦.

وصنف لا يأكل ولا يشرب وهي نار موسى عليه السلام. وقالوا أيضًا:[١] هي أربعة أنواع: نوع له نور وإحراق وهي نار الدنيا، ونوع لا نورَ له ولا إحراقَ وهي نار الأشجار، ونوع له نور بلا إحراق وهي نار موسى عليه السلام، ونوع له إحراق بلا نور وهي نار الجحيم.[٢] رُوي أنّ الشجرة كانت عَوْسَجة.[٣] وقيل: كانت سَمُرة.[٤]

﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي: نودي فقيل: يا موسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، أو عُومِل النداء معاملةَ "القول" لكونه ضربًا مِنه. وقُرئ بالفتح،[٥] أي: "بأنّي".[٦] وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشُّبهة.

رُوي أنّه لمّا نُودي يا موسى، قال عليه السلام: «مَن المتكلِّم؟» فقال الله عزّ وجلّ: / ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ فوسوس إليه إبليس: «لعلّك تسمع كلام شيطان»، فقال: «أنا عرفتُ أنّه كلام الله تعالى، بأنّي أسمعه مِن جميع الجهات بجميع الأعضاء».[٧] [٣٥و]
قلتُ: وذلك لأنّ سماع ما ليس مِن شأنه ذلك مِن الأعضاء ليس إلّا مِن آثار قُدرة الخلّاق العليم تعالى وتقدّس. وقيل: تلقّى عليه السلام كلام ربّ العزّة تلقِّيًا روحانيًا، ثمّ تمثّل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحسّ المشترك فانتقش به مِن غير اختصاص بعُضو وجهةٍ.[٨]

﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ أُمر عليه السلام بذلك لأنّ الحُفْوة أدخلُ في التواضع وحسنِ الأدب، ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين. وقيل: ليباشر الواديَ بقدميه تبرُّكًا به.[٩] وقيل: لِما أن نعليه كانا مِن جلد حمار

---

١ س – أيضًا.

٢ س: جهنّم.

٣ مرويّ عن قتادة ومقاتل والكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٦/١٣.

٤ مرويّ عن ابن مسعود في معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٥/٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٦/١٣.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

٦ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٥.

٧ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٢/٣.

٨ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٥/٢.

٩ مرويّ عن الحسن وعكرمة ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٢٤/١٦-٢٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٦٦/٥؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤٢/٣.

غير مدبوغ.[١] وقيل: معناه فرّغْ قلبك مِن الأهل والمال.[٢] و"الفاء" لترتيب الأمر على ما قبلها، فإنّ ربوبيّته تعالى له عليه السلام مِن موجِبات الأمر وداوعيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تعليل لوجوب الخَلْع المأمور به وبيانٌ لسبب ورود الأمر بذلك مِن شرف البُقعة وقُدْسِها. رُوي أنّه عليه السلام خلعهما وألقاهما وراء الوادي.[٣] ﴿طُوًى﴾ بضمّ الطاء غيرَ منوّن، وقُرئ منوّنًا،[٤] وقُرئ بالكسر منوّنًا[٥] وغيرَ منوّن،[٦] فمَن نوّنه أوّله بالمكان دون البقعة. وقيل: هو كـ"ثُنًى" مِن الطيّ مصدر لـ﴿نُودِيَ﴾، أو ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾، أي: نُودي نداءين، أو قُدّس مرّة بعد أخرى.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتك للنبوّة والرسالة. وقُرئ: "وَأَنَّا اخْتَرَنَاكَ" بالفتح[٧] والكسر.[٨] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾ لترتيب الأمر أو المأمور به على ما قبلها، فإنّ اختياره عليه السلام لِما ذُكر مِن موجِبات الاستماع والأمر به.

[٣٥ظ] و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ / متعلِّقة بـ﴿ٱسْتَمِعْ﴾، و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة، أي: فاستمع للذي يُوحى إليك أو للوحي، لا بـ﴿ٱخْتَرْتُكَ﴾ كما قيل، لكن لا لِما قيل مِن أنّه مِن باب التنازُع وإعمال الأوّل،[٩] فلا بدّ حينئذ مِن إعادة الضمير

---

[١] مرويّ عن ابن مسعود والسدّي وقتادة في جامع البيان للطبري، ١٦/٢٣-٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

[٢] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٥.

[٣] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

[٤] قرأ بها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٩.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش وعكرمة وأبي حَيْوَة وابن مجالد عن عاصم ويزيد بن قُطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وأبي زيد ويونس والجهضمي ثلاثتهم عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٢.

[٧] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٠.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والسُّلمي وطلحة وعيسى الهَمْداني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٣.

[٩] في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٢.

مع الثاني؛ بل لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ بدل مِن ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ولا ريبَ في أنّ اختياره عليه السلام ليس لهذا الوحي فقط.[١]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ لترتيب المأمور به على ما قبلها فإنّ اختصاص الألوهيّة به سبحانه وتعالى مِن موجِبات تخصيص العبادة به عزّ وجلّ.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خُصّت الصلاة بالذِّكر وأُفردت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة لفَضْلها وإنافتها على سائر العبادات بما نِيطت به مِن ذِكر المعبود وشُغل القلب واللسان بذِكره، وذلك قوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: لتذكُرني فإنّ ذِكري كما ينبغي لا يتحقّق إلّا في ضمن العبادة والصلاة، أو لتذكُرني فيها لاشتمالها على الأذكار، أو لِذِكري خاصّة لا تشوبُه بذِكر غيري، أو لإخلاص ذِكري وابتغاء وجهي لا تُرائي بها ولا تقصِد بها غرَضًا آخرَ، أو لتكون ذاكرًا لي غيرَ ناسٍ.

وقيل: لذِكري إيّاها وأمْري بها في الكتب، أو لأن أذكُرَك بالمدح والثناء. وقيل: لأوقات ذِكري وهي مواقيتُ الصلوات، أو لذِكر صلاتي،[٢] لِما روي أنّه عليه السلام قال: «مَن نام عن صلاة أو نسِيَها فليُصلِّها إذا ذَكَرها، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾».[٣] وقُرئ: "لِذِكْرَى"[٤] بألف التأنيث و"لِلذِّكْرَى"[٥] / معرَّفًا و"لِلذِّكْرِ"[٦] بالتعريف والتذكير. [٣٦و]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ تعليل لوجوب العبادة وإقامةِ الصلاة، أي: كائنةٌ لا محالةَ، وإنّما عُبّر عن ذلك بالإتيان تحقيقًا لحصولها بإبرازها في معرِض أمر محقَّق متوجِّه نحو المخاطَبين.

---

١ الردُّ منقول في اللباب لابن عادل، ١٩٣/١٣.
٢ هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٤٢/٣.
٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٢٢/١ (٥٩٧)؛ وصحيح مسلم، ٤٧٧/١ (٦٨٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٣٢/١٣-٣٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢/٣.
٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. اللباب لابن عادل، ١٩٥/١٣.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٦.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. اللباب لابن عادل، ١٩٥/١٣.

﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: لا أُظهرها، بأن أقول: إنّها آتية، ولولا أنّ في الإخبار بذلك مِن اللطف وقطع الأعذار لَما فعلتُ، أو أكاد أُظهرها بإيقاعها مِن "أخفاه" إذا أظهره بسَلْب خفائه، ويؤيّده القراءة بفتح "الهمزة"،[١] مِن "خفاه" بمعنى أظهره. وقيل: أخفاه مِن الأضداد يجيء بمعنى الإظهار والسَّتر.[٢]

وقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلّق بـ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، وما بينهما اعتراض، أو بـ﴿أُخْفِيهَا﴾ على المعنى الأخير، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: لتُجزى بسعيها في تحصيل ما ذُكر مِن الأمور المأمور بها. وتخصيصُه في معرِض الغاية لإتيانها مع أنّه لجزاء كلّ نفس بما صدَر عنها سواء كان سعيًا فيما ذُكر أو تقاعدًا عنه بالمرّة أو سعيًا في تحصيل ما يُضادّه، للإيذان[٣] بأنّ المراد بالذات مِن إتيانها هو الإثابة بالعبادة، وأمّا العقاب بتَرْكها فمِن مُقتضَيات سوء اختيار العُصاة، وبأنّ المأمور به في قوّة الوجوب والساعةَ في شدّة الهول والفظاعة بحيث يوجِبان على كلّ نفس أن تسعى في الامتثال بالأمر وتجِدَّ في تحصيل ما يُنجّيها مِن الطاعات، وتحترز عن اقتراف ما يُرديها مِن المعاصي.

وعليه مدارُ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ / أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]، فإنّ الابتلاء [٣٦ظ] مع شموله لكافّة المكلّفين باعتبار أعمالهم المنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسَن فقط قد عُلّق بالأخيرين، لِما ذُكر مِن أنّ المقصود الأصلي مِن إبداع تلك البدائع على ذلك النمط الرائع إنّما هو ظهور كمال إحسان المحسِنين وأنّ ذلك لكونه على أتمّ الوجوه الرائقة وأكمل الأنحاء اللائقة يوجِب العمل بموجَبه بحيث لا يحيد أحد عن سَننه المُستبين، بل يهتدي كلّ فرد إلى ما يُرشد إليه مِن مطلق الإيمان والطاعة، وإنّما التفاوت بينهم في مراتبهما بحسب القوّة والضعف.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الدرداء وسعيد بن جُبير ومجاهد وأبي البَرَهسِم والحسن وحُميد. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٩٠؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٦؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٣.

٢ كما في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٣/٣.

٣ السياق: وتخصيصه... للإيذان...

وأمّا الإعراض عن ذلك والوقوع في مهاوي الضلال فبمَعزِل مِن الوقوع فضلًا عن أن ينتظم في سِلك الغاية لذلك الصُّنع البديع، وإنّما هو عمل يصدُر عن عامله بسوء اختياره مِن غير مصحِّح له ومسوِّغ. هذا ويجوز أن يُراد بالسعي مطلَق العمل.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: عن ذِكر الساعة ومراقبتها. وقيل: عن تصديقها.[1] والأوّل هو الأليَق بشأن موسى عليه السلام، وإن كان النهيُ بطريق التهييج والإلهاب. وتقديم الجارّ والمجرور على قوله تعالى: ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدّم والتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخّر تبقى النفسُ مستشرِفة له فيتمكّن عند وروده لها فضلَ تمكُّن، ولأنّ في المؤخَّر نوعَ طول ربّما يُخِلّ تقديمه بجزالة النظم الكريم.

وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيًا للكافر عن صدّ موسى عليه السلام عن الساعة لكنّه في الحقيقة / نهيٌ له عليه السلام عن الانصداد عنها على أبلغ [٣٧و] وجه وآكَده، فإنّ النهيَ عن أسباب الشيء ومباديه المؤدِّية إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهاني وإبطالٌ للسببيّة عن أصلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [المائدة، ٥/٢]، فإنّ صدّ الكافر حيث كان سببًا لانصداده عليه السلام كان النهيُ عنه نهيًا بأصله وموجِبه وإبطالًا له بالكلّيّة.

ويجوز أن يكون مِن باب النهي عن المسبَّب وإرادة النهي عن السبب على أن يُراد نهيُه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفَرة، فإنّ ذلك سبب لصدّهم إيّاه عليه السلام، كما في قوله: "لا أُرينّك ههنا"، فإنّ المراد به نهيُ المخاطَب عن الحضور لديه الموجِب لرؤيته.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: ما يهواه نفسه مِن اللذات الحسّيّة الفانية ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فتهلِكَ، فإنّ الإغفالَ عنها وعن تحصيل ما يُنجي عن أهوالها مستتبعٌ للهلاك

---

[1] كما في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٣.

لا محالةَ، وهو في محلّ النصب على جواب النهي، أو في محلّ الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: فأنت تَردى.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ شروعٌ في حكاية ما كُلّفه عليه السلام مِن الأمور المتعلّقة بالخَلْق إثرَ حكايةِ ما أُمر به مِن الشئون الخاصة بنفسه، فـ﴿مَا﴾ استفهاميّة في حيّز الرفع بالابتداء وتلك خبره أو بالعكس، وهو أدخَل بحسب المعنى وأوفَق بالجواب. و﴿بِيَمِينِكَ﴾ متعلّق بمضمر وقع حالًا، أي: وما تلك قارّة أو مأخوذة بيمينك، والعاملُ معنى الإشارة، كما في قوله عزّ وعلا: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود، ١١/٧٢].

وقيل: ﴿تِلْكَ﴾ موصولة، أي: ما التي هي بيمينك؟ وأيًّا ما كان فالاستفهام إيقاظ / وتنبيه له عليه السلام على ما سيبدو له مِن التعاجيب. وتكريرُ النداء لزيادة التأنيس والتنبيه. [٣٧ظ]

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ نسَبها إلى نفسه تحقيقًا لوجه كونها بيمينه وتمهيدًا لِما يعقُبه مِن الأفاعيل المنسوبة إليه عليه السلام، وقُرئ: "عَصَيَّ"[١] على لغة هُذيل. ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها عند الإعياء أو الوقوف على رأس القطيع ﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ أي: أخبِط[٢] بها الورقَ وأُسقِطه ﴿عَلَىٰ غَنَمِي﴾. وقُرئ: "أَهِشُّ"[٣] بكسر الهاء، وكلاهما مِن "هَشَّ الخبزُ يهِشُّ" إذا انكسر لهشاشته، وقُرئ بالسين غير المعجَمة[٤] وهو زَجْر الغنم. وتعديتُه بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمين معنى الإنحاء والإقبال، أي: أزجُرها مُنحِيًا ومُقبلًا عليها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق والثقفي والجَحدري، والزُّبيري عن يعقوب. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢٢٤.

٢ الخبط: ضَرْب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها. **لسان العرب** لابن منظور، «خبط».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والحسن، والمغيرة عن إبراهيم النخَعي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٢٢٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٠٦.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ أي: حاجات أخرُ مِن هذا الباب، مثلُ ما رُوي أنّه عليه السلام كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلّق بها أدواته مِن القوس والكِنانة والحِلاب[1] ونحوِها، وإذا كان في البرّيّة ركَزها وعرَض الزندين على شُعبتيها وألقى عليها الكِساء واستظلّ به، وإذا قصُر الرِّشاء[2] وصله بها، وإذا تعرَّضت لغنمه السباع قاتل بها.[3]

قيل: ومِن جملة المآرب أنّها كانت ذات شُعبتين ومِحْجَن،[4] فإذا طال الغُصن حناه بالمِحجن وإذا أراد كسره لواه بالشُّعبتين.[5]

وكأنّه عليه السلام فهِم أنّ المقصود مِن السؤال بيانُ حقيقتها وتفصيلُ منافعها بطريق الاستقصاء حتّى إذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواصّ بديعة عُلم أنّها آيات باهرة ومعجزات / قاهرة أحدَثها الله تعالى، [٣٨و] وليست مِن الخواصّ المترتِّبة عليها، فذِكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والإجمال على معنى أنّها مِن جنس العصا مستتبِعةٌ لمنافع بنات جنسها ليطابقَ جوابُه الغرضَ الذي فهِمه مِن سؤال العليم الخبير.

﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ۝٢٠﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه الذهن، كأنّه قيل: فماذا قال عزّ وجلّ؟ فقيل: قال: ﴿أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ لترى مِن شأنها ما لم يخطُر ببالك مِن الأمور. وتكرير النداء لتأكيد التنبيه.

﴿فَأَلۡقَىٰهَا﴾ على الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾ رُوي أنّه عليه السلام حين ألقاها انقلبت حيّة صفراءَ في غِلَظ العصا، ثمّ انتفخت وعظُمت، فلذلك شُبّهت بالجانّ تارة وسُمّيت ثُعبانًا أخرى.[6] وعُبّر عنها ههنا بالاسم العامّ للحالين.[7]

---

١ الحِلاب والمِحلب: الإناء الذي يُحلب فيه اللبن. لسان العرب لابن منظور، «حلب».

٢ الرِّشاء: الحبل، ومنه حبل الدلو يُمدّ إلى البئر. لسان العرب لابن منظور، «رشا».

٣ بلفظ قريب الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٤؛ وبعضه في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٨-٢٦٩.

٤ المِحجن والمِحجنة: عصًا معوجّة معقّفة الرأس. لسان العرب لابن منظور، «حجن».

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٤.

٦ الكلام في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٦٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٥.

٧ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٧.

وقيل: قد انقلبت مِن أوّل الأمر ثعبانًا.[١] وهو الأليَق بالمقام، كما يفصح عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء، ٣٢/٢٦]. وإنّما شُبِّهت بالجانّ في الجلادة وسُرعة الحركة لا في صِغَر الجُثّة.

وقوله تعالى: ﴿تَسْعَىٰ﴾ إمّا صفةٌ لـ﴿حيّةٌ﴾ أو خبرٌ ثانٍ عند مَن يجوّز كونَه جملة.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سبَق ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: انقلبت ثعبانًا ذكَرًا يبتلع كلَّ شيء مِن الصخر والشجَر، فلمّا رآه كذلك خاف ونفَر، وملَكه ما يملِك البشر عند مشاهدة الأهوال والمخاوف مِن الفزع والنِّفار.[٢] وفي عطف النهي على الأمر إشعارٌ بأنّ عدم المنهيّ عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط.

وقوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ مع كونه استئنافًا مَسوقًا[٣] لتعليل الامتثال بالأمر والنهي، فإنّ إعادتها إلى ما كانت عليه / مِن موجِبات أخذِها [٣٨ظ] وعدمِ الخوف منها، عِدَةٌ[٤] كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليه السلام، وإيذانٌ بكونها مسخَّرةً له عليه السلام ليكون على طُمَأنينة مِن أمره ولا يعتريَه شائبةُ تَزلزُل عند مُحاجّة فرعونَ، أي: سنُعيدها بعد الأخذ إلى حالتها الأولى التي هي الهيئة العَصويّة. قيل: بلَغ عليه السلام عند ذلك مِن الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يُدخل يدَه في فمها ويأخذ بلَحْيَيها.[٥]

و"السِّيرة" فِعْلة مِن "السَّير" تُجُوّز بها للطريقة والهيئة، وانتصابُها على نَزْع الجارّ، أي: إلى سيرتها، أو على أنّ "أعاد" منقول مِن "عاده" بمعنى عاد إليه، أو على الظرفيّة، أي: سنُعيدها في طريقتها، أو على تقدير فعلها وإيقاعِها حالًا مِن المفعول، أي: سنُعيدها عصًا كما كانت مِن قبل تسير سيرتَها، أي: سائرة سيرتَها الأولى، فتنتفع بها كما كنتَ تنتفع مِن قبل.

---

١ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٩/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

٢ ما وقفتُ عليه في مظانّه. وهو بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

٣ س: مسوق.

٤ السياق: وقوله تعالى... عِدةٌ...

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أُمر عليه السلام بذلك بعدما أَخَذ الحيّة وانقلبت عصًا كما كانت، أي: أدخِلها تحت عضُدِك، فإنّ جناحَي الإنسان جنباه كما أنّ جناحَي العسكر ناحيتاه، مستعارٌ مِن جناحَي الطائر، وقد سُمّيا جناحَين لأنّه يُجنِحُهما، أي: يُميلهما عند الطيران.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ﴾ جواب الأمر، وقوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ﴾ حال مِن الضمير فيه. وقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ متعلِّق بمحذوف هو حال مِن الضمير في ﴿بَيْضَآءَ﴾، أي: كائنة مِن غير عَيب وقُبح، كُنّي به عن البرَص كما كُنّي بالسَّوأة عن العورة لِما أنّ الطِّباع تعافه وتنفِر عنه. رُوي أنّه عليه السلام كان آدمَ فأخرج يده مِن مِدْرَعته بيضاءَ لها شُعاع كشعاع الشمس تُغشي البصر.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: معجزة أخرى غيرَ العصا. وانتصابُها على الحاليّة إمّا مِن الضمير في ﴿تَخْرُجْ﴾ على أنّها بدل مِن الحال الأولى، وإمّا مِن الضمير في ﴿بَيْضَآءَ﴾. وقيل: مِن الضمير في الجارّ والمجرور.[1] وقيل: هي منصوبة بفعل مضمر نحو "خذْ" / أو "دونك".[2] [٣٩و]

وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ متعلِّق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم، كأنّه قيل: فعلنا ما فعلنا مِن الأمر والإظهار لنُريَك بذلك بعضَ آياتنا الكبرى، على أنّ ﴿ٱلْكُبْرَى﴾ صفةٌ لـ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، أو نُريَك بذلك مِن آياتنا ما هي كُبرى، على أنّ ﴿ٱلْكُبْرَى﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿نُرِيَكَ﴾، و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ متعلِّق بمحذوف هو حال مِن ذلك المفعول.

وأيًا ما كان فـ"الآية الكبرى" عبارة عن العصا واليد جميعًا. وأمّا تعلُّقه بما دلّ عليه ﴿ءَايَةً﴾، أي: دلّلنا بها لنُريَك... إلخ، أو بقوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ﴾،

---

[1] القول في اللباب لابن عادل، ٢١٩/١٣.
[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

أو بقوله: ﴿تَخْرُجْ﴾، أو بما قُدّر مِن نحو "خُذْ" و"دونَك" كما قال بكلّ مِن ذلك قائل،[1] فيؤدّي إلى عَراء آية العصا عن وصف الكِبَر، فتدبّر.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ تخلُّص إلى ما هو المقصود مِن تمهيد المقدّمات السالفة، فُصِل عمّا قبله مِن الأوامر إيذانًا بأصالته، أي: اذهبْ إليه بما رأيتَه مِن الآيات الكبرى وادعُه إلى عبادتي وحذِّره نَقمتي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب المأمور به، أي: جاوَز الحدَّ في التكبّر والعتوّ والتجبّر حتّى تجاسَر على العظيمة التي هي دعوى الربوبيّة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساق إليه الذهن، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام حين أُمر بهذا الأمر الخطير والخطب العسير؟ فقيل: قال مستعينًا بربّه عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾، لمّا أُمر بما أُمر به مِن الخطب الجليل تضرّع إلى ربّه عزّ وجلّ وأظهَر عَجْزه بقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء، ١٣/٢٦]، وسأله تعالى أن يُوسّع صدَره ويفسَح قلبه ويجعله عليمًا بشئون الحقّ وأحوال الخَلْق حليمًا حَمولًا، يستقبل ما عسى يَرِد عليه مِن الشدائد والمكاره بجميل الصبر وحُسن الثبات، ويتلقّاها بصدر فسيح وجأش رابط، وأن يُسّهل عليه مع ذلك أَمْره الذي هو أجلّ / الأمور وأعظَمها [٣٩ظ]
وأصعبُ الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع.

وفي زيادة كلمة ﴿لِى﴾ مع انتظام الكلام بدونها تأكيدٌ لطلب الشرح والتيسير، بإبهام المشروح والميسّر أوّلًا وتفسيرهما ثانيًا. وفي تقديمها وتكريرها إظهارُ مَزيدِ اعتناء بشأن كلّ مِن المطلوبَين وفَضْلِ اهتمام باستدعاء حصولهما له واختصاصهما به.

---

[1] هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٢٢١/١٣.

﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨﴾

﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ رُوي أنّه كان في لسانه عليه السلام رُتّة[1] مِن جمرة أدخلها فاه في صغره، وذلك أنّ فرعون حمَله ذات يوم فأخَذ لحيته فنتَفها لِما كان فيها مِن الجواهر فغضب وأمَر بقتله، فقالت آسيةُ: إنّه صبيّ لا يفرّق بين الجمر والياقوت، فأُحضِرا بين يديه فأخذ الجمرة فوضعها في فيه.[2] قيل: واحترقت يده فاجتهد فرعونُ في علاجها فلم تبرأ. ثمّ لمّا دعاه قال: إلى أيّ ربّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عَجَزتَ عنه.[3]

واختُلف في زوال العُقدة بكمالها: فمَن قال به تمسّك بقوله تعالى: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾ [طه، ٣٦/٢٠]، ومَن لم يقُل به احتجّ بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي﴾ [القصص، ٣٤/٢٨] وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف، ٥٢/٤٣].[4] وأجاب عن الأوّل بأنّه لم يسأل حلّ عُقدة لسانه بالكلّيّة؛ بل حلَّ عُقدة تمنَع الإفهام، ولذلك نكرّها ووصفها بقوله: ﴿مِّن لِّسَانِي﴾ أي: عقدةً كائنة مِن عُقَد لساني، وجعَل قوله تعالى: ﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ جوابَ الأمر وغرضًا مِن الدعاء، فبحلّها في الجملة يتحقّق إيتاء سؤله عليه السلام.[5]

والحقُّ أنّ ما ذُكر لا يدلّ على بقائها في الجملة: أمّا قوله تعالى: ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي﴾ فلأنّه عليه السلام قاله قبل استدعاء الحلّ، كما ستعرفه، على أنّ أفصحيّته منه عليهما السلام لا تستدعي بقاءها أصلًا؛ بل تستدعي عدم البقاء لِما أنّ الأفصحيّة تُوجِب ثبوت أصل الفصاحة في المفضول أيضًا، وذلك مُنافٍ للعُقدة رأسًا؛ وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فمِن باب غلوّ اللعين في العُتوّ والطغيان وإلّا لدلّ على عدم زوالها أصلًا؛ / وتنكيرُها إنّما يفيد قِلّتها في نفسها [٤٠و] لا قِلَّتها باعتبار كونِها بعضًا مِن الكثير.

---

١ الرُّتّة: عجلة في الكلام وقِلّة أناة، وعيب قبيح في اللسان. لسان العرب لابن منظور، «رتت».

٢ مرويّ بلفظ قريب عن سعيد بن جُبير ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٥٣/١٦-٥٤؛ وهو بلا نسبة في معالم التنزيل للبغوي، ٢٧١/٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٨/٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٢٤/١٣.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٥/٣.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٦/٣.

٥ هذا الجواب بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٩/٢؛ وبعضه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦/٣.

وتعلُّق كلمة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن لِّسَانِي﴾ بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به؛ بل الظاهرُ تعلُّقها بنفس الفعل، فإنّ المحلول إذا كان متعلِّقًا بشيء ومتّصلًا به فكما يتعلّق الحلُّ به يتعلّق بذلك الشيء أيضًا باعتبار إزالته عنه أو ابتداء حصوله منه.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَٰرُونَ أَخِي﴾ أي: مؤازِرًا يُعاونني في تحمّل أعباء ما كُلّفتُه، على أنّ اشتقاقه مِن "الوِزْر" الذي هو الثِّقَل، أو ملجأ أعتصمُ برأيه على أنّه مِن "الوَزَر" وهو الملجأ. وقيل: أصله "أَزِير" مِن "الأَزْر" بمعنى القوّة، فعيل بمعنى مفاعل، كـ"العشير" و"الجليس"، قُلبت همزته واوًا كقلبها في "مُؤازِر".[١] ونصبُه على أنّه مفعول ثانٍ لـ﴿ٱجْعَل﴾ قُدِّم على الأوّل الذي هو قوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ اعتناءً بشأن الوزارة.

و﴿لِي﴾ صلةٌ لـ"الجَعْل" أو متعلِّق بمحذوف هو حال مِن ﴿وَزِيرًا﴾، إذ هو صفة له في الأصل. و﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ إمّا صفة لـ﴿وَزِيرًا﴾ أو صلة لـ﴿ٱجْعَل﴾. وقيل: مفعولاه: ﴿لِّي وَزِيرًا﴾، و﴿هَٰرُونَ﴾ عطفُ بيان للوزير، و﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ كما مرّ مِن الوجهين، و﴿أَخِي﴾ في الوجهين بدل مِن ﴿هَٰرُونَ﴾ أو عطفُ بيان آخرَ.[٢] وقيل: هما ﴿وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾، و﴿لِي﴾ تبيينٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص، ٤/١١٢].[٣] ورُدّ بأنّ شَرْط المفعولَين في باب النواسخ صحّة انعقاد الجملة الاسميّة، ولا مساغَ لجعل ﴿وَزِيرًا﴾ مبتدأ ويُخبر عنه بما بعده.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ كلاهما على صيغة الدعاء، أي: أحكِمْ به قوّتي واجعله شريكي في أمر الرسالة حتّى نتعاون على / أدائها كما ينبغي. [٤٠ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧/٣.

٢ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧/٣.

٣ الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٩/٢.

وفصلُ الأوّل عن الدعاء السابق لكمال الاتّصال بينهما، فإنّ شدّ الأزْر عبارة عن جَعْله وزيرًا، وأمّا الإشراك في الأمر فحيث كان مِن أحكام الوزارة توسّط بينهما العاطف.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة، فإنّ فِعل كلّ واحد منهما مِن التسبيح والذِكر مع كونه مُكثِّرًا لفِعل الآخر ومُضاعِفًا له بسبب انضمامه إليه مُكثِّرٌ له في نفسه أيضًا بسبب تقويته وتأييده؛ إذ ليس المراد بالتسبيح والذِكر ما يكون منهما بالقلب أو في الخلَوات حتّى لا يتفاوت حاله عند التعدّد والانفراد؛ بل ما يكون منهما في تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المَرَدة العُتاة إلى الحقّ، وذلك ممّا لا ريبَ في اختلاف حاله في حالتي التعدّد والانفراد، فإنّ كلًّا منهما يصدر عنه بتأييد الآخر مِن إظهار الحقّ ما لا يكاد يصدر عنه مثلُه حالَ الانفراد.

و﴿كَثِيرًا﴾ في الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف، أي: ننزّهك عمّا لا يليق بك مِن الصفات والأفعال التي مِن جُملتها ما يدّعيه فرعونُ الطاغية ويقبَله منه فئتُه الباغية مِن ادّعاء الشركة في الألوهيّة، ونَصِفُك بما يليق بك مِن صفات الكمال ونعوتِ الجمال والجلال تنزيهًا كثيرًا أو زمانًا كثيرًا مِن جملته زمانُ دعوة فرعونَ وأوانُ المُحاجّة معه. وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى كي نصلّيَ لك كثيرًا ونحمَدَك ونُثنيَ عليك،[1] فلا يساعده المقام.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي: عالمًا بأحوالنا وبأنّ ما دعوتُك به ممّا يُصلِحنا ويُفيدنا في تحقيق ما كُلِّفتُه مِن إقامة مراسم الرسالة، وبأنّ هارونَ نِعمَ الرِّدْء في أداء ما أُمرتُ به. و"الباء" متعلّقة بـ﴿بَصِيرًا﴾ قُدّمت عليه لمراعاة الفواصل.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨﴾

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ أي: أُعطيتَ مسئولك، "فُعْل" بمعنى "مفعول" كـ"الخُبز" و"الأُكُل" بمعنى "المخبوز" و"المأكول". و"الإيتاء" عبارة عن / تعلُّق [٤١و]

[1] مرويّ عن الكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٢/٥؛ واللباب لابن عادل، ٢٣٠/١٣.

إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتّةَ وتقديرِه إيّاها حتمًا، فكلُّها حاصلة له عليه السلام، وإن كان وقوع بعضها بالفعل مترقّبًا بعدُ كتيسير الأمر وشدِّ الأزْر، وباعتباره قيل: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص، ٣٥/٢٨].

وقولُه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تشريف له عليه السلام بشرف الخِطاب إثرَ تشريفه بشرف قَبول الدعاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما قبله وزيادةِ توطين نفس موسى عليه السلام بالقَبول، ببيان أنّه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النِّعم التامّة مِن غير سابقة دعاء منه وطلب، فلَأَن يُنعِم عليه بمثلها وهو طالب له وداعٍ أَوْلى وأحرى. وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك، أي: وبالله لقد أنعمنا. ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ أي: في وقت غير هذا الوقت، لا أنّ ذلك مؤخَّر عن هذا، فإنّ ﴿أُخْرَىٰٓ﴾ تأنيثُ "آخَر" بمعنى "غير".[١]

و"المرّة" في الأصل اسم للمرور الواحد، ثمّ أُطلق على كلّ فَعْلة واحدة مِن الفَعَلات متعدِّيةً كانت أو لازمة، ثمّ شاع في كلّ فرد واحد مِن أفراد ما له أفراد متجدِّدة، فصار عَلَمًا في ذلك حتّى جُعل مِعيارًا لِما في معناه مِن سائر الأشياء، فقيل: هذا بناء المرّة، ويقرب منها "الكرّة" و"التارة" و"الدفعة"، والمراد بها ههنا الوقت الممتدّ الذي وقَع فيه ما سيأتي ذِكره مِن المِنَن العظيمة الكثيرة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ ظرف لـ﴿مَنَنَّا﴾. والمراد بالإيحاء: إمّا الإيحاء على لسان نبيّ في وقتها كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الآية [المائدة، ١١١/٥]، وإمّا الإيحاء بواسطة المَلَك لا على وجه النبوّة كما أوحيَ إلى مريم، / وإمّا الإلهامُ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [٤١ظ]
[النحل، ٦٨/١٦]، وإمّا الإراءة في المنام.

والمراد بـ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ ما سيأتي مِن الأمر بقذفه في التابوت وقَذْفه في البحر، أُبهِم أوّلًا تهويلًا له وتفخيمًا لشأنه ثمّ فُسِّر ليكون أقرَّ عند النفس. وقيل:

---

[١] وفي هامش م: فلا حاجةَ إلى التكلّف بأنّه مؤخَّر عنه في الذِّكر. «منه». | والقول منقول في اللباب لابن عادل، ٢٣١/١٣.

معناه ما ينبغي أن يُوحى ولا يُخَلّ به لعِظم شأنه وفَرْط الاهتمام به. وقيل: ما لا يُعلم إلّا بالوحي.[١] وفيه أنّه لا يُلائم المعنيين الأخيرَين للوحي؛ إذ لا تفخيمَ لشأنه في أن يكون ممّا لا يُعلم إلّا بالإلهام أو بالإراءة في المنام.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾

و﴿أنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ مفسِّرةٌ، لأنّ "الوحي" مِن باب "القول"، أو مصدريّةٌ حُذف عنها "الباء"، أي: بأن اقذفيه، ومعنى القَذْف ههنا الوضعُ، وأمّا في قوله تعالى: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فالإلقاءُ. وهذا التفصيل هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص، ٧/٢٨]، لا القذفُ بلا تابوت.

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ لمّا كان إلقاء البحر إيّاه بالساحل أمرًا واجبَ الوقوع لتعلّق الإرادة الربّانيّة به جُعل البحر كأنّه ذو تمييز مُطيع أُمر بذلك، وأُخرج الجواب مُخرجَ الأمر، والضمائرُ كلّها لموسى عليه السلام، والمقذوفُ في البحر والمُلقى بالساحل وإن كان هو التابوتَ أصالة، لكن لمّا كان المقصود بالذات ما فيه، جُعل التابوت تبعًا له في ذلك.

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جواب للأمر بالإلقاء، وتكريرُ "العدوّ" للمبالغة والتصريح بالأمر والإشعارِ بأنّ عداوته له مع تحقّقها لا تؤثِّر فيه ولا تضرّه؛ بل تؤدي إلى المحبّة، فإنّ الأمر بما هو سبب للهلاك صورةً مِن قذفه في البحر ووقوعه في يد عدوّ الله تعالى وعدوّه مشعرٌ بأنّ هناك لُطفًا خفيًّا مُندرِجًا تحت قَهْر صُوري. وقيل: الأوّل باعتبار الواقع والثاني باعتبار المتوقَّع.[٢]

وليس المراد بـ﴿ٱلسَّاحِلِ﴾ نفسَ الشاطئ؛ بل ما يقابل الوسط، وهو ما يلي الساحل مِن البحر بحيث يجري ماؤه إلى نهر فرعونَ، لِما / رُوي أنّها [٤٢و] جعَلتْ في التابوت قُطنًا ووضعتْه فيه ثمّ قيّرتْه[٣] وألقتْه في اليمّ، وكان يشرَع منه

---

١ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٨٩.
٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٣٩٠.
٣ قيّره: طلاه بالقار أو القير، وهو شيء أسودُ تُطلى به السُّفن، يمنع الماء أن يدخل. لسان العرب لابن منظور، «قير».

إلى بستان فرعونَ نهر، فدفَعه الماء إليه فأتى به إلى بِرْكة في البستان، وكان فرعونُ جالسًا ثمّة مع آسيةَ بنت مُزاحِم، فأمر به فأُخرج ففُتح فإذا هو صبيّ أصبحُ الناس وجهًا، فأحبّه عدوّ الله حبًّا شديدًا لا يكاد يتمالك الصبر عنه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[1] كلمةُ "مِن" متعلِّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿مَحَبَّةً﴾ مؤكِّدة لِما في تنكيرها مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: محبّة عظيمة كائنة منّي قد زرعتُها في القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك مَن رآك، ولذلك أحبّك عدوّ الله وآلُه. وقيل: هي متعلِّقة بـ﴿أَلْقَيْتُ﴾، أي: أحببتُك ومَن أحبّه الله تعالى أحبّته القلوب لا محالةَ.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ متعلِّق بـ﴿أَلْقَيْتُ﴾، معطوف على علّة له مُضمَرة، أي: ليتعطّف عليك ولتُربّى بالحُنوّ والشفقة بمراقبتي وحِفظي، أو بمضمر مؤخَّر هو عبارة عمّا قبله مِن إلقاء المحبّة. والجملة مبتدأة، أي: ولتصنع على عيني فعلتُ ذلك، وقُرئ: "وَلْتُصْنَعْ" على صيغة الأمر بسكون اللام[3] وكسرها،[4] وقُرئ بفتح التاء والنصب،[5] أي: وليكونَ عملُك على عين منّي لئلّا يخالَف به عن أمري.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ ظرف لـ﴿تُصْنَعَ﴾ على أنّ المراد به وقت وقَع فيه مشيُها إلى بيت فرعونَ، وما ترتَّب عليه مِن القول والرَّجْع إلى أمّها وتربيتها له بالبرّ والحُنوّ، وهو المِصداق لقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾،[6] إذ لا شفقةَ أعظم

---

[1] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٨.
[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٨.
[3] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٠.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن شَيبة والدُّوري عن أبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٧؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٨.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٢٨.
[6] في الآية السابقة.

مِن شفقة الأم وصُنْعِها على موجب مراعاته تعالى. وقيل: هو بدل مِن ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا﴾،[١] على أنّ المراد به زمان متّسع متباعد الأطراف.[٢] وهو الأنسب / بما [٤٢ظ] سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾... إلى آخره، فإنّ جميع ذلك مِن المِنَن الإلهيّة ولا تعلُّق لشيء منها بالصُّنع المذكور، وأمّا كونه ظرفًا لـ﴿أَلْقَيْتُ﴾[٣] كما جُوّز فربّما يُوهِم أنّ إلقاء المحبّة لم يحصُل قبل ذلك، ولا ريبَ في أنّ معظم آثار إلقائها ظهَر عند فتح التابوت.

﴿فَتَقُولُ﴾ أي: لفرعونَ وآسيةَ حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبَل ثديَها وكان لا يقبَل ثديًا.[٤] وصيغةُ المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ أي: يضمّه إلى نفسه ويُربّيه، وذلك إنّما يكون بقَبوله ثديَها.

يُروى أنّه فشا الخبر بمصرَ أنّ آل فرعونَ أخذوا غلامًا مِن النِّيل لا يرتضع ثديَ امرأة واضطُرّوا إلى تتبّع النساء، فخرجت أخته مريمُ لتعرِف خبره فجاءتهم متنكِّرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا، فجاءت بأمّه فقبِل ثديَها.

فـ"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ فصيحة مُعرِبة عن محذوف قبلها يُعطَف عليه ما بعدها، أي: فقالوا: دُلّينا عليها فجاءت بأمّك فرجعناك إليها ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك، وإلّا فزوال الحزن مقدَّم على السرور المعبَّر عنه بقُرّة العين، فإنّ التخلية متقدِّمة على التحلية. وقيل: ولا تحزن أنت بفَقْد إشفاقها.[٥]

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هي نفس القِبْطي الذي استغاثه الإسرائيلي عليه ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: غمّ قَتْله خوفًا مِن عقاب الله تعالى بالمغفرة ومِن اقتصاص فرعونَ بالإنجاء عنه بالمهاجَرة إلى مَديَن. ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: ابتليناك ابتلاءً أو فنونًا مِن الابتلاء على أنّه جَمْع "فَتْن"، أو فتنةً على ترك الاعتداد بـ"التاء"،

---

١ طه، ٣٨/٢٠.
٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٨/٣.
٣ طه، ٣٨/٢٠.
٤ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٣/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨/٣.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٠/٢.

كـ"حُجوز" في "حُجْزة" و"بُدور" في "بَدْرة"، أي: خلّصناك مرّة بعد أخرى، [٤٣و] وهو إجمال ما ناله في سفَره مِن الهجرة عن الوطن ومفارقة الأُلّاف / والمَشْي راجلًا وفَقْد الزاد.

وقد رُوي أنّ سعيد بن جُبير سأل عنه ابن عبّاس رضي الله عنهم، فقال: خلّصناك مِن محنة بعد محنة، وُلد في عام كان يُقتل فيه الوِلْدان، فهذه فتنة يا بن جُبير، وألقتْه أمّه في البحر، وهمّ فرعونُ بقتله، وقتَل قِبْطيًّا، وآجَر نفسه عشر سنين وضلّ الطريقَ وتفرّقت غنمُه في ليلة مظلمة.[١] وكان يقول عند كلّ واحدة: فهذه فتنة يا بن جُبير.

ولكنّ الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا تُعدَّ إجارة نفسه وما بعدها مِن تلك الفُتون ضرورةَ أنّ المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام إلى مَدْينَ بقضيّة "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ إذ لا ريبَ في أنّ الإجارة المذكورة وما بعدها ممّا وقَع بعد الوصول إليهم. وقد أشيرَ بذِكر لُبثه عليه السلام فيهم دون وصوله إليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام في تضاعيف تلك السنين العَشْر مِن فنون الشدائد والمكاره التي كلُّ واحد منها فتنة وأيُّ فتنة. ومَدْينُ بلدة شعيبٍ عليه السلام على ثماني مراحلَ مِن مصرَ.

﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ إلى المكان الذي أُونسَ فيه النار ووقع فيه النداء والحِوار، وفي كلمة التراخي إيذان بأنّ مجيئه عليه السلام كان بعد اللّتيا والتي[٢] مِن ضلال الطريق وتفرُّق الغنم في الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك.

﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: تقدير قدّرتُه لأن أكلِّمَك وأستنبِئَك في وقت قد عيّنتُه لذلك، فما جئتَ إلّا على ذلك القدَر غيرَ مستقدِم ولا مستأخِر. وقيل: على مِقدار مِن الزمان يُوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام، وهو رأس أربعين سنةً.[٣]

---

[١] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٦/٦٤-٧٠، في حديث جِدّ طويل، ومعالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٧٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٤٩.

[٢] اللّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٤٩.

وقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ / تشريف له عليه السلام وتنبيهٌ على انتهاء الحكاية [٤٣ظ]
التي هي تفصيلُ المرّة الأخرى التي وقعت قبل المرّة المحكيّة أوّلًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ تذكير لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾[١] وتمهيدٌ لإرساله عليه السلام إلى فرعونَ مؤيَّدًا بأخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المِنن السابغة السابقة تأكيدًا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة. وهذا تمثيل لِما خوّله عزّ وعلا مِن الكرامة العظمى بتقريب المَلِك بعضَ خواصّه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة.

والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾ ونظيرَيه السابقين تمهيد لإفراد لفظ "النفس" اللائق بالمقام، فإنّه أدخَلُ في تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص، أي: اصطفيتك[٢] برسالاتي وبكلامي.

وقوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ أي: وليَذهبْ أخوك حسبما استدعيتَ. استئنافٌ مَسوق لبيان ما هو المقصود بالاصطناع.

﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ أي: بمعجزاتي التي أريْتُكَها مِن اليد والعصا فإنّهما وإن كانتا اثنتين لكن في كلّ منهما آيات شتّى، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران، ٩٧/٣]، فإنّ انقلاب العصا حيوانًا آية، وكونَها ثعبانًا عظيمًا لا يُقادَر قَدْره آية أخرى، وسرعةَ حركته مع عِظَم جِرْمه آيةٌ أخرى، وكونَه مع ذلك مسخَّرًا له عليه السلام بحيث كان يُدخل يده في فمه فلا يضرّه آيةٌ أخرى، ثمّ انقلابُها عصًا آيةٌ أخرى، وكذلك اليد فإنّ بياضها في نفسه آيةٌ وشُعاعَها آيةٌ، ثمّ رجوعُها إلى حالتها الأولى آيةٌ أخرى.

و"الباء" للمصاحبة لا للتعدية؛ إذ المراد ذهابهما إلى فرعونَ ملتبِسين بالآيات متمسِّكين بها في إجراء أحكام الرسالة وإكمال أمر الدعوة، لا مجرّدُ إذهابها أو إيصالها إليه.

---

[١] طه، ١٣/٢٠.

[٢] ط س: اصطنعتك.

﴿وَلَا تَنِيَا﴾ لا تفتُرا ولا تقصِرا، وقُرئ: "لَا تِنِيَا"[١] بكسر "التاء" للاتباع ﴿فِي ذِكْرِي﴾ أي: بما يليق بي مِن الصفات الجليلة والأفعال الجميلة عند تبليغ رسالتي والدعاء إليّ. وقيل: المعنى لا تَنِيا في تبليغ رسالتي، فإنّ الذِكر يقع على جميع العبادات، وهو أجلُّها وأعظمُها.[٢] وقيل: لا تنسَياني حيثما تقلّبتُما واستمِدّا به[٣] العون والتأييد، واعلما أنّ أمرًا مِن الأمور لا يتأتّى ولا يتسنّى إلّا بذِكري.[٤]

﴿اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

﴿اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ جمَعهما في صيغة أمْر الحاضر مع غَيبة هارونَ إذ ذاك للتغليب، / وكذا الحال في صيغة النهي. رُوي أنّه أوحيَ إلى هارونَ وهو بمصرَ أن يتلقّى موسى عليهما السلام. وقيل: سمِع بإقباله فتلقّاه.[٥] ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تعليل لموجَب الأمر. [٤٤و]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ لترتيب ما بعدها على طغيانه، فإنّ تليين القول ممّا يكسِر سَوْرة عِناد العُتاة ويُليّن عريكة الطُّغاة. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لا تُعنِّفا في قولكما».[٦] وقيل: القولُ الليّن مثل: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات، ٧٩/١٨-١٩]، فإنّها دعوة في صورة عَرْض ومَشورة.[٧] ويردّه ما سيجيء مِن قوله تعالى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الآيتين [طه، ٢٠/٤٧]. وقيل: «كنّياه»،[٨] وكان له ثلاثُ كُنًى: أبو العبّاس وأبو الوليد وأبو مُرّة.[٩] وقيل: عِداه شبابًا لا يهرَم ويبقى له لذّة المَطعَم والمَشرَب والمَنكح ومُلكًا لا يزول إلا بالموت.[١٠] وقُرئ: "لَيْنًا".[١١]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣.
٣ وفي هامش م: أي: بذِكري.
٤ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩١/٢.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣.
٦ معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٤/٥.
٧ مرويّ عن مقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٤/٥؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩١/٢.
٨ مرويّ عن السُّدّي في جامع البيان للطبري، ٧٥/١٦.
٩ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٤/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣.
١٠ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩/٣.
١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.

﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ بما بلغتُماه مِن ذِكري ويرغب فيما رغّبتماه فيه ﴿أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ عقابي. ومحلُّ الجملة النصب على الحال مِن ضمير التثنية، أي: فقولا له قولًا ليّنًا راجين أن يتذكّر أو يخشى، وكلمةُ ﴿أَوۡ﴾ لمَنْع الخلوّ، أي: باشِرا الأمر مباشرةَ مَن يرجو ويطمع أن يُثمِّر عمله ولا يخيبَ سعيُه وهو يجتهد بطَوْقه ويحتشد بأقصى وُسْعه. وجدوى إرسالهما إليه مع العِلم بحاله إلزامُ الحجّة وقطعُ المَعذِرة.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥﴾

﴿قَالَا رَبَّنَا﴾ أُسندَ القول إليهما مع أنّ القائل حقيقةً هو موسى عليه السلام بطريق التغليب إيذانًا بأصالته في كلّ قول وفعل وتبعيّةِ هارونَ عليه السلام له في كلّ ما يأتي ويذَر. ويجوز أن يكون هارونُ قد قال ذلك بعد تلاقيهما، فحُكيَ ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٥١]، فإنّ هذا الخطاب قد حُكي لنا بصيغة الجَمْع مع أنّ كلًّا مِن المخاطَبين لم يخاطَب إلّا بطريق الانفراد ضرورةَ / استحالة اجتماعهم في الوجود فكيف باجتماعهم في الخطاب. [٤٤ظ]

﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ﴾ أي: يعجَلَ علينا بالعقوبة ولا يصبِرَ إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة مِن "فرَط" إذا تقدّم، ومنه "الفارط" و"فرَس فارط": يسبِق الخيل، وقُرئ: "يُفْرَطَ"[١] مِن "أفرَطه" إذا حمَله على العجَلة، أي: نخاف أن يحمِله حامل مِن الاستكبار أو الخوف على المُلك أو غيرهما على المعاجَلة بالعقاب.

﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ أي: يزداد طغيانًا إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي لكمال جرأته وقساوته. وإطلاقُه مِن حُسن الأدب. وإظهارُ كلمة ﴿أَن﴾ مع سَداد المعنى بدونه لإظهار كمال الاعتناء بالأمر والإشعار بتحقّق الخوف مِن كلّ منهما.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وأبي نوفل وابن مسعود والأعمش وسلام وأناس مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال الناشئ مِن النظم الكريم، ولعلّ إسنادَ الفعل إلى ضمير الغَيبة للإشعار بانتقال الكلام مِن مَساق إلى مساق آخرَ، فإنّ ما قبله مِن الأفعال الواردة على صيغة التكلّم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه، ٦٨/٢٠]، فإنّ ما قبله أيضًا وارد بطريق الحكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كأنّه قيل: فماذا قال لهما ربُّهما عند تضرُّعِهما إليه؟ فقيل: قال: ﴿لَا تَخَافَا﴾ما توهَّمتما مِن الأمرين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ تعليل لموجَب النهي ومزيدُ تسلية لهما. والمراد بالمعيّة كمال الحفظ والنُّصرة، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي: ما يجري بينكما وبينه مِن قول وفعل فأفعلُ في كلّ حال ما يليق بها مِن دَفْع ضُرّ وشرّ وجَلْب نَفْع وخير. ويجوز ألّا يُقدَّر شيء، على معنى أنّني حافظكما سميعًا بصيرًا، والحافظ الناصر إذا كان كذلك فقد تمّ وبلغت النُّصرة غايتها.[1]

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٤٧﴾

﴿فَأۡتِيَاهُ﴾ أُمِرا بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعد ما أُمِرا بالذهاب إليه فلا تكرارَ، وهو عطف على لا تخافا باعتبار تعليله بما بعده. / ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أُمِرا بذلك تحقيقًا للحقّ مِن أوّل الأمر ليعرِف الطاغية شأنهما ويبني جوابه عليه، وكذا التعرّض لربوبيّته تعالى له. [٤٥و]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ كونهما رسولَي ربّه ممّا يوجب إرسالهم معهما. والمراد بالإرسال إطلاقهم مِن الأَسْر والقَسْر وإخراجُهم مِن تحت يده العاديَة، لا تكليفُهم أن يذهبوا معهما إلى الشام، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ أي: بإبقائهم على ما كانوا عليه مِن العذاب فإنّهم كانوا تحت مَلَكة القِبْط يستخدمونهم

---

[1] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠/٣.

في الأعمال الصعبة الفادحة مِن الحَفْر ونَقْل الأحجار وغيرهما مِن الأمور الشاقّة، ويقتُلون ذكور أولادهم عامًا دون عام ويستخدمون نساءهم.

وتوسيطُ حُكم الإرسال بين بيان رسالتهما وبين ذِكر المجيء بآية دالّة على صحّتها لإظهار الاعتناء به مع ما فيه مِن تهوين الأمر على فرعونَ، فإنّ إرسالهم معهما مِن غير تعرُّض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقّة كما هو حُكم الرسالة عادةً ليس ممّا يشُقّ عليه كلَّ المشقّة، ولأنّ في بيان مجيء الآية نوعَ طُول كما ترى، فتأخيرُ ذلك عنه مُخِلّ بتجاوب أطراف النظم الكريم. وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك دليل على أنّ تخليص المؤمنين عن الكفَرة أهمُّ مِن دعوتهم إلى الإيمان،[1] فكَلّا.

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ تقرير لِما تضمّنه الكلام السابق مِن دعوى الرسالة وتعليلٌ لوجوب الإرسال، فإنّ مجيئهما بالآية مِن جهته تعالى ممّا يحقِّق رسالتهما ويُقرِّرها ويوجب الامتثال بأمرهما. وإظهارُ اسم الربّ في موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير المخاطَب لتأكيد ما ذُكر مِن التقرير والتعليل.

/ وتوحيد الآيةِ مع تعدّدها لأنّ المراد إثبات الدعوى ببرهانها لا بيانُ تعدّد الحجّة، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ [الأعراف، ١٠٥/٧]، وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء، ٣٠/٢٦]. وأمّا قوله تعالى: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء، ١٥٤/٢٦]، فالظاهر أنّ المراد بها آية مِن الآيات. [٤٥ظ]

﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ المستتبع لسلامة الدارين مِن الله تعالى والملائكة وغيرهم مِن المسلمين ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحقّ، وفيه مِن ترغيبه في اتّباعهما على ألطف وجه ما لا يخفى.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ﴾ مِن جهة ربّنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ الدنيوي والأخروي ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ أي: بآياته تعالى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عن قَبولها، وفيه مِن التلطيف في الوعيد حيث لم يُصرِّح بحلول العذاب به ما لا مَزيد عليه.

---

[1] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٢/٢.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ بعد ما أتياه وبلّغاه ما أُمرا به. وإنّما طُوي ذِكره للإيجاز والإشعار بأنّهما كما أُمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به مِن غير تلعثُم، وبأنّ ذلك مِن الظهور بحيث لا حاجةَ إلى التصريح به.

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ لم يُضِف الربّ إلى نفسه ولو بطريق حكاية ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وقولِه تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾[1] لغاية عتوّه ونهاية طُغيانه؛ بل أضافه إليهما لِما أنّ المرسِل لا بدّ أن يكون ربًّا للرسول، أو لأنّهما قد صرّحا بربوبيّته تعالى للكلّ بأن قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء، ١٦/٢٦]، كما وقَع في سورة الشعراء.

والاقتصار ههنا على ذِكر ربوبيّته تعالى لفرعونَ لكفايته فيما هو المقصود. و"الفاء" لترتيب السؤال على ما سبق مِن كونهما رسولَي ربّهما، أي: إذا كنتما رسولَي ربّكما فأخبِرا مَن ربُّكما الذي أرسلكما؟ وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب إليهما لِما أنّه الأصل في الرسالة وهارون وزيره.

[٤٦و] وأمّا ما قيل مِن أنّ ذلك لأنّه قد عرَف أنّ له عليه السلام / رُتّةً فأراد أن يُفحِمه،[2] فيردُّه ما شاهده منه عليه السلام مِن حُسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ. وأمّا قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف، ٥٢/٤٣] فمِن غُلوّه في الخُبث والدَّعارة كما مرّ.[3]

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام مجيبًا له: ﴿رَبُّنَا﴾ إمّا مبتدأ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ خبرُه، أو هو خبر لمبتدأ محذوف والموصول صفته، وأيًّا ما كان فلم يُريدا بضمير المتكلِّم أنفسهما فقط حسبما أراد اللعين؛ بل جميعَ المخلوقات تحقيقًا للحقّ وردًّا عليه كما يُفصِح عنه ما في حيّز الصلة، أي: هو ربّنا الذي أعطى كلّ شيء مِن الأشياء خَلْقه، أي: صورتَه وشكله اللائق

---

[1] كلاهما في طه، ٤٧/٢٠.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١/٣.

[3] في تفسير طه، ٢٨/٢٠.

بما نِيط به مِن الخواصّ والمنافع، أو أعطى مخلوقاتِه كلَّ شيء تحتاج هي إليه وترتفِق به. وتقديمُ المفعول الثاني للاهتمام به.

أو أعطى كلَّ حيوان نظيرَه في الخَلْق والصورة حيث زوّج الحصان بالحِجْر[1] والبعير بالناقة والرجل بالمرأة، ولم يزوِّج شيئًا مِن ذلك بخلاف جنسه. وقُرئ: "خَلَقَهُ"[2] على صيغة الماضي على أنّ الجملة صفة للمضاف أو المضاف إليه. وحَذْف المفعول الثاني إمّا للاقتصار على الأوّل، أي: كلَّ شيء خَلَقه الله تعالى لم يَحْرِمه مِن عطائه وإنعامه، أو للاختصار مِن كونه مَنْويًا مدلولًا عليه بقرينة الحال، أي: أعطى كلّ شيء خَلَقه تعالى ما يحتاج إليه.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرّفه كيف يَتوصّل إلى بقائه وكماله إمّا اختيارًا كما في الحيوانات أو طبعًا كما في الجمادات والقُوى الطبيعيّة النباتيّة والحيوانيّة، ولمّا كان الخَلْق الذي هو عبارة / عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام متقدِّمًا على الهداية التي هي عبارة عن [٤٦ظ] إيداع القُوى المحرِّكة والمدْرِكة في تلك الأجسام وُسِّط بينهما كلمة التراخي.

ولقد ساق عليه السلام جوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بيَّن أنّه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الأشياء منعِم عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضّل، وضمَّنه أنّ إرساله تعالى إيّاه إلى الطاغية مِن جملة هداياته تعالى إيّاه بعد أن هداه إلى الحقّ بالهدايات التكوينيّة حيث ركّب فيه العقل وسائرَ المشاعر والآلات الظاهرةَ والباطنة.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ لمّا شاهد اللعين ما نظمه عليه السلام في سِلك

---

[1] الحِجْر: الفرس الأنثى. لسان العرب لابن منظور، «حجر».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك والأعمش والحسن وسلّام والرُّستمي عن نُصير عن الكسائي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٢٩.

الاستدلال مِن البرهان النيّر على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقيّةُ مقالاته عليه السلام وبُطلانُ خرافات نفسه ظهورًا بيّنًا، أراد أن يصرِفه عليه السلام عن سَننه إلى ما لا يعنيه مِن الأمور التي لا تعلّق لها بالرسالة مِن الحكايات، ويشغَلَه عمّا هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلّق بذلك إلى أن يدّعيَ بين يدي قومه نوعَ معرفة، فقال: ما حالُ القرون الماضية والأمَم الخالية، وماذا جرى عليهم مِن الحوادث المفصَّلة؟ فأجاب عليه السلام بأنّ العِلم بأحوالهم مفصّلةً ممّا لا ملابَسة له بمنصِب الرسالة وإنّما عِلمها عند الله عزّ وجلّ.

وأمّا ما قيل مِن أنّه سأله عن حال مَن خلا مِن القرون وعن شقاء مَن شقيَ منهم وسعادة مَن سعِد،[١] فيأباه قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ فإنّ معناه أنّه مِن الغيوب التي لا يعلمها إلّا الله تعالى، وإنّما أنا عبد لا أعلم منها إلّا ما علّمنيه مِن الأمور المتعلِّقة بما أُرسلتُ به. ولو كان المسئول عنه ما ذُكر مِن الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان أنّ / مَن اتّبع الهدى منهم فقد سلِم ومَن تولّى فقد عُذِّب، حسبما نطَق به قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾[٢] الآيتين. [٤٧و]

﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: مُثبَت في اللوح المحفوظ بتفاصيله. ويجوز أن يكون ذلك تمثيلًا لتمكُّنه وتقرُّره في عِلم الله عزّ وجلّ بما استحفظه العالِمُ، وقيّده بالكِتْبة،[٣] كما يلوّح به قوله تعالى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يُخطِئ ابتداءً ولا يذهب عليه[٤] بقاءً؛ بل هو ثابت أبدًا فإنّهما مُحالان عليه سبحانه، وهو على الأوّل لبيان أنّ إثباته في اللوح ليس لحاجته تعالى إليه في العِلم به ابتداءً أو بقاءً.

وإظهار ﴿رَبِّي﴾ في موقع الإضمار للتلذّذ بذِكره ولزيادة التقرير والإشعار بعلّة الحُكم، فإنّ الربوبيّة ممّا يقتضي عدم الضلال والنسيان حتمًا، ولقد أجاب عليه السلام عن السؤال بجواب عبقريّ بديع، حيث كشف عن حقيقة الحقّ حجابَها مع أنّه لم يخرُج عمّا كان بصدَده مِن بيان شئونه تعالى.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١/٣.

٢ طه، ٤٧/٢٠.

٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٣/٢.

٤ وفي هامش م: ذهب عليه: نسيَه. «منه».

ثم تخلّص إليه حيث قال بطريق الحكايةِ عن الله عزّ وجلّ لِما سيأتي مِن الالتفات: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ على أنّ الموصول إمّا مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: جعَلها لكم كالمهد تتمهّدونها أو ذات مَهْد وهو مصدر سُمّي به المفعول. وقُرئ: "مِهَادًا"،[1] وهو اسم لِما يُمهَد كالفِراش، أو جَمْع "مَهْد"، أي: جعل كلّ موضع منها مَهْدًا لكلّ واحد منكم.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: حصّل لكم طرُقًا ووسَّطها بين الجبال والأودية والبراري تسلُكونها مِن قُطْر إلى قُطْر لتقضُوا منها مآربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ أي: بذلك الماء، وهو عطفٌ على ﴿أَنزَلَ﴾ داخل تحت الحكاية، وإنّما التُفت إلى التكلّم للتنبيه على ظهور ما فيه مِن الدلالة على كمال القُدرة والحكمة، والإيذان / بأنّه لا يتأتّى إلّا [٤٧ظ] مِن قادر مُطاع عظيم الشأن تنقاد لأمره وتُذعِن لمشيئته الأشياء المختلفة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر، ٢٧/٣٥]، وقولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل، ٦٠/٢٧]. خلا أنّ ما قبل الالتفات هناك[2] صريحُ كلامه تعالى، وأمّا ههنا فحكاية عنه تعالى.

وجعلُ قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ هو المحكيَّ مع كون ما قبله كلامَ موسى عليه السلام خلافُ الظاهر، مع أنّه يفوّت حينئذ الالتفات لعدم اتّحاد المتكلّم.

﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا سُمّيت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ بيان أو صفة لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾، أي: كائنةً مِن نبات. وكذا قوله تعالى: ﴿شَتَّىٰ﴾ أي: متفرّقة جَمْع "شتيت". ويجوز أن يكون صفةً لـ﴿نَبَاتٍ﴾ لِما أنّه في الأصل مصدر يستوي فيه الواحد والجمع، يعني أنّها شتّى مختلفةٌ في الطعم والرائحة

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٠/٢.

[2] وفي هامش م: أي: في الآيتين. «منه».

والشكل والنفع، بعضُها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح وبعضُها للبهائم، فإنّ مِن تمام نعمته تعالى أنّ أرزاق عباده لمّا كان تحصُلها بعمَل الأنعام جعَل علَفها ممّا يفضُل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعامًا لهم.[١]

وقوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡ﴾ حال مِن ضمير ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ على إرادة القول، أي: أخرجنا منها أصناف النبات قائلين: كلوا وارعَوا أنعامكم، أي: مُعِدِّيها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين في ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن شئونه تعالى وأفعاله، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رُتبته وبُعْد منزلته في الكمال. والتنكير في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ للتفخيم كمًّا وكيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةٍ جليلة واضحة الدلالة على / شئون الله تعالى [٤٨و]
في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى صحّة نبوّة موسى وهارونَ عليهما السلام.

﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ جمع "نُهْية" سُمّي بها العقل لنهيه عن اتّباع الباطل وارتكاب القبيح، كما سُمّي بـ"العقل" و"الحِجْر" لعَقْله وحَجْره عن ذلك، أي: لذوي العقول الناهية عن الأباطيل التي مِن جملتها ما يدّعيه الطاغية وتقبله منه فئته الباغية. وتخصيص كونها آياتٍ بهم مع أنّها آيات للعالمين باعتبار أنّهم المنتفعون بها.

﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥﴾

﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي: في ضمن خَلْق أبيكم آدمَ عليه السلام منها، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد البشر له حظٌّ مِن خَلْقه عليه السلام؛ إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه السلام؛ بل كانت أنموذجًا منطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجماليًا مستتبِعًا لجَريان آثارها على الكلّ، فكان خَلْقه عليه السلام منها خلقًا للكلّ منها.

وقيل: المعنى خلقنا أبدانكم مِن النُطفة المتولِّدة مِن الأغذية المتولِّدة مِن الأرض بوسائطَ. وقيل: إنّ المَلَك الموكّل بالرَّحِم لَيأخذ مِن تُربة المكان الذي يُدفن فيه المولود فيُبدِّدها على النطفة فيُخلَق مِن التراب والنُطفة.[٢]

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢/٣.

[٢] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٨/٥، والكشّاف للزمخشري، ٥٢/٣.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء. وإيثارُ كلمة "في" على كلمة "إلى" للدلالة على الاستقرار المديد فيها. ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتّتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة وردّ الأرواح إليها. وكونُ هذا الإخراج تارةً أخرى باعتبار أنّ خَلْقهم مِن الأرض إخراج لهم منها وإن لم يكن على نهج التارة الثانية. و"التارة" في الأصل اسم لـ"التَّوْر" الواحد وهو الجريان، ثمّ أُطلِق على كل فَعْلة واحدة مِن الفَعَلات المتجدِّدة كما مرّ في "المرّة".[1]

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ حكاية إجماليّة / لِما جرى بين موسى عليه السلام وبين فرعونَ إثرَ حكاية ما ذكَره عليه السلام بجلائل نَعمائه الداعية له إلى قَبول الحقّ والانقياد له. وتصديرُها بالقَسَم لإبراز كمال العناية بمضمونها. وإسنادُ الإراءة إلى نون العظمة نظرًا إلى الحقيقة لا إلى موسى نظرًا إلى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في المكابرة والعناد، أي: وبالله لقد بصّرنا فرعونَ أو عرّفناه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ حين قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف، ٧/١٠٦-١٠٨]. [٤٨ظ]

وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما في تضاعيفهما مِن بدائع الأمور التي كلّ منها آية بيّنة لقوم يعقلون، حسبما بيِّن في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ [طه، ٢٠/٤٢]. وقد ظهر عند فرعونَ أمور أُخَرُ كلّ واحد منها داهية دَهْياء:

فإنّه رُوي أنّه عليه السلام لمّا ألقاها انقلب ثعبانًا أشعَرَ فاغرًا فاه بين لَحييه ثمانون ذراعًا وضَع لَحْيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سُور القصر

---

[1] في تفسير طه، ٢٠/٣٧.

وتوجّه نحوَ فرعونَ، فهرب وأحدَث، وانهزم الناس مزدحِمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا مِن قومه، فصاح فرعونُ: يا موسى أَنشُدك بالذي أرسلك إلّا أخذتَه فأخذه فعاد عصًا.

ورُوي أنّها انقلبت حيّة ارتفعت في السماء قدرَ مِيل، ثمّ انحطّت مُقبلة نحو فرعونَ، وجعلتْ تقول: يا موسى مُرْني بما شئت، ويقول فرعون: أنشدك... إلخ. ونزَع يديه مِن جيبه فإذا هي بيضاءُ بياضًا نورانيًا خارجًا عن حدود العادات قد غلَب شعاعُه شعاع الشمس يجتمع عليه النظّارة تعجّبًا مِن أمره.[1]

ففي تضاعيف كلّ مِن الآيتين آيات جمّة لكنّها لمّا كانت غيرَ مذكورة صراحة أُكّدت بقوله تعالى: ﴿كُلَّهَا﴾ كأنّه قيل: أريناه آيَتَينا / بجميع مُستتبَعاتهما [٤٩و] وتفاصيلهما قصدًا إلى بيان أنّه لم يبقَ له في ذلك عذر ما ولا مساغَ لعدّ بقيّة الآيات التسع منها لِما أنّها إنّما ظهرت على يده عليه السلام بعد ما غلَب السحَرة على مهَل في نحو مِن عشرين سنةً، كما مرّ في تفسير سورة الأعراف.[2]

ولا ريبَ في أنّ أَمر السحَرة مترقَّب بعدُ، وأبعدُ مِن ذلك أن يُعدّ منها ما جُعل لإهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان مِن فَلْق البحر وما ظهَر بعد مهلِكه مِن الآيات الظاهرة لبني إسرائيل، مِن نَتْق الجبل والحجَر سواء أريدَ به الحجَر الذي فرّ بثوبه أو الذي انفجرت منه العيون.

وكذا أن يُعدّ منها الآيات الظاهرة على الأنبياء عليهم السلام بناءً على أنّ حكايته عليه السلام إيّاها لفرعونَ في حُكم إظهارها بين يديه وإراءتِه إيّاها لاستحالة الكذِب عليه عليه السلام، فإنّ حكايته عليه السلام إيّاها لفرعونَ ممّا لم يجْرِ ذِكره ههنا، على أنّ ما سيأتي مِن حَمْل ما أظهره عليه السلام على السِّحر والتصدي للمعارضة بالمِثل يأباه إباءً بيّنًا، وينطِق بأنّ المراد بها ما ذكرناه قطعًا. ولولا ذلك لجاز جَعْل ما فصّله عليه السلام مِن أفعاله تعالى الدالّة على اختصاصه بالربوبيّة وأحكامها مِن جملة الآيات.

---

[1] هذه الأخبار في الكشّاف للزمخشري، ١٠٤/٢ (الأعراف، ٧/١٠٧-١٠٨).

[2] في تفسير الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة منها.

﴿فَكَذَّبَ﴾ موسى عليه السلام مِن غير تردّد وتأخير مع ما شاهده في يده مِن الشواهد الناطقة بصِدقه جحودًا وعِنادًا. ﴿وَأَبَىٰ﴾ الإيمانَ والطاعة لعتوّه واستكباره. وقيل: كذّب بالآيات جميعًا وأبى أن يقبل شيئًا منها أو أبى قَبول الحقّ.[١]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة تكذيبه وإبائه، و"الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه وادِّعاء أنّه أمر مُحال. والمجيء إمّا على حقيقته أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدّي له، أي: أجئتنا مِن مكانك الذي كنتَ فيه بعد ما غِبت عنا، أو أقبلتَ علينا لتُخرِجنا مِن مصرَ بما أظهرْتَه / مِن السحر، فإنّ ذلك ممّا لا يصدُر عن العاقل لكونه مِن باب محاولة المُحال. [٤٩ظ]

وإنّما قاله لحَمْل قومِه على غاية المَقْت لموسى عليه السلام بإبراز أنّ مراده عليه السلام ليس مجرّدَ إنجاء بني إسرائيلَ مِن أيديهم؛ بل إخراجُ القِبط مِن وطنهم وحيازةُ أموالهم وأملاكهم بالكلّيّة حتّى لا يتوجّه إلى اتّباعه أحد ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة، وسمّى ما أظهره عليه السلام مِن المعجزة الباهرة سِحرًا لتجسيرهم على المقابلة.

ثمّ ادّعى أنّه يعارضه بمِثل ما أتى به عليه السلام فقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ "الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و"اللام" جوابُ قَسَم محذوف، كأنّه قيل: إذا كان كذلك فوالله لنأتينّك بسِحر مِثل سِحرك ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: وعدًا كما ينبئ عنه وصفه بقوله تعالى: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ فإنّه المناسب لا المكان والزمان، أي: لا نُخلف ذلك الوعد ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾.

وإنّما فوّض اللعين أمرَ الوعد إلى موسى عليه السلام للاحتراز عن نسبته إلى ضَعْف القلب وضِيقِ المجال وإظهار الجلادة وإراءةِ أنّه متمكِّن مِن تهيئة أسباب المعارضة وترتيبِ آلات المغالبة طال الأمد أم قصُر، كما أنّ تقديم ضميره على ضمير موسى عليه السلام وتوسيطَ كلمة النفي بينهما للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلاف، وأنّ عدم إخلافه لا يوجب عدم إخلافه عليه السلام، ولذلك أُكِّد النفي بتكرير حرفه.

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣/٣.

وانتصاب ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ بفعل يدلّ عليه المصدر لا به، فإنّه موصوف أو بأنّه بدل مِن ﴿مَوْعِدًا﴾ على تقدير مكان مضاف إليه، فحينئذ يكون مطابقةُ الجواب في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ مِن حيث المعنى، فإنّ ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يدلّ على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ، أو بإضمار مثلَ "مكانُ موعِدكم مكانُ يوم الزينة" كما هو على الأوّل، أو "وعدُكم وعدُ يوم الزينة". وقُرئ: "يَوْمَ"[1] بالنصب، وهو ظاهر في أنّ المراد به المصدر. ومعنى ﴿سُوًى﴾ منتصَفًا يستوي مسافته إلينا وإليك / وهو في النعت كقولهم: "قوم عِدًى" في الشذوذ. وقُرئ بكسر "السين".[2] [٥٠و]

قيل: ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾: يوم عاشوراءَ، أو يوم النَّيْروز، أو يومُ عيد كان لهم في كلّ عام.[3] وإنّما خصّه عليه السلام بالتعيين لإظهار كمال قوّته وكونه على ثِقَة مِن أمره وعدم مبالاته بهم لِما أنّ ذلك اليوم وقتُ ظهور غاية شوكتهم، وليكون ظهور الحقّ وزهوق الباطل في يوم مشهود على رءوس الأشهاد، ويشيع ذلك فيما بين كلّ حاضر وباد.

﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ عطفٌ على ﴿يَوْمُ﴾ أو ﴿الزِّينَةِ﴾، وقُرئ على البناء للفاعل بـ"التاء"[4] على خطاب فرعونَ، وبـ"الياء"[5] على أنّ الضمير له على سَنن الملوك أو لليوم.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾﴾

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أي: انصرف عن المجلس ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: ما يُكادُ به مِن السحَرة وأدواتِهم ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي: الموعدَ ومعه ما جمعه مِن كيده. وفي كلمة التراخي إيماءٌ إلى أنّه لم يسارع إليه؛ بل أتاه بعد لَأْي وتلَعْثُم.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والحسن وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة وقتادة والجَحدري وهُبيرة والزّعفراني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٨؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢٣١.

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٠/٢.

[3] هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٥٤/٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والجَحدري وأبي نَهيك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٨؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢٣١.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والكَفَرتوثي والأديب، والعنبري عن أبي بكر. المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٢٣١.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾... إلخ، بطريق الاستئناف المبنيّ على السؤال يقضي بأنّ المترقَّب من أحواله عليه السلام حينئذ والمحتاجَ إلى السؤال والبيان ليس إلّا ما صدر عنه عليه السلام مِن الكلام، وأمّا إتيانه أوّلًا فأمرٌ محقّق غنيّ عن التصريح به، كأنّه قيل: فماذا صنع موسى عليه السلام عند إتيان فرعونَ بمَن جمعهم مِن السحَرة؟ فقيل: قال لهم بطريق النصيحة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدّعوا آياتِه التي ستظهر على يدي سِحرًا كما فعل فرعونُ.

﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي: يستأصلكم بسببه ﴿بِعَذَابٍ﴾ هائل لا يُقادَر قَدْره. وقُرئ: "يَسْحَتَكُمْ"[1] مِن الثلاثي على لغة أهل الحِجاز، والإسحاتُ لغة بني تميم ونجد. ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: على الله تعالى / كائنًا مَن كان بأيّ وجه كان، فيدخل فيه الافتراء المنهيّ عنه دخولًا أوّليًا، أو وقد خاب فرعونُ المفتري فلا تكونوا مثلَه في الخَيبة. والجملة اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبلها. [٥٠ظ]

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟﴾ أي: السحَرة حين سمعوا كلامه عليه السلام، كأنّ ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿أَمْرَهُم﴾ الذي أُريدَ منهم مِن مغالبته عليه السلام وتشاوروا وتناظروا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في كيفيّة المعارضة وتجاذبوا أهدابَ القول في ذلك ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: مِن موسى عليه السلام لئلّا يقِفَ عليه فيدافعَه.

وكان نجواهم ما نطَق به قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: بطريق التناجي والإسرار: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾... إلى آخره،[2] فإنّه تفسير له ونتيجة لتنازُعهم وخلاصةُ ما استقرّت عليه آراؤهم بعد التناظُر والتشاوُر.

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر وروح وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٠.

[2] هذا الوجه في الذي تناجوا به مرويّ عن السُّدّي ووهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ١٦/٩٦-٩٧، وسيذكر المؤلِّف قريبًا وجوهًا أخرى لذلك.

و﴿إِنْ﴾ مخفَّفة مِن "إنّ" قد أهمِلت عن العمل و"اللام" فارقة. وقُرئ بتشديد نون ﴿هَٰذَانِ﴾.[١] وقيل: هي نافيةٌ و"اللام" بمعنى "إلّا"، أي: "ما هذان إلّا ساحران".[٢] وقُرئ: "إنّ" بالتشديد،[٣] و﴿هَٰذَانِ﴾ اسمُها على لغة بَلحارث بن كعب، فإنّهم يُعربون التثنيةَ تقديرًا. وقيل: اسمها ضمير الشأن المحذوف و﴿هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبرها. وقيل: "إنّ" بمعنى "نَعَمْ" وما بعدها جملة مِن مبتدأ وخبر، وفيهما أنّ "اللام" لا تدخُل خبرَ المبتدأ. وقيل: أصله "إنّه هذان لهما ساحران" فحُذف الضمير، وفيه أنّ المؤكَّد بـ"اللام" لا يليق به الحذف،[٤] وقُرئ: "إِنَّ هَذَيْنَ لَسَاحِرَانِ"[٥] وهي قراءة واضحة.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ أي: أرض مصرَ بالاستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذي أظهراه مِن قبل ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ أي: بمَذهبكم الذي هو أفضل المذاهب وأمثلُها بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما، يريدون به ما كان عليه قوم فرعونَ، لا طريقةَ السِّحر، / فإنّهم ما كانوا يعتقدونه دِينًا. [٥١و]

وقيل: أرادوا أهلَ طريقتكم وهم بنو إسرائيلَ لقول موسى عليه السلام: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾،[٦] وكانوا أربابَ علمٍ فيما بينهم.[٧] ويأباه أنّ إخراجهم مِن أرضهم إنّما يكون بالاستيلاء عليها تمكُّنًا وتصرُّفًا، فكيف يُتصوَّر حينئذ نَقْل بني إسرائيلَ إلى الشام؟

وحملُ الإخراج على إخراج بني إسرائيلَ منها مع بقاء قوم فرعونَ على حالهم ممّا يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله.[٨] على أنّ هذه المقالةَ منهم للإغراء بالمبالغة في المغالبة والاهتمام بالمُناصَبة، فلا بدّ أن يكون الإنذار والتحذير بأشدّ المكاره وأشقّها عليهم، ولا ريبَ في أنّ إخراج بني إسرائيلَ مِن بينهم والذهابَ بهم إلى الشام وهو آمنون في ديارهم ليس فيه كثير محذور. وقيل:

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٩٥/١٣.
٣ قرأ بها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٤ هذه الأوجه في اللباب لابن عادل، ٢٩٦/١٣-٢٩٨؛ وبعضها في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.
٥ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٦ طه، ٤٧/٢٠.
٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.
٨ القول في اللباب لابن عادل، ٣٠٤/١٣.

الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم لِما أنّهم قُدوة لغيرهم.[١] ولا يخفى أنّ تخصيص الإذهاب بهم ممّا لا مزيّةَ فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ تصريح بالمطلوب إثرَ تمهيد المقدّمات، و"الفاء" فصيحة، أي: إذا كان الأمر كما ذُكر مِن كونهما ساحرَين يريدان بكم ما ذُكر مِن الإخراج والإذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مُجمَعًا عليه بحيث لا يتخلّف عنه واحد منكم وارمُوا عن قوس واحدة. وقُرئ: "فَاجْمَعُوا"[٢] مِن الجمع، ويعضده قوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾،[٣] أي: فاجْمَعوا أدواتِ سِحركم ورتِّبوها كما ينبغي. ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ أي: مصطفّين، أُمروا بذلك لأنّه أهيَب في صدور الرائين وأدخلُ في استجلاب الرهبة مِن المشاهِدين.

قيل: كانوا سبعين ألفًا مع كلّ منهم حبل وعصًا، وأقبلوا عليه إقبالة واحدة.[٤] وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحرًا،[٥] اثنان مِن القِبط والباقي مِن بني إسرائيلَ. وقيل: تِسعَمائة: ثلاثمائة مِن الفُرس، وثلاثمائة مِن الروم، وثلاثمائة مِن الإسكندريّة.[٦] وقيل: خمسةَ عشرَ ألفًا.[٧] وقيل: / بضعةٌ وثلاثين ألفًا.[٨] والله أعلم. [٥١ظ]

ولعلّ الموعدَ كان مكانًا متّسعًا خاطبهم موسى عليه السلام بما ذُكر في قُطر مِن أقطاره وتنازعوا أمرهم في قُطر آخرَ منه، ثمّ أُمروا بأن يأتوا وسَطه على الوجه المذكور.

وقد فُسّر الصفّ بالمصلّى لاجتماع الناسِ فيه في الأعياد والصلوات.[٩] ووجهُ صِحّته أن يكون علَمًا لموضع معيَّن مِن المكان الموعود.[١٠] وأمّا إرادة مصلًّى مِن المصلّيات بعد تعيّن المكان الموعود،[١١] فلا مساغَ لها قطعًا.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.
٢ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٣ طه، ٦٠/٢٠.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.
٥ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٠/٥.
٦ مرويّ بمعناه عن ابن جُريج في جامع البيان للطبري، ١٠٩/١٦.
٧ مرويّ عن وهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ١٠٨/١٦.
٨ مرويّ عن السُّدّي في جامع البيان للطبري، ١٠٧/١٦-١٠٨.
٩ هو تفسير أبي عبيدة في مجاز القرآن، ٢٣/٢، ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٥/٣.
١٠ هذا التوجيه ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٥٥/٣.
١١ هذا الوجه مذكورٌ في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ اعتراض تذييلي مِن قِبلهم مؤكِّد لِما قبله مِن الأمرين، أي: قد فاز بالمطلوب مَن غلَب، يريدون بالمطلوب ما وعدهم فرعونُ مِن الأجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء، ٤٢/٢٦]، وبِمَن غلَب أنفسَهم جميعًا، على طريقة قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء، ٤٤/٢٦]، أو مَن غلَب منهم حثًّا لهم على بذل المجهود في المغالبة. هذا هو اللائق بتجاوب أطراف النظم الكريم.

وقد قيل: كان نجواهم أن قالوا حين سمِعوا مقالة موسى عليه السلام: ما هذا بقول ساحر.[١] وقيل: كان ذلك أن قالوا: إن غَلَبنا موسى اتّبعناه.[٢] وقيل: كان ذلك قولَهم: إن كان ساحرًا فسنغلِبه وإن كان مِن السماء فله أمرٌ.[٣] فيكون إسرارهم حينئذ مِن فرعونَ ومَلئه، ويُحمل قولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾... إلخ،[٤] على أنّهم اختلفوا فيما بينهم على الأقاويل المذكورة، ثمّ رجعوا عن ذلك بعد التنازُع والتناظُر، واستقرّت آراؤهم على ذلك، وأبَوا إلّا المناصَبة للمعارضة.

وأمّا جعلُ ضمير ﴿قَالُواْ﴾ لفرعونَ وملَئه،[٥] على أنّهم قالوا ذلك للسحَرة ردًّا لهم عن الاختلاف، وأمروهم بالإجماع والإزماع وإظهارِ الجلادة بالإتيان على وجه الاصطفاف، فمُخِلٌّ بجزالة النظم الكريم، كما يشهد به الذوق السليم.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ناشئ مِن حكاية ما جرى بين السحَرة مِن المقاولة، كأنّه قيل: فماذا فعلوا بعد ما قالوا فيما بينهم ما قالوا؟ فقيل: قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾. وإنّما لم يُتعرَّض لإجماعهم وإتيانهم بطريق الاصطفاف إشعارًا بظهور أمرهما وغناهما عن البيان.

---

[١] مرويّ عن وهب بن منبّه في جامع البيان للطبري، ٩٦/١٦.

[٢] مرويّ عن ابن عبّاس في الكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣؛ وعن الكلبي في معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٠/٥؛ وهو بلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٥/٢.

[٣] مرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٩٥/١٦-٩٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٥/٣.

[٤] في طه، ٦٣/٢٠، وذكر المؤلّف ثمّة أنّ هذا كان هو ما تناجَوا به.

[٥] وهو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٥/٢.

﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ أي: ما تُلقيه أوّلًا، على أنّ المفعول محذوف لظهوره، أو تفعل الإلقاءَ / أوّلًا على أنّ الفعل منزّل منزلةَ اللازم. [٥٢و]

﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ ما يُلقيه أو أوّلَ مَن فعل[١] الإلقاءَ، خيّروه عليه السلام بما ذُكر مراعاة للأدب لِما رأوا منه عليه السلام ما رأوا مِن مخائل الخير ورزانة الرأي، وإظهارًا للجلادة بإراءة أنّه لا يختلف حالهم بالتقديم والتأخير. و﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها منصوب بفعل مضمر، أو مرفوع بخبريّة مبتدأ محذوف، أي: اخترْ إلقاءَك أوّلًا أو إلقاءَنا، أو الأمرُ إمّا إلقاؤك أو إلقاؤنا.

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف ناشئ مِن حكاية تخيير السحَرة إيّاه عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ أنتم أوّلًا مقابلةً للأدب بأحسنَ مِن أدبهم، حيث بتّ القول بإلقائهم أوّلًا، وإظهارًا لعدم المبالاة بسِحرهم ومساعدةً لِما أوهَموا مِن المَيل إلى البدء، وليُبرِزوا ما معهم ويستفرِغوا أقصى جُهدهم ويستنفدوا قُصارى وُسعهم، ثمّ يُظهر الله عزّ وجلّ سلطانه فيقذف بالحقّ على الباطل فيدمَغه، لِما علِم أنّ ما سيظهر بيده سيلقَف ما يصنعون مِن مكائد السحر.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ "الفاء" فصيحة معرِبة عن مسارعتهم إلى الإلقاء كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[٢] ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٦٣]، أي: فألقوا ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ﴾، وهي للمفاجأة، والتحقيقُ أنّها أيضًا ظرفيّة تستدعي متعلَّقًا ينصِبها وجملةً تُضاف إليها، لكنّها خُصّت بكون متعلَّقِها فعلَ المفاجأة، والجملةُ ابتدائيّة، والمعنى فألقَوا ففاجأ موسى عليه السلام وقت أن يُخيَّل إليه سعيُ حبالهم وعِصيّهم مِن سحرهم، وذلك أنّهم كانوا لطّخوها بالزئبق فلمّا ضربت عليها الشمس / اضطربت واهتزّت فخُيّل إليه أنّها تتحرّك. [٥٢ظ]

---

[١] س: يفعل. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٢] م ط س: فقلنا.

وقُرئ: "تُخَيَّلُ"[١] بـ"التاء" على إسناده إلى ضمير الحبال والعِصيّ وإبدالِ ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ منه بدلَ اشتمال، وقُرئ: "نُخَيِّلُ"[٢] بإسناده إليه تعالى، وقُرئ: "تَخَيَّلُ"[٣] بحذف إحدى التاءين مِن "تتخيّل".

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ أي: أضمر فيها بعضَ خوف مِن مفاجأته بمقتضى البشريّة المجبولة على النُّفْرة مِن الحيّات والاحتراز عن ضررها المعتاد مِن اللسْع ونحوه. وقيل: مِن أن يُخالِج الناس شكّ فلا يتَّبعوه.[٤] وليس بذاك كما ستعرفه. وتأخيرُ الفاعل لمراعاة الفواصل.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ أي: ما توهّمتَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تعليل لِما يُوجِبه النهيُ مِن الانتهاء عن الخوف، وتقريرٌ لغلَبته على أبلغ وجه وآكَده، كما يُعرب عنه الاستئناف وحرفُ التحقيق وتكرير الضمير وتعريفُ الخبر ولفظ العُلوّ المنبئ عن الغلَبة الظاهرة وصيغةُ التفضيل.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك كما وقع في سورة الأعراف،[٥] وإنّما أُوثر الإبهام تهويلًا لأمرها وتفخيمًا لشأنها وإيذانًا بأنّها ليست مِن جنس العِصيّ المعهودة المستتبِعة للآثار المعتادة؛ بل خارجةٌ عن حدود سائر أفراد الجنس مبهمة الكُنْه مستتبِعة لآثار غريبة. وعدمُ مراعاة هذه النُّكتة عند حكاية الأمر في موضع آخرَ لا يستدعي عدم مراعاتها عند وقوع المَحكيّ.

---

١ قرأ بها ابن ذكوان ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حنيفة وابن نِمس عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٣٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. اللباب ابن عادل، ١٣/٣١٢.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٦.

٥ في الآية السابعةَ عشرةَ بعد المائة منها.

هذا وحملُ الإبهام على التحقير بأن يراد لا تُبال بكثرة حبالهم وعِصيّهم وألقِ العُوَيد الذي في يدك، فإنّه بقدرة الله تعالى يلقَفها مع وَحدته وكثرتها وصِغره وعِظَمها،[1] يأباه ظهور حالها فيما مرّ مرّتين، على أنّ ذلك / المعنى [٥٣و] إنّما يليق بما لو فعلتْ العصا ما فعلتْ وهي على هيئته الأصليّة، وقد كان منها ما كان.

وقوله تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ بالجزم جوابًا للأمر مِن "لَقِفه" إذا ابتلعه والتقمه بسرعة. والتأنيث لكون ﴿مَا﴾ عبارةً عن العصا، أي: تبتلع ما صنعوه مِن الحبال والعِصيّ التي خُيّل إليك سعيَها وخِفّتَها. والتعبير عنها بـ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾ للتحقير والإيذان بالتمويه والتزوير.

وقُرئ: "تَلَقَّفْ"[2] بتشديد "القاف" وإسقاط إحدى التاءين مِن "تتلقّف"، وقُرئ بالرفع[3] على الحال أو الاستئناف، والجملةُ الأمريّة معطوفة على النهي متمِّمة بما في حيّزها لتعليل موجَبه ببيان كيفيّة غلبته عليه السلام وعلوّه، فإنّ ابتلاع عصاه لأباطيلهم التي منها أوجسَ في نفسه ما أوجس ممّا يقلَع مادّته بالكلّيّة. وهذا كما ترى صريح في أنّ خوفه عليه السلام لم يكن ممّا ذُكر مِن مُخالجة الشكّ للناس وعدم اتّباعهم له عليه السلام، وإلّا لعُلّل بما يُزيله مِن الوعد بما يوجب إيمانهم واتّباعهم له عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾... إلخ، تعليل لقوله تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾، و﴿مَا﴾ إمّا موصولة أو موصوفة، أي: إنّ الذي صنعوه أو إنّ شيئًا صنعوه. ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ بالرفع على أنّه[4] خبر لـ﴿إِنَّ﴾، أي: كيدُ جنسِ الساحر، وتنكيرُه للتوسّل به إلى تنكير ما أضيف إليه للتحقير. وقُرئ بالنصب[5] على أنّه مفعولُ ﴿صَنَعُوٓاْ﴾

---

[1] هذا الوجه مذكور مع الوجه السابق في الكشّاف للزمخشري، ٥٦/٣.

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام وأبو بكر وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[3] قرأ بها ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[4] س - على أنّه.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٩؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ١٢٣٥.

و﴿مَا﴾ كافّة، وقُرِئ: "كَيْدُ سِحْرٍ"[١] على أنّ الإضافة للبيان، كما في "عِلمُ فقهٍ"، أو على معنى "ذي سِحْر"، أو على تسمية الساحر "سِحْرًا" مبالغةً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: هذا الجنس ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: حيث كان وأين أقبل، مِن تمام التعليل. وعدمُ التعرّض لشأن العصا وكونها معجزةً إلهيّة / مع ما في ذلك مِن تقوية التعليل للإيذان بظهور أمرها. [٥٣ظ]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ كما سلف فصيحة معرِبة عن محذوفَين ينساق إليهما النظم الكريم غنيّين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردُّد موسى عليه السلام في الامتثال بالأمر واستحالةِ عدم وقوع اللَّقْف الموعود، أي: فألقاه[٢] عليه السلام فوقَع ما وقَع مِن اللَّقْف ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لِما تيقّنوا أنّ ذلك ليس مِن باب السِّحر، وإنّما هي آية مِن آيات الله عزّ وجلّ.

رُوي أنّ رئيسهم قال: كنّا نغلِب الناس وكانت الآلات تبقى علينا، فلو كان هذا سِحرًا فأين ما ألقَيناه مِن الآلات؟[٣] فاستَدلّ بتغيُّر أحوال الأجسام على الصانع القادر العالِم، وبظهور ذلك على يد موسى عليه السلام على صحّة رسالتِه، لا جرمَ ألقاهم بما شاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتَوا بما هو غاية الخضوع.

قيل: لم يرفعوا رءوسهم حتّى رأوا الجنّة والنار والثواب والعقاب. وعن عِكرمةَ لمّا خرّوا سجّدًا أراهم الله تعالى في سجودهم منازلهم في الجنّة،[٤] ولا ينافيه قولهم: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾... إلخ،[٥] لأنّ كون تلك المنازلِ منازلَهم باعتبار صدورِ هذا القول عنهم.

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف كما مرّ غيرَ مرّة. ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ تأخيرُ موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل. وقد جُوّز أن يكون ترتيب كلامهم أيضًا هكذا، إمّا لِكبَر سنّ هارونَ عليه السلام وإمّا للمبالغة في الاحتراز عن التوهّم الباطلِ مِن جهة فرعونَ وقومِه، حيث كان فرعونُ ربّى موسى عليه السلام في صِغَره،

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.
٢ وفي هامش م: أي: ما في يمينه. «منه».
٣ الكلام في اللباب لابن عادل، ٣١٧/١٣.
٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٧/٣.
٥ سيأتي في طه، ٧٣/٢٠.

فلو قدّموا موسى عليه السلام لربّما توهّم اللعين وقومه مِن أوّل الأمر أنّ مرادهم فرعونُ.[١]

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾

﴿قَالَ﴾ أي: فرعونُ للسحَرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: لموسى عليه السلام، و"اللام" لتضمين الفعل معنى الاتّباع. وقُرئ / على الاستفهام التوبيخي.[٢] ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: مِن غير أن آذَن لكم في الإيمان له، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]، لا أنّ إذنه لهم في ذلك واقع بعده أو متوقَّع. [٥٤و]

﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي: في فنّكم وأعلمُكم به وأستاذكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ فتواطأتُم على ما فعلتُم أو فعلّمكم شيئًا دون شيء فلذلك غلبكم. وهذه شُبهة زوّرها اللعين وألقاها على قومه، وأراهم أنّ أمْر الإيمان منُوط بإذنه فلمّا كان إيمانهم بغير إذنه لم يكن معتدًّا به وأنّهم مِن تلامذته عليه السلام، فلا عبرةَ بما أظهره كما لا عبرةَ بما أظهروه، وذلك لِما اعتراه مِن الخوف مِن اقتداء الناس بالسحَرة في الإيمان بالله تعالى.

ثمّ أقبل عليهم بالوعيد المؤكَّد حيث قال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ أي: فوالله لأُقطعنّ ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: اليدَ اليمنى والرِّجلَ اليسرى. و﴿مِّنْ﴾ ابتدائيّة، كأنّ القطع ابتدأ مِن مخالفة العُضو العضوَ، فإنّ المبتدئ مِن المعروض مبتدئ مِن العارض أيضًا. وهي مع مجرورها في حيّز النصب على الحاليّة، أي: لأقطعنّها مختلفاتٍ. وتعيين تلك الحال للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا محالةَ بتعيين كيفيّته المعهودة في باب السياسة، لا لأنّها أفظعُ مِن غيرها.

---

١ الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٧/٢.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر وروح وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٦٨/١.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: عليها. وإيثار كلمة ﴿فِى﴾ للدلالة على إبقائهم عليها زمانًا مديدًا تشبيهًا لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف في الظرف المشتمِل عليه. قالوا: هو أوّلُ مَن صَلَب. وصيغة التفعيل في الفعلَين للتكثير، وقد قُرئا بالتخفيف.[١]

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا﴾ يريد به نفسه وموسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾. و"اللام" مع الإيمان في كتاب الله تعالى لغيره تعالى،[٢] وهذا إمّا لقصد توضيع موسى عليه السلام والهُزْء به؛ لأنه لم يكن مِن التعذيب في شيء، وإمّا لإراءة أنّ إيمانهم لم يكن عن مشاهدة / المعجزة ومعاينة البرهان؛ [٥٤ظ] بل كان عن خوف مِن قِبَل موسى عليه السلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعِصيّهم، فخافوا على أنفسهم أيضًا. وقيل: يريد به ربَّ موسى الذي آمنوا به بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.[٣]

﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أدوَم.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالُوا۟﴾ غيرَ مكترثين بوعيده ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نختارك بالإيمان والاتّباع ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ مِن الله تعالى على يد موسى عليه السلام ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مِن المعجزات الظاهرة، فإنّ ما ظهر بيده عليه السلام مِن العصا كان مشتملًا على معجزات جمّة، كما مرّ تحقيقه فيما سلف، فإنّهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي: خلقنا وسائرَ المخلوقات، وهو عطفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا﴾، وتأخيرُه لأنّ ما في ضمنه آية عقليّة نظريّة، وما شاهدوه آية حسيّة ظاهرة. وإيراده تعالى بعنوان فاطريّته تعالى لهم للإشعار بعلّة الحُكم، فإنّ خالقيّته تعالى لهم وكونَ فرعونَ مِن جملة مخلوقاته ممّا يوجب عدمَ إيثارهم له

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٧/٢.

٣ في الآية السابقة. والقول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٧/٢.

عليه سبحانه وتعالى. وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعونَ بقوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.[1]

وقيل: هو قسَم محذوفُ الجواب لدلالة المذكور عليه، أي: وحقِّ الذي فطرنا لا نؤثِرك... إلخ. ولا مساغَ لكون المذكور جوابًا له عند مَن يجوِّز تقديم الجواب أيضًا لِما أنّ القسَم لا يجاب بـ"لن" إلّا على شذوذ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ جواب عن تهديده بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾... إلخ،[2] أي: فاصنع ما أنت صانعه، أو فاحكُم ما أنت حاكم به. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد ممّا سبق مِن الأمر بالقضاء، أي: إنّما تصنع ما تهواه أو تحكُم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسبُ، وما لنا مِن رغبة في عَذْبها ولا رهبة مِن عذابها.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ التي اقترفنا فيها مِن الكفر والمعاصي ولا يؤاخذَنا بها في الدار الآخرة، / لا ليُمتّعنا بتلك الحياة الفانية حتّى نتأثّر بما أوعدتَنا به مِن القَطع والصَّلب. [٥٥و]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ عطفٌ على ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾، أي: ويغفرَ لنا السِّحر الذي عمِلناه في معارضة موسى عليه السلام بإكراهك وحشرك إيّانا مِن المدائن القاصية، خصّوه بالذِّكر مع اندراجه في خطاياهم إظهارًا لغاية نُفرتهم عنه ورغبتهم في مغفرته. وذِكرُ الإكراه للإيذان بأنّه ممّا يجب أن يُفرَد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالإكراه، وفيه نوعُ اعتذار لاستجلاب المغفرة.

وقيل: أرادوا الإكراه على تعلّم السِّحر حيث رُوي أنّ رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين: اثنان منهم مِن القِبط والباقي مِن بني إسرائيل، وكان فرعونُ أكرَههم على تعلّم السِّحر. وقيل: إنّه أكرَههم على المعارضة حيث رُوي أنّهم قالوا لفرعونَ:

---

[1] في الآية السابقة.

[2] في الآية السابقة.

أرِنا موسى نائمًا ففعل فوجدوه تحرُسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسِحر فإنّ الساحر إذا نام بطَل سِحره، فأبى إلّا أن يُعارضوه.[١] ويأباه تصدّيهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يُعرب عنه قولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء، ٤١/٢٦]، وقولُهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء، ٤٤/٢٦].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: في حدّ ذاته، وهو ناظر إلى قولهم: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾.[٢] ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: جزاءً، ثوابًا كان أو عذابًا، أو خيرٌ ثوابًا وأبقى عذابًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى آخر الشرطيّتين تعليلٌ مِن جهتهم لكونه تعالى خيرًا وأبقى جزاءً، وتحقيقٌ له وإبطالٌ لما ادّعاه فرعونُ. وتصديرُهما بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما؛ لأنّ مناط وَضْع الضمير موضعَه ادّعاءُ شهرته المُغْنية عن ذِكره، مع ما فيه مِن / زيادة التقرير، فإنّ الضمير لا يُفهَم منه [٥٥ظ] مِن أوّل الأمر إلّا شأن مبهَم له خطَر، فيبقى الذِّهن مترقِّبًا لِما يعقُبه فيتمكّن عند وروده له فضلَ تمكُّن، كأنّه قيل: إنّ الشأن الخطيرَ هذا، أي: قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ بأن مات على الكفر والمعاصي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فينتهي عذابه، وهذا تحقيقٌ لكون عذابه أبقى، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً ينتفع بها.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ به تعالى وبما جاء مِن عنده مِن المعجزات التي مِن جملتها ما شاهدناه ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ "الصالحة" كـ"الحسنة" جارية مَجرى الاسم، ولذلك لا تُذكر غالبًا مع الموصوف، وهي: كلّ ما استقام مِن الأعمال بدليل العقل والنقل.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾، والجمعُ باعتبار معناها كما أنّ الإفراد في الفعلين السابقَين باعتبار لفظها. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعُلوّ درجتهم وبُعد منزلتهم، أي: فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ﴿لَهُمُ﴾ بسبب إيمانِهم وأعمالهم الصالحة ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: المنازل الرفيعة. وليس فيه

---

[١] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٨/٣.

[٢] في الآية السابقة.

ما يدلّ على عدم اعتبار الإيمان المجرّد عن العمل الصالح في استتباع الثواب، لأنّ ما نِيط بالإيمان المقرون بالأعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقًا، وهل التشاجر إلّا فيه.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدل مِن ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾[1] أو بيان، وقد مرّ أنّ عَدْنًا عَلمٌ لمعنى الإقامة، أو لأرض الجنّة، فقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حال مِن "الجنات"، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَهُمُ﴾، والعامل معنى الاستقرار أو الإشارة.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما أتيحَ لهم مِن الفوز بما ذُكر مِن الدرجات العُلى، ومعنى البُعد لِما مرّ مِن التفخيم. ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهّر مِن دنَس الكُفر والمعاصي بما ذُكر مِن الإيمان والأعمال الصالحة، وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى. وتقديم ذِكر حال المجرم للمسارعة إلى بيان أشدّيّة عذابه ودوامه ردًّا على ما ادّعاه فرعونُ بقوله: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾.[2] هذا وقد قيل: هذه الآيات الثلاث ابتداءُ كلامٍ مِن الله عزّ وجلّ.[3] قالوا: ليس في القرآن أنّ فرعونَ فعَل بأولئك المؤمنين ما أوعَدهم به، ولم يثبُت في الأخبار.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ حكاية إجماليّة لِما انتهى إليه أمر فرعونَ وقومه، وقد طُوي في البين ذِكرُ ما جرى عليهم مِن الآيات المفصَّلات الظاهرة على يد موسى عليه السلام بعد ما غلَب السَّحرةَ في نحو مِن عشرين سنةً، حسبما فُصّل في سورة الأعراف.[4] وتصديرها بالقسَم لإبراز كمال العناية بمضمونها.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] طه، ٢٠/٧١.

[3] وفي هامش م: كذا في اللباب. | انظر: اللباب لابن عادل، ١٣/٣٢٦. وأصله في الكشّاف للزمخشري، ٣/٥٨.

[4] في الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة منها.

و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ إمّا مفسِّرة، لأنّ "الوحي" فيه معنى "القول"، أو مصدريّة حُذف عنها الجارّ. والتعبير عنهم بعنوان كونهم عِبادًا له تعالى لإظهار المَرحَمة والاعتناء بأمرهم والتنبيهِ على غاية قُبح صنيع فرعونَ بهم حيث استعبدهم وهم عِباده عزّ وجلّ، وفعَل بهم مِن فنون الظلم ما فعَل، أي: وبالله لقد أوحينا إليه عليه السلام أن أسرِ بعبادي الذين أرسلتُك لإنقاذهم مِن مَلَكة فرعونَ، أي: سِرْ بهم مِن مصرَ ليلًا.

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ﴾ أي: فاجعَل أو فاتّخِذ لهم ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: يابسًا على أنّه مصدر وُصف به الفاعل مبالغةً. وقُرئ: "يَبْسًا"[١] / وهو إمّا مخفَّف منه، [٥٦ظ]
أو وصف كـ"صَعْب"، أو جَمْعُ "يابس" كـ"صَحْب"، وُصف به الواحد للمبالغة أو لتعدّده حسبَ تعدّد الأسباط.

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ حال مِن المأمور، أي: آمِنًا مِن أن يُدرككم العدوُّ، أو صفةٌ أخرى لـ﴿طَرِيقًا﴾ والعائدُ محذوفٌ. وقُرئ: "لَا تَخَفْ"[٢] جوابًا للأمر.

﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ داخل في حكمه، أي: ولا تخشى الغرق، وعلى قراءة الجزم استئناف، أي: وأنت لا تخشى، أو عطفٌ عليه و"الألف" للإطلاق كما في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب، ١٠/٣٣]. وتقديمُ نفي الخوف المذكور للمسارعة إلى إزاحة ما كانوا عليه مِن الخوف العظيم حيث قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء، ٦١/٢٦].

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي: تبعهم ومعه جنوده حتّى لحِقوهم، يقال: أتْبعتُهم، أي: تبِعتُهم، وذلك إذا كانوا سبقوك فلحِقتَهم، ويؤيِّده أنّه قُرئ: "فَاتَّبَعَهُمْ"[٣]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١.

٢ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة وهارون وعُبيد والأصمعي عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٠٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٣٦.

مِن الافتعال. وقيل: المعنى أتبَعَهم فرعونُ نفسَه، فحُذف المفعول الثاني. وقيل: "الباء" زائدة، والمعنى فأتبَعهم فرعونُ جنوده، أي: ساقهم خلفهم.[١] وأيًّا ما كان فـ"الفاء" فصيحة مُعرِبة عن مُضمَر قد طُوي ذِكرُه ثقةً بغاية ظهوره وإيذانًا بكمال مسارعة موسى عليه السلام إلى الامتثال بالأمر، أي: ففعَل ما أُمر به مِن الإسراء بهم وضَرْب الطريق وسلوكه، فأتْبَعهم فرعونُ بجنودِه برًّا وبحرًا.

رُوي أنّ موسى عليه السلام خرج بهم أوّلَ الليل وكانوا ستّمائة وسبعين ألفًا، فأُخبر فرعونُ بذلك فأَتبَعهم بعساكره، وكانت مقدِّمته سبعمائة ألفٍ فقصّ أثرهم فلحِقهم بحيث تراءى الجمعان، فعند ذلك ضرَب عليهِ السلام بعصاه البحر فانفلق على اثني عشر فِرقًا كلُّ فِرق كالطَّود العظيم، فعبَر موسى عليه السلام بمَن معه مِن الأسباط سالمين وتبِعهم فرعونُ بجنوده.[٢]

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي: علاهم منه وغمَرهم ما غمَرهم مِن الأمر الهائل الذي لا يقادَر قَدْره ولا يُبلغ كُنهه. وقيل: غشِيهم ما سمعتَ قِصّته.[٣] وليس بذاك؛ فإنّ مدار التهويل والتفخيم خروجُه عن حدود الفَهْم والوَصْف / لا سماعُ قِصّته. وقُرئ: "فَغَشَّاهُمْ مِنَ اليَمِّ مَا غَشَّاهُمْ"،[٤] أي: غطّاهم ما غطّاهم، والفاعلُ هو الله عزّ وعلا أو "ما غشّاهم". وقيل: فرعونُ؛ لأنّه الذي ورّطهم للهَلَكة.[٥] ويأباه الإظهارُ في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ أي: سلَك بهم مَسلَكًا أدّاهم إلى الخَيبة والخُسران في الدِّين والدنيا معًا، حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوي المتَّصل بالعذاب الخالد الأخروي. [٥٧و]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: ما أرشدهم قطُّ إلى طريق مُوصِل إلى مَطلَب مِن المطالب الدينيّة والدنيويّة، تقريرٌ لإضلاله وتأكيدٌ له، إذ رُبّ مُضِلّ قد يُرشِد مَن يُضِلّه إلى بعض مطالبه. وفيه نوعُ تهكُّم به في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.
٢ بعضه في معالم التنزيل للبغوي، ١١٤/٦ (الأعراف، ٥٤/٧).
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩/٣.

﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر، ٢٩/٤٠]، فإنّ نفي الهِداية مِن شخص مُشعِرٌ بكونه ممّن يُتصوّر منه الهِداية في الجملة، وذلك إنّما يُتصوّر في حقِّه بطريق التهكّم.

وحملُ الإضلال والهداية على ما يختصّ بالديني منهما،[١] يأباه مقام بيان سَوقه بجنوده إلى مَساق الهلاك الدنيوي. وجعلُهما عبارةً عن الإضلال في البحر والإنجاء منه،[٢] ممّا لا يقبله العقل السليم.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠﴾

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ حكاية لِما خاطَبهم الله تعالى بعد إغراق فرعونَ وقومه وإنجائهم منهم، لكن لا عَقيب ذلك؛ بل بعد ما أفاض عليهم مِن فنون النِّعم الدينيّة والدنيويّة ما أفاض. وقيل: هو إنشاءُ خطاب للذين كانوا منهم في عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، على معنى أنّه تعالى قد منَّ عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبَعًا.[٣] ويردُّه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ الآية،[٤] ضرورةَ استحالة حَمْله على الإنشاء، فالوجهُ هو الحكاية بتقدير: "قلنا" عطفًا على ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾،[٥] أي: وقلنا: يا بني إسرائيل.

﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعونَ وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوءَ العذاب / يذبّحون أبناءَكم ويستحيون نساءَكم. وقُرئ: "نَجَّيْنَاكُمْ"[٦] و"نَجَّيْتُكُمْ".[٧] [٥٧ظ]

﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ بالنصب على أنّه صفة للمضاف. وقُرئ بالجرّ للجوار،[٨] أي: واعدناكم بواسطة نبيّكم إتيانَ جانبِه الأيمنِ نظرًا إلى السالك

---

[١] وهو أحد وجهين في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

[٢] وهو ثاني وجهين في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩/٣، وقال بعد إيراده: «والوجه هو الأوّل»، ولم يذكر سببًا لترجيحه.

[٤] طه، ٨٣/٢٠.

[٥] طه، ٧٧/٢٠.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠.

مِن مصرَ إلى الشام، أي: إتيانَ موسى عليه السلام للمناجاة وإنزالَ التوراة عليه. ونُسبت المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظرًا إلى ملابستها إيّاهم وسِراية منفعتها إليهم وإيفاءً لمقام الامتنان حقَّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف، ١١/٧]، حيث نُسب الخَلْق والتصوير إلى المخاطَبين مع أنّ المخلوق المصوَّر بالذات هو آدمُ عليه السلام. وقُرئ: "وَاعَدْتُكُمْ"[١] و"وَعَدْنَاكُمْ".[٢]

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أي: التَّرَنْجَبين والسُّمَانى،[٣] حيث كان ينزِل عليهم المنّ وهم في التِّيه مثلَ الثلج مِن الفجر إلى الطلوع لكلّ إنسان صاع، ويبعث الجنوبُ عليهم السُّمَانى فيَذبح الرجل منه ما يكفيه، كما مرّ مرارًا.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾

﴿كُلُواْ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان إباحة ما ذُكر لهم وإتمامًا للنعمة عليهم. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: مِن لذائذه أو حلالاته، وقُرئ: "رَزَقْتُكُمْ".[٤] وفي البدء بنعمة الإنجاء ثمَّ بالنعمة الدينيّة ثمّ بالنعمة الدُّنيويّة مِن حُسن النظم ولطفِ الترتيب ما لا يخفى.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي: فيما رزقناكم بالإخلال بشُكره والتعدّي لِما حُدّ لكم فيه كالسَّرَف والبَطَر والمنع مِن المستحِقّ. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ جواب للنهي، أي: فيلزَمكم عقوبتي وتجبَ لكم، مِن "حلّ الدَّينُ" إذا وجب أداؤه. ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: تردّى وهلَك. وقيل: وقَع في الهاوية.[٥] وقُرئ: "فَيَحُلَّ"[٦] بضمّ الحاء مِن "حَلّ يَحُلّ" إذا نزَل.

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[٢] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢١٢/٢.

[٣] وفي هامش م: السُّمَانى كـ"حُبارى": طائر، للواحد والجمع. «منه».

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

[٥] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

[٦] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٢١/٢.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ مِن الشِّرك والمعاصي التي مِن جملتها الطغيان فيما ذُكر. ﴿وَءَامَنَ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: / عملًا صالحًا [٥٨و] مستقيمًا عند الشرع والعقل. وفيه ترغيب لمَن وقع منه الطَغيان فيما ذُكر وحثٌّ على التوبة والإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: استقام على الهدىٰ، إشارةٌ إلى أنّ مَن لم يستمرَّ عليه بمَعزِل مِن الغفران. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرُّتبي.

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ حكاية لِما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام مِن الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجَب المواعدة المذكورة، أي: قلنا له: أيُّ شيء أعجلك منفردًا عن قومكَ؟ وهذا كما ترى سؤال عن سبب تقدُّمه على النقباء مَسوقٌ لإنكار انفراده عنهم، لِما في ذلك بحسب الظاهر مِن مخائل إغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأمورًا باستصحابهم وإحضارهم معه، لا لإنكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه السلام لكونها نقيصة مُنافية للحزم اللائق بأولي العزم.

ولذلك أجاب عليه السلام بنفي الانفراد المنافي للاستصحاب والمعيّة حيث قال: ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ يعني أنّهم معي، وإنّما سبقتُهم بخُطًا يسيرة ظننتُ أنّها لا تُخِلّ بالمعيّة ولا تقدح في الاستصحاب، فإنّ ذلك ممّا لا يُعتدّ به فيما بين الرفقة أصلًا.

وبعد ما ذَكَر عليه السلام أنّ تقدُّمه ذلك ليس لأمر منكَر ذَكَر أنّه لأمر مَرضي حيث قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ عنّي بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك واعتنائي بالوفاء بعهدك. وزيادة ﴿رَبِّ﴾ لمزيد الضراعة والابتهال رغبة في قَبول العُذر.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية اعتذاره عليه السلام، وهو السرّ في وروده على صيغة الغائب، لا أنّه التفات مِن التكلّم إلى الغَيبة لِما[١] أنّ المقدّر فيما سبق مِن الموضعين على صيغة التكلّم،[٢] كأنّه قيل مِن جهة السامعين: فماذا قال له ربّه حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ أي: ابتليناهم بعبادة العِجل مِن بعد / ذهابك مِن بينهم. وهم الذين خلّفهم مع هارونَ عليه [٥٨ظ] السلام، وكانوا ستّمائةِ ألفٍ، ما نجا منهم مِن عبادة العِجل إلّا اثنا عشرَ ألفًا.[٣]

و"الفاء" لترتيب الإخبار بما ذُكر مِن الابتلاء على إخبار موسى عليه السلام بعجَلته، لكن لا لأنّ الإخبار بها سبب موجِب للإخبار به؛ بل لِما بينهما مِن المناسبة المصحِّحة للانتقال مِن أحدهما إلى الآخر مِن حيث إنّ مَدار الابتلاء المذكور عجَلة القوم، فإنّه رُوي أنّهم أقاموا على ما وصّى به موسى عليه السلام عشرين ليلةً بعد ذهابه فحسَبوها مع أيّامها أربعين، وقالوا: قد أكملنا العِدَة وليس مِن موسى عليه السلام عين ولا أثر.[٤]

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ حيث كان هو المدبّر في الفتنة فقال لهم: إنّما أخلَف موسى عليه السلام مِيعادكم لِما معكم مِن حُليّ القوم وهو حرام عليكم، فكان مِن أمر العجل ما كان. فإخبارُه تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه السلام إمّا باعتبار تحقّقها في عِلمه تعالى ومشيئته، وإمّا بطريق التعبير عن المتوقَّع بالواقع كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧] ونظائره، أو لأنّ السامري كان قد عزَم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السلام، وتصدّى لترتيب مباديها وتمهيدِ مبانيها[٥] فكانت الفتنة واقعةً عند الإخبار بها. وقُرئ: "وَأَضَلُّهُمُ السَّامِرِيُّ"[٦] على صيغة التفضيل، أي: أشدُّهم ضلالًا لأنّه ضالّ ومُضِلّ.

---

١ وفي هامش م: تعليل للالتفات.

٢ ما وقفت عليه فيما بين يديّ من المظانّ.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٦١/٣.

٤ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٩/٢.

٥ وفي هامش م: حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةً مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾. «منه».

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أحمد بن أبي معاذ، والرُّهاوي عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٠؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٣٩.

والسامري منسوب إلى قبيلة مِن بني إسرائيلَ يقال لها السامرة.[١] وقيل: كان عِلْجًا مِن كَرْمان. وقيل: مِن أهل باجرما.[٢] واسمُه موسى بن ظفر، وكان منافقًا قد أظهر الإسلام، وكان مِن قوم يعبدون البقر.[٣]

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عند رجوعه المعهود، أي: بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة، لا عَقيبَ الإخبار بالفتنة، / فسببيّةُ ما قبل "الفاء" لِما بعدها إنّما [٥٩و] هي باعتبار قيد الرجوع المستفاد مِن قوله تعالى: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، لا باعتبار نفسه وإن كانت داخلةً عليه حقيقة، فإنّ كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقرَّر مشهور لا يذهب الوهمُ إلى كونه عند الإخبار بالفتنة، كما إذا قلتَ: "شايعتُ الحُجّاجَ ودعوتُ لهم بالسلامة فرجعوا سالمين"، فإنّ أحدًا لا يرتاب في أنّ المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعُهم إثرَ الدعاء وأنّ سببيّة الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفس الرجوع. و"الأسِف": الشديد الغضب. وقيل: الحزين.[٤]

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ناشئ مِن حكاية رجوعه كذلك، كأنّه قيل: فماذا فعَل بهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ بأن يُعطيَكم التوراة فيها ما فيها مِن النور والهدى. و"الهمزة" لإنكار عدم الوعد ونفيه[٥] وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكَده، أي: وعَدكم بحيث لا سبيلَ لكم إلى إنكاره.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ -أي: الزمان- للعطف على مقدَّر، و"الهمزة" لإنكار المعطوف ونفيِه فقط، أي: أوعَدكم ذلك، فطال زمان الإنجاز فأخطأتُم بسببه. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ﴾ أي: يجبَ ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ شديد لا يقادَر قَدْره كائن ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: مِن مالك أمركم على الإطلاق.

---

[١] السامرة: هي قرية بين مكّة والمدينة. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٧٨/٣.

[٢] باجَرْما: قرية مِن أعمال البَليخ، قرب الرقّة مِن أرض الجزيرة. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣١٣/١.

[٣] هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٦١/٣.

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٦١/٣.

[٥] وفي هامش م: أي: نفي عدم الوعد. «منه».

﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ أي: وعْدَكم إيّاي: بالثبات على ما أمرتُكم به إلى أن أرجِع مِن المِيقات على إضافة المصدر إلى مفعوله للقصد إلى زيادة تقبيح حالهم، فإنّ إخلافهم الوعد الجاريَ فيما بينَهم وبينه عليه السلام مِن حيث إضافته إليه عليه السلام أشنعُ منه مِن حيث إضافته إليهم.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على كلّ واحد مِن شِقَّي الترديد على سبيل البدل، كأنّه قيل: أنسيتُم الوعد بطول العهد فأخلفتُموه خطأً أم أردتم حلولَ الغضب عليكم فأخلفتموه عَمْدًا؟ وأمّا جَعْل الموعد مضافًا إلى فاعله / وحَمْل إخلافه على معنى وجدان الخُلف فيه، أي: فوجدتُم الخُلف في موعدي لكم بالعَود بعد الأربعين، فممّا لا يساعده السِّباق ولا السِّياق أصلًا.[1] [٥٩ظ]

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧﴾

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ﴾ أي: وعدَنا إيّاك الثباتَ على ما أمرتَنا به. وإيثارُه على أن يقال: "موعدَنا" على إضافة المصدرِ إلى فاعله لِما مرّ آنفًا. ﴿بِمَلۡكِنَا﴾ أي: بأن ملَكنا أمورنا، يعنون أنّا لو خُلّينا وأمورنا ولم يسوّل لنا السامري ما سوّله مع مساعدة بعض الأحوال لَما أخلفناه. وقُرئ: "بِملْكِنَا" بكسر الميم[2] وضمِّها،[3] والكلُّ لغات في مصدر "ملَكتُ الشيء".

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ استدراك عمّا سبق واعتذار عمّا فعلوا ببيان منشأ الخطأ. وقُرئ: "حَمَلْنَا"[4] بالتخفيف، أي: حمَلْنا أحمالًا مِن حُليّ القِبط التي استعرناها منهم حين همَمنا بالخروج مِن مصرَ باسم العُرس. وقيل: كانوا استعاروها لعيد كان لهم، ثمّ لم يردّوها إليهم عند الخروج مخافةَ أن يقفوا على أمرهم. وقيل: هي ما ألقاه البحر على الساحل بعد إغراقهم

---

١ القول وردّه بمعناه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٠/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

فأخذوها.[١] ولعلّ تسميتَهم لها أوزارًا لأنّها تبعات وآثام حيث لم تكن الغنائم تحِلّ حينئذ.

﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: في النار رجاءً للخلاص عن ذنبها. ﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلَ ذلك القذف ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: ما كان معه منها وقد كان أراهم أنّه أيضًا يُلقي ما كان معه مِن الحُليّ فقالوا ما قالوا على زَعْمهم، وإنّما كان الذي ألقاه التربةَ التي أخدها مِن أثر الرسول كما سيأتي. رُوي أنّه قال لهم: إنّما تأخّر موسى عنكم لِما معكم مِن الأوزار، فالرأي أن نحفِر حَفيرةً ونسجِّر فيها نارًا ونقذفَ فيها كلَّ ما معنا ففعلوا.[٢]

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي: السامري ﴿لَهُمْ﴾ للقائلين ﴿عِجْلًا﴾ / مِن تلك الحُليّ المُذابة. [٦٠و]
وتأخيره مع كونه مفعولًا صريحًا عن الجارّ والمجرور لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخر مع ما فيه مِن نوع طول يُخِلّ تقديمُه بتجاوب أطراف النظم الكريم، فإنّ قوله تعالى: ﴿جَسَدًا﴾ أي: جُثّةً ذا دم ولحم، أو جسدًا مِن ذهَب لا روحَ له، بدلٌ منه. وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: صوتُ عِجل، نعتٌ له.

﴿فَقَالُوا۟﴾ أي: السامريُّ ومَن افتُتن[٣] به أوّل ما رآه ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي: غفَل عنه وذهب يطلُبه في الطُّور، وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامري فعلًا وقولًا مِن جهته تعالى قصدًا إلى زيادة تقريرها، ثمّ ترتيبِ الإنكار عليها لا مِن جهة القائلين، وإلّا لقيل: "فأخرَج لنا".

والحملُ على أنّ عُدولهم إلى ضمير الغَيبة لبيان أنّ الإخراج والقول المذكورَين للكلّ لا للعَبَدة فقط،[٤] خلافُ الظاهر مع أنّه مُخِلّ باعتذارهم، فإنّ مخالفة بعضهم للسامري وعدمَ افتتانهم بتسويله مع كون الإخراج والخطابِ لهم ممّا يهوّن مخالفته للمعتذِرين، فافتتانُهم بعد ذلك أعظم جنايةً وأكثر شناعةً.

---

[١] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠١/٢.
[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠١/٢.
[٣] وفي هامش م: لازم ومتعدّ. «منه».
[٤] ما وقفت عليه فيما بين يديّ من المظانّ.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعتذرين هم الذين لم يعبُدوا العجلَ وأنّ نسبة الإخلاف إلى أنفسهم وهم بُرآء منه مِن قبيل قولهم: "بنو فلان قتلوا فلانًا"، مع أنّ القاتل واحد منهم، كأنّهم قالوا: ما وُجِد الإخلاف فيما بيننا بأمر كنّا نملِكه؛ بل تمكّنت الشبهة في قلوب العَبَدة حيث فعل السامري ما فعَل، فأخرَج لهم ما أخرَج وقال ما قال فلم نقدِر على صرفهم عن ذلك ولم نُفارقهم مخافةَ ازدياد الفتنة؛[1] فيقضي بفساده سِباق النظم وسِياقه.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾... إلخ، إنكار وتقبيح مِن جهته تعالى لحال الضالّين والمُضلّين جميعًا وتسفيةٌ لهم فيما أقدَموا عليه مِن المنكَر الذي لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتّخاذه إلهًا. و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألا يتفكّرون فلا يعلمون ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: أنّه لا يرجِع إليهم كلامًا ولا يردّ عليهم جوابًا، فكيف يتوهّمون أنّه إله؟ وقُرِئ: "يَرْجِعَ"[2] بالنصب، قالوا: فالرؤية حينئذ بصَريّة، فإنّ "أن" الناصبةَ لا تقع بعد / أفعال اليقين، أي: ألا ينظرون [٦٠ظ]
فلا يُبصرون عدمَ رَجْعه إليهم قولًا مِن الأقوال. وتعليقُ الإبصار بما ذُكر مع كونه أمرًا عدميًّا للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيكِ عقولهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ عطفٌ على ﴿لا يَرْجِعُ﴾ داخل معه في حيّز الرؤية، أي: أفلا يرون أنّه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرًّا أو يجلُبَ لهم نفعًا، أو لا يقدر على أن يضرَّهم إن لم يعبدوه أو ينفعَهم إن عبدوه.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ جملة قسَميّة مؤكِّدة لِما قبلها مِن الإنكار

---

[1] هذا القول رجّحه الواحدي في التفسير البسيط، ١٤/٤٩١-٤٩٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وأبي البَرَهسم والزّعفراني وابن صُبيح وأبان والشافعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٤١.

والتشنيع ببيان عُتوّهم واستعصائهم على الرسول إثرَ بيانِ مكابرتهم لقضيّة العقول، أي: وبالله لقد نصح لهم هارونُ ونبّههم على كُنه الأمر مِن قبل رجوع موسى عليه السلام إليهم وخطابِه إيّاهم بما ذُكر مِن المقالات.

وقيل: مِن قبل قول السامري، كأنّه عليه السلام أوّل ما أبصره حين طلع مِن الحَفيرة توهّم منهم الافتتان به، فسارع إلى تحذيرهم وقال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: أُوقِعتم في الفتنة[1] بالعِجل.[2] أو أُضللتُم به على توجيه القصر المستفادِ مِن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذي يدّعيه القوم، لا إلى قَيده المذكور بالقياس إلى قيد آخرَ على معنى: إنّما فُعل بكم الفتنة لا الإرشادُ إلى الحقّ، لا على معنى: إنّما فُتنتم بالعِجل لا بغيره.[3]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بكسر ﴿إِنَّ﴾ عطفًا على ﴿إِنَّمَا﴾ إرشادٌ لهم إلى الحقّ إثرَ زَجْرهم عن الباطل. والتعرّض لعنوان الربوبيّة والرحمة للاعتناء باستمالتهم إلى الحقّ، كما أنّ التعرض لوَصْف العِجل[4] للاهتمام بالزجر عن الباطل، أي: إنّ ربّكم المستحقَّ للعبادة هو الرحمن لا غيرُ.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن مضمون الجملتين، أي: إذا كان الأمر كذلك فاتّبعوني في الثبات على الدِّين ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ هذا واترُكوا عبادة ما عرفتُم شأنه.

﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ۝٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣﴾

﴿قَالُواْ﴾ في جواب هارونَ عليه السلام ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ﴾ على العِجل وعبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ / إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ جعلوا رجوعَه عليه [٦١و]
السلام إليهم غايةً لعُكوفهم على عبادة العِجل، لكن لا على طريق الوعد بتَرْكها عند رجوعه عليه السلام؛ بل بطريق التعلّل والتسويف، وقد دسُّوا تحت ذلك أنّه عليه السلام لا يرجِع بشيء مُبين تعويلًا على مقالة السامري.

---

[1] وفي هامش م: يقال: فَتَنَه: أَوقعَه في الفتنة وأضلَّه.
[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣/٦٢-٦٣.
[3] وفي هامش م: والأوّل هو الأظهر. «منه».
[4] وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾. «منه».

رُوي أنّهم لمّا قالوه اعتزلهم هارونُ عليه السلام في اثني عشرَ ألفًا، وهم الذين لم يعبدوا العِجل، فلمّا رجع موسى عليه السلام وسمع الصياح وكانوا يرقُصون حول العِجل قال للسبعين الذين كانوا معه: "هذا صوت الفتنة"، فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا.[١]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية جوابهم لهارون عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا قال موسى لهارونَ حين سمع جوابهم له؟ وهل رضيَ بسكوته بعد ما شاهَد منهم ما شاهَد؟ فقيل: قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته ورأسه: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ بعبادة العِجل وبلغوا مِن المكابرة إلى أن شافهوك بتلك المقالة الشنعاء ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: أن تتبَعَني، على أنّ "لا" مَزيدة، وهو مفعول ثانٍ لـ﴿مَنَعَ﴾ وعامل في ﴿إِذْ﴾، أي: أيّ شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم مِن أن تتّبعني في الغضب لله تعالى والمقاتَلة مع مَن كفر به؟

وقيل: المعنى ما حمَلك على ألّا تتَّبعني؟ فإنّ المنع عن الشيء مستلزِم للحَمْل على مقابله. وقيل: ما منعك أن تلحقَني وتُخبرَني بضلالهم فتكونَ مُفارقتُك مَزجَرة لهم؟[٢]

وفيه أنّ نصائحَ هارونَ عليه السلام حيث لم يزجرهم عمّا كانوا عليه فلَأَن لا يزجُرَهم مفارقته إيّاهم عنه أَوْلى. والاعتذار بأنّهم إذا علِموا أنّه يلحقه ويُخبره عليهما السلام بالقصّة يخافون رجوع موسى عليه السلام فينزجرون عن ذلك،[٣] بمَعزِل مِن حيّز القَبول، كيف لا، وهم قد صرّحوا بأنّهم عاكفون عليه إلى حين رجوعه عليه السلام.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أي: بالصلابة في الدِّين والمُحاماة عليه، فإنّ قوله له عليهما السلام: اخلُفني متضمّن للأمر بهما حتمًا، فإنّ الخلافةَ لا تتحقّق إلّا بمباشرة الخليفة ما كان / يباشره المستخلِف لو كان حاضرًا. و"الهمزة" [٦٦١ظ]

---

[١] الكلام بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٩٠-٢٩١.

[٢] القولان في اللباب لابن عادل، ١٣/٣٦٢-٣٦٣.

[٣] ما وقفت عليه فيما بين يديّ من المظانّ.

للإنكار التوبيخي، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: ألم تتَّبعني؟ أو أخالفتني فعصيت أمري؟

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ خصّ الأمّ بالإضافة استعطامًا لحقّها وترقيقًا لقلبه، لا لِما قيل مِن أنّه كان أخاه لأمّ، فإنّ الجمهور على أنّهما كانا شقيقين.[1] ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ أي: بشعر رأسي. رُوي أنّه عليه السلام أخَذ شَعر رأسه بيمينه ولحيتَه بشماله مِن شدّة غيظه وفَرْط غضبه لله تعالى، وكان عليه السلام حديدًا متصلِّبًا في كلّ شيء فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العِجل ففعل ما فعل.[2]

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾... إلخ، استئناف سِيق لتعليل موجَب النهي ببيان الداعي إلى تَرْك المقاتلة وتحقيق أنّه غير عاصٍ لأمره؛ بل ممتثل به، أي: إنّي خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانَوا وتفرّقوا ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ برأيك مع كونهم أبناءَ واحد، كما ينبئ عنه ذِكرهم بذلك العنوان دون القوم ونحوه، وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال مِن التفريق الذي لا يُرجى بعده الاجتماع.

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ يريد به قوله عليه السلام: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾... إلخ [الأعراف، ٧/١٤٢]، يعني إنّي رأيت أنّ الإصلاح في حفظ الدَّهْماء والمُداراة معهم إلى أن ترجِع إليهم، فلذلك استأنيتُك لتكون أنت المتدارِكَ للأمر حسبما رأيت، لاسيّما وقد كانوا في غاية القوّة ونحن على القِلّة والضّعف، كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف، ٧/١٥٠].

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف وقع جوابًا عمّا نشأ مِن حكاية ما سلَف مِن اعتذار القوم بإسناد الفساد إلى السامري واعتذارِ هارونَ عليه السلام، كأنّه قيل: فماذا صنع

---

[1] القول مع ذِكر رأي الجهور مذكوران في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٢.

[2] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣/٦٣.

موسى عليه السلام بعد سماع ما حُكي مِن الاعتذارَين واستقرارِ أصل الفتنة على السامري؟ فقيل: قال موبّخًا له: هذا شأنهم، ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي: ما شأنك وما مطلوبك ممّا فعلت؟ خاطَبه عليه السلام بذلك ليُظهر للناس بُطلان كَيده / باعترافه ويفعل به وبما صنعه مِن العقاب ما يكون نكالًا للمفتونين به ولمَن خلفهم مِن الأمم. [٦٢و]

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ أي: السامري مجيبًا له عليه السلام: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ بضمّ "الصاد" فيهما، وقُرئ بكسرها في الأوّل وفتحها في الثاني،[١] وقُرئ بالتاء على الوجهين على خطاب موسى عليه السلام وقومه،[٢] أي: علمتُ ما لم يعلَمه القوم وفطِنت لِما لم يفطَنوا له، أو رأيتُ ما لم يرَوه، وهو الأنسب بما سيأتي مِن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ لاسيّما على القراءة بالخطاب، فإنّ ادّعاء عِلم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جرأة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه، بخلاف ادّعاء رؤية ما لم يرَه عليه السلام، فإنّها ممّا يقع بحسَب ما يتّفق.

وقد كان رأى أنّ جبريل عليه السلام جاء راكبَ فرسٍ وكان كلّما رفَع الفرس يديه أو رجليه على الطريق اليَبَس يخرج مِن تحته النبات في الحال، فعرَف أنّ له شأنًا فأخذ مِن موطئه حفنة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾. وقُرئ: "مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ"،[٣] أي: مِن تربة مَوطئِ فرسِ المَلَك الذي أُرسلَ إليك ليذهبَ بك إلى الطُّور.

ولعلّ ذِكرَه بعنوانِ الرسالة للإشعار بوقوفه على ما لم يقِف عليه القوم مِن الأسرار الإلهيّة تأكيدًا لِما صدّر به مقالته والتنبيهِ على وقت أَخذ ما أَخَذه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وأبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢.

و"القبضة" المرّة مِن القَبْض، أُطلقت على المقبوض مرّةً. وقُرئ بضمّ "القاف"،[١] وهو اسمُ المقبوض كـ"الغُرفة" و"المُضغة"، وقُرئ: "فَقَبَصْتُ قَبْصَةً"[٢] بـ"الصاد" المهملة. والأوّل للأَخْذ بجميع الكفّ والثاني بأطراف الأصابع، ونحوُهما "الخَضْم" و"القَضْم".

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: في الحُليّ المُذابة فكان ما كان ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: ما فعلتُه مِن القبض والنَّبْذ. فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعده، ومحلُّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في الأصل النصب على أنّه مصدر تشبيهي، أي: نَعْت لمصدر محذوف، والتقديرُ: سولّت لي نفسي تسويلًا كائنًا مثلَ ذلك التسويل، / فقُدِّم على الفعل لإفادة القَصْر، واعتُبرت "الكاف" مقحَمة لإفادة تأكيد [٦٢ظ] ما أفاده اسم الإشارة مِن الفخامة فصار نفسَ المصدر المؤكَّد لا نعتًا له، أي: ذلك التزيين البديع زيَّنت لي نفسي ما فعلتُه، لا تزيينًا أدنى منه ولذلك فعلتُه.

وحاصلُ جوابه أنّ ما فعله إنّما صدر عنه بمَحض اتّباع هوى النفس الأمّارة بالسوء وإغوائها، لا بشيء آخرَ مِن البرهان العقلي أو الإلهام الإلهي، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ عليه السلام ﴿فَٱذْهَبْ﴾ أي: مِن بين الناس.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ﴾... إلخ، تعليل لموجَب الأمر، و﴿فِي﴾ متعلِّقة بالاستقرار في ﴿لَكَ﴾، أي: ثابت لك في الحياة، أو بمحذوف وقع حالًا مِن "الكاف"، والعاملُ معنى الاستقرار في الظرف المذكور لاعتماده على ما هو مبتدأ معنى لا بقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لِمَكان ﴿أَن﴾، أي: ثابت لك كائنًا في الحياة، أي: مدّة حياتك أن تُفارقهم مفارقة كلّيّة، لكن لا بحسب الاختيار بموجَب التكليف؛ بل بحسب الاضطرار المُلجئ إليها.

وذلك أنّه تعالى رماه بداء عُقام لا يكاد يمَسّ أحدًا أو يمَسّه أحدٌ كائنًا مَن كان إلّا حُمّى مِن ساعته حُمًّى شديدةً، فتحامى الناسَ وتحامَوه، وكان يصيح

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة ونصر بن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ وابن الزُّبير وقتادة والحسن وحُميد ونصر بن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١١-٣١٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٤٢.

بأقصى طَوقه: "لا مِساسَ" وحُرِّم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرُها ممّا يُعتاد جرَيانه فيما بين الناسِ مِن المعاملات، وصار بين الناس أوحَش مِن القاتل اللاجئ إلى الحَرم ومِن الوحش النافِر في البرّيّة. ويقال: إنّ قومه باقٍ فيهم تلك الحالة إلى اليوم.[١] وقُرئ: "لا مَسَاسِ"[٢] كـ"فَجارِ" وهو عَلَم للمسّة.

ولعلّ السرّ في مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصّة ما بينهما مِن مناسبة التضادّ، فإنّه لمّا أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببًا لحياة المَوات عُوقب بما يُضادّه حيث جُعلت ملابسته سببًا للحمّى التي هي مِن / أسباب موت الأحياء. [٦٣و]

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: في الآخرة ﴿لَن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لن يُخلفك الله ذلك الوعدَ؛ بل ينجِزه لك البتّةَ بعد ما عاقبك في الدنيا. وقُرئ بكسر "اللام"،[٣] والأظهر أنّه مِن "أخلفتُ الموعدَ"، أي: وجدتُه خُلفًا. وقُرئ بـ"النون"[٤] على حكاية قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: ظلِلْتَ مقيمًا على عبادته، فحُذفت "اللام" الأولى تخفيفًا. وقُرئ بكسر "الظاء"[٥] بنَقْل حركة "اللام" إليها.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ جوابُ قسَم محذوفٍ أي: بالنار، ويؤيّده قراءةُ "لَنُحْرِقَنَّهُ"[٦] مِن الإحراق، وقيل: بالمِبْرَد على أنّه مبالغة في "حَرق" إذا بَرَد بالمِبرَد، ويعضده قراءة "لَنَحْرِقَنَّهُ".[٧]

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي: لنُذْرِينّه، وقُرئ بضمّ "السين".[٨] ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ رمادًا أو مبرودًا كأنّه هباء ﴿نَسْفًا﴾ بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر. ولقد فعَل عليه السلام

---

١ الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٦٤/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني، والضرير وابن مسلم والوليد وابن عطيّة كلّهم عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٤٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وقتادة وابن أبي عبلة والأعمش وأبي حَيْوَة وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٤٤.

٦ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٣.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٣.

ذلك كلّه حينئذ، كما يشهد به الأمر بالنظر، وإنّما لم يصرَّح به تنبيهًا على كمال ظهوره واستحالة الخُلْف في وعده المؤكّد باليمين.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ استئناف مَسوق لتحقيق الحقّ إثرَ إبطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكلّ، أي: إنّما معبودكم المستحقّ للعبادة الله ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود لشيء مِن الأشياء ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه مِن غير أن يشاركه شيء مِن الأشياء بوجه مِن الوجوه التي مِن جملتها أحكامُ الألوهيّة. وقُرئ: "اللهُ لَا إِلَهَ إِلَا هُوَ الرَّحْمَنُ رَبُّ العَرْشِ".[١]

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: "وسِع علمه كلّ ما مِن شأنه أن يُعلَم" بدلٌ مِن الصلة، كأنّه قيل: إنّما إلهكم الذي وسِع كلّ شيء عِلمًا لا غيره كائنًا ما كان، فيدخل فيه العِجل دخولًا أوّليًّا. وقُرئ: "وَسَّعَ"[٢] بالتشديد، فيكون انتصابُ ﴿عِلْمًا﴾ على المفعوليّة؛ لأنّه على القراءة الأولى فاعل حقيقةً، وبنَقْل / الفعل إلى التعدية إلى المفعولين صار الفاعل مفعولًا أوّلَ، كأنّه قيل: وسّع عِلمَه كلَّ شيء، وبه تمّ حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير أمر التوحيد حسبما نطقت به خاتمته. [٦٣ظ]

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ كلام مستأنَف خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثال ما مرّ مِن أنباء الأمم السالفة، وذلك إشارة إلى اقتصاص حديث موسى عليه السلام، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رتبتِه وبُعدِ منزلته في الفضل. ومحلُّ الكاف النصبُ على أنّه نعت لمصدر مقدَّر، أي: نقصّ عليك ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ مِن الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصًّا مثلَ ذلك القَصّ المارّ. والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وقتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٩٢؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٤٥.

و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ في حيّز النصب إمّا على أنّه مفعول ﴿نَقُصُّ﴾ باعتبار مضمونه، وإمّا على أنّه متعلّق بمحذوف هو صفة للمفعول كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن، ١١/٧٢]، أي: جَمْعٌ دون ذلك، والمعنى نقصّ عليك بعضَ أنباء ما قد سبَق، أو بعضًا كائنًا مِن أنباء ما قد سبَق. وقد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾... إلخ [البقرة، ٨/٢].

وتأخيره مِن ﴿عَلَيْكَ﴾ لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، أي: مثلَ ذلك القصّ البديع الذي سمِعتَه نقصّ عليك ما ذُكر مِن الأنباء لا قصًّا ناقصًا منه تبصِرةً لك وتوفيرًا لعِلمك وتكثيرًا لمعجزاتك وتذكيرًا للمستبصرين مِن أمّتك.

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي: كتابًا منطويًا على هذه الأقاصيص والأخبار حقيقًا بالتفكّر والاعتبار. وكلمة ﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾، وتنكيرُ ﴿ذِكْرًا﴾ للتفخيم، وتأخيرُه عن الجارّ والمجرور لِما أنّ مرجِع الإفادة في الجملة كونُ المُؤتى مِن لدنه تعالى ذِكرًا عظيمًا وقرآنًا كريمًا / جامعًا لكلّ كمال، لا كونُ ذلك الذِّكر مُؤتى مِن لدنه عزّ وجلّ مع ما فيه مِن نوع طول بما بعده مِن الصفة. فتقديمُه يذهَب برَونق النظم الكريم. [٦٤و]

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن ذلك الذِّكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين. وقيل: عن الله عزّ وجلّ.[١] و﴿مَنْ﴾ إمّا شرطيّة أو موصولة، وأيًّا ما كانت فالجملة صفة لـ﴿ذِكْرًا﴾.[٢] ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي: المُعرِض عنه ﴿يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ أي: عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائرِ ذنوبه. وتسميتُها وِزرًا إمّا لتشبيهها في ثِقلها على المعاقَب وصعوبةِ احتمالها بالحِمل الذي يفدَح الحاملَ وينقُض ظهره، أو لأنّها جزاءُ الوِزْر وهو الإثم.[٣] والأوّلُ هو الأنسب بما سيأتي مِن تسميتها حِملًا.

---

[١] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٣/٢.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٦٥/٣.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في الوِزر أو في احتماله المستمرّ، حال مِن المستكِنّ في ﴿يَحْمِلُ﴾، والجمعُ بالنظر إلى معنى ﴿مَنْ﴾ لِما أنّ الخلود في النار ممّا يتحقّق حالَ اجتماع أهلها، كما أنّ الإفراد فيما سبق مِن الضمائر الثلاثة بالنظر إلى لفظها.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: بئس لهم، ففيه ضمير مبهَم يفسّره ﴿حِمْلًا﴾، والمخصوصُ بالذمّ محذوف، أي: ساء حِملًا وِزرهم. و"اللام" للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢]، كأنه لمّا قيل: ﴿سَآءَ﴾ قيل: لمَن يقال هذا؟ فأجيبَ: لهم. وإعادةُ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لزيادة التقرير وتهويل الأمر.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أو منصوب بإضمار "اذكُر"، أو ظرف لمضمر قد حُذف للإيذان بضيق العبارة عن حصره وبيانِه، حسبما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥] وقولِه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم، ٨٥/١٩]. وقُرئ: "نَنْفُخُ"[١] بالنون على إسناد النَّفْخ[٢] إلى الآمر به تعظيمًا له، وبـ"الياء" المفتوحة على أنّ ضميره لله عزّ وجلّ أو لإسرافيلَ عليه السلام، / وإن لم يجْرِ ذِكره لشُهرته. [٦٤ظ]

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يُنفَخ في الصُّور، وذِكرُه صريحًا مع تعيُّن أنّ الحَشْر لا يكون إلّا يومئذ للتهويل. وقُرئ: "وَيُحْشَرُ المُجْرِمُوْنَ".[٣] ﴿زُرْقًا﴾ أي: حالَ كونهم زُرْق العيون، وإنّما جُعلوا كذلك لأنّ الزُّرقة أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب، فإنّ الروم الذين كانوا أعدى عدوّهم زُرق، ولذلك قالوا في صفة العدو: "أسودُ الكبد" و"أصهبُ السِّبال"[٤] و"أزرقُ العين"، أو عُميًا لأنّ حدَقة الأعمى تزرقّ.

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٦٥/٣.

[٢] م: الفعل [صُحّح في هامش م].

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والصرصري، والمَلَطي عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٤٦.

[٤] السِّبال جمع سَبَلة، وهي: الشارب. لسان العرب لابن منظور، «سبل».

وقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: يخفِضون أصواتهم ويُخفونها لِما يملأ صدورهم مِن الرعب والهَول، استئناف ببيان ما يأتون وما يذرون حينئذ، أو حالٌ أخرى مِن ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، أي: يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا ﴿إِلَّا عَشۡرٗا﴾ أي: عشرَ ليال استقصارًا لمدّة لُبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدّة الآخرة لتأسُّفهم عليها لمّا عاينوا الشدائد وأيقنوا أنّهم استحقُّوها على إضاعتها في قضاء الأوطار واتّباع الشهوات، أو في القبر، وهو الأنسب بحالهم.

فإنّهم حين يشاهدون البعث الذي كانوا يُنكِرونه في الدنيا ويعُدّونه مِن قبيل المُحالات لا يتمالكون مِن أن يقولوا ذلك اعترافًا به وتحقيقًا لسرعة وقوعه، كأنّهم قالوا: قد بُعثتم وما لبثتم في القبر إلّا مدّة يسيرة، وإلّا فحالهم أفظعُ مِن أن تُمكّنهم مِن الاشتغال بتذكّر أيّام النعمة والسرور واستقصارها والتأسّف عليها.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مدّة لبثهم ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾ أي: أعدلهم رأيًا أو عملًا ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾. ونسبةُ هذا القولِ إلى أمثَلهم استرجاح منه تعالى له، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق؛ بل لكونه أدلَّ / على شدَّة الهَول. [٦٥و]

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥﴾

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ أي: عن مآل أمرها، وقد سأل عنه رجل مِن ثقيف. وقيل: مشركو مكّةَ على طريق الاستهزاء. ﴿فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا﴾ أي: يجعلها كالرمل ثمّ يُرسل عليها الرياح فتُفرِّقها. و"الفاء" للمسارعة إلى إلزام السائلين.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾

﴿فَيَذَرُهَا﴾ الضميرُ إمّا لـ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾[١] باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النَّسف، وهي مقارّها ومراكزها، أي: فيذَر ما انبسط منها وساوى سطحه

[١] في الآية السابقة.

سطوح سائر أجزاء الأرض بعد نَسْف ما نتأ منها ونشَز، وإمّا للأرض المدلول عليها بقرينة الحال لأنّها الباقية بعد نَسْف الجبال، وعلى التقديرين يذَر الكلّ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ لأنّ الجبال إذا سُوِّيت وجُعل سطحها مساويًا لسطوح سائر أجزاء الأرض فقد جُعل الكلّ سطحًا واحدًا.

و"القاع" قيل: السهل. وقيل: المنكشِف مِن الأرض. وقيل: المستوي الصُّلْب منها. وقيل: ما لا نباتَ فيه ولا بناءَ.[١] والصَّفْصف: الأرض المستوية المَلساء، كأنّ أجزاءه صفّ واحد مِن كلّ جهة، وانتصابُ ﴿قَاعًا﴾ على الحاليّة مِن الضمير المنصوب، أو هو مفعول ثانٍ لـ﴿يَذَرُ﴾ على تضمين معنى التصيير. و﴿صَفْصَفًا﴾ إمّا حال ثانية، أو بدل مِن المفعول الثاني.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا﴾ أي: في مقارّ الجبال أو في الأرض على ما مرّ مِن التفصيل ﴿عِوَجًا﴾ بكسر العين، أي: اعوجاجًا ما، كأنّه لغاية خفائه مِن قبيل ما في المعاني، أي: لا تدركه إن تأمّلتَ بالمقاييس الهندسيّة. ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ أي: نتُوءًا يسيرًا. استئنافٌ مبيّن لكيفيّة ما سبَق مِن القاع الصَّفْصَف، أو حالٌ أخرى أو صفة لـ﴿قَاعًا﴾. والخطاب لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤية. وتقديمُ الجارّ والمجرور على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، مع ما فيه مِن طول ربّما يُخلُّ تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ١٠٨﴾

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ نُسفت الجبال على إضافة "اليوم" إلى وقت النَّسْف، [٦٥ظ] / وهو ظرف لقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾. وقيل: بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾،[٢] وليس بذاك. أي: يتّبع الناس داعيَ الله عزّ وجلّ إلى المَحشَر وهو إسرافيلُ عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائمًا على صخرة بيت المقدس، ويقول: أيّتها العِظام النخِرة والأوصال المتفرِّقة واللحوم المتمزِّقة قومي

---

[١] هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٣٨٩/١٣.

[٢] طه، ١٠١/٢٠. والقول في الكشّاف للزمخشري، ٦٦/٣.

إلى عَرض الرحمن، فيُقبلون مِن كلّ أَوْب إلى صَوبه. ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ لا يُعوَجَ له مدعوّ ولا يعدِل عنه.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: خُفِضت لهيبته ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: صوتًا خفيًا، ومنه الهميس لصوت أخفاف الإبل، وقد فُسِّر الهَمْس بخَفْق أقدامهم ونَقْلها إلى المَحشَر.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ١٠٩﴾

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يقع ما ذُكر مِن الأمور الهائلة ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ مِن الشفعاء أحدًا ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أن يشفَع له ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي: ورضيَ لأجله قول الشافع في شأنه أو رضي قوله لأجله وفي شأنه، وأمّا مَن عداه فلا تكاد تنفعه وإن فُرض صدورها عن الشفعاء المتصدّين للشفاعة للناس، كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر، ٤٨/٧٤].

فالاستثناء كما ترى مِن أعمّ المفاعيل. وأمّا كونه استثناءً مِن الشفاعة على معنى لا تنفع الشفاعة إلّا شفاعة مَن أذِن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوّزوه،[1] فلا سبيلَ إليه لِما أنّ حُكم الشفاعة ممّن لم يؤذَن له ألّا[2] يملِكها ولا تصدُر هي عنه أصلًا،[3] كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم، ٨٧/١٩] وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء، ٢٨/٢١].

فالإخبارُ عنها بمجرَّد عدم نفعِها للمشفوع له ربّما يوهِم إمكان صدورها عمّن لم يؤذَن له مع إخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم، وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة، ٤٨/٢] فمعناه عدم الإذن في الشفاعة، لا عدمُ قَبولها بعد وقوعها.

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٥/٢.

٢ ط س: أن. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلِّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ وفي هامش م: وجعلُه من قبيل:

ولا ترى الضبّ بها ينجحِر

أي: لا ضبَّ ولا انجحارَ، تعسّفٌ بعيد. «منه». | والشعر لعمرو بن أحمرَ الباهلي. انظر تفصيل الكلام عليه في خزانة الأدب للبغدادي، ١٩٢/١٠.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: ما تقدّمهم مِن الأحوال. وقيل: مِن أمر الدنيا.[١]

[٦٦و] ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ وما بعدهم ممّا يستقبلونه. / وقيل: مِن أمر الآخرة.[٢]

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ أي: لا تُحيط علومهم بمعلوماته تعالى. وقيل: بذاته، أي: مِن حيث اتّصافُه بصفات الكمال التي مِن جملتها العِلم الشامل. وقيل: الضمير لأحد الموصولَين أو لمجموعهما، فإنّهم لا يعلمون جميع ذلك ولا تفصيلَ ما علِموا منه.[٣]

﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ١١١ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾

﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ أي: ذلّت وخضعت خضوعَ العُناة، أي: الأُسارى، في يد المَلِك القهّار، ولعلّها وجوه المجرمين، كقوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك، ٦٧/٢٧]، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «خسِر مَن أشرك بالله ولم يتُب».[٤] وهو استئناف لبيان ما لأجله عنَت وجوههم، أو اعتراض، كأنّه قيل: خابوا وخسِروا. وقيل: حال مِن ﴿ٱلۡوُجُوهُ﴾،[٥] و﴿مَنۡ﴾ عبارة عنها مُغنية عن ضميرها. وقيل: ﴿ٱلۡوُجُوهُ﴾ على العموم،[٦] فالمعنى حينئذ: وقد خاب مَن حمَل منهم ظلمًا.

فقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾... إلخ، قسيمٌ لقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾، لا لقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ﴾... إلخ، كما أنّه كذلك على الوجه الأوّل، أي: ومَن يعمل بعض الصالحات أو بعضًا مِن الصالحات على أحد الوجهين المذكورين في تفسير قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ﴾ [طه، ٢٠/٩٩].

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٣/٣٩٤.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٣/٣٩٤.

٣ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٥.

٤ معالم التنزيل للبغوي، ٥/٢٩٦؛ اللباب لابن عادل، ١٣/٣٩٥.

٥ الوجه في التبيان للعكبري، ٢/٩٠٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٥.

٦ القول في المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤/٦٥؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٣/٣٩٥.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإنّ الإيمان شرط في صحّة الطاعات وقَبول الحسنات ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي: مَنْع ثواب مستحَقّ بموجَب الوعد، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا كسْرًا منه بنَقْص، أو لا يخاف جزاءَ ظلم وهَضْم، إذ لم يصدُر عنه ظُلم ولا هَضْم حتّى يخافهما. وقُرئ: "فَلَا يَخَفْ"[1] على النهي.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾،[2] وذلك إشارة إلى إنزال ما سبق مِن الآيات المتضمّنة للوعيد المنبئة عمّا سيقع مِن أحوال القيامة وأهوالها، أي: مثلَ ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ كلَّه. وإضماره مِن / غير سَبْق ذِكره [٦٦ظ]
للإيذان بنباهة شأنه وكونِه مركوزًا في العقول حاضرًا في الأذهان. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه مِن النظم المُعجز الدالّ على كونه خارجًا عن طَوق البشر نازلًا مِن عند خلّاق القُوى والقُدَر.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: كرّرنا فيه بعض الوعيد أو بعضًا مِن الوعيد حسبما أشيرَ إليه آنفًا. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: كي يتّقوا الكفر والمعاصيَ بالفعل ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ اتعاظًا واعتبارًا مؤدّيًا بالآخرة إلى الاتّقاء.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظام له تعالى ولشئونه التي يُصرِّف عليها عباده مِن الأوامر والنواهي والوعد والوعيد وغير ذلك، أي: ارتفع بذاته وتنزّه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ النافذُ أمرُه ونهيه الحقيق بأن يُرجى وَعْده ويُخشى وعيدُه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ في ملكوته وألوهيّته لذاته، أو الثابتُ في ذاته وصفاته.

---

[1] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

[2] طه، ٩٩/٢٠.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: يتمّ ﴿وَحْيُهُۥ﴾ كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا ألقى إليه جبريلُ عليهما السلام الوحي يتبعه عند تلفّظ كلّ حرف وكلّ كلمة لكمال اعتنائه بالتلقّي والحفظ، فنُهِيَ عن ذلك إثرَ ذِكر الإنزال بطريق الاستطراد، لِما أنّ استقرار الألفاظ في الأذهان تابع لاستقرار معانيها فيها، وربّما يَشغَل التلفّظ بكلمة عن سماع ما بعدها.

وأُمر باستفاضة العلم واستزادته منه تعالى فقيل: ﴿وَقُل﴾ أي: في نفسك ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: سَلِ الله عزّ وجلّ زيادة العِلم، فإنّه المُوصل إلى طَلِبتك دون الاستعجال. وقيل: إنّه نُهي عن تبليغ ما كان مجمَلًا قبل أن يأتيَ بيانه.[1] وليس بذاك، فإنّ تبليغ المجمَل وتلاوته قبل البيان ممّا لا ريبَ في صحّته ومشروعيّته.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾

[٦٧و] / ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما سبَق مِن تصريف الوعيد في القرآن، وبيانِ أنّ أساس بني آدمَ على العصيان وعِرْقه راسخ في النسيان، مع ما فيه مِن إنجاز الموعود في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾،[2] يقال: "عَهد إليه المَلك وعزَم عليه وأوعَز إليه وتقدّم إليه" إذا أمره ووصّاه، والمعهودُ محذوف يدلّ عليه ما بعده، و"اللام" جواب قسَم محذوف، أي: "وأُقسم" أو "وبالله" أو "وتالله"[3] لقد أمرناه ووصّيناه. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل هذا الزمان.

﴿فَنَسِيَ﴾ أي: العهد ولم يعتنِ به حتّى غفَل عنه أو تَركه تَرْك المنسيّ عنه، وقُرئ: "فَنُسِّيَ"،[4] أي: نسّاه الشيطان. ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ تصميمَ رأي وثباتَ قدَم في الأمور، إذ لو كان كذلك لَما أزلّه الشيطان ولَما استطاع أن يغُرّه، وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره مِن قبل أن يجرّب الأمور ويتولّى حارّها

---

[1] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٦.
[2] طه، ٢٠/٩٩.
[3] وفي هامش م: ولم يذكر "الواو" لمكان واو العطف. «منه».
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣.

وقارّها[١] ويذوقَ شَرْيها[٢] وأَرْيها.[٣] عن النبيّ عليه السلام: «لو وُزنت أحلامُ بني آدمَ بحلم آدمَ لرجح حلمه وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾».[٤] وقيل: عزمًا على الذنب، فإنّه أخطأ ولم يتعمّد.[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ﴾ إن كان مِن الوجود العِلمي فـ﴿لَهُۥ عَزْمًا﴾ مفعولاه قُدّم الثاني على الأوّل لكونه ظرفًا، وإن كان مِن الوجود المقابل للعدم، وهو الأنسبُ لأنّ مصبَّ الفائدة هو المفعول وليس في الإخبار بكون العزم المعدوم له مزيدُ مزيّة، فـ﴿لَهُۥ﴾ متعلّق به قُدّم على مفعوله، لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، أو بمحذوف هو حال مِن مفعوله المنكَّر، كأنّه قيل: ولم نصادف له عزمًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ شروع في بيان المعهود وكيفيّة ظهور نسيانه وفقدان عزمه. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمر خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أي: واذكر وقت قولنا لهم. وتعليق الذّكر بالوقت مع أنّ المقصود تذكير ما وقَع فيه مِن الحوادث لِما مرّ مرارًا مِن المبالغة في إيجاب ذِكرها، / فإنّ الوقت مشتمِل على تفاصيل الأمور الواقعة فيه. فالأمرُ [٦٧ظ] بذِكره أَمْر بذِكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهاني، ولأنّ الوقت مشتمل على أعيان الحوادث، فإذا ذُكر صارت الحوادث كأنّها موجودة في ذِهن المخاطَب بوجوداتها العينيّة، أي: اذكر ما وقَع في ذلك الوقت منّا ومنه حتّى يتبيّن لك نسيانه وفقدان عزمه.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد سبَق الكلامُ فيه مرارًا. ﴿أَبَىٰ﴾ جملة مستأنفة وقعت جوابًا عن سؤال نشأ عن الإخبار بعدم سجوده، كأنّه قيل: ما بالُه لم يسجُد؟ فقيل: أبى واستكبر، ومفعول ﴿أَبَىٰ﴾ إمّا محذوف، أي: أبى السجود، كما في قوله تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر، ٣١/١٥]، أو غيرُ مَنويّ رأسًا بتنزيله منزلةَ اللازم، أي: فعَل الإباءَ وأظهَره.

---

١ القارّ: البارد. لسان العرب لابن منظور، «قرر».
٢ الشَّرْيُ: الحنظل. لسان العرب لابن منظور، «شري».
٣ الأري: العسل. لسان العرب لابن منظور، «أري».
٤ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٨٥/١٦؛ وبلفظه ههنا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٦/٢.
٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٦/٢.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾

﴿فَقُلْنَا﴾ عَقيب ذلك اعتناء بنُصحه: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي رأيتَ ما فعَل ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ أي: لا يكونَنّ سببًا لإخراجكما ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ والمرادُ نهيُهما مِن أن يكونا بحيث يتسبَّب الشيطان إلى إخراجهما منها بالطريق البرهاني، كما في قولك: "لا أُرَينّك ههنا". و"الفاء" لترتيب موجَب النهي على عداوته لهما أو على الإخبار بها.

﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ جواب للنهي. وإسنادُ الشقاء إليه خاصّة بعد تعليق الإخراج الموجب له بهما معًا لأصالته في الأمور واستلزام شقائه لشقائها مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل. وقيل: المراد بالشقاء التعب في تحصيل مبادئ المعاش، وذلك مِن وظائف الرجال.[1]

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ تعليل لِما يُوجبه النهيُ، فإنّ اجتماع أسباب الراحة فيها ممّا يوجب المبالغة في الاهتمام بتحصيل مبادي البقاء فيها، والجِدّ في الانتهاء عمّا يؤدّي إلى الخروج عنها.

[٦٨و] والعدول عن التصريح بأنّ له عليه السلام فيها تنعّمًا / بفنون النّعم مِن المآكل والمشارب وتمتّعًا بأصناف الملابس البهيّة والمساكن المَرْضيّة، مع أنّ فيه مِن الترغيب في البقاء فيها ما لا يخفى إلى ما ذُكر مِن نَفْي نقائضها التي هي الجوع والعطش والعُري والضحُوُ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيهِ على ما فيها مِن أنواع الشّقوة التي حذّره عنها ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدّي إليها.

على أنّ الترغيب قد حصَل بما سُوّغ له مِن التمتّع بجميع ما فيها سوى ما استُثني مِن الشجرة، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا[2] يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة، ٣٥/٢]، وقد طُوي ذكرُه ههنا اكتفاءً بما ذُكر في موضع آخرَ، واقتُصر على ما ذُكر مِن الترغيب المتضمّن للترهيب.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦٩/٣.
٢ م ط - ﴿قُلْنَا﴾.

ومعنى ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾... إلى آخره، ألّا يصيبه شيء مِن الأمور الأربعة أصلًا، فإنّ الشبع والرّيّ والكسوة والكنّ قد تحصُل بعد عُروض أضدادها بإعواز الطعام والشراب واللباس والمسكَن، وليس الأمر فيها كذلك؛ بل كلُّ ما وقع فيها شهوة ومَيْل إلى شيء مِن الأمور المذكورة تمتُّع به مِن غير أن يصل إلى حدّ الضرورة.

ووجهُ إفراده عليه السلام بما ذُكر ما مرّ آنفًا.[١]

وفصلُ الظمأ عن الجوع في الذّكر مع تجانُسهما وتقارنهما في الذّكر عادة، وكذا حالُ العُري والضحوّ المتجانسَين، لتوفية مقام الامتنان حقَّه بالإشارة إلى أنّ نفيَ كلّ واحد مِن تلك الأمور نعمة على حِيالها، ولو جُمع بين الجوع والظمأ لربّما تُوهّم أنّ نفيهما نعمة واحدة، وكذا الحال في الجمع بين العُري والضحوّ، على منهاج قصّة البقرة،[٢] ولزيادة التقرير بالتنبيه على أنّ نفي كلّ واحد مِن الأمور المذكورة مقصود بالذات مذكورٌ بالأصالة، لا أنّ نفي بعضها مذكورٌ بطريق الاستطراد والتبعيّة لنفي / بعض آخرَ، كما عسى يُتوهَّم لو جُمع بين كلّ مِن المتجانسَين. [٦٨ظ]

وقُرئ: "إنَّكَ"[٣] بالكسر، والجمهور على الفتح بالعطف على ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾. وصحّةُ وقوع الجملة المصدَّرة بـ"أنّ" المفتوحة اسمًا للمكسورة المشاركةِ لها في إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرًا لها لِما أنّ المحذور اجتماع حرفَي التحقيق في مادّة واحدة، ولا اجتماعَ فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما في حيّزهما، بخلاف ما لو وقعت خبرًا لها، فإنّ اتّحادَ المناط حينئذ ممّا لا ريبَ فيه.

بيانُه أنّ كلّ واحدة مِن المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبريّة المنعقدة مِن اسمها وخبرها، ولا يخفى أنّ مرجع خبريّتها ما فيها مِن الحُكم الإيجابي أو السلبي، وأنّ مناط ذلك الحُكم خبرها لا اسمُها،

---

١ في تفسير الآية السابعةَ عشرةَ بعد المائة.

٢ ذكر ذلك في تفسير الآية الثالثة والسبعين منها.

٣ قرأ بها نافع وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

فمدلولُ كلّ منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها في نفسه. فاللازمُ مِن وقوع الجملة المصدَّرة بالمفتوحة اسمًا للمكسورة تحقيقُ ثبوت خبرها لتلك الجملة المئوّلة بالمصدر.

وأمّا تحقيق ثبوتها في نفسها فهو مدلول المفتوحة حتمًا، فلم يلزَم اجتماع حرفَي التحقيق في مادّة واحدة قطعًا، وإنّما لم يُجوّزوا أن يقال: "إنّ أنّ زيدًا قائم" حقّ مع اختلاف المناط؛ بل شرطوا الفصل بالخبر، كقولنا: "إنّ عندي أنّ زيدًا قائم" للتجافي عن صورة الاجتماع.

و"الواو" العاطفة وإن كانت نائبةً عن المكسورة التي يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمةً مقامها في إفضاء معناها وإجراء أحكامها على مدخولها، لكنّها حيث لم تكن حرفًا موضوعًا للتحقيق لم يلزم مِن دخولها على المفتوحة اجتماعُ حرفَي التحقيق أصلًا، فالمعنى إنّ لك عدمَ الجوع وعدم العُري وعدم الظمأ، خلا أنّه لم يُقتصَر على بيان أنّ الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحوّ مطلقًا كما فُعل مثله في المعطوف عليه؛ بل قُصد بيانُ

[٦٩و] / أنّ الثابت له عليه السلام تحقيق عدمهما، فوُضع موضعَ الحرف المصدري المَحْض "أنّ" المفيدةُ له، كأنّه قيل: إنّ لك فيها عدمَ ظمئك على التحقيق.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أنهى إليه وسوسته أو أسرّها إليه. ﴿قَالَ﴾ إمّا بدل مِن ﴿وَسْوَسَ﴾ أو استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ منه، كأنّه قيل: فماذا قال في وسوسته؟ فقيل: قال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: شجرةٍ مَن أكَل منها خلَد ولم يمُت أصلًا، سواءٌ كان على حاله أو بأن يكون ملَكًا، لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف، ٢٠/٧]. ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي: لا يزول ولا يختلّ بوجه مِن الوجوه.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: عَريا عن النور الذي كان الله تعالى ألبسهما حتّى بدت فُروجهما.[1] ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قد مرّ تفسيره في سورة الأعراف.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بما ذُكر مِن أكْل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ ضلّ عن مطلوبه الذي هو الخلود، أو عن المأمور به، أو عن الرشد حيث اغترّ بقول العدوّ. وقُرئ: "فَغَوِيَ"[2] مِن "غَوِيَ الفصيل" إذا أُتخم مِن اللبن. وفي وصفه عليه السلام بالعصيان والغَواية مع صغر زلّته تعظيم لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اصطفاه وقرّبه إليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها، مِن "اجتبى الشيء" بمعنى جباه لنفسه، أي: جمَعه، كقولك: "اجتمعتُه"، أو مِن "جُبيَ إليّ كذا فاجتبيتُه" مثل "جُليَتْ عليَّ العروسُ فأجتليتُها"، وأصلُ الكلمة الجمع. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيدُ تشريف له عليه السلام.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلَين: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف، ٧/٢٣]. وإفرادُه عليه السلام / بالاجتباء وقَبول التوبة قد مرّ وجهه.[3] ﴿وَهَدَىٰ﴾ أي: إلى الثبات على التوبة والتمسّك بأسباب العصمة. [٦٩ظ]

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الإخبار بأنّه تعالى قَبِل توبته وهداه، كأنّه قيل: فماذا أمره تعالى بعد ذلك؟ فقيل: قال له ولزوجته: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾

---

[1] تفسير الرازي، ٢٢/١٠٨؛ اللباب لابن عادل، ١٣/٤٠٨.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٧.

[3] في تفسير الآية السابعةَ عشرةَ بعد المائة.

أي: انزلا مِن الجنّة إلى الأرض. وقوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ حال مِن ضمير المخاطَب في ﴿ٱهۡبِطَا﴾. والجَمْع لِما أنّهما أصل الذرّيّة ومنشأ الأولاد، أي: مُتعادِين في أمر المَعاش، كما عليه الناس مِن التجاذُب والتحارُب.

﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ مِن كتاب ورسول ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ وُضع الظاهر موضعَ المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتّباعه، ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ في الآخرة.

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤﴾

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ أي: عن الهدى الذاكر لي والداعي إليّ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ في الدنيا ﴿مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ ضيّقًا. مصدر وُصِف به، ولذلك يستوي فيه المذكّر والمؤنّث. وقُرئ: "ضَنْكَى"[١] كـ"سَكْرَى"؛ وذلك لأنّ مَجامع هِمّته ومَطامح نظره مقصورة على أعراض الدنيا، وهو متهالك على ازديادها وخائف مِن انتقاصها، بخلاف المؤمن الطالب للآخرة، مع أنّه قد يضيّق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسّع ببركة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ [البقرة، ٦١/٢]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف، ٩٦/٧]، ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة، ٦٥/٥] إلى قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾ [المائدة، ٦٦/٥]. وقيل: «هو الضريع والزقّوم في النار».[٢] وقيل: «عذاب القبر».[٣]

﴿وَنَحۡشُرُهُۥ﴾ وقُرئ بسكون "الهاء" على لفظ الوقف وبالجزم[٤] عطفًا على محلّ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾؛ لأنّه جواب الشرط. / ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ فاقدَ البصر، [٧٠و]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣.

[٢] مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ١٩٤/١٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

[٣] مرويّ عن أبي سعيد الخُدري وابن مسعود وأبي هُريرة وغيرهم في جامع البيان للطبري، ١٩٦/١٦-١٩٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣.

كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء، ٩٧/١٧]، لا أعمى عن الحجّة كما قيل.[1]

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف كما مرّ ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أي: في الدنيا. وقُرئ: "أعمى" بالإمالة في الموضعين،[2] وفي الأوّل فقط،[3] لكونه جديرًا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحلّ الوقف.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك فعلتَ أنت، ثمّ فُسّر بقوله تعالى: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ واضحة نيّرة بحيث لا تخفى على أحد ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي: عَميتَ عنها وتركتها تركَ المنسيّ الذي لا يُذكر أصلًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾[4] ومثلَ ذلك النسيان الذي كنت فعلتَه في الدنيا ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تُترَك في العمى والعذاب جزاءً وفاقًا، لكن لا أبدًا كما قيل؛[5] بل إلى ما شاء الله تعالى، ثمّ يُزيله عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهِد مقعده مِن النار ويكون ذلك له عذابًا فوق العذاب، وكذا البَكَم والصمَم يزيلهما الله تعالى عنهم ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم، ٣٨/١٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بل كذّبها وأعرض عنها. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ على الإطلاق، أو عذابُ النار ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: مِن ضَنْك العيش، أو منه ومِن الحشر على العمى.

---

[1] مَرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٢٠٠/١٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٠١/٥.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٤٣/٢.

[3] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٤٣/٢.

[4] س + أي.

[5] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝١٢٨ وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ۝١٢٩﴾

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما قبله مِن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾ الآية.[١] و"الهمزة" للإنكار التوبيخي، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام.

واستعمال الهداية بـ"اللام" إمّا لتنزيلها منزلةَ اللازم، فلا حاجةَ إلى المفعول، أو لأنّها بمعنى التبيين والمفعولُ محذوف. وأيًّا ما كان فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها. وضمير ﴿لَهُمْ﴾ للمشركين المعاصرين لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والمعنى: أَغَفلوا فلم يفعل الهدايةَ لهم، أو فلم يبيّن لهم مآلَ أمرهم كثرةُ إهلاكنا للقرون الأولى. وقد مرّ في قوله عزّ وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ الآية [الأعراف، ٧/١٠٠].

وقيل: الفاعل الضمير العائد إلى الله عزّ وجلّ، ويؤيّده القراءة بنون العظمة،[٢] وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ، إمّا معلَّق للفعل سادّ مسدَّ مفعوله، أو مفسِّر لمفعوله المحذوف، هكذا قيل.[٣] والأوجهُ ألّا يُلاحَظ له مفعول، كأنّه قيل: أفلم يفعل الله تعالى لهم الهداية؟ ثمّ قيل بطريق الالتفات: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ، بيانًا لتلك الهداية، و﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ في محلّ النصب على أنّه وصف لمميِّز ﴿كَمْ﴾، أي: كم قرنًا كائنًا مِن القرون.

وقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ حال مِن ﴿ٱلْقُرُونِ﴾، أو مِن مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أهلكناهم وهم في حال أَمْن وتقلُّب في ديارهم، أو مِن الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ مؤكّد للإنكار والعاملُ ﴿يَهْدِ﴾. والمعنى: أفلم يهدِ لهم إهلاكُنا للقرون السالفة مِن أصحاب الحِجر وثمودَ وقُريّات قوم لوطٍ حالَ كونهم ماشين

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يزيد وابن عبّاس والسُّلمي، وابن كامل والغضائري كلاهما عن رُويس، والزَّعفراني عن رَوح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٢٥٠.

٣ الوجهان في التبيان للعكبري، ٢/٩٠٧؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ١٣/٤١٨.

في مساكنهم إذا سافروا إلى الشام مشاهدين لآثار هلاكهم؟ مع أنّ ذلك ممّا يوجب أن يهتدوا إلى الحقّ فيعتبروا لئلّا يحلّ بهم مثلُ ما حلّ بأولئك. / وقُرئ: [٧٠ظ] "يُمَشَّوْنَ"[١] على البناء للمفعول، أي: يمكّنون مِن المَشْي.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ تعليل للإنكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم، وذلك إشارة إلى مضمون قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾... إلخ، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد منزلته وعُلوّ شأنه في بابه. ﴿لَآيَاتٍ﴾ كثيرةً عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحقّ، فإذن هو هادٍ وأيُّما هادٍ. ويجوز أن تكون كلمةُ ﴿فِي﴾ تجريديّة، فافهمْ.

﴿لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ لذوي العقول الناهية عن القبائح التي مِن أقبحها ما يتعاطاه كفّار مكّة مِن الكفر بآيات الله تعالى والتعامي عنها وغير ذلك مِن فنون المعاصي. وفيه دلالة على أنّ مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان حكمة عدم وقوع ما يُشعر به قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الآية،[٢] مِن أن يصيبَهم مثلُ ما أصاب القرون المهلَكة، أي: ولولا الكلمة السابقة وهي العِدَة بتأخير عذاب هذه الأمّة إلى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه. ﴿لَكَانَ﴾ عقابُ جناياتهم ﴿لِزَامًا﴾ أي: لازمًا لهؤلاء الكفَرة بحيث لا يتأخّر عن جناياتهم ساعةً لزومَ ما نزَل بأولئك الغابرين.

وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تلويحٌ بأنّ ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال، ٣٣/٨]. واللّزام إمّا مصدر "لازمٌ" وُصف به مبالغةً، وإمّا "فِعال" بمعنى "مِفْعل"، جُعل آلةَ اللزوم لفَرْط لزومه، كما يقال: "لِزازَ خَصْم".

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن السّميفع، وعيسى بن عمر، والأديب عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٠.

[٢] في الآية السابقة.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿كَلِمَةٌ﴾ أي: ولولا أجلٌ مسمًّى لأعمارهم أو لعذابهم -وهو يوم القيامة ويوم بدر- لَما تأخَّر عذابهم أصلًا. وفصلُه عمّا عُطف عليه للمسارعة إلى بيان جواب ﴿لَوْلَا﴾، وللإشعار باستقلال كلّ منهما بنفي لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآي الكريمة. وقد جُوّز عطفه على المستكِنّ في ﴿كَانَ﴾ العائد إلى الأخذ العاجل المفهوم مِن السّياق تنزيلًا للفصل بالخبر منزلةَ التأكيد، أي: لكان الأخذ العاجل وأجل مسمًّى لازمَين لهم كدأب عاد وثمودَ وأضرابهم ولم ينفرد الأجل المسمّى دون الأخذ العاجل.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: إذا كان الأمر على ما ذُكر مِن أنّ تأخير عذابهم ليس بإهمال؛ بل إمهال وأنّه لازم لهم البتّة، فاصبرْ على ما يقولون مِن كلمات الكُفر، فإنّ عِلمه صلّى الله عليه وسلّم بأنّهم معذّبون لا محالةَ ممّا يُسلّيه ويحمِلُه على الصبر.

﴿وَسَبِّحْ﴾ ملتبِسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ وأنت حامد لربّك الذي يبلّغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقه، أو نزّهه تعالى عمّا ينسبونه إليه ممّا لا يليق بشأنه الرفيع حامدًا له على ما ميّزك بالهدى معترفًا بأنّه مُولي النّعم كلّها. والأوّل هو الأظهر المناسب لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾... إلخ، فإنّ توقيت التنزيه غير معهود، فالمرادُ صلاة الفجر. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعني صلاتَي الظهر والعصر؛ لأنّهما قبل غروبها بعد زوالها. وجَمْعهما لمناسبته لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾. وقيل: صلاة العصر.[1]

﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ أي: مِن ساعاته، جمع "إِنًى" بالكسر والقصر، و"أَناء" بالفتح والمدّ. ﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فصَلِّ. والمراد به المَغرِب والعشاء. وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل، فإنّ القلب فيهما أجمَع والنفسَ

---

[1] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٠٩.

إلى الاستراحة أميَلُ، فتكون العبادة فيهما أشقّ، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل، ٧٣/٦].

﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ تكرير لصلاتَي الفجر / والمَغرِب إيذانًا باختصاصهما بمزيد مزيّة. ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس، كقول مَن قال: [٧١و]

ظَهْراهما مِثْلُ ظُهورِ التُّرْسَين[١]

أو أمرٌ بصلاة الظهر، فإنّه نهاية النصف الأوّل مِن النهار وبداية النصف الأخير، وجمعُه باعتبار النصفين، أو لأنّ النهار جنس، أو أمر بالتطوّع في أجزاء النهار.

﴿لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ متعلّق بـ﴿سَبِّحۡ﴾، أي: سبّح في هذه الأوقات رجاءَ أن تنال عنده تعالى ما ترضَى به نفسك. وقُرئ: "تُرۡضَى"[٢] على صيغة البناء للمفعول، مِن "أَرْضى"، أي: يُرضيك ربّك.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ أي: لا تُطل نظرهما بطريق الرغبة والمَيل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾ مِن زخارف الدنيا. وقوله تعالى: ﴿أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: أصنافًا مِن الكفَرة، مفعول ﴿مَتَّعۡنَا﴾ قُدّم عليه الجارّ والمجرور للاعتناء به، أو هو حال مِن الضمير والمفعولُ ﴿مِنۡهُمۡ﴾، أي: إلى الذي متّعنا به -وهو أصناف وأنواع- بعضَهم على أنّه معنى ﴿مِن﴾ التبعيضيّة، أو بعضًا منهم على حذف الموصوف كما مرّ مرارًا.

﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ منصوب بمحذوف يدلّ عليه ﴿مَتَّعۡنَا﴾، أي: أعطينا، أو به على تضمين معناه، أو بالبدليّة مِن محلّ ﴿بِهِۦٓ﴾، أو مِن ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ بتقدير مضاف أو بدونه، أو بالذمّ، وهي الزينة والبهجة.

---

١ لخطام المجاشعي أو هِيمان بن قُحافة في كتاب سيبويه، ٤٨/٢، ٦٢٢/٣؛ وأمالي ابن الشجري، ١٦/١؛ وهو بلا عزو في البيان والتبيين للجاحظ، ١٥٦/١؛ والصحاح للجوهري، «مرت»؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣١/٤ (البقرة، ١٩٧/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٧١/٣.

٢ قرأ بها الكسائي وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢.

وقُرئ: "زَهَرَة"[١] بفتح الهاء، وهي لغة كـ"الجَهَرة" في "الجَهْرة"، أو جَمْعُ "زاهر"، وَصْف لهم بأنّهم زاهرو الدنيا لتنعّمهم وبهاء زيّهم بخلاف ما عليه المؤمنون الزُّهّاد.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ متعلّق بـ﴿مَتَّعْنَا﴾ جيء به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته مآلًا إثر إظهار بهجته حالًا، أي: لنُعاملهم معاملة مَن يبتليهم ويختبرهم فيه، أو لنُعذّبهم في الآخرة بسببه.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي: ما ادخّر لك في الآخرة أو ما رزقك في الدنيا مِن النبوّة والهُدى ﴿خَيْرٌ﴾ ممّا منحهم في الدنيا، لأنّه مع كونه في نفسه أجلَّ ما يتنافس فيه المتنافسون مأمونُ الغائلة، بخلاف ما مُنحوه. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ فإنّه لا يكاد ينقطع نفسه أو أثره أبدًا، كما عليه زَهْرة الدنيا.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢﴾

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أُمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له مِن أمّته بالصلاة بعد ما أُمر هو بها، ليتعاونوا على الاستعانة على خَصاصتهم ولا يهتمّوا بأمر المعيشة، ولا يلتفتوا لِفْتَ أرباب الثروة. ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ وثابرْ عليها غيرَ مشتغل بأمر المعاش ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلّفك أن ترزُق نفسك ولا أهلك.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإيّاهم ففرّغْ بالك بأمر الآخرة. ﴿وَالْعَـٰقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لأهل التقوى، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه تنبيهًا على أنّ مَلاك الأمر هو التقوى. رُوي أنّه عليه السلام كان إذا أصاب أهلَه ضُرّ أمَرَهم بالصلاة وتلا هذه الآية.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٣٣ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤﴾

---

[١] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٢.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ حكاية لبعض أقاويلهم الباطلة التي أُمر عليه السلام بالصبر عليها، أي: هلّا يأتينا بآية تدلّ على صدقه في دعوى النبوّة، أو بآية ممّا اقترحوها. بلغوا مِن المكابرة والعناد إلى حيث لم يعُدّوا ما شاهدوا مِن المعجزات التي تخرّ لها صُمّ الجبال مِن قبيل الآيات حتّى اجترأوا على التفوّه بهذه العظيمة الشنعاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماويّة، ردٌّ مِن جهته عزّ وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسُّوا تحتها مِن إنكار إتيان الآية بإتيان القرآن الكريم الذي هو أُمُّ الآيات وأسُّ المعجزات وأعظمها وأبقاها؛ لأنّ حقيقة المعجزة اختصاص مدّعي النبوّة بنوع مِن الأمور / الخارقة للعادات أيّ أمر كان. ولا ريبَ في أنّ [٧١ظ]
العِلم أجلّ الأمور وأعلاها؛ إذ هو أصل الأعمال ومبدأ الأفعال، ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الأوّلين والآخرين على يد أمّي لم يمارس شيئًا مِن العلوم ولم يُدارس أحدًا مِن أهلها أصلًا، فأيُّ معجزة تُراد بعد وروده؟ وأيُّ آية تُرام مع وجوده؟

وفي إيراده بعنوان كونه بيّنة لِما في الصُّحف الأولى مِن التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماويّة، أي: شاهدًا بحقّيّة ما فيها مِن العقائد الحقّة وأصول الأحكام التي أجمعت عليها كافّة الرسل، وبصحّة ما تنطق به مِن أنباء الأمم مِن حيث إنّه غنيٌّ بإعجازه عمّا يشهد بحقّيّته حقيقٌ بإثبات حقّيّة غيره، ما لا يخفى[١] مِن تنويه شأنِه وإنارةِ برهانه ومزيدُ تقرير وتحقيقٍ لإتيانه.

وإسناد الإتيان إليه مع جَعْلهم إيّاه مأتيًا به للتنبيه على أصالته فيه مع ما فيه مِن المناسبة للبيّنة. و"الهمزة" لإنكار الوقوع، و"الواو" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: ألم يأتهم سائرُ الآيات ولم تأتِهم خاصّة بيّنة ما في الصُّحف الأولى، تقريرًا لإتيانه وإيذانًا بأنّه مِن الوضوح بحيث لا يتأتّى منهم إنكاره أصلًا، وإن اجترأوا على إنكار سائر الآيات مكابرة وعنادًا.

---

١ السياق: وفي إيراده... ما لا يخفى...

وقُرئ: "أَوَلَمْ يَأْتِهِمْ"[١] بالياء التحتانيّة. وقُرئ: "الصُّحْفِ"[٢] بالسكون تخفيفًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ﴾ إلى آخر الآية جملة مستأنفة سِيقت لتقرير ما قبلها مِن كون القرآن آية بيّنة لا يمكن إنكارها ببيان أنّهم يعترفون بها يوم القيامة، والمعنى لو أنّا أهلكناهم في الدنيا بعذاب مستأصل. ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ متعلّق بـ"أهلكنا" أو بمحذوف هو صفةٌ لـ﴿عَذَابٍ﴾، أي: بعذاب كائن مِن قبل إتيانِ البيّنة أو مِن قبل محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

﴿لَقَالُواْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا﴾ في الدنيا ﴿رَسُولًا﴾ مع كتاب ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ التي جاءنا بها ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بدخول النار اليوم، ولكنّا لم نُهلكهم قبل إتيانها فانقطعت معذرتهم، فعند ذلك قالوا: بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا وقلنا: ما نزّل الله مِن شيء.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ١٣٥﴾

﴿قُلْ﴾ لأولئك الكفرة المتمرّدين ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلّ واحد منّا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظِر لِما يئول إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾. وقُرئ: "فَتَمَتَّعُوا".[٣] ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ أي: المستقيم. وقُرئ: "السَّوَاءِ"، أي: الوسط الجيّد، وقُرئ: "السَّوْءِ"[٤] و"السُّوْءَى"[٥] و"السُّوَيِّ"[٦] تصغيرُ "السوء".

﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ مِن الضلالة و﴿مَن﴾ في الموضعين استفهاميّة محلُّها الرفع بالابتداء خبرُهما ما بعدهما، والجملةُ سادّة مَسدّ مفعولَي العِلم أو مفعوله،

---

١ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر وخلف وابن جمّاز بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٢٢/٢-٣٢٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مِصرف وطلحة بن سليمان. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٢.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤١١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأبي مِجلز وعمران بن حُدير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٩٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري ويحيى بن يعمُر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمُر وعِصمة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٢٥٣.

ويجوز كون الثانية موصولة بخلاف الأولى لعدم العائد، فتكون معطوفةً على محلّ الجملة الاستفهاميّة المعلَّق عنها الفعل على أنّ العِلم بمعنى المعرفة أو على ﴿أَصۡحَٰبُ﴾، أو على ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾. وقيل: العائد في الأولى محذوف،[١] والتقدير: مَن هم أصحاب الصراط.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ طه أُعطيَ يوم القيامة ثوابَ المهاجرين والأنصار».[٢] وقال: «لا يقرأ أهلُ الجنّة مِن القرآن إلّا سورةَ طه ويس».[٣]

---

١ نقله عن الفرّاء العكبري في التبيان، ٩١٠/٢.

٢ لم أجده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٧٤/٣. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٣٥٦/٢.

٣ س + والحمد لله ربّ العالمين. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد في أواسط جمادى الأولى، لسنة تسع وستّين وتسعمائة، حامدًا لله تعالى ومصلّيًا. | والرواية في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٨٦/١٧ (طه، ١/٢٠)؛ والكشّاف للزمخشري، ٧٤/٣. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٣٥٦/٢.

٢٠

سورة طه

مكية، مِائَةٌ وخمس وثلاثون، أو وأربعون، أو وثنتان آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿طه﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

٢ ـ ﴿ما أنزَلْنا علَيكَ القُرآنَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿لِتَشقَى﴾: لتتعب بما فعلتَ بعد نُزوله من طُول قِيامك بصلاةِ الليل، أي: خفِّفْ عن نفسك. ٣ ـ ﴿إلاّ﴾: لكن أنزلناه ﴿تَذكِرةً﴾ به ....

سورة طه

قولُه: (اللهُ أَعْلَمُ) وقيل: يا طاهِرُ، يا هادي.

وقيل: طوبَى لمَن اهتَدى بكَ.

وقيل: الطَّاءُ تسعةٌ، والهاءُ خمسةٌ، فذلك أربعَةَ عشرَ، وهو أكمَلُ أحوالِ القَمرِ في القدْرِ من ليالي البَدرِ؛ يعني: يا هذا القَمرَ ليلةَ البَدرِ.

قولُه: (لِتتعَبَ) ولعلَّهُ عدَلَ إليه للإشعارِ بأنَّه أُنزِلَ عليه ليسعَدَ، على حكمِ الضِّدِّ، أو ردٌّ على مَن قالَ له: إنَّكَ شقيٌّ[1] لأنَّكَ تركْتَ دينَ آبائِكَ، فقالَ تعالى: هذا القرآنُ هو السُّلَّمُ إلى نيلِ كلِّ فوزٍ، والسَّببُ في دَرْكِ كلِّ سعادةٍ، وما فيه الكفَرةُ هو الشَّقاوةُ بعينِها.

قولُه: (بِهِ) تَذكيراً؛ لانتِصابِها على الاستِثناءِ المنقطِعِ[2].

---

(١) في (ص): «تشقى».

(٢) أي: قوله: ﴿إلا تذكرة﴾ معناه: لكن تذكيراً، وانتصابها على الاستثناء المُنقطِع.

﴿لِمَن يَخشَى﴾: يخافُ اللهَ، ٤ ـ ﴿تَنزِيلاً﴾: بدلٌ من اللفظ بفعله الناصبِ له ﴿مِمَّن خَلَقَ الأرضَ والسَّماواتِ العُلَى﴾: جمعُ عُليا، ككُبرَى وكُبَر.

٥ ـ هو ﴿الرَّحمنُ علَى العَرشِ﴾ وهو في اللغة سرير المُلك ﴿استَوَى﴾ استواءً يليق به، ٦ ـ ﴿لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ وما بَينَهُما﴾ من المخلوقات ﴿وما تَحتَ الثَّرَى﴾ هو التراب النديّ ـ والمراد الأرَضُونَ السبعُ لأنها تحته ـ ٧ ـ ﴿وإن تَجهَرْ بالقَولِ﴾ في ذِكرٍ أو دُعاء فالله غنيّ عن الجهر به ﴿فإنَّهُ يَعلَمُ السِّرَّ وأخفَى﴾ منه، أي: ما حدّثتَ به النفس وما خطر ولم تُحدِّث به ـ فلا تُجهِد نفسك بالجَهر ـ ٨ ـ ﴿اللهُ لا إلـٰـهَ إلاّ هُوَ، لَهُ الأسماءُ الحُسنَى﴾ التسعةُ والتسعونَ الواردُ بها الحديثُ. والحسنى: مُؤنّثُ الأحسن.

٩ ـ ١٠ ـ ﴿وهَل﴾: قد ﴿أتاكَ حَدِيثُ مُوسَى إذ رأَى نارًا، فقالَ لِأهلِهِ﴾ لامرأته:..............

قولُه: (يَخافُ) أي: لمن علِمَ اللهُ منه أنّه يَخشَى بالتَّخويفِ منه، فإنَّه المنتفِعُ به.

قولُه: (بَدَلٌ... إلخ) الظَّاهرُ أنّه تلفيقٌ بين قولَينِ:

أحدُهما: أنَّ ﴿تَنزِيلًا﴾ بدلٌ من لفظِ ﴿تَذْكِرَةً﴾.

وثانيهما: أنّه منصوبٌ بإضمارِ فعلِهِ، وهو: نزَّلناهُ.

ويمكِنُ أن يوجَدَ قولُه بأنّه بدَلٌ من لفظِ التَّذكرةِ المنصوبِ بفعلِ التَّنزيلِ الَّذي هو: «أنزَلنا» المقدَّرُ الَّذي هو في معنى «نزَّلنا» (النَّاصبِ له)؛ أي: للَفظِ التَّذكرةِ، واللهُ أعلمُ.

قولُه: (عُلْيَا) تأنيثُ الأَعلى.

قولُه: (هُوَ) فرفعُ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على المدحِ.

قولُه: (لأنَّهَا) أي: السَّبعَ ـ يعني: بقيَّتَها ـ تحتَ الثَّرى، والظَّاهرُ ما قالَه البَيضاويُّ أنَّ الثَّرى: الطَّبقةُ التُّرابيَّةُ من الأرضِ، وهي آخرُ طبَقاتِها[1]. فحقُّ العبارَةِ أن يُقالَ: المرادُ بـ﴿ما في الأرضِ﴾ الجنسُ؛ أي: الأرضونَ، وبـ﴿ما تحتَ الثَّرى﴾: ما تحتَ السَّبعِ.

قولُه: (فاللهُ) يعني: أنّه جزاءٌ مقدَّرٌ.

وقولُه: (﴿فَإِنَّهُ﴾) تعليلٌ للجَزاءِ، ولكنَّ الظَّاهرَ أن يُقدَّرَ: فاعلَمْ أنّه غنيٌّ عن جهرك.

قولُه: (قَدْ) يعني: الاستِفهامُ للتَّقريرِ.

قولُه: (أي: امرَأَتِهِ) فالجَمعُ للتَّعظيمِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٣).

﴿امكثُوا﴾ هنا. وذلك في مَسيرِه من مَدْيَنَ طالبًا مِصرَ. ﴿إِنِّيٓ آنستُ﴾: أبصرت ﴿نارًا، لَعَلِّيٓ آتِيكُم مِنها بِقَبَسٍ﴾: شُعلة في رأس فتيلةٍ أو عودٍ، ﴿أو أجِدُ علَى النّارِ هُدًى﴾ أي: هاديًا يدلّني على الطريق؟ وكان أخطأها لظُلمة الليل. وقال «لعلّ» لعدم الجزم بوفاء الوعد.

١١ ـ ١٢ ـ ﴿فلَمّا أتاها﴾، وهي شجرةُ عَوسَج، ﴿نُودِيَ: يا مُوسَى، إِنِّيٓ﴾ ـ بكسر الهمزة بتأويل «نودي» بـ«قيل»، وبفتحها بتقدير الباء ـ ﴿أنا﴾: تأكيدٌ لياء المُتكلّم ﴿رَبُّكَ ـ فاخلَعْ نَعلَيكَ. إنَّكَ بِالوادِ المُقَدَّسِ﴾: ....

قولُه: (مِن مَديَنَ) بإذنِ شُعيبٍ في الخروجِ إلى أُمِّه، فلمَّا وافى وادي طُوى وفيه الطُّورُ وُلِدَ له ابنٌ في ليلَةٍ شاتيةٍ مُظلمةٍ، وكانت ليلةَ الجمُعةِ، وتفرَّقَت ماشيتُهُ[١].

قولُه: (أَبْصَرْتُ) إبصاراً لا شُبهةَ فيه، وقيل: الإيناسُ: إبصارُ ما يُؤنَسُ به.

قولُه: (بشُعْلةٍ) أو جمرةٍ.

قولُه: (أي: هَادِياً) ﴿عَلَى﴾ بمعنى: «عند»، أو «في».

قولُه: (عَوسَجٍ) جمعُ: عوسَجةٍ، وهي شوكٌ، كذا في «القاموسِ»[٢].

يعني: فلمَّا أتى النَّارَ وجدَها ناراً بيضاءَ تتَّقِدُ في شجَرةٍ خضراءَ، لا النَّارُ تضرُّ الخُضرةَ، ولا العَكسُ، فتفسيرُ النَّارِ بالشَّجرةِ مُساهَلةٌ.

قولُه: (وبفَتحِهَا) مكِّيٌّ وبَصريٌّ[٣].

قولُه: (تَأْكِيْدٌ) قيل: إنَّه لمَّا نودي قالَ: من المتكلِّمُ؟ قالَ: إنِّي أنا اللهُ، فوسوسَ إليه إبليسُ: لعلَّكَ تسمعُ كلامَ إبليسَ، فقالَ: عرَفتُ أنَّه كلامُ اللهِ بأنِّي أسمَعُه من جميعِ الجهاتِ وبجَميعِ الأعضاءِ[٤]؛ يعني: بطريقِ خَرْقِ العادَةِ؛ إذ لا يقدِرُ عليه غيرُ اللهِ، لا أنَّه تعالى يكونُ في جميعِ الجهاتِ.

قالَ تعالى: (﴿فَاخْلَعْ﴾) أمرَهُ بذلك لأنَّ الحضرةَ حضرةُ تواضُعٍ وأدَبٍ، ولذلكَ طافَ السَّلَفُ حافينَ[٥].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٢٧٦) بنحوه عن وهب بن منبه.

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٩٨).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٥١).

(٤) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٣/ ٥٤) ولم ينسبه إلى قائل.

(٥) روى ابن ماجه (٢٩٣٩) عن عبد الله بن عباس، قال: كانت الأنبياء تدخل الحرم، مشاة حفاة، ويطوفون بالبيت، ويقضون المناسك، حفاة مشاة. قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ١٩٣): هذا إسناد فيه مقال.

المُطهّر أو المُبارك ﴿طُوًى﴾: بدل أو عطف بيان. بالتنوين وتركه، مصروفٌ باعتبار المكان، وغيرُ مصروف للتأنيث باعتبار البُقعة مع العَلَميّة ـ ١٣ ـ ﴿وأنا اخترْتُكَ﴾ من قومك. ﴿فاستَمِعْ لِما يُوحَى﴾ إليك منّي، ١٤ ـ ﴿إنّنيَ أنا اللهُ، لا إلـهَ إلاّ أنا. فاعبُدْني، وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكرِيَ﴾ فيها. ١٥ ـ ﴿إنَّ السّاعةَ آتِيةٌ، أكادُ أُخفِيها﴾ عن الناس، ويَظهر لهم قربُها بعلاماتها،........................

وقيل: لنجاسةِ نعلَيه؛ فإنَّهما كانَتا من جلدِ حمارٍ غيرِ مدبُوغٍ، كما وردَ به حديثٌ[١].

وقيلَ: معناه: فرِّغ قلبَكَ من الأهلِ والمالِ.

وقالَ ابنُ عطاءٍ: أعرِض بقلبِكَ عن الكونَينِ، فلا تنظُرْ إليهما بعدَ هذا الخطابِ[٢].

قولُه: (المُطَهَّرِ) قالَ القاضي: ﴿الْمُقَدَّسِ﴾ يحتملُ المعنيَينِ. يعني: من أن يُداسَ بنَعلٍ طاهرٍ أو نجسٍ[٣].

قولُه: (عَطْفُ بَيَانٍ) للوادِي، قيلَ: أي: اطوِ عنك بِساطَ[٤] المخالفَةِ، فمَن وَطِئ هذا الوادي طَوى عن قلبِهِ ما لا يكونُ مُقدَّساً.

قولُه: (وتَركِهِ) الحِرْميَّانِ والبصريُّ[٥].

قولُه: (مِن قَومِكَ) للنُّبوَّةِ.

قولُه: (مِنِّي) أو: للوَحيِ، وما بعدَهُ بدلٌ منه دالٌّ على أنَّه مقصُورٌ على تقريرِ التَّوحيدِ الَّذي هو مُنتهى العلمِ، والأمرِ بالعبادَةِ الَّتي هي كمالُ العمل، وخصَّ الصَّلاةَ بالذِّكرِ وأفرَدَها بالأمرِ للعلَّةِ الَّتي أناطَ بها إقامَتَها، وهو تذكُّرُ المعبودِ، وشَغْلُ القَلبِ واللِّسانِ بذكرِه، أو هو المعنيُّ بقولِه: (فيها) فالإضافَةُ إلى المفعولِ؛ أي: لِذِكْرِك إيَّايَ.

قولُه: (عَنِ النَّاسِ) أي: أُريدَ إخفاءَ وقتِها، أو أقرُبُ أن أُخفيَها فلا أقولُ: إنَّها آتيةٌ، ولولا ما في الإخبارِ بإتيانِها من اللُّطفِ وقطعِ الأعذارِ لَمَا أخبرْتُ بإتيانِها، أو: أكادُ أُخفيَها عن نَفسِي كما قُرِئَ به[٦]؛ أي: لو كانَ مُمكناً.

---

(١) رواه الترمذي (١٧٣٤)، والبزار في «مسنده» (٢٠٣١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٩٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٣١) بنحوه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه

قال الترمذي: حديث غريب. وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري. قال الذهبي: بل ليس على شرط البخاري.

(٢) وانظر: «حقائق التفسير» (١/ ٤٣٦).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٤).

(٤) في (ص): «السماع».

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٥١).

(٦) (أكاد أخفيها من نفسي فكيف أظهركم عليها). نسبت لأبي رضي الله عنه. انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٩٠)، وهي كأمثالها مما يخالف سواد المصحف محمولة على التفسير.

﴿لِتُجزَى﴾ فيها ﴿كُلُّ نَفسٍ بِما تَسعَى﴾ به من خير وشرّ. ١٦ ـ ﴿فلا يَصُدَّنَّكَ﴾: يصرِفَنَّك ﴿عَنها﴾ أي: عن الإيمان بها ﴿مَن لا يُؤمِنُ بِها، واتَّبَعَ هَواهُ﴾ في إنكارها، ﴿فتَرْدَى﴾: فتَهلِكَ، إن صددتَ عنها.

١٧ ـ ﴿وما تِلكَ﴾ كائنةً ﴿بِيَمِينِكَ؟ يا مُوسَى﴾. الاستفهام للتقرير، ليرتّب عليه المُعجزةَ فيها. ١٨ ـ ﴿قالَ: هِيَ عَصايَ، أتَوَكَّأُ﴾: أعتمد ﴿علَيها﴾ عِند الوُثوب والمشي، ﴿وأهُشُّ﴾: أخبِطُ ورق الشجر ﴿بِها﴾ ليسقطَ ﴿علَى غَنَمِي﴾ فتأكلَه، ﴿ولِيَ فِيها مآرِبُ﴾: جمع مأربة، مُثلّث الراء، أي: حوائجُ ﴿أُخرَى﴾ كحملِ الزاد والسقاء وطردِ الهوامّ. زاد في الجواب بيان حاجاته بها.

١٩ ـ ٢٠ ـ ﴿قالَ: ألقِها، يا مُوسَى. فألقاها، فإذا هِيَ حَيَّةٌ﴾: ثُعبان عظيم، ﴿تَسعَى﴾: تمشي على بطنها سريعًا كسُرعة الثُّعبان الصغير المُسمَّى بالجانِّ المُعبَّرِ به فيها في آية أُخرى.

٢١ ـ ﴿قالَ: خُذْها ولا تَخَفْ﴾ منها ـ ﴿سَنُعِيدُها سِيرتَها﴾: منصوبٌ بنزع الخافض، أي: إلى حالتها ﴿الأُولَى﴾. فأدخلَ يده في فمها فعادت عصًا، وتبيّنَ أنّ موضعَ الإدخال موضعُ مَسكها بين شُعبتَيها. وأُرِيَ ذلك السيّدُ مُوسَى لئلاّ يجزع إذا انقلبتْ حيّةً لدى فِرعَونَ ـ.........

قولُه: (﴿يصُدَّنَّكَ﴾) نهيٌ للكافرِ أن يصُدَّ مُوسى عنها، والمرادُ: نهيُهُ أن ينصَدَّ عنها، كقولِهِ: لا أرَيَنَّك هاهنا.

قولُه: (عَنِ الإِيمَانِ) أي: عن تَصديقِها، وقيل: عن الصَّلاةِ.

قولُه: (فِي إِنكَارِهَا) والهَوى: ميلُ النَّفسِ[1] إلى اللَّذّاتِ المحسوسَةِ المُخْدَجةِ[2].

قولُه: (كَائِنَةً) حالٌ من مَعنى الإشارَةِ؛ أي: من الاسمِ الَّذي يتضمَّنُه معنى كلمَةِ الإشارَةِ؛ أي: ما الَّذي[3] يُشارُ إليها كائنةً.

قولُه: (والمَشْيِ) وإذا أعييتُ، أو وقفتُ[4] على رأسِ القَطيعِ.

قولُه: (وطَرْدِ الهَوَامِّ) والاستِظلالِ بها معَ الكِساءِ، ووَصلِ الحبلِ بها عندَ طولِ البئرِ، ومقاتَلَةِ السِّباعِ لغنَمِه، وخصائصَ أُخرى خارقَةٍ للعادَةِ.

قولُه: (آيَةٍ أُخرَى) ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠].

---

(١) في الأصول: «والميلُ هَوى النَّفسِ»، ولعل الصواب ما أثبته.

(٢) الخداج: النقص. «تاج العروس» (٥/ ٥٠٧). فهي ناقصة وتخدج الحياء.

(٣) كذا في النسخ، ولعل الصواب: «التي».

(٤) بعدها في (ص): «ما وقفت».

٢٢ ـ ﴿واضمُمْ يَدَكَ﴾ اليُمنى بمعنى الكفّ ﴿إلَى جَناحِكَ﴾ أي: جنبك الأيسر تحت العضُد إلى الإبط، وأخرِجْها ﴿تَخرُجْ﴾ خِلافَ ما كانت عليه من الأُدمة ﴿بَيضاءَ مِن غَيرِ سُوءٍ﴾ أي: بَرَصٍ، تُضيء كشُعاع الشمس تُعشي البصر، ﴿آيَةً أُخرَى﴾ ـ وهي و«بيضاءَ» حالان من ضمير «تَخرجْ» ـ ٢٣ ـ ﴿لِنُرِيَكَ﴾ بها إذا فعلتَ ذلك لإظهارها ﴿مِن آياتِنا﴾ الآيةَ ﴿الكُبرَى﴾ أي: العُظمى على رِسالتك. وإذا أراد عَودَها إلى حالتها الأُولى ضمّها إلى جناحه كما تقدّم، وأخرجها. ٢٤ ـ ﴿اذهبْ﴾ رسولاً ﴿إلَى فِرعَونَ﴾ ومَن معه. ﴿إنَّهُ طَغَى﴾: جاوزَ الحدّ في كُفره إلى ادّعاء الإلَـهيّة.

٢٥ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، اشرَحْ لِي صَدرِي﴾: وَسِّعْه لتحمّلِ الرسالة، ٢٦ ـ ﴿ويَسِّرْ﴾: سَهِّلْ ﴿لِيَ أمرِي﴾ لأُبلّغها، ٢٧ ـ ﴿واحلُلْ عُقْدَةً مِن لِساني﴾، حدَثَتْ من احتراقه بجَمرة وضعها وهو صغير بفيه، ٢٨ ـ ﴿يَفقَهُوا﴾: يفهموا ﴿قَولِي﴾، عِند تبليغ الرسالة، ٢٩ ـ ٣٠ ـ ﴿واجعَلْ لِي وَزِيرًا﴾: مُعِينًا عليها ﴿مِن أهلِي، هارُونَ﴾: مفعولٌ ثان ﴿أخِي﴾: عطفُ بيان. ٣١ ـ ﴿اشدُدْ بِهِ أَزرِي﴾: ظهري، ٣٢ ـ ﴿وأشرِكْهُ في أمرِي﴾ أي: الرسالة ـ والفِعلان بصيغتَي الأمرِ والمضارعِ المجزومِ، ....

قولُه: (أي: بَرَصٍ) كنَّى به عن البرَصِ كما كنَّى بالسَّوءَةِ عن العَورةِ، ولم يصرِّحْ به لأنَّ الطِّباعَ تنفرُ عنه.

قولُه: (حَالانِ) على مَن يُجوِّزُ تعديدَ الحالِ لذي حالٍ واحِدٍ، أو الثَّاني مفعولٌ بإضمارِ: خُذْ، أو دونَكَ، و﴿لنريك﴾[1] متعلِّقٌ بهذا المضمَرِ، أو التَّقديرُ: فعَلنا ذلك لنُرِيَكَ.

قولُه: (الآيَةَ) مفعولُ: ﴿نُرِيَكَ﴾، و﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ حالٌ منها، وقيل: ﴿الْكُبْرَى﴾ صفةُ ﴿آيَاتِنَا﴾.

قولُه: (رَسُولاً) بهاتَينِ الآيتَينِ.

قولُه: (ومَنْ مَعَهُ) وادعُهُم إلى التَّوحيدِ.

قولُه: (لِأُبَلِّغَهَا) وفائدَةُ ﴿لِي﴾ إبهامُ المشروحِ والميسَّرِ، ثمَّ رفعُه بذِكرِ الصَّدرِ والأمرِ تأكيداً ومبالَغةً في البيانِ.

قولُه: (عَلَيهَا) أي: الرِّسالَةِ وتَبليغِها.

قولُه: (مَفعُولٌ ثَانٍ) الصَّوابُ أنَّه مفعولٌ أوَّلُ، وقُدِّمَ الثَّاني للعِنايةِ.

قولُه: (عَطفُ بيَانٍ) الظَّاهِرُ أنَّه بدلٌ.

قولُه: (والمُضَارعِ) بفتحِ الهمزةِ في الأوَّلِ، وضمِّهِ في الثَّاني.

---

(١) بعدها في (ص): «بعض».

وهو جواب للطلب ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ﴿كَي نُسَبِّحَكَ﴾ تسبيحًا ﴿كَثِيرًا، ونَذكُرَكَ﴾ ذِكرًا ﴿كَثِيرًا. إنَّكَ كُنتَ بِنا بَصِيرًا﴾: عالمًا، فأنعمتَ بالرسالة.

٣٦ ـ ﴿قالَ: قَد أُوتِيتَ سُؤلَكَ ـ يا مُوسَى﴾ ـ مَنًّا عليك، ٣٧ ـ ٣٨ ـ ﴿ولَقَد مَنَنّا عليَكَ مَرَّةً أُخرَى، إذ﴾: للتعليل ﴿أوحَينا إلَى أُمِّكَ﴾ منامًا أو إلهامًا لمّا ولدتك وخافت أن يقتلك فِرعون، في جُملة من يُولد، ﴿ما يُوحَى﴾ في أمرك، ويُبدلُ منه: ٣٩ ـ ﴿أنِ اقذِفِيهِ﴾: ألقِيه ﴿في التّابُوتِ، فاقذِفِيهِ﴾ بالتابوت ﴿في اليَمِّ﴾: بحر النيل، ﴿فَليُلقِهِ اليَمُّ بِالسّاحِلِ﴾ أي: شاطئه ـ والأمرُ بمعنى الخبر ـ ﴿يأخُذهُ عَدُوٌّ لِي وعَدُوٌّ لَهُ﴾، وهو فِرعون. ﴿وألقَيتُ﴾ بعد أن أخذَكَ ﴿علَيكَ مَحبّةً مِنِّي﴾، لتُحَبَّ في الناس، فأحبّكَ فِرعونُ وكُلّ من رآك، ﴿ولِتُصنَعَ علَى عَينِي﴾: تُربَّى على رِعايتي وحِفظي لك.

٤٠ ـ ٤١ ـ ﴿إذ﴾: للتعليل ﴿تَمشِي أُختُكَ﴾......................

قولُه: (عَالِماً) بأحوالِنا.

قولُه: (مِنّا)[1] و﴿سُؤلَكَ﴾ بمعنى: مسؤولِكَ.

قولُه: (للتَّعليلِ) أي: لأنَّا أوحَينا، والصَّحيحُ أنَّه ظرفٌ لـ﴿مَنَنّا﴾؛ أي: أنعَمْنا عليكَ في وقتٍ آخرَ متَّسِعٍ لجميعِ أوقاتِ المِنَنِ.

قولُه: (أَوْ إِلهَاماً) أو: على لسانِ نبيٍّ في وَقتِها، أو ملَكٍ لا على وجهِ النُّبوَّةِ كما أوحيَ إلى مريمَ.

قولُه: (فِي أَمرِكَ) أي: ما لم يُعلَمْ إلَّا بالوَحيِ.

قولُه: (مِنهُ) أي: ممَّا يُوحى، فـ﴿أَن﴾ مصدريَّةٌ، أو على تقديرِ: هو، أو مفسِّرةٌ.

قولُه: (أَلْقِيْهِ) وضَعيهِ.

قولُه: (بمَعنَى الخَبَرِ) لمَّا كانَ إلقاءُ البَحرِ إيَّاهُ إلى السَّاحلِ أمراً واجبَ الحصولِ لتعلُّقِ الإرادَةِ به، جُعِلَ البَحرُ كأنَّه ذو تمييزٍ مُطيعٌ، فأمرَهُ بذلك، وأُخرجَ الجوابُ مخرَجَ الأمرِ، والأَولى أن تُجعَلَ الضَّمائرُ كلُّها لموسى مراعاةً للنَّظمِ، حتَّى لا يلزمَ التَّفكيكُ من غيرِ داعٍ إليه، فالمقذوفُ في البحرِ والمُلقى إلى السَّاحلِ وإن كانَ التَّابوتَ بالذَّاتِ فمُوسى بالعَرَضِ لأنَّه فيه، فنِسبةُ القذفِ إلى مُوسى تكونُ على المجازِ.

قولُه: (وهُو فِرعَونُ) وتكريرُ ﴿عَدُوٌّ﴾ للمُبالغَةِ.

قولُه: (لتُحَبَّ) ما أحسنَ هذا التَّقديرَ، فيُعطَفُ عليه ﴿لِتُصْنَعَ﴾.

قولُه: (للتَّعليلِ) الصَّحيحُ أنَّه ظرفٌ لـ﴿أَلْقَيْتُ﴾، أو ﴿لِتُصْنَعَ﴾ أو لـ«اذْكُرْ» مُقدَّراً.

---

(١) في (ص): «مننا».

مريم لتتعرَّف خبرَك، وقد أحضروا مَراضِعَ، وأنتَ لا تقبل ثديَ واحدةٍ منها، ﴿فتقولُ: هَل أدُلُّكُم علَى مَن يَكفُلُهُ﴾؟ فأُجِيبتْ، فجاءت بأُمّه، فقبِلَ ثديها، ﴿فرَجَعْناكَ إلَى أُمِّكَ كَي تَقَرَّ عَينُها﴾ بلقائك، ﴿ولا تَحزَنَ﴾ حينئذٍ.

﴿وقَتَلتَ نَفسًا﴾هو القِبطيّ بمِصر، فاغتممتَ لقتله من جِهةِ فِرعون، ﴿فنَجَّيناكَ مِنَ الغَمِّ، وفَتَنّاكَ فُتُونًا﴾: اختبَرناك بالإيقاع في غير ذلك وخلّصناك منه، ﴿فلَبِثتَ سِنِينَ﴾ عشْرًا ﴿في أهلِ مَدْيَنَ﴾ بعد مجيئك إليها من مصر عِند شُعيبٍ النبيّ وتزوُّجِك بابنته، ....

قولُه: (مَريَمُ)[١]، وقيل: كُلثومُ[٢].

قولُه: (بِأُمِّهِ فَقَبِلَ) الظَّاهرُ: بأمِّكَ فقَبِلْتَ.

قولُه: (حِينَئذٍ) هي بفراقِكَ، ويؤيِّدُه: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧]، أو: أنتَ على فراقِها وفقدِ إشفاقِها.

قولُه: (مِن جِهَةِ فِرعَونَ) واقتصاصِهِ، أو من خوفِ اللهِ وعقابِهِ.

وقولُه تعالى: (﴿فَنَجَّيْنَاكَ﴾) بالمغفِرةِ والأَمنِ منه بالهجرةِ إلى مَدينَ.

قولُه: (اخْتبَرْنَاكَ) وابتلَيناكَ ابتلاءً، فـ(فُتونٌ) مصدرٌ من المتعدِّي كالشُّكورِ، أو: أنواعاً من الابتلاءِ، على أنّه جمعُ فَتْنٍ، كظُنونٍ جمعُ: ظنٍّ.

قولُه: (وخَلَّصْنَاكَ) أي: مرَّةً بعدَ أُخرى، وهو إجمالٌ لِمَا نالَهُ في سفرِهِ من الهجرَةِ عن الوَطنِ، ومفارقَةِ الإلفِ، والمشي راجلاً على حذَرٍ، وفقدِ الزَّادِ، وإجارَةِ نفسِهِ، وضلالِهِ الطَّريقَ، وتفرُّقِ غنمِهِ، أو لِمَا ذُكِرَ ولِمَا سَبَقَ ذِكرُه من وضعِ أُمِّه في التَّابوتِ، وقذفِهِ في اليمِّ[٣]، إلى غيرِ ذلكَ.

قولُه: (إِلَيهَا) أي: مَدينَ، وهي على ثَمانٍ[٤] مراحِلَ مِن مِصرَ[٥].

---

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٧/ ٥٣١)، والبغوي في «أنوار التنزيل» (٣/ ٢٦١).

(٢) رواه العقيلي في «الضعفاء الكبير» (٤/ ٤٥٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣٨٣٢) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. وأعله العقيلي بيونس بن شعيب

وروى الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٤٥١) (١١٠٠)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٧٣٦٩) عن ابن أبي رواد مرسلاً وفيه: (كَلْثم). وهذا ضعيف أيضاً. «مجمع الزوائد» (٩/ ٢١٨).

(٣) في (ص): «البحر».

(٤) في (ص): «ثماني».

(٥) انظر: «الكشف والبيان» للثعلبي (١٧/ ٥٣٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٤/ ٤٠٣)، و«معجم البلدان» (٥/ ٧٧).

﴿ثُمَّ جِئتَ علَى قَدَرٍ﴾ في عِلمي بالرسالة، وهو أربعون سنة من عُمرك ـ ﴿يا مُوسَى ـ واصطَنَعتُكَ﴾: اختَرتك ﴿لِنَفسِيَ﴾ بالرسالة.

٤٢ ـ ﴿اذهَبْ أنتَ وأخُوكَ﴾ إلى الناس ﴿بِآياتِي﴾ التسع، ﴿ولاتَنِيا﴾: تَفترا ﴿في ذِكرِيَ﴾ بتسبيح وغيره. ٤٣ ـ ﴿اذهَبا إلَى فِرعَونَ ـ إنَّهُ طَغَى﴾ بادعائه الربوبية ـ ٤٤ ـ ﴿فقُولا لَهُ قَولاً لَيِّنًا﴾ في رجوعه عن ذلك، ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾: يتّعظ، ﴿أو يَخشَى﴾ اللهَ فيرجعَ. والترجي بالنسبة إليهما لعلمه ـ تعالى ـ بأنه لا يرجع. ٤٥ ـ ﴿قالا: رَبَّنا، إنَّنا نَخافُ أن يَفرُطَ علَينا﴾ أي: يَعجل بالعُقوبة، ....

قولُه تعالى: (﴿عَلَى قَدَرٍ﴾) أي: مِقدارٍ من السِّنِّ يُوحى فيه غالباً إلى الأنبياءِ.

قولُه: (بالرِّسَالَةِ) أو لمحبَّتي.

قولُه: (لا تَفترَا) ولا تُقصِّرا.

قولُه: (بتَسبِيحٍ) أو في تبليغِ ذِكري والدُّعاءِ إليَّ.

قولُه: (بِادِّعَائِهِ) أمرَ به أوَّلاً موسى وحدَه، وهاهنا إيَّاهُ وأخاهُ، فلا تكرارَ.

قولُه: (فِي رُجُوعِهِ) أي: فرعَونَ.

قولُه: (ذَلِكَ) الطُّغيانِ، وقيل: عِدَاهُ شباباً لا يهرَمُ بعدهُ، وملكاً لا يزولُ إلَّا بالموتِ.

قولُه: (اللهَ) التَّذكيرُ للمتحقِّقِ، والخشيَةُ للمتوهَّمِ، ولذلك قُدِّمَ الأوَّلُ؛ أي: إن لم يتحقَّق صدقُكُما ولم يتذكَّرْ فلا أقلَّ من أن يتوهَّمَه فيَخشَى.

قولُه: (إِلَيهِمَا) أي: باشِرا أمرَ الدَّعوةِ على رجائِكُما أنَّه يُثمرُ، فإنَّ الرَّاجيَ مجتهِدٌ، والآيسَ متكلِّفٌ.

قولُه: (لِعِلْمِهِ تَعَالَى) والفائدَةُ في إرسالِهِما والمبالغَةِ في الاجتِهادِ مع علمِهِ بأنَّه لا يؤمنُ: إلزامُ الحُجَّةِ وقطعُ المعذرةِ، وإظهارُ ما حدَثَ فيما بينَ ذلك من الآياتِ، كذا قالَهُ القاضِي(١).

وقالَ سَعدِي جلبي: بَيانُ الفائدَةِ على هذا الوَجهِ يُناسبُ مذهَبَ أهلِ الاعتِزالِ، وأمَّا الأشاعِرةُ فيقولونَ: العُقولُ قاصِرةٌ عن معرفَةِ سرِّ القَدرِ.

أقولُ: هذا إيرادٌ [غيرُ] مناسِبٍ؛ إذ ليسَ كلامُ القاضِي في القَضاءِ والقدَرِ؛ لأنَّ قولَه: «إلزامُ الحُجَّةِ وقطعُ المعذرةِ» بَيانُ الحكمَةِ، كما قالَ تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قولُه: (بالعُقُوبَةِ) ولا يصبِرَ إلى تمامِ الدَّعوَةِ وإظهارِ المعجزَةِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٢٨).

﴿أو أن يَطغَى﴾ علينا أي: يتكبّر.

٤٦ ـ ﴿قالَ: لا تَخافا ـ إنَّنِي مَعَكُما﴾ بعوني، ﴿أسمَعُ﴾ ما يقول ﴿وأرَى﴾ ما يفعل ـ ٤٧ ـ ﴿فأتِياهُ فقُولا: إنّا رَسُولا رَبِّكَ ـ فأرسِلْ مَعَنا بَنِي إسرائيلَ﴾ إلى الشام، ﴿ولا تُعَذِّبْهُم﴾ أي: خلِّ عنهم من استعمالك إيّاهم في أشغالك الشاقّة كالحفر والبناء وحمل الثقيل ـ ﴿قَد جِئناكَ بِآيَةٍ﴾: بِحُجّة ﴿مِن رَبِّكَ﴾ على صِدقنا بالرسالة. ﴿والسَّلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى﴾ أي: السلامة له من العذاب. ٤٨ ـ ﴿إنّا قَد أُوحِيَ إلَينا أنَّ العَذابَ علَى مَن كَذَّبَ﴾ ما جئنا به، ﴿وتَوَلَّى﴾ أعرض عنه.

فأتَياه وقالا جميع ما ذُكر. ٤٩ ـ ﴿قالَ: فمَن رَبُّكُما؟ يا مُوسَى﴾. اقتصرَ عليه لأنه الأصل ولإدلاله عليه بالتربية. ٥٠ ـ ﴿قالَ: رَبُّنا الَّذِي أعطَى كُلَّ شَيءٍ﴾ من الخلق ﴿خَلْقَهُ﴾ الذي هو عليه، فتميّز به عن غيره، ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ الحيوانَ منه إلى مطعمه ومشربه ومنكحه وغيرِ ذلك.

٥١ ـ ﴿قالَ﴾ فِرعون: ﴿فما بالُ﴾: حالُ ﴿القُرُونِ﴾: الأُمم ﴿الأُولَى﴾ كقوم نوح وهود ولوط وصالح في عبادتهم الأوثانَ؟..

قولُه: (أي: يَتكَبَّرَ) أي: يَزدادَ طُغياناً فيقولَ فيكَ ما لا يَنبَغي لجراءَتِه وقساوتِه، أو: فيقتُلَنا.

قولُه: (إلى الشَّامِ) أي: أطلِقْهُم.

قولُه: (خَلِّ عَنهُم) الأظهَرُ الأخصَرُ: لا تعذِّبْهُم بالتَّكاليفِ الصَّعبةِ وقتلِ الوِلدانِ.

قولُه: (بحُجَّةٍ) يعني: إنَّما وحَّدَ الآيَةَ وكانَ معه آيَتانِ بل آياتٌ؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ الدَّعوى ببُرهانِها، لا الإشارَةُ إلى وحدَةِ الحُجَّةِ وتعدُّدِها.

قولُه: (مِنَ العَذَابِ) أي: في الدَّارَينِ، أو: سلامُ اللهِ، أو: سلامُنَا، أو: سلامُ الملائكةِ وخزَنةِ الجنَّةِ.

قولُه: (لأنَّه الأَصْلُ) وهارونُ تابعُهُ، أو للفَواصِلِ.

قولُه: (مِن الخَلْقِ) من الأنوَاعِ والأشخَاصِ.

قولُه: (الَّذِي هُوَ عَلَيهِ) فالضَّميرُ راجِعٌ إلى ﴿شَيْءٍ﴾، أو: أعطَى خليقتَهُ كلَّ شيءٍ يحتاجونَ إليه، فقُدِّمَ المفعولُ الثَّاني لأنَّ المقصدَ[1] بيانُهُ.

قولُه: (وغَيرِ ذَلِكَ) أي: عرَّفَه كيف يرتفِقُ بما أُعطِيَ، وكيف يتوَصَّلُ به إلى بقائِهِ وكمالِهِ اختياراً أو طبعاً.

قولُه: (الأُمَمِ) أي: بعدَ الموتِ من السَّعادةِ والشَّقاوةِ.

---

(١) في (ص): «المقصود».

٥٢ ـ ﴿قالَ﴾ موسى: ﴿عِلمُها﴾ أي: عِلم حالهم محفوظ ﴿عِندَ رَبِّي في كِتابٍ﴾، هو اللوح المحفوظ، يُجازيهم عليها يوم القِيامة. ﴿لا يَضِلُّ﴾: يغيبُ ﴿رَبِّي﴾ عن شيء، ﴿ولا يَنسَى﴾ رَبِّي شيئًا.

٥٣ ـ هو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ في جُملة الخلق ﴿الأرضَ مِهادًا﴾: فِراشًا، ﴿وسَلَكَ﴾: سهّل ﴿لَكُم فِيها سُبُلاً﴾: طُرُقًا، ﴿وأنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾: مطرًا. قال تعالى، تتميمًا لِما وصفه به مُوسَى وخِطابًا لأهل مكّة: ﴿فأخرَجْنا بِهِ أزواجًا﴾: أصنافًا ﴿مِن نَباتٍ شَتَّى﴾: صفةُ «أزواجًا» أي: مُختلفةَ الألوانِ والطعوم وغيرِهما ـ وشتّى: جمع شَتِيت كمَرِيض ومرضَى، من: شَتَّ الأمرُ: تفرّق ـ ٥٤ ـ ﴿كُلُوا﴾ منها، ﴿وارعَوا أنعامَكُم﴾ فيها: جمع نَعَمٍ. هي الإبِل والبقر والغنم. يقال: رَعَتِ الأنعامُ ورَعَيتُها......

قولُه: (مَحفُوظٌ) أي: أنّه غيبٌ لا يعلمُهُ إلّا اللهُ، وإنّما أنا عبدٌ مثلُكَ لا أعلمُ منه إلّا ما أخبرَني، مُثبَتٌ في اللَّوحِ.

قولُه: (لا يَغِيْبُ) أو: لا يُخطئُ.

قولُه: (هُوَ) أي: ما بعدَهُ خبرٌ لمحذوفٍ[1]، وقيلَ: صفةٌ لـ﴿رَبِّي﴾، وقيل: منصوبٌ على المدحِ.

قولُه: (فِرَاشاً) الكوفيُّ: ﴿مهداً﴾[2]؛ أي: كالمهدِ تتمهَّدُونَها، وهو مصدرٌ سُمِّي به، والمهادُ: اسمُ ما يُمهَدُ كالفِراشِ، أو جَمعُ مهدٍ.

قولُه: (سَهَّلَ) أو جعلَ، أو أدخَلَ، وهو الأظهَرُ.

قولُه: (طَرِيْقاً) بينَ الجِبالِ والأوديةِ والبَراري تسلُكونَها مِن أرضٍ إلى أرضٍ لتَبلُغوا منافعَهَا.

قولُه: (قَالَ) أي: قالَ تعالى هذا القَولَ، وقيل: إنَّه من بقيَّةِ كلامِ مُوسى، وعدَلَ بـ﴿أَخرَجْنَا﴾ مِن لفظِ الغيبَةِ إلى صيغَةِ التَّكلُّمِ على الحكايَةِ لكلامِ اللهِ تعالى.

قولُه: (أَصْنَافاً) أُطلقَ عليها لازدواجِهَا واقترانِ بعضِها ببعضٍ.

قولُه: (صِفَةُ) يعني: ﴿شَتَّى﴾ وكذلك ﴿مِنْ نَبَاتٍ﴾ على الأظهَرِ.

قولُه: (جَمْعُ نَعَمٍ) وقد تُكسَرُ عينُه.

قولُه: (وهِيَ الإبِلُ... إلخ) وهو الصَّوابُ المفهومُ مِن ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ في الأنعامِ[١٤٣]، فقولُ «القاموسِ»: الإبِلُ والشَّاءُ، أو خاصٌّ بالإبلِ[3]. سهوٌ.

قولُه: (وَرَعَيْتُهَا) يعني: أنّه لازِمٌ ومُتعدٍّ، وهو المرادُ هنا.

---

(١) في (ص): «خبر لمبتدأ محذوف».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١٨).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١٦٣).

والأمر للإباحة وتذكيرِ النعمة. والجملة: حال من ضمير «أخرجنا»، أي: مبيحين لكم الأكلَ ورعي الأنعام. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكورِ منّا ﴿لَآيَاتٍ﴾: لَعِبَرًا ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾: لأصحاب العُقول، جمع نُهيَةٍ كغُرفة وغُرَف، سُمّي به العقل لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح. ٥٥ ـ ﴿مِنْهَا﴾ أي: الأرضِ ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ بخلق أبيكم آدمَ منها، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ مقبورين بعد الموت، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ عند البعث ﴿تَارَةً﴾: مرّة ﴿أُخْرَىٰ﴾ كما أخرجناكم عِند ابتداء خلقكم.

٥٦ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ أي: أبصرْنا فِرعونَ ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ التسعَ، ﴿فَكَذَّبَ﴾ بها وزعم أنها سِحر، ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يُوحّد الله تعالى. ٥٧ ـ ٥٨ ـ ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ مِصرَ، ويكونَ لك المُلك فيها، ﴿بِسِحْرِكَ﴾؟ يا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ يُعارضُه. ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ لذلك، ﴿لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ، مَكَانًا﴾: منصوبٌ بنزع الخافض «في» ﴿سِوًى﴾ بكسر أوله وضمّه، أي: وَسَطًا تستوي إليه مسافة الجائي من الطرفين........................

قولُه: (أي: مُبِيْحِينَ) أو: قائلينَ، وهو الظَّاهرُ، والمعنَى: مُعدِّيها لانتفاعِكُم بالأكلِ والعلَفِ آذِنينَ فيه.

قولُه: (هُنَا)[1] الظَّاهرُ تأخيرُهُ عن الآياتِ.

قولُه: (يَنهَى) كما أنّه يعقِلُ.

قولُه: (بِخَلْقِ أَبِيْكُم) ومادَّةِ أبدانِكُم.

قولُه: (كَمَا أَخْرَجْنَاكُم) يعني: الإخراجيَّةَ الأُولَى، وهي الخَلْقُ.

قولُه: (أَبْصَرْنَا) الصَّحيحُ: بصَّرْنا، بالتَّشديدِ.

قولُه: (التِّسْعَ) حقُّه التَّقديمُ، و﴿كُلَّهَا﴾ تأكيدٌ لشُمولِ الأفرادِ.

قولُه: (بِهَا) أو: كذَّبَ مُوسى من فَرْطِ عنادِهِ.

قولُه: (يُعَارِضُهُ) و﴿مِثْلِهِ﴾؛ أي: مثلِ سحرِكَ.

قولُه: (لِذَلِكَ) الإتيانِ، والمَوعِدُ: الوعدُ، فإنَّ الإخلافَ لا يُلائمُ الزَّمانَ والمكانَ.

قولُه: (فِي) بدَلٌ من الخافِضِ، وهو أظهَرُ الإعراباتِ، واقتَصرَ عليه أبو البَقاءِ[2].

قولُه: (وَضَمِّهِ) شاميٌّ وعاصِمٌ وحمزةُ[3].

(١) الذي في المتن: «منا» ولعله الصواب كما يشير إليه قول الشارح: «الظَّاهرُ تأخيرُهُ... ».

(٢) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ٨٩٣) وقال أيضاً: ويجوز أن يكون ﴿مكاناً﴾ مفعولاً ثانياً لـ(اجعل).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٥٣).

٥٩ ـ ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿مَوعِدُكُم يَومُ الزِّينةِ﴾: يومُ عِيد لهم يتزيّنون فيه ويجتمعون، ﴿وأن يُحشَرَ النّاسُ﴾: يُجمعَ أهل مِصر ﴿ضُحًى﴾، وقتَه للنظر فيما يقع.

٦٠ ـ ﴿فتَوَلَّى فِرعَونُ﴾: أدبرَ، ﴿فجَمَعَ كَيدَهُ﴾ أي: ذوِي كيده من السَّحَرَة، ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ بهم الموعدَ.

٦١ ـ ﴿قالَ لَهُم مُوسَى﴾، وهم اثنان وسبعون مع كُلّ واحد حبلٌ وعصًا: ﴿وَيلَكُم﴾ أي: ألزَمَكُمُ اللهُ الويلَ. ﴿لا تَفتَرُوا علَى اللهِ كَذِبًا﴾ بإشراك أحد معه، ﴿فيُسحِتَكُم﴾ ـ بضمّ الياء وكسر الحاء وبفتحهما ـ أي: يُهلِكَكم ﴿بِعذابٍ﴾ من عِنده، ﴿وقَد خابَ﴾: خسر ﴿مَنِ افتَرَى﴾: كذبَ على الله.

قولُه: (يَومُ عِيْدٍ) قالَ ابنُ عبَّاسٍ[١]: هو يَومُ عاشوراءَ.

قولُه: (وَقْتَهُ) على حذفِ المضافِ؛ الضَّحوةُ: ارتفاعُ النَّهارِ، والضُّحى فُوَيقَه[٢].

قولُه: (أي: ذَوِي) الأظهَرُ: ما يُكاد به من السَّحرةِ وآلاتِهِم، كما قالَ القاضِي[٣]، لكن اختارَهُ المصنِّفُ لصحَّةِ المرجِعِ في ﴿لَهُمْ﴾.

قولُه: (اثْنَانِ وسَبْعُونَ)[٤] وقيلَ: سبعونَ ألفاً[٥].

قولُه: (وعَصًا) بالألفِ؛ لأنَّ ألفَهُ واويَّةٌ.

قولُه: (بإِشْرَاكِ) الظَّاهرُ: بأن تدَّعوا آياتِه سِحراً.

قولُه: (بضَمِّ اليَاءِ) كوفيٌّ إلَّا شُعبةَ[٦].

قولُه: (أَيْضاً) في بعضِ النُّسخِ[٧]، وهو مستدرَكٌ.

قولُه: (يُهلِكَكُم) ويستأصلَكُم.

---

(١) هو طرف من حديث طويل رواه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٦٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦١٨).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٦٦): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح غير أصبغ بن زيد والقاسم بن أبي أيوب، وهما ثقتان.

(٢) انظر: «تاج العروس» (٣٨/ ٤٥٤).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٣١).

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ٦٣) من قول الكلبي.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٣٤) عن القاسم بن أبي بزة.

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٥٤).

(٧) وليست في النسخ المعتمدة في المتن، ولعل موقعها عقب قول الجلال: «وبفتحهما».

٦٢ ـ ﴿فتَنازَعُوا أمرَهُم بَينَهُم﴾ في مُوسَى وأخيه، ﴿وأسَرُّوا النَّجوَى﴾ أي: الكلامَ بينهم فيهما، ٦٣ ـ ﴿قالُوا﴾ لأنفسهم: ﴿إنَّ هذَينِ﴾ ـ لِأبي عَمرٍو، ولغيرِه: «هذانِ»، وهو مُوافق للغة مَن يأتي في المُثنّى بالألف في أحواله الثلاث ـ ﴿لَساحِرانِ، يُرِيدانِ أن يُخرِجاكُم مِن أرضِكُم بِسِحرِهِما، ويَذهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ المُثلَى﴾: مُؤنّث أمثل بمعنى أشرف أي: بأشرافكم بميلهم إليهما لغلبتهما. ٦٤ ـ ﴿فاجمَعُوا كَيدَكُم﴾ من السِّحر ـ بهمزة وصل وفتح الميم مِن: جَمَعَ أي: لَمَّ، وبهمزة قطع وكسر الميم مِن: أجمَعَ: أحكَمَ ـ ﴿ثُمَّ ائتُوا صَفًّا﴾: ....

قولُه: (فِيهِمَا) أي: في مُوسى وهارونَ، وما بعدَهُ تفسيرٌ لـ﴿أَسَرُّوا﴾ كأنَّهم تَشاوَروا في تزويرِ هذا الكَلامِ حذَراً أن يَغلِبا فيتبعَهُما النَّاسُ، فالضَّميرُ في ﴿فَتَنَازَعُوا﴾ و﴿أَسَرُّوا﴾ لِفرعونَ وقومِهِ، قالَ النَّيسابوريُّ: وعليهِ الأكثرونَ[1].

قولُه: (ولِغَيرِهِ) لكنَّ ابنَ كثيرٍ شدَّدَ نونَ (هذانِّ)، وهو وحفصٌ خفَّفا نونَ ﴿إِنْ﴾[2] على أنَّها هي المخفَّفةُ واللَّامُ فارقةٌ، أو النَّافيةُ واللَّامُ بمَعنى: إلَّا.

قولُه: (وهُوَ) أي: ﴿هَذَانِ﴾.

قولُه: (مَن يَأْتِي) وهم بَلحارثُ بنُ كعبٍ[3]، بفتحِ الباءِ، أصلُه: بنو الحارثِ، فحُذِفَتِ النُّونُ وأوصِلَتِ الباءُ بالحارثِ تَخفيفاً.

قولُه: (فِي أَحْوَالِهِ) وأعرَبوا المثنَّى تقديراً.

قولُه: (مُؤَنَّثُ أَمْثَلِ) أي: بمذهبِكُم الَّذي هو أفضَلُ المذاهِبِ؛ يعني: بإظهارِ مذهبِهِما وإعلاءِ دينِهِما؛ لقولِه: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٢٦].

وقيل: الطَّريقةُ اسمٌ لوجوهِ القَومِ وأشرافِهِم مِن حيثُ إنَّهم قُدوةٌ لغيرِهِم، وهو المعنيُّ بقولِه: (بأشرافكُم).

وقولُه: (بِمَيْلِهِم) متعلِّقٌ بـ﴿يَذْهَبَا﴾.

قولُه: (مِنَ السِّحْرِ) بيانٌ.

قولُه: (بِهَمْزَةِ وَصْلٍ) بَصريٌّ[4].

---

(١) انظر: «غرائب القرآن» (٤/ ٥٥٥).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١٩).

(٣) انظر: «معجم قبائل العرب» (٢/ ١٠٢).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤١٩).

حالٌ أي: مصطفِّين، ﴿وقَد أفلَحَ﴾: فاز ﴿اليَومَ مَنِ استَعلَى﴾: غلب.

٦٥ ـ ﴿قالُوا: يا مُوسَى﴾، اختَرْ ﴿إمّا أن تُلقِيَ﴾ عصاك أي: أوّلاً، ﴿وإمّا أن نَكُونَ أوَّلَ مَن ألقَى﴾ عصاه. ٦٦ ـ ﴿قالَ: بَل ألقُوا﴾. فألقَوا، ﴿فإذا حِبالُهُم وعِصِيُّهُم﴾ ـ أصله «عُصُوْوٌ» قُلبَتِ الواوان ياءين، وكُسرَتِ العينُ والصاد ـ ﴿يُخَيَّلُ إلَيهِ مِن سِحرِهِم أنَّها﴾ حيّاتٌ ﴿تَسعَى﴾ على بُطونها، ٦٧ ـ ﴿فأوجَسَ﴾: أحسّ ﴿في نَفسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أي: خاف، من جِهة أنّ سِحرهم يكون من جِنس مُعجزته، أن يلتبس أمره على الناس فلا يؤمنوا به.

٦٨ ـ ﴿قُلْنا﴾ له: ﴿لا تَخَفْ. إنَّكَ أنتَ الأعلَى﴾ عليهم بالغلبة. ٦٩ ـ ﴿وألقِ ما في يَمِينِكَ﴾ ـ وهي عصاه ـ ﴿تَلَقَّفْ﴾: تبتلع..

قولُه: (أي: مُصْطَفِّينَ) لأنَّه أهيَبُ في صدورِ الرَّائينَ.

قولُه: (فَازَ) بالمطلوبِ، وهو اعتِراضٌ بيانيٌّ، ويُسمَّى: تَذييلاً، لا نحويٌّ؛ فإنَّه يكونُ في أثناءِ الكَلامِ.

قولُه: (اخْتَرْ) إشارةٌ إلى أنَّ ما بعدَه مَنصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ؛ أي: اخترْ إلقاءَكَ أوَّلاً أو إلقاءَنا.

قولُه: (يَاءَيْنِ) الأولى بعدَ الثَّانيةِ (العَيْنُ) الأولَى تقديمُ الصَّادِ؛ لتقدُّمِ كسرِها لمناسبةِ الياءِ، ثمَّ كُسِرَت العينُ تَبعاً أو استثقالًا من الضَّمَّةِ إلى الكسرةِ.

قولُه تعالى: (﴿يُخَيَّلُ﴾) أي: السَّعيُ، وبالتَّأنيثِ ابنُ ذكوانَ[(١)]؛ أي: الحِبالُ والعصيُّ، و(﴿أَنَّهَا تَسْعَى﴾) بدلُ اشتمالٍ، وذلك بأنَّهم لَطخوها بالزِّئبَقِ، فلمَّا ضربَتْ عليها الشَّمسُ اضطربَت، فخُيِّلَ إليه أنَّها تتحرَّكُ[(٢)].

قولُه: (أَحَسَّ) وأضمَرَ، كذا في «القاموسِ»[(٣)]، واقتصَرَ البَيضاويُّ على الثَّاني[(٤)].

قولُه: (مِن جِهَةِ) أو من مفاجأتِهِ على ما هو مُقتَضى الجِبلَّةِ البشريَّةِ.

قولُه: (فَلَا يُؤْمِنُونَ) الظَّاهرُ: فلا يُؤمِنوا[(٥)].

قولُه: (تَبتَلِعْ) بقُدرةِ اللهِ، أصلُه: تتلقَّف، فحُذِفَت إحدى التَّاءينِ، وتاءُ المضارَعةِ تحتملُ التَّأنيثَ، والخِطابَ على إسنادِ الفِعلِ إلى المسبِّبِ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٥٧).

(٢) كذا ذكر، وفيه نظر؛ فإنه لا يتصور أن تنطلي مثل هذه الحيلة على موسى عليه السلام وهو النبي الفطن الذي لا يتصور خداعه بطلي الزئبق.

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٥٧٩).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٣٢).

(٥) وهكذا هي في المتن.

﴿ما صَنَعُوا. إنَّ ما صَنَعُوا كَيدُ ساحِرٍ﴾ أي: جِنسِه، ﴿ولا يُفلِحُ السّاحِرُ حَيثُ أتى﴾ بسِحره. فألقى مُوسَى عصاه فتلقفتْ كُلّ ما صنعوه، ٧٠ ـ ﴿فأُلقِيَ السَّحَرةُ سُجَّدًا﴾: خرّوا ساجدين لِلهِ ـ تعالى ـ ﴿قالُوا: آمَنّا بِرَبِّ هارُونَ ومُوسَى﴾.

٧١ ـ ﴿قالَ﴾ فِرعون: ﴿آأمَنتُم﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وإبدالِ الثانية ألفًا ـ ﴿لَهُ، قَبلَ أن آذَنَ﴾ أنا لَكُم؟ إنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾: مُعلّمُكم ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحرَ. فلَأُقَطِّعَنَّ أيدِيَكُم وأرجُلَكُم مِن خِلافٍ﴾: حالٌ، بمعنى: مُختلِفةً، أي: الأيديَ اليُمنى والأرجُلَ اليُسرى، ﴿ولَأُصَلِّبَنَّكُم في جُذُوعِ النَّخلِ﴾.......

وابنُ ذكوانَ بالرَّفعِ على الحالِ أو الاستئنافِ، والبزِّيُّ بتشديدِ التَّاء وَصلاً، وحفصٌ بالتَّخفيفِ[1]، من لَقِفَتُه بمعنى: تلقَّفْتُه.

قولُه: (أي: جِنْسِه)؛ أي: الجنسِ المطلَق، وكذا قالَ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ وحمزةُ والكِسائيُّ: (كَيْدُ سِحْرٍ) وُصِفَ بالمصدَرِ مبالغَةً[2].

قولُه: (بِسِحْرِهِ) أو حيثُ كانَ وأينَ أقبَلَ.

قولُه: (فَتَلَقَّفَتْ) فتحقَّقَ عندَ السَّحرةِ أنَّه ليسَ بسِحرٍ، وإنَّما هو مُعجزةٌ، فألقاهُم ذلك على وجوهِهم.

قولُه: (للهِ تَعَالَى) توبةً عمَّا صَنعوا، وإغباناً لِفرعونَ، وتعظيماً لِمَا رَأَوا، وإرضاءً للهِ تعالى، رُوِيَ أنَّهم رَأَوا في سجودِهِم الجنَّةَ ومنازِلَهُم[3].

قولُه تعالى: (﴿هَارُونَ﴾) قُدِّمَ لكِبَرِ سِنِّه، أو للفاصِلةِ[4].

قولُه: (بِتَحْقِيق) تقدَّمَ تحقيقُهُ في الأعرافِ[5].

قولُه: (﴿لَهُ﴾) أي: لموسَى، واللَّامُ لتضمينِ الفعلِ معنى الاتِّباعِ أو التَّسليمِ، أو التَّقديرُ: آمنتُم باللهِ لأجلِ مُوسَى.

قولُه: (أَنَا) تحقيقاً للتَّكلُّمِ.

قولُه: (مُعَلِّمُكُم) أي: أستاذُكُم، وأنتم تواطَأْتُم على ما فعلتُم، أو: عظيمُكُم في فنِّكُم وأعلَمُكُم به.

---

(١) وقرأ الباقون بالجزم وتشديد القاف. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٠)، و«التيسير» (ص: ١١٢ و١٥٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٣٤) عن القاسم بن أبي بزّة.

ورواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٣/ ٥١٥) عن سعيد بن جبير.

(٤) أي: لتناسب الآي.

(٥) في الآية: (١٢٣).

أي: عليها، ﴿ولتَعلَمُنَّ: أيُّنا﴾ ـ يعني نفسَه وربَّ مُوسَى ـ ﴿أشَدُّ عَذابًا وأبقَى﴾: أدوَمُ، على مخالفته؟

٧٢ ـ ﴿قالُوا: لَن نُؤثِرَكَ﴾: نختارَك ﴿علَى ما جاءَنا مِنَ البيِّناتِ﴾ الدالّة على صِدق مُوسَى، ﴿والَّذِي فَطَرَنا﴾: خلقَنا. قسمٌ أو عطفٌ على «ما». ﴿فاقضِ ما أنتَ قاضٍ﴾ أي: اصنعْ ما قلتَه. ﴿إنَّما تَقضِي هذِهِ الحَياةَ الدُّنيا﴾ ـ النصبُ على الاتّساع أي: فيها ـ ونُجزَى عليه في الآخرة. ٧٣ ـ ﴿إنّا آمَنّا بِرَبِّنا، لِيَغفِرَ لَنا خَطايانا﴾ من الإشراك وغيره ﴿وما أكرَهتَنا علَيهِ مِنَ السِّحرِ﴾ تعلّمًا وعملاً لمُعارضة موسى. ﴿واللهُ خَيرٌ﴾ منك ثوابًا إذا أُطيع ﴿وأبقَى﴾ منك عذابًا إذا عُصي.

٧٤ ـ قال تعالى: ﴿إنَّهُ مَن يأتِ رَبَّهُ مُجرِمًا﴾: كافرًا كفِرعَونَ ﴿فإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ، لا يَمُوتُ فِيها﴾ فيستريحَ، ﴿ولا يَحْيا﴾ حياةً تنفعه، ٧٥ ـ ﴿ومَن يأتِهِ مُؤمِنًا، قَد عَمِلَ الصّالِحاتِ﴾: الفرائضَ والنوافل، ﴿فأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ العُلَى﴾: جمع عُليا مُؤنّث أعلى، ....

قولُه: (أي: علَيْهَا) وهو أوَّلُ مَن صَلَبَ[١].

قولُه: (الدَّالَّةِ) أي: المعجِزاتِ الواضِحاتِ، والضَّميرُ في ﴿جَاءَ﴾ لموسَى؛ أي: ما جاءَنا به، وقيلَ: لـ﴿مَا﴾.

قولُه: (أي: اصْنَعْ) فمعنى قاضيه: صانعُهُ، وقيل: حاكمُهُ.

قولُه: (أي: فِيْهَا) أي: تصنَعُ ما تَهواهُ، أو تحكُمُ بما تَراهُ.

قولُه: (عَلَيهِ) أي: صنعِكَ، أو حُكمِك.

قولُه: (وغَيرِهِ) من المعاصِي.

قولُه: (وعِلماً) الصَّوابُ: عملاً[٢]، والظَّاهرُ أنَّ الواوَ بمعنى: «أو»، رُوِيَ أنَّهم قالوا لِفرعونَ: أرِنا مُوسَى نائماً، فوجَدوهُ تحرُسُه العَصا، فقالوا: ما هذا بِسحرٍ، فإنَّ السَّاحِرَ إذا نامَ بطَلَ سِحرُه، فأبى إلَّا أن يُعارضوهُ[٣].

قولُه تعالى: (﴿إنَّهُ﴾) وضميرُ ﴿إنَّهُ﴾ للشَّأنِ.

قولُه: (كَافِراً) بأن يموتَ على كُفرِه.

قولُه: (جَمْعُ عُلْيَا) أي: المنازِلُ الرَّفيعةُ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٩٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وهكذا هي في المتن: «وعملا».

(٣) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٨/ ٣٢) من قول عبد العزيز بن أبان.

٧٦ ـ ﴿جَنَّاتُ عَدنٍ﴾ أي: إقامةٍ، بيانٌ له، ﴿تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ خالِدِينَ فِيها. وذلِكَ جَزاءُ مَن تَزَكَّى﴾: تطهَّر من الذنوب.

٧٧ ـ ﴿ولَقَد أَوحَينا إِلَى مُوسَى: أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي﴾ ـ بهمزة قطع من: أسرَى، وبهمزة وصل وكسر النون من: سَرَى. لُغتانِ ـ أي: سِر بهم ليلاً من أرض مِصر، ﴿فاضرِبْ﴾: اجعل ﴿لَهُم﴾ بالضرب بعصاك ﴿طَرِيقًا في البَحرِ يَبَسًا﴾ أي: يابسًا ـ فامتثلَ ما أُمر به وأيبسَ اللهُ الأرض فمرّوا فيها ـ ﴿لا تَخافُ دَرَكًا﴾ أي: أن يُدركَك فِرعون ﴿ولا تَخشَى﴾ غرَقًا. ٧٨ ـ ﴿فأتبَعَهُم فِرعَونُ بِجُنُودِهِ﴾، وهو معهم، ﴿فغَشِيَهُم مِنَ اليَمِّ﴾ أي: البحر ﴿ما غَشِيَهُم﴾ فأغرقهم! ....

قولُه: (بيَانٌ لَهُ) أو بدَلٌ منه.

قولُه: (تَطَهَّرَ) والآياتُ الثَّلاثُ يحتملُ أن تكونَ من كلامِ السَّحَرةِ، وأن تكونَ ابتِداءَ كلامٍ من اللهِ تعالى.

قولُه: (وبِهَمزَةِ وَصْلٍ) مكسورَةٍ في الابتداءِ (وكَسْرِ النُّونَ) في الوَصلِ الحِرْميَّانِ[1].

قولُه: (اجْعَلْ) من قَولِهم: ضَربَ له من مالِهِ سَهماً.

قولُه: (أي: يَابِساً) مصدرٌ وُصِفَ به مبالَغةً.

قولُه: (أي: أَنْ يُدْرِكَكَ) والجملَةُ حالٌ من المأمورِ؛ أي: آمِناً من إدراكِهِ.

وقرأ حمزَةُ: (لا تخَفْ)[2] على أنَّه جوابُ الأمرِ وقولَه تعالى: ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ استِئنافٌ؛ أي: وأنتَ لا تَخشَى، أو عَطفٌ عليهِ والألِفُ للإطلاقِ، أو حالٌ بالواوِ.

قولُه: (وهُوَ مَعَهُم) وذلك أنَّ مُوسى خرجَ بهم أوَّلَ اللَّيلِ، فأخبِرَ فرعَونُ بذلك، فقَصَّ أثرَهُم، والمعنى: فأتبَعَهم فرعَونُ نفسَهُ ومعه جُنودُه، فالباءُ للمُصاحَبةِ، فحُذِفَ المفعولُ الثَّاني.

وقيل: ﴿فَأَتْبَعَهُم﴾ بمعنى: ﴿فاتَّبَعَهم﴾ كما قُرِئ[3].

والباءُ للتَّعديةِ، وهو الَّذي اختارَهُ الشَّيخُ، أو الباءُ زائدةٌ، والمعنى: فأتبعَهُم جنودَهُ وساقَهم خلفَهُم.

قولُه: (فَأَغْرَقَهُم) الضَّميرُ لـ(جنودِهِ)، أو له ولهُم، وفيه مبالَغَةٌ من حيثُ الإبهامُ، ووجازَةٌ من حيثُ اللَّفظُ؛ أي: غشيَهُم ما سمعْتَ صفتَهُ، ولا يعلَمُ كُنهَهُ إلَّا اللهُ تعالى.

---

(١) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٣٠).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢١).

(٣) هي رواية عن أبي عمرو، كما في «السبعة» (ص: ٤٢٢)، و«الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٤٠).

٧٩ ـ ﴿وأضَلَّ فِرعَونُ قَومَهُ﴾ بدُعائهم إلى عِبادته، ﴿وما هَدَى﴾، بل أوقعهم في الهلاك خِلافَ قوله «وما أهدِيكُم إلاّ سَبِيلَ الرَّشادِ».

٨٠ ـ ﴿يا بَنِي إسرائيلَ، قَد أنجَيناكُم مِن عَدُوِّكُم﴾ فِرعَونَ بإغراقه، ﴿ووَعَدْناكُم جانِبَ الطُّورِ الأيمَنَ﴾، فنُؤتي مُوسَى التوراةَ للعمل بها، ﴿ونَزَّلنا علَيكُمُ المَنَّ والسَّلوَى﴾هما التُّرَنْجِبِينُ والطيرُ السُّمانَى، بتخفيف الميم والقصر. والمُنادى مَن وُجِد من اليهود زمنَ النبيِّ ﷺ، وخُوطبوا بما أنعم الله به على أجدادهم زمنَ النبيِّ مُوسَى ـ عليه السلام ـ توطئةً لقوله تعالى لهم:

٨١ ـ ﴿كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رزَقْناكُم﴾ أي: المُنعَمِ به عليكم، ﴿ولا تَطغَوا فِيهِ﴾ بأن تكفروا النِّعمة به، ﴿فيَحِلَّ علَيكُم غَضَبِي﴾، بكسر الحاء أي: يَجِبَ، وبضمّها أي: يَنزِلَ. ﴿ومَن يَحلِلْ علَيهِ غَضَبِي﴾ ـ بكسرِ اللام وضمِّها ـ ﴿فقَد هَوَى﴾: سقط في النار، ٨٢ ـ ﴿وإنِّي لَغَفّارٌ لِمَن تابَ﴾ من الشِّرك ﴿وآمَنَ﴾: وحَّد اللهَ، ﴿وعَمِلَ صالِحًا﴾ يَصدُق بالفرض والنفل، ﴿ثُمَّ اهتَدَى﴾ باستمراره على ما ذُكر إلى موته.

قولُه: (فِرْعَونَ) أو فرعَونَ وقومِه، فإنَّ العَدوَّ يُطلَقُ على المفردِ والجمعِ.

قولُه تعالى: (﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ﴾) أبو عمرٍو: (ووَعَدْنَاكُم) وحمزةُ والكِسائيُّ: (أنجيتُكم) و(وواعَدْتُكم) و(رزَقتُكُم) على التَّاءِ[1].

قولُه: (مَن وُجِدَ) أو: هُم، بعدَ إنجائِهم من البَحرِ وخُروجِهم من[2] التِّيهِ على إضمارِ: قُلنا.

قولُه: (بِأَنْ تَكفُرُوا) بالإخلالِ بشُكرِهِ، والتَّعدِّي عمَّا حَدَّ اللهُ لكم فيه، كالسَّرَفِ والبطَرِ والمنعِ عن المُستحِقِّ.

قولُه: (بِهِ) أي: بالطُّغيانِ.

قولُه: (يَجِبَ) لكم، ويلزَمَكُم عذابِي.

قولُه: (وبِضَمِّهَا) كسائيٌّ، وكذا فيما بعدَهُ[3].

قولُه: (سَقَطَ) أو وقعَ في الهاويةِ، أو: فقد تَردَّى وهلَكَ.

قولُه: (وَحَّدَ اللهَ) والأظهَرُ: بما يجِبُ الإيمانُ به.

قولُه: (والنَّفلِ) قلتُ: النَّفلُ زيادةٌ.

قولُه: (بِاستِمرَارِهِ) واستقامتِهِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٢).

(٢) في النسخ عدا (ص): «عن».

(٣) أي: (فيحُل) و(يحلُل)، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٠).

٨٣ ـ ٨٤ ـ ﴿وما أعجَلَكَ عَن قَومِكَ﴾ لمجيءِ مِيعاد أخذ التوراة؟ ﴿يا مُوسَى. قالَ: هُم أُولاءِ﴾ أي: بالقرب منّي يأتون ﴿علَى أثَرِي، وعَجِلتُ إلَيكَ ـ رَبِّ ـ لِتَرضَى﴾ عنّي أي: زيادةً على رضاك. وقَبلَ الجوابِ أتى بالاعتذار بحسَب ظنّه، وتخلّفَ المظنون لِما ٨٥ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى: ﴿فإنّا قَد فَتَنّا قَومَكَ مِن بَعدِكَ﴾ أي: بعدِ فراقك لهم، ﴿وأضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ فعبدوا العِجلَ.

٨٦ ـ ﴿فرَجَعَ مُوسَى إلَى قَومِهِ غَضبانَ﴾ من جِهتهم ﴿أسِفًا﴾: شديد الحُزن.........................

قولُه: (وقَبلَ الجَوَابِ) حاصِلُ ما ذكرَهُ المفسِّرونَ: أنَّه مَضَى مع السَّبعينَ الَّذينَ اختارَهُم من قومِه إلى الطُّورِ، ثمَّ تقدَّمَ شوقاً إلى كلامِ ربِّه، وطلباً لزيادةِ مرضاتِهِ، والمُفْتَتُونَ هم الَّذين خلَّفَهُم معَ هارونَ. قالَ في «الكشَّافِ»: وليسَ لقولِ من جوَّزَ أن يُرادَ جميعُ قومِهِ وأن يكونَ [قد] فارقَهُم قبلَ الميعادِ وَجهٌ صحيحٌ[1].

قالَ[2] القاضي: ﴿ومَا أَعْجَلَكَ﴾ سؤالٌ عن سبَبِ العجَلةِ يتضمَّنُ إنكارَها من حيثُ إنَّها نقيصَةٌ في نفسِها انضمَّ إليها إغفالُ القومِ وإيهامُ التَّعظُّمِ عليهم، فلذلكَ أجابَ مُوسى عن الأمرَينِ، وقدَّمَ جوابَ الإنكارِ لأنَّه أهمُّ[3].

قولُه: (فِرَاقِكَ) أي: بعد خُروجِكَ من بينِهِم.

قولُه: (فعَبدُوا) وكانوا ستَّ مِئةِ ألفٍ ما نجا مِنهُم من عبادَةِ العِجلِ إلَّا اثنا عشرَ ألفاً، والسَّامريُّ منسُوبٌ إلى قبيلةٍ من بني إسرائيلَ يُقالُ لها: السَّامرةُ[4]، وأنَّه ابنُ خالِ مُوسى[5]، وقيلَ: كانَ من أهلِ كَرمانَ[6]، وقيلَ: من قريةٍ اسمُها سامِرةُ، وقيل: كانَ مُنافقاً، واسمُه: مُوسى بنُ ظَفَر[7].

قولُه تعالى: (﴿فَرَجَعَ﴾) بعدَما استَوفى الأربَعينَ وأخذَ التَّوراةَ.

قولُه: (مِن جِهَتِهِم) أي: عليهم.

قولُه: (شَدِيدَ الحُزْنِ) بما فَعَلوا.

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٨٠). وراد: يأبَاه قَولُه: ﴿هم أولاء على أثري﴾. وقوله: «يأباه» جملة مبينة لقوله: «ليس...» كما قال الجاربردي في «الحاشية على الكشاف» (ح٢/ و١٣٠ب)

(٢) قبلها في (ص) و(د): «قولُه: وتخلف المظنون».

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٣٥).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٦٣) عن قتادة.

(٥) انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية (٤/ ٥٧).

(٦) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٥٨٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما

(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٩٢١) عن ابن عباس رضي الله عنه

﴿قالَ: يا قومِ، ألَم يَعِدْكُم رَبُّكُم وَعدًا حَسَنًا﴾ أي: صِدقًا أنه يُعطيكم التوراة؟ ﴿أفطالَ علَيكُمُ العَهدُ﴾: مُدّةُ مُفارقتي إياكم؟ ﴿أم أرَدتُم أن يَحِلَّ﴾: يجبَ ﴿علَيكُم غَضَبٌ مِن رَبِّكُم﴾ بعِبادتكم العجلَ، ﴿فأخلَفتُم مَوعِدِي﴾ وتركتم المجيء بعدي. ٨٧ ـ ﴿قالُوا: ما أخلَفْنا مَوعِدَكَ بِمِلكِنا﴾، مُثلّث الميم أي: بقُدرتنا أو أمرنا، ﴿ولكِنّا حَمَلْنا﴾ ـ بفتح الحاء مُخفّفًا وبضمّها وكسر الميم مُشدّدًا ـ ﴿أوزارًا﴾: أثقالاً ﴿مِن زِينةِ القَومِ﴾ أي: حُليّ قوم فِرعون، استعارَها منهم بنو إسرائيل بعِلّة عُرس فبقيتْ عندهم، ﴿فقَذَفناها﴾: طرحناها في النار بأمر السامريّ. ﴿فكَذلِكَ﴾: كما ألقَينا ﴿ألقَى السّامِرِيُّ﴾ ما معه من حُليّهم ومن التراب الذي أخذه من أثرِ حافرِ فرسِ جِبريلَ، على الوجه الآتي:

٨٨ ـ ﴿فأخرَجَ لَهُم عِجلاً﴾ صاغه من الحُليّ، ﴿جَسَدًا﴾ لحمًا ودمًا ﴿لَهُ خُوارٌ﴾ أي: صوت يُسمع، أي: انقلبَ كذلك بسبب التراب الذي أثرُه الحياةُ فيما يُوضع فيه، ووضعَه بعد صوغه في فمه،

قولُه: (العِجْلَ) الذي هو مثَلٌ في الغَباوَةِ.

قولُه: (وتَرَكْتُم) هذا مبنيٌّ على أصلٍ فاسِدٍ قد تقدَّمَ، فالصَّوابُ أنَّ المعنى: فأخلَفتُم وعدَكُم إيَّايَ بالثَّباتِ على الإيمانِ باللهِ والقيامِ على ما أمرتُكُم به.

قولُه: (مُثلَّث) فنافعٌ وعاصمٌ بالفتحِ، وحمزةُ والكِسائيُّ بالضَّمِّ[1].

قولُه: (أَوْ أَمْرِنَا) أي: بأن ملَكْنا أمرَنا؛ إذ لو خُلِّينا وأمرَنا ولم يسوِّلْ لنا السَّامريُّ لَمَا أخلفْناهُ.

قولُه: (مُخَفَّفاً) حقُّ العبارَةِ: بفتحِ الحاءِ والميمِ مخفَّفاً، وهو قراءَةُ بَصريٍّ وشعبةَ وحمزةَ والكِسائيِّ[2].

قولُه: (أَثقَالاً) وأحمالاً، ولعلَّهم سمَّوها أوزاراً لأنَّها آثامٌ، فإنَّ الغنائمَ لم تكُنْ تحلُّ بعدُ.

قولُه: (بِأَمرِ السَّامِرِيِّ) رُويَ أنَّهم لمَّا حَسَبوا ـ بفتحِ السِّين ـ أنَّ العِدَّةَ قد كملَتْ، قالَ لهم السَّامريُّ: إنَّما أخلَفَ مُوسى ميعادَكُم لِمَا معَكُم من حُليِّ القومِ، وهو حَرامٌ عليكُم، فالرَّأيُ أن نحفِرَ حفيرَةً، ونسجرَ فيها ناراً، ونقذِفَ كلَّ ما مَعَنا فيها، ففَعَلوا[3].

قولُه: (مِنَ الحُلِيِّ) المذابِ.

قولُه: (أي: صَوْتٌ) والخُوارُ: صَوتُ العِجلِ[4].

---

(١) والباقون بكسر الميم. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٣).

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣٥٥) نحوه عن قتادة.

(٤) انظر: «تاج العروس» (١١/ ٢٣١).

﴿فقالُوا﴾ أي: السامريّ وأتباعه: ﴿هذا إلَـهُكُم وإلَـهُ مُوسَى، فنَسِيَ﴾ مُوسَى ربّه هنا، وذهب يطلبه. ٨٩ ـ قال تعالى: ﴿أفلا يَرَونَ أنْ﴾ ـ مُخفّفةٌ من الثقيلة واسمها محذوف ـ أي: أنّه ﴿لا يَرجِعُ﴾ العِجلُ ﴿إلَيهِم قَولاً﴾أي: لا يردّ لهم جوابًا، ﴿ولا يَملِكُ لَهُم ضَرًّا﴾ أي: دَفْعَه ﴿ولا نَفعًا﴾ أي: جَلْبَه؟ أي: فكيف يُتّخذ إلَـهًا؟

٩٠ ـ ﴿ولَقَد قالَ لَهُم هارُونُ مِن قَبلُ﴾أي: من قبلِ أن يرجع مُوسَى: ﴿يا قَومِ، إنَّما فُتِنتُم بِهِ، وإنَّ رَبَّكُمُ الرَّحمنُ. فاتَّبِعُوني﴾ في عِبادته، ﴿وأطِيعُوا أمرِي﴾ فيها. ٩١ ـ ﴿قالُوا: لَن نَبرَحَ﴾: نزالَ ﴿علَيهِ عاكِفِينَ﴾: على عِبادته مُقيمين ﴿حَتَّى يَرجِعَ إلَينا مُوسَى﴾.

٩٢ ـ ﴿قالَ﴾ موسى بعد رُجوعه: ﴿يا هارُونُ، ما مَنَعَكَ، إذ رأيتَهُم ضَلُّوا﴾ بعِبادته، ٩٣ ـ ﴿ألاّ تَتَّبِعَنِيَ﴾؟ لا: زائدة. ﴿أفعَصَيتَ أمرِي﴾ بإقامتك بين مَن يعبد غير اللهِ؟ ٩٤ ـ ﴿قالَ﴾ هارون: ﴿يا ابنَ أُمَّ﴾، بكسر الميم وفتحها. أراد: أُمّي. وذِكرُها أعطفُ لقلبه. ﴿لا تأخُذْ بِلِحْيَتِي﴾، وكان أخذها بشِماله، ﴿ولا بِرأسِيَ﴾..

قولُه: (وأَتْبَاعُهُ) يعني: من افتُتِنَ به أوّلَ ما رآه.

قولُه: (رَبَّهُ) الأظهَرُ في التَّقديرِ: نسيَهُ مُوسى.

قولُه تعالى: (﴿أَفَلَا يَرَونَ﴾) أفلا يَعلمونَ.

قولُه: (أي: أنَّهُ) أي: الشَّأنَ.

قولُه: (أي: رَفْعَهُ) وفي نُسخةٍ: «دفعَهُ»[1] وهو الأَولى لعُمومِ المعنى.

قولُه: (فِيْهَا) أو: في الثَّباتِ على الدِّينِ.

قولُه: (لا زَائِدَةٌ) كما في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] يعني: في الغَضبِ للهِ والمقاتَلةِ مع مَن كفَرَ به، أو: أن تأتي عَقِبي وتلحَقَني.

قولُه: (بِإِقَامَتِكَ) أو بالصَّلابةِ في الدِّينِ والمُحاماةِ عليه.

قولُه: (بِكَسْرِ المِيْمِ) شاميٌّ وشعبةُ وحمزةُ والكِسائيُّ[2].

قولُه: (أَعْطَفُ) وأرَقُّ، والجمهورُ على أنّهما كانا من أبٍ وأمٍّ.

(١) وهكذا هي في نسخ المتن المعتمدة.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٣).

وكان أخذ شعره بيمينه غضبًا. ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ ـ لو اتّبعتُك، ولا بُدّ أن يتبعني جمع ممّن لم يعبد العِجل ـ ﴿أَن تَقُولَ: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسرائيلَ﴾، وتغضبَ عليَّ. ﴿ولَم تَرْقُبْ﴾: تنتظر ﴿قَوْلِي﴾ فيما رأيتُه في ذلك.

٩٥ـ٩٦ـ ﴿قالَ: فما خَطْبُكَ﴾: شأنك الداعي إلى ما صنعتَ؟ ﴿يا سامِرِيُّ. قالَ: بَصُرتُ بِما لَم يَبصُرُوا بِهِ﴾ ـ بالياء والتاء ـ أي: علمتُ ما لم يعلموه، ﴿فقَبَضتُ قَبْضَةً مِن﴾ تُراب ﴿أَثَرِ﴾ حافرِ فرسِ ﴿الرَّسُولِ﴾ جِبريلَ، ﴿فنَبَذْتُها﴾: ألقيتها في صورة العِجل المصوغ. ﴿وكَذلِكَ سَوَّلَتْ﴾: زيّنت ﴿لِي نَفسِي﴾، وأُلقِيَ فيها أن آخذَ قبضة من تُراب ما ذُكر، وأُلقيَها على ما لا روح له، فيصيرَ له روح..

قولُه: (غَضَباً) قبضَ عليهما يجرُّهُ إليه من شدَّةِ غيظِه وفَرطِ غضبِهِ لله، وكانَ عليه السَّلامُ حديداً خشِناً متصلِّباً في كلِّ شيءٍ، فلم يتمالَكْ حين رآهُم يعبُدونَ العِجلَ.

قولُه: (لَو اتَّبَعْتُكَ) أو: لو قاتَلتُ، أو فارَقتُ بعضَهم ببَعضٍ.

قولُه: (تَنتَظِرْ) الظَّاهرُ: تُراعِ.

وقولُه: (﴿قَوْلِي﴾) أي: حينَ قلتُ: ﴿اخلُفْني في قومي وأصلِحْ﴾ []؛ فإنَّ الإصلاحَ كانَ في حفظِ سَوادِ الجماعَةِ والمداراةِ بهم إلى أن ترجِعَ إليهم فتدَّاركَ الأمرَ برأيكَ.

قولُه: (شَأْنُكَ) ثمَّ أقبلَ على السَّامريِّ وقالَ له مُنكراً.

قولُه: (والتَّاءِ) للخطابِ، حمزةُ والكِسائيُّ(١).

قولُه: (أي: علِمْتُ) قالَ الزَّجَّاجُ(٢): بصُرَ: علِمَ، وأبصَرَ: نظَرَ.

قولُه: (أي: جِبْرِيلَ) حين جاءكَ على فرَسِ الحياةِ، قيل: لم يُسَمِّه لأنَّه لم يعرِف أنَّه جبريلُ، أو أرادَ أن يُنبِّهَ على الوقتِ؛ وهو حينَ أُرسِلَ إليه ليذهَبَ به إلى الطُّورِ، قيل: إنَّما عرفَهُ لأنَّ أمَّه ألقَتهُ حين ولدَتْه خوفاً من فرعونَ، وكانَ جبريلُ يغذوهُ حتَّى استقلَّ(٣).

قولُه: (فِي صُورَةِ العِجْلِ) أي: في الحليِّ الـمُذابِ، أو في جَوفِ العِجلِ حتَّى حييَ.

قولُه: (زَيَّنَتْ) أي: زيَّنَته وحسَّنتهُ إليَّ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٤).

(٢) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٣/ ٣٧٤).

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (٢/ ٦٤) نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ورأيتُ قومك طلبوا منك أن تجعل لهم إلَـهًا، فحدّثـتْني نفسي أن يكون ذلك العِجل إلَـهَهُم.

٩٧ ـ ﴿قالَ﴾ له مُوسَى: ﴿فاذهَبْ﴾ مِن بينِنا. ﴿فإنَّ لَكَ في الحَياةِ﴾ أي: مُدّةِ حياتك ﴿أن تَقُولَ﴾ لمَن رأيتَه: ﴿لا مِساسَ﴾أي: لا تَقرَبْني ـ فكان يهيم في البرّيّة، وإذا مسّ أحدًا أو مسّه أحدٌ حُمّا جميعًا ـ ﴿وإنَّ لَكَ مَوعِدًا﴾ لعذابك ﴿لَن تُخلِفَهُ﴾، بكسر اللام أي: لن تَغيبَ عنه، وبفتحها أي: بل تُبعَثُ إليه. ﴿وانظُرْ إلَى إلَـهِكَ الَّذِي ظَلْتَ﴾ ـ أصله «ظَلِلْتَ» بلامين أُولاهما مكسورة حُذفت تخفيفًا ـ أي: دُمتَ ﴿علَيهِ عاكِفًا﴾ أي: مُقيمًا تعبده. ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار، ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ في اليَمِّ نَسفًا﴾: نُذرِيَنّه في هواء البحر. وفعلَ مُوسَى بعد ذبحه ما ذَكره. ٩٨ ـ ﴿إنَّما إلَـهُكُم اللهُ الَّذِي لا إلَـهَ إلاّ هُوَ، وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ عِلمًا﴾: تمييز مُحوّل من الفاعل، أي: وسع علمُه كُلّ شيء.

قولُه: (لَهُم) الصَّوابُ: له[1].

قولُه: (أي: مُدَّةَ حَيَاتِكَ) عُقوبةً على ما فعلْتَ.

قولُه: (أي: لا تَقْرَبْنِي) وفي «الصِّحاحِ»: أي: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ[2].

قولُه: (فِي البَرِّيَّةِ) طَريداً وحيداً كالوَحشِ النَّافرِ.

قولُه: (لِعَذَابِكَ)[3] في الآخرَةِ.

قولُه: (بكَسْرِ اللَّامِ) مكِّيٌّ وبَصريٌّ[4].

قولُه: (لَنْ تَغِيبَ عَنْهُ) هذا حاصِلُ المعنى، والتَّقديرُ: لن تُخلِفَ الواعِدَ إيَّاهُ؛ أي: الموعدَ، وستَأتيهِ لا محالَةَ، فحذفَ المفعولُ الأوَّلُ لأنَّ المقصودَ هو الموعِدُ، ويجوزُ أن يكونَ مِن أخلفْتُ الموعِدَ: إذا وجدتَهُ خُلفاً.

قولُه: (وبِفَتحِهَا) أي: لن يُخلِفَكَ اللهُ، ويُنجِزُه لك في الآخرَةِ بعدما عاقبكَ في الدُّنيا.

قولُه: (أي: مُقِيماً تَعبُدُه) الأظهَرُ: على عبادتِهِ مُقيماً.

قولُه: (لنُذْرِيَنَّه) رَماداً، فلا يصادَفُ منه شيءٌ، والمقصودُ من ذلك: زيادَةُ عقوبتِهِ وإظهارُ غَباوةِ المفتتِنينَ به لـمَن له أدنى عقلٍ.

قولُه تعالى: (﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾) المستحِقُّ لعبادتِكم.

---

(١) لم أجد في المتن «لهم» صوابها: «له».

(٢) انظر: «الصحاح» (٣/ ٩٧٨).

(٣) في (د): «بعذابك».

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٢).

٩٩ ـ ﴿كَذٰلِكَ﴾ أي: كما قصصنا عليك ـ يا مُحمّد ـ هذه القِصّةَ ﴿نَقُصُّ علَيكَ مِن أنباءِ﴾: أخبارِ ﴿ما قَد سَبَقَ﴾ من الأُمم، ﴿وقَد آتيناكَ﴾: أعطيناك ﴿مِن لَدُنّا﴾: من عِندنا ﴿ذِكرًا﴾: قرآنًا، ١٠٠ ـ ﴿مَن أعرَضَ عَنهُ﴾ فلم يُؤمن به ﴿فإنَّهُ يَحمِلُ يَومَ القِيامةِ وِزْرًا﴾: حِملاً ثقيلاً من الإثم، ١٠١ ـ ﴿خالِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في عذاب الوِزر، ﴿وساءَ لَهُم يَومَ القِيامةِ حِملاً﴾! تمييزٌ مُفسِّر للضمير في «ساء» ـ والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره: وِزرُهم. واللام: للبيان ـ ويُبدَل من «يومَ القيامة»: ١٠٢ ـ ﴿يَومَ يُنفَخُ في الصُّورِ﴾: القرنِ النفخةَ الثانية، ﴿ونَحشُرُ المُجرِمِينَ﴾: الكافرين ﴿يَومَئِذٍ زُرقًا﴾ عيونُهم، مع سواد وجوههم، ١٠٣ ـ ﴿يَتخافَتُونَ بَينَهُم﴾: يتسارُّون: ﴿إن﴾: ما ﴿لَبِثتُم﴾ في الدنيا ﴿إلاّ عَشْرًا﴾ من الليالي بأيامها. ١٠٤ ـ ﴿نَحنُ أعلَمُ بِما يَقُولُونَ﴾ في ذلك،..........

قولُه: (قُرْآناً) مُشتمِلاً على هذه الأخبارِ، وقيل: ذِكراً جميلاً وصيتاً عَظيماً بين النَّاسِ.

قولُه: (فَلَمْ يُؤمِنْ به) أي: بالقُرآنِ، أو: باللهِ.

قولُه: (مِنَ الإِثْمِ) أو عقُوبَةً ثقيلَةً على كُفرِه.

قولُه: (عَذَابِ الوِزْرِ) أو حملِه، والجمعُ فيه والتَّوحيدُ في ﴿أعرض﴾ للحملِ على المعنَى واللَّفظِ.

قولُه: (فِي ﴿سَاءَ﴾) بمعنى: بئسَ.

قولُه: (لِلْبَيَانِ) فيكونُ متعلِّقاً بمَحذوفٍ كأنَّه سُئِلَ: لـمَن؟

قولُه تعالى: (﴿فِي الصُّورِ﴾) وأبو عَمرٍو بالنُّونِ[١]، على إسنادِ النَّفخِ إلى الآمرِ به تَعظيماً له، أو للنَّافخِ.

قولُه: (عُيُونُهُم) وُصِفُوا بذلك لأنَّ الزَّرَقَ أسوأُ[٢] ألوانِ العينِ، وأبغَضُها إلى العربِ؛ لأنَّ الرُّومَ كانوا أعدى أعدائِهم، وهم زُرْقُ العيون غالباً.

أو: زُرْقُ البدَنِ، أو الوجهِ، وهو اسودادُهُ.

قولُه: (يَتَسَارُّونَ) أي: يخفِضونَ أصواتَهُم لِمَا يملأُ صدورَهُم من الرُّعبِ والهَولِ.

قولُه: (فِي الدُّنيَا) وقيل: في القَبرِ، وقيلَ: بين النَّفختَينِ.

قولُه: (بأَيَّامِهَا) الأَولى تركُهُ.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) أي: الوقتِ أو المقدارِ، وهو مدَّةُ لبثِهم. قالَ البغويُّ: أي: يتشاوَرونَ فيه[٣].

---

(١) أي: ﴿ننفخ﴾ انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٣).

(٢) في (ص): «أشر».

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٧٤).

أي: ليس كما قالوا، ﴿إذ يَقُولُ أَمْثَلُهُم﴾: أعدلُهم ﴿طَرِيقَةً﴾ فيه: ﴿إن لَبِثتُم إلاّ يَومًا﴾. يستقلّون لَبثهم في الدنيا جِدًّا لِما يُعاينونه في الآخرة من أهوالها.

١٠٥ ـ ﴿ويَسألُونَكَ عَنِ الجِبالِ﴾: كيف تكون يوم القيامة؟ ﴿فقُلْ﴾ لهم: ﴿يَنسِفُها رَبِّي نَسفًا﴾ بأن يُفتّتها كالرمل السائل، ثمّ يُطيّرها بالرياح، ١٠٦ ـ ﴿فيَذَرُها قاعًا﴾: مُنبسطًا ﴿صَفصَفًا﴾: مُستويًا، ١٠٧ ـ ﴿لا تَرَى فِيها عِوَجًا﴾: انخفاضًا ﴿ولا أَمْتًا﴾: ارتفاعًا. ١٠٨ ـ ﴿يَومَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ نُسفَتِ الجبالُ، ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ أي: الناسُ بعد القِيام من القُبور، ﴿الدّاعِيَ﴾ إلى المحشر بصوته ـ وهو إسرافيل، يقول: هلمّوا إلى عرض الرحمن ـ ﴿لا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لِاتّباعهم، أي: لا يقدرون ألاّ يتّبعوا، ﴿وخَشَعَتِ﴾: سَكنَتِ ....

قولُه: (أَيْ: لَيْسَ كَمَا قَالُوا) ليسَ في الكلامِ ما يدلُّ عليه.

قولُه تعالى: (﴿طَرِيقَةً﴾) رأياً.

قولُه: (لِمَا يُعَايِنُوهُ) الصَّوابُ: لِمَا يعاينونَهُ[1]، أو: لزَوالِها، أو: لاستطالتِهم مدَّةَ الآخرةِ، وقيل: نَسوا مِقدارَ لبثِهم لشدَّةِ ما دهمهُم، وفيه ترجيحٌ لقَولِ مَن يكونُ أشدَّ تقالًّا منهُم.

قولُه تعالى: (﴿فَيَذَرُهَا﴾) أي: مقرَّها، أو: الأَرضَ؛ لدلالَةِ الجبالِ عليها.

قولُه: (مُنبَسِطاً) قيلَ: خالياً.

قولُه: (مُسْتَوِياً) كأنَّ أجزاءَها على صفٍّ واحدٍ.

قولُه: (إِذْ نُسِفَت) على إضافَةِ اليومِ إلى وقتِ النَّسفِ.

قولُه تعالى: (﴿الدَّاعِيَ﴾) أي: داعيَ اللهِ.

قولُه: (يَقُولُ) وذلك أنّه يضعُ الصُّورَ في فيهِ، ويقولُ: أيّتُها العِظامُ الباليَةُ، والجلودُ المتمزِّقةُ، واللُّحومُ المتفرِّقةُ، هلُمُّوا[2].

قولُه: (أَي: لاتِّباعِهِم) وقالَ البغويُّ[3]: أي: لدُعائهِ، وهو مقلوبٌ؛ أي: لا عِوجَ لهم عن دُعائهِ، لا يزيغونَ عنه يميناً وشِمالاً، ولا يقدِرونَ، بل يتَّبعونَهُ سِراعاً. وتكلَّفَ القاضِي بقولِه: لا يَعوَجُّ له مدعوٌّ، ولا يعدِلُ عنه[4].

قولُه: (سَكَنَتْ) وذلَّتْ وخضعَتْ، أو خُفضَتْ لمهابتِهِ.

---

(١) وهكذا وقعت على الصواب في نسخ المتن.

(٢) روى الطبري في «تفسيره» (٢٢/ ٣٨٢) نحوه عن قتادة عن كعب الأحبار.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٧٥).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٣٩).

﴿الأصواتُ لِلرَّحمنِ، فلا تَسمَعُ إلاّ هَمسًا﴾: صوتَ وطءِ الأقدام في نقلها إلى المحشر، كصوت أخفاف الإبل في مشيها.

١٠٩ ـ ﴿يَومَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفاعةُ﴾ أحدًا ﴿إلاّ مَن أذِنَ لَهُ الرَّحمنُ﴾ أن يُشفع له، ﴿ورَضِيَ لَهُ قَولاً﴾، بأن يقول: لا إلَـهَ إلاّ اللهُ، ١١٠ ـ ﴿يَعلَمُ ما بَينَ أيدِيهِم﴾ من أُمور الآخرة، ﴿وما خَلفَهُم﴾ من أُمور الدنيا، ﴿ولا يُحيطُونَ بِهِ عِلمًا﴾: لا يعلمون ذلك، ١١١ ـ ﴿وعَنَتِ الوُجُوهُ﴾: خضعتْ ﴿لِلحَيِّ القَيُّومِ﴾ أي: الله، ﴿وقَد خابَ﴾: خسر ﴿مَن حَمَلَ ظُلمًا﴾ أي: شِركًا، ١١٢ ـ ﴿ومَن يَعمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ﴾: الطاعات، ﴿وهُوَ مُؤمِنٌ، فلا يَخافُ ظُلمًا﴾ بزيادة في سيِّئاته، ﴿ولا هَضمًا﴾ بنقص من حسناته.

١١٣ ـ ﴿وكَذلِكَ﴾ معطوفٌ على «كَذلِكَ نَقُصّ»، ....

قولُه: (كَصَوتِ) أي: صوتاً خفيًّا كصَوتِ، وهو تلفيقٌ؛ لأنَّه قَولٌ ثانٍ.

قولُه: (أَحَداً) فالاستِثناءُ من أعمِّ المفاعِيلِ.

وقولُه: (أَن يَشفَعَ) بتَقديرِ: في؛ يعني: فإنَّ الشَّفاعَةَ تنفعُه.

قولُه: (بأَن يَقُولَ) هو قولُ ابنِ عبَّاسٍ[1]، وهو يدلُّ على أنَّه لا يشفعُ لغيرِ المؤمنِ.

قولُه: (مِن أُمُورِ الآخِرَةِ) أي: ما تقدَّمَهم من الأحوالِ.

قولُه: (مِن أُمُورِ الدُّنيا) أي: ما بعدَهم ممَّا يستقبلونَهُ.

قولُه: (ذَلِكَ) أي: ما ذُكرَ من الموصُولينِ، فإنَّهم لم يعلَمُوا جميعَ ذلك، ولا تفصيلَ ما عَلِمُوا منه، ولا يُحيطُ علمُهُم بمَعلوماتِهِ أو بذاتِهِ.

قولُه: (خضَعَتْ) خُضوعَ العُناة، جمعُ: العَاني؛ أي: الأسيرِ في يدِ الملكِ القَهَّارِ.

قولُه: (الطَّاعَاتِ) أي: بَعضِها.

وقولُه تعالى: (﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾) إذِ الإيمانُ شرطٌ في صحَّةِ الطَّاعاتِ وقَبولِ الخيراتِ[2].

قولُه: (بزِيَادَةٍ) والمكِّيُّ بالنَّهيِ[3].

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٢٢٢)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٧٥).

وروى الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٢٩)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٢) عن ابن عباس، في قول الله عز وجل: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [الأنبياء: ٢٨] يقول: الذين ارتضاهم بشهادة أن لا إله إلا الله.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧١).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٤).

أي: مثلَ إنزال ما ذُكر ﴿أنزَلْناهُ﴾ أي: القرآنَ ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا، وصَرَّفْنا﴾: كرّرنا ﴿فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ، لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ الشِّركَ، ﴿أو يُحدِثُ لَهُم﴾ القُرآنُ ﴿ذِكرًا﴾ بهلاكِ مَن تقدّمهم من الأُمم فيعتبرون.

١١٤ ـ ﴿فتَعالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾ عمّا يقول المُشركون! ﴿ولا تَعجَلْ بِالقُرآنِ﴾ أي: بقراءته ﴿مِن قَبلِ أن يُقضَى إلَيكَ وَحيُهُ﴾ أي: يَفرغَ جبريل من إبلاغه، ﴿وقُل: رَبِّ، زِدْنِي عِلمًا﴾ أي: بالقُرآن. فكُلّما نزل عليه شيء منه زاد به علمه. ١١٥ ـ ﴿ولَقَد عَهِدْنا إلَى آدَمَ﴾: وصّيناه ألاّ يأكل من الشجرة ﴿مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ أكله منها، ﴿فنَسِيَ﴾: ترك عهدنا، ﴿ولَم نَجِدْ لَهُ عَزمًا﴾ حزمًا وصبرًا عمّا نهيناه عنه.

١١٦ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ قُلْنا لِلمَلائكةِ: اسجُدُوا لِآدَمَ. فسَجَدُوا إلاّ إبلِيسَ﴾ ـ وهو أبو الجِنّ، كان يصحب الملائكة ويعبد الله معهم ـ ﴿أبَى﴾ عن السجود لآدمَ، «قالَ: أنا خَيرٌ مِنهُ»، ١١٧ ـ ﴿فقُلْنا: يا آدَمُ، إنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ ولِزَوجِكَ﴾: حوّاءَ بالمدّ. ﴿فلا يُخرِجَنَّكُما مِنَ الجَنّةِ، فتَشقَى﴾: تتعبَ بالحرث والزرع والحصد والطحن والخبز وغير ذلك. واقتُصر على شقاه لأنّ الرجل يسعى على زوجته. ١١٨ ـ ١١٩ ـ ﴿إنَّ لَكَ ألاّ تَجُوعَ فِيها ولا تَعرَى، وأنَّكَ﴾ ـ بفتحِ الهمزة وكسرِها، عطفٌ على اسمِ «إنّ»

قولُه: (مَا ذُكِرَ) من الآياتِ المتضمِّنةِ للوَعيدِ.

قولُه: (أي: القُرآنَ) كلُّه على هذهِ الوتيرةِ.

قولُه تعالى: (﴿مِنَ الوَعِيدِ﴾) أي: آياتِهِ.

قولُه: (بهلَاكِ) أو عِظةً، واعتِباراً به.

قولُه: (حَزْماً) وقيل: عزماً على الذَّنبِ؛ لأنّه أخطأ ولم يتعمَّد.

قولُه: (عَنِ السُّجُودِ) أي: امتنعَ عنه، والظَّاهرُ: أبى السُّجودَ، على حذفِ المفعولِ، والأظهرُ أنَّ مَعناهُ: أظهَرَ الإباءَ عن المطاوَعَةِ.

قولُه: (لِأنَّ الرَّجُلَ) يؤيِّدُه ما بعدَهُ، أو للفاصِلةِ، أو لاستِلزامِ شقائِهِ شَقاءَها، لا يقالُ: الصِّيغةُ مُشترَكةٌ بين المخاطَبِ والغائبةِ[١] فيعمُّهُما؛ لأنّه لا عُمومَ للمُشترَكِ عندنا.

قولُه: (وكَسْرِهَا) نافعٌ وشعبةُ[٢].

---

(١) في (ص): «بين المخاطبة الغائبة».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٤).

وجملتِها ـ ﴿لا تَظمَأُ فِيها﴾: تعطشُ ﴿ولا تَضحَى﴾: لا يحصُلُ لك حرٌّ شمس الضُّحى لانتفاء الشمس في الجنّة.

١٢٠ ـ ﴿فـوَسوَسَ إلَيهِ الشَّيطانُ، قالَ: يا آدَمُ، هَل أدُلُّكَ على شَجَرةِ الخُلدِ﴾ أي: التي يَخلد من يأكل منها، ﴿ومُلْكٍ لا يَبلَى﴾: لا يفنى. وهو لازمُ الخلود؟ ١٢١ ـ ﴿فأكَلا﴾ أي: آدمُ وحواءُ ﴿مِنها، فبَدَتْ لَهُما سَوءاتُهُما﴾ أي: ظهر لكُلّ منهما قُبُلُه وقُبُلُ الآخَرِ ودُبُرُه ـ وسُمِّيَ كُلٌّ منهما سَوءةً لأنّ انكشافه يسوء صاحبه ـ ﴿وطَفِقا يَخصِفانِ﴾: أخذا يُلزِقان ﴿علَيهِما مِن وَرَقِ الجَنّةِ﴾ ليستترا به، ﴿وعَصَى آدمُ رَبَّهُ فغَوَى﴾ بالأكل من الشجرة.

١٢٢ ـ ﴿ثُمّ اجتَباهُ رَبُّهُ﴾: قرّبه، ﴿فتابَ علَيهِ﴾: قَبِلَ توبتَه، ﴿وهَدَى﴾ أي: هداه إلى المُداومة....

قولُه: (وجُمْلَتِهَا) فيوقَفُ على ﴿وَلَا تَعْرَى﴾[1].

قولُه تعالى: (﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيطَانُ﴾) أي: أنهى وأوصَلَ إليه وسوستَهُ، على التَّضمِينِ.

قولُه: (الَّتِي يُخَلَّدُ) فأُضيفَ إلى السَّببِ بزعمِهِ.

قولُه: (لا يَفْنَى) أو: لا يَزولُ ولا يضعُفُ.

قولُه: (وهُوَ لازِمُ) غيرُ لازمٍ عند الملازمِ على التَّأمُّلِ، بل هو تذييلٌ وتكميلٌ.

قولُه: (بِهِ) وهو وَرقُ التِّينِ[2].

قولُه: (بالأَكْلِ) متعلّقٌ بقولِه: ﴿وَعَصَى﴾ وكان حقُّه التَّقدُّمَ.

و(غَوَى) معناهُ: ضَلَّ عن المطلوبِ وخابَ حيثُ طلبَ الخُلدَ بأكلِ الشَّجرةِ، أو: عن المأمورِ به المنهيِّ عنه، أو: عن الرُّشدِ حيثُ اغترَّ بقولِ العدوِّ، وفي النِّداءِ عليه بالعِصيانِ مع صِغَرِ زلَّتِه تعظيمٌ للزَّلَّةِ وزجرٌ بليغٌ لأولادِهِ عنها.

قولُه: (قَرَّبَهُ) أي: اصطَفاهُ، وقرَّبَهُ بالحملِ على التَّوبةِ والتَّوفيقِ له.

قولُه: (المُدَاوَمَةِ) الأظهرُ: الثَّباتِ، ومن دُعاءِ السَّيدِ الشَّاذليِّ: اللَّهمَّ اجعَلْ سيِّئاتي سيِّئاتِ مَن أحببْتَ، ولا تجعَلْ حسناتِي حسناتِ مَن أبغضْتَ.

---

(١) انظر: «منار الهدى في بيان الوقف والابتدا» (٢/ ٢٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤٤٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٣٠٢)، وابن الأعرابي في «معجمه» (٢١٤٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٤٥) وصححهن عن ابن عباس رضي الله عنهما.

على التوبة. ١٢٣ ـ ﴿قالَ: اهبِطا﴾ ـ أي آدمُ وحوّاء ـ بما اشتملتما عليه من ذُرّيّتكما، ﴿مِنها﴾: من الجنّة ﴿جَمِيعًا، بَعضُكُم﴾: بعضُ الذرّيّة ﴿لِبعضٍ عَدُوٌّ﴾ مِن ظُلم بعضهم بعضًا. ﴿فإمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطيّة في «ما» المزيدة ـ ﴿يأتِيَنَّكُم مِنّي هُدًى فمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ﴾ أي: القُرآنَ ﴿فلا يَضِلُّ﴾ في الدنيا، ﴿ولا يَشقَى﴾ في الآخرة، ١٢٤ ـ ﴿ومَن أعرَضَ عَن ذِكرِي﴾ أي: القُرآنِ، فلم يُؤمن به، ﴿فإنَّ لَهُ مَعِيشةً ضَنكًا﴾، بالتنوين مصدرٌ بمعنى: ضَيّقة ـ وفُسّرت في حديث بعذاب الكافر في قبره ـ ﴿ونَحشُرُهُ﴾ أي: المُعرِضَ عن القُرآن ﴿يَومَ القِيامةِ أعمَى﴾ أي: أعمى البصر.

قيل: قال إبليسُ: يا ربِّ، لِمَ لَمْ تقبَلْ توبَتي وقبلْتَ توبةَ آدمَ؟ فقالَ له: توبتُكَ أن تسجُدَ إلى قبرِ آدمَ، فقالَ: أبيتُ أنْ أسجدَ له حيًّا فكيفَ أسجدُ له ميتاً[(١)].

قولُه: (أيْ آدَمُ) «أي» ندائيَّةٌ، أو تفسيريةٌ، والأوَّلُ أظهرُ؛ لقولِه: (بِمَا اشتَمَلتُمَا).

قولُه: (مِن ذُرِّيَّتِكُما) فيُطابِقُ قولَه تعالى: ﴿اهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦]، ويوافِقُ قولَهُ: ﴿بَعْضُكُم﴾.

قولُه: (أي: القُرآنَ) يعني: الهُدى الذَّاكرَ لي، والدَّاعيَ إلى عبادَتي.

قولُه: (بالتَّنوِينِ) ـ وقُرِئَ: (ضَنكَى) كسَكْرَى[(٢)] ـ (مصدَرٌ) وُصِفَ به، ولذلك يَستوِي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ.

قولُه: (بحَدِيثٍ)[(٣)] مَرفوعٍ صحَّحَهُ الحاكمُ ورواهُ غيرُه[(٤)]، وجمهورُ السَّلفِ على هذا، فتعبيرُ البيضاويِّ بـ«قيلَ»[(٥)] ضعيفٌ، بل غيرُ صحيحٍ.

وقيلَ: لأنَّ مجامِعَ همِّهِ ومطامِحَ نظرِهِ يكونُ إلى أعراضِ الدُّنيا مُتهالِكاً على ازديادِها، خائفاً على انتِقاصِها، بخلافِ المؤمنِ الطَّالبِ للآخِرةِ.

قولُه: (البَصَرِ) أو القَلبِ، ويُؤيِّدُ الأوَّلَ ما بعدَهُ.

---

(١) روى ابن أبي الدنيا في «مكائد الشيطان» (٤٤) نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما.
وروى ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١/ ١٢٥)، وابن الجوزي في «المنتظم» (١/ ٢٤١) نحوه عن أنس رضي الله عنه.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٩٣) ونسبت للحسن.

(٣) كذا في النسخ، والذي في المتن: «في حديث» وهو الصواب.

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٣٩) وصححه، والبيهقي في «إثبات عذاب القبر» (٥٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٤١).

١٢٥ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، لِمَ حَشَرتَنِيَ أعمَى، وقَد كُنتُ بَصِيرًا﴾ في الدنيا وعِند البعث؟ ﴿قالَ﴾: ١٢٦ ـ الأمرُ ﴿كَذلِكَ، أتَتْكَ آياتُنا فنَسِيتَها﴾: تركتها ولم تُؤمن بها، ﴿وكَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ نِسيانك آياتِنا ﴿اليَومَ تُنسَى﴾: تُترَكُ في النار.

١٢٧ ـ ﴿وكَذلِكَ﴾: ومِثلَ جزائنا مَن أعرض عن القُرآن ﴿نَجزِي مَن أسرَفَ﴾: أشرك، ﴿ولَم يُؤمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ. ولَعَذابُ الآخِرةِ أشَدُّ﴾ من عذابِ الدنيا وعذابِ القبر ﴿وأبقَى﴾: أدوَمُ.

١٢٨ ـ ﴿أفلَم يَهدِ﴾: يَتبيّنْ ﴿لَهُم﴾: لكُفّار مكّة ﴿كَم﴾: خبريّةٌ مفعول ﴿أهلَكْنا﴾ أي: كثيرًا، إهلاكُنا ﴿قَبلَهُم مِنَ القُرُونِ﴾ أي: الأُمم الماضية بتكذيب الرسل، ﴿يَمشُونَ﴾: حالٌ من ضمير «لهم» ﴿في مَساكِنِهِم﴾ في سفرهم إلى الشام وغيرها فيعتبروا؟! وما ذُكر، من أخذ «إهلاك» مِن فعله الخالي عن حرف مصدريّ لرعاية المعنى، لا مانع منه.

﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ﴾: لَعِبرًا ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾: لِذوي العُقول. ١٢٩ ـ ﴿ولَولا كَلِمةٌ، سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ﴾

قولُه: (الأَمرُ) أو: مثلُ ذلك فعلْتَ، ثمَّ فسَّرَه فقالَ: ﴿أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ واضحةً نيِّرةً.

قولُه: (تَرَكْتَهَا) غيرَ مَنظورٍ إليها، وعمِيتَ عنها.

قولُه: (مِثْلَ نِسْيَانِكَ) أو تَركِكَ.

قولُه: (فِي النَّارِ) أو: في العَذابِ والعَمَى تَرْكَ المنسيِّ.

قولُه: (أَشْرَكَ) أو: بالانهماكِ في الشَّهواتِ، والإعراضِ عن الآياتِ، وتَركِ الطَّاعاتِ.

قولُه: (يَتَبَيَّنْ) مِن هدَى بمعنى: اهتَدى، ولذا عُدِّي باللَّامِ، أو معناهُ: يُبيِّنْ، فهو مُسنَدٌ إلى اللهِ أو الرَّسولِ؛ أي: بكثرَةِ إهلاكِنا، أو ما دلَّ عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾؛ أي: كثرةُ إهلاكِنا.

قولُه: (وغَيرِهَا) ويشاهِدونَ آثارَ هلاكِهِم[1].

قولُه: (فَيَعْتَبِرُوا) جَوابُ الاستِفهامِ[2].

قولُه: (إهلاكِ) والتَّقديرُ: أفلَم يتبيَّن إهلاكُنا كثيراً قبلَهُم.

قولُه: (مِنهُ) وفي نُسخةٍ: «فيه».

قولُه: (لِذَوِي العُقُولِ) النَّاهيةِ عن التَّغافُلِ والتَّعامي.

---

(١) في (ص): «إهلاكهم».

(٢) في (ص): «للاستفهام».

بتأخير العذاب عنهم إلى الآخرة، ﴿لَكانَ﴾ الإهلاك ﴿لِزامًا﴾: لازمًا لهم في الدنيا، ﴿وأجَلٌ مُسَمًّى﴾: مضروبٌ لهم، معطوف على الضمير المستتر في «كان»، وقام الفصل بخبرها مقام التأكيد.

١٣٠ ـ ﴿فاصبِرْ علَى ما يَقُولُونَ﴾ ـ منسوخ بآية القتال ـ ﴿وسَبِّحْ﴾: صلِّ ﴿بِحَمدِ رَبِّكَ﴾: حالٌ، أي: ملتبسًا به، ﴿قَبلَ طُلُوعِ الشَّمسِ﴾ صلاةَ الصُّبح ﴿وقَبلَ غُرُوبِها﴾ صلاةَ العصر، ١٣١ ـ ﴿ومِن آناءِ اللَّيلِ﴾: ساعاته ﴿فسَبِّحْ﴾ صلِّ المغربَ والعِشاءَ، ﴿وأطرافَ النَّهارِ﴾: عطفٌ على محلّ «من آناء» المنصوب، أي: صلِّ الظُّهرَ لأنّ وقتها يدخل بزوال الشمس، فهو طرَفُ النصف الأوّل وطرَفُ النصف الثاني، ﴿لَعَلَّكَ تَرضَى﴾ بما تُعطَى من الثواب، ١٣٢ ـ ﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَينَيكَ إلَى ما مَتَّعْنا بِهِ أزواجًا﴾: أصنافًا ﴿مِنهُم زَهرَةَ الحَياةِ الدُّنيا﴾: زِينَتَها وبهجتها، ﴿لِنَفتِنَهُم فِيهِ﴾ بأن يطغَوا ـ.........

قولُه: (بِتَأخِيرِ)[1] أي: العِدَةُ بتأخيرِ العَذابِ عن آيةِ الدَّعوةِ، أو: الكلمَةُ المكتوبَةُ في اللَّوحِ بإيمانِ بعضِهم، أو أولادِ بعضِهِم.

قولُه: (لَهُم) أي: لهؤلاءِ الكفَرةِ، و﴿لِزَامًا﴾ مصدرٌ وُصِفَ به؛ لأنَّ الخبرَ صفةُ المسنَدِ إليه.

قولُه: (فِي ﴿كَانَ﴾) أي: لكانَ الأخذُ العاجِلُ وأجلٌ مُسمًّى لازِمَينِ لهُم، أو عطفٌ على ﴿كَلِمَةٌ﴾؛ أي: ولولا العِدَةُ بتأخيرِ العذابِ وأجلٌ مُسمًّى لأعمارِهم ـ وهو يومُ القيامةِ أو [يوم] بدرٍ ـ لكانَ العَذابُ لِزاماً، والفَصلُ للفاصِلةِ، أو للدَّلالةِ على استقلالِ كلٍّ منهُما بنَفيِ لُزومِ العذابِ.

قولُه: (مَنْسُوخٌ) إن كان مُؤذِناً بعدمِ المقاتَلةِ.

قولُه: (حَالٌ) أي: وأنت حامدٌ لربِّكَ على هدايتِهِ وتوفيقِهِ.

قولُه: (صَلاةَ العَصْرِ) وحدَها، أو مع الظُّهرِ؛ لأنَّهما آخرُ النَّهارِ.

قولُه: (أي: صَلِّ الظُّهرَ) أو التَّطوُّعَ في أجزاءِ النَّهارِ.

قولُه: (النِّصْفِ الثَّانِي) وجمعُهُ باعتِبارِ النِّصفينِ، أو لأنَّ النَّهارَ جِنسٌ.

قولُه: (بِمَا تُعطَى) ما به ترضَى نفسُك، وقرأ الكِسائيُّ وشُعبةُ بالضَّمِّ[2]؛ أي: يُرضيكَ.

قولُه: (﴿عَيْنَيكَ﴾) أي: نظرَ عينَيكَ استِحساناً؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ المولى ذخيرتُهُ لم تلتفِت لسِواهُ بصيرتُهُ.

قولُه: (زِينَتَهَا) مفعولُ ما دلَّ عليه ﴿مَتَّعْنَا﴾؛ أي: جَعَلنا لهم، أو آتيناهُم.

قولُه: (بِأَن يَطغَوا) أي: نوقعَهُم في الفِتنَةِ، أو: لنَبلوَهُم ونختبرَهُم، أو: لنعذِّبَهُم في الآخرةِ بسببِهِ.

---

(١) في (ص): «بتأخيرها».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٤).

﴿ورزقُ رَبِّكَ﴾ في الجنّة ﴿خيرٌ﴾ ممّا أُوتُوه في الدنيا ﴿وأبقى﴾: أدوَمُ - ١٣٣ - ﴿وَاؤْمُرْ أهلَكَ بِالصَّلاةِ، واصطَبِرْ﴾: اصبر ﴿علَيها. لا نَسألُكَ﴾: نُكلّفك ﴿رِزقًا﴾ لنفسك ولا لغيرك. ﴿نَحنُ نَرزُقُكَ، والعاقِبةُ﴾: الجنّة ﴿لِلتَّقوَى﴾: لِأهلها.

﴿وقالُوا﴾ أي: المشركون: ﴿لَولا﴾: هلاّ ﴿يأتِينا﴾ مُحمّد ﴿بِآيَةٍ مِن رَبِّهِ﴾ ممّا يقترحونه. ﴿أوَلَم تأتِهِم﴾ - بالتاء والياء - ﴿بَيِّنَةُ﴾: بيانُ ﴿ما في الصُّحُفِ الأُولَى﴾ المُشتمِلُ عليه القُرآنُ من أنباء الأمم الماضية وإهلاكهم بتكذيب الرسل؟

١٣٤ - ﴿ولَو أنّا أهلَكْناهُم بِعَذابٍ مِن قَبلِهِ﴾: قبلِ مُحمّد الرسول ﴿لَقالُوا﴾ يومَ القِيامة:........

قولُه: (فِي الجَنَّةِ) أي: ما رزقَكَ من الهُدى والنُّبوَّةِ، وقيل: هو القَناعَةُ بما يملكُهُ والزُّهدُ عمَّا لا يملكُهُ، قالَ سهلٌ: أفضلُ رِزقِ العبدِ سكونُهُ إلى رازقِه[1].

قولُه: (وَأَدوَمُ) فإنَّه لا ينقطِعُ.

قولُه تعالى: (﴿أَهْلَكَ﴾) أمرَهُ بأن يأمُرَ أهلَ بيتِه أو التَّابعينَ له من أُمَّتِه بالصَّلاةِ، ولا يهتَمُّوا بأمرِ المعيشَةِ.

قولُه تعالى: (﴿وَاصْطَبِرْ﴾) أي: دَاوِمْ.

قولُه: (لا لِغَيرِكَ) الأظهرُ: لا لأهلِكَ، نحن نرزقُكَ وإيَّاهُم، ففرِّغْ بالَكَ لأمرِ الآخِرةِ.

قولُه: (الجَنَّةُ) أي: العاقِبةُ المحمودَةُ، رُوِيَ: أنَّه ﷺ إذا أصابَ أهله ضُرٌّ أمرَهُم بالصَّلاةِ، وتلا هذهِ الآيَةَ، رواهُ الطَّبرانيُّ والبيهقيُّ وغيرُهما[2].

قولُه: (ممَّا يَقْتَرِحُونَه) إنكارًا لما جاءَ به من الآياتِ، أو للاعتدادِ به تعنُّتاً وعِناداً، فألزمَهُم بإتيانِهِ بالقرآنِ الَّذي هو أُمُّ المعجزاتِ وأعظَمُها وأتقَنُها.

قولُه: (بالتَّاءِ) التَّأنيث نافعٌ وبصريٌّ وحفصٌ[3].

قولُه: (أي: قَبْلِ مُحَمَّدٍ الرَّسُوْلِ) الظَّاهرُ: أو الرَّسولِ، أو صحَّفَ «مجيءِ الرَّسولِ».

قولُه: (فِي القِيَامَةِ) أو بالقَتلِ والسَّبيِ في الدُّنيا.

---

(١) انظر: «تفسير التستري» (ص: ١٢١).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٧٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٩١١) من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٦٧): رجاله ثقات.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٥).

﴿رَبَّنا، لَولا﴾: هلاّ ﴿أرسَلْتَ إلَينا رَسُولاً، فنَتَّبعَ آياتِكَ﴾ المُرسَلَ بها ﴿مِن قَبلِ أن نَذِلَّ﴾ في القِيامة، ﴿ونَخزَى﴾ في جهنّم. ١٣٥ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿كُلٌّ﴾ منّا ومنكم ﴿مُترَبِّصٌ﴾: مُنتظرٌ ما يؤول إليه الأمر. ﴿فترَبَّصُوا. فسَتَعلَمُونَ﴾ في القِيامة: ﴿مَن أصحابُ الصِّراطِ﴾: الطريق ﴿السَّوِيِّ﴾: المُستقيم، ﴿ومَنِ اهتَدَى﴾ من الضلالة؟ أنحن أم أنتم؟

قولُه: (فِي جَهَنَّمَ) أو بدُخولِها.

قولُه: (مِنَّا) أي: كلُّ واحدٍ.

قولُه: (الأَمْرُ) أمرُنا وأمرُكُم، واللهُ أعلمُ.

* * *

سُورَةُ طه

وتُسمَّى أيضاً سورةَ الكليم كما ذكر السخاويُّ في «جمال القراء»[1]، وهي ـ كما أخرجَ ابنُ مردويه عن ابن عباس وابن الزبير ﷺ ـ مكيَّة[2]، واستثنى بعضُهم منها قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الآية [١٣٠].

وقال الجلال السيوطيّ[3]: ينبغي أنْ يُستثنى آيةٌ أخرى، فقد أخرج البزَّار وأبو يعلى عن أبي رافع قال: أضاف النبيُّ ﷺ ضيفاً، فأرسلني إلى رجلٍ من اليهود أنْ أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب، فقال: لا، إلَّا بِرَهْن، فأتيتُ النبيَّ عليه الصلاة والسلام فأخبرته، فقال: «أمَا والله إنِّي لأمينٌ في السماء أمينٌ في الأرض». فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾[4] الآية [١٣١] انتهى.

ولعلَّ ما رُوي عن الحبرين على القول باستثناء ما ذُكر باعتبار الأكثر منها.

وآياتها ـ كما قال الداني ـ مئةٌ وأربعون آية شامي، وخمس وثلاثون كوفي، وأربعٌ حجازي، وآيتان بصري.

ووجه الترتيب ـ على ما ذكره الجلال ـ أنَّه سبحانه لمَّا ذكر في سورة مريم قِصص عدَّةٍ من الأنبياء عليهم السلام، وبعضها مبسوطٌ كقصَّة زكريا ويحيى وعيسى

---

(١) ١/ ١٩٩.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٨٨.

(٣) في الإتقان ١/ ٤٧.

(٤) أخرجه البزار في مسنده (٣٨٦٣)، والطبري في تفسيره ١٦/ ٢١٤، والطبراني في الكبير (٩٨٩). قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٩: وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو متروك. اهـ. وينظر الدر المنثور ٤/ ٣١٢-٣١٣.

عليهم السلام، وبعضها بين البسط والإيجاز كقصة إبراهيم عليه السلام، وبعضها موجز مجمل كقصة موسى عليه السلام، وأشار إلى بقيَّة النبيين عليهم السلام إجمالاً، ذكر جلَّ وعلا في هذه السورة شرحَ قصَّة موسى عليه السلام التي أجملَها تعالى هناك، فاستوعبها سبحانه غاية الاستيعاب، وبسطها تبارك وتعالى أبلغَ بسطٍ، ثمَّ أشار عزَّ شأنه إلى تفصيل قصَّة آدم عليه السلام الذي وقع في «مريم» مجردُ ذكر اسمه، ثم أوردَ جلَّ جلاله في سورة الأنبياء بقيَّة قِصص من لم يَذكر قصَّته في «مريم» كنوح ولوط وداود وسليمان وأيوب واليسع وذي الكفل وذي النون عليهم السلام، وأشير فيها إلى قصة من ذكرت قصته إشارةً وجيزةً، كموسى وهارون وإسماعيل، وذكرت تلو «مريم»[1]؛ لتكون السورتان كالمتقابلتين، وبسطت فيها قصَّة إبراهيم عليه السلام البسطَ التامَّ فيما يتعلَّق به مع قومه، ولم يذكر حاله مع أبيه إلَّا إشارةً، كما أنَّه في سورة مريم ذكرَ حالَه مع قومه إشارةً ومع أبيه مبسوطاً.

وينضمُّ إلى ما ذُكر اشتراكُ هذه السورة وسورة مريم في الافتتاح بالحروف المقطَّعة، وقد روي عن ابن عباس وجابر بن زيد رضي الله عنهم أنَّ «طه» نزلت بعد سورة مريم.

ووجهُ ربط أوَّل هذه بآخر تلك أنَّه سبحانَه ذكرَ هناك تيسير القرآن بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام معلِّلاً بتبشير المتقين وإنذار المعاندين، وذكر تعالى هنا ما فيه نوعٌ من تأكيد ذلك.

وجاءت آثارٌ تدلُّ على مزيد فضلها، أخرج الدارميُّ وابنُ خزيمة في «التوحيد» والطبرانيُّ في «الأوسط» والبيهقيُّ في «الشعب» وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و«يس» قبل أنْ يخلق السماوات والأرض بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمَّة ينزلُ عليها هذا، وطوبى لأجوافٍ تحملُ هذا، وطوبى لألسنةٍ تتكلَّم بهذا»[2]. وأخرج الديلميُّ عن أنس مرفوعاً نحوه.

---

(١) في «تناسق الدرر» للسيوطي ـ والكلام منه ص٦٦ـ٦٧: زكريا ومريم. بدل: وذكرت تلو مريم. وهو تحريف.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٨٨، ومسند الدارمي (٣٤١٤)، والتوحيد لابن خزيمة (٩١٣)، والأوسط للطبراني (٤٨٧٦)، وشعب الإيمان للبيهقي (٢٤٥٠).

=

وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة عن النبيِّ ﷺ قال: «كلُّ قرآنٍ يوضع عن أهل الجنة، فلا يقرؤون منه شيئاً إلَّا سورة «طه» و«يس»، فإنَّهم يقرؤون بهما في الجنة»[1] إلى غير ذلك من الآثار.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ①﴾ فخَّمها[2] على الأصل ابنُ كثير وابن عامر وحفص ويعقوب، وهو إحدى الروايتين عن قالون وورش، والروايةُ الأخرى أنَّهما فخَّما الطاء وأمالا الهاء، وهو المرويُّ عن أبي عمرو. وأمالَ الحرفين حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر[3].

ولعلَّ إمالةَ الطَّاء مع أنَّها من حروف الاستعلاء، والاستعلاءُ يمنعُ الإمالة؛ لأنَّها تسفل لقصد التجانس.

وهي من الفواتح التي تُصَدَّرُ بها السورُ الكريمة على إحدى الروايتين عن مجاهد، بل قيل: هي كذلك عند جمهور المتقنين.

وقال السُّدِّيُّ: المعنى: يا فلان. وعن ابن عباس - في رواية جماعة عنه - والحسن وابن جبير وعطاء وعكرمة، وهي الرواية الأخرى عن مجاهد، أنَّ المعنى: يا رجل. واختلفوا فقيل: هو كذلك بالنبطية. وقيل: بالحبشية. وقيل: بالعبرانية. وقيل: بالسريانية. وقيل: بلغة عُكْل. وقيل: بلغة عَكّ. وروي ذلك عن

= قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٥٦: وفيه إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، وضعفه البخاري بهذا الحديث، ووثقه ابن معين. اهـ.
وقال ابن عدي في الكامل ١/٢١٩: لم أجد له حديثاً أنكر من: قرأ «طه» و«يس». وقال ابن حبان في المجروحين ١/١٠٨: وهذا متنٌ موضوع.
وقال ابن الجوزي في الموضوعات (٨): هذا حديث موضوع.
وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء ١٠/٦٩١: هذا حديث منكر؛ فابن مهاجر وشيخه ضعيفان.

(١) الدر المنثور ٤/٢٨٨، وخبر أنس الآنف الذكر فيه أيضاً.
(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: أي الكلمة. اهـ منه.
(٣) التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/٦٨، ٧٠ وقرأ أيضاً بإمالة الحرفين خلف من العشرة.

الكلبيّ قال: لو قلتَ في عكّ: يا رجل، لم يجب حتى تقول: طه. وأنشد الطبريُّ في ذلك قول متمِّم بن نويرة:

دعوتُ بِطَهَ في القتال فلم يُجِبْ فخِفتُ عليه أنْ يكون مُوائلا[1]

وقول الآخر:

إنَّ السفاهةَ طَهَ من خلائقكم لا باركَ اللهُ في القوم الملاعينِ[2]

وقال ابن الأنباريّ: إنَّ لغة قريشٍ وافقت تلك اللغة في هذا؛ لأنَّ الله تعالى لم يخاطب نبيَّه ﷺ بلسانٍ غير لسان قريش.

ولا يخفى أنَّ مسألة وقوع شيءٍ بغير لغة قريش من لغات العرب في القرآن خلافيَّة، وقد بسط الكلام عليها في «الإتقان»[3]، والحق الوقوع.

وتخرَّصَ الزمخشريُّ على عك فقال: لعلَّ عكًّا تصرَّفوا في: يا هذا، كأنَّهم في لغتهم قالبون الياء طاء، فقالوا في «يا»: «طا»، واختصروا هذا، واقتصروا على «ها»[4].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّه لا يوجد في لسان العرب قلبُ «يا» التي للنداء «طا»، وكذلك حذفُ اسم الإشارة في النداء وإقرار «ها» التي للتنبيه، ولم يقل ذلك نحويّ[5].

وذُكِر في البيت الأخير أنَّه إنْ صحَّ ف «طه» فيه قَسمٌ ـ بالحروف المقطَّعة أو اسم السورة، على أنَّه شعرٌ إسلاميّ ـ كقوله: «حم لا ينصرون»[6].

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٨. وقوله: موائلاً. يقال: واءل من الشيء مواءلة: طلب النجاة. انظر القاموس والمعجم الوسيط (وأل).

(٢) أورده الطبري في تفسيره ١٦/٨ دون نسبة، وكذا ذكره أبو بكر الأنباري في الأضداد ص٤٠٤ بتغيير يسير. ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٣٦، والقرطبي ١٤/٨ ليزيد بن المهلهل.

(٣) ١/٤٢٧ ـ ٤٤٤.

(٤) الكشاف ٢/٥٢٨.

(٥) البحر المحيط ٦/٢٢٤.

(٦) قوله: كقوله: «حم لا ينصرون»: هو الاستدلال على قوله: ف «طه» فيه قسم. والعبارة التي وضعتها بين معترضتين هي من شرح الخفاجي على عبارة البيضاوي ٦/١٨٧، فأقحمها =

وتعقب بأنَّه احتمالٌ بعيدٌ، وهو كذلك في المثال، وقد رواه النسائيُّ مرفوعاً[(١)]، ولفظُ الخبر: «إذا بيَّتكم[(٢)] العدوُّ فليكن شعاركم: حم لا ينصرون» وليس في سياقه دليلٌ على ذلك، ويحتملُ أنْ يكون «لا ينصرون» مستأنفاً، والشعار التلفُّظ بـ «حم» فقط، كأنه قيل: ماذا يكون إذا كان شعارنا ذلك؟ فقيل: لا ينصرون.

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أنَّه قسمٌ أقسم الله تعالى به، وهو من أسمائه سبحانه[(٣)]. وعن أبي جعفر أنَّه من أسماءِ النبيِّ ﷺ.

وقرأت فرقةٌ منهم أبو حنيفة والحسن وعكرمة وورش[(٤)]: «طَهْ» بفتح الطاء وسكون الهاء[(٥)]، كـ «بل»، فقيل: معناه: يارجل، أيضاً. وقيل: أمرٌ للنبيِّ ﷺ بأنْ يطأ الأرض بقدميه، فإنَّه عليه الصلاة السلام ـ كما روي عن الربيع بن أنس ـ كان إذا صلَّى قام على رجلٍ واحدةٍ، فأنزلَ الله تعالى «طه» إلخ[(٦)].

وأخرج ابنُ مردويه عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه: لما نزل على النبيِّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

= المصنف بين شطري كلامه، تبعاً لسياق الكلام في حاشية الخفاجي، وجعلها جملة واحدة. وعبارة البيضاوي كما في تفسيره ٥/ ١٧: والاستشهاد بقوله: إن السفاهة طه... ضعيف؛ لجواز أن يكون قسماً، كقوله: «حم لا ينصرون».

(١) في السنن الكبرى (١٠٣٧٦) و(١٠٣٧٧) من حديث البراء مرفوعاً، ولفظه: «إنكم تلقون عدوكم غداً، فليكن شعاركم: حم لا ينصرون». وهو عند أحمد (١٨٥٤٩).
وأخرجه النسائي في الكبرى أيضاً (٨٨١٠) و(١٠٣٧٨) من حديث المهلب بن أبي صفرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ بلفظ: «إني لا أرى القوم إلا مبيِّتيكم الليلة، فإن شعاركم: حم لا ينصرون». وهو أيضاً عند أبي داود (٢٥٩٧)، والترمذي (١٦٨٢)، وأحمد (١٦٦١٥) بألفاظ قريبة. وأخرجه النسائي في الكبرى أيضاً (١٠٣٧٩) من حديث المهلب بن أبي صفرة مرسلاً، ولفظه: «إنْ بُيِّتم، فإن دعواكم: حم لا ينصرون».

(٢) في (م): لقيكم.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٨٩. وأخرجه أيضاً الطبري ١٦/ ٧.

(٤) في اختياره، كما صرَّح بذلك أبو حيان في «البحر»، وقراءة ورش ـ راوية نافع ـ المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٢٤، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٧ عن الحسن فقط.

(٦) أخرجه عبد بن حميد في تفسيره كما ذكر ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٨. وزاد السيوطي نسبته لابن المنذر. وأخرجه القاضي عياض في الشفا (٢٩) ـ طبعة دار الفيحاء ـ من طريق عبد بن حميد. والحديث مرسل.

﴿الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢] قام الليل كلَّه حتى تورَّمت قدماه، فجعلَ يرفعُ رجلاً ويضعُ رجلاً، فهبط عليه جبريلُ عليه السلام، فقال: «طه» الآية[1].

والأصل: طَأْ، فقلبت الهمزة هاء، كما قالوا في: إيَّاك، وأرَقْت، ولأنَّك: هيَّاك وهَرَقت ولهنَّك. أو: قُلبت الهمزة في فعله الماضي والمضارع ألفاً، كما في قول الفرزدق:

راحت بمسلمةَ البغالُ عشيَّةً ... فارعي فزارةُ لا هناكِ المرتعُ[2]

وكما قالوا في سأل: سال. وحذفت في الأمر؛ لكونه معتلَّ الآخر، وضم إليه هاء السكت، وهو في مثل ذلك لازمٌ خطًّا ووقفاً، وقد يجري الوصلُ مجرى الوقف، فتثبت لفظاً فيه.

وجَوَّز بعضُهم أن يكون أصلُ «طه» في القراءة المشهورة: «طَأْها» على أنَّ «طَأْ» أمرٌ له ﷺ بأن يطأ الأرضَ بقدميه، و«ها» ضميرٌ مؤنَّث في موضع المفعول به، عائدٌ على الأرض، وإنْ لم يسبق لها ذكر.

واعتُرِضَ بأنَّه لو كان كذلك لم تسقط منه الألفان، ورسمُ المصحف وإنْ كان لا ينقاس لكن الأصل فيه موافقتُه للقياس، فلا يُعْدَلُ عنه لغير داعٍ، وليست هذه الألف في اسمٍ، ولا وسطاً، كما في الحارث ونحوه لتحذف، لا سيَّما وفي حذفها لَبْسٌ، فلا يجوز كما فُصِّل في باب الخَطِّ من «التسهيل»[3]. واعترض بهذا أيضاً على تفسيره بـ: يا رجل، ونحوه.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٨٨. وأخرج البزار (٩٢٦) نحوه؛ من حديث كيسان أبي عمر عن يزيد بن بلال عن علي ﷺ قال: كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه على كل رجلٍ حتى نزلت ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾. قال البزار: وأحاديث يزيد بن بلال عن علي لا نعلم لها طرقاً إلا من حديث كيسان أبي عمر. اهـ.
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٥٦: وفيه يزيد بن بلال، قال البخاري: فيه نظر. وكيسان أبو عمر، وثَّقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ.
وحسن السيوطي إسناده في الدر المنثور ٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩. وانظر الكافي الشاف ص١٠٨.

(٢) ديوان الفرزدق ١/ ٤٠٨: وصدر البيت فيه: ومضت لمسلمة الركاب مودعاً.
وهو برواية المصنف في الكتاب ٣/ ٥٥٤، والكامل ٢/ ٦٢٦، ٩٨٤ وغيرها.

(٣) ينظر التسهيل ص٣٣٦-٣٣٧.

وقيل: توجيهُ ذلك على هذا الأصل، ويعلم منه توجيهٌ آخر لقراءة أبي حنيفة رضي الله عنه ومن معه أنْ يقال: اكتُفي من «طأ» بطاء متحركة، ومن هاء الضمير بـ : ها، ثمَّ عُبِّر عنهما باسميهما، فـ «ها» ليست ضميراً، بل هي كالقاف في قوله:

قلت لها قفي فقالت قاف[1]

واعتُرض أيضاً بأنَّه كان ينبغي على هذا أنْ لا تكتب صورة المسمى، بل صورة الاسم.

وأجيب بأنَّ كتابة الأسماء بصور المسمَّيات أمرٌ مخصوصٌ بحروف التهجِّي.

وتُعقِّب بأنَّ ما ذُكر لا يقطع مادة الإيراد، إذ لو كان كذلك لانْفَصَلَ الحرفان في الخطِّ، بأن يكتبان هكذا: ط هـ.

فإن قيل: إنَّ خطَّ المصحف لا ينقاس، قيل عليه ما قيل.

والحقُّ أنَّ دعوى أنَّ خطَّ المصحف لا ينقاس قويَّةٌ جدًّا، وما قيل عليها لا يعوَّل عليه، وما صحَّ عن السلف يُقبل، ولا يَقدح فيه عدمُ موافقة القياس، وإنْ كانت الموافقة هي الأصل.

وقد رُوي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والربيع بن أنس أنهما فسَّرا «طه» بـ : طَأْ الأرض بقدميك يا محمد. ولم أقف على طعنٍ في الرواية، والله تعالى أعلم[2].

واختلف في إعرابه حسب الاختلاف في المراد منه، فهو على ما نُقِل عن الجمهور من أنَّ المراد منه طائفةٌ من حروف المعجم مسرودةٌ على نمط التعديد افتتحت بها السورة، لا محلَّ له من الإعراب، وكذا ما بعده من قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ فإنَّه استئنافٌ مسوقٌ لتسليته ﷺ عمَّا كان يعتريه من جهة المشركين من التعب، فإنَّ الشقاء شائعٌ في ذلك المعنى، ومنه المثل: أشقى من رائض مهر[3]، وقول الشاعر:

---

(١) الرجز للوليد بن عقبة بن أبي معيط، كما في شرح شواهد الشافية ص٢٧١.

(٢) سلف الكلام عن الأثرين قريباً.

(٣) انظر المستقصى ١/ ٣٥، ومجمع الأمثال ١/ ١٤٨.

ذو العقل يَشقى في النعيم بعقلِه وأخو الجهالة في الشقاء يُنَعَّم[١]

أي: ما أنزلناه عليك لتتعبَ بالمبالغة في مكابدة الشدائد في مقاولة العتاة، ومحاورةِ الطغاة، وفرطِ التأسُّف على كفرهم به، والتحسُّرِ على أنْ يؤمنوا به، كقوله تعالى شأنه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ الآية [الكهف: ٦]، بل لتبلِّغَ وتذكِّر، وقد فعلت، فلا عليكَ إن لم يؤمنوا بعدَ ذلك.

أو: لصرفه عليه الصلاة والسلام عمَّا كان عليه من المبالغة في المجاهدة في العبادة، كما سمعت فيما أخرجَ ابنُ مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه[٢]، أي: ما أنزلناه عليك لتتعب بنهكِ نفسك وحملِها على الرياضات الشاقَّة والشدائد[٣] الفادحة، وما بعثتَ إلَّا بالحنيفية[٤] السمحة.

وقال مقاتل: إنَّ أبا جهل والنضر بن الحارث والمطعم قالوا لرسول الله ﷺ لما رأوا كثرةَ عبادته: إنَّك لتشقَى بترك ديننا، وإنَّ القرآن أنزلَ عليك لتشقى به. فردَّ الله تعالى عليهم ذلك بأنَّا ما أنزلناهُ عليك لما قالوا[٥].

والشقاءُ في كلامهم يحتملُ أن يكون بمعناه الحقيقيّ؛ وهو ضدُّ السعادة، والتعبيرُ به في كلامه تعالى من باب المشاكلة.

وإنْ أريد به[٦] القرآن بتأويله بالمتحدَّى به من جنس هذه الحروف، فجوِّز فيه أنْ يكون محلُّه الرفع على الابتداء، والجملةُ بعدَه خبره، وقد أقيم فيها الظاهر - أعني القرآن - مقامَ الضمير الرابط لنكتةٍ؛ وهو أنَّ القرآنَ رحمةٌ يرتاحُ لها، فكيف ينزلُ للشقاء؟!

وقيل: الخبر محذوف. وقيل: هو خبرٌ لمبتدأ محذوف، والجملةُ على القولين مستأنفة.

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٤/ ٢٥١. وفيه: في الشقاوة، بدل: في الشقاء.
(٢) سلف ١٦/ ٢١٢.
(٣) لفظة: والشدائد. ليست في الأصل.
(٤) في الأصل و(م): بالحنيفة. والمثبت من المصادر.
(٥) أورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢٨ - ٥٢٩ دون ذكر المطعم.
(٦) في (م): منه.

وجُوِّز أنْ يكون محلُّه النصب على إضمار «أتل». وقيل: على أنَّه مقسَمٌ به حُذِف منه حرف القسم، فانتصبَ بفعله مضمراً، نحو قوله:

إنَّ عـلـيَّ اللهَ أن تـبـايـعـا[1]

وجُوِّزَ أنْ يكون محلُّه الجرّ، بتقدير حرف القسم، نظير قوله من وجهٍ:

أشـارت كـلـيـبٍ بـالأكـفِّ الأصـابـع[2]

والجملة بعده ـ على تقدير إرادة القسم ـ جوابُ القسم.

وجُوِّز هذه الاحتمالاتُ على تقدير أنْ يكون المرادُ منه السورة.

وأمرُ ربط الجملة على تقدير ابتدائيته وخبريَّتها؛ إن كان القرآن خاصًّا بهذه السورة، باعتبار كون تعريفه عهديًّا حضوريًّا = ظاهرٌ، وإنْ كان عامًّا فالربطُ به لشموله للمبتدأ، كما قيل في نحو: زيدٌ نعمَ الرجل.

ومَنَع بعضهم إرادةَ السورة مطلقاً، لاتِّفاق المصاحف على ذكر سورة في العنوان مضافة إلى «طه»، وحينئذٍ يكونُ التركيب كإنسان زيد، وقد حكموا بقبحه، وفيه بحثٌ لا يكاد يخفى حتى على بهيمة الأنعام. وبعضُهم[3] إرادةَ ذلك على تقدير الإخبار بالجملة بعدُ. قال[4]: لأنَّ نفي كون إنزال القرآن للشقاء يستدعي وقوعَ الشقاء مترتِّباً على إنزاله قطعاً؛ إمَّا بحسب الحقيقة، كما إذا أُريد به التعب، أو بحسب زعم الكفرة، كما لو أُريد به ضدُّ السعادة. ولا ريبَ في أنَّ ذلك إنَّما يتصوَّر في إنزال ما أُنزل من قبل، وأمَّا إنزال السورة الكريمة فليس ممَّا يمكنُ ترتُّب الشقاء السابق عليه حتى يتصدَّى لنفيه عنه، أمَّا باعتبار اتحاد القرآن بالسورة فظاهر، وأمَّا

(١) الرجز في الكتاب ١/ ٨٦، وخزانة الأدب ٥/ ٢٠٣. وبعده: تؤخذ كرهاً أو تجيء طائعا.
وهذا البيت ـ كما قال عبد القادر البغدادي في الخزانة ٥/ ٢١٠ ـ قلما خلا عنه كتاب نحوي، ومع شهرته لا يعلم قائله، وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها. والله أعلم.

(٢) هو للفرزدق. وسلف ٧/ ٤٦١.

(٣) أي: ومنع بعضهم.

(٤) القائل هو أبو السعود. انظر تفسيره ٦/ ٣.

باعتبار الاندراج، فلأنَّ مآله أنْ يقال: هذه السورة ما أنزلنا القرآن المشتمل عليها لتشقى، ولا يخفى أنَّ جعلها مُخْبَراً عنها مع أنَّه لا دخلَ لإنزالها في الشقاء السابق أصلاً ممَّا لا يليقُ بشأن التنزيل. اهـ. ولا يخلو عن حسن.

وعلى ما روي عن أبي جعفر من أنَّه من أسمائه ﷺ يكون منادى، وحكمه مشهور، والجملةُ جواب النداء.

ومحلُّه على ما أخرج ابن المنذر وابن مردويه عن الحبر من أنَّه قسمٌ أقسم الله تعالى به، وهو من أسمائه تباركت أسماؤه = النصبُ أو الجرُّ، على ما سمعت آنفاً.

وعلى ما روي عن الأمير كرَّم الله تعالى وجهه والربيع يكون جملة فعليَّة ـ وقد مرَّ لك تفصيلُ ذلك ـ والجملةُ بعده مستأنفةٌ استئنافاً نحويًّا أو بيانيًّا، كأنَّه قيل: لِمَ أطؤها؟ فقيل: «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى».

وقرأ طلحة: «ما نُزِّل عليك القرآنُ» بتشديد الفعل وبنائه للمفعول وإسناده إلى القرآن(١).

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ نصب على الاستثناء المنقطع، أي: ما أنزلناه لشقائك لكن تذكيراً ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ ③﴾ أي: لمن شأنه أنْ يخشى الله تعالى ويتأثَّر بالإنذار؛ لرقَّة قلبه ولين عريكته، أو لمن عَلِم اللهُ تعالى أنَّه يَخشى بالتخويف.

والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ «تذكرة»، أو بمحذوف صفة لها.

وخُصَّ الخاشي بالذِّكر مع أنَّ القرآن تذكرةٌ للناس كلهم؛ لتنزيل غيره منزلةَ العدم؛ فإنَّه المنتفعُ به.

وجَوَّز الزمخشريُّ(٢) كون «تذكرة» مفعولاً له لـ «أنزلنا»، وانتَصب لاستجماع الشرائط، بخلاف المفعول الأول؛ لعدم اتحاد الفاعل فيه، والمشهور عن الجمهور اشتراطه للنصب، فلذا جرَّ، ويجوز تعدُّدُ العلَّة بدون عطف وإبدال إذا اختلفت(٣)

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٧، والبحر المحيط ٦/ ٢٢٤.

(٢) في الكشاف ٢/ ٥٢٩.

(٣) في الأصل: اختلف.

جهةُ العمل، كما هنا؛ لظهور أنَّ الثاني مفعولٌ صريحٌ والأوَّل جارٌّ ومجرور، وكذا إذا اتحدت وكانت إحدى العلَّتين عِلَّةً للفعل، والأخرى علَّةً له بعد تعليله، نحو: أكرمته لكونه غريباً لرجاء الثواب، أو كانت العلَّة الثانية علَّةً للعلَّةِ الأولى، نحو: لا يعذِّبُ الله تعالى التائب لمغفرتِه له لإسلامه. فما قيلَ عليه من أنَّه لا يجوز تعدُّد العلَّة بدون اتباع غيرُ مسلَّم.

وفي «الكشف» أنَّ المعنى على هذا الوجه: ما أنزلناه عليك لتحتملَ مشاقَّه ومتاعبَه إلَّا ليكون تذكرةً. وحاصله أنه نظير: ما ضربتُك للتأديب إلَّا إشفاقاً، ويرجعُ المعنى إلى ما أدَّبتُك بالضرب إلَّا للإشفاق، كذلك المعنى هنا: ما أشقيناكَ بإنزال القرآن إلَّا للتذكرة. وحاصله: حسبُك ما حملتَه من متاعبِ التبليغ، ولا تُنْهِكْ بدنك، ففي ذلك بلاغ. اهـ.

واعترض القول بجعله نظير: ما ضربتك للتأديب إلَّا إشفاقاً = بأنَّه يجبُ في ذلك أنْ يكون بين العلَّتين ملابسةٌ بالسببية والمسببية حتماً، كما في المثال المذكور، وفي قولك: ما شافهتُه بالسوء ليتأذَّى إلَّا زجراً لغيره، فإنَّ التأديبَ في الأول مسبَّبٌ عن الإشفاق، والتأذِّي في الثاني سببٌ لزجر الغير، وما بين الشقاء والتذكرة تنافٍ ظاهر، ولا يجدي أنْ يراد به التعب في الجملة المجامع للتذكرة؛ لظهور أنْ لا ملابسةَ بينهما بما ذكر من السببيَّة والمسببيَّة، وإنما يُتصوَّر ذلك أن لو قيل مكان «إلَّا تذكرةً»: إلَّا تكثيراً لثوابك، فإنَّ الأجرَ بقدر التعب كما في الحديث(١). انتهى.

ولعلَّ قائلَ ذلك يمنعُ وجوبَ أنْ يكون بين العلَّتين الملابسةُ المذكورة، أو يدَّعي تحقُّقَها بينهما في الآية بناءً على أنَّ التذكرةَ ـ أي: التذكير ـ سببٌ للتعب كما يشعر بذلك قول المدقِّق في الحاصل الأخير: حسبك ما حملتَه من متاعب التبليغ.. إلخ.

وقد خفي المرادُ من الآية على هذا الوجه على ابن المنير فقال: إنَّ فيه بعداً؛ لأنَّه حينئذٍ يكونُ الشقاءُ سببَ النزول، وإن لم تكن اللام سببيَّةً وكانت للصيرورة

---

(١) ورد في هذا المعنى حديث عائشة رضي الله عنها في عمرتها، وهو عند البخاري (١٧٨٧) ومسلم (١٢١١): (١٢٦) وفيه: «ولكنها على قدر نفقتك أو نَصَبك» وانظر كشف الخفاء ١/ ٥٠.

مثلاً، لم يكن فيه ما جرت عادةُ الله تعالى به مع نبيه ﷺ من نهيه عن الشقاء والحزن على الكفرة وضيق الصدر بهم، وكان مضمونُ الآية منافياً لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف: ٢] ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦]. اهـ[١].

وأنت تعلم بعد الوقوف على المراد أنْ لا منافاة. نعم، بُعْدُ هذا الوجه وكونُ الآية نظيرَ: ما ضربتك للتأديب إلَّا إشفاقاً، ممَّا يشهد به الذوق.

وجُوِّزَ[٢] أن تكون حالاً من الكاف، أو «القرآن»، والاستثناءُ مفرغ، والمصدر مؤوَّلٌ بالصفة، أو قصد به المبالغة.

وجَوَّز الحوفيُّ كونها بدلاً من «القرآن».

والزَّجَّاجُ كونها بدلاً من محلِّ «لتشقى»؛ لأنَّ الاستثناءَ من غير الموجَب يجوز فيه الإبدال.

وتُعقِّب بأنَّ ذلك إذا كان متَّصلاً بأنْ كان المستثنى من جنس المستثنى منه، والبدلية حينئذٍ البدلية البعضية في المشهور. وقيل: بدلية الكلِّ من الكلِّ. ولا يخفى عدم تحقُّق ذلك بين التذكرة والشقاء.

والقول ببدليَّة الاشتمال في مثل ذلك لتصحيح البدليَّة هنا؛ بناءً على أنَّ التذكرة تشتملُ على التعب، ممَّا لم يقله أحدٌ من النحاة، واعتبارُها لهذا الاشتمال من جنسِ الشقاء، فكأنها متَّحدةٌ معه = لا يجعلُ الاستثناء متَّصلاً كما قيل، وقد سمعت اشتراطه.

وبالجملة هذا الوجه ليس بالوجيه، وقد أنكرهُ أبو عليٍّ على الزجَّاج[٣].

وجُوِّزَ أن تكون مفعولاً له لـ «أنزلنا»، و«لتشقى» ظرفٌ مستقرٌّ في موضع الصفة للقرآن، أي: ما أنزلنا القرآن الكائن أو المنزَّل لتعبك إلَّا تذكرة. وفيه تقديرُ المتعلَّق مقروناً باللام، وحذفُ الموصول مع بعض صلته، وقد أباه بعض النحاة. وكون «أل» حرف تعريف خلاف الظاهر.

---

(١) الانتصاف ٢/ ٥٢٨ - ٥٢٩.

(٢) في (م): ويجوز.

(٣) وكذا استنكره النحاس في إعراب القرآن له ٣/ ٣٢، بعد ذكر كلام الزجاج.

وقيل: هي نصب على المصدريَّة لمحذوف، أي: لكن ذكَّرناه به تذكرة.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا﴾ كذلك، أي: نزل تنزيلاً، والجملة مستأنفةٌ مقرِّرةٌ لما قبلها. وقيل: لما تفيده الجملة الاستثنائية، فإنَّها متضمِّنةٌ لأنْ يقال: إنَّا أنزلناه للتذكرة. والأوَّل أنسبُ لما بعده من الالتفات.

وقيل: منصوبٌ على المدح والاختصاص. وقيل: بـ «يخشى» على المفعولية.

واستبعدهُما أبو حيان، وعدَّ الثاني في غاية البعد؛ لأنَّ «يخشى» رأسُ آية، فلا يناسبُ أنْ يكون «تنزيلاً» مفعوله[1].

وتُعقِّبَ أيضاً بأنَّ تعليقَ الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غيرُ معهود، نعم قد تعلَّق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونحوه، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ٦٤]. وأنت تعلم أنَّ المعنى على هذا الوجه: إلَّا تذكرةً لمن يخشى المنزَّلَ من قادرٍ قاهر. وهو ممَّا لا خللَ فيه، وأمرُ عدم المعهودية سهلٌ.

وقيل: هو بدلٌ من «تذكرة» بناءً على أنَّها حالٌ من الكاف أو «القرآن» كما نقل سابقاً، وهو بدل اشتمال.

وتعقَّبهُ أبو حيان بأنَّ جعل المصدر حالاً لا ينقاس[2]. ومع هذا فيه دغدغةٌ لا تخفى، ولم تجوَّز البدليَّة منها على تقدير أنْ تكون مفعولاً له لـ «أنزلنا» لفظاً أو معنًى؛ لأنَّ البدلَ هو المقصود، فيصير المعنى: أنزلناه لأجل التنزيل، وفي ذلك تعليلُ الشيء بنفسه إن كان الإنزالُ والتنزيل بمعنى بحسب الوضع، أو بنوعه إنْ كان الإنزالُ عاماً والتنزيل مخصوصاً بالتدريجيّ، وكلاهما لا يجوز. وقرأ ابن أبي عبلة: «تنزيلٌ» بالرفع[3]، على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هو تنزيلٌ.

﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ متعلق بـ «تنزيل»، وجُوِّزَ أنْ يكون متعلِّقاً

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٢٥.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٢٥.

(٣) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٢٩ دون نسبة. ونسبها القرطبي في تفسيره ١٤/ ١٤ لأبي حيوة الشامي.

بمضمرٍ هو صفةٌ له مؤكدةٌ لما في تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية، ونسبة التنزيل إلى الموصول بطريق الالتفات إلى الغيبة بعد نسبة الإنزال إلى نون العظمة؛ لبيان فخامته تعالى شأنه بحسب الأفعال والصفات، إثرَ بيانِها بحسب الذات بطريق الإبهام، ثمَّ التفسيرُ لزيادة تحقيقٍ وتقرير.

واحتمالُ كون «أنزلنا» إلخ حكايةً لكلام جبرائيل والملائكة النازلين معه عليهم السلام بعيدٌ غاية البعد. وتخصيصُ خلق الأرض والسماوات بالذكر، مع أنَّ المراد خلقُهما بجميع ما يتعلَّق بهما، كما يؤذِنُ به قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [طه:٦]؛ لأصالتهما واستتباعهما لما عداهما. وقيل: المراد بهما ما في جهة السفل وما في جهة العلو.

وتقديم خلق الأرض قيل: لأنَّه مقدَّمٌ في الوجود على خلق السماوات السبع، كما هو ظاهرُ آية «حم السجدة»: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الآية [فصلت:٩]. وكذا ظاهر آية «البقرة»: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ الآية [٢٩].

ونقل الواحديُّ عن مقاتل أنَّ خلقَ السماوات مقدَّم، واختاره كثيرٌ من المحقِّقين لتقديم السماوات على الأرض في معظم الآيات التي ذُكرا فيها، واقتضاء الحكمة تقديمَ خلق الأشرف، والسماءُ أشرف من الأرض ذاتاً وصفةً، مع ظاهر آية «النازعات»: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ الآية [٢٧].

واختار بعضُ المحققين أنَّ خلقَ السماوات بمعنى إيجادها بمادتها قبلَ خلق الأرض، وخلقَها بمعنى إظهارها بآثارها بعد خلق الأرض، وبذلك يجمعُ بين الآيات التي يتوهَّم تعارضُها.

وتقديمُ السماوات في الذكر على الأرض تارةً، والعكس أخرى بحسب اقتضاء المقام، وهو أقربُ إلى التحقيق.

وعليه وعلى ما قبله فتقديمُ خلق الأرض هنا؛ قيل: لأنَّه أوفق بالتنزيل الذي هو من إحكام رحمته تعالى كما ينبئُ عنه ما بعد، وقولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن:١-٢] ويرمز إليه ما قبل، فإنَّ الإنعام على الناس بخلق الأرض أظهرُ وأتمّ، وهي أقربُ إلى الحسِّ.

وقيل: لأنَّه أوفق بمفتتح السورة، بناءً على جعل «طه» جملةً فعلية، أي: طأ الأرض بقدميك، أو لقوله تعالى: «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» بناءً على أنَّه جملةٌ مستأنفةٌ؛ لصرفه ﷺ عمَّا كان عليه من رفع إحدى رجليه عن الأرض في الصلاة، كما جاء في سبب النزول(١).

ووصفُ السماوات بـ «العلى»، وهو جمع: العليا ـ كالكبرى ـ تأنيث الأعلى؛ لتأكيدِ الفخامة، مع ما فيه من مراعاةِ الفواصل، وكلُّ ذلك إلى قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الآية:٨] مسوقٌ لتعظيمِ شأن المُنْزِل عزَّ وجلَّ، المستتبعِ لتعظيم المُنْزَل، الداعي إلى استنزال المتمردين عن رتبة العلوِّ والطغيان، واستمالتهم إلى التذكُّر والإيمان.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ رفع على المدح، أي: هو الرحمن. وجوَّز ابن عطية أنْ يكون بدلاً من الضمير المستتر في «خلق»(٢).

وتعقَّبه أبو حيان فقال: أرى أنَّ مثل هذا لا يجوز؛ لأنَّ البدلَ يحلُّ محلَّ المبدل منه، ولا يحلُّ ها هنا؛ لئلَّا يلزم خلوُّ الصلة من العائد(٣). اهـ.

ومنعَ بعضهم لزوم اطراد الحلول ثم قال: على تسليمه يجوزُ إقامة الظاهر مقام الضمير العائد، كما في قوله:

وأنت الذي في رحمة الله أطمع(٤)

نعم اعتبار البدلية خلافُ الظاهر.

وجوَّز أنْ يكون مبتداً، واللام للعهد، والإشارة إلى الموصول، وخبرُه قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾. ويقدَّر «هو»، ويجعل خبراً عنه على احتمال البدلية، وعلى الاحتمال الأول يجعل خبراً بعد خبر لما قدر أولاً على ما في «البحر»(٥) وغيره.

---

(١) سلف قريباً.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٢٦.
(٤) سلف ٧/ ٥٠١.
(٥) ٦/ ٢٢٦.

ورَوى جناحُ بن حبيش عن بعضهم أنَّه قرأ: «الرحمنِ» بالجرِّ[١]، وخرَّجه الزمخشريُّ على أنَّه صفةٌ لـ «من»[٢].

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ مذهب الكوفيين أنَّ الأسماءَ النواقص التي لا تتم إلَّا بصِلاتها كـ «من» و«ما» لا يجوزُ نعتُها، إلَّا «الذي» و«التي» فيجوزُ نعتُهما، فعندهم لا يجوزُ هذا التخريج، فالأحسن أن يكون «الرحمن» بدلاً من «من»، وقد جرى في القرآن مجرى العلم في وقوعه بعد العوامل[٣].

وقيل: إنَّ «من» يحتملُ أنْ تكون نكرةً موصوفةً، وجملة «خلق» صفتها، و«الرحمن» صفة بعد صفة، وليس ذاك من وصف الأسماء النواقص التي لا تتمُّ إلا بصلاتها، غايةُ ما في الباب أنَّ فيه تقديم الوصف بالجملة على الوصف بالمفرد، وهو جائز. اهـ. وهو كما ترى.

وجملة «على العرش استوى» على هذه القراءة[٤] خبرُ «هو» مقدَّراً، والجارُّ المجرور على كلِّ الاحتمالات متعلِّق بـ «استوى» قُدِّمَ عليه لمراعاة الفواصل.

و«العرش» في اللغة: سريرُ الملك، وفي الشرع: سريرٌ ذو قوائم، له حملةٌ من الملائكة عليهم السلام، فوق السماوات مثل القبَّة، ويدلُّ على أنَّ له قوائم ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي سعيد قال: جاء رجلٌ من اليهود إلى النبيِّ ﷺ قد لُطِمَ وجهُه، فقال: يا محمد، رجلٌ من أصحابك قد لطم وجهي، فقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «ادعوه» فقال: «لم لطمت وجهه»؟ فقال: يارسول الله إنِّي مررت بالسوق وهو يقول: والذي اصطفَى موسى على البشر، فقلت: يا خبيث، وعلى محمدٍ ﷺ؟ فأخذتني غضبةٌ فلطمتُه، فقال النبي ﷺ: «لا تخيِّروا بينَ الأنبياء، فإنَّ الناس يَصعقون، وأكون أوَّل من يفيق، فإذا أنا بموسى عليه السلام آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش، فلا أدري أفاقَ قبلي، أم جُوزي بصعقة الطور»[٥].

---

(١) القراءات الشاذة ص٨٧، والبحر المحيط ٦/ ٢٢٦.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٢٩.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٢٦.
(٤) أي قراءة الجرّ.
(٥) صحيح البخاري (٢٤١٢) و(٦٩١٧)، وصحيح مسلم (٢٣٧٤).

وعلى أنَّ له حملةً من الملائكة عليهم السلام قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر:٧]. وما رواه أبو داود عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أُذن لي أنْ أحدِّث عن ملكٍ من ملائكة الله عزَّ وجلَّ من حملة العرش، إنَّ ما بين أُذنيه إلى عاتقه مسيرةُ سبعمئة سنة»(١).

وعلى أنَّه فوقَ السماوات مثل القبة، ما رواه أبو داود أيضاً عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جدِّه قال: أتى رسولَ الله أعرابيٌّ فقال: يا رسولَ الله، جُهِدت الأنفسُ، ونُهِكت الأموالُ ـ أو هلكت ـ فاستسقِ لنا، فإنَّا نستشفعُ بك إلى الله تعالى، ونستشفع بالله تعالى عليك، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك أتدري ما تقول»؟ وسبَّح رسولُ الله ﷺ، فما زال يسبِّح حتى عُرِف ذلك في وجوه أصحابه، ثمَّ قال: «ويحك إنَّه لا يُسْتَشفعُ بالله تعالى على أحدٍ من خلقه، شأنُ الله تعالى أعظمُ من ذلك، ويحكَ أتدري ما الله؟ إنَّ الله تعالى فوقَ عرشه، وعرشُه فوقَ سماواته لهكذا» وقال بأصابعه مثل القبَّة، «وإنه لَيَئِطُّ به أطيطَ الرحل الجديد بالراكب»(٢).

ومن شعر أمية بن أبي الصلت:

مجّدوا الله فهو للمجدِ أهل ... ربُّنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء العالي الذي بهر النا ... س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعاً(٣) لا يناله طرف العيـ ... ـن ترى حوله الملائك صُورا(٤)

وذهب طائفةٌ من أهل الكلام إلى أنَّه مستديرٌ من جميع الجوانب، محيطٌ بالعالم من كلِّ جهةٍ، وهو محدّدُ الجهات، وربَّما سمَّوه الفلك الأطلس والفلك التاسع.

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٢٧). قال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٦٦٥: وإسناده على شرط الصحيح.
(٢) سنن أبي داود (٤٧٢٦). والحديث ضعفه جماعة من المحدثين. وانظر مختصر سنن أبي داود للمنذري ٧/ ٩٧ ـ ١٠١، وتفسير ابن كثير ١/ ٦٨١.
(٣) جاء في هامش الأصل ما نصه: أي: عالياً. اهـ منه.
(٤) جاء في هامش الأصل ما نصه: جمع أصور، وهو المائل العنق لنظره إلى العلو. اهـ منه. والأبيات في ديوان أمية ص٧٠ ـ ٧١ باختلاف يسير.

وتعقَّبه بعضُ شراح «عقيدة الطحاوي» بأنَّه ليسَ بصحيح؛ لما ثبت في الشرع من أنَّ له قوائم تحمله الملائكة عليهم السلام[1]. وأيضاً أخرجا في الصحيحين عن جابر أنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «اهتَزَّ عرشُ الرحمن لموت سعد بن معاذ»[2].

والفلك التاسع عندهم متحرِّكٌ دائماً بحركةٍ متشابهة، ومن تأوَّل ذلك على أنَّ المراد باهتزازه استبشار حملة العرش وفرحُهم، فلا بدَّ له من دليل، على أنَّ سياقَ الحديث ولفظَه ـ كما نقل عن أبي الحسن الطبريّ وغيره ـ بعيدٌ عن ذلك الاحتمال، وأيضاً جاء في «صحيح مسلم» من حديث جويرية بنت الحارث ما يدلُّ على أنَّ له زِنَةً هي أثقلُ الأوزان[3]، والفَلَك عندهم لا ثقيلٌ ولا خفيف، وأيضاً العربُ لا تفهم منه الفلك، والقرآنُ إنَّما نزلَ بما يفهمون. وقصارى ما يدلُّ عليه خبرُ أبي داود عن جبير بن مطعم: التقبيب، وهو لا يستلزمُ الاستدارةَ من جميع الجوانب كما في الفلك، ولا بدَّ لها من دليلٍ منفصل.

ثمَّ إنَّ القوم إلى الآن، بل إلى أنْ يُنفخ في الصور لا دليلَ لهم على حصر الأفلاك في تسعةٍ، ولا على أنَّ التاسعَ أطلس لا كوكب فيه، وهو غيرُ الكرسيِّ على الصحيح، فقد قال ابنُ جرير: قال أبو ذرٍ ﷺ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسيُّ في العرش إلَّا كحلقةٍ من حديد ألقيت بين ظهري فلاةٍ من الأرض»[4].

وروى ابن أبي شيبة في كتاب «صفة العرش» والحاكم في «مستدركه» ـ وقال: إنَّه على شرط الشيخين ـ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكرسيُّ موضعُ القدمين، والعرشُ لا يقدر قدره إلَّا الله تعالى[5].

وقد روي مرفوعاً، والصواب وقفه على الحبر[6].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ٢/ ٣٦٦.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠٣)، وصحيح مسلم (٢٤٦٦): (١٢٤)، وهو عند أحمد (١٤٤٠٠).

(٣) ونص الحديث قوله ﷺ لجويرية: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن؛ سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته». صحيح مسلم (٢٧٢٦).

(٤) تفسير الطبري ٤/ ٥٣٩. وسلف ٣/ ٣٩٦.

(٥) المستدرك ٢/ ٢٨٢.

(٦) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٦٨٠.

وقيل: العرشُ كنايةٌ عن الملك والسلطان. وتعقَّبه ذلك البعضُ بأنه تحريفٌ لكلام الله تعالى، وكيف يصنع قائل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] أيقول: ويحمل ملكه تعالى يومئذٍ ثمانية؟! وقوله عليه الصلاة والسلام: «فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش»(١) أيقول: آخذ بقائمةٍ من قوائم الملك(٢)؟! وكلا القولين لا يقولهما من له أدنى ذوق.

وكذا يقال: أيقول في: «اهتزَّ عرشُ الرحمن»(٣) الحديث: اهتزَّ ملكُ الرحمن وسلطانه، وفيما رواه البخاريُّ وغيره عن أبي هريرة مرفوعاً: «لمَّا قضى الله تعالى الخلقَ كتبَ في كتابٍ فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي سبقتْ غضبي»(٤): فهو عنده سبحانه وتعالى فوق الملك والسلطان؟! وهذا كذينك القولين.

والاستواءُ على الشيء جاء بمعنى الارتفاع والعلوِّ عليه، وبمعنى الاستقرار، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] و﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣] وحيث كان ظاهر ذلك مستحيلاً عليه تعالى قيل: الاستواءُ هنا بمعنى الاستيلاء، كما في قوله:

قد استوى بشر على العراق(٥)

وتُعقِّبَ بأنَّ الاستيلاءَ معناه حصولُ الغلبة بعد العجز، وذلك محالٌ في حقِّه تعالى، وأيضاً إنَّما يقال: استولى فلان على كذا، إذا كان له منازعٌ ينازعه، وهو في حقِّه تعالى محالٌ أيضاً، وأيضاً إنَّما يقال ذلك إذا كان المُستولَى عليه موجوداً قبل، والعرشُ إنَّما حدث بتخليقه تعالى وتكوينه سبحانه، وأيضاً الاستيلاءُ واحدٌ بالنسبة إلى كلِّ المخلوقات، فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدةٌ.

---

(١) سلف قريباً.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ٢/ ٣٦٨.

(٣) سلف قريباً.

(٤) صحيح البخاري (٧٤٢٢)، وهو أيضاً عند مسلم (٢٧٥١): (١٤) و(١٥)، وأحمد (٧٥٠٠)، وسلف ١/ ١١٤.

(٥) سلف ٤/ ٣٨.

وأجاب الإمام الرازيُّ بأنَّه إذا فُسِّر الاستيلاءُ بالاقتدار زالت هذه المطاعنُ بالكليَّة[١]، ولا يخفى حال هذا الجواب على المنصف.

وقال الزمخشريُّ: لمَّا كان الاستواء على العرش ـ وهو سرير الملك ـ لا يحصل إلَّا مع الملك جعلوه كنايةً عن الملك، فقالوا: استوى فلان على العرش، يريدون: مَلَكَ، وإنْ لم يقعد على العرش البتة، وإنما عبَّروا عن حصول الملك بذلك؛ لأنَّه أشرح وأبسط وأدلُّ على صورة الأمر، ونحوه قولك: يدُ فلانٍ مبسوطة، ويدُ فلانٍ مغلولة، بمعنى أنَّه جوادٌ أو بخيل، لا فرق بين العبارتين إلَّا فيما قلت، حتى إنَّ من لم يبسط يدَه قطُّ بالنوال، أو لم تكن له يد رأساً، قيل فيه: يده مبسوطة، لمساواته عندهم قولهم: جواد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ﴾ الآية [المائدة: ٦٤] عنوا الوصف بالبخل، ورُدَّ عليهم بأنَّه جلَّ جلاله جوادٌ من غير تصوُّرِ يدٍ ولا غُلٍّ ولا بسطٍ[٢]. انتهى.

وتعقَّبه الإمام قائلاً: إنَّا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلاتُ الباطنيَّة، فإنَّهم يقولون أيضاً: المرادُ من قوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢] الاستغراق في خدمة الله تعالى من غير تصوُّرِ نعلٍ، وقوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] المراد منه تخليصُ إبراهيم عليه السلام عن يد ذلك الظالم من غير أن يكونَ هناك نارٌ وخطابٌ البتَّة. وكذا القول في كلِّ ما وردَ في كتاب الله تعالى، بل القانون أنَّه يجبُ حملُ كلِّ لفظٍ وردَ في القرآن على حقيقته، إلَّا إذا قامت دلالةٌ عقليَّةٌ قطعيَّةٌ توجبُ الانصراف عنه، وليت من لم يعرف شيئاً لم يَخُضْ فيه[٣]. انتهى.

ولا يخفى عليك أنَّه لا يلزم من فتح الباب في هذه الآية انفتاحُ تأويلات الباطنية فيما ذكر من الآيات، إذ لا داعي لها هناك، والداعي للتأويل بما ذكره الزمخشريُّ قويٌّ عنده، ولعلَّه الفرارُ من لزوم المحال مع رعاية جزالة المعنى، فإنَّ ما اختاره أجزلُ من معنى الاستيلاء، سواءٌ كان معنى حقيقيًّا للاستواء، كما هو

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٧.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٣٠.
(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ٧.

ظاهر كلام «الصحاح» و«القاموس»[1] وغيرهما، أو مجازيًّا، كما هو ظاهر جعلهم الحمل عليه تأويلاً.

واستدلَّ الإمام على بطلان إرادة المعنى الظاهر بوجوه:

الأول: أنَّه سبحانه وتعالى كان ولا عرش، ولمَّا خلقَ الخلق لم يحتج إلى ما كان غنيًّا عنه.

الثاني: أنَّ المستقِرَّ على العرش لا بدَّ وأنْ يكون الجزءُ الحاصلُ منه في يمين العرش غيرَ الجزء الحاصل منه في يساره، فيكون سبحانه وتعالى في نفسه مؤلَّفاً، وهو محالٌ في حقِّه تعالى؛ للزوم الحدوث.

الثالث: أنَّ المستقرَّ على العرش، إمَّا أنْ يكون متمكِّناً من الانتقال والحركة، ويلزم حينئذٍ أنْ يكون سبحانه وتعالى محلَّ الحركة والسكون، وهو قولٌ بالحدوث، أو لا يكون متمكِّناً من ذلك، فيكون جلَّ وعلا كالزَّمِنِ، بل أسوأ حالاً منه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً.

الرابع: أنَّه إن قيل بتخصيصه سبحانه وتعالى بهذا المكان ـ وهو العرش ـ احتيجَ إلى مخصِّص وهو افتقارٌ يُنَزَّه الله تعالى عنه، وإن قيل بأنَّه عزَّ وجلَّ يحصلُ بكلِّ مكانٍ لزم مالا يقوله عاقل.

الخامس: أنَّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] عامٌّ في نفي المماثلة، فلو كان جالساً لحصل من يماثله في الجلوس، فحينئذٍ تبطلُ الآية.

السادس: أنَّه تعالى لو كان مستقرًّا على العرش لكان محمولاً للملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] وحاملُ حامل الشيء حاملٌ لذلك الشيء، وكيف يحملُ المخلوقُ خالقه.

السابع: أنَّه لو كان المستقرُّ في المكان إلهاً، ينسدُّ بابُ القدح في إلهية الشمس والقمر.

الثامن: أنَّ العالم كرةٌ، فالجهة التي هي فوق بالنسبة إلى قومٍ هي تحت بالنسبة إلى آخرين، وبالعكس، فيلزم من إثبات جهة الفوق للمعبود سبحانه إثباتُ

---

(١) مادة (سوا).

الجهة المقابلة لها أيضاً بالنسبة إلى بعض، وباتِّفاق العقلاء لا يجوزُ أنْ يقال: المعبودُ تحت.

التاسع:(١) أنَّ الأمَّة أجمعت على أنَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] من المحكمات، وعلى فرض الاستقرار على العرش يلزمُ التركيب والانقسام، فلا يكونُ سبحانه وتعالى أحداً في الحقيقة، فيبطل ذلك المحكم.

العاشر: أنَّ الخليل عليه السلام قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦]، فلو كان تعالى مستقرًّا على العرش لكان جسماً آفلاً أبداً، فيندرج تحت عمومِ هذا القول(٢). انتهى.

ثم إنَّه ـ عفا الله تعالى عنه ـ ضَعَّف القول بأنَّا نقطعُ بأنَّه ليس مرادَ الله تعالى ما يشعر به الظاهر، بل مرادُه سبحانه شيءٌ آخر، ولكن لا نعيِّنُ ذلك المراد خوفاً من الخطأ = بأنَّه عزَّ وجلَّ لمَّا خاطبنا بلسان العرب، وجبَ أن لا نريد باللفظ إلَّا موضوعه في لسانهم، وإذا كان لا معنى للاستواء في لسانهم إلَّا الاستقرار والاستيلاء، وقد تعذَّر حمله على الاستقرار، فوجب حملُه على الاستيلاء، وإلَّا لزم تعطيلُ اللفظ. وإنه غير جائز.

وإلى نحو هذا ذهب الشيخ عزُّ الدين بنُ عبد السلام، فقال في بعض فتاويه: طريقةُ التأويل بشرطه ـ وهو قربُ التأويل ـ أقربُ إلى الحقِّ، لأنَّ الله تعالى إنَّما خاطبَ العرب بما يعرفونه، وقد نصبَ الأدلَّة على مراده من آيات كتابه؛ لأنَّه سبحانه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٩]، و﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] وهذا عامٌّ في جميع آيات القرآن، فمن وقفَ على الدليل أفهمَه الله تعالى مرادَه من كتابه، وهو أكمل ممَّن لم يقف على ذلك، إذْ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. وفيه توسُّط في المسألة.

وقد توسَّط ابنُ الهمام في «المسايرة» ـ وقد بلغَ رتبةَ الاجتهاد، كما قال عصريُّنا ابن عابدين الشاميّ في «ردِّ المحتار» حاشية «الدرِّ المختار»(٣) ـ توسُّطاً أخصَّ من

---

(١) بعدها في الأصل: على.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٥ ـ ٦.

(٣) ٣/ ١٧٣.

هذا التوسُّط، فذكر ما حاصله وجوب الإيمان بأنَّه تعالى استوى على العرش مع نفي التشبيه، وأمَّا كونُ المراد استولى، فأمرٌ جائزُ الإرادَةِ لا واجبها، إذ لا دليلَ عليه، وإذا خيفَ على العامَّة عدمُ فهم الاستواء إذا لم يكن بمعنى الاستيلاء إلَّا بالاتصال ونحوه من لوازم الجسميَّة، فلا بأسَ بصرف فهمهم إلى الاستيلاء، فإنَّه قد ثبتَ إطلاقه عليه لغةً في قوله:

فلما علونا واستوينا عليهم جعلناهم مرعًى لنسرٍ وطائر[1]

وقولِه:

قد استوى بشر[2] ....

البيت المشهور.

وعلى نحو ما ذكر كلُّ ما وردَ ممَّا ظاهره الجسميَّة في الشاهد، كالأصبع والقدم واليد[3].

ومخلص ذلك التوسُّط في القريب بينَ أن تدعو الحاجةُ إليه لخللٍ في فهم العوامِّ، وبين أنْ لا تدعو لذلك.

ونقل أحمد زَرُّوق[4] عن أبي حامد أنَّه قال: لا خلافَ في وجوب التأويل عند تعيُّن شبهةٍ لا ترتفعُ إلَّا به.

وأنت تعلمُ أنَّ طريقة كثيرٍ من العلماء الأعلام وأساطين الإسلام الإمساك عن التأويل مطلقاً[5] مع نفي التشبيه والتجسيم، منهم الإمام أبو حنيفة، والإمام مالك، والإمام أحمد، والإمام الشافعيّ، ومحمد بن الحسن، وسعد بن معاذ المروزيُّ،

---

(١) سلف ٢/٧٩، وفيه: صرعى لنسر وكاسر. بدل: مرعى لنسر وطائر.
(٢) سلف ٤/٣٨.
(٣) المسايرة مع شرحه المسامرة لابن أبي شريف المقدسي ص٥٨ ـ ٦١.
(٤) هو أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البُرْنُسي الفاسي، أبو العباس، فقيه محدث صوفي. له تصانيف يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، وانفرد بجودة التصنيف في التصوف، من تصانيفه: «شرح مختصر خليل» في فقه المالكية، و«النصيحة الكافية لمن خصه الله العافية» وله عدة شروح للحكم العطائية. ت (٨٩٩هـ). الضوء اللامع ١/٢٢٢، والأعلام ١/٩١.
(٥) لفظة: مطلقاً. ليست في الأصل.

وعبد الله بن المبارك، وأبو معاذ خالد بن سليمان صاحب سفيان الثوريّ، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن إسماعيل البخاريُّ، والترمذيُّ، وأبو داود السجستانيُّ. ونقل القاضي أبو العلاء صاعد بن محمد(١) في كتاب «الاعتقاد» عن أبي يوسف عن الإمام أبي حنيفة أنَّه قال: لا ينبغي لأحدٍ أنْ ينطقَ في الله تعالى بشيءٍ من ذاته، ولكن يصفُه بما وصفَ سبحانه به نفسه، ولا يقول فيه برأيه شيئاً تباركَ الله تعالى ربُّ العالمين.

وأخرج ابن أبي حاتم في «مناقب الشافعيّ» عن يونس بن عبد الأعلى قال: سمعتُ الشافعيَّ يقول: لله تعالى أسماء وصفات لا يَسعُ أحداً ردُّها، ومن خالفَ بعد ثبوتِ الحجَّة عليه كفر، وأمَّا قبل قيام الحجة فإنَّه يعذر بالجهل؛ لأنَّ علم ذلك لا يُدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر، فنثبتُ هذه الصفات، وننفي عنها التشبيه، كما نفى سبحانه عن نفسه، فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾(٢) [الشورى: ١١].

ذكر الحافظ ابنُ حجر في «فتح الباري» أنَّه قد اتفق على ذلك أهل القرون الثلاثة، وهم خير القرون بشهادة صاحب الشريعة ﷺ(٣).

وكلام إمام الحرمين في «الإرشاد»(٤) يميلُ إلى طريقة التأويل، وكلامُه في «الرسالة النظامية» مصرِّح باختياره طريقة التفويض، حيثُ قال فيها: والذي نرتضيه رأياً ونَدينُ به عقداً اتِّباعُ سلف الأمَّة، فالأولَى الاتِّباع وتركُ الابتداع، والدليلُ السمعيُّ القاطعُ في ذلك إجماع الصحابة ﷺ، فإنَّهم درجوا على ترك التعرُّضِ لمعاني المتشابهات، مع أنَّهم كانوا لا يألونَ جهداً في ضبط قواعد الملَّة والتواصي بحفظها وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها، فلو كان تأويلُ هذه الظواهر مسنوناً أو محتوماً لأوشكَ أنْ يكون اهتمامهم بها فوق الاهتمام بفروع الشريعة.

---

(١) هو قاضي نيسابور، أبو العلاء الأُستوائي، (ت ٤٣١ أو ٤٣٢هـ). الجواهر المضية ٢/ ٢٦٥-٢٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨.

(٢) لم أقف عليه في مطبوع مناقب الشافعي لابن أبي حاتم. وأورده نقلاً عنه ابن حجر في فتح الباري ١٣/ ٤٠٧.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

(٤) انظر الإرشاد ص١٤٦ وما بعدها.

وقد اختاره أيضاً الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي صنَّفه في اختلاف المصلِّين ومقالات الإسلاميين(١)، وفي كتابه «الإبانة في أصول الديانة»(٢) وهو آخر مصنفاته فيما قيل.

وقال البيضاويُّ في «الطوالع»: والأولى اتِّباع السلف في الإيمان بهذه الأشياء ـ يعني المتشابهات ـ وردُّ العلم إلى الله تعالى بعد نفي ما يقتضي التشبيهَ والتجسيم عنه تعالى. انتهى. وعلى ذلك جرى محقِّقو الصوفيَّة، فقد نُقِل عن جمع منهم أنَّهم قالوا: إنَّ الناسَ ما احتاجوا إلى تأويل الصفات إلَّا من ذهولهم عن اعتقاد أنَّ حقيقتَه تعالى مخالفةٌ لسائر الحقائق، وإذا كانت مخالفةً، فلا يصحُّ في آيات الصفات قطُّ تشبيهٌ، إذ التشبيهُ لا يكون إلَّا مع موافقة حقيقته تعالى لحقائق خلقه، وذلك محال.

وعن الشعرانيّ أنَّ من احتاج إلى التأويل، فقد جهلَ أوَّلاً وآخراً؛ أمَّا أوَّلاً فبتعقُّله صفة التشبيه في جانب الحقِّ، وذلك محال، وأمَّا آخراً فلتأويله ما أنزلَ الله تعالى على وجهٍ لعلَّه لا يكونُ مراد الحقِّ سبحانه.

وفي «الدرر المنثورة» له: أنَّ المؤوِّلَ انتقل عن شرح الاستواء الجثمانيّ على العرش المكانيّ بالتنزيه عنه إلى التشبيه بالأمر السلطانيّ الحادث، وهو الاستيلاء على المكان، فهو انتقالٌ عن التشبيه بمحدَثٍ ما إلى التشبيه بمحدثٍ آخر، فما بلغ عقله في التنزيه مبلغَ الشرع فيه في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. ألا ترى أنَّه استشهدَ في التنزيه العقليّ في الاستواء بقول الشاعر:

قد استوى..............

البيت.

وأين استواءُ بشرٍ على العراق من استواء الحقِّ سبحانه وتعالى على العرش، فالصواب أنْ يلزمَ العبدُ الأدبَ مع مولاه، ويَكِلَ معنى كلامه إليه عزَّ وجلَّ.

ونقل الشيخ إبراهيم الكوراني في «تنبيه العقول» عن الشيخ الأكبرِ قُدِّسَ سرُّه أنَّه قال في «الفتوحات» أثناءَ كلامٍ طويلٍ عجبَ فيه من الأشاعرة والمجسِّمة: الاستواءُ

(١) مقالات الإسلاميين ص٢٩٠-٢٩٧.
(٢) ص٣١-٣٤.

حقيقةٌ معقولةٌ معنويَّةٌ تنسب إلى كلِّ ذاتٍ بحسب ما تعطيه حقيقة تلك الذات، ولا حاجة لنا إلى التكلُّف في صرف الاستواء عن ظاهره[1].

والفقير قد رأى في «الفتوحات» ضمنَ كلامٍ طويل أيضاً في الباب الثالث منها ما نصُّه: ما ضلَّ من ضلَّ من المشبِّهة إلَّا بالتَّأويل وحملِ ما وردت به الآياتُ والأخبار على ما يسبقُ منها إلى الفهم، من غير نظرٍ فيما يجبُ لله تعالى من التنزيه، فقادهم ذلك إلى الجهل المحض والكفر الصراح، ولو طلبوا السلامةَ وتركوا الأخبار والآيات على ما جاءت من غير عدولٍ منهم فيها إلى شيء البتة، ويكلون علم ذلك إلى الله تعالى ولرسوله ﷺ، ويقولون: لا ندري، كان يكفيهم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] [الشورى: ١١]. ثم ذكر بعدُ في الكلام على قوله ﷺ الذي رواه مسلم[3]: «إنَّ قلوب بني آدم كلَّها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحدٍ يصرِّفُه كيف شاء» التخييرَ بين التفويض، لكن بشرط نفي الجارحة ولا بدّ، وتبيين ما في ذلك اللفظِ من وجوه التنزيه، وذكر أنَّ هذا واجبٌ على العالم عند تعيُّنه في الردِّ على بدعيٍّ مجسمٍ مشبِّه[4].

وقال أيضاً فيما رواه عنه تلميذُه المحقِّق إسماعيل بن سودكين في «شرح التجليات»: ولا يجوزُ للعبد أنْ يتأوَّل ما جاء من أخبار السمع لكونها لا تطابقُ دليله العقليّ، كأخبار النزول وغيره؛ لأنَّه لو خرج الخطاب عمَّا وُضِع له لما كان به فائدة، وقد علمنا أنَّه عليه الصلاة والسلام أُرسل ليبيِّن للناس ما أُنزل إليهم، ثم رأيناه ﷺ مع فصاحته وسَعه علمه وكشفه لم يقل لنا: إنَّه تنزُّل رحمتِه تعالى، ومن قال: تنزل رحمته، فقد حملَ الخطاب على الأدلَّة العقلية، والحقُّ ذاته مجهولةٌ، فلا يصحُّ الحكم عليه بوصفٍ مقيد معين، والعربُ تفهم نسبة النزول مطلقاً، فلا تقيِّده بحكمٍ دون حكم، وحيث تقرَّر عندها أنَّه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء يحصلُ لها المعنى مطلقاً منزَّهاً، وربَّما يقال لك: هذا يحيلُه العقل، فقل: الشأن

(١) الفتوحات ١/ ٤٤.

(٢) الفتوحات المكية ١/ ٩٥.

(٣) برقم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) الفتوحات ١/ ٩٦.

هذا إذا صحَّ أن يكونَ الحقُّ من مدركات العقول، فإنَّه حينئذٍ تمضي عليه سبحانه وتعالى أحكامها. انتهى.

وقال تلميذُه الشيخُ صدر الدين القونويّ في «مفتاح الغيب» بعد بسط كلام في قاعدةٍ جليلة الشأن، حاصلُها أنَّ التغايرَ بين الذوات يستدعي التغاير في نسبة الأوصاف إليها ما نصُّه: وهذه قاعدةٌ من عرفها أو كُشِفَ له عن سرِّها عرف سرَّ الآيات والأخبار التي توهم التشبيه عند أهل العقول الضعيفة، واطَّلع على المرادِ منها، فيسلم من ورطتي التأويل والتشبيه، وعاينَ الأمر كما ذكر مع كمال التنزيه. انتهى.

وخلاصةُ الكلام في هذا المقام أنَّه قد ورد في الكتاب العزيز والأحاديث الصحيحة ألفاظٌ توهم التشبيه والتجسيم وما لا يليقُ بالله تعالى الجليل العظيم، فتشبَّث المجسِّمةُ والمشبِّهة بما تُوهمه فضلُّوا وأضلُّوا، ونكَبوا عن سواء السبيل وعدَلوا، وذهب جمعٌ إلى أنَّهم هالكون وبربِّهم كافرون، وذهب آخرون إلى أنَّهم مبتدعون، وفصَّل بعضٌ فقال: هم كفرةٌ إن قالوا: هو سبحانه وتعالى جسمٌ كسائر الأجسام، ومبتدعةٌ إن قالوا: جسمٌ لا كالأجسام.

وعصم الله تعالى أهلَ الحقِّ ممَّا ذهبوا إليه وعوَّلوا في عقائدهم عليه، فأثبتت طائفةٌ منهم ما وردَ كما ورد مع كمال التنزيه المبرَّأ عن التجسيم والتشبيه، فحقيقةُ الاستواء مثلاً المنسوب إليه تعالى شأنه لا يلزمُها ما يلزم في الشاهد، فهو جلَّ وعلا مستوٍ على العرش، مع غناه سبحانه وتعالى عنه، وحمله بقدرتِه للعرش وحملَتِه، وعدم مماسَّته له أو انفصالٍ مَسَافيٍّ بينه تعالى وبينه، ومتى صحَّ للمتكلِّمين أن يقولوا: إنَّه تعالى ليس عين العالم ولا داخلاً فيه ولا خارجاً عنه، مع أنَّ البداهة تكادُ تقضي ببطلان ذلك بين شيء وشيء، صحَّ لهؤلاء الطائفة أنْ يقولوا ذلك في استوائه تعالى الثابت بالكتاب والسنة، فالله سبحانه وصفاته وراءَ طور العقل، فلا يقبل حكمه إلَّا فيما كان في طور الفكر، فإنَّ القوة المفكِّرة شأنُها التصرُّف فيما في الخيال والحافظة من صور المحسوسات والمعاني الجزئية، ومن ترتيبها على القانون يحصلُ للعقل علمٌ آخر بينه وبين هذه الأشياء مناسبةٌ، وحيثُ لا مناسبة بين ذات الحقِّ جلَّ وعلا وبين شيءٍ لا يُستنتج من المقدِّمات التي يرتِّبها العقلُ

معرفةُ الحقيقة، فأكفُّ الكيف مشلولةٌ، وأعناق التطاول إلى معرفة الحقيقة مغلولةٌ، وأقدامُ السعي إلى التشبيه مكبَّلة، وأعينُ الأبصار والبصائر عن الإدراك والإحاطة مسملة:

مـرام شـط مـرمـى الـعـقـل فـيـه ودون مـداه بـيـدٌ لا تـبـيـد[1]

وقد أخرج اللالكائيُّ في كتاب «السنة» من طريق الحسن عن أمِّه عن أمِّ سلمة أنها قالت: الاستواءُ غير مجهول، والكيفُ غيرُ معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر[2].

ومن طريق ربيعة بن [أبي] عبد الرحمن أنَّه سُئل: كيف استوى على العرش؟ فقال: الاستواءُ غير مجهول، والكيف غيرُ معقول، وعلى الله تعالى إرساله، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم[3].

ومتى قالوا بنفي اللوازم بالكليَّة اندفعَ عنهم ما تقدَّم من الاعتراضات، وحُفِظوا عن سائر الآفات، وهذه الطائفة ـ قيل ـ هم السلف الصالح.

وقيل: إنَّ السلف بعد نَفْي ما يتوهَّم من التشبيه يقولون: لا ندري ما معنى ذلك، والله تعالى أعلم بمراده.

واعترض بأنَّ الآيات والأخبار المشتملة على نَحْوِ ذلك كثيرةٌ جدًّا، ويَبعدُ غاية البعد أنْ يخاطب الله تعالى ورسولُه ﷺ العبادَ فيما يرجع إلى الاعتقاد بما لا يُدرى معناه، وأيضاً قد ورد في الأخبار ما يدلُّ على فهم المخاطب المعنى من مثل ذلك؛ فقد أخرج أبو نُعيم عن الطبرانيّ قال: حدثنا عياش بن تميم، حدثنا يحيى بن أيوب المقابري، حدثنا سلم بن سالم، حدثنا خارجة بن مصعب، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى

---

(١) سلف ١/ ١٣٠.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٦٦٣). وقال ابن تيمية في الفتاوى ٥/ ٣٦٥: وقد روي هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً. ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٦٦٥) وما بين حاصرتين منه. وقال ابن تيمية في الفتاوى ٥/ ٣٦٥: ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك.

يضحكُ من يأس عباده وقنوطهم وقرب الرحمة منهم». فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أَوَ يضحك ربُّنا؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده إنه ليضحك». قلت[١]: فلا يُعْدِمنا خيراً إذا ضحك[٢].

فإنَّها ﷺ لو لم تفهم من ضحكه تعالى معنًى لم تقل ما قالت.

وقد صحَّ عن بعض السلف أنَّهم فسَّروا؛ ففي «صحيح البخاري» قال مجاهد: استوى على العرش: علا على العرش. وقال أبو العالية: استوى على العرش: ارتفع[٣].

وقيل: إنَّ السلف قسمان؛ قسمٌ منهم بعد أنْ نفوا التشبيه عيَّنوا المعنى الظاهرَ المعرَّى عن اللوازم، وقسمٌ رأوا صحة تعيين ذلك وصحة تعيين معنًى آخر لا يستحيلُ عليه تعالى، كما فعل بعضُ الخلف، فراعوا الأدب، واحتاطوا في صفات الربِّ، فقالوا: لا ندري ما معنى ذلك، أي: المعنى المراد له عزَّ وجلَّ، والله تعالى أعلم بمراده.

وذهبت طائفةٌ من المنزِّهين عن التشبيه والتجسيم إلى أنَّه ليس المرادُ الظواهر مع نفي اللوازم، بل المراد معنًى معيَّن، هو كذا، وكثيراً ما يكون ذلك معنًى مجازيًّا، وقد يكون معنًى حقيقيًّا للفظ، وهؤلاء جماعةٌ من الخلف، وقد يتَّفق لهم تفويضُ المراد إليه جل وعلا أيضاً، وذلك إذا تعدَّدت المعاني المجازيَّة أو الحقيقية التي لا يتوهَّم منها محذورٌ، ولم يقم عندهم قرينةٌ ترجِّحُ واحداً منها، فيقولون: يحتملُ اللفظ كذا وكذا، والله تعالى أعلمُ بمراده من ذلك.

ومذهب الصوفية ـ على ما ذكره الشيخ إبراهيم الكوراني وغيره ـ إجراء المتشابهات على ظواهرها مع نفي اللوازم، والتنزيه بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، كمذهب السلف الأول، وقولهم بالتجلِّي في المظاهر على هذا النحو.

---

(١) بعدها في الأصل: لا.

(٢) المعجم الأوسط (٤٨٨٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٨٤: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه خارجة بن مصعب وهو متروك.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قبل الحديث (٧٤١٨). وفيه: استوى إلى السماء: ارتفع.

وكلامُ الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه في هذا المقام مضطربٌ، كما يشهد بذلك ما سمعتَ نقله عنه أولاً، مع ما ذكره في الفصل الثاني من الباب الثاني من «الفتوحات»، فإنَّه قال في عدِّ الطوائف المنزِّهة: وطائفةٌ من المنزِّهة أيضاً، وهي العاليةُ، وهم [من] أصحابنا، فرَّغُوا قلوبَهم من الفكر والنظر وأخلوها، وقالوا: حصل في نفوسنا من تعظيم الله تعالى الحقِّ جلَّ جلاله بحيثُ لا نقدر أنْ نصلَ إلى معرفة ما جاءنا من عنده بدقيق فكر ونظر، فأشبهوا في هذا العقدِ المحدِّثين السالمةَ عقائدهم، حيث لم ينظروا ولم يؤوِّلوا، بل قالوا: ما فهمنا. فقال أصحابنا بقولهم، ثم انتقلوا عن مرتبة هؤلاء بأن قالوا: لنا أنْ نسلكَ طريقةً أخرى في فهم هذه الكلمات، وذلك بأن نفرِّغ قلوبَنا من النظر الفكريّ، ونجلسَ مع الحقِّ تعالى بالذكر على بساط الأدب والمراقبة والحضور والتهيُّؤ لقبول ما يردُ منه تعالى، حتى يكون الحقُّ سبحانه وتعالى متولِّي تعليمنا بالكشف والتحقق لمَّا سمعوه تعالى يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢][(١)]، و﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] و﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] و﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] فعندما توجَّهت قلوبُهم وهممهم إلى الله عزَّ وجل، ولجأت إليه سبحانه وتعالى، وألقت عنها ما استمسكَ به الغيرُ من دعوى البحث والنظر ونتائج العقول، كانت عقولُهم سليمةً، وقلوبُهم مطهَّرةً فارغةً، فعندما كان منهم هذا الاستعداد تجلَّى لهم الحقُّ عياناً[(٢)] معلِّماً، فأطلعتهم تلك المشاهدةُ على معاني تلك الكلمات دفعةً واحدةً، فعرفوا المعنى التنزيهيّ الذي سيقت له، ويختلفُ ذلك بحسب اختلاف مقامات إيرادها، وهذا حالُ طائفةٍ منا، وحالُ طائفةٍ أخرى منَّا أيضاً ليس لهم هذا التجلي، لكن لهم الإلقاء والإلهام واللقاء والكتاب، وهم معصومون فيما يُلْقَى إليهم بعلاماتٍ عندهم لا يعرفها سواهم، فيخبِرون بما خُوطبوا به، وبما ألهموا وما ألقي إليهم أو كُتب[(٣)]. اهـ المراد منه.

---

(١) قال ابن جزي في التسهيل ص٩٧: وقيل: معناه الوعد بأنَّ من اتقى علَّمه الله وألهمه، وهذا المعنى صحيح. ولكن لفظ الآية لا يعطيه؛ لأنَّه لو كان كذلك لجزم «يعلمكم» في جواب «اتقوا».

(٢) لفظة: عياناً، ليست في الفتوحات.

(٣) الفتوحات ١/ ٨٩ ـ ٩٠. وما سلف بين حاصرتين منه.

ولعلَّ من يقول بإجراء المتشابهات على ظواهرها مع نفي اللوازم، كمذهب السلف الأول من الصوفيَّة = طائفةٌ لم يحصل لهم ما حصلَ لهاتين الطائفتين، والفضلُ بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء.

هذا، بقي هل يسمَّى ما عليه السلفُ تأويلاً أم لا؟

المشهور عدمُ تسمية ما عليه المفوِّضة منهم تأويلاً، وسمَّاه بعضهم تأويلاً، كالذي عليه الخلف.

قال اللقانيّ: أجمع الخلف ـ ويعبر عنهم بالمؤولة ـ والسلف ـ ويعبر عنهم بالمفوِّضة ـ على تنزيهه تعالى عن المعنى المحال الذي دلَّ عليه الظاهر، وعلى تأويله وإخراجه عن ظاهره المحال، وعلى الإيمان[1] بأنه من عند الله تعالى، جاء به رسوله ﷺ، وإنما اختلفوا في تعيين محملٍ له معنًى صحيح، وعدم تعيينه بناءً على أنَّ الوقف على قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] أو على قوله سبحانه: (إِلَّا ٱللَّهُ) ويقال لتأويل السلف إجماليّ، ولتأويل الخلف تفصيليّ. انتهى ملخَّصاً[2].

وكان شيخنا العلامة علاء الدين يقول: ما عليه المفوِّضةُ تأويلٌ واحدٌ، وما عليه المؤولة تأويلات[3]، ولعله راجعٌ إلى ما سمعت.

وأمَّا ما عليه القائلون بالظواهر مع نفي اللوازم، فقد قيل: إنَّ فيه تأويلاً أيضاً؛ لما فيه من نفي اللوازم، وظاهرُ الألفاظ أنفسها تقتضيها، ففيه إخراجُ اللفظ عما يقتضيه الظاهر، وإخراجُ اللفظ عن ذلك لدليلٍ ولو مرجوحاً تأويل، ومعنى كونهم قائلين بالظواهر أنَّهم قائلون بها في الجملة.

وقيل: لا تأويلَ فيه؛ لأنَّهم يعتبرون اللفظ من حيث نسبتُه إليه عزَّ شأنُه، وهو من هذه الحيثيَّة لا يقتضي اللوازم، فليس هناك إخراجُ اللفظ عما يقتضيه الظاهر، ألا ترى أنَّ أهل السنَّة والجماعة أجمعوا على رؤية الله تعالى في الآخرة، مع نفي

(١) بعدها في (م): به.
(٢) إتحاف المريد بشرح جوهرة التوحيد ص١٣٢.
(٣) في (م): تأويلان.

لوازم الرؤية في الشاهد من المقابلة والمسافة المخصوصة وغيرهما، مع أنَّه لم يقل أحدٌ منهم: إنَّ ذلك من التأويل في شيء.

وقال بعضُ الفضلاء: كلُّ من فسَّر فقد أوَّل، وكلُّ من لم يفسِّر لم يؤوِّل؛ لأن التأويل هو التفسير، فمن عدا المفوضة مؤوِّلة، وهو الذي يقتضيه ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] بناءً على أنَّ الوقف على «إلَّا الله».

ولا يخفى أنَّ القول بأنَّ القائلين بالظواهر مع نفي اللوازم من المؤوِّلة الغيرِ الداخلين في الراسخين في العلم بناءً على الوقف المذكور = لا يتسنَّى مع القول بأنَّهم من السلف الذين هم هم. وقد يقال بأنَّهم داخلون في الراسخين، والتأويلُ بمعنى آخر يظهر بالتتبع والتأمُّل.

وقد تقدَّم الكلامُ في المراد بالمتشابهات، وذكرنا ما يُفهم منه الاختلاف في معنى التأويل، وأنا أميلُ إلى التأويل، وعدم القول بالظواهر مع نفي اللوازم في بعض ما ينسبُ إلى الله تعالى مثل قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، وقوله عزَّ وجل: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠] كما في بعض القراءات(١)، وكذا قوله ﷺ إن صحَّ: «الحجرُ الأسود يمين الله في أرضه، فمن قبَّله أو صافحَه فكأنما صافحَ الله تعالى وقبَّل يمينه»(٢)، فأجعلُ الكلام فيه خارجاً مخرجَ التشبيه؛ لظهور القرينة، ولا أقول: الحجرُ الأسود من صفاته تعالى، كما قال السلف في اليمين، وأرى من يقول بالظواهر ونفي اللوازم في الجميع بينَه وبين القول بوحدة الوجود على الوجه الذي قاله محقِّقو الصوفية مثل ما بين سوادِ العين وبياضها، وأميلُ أيضاً إلى القول بتقبيب العرش؛ لصحَّة الحديث في ذلك، والأقرب إلى الدليل العقلي القولُ بكرويته، ومن قال بذلك أجابَ عن الأخبار السابقة بما لا يخفى على الفطن.

وقال الشيخ الأكبر محيي الدين قدِّس سرُّه في الباب الحادي والسبعين

(١) الكشاف ٣/ ٣٢١، والبحر المحيط ٧/ ٣٣٢، على أن الألف منقلبة عن ياء المتكلم.
(٢) سلف ٩/ ٤٦٨.

والثلاث مئة من «الفتوحات»[١]: إنَّه ذو أركان أربعة، ووجوهٍ أربعة هي قوائمه الأصلية، وبين كلِّ قائمتين قوائم وعددها معلومٌ عندنا، ولا أبيِّنها. إلى آخر ما قال. ويفهم كلامه أنَّ قوائمه ليست بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، وصرَّح بأنَّه أحدُ حملته وأنه أنزل عند أفضل القوائم، وهي خزانة الرحمة، وذكر أنَّ العمى محيطٌ به، وأنَّ صورةَ العالم بجملته صورةُ دائرةٍ فلكيَّة، وأطال الكلام في هذا الباب وأتى فيه بالعجب العجاب، وليس له في أكثر ما ذكره فيه مستندٌ نعلمه من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ، ومنه ما لا يجوز لنا أنْ نقول بظاهره.

والظاهرُ أنَّ العرشَ واحد، وقال من قال من الصوفيَّة بتعدُّده.

ولا يخفى ما في نسبة الاستواء إليه تعالى بعنوان الرحمانيَّة ممَّا يزيد قوة الرجاء به جلَّ وعلا، وسبحانَ من وسعت رحمته كلَّ شيء.

وجعلُ فاعل الاستواء «ما» في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، و«له» متعلِّقٌ به على ما يقتضيه ما روي عن ابن عباس من أنَّ الوقفَ على «العرش»، ويكون المعنى: استقام له تعالى كلُّ ذلك، وهو على مراده تعالى بتسويته عزَّ وجلَّ إيَّاه، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩]، أو استوى كلُّ شيءٍ بالنسبة إليه تعالى، فلا شيء أقربُ إليه سبحانه من شيء كما يشير إليه: «لا تفضِّلوني على ابن متَّى»[٢] = ممَّا لا ينبغي أنْ يُلتفت إليه أصلاً[٣]، والروايةُ عن ابن عباس غيرُ صحيحة، ولعلَّ الذي دعا القائلَ به إليه الفرارُ من نسبة الاستواء إليه جلَّ جلاله، ويا ليتَ شعري ماذا يصنعُ بقوله تعالى: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)[٤] وهو بظاهره الذي يظنُّ مخالفته لما يقتضيه عقله مثل: «الرحمن على العرش استوى»، بل «له» خبرٌ مقدَّمٌ، و«ما في السماوات» مبتدأ مؤخَّر، أي: له عزَّ وجلَّ وحده دون غيره لا شركة ولا استقلالاً من حيث الملك والتصرُّف والإحياء

---

(١) ٣/ ٤٣١ - ٤٣٢.

(٢) سلف عند تفسير الآية ٥٠ من سورة الأنعام.

(٣) قوله: مما لا ينبغي أن يلتفت إليه أصلاً. جوابُ قوله في أول الكلام: وجعل فاعل الاستواء ما في... .

(٤) هذا سبق قلم، ولعل المصنف يريد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

والإماتة والإيجاد والإعدام جميعُ ما في السماوات والأرض، سواءٌ كان ذلك بالجزئيَّة منهما، أو بالحلول فيهما.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات الكائنة في الجوِّ دائماً، كالهواء والسحاب وخلقٍ لا نعلمهم، هو سبحانه يعلمهم، أو أكثريًّا كالطير الذي نراه.

﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝﴾ أي: ما تحت الأرض السابعة، على ما روي عن ابن عباس، وأخرجه ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب. وأخرج عن السديِّ أنّه الصخرةُ التي تَحْتَ الأرض السابعة، وهي صخرةٌ خضراء[1].

وأخرج أبو يعلى عن جابر بن عبد الله أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِل: ما تحت الأرض؟ قال: «الماء» قيل: فما تحت الماء؟ قال: «ظلمة» قيل: فما تحت الظلمة؟ قال: «الهواء» قيل: فما تحت الهواء؟ قال: «الثرى» قال: فما تحت الثرى؟ قال: «انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق»[2]. وأخرج ابن مردويه عنه نحوه من حديث طويل[3].

وقال غير واحدٍ: الثرى: التراب النديُّ، أو الذي إذا بُلَّ لم يصر طيناً، كالثرياء ممدودةً، ويقال في تثنيته: ثَرَيَان وثَرَوَان، وفي جمعه: أثْراء؛ ويقال: ثَرِيَت الأرضُ، كرَضِيَ، تثرى ثَرى، فهي ثَرِيَّةٌ، كغنيَّة، وثَرْيَاء: إذا نَدِيت ولانت بعد الجدوبة واليُبْس، وأثرَت: كثُر ثراؤها[4]، وثَرَّى التربةَ تثريَةً: بلَّها، والمكانَ: رشَّه، وفلاناً[5]: ألزمَ يده الثرى.

وفُسِّر بمطلق التراب، أي: وله تعالى ما ورَّاه[6] التراب، وذكره مع دخوله تحت ما في الأرض؛ لزيادة التقرير. وإذا كان ما في الأرض ما هو عليها، فالأمر ظاهر، وما تقدَّم من الإشارة إلى أنَّ المرادَ: له تعالى كلُّ ذلك ملكاً وتصرُّفاً = هو الظاهر.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٨٩، وأورده ابن كثير في تفسيره ٥/ ٢٧٤ مطولاً.
(٣) الدر المنثور ٤/ ٢٩٠.
(٤) في الأصل: كثر ترابها، وفي القاموس واللسان (ثرى): كثر ثراها.
(٥) في القاموس (ثرى): فلانٌ.
(٦) في (م): واراه. وفي مطبوع أبي السعود ٦/ ٥ ـ والكلام منه ـ: وراء.

وقيل: المعنى: له علمُ ذلك، أي: إنَّ علمه تعالى محيطٌ بجميع ذلك، والأوَّلُ هو الظاهر، وعليه يكون قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ إلخ بيانٌ لإحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء، إثرَ بيان شمولِ قدرته تعالى لجميع الكائنات، والخطابُ ـ على ما قاله في «البحر»[1] ـ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ أمته عليه الصلاة والسلام. وجوَّزَ أنْ يكون عامًّا، أي: وإن ترفع صوتك أيُّها الانسان بالقول ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ أي: ما أسررتَه إلى غيرك ولم ترفع صوتك به ﴿وَأَخْفَى ۝﴾ أي: وشيئاً أخفى منه، وهو ما أخطرتَه ببالك من غير أن تتفوَّه به أصلاً، ورُوي ذلك عن الحسن وعكرمة.

أو: ما أسررته في نفسك وما سَتُسِرُّه فيها، وروي ذلك عن سعيد بن جبير.

وروي عن السيدين الباقر والصادق: السرُّ: ما أخفيتَه في نفسك، والأخفى: ما خطر ببالك ثمَّ أُنسيته.

وقيل: «أخفى» فعلٌ ماض، عطف على «يعلم» يعني أنَّه تعالى يعلمُ أسرار العباد، وأخفى ما يعلمُه سبحانه عنهم، وهو كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ورَوى ذلك أبو الشيخ في «العظمة»[2] عن زيد بن أسلم، وهو خلافُ الظاهر جدًّا[3]، فالمعوَّل عليه أنَّه أفعل تفضيل. والتنكيرُ للمبالغة في الخفاء.

والمتبادرُ من القول ما يشملُ ذكر الله تعالى وغيره، وإليه ذهب بعضهم. وخصَّه جماعةٌ بذكره سبحانه ودعائه على أنَّ التعريف للعهد؛ لأنَّ استواءَ الجهر والسرِّ عنده سبحانه المدلولَ عليه في الكلام يقتضي أنَّ الجهرَ المذكور في خطابه عزَّ وجلَّ.

وعلى القولين قولُه تعالى: «فإنَّه» إلخ قائمٌ مقام جواب الشرط، وليس الجواب في الحقيقة؛ لأنَّ علمه تعالى السرَّ وأخفى ثابتٌ قبل الجهر بالقول وبعدَه وبدونه.

---

(١) ٦/ ٢٢٦.

(٢) برقم (١٧٠).

(٣) وقال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٣٠: وليس بذاك. وكذا ضعفه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٣٧.

والأصل عند البعض: وإن تجهر بالقول فاعلم أنَّ الله تعالى يعلمُه، فإنَّه يعلمُ السرَّ وأخفى فضلاً عنه.

وعند الجماعة: وإن تجهر، فاعلم أنَّ الله سبحانه غنيٌّ عن جهرك، فإنه.. إلخ.

وهذا ـ على ما قيل ـ إرشادٌ للعباد إلى التحرِّي والاحتياط حين الجهر، فإنَّ من علم أنَّ الله تعالى يعلمُ جهره لم يجهر بسوء. وخصَّ الجهر بذلك؛ لأنَّ أكثر المحاورات ومخاطبات الناس به.

وقيل: إرشادٌ للعباد إلى أنَّ الجهر بذكر الله تعالى ودعائه ليس لإسماعه سبحانه، بل لغرضٍ آخر من تصوير النفس بالذكر، وتثبيته فيها، ومنعها من الاشتغالِ بغيره، وقطع الوسوسة، وغير ذلك.

وقيل: نهيٌ عن الجهر بالذكر والدعاء، كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وأنت تعلم أنَّ القولَ بأنَّ الجهر بالذكر والدعاء منهيٌّ لا ينبغي أنْ يكون على إطلاقه، والذي نصَّ عليه الإمام النوويُّ في «فتاويه»[1] أنَّ الجهر بالذكر ـ حيثُ لا محذورَ شرعيًا ـ مشروعٌ مندوبٌ إليه، بل هو أفضلُ من الإخفاء في مذهب الإمام الشافعيّ، وهو ظاهر مذهب الإمام أحمد، وإحدى الروايتين عن الإمام مالك بنقل الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»[2]، وهو قولٌ لقاضيخان في فتاويه في ترجمة مسائل كيفية القراءة، وقوله في باب غسل الميت: ويكره رفع الصوت بالذكر، فالظاهر أنه لمن يمشي مع الجنازة، كما هو مذهب الشافعية، لا مطلقاً، كما تفهمه عبارة «البحر الرائق» وغيره، وهو قول الإمامين في تكبير عيد الفطر كالأضحى، ورواية عن الإمام أبي حنيفة نفسه ﷺ، بل في «مسنده» ما ظاهره استحبابُ الجهر بالذكر مطلقاً، نعم قال ابن نجيم في «البحر» نقلاً عن المحقِّق ابن الهمام في «فتح القدير»[3] ما نصُّه: قال أبو حنيفة: رفعُ الصوت بالذكر بدعةٌ مخالفةٌ للأمر من قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠٥] فيُقتصرُ على مورد الشرع،

---

(١) ص٢٦٢.

(٢) ٢/ ٣٢٥-٣٢٦.

(٣) ١/ ٤٢٤.

وقد ورد به في الأضحى، وهو قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:٢٠٣]. وأجاب السيوطيُّ في «نتيجة الذكر»[١] عن الاستدلال بالآية السابقة بثلاثة أوجه:

الأول: أنَّها مكِّيَّة، ولمَّا هاجر ﷺ سقط ذلك.

الثاني: أنَّ جماعةً من المفسرين، منهم عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير[٢] حملوا الآية على الذكر حالَ قراءة القرآن، وأنه أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بالذكر على هذه الصفةِ تعظيماً للقرآن أنْ تُرفع عنده الأصوات، ويقوِّيه اتِّصالها بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ [الأعراف:٢٠٤] الآية.

والثالث: ما ذكره بعض الصوفية أنَّ الأمر في الآية خاصٌّ بالنبيِّ ﷺ الكاملِ المكمَّل، وأمَّا غيره عليه الصلاة والسلام ممَّن هو محلُّ الوساوس فمأمورٌ بالجهر؛ لأنَّه أشد تأثيراً في دفعها. وفيه ما فيه.

واختار بعض المحققين أنَّ المراد: دون الجهر البالغ أو الزائد على قدرِ الحاجة، فيكون الجهرُ المعتدل والجهرُ بقدر الحاجة داخلاً في المأمور به، فقد صحَّ ما يزيدُ على عشرين حديثاً في أنَّه ﷺ كثيراً ما كان يجهرُ بالذكر، وصحَّ عن أبي الزبير أنَّه سمعَ عبد الله بن الزبير يقول: كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من صلاته يقول بصوته الأعلى: «لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، لا حولَ ولا قوَّة إلَّا بالله، ولا نعبدُ إلَّا إيَّاه، له النعمةُ وله الفضل، وله الثناءُ الحسن، لا إله إلَّا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»[٣]. وهو محمولٌ على اقتضاء حاجةِ التعليم ونحوه لذلك.

وما في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعريّ قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ، وكنَّا إذا أشرفنا على وادٍ هلَّلنا وكبَّرنا، ارتفعت أصواتنا، فقال النبيُّ ﷺ: «يا أيُّها الناس، اِرْبَعوا على أنفسكم، فإنَّكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائباً، إنَّه معكم، إنَّه سميعٌ

---

(١) ٢/ ٢٩ ـ ٣٠ ضمن مجموع الفتاوي.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٦٦٧. واستبعد قولهما ابن كثير في تفسيره ٣/ ٥٣٩.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في مسنده ١/ ٩٩ (ترتيب السندي).
وأخرجه أحمد (١٦١٠٥)، ومسلم (٥٩٤) بنحوه.

قريب»[1] محمولٌ على أنَّ النهيَ المستفاد التزاماً من أمر «اربَعوا» الذي بمعنى: ارفقوا ولا تُجهدوا أنفسكم = مرادٌ به النهي عن المبالغة في رفع الصوت.

وبتقسيم الجهر واختلافِ أقسامه في الحكم يجمعُ بين الروايتين المختلفتين عن الإمام أبي حنيفة، وما ذُكر في الواقعات عن ابن مسعود من أنَّه رأى قوماً يهلِّلونَ برفع الصوتِ في المسجد، فقال: ما أراكم إلَّا مبتدعين، حتى أخرجهم من المسجد = لا يصحُّ عند الحفاظ من الأئمة المحدِّثين[2]، وعلى فرض صحته هو معارَضٌ بما يدلُّ على ثبوت الجهر منه ﷺ ممَّا[3] رواه غيرُ واحدٍ من الحفَّاظ، أو محمولٌ على الجهر البالغ.

وخبر: «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ـ أو العيش ـ ما يكفي»[4] صحيح، وعزاه الإمام السيوطيُّ[5] إلى الإمام أحمد وابن حبان والبيهقيّ عن سعد بن أبي وقاص[6]، وعزاه أبو الفتح[7] في «سلاح المؤمن» إلى أبي عوانة في «مسنده» الصحيح أيضاً، وهو محمولٌ على من كان في موضعٍ يخاف فيه الرياء أو الإعجاب أو نحوهما.

وقد صحَّ أيضاً أنَّه عليه الصلاة والسلام جهرَ بالدعاء وبالمواعظ، لكن قال غيرُ واحدٍ من الأجلَّة: إنَّ إخفاءَ الدعاء أفضل.

وحَدُّ الجهر ـ على ما ذكره ابن حجر الهيتمي في «المنهج القويم»[8] ـ أن يكون بحيث يسمعُ غيره، والإسرار بحيث يسمع نفسه. وعند الحنفية ـ في رواية ـ: أدنى الجهر إسماع نفسه، وأدنى المخافتة تصحيحُ الحروف، وهو قول الكرخيّ. وفي

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٩٢)، وصحيح مسلم (٢٧٠٤)، وسلف ٩/ ١٤٩.
(٢) وممن ضعفه ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الكبرى ١/ ١٧٧، والمناوي في فيض القدير ١/ ٤٥٧.
(٣) في الأصل: ما.
(٤) سلف ٩/ ٥٦٦.
(٥) في الجامع الصغير ١/ ٥٤٤.
(٦) مسند أحمد (١٤٧٧)، وصحيح ابن حبان (٨٠٩)، وشعب الإيمان للبيهقي (٥٥٤).
(٧) هو محمد بن محمد بن علي بن همام المصري، المتوفى سنة (٧٤٥هـ). انظر سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٦٢، وكشف الظنون ٢/ ٩٩٤ ـ ٩٩٥.
(٨) ص١٥٣.

كتاب الإمام محمد إشارةٌ إليه، والأصح كما في «المحيط» قولُ الشيخين الهندوانيّ والفضليّ ـ وهو الذي عليه الأكثر ـ: إنَّ أدنى الجهر إسماع غيره، وأدنى المخافتة إسماعُ نفسه. ومن هنا قال في «فتح القدير»(١): إنَّ تصحيح الحروف بلا صوتٍ إيماءٌ إلى الحروف بعضلات المخارج لا حروف، إذ الحروف كيفيَّةٌ تعرض للصوت، فإذا انتفى الصوتُ المعروض انتفى الحرف العارض، وحيثُ لا حرف، فلا كلام بمعنى المتكلِّم به، فلا قراءةَ بمعنى التكلُّم الذي هو فعل اللسان، فلا مخافتة عند انتفاء الصوت، كما لا جهر. انتهى محرَّراً.

وقد ألَّفَ الشيخ إبراهيم الكوراني عليه الرحمة في تحقيق هذه المسألة رسالتين جليلتين؛ سمَّى أولاهما: «نشر الزهر في الذكر بالجهر»، وثانيتهما بـ: «إتحاف المنيب الأوَّاه بفضل الجهر بذكر الله» وردَّ فيهما على بعض أهل القرن التاسع من علماء الحنفيَّة من أعيان دولة ميرزا ألغ بيك بن شاه دخ الكوركاني، حيثُ أطلقَ القول بكون الجهر بالذكر بدعةً محرَّمة، وألَّف في ذلك رسالة، ولعلَّه يأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ زيادةُ بسطٍ لتحقيق هذه المسألة، والله تعالى الموفق.

وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، والجملة استئنافٌ مسوقٌ لبيان أنَّ ما ذُكِر من صفات الكمال موصوفُها ذلك المعبودُ الحقّ، أي: ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة اللهُ عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تحقيقٌ للحقِّ، وتصريحٌ بما تضمَّنه ما قبله من اختصاص الألوهيَّة به سبحانه، فإنَّ ما أسند إليه عزَّ شأنُه من خَلق جميع الموجودات، والعلوّ اللائق بشأنه على جميع المخلوقات، والرحمانيَّة والمالكيَّة للعُلويَّات والسفليَّات، والعلمِ الشامل = ممَّا يقتضيه اقتضاءً بيِّناً.

وقوله تبارك اسمه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ بيانٌ لكون ما ذكر من الخالقيَّة وغيرها أسماءه تعالى وصفاته من غير تعدُّدٍ في ذاته تعالى، وجاء الاسم بمعنى الصفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣] و«الحسنى» تأنيث الأحسن، وصفةُ المؤنثة المفردة تجري على جمع التكسير، وحَسَّن ذلك

(١) ١/ ٢٣٣.

كونها وقعت فاصلة. وقيل: تضمُّنها الإشارة إلى عدم التعدُّد حقيقة بناءً على عدم زيادة صفاته تعالى على ذاته واتِّحادها معها. وفضلُ أسماء الله تعالى على سائر الأسماء في غاية الظهور.

وجوز أبو حيان(١) كون الاسم الجليل مبتدأ، وجملة «لا إله إلّا هو» خبره، وجملة «له الأسماء الحسنى» خبرٌ بعد خبر. وظاهرُ صنيعه يقتضي اختياره؛ لأنَّه المتبادر للذهن، ولا يخفى على المتأمِّل أوليَّة ما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ مسوقٌ لتقرير أمر التوحيد الذي انتهى إليه مساقُ الحديث، وبيان أنَّه أمرٌ مستمرٌّ فيما بين الأنبياء عليهم السلام، كابراً عن كابر، وقد خوطب به موسى عليه السلام حيث قيل له: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] وبه ختم عليه السلام مقاله حيث قال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [طه: ٩٨].

وقيل: مسوقٌ لتسليته ﷺ، كقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢] بناءً على ما نقل عن مقاتل في سبب النزول، إلّا أنَّ الأوَّل تسليةٌ له عليه الصلاة والسلام بردِّ ما قاله قومه، وهذا تسليةٌ له ﷺ بأنَّ إخوانه من الأنبياء عليهم السلام قد عَرَاهم من أممهم ما عَرَاهم، وكانت العاقبةُ لهم. وذِكْر مبدأ نبوَّة موسى عليه السلام نظيرُ(٢) ذكرِ إنزال القرآن عليه عليه الصلاة والسلام.

وقيل: مسوقٌ لترغيب النبيِّ ﷺ في الائتساء بموسى عليه السلام في تحمُّل أعباء النبوَّة، والصبرِ على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة، بعد ما خاطبه سبحانه بأنَّه كلَّفهُ التبليغَ الشاقَّ، بناءً على أنَّ معنى قوله تعالى: «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرةً لمن يخشى»: إنَّا أنزلنا عليك القرآن لتحتمل متاعبَ التبليغ ومقاولةَ العتاةِ من أعداء الإسلام، ومقاتلتَهم، وغيرَ ذلك من أنواع المشاقِّ وتكاليف النبوة، وما أنزلنا عليك هذا المُتعِبَ الشاقَّ إلّا ليكونَ تذكرةً، فالواو ـ كما قاله غير واحد ـ لعطفِ القصَّة على القصَّة، ولا نظرَ في ذلك إلى

(١) في البحر ٦/ ٢٢٧.
(٢) بعدها في (م): ما.

تناسبهما خبراً وطلباً، بل يشترط التناسب فيما سِيقتا له، مع أنَّ المعطوف ها هنا قد يؤوَّل بالخبر. ولا يخفى أنَّ ما تقدَّم جارٍ على سائر الأوجه والأقوال في الآية السابقة وسببِ نزولها، ولا يأباه شيءٌ من ذلك.

والاستفهام تقريريّ، وقيل: «هل» بمعنى «قد». وقيل: الاستفهام إنكاريٌّ ومعناه النفي، أي: ما أخبرناك قبل هذه السورة بقصَّة موسى عليه السلام، ونحنُ الآن مُخْبِروك بها، والمعوَّل عليه الأول.

والحديث :الخبر، ويصدق على القليل والكثير، ويُجمع على أحاديث على غير قياس. قال الفرَّاء: نرى أنَّ واحد الأحاديث: أحدوثة، ثم جعلوه جمعاً للحديث.

وقال الراغب: الحديث: كلُّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه[1].

ويكون مصدراً بمعنى التكلُّم، وحمله بعضهم على هذا هنا بقرينة: «فقال» إلخ، وعلَّق به قوله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾، ولم يجوِّز تعلُّقه به[2] على تقدير كونه اسماً للكلام والخبر؛ لأنَّه حينئذ كالجوامد لا يعمل.

والأظهر أنَّه اسمٌ لما ذكر؛ لأنَّه هو المعروف، مع أنَّ وصف القصة بالإتيان أولى من وصف التحدُّث والتكلُّم به، وأمر التعلُّق سهلٌ، فإنَّ الظرفَ يكفي لتعلُّقه رائحةُ الفعل، ولذا نقل الشريفُ عن بعضهم أنَّ القصةَ والحديثَ والخبرَ والنبأَ يجوزُ إعمالها في الظروف خاصَّةً، وإن لم يرد بها المعنى المصدري؛ لتضمُّن معناها الحصول والكون. وجُوِّزَ أنْ يكون ظرفاً لمضمَرٍ مؤخَّر، أي: حين رأى ناراً كان كيت وكيت، وأنْ يكون مفعولاً لمضمرٍ متقدِّم، أي: فاذكر وقتَ رؤيته ناراً.

روي أنَّ موسى عليه السلام استأذنَ شعيباً عليه السلام في الخروج من مدين إلى مصر لزيارةِ أمِّه وأخيه، وقد طالت مدة جنايته بمصر، ورجا خفاءَ أمره، فأذنَ

---

(١) المفردات (حدث).
(٢) لفظة: به. ليست في (م).

له، وكان عليه السلام رجلاً غيوراً، فخرجَ بأهله، ولم يصحب رفقةً[١]؛ لئلَّا تُرى امرأته، وكانت على أتانٍ وعلى ظهرها جوالق فيها أثاث البيت، ومعه غنم له، وأخذ عليه السلام على غير الطريق مخافةً من ملوك الشام، فلمَّا وافى وادي طوى، وهو بالجانب الغربيِّ من الطور، ولد له ابنٌ في ليلةٍ مظلمةٍ شاتيةٍ مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد ضلَّ الطريق وتفرَّقت ماشيته، ولا ماءَ عنده، فقدح فصلد زنده، فبينما هو كذلك «إذ رأى ناراً» على يسارِ الطريق من جانب الطور ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ أي: أقيموا مكانكم، أمرهم عليه السلام بذلك؛ لئلَّا يتبعوه فيما عزم عليه من الذهاب إلى النار، كما هو المعتاد، لا لئلَّا ينتقلوا إلى موضع آخر، فإنَّه ممَّا لا يخطر بالبال.

والخطاب قيل: للمرأة والولد والخادم. وقيل: للمرأة وحدها، والجمع إمَّا لظاهر لفظ الأهل، أو للتفخيم، كما في قول من قال:

وإن شئت حرمت النساء سواكم[٢]

وقرأ الأعمش وطلحة وحمزة ونافع في رواية: «لأهلهُ امكثوا» بضمِّ الهاء[٣].

﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرتُها إبصاراً بيِّناً لا شبهةَ فيه، ومن ذلك إنسانُ العين، والإنس خلاف الجنِّ، وقيل: الإيناس خاصٌّ بإبصار ما يؤنس به.

وقيل: هو بمعنى الوجدان، قال الحارث بن حلِّزة:

آنست نبأة وقد راعها القُنّـ ـاص يوماً وقد دنا الإمساءُ[٤]

والجملةُ تعليلٌ للأمر أو المأمور[٥] به، ولمَّا كان الإيناسُ مقطوعاً متيقَّناً حقَّقه لهم بكلمة «إنّ» ليوطِّن أنفسهم، وإن لم يكن ثمَّت تردد أو إنكار.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصُّه: وقيل: خرج برفقة إلا أنه كان يصحبهم ليلاً ويفارقهم نهاراً لغيرته. اهـ منه.

(٢) سلف ٣/ ٣٦٨.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٣٠، وقراءة حمزة في التيسير ص١٥٠، والنشر ١/ ٣١٢ - ٣١٣.

(٤) سلف ٥/ ٣١٢. وفيه: عصراً. بدل: يوماً.

(٥) في (م): والمأمور. والمثبت موافق لتفسير أبي السعود ٦/ ٦.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا﴾ أي: أجيئكم من النار ﴿بِقَبَسٍ﴾ بشعلةٍ مقتبسةٍ تكونُ على رأس عودٍ ونحوه، ففَعَل بمعنى مفعول، وهو المراد بالشهاب القبس[(١)]، وبالجذوة في موضعٍ آخر[(٢)]. وتفسيرُه بالجمرة ليس بشيء.

وهذا الجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «آتيكم»، وأمَّا «منها» فيحتملُ أنْ يكون متعلِّقاً به، وأن يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالاً من «قبس» على ما قاله أبو البقاء[(٣)].

﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠﴾ هادياً يدلُّني على الطريق، على أنَّه مصدرٌ سُمِّي به الفاعل مبالغةً، أو حذف منه المضاف، أي: ذا هداية، أو على أنَّه إذا وجد الهادي فقد وجد الهدى.

وعن الزجاج[(٤)] أنَّ المراد: هادياً يدلُّني على الماء، فإنَّه عليه السلام قد ضلَّ عن الماء.

وعن مجاهد وقتادة أنَّ المراد: هادياً يهديني إلى أبواب الدين، فإنَّ أفكار الأبرار مغمورةٌ بالهمم الدينية في عامة أحوالهم، لا يشغلهم عنها شاغل. وهو بعيد، فإنَّ مساق النظم الكريم تسليةُ أهله، مع أنَّه قد نصَّ في سورة القصص على ما يقتضي ما تقدَّم حيث قال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ﴾ الآية [٢٩].

والمشهور كتابة هذه الكلمة بالياء. وقال أبو البقاء: الجيد أن تكتب بالألف ولا تمال؛ لأنَّ الألف بدل التنوين في القول المحقَّق، وقد أمالها قومٌ[(٥)]، وفيه ثلاثة أوجه؛ الأول: أن يكون شبَّه ألف التنوين بلام الكلمة، إذ اللفظ بهما في المقصور واحد. الثاني: أن تكون لام الكلمة، ولم يُبدَل من التنوين شيءٌ في النصب. والثالث: أن يكون على رأي من وقف في الأحوال الثلاثة من غير إبدال[(٦)]. انتهى.

---

(١) في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ الآية: ٧.

(٢) في قوله تعالى في سورة القصص: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ الآية: ٢٩.

(٣) الإملاء ٢/ ١١٩.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٣٥١.

(٥) قرأ بإمالة جميع فواصل هذه السورة حمزة والكسائي وخلف. التيسير ص١٥٣، والنشر ٢/ ٣٥.

(٦) الإملاء ٢/ ١١٩.

وكلمة «أو» لمنع الخلوّ دون الجمع، و«على» على بابها من الاستعلاء، والاستعلاء[1] على النار مجازٌ مشهورٌ صار حقيقةً عرفيَّةً في الاستعلاء على مكانٍ قريبٍ ملاصقٍ لها، كما قال سيبويه في مررت بزيد: إنَّه لصوقٌ بمكان يقرب منه[2].

وقال غير واحد: إنَّ الجارَّ والمجرور في موضع الحال من «هُدى»، وكان في موضع الصفة له فقدِّم، والتقدير: أو أجد هادياً، أو ذا هدى، مشرفاً على النار.

والمراد: مصطلياً بها، وعادة المصطلي الدنوُّ من النار والإشرافُ عليها.

وعن ابن الأنباريّ أنَّ «على» ها هنا بمعنى «عند»، أو بمعنى «مع»، أو بمعنى الباء. ولا حاجةَ إلى ذلك، وكان الظاهر: عليها، إلَّا أنه جيء بالظاهر تصريحاً بما هو كالعلَّة لوجدان الهدى، إذ النار لا تخلو عن[3] أناسٍ عندها.

وصُدِّرت الجملة بكلمة الترجِّي؛ لما أنَّ الإتيان وما عطف عليه ليسا محقَّقي الوقوع، بل هما مترقَّبان متوقَّعان، وهي على ما في «إرشاد العقل السليم»[4] إمَّا علَّةٌ لفعلٍ قد حُذِف ثقةً بما يدلُّ عليه من الأمر بالمكث والإخبار بإيناس النار، وتفادياً عن التصريح بما يوحشهم، وإمَّا حالٌ من فاعله، أي: فأذهب إليها لآتيكم، أو: كي آتيكم، أو: راجياً أن آتيكم منها بقبس، الآية.

وقيل: هي صفة لـ «ناراً»، ومتى جاز جعل جملة الترجِّي صلةً كما في قوله:

وإنِّي لراجٍ نظرةً قبل التي لعلِّي وإنْ شطَّت نواها أزورها[5]

فليجز جعلها صفةً، فإنَّ الصلة والصفة متقاربان. ولا يخفى ما فيه.

---

(١) لفظة: والاستعلاء. ليست في الأصل.

(٢) انظر الكتاب ٤/ ٢١٧.

(٣) في (م): من.

(٤) ٦/ ٧.

(٥) البيت للفرزدق كما في خزانة الأدب ٥/ ٤٦٤. قال البغدادي: وآخر البيت مغيَّر عن أصله، والرواية الصحيحة:
لعلِّي وإن شقَّت عليَّ أنالها. انتهى. الخزانة ٥/ ٤٦٧. والبيت في ديوان الفرزدق ٢/ ١٠٦: وروايته فيه:
وإنِّي لرامٍ رميةً قبل التي لعلَّ وإن شقت علي أنالها

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النار التي آنسها، وكانت ـ كما في بعض الروايات عن ابن عباس ـ في شجرة عنَّاب خضراء يانعة. وقال عبد الله بن مسعود: كانت في سمرة. وقيل: في شجرة عوسج.

وأخرج الإمام أحمد في «الزهد» وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن وهب بن منبِّه قال: لمَّا رأى موسى عليه السلام النارَ انطلق يسيرُ حتى وقف منها قريباً، فإذا هو بنارٍ عظيمة، تفورُ من ورق[١] شجرةٍ خضراء شديدة الخضرة يقال لها: العلَّيق، لا تزدادُ النار فيما يُرى إلَّا عِظماً وتضرُّماً، ولا تزداد الشجرة على شدَّة الحريق إلا خضرةً وحسناً، فوقف ينظرُ لا يدري علامَ يضعُ أمرها، إلَّا أنَّه قد ظنَّ أنَّها شجرةٌ تحترق، وأوقد إليها بوقدٍ[٢]، فنالها فاحترقت، وأنَّه إنَّما يمنعُ النارَ شدَّة خضرتها، وكثرة مائها، وكثافة ورقها، وعظم جذعها، فوضعَ أمرها على هذا، فوقف وهو يطمعُ أن يسقط منها شيءٌ فيقتبسه، فلمَّا طال عليه ذلك أهوى إليها بضغثٍ في يده، وهو يريدُ أن يقتبس من لهبها، فلمَّا فعل ذلك مالت نحوه كأنَّها تريده، فاستأخر عنها وهاب، ثمَّ عاد فطاف بها، ولم تزل تُطمعه ويطمعُ بها، ثم لم يكن شيءٌ بأوشكَ من خمودها، فاشتدَّ عند ذلك عجبه، وفكَّر في أمرها فقال: هي نارٌ ممتنعةٌ، لا يُقتبس منها، ولكنَّها تتضرَّم في جوف شجرةٍ فلا تحرقها، ثم خمودها على قدر عظمها في أوشك من طرفة عين، فلمَّا رأى ذلك قال: إنَّ لهذه لشأناً، ثم وضع أمرها على أنها مأمورةٌ أو مصنوعةٌ، لا يُدرى من أمرها، ولا بم أُمِرت، ولا من صَنَعها، ولا لم صُنِعت، فوقف متحيِّراً لا يدري أيرجعُ أم يقيم، فبينما هو على ذلك إذ رمى بطرفه نحو فرعها، فإذا[٣] أشدُّ مما كان خضرةً[٤] ساطعة في السماء ينظر إليها تغشي الظلام، ثمَّ لم تزل الخضرةُ تنور وتصفرُّ[٥] وتبيضُّ حتى صارت نوراً ساطعاً، عموداً بين السماء والأرض، عليه مثل شعاع

(١) في المصادر: فرع.
(٢) في المصادر: موقد.
(٣) بعدها في الزهد والدر المنثور: هو.
(٤) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور. وبعدها في الزهد: وإذا الخضرة. وبعدها عند ابن أبي حاتم: وإذا بخضرة.
(٥) في الزهد وتفسير ابن أبي حاتم: تسفر.

الشمس، تكلُّ دونَه الأبصار، كلَّما نظر إليه يكاد يخطفُ بصره، فعند ذلك اشتدَّ خوفه وحزنه، فردَّ يده على عينيه ولصق بالأرض، وسمع حينئذٍ شيئاً لم يسمع السامعون بمثله عِظَماً، فلما بلغ موسى عليه السلام الكرب واشتدَّ عليه الهول، كان ما قصَّ الله تعالى(١).

وروي أنَّه عليه السلام كان كلَّما قرب منها تباعدت، فإذا أدبر اتبعته، فأيقن أنَّ هذا أمرٌ من أمور الله تعالى الخارقة للعادة، ووقف متحيِّراً، وسمع من السماء تسبيحَ الملائكة، وألقيت عليه السكينةُ، وكان ما كان.

وقالوا: النار أربعةُ أصناف؛ صنفٌ يأكل ولا يشرب وهي نار الدنيا، وصنفٌ يشربُ ولا يأكل وهي نار الشجر الأخضر، وصنفٌ يأكل ويشرب وهي نار جهنم، وصنفٌ لا يأكل ولا يشرب وهي نار موسى عليه السلام.

وقالوا أيضاً: هي أربعة أنواع؛ نوعٌ له نور وإحراق وهي نار الدنيا، ونوعٌ لا نورَ له ولا إحراق وهي نار الأشجار، ونوع له إحراق بلا نور وهي نار جهنم، ونوعٌ له نورٌ بلا إحراق وهي نار موسى عليه السلام.

بل قال بعضهم: إنَّها لم تكن ناراً، بل هي نورٌ من نور الربِّ تبارك وتعالى، وروي هذا عن ابن عباس ﵄، وذكر ذلك بلفظ النار بناءً على حسبان موسى عليه السلام، وليس في إخباره عليه السلام حسب حسبانه محذور كما توهِّم، واستظهر ذلك أبو حيان(٢)، وإليه ذهب الماورديُّ(٣).

وقال سعيد بن جبير: هي النار بعينها. وهي إحدى حُجب الله عزَّ وجلَّ، واستُدِلَّ له(٤) بما روي عن أبي موسى الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: «حجابُه النار، لو كشفها لأحرقت سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره مِن خَلْقه»، ذكر ذلك

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٩٠ ـ ٢٩١، وأخرجه أحمد في الزهد ص٧٩ ـ ٨٠، وابن أبي حاتم في تفسيره ٩/ ٢٨٤٣ ـ ٢٨٤٤ (١٦١٢٢) مطولاً، وسيذكر المصنف أجزاء أخرى من هذا الخبر يفرقها على مواضعها من التفسير.

(٢) في البحر ٦/ ٢٣٠.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٣٩٦.

(٤) لفظة: له. ليست في الأصل.

البغوي[١]، وذكر في «تفسير الخازن»[٢] أنَّ الحديثَ أخرجهُ مسلم[٣].

وظاهرُ الآية يدلُّ على أنَّه عليه السلام حين أتاها ﴿نُودِيَ﴾ من غير ريثٍ، وبذلك رَدَّ بعضُ المعتزلة الأخبارَ السابقة الدالَّة على تخلُّل زمانٍ بين المجيء والنداء، وأنت تعلمُ أنَّ تخلُّل مثل ذلك الزمان ممَّا لا يضرُّ في مثل[٤] ما ذكر. وزعمَ أيضاً امتناع تحقُّق ظهور الخارق عند مجيئه النار قبل أنْ ينبَّأ إلَّا أن يكون ذلك معجزةً لغيره من الأنبياء عليهم السلام، وعندنا أنَّ ذلك من الإرهاص الذي ينكرهُ المعتزلة.

والظاهرُ أنَّ القائم مقام فاعل «نودي» ضمير موسى عليه السلام. وقيل: ضمير المصدر، أي: نودي النداء: هو قوله تعالى: «يا موسى» إلخ. وكأنَّ ذلك على اعتبار تضمين النداء معنى القول، وإرادةِ هذا اللفظ من الجملة، وإلَّا فقد قيل: إنَّ الجملة لا تكون فاعلاً، ولا قائماً مقامَه في مثل هذا التركيب، إلا بنحو هذا الضرب من التأويل.

وفي «البحر»[٥]: مذهبُ الكوفيين معاملة النداء معاملَة القول، ومذهب البصريين إضمارُ القول في مثل هذه الآية، أي: نودي فقيل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، ولذلك كُسِرت همزةُ «إن» في قراءة الجمهور. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتحها[٦] على تقدير حرف الجرِّ، أي: بأنِّي، والجارُّ والمجرور ـ على ما قال أبو البقاء[٧] وغيره ـ متعلِّق بـ «نودي»، والنداءُ قد يوصَل بحرف الجرِّ، أنشد أبو عليّ[٨]:

---

(١) في تفسيره ٣/ ٢١٣.
(٢) ٤/ ٢٦٤.
(٣) برقم (١٧٩): (٢٩٣). وسلف عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.
(٤) في الأصل: بمثل.
(٥) ٦/ ٢٣٠.
(٦) التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩. وهي أيضاً قراءة أبي جعفر من العشرة.
(٧) الإملاء ٢/ ١١٩.
(٨) في كتاب الشعر ٢/ ٣٩٥.

نـاديـتُ بـاسـم ربـيـعـةَ بـن مـكـرم[١] إنَّ الـمـنـوَّه بـاسـمِـه الـمـوثـوقُ[٢]

ولا يخفى على ذي ذوقٍ سليمٍ حالُ التركيب على هذا التخريج، وأنَّه إنَّما يحلو لو لم يكن المنادى فاصلاً.

وقيل: على تقدير حرف التعليل، وتعلُّقه بفعل الأمر بعد، وهو كما ترى.

واختير أنَّ الكلام على تقدير: العلم، أي: اعلم أني.. إلخ.

وتكرير ضمير المتكلم لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإماطة الشبهة، واستظهر أنَّ علمه عليه السلام بأنَّ الذي ناداه هو الله تعالى حصلَ له بالضرورة خلقاً منه تعالى فيه. وقيل: بالاستدلال بما شاهد قبل النداء من الخارق. وقيل: بما حصلَ له من ذلك بعد النداء، فقد روي أنَّه عليه السلام لمَّا نودي: ياموسى، قال عليه السلام: من المتكلِّم؟ فقال: أنا ربُّك، فوسوس إليه إبليسُ اللعين: لعلك تسمعُ كلام شيطان، فقال عليه السلام: أنا عرفتُ أنَّه كلام الله تعالى بأنِّي أسمعه من جميع الجهات بجميع الأعضاء.

والخارقُ فيه أمران سماعُه من جميع الجهات، وكونُ ذلك بجميع الأعضاء التي من شأنها السماع، والتي لم يكن من شأنها.

وقيل: الخارقُ فيه أمرٌ واحد، وهو السماع بجميع الأعضاء، وهو المراد بالسماع من جميع الجهات، وأيًّا ما كان فلا يخفى صحةُ الاستدلال بذلك على المطلوب، إلَّا أنَّ في صحة الخبر خفاءً، ولم أرَ له سنداً يعوَّل عليه، وحضورُ الشيطان ووسوستُه لموسى عليه السلام في ذلك الوادي المقدَّس والحضرة الجليلة في غاية البعد.

والمعتزلة أوجبوا أن يكون العلم بالاستدلال بالخارق، ولم يجوِّزوا أنْ يكون بالضرورة؛ قالوا: لأنَّه لو حصلَ العلمُ الضروريُّ بكون هذا النداء كلامَ الله تعالى لحصل العلمُ الضروريُّ بوجود الصانع القادر العالم؛ لاستحالة أنْ تكون الصفةُ معلومةً بالضرورة، والذات تكونُ معلومةً بالاستدلال، ولو كان وجودُ الصانع تعالى

(١) كذا في الأصل و(م). وفي المصادر: مكدم.
(٢) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٣٤: وصدره فيه: أصبحتُ قد نزلت بحمزةَ حاجتي.

معلوماً بالضرورة لخرج موسى عليه السلام عن كونه مكلَّفاً؛ لأنَّ حصولَ العلم الضروريِّ ينافي التكليف، وبالاتِّفاق أنَّه عليه السلام لم يخرج عن التكليف، فعلمنا أنَّ الله تعالى عرَّفه ذلك بالخارق، وفي تعيينه اختلاف.

وقال بعضهم: لا حاجةَ بنا إلى أن نعرف ذلك الخارق ما هو، وأخرج أحمد وغيره عن وهب أنه عليه السلام لمَّا اشتدَّ عليه الهول نودي من الشجرة، فقيل: يا موسى، فأجاب سريعاً، وما يدري من دعاه، وما كان سرعة إجابته إلا استئناساً بالأنس، فقال: لبيك، مراراً، إنِّي لأسمعُ صوتك، وأحسُّ حسَّك[١]، ولا أرى مكانك، فأين أنت: قال: أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك، وأقرب إليك من نفسك، فلمَّا سمع هذا موسى عليه السلام علم أنَّه لا ينبغي ذلك إلَّا لربِّه تعالى، فأيقن به، فقال: كذلك أنت يا إلهي، فكلامك أسمع أم رسولك؟ قال: بل أنا الذي أكلمك[٢].

ولا يخفى تخريجُ هذا الأثر على مذهب السلف ومذهب الصوفية، وأنَّه لا يحصل الإيقان بمجرد سماع ما لا ينبغي أنْ يكون إلَّا لله تعالى من الصفات إذا فتح أبواب[٣] الوسوسة. ثم إنَّ هذا الأثر ظاهرٌ في أنَّ موسى عليه السلام سمعَ الكلام اللفظيَّ منه تعالى بلا واسطة، ولذا اختصَّ عليه السلام باسم الكليم، وهو مذهبُ جماعةٍ من أهل السنة، وذلك الكلامُ قديمٌ عندهم، وأجابوا عن استلزام اللفظ الحدوثَ؛ لأنَّه لا يوجد بعضه إلَّا بتقضي بعضٍ آخر: بأنَّه إنَّما يلزمُ من التلفُّظ بآلة وجارحة، وهي اللسان، أما إذا كان بدونها، فيوجد دفعةً واحدةً، كما يشاهد في الحروف المرسومة[٤] بطبع الخاتم دون القلم، ويلزمهم أنْ يؤوِّلوا قوله تعالى: ﴿فلمَّا أتاها نودي﴾ إلخ، بأن يقولوا: المراد: فلمَّا أتاها أسمع النداء، أو نحو ذلك، وإلَّا فمجيء النار حادثٌ، والمرتَّبُ على الحادث حادث، ولذا زعم أهل ما وراء النهر من أهل السنة القائلين بقدم الكلام أنَّ هذا الكلام الذي سمعه

---

(١) في الزهد لأحمد ص٨٠: وأوجس وجسك. وعند ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٤٣ (١٦١٢٢): وأحس وجسك.

(٢) الزهد ص٨٠. وهو تتمة خبر موسى السالف ص٢٥١ من هذا الجزء.

(٣) في (م): باب.

(٤) في الأصل: الموسومة.

موسى عليه السلام حادثٌ، وهو صوتٌ خلقه الله تعالى في الشجرة، وأهلُ البدعة أجمعوا على أنَّ الكلامَ اللفظيَّ حادثٌ، بيد أنَّ منهم من جوَّز قيام الحوادث به تعالى شأنه، ومنهم من لم يجوِّز، وزعم أنَّ الذي سمعه موسى عليه السلام خلقه الله عزَّ وجلَّ في جسمٍ من الأجسام، كالشجرة أو غيرها.

وقال الأشعريّ: إنَّ الله تعالى أسمعَ موسى عليه السلام كلامه النفسيَّ الذي ليس بحرف ولا صوت، ولا سبيلَ للعقل إلى معرفة ذلك.

وقد حقَّقه بعضهم بأنَّه عليه السلام تلقَّى ذلك الكلام تلقِّياً روحانيًّا كما تتلقى الملائكة عليهم السلام كلامَه تعالى لا من جارحة، ثم أفاضته الروحُ بواسطة قوَّة العقل على القوى النفسيَّة، ورسمته في الحسِّ المشترك بصور ألفاظٍ مخصوصة، فصار لقوَّة تصوُّره كأنَّه يسمعه من الخارج وهذا كما يرى النائم أنَّه يكلّم ويتكلّم.

ووجهُ وقوف الشيطانِ المارّ في الخبر الذي سمعتَ ما فيه على هذا بأنَّه يَحتملُ أنْ يكون كذلك، ويحتمل أنْ يكون بالتفرُّس من كون هيئته عليه السلام على هيئة المصغي المتأمِّل لما يسمعه، وهو كما ترى. وقد تقدَّم لك في المقدمات ما عسى ينفعك مراجعتُه هنا، فراجعه وتأمَّل، واعلم أنَّ شأن الله ـ تعالى شأنه ـ كلَّه غريب، وسبحان الله العزيز الحكيم.

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ أزلهما من رجليك، والنعلُ معروفةٌ، وهي مؤنثةٌ، يقال في تصغيرها: نُعيلة، ويقال فيها: نَعَل، بفتح العين، أنشد الفرَّاء:

لـه نَـعَـلٌ لا يَـطَّـبـي الـكـلـبَ ريـحُـهـا ... وإن وُضِعَت بين المجالس شُمَّتِ(١)

وأُمِر ﷺ بذلك لما أنَّهما كانتا من جلد حمارٍ ميِّتٍ غيرِ مدبوغ، كما روي عن الصادق رضي الله عنه وعكرمة وقتادة والسُّدِّيّ ومقاتل والضَّحَّاك والكلبيّ.

وروي كونُهما من جلد حمارٍ في حديثٍ غريب، فقد أخرج الترمذيُّ بسنده عن النبيِّ ﷺ قال: «كان على موسى عليه السلام يومَ كلَّمه ربُّه سبحانه كساءُ صوفٍ

---

(١) البيت لكثير عزة، وهو في ديوانه ص٨٥، وروايته فيه:

إذا طُرِحت لـم تَـطَّـبِ الـكـلـب ريـحـهـا ... وإن وضعت في مجلس القوم شمَّت

واطّبى: جَذَب واستمال.

وجُبَّةُ صوفٍ وكمَّة صوف» أي: قلنسوة صغيرة[١] «وسراويلُ صوفٍ، وكانت نعلاه من جلدِ حمار»[٢].

وعن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وابن جريج أنَّهما كانتا من جلد بقرة ذُكِّيت، ولكن أُمرَ عليه السلام بخلعهما؛ ليباشرَ بقدميه الأرضَ، فيصيبَه بركةُ الوادي المقدس.

وقال الأصمُّ: لأنَّ الحُفوة أدخلُ في التواضع وحسن الأدب، ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين. ولا يخفى أنَّ هذا ممنوعٌ عند القائل بأفضليَّة الصلاة بالنعال، كما جاء في بعض الآثار[٣]، ولعلَّ الأصمَّ لم يسمع ذلك، أو يجيب عنه.

وقال أبو مسلم: لأنَّه تعالى أمَّنه من الخوف، وأوقفه بالموضع الطاهر، وهو عليه السلام إنَّما لبسهما اتقاءً من الأنجاس، وخوفاً من الحشرات.

وقيل: المعنى: فرِّغ قلبك من الأهل والمال. وقيل: من الدنيا والآخرة.

ووجه ذلك أن يراد بالنعل كلّ ما يرتفق به، وغلبَ على ما ذكر تحقيراً؛ ولذا أُطلق على الزوجة نعل، كما في كتب اللغة. ولا يخفى عليك أنّه بعيد، وإن وُجّه بما ذكر، وهو أليق بباب الإشارة.

والفاء لترتيب الأمر على ما قبلها، فإنَّ ربوبيَّته تعالى له عليه السلام من موجبات الأمر ودواعيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ تعليلٌ لموجب الخلع المأمور به، وبيانٌ

---

(١) قوله: أي: قلنسوة صغيرة. هو من كلام الترمذي.

(٢) بعدها في سنن الترمذي (١٧٣٤): «ميت».
قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج، وحميد هو ابن عليٍّ الأعرج: منكر الحديث... .

(٣) منها ما أخرجه البخاري (٣٨٦)، ومسلم (٥٥٥) من حديث أبي مسلم سعيد بن يزيد الأزدي قال: سألت أنس بن مالك: أكان النبي ﷺ يصلي في نعليه؟ قال: نعم. ومنها ما أخرجه أبو داود (٦٥٢) أن شداد بن أوس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم».

لسبب ورود الأمر بذلك من شرف البقعة وقدسها. روي أنّه عليه السلام حين أُمِر خَلْعَهُمَا وألقاهما(١) وراءَ الوادي.

﴿طُوًى ۝١٢﴾ بضمِّ الطاء غير منون. وقرأ الكوفيون وابنُ عامر بضمِّها منوناً(٢). وقرأ الحسن والأعمش وأبو حيوة وابن أبي إسحاق وأبو السمَّال وابن محيصن بكسرها منوناً. وقرأ أبو زيد عن أبي عمرو بكسرها غير منون(٣).

وهو عَلَمٌ لذلك الوادي، فيكون بدلاً، أو عطف بيان، ومن نوَّنَه فعلى تأويل المكان، ومن لم ينوِّنه فعلى تأويل البقعة، فهو ممنوعٌ من الصرف للعلميَّة والتأنيث.

وقيل: «طوى» ـ المضموم الطَّاء الغير المنوَّن ـ ممنوعٌ من الصرف؛ للعلميَّة والعدل، كزُفَر وقُثَم. وقيل: للعلمية والعجمة.

وقال قطرب: يقال: طوًى من الليل، أي: ساعة، أي: قُدِّس لك ساعةً من الليل، وهي ساعة أنْ نوديَ. فيكون معمولاً لـ «المقدَّس».

وفي «العجائب» للكرمانيّ: قيل: هو معرَّبٌ معناه: ليلاً، وكأنه أراد قول قطرب.

وقيل: هو رجلٌ بالعبرانية، وكأنَّه على هذا منادى.

وقال الحسن: طِوًى بكسر الطاء والتنوين مصدر، كثِنى، لفظاً ومعنى، وهو عنده معمول لـ «المقدَّس» أيضاً، أي: قُدِّسَ مرةً بعد أخرى.

وجُوِّز أن يكون معمولاً لـ «نودي»، أي: نودي نداءين.

وقال ابن السِّيد: إنَّه ما يطوى من جلد الحيَّة، ويقال: فعل الشيء طِوى، أي: مرتين، فيكون موضوعاً موضعَ المصدر، وأنشد الطبرسيُّ(٤) لعديٍّ بن زيد:

---

(١) في الأصل: خلعها وألقاها. والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٧. والكلام منه.
(٢) التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٣١. وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه بضم الطاء من غير تنوين.
(٤) مجمع البيان ١٦/ ٨٨.

أعاذل إنَّ اللومَ في غير كنهه ... عليَّ طِوًى من غيِّك المتردِّدِ[1]

وذكر الراغب أنَّه إذا كان بمعنى مرتين يفتح أوَّله ويكسر[2].

ولا يخفى عليك أنَّ الأظهر كونه اسماً للوادي في جميع القراءات.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أي: اصطفيتُك من الناس، أو من قومك للنبوَّة والرسالة.

وقرأ السلميُّ وابن هرمز والأعمش في رواية: «وإنَّا» بكسر الهمزة وتشديد النون مع ألف بعدها «اخترناك» بالنون والألف، وكذا قرأ طلحةُ وابن أبي ليلى وحمزةُ وخلف والأعمش في روايةٍ أخرى، إلَّا أنَّهم فتحوا همزة «إن»[3]، وذلك بتقدير: اعلم، أي: واعلم أنَّا اخترناك، وهو ـ على ما قيل ـ عطفٌ على «اخلع»، ويجوز عند من قرأ: «أنِّي أنا ربك»[4] بالفتح أنْ يكون العطفُ عليه، سواء كان متعلِّقاً بـ «نودي» كما قيل، أو معمولاً لـ «اعلم» مقدَّراً كما اختير. وجوَّزَ أبو البقاء أنْ يكون بتقدير اللام، وهو متعلِّقٌ بما بعده، أي: لأنَّا اخترناك فاستمع[5]. وهو كما ترى.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ﴾ لترتيب الأمر والمأمور به على ما قبلها، فإنَّ اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والأمر به، واللام في قوله سبحانه: ﴿لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾ متعلِّقة بـ «استمع»، وجُوِّز أنْ تكون متعلِّقةً بـ «اخترتك». وردَّه أبو حيان[6] بأنَّه يكون حينئذٍ من باب الإعمال، ويجب أو يختار حينئذٍ إعادةُ الضمير مع الثاني بأن يقال: فاستمع له لما يوحى.

وأجيب بأنَّ المرادَ جوازُ تعلُّقها بكلٍّ من الفعلين على البدل، لا على أنَّه من الإعمال.

---

(١) وهو منسوب أيضاً لعدي بن زيد في مجاز القرآن ٢/ ٢٨٥، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٧، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٤٩٨، وزاد المسير ٥/ ٢٧٤، ومعجم البلدان ٤/ ٤٥، واللسان (طوي). ونسبه الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٢٧٩، والفارسي في الحجة ٦/ ٣٧٢ لطرفة بن العبد.

(٢) المفردات (طوى).

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٣١، والقراءة عن حمزة متواترة. انظر التيسير ص١٥١، والنشر ٢/ ٣٢٠.

(٤) وهي قراءة ابن كثير وأبي جعفر وأبي عمرو كما سلف قريباً.

(٥) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١١٩.

(٦) في البحر المحيط ٦/ ٢٣١.

واعترضَ على هذا بأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ بدلٌ من «ما يوحى»، ولا ريبَ في أنَّ اختياره عليه السلام ليس لهذا فقط، والتعلُّق بـ «اخترناك» كيفما كان يقتضيه.

وأجيبَ بأنَّه من باب التنصيص على ما هو الأهم والأصل الأصيل، وقيل: هي سيف خطيبٍ، فلا متعلَّق لها كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]. و«ما» موصولة، وجُوِّز أنْ تكونَ مصدريَّةً، أي: فاستمع للذي يوحى إليك، أو للوحي.

وفي أمره عليه السلام بالاستماع إشارةٌ إلى عظم ذلك، وأنَّه يقتضي التأهُّب له، قال أبو الفضل الجوهري: لما قيل لموسى عليه السلام: استمع لما يوحى، وقف على حجرٍ واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدرِه، وأصغى بشَراشره(١). وقال وهب: أدبُ الاستماع سكونُ الجوارح، وغضُّ البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع لما يحبُّ الله تعالى.

وحذف الفاعل في «يوحى» للعلم به، ويحسِّنُه كونه فاصلة، فإنَّه لو كان مبنيًّا للفاعل لم يكن فاصلة.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْنِى﴾ لترتيب المأمور به على ما قبلها، فإنَّ اختصاص الألوهيَّة به تعالى شأنه من موجبات تخصيص العبادة به عزَّ وجلَّ، والمراد بها(٢) غايةُ التذلُّل والانقياد له تعالى في جميع ما يكلفه به.

وقيل: المراد بها هنا التوحيد، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والأول أولى.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خُصَّت الصلاة بالذكر، وأفرِدت بالأمر مع اندراجها في الأمر بالعبادة؛ لفضلِها وإنافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود، وشُغل القلب واللسان بذكره، وقد سمَّاها الله تعالى إيماناً في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

واختلف العلماء في كفر تاركها كسلاً، كما فُصِّل في محلِّه.

---

(١) الشراشر: النفس.

(٢) في الأصل: به.

وقوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ الظاهر أنَّه متعلِّقٌ بـ «أقم»، أي: أقم الصلاة لتذكرني فيها؛ لاشتمالها على الأذكار، وروي ذلك عن مجاهد. وقريبٌ منه ما قيل: أي: لتكون لي ذاكراً غير ناسٍ؛ فِعْلَ المخلصين في جعلهم ذكرَ ربِّهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به. وفُرِّقَ بينهما بأنَّ المراد بالإقامة على الأول تعديلُ الأركان، وعلى الثاني: الإدامةُ، وجُعِلت الصلاةُ في الأول مكاناً للذكر ومقرّه وعلّته، وعلى الثاني جُعِلت إقامةُ الصلاة ـ أي: إدامتُها ـ علةً لإدامة الذكر، كأنَّه قيل: أدم الصلاة لتستعين بها على استغراق فكرك وهمِّك في الذكر، كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥] وجُوِّز أنْ يكون متعلِّقاً بـ «اعبدني» أو بـ «أقم»، على أنه من باب الإعمال، أي: لتكون ذاكراً لي بالعبادة وإقامة الصلاة. وإذا عُمِّمَ الذكر ليتناول القلبيَّ والقالبيّ جازَ اعتبارُ باب الإعمال في الأوَّل أيضاً، وهو خلاف الظاهر. وقيل: المراد: «أقم الصلاة لذكري» خاصةً، لا ترائي بها، ولا تشوبها بذكر غيري. أو: لإخلاص ذكري، وابتغاء وجهي، ولا تقصد بها غرضاً آخر، كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ٢] أو: لأنْ أذكُرَك بالثناء، أي: لأثني عليك وأثيبك بها. أو: لذكري إيَّاها في الكتب الإلهية، وأمري بها. أو: لأوقات ذكري، وهي مواقيتُ الصلوات، فاللام وقتيَّةٌ بمعنى «عند»، مثلها في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] وقولك: كان ذلك لخمسٍ ليالٍ خَلَوْنَ.

ومن الناس من حمل الذكر على ذكر الصلاة بعد نسيانها، وروي ذلك عن أبي جعفر، واللام حينئذ وقتيَّةٌ أو تعليليةٌ. والمراد: أقم الصلاة عند تذكُّرها، أو لأجل تذكُّرها، والكلام على تقدير مضاف، والأصل: لذكر صلاتي. أو يقال: إنَّ ذكر الصلاة سببٌ لذكر الله تعالى، فأطلق المسبَّب على السبب، أو: إنَّه وقعَ ضميرُ الله تعالى موقع ضمير الصلاة لشرفها، أو: إنَّ المراد للذكر الحاصل منِّي، فأضيف الذكرُ إلى الله عزَّ وجلَّ لهذه الملابسة، والذي حمل القائل على هذا الحمل أنَّه ثبتَ في الصحيح من حديث أبي هريرة أنه ﷺ نام عن صلاة الصبح، فلمَّا قضاها قال: «من نسيَ صلاةً فليقضها إذا ذكرَها، فإنَّ الله تعالى قال: (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ)»[1]. فظنَّ هذا القائلُ أنَّه لو لم يحمل هذا الحمل لم يصح

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤): (٣١٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

التعليل، وهو من بعض الظنّ، فإنَّ التعليلَ كما في «الكشف» صحيحٌ، والذكرُ على ما فسِّر في الوجه الأول، وأرادَ عليه الصلاة والسلام أنه إذا ذكرَ الصلاة انتقل من ذكرها إلى ذكر ما شُرِعت له، وهو ذكر الله تعالى، فيحمله على إقامتها.

وقال بعض المحققين: إنَّه لما جُعل المقصودُ الأصليُّ من الصلاة ذكرَ الله تعالى، وهو حاصلٌ مطلوبٌ في كلِّ وقت، فإذا فاته الوقت المحدود له ينبغي المبادرةُ إليه ما أمكنه. فهو من إشارة النصِّ لا من منطوقه حتى يحتاج إلى التمحُّل، فافهم.

وإضافة «ذكر» إلى الضمير تحتملُ أنْ تكون من إضافة المصدر إلى مفعوله، وأن تكون من إضافة المصدر إلى فاعله، حسب اختلاف التفسير.

وقرأ السلميُّ والنخعيُّ وأبو رجاء: «للذِّكرَى» بلام التعريف وألف التأنيث[1]. وقرأت فرقةٌ: «لذكرى» بألف التأنيث بغير لام التعريف[2]، وأخرى: «للذكر» بالتعريف والتذكير[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ تعليلٌ لوجوب العبادة وإقامة الصلاة، أي: كائنةٌ لا محالة. وإنما عبَّر عن ذلك بالإتيان تحقيقاً لحصولها بإبرازها في معرض أمرٍ محقَّقٍ متوجِّهٍ نحو المخاطبين.

﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ أقرب من: أنْ أخفي الساعة ولا أظهرُها بأنْ أقول: إنَّها آتية، ولولا أنَّ في الإخبار بذلك من اللطف وقطع الأعذار لما فعلت، وحاصله: أكاد أبالغُ في إخفائها، فلا أجمل كما لم أفصِّل.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٣٢. وقال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٣٢: وقرأ رسول الله ﷺ: «للذكرى». اهـ. وكذا نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٧، ٩٠ للنبي ﷺ وزاد نسبتها لأبي عبد الرحمن السلمي.

(٢) البحر ٦/ ٢٣٢، والقراءة في صحيح مسلم (٦٨٠): (٣٠٩)، وتفسير الطبري ١٦/ ٣٣ منسوبة للزهري. ونسبها النحاس في إعراب القرآن له ٣/ ٣٥ لأبي عبد الرحمن وأبي رجاء والشعبي.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٣٢.

والمقاربةُ هنا مجاز، كما نص عليه أبو حيان[(١)]. أو أريد إخفاء وقتها المعيَّن، وعدم إظهاره، وإلى ذلك ذهب الأخفشُ وابن الأنباريّ وأبو مسلم.

ومن مجيء «كاد» بمعنى أراد ـ كما قال ابنُ جنِّي في «المحتسب»[(٢)] ـ قوله:

كـادت وكـدتُ وتـلـك خـيـر إرادةٍ لو عاد من لهو الصبابة ما مضى[(٣)]

وروي عن ابن عباس وجعفر الصادق رضي الله عنهما أنَّ المعنى: أكادُ أخفيها من نفسي. ويؤيِّده أنَّ في مصحف أبيٍّ كذلك، ورَوى ابن خالويه عنه ذلك بزيادة: «فكيف أظهركم عليها»[(٤)]. وفي بعض القراءات بزيادة: «فكيف أظهرها لكم»[(٥)]. وفي مصحف عبد الله بزيادة: «فكيف يعلمها مخلوق»[(٦)]. وهذا محمولٌ على ما جرت به عادةُ العرب من أنَّ أحدهم إذا أراد المبالغةَ في كتمان الشيء قال: كدت أخفيه من نفسي، ومن ذلك قوله:

أيَّـامَ تَـصْـحَـبُـنـي هـنـدٌ وأُخـبـرُهـا ما كدتُ أكتمُه عنِّي من الخبر[(٧)]

ونحو هذا من المبالغة قوله ﷺ في حديث السبعة الذين يظلُّهم تحت ظله: «ورجل تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمُ شمالُه ما تنفق يمينه»[(٨)].

وبجعل ذلك من باب المبالغة يندفعُ ما قيلَ: إنَّ إخفاءَ ذلك من نفسه سبحانه محالٌ، فلا يناسبُ دخولَ «كاد» عليه، ولا حاجة إلى ما قيل: إنَّ معنى «من نفسي»: من تلقائي، ومن عندي.

والقرينة على هذا المحذوف إثباتُه في المصاحف، وكونُه قرينةً خارجيَّةً لا يضرُّ، إذ لا يلزم في القرينة وجودُها في الكلام.

---

(١) في البحر ٦/ ٢٣٢.
(٢) ٢/ ٤٨.
(٣) سلف ١٣/ ٤٣٥.
(٤) القراءات الشاذة ص٨٧. وذكرها أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ١٧٦.
(٥) ذكرها البغوي ٣/ ٢١٤، والقرطبي ١٤/ ٣٩، وأبو حيان ٦/ ٢٣٣.
(٦) انظر تفسير البغوي ٣/ ٢١٤، وتفسير القرطبي ١٤/ ٣٩، والبحر المحيط ٦/ ٢٣٣.
(٧) ذكره دون نسبة أبو حيان في البحر ٦/ ٢٣٣، والسمين في الدر المصون ٨/ ٢٠.
(٨) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١)، وأحمد (٩٦٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقيل: الدليلُ عليه أنَّه لا بد لـ «أخفيها» من متعلق، وهو من يُخْفى منه. ولا يجوز أن يكون من الخلق؛ لأنَّه تعالى أخفاها عنهم، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤] فيتعيَّن ما ذكر.

وفيه أنَّ عدم صحة تقدير «من الخلق» ممنوعٌ؛ لجواز إرادةِ إخفاءِ تفصيلها وتعيينها، مع أنَّه يجوز أنْ لا يُقَدَّر له متعلَّق، والمعنى: أُوجِد إخفاءها ولا أقول: إنَّها آتية.

وقال أبو عليّ: المعنى: أكاد أظهرُها بإيقاعها، على أنَّ «أخفيها» من ألفاظ السلب، بمعنى أزيل خفاءها، أي: ساترَها. وهو في الأصل ما يلفُّ به القِرْبة ونحوها من كساءٍ وما يجري مجراه. ومن ذلك قول امرئ القيس:

فـإن تـدفـنـوا الـداءَ لا نَـخْـفِـهِ وإنْ تـوقـدوا الـحـربَ لا نـقـعـدِ[1]

ويؤيِّده قراءةُ أبي الدرداء وابنِ جبير والحسن ومجاهد وحميد، ورويت عن ابن كثير وعاصم: «أَخفيها» بفتح الهمزة[2]، فإنَّ خفاه بمعنى أظهره لا غير في المشهور، وقال أبو عبيدة ـ كما حكاه أبو الخطاب أحد رؤساء اللغة[3] ـ: خَفَيت وأخفيت بمعنى واحد.

ومتعلق الإخفاء على الوجه السابق في تفسير قراءة الجمهور والإظهار ليس شيئاً واحداً حتى تتعارض القراءتان، وقالت فرقة: خبر «كاد» محذوف: أكاد آتي بها، كما حذف في قول ضابئ[4] البرجمي:

هـمـمـتُ ولـم أفـعـل وكـدتُ وليتنـي تَـركـتُ على عثمان تبكي حلائلُه[5]

---

(١) ديوان امرئ القيس ص١٨٦.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٣٢، وانظر القراءات الشاذة ص٨٧، والمحتسب ٢/ ٤٧. وقراءة ابن كثير وعاصم المتواترة عنهما كقراءة الجمهور بضم الهمزة.

(٣) كلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ١٦ـ ١٧بنحوه. وأبو الخطاب هو الأخفش الكبير، وهو شيخ أبي عبيدة، كما في السير ٧/ ٣٢٣. وعبارة أبي حيان في البحر ٦/ ٢٣٢ قريبة من عبارة المصنف. والصواب أن أبا عبيدة رواه عن شيخه أبي الخطاب، كما في مجاز القرآن ٢/ ١٦، وانظر تفسير الطبري ١٦/ ٣٧، وتفسير القرطبي ١٤/ ٣٦.

(٤) في الأصل و(م): صابئ. والمثبت من المصادر.

(٥) طبقات فحول الشعراء ١/ ١٧٤، وخزانة الأدب ٩/ ٣٢٣.

أي: وكدتُ أفعل، وتمَّ الكلام ثم استأنف الإخبار بأنَّه تعالى يخفيها، واختاره النحَّاس[1].

وقالت فرقةٌ أخرى: «أكاد» زائدة، لا دخول لها في المعنى، بل المراد الإخبار بأنَّ الساعةَ آتيةٌ، وأنَّ الله تعالى يخفي وقتَ إتيانها، وروي هذا المعنى عن ابن جبير. واستدلُّوا على زيادة «كاد» بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]. وبقول زيد الخيل:

سريعٌ إلى الهَيجاء شاكٍ سلاحَه فما إن يكاد قِرنُه يتنفَّسُ[2]

ولا حجَّة في ذلك كما لا يخفى.

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ متعلّق بـ «آتية» كما قال صاحب «اللوامح» وغيره، وما بينهما اعتراضٌ لا صفة حتى يلزم إعمالُ اسم الفاعل الموصوف، وهو لا يجوز على رأي البصريين، أو بـ «أخفيها» على أنَّ المراد أظهرها، لا على أنَّ المراد أسترها؛ لأنَّه لا وجهَ لقولك: أسترها لأجل الجزاء. وبعضهم جوَّز ذلك، ووَجَّهه بأنَّ تعميةَ وقتِها لتُنْتَظَر ساعةً فساعة، فيحترز عن المعصية، ويجتهد في الطاعة. وتُعقِّب بأنَّه تكلُّفٌ ظاهر، مع أنَّه لا صحةَ له إلَّا بتقدير: لينتظر الجزاء، أو: لتخاف وتخشى.

و«ما» مصدرية، أي: لتُجزى بسعيها وعملها إنْ خيراً فخير، وإنْ شرًّا فشر. وهذا التعميمُ هو الظاهر.

وقيل: لتجزى بسعيها في تحصيل ما ذكر من الأمور المأمور بها. وتخصيصُه في معرض الغاية لإتيانها، مع أنَّه لجزاء كلِّ نفس بما صدرَ عنها سواءٌ كان سعياً فيما ذكر، أو تقاعداً عنه بالمرَّة، أو سعياً في تحصيل ما يضادُّه؛ للإيذان بأنَّ المراد بالذات من إتيانها هو الإثابة بالعبادة، وأما العقابُ بتركها فمن مقتضيات سوءِ اختيار العصاة، وبأن المأمورَ به في قوَّة الوجوب، والساعةَ في شدة الهول والفظاعة بحيثُ يوجبان على كلِّ نفسٍ أنْ تسعى في الامتثال بالأمر، وتَجِدَّ في

(١) في إعراب القرآن له ٣/ ٣٥.
(٢) ديوان زيد الخيل ص٧٤.

تحصيل ما يُنجيها من الطاعات، وتحترز عن اقتراف ما يرديها من المعاصي. انتهى. ولا يخفى ما فيه.

وقيل: «ما» موصولة، أي: بالذي تسعى فيه. وفيه حذف العائد المجرور بالحرف مع فقد شرطه. وأُجيبَ بأنَّه يجوز أنْ يكون القائل لا يشترط. وقيل: يُقَدَّر منصوباً على التوسُّع.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ خطابٌ لموسى عليه السلام، وزعم بعضهم أنَّه لنبينا ﷺ لفظاً ولأمَّته معنًى. وهو في غاية البعد.

﴿عَنْهَا﴾ أي: الساعة، والمراد عن ذكرها ومراقبتها. وقيل: عن الإيمان بإتيانها، ورُجِّح الأولُ بأنَّه الأليقُ بشأن موسى عليه السلام، وإن كان النهي بطريق التهييج والإلهاب.

ورجوع ضمير «عنها» إلى الساعة هو الظاهر، وكذا رجوع ضمير «بها» في قوله تعالى: ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾. وقيل: الضميران راجعان إلى الصلاة. وقيل: ضمير «عنها» راجعٌ إلى الصلاة، وضمير «بها» راجعٌ إلى الساعة. وقيل: الضميران راجعان إلى كلمة «لا إله إلا أنا». وقيل: الأولُ راجعٌ إلى العبادة، والثاني راجعٌ إلى الساعة. وقيل: هما راجعان إلى الخصال المذكورة.

وتقديم الجارِّ والمجرور على الفاعل لما مرَّ غير مرة من الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، ولأنَّ في المؤخَّر نوعُ طولٍ ربَّما يخلُّ تقديمه بجزالة النظم الكريم.

والنهي وإن كان بحسب الظاهر نهياً للكافر عن صدِّ موسى عليه السلام عن الساعة، لكنَّه في الحقيقة نهيٌ له عليه السلام عن الانصداد عنها على أبلغ وجه وآكده، فإنَّ النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤدِّية إليه نهيٌ عنه بالطريق البرهانيّ، وإبطالٌ للسببية عن أصلها كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ [المائدة: ٢] إلخ، فإنَّ صدر الكافر حيثُ كان سبباً لانصدادِهِ عليه السلام كان النهي عنه نهياً بأصله وموجبه، وإبطالاً له بالكليَّة، ويجوزُ أن يكون نهياً عن السبب على أن يراد نهيه عليه السلام عن إظهار لين الجانب للكفرة، فإنَّ ذلك سببٌ لصدِّهم إيَّاه عليه السلام، كما في قوله: لا أرينَّك ها هنا. فإنَّ المرادَ به نهيُ المخاطب عن الحضور لديه،

الموجبِ لرؤيته، فكأنَّه قيل: كن شديدَ الشكيمة، صلبَ المعجم، حتى لا يتلوح منك لمن يكفر بالساعة وينكر البعث أنَّه يطمعُ في صدِّك عمَّا أنت عليه، وفيه حثٌّ على الصلابة في الدين وعدم اللين المطمع لمن كفر.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: ما تهواه نفسُه من اللذَّات الحسيَّة[1] الفانية، فصدَّه عن الإيمان. ﴿فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: فتهلك، فإنَّ الإغفال عن الساعة وعن تحصيل ما ينجي عن أحوالها مستتبعٌ للهلاك لا محالة.

وذكر العلَّامة الطيبيُّ أنَّه يمكن أن يحملَ: «من لا يؤمن» على المُعرِض عن عبادة الله تعالى، المتهالِك في الدنيا، المنغمسِ في لذَّاتها وشهواتها؛ بدليل «واتبع» إلخ، ويحملَ نهيُ الصدِّ على نهي النظر إلى متمتعاته من زهرة الحياة الدنيا، ليكون على وزان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ [الحجر: ٨٧ـ ٨٨] إلخ، ويحمَلَ متابعة الهوى على الميل إلى الإخلاد إلى الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦] يعني: تَفرَّغْ لعبادتي، ولا تلتفت إلى ما الكفرةُ فيه، فإنَّه مهلكٌ، فإنَّ ما أوليناك واخترناه لك هو المقصدُ الأسنى. وفي هذا حثٌّ عظيمٌ على الاشتغال بالعبادة، وزجرٌ بليغٌ عن الركون إلى الدنيا ونعيمها. ولا يخلو عن حسن، وإن كان خلاف الظاهر.

و«تردى» يحتملُ أنْ يكون منصوباً في جواب النهي، وأن يكون مرفوعاً، والجملة خبر مبتدأ محذوف، أي: فأنت تردى بسبب ذلك.

وقرأ يحيى: «فتِردى» بكسر التاء[2].

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ شروعٌ في حكاية ما كلَّفه عليه السلام من الأمور المتعلقة بالخلق، إثر حكاية ما أُمر به من الشؤون الخاصَّة بنفسه. فـ «ما» استفهاميةٌ في محلِّ الرفع بالابتداء، و«تلك» خبره، أو بالعكس، وهو أدخلُ بحسب المعنى، وأوفق بالجواب. و«بيمينك» متعلِّق بمضمرٍ وقع حالاً من «تلك»، أي:

---

(١) في الأصل: الحسنة.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٧، والبحر المحيط ٦/ ٢٣٣.

وما تلك قارَّةً أو مأخوذةً بيمينك. والعامل فيه ما فيه من معنى الإشارة، كما في قوله عزَّ وعلا حكايةً: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود:٧٢] وتسمِّيه النحاةُ عاملاً معنويًّا.

وقال ابن عطية[١]: «تلك» اسم موصول، و«بيمينك» متعلِّقٌ بمحذوف صلته، أي: وما التي استقرَّت بيمينك. وهو على مذهب الكوفيين الذين يقولونَ: إنَّ كلَّ اسم إشارةٍ يجوزُ أن يكون اسماً موصولاً. ومذهب البصريين عدم جواز ذلك إلَّا في «ذا» بشرطه.

والاستفهامُ تقريريّ، وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى بيانُ المراد منه.

﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ﴾ نسبَها عليه السلام إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه، وتمهيداً لما يعقبه من الأفاعيل المنسوبة إليه عليه السلام. واسمُها على ما روي عن مقاتل: نبعة، وكان عليه السلام قد أخذها من بيت عصيّ الأنبياء عليهم السلام التي كانت عند شعيب حين استأجرَه للرعي، هبط بها آدمُ عليه السلام من الجنة، وكانت فيما يقال من آسها[٢].

وقال وهب: كانت من العوسَج، وطولُها عشرةُ أذرع على مقدار قامته عليه السلام. وقيل: اثنتا عشرة ذراعاً بذراع موسى عليه السلام.

وذكر المسند إليه، وإن كان هو الأصل؛ لرغبته عليه السلام في المناجاة، ومزيد لذاذته بذلك.

وقرأ ابن أبي إسحاق والجحدريّ: «عصيَّ» بقلب الألف ياءً[٣]، وإدغامها في ياء المتكلم على لغة هذيل، فإنَّهم يقلبونَ الألف التي قبل ياء المتكلم ياءً للمجانسة، كما يُكسر ما قبلها في الصحيح. قال شاعرهم:

سبقوا هويَّ وأعنقوا لهواهم ... فتُخرِّموا ولكلِّ جنبٍ مَصْرَعُ[٤]

---

(١) انظر المحرر الوجيز ٤/ ٤١.

(٢) الآس: شجر دائم الخضرة، بيضي الورق، أبيض الزهر أو ورديه. المعجم الوسيط (الآس).

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٣٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٨٧ عن ابن أبي إسحاق فقط.

(٤) البيت لأبي ذؤيب الهذلي. وهو في شرح أشعار الهذليين ١/ ٧. وسلف ١٣/ ٢٥٠.

وقرأ الحسن: «عصايِ» بكسر الياء، وهي مرويةٌ عن ابن أبي إسحاق أيضاً وأبي عمرو[١]، وهذه الكسرة لالتقاء الساكنين كما في «البحر»[٢]. وعن ابن أبي إسحاق: «عصايْ» بسكون الياء[٣]، كأنَّه اعتبرَ الوقف، ولم يبال بالتقاء الساكنين.

والعصا من المؤنثات السماعيَّة ولا تلحقُها التاء، وأوَّل لحنٍ سُمع بالعراق ـ كما قال الفراء ـ: هذه عصاتي. وتجمع على عصي بكسر أوله وضمه، وأعصٍ وأعصاء.

﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي: أتحاملُ عليها في المشي والوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ أي: أخبط بها ورقَ الشجر وأضربه ليسقط ﴿عَلَىٰ غَنَمِى﴾ فتأكله.

وقرأ النخعيُّ ـ كما ذكر أبو الفضل الرازيّ وابن عطية ـ: «أَهِشُّ» بكسر الهاء[٤]، ومعناه كمعنى مضموم الهاء، والمفعول على القراءتين محذوفٌ كما أشرنا إليه.

وقال أبو الفضل: يحتملُ أن يكونَ ذلك من هشَّ يَهِشُّ هشاشةً، إذا مال، أي: أميلُ بها على غنمي بما يصلحها من السوق وإسقاط الورق لتأكله ونحوهما، ويقال: هشَّ الورقُ والكلأُ والنبات: إذا جفَّ ولان. انتهى. وعلى هذا لا حذف.

وقرأ الحسن وعكرمة: «أَهُسُّ» بضمِّ الهاء والسين المهملة[٥]، من الهسِّ، وهو زجر الغنم، وتعديته بـ «على» لتضمين معنى الإنحاء، يقال: أنحى عليه بالعصا، إذا رفعها عليه موهماً للضرب، أي: أزجرها منحياً عليها. وفي كتاب «السين والشين»

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٣٤. وانظر المحتسب ٢/ ٤٨ ـ ٤٩، والمحرر الوجيز ٤/ ٤١.
(٢) ٦/ ٢٣٤.
(٣) البحرالمحيط ٦/ ٢٣٤، وانظر الكشاف ٢/ ٥٣٣، وتفسير القرطبي ١٤/ ٤٢.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤١. وانظر المحتسب ٢/ ٥٠، والبحر ٦/ ٢٣٤.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٣٤، وهي في القراءات الشاذة ص٨٧، والمحتسب ٢/ ٥٠ عن عكرمة فقط.

لصاحب «القاموس» يقال: هسَّ الشيء وهشه إذا فتَّه وكسره، فهما بمعنى[١]. ونقل ابن خالويه عن النخعيِّ أنَّه قرأ: «أُهِشُّ» من أهشّ رباعيًا[٢].

وذكر صاحب «اللوامح» عن عكرمة ومجاهد: «أُهُشُ» بضمِّ الهاء وتخفيف الشين المعجمة، ثم قال: لا أعرفُ وجهه إلَّا أن يكون بمعنى أهشُّ بالتضعيف، لكن فرَّ منه؛ لأنَّ الشين فيه تفشٍّ، فاستثقل الجمع بين التضعيف والتفشِّي، فيكون كتخفيف: ظلت، ونحوه[٣]. اهـ. وهو في غاية البعد.

وقرأت جماعة: «غَنْمي» بسكون النون. وأخرى: «عَلَيَّ غَنَمي»[٤]. على أنَّ «عليَّ» جارٌّ ومجرور، و«غنمي» مفعولٌ صريحٌ للفعل السابق، ولم أقف على ذكر كيفية قراءة هذه الجماعة ذلك الفعل، وهو على قراءة الجمهور ممَّا لا يظهر تعدِّيه للغنم، وكذا على قراءة غيرهم إلَّا بنوع تكلُّف.

والغنم: الشاء[٥]، وهو اسمٌ مؤنثٌ موضوعٌ للجنس، يقع على الذكر والإناث وعليهما جميعاً، ولا واحدَ له من لفظه، وإنَّما واحده: شاةٌ، وإذا صغَّرتَه، قلت: غُنَيمة، بالهاء، ويجمع على أغنام وغنوم وأغانم، وقالوا: غنمان في التثنية، على إرادة قطعتين.

وقدَّم عليه السلام بيانَ مصلحة نفسه في قوله: «أتوكأُ عليها» وثنَّى بمصلحة رعيتهِ في قوله: «وأهشُّ بها على غنمي» ولعلَّ ذلك لأنَّه عليه السلام كان قريبَ العهد بالتوكُّؤ، فكان أسبق إلى ذهنه، ويليه الهشُّ على غنمه.

وقد رَوى الإمام أحمد أنَّه عليه السلام بعد أن ناداه ربُّه سبحانه، وتحقَّق أنَّه جلَّ وعلا هو المنادي قال سبحانه له: ادنُ منِّي، فجمع يديه في العصا، ثمَّ تحامل حتى استقلَّ قائماً، فرعدت فرائصُه حتى اختلفت، واضطربت رجلاه، وانقطعَ لسانه، وانكسر قلبه، ولم يبقَ منه عظمٌ يحملُ آخر، فهو بمنزلة الميت، إلَّا أنَّ روحَ

---

(١) تحبير الموشين في التعبير بالسين والشين ص٦٢.

(٢) القراءات الشاذة ص٨٧.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٣٤.

(٤) البحرالمحيط ٦/ ٢٣٥. وذكر القراءتين أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٤١.

(٥) في (م): الشاة.

الحياةَ تجري فيه، ثم زحفَ وهو مرعوبٌ حتى وقفَ قريباً من الشجرة التي نودي منها، فقال له الربُّ تباركَ وتعالى: «ما تلك بيمينك يا موسى»؟ فقال ما قصَّ عزَّ وجلَّ[١].

وقيل: لعلَّ تقديم التوكُّؤ عليها؛ لأنَّه الأوفقُ للسؤال بـ «ما تلك بيمينك»، ثم إنَّه عليه السلام أجملَ أوصافها في قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ أي: حاجاتٌ أُخَر، ومفردُه: مأربة، مثلثة الراء. وعومل في الوصف معاملة مفردِه ولم يقل: أُخَر، وذلك جائزٌ في غير الفواصل، وفيها ـ كما هنا ـ أجوزُ وأحسن.

ونقل الأهوازيُّ في كتاب «الإقناع» عن الزهريّ وشيبة أنَّهما قرأا: «مارب» بغير همز[٢]، وكأنه يعني: بغير همزٍ محقَّق، ومحصَّله أنَّهما سهَّلا الهمزة بين بين.

وقد روى الإمام أحمد وغيره عن وهب في تعيين هذه المآرب أنَّه كان لها شعبتان ومحجن تحتهما، فإذا طال الغصنُ حناه بالمحجن، وإذا أراد كسرَه لواه بالشعبتين، وكان إذا شاء عليه السلام ألقاها على عاتقه، فعلَّق بها قوسه وكنانته ومخلاته وثوبه وزاداً إنْ كان معه، وكان إذا رتع في البَرِّيَّة حيثُ لا ظلَّ له ركزها، ثمّ عرض بالزندين الزند الأعلى والزند السفلى على شعبتيها[٣]، وألقى فوقها كساءه فاستظلَّ بها ما كان مرتعاً، وكان إذا ورد ماءً يقصر عنه رشاؤه وصلَ بها، وكان يقاتلُ بها السباع عن غنمه[٤].

---

(١) الزهد لأحمد ص٨٠ ـ ٨١. وهو جزء من حديث وهب السالف ص٢٥١.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٣٥.

(٣) نص العبارة كما في الدر المنثور ٤/ ٢٩١: ثم عرض بالوتد بين شعبتيها. ونصها كما في مطبوع تاريخ دمشق ٦١/ ٤٦: ثم أعرض زنده بين شعبتيها. ونص عبارة الكشاف ٢/ ٥٣٤، والبيضاوي ٤/ ٢٠، وأبي السعود ٦/ ١٠: وعرض الزندين على شعبتيها. قال الخفاجي في حاشيته على البيضاوي ٦/ ١٩٦: وعرض بالتخفيف والتشديد، والزندان هما عودان يحك أحدهما بالآخر فتخرج النار.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٢٩١. وهو تتمة حديث الزهد السابق. لكن هذا الموضع مختصر في الزهد لأحمد.

وذكر بعضهم أنَّه كان عليه السلام يستقي بها، فتطولُ بطول البئر، وتصير شعبتاها دلواً، وتكونان شمعتين في الليل، وإذا ظهر عدوٌّ حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرةً ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحملُ عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه، ويركزها فينبُع الماء، وإذا رفعها نضب، وكانت تقيه الهوامَّ، وكانت تحدِّثه وتؤنسه. ونقل الطبرسيُّ[1] كثيراً مما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والظاهرُ أنَّ ذلك ممَّا كان فيها بَعْد، وتكلَّف بعضهم للقول بأنه ممَّا كان قَبْل، ويحتمل إنْ صحَّ خبرٌ في ذلك، ولا أراه يصحُّ فيه شيء. وكأنَّ المراد من سؤاله تعالى إيَّاه عليه السلام أنْ يُعدِّد المرافق الكثيرة التي علقها بالعصا ويستكثرها ويستعظمها، ثم يريه تعالى عقبَ ذلك الآيةَ العظيمة، كأنه جلَّ وعلا يقول: أين أنت عن هذه المنفعة العظمى والمأربة الكبرى المنسيَّة عندها كلُّ منفعة ومأربة كنت تعتدُّ بها وتحتفلُ بشأنها. فـ «ما» طالبةٌ للوصف، أو يقدر المنفعة بعدها.

واختيار ما يدلُّ على البعد في اسم الإشارة للإشارة إلى التعظيم، وكذا في النداء إيماء إليه، والتعداد في الجواب لأجله. و«مآرب أخرى» تتميمٌ للاستعظام بأنَّها أكثرُ من أن تحصى.

وذكر العصا في الجواب ليجريَ عليها النعوت المادحة، وفيه من تعظيم شأنها ما ليس في ترك ذكرها، ويندفعُ بهذا ما أُورِد من أنَّه يلزم على هذا الوجه استدراك «هي عصاي» إذ لا دخل له في تعداد المنافع.

ويجوز أن يكون المراد إظهاره عليه السلام حقارتها ليريه عزَّ وجلَّ عظيمَ ما يخترعه في الخشبة اليابسة ممَّا يدلُّ على باهر قدرته سبحانه، كما هو شأنُ من أراد أنْ يظهرَ من الشيء الحقير شيئاً عظيماً، فإنَّه يعرضه على الحاضرين، ويقول: ما هذا؟ فيقولون: هو الشيءُ الفلانيّ، ويصفونَه بما يبعدُ عما يريد إظهاره منه، ثمَّ يظهر ذلك. فـ «ما» طالبةٌ للجنس، و«تلك» للتحقير، والتعدادُ في الجواب لأجلِهِ، و«مآرب أخرى» تتميمٌ لذلك أيضاً بأن المسكوت عنه من جنس المنطوق، فكأنَّه

(١) مجمع البيان ١٦/ ٩٥ ـ ٩٦.

عليه السلام قال: هي خشبةٌ يابسةٌ لا تنفعُ إلَّا منافع سائر الخشبات، ولذلك ذكر عليه السلام العصا وأجرى عليها ما أجرى.

وقيل: إنَّه عليه السلام لما رأى من آيات ربه ما رأى غلبت عليه الدهشةُ والهيبة، فسأله سبحانه وتكلَّم معه إزالةً لتلك الهيبة والدهشة، ف «ما» طالبةٌ إمَّا للوصف، أو للجنس.

وتكرير النداء لزيادة التأنيس، ولعلَّ اختيارَ ما يدلُّ على البعد في اسم الإشارة لتنزيلِ العصا منزلة البعيد لغفلته عليه السلام عنها بما غلبَ عليه من ذلك.

والإجمالُ في قوله: «ولي فيها مآربُ أخرى» يحتملُ أن يكون رجاء أنْ يسألَه سبحانه عن تلك المآرب، فيسمع كلامه عزَّ وجلَّ مرةً أخرى، وتطول المكالمة، وتزداد اللذاذة التي لأجلها أطنبَ أوَّلاً، وما ألذَّ مكالمةَ المحبوب، ومن هنا قيل:

أطلتُ ذنوباً كي يطولَ عتابُه ... وأَمْلَى حديثاً يستطابُ فليتني[1]

ويحتمل أنْ يكون لعود غلبة الدهشة إليه عليه السلام، وزعم بعضُهم أنَّه تعالى سأله عليه السلام ليقرِّره على أنَّها خشبة، حتَّى إذا قلبها حيَّةً لا يخافُها. وليس بشيء.

وعلى جميع هذه الأقوال السؤالُ واحدٌ، والجواب واحدٌ كما هو الظاهر.

وقيل: «أتوكَّأ عليها» إلخ جوابٌ لسؤالٍ آخر، وهو أنَّه لمَّا قال: «هي عصاي» قال له تعالى: فما تصنع بها؟ فقال: «أتوكَّأ عليها» إلخ.

وقيل: إنَّه تعالى سأله عن شيئين؛ عن العصا بقوله سبحانه: «وما تلك»، وعمَّا يملكُه منها بقوله عزَّ وجلَّ: «بيمينك»، فأجاب عليه السلام عن الأول بقوله: «هي عصاي»، وعن الثاني بقوله: «أتوكَّأ عليها» إلخ. ولا يخفى أنَّ كلا القولين لا ينبغي أن يُتَوكَّأ عليهما، لا سيما الأخير.

هذا واستدلَّ بالآية على استحباب التوكُّؤ على العصا. وإن لم يكن الشخص بحيث تكون وَتَراً لقوسه، وعلى استحباب الاقتصاد في المرعى بالهشِّ، وهو ضَرْبُ الشجر ليسقطَ الورق دون الاستئصال، ليخلف فينتفع به الغير.

---

(١) البيت لابن سناء الملك، وهو في ديوانه ص٣٩. وفيه: عتاباً. بدل: حديثاً.

وقد ذكر الإمامُ فيها فوائدَ سنذكرُ بعضَها في باب الإشارة؛ لأنَّ ذلك أوفقُ به.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ ينساقُ إليه الذهن، كأنَّه قيل: فماذا قال الله عزَّ وجلَّ؟ فقيل: قال: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ لترى من شأنها ما ترى، والإلقاء: الطرح على الأرض، ومنه قوله:

فألقتْ عصاها واستقرَّت بها النوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافر[1]

وتكرير النداء لمزيد التنبيه والاهتمام بشأنِ العصا، وكونُ قائل هذا هو الله تعالى هو الظاهر، وزعم بعضهم أنَّه يجوزُ أنْ يكون القائلُ الملَك بأمر الله تعالى، وقد أبعدَ غايةَ البعد.

﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ ريثما قيل له: ألقها، ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ تمشي وتنتقلُ بسرعة، والحيَّةُ اسمُ جنسٍ ينطلقُ على الصغير والكبير، والأنثى والذكر، وقد انقلبت حين ألقاها عليه السلام ثعباناً، وهو العظيمُ من الحيَّات، كما يفصحُ عنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧] وتشبيهُها بالجانِّ ـ وهو الدقيقُ منها ـ في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل:١٠] من حيث الجلادة وسرعة الحركة، لا من حيث صغر الجثَّة، فلا منافاة.

وقيل: إنَّها انقلبت حين ألقاها عليه السلام حيةً صفراء في غلظ العصا، ثم انتفخت وغَلُظت، فلذلك شُبِّهت بالجانِّ تارة، وسمِّيت ثعباناً أخرى، وعبّر عنها بالاسم العامِّ للحالين.

والأوَّل هو الأليقُ بالمقام مع ظهور اقتضاء الآية التي ذكرناها له، وبعدها عن التأويل.

وقد روى الإمام أحمد وغيره عن وهب أنَّه عليه السلام حانت منه نظرةٌ بعد أن ألقاها، فإذا بأعظم ثعبانٍ نظرَ إليه الناظرون يرى[2]، يلتمس كأنَّه يبتغي شيئاً يريد أخذه، يمرُّ بالصخرة مثل الخَلِفَة من الإبل، فيلتقمُها ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثُّها، عيناه توقدان ناراً، وقد عاد المحجن عرفاً فيه شعرٌ

---

(١) البيت مختلف في نسبته، وسلف ١٠/ ١٠٢.
(٢) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور. وفي مطبوع الزهد ص٨١: يدبُّ.

مثل النيازك، وعاد الشعبتان فماً مثلَ القليب الواسع، فيه أضراسٌ وأنيابٌ لها صريف[(١)].

وفي بعض الآثار أنَّ بين لحييه أربعين ذراعاً، فلمَّا عاينَ ذلك موسى عليه السلام ولَّى مدبراً ولم يعقِّب، فذهبَ حتى أمعنَ ورأى أنَّه قد أعجزَ[(٢)] الحيَّةَ، ثم ذكر ربَّه سبحانه فوقفَ استحياءً منه عزَّ وجلَّ، ثم نُودي: يا موسى إليَّ ارجع حيث كنت، فرجع وهو شديدُ الخوف، فأمره سبحانه وتعالى بأخذِها، وهو ما قصَّ الله تعالى بقوله عزَّ قائلاً: ﴿قَالَ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ، والجملةُ استئنافٌ كما سبق: ﴿خُذْهَا﴾ أي: الحيَّة، وكانت على ما روي عن ابن عباس ذَكَراً. وعن وهب أنَّه تعالى قال له: خذها بيمينك ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها، ولعلَّ ذلك الخوف ممَّا اقتضتهُ الطبيعةُ البشريَّة، فإنَّ البشرَ بمقتضى طبعه يخاف عندَ مشاهدة مثل ذلك، وهو لا ينافي جلالةَ القدر.

وقيل: إنَّما خافَ عليه السلام؛ لأنَّه رأى أمراً هائلاً صدرَ من الله عزَّ وجلَّ بلا واسطة، ولم يقف على حقيقة أمره، وليس ذلك كنارِ إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّها صدرت على يد عدوِّ الله تعالى، وكانت حقيقةُ أمرها كنارٍ على عَلَم، فلذلك لم يخف عليه السلام منها، كما خاف موسى عليه السلام من الحيَّة.

وقيل: إنَّما خافَ لأنَّه عرف ما لقي من ذلك الجنس، حيثُ كان له مدخلٌ في خروج أبيه من الجنة.

وإنما عطف النهي على الأمر؛ للإشعار بأنَّ عدم المنهيِّ عنه مقصودٌ لذاته، لا لتحقيق المأمور به فقط.

وقوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ أي: بعد الأخذ ﴿سِيرَتَهَا﴾ أي: حالتها ﴿ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ التي هي العصويَّة، استئنافٌ مسوقٌ لتعليل الامتثال بالأمر والنهي، فإنَّ إعادتَها إلى ما كانت عليه من موجبات أخذها وعدمِ الخوف منها.

ودعوى أنَّ فيه مع ذلك عِدَةً كريمةً بإظهار معجزةٍ أخرى على يده عليه السلام،

---

(١) الزهد ص٨١. وهو جزء من حديث وهب السالف ص٢٥١.

(٢) لفظة: أعجز. ليست في الأصل.

وإيذاناً بكونها مسخَّرةً له عليه السلام، ليكونَ على طمأنينةٍ من أمره، ولا تعتريه شائبةُ تزلزل عند محاجَّةِ فرعون = لا تخلو عن خفاء.

وذكر بعضُهم أنَّ حكمَة انقلابها حيَّةً، وأمره بأخذها، ونهيه عن الخوف = تأنيسُه فيما يعلم سبحانه أنَّه سيقع منه مع فرعون، ولعلَّ هذا مأخذُ تلك الدعوى.

قيل: بلغَ عليه السلام عند هذا الخطاب من الثقة وعدم الخوف إلى حيث كان يُدخِلُ يدَه في فمها، ويأخذُ بلحييها.

وفي رواية الإمام أحمد وغيره عن وهب: أنَّه لمَّا أمره الله تعالى بأخذها أدنى طرفَ المِدْرَعة[1] على يده، وكانت عليه مدرعةٌ من صوفٍ، قد خلَّها بخلالٍ من عيدان، فقال له ملك: أرأيتَ يا موسى لو أذن الله تعالى بما تحاذر أكانت المدرعةُ تغني عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكني ضعيف، ومن ضَعْفٍ خلقت، فكشفَ عن يده ثمَّ وضعَها على فم الحيَّة، حتى سمع حسَّ الأضراس والأنياب، ثم قبض، فإذا هي عصاهُ التي عهدها، وإذا يدُه في موضعِها الذي كان يضعُها فيه إذا توكَّأ بين الشعبتين[2].

والروايةُ الأولى أوفق بمنصبِه الجليل عليه السلام.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه عليه السلام نوديَ المرَّةَ الأولى: يا موسى خذها، فلم يأخذها، ثمَّ نوديَ الثانية: «خذها ولا تخف»، فلم يأخذها، ثم نوديَ الثالثة: إنَّك من الآمنين. فأخذَها[3].

وذكر مكيٌّ في «تفسيره» أنَّه قيل له في المرة الثالثة: «سنعيدها سيرتَها الأولى».

ولا يخفى أنَّ ما ذُكِر بعيدٌ عن منصب النبوَّة، فلعلَّ الخبر غيرُ صحيح.

والسِّيرة[4] فعلةٌ من السير، تقال للهيئة والحالة الواقعة فيه، ثمَّ جُرِّدت لمطلق الهيئة والحالة التي يكون عليها الشيء، ومن ذلك استعمالها في المذهب والطريقة في قولهم: سيرةُ السلف، وقول الشاعر:

---

(١) ثوب لا يكون إلا من الصوف. القاموس (درع).

(٢) الزهد ص٨١. وهو جزء من حديث وهب السالف ص٢٥١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٤٢٠ (١٣٤١٨).

(٤) بعدها في الأصل: في.

فلا تغضبنْ من سيرةٍ أنت سِرْتَها فأوَّل راضٍ سيرةً من يسيرُها[١]

واختلف في توجيه نصبها في الآية، فقيل: إنَّها منصوبةٌ بنزع الخافض، والأصل: إلى سيرتها، أو: لسيرتها. وهو كثير، وإنْ قالوا: إنَّه ليس بمقيس. وهذا ظاهر قول الحوفي: إنَّها مفعولٌ ثانٍ لـ «سنعيدها»، على حذف الجارِّ نحو: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وإليه ذهب ابنُ مالك، وارتضاه ابنُ هشام[٢].

وجوَّز الزمخشريُّ[٣] أنْ يكون: أعاد، منقولاً من عَادَه بمعنى عَاد إليه، ومنه قول زهير:

فَصَرِّمْ حَبْلَها إذ صرَّمَتْهُ وعادَكَ أن تلاقِيَها عداءُ[٤]

فيتعدَّى إلى مفعولين.

والظاهر أنَّه غيرُ التوجيه الأول؛ لاعتبار النقل فيه، والخافضُ يحذفُ من: أعاد، من غير نظرٍ إلى ثلاثيِّه. وتعدِّي: عادَ، بنفسِه مما صحَّ به النقل، فقد نقل الطيبيُّ عن الأصمعيِّ أنَّ: عادك، في البيت متعدٍّ بمعنى صيَّرك[٥]، وكذا نقل الفاضلُ اليمنيّ. وفي «المغرب»: العودُ: الصيرورةُ ابتداءً وثانياً، ويتعدَّى بنفسه وبـ «إلى» و«على» و«في» و«اللام»[٦].

وفي «مشارق اللغة» للقاضي عياض مثلُه[٧]، ونقل عن الحديث: «أَعُدْتَ فتَّاناً يا معاذ»[٨]؟.

---

(١) البيت لخالد بن زهير الهذلي، كما في شرح أشعار الهذليين ١/ ٢١٣ وفيه: سنَّة، بدل: سيرة. في الموضعين.

(٢) انظر مغني اللبيب ٢/ ٧٥٠.

(٣) في الكشاف ٢/ ٥٣٤.

(٤) ديوان زهير ص٦٢ وفيه: العداء. بدل: عداء.

(٥) في الأصل و(م): صرفك. وهو تحريف. والمثبت من حاشية الخفاجي ٦/ ١٩٦. وعنه نقل المصنف.

(٦) المغرب بترتيب المعرب (عود).

(٧) مشارق الأنوار ٢/ ١٠٤.

(٨) أخرجه بهذا اللفظ الشاشي في مسنده (١٤٠١) من حديث أبي سلمة. وروى مسلم في صحيحه (٤٦٥): (١٧٩) نحوه من حديث جابر ﵁.

وقال أبو البقاء: هي بدل من ضمير المفعول بدل اشتمال، وجَوَّزَ أنْ يكون النصبُ على الظرفية، أي: سنعيدُها في طريقتها الأولى[١].

وتعقَّبه أبو حيَّان قائلاً: إنَّ سيرتَها وطريقتها ظرفٌ مختصٌّ، فلا يتعدَّى إليه الفعل على طريقة الظرفيَّة إلَّا بوساطة «في»، ولا يجوزُ الحذفُ إلَّا في ضرورة، أو فيما شذَّت فيه العرب[٢].

وحاصله أنَّ شرطَ الانتصاب على الظرفيَّة هنا ـ وهو الإبهام ـ مفقودٌ. وفي «شرح التسهيل» عن نحاة المغرب أنَّهم قسموا المبهمَ إلى أقسام؛ منها المشتقُّ من الفعل كالمَذْهب، والمصدر الموضوع موضع الظرف، نحو قَصْدك، ولم يفرِّقوا بين المختوم بالتاء وغيره. فالنصب على الظرفية فيما ذكر غيرُ شاذٍّ ولا ضرورة.

وجَوَّزَ الزمخشريُّ واستحسنَه أن يكون «سنعيدها» مستقلًّا بنفسه غير متعلق بـ «سيرتها» بمعنى أنَّها أنشئت أوّل ما أنشئت عصًا، ثم ذهبت وبطلت بالقلب حيَّةً، فسنعيدها بعد الذهاب كما أنشأناها أولاً، و«سيرتها» منصوباً على أنَّه مفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ مقدر، أي: تسيرُ سيرتَها الأولى، أي: سنعيدها سائرةً سيرتَها الأولى، حيثُ كنتَ تتوكَّأ عليها، وتهشُّ بها على غنمك ولك فيها المآرب التي عرفتها[٣]. انتهى.

والظاهرُ أنَّه جعلَ الجملةَ من الفعل المقدَّر وفاعله حالاً، ويجوز أن تكون استئنافاً، ولا يخفى عليك أنَّ ما ذكره وإنْ حسن معنى إلَّا أنَّه خلافُ المتبادر.

هذا والآيةُ ظاهرةٌ في جواز انقلاب الشيء عن حقيقته؛ كانقلاب النحاس إلى الذهب، وبه قال جمعٌ، ولا مانع في القدرة من توجُّه الأمر التكوينيِّ إلى ذلك وتخصيص الإرادةِ له.

وقيل: لا يجوز؛ لأنَّ قلبَ الحقائق محالٌ، والقدرةُ لا تتعلَّقُ به.

---

(١) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٢٠.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٣٦.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٣٤.

والحقُّ الأول، بمعنى أنَّه تعالى يخلقُ بدل النحاس مثلاً ذهباً، على ما هو رأي بعض المحققين، أو بأنْ يسلب عن أجزاء النحاس الوصفَ الذي صار به نحاساً، ويخلقَ فيه الوصف الذي يصير به ذهباً، على ما هو رأي بعض المتكلِّمين، من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات. والمُحَالُ إنَّما هو انقلابُه ذهباً مع كونه نحاساً؛ لامتناع كون الشيء في الزمن الواحد نحاساً وذهباً، وانقلابُ العصا حيَّةً كان بأحد هذين الاعتبارين، والله تعالى أعلم بأيِّهما كان، والذي أميل إليه الثاني، فإنَّ في كون خلق البدل انقلاباً خفاءً كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أمرٌ له عليه السلام بعد ما أخذَ الحيَّة وانقلبت عصاً كما كانت.

والضمُّ: الجمع، والجناح ـ كما في «القاموس» ـ: اليد، والعضد، والإبط، والجانب، ونفسُ الشيء. ويجمع على أجنحة وأجْنُح[1]. وفي «البحر»: الجناحُ حقيقةٌ في جناح الطائر والملك، ثمَّ تُوسِّع فيه، فأطلق على اليد والعضد وجنب الرجل، وقيل لمجنبتي العسكر: جناحان، على سبيل الاستعارة، وسُمِّيَ جناحُ الطائر بذلك؛ لأنَّه يجنحه[2]، أي: يميِّله عند الطيران.

والمراد: أدخل يدكَ اليمنى من طوق مدرعتك، واجعلهَا تحت إبط اليسرى، أو تحتَ عضدها عند الإبط، أو تحتها عنده، فلا منافاةَ بين ما هنا وقوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢].

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ جعله بعضهم مجزوماً في جواب الأمر المذكور، على اعتبار معنى الإدخال فيه. وقال أبو حيان وغيره: إنَّه مجزومٌ في جواب أمرٍ مقدَّرٍ، وأصل الكلام: اضمم يدك تنضمّ، وأخرجها تخرج، فحذف ما حذف من الأول والثاني، وأبقى ما يدلُّ عليه[3]. فهو إيجازٌ يسمى بالاحتباك.

ونصب «بيضاء» على الحال من الضمير في «تخرج»، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ

(١) القاموس (جنح).
(٢) في البحر ٦/٢٣٦: يجنح به.
(٣) البحر ٦/٢٣٦.

بمحذوف هو حالٌ من الضمير في «بيضاء»، أو صفةٌ لـ «بيضاء»، كما قال الحوفيُّ، أو متعلِّق به، كما قال أبو حيان(١)، كأنه قيل: ابيضَّت من غير سوء، أو متعلِّق بـ «تخرج»، كما جوَّزه غيرُ واحد.

والسوء: الرداءة والقبح في كلِّ شيء. وكنَّى به عن البَرَص، كما كنَّى عن العورة بالسوأة؛ لما أنَّ الطباعَ تنفرُ عنه والأسماع تمجُّه، وهو أبغضُ شيءٍ عند العرب، ولهذا كنَّوا عن جَذِيْمَة صاحب الزبَّاء ـ وكان أبرص ـ بالأبرش والوضَّاح.

وفائدة التعرُّض لنفي ذلك الاحتراسُ، فإنَّه لو اقتصرَ على قوله تعالى: «تخرج بيضاء» لأوهم ـ ولو على بعد ـ أنَّ ذلك مِن بَرَص، ويجوز أن يكون الاحتراسُ عن توهُّم عيب الخروج عن الخلقة الأصليَّة، على أنَّ المعنى: تخرج بيضاء من غير عيبٍ وقبحٍ في ذلك الخروج، أو عن توهم عيبٍ مطلقاً.

يُروى أنَّها خرجت بيضاءَ لها شعاعٌ كشعاع الشمس يغشي البصر، وكان عليه السلام آدَمَ اللون.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي: معجزةً أخرى غير العصا. وانتصابها على الحالية من ضمير «تخرج» ـ والصحيحُ جوازُ تعدُّد الحال لذي حالٍ واحد ـ أو من ضمير «بيضاء»، أو من الضمير في الجارِّ والمجرور على ما قيل، أو على البدليَّة من «بيضاء»، ويرجع إلى الحاليَّة من ضمير «تخرج».

ويجوز أن تكون منصوبةً بفعلٍ مضمرٍ، أي: خذ آيةً، وحُذِف لدلالة الكلام.

وظاهر كلام الزمخشريِّ(٢) جوازُ تقدير: دونك، عاملاً، وهو مبنيٌّ على ما هو ظاهر كلام سيبويه من جوازِ عمل اسم الفعل محذوفاً. ومنعَه أبو حيَّان(٣)؛ لأنَّه نائبٌ عن الفعل، ولا يحذف النائبُ والمنوبُ عنه.

ونُقِضَ بـ «يا» الندائية، فإنها تحذفُ مع أنَّها نائبةٌ عن أدعوا.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٣٦.
(٢) في الكشاف ٢/ ٥٣٤.
(٣) في البحر ٦/ ٢٣٦.

وقيل: إنَّها مفعولٌ ثانٍ لفعلٍ محذوفٍ مع مفعوله الأول، أي: جعلناها أو آتيناك آيةً أخرى. وجعل هذا القائلُ قولَه تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ متعلِّقاً بذلك المحذوف.

ومن قَدَّر «خذ» ونحوه جَوَّزَ تعلُّقَه به. وجَوَّز الحوفيُّ تعلُّقه بـ «اضمم»، وتعلُّقه بـ «تخرج»، وأبو البقاء تعلُّقه بما دلَّ عليه «آية»، أي: دللنا بها لنريك، ومَنَعَ تعلُّقه بها؛ لأنَّها قد وصفت[1]. وبعضُهم تعلُّقه بـ «أَلْقِ».

واختار بعضُ المحقِّقين أنَّه متعلِّقٌ بمضمرٍ ينساقُ إليه النظمُ الكريم، كأنَّه قيل: فعلنا ما فعلنا لنريكَ بعضَ آياتنا الكبرى، على أنَّ «الكبرى» صفةٌ لـ «آياتنا» على حدِّ: «مآرب أخرى»، و«من آياتنا» في موضع المفعول الثاني، و«من» فيه للتبعيض، أو: لنريك بذلك الكبرى من آياتنا، على أنَّ «الكبرى» هو المفعولُ الثاني «لنريكَ»، و«من آياتنا» متعلِّقٌ بمحذوف حالٍ منه، و«من» فيه للابتداء أو للتبعيض، وتقديم الحال ـ مع أنَّ صاحبَه معرفة ـ لرعاية الفواصل. وجَوَّزَ كلا الإعرابين في «من آياتنا الكبرى» الحوفيُّ وابنُ عطيَّة وأبو البقاء[2] وغيرهم.

واختار في «البحر»[3] الإعرابَ الأول ورجَّحه بأنَّ فيه دلالة على أنَّ آياته تعالى كلها كبرى، بخلاف الإعراب الثاني، وبأنَّه على الثاني لا تكون «الكبرى» صفةَ العصا واليد معاً، وإلَّا لقيل: الكبريين، ولا يمكن أنْ يخصَّ أحدهما؛ لأنَّ في كلٍّ منهما معنى التفضيل. ويبعد ما قال الحسن وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنَّ اليد أعظم في الإعجاز من العصا؛ لأنَّه ليس في اليد إلَّا تغيير اللون، وأما العصا ففيها تغييرُ اللون، وخلق الزيادة في الجسم، وخلق الحياة والقدرة والأعضاء المختلفة، مع عودها عصًا بعد ذلك، فكانت أعظمَ في الإعجاز من اليد.

وجُوِّز أنْ تكون «الكبرى» صفةً لهما معاً، ولاتِّحاد المقصود جُعلتا آيةً واحدةً، وأفردت الصفة لذلك. وأن تكون صفةً لليد، والعصا غنيَّةٌ عن الوصف بها؛ لظهور كونها كبرى.

---

(١) الإملاء ٢/ ١٢١.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٤٢، وإملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٢١.
(٣) ٦/ ٢٣٧.

وأنت تعلم أنَّ هذا كلَّه خلافُ الظاهر. وكذا ما قيل من أنَّ «من» على الإعراب الثاني للبيان، بأن يكون المراد: لنريك الآياتِ الكبرى من آياتنا، ليصحَّ الحملُ الذي يقتضيه البيان، ولا يترجَّح بذلك الإعراب الثاني على الأول، ولا يساويه أصلاً.

ولا يخفى عليك أنَّ كلَّ احتمالٍ من احتمالات متعلَّق اللام خلا من الدلالة على وصف آية العصا بالكبر = لا ينبغي أن يعوَّل عليه. ويعتذر بأنَّ عدمَ الوصف للظهور، مع ظهور الاحتمال الذي لا يحتاج معه إلى الاعتذار عن ذلك المقال، فتأمَّل والله تعالى العاصمُ عن الزلل.

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ تخلُّصٌ إلى ما هو المقصدُ من تمهيد المقدمات السالفة فُصِل عمَّا قبله من الأوامر إيذاناً بأصالته، أي: اذهب إليه بما رأيته من آياتنا الكبرى، وادعُهُ إلى عبادتي، وحذِّره نقمتي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ تعليلٌ للأمر، أو لوجوب المأمور به، أي: جاوز الحدَّ في التكبُّر والعتوِّ والتجبُّر حتى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الربوبية.

قال وهبُ بن منبه: إنَّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام: ادنُ، فلم يزل يُدْنِيه حتى شدَّ ظهره بجذع الشجرة، فاستقرَّ وذهبت عنه الرعدة، وجمعَ يده في العصا، وخضع برأسه وعنقه، ثمَّ قال له بعد أنْ عرَّفَه نعمتَه تعالى عليه: انطلق برسالتي، فإنَّك بعيني وسمعي، وإنَّ معك أيدي ونصرتي[1]، وإنِّي قد ألبستك جُنَّةً من سلطاني، تستكملُ بها القوَّة في أمري، فأنت جندٌ عظيمٌ من جنودي، بعثتُك إلى خلقٍ ضعيف من خلقي، بَطرَ نعمتي، وأمِنَ مكري، وغرَّته الدنيا حتى جحد حقِّي، وأنكر ربوبيَّتي، وعبد مَن دوني، وزعم أنَّه لا يعرفني، وإنِّي لأقسم بعزَّتي لولا العذر والحجَّة اللذان وضعتُ بيني وبين خلقي لبطشتُ به بطشةَ جبارٍ يغضبُ لغضبه السماوات والأرض والجبال والبحار، فإنْ أمرتُ السماء حصبته، وإنْ أمرتُ الأرضَ ابتلعته، وإن أمرتُ البحارَ غرَّقته، وإن أمرتُ الجبال دمَّرته، ولكنه هانَ عليَّ، وسقط من عيني، ووسعه حلمي، واستغنيتُ بما عندي، وحقَّ لي أنِّي أنا الغنيُّ لا غنيَّ غيري، فبلِّغه رسالتي، وادعُه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاص اسمي،

---

(١) كذا في الأصل و(م). وفي الزهد: يدي ونصري، وفي الدر المنثور: يدي وبصري.

وذكِّره بأيَّامي، وحذِّره نقمتي وبأسي، وأخبره أنه لا يقومُ شيءٌ لغضبي، وقل له فيما بين ذلك قولاً ليِّناً لعله يتذكر أو يخشى، وأخبره أنِّي إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يروِّعنَّك ما ألبستُه من لباس الدنيا، فإنَّ ناصيتَه بيدي ليسَ يطرفُ ولا ينطقُ ولا يتنفسُ إلَّا بإذني، وقل له: أجب ربَّك، فإنَّه واسعُ المغفرة، وإنَّه قد أمهلكَ أربعمئة سنة، في كلِّها أنتَ مبارزهُ بالمحاربة، تتشبَّهُ وتتمثَّلُ به، وتصدُّ عبادَه عن سبيله، وهو يمطرُ عليك السماء، وينبتُ لك الأرض، لم تسقم، ولم تهرم، ولم تفتقر، ولم تُغلَب، ولو شاء أنْ يفعلَ ذلك بك فَعَل، ولكنَّه ذو أناةٍ وحلمٍ عظيمٍ. في كلام طويل(١).

وفي بعض الروايات أنّ الله تعالى لمَّا أمره عليه السلام بالذهاب إلى فرعون سكتَ سبعةَ أيَّام، وقيل: أكثر، فجاءه ملكٌ فقال: أنفذْ ما أمرك ربُّك. وفي القلب من صحَّة ذلك شيء.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قال موسى عليه السلام حين قيل له ما قيل؟ فأجيب بأنَّه قال: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ الظاهرُ أنَّه متعلِّقٌ بقوله تعالى: «اذهب إلى فرعون» إلخ، وذلك أنَّه عليه السلام عَلم من الأمر بالذهاب إليه والتعليلِ بالعلَّة المذكورة أنَّه كُلِّف أمراً عظيماً وخَطْبًا جسيماً يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلَّا ذو جأشٍ رابط وصدرٍ فسيح، فاستوهبَ ربَّه تعالى أنْ يشرح صدرَه، ويجعله حليماً حمولاً، يستقبلُ ما عسى أنْ يَرِد عليه في طريق التبليغ والدعوة إلى مُرِّ الحقِّ من الشدائد التي يذهبُ معها صبرُ الصابر بجميل الصبر وحسنِ الثبات، وأن يسهِّل عليه مع ذلك أمرَهُ الذي هو أجلُّ الأمور وأعظمها، وأصعبُ الخطوب وأهولها، بتوفيق الأسباب، ورفع الموانع، فالمراد من شرح الصدر جعلُه بحيث لا يضجرُ ولا يقلقُ ممَّا يقتضي بحسب البشرية الضجرَ والقلقَ من الشدائد، وفي طلب ذلك إظهارٌ لكمال الافتقار إليه عزَّ وجلَّ، وإعراضٌ عن الأنانية بالكليَّة:

ويَحسنُ إظهارُ التجلُّد للعدا ... ويقبحُ إلَّا العجزُ عند الأحبَّة(٢)

---

(١) الزهد ص٨١ ـ ٨٢. وهو قطعة من حديث وهب السالف ص٢٥١.
(٢) البيت لابن الفارض، وهو في ديوانه ص٥٠.

وذكر الراغبُ أنَّ أصلَ الشرح البسط ونحوه، وشرح الصدر بسطُه بنورٍ إلهيّ وسكينةٍ من جهة الله تعالى وروحٍ منه عزَّ وجل[١]. ولهم فيه عباراتٌ أخر، لعلَّ بعضَها سيأتي إنْ شاء الله تعالى في باب الإشارة.

وقال بعضهم: إنَّ هذا القول معلَّقٌ بما خاطبه الله تعالى به من لدن قوله سبحانه: «إنِّي أنا ربك فاخلع نعليك» إلى هذا المقام، فيكون قد طلب عليه السلام شرحَ الصدر؛ ليقفَ على دقائق المعرفة وأسرار الوحي، ويقوم بمراسم الخدمة والعبادة على أتمِّ وجه، ولا يضجر من شدائد التبليغ.

وقيل: إنَّه عليه السلام لمَّا نُصب لذلك المنصب العظيم، وخُوطب بما خوطب في ذلك المقام، احتاجَ إلى تكاليف شاقَّة من تلقِّي الوحي، والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى، وإصلاح العالم السفليّ، فكأنَّه كُلِّف بتدبير العالَمين، والالتفاتُ إلى أحدهما يمنعُ من الاشتغال بالآخر، فسأل شرح الصدر حتى يفيضَ عليه من القوَّة ما يكون وافياً بضبط تدبير العالَمين.

وقد يقال: إنَّ الأمرَ بالذهاب إلى فرعون قد انطوى فيه الإشارة إلى منصب الرسالة المستتبعِ تكاليف لائقةً به؛ منها ما هو راجعٌ إلى الحقِّ، ومنها ما هو منوطٌ بالخلق. وقد استشعرَ موسى عليه السلام كلَّ ذلك، فبسطَ كفَّ الضراعة لطلب ما يعينه على أداء ذلك على أكمل وجه، فلا يتوقَّفُ تعميمُ شرح الصدر على تعلُّقه بأول الكلام، كما لا يخفى. ثمَّ إنَّ الصدر عند علماء الرسوم يرادُ منه القلب؛ لأنَّه المُدرِكُ، أو ممَّا به الإدراك، والعلاقة ظاهرة.

ولعلماء القلوب كلامٌ في ذلك سيأتي إنْ شاء الله تعالى في باب الإشارة مع بعض ما أطنبَ به الإمام في تفسير هذه الآية.

وفي ذكر كلمة «لي» مع انتظام الكلام بدونها تأكيدٌ لطلب الشرح والتيسير بإبهام المشروح والميسَّر أولاً، وتفسيرهما ثانياً، فإنه لمَّا قال: «اشرح لي» علم أنَّ ثَمَّ مشروحاً يختصُّ به، حتى لو اكتفى لتمَّ، فإذا قيل: «صدري» أفاد التفسير والتفصيل، أمَّا لو قيل: «اشرح» واكتفى به، فلا. وكذا الكلامُ في «يسِّر لي».

---

(١) المفردات (شرح).

وقيل: ذكر «لي» لزيادة الربط، كما في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١].

وتُعُقِّب بأنَّه لا منافاة، وهو الذي أفادَ هذا المعنى.

وفي «الانتصاف» أنَّ فائدةَ ذكرها الدلالةُ على أنَّ منفعةَ شرح الصدر راجعةٌ إليه، فإنَّه تعالى لا يبالي بوجوده وعدمه(١). وقِسْ عليه «يسِّر لي أمري».

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ روي أنَّه كان في لسانه عليه السلام رُتَّةٌ(٢) من جمرةٍ أدخلَها فاه في صغره؛ وذلك أنَّ فرعونَ حمله ذات يومٍ، فأخذَ خصلةً من لحيته لما كان فيها من الجواهر. وقيل: لطمه. وقيل: ضربه ضربةً بقضيبٍ في يده على رأسِه، فتطيَّر، فدعا بالسيَّاف، فقالت آسية بنت مزاحم امرأته ـ وكانت تحبُّ موسى عليه السلام ـ: إنَّما هو صبيٌّ لا يفرِّقُ بين الياقوت والجمر، فأُحْضِرا، وأراد أن يمدَّ يده إلى الياقوت، فحوَّل جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها في فيه فاحترق لسانه(٣).

وفي هذا دليلٌ على فساد قول القائلين بأنَّ النارَ تُحرِق بالطبيعة من غير مدخليَّةٍ لإذن الله تعالى في ذلك، إذ لو كان الأمر كما زعموا لأحرقت يده.

وذكر في حكمة إذنِ الله تعالى لها بإحراق لسانه دونَ يده أنَّ يدَهُ صارت آلةً لما ظاهره الإهانة لفرعون ـ ولعل تبييضها كان لهذا أيضاً ـ وأنَّ لسانه كان آلةً لضدِّ ذلك، بناءً على ما روي أنَّه عليه السلام دعاه بما يدعو به الأطفالُ الصغار آباءهم.

وقيل: احترقت يدُه عليه السلام أيضاً، فاجتهد فرعونُ في علاجها فلم تبرأ.

---

(١) الانتصاف ٢/ ٥٣٥.
(٢) الرُّتَّةُ: العجمة في الكلام. الصحاح (رتت).
(٣) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٩: إنما وقع في حديث الفتون الطويل الذي أخرجه النسائي [في الكبرى (١١٢٦٣)] وغيره من طريق القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير؛ سألت ابن عباس ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]... فذكر فيه قصة آسية وفرعون، وقولها: قرب إليه جمرتين ولؤلؤتين، وأنه أخذ الجمرتين فانتزعتهما منه مخافة أن يحرقا يده. وهذا يدل على أنه لم يرفعها إلى فيه. وهو أصح ما ورد في ذلك. مصححاً ما فيه من تحريف.

ولعلَّ ذلك لئلَّا يدخلها عليه السلام مع فرعون في قصعةٍ[1] واحدةٍ فتفقدَ بينهما حرمةُ المؤاكلة، فلمَّا دعاه قال: إلى أيِّ ربٍّ تدعوني؟ قال: إلى الذي أبرأ يدي وقد عجزتَ عنه.

وكان الظاهر على هذا أنْ يطرح عليه السلام النارَ من يده، ولا يوصلَها إلى فيه، ولعلَّه لم يحسَّ بالألم إلَّا بعدَ أن أوصلها فاه، أو أحسَّ، لكنَّه لم يفرِّق بين إلقائها في الأرض وإلقائها في فمه. وكلُّ ذلك بتقدير الله تعالى ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً.

وقيل: كانت العقدةُ في لسانه عليه السلام خِلْقةً.

وقيل: إنَّها حدثت بعد المناجاة. وفيه بعد.

واختلف في زوالها بكمالها، فمن قال به ـ كالحسن ـ تمسَّك بقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦]، ومن لم يقل به ـ كالجبائيّ ـ احتَجَّ بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾ [القصص:٣٤]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢]. وبما روي أنَّه كان في لسان الحسين رضي الله عنه رتَّة وحبسة، فقال النبي ﷺ فيه: «إنه ورثَها من عمِّه موسى عليه السلام»[2].

وأجابَ عن الأوَّل بأنَّه عليه السلام لم يسأل حَلَّ عقدة لسانه بالكليَّة، بل عقدة تمنعُ الإفهام، ولذلك نكَّرها ووصفها بقوله: «من لساني»، ولم يضفها مع أنه أخصر، ولا يصلحُ ذلك للوصفيَّة إلَّا بتقدير مضاف، وجعل «من» تبعيضية، أي: عقدةً كائنةً من عقد لساني، فإنَّ العقدةَ للسان لا منه. وجعلَ قوله تعالى: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨﴾ جواب الطلب، وغرضاً من الدعاء، فبحلِّها في الجملة يتحقَّقُ إيتاء سؤله عليه السلام.

واعترضَ على ذلك بأنَّ قوله تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾ [القصص:٣٤] قاله عليه السلام قبل استدعاء الحلّ، على أنه شاهدٌ على عدم بقاء اللُّكْنة؛ لأنَّ فيه دلالةً على أنَّ موسى عليه السلام كان فصيحاً، غايتُه أنَّ فصاحة أخيه أكثرُ، وبقيَّةُ اللُّكْنة تنافي

---

(١) في (م): قصة.

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٠٩: لم أجده.

الفصاحة اللغويَّة المرادة هنا بدلالة قوله: (لِسَانًا). ويشهدُ لهذه المنافاة ما قاله ابنُ هلال في كتاب «الصناعتين»[١]: الفصاحةُ تمام آلة البيان، ولذا لا يقال: الله تعالى فصيح، وإنْ قيل لكلامه سبحانه: فصيح، ولذلك لا يسمَّى الألثغ والتمتام فصيحين؛ لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف. وبأنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢] معناه: لا يأتي ببيانٍ وحجة، وقد قال ذلك اللعين تمويهاً ليصرفَ الوجوه عنه عليه السلام، ولو كان المرادُ نفيَ البيان وإفهام الكلام لاعتقال اللسان لدلَّ على عدم زوال العقدة أصلاً، ولم يقل به أحد. وبأنَّا لا نسَلِّم صحَّة الخبر. وبأنَّ تنكيرَ «عقدة» يجوزُ أن يكون لقلَّتها في نفسها.

ومن يجوز تعلُّقها بـ «احلل» كما ذهب إليه الحوفيُّ واستظهره أبو حيان[٢]؛ فإنَّ المحلولَ إذا كان متعلِّقاً بشيءٍ ومتَّصلاً به، فكما يتعلَّقُ الحلُّ به يتعلَّق بذلك الشيء أيضاً باعتبار إزالته عنه، أو ابتداء حصوله منه. وعلى تقدير تعلُّقها بمحذوفٍ وقعَ صفةً لـ «عقدة» لا نسلِّم وجوبَ تقدير مضاف، وجعل «من» تبعيضية.

ولا مانع من أن تكون بمعنى «في»، ولا تقدير، أي: عقدةً في لساني، بل قيل: لا مانع أيضاً من جعلها ابتدائيةً مع عدم التقدير، وأيُّ فسادٍ في قولنا: عقدة ناشئة من لساني.

والحاصلُ أنَّ ما استدلَّ به على بقاء عقدةٍ ما في لسانه عليه السلام، وعدم زوالها بالكلية غيرُ تامٍّ.

لكن قال بعضُهم: إنَّ الظواهرَ تقتضي ذلك، وهي تكفي في مثل هذه المطالب، وثقلُ ما في اللسان لا يخفِّفُ قدر الإنسان.

وقد ذكر أنَّ في لسان المهديِّ المنتظر ﵁ حُبْسَة، وربما يتعذَّر عليه الكلام، حتى يضرِب بيده اليمنى فخذ رجله اليسرى، وقد بلغك ما ورد في فضله.

وقال بعضهم: لا تقاوم فصاحةُ الذات إعرابَ الكلمات. وأنشد قول القائل:

---

(١) ص١٣.

(٢) في البحر ٦/ ٢٣٩.

سرُّ الفصاحة كامنٌ في المعدن ... لخصائصِ الأرواحِ لا للألسنِ[1]

وقول الآخر:

لسانٌ فصيحٌ معرِبٌ في كلامه ... فيا ليته في موقف الحشر يسلمُ

وما ينفعُ الإعرابُ إن لم يكن تقى ... وما ضرَّ ذا تقوى لسانٌ معجَّمُ

نعم ما يُخِلُّ بأمرِ التبليغِ من رتَّةٍ تؤدِّي إلى عدم فهم الوحيِ معها، ونفرةِ السامع عن سماع ذلك = مما يجلُّ عنه الأنبياء عليهم السلام، فهم كلُّهم فصحاءُ اللسان، لا يفوتُ سامعَهم شيءٌ من كلامهم، ولا ينفرُ عن سماعه، وإن تفاوتوا في مراتب تلك الفصاحة. وكأنَّه عليه السلام إنَّما لم يطلب أعلى مراتب فصاحة اللسان وطلاقته عند الجبائيِّ ومن وافقه؛ لأنَّه لم يَرَ في ذلك كثير فضل، وغايةُ ما قيل فيه: إنَّه زينةٌ من زينة الدنيا، وبهاءٌ من بهائها، والفضلُ الكثير في فصاحة البيان بالمعنى المشهور في عرف أهل المعاني والبيان، وما ورد مما يدلُّ على ذمِّ ذلك فليسَ على إطلاقه، كما بيِّن في شروح الأحاديث.

ثم إنَّ المشهورَ تفسيرُ اللسان بالآلة الجارحة نفسِها، وفسَّره بعضُهم بالقوَّة النطقيَّةِ القائمة بالجارحة.

والفقه: العلمُ بالشيء والفهم له، كما في «القاموس»[2] وغيره. وقال الراغب: هو التوصُّل إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهد، فهو أخصُّ من العلم[3].

والظاهرُ هنا الفهم، أي: احلل عقدةً من لساني يفهموا قولي ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾ أي: معاوناً في تحمُّل أعباء ما كُلِّفته، على أنَّ اشتقاقَه من الوِزْر بكسر فسكون، بمعنى الحِمْل الثقيل، فهو في الأصل صفةٌ من ذلك، ومعناه: صاحب وزرٍ، أي: حاملُ حملٍ ثقيل. وسُمِّيَ القائمُ بأمر الملك بذلك؛ لأنَّه يحملُ عنه وِزر الأمور وثقلَها.

أو: ملجأً أعتصمُ برأيه، على أنَّ اشتقاقَه من الوَزَر بفتحتين، وأصلُه الجبل

---

(١) لم نقف على قائله. وأورده المناوي مع البيتين التاليين في فيض القدير ٢/ ٢٨٤.

(٢) مادة (فقه).

(٣) المفردات (فقه).

يُتحصَّنُ به، ثم استعمل بمعنى الملجأ مطلقاً، كما في قوله:

شَرُّ السباع الضواري دونه وَزَرُ والناسُ شرُّهم ما دونه وزرُ
كم معشرٍ سلموا لم يؤذهم سبعٌ وما ترى بشراً لم يؤذه بشرُ(١)

وسُمِّيَ وزيرُ الملك بذلك؛ لأنَّ الملك يعتصمُ برأيه، ويلتجئُ إليه في أمره، فهو فَعيلٌ بمعنى مفعول، على الحذف والإيصال، أي: ملجأ(٢) إليه، أو هو للنسب.

وقيل: أصلُه: أزير من الأزر بمعنى القوَّة، ففعيل بمعنى مُفَاعل، كالعشير والجليس، قُلِبت همزتُه واواً كقلبها في موازر، وقلبت فيه لانضمام ما قبلها، ووزير بمعناه، فحمل عليه، وحملُ النظير على النظير كثيرٌ في كلامهم، إلَّا أنَّه سُمع مؤازر من غير إبدال، ولم يسمع أزير بدونه. على أنَّه مع وجودِ الاشتقاق الواضح ـ وهو ما تقدَّم ـ لا حاجةَ إلى هذا الاشتقاق وادعاء القلب.

ونصبه على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «اجعل» قُدِّمَ على الأوَّل الذي هو قوله تعالى: «هارون» اعتناءً بشأن الوزارة، لأنَّها المطلوبة. و«لي» صلةٌ للجعل، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالاً من «وزيراً»، إذ هو صفةٌ له في الأصل، و«من أهلي» إمَّا صفةٌ لـ «وزيراً»، أو صلة لـ «اجعل».

وقيل: مفعولاه «لي وزيراً» و«من أهلي» على ما مرَّ من الوجهين، و«هارون» عطف بيان للوزير بناءً على ما ذهبَ إليه الزمخشريُّ(٣) والرضيُّ من أنَّه لا يشترطُ التوافقُ في التعريف والتنكير.

وقيل: هو بدلٌ من «وزيراً». وتُعقِّبَ بأنَّه يكون حينئذٍ هو المقصود بالنسبة، مع أنَّ وزارتَه هي المقصودة بالقصد الأولى(٤) هنا. وجُوِّزَ كونه منصوباً بفعل مقدَّرٍ في جواب: مَن أجعل؟ أي: اجعل هارون.

---

(١) البيتان للخطابي، وهما في كتاب العزلة له ص١٦١.
(٢) في (م): ملجوء. والمثبت من الأصل. وهو موافق لحاشية الخفاجي ٦/ ١٩٩. والكلام منه.
(٣) في الكشاف ٢/ ٥٣٥.
(٤) في (م): الأول. والمثبت من الأصل وحاشية الخفاجي ٦/ ١٩٩. والكلام منه.

وقيل: مفعولاه: «وزيراً، من أهلي». و«لي» تبيين، كما في: سقياً له.

واعترض بأنَّ شرط المفعولين في باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية منهما، ولو ابتدأت بـ «وزيراً»، وأخبرتَ عنه بـ «من أهلي» لم يصح؛ إذ لا مسوِّغ للابتداء به.

وأجيبَ بأنَّ مراد القائل: إنَّ «من أهلي» هو المفعول الأوَّل؛ لتأويله ببعض أهلي، كأنه قيل: اجعل بعضَ أهلي وزيراً، فقدّم للاهتمام به، وسدادُ المعنى يقتضيه. ولا يخفى بعدُه. ومن ذلك قيل: الأحسن أن يقال: إنَّ الجملة دعائيَّة، والنكرة يبتدأ بها فيها، كما صرَّح به النحاة، فكذا بعد دخول الناسخ. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ المسوِّغ للابتداء بالنكرة هنا عطف المعرفة ـ وهو «هارون» ـ عليها عطف بيان. وهو غريب.

وجُوِّز في «هارون» أيضاً ـ على هذا القول ـ كونه مفعولاً لفعلٍ مقدَّر، وكونه بدلاً. وقد سمعت ما فيه.

والظاهر أنَّه يجوزُ في «لي» ـ عليه أيضاً ـ أنْ يكون صلةً للجعل، كما يجوزُ فيه على بعض الأوجه السابقة أن يكون تبييناً. ولم يظهر لي وجهُ عدم ذكر هذا الاحتمال هناك، ولا وجهُ عدم ذكر احتمال كونه صلةً للجعل هنا، ويفهمُ من كلام البعض جوازُ كلٍّ من الاحتمالين هنا وهناك. وكذا يجوز أيضاً أن يكون حالاً من «وزيراً». ولعلَّ ذلك ممَّا يُسهِّل أمرَ الانعقاد على ما قيل. وفيه ما فيه.

و«أخي» على الوجوه عطفُ بيانٍ للوزير، ولا ضير في تعدُّده لشيءٍ واحد، أو لـ «هارون» ولا يشترط فيه كون الثاني أشهر كما توهِّم؛ لأنَّ الإيضاح حاصلٌ من المجموع، كما حقق في «المطوَّل» وحواشيه.

ولا حاجة إلى دعوى أنَّ المضاف إلى الضمير أعرفُ من العلم؛ لما فيها من الخلاف. وكذا إلى ما في «الكشف» من أنَّ«أخي» في هذا المقام أشهر من اسمه العلم؛ لأنَّ موسى عليه السلام هو العَلَم المعروف، والمخاطب الموصوف بالمناجاة والكرامة، والمتعرف به هو المعرفةُ في الحقيقة، ثمَّ إنَّ البيان ليس بالنسبة

إليه سبحانه؛ لأنَّه جلَّ شأنُه لا تخفى عليه خافية، وإنما إتيانُ موسى عليه السلام به على نمط ما تقدَّم من قوله: «هي عصاي» إلخ.

وجُوِّز أنْ يكون «أخي» مبتدأ، خبره: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ وتعقبه أبو حيَّان[1] بأنَّه خلاف الظاهر، فلا يصار إليه لغير حاجة. والكلامُ في الإخبار بالجملة الإنشائيَّة مشهور.

والجملة على هذا استئنافية، والأزر: القوَّة، وقيَّدها الراغب بالشديدة[2]. وقال الخليل وأبو عبيدة: هو الظهر[3]. وروي ذلك عن ابن عطية[4]، والمراد: أَحْكِم به قوَّتي، واجعله شريكي في أمر الرسالة، حتى نتعاونَ على أدائها كما ينبغي.

وفصل الدعاء الأوَّل عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما، فإنَّ شدَّ الأزر عبارةٌ عن جعله وزيراً، وأمَّا الإشراك في الأمر فحيثُ كان من أحكام الوزارة توسَّط بينهما العاطف، كذا قيل. لكن في مصحف ابن مسعود: «واشدد» بالعطف على الدعاء السابق[5]، وعن أبيّ: «أشْرِكه في أمري واشدُد به أزْري»[6] فتأمَّل.

وقرأ زيد بن علي رضي الله عنهما والحسن وابن عامر: «أَشْدِد» بفتح الهمزة «وأُشرِكه» بضمِّها[7]، على أنَّهما فعلان مضارعان مجزومان في جواب الدعاء، أعني قوله: «اجعل»، وقال صاحب «اللوامح»: عن الحسن أنَّه قرأ: «أُشَدِّدُ به» مضارع شدد للتكثير والتكرير[8].

وليس المراد بالأمر على القراءة السابقة الرسالة؛ لأنَّ ذلك ليس في يد موسى عليه السلام، بل أمرُ الإرشاد والدعوة إلى الحقّ.

---

(١) في البحر ٦/ ٢٤٠.
(٢) المفردات (أزر).
(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٨.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٤٣ نقلاً عن أبي عبيدة.
(٥) القراءات الشاذة ص٨٨، والبحر ٦/ ٢٤٠.
(٦) القراءات الشاذة ص٩٠، والكشاف ٢/ ٥٣٦.
(٧) البحر المحيط ٦/ ٢٤٠. وقراءة ابن عامر في التيسير ص١٥١، والنشر ٢/ ٣٢٠.
(٨) البحر المحيط ٦/ ٢٤٠.

وكان هارون كما أخرجَ الحاكم عن وهب أطولَ من موسى عليهما السلام، وأكثرَ لحماً، وأبيضَ جسماً، وأعظمَ ألواحاً وأكبرَ سنًّا(١).

قيل: كان أكبرَ منه بأربع سنين. وقيل: بثلاث سنين. وتوفِّي قبله بثلاث أيضاً، وكان عليه السلام ذا تؤدةٍ وحلم عظيم.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ غايةٌ للأدعية الثلاثة الأخيرة، فإنَّ فعل كلِّ واحدٍ منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثراً لفعل الآخر ومضاعفاً له بسبب انضمامه إليه = مُكثرٌ له في نفسه أيضاً بسبب تقويته وتأييده، إذ ليس المرادُ بالتسبيح والذكر ما يكونُ منهما بالقلب أو في الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدُّد والانفراد، بل ما يكونُ منهما في تضاعيف أداء الرسالة ودعوة المردَة العتاة إلى الحقِّ، وذلك ممَّا لا ريب في اختلاف حاله في حالتي التعدُّد والانفراد، فإنَّ كلًّا منهما يصدرُ عنه بتأييد الآخر من إظهار الحقِّ ما لا يكاد يصدر عنه مثله حال الانفراد.

و«كثيراً» في الموضعين نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أو زمانٍ محذوف، أي: ننزهك عمَّا لا يليقُ بك من الصفات والأفعال التي من جملتها ما يدَّعيه فرعونُ الطاغية، ويقبلُه منه فئته الباغية، من الشركة في الألوهية، ونَصِفُك بما يليقُ بك من صفات الكمال ونعوتِ الجمال والجلال تنزيهاً كثيراً ووصفاً كثيراً، أو زماناً كثيراً من جملته زمانُ دعوة فرعون، وأوانُ المحاجَّة معه. كذا في «إرشاد العقل السليم»(٢).

وجَوَّز أبو حيَّان كونَه منصوباً على الحال، أي: نسبِّحَك التسبيح في حال كثرته(٣). وكذا يقال في الأخير. وليس بذاك.

وتقديمُ التسبيح على الذكر من باب تقديم التخليةِ على التحلية.

وقيل: لأنَّ التسبيحَ تنزيهٌ عما لا يليق، ومحلُّه القلب، والذكرُ ثناءٌ بما يليق، ومحلُّه اللسان، والقلبُ مقدَّمٌ على اللسان.

---

(١) المستدرك ٢/ ٥٧٧.
(٢) ٦/ ١٣ ـ ١٤.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٤٠.

وقيل: إنَّ المعنى: كي نصلِّي لك كثيراً، ونحمدَك ونثني عليك كثيراً، بما أوليتنا من نعمك، ومننتَ به علينا من تحميل رسالتك. ولا يخفَى أنَّه لا يساعدُه المقام.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ عالماً بأحوالنا، وبأنَّ ما دعوتك به ممَّا يصلحنا ويفيدُنا في تحقيق ما كلَّفته من إقامة مراسم الرسالة، وبأن هارون نِعْمَ الرِّدْء في أداء ما أمرت به. والباءُ متعلِّقة بـ «بصيراً» قُدِّمت عليه لمراعاة الفواصل. والجملةُ في موضع التعليل للمعلَّل الأول بعد اعتبارِ تعليله بالعلَّة الأولى.

وروى عبد بن حميد عن الأعمش أنَّه سكَّن كاف الضمير في المواضع الثلاثة(١).

وجاء أنَّ النبيَّ ﷺ دعا بمثل هذا الدعاء إلَّا أنه أقامَ عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه مقامَ هارون عليه السلام، فقد أخرج ابنُ مردويه والخطيب وابن عساكر عن أسماء بنت عميس قالت: رأيتُ رسول الله ﷺ بإزاء ثبير، وهو يقول: «أشرق ثبير، أشرق ثبير، اللهمَّ إنِّي أسألكَ ممَّا سألك أخي موسى؛ أن تشرحَ لي صدري، وأن تُيسِّر لي أمري، وأن تحلَّ عقدةً من لساني يفقه قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، عليًّا أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري، كي نسبحَك كثيراً، ونذكركَ كثيراً، إنَّك كنتَ بنا بصيراً»(٢).

ولا يخفى أنَّه يتعيَّن هنا حملُ الأمر على أمر الإرشاد والدعوة إلى الحقِّ، ولا يجوز حملُه على النبوَّة، ولا يصحُّ الاستدلال بذلك على خلافة عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه بعدَ النبيِّ ﷺ بلا فصل. ومثله فيما ذكر ما صحَّ من قوله عليه الصلاة والسلام له حين استخلفَه في غزوة تبوك على أهل بيته: «أما ترضَى أنْ تكون مني بمنزلة هارونَ من موسى، إلَّا أنه لا نبيَّ بعدي»(٣)، كما بين في «التحفة الاثني عشرية»، نعم في ذلك من الدلالة على مزيد فضل عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه ما لا يخفى. وينبغي أيضاً أن يتأوَّل طلبُه ﷺ حلَّ العقدة بنحو استمرار ذلك؛ لما أنَّه عليه الصلاة والسلام كانَ أفصح الناس لساناً.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٢٩٥.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٢٩٥. وأخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١١٥٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٥٢. وليس فيهما: «أشرق ثبير».

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤): (٣١) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ أي: قد أعطيت مسؤولك، فَفُعْل بمعنى مفعول، كالخُبْز والأُكْل، بمعنى المخبوز والمأكول، والإيتاء عبارةٌ عن تعلُّق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام ألبتة، وتقديره تعالى إياها حتماً، فكلُّها حاصلةٌ له عليه السلام، وإن كان وقوعُ بعضها بالفعل مترقَّباً(١) بعدُ، كتيسير الأمر، وشدِّ الأزر، وباعتباره قيل: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] وظاهرُ بعض الآثار يقتضي أنَّ شركة هارون عليه السلام في النبوَّة ـ أي: استنبائه كموسى عليه السلام ـ وقعت في ذلك المقام، وإن لم يكن عليه السلام فيه مع أخيه، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّه قال في قوله: «وأشركه في أمري»: نُبِّئَ هارون ساعتئذٍ حين نُبِّئَ موسى عليهما السلام(٢).

ونداؤه عليه السلام تشريفٌ له بالخطاب إثر تشريف.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتقرير ما قبلَه، وزيادة توطينٍ لنفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان أنَّه تعالى حيثُ أنعم عليه بتلك النعم التامَّة من غير سابقة دعاءٍ وطلبٍ منه، فلأَنْ يُنعِم عليه بمثلها وهو طالبٌ له وداعٍ أولى وأحرى. وتصديره بالقَسَم لكمال الاعتناء بذلك، أي: وبالله لقد أنعمنا.

﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧﴾ أي: في وقتٍ غير هذا الوقت، على أنَّ «أخرى» تأنيثُ آخر بمعنى مُغايرة.

و«مرةً» ظرف زمان، والمراد به الوقتُ الممتدُّ الذي وقعَ فيه ما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ ذكرُه في المنن العظيمة الكثيرة، وهو في الأصل اسمٌ للمرور الواحد، ثمَّ أطلق على كلِّ فعلةٍ واحدةٍ متعدِّيةٍ كانت أو لازمةٍ، ثمَّ شاع في كلِّ فردٍ واحدٍ من أفرادِ ما لَهُ أفرادٌ متجدِّدة، فصار علماً في ذلك حتى جعل معياراً لما في معناه من سائر الأشياء، فقيل: هذا بناء المرّة، ويقربُ منه: الكرَّة والتارة والدفعة.

وقال أبو حيان: المرادُ به منَّةٌ غيرُ هذه المنَّة، وليست «أخرى» تأنيث آخر ـ بكسر

---

(١) في (م): مرتباً.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٩٥.

الخاء ـ لتكون مقابلةً للأولى، وتوهَّم ذلك بعضُهم فقال: سمَّاها سبحانه أخرى، وهي أولى؛ لأنَّها أخرى في الذِّكر[1].

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ ظرفٌ لـ «مننَّا» سواءٌ كان بدلاً من «مرَّة» أم لا. وقيل: تعليلٌ. وهو خلاف الظاهر.

والمراد بالإيحاء عند الجمهور ما كان بإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

وتُعقِّب بأنَّه بعيدٌ؛ لأنَّه قال تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: ٧] ومثلُه لا يعلم بالإلهام، وليس بشيء؛ لأنَّها قد تكون شاهدت منه عليه السلام ما يدلُّ على نبوَّته، وأنَّه تعالى لا يضيِّعه، وإلهام الأنفس القدسيَّة مثلَ ذلك لا بعد فيه، فإنَّه نوعٌ من الكشف، ألا ترى قولَ عبد المطلب ـ وقد سمَّى نبيَّنا ﷺ محمداً، فقيل له: لم سميتَ ولدك محمَّداً، وليس في أسماء آبائك؟ ـ: إنَّه سيحمد، وفي روايةٍ: رجوتُ أنْ يحمدَ في السماء والأرض. مع أنَّ كون ذلك داخلاً في الملهم ليس بلازم.

واستظهر أبو حيَّان أنه كان ببعث مَلَكٍ إليها، لا على جهة النبوَّة، كما بُعث إلى مريم[2]. وهو مبنيٌّ على أنَّ الملَكَ يُبعَثُ إلى غير الأنبياء عليهم السلام، وهو الصحيح، لكن قيل عليه: إنَّه حينئذٍ ينتقضُ تعريفُ النبيِّ بأنَّه مَنْ أوحيَ إليه، ولو قيل: من أوحي إليه على وجه النبوَّة. دار التعريف. وأجيبَ بأنَّه لا يتعيَّنُ ذلك. ولو قيل: من أوحي إليه بأحكام شرعيَّةٍ لكنَّه لم يؤمر بتبليغها، لم يلزم محذور.

وقال الجبائيُّ: إنَّهُ كان بالإراءة مَناماً.

وقيل: كان على لسان نبيٍّ في وقتها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١] وتعقَّب بأنَّه خلافُ الظاهر، فإنَّه لم ينقل أنَّه كان نبيٌّ في مصر زمن فرعون قبل موسى عليه السلام.

---

(١) البحر المحيط ١/ ٢٤٠.

(٢) المصدر السابق.

وأجيب بأنَّ ذلك لا يتوقَّفُ على كون النبيِّ في مصر، وقد كان شعيب[١] عليه السلام نبيًّا في زمن فرعون في مدين، فيمكنُ أنْ يكون أَخبَرها بذلك، على أنَّ كثرةَ أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام ممَّا شاع وذاع.

والحقُّ أنَّ إنكارَ كون ذلك خلافَ الظاهر مكابرةٌ.

واختلف في اسم أمِّه عليه السلام، والمشهور أنَّه يوخابذ[٢]، وفي «الإتقان»: هي محيانة[٣] بنت يصهر بن لاوي، وقيل: يارخا[٤]، وقيل: يازخت[٥]، وما اشتهر من خاصيَّة فتح الأقفال به بعد رياضةٍ مخصوصةٍ له ممَّا لم نجد فيه أثراً، ولعلَّه حديثُ خرافة.

والمراد بـ «ما يوحى» ما قصدَ[٦] الله تعالى فيما بعد من الأمر بقذفه في التابوت وقذفه في البحر، أبهم أوَّلاً تهويلاً له وتفخيماً لشأنه، ثم فسّر ليكون أقرَّ عند النفس.

وقيل: معناه: ما ينبغي أنْ يُوحى ولا يُخَلَّ به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به، كما يقال: هذا ممَّا يُكتب.

وقيل: ما لا يُعلَم إلَّا بالوحي، والأوَّلُ أوفقُ بكلٍّ من المعاني السابقة المرادة بالإيحاء، إلَّا أنَّه قيل عليه: إنَّه لو كان المراد منه التفخيم والتهويل لقيل: إذ أوحينا إلى أمِّك ما أوحينا، كما قال سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] فإنْ تمَّ هذا فما قيل في معناه ثانياً أولى. فتدبر.

و«أن» في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ مفسِّرةٌ؛ لأنَّ الوحي من باب القول، أو مصدريَّةٌ حذف عنها الباء، أي: بأن اقذفيه. وقال ابنُ عطية: «أن»

---

(١) في الأصل: شعيا.

(٢) في (م): يوحانذ.

(٣) في الإتقان ٢/١٠٩٨: يحانذ.

(٤) في (م): بارخا، وفي الإتقان: ياؤوخا.

(٥) في (م): بازخت، وفي الإتقان: أباذخت.

(٦) في (م): قصه.

وما بعدها في تأويل مصدر بدل من «ما»[١]، وتقدَّم الكلام في وصل «أن» المصدرية بفعل الأمر.

والمراد بالقذف ها هنا: الوضع، وأمَّا في قوله تعالى: ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فالمراد به: الإلقاء والطرح، ويجوز أن يكون المراد به الوضع في الموضعين.

و«اليمُّ»: البحر، لا يكسَّر ولا يجمع جمع سلامة، وفي «البحر»: هو اسم للبحر العذب[٢]. وقيل: اسم للنيل خاصَّةً، وليس بصحيح. وهذا التفصيل هنا هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٧] لا القذف بلا تابوت.

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ أي: بشاطئه، وهو الجانب الخالي عن الماء، مأخوذٌ من سَحَلَ الحديدَ، أي: بَرَدَهُ وقَشَرَهُ، وهو فاعل بمعنى مفعول؛ لأنَّ الماء يسحله، أي: يقشره، أو هو للنسب، أي: ذو سحلٍ يعود الأمر إلى مسحول. وقيل: هو على ظاهره على معنى أنَّه يسحل الماء، أي: يفرِّقه ويضيِّعه. وقيل: هو من السحيل وهو النهيق؛ لأنَّه يسمع منه صوت، والمراد به هنا ما يقابل الوسط، وهو مايلي الساحل من البحر، حيث يجري ماؤه إلى نهر فرعون.

وقيل: المراد بالساحل الجانب والطرف مطلقاً، والمرادُ من الأمر الخبر، واختير للمبالغة، ومن ذلك قوله ﷺ: «قوموا فلأصلِّ لكم»[٣]. ولإخراج ذلك مخرجَ الأمر حَسُنَ الجواب فيما بعد.

وقال غير واحد: إنَّه لمَّا كان إلقاء البحر إيَّاه بالساحل أمراً واجبَ الوقوع لتعلُّق الإرادة الربانيَّة به، جعل البحر كأنَّه ذو تمييز مطيعٌ أمر بذلك، وأخرج الجواب مخرج الأمر، ففي اليمِّ استعارةٌ بالكناية. وإثباتُ الأمر تخييل.

وقيل: إنَّ في قوله تعالى: «فليلقه» استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّة، والضمائر كلُّها لموسى عليه السلام، إذ هو المحدَّث عنه، والمقذوف في البحر والملقى بالساحل

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤. وانظر البحر ٦/ ٢٤١.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٤١.
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وإنْ كان هو التابوت أصالةً، لكن لمَّا كان المقصود بالذات ما فيه جُعِلَ التابوتُ تبعاً له في ذلك.

وقيل: الضميرُ الأوَّل لموسى عليه السلام، والضميران الأخيران للتابوت، ومتى كان الضميرُ صالحاً لأنْ يعود على الأقرب وعلى الأبعد كان عودُه على الأقرب راجحاً، كما نصَّ عليه النحويون[1]، وبهذا رُدَّ على أبي محمد ابن حزم في دعواه عودَ الضمير في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] على لحم؛ لأنَّه المحدَّثُ عنه، لا على خنزير، فيحلُّ شحمُه وغضروفه وعظمُه وجلده عنده لذلك[2].

والحقُّ أنَّ عدمَ التفكيك فيما نحن فيه أولى، وما ذكره النحويون ليس على إطلاقه كما لا يخفى.

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ جوابٌ للأمر بالإلقاء، وتكريرُ العدوِّ للمبالغة من حيث إنَّه يدلُّ على أنَّ عداوتَه كثيرةٌ لا واحدة.

وقيل: إنَّ الأول للواقع، والثاني للمتوقَّع، وليس من التكرير للمبالغة في شيءٍ، لأنَّ ذلك فرعُ جواز أن يقال: عدوٌّ لي وله. وهو لا يجوز إلَّا عند القائلين بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز.

وأجيب بأنَّ ذلك جائزٌ، وليس فيه الجمعُ المذكور، فإنَّ فرعون وقتَ الأخذ متَّصفٌ بالعداوة لله تعالى وله في الواقع، أمَّا اتصافه بعداوة الله تعالى فظاهرٌ، وأمَّا اتِّصافه بعداوة موسى فمن حيث إنَّه يبغضُ كلَّ مولودٍ في تلك السنة.

---

(١) أجاب أبو حيان في البحر ٦/ ٢٤١ على هذا الكلام بأنه إذا كان أحدهما هو المحدث عنه والآخر فضلة كان عوده على المحدث عنه أرجح، ولا يلتفت إلى القرب.

(٢) هذا الذي ذكره المصنف منسوباً إلى ابن حزم هو على خلاف مذهبه، كما في المحلى ١/ ١٢٤ و٧/ ٣٩٠، والبحر المحيط ٦/ ٢٤١ ـ وعنه نقل المصنف ـ وقد توهم الآلوسي رحمه الله أن كلام ابن حزم هو كلام أبي حيان، ففَهِم منه غير ما يُفْهم. والله أعلم.
ونصُّ عبارة أبي حيان بعد أن ردَّ على النحويين ـ كما سلف في التعليق السابق ـ: ولهذا رددنا على أبي محمد بن حزم في دعواه أن الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ عائد على خنزير لا على لحم لكونه أقرب مذكور، فيحرم بذلك شحمه وغضروفه وعظمه وجلده بأن المحدَّث عنه هو لحم خنزير لا خنزير. اهـ.

ولو قلنا بعدم الاتِّصاف بعداوة موسى عليه السلام إذ ذاك يجوز أنْ يقال ذلك أيضاً، ويعتبر عموم المجاز، وهو المخلَص عن الجمع بين الحقيقة والمجاز فيما يُدَّعى فيه ذلك.

وقال الخفاجيُّ: إنَّه لا يلزم الجمع؛ لأنَّ «عدو» صفةٌ مشبَّهةٌ دالَّةٌ على الثبوت الشامل للواقع والمتوقَّع(١).

ولا يخفى أنَّ هذا قولٌ بأنَّ الثبوتَ في الصفة المشبهة بمعنى الدوام، وقد قال هو في الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧]: إنَّ معنى دلالتها على الثبوت أنَّها لا تدلُّ على تجدُّدٍ وحدوث، لا أنَّها تدلُّ على الدوام كما ذكره النحاة، فما يقال: إنَّ «مرحاً» صفةٌ مشبَّهةٌ تدلُّ على الثبوت، ونفيهُ لا يقتضي نفي أصله = مغالطةٌ نشأت من عدم فهم معنى الثبوت فيها(٢). انتهى.

على أنَّ كلامه هنا بعد الإغماض عن منافاته لما ذكره قبلُ لا يخلو عن شيء.

وممَّا ذكره فيما تقدَّم من تفسير معنى الثبوت يُعلمُ أنَّ الاستدلالَ بهذه الآية على أنَّ فرعون لم يُقْبل إيمانه ومات كافراً ـ كما هو الحقُّ ـ ليس بصحيح، وكم له من دليل صحيح.

والظاهرُ أنَّه تعالى أبهمَ لها هذا العدوَّ، ولم يعلمها باسمه، وإلَّا لما قالت لأخته: ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص:١١].

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ كلمة «من» متعلقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لمحذوف، مؤكِّدةٌ لما في تنكيرها من الفخامة الذاتيَّة بالفخامة الإضافيَّة، أي: محبةً عظيمةً كائنةً منِّي، قد زرعتها في القلوب، فكلُّ من رآك أحبَّك بحيث لا يصبر عنك.

قال مقاتل: كان في عينيه ملاحةٌ، ما رآهُ أحدٌ إلَّا أحبَّه.

وقال ابنُ عطيَّة: جعلت عليه مسحة جمال لا يكاد يصبرُ عنه من رآه(٣).

---

(١) حاشية الخفاجي ٦/ ٢٠٠.

(٢) حاشية الخفاجي ٦/ ٣٣.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٤٤. ثم جعل ابن عطية أقوى الأقوال أنه وضع له القبول في الأرض.

روي أنَّ أمَّه عليه السلام حين أوحي إليها ما أوحي جعلته في تابوتٍ من خشب. وقيل: من بَردي، عمله مؤمنُ آل فرعون، وسَدَّت خروقَه وفرشت فيه نِطْعاً، وقيل: قطناً محلوجاً، وسدَّت فمه وجصَّصته وقيَّرته(١)، وألقته في اليمِّ، فبينما فرعون في موضع يشرفُ على النيل وامرأتُهُ معه، إذ رأى التابوت عند الساحل، فأمر به ففُتح، فإذا صبيٌّ أصبحُ الناس وجهاً، فأحبَّه هو وامرأته حبّاً شديداً.

وقيل: إنَّ التابوتَ جاء في الماء إلى المشرعة التي كانت جواري امرأة فرعون يستقينَ منها الماء، فأخذنَ التابوتَ وجئنَ به إليها وهنَّ يَحْسِبْنَ أنَّ فيه مالاً، فلمَّا فتحَتْهُ رأته عليه السلام، فأحبَّتْهُ، وأعلمت فرعون، وطلبت منه أن تتَّخِذه(٢) ولداً. وقالت: قرَّةُ عينٍ لي ولك لا تقتلوه. فقال لها: يكونُ لك، وأمَّا أنا فلا حاجةَ لي فيه. ومن هنا قال رسول الله ﷺ ـ كما رواه النسائيُّ وجماعةٌ عن ابن عباس ـ: «والذي يُحلَفُ به لو أقرَّ فرعونُ بأنْ يكون قرَّة عينٍ له كما قالت امرأته، لهداهُ الله تعالى به كما هدى به امرأته، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ حرمه ذلك»(٣).

وقيل: إنَّ فرعونَ كان جالساً على رأس بركةٍ له في بستانٍ ومعه امرأته، فرأى التابوتَ وقد دفعه الماء إلى البركة من نهر يشرع من اليم، فأمر بإخراجه فأخرِجَ، ففتح فإذا صبيٌّ أجمل الناس وجهاً، فأحبَّه حتى لا يكادُ يصبر عنه.

وروي أنَّه كان بحضرته حين رأى التابوت أربعمئة غلام وجارية، فحين أشار بأخذه وعدَ من يسبقُ إلى ذلك بالإعتاق، فتسابقوا جميعاً ولم يظفر بأخذه إلَّا واحدٌ منهم، فأعتق الكلّ.

وفي هذا ما يُطمِعُ المقصِّرَ في العمل من المؤمنين برحمة الله تعالى، فإنَّه سبحانه أرحمُ الراحمين وأكرم الأكرمين.

وقيل: كلمة «من» متعلِّقة بـ «ألقيت»، فالمحبَّة الملقاةُ بحسب الذوق هي محبَّة الله تعالى له، أي: أحببتك، ومن أحبَّه الله تعالى أحبَّتْهُ القلوب لا محالة.

واعترضَ القاضي على هذا بأنَّ في الصغر لا يوصفُ الشخص بمحبَّة الله تعالى

---

(١) أي: طلته بالقار، وهو الزفت؛ لئلا يدخل فيه الماء فيهلك. حاشية الخفاجي ٦/ ٢٠٠.

(٢) في (م): يتخذه.

(٣) السنن الكبرى (١١٢٦٣)، وهو حديث الفتون الذي سلفت الإشارة إليه قريباً.

إيَّاه، فإنَّها ترجعُ إلى إيصال الثواب، وهو إنَّما يكون للمكلَّف[(١)].

ورُدَّ بأنَّ محبَّة الله تعالى عند المؤوِّلين عبارةٌ عن إرادة الخير والنفع، وهو أعمُّ من أن يكون جزاءً على عمل أو لا يكون. والردُّ عند من لا يؤوِّلُ أظهر.

وجوَّزَ بعضُهم إرادةَ المعنى الثاني على القول الأول في التعلُّق وإرادةَ المعنى الأوَّل على القول الثاني فيه، وزَعَم أنَّ وجه التخصيص غيرُ ظاهر، وهو لا يخفى على ذي ذهنٍ مستقيمٍ وذوقٍ سليم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩﴾ متعلِّقٌ بـ «ألقيت» على أنَّه عطف على علَّة مضمرة، أي: ليتُعطَّفَ عليك ولتصنع، أو متعلِّقٌ بفعلٍ مضمرٍ مؤخَّر، أي: ولتصنع.. إلخ فعلت ذلك، أي: إلقاء المحبَّة عليك.

وزَعْمُ أنَّه متعلِّقٌ بـ «ألقيت» على أنَّ الواو مقحمةٌ، ليس بشيء.

و«على عيني» أي: بمرأى مني، متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالاً من المستتر في «تصنع»، وهو استعارةٌ تمثيليَّةٌ للحفظ والصون، فإنَّ المصون يجعل بمرأى.

والصنعُ: الإحسان، قال النحَّاس: يقال: صنعتُ الفرس، إذا أحسنتَ إليه. والمعنى: أي: وليُفعلَ بك الصنيعةُ والإحسان، وتربَّى بالحنوِّ والشفقةِ، وأنا مراعيك ومراقبُك كما يراعي الرجلُ الشيء بعينه إذا اعتنى به. وبجعل ذلك تمثيلاً يندفع ما قاله الواحديُّ من أنَّ تفسير «على عيني» بما تقدَّم صحيحٌ[(٢)]، ولكن لا يكون في ذلك تخصيصٌ لموسى عليه السلام، فإنَّ جميعَ الأشياء بمرأى من الله تعالى، على أنَّه قد يقال: هذا الاختصاصُ للتشريف، كاختصاص عيسى عليه السلام بكلمة الله تعالى، والكعبة ببيت الله تعالى، مع أنَّ الكل موجودٌ بـ «كن»، وكلّ البيوت بيتُ الله سبحانه، وقال قتادة: المعنى: لتُغذى على محبتي وإرادتي، وهو اختيار أبي عبيدة[(٣)] وابن الأنباريِّ، وزعم الواحديُّ[(٤)] أنَّه الصحيح.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/٥٣.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/٢٠٦.

(٣) في مجاز القرآن له ٢/١٩.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/٢٠٦.

وقرأ الحسن وأبو نهيك: «ولِتَصْنَع» بفتح التاء[1]. قال ثعلب: المعنى: لتكون حركتك وتصرُّفك على عينٍ منِّي، لئلَّا تخالفَ أمري.

وقرأ أبو جعفر في رواية: «ولِتُصنعْ» بكسر اللام وجزم الفعل بها[2]؛ لأنَّها لام الأمر. وأمرُ المخاطب باللام شاذٌّ، لكن لمَّا كانَ الفعلُ مبنيّاً للمفعول هنا، وكان أصلُه مسنداً للغائب، ولا كلام في أمره باللام؛ استصحب ذلك بعد نقله إلى المفعول للاختصار.

والظاهرُ أنَّ العطف على قوله تعالى: «وألقيتُ عليكَ محبَّةً منِّي» إلَّا أنَّ فيه عطف الإنشاء على الخبر، وفيه كلامٌ مشهور، لكن قيل هنا: إنَّه هَوَّن أمرَه كونُ الأمر في معنى الخبر.

وقال صاحب «اللوامح»: إنَّ العطف على قوله تعالى: «فليلقه»، فلا عطفَ فيه للإنشاء على الخبر.

وقرأ شيبةُ وأبو جعفر في روايةٍ أخرى كذلك، إلَّا أنَّه سكَّن اللام[3]، وهي لام الأمرِ أيضاً، وبقيَّة الكلام نحو ما مرّ.

ويحتمل أنْ تكون لام «كي» سكِّنت تخفيفاً، ولم يظهر فتح العين للإدغام.

قال الخفاجيُّ: وهذا حسنٌ جدّاً[4].

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ ظرفٌ لـ «تُصْنع» كما قال الحوفيُّ وغيره، على أنَّ المراد به وقتٌ وقعَ فيه مشي الأخت، وما ترتَّبَ عليه من القول، والرجع إلى أمِّها، وتربيتها له بالحنوِّ، وهو المصداق لقوله تعالى: «ولتصنع على عيني» إذ لا شفقةَ أعظمُ من شفقة الأمِّ وصنيعها على موجب مراعاته تعالى.

وجوّزَ أنْ يكون ظرفاً لـ «ألقيت»، وأن يكون بدلاً من «إذ أوحينا» على أنَّ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٤٢. وهي في تفسير الطبري ١٦/ ٦٠، والمحتسب ٢/ ٥١ منسوبة لأبي نهيك فقط.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٤٢.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٤٢، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٢٠.

(٤) حاشية الخفاجي ٦/ ٢٠١.

المرادَ بها وقتٌ متَّسعٌ، فيتَّحدَ الظرفان، وتصحّ البدليَّة، ولا يكون من إبدال أحد المتغايرين الذي لا يقعُ في فصيح الكلام.

ورجَّح هذا صاحبُ «الكشف» فقال: هو الأوفقُ لمقام الامتنان؛ لما فيه من تعداد المنَّة على وجهٍ أبلغ، ولما في تخصيص الإلقاء أو التربية بزمان مشي الأخت من العدول عن[1] الظاهر، فقبلَه كان عليه السلام محبوباً محفوظاً. ثمَّ أولى الوجهين جعلُه ظرفاً لـ «تصنع»، وأمَّا النصبُ بإضمار «اذكر» فضعيف. اهـ.

وأنتَ تعلمُ أنَّ الظاهر كونُه ظرفاً لـ «تصنع»، والتقييد بـ «على عيني» يُسقِطُ التربية قبل في غير حِجْر الأمّ عن العين.

واعترض أبو حيَّان وجهَ البدليَّة بأنَّ كلًّا من الظرفين ضيِّقٌ ليس بمتَّسعٍ لتخصيصه بما أضيف إليه، وليس ذلك كالسنة في الامتداد[2]. وفيه تأمُّل.

واسم أخته عليه السلام: مريم. وقيل: كلثوم. وصيغةُ المضارع لحكاية الحال الماضية، وكذا يقال في قوله تعالى: ﴿فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ أي: يضمُّه إلى نفسه ويربِّيه.

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ الفاء فصيحةٌ، أي: فقالوا: دلِّينا على ذلك، فجاءت بأمِّك، فرجعناك إليها ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائك.

وقرئ: «تَقِرَّ» بكسر القاف[3]. وقرأ جناح بن حبيش: «تُقَرَّ» بالبناء للمفعول[4].

﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك، وإلَّا فزوالُ الحزن مقدَّم على السرور المعبَّر عنه بقرَّة العين، فإنَّ التخليةَ مقدَّمةٌ على التحلية.

وقيل: الضميرُ المستتر في «تحزن» لموسى عليه السلام، أي: ولا تحزن أنت

---

(١) في الأصل و(م): إلى. والمثبت من حاشية الخفاجي.

(٢) البحر ٦/ ٢٤٢.

(٣) هي قراءة عبد الحميد بن بكار عن ابن عامر، وهي غير المتواترة عنه، انظر تفسير القرطبي ١٤/ ٦٠، والبحر المحيط ٦/ ٢٤٢.

(٤) القراءات الشاذة ص ٨٧، والبحر المحيط ٦/ ٢٤٢.

بفقد إشفاقها، وهذا وإنْ لم يأبَه النظمُ الكريم، إلَّا أنَّ حزنَ الطفل غيرُ ظاهر، وما في سورة «القصص»[1] يقتضي الأول، والقرآنُ يفسِّر بعضُه بعضاً.

أخرج جماعةٌ من خبرٍ طويلٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ آسيةَ حين أخرجت موسى عليه السلام من التابوت، واستوهبته من فرعون فوهبه لها، أرسلت إلى من حولها من كلِّ امرأةٍ لها لبنٌ لتختارَ لها ظِئراً، فلم يقبل ثديَ واحدةٍ منهنَّ، حتى أشفقت أنْ يمتنعَ من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأُخرجَ إلى السوق مجمع الناس، ترجو أنْ تجدَ له ظئراً يأخذ ثديها، فلم يفعل، وأصبحتْ أمُّه والهةً، فقالت لأخته: قُصِّي أثره واطلبيه، هل تسمعينَ له ذكراً، أحيٌّ ابني أم قد أكلته الدوابّ؟ ونسيت الذي كان وعدَها الله تعالى، فبصرت به عن جنب، فقالت من الفرح: أنا أدلُّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فأخذوها فقالوا: وما يدريك ما نصحُهم له، هل يعرفونه؟ شكُّوا في ذلك، فقالت: نصحُهم له وشفقتهم عليه لرغبتهم في رضا الملك والتقرُّب إليه، فتركوها وسألوها الدلالة، فانطلقت إلى أمِّه فأخبرتها الخبر، فجاءت، فلمَّا وضعتهُ في حجرها نزا إلى ثديها فمصَّه حتى امتلأ جنباه ريّاً، وانطلق البُشَراءُ إلى امرأة فرعون يبشِّرونها أن قد وجدنا لابنك ظِئراً، فأرسلت إليها، فأُتيت بها وبه، فلما رأت ما يصنعُ بها قالت لها: امكثي عندي، أرضعي ابني هذا، فإنِّي لم أحب حبَّه شيئاً قط، قالت: لا أستطيع أن أدعَ بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أنْ تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي، لا آلوه خيراً فعلت، وإلَّا فإنِّي غيرُ تاركةٍ بيتي وولدي، فذكرت أمُّ موسى ما كان الله عزَّ وجلَّ وعدها، فتعاسرت على امرأة فرعون لذلك، وأيقنت أنَّ الله عزَّ وجلَّ منجزٌ وعدَه، فرجعت بابنها إلى بيتها من يومها، فأنبتَه الله تعالى نباتاً حسناً، وحفظَه لما قد قضى فيه، فلمَّا ترعرع قالت امرأة فرعون لأمِّه: أريني[2] ابني، فوعدتَها يوماً تزورُها به فيه، فقالت لخُزَّانها وقهارمتها: لا يبقَ منكم أحدٌ إلا استقبلَ ابني بهديةٍ وكرامة، أرى ذلك فيه، وأنا باعثةٌ أميناً يحصي ما صنعَ كلُّ إنسانٍ منكم، فلم تزل

(١) أي قوله تعالى فيها: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الآية: ٧].

(٢) كذا في الأصل و(م)، ووقع في مسند أبي يعلى، والدر المنثور: أريد أن تريني. ووقع عند النسائي والطبري: أزيريني.

الهدايا والنِّحَل والكرامة تستقبلُه من حين خرج من بيت أمِّه إلى أنْ دخل عليها، فلمَّا دخل أكرمتهُ ونحلتهُ وفرحت به، ونحلَتْ أمَّه لحسن أثرها عليه، ثمَّ انطلقت به إلى فرعون لينحلَه وليكرمه. فكان ما تقدَّم من جذبِ لحيته(١).

ومن هذا الخبر يعلم أنَّ المراد: «إذ تمشي أختك» في الطريق لطلبك وتحقيق أمرك، «فتقول» لمن أنتَ بأيديهم يطلبونَ لك ظئراً ترضعُك: «هل أدلُّكم» إلخ.

وفي روايةٍ أنَّه لمَّا أُخِذَ من التابوت فشا الخبر بأنَّ آل فرعون وجدوا غلاماً في النيل لا يرتضع ثديَ امرأة، واضطروا إلى تتبُّع النساء، فخرجت أختُه لتعرفَ خبره فجاءتهم متنكِّرة، فقالت ما قالت، وقالوا ما قالوا، فالمراد على هذا: «إذ تمشي أختُك» إلى بيت فرعون «فتقول» لفرعون وآسية، أو لآسية: «هل أدلُّكم» إلخ.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هي نفسُ القبطيّ، واسمه: قانون، الذي استغاثَه عليه الإسرائيليُّ، واسمه: موسى بن ظفر، وهو السامريّ، وكان سنُّه عليه السلام حين قَتَلَ ـ على ما في «البحر»(٢) ـ اثنتي عشرة سنة.

وفي الخبر عن الحبر ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه عليه السلام حين قَتل القبطيَّ كان من الرجال(٣)، وكان قتلُه إيَّاه بالوكز، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، وكأنَّ المراد: وقتلتَ نفساً فأصابك غمٌّ ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ وهو الغمُّ الناشىء من القتل، وقد حصل له من وجهين؛ خوف عقاب الله تعالى، حيثُ لم يقع القتل بأمره سبحانه، وخوف اقتصاص فرعون، وقد نجَّاه الله تعالى من ذلك بالمغفرة حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] وبالمهاجرة إلى مدين.

وقيل: هو غمُّ التابوت. وقيل: غمُّ البحر. وكلا القولين ليس بشيء.

والغمُّ في الأصل: ستر الشيء، ومنه الغمام لستره ضوءَ الشمس، ويقال لما يغُمُّ القلبَ بسبب خوفٍ أو فوات مقصود، وفرِّق بينه وبين الهمِّ بأنَّه من أمرٍ

---

(١) سنن النسائي الكبرى (١١٢٦٣)، ومسند أبي يعلى (٢٦١٨)، وتفسير الطبري ٦/ ٦٤-٦٧.
(٢) ٦/ ٢٤٢.
(٣) في الحديث الطويل السالف بعضه ص٣٠٤ من هذا الجزء.

ماضٍ، والهمُّ من أمرٍ مستقبل، وظاهرُ كلام كثيرٍ عدمُ الفرق، وشمولُ كلٍّ لما يكون من أمرٍ ماضٍ وأمرٍ مستقبل.

﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾ أي: ابتليناك ابتلاءً، على أنَّ «فتوناً» مصدرٌ على فعول في المتعدِّي، كالثُّبور والشُّكور والكُفور، والأكثر في هذا الوزن أنْ يكون مصدرَ اللازم، أو «فتوناً» من الابتلاء على أنَّه جمع فَتْن، كالظُّنون جمع ظَنّ، أو جمعُ فتنة على ترك الاعتداد بالتاء؛ لأنَّها في حكم الانفصال، كما قالوا في حُجُوز جمع: حُجْزَة[1]، وبُدُور جمع: بَدْرة[2].

ونظم الابتلاء في سلك المنن قيل: باعتبار أنَّ المراد: ابتليناك واختبرناك بإيقاعك في المحن وتخليصك منها، وقيل: إنَّ المعنى: أوقعناك في المحنة، وهو ما يشُقُّ على الإنسان، ونظم ذلك في ذلك السلك باعتبار أنَّه موجِبٌ للثواب، فيكون من قبيل النعم، وليس بشيء.

وقيل: إنَّ «فتناك» بمعنى خلَّصناك، من قولهم: فتنتُ الذهب بالنار، إذا خلَّصته بها من الغشِّ، ولا يخفى حسنه.

والمراد ـ سواءٌ اعتبر الفتونُ مصدراً أو جمعاً ـ: خلَّصناك مرَّة بعدَ أخرى، وهو ظاهرٌ على اعتبار الجمعيَّة، وأمَّا على اعتبار المصدريَّة فلاقتضاء السياق ذلك، وهذا إجمالُ ما ناله عليه السلام في سفره من الهجرة عن الوطن، ومفارقة الأُلَّاف[3]، والمشي راجلاً، وفَقْد الزاد.

وقد روى جماعةٌ أنَّ سعيد بن جبير سأل ابن عباس عن الفتون فقال له: استأنِف النهار يا ابن جبير، فإنَّ لها خبراً طويلاً، فلمَّا أصبحَ غدا عليه، فأخذ ابنُ عباسٍ يذكر ذلك، فذكر قصَّة فرعون وقتله أولادَ بني إسرائيل، ثم قصَّة إلقاءِ موسى عليه السلام في اليمّ، والتقاط آل فرعون إيَّاه، وامتناعه من الارتضاع من الأجانب، وإرجاعه إلى أمِّه، ثم قصَّة أخذه بلحية فرعون، وغضب فرعون من ذلك، وإرادته

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: ما يوضع في تكة السراويل ونحوها. اهـ منه.
(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: مقدار من النقد معروف. اهـ منه.
(٣) قال الشهاب في حاشيته ٦/ ٢٠٢: والأُلَّاف جمع آلف بالمد، ككافر وكفار، وفي نسخة [أي عند البيضاوي]: الإلف بمعنى المألوف، والمراد الأصحاب الذين ألفهم.

قتله، ووضع الجمرة والجوهرة بين يديه، وأخذه الجمرة، ثمَّ قصَّة قتله القبطيّ، ثم هربه إلى مدين وصيرورته أجيراً لشعيب عليه السلام، ثمَّ عوده إلى مصر وإخطاء الطريق في الليلة المظلمة، وتفرُّقِ غنمه فيها، وكان رضي الله عنه عند تمام كلِّ واحدةٍ يقول: هذه من الفتون يا ابن جبير[1].

ولكن قيل: الذي يقتضيه النظمُ الكريم أنْ لا يعدَّ إجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون؛ ضرورةَ أنَّ المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام إلى مدين، بقضية الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ إذ لا ريب في أنَّ الإجارة المذكورة وما بعدها ممَّا وقع بعد الوصول إليهم.

وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله إليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام من فنون الفتون في تضاعيف مدَّة اللبث، وهي فيما قيل عشر سنين. وقال وهب: ثمان وعشرون سنةً، أقام في عشرٍ منها يرعى غنم شعيب عليه السلام مهراً لابنته، وفي ثماني عشرة مع زوجته وولدٍ له فيها، وهو الأوفقُ بكونه عليه السلام نُبِّىءَ على رأس الأربعين، إذا قلنا بأنَّ سنَّه عليه السلام حين خرج إلى مدين اثنتا عشرة سنة.

و«مدين»: بلدةُ شعيبٍ عليه السلام على ثمان مراحل من مصر.

﴿ثُمَّ جِئْتَ﴾ أي: إلى المكان الذي ناديتُك فيه، وفي كلمة التراخي إيذانٌ بأنَّ مجيئَه عليه السلام كان بعد اللُّتيَّا والتي من ضلال الطريق وتفرُّق الغنم في الليلة المظلمة الشاتية، وغير ذلك.

﴿عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: تقدير، والمراد به المقدَّر، أي: جئت على وَفْق الوقت الذي قدَّرتُه وعيَّنتُه لتكليمك واستنبائك بلا تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ عنه.

وقيل: هو بمعنى المقدار، أي: جئت على مقدارٍ من الزمان يُوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام، وهو رأس أربعين سنة.

وضُعِّف بأنَّ المعروفَ في هذا المعنى القَدْر بالسكون لا التحريك.

---

(١) هو حديث الفتون الذي سلف بعضه ص٣٠٤ من هذا الجزء.

وقيل: المرادُ على موعدٍ وعدناكَه، ورويَ ذلك عن مجاهد، وهو يقتضي تقدُّم الوعد على لسان بعض الأنبياء عليهم السلام. وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ تشريفٌ له عليه السلام وتنبيهٌ على انتهاء الحكاية التي هي تفصيلُ المرَّة الأخرى التي وقعت قبل المرّة المحكيَّة أولاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾ تذكيرٌ لقوله تعالى: «وأنا اخترتُك» وتمهيدٌ لإرساله عليه السلام إلى فرعون مُؤَيَّداً بأخيه، حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابقة، تأكيداً لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة.

ونظم ذلك الإمام في سلك المنن المحكيَّة(١)، وظاهر توسيط النداء يؤيِّدُ ما تقدَّم.

والاصطناع افتعالٌ من الصنع بمعنى الصنيعة، وهي الإحسان، فمعنى اصطنعَه: جعله محلَّ صنيعته وإحسانه. وقال القفَّال: يقال: اصطنع فلانٌ فلاناً: إذا أحسنَ إليه حتى يضاف إليه، فيقال: هذا صنيعُ فلانٍ وخرِّيجه.

ومعنى «لنفسي» ما روي عن ابن عباس: لِوَحْيي ورسالتي. وقيل: لمحبَّتي، وعبَّر عنها بالنفس؛ لأنَّها أخصُّ شيءٍ بها.

وقال الزَّجَّاج: المراد: اخترتُك لإقامة حجَّتي، وجعلتكَ بيني وبين خلقي؛ حتى صرتَ في التبليغ عني بالمنزلة التي أكونُ أنا بها لو خاطبتُهم واحتَجَجْتُ(٢) عليهم.

وقال غير واحدٍ من المحقِّقين: هذا تمثيلٌ لما خوَّله عزَّ وجلَّ من جعله نبيّاً مكرَّماً كليماً مُنْعَماً عليه بجلائلِ النعم بتقريبِ الملك من يراه أهلاً لأنْ يقرَّب، فيصطنعُه بالكرامة والأثرة، ويجعلُه من خواصِّ نفسه وندمائه، ولا يخفى حسنُ هذه الاستعارة، وهي أوفق بكلامه تعالى. وقولُه تعالى: «لنفسي» عليها ظاهر.

وحاصل المعنى: جعلتُك من خواصِّي، واصطفيتُك برسالتي وبكلامي.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٥٦.

(٢) في (م): احتجبت.

وفي العدول عن نون العظمة الواقعة في قوله سبحانه: «وفتناك» ونظيريه السابقين تمهيدٌ لإفراد النفس اللائق بالمقام، فإنَّه أدخل في تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص.

وقوله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما هو المقصود بالاصطناع، و«أخوك» فاعلٌ بفعلٍ مضمر، أي: وليذهب أخوك حسبما استدعيت. وقيل: معطوفٌ على الضمير المستتر المؤكَّد بالضمير البارز، ورُبَّ شيءٍ يصحُّ تبعاً ولا يصحُّ استقلالاً.

و«الآيات»: المعجزات، والمراد بها في قولٍ اليدُ والعصا وحلُّ العقدة، وعن ابن عباس: الآيات التسع. وقيل: الأولان فقط، وإطلاقُ الجمع على الاثنين شائع؛ ويؤيِّد ذلك أنَّ فرعونَ لمَّا قال له عليه السلام: فأتِ بآيةٍ، ألقى العصا ونزع اليد، وقال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ﴾ [القصص: ٣٢].

وقال بعضهم: إنَّهما وإنْ كانتا اثنتين، لكن في كلٍّ منهما آياتٌ شتَّى، كما في قوله تعالى: ﴿آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فإنَّ انقلابَ العصا حيواناً آيةٌ، وكونها ثعباناً عظيماً لا يقادرُ قدره آيةٌ أخرى، وسرعة حركته مع عظم جرمه آيةٌ أخرى، وكونه مع ذلك مسخَّراً له عليه السلام بحيث يدخل[1] يده في فمه فلا يضرُّه آيةٌ أخرى، ثمَّ انقلابها عصاً كما كانت آيةٌ أخرى، وكذلك اليدُ البيضاء، فإنَّ بياضها في نفسه آيةٌ، وشعاعها آيةٌ، ثمَّ رجوعها إلى حالتها الأولى آيةٌ أخرى.

وقيل: المرادُ بها ما أُعطيَ عليه السلام من معجزةٍ ووحي.

والذي يميلُ إليه القلب أنَّها العصا واليد لما سمعت من المؤيِّد[2]، مع ما تقدَّم من أنَّه تعالى بعد ما أمره بإلقاء العصا وأخذِها بعد انقلابها حيَّةً قال سبحانه: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢] ثم قال سبحانه: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] من غير تنصيصٍ على غير تلك الآيتين، ولا تعرُّضٍ لوصف حلِّ العقدة ولا غيره بكونه آية. ثمَّ إنَّ الباء للمصاحبة لا للتعدية،

(١) لفظة: يدخل. ليست في (م).
(٢) أي: موسى عليه السلام بقوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ﴾.

إذ المرادُ ذهابهما إلى فرعون ملتبسَين بالآيات متمسِّكَين بها في إجراء أحكام الرسالة وإكمال الدعوة، لا مجرد إذهابها وإيصالها إليه، وهذا ظاهرٌ في تحقق[1] الآيات إذ ذاك، وأكثرُ التسع لم يتحقَّق بعد.

﴿وَلَا تَنِيَا﴾ من الونى بمعنى الفتور، وهو فعلٌ لازمٌ، وإذا عُدِّيَ عُدِّيَ بـ «في» وبـ «عن». وزعم بعضُ البغداديين أنَّه فعلٌ ناقصٌ من أخوات «زال» وبمعناها، واختاره ابن مالك[2]. وفي «الصحاح»: فلانٌ لايني يفعلُ كذا، أي: لايزالُ يفعل كذا[3]، وكأنَّ هذا المعنى مأخوذٌ من نفي الفتور.

وقرأ ابنُ وثَّاب: «ولا تِنيا» بكسر التاء إتباعاً لحركة النون. وفي مصحف عبد الله: «لا تهنا»[4]، وحاصله أيضاً: لا تفترا.

﴿فِي ذِكْرِي ۝٤٢﴾ بما يليق بي من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة عند تبليغ رسالتي والدعاء إلى عبادتي. وقيل: المعنى: لا تنيا في تبليغ رسالتي، فإنَّ الذكر يقع مجازاً على جميع العبادات، وهو من أجلِّها وأعظمها. وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: لا تنسياني حيثما تقلَّبتما، واسْتَمِدَّا به العون والتأييد، واعلما أنَّ أمراً من الأمور لا يتأتَّى ولا يتسنَّى إلَّا بذكري.

وجَمْعُ هارون مع موسى عليه السلام في صيغة نهي الحاضر ـ بناءً على القول بغيبته إذ ذاك ـ للتغليب، ولا بعدَ في ذلك كما لا يخفى. وكذا جمعه في صيغة أمرِ الحاضر بناءً على ذلك أيضاً في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ وروي أنَّه أوحَى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقَّى موسى عليهما السلام. وقيل: ألهِم ذلك. وقيل: سمع بإقباله فتلقَّاه، ويحتملُ أنَّه ذهب إلى الطور واجتمعا هناك فخوطبا معاً، ويحتمل أنَّ هذا الأمرَ بعد إقبال موسى عليه السلام من الطور إلى مصر واجتماعه بهارون عليه السلام مقبلاً إليه من مصر.

---

(١) في الأصل: تحقيق.
(٢) انظر التسهيل ص ٥٢.
(٣) الصحاح (ونى).
(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٤٥.

وفرّق بعضُهم بين هذا وقوله تعالى: «اذهب أنت وأخوك» بأنَّه لم يبيِّن هناك من يُذْهَب إليه، وبيَّن هنا، وبعضٌ آخر بأنه أُمِرا هنا بالذهاب إلى فرعون، وكان الأمرُ هناك بالذهاب إلى عموم أهلِ الدعوة. وبعضٌ آخر بأنَّه لم يخاطب هارون هناك، وخوطب هنا. وبعضٌ آخر بأنَّ الأمرَ هناك بذهاب كلٍّ منهما على الانفراد نصّاً أو احتمالاً، والأمر هنا بالذهاب على الاجتماع نصّاً.

ولا يخفى ما في بعض هذه الفروق من النظر، والفرقُ ظاهرٌ بين هذا الأمر والأمر في قوله تعالى أولاً خطاباً لموسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قرأ أبو معاذ: «لَيْناً» بالتخفيف(١)، والفاء لترتيب ما بعدها على طغيانه، فإنَّ تليين القول ممَّا يكسِرُ سَوْرَةَ عنادِ العتاة، ويليِّن قسوةَ الطغاة، ويعلم من ذلك أنَّ الأمرَ بإلانة القول ليس لحقِّ التربية كما قيل، والمعنى كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تعنِّفا(٢) في قولكما، وارفقا به في الدعاء. ويتحقَّق ذلك بعباراتٍ شتَّى، منها ما سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً، وهو: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [الآية: ٤٧] إلخ، ومنها ما في «النازعات» وهو: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [الآية: ١٨-١٩]. وهذا ظاهرٌ غايةَ الظهور في الرفق في الدعاء، فإنَّه في صورة العرض والمشورة.

وقيل: كنِّياه، واستُدِلَّ به على جواز تكنية الكافر، ورُوي ذلك عن عليٍّ كرّم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله عنهما أيضاً وسفيان الثوريّ. وله كنى أربع: أبو الوليد، وأبو مصعب، وأبو العباس، وأبو مرَّة.

وقيل: عِدَاهُ شباباً لا يهرم بعده، ومُلكاً لا يُنزع منه إلَّا بالموت، وأنْ يبقى له لذَّةُ المطعم والمشرب والمنكح إلى حين موته.

وعن الحسن: قولا له: إنَّ لك ربّاً، وإنَّ لك معاداً، وإنَّ بين يديك جنَّةً وناراً، فآمن بالله تعالى يدخلك الجنة ويقك عذاب النار.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٨٨.

(٢) في (م): لا تعنفاه.

وقيل: أمرهما سبحانه بأنْ يُقدِّما له الوعد على الوعيد من غير تعيين قول، كما قيل:

أقـدِّم بـالـوعـد قـبـل الـوعـيـد لـيـنـهـى الـقـبـائـلُ جـهـالَـهـا[1]

وروي عن عكرمة أنَّ القولَ الليِّن: لا إله إلا الله، ولينه خفَّتُه على اللسان.

وهذا أبعدُ الأقوال، وأقربُها الأول.

وكان الفضلُ بن عيسى الرقاشيُّ إذا تلا هذه الآية قال: يا من يتحبَّبُ إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولَّاه ويناديه.

وقُرِئت عند يحيى بن معاذ فبكى وقال: إلهي هذا رفقُك بمن يقول: أنا الإله، فكيف رفقك بمن يقول: أنت الله؟

وفيها دليلٌ على استحباب إلانة القول للظالم عند وعظه ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ ويتأمَّل، فيبذلَ النصفة من نفسه والإذعانَ للحقِّ، فيدعوه ذلك إلى الإيمان ﴿أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ أنْ يكون الأمرُ كما تصفان، فيجرَّه إنكاره إلى الهلكة، وذلك يدعوه إلى الإيمان أيضاً، إلَّا أنَّ الأوَّل للراسخين، ولذا قُدِّم.

وقيل: يتذكَّرُ حالَه حين احتبس النيل فسار إلى شاطئه وأبعد، وخرَّ لله تعالى ساجداً راغباً أن لا يخجله، ثم ركب فأخذ النيلُ يتبعُ حافرَ فرسه، فيستدلُّ بذلك على عظيم حلم الله تعالى وكرمه. أو يخشى ويحذر من بطش الله تعالى وعذابه سبحانه. والمعوَّل على ما تقدَّم.

و«لعل» للترجِّي، وهو راجعٌ للمخاطبين، والجملة في محلِّ النصب حالٌ من ضميرهما في «قولاً»، أي: فقولا له قولاً ليِّناً راجِيَين أنْ يتذكَّر أو يخشى. وكلمة «أو» لمنع الخلوِّ.

وحاصل الكلام: باشرا الأمر مباشرةَ مَنْ يرجو ويطمع أنْ يُثمرَ عملُه ولا يخيب سعيُه، فهو يجتهدُ بطوعه، ويحتشدُ بأقصى وسعه.

وقيل: حالٌ من ضميرهما في «اذهبا». والأوَّل أولى.

---

(١) البيت لعبيد بن ماوية كما في شرح الحماسة للمرزوقي ٢/٦٠٦. وفيه: بالزجر، بدل: بالوعد.

وقيل: «لعلّ» هنا للاستفهام، أي: هل يتذكر أو يخشى؟ وأخرج ذلك ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما[(١)]. قيل: وهو القول اللين، وأخرج ذلك مخرجَ قولك: قل لزيد: هل يقوم؟

وقال الفرَّاء: هي هنا بمعنى «كي» التعليلية، وهي أحدُ معانيها، كما ذهب إليه جماعةٌ منهم الأخفش والكسائيُّ، بل حكى البغويُّ عن الواقديِّ أنَّ جميع ما في القرآن من «لعلَّ» فإنها للتعليل، إلَّا قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩] فإنَّها للتشبيه كما في «صحيح البخاري»[(٢)].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السُّدِّيّ عن أبي مالك قال: «لعل» في القرآن بمعنى «كي» غير آيةٍ في «الشعراء»: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، فإنَّ المعنى: كأنكم تخلدون[(٣)].

وأخرج عن قتادة أنه قال: قرئ كذلك[(٤)].

ولا يخفى أنَّ كونها للتشبيه غريبٌ لم يذكره النحاة، وحملها على الاستفهام هنا بعيد، ولعلَّ التعليلَ أسبقُ إلى كثير من الأذهان من الترجِّي، لكن الصحيح ـ كما في «البحر»[(٥)] ـ أنَّها للترجِّي، وهو المشهور من معانيها.

وقيل: إنَّ الترجِّي مجازٌ عن مطلق الطلب، وهو راجعٌ إليه عزَّ وجلَّ، والذي لا يصحُّ منه سبحانه هو الترجِّي حقيقةً. والمحقِّقون على الأول.

والفائدةُ في إرسالهما عليهما السلام إليه مع العلم بأنَّه لا يؤمِن = إلزامُ الحجَّة وقطعُ المعذرة.

وزعم الإمامُ أنَّه لا يَعلم سرَّ الإرسال إليه مع علمه تعالى بامتناع حصول

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٠١.
(٢) كتاب التفسير، سورة الشعراء، من قول ابن عباس معلقاً، قبل الحديث (٤٧٦٨)، وانظر البرهان في علوم القرآن ٤/ ٣٩٤.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٦٠ (٢١٨).
(٤) سيأتي بيانها عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الشعراء.
(٥) ٦/ ٢٤٦.

الإيمان منه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، ولا سبيل في أمثال هذا المقام لغير التسليم وترك الاعتراض(١).

واستدلَّ بعضُ المتَّبعين لمن قال بنجاة فرعون بهذه الآية، فقال: إنَّ لعلَّ كذا، من الله تعالى واجبُ الوقوع، فتدلُّ الآيةُ على أنَّ أحدَ الأمرين التذكُّر والخشية واقعٌ، وهو مدار النجاة. وقد تقدَّم لك ما يُعلَم منه فسادُ هذا الاستدلال. ولا حاجةَ بنا إلى ما قيل من أنه تذكَّر وخشيَ لكن حيث لم ينفعهُ ذلك، وهو حين الغرق، بل لا يصحُّ حملُ التذكُّر والخشية هنا على ما يشمل التذكُّر والخشية اللذين زعمَ القائل حصولهما لفرعون، فتذكر.

﴿قَالَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قالا حين أُمرا بما أمرا؟ فقيل: «قالا» إلخ. وأسند القول إليهما، مع أنَّ القائل هو موسى عليه السلام على القول بغيبة هارون عليه السلام؛ للتغليب كما مرَّ.

ويجوز أن يكون هارون عليه السلام قد قال ذلك بعد اجتماعه مع موسى عليه السلام، فحكى قولَه مع قول موسى عند نزول الآية، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١] فإنَّ هذا الخطاب قد حُكيَ لنا بصيغة الجمع، مع أنَّ كلًّا من المخاطبين لم يخاطَب إلَّا بطريق الانفراد.

وجُوِّزَ كونهما مجتمعين عند الطور، وقالا جميعاً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي: أن يعجلَ علينا بالعقوبة، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة، من فَرَطَ إذا تقدَّم، ومنه: الفارطُ المتقدِّم للمورد والمنزل، وفرسٌ فارطٌ يسبق الخيل. وفاعل «يفرط» على هذا «فرعون».

وقال أبو البقاء(٢): يجوزُ أن يكون التقدير: أن يفرط علينا منه قولٌ، فأضمر القول، كما تقول: فرط منّي قولٌ. وهو خلافُ الظاهر.

وقرأ يحيى وأبو نوفل وابنُ محيصن في رواية: «يُفرَط» بضمِّ الياء وفتح

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٥٩.

(٢) الإملاء ٢/ ١٢١-١٢٢.

الراء[1]، من أفرطتُه، إذا حملته على العجلة، أي: يخافُ أنْ يحمله حاملٌ من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب.

وقرأت فرقة والزعفرانيُّ عن ابن محيصن: «يُفرِط» بضمِّ الياء وكسر الراء[2]، من الإفراط في الأذيَّة.

واستشكل هذا القول مع قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥] فإنَّه مذكورٌ قبل قولهما هذا، بدلالة ﴿سَنَشُدُّ﴾ وقد دلَّ على أنَّهما محفوظان من عقوبته وأذاه، فكيف يخافان من ذلك؟

وأجيب: بأنَّه لا يتعيَّن أن يكون المعنى: لا يصلون بالعقوبة؛ لجواز أن يراد: لا يصلون إلى إلزامكما بالحجَّة، مع أنَّ التقدُّم غيرُ معلوم، ولو قدِّم في الحكاية، لاسيما والواو لا تدلُّ على ترتيب، والتفسير المذكور مأثورٌ عن كثير من السلف، منهم ابن عباس ومجاهد، وهو الذي يقتضيه الظاهر.

وزعم الإمام أنَّهما قد أمنا وقوعَ ما يقطعهما عن الأداء بالدليل العقليّ، إلا أنَّهما طلبا بما ذُكر ما يزيدُ في ثبات قلوبهما، بأنْ ينضافَ الدليل النقليُّ إلى الدليل العقليّ، وذلك نظيرُ ما وقع لإبراهيم عليه السلام من قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾[3] [البقرة: ٢٦٠].

ولا يخفى أنَّ في دعوى علمهما بالدليل العقليِّ عدمَ وقوع ما يقطعهما عن الأداء بحثاً.

واستشكل أيضاً حصول الخوف لموسى عليه السلام بأنَّه يمنعُ عن حصول شرح الصدر له الدالِّ على تحقُّقه قولُه تعالى بعد سؤاله إياه: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

وأجاب الإمام بأنَّ شرحَ الصدر عبارةٌ عن قوَّته على ضبط تلك الأوامر

---

(١) البحر المحيط ٦/٢٤٦، والقراءات الشاذة ص ٨٧، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/٥٢ عن ابن محيصن فقط.
(٢) البحر ٦/٢٤٦، والقراءات الشاذة ص ٨٧.
(٣) تفسير الرازي ٢٢/٦٠.

والنواهي وحفظِ تلك الشرائع على وجهٍ لا يتطرَّق إليها السهو والتحريف، وذلك شيءٌ آخر غيرُ زوال الخوف(١).

وأنت تعلم أنَّ كثيراً من المفسِّرين ذهبوا إلى أنَّ شرحَ الصدر هنا عبارةٌ عن توسيعه، وهو عبارةٌ عن عدم الضجر والقلق القلبيِّ مما يَرِدُ من المشاقِّ في طريق التبليغ، وتلقِّي ذلك بجميل الصبر وحسن الثبات.

وأُجيبَ على هذا بأنَّه لا منافاةَ بين الخوف من شيءٍ والصبر عليه وعدم الضجر منه إذا وقع، ألا ترى كثيراً من الكاملين يخافون من البلاء، ويسألون الله تعالى الحفظَ منه، وإذا نزلَ بهم استقبلوه بصدرٍ واسعٍ وصبروا عليه ولم يضجروا منه.

وقيل: إنَّهما عليهما السلام لم يخافا من العقوبة إلَّا لقطعها الأداء المرجوَّ به الهداية، فخوفهما في الحقيقة ليس إلَّا من القطع وعدم إتمام التبليغ، ولم يسأل موسى عليه السلام شرح الصدر لتحمُّل ذلك.

واستُشكل بأنَّ موسى عليه السلام كان قد سأل وأوتي تيسيرَ أمره بتوفيق الأسباب ورفع الموانع، فكيف يخاف قطع الأداء بالعقوبة؟

وأجيب: بأنَّ هذا تنصيصٌ على طلب رفع المانع الخاصِّ بعد طلب رفع المانع العامّ، وطلبٌ للتنصيص على رفعه لمزيد الاهتمام بذلك.

وقيل: إنَّ في الآية تغليباً منه لأخيه هارون على نفسه عليهما السلام، ولم يتقدَّم ما يدلُّ على أمنه عليه، فتأمَّل.

واستشكل أيضاً عدمُ الذهاب والتعلُّلُ بالخوف مع تكرُّر الأمر بأنَّه يدلُّ على المعصية، وهي غير جائزةٍ على الأنبياء عليهم السلام على الصحيح.

وأجاب الإمام بأنَّ الدلالة مسلَّمةٌ لو دلَّ الأمرُ على الفور، وليس فليس. ثم قال: وهذا من أقوى الدلائل على أنَّ الأمر لا يقتضي الفور إذا ضممت إليه ما يدلُّ على أنَّ المعصيةَ غيرُ جائزةٍ على الأنبياء عليهم السلام(٢).

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٦٠.
(٢) تفسير الرازي: ٢٢/ ٦٠.

و«أو» في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ لمنع الخلوِّ، والمراد: أو أنْ يزداد طغياناً إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي؛ لكمال جراءته وقساوته وإطلاقه من حسن الأدب، وفيه استنزالٌ لرحمته تعالى.

وإظهارُ كلمة «أنْ» مع سداد المعنى بدونه لإظهار كمال الاعتناء بالأمر، والإشعار بتحقُّق الخوف من كلٍّ من المتعاطفين.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما مرَّ، ولعلَّ إسنادَ الفعل إلى ضمير الغيبة ـ كما قيل ـ للإشعار بانتقال الكلام من مساقٍ إلى مساقٍ آخر، فإنَّ ما قبله من الأفعال الواردة على صيغة التكلُّم حكايةٌ لموسى عليه السلام، بخلاف ما سيأتي إن شاء الله تعالى ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] فإنَّ ما قبلَه أيضاً واردٌ بطريق الحكاية لرسول الله ﷺ كأنَّه قيل: فماذا قال لهما ربُّهما عند تضرُّعهما إليه سبحانه؟ فقيل: قال، أي لهما: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ ممَّا ذكرتما.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ تعليلٌ لموجب النهي، ومزيدُ تسليةٍ لهما، والمرادُ بمعيَّته سبحانه كمالُ الحفظ والنصرة، كما يقال: اللهُ تعالى معك، على سبيل الدعاء، وأكَّد ذلك بقوله تعالى: ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ وهو بتقدير المفعول، أي: ما يجري بينكما وبينه من قولٍ وفعلٍ، فأفعلُ في كلِّ حالٍ ما يليقُ بها من دفع شرٍّ وجلب خير.

وقال القفال: يحتملُ أنْ يكون هذا في مقابلة القول السابق، ويكونان قد عنيا أننا نخافُ أنْ يفرط علينا بأنْ لا يسمعَ منَّا أو أن يطغى بأن يقتلنا، فأجابهم سبحانه بقوله: «إنَّني معكما أسمع»[1] كلامكما، فأسخِّرُه للاستماع، «وأرى» أفعالَه، فلا أتركه يفعلُ بكما ما تكرهانه، فقدَّر المفعول أيضاً، لكنه كما ترى.

وقال الزمخشريُّ: جائزٌ أن لا يقدَّر شيءٌ، وكأنَّه قيل: أنا حافظٌ لكما وناصرٌ سامعٌ مبصرٌ، وإذا كان الحافظُ والناصرُ كذلك تمَّ الحفظ[2].

---

(١) بعدها في (م): أي.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٣٨-٥٣٩.

وهو يدلُّ على أنَّه لا نظرَ إلى المفعول، وقد نُزِّل الفعل المتعدِّي منزلة اللازم؛ لأنَّه أريد تتميمُ ما يستقلُّ به الحفظ والنصرةُ، وليس من باب قول المتنبي:

شجوُ حسادِهِ وغيظُ عداه ... أنْ يَرى مُبصرٌ ويَسمَعَ واعِ[1]

على ما زعم الطيبيُّ.

واستدلَّ بالآية على أنَّ السمع والبصر صفتان زائدتان على العلم بناءً على أنَّ قوله تعالى: «إنني معكما» دالٌّ على العلم، ولو دلَّ «أسمع وأرى» عليه أيضاً لزم التكرارُ، وهو خلاف الأصل.

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ أمرٌ بإتيانه الذي هو عبارةٌ عن الوصول إليه بعدما أمرا بالذهاب إليه، فلا تكرار، وهو عطفٌ على «لا تخافا» باعتبار تعليله بما بعده.

﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أُمِرا بذلك تحقيقاً للحقِّ من أوَّل الأمر؛ ليعرف الطاغيةُ شأنَهما، ويبني جوابه عليه.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبيَّة مع الإضافة إلى ضميره من اللطف ما لا يخفى، وإن رأى اللعين أنَّ في ذلك تحقيراً له، حيث إنَّه يدَّعي الربوبيَّة لنفسه، ولا يُعَدُّ ذلك من الإغلاظ في القول، وكذا قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلى آخره خلافاً للإمام[2].

والفاء في «فأرسل» لترتيب ما بعدَها على ما قبلها، فإنَّ كونهما عليهما السلام رسولي ربِّه تعالى ممَّا يوجبُ إرسالهم معهما، والمراد بالإرسال: إطلاقهم من الأسر، وإخراجهم من تحت يده العادية، لا تكليفهم أنْ يذهبوا معهما إلى الشام، كما ينبىء عنه قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب، فإنَّهم كانوا تحتَ ملكة القبط يستخدمونهم في الأعمال الشاقَّة، كالحفر والبناء ونقل الأحجار، وكانوا يقتلونَ أبناءهم عاماً دون عام، ويستخدمون نساءهم.

---

(١) قوله: للمتنبي، وهم، وإنما هو للبحتري، كما في ديوانه ٢/ ١٢٤٤. وسلف عجزه ٩/ ٣٧٤.
(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٦١.

ولعلهما إنَّما بدأا بطلب إرسال بني إسرائيل دون دعوة الطاغية وقومه إلى الإيمان للتدريج في الدعوة، فإنَّ إطلاق الأسرى دونَ تبديل الاعتقاد.

وقيل: لأنَّ تخليصَ المؤمنين من الكفرة أهمُّ من دعوتهم إلى الإيمان. وهذا بعد تسليمه مبنيٌّ على أنَّ بني إسرائيل كانوا مؤمنين بموسى عليه السلام في الباطن، أو كانوا مؤمنين بغيره من الأنبياء عليهم السلام. ولا بدَّ لذلك من دليل.

وقيل: إنَّما بدأا بطلب إرسالهم لما فيه من إزالة المانع عن دعوتهم وأتباعهم، وهي أهمُّ من دعوة القبط.

وتُعقِّب بأنَّ السياقَ هنا لدعوة فرعون ودفع طغيانه، فهي الأهمُّ، دون دعوة بني إسرائيل. وقيل: إنَّه أولُ ما طلبا منه الإيمان كما ينبىء عن ذلك آيةُ «النازعات» إلَّا أنه لم يصرِّح به هنا اكتفاءً بما هناك، كما أنَّه لم يصرِّح هناك بهذا الطلب اكتفاءً بما هنا.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، وفيه تقريرٌ لما تضمَّنه الكلامُ السابق من دعوى الرسالة، وتعليلٌ لوجوب الإرسال، فإنَّ مجيئَهما بآيةٍ من جهته تعالى ممَّا يحقِّقُ رسالتهما ويقرِّرها، ويوجبُ الامتثال بأمرهما.

وإظهارُ اسم الربِّ في موضع الإضمار مع الإضافة إلى ضمير المخاطب لتأكيد ما ذُكر من التقرير والتعليل، وجيء بـ «قد» للتحقيق والتأكيد أيضاً، وتُكلِّف لإفادتها التوقُّع.

وتوحيد الآية مع تعدُّدها؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ الدعوى ببرهانها، لا بيانُ تعدُّد الحجَّة، فكأنه قيل: قد جئناك بما يثبتُ مُدَّعانا. وقيل: المرادُ بالآية اليد. وقيل: العصا. والقولان كما ترى.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ أي: السلامة من العذاب في الدارين لمن اتَّبعَ ذلك بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحقِّ، فالسلام مصدرٌ بمعنى السلامة، كالرضاع والرضاعة.

و«على» بمعنى اللام كما ورد عكسه في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥] وحروف الجرِّ كثيراً ما تتقارض، وقد حَسَّنَ ذلك هنا المشاكلة،

حيث جيء بـ «على» في قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾ من جهة ربِّنا ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ الدنيويَّ والأخرويَّ ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ بآياته عزَّ وجلَّ ﴿وَتَوَلَّىٰ ۝٤٨﴾ أي: أعرض عن قبولها.

وقال الزمخشريُّ: أي: وسلامُ الملائكة الذين هم خزنةُ الجنَّة على المهتدين، وتوبيخُ خزنة النار والعذاب على المكذِّبين[(١)].

وتحقيقه ـ على ما قيل ـ أنَّه جَعلَ السلام تحيَّةَ خزنة الجنة للمهتدين المتضمِّنة لوعدهم بالجنة، وفيه تعريضٌ لغيرهم بتوبيخ خزنة النار المتضمِّن لوعيدهم بعذابها؛ لأنَّ المقام للترغيب فيما هو حَسَنُ العاقبة، وهو تصديقُ الرسل عليهم السلام، والتنفيرِ عن خلافه، فلو جعل السلامُ بمعنى السلامة لم يفد أنَّ ذلك في العاقبة، فما قيل: إنَّه لا إشعار في اللفظ بهذا التخصيص غيرُ مسلَّم، والقول بأنَّه ليس بتحيَّةٍ حيث لم يكن في ابتداء اللقاء، يردُّه أنَّه لم يُجعل تحيَّة الأخوين عليهما السلام، بل تحية الملائكة عليهم السلام.

وأنت تعلم أنَّ هذا التفسيرَ خلافُ الظاهر جدّاً، وإنكارُ ذلك مكابرة. وفي «البحر»: هو تفسيرٌ غريب[(٢)].

وأنَّه إذا أريدَ من العذاب العذابُ في الدارين، ومن السلام السلامةُ من ذلك العذاب حصلَ الترغيبُ في التصديق والتنفيرُ عن خلافه على أتمِّ وجه.

وقال أبو حيَّان[(٣)]: الظاهرُ أنَّ قوله تعالى: «والسلام»... إلخ فصلٌ للكلام، والسلام فيه بمعنى التحيَّة، وجاء ذلك على ما هو العادةُ من التسليم عند الفراغ من القول، إلَّا أنهما عليهما السلام رغبا بذلك عن فرعون، وخَصَّا به مُتَّبعي الهدى ترغيباً له بالانتظام في سلكهم.

واستدلَّ به على منع السلام على الكفار، وإذا احتيج إليه في خطابٍ أو كتاب جيء بهذه الصيغة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٣٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٤٧.

(٣) في البحر ٦/ ٢٤٦-٢٤٧.

وفي الصحيحين: أنَّ رسول الله ﷺ كتب إلى هرقل: «من محمد رسول الله إلى هرقل[1] عظيم الروم، سلامٌ على من اتَّبع الهدى»[2].

وأخرج عبد الرزاق في «المصنف» والبيهقيُّ في «الشعب» عن قتادة قال: التسليمُ على أهل الكتاب إذا دخلت عليهم بيوتهم أن تقول: السلام على من اتبع الهدى[3].

ولا يخفى أنَّ الاستظهارَ المذكورَ غيرُ بعيد لو كان كلامُهما عليهما السلام قد انقطع بهذا السلام، لكنَّه لم ينقطع به، بل قالا بعده: «إنَّا قد أوحيَ إلينا» إلخ، وكأنَّ هذه الجملة على جميع التفاسير استئنافٌ للتعليل. وقد يستدلُّ به على صحَّة القول بالمفهوم، فتأمل.

والظاهرُ أنَّ كلتا الجملتين من جملة المقول الملقَّن. وزعم بعضهم أن المقول الملقَّن قد تمَّ عند قوله تعالى: «قد جئناك بآيةٍ من ربِّك»، وما بعدُ كلامٌ من قبلهما عليهما السلام أتيا به للوعد والوعيد.

واستدلَّ المرجئةُ بقوله سبحانه: «إنَّا قد أوحيَ» إلخ على أنَّ غير الكفرة لا يعذَّبونَ أصلاً.

وأجيبَ بأنَّه إنَّما يتمُّ إذا كان تعريفُ العذاب للجنس أو الاستغراق، أمَّا إذا كان للعهد، أي: العذابُ الناشيء عن شدَّة الغضب أو الدائم مثلاً، فلا، وكذا إذا أُريد الجنسُ أو الاستغراق الادعائيّ مبالغةً، وجُعِل العذابُ المتناهي الذي يعقبه السلامةُ الغيرُ المتناهية كلا عذاب، لم يلزم أنْ لا يعذَّب المؤمنُ المقصِّر في العمل أصلاً.

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون بعد ما أتياه وبلَّغاه ما أُمِرا به، وإنَّما طوى ذكر ذلك للإيجاز والإشعار بأنَّهما كما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال به من غير ريثٍ، وبأنَّ ذلك من الظهور بحيثُ لا حاجةَ إلى التصريح به.

---

(١) قوله: من محمد رسول الله إلى هرقل. ليس في الأصل.
(٢) قطعة من الحديث الطويل الذي أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) عن أبي سفيان ﷺ.
(٣) مصنف عبد الرزاق (٩٨٤١)، وشعب الإيمان للبيهقي (٨٩٠٧).

وجاء عن ابن عباس أنَّهما لما أُمِرا بإتيانه وقول ما ذُكر له جاءا جميعاً إلى بابه، فأقاما حيناً لا يؤذنُ لهما، ثمَّ أُذِن لهما بعد حجابٍ شديد فدخلا، وكان ما قصَّ الله تعالى.

وأخرج أحمد وغيره عن وهب بن منبه أنَّ الله تعالى لمَّا أمرَ موسى عليه السلام بما أمر أقبلَ إلى فرعون في مدينة[1] قد جعل حولها الأُسْد في غيضةٍ قد غرسها، والأُسْدُ فيها مع ساستها إذا أشلتها على أحدٍ أُكِل، وللمدينة أربعةُ أبواب في الغيضة، فأقبل موسى عليه السلام من الطريق الأعظم الذي يراه فرعون، فلمَّا رأتهُ الأسد صاحت صياحَ الثعالب، فأنكر ذلك السَّاسة، وفرِقوا من فرعون، فأقبل حتى انتهى إلى الباب فقرعه بعصاه، وعليه جبَّةُ صوفٍ وسراويل، فلمَّا رآهُ البوَّابُ عجبَ من جرأته، فتركه ولم يأذن له، فقال: هل تدري بابَ من أنت تضرب؟ إنَّما أنت تضربُ باب سيِّدك. قال: أنت وأنا وفرعون عبيدٌ لربي، فأنا ناصرُه، فأخبر البوابُ الذي يليه من البوَّابين، حتَّى بلغ ذلك أدناهم، ودونه سبعون حاجباً، كلُّ حاجبٍ منهم تحت يده من الجنود ما شاء الله تعالى، حتى خلص الخبرُ إلى فرعون، فقال: أدخلوه عليّ، فلمَّا أتاه قال له فرعون: أعرفك؟ قال: نعم. قال: ألم نربِّك فينا وليداً، فردَّ إليه موسى عليه السلام الذي ردّ، قال فرعون: خذوه، فبادرَ عليه السلام فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين، فحملت على الناس فانهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً قَتَلَ بعضُهم بعضاً، وقام فرعون منهزماً حتى دخل البيت، فقال: يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه، قال موسى: لم أؤمر بذلك إنَّما أمرتُ بمناجزتك، وإنْ أنت لم تخرج إليَّ دخلتُ عليك، فأوحى الله تعالى إليه أن اجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له: أنت اجعل ذلك، فقال فرعون: اجعله إلى أربعين يوماً، ففعل، وكان لا يأتي الخلاء إلَّا في كلِّ أربعين يوماً مرَّةً، فاختلفَ ذلك اليوم أربعين مرَّةً، وخرجَ موسى عليه السلام من المدينة، فلمَّا مَرَّ بالأُسد خضعت له بأذنابها وسارت معه تشيِّعُه ولا تهيِّجه ولا أحداً من بني إسرائيل[2].

---

(١) في الأصل: المدينة.

(٢) الزهد للإمام أحمد ص ٨٣-٨٤، وسلفت أجزاء منه.

والظاهر أنَّ هارون كان معه حين الإتيان، ولعلَّه إنَّما لم يُذكر في هذا الخبر اكتفاءً بموسى عليه السلام.

وقيل: إنَّهما حين عرضا عليهما السلام على فرعون ما عرضا شاورَ آسية، فقالت: ما ينبغي لأحدٍ أنْ يَرُدَّ ما دَعيا إليه، فشاور هامان ـ وكان لا يبتُّ أمراً دون رأيه ـ فقال له: كنتُ أعتقد أنَّك ذو عقلٍ، تكونُ مالكاً فتصيرُ مملوكاً، وربّاً فتصيرُ مربوباً؟! فامتنعَ من قبول ما عرض عليه موسى عليه السلام.

وظاهرُ هذا أنَّ المشاورةَ قبل المقاولة، ويحتمل أنَّها بعدها، والأولى في أمثال هذه القصص الاكتفاء بما في المنزَّل وعدمُ الالتفاتِ إلى غيره، إلَّا أنْ يوثق بصحته، أو لا يكون في المنزَّل ما يعكِّرُ عليه، كالخبر السابق، فإنَّ كون فرعون جعل الأجل يعكِّر عليه ما سيأتي إنْ شاء الله تعالى من قول موسى عليه السلام حين طلب منه فرعون أنْ يجعلَ موعداً: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه:٥٩] والظاهر عدم تعدُّد الحادثة.

والجملة استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قال حين أتياه وقالا له ما قالا؟ فقيل: قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ لم يُضف الربَّ إلى نفسه، ولو بطريق حكاية ما في قوله تعالى: «إنَّا رسولا ربِّك»، وقوله سبحانه: «قد جئناك بآيةٍ من ربِّك»؛ لغاية عتوِّه، ونهاية طغيانه، بل أضافه إليهما، لما أنَّ المرسِل لابدَّ أن يكون ربّاً للرسول. وقيل: لأنَّهما قد صرَّحا بربوبيَّته تعالى للكلِّ بأن قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما وقع في سورة الشعراء [الآية:١٦]، والاقتصارُ هاهنا على ذكر ربوبيَّته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود.

والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولي ربِّهما، أي: إذا كنتما رسولَي ربِّكما الذي أرسلكما، فأخبرا من ربُّكما الذي أرسلكما؟

وتخصيصُ النداء بموسى عليه السلام، مع توجيه الخطاب إليهما لما ظهرَ له من أنَّه الأصلُ في الرسالة، وهارون وزيره، ويحتملُ أنْ يكون للتعريض بأنَّه ربُّه، كما قال: ألم نربِّك فينا وليداً.

قيل: وهذا أوفقُ بتلبيسه على الأسلوب الأحمق.

وقيل: لأنَّه قد عرفَ أنَّ له عليه السلام رتَّة، فأراد أن يسكته.

وهو مبنيٌّ على ما عليه كثيرٌ من المفسِّرين من بقاء رتَّةٍ في لسانه عليه السلام في الجملة. وقد تقدَّم الكلام في ذلك.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام، واستبدَّ بالجواب من حيثُ إنَّه خُصَّ بالسؤال: ﴿رَبُّنَا﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ خبره.

وقيل: هو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ربُّنا، والموصول صفته.

والظاهرُ أنَّه عليه السلام أرادَ بضمير المتكلِّم نفسه وأخاه عليهما السلام.

وقال بعض المحققين: أراد جميع المخلوقات تحقيقاً للحقِّ وردّاً على اللعين، كما يفصحُ عنه ما في حيِّز الصلة.

و«كلَّ شيءٍ» مفعولٌ أول لـ «أعطى»، و«خلقَه» مفعولُه الثاني، وهو مصدرٌ بمعنى اسم المفعول، والضمير المجرورُ لـ «شيء»، والعمومُ المستفادُ من «كلّ» يعتبرُ بعد إرجاعه إليه؛ لئلَّا يَرِدَ الاعتراضُ المشهور في مثل هذا التركيب، والظاهر أنَّه عمومُ الأفراد، أي: أعطى كلَّ شيءٍ من الأشياء الأمرَ الذي طلبه بلسان استعداده من الصورة والشكل والمنفعة والمضرَّة وغير ذلك، أو الأمرَ اللائق بما نيطَ به من الخواصِّ والمنافع المطابق له، كما أعطى العينَ الهيئةَ التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان، كلٌّ واحدٍ منها مطابقٌ لما عُلِّق به من المنفعة، غيرُ نابٍ عنه.

وقيل: الخلقُ باقٍ على مصدريَّته بمعنى الإيجاد، أي: أعطى كلَّ شيءٍ الإيجاد الذي استعدَّ له، أو اللائقَ به، بمعنى أنَّه تعالى أوجدَ كلَّ شيءٍ حسبَ استعداده، أو على الوجه اللائق به. وهو كما ترى.

وحملَ بعضهُم العمومَ على عموم الأنواع دون عموم الأفراد، وقيل: إنَّ ذلك لئلَّا يلزمَ الخُلْفُ، ويَرِدَ النقضُ بأنَّ بعض الأفراد لم يَكمُل لعارضٍ يعرض له.

والحقُّ أنَّ الله تعالى رَاعَى الحكمةَ فيما خلق وأمر تفضُّلاً ورحمةً، لا وجوباً،

وهذا مما أجمعَ عليه أهل السنَّة والجماعة، كما نقل صاحب «المواقف» و«عيون الجواهر»، فكلُّ شيءٍ كاملٌ في مرتبته، حَسَنٌ في حدِّ ذاته، فقد قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ * ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٦-٧].

وجعلُ العموم في هذا عموم الأنواع ممَّا لا يكاد يقول به أحد، وقال سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [تبارك:٣] أي: من حيث إضافتُه إلى الرحمن، وخلقه إيَّاه على طبق الحكمة بمقتضى الجود والرحمة، والتفاوتُ بين الأشياء إنَّما هو إذا أضيفَ بعضها إلى بعض، فالعدولُ عمَّا هو الظاهر من عموم الأفراد إلى عموم الأنواع لما ذكر ناشئٌ من قلَّة التحقيق.

وقيل: إنَّ سببَ العدول كون «أعطى» حقيقةً في الماضي، فلو حمل «كلّ شيءٍ» على عموم الأفراد يلزم أنْ يكون جميعُها قد وجد وأعطي، مع أنَّ منها بل أكثرها لم يوجد ولم يُعْطَ بعدُ، بخلاف ما إذا حُمِل على عموم الأنواع فإنَّه لا محذورَ فيه، إذ الأنواعُ جميعُها قد وجد، ولا يتجدَّد بعد ذلك نوع، وإن كان ذلك ممكناً. وفيه بحثٌ ظاهرٌ فليفهم.

وروي عن ابن عباس وابن جبير والسُّدِّيّ أنَّ المعنى: أعطى كلَّ حيوانٍ ذكرٍ نظيرَه في الخلق والصورة أنثى. وكأنَّهم جعلوا كلًّا للتكثير، وإلَّا فالعموم مطلقاً باطلٌ كما لا يخفى.

وعندي أنَّ هذا المعنى من فروع المعنى السابق الذي ذكرناه، ولعلَّ مراد من قاله التمثيل، وإلَّا فهو بعيدٌ جدّاً، ولا يكاد يقوله من نُسِب إليه.

وقيل: «خلقه» هو المفعول الأول، والمصدر بمعنى اسم المفعول أيضاً، والضميرُ المجرور للموصول، و«كلَّ شيءٍ» هو المفعول الثاني. والمعنى: أعطى مخلوقاته سبحانه كلَّ شيءٍ يحتاجون إليه ويرتفقون به. وقدَّم المفعول الثاني للاهتمام به من حيثُ إنَّ المقصودَ الامتنانُ به، ونُسِب هذا القول إلى الجبائيّ، والأول أظهرُ لفظاً ومعنى.

وقرأ عبد الله، وأناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، وأبو نهيك، وابن أبي إسحاق، والأعمش، والحسن، ونصيرٌ عن الكسائيّ، وابن نوح عن قتيبة،

وسلام: «خَلَقَهُ» على صيغة الماضي المعلوم[1]، على أنَّ الجملة صفةٌ للمضاف إليه أو المضاف على شذوذ، وحُذِف المفعولُ الثاني اختصاراً؛ لدلالة قرينة الحال عليه، أي: أعطى كلَّ شيءٍ خلقَه تعالى ما يُصْلِحه أو ما يحتاجُ إليه، وجعل ذلك الزمخشريُّ[2] من باب: يعطي ويمنع، أي: كل شيءٍ خلقه سبحانه لم يُخلِهِ من عطائه وإنعامه، ورجَّحه في «الكشف» بأنه أبلغُ وأظهر. وقيل: الأوَّلُ أحسنُ صناعةً وموافقةً للمقام، وهو عندي أوفقُ بالمعنى الأول للقراءة الأولى، وفيما ذكره في «الكشف» تردُّد.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ أي: أرشدَ ودلَّ سبحانه بذلك على وجوده وجوده، فإنَّ من نظر في هذه المحدثات وما تضمَّنته من دقائق الحكمة، علمَ أنَّ لها صانعاً واجبَ الوجود، عظيمَ العطاء والجود.

ومحصَّل الآية: ربُّنا الذي خلق كلَّ شيءٍ حسب استعداده، أو على الوجه اللائقِ به، وجعلَه دليلاً عليه جلَّ جلاله.

وهذا الجعلُ وإنْ كان متأخِّراً بالذات عن الخلق، وليس بينهما تراخٍ في الزمان أصلاً، لكنَّه جيء بكلمة «ثم» للتراخي بحسب الرتبة، كما لا يخفى وجهه على المتأمِّل.

وفي «إرشاد العقل السليم»: «ثمَّ هدى» إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه، وعرَّفه كيف يتوصَّل إلى بقائه وكماله؛ إمَّا اختياراً، كما في الحيوانات، أو طبعاً، كما في الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية.

ولمَّا كان الخلقُ الذي هو تركيبُ الأجزاء وتسوية الأجسام متقدِّماً على الهداية التي هي عبارةٌ عن إبداع[3] القوى المحرِّكة والمدرِكة في تلك الأجساد وَسَّط بينهما كلمةَ التراخي. انتهى.

ولا يخفى عليك أنَّ الخلقَ لغةً أعمُّ ممَّا ذكره، وأنَّ القوى المحرِّكة والمدرِكة

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٤٧، وقراءة الكسائي المتواترة عنه كقراءة الجمهور. وانظر القراءات الشاذة ص ٨٧.

(٢) في الكشاف ٢/ ٥٣٩.

(٣) في مطبوع تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠: إيداع.

داخلةٌ في عموم «كلَّ شيء» سواءٌ كان عمومَ الأفراد أو عموم الأنواع، وأنَّه لابدَّ من ارتكاب نوعٍ من المجاز في «هَدَى» على تفسيره.

وقيل ـ على التفسير المرويِّ عن ابن عباس ومن معه ـ: ثم هداه إلى الاجتماع بإلفه والمناكحة. وقيل غير ذلك.

ولله تعالى دَرُّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعَه وما أبينَه لمن ألقى الذهن، ونظر بعين الإنصاف، وكان طالباً للحقِّ، ومن هنا قيل: كان من الظاهر أن يقول عليه السلام: ربُّنا ربُّ العالمين، لكن سلكَ طريقَ الإرشاد والأسلوب الحكيم، وأشار إلى حدوث الموجودات بأسرها واحتياجها إليه سبحانه، واختلاف مراتبها، وأنَّه تعالى هو القادر الحكيم الغنيُّ المنعِم على الإطلاق.

واستُدِلَّ بالآية على أنَّ فرعون كان عارفاً بالله تعالى، إلَّا أنه كان معانداً؛ لأنَّ جملة الصلة لابدَّ أن تكون معلومةً، ومتى كانت هذه الجملةُ معلومة له كان عارفاً به سبحانه.

وهذا مذهبُ البعض فيه عليه اللعنة، واستدلُّوا له أيضاً بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [الآية: ٣٩] فإنَّه ليس فيه إلَّا إنكار المعاد دون المبدأ، وقوله تعالى في «الشعراء»: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الآيات: ٢٣-٢٧] فإنَّه عنى به: إنِّي أطلبُ منه شرح الماهية، وهو يشرحُ الوجود، فدلَّ على أنَّه معترفٌ بأصل الوجود، وبأنَّ ملكه لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام، ألا ترى أنَّ موسى عليه السلام لمَّا هرب إلى مدين قال له شعيب: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥] فكيف يَعتقدُ أنَّه إله العالم. وبأنَّه كان عاقلاً ضرورةَ أنَّه كان مكلَّفاً، وكلُّ عاقلٍ يعلمُ بالضرورة أنَّه وُجد بعد العدم، ومن كان كذلك افتقرَ إلى مدبِّر، فيكونُ قائلاً بالمدبِّر، وبأنَّه سأل عنها[1] بـ «من» طالباً للكيفيَّة، وفي «الشعراء» بـ «ما» طالباً للماهية.

---

(١) في (م): ها هنا.

والظاهر أنَّ السؤالَ بـ «من» سابقٌ، فكأنَّ موسى عليه السلام لمَّا أقامَ الدلالة على الوجود تركَ المنازعة معه في هذا المقام؛ لعلمه بظهوره، وشرعَ في مقامٍ أصعب؛ لأنَّ العلمَ بماهيته تعالى غيرُ حاصلةٍ للبشر.

ولا يخفى ما في هذه الأدلَّة من القيل والقال.

ومن الناس من قال: إنَّه كان جاهلاً بالله تعالى بعد اتِّفاقهم على أنَّ العاقل لا يجوزُ أن يعتقدَ في نفسه أنَّه خالق السماوات والأرض وما فيهما، واختلفوا في كيفية جهله، فيحتملُ أنَّه كان دهريّاً نافياً للصانع أصلاً، ولعلَّه كان يقولُ بعدم احتياج الممكن في وجوده إلى مؤثِّر، وأنَّ وجودَ العالم اتفاقيٌّ كما نقل عن ذيمقريطيس وأتباعه، ويحتملُ أنَّه كان فلسفيّاً قائلاً بالعلَّة الموجبة، ويحتملُ أنَّه كان من عبدة الكواكب، ويحتملُ أنَّه كان من عبدة الأصنام، ويحتمل أنَّه كان من الحلولية المجسِّمة. وأمَّا ادعاؤه الربوبيَّة لنفسه، فبمعنى أنَّه يجبُ على من تحت يده طاعتُه والانقيادُ له وعدمُ الاشتغال بطاعة غيره.

واستُدلَّ بشروعه في المناظرة وطلب الحجَّة دون السفاهة والشغب مع كونه جباراً شديدَ البطش على أنَّ الشغبَ والسفاهة مع من يدعو إلى الحقِّ في غاية القبح، فلا ينبغي لمن يَدَّعي الإسلام والعلم أن يرتضي لنفسه ما لا يرتضيه[1] فرعونُ لنفسه. وباشتغال موسى عليه السلام بإقامة الدليل على المطلوب على فساد التقليد في أمثال هذا المطلب، وفسادِ قول القائل: إنَّ معرفةَ الله تعالى تستفادُ من قول الرسول. وبحكاية كلام فرعون وجوابِ موسى عليه السلام على أنَّه يجوزُ حكاية كلام المبطِل مقروناً بالجواب؛ لئلَّا يبقى الشكُّ، وعلى أنَّ المحقَّ يجبُ عليه استماعُ شبهة المبطل حتَّى يمكنَه الاشتغالُ بحلِّها.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ لما شاهد اللعينُ ما نظمَه عليه السلام في سلك الجواب من البرهان النيِّر، على الطراز الرائع، خاف أنْ يَظهرَ للناس حقِّيَّةُ[2] مقالاته عليه السلام، وبطلان خرافاتِ نفسه ظهوراً بيِّناً، أرادَ أن يصرفَه عليه السلام

(١) في (م): ما لم يرتضه.
(٢) في الأصل: حقيقة. والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٠ وعنه نقل المصنف.

عن سننه إلى ما لا يعنيه من الأمور التي لا تعلُّقَ لها في نفس الأمر بالرسالة من الحكايات، موهماً أنَّ لها تعلُّقاً بذلك، ويشغلَه عما هو بصدده، عسى يظهر فيه نوعُ غفلةٍ، فيتسلَّقَ بذلك إلى أنْ يَدَّعي بين يدي قومه نوعَ معرفة، فقال: «فما بال» إلخ.

وأصل البال: الفكر، يقال: خطر ببالي كذا، ثم أُطلِق على الحال التي يُعتنى بها، وهو المراد، ولا يثنَّى ولا يُجمع إلَّا شذوذاً في قولهم: بالات.

وكأنَّ الفاء لتفريع ما بعدها على دعوى الرسالة، أي: إذا كنتَ رسولاً فأخبرني ما حالُ القرونِ الماضية والأمم الخالية، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة؟

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ أي: إنَّ ذلك من الغيوب التي لا يعلمُها إلَّا اللهُ تعالى، وإنَّما أنا عبدٌ لا أعلم منها إلَّا ما علمنيه من الأمورِ المتعلِّقة بالرسالة، والعلمُ بأحوال القرون وما جرى عليهم على التفصيل ممَّا لا ملابسة فيه بمنصب الرسالة كما زعمت.

وقيل: إنَّما سأله عن ذلك ليختبر أنَّه نبيٌّ أو هو من جملة القُصَّاص الذين دَارسُوا قصصَ الأمم السالفة.

وقال النقَّاش: إنَّ اللعين لمَّا سمع وعظَ مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ الآية [غافر: ٣٠] سأل عن ذلك، فردَّ عليه السلام علمَه إلى الله تعالى؛ لأنَّه لم يكن نزلت عليه التوراةُ، فإنَّه كان نزولُها بعد هلاك فرعون.

وقال بعضهم: إنَّ السؤال مبنيٌّ على قوله عليه السلام: «والسلام على من اتبع الهدى» إلخ، أي: فما حال القرون السالفة بعد موتهم من السعادة والشقاوة، والمراد بيانُ ذلك تفصيلاً، كأنَّه قيل: إذا كان الأمر كما ذكرت ففصِّل لنا حالَ من مضى من السعادة والشقاوة، ولذا ردَّ عليه السلام العلمَ إلى الله عزَّ وجلَّ، فاندفع ما قيل: إنَّه لو كان المسؤول عنه ما ذكر من السعادة والشقاوة لأجيبَ ببيان أنَّ من اتَّبع الهدى منهم فقد سَلِم، ومن تولَّى فقد عُذِّبَ حسبما نطقَ به قوله تعالى: «والسلام» إلخ.

وقيل: إنَّه متعلِّقٌ بقوله سبحانه: «إنَّا قد أوحي إلينا» إلخ، أي: إذا كان الأمرُ كذلك فما بال القرون الأولى كذَّبوا ثمَّ ما عذِّبوا؟

وقيل: هو متعلِّقٌ به، والسؤال عن البعث، والضمير في «علمها» للقيامة.

وكلا القولين كما ترى، وعودُ الضمير على القيامة أدهى من أمر التعلُّق وأمرّ.

وقيل: إنَّه متعلِّقٌ بجواب موسى عليه السلام اعتراضاً على ما تضمَّنه من علمه تعالى بتفاصيل الأشياء وجزئياتها المستتبعِ إحاطةَ قدرته جلَّ وعلا بالأشياء كلِّها، كأنه قيل: إذا كان علم الله تعالى كما أشرتَ، فما تقول في القرون الخالية مع كثرتهم وتمادي مدَّتهم وتباعد أطرافهم، كيف إحاطةُ علمه تعالى بهم وبأجزائهم وأحوالهم؟ فأجاب بأنَّ علمه تعالى محيطٌ بذلك كلِّه إلى آخر ما قصَّ الله تعالى.

وتخصيصُ القرون الأولى على هذا بالذكر مع أولوية التعميم، قيل: لعلم فرعون ببعضها، وبذلك يتمكَّنُ من معرفة صدق موسى عليه السلام إنْ بيَّن أحوالها.

وقيل: إنَّه لإلزام موسى عليه السلام وتبكيته عند قومه في أسرع وقتٍ، لزعمه أنَّه لو عمَّم ربَّما اشتغل موسى عليه السلام بتفصيل علمه تعالى بالموجودات المحسوسة الظاهرة، فتطولُ المدَّةُ ولا يتمشَّى ما أراده.

وأيّاً ما كان يسقط ما قيل: إنَّه يأبى هذا الوجهُ تخصيصَ القرون الأولى من بين الكائنات، فإنَّه لو أخذها بجملتها كان أظهر وأقوى في تمشّي ما أراد. نعم بُعد هذا الوجه ممَّا لا ينبغي أن ينكر.

وقيل: إنَّه اعتراضٌ عليه بوجهٍ آخر، كأنَّه قيل: إذا كان ما ذكرت من دليل إثبات المبدأ في هذه الغاية من الظهور، فما بالُ القرون الأولى نسوه سبحانَه ولم يؤمنوا به تعالى، فلو كانت الدلالة واضحةً وجبَ عليهم أنْ لا يكونوا غافلين عنها. ومآله ـ على ما قال الإمام ـ معارضةُ الحجَّة بالتقليد(١).

وقريبٌ منه ما يقال إنَّه متعلِّق بقوله: «ثم هدى» على التفسير الأوَّل، كأنه قيل: إذا كان الأمرُ كذلك فما بال القرون الأولى لم يستدلُّوا بذلك فلم يؤمنوا.

وحاصل الجواب على القولين أنَّ ذلك من سرِّ القدر، وعلمُه عند ربي جلَّ شأنه ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ الظاهرُ أنَّه خبرٌ ثانٍ لـ «علمها»، والخبر الأول: «عند ربِّي».

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٦٦.

وجوّز أن يكونا خبراً واحداً، مثل: هذا حلوٌ حامض. وأن يكون الخبر «عند ربي» و«في كتاب» في موضع الحال من الضمير المستتر في الظرف، أو هو معمول له[1]. وأنْ يكونَ الخبر: «في كتاب»، و«عند ربي» في موضع الحال من الضمير المستتر فيه، والعامل الظرف، وهو يعملُ متأخِّراً على رأي الأخفش.

وقيل: يكون حالاً من المضاف إليه في «علمها». وقيل: يكون ظرفاً للظرف الثاني. وقيل: هو ظرف للعلم. ذكر جميع ذلك أبو البقاء ثم قال: ولا يجوز أن يكون «في كتاب» متعلِّقاً بـ «علمها»، و«عند ربي» الخبر؛ لأنَّ المصدرَ لا يعملُ فيما بعد خبره[2].

وأنت تعلم أنَّ أولَ الأوجُه هو الأوجَه، وكأنَّه عنى عليه السلام بالكتاب اللوح المحفوظ، أي: علمها مثبتٌ في اللوح المحفوظ بتفاصيله، وهذا من باب المجاز، إذ المثبت حقيقةً إنَّما هو النقوش الدالَّة على الألفاظ المتضمِّنة شرحَ أحوالهم المعلومة له تعالى.

وجوِّزَ أنْ يكون المراد بالكتاب الدفتر، كما هو المعروف في اللغة، ويكون ذلك تمثيلاً لتمكُّنه وتقرُّره في علمه عزَّ وجلَّ بما استحفظَه العالمُ وقيَّده بكِتبته في جريدة، ولعلَّه أولى. ويُلوِّح إليه قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ فإنَّ عدم الضلال والنسيان أوفقُ بإتقان العلم.

والظاهر أنَّ فيه على الوجهين دفعَ توهُّم الاحتياج؛ لأنَّ الإثباتَ في الكتاب إنَّما يفعلُه من يفعله لخوف النسيان، والله تعالى منزَّهٌ عن ذلك، والإثبات في اللوح المحفوظ لحِكمٍ ومصالحَ يعلمُ بعضها العالمون.

وقيل: إنَّ هذه الجملة على الأول تكميلٌ لدفع ما يتوهَّم من أنَّ الإثبات في اللوح للاحتياج؛ لاحتمال خطأ أو نسيانٍ، تعالى الله سبحانه عنه، وعلى الثاني تذييلٌ لتأكيد الجملة السابقة، والمعنى: لا يخطىء ربِّي ابتداءً بأن لا يدخلَ شيءٌ من الأشياء في واسع علمه، فلا يكونَ علمه سبحانه محيطاً بالأشياء، ولا يذهبُ

---

(١) أي: معمول للخبر، انظر الإملاء ٢/ ١٢٢.

(٢) الإملاء ٢/ ١٢٢.

عليه شيءٌ بقاءً بأنْ يخرجَ عن دائرة علمه جلَّ شأنُه بعد أن دخَلَ، بل هو عزَّ وجلَّ محيطٌ بكلِّ شيءٍ علماً أزلاً وأبداً. وتفسيرُ الجملتين بما ذكر ممَّا ذهب إليه القفَّال، ووافقه بعضُ المحقِّقين، ولا يخفى حسنه.

وأخرج ابن المنذر وجماعة عن مجاهد أنَّهما بمعنًى واحد[1]. وليس بذاك.

والفعلان قيل: منزَّلان منزلةَ اللازم، وقيل: هما باقيان على تعدِّيهما، والمفعولُ محذوفٌ، أي: لا يضلُّ شيئاً من الأشياء ولا ينساه. وقيل: شيئاً من أحوال القرون الأولى.

وعن الحسن: لا يضلُّ وقتَ البعث ولا ينساه، وكأنَّه جعل السؤال عن البعث، وخصَّص لأجله المفعول. وقد علمت حاله.

وعن ابن عباس أنَّ المعنى: لا يتركُ من كفرَ به حتى ينتقم منه، ولا يتركُ من وحَّده حتى يجازيه. وكأنَّه ـ رضي الله عنه ـ جعلَ السؤال عن حالهم من حيث السعادة والشقاوة، والجواب عن ذلك على سبيل الإجمال، فتدبَّر ولا تغفل.

وزعم بعضهم أنَّ الجملة في موضع الصفة لـ «كتاب»، والعائدُ إليه محذوف، أي: لا يضلُّه ربي ولا ينساه.

وقيل: العائد ضميرٌ مستترٌ في الفعل، و«ربي» نصب على المفعول، أي: لا يضلُّ الكتابُ ربي، أي: عنه، وفي «ينسى» ضمير عائدٌ إليه أيضاً، أي: ولا ينسى الكتابُ شيئاً، أي: لا يدعه على حدِّ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩].

والعجبُ كلُّ العجب من العدول عن الظاهر إلى مثل هذه الأقوال.

وإظهار «ربِّي» في موقع الإضمار للتلذُّذ بذكره تعالى، ولزيادة التقرير والإشعار بعلِّيَّة الحكم، فإنَّ الربوبيَّة ممَّا تقتضي عدمَ الضلال والنسيان حتماً.

وقرأ الحسن وقتادة والجحدريُّ وحمَّادُ بن سلمة وابنُ محيصن وعيسى الثقفيّ: «لا يُضِلُّ» بضمِّ الياء[2]، من أضلَّ وأضللتُ الشيء وضللتُه، قيل: بمعنى.

---

(١) وأخرجه الطبري في تفسيره ١٦/ ٨٣-٨٤.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٤٨، وانظر تفسير القرطبي ١٤/ ٧٨.

وفي «الصحاح» عن ابن السكِّيت يقال: أضللتُ بعيري، إذا ذهبَ منك، وضللتُ المسجد والدار(١) إذا لم تعرف موضعهما، وكذلك كلُّ شيءٍ مقيمٍ لا يُهتدى إليه(٢). وحُكي نحوه عن الفرَّاء(٣) وابن عيسى.

وذكر أبو البقاء في توجيه هذه القراءة وجهين، جعلُ «ربي» منصوباً على المفعوليَّة، والمعنى: لا يُضِلُّ أحدٌ ربي عن علمه، وجعلُه فاعلاً، والمعنى: لا يجدُ ربي الكتابَ ضالًّا، أي: ضائعاً(٤).

وقرأ السلميُّ: «لا يُضَلُّ ربي ولا يُنْسى» ببناء الفعلين لمَا لم يسمَّ فاعلُه(٥).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ إلخ يحتملُ أنْ يكون ابتداءَ كلام منه عزَّ وجلَّ، وكلامُ موسى عليه السلام قد تمَّ عند قوله تعالى: «ولا ينسى»، فيكون الموصول خبر مبتدأ محذوف، والجملة على ما قيل: مستأنفةٌ استئنافاً بيانيّاً، كأنَّه سبحانه لمَّا حكى كلامَ موسى عليه السلام إلى قوله: «لا يضلُّ ربي ولا ينسى» سُئل: ما أراد موسى بقوله: «ربِّي»؟ فقال سبحانه: هو «الذي جعل» إلخ، واختار هذا الإمامُ، بل قال: يجبُ الجزم به(٦).

ويحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام، على أنْ يكون قد سمعَه من الله عزَّ وجلَّ، فأدرجه بعينه في كلامه، ولذا قال: «لكم» دون: لنا، وهو من قبيل الاقتباس، فيكون الموصول إمَّا مرفوع المحلِّ على أنَّه صفةٌ لـ «ربِّي»، أو خبر مبتدأ محذوف كما في الاحتمال السابق، وإمَّا منصوب على المدح، واختار هذا الزمخشريُّ(٧).

وعلى الاحتمالين يكون في قوله تعالى: «فأخرجنا» التفاتٌ بلا اشتباه.

---

(١) في (م): والزاد. والمثبت من الأصل، وهو موافق للصحاح.
(٢) الصحاح (ضلل).
(٣) انظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨١.
(٤) الإملاء ٢/ ١٢٢.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٤٨.
(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ٦٨.
(٧) الكشاف ٢/ ٥٤٠.

أو على أنَّ موسى عليه السلام قال ذلك من عنده غير سامعٍ له من الله عزَّ وجلَّ، وقال: فأخرج به، بإسناد أخرج إلى ضمير الغيبة، إلَّا أنَّ الله تعالى لمَّا حكاه أسنده إلى ضمير المتكلِّم؛ لأنَّ الحاكي هو المحكيُّ عنه، فمرجع الضميرين واحد، وظاهرُ كلام ابن المنير اختيارُ هذا، حيث قال بعد تقريره: وهذا وجهٌ حسن رقيقُ الحاشية، وهو أقربُ الوجوه إلى الالتفات[1].

وأنكر بعضهم أن يكون فيه التفاتٌ.

أو على أنَّه عليه السلام قاله من عنده بهذا اللفظ غير مغيَّرٍ عند الحكاية. وقوله: «أخرجنا» من باب قول خواصِّ الملك: أمرنا وعمرنا وفعلنا، وإنَّما يريدون الملك.

أو هو مسندٌ إلى ضمير الجماعة بإرادة: أخرجنا نحن معاشرَ العباد بذلك الماء بالحراثة أزواجاً من نباتٍ شتَّى، على ما قيل.

وليس في «أخرجنا» على هذا وما قبله التفات.

ويحتمل أنْ يكون ذلك كلامَ موسى عليه السلام إلى قوله تعالى: «ماء»، وما بعده كلامُ الله عزَّ وجلَّ، أوصلَه سبحانه بكلام موسى عليه السلام حين الحكاية لنبيِّنا ﷺ.

والأولى عندي الاحتمالُ الأوَّل، بل يكادُ يكون كالمتعيّن، ثم الاحتمالُ الثاني، ثمَّ الاحتمال الثالث، وسائرُ الاحتمالات ليس بشيء. ووجهُ ذلك لا يكاد يخفى.

وسيأتي إن شاء الله تعالى في «الزخرف» نحو هذه الآية.

والمهد في الأصل مصدر، ثمَّ جعل اسم جنس لما يُمهد للصبيّ، ونصبه على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل» إنْ كان بمعنى صيَّر، أو حالٌ إنْ كان بمعنى خَلَق. والمراد: جعلها لكم كالمهد.

ويجوزُ أنْ يكون باقياً على مصدريَّته غيرَ منقولٍ لما ذكر، والمراد: جعلها ذاتَ مهدٍ، أو ممهّدةً، أو نفسَ المهد مبالغةً.

---

(١) الانتصاف ٢/ ٥٤٠.

وجُوِّز أنْ يكون منصوباً بفعلٍ مقدَّرٍ من لفظه، أي: مهَّدها مهداً، بمعنى بسطها ووطَّأها، والجملةُ حالٌ من الفاعلِ أو المفعول.

وقرأ كثير: «مهاداً»[1]، وهو ـ على ما قال المفضل ـ كالمهد في المصدريَّة والنقل.

وقال أبو عبيد[2]: المهاد اسم، والمهد مصدر.

وقال بعضُهم: هو جمع: مهد، ككَعْب وكِعَاب. والمشهور في جمعه مُهُود. والمعنى على الجمع: جعلَ كلَّ موضعٍ منها مهداً لكلِّ واحدٍ منكم.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: حصَّل لكم طرقاً، ووسَّطها بين الجبال والأودية، تسلكونها من قطرٍ إلى قطر، لتقضوا منها مآربكم، وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها.

وللدلالة على أنَّ الانتفاعَ مخصوصٌ بالإنسان كرَّر «لكم»، وذكره أوَّلاً لبيان أنَّ المقصودَ بالذات من ذلك الإنسانُ.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ﴾ أي: من جهتها، أو منها نفسها، على ما في بعض الآثار ﴿مَآءً﴾ هو المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ أي: بذلك الماء وواسطته، حيثُ إنَّ الله تعالى أودعَ فيه ما أودع ـ كما ذهب إلى ذلك الماتريديَّة وغيرهم من السلف الصالح ـ لكنَّه لا يؤثِّر إلَّا بإذن الله تعالى، كسائر الأسباب، فلا ينافي كونَه عزَّ وجلَّ هو المؤثِّر الحقيقيّ، وإنَّما فعلَ ذلك سبحانه مع قدرته تعالى الكاملة على إيجاد ما شاء بلا توسيط شيءٍ، كما أوجدَ بعض الأشياء كذلك؛ مراعاةً للحكمة.

وقيل: «به» أي: عنده، وإليه ذهب الأشاعرةُ، فالماء كالنار عندهم في أنَّه ليس فيه قوَّةُ الرِّيِّ مثلاً، والنار كالماء في أنَّها ليس فيها قوةُ الإحراق، وإنَّما الفرقُ بينهما في أنَّ الله تعالى قد جرت عادتُه أنْ يخلقَ الرِّيَّ عند شرب الماء، والإحراقَ عند مسيس النار، دون العكس. وزعموا أنَّ من قال: إنَّ في شيءٍ من الأسباب قوة

---

(١) هي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب. انظر التيسير ص١٥١، والنشر ٢/ ٣٢٠.

(٢) كذا في (م) والبحر المحيط ٦/ ٢٥١، وفي الأصل: أبو عبيدة.

تأثيرٍ أودعَها الله تعالى فيه فهو إلى الكفر أقربُ منه إلى الإيمان. وهو لعمري من المجازفة بمكان.

والظاهرُ أن يقال: فأخرجَ، إلّا أنّه التفتَ إلى التكلُّم؛ للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة بواسطة أنّه لا يُسندُ إلى العظيم إلّا أمرٌ عظيم، والإيذان بأنّه لا يتأتّى إلّا من قادرٍ مطاعٍ عظيمِ الشأن ينقادُ لأمره ويُذعِنُ لمشيئته الأشياءُ المختلفة، فإنَّ مثلَ هذا التعبير يعبِّر به الملوكُ والعظماء النافذُ أمرهم. ويقوِّي هذا الماضي الدالُّ على التحقُّق[1]، كالفاء الدالَّة على السرعة، فإنَّها للتعقيب، على ما نصَّ عليه بعضُ المحقِّقين، وجعلَ الإنزال والإخراج عبارتين عن إرادة النزول والخروج معلَّلاً باستحالة مزاولة العمل في شأنه تعالى شأنه.

واعترض عليه بما فيه بحث، ولا يضرُّ في ذلك كونه تعقيباً عرفيّاً، ولم تجعل للسببيَّة؛ لأنَّها معلومةٌ من الباء.

وقال الخفاجيُّ: لك أن تقول: إنَّ الفاءَ لسببيَّة الإرادة عن الإنزال، والباء لسببيَّة النباتِ عن الماء، فلا تكرار، كما في قوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ﴾ [الفرقان:٤٩] ولعلَّ هذا أقرب[2]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ التعقيبَ أظهرُ وأبلغ، وقد ورد على هذا النمطِ من الالتفاتِ للنكتة المذكورة قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل:٦٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩٩].

﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً، أطلق عليها ذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض.

﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ بيانٌ وصفةٌ لـ «أزواجاً»، وكذا قوله تعالى: ﴿شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ أي: متفرِّقة، جمع: شتيت، كمريض ومرضى، وألفه للتأنيث.

---

(١) في (م): التحقيق.

(٢) حاشية الخفاجي ٦/٢٠٨.

وجوَّزَ أبو البقاء أن يكونَ صفةً لـ «نبات»(١)؛ لما أنه في الأصل مصدرٌ يستوي فيه الواحد والجمع، يعني أنَّها شتَّى مختلفةُ النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضُها يصلح للناس، وبعضها للبهائم.

وقالوا: من نعمته عزَّ وعلا أنَّ أرزاق العباد إنَّما تحصلُ بعمل الأنعام، وقد جعلَ الله تعالى علفَها ممَّا يفضلُ عن حاجتهم ولا يقدرون على أكله.

وقوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ﴾ معمول قولٍ محذوف وقعَ حالاً من ضمير «فأخرجنا» أي: أخرجنا أصنافَ النبات قائلين: «كلوا» إلخ، أي: معدِّيها لانتفاعكم بالذات وبالواسطة، آذنين في ذلك. وجوَّز أنْ يكون القول حالاً من المفعول، أي: أخرجنا أزواجاً مختلفةً مقولاً فيها ذلك. والأول أنسبُ وأولى.

و«رعى» ـ كما قال الزَّجَّاج ـ يستعمل لازماً ومتعدِّياً، يقال: رعت الدابَّة رعياً، ورعاها صاحبُها رعايةً، إذا أسامها وسرَّحها وأراحها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكر من شؤونه تعالى وأفعاله، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوِّ رتبته، وبعد منزلته في الكمال. وقيل: لعدم ذكر المشار إليه بلفظه.

والتنكير في قوله سبحانه: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ للتفخيم كمّاً وكيفاً، أي: لآياتٍ كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شؤون الله تعالى في ذاته وصفاته ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾ جمع نُهيَة بضمِّ النون، سمِّيَ بها العقل لنهيه عن اتِّباع الباطل وارتكاب القبيح، كما سُمِّي بالعقل والحِجْر، لعَقله وحَجره عن ذلك. ويجيء النُّهى مفرداً بمعنى العقل، كما في «القاموس»(٢)، وهو ظاهر ما روي عن ابن عباس هنا، فإنَّه قال: أي: لذوي العقل. وفي روايةٍ أخرى عنه أنه قال: لذوي التُّقى. ولعلَّه تفسير باللازم.

وأجاز أبو عليٍّ أنْ يكون مصدراً كالهدى، والأكثرون على الجمع، أي: لذوي العقول الناهية عن الأباطيل.

---

(١) الإملاء ٢/ ١٢٢.

(٢) مادة (نهى).

وتخصيص كونها آيات بهم؛ لأنَّ أَوْجُهَ دلالتها على شؤونه تعالى لا يعلمُها إلَّا العقلاء، ولذا جعل نفعها عائداً إليهم في الحقيقة، فقال سبحانه: «كلوا وارعوا» دون: كلوا أنتم والأنعام.

﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام منها، فإنَّ كلَّ فردٍ من أفرادِ البشر له حظٌّ من خلقه عليه السلام، إذ لم تكن فطرتُه البديعة مقصورةً[١] على نفسه عليه السلام، بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجماليّاً مستتبعاً لجريان آثارها على الكلّ، فكان خَلْقُه عليه السلام منها خلقاً للكلِّ منها.

وقيل: المعنى: خلقنا أبدانكم من النطفة المتولِّدة من الأغذية المتولِّدة من الأرض بوسائط.

وأخرج عبدُ بن حميد وابنُ المنذر عن عطاء الخراسانيّ قال: إنَّ المَلَكَ ينطلقُ فيأخذُ من تراب المكان الذي يُدْفَنُ فيه الشخصُ، فيذرُّه على النطفة، فيخلق من التراب والنطفة[٢].

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء، وهذا وكذا ما بعدُ مبنيٌّ على الغالب، بناءً على أنَّ من الناس من لا يبلى جسدُه كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإيثار كلمة «في» على كلمة «إلى» للدلالة على الاستقرار المديد فيها.

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بتأليف أجزائكم المتفتّتة المختلطةِ بالتراب على الهيئة السابقة، وردِّ الأرواح من مقرِّها إليها. وكونُ هذا الإخراج تارةً أخرى باعتبار أنَّ خلقَهم من الأرض إخراجٌ لهم منها، وإن لم يكن على نهج التارة الثانية، أو التارة في الأصل اسم للتور الواحد، وهو الجريان، ثم أطلق على كلِّ فعلة واحد من الفعلات المتجدِّدة، كما مرَّ في المرَّة.

---

(١) في الأصل: مقصودة. والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢ والكلام منه.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٠٢، وأخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٩٣٤، وابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ٤٠٠، وجاء في هامش الأصل ما نصه: وذكروا أن التراب الذي خلق منه نبينا ﷺ كان من الكعبة، إلَّا أنه نقل في الطوفان إلى محلِّ قبره الشريف عليه الصلاة والسلام. اهـ منه.

وما ألطفَ ذكر[١] قوله تعالى: «منها خلقناكم» إلخ بعد ذكر النبات وإخراجه من الأرض، فقد تضمَّن كلَّ إخراج أجسامٍ لطيفةٍ من الترباء الكثيفة، وخروجُ الأموات أشبهُ شيءٍ بخروج النبات هذا.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿طه﴾ يا طاهراً بنا، هادياً إلينا، أو يا طائف كعبة الأَحَدِيَّة في حرم الهويّة، وهادي الأنفس الزكيَّة إلى المقامات العليَّة. وقيل: إنَّ «ط» لكونها بحساب الجمَّل تسعة، وإذا جمع ما انطوت عليه من الأعداد، أعني: الواحد والاثنين والثلاثة، وهكذا إلى التسعة: بلغ خمسةً وأربعين، إشارةً إلى آدم؛ لأنَّ أعدادَ حروفه كذلك، و«هـ» لكونها بحساب الجمَّل خمسة، وما انطوت عليه من الأعداد يبلغ خمسة عشر، إشارة إلى حوا بلا همز، والإشارةُ بمجموع الأمرين إلى أنَّه ﷺ أبو الخليقة وأمُّها، فكأنَّه قيل: يا من تكوَّنت منه الخليقة، وقد أشار إلى ذلك العارفُ ابن الفارض قُدِّس سرُّه بقوله على لسانِ الحقيقة المحمديَّة:

وإنِّي وإنْ كنت ابنَ آدم صورةً ... فلي منه معنى شاهدٌ بأبوَّتي[٢]

وقال في ذلك الشيخ عبد الغني النابلسي عليه الرحمة:

طه النبيُّ تكوَّنت من نوره ... كلُّ الخليقة[٣] ثم لو ترك الغِطا[٤]

وقيل: ﴿طه﴾ في الحساب أربعة عشر، وهو إشارةٌ إلى مرتبة البدريَّة، فكأنه قيل: يا بدر سماء عالم الإمكان. ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ أي: إلَّا لتذكِّر من يخشى أيَّام الوصال التي كانت قبل تعلُّق الأرواح بالأبدان، وتخبرهم بأنَّها يحصلُ نحوها لهم لتطيبَ أنفسُهم وترتاحَ أرواحُهم، أو لتذكِّرهم إيَّاها ليشتاقوا إليها، وتجري دموعهم عليها، ويجتهدوا في تحصيل ما يكون

(١) لفظة: ذكر، ليست في الأصل.
(٢) ديوان ابن الفارض ص ١٠٥.
(٣) في (م) والديوان: البرية.
(٤) في الأصل و(م): القطا، والمثبت من ديوان النابلسي ٢/ ٢٤٦.

سبباً لعودها، ولله تعالى درُّ من قال:

سقَى الله أيَّاماً لنا وليالياً مضت فجرت من ذكرهنَّ دموعُ
فيا هل لها يوماً من الدهر أوبةٌ وهل لي إلى أرض الحبيب رجوعُ[١]

وقيل: «من يخشى» هم العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، ولمَّا كان العلم مظنة العُجب والفخر ونحوهما ناسبَ أن يذكر صاحبُه عظمةَ الله عزَّ وجلَّ؛ ليكونَ ذلك سوراً له مانعاً من تطرُّق شيءٍ ممَّا ذكر.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ العرشُ: جسمٌ عظيمٌ خلقه الله تعالى ـ كما قيل ـ من نور شعشعانيّ، وجعلَه موضعَ نورِ العقل البسيط الذي هو مشرقُ أنوار القدم، وشرَّفه بنسبة الاستواء الذي لا يكتنه.

وقيل: خلق من أنوارٍ أربعة مختلفة الألوان، وهي أنوار: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، ولذا قيل له: الأطلس. وإلى هذا ذهبت الطائفةُ الحادثة في زماننا المسمَّاة بالكشفيَّة.

وذكر بعضُ الصوفيَّة أنَّ العرشَ إشارةٌ إلى قلب المؤمن الذي نسبةُ العرش المشهور إليه كنسبة الخردلة إلى الفلاة، بل كنسبة القطرةِ إلى البحر المحيط، وهو محلُّ نظرِ الحقِّ، ومنصَّة تجلِّيه، ومهبطُ أمره، ومنزل تدلِّيه، وفي «إحياء العلوم» لحجَّة الإسلام الغزالي: قال الله تعالى: «لم يسعني سمائي ولا أرضي، ووسعني قلبُ عبديَ المؤمن الليِّن الوادع»[٢]، أي: الساكن المطمئن. وفي «الرشدة» لصدر الدين القونويّ قُدِّس سرُّه بلفظ: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلبُ عبديَ المؤمن التقيِّ النقيِّ الوادع»، وليس هذا القلبُ عبارةً عن البُضعة الصنوبريَّة، فإنَّها عند كلِّ عاقلٍ أحقرُ من حيث الصورة أنْ تكونَ محلَّ سرِّه جلَّ وعلا، فضلاً عن أن تسعه سبحانه، وتكونَ مطمحَ نظره الأعلى ومستواه عزَّ شأنه، وهي وإن سمِّيت قلباً فإنَّما تلك التسمية على سبيل المجاز وتسميةِ الصفة والحامل باسم الموصوف والمحمول، بل القلبُ الإنسانيُّ عبارةٌ عن الحقيقة

---

(١) سلفا ١٣/ ٨٠.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ١٥. وسيأتي كلام العراقي عليه.

الجامعة بين الأوصاف والشؤون الربانيَّة وبين الخصائص والأحوال الكونيَّة الروحانيَّة منها والطبيعية، وتلك الحقيقةُ تنتشىء من بين الهيئة الاجتماعية الواقعة بين الصفات والحقائق الإلهية والكونيَّة، وما يشتمل عليه هذان الأصلان من الأخلاق والصفات اللازمة وما يتولَّدُ من بينهما بعد الارتياض والتزكية. والقلبُ الصنوبريُّ منزلُ تدلِّي الصورة الظاهرة من بين ما ذكرنا التي هي صورةُ الحقيقة القلبية، ومعنى وسعِ ذلك للحقِّ جلَّ وعلا ـ على ما في مسلك الوسط الداني ـ كونُه مظهراً جامعاً للأسماء والصفات على وجهٍ لا ينافي تنزيهَ الحقِّ سبحانَه من الحلول والاتحاد، والتجزئة وقيام القديم بالحادث، ونحو ذلك من الأمور المستحيلة عليه تعالى شأنُه، هذا لكن ينبغي أن يُعلَم أنَّ هذا الخبر وإن استفاضَ عند الصوفيَّة قُدِّستَ أسرارهم، إلَّا أنَّه قد تعقَّبه المحدِّثون، فقال العراقيُّ: لم أَرَ له أصلاً[١].

وقال شيخ الإسلام ابنُ تيمية: هو مذكورٌ في الإسرائيليات، وليس له إسنادٌ معروف عن رسول الله ﷺ[٢].

وكأنَّه أشار بما في الإسرائيليات إلى ما أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه قال: إنَّ الله تعالى فتح السماوات لحزقيل حتى نظر إلى العرش، فقال حزقيل: سبحانك ما أعظمَك يا ربّ، فقال الله تعالى: إنَّ السماوات والأرض ضَعُفنَ من أن يسعنني، ووسعني قلبُ عبدي المؤمن الوادع اللين[٣].

نعم لذلك ما يشهدُ له، فقد قال العلامة الشمس ابن القيم في «شفاء العليل» ما نصُّه: وفي «المسند» وغيره عن النبيِّ ﷺ: «القلوبُ آنيةُ الله تعالى في أرضه، فأحبُّها إليه أصلبُها وأرقُّها وأصفاها»[٤]. انتهى.

---

(١) المغني عن حمل الأسفار ٣/ ١٥ (بهامش الإحياء).
(٢) مجموع الفتاوى ١٨/ ١٢٢.
(٣) الزهد ص ١٠٣.
(٤) شفاء العليل ص ٢٠٨، ولم نقف عليه في المسند، وهو مذكور عند كثير من العلماء على أنه من الأثر، كما ذكره ابن القيم نفسه في موضع ثانٍ من شفاء العليل ص ٣٥٠، وفي الروح ص ٥٩٩، وابن تيمية في الفتاوى ٧/ ٣٠.

وروى الطبرانيُّ من حديث أبي عنبة[1] الخولانيِّ رفعه: «إنَّ لله تعالى آنيةً من الأرض، وآنيةُ ربِّكم قلوبُ عباده الصالحين، وأحبُّها إليه ألينُها وأرقُّها» وهذا الحديثُ وإنْ كان في سنده بقيَّة بن الوليد ـ وهو مدلسٌ ـ إلَّا أنَّه صرَّح فيه بالتحديث[2].

ويعلم من مجموع الحديثين أربعُ صفاتٍ للقلب؛ الأحبُّ إليه تعالى اللِّينُ وهو لقبول الحقِّ، والصلابةُ وهي لحفظه، فالمراد بها صفةٌ تجامعُ اللين، والصفاء والرقَّة وهما لرؤيته.

واستواؤه تعالى على العرش بصفة الرحمانيَّة دون الرحيميَّة؛ للإشارة إلى أنَّ لكلِّ أحدٍ نصيباً من واسع رحمته جلَّ وعلا.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قيل: السرُّ أمرٌ كامنٌ في القلب كمونَ النار في الشجر الرطب حتى تثيرَه الإرادة، لا يطَّلع عليه الملَك ولا الشيطان، ولا تحسُّ به النفس، ولا يشعرُ به العقل، والأخفى ما في باطن ذلك.

وعند بعض الصوفية: السرُّ: لطيفةٌ بين القلب والروح، وهو معدنُ الأسرار الروحانيَّة، والخفي: لطيفةٌ بين الروح والحضرة الإلهية، وهو مهبطُ الأنوار الربانيَّة، وتفصيلُ ذلك في محلِّه.

وقد استدلَّ بعضُ الناس بهذه الآية على عدم مشروعيَّة الجهر بالذكر، والحقُّ أنَّه مشروعٌ بشرطه. واختلفوا في أنَّه هل هو أفضلُ من الذكر الخفيِّ، أو الذكرُ الخفيُّ أفضلُ منه، والحقُّ فيما لم يرد نصٌّ على طلب الجهر فيه، وما لم يرد نصٌّ على طلب الإخفاء فيه، أنَّه يختلفُ الأفضل فيه باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان، فيكون الجهرُ أفضلَ من الإخفاء تارةً، والإخفاءُ أفضل أخرى.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۞ إِذْ رَءَا نَارًا﴾ قال الشيخ إبراهيم الكوراني عليه

---

(١) في (م): عنبسة. وهو خطأ، وأبو عنبة الخولاني مختلف في صحبته، قيل: اسمه عبد الله بن عنبة، وقيل: عمارة. وكان يسكن حمص (ت: ١١٨هـ)، انظر تهذيب الكمال ٣٤/ ١٤٩.

(٢) المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٣/ ١٥، والحديث في مسند الشاميين (٨٤٠). إلا أنه ليس فيه تصريح بقية بالتحديث. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٢٦٣.

الرحمة في «تنبيه العقول»: إنَّ تلك النار كانت مجلى الله عزَّ وجلَّ، وتجلِّيه سبحانه فيها مراعاةٌ للحكمة من حيث إنَّها كانت مطلوبَ موسى عليه السلام، واحتجَّ على ذلك بحديث رواه عن ابن عباس ﷺ، وسنذكره إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الآية [النمل:٨].

﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ اترك الالتفاتَ إلى الدنيا والآخرة، وصِر[1] مستغرقَ القلب بالكلِّيَّة في معرفة الله تعالى، ولا تلتفت إلى ما سواه سبحانه.

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وهو وادي قُدس جلال الله تعالى، وتنزُّهِ عزَّته عزَّ وجلَّ.

وقيل: النعلان إشارةٌ إلى المقدمتين اللتين يتركَّبُ منهما الدليل؛ لأنَّهما يَتَوصَّلُ بهما العقلُ إلى المقصود، كالنعلين يلبسُهما الإنسان فيتوصَّل بالمشي بهما إلى مقصوده، كأنه قيل: لا تلتفت إلى المقدِّمتين، ودع الاستدلال، فإنَّك في وادي معرفة الله تعالى المفعم بآثار ألوهيَّته سبحانه.

﴿فَٱعْبُدْنِى﴾ قدَّمَ هذا الأمر؛ للإشارة إلى عظم شرف العبوديَّة، وثنَّى بقوله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ لأنَّ الصلاة من أعلام العبوديَّة ومعارج الحضرة القدسيَّة.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ إيناسٌ منه تعالى له عليه السلام، فإنَّه عليه السلام دهش لمَّا تكلَّم سبحانه معه بما يتعلَّق بالألوهيَّة، فسأله عن شيءٍ بيده ولا يكادُ يغلطُ فيه؛ ليتكلَّمَ ويجيب، فتزولَ دهشته. قيل: وكذلك يعاملُ المؤمن بعد موته، وذلك أنه إذا مات وصل إلى حضرة ذي الجلال، فيعتريه ما يعتريه، فيسأله عن الإيمان الذي كان بيده في الدنيا ولا يكاد يغلطُ فيه، فإذا ذكرَه زال عنه ما اعتراه.

وقيل: إنَّ الله تعالى لمَّا عرَّفه كمالَ الألوهيَّة أراد أن يُعَرِّفه نقصانَ البشريَّة، فسأله عن منافع العصا، فذكر بعضها، فعرَّفه اللهُ تعالى أنَّ فيها ما هو أعظمُ نفعاً ممَّا ذكره؛ تنبيهاً على أنَّ العقول قاصرةٌ عن معرفة صفات الشيء الحاضر، فلولا التوفيق كيف يمكنه الوصولُ إلى معرفة أجلِّ الأشياء وأعظمها؟!

---

(١) في (م): وسر.

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى ظهور أثر الجلال، ولذلك خاف موسى عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فهذا الخوفُ من كمال المعرفة؛ لأنَّه لم يأمن مكر الله تعالى، ولو سبق منه سبحانه الإيناس، وفي بعض الآثار: «يا موسى لا تأمن مكري حتى تجوزَ الصراط»(١).

وقيل: كان خوفُه من فوات المنافع المعدودة، ولذا علّل النهي بقوله تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

وهذا جهلٌ بمقام موسى عليه السلام، وكذا ما قيل: إنَّه لمَّا رأى الأمرَ الهائل فرَّ حيثُ لم يبلغ مقام ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] ولو بلغه لم يفرَّ. وما قيل أيضاً: لعلَّه لما حصلَ له مقامُ المكالمة بقي في قلبه عُجْبٌ، فأراه الله تعالى أنَّه بعدُ في النقص الإمكانيّ، ولم يفارق عالم البشريَّة، وما النصرُ والتثبيتُ إلَّا من عند الله تعالى وحده.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أراد سبحانه أن يريه آيةً نفسيَّةً بعد أن أراه عليه السلام آيةً آفاقية، كما قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، وهذا من نهاية عنايته جلَّ جلاله.

وقد ذكروا في هذه القصة نكاتٍ وإشارات؛ منها: أنَّه سبحانه لمَّا أشار إلى العصا واليمين بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ حصل في كلٍّ منهما برهانٌ باهرٌ ومعجزٌ قاهر، فصار أحدهما وهو الجماد حيواناً، والآخر وهو الكثيف نورانياً لطيفاً، ثمَّ إنه تعالى ينظر في كل يوم ثلاث مئةٍ وستين نظرةً إلى قلب العبد، فأيُّ عَجَبٍ أنْ ينقلبَ قلبُه الجامد المظلم حيّاً مستنيراً.

ومنها: أنَّ العصا قد استعدَّت بيُمنِ يمين موسى عليه السلام للحياة، وصارت حيَّةً، فكيف لا يستعدُّ قلب المؤمن الذي هو بين أصبعين من أصابع الرحمن للحياة، ويصير حيًّا.

ومنها: أنَّ العصا بإشارةٍ واحدةٍ صارت بحيثُ ابتلعت سحر السحرة، فقلبُ المؤمن أولى أنْ يصيرَ بمدد نظر الربِّ في كلِّ يومٍ مرات بحيث تبتلعُ سحرَ النفس الأمَّارة بالسوء.

---

(١) سلف عند تفسير الآية ١٥ من سورة الأنعام.

ومنها: أنَّ قوله تعالى أوَّلاً: «اخلع نعليك» إشارةٌ إلى التخلية وتطهير لوح الضمير من الأغيار، وما بعدَه إشاراتٌ إلى التحلية وتحصيل ما ينبغي تحصيله. وأشار سبحانه إلى علم المبدأ بقوله تعالى: «إنني أنا الله» وإلى علم الوسط بقوله عزَّ وجلَّ: «فاعبدني وأقم الصلاةَ لذكري».

وفيه إشارةٌ إلى الأعمال الجسمانيَّة والروحانيَّة، وإلى علم المعاد بقوله سبحانه: «إنَّ الساعةَ آتيةٌ».

ومنها: أنَّه تعالى افتتحَ الخطاب بقوله عزَّ قائلاً: «وأنا اخترتك» وهو غايةُ اللطف، وختَم الكلامَ بقوله جلَّ وعلا: «فلا يَصدَّنَّك عنها» إلى «فتردى» وهو قهر؛ تنبيهاً على أنَّ رحمته سبقت غضبَه، وأنَّ العبدَ لابدَّ أن يكون سلوكُه على قدمي الرجاء والخوف.

ومنها: أنَّ موسى عليه السلام كان في رجله شيءٌ وهو النعل، وفي يده شيءٌ وهو العصا، والرجلُ آلةُ الهرب، واليد آلة الطلب، فأمرَ بترك ما فيهما تنبيهاً على أنَّ السالك مادام في مقام الطلب والهرب كان مشتغلاً بنفسه وطالباً لحظِّه، فلا يحصلُ له كمالُ الاستغراق في بحر العرفان، وفيه أنَّ موسى عليه السلام مع جلالة منصبه وعلوِّ شأنه لم يمكن له الوصولُ إلى حضرة الجلال حتى خلعَ النعلَ، وألقى العصا، فأنت مع ألف وقرٍ من المعاصي كيف يمكنُك الوصولُ إلى جنابه وحضرته جلَّ جلاله؟!

واستشكلت هذه الآيات من حيثُ إنَّها تدلُّ على أنَّ الله تعالى خاطبَ موسى عليه السلام بلا واسطة، وقد خاطب[1] نبينا ﷺ بواسطة جبريلَ عليه السلام، فيلزمُ مزيَّة الكليم على الحبيب عليهما الصلاة والسلام.

والجواب أنَّه تعالى شأنه قد خاطبَ نبيَّنا ﷺ أيضاً بلا واسطة ليلة المعراج، غاية ما في البال أنَّه تعالى خاطب موسى عليه السلام في مبدأ رسالته بلا واسطة، وخاطب حبيبه عليه الصلاة والسلام في مبدأ رسالته بواسطة، ولا يثبتُ بمجرَّد ذلك المزيَّةُ، على أنَّ خطابه لحبيبه الأكرم ﷺ بلا واسطة كان مع كشف الحجاب ورؤيته

(١) في الأصل: خاطبه.

عليه الصلاة والسلام إيَّاه على وجهٍ لم يحصل لموسى عليه السلام، وبذلك يجبرُ ما يتوهَّمُ في تأخير الخطاب بلا واسطة عن مبدأ الرسالة.

وانظر إلى الفرق بين قوله تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم:١٧] وقوله عن موسى عليه السلام: «قال هي عصاي» إلخ ترى الفرقَ واضحاً بين الحبيب والكليم، مع أنَّ لكلٍّ رتبةَ التكريم صلى الله تعالى عليهما وسلم.

وذكر بعضهم أنَّ في الآيات ما يشعرُ بالفرق بينهما أيضاً عليهما الصلاة والسلام من وجهٍ آخر، وذلك أنَّ موسى عليه السلام كان يتوكَّأ على العصا، والنبيُّ ﷺ كان يتَّكل على فضل الله تعالى ورحمته قائلاً مع أمته: حسبنا الله ونعم الوكيل، ولذا ورد في حقِّه: ﴿حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤]، على معنى: وحسب من اتبعك. وأيضاً إنَّه عليه السلام بدأ بمصالح نفسه في قوله: «أتوكَّأ عليها» ثم مصالح رعيته بقوله: «وأهشُّ بها على غنمي» والنبيُّ ﷺ لم يشتغل إلَّا بإصلاح أمر أمته: «اللهم اهدِ قومي فإنَّهم لا يعلمون»[(١)] فلا جرم يقول موسى عليه السلام يوم القيامة: نفسي نفسي، والنبيُّ ﷺ يقول: «أمَّتي أمَّتي»[(٢)]. انتهى. وهو مأخوذٌ من كلام الإمام بل لا فرق إلَّا بيسيرٍ جدًّا[(٣)].

ولعمري إنَّه لا ينبغي أنْ يُقتدى به في مثل هذا الكلام، كما لا يخفى على ذوي الأفهام، وإنما نقلته لأنبِّه على عدم الاعتداد[(٤)] به، نعوذُ بالله تعالى من الخذلان.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ لم يذكر عليه السلام بِمَ يشرح صدره، وفيه احتمالات، قال بعض الناس: إنَّه تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور:

الأول: ذاتُه جل شأنه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥].

الثاني: الرسولُ ﷺ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ﴾ [المائدة:١٥].

الثالث: الكتاب: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٥٧].

---

(١) سلف ١٣/٣٧١.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/٦.

(٤) في (م): الاغترار.

الرابع: الإيمان: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٢].

الخامس: عدل الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩].

السادس: القمر: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦].

السابع: النهار: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

الثامن: البينات: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤].

التاسع: الأنبياء عليهم السلام: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥].

العاشر: المعرفة: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥].

فكأن موسى عليه السلام قال أولاً:

«رب اشرح لي صدري» بمعرفة أنوار جلال كبريائك.

وثانياً: «ربِّ اشرح لي صدري» بالتخلُّق بأخلاق رسلك وأنبيائك.

وثالثاً: «ربِّ اشرح لي صدري» باتِّباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك.

ورابعاً: «ربِّ اشرح لي صدري» بنور الإيمان والإيقان بإلهيتك.

وخامساً: «ربِّ اشرح لي صدري» بالاطِّلاع على أسرار عدلك في قضائك وحكمك.

وسادساً: «ربِّ اشرح لي صدري» بالانتقال من نور شمسك وقمرك إلى أنوار جلال عزَّتك، كما فعله إبراهيم عليه السلام.

وسابعاً: «ربِّ اشرح لي صدري» من مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل قهرك.

وثامناً: «ربِّ اشرح لي صدري» بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيِّناتك في أرضك وسماواتك.

وتاسعاً: «ربِّ اشرح لي صدري» في أنْ أكون خَلَفَ صدقٍ للأنبياء المتقدِّمين، ومشابهاً لهم في الانقياد لحكم ربِّ العالمين.

وعاشراً: «ربِّ اشرح لي صدري» بأنْ يجعل سراج الإيمان كالمشكاة التي فيها المصباح. انتهى.

ولا يخفى ما بين أكثر ما ذُكر من التلازم، وإغناء بعضه عن بعض.

وقال أيضاً: إنَّ شرح الصدر عبارةٌ عن إيقاد النور في القلب حتى يصير كالسراج، ولا يخفى أنَّ مستوقدَ السراج محتاجٌ إلى سبعة أشياء؛ زند، وحجر، وحرَّاق، وكبريت، ومَسْرَجة، وفتيلة، ودهن، فالزندُ زندُ المجاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والحجرُ حجر التضرُّع ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] والحرَّاق منع الهوى ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] والكبريت الإنابة ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]، والمَسْرَجة الصبر ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، والفتيلة الشكر ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] والدهن الرضا ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] أي: ارضَ بقضائه.

ثمَّ إذا صلحت هذه الأدوات فلا تعوِّل عليها، بل ينبغي أنْ تطلب المقصودَ من حضرة ربِّك جلَّ وعلا قائلاً: «ربِّ اشرح لي صدري» فهنالك تسمع: «قد أوتيت سؤلك يا موسى».

ثمَّ إنَّ هذا النورَ الروحانيَّ أفضلُ من الشمس الجسمانيَّة لوجوه:

الأول: أنَّ الشمسَ يحجبها الغيم، وشمسُ المعرفة لا تحجبها السماوات السبع ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

الثاني: الشمسُ تغيب ليلاً، وشمس المعرفة لا تغيبُ ليلاً ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦] ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

اللـيـلُ لـلـعـاشـقـيـن سـتـر يـا لـيـت أوقـاتـه تـدوم[1]

الثالث: الشمسُ تفنى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، والمعرفة لا تفنى ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

---

(١) ديوان أبي فراس ص ٣٤٤.

الرابع: الشمسُ إذا قابلها القمر انكسفت، وشمس المعرفة، وهي «أشهد أن لا إله إلا الله» إذا لم تقترن بقمر النبوة، وهي: «أشهد أن محمداً رسول الله» لم يصل النور إلى عالم الجوارح.

الخامس: الشمس تسوِّدُ الوجهَ، والمعرفةُ تبيِّض الوجوه ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦].

السادس: الشمس تصدع، والمعرفة تصعد.

السابع: الشمس تحرق، والمعرفة تمنع من الإحراق «جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»(١).

الثامن: الشمس منفعتُها في الدنيا، والمعرفةُ منفعتها في الدارين ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

التاسع: الشمس فوقانيَّة الصورة تحتانيَّة المعنى، والمعارفُ الإلهية بالعكس.

العاشر: الشمس تقع على الوليِّ والعدوّ، والمعرفةُ لا تحصل إلَّا للوليّ.

الحادي عشر: الشمسُ تُعرِّفُ أحوال الخلق، والمعرفة توصل القلب إلى الخالق.

ولـمَّا كان شرح الصدر الذي هو أوَّلُ مراتب الروحانيَّات أشرفَ من أعلى مراتب الجسمانيات، بدأ موسى عليه السلام بطلبه قائلاً: «ربِّ اشرح لي صدري»، وعلامةُ شرح الصدر ودخول النور الإلهيِّ فيه التجافي عن دار الغرور، والرغبة في دار الخلود. وشبَّهوا الصدرَ بقلعةٍ، وجعلوا الأوَّل كالخندق لها، والثاني كالسور، فمتى كان الخندقُ عظيماً والسورُ محكماً عجزَ عسكرُ الشيطان من الهوى والكبر، والعجب والبخل، وسوءِ الظنِّ بالله تعالى، وسائر الخصال الذميمة، ومتى لم يكونا كذلك دخلَ العسكرُ، وحينئذٍ ينحصرُ الملك في قصر القلب، ويضيق الأمرُ عليه.

وفرَّقوا بين الصدر والقلب والفؤاد واللبِّ، بأنَّ الصدرَ مقرُّ الإسلام ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الزمر:٢٢] والقلبَ مقرُّ الإيمان ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى

---

(١) الحديث فيه ضعف، وسلف ١٦/ ١٤٩.

قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] والفؤاد مَقرُّ المشاهدة ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] واللبُّ مقامُ التوحيد ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩] أي: الذين خرجوا من قشر الوجود المجَازي، وبقوا بلبِّ الوجود الحقيقيّ.

وإنما سأل موسى عليه السلام شرح الصدر دون القلب؛ لأنَّ انشراحَ الصدر يستلزمُ انشراح القلب دون العكس، وأيضاً شرحُ الصدر كالمقدمة لشرح القلب:

والحرُّ تكفيه الإشارة[1]

فإذا علم المولى سبحانه أنَّه طالبٌ للمقدمة، فلا يليق بكرمه أنْ يمنعه النتيجة.

وأيضاً إنَّه عليه السلام راعى الأدب في الطلب، فاقتصر على طلب الأدنى، فلا جرمَ أعطي المقصود، فقيل: «قد أوتيت سؤلك يا موسى» ولمَّا اجترأ في طلب الرؤية، قيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ولا يخفى ما بين قول موسى عليه السلام لربّه عز وجل: «ربِّ اشرح لي صدري» وقول الربِّ لحبيبه ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] ويعلم منه أنَّ الكليم عليه السلام مريدٌ، والحبيب ﷺ مراد، والفرق مثل الصبح ظاهر.

ويزيد الفرق ظهوراً أنَّ موسى عليه السلام في الحضرة الإلهية طلب لنفسه، ونبيُّنا ﷺ حين قيل له هناك: السلامُ عليك أيها النبيُّ، قال: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[2]، وقد أطال الإمام الكلام في هذه الآية بما هو من هذا النمط، فارجع إليه إن أردته[3].

---

(١) عجز بيت للفلتان الفهمي، كما نسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٣٧، وصدره:

العبد يقرع بالعصا

قال الأستاذ عبد السلام هارون في تعليقه على هذا الموضع: وصوابه: الصلتان الفهمي.

(٢) أخرج البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢) عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً: «فإذا صلى أحدكم فليقل: . . .السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإذا قالها أصابت كل عبد في السماء والأرض. . .».

(٣) انظر تفسير الرازي ٢٢/ ٣٨-٤٥.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ كأنَّه عليه السلام طلب قدرةَ التعبير عن الحقائق الإلهية بعبارةٍ واضحة، فإن المطلبَ وَعْرٌ لا يكاد توجد له عبارةٌ تسهِّله حتى يأمَن سامعه عن العثار، ولذا ترى كثيراً من الناس ضلُّوا بعباراتِ بعض الأكابر من الصوفيَّة في شرح الأسرار الإلهية.

وقيل: إنَّه عليه السلام سأل حلَّ عقدة الحياء، فإنَّه استحيا أنْ يخاطب عدوَّ الله تعالى بلسان به خاطب الحقَّ جلَّ وعلا، ولعلَّه أرادَ من القول المضاف القولَ الذي به إرشادُ العباد، فإنَّ همَّة العارفين لا تطلبُ النطق والمكالمة مع النَّاس فيما لا يحصلُ به إرشادٌ لهم، نعم النطقُ من حيث هو فضيلةٌ عظيمةٌ، وموهبةٌ جسيمةٌ، ولهذا قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنسَانَ ③ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤] من غير توسيط عاطف.

وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: ما الإنسانُ لولا اللسان إلَّا صورةٌ مصوَّرةٌ، أو بهيمةٌ مهمَلةٌ.

وقال ﷺ: المرءُ مخبوءٌ تحتَ طيِّ لسانه لا طيلسانه.

وقال ﷺ: المرءُ بأصغريه قلبه ولسانه.

وقال زهير:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه فلم يبق إلَّا صورةُ اللحم والدمِ[1]

ومن الناس من مدح الصمت لأنَّه أسلم:

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانه وليس يموتُ المرء من عثرة الرِّجْلِ[2]

وفي نوابغ الكلم: قِ فاكَ لا يقرع قفاك.

والإنصافُ أنَّ الصمتَ في نفسه ليس بفضيلةٍ؛ لأنَّه أمرٌ عدميٌّ، والنطق[3] في

(١) جمهرة أشعار العرب ١/ ٣٠٠، وشرح الزوزني على المعلقات ص ١٥٩. واختلف في نسبته، فنسبه بعضهم للأعور الشني، ونسبه البعض لزياد الأعجم، وقيل غير ذلك. انظر البيان والتبيين ١/ ١٧٠-١٧١، والحماسة البصرية ٢/ ٨٢، والإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٤٤.

(٢) هو منسوب لعلي بن أبي طالب ﷺ، كما في ديوانه ص ٨٢.

(٣) في (م): والمنطق.

نفسه فضيلة، لكن قد يصيرُ رذيلةً لأسبابٍ عرضيَّة، فالحقُّ ما أشارَ إليه ﷺ بقوله: «رحم الله تعالى امرأً قال خيراً فغنم، أو سكتَ فسلم»[1].

وذكر في وجه عدم طلبه عليه السلام الفصاحة الكاملة أنَّها نصيبُ الحبيب عليه الصلاة والسلام، فقد كان ﷺ أفصحَ من نطق بالضاد، فما كان له أن يطلبَ ما كان له.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ فيه إشارةٌ إلى فضيلة التعاون في الدين، فإنَّه من أخلاق المرسلين عليهم صلوات الله تعالى وسلامه أجمعين. والوزارةُ المتعارفة بين الناس ممدوحةٌ إنْ زرع الوزيرُ في أرضها ما لا يندمُ عليه وقتَ حصاده بين يدي ملك الملوك.

وفيه إشارةٌ أيضاً إلى فضيلة التوسُّط بالخير للمستحقِّين لا سيما إذا كانوا من ذوي القرابة:

ومن منع المستوجبين فقد ظلم[2]

وفي تقديم موسى عليه السلام مع أنَّه أصغر سنّاً على هارون عليه السلام مع أنَّه الأكبر دليلٌ على أنَّ الفضلَ غيرُ تابعٍ للسنّ، فالله تعالى يختصُّ بفضله من يشاء.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ في ختم الأدعية بذلك من حسن الأدب مع الله تعالى ما لا يخفى، وهو من أحسن الوسائل عند الله عزَّ وجلَّ، ومن آثار ذلك استجابةُ الدعاء.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٧٠٦) من حديث أبي أمامة ﷺ.
وأخرجه القضاعي (٥٨٢)، والبيهقي في الشعب (٤٩٣٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ.
وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٣٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٨١) من حديث الحسن مرسلاً.
وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٨٠)، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الصمت (٦٤) من حديث ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن رسول الله ﷺ، وهو معضل. قال الألباني في الصحيحة ٢/ ٥١١: فالحديث عندي حسن بمجموع هذه الطرق، والله أعلم.

(٢) عجز بيت نسب للإمام الشافعي، وهو في ديوانه ص١٦٦، وصدره:
وقد مَنَحَ الجهَّال علماً أضاعه

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ تذكيرٌ له عليه السلام بما يزيدُ إيقانَه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه تعالى لا يَردُّ بعد القبول، ولا يحرمُ بعد الإحسان، ومن هنا قيل: إذا دخلَ الإيمانُ القلب أمن السلب، وما رجعَ من رجع إلَّا من الطريق.

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ أفردتك لي بالتجريد، فلا يشغلك عني شيءٌ.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أشير بذلك إلى خدمته لشعيب عليه السلام، وذلك تربيةٌ منه تعالى له بصحبة المرسلين؛ ليكون متخلقاً بأخلاقهم، متحلِّياً بآدابهم، صالحاً للحضرة. ولصحبة الأخيار نفعٌ عظيمٌ عند الصوفية، وبعكس ذلك صحبة الأشرار.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ وذلك زمان كمال الاستعداد، ووقتُ بعثة الأنبياء عليهم السلام، وهو زمن بلوغهم أربعين سنة، و: «من بلغ الأربعين ولم يَغْلِب خيرُه على شرِّه فَلْيَتُنُحْ على نفسه، وليتجهَّز إلى النار»[(١)].

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ جاوزَ الحدَّ في المعصية حتى ادَّعى الربوبيَّة، وذلك أثرُ سكر القهر الذي هو وصف النفس الأمَّارة، ويقابله سكر اللطف وهو وصف الروح، ومنه ينشأ الشطح ودعوى الأنانية، قالوا: وصاحبُه معذورٌ، وإلَّا لم يكن فرقٌ بين الحلَّاج مثلاً وفرعون. وأهلُ الغيرة بالله تعالى يقولون: لا فرق.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى تعليم كيفيَّة الإرشاد، وقال النهرجوريّ[(٢)]: إنَّ الأمر بذلك لأنَّه أحسَنَ إلى موسى عليه السلام في ابتداء الأمر، ولم يكافئه.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ إشارة إلى الهياكل وأقفاص بلابل الأرواح، وإلَّا فالأرواحُ أنفسها من عالم الملكوت، وقد أشرقت على هذه الأشباح ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٢٢، وانظر اللآلئ المصنوعة ١/ ١٢٦.

(٢) هو إسحاق بن محمد، أبو يعقوب، الأستاذ العارف الصوفي، صحب الجنيد وعمرو بن عثمان المكي، وجاور مدَّة، ومات بمكة سنة ثلاثين وثلاث مئة. السير ١٥/ ٢٣٢-٢٣٣.

وقد تأوَّل بعضُ أهل التأويل هذه القصة والآيات على ما في الأنفس، وهو مشربٌ قد تركناه إلَّا قليلاً، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

❁ ❁ ❁

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ حكايةٌ أخرى إجماليَّةٌ لما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون عليه اللعنة. وتصديرُها بالقَسَم لإبراز كمال العناية بمضمونها.

والإراءة من الرؤية البصريَّة المتعدِّية إلى مفعولٍ واحد، وقد تعدَّت إلى ثانٍ بالهمزة، أو من الرؤية القلبية بمعنى المعرفة، وهي أيضاً متعدِّية إلى مفعولٍ واحد بنفسها، وإلى آخر بالهمزة، ولا يجوز أن تكون من الرؤية بمعنى العلم المتعدِّي إلى اثنين بنفسه وإلى ثالثٍ بالهمزة؛ لما يلزمه من حذف المفعول الثالث من الإعلام. وهو غير جائز.

وإسناد الإراءة إلى ضمير العظمة نظراً إلى الحقيقة لا إلى موسى عليه السلام نظراً إلى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها، وإظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في الطغيان. وهذا الإسناد يقوِّي كونَ ما تقدَّم من قوله تعالى: «الذي» إلخ من كلامه عزَّ وجلَّ، أي: بالله لقد بصَّرنا فرعون أو عرَّفناه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ حين قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠٦-١٠٨] وصيغةُ الجمع مع كونهما اثنتين إمَّا لأنَّ إطلاقَ الجمع على الاثنين شائعٌ ـ على ما قيل ـ أو باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الأمور التي كلٌّ منها آيةٌ بيِّنةٌ لقومٍ يعقلون، وقد ظهر عند فرعون أمورٌ أخر كلٌّ منها داهيةٌ دهياء، فإنَّه روي أنَّه عليه السلام لمَّا ألقاها انقلبت ثعباناً أشعر فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض، والأعلى على سور القصر، فتوجَّه نحو فرعون فهرب وأحدثَ، فانهزمَ الناس مزدحمين، فمات منهم خمسةٌ وعشرون ألفاً من قومه، فصاح فرعون: يا موسى أنشدك بالذي أرسلك إلَّا أخذتَه، فأخذه فعاد عصاً.

وقد تقدَّم نحوه عن وهب بن منبِّه، وروي أنَّها انقلبت حيَّة ارتفعت في السماء

قدر ميل، ثم انحطَّت مقبلةً نحو فرعون، وجعلت تقول: يا موسى مرني بما شئت، ويقول فرعون: أنشدك.. إلخ.

ونزعَ يده من جيبه، فإذا هي بيضاء للناظرين بياضاً نورانيّاً خارجاً عن حدود العادات، قد غلب شعاعُه شعاع الشمس، يجتمعُ عليه النَّظَّارة تعجُّباً من أمره.

ففي تضاعيف كلٍّ من الآيتين آياتٌ جمَّةٌ، لكنَّها لمَّا كانت غير مذكورةٍ صريحاً أكِّدت بقوله تعالى: ﴿كُلَّهَا﴾ كأنَّه قيل: أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتها وتفاصيلها قصداً إلى بيان أنَّه لم يبق في ذلك عذرٌ ما، والإضافة ـ على ما قُرِّر ـ للعهد.

وأدرج بعضُهم فيها حلَّ العقدة، كما أدرجه فيها في قوله تعالى: «اذهب أنت وأخوك بآياتي».

وقيل: المراد بها آيات موسى عليه السلام التسع، كما روي عن ابن عباس فيما تقدَّم، والإضافة للعهد أيضاً.

وفيه أنَّ أكثرها إنَّما ظهرَ على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرةَ على مهل في نحوٍ من عشرين سنة. ولا ريبَ في أنَّ أمرَ السحرة مترقَّبٌ بعد.

وعدَّ بعضهم منها ما جعل لإهلاكهم لا لإرشادهم إلى الإيمان، من فلق البحر، وما ظهر من بعد مهلِكه من الآيات الظاهرة لبني إسرائيل من نتق الجبل، والحجر الذي انفجرت منه العيون.

وعدَّ آخرون منها الآيات الظاهرة على أيدي الأنبياء عليهم السلام، وحملوا الإضافة على استغراق الأفراد.

وبنى الفريقان ذلك على أنَّه عليه السلام قد حكى جميع ما ذكر لفرعون، وتلك الحكاية في حكم الإظهار والإراءة؛ لاستحالة الكذب عليه عليه السلام.

ولا يخفى أنَّ حكايتَه عليه السلام تلك الآيات ممَّا لم يجر لها ذكرٌ ها هنا مع أنَّ ما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ من حمل ما أظهره عليه السلام على السحر والتصدِّي للمعارضة بالمثل ممَّا يبعد ذلك جدّاً.

وأبعد من ذلك كلِّه إدراج ما فصَّله عليه السلام من أفعاله تعالى الدالَّة على اختصاصه سبحانه بالربوبيَّة وأحكامها في الآيات.

وقيل: الإضافة لاستغراق الأنواع، و«كل» تأكيدٌ له، أي: أريناه أنواع آياتنا كلها، والمراد بالآيات المعجزات وأنواعها، وهي ـ كما قال السخاويُّ[1] ـ ترجعُ إلى إيجادِ معدومٍ، أو إعدام موجودٍ، أو تغييره مع بقائه. وقد أرى اللعينَ جميع ذلك في العصا واليد.

وفي الانحصارِ نظرٌ؛ ومع الإغماض عنه لا يخلو ذلك عن بعد.

وزعمت الكشفيةُ أنَّ المرادَ من الآيات عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، أظهرَه الله تعالى لفرعون راكباً على فرس، وذكروا من صفتها ما ذكروا، والجمعُ كما في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وظهورُ بطلانه يغني عن التعرُّض لردِّه.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ﴾ للتعقيب، والمفعول محذوفٌ، أي: فكذَّب الآيات أو موسى عليه السلام من غير تردُّدٍ وتأخير ﴿وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ أي: قبول الآيات، أو الحقّ، أو الإيمان والطاعة، أي: امتنعَ عن ذلك غايةَ الامتناع. وكان تكذيبُه وإباؤه عند الأكثرين جحوداً واستكباراً، وهو الأوفقُ بالذَّمِّ.

ومن فسَّر «أرينا» بـ: عرَّفنا، وقدَّر مضافاً، أي: صحَّة آياتنا، وقال: إنَّ التعريفَ يوجبُ حصولَ المعرفة، قال بذلك لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفيَّةِ تكذيبه وإبائه. والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، وزعم أنَّه أمرٌ محال، والمجيء إمَّا على حقيقته، أو بمعنى الإقبال على الأمر والتصدِّي له، أي: أجئتنا من مكانك الذي كنتَ فيه بعد ما غِبت عنَّا، أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما أظهرتَه من السحر، وهذا ممَّا لا يصدرُ عن عاقل لكونه من باب محاولة المحال.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وفي حاشية الشهاب ٦/ ٢٠٩، وعنه نقل المصنف: السخاوندي.

وإنَّما قال ذلك ليحملَ قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام بإبراز أنَّ مرادَه ليس مجرَّد إنجاءِ بني إسرائيل من أيديهم، بل إخراج القبط من وطنهم، وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكليَّة، حتى لا يتوجَّهَ إلى اتِّباعه أحدٌ، ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة، إذ الإخراجُ من الوطن أخو القتل، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦].

وسمَّى ما أظهرَه الله تعالى من المعجزة الباهرة سحراً؛ لتجسيرهم على المقابلة، ثم ادَّعى أنَّه يعارضه بمثله فقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، واللَّام واقعةٌ في جواب قَسَمٍ محذوف، كأنه قيل: إذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحرٍ مثل سحرك.

﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: وعداً، على أنَّه مصدرٌ ميميٌّ، وليس باسم زمانٍ ولا مكان؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّ قوله تعالى: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ صفةٌ له، والضمير المنصوب عائدٌ إليه، ومتى كان زماناً أو مكاناً لزمَ تعلُّق الإخلاف بالزمان أو المكان، وهو إنَّما يتعلَّق بالوعد، يقال: أخلفَ وعدَه، لا زمانَ وعدِه ولا مكانه، أي: لا نخلفُ ذلك الوعد.

﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ وإنَّما فوَّض اللعينُ أمرَ الوعد إلى موسى عليه السلام للاحتراز عن نسبته إلى ضعف القلب، وضيق الحال، وإظهار الجلادة، وإراءة أنَّه متمكنٌ من تهيئة أسباب المعارضة، وترتيب آلات المغالبة، طالَ الأمدُ أم قَصُرَ، كما أنَّ تقديمَ ضميره على ضمير موسى عليه السلام، وتوسيطَ كلمة النفي بينهما؛ للإيذان بمسارعته إلى عدم الإخلاف، وأنَّ عدم إخلافه لا يوجبُ عدمَ إخلافه عليه السلام، ولذلك أكَّد النفي بتكرير حرفه.

وقرأ أبو جعفر وشيبة: «لا نخلفْه» بالجزم، على أنَّه جوابُ الأمر، أي: إن جعلتَ ذلك لا نخلفه(١).

﴿مَكَانًا سُوًى ۝٥٨﴾ أي: منصفاً بيننا وبينك، كما روي عن مجاهد وقتادة، أي: محلًّا واقعاً على نصف المسافة بيننا سواءً بسواء. وهذا معنى قول أبي عليٍّ: قُرْبُه

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٥٣، وقراءة أبي جعفر ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٠.

منكم كقربه منّا[1]. وعلى ذلك قول الشاعر:

وإنَّ أبانا كان حلَّ بأهله سوًى بين قيسٍ قيسِ غيلان[2] والفِزْرِ[3]

أو: محلَّ نَصَف، أي: عدل، كما روي عن السدِّيِّ؛ لأنَّ المكانَ إذا لم يترجَّح قربُه من جانب على آخر كان معدلاً بين الجانبين.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنَّه قال: أي: مكاناً مستوياً من الأرض، لا وَعْرَ فيه ولا جبل ولا أكمة ولا مطمئن؛ بحيث يسترُ الحاضرين فيه بعضهم عن بعض، ومرادُه: مكاناً يتبيَّنُ الواقفون فيه، ولا يكون فيه ما يسترُ أحداً منهم ليُرى كلُّ ما يصدرُ منك ومن السحرة.

وفيه من إظهار الجلادة وقوة الوثوق بالغلبة ما فيه.

وهذا المعنى عندي حسنٌ جدّاً، وإليه ذهب جماعة.

وقيل: المعنى: مكاناً تستوي حالُنا فيه، وتكون المنازل فيه واحدة، لا تعتبرُ فيه رياسة، ولا تؤدى سياسة، بل يتحد هناك الرئيسُ والمرؤوس، والسائس والمسوس. ولا يخلو عن حسن، وربما يرجع إلى معنى مَنْصَفاً، أي: محلَّ نَصَفٍ وعدل.

وقيل: «سوى» بمعنى «غير»، والمراد: مكاناً غير هذا المكان. وليس بشيء؛ لأن «سوى» بهذا المعنى لا تُستعمل إلَّا مضافةً لفظاً، ولا تقطع عن الإضافة.

وانتصاب «مكاناً» على أنَّه مفعولٌ به لفعلٍ مقدَّر يدلُّ عليه «موعداً»، أي: عِد مكاناً، لا لـ «موعداً»، لأنَّه ـ كما قال ابن الحاجب[4] ـ: مصدرٌ قد وُصِف، والمنصوبُ بالمصدر من تتمَّته، ولا يوصف الشيء إلَّا بعد تمامه، فكان كوصف الموصول قبلَ تمام صلته. وهو غير سائغ.

---

(١) انظر الحجة ٥/ ٢٢٤.

(٢) كذا في الأصل و(م) والبحر المحيط ٦/ ٢٥٣، وعنه نقل المصنف. وفي المصادر الأخرى: عيلان.

(٣) البيت لموسى بن جابر، وهو في مجاز القرآن ٢/ ٢٠، والأغاني ١١/ ٣١٧، وخزانة الأدب ١/ ٣٠٢ باختلاف يسير، وانظر تفسير القرطبي ١٤/ ٨٤.

(٤) في أماليه ١/ ٢٤٧.

وعن بعض النحاة أنَّه يجوزُ وصفُ المصدر قبل العمل مطلقاً. وهو ضعيف.

وقال ابن عطية: يجوز وصفه قبل العمل إذا كان المعمول ظرفاً لتوسُّعهم فيه ما لم يتوسَّعوا في غيره[١].

ومن هنا جوَّز بعضُهم أنْ يكون «مكاناً» منصوباً على الظرفية بـ «موعداً». ورُدَّ بأنَّ شرط النصب على الظرفيَّة مفقودٌ فيه، فقد قال الرضيُّ: يشترط في نصب «مكاناً» على الظرفيَّة أن يكون في عامله معنى الاستقرار في الظرف، كقمتُ وقعدتُ وتحركتُ مكانك، فلا يجوز نحو: كتبتُ الكتابة مكانك، وقتلته وشتمته مكانك.

وتُعقب بأنَّ ما ذكره الرضيُّ غير مسلَّم، إذ لا مانع من قولك لمن أراد التقرُّب منك ليكلِّمك: تكلَّم مكانك.

نعم لا يطَّردُ حسن ذلك في كلِّ مكان.

ويجوز أن يكون ظرفاً لقوله تعالى: «لا نخلفه»، على أنَّه مضمَّنٌ معنى المجيء أو الإتيان.

وجُوِّزَ أن يكون ظرفاً لمحذوف وقع حالاً من فاعل «نخلفه»، ويقدّر كوناً خاصًّا؛ لظهور القرينة، أي: آتين أو جائين مكاناً.

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو: «سِوًى» بكسر السين والتنوين وصلاً[٢]. وقرأ باقي السبعة بالضم والتنوين كذلك، ووقف أبو بكر وحمزة والكسائي بالإمالة. وورش وأبو عمرو بين بين[٣].

وقرأ الحسن في روايةٍ كباقي السبعة، إلَّا أنَّه لم ينوِّن وقفاً ووصلاً[٤]. وقرأ عيسى كالأوَّلين، إلَّا أنَّه لم ينوِّن وقفاً ووصلاً أيضاً[٥].

---

(١) انظر المحرر الوجيز ٤/ ٤٨-٤٩.

(٢) وهي أيضاً قراءة الكسائي. انظر التيسير ص ١٥١، والنشر ٢/ ٣٢٠.

(٣) التيسير ص ١٥١.

(٤) القراءات الشاذة ص ٨٨، والمحتسب ٢/ ٥٢، وتفسير القرطبي ١٤/ ٨٣، والبحر المحيط ٦/ ٢٥٣.

(٥) القراءات الشاذة ص ٨٨، والبحر المحيط ٦/ ٢٥٣.

ووجهُ عدم التنوين في الوصل إجراؤه مجرى الوقف في حذف التنوين. والضمُّ والكسر ـ كما قال محيي السنة وغيره ـ لغتان في «سوى»، مثل عُدًا وعِدًا[1].

وذكر بعض أهل اللغة أنَّ فعلاً بكسر الفاء مختصٌّ بالأسماء الجامدة، كعنب، ولم يأت منه في الصفة إلَّا عِدًا جمع عدو، وزاد الزمخشريُّ: سوى، وغيرُه: رِوًى بمعنى مرو. وقال الأخفش: «سوى» مقصورٌ إنْ كسرتَ سينه أو ضممت، وممدودٌ إن فتحت؛ ففيه ثلاثُ لغات، ويكون فيها جميعاً بمعنى «غير»، وبمعنى عَدْل ووسط بين الفريقين.

وأعلى اللغات ـ على ما قال النحَّاس ـ «سوى» بالكسر[2].

﴿قَالَ﴾ أي: موسى عليه السلام، قال في «البحر»: وأبعدَ من قال: إنَّ القائل فرعون[3]. ولعمري إنَّه لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه، وكأنَّ الذي اضطرَّ قائلَه الخبرُ السابق عن وهب بن منبه. فليتذكر.

﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ هو يوم عيدٍ كان لهم في كلِّ عام، يتزيَّنون فيه ويزيِّنون أسواقَهم، كما روي عن مجاهد وقتادة.

وقيل: يوم النيروز، وكان رأسَ سنتهم.

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه يوم عاشوراء[4]. وبذلك فُسِّر في قوله ﷺ: «من صام يومَ الزينة أدركَ ما فاته من صيام تلك السنة، ومن تصدَّق يومئذٍ بصدقةٍ أدركَ ما فاته من صدقة تلك السنة»[5].

وقيل: يوم كسر الخليج، وفي «البحر»[6] أنَّه باقٍ إلى اليوم.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٢١، وانظر تفسير الطبري ١٦/ ٨٨-٨٩، وتفسير القرطبي ١٤/ ٨٣. ووقع في الأصل: هُدًى وهِدًى.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٥٤.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٠٣.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٠٣ من حديث عبد الله بن عمرو، وعزاه لابن المنذر، وهو في جامع الأحاديث (٢٢٢٤٩) وعزاه للديلمي.

(٦) ٦/ ٢٥٤.

وقيل: يوم سوقٍ لهم. وقيل: يوم السبت، وكان يوم راحةٍ ودَعَةٍ فيما بينهم، كما هو اليوم كذلك بين اليهود، وظاهر صنيع أبي حيَّان اختيارُ أنه يومُ عيدٍ صادف يوم عاشوراء، وكان يوم سبت[١].

والظاهر أنَّ الموعد ها هنا اسمُ زمان للإخبار عنه بـ «يوم الزينة»، أي: زمانُ وعدكم اليومُ المشتهر فيما بينكم، وإنَّما لم يصرِّح عليه السلام بالوعد بل صرَّح بزمانه، مع أنَّه أولُ ما طلبَه اللعين منه عليه السلام؛ للإشارة إلى أنَّه عليه السلام أرغبُ منه فيه؛ لما يترتَّب عليه من قطع الشبهة وإقامة الحجَّة، حتى كأنَّه وقع منه عليه السلام قبل طلبه إيَّاه، فلا ينبغي له طلبه، وفيه إيذانٌ بكمال وثوقه من أمره، ولذا خَصَّ عليه السلام من بين الأزمنة يومَ الزينة الذي هو يومٌ مشهود، وللاجتماع معدود، ولم يذكر عليه السلام المكان الذي ذكره اللعين؛ لأنَّه بناء على المعنى الأول والثالث فيه إنَّما ذكره اللعين إيهاماً للتفضُّل عليه عليه السلام، يريدُ بذلك إظهار الجلادة، فأعرض عليه السلام عن ذكره مكتفياً بذكر الزمان المخصوص، للإشارة إلى استغنائه عن ذلك، وأنَّ كلَّ الأمكنة بعد حصول الاجتماع بالنسبة إليه سواء.

وأمَّا على المعنى الثاني فيحتمل أنَّه عليه السلام اكتفى عن ذلك بما يستدعيه يوم الزينة، فإنَّ من عادة الناس في الأعياد في كلِّ وقتٍ وكلِّ بلدٍ الخروجُ إلى الأمكنة المستوية والاجتماع في الأرض السهلة التي لا يمنعُ فيها شيءٌ عن رؤية بعضهم بعضاً.

وبالجملة فقد أخرج عليه الصلاة والتسليم جوابَه على الأسلوب الحكيم، ولله تعالى دَرُّ الكليم ودُرُّه النظيم.

وقيل: الموعدُ ها هنا مصدرٌ أيضاً، ويقدَّر مضاف لصحة الإخبار، أي: وعدكم وعدُ يوم الزينة، ويكتفى عن ذكر المكان بدلالة «يوم الزينة» عليه.

وقيل: الموعد في السؤال اسم مكان، وجعلُه مخلفاً على التوسُّع، كما في قوله:

---

(١) البحر ٦/ ٢٥٤.

ويـومـاً شـهـدنـا[1] . . . .

أو الضمير في «لا نخلفه» للوعد الذي تضمَّنه اسمُ المكان، على حدِّ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٨]، أو للموعد بمعنى الوعد على طريق الاستخدام. والجملة في الاحتمالين معترضة.

ولا يجوزُ أن تكون صفةً، إذ لا بدَّ في جملة الصفة من ضميرٍ يعودُ على الموصوف بعينه، والقول بحذفه ليس بشيء، و«مكاناً» ـ على ما قال أبو عليٍّ[2] ـ مفعولٌ ثانٍ لـ «اجعل»، وقيل: بدل أو عطف بيان.

والموعد في الجواب اسم زمان، ومطابقةُ الجواب من حيث المعنى، فإنَّ «يوم الزينة» يدلُّ على مكانٍ مشتهرٍ باجتماع الناس فيه يومئذٍ، أو هو اسمُ مكانٍ أيضاً، ومعناه مكان وقوع الموعود به، لا مكان لفظ الوعد كما توهم، ويُقدَّر مضافٌ لصحة الإخبار، أي: مكان يوم الزينة، والمطابقةُ ظاهرة.

وقيل: الموعد في الأول مصدرٌ، إلَّا أنَّه حُذف منه المضاف، أعني: مكان، وأقيم هو مقامه، ويجعل «مكاناً» تابعاً للمقدَّر أو مفعولاً ثانياً.

وفي الثاني إمَّا اسمُ زمانٍ، ومعناه: زمان وقوع الموعود به، لا لفظ الوعد، كما يرشد إليه قوله:

قـالـوا الـفـراق فـقـلـت مـوعـده غـد[3]

والمطابقة معنويَّة.

وإمَّا اسم مكان، ويقدَّر مضافٌ في الخبر، والمطابقة ظاهرةٌ كما سمعت.

وإمَّا مصدرٌ أيضاً ويقدَّر مضافان؛ أحدُهما في جانب المبتدأ، والآخر في جانب الخبر، أي: مكان وعدكم مكان يوم الزينة، وأمر المطابقة لا يخفى.

---

(١) البيت بتمامه:

ويـومـاً شـهـدنـاه سـلـيـمـاً وعـامـراً   قـلـيـلاً سوى طعـن الـنِّـهـال نـوافـلـهْ

وسلف ١/ ٢٨٤.

(٢) انظر الحجة للقراء السبعة ص ٢٢٤-٢٢٦.

(٣) أورده الخفاجي في حاشيته ٦/ ٢١٠ دون نسبة.

وقيل: يقدَّر في الأول مضافان، أي: مكان إنجاز وعدكم، أو مضافٌ واحدٌ لكن تعتبر[(١)] الإضافة لأدنى ملابسة، والأظهر تأويلُ المصدر بالمفعول، وتقدير مضافٍ في الثاني، أي: موعودكم مكان يوم الزينة، وهو مبنيٌّ على توهُّمٍ باطلٍ أشرنا إليه.

وقيل: هو في الأول والثاني اسم زمان، و«لا نخلفه» من باب الحذف والإيصال، والأصل: لا نخلفُ فيه، و«مكاناً» ظرف لـ «اجعل»، وإلى هذا أشار في «الكشف»، فقال: لعلَّ الأقربَ مأخذاً أن يجعل المكانُ مخلفاً على الاتساع، والطباق من حيث المعنى، أو المعنى: اجعل بيننا وبينك في مكانٍ سوى منصف[(٢)] زمانٍ وعد لا نخلفُ فيه، فالمطابقةُ حاصلةٌ لفظاً ومعنًى، و«مكاناً» ظرف لغو. انتهى.

واعترض بما لا يخفى ردُّه على من أحاطَ خُبراً بأطراف كلامنا، وأنت تعلمُ أنَّ الاحتمالات في هذه الآية كثيرةٌ جدّاً، والأولى منها ما هو أوفقُ بجزالة التنزيل مع قلَّة الحذف، والخلوّ عن نزع الخُفِّ قبل الوصول إلى الماء. فتأمَّل.

وقرأ الحسنُ والأعمش، وعاصم في روايةٍ، وأبو حيوة وابنُ أبي عبلة، وقتادة والجحدريُّ، وهبيرة والزعفرانيُّ: «يومَ الزينة» بنصب «يوم»[(٣)]، وهو ظاهرٌ في أنَّ المرادَ بالموعد المصدرُ؛ لأنَّ المكانَ والزمان لا يقعان في زمانٍ؛ بخلاف الحدث؛ أمَّا الأول، فلأنَّه لا فائدةَ فيه لحصوله في جميع الأزمنة، وأمَّا الثاني: فلأنَّ الزمانَ لا يكون ظرفاً للزمان ظرفيَّةً حقيقيَّةً؛ لأنَّه يلزمُ حلولُ الشيء في نفسه، وأمَّا مثل: ضحى اليوم في اليوم، فهو من ظرفيَّة الكلِّ لأجزائه، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّة، وما نحن فيه ليس من هذا القبيل، كذا قيل، وفيه منعٌ ظاهر.

وقيل: إنَّه يستدلُّ بظاهر ذلك على كون الموعد أولاً مصدراً أيضاً؛ لأنَّ الثاني عينُ الأول لإعادة النكرة معرفةً، وفي «الكشف»: لعلَّ الأقرب مأخذاً على هذه

---

(١) في (م): تصير.

(٢) في حاشية الشهاب ٦/ ٢١٠: منتصف.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٥٤، وانظر المحتسب ٢/ ٥٣، وتفسير القرطبي ١٤/ ٨٥. وقراءة عاصم المشهورة عنه كقراءة الجمهور.

القراءة أنْ يجعل الأوَّلُ زماناً، والثاني مصدراً، أي: وعدكم كائنٌ يوم الزينة. والجوابُ مطابقٌ معنًى دون تكلُّف، إذ لا فرقَ بين زمان الوعد يوم كذا رفعاً، وبين الوعد يوم كذا نصباً في الحاصل، بل هو من الأسلوب الحكيم لاشتماله على زيادة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ عطفٌ على «الزينة». وقيل: على «يوم». والأول أظهرُ؛ لعدم احتياجه إلى التأويل.

وانتصب «ضحى» على الظرف، وهو ارتفاعُ النهار، ويؤنَّثُ ويذكَّر، والضَّحاء بفتح الضاد ممدودٌ مذكَّر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى.

وجوِّز على القراءة بنصب «يوم» أن يكون «موعدكم» مبتدأ بتقدير وقتٍ مضافٍ إليه، على أنَّه من باب: أتيتك خفوقَ النجم، والظرف متعلِّق به، و«ضحى» خبره، على نية التعريف فيه؛ لأنَّه ضحى ذلك اليوم بعينه، ولو لم يعرَّف لم يكن مطابقاً لمطلبهم، حيث سألوه عليه السلام موعداً معيَّناً لا يخلف وعده.

وقيل: يجوز أن يكون الموعدُ زماناً، و«ضحًى» خبره، و«يوم الزينة» حالاً مقدَّماً، وحينئذٍ يُستغنى عن تعريف ضحى. وليس بشيء. ثمَّ إنَّ هذا التعريف بمعنى التعيين معنًى، لا على معنى جعل «ضحى» أحدَ المعارف الاصطلاحية كما قد يتوهَّم.

وقال الطيبيُّ: قال ابن جنِّي: يجوزُ أن يكون «أن يحشر» عطفاً على الموعد، كأنَّه قيل: إنجازُ موعدكم وحشرُ الناس ضحى في يوم الزينة، وكأنَّه جَعَلَ الموعدَ عبارةً عمَّا يتجدَّد[1] في ذلك اليوم من الثواب والعقاب وغيرهما سوى الحشر، ثمَّ عَطفَ الحشرَ عليه عطفَ الخاصِّ على العام. اهـ. وهو كما ترى.

وقرأ ابنُ مسعود والجحدريُّ وأبو عمران الجونيُّ وأبو نهيك وعمرو بن فائد[2]: «تَحشُر الناسَ» بتاء الخطاب، ونصب «الناس»[3]، والمخاطَبُ بذلك

(١) في مطبوع المحتسب ٢/ ٥٣: يتحدد.
(٢) في (م) والأصل: قائد، والمثبت هو الصواب.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٥٤، وانظر القراءات الشاذة ص ٨٨.

فرعون، وروي عنهم أنَّهم قرؤوا بياء الغيبة ونصب «الناس»[(١)]، والضمير في «يَحشر» على هذه القراءة، إمَّا لفرعون، وجيء به غائباً على سنن الكلام مع الملوك، وإمَّا لليوم، والإسناد مجازيّ، كما في: صام نهاره، وقال صاحب «اللوامح»: الفاعلُ محذوفٌ للعلم به، أي: وأن يَحشر الحاشرُ الناسَ.

وأنت تعلم أنَّ حذفَ الفاعل في مثل هذا لا يجوز عند البصريين، نعم قيل في مثله: إنَّ الفاعلَ ضميرٌ يرجعُ إلى اسم الفاعل المفهوم من الفعل.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أي: انصرف عن المجلس. وقيل: تولَّى الأمر بنفسه. وليس بذاك. وقيل: أعرض عن قبول الحقِّ. وليس بشيء.

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أي: ما يُكاد به من السحرة وأدواتهم، أو ذوي كيده.

﴿ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾ أي: الموعدَ ومعه ما جمعه. وفي كلمة التراخي إيماءٌ إلى أنَّه لم يُسارع إليه، بل أتاه بعد بطءٍ وتلعثم.

ولم يذكر سبحانه إتيان موسى عليه السلام بل قال جلَّ وعلا: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ للإيذان بأنَّه أمرٌ محقَّقٌ غنيٌّ عن التصريح به، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، كأنه قيل: فماذا صنع موسى عليه السلام عند إتيان فرعون بمن جمعه من السحرة؟ فقيل: قال لهم بطريق النصيحة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تَدعوا آياته التي ستظهرُ على يديَّ سحراً كما فعل فرعون ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أي: يستأصلَكم بسبب ذلك ﴿بِعَذَابٍ﴾ هائلٍ لا يُقَادر قدره.

وقرأ جماعةٌ من السبعة وابن عباس: «فيَسحَتكم» بفتح الياء والحاء من الثلاثي على لغة أهل الحجاز[(٢)]. والإسحاتُ لغة نجدٍ وتميم، وأصلُ ذلك استقصاء الحلقِ للشعر، ثمَّ استعمل في الإهلاك والاستئصال مطلقاً.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾ أي: على الله تعالى كائناً من كان بأيِّ وجهٍ كان، فيدخلُ فيه الافتراء المنهيُّ عنه دخولاً أوَّليًّا، أو: قد خابَ فرعون المفتري، فلا تكونوا

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٥٤، وانظر القراءات الشاذة ص ٨٨، والمحتسب ٢/ ٥٤.

(٢) هي قراءة نافع وشعبة عن عاصم وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو من السبعة. وقرأ بها من باقي العشرة أبو جعفر، وروح عن يعقوب. انظر التيسير ص ١٥١، والنشر ٢/ ٣٢٠.

مثلَه في الخيبة وعدم نجح الطِّلبة، والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبلها.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ﴾ أي: السحرةُ حين سمعوا كلامَه عليه السلام، كأنَّ ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿أَمْرَهُم﴾ الذي أريد منهم[١] من مغالبته عليه السلام، وتشاوروا وتناظروا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في كيفيَّة المعارضة، وتجاذَبوا أهدابَ القول في ذلك ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ بالغوا في إخفاء كلامِهم عن[٢] موسى وأخيه عليهما السلام؛ لئلَّا يقفا عليه فيدافعاه.

وكان نجواهم ـ على ما قاله جماعةٌ منهم الجبائيُّ وأبو مسلم ـ ما نطقَ به قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: بطريق التناجي والإسرار ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ إلخ، فإنَّه تفسيرٌ لذلك، ونتيجةُ التنازع، وخلاصةُ ما استقرَّت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور.

وقيل: كان نجواهم أنْ قالوا حين سمعوا مقالةَ موسى عليه السلام: ما هذا بقول ساحر، وروي ذلك عن محمد بن إسحاق.

وقيل: كان ذلك أنْ قالوا: إنْ غلبَنَا موسى اتَّبعناه، ونقل ذلك عن الفرَّاء والزَّجَّاج[٣].

وقيل: كان ذلك أنْ قالوا: إنْ كان هذا ساحراً فسنغلبُه، وإنْ كان من السماء فله أمر، وروي ذلك عن قتادة.

وعلى هذه الأقوال يكونُ المراد من «أمْرَهم» أمرَ موسى عليه السلام، وإضافتُه إليهم لأدنى ملابسة، لوقوعه فيما بينهم واهتمامهم به، ويكون إسرارهم من فرعون وملئه، ويحملُ قولهم: «إنْ هذان لساحران» إلخ على أنَّهم اختلفوا فيما بينهم من الأقاويل المذكورة، ثمَّ استقرَّت[٤] آراؤهم على ذلك، وأبَوا إلَّا المناصبةَ للمعارضة.

وهو كلامٌ مستأنفٌ استئنافاً بيانيّاً، كأنَّه قيل: فماذا قالوا للناس بعد تمام التنازع؟ فقيل: «قالوا إنْ هذان» إلخ.

---

(١) قوله: أريد منهم. ليس في الأصل.
(٢) في (م): من.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٦١.
(٤) في الأصل: استقلّت.

وجَعْلُ الضمير في «قالوا» لفرعون وملئه على أنَّهم قالوا ذلك للسحرة ردّاً لهم عن الاختلاف، وأمراً بالإجماع والإزماع وإظهار الجلادة، مخلٌّ بجزالة النظم الكريم، كما يشهد به الذوق السليم.

نعم لو جُعِل ضميرُ «تنازعوا» والضمائر الذي بعدَه لهم ـ كما ذهب إليه أكثر المفسرين أيضاً ـ لم يكن فيه ذلك الإخلال.

و«إنْ» مخففةٌ من «إنَّ»، وقد أهملت عن العمل، واللام فارقة.

وقرأ ابن كثير بتشديد نون «هذانِّ»[1]، وهو على خلاف القياس؛ للفرق بين الأسماء المتمكِّنة وغيرها.

وقال الكوفيون: «إن» نافية، واللام بمعنى «إلَّا»، أي: ما هذان إلَّا ساحران، ويؤيِّده أنَّه قُرئ كذلك، وفي روايةٍ عن أبيّ أنَّه قرأ: «إنْ هذان إلَّا ساحران»[2]. وقُرِئ: «إن ذان» بدون هاء التنبيه «إلَّا ساحران» وعزاها ابن خالويه إلى عبد الله[3]، وبعضُهم إلى أبيّ[4]، وهي تؤيِّدُ ذلك أيضاً.

وقرئ: «إنْ ذان لساحران» بإسقاط هاء التنبيه فقط[5].

وقرأ أبو جعفر والحسنُ وشيبة والأعمش وطلحة وحميد وأيوب وخلف في اختياره وأبو عبيد وأبو حاتم وابن عيسى الأصبهانيّ وابن جرير وابن جُبير الأنطاكي والأخوان والصاحبان من السبعة[6]: «إنَّ» بتشديد النون، «هذان» بألف ونون خفيفة[7].

---

(١) التيسير ص ١٥١، والنشر ٢/ ٣٢١.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٦١.
(٣) القراءات الشاذة ص ٨٨.
(٤) كالفراء في معاني القرآن ٢/ ١٨٤، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٤٣.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٥٥.
(٦) قراءة الأخوين ـ حمزة والكسائي ـ والصاحبين ـ نافع وابن عامر ـ في التيسير ص ١٥١، والنشر ٢/ ٣٢٠-٣٢١. وقرأ بها من السبعة أيضاً عاصم في رواية أبي بكر.
(٧) البحر المحيط ٦/ ٢٥٥، وقراءة أبي جعفر وخلف في اختياره في النشر ٢/ ٣٢٠-٣٢١ وقرأ بها من العشرة أيضاً يعقوب.

واستشكلت هذه القراءة حتى قيل: إنَّها لحنٌ وخطأ؛ بناءً على ما أخرجَه أبو عبيد في «فضائل القرآن» عن هشام بن عروة عن أبيه قال: سألت عائشةَ رضي الله عنها عن لحن القرآن، عن قوله تعالى: (إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ)، وعن قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢] وعن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة ٦٩] فقالت: يا ابن أخي، هذا عملُ الكتَّاب، أخطؤوا في الكتاب[١].

وإسنادُه صحيحٌ على شرط الشيخين كما قال الجلال السيوطي[٢].

وهذا مشكلٌ جدّاً، إذ كيف يُظَنُّ بالصحابة أوّلاً أنَّهم يلحنون في الكلام، فضلاً عن القرآن، وهم الفصحاء اللُّدُّ، ثمَّ كيف يظنُّ بهم ثانياً الغلطُ في القرآن الذي تلقَّوه من النبيِّ ﷺ كما أنزل، ولم يألوا جهداً في حفظه وضبطه وإتقانه، ثمَّ كيف يظنُّ بهم ثالثاً اجتماعُهم كلِّهم على الخطأ وكتابته، ثمَّ كيف يظنُّ بهم رابعاً عدمُ تنبههم ورجوعهم عنه، ثمَّ كيف يظنُّ خامساً الاستمرارُ على الخطأ، وهو مرويٌّ بالتواتر خلفاً عن سلف، ولو ساغَ مثلُ ذلك لارتفعَ الوثوق بالقرآن.

وقد خُرِّجَت هذه القراءةُ على وجوه:

الأول: أنَّ «إن» بمعنى «نعم»، وإلى ذلك ذهبَ جماعةٌ منهم المبرِّد والأخفش الصغير، وأنشدوا قوله:

بكر العواذل في الصَّبو ح يلمنني وألومُهنَّه
ويقلنَ شيبٌ قد عَلا ك وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّه[٣]

والجيدُ الاستدلالُ بقول ابن الزبير رضي الله عنهما لمن قال له: لعنَ الله ناقةً حملتني إليك: إنَّ وراكبَها، إذ قد قيل في البيت: إنَّا لا نُسلِّم أنَّ «إن» فيه بمعنى «نَعَمْ»، والهاء للسكت، بل هي الناصبة، والهاء ضميرٌ منصوبٌ بها، والخبر محذوفٌ،

(١) فضائل القرآن ص ١٦١، وأخرجه أيضاً الفراء في معاني القرآن ١/ ١٠٦، وابن أبي داود في المصاحف (١١٣)، والطبري ٧/ ٦٨٠-٦٨١.
(٢) في الإتقان ١/ ٥٨٥.
(٣) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ٦٦. والبيت الأول فيه:
بَكَرَتْ عليَّ عواذلي يَلحينني وألومهنَّهْ

أي: إنَّه كذلك، ولا يصحُّ أن يقال: إنَّها في الخبر كذلك وحُذِف الجزآن؛ لأنَّ حذفَ الجزأين جميعاً لا يجوز.

وضُعِّفَ هذا الوجهُ بأنَّ كونها بمعنى «نَعَمْ» لم يثبت، أو هو نادر، وعلى تقدير الثبوت من غير نُدرة ليس قبلها ما يقتضي جواباً حتى تقعَ «نعم» في جوابه، والقولُ بأنَّهُ يفهم من صدر الكلام أنَّ منهم من قال: هما ساحران، فصُدِّق وقيل: نعم. بعيدٌ. ومثله القولُ بأنَّ ذلك تصديقٌ لما يُفهم من قول فرعون: «أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى».

وأيضاً إنَّ لام الابتداء لا تدخلُ على خبر المبتدأ.

وأجيب عن هذا بأنَّ اللام زائدةٌ، وليست للابتداء كما في قوله:

أمُّ الحُلَيْسِ لعجوزٌ شَهْرَبَهْ ترضَى من اللحم بعظمِ الرقَبَهْ[1]

أو بأنَّها داخلةٌ على مبتدأ محذوف، أي: لهما ساحران، كما اختارهُ الزَّجَّاج، وقال: عرضتُه على عالمنا وشيخنا وأستاذنا محمد بن يزيد ـ يعني المبرِّد ـ والقاضي إسماعيل بن إسحاق بن حمَّاد فقبلاه، وذكرا أنَّه أجودُ ما سمعناه في هذا[2].

أو بأنَّها دخلت بعد «إن» هذه لشبهها بـ «أن» المؤكدة لفظاً، كما زيدت «أنْ» بعد «ما» المصدرية لمشابهتها للنافية في قوله:

ورَجِّ الفتى للخير ما إن رأيته على السنِّ خيراً لا يزال يزيد[3]

ورُدَّ الأوَّل بأنَّ زيادتها في الخبر خاصَّةٌ بالشعر، وما هنا محلُّ النزاع، فلا يصحُّ الاحتجاج به كما توهَّم النيسابوريّ[4]، وزيَّف الثاني أبو عليٍّ في «الإغفال» بما خلاصتُه: إنَّ التأكيد فيما خيف لبسه، فإذا بلغ به الشهرة الحذفَ استُغني لذلك عن التأكيد، ولو كان ما ذُكر وجهاً لم يُحمل نحو: لعجوزٌ شهربه، على الضرورة،

---

(١) أورده البغدادي في خزانة الأدب ١٠/ ٣٢٢. وقال: قال العيني: قائله رؤبة بن العجاج [وهو في ملحقات ديوانه ص١٧٠]، ونسبه الصاغاني في العباب إلى عنترة بن عروش. اهـ. والشهربة: العجوز الكبيرة.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٦٣.

(٣) هو للمعلوط بن بدل القريعي، كما في اللسان (أنن)، وشرح أبيات المغني للبغدادي ١/ ١١٤. والبيت من شواهد سيبويه، وهو في كتابه ٤/ ٢٢٢ دون نسبة.

(٤) في غرائب القرآن ١٦/ ١٣٨.

ولا تقاس على «أنَّ» حيث حذف معها الخبر في:

إنَّ مَــحَــلًّا وإنَّ مـــرتــحَــلا[1]

وإن اجتمعا في التأكيد؛ لأنَّها مشبَّهةٌ بـ «لا» وحَمْلُ النقيض على النقيض شائعٌ، وابن جنِّي[2] بأنَّ الحذف من باب الإيجاز، والتأكيدَ من باب الإطناب، والجمع بينهما محالٌ للتنافي.

وأجيب: بأنَّ الحذفَ لقيام القرينة والاستغناء غيرُ مسلَّم، والتأكيدَ لمضمون الجملة لا للمحذوف، والحمل في البيت ممكنٌ أيضاً، واقتصارهم فيه على الضرورة ذهولٌ، وكم ترك الأوَّل للآخر، واجتماع الإيجاز والإطناب مع اختلاف الوجه غيرُ محال، وأصدق شاهدٍ على دخول اللام في مثل هذا الكلام ما رواه الترمذيُّ وأحمد وابن ماجه: «أغبطُ أوليائي عندي لمؤمنٌ خفيفُ الحاذِ»[3].

نعم لانزاعَ في شذوذ هذا الحذف استعمالاً وقياساً[4].

الثاني: أنَّ «إن» من الحروف الناصبة، واسمها ضمير الشأن، وما بعدُ مبتدأ وخبر، والجملةُ خبرها، وإلى ذلك ذهب قدماء النحاة.

وضُعِّفَ بأنَّ ضميرَ الشأن موضوعٌ لتقوية الكلام، وما كان كذلك لا يناسبُه الحذف، والمسموع من حذفه كما في قوله:

إنَّ مـن لام فـي بـنـي بـنـت حـسا ... ن أَلُـمْـهُ وأعـصِـه فـي الـخـطـوبِ[5]

(١) هو صدر بيت للأعشى الكبير، وهو في ديوانه ص ٢٨٣، وعجزه:

وإنَّ فـي الـسَّـفْـرِ مـا مـضـى مَـهَـلا

(٢) أي: زيف ابن جني... وانظر كلامه في سر صناعة الإعراب ١/ ٣٨٠-٣٨١.

(٣) سنن الترمذي (٢٣٤٧)، ومسند أحمد (٢٢١٦٧)، وسنن ابن ماجه (٤١١٧) من حديث أبي أمامة ﷺ.

(٤) من قوله: نعم، إلى هنا ليس في الأصل.

(٥) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٣٨٥، وصدره فيه:

مـن يـلـمـنـي عـلـى بـنـي ابـنـة حـسـان

قال عبد القاهر البغدادي في الخزانة ٥/ ٤٢٢: وعليه لا شاهد فيه. اهـ.وهو من شواهد سيبويه في الكتاب ٣/ ٧٢.

وقوله:

إنَّ من يدخلِ الكنيسة يوماً   يَلْقَ فيها جآذراً وظباءَ[(١)]

ضرورةٌ أو شاذٌّ، إلّا في باب «أنَّ» المفتوحة إذا خُفِّفت، فاستسهلوه لوروده في كلامٍ بُني على التخفيف، فحذف تبعاً لحذف النون، ولأنَّه لو ذكر لوجبَ التشديد، إذ الضمائر تردُّ الأشياءَ إلى أصولها، ثم يردُ بحثُ دخول اللام في الخبر، وإن التزمَ تقديرُ مبتدأ داخلة هي عليه، فقد سمعت ما فيه من الجرح والتعديل.

الثالث: أنَّها الناصبة، و«هاء» ضمير القصة اسمُها، وجملة «ذان لساحران» خبرها.

وضُعِّفَ بأنَّه يقتضي وصلَ «ها» بـ «أنْ» مع[(٢)] إثبات الألف، وفصل «ها» من «ذان» في الرسم، وما في المصحف ليس كذلك، ومع ذلك يردُ بحثُ دخول اللام.

الرابع: أنَّ «إنَّ» ملغاةٌ وإن كانت مشدَّدة حملاً لها على المخففة، وذلك كما أُعمِلت المخفَّفةُ حملاً لها عليها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ [هود:١١١] أو حطّاً لرتبتها عن الفعل؛ لأنَّ عملَها ليس بالأصالة، بل بالشبه له، وما بعدها مبتدأ وخبر، وإلى ذلك ذهب عليُّ بن عيسى.

وفيه أنَّ هذا الإلغاء لم يرَ في غير[(٣)] هذا الموضع، وهو محلُّ النزاع، وبحثُ اللام فيه بحاله.

الخامس ـ وهو أجودُ الوجوه وأوجهُها، واختاره أبو حيَّان[(٤)] وابن مالك والأخفش[(٥)] وأبو عليّ الفارسيّ[(٦)] وجماعةٌ ـ: أنَّها الناصبة، واسمُ الإشارة اسمها،

---

(١) نسبه ابن السيد البطليوسي في الحلل ص ٢٨٧، والسيوطي في شرح شواهد المغني ١/ ١٢٢ للأخطل. ولم نقف عليه في ديوانه من رواية السكري، وكذا قال البغدادي في الخزانة ١/ ٤٥٨، والجآذر جمع جُؤذر، وهو ولد البقرة.

(٢) في (م): من.

(٣) لفظة: غير، ليست في الأصل.

(٤) في البحر المحيط ٦/ ٢٥٥.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٦٢٩.

(٦) في الحجة ٥/ ٢٣١.

واللام لام الابتداء، و«ساحران» خبرها؛ ومجيءُ اسم الإشارة بالألف مع أنه منصوب جارٍ على لغة بعضِ العرب من إجراء المثنى بالألف دائماً، قال شاعرهم:

واهاً لريَّا ثُمَّ واهاً واها ... يا ليتَ عيناها لنا وفاها
وموضعَ الخلخال من رجلاها ... بثمنٍ نرضي به أباها[1]

وقال الآخر:

وأطرقَ إطراقَ الشجاع ولو يرى ... مساغاً لناباه الشجاعُ لصمَّمَا[2]

وقالوا: ضربته بين أذناه، و: من يشتري الخفَّان؟

وهي لغةٌ لكنانة، حكى ذلك أبو الخطاب، ولبني الحارث بن كعب وخثعم وزبيد وأهل تلك الناحية، حَكى ذلك الكسائيُّ. ولبني العنبر وبني الهيجم ومراد وعذرة.

وقال أبو زيد: سمعتُ من العرب من يقلبُ كلَّ ياءٍ ينفتحُ ما قبلها ألفاً[3]، وابن الحاجب يقول: إن «هذان» مبنيٌّ لدلالته على معنى الإشارة. وإنَّ قول الأكثرين: «هذين» جرّاً ونصباً ليس إعراباً أيضاً. قال ابن هشام: وعلى هذا فقراءةُ «هذان» أقيسُ، إذ الأصلُ في المبنيِّ أنْ لا تختلف صيغتُه، مع أنَّ فيها ألفاً لمناسبة[4] «ساحران»[5]. اهـ.

وأمَّا الخبرُ السابق عن عائشة، فقد أجاب عنه ابن أشته، وتبعه ابن جبارة في «شرح الرائية»: بأنَّ قولها: أخطؤوا، على معنى أخطؤوا في اختيار الأولى من

---

(١) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص ٢٢٧. وانظر خزانة الأدب الشاهد التاسع والخمسون بعد الخمس مئة.

(٢) هو للمتلمس بن عبد المسيح الضبعي. كما في الأصمعيات ص ٢٤٦، والشعر والشعراء ١/ ١٨٠، ومختارات ابن الشجري ص ٢٩، والمؤتلف والمختلف ص ٩٥. ونسبه ابن السيد في الحلل ص٢٨٥ لعمرو بن شأس الأسدي. ووقع عند الأصمعي وابن الشجري: لنابيه.

(٣) النوادر ص ٥٨.

(٤) في (م): مناسبة لألف.

(٥) مغني اللبيب ١/ ٥٨.

الأحرف السبعة؛ لجمع الناس عليه، لا أنَّ الذين كتبوا من ذلك خطأً لا يجوز، فإنَّ ما لا يجوز من كلِّ شيءٍ مردودٌ بالإجماع، وإنْ طالت مدَّةُ وقوعه، وبنحو هذا يجاب عن أخبارٍ رويت عنها أيضاً وعن ابن عباس في هذا الباب تُشكِلُ ظواهرها. ثمَّ أخرج[١] عن إبراهيم النخعيّ أنَّه قال: «إنَّ هذان لساحران»، و«إن هذين لساحران» سواء؛ لعلَّهم كتبوا الألف مكان الياء، يعني أنَّه من إبدال حرف في الكتابة بحرف كما وقع في صلاة وزكاة وحياة[٢]. ويرد على هذا أنَّه إنَّما يحسنُ لو كانت القراءةُ بالياء في ذلك.

ثم أنت تعلم أنَّ الجوابَ المذكور لا يحسمُ مادة الإشكال؛ لبقاء تسمية عروة ذلك في السؤال لحناً، اللهمَّ إلَّا أن يقال: أراد باللحن اللغة، كما قال ذلك ابن أشته في قول ابن جبير المرويِّ عنه بطريق[٣] في ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢] هو لحنٌ من الكاتب، أو يقال: أراد به اللحن بحسب بادئ الرأي. وابنُ الأنباريِّ جنحَ إلى تضعيف الروايات في هذا الباب ومعارضتها بروايات أخر عن ابن عباس وغيره تدلُّ على ثبوت الأحرف التي قيل فيها ما قيل في القراءة.

ولعلَّ الخبر السابق الذي ذكر أنَّه صحيح الإسناد على شرط الشيخين داخلٌ في ذلك، لكن قال الجلالُ السيوطيُّ: إنَّ الجوابَ الأول الذي ذكره ابنُ أشته أولى وأقعد[٤].

وقال العلماء[٥]، فيما أخرجه ابن الأنباريِّ وغيرُه عن عكرمة قال: لما كتبتِ المصاحفُ عُرضت على عثمان، فوجد فيها حروفاً من اللحن، فقال: لا تغيِّروها فإنَّ العرب ستغيِّرها، أو قال: ستعربُها[٦] بألسنتها، لو كان الكاتبُ من ثقيف

---

(١) أي: ابن أشتة. انظر الإتقان ١/ ٥٨٨.
(٢) لفظة: وحياة. ليست في الأصل.
(٣) في (م): بطرق.
(٤) الإتقان ١/ ٥٨٥.
(٥) في الأصل و(م): العلاء. وهو تحريف. وأثبتنا الصواب من الإتقان ١/ ٥٨٥. وعنه نقل المصنف.
(٦) في الأصل و(م): ستقرؤها. والمثبت من الإتقان، وفضائل القرآن لأبي عبيد ص٢٠٤-٢٠٥، والأثر مخرج فيه.

والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف: إنَّ ذلك لا يصحُّ عن عثمان، فإنَّ إسنادَه ضعيفٌ مضطربٌ منقطع.

والذي أجنح أنا إليه - والعاصم هو الله تعالى - تضعيف جميع ما ورد ممَّا فيه طعنٌ بالمتواتر، ولم يقبل تأويلاً ينشرحُ له الصدر ويقبله الذوق، وإن صحَّحه من صحَّحه، والطعنُ في الرواة أهونُ بكثيرٍ من الطعن في الأئمة الذين تلقوا القرآن العظيم الذي وصلَ إلينا بالتواتر من النبيِّ ﷺ، ولم يألوا جهداً في إتقانه وحفظه.

وقد ذكر أهل المصطلح أنَّ مما يدركُ به وضعُ الخبر ما يؤخذُ من حال المرويِّ، كأنْ يكون مناقضاً لنصِّ القرآن، أو السنَّة المتواترة، أو الإجماع القطعيّ، أو صريح العقل، حيث لا يَقبل شيءٌ من ذلك التأويل، أو لم يحتمل سقوط شيءٍ منه يزولُ به المحذور، فلو قال قائلٌ بوضع بعض[1] هاتيك الأخبار لم يبعد، والله تعالى أعلم.

وقرأ أبو عمرو: «إنَّ هذين» بتشديد نون «إنَّ»، وبالياء في «هذين»[2]. وروي ذلك عن عائشة والحسن والأعمش والنخعيّ والجحدريّ وابن جبير وابن عبيد[3]. وإعرابُ ذلك واضحٌ، إذ جاء على المهيع المعروف في مثله، لكن في «الدر المصون»[4]: قد استشكلت هذه القراءة بأنَّها مخالفةٌ لرسم الإمام، فإنَّ اسمَ الإشارة فيه بدون ألف وياء، فإثباتُ الياء زيادةٌ عليه، ولذا قال الزَّجَّاج[5]: أنا لا أجيزُها. وليس بشيء؛ لأنَّه مشتركُ الإلزام. ولو سُلِّم فكم في القراءات ما خالفَ رسمُه القياس، مع أنَّ حذف الألف ليس على القياس أيضاً.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ أي: أرض مصر بالاستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ الذي أظهراه من قبل. ونسبة ذلك لهارون لما أنَّهم رأوه مع موسى عليهما السلام سالكاً طريقته. وهذه الجملة صفةٌ أو خبرٌ بعد خبر.

---

(١) لفظة: بعض، ليست في الأصل.

(٢) التيسير ص ١٥١، والنشر ٢/ ٣٢٠-٣٢١.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٥٥، وانظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٣، وتفسير القرطبي ١٤/ ٨٩.

(٤) ٨/ ٦٤.

(٥) في معاني القرآن له ٣/ ٣٦٤.

﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ أي: بمذهبكم الذي هو أفضلُ المذاهب وأمثلُها بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما، يريدون به ما كان عليه قومُ فرعون، لا طريقة السحر، فإنَّهم ما كانوا يعتقدونَه ديناً.

وقيل: أرادوا أهلَ طريقتكم، فالكلام على تقدير مضاف، والمراد بهم بنو إسرائيل؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٧] وكانوا أربابَ علمٍ فيما بينهم. وأخرج ذلك ابنُ المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس.

وتُعقِّب بأنَّ إخراجَهم من أرضهم إنَّما يكون بالاستيلاء عليها تمكُّناً أو تصرُّفاً، فكيف يُتَصوَّر حينئذٍ نقلُ بني إسرائيل إلى الشام.

وحملُ الإخراج على إخراج بني إسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم ممَّا يجبُ تنزيهُ التنزيل عن أمثاله، على أنَّ هذه المقالة منهم للإغراء بالمبالغة في المغالبة، والاهتمام بالمناصبة، فلا بُدّ أن يكون الإنذار والتحذيرُ بأشدِّ المكاره وأشقِّها عليهم، ولا ريبَ في أنَّ إخراج بني إسرائيل من بينهم والذهاب بهم إلى الشام وهم آمنون في ديارهم ليس فيه كثيرُ محذور، وهو كلامٌ يلوح عليه مخايلُ القبول، فلعلَّ الخبر عن الحبر لا يصح.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم أيضاً عن مجاهد: أنَّ الطريقة اسمٌ لوجوه القوم وأشرافهم[١]. وحَكى فلانٌ طريقة قومه، أي: سيِّدهم، وكأنَّ إطلاقَ ذلك على الوجوه مجازٌ لاتِّباعهم كما يُتَّبعُ الطريق.

وأخرجا عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّ إطلاقَ ذلك عليهم بالسُّريانية، وكأنَّهم أرادوا بهؤلاء الوجوه الوجوهَ من قوم فرعون أربابَ المناصب، وأصحابَ التصُّرف والمراتب، فيكونوا[٢] قد حذَّروهم بالإخراج من أوطانهم، وفصلِ ذوي المناصب منهم عن مناصبهم، وفي ذلك غايةُ الذلِّ والهوان، ونهايةُ حوادث الزمان. فما قيل: إنَّ تخصيصَ الإذهاب بهم ممَّا لا مزيةَ فيه: ليس بشيء.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٠٣.

(٢) في الأصل: فيكون.

وقيل: إنَّهم أرادوا بهم بني إسرائيل أيضاً؛ لأنَّهم كانوا أكثر منهم نشباً، وأشرف نسباً. وفيه ما مرَّ آنفاً. واعترض أيضاً بأنَّه ينافيه استعبادُهم واستخدامُهم وقتلُ أولادهم وسومُهم العذاب.

وأجيب بالمنع، فكم من متبوعٍ مقهور، وشريفٍ بأيدي الأنذال مأسور. وهو كما ترى.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ تصريحٌ بالمطلوب إثر تمهيد المقدِّمات. والفاء فصيحةٌ، أي: إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين يريدان بكم ما يريدان، فأزمعوا كيدَكم، واجعلوه مجمعاً عليه بحيثُ لا يتخلَّفُ عنه منكم أحدٌ، وارموا عن قوسٍ واحدة.

وقرأ الزهريُّ وابنُ محيصن وأبو عمرو ويعقوب ـ في رواية ـ وأبو حاتم: «فاجمَعوا» بوصل الهمزة وفتح الميم، من الجمع[(١)]، ويعضدُه قوله تعالى: «فجمع كيده».

وفي الفرق بين جمع وأجمع كلامٌ للعلماء، قال ابن هشام: إنَّ أجْمَعَ يتعلق بالمعاني فقط، وجَمَعَ مشتركٌ بين المعاني والذوات. وفي «عمدة الحفاظ» حكايةُ القول بأنَّ أجمع أكثر ما يقال في المعاني وجمع في الأعيان[(٢)]، فيقال: أجمعتُ أمري، وجمعت قومي، وقد يقال بالعكس.

وفي «المحكم» أنَّه يقال: جمع الشيء عن تفرقةٍ يجمعه جمعاً، وأجمعه. فلم يفرِّق بينهما.

وقال الفرَّاء: إذا أردت جمع المتفرِّق قلت: جمعتُ القومَ فهم مجموعون، وإذا أردت جمع المال قلت: جمَّعتُ، بالتشديد، ويجوز تخفيفه، والإجماع: الإحكامُ والعزيمة على الشيء، ويتعدَّى بنفسه وبـ «على»، تقول: أجمعت الخروجَ، وأجمعت على الخروج[(٣)].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٥٦، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص ١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١. وقراءة يعقوب المتواترة عنه كقراءة الجمهور.
(٢) في عمدة الحفاظ (جمع): وجمع في المعاني والأعيان.
(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٣ و٢/ ١٨٥.

وقال الأصمعيّ: يقال: جمعت الشيء، إذا جئتَ به من هنا ومن هنا، وأجمعته، إذا صيَّرته جميعاً.

وقال أبو الهيثم: أجمع أمره، أي: جعله جميعاً وعزم عليه بعد ما كان متفرِّقاً، وتفرقته أنْ يقول مرَّةً: أفعل كذا، ومرة: أفعل كذا. والجمعُ أن يجمع شيئاً إلى شيء.

وقال الفرَّاء في هذه الآية على القراءة الأولى: أي: لا تدعوا شيئاً من كيدكم إلَّا جئتم به[١].

﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ أي: مصطفين، أمروا بذلك؛ لأنَّه أهيب في صدور الرائين، وأدخل في استجلاب الرهبة من المشاهدين.

قيل: كانوا سبعين ألفاً مع كلٍّ منهم حبلٌ وعصا، وأقبلوا عليه عليه السلام إقبالةً واحدة. وقيل: كانوا اثنين وسبعين ساحراً، اثنان من القبط، والباقي من بني إسرائيل. وقيل: تسعمئة؛ ثلاثمئة من الفرس، وثلاثمئة من الروم، وثلاثمئة من الإسكندرية. وقيل: خمسة عشر ألفاً. وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً.

ولا يخفى حالُ الأخبار في ذلك، والقلبُ لا يميلُ إلى المبالغة. والله تعالى أعلم.

ولعلَّ الموعدَ كان مكاناً متَّسِعاً، خاطبهم موسى عليه السلام بما ذكر في قطرٍ من أقطاره، وتنازعوا أمرهم في قطرٍ آخر منه، ثمَّ أمروا أن يأتوا وسطَه على الحال المذكورة.

وقد فسَّر أبو عبيدة الصفَّ بالمكان الذي يجتمعون فيه لعيدهم وصلواتهم. وفيه بعد[٢]. وكأنَّه عَلَمٌ لموضعٍ معينٍ من مكان يوم الزينة، وعلى هذا التفسير يكون «صفّاً» مفعولاً به.

وقرأ شبل بن عبَّاد وابنُ كثير في رواية شبل عنه: «ثمِّ ايتوا» بكسر الميم، وإبدال الهمزة ياء[٣].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٥.
(٢) انظر مجاز القرآن ٢/ ٢٣.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٥٦.

قال أبو عليٍّ: وهذا غلط، ولا وجهَ لكسر الميم من «ثُمَّ»[1]. وقال صاحب «اللوامح»: إنَّ ذلك لالتقاء الساكنين، كما كانت الفتحة في قراءة العامة كذلك.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ من قبلهم، مؤكِّدٌ لما قبله من الأمرين، أي: قد فاز بالمطلوب من غلب، فاستفعل بمعنى فعل، كما في «الصحاح»[2]. أو مَنْ طلبَ العلوَّ والغلب وسعى سعيَه، على ما في «البحر»[3]. فاستفعل على بابه. ولعلَّه أبلغ في التحريض، حيث جعلوا الفوز لمن طلب الغلب فضلاً عمَّن غلب بالفعل، وأرادوا بالمطلوب ما وعدَهم فرعونُ من الأجر والتقريب، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤] وبمن استعلى أنفسهم جميعاً، على طريقة قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، أو من استعلى منهم حثّاً على بذل المجهود في المغالبة.

وقال الراغب: الاستعلاء قد يكون لطلب العلوِّ المذموم، وقد يكون لغيره، وهو ها هنا يحتملهما[4]، فلهذا جاز أن يكون هذا الكلامُ محكيّاً عن هؤلاء القائلين للتحريض على إجماعهم واهتمامهم، وأن يكون من كلام الله عزَّ وجلَّ، فالمستعلي موسى وهارون عليهما السلام، ولا تحريض فيه.

وأنت تعلم أنَّ الظاهر هو الأول.

﴿قَالُواْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا فعلوا بعد ما قالوا ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ وإنَّما لم يتعرَّض لإجماعهم وإتيانهم مصطفِّين إشعاراً بظهور أمرهما وغنائهما عن البيان.

﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ﴾ أي: ما تلقيه أوَّلاً، على أنَّ المفعول محذوفٌ لظهوره، أو تفعل الإلقاء أوَّلاً، على أن الفعل منزَّلٌ منزلة اللازم.

﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ ما يلقيه، أو أول من يفعل الإلقاء. خيَّروه

---

(١) الحجة ٥/ ٢٣٣.

(٢) مادة (علا).

(٣) ٦/ ٢٥٦.

(٤) المفردات (علا).

عليه السلام وقدَّموه على أنفسهم إظهاراً للثقة بأمرهم. وقيل: مراعاةً للأدب معه عليه السلام.

و«أن» مع ما في حيِّزها منصوبٌ بفعل مضمر، أي: إمَّا تختار إلقاءك، أو تختارُ[1] كوننا أوَّل من ألقى، أو مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: الأمر إمَّا إلقاؤك، أو كوننا أوَّل من ألقى. واختار أبو حيَّان[2] كونَه مبتدأ محذوفَ الخبر، أي: إلقاؤك أول، بقرينة: أو نكون أول من ألقى، وبه تتمُّ المقابلة، لكنها معنويَّة.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما مرَّ، كأنَّه قيل: فماذا قال عليه السلام؟ فقيل: قال: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟ۖ﴾ أنتم أوَّلاً؛ إظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم، وإسعافاً لما أوهموا من الميل إلى البدء في شقِّهم، حيث غيَّروا النظمَ إلى وجهٍ أبلغ، إذ كان الظاهر أن يقولوا: وإمَّا أن نلقي، وليبرزوا ما معهم ويستفرغوا جهدَهم، ويستنفدوا قصارى وسعهم، ثم يظهر الله تعالى شأنُه سلطانَه، فيقذفُ بالحقِّ على الباطل فيدمغه.

قيل: وفي ذلك أيضاً مقابلةُ أدبٍ بأدب.

واستشكل بعضُهم هذا الأمرَ ظنّاً منه أنَّه يستلزمُ تجويزَ السحر، فحمله ـ دفعاً لذلك ـ على الوعيد على السحر، كما يقال للعبد العاصي: افعل ما أردت.

وقال أبو حيَّان: هو مقرونٌ بشرطٍ مقدَّر، أي: ألقوا إن كنتم محقِّين[3].

وفيه أنَّه عليه السلام يعلمُ عدم إحقاقهم، فلا يجدي التقدير بدون ملاحظة غيره.

وأنت تعلمُ أنَّه لا حاجةَ إلى ذلك ولا إشكال، فإنَّ هذا كالأمر بذكر الشبهة لتنكشف.

والقولُ بأنَّ تقديم سماع الشبهة على الحجَّة غيرُ جائز؛ لجواز أنْ لا يتفرَّغَ لإدراك الحجَّة بعد ذلك فتبقى: ممَّا لا يلتفت إليه.

---

(١) في الأصل: نختار.
(٢) البحر ٦/٢٥٨.
(٣) البحر ٦/٢٥٨.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ الفاء فصيحةٌ معربةٌ عن مسارعتهم إلى الإلقاء، كما في قوله تعالى: فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفلق[(١)]، أي: فألقوا فإذا حبالهم.. إلخ. وهي في الحقيقة عاطفةٌ لجملة المفاجأة على الجملة المحذوفة.

و«إذا» فجائية، وهي عند الكوفيين حرفٌ، وهو مذهبٌ مرجوحٌ عند أبي حيان، وظرفُ زمانٍ عند الرياشيّ، وهو كذلك عنده أيضاً، وظرف مكان عند المبرِّد، وهو ظاهرُ كلام سيبويه[(٢)]، ومختار أبي حيان، والعاملُ فيها هنا: «ألقوا» عند أبي البقاء. ورُدَّ بأن الفاء تمنع من العمل.

وفي «البحر»[(٣)]: إنَّما هي معمولةٌ لخبر المبتدأ الذي هو «حبالهم وعصيهم» إنْ لم نجعلها هي في موضع الخبر، بل جعلنا الخبر جملة «يخيل»، وإذا جعلناها في موضع الخبر، وجعلنا الجملةَ في موضع الحال، فالأمر واضح، وهذا نظير: خرجتُ فإذا الأسد رابضٌ ورابضاً. ولصحَّة وقوعها خبراً يُكتفى بها وبالمرفوع بعدها كلاماً فيقال: خرجت فإذا الأسد.

ونصَّ الأخفشُ في «الأوسط» على أنَّها قد يليها جملةٌ فعليةٌ مصحوبةٌ بـ: «قد»، فيقال: خرجتُ فإذا قد ضرب زيدٌ عمراً.

وفي «الكشاف»: التحقيقُ فيها أنَّها «إذا» الكائنة بمعنى الوقت، الطالبة ناصباً لها وجملةً تضافُ إليها، خُصَّت في بعض المواضع بأنْ يكون ناصبها فعلاً خصوصاً، وهو فعلُ المفاجأة، والجملةُ ابتدائيَّةٌ لا غير، فتقدير الآية: ففاجأ موسى وقتُ تخييل سعي حبالهم وعصيهم، وهذا تمثيل، والمعنى على مفاجأته[(٤)]: حبالُهم وعصيهم مخيلةٌ إليه السعي[(٥)]. انتهى.

---

(١) كذا في الأصل و(م). وهو وهم من المصنف رحمه الله، أو سبق ذهن، فلعله أراد قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣].

(٢) انظر الكتاب ٤/ ٢٣٢.

(٣) ٦/ ٢٥٩.

(٤) في الأصل و(م): مفاجأة. والمثبت من الكشاف.

(٥) الكشاف ٢/ ٥٤٣-٥٤٤.

وفيه من المخالفة لما قدَّمنا ما فيه، لكن أمر العطف عليه أوفقُ كما لا يخفى، وعنى بقوله: هذا تمثيلٌ، أنَّه تصويرٌ للإعراب، وأنَّ «إذا» وقتيَّة أُوقِع عليها فعلُ المفاجأة توسُّعاً؛ لأنها سدَّت مسدَّ الفعل والمفعول، ولأنَّ مفاجأة الوقت يتضَّمن مفاجأة ما فيه بوجهٍ أبلغ.

وما قيل: إنَّه أرادَ الاستعارة التمثيلية، فيحتاجُ إلى تكلُّف لتحصيلها.

وضميرُ «إليه» الظاهر أنَّه لموسى عليه السلام، بل هو كالمتعيّن. وقيل: لفرعون. وليس بشيء.

و«أن» وما في حيِّزها نائبُ فاعل «يخيل»، أي: يخيَّل إليه بسبب سحرهم سعيُها، وكأنَّ ذلك من السيمياء[1]، وهي عِلْمٌ يقتدَرُ به على إراءة المصوّر[2] الذهنية، لكن يشتركُ غالباً أن يكون لها مادَّةٌ في الخارج في الجملة، ويكون ذلك على ما ذكره الشيخ محمد عمر البغداديّ في حاشيته على رسالة الشيخ عبد الغني النابلسي في وحدة الوجود بواسطة أسماء وغيرها.

وذكر العلامة البيضاويُّ في بعض رسائله أنَّ علم السيمياء حاصلُه إحداثُ مثالاتٍ خياليَّةٍ لا وجودَ لها في الحسّ، ويطلقُ على إيجاد تلك المثالات بصورها في الحسّ، وتكون صوراً في جوهر الهواء، وهي سريعةُ الزوال بسبب سرعة تغيُّر جوهره. ولفظ سيمياء معرَّبُ: شيم يه، ومعناه اسم الله تعالى. انتهى.

وما ذكره من سرعة الزوال لا يسلَّم كُلِّيّاً، وهو عندي بعض من علم السحر.

وعرفه البيضاويُّ بأنَّه علمٌ يستفادُ منه حصولُ ملكة نفسانيَّة يُقتدر بها على أفعالٍ غريبة بأسبابٍ خفيَّة، ثم قال: والسحرُ منه حقيقيٌّ ومنه غيرُ حقيقيّ؛ ويقال له: الأخذ بالعيون، وسحرة فرعون أتوا بمجموع الأمرين. انتهى.

والمشهور أنَّ هؤلاء السحرة جعلوا في الحبال والعصيّ زئبقاً، فلمَّا أصابتها حرارةُ الشمس اضطربت واهتزَّت، فخيِّل إليه عليه السلام أنَّها تتحرك وتمشي كشيءٍ فيه حياة.

---

(١) في (م): باب السيمياء.

(٢) في (م): إراء الصورة.

ويروى أنَّه عليه السلام رآها كأنها حيَّاتٌ، وقد أخذت ميلاً في ميل. وقيل: حفروا الأرضَ، وجعلوا فيها ناراً، ووضعوا فوقها تلك الحبالَ والعصيَّ، فلما أصابتها حرارةُ النار تحرَّكت ومشت.

وفي القلب من صحَّة كلا القولين شيء. والظاهر أنَّ التخيُّل من موسى عليه السلام قد حصل حقيقةً بواسطة سحرهم، وروي ذلك عن وهب. وقيل: لم يحصل، والمراد من الآية أنَّه عليه السلام شاهد شيئاً لولا علمه بأنَّه لا حقيقةَ له لظنَّ فيها أنَّها تسعى، فيكون تمثيلاً، وهو خلاف الظاهر جدّاً.

وقرأ الحسن وعيسى: «عُصْيُهم» بضم العين وإسكان الصاد وتخفيف الياء مع الرفع(١)، وهو جمع كما في القراءة المشهورة.

وقرأ الزهريُّ والحسنُ وعيسى وأبو حيوة وقتادة والجحدريُّ وروح وابن ذكوان وغيرهم: «تُخَيَّلُ» بالتاء الفوقانية مبنيًّا للمفعول(٢)، وفيه ضمير الحبال والعصيّ، و«أنها تسعى» بدل اشتمال من ذلك الضمير، ولا يضرُّ الإبدال منه في كونه رابطاً؛ لكونه ليس ساقطاً من كلِّ الوجوه.

وقرأ أبو السمال: «تَخَيَّل» بفتح التاء(٣)، أي: تتخيَّل، وفيه أيضاً ضمير ما ذكر، و«أنَّها تسعى» بدلٌ منه أيضاً، وقال ابن عطية: هو مفعول من أجله(٤)، وقال أبو القاسم بن جبارة(٥) الهذليّ الأندلسيّ في كتاب «الكامل»: عن أبي السمَّال

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٥٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٥٩، وقراءة ابن ذكوان ـ راوية ابن عامر ـ في التيسير ص ١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١. وروح ـ راوية يعقوب ـ في النشر ٢/ ٣٢١.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٥٩.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٥١.

(٥) في الأصل و(م) والبحر المحيط ٦/ ٢٥٩، وكشف الظنون ٢/ ١٣٨١، وهدية العارفين ٦/ ٥٥١، ونكت الهميان ص ٣١٤: حبارة. والمثبت من بقية مصادر الترجمة الآتية. ونقل الزركلي في الأعلام ٨/ ٢٤٢ عن ابن قاضي شهبة في طبقات النحويين واللغويين: يوسف بن علي بن جُبارة بضم الجيم. وهو يوسف بن علي البسكري، المقرئ المشهور. المتوفى سنة (٤٦٥هـ). قال الذهبي في معرفة القراء: وله أغاليط كثيرة في أسانيد القراءات، وقد حشد في كتابه أشياء منكرة لا تحل القراءة بها، ولا يصح لها إسناد،

أنَّه قرأ: «تُخَيِّل» بالتاء من فوق المضمومة وكسر الياء[١]، والضمير فيه فاعل. و«أنَّها تسعى» نصب على المفعول به. ونسب ابنُ عطيَّة هذه القراءة إلى الحسن وعيسى الثقفيّ[٢]. ومن بنى «تُخَيَّل» للمفعول، فالمخيِّل لهم ذلك هو اللهُ تعالى للمحنة والابتلاء.

وروى الحسن بن يمن[٣] عن أبي حيوة: «نُخَيِّل» بالنون وكسر الياء، فالفاعل ضميره تعالى، و«أنَّها تسعى» مفعول به.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ الإيجاس: الإخفاء، والخيفة: الخوف، وأصله خِوفة قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وقال ابن عطية[٤]: يحتملُ أنْ يكون خَوفة بفتح الخاء، قلبت الواو ياء، ثم كسرت الخاء للتناسب. والأول أولى.

والتنوين للتحقير، أي: أخفى فيها بعض خوفٍ من مفاجأة ذلك، بمقتضى طبع الجبلَّة البشرية عند رؤية الأمر المهول، وهو قول الحسن. وقال مقاتل: خافَ عليه السلام من أن يَعرِضَ للناس ويختلج في خواطرهم شكٌّ وشبهةٌ في معجزة العصا لما رأوا من عصيهم. وإضمار خوفه عليه السلام من ذلك لئلَّا تقوى نفوسهم إذا ظهر لهم، فيؤدِّي إلى عدم اتِّباعهم.

وقيل: التنوين للتعظيم، أي: أخفى فيها خوفاً عظيماً. وقال بعضهم: إنَّ الصيغةَ لكونها فِعلة، وهي دالَّةٌ على الهيئة، والحالةُ اللازمة تشعر بذلك، ولذا اختيرت على الخوف في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣]، ولا يأباه الإيجاس، وقيل: يأباه، والأول هو الأنسب بحال موسى

= إمَّا لجهالة الناقل أو لضعفه. اهـ. انظر ترجمته في الإكمال ١/٤٥٨-٤٥٩، والصلة ص٦٨٠، والعبر ٣/ ٢٦٠، وتاريخ الإسلام ١٠/ ١٣٥، ٢٢٩، وغاية النهاية ٢/ ٣٩٧-٤٠١، ولسان الميزان ٨/ ٥٦١.

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٥٩. وذكرها عن أبي السمَّال أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٨٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٥١.

(٣) في البحر المحيط ٦/ ٢٥٩، وعنه نقل المصنف: الحسن بن أيمن.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٥٢.

عليه السلام إنْ كان خوفُه مما قاله الحسن، والثاني هو الأنسبُ بحاله عليه السلام إنْ كان خوفُه مما قاله مقاتل.

وقيل: إنَّه أنسبُ أيضاً بوصف السحر بالعِظَم في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦] وأيَّد بعضُهم كونَ التنوين لذلك بإظهار موسى وعدم إضماره، فتأمَّل.

وقيل: إنَّه عليه السلام سمع لما قالوا: «إما أن تلقي» إلخ: ألقوا يا أولياء الله تعالى، فخاف لذلك، حيث يعلم أنَّ أولياءَ الله تعالى لا يُغلَبون. ولا يكادُ يصح، والنظمُ الكريم يأباه.

وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ أي: لا تستمرَّ على خوفك ممَّا توهمت، وادفع عن نفسك ما اعتراك، فالنهي على حقيقته. وقيل: خرج عن ذلك للتشجيع وتقوية القلب.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ تعليلٌ لما يوجبه[1] النهيُ من الانتهاء عن الخوف، وتقريرٌ لغلبته على أبلغ وجهٍ وآكده، كما يعرب عن ذلك الاستئناف البيانيُّ، وحرفُ التحقيق، وتكريرُ الضمير، وتعريفُ الخبر، ولفظُ العلوِّ المنبئ عن الغلبة الظاهرة، وصيغةُ التفضيل، كما قاله غير واحد.

والذي أميل إليه أنَّ الصيغة المذكورة لمجرَّدِ الزيادة، فإنَّ كونَها للمشاركة والزيادة يقتضي أنْ يكون للسحرة علوٌّ وغلبةٌ ظاهرةٌ أيضاً، مع أنَّه ليس كذلك، وإثباتُ ذلك لهم بالنسبة إلى العامة ـ كما قيل ـ ليس بشيء، إذْ لا مغالبةَ بينهم وبينهم.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك، كما وقع في سورة «الأعراف»[2]. وكأنَّ التعبير عنها بذلك لتذكيره ما وقع وشاهَده عليه السلام منها يوم قال سبحانه له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٧].

---

(١) في الأصل: يوجب. والمثبت من (م)، وهو موافق لما في تفسير أبي السعود ٦/٢٧، والكلام منه.

(٢) الآية: ١١٧.

وقال بعض المحققين: إنَّما أوثر الإبهامُ تهويلاً لأمرها، وتفخيماً لشأنها، وإيذاناً بأنَّها ليست من جنس العصيِّ المعهودة المستتبعةِ للآثار المعتادة، بل خارجةٌ عن حدود سائر أفراد الجنس، مبهمةُ الكنه[1]، مستتبعةٌ لآثارٍ غريبة. وعدمُ مراعاة هذه النكتة عند حكاية الأمر في مواضع أخر[2] لا يستدعي عدمَ مراعاتها عند وقوع المحكيّ. انتهى.

وحاصله أنَّ الإبهام للتفخيم، كأنَّ العصا لفخامة شأنها لا يحيطُ بها نطاقُ العلم، نحو: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]، ووقع حكاية الأمر في مواضع أخر بالمعنى، والواقعُ نفسه ما تضمَّن هذه النكتة، وإن لم يكن بلفظ عربيّ، وإنّما لم يعتبر العكس؛ لأنَّ المتضمَّنَ أوفقُ بمقام النهي عن الخوف وتشجيعِه عليه السلام.

وقال أبو حيان: عبَّر بذلك دون: عصاك؛ لما في اليمين من معنى اليمن والبركة[3].

وفيه أنَّ الخطابَ لم يكن بلفظ عربيّ.

وقيل: الإبهام للتحقير، بأنْ يراد: لا تبالِ بكثرة حبالهم وعصيِّهم، وألْقِ العويد الذي في يدك، فإنَّه بقدرة الله تعالى يلقَفُها مع وحدته وكثرتها، وصغره وعظمها.

وتُعقِّب بأنَّه يأباه ظهورُ حالها فيما مرَّ مرتين، على أنَّ ذلك المعنى إنَّما يليقُ بما لو فعلت العصا ما فعلت وهي على الهيئة الأصليَّة، وقد كان منها ما كان.

و«ما» يحتمل أن تكون موصوفةً، ويحتمل أنْ تكون موصولةً، على كلٍّ من الوجهين. وقيل: الأنسب على الأول الأول، وعلى الثاني الثاني.

وقوله تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ بالجزم جوابُ الأمر، من لقفه: ناله بالحِذْق باليد أو بالفم، والمراد هنا الثاني، والتأنيثُ بكون «ما» عبارةً عن العصا، أي: تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصيّ التي خُيِّل إليك سعيُها.

والتعبير عنها بـ «ما صنعوا» للتحقير والإيذان بالتمويه والتزوير.

---

(١) في الأصل و(م): لكنها، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٧، والكلام منه.

(٢) في تفسير أبي السعود: موضع آخر.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٦٠.

وقرأ الأكثرون: «تَلَقَّف» بفتح اللام وتشديد القاف، وإسقاط إحدى التاءين من: تتلقَّف[1].

وقرأ ابن عامر[2] كذلك إلَّا أنَّه رفع الفعل على أنَّ الجملةَ مستأنفةٌ استئنافاً بيانيّاً، أو حالٌ مقدَّرة من فاعل «ألق» بناءً على تسبُّبه، أو من مفعوله، أي: متلقِّفاً أو متلقِّفةً.

وجملة الأمر معطوفةٌ على النهي متمِّمةٌ بما في حيِّزها لتعليل موجَبه ببيان كيفيَّة علوِّه وغلبه عليه السلام، فإنَّ ابتلاعَ عصاه عليه السلام لأباطيلهم التي منها أوجس في نفسه خيفةً يَقْلَعُ مادَّةَ الخوف بالكليَّة.

وزعم بعضُهم أنَّ هذا صريحٌ في أنَّ خوفَه عليه السلام لم يكن من مخالجة الشكِّ للناس في معجزة العصا، وإلا لعلَّل بما يزيلُه من الوعد بما يوجبُ إيمانَهم. وفيه تأمُّل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ إلخ تعليلٌ لقوله تعالى: «تلقف ما صنعوا»، و«ما» إمَّا موصولةٌ، أو موصوفةٌ، أو مصدريَّة، أي: إنَّ الذي صنعوه، أو: إنَّ شيئاً صنعوه، أو: إنَّ صُنْعَهم ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ بالرفع على أنه خبر «إنَّ» أي: كيد جنس الساحر، وتنكيرُه للتوسُّل به إلى ما يقتضيه المقامُ من تنكير المضاف، ولو عُرِّف لكان المضافُ إليه معرفةً، وليس مراداً.

واعترض بأنَّه يجوزُ أنْ يكون تعريفه الإضافيُّ حينئذٍ للجنس، وهو كالنكرة معنًى، وإنَّما الفرقُ بينهما حضوره في الذهن.

وأجيبَ بأنَّه لا حاجةَ إلى تعيين جنسه، فإنَّه ممَّا عُلِم من قوله تعالى: «يُخَيَّل» إلخ، وإنَّما الغرضُ بعد تعيينه أنْ يُذْكَر أنَّه أمر مموَّهٌ لا حقيقة له، وهذا مما يعرف بالذوق.

وقيل: نُكِّر ليُتَوسَّل به إلى تحقير المضاف.

---

(١) التيسير ص ١١٢ و١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١، وقرأ حفص عن عاصم بإسكان اللام وتخفيف القاف.

(٢) من رواية ابن ذكوان عنه، البحر المحيط ٦/ ٢٦٠، والتيسير ص ١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١.

وتُعقِّب بأنَّه بعد تسليم إفادة ذلك تحقير المضاف: لا يناسبُ المقام، ولأنَّه يفيدُ انقسام السحر إلى حقيرٍ وعظيم، وليس بمقصود، وأيضاً ينافي ذلك قوله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]، إلَّا أنْ يقال: عظمه من وجهٍ لا ينافي حقارتَه في نفسه، وهو المراد من تحقيره.

وقيل: إنَّما نُكِّر لئلَّا يذهبَ الذهن إلى أنَّ المراد ساحرٌ معروف. فتدبر.

وقرأ مجاهد وحميد وزيد بن عليٍّ عليهم الرحمة: «كيدَ» بالنصب على أنَّه مفعول «صنعوا»، و«ما» كافة[(١)].

وقرأ حمزة والكسائيُّ، وأبو بحريَّة والأعمشُ، وطلحة وابنُ أبي ليلى، وخلف في اختياره، وابن عيسى الأصبهانيُّ، وابن جبير الأنطاكيُّ وابن جرير: «سِحْر» بكسر السين وإسكان الحاء[(٢)]، على معنى: ذي سحر، أو على تسمية الساحر سحراً مبالغةً، كأنَّه لتوغُّله في السحر صار نفسَ السحر. وقيل: على أنَّ الإضافة لبيان أنَّ الكيدَ من جنس السحر، وهذه الإضافةُ من إضافة العامِّ إلى الخاص، وهي على معنى اللام عند شارح «الهادي»[(٣)]، وعلى معنى «من» على ما يفهم من ظاهر كلام الشريف في أول «شرح المفتاح»، وتسمَّى إضافةً بيانيَّةً، ويحمل فيما وُجدت فيه المضافُ إليه على المضاف، ولا يشترط أن يكون بين المتضايفين عمومٌ وخصوص من وجهٍ، وبعضُهم شرط ذلك.

وقوله تعالى شأنه: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: هذا الجنس ﴿حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ حيثُ كان وأين أقبل، فـ «حيث» ظرفُ مكانٍ أريد به التعميم من تمام التعليل. ولم يتعرَّض لشأن العصا وكونِها معجزةً إلهية، مع ما في ذلك من تقوية التعليل؛ للإيذان بظهور أمرها.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جندب بن عبد الله البجليّ قال: قال

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٦٠.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٦٠، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص ١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١، وقراءة خلف ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢١.

(٣) هو الزنجاني الشافعي، تاج الدين عبد الوهاب بن إبراهيم المتوفى سنة (٦٥٥هـ). قال السيوطي في «بغية الوعاة» ٢/ ١٢٢: هو صاحب شرح الهادي المشهور. . . ومتن الهادي له أيضاً.

رسول الله ﷺ: «إذا أخذتم الساحرَ فاقتلوه» ثم قرأ: (وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ) قال: «لا يؤمنُ حيث وجد»[1].

وقرأت فرقةٌ: «أين أتى»[2].

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ فصيحةٌ معرِبةٌ عن جملٍ غنيَّةٍ عن التصريح، أي: فزال الخوف، وألقى ما في يمينه، وصارت حيَّةً، وتلقفت حبالَهم وعصيَّهم، وعلموا أنَّ ذلك معجزٌ، فألقيَ السحرةُ على وجوههم سجَّداً لله تعالى، تائبين، مؤمنين به عزَّ وجلَّ وبرسالة موسى عليه السلام.

روي أنَّ رئيسهم قال: كنَّا نغلبُ الناس، وكانت الآلات تبقى علينا، فلو كان هذا سحراً فأين ما ألقينا، فاستدلَّ بتغيُّر أحوال الأجسام على الصانع القدير العليم، وبظهور ذلك على يد موسى عليه السلام على صحَّة رسالته. وكأنَّ هاتيك الحبال والعصيَّ صارت هباءً منبثّاً، وانعدامُها بالكليَّة ممكنُ عندنا.

وفي التعبير بـ «ألقي» دون: فسجد: إشارةٌ إلى أنَّهم شاهدوا ما أزعجَهم، فلم يتمالكوا حتى وقعوا على وجوههم ساجدين.

وفيه إيقاظُ السامع لألطاف الله تعالى في نقله من شاء من عباده من غاية الكفر والعناد إلى نهاية الإيمان والسداد، مع ما فيه من المشاكلة والتناسب، والمرادُ أنَّهم أسرعوا إلى السجود. قيل: إنهم لم يرفعوا رؤوسهم من السجود حتى رأوا الجنَّة والنار والثوابَ والعقاب.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة أنَّهم لما خرُّوا سجَّداً لله تعالى[3] أراهم الله تعالى في سجودهم منازلَهم في الجنة[4].

واستبعد ذلك القاضي بأنَّه كالإلجاءِ إلى الإيمان، وأنه ينافي التكليف[5].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٠٣، وفيه: لا يأمن. بدل: لا يؤمن.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٦١، ونسبها الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٣٠ لحرف ابن مسعود، وانظر تفسير الطبري ١٦/ ١١٢، وتهذيب اللغة ١٥/ ٥٥٠.

(٣) قوله: لله تعالى، ليس في (م).

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٠٣.

(٥) ونقل استبعاد القاضي لهذا القول أيضاً: الرازي في تفسيره ٢٢/ ٨٦.

وأجيب بأنَّه حيثُ كان الإيمان مقدَّماً على هذا الكشف فلا منافاة ولا إلجاء.

وفي «إرشاد العقل السليم» أنه لا ينافيه قولهم: «إنَّا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا» إلخ؛ لأنَّ كون تلك المنازل منازلَهم باعتبار صدور هذا القول عنهم[١].

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ كما مرَّ غير مرَّة ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾ تأخيرُ موسى عليه السلام عند حكاية كلامهم المذكور في سورة الأعراف المقدَّم فيه موسى عليه السلام؛ لأنه أشرفُ من هارون، والدعوةُ والرسالة إنَّما هي له أولاً وبالذات، وظهور المعجزة على يده عليه السلام لرعاية الفواصل. وجُوِّز أن يكون كلامهم بهذا الترتيب، وقدَّموا هارون عليه السلام؛ لأنَّه أكبرُ سناً.

وقول السيد في «شرح المفتاح»: إنَّ موسى أكبرُ من هارون عليهما السلام. سهوٌ.

وإمَّا للمبالغة في الاحتراز عن التوهُّم الباطل من جهة فرعون وقومه[٢]، حيث كان فرعون ربَّى موسى عليه السلام، فلو قدَّموا موسى لربَّما توهَّم اللعينُ وقومُه من أول الأمر أنَّ مرادَهم فرعون، وتقديمه في سورة «الأعراف» تقديمٌ في الحكاية لتلك النكتة.

وجوَّز أبو حيَّان أن يكون ما هنا قول طائفةٍ منهم، وما هناك قول أخرى، وراعى كلٌّ نكتةً فيما فعل، لكنَّه لما اشترك القول في المعنى صحَّ نسبةُ كلٍّ منهما إلى الجميع[٣]. واختيار هذا القول هنا لأنَّه أوفقُ بآيات هذه السورة.

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: لموسى، كما هو الظاهر.

والإيمان في الأصل متعدٍّ بنفسه، ثمَّ شاع تعدِّيه بالباء؛ لما فيه من التصديق حتَّى صار حقيقةً، وإنَّما عُدِّيَ هنا باللام؛ لتضمينه معنى الانقياد، وهو يعدَّى بها، يقال: انقادَ له. لا الاتِّباع كما قيل؛ لأنَّه متعدٍّ بنفسه، يقال: اتبعه، ولا يقال: اتبع له.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٨.
(٢) قوله: وقومه. ليس في الأصل.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٦١.

وفي «البحر»: إنَّ «آمن» يوصل بالباء إذا كان متعلَّقه الله عزَّ اسمه، وباللام إن كان متعلَّقه غيره تعالى في الأكثر، نحو: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١]. و﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ إلخ [يونس:٨٣]، ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ [البقرة:٥٥]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]، ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦][1].

وجوَّز أن تكون اللام تعليلية، والتقدير: آمنتم بالله تعالى لأجل موسى وما شاهدتم منه. واختاره بعضُهم، ولا تفكيك فيه كما توهِّم.

وقيل: يحتمل أنْ يكون ضمير «له» للربِّ عزَّ وجلَّ. وفي الآية حينئذٍ تفكيكٌ ظاهر.

وقرأ الأكثر: «أآمنتم» على الاستفهام التوبيخيّ[2]. والتوبيخُ هو المراد من الجملة على القراءة الأولى أيضاً، لا فائدة الخبر أو لازمها.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: من غير إذني لكم في الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩] لا أنَّ إذْنه لهم في ذلك واقعٌ بعدُ أو متوقَّع.

وفرَّق الطبرسيُّ بين الإذن والأمر بأنَّ الأمرَ يدلُّ على إرادة الآمرِ الفعلَ المأمور به، وليس في الإذن ذلك[3].

﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ لعظيمكم في فنِّكم، وأعلمكم به، وأستاذكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ كأنَّ اللعينَ وبَّخهم أوَّلاً على إيمانهم له عليه السلام من غير إذنه لهم ليرى قومه أنَّ إيمانهم غير معتدٍّ به، حيث كان بغير إذنه. ثم استشعر أن يقولوا: أيُّ حاجة إلى الإذن بعد أن صنعنا ما صنعنا، وصدرَ منه عليه السلام ما صدر، فأجاب عن ذلك بقوله: «إنه» إلخ، أي: ذلك غيرُ معتدٍّ به أيضاً؛ لأنَّه أستاذُكم في السحر، فتواطأتم معه على ما وقع، أو علَّمكم شيئاً دون شيء، فلذلك غلبكم، فالجملةُ تعليلٌ لمحذوف. وقيل: هي تعليلٌ للمذكور قبل. وبالجملة قال ذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الإيمان لموسى عليه

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٦١.

(٢) انظر التيسير ص ١١٢ و١٥٢، والنشر ١/ ٣٦٨-٣٦٩.

(٣) مجمع البيان ١٦/ ١٢٣.

السلام، ثمَّ أقبلَ عليهم بالوعيد المؤكَّد حيث قال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ﴾ أي: إذا كان الأمر كذلك فأقسم لأقطعنَّ ﴿أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى؛ وعليه عامَّة المفسرين، وهو تخصيصٌ من خارج، وإلَّا فيحتملُ أنْ يراد غير ذلك.

و«من» ابتدائية. وقال الطبرسيُّ: بمعنى «عن» أو «على»[1]. وليس بشيء.

والمرادُ من الخلاف: الجانبُ المخالف، أو الجهة المخالفة. والجارُّ والمجرور حسبما يظهر متعلِّقٌ بـ «أقطعن». وقيل: متعلِّق بمحذوفٍ وقعَ صفةَ مصدرٍ محذوف، أي: تقطيعاً مبتدأً من جانب مخالفٍ، أو من جهةٍ مخالفة. وابتداءُ التقطيع من ذلك ظاهر.

ويجوز أن يبقى الخلاف على حقيقته، أعني المخالفة، وجعله مبتدأ[2] على التجوُّز، فإنَّه عارضَ ما هو مبدأٌ حقيقة.

وجعل بعضهم الجارَّ والمجرور في حيِّز النصب على الحاليَّة، والمراد: لأقطعنَّها مختلفاتٍ. فتأمَّل.

وتعيين هذه الكيفيَّة - قيل - للإيذان بتحقيق الأمر وإيقاعه لا محالةَ بتعيين كيفيَّته المعهودة في باب السياسة، ولعل اختيارها فيها دونَ القطع من وفاق؛ لأنَّ فيه إهلاكاً وتفويتاً للمنفعة. وزعم بعضُهم أنها أفظع.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: عليها. وإيثارُ كلمة «في» للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً، تشبيهاً لاستمرارهم عليها باستقرار الظرف في المظروف المشتمل عليه. وعلى ذلك قوله:

وهم صلبوا العبديَّ في جذع نخلةٍ فلا عطست شيبانُ إلَّا بأجدعَا[3]

وفيه استعارةٌ، والكلام في ذلك شهير.

---

(١) مجمع البيان ١٦/ ١٢١.

(٢) في الأصل: مبدأ. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٦/ ٢١٦.

(٣) قائله: سويد بن أبي كاهل اليشكري كما في أمالي ابن الشجري ٢/ ٦٠٦، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٧٩، وشرح أبيات المغني ٤/ ٦٢-٦٥. ونسبه البصري في حماسته ١/ ٨٠ لقراد بن حنش الصاردي. وهو بلا نسبة في أدب الكاتب ص ٥٠٦، والكامل ٢/ ١٠٠١.

وقيل: لا استعارة أصلاً؛ لأنَّ فرعون نقر جذوع النخل، وصلبهم في داخلها، ليموتوا جوعاً وعطشاً. ولا يكاد يصح، بل في أصل الصَّلب كلام، فقال بعضهم: إنَّه أنفذ فيهم وعيدَه وصَلَبَهم، وهو أوَّل من صَلَب، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]؛ لأنَّ المراد الغلبةُ بالحجَّةِ.

وقال الإمام: لم يثبت ذلك في الأخبار، وأنت تعلم أنَّ الظاهر السلامة(١).

وصيغة التفعيل في الفعلين للتكثير. وقرىء بالتخفيف فيهما(٢).

﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ۝٧١﴾ يريد من «نا» نفسَه وموسى عليه السلام، بقرينة تقدُّم ذكره في قوله تعالى: «آمنتم له» بناء على الظاهر فيه(٣)، واختار ذلك الطبريُّ(٤) وجماعة.

وهذا إمَّا لقصدِ توضيع موسى عليه السلام والهزء به؛ لأنَّه عليه السلام لم يكن من التعذيب في شيء، وإمَّا لأنَّ إيمانهم لم يكن ـ بزعمه ـ عن مشاهدةِ المعجزة ومعاينة البرهان، بل كان عن خوفٍ من قبله عليه السلام، حيث رأوا ابتلاعَ عصاه لحبالهم وعصيِّهم، فخافوا على أنفسهم أيضاً.

واختار أبو حيان أنَّ المرادَ من الغير الذي أشار إليه الضمير: ربُّ موسى عزَّ وجلَّ الذي آمنوا به بقولهم: «آمنا برب هارون وموسى»(٥).

و«لتعلمنَّ» هنا معلَّق، و«أيُّنا أشدُّ» جملةٌ استفهاميَّةٌ من مبتدأ وخبر في موضع نصبٍ سادَّةٌ مسدَّ مفعوليه إن كان العلم على بابه، أو في موضع مفعولٍ واحدٍ له إنْ كان بمعنى المعرفة، ويجوزُ على هذا الوجه أن يكون «أيُّنا» مفعولاً ـ وهو مبنيٌّ على رأي سيبويه(٦) ـ و«أشدُّ» خبر مبتدأ محذوف، أي: هو أشدُّ، والجملة صلةُ «أيّ» والعائد الصدر، و«عذاباً» تمييز.

---

(١) انظر تفسير الرازي ٢٤/ ٢٥٠.
(٢) القراءات الشاذة ص ٨٨. وهي قراءة ابن محيصن.
(٣) في (م): على الظرفية.
(٤) في تفسيره ١٦/ ١١٦.
(٥) انظر البحر ٦/ ٢٦١.
(٦) انظر الكتاب ٢/ ٤٠٠-٤٠١.

وقد استغنى بذكره مع «أشد» عن ذكره مع «أبقى»، وهو مرادٌ أيضاً.

واشتقاق «أبقى» من البقاء بمعنى الدوام. وقيل: لا يبعد ـ والله تعالى أعلم ـ أن يكون من البقاء بمعنى العطاء، فإنَّ اللعين كان يعطي لمن يرضاه العطايا، فيكون للآية شبهٌ بقول نمرود: (أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ)[1]. وهو في غاية البعد عند من له ذوقٌ سليم.

ثمَّ لا يخفى أنَّ اللعين في غاية الوقاحة ونهاية الجلادة، حيث أوعد وهدَّد، وأبرقَ وأرعدَ، مع قرب عهده بما شاهد من انقلاب العصا حيَّةً، ومالها من الآثار الهائلة، حتى إنَّها قصدت ابتلاع قبَّته، فاستغاث بموسى عليه السلام، ولا يبعد نحو ذلك من فاجرٍ طاغٍ مثله.

﴿قَالُواْ﴾ غير مكترثين بوعيده: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ لن نختارَك بالإيمان والانقياد ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ من الله تعالى على يَدِ موسى عليه السلام ﴿مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ من المعجزاتِ الظاهرة التي اشتملَت عليها العصا. وإنَّما جعلوا المجيء إليهم ـ وإنْ عمَّ ـ لأنَّهم المنتفعون بذلك والعارفون به على أتمِّ وجهٍ من غير تقليد.

و«ما» موصولة، وما بعدها صلتُها، والعائد: الضمير المستتر في «جاء»، وقيل: العائد محذوف، وضمير «جاءنا» لموسى عليه السلام، أي: على الذي جاءنا به موسى عليه السلام. وفيه بعد، وإنْ كان صنيع بعضهم اختياره، مع أنَّ في صحة حذف مثل هذا المجرور كلاماً.

﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ أي: أبدعنا وأوجدنا وسائرَ العلويَّات والسفليَّات. وهو عطفٌ على «ما جاءنا»، وتأخيره لأنَّ ما في ضمنه آيةٌ عقليَّةٌ نظريَّة، وما شاهدوه آيةٌ حسيَّةٌ ظاهرة.

وإيرادُه تعالى بعنوان الفاطريَّة لهم للإشعار بعلَّة الحكم، فإنَّ إبداعَه تعالى لهم، وكونَ فرعون من جملة مبدَعاته سبحانه؛ ممَّا يوجبُ عدم إيثارهم إيَّاه عليه عزَّ وجلَّ، وفيه تكذيبٌ للَّعين في دعواه الربوبية.

---

(١) فيما حكاه الله سبحانه وتعالى عنه في سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

وقيل: الواو للقسم، وجوابه محذوفٌ لدلالة المذكور عليه، أي: وحقِّ الذي فطرنا لن نؤثرك.. إلخ.

ولا مساغَ لكون المذكور جواباً عند من يجوِّزُ تقديم الجواب أيضاً؛ لما أنَّ القسم لا يُجاب ـ كما قال أبو حيان[1] ـ بـ «لن» إلَّا في شاذٍّ من الشعر.

وقولهم هذا جوابٌ لتوبيخ اللعين بقوله: آمنتم.. إلخ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ جوابٌ عن تهديده بقوله: «لأقطعنَّ» إلخ، أي: فاصنع ما أنت بصددِ صنعه، أو: فاحكم بما أنت بصدد الحكم به. فالقضاءُ إمَّا بمعنى الإيجاد الإبداعيّ، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، وإمَّا بمعناه المعروف؛ وعلى الوجهين ليس المراد من الأمر حقيقته.

و«ما» موصولة، والعائد محذوف. وجوَّز أبو البقاء كونها مصدريَّةً[2]، وهو مبنيٌّ على ما ذهب إليه بعضُ النحاة من جواز وصل المصدريَّة بالجملة الاسمية، ومنع ذلك بعضهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾ مع ما بعده تعليلٌ لعدم المبالاة المستفاد ممَّا سبقَ من الأمر بالقضاء.

و«ما» كافَّةٌ، و«هذه الحياة» منصوبٌ محلًّا على الظرفيَّة لـ «تقضي»، والقضاء[3] على ما مرَّ، ومفعوله محذوفٌ، أي: إنَّما تصنعُ ما تهواه، أو تحكم بما تراه في هذه الحياة الدنيا فحسب، وما لنا من رغبةٍ في عذبها ولا رهبةٍ من عذابها.

وجوِّز أن تكون «ما» مصدريَّةً، فهي وما في حيِّزها في تأويل مصدر اسم «إنَّ» وخبرُها: «هذه الحياة» أي: إنَّ قضاءك كائنٌ في هذه الحياة. وجُوِّز أنْ ينزل الفعلُ منزلة اللازم، فلا حذف.

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة: «إنما تُقْضَى» بالبناء للمفعول «هذه الحياةُ»

---

(١) في البحر ٦/ ٢٦٢.

(٢) لم أجده في الإملاء. ونقله المصنف عن الشهاب الخفاجي في حاشيته ٦/ ٢١٧.

(٣) لفظة: والقضاء. ليست في الأصل.

بالرفع[1] على أنَّه اتُّسع في الظرف فجُعِلَ مفعولاً به، ثم بُني الفعلُ له، نحو: صِيم يومُ الخميس.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ التي اقترفناها من الكفر والمعاصي، ولا يؤاخذنا بها في الدار الآخرة، لا ليمتِّعنا بتلك الحياة الفانية، حتى نتأثَّر بما أوعدتنا[2] به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ عطف على «خطايانا»، أي: ويغفر لنا السحر الذي عملناه في معارضة موسى عليه السلام بإكراهك وحشرك إيَّانا من المدائن القاصية، خصُّوه بالذكر مع اندراجه في خطاياهم إظهاراً لغاية نفرتهم عنه، ورغبتهم في مغفرته. وذكر الإكراه للإيذان بأنَّه مما يجبُ أن يفردَ بالاستغفار مع صدوره عنهم بالإكراه، وفيه نوعُ اعتذارٍ لاستجلاب المغفرة.

وقيل: إنَّ رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين، اثنان منهم من القبط، والباقي من بني إسرائيل، وكان فرعون أكرههم على تعلُّم السحر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أخذَ فرعونُ أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أنْ يتعلَّموا السحر، وقال: علِّموهم تعليماً لا يغلبهم أحدٌ من أهل الأرض، وهم من الذين آمنوا بموسى عليه السلام، وهم الذين قالوا: «إنَّا آمنَّا بربِّنا ليغفرَ لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر»[3].

وقال الحسن: كان يأخذ وِلْدان الناس ويجبرهم على تعلُّم السحر.

وقيل: إنَّه أكرههم على المعارضة، حيث روي أنَّهم قالوا له: أرنا موسى نائماً، ففعل، فوجدوه تحرسُه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر، فإنَّ الساحرَ إذا نام بَطَل سحرُه، فأبى إلَّا أن يعارضوه، ولا ينافي ذلك قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٦٢. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٨٨ عن أبي حيوة فقط.

(٢) في الأصل: وعدتنا. والمثبت من (م) وهو الموافق لتفسير أبي السعود ٦/ ٣٠، والكلام منه.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٠٣.

ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] لاحتمال أنْ يكون قبل ذلك، أو تجلُّداً، كما أنَّ قولهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣] قبله كما قيل.

وزعم أبو عبيد أنَّ مجردَ أمر السلطان شخصاً إكراهٌ وإن لم يتوعَّده[1]. وإلى ذلك ذهب ساداتنا الحنفية، كما في عامَّة كتبهم؛ لما في مخالفة أمره من توقُّع المكروه، لاسيما إذا كان السلطانُ جبَّاراً طاغيةً.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ في حدِّ ذاته تعالى ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ أي: وأدوم جزاءً، ثواباً كان أو عقاباً، أو خيرٌ ثواباً وأبقى عذاباً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى آخر الشرطيتين تعليلٌ من جهتهم لكونه تعالى شأنُه «خيرٌ وأبقى» وتحقيقٌ له، وإبطالٌ لما ادعاه اللعين. وتصديرُهما[2] بضمير الشأن للتنبيه على فخامة مضمونهما[3]، ولزيادة تقريرٍ له، أي: إنَّ الشأنَ الخطيرَ هذا، أي: قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ بأن ماتَ على الكفر والمعاصي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فينتهي عذابُه، وهذا تحقيقٌ لكون عذابه تعالى أبقى ﴿وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ حياةً ينتفعُ بها.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ به عزَّ وجلَّ، وبما جاءَ من عنده من المعجزات التي من جملتها ما شاهدناه ﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الأعمال ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى «من» والجمعُ باعتبار معناها، كما أنَّ الإفراد فيما تقدَّم باعتبار لفظها، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلوِّ درجتهم وبُعْدِ منزلتهم، أي: فأولئك المؤمنون العاملون للأعمال الصالحات ﴿لَهُمُ﴾ بسبب إيمانهم وعملهم ذلك ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ أي: المنازل الرفيعة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ من «الدرجات العلى»، أو بيانٌ، وقد تقدَّم في «عدن». ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حالٌ من الجنات، وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ تحقيقٌ لكون

---

(١) ذكر هذا القول الرازي في تفسيره ٢٢/ ٩٩، والنيسابوري في الغرائب ١٦/ ١٤٢، وابن عادل في اللباب ١٣/ ٣٢٦ عن عمرو بن عبيد، وضعفوه.

(٢) في الأصل: وتصديرها، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٣٠، والكلام منه.

(٣) في الأصل: مضمونها، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٣٠، والكلام منه.

ثوابه تعالى أبقى، وهو حالٌ من الضمير في «لهم»، والعاملُ فيه معنى الاستقرار في الظرف، أو ما في «أولئك» من معنى: أشير، والحال مقدَّرة.

ولا يجوز أن يكون «جنات» خبر مبتدأ محذوف، أي: هي جنات؛ لخلوِّ الكلام حينئذٍ عن عامل في الحال على ما ذكره أبو البقاء(١).

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر، ومعنى البعد لما أشير إليه من قُربٍ من التفخيم. ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝٧٦﴾ أي: تطهَّر من دنس الكفر والمعاصي بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة. وهذا تصريحٌ بما أفادته الشرطية.

وتقديم ذكر حال المجرم؛ للمسارعة إلى بيان أشدِّيَّة عذابه عزَّ وجلَّ ودوامه، ردّاً على ما ادَّعاه فرعون بقوله: «أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى».

وقال بعضهم: إنَّ الشرطيَّتين إلى هنا ابتداءُ كلام منه جلَّ وعلا تنبيهاً على قبح ما فعل فرعون، وحسن ما فعل السحرة، والأَوَّل أولى خلافاً لما حسبه النيسابوريّ(٢).

هذا، واستدلَّ المعتزلةُ بالشرطيَّة الأولى على القطع بعذاب مرتكب الكبيرة، قالوا: مرتكبُ الكبيرة مجرمٌ؛ لأنَّ أصل الجرم قطعُ الثمرة عن الشجرة، ثم استعيرَ لاكتساب المكروه، وكلُّ مجرم فإنَّ له جهنم للآية، فإن «من» الشرطية فيها عامَّةٌ بدليل صحة الاستثناء، فينتج مرتكب الكبيرة أنَّ له جهنم، وهو دالٌّ على القطع بالوعيد.

وأجابَ أهل السنة بأنَّا لا نسلم الصغرى؛ لجواز أنْ يراد بالمجرم الكافر، فكثيراً ما جاء في القرآن بذلك المعنى، كقوله تعالى: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ إلى آخر السورة [المطففين: ٢٩-٣٦]. وعلى تقدير تسليم هذه المقدمة لا نسلِّم الكبرى على إطلاقها، وإنَّما هي كليةٌ بشرط عدم العفو، مع أنَّا لا نسلم أنَّ «من» الشرطيَّة قطعيَّةٌ في

---

(١) الإملاء ٢/ ١٢٤-١٢٥.

(٢) في غرائب القرآن ١٦/ ١٤٢.

العموم، كما قال الإمام[1]، وحينئذٍ لا يحصل القطعُ بالوعيد مطلقاً. وعلى تقدير تسليم المقدِّمتين يقال: يعارِضُ ذلك الدليلَ عمومُ الوعد في قوله تعالى: «ومن يأته مؤمناً» إلخ، ويجعل الكلام فيمن آمن وعمل الصالحات وارتكب الكبيرة، وهو داخلٌ في عموم: «من يأته مؤمناً قد عمل الصالحات» ولا يخرجه عن العموم ارتكابُه الكبيرة، ومتى كانت له الجنة، فهي لمن آمن وارتكبَ الكبيرة ولم يعمل الأعمال الصالحة أيضاً، إذ لا قائل بالفرق.

فإذا قالوا: مرتكب الكبيرة لا يقال له مؤمنٌ كما لا يقال كافر؛ لإثباتهم المنزلةَ بين المنزلتين، فلا يدخلُ ذلك في العموم، أبطلنا ذلك، وبرهنَّا على حصر المكلَّف في المؤمن والكافر، ونفي المنزلة بين الإيمان والكفر بما هو مذكورٌ في محلِّه.

وعلى تقدير تسليم أنَّ «من يأته مؤمناً» إلخ لا يعمُّ مرتكبَ الكبيرة يقال: إنَّ قوله تعالى: «فأولئك لهم الدرجات العلى» يدلُّ على حصول العفو لأصحاب الكبائر؛ لأنَّه تعالى جعلَ الدرجات العلى وجنات عدن لمن أتى بالإيمان والأعمال الصالحة، فسائر الدرجات الغير العالية والجنان لابدَّ أن تكون لغيرهم، وما هم إلَّا العصاةُ من أهل الإيمان. ولقد أخرج أبو داود وابن مردويه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكبَ الدريَّ في أفق السماء، وإنَّ أبا بكرٍ وعمرَ منهم وأنعما»[2].

واستُدلَّ على شمولِ «من يأته مؤمناً» صاحبَ الكبيرة بقوله تعالى: «وذلك جزاءُ من تزكَّى» بناءً على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنَّ المرادَ بمن تزكَّى: من قال: لا إله إلَّا الله. كأنَّه أراد: من تطهَّر عن دَنَسِ الكفر. والله تعالى أعلم.

ثم إنَّ العاصيَ إذا دخلَ جهنَّم لا يكونُ حالُه كحال المجرم الكافر إذا دخلها، بل قيل: إنَّه يموتُ؛ احتجاجاً بما أخرج مسلم وأحمد وابن أبي حاتم وابنُ مردويه

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٩١.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٠٣، وهو في سنن أبي داود (٣٩٨٧). وأخرجه أيضاً الترمذي (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٩٦)، وأحمد (١١٢٠٦). وأخرج نحوه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد أيضاً، وليس فيه ذكر أبي بكر وعمر. وقوله: وأنعما: أي: زادا وفضلا. وقيل: دخلا في النعيم. تهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٣ ـ طبعة دار الفيحاء.

عن أبي سعيدٍ الخدريّ: أنَّ رسول الله ﷺ خطبَ فأتى على هذه الآية «إنه من يأت» إلخ، فقال عليه الصلاة والسلام: «أمَّا أهلُها - يعني جهنم - الذين هم أهلُها فإنَّهم لا يموتون فيها ولا يحيون، وأمَّا الذين ليسوا بأهلها، فإنَّ النار تميتُهم إماتةً، ثمَّ يقومُ الشفعاء فيشفعون، فيؤتَى بهم ضبائر على نهرٍ يقال له: الحياة، أو: الحيوان، فينبتون كما تنبتُ القثاء بحميل السيل»(١).

وحمل ذلك القائلُ «تميتهم» فيه على الحقيقة، وجعل المصدر تأكيداً لدفع توهم المجاز، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤] وذكر أنَّ فائدةَ بقائهم في النار بعد إماتتهم إلى حيثُ شاء الله تعالى حرمانُهم من الجنة تلك المدة، وذلك منضمٌّ إلى عذابهم بإحراق النار إيَّاهم.

وقال بعضُهم: إنَّ «تميتهم» مجازٌ، والمراد أنَّها تجعلُ حالهم قريبةً من حال الموتى بأنْ لا يكونَ لهم شعورٌ تامٌّ بالعذاب. ولا يُسلَّم أنَّ ذكر المصدر ينافي التجوُّز، فيجوز أن يقال: قتلتُ زيداً بالعصا قتلاً، والمراد: ضربتُه ضرباً شديداً.

ولا يصحُّ أن يقال: المصدرُ لبيان النوع، أي: تميتهم نوعاً من الإماتة؛ لأنَّ الإماتةَ لا أنواع لها، بل هي نوعٌ واحد، وهو إزهاق الروح، ولهذا قيل:

ومن لم يمتْ بالسيفِ مات بغيره ... تعدَّدتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ(٢)

واستدلَّ المجسِّمةُ بقوله سبحانه: «إنَّه من يأت ربه» على ثبوت مكانٍ له تعالى شأنُه. وأجيبَ بأنَّ المرادَ من إتيانه تعالى إتيانُ موضع وعده عزَّ وجلَّ، أو نحو ذلك.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ حكايةٌ إجماليَّةٌ لما انتهى إليه أمرُ فرعون وقومه، وقد طوى في البين ذكرَ ما جرى عليهم بعد أنْ غُلِبت السحرةُ من الآيات المفصَّلة الظاهرة على يد موسى عليه السلام في نحو من عشرين سنة، حسبما فصَّل في سورة الأعراف، وكان فرعون كلما جاءت آيةٌ وعد أنْ يُرسِل بني إسرائيل عند

---

(١) الدر المنثور ٤/٣٠٣، وهو في صحيح مسلم (١٨٥)، ومسند أحمد (١١٠٧٧)، والضبائر هم الجماعات في تفرقة، واحدتها: ضبارة... وكل مجتمع ضبارة. النهاية (ضبر).

(٢) البيت لابن نباته السعدي، وسلف عند تفسير الآية: ١٢٥ من سورة الأعراف.

انكشاف العذاب، حتى إذا انكشف نكث، فلمَّا كَمَلت الآيات أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾.

وتصدير الجملة بالقسم؛ لإبراز كمال العناية بمضمونها. و«أن» إمَّا مفسرةٌ لما في الوحي من معنى القول، وإمَّا مصدريَّةٌ حذف منها[1] الجارُّ، والتعبيرُ عن بني إسرائيل بعنوان العبودية لله تعالى؛ لإظهار الرحمة والاعتناء بأمرهم، والتنبيهِ على غايةِ قبح صنيع فرعون بهم، حيث استعبدَهم وهم عبادُه عزَّ وجلَّ، وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل، ولم يراقب فيهم مولاهم الحقيقي جلَّ جلاله.

والظاهر أنَّ الإيحاء بما ذُكر وكذا ما بعده كان بمصر، أي: وبالله تعالى لقد أوحينا إليه ـ عليه السلام ـ أنْ أسر[2] بعبادي الذين أرسلتُك لإنقاذهم من ملكة فرعون من مصر ليلاً ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ﴾ بعصاك ﴿طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ﴾ مفعولٌ به لـ «اضرب» على الاتِّساع، وهو مجازٌ عقليٌّ، والأصل: اضرب البحرَ ليصير لهم طريقاً ﴿يَبَسًا﴾ أي: يابساً، وبذلك قرأ أبو حيوة[3]، على أنَّه مصدرٌ جُعِلَ وصفاً لـ «طريقاً» مبالغة، وهو يستوي فيه الواحدُ المذكر وغيره.

وقرأ الحسن: «يبْساً» بسكون الباء[3]، وهو إمَّا مخفَّفٌ منه بحذف الحركة، فيكون مصدراً أيضاً، أو صفةٌ مشبَّهةٌ، كصعب، أو جمع يابس، كصَحْب وصَاحب، ووصف الواحدُ به للمبالغة، وذلك أنَّه جعل الطريق لفرط يبسها كأشياء يابسة، كما قيل في قول القطاميّ:

كأنَّ قتودَ رحلي حين ضُمَّت ... حوالِب غُرَّزاً ومِعًى جياعا[4]

إنَّه جعل المِعَى لفرط جوعه كجماعةٍ جياع.

---

(١) في (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٣١: عنها.

(٢) في (م): سر.

(٣) القراءات الشاذة ص ٨٨، والبحر المحيط ٦/ ٢٦٤.

(٤) ديوان القطامي ص ٤١. وفيه: نسوع. بدل: قتود.
قال الخفاجي في حاشيته ٦/ ٢١٨: القتود: جمع قتد، وهو خشب الرحل، ويجمع على أقتاد، والرحل ما يوضع على الناقة، والمراد به الناقة هنا. والحوالب بالحاء المهملة جمع حالب، والحالبان عرقان يكتنفان السرة. وغرزاً: جمع غارز بالغين المعجمة وتقديم الراء المهملة على الزاي المعجمة، وهي الناقة التي قلَّ لبنها.

أو قدَّر كلَّ جزءٍ من أجزاءِ الطريق طريقاً يابساً، كما قيل في: نطفةٍ أمشاجٍ، وثوبٍ أخلاق، أو حيثُ أريد بالطريق الجنس، وكان متعدِّداً حسب تعدُّد الأسباط، لاطريق واحدة على الصحيح جاء وصفه جمعاً. وقيل: يحتملُ أنْ يكون اسم جمع.

والظاهر أنَّه لا فرق هنا بين اليبس بالتحريك واليبس بالتسكين معنًى؛ لأنَّ الأصلَ توافُق القراءتين، وإنْ كانت إحداهما شاذَّةً. وفي «القاموس»: اليَبْسُ بالإسكان ما كان أصلُه رطباً فجفَّ، وما أصلُه اليبوسة ولم يعهد رطباً يَبَسٌ، بالتحريك، وأمَّا طريقُ موسى عليه السلام في البحر، فإنَّه لم يُعْهد طريقاً لا رَطْباً ولا يابساً، إنَّما أظهرَه الله تعالى لهم حينئذٍ مخلوقاً على ذلك[١]. اهـ. وهذا مخالفٌ لما ذكره الراغبُ من أنَّ اليبسَ - بالتحريك - ما كان فيه رطوبةٌ فذهبت، والمكانُ إذا كان فيه ماءٌ فذهب[٢].

وروي أنَّ موسى عليه السلام لمَّا ضرب البحر وانفلقَ حتى صارت فيه طُرقٌ بعثَ الله تعالى ريح الصبا، فجفَّفت تلك الطرق حتى يبست.

وذهب غيرُ واحدٍ أنَّ الضربَ بمعنى الجعل، من قولهم: ضرب له في ماله سهماً، وضرب عليهم الخراج، أو بمعنى الاتخاذ، فينصب مفعولين؛ أوَّلُهما «طريقاً»، وثانيهما «لهم».

واختار أبو حيان[٣] بقاءَه على المعنى المشهور، وهو أوفقُ بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الأعراف:١٦٠].

وزعم أبو البقاء أنَّ «طريقاً» على هذا الوجه مفعولٌ فيه[٤]، وقال: التقدير: «فاضرب لهم» موضع طريق.

---

(١) القاموس (يبس).

(٢) المفردات (يبس).

(٣) في البحر ٦/ ٢٦٤.

(٤) كذا في الأصل و(م). وهو خطأ؛ فنص العبارة في الإملاء ٢/ ١٢٥: «... طريقاً» التقدير: موضع طريق، فهو مفعول به على الظاهر. قال السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٨١: فقوله: على الظاهر، يعني أنه لولا التأويل لكان ظرفاً.

﴿لَا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ في موضع الحال من ضمير «فاضرب»، أو الصفة الأخرى لـ «طريقاً»، والعائدُ محذوف، أي: فيها، أو هو استئنافٌ كما قال أبو البقاء، وقدَّمه على سائر الاحتمالات[1].

وقرأ الأعمشُ وحمزة وابن أبي ليلى: «لا تَخَفْ» بالجزم على جواب الأمر[2]، أعني: «أسر»، ويحتمل أنَّه نهيٌ مستأنفٌ، كما ذكره الزجَّاج.

وقرأ أبو حيوة وطلحة والأعمش: «دَرْكاً» بسكون الراء[3]، وهو اسمٌ من الإدراك، أي: اللحوق، كالدَّرَك بالتحريك. وقال الراغب: الدرك بالتحريك في الآية: ما يلحقُ الإنسان من تبعةٍ[4]. أي: لا تخاف تبعةً، والجمهور على الأوَّل، أي: لا تخاف أنْ يدرككم فرعونُ وجنودهُ من خلفكم.

﴿وَلَا تَخۡشَىٰ ۝٧٧﴾ أن يغرقكم البحرُ من قُدَّامكم، وهو عطف على «لا تخافُ»، وذلك ظاهرٌ على الاحتمالات الثلاثة في قراءة الرفع.

وأمَّا على قراءة الجزم، فقيل: هو استئنافٌ، أي: وأنت لا تخشى. وقيل: عطفٌ على المجزوم، والألفُ جيء بها للإطلاق مراعاةً لأواخر الآي، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]، ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب:١٠]، أو هو مجزومٌ بحذف الحركة المقدَّرة كما في قوله:

إذا العجوزُ غضبتْ فطلِّقِ
ولا تَرَضَّاها ولا تَمَلَّقِ[5]

وهذا لغةٌ قليلةٌ عند قومٍ، وضرورةٌ عند آخرين، فلا يجوزُ تخريج التنزيل الجليل الشأن عليه، أو لا يليقُ مع وجود مثل الاحتمالين السابقين، أو الأول منهما.

---

(١) الإملاء ٢/ ١٢٥.
(٢) البحر ٦/ ٢٦٤، وقراءة حمزة في التيسير ص ١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١.
(٣) البحر ٦/ ٢٦٤، وهي في القراءات الشاذة ص ٨٨ منسوبة لأبي حيوة فحسب.
(٤) المفردات (درك).
(٥) الرجز لرؤبة بن العجاج. انظر خزانة الأدب ٨/ ٣٥٩، وهو في ديوان رؤبة ص ١٧٩ (الأبيات المنسوبة إليه).

والخشيةُ أعظمُ الخوفِ، وكأنَّه إنَّما اختيرت هنا؛ لأنَّ الغرق أعظمُ من إدراك فرعون وجنوده؛ لما أنَّ ذاك مظنَّةُ السلامة، ولا ينافي ذلك أنَّهم إنَّما ذكروا أولاً ما يدلُّ على خوفهم منه حيث قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] ولذا سُورع في إزاحته بتقديم نفيه، كما يظهر بالتأمُّل.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أي: تبعهم ومعه جنودُه، على أنَّ: أتبع بمعنى تبع، وهو متعدٍّ إلى واحد، والباء للمصاحبة، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، ويؤيِّد ذلك أنَّه قرأ الحسن وأبو عمرو في روايةٍ: «فاتَّبعهم» بتشديد التاء(١). وقرئ أيضاً: «فأتبعهم فرعون وجنوده»(٢).

وقيل: أتبع متعدٍّ إلى اثنين هنا كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ذُرِّيَّٰتُهُم﴾(٣) [الطور: ٢١]، والثاني مقدَّرٌ، أي: فأتبعهم رؤساءَ دولته، أو عقابه.

وقيل: نفسَه، والجارُّ والمجرور في موضع الحال أيضاً.

وعن الأزهريِّ أنَّ المفعولَ الثاني «جنوده»، والباء سيف خطيب، أي: أتبعهم فرعونُ جنودَه، وساقهم خلفهم، فكان معهم يحثُّهم على اللحوق بهم.

وجُوِّزَ أنْ يكون المفعولُ الثاني «جنوده»، والباء للتعدية، فيكون قد تعدَّى الفعل إلى واحدٍ بنفسه وإلى الآخر بالحرف.

وأيّاً ما كان، فالفاء فصيحةٌ معرِبةٌ عن مضمرٍ قد طُوي ذكرُه ثقةً بغاية ظهوره، وإيذاناً بكمال مسارعة موسى عليه السلام إلى الامتثال بالأمر، أي: ففعل ما أُمر به من الإسراء بعبادي، وضرب الطريق لهم، فأتبعهم فرعونُ بجنوده.

وزعم بعضُهم أنَّ الإيحاء بالضرب كان بعد أنْ أتبعهم فرعونُ وتراءى الجمعان. والظاهر الأوَّل.

روي أنَّ موسى عليه السلام خرجَ بهم أوَّل الليل يريدُ القُلْزُم، وكانوا قد

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٦٤، وقراءة أبي عمرو المشهورة عنه كقراءة الجمهور.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٦٤، وتفسير الرازي ٢٢/ ٩٣.

(٣) هي قراءة أبي عمرو. انظر التيسير ص ٢٠٣، وستأتي في موضعها.

استعاروا من قوم فرعونَ الحليَّ والدوابَّ لعيدٍ يخرجونَ إليه، وكانوا ستمئة ألفٍ وثلاثة آلاف ونيِّفاً، ليس فيهم ابنُ ستين ولا عشرين، وفي روايةٍ أنهم خرجوا وهم ستمئة ألف وسبعون ألفاً[1] وأخرجُوا معهم جسدَ يوسف عليه السلام؛ لأنَّه كان عَهِدَ إليهم ذلك، ودلَّتهم عجوزٌ على موضعه، فقال لها موسى عليه السلام: احتكمي، فقالت: أكونُ معك في الجنة، فاتصل الخبر بفرعون، فجمعَ جنوده وخرج بهم، وكان في خيله سبعون ألف أدهم، وكانت مقدِّمتُه فيما يُحكى سبعمئة ألف فارس. وقيل: ألف ألف وخمسمئة ألف، فقَصَّ أثرهم حتى تراءى الجمعان، فعظم فزع بني إسرائيل، فضرب عليه السلام بعصاه البحرَ فانفلق اثني عشر فرقاً، كلُّ فرقٍ كالطَّود العظيم، فدخلوا، ووصل فرعون وجنوده إلى المدخل، فرأوا البحر منفلقاً، فاستعظموا الأمر، فقال فرعون لهم: إنَّما انفلقَ من هيبتي، فدخل على فرس حصان، وبين يديه جبريلُ عليه السلام على فرس حجر، وصاحت الملائكة عليهم السلام، وكانوا ثلاثة وثلاثين ملكاً: أن ادخلوا، فدخلوا حتى إذا استكملوا دخولاً خرج موسى عليه السلام بمن معه من الأسباط سالمين، ولم يخرج أحدٌ من فرعون وجنوده.

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ أي: علاهم منه وغمرهم ما غمرَهم من الأمر الهائل الذي لا يقادَرُ قدره، ولا يبلغ كنهه.

وقيل: غشيهم ما سمعتَ قصتَه. وليس بذاك، فإنَّ مدارَ التهويل والتفخيم خروجُه عن حدود الفهم والوصف، لا سَماع القصة.

والظاهر أنَّ ضميري الجمع لفرعون وجنوده. وقيل: لجنوده فقط؛ للقرب، ولأنَّه أُلقيَ بالساحل، ولم يتغطَّ بالبحر، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢]. وفيه أنَّ الإنجاء بعد ما غشيَه ما غشيَ جنوده، وشكُّ بنو إسرائيل في هلاكه، والقربُ ليس بداعٍ قوي.

وقيل: الضميرُ الأوَّل لفرعون وجنوده، والثاني لموسى عليه السلام وقومه،

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: لا يخفى أن هذه المبالغات مما لم يثبت فيها خبر صحيح. اهـ منه.

وفي الكلام حذفٌ، أي: فنجا موسى عليه السلام وقومه، وغرق فرعون وجنوده. انتهى. وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وقرأت فرقةٌ منهم الأعمش: «فغشَّاهم من اليمِّ ما غشَّاهم»(١)، أي: غطَّاهم ما غطَّاهم، فالفاعل «ما» أيضاً، وترك المفعول زيادة في الإبهام. وقيل: المفعول «من اليمِّ»، أي: بعض اليم، ويجوزُ أن يكون الفاعل ضمير الله تعالى شأنه، و«ما» مفعول. وقيل: هو ضمير «فرعون»، والإسناد مجازيٌّ؛ لأنَّه الذي وَرَّطهم للهلكة. ويبعدُه الإظهار في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ أي: سلك بهم مسلكاً أدَّاهم إلى الخسران في الدين والدنيا معاً، حيث أُغرقوا فأدخِلوا ناراً.

﴿وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ أي: وما أرشدَهم إلى طريقٍ موصلٍ إلى مطلبٍ من المطالب الدينيَّة والدنيويَّة، والمراد بذلك التهكُّم به، كما ذكر غيرُ واحد.

واعترض بأنَّ التهكمَ أنْ يُؤتَى بما قُصد به ضدُّه استعارةً ونحوها، نحو: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] إذا كان الغرضُ الوصف بضدِّ هذين الوصفين، وكونه لم يهدِ إخبارٌ عمَّا هو كذلك في الواقع.

وأجيبَ بأنَّ الأمر كذلك، ولكن العرف في مثل: ما هدى زيدٌ عَمراً، ثبوت كون زيدٍ عالماً بطريق الهداية مهتدياً في نفسه، ولكنَّه لم يهدِ عَمراً، وفرعون أضلُّ الضَّالين(٢) في نفسه، فكيف يتوهَّم أنَّه يهدي غيره، ويحقِّق ذلك أنَّ الجملةَ الأولى كافيةٌ في الإخبار عن عدم هدايته إيَّاهم، بل مع زيادة إضلاله إيَّاهم، فإنَّ من لا يَهدي قد لا يُضِلُّ، وإذا تحقَّقَ إغناؤها في الإخبار على أتمِّ وجهٍ تعيَّن كونُ الثانية بمعنى سواه، وهو التهكُّم.

وقال العلامة الطيبي: توضيحُ معنى التهكُّم أنَّ قوله تعالى: «وما هدى» من باب التلميح، وهو إشارةٌ إلى ادِّعاء اللعين إرشادَ القوم في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]، فهو كمن ادَّعى دعوى وبالغَ فيها، فإذا حانَ وقتُها ولم يأتِ بها، قيل له: لم تأتِ(٣) بما ادَّعيت! تهكُّماً واستهزاءً. انتهى.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٨٨، والبحر المحيط ٦/ ٢٦٤.

(٢) في الأصل: الظالمين.

(٣) في حاشية الخفاجي ٦/ ٢١٩: لم لم تأت...

ويعلم ممَّا ذُكر المغايرةُ بين الجملتين، وأنه لا تكرير.

وقيل: المراد: وما هداهم في وقتٍ ما، ويحصلُ بذلك المغايرة؛ لأنَّه لا دلالة في الجملة الأولى على هذا العموم، والأول أولى.

وقيل: «هدى» بمعنى اهتدى، أي: أضلَّهم وما اهتدى في نفسه، وفيه بعد.

وحَمل بعضُهم الإضلال والهداية على ما يختصُّ بالدينيِّ منهما. ويأباه مقام بيان سوقه بجنوده إلى مساق الهلاك الدنيويِّ.

وجعلهما عبارةً عن الإضلال في البحر والإنجاء منه ممَّا لا يقبله الطبعُ المستقيم.

واحتجَّ القاضي بالآية على أنَّه تعالى ليس خالقاً للكفر؛ لأنَّه تعالى شأنُه قد ذمَّ فيها فرعون بإضلاله، ومن ذمَّ أحداً بشيءٍ يُذَمُّ إذا فعله. وأجيبَ بمنع اطِّراد ذلك.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ حكايةٌ لما خاطبهم تعالى به بعد إغراق عدوِّهم وإنجائهم منه، لكن لا عقيبَ ذلك، بل بعد ما أفاضَ عليهم من فنون النعم الدينيَّة والدنيويَّة ما أفاض.

وقيل: إنشاءُ خطابٍ للذين كانوا منهم في عهد النبيِّ ﷺ، على معنى أنَّه تعالى قد منَّ عليهم بما فعل بآبائهم أصالةً، وبهم تبعاً.

وتُعقِّب بأنَّه يردُّه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ [طه: ٨٣] إلخ ضرورة استحالة حمله على الإنشاء، وكذا السباق، فالوجهُ هو الحكاية بتقدير «قلنا» عطفاً على «أوحينا»، أي: وقلنا يا بني إسرائيل ﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعون وقومه، حيث كانوا يسومونكم سوءَ العذاب، يذبِّحونَ أبناءكم ويستحيون نساءكم.

وقرأ حميد: «نجَّيناكم» بتشديد الجيم من غير همزةٍ قبلها، وبنون العظمة[(١)].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ[(٢)] والأعمش وطلحة: «أنجيتكم» بتاء الضمير[(٣)].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٦٥.

(٢) التيسير ص ١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) انظر البحر المحيط ٦/ ٢٦٥.

﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ بالنصب على أنَّه صفةُ المضاف. وقرئ بالجرِّ[1]، وخرَّجه الزمخشريُّ على الجوار، نحو: هذا جُحْرُ ضبٍّ خَرِبٍ[2]. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ الجرَّ المذكور من الشذوذ والقلَّة بحيث ينبغي أنْ لا تُخرَّج القراءةُ عليه، وقال: الصحيحُ أنَّه نعتٌ للطور؛ لما فيه من اليمن، وإمَّا لكونه عن يمين من يستقبل الجبل[3]. اهـ.

والحقُّ أنَّ القلَّة لم تصل إلى حدٍّ منع تخريج القراءة ـ لا سيما إذا كانت شاذَّةً ـ على ذلك، وتوافق القراءتين يقتضيه. وقوله: وإمَّا لكونه. . . إلخ، غيرُ صحيح على تقدير أنْ يكون الطورُ هو الجبل، ولو قال: وإمَّا لكونه عن يمين من انطلق من مصر إلى الشام لكان صحيحاً.

ونصب «جانبَ» على الظرفيَّة، بناءً على ما نقل الخفاجيُّ[4] عن الراغب وابن مالك في «شرح التسهيل» من أنَّه سُمِع نصبُ «جنب» وما بمعناه على الظرفيَّة.

ومَنع بعضهم ذلك لأنَّه محدودٌ، وجعله منصوباً على أنَّه مفعول: واعدنا، على الاتِّساع، أو بتقدير مضاف، أي: إتيانَ جانب. . إلخ، وإلى هذا ذهبَ أبو البقاء[5].

وإذا كان ظرفاً فالمفعول مقدَّرٌ، أي: وواعدناكم بواسطة نبيِّكم في ذلك الجانب إتيانَ موسى عليه السلام للمناجاة، وإنزالَ التوراة عليه.

ونسبةُ المواعدة إليهم مع كونها لموسى عليه السلام نظراً إلى ملابستها إيَّاهم، وسرايةِ منفعتها إليهم، فكأنَّهم كلَّهم مواعدون، فالمجاز في النسبة، وفي ذلك من إيفاء مقام الامتنان حقَّه ما فيه.

وقرأ حمزة والمذكورون معه آنفاً: «وواعدتكم» بتاء الضمير أيضاً[6]. وقرئ: «ووعدناكم» من الوعد[7].

---

(١) القراءات الشاذة ص ٨٩، ونسبها لأحمد عن أبي عمرو، ثم قال: والنصب أحبُّ إليَّ.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٤٧.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٦٥.
(٤) في حاشيته ٦/ ٢٦٥.
(٥) الإملاء ٢/ ١٢٥.
(٦) التيسير ص ١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١.
(٧) هي قراءة أبي عمرو ويعقوب وأبي جعفر. انظر التيسير ص ٧٣، والنشر ٢/ ٢١٢.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠﴾ الترنجبين والسُّمَانى، حيث كان ينزلُ عليهم المنُّ وهم في التِّيْه مثلُ الثلج من الفجر إلى الطُّلوع، لكلِّ إنسانٍ صاع، ويَبعث الجنوبُ عليهم السُّمَانى، فيأخذُ الواحد منهم ما يكفيه.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: من لذائذه أو حلالاته، على أنَّ المراد بالطيب ما يستطيبُه الطبعُ أو الشرع، وجُوِّز أن يُراد بالطيبات ما جَمعت وصفي اللذَّةِ والحِلّ.

والجملة مستأنفةٌ مسوقةٌ لبيان إباحة ما ذُكر لهم، وإتماماً للنعمة عليهم.

وقرأ من ذكر آنفاً: «رزقتكم»[١].

وقَدَّم سبحانه نعمةَ الإنجاء من العدوِّ؛ لأنَّها من باب درء المضارِّ، وهو أهمُّ من جلب المنافع، ومن ذاق مرارةَ كيد الأعداء ـ خذلهم الله تعالى ـ ثمَّ أنجاه الله تعالى[٢]، وجعلَ كيدهُم في نحورهم = علم قدرَ هذه النعمة، نسأل الله تعالى أن يُتِمَّ نعمَه علينا، وأنْ لا يجعل لعدوٍّ سبيلاً إلينا.

وثنَّى جلَّ وعلا بالنعمة الدينية، لأنَّها الأنفُ في وجه المنافع، وأخَّر عزَّ وجلَّ النعمةَ الدنيويَّة؛ لكونها دون ذلك، فتبّاً لمن يبيع الدين بالدنيا.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي: فيما رزقناكم بالإخلال بشكره، وتعدِّي حدود الله تعالى فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على معاصي الله تعالى، ومنع الحقوق الواجبة فيه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: لا يظلم بعضكم بعضاً فيأخذَه من صاحبه بغير حقّ. وقيل: أي: لا تدَّخروا.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «ولا تطغُوا» بضمِّ الغين[٣].

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ جوابٌ للنهي، أي: فيلزمكم غضبي، ويجب لكم، مِن حَلَّ الدَّين يَحِلُّ ـ بكسر الحاء ـ إذا وجب أداؤه، وأصله من الحلول، وهو في الأجسام، ثمَّ استعير لغيرها وشاع حتى صارت حقيقةً فيه.

---

(١) التيسير ص ١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١.

(٢) قوله: ثم أنجاه الله تعالى. ليس في الأصل.

(٣) البحر ٦/ ٢٦٥.

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ أي: هلك، وأصله الوقوع من علوّ، كالجبل، ثم استعمل في الهلاك للزومه له. وقيل: أي: وقعَ في الهاوية، وإليه ذهب الزَّجّاج[١].

وفي بعض الآثار أنَّ في جهنَّم قصراً يُرمَى الكافرُ من أعلاه، فيهوي في جهنَّم أربعين خريفاً قبل أن يبلغ الصلصال، فذلك قوله تعالى: «فقد هوى»، فيكون بمعناه الأصليّ، إذا أريدَ به فردٌ مخصوصٌ منه، لا بخصوصه.

وقرأ الكسائيُّ: «فيحُلَّ» بضمِّ الحاء، «ومن يحلُل» بضمِّ اللام الأولى[٢]. وهي قراءةُ قتادة وأبي حيوة والأعمش وطلحة، ووافق ابن عتبة في «يحلُل» فضمَّ. وفي «الإقناع» لأبي عليٍّ الأهوازيّ: قرأ ابن غزوان عن طلحة: «لا يحِلَّنَّ عليكم» بنونٍ مشددة وفتح اللام وكسر الحاء، وهو من باب لا أرينَّكَ هنا. وفي كتاب «اللوامح»: قرأ قتادة وعبد الله بن مسلم بن يسار وابن وثّاب والأعمش: «فيُحِلَّ» بضمِّ الياء وكسر الحاء، من الإحلال، ففاعله[٣] ضميرُ الطغيان، و«غضبي» مفعوله، وجُوِّزَ أنْ يكون هو الفاعل، والمفعول محذوف، أي: العذاب أو نحوه[٤].

ومعنى «يَحُلّ» مضموم الحاء: ينزل، من حلَّ بالبلد إذا نزل، كما في «الكشاف»[٥].

وفي «المصباح»: حلَّ العذابُ يحِلُّ ويَحُلُّ، هذه وحدها بالكسر والضم، والباقي بالكسر فقط[٦].

والغضبُ في البشر ثورانُ دم القلب عند إرادة الانتقام، وفي الحديث: «اتَّقوا الغضبَ، فإنَّه جمرةٌ توقد في قلب ابن آدم، ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة

---

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٣٧٠.
(٢) التيسير ص ١٥٢، والنشر ٢/ ٣٢١.
(٣) في الأصل: وفاعله.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٦٥. والقراءات المذكورة مع ما يتعلق بها جميعها منه.
(٥) ٢/ ٥٤٨.
(٦) المصباح المنير (حلل).

عينيه»[١]. وإذا وُصف الله تعالى به لم يُرَد هذا المعنى قطعاً، وأريد معنى لائقٌ بشأنه عزَّ شأنه، وقد يراد به الانتقام والعقوبة، أو إرادتهما، نعوذُ بالله تعالى من ذلك.

ووصفُ ذلك بالحلول حقيقةٌ على بعض الاحتمالات ومجازٌ على بعضٍ آخر. وفي «الانتصاف» أنَّ وصفَه بالحلول لا يتأتَّى على تقدير أنْ يراد به إرادة العقوبة، ويكون ذلك بمنزلة قوله ﷺ: «ينزلُ ربُّنا إلى السماء الدنيا»[٢]. على التأويل المعروف، أو[٣] عبَّر عن حلول أثر الإرادة بحلولها تعبيراً عن الأثر بالمؤثِّر، كما يقول الناظر إلى عجيبٍ من مخلوقات الله تعالى: انظر إلى قدرة الله تعالى، يعني أثر القدرة، لا نفسها[٤].

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ كثيرُ المغفرة ﴿لِّمَن تَابَ﴾ من الشرك، على ما روي عن ابن عباس. وقيل: منه، ومن المعاصي التي من جملتها الطغيان فيما رزق[٥]. ﴿وَءَامَنَ﴾ بما يجبُ الإيمان به. واقتصر ابن عباس رضي الله عنهما فيما يروى عنه على ذكر الإيمان بالله تعالى، ولعلَّه من باب الاقتصار على الأشرف، وإلَّا فالأفيدُ إرادةُ العموم مع ذكر التوبة من الشرك.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: عملاً مستقيماً عند الشرع، وهو بحسب الظاهر شاملٌ للفرض والسنة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير ذلك بأداء الفرائض.

﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ أي: لزم الهدى واستقامَ عليه إلى الموافاة، وهو مرويٌّ عن الحبر.

والهدى يحتمل أنْ يراد به الإيمان، وقد صرَّح سبحانه بمدح المستقيمين على ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

---

(١) قطعة من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطويل، أخرجه الترمذيُّ في سننه (٢١٩١)، وأحمد (١١١٤٣). وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة ص ١٧٠.

(٢) سلف ١/٣٢٦.

(٣) في الأصل: و.

(٤) الانتصاف ٢/٥٤٨.

(٥) في تفسير أبي السعود ٦/٣٣ ـ والكلام منه ـ: فيما ذكر.

وقال الزمخشريُّ: الاهتداءُ هو الاستقامةُ والثباتُ على الهدى المذكور، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح[١].

وأيّاً ما كان، فكلمةُ «ثمَّ» إمَّا للتراخي باعتبار الانتهاء، لبُعده عن أول الانتهاء، أو للدلالة على بُعْدِ ما بين المرتبتين، فإنَّ المداومةَ أعلى وأعظم من الشروع، كما قيل:

لـكـلٍّ إلـى شـأوِ الـعـلـى وَثَـبَـاتٌ[٢]
ولـكـن قـلـيـلٌ فـي الـرجـالِ ثـبـاتٌ[٣]

وقيل: المراد ثمَّ عمل بالسنة.

وأخرج سعيد بن منصور عن الحبر أنَّ المرادَ من «اهتدى»: علم أنَّ لعمله[٤] ثواباً يُجزى عليه[٥]. ورويَ عنه غيرُ ذلك.

وقيل: المراد: طهَّر قلبه من الأخلاق الذميمة، كالعجب والحسد والكِبْر وغيرها.

وقال ابن عطية: الذي يقوى في معنى «ثمَّ اهتدى» أنْ يكون: ثمَّ حفظ معتقداته من أن تخالف الحقَّ في شيءٍ من الأشياء، فإنَّ الاهتداء على هذا الوجه غيرُ الإيمان وغير العمل[٦]. انتهى.

ولا يخفى عليك أنَّ هذا يرجعُ إلى قولنا: ثمَّ استقامَ على الإيمان بما يجبُ الإيمان به على الوجه الصحيح.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٤٨.

(٢) جاء فوقها في الأصل: نسخة: حركات. اهـ. وكذا جاء في حاشية الخفاجي ٦/ ٢١٩، ويتيمة الدهر ٥/ ١٣٦.

(٣) هو لأبي القاسم عبد الواحد بن محمد بن علي بن الحريش الأصبهاني. كما في يتيمة الدهر ٥/ ١٣٦، وفيه: عزيز، بدل: قليل.

(٤) في الأصل: لعلمه.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٣٠٤.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٥٧.

ورَوى الإماميَّةُ من عدة طرق عن أبي جعفر الباقر رضي الله عنه أنَّه قال: ثمَّ اهتدى إلى ولايتنا أهلَ البيت، فوالله لو أنَّ رجلاً عبد الله تعالى عمرَه بين الركن والمقام، ثمَّ مات ولم يجيء بولايتنا، لأكبَّه الله تعالى في النار على وجهه.

وأنت تعلم أنَّ ولايتهم وحبَّهم رضي الله عنهم ممَّا لا كلام عندنا في وجوبه، لكن حمل الاهتداء في الآية على ذلك، مع كونها حكايةً لما خاطبَ الله تعالى به بني إسرائيل في زمان موسى عليه السلام ممَّا يستدعي القول بأنَّه عزَّ وجلَّ أعلَم بني إسرائيل بأهل البيت، وأوجبَ عليهم ولايتهم إذ ذاك، ولم يثبتْ ذلك في صحيح الأخبار.

نعم رَوى الإماميَّة من خبر جارود بن المنذر العبديِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «يا جارود، ليلة أسري بي إلى السماء أوحَى الله عزَّ وجلَّ إليَّ؛ أن سل من أرسلنا قبلَك من رسلنا: علامَ بُعثوا؟ قلت: علامَ بُعثوا؟ قال: على نبوَّتك وولاية عليٍّ بن أبي طالب والأئمة منكما، ثمَّ عرَّفني الله تعالى بهم وبأسمائهم» ثمَّ ذكر ﷺ أسماءهم واحداً بعد واحد إلى المهدي. وهو خبرٌ طويلٌ يتفجَّرُ الكذبُ منه، ولهم أخبارٌ في هذا المطلب كلُّها من هذا القبيل، فلا فائدةَ في ذكرها إلَّا التطويل.

والآية تدلُّ على تحقُّق المغفرةِ لمن اتَّصف بمجموع الصفات المذكورة، وقصارى ما يفهم منها عند القائلين بالمفهوم عدمُ تحقُّقها لمن لم يتَّصف بالمجموع، وعدمُ التحقُّق أعمُّ من تحقُّق العدم، فالآية بمعزلٍ عن أن تكون دليلاً للمعتزليِّ على تحقُّق عدم المغفرة لمرتكب الكبيرة إذا مات من غير توبة، فافهم.

واحتجَّ بها من قال: تجبُ التوبة عن الكفر أوَّلاً، ثمَّ الإتيانُ بالإيمان ثانياً، لأنَّه قدَّم فيها التوبة على الإيمان.

واحتجَّ بها أيضاً من قال بعدم دخول العمل الصالح في الإيمان؛ للعطف المقتضِي للمغايرة.

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ حكايةٌ لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه السلام من الكلام عند ابتداء موافاته الميقات بموجب المواعَدة المذكورة سابقاً[1]، أي: وقلنا له: أيُّ شيءٍ عجَّل بك عن قومك؛ فتقدَّمت عليهم. والمراد

(١) قوله: سابقاً، ليس في الأصل.

بهم هنا عند كثير ـ ومنهم الزمخشريُّ[1] ـ النقباء السبعون، والمراد بالتعجيل تقدُّمه عليهم، لا الإتيان قبل تمام الميعاد المضروب، خلافاً لبعضهم، والاستفهام للإنكار، ويتضمَّن ـ كما في «الكشف» ـ إنكارَ السبب الحامل لوجود مانعٍ في البين؛ وهو إيهام إغفال القوم وعدم الاعتداد بهم، مع كونه عليه السلام مأموراً باستصحابهم وإحضارهم معه، وإنكارَ أصل الفعل؛ لأنَّ العجلة نقيصةٌ في نفسها، فكيف من أولي العزم اللائق بهم مزيدُ الحزم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ متضمِّنٌ لبيان اعتذاره عليه السلام، وحاصلُه: عرض الخطأ في الاجتهاد، كأنَّه عليه السلام قال: إنَّهم لم يبعدوا عني، وإنَّ تقدُّمي عليهم بخطاً يسيرة، وظنِّي أنَّ مثل ذلك لا يُنكر، وقد حملني عليه استدامةُ رضاك، أو حصولُ زيادته، وظنِّي أنَّ مثل هذا الحامل يصلحُ للحمل على مثل ما ذُكر، ولم يخطر لي أنَّ هناك مانعاً لينكر عليَّ.

ونحو هذا الإسراعُ المزيلُ للخشوع إلى إدراك الإمام في الركوع طلباً لأنْ يكونَ أداءُ هذا الركن مع الجماعة التي فيها رضا الربِّ تعالى، فإنَّهم قالوا: إنَّ ذلك غير مشروع.

وقدَّم عليه السلام الاعتذارَ عن إنكار أصل الفعل؛ لأنَّه أهمُّ.

وقال بعضهم: إنَّ الاستفهام سؤالٌ عن سبب العجلة يتضمَّن إنكارها؛ لأنَّها في نفسها نقيصةٌ انضمَّ إليها الإغفال وإيهام التعظيم[2]، فأجاب عليه السلام عن السبب بأنَّه استدامةُ الرضا، أو حصولُ زيادته، وعن الإنكار بما محصَّلُه أنَّهم لم يبعدوا عنِّي، وظننتُ أنَّ التقدُّم اليسير ـ لكونه معتاداً بين الناس ـ لا ينكر، ولا يعدُّ نقيصةً. وعلل تقديم هذا الجواب بما مرَّ.

واعترض بأنَّ مساق كلامه بظاهره يدلُّ على أنَّ السؤال عن السبب على حقيقته، وأنت خبيرٌ بأنَّ حقيقةَ الاستفهام محالٌ على الله تعالى، فلا وجه لبناء الكلام عليه.

---

(١) الكشاف ٢/٥٤٨.

(٢) أي: إغفال القوم الذين كانوا معه، والتعظم عليهم. انظر تفسير البيضاوي ٤/٢٨.

وأجيبَ بأنَّ السؤال من علَّام الغيوب محالٌ، إن كان لاستدعاء المعرفة، أمَّا إذا كان لتعريف غيره، أو لتبكيته، أو تنبيهه، فليس محالاً.

وتُعقِّب بأنَّه لا يَحسنُ هنا أن يكون السؤالُ لأحد المذكورات، والمتبادر أن يكون للإنكار.

وفي «الانتصاف»: أنَّ المراد من سؤال موسى عليه السلام عن سبب العجلة، وهو سبحانه أعلم = أن يعلِّمَه أدبَ السفر؛ وهو أنَّه ينبغي تأخُّر رئيس القوم عنهم؛ ليكونَ بصرُه بهم[1] ومهيمناً عليهم، وهذا المعنى لا يحصلُ مع التقدُّم، ألا ترى كيف عَلَّم الله تعالى هذا الأدبَ لوطاً، فقال سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥] فأمَرَه عزَّ وجلَّ أنْ يكون آخرهم، وموسى عليه السلام إنَّما أغفلَ هذا الأمر مبادرةً إلى رضا الله تعالى، ومسارعةً إلى الميعاد، وذلك شأنُ الموعود بما يسرُّه، يودُّ لو ركب [إليه] أجنحةَ الطير، ولا أسرَّ من مواعدة الله تعالى له عليه الصلاة والسلام. انتهى[2].

وأنت تعلم أنَّ السؤال عن السبب ما لم يكن المراد منه إنكار المسبَّب لا يتسنَّى هذا التعليم.

وقال بعضهم: الذي يلوحُ بالبال أنْ يكون المعنى: أيُّ شيءٍ أعجلَك منفرداً عن قومك؟ والإنكارُ بالذات للانفراد عنهم، فهو منصبٌّ على القيد، كما عرف في أمثاله، وإنكار العجلة ليس إلَّا لكونها وسيلةً له، فاعتذرَ موسى عليه السلام عنه بأنِّي أخطأت في الاجتهاد، وحسبتُ أنَّ القدر اليسير من التقدُّم لا يخلُّ بالمعيَّة، ولا يعدُّ انفراداً، ولا يَقدحُ بالاستصحاب، والحاملُ عليه طلبُ استدامة مرضاتك بالمبادرة إلى امتثال أمرك، فالجواب هو قوله: «هم أولاء على أثري»، وقوله: «وعجلتُ إليك رب لترضى» كالتتميم له. اهـ.

وهو عندي لا يخلو عن حسن.

---

(١) في الانتصاف: ليكون نظره محيطاً بطائفته ونافذاً فيهم.

(٢) الانتصاف ٢/ ٥٤٩، وما سلف بين حاصرتين منه.

وقيل: إنَّ السؤالَ عن السبب، والجواب إنَّما هو قوله: «وعجلت» إلخ، وما قبلَه تمهيدٌ له. وفيه نظر.

وعلى هذا وما قبله لم يكن جوابُ موسى عليه السلام عن أمرين ليجيء سؤالُ الترتيب، فيجابَ بما مرَّ، أو بما ذكره الزمخشريُّ من أنَّه عليه السلام حارَ لمَا ورد عليه من التهيُّب لعتاب الله عزَّ وجلَّ، فأذهلَه ذلك عن الجواب المنطبق المترتِّب على حدود الكلام[(١)]، لكن قال في «البحر»: إنَّ في هذا الجواب إساءَة الأدب مع الأنبياء عليهم السلام[(٢)].

وهذا[(٣)] شأنُ الزمخشريِّ معهم صلى الله تعالى وسلم عليهم.

والمراد من «إليك»: إلى مكان وعدك، فلا يصلحُ دليلاً للمجسِّمة على إثبات مكانٍ له عزَّ وجلَّ.

ونداؤه تعالى بعنوان الربوبيَّة؛ لمزيد الضراعة والابتهال، رغبةً في قَبول العذر.

و«أولاء» اسمُ إشارةٍ ـ كما هو المشهور ـ مرفوعُ المحلِّ على الخبرية لـ «هم»، و«على أثري» خبرٌ بعد خبر، أو حال، كما قال أبو حيان[(٤)]. وجوز الطبرسيُّ كون «أولاء» بدلاً من «هم»، و«على أثري» هو الخبر[(٥)]. وقال أبو البقاء: «أولاء» اسمٌ موصول، و«على أثري» صلته[(٦)]، وهو مذهبٌ كوفيّ.

وقرأ الحسنُ وابن معاذ عن أبيه: «أولايِ» بياءٍ مكسورة[(٧)]. وابن وثاب وعيسى في رواية: «أولا» بالقصر. وقرأت فرقة: «أولايَ» بياء مفتوحة[(٨)]. وقرأ عيسى

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٤٩.
(٢) البحر ٦/ ٢٦٧.
(٣) في (م): وذلك.
(٤) في البحر ٦/ ٢٦٧.
(٥) مجمع البيان ١٦/ ١٢٧.
(٦) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٢٥.
(٧) القراءات الشاذة ص ٨٨، والبحر المحيط ٦/ ٢٦٧.
(٨) البحر المحيط ٦/ ٢٦٧.

ويعقوب وعبد الوارث عن أبي عمرو وزيدُ بن علي ﷺ: «على إِثْري» بكسر الهمزة وسكون الثاء[1]. وحكى الكسائيُّ: «أُثْرِي» بضمِّ الهمزة وسكون الثاء[2]، وتروى عن عيسى[3].

وفي «الكشاف»[4] أنَّ «الأَثَر» بفتحتين أفصحُ من «الإِثْر» بكسرٍ فسكون، وأمَّا الأَثْر[5] فمسموعٌ في فِرِند السيف، مدوَّنٌ في الأصول، يقال: أَثْر السيف وإِثره، وهو بمعنى الأثر غريب.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه السلام، وهو السرُّ في وروده على صيغة الغائب، لا أنَّه التفاتٌ من التكلُّم إلى الغيبة؛ لما أنَّ المقدَّر فيما سبق على صيغة التكلُّم، كأنَّه قيل من جهة السامعين: فماذا قال له[6] ربُّه تعالى حينئذٍ؟ فقيل: قال سبحانه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ أي: اختبرناهم بما فعلَ السامريُّ أو: أوقعناهم في فتنة، أي: ميلٍ مع الشهوات، ووقوعٍ في اختلاف.

﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ من بعد فراقك لهم، وذهابك من بينهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ حيث أخرجَ لهم عجلاً جسداً له خوار، ودعاهم إلى عبادته.

وقيل: قال لهم بعد أنْ غاب موسى عليه السلام عنهم عشرينَ ليلةً: إنَّه قد كَمَلَت الأربعون ـ فجعل العشرين مع أيَّامها أربعينَ ليلة ـ وليس من موسى عينٌ ولا أثر، وليس إخلافه ميعادَكم إلَّا لما معكم من حلي القوم، وهو حرامٌ عليكم، فجمعوه، وكان من أمر العجل ما كان.

والمراد بـ «قومك» هنا الذين خلَّفهم مع هارون عليه السلام، وكانوا ـ على ما قيل ـ ستمائة ألف، ما نجا منهم من عبادة العجل إلَّا اثنا عشر ألفاً، فالمراد بهم غير المراد بـ «قومك» فيما تقدَّم، ولذا لم يؤتَ بضميرهم.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٦٧، وقراءة يعقوب ـ وهي من رواية رويس عنه ـ في النشر ٢/ ٣٢١.
(٢) القراءات الشاذة ص ٨٨-٨٩.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٦٧.
(٤) ٢/ ٥٤٨.
(٥) بفتح فسكون، انظر تاج العروس (أثر).
(٦) لفظة: له، ليست في الأصل.

وقيل: المراد بالقوم في الموضعين: المتخلِّفون[١]؛ لتعيُّن إرادتهم هنا، والمعرفة المعادةُ عينُ الأولى، ومعنى «هم أولاء على أثري»: هم بالقرب منِّي ينتظرونني.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه غيرُ ملائم للفظ الأثر، ولا هو مطابقٌ لتمهيد عُذر العَجَلة، ومن أين لصاحب هذا التأويل النقلُ بأنَّهم كانوا على القرب من الطور. وحديثُ المعرفة المعادة إنَّما هو إذا لم يَقُم دليلُ التغاير، وقد قام. على أنَّ لنا أن نقول: هي عينُ الأولى؛ لأنَّ المراد بالقوم الجنسُ في الموضعين، لكنَّ المقصودَ منه أولاً النقباء، وثانياً المتخلِّفون، ومثله كثير في القرآن. انتهى.

وما ذكره من نفي النقل الدالِّ على القرب فيه مقالٌ، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى قريباً من الأخبار ما يدلُّ بظاهره على القرب، إلَّا أنَّا لم[٢] نقف على تصحيحه أو تضعيفه.

وما ذكر من تفسير «هم أولاء على أثري» على إرادة المتخلِّفين في الأوَّل أيضاً نقلَه الطبرسيُّ عن الحسن، ونُقل عنه أيضاً تفسيرُه بأنَّهم على ديني ومنهاجي، والأمر عليه أهون.

والفاء لتعليل ما يُفهمه الكلامُ السابق، كأنَّه قيل: لا ينبغي عجلتُك عن قومك، وتقدُّمك عليهم، وإهمالُ أمرهم لوجهٍ من الوجوه، فإنَّهم لحداثة عهدهم باتِّباعك ومزيد بلاهتهم وحماقتهم بمكانٍ يحيقُ فيه مكرُ الشيطان، ويتمكَّن من إضلالهم، فإنَّ القومَ الذين خلَّفتهم مع أخيك قد فُتنوا وأضلَّهم السامريُّ بخروجك من بينهم، فكيف تأمنُ على هؤلاء الذين أغفلتَهم وأهملتَ أمرهم.

وفي «إرشاد العقل السليم»: إنَّها لترتيب الإخبار بما ذُكر من الابتلاء على إخبار موسى عليه السلام بعجلتِه، لكن لا لأنَّ الإخبار بها سببٌ موجبٌ للإخبار به، بل لما بينهما من المناسبة المصحِّحة للانتقال من أحدهما إلى الآخر من حيثُ إنَّ مدارَ الابتلاء المذكور عجلةُ القوم[٣]. وليس بذاك.

---

(١) في (م): المتخلفين، وهو خطأ.
(٢) في (م): لا.
(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٤.

وأمَّا قولُ الخفاجيِّ: إنَّها للتعقيب من غير تعليل، أي: أقولُ لك عقبَ ما ذُكر: إنَّا قد فتنَّا. إلى آخره[1] = ففيه سهوٌ ظاهرٌ؛ لأنَّ هذا المعنى إنَّما يتسنَّى لو كانت الفاءُ داخلةً على القول، لكنَّها داخلةٌ على ما بعده، وظاهرُ الآية يدلُّ على أنَّ الفتنَ وإضلال السامريِّ إيَّاهم قد تحقَّقا ووقعا قبل الإخبار بهما، إذ صيغةُ الماضي ظاهرةٌ في ذلك.

والظاهرُ أيضاً ـ على ما قرَّرنا ـ أنَّ الإخبار كان عند مجيئه عليه السلام للطور، لم يتقدَّمه إلَّا العتابُ والاعتذار. وفي الآثار ما يدلُّ على أنَّ وقوعَ ما ذُكر كان بعد عشرينَ ليلة من ذهابه عليه السلام لجانب الطور. وقيل: بعد ستٍّ وثلاثين يوماً. وحينئذٍ يكونُ التعبير عن ذلك بصيغة الماضي لاعتبار تحقُّقه في علم الله تعالى ومشيئته، أو لأنَّه قريبُ الوقوع مترقَّبه، أو لأنَّ السامريَّ كان قد عزم على إيقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه السلام، وتصدَّى لترتيب مباديها وتمهيد مبانيها، فنَزَّل مباشرةَ الأسباب منزلةَ الوقوع.

والسامريُّ عند الأكثر ـ كما قال الزَّجَّاج ـ كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل، من قبيلةٍ تُعرف بالسَّامرة، وهم إلى هذه الغاية في الشام يعرفون بالسامريِّين[2].

وقيل: هو ابنُ خالة موسى عليه السلام. وقيل: ابن عمِّه.

وقيل: كان عِلْجاً من كرمان.

وقيل: كان من أهل باجَرْمى[3]؛ قريةٍ قريبةٍ من مصر، أو قريةٍ من قرى موصل.

وقيل: كان من القبط، وخرج مع موسى عليه السلام مُظهِراً الإيمان، وكان جاره.

---

(١) حاشية الخفاجي ٦/ ٢٢٠.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧١.

(٣) في الأصل: باجرمآء، وهي بالقصر، كما صرح به الشهاب في حاشيته ٦/ ٢٢١. وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان ١/ ٣١٣: بفتح الجيم، وسكون الراء، وألف مقصورة: قرية من أعمال البليخ، قرب الرقة من أرض الجزيرة.

وقيل: كان من عُبَّاد البقر، وقع في مصر، فدخل في بني إسرائيل بظاهره، وفي قلبه عبادةُ البقر(١).

واسمه ـ قيل ـ موسى بن ظَفَر. وقيل: منجا. والأوَّل أشهر.

وأخرج ابنُ جرير عن ابن عباس أنَّ أمَّه حين خافت أنْ يُذبح خلَّفته في غارٍ، وأطبقت عليه، فكان جبريلُ عليه السلام يأتيه فيغذُوه بأصابعه في واحدةٍ لبناً، وفي الأخرى عسلاً، وفي الأخرى سمناً، ولم يزل يغذُوه حتى نشأ(٢). وعلى ذلك قول من قال:

إذا المرء لم يُخلق سعيداً تحيَّرت ... عقولُ مربِّيه وخابَ المؤمَّلُ
فموسى الذي ربَّاه جبريلُ كافرٌ ... وموسى الذي ربَّاهُ فرعونُ مرسَلُ(٣)

وبالجملة كان عند الجمهور منافقاً يظهر الإيمان ويبطنُ الكفر.

وقرأ معاذ: «أضلُّهم»(٤) على أنَّه أفعل تفضيل، أي: أشدُّهم ضلالاً؛ لأنَّه ضالٌّ ومضلٌّ.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ عند رجوعه المعهود، أي: بعد ما استوفى الأربعينَ؛ ذا القعدة وعشر ذي الحجة، وأخذ التوراة، لا عقيبَ الإخبار المذكور، فسببيَّة ما قبل الفاء لما بعدها إنَّما هي باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ لا باعتبار نفسه، وإن كانت داخلةً عليه حقيقةً، فإنَّ كونَ الرجوع بعد تمام الأربعين أمرٌ مقرَّرٌ مشهورٌ لا يُذْهِب الوهم إلى كونه عند الإخبار المذكور، كما إذا قلت: شايعتُ الحُجَّاج ودعوت لهم بالسلامة، فرجعوا سالمين، فإنَّ أحداً لا يرتاب في أنَّ المراد رجوعُهم المعتاد، لا رجوعُهم إثر الدعاء، وأنَّ سببيَّة الدعاء

---

(١) هو من قول ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه عنه النسائي في الكبرى (١١٢٦٣) وهو حديث الفتون الطويل، وقد سلفت منه مقاطع. وقد ذكره ابن كثير في تفسيره ٥/ ٢٨٥-٢٩٣ ثم قال... كأنه تلقَّاه ابنُ عباس رضي الله عنهما ممَّا أُبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره. والله أعلم

(٢) تفسير الطبري ١/ ٦٦٩.

(٣) سلف ٤/ ٣٢٤.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٦٧.

باعتبار وصفِ السلامة، لا باعتبار نفسِ الرجوع. كذا في «إرشاد العقل السليم»[(١)]. وهو ممَّا لا ينتطح فيه كبشان.

والأَسِفُ: الحزين، كما روي عن ابن عباس، وكان حزنه عليه السلام من حيث إنَّ ما وقع فيه قومُه مما يترتَّب عليه العقوبة، ولا يدَ له بدفعها.

وقال غير واحد: هو شديدُ الغضب.

وقال الجبائيُّ: متلهِّفاً على ما فاته، متحيِّراً في أمر قومه، يخشى أن لا يمكنه تداركُه. وهذا معنى للأسف غيرُ مشهور.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا فعل بهم لما رجع إليهم؟ فقيل: قال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ﴾ الهمزةُ لإنكار عدمِ الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجهٍ وآكده، أي: وعدكم ﴿وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ لا سبيلَ لكم إلى إنكاره. والمراد بذلك إعطاءُ التوراة التي فيها هدًى ونور.

وقيل: هو ما وعدَهم سبحانه من الوصول إلى جانب الطور الأيمن، وما بعد ذلك من الفتوح في الأرض، والمغفرةِ لمن تاب وآمن، وغير ذلك مما وعدَ الله تعالى أهلَ طاعته.

وعن الحسن أنَّ الوعدَ الحسن الجنَّةُ التي وعدها من تمسَّك بدينه.

وقيل: هو أن يُسمِعهم جلَّ وعلا كلامَه عزَّ شأنه. ولعلَّ الأوَّل أولى.

ونصب «وعداً» يحتمل أن يكون على أنَّه مفعولٌ ثانٍ، وهو بمعنى الموعود، ويحتمل أن يكون على المصدريَّة، والمفعول الثاني محذوف.

والفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ للعطف على مقدَّر، والهمزة لإنكار المعطوف ونَفيه فقط. وجُوِّزَ أن تكون الهمزةُ مقدَّمة من تأخيرٍ لصدارتها، والعطف على «لم يعدكم»؛ لأنَّه بمعنى: قد وعدكم. واختارَ جمعٌ الأول.

و«أل» في «العهد» له، والمرادُ زمانُ الإنجاز. وقيل: زمانُ المفارقة، أي: أَوَعَدَكُم سبحانه ذلك فطال زمانُ الإنجاز أو زمان المفارقة للإتيان به ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن

(١) ٦/ ٣٥.

﴿يَحِلَّ﴾ أي: يجب ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾ شديدٌ لا يقادرُ قدرهُ كائنٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: من مالك أمركم على الإطلاق.

والمراد من إرادة ذلك: فعلُ ما يكونُ مقتضياً له.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ۝﴾ لترتيب ما بعدها على كلٍّ من الشقين، والموعد مصدرٌ مضافٌ إلى مفعوله؛ للقصد إلى زيادة تقبيح حالهم، فإنَّ إخلافَهم الوعد الجاريَ فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث إضافتُه إليه عليه السلام أشنعُ منه من حيث إضافتُه إليهم. والمعنى: أفطالَ عليكم الزمانُ، فنسيتُم بسبب ذلك، فأخلفتم وعدكم إيَّاي بالثبات على ديني إلى أن أرجع من الميقات نسياناً، أو تعمَّدتم فعل ما يكونُ سبباً لحلول غضب ربِّكم عليكم، فأخلفتم وعدكم إيَّاي بذلك عمداً. وحاصله: أنسيتم فأخلفتم، أو تعمدتم فأخلفتم، ومنه يعلمُ التقابل بين الشِّقَّين.

وجَوَّزَ المفضَّل أنْ يكون الموعدُ مصدراً مضافاً إلى الفاعل، وإخلافُه بمعنى وجدان الخلف فيه، يقال: أخلفَ وعدُ زيدٍ، بمعنى وجدَ الخلف فيه، ونظيره: أحمدتُ زيداً، أي: فوجدتُم الخلف في موعدي إيَّاكم بعد الأربعين. وفيه أنَّه لا يساعدُه السياق ولا السباق أصلاً.

وقيل: المصدرُ مضافٌ إلى المفعول، إلَّا أنَّ المراد منه وعدُهم إيَّاه عليه السلام باللحاق به والمجيء للطور على أثره. وفيه ما فيه.

واستدلَّت المعتزلةُ بالآية على أنَّ الله عزَّ وجلَّ ليس خالقاً للكفر، وإلَّا لما قال سبحانه: «وأضلَّهم السامريُّ»، ولمَا كان لغضب موسى عليه السلام وأسفه وجهٌ. ولا يخفى ما فيه.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾ أي: وَعْدَنَا إيَّاك الثباتَ على دينك. وإيثارُه على أن يقال: موعدنا، على إضافة المصدرِ إلى فاعله لما مرَّ آنفاً.

﴿بِمَلْكِنَا﴾ بأنْ ملكنا أمرنا، يعنون أنَّا لو خُلِّينا[1] وأنفسَنا، ولم يسوِّل لنا السامريُّ ما سوَّلَه مع مساعدة بعض الأحوال؛ لما أخلفناه.

---

(١) في الأصل و(م): ولو خلينا. بزيادة واو، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٣٥، والكلام منه.

وقرأ بعضُ السبعة: «بمِلكنا» بكسر الميم[1]. وقرأ الأخوان والحسن والأعمش وطلحةُ وابن أبي ليلى وقعنب بضمِّها[2]. وقرأ عمر ﷺ: «بمَلَكنا» بفتح الميم واللام، قال في «البحر»[3]: أي: بسلطاننا، واستظهر أنَّ الملك بالضمِّ والفتح والكسر بمعنى. وفرَّق أبو عليٍّ[4] فقال: معنى المضموم أنه لم يكن لنا مُلكٌ فنخلفَ موعدك بسلطانه، وإنَّما أخلفناه بنظرٍ أدَّى إليه ما فعلَ السامريُّ، والكلام على حدِّ قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]. وقول ذي الرمة:

لا تُشتكَى سَقطةٌ منها وقد رقصت بها المفاوزُ حتى ظهرُها حَدِبُ[5]

ومفتوح الميم مصدر مَلَك، والمعنى: ما فعلنا ذلك بأنْ[6] ملكنا الصواب ووُفِّقنَا له، بل غلبتنا أنفسُنا.

ومكسورُ الميم كَثُر استعمالُه فيما تحوزُه اليد، ولكنه يستعملُ في الأمور التي يبرمُها الإنسان، والمعنى عليه كالمعنى على المفتوح الميم.

والمصدرُ في هذين الوجهين مضافٌ إلى الفاعل، والمفعول مقدَّر، أي: بملكنا الصواب.

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ استدراكٌ عمَّا سبقَ واعتذارٌ عمَّا فعلوا ببيانِ منشأ الخطأ.

والمراد بالقوم القبطُ، والأوزار: الأحمال، وتسمَّى بها الآثام، وعنوا بذلك ما استعاروه من القبط من الحليِّ برسم التزيُّن في عيدٍ لهم قبيل الخروج من مصر،

---

(١) هي قراءة ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو من السبعة. وقرأ بها أيضاً يعقوب من العشرة. انظر التيسير ص ١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢١.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٦٨، وقراءة الأخوين؛ حمزة والكسائي في التيسير ص ١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢١، وقرأ بها أيضاً خلف من العشرة.
(٣) ٦/ ٢٦٨.
(٤) في الحجة ٥/ ٢٤٤.
(٥) ديوان ذي الرمة ١/ ٤٤.
(٦) في البحر المحيط ٦/ ٢٦٨، والدر المصون ٨/ ٩٠: بأنَّا.

كما أسلفنا. وقيل: استعاروه باسم العرس. وقيل: هو ما ألقاه البحرُ على الساحل ممَّا كان على الذين غرقوا.

ولعلَّهم أطلقوا على ذلك الأوزار مراداً بها الآثام، من حيث إنَّ الحليَّ سببٌ لها غالباً؛ لما أنَّه يُلبس في الأكثر للفخر والخيلاء والترفُّع على الفقراء.

وقيل: من حيث إنَّهم أثموا بسببه وعَبَدُوا العجلَ المصوغَ منه.

وقيل: من حيث إنَّ ذلك الحليَّ صار بعد هلاك أصحابه في حكم الغنيمة، ولم يكن مثلُ هذه الغنيمة حلالاً لهم، بل ظاهر الأحاديث الصحيحة أنَّ الغنائمَ سواءٌ كانت من المنقولات أم لا لم تحَلَّ لأحدٍ قبل نبيِّنا ﷺ(١).

والرواية السابقة في كيفيَّة الإضلال توافقُ هذا التوجيه، إلَّا أنَّه يُشكِل على ذلك ما روي من أنَّ موسى عليه السلام هو الذي أمرهم بالاستعارة، حتى قيل: إنَّ فاعل التحميل في قولهم: «حُمِّلنا» هو موسى عليه السلام، حيث ألزمهم ذلك بأمرِهم بالاستعارة، وقد أبقاه في أيديهم بعد هلاك أصحابه، وأقرَّهم على استعماله، فإذا لم يكن حلالاً فكيف يقِرُّهم؟ وكذا يقال على القول بأنَّ المرادَ به ما ألقاه البحر على الساحل.

واحتمالُ أنَّ موسى عليه السلام نهى عن ذلك، وظَنَّ الامتثال، ولم يطَّلع على عدمه لإخفاء الحال عنه عليه السلام = ممَّا لا يكادُ يلتفتُ إلى مثله أصلاً، لاسيما على رواية أنَّهم أمروا باستعارة دوابّ من القوم أيضاً، فاستعاروها وخرجوا بها.

وقد يقال: إنَّ أموالَ القبط مطلقاً بعد هلاكهم كانت حلالاً عليهم، كما يقتضيه ظاهرُ قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(٢) [الشعراء: ٥٧-٥٩]، وقد أضافَ سبحانه الحليَّ إليهم في قوله تعالى:

(١) وسيذكر المصنف قريباً حديث جابر ﷺ في هذا الخصوص.

(٢) في الأصل و(م): كم تركوا. فلعله رحمه الله انتقل ذهنه إلى قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الآيات: ٢٥-٢٨]. والله أعلم.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف:١٤٨]، وذلك يقتضي بظاهره أنَّ الحليَّ ملكٌ لهم[1]. ويُدَّعى اختصاصُ الحلِّ فيما كان الردُّ فيه متعذِّراً لهلاك صاحبه ومن يقوم مقامه، ولا ينافي ذلك قوله ﷺ: «أُحلَّت لي الغنائمُ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي»[2] لجواز أن يكون المراد به: أحلَّت لي الغنائم على أيِّ وجهٍ كانت، ولم تحلَّ كذلك لأحدٍ قبلي، ويكون تسميتُهم ذلك أوزاراً؛ إمَّا لما تقدَّم من الوجه الأول والثاني، وإمَّا لظنِّهم الحرمةَ لجهلهم في أنفسهم، أو لإلقاء السامريِّ الشبهةَ عليهم.

وقيل: إنَّ موسى عليه السلام أمره الله تعالى أنْ يأمرهم بالاستعارة، فأمرهم، وأبقى ما استعاروه بأيديهم بعد هلاك أصحابه بحكم ذلك الأمر منتظراً ما يأمر الله تعالى به بعد.

وقد جاء في بعض الأخبار ما يدلُّ على أنَّ الله سبحانه بيَّن حكمَه على لسان هارون عليه السلام بعدَ ذهاب موسى عليه السلام للميقات، كما سنذكره قريباً إن شاء الله تعالى، فتأمَّل ذاك والله تعالى يتولَّى هداك.

والجارُّ والمجرور يحتملُ أن يكون متعلِّقاً بـ «حُمِّلنا»، وأن يكون متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «أوزاراً»، ولا يتعيَّن ذلك بناءً على قولهم: إنَّ الجمل والظروف بعد النكرات صفات، وبعد المعارف أحوال؛ لأنَّ ذلك ليس على إطلاقه.

وقرأ الأخوان وأبو عمرو[3] وابن محيصن: «حَمَلنا» بفتح الحاء والميم. وأبو رجاء: «حُمِلنا» بضم الحاء وكسر الميم من غير تشديد[4].

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: قيل: والظاهر أن هذا الحلي بعد موت أصحابه حكمه حكم المال الضائع الذي لا يعرف مالكه.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه، وهو أيضاً عند البخاري (٣٣٥) بألفاظ قريبة.

(٣) وهي أيضاً قراءة شعبة عن عاصم، وروح عن يعقوب، وخلف. انظر التيسير ص ١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٦٩.

﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: طرحناها في النار، كما تدلُّ عليه الأخبار. وقيل: أي: ألقيناها على أنفسنا وأولادنا. وليس بشيءٍ أصلاً.

﴿فَكَذَٰلِكَ﴾ أي: فمثل ذلك ﴿أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ أي: ما كان معه منها. قيل: كأنَّه أراهم أنَّه أيضاً يُلقي ما كان معه من الحليّ، فقالوا ما قالوا على زعمهم، وإنَّما كان الذي ألقاه التربة التي أخذَها من أثر الرسول، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنَّه ألقى ما معه من الحليّ، وألقى مع ذلك ما أخذَه من أثر الرسول، كأنَّهم لم يريدوا إلَّا أنَّه ألقى ما معه من الحلي.

وقيل: أرادوا: ألقى التربة. وأيَّده بعضهم بتغيير الأسلوب، إذ لم يعبِّر بالقذف المتبادَر منه أنَّ ما رماه جرم مجتمع. وفيه نظر.

وقد يقال: المعنى: فمثل ذلك الذي ذكرناه لك ألقى السامريُّ إلينا وقرَّره علينا. وفيه بعد. وإنْ ذُكر أنَّه قال لهم: إنَّما تأخَّر موسى عليه السلام عنكم لما معكم من حليِّ القوم، وهو حرامٌ عليكم، فالرأيُ أن نحفرَ حفيرةً، ونَسْجُرَ فيها ناراً، ونقذفَ فيها ما معنا منه، ففعلوا، وكان صنع في الحفيرة قالبَ عجل.

وقد أخرج ابنُ إسحاق وابن جرير وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه لمَّا فصل موسى عليه السلام إلى ربِّه سبحانه قال لهم هارون عليه السلام: إنَّكم قد حُمِّلتُم أوزاراً من زينة القوم ـ آل فرعون ـ وأمتعةً وحليّاً، فتطَّهروا منها، فإنَّها رجسٌ، وأوقد لهم ناراً، فقال لهم: اقذفوا ما معكم من ذلك فيها، فجعلوا يأتونَ بما معهم فيقذفونه فيها، فجاء السامريُّ ومعه ترابٌ من أثر حافر فرس جبريلَ عليه السلام، واقبل إلى النار، فقال لهارون عليه السلام: يا نبيَّ الله ألقي[1] ما في يدي؟ فقال: نعم، ولا يظنُّ هارون عليه السلام إلَّا أنَّه كبعض ما جاء به غيرُه من ذلك الحليِّ والأمتعة، فقذفه فيها، فقال: كن عجلاً جسداً له خُوار، فكان للبلاء والفتنة[2].

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أيضاً أنَّ بني إسرائيل استعاروا حليّاً من القبط، فخرجوا به معهم، فقال لهم هارون بعد أنْ ذهبَ موسى عليهما السلام:

---

(١) في (م): أألقي.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٠٥. وهو في تفسير الطبري ١/ ٦٧٢.

اجمعوا هذا الحليّ حتى يجيء موسى فيقضي فيه ما يقضي، فجمع ثم أذيب، فألقى السامريُّ عليه القبضةَ(١).

﴿فَأَخۡرَجَ﴾ أي: السامريُّ ﴿لَهُمۡ﴾ للقائلين المذكورين ﴿عِجۡلٗا﴾ من تلك الأوزار التي قذفوها. وتأخيرُه مع كونه مفعولاً صريحاً عن الجارِّ والمجرور؛ لما مرَّ غير مرةٍ من الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، مع ما فيه من نوعِ طولٍ يُخِلُّ تقديمُه بتجاوب النظم الكريم، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿جَسَدٗا﴾ أي: جثَّةً ذا لحمٍ ودم، أو جسداً من ذهبٍ لا روحَ فيه، بدلٌ منه، وقيل: هو نعتٌ له على أنَّ معناه: أحمرَ كالمجسد، وكذا قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ نعتٌ له، والخوار: صوتُ العجل، وهذا الصوتُ إمَّا لأنَّه نُفِخَ فيه الروح بناءً على ما أخرجَهُ ابن مردويه عن كعب(٢) بن مالك عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى لمَّا وعد موسى عليه السلام أنْ يكلِّمهُ خرج للوقت الذي وعدَه، فبينما هو يناجي ربَّه إذ سمع خلفه صوتاً، فقال: إلهي إنِّي أسمعُ خلفي صوتاً، قال: لعلَّ قومك ضلُّوا، قال: إلهي من أضلَّهم؟ قال: أضلَّهم السامريُّ، قال: فيم أضلَّهم؟ قال: صاغَ لهم عجلاً جسداً له خوارٌ، قال: إلهي هذا السامريُّ صاغَ لهم العجل، فمن نفخ فيه الروح حتى صار له خوار؟ قال: أنا يا موسى، قال: فوعزَّتك ما أضلَّ قومي أحدٌ غيرك، قال: صدقت يا حكيم الحكماء، لا ينبغي لحكيمٍ أنْ يكونَ أحكمَ منك»(٣).

وجاء في روايةٍ أخرى عن راشد بن سعد أنَّه سبحانه قال له: يا موسى إنَّ قومك قد افتتنوا من بعدك، قال: يا ربِّ، كيف يفتتنون وقد نجَّيتهم من فرعون، ونجيتهم من البحر، وأنعمتَ عليهم، وفعلت بهم؟ قال: يا موسى إنَّهم اتخذوا من بعدكَ عجلاً له خوار، قال: يا ربِّ فمن جعل فيه الروح؟ قال: أنا، قال: فأنتَ يا ربِّ أضللتهم، قال: يا موسى يا رأس النبيين ويا أبا الحكماء، إنِّي رأيتُ ذلك في قلوبهم فيسَّرتُه لهم(٤).

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٠٥.

(٢) في الدر المنثور: وهب بن مالك.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٠٤.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٠٤-٣٠٥.

وإمَّا لأنه تدخُل فيه الريحُ فيصوِّت، بناءً على ما أخرجَهُ ابنُ جرير عن ابن عباس قال: كأن بني إسرائيل تأثَّموا من حُليِّ آل فرعون الذي معهم، فأخرجوه لتنزل النارُ فتأكلَه، فلمَّا جمعوهُ ألقى السامريُّ القبضة، وقال: كنْ عجلاً جسداً له خوارٌ، فكان[1] كذلك، وكان تدخلُ الريح من دبره، وتخرج من فيه، فيُسمع له صوت[2].

﴿فَقَالُوا﴾ أي: السامريُّ ومن افتتن به أوَّل ما رآه. وقيل: الضمير للسامريِّ، وجيء به ضمير جمع تعظيماً لجرمه. وفيه بعد: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: فغفل عنه موسى وذهبَ يطلبه في الطور، فضمير «نسي» لموسى عليه السلام، كما روي عن ابن عباس وقتادة. والفاء فصيحة، أي: فاعبدوه والزموا عبادته فقد نسيَ موسى عليه السلام.

وعن ابن عباس أيضاً ومكحول أنَّ الضميرَ للسامريِّ، والنسيانُ مجازٌ عن الترك، والفاء فصيحةٌ أيضاً، أي: فأظهر السامريُّ النفاقَ، فتركَ ما كان فيه من إسرار الكفر، والإخبار بذلك على هذا منه تعالى، وليس داخلاً في حيِّز القول، بخلافه على الوجه الأول.

وصنيعُ بعض المحققين يشعرُ باختيار الأول، ولا يخفى ما في الإتيانِ باسم الإشارة والمشارُ إليه بمرأًى منهم، وتكرير «إله»،وتخصيص موسى عليه السلام بالذكر، وإتيان الفاء من المبالغة في الضلال.

والإخبارُ بالإخراج وما بعدَه حكايةُ نتيجةِ فتنة السامريّ فعلاً وقولاً من جهته سبحانه قصداً إلى زيادة تقريرها، ثم [ترتيب] الإنكارِ عليها، لا من جهة القائلين، وإلَّا لقيل: فأخرجَ لنا. والحملُ على أنَّ عُدولَهم إلى ضمير الغيبة لبيان أنَّ الإخراجَ والقولَ المذكورين للكلِّ، لا للعبدة فقط = خلافُ الظاهر، مع أنَّه مُخِلٌّ باعتذارهم، فإنَّ مخالفةَ بعضهم للسامريِّ، وعدم افتتانهم بتسويله، مع كون الإخراج والخطاب

(١) في (م) وتفسير الطبري: فصار.

(٢) تفسير الطبري ١/ ٦٧٠. قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٩/ ١١٠: ما وقع في القصص أنه كان لحماً ودماً ويأكل ويشرب، فهو من وضع القصاصين.

لهم ممَّا يهوِّنُ مخالفتَه للمعتذرين، ففتتانُهم بعدُ أعظمُ جنايةً وأكثرُ شناعةً، وأمَّا ما قيل من أنَّ المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل، وأنَّ نسبة الإخلافِ إلى أنفسهم ـ وهم بُرَآء منه ـ من قبيل قولهم: بنو فلانٍ قتلوا فلاناً، مع أنَّ القاتل واحدٌ منهم، كأنهم[1] قالوا: ما وجدنا الإخلافَ فيما بيننا بأمرٍ كنَّا نملكه، بل تمكَّنت الشبهةُ في قلوب العبدةِ حيث فعل بهم السامريُّ ما فعل، فأخرج لهم ما أخرج، وقال ما قال، فلم نقدر على صرفهم عن ذلك، ولم نفارقهم مخافةَ ازدياد الفتنة، فقد قال شيخُ الإسلام: إنَّ سياقَ النظم الكريم وسباقَه يقضيان بفساده[2].

وذهب أبو مسلم إلى أنَّ كلامَ المعتذرين تمَّ عند قولهم: «فقذفناها»، وما بعده من قوله تعالى: «فكذلك ألقى السامريُّ» إلى آخره: إخبارٌ من جهته سبحانَه أنَّ السامريَّ فعلَ كما فعلوا، «فأخرجَ لهم» إلخ، وهو خلافُ الظاهر.

هذا وقرأ الأعمش: «فنسيْ» بسكون الياء[3].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ إلى آخره إنكارٌ وتقبيحٌ من جهته تعالى الضالِّين والمضلِّين جميعاً، وتسفيةٌ لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذي لا يشتبهُ بطلانُه واستحالتُه على أحد؛ وهو اتِّخاذ ذلك العجل إلهاً، ولعمري لو لم يكونوا في البلادة كالبقر لما عبدوه.

والفاء للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: ألا يتفكرونَ فلا يعلمون ﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: إنه لا يرجعُ إليهم كلاماً، ولا يردُّ عليهم جواباً، بل يخورُ كسائر العجاجيل، فَمَنْ هذا شأنُه كيف يتوهَّم أنَّه إله؟!

وقرأ الإمام الشافعيُّ وأبو حيوة وأبان وابنُ صبيح والزعفرانيُّ: «يرجعَ» بالنصب على أنَّ «أن» هي الناصبة، لا المخففة من الثقيلة، والرؤيةُ حينئذٍ بمعنى الإبصار لا العلم[4]؛ بناءً على ما ذكره الرضيُّ وجماعةٌ من أنَّ الناصبةَ لا تقعُ بعد أفعال

---

(١) في الأصل و(م): كانوا. والمثبت من تفسير أبي السعود، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٦.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٦٩.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٦٩.

القلوب ممَّا يدلُّ على يقينٍ أو ظنٍّ غالبٍ؛ لأنَّها لكونها للاستقبال تدخلُ على ما ليس بثابتٍ مستقرٍّ، فلا يناسبُ وقوعُها بعد ما يدلُّ على يقينٍ ونحوه، والعطفُ أيضاً كما سبق، أي: ألا ينظرون فلا يبصرون عدمَ رجْعه إليهم قولاً من الأقوال؟

وتعليقُ الإبصار بما ذكر مع كونه أمراً عدميّاً؛ للتنبيه على كمال ظهوره المستدعي لمزيد تشنيعهم وتركيكِ عقولهم.

وقيل: «أن» الناصبة لا تقعُ بعد رأى البصريَّة أيضاً؛ لأنَّها تفيدُ العلمَ بواسطة إحساس البصر، كما في «إيضاح المفصَّل». وأجاز الفرَّاءُ وابنُ الأنباريِّ وقوعَها بعد أفعال العلم فضلاً عن أفعال البصر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ عطف على «لا يرجع» داخلٌ معه في حيِّز الرؤية، أي: أفلا[1] يرونَ أنَّه لا يقدرُ على أنْ يدفعَ عنهم ضرّاً ويجلبَ لهم نفعاً، أو لا يقدرُ على أنْ يضرَّهم إن لم يعبدوه، أو ينفعَهم إنْ عبدوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ مع ما بعد: جملةٌ قسميَّةٌ مؤكِّدةٌ لما سبق من الإنكار والتشنيع؛ ببيان عتوِّهم واستعصائِهم على الرسول إثر بيانِ مكابرتهم لقضيَّة العقول، أي: وبالله لقد نصحَ لهم هارونُ، ونبَّههم على كُنْهِ الأمر من قَبْلِ رجوع موسى عليه السلام إليهم، وخطابه إيَّاهم بما ذكر من المقالات. وإلى اعتبار المضاف إليه قبل ما ذُكِر ذهبَ الواحديُّ[2]. وقيل: من قَبْل قولِ السامريِّ: «هذا إلهكم وإله موسى»، كأنَّه عليه السلام أوَّل ما أبصرَه حينَ طلع من الحفيرة تفرَّس فيهم الافتتان، فسارعَ إلى تحذيرهم، واختاره صاحب «الكشف» تبعاً لشيخِه[3]، وقال: هو أبلغُ وأدلُّ على توبيخِهم بالإعراض عن دليل العقل والسمع في: «أفلا يرون» و«لقد قال» واختارَ بعضُهم الأوَّل، وادَّعى أنَّ الجوابَ يؤيِّده، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى الكلامُ في ذلك.

وجوَّز العلامة الطيبيُّ في هذه الجملة وجهين؛ كونَها معطوفةً على قوله تعالى:

---

(١) في (م): فلا.
(٢) الوسيط ٣/ ٢١٩.
(٣) أي: الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٥٠.

«أفلا يرون» وقال: إنَّ في إيثار المضارع فيه دلالةً على استحضار تلك الحالة الفظيعة في ذهن السامع واستدعاء الإنكار عليهم. وكونَها في موضعَ الحال من فاعل «يرون» مقررة لجهة الإنكار، أي: أفلا يرون والحالُ هذه[1] أنَّ هارون نبَّههم قبلَ ذلك على كُنْه الأمر، وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: أُوقعتم في الفتنة بالعجل، أو أُضللتم، على توجيه القصر المستفادِ من كلمة «إنما» في أغلب استعمالاتها إلى نفس الفعل بالقياس إلى مقابله الذي يدَّعيه القوم، لا إلى قيده المذكور بالقياس إلى قيدٍ آخر، على معنى: إنما فُعِلَ بكم الفتنةُ لا الإرشاد إلى الحقّ، لا على معنى إنَّما فتنتم بالعجل لا بغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بكسر همزة «إنَّ» عطفاً على «إنما» إلخ إرشادٌ لهم إلى الحقِّ إثر زجرهم عن الباطل. والتعرُّضُ لعنوان الربوبيَّة والرحمةِ؛ للاعتناءِ باستمالتهم إلى الحقِّ، وفي ذلك تذكيرٌ لتخليصهم من فرعون زمانَ لم يوجد العجل، وكذا ـ على ما قيل ـ تنبيهٌ على أنَّهم متى تابُوا قبلَهم.

وتعريف الطرفين لإفادة الحصر، أي: وإنَّ ربَّكُمُ المستحقَّ للعبادة هو الرحمن لا غير.

وقرأ الحسنُ وعيسى وأبو عمرو في رواية: «وأنَّ ربكم» بفتح الهمزة[2]، وخُرِّج على أنَّ المصدرَ المنسبكَ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: والأمرُ أنَّ ربكم الرحمن، والجملةُ معطوفة على ما مرَّ.

وقال أبو حاتم: التقديرُ: لأنَّ[3] ربَّكم.. إلخ، وجعل الجارَّ والمجرور متعلِّقاً بـ «اتَّبعوني».

وقرأت فرقةٌ: «أنَّما» و«أنَّ ربَّكم» بفتح الهمزتين[4]، وخُرِّجَ على لغة سليم حيث يفتحونَ همزة «إن» بعدَ القول مطلقاً.

---

(١) لفظة: هذه، ليست في (م).

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٧٢. وقراءة أبي عمرو المشهورة عنه كقراءة الجمهور.

(٣) في (م): ولأن.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٧٢.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ۝٩٠﴾ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين، أي: إذا كان الأمر كذلك فاتَّبعوني وأطيعوا أمري في الثبات على الدين.

وقال ابن عطية: أي: فاتبعوني إلى الطور الذي واعدَكم الله تعالى إليه[1]، وفيه أنَّه عليه السلام لم يكن بصدد الذهاب إلى الطور ولم يكن مأموراً به، وما واعدَ الله سبحانه أولئك المفتونين بذهابهم أنفسهم إليه. وقيل ـ ولا يخلو عن حسن ـ: أي: فاتَّبعوني في الثباتِ على الحقِّ، وأطيعوا أمري هذا، وأعرضوا عن التعرُّضِ لعبادة ما عرفتم أمره، أو كفُّوا أنفسَكم عن اعتقادِ ألوهيَّته وعبادته.

﴿قَالُواْ﴾ في جواب هارون عليه السلام: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ﴾ أي: لا نزالُ على عبادة العجل ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾ الظاهر من حالهم أنهم لم يجعلوا رجوعَه عليه السلام غايةً للعكوف على عبادة العجل، على طريق الوعدِ بتركها لا محالةَ عند رجوعه، بل ليروا ماذا يكون منه عليه السلام، وماذا يقول فيه.

وقيل: إنَّهم عَلِقَ في أذهانهم قولُ السامريّ: «هذا إلهكم وإله موسى فنسي» فغيَّوا برجوعه بطريق التعلُّل والتسويف، وأضمَروا أنَّه إذا رجعَ عليه السلام يوافقُهم على عبادته، وحاشاه. وهذا مبنيٌّ على أنَّ المحاورةَ بينهم وبين هارون عليه السلام وقعتْ بعد قول السامريِّ المذكور، فيكونُ «من قبل» على معنى: من قبل رجوع موسى. وذكر أنَّ هذا الجواب يؤيده هذا المعنى؛ لأن قولهم: «لن يبرح» إلخ يدل على عكوفهم حال قوله عليه السلام؛ وهم لم يعكفوا على عبادته قبل قول السامريِّ، وإنَّما عكفوا بعده.

وقال الطيبيُّ: إنَّ جوابَهم هذا من باب الأسلوب الأحمق نقيض الأسلوب الحكيم؛ لأنَّهم قالوه عن قلَّة مبالاةٍ بالأدلَّة الظاهرة، كما قال نمروذ في جواب الخليل عليه السلام: «أنا أحيي وأميت»[2] فتأمَّل. واستدلَّ أبو حيان بهذا التغيّي

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٥٩.

(٢) حكى الله سبحانه وتعالى قول نمروذ في سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

على[1] أنَّ «لن» لا تفيدُ التأبيدَ، لأنَّ التغيّي لا يكونُ إلَّا حيثُ يكون الشيء محتملاً، فيزال الاحتمالُ به[2].

وأنت تعلم أنَّ القائلَ بإفادتها ذلك لا يدَّعي أنها تفيدُه في كلِّ الموارد، وهو ظاهر.

وفي بعض الأخبار أنَّهم لمَّا قالوا ذلك اعتزلَهم هارون عليه السلام في اثني عشر ألفاً، وهم الذين لم يعبدوا العجل، فلمَّا رجعَ موسى عليه السلام وسمعَ الصياح، وكانوا يسجدون إذا خارَ العجل فلا يرفعون حتى يخورَ ثانية ـ وفي روايةٍ: كانوا يرقصونَ عند خواره ـ قال للسبعين الذين كانوا معه: هذا صوتُ الفتنةِ، حتى إذا وصلَ، قال لقومه ما قال، وسمع منهم ما قالوا.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ نشأ من حكاية جوابهم السابق، أعني قوله تعالى: «ما أخلفنا موعدك» إلخ، كأنَّه قيل: فماذا قال موسى لهارون عليهما السلام حين سمعَ جوابهم، وهل رضيَ بسكوته بعدَ ما شاهد منهم ما شاهد؟ فقيل: قال له وهو مغتاظٌ قد أخذ بلحيتِه ورأسه: ﴿يَهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾﴾ بعبادة العجل، ولم يلتفتوا إلى دليل بطلانِها ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: تتبعني، على أنَّ «لا» سيف خطيب، كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف:١٢]، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «منع»، فـ «إذ»[3] متعلِّقٌ بـ «منع»، وقيل: بـ «تتبعني». ورُدَّ بأنَّ ما بعد «أنْ» لا يعملُ فيما قبلها. وأجيبَ بأنَّ الظرفَ يُتوسَّع فيه ما لم يُتَوسَّع في غيره، وبأنَّ الفعلَ السابقَ لمَّا طلبه على أنَّه مفعولٌ ثانٍ له كانَ مقدَّماً حكماً. وهو كما ترى.

أي: أيُّ شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم من أنْ تتَّبعني، وتسيرَ بسيري في الغضب لله تعالى، والمقاتلة مع من كفر به، وروي ذلك عن مقاتل. وقيل: في الإصلاح والتسديد. ولا يساعدُه ظاهرُ الاعتذار.

---

(١) لفظة: على، ليست في الأصل.
(٢) البحر ٦/ ٢٧٣.
(٣) في (م): و«إذ».

واستظهر أبو حيان[1] أن يكونَ المعنى: ما منعك من أنْ تلحقني إلى جبل الطور بمن آمن من بني إسرائيل، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكان موسى عليه السلام رأى أنَّ مفارقَة هارون لهم وخروجَه من بينهم بعد تلك النصائح القوليَّة أزجرُ لهم من الاقتصار على النصائح؛ لما أنَّ ذلك أدلُّ على الغضب، وأشدُّ في الإنكار، لاسيَّما وقد كان عليه السلام رئيساً عليهم محبوباً لديهم، وموسى يعلمُ ذلك، ومفارقةُ الرئيس المحبوب كراهةً لأمرٍ يَشُقُّ جدّاً على النفوس، وتستدعي تركَ ذلك الأمر المكروه له الذي يوجبُ مفارقتَه.

وهذا ظاهرٌ لا غبار عليه عند من أنصف. فالقولُ بأنَّ نصائحَ هارون عليه السلام حيثُ لم تزجرهم عمَّا كانوا عليه، فلأنْ لا تزجرَهم مفارقتُه إيَّاهم عنه أولى ـ على ما فيه ـ لا يَرد على ما ذكرنا، ولا حاجةَ إلى الاعتذار بأنَّهم إذا علموا أنَّه يلحقُه ويخبرُه ـ عليهما السلام ـ بالقصة يخافونَ رجوعَ موسى عليه السلام، فينزجرون عن ذلك؛ ليقال: إنَّه بمعزلٍ عن القبول، كيف لا، وهم قد صرَّحوا بأنَّهم عاكفونَ عليه إلى حين رجوعه عليه السلام.

وقال عليُّ بن عيسى: إنَّ «لا» ليست مزيدة، والمعنى: ما حملك على عدم الاتِّباع؟ فإنَّ المنعَ عن الشيء مستلزمٌ للحمل على مقابله.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ۝٩٣﴾ بسياستهم حسب ما ينبغي، فإنَّ قوله عليه السلام: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِى﴾ بدون ضمِّ قوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] متضمِّنٌ للأمر بذلك حتماً، فإنَّ الخلافةَ لا تتحقَّق إلَّا بمباشرة الخليفةِ ما كان يباشرُه المُستخلِفُ لو كان حاضراً، وموسى عليه السلام لو كان حاضراً لساسَهم على أبلغ وجه.

والفاء للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: ألم تتَّبعني، أو أخالفتني فعصيتَ أمري.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ خصَّ الأمَّ بالإضافة استعطافاً وترقيقاً لقلبه، لا لما قيل من أنَّه كان أخاه لأمِّه، فإنَّ الجمهورَ على أنَّهما كانا شقيقين.

---

(١) في البحر ٦/ ٢٧٣.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «يابن أمِّ» بكسر الميم[١].

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ أي: بشعر رأسي، فإنَّ الأخذ أنسب به. وزعم بعضهم أنَّ قوله: «بلحيتي» على معنى بشعر لحيتي أيضاً؛ لأنَّ أصلَ وضع اللحية للعضو النابت عليه الشعر، ولا يناسبُه الأخذ كثيرَ مناسبةٍ. وأنت تعلم أن المشهورَ استعمالُ اللحية في الشعر النابت على العضو المخصوص، وظاهرُ الآيات والأخبار أنَّه عليه السلام أخذَ بذلك. روي أنَّه أخذَ شعرَ رأسِه بيمينه ولحيتَه بشماله، وكان عليه السلام حديداً متصلِّباً غضوباً لله تعالى، وقد شاهدَ ما شاهد، وغلبَ على ظنِّه تقصيرٌ في هارون عليه السلام يستحقُّ به ـ وإنْ لم يخرجه عن دائرة العصمة الثابتة للأنبياء عليهم السلام ـ التأديبَ، ففعل به ما فعل، وباشرَ ذلك بنفسه[٢]، ولا محذور فيه أصلاً، ولا مخالفةَ للشرع، فلا يَرِدُ ما توهمه الإمام، فقال: لا يخلو الغضبُ من أن يزيل عقلَه أو لا، والأول لا يعتقده مسلم، والثاني لا يزيلُ السؤالَ بلزوم عدم العصمة، وأجاب بما لا طائل تحته[٣].

وقرأ عيسى بن سليمان الحجازيّ: «بلَحيتي» بفتح اللام، وهي لغة أهل الحجاز[٤].

﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ إلخ، استئنافٌ لتعليل موجِب النهي بتحقيق أنَّه غيرُ عاصٍ أمرَه ولا مقصِّرٍ في المصلحة، أي: خشيتُ لو قاتلتُ بعضَهم ببعض، وتفانوا وتفرَّقُوا، أو خشيت لو لحقتُك بمن آمن ﴿أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ برأيك مع كونهم أبناء واحد، كما ينبىءُ عن ذلك ذكرهم بهذا العنوان، دون القوم ونحوه.

واستلزامُ المقاتلة التفريق ظاهرٌ، وكذا اللحوقُ بموسى عليه السلام مع من آمن، وربَّما يجرُّ ذلك إلى المقاتلة. وقيل: أراد عليه السلام بالتفريق على التفسير

---

(١) التيسير ص ١١٣، والنشر ٢/ ٢٧٢. وهي أيضاً قراءة ابن عامر، وشعبة عن عاصم، وخلف.

(٢) في الأصل: في نفسه. والمثبت من حاشية الخفاجي ٦/ ٢٢٢، وعنه نقل المصنف كلام الإمام الرازي رحمه الله.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٠٨.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٧٣.

الأول ما يستتبعه القتالُ من التفريق الذي لا يُرْجَى بعده الاجتماع.

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾ أي: ولم تراعِ ﴿قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ والجملةُ عطفٌ على «فرَّقت» أي: خشيتُ أنْ تقولَ مجموعَ الجملَتين، وتنسب إليَّ تفريق بني إسرائيل وعدم مراعاة قولك لي ووصيتك إيَّاي.

وجُوِّزَ أنْ تكون الجملةُ في موضع الحال من ضمير «فرَّقت» أي: خشيتُ أنْ تقول: فرَّقت بينهم غيرَ مراعٍ قولي، أي: خشيتُ أنْ تقولَ مجموع هذا الكلام.

وأراد بقول موسى المضاف إلى الياء قولَه عليه السلام: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢] إلخ.

وحاصل اعتذاره عليه السلام: إنِّي رأيتُ الإصلاح في حفظ الدهماء والمداراة معهم، وزجرهم على وجهٍ لا يختلُّ به أمر انتظامهم واجتماعهم، ولا يكون سبباً للومك إيَّاي إلى أن ترجع إليهم، فتكون أنت المتداركَ للأمر حسبما تراه، لاسيما والقومُ قد استضعفوني وقربوا من أنْ يقتلوني، كما أفصح عليه السلام بهذا في آيةٍ أخرى(١).

وأخرج ابنُ المنذر عن ابن جريج ما يدلُّ على أنَّ المرادَ من القول المضاف قولُ هارون عليه السلام(٢). وجملة «لم ترقب» في موضع الحال من ضمير «تقول»، أي: خشيتُ أن تقول ذلك غيرَ منتظرٍ قولي وبياني(٣) حقيقةَ الحال. فتأمل.

وقرأ أبو جعفر: «ولم تُرقِب» بضمِّ التاء وكسر القاف، مضارع: أرقب(٤).

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عمَّا نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم بإسناد الفساد إلى السامريِّ، واعتذار هارون عليه السلام، كأنَّه قيل: فماذا صنع موسى

---

(١) يشير إلى قوله تعالى على لسان هارون: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

(٢) انظر الدر المنثور ٤/ ٣٠٧.

(٣) في (م): وبيان.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٧٣، وقراءة أبي جعفر المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

عليه السلام بعد سماع ما حُكي من الاعتذارين، واستقرارِ أصل الفتنة على السامريّ؟ فقيل: قال موبِّخاً له: إذا كان الأمرُ هذا ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَسَـٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ أي: ما شأنك والأمر العظيم الصادر عنك.

و«ما» سؤالٌ عن السبب الباعث لذلك، وتفسيرُ الخطب بذلك هو المشهور، وفي «الصحاح»[١]: الخطبُ: سببُ الأمر.

وقال بعضُ الثقات: هو في الأصل مصدر خطبَ الأمرَ إذا طلبه، فإذا قيل لمن يفعل شيئاً: ما خطبُك؟ فمعناه: ما طلبك له، وشاع في الشأن والأمر العظيم، لأنَّه يُطلَبُ ويرغَبُ فيه.

واختير في الآية تفسيرُه بالأصل؛ ليكون الكلام عليه أبلغ، حيث لم يسأله عليه السلام عَمَّا صدرَ منه، ولا عن سببه، بل عن سبب طلبه. وجعل الراغب[٢] الأصلَ لهذا الشائع الخَطْب بمعنى التخاطب، أي: المراجعة في الكلام، وأطلق عليه لأنَّ الأمرَ العظيم يكثر فيه التخاطب. وجعل في «الأساس» الخطب بمعنى الطلب مجازاً، فقال: ومن المجاز فلانٌ يخطبُ عمل كذا: يطلبه، وما خطبك: ما شأنك الذي تخطبه[٣].

وفرَّق ابن عطية بين الخَطْب والشأن بأنَّ الخطب يقتضي انتهاراً ويستعملُ في المكاره دون الشأن، ثمَّ قال: فكأنه قيل: ما نَحْسُك وما شؤمك، وما هذا الخطب الذي جاء منك[٤]. انتهى.

وليس بذلك بمطَّردٍ، فقد قال إبراهيم عليه السلام للملائكة عليهم السلام: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر:٥٧]. ولا يتأتّى فيه ما ذكر.

وزعم بعضُ من جعل اشتقاقه من الخطاب أنَّ المعنى: ما حملَك على أنْ خاطبت بني إسرائيل بما خاطبت، وفعلتَ معهم ما فعلت. وليس بشيء.

---

(١) مادة (خطب).
(٢) في المفردات (خطب).
(٣) الأساس في البلاغة (خطب).
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٦١.

وخطابه عليه السلام إيَّاه بذلك؛ ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه، ويفعل به وبما أخرجه ما يكونُ نكالاً للمفتونين ولمن خلفهم من الأمم.

﴿قَالَ﴾ أي: السامريُّ مجيباً له عليه السلام: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ بضمِّ الصاد فيهما، أي: علمتُ ما لم يعلمْهُ القوم، وفطنتُ لما لم يفطنوا له.

قال الزجاج: يقال: بَصُرَ بالشيء إذا علمه، وأبصر إذا نظر. وقيل: بصره وأبصره بمعنى واحد[1].

وقال الراغب: البصر يقال للجارحة الناظرة[2]، وللقوَّة التي فيها، ويقال لقوَّةِ القلب المدركةِ: بصيرة وبَصَر، ويقال من الأول: أبصرتُ، ومن الثاني: أبصرتُه وبَصُرْتُ به، وقلَّما يقال: بَصُرْتُ في الحاسَّةِ إذا لم يضامَّه رؤيةُ القلب. اهـ.

وقرأ الأعمش وأبو السمَّال: «بصِرتُ» بكسر الصاد «بما لم يبصَروا» بفتح الصاد[3].

وقرأ عمرو بن عبيد: «بُصِرتُ» بضمِّ الباء وكسر الصاد «بما لم تُبصَروا» بضمِّ التاء المثناة من فوق وفتح الصاد على البناء للمفعول[4].

وقرأ الكسائيُّ وحمزةُ وأبو بحرية والأعمشُ وطلحة وابن أبي ليلى وابنُ مناذر وابن سعدان وقعنب: «بما لم تَبْصُروا» بالتاء الفوقانية المفتوحة وبضمِّ الصاد[5].

والخطاب لموسى عليه السلام وقومه. وقيل: له عليه السلام وحده، وضميرُ الجمع للتعظيم، كما قيل في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩]، وهذا منقولٌ عن قدماء النحاة، وقد صرَّح به الثعالبيُّ في «سرِّ العربية»[6]، فما ذكره

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٤.

(٢) في الأصل: الباصرة. والمثبت من (م) ومفردات الراغب (بصر).

(٣) القراءات الشاذة ص ٨٩، والبحر المحيط ٦/ ٢٧٣، والدر المصون ٨/ ٩٤.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٧٣.

(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٧٣، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص ١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢. وهي أيضاً قراءة خلف من العشرة.

(٦) فقه اللغة وسر العربية للثعالبي ص ٣٠٠.

الرضيُّ من أنَّ التعظيمَ إنَّما يكونُ في ضمير المتكلِّم مع الغير، كفعلنا، غير مرتضى، وإن تبعه كثير.

وادعى بعضهم أنَّ الأنسبَ بما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله: «وكذلك سوَّلت لي نفسي» تفسيرُ «بصر» بـ: رأى، لاسيَّما على القراءة بالخطاب، فإنَّ ادعاء علم ما لم يعلمه موسى عليه السلام جراءةٌ عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه، بخلاف ادعاء رؤية ما لم يره عليه السلام، فإنَّه ممَّا يقع بحسب ما يتفق، وقد كان فيما أخرج ابن جرير عن ابن عباس: رأى جبريلَ عليه السلام يوم فُلِق البحرُ على فرسٍ فعرفه؛ لما أنَّه كان يغذوهُ صغيراً حين خافتْ عليه أمُّه فألقته في غار، فأخذ قبضةً من تحت حافر الفرس، وأُلقيَ في روعه أنَّه لا يلقيها على شيءٍ فيقول: كن كذا، إلَّا كان[1].

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّه رآه عليه السلام راكباً على فرسٍ حين جاء ليذهب بموسى عليهما السلام إلى الميقات، ولم يره أحدٌ غيرُه من قوم موسى عليه السلام، فأخذ من موطئ فرسه قبضةً من التراب.

وفي بعض الآثار أنَّه رآه كلَّما رفعَ الفرسُ يديه أو رجليه على التراب اليبس يخرجُ النبات، فعرفَ أنَّ له شأناً، فأخذ من موطئه حفنةً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: من أثر فرسِ الرسول. وكذا قرأ عبد الله[2]، فالكلامُ على حذف مضافٍ كما عليه أكثر المفسِّرين.

وأثرُ الفرس الترابُ الذي تحت حافره. وقيل: لا حاجةَ إلى تقدير مضاف؛ لأنَّ أثر فرسه أثره عليه السلام.

ولعلَّ ذكر جبريل عليه السلام بعنوان الرسالة؛ لأنَّه لم يعرفه إلَّا بهذا العنوان، أو للإشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القومُ من الأسرار الإلهية؛ تأكيداً لما صَدَّر به مقالته، والتنبيهِ ـ كما قيل ـ على وقتِ أخذِ ما أخذ.

والقبضَةُ: المرَّة من القبض، أطلقت على المقبوض مرَّةً، وبذلك يُرَدُّ على

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٦٦٩-٦٧٠.

(٢) هو ابن مسعود. القراءات الشاذة ص ٨٩، والبحر المحيط ٦/ ٢٧٤.

القائلين بأنَّ المصدرَ الواقع كذلك لا يؤنَّث بالتاء، فيقولون: هذه حُلَّةٌ نسيجُ اليمَن، ولا يقولون: نسيجةُ اليمن. والجواب بأنَّ الممنوع إنَّما هو التاء الدالَّةُ على التجديد، لا على مجرد التأنيث كما هنا، والمناسبُ على هذا أنْ لا تعتبر[1] المرَّةُ كما لا يخفى.

وقرأ عبدُ الله وأبيّ وابنُ الزبير والحسن وحميد: «قبصْتُ قبصَةً» بالصاد فيهما[2]. وفرَّقوا بين القبض بالضاد المعجمة والقبص بالصاد بأنَّ الأوَّل الأخذُ بجميعِ الكفِّ، والثاني الأخذُ بأطراف الأصابع، ونحوهما الخَضم ـ بالخاء ـ للأكل بجميع الفم، والقَضم بالقاف للأكل بأطراف الأسنان، وذُكر أنَّ ذلك ممَّا غُيِّر لفظُه لمناسبة معناه، فإنَّ الضادَ المعجمة للثقل واستطالة مخرجها جُعِلت فيما يدلُّ على الأكثر، والصاد لضيق محلِّها وخفائه جُعلت فيما يدلُّ على القليل.

وقرأ الحسن بخلاف عنه وقتادة ونصرُ بن عصام بضمِّ القاف والصَّاد المهملة[3]، وهو اسمٌ للمقبوص[4]، كالمضغة اسم للممضوغ.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقيتُها في الحليِّ المذاب. وقيل: في جوف العجل، فكان ما كان.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ أي: زيَّنته وحسَّنته إليَّ، والإشارةُ إلى مصدر الفعل المذكور بعد، وذلك على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، وحاصلُ جوابه أنَّ ما فعله إنَّما صدرَ عنه بمحض اتِّباع هوى النفس الأمَّارة بالسوء؛ لا لشيءٍ آخر من البرهان العقليِّ أو النقليِّ، أو من الإلهام الإلهيِّ.

هذا، ثمَّ ما ذكر من تفسير الآية هو المأثور عن الصحابة والتابعين ﷺ، وتبعهم جُلُّ أجلَّة المفسرين.

وقال أبو مسلم الأصبهانيُّ: ليس في القرآن تصريحٌ بهذا الذي ذكروه، وهنا وجهٌ

---

(١) في (م): لا تعتبره.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٧٣. وانظر المحتسب ٢/ ٥٥.
(٣) القراءات الشاذة ص ٨٩، والبحر المحيط ٦/ ٢٧٣.
(٤) في (م): للمقبوض.

آخر وهو أنْ يكون المرادُ بالرسول موسى عليه السلام، وأثره سنَّته ورسمه الذي أمرَ به ودرجَ عليه، فقد يقول الرجل: فلانٌ يقفو أثرَ فلانٍ ويقتصُّ أثرَه، إذا كان يمتثلُ رسمه. وتقرير[1] الآية على ذلك أنَّ موسى عليه السلام لمَّا أقبل على السامريِّ باللوم والمسألة عن الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم بالعجل قال: «بصرتُ بما لم يبصروا به» أي: عرفتُ أنَّ الذي عليه القوم ليس بحقٍّ، وقد كنتُ قبضتُ قبضةً من أثرك، أي: شيئاً من دينك، فنبذتُها، أي: طرحتُها ولم أتمسَّك بها.

وتعبيره عن موسى عليه السلام بلفظ الغائب على نحو قول من يخاطبُ الأمير: ما قول الأمير في كذا. ويكون إطلاق الرسول منه عليه عليه السلام نوعاً من التهكُّم، حيث كان كافراً مكذِّباً به، على حدِّ قوله تعالى حكايةً عن الكفرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦]. انتهى.

وانتصر له بعضُهم بأنَّه أقرب إلى التحقيق. ويُبعِدُ قولَ المفسِّرين أنَّ جبريل عليه السلام ليس معهوداً باسم الرسول، ولم يجرِ له فيما تقدَّم ذكرٌ حتى تكون اللام في «الرسول» لسابقٍ في الذكر وأنَّ ما قالوه لابدَّ له من تقدير المضاف، والتقدير خلاف الأصل، وأنَّ اختصاصَ السامريِّ برؤيةِ جبريلَ عليه السلام ومعرفتِه من بين سائر الناس بعيدٌ جدّاً.

وأيضاً كيف عَرَف أنَّ أثرَ حافر فرسه يؤثِّرُ هذا الأمر الغريب العجيب من حياة الجماد وصيرورته لحماً ودماً، على أنَّه لو كان كذلك لكان الأثرُ نفسُه أولى بالحياة.

وأيضاً متى اطَّلع كافرٌ على ترابٍ هذا شأنه، فلقائلٍ أن يقول: لعلَّ موسى عليه السلام اطَّلعَ على شيءٍ آخر يشبهُ هذا، فلأجله أتى بالمعجزات، فيكون ذلك فيما أتى به المرسلون عليهم السلام من الخوارق. وأيضاً يبعدُ الكفر والإقدام على الإضلال بعدَ أنْ عرف نبُوة موسى عليه السلام بمجيء هذا الرسول الكريم إليه. انتهى.

---

(١) نص العبارة كما في تفسير الرازي ١١١/٢٢، والبحر المحيط ٦/ ٢٧٤: والتقدير أن موسى. . .

وأجيبَ بأنَّه قد عُهِدَ في القرآن العظيم إطلاقُ الرسول على جبريلَ عليه السلام، فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩]، وعدمُ جريان ذكر له فيما تقدَّم لا يمنعُ من أنْ يكون معهوداً، ويجوزُ أنْ يكونَ إطلاق الرسول عليه عليه السلام شائعاً في بني إسرائيل، لاسيما إنْ قلنا بصحَّة ما روي أنَّه عليه السلام كان يغذي من يُلقى من أطفالهم في الغار في زمان قتل فرعون لهم.

وبأنَّ تقديرَ المضاف في الكلام أكثرُ من أنْ يحصى، وقد عُهد ذلك في كتاب الله تعالى غيرَ مرَّةٍ.

وبأنَّ رؤيتَه جبريلَ عليه السلام دون الناس كان ابتلاءً منه تعالى ليقضي اللهُ أمراً كان مفعولاً.

وبأنَّ معرفته تأثيرَ ذلك الأثر ما ذكر كانت لما ألقي في روعه أنَّه لا يلقيه على شيءٍ فيقول: كن كذا، إلَّا كان، كما في خبرِ ابن عباس، أو كانت لِمَا شاهدَ من خروج النبات بالوطء، كما في بعض الآثار. ويحتملُ أنْ يكون سمعَ ذلك من موسى عليه السلام.

وبأنَّ ما ذُكر من أولوية الأثر نفسه بالحياة غيرُ مسلَّمٍ، ألا ترى أنَّ الإكسير يجعلُ ما يلقى هو عليه ذهباً، ولا يكون هو بنفسه ذهباً.

وبأنَّ المعجزةَ مقرونةٌ بدعوى الرسالة من الله تعالى والتحدِّي وقد قالوا: متى ادَّعى أحد الرسالة[1]، وأظهر الخارق، وكان لسببٍ خفيٍّ يجهلُه المرسلُ إليهم؛ قيَّض الله تعالى ـ ولابدَّ ـ من يبيِّن حقيقة ذلك بإظهارِ مثله غيرَ مقرونٍ بالدعوى، ونحو[2] ذلك، أو جعل المدَّعيَ بحيثُ لا يقدر[3] على فعل ذلك الخارق بذلك السبب؛ بأن يُسْلَبَ قوَّة التأثير أو نحو ذلك؛ لئلَّا يكون للناس على الله حجَّةٌ بعد الرسل، وتكون له عزَّ وجلَّ الحجَّةُ البالغة.

وجوَّزوا ظهورَ الخارق لا عن سببٍ، أو عن سبب خفيٍّ على يد مدَّعي

---

(١) في الأصل: من ادعى الرسالة.

(٢) في (م): أو نحو.

(٣) في (م): لا يقدم.

الألوهية؛ لأنَّ كذبَه ظاهرٌ عقلاً ونقلاً. ولا تتوقَّفُ إقامةُ الحجَّة على تكذيبه بنحو ما تقدَّم.

وبأنَّ ما ذُكر من بُعد الكفر والإضلال من السامريِّ بعد أنْ عرف نبوَّة موسى عليه السلام في غاية السقوط، فقد قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤] وليس كفرُ السامريِّ بأبعدَ من كفر فرعون، وقد رأى ما رأى.

ويرد على ما ذكره أبو مسلم مع مخالفتِه للمأثور عن خير القرون ممَّا لا يقالُ مثله من قبل الرأي فله حكم المرفوع = أنَّ التعبير عن موسى عليه السلام بلفظ الغائب بعيدٌ، وإرادة: وقد كنت قبضتُ قبضةً. . إلخ من النظم الكريم أبعد، وأنَّ نبذَ ما عُرِفَ أنَّه ليس بحقٍّ لا يعدُّ من تسويل النفس في شيءٍ، فلا يناسبُ ختم جوابه بذلك. فَزَعْمُ أنَّ ما ذكرَه أقربُ إلى التحقيق باطلٌ عند أرباب التدقيق.

وزعمتِ اليهودُ أنَّ ما ألقاه السامريُّ كان قطعةً من الحلي منقوشاً عليها بعضُ الطِّلسمات، وكان يعقوب عليه السلام قد علَّقها في عنق يوسفَ عليه السلام إذ كان صغيراً، كما يعلِّقُ الناسُ اليوم في أعناق أطفالهم التمائم، وربَّما تكونُ من الذهب والفضة منقوشاً عليها شيءٌ من الآيات أو الأسماء أو الطِّلسمات، وقد ظفرَ بها من حيث ظفر، فنبذَها مع حليِّ بني إسرائيل، فكان ما كان؛ لخاصيَّة ما نقش عليها، فيكون على هذا قد أرادَ بالرسول رسولَ بني إسرائيل في مصر من قبل، وهو يوسف عليه السلام.

ولم يجئ عندنا خبرٌ صحيحٌ ولا ضعيفٌ، بل ولا موضوعٌ فيما زعموا.

نعم جاء عندنا أنَّ يعقوبَ كان قد جعل القميصَ المتوارثَ في تعويذٍ، وعلَّقه في عنق يوسف عليه السلام. وفسَّر بعضُهم بذلك قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا﴾ [يوسف:٩٣] إلخ[1]. وما أغفلَ أولئك البهتَ عن زعم أنَّ الأثر هو ذلك القميص، فإنَّه قد عهد منه ما تقدَّم في أحسن القصص في قوله تعالى: (ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا)، فبينَ معافاة المبتلَى وحياةِ الجماد مناسبةٌ كلِّيَّةٌ، فهذا الكذبُ لو ارتكبوه لربَّما كانَ أروجَ قبولاً عند أمثال الأصبهانيِّ

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٣٤٢-٣٤٣.

الذين ينبذون(١) ما رويَ عن الصحابة ممَّا لا يقالُ مثله بالرأي وراء ظهورهم، نعوذُ بالله تعالى من الضلال.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما مرَّ غير مرَّةٍ، أي: قال موسى عليه السلام: إذا كان الأمر كما ذكرت ﴿فَٱذْهَبْ﴾ أي: منْ بين الناس، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ إلى آخره تعليلٌ لموجب الأمر. و«في» متعلِّقةٌ بالاستقرار العامل في «لك» أي: ثابت لك في الحياة، أو بمحذوفٍ وقع حالاً من الكاف، والعامل معنى الاستقرار المذكور أيضاً؛ لاعتماده على ما هو مبتدأ معنًى، أعني قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، ولم يجوز تعلُّقه بـ «تقول» لمكان «أن». وقد تقدَّم آنفاً عُذر من يعلِّقُ الظرف المتقدِّم بما بعدها.

ولا يظهر ما يشفي الخاطر في وجه تعليق العلامة أبي السعود(٢) «إذ» في قوله تعالى: «ما منعكَ إذ رأيتهم ضلُّوا أن لا تتَّبعنِ» فيما بعد «أن»، وعدم تجويز تعليق «في الحياة» فيما بعدها، أي: إنَّ لك مدَّة حياتك أنْ تفارقَ الناسَ مفارقةً كليَّةً، لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف، بل بحسب الاضطرار الملجئ إليها، وذلك أنَّه تعالى رماه بداءٍ عقام، لا يكادُ يمسُّ أحداً، أو يمسُّه أحدٌ كائناً من كان إلَّا حُمَّ من ساعته حمّى شديدة، فتحامَى الناسَ وتحاموه، وكان يصيحُ بأقصى صوته: لا مساس، وحرم عليهم ملاقاتُه ومكالمتُه ومؤاكلتُه ومبايعتُه، وغير ذلك مما يُعتادُ جريانُه فيما بين الناس من المعاملات، وصار بين الناس أوحشَ من القاتل اللاجئ إلى الحرم ومن الوحش(٣) النافر في البيداء. وذُكر أنَّه لزِم البَرِّيَّة وهجر البرِيَّة.

وذكر الطبرسيُّ عن ابن عباس أنَّ المراد: إنّ لك ولولدك أنْ تقول.. إلخ، وخصّ عُرُوَّ الحمَّى بما إذا كان الماسُّ أجنبيًّا، وذكر أن بقايا ولده باقٍ فيهم تلك الحال إلى اليوم(٤). وقيل: ابتلي بالوسواس حين قال له موسى عليه السلام ذلك، وعليه حُمِلَ قولُ الشاعر:

---

(١) تحرفت في الأصل إلى: يفسدون.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٣٧، ٣٩.
(٣) في (م): الوحشي. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٣٩، والكلام منه.
(٤) مجمع البيان ١٦/ ١٤٠.

فأصبح ذلك كالسامريِّ إذ قال موسى له لا مساسا[1]

وأنكر الجبَّائيُّ ما تقدَّم من حديث عُرُوِّ الحمَّى عند المسِّ وقال: إنَّه خافَ وهربَ وجعلَ يهيمُ في البرية لا يجدُ أحداً من الناس يمسُّه، حتى صار لبعده عن الناس كالقائل: لا مساس. وصُحِّحَ الأوَّلُ.

والمساسُ مصدرُ ماسَّ، كقتال مصدر قاتل، وهو منفيٌّ بـ «لا» التي لنفي الجنس، وأريد بالنفي النهي، أي: لا تمسني ولا أمسك.

وقرأ الحسنُ وأبو حيوة وابن أبي عبلة وقعنب: «لا مَساسِ» بفتح الميم وكسر السين آخرَه[2]، وهو بوزن فَجارِ، ونحوه قولهم في الظباء إنْ وردت الماء: فلا عَباب، وإنْ فقدته: فلا أَباب، وهي ـ كما قال الزمخشريُّ وابن عطية[3] ـ أعلامٌ للمسَّةِ والعبَّةِ والأبَّة؛ وهي المرَّة من الأبِّ، أي: الطلب، ومن هذا قول الشاعر:

تميمٌ كرهطِ السامريِّ وقوله ألا لا يريدُ السامريُّ مَساسِ[4]

و«لا» على هذا ليست النافية للجنس؛ لأنَّها مختصَّةٌ بالنكرات، وهذا معرفةٌ من أعلام الأجناس، و«لا» داخلةٌ معنًى عليه، فإنَّ المعنى: لا يكونُ، أو: لا يكن منك مسٌّ لنا، وهذا أولى من أنْ يكون المعنى: لا أقول مساس.

وظاهر كلام ابن جنّي أنَّه اسمُ فعل كنزال، والمراد نفي الفعل، أي: لا أمسّك[5].

والسرُّ في عقوبته على جنايته بما ذكر ـ على ما قيل ـ أنَّه ضدُّ ما قصده من إظهار ذلك ليجتمعَ عليه الناس، ويعزِّروه[6]، فكان سبباً لبعدهم عنه وتحقيرِه،

---

(١) البيت للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص ٨٣.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٧٥.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٥١، والمحرر الوجيز ٤/ ٦١.
(٤) البيت دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ٢٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٦٢، والبحر المحيط ٦/ ٢٧٥، والدر المصون ٨/ ٩٧، وغيرها.
(٥) المحتسب ٢/ ٥٦.
(٦) في (م): ويعززوه. والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في حاشية الشهاب ٦/ ٢٢٣، والكلام منه.

وصار لديهم أبغضَ من الطَّلْيَاء وأهون من مِعْبَاة[١].

وقيل: لعلَّ السرَّ في ذلك ما بينهما من مناسبة التضادِّ، فإنَّه لمَّا أنشأ الفتنةَ بما كانت ملابستُه سبباً لحياة الموات، عُوقِبَ بما يضادُّه، حيثُ جُعِلت ملابستُه سبباً للحمَّى التي هي من أسباب موت الأحياء.

وقيل: عُوقب بذلك ليكونَ الجزاءُ من جنسِ العمل، حيثُ نَبَذَ فنُبِذَ، فإنَّ ذلك التحامي أشبهُ شيءٍ بالنبذ. وكانت هذه العقوبةُ ـ على ما في «البحر»[٢] ـ باجتهادٍ من موسى عليه السلام، وحكى فيه القول بأنه أرادَ قتله، فمنعَه اللهُ تعالى عن ذلك؛ لأنَّه كان سخيّاً[٣]، وروي ذلك عن الصادق رضي الله عنه.

وعن بعض الشيوخ أنَّه قد وقع ما يقرب من ذلك في شرعنا في قضيَّة الثلاثة الذين خُلِّفوا، فقد أمر النبيُّ ﷺ أنْ لا يُكَلَّموا، ولا يُخَالطوا، وأن يعتزلوا نساءَهم، حتى تاب الله تعالى عليهم[٤].

ومذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في القاتل اللاجئ إلى الحرم نحوُ ذلك؛ ليضطرَّ إلى الخروج فيقتلَ في الحلِّ.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي: في الآخرة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي: لن يخلفَك الله تعالى ذلك الوعد، بل ينجزُه لك البتة بعدَ ما عاقبك في الدنيا.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والأعمش بضمِّ التاء وكسر اللام على البناء للفاعل[٥]، على أنَّه من أخلفتُ الموعد إذا وجدتَه خلفاً، كأجبنته إذا وجدته جباناً، وعلى ذلك قول الأعشى:

---

(١) الطلياء: خرقة الحائض، والمِعْبَاة كذلك. انظر مجمع الأمثال ١/ ١١٦، ٢/ ١٢٦.

(٢) ٦/ ٢٧٤.

(٣) في مطبوع البحر ٦/ ٢٧٥: شيخاً، وهو تحريف، فقد وقع في تفسير النسفي ٣/ ٦٤: فمنعه الله منه لسخائه.

(٤) أخرج قصتهم بطولها البخاري ومسلم، وسلفت عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ [التوبة: ١١٨].

(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٧٥. وقراءة ابن كثير وأبي عمرو في التيسير ص ١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢. وقرأ بها أيضاً من العشرة يعقوب.

أثْــوَى وقَــصَّــرَ لَــيــلَــةً لِــيــزَوَّدا   فمضى وأخلفَ من قُتَيْلَةَ مَوعِدَا[1]

وجُوِّزَ أن يكونَ التقديرُ: لن تخلَفَ الواعدَ إيَّاه، فحذف المفعول الأول، وذكر الثاني لأنَّه المقصود. والمعنى: لن تقدر أنْ تجعل الواعدَ مخلفاً لوعده، بل سيفعله.

ونقل ابنُ خالويه عن ابن نهيك أنه قرأ: «لن تَخلُفه» بفتح التاء المثناة من فوق وضم اللام[2]، وفي «اللوامح» أنَّه قرأ[3]: «لن يَخْلُفه» بفتح الياء المثناة من تحت وضمِّ اللام[4]، وهو من خلفَه يَخلُفه إذا جاء بعده.

وقيل: المعنى على الرواية الأولى: وإنَّ لك موعداً لابدَّ أن تصادفَه، وعلى الرواية الثانية: وإنَّ لك موعداً لا يدفعُ قولَ لا مساس. فافهم.

وقرأ ابن مسعود والحسن ـ بخلاف عنه ـ: «لن نخلِفه» بالنون المفتوحة[5] وكسر اللام، على أنَّ ذلك حكاية قول الله عزَّ وجلَّ. وقال ابن جنِّي: أي: لن نصادفه خلفاً[6]، فيكون من كلام موسى عليه السلام، لا على سبيل الحكاية. وهو ظاهرٌ لو كانت النونُ مضمومةً[7].

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ أي: معبودك ﴿ٱلَّذِى ظَلۡتَ﴾ أي: ظَلِلْتَ كما قرأ بذلك أبيٌّ والأعمش[8]، فحذفت اللام الأولى تخفيفاً.

---

(١) ديوان الأعشى الكبير ص ٢٧٧.

(٢) القراءات الشاذة ص ٨٩.

(٣) في (م): قرئ.

(٤) وذكرها بهذه الرواية عن أبي نهيك أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ٥٧. وانظر البحر المحيط ٦/ ٢٧٥.

(٥) قوله: بالنون المفتوحة، وهم أو سبق قلم. والصواب: بالنون المضمومة. انظر المحتسب ٢/ ٥٧، و الكشاف ٢/ ٥٥١، والبحر المحيط ٦/ ٢٧٦، والدر المصون ٨/ ٩٧.

(٦) إنما قال ابن جني ذلك في توجيهه لقراءة الجماعة: «لن تُخْلَفَه». قال: فمعناه: لن تصادفه مخلفاً.

(٧) انظر التعليق السابق.

(٨) البحر المحيط ٦/ ٢٧٦، وهي في القراءات الشاذة ص ٨٩ عن أُبي فقط، وفي تفسير القرطبي ١٤/ ١٣١ عن الأعمش.

ونقل أبو حيان[١] عن سيبويه أنَّ هذا الحذفَ من شذوذ القياس، ولا يكونُ ذلك إلَّا إذا سكن آخرُ الفعل، وعن بعض معاصريه أنَّ ذلك منقاسٌ في كلِّ مضاعف العين واللام في لغة بني سليم حيث سُكِّنَ آخرُ الفعل.

وقال بعضهم: إنَّه مقيسٌ في المضاعف إذا كانت عينُه مكسورةً أو مضمومة.

وقرأ ابن مسعود وقتادة والأعمش ـ بخلاف عنه ـ وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن يعمر ـ بخلاف عنه أيضاً ـ: «ظِلْت» بكسر الظاء[٢]، على أنَّه نقل حركة اللام إليها بعد حذف حركتها، وعن ابن يعمر أنَّه ضمَّ الظاء[٣]، وكأنَّه مبنيٌّ على مجيء الفعل في بعض اللغات على فعُل، بضم العين، وحينئذٍ يقال بالنقل كما في الكسر.

﴿عَلَيْهِ﴾ أي: على عبادته ﴿عَاكِفًا﴾ أي: مقيماً، وخاطبَه عليه السلام دون سائر العاكفين على عبادته القائلين: «لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى»؛ لأنَّه رأسُ الضلال ورئيسُ أولئك الجهَّال.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ جوابُ قسمٍ محذوف، أي: بالله تعالى لنحرِّقنَّه بالنار، كما أخرج ذلك ابنُ المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس[٤]، ويؤيِّدُه قراءة الحسن وقتادة وأبي جعفر ـ في روايةٍ ـ وأبي رجاء والكلبيّ: «لَنُحْرِقَنَّه» مخففاً من أحرقَ رباعيّاً[٥]، فإنَّ الإحراقَ شائعٌ فيما يكون بالنار، وهذا ظاهرٌ في أنَّه صارَ ذا لحمٍ ودمٍ، وكذا ما في مصحف أبيّ وعبد الله: «لنذبحنَّه ثمَّ لنَحْرُقَنَّه»[٦].

وجَوَّزَ أبو عليٍّ أن يكون «نحرِّق» مبالغةٌ في: حَرَقَ الحديد حَرَقاً بفتح الراء، إذا برده بالمِبْرَد، ويؤيِّده قراءة عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وحميد، وعمرو بن فائد،

(١) في البحر ٦/ ٢٧٦.
(٢) البحر ٦/ ٢٧٦، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٨٩ عن الثلاثة الأول، وذكر الخلاف عن يحيى بن يعمر فيها.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٧٦، والقراءات الشاذة ص ٨٩.
(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٠٧.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٧٦، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٢٢.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٦٢، والبحر المحيط ٦/ ٢٧٦. وأخرج الطبري هذه القراءات في تفسيره ١٦/ ١٥٦ عن قتادة في حرف ابن مسعود. وانظر تفسير القرطبي ١٤/ ١٣٢.

وأبي جعفر في روايةٍ، وكذا ابن عباس رضي الله عنهما: «لَنَحْرُقنه» بفتح النون وسكون الحاء وضم الراء[1]، فإنَّ حرق يحرُق بالضمِّ مختصٌّ بهذا المعنى كما قيل، وهذا ظاهرٌ في أنَّه لم يصر ذا لحمٍ ودمٍ، بل كان باقياً على الجماديَّة.

وزعم بعضُهم أنَّه لا بُعد على تقدير كونه حيّاً في تحريقه بالمِبْرَد، إذ يجوزُ خلقُ الحياة في الذهب مع بقائه على الذهبية عند أهل الحقِّ.

وقال بعض القائلين بأنَّه صار حيواناً ذا لحمٍ ودم: إنَّ التحريق بالمِبْرَد كان للعظام، وهو كما ترى.

وقال النسفيُّ: تفريقُه بالمِبْرَد طريقُ تحريقه بالنار، فإنَّه لا يُفرَّقُ الذهبُ إلَّا بهذا الطريق. وجُوِّزَ ـ على هذا ـ أن يقال: إنَّ موسى عليه السلام حرقه بالمِبْرَد، ثم أحرقه بالنار. وتُعقِّب بأنَّ النار تذيبُه وتجمعُه، ولا تحرقه وتجعله رماداً، فلعلَّ ذلك كان بالحيل الإكسيريَّة، أو نحو ذلك.

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي: لنذرينه، وقرأتْ فرقةٌ منهم عيسى بضمِّ السين[2]. وقرأ ابن مقسمٍ: «لَنُنَسِّفنَّه»[3] بضم النون الأولى وفتح الثانية وتشديد السين[4].

﴿فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: في البحر، كما أخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس. وأخرج عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنَّه فسره بالنهر[5].

وقوله تعالى: ﴿نَسْفًا ۝٩٧﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ، أي: لنفعلنَّ به ذلك بحيثُ لا يبقى منه عينٌ ولا أثر، ولا يصادَفُ منه شيءٌ فيؤخذ. ولقد فعلَ عليه السلام ما أقسم عليه كلَّه كما يشهد به الأمرُ بالنظر، وإنَّما لم يصرِّح به تنبيهاً على كمال ظهوره واستحالة الخُلْفِ في وعده المؤكَّد باليمين. وفي ذلك زيادةُ عقوبةٍ للسامريِّ، وإظهارٌ لغباوة المفتتنين، وقال في «البحر» بياناً لسرِّ هذا الفعل: يظهرُ أنَّه لما كان

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٧٦، وقراءة أبي جعفر من رواية ابن وردان عنه في النشر ٢/ ٣٢٢.
(٢) القراءات الشاذة ص ٨٩، والبحر ٦/ ٢٧٦.
(٣) من قوله: منهم عيسى... إلى هنا ليس في الأصل.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٧٦.
(٥) الدر المنثور ٤/ ٣٠٧.

قد أخذَ السامريُّ القبضةَ من أثر فرس جبريلَ عليه السلام وهو داخل البحر، ناسبَ أن يُنْسَف ذلك العجلُ الذي صاغَهُ من الحليِّ الذي كان أصلُه للقبط وألقى فيه القبضةَ في البحر؛ ليكون ذلك تنبيهاً على أنَّ ما كان به قيامُ الحياة آل إلى العدم، وألقيَ في محلٍّ ما قامت به الحياة، وأنَّ أموالَ القبط قذفها الله تعالى في البحر لا ينتفع بها، كما قذفَ سبحانه أشخاصَ مالكيها وغرَّقهم فيه. ولا يخفى ما فيه(١).

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتحقيق الحقِّ إثرَ إبطالِ الباطل بتلوين الخطاب، وتوجيهه إلى الكلّ، أي: إنَّما معبودُكم المستحقُّ للعبادة هو الله عزَّ وجلَّ ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحده من غير أنْ يشاركَه شيءٌ من الأشياء بوجهٍ من الوجوه التي من جملتها أحكام الألوهيَّة.

وقرأ طلحة: «الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ربّ العرش»(٢).

﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ أي: وسعَ علمهُ كلَّ ما من شأنه أنْ يُعلَم، فالشيء هنا شاملٌ للموجود والمعدوم، وانتصب «علماً» على التمييز المحوَّل عن الفاعل، والجملةُ بدلٌ من الصلة، كأنه قيل: إنَّما إلهكم الذي وسع كلَّ شيءٍ علماً لا غيره كائناً ما كان، فيدخلُ فيه العجل ـ الذي هو مَثَلٌ في الغباوة ـ دخولاً أوَّليّاً.

وقرأ مجاهدٌ وقتادة: «وسَّع» بفتح السين مشدَّدة(٣)، فيكون انتصاب «علماً» على أنَّه مفعولٌ ثانٍ، ولما كان في القراءة الأولى فاعلاً معنًى صحَّ نقلُه بالتعدية إلى المفعوليَّة، كما تقول في: خاف زيدٌ عمراً: خَوَّفتُ زيداً عمراً، أي: جعلتُ زيداً يخافُ عمراً، فيكونُ المعنى هنا على هذا: جعلَ علمَه يسعُ كلَّ شيءٍ. لكن أنت تعلم أنَّ الكلام ليس على ظاهره؛ لأنَّ علمَه سبحانه غيرُ مجعولٍ، ولا ينبغي أن يتوهَّم أنَّ اقتضاء الذات له على تقديرِ الزيادة جعلاً.

وبهذا تمَّ حديثُ موسى عليه السلام، وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ كلامٌ

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٧٦.
(٢) أوردها عن طلحة الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٥٢. ونصها عنده: «الله الذي لا إله إلا هو الرحمن رب العرش» بزيادة «الذي»، وليس فيها: «الرحيم».
(٣) المحتسب ٢/ ٥٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٦٣، وتفسير القرطبي ١٤/ ١٣٣، والبحر المحيط ٦/ ٢٧٧، وهي عند ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٨٩ عن مجاهد فقط.

مستأنفٌ خُوطِب به النبيُّ ﷺ بطريق الوعد الجميل بتنزيل أمثالِ ما مرَّ من أنباء الأمم السالفة.

والجارُّ والمجرور في موضع الصفة لمصدرٍ مقدَّر، أو الكاف في محلِّ نصب صفة لذلك المصدر، أي: نقصُّ عليك ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ﴾ من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصّاً كائناً كذلك القصِّ المارِّ، أو قصّاً مثلَ ذلك.

والتقديمُ للقصر المفيد لزيادة التعيين، أي: كذلك لا ناقصاً عنه.

و«من» في «من أنباء» إمَّا متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ للمفعول، أي: نقصُّ عليك نبأ، أو بعضاً كائناً من أنباء. وجُوِّزَ أنْ يكون في حيِّز النصب على أنَّه مفعول «نقصُّ» باعتبار مضمونه، أي: نَقصُّ بعض أنباء. وتأخيره عن «عليك» لما مرَّ غيرَ مرَّةٍ من الاعتناء بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر.

ويجوز أن يكون «كذلك نقصُّ» مثلَ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، على أنَّ الإشارة إلى مصدر الفعل المذكور بعدُ، وقد مرَّ تحقيق ذلك.

وفائدة هذا القصِّ توفيرُ علمه عليه الصلاة والسلام، وتكثيرُ معجزاته، وتسليتُه، وتذكرةُ المستبصرين من أمَّته ﷺ.

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩﴾ كتاباً منطوياً على هذه الأقاصيص والأخبار، حقيقاً بالتذكُّر والتفكُّر فيه والاعتبار.

و«من» متعلِّقٌ بـ «آتيناك»، وتنكير «ذكراً» للتفخيم، وتأخيرُه عن الجارِّ والمجرور؛ لما أنَّ مرجعَ الإفادة في الجملة كونُ المؤتى من لدنه تعالى ذكراً عظيماً، وقرآناً كريماً جامعاً لكلِّ كمال، لا كون ذلك الذكر مؤتًى من لدنه عزَّ وجلَّ، مع ما فيه من نوع طولٍ بما بعده من الصفة.

وجُوِّزَ أنْ يكون الجارُّ والمجرور في موضع الحال من «ذكراً». وليس بذاك.

وتفسير الذكر بالقرآن هو الذي ذهبَ إليه الجمهور، ورويَ عن ابن زيد.

وقال مقاتل: أي: بياناً. ومآلُه ما ذكر.

وقال أبو سهل: أي: شرفاً وذكراً في الناس، ولا يلائمه قوله تعالى: ﴿مَّنْ

أَعۡرَضَ عَنۡهُ﴾ إذ الظاهرُ أنَّ ضمير «عنه» للذكر، والجملة في موضع الصفة له، ولا يحسنُ وصف الشرف أو الذكر في الناس بذلك.

وقيل: الضميرُ لله تعالى على سبيل الالتفات، وهو خلاف الظاهر جدّاً.

و«من» إمَّا شرطيَّةٌ أو موصولةٌ، أي: من أعرض عن الذكر العظيم الشأن، المستتبع لسعادة الدارين، ولم يؤمن به ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي: المعرض عنه ﴿يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠﴾ أي: عقوبةً ثقيلةً على إعراضه وسائر ذنوبه.

والوزر في الأصل يطلقُ على معنيين؛ الحملُ الثقيل، والإثمُ، وإطلاقُه على العقوبة نظراً إلى المعنى الأول على سبيل الاستعارة المصرِّحة، حيث شُبِّهت العقوبةُ بالحمل الثقيل، ثمَّ استعيرَ لها بقرينة ذكر «يوم القيامة»، ونظراً إلى المعنى الثاني على سبيل المجاز المرسل من حيثُ إنَّ العقوبةَ جزاءُ الإثم، فهي لازمةٌ له، أو مسبَّبةٌ[١].

والأوَّل هو الأنسبُ بقوله تعالى فيما بعد: «وساء» إلخ؛ لأنَّه ترشيحٌ له، ويؤيِّده قوله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وتفسيرُ الوزر بالإثم وحملُ الكلام على حذف المضاف، أي: عقوبةً أو جزاءَ إثمٍ: ليس بذاك.

وقرأت فرقةٌ منهم داود بن رفيع: «يحمَّل» مشددَّ الميم مبنيّاً للمفعول[٢]؛ لأنَّه يكلَّفُ ذلك، لا أنَّه يحملُه طوعاً، ويكون «وزراً» على هذا مفعولاً ثانياً.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ أي: في الوزر المراد منه العقوبة. وجُوِّزَ أنْ يكون الضميرُ لمصدر «يحمل»، ونصب «خالدين» على الحال من المستكنِّ في «يحمل»[٣]، والجمعُ بالنظر إلى معنى «من»؛ لما أنَّ الخلودَ في النار ممَّا يتحقَّق حال اجتماع أهلها، كما أنَّ الإفراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر إلى لفظها.

---

(١) في الأصل: سببه. وهو تصحيف. والمثبت من (م) وهو الموافق لما في حاشية الشهاب ٦/ ٢٢٥، والكلام منه.

(٢) القراءات الشاذة ص ٨٩-٩٠، وتفسير القرطبي ١٤/ ١٣٤، والبحر المحيط ٦/ ٢٧٨. ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٢٠ لعكرمة وأبي المتوكل وعاصم الجحدري.

(٣) قوله: في يحمل. ليست في الأصل.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ إنشاءٌ للذمِّ على أن «ساء» فعلُ ذمٍّ بمعنى بئس، وهو أحدُ معنييه المشهورين، وفاعله على هذا هنا[1] مستترٌ يعود على «حملاً» الواقع تمييزاً، لا على «وزراً»؛ لأنَّ فاعل بئس لا يكونُ إلا ضميراً مبهماً يفسِّره التمييز العائدُ هو إليه وإن تأخَّر؛ لأنَّه من خصائص هذا الباب، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ، والتقدير: ساء حملهم حملاً وزرُهم.

ولام «لهم» للبيان كما في: سقياً له، و﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:٢٣]، وهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، كأنَّه قيل: لمن يقال هذا؟ فقيل: هو يقالُ لهم وفي شأنهم.

وإعادةُ «يوم القيامة» لزيادة التقرير وتهويل الأمر.

وجُوِّزَ أن يكون «ساء» بمعنى أحزن، وهو المعنى الآخر من المعنيين، والتقدير ـ على ما قيل ـ: وأحزنهم الوزرُ حالَ كونه حملاً لهم.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّه أيُّ فائدةٍ فيه، والوزرُ أدلُّ على الثقل من قيده[2]، ثمَّ التقييد بـ «لهم» ـ مع الاستغناء عنه ـ وتقديمُه الذي لا يطابق المقام، وحذفُ المفعول، وبعدُ هذا كلِّه[3] لا يلائمُ ما سيقَ له الكلام، ولا مبالغةَ في الوعيد بذلك بعدَ ما تقدم، ثم قال: وكذلك ما قاله العلامةُ الطيبيُّ من أنَّ المعنى: وأحزنَهم حمل الوزر، على أنَّ «حملاً» تمييزٌ، واللام في «لهم» للبيان؛ لما ذُكر من فواتِ فخامة المعنى، وأنَّ البيانَ إنْ كان لاختصاص الحمل بهم ففيه غُنية، وإنْ كان لمحلِّ الأحزان فلا كذلك طريقُ بيانه، وإنْ كان على أنَّ هذا الوعيدَ لهم فليس موقعُه قبلَ يوم القيامة، وأنَّ المناسبَ حينئذٍ: وزراً ساءَ لهم حملاً، على الوصف، لا هكذا معترضاً مؤكداً. انتهى.

ولا مجالَ لتوجيه الإتيان باللام إلى اعتبار التضمين؛ لعدم تحقُّق فعلٍ ممَّا يلائم الفعلَ المذكور مناسباً لها؛ لأنَّها ظاهرةٌ في الاختصاص النافع، والفعلُ في الحدث الضارِّ، والقول بازديادها، كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل:٧٢]، أو الحملُ على

---

(١) لفظة: هنا. ليست في الأصل.

(٢) في الأصل: غيره. والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٦/ ٢٢٥.

(٣) لفظة: كله. ليست في الأصل.

التهكُّم = تمحُّلٌ لتصحيح اللفظ من غير داعٍ إليه، ويبقى معه أمرُ فخامة المعنى، والحاصل أنَّ ما ذُكِرَ لا يساعدُه اللفظ ولا المعنى.

وجُوِّزَ أنْ يكون «ساء» بمعنى قَبُحَ، فقد ذكر استعمالُه بهذا المعنى، وإنْ كان في كونه معنًى حقيقيّاً نظرٌ، و«حملاً» تمييزاً، و«لهم» حالاً، و«يوم القيامة» متعلِّقاً[1] بالظرف، أي: قَبُحَ ذلك الوزرُ من جهة كونه حملاً لهم في يوم القيامة. وفيه ما فيه.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ منصوبٌ بإضمار: اذكر. وجُوِّزَ أن يكون ظرفاً لمضمر[2]، حُذِف للإيذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه، أو بدلاً من «يوم القيامة»، أو بياناً له، أو ظرفاً لـ «يتخافتون».

وقرأ أبو عمرو وابن محيصن وحميد: «نَنفخ» بنون العظمة[3] على إسناد الفعل إلى الآمر به، وهو الله سبحانه، تعظيماً للنفخ؛ لأنَّ ما يصدرُ من العظيم عظيمٌ، أو للنافخ بجعل فعله بمنزلةِ فعله تعالى، وهو إنَّما يقال لمن له مزيدُ اختصاص وقربُ مرتبة، وقيل: إنَّه يجوزُ أنْ يكون لليوم الواقع هو فيه.

وقرىء: «يَنْفُخ» بالياء المفتوحة[4]، على أنَّ ضميره لله تعالى، أو لإسرافيل عليه السلام، وإنْ لم يجرِ ذكرُه لشهرته.

وقرأ الحسنُ وابنُ عياض[5] في جماعة: «في الصُّوَر» بضمِّ الصاد وفتح الواو، جمعُ صورة، كغُرفة وغُرَف، والمراد به الجسمُ المصوَّر.

---

(١) في الأصل: متعلق.
(٢) في (م): ظرف المضمر. بدل: ظرفاً لمضمر.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٧٨، وقراءة أبي عمرو في التيسير ص ١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٧٨. ونسبها القرطبي في تفسيره ١٤/ ١٣٤ لابن هرمز، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٢٠-٣٢١ لأبي عمران الجوني.
(٥) اضطربت المصادر في اسم هذا القارئ، فهو في المحرر الوجيز ٤/ ٦٣، والبحر المحيط ٦/ ٢٧٨ كما عند المصنف: ابن عياض. وهو في تفسير القرطبي ١٤/ ١٣٤: أبو عياض. ووقع في المحتسب ٢/ ٥٩: عياض. ووقع الاضطراب في اسمه عند ذكر قراءات هذه الكلمة «الصور» في غير آية، ولم نعرفه.

وأورد أنَّ النفخَ يتكرَّر؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر:٦٨] والنفخُ في الصورة إحياء، والإحياء غيرُ متكرِّرٍ بعد الموت، وما في القبر ليس بمرادٍ من النفخة الأولى بالاتفاق.

وأجيبَ بأنَّه لا نسلِّم أنَّ كلَّ نفخٍ إحياء.

وبعضُهم فسَّر الصُّورَ على القراءة المشهورة بذلك أيضاً، والحقُّ تفسيرُه بالقرن الذي ينفخ فيه.

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ ينفخُ في الصُّور، وذكر ذلك صريحاً مع تعيُّن أنَّ الحشرَ لا يكون إلَّا يومئذ؛ للتهويل.

وقرأ الحسن: «يُحشَرُ» بالياء والبناء للمفعول، و«المجرمون» بالرفع على النيابة عن الفاعل. وقرأ أيضاً: «يَحشُر» بالياء والبناء للفاعل(١)، وهو ضميره عزَّ وجلَّ، أي: ويحشرُ الله تعالى المجرمين ﴿زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ حالَ كونهم زرق الأبدان، وذلك غايةٌ في التشويه، ولا تزرقُّ الأبدان إلَّا من مكابدة الشدائد وجفوف رطوبتها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: زرق العيون. فهو وصفٌ للشيء بصفة جزئه، كما يقال: غلامٌ أكحل وأحول، والكحل والحول من صفات العين، ولعلَّه مجازٌ مشهور.

وجُوِّزَ أنْ يكون حقيقةً؛ كـ: رجلٌ أعمى، وإنَّما جُعِلوا كذلك؛ لأنَّ الزرقةَ أسوأ ألوان العين وأبغضُها إلى العرب، فإنَّ الرومَ الذين كانوا أشدَّ أعدائهم عداوةً زرق، ولذلك قالوا في وصف العدوِّ: أَسْودُ الكبد، أَصْهبُ السبال، أَزْرَقُ العين، وقال الشاعر:

وما كنت أخشى أنْ تكون وفاتُهُ بكفَّيْ سَبَنْتَى أزرقِ العينِ مُطْرِقِ(٢)

---

(١) البحر المحيط ٦/٢٧٨.

(٢) اختلف في نسبة هذا البيت، فنسبه أبو تمام في حماسته ٣/٦٥ للشماخ، ونسبه الجمحي في طبقات فحول الشعراء ١/١٣٣ لجزء بن ضرار ـ أخي الشماخ ـ وهو قول أبي محمد الأعرابي أيضاً كما ذكر التبريزي في شرح الحماسة، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٣/٣٦٤ لمُزَرِّد بن ضرار، ونقل التبريزي في شرح الحماسة عن أبي رياش قوله: الذي عندي أنه لمزرد. وفي الأغاني ٩/١٥٩ أنه من نَوْحِ الجنِّ على عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وانظر تتمة تخريجه في ديوان الشماخ ص ٤٤٨-٤٤٩ (الملحق).
=

وكانوا يهجون بالزرقة كما في قوله:

لقد زَرِقتْ عيناك يا ابنَ مُكَعْبَرٍ ... ألا كُلُّ ضَبِّيٍّ من اللؤمِ أزرقُ(١)

وسئل ابن عباس عن الجمع بين «زرقاً» ـ على ما روي عنه ـ و«عمياً» في آيةٍ أخرى، فقال: ليوم القيامة حالاتٌ؛ فحالةٌ يكونون فيها عمياً، وحالةٌ يكونون فيها زرقاً.

وعن الفرَّاء: المراد من «زرقاً»: عمياً(٢)؛ لأنَّ العينَ إذا ذهب نورها ازرقَّ ناظرُها. ووجهُ الجمع عليه ظاهر.

وعن الأزهريِّ(٣): عطاشاً؛ لأنَّ العطشَ الشديد يغيِّر سوادَ العين، فيجعلُه كالأزرق.

وقيل: يجعله أبيض، وجاء الأزرق بمعنى الأبيض، ومنه: سنانٌ أزرق. وقوله:

فلمَّا وَرَدْنَ(٤) الماءَ زُرْقاً جِمَامُه

ويلائم تفسيرُه بـ: عطاشاً قوله تعالى ـ على ما سمعت ـ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾(٥) [مريم: ٨٦].

= قال التبريزي في شرح الحماسة ٣/ ٦٦: السبنتى الجريء، وأكثر ما يوصف به النمر يقال: سبنتى وسبندي وسبنتاة وسبنداة للجريء المقدم، وأزرق العين: أبو لؤلؤة... فتك بعمر في الصلاة، ومطرق: مسترخي الجفن.

(١) البيت لسويد بن أبي كاهل اليشكري كما في الأغاني ٢١/ ٣٩٦. وذكره الجاحظ في كتاب الحيوان ٥/ ٣٣٢، وابن دريد في الجمهرة ٢/ ٣٢٤ دون نسبة. وابن مكعبر هو محرز بن المكعبر الضبي؛ من شعراء المفضليات. المفضليات ص ٢٥١.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩١.

(٣) بعدها في (م): المراد. وانظر تهذيب اللغة ٨/ ٤٢٩.

(٤) في الأصل و(م): وردنا. والمثبت من ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٣، والبيت له، وعجزه:

وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضر المتخيم

قال شارحه: والجمام ما اجتمع من الماء، والواحدة: جمَّة وجمٌّ... والمتخيم: المقيم، والحاضر: الذين حضروا الماء. وقال الأصمعي: زرقاً: لم يورد قبلهن فيحرك، فهو صاف.

(٥) وورد لفظ الآية في الأصل (م): ونحشر. وهو خطأ.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: يخفضون أصواتَهم ويخفونها لشدَّة هول المطلع.

والجملة استئنافٌ لبيان ما يأتون وما يذرون حينئذٍ، أو حالٌ أخرى من «المجرمين».

وقوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾ بتقدير قولٍ وقعَ حالاً من ضمير «يتخافتون»، أي: قائلين: ما لبثتم في القبور ﴿إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣﴾ أي: عشرَ ليالٍ، أو عشرةَ أيامٍ، ولعلَّه الأوفق بقول الأمثل.

والمذكَّر إذا حذف وأبقي عددُه قد لا يؤتى بالتاء، حكى الكسائيُّ: صمنا من الشهر خمساً. ومنه ما جاء في الحديث: «ثم أتبعه بستٍّ من شوال»[1]، فإنَّ المرادَ ستةُ أيام، وحَسَّن الحذفَ هنا كونُ ذلك فاصلةً.

ومرادهم من هذا القول استقصارُ المدَّة وسرعةُ انقضائها، والتنديمُ على ما كانوا يزعمون، حيث تبيَّن الأمر على خلاف ما كانوا عليه من إنكار البعث وعَدِّهِ من قبيل المحالات، كأنَّهم قالوا: قد بعثتم وما لبثتم في القبر إلَّا مدَّةً يسيرةً، وقد كنتم تزعمون أنَّكم لن تقوموا منه أبداً.

وعن قتادة أنَّهم عَنَوا لُبْثَهُم في الدنيا، وقالوا ذلك استقصاراً لمدَّة لبثهم فيها؛ لزوالها ولاستطالتهم مدة الآخرة، أو لتأسُّفهم عليها. لمَّا عاينوا الشدائد وأيقنوا أنَّهم استحقُّوها على إضاعة الأيَّام في قضاء الأوطار واتِّباع الشهوات.

وتُعقِّبَ بأنَّهم في شُغْلٍ شاغلٍ عن تذكُّر ذلك، فالأوفقُ بحالهم ما تقدَّم، وبأنَّ قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾ [الروم: ٥٦] صريحٌ في أنَّه اللبثُ في القبور. وفيه بحث.

وفي «مجمع البيان» عن ابن عباس وقتادة أنَّهم عنوا لبثهم بين النفختين، يلبثون أربعينَ سنةً مرفوعاً عنهم العذاب[2].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٧١٦) من حديث أبي أيوب، وهو أيضاً في صحيح مسلم (١١٦٤) بلفظ: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر».

(٢) مجمع البيان ١٦/ ١٤٢.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: بالذي يقولونه، وهو مدَّة لبثهم ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أعدلُهم رأياً، وأرجحُهم عقلاً. و«إذ» ظرف «يقولون». ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ واحداً، وإليه ينتهي العددُ في القلَّة.

وقيل: المرادُ باليوم مطلقُ الوقت، وتنكيرُه للتقليل والتحقير، فالمراد: إلَّا زمناً قليلاً.

وظاهر المقابلة بالعشر يبعده.

ونسبة هذا القول إلى «أمثلهم» استرجاحٌ منه تعالى له، لكن لا لكونه أقربَ إلى الصدق، بل لكونه أعظمَ في التنديم، أو لكونه أدلَّ على شدَّة الهول، وهذا يدلُّ على كون قائله أعلمَ بفظاعة الأمر وشدَّة العذاب.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ السائلونَ منكرو البعثِ من قريش، على ما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج، قالوا ـ على سبيل الاستهزاء ـ: كيف يفعلُ ربُّك بالجبال يومَ القيامة[1]. وقيل: جماعةٌ من ثقيف. وقيل: أناسٌ من المؤمنين.

﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ يجعلُها سبحانه كالرمل، ثمَّ يرسلُ عليها الرياح فتفرِّقُها.

والفاء للمسارعة إلى إزالة ما في ذهن[2] السائل من بقاء الجبال بناءً على ظنِّ أنَّ ذلك من توابع عدم الحشر، ألا ترى أنَّ منكري الحشر يقولون بعدم تبدُّل هذا النظام المشاهد في الأرض والسماوات. أو للمسارعة إلى تحقيق الحقِّ حفظاً من أن يتوهَّم ما يقضي بفساد الاعتقاد. وهذا مبنيٌّ على أنَّ السائلَ من المؤمنين، والأوَّل على أنَّه من منكري البعث. ومن هنا قال الإمام: إنَّ مقصود السائلين الطعنُ في الحشر والنشر، فلا جرم أُمِرَ ﷺ بالجواب مقروناً بحرف التعقيب؛ لأنَّ تأخير البيان في هذه المسألة الأصوليَّة غيرُ جائز، وأما تأخيره في المسائل الفروعية فجائز[3]، ولذا لم يؤتَ بالفاء في الأمر بالجواب في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧]، وقوله تعالى:

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٠٧.

(٢) في الأصل: الذهن.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١١٧.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١] وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٢٢٠] إلى غير ذلك.

وقال في موضع آخر: إنَّ السؤالَ المذكور إمَّا عن قدم الجبال أو عن وجوب بقائها، وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين، فلا جرمَ أُمِرَ ﷺ أنْ يجيبه بالفاء المفيدةِ للتعقيب، كأنَّه سبحانه قال: يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال من غير تأخير؛ لأنَّ القولَ بقدمها أو وجوبِ بقائها كفرٌ، ودلالة الجواب على نفي ذلك من جهة أنَّ النسفَ ممكنٌ؛ لأنَّه ممكنٌ في كلِّ جزءٍ من أجزاء الجبل، والحسُّ يدلُّ عليه، فوجبَ أن يكون ممكناً في حقِّ كلِّ الجبل، فليسَ بقديمٍ ولا واجب الوجود؛ لأنَّ القديمَ لا يجوزُ عليه التغيُّر والنسف[1]. انتهى.

واعتُرِضَ بأنَّ عدمَ جواز التغيُّر والنسف إنَّما يسلَّم في حقِّ القديم بالذات، ولم يذهب أحدٌ من السائلين إلى كون الجبال قديمةً كذلك، وأمَّا القديم بالزمان، فلا يمتنعُ عليه لذاته ذلك، بل إذا امتنعَ فإنَّما يمتنعُ لأمرٍ آخر، على أنَّ في كون الجبال قديمةً بالزمان عند السائلين وكذا غيرهم من الفلاسفة نظراً، بل الظاهرُ أنَّ الفلاسفةَ قائلون بحدوثها الزماني، وإنْ لم يعلموا مبدأً معيناً لحدوثها. فتأمَّل.

ثم إنَّه ذكرَ رحمه الله تعالى أنَّ السؤالَ والجواب قد ذكرا في عدَّةِ مواضعَ من كتاب الله تعالى، منها فروعيَّةٌ ومنها أصولية، والأصوليَّة في أربعةِ مواضع، في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء:٨٥]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾[2] [النازعات:٤٢].

ولا يخفى أن عدَّ جميع ما ذكر من الأصوليَّة غيرُ ظاهر، وعلى تقدير ظهورِ ذلك في الجميع يَرِدُ السؤالُ عن سرٍّ اقتران الأمر بالجواب بالفَاء في بعضها دونَ بعض.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ٣٥-٣٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٣٥.

وكونُ ما اقترن بالفاء هو الأهمّ في حيِّز المنع، فإنَّ الأمرَ بالجواب عن السؤال عن الروح إنْ كان عن القدم ونحوه فمهمٌّ، كالأمر بالجواب فيما نحن فيه، بل لعلَّه أهمُّ منه؛ لتحقُّق القائل بالقدم الزمانيِّ للروح؛ بناءً على أنَّها النفسُ الناطقة، كأفلاطون وأتباعه.

وقد يقال: لمَّا كان الجوابُ هنا لدفع السؤال عن الكلام السابق، أعني قوله تعالى: «يتخافتون بينهم»، كأنه قيل: كيف يصحُّ تخافتُ المجرمين المقتضي لاجتماعهم والجبالُ في البين مانعةٌ عن ذلك، فمتى قلتم بصحَّته فبيِّنوا لنا كيف يفعل الله تعالى بها؟ فأجيب بأنَّ الجبال تُنسفُ في ذلك الوقت، فلا يبقى مانعٌ عن الاجتماع والتخافت. وقرن الأمر بالفاء للمسارعة إلى الذبِّ عن الدعوة السابقة.

والآياتُ التي لم يقرن الأمر فيها بالفاء لم تُسَق هذا المساق كما لا يخفى على أرباب الأذواق.

وقال النسفيُّ[1] وغيره: الفاء في جواب شرط مقدَّر، أي: إذا سألوك عن الجبال فقل، وهو مبنيٌّ على أنَّه لم يقع السؤال عن ذلك كما وقع في قصة الروح وغيرها، فلذا لم يؤت بالفاء ثمة، وأتي به هنا، فـ «يسألونك» متمحِّضٌ للاستقبال.

واستبعدَ ذلك أبو حيَّان[2]، وما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج من أنَّ قريشاً قالوا: يا محمد كيف يفعلُ ربُّك بهذه الجبال يومَ القيامة، فنزلت: «ويسألونك عن الجبال» الآية[3]. يدلُّ على خلافه.

وقال الخفاجيُّ: الظاهرُ أنَّه إنَّما قرنَ بها هنا ولم يقرن بها ثمةَ؛ للإشارة إلى أنَّ الجوابَ معلومٌ له ﷺ قبل ذلك، فأمر عليه الصلاة والسلام بالمبادرة إليه بخلاف ذلك[4]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ القول بأنَّ الجوابَ عن سؤال الروح وعن سؤال المحيض ونحو

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٦٥.
(٢) في البحر ٦/ ٢٧٩.
(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٠٧.
(٤) حاشية الشهاب ٦/ ٢٢٧.

ذلك لم يكن معلوماً له ﷺ قبل؛ لم يتجاسر عليه أحدٌ من عوامِّ الناس فضلاً عن خواصِّهم، فما ذكره ممَّا لا ينبغي أنْ يُلتَفت إليه.

وممّا يُضحك الثكلى أنَّ بعض المعاصرين سمعَ السؤال عن سرٍّ اقتران الأمر هنا بالفاء، وعدم اقترانه بها في الآيات الأخر فقال: ما أجهلَ هذا السائل بما يجوز وما لا يجوز من المسائل، أمَّا سمعَ قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء:٢٣]، أما درى أنَّ معناه نهيُ من يُريد السؤالَ عن أن يسأل. وأدلُّ من هذا على جهل الرجل أنَّه دوَّن ما قال، ولم يبال بما قيل ويقال. ونقلي لذلك من باب التحميض[١]، وتذكير من سلِم من مثل هذا الداء بما منَّ الله تعالى به عليه من الفضل الطويل العريض.

وأمر الفاء في قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ ظاهرٌ جدّاً، والضميرُ إمَّا للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف، وهي مقارُّها ومراكزها، أي: فنذر ما انبسط منها وساوَى سطحُه سطوحَ سائر أجزاء الأرض بعد نسف ما نتأ منها ونشز، وإمَّا للأرض المدلول عليها بقرينة الحال؛ لأنَّها الباقيةُ بعد نسفِ الجبال. وعلى التقديرين يذرُ سبحانه الكلَّ ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾﴾ لأنَّ الجبالَ إذا سُوِّيَت، وجُعِل سطحُها مساوياً لسطوح سائر[٢] أجزاء الأرض، فقد جُعِل الكلُّ سطحاً واحداً.

والقاع قيل: السهل، وقال الجوهريُّ: المستوي من الأرض[٣].

ومنه قول ضرار بن الخطاب:

لتكونَنَّ بالبطاحِ قريشٌ   فَقعةَ القاع في أكفِّ الإماء[٤]

وقال ابنُ الأعرابيّ: الأرضُ الملساء لا نبات فيها ولا بناء. وحَكى مكيٌّ أنَّه المكان المنكشف. وقيل: المستوي الصلبُ من الأرض. وقيل: مستنقعُ الماء. وليس بمراد. وجمعه أقوعٌ وأقواعٌ وقيعان.

---

(١) التحميض: الإقلال من الشيء... ويقال: أحمضَ القومُ إحماضاً: إذا أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث والكلام. اللسان (حمض).

(٢) لفظة: سائر. ليست في (م).

(٣) الصحاح (صفصف).

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٧٠، والدر المصون ٨/ ١٠٥.

والصفصف: الأرضُ المستوية الملساء، كأنَّ أجزاءه صفٌّ واحدٌ من كلِّ جهة. وقيل: الأرضُ التي لا نباتَ فيها. وعن ابن عباس ومجاهد جعلُ القاع والصفصف بمعنًى واحد، وهو المستوي الذي لا نباتَ فيه.

وانتصاب «قاعاً» على الحالية من الضمير المنصوب، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «يذر» على تضمين معنى التصيير، و«صفصفاً» إمَّا حالٌ ثانيةٌ، أو بدلٌ من المفعول الثاني.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا﴾ أي: في مقارِّ الجبال، أو في الأرض على ما فُصِّل ﴿عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ كيفيةَ ما سبقَ من القاع الصفصف، أو حالٌ أخرى، أو صفةٌ لـ «قاع»، والرؤية بصريَّة، والخطابُ لكلِّ من يتأتَّى منه، وعلِّقت بالعِوج، وهو بكسر العين: ما لا يُدرك بفتحها، بل بالبصيرة؛ لأنَّ المرادَ به ما خفيَ من الاعوجاج حتَّى احتاجَ إثباتُه إلى المساحة الهندسيَّة المدرَكة بالعقل، فأُلحق بما هو عقليٌّ صرف، فأطلق عليه ذلك لذلك، وهذا بخلاف العَوَج بفتح العين، فإنَّه ما يدرك بفتحِها، كعوج الحائط والعود، وبهذا فرَّق بينهما في «الجمهرةِ»[1] وغيرها.

واختار المرزوقيُّ في «شرح الفصيح» أنَّه لا فرقَ بينهما.

وقال أبو عمرو: يقال لعدم الاستقامة المعنويَّة والحسية: عِوَج، بالكسر، وأمَّا العَوج بالفتح، فمصدرُ عوج، وصح الواو فيه لأنَّه منقوصٌ من اعوج. ولمَّا صحَّ في الفعل صحَّ في المصدر أيضاً.

والأَمْتُ: النُّتُوُّ، والتنكير فيهما للتقليل.

وعن ابن عباس «عوجاً»: ميلاً، «ولا أمتاً» أثراً مثل الشراك. وفي روايةٍ أخرى عنه: «عوجاً»: وادياً، «ولا أمتاً»: رابيةً.

وعن قتادة: «عوجاً»: صدعاً، «ولا أمتاً»: أكمة.

وقيل: الأمتُ: الشقوق في الأرض.

---

(١) جمهرة اللغة ٢/ ١٠٥.

وقال الزجَّاجُ: هو أن يَغْلُظَ مكانٌ ويَدِقَّ مكان[1].

وقيل: الأمتُ في الآية العوج في السماء تجاهَ الهواء، والعوج في الأرض مختصٌّ بالعَرْض.

وتقديم الجارِّ والمجرور على المفعول الصريح لما مرَّ غير مرَّة.

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم إذ تنسفُ الجبال، على إضافة يوم إلى وقت النسف، من إضافة العامِّ إلى الخاصِّ، فلا يلزمُ أنْ يكون للزمان ظرفٌ، وإن كان لا مانعَ عنه عند من عرَّفه بمتجدِّدٍ يقدَّرُ به متجدِّدٌ آخر.

وقيل: هو من إضافة المسمَّى إلى الاسم، كما قيل في: شهر رمضان.

وهو ظرفٌ لقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾. وقيل: بدلٌ من «يوم القيامة»، فالعامل فيه هو العامل فيه. وفيه الفصل الكثير وفواتُ ارتباط «يتَّبعون» بما قبله. وعليه فقوله تعالى: «ويسألونك» إلخ استطرادٌ معترضٌ، وما بعده استئنافٌ، وضمير «يتبعون» للناس.

والمراد بـ «الداعي» داعي الله عزَّ وجلَّ إلى المحشر، وهو إسرافيل عليه السلام، يضع الصور في فيه، ويدعو الناسَ عند النفخة الثانية قائماً على صخرة بيت المقدس، ويقول: أيَّتُها العظامُ البالية، والجلودُ المتمزِّقة، واللحومُ المتفرِّقة، هلمُّوا إلى العرض إلى الرحمن، فيُقبلون من كلِّ صوبٍ إلى صوته.

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظيِّ قال: يحشرُ الله تعالى الناسَ يوم القيامة في ظلمةٍ، تطوى السماء، وتتناثر النجوم، ويذهب الشمس والقمر، وينادي منادٍ فيتبع الناس الصوتَ يؤمُّونه، فذلك قوله تعالى: «يومئذ يتَّبعون الداعي» إلخ[2].

وقال عليُّ بن عيسى: «الداعي» هنا الرسول الذي كان يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ. والأول أصح.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٧٧.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٠٨.

﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: للداعي، على معنى لا يعوجُّ له مدعوّ ولا يعدلُ عنه، وهذا كما يقال: لا عصيانَ له، أي: لا يَعصي، ولا ظلم له، أي: لا يَظلم. وأصله أنَّ اختصاصَ الفعل بمتعلّقه ثابتٌ كما هو بالفاعل.

وقيل: أي: لا عوجَ لدعائه، فلا يميلُ إلى ناسٍ دون ناس، بل يسمعُ جميعَهم، وحكي ذلك عن أبي مسلم.

وقيل: هو على القلب، أي: لا عوجَ لهم عنه، بل يأتونَ مقبلين إليه متَّبعين لصوته من غير انحراف، وحكي ذلك عن الجبائيّ. وليس بشيء.

والجملة في موضع الحال من الداعي، أو مستأنفةٌ، كما قال أبو البقاء[(١)].

وقيل: ضمير «له» للمصدر، والجملة في موضع الصفة له، أي: اتِّباعاً لا عوجَ له، أي: مستقيماً.

وقال ابن عطية: يحتملُ أن يكون المعنى: لا شكَّ فيه، ولا يخالف وجوده خبره[(٢)].

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: خفيت لمهابته تعالى وشدَّة هول المطلع. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سكنت. والخشوع مجازٌ في ذلك، وقيل: لا مجاز، والكلام على حذف مضاف، أي: أصحابُ الأصوات. وليس بذاك.

﴿فَلَا تَسْمَعُ﴾ خطابٌ لكلِّ من يصحُّ منه السمع ﴿إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي: صوتاً خفيّاً خافتاً، كما قال أبو عبيدة[(٣)].

وعن مجاهد: هو الكلام الخفي. ويؤيِّده قراءة أبيّ: «فلا ينطقونَ إلَّا همساً»[(٤)].

وعن ابن عباس: هو تحريك الشفاه بغير نطق. واستُبعِد بأنَّ ذلك ممَّا يُرى لا ممَّا يسمع.

---

(١) إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٢٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٦٤.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٣٠.

(٤) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٤٢٧، وتفسير القرطبي ١٤/ ١٤٠، والبحر المحيط ٦/ ٢٨٠.

وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه خفقُ الأقدام. وروي ذلك عن عكرمة وابن جبير والحسن، واختاره الفرَّاء والزَّجَّاج[1]، ومنه قول الشاعر:

وهنَّ يمشينَ بنا هَمِيسا[2]

وذكر أنَّه يُقَال للأسد: الهموس، لخفاء وطئه، فالمعنى: سكنتْ أصواتُهم، وانقطعت كلماتُهم، فلم يُسمع منهم إلَّا خفقُ أقدامهم ونقلُها إلى المحشر.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يقعُ ما ذُكر من الأمور الهائلة، وهو ظرف لقوله تعالى: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، وجُوِّزَ أنْ يكونَ بدلاً من «يوم القيامة»، أو من «يومئذٍ يتبعون». والمرادُ: لا تنفع الشفاعة من الشفعاء أحداً ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾ في الشفاعة ﴿لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فالاستثناءُ من أعمِّ المفاعيل. و«من» مفعولُ «تنفع» وهو[3] عبارةٌ عن المشفوع له، و«له» متعلِّقٌ بمقدَّرٍ متعلِّق بـ «أذن». وفي «البحر»[4] أنَّ اللامَ للتعليل، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي: ورضيَ لأجلِه قولَ الشافع وفي شأنه، أو: رضيَ قول الشافع لأجله وفي شأنه، فالمراد بالقول على التقديرين قول الشافع.

وجُوِّزَ فيه أيضاً أنْ لا يكون للتعليل، والمعنى: ورضيَ قولاً كائناً له، فالمراد بالقول قول المشفوع، وهو ـ على ما روي عن ابن عباس ـ لا إله إلا الله. وحاصلُ المعنى عليه: لا تنفعُ الشفاعةُ أحداً إلَّا من أذن له الرحمن في أنْ يُشفَعَ له وكان مؤمناً. والمراد على كلِّ تقدير أنَّه لا تنفعُ الشفاعةُ أحداً إلَّا من ذُكِر، وأمَّا من عداه فلا تكادُ تنفعه، وإن فُرِضَ صدورُها عن الشفعاء المتصدِّين للشفاعة للناس، كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. وجُوِّزَ في «البحر» و«الدر المصون»[5] أنْ لا يقدَّر مفعولٌ لـ «تنفع» تنزيلاً له منزلةَ اللازم، والاستثناءُ من «شفاعة»، و«من» في محلِّ رفعٍ على البدليَّة منها بتقدير مضاف، أو في محل نصبٍ على الاستثناء بتقديره أيضاً، أي: إلَّا شفاعة من أذن.. إلخ، و«من» عبارةٌ عن

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٢، وللزجاج ٣/ ٣٧٧.
(٢) سلف ٣/ ١٣٩.
(٣) في (م): وهي.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٨٠.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٨٠، والدر المصون ٨/ ١٠٧.

الشافع، والاستثناءُ متَّصلٌ، ويجوزُ أنْ يكون منقطعاً إذا لم يقدَّر شيءٌ، ومحلُّ «من» حينئذٍ نصبٌ على لغة الحجاز، ورفعٌ على لغة تميم.

واعترضَ كونُ الاستثناء من «الشفاعة» على تقدير المضاف بأنَّ حُكمَ الشفاعةِ ممَّن لم يؤذنْ له أن لا يملكَها ولا تَصدر عنه أصلاً، ومعنى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]: لا يؤذنُ له[1] فيها، لا أنَّها لا تقبلُ بعد وقوعها، فالإخبارُ عنها بمجرَّد عدم نفعها للمشفوع له ربَّما يُوهم إمكانَ صدورها عمَّن[2] لم يؤذن له، مع إخلاله بمقتضى مقام تهويلِ اليوم.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الظاهرُ أنَّ ضميرَ الجمع عائدٌ على الخلق المحشورين، وهم متَّبعو الداعي.

وقيل: على الناس، لا بقيد الحشر والاتباع. وقيل: على الملائكة عليهم السلام. وهو خلافُ الظاهر جدًّا.

والمراد من الموصولين ـ على ما قيل ـ ما تقدَّمهم من الأحوال، وما بعدهم ممَّا يستقبلونَه، أو بالعكس، أو أمور الدنيا وأمور الآخرة، أو بالعكس، أو ما يدركونه وما لا يدركونه، وقد مرَّ الكلام في ذلك.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ أي: لا يحيطُ علمُهم بمعلوماته تعالى، فـ «علماً» تمييزٌ محوَّلٌ عن الفاعل، وضمير «به» لله تعالى، والكلام على تقدير مضاف.

وقيل: المراد: لا يحيط علمُهم بذاته سبحانه، أي: من حيثُ اتصافُه بصفات الكمال التي من جملتها العلمُ الشامل. ويقتضي صحَّةَ أنْ يقال: علمتُ الله تعالى، إذ المنفيُّ العلم على طريق الإحاطة.

وقال الجبائيُّ: الضميرُ لمجموع الموصولين، فإنَّهم لا يعلمون جميع ما ذُكِر، ولا تفصيلَ ما علموا منه.

وجوَّزَ أنْ يكونَ لأحدِ الموصولين، لا على التعيين.

---

(١) في (م): لها.

(٢) في الأصل و(م): حين. والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٤٣، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ أي: ذلَّت وخضعت خضوعَ العُناة، أي: الأسارى. والمراد بـ «الوجوه» إمَّا الذوات، وإمَّا الأعضاء المعلومة، وتخصيصها بالذكر؛ لأنَّها أشرفُ الأعضاء الظاهرة، وآثارُ الذلِّ أوَّلُ ما تظهرُ فيها. و«أل» فيها للعهد، أو عوضٌ عن المضاف إليه، أي: وجوه المجرمين، فتكون الآيةُ نظيرَ قوله تعالى: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك:٢٧] واختار ذلك الزمخشريُّ[1]، وجعلَ قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ اعتراضاً، ووضعَ الموصولَ موضعَ ضميرِهم، ليكون أبلغ.

وقيل: الوجوهُ: الأشراف، أي: عظماء الكفرة؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الهيبة، ولصوقُ الذلَّةِ بهم أولى، و«الظلمُ» الشرك، وجملة «وقد خاب» إلخ حالٌ، والرابطُ الواو، لا معترضةٌ؛ لأنَّها في مقابلة «وهو مؤمن» فيما بعد. انتهى.

قال صاحب «الكشف»: الظاهر مع الزمخشريّ، والتقابلُ المعنويُّ كافٍ، فإنَّ الاعتراضَ لا يتقاعد عن الحال. انتهى.

وأنت تعلمُ أنَّ تفسيرَ الظلم بالشرك ممَّا لا يختصُّ بتفسير الوجوه بالأشراف، وجَعْلِ الجملة حالاً، بل يكون على الوجه الأول أيضاً بناءً على أنَّ المراد بالمجرمين الكفَّار.

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال في قوله تعالى: «وقد خاب» إلخ: خسرَ من أشركَ بالله تعالى ولم يتب.

وقال غيرُ واحدٍ: الظاهرُ أنَّ «أل» للاستغراق، أي: خضعت واستسلمت جميعُ الوجوه. وقوله تعالى: «وقد خاب» إلخ يحتملُ الاستئناف والحاليَّة، والمراد بالموصول إمَّا المشركون، وإمَّا ما يعمُّهم وغيرَهم من العصاة، وخيبةُ كلِّ حاملٍ بقدر ما حمل من الظلم، فخيبة المشرك دائمةٌ، وخيبةُ المؤمن العاصي مقيَّدةٌ بوقت العقوبة إنْ عوقب.

وقد تقدَّم لك معنى «الحيُّ القيوم» في آية الكرسي.

والظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قسيمٌ لقوله سبحانه:

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٥٤.

«وعنتِ الوجوهُ» إلى آخر ما تقدَّم، ولقولِه عزَّ وجلَّ: «وقد خابَ من حمل ظلماً» على هذا كما صرَّح به ابنُ عطيَّة[1] وغيره، أي: ومن يعمل بعضَ الصالحات، أو بعضاً من الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: بما يجبُ الإيمان به. والجملةُ في موضع الحال، والتقييد بذلك؛ لأنَّ الإيمان شرطٌ في صحَّة الطاعات وقَبول الحسنات.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي: منع ثوابٍ مستحَقٍّ بموجب الوعد ﴿وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ ولا منعَ بعضٍ منه، تقول العرب: هضمتَ حقِّي، أي: نقصت منه، ومنه: هضيم الكَشْحَيْن، أي: ضامرُهما، وهُضِم الطعام تلاشى في المعدة.

روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة أنَّ المعنى: فلا يخافُ أنْ يُظلم فيزادَ في سيئاته، ولا أنْ يُهضَم فينقصَ من حسناته. والأوَّلُ مرويٌّ عن ابن زيد.

وقيل: الكلامُ على حذف مضاف، أي: فلا يَخافُ جزاءَ ظلم وهضم، إذ لم يصدر عنه ظلمٌ ولا هضمُ حقِّ أحدٍ حتى يخاف ذلك، أو أنَّه أُريد من الظلم والهضم جزاؤهما مجازاً.

ولعلَّ المرادَ ـ على ما قيل ـ نفيُ الخوف عنه من ذلك من حيثُ إيمانُه وعملُه بعض الصالحات، ويتضمَّن ذلك نفي أن يكون العملُ الصالح مع الإيمان ظلماً أو هضماً.

وقيل: المرادُ أنَّ من يعمل ذلك وهو مؤمنٌ هذا شأنه؛ لصونِ الله تعالى إيَّاه عن الظلم أو الهضم، ولأنَّه لا يعتدُّ بالعمل الصالح معه، فلا يَردُ ما قيل: إنَّه لا يلزمُ من الإيمان وبعض العمل أنْ لا يظلمَ غيره ويهضمَ حقه.

ولا يخفى عليك أنَّ القولَ بحذف المضاف والتجوُّزِ في هذه الآية في غاية البعد، وما قيل من الاعتراض قويٌّ، وما أجيبَ به كما ترى، ثم إنَّ ظاهرَ كلام الجوهريِّ أنه لا فرقَ بين الظلم والهضم[2]، وظاهرُ الآية قاضٍ بالفرق بينهما[3]، وكذا قول المتوكِّل الليثيِّ:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٦٥.

(٢) انظر الصحاح (هضم).

(٣) لفظة: بينهما. ليست في (م).

إنَّ الأذلَّـة والـلـئـامَ لـمـعـشـرٌ   مـولاهـم الـمـتـهـضِّـمُ الـمـظـلـومُ[1]

وممَّن صرَّح به الماورديُّ حيث قال: الفرقُ بينهما أنَّ الظلمَ منعُ الحقِّ كلِّه، والهضمَ مَنْعُ بعضه[2].

وقرأ ابنُ كثير وابنُ محيصن وحميد: «فلا يَخَفْ» على النهي[3].

قال الطيبيُّ: قراءةُ الجمهور توافقُ قوله تعالى: «وقد خاب» إلخ من حيثُ الإخبارُ، وأبلغُ من القراءة الأخرى من حيث الاستمرارُ، والأخرى أبلغُ من حيث إنَّها لا تقبلُ التردُّد في الإخبار.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطفٌ على «كذلك نقصُّ»، والإشارةُ إلى إنزال ما سبقَ من الآيات المتضمِّنة للوعيد، المنبئةِ عمَّا سيقع من أحوال القيامة وأهوالها، أي: مثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن كلَّه، وهو تشبيهٌ لإنزال الكلِّ بإنزال الجزء، والمراد أنَّه على نمطٍ واحد، وإضمارُه من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه، وكونه مركوزاً في العقول، حاضراً في الأذهان ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ليفهمه العربُ، ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدالِّ على كونه خارجاً عن[4] طوقِ الآدميين، نازلاً من ربِّ العالمين.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: كرَّرنا فيه بعضَ الوعيد، أو بعضاً من الوعيد. والجملةُ عطفٌ على جملة «أنزلناه»، وجَعْلُها حالاً قيداً للإنزال خلافُ الظاهر جدّاً.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المفعول محذوف، وتقدَّم الكلام في «لعلّ». والمراد: لعلَّهم يتَّقون الكفرَ والمعاصيَ بالفعل. ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ أي: عظةً واعتباراً مؤدِّياً في الآخرة إلى الاتِّقاء. وكأنَّه لمَّا كانت التقوى هي المطلوبة بالذات منهم أسندَ

---

(١) البيت في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦٨٤، وفيه: معاشرُ. بدل: لمعشر. والمتوكل الليثي عدَّه ابن سلام في الطبقة السابعة من الإسلاميين، وقال: يكنى أبا جهمة، كان كوفيّاً، وكان في عصر معاوية.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٢٨.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٨١، وقراءة ابن كثير في التيسير ص ١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢.

(٤) في الأصل: من. والمثبت من (م) وهو موافق لما في تفسير أبي السعود ٦/ ٤٤، والكلام منه.

فعلها إليهم، ولمَّا لم يكن الذكرُ كذلك غيَّرَ الأسلوبَ إلى ما سمعت، كذا قيل.

وقيل: المراد بالتقوى مَلَكَتُها، وأسندت إليهم؛ لأنَّها ملكةٌ نفسانيَّةٌ تناسبُ الإسناد لمن قامت به، وبالذكرِ العظةُ الحاصلة من استماع القرآن، المثبطةُ عن المعاصي، ولمَّا كانت أمراً يتجدَّدُ بسببِ[1] استماعه ناسبَ الإسنادَ إليه، ووصفَه بالحدوث المناسبِ لتجدُّد الألفاظِ المسموعة.

ولا يخفى بُعْدُ تفسير التقوى بمَلَكَتها، على أنَّ في القلب من التعليل شيئاً.

وفي «البحر»: أسند ترجِّي التقوى إليهم؛ لأنَّ التقوى عبارةٌ عن انتفاءِ فعل القبيح، وذلك استمرارٌ على العدم الأصليِّ، وأسند ترجِّي إحداث الذكر للقرآن؛ لأنَّ ذلك أمرٌ حَدَثَ بعد أن لم يكن[2]. انتهى. وهو مأخوذٌ من كلام الإمام[3]. وفي قوله: لأنَّ التقوى.. إلى آخره. على إطلاقه منعٌ ظاهر.

وفسَّر بعضُهم التقوى بترك المعاصي، والذكرَ بفعل الطاعات؛ فإنَّه يطلقُ عليه مجازاً[4]؛ لما بينهما من السببيَّة والمسببيَّة، فكلمةُ «أو» ـ على ما قيل ـ للتنويع. وفي الكلام إشارةٌ إلى أنَّ مدارَ الأمر التخلية والتحلية.

والإمامُ ذكرَ في الآية وجهين:

الأول: أنَّ المعنى: إنَّما أنزلنا القرآن ليصيروا محترزين عن فعل ما لا ينبغي، أو يحدثَ لهم ذكراً يَدعوهم إلى فعل ما ينبغي، فالكلامُ مشيرٌ أيضاً إلى التخلية والتحلية، إلَّا أنه ليسَ فيه ارتكابُ المجاز.

والثاني: أنَّ المعنى: أنزلنا القرآن ليتَّقوا، فإنْ لم يحصل ذلك، فلا أقلَّ من أنْ يحدثَ لهم ذكراً وشرفاً وصيتاً حسناً[5].

ولا يخفى أنَّ هذا ليس بشيء.

---

(١) كذا في (م) وحاشية الشهاب ٦/ ٢٢٩، والكلام منه. وفي الأصل: بحسب.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٨١.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢١.

(٤) في (م): مجاز.

(٥) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢١.

وقال الطيبيُّ: إنَّ المعنى: «وكذلك أنزلناه قرآناً عربيّاً» أي: فصيحاً ناطقاً بالحقِّ ساطعاً بيِّناتُه، لعلَّهم يحدثُ لهم التأمُّل والتفكُّر في آياته وبيِّناتِه الوافية الشافية، فيذعنون ويطيعون، «وصرَّفنا فيه من الوعيد لعلَّهم يتَّقون» العذابَ. ففي الآية لفٌّ من غير ترتيب، وهي على وزانِ قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وعندي كونُ الآية متضمِّنةً للتخلية والتحلية لا يخلو عن حسنٍ، فتأمَّل.

وقرأ الحسن: «أو يحدثْ» بسكون الثاء[(١)].

وقرأ عبدُ الله ومجاهد وأبو حيوة، والحسنُ في رواية، والجحدريُّ وسلام: «أو نحدثْ» بالنون وسكون الثاء[(٢)]، وذلك حملُ وصلٍ على وقفٍ، أو تسكينُ حرف الإعراب استثقالاً لحركته كما قال ابن جنِّي[(٣)]، نحو قول امرىء القيس:

اليومَ أشربُ غيرَ مستحقبٍ إثماً من الله ولا واغلِ[(٤)]

وقول جرير:

سِيْرُوا بني العمِّ فالأهوازُ منزلُكم ونهر تِيْرَى ولا يعرفكم العربُ[(٥)]

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظامٌ له تعالى ولما صرَّف في القرآن من الوعد والوعيد، والأوامر والنواهي وغير ذلك، وتنزيهٌ لذاته المتعالية أنْ لا يكون إنزالُ قرآنه الكريم منتهياً إلى غاية الكماليَّة من تسببُّه لترك من أُنْزِلَ عليهم المعاصي، ولفعلهم الطاعات، وفيه تعجيبٌ واستدعاءٌ للإقبال عليه وعلى تعظيمه.

وفي وصفه تعالى بقوله سبحانه: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أي: المتصرِّف بالأمر والنهي، الحقيقُ بأنْ يُرجَى وعدُه ويخشى وعيده: ما يدلُّ على أنَّ قوارعَ القرآنِ سياساتٌ إلهيَّةٌ، تتضمَّنُ[(٦)] صلاحَ الدارين، لا يحيدُ عنها إلَّا مخذولٌ هالك.

---

(١) المحتسب ٢/ ٥٩، والبحر المحيط ٦/ ٢٨١.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٨١.
(٣) في المحتسب ٢/ ٥٩.
(٤) سلف ١١/ ٤٢١.
(٥) ديوان جرير ١/ ٤٤١، وفيه: فلم تعرفكم.
(٦) في (م): يتضمن.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفةٌ بعد صفةٍ لله تعالى، أي: الثابتُ في ذاته وصفاته عزَّ وجلَّ.

وفسَّره الراغبُ بموجد الشيء على ما تقتضيه الحكمة[1].

وجَوَّزَ غيرُ واحدٍ كونَه صفةً للملك، ومعناه خلافُ الباطل، أي: الحقُّ في ملكيَّته، يستحقُّها سبحانه لذاته.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ القرآنَ وما تضمَّنه من الوعد والوعيد حقٌّ كلُّه، لا يحومُ حولَ حماهُ الباطلُ بوجهٍ، وأنَّ المُحِقَّ من أقبل عليه بشراشره، وأنَّ المبطلَ من أعرضَ عن تدبُّر زواجرِه.

وفيه تمهيدٌ لوصلِ النهي عن العجلةِ به في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: يتمَّ ﴿وَحْيُهُۥ﴾ أي: تبليغُ جبريل عليه السلام إيَّاه، فإنَّ من حقِّ الإقبال ذلك، وكذلك من حقِّ تعظيمه.

وذكر الطيبيُّ أنَّ هذه الجملةَ عطفٌ على قوله تعالى: «فتعالى الله الملكُ الحقُّ» لما فيه من إنشاء التعجُّب، فكأنَّه قيل: حيثُ نُبِّهتَ على عظمةِ جلالةِ المنزِّل، وأُرشدتَ إلى فخامة المنزَّل، فعظِّم جنابَه الملك الحقّ المتصرِّف في الملك والملكوت، وأقبلْ بكُلِّكَ على تحفُّظ كتابه، وتحقُّق مبانيه، ولا تعجل به.

وكان ﷺ إذا أَلْقَى عليه جبريلُ عليه السلام القرآن[2] يتبعه عند تلفُّظ كلِّ حرف وكلِّ كلمةٍ؛ خوفاً أنْ يصعدَ عليه السلام ولم يحفظه ﷺ، فنهيَ عليه الصلاة والسلام عن ذلك، إذ ربَّما يَشغلُ التلفُّظ بكلمةٍ عن سماع ما بعدَها، ونزل عليه أيضاً ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ الآية[3] [القيامة:١٦].

وأُمِر ﷺ باستفاضةِ العلم واستزادته منه سبحانه فقيل: ﴿وَقُل﴾ أي: في نفسك: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ أي: سلِ الله عزَّ وجلَّ بدلَ الاستعجال زيادةَ العلم

(١) المفردات (حق).
(٢) لفظة: القرآن. ليست في الأصل.
(٣) أخرجه البخاري (٤٩٢٩)، ومسلم (٤٤٨) بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

مطلقاً، أو في القرآن؛ فإنَّ تحت كلِّ كلمةٍ بل كلِّ حرفٍ منه أسراراً ورموزاً وعلوماً جمَّةً، وذلك هو الأنفعُ لك.

وقيل: جملة: «ولا تعجل» مستأنفةٌ ذُكرت بعد الإنزال على سبيل الاستطراد.

وقيل: إنَّ ذلك نهيٌ عن تبليغ ما كان مجملاً قبل أن يأتي بيانُه، وليس بذاك؛ فإنَّ تبليغَ المجمل وتلاوتَه قبل البيان ممَّا لا ريبَ في صحَّتِه ومشروعيته. ومثله ما قيل: إنَّه نهيٌ عن الأمر بكتابته قبل أن تُفَسَّر له المعاني، وتَتقرَّر عنده عليه الصلاة والسلام، بل هو دونَه بكثير.

وقيل: إنَّه نهيٌ عن الحكم بما من شأنه أنْ ينزل فيه قرآن، بناءً على ما أخرج جماعةٌ عن الحسن أنَّ امرأةً شكت إلى النبيِّ ﷺ أنَّ زوجها لطمَها، فقال لها: «بينكما القصاص»، فنزلتْ هذه الآية، فوقفَ ﷺ حتى نزل: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1] [النساء: ٣٤].

وقال الماورديُّ: إنَّه نهيٌ عن العجلة بطلب نزوله[2]، وذلك أنَّ أهلَ مكَّة وأسقف نجران قالوا: يا محمد، أَخْبِرنا عن كذا، وقد ضربنا لك أجلاً ثلاثةَ أيام، فأبطأ الوحيُ عليه، وفشت[3] المقالةُ بين اليهود، وزعموا أنَّه عليه الصلاة والسلام قد غُلِبَ، فشقَّ ذلك عليه ﷺ، واستعجل الوحيَ، فنزلت: «ولا تعجل» إلخ. وفي كلا القولين ما لا يخفى.

وقرأ عبد الله والجحدريُّ والحسن وأبو حيوة وسلام ويعقوب والزعفرانيُّ وابن مقسم: «نقضيَ» بنون العظمة مفتوح الياء «وحيَه» بالنصب[4].

وقرأ الأعمشُ كذلك، إلَّا أنَّه سكَّن الياءَ من «نقضيْ»[5]، قال صاحب

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٢٩٩، والطبري ٦/ ٦٨٩، والواحدي في أسباب النزول ص ١٤٥، عن الحسن، وهو مرسل.
(٢) انظر النكت والعيون ٣/ ٤٢٩.
(٣) في الأصل: ونشأت. والمثبت من (م) والبحر المحيط ٦/ ٢٨٢، والكلام منه.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٨٢، وقراءة يعقوب ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٢.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٨٢.

«اللوامح»: وذلك على لغة من لا يرى فتحَ الياء بحال إذا انكسر ما قبلَها وحلَّت طرفاً.

واستدِلَّ بالآية على فضلِ العلم، حيث أُمِرَ ﷺ بطلبِ زيادته، وذكر بعضُهم أنَّه ما أُمِر عليه الصلاة والسلام بطلبِ الزيادة في شيءٍ إلَّا العلم.

وأخرج الترمذيُّ وابن ماجه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهمَّ انفعني بما علَّمتني، وعلِّمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمدُ لله على كلِّ حال»(١).

وأخرج سعيد بن منصور وعبدُ بن حميد عن ابن مسعود أنَّه كان يدعو: اللهمَّ زدني إيماناً وفقهاً ويقيناً وعلماً(٢).

وما هذا إلَّا لزيادة فضل العلم، وفضلُه أظهرُ من أن يذكر، نسألُ الله تعالى أن يرزقنا الزيادَة فيه، ويوفقنا للعمل بما يقتضيه.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ كأنَّه لما مدحَ سبحانه القرآن، وحرَّض على استعمال التؤدة والرفق في أخذه، وعَهِدَ على العزيمة بأمره وتركِ النسيان فيه: ضربَ حديث آدم مثلاً للنسيان وترك العزيمة.

وذكر ابنُ عطية(٣) أنَّ في ذلك مزيدَ تحذيرٍ للنبيِّ ﷺ عن العجلة وعدم التؤدة؛ لئلَّا يقعَ فيما لا ينبغي، كما وقع آدمُ عليه السلام، فالكلام متعلِّقٌ بقوله تعالى: «ولا تعجل بالقرآن» إلخ.

وقال الزمخشريُّ: هو عطف على «صرفنا» عطفَ القصَّة على القصَّة(٤). والتخالفُ فيه إنشاء وخبريَّة لا يضرُّ، مع أنَّ المقصودَ بالعطف جواب القسم. وحاصل المعنى عليه: صرَّفنا الوعيد وكررناه، «لعلَّهم يتَّقون أو يحدث لهم ذكراً»

(١) سنن الترمذي (٣٥٩٩)، وسنن ابن ماجه (٢٥١)، (٣٨٣٣). قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٠٩.
(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٦٦.
(٤) انظر الكشاف ٢/ ٥٥٥.

لكنَّهم لم يلتفتوا لذلك ونسوه، كما لم يلتفت أبوهم إلى الوعيد ونسيَ العهدَ إليه، والفائدةُ في ذلك الإشارةُ إلى أنَّ مخالفتَهم شِنشنةٌ أخزميَّةٌ، وأنَّ أساسَ أمرهم ذلك وعرقهم راسخٌ فيه، وحُكي نحو هذا عن الطبري[1].

وتعقَّبه ابنُ عطية بأنَّه ضعيفٌ؛ لما فيه من الغضاضة مِنْ مقام آدم عليه السلام، حيث جُعلَتْ قصَّتُه مثلاً للجاحدين لآيات الله تعالى، وهو عليه السلام إنَّما وقعَ منه ما وقع بتأويل[2]. انتهى.

والإنصاف يقضي بحسنه فلا تلتفت إلى ما قيل: إنَّ فيه نظراً.

وقال أبو مسلم: إنَّه عطفٌ على قوله تعالى: «كذلك نقصُّ عليك من أنباء ما قد سبق». وليس بذاك. نعم فيه مع ما تقدَّم إنجازُ الموعود في تلك الآية.

واستظهرَ ابنُ عطيَّة فيه أحدَ أمرين؛ التعلُّق بـ «لا تعجل»، وكونَه ابتداء كلام لا تعلُّقَ له بما قبله.

وهذا الأخير ـ وإنْ قدَّمه في كلامه ـ ناشئٌ من ضيق العطن، كما لا يخفى.

والعهد: الوصيَّة، يقال: عهدَ إليه الملك، ووعز إليه، وعزمَ عليه، وتقدَّم إليه، إذا أمره ووصَّاه، والمعهودُ محذوفٌ يدلُّ عليه ما بعده، واللام واقعةٌ في جوابِ قسمٍ محذوف، أي: وأقسم بالله لقد أمرناه ووصيناه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا الزمان. وقيل: أي: من قبل وجودِ هؤلاء المخالفين. وعن الحسن: أي: من قبل إنزال القرآن. وقيل: أي: من قبل أنْ يأكلَ من الشجرة.

﴿فَنَسِىَ﴾ العهدَ ولم يهتمَّ به، ولم يشتغل بحفظه، حتى غفل عنه. والعتابُ جاء من ترك الاهتمام، ومثله عليه السلام يعاتبُ على مثل ذلك.

وعن ابن عباس[3] والحسن أنَّ المرادَ: فترك ما وصِّيَ به من الاحتراس عن الشجرة، وأكل ثمرتها. فالنسيانُ مجازٌ عن الترك.

---

(١) في تفسيره ١٦/ ١٨١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٦٦.

(٣) جاء فوقها في الأصل: ورواه عنه جماعة. اهـ منه.

والفاء للتعقيب، وهو عرفيٌّ. وقيل: فصيحة، أي: لم يهتمَّ به «فنسي»، والمفعول محذوفٌ وهو ما أشرنا إليه.

وقيل: المنسيُّ الوعيد بخروج الجنَّة إن أكل. وقيل: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه:١١٧].

وقيل: الاستدلالُ على أنَّ النهيَ عن الجنس دون الشخص، والظاهرُ ما أشرنا إليه.

وقرأ اليمانيُّ والأعمش: «فَنُسِّي» بضمِّ النون وتشديد السين[1]، أي: نسَّاه الشيطان.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ تصميم رأيٍ وثبات قَدَمٍ في الأمور، وهذا جارٍ على القولين في النسيان.

نعم قيل: إنَّه أنسبُ بالثاني وأوفق بسياق الآية على ما ذكرنا أولاً.

ورَوى جماعةٌ عن ابن عباس وقتادة أنَّ المعنى: لم نجد له صبراً عن أكل الشجرة.

وعن ابن زيد وجماعة أنَّ المعنى: لم نجد له عزماً على الذنب، فإنَّه عليه السلام أخطأ ولم يتعمَّد، وهو قولُ من قال: إنَّ النسيان على حقيقته. وجاءَ عن ابن عباس ما يقتضيه، فقد أخرج الزبير بن بكار في «الموفقيات» عنه قال: قال لي عمرُ ﷺ: إنَّ صاحبكم هذا ـ يعني عليَّ بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه ـ إنْ وليَ زهد، ولكني أخشَى عجبَ نفسِه أن يذهبَ به، قلت: يا أمير المؤمنين، إنَّ صاحبنا من قد علمت، والله ما نقول: إنَّه غيَّر ولا بدَّل ولا أسخطَ رسول الله ﷺ أيَّامَ صحبته، فقال: ولا في بنت أبي جهل وهو يريد أن يخطبَها على فاطمة، قلت: قال الله تعالى في معصية آدم عليه السلام: «ولم نجد له عزماً»، فصاحبُنا لم يعزم على إسخاط رسول الله ﷺ، ولكن الخواطر التي لا يقدرُ أحدٌ دفعَها عن نفسه، وربَّما كانت من الفقيه في دين الله تعالى، العالمِ بأمر الله سبحانه، فإذا نُبِّه عليها

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٨٤، وذكرها في القراءات الشاذة ص ٩٠ عن اليماني فقط.

رجعَ وأناب، فقال: يا ابن عباس من ظنَّ أنَّه يَرِدُ بحورَكم فيغوص فيها معكم حتى يبلغَ قعرها، فقد ظنَّ عجزاً[1].

لكن لا يخفى عليك أنَّ هذا التفسيرَ غيرُ متبادر ولا كثير المناسبة للمقام. وحاصل «لم نجد» إلخ عليه أنَّه نسي، فيتكرَّر مع ما قبله.

ثم إنَّ «لم نجد» إنْ كان من الوجود العلميّ، فـ «له عزماً» مفعولاه، قُدِّم الثاني على الأول لكونه ظرفاً، وإن كان من الوجود المقابل للعدم ـ كما اختاره بعضهم ـ فـ «له» متعلِّقٌ به، قُدِّم على مفعوله لما مرَّ غيرَ مرة، أو بمحذوفٍ وقع حالاً من مفعوله المنكَّر، والمعنى على هذا: ولم نصادف له عزماً.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ شروعٌ في بيان المعهود، وكيفيَّة ظهور نسيانه وفقدان عزمه، و«إذ» منصوبٌ على المفعوليَّة بمضمرٍ خوطب به النبيُّ ﷺ، أي: واذكر وقتَ قولنا للملائكة. . إلخ. قيل: وهو معطوفٌ على مقدَّر، أي: اذكر هذا واذكر إذ قلنا، أو من عطف القصَّة على القصة. وأيّاً ما كان، فالمرادُ: اذكر ما وقعَ في ذلك الوقت منَّا ومنه، حتى يتبيَّن لك نسيانُه وفقدان عزمه.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد مرَّ الكلامُ فيه مراراً ﴿أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ جملةٌ مستأنفةٌ وقعت جواباً عن سؤالٍ نشأ عن الإخبار بعدم سجوده، كأنَّه قيل: فما باله لم يسجد؟ فقيل: «أبى». والإباء: الامتناعُ أو شدَّتُه، ومفعولُه إمَّا محذوفٌ، أي: أبى السجودَ، كما في قوله تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١] أو غير منويٍّ رأساً بتنزيله منزلةَ اللازم، أي: فعل الإباء وأظهره.

﴿فَقُلْنَا﴾ عقيب ذلك اعتناءً بنصح آدم عليه السلام: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي رأيتَ منه ما رأيت ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أعيد اللام، لأنَّه لا يُعطَف على الضمير المجرور بدون إعادة الجارِّ عند الجمهور. وقيل: أعيد للدلالة على أنَّ عداوةَ اللعين للزوجة أصالة لا تبعاً. وهو على القول بعدم لزوم إعادة الجارِّ في مثله، كما ذهب إليه ابن مالك: ظاهرٌ، وأمَّا على القول باللزوم، فقد قيل في توجيهه: إنَّ كونَ الشيء لازماً بحسب القاعدة النحوية لا ينافي قصدَ إفادة ما يقتضيه المقام.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٠٩.

وقد صرَّح السيد السند في «شرح المفتاح» في توجيهِ جعل صاحب «المفتاح» تنكير التمييز في قوله تعالى: (وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) لإفادة المبالغة[1] بما يرشد إلى ذلك. ولا يخفى ما في التعبير بـ «زوجك» دون حواء من مزيد التنفير والتحذير منه.

واختلف في سبب العداوة، فقيل: مجرد الحسد، وهو ـ لعنه الله تعالى ولعن أتباعَه ـ أوَّلُ من حسد.

وقيل: كونه شيخاً جاهلاً، وكون آدم عليه السلام شابّاً عالماً، والشيخُ الجاهل يكون أبداً عدوّاً للشابِّ العالم، بل الجاهلُ مطلقاً عدوٌّ للعالم كذلك، كما قيل:

والجاهلون لأهل العلم أعداء[2]

وقيل: تنافي الأصلين، فإنَّ اللعين خُلِق من نارٍ، وآدمُ عليه السلام خُلِق من طينٍ وحواءُ خلقت منه. وقد ذكر جميعَ ذلك الإمامُ الرازيّ[3].

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ أي: فلا يكونَنَّ سبباً لإخراجكما ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهذا كنايةٌ عن نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبَّبُ الشيطانُ في إخراجهما منها، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف:٢]. والفاء لترتيب موجب النهي على عداوته لهما، أو على الإخبار بها.

﴿فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ أي: فتتعب بمتاعب الدنيا، وهي لا تكادُ تحصى، ولا يسلمُ منها أحدٌ، وإسنادُ ذلك إليه عليه السلام خاصَّةً بعد تعليق الإخراج الموجب له بهما معاً؛ لأصالته في الأمور، واستلزام تعبه لتعبها، مع ما في ذلك من مراعاة الفواصل على أتمِّ وجه.

وقيل: المرادُ بالشقاء التعبُ في تحصيل مبادي المعاش، وهو من وظائف الرجال، وأيِّد هذا بما أخرجَه عبد بن حميد وابن عساكر وجماعةٌ عن سعيد بن جبير قال: إنَّ آدم عليه السلام لما أُهبِطَ من الجنَّة استقبلَه ثورٌ أبلق، فقيل له: اعمل عليه، فجعلَ يمسحُ العرق عن جبينه ويقول: هذا ما وعدني ربِّي «فلا يخرجنكما من

---

(١) مفتاح العلوم ص ٢٨٦.

(٢) عجز بيت منسوب للإمام علي، وسلف عند التفسير الإشاري للآية: ١١٢ من سورة الأنعام.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٤ـ١٢٥.

الجنة فتشقى» ثمَّ نادى: حواء حواء، أنت عملت بي هذا، فليس من ولد آدم أحدٌ يعمل على ثور إلَّا قال: حو، دخلت عليهم من قِبل آدم عليه السلام[1].

وكذا أيِّد بالآية بعد، وفيه تأمُّل. ولعلَّ القولَ بالعموم أولى.

و«تشقى» يحتملُ أنْ يكون منصوباً بإضمار «أنْ» في جواب النهي، ويحتملُ أن يكون مرفوعاً على الاستئناف، بتقدير: فأنت تشقى، واستبعدَ هذا بأنَّه ليس المرادُ الإخبارَ عنه بالشقاء، بل المرادُ: إن وقع الإخراجُ حصل ذلك.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ أي: ولا تصيبُك الشمسُ، يقال: ضحا كسعى، وضحِيَ كرضي، ضَحْواً وضُحِيّاً إذا أصابته الشمس، ويقال: ضَحا ضَحْواً وضُحُوّاً وضُحِيّاً، إذا برز لها، وأنشدوا قولَ عمر[2] بن أبي ربيعة:

رأتْ رجلاً أيْمَا إذا الشمسُ عارضَتْ فيضحى وأمَّا بالعشيِّ فيَخْصَرُ[3]

وفسَّر بعضُهم ما في الآيةِ بذلك، والتفسيرُ الأوَّل مرويٌّ عن عكرمة، وأيّاً ما كان، فالمراد نفي أنْ يكون بلا كِنٍّ[4].

والجملةُ تعليلٌ لما يوجبه النهي، فإنَّ اجتماعَ أسباب الراحة فيها ممَّا يوجب المبالغةَ في الاهتمام بتحصيل مبادي البقاء فيها، والجدَّ في الانتهاء عمَّا يؤدِّي إلى الخروج عنها.

والعدول عن التصريح بأنَّ له عليه السلام فيها تنعُّماً بفنون النعم من المآكل والمشارب، وتمتُّعاً بأصناف الملابس البهيَّة والمساكن المرضيَّة، مع أنَّ فيه من الترغيب في البقاء فيها ما لا يخفى، إلى ما ذُكِر من نفي نقائضِها التي هي الجوعُ والعطش والعري والضحو؛ لتذكيرِ تلك الأمور المنكرة، والتنبيه على ما فيها من أنواع الشِّقوة التي حَذَّره سبحانه عنها، ليبالغ في التحامي عن السبب المؤدِّي إليها.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣١٠، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٨٢، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/ ٤١١-٤١٢.

(٢) في الأصل و(م): عمرو. والمثبت هو الصواب.

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٩٤ بتحقيق: محيي الدين عبد الحميد، وفيه: أمَّا. بدل: أيما.

(٤) الكِنُّ: وِقاء كلِّ شيء وستره. القاموس (كنن).

ومعنى «أن لا تجوع» إلخ: أنْ لا يصيبه شيءٌ من الأمور الأربعة أصلاً، فإنَّ الشبع والريَّ والكسوة والكِنَّ قد تحصلُ بعد عروض أضدادها، وليس الأمر فيها كذلك، بل كلَّما وقع فيها شهوةٌ وميلٌ إلى شيءٍ من الأمور المذكورة تمتَّع به من غير أنْ يصل إلى حدِّ الضرورة، على أنَّ الترغيبَ قد حصل بما سُوِّغَ له من التمتُّع بجميع ما فيها سوى الشجرة حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، وقد طوى ذكره هاهنا اكتفاءً بذلك، واقتصرَ على ما ذُكر من الترغيب المتضمِّن للترهيب.

وقال بعضهم: إنَّ الاقتصار على ما ذُكر لما وقع في سؤال آدم عليه السلام، فإنَّه روي أنَّه لمَّا أمره سبحانه بسُكْنى الجنة قال: إلهي، ألي فيها ما آكل، ألي فيها ما ألبس، ألي فيها ما أشرب، ألي فيها ما استظلُّ به؟ فأجيبَ بما ذكر. وفي القلب من صحَّة الرواية شيءٌ.

ووجه إفراده عليه السلام بما ذُكر ما مرَّ آنفاً.

وقيل: كونه السائل، وكان الظاهرُ عدمَ الفصل بين الجوع والظمأ، والعريّ والضحو؛ للتجانس والتقارب، إلَّا أنَّه عدلَ عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبةٍ أتمَّ منها؛ وهي أنَّ الجوعَ خلوُّ الباطن، والعريَّ خلوُّ الظاهر، فكأنَّه قيل: لا يخلو باطنُك وظاهرُك عما يهمهما، وجمعَ بين الظمأ المورث حرارةَ الباطن، والبروزِ للشمس وهو الضحوُ المورثُ حرارةَ الظاهر، فكأنَّه قيل: لا يؤلمك حرارةُ الباطن والظاهر، وذلك الوصل الخفيُّ، وهو سرٌّ بديعٌ من أسرار البلاغة.

وفي «الكشف»: إنَّما عدلَ إلى المنزل تنبيهاً على أنَّ الشبع والكسوة أصلان، وأنَّ الأخيرين متمِّمان على الترتيب، فالامتنانُ على هذا الوجه أظهر، ولهذا فرَّق بين القرينتين، فقيل أوَّلاً: «إنَّ لك»، وثانياً: «إنَّك»، وقد ذكر هذا العلامة الطيبيُّ أيضاً، ثمَّ قال: وفي تنسيق المذكورات الأربعة مرتبةً هكذا مقدَّماً ما هو الأهمُّ فالأهمُّ، ثمَّ في جعلها تفصيلاً لمضمون قوله تعالى: «فلا يخرجنَّكما من الجنة فتشقى» وتكريرِ لفظة «فيها»، وإخراجِها في صيغة النفي مكرَّرةَ الأداة = الإيماءُ إلى التعريض بأحوالِ الدنيا، وأنْ لا بدَّ من مقاساتها فيها؛ لأنَّها خلقت لذلك، وأنَّ الجنَّة ما خُلِقت إلَّا للتنعُّم، ولا يتصوَّر فيها غيره.

وفي «الانتصاف» إنَّ في الآية سرّاً بديعاً من البلاغة يسمَّى قطعَ النظير عن النظير، والغرض من ذلك تحقيقُ تعداد هذه النِّعَم، ولو قُرِنَ كلٌّ بشكله لتوهَّم المقرونان نعمةً واحدةً، وقد رمَقَ أهلُ البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً، فقال الكنديُّ الأول[1]:

كـأنّـي لـم أركـب جـواداً لـلـذَّةٍ ولـم أتبطَّـن كـاعـباً ذاتَ خَـلْـخَـالِ
ولـم أسـبأ الـزِّقَّ الـرويَّ ولـم أقُـل لـخـيـلـيَ كُـرِّي كـرةً بـعـد إجـفـالِ

فقطعَ ركوبَ الجواد عن قوله لخيله: كُرِّي كَرَّةً، وقطعَ تبطُّن الكاعب عن ترشُّفِ الكأس مع التناسب، وغرضه أن يعدِّدَ ملاذَّه ومفاخرَه ويكثِّرها، وتبعه الكنديُّ الآخر[2] فقال:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كـأنَّـك في جفنِ الردى وهـو نـائـمُ
تـمرُّ بـك الأبـطـالُ كَـلْـمـى هـزيـمـةً ووجـهُـك ضـحَّـاكٌ[3] وثـغـرُك بـاسـمُ

وقد اعترضَ عليه سيفُ الدولةِ إذْ قطعَ الشيء عن نظيره، فقال له: إنْ كنتُ أخطأتُ بذلك فقد أخطأ امرؤ القيس بقوله، وأنشدَ البيتين السابقين.

وفي الآيـةِ سـرٌّ لـذلـك أيـضاً زائـدٌ عـلـى مـا ذُكـر، وهـو قـصـدُ تـنـاسـبِ الفواصل[4]. اهـ.

وقد يقال في بيتَي الأوَّل: إنَّه جمعَ بين ركوب الخيل للَّذَّةِ والنزهة، وتبطُّن الكاعب للذَّةِ الحاصلةِ فيهما، وجمع بين سبءِ الزِّقِّ وقوله لخيله: كُرِّي؛ لما فيهما من الشجاعة، ثمَّ ما ذُكِر من قصدِ تناسب الفواصل في الآية ظاهرٌ في أنَّه لو عدلَ عن هذا الترتيب لم يحصل ذلك، وهو غير مسلَّم.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: امرؤ القيس. اهـ منه.
والبيتان في ديوانه ص ٣٥، وسلف عند تفسير الآية ١٧ من سورة الأنعام.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: المتنبي. اهـ منه.
والبيتان في ديوانه ٤/١٠١-١٠٢.

(٣) في الديوان والانتصاف: وضاحٌ.

(٤) الانتصاف ٢/٥٥٦-٥٥٧.

وقرأ شيبة ونافع وحفص وابن سعدان: «إنَّك» بكسر الهمزة[1]، وقرأ الجمهور بفتحِها على أنَّ العطف على «أنْ لا تجوع»، وهو في تأويل مصدرٍ اسم لـ «أن».

وصحَّةُ وقوعِ ما صُدِّر بـ «أنْ» المفتوحة اسماً لـ «إن» المكسورة المشاركةِ لها في إفادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبراً لها؛ لما أنَّ المحذورَ ـ وهو اجتماعُ حرفي التحقيق في مادة واحدةٍ ـ غيرُ موجودٍ فيما نحن فيه؛ لاختلاف مناطِ التحقيق فيما في حيِّزهما[2]، بخلاف ما لو وقعت خبراً، فإنَّ اتحاد المناط حينئذٍ ممَّا لا ريب فيه، وبيانه على ما في «إرشاد العقل السليم»: أنَّ كلَّ واحدةٍ من الأداتين موضوعةٌ لتحقيق مضمون الجملة الخبريَّة المنعقدةِ من اسمها وخبرها، ولا يخفى أنَّ مرجعَ خبريَّتها ما فيها من الحكم، وأنَّ مناطه الخبر لا الاسم، فمدلولُ كلٍّ منهما تحقيقُ ثبوت خبرها لاسمها، لا ثبوتُ اسمها في نفسه، فاللازمُ من وقوع الجملة المصدَّرة بالمفتوحة اسماً للمكسورة تحقيقُ ثبوتِ خبرها لتلك الجملة المؤوَّلة بالمصدر، وأمَّا تحقيق ثبوتها في نفسها فهو مدلولُ المفتوحة، فلا يلزم اجتماعُ حَرْفَي التحقيق في مادةٍ واحدةٍ قطعاً، وإنَّما لم يَجُزْ أنْ يقال: إنَّ: أنَّ زيداً قائمٌ، حقٌّ، مع اختلاف المناط، بل شرطوا الفصلَ بالخبر، كقولنا: إنَّ عندي أنَّ زيداً قائمٌ حقٌّ؛ للتجافي عن صورة الاجتماع، والواو العاطفة وإن كانت نائبةً عن المكسورة التي يمتنعُ دخولها على المفتوحة بلا فصلٍ وقائمةً مقامها في إفضاء معناها وإجراء أحكامها على مدخولها، لكنَّها حيثُ لم تكنْ حرفاً موضوعاً للتحقيق لم يلزم من دخولها اجتماعُ حرفي التحقيق أصلاً. فالمعنى: إنَّ لك عدمَ الجوع وعدم العريِّ وعدم الظمأ، خلا أنَّه لم يقتصر على بيان أنَّ الثابتَ له عدمُ الظمأ والضَّحْو مطلقاً، كما فعل مثله في المعطوف عليه، بل قصدَ بيانَ أنَّ الثابتَ له تحقيقُ عدمهما، فوضعَ موضع الحرف المصدريِّ المحض «أن» المفيدة له، كأنه قيل: إنَّ لك فيها عدمَ ظمئك على التحقيق[3]. انتهى.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٨٤، وقراءة شيبة راوية عاصم ونافع في التيسير ص ١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢. وقراءة حفص المتواترة عنه بفتح همزة «أنك» لا بكسرها، والله أعلم.

(٢) في الأصل و(م): حيزها. والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٤٦.

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٤٦-٤٧.

ويحتاجُ عليه إلى بيانِ النكتة في عدم الاقتصار على بيان أنَّ الثابتَ له عدمُ الظمأ مطلقاً، كما فعل مثله في المعطوف عليه، فتأمَّل ولا تغفل.

وقيل: إنَّ الواوَ وإن كانت نائبةً عن «إن» هنا، إلَّا أنَّه يلاحظ بعدها «لك» الموجود بعد «إن» التي نابت عنها، فيكون هناك فاصلٌ ولا يمتنعُ الدخول معه، وهو كما ترى.

ولا يخفى عليك أنَّ العطفَ على قراءة الكسر على «إنَّ» الأولى مع معموليها، لا على اسمها، ولا كلام في ذلك.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أنهى الوسوسةَ إليه، وهي كما قال الراغبُ: الخطرةُ الرديئة؛ وأصلها من الوسواس، وهو صوت الحَلْي، والهمسُ الخفيُّ[1].

وقال الليث: الوسوسة: حديثُ النفس، والفعل وسوس بالبناءِ للفاعل، ويقال: رجل موسوِس بالكسر، والفتحُ لحنٌ.

وذكر غيرُ واحدٍ أنَّ وسوس فعلٌ لازمٌ مأخوذٌ من الوسوسة، وهي حكايةُ صوت، كـ: وَلْولة الثكلى، ووعوعة الذئب، ووقوقة الدجاجة، وإذا عُدِّيَ بـ «إلى» ضُمِّنَ معنى الإنهاء، وإذا جيء باللام بعده، نحو: وسوس له، فهي للبيان، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وقال الزمخشريُّ[2]: للأجل، أي: وسوس لأجله، وكذا إذا كانت بعد نظائر هذا الفعل، نحو قوله:

أَجْرِسْ[3] لها يا ابن أبي كبَّاش فما لها الليلةَ من إنفاشِ[4]

وذكر في «الأساس»[5] وسوس إليه في قسم الحقيقة، وظاهرُه عدم اعتبار التضمين، والكثيرُ على اعتباره.

---

(١) المفردات (وسوس).

(٢) الكشاف ٢/ ٥٥٦.

(٣) جاء فوقها في الأصل: أَحْدُ لها. اهـ منه. انظر لسان العرب (جَرَس).

(٤) لم نهتد لقائله، وهو في تهذيب اللغة ١١/ ٣٧٦ مادة (نفش)، واللسان (جرس) و(نفش)، وتاج العروس (نفش).

(٥) مادة (وسوس).

﴿قَالَ﴾ إمَّا بَدَلٌ من «وسوس»، أو استئنافٌ وقع جواباً عن سؤالٍ نشأ منه، كأنَّه قيل: فما قال له في وسوسته؟ فقيل: قال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ ناداه باسمه ليكونَ أقبلَ عليه، وأمكنَ للاستماع، ثمَّ عرض عليه ما عرضَ على سبيل الاستفهام الذي يُشعِرُ بالنصح.

ومعنى «شجرة الخلد» شجرةٌ مَنْ أكَلَ منها خَلَدَ ولم يمتْ أصلاً، سواءٌ كان على حاله، أو بأنْ يكونَ مَلَكاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وفي «البحر» أنَّ ما حُكيَ هنا مقدَّمٌ على ما حكي في «الأعراف» من قوله تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ إلخ، كأنَّ اللعينَ لمَّا رأى منه عليه السلام نوعَ إصغاءٍ إلى ما عَرَضَ عليه انتقلَ إلى الإخبار والحصر(١). انتهى.

والحقُّ أنه لا جزمَ بما ذُكِر.

﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: لا يفنى، أو لا يصيرُ بالياً خَلِقاً، قيل: إنَّ هذا من لوازم الخلود، فذكره للتأكيد وزيادة الترغيب.

﴿فَأَكَلَا﴾ أي: هو وزوجه ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الشجرة التي سمَّاها اللعين شجرة الخلد ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ قال ابن عباس ﵄: عَرِيَا عن النُّور الذي كان الله تعالى ألبسهُما حتى بدتْ فروجُهما. وفي رواية أخرى عنه أنَّه كان لباسُهما الظُّفْر، فلمَّا أصابا الخطيئةَ نُزِعَ عنهما، وتُرِكت هذه البقايا في أطراف الأصابع، والله تعالى أعلمُ بصحَّة ذلك. ثمَّ إنَّ ما ذُكر يَحتمل أنْ يكونَ عقوبةً للأكل، ويحتمل أنْ يكون مترتباً(٢) عليه لمصلحةٍ أخرى.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ قد مرَّ تفسيره.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بما ذُكر من أكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ ضلَّ عن مطلوبه الذي هو الخلود، أو عن المطلوب منه، وهو تركُ الأكل من الشجرة، أو عن الرشد حيثُ اغترَّ بقول العدوِّ. وقيل: غوى، أي: فسدَ عليه عيشه، ومنه يقال: الغواء لسوء الرضاع.

---

(١) البحر ٦/ ٢٨٥.

(٢) في (م): مرتباً.

وقرىء: «فغَوِيَ» بفتح الغين وكسر الواو وفتح الياء[1]، أي: فبَشِم من كثرة الأكل، من غوى الفصيل: إذا أُتخِمَ من اللبن، وبه فُسِّرت القراءةُ الأخرى، وتعقَّب ذلك الزمخشريُّ فقال: وهذا ـ وإن صحَّ على لغةٍ من يقلبُ الياءَ المكسور ما قبلَها ألفاً، فيقول في فَنِيَ وبَقِيَ: فنا وبقا، بالألف، وهم بنو طيِّيء ـ تفسيرٌ خبيثٌ[2].

وظاهر الآية يدلُّ على أنَّ ما وقعَ من الكبائر، وهو المفهومُ من كلام الإمام[3]، فإن كان صدورُه بعدَ البعثة تعمُّداً من غير نسيانٍ ولا تأويلٍ، أشكلَ على ما اتَّفق عليه المحققون والأئمَّة المتقنون من وجوبِ عصمة الأنبياء عليهم السلام بعدَ البعثة عن صدور مثل ذلك منهم على ذلك الوجه، ولا يكادُ يقول بذلك إلَّا الأزارقةُ من الخوارج، فإنَّهم ـ عليهم ما يستحقُّون ـ جَوَّزُوا الكفرَ عليهم وحاشاهم، فما دونه أولى بالتجويز.

وإن كان صدورُه قبلَ البعثة ـ كما قال به جمعٌ، وقال الإمام[4]: إنَّه مذهبنا ـ فإنْ كان تعمُّداً أشكلَ على قول أكثر المعتزلة والشيعة بعصمتِهم عليهم السلام عن صدورِ مثل ذلك تعمُّداً قبل البعثة أيضاً.

نعم لا إشكال فيه على ما قاله القاضي أبو بكر من أنَّه لا يمتنعُ عقلاً ولا سمعاً أن يصدرَ من النبيِّ عليه السلام قبلَ نبوَّته معصيةٌ مطلقاً، بل لا يمتنعُ عقلاً إرسالُ من أسلمَ بعد كفره، ووافقَه على ذلك ـ كما قال الآمديُّ في «أبكار الأفكار»[5] ـ أكثرُ الأصحاب، وكثيرٌ من المعتزلة.

وإن كان سهواً كما يدلُّ عليه قوله تعالى: «فنسي ولم نجد له عزماً» بناءً على أحد القولين: فيه إشكالٌ على ما نُقِل عن الشيعة من منع صدورِ الكبيرة سهواً قبل البعثة أيضاً، ولا إشكال فيه على ما سمعتَ عن القاضي أبي بكر.

---

(١) أوردها العكبري في إملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٢٨، وأبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢٨٦.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٥٧.
(٣) انظر تفسير الرازي ٢٢/ ١٢٨.
(٤) انظر تفسير الرازي ٣/ ٧-٨ و٢٢/ ١٢٨.
(٥) ٤/ ١٤٣.

وإنْ كان بعد البعثة سهواً أشكلَ أيضاً عند بعضٍ دون بعضٍ، فقد قال عضُد الملَّة في «المواقف»(١): إنَّ الأكثرين جوَّزُوا صدورَ الكبيرة ـ يعني ما عدا الكفر والكذب فيما دلَّت المعجزةُ على صدقهم عليهم السلام فيه ـ سهواً وعلى سبيل الخطأ منهم. وقال العلامة الشريف: المختار خلافه.

وذهبَ كثيرٌ إلى أنَّ ما وقعَ صغيرة، والأمرُ عليه هيِّنٌ، فإنَّ الصغائر الغيرَ المشعرة بالخسَّةِ يجوزُ ـ على ما ذكره العلامةُ الثاني في «شرح العقائد»(٢) ـ صدورها منهم عليهم السلام عمداً بعد البعثة عند الجمهور، خلافاً للجبائيِّ وأتباعه، ويجوز صدورُها سهواً بالاتفاق، لكن المحققون اشترطوا أنْ ينبَّهوا على ذلك فينتهوا عنه.

نعم ذكر في «شرح المقاصد»(٣) عصمتَهم عن صدور ذلك عمداً؛ والأحوطُ ـ نظراً إلى مقام آدم عليه السلام ـ أنْ يقال: إنَّ صدورَ ما ذُكر منه كان قبلَ النبوَّة، وكان سهواً، أو عن تأويل، إلَّا أنَّه عَظُمَ الأمرُ عليه، وعظمَ لديه نظراً إلى علوِّ شأنه ومزيدِ فضل الله تعالى عليه وإحسانه، وقد شاع: حسناتُ الأبرار سيِّئات المقرَّبين(٤)، ومما يدلُّ على استعظامِ ذلك منه لعلوِّ شأنه عليه السلام ما أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن أبي عبد الله المغربيّ قال: تفكَّر إبراهيمُ في شأن آدم عليهما السلام فقال: يا ربّ، خلقتَه بيدك، ونفختَ فيه من روحك، وأسجدتَ له ملائكتك، ثمَّ بذنبٍ واحدٍ ملأتَ أفواهَ الناسِ من ذكر معصيته، فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم أمَا علمتَ أنَّ مخالفة الحبيب على الحبيب شديدة(٥).

وذكر بعضُهم أنَّ في استعظام ذلك منه عليه السلام زجراً بليغاً لأولاده عن أمثاله، وعلى العلات لا ينبغي لأحدٍ أن ينسبَ إليه العصيان اليوم، وأنْ يخبر

(١) ص ٣٥٩.
(٢) شرح العقائد النسفية ص ١٢٧.
(٣) ٥/ ٥١.
(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٢٧٧، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢/ ٦٥ من كلام أبي سعيد الخراز، ونسبه بعضهم للجنيد. انظر تفسير القرطبي ١/ ٤٦٠، ١٤/ ١٥٢، وكشف الخفاء ١/ ٤٢٨.
(٥) شعب الإيمان (٤٨٢).

بذلك، إلَّا أن يكونَ تالياً لما تضمَّن ذلك، أو راوياً له عن رسول الله ﷺ، وأمَّا أنْ يكون مبتدئاً من قِبَلِ نفسه، فلا.

وقد صرَّح القاضي أبو بكر بن العربيّ بعدم جواز نسبة العصيانِ للآباء الأدنين إلينا المماثلين لنا، فكيف يجوز نسبته لأبينا الأقدم[1]، والنبيِّ المقدَّم الأكرم[2]. وارتضى ذلك القرطبيُّ، وادَّعى أنَّ ابتداءَ الإخبار بشيءٍ من صفات الله تعالى المتشابهة، كاليد والإصبع والنزول أولى بالمنع وعدم الجواز[3]. ثم إنَّ ما وقعَ كان في الحقيقة بمحض قضاء الله تعالى وقدره، وإلَّا فقد روي عن أبي أُمامةَ الباهليّ[4] والحسن أنَّ عقلَه عليه السلام مثلُ عقلِ جميع ولده[5]. وعداوةُ إبليس ـ عليه اللعنة ـ له عليه السلام في غاية الظهور، وفي ذلك دليلٌ على أنَّه لا ينفعُ عقلٌ، ولا يغني شيءٌ في جنب تقدير الله تعالى وقضائه.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ أي: اصطفاه سبحانه وقرَّبه إليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها، من اجتبى الشيءَ: جباه لنفسه، أي: جمعه، كقولك: اجتمعته، أو من جَبَى إليَّ كذا فاجتبيته، مثل: جليت عليَّ العروس فاجتليتُها، وأصلُ معنى الكلمة الجمع، فالمجتبى كأنَّه في الأصل[6] مَنْ جُمِعت فيه المحاسن حتى اختارَه غيرُه وقرَّبه.

وفي التعرُّضِ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مزيدُ تشريفٍ له عليه السلام.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: رجعَ عليه بالرحمة وقَبِلَ توبتَه حين تاب، وذلك حين قال هو

---

(١) تحرفت في (م) إلى: للأنبياء الأقدام.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٩.

(٣) تفسير القرطبي ١٤/ ١٥٣.

(٤) المرويُّ عن أبي أمامة أنه قال: لو أن أحلام بني آدم جمعت منذ يوم خلق الله تعالى ذكره آدمَ إلى يوم تقوم الساعة، ووضعت في كفة ميزان، ووضع حلم آدم في الكفة الأخرى، لرجح حلمه بأحلامهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٥ ـ وهذا لفظه ـ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٧/ ٤٤٤، وانظر غرائب القرآن ١٦/ ١٦٦، والدر المنثور ٤/ ٣٠٩.

(٥) أخرجه عن الحسن أبو الشيخ في العظمة (١٠٣٥)، وانظر الدر المنثور ٤/ ٣٠٩.

(٦) قوله: في الأصل. ليس في الأصل.

وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ﴿وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: إلى الثباتِ على التوبة والتمسُّك بما يُرضي المولى سبحانه وتعالى.

وقيل: إلى كيفيَّة التوبة بتعليم الكلمات، والواو لمطلق الجمع، فلا يضرُّ كونُ ذلك قبلَ التوبة عليه.

وقيل: إلى النبوَّة والقيام بما تقتضيه، وقدَّم أبو حيَّان[1] هذا على سائر الاحتمالات التي ذكرَها.

والنيسابوريُّ فسَّر الاجتباءَ بالاختيار للرسالة، وجعل الآية دليلاً على أنَّ ما جرى كان قبل البعثة[2].

ولم يصرِّح سبحانه بنسبةِ العصيان والغواية إلى حوَّاء بأنْ يسندهما إلى ضمير التثنية الذي هو عبارةٌ عنها وعن آدم عليه السلام، كما أسندَ الأكل وما بعدَه إلى ذلك؛ إعراضاً عن مزيد النعي على الحُرَم، وأنَّ الأهمَّ نظراً إلى مساق القصة التصريحُ بما أُسندَ إلى آدم عليه السلام، ويتضمَّنُ ذلك رعايةَ الفواصل، وحيث لم يصرِّح جلَّ وعلا بعصيانها لم يتعرَّض لتوفيقها للتوبة وقَبولها منها.

وقال بعضهم: إنَّه تعالى اكتفى بذكر شأن آدم عليه السلام؛ لما أنَّ حواءَ تبعٌ له في الحكم، ولذا طوى ذكرَ النساء في أكثر مواقع الكتاب والسنة.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من الإخبار بأنَّه تعالى عامَله بما عامَله، كأنَّه قيل: فماذا أمرَه بعد ذلك؟ فقيل: قال له ولزوجته: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ أي: انزلا من الجنَّة إلى الأرض مجتمعين.

وقيل: الخطاب له عليه السلام ولإبليس عليه اللعنة، فإنَّه دخلَ الجنَّة بعد ما قيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤] للوسوسة، وخطابُهما على الأول بقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لما أنَّهما أصلُ الذريَّة ومنشأُ الأولاد، فالتعادي في الحقيقة بين أولادهما، وهذا على عكس مخاطبةِ اليهود ونسبةِ ما فعل آباؤهم

(١) في البحر ٦/ ٢٨٦.
(٢) غرائب القرآن ١٦/ ١٦٥-١٦٦.

إليهم. والجملةُ في موضع الحال، أي: متعادين في أمر المعاش وشهواتِ الأنفس، وعلى الثاني ظاهرٌ؛ لظهور العداوة بين آدم عليه السلام وإبليس عليه اللعنة، وكذا بين ذرِّيَّة آدمَ عليه السلام وذريَّةِ اللعين. ومن هنا قيل: الضميرُ لآدمَ وذرِّيَّته وإبليسَ وذرِّيَّته.

وزعم بعضُهم أنه لآدم وإبليس والحيَّة، والمعوَّل عليه الأول، ويؤيِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ إلخ، أي: بنبيٍّ أرسلُه إليكم، وكتابٍ أنزله عليكم.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ وضع الظاهرَ موضع المضمر مع الإضافة إلى ضميره تعالى؛ لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه.

وأخرج الطبرانيُّ وغيره عن أبي الطفيل أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: «فمن اتبع هُدَيَّ»(١).

﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ في الآخرة.

وفسَّر بعضُهم الهدى بالقرآن؛ لما أخرجَ ابنُ أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم، والحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» من طُرُقٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أجار الله تعالى تابعَ القرآن من أن يضلَّ في الدنيا، أو يشقى في الآخرة، ثم قرأ الآية(٢).

وأخرج جماعةٌ عنه مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ بلفظ: «من اتَّبعَ كتابَ الله هداهُ الله تعالى من الضلالة في الدنيا، ووقَاه سوءَ الحساب يوم القيامة»(٣).

ورُجِّح على العموم بقيام القرينة عليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ بناءً على تفسير الذكر بالقرآن، وكذلك قوله تعالى بعد: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه: ١٢٦].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣١١. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٦٧: رواه الطبراني، وفيه: إسماعيل بن مسلم المكي، وهو ضعيف.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣١١، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ٣٧١-٣٧٢، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣٨١، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٢٩).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٤٦٦)، والكبير (١٢٤٣٧). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٦٧: وفيه أبو شيبة وعمران بن أبي عمران، وكلاهما ضعيف. اهـ. وأخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٦٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٤ عن ابن عباس موقوفاً عليه.

ولمختارِ العموم أن يقول: الذكرُ يقع على القرآن وعلى سائر الكتب الإلهية، وكذا الآياتُ تكون بمعنى الأدلَّة مطلقاً.

وقد فُسِّر الذكرُ أيضاً هنا بالهدى؛ لأنَّه سببُ ذكره تعالى وعبادته سبحانه، فأطلقَ المسبَّب وأريد سببه؛ لوقوعه في المقابلة. وما في الخبر من باب التنصيص على حكم أشرفِ الأفراد المدلولِ عليه بالعموم اعتناءً بشأنه، ثمَّ إنَّ تقييدَ «لا يضلُّ» بقولنا: في الدنيا، «ولا يشقى» بقولنا: في الآخرة، هو الذي يقتضيه الخبر.

وجَوَّز بعضهم العكس، أي: فلا يضلُّ طريقَ الجنَّةِ في الآخرة، ولا يتعبُ في أمر المعيشة في الدنيا، وجَعَلَ الأوَّلَ في مقابلة: «ونحشره يوم القيامة أعمى»، والثاني في مقابلة: «فإنَّ له معيشةً ضنكاً» ثم قال: وتقديمُ حالِ الآخرة على حال الدنيا في المهتدين؛ لأنَّ مطمحَ نظرهم أمرُ آخرتهم؛ بخلاف خلافهم؛ فإنَّ نظرَهم مقصورٌ على دنياهم.

ولا يخفى أنَّ الذي نطقت به الآثارُ هو الأول، وذكرَ بعضهم أنَّه المتبادر. نعم ما ذُكِرَ لا يخلو عن حسنٍ، وإن قيل: فيه تكلُّف[1].

وجَوَّزَ الإمامُ كونَ الأمرين في الآخرة، وكونهما في الدنيا، وذكر أنَّ المراد على الأخير: لا يضلُّ في الدين ولا يشقى بسبب الدين، لا مطلقاً، فإنْ لَحِقَ المنعَّمَ بالهدى شقاءٌ في الدنيا، فبسبب آخر، وذلك لا يضرُّ[2]. اهـ.

والمعوَّل عليه ما سمعت.

والمراد من الإعراض عن الذكر عدمُ الاتِّباع، فكأنَّه قيل: ومن لم يتبع ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: ضيِّقةً شديدةً، وهو مصدر: ضَنُكَ، وكذا ضَناكة، ولذا يوصف به المذكَّر والمؤنَّث، والمفرد والمثنى والمجموع، وقد وُصِف به هنا المؤنَّث باعتبار الأصل.

وقرأ الحسن: «ضَنْكَى» بألف التأنيث، كسَكْرى، وبالإمالة[3]. وهذا التأنيثُ

(١) هو قول الخفاجي في حاشيته ٦/ ٢٣٢.
(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ١٣٠.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٠، والبحر المحيط ٦/ ٢٨٧.

باعتبار تأويله بالوصف. وعن ابن عباس تفسيرُه بالشديد من كلِّ وجه، وأنشد قولَ الشاعر:

والخيلُ قد لَحِقَتْ بِنا في مَأزقٍ ضَنْكٍ نواحيه شديدِ المَقْدَمِ[1]

والمتبادرُ أنَّ تلك المعيشةَ له في الدنيا. ورُوي ذلك عن عطاء وابن جبير، ووجهُ ضيق معيشة الكافر المعرِضِ في الدنيا أنَّه شديدُ الحرص على الدنيا، متهالكٌ على ازديادها، خائفٌ من انتقاصها، غالبٌ عليه الشحُّ بها، حيثُ لا غرضَ له سواها، بخلاف المؤمن الطالبِ للآخرة.

وقيل: الضنكُ مجازٌ عمَّا لا خير فيه، ووصف معيشة الكافر بذلك؛ لأنَّها وبالٌ عليه وزيادةٌ في عذابه يوم القيامة كما دلَّت عليه الآيات، وهو مأخوذٌ ممَّا أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنَّه قال في الآية: يقولُ: كلُّ مالٍ أعطيتُه عبداً من عبادي قلَّ أو كَثُر لا يتَّقيني فيه فلا خيرَ فيه، وهو الضنكُ في المعيشة.

وقيل: المراد من كونها ضنكاً أنَّها سببٌ للضنك يومَ القيامة، فيكون وصفها بالضنك للمبالغة، كأنَّها نفسُ الضنك، كما يقال في السلطان: الموتُ بين شفتيه، يريدون بالموت ما يكون سبباً للموت، كالأمر بالقتل ونحوه، وعن عكرمة ومالك بن دينار ما يشعر بذلك.

وقال بعضهم: إنَّ تلك المعيشة له في القبر بأنْ يُعذَّبَ فيه، وقد رَوى ذلك جماعةٌ عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدريِّ وأبي صالح والربيع والسُّدِّيِّ ومجاهد[2].

وفي «البحر» عن ابن عباس أنَّ الآيةَ نزلتْ في الأسود بن عبد الأسد المخزوميّ، والمراد ضغطة القبر حتى تختلف فيه أضلاعه[3]. وروي ذلك مرفوعاً أيضاً، فقد أخرج ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت» والحكيم الترمذيُّ وأبو يعلى وابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم وابنُ حبَّان وابنُ مردويه عن أبي هريرة قال: قال

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣١١، والإتقان ١/ ٤٠٥.

(٢) انظر الآثار المروية عنهم في الدر المنثور ٤/ ٣١١.

(٣) البحر ٦/ ٢٨٦.

رسول الله ﷺ: «المؤمنُ في قبره في روضةٍ خضراء، ويُرْحَبُ له قبرُه سبعينَ ذراعاً، ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر، هل تدرون فيم أنزلت: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «عذابُ الكافر في قبره، يسلَّط عليه تسعةٌ وتسعون تنّيناً، هل تدرون ما التنين؟ تسعةٌ وتسعونَ حيَّةً، لكلِّ حيَّةٍ سبعةُ رؤوس يخدشونه ويلسعونَه وينفخونَ في جسمه إلى يوم يبعثون»[(١)].

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور ومسدَّد في «مسنده» وعبد بن حميد، والحاكم وصححه والبيهقيُّ في كتاب «عذاب القبر» وجماعةٌ عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾: «عذاب القبر»[(٢)]. ولفظ عبد الرزاق: «يضيق عليه قبرُه حتى تختلفَ أضلاعُه». ولفظُ ابن أبي حاتم: «ضمة القبر»[(٣)]. إلى غير ذلك.

ومن قال: الدنيا ما قبلَ القيامة الكبرى؛ قال: ما يكونُ بعدَ الموت واقعٌ في الدنيا كالذي يكون قبل الموت.

وقال بعضُهم: إنَّها تكونُ يومَ القيامة في جهنم، وأخرجَ ذلك ابن أبي شيبةَ وابنُ المنذر عن الحسن[(٤)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: المعيشةُ الضنك في النار: شوكٌ وزقومٌ وغسلين وضريع، وليس في القبر ولا في الدنيا معيشة، وما المعيشة والحياة إلَّا في الآخرة[(٥)].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣١١، وأخرجه أبو يعلى (٦٦٤٤)، وابن جرير في تفسيره ١٦/ ١٩٨-١٩٩، وابن حِبّان (٣١٢٢)، وأورده ابن كثير ٥/ ٣٢٣ من طريق ابن أبي حاتم، وقال: رفعه منكرٌ جدًّا.

(٢) مصنف عبد الرزاق (٦٧٤١)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٣٨١، وإثبات عذاب القبر للبيهقي (٥٩).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣١١.

(٤) الذي في مطبوع الدر المنثور ٤/ ٣١١: وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن الحسن قال: المعيشة الضنك: خصم. وهي محرفة عن جهنم. والله أعلم.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٣١٢.

ولعلَّ الأخبارَ السابقة لم تبلغ هذا القائل، أو لم تصحَّ عنده، وأنت تعلمُ أنَّها إذا صحَّت فلا مساغَ للعدول عمَّا دلت عليه، وإن لم تصح كان الأولَى القولُ بأنَّها في الدنيا لا في الآخرة؛ لظاهر ذكر قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ إلخ بعد الإخبار بأنَّ له معيشةً ضنكاً.

وقرأت فرقةٌ منهم أبانُ بن تغلب: «ونحشرْه» بإسكان الراء[1]، وخُرِّجَ على أنَّه تخفيفٌ، أو جزمٌ بالعطف على محلِّ «فإنَّ له» إلخ، لأنَّه جوابُ الشرط،كأنَّه قيل: ومن أعرضَ عن ذكري تكنْ له معيشة ضنك ونحشره.. إلخ.

ونقل ابنُ خالويه عن أبان أنَّه قرأ: «ونحشره» بسكون الهاء[2]، على إجراء الوصلِ مُجرى الوقف.

وفي «البحر»: الأحسنُ تخريجُ ذلك على لغة بني كلاب وعقيل، فإنَّهم يسكِّنون مثل هذه الهاء، وقد قُرِئ: «لربهْ لكنود» بإسكان الهاء. وقرأت فرقة: «ويحشره» بالياء[3].

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ الظاهرُ أنَّ المرادَ فاقد البصر، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧].

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ كما مرَّ ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ أي: في الدنيا، كما هو الظاهر، ولعلَّ هذا باعتبار أكثر أفراد من أعرضَ؛ لأنَّ من أفراده من كان أكمهَ في الدنيا، والظاهر أنَّ هذا سؤالٌ عن السبب الذي استحقَّ به الحشرَ أعمى؛ لأنَّه جَهِل، أو ظَنَّ أنْ لا ذنبَ له يستحقُّ به ذلك.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى في جوابه: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا﴾ الكاف مقحمةٌ، كما في: مثلك لا يبخل، و«ذلك» إشارةٌ إلى مصدر «أتتك»، أي: مثل ذلك الإتيان البديع أتتك الآياتُ الواضحةُ النيِّرة. وعند الزمخشريِّ لا إقحام، وذلك إشارةٌ إلى حشره أعمى، أي: مثل ذلك الفعل فعلت أنت[4]. وقوله تعالى: «أتتك» إلخ جوابُ

(١) المحتسب ٢/ ٦٠، والبحر المحيط ٦/ ٢٨٧.

(٢) القراءات الشاذة ص ٩٠، والبحر المحيط ٦/ ٢٨٧.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٢٨٧.

(٤) الكشاف ٢/ ٥٥٨.

سؤالٍ مقدَّر، كأنه قيل: يا ربِّ ما فعلت أنا؟ فقيل: أتتك آياتنا ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أي: تركتَها تركَ المنسيِّ الذي لا يُذكر أصلاً، والمراد: فعميتَ عنها، إلا أنَّه وضعَ المسبَّب موضعَ السبب، لأنَّ من عَمِيَ عن شيءٍ نسيَه وتركه.

والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إلى النسيان المفهوم من «نسيتها»، والكاف على ظاهرها، أي: مثل ذلك النسيان الذي كنتَ فعلتَه في الدنيا ﴿الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾﴾ أي: تتركُ في العمى جزاءً وفاقاً.

وقيل: الكاف بمعنى اللام الأجليَّة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨] أي: ولأجل ذلك النسيان الصادرِ منك تُنْسى.

وهذا التركُ يبقى إلى ما شاء الله تعالى، ثمَّ يُزَال العمى عنه، فيرى أهوالَ القيامة، ويشاهدُ النار، كما قال سبحانه: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ الآية [الكهف:٥٣]، ويكون ذلك له عذاباً فوق العذاب، وكذا البكم والصمم يزيلهما الله تعالى عنهم، كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨].

وفي روايةٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الكافرَ يُحشَر أولاً بصيراً، ثمَّ يعمى، فيكونُ الإخبارُ بأنَّه قد كان بصيراً إخباراً عمَّا كان عليه في أول حشره. والظاهرُ أنَّ ذلك العمى يزولُ أيضاً.

وعن عكرمة أنَّه لا يرى شيئاً إلَّا النار. ولعلَّ ذلك أيضاً في بعض أجزاءِ ذلك اليوم، وإلَّا فكيفَ يقرأ كتابَه.

وروي عن مجاهد ومقاتل والضحاك وأبي صالح، وهي رواية عن ابن عباس أيضاً: أنَّ المعنى نحشُره يومَ القيامة أعمى عن الحُجَّة، أي: لا حُجَّة له يهتدي بها. وهو مرادُ من قال: أعمى القلب والبصيرة. واختار ذلك إبراهيم بن عرفة[1] وقال: كلما ذكَر الله سبحانه في كتابه العمى فذمَّه، فإنَّما يُراد به عمى القلب، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

---

(١) هو أبو عبد الله النحوي العلامة الإخباري، المشهور بـ: نفطويه، له كتاب غريب القرآن، والمقنع في النحو وغيرها. توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة. سير أعلام النبلاء ١٥/ ٧٥، وبغية الوعاة ١/ ٤٢٨.

وعلى هذا فالمرادُ بقوله: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾: وقد كنت عالماً بحجَّتي بصيراً بها، أحاجُّ عن نفسي في الدنيا، ومنه يعلم اندفاعُ ما قاله ابنُ عطية في ردِّ من حَمَلَ العمى على عمى البصيرة من أنه لو كانَ كذلك لم يحسّ الكافر به؛ لأنَّه كان في الدنيا أعمى البصيرة، وماتَ وهو كذلك[1].

وحاصل الجواب عليه: إني حشرتُك أعمى القلب لا تهتدي إلى ما يُنجيك من الحجَّة؛ لأنك تركتَ في الدنيا آياتي وحُججي، وكما تركت ذلك تُتْرَكُ على هذا العمى أبداً.

وقيل: المرادُ بـ «أعمى» متحيِّراً لا يدَري ما يَصنعُ من الحيل في دفع العذاب، كالأعمى الذي يتحيَّر في دفع ما لا يراه.

وليس في الآية دليلٌ ـ كما يتوهم ـ على عدِّ نسيانِ القرآن أو آيةٍ منه كبيرةً، كما ذهب إليه الإمام الرافعيُّ، ويشعرُ كلام الإمام النوويّ في «الروضة»[2] باختيارِه؛ لأنَّ المرادَ بنسيان الآيات بعد القول بشمولها آيات القرآن = تركُها وعدمُ الإيمان بها. ومن عدَّ نسيانَ شيءٍ من القرآن كبيرةً أراد بالنسيان معناه الحقيقيَّ.

نعم تجوَّز أبو شامة شيخُ النوويِّ، فحملَ النسيانَ في الأحاديث الواردة في ذمِّ نسيان شيءٍ من القرآنِ على تركِ العمل به.

وتحقيقُ هذه المسألة، وأنَّ كونَ النسيان بالمعنى الأوَّل كبيرةً عند من قال به مشروطٌ ـ كما قال الجلال البلقينيُّ والزركشيُّ وغيرهما ـ بما إذا كان عن تكاسلٍ وتهاونٍ = يُطلَبُ من محلِّه، وكذا تحقيقُ حالِ الأحاديث الواردة في ذلك.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلف: «أعمى» بالإمالة في الموضعين؛ لأنَّه من ذواتِ الياء[3]. وأمال أبو عمرو في الأوَّل فقط[4]؛ لكونه جديراً بالتغيير؛ لكونه رأسَ الآية ومحلَّ الوقف.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٦٨.

(٢) في أول كتاب الشهادات ص ١٩٥٨، طبعة دار ابن حزم.

(٣) التيسير ص ٤٦، والنشر ٢/ ٣٥.

(٤) انظر التيسير ص ٤٨.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشهوات ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بل كذَّبها وأعرضَ عنها. والمراد تشبيهُ الجزاء العامِّ بالجزاء الخاص.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ على الإطلاق، أو عذابُ النار ﴿أَشَدُّ﴾ من عذاب الأولى ﴿وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: أكثر بقاءً منه، أو أشدُّ وأبقى من ذلك من عذاب القبر، أو منهما ومن الحشر على العمى.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لتقرير ما قبلَه من قوله تعالى: «وكذلك نجزي» الآية. والهمزةُ للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقام.

واستعمالُ الهداية باللام؛ إمَّا لتنزيلها منزلةَ اللازم، فلا حاجةَ إلى المفعول، أو لأنَّها بمعنى التبيين والمفعولُ الثاني محذوف، وأياً ما كان فالفاعلُ ضميرُه تعالى، وضمير «لهم» للمشركين المعاصرينَ لرسول الله ﷺ. والمعنى: أَغَفِلُوا فلم يفعل الله تعالى لهم الهداية، أو: فلم يبيِّن عزَّ وجلَّ لهم العبر.

وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ إمَّا بيانٌ بطريق الالتفاتِ لتلك الهداية، أو كالتفسير للمفعول المحذوف.

وقيل: فاعلُ «يهد» ضميره ﷺ.

وقيل: ضمير الإهلاك المفهوم من قوله تعالى: «كم أهلكنا»، والجملةُ مفسِّرةٌ له.

وقيل: الفاعلُ محذوفٌ، أي: النظر والاعتبار، ونُسِبَ ذلك إلى المبرِّد. وفيه حذفُ الفاعل، وهو لا يجوزُ عند البصريين.

وقال الزمخشريُّ: الفاعلُ جملةُ «كم أهلكنا» إلخ[١]. ووقوعُ الجملة فاعلاً مذهبٌ كوفيّ، والجمهور على خلافه، لكن رُجِّح ذلك هنا بأنَّ التعليل فيما بعدُ يقتضيه.

ورُجِّحَ كونُ الفاعل ضميرَه تعالى شأنه بأنَّه قد قرأ فرقةٌ منهم ابن عباس والسلميُّ: «أفلم نهد» بالنون[٢].

---

(١) الكشاف ٢/٥٥٨.

(٢) تفسير القرطبي ١٤/١٥٩، والبحر المحيط ٦/٢٨٨.

واختار بعضُهم عليه كونَ الفعل منزَّلاً منزلةَ اللازم، وجملة «كم أهلكنا» بياناً لتلك الهداية.

وبعضٌ آخرُ كونَه متعدِّياً، والمفعولُ مضمونُ الجملة، أي: أفلم يبيِّن الله تعالى لهم مضمون هذا الكلام. وقيل: الجملةُ سادَّةٌ مسدَّ المفعول، والفعل معلَّق عنها. وتُعقِّب بأن «كم» هنا خبرية، وهي لا تعلّق عن العمل، وإنما التي تعلّق عنه «كم» الاستفهاميَّة، على ما نصَّ عليه أبو حيان في «البحر»[1]، لكن أنت تعلمُ أنَّه إذا كان مدارُ التعليق الصدارة، كما هو الظاهر، فقد صرَّح ابنُ هشام بأنَّ لكلٍّ من «كم» الاستفهامية، و«كم» الخبرية ما ذكر، وردَّ في «المغني» قولَ ابن عصفور: إنَّ «كم» في الآية فاعلُ «يهد» بأنَّ لها الصدر، ثم قال: وقولُه: إنَّ ذلك جاءَ على لغةٍ رديئةٍ حكاها الأخفش عن بعضهم أنَّه يقول: ملكتَ كم عبيد، فيخرجُها عن الصدريَّة = خطأٌ عظيمٌ إذْ خرَّجَ كلام الله تعالى شأنه على هذه اللغة[2]. انتهى.

وهو ظاهرٌ في أنَّه قائلٌ بأنَّ «كم» هنا خبريَّة، ولها الصدرُ.

نعم نقل الحوفيُّ عن بعضهم أنَّه ردَّ القائل بالفاعليَّة بأنَّها استفهاميَّةٌ لا يعملُ ما قبلَها فيها، والظاهرُ خبريَّتُها، وهي مفعولٌ مقدَّمٌ لـ «أهلكنا».

و﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً لمميِّزها، أي: كم قرنٍ كائنٍ من القرون ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ حال من «القرون» أو من مفعول «أهلكنا» أي: أهلكناهم، وهم في حال أمنٍ وتقلُّبٍ في ديارهم.

واختار في «البحر»[3] كونه حالاً من الضمير في «لهم» مؤكِّداً للإنكار، والعامل فيه «يهد»، أي: أفلم يهدِ للمشركين حالَ كونهم ماشين في مساكن من أهلكنا من القرون السالفة من أصحاب الحجر وثمود وقوم لوط مشاهدين لآثارِ هلاكهم إذا سافروا إلى الشام وغيره.

وتوهَّم بعضُهم أنَّ الجملة في موضع الصفة لـ «القرون». وليس كذلك.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٨٩.

(٢) مغني اللبيب ص ٢٤٤.

(٣) ٦/ ٢٨٩.

وقرأ ابن السميفع: «يُمَشُّون» بالتشديد والبناء للمفعول(١)، أي: يمكَّنون في المشي.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ تعليلٌ للإنكار، وتقريرٌ للهداية مع عدم اهتدائهم. «وذلك» إشارةٌ إلى مضمون قوله تعالى: «كم أهلكنا» إلخ، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعدِ منزلته وعلوِّ شأنه في بابه.

﴿لَآيَاتٍ﴾ كثيرةً عظيمة، ظاهرات الدلالة على الحقّ.

وجُوِّزَ أن تكون كلمة «في» تجريديَّةً، كما قيل في قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

﴿لِأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ أي: لذوي العقول الناهية عن القبائح، التي من أقبحها ما يتعاطاه هؤلاء المُنْكَرُ عليهم، من الكفرِ بآيات الله تعالى، والتعامي عنها، وغير ذلك من فنون المعاصي.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان حكمةِ عدم وقوع ما يُشعِر به قوله تعالى: «أفلم يهد لهم» الآية من أنْ يصيبهم مثل ما أصابَ القرون المهلكَة.

والكلمةُ السابقةُ هي العِدَةُ بتأخير عذاب الاستئصال عن هذه الأمَّة، إمَّا إكراماً للنبيِّ ﷺ، كما يشعرُ به التعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، [الأنفال:٣٣] أو لأنَّ من نسلِهم من يؤمنُ، أو لحكمةٍ أخرى الله تعالى أعلمُ بها، أي: لولا الكلمةُ السابقةُ والعِدَةُ بتأخير العذاب ﴿لَكَانَ﴾ أي: عقابُ جناياتهم ﴿لِزَامًا﴾ أي: لازماً لهؤلاء الكفرة بحيثُ لا يتأخَّر عن جناياتهم ساعةً لزومَ ما نزل بأضرابهم من القرون السالفة.

واللزام إمَّا مصدر لازم، كالخصام، وصفَ به للمبالغة، أو اسمُ آلة، كحِزام وركاب، والوصف به للمبالغة أيضاً، كلزاز خصمٍ، بمعنى: ملحٌّ على خصمه.

وجَوَّزَ أبو البقاء كونَه جمعَ لازم، كقيام جمع قائم(٢). وهو خلاف الظاهر.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٠، والبحر المحيط ٦/ ٢٨٩.
(٢) الإملاء ٢/ ١٢٩.

﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ عطفٌ على «كلمة» كما أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة والسُّدِّي[(١)]. أي: لولا العِدَةُ بتأخير عذابهم والأجلُ المسمى لأعمارِهم لما تأخَّر عذابُهم أصلاً. وفصله عمَّا عُطِف عليه؛ للمسارعة إلى بيان جواب «لولا»، والإشعارِ باستقلال كلٍّ منهما بنفي لزومِ العذاب، ومراعاةِ فواصل الآي الكريمة.

وقيل: أي: ولولا أجلٌ مسمّى لعذابهم، وهو يوم القيامة.

وتُعقِّبَ بأنَّه يتَّحدُ حينئذٍ بالكلمة السابقة، فلا يصحُّ إدراجُ استقلال كلٍّ منهما بالنفي في عداد نكت الفصل.

وأُجيبَ بأنَّه لا يلزمُ من تأخير العذاب عن الدنيا أنْ يكونَ له وقتٌ لا يتأخَّر عنه ولا يتخلَّف، فلا مانعَ من الاستقلال.

وأخرجَ ابن المنذر عن مجاهد أنَّ الأجلَ المسمَّى هي الكلمة التي سبقت[(٢)].

وقيل: الأجل المسمَّى للعذاب هو يومُ بدر. وتُعقِّبَ بأنَّه ينافي كون الكلمة هي العِدَةَ بتأخير عذاب هذه الأمة. وأجيبَ بأنَّ المراد من ذلك العذاب هو عذابُ الاستئصال، ولم يقع يومَ بدر.

وجوَّز الزمخشريُّ كونَ العطف على المستكنِّ في «كان» العائدِ إلى الأخذ العاجلِ المفهومِ من السياق، تنزيلاً للفصل بالخبرِ منزلةَ التأكيد، أي: لكان الأخذُ العاجل والأجلُ المسمى لازمين لهم كدأب عادٍ وثمودَ وأضرابهم. ولم ينفرد الأجلُ المسمَّى دون الأخذِ العاجل[(٣)].

وأنت تعلمُ أنَّ هذا لا يتسنَّى إذا كان «لزاماً» اسمَ آلة؛ للزوم التثنية حينئذٍ.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: إذا كان الأمرُ على ما ذُكرَ من أنَّ تأخيرَ عذابهم ليس بإهمال، بل إمهال، وأنَّه لازمٌ لهم البتة «فاصبر على ما يقولون» من كلمات الكفر، فإنَّ عِلْمَه ﷺ بأنَّهم معذَّبون لا محالةَ ممَّا يسلِّيه ويَحملُه على الصبر.

والمراد به عدمُ الاضطراب، لا ترك القتال حتى تكونَ الآية منسوخة.

---

(١) انظر الدر المنثور ٤/ ٣١٢.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣١٢.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٥٨-٥٥٩.

﴿وَسَبِّحْ﴾ ملتبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صلِّ وأنتَ حامدٌ لربِّك عزَّ وجلَّ الذي يبلغك إلى كمالك على هدايته وتوفيقه سبحانه ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ أي: صلاة المغرب، والظاهر أنَّ الظرف متعلِّق بـ «سبِّح».

وقد أخرج تفسير التسبيح في هذين الوقتين بما ذُكِرَ الطبرانيُّ وابنُ عساكر وابنُ مردويه عن جرير مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ[١].

وأخرج الحاكمُ عن فَضالة بن وهب الليثيِّ أنَّ النبيّ عليه الصلاة والسلام قال له: «حافظ على العصرين»، قلت: وما العصران؟ قال: «صلاةٌ قبل طلوع الشمس وقبلَ غروبها»[٢].

وقيل: المراد بالتسبيح قبلَ غروبها صلاتا الظهر والعصر؛ لأنَّ وقت كلٍّ منهما قبل غروبها وبعدَ زوالها، وجمعُهما لمناسبة قوله تعالى: «قبل طلوع الشمس»، وأنت تعلم أنَّ «قبل الغروب» وإنْ كان باعتبار معناه اللغوي صادقاً على وقت الظهر ووقت العصر، إلَّا أنَّ الاستعمالَ الشائع فيه وقتُ العصر.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ أي: من ساعاته، جمع إِنْي وإِنو، بالياء والواو وكسر الهمزة، وإِنَى، بالكسر والقصر، و«أناء» بالفتح والمد، ولم يشتهر اشتهارَ الثلاثة الأُوَل، وذكرَه من يُوثَق به من المفسِّرين.

---

(١) الدر المنثور ٤/٣١٢. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٠١٤)، والكبير (٢٢٨٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤١/٢٤٨. وفيها تفسير: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ بصلاة العصر. وهو الصواب.

وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/٦٧، وقال: رواه الطبراني، وفيه يحيى بن سعيد العطار، وهو ضعيف.

وأورده أيضاً ٧/١١٢ وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه داود بن الزبرقان. وهو متروك.

وأخرج البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) - واللفظ له - عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني العصر والفجر، ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ﴾.

(٢) المستدرك ١/٢٠، ١٩٩، ٣/٦٢٨. وأخرجه أيضاً أبو داود (٤٢٨).

وقال الراغب في «مفرداته»: قال الله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب:٥٣]، أي: وقته، والإنا[1] إذا كُسِر أوَّله قُصِر، وإذا فُتِحَ مدَّ، نحو قول الحطيئة:

وآنيتُ العشاءَ إلى سُهيلٍ أو الشِّعرى فطالَ بي الأناءُ[2]

ثم قال: ويقال: آنيت الشيء إيناءً، أي: أخَّرته عن أوانه، وتأنَّيت: تأخَّرت. اهـ.

وفي «المصباح»: آنيتُه بالفتح والمدّ: أخَّرته، والاسم: أناء، بوزن سلام[3].

قيل: منصوبٌ على الظرفية بمضمر، وقوله سبحانه: ﴿فَسَبِّحْ﴾ عطفٌ عليه، أي: قم بعضَ آناء الليل، فسبِّح. وهوكما ترى.

وقيل: منصوبٌ بـ «سبِّح» على نسق ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠].

والفاء على الأول عاطفةٌ، وعلى الثاني مفسِّرة.

وقيل: إنَّه معمول «فسبّح»، والفاء زائدةٌ، فائدتُها الدلالة على لزوم ما بعدها لما قبلها.

وذكر الخفاجيُّ أنَّه معمولٌ لما ذكر من غير حاجةٍ لدعوى زيادة الفاء؛ لأنَّها لا تمنع عملَ ما بعدَها فيما قبلها، كما صرَّح به النحاة[4].

والمراد من التسبيح في بعض آناء الليل صلاةُ المغرب وصلاةُ العشاء، وللاعتناء بشأنهما لم يكتف في الأمر بفعلهما بالفعل السابق بأنْ يعطِف «من آناء الليل» على أحد الظرفين السابقين من غير ذكر «فسبح»، وللاهتمام بشأن «آناء الليل» وامتيازِها على سائر الأوقات بأمور خاصِّيَّةٍ وعاميَّة قدَّم ذكرَها على الأمر، ولم يسلك بها مسلكَ ما تقدَّم.

---

(١) في الأصل و(م): الاناه. والمثبت من المفردات (أنا).
(٢) ديوان الحطيئة ص ٩٨.
(٣) المصباح المنير (أنى).
(٤) حاشية الخفاجي ٦/ ٢٣٤.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ عطفٌ على محلِّ قوله سبحانه: «من آناء الليل»، وقيل: على قوله عزَّ وجلَّ: «قبل طلوع».

والمرادُ من التسبيح أطرافَ النهار ـ على ما أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن قتادة ـ صلاة الظهر(١). واختاره الجبائيُّ.

ووجهُ إطلاق الطرف على وقتها بأنه نهايةُ النصفِ الأوَّل من النهار وبدايةُ النصفِ الأخير منه، وجمعه باعتبار النصفين، أو لأنَّ تعريفَ النهار للجنس الشامل لكلِّ نهار، فيكون الجمع باعتبارِ تعدُّد النهار، وأنَّ لكلٍّ طرفاً، كذا قيل.

وأُورِدَ على ذلك أنَّ البدايةَ والنهايةَ فيه ليست على وتيرةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ كونَ ذلك نهايةً باعتبار أنَّ النصفَ الأوَّل انتهى عنده، وهو خارجٌ عنه، وبدايةً باعتبار أنَّ النصفَ الثاني ابتدأ منه، وهو داخلٌ فيه.

ولا شكَّ في بُعْدِ كون الجمع بمثل هذا الاعتبار، على أنَّه لابدَّ مع ذلك من القول بأنَّ أقلَّ الجمع اثنان، وأيضاً إن اطلاقَ الطرف على طرفِ أحد نصفيه تكلُّفٌ، فإنَّه ليس طرفاً له، بل لنصفه.

وقيل: هذا تكريرٌ لصلاتي الصبح والمغرب؛ إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزيَّةٍ، والمراد بالنهار ما بينَ طلوع الشمس وغروبها، وبالطرفِ ما يلاصقُ أوَّل الشيء وآخرَه، والإتيانُ بلفظ الجمع مع أنَّ المراد اثنان لأمنِ اللبس، إذ النهارُ ليس له إلَّا طرفان، ونظيرُه قول العجاج:

وَمَهْمَهَيْنِ فَدْفَدَيْنِ(٢) مَرْتَيْنْ
ظَهْراهُما مثلُ ظُهورِ التُّرْسَيْنْ(٣)

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٢١١، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في تفسيره ٢/٢١.

(٢) كذا في حاشية الشهاب ٦/٢٣٥، وعنه نقل المصنف، وهي رواية من روايات الرجز كما ذكر البغدادي في الخزانة ٧/٥٣٩، والرواية الأخرى التي جاءت في مصادر تخريج البيت: قَذَفين.
قال ابن يعيش في شرح المفصل ٤/١٥٦: القَذَف بالفتح: البعيد.

(٣) نسب الرجز للعجاج في حاشية الشهاب ٦/٢٣٥. واختلفت المصادر في نسبته، فنسبه =

والمرجَّح المشاكلةُ لآناءِ الليل، واختارَ هذا من أدخلَ الظهرَ فيما قبلَ الغروب.

وفيه أنَّ الطَّرَفَ حقيقةٌ فيما ينتهي به الشيء، وهو منه، ويطلقُ على أوَّله وآخره، وإطلاقُه على الملاصق المذكور ليسَ بحقيقة.

وأجيب بأنَّه سائغٌ شائعٌ، وإنْ لم يكن حقيقةً.

وجُوِّزَ أنْ يكونَ تكريراً لصلَاتي الصبح والعصر، ويراد بالنهار: ما بينَ طلوع الفجر وغروب الشمس، وبالطرف: الأولُ والآخرُ بحسب العرف، وإذا أريدَ بالنهار ما بين طلوع الشمس وغروبها يبعدُ هذا التجويز، إذْ لا يكونُ الطرفان حينئذٍ على وتيرةٍ واحدةٍ.

وقيل: هو أمرٌ بالتطوُّع في الساعات الأخيرة للنهار، وفيه صرفُ الأمر عن ظاهره، مع أنَّ في كون الساعات الأخيرة للنهار زمنَ تطوُّعٍ بالصلاة كلاماً لا يخفى على الفقيه.

وقال أبو حيان: الظاهرُ أنَّ قولَه تعالى: «وسبِّح بحمد ربِّك» أمرٌ بالتسبيح مقروناً بالحمد، وحينئذٍ إمَّا أنْ يراد اللفظ، أي: قل: سبحانَ الله والحمد لله، أو يراد المعنى، أي: نزِّهه سبحانه عن السوء وأثْنِ عليه بالجميل(١).

وفي خبرٍ ذكره ابن عطية: «من سبَّح عندَ غروب الشمس سبعينَ تسبيحةً غَربتْ بذنوبه»(٢).

= سيبويه في الكتاب ٢/ ٤٨، والبطليوسي في الحلل ص ٣٦٤، وابن يعيش في شرح المفصل ٤/ ١٥٦، والبغدادي في الخزانة ٧/ ٥٣٩ ـ وصححه ـ لخطام المجاشعي.
ونسبه سيبويه أيضاً في الكتاب ٣/ ٦٢٢، وابن الشجري ١/ ١٦ لهميان بن قحافة. وهو بلا نسبة في البيان والتبيين ١/ ١٥٦، ومعاني القرآن للزجاج ٢/ ١٣٧، والمخصص ٩/ ٧.
قال الشهاب الخفاجي: المهمه: المفازة البعيدة، والفدفد: الأرض المستوية، والمرت: ما لا نبات ولا ماء فيه. وهو المراد بقوله: ظهراهما إلخ. والمراد: وصف نفسه بالجراءة على الأسفار، وأنه يعرف القفار بوصفها له مرةً واحدة.

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٩٠.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٧٠، وذكره أيضاً أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢٩٠. ولم أقف على هذا الخبر مسنداً.

وقال أبو مسلم: لا يبعدُ حمل ذلك على التنزيه والإجلال، والمعنى: اشتغلْ بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات.

وعلى ذلك حمله أيضاً العزُّ بن عبد السلام، وجعلَ الباء في قوله سبحانَه: «بحمد ربِّك» للآلة. وقال: إنَّ ذلك لتعيين سلبِ صفات النقص؛ لأنَّ من سَلَبَ شيئاً فقد أثبتَ ضدَّه، وأضدادُ صفاتِ النقص صفاتُ الكمال، فمن نزَّهه سبحانَه، فقد أثبتَ صفات الكمال. وجَوَّز في إضافة الحمد إلى الربِّ أنْ تكونَ من إضافة المصدر إلى الفاعل، أو من إضافة المصدر إلى المفعول، أو من إضافة الاختصاص؛ بأنْ يكونَ الحمدُ بمعنى المحامد؛ ثم استحسَن الأوَّل؛ لأنَّ الحمدَ الحقَّ الكامل حمدُ الله تعالى نفسَه.

والمتبادَرُ جعلُ الباء للملابسة، والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول.

واختار الإمامُ حملَ التسبيح على التنزيه من الشرك، وقال: إنَّه أقربُ إلى الظاهر وإلى ما تقدَّم ذكرُه؛ لأنَّه سبحانَه صبَّره أولاً على ما يقولون من التكذيب وإظهار الكفر والشرك، والذي يليقُ بذلك أنْ يؤمر بتنزيهه تعالى عن قولهم، حتى يكون مُظهِراً لذلك وداعياً إليه[1].

واعترضَ بأنَّه لا وجهَ حينئذٍ لتخصيص هذه الأوقات بالذكر.

وأجيبَ بأنَّ المرادَ بذكرها الدلالةُ على الدوام، كما في قوله تعالى: ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] مع أنَّ لبعض الأوقاتِ مزيَّةً لأمرٍ لا يعلمُه إلَّا الله تعالى.

ورُدَّ بأنَّه يأباه «من» التبعيضية في قوله سبحانه: «من آناء الليل»، على أنَّ هذه الدلالة يكفيها أنْ يقال قبل طلوع الشمس وبعده؛ لتناوله الليل والنهار، فالزيادةُ تدلُّ على أنَّ المرادَ خصوصيَّةُ الوقت، ولا يخفى أنَّ قولَه سبحانه: «من آناء الليل» متعلِّق بـ «سبح» الثاني، فليكن الأوَّل للتعميم، والثاني لتخصيص البعض اعتناءً به.

نعم يَرِدُ أنَّ التنزيهَ عن الشرك لا معنى لتخصيصه إلَّا إذا أريد به قولُ: سبحان الله، مراداً به التنزيه عن الشرك.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٣٤.

وقيل: يجوزُ أنْ يكون المراد بالتسبيح ما هو الظاهرُ منه، ويكونَ المرادُ من الحمد الصلاة، والظرفُ متعلِّقٌ به، فتكون حكمة التخصيص ظاهرةً، كذا في «الحواشي الشهابية»(١).

وقد عُورض ما قاله الإمام بأنَّ الأنسبَ بالأمر بالصبرِ الأمرُ بالصلاة؛ ليكون ذلك إرشاداً لما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وأيضاً الأمرُ الآتي أوفقُ بحمل الأمر بالتسبيح على الأمرِ بالصلاة، وقد علمتَ أنَّ الآثار تقتضي ذلك، ثمَّ إنَّه يجوزُ أنْ يُراد بالطرف طائفةٌ من الشيء، فإنَّه أحدُ معانيه، كما في «الصحاح» و«القاموس»(٢)، وإذا كان تعريفُ النهار للجنس على هذا لم يبقَ الكلامُ فيما روي عن قتادة(٣) كما كان، فتدبَّر.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ١٣٠﴾ قيل: هو متعلِّق بـ «سبِّح» أي: سبِّح في هذه الأوقات رجاءَ أنْ تنالَ عنده تعالى ما تُرضي به نفسَك من الثواب.

واستُدِلَّ به على عدم الوجوب على الله تعالى.

وجُوِّزَ أنْ يكون متعلِّقاً بالأمر بالصبر والأمر بالصلاة، والمراد: «لعلك ترضى» في الدنيا بحصول الظَّفَر، وانتشار أمر الدعوة، ونحو ذلك.

وقرأ أبو حيوة وطلحة والكسائي وأبو بكر وأبان وعصمة، وأبو عمارة عن حفص، وأبو زيد عن المفضل، وأبو عبيد ومحمد بن عيسى الأصفهاني: «تُرْضى»(٤) على صيغة البناء للمفعول من أرضى، أي: يرضيك ربُّك.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تُطِل نظرهما بطريق الرغبة والميل ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ من زخارف الدنيا كالبنين والأموال والمنازل والملابس والمطاعم ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً من الكفرة، وهو مفعولُ «متَّعنا» قُدِّم عليه الجارُّ والمجرور للاعتناء به، و«من» بيانية.

---

(١) ٦/ ٢٣٤.

(٢) مادة (طرف).

(٣) في تفسير «أطراف النهار» بصلاة الظهر.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٨٣، وقراءة الكسائي وأبي بكر في التيسير ص ١٥٣، والنشر ٢/ ٣٢٢. وقراءة حفص المتواترة عنه كقراءة الجمهور: «تَرْضى».

وجُوِّزَ أنْ يكون حالاً من ضمير «به»، و«من» تبعيضيَّة مفعولُ «متَّعنا»، أو متعلِّقة بمحذوفٍ وقعَ صفةً لمفعوله المحذوف، أي: لا تمدَّنَّ عينيك إلى الذي متعنا به ـ وهو أصنافٌ وأنواع ـ بعضَهم، أو بعضاً كائناً منهم.

والمراد ـ على ما قيل ـ: استمرَّ على ترك ذلك.

وقيل: الخطابُ له عليه الصلاة والسلام، والمراد أمَّتُه؛ لأنَّه ﷺ كانَ أبعدَ شيءٍ عن إطالة النظر إلى زينة الدنيا وزخارفها، وأعلقَ بما عند الله عزَّ وجلَّ من كلِّ أحدٍ، وهو عليه الصلاة والسلام القائل: «الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلَّا ما أريد به وجه الله تعالى»(١)، وكان ﷺ شديدَ النهي عن الاغترار بالدنيا والنظر إلى زُخْرُفها.

والكلامُ على حذف مضافٍ، أو فيه تجوُّزٌ في النسبة(٢). وفي العدول عن: لا تنظر، إلى «ما متعنا به» إلخ إلى ما في النظم الكريم إشارةٌ إلى أنَّ النظرَ الغير الممدود معفوّ، وكأنَّ المنهيَّ عنه في الحقيقة هو الإعجابُ بذلك، والرغبةُ فيه، والميلُ إليه، لكن بعض المتقين بالغوا في غضِّ البصر عن ذلك، حتَّى إنَّهم لم ينظروا إلى أبنيةِ الظلمة وعُدَد الفسقة في اللباس والمركوب وغيرهما، وذلك لمغزًى بعيد؛ وهو أنَّهم اتَّخذُوها لعيونِ النظَّارة والفخر بها، فيكونُ النظر إليها محصِّلاً لغرضهم، وكالمغرِي لهم على اتخاذها.

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: زينتها وبهجتها، وهو منصوبٌ بمحذوفٍ يدلُّ عليه «متَّعنا»، أي: جعلنا لهم زهرة، أو بـ «متعنا» على أنَّه مفعولٌ ثانٍ له؛ لتضمينه معنى أعطينا، أو على أنَّه بدلٌ من محلِّ «به»، وضعَّفه ابنُ الحاجب في «أماليه»؛ لأنَّ إبدالَ منصوبٍ من محلِّ جارٍّ ومجرور ضعيفٌ، كـ: مررتُ بزيدٍ أخاك، ولأنَّ الإبدالَ من العائدِ مختلَفٌ فيه، ومثلُ ذلك ما قيل: إنه بدلٌ من «ما» الموصولة؛ لما فيه من الفصل بالبدل بين الصلة ومعمولها(٣).

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٦١٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٢: وفيه خداش بن المهاجر، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ. وقال السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٢٥٦: وأخرجه الطبراني بسندٍ لا بأس به.

(٢) في الأصل: بالنسبة. والمثبت من (م)، وحاشية الشهاب ٦/ ٢٣٥، والكلام منه.

(٣) قال السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ١٢٣: وهو اعتراضٌ حسن.

أو على أنَّه بدلٌ من «أزواجاً» بتقدير مضاف، أي: ذوي، أو: أهل زهرة. وقيل: بدون تقدير، على كون «أزواجاً» حالاً بمعنى أصناف التمتُّعات، أو على جعلهم نفسَ الزهرة مبالغةً. وضُعِّفَ هذا بأنَّ مثله يجري في النعت، لا في البدل؛ لمشابهته لبدلِ الغلط حينئذٍ.

أو على أنَّه تمييزٌ لـ «ما»، أو لضمير «به» ـ وحُكي عن الفرَّاء ـ أو صفةُ «أزواجاً». ورُدَّ ذلك لتعريف التمييز، وتعريف وصف النكرة.

وقيل: على أنَّه حالٌ من ضمير «به» أو من «ما» وحذف التنوين لالتقاء الساكنين، وجرُّ «الحياة» على البدل من«ما» واختاره مكيّ(١)، ولا يخفى ما فيه.

وقيل: نصبَ على الذمِّ، أي: أذمُّ زهرةَ.. إلخ. واعترض بأنَّ المقامَ يأباه؛ لأنَّ المرادَ أنَّ النفوسَ مجبولةٌ على النظر إليها والرغبة فيها، ولا يلائمه تحقيرُها. ورُدَّ بأنَّ في إضافة الزهرة إلى الحياة الدنيا كلَّ ذمٍّ، وما ذكر من الرغبةِ من شهوة النفوس الغبية التي حُرِمت نور التوفيق.

وقرأ الحسنُ وأبو حيوة وطلحةُ وحميد وسلام ويعقوب وسهل وعيسى والزهريّ: «زَهَرة» بفتح الهاء(٢)، وهي لغة كالجَهَرة في الجَهْرة. وفي «المحتسب»(٣) لابن جنّي: مذهبُ أصحابنا في كلِّ حرفِ حلق ساكنٍ بعد فتحة أنَّه لا يُحَرَّك، إلَّا على أنَّه لغةٌ، كنَهْر ونَهَر، وشَعْر وشَعَر. ومذهب الكوفيين أنَّه يطَّرِدُ تحريك الثاني؛ لكونه حرفاً حلقيّاً، وإن لم يسمع، ما لم يمنع منه مانع، كما في لفظ «نَحْو»؛ لأنَّه لو حُرِّك قلب الواو ألفاً.

وجَوَّز الزمخشريُّ كون «زَهَرَة» بالتحريك جمع زاهر، ككافر وكَفَرة، وهو وصفٌ لأزواجاً، أي: أزواجاً من الكفرة زاهرين بالحياة الدنيا؛ لصفاء ألوانهم ممَّا يلهون ويتنعَّمون، وتهلُّلِ وجوههم، وبهاءِ زيِّهم، بخلاف ما عليه المؤمنون

(١) في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٧٥.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٩١، وقراءة يعقوب ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٢.

(٣) ١/ ٨٤-٨٥.

والصلحاء من شحوبِ الألوان، والتقشُّفِ في الثياب[١]. وجُوِّزَ على هذا كونه حالاً؛ لأنَّ إضافته لفظية.

وأنت تعلم أنَّ المتبادَر من هذه الصفة قصدُ الثبوت لا الحدوث، فلا تكون إضافتُها لفظيَّةً، على أنَّ المعنى على تقدير الحاليَّة ليس بذاك.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ متعلِّقٌ بـ «متَّعنا»، أي: لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرُهم فيه، أو لنعذِّبهم في الآخرة بسببه، وفيه تنفيرٌ عن ذلك ببيان سوء عاقبته مآلاً إثر بهجته حالاً.

وقرأ الأصمعيُّ عن عاصم: «لنُفتنهم» بضمِّ النون، من أفتَنه، إذا جعل الفتنةَ واقعةً فيه، على ما قال أبو حيَّان[٢].

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي: ما ادَّخر لك في الآخرة، أو ما رزقك في الدنيا من النبوَّة والهدى. وادَّعى صاحب «الكشف» أنَّه أنسبُ بهذا المقام، أو ما ادَّخرَ لك فيها من فتح البلاد والغنائم. وقيل: القناعة[٣]. ﴿خَيْرٌ﴾ ممَّا مُتِّعَ به هؤلاء؛ لأنَّه مع كونه في نفسه من أَجَلِّ ما يَتَنافسُ فيه المتنافسون مأمونُ الغائلة، بخلاف ما مُتِّعوا به ﴿وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ فإنَّه نفسَه أو أثرَه لا يكاد ينقطعُ كالذي مُتِّعوا به.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أُمِرَ ﷺ أنْ يأمر أهلَه بالصلاة بعدما أُمِر هو عليه الصلاة والسلام بها؛ ليتعاونوا على الاستعانة على خَصَاصتهم، ولا يهتمُّوا بأمر المعيشة، ولا يلتفتوا لِفْتَ ذوي الثروة.

والمرادُ بأهله ﷺ، قيل: أزواجه وبناته وصهره عليٌّ ﵁. وقيل: ما يشملهم وسائرَ مؤمني بني هاشم والمطلب. وقيل: جميع المتَّبعين له عليه الصلاة والسلام من أمَّته. واستُظهِر أنَّ المرادَ أهلُ بيته ﷺ، وأُيِّد بما أخرجه ابنُ مردويه وابن عساكر وابنُ النجَّار عن أبي سعيد الخدريِّ قال: لمَّا نزلت «وأمر أهلك» إلخ كان

---

(١) الكشاف ٢/٥٥٩-٥٦٠.
(٢) في البحر المحيط ٦/٢٩١. ووقع عنده، وعند السمين الحلبي في الدر المصون ٨/١٢٤: الأصمعي عن نافع. فلعل قول المصنف عن عاصم سبق قلم. والله أعلم.
(٣) قوله: وقيل: القناعة. ليس في الأصل.

عليه الصلاة والسلام يجيء إلى باب عليٍّ كرم الله تعالى وجهه صلاةَ الغداة ثمانيةَ أشهر يقول: «الصلاةَ رحمكم الله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»(١) [الأحزاب:٣٣]. ورَوى نحوَ ذلك الإماميَّةُ بطرقٍ كثيرة.

والظاهرُ أنَّ المرادَ بالصلاة الصلواتُ المفروضة، ويُؤمَر بأدائها الصبيُّ وإن لم تجبْ عليه؛ ليعتادَ ذلك، فقد رَوى أبو داود بإسنادٍ حسنٍ مرفوعاً: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشر سنين، وفرِّقوا بينهم في المضاجع»(٢).

﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: وداوم عليها، فالصبرُ مجازٌ مرسل عن المداومة لأنَّها لازمُ معناه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العبادةَ في رعايتها حقَّ الرعاية مشقَّةٌ على النفس.

والخطابُ عامٌّ شاملٌ للأهل، وإن كان في صورة الخاصِّ، وكذا فيما بعد.

ولا يخفى ما في التعبير بالتسبيح أوَّلاً، والصلاة ثانياً، مع توجيه الخطاب بالمداومة إليه عليه الصلاة والسلام من الإشارة إلى مزيد رِفْعَة شأنه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ دفعٌ لما عسى أنْ يَخطُر ببال أحدٍ من أنَّ المداومةَ على الصلاة ربما تضرُّ بأمر المعاش، فكأنَّه قيل: داوموا على الصلاة غير مشتغلين بأمر المعاش عنها، إذ لا نكلِّفكُم رزقَ أنفسِكم، إذ نحن نرزقُكم.

وتقديم المسند إليه للاختصاص، أو لإفادة التقوى.

وزعم بعضهم أنَّ الخطابَ خاصٌّ، وكذا الحكم، إذ لو كان عامّاً لرُخِّصَ لكلِّ مسلمٍ المداومةُ على الصلاة وتركُ الاكتساب، وليس كذلك.

وفيه أنَّ قصارى ما يلزم العمومَ ـ سواءٌ كان الأهل خاصّاً أو عاماً لسائر المؤمنين ـ أنْ يُرخَّصَ للمُصلِّي تركُ الاكتساب المانعِ من الصلاة، وأيُّ مانعٍ عن ذلك، بل تركُ الاكتساب لأداء الصلاة المفروضة فرضٌ، وليس المراد بالمداومة

(١) الدر المنثور ٤/ ٣١٣. وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ١٣٧.
(٢) سنن أبي داود (٤٩٥)، وسلف ٤/ ٣٧٢.

عليها إلَّا أداؤها دائماً في أوقاتها المعيَّنة لها، لا استغراق الليل والنهار بها، وكأنَّ الزاعمَ ظنَّ أنَّ المرادَ بالصلاة ما يشملُ المفروضةَ وغيرها، وبالمداومةِ عليها فعلَها دائماً على وجهٍ يمنعُ من الاكتساب، وليس كذلك.

وممَّا ذكرنا يُعْلَم أنَّه لا حاجةَ في رَدِّ ما ذكره الزاعم إلى حمل العموم على شمول خطابِ النبيِّ ﷺ لأهله فقط دونَ جميع الناس، كما لا يخفى.

نعم قد يُستشعَر من الآية أنَّ الصلاةَ مطلقاً تكون سبباً لإدرار الرزق وكشف الهمِّ، وعلى ذلك يُحمل ما جاء في الأخبار؛ أخرج أبو عبيد وسعيدُ بن منصور وابنُ المنذر والطبرانيُّ في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الحلية» والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» بسندٍ صحيح عن عبد الله بن سلام قال: كان النبيُّ ﷺ إذا نزلت بأهله شدَّةٌ أو ضيقٌ أَمَرَهم بالصلاة، وتلا: «وأمر أهلك بالصلاة»[(١)].

وأخرج أحمد في «الزهد» وغيره عن ثابت قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أصابت أهلَه خصاصةٌ نادى أهلَه بالصلاة: «صلُّوا صلُّوا»، قال ثابت: وكانت الأنبياء عليهم السلام إذا نزلَ بهم أمرٌ فزعوا إلى الصلاة[(٢)].

وأخرج مالك والبيهقيُّ عن أسلم قال: كان عمر بن الخطاب يصلِّي من الليل ما شاء الله تعالى أنْ يصلِّي، حتى إذا كان آخرُ الليل أيقظ أهلَه للصلاة، ويقول لهم: الصلاة الصلاة، ويتلو هذه الآية: «وأمر أهلك» إلخ[(٣)].

وجُوِّزَ لظاهر الأخبار أنْ يُراد بالصلاة مطلقُها، فتأمل.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣١٣، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨٨٦)، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٧٦، والبيهقي في شعب الإيمان (٣١٨٠).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٦٧: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات.
وأخرجه الذهبي في السير ٨/ ٤١١ من طريق أبي نعيم وقال: هذا مرسل، قد انقطع فيه ما بين محمد وجدِّ أبيه عبد الله.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣١٣، وهو في الزهد ص ١٥ دون قول ثابت الأخير، وأخرجه بتمامه البيهقي في شعب الإيمان (٣١٨٥).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١١٩، ومن طريقه عبد الرزاق في مصنفه (٤٧٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٨٦).

وقرأ ابن وثاب وجماعة: «نرزقك» بإدغام القاف في الكاف، وجاء ذلك عن يعقوب(١).

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ الحميدةُ أعمُّ من الجنة وغيرها، وعن السُّدِّيّ تفسيرُها بالجنة ﴿لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: لأهلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨]، ولو لم يقدَّر المضافُ صحَّ، وفيما ذكر تنبيهٌ على أنَّ ملاك الأمر التقوى.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ حكايةٌ لبعضِ أقاويلهم الباطلة التي أُمرَ النبيُّ ﷺ بالصبرِ عليها، أي: هلَّا يأتينا بآيةٍ تدلُّ على صدقِه في دعوى النبوَّة، أو بآيةٍ من الآيات التي اقترحوها، لا على التعيين، بلَغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعَدُّوا ما شاهدوا من المعجزات التي تخرُّ لها صمُّ الجبال من قبيل الآيات، حتى اجترؤوا على التفوُّه بهذه العظيمة الشنعاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ ردٌّ من جهته تعالى لمقالتهم القبيحة، وتكذيبٌ لهم فيما دسُّوا تحتَها من إنكار إتيان الآية بإتيان القرآن الكريم الذي هو أمُّ الآيات، وأسُّ المعجزات، وأرفعها وأنفعها؛ لأنَّ حقيقةَ المعجزة الأمرُ الخارق للعادة، يظهرُ على يد مدَّعي النبوَّة عند التحدِّي، أيَّ أمرٍ كان، ولا ريبَ في أنَّ العلمَ أجلُّ الأمور وأعلاها، إذ هو أصلُ الأعمال ومبدأ الأفعال، وبه تُنَالُ المراتبُ العليَّةُ والسعادة الأبديَّة، ولقد ظهرَ ـ مع حيازته لجميع علوم الأوَّلين والآخرين ـ على يدِ من(٢) لم يمارس شيئاً من العلوم، ولم يدارس أحداً من أهلها أصلاً، فأيُّ معجزةٍ تُرَادُ بعد وروده، وأيَّةُ آيةٍ تطلبُ بعد وفوده. فالمراد بالبيِّنة: القرآن الكريم. والمراد بـ «الصحف الأولى» التوراةُ والإنجيل وسائرُ الكتب السماوية، وبما فيها العقائدُ الحقَّة وأصولُ الأحكام التي اجتمعت عليها كافَّة الرسل عليهم السلام.

ومعنى كونه بيِّنةً لذلك: كونُه شاهداً بحقيته، وفي إيراده بهذا العنوان ما لا يَخفى

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٨٥.

(٢) في تفسير أبي السعود ـ والكلام منه ـ: أمي.

من التنويه بشأنه، والإنارة لبرهانه، حيثُ أشارَ إلى امتيازه وغناه عمَّا يشهدُ بحقِّيَّةِ ما فيه بإعجازه.

وإسناد الإتيان إليه مع جعلهم إيَّاه مأتيًّا به؛ للتنبيه على أصالتِه فيه، مع ما فيه من المناسبة للبيِّنة.

والهمزة لإنكار الوقوع، والواو للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، كأنَّه قيل: ألم يأتهم سائرُ الآيات، ولم يأتهم خاصَّةً بيِّنةُ ما في الصحفِ الأولى؛ تقريراً لإتيانه، وإيذاناً بأنَّه من الوضوح بحيثُ لا يتأتَّى منهم إنكارٌ أصلاً، وإن اجترؤوا على إنكار سائر الآيات مكابرةً وعناداً.

وتفسيرُ الآيةِ بما ذُكِر هو الذي يقتضيه جزالةُ التنزيل.

وزعم الإمام[1] والطبرسيُّ[2] أنَّ المعنى: أو لم يأتهم في القرآن بيانُ ما في الكتب الأولى من أنباء الأمم التي أهلكناهم لمَّا اقترحوا الآيات، ثم كفروا بها، فماذا يؤمنُهم أنْ يكونَ حالُهم في سؤال الآية بقولهم: «لولا يأتينا بآيةٍ» كحالِ أولئك الهالكين. اهـ.

وهو بمعزلٍ عن القبول كما لا يخفى على ذوي العقول.

وقرأ أكثرُ السبعة[3] وأبو بحريَّة وابنُ محيصن وطلحةُ وابنُ أبي ليلى وابنُ مناذر وخلف[4] وأبو عبيد[5] وابن سعدان وابن عيسى وابن جبير الأنطاكيّ: «يأتهم» بالياء التحتانية؛ لمجاز تأنيث الآية والفصل.

وقرأت فرقةٌ منهم أبو زيد عن أبي عمرو: «بينةٌ» بالتنوين[6]، على أنَّ «ما»

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٣٧ نقلاً عن ابن جرير والقفال. انظر تفسير الطبري ١٦/ ٢١٨.

(٢) مجمع البيان ١٦/ ١٥٩.

(٣) هي قراءة شعبة عن عاصم، وابن عامر وابن كثير وحمزة والكسائي من السبعة، التيسير ص١٥٣.

(٤) انظر قراءة خلف ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٢. وقرأ بها أيضاً من العشرة أبو جعفر من رواية ابن وردان.

(٥) في البحر المحيط ٦/ ٢٩٢ ـ وعنه نقل المصنف ـ: أبو عبيدة.

(٦) البحر المحيط ٦/ ٢٩٢، وقال القرطبي في تفسيره ١٤/ ١٦٦: وحكى الكسائي.. فذكرها.

بدل، وقال صاحب اللوامح: يجوز أن تكون «ما» على هذه القراءة نافيةً، على أنْ يُراد بالآتي ما في القرآن من الناسخ والفصل[1] ممَّا لم يكن في غيره من الكتب. وهو كما ترى.

وقرأت فرقة بنصب «بينة» والتنوين، على أنَّها حال، و«ما» فاعل[2].

وقرأت فرقةٌ منهم ابن عباس: «الصُّحْف» بإسكان الحاء للتخفيف[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ﴾ إلى آخر الآية جملةٌ مستأنفةٌ لتقرير ما قبلها من كون القرآن آيةً بيِّنةً لا يمكنُ إنكارُها، ببيان أنَّهم يعترفونَ بها يوم القيامة، والمعنى: ولو أنَّا أهلكناهم في الدنيا بعذابٍ مستأصلٍ.

﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بـ «أهلكنا»، أو بمحذوفٍ هو صفة لـ «عذاب» أي: بعذابٍ كائن من قبله.

والضمير للبينة، والتذكيرُ باعتبار أنَّها برهانٌ ودليلٌ، أو للإتيان المفهوم من الفعل، أي: من قبل إتيان البينة. وقال أبو حيَّان: إنَّه للرسول، بقرينة ما بعدُ من ذكر الرسول، وهو مرادُ من قال: أي من قبلِ إرسال محمدٍ ﷺ[4].

﴿لَقَالُوا۟﴾ أي: يوم القيامة: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ﴾ في الدنيا ﴿إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ مع آيات ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ التي جاءنا بها ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ بدخول النار اليوم. وقال أبو حيان: الذلُّ والخزيُ كلاهما [مقترنان] بعذاب الآخرة. ونقلَ تفسيرَ الذلِّ بالهوان، والخزي بالافتضاح[5]. والمراد: أنَّا لو أهلكناهم قبل ذلك لقالوا، ولكنَّا لم نهلكهم قبله، فانقطعتْ معذرتُهم، فعند ذلك ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٩].

وقرأ ابنُ عباس ومحمدُ بن الحنفية وزيدُ بن عليّ والحسنُ في روايةِ عبّاد

---

(١) في البحر المحيط ٦/ ٢٩٢، والدر المصون ٨/ ١٢٥: والفصل.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٩٢.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩١، والبحر المحيط ٦/ ٢٩٢.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٩٢.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٢٩٢، وما سلف بين حاصرتين منه.

والعمريُّ وداود والفزاريُّ وأبو حاتم ويعقوب: «نُذَلَّ ونُخْزَى» بالبناء للمفعول(١).

واستدلَّ الأشاعرةُ بالآية على أنَّ الوجوب لا يتحقَّق إلَّا بالشرع، والجبائيُّ على وجوب اللُّطف عليه عزَّ وجلَّ. وفيه نظر.

﴿قُلْ﴾ لأولئك الكفرة المتمرِّدين: ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ منَّا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي: منتظرٌ لما يؤولُ إليه أمرنا وأمرُكم، وهو خبر «كل»، وإفراده حملاً له على لفظه.

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ وقرىء: «فتمتعوا»(٢) ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب ﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ أي: المستقيم. وقرأ أبو مجلز وعمران بن حدير: «السواء» أي: الوسط، والمراد به الجيد.

وقرأ الجحدريُّ وابنُ يعمر: «السُّوءَى» بالضمِّ والقصر، على وزن فُعْلى، وهو تأنيث الأسوأ، وأنِّثَ لتأنيث الصراط، وهو ممَّا يُذكَّر ويؤنَّث.

وقرأ ابنُ عباس ﵄: «السَّوء» بفتح وسكون وهمزة آخره بمعنى الشر.

وقرىء: «السُّوَيّ» بضمِّ السين وفتح الواو وتشديد الياء(٣)، وهو تصغيرُ سَوء بالفتح، وقيل: تصغير سُوء بالضم. وقال أبو حيان: الأجودُ أنْ يكون تصغيرَ سَواء، كما قالوا في عطاء: عُطَيّ(٤)؛ لأنَّه لو كانَ تصغير ذلك لثبتت همزتُه وقيل: سُوَءَيّ.

وتُعقِّب بأنَّ إبدالَ مثل هذه الهمزة ياءً جائزٌ، وعن الجحدريِّ وابن يعمر أنهما قرأا: «السُّوَّى» بالضمِّ والقصر وتشديد الواو(٥)، واختير في تخريجه أن يكون

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٩٢، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٩١ لابن عباس ومحمد بن الحنفية. وقراءة يعقوب المتواترة عنه كقراءة الجمهور.

(٢) الكشاف ٢/ ٣١٩. وفيه: وقرئ «فتمتعوا فسوف تعلمون» قال أبو رافع: حفظته من رسول الله ﷺ.

(٣) انظر القراءات السالفة في البحر المحيط ٦/ ٢٩٢.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٩٣.

(٥) تفسير القرطبي ١٤/ ١٦٩، والبحر المحيط ٦/ ٢٩٢.

أصله السُّوءَى، كما في الرواية الأولى، فخُفِّفَت الهمزة بإبدالها واواً، وأدغمت الواو في الواو.

وقد روعيت المقابلةُ على أكثر هذه القراءات بين ما تقدَّم وقولِه تعالى: ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: من الضلالةِ، ولم تراعَ على قراءة الجمهور والأولى من الشواذِّ.

و«من» في الموضعين استفهاميَّةٌ في محلِّ رفع على الابتداء، والخبر ما بعد، والعطفُ من عطفِ الجمل، ومجموع الجملتين المتعاطفتين سادٌّ مسدَّ مفعولي العلم، أو مفعوله إنْ كان بمعنى المعرفة.

وجوِّز كونُ «من» الثانية موصولةً، فتكون معطوفةً على محلِّ الجملة الأولى الاستفهاميَّة المعلَّقِ عنها الفعلُ، على أنَّ العلم بمعنى المعرفةِ المتعدِّية لواحد، إذ لولاه لكانَ الموصولُ بواسطةِ العطف أحدَ المفعولين، وكان المفعولُ الآخرُ محذوفاً اقتصاراً. وهو غير جائز.

وجُوِّزَ أنْ تكون معطوفةً على «أصحاب» فتكون في حيِّز «من» الاستفهاميَّة، أي: ومن الذي اهتدى، أو على «الصراط» فتكون في حيِّز أصحاب، أي: ومن أصحاب الذي اهتدى، يعني النبي ﷺ، وإذا عَنَى بالصراط السويِّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أيضاً كان العطفُ من باب عطفِ الصفات على الصفات مع اتِّحاد الذَّات.

وأجاز الفرَّاءُ أن تكون «من» الأولى موصولةً أيضاً بمعنى «الذين»[1]، وهي في محلِّ النصب على أنَّها مفعولٌ للعلم بمعنى المعرفة، و«أصحاب» خبرُ مبتدأ محذوف، وهو العائد، سواءٌ كان في الصلة طولٌ أو لم يكن، وسواءٌ كان الموصول أيًّا أو غيره بخلاف البصريين.

وما أشدَّ مناسبةَ هذه الخاتمةِ للفاتحة، وقد ذكر الطيبيُّ أنَّها خاتمةٌ شريفةٌ ناظرةٌ إلى الفاتحة، وأنه إذا لاحَ أنَّ القرآنَ أُنزِل لتحمِلَ تعبَ الإبلاغ ولا تنهك نفسك،

---

(١) معاني القرآن له ٢/ ١٩٧.

فحيث بلَّغْتَ وبلَغْتَ جُهْدَكَ فلا عليك، وعليك بالإقبال على طاعتك قدرَ طاقتك، وأمُرْ أهلَك، وهم أمَّتك المتبعون بذلك، ودَع الذين لا ينجعُ فيهم الإنذار، فإنه تذكرةٌ لمن يخشى، وسيندمُ المخالفُ حينَ لا ينفعه الندم. انتهى.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾. قيل: إنَّه عليه السلام رأى أنَّ الله تعالى ألبسَ سحر السحرة لباسَ القهر، فخاف من القهر؛ لأنَّه لا يأمنُ مكرَ الله إلَّا القوم الخاسرون.

وسُئِل ابنُ عطاء عن ذلك فقال: ما خافَ عليه السلام على نفسه، وإنَّما خافَ على قومه أنْ يفوتَهم حظُّهم من الله تعالى.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: إنَّك المحفوظُ بعيون الرعاية وحَرسِ اللطف، أو أنت الرفيع القدرِ الغالبُ عليهم غلبةً تامَّةً، بحيث يكونون بسببها من أتباعك، فلا يفوتُهم حظُّهم من الله تعالى.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ إلى آخر ما كان منهم، فيه[(١)] إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى يمنُّ على من يشاء بالتوفيق والوصول إليه سبحانه في أقصر وقتٍ، فلا يُستبعدُ حصولُ الكمال لمن تابَ وسلك على يد كاملٍ مكمَّلٍ في مدَّةٍ يسيرةٍ، وكثيرٌ من الجهلة ينكرون على السالكين التائبين إذا كانوا قريبي العهدِ بمقارفة الذنوب ومفارقة العيوب حصولَ الكمال لهم، وفيضانَ الخير عليهم، ويقولون: كيف يحصلُ لهم ذلك وقد كانوا بالأمس كيت وكيت؟

وقولهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ إلخ كلامٌ صادرٌ من عظم الهمَّة الحاصل للنفس بقوَّة اليقين، فإنَّه متى حصلَ ذلك للنفس لم تبال بالسعادة الدنيويَّة والشقاوة البدنيَّة واللذَّات العاجلة الفانية والآلام الحسِّيَّة في جنب السعادة الأخروية واللذَّة الباقية الروحانيَّة.

---

(١) لفظة: فيه. ليست في الأصل.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى استحباب مفارقة الأغيار، وترك صحبة الأشرار.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ عدَّ من الطغيان فيه استعماله مع الغفلة عن الله تعالى، وعدم نيَّة التقوى به على تقواه عزَّ وجلَّ.

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ الإشارةُ فيه إلى أنَّه ينبغي للرئيس رعايةُ الأصلح في حقِّ المرؤوس، وللشيخ عدمُ فعل ما يخشى منه سوءَ ظنِّ المريد، لاسيما إذا لم يكن له رسوخٌ أصلاً.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾. قال ابن عطاء: إنَّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام بعد أنْ أخبرَه بذلك: أتدري من أين أتيت؟ قال: لا يا ربِّ. قال سبحانه: من قولك لهارون: «اخلفني في قومي» وعدمِ تفويض الأمر إليَّ والاعتماد في الخلافة عليَّ.

وذكر بعضهم أنَّ سرَّ إخبار الله تعالى إيَّاه بما ذُكر مباسطتُه عليه السلام وشَغْلُه بصحبته عن صحبة الأضداد. وهو كما ترى.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ صار سببَ ضلالهم بما صنع. قال بعض أهل التأويل: إنَّما ابتلاهم الله تعالى بما ابتلاهم؛ ليتميَّز منهم المستعدُّ القابلُ للكمال بالتجريد، من القاصر الاستعداد، المنغمسِ في المواد، الذي لا يُدرك إلَّا المحسوسَ، ولا يتنبَّه للمجرَّد المعقول، ولهذا قالوا: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾، أي: برأينا، فإنَّهم عبيدٌ بالطبع لا رأيَ لهم ولا ملكة، وليسوا مختارين، لا طريقَ لهم إلَّا التقليدُ والعملُ لا التحقيقُ والعلم، وإنَّما استعبدَهم السامريُّ بالطلسَم المفرغ من الحليِّ؛ لرسوخ محبَّة الذهب في نفوسهم؛ لأنَّها سفليَّةٌ منجذبةٌ إلى الطبيعة الجسمانيَّة. وتزيُّنُ الطبيعةِ الذهبية وتحلِّي تلك الصورة النوعية فيها؛ للتناسب الطبيعيّ، وكان ذلك من باب مزج القوى السماويَّة التي هي أثرُ النفس الحيوانيَّة الكليَّة السماويَّة المشار عليها بحيزوم وفرس الحياة، وهي مركبُ جبريل عليه السلام المشارِ به إلى العقل الفعَّال بالقوى الأرضية، ولذلك قال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: من العلم الطبيعيِّ والرياضيِّ اللذين يَبتني عليهما علمُ الطلسمات والسيمياء.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ قال ذلك عليه السلام غضباً على السامريِّ وطرداً له، وكلُّ من غَضِبَ عليه الأنبياءُ، وكذا الأولياء، لكونهم مظاهر صفاتِ الحقِّ تعالى = وقعَ في قهره عزَّ وجلَّ، وشقيَ في الدنيا والآخرة. وكانت صورةُ عذاب هذا الطريد في التحرُّز عن المماسَّة نتيجةَ بعده عن الحقِّ في الدعوة إلى الباطل، وأثرُ لعن موسى عليه السلام إيَّاه عند إبطالِ كيده وإزالةِ مكره.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ قال أهل الوحدة: أي يسألونك عن وجودات الأشياء، فقل: ينسفُها ربي برياحِ النفحات الإلهية الناشئة من معدن الأحديَّة، فيذرها في القيامة الكبرى قاعاً صفصفاً وجوداً أحديّاً ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ إثنينيَّةً ولا غيريَّةً ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ الذي هو الحقُّ سبحانه ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ إذ هو تعالى آخذٌ بنواصيهم، وهو على صراطٍ مستقيم ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ إذ لا فعلَ لغيره عزَّ وجلَّ ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أمراً خفيّاً باعتبار الإضافة إلى المظاهر. انتهى.

ولكَم لهم مثلُ هذه التأويلات، والله تعالى العاصم.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ قيل: هو من صحَّح فعلَهُ وعقدَهُ، ولم ينسب لنفسِه شيئاً، ولا رأى لها عملاً.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ لكمال تقدُّسِه وتنزُّهه وجلاله سبحانه عزَّ وجلَّ، فهيهات أنْ تحلِّقَ بعوضةُ الفكر في جوِّ سماءِ الجبروت، ومن أين لنحلة النفسِ الناطقة أنْ ترعَى أزهارَ رياض بيداء اللاهوت. نعم يتفاوتُ الخلقُ في العلم بصفاته عزَّ وجلَّ على قدر تفاوتِ استعداداتهم[١]، وهو العلمُ المشارُ إليه بقوله تعالى: «وقل ربِّ زدني علماً» وقيل: هذه إشارةٌ إلى العلم اللدنيِّ.

والإشارةُ في قصَّة آدم عليه السلام إلى أنَّه ينبغي للإنسان مزيدُ التحفُّظ عن الوقوع في العصيان، ولله تعالى درُّ من قال:

---

(١) في الأصل: استعدادهم.

يا ناظراً يرنو بعينَيْ راقدٍ ومشاهداً للأمر غيرَ مشاهدِ
مَنَّيْتَ نفسَك ضَلَّةً وأبحتَها طُرُقَ الرجاءِ وهُنَّ غيرُ قواصِدِ
تَصِلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجي دَرَجَ الجنان بها وفوزَ العابدِ
ونسيتَ أنَّ اللهَ أخرجَ آدماً منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدِ(١)

ورَوى الضحَّاكُ عن ابن عباس قال: بينا آدمُ عليه السلام يبكي جاءه جبريلُ عليه السلام، فبكى آدم وبكى جبريل لبكائه عليهما السلام، وقال: يا آدم ما هذا البكاء؟ قال: يا جبريل وكيف لا أبكي وقد حوَّلني ربِّي من السماء إلى الأرض، ومن دارِ النعمة إلى دار البؤس، فانطلقَ جبريلُ عليه السلام بمقالةِ آدم، فقال الله تعالى: يا جبريل انطلق إليه فقل له: يا آدم يقول لك ربُّك: ألم أخلقكَ بيدي، ألم أنفخ فيكَ من روحي، ألم أُسجِد لك ملائكتي، ألم أسكنكَ جنَّتي، ألم آمرك فعصيتني، فوعزَّتي وجلالي لو أنَّ ملء الأرضِ رجالاً مثلكَ ثمَّ عصوني لأنزلتُهم منازل العاصين، غير أنَّه يا آدم قد سبقَتْ رحمتي غضبي، وقد سمعتُ تضرُّعكَ، ورحمتُ بكاءَك، وأقلتُ عثرتَك.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: بالتوجُّه إلى العالم السفليّ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ لغلبة شحِّه، وشدَّة بخله، فإنَّ المعرِضَ عن جناب الحقِّ سبحانه انجذبت نفسُه إلى الزخارف الدنيويَّة والمقتنيات الماديَّة، لمناسبتها إيَّاه، واشتدَّ حرصُه وكَلَبُه عليها وشغفهُ بها، للجنسيَّة والاشتراك في الظلمة، والميل إلى الجهة السفليَّة، فيشحّ بها عن نفسه وغيره، وكلَّما استكثرَ منها ازدادَ حرصُه عليها وشحُّه بها، وتلك المعيشةُ الضنك.

ولهذا قال بعضهم: لا يعرِضُ أحدٌ عن ذكر ربِّه سبحانه إلَّا أظلمَ عليه وقتُه، وتشوَّش عليه رزقُه، بخلاف الذاكرِ المتوجِّه إليه تعالى، فإنَّه ذو يقينٍ منه عزَّ وجلَّ، وتوكُّلٍ عليه تعالى، في سَعَةٍ من عيشه ورغدٍ، ينفقُ ما يجد، ويستغني بربِّه سبحانه عما يفقد.

(١) هي لمحمود الوراق، كما في الكامل للمبرد ٢/ ٥١٥.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العاقبةُ التي تعتبر وتستأهلُ أنْ تسمَّى عاقبةً لأهل التقوى المتخلِّين عن الرذائل النفسانيَّة، المتحلِّين بالفضائل الروحانيَّة، نسألُ الله تعالى أن يمنَّ علينا بحسن العاقبة، وصفاءِ العمر عن المشاغبة، ونحمدُه سبحانَه على آلائه، ونصلِّي ونسلِّم على خير أنبيائه، وعلى آله خير آل، ما طلعَ نجمٌ ولمع آل[1].

انتهى بعون الله تعالى الجزء السادس عشر من روح المعاني
ويليه إن شاء الله الجزء السابع عشر ويبدأ
بسورة الأنبياء

(١) الآل: ما في أول النهار. القاموس (آل).

(٢١) سُورَةُ الأنبياءِ مَكيَّة وآياتها اثنتا عشرة ومائة

سورةُ الانبياء من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة في ميادينها الكبيرة ، وتتحدث عن التوحيد ، والرسالةِ ، والبعث ، والحسابِ والجزاء ، وعن الساعةِ وأهوالها ، والقيامةِ وشدائدها ، وعن موقف البشرية من ذلك اليوم الرهيب في يوم الفزع الأكبر « يوم يقومُ الناسُ لرب العالمين » .

سُمّيتْ « سورةَ الأنبياءِ » لأن الله تعالى ذكر فيها أُمَّةَ الرسل ، وذكر قَصَصَ الأنبياء في استعراضٍ سريع ، يطول أحياناً عند ذكر قصة إبراهيم وداود وسليمان عليهم السلام ، ويقصُر أحياناً عند ذكر قَصَص نوحٍ ، وموسى ، وهارون ، ولوطٍ ، وإسماعيلَ ، وإدريسَ ، وزكريا ، ويحيي ، وعيسى ، وذي الكفل ، وذي النون عليهم جميعاً من الله أفضل الصلاة والتسليم ، وقد ذكر تعالى في هذه السورة جهاد الأنبياء وصبرَهم وتضحيَتهم في سبيل الله ، وما لاَقَوْه من شدائدَ وأهوالٍ في سبيل تبليغ الدعوة حتى نصرهم الله على أعدائهم ، وباختصار فإن السورة تتحدث عن جهاد الأنبياء وتفانيهم في تبليغ دعوةِ الله لإِسعادِ البشرية ، ولذلك سميت سورة الأنبياء . **تبتدىءُ السورةُ الكريمةُ** : بالحديث عن القيامةِ وأهوالها ، وما يكون فيها من الحسابِ ، والثوابِ ، والعقابِ ، بينما الناس فيَ هذه الدنيا في غفلةٍ عن ذلك اليوم العصيب ، يجادلون

ويكابرون ، ويهزءون من الرسل ويسخرون ﴿ اقترَبَ للنَّاسِ حِسَابُهم وهم في غفلةٍ مُعْرِضون . ما يأتيهم من ذِكْرٍ منْ ربهم مُحْدَثٍ إلاّ استمعوه وهم يَلْعَبُون . لا هيةً قلوبُهُمْ وأَسَرُّوا النَّجْوى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السحرَ وأنتم تُبْصِرونَ ؟﴾ وتنتقل الآياتُ إلى الحديث عن المكذبين وهم يشهدون مصارع الغابرين ، الذين كانوا عن آياتِ ربهم غافلين ، وما حاق بهم من العذاب ، وما اعتراهم من الحسرة والندامة حيث لا تنفع التوبةُ ولا الندم ، ومع ذلك يظل هؤلاء الكفرة في غيهم سادرين ﴿وكم قَصَمْنا من قَرْيةٍ كانتْ ظالمةً وأنشأنا بعدها قوماً آخرين . فلَمّا أَحَسُّوا بأْسَنا إذا هم منها يَرْكُضُون . لا تَرْكُضُوا وارجعوا إلى ما أُتْرِفْتُم فيه ومَسَاكِنِكُمْ لعلكم تُسْألون . قالوا يا ويلنا إنّا كنا ظَالمينَ . فما زَالتْ تِلْكَ دَعْواهم حتى جعلْنَاهم حَصِيداً خَامِدِين﴾ .

ويأتي الحديثُ عن دلائل القدرة الباهرة في هذا الكون العجيب ، فكل شيءٍ بنظامٍ دقيق ، لم يُخلق شيءٌ منها للّهوِ والعبث ، وإنما خُلق لحكمة جليلة هي تقديرُ العزيز العليم ، الذي يسبّح بحمده ، ويشهد بجلاله كلُّ مخلوقٍ في هذا الكون العظيم ، في العالمِ العُلْوي والسُّفْلي ، وبخاصةٍ الملائكةُ الأطهار ، الذين يسبحون الليلَ والنهار ﴿وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما لاعِبينَ . لو أَرَدنا أَنْ نَتَّخذَ لهواً لاتَّخذناه من لَدُنَّا إنْ كنا فاعلين . بل نقذفُ بالحقّ على الباطلِ فَيَدْمَغُه فإذَا هُوَ زاهقٌ ولكمُ الوَيْلُ مِمَّا تَصِفُون . وله مَنْ في السمواتِ والأرضِ ، ومَنْ عِنْدَه لا يَسْتكبِرُونَ عن عبادتِه ولا يستحسرون . يُسَبِّحون الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرون﴾ وبعد أن تستعرضَ الآياتُ الكريمةُ مشاهدَ الكون ، وتربطَ بين وَحْدة الكونِ ، ووَحدةِ الخالق المدبّر الحكيم ، يأتي التعقيبُ المباشر بعدم الخلود لأحدٍ من البشر بما فيهم الرسلُ الكرام ، وأن هذه

الحياة إنما هي اختيارٌ وابتلاء ، وعند الله الحسابُ والجزاء ﴿ وجعلنا السماءَ سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها مُعْرِضون . وهو الذي خلق الليلَ والنهارَ ، والشمسَ والقمر ، كلٌّ في فلك يسبحون . وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فهم الخالدون ؟ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ، ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتْنَةً وإلينا تُرْجَعون ﴾ وبعد عرضِ الأدلةِ الشاهدة بوحدانية الله ، وصدقِ الرسالةِ والمرسلين ، والحديثِ عن سُنَن الله في العباد ومصائرِ البشرِ ومصارعِ الغابرين ، يرجع السياقُ إلى بيان حال المشركين وهم يتلقون رسول الله ﷺ بالتكذيب والسخرية والاستهزاء ، ثم يذكر سنَّة الله الكونية في إهلاك الظالمين ﴿ وإذ رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هُزُواً ، أهذا الذي يذكرُ آلهتكم ؟ وهم بذكر الرحمنِ هم كافرون . خُلِقَ الإنسانُ من عَجَل سأُريكم آياتي فلا تستعجلون . ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ؟ لو يعلم الذين كفروا حين لا يَكُفُّونَ عن وجُوههمُ النَّار ولا عنْ ظهورهم ولا هم يُنْصرون . بل تأتيهمْ بَغْتَةً فتبهُتهم فلا يستطيعون ردَّها ولا هم يُنظرون . ولقد استُهزِئ برسل من قبلك فحاقَ بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . ثم تتابع الآياتُ عرض الأدلة على وحدانية الله مع التخويف والإنذار ، ثم تختمها ببيان العدل الإلهي يوم الحساب حيث ينال كلُّ إنسان جزاءه دون ظلم ولا بخْس ﴿ ونضعُ الموازينَ القسْطَ ليوم القيامةِ فلا تُظْلَم نفْسٌ شيْئاً وإنْ كانَ مثْقَالَ حبَّة من خرْدَل أتيْنا بها ، وكفَى بنا حَاسِبِين ﴾ .

ثم تتناول السورة الكريمة قَصص الأنبياء ، وتتحدث بالإسهاب عن قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وتعرض قصته في أسلوب مشوّق ، فيه من نصاعة البيان . وقوة الحجة والبرهان ما يقصم به ظهر الباطل ، استمع إليه وهو يُدلي بحجته أمام المحكمة التي عُقدت لمعاقبته بعد أن حطَّم الأصنام ، وهو يهزأ بهم وبآلهتهم المزعومة في جوابه الساخر

وتهكمه الواضح ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقالُ له إبراهيم. قالوا فأْتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون. قالوا أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال بل فعله كبيرُهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزَّهم هزاً، وردَّهم إلى شيء من التفكر والتدبر، ولكنهم سرعان ما انتكسوا في مهاوي الضلال ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون. ثم نُكسُوا على رُءُوسِهِمْ لقدْ عَلِمتَ ما هؤلاءِ ينطقون﴾! وهكذا أقاموا الحجة على أنفسهم في سخافة عقولهم بعبادة أخشابٍ وأحجار لا تسمع ولا تبصر ولا تُغْني عنهم شيئاً، وينطلق صوتُ الخليل يجبهُهم بالحجة الداعغة مع التنديد بسفاهة العقول والأحلام ﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعُكُمْ شيئاً ولا يضركم؟ أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾؟ وهنا تأخذهم العزة بالإثم شأنَ الطغاة الذين يفقدون مقابلة الحجة بالحجة، فيلجأون إلى البطش والانتقام ﴿قالوا حَرِّقُوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نارُ كوني بَرْداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾.

وبعد أن تتحدث السورة عن طائفةٍ كبيرة من الأنبياء والمرسلين، تُعقِّبُ بهذا البيان الواضح الذي يبيّن بجلاء أن أُمة الأنبياء أمةٌ واحدة، تدينُ بعقيدةٍ واحدة، وتَنْهَج نهجاً واحداً، وهو الاتجاه إلى الله رب العالمين ﴿إنَّ هذه أُمتُكُمْ أُمةً وأنا ربكم فاعبدون﴾ ثم تعرض السورة مشهداً للساعة وأشراطها يتبين فيه مصيرُ المشركين المكذبين، وتذكر علامةً لقرب الساعة وهو فتح «يأجوج ومأجوج» حيث يتدفقون من كل حَدبٍ وصَوْب ﴿حتى إذا فُتحتْ يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَبٍ يَنْسلون. واقترب الوعدُ الحقُّ فإذا هي شاخصةٌ أبصار الذين كفروا

يا ويلنا قد كنا في غفلةٍ من هذا بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون﴾ وتختم السورة الكريمة بتذكير الخلق بالنعمة الجليلة وهي بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة للعالمين ، فهو الرحمة المهداة إلى البشرية بأسرها ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ... إلى نهاية السورة الكريمة « قال ربِّ احكمْ بالحقِّ وربُّنا الرحمنُ المستعانُ على ما تصفون﴾

سورة الأنبياء

[٦٠٤] أخرج ابن جرير عن قتادة قال: قال أهل مكة للنبي [ﷺ] إن كان ما تقول حقاً ويسرك أن تؤمن فحول لنا الصفا ذهباً فأتاه جبرل عليه السلام فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا وإن شئت استأنيت بقومك فأنزل الله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾[1].

[٦٠٥] وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: نعى إلى النبي [ﷺ] نفسه فقال: «يا رب فمن لأمتي» فنزلت: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾[2] الآية.

[٦٠٦] وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال مر النبي [ﷺ] على أبي جهل وأبي سفيان وهما يتحدثان فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان هذا نبي بني عبد مناف فغضب أبو سفيان وقال أتنكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي فسمعهما النبي [ﷺ] فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه وقال: «ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب من غير عهده» فنزلت: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[3].

[٦٠٧] وأخرج الحاكم[4] عن ابن عباس قال لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ قال ابن الزبعري عبد الشمس والقمر والملائكة وعزير فكل هؤلاء في النار مع آلهتنا فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾[5] ونزلت ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ إلى ﴿خَصِمُونَ﴾[6].

* * *

---

[٦٠٤] (١) سورة الأنبياء: الآية (٦).

[٦٠٥] (٢) سورة الأنبياء: الآية (٣٤).

[٦٠٦] (٣) سورة الأنبياء: الآية (٣٦).

[٦٠٧] (٤) ورواه الواحدي في أسباب النزول بنحوه ص (١٧٥) من طريق عاصم أخبرني أبو رزين عن يحيى عن ابن عباس.

(٥) سورة الأنبياء: الآية (١٠١).

(٦) سورة الزخرف: الآية (٥٧و ٥٨).

سورة الأنبياء

مائة واثنتا عشرة آية مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ① مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ③ ﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ . **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: القرب لا يُعقل إلا في المكان والزمان، والقرب المكاني هاهنا ممتنع فتعين القرب الزماني، والمعنى: اقترب للناس وقت حسابهم.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: كيف وُصف بالاقتراب، وقد عَبَر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام؟ **والجواب من ثلاثة أوجه: أحدها:** أنه مقترب عند الله تعالى، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧]

وثانيها: أن كل آتٍ قريب وإن طالت أوقات ترقُّبه، وإنما البعيد هو الذي انقرض، قال الشاعر:

فَلَا زَالَ مَا تَهْوَاهُ أَقْرَبَ مِنْ غَدِ ... وَلاَ زَالَ مَا تَخْشَاهُ أَبْعَدَ مِنْ أَمْسِ (١)

وثالثها: أن المعاملة إذا كانت مؤجلة إلى سنة ثم انقضى منها شهر، فإنه لا يقال اقترب الأجل، أما إذا كان الماضي أكثر من الباقي فإنه يقال: اقترب الأجل. فعلى هذا الوجه قال العلماء: إن فيه دلالة على قرب القيامة؛ ولهذا الوجه قال عليه السلام: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**» وهذا الوجه قيل إنه عليه السلام خُتم به النبوة، كل ذلك لأجل أن الباقي من مدة التكليف أقل من الماضي.

---

(١) هذا البيت للشاعر ابن دراج القسطلي، وهو من البحر الطويل، والبيت هكذا:

ولا زالَ مَا تَرْجُوهُ أَقْرَبَ من غَدٍ ... ولا انْفَكَّ مَا تخشاهُ أَبْعَدَ من أَمْسِ

والشاعر ابن دراج القسطلي هو: أحمد بن محمد بن العاصي بن دراج القسطلي الأندلسي أبو عمر. ٣٤٧- ٤٢١ هـ/ ٩٥٨- ١٠٣٠ م، شاعر كاتب من أهل (قسطلة دراج) قرية غرب الأندلس، منسوبة إلى جده. كان شاعر المنصور أبي عامر، وكاتب الإنشاء في أيامه. قال الثعالبي: كان بالأندلس كالمتنبي بالشام.

المسألة الثالثة: إنما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين، فيكون أقرب إلى تلافي الذنوب والتحرز عنها خوفًا من ذلك، والله أعلم.

المسألة الرابعة: إنما لم يعين الوقت لأجل أن كتمانه أصلح، كما أن كتمان وقت الموت أصلح.

المسألة الخامسة: الفائدة في تسمية يوم القيامة بيوم الحساب أن الحساب هو الكاشف عن حال المرء، فالخوف من ذكره أعظم.

المسألة السادسة: يجب أن يكون المراد بالناس مَن له مدخل في الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له، ثم قال ابن عباس: المراد بالناس: المشركون. وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فاعلم أنه تعالى وَصَفهم بأمرين الغفلة والإعراض: أما الغفلة فالمعنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم، مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسيء، ثم إذا انتبهوا من سِنة الغفلة ورقدة الجهالة مما يتلى عليهم من الآيات والنذر، أعرضوا وسدوا أسماعهم.

أما قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ ابن أبي عبلة مـ(حدثٌ) بالرفع صفة للمحل.

المسألة الثانية: إنما ذكر الله تعالى ذلك بيانًا لكونهم معرضين، وذلك لأن الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتًا فوقتًا ويُظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة؛ ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون، فما يزيدهم ذلك إلا لعبًا واستسخارًا.

المسألة الثالثة: المعتزلة احتجوا على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا: القرآن ذِكر والذِّكر محدث فالقرآن محدث: بيان أن القرآن ذِكر قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وقوله: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩] وقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وبيان أن الذِّكر محدث قوله في هذا الموضع: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ وقوله في سورة الشعراء: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥] ثم قالوا: فصار مجموع هاتين المقدمتين المنصوصتين كالنص في أن القرآن محدث.

والجواب من وجهين: الأول: أن قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] وقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠] إشارة إلى المركب من الحروف والأصوات، فإذا ضممنا إليه قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ لزم حدوث المركب من الحروف والأصوات، وذلك مما لا نزاع فيه بل حدوثه معلوم بالضرورة، وإنما النزاع في قِدم كلام الله تعالى بمعنى آخر. **الثاني:** أن قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ لا يدل على حدوث كل ما كان ذكرًا، بل على ذِكرٍ

ما محدث، كما أن قول القائل: (لا يدخل هذه البلدة رجل فاضل إلا يبغضونه) فإنه لا يدل على أن كل رجل يجب أن يكون فاضلاً بل على أن في الرجال من هو فاضل، وإذا كان كذلك فالآية لا تدل إلا على أن بعض الذكر محدث فيصير نظم الكلام هكذا: (القرآن ذِكر وبعض الذكر محدث) وهذا لا ينتج شيئًا، كما أن قول القائل: (الإنسان حيوان وبعض الحيوان فرس) لا ينتج شيئًا، فظهر أن الذي ظنوه قاطعًا لا يفيد ظنًا ضعيفًا فضلاً عن القطع.

أما قوله: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: أن ذلك ذم للكفار وزجر لغيرهم عن مثله؛ لأن الانتفاع بما يُسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من تدبر وتفكر، وإذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذي قد تشارك البهيمة فيه الإنسان، ثم أكد تعالى ذمهم بقوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ واللاهية من لها عنه، إذا ذُهل وغفل، وإنما ذكر اللعب مقدمًا على اللهو كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]تنبيهًا على أن اشتغالهم باللعب الذي معناه السخرية والاستهزاء - معلل باللهو الذي معناه الذهول والغفلة، فإنهم أقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق، والله أعلم بالصواب.

المسألة الثانية: قال صاحب الكشاف: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حالان مترادفان أو متداخلان ومن قرأ (لاهية) بالرفع فالحال واحدة لأن لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله: ﴿وَهُمْ﴾.

أما قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ **ففيه سؤالان:**

السؤال الأول: النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية، فما معنى قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾؟ **الجواب**: معناه بالغوا في إخفائها، وجعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم.

السؤال الثاني: لـمَ قال: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؟ **الجواب**: أبدل (الذين ظلموا) من (أسروا) إشعارًا بأنهم هم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به، أو جاء على لغة من قال: أكلوني البراغيث، أو هو منصوب المحل على الذم، أو هو مبتدأ خبره: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾ قُدم عليه والمعنى (وهؤلاء أسروا النجوى) فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً على فعلهم بأنه ظلم.

أما قوله: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى، أي وأسروا هذا الحديث. ويحتمل أن يكون التقدير: وأسروا النجوى وقالوا هذا الكلام.

المسألة الثانية: إنما أسروا هذا الحديث لوجهين: **أحدهما**: أنه كان ذلك شبهة التشاور فيما بينهم والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره، وعادة المتشاورين أن يجتهدوا في كتمان سرهم عن أعدائهم. **الثاني**: يجوز أن يُسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله والمؤمنين: إن كان ما تدَّعونه حقًا فأخبرونا بما أسررناه.

المسألة الثالثة: أنهم طعنوا في نبوته بأمرين: أحدهما: أنه بشر مثلهم. والثاني: أن الذي أتى به سحر، وكلا الطعنين فاسد: أما الأول: فلأن النبوة تقف صحتها على المعجزات والدلائل لا على الصور؛ إذ لو بُعث المَلَك إليهم لما عُلم كونه نبيًّا لصورته، وإنما كان يُعلم بالعلم فإذا ظهر ذلك على من هو بشر فيجب أن يكون نبيًّا، بل الأَوْلى أن يكون المبعوث إلى البشر بشرًا لأن المرء إلى القبول من أشكاله أقرب وهو به آنس. وأما الثاني: وهو أن ما أتى به الرسول عليه السلام سحر وأنهم يرون كونه سحرًا - فجهل أيضًا؛ لأن كل ما أتى به الرسول من القرآن وغيره ظاهر الحال، لا تمويه فيه ولا تلبيس فيه. فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن حالاً بعد حال مدة من الزمان وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وكانوا في نهاية الحرص على إبطال أمره، وأقوى الأمور في إبطال أمره معارضة القرآن، فلو قدروا على المعارضة لامتنع أن لا يأتوا بها لأن الفعل عند توافر الدواعي وارتفاع الصارف واجب الوقوع، فلما لم يأتوا بها، دلنا ذلك على أنه في نفسه معجزة وأنهم عرفوا حاله، فكيف يجوز أن يقال: إنه سحر والحال على ما ذكرناه، وكل ذلك يدل على أنهم كانوا عالمين بصدقه، إلا أنهم كانوا يموهون على ضعفائهم بمثل هذا القول وإن كانوا فيه مكابرين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

أما قوله: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (قالَ رَبِّي) حكاية لقول رسول الله ﷺ وهي قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم، وقرأ الباقون (قل) بضم القاف وحذف الألف وسكون اللام.

المسألة الثانية: أنه تعالى لما أورد هذا الكلام عقيب ما حكى عنهم، وجب أن يكون كالجواب لما قالوه فكأنه قال إنكم وإن أخفيتم قولكم وطعنكم، فإن ربي عالم بذلك وإنه من وراء عقوبته. فتُوعِّدوا بذلك لكيلا يعودوا إلى مثله.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): فإن قلت: فهلا قيل له (يعلم السر) لقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ٣] قلت: القول علم يشمل السر والجهر، فكأن في العلم به العلم بالسر وزيادة فكأن آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: (يعلم السر) كما أن قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ [الفرقان: ٦] آكد من أن يقول (يعلم سرهم) فإن قلت: فلمَ ترك الآكد في سورة الفرقان في قوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] قلت: ليس بواجب أن يجيء بالآكد في قوله في كل موضع، ولكن يجيء بالتوكيد مرة وبالآكد مرة أخرى، ثم الفرق أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى، فكأنه أراد أن يقول: إن ربي يعلم ما أسروه، فوضع القول موضع

ذلك للمبالغة وثمة قصد وصف ذاته بأن قال: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] فهو كقوله: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سبا: ٤٨]، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبا: ٣].

المسألة الرابعة: إنما قدم السميع على العليم لأنه لا بد من سماع الكلام أولاً ثم من حصول العلم بمعناه.

أما قوله: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فاعلم أنه تعالى عاد إلى حكاية قولهم المتصل بقوله: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ [الأنبياء: ٣] ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ فحكى عنهم ثم هذه الأقوال الخمسة فترتيب كلامهم كأنهم قالوا: نَدَّعي أن كونه بشرًا مانع من كونه رسولاً لله تعالى. سَلَّمنا أنه غير مانع ولكن لا نُسلِّم أن هذا القرآن معجز، ثم إما أن يساعد على أن فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر، قلنا: لمَ لا يجوز أن يكون ذلك سحرًا؟ وإن لم يساعد عليه فإن ادعينا كونه في نهاية الركاكة قلنا: إنها أضغاث أحلام، وإن ادعينا أنه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا: إنه افتراء، وإن ادعينا إنه كلام فصيح قلنا: إنه من جنس فصاحة سائر الشعراء، وعلى جميع هذه التقديرات فإنه لا يثبت كونه معجزًا. ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فالمراد أنهم طلبوا آية جلية لا يتطرق إليها شيء من هذه الاحتمالات، كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام، ثم إن الله تعالى بدأ بالجواب عن هذا السؤال الأخير بقوله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ والمعنى أنهم في العتو أشد من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا، فأهلكهم الله، فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أشد نكثًا. قال الحسن رحمه الله تعالى: إنهم لم يجابوا لأن حكم الله تعالى أن من كذب بعد الإجابة إلى ما اقترحه من الآيات - فلا بد من أن ينزل به عذاب الاستئصال، وقد مضى حكمه في أمة محمد ﷺ خاصة بخلافه فلذلك لم يجبهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾

اعلم أنه تعالى أجاب عن سؤالهم الأول وهو قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣] بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ فبيّن أن هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل محمد ﷺ ولم يمنع ذلك من كونهم رسلاً للآيات التي ظهرت عليهم، فإذا صح ذلك فيهم فقد

ظهر على محمد مثل آياتهم فلا مقال عليه في كونه بشرًا. فأما قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ فالمعنى أنه تعالى أمرهم أن يسألوا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يُعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرًا ولم يكونوا ملائكة، وإنما أحالهم على هؤلاء لأنهم كانوا يتابعون المشركين في معاداة رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] فإن قيل: إذا لم يوثق باليهود والنصارى، فكيف يجوز أن يأمرهم بأن يسألوهم عن الرسل؟ قلنا: إذا تواتر خبرهم وبلغ حد الضرورة جاز ذلك، كما قد يُعمل بخبر الكفار إذا تواتر، مثل ما يعمل بخبر المؤمنين. ومن الناس من قال: (المراد بأهل الذكر أهل القرآن) وهو بعيد لأنهم كانوا طاعنين في القرآن وفي الرسول ﷺ. فأما تعلُّق كثير من الفقهاء بهذه الآية في أن للعامي أن يرجع إلى فتيا العلماء، وفي أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر - فبعيد لأن هذه الآية خطاب مشافه وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين.

ثم بَيَّن تعالى أنه لم يجعل الرسل قبله جسدًا لا يأكلون الطعام، وفيه أبحاث:

البحث الأول: قوله: ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة جسد والمعنى: وما جعلنا الأنبياء ذوي جسد غير طاعمين.

البحث الثاني: وحد الجسد لإرادة الجنس كأنه قال: ذوي ضرب من الأجساد.

البحث الثالث: أنهم كانوا يقولون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] فأجاب الله بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ فبيَّن تعالى أن هذه عادة الله في الرسل من قبل، وأنه لم يجعلهم جسدًا لا يأكلون، بل جسدًا يأكلون الطعام، ولا يخلدون في الدنيا بل يموتون كغيرهم، ونبه بذلك على أن الذي صاروا به رسلاً غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القادحة في التبليغ، أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ فقال صاحب (الكشاف): هو مثل قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] والأصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم المقال: ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ هم المؤمنون، قال المفسرون: المراد منه أنه تقدم وعده جل جلاله بأنه إنما يهلك بعذاب الاستئصال من كَذَّب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم، وجعل الوفاء بما وعد صدقًا من حيث يكشف عن الصدق. ومعنى: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب الآخرة لأنه إخبار عما مضى وتقدم، ثم بيَّن تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ عظيم نعمته عليهم بالقرآن في الدين والدنيا، فلذلك قال فيه: ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ وفيه ثلاثة أوجه: أحدها: ذكر شرفكم وصيتكم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وثانيها: المراد: فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب، ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد، كما قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]. وثالثها: المراد ذكر دينكم ما

يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة إذا تمسكتم به. وكل ذلك محتمل، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كالبعث على التدبر في القرآن لأنهم كانوا غفلاء، لأن الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم الفعل، فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط؛ لأن شرائط الإعجاز لما تمت في القرآن، ظهر حينئذٍ لكل عاقل كونه معجزًا، وعند ذلك ظهر أن اشتغالهم بإيراد تلك الاعتراضات كان لأجل حب الدنيا وحب الرياسة فيها، فبالغ سبحانه في زجرهم عن ذلك فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ قال صاحب (الكشاف): القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يُبين تلاؤم الأجزاء بخلاف الفصم. وذكر القرية وأنها ظالمة وأراد أهلها توسعًا لدلالة العقل على أنها لا تكون ظالمة ولا مكلفة، ولدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ فالمعنى: أهلكنا قومًا وأنشأنا قومًا آخرين. وقال: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وكل ذلك لا يليق إلا بأهلها الذين كُلفوا بتصديق الرسل فكذبوهم، ولولا هذه الدلائل لما جاز منه سبحانه ذكر المجاز لأنه يكون ذلك موهمًا للكذب، واختلفوا في هذا الإهلاك: فقال ابن عباس: المراد منه القتل بالسيوف، والمراد بالقرية حَضور، وهي وسَحول قريتان باليمن ينسب إليهما الثياب. وفي الحديث: (كُفِّنَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثَوْبَيْنِ سَحُولِيَّيْنِ وَرُوِيَ: حَضُورِيَّيْنِ)[1] «بَعَثَ اللَّه إِلَيهِمْ نَبِيًا فَقَتَلُوهُ، فَسَلَّطَ اللَّه عَلَيهِمْ بُخْتُنَصَّرَ كَمَا سَلَّطَهُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَاسْتَأْصَلَهُمْ»[2] وروى: «أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَتْهُمُ السُّيُوفُ نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: يَا لِثَارَاتِ الأَنْبِيَاءِ!! فَنَدِمُوا وَاعْتَرَفُوا بِالْخَطَإِ»[3]، وقال الحسن: المراد عذاب الاستئصال. واعلم أن هذا أقرب لأن إضافة ذلك إلى الله تعالى أقرب من إضافته إلى القاتل، ثم بتقدير أن يُحمل ذلك على عذاب القتل فما الدليل على قول ابن عباس؟ ولعل ابن عباس ذكر حَضور بأنها إحدى القرى التي أرادها الله تعالى بهذه الآية. وأما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبراني في (الكبير) (١٨/ ٢٧٥) حديث رقم/ ٦٩٦ وابن حبان في (صحيحه) (٧/ ٣٠٧) حديث رقم/ ٣٠٣٥، كلاهما من طريق إبراهيم بن سليمان أبو اسماعيل المؤدب، عن يعقوب بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس عن الفضل بن عباس... به. وفي إسناده يعقوب بن عطاء وهو ضعيف.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٩) من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد... به.

(٣) لم أجده.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ فالمعنى: لما علموا شدة عذابنا وبطشنا عِلم حس ومشاهدة، ركضوا في ديارهم، والركض ضرب الدابة بالرِّجل، ومنه قوله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢] فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب، ويجوز أن يشبهوا في سرعة عَدْوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين. أما قوله: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ قال صاحب (الكشاف): القول محذوف، فإن قلت: من القائل؟ قلنا: يحتمل أن يكون بعض الملائكة ومن ثَم من المؤمنين، أو يكونوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل، أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم أو يلهمهم ذلك فيحدثون به نفوسهم. أما قوله: ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ أي من العيش والرفاهية والحال الناعمة، والإتراف: إبطار النعمة وهي الترفه.

أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ **فهو تهكم بهم وتوبيخ، ثم فيه وجوه:**

أحدها: أي ارجعوا إلى نعمكم ومساكنكم لعلكم تُسألون غدًا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة.

وثانيها: ارجعوا كما كنتم في مجالسكم حتى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم، ويقول لكم: بمَ تأمرون وماذا ترسمون؟ كعادة المخدومين.

وثالثها: تسألكم الناس في أنديتكم لتعاونوهم في نوازل الخطوب، ويستشيرونكم في المهمات، ويستعينون بآرائكم.

ورابعها: يسألكم الوافدون عليكم والطامعون فيكم. إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء، أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكمًا إلى تهكم وتوبيخًا إلى توبيخ.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ فقال صاحب (الكشاف) تلك إشارة إلى ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ لأنها كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى دعواهم، والدعوى بمعنى الدعوة، قال تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] فإن قلت: لمَ سُميت دعوى؟ قلت: لأنهم كانوا دعوا بالويل: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ أي يا ويل احضر فهذا وقتك، و(تلك) مرفوع أو منصوب اسمًا أو خبرًا وكذلك: ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ قال المفسرون: لم يزالوا يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] أما قوله: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ فالحصيد: الزرع المحصود، أي جعلناهم مثل الحصيد، شبَّههم به في استئصالهم، كما تقول جعلناهم رمادًا، أي مثل الرماد. فإن قيل: كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل؟ قلت: حكم الاثنين الأخيرين حكم الواحد والمعنى: جعلناهم جامعين لهذين الوصفين، والمراد أنهم أُهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة، وجفوا كما يجف الحصيد، وخمدوا كما تخمد النار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٧ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾

اعلم أن فيه مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان:

الأول: أنه تعالى لما بيَّن إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم، اتبعه بما يدل على أنه فَعَل ذلك عدلاً منه ومجازاة على ما فعلوا فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب، كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفرشهم للهو واللعب، وإنما سويناهم لفوائد دينية ودنيوية: أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها، على ما قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التي لا تُعد ولا تُحصى، وهذا كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾ [ص: ٢٧] وقوله: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩].

والثاني: أن الغرض منه تقرير نبوة محمد ﷺ والرد على منكريه لأنه أظهر المعجزة عليه، فإن كان محمد كاذبًا كان إظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفي عنه، وإن كان صادقًا فهو المطلوب، وحينئذٍ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن.

المسألة الثانية: قال القاضي عبد الجبار: دلت الآية على أن اللعب ليس من قِبله تعالى إذ لو كان كذلك لكان لاعبًا، فإن اللاعب في اللغة اسم لفاعل اللعب، فنفي الاسم الموضوع للفعل يقتضي نفي الفعل. والجواب: يبطل ذلك بمسألة الداعي على ما مر غير مرة.

أما قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ فاعلم أن قوله: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ معناه من جهة قدرتنا. **وقيل**: اللهو الولد بلغة اليمن. وقيل: المرأة وقيل (من لدنا) أي من الملائكة لا من الإنس ردًا لمن قال بولادة المسيح وعزير.

فأما قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ فاعلم أن قوله: ﴿بَلْ﴾ اضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته، كأنه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب، بل من عادتنا وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق. واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله، فجعله كأنه جِرم صُلب كالصخرة مثلاً قُذف به على جِرم رخو فدمغه.

فأما قوله تعالى: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ يعني مِنَ تمسُّك بتكذيب الرسول ﷺ ونسب القرآن إلى أنه سحر وأضغاث أحلام... إلى غير ذلك من الأباطيل، وهو الذي عناه بقوله: ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان:

الأول: أنه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه، ونفي اللعب لا يصح إلا بنفي الحاجة، ونفي الحاجة لا يصح إلا بالقدرة التامة، لا جرم عقَّب تلك الآية بقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة.

الثاني: -وهو الأقرب- أنه تعالى لما حكى كلام الطاعنين في النبوات، وأجاب عنها، وبَيَّن أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد، بَيَّن في هذه الآية أنه تعالى منزه عن طاعتهم لأنه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات، ولأجل أن الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه، فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ معناه أن كل المكلفين في السماء والأرض فهم عبيده، وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم، فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه.

المسألة الثالثة: دلالة قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ على أن المَلَك أفضل من البشر من ثلاثة أوجه قد تقدم بيانها في سورة البقرة.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ المراد بهم الملائكة بإجماع الأمة، ولأنه تعالى وصَفَهم بأنهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ وهذا لا يليق بالبشر، وهذه العندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة، فكأنه تعالى قال: الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم - لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته؟!

المسألة الخامسة: قال الزجاج: (ولا يستحسرون) ولا يتعبون ولا يعيون. قال صاحب (الكشاف): فإن قلت: الاستحسار مبالغة في الحسور فكأن الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور. قلت: في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه، وأنهم أحقاء لتلك العبادات الشاقة بأن يستحسروا فيما يفعلون.

أما قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فالمعنى أن تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم، لا يتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر، روي عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: قلت لكعب: أرأيت قول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ثم قال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح؟ وأيضًا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١] فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح؟ أجاب

كعب الأحبار فقال: التسبيح لهم كالتنفس لنا، فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام، فكذا اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال. فإن قيل: هذا القياس غير صحيح لأن الاشتغال بالتنفس إنما لم يمنع من الكلام؛ لأن آلة التنفس غير آلة الكلام، أما التسبيح واللعن فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال. **والجواب:** أي استبعاد في أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة ببعضها يسبحون الله وببعضها يلعنون أعداء الله؟ أو يقال: معنى قوله: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أنهم لا يفترون عن العزم على أدائه في أوقاته اللائقة به، كما يقال: إن فلانًا يواظب على الجماعات لا يفتر عنها. لا يراد به أنه أبدًا مشتغل بها بل يراد به أنه مواظب على العزم على أدائها في أوقاتها.

قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝٢٣ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝٢٥﴾

اعلم أن الكلام من أول السورة إلى ههنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالاً وجوابًا، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد.

أما قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ . ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): (أم) ههنا هي المنقطعة الكائنة بمعنى (بل والهمزة) قد أذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، والمنكر هو اتخاذهم آلهة من الأرض ينشرون الموتى، ولعمري إن من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات، **فإن قلت:** كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم، بل كانوا في نهاية البعد عن هذه الدعوى، فإنهم كانوا مع إقرارهم بالله وبأنه خالق السموات والأرض - منكرين للبعث، ويقولون: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] فكيف يَدَّعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة ألبتة؟ **قلت:** لأنهم لما اشتغلوا بعبادتها ولا بد للعبادة من فائدة هي الثواب، فإقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الإقرار بكونهم قادرين على الحشر والنشر والثواب والعقاب، فذكَر ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل، يعني إذا كانوا غير قادرين على أن يحيوا ويميتوا ويضروا وينفعوا، فأي عقل يُجوز اتخاذهم آلهة؟!

المسألة الثانية: قوله: ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ كقولك: فلان من مكة أو من المدينة، تريد مكي أو مدني، إذ معنى نسبتها إلى الأرض الإيذان بأنها الأصنام التي تُعبد في الأرض؛ لأن الآلهة على

ضربين: أرضية وسماوية، ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض؛ لأنها إما أن تكون منحوتة من بعض الحجارة أو معمولة من بعض جواهر الأرض.

المسألة الثالثة: النكتة في ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ معنى الخصوصية، كأنه قيل: أم اتخذوا آلهة من الأرض لا يقدر على الإنشار إلا هم وحدهم.

المسألة الرابعة: قرأ الحسن (يَنْشُرون) وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها.

أما قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال أهل النحو: (إلا) ههنا بمعنى (غير) أي لو كان يتولاهما ويدير أمورهما شيء غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا، ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء؛ لأنا لو حملناه على الاستثناء لكان المعنى: (لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا) وهذا يوجب بطريق المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة معهم الله أن لا يحصل الفساد، وذلك باطل؛ لأنه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أو كان فالفساد لازم. ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت أن المراد ما ذكرناه.

المسألة الثانية: قال المتكلمون: القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال، فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالاً. إنما قلنا: إنه يفضي إلى المحال لأنا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادرًا على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرًا على تحريك زيد وتسكينه، فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه، فإما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين، أو لا يقع واحد منهما وهو محال؛ لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر، فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس، فلو امتنعا معًا لوجدا معًا، وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثاني. وذلك محال أيضًا لوجهين:

أحدهما: أنه لو كان كل واحد منهما قادرًا على ما لا نهاية له، امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر، بل لا بد وأن يستويا في القدرة. وإذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني، وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح.

وثانيهما: أنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر، فالذي وقع مراده يكون قادرًا والذي لم يقع مراده يكون عاجزًا، والعجز نقص وهو على الله محال. فإن قيل: الفساد إنما يلزم عند اختلافهما في الإرادة وأنتم لا تدعون وجوب اختلافهما في الإرادة، بل أقصى ما تَدَّعونه أن اختلافهما في الإرادة ممكن، فإذا كان الفساد مبنيًا على الاختلاف في الإرادة وهذا الاختلاف ممكن والمبني على الممكن ممكن، فكان الفساد ممكنًا لا واقعًا، فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد؟ قلنا: الجواب من وجهين: **أحدهما:** لعله سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر من حيث إن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب. **والثاني:** - وهو

الأقوى - أن نبين لزوم الفساد لا من الوجه الذي ذكرناه بل من وجه آخر، فنقول: لو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادرًا على جميع المقدّورات فيفضي إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال؛ لأن استناد الفعل إلى الفاعل لإمكانه، فإذا كان كل واحد منهما مستقلاً بالإيجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلاً منهما جميعًا فيلزم استغناؤه عنهما معًا واحتياجه إليهما معًا وذلك محال. وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد.

فنقول: القول بوجود الإلهين يفضي إلى امتناع وقوع المقدور لواحد منهما، وإذا كان كذلك وجب أن لا يقع ألبتة وحينئذٍ يلزم وقوع الفساد قطعًا، أو نقول: لو قدرنا إلهين، فإما أن يتفقا أو يختلفا: فإن اتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما، ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال، وإن اختلفا فإما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر والكل محال، فثبت أن الفساد لازم على كل التقديرات، **فإن قلت**:لمَ لا يجوز أن يتفقا على الشيء الواحد ولا يلزم الفساد لأن الفساد إنما يلزم لو أراد كل واحد منهما أن يوجده هو وهذا اختلاف، أما إذا أراد كل واحد منهما أن يكون الموجد له أحدهما بعينه، فهناك لا يلزم وقوع مخلوق بين خالقين؟ **قلت**:كونه موجدًا له، إما أن يكون نفس القدرة والإرادة، أو نفس ذلك الأثر، أو أمرًا ثالثًا: فإن كان الأول لزم الاشتراك في القدرة والإرادة والاشتراك في الموجد، وإن كان الثاني فليس وقوع ذلك الأثر بقدرة أحدهما وإرادته أَوْلى من وقوعه بقدرة الثاني؛ لأن لكل واحد منهما إرادة مستقلة بالتأثير، وإن كان الثالث -وهو أن يكون الموجد له أمرًا ثالثًا- فذلك الثالث إن كان قديمًا استحال كونه متعلق الإرادة. وإن كان حادثًا فهو نفس الأثر، ويصير هذا القسم هو القسم الثاني الذي ذكرناه. واعلم أنك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت أن جميع ما في هذا العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات، فهو دليل وحدانية الله تعالى، بل وجود كل واحد من الجواهر والأعراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذي بيناه. وهذه الدلالة قد ذكرها الله تعالى في مواضع من كتابه.

واعلم أن ههنا أدلة أخرى على وحدانية الله تعالى:

أحدها وهو الأقوى:أن يقال: لو فرضنا موجودين واجبي الوجود لذاتيهما، فلا بد وأن يشتركا في الوجود، ولا بد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه، وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبًا مما به يشارك الآخر ومما به امتاز عنه، وكل مركب فهو مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته، فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته. هذا خلف، فإذن واجب الوجود ليس إلا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر إليه، وكل مفتقر في وجوده إلى الغير فهو محدث، فكل ما سوى الله تعالى محدث، ويمكن جعل هذه الدلالة تفسيرًا لهذه الآية؛ لأنا إنما دللنا على أنه

يلزم من فرض موجودين واجبين أن لا يكون شيء منهما واجبًا، وإذا لم يوجد الواجب لم يوجد شيء من هذه الممكنات، وحينئذٍ يلزم الفساد، فثبت أنه يلزم من وجود إلهين وقوع الفساد في كل العالم.

وثانيها: أنا لو قدرنا إلهين لوجب أن يكون كل واحد منهما مشاركًا للآخر في الإلهية، ولا بد وأن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمر ما وإلا لما حصل التعدد، فما به الممايزة إما أن يكون صفة كمال أو لا يكون: فإن كان صفة كمال، فالخالي عنه يكون خاليًا عن الكمال فيكون ناقصًا والناقص لا يكون إلهًا، وإن لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفًا بما لايكون صفة كمال فيكون ناقصًا، ويمكن أن يقال: ما به الممايزة إن كان معتبرًا في تحقق الإلهية فالخالي عنه لا يكون إلهًا، وإن لم يكن معتبرًا في الإلهية لم يكن الاتصاف به واجبًا، فيفتقر إلى المخصص فالموصوف به مفتقر ومحتاج.

وثالثها: أن يقال: لو فرضنا إلهين لكان لا بد وأن يكونا بحيث يتمكن الغير من التمييز بينهما، لكن الامتياز في عقولنا لا يحصل إلا بالتباين في المكان أو في الزمان أو في الوجوب والإمكان، وكل ذلك على الإله محال فيمتنع حصول الامتياز.

ورابعها: أن أحد الإلهين إما أن يكون كافيًا في تدبير العالم أو لا يكون: فإن كان كافيًا كان الثاني ضائعًا غير محتاج إليه، وذلك نقص والناقص لا يكون إلهًا.

وخامسها: أن العقل يقتضي احتياج المحدث إلى الفاعل ولا امتناع في كون الفاعل الواحد مدبرًا لكل العالم. فأما ما وراء ذلك فليس عدد أَوْلى من عدد فيفضي ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها، وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال.

وسادسها: أن أحد الإلهين إما أن يقدر على أن يخص نفسه بدليل يدل عليه ولا يدل على غيره، أو لا يقدر عليه: والأول محال لأن دليل الصانع ليس إلا بالمحدثات وليس في حدوث المحدثات ما يدل على تعيين أحدهما دون الثاني، والتالي محال لأنه يفضي إلى كونه عاجزًا عن تعريف نفسه على التعيين، والعاجز لا يكون إلهًا.

وسابعها: أن أحد الإلهين إما أن يقدر على أن يستر شيئًا من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر: فإن قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلاً، وإن لم يقدر لزم كونه عاجزًا.

وثامنها: لو قَدَّرنا إلهين لكان مجموع قدرتيهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحده، فيكون كل واحد من القدرتين متناهيًا، والمجموع ضِعف المتناهي فيكون الكل متناهيًا.

وتاسعها: العدد ناقص لاحتياجه إلى الواحد، والواحد الذي يوجد من جنسه عدد ناقص ناقص، لأن العدد أزيد منه، والناقص لا يكون إلهًا، فالإله واحد لا محالة.

وعاشرها: أنا لو فرضنا معدومًا ممكن الوجود، ثم قدرنا إلهين فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده كان كل واحد منهما عاجزًا والعاجز لا يكون إلهًا، وإن قدر أحدهما دون الآخر فهذا

الآخر يكون إلهًا، وإن قدرا جميعًا فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجًا إلى إعانة الآخر، وإن قدر كل واحد على إيجاده بالاستقلال، فإذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثاني قادرًا عليه وهو محال لأن إيجاد الموجود محال، وإن لم يبق فحينئذٍ يكون الأول قد أزال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهورًا تحت تصرفه فلا يكون إلهًا. فإن قيل: الواجد إذا أوجد مقدوره فقد زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز. **قلنا:** الواحد إذا أوجده فقد نفذت قدرته فنفاذ القدرة لا يكون عجزًا، أما الشريك فإنه لما نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة ألبتة، بل زالت قدرته بسبب قدرة الأول فيكون تعجيزًا.

الحادي عشر: أن نقرر هذه الدلالة على وجه آخر وهو أن نعين جسمًا وتقول: هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلاً عن السكون وبالعكس، فإن لم يقدر كان عاجزًا، وإن قدر فنسوق الدلالة إلى أن نقول: إذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثاني خلق السكون، فالأول أزال قدرة الثاني وعجزه فلا يكون إلهًا، وهذان الوجهان يفيدان العجز نظرًا إلى قدرتيهما، والدلالة الأولى إنما تفيد العجز بالنظر إلى إرادتيهما.

وثاني عشرها: أنهما لما كانا عالمين بجميع المعلومات كان علم كل واحد منهما متعلقًا بعين معلوم الآخر، فوجب تماثل علميهما، والذات القابلة لأحد المثلين قابلة للمثل الآخر، فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل - يستدعي مخصصًا يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبدًا فقيرًا ناقصًا.

وثالث عشرها: أن الشركة عيب ونقص في الشاهد، والفردانية والتوحد صفة كمال، ونرى الملوك يكرهون الشركة في المُلك الحقير المختصر أشد الكراهية. ونرى أنه كلما كان المَلِك أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد، فما ظنك بمُلك الله عز وجل وملكوته؟ فلو أراد أحدهما استخلاص المُلك لنفسه، فإن قدر عليه كان المغلوب فقيرًا عاجزًا فلا يكون إلهًا، وإن لم يقدر عليه كان في أشد الغم والكراهية فلا يكون إلهًا.

ورابع عشرها: أنا لو قدرنا إلهين لكان إما أن يحتاج كل واحد منهما إلى الآخر، أو يستغني كل واحد منهما عن الآخر، أو يحتاج أحدهما إلى الآخر والآخر يستغني عنه: فإن كان الأول كان كل واحد منهما ناقصًا لأن المحتاج ناقص. وإن كان الثاني كان كل واحد منهما مستغنيًا عنه، والمستغنى عنه ناقص، ألا ترى أن البلد إذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم إليه ومن غير التفات منهم إليه، عُد ذلك الرئيس ناقصًا، فالإله هو الذي يستغني به ولا يستغنى عنه. وإن احتاج أحدهما إلى الآخر من غير عكس كان المحتاج ناقصًا والمحتاج إليه هو الإله. واعلم أن هذه الوجوه ظنية إقناعية والاعتماد على الوجوه المتقدمة.

أما الدلائل السمعية فمن وجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] فالأول هو الفرد السابق، ولذلك لو قال: (أول عبد اشتريته فهو حر) فلو اشترى أولاً عبدين لم

يحنث لأن شرط الأول أن يكون فردًا وهذا ليس بفرد، فلو اشترى بعد ذلك واحدًا لم يحنث أيضًا لأن شرط الفرد أن يكون سابقًا وهذا ليس بسابق. فلما وصف الله تعالى نفسه بكونه أولاً وجب أن يكون فردًا سابقًا فوجب أن لا يكون له شريك. **وثانيها**: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] فالنص يقتضي أن لا يكون أحد سواه عالمًا بالغيب، ولو كان له شريك لكان عالمًا بالغيب، وهو خلاف النص. **وثالثها**: أن الله تعالى صرح بكلمة (لا إله إلا الله) في سبعة وثلاثين موضعًا من كتابه، وصرح بالوحدانية في مواضع نحو قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وكل ذلك صريح في الباب. **ورابعها**: قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] حكم بهلاك كل ما سواه، ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديمًا، ومن لا يكون قديمًا لا يكون إلهًا. **وخامسها**: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وهو كقوله: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] وقوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]. **وسادسها**: قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧] ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨]. **وسابعها**: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦] وهذا الحصر يدل على نفي الشريك. وثامنها: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] فلو وجد الشريك لم يكن خالقًا فلم يكن فيه فائدة، واعلم أن كل مسألة لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فإنه يمكن إثباتها بالسمع، والوحدانية لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها، فلا جرم يمكن إثباتها بالدلائل السمعية، واعلم أن من طعن في دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد: لو كان في السماء والأرض آلهة تقول بإلهيتها عبدة الأوثان، لزم فساد العالم لأنها جمادات لا تقدر على تدبير العالم، فيلزم فساد العالم. قالوا: وهذا أولى لأنه تعالى حكى عنهم قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ثم ذكر الدلالة على فساد هذا، فوجب أن يختص الدليل به. وبالله التوفيق.

أما قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: أنه سبحانه لما أقام الدلالة القاطعة على التوحيد، قال بعده: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي هو منزه لأجل هذه الأدلة عن وصفهم بأن معه إلهًا، وهذا تنبيه على أن الاشتغال بالتسبيح إنما ينفع بعد إقامة الدلالة على كونه تعالى منزهًا وعلى أن طريقة التقليد طريقة مهجورة.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: أي فائدة لقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ولمَ لم يكتف بقوله: (فسبحان الله عما يصفون) **وجوابه**: أن هذه المناظرة إنما وقعت مع عبدة الأصنام،

إلا أن الدليل الذي ذكره الله تعالى يعم جميع المخالفين، ثم إنه تعالى بعد ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة الأصنام، وهي أنه كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذي لا يعقل ولا يحس - شريكًا في الإلهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والأرضين ومدبر الخلائق من النور والظلمة واللوح والقلم والذات والصفات والجماد والنبات وأنواع الحيوانات أجمعين؟!

أما قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ فاعلم أنه مشتمل على بحثين: **أحدهما:** أن الله تعالى لا يُسأل عن شيء من أفعاله ولا يقال له: لمَ فعلت. **والثاني:** أن الخلائق مسؤولون عن أفعالهم. **أما البحث الأول ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: وجه تعلق هذه الآية بما قبلها أن عمدة من أثبت لله شريكًا ليست إلا طلب اللمية في أفعال الله تعالى، وذلك لأن الثنوية والمجوس - وهم الذين أثبتوا الشريك لله تعالى- قالوا: رأينا في العالم خيرًا وشرًا ولذة وألمًا وحياة وموتًا وصحة وسقمًا وغنى وفقرًا، وفاعل الخير خَيِّر وفاعل الشر شرير، ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيرًا وشريرًا معًا، فلا بد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلاً للخير والآخر فاعلاً للشر. ويرجع حاصل هذه الشبهة إلى أن مدبر العالم لو كان واحدًا لما خص هذا بالحياة والصحة والغنى، وخص ذلك بالموت والألم والفقر. فيرجع حاصله إلى طلب اللمية في أفعال الله تعالى. فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللمية، لا جرم أنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الأصلية في الجواب عن شبهة القائلين بالشريك؛ لأن الترتيب الجيد في المناظرة أن يقع الابتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب، ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم.

المسألة الثانية: في الدلالة على أنه سبحانه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ أما أهل السنة فإنهم استدلوا عليه بوجوه: **أحدها:** أنه لو كان كل شيء معللاً بعلة لكانت علية تلك العلة معللة بعلة أخرى ويلزم التسلسل، فلا بد في قطع التسلسل من الانتهاء إلى ما يكون غنيًا عن العلة، وأَوْلى الأشياء بذلك ذات الله تعالى وصفاته، وكما أن ذاته منزهة عن الافتقار إلى المؤثر والعلة، وصفاته مبرأة عن الافتقار إلى المبدع والمخصص، فكذا فاعليته يجب أن تكون مقدسة عن الاستناد إلى الموجب والمؤثر. **وثانيها:** أن فاعليته لو كانت معللة بعلة، لكانت تلك العلة إما أن تكون واجبة أو ممكنة، فإن كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلاً، وحينئذٍ يكون موجبًا بالذات لا فاعلاً بالاختيار، وإن كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلاً لله تعالى أيضًا، فتفتقر فاعليته لتلك العلة إلى علة أخرى ولزم التسلسل وهو محال. **وثالثها:** أن علة فاعلية الله تعالى للعالم إن كانت قديمة لزم أن تكون فاعليته للعالم قديمة، فيلزم قدم العالم، وإن كانت محدثة افتقر إلى علة أخرى ولزم التسلسل. **ورابعها:** أن من فعل فعلاً لغرض فإما أن يكون متمكنًا من تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة أو لا يكون متمكنًا منه: فإن كان متمكنًا منه كان توسط تلك الواسطة عبثًا، وإن لم يكن متمكنًا منه كان عاجزًا، والعجز على الله تعالى محال، أما العجز علينا فغير

ممتنع، فلذلك كانت أفعالنا معللة بالأغراض، وكل ذلك في حق الله تعالى محال. **وخامسها:** أنه لو كان فعله معللاً بغرض لكان ذلك الغرض إما أن يكون عائدًا إلى الله تعالى أو إلى العباد، والأول محال لأنه منزه عن النفع والضر، وإذا بطل ذلك تعين أن الغرض لا بد وأن يكون عائدًا إلى العباد، ولا غرض للعباد إلا حصول اللذات وعدم حصول الآلام، والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شيء من الوسائط، وإذا كان كذلك استحال أن يفعل شيئًا لأجل شيء.
وسادسها: هو أنه لو فعل فعلاً لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه إما أن يكون على السواء أو لا يكون: فإن كان على السواء استحال أن يكون غرضًا، وإن لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصًا بذاته كاملاً بغيره وذلك محال، فإن قلت: وجود ذلك الغرض وعدمه وإن كان بالنسبة إليه على السواء، أما بالنسبة إلى العباد فالوجود أَوْلى من العدم، **قلنا:** تحصيل تلك الأولوية للعبد وعدم تحصيلها له إما أن يكون بالنسبة إليه على السوية أو لا على السوية، ويعود التقسيم الأول. **وسابعها:** وهو أن الموجود إما هو سبحانه أو ملكه، وملكه، ومن تصرف في ملك نفسه لا يقال له لم فعلت ذلك. **وثامنها:** وهو أن من قال لغيره: لِمَ فعلت ذلك؟ فهذا السؤال إنما يحسن حيث يحتمل أن يقدر السائل على منع المسؤول منه عن فعله، وذلك من العبد في حق الله تعالى محال، فإنه لو فعل أي فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك؟ إما بأن يهدده بالعقاب والإيلام، وذلك على الله تعالى محال، أو بأن يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والإنصاف بالسفاهة على ما يقوله المعتزلة وذلك أيضًا محال؛ لأن استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال -أمور ذاتية له، وما ثبت للشيء لذاته يستحيل أن يتبدل لأجل تبدل الصفات العرضية الخارجية.

فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز أن يقال لله في أفعاله: لِمَ فعلت هذا الفعل؟ فإن كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، وأما المعتزلة فإنهم سَلَّموا أنه لا يجوز أن يقال لله (لِمَ فعلت هذا الفعل؟) ولكنهم بنوا ذلك على أصل آخر، وهو أنه تعالى عالم بقبح القبائح، وعالم بكونه غنيًّا عنها، ومن كان كذلك فإنه يستحيل أن يفعل القبيح، وإذا عرفنا ذلك عرفنا إجمالاً أن كل ما يفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب، وإذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله: لِمَ فعلت هذا؟

أما البحث الثاني: وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ فهذا يدل على كون المكلفين مسؤولين عن أفعالهم. **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: أن الكلام في هذا السؤال إما في الإمكان العقلي أو في الوقوع السمعي.

أما الإمكان العقلي فالخلاف فيه مع منكري التكاليف، واحتجوا على قولهم بوجوه: **أحدها:** قالوا: التكليف إما أن يتوجه على العبد حال استواء داعيته إلى الفعل والترك، أو حال رجحان أحدهما على الآخر، والأول محال لأن حال الاستواء يمتنع الترجيح، وحال امتناع الترجيح يكون التكليف بالترجيح تكليفًا بالمحال، والثاني محال؛ لأن حال الرجحان يكون الراجح

واجب الوقوع والمرجوع ممتنع الوقوع. والتكليف بإيقاع ما يكون واجب الوقوع عبث، وبإيقاع ما هو ممتنع الوقوع تكليف بما لا يطاق. **وثانيها:** قالوا: كل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فيكون التكليف به عبثًا، وكل ما علم الله تعالى عدمه كان ممتنع الوقوع، فيكون التكليف به تكليفًا بما لا يطاق. **وثالثها:** قالوا: سؤال العبد إما أن يكون لفائدة أو لا لفائدة: فإن كان لفائدة فتلك الفائدة إن عادت إلى الله تعالى كان محتاجًا وهو محال، وإن عادت إلى العبد فهو محال؛ لأن سؤاله لما كان سببًا لتوجيه العقاب عليه، لم يكن هذا نفعًا عائدًا إلى العبد بل ضررًا عائدًا إليه، وإن لم يكن في السؤال فائدة كان عبثًا وهو غير جائز على الحكيم، بل كان إضرارًا وهو غير جائز على الرحيم.

والجواب عنها من وجهين: الأول: أن غرضكم من إيراد هذه الشبهة النافية للتكليف أن تُلزمونا نفي التكليف، فكأنكم تكلفونا بنفي التكليف وهو متناقض. **والثاني:** وهو أن مدار كلامكم في هذه الشبهات على حرف واحد وهو أن التكاليف كلها تكاليف بما لا يطاق، فلا يجوز من الحكيم أن يوجبها على العباد، فيرجع حاصل هذه الشبهات إلى أنه يقال له تعالى: لمَ كلفت عبادك؟ إلا أن قد بينا أنه سبحانه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ فظهر بهذا أن قوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ كالأصل والقاعدة لقوله: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ فتأمل في هذه الدقائق العجيبة لتقف على طرف من أسرار علم القرآن. وأما الوقوع السمعي فلقائل أن يقول: إن قوله: ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ وإن كان متأكدًا بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وبقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] إلا أنه يناقضه قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] **والجواب:** أن يوم القيامة يوم طويل وفيه مقامات، فيصرف كل واحد من السلب والإيجاب إلى مقام آخر دفعًا للتناقض.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: فيه وجوه: **أحدها:** أنه تعالى لو كان هو الخالق للحسن والقبيح لوجب أن يُسأل عما يفعل، بل كان يُذم بما حقه الذم، كما يحمد بما حقه المدح. **وثانيها:** أنه كان يجب أن لا يُسأل عن الأمور إذا كان لا فاعل سواه. **وثالثها:** أنه كان لا يجوز أن يُسألوا عن عملهم إذ لا عمل لهم. **ورابعها:** أن أعمالهم لا يمكنهم أن يعدلوا عنها من حيث خَلَقها وأوجدها فيهم. **وخامسها:** أنه تعالى صرح في كثير من المواضع بأنه يقبل حجة العباد عليه، كقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وهذا يقتضي أن لهم عليه الحجة قبل بعثة الرسل، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤] ونظائر هذه الآيات كثيرة وكلها تدل على أن حجة العبد متوجهة على الله تعالى. **وسادسها:** قال ثمامة: إذا وقف العبد يوم القيامة فيقول الله تعالى: ما حملك على معصيتي؟ فيقول على مذهب الجبر: يا رب إنك خلقتني كافرًا وأمرتني بما لا أقدر عليه وحُلْتَ بيني وبينه. ولا شك أنه على مذهب الجبر يكون

صادقًا، وقال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]فوجب أن ينفعه هذا الكلام فقيل له: ومن يدعه يقول هذا الكلام أو يحتج؟ فقال ثمامة: أليس إذا منعه الله الكلام والحجة فقد علم أنه منعه مما لو لم يمنعه منه لانقطع في يده، وهذا نهاية الانقطاع. **والجواب عن هذه الوجوه:**أنها معارضة بمسألة الداعي ومسألة العلم ثم بالوجوه الثمانية التي بينا فيها أنه يستحيل طلب لمية أفعال الله تعالى وأحكامه.

وأما قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ فاعلم أنه سبحانه كرر قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استعظامًا لكفرهم، أي وصفتم الله بأن له شريكًا فهاتوا برهانكم على ذلك. أما من جهة العقل أو من جهة النقل فإنه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولاً، وقرر الأصل الذي عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنية ثانيًا، أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثًا.

أما قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في تفسيره، وفيه أقوال: **أحدها:**﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ أي هذا هو الكتاب المنزل على مَن معي: ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ أي الكتاب المنزل على من تقدمني من الأنبياء وهو التوراة والإنجيل والزبور والصحف، وليس في شيء منها أني أذنت بأن تتخذوا إلهًا من دوني، بل ليس فيها إلا: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]كما قال بعد هذا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ وهذا قول ابن عباس واختيار القفال والزجاج. **والثاني:**-وهو قول سعيد ابن جبير وقتادة ومقاتل والسدي- أن قوله: ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ صفة للقرآن فإنه كما يشتمل على أحوال هذه الأمة، فكذا يشتمل على أحوال الأمم الماضية. **الثالث:**- ما ذكره القفال- وهو أن المعنى: قل لهم: هذا الكتاب الذي جئتكم به قد اشتمل على بيان أحوال من معي من المخالفين والموافقين، وعلى بيان أحوال مَن قبلي من المخالفين والموافقين، فاختاروا لأنفسكم. كأن الغرض منه التهديد.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف) قرئ: (هذا ذكرٌ من معي وذكرٌ من قبلي) بالتنوين و(مَن) مفعول منصوب بالذكر كقوله: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤، ١٥]وهو الأصل، والإضافة من إضافة المصدر إلى المفعول كقوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٢، ٣]وقرئ: (مِن معي ومِن قبلي) بكسر ميم (مِن) على ترك الإضافة في هذه القراءة وإدخال الجار على (مع) غريب والعذر فيه أنه اسم هو ظرف، نحو قبل وبعد، فدخل (مِن) عليه كما يدخل على إخواته وقرئ: (ذكر معي وذكر قبلي).

وأما قوله:﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: أنه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبيَّن أنه لا دليل لهم ألبتة عليه لا من جهة العقل ولا من جهة السمع، ذكر بعده أن وقوعهم في هذا المذهب

الباطل ليس لأجل دليل ساقهم إليه، بل ذلك لأن عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم، ثم ترتب على عدم العلم الإعراض عن استماع الحق وطلبه.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قرئ: (الْحَقُّ) بالرفع على توسط التوكيد بين السبب والمسبب، والمعنى أن إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ فاعلم أن يوحى ونوحي قراءتان مشهورتان، وهذه الآية مُقرِّرة لما سبقها من آيات التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بَيَّن بالدلائل الباهرة كونه منزهًا عن الشريك والضد والند، أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله. وأضافوا إلى ذلك أنه تعالى صاهر الجن، على ما حكى الله تعالى عنهم فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] ثم إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ لأن الولد لا بد وأن يكون شبيهًا بالوالد، فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه، ثم لا بد وأن يخالفه من وجه آخر، وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فيقع التركيب في ذات الله سبحانه وتعالى وكل مركب ممكن، فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكنًا غير واجب، وذلك يخرجه عن حد الإلهية ويدخله في حد العبودية؛ ولذلك نزه نفسه عنه.

أما قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد، أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة، إلا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد وقرئ: (مُكَرَّمون، لا يَسبُقُونه) من سابقته فسبقته أسبقه. والمعنى أنهم يتبعونه في قوله ولا يقولون شيئًا حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله، وكما أن قولهم تابع لقوله، فعملهم أيضًا كذلك مبني على أمره، لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به.

ثم إنه سبحانه ذكر ما يجري مجرى السبب لهذه الطاعة فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ والمعنى أنهم لما علموا كونه سبحانه عالمًا بجميع المعلومات، علموا كونه عالمًا بظواهرهم وبواطنهم، فكان ذلك داعيًا لهم إلى نهاية الخضوع وكمال العبودية. وذكر المفسرون فيه وجوهًا: **أحدها**: قال ابن عباس: يعلم ما قَدَّموا وما أخروا من أعمالهم. **وثانيها**: ما بين أيديهم الآخرة وما خلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك. **وثالثها**: قال مقاتل: يعلم ما كان قبل أن يخلقهم

وما يكون بعد خلقهم. وحقيقة المعنى أنهم يتقلبون تحت قدرته في ملكوته وهو محيط بهم، وإذا كانت هذه حالتهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدي الله تعالى فيشفعون لمن لم يأذن الله تعالى له؟! ثم كشف عن هذا المعنى فقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أي لمن هو عند الله مرضي: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي من خشيتهم منه، فأضيف المصدر إلى المفعول و(مشفقون) خائفون ولا يأمنون مكره، وعن رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ سَاقِطًا كَالْحِلْسِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى»(1) ونظيره قوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨].

---

(1) أورده الزيلعي في (تخريج أحاديث الكشاف) (٢/ ٣٦٤) وقال: قلت رواه البزار في مسنده، والبيهقي في أول شعب الإيمان وفي دلائل النبوة، وابن سعد في الطبقات، وابن خزيمة في كتاب التوحيد والتزم في أوله أن ما يرويه من الأحاديث صحيح ثابت بأسانيد ثابتة صحيحة موصولة إلى النبي ﷺ والطبراني في معجمه الأوسط من حديث سعيد بن منصور حدثنا الحارث بن عبيد الإيادي عن ابن عمران الجوني عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا قاعد إذ جاء جبريل عليه السلام فوكز بين كتفي، فقمت الى شجرة فيها كوكري الطير، فقعد في أحدهما وقعدت في الآخر، فسَمَتْ وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفي ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إلى جبريل كأنه حلس لاط، فعرفت فضل علمه بالله عليَّ وفتح باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم واذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت وأوحى الله اليَّ ماشاء أن يوحى» انتهى قال البزار: لا نعلم رواه عن أبي عمران إلا الحارث بن عبيد وهو مشهور من أهل البصرة وقال البيهقي هكذا رواه الحارث بن عبيد عن أبي عمران، وقد رواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطارد أن النبي ﷺ. انتهى وهذا الذي أشار إليه البيهقي رواه ابن المبارك في كتاب الزهد أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطارد أن النبي ﷺ كان في ملأ من أصحابه فأتاه جبريل عليه السلام. قال: فنكت في ظهري فذهب بي إلى شجرة فيها مثل وكري الطير، فقعد في أحدهما وقعدت في الآخر، فنشأت بنا سحابة حتى ملأت الأفق، فلو بسطت يدي إلى السماء لنلتها، ثم أنها دلي بسبب فهبطت فوقع النور فوقع جبريل مغشيًا عليه كأنه حلس فعرفت فضل خشيته على خشيتي، فأوحى الله إليه أنبيًا عبدًا أم نبيًا ملكًا وإلى الجنة ما أنت فأومى إلى جبريل وهو مضطجع بل نبيًا عبدًا. انتهى وهذا مرسل والأول فيه الحارث بن عبيد وهو وإن أخرج له مسلم في صحيحه فقد ضعفه ابن معين وقال أحمد مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال ابن حبان: كثير الوهم فلا يحتج به اذا انفرد وهذا الحديث من غرائبه ولعله منام. والله أعلم. وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية: باب ذكر أشياء روي أنه رآها عليه السلام ليلة المعراج. وذكر أشياء من جملتها ما رواه من طريق محمد بن إسحاق ابن خزيمة حدثنا محمد بن ميمون حدثنا سفيان عن مالك بن مغول عن زبيد عن مرة قال: قال عبد الله بن مسعود أن نبيكم ﷺ ذكر سدرة المنتهى إلى أن قال: فوقع جبريل فصار كالحلس الملقى. ثم قال: وهذا لايصح وابن ميمون منكر الحديث. وروى ابن مردويه في تفسيره من حديث الله عبيد بن عمرو عن عبد الكريم الجزري عن عطاء بن أبي رباح عن جابر عن النبي ﷺ قال: «مررت في السماء الرابعة بجبريل وهو كالحلس البالي من خشية الله تعالى» انتهى وهذا رواه الطبراني في معجمه الأوسط حدثنا أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا عبيد الله بن عمرو به سواء (قلت): وهذا تخريجه هكذا. أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٦/ ٢١١) حديث رقم/ ٦٢١٤ والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ١٧٥) حديث رقم/ ١٥٥ وأبو الشيخ في (العظمة) (٢/ ٧١٤) حديث رقم/ ٤١ وابن سعد في (الطبقات الكبرى) (١/ ١٧١) والمروزي في (تعظيم قدر الصلاة) (٢/ ٨٦٩) حديث رقم/ ٨٨٣ جميعا من طريق الحارث بن عبيد عن أبي عمران الجوني عن أنس... به. بلفظ (كأنه جلس لاطي... الحديث).

أما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول، فإنا نجازي ذلك القائل بهذا الجزاء، وهذا لا يدل على أنهم قالوا ذلك أو ما قالوه، وهو قريب من قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] **وههنا مسائل:**

المسألة الأولى: هذه الصفات تدل على العبودية وتنافي الولادة لوجوه: أحدها: أنهم لما بالغوا في الطاعة إلى حيث لا يقولون قولاً ولا يعملون عملاً إلا بأمره، فهذه صفات للعبيد لا صفات الأولاد. وثانيها: أنه سبحانه لما كان عالمًا بأسرار الملائكة وهم لا يعلمون أسرار الله تعالى، وجب أن يكون الإله المستحق للعبادة هو لا هؤلاء الملائكة، وهذه الدلالة هي نفس ما ذكره عيسى عليه السلام في قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]. وثالثها: أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، ومن يكن إلهًا أو ولدًا للإله لا يكون كذلك. ورابعها: أنهم على نهاية الإشفاق والوجل، وذلك ليس إلا من صفات العبيد. وخامسها: نبه تعالى بقوله: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ على أن حالهم حال سائر العبيد المكلفين في الوعد والوعيد، فكيف يصح كونهم آلهة؟!

المسألة الثانية: احتجت المعتزلة بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ على أن الشفاعة في الآخرة لا تكون لأهل الكبائر؛ لأنه لا يقال في أهل الكبائر: إن الله يرتضيهم.
والجواب: قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك: ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي لمن قال لا إله إلا الله.

واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر، وتقريره هو أن من قال (لا إله إلا الله) فقد ارتضاه تعالى في ذلك، ومتى صدق عليه أنه ارتضاه الله تعالى في ذلك فقد صدق عليه أنه ارتضاه الله؛ لأن المركب متى صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه، وإذا ثبت أن الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية، فثبت بالتقرير الذي ذكرناه أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ما قرره ابن عباس رضي الله عنهما.

المسألة الثالثة: هذه الآية تدل على أمور ثلاثة: أحدها: تدل على كون الملائكة مكلفين من حيث قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ ومن حيث الوعيد. وثانيها: تدل أيضًا على أن الملائكة معصومون لأنه قال: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾. وثالثها: قال القاضي عبد الجبار: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يدل على أن كل ظالم يجزيه الله جهنم كما توعد الملائكة به، وذلك يوجب القطع على أنه تعالى لا يغفر لأهل الكبائر في الآخرة.
والجواب: أقصى ما في الباب أن هذا العموم مُشعر بالوعيد، وهو مُعارَض بعمومات الوعيد.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ

بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا
وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى
فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى شرع الآن في الدلائل الدالة على وجود الصانع، وهذه الدلائل أيضًا دالة على كونه منزهًا عن الشريك؛ لأنها دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم، ووجود الإلهين يقتضي وقوع الفساد، فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم، وفيها أيضًا رد على عبدة الأوثان من حيث إن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته إلى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع؟! فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها.

واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ههنا ستة أنواع من الدلائل:

النوع الأول: قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن كثير (ألم ير) بغير الواو والباقون بالواو، وإدخال الواو يدل على العطف لهذا القول على أمر تقدمه. قال صاحب (الكشاف): قرئ (رتَقًا) بفتح التاء، وكلاهما في معنى المفعول كالخلَق والنَفَض أي كانتا مرتوقتين، فإن قلت الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لأنه مصدر فما بال الرتق؟ قلت: هو على تقدير موصوف، أي كانتا شيئًا رتقًا.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: المراد من الرؤية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إما الرؤية وإما العلم، والأول مشكل، أما أولاً فلأن القوم ما رأوهما كذلك ألبتة، وأما ثانيًا فلقوله سبحانه وتعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٥١]، وأما العلم فمشكل لأن الأجسام قابلة للفتق والرتق في أنفسها، فالحكم عليها بالرتق أولاً وبالفتق ثانيًا لا سبيل إليه إلا السمع، والمناظرة مع الكفار الذين ينكرون الرسالة، فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال؟! والجواب: المراد من الرؤية هو العلم، وما ذكروه من السؤال فدَفْعه من وجوه: أحدها: أنا نثبت نبوة محمد ﷺ بسائر المعجزات، ثم نستدل بقوله، ثم نجعله دليلاً على حصول النظام في العالم وانتفاء الفساد عنه، وذلك يؤكد الدلالة المذكورة في التوحيد. وثانيًا: أن يُحمل الرتق والفتق على إمكان الرتق والفتق، والعقل يدل عليه لأن الأجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق، فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعي مخصصًا. وثالثها: أن اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك، فإنه جاء في التوراة: إن الله تعالى خلق جوهرة، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء، ثم خلق السموات والأرض منها وفتق بينها، وكان بين عبدة الأوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك في عداوة محمد ﷺ فاحتج الله

تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على أنهم يقبلون قول اليهود في ذلك.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ ولم يقل (كن رتقًا) لأن السموات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس، قال الأخفش: السموات نوع والأرض نوع، ومثله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين، ومرت بنا غنمان أسودان. لأن هذا القطيع غنم وذلك غنم.

المسألة الرابعة: الرتق في اللغة السد، يقال: رتقت الشيء فارتتق، والفتق: الفصل بين الشيئين الملتصقين. قال الزجاج: الرتق مصدر والمعنى: كانتا ذواتي رتق، قال المفضل: إنما لم يقل (كانتا رتقين) كقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: ٨] لأن كل واحد جسد، كذلك فيما نحن فيه كل واحد رتق.

المسألة الخامسة: اختلف المفسرون في المراد من الرتق والفتق على أقوال: أحدها: -وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم- أن المعنى: كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين، ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقر الأرض. وهذا القول يوجب أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء؛ لأنه تعالى لما فصل بينهما ترك الأرض حيث هي وأصعد الأجزاء السماوية، قال كعب: خلق الله السموات والأرض ملتصقتين، ثم خلق ريحًا توسطتهما ففتقهما بها. وثانيها: -وهو قول أبي صالح ومجاهد- أن المعنى كانت السموات مرتتقة فجعلت سبع سموات وكذلك الأرضون. وثالثها: -وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين- أن السموات والأرض كانتا رتقًا بالاستواء والصلابة، ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢] ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم، ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكرنا. فإن قيل: هذا الوجه مرجوح لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا. قلنا: إنما أطلق عليه لفظ الجمع لأن كل قطعة منها سماء، كما يقال: ثوب أخلاق وبرمة أعشار. واعلم أن هذا التأويل يُجوز حمل الرؤية على الإبصار. ورابعها: قول أبي مسلم الأصفهاني: يجوز أن يراد بالفتق الإيجاد والإظهار، كقوله: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ١١] وكقوله: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦] فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق، وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق. أقول: وتحقيقه أن العدم نفي محض، فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة، بل كأنه أمر واحد متصل متشابه، فإذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكون يتميز بعضها عن بعض وينفصل بعضها عن بعض، فبهذا الطريق حَسُن جعل الرتق مجازًا عن العدم والفتق عن الوجود. وخامسها: أن الليل سابق على النهار؛ لقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧] وكانت السموات والأرض مظلمة أولاً

ففتقهما الله تعالى بإظهار النهار المبصر. فإن قيل: فأي الأقاويل أليق بالظاهر؟ قلنا: الظاهر يقتضي أن السماء على ما هي عليه، والأرض على ما هي عليه كانتا رتقًا، ولا يجوز كونهما كذلك إلا وهما موجودان، والرتق ضد الفتق، فإذا كان الفتق هو المفارقة، فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة، وبهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحًا، ويصير الوجه الأول أَوْلى الوجوه ويتلوه الوجه الثاني، وهو أن كل واحد منهما كان رتقًا ففتقهما بأن جعل كل واحد منهما سبعًا، ويتلوه الثالث وهو أنهما كانا صُلبين من غير فطور وفُرج، ففتقهما لينزل المطر من السماء، ويظهر النبات على الأرض.

المسألة السادسة: دلالة هذه الوجوه على إثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة؛ لأن أحدًا لا يقدر على مثل ذلك، والأقرب أنه سبحانه خلقهما رتقًا لما فيه من المصلحة للملائكة، ثم لما أسكن الله الأرض أهلها جعلهما فتقًا لما فيه من منافع العباد.

النوع الثاني من الدلائل: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قوله: (وجعلنا) لا يخلو إما أن يتعدى إلى واحد أو اثنين، فإن تعدى إلى واحد فالمعنى (خلقنا من الماء كل حيوان) كقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥] أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه إليه وحبه له وقلة صبره عنه، كقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وإن تعدى إلى اثنين فالمعنى (صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه) و(مِن) هذا نحو (مِن) في قوله عليه السلام: «مَا أَنَا مِنْ دَدٍ وَلاَ الدَّدُ مِنِّي» وقرئ (حيًّا) وهو المفعول الثاني.

المسألة الثانية: **لقائل أن يقول**: كيف قال: وخلقنا من الماء كل حيوان، وقد قال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] وجاء في الأخبار أن الله تعالى خلق الملائكة من النور وقال تعالى في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠] وقال في حق آدم: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] والجواب: اللفظ وإن كان عامًّا إلا أن القرينة المخصصة قائمة، فإن الدليل لا بد وأن يكون مشاهدًا محسوسًا ليكون أقرب إلى المقصود، وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام؛ لأن الكفار لم يروا شيئًا من ذلك.

المسألة الثالثة: اختلف المفسرون: فقال بعضهم: المراد من قوله: ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ الحيوان فقط. وقال آخرون: بل يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماء، صار ناميًا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر. وهذا القول أليق بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حيًّا. حجة القول الأول أن النبات لا يسمى حيًّا، قلنا: لا نُسلِّم والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠].

أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الأدلة فيعلموا بها الخالق الذي لا يشبه غيره ويتركوا طريقة الشرك؟!

النوع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: (أن تميد بهم) كراهة أن تميد بهم أو لئلا تميد بهم، فحذف لا واللام الأولى وإنما جاز حذف (لا) لعدم الالتباس، كما ترى ذلك في قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩].

المسألة الثانية: الرواسي: الجبال، والراسي هو الداخل في الأرض.

المسألة الثالثة: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الأرض بُسطت على الماء فكانت تنكفئ بأهلها كما تنكفئ السفينة؛ لأنها بُسطت على الماء، فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال.

النوع الرابع: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): الفج: الطريق الواسع، فإن قلت: في الفجاج معنى الوصف، فمالها قُدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠]؟ قلت: لم تقدم وهي صفة، ولكنها جُعلت حالاً كقوله:

لِعَزَّةَ مُوحِشًا طَلَلٌ قَدِيمُ

والفرق من جهة المعنى أن قوله سبلاً فجاجًا، إعلام بأنه سبحانه جعل فيها طرقًا واسعة، وأما قوله: ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ فهو إعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة، فهذه الآية بيان لما أبهم في الآية الأولى.

المسألة الثانية: في قوله ﴿فِيهَا﴾ قولان: أحدهما: أنها عائدة إلى الجبال، أي وجعلنا في الجبال التي هي رواسي فجاجًا سبلاً، أي طرقًا واسعة، وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس. وعن ابن عمر قال: كانت الجبال منضمة فلما أغرق الله قوم نوح، فرقها فجاجًا وجعل فيها طرقًا. **الثاني:** أنها عائدة إلى الأرض، أي وجعلنا في الأرض فجاجًا وهي المسالك والطرق، وهو قول الكلبي.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ معناه لكي يهتدوا؛ إذ الشك لا يجوز على الله تعالى.

المسألة الرابعة: في (يهتدون) قولان: الأول: ليهتدوا إلى البلاد. والثاني: ليهتدوا إلى وحدانية الله تعالى بالاستدلال، قالت المعتزلة: وهذا التأويل يدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين الاهتداء. والكلام عليه قد تقدم، وفيه قول ثالث: وهو أن الاهتداء إلى البلاد والاهتداء إلى وحدانية الله تعالى يشتركان في مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء، فيحمل اللفظ على ذلك المشترك، وحينئذٍ تكون الآية متناولة للأمرين، ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملاً في مفهوميه معًا.

النوع الخامس: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: سمى السماء سقفًا؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت.

المسألة الثانية: في المحفوظ قولان: أحدهما: أنه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجري مثلهما على سائر السقوف، كقوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥] وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] وقال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]. الثاني: محفوظًا من الشياطين، قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧] ثم ههنا قولان: أحدهما: أنه محفوظ بالملائكة من الشياطين. والثاني: أنه محفوظ بالنجوم من الشياطين. والقول الأول أقوى لأن حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظمًا؛ لأنه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين، بخلاف القول الثاني لأنه لا يُخاف على السماء من استراق سمع الجن.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ معناه عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر في حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها، ومطالعها ومغاربها، واتصالات بعضها ببعض، وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة.

المسألة الرابعة: قرئ (عن آيتها) على التوحيد، والمراد الجنس، أي هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية، كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها، وحياة الأرض بأمطارها، وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته مُعْرضون.

النوع السادس: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه سبحانه لما قال: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ فَصَّل تلك الآيات ههنا؛ لأنه تعالى لو خلق السماء والأرض ولم يخلق الشمس والقمر ليُظهر بهما الليل والنهار ويُظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد - لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده، بل إنما يكون ذلك بسبب حركاتها في أفلاكها؛ فلهذا قال: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وتقريره أن نقول: قد ثبت بالأرصاد أن للكواكب حركات مختلفة، فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق إلى المغرب وهي حركة الشمس اليومية، ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة: وههنا حركة أخرى من المغرب إلى المشرق. قالوا: وهي ظاهرة في السبعة السيارة خفية في الثابتة. واستدلوا عليها بأنا وجدنا الكواكب السيارة كلما كان منها أسرع حركة إذا قارن ما هو أبطأ حركة، فإنه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق، وهذا في القمر ظاهر جدًا فإنه يظهر بعد الاجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس، ثم يزداد كل ليلة بعدًا منها إلى أن يقابلها

على قريب من نصف الشهر، وكل كوكب كان شرقيًا منه على طريقته في ممر البروج يزداد كل ليلة قربًا منه، ثم إذا أدركه ستره بطرفه الشرقي، وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربي، فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب إلى المشرق، وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالي البروج، فعرفنا أن لها حركة من المغرب إلى المشرق.

هذا ما قالوه ونحن خالفناهم فيه، وقلنا: إن ذلك محال؛ لأن الشمس مثلاً لو كانت متحركة بذاتها من المغرب إلى المشرق حركة بطيئة - ولا شك أنها متحركة بسبب الحركة اليومية من المغرب إلى المشرق - لزم كون الجرم الواحد متحركًا حركتين إلى جهتين مختلفتين دفعة احدة، وذلك محال لأن الحركة إلى الجهة تقتضي حصول المتحرك في الجهة المنتقل إليها، فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة إلى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة في مكانين وهو محال.

فإن قيل: لمَ لا يجوز أن يقال: الشمس حال حركتها إلى الجانب الشرقي تنقطع حركتها إلى الجانب الغربي وبالعكس، وأيضًا فما ذكرتموه ينتقض بحركة الرحى إلى جانب والنملة التي تكون عليها تتحرك إلى خلاف ذلك الجانب، **قلنا:** أما الأول فلا يستقيم على أصولكم لأن حركات الأفلاك مصونة عن الانقطاع عندكم، وأما الثاني فهو مثال محتمل، وما ذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان، أما الذي احتجوا به على أن للكواكب حركة من المغرب إلى المشرق فهو ضعيف، فإنه يقال: لمَ لا يجوز أن يقال: إن جميع الكواكب متحركة من المشرق إلى المغرب، إلا أن بعضها أبطأ من البعض فيتخلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تتحرك إلى خلاف تلك الجهة، مثلاً الفلك الأعظم استدارته من أول اليوم الأول إلى أول اليوم الثاني دورة تامة، وفلك الثوابت استدارته من أول اليوم الأول إلى أول اليوم الثاني دورة تامة إلا مقدار ثانية، فيظن أن فلك الثوابت تحرك من الجهة الأخرى مقدار ثانية ولا يكون كذلك، بل ذلك لأنه تخلف بمقدار ثانية، وعلى هذا التقدير فجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية، ثم يليها في السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل، وهكذا إلى أن ينتهي إلى فلك القمر فهو أبطأ الأفلاك حركة، وهذا الذي قلناه مع ما يشهد له البرهان المذكور فهو أقرب إلى ترتيب الوجود، فإن على هذا التقدير تكون نهاية الحركة الفلك المحيط وهو الفلك الأعظم ونهاية السكون الجرم الذي هو في غاية البعد وهو الأرض، ثم إن كل ما كان أقرب إلى الفلك المحيط كان أسرع حركة وما كان منه أبعد كان أبطأ. فهذا ما نقوله في حركات الأفلاك في أطوالها. وأما حركاتها في عروضها فظاهرة، وذلك بسبب اختلاف ميولها إلى الشمال والجنوب.

إذا ثبت هذا فنقول: لو لم يكن للكواكب حركة في الميل لكان التأثير مخصوصًا ببقعة واحدة، فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه، وكان الذي يقرب منه متشابه الأحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة، فإن كانت حارة أفنت الرطوبات فأحالتها كلها إلى النارية، وبالجملة فيكون الموضع المحاذي لممر الكواكب على كيفية وخط ما لا يحاذيه على كيفية

أخرى وخط المتوسط بينهما على كيفية أخرى، فيكون في موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والعجاجة، وفي موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفي موضع آخر ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج، ولو لم تكن عودات متتالية، وكان الكوكب يتحرك بطيئًا لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الإفراط، وكان يعرض قريبًا مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت، وأما إذا كان هناك ميل يحفظ الحركة في جهة مدة ثم ينتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى في كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصونًا عن طرفي الإفراط والتفريط. وبالجملة، فالعقول لا تقف إلا على القليل من أسرار المخلوقات، فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية!!

المسألة الثانية: أنه لا يجوز أن يقول: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ إلا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل، فصارت النجوم وإن لم تكن مذكورة أولاً فإنها مذكورة لعود هذا الضمير إليها، والله أعلم.

المسألة الثالثة: الفلك في كلام العرب كل شيء دائر، وجمعه أفلاك، واختلف العقلاء فيه: فقال بعضهم: الفلك ليس بجسم، وإنما هو مدار هذه النجوم. وهو قول الضحاك، وقال الأكثرون: بل هي أجسام تدور النجوم عليها، وهذا أقرب إلى ظاهر القرآن. ثم اختلفوا في كيفيته: فقال بعضهم: الفلك موج مكفوف تجري الشمس والقمر والنجوم فيه. وقال الكلبي: ماء مجموع تجري فيه الكواكب. واحتج بأن السباحة لا تكون إلا في الماء، قلنا: لا نسلم فإنه يقال في الفَرَس الذي يمد يديه في الجري سابح، وقال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة: إنها أجرام صُلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول، فأما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور في الكتب اللائقة به، والحق أنه لا سبيل إلى معرفة صفات السموات إلا بالخبر.

المسألة الرابعة: اختلف الناس في حركات الكواكب، والوجوه الممكنة فيها ثلاثة: فإنه إما أن يكون الفلك ساكنًا والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك في الماء الراكد، وإما أن يكون الفلك متحركًا والكواكب تتحرك فيه أيضًا إما مخالفًا لجهة حركته أو موافقًا لجهته، إما بحركة مساوية لحركة الفلك في السرعة والبطء أو مخالفة، وإما أن يكون الفلك متحركًا والكوكب ساكنًا:

أما الرأي الأول فقالت الفلاسفة: إنه باطل لأنه يوجب خرق الأفلاك وهو محال. وأما الرأي الثاني فحركة الكواكب إن فُرضت مخالفة لحركة الفلك فذاك أيضًا يوجب الخرق، وإن كانت حركتها إلى جهة الفلك فإن كانت مخالفة لها في السرعة والبطء لزم الانخراق، وإن استويا في الجهة والسرعة والبطء فالخرق أيضًا لازم؛ لأن الكواكب تتحرك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتية زائدة فيلزم الخرق، فلم يبق إلا القسم الثالث وهو أن يكون الكوكب مغروزًا

في الفلك واقفًا فيه والفلك يتحرك، فيتحرك الكوكب بسبب حركة الفلك، واعلم أن مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الأفلاك، وهو باطل، بل الحق أن الأقسام الثلاثة ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات، والذي يدل عليه لفظ القرآن أن تكون الأفلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة في الماء.

المسألة الخامسة: قال صاحب (الكشاف): ﴿كُلٌّ﴾ التنوين فيه عوض عن المضاف إليه، أي كلهم في فلك يسبحون. والله أعلم.

المسألة السادسة: احتج أبو علي بن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة بقوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قال: والجمع بالواو والنون لا يكون إلا للعقلاء، وبقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، والجواب: إنما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة، قال صاحب (الكشاف): فإن قلت: الجملة ما محلها؟ قلت: النصب على الحال من الشمس والقمر أو لا محل لها لاستئنافها، فإن قلت: لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون في فلك؟ قلت: هذا كقولهم: (كساهم الأمير حُلة وقلدهم سيفًا) أي كل واحد منهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما استدل بالأشياء الستة التي شرحناها في الفصل المتقدم وكانت تلك الأشياء من أصول النعم الدنيوية، أتبعه بما نبه به على أن هذه الدنيا جعلها كذلك لا لتبقى وتدوم أو يبقى فيها من خُلقت الدنيا له، بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان، ولكي يتوصل بها إلى الآخرة التي هي دار الخلود.

فأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: أحدها: قال مقاتل: إن أناسًا كانوا يقولون: إن محمدًا ﷺ لا يموت. فنزلت هذه الآية. **وثانيها**: كانوا يُقدرون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا، أي قضى الله تعالى أن لا يخلد في الدنيا بشرًا فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت أفان مت أنت أيبقى هؤلاء؟ لا وفي معناه قول القائل:

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كما لقينا

وثالثها: يحتمل أنه لما ظهر أنه عليه السلام خاتم الأنبياء، جاز أن يقدر مقدر أنه لا يموت إذ لو مات لتغير شرعه، فنبه الله تعالى على أن حاله كحال غيره من الأنبياء عليهم السلام في الموت.

أما قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ ففيه أبحاث:

البحث الأول: أن هذا العموم مخصوص فإنه تعالى نفس لقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦] مع أن الموت لا يجوز عليه، وكذا الجمادات لها نفوس وهي لا تموت، والعام المخصوص حجة فيبقى معمولاً به فيما عدا هذه الأشياء، وذلك يُبطل قول الفلاسفة في أن الأرواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية لا تموت. والثاني: الذوق ههنا لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأن الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق بل الذوق، إدراك خاص فيجوز جعله مجازًا عن أصل الإدراك، وأما الموت فالمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة لأن الموت قبل دخوله في الوجود يمتنع إدراكه، وحال وجوده يصير الشخص ميتًا ولا يدرك شيئًا. والثالث: الإضافة في ذائقة الموت في تقدير الانفصال لأنه لما يستقبل، كقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١]، و﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥].

أما قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الابتلاء لا يتحقق إلا مع التكليف، فالآية دالة على حصول التكليف، وتدل على أنه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ما أمر ونهى وإن كان فيه صعوبة، بل ابتلاه بأمرين: أحدهما: ما سماه خيرًا، وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات. والثاني: ما سماه شرًا، وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين، فبيَّن تعالى أن العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين؛ لكي يشكر على المِنَح ويصبر في المحن، فيعظم ثوابه إذا قام بما يلزم.

المسألة الثانية: إنما سَمى ذلك ابتلاء وهو عالِم بما سيكون من أعمال العالمين قبل وجودهم؛ لأنه في صورة الاختبار.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): (فِتْنَةً) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه.

المسألة الرابعة: احتجت التناسخية بقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فإن الرجوع إلى موضع مسبوق بالكون فيه. والجواب: أنه مذكور مجازًا.

المسألة الخامسة: المراد من قوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أنهم يرجعون إلى حكمه ومحاسبته ومجازاته، فبيَّن بذلك بطلان قولهم في نفي البعث والمعاد، واستدلت التناسخية بهذه الآية، وقالوا: إن الرجوع إلى موضع مسبوق بالكون فيه، وقد كنا موجودين قبل دخولنا في هذا العالم. واستدلت المجسمة بأنا أجسام، فرجوعنا إلى الله تعالى يقتضي كون الله تعالى جسمًا. والجواب عنه قد تقدم في مواضع كثيرة.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ قال السدي ومقاتل: نزلت هذه الآية في أبي جهل، مر به النبي ﷺ وكان أبو سفيان مع أبي جهل، فقال أبو جهل لأبي سفيان: هذا نبي بني عبد مناف. فقال أبو سفيان: وما تنكر أن يكون نبيًا في بني عبد مناف.

فسمع النبي ﷺ قولهما فقال لأبي جهل: «مَا أَرَاكَ تَنْتَهِي حَتَّى يَنْزِلَ بِكَ مَا نَزَلَ بِعَمِّكَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا سُفْيَانَ، فَإِنَّمَا قُلْتَ مَا قُلْتَ حَمِيَّةً»[1] فنزلت هذه الآية، ثم فسر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ والذكر يكون بخير وبخلافه، فإذا دلت الحال على أحدهما أُطلق ولم يقيد كقولك للرجل: (سمعت فلانًا يذكرك) فإن كان الذاكر صديقًا فهو ثناء، وإن كان عدوًّا فهو ذم، ومنه قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] والمعنى أنه يُبطل كونها معبودة ويُقبح عبادتها.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فالمعنى أنه يعيبون عليه ذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء، مع (أنهم بذكر الرحمن) الذي هو المنعم الخالق المحيي المميت (كافرون) ولا فعل أقبح من ذلك، فيكون الهزؤ واللعب والذم عليهم يعود من حيث لا يشعرون، ويحتمل أن يراد ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ القرآن والكتب، والمعنى في إعادة (هم) أن الأولى إشارة إلى القوم الذين كانوا يفعلون ذلك الفعل، والثانية إبانة لاختصاصهم به، وأيضًا فإن في إعادتها تأكيدًا وتعظيمًا لفعلهم.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٣٩ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١﴾

أما قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ . **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في المراد من الإنسان قولان: أحدهما: أنه النوع، والثاني: أنه شخص معين. **أما القول الأول:** فتقريره أنهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ فأراد زجرهم عن ذلك، فقدم أولاً ذم الإنسان على إفراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم، كأنه قال: لا يبعد منكم أن تستعجلوا فإنكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم، **فإن قيل:** مقدمة الكلام لا بد وأن تكون مناسبة للكلام، وكون الإنسان مخلوقًا من العجل يناسب كونه معذورًا فيه فلم رتب على هذه المقدمة قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾؟ **قلنا:** لأن العائق كلما كان أشد، كانت القدرة على مخالفته أكمل، فكأنه سبحانه نبه بهذا على أن ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها.

---

(١) لم أجده.

أما القول الثاني: -وهو أن المراد شخص معين- فهذا فيه وجهان: **أحدهما:** أن المراد آدم عليه السلام، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي والكلبي ومقاتل والضحاك، وروى ابن جريج وليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: خلق الله آدم عليه السلام بعد كل شيء من آخر نهار الجمعة، فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله، قال: يا رب استعجل خلقي قبل غروب الشمس. قال ليث: فذلك قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ وعن السدي: لما نفخ فيه الروح فدخل في رأسه عطس، فقالت له الملائكة: قل الحمد لله. فقال ذلك، فقال الله له: يرحمك ربك. فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، ولما دخل الروح في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه إلى ثمار الجنة. وهذا هو الذي أورث أولاده العجلة. **وثانيهما:** قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث والمراد بالإنسان هو. واعلم أن القول الأول أَوْلى لأن الغرض ذم القوم، وذلك لا يحصل إلا إذا حملنا لفظ الإنسان على النوع.

المسألة الثانية: من المفسرين من أجرى هذه الآية على ظاهرها ومنهم من قلبها: **أما الأولون فلهم فيها أقوال: أحدها:** قول المحققين وهو أن قوله: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ أي خُلق عجولاً، وذلك على المبالغة، كما قيل للرجل الذكي: هو نار تشتعل، والعرب قد تسمي المرء بما يكثر منه فتقول: ما أنت إلا أكل ونوم، وما هو إلا إقبال وإدبار، قال الشاعر:

أَمَّا إِذَا ذُكِرَتْ حَتَّى إِذَا غَفَلَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ

وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾[الإسراء: ١١] قال المبرد: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ أي: من شأنه العجلة كقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾[الروم: ٥٤] أي ضعفاء.

وثانيها: قال أبو عبيد: العجل: الطين بلغة حمير، وأنشدوا:

وَالنَّخْلُ يَنْبُتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ

وثالثها: قال الأخفش: (من عجل) أي من تعجيل من الأمر وهو قوله: (كن). **ورابعها:** من عجل، أي من ضعف. عن الحسن.

أما الذين قلبوها فقالوا: المعنى: خلق العجل من الإنسان، كقوله: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[الأحقاف: ٢٠] أي تُعرض النار عليهم. والقول الأول أقرب إلى الصواب وأبعد الأقوال هذا القلب، لأنه إذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه، فهو أَوْلى من أن يُحمل على أنه مقلوب، وأيضًا فإن قوله: (خُلقت العجلة من الإنسان) فيه وجوه من المجاز. فما الفائدة في تغيير النظم إلى ما يجري مجراه في المجاز؟!

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب، ومَن هذا حاله لا يكون مستعجلاً على الحقيقة. **قلنا:** استعجالهم على هذا الوجه أدخل في الذم لأنه إذا ذم المرء استعجال الأمر المعلوم فبأن يُذم على استعجال ما لا يكون معلومًا له كان أولى، وأيضًا فإن

استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا - يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك، فكانوا مستعجلين في الحقيقة.

أما قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فقد اختلفوا في المراد بالآيات على أقوال: **أحدها:** أنها هي الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة؛ ولذلك قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي أنها ستأتي لا محالة في وقتها. **وثانيها:** أنها أدلة التوحيد وصدق الرسول. **وثالثها:** أنها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والأول. أقرب إلى النظم.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فاعلم أن هذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء، وهو كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] فبيَّن تعالى أنهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم، ثم إنه سبحانه ذكر في رفع هذا الحزن عن قلب رسول الله ﷺ وجهين: الأول: بأن بَيَّن ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد فقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): جواب (لو) محذوف و(حين) مفعول به ليعلم أي لو يعلمون الوقت الذي يسألون عنه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من قدام ومن خلف، فلا يقدرون على دفعها عن أنفسهم، ولا يجدون أيضًا ناصرًا ينصرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذي هونه عليهم، وإنما حَسُن حذف الجواب لأن ما تقدم يدل عليه، وهذا أبلغ، ومثله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٥٠]، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١] وإنما خص الوجوه والظهور لأن مس العذاب لهما أعظم موقعًا، ولكثرة ما يستعمل ذكرهما في دفع المضرة عن النفس. ثم إنه تعالى لما بيَّن شدة هذا العذاب بيَّن أن وقت مجيئه غير معلوم لهم، بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين ولا لأمرها مستعدين، فتبهتهم أي تدعهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة في ردها ولا عما يأتيهم منها مصرفًا، ولا هم يُنظرون أي لا يمهلون لتوبة ولا معذرة. واعلم أن الله تعالى إنما لم يُعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة؛ لأن المرء مع كتمان ذلك أشد حذرًا وأقرب إلى التلافي. ثم إنه سبحانه ذكر الوجه الثاني في دفع الحزن عن قلب رسوله فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ والمعنى: ولقد استهزئ برسل من قبلك يا محمد كما استهزأ بك قومك ﴿فَحَاقَ﴾ أي نزل وأحاط ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي عقوبة استهزائهم و(حاق وحق) بمعنى كزال وزل، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، والمعنى: فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝٤٣ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن أن الكفار في الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به، أتبعه بأنهم في الدنيا أيضًا لولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا في السلامة، فقال لرسوله: قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزئون ويغترون بما هم عليه: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهذا كقول الرجل لمن حصل في قبضته ولا مخلص له منه إلى أين مفرّك مني؟! هل لك محيص عني؟! والكالئ: الحافظ.

وأما قوله: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في معناه وجوه: أحدها: (من يكلؤكم من الرحمن) أي مما يقدر على إنزاله بكم من عذاب تستحقونه. وثانيها: من بأس الله في الآخرة. وثالثها: من القتل والسبي وسائر ما أباحه الله لكفرهم، فبيَّن سبحانه أنه لا حافظ لهم ولا دافع عن هذه الأمور لو أنزلها بهم، ولولا تفضله بحفظهم لما عاشوا ولما مُتعوا بالدنيا.

المسألة الثانية: إنما خص ههنا اسم الرحمن بالذكر تلقينًا للجواب حتى يقول العاقل: أنت الكالئ يا إلهنا لكل الخلائق برحمتك، كما في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] إنما خص اسم الكريم بالذكر تلقينًا للجواب.

المسألة الثالثة: إنما ذكر الليل والنهار لأن لكل واحد من الوقتين آفات تختص به، والمعنى: من يحفظكم بالليل إذا نمتم وبالنهار إذا تصرفتم في معايشكم؟

أما قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ فالمعنى أنه تعالى مع إنعامه عليهم ليلاً ونهارًا بالحفظ والحراسة فهم، عن ذكر ربهم الذي هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن - معرضون فلا يتأملون في شيء منها ليعرفوا أنه لا كالئ لهم سواه، ويتركون عبادة الأصنام التي لا حظ لها في حفظهم ولا في الإنعام عليهم.

أما قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فاعلم أن الميم صلة، يعني ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا، والتقدير ألهم آلهة من دوننا تمنعهم؟ وتم الكلام، ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا خبر مبتدأ محذوف أي: فهذه الآلهة لا تستطيع حماية أنفسها عن الآفات، وحماية النفس أَوْلى من حماية

الغير، فإذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها؟! وفي قوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قولان: الأول: قال المازني: أصحبت الرجل، إذا منعته فقوله: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ من ذلك لا من الصحبة. الثاني: أن الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة، وكلها سواء في المعنى، يقال: صحبك الله ونصرك الله ويقال للمسافر: في صحبة الله وفي حفظ الله. فالمعنى: ولا هم منا في نصرة ولا إعانة، والحاصل أن من لا يكون قادرًا على دفع الآفات ولا يكون مصحوبًا من الله بالإعانة، كيف يقدر على شيء؟! ثم بَيَّن سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ يعني ما حملهم على الإعراض إلا الاغترار بطول المهلة. يعني طالت أعمارهم في الغفلة، فنسوا عهدنا وجهلوا موقع مواقع نعمتنا واغتروا بذلك.

أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا﴾ فالمعنى: أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب -آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها نأخذ الواحد بعد الواحد ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة، ونزيدها في ملك محمد ﷺ ونُميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا، وننقص من الشرك بإهلاك أهله، أمَا كان لهم في ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله ﷺ ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من الله وإرادته فيهم، ولا يقدرون على مغالبته؟! ثم قال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي فهؤلاء هم الغالبون أم نحن؟ وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع، والمعنى: بل نحن الغالبون وهم المغلوبون. وقد مضى الكلام في هذه الآية في سورة الرعد.

وفي تفسير النقصان وجوه: أحدها: قال ابن عباس ومقاتل والكلبي رضي الله عنهم: ننقصها بفتح البلدان. وثانيها: قال ابن عباس في رواية أخرى: يريد نقصان أهلها وبركتها. وثالثها: قال عكرمة: تخريب القرى عند موت أهلها. ورابعها: بموت العلماء. وهذه الرواية إن صحت عن رسول الله ﷺ فلا يُعدل عنها وإلا فالأظهر من الأقاويل ما يتعلق بالغلبة فلذلك قال: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ والذي يليق بذلك أنه ينقصها عنهم ويزيدها في بلاد الإسلام، قال القفال: نزلت هذه الآية في كفار مكة، فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء؟ فبَيَّن تعالى أن كل ذلك من العبر التي لو استعملوا عقلهم فيها لأعرضوا عن جهلهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما كرر في القرآن الأدلة وبالغ في التنبيه عليها على ما تقدم، أتبعه بقوله: ﴿قُلْ

﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ أي بالقرآن الذي هو كلام ربكم، فلا تظنوا أن ذلك من قِبلي بل الله آتيكم به وأمرني بإنذاركم، فإذا قمت بما ألزمني ربي فلم يقع منكم القبول والإجابة، فالوبال عليكم يعود، ومثلهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من إنذاره مع كثرته وتواليه بالصُّم الذين لا يسمعون أصلاً؛ إذ الغرض بالإنذار ليس السماع، بل التمسك به في إقدام على واجب وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق، فإذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع. قال صاحب (الكشاف): قرئ (ولا تسمع الصم الدعاء) بالتاء والياء، أي لا تُسمع أنت أو لا يُسمع رسول الله أو لا يَسمع الصم من أسمع.
فإن قلت: الصم لا تسمع دعاء البشر كما لا يسمعون دعاء المنذر، فكيف قال: إذا ما ينذرون؟ **قلت:** اللام في الصم إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس، والأصل (ولا يسمعون الدعاء إذا ما ينذرون) فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصاممهم وسدهم أسماعهم إذا أُنذروا، أي هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصامم عن آيات الإنذار. ثم بين تعالى أن حالهم سيتغير إلى أن يصيروا بحيث إذا شاهدوا اليسير مما أُنذروا به، فعنده يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وأصل النفح من الريح اللينة، والمعنى: ولئن مسهم شيء قليل من عذاب الله كالرائحة من الشيء دون جسمه، لتنادوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم. قال صاحب (الكشاف): في المس والنفحة ثلاث مبالغات: لفظ المس وما في النفح من معنى القلة والنزارة، يقال: نفحته الدابة وهو رَمْح يسير ونفحه بعطية رضخه، ولفظ المرة.

ثم بَيَّن سبحانه وتعالى أن جميع ما ينزل بهم في الآخرة لا يكون إلا عدلاً، فهم وإن ظلموا أنفسهم في الدنيا فلن يُظلموا في الآخرة، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾ وصفها الله تعالى بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيمًا وقد يكون بخلافه، فبَيَّن أن تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط، وأكد ذلك بقوله: ﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ **وههنا مسائل:**

المسألة الأولى: معنى وضعها إحضارها، قال الفراء: القسط صفة الموازين وإن كان موحدًا؛ وهو كقولك للقوم: أنتم عَدْل. وقال الزجاج: ونضع الموازين ذوات القسط. وقوله: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قال الفراء في يوم القيامة. وقيل: لأهل يوم القيامة.

المسألة الثانية: في وضع الموازين قولان: **أحدهما:** قال مجاهد: هذا مَثَل، والمراد بالموازين العدل. ويروى مثله عن قتادة والضحاك والمعنى: بالوزن القسط بينهم في الأعمال، فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه، يعني أن حسناته تذهب بسيئاته، ومن أحاطت سيئاته بحسناته فقد خفت موازينه، أي أن سيئاته تذهب بحسناته، حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. **الثاني:** -وهو قول أئمة السلف- أنه سبحانه يضع الموازين الحقيقية فتوزن بها الأعمال، وعن الحسن: هو ميزان له كفتان ولسان، وهو بيد جبريل عليه السلام. ويروى: «**أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ الْمِيزَانَ، فَلَمَّا رَآهُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: يَا إِلَهِي مَنِ الَّذِي**

يَقْدِرُ أَنْ يَمْلأَ كِفَّتَهُ حَسَنَاتٍ؟! فَقَالَ: يَا دَاوُدُ إِنِّي إِذَا رَضِيتُ عَنْ عَبْدِي مَلأْتُهَا بِتَمْرَةٍ»[١] .

ثم على هذا القول في كيفية وزن الأعمال طريقان: **أحدهما:** أن توزن صحائف الأعمال. **والثاني:** يجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة. **فإن قيل:** أهل القيامة إما أن يكونوا عالمين بكونه سبحانه وتعالى عادلاً غير ظالم أو لا يعلمون ذلك: فإن علموا ذلك كان مجرد حكمه كافيًا في معرفة أن الغالب هو الحسنات أو السيئات، فلا يكون في وضع الميزان فائدة ألبتة، وإن لم يعلموا لم تحصل الفائدة في وزن الصحائف لاحتمال أنه سبحانه جعل إحدى الصحيفتين أثقل أو أخف ظلمًا، فثبت أن وضع الميزان على كلا التقديرين خالٍ عن الفائدة. **وجوابه على قولنا:** قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وأيضًا ففيه ظهور حال الولي من العدو في مجمع الخلائق، فيكون لأحد القبيلين في ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغم، ويكون ذلك بمنزلة نشر الصحف وغيره.

إذا ثبت هذا فنقول: الدليل على وجود الموازين الحقيقية أن حمل هذا اللفظ على مجرد العدل مجاز، وصَرْف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة غير جائز، لا سيما وقد جاءت الأحاديث الكثيرة بالأسانيد الصحيحة في هذا الباب.

المسألة الثالثة: قال قوم: إن هذه الآية يناقضها قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، والجواب: أنه لا يكرمهم ولا يعظمهم.

المسألة الرابعة: إنما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم وهو جمع تفخيم، ويجوز أن يرجع إلى الموزونات.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ فالمعنى أنه لا يُنقص من إحسان محسن، ولا يزاد في إساءة مسيئ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرئ: (مِثْقالُ حَبَّةٍ) على كان التامة، كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: (آتَيْنَا بِهَا) وهي مفاعلة من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة؛ لأنهم أتوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء، وقرأ حميد: (أثبنا بها) من الثواب، وفي حرف أُبي (جئنا بها).

المسألة الثانية: لمَ أنث ضمير المثقال؟ قلنا: لإضافته إلى الحبة، كقولهم: ذهبَتْ بعض أصابعه.

المسألة الثالثة: زعم الجبائي أن من استحق مائة جزء من العقاب، فأتى بطاعة يستحق بها خمسين جزءًا من الثواب، فهذا الأقل يتحبط بالأكثر، ويبقى الأكثر كما كان.

واعلم أن هذه الآية تُبطل قوله لأن الله تعالى تَمَدَّح بأن اليسير من الطاعة لا يسقط، ولو كان الأمر كما قال الجبائي لسقطت الطاعة من غير فائدة.

---

(١) لم اجده.

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: قوله: ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ﴾ فيه دلالة على أن مثل ذلك لو ابتدأه الله تعالى لكان قد ظلم، فدل هذا الوجه على أنه تعالى لا يعذب من لا يستحق ولا يفعل المضار في الدنيا إلا للمنافع والمصالح. **والجواب**: الظلم هو التصرف في ملك الغير، وذلك في حق الله تعالى محال لأنه المالك المطلق، ثم الذي يدل على استحالة الظلم عليه عقلاً أن الظلم عند الخصم مستلزم للجهل أو الحاجة المحالين على الله تعالى، ومستلزم المحال محال، فالظلم على الله تعالى محال. وأيضًا فإن الظالم سفيه خارج عن الإلهية، فلو صح منه الظلم لصح خروجه عن الإلهية، فحينئذٍ يكون كونه إلهًا من الجائزات لا من الواجبات، وذلك يقدح في إلهيته.

المسألة الخامسة: إن قيل: الحبة أعظم من الخردلة، فكيف قال: حبة من خردل؟ **قلنا**: الوجه فيه أن تفرض الخردلة كالدينار ثم تعتبر الحبة من ذلك الدينار. والغرض المبالغة في أن شيئًا من الأعمال صغيرًا كان أو كبيرًا غير ضائع عند الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ فالغرض منه التحذير، فإن المحاسِب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء - حقيق بالعاقل أن يكون في أشد الخوف منه، ويروى عن الشبلي رحمه الله تعالى أنه رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال:

حَاسَبُونَا فَدَقَّقُوا ثم مَنُّوا فأعتقوا [(١)]

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه لما تكلم في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، شَرَع في قصص الأنبياء عليهم السلام، تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها، وذكر ههنا منها قصصًا.

---

(١) هذا البيت لمحيي الدين بن عربي وهو هكذا.

حاسَبونا فدققوا قيَّدونا فأوثقوا

ومحيي الدين بن عربي هو: محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي. ٥٦٠- ٦٤٠ هـ/ ١١٦٤- ١٢٤٢ م، فيلسوف من أئمة المتكلمين في كل علم، وُلد في مرسية بالأندلس وانتقل إلى إشبيلية وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز، وأنكر عليه أهل الديار المصرية (شطحات) صدرت عنه، فعمل بعضهم على إراقة دمه، وحبس فسعى في خلاصه علي بن فتح البجائي، واستقر في دمشق ومات فيها.

(القصة الأولى، قصة موسى عليه السلام)

ووجه الاتصال أنه تعالى لما أمر رسوله ﷺ أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥] أتبعه بأن هذه عادة الله تعالى في الأنبياء قبله فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ واختلفوا في المراد بالفرقان على أقوال: **أحدها**: أنه هو التوراة، فكان فرقانًا إذ كان يفرق به بين الحق والباطل، وكان ضياء إذ كان لغاية وضوحه يتوصل به إلى طرق الهدى وسبل النجاة في معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع، وكان ذكرى، أي موعظة أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم أو الشرف، أما الواو في قوله: ﴿وَضِيَآءً﴾ فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ (ضياء) بغير واو وهو حال من الفرقان، وأما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرى للمتقين. والمعنى أنه في نفسه ضياء وذكرى أو آتيناهما بما فيه الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى.

القول الثاني: أن المراد من الفرقان ليس التوراة. ثم فيه وجوه: أحدها: عن ابن عباس رضي الله عنهما الفرقان هو النصر الذي أوتي موسى عليه السلام، كقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] يعني يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من الأديان الباطلة. وثانيها: هو البرهان الذي فرق به دين الحق عن الأديان الباطلة، عن ابن زيد. وثالثها: فلق البحر عن الضحاك. ورابعها: الخروج عن الشبهات، قال محمد بن كعب واعلم أنه تعالى إنما خصص الذكرى بالمتقين لما في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ فقال صاحب (الكشاف): محل (الذين) جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه. وفي معنى الغيب وجوه: أحدها: يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه، وإيمانهم بالله غيبي استدلالي، فالعباد يعملون لله في الغيب والله لا يغيب عنه شيء، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وثانيها: يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها. وثالثها: يخشون ربهم في الخلوات إذا غابوا عن الناس. وهذا هو الأقرب، والمعنى أن خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم، إلا أن ذلك مما يظهرونه في الملا دون الخلا ﴿وَهُم مِّنَ﴾ عذاب ﴿مُشْفِقُونَ﴾ وسائر ما يجري فيها من الحساب والسؤال ﴿مُشْفِقُونَ﴾ فيعدلون بسبب ذلك الإشفاق عن معصية الله تعالى، ثم قال: وكما أنزلتُ عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن المنزل عليك. وهو معنى قوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ بركته كثرة منافعه وغزارة علومه، وقوله: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ فالمعنى أنه لا إنكار في إنزاله وفي عجائب ما فيه، فقد آتينا موسى وهارون التوراة، ثم هذا القرآن معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الأدلة العقلية وبيان الشرائع، فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم إنكاره؟!

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(القصة الثانية. (قصة) إبراهيم عليه السلام)

اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: في الرشد قولان: الأول: أنه النبوة. واحتجوا عليه بقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ قالوا: لأنه تعالى إنما يَخص بالنبوة مَن يعلم من حاله أنه في المستقبل يقوم بحقها ويجتنب ما لا يليق بها ويحترز عما ينفر قومه من القبول. والثاني: أنه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين، والدنيا قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٦] وفيه قول ثالث: وهو أن تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد إذ لا يجوز أن يبعث نبي إلا وقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته، ودله أيضًا على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا في أن الإيمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية، فإنه لو كان الرشد هو التوفيق والبيان، فقد فعل الله تعالى ذلك بالكفار، فيجب أن يكون قد آتاهم رشدهم. أجاب الكعبي بأن هذا يقال فيمن قبل لا فيمن رد، وذلك كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثَمَّره ورَدَّه الآخر أو أخذه ثم ضيعه. فيقال: (أغنى فلان ابنه) فيمن أثمر المال، ولا يقال مثله فيمن ضيع. والجواب عنه: هذا الجواب لا يتم إلا إذا جعلنا قبوله جزءًا من مسمى الرشد وذلك باطل؛ لأن المسمى إذا كان مركبًا من جزأين ولا يكون أحدهما مقدور الفاعل، لم يجز إضافة ذلك المسمى إلى ذلك الفاعل، فكان يلزم أن لا يجوز إضافة الرشد إلى الله تعالى بالمفعولية، لكن النص وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ صريح في أن ذلك الرشد إنما حصل من الله تعالى، فبطل ما قالوه.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): قرئ (رَشَده) كالعَدَم والعُدْم، ومعنى إضافته إليه أنه رشد مثله وأنه رشد له شأن.

أما قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ ففيه وجوه: أحدها: آتينا إبراهيم نبوته واهتداءه من قبل موسى عليه السلام. عن ابن عباس وابن جرير. وثانيها: في صغره قبل بلوغه حين كان في السرب وظهرت له الكواكب فاستدل بها. وهذا على قول من حمل الرشد على الاهتداء، وإلا لزمه أن يحكم بنبوته عليه السلام قبل البلوغ. عن مقاتل. وثالثها: يعني حين كان في صلب آدم عليه السلام حين أخذ الله ميثاق النبيين. عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الضحاك.

أما قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ فالمراد أنه سبحانه علم منه أحوالاً بديعة وأسرارًا عجيبة وصفات قد رضيها حتى أهَّله لأن يكون خليلاً له، وهذا كقولك في رجل كبير: (أنا عالم بفلان) فإن هذا الكلام في الدلالة على تعظيمه أدل مما إذا شرحت جلال كماله.

أما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ فقال صاحب (الكشاف): (إذ) إما أن تتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف، أي اذكر من أوقات رشده هذا الوقت.

أما قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: التمثال اسم للشيء المصنوع مشبهًا بخلق من خلق الله تعالى، وأصله من مَثَّلت الشيء بالشيء إذا شبهته به، واسم ذلك الممثل تمثال.

المسألة الثانية: أن القوم كانوا عُباد أصنام على صور مخصوصة كصورة الإنسان أو غيره، فجعل عليه السلام هذا القول منه ابتداء كلامه؛ لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة فيبطلها عليهم.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): لم ينو للعاكفين مفعولاً وأجراه مجرى ما لا يتعدى، كقولك فاعلون للعكوف أو واقفون لها. قال: فإن قلت: هلا قيل (عليها عاكفون) كقوله: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ ؟ [الأعراف: ١٣٨] قلت: لو قصد التعدية لعداه بصلته التي هي (على).

أما قوله: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ فاعلم أن القوم لم يجدوا في جوابه إلا طريقة التقليد الذي يوجب مزيد النكير؛ لأنهم إذا كانوا على خطأ من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ أن آباءهم أيضًا سلكوا هذا الطريق، فلا جرم أجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فبيَّن أن الباطل لا يصير حقًّا بسبب كثرة المتمسكين به، فلما حقق عليه السلام ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصًا، ورأوه ثابتًا على الإنكار قوى القلب فيه، وكانوا يستبعدون أن يجري مثل هذا الإنكار عليهم مع كثرتهم وطول العهد بمذهبهم؛ فعند ذلك قالوا له: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ موهمين بهذا الكلام أنه يبعد أن يُقْدم على الإنكار عليهم جادًّا في ذلك، فعنده عدل ﷺ إلى بيان التوحيد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

اعلم أن القوم لما أوهموا أنه يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم، أظهر عليه السلام ما

يعلمون به أنه مُجِد في إظهار الحق الذي هو التوحيد، وذلك بالقول أولاً وبالفعل ثانيًا:

أما الطريقة القولية: فهي قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذي خلقهما لمنافع العباد هو الذي يحسن أن يعبد؛ لأن من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع في الدار الآخرة بالعقاب والثواب، فيرجع حاصل هذه الطريقة إلى الطريقة التي ذكرها لأبيه في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] قال صاحب (الكشاف): الضمير في (فطرهن) للسموات والأرض أو للتماثيل، وكونه للتماثيل أدخل في الاحتجاج عليهم.

اما قوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ففيه وجهان: الأول: أن المقصود منه المبالغة في التأكيد والتحقيق، كقول الرجل إذا بالغ في مدح أحد أو ذمه: (أشهد أنه كريم أو ذميم). والثاني: أنه عليه السلام عنى بقوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ادعاء أنه قادر على إثبات ما ذكره بالحجة، وأني لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة، كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم.

وأما الطريقة الفعلية: فهي قوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فإن القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية، عَدَل إلى أن أراهم عدم الفائدة في عبادتها، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه: (وبالله)، وقرئ (تَوَلَّوا) بمعنى تتولوا ويقويها قوله: ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: ٩٠] فإن قلت: ما الفرق بين الباء والتاء؟ قلت: إن الباء هي الأصل والتاء بدل من الواو المبدل منها، والتاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده لأن ذلك كان أمرًا مقنوطًا منه لصعوبته.

المسألة الثانية: إن قيل: لماذا قال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ والكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى في الأصنام؟ وجوابه: قال ذلك توسعًا لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها، وقيل: المراد لأكيدنكم في أصنامكم. لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم.

المسألة الثالثة: في كيفية أول القصة وجهان: أحدهما: قال السدي: كانوا إذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الأصنام فسجدوا لها ثم عادوا إلى منازلهم، فلما كان هذا الوقت قال آزر لإبراهيم عليه السلام: (لو خرجتَ معنا)،فخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال: إني سقيم أشتكي رجلي فلما مضوا وبقي ضعفاء الناس نادى وقال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ واحتج هذا القائل بقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ . وثانيها: قال الكلبي: كان إبراهيم عليه السلام من أهل بيت ينظرون في النجوم، وكانوا إذا خرجوا إلى عيدهم لم يتركوا إلا مريضًا، فلما هَمَّ إبراهيم بالذي هَمَّ به من كسر الأصنام، نظر قبل يوم العيد إلى السماء فقال لأصحابه: (أراني أشتكي غدًا) فذلك قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩] وأصبح من الغد معصوبًا رأسه، فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره

فقال: أما والله لأكيدن أصنامكم!! وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه، ثم إن ذلك الرجل أخبر غيره وانتشر ذلك في جماعة فلذلك قال تعالى: ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ واعلم أن كلا الوجهين ممكن.

ثم تمام القصة أن إبراهيم عليه السلام لما دخل بيت الأصنام، وجد سبعين صنمًا مصطفة، وثَم صنم عظيم مستقبل الباب، وكان مِن ذهبٍ وكان في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل، فكسرها كلها بفأس في يده حتى لم يبق إلا الكبير، ثم علق الفأس في عنقه.

أما قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: إن قيل: لم قال: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ وهذا جمع لا يليق إلا بالناس؟ جوابه: من حيث اعتقدوا فيها أنها كالناس في أنها تُعظَّم ويُتقرب اليها، ولعل كان فيهم من يظن أنها تضر وتنفع.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): جذاذًا: قطِعًا من الجذ وهو القطع، وقرىء بالكسر والفتح وقرئ (جُذاذًا) جمع جذيذ و(جِذذًا) جمع جذة.

المسألة الثالثة: إن قيل: ما معنى: ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾؟ قلنا: يحتمل الكبير في الخلقة، ويحتمل في التعظيم، ويحتمل في الأمرين. وأما قوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ فيحتمل رجوعهم إلى إبراهيم عليه السلام، ويحتمل رجوعهم إلى الكبير: أما الأول: فتقريره من وجهين: الأول: أن المعنى أنهم لعلهم يرجعون إلى مقالة إبراهيم ويعدلون عن الباطل. والثاني: أنه غلب على ظنه أنهم لا يرجعون إلا إليه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم، فبكّتهم بما أجاب به من قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣] أما إذا قلنا: الضمير راجع إلى الكبير ففيه وجهان: الأول: أن المعنى لعلهم يرجعون إليه كما يُرجع إلى العالم في حل المشكلات فيقولون: ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيحًا والفأس على عاتقك؟! وهذا قول الكلبي، وإنما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم، فلعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تجيب وتتكلم. والثاني: أنه عليه السلام قال ذلك مع علمه أنهم لا يرجعون إليه استهزاء بهم، وإن قياس حال من يُسجد له ويؤهل للعبادة أن يُرجع إليه في حل المشكلات.

المسألة الرابعة: إن قيل: أولئك الأقوام إما أن يقال إنهم كانوا عقلاء أو ما كانوا عقلاء: فإن كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة أن تلك الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، فأي حاجة في إثبات ذلك إلى كسرها؟ أقصى ما في الباب أن يقال: القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب، وكسرها لا يقدح في كونها معظمة من هذا الوجه. وإن قلنا: إنهم ما كانوا عقلاء وجب أن لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل إليهم. الجواب: أنهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة أنها جمادات، ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها أنها تماثيل الكواكب وأنها طلسمات موضوعة بحيث أن كل من عبدها انتفع بها، وكل من استخف بها ناله منها ضرر شديد، ثم إن إبراهيم عليه السلام كسرها مع أنه ما ناله منها

ألبتة ضرر، فكان فعله دالاً على فساد مذهبهم من هذا الوجه.

أما قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي [أن] من فعل هذا الكسر والحطم - لَشديد الظلم معدود في الظَّلمة، إما لجراءته على الآلهة الحقيقة بالتوقير والإعظام، وإما لأنهم رأوا إفراطًا في كسرها وتماديًا في الاستهانة بها.

أما قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ . **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قال الزجاج: ارتفع إبراهيم على وجهين: أحدهما: على معنى يقال: هو إبراهيم. والثاني: على النداء على معنى يقال له: يا إبراهيم. قال صاحب (الكشاف) والصحيح أنه فاعل (يقال) لأن المراد الاسم دون المسمى.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أن القائلين جماعة لا واحد، فكأنهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله في آلهتهم، فغلب على قلوبهم أنه الفاعل، ولو لم يكن إلا قوله: (ما هذه التماثيل...) إلى غير ذلك لكفى.

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

اعلم أن القوم لما شاهدوا كسر الأصنام، وقيل: إن فاعله إبراهيم عليه السلام، قالوا فيما بينهم: ﴿فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال صاحب (الكشاف): (على أعين الناس) في محل الحال، أي فأتوا به مُشاهدًا، أي بمرأى منهم ومنظر. فإن قلت: ما معنى الاستعلاء في على؟ قلت: هو وارد على طريق المثل، أي يثبت إتيانه في الأعين ثبات الراكب على المركوب.

أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أنهم كرهوا أن يأخذوه بغير بينة، فأرادوا أن يجيئوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عليه بما قاله، فيكون حجة عليه بما فعل. وهذا قول الحسن وقتادة والسدي وعطاء وابن عباس رضي الله عنهم. وثانيهما: وهو قول محمد ابن إسحاق - أي يحضرون فيبصرون ما يُصنع به فيكون ذلك زاجرًا لهم عن الإقدام على مثل فعله. وفيه قول ثالث: -وهو قول مقاتل والكلبي- أن المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه.

أما قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا﴾ فاعلم أن في الكلام حذفًا، وهو: فأتَوا به وقالوا: أأنت

فعلت؟ طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقْدموا على إيذائه، فظهر منه ما انقلب الأمر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه، فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقد علق الفأس على رقبته لكي يورد هذا القول فيظهر جهلهم في عبادة الأوثان، فإن قيل: قوله: (بل فعله كبيرهم) كذب. والجواب: للناس فيه قولان: أحدهما: -وهو قول كافة المحققين- أنه ليس بكذب، وذكروا في الاعتذار عنه وجوهًا: أحدها: أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك، وقد كتبت كتابًا بخط رشيق، وأنت شهير بحسن الخط: (أأنت كتبت هذا؟) وصاحبك أُمي لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرمشة فاسدة، فقلت له: (بل كتبته أنت) كأن قصدك بهذا الجواب تقرير ذلك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمي أو المخرمش، لأن إثباته والأمر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به وإثبات للقادر. وثانيها: أن إبراهيم عليه السلام غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة مزينة، وكان غيظه من كبيرها أشد لِما رأى من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه لأنه هو السبب في استهانته بها وحطمه لها، والفعل كما يسند إلى مباشره يسند إلى الحامل عليه. وثالثها: أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم، كأنه قال لهم: ما تنكرون أن يفعله كبيرهم، فإن من حق من يُعبد ويدعى إلهًا أن يقدر على هذا وأشد منه. وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب (الكشاف). ورابعها: أنه كناية عن غير مذكور، أي (فَعَله مَن فَعَله) و(كبيرهم هذا) ابتداء الكلام، ويروى عن الكسائي أنه كان يقف عند قوله (بل فعله) ثم يبتدئ (كبيرهم هذا). وخامسها: أنه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله (كبيرهم) ثم يبتدئ فيقول (هذا فاسألوهم) والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم. وسادسها: أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كأنه قال: (بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم) فتكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطًا بكونهم ناطقين، فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين. وسابعها: قرأ محمد بن السميفع: (فعلَّه كبيرهم) أي فلعل الفاعل كبيرهم.

القول الثاني: -وهو قول طائفة من أهل الحكايات- أن ذلك كذب. واحتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ إِلاَّ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ كُلُّهَا فِي ذَاتِ اللَّهِ تعالى: قَوْلُهُ:** ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] **وقَوْلُهُ:** ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ **وَقَوْلُهُ لِسَارَّةَ هِيَ أُخْتِي**»(١) وفي خبر آخر: «**أَنَّ أَهْلَ الْمَوْقِفِ إِذَا سَأَلُوا إِبْرَاهِيمَ الشَّفَاعَةَ قَالَ: إِنِّي كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ**»(٢) ثم قرروا قولهم من جهة

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٣/ ١٢٢٥) حديث رقم/ ٣١٧٩ ومسلم في (صحيحه) (٤/ ١٨٤٠/ ٢٣٧١) كلاهما من طريق أيوب عن محمد عن أبي هريرة... به.

(٢) **هذا الحديث أصله في الصحيح**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٤/ ١٧٤٥) حديث رقم/ ٤٤٣٥ من طريق أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة... به.

العقل وقالوا: الكذب ليس قبيحًا لذاته، فإن النبي عليه السلام إذا هرب من ظالم واختفى في دار إنسان، وجاء الظالم وسأل عن حاله فإنه يجب الكذب فيه، وإذا كان كذلك فأي بعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا يعرفها إلا هو؟!

واعلم أن هذا القول مرغوب عنه: أما الخبر الأول -وهو الذي رووه- فلأن يضاف الكذب إلى رواته أولى من أن يضاف إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والدليل القاطع عليه أنه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه، فلنُجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه، وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه، وذلك يُبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة إلى كلها، ثم إن ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال عليه السلام: «إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ»[1]. فأما قوله تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[الصافات: ٨٩] فلعله كان به سقم قليل. واستقصاء الكلام فيه يجيء في موضعه. وأما قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ فقد ظهر الجواب عنه. أما قوله لسارة: (إنها أختي) فالمراد أنها أخته في الدين. وإذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب إلى الأنبياء عليهم السلام، فحينئذٍ لا يَحكم بنسبة الكذب إليهم إلا زنديق.

أما قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **ففيه وجوه:** الأول: أن إبراهيم عليه السلام لما نبههم بما أورده عليهم على قبح طريقهم، تنبهوا فعلموا أن عبادة الأصنام باطلة، وأنهم على غرور وجهل في ذلك. والثاني: قال مقاتل: فرجعوا إلى أنفسهم فلاموها وقالوا: إنكم أنتم الظالمون لإبراهيم حيث تزعمون أنه كسرها مع أن الفأس بين يدي الصنم الكبير. وثالثها: المعنى أنكم أنتم الظالمون لأنفسكم حيث سألتم منه عن ذلك حتى أخذ يستهزئ بكم في الجواب، والأقرب هو الأول.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فقال صاحب (الكشاف): نَكَسَه: قَلَبه فجعل أسفله أعلاه. **وفيه مسألتان:**

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٢٩٧) حديث رقم/ ٨٥٧ وهناد في (الزهد) (٢/ ٦٣٦) حديث رقم/ ١٣٧٨، كلاهما من طريق قتادة عن مطرف عن عمران بن حصين... به موقوفًا. وأورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٢٧٠) حديث رقم/ ٧١٢ وقال: رواه البخاري في الأدب المفرد عن مطرف بن عبد الله قال: صحبت عمران بن حصين في الكوفة إلى البصرة فما عليه قوم إلا أنشدنا فيه شعرًا وقال: إن في معاريض الحديث. وعزاه في الدرر لابن السني عن عمران بن حصين ولأبي نعيم عن علي بلفظ ان في المعاريض مندوحة عن الكذب. وأخرجه البيهقي في الشعب والطبراني في الكبير والطبري في التهذيب بسند رجاله ثقات، ورواه ابن السني بسند جيد وقال البيهقي: رواه داود بن الزبرقان عن عمران مرفوعًا، والصحيح الموقوف ووهّي المرفوع ابن عدي وروي من وجه آخر ضعيف جدًا عن علي رفعه وكذا ثم أبي نعيم عن علي رفعه أن في المعاريض ما يكفي الرجل العاقل عن الكذب. وبالجملة فالحديث حسن كما قاله العراقي ولذا رد على الصغاني حكمه عليه بالوضع، وروى البخاري في الأدب المفرد والبيهقي في الشعب عن عمران قال: أمَا في المعاريض ما يكفي المسلم من الكذب. قال في المقاصد: ورواه العسكري عن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب إن في المعاريض لمندوحة للرجل المسلم الحر عن الكذب. وأشار إلى ان حكمه الرفع. انتهى فتدبر.

المسألة الأولى: في المعنى وجوه: أحدها: أن المراد استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا [في] المجادلة بالباطل وأن هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة. وثانيها: قلبوا على رؤوسهم حقيقة لفرط إطراقهم خجلاً وانكسارًا وانخذالاً مما بهتهم به إبراهيم، فما أحاروا جوابًا إلا ما هو حجة عليهم. وثالثها: قال ابن جرير: ثم نكسوا على رؤوسهم في الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم، أي قلبوا في الحجة واحتجوا على إبراهيم بما هو الحجة لإبراهيم عليهم، فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فأقروا بهذه للحيرة التي لحقتهم. قال والمعنى نُكست حجتهم فأقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم.

المسألة الثانية: قرئ (نُكِّسوا) بالتشديد و(نُكِسوا) على لفظ ما لم يسم فاعله، أي نكسوا أنفسهم على رؤوسهم وهي قراءة رضوان بن عبد المعبود.

أما قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فالمعنى ظاهر، قال صاحب (الكشاف): أف صوت إذا صُوت به عُلم أن صاحبه متضجر، وإن إبراهيم عليه السلام أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل، فتأفف بهم. ثم يحتمل أنه قال لهم ذلك وقد عرفوا صحة قوله. ويحتمل أنه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وإن لم يعقلوا. وهذا هو الأقرب لقوله: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ﴾ ولقوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن ما أظهره إبراهيم عليه السلام من دلائل التوحيد وإبطال ما كانوا عليه من عبادة التماثيل، أتبعه بما يدل على جهلهم، وأنهم ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ .

وههنا مسائل:

المسألة الأولى: ليس في القرآن من القائل لذلك، والمشهور أنه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح. وقال مجاهد: سمعت ابن عمر يقول: إنما أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام رجل من الكرد من أعراب فارس. وروى ابن جريج عن وهب عن شعيب الجبائي قال: إن الذي قال: (حرقوه) رجل اسمه هيرين، فخسف الله تعالى به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

المسألة الثانية: أما كيفية القصة فقال مقاتل: لما اجتمع نمروذ وقومه لإحراق إبراهيم،

حبسوه في بيت وبنوا بنيانًا كالحظيرة، وذلك قوله: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧] ثم جمعوا له الحطب الكثير، حتى أن المرأة لو مرضت قالت: إن عافاني الله لأجعلن حطبًا لإبراهيم. ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يومًا، فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير في أقصى الهواء لاحترق، ثم أخذوا إبراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه، ثم اتخذوا منجنيقًا ووضعوه فيه مقيدًا مغلولاً، فصاحت السماء والأرض ومن فيها من الملائكة إلا الثقلين صيحة واحدة: أي ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غير إبراهيم، وإنه يُحرق فيك فأذَن لنا في نصرته!! فقال سبحانه: إن استغاث بأحد منكم فأغيثوه، وإن لم يدعُ غيري فأنا أعلم به وأنا وليه، فخلوا بيني وبينه. فلما أرادوا إلقاءه في النار، أتاه خازن الرياح فقال: إن شئت طيرت النار في الهواء. فقال إبراهيم عليه السلام: لا حاجة بي إليكم. ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الْوَاحِدُ فِي السَّمَاءِ، وَأَنَا الْوَاحِدُ فِي الأَرْضِ، لَيْسَ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ يَعْبُدُكَ غَيْرِي، أَنْتَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) وقيل: إنه حين أُلقي في النار قال: (لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الْمُلْكُ، لاَ شَرِيكَ لَكَ) ثم وضعوه في المنجنيق ورموا به النار، فأتاه جبريل عليه السلام وقال: يا إبراهيم هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا؟ قال: فاسأل ربك. قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي[1]. فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ وقال السدي: إنما قال ذلك جبريل عليه السلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية مجاهد: ولو لم يُتبع بردًا سلامًا لمات إبراهيم من بردها. قال: ولم يبق يومئذٍ في الدنيا نار إلا طفئت. ثم قال السدي: فأخذت الملائكة بضبعي إبراهيم وأقعدوه في الأرض، فإذا عين ماء عذب، وورد أحمر ونرجس. ولم تحرق النار منه إلا وثاقه، وقال المنهال بن عمرو: أُخبرت أن إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار كان فيها إما أربعين يومًا أو خمسين يومًا، وقال: ما كنت أيامًا أطيب عيشًا مني إذ كنت فيها. وقال ابن إسحاق: بعث الله مَلَك الظل في صورة إبراهيم، فقعد إلى جنب إبراهيم يؤنسه، وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة، وقال: يا إبراهيم إن ربك يقول: أما علمت أن النار لا تضر أحبابي؟!

ثم نظر نمروذ من صرح له وأشرف على إبراهيم فرآه جالسًا في روضة، ورأى المَلَك قاعدًا إلى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب، فناداه نمروذ: يا إبراهيم هل تستطيع أن تخرج منها؟ قال: نعم. قال: قم فاخرج. فقام يمشي حتى خرج منها، فلما خرج قال له نمروذ: من الرجل الذي رأيتُه معك في صورتك؟ قال: ذاك ملك الظل أرسله ربي ليؤنسني فيها. فقال نمروذ: إني مقرب إلى ربك قربانًا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك، فإني ذابح له أربعة آلاف بقرة. فقال إبراهيم عليه السلام: لا يقبل الله منك ما دمت على دينك. فقال نمروذ: لا أستطيع ترك

---

(١) **ليس له إسناد معروف، وهو باطل**: وقال الزيلعي (١/ ٢٣): كلام باطل. وقال الألباني في (الضعيفة) (٢١): لا أصل له، أورده بعضهم من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو من الإسرائيليات ولا أصل له في المرفوع.

مُلكي، ولكن سوف أذبحها له. ثم ذبحها له وكف عن إبراهيم عليه السلام.

ورويت هذه القصة على وجه آخر، وهي أنهم بنوا لإبراهيم بنيانًا وألقوه فيه، ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام، ثم أطبقوا عليه، ثم فتحوا عليه من الغد، فإذا هو غير محترق يعرق عرقًا، فقال لهم هاران أبو لوط: إن النار لا تحرقه لأنه سَحَر النار، ولكن اجعلوه على شيء وأوقدوا تحته فإن الدخان يقتله. فجعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته، فطارت شرارة فوقعت في لحية أبي لوط فأحرقته.

المسألة الثالثة: إنما اختاروا المعاقبة بالنار لأنها أشد العقوبات؛ ولهذا قيل: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي إن كنتم تنصرون آلهتكم نصرًا شديدًا، فاختاروا أشد العقوبات وهي الإحراق.

أما قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو مسلم الأصفهاني في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا﴾: المعنى أنه سبحانه جعل النار بردًا وسلامًا، لا أن هناك كلامًا، كقوله: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] أي يكونه. وقد احتج عليه بأن النار جماد فلا يجوز خطابه، والأكثرون على أنه وجد ذلك القول. ثم هؤلاء لهم قولان: أحدهما: -وهو قول السدي- أن القائل هو جبريل عليه السلام. والثاني: -وهو قول الأكثرين- أن القائل هو الله تعالى، وهذا هو الأليق الأقرب بالظاهر، وقوله: (النار جماد فلا يكون في خطابها فائدة) قلنا: لمَ لا يجوز أن يكون المقصود من ذلك الأمر مصلحة عائدة إلى الملائكة؟

المسألة الثانية: اختلفوا في أن النار كيف بردت على ثلاثة أقوال: أحدها: أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والإحراق، وأبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق، والله على كل شيء قدير. وثانيها: أن الله تعالى خلق في جسم إبراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار إليه، كما يفعل بخزنة جهنم في الآخرة، وكما أنه ركَّب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث في النار. وثالثها: أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلاً يمنع من وصول أثر النار إليه، قال المحققون: والأول أولى لأن ظاهر قوله: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ أن نفس النار صارت باردة حتى سلم إبراهيم من تأثيرها، لا أن النار بقيت كما كانت، فإن قيل: النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة، فإذا كانت الحرارة جزء من مسمى النار امتنع كون النار باردة، فإذًا وجب أن يقال: المراد من النار الجسم الذي هو أحد أجزاء مسمى النار وذلك مجاز، فلمَ كان مجازكم أَوْلى من المجازين الآخرين؟ قلنا: المجاز الذي ذكرناه يبقى معه حصول البرد وفي المجازين اللذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك، فكان مجازنا أَوْلى.

أما قوله تعالى: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فالمعنى أن البرد إذا أفرط أهلك كالحر بل لا بد من الإعتدال، ثم في حصول الاعتدال ثلاثة أوجه: أحدها: أنه يُقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذي لا يؤثر. وثانيها: أن بعض النار صار بردًا وبقي بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد.

وثالثها: أنه تعالى جعل في جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والتذ. **ثم ههنا سؤالات:**

السؤال الأول: أو كل النار زالت وصارت بردًا؟ الجواب: أن النار هو اسم الماهية فلا بد وأن يحصل هذا البرد في الماهية، ويلزم منه عمومه في كل أفراد الماهية، وقيل: بل اختص بتلك النار لأن الغرض إنما تعلق ببرد تلك النار وفي النار، منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها، والمراد خلاص إبراهيم عليه السلام لا إيصال الضرر إلى سائر الخلق.

السؤال الثاني: هل يجوز ما روي عن الحسن من أنه سلام من الله تعالى على إبراهيم عليه السلام. الجواب: الظاهر كما أنه جعل النار بردًا جعلها سلامًا عليه حتى يخلص، فالذي قاله يبعد، وفيه تشتيت الكلام المرتب.

السؤال الثالث: أفيجوز ما روي من أنه لو لم يقل (وسلامًا) لأتى البرد عليه؟ والجواب: ذلك بعيد لأن برد النار لم يحصل منها وإنما حصل من جهة الله تعالى، فهو القادر على الحر والبرد، فلا يجوز أن يقال: كان البرد يعظم لو لا قوله سلامًا.

السؤال الرابع: أفيجوز ما قيل من أنه كان في النار أنعم عيشًا منه في سائر أحواله. والجواب: لا يمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها، ويجوز أن يكون إنما صار أنعم عيشًا هناك لعظم ما ناله من السرور بخلاصه من ذلك الأمر العظيم ولعظم سروره بظفره بأعدائه وبما أظهره من دين الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي أرادوا أن يكيدوه فما كانوا إلا مغلوبين، غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة المبكتة، ثم عدلوا إلى القوة والجبروت فنصره وقواه عليهم، ثم إنه سبحانه أتم النعمة عليه بأن نجاه ونجى لوطًا معه وهو ابن أخيه وهو لوط بن هاران إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين. وفي الأخبار أن هذه الواقعة كانت في حدود بابل فنجاه الله تعالى من تلك البقعة إلى الأرض المباركة، ثم قيل: إنها مكة وقيل: أرض الشام لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] والسبب في بركتها، أما في الدين فلأن أكثر الأنبياء عليهم السلام بُعثوا منها وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية فيها، وأما في الدنيا فلأن الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش، وقيل: ما من ماء عذب إلا وينبع أصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى بعد ذكره لإنعامه على إبراهيم وعلى لوط بأن نجاهما إلى الأرض المباركة،

أتبعه بذكر غيره من النعم، وإنما جَمَع بينهما لأن في كون لوط معه مع ما كان بينهما من القرابة والشركة في النبوة -مزيد إنعام، ثم إنه سبحانه ذكر النعم التي أفاضها على إبراهيم عليه السلام، ثم النعم التي أفاضها على لوط:

أما الأول فمن وجوه: أحدها: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ واعلم أن النافلة العطية خاصة وكذلك النفل، ويسمى الرجل الكثير العطايا نوفلاً، ثم للمفسرين ههنا قولان: الأول: أنه ههنا مصدر من وهبنا له، مصدر من غير لفظه، ولا فرق بين ذلك وبين قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ هبة، أي وهبناهما له عطية وفضلاً من غير أن يكون جزاء مستحقًّا. وهذا قول مجاهد وعطاء. والثاني: وهو قول أُبي بن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج: أن إبراهيم عليه السلام لما سأل الله ولدًا قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠] فأجاب الله دعاءه، ووهب له إسحاق وأعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك: ﴿نَافِلَةً﴾ كالشيء المتطوع به من الآدميين، فكأنه قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ إجابة لدعائه: ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التي هي زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة. والوجه الأول: أقرب لأنه تعالى جَمَع بينهما، ثم ذكر قوله: ﴿نَافِلَةً﴾ فإذا صلح أن يكون وصفًا لهما فهو أَوْلى.

النعمة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي وكلاًّ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب أنبياء مرسلين، هذا قول الضحاك، وقال آخرون: عاملين بطاعة الله عز وجل مجتنبين محارمه. والوجه الثاني أقرب لأن لفظ الصلاح يتناول الكل لأنه سبحانه قال بعد هذه الآية: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فلو حملنا الصلاح على النبوة لزم التكرار. واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لأن قوله: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ يدل على أن ذلك الصلاح من قِبله، أجاب الجبائي بأنه لو كان كذلك لما وصفهم بكونهم صالحين وبكونهم أئمة وبكونهم عابدين. ولـمَا مدحهم بذلك، ولـمَا أثنى عليهم، وإذا ثبت ذلك فلا بد من التأويل وهو من وجهين: الأول: أن يكون المراد أنه سبحانه آتاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا به. والثاني: أن يكون المراد أنه سماهم بذلك كما يقال: (زيد فَسَّق فلانًا وضَلَّله وكَفَّره) إذا وصفه بذلك وكان مصدقًا عند الناس، وكما يقال في الحاكم: (زكَّى فلانًا وعَدَّله وجَرَّحه) إذا حكم بذلك.

واعلم أن هذه الوجوه مختلة، أما اعتمادهم على المدح والذم فالجواب المعهود أن نعارضه بمسألتي الداعي والعلم، وأما الحمل على اللطف فباطل لأن فعل الإلطاف عام في المكلفين، فلا بد في هذا التخصيص من مزيد فائدة، وأيضًا فلأن قوله: (جعلته صالحًا) كقوله: (جعلته متحركًا) فحَمْله على تحصيل شيء سوى الصلاح تَرْك للظاهر، وأما الحمل على التسمية فهو أيضًا مجاز، أقصى ما في الباب أنه قد يصار إليه عند الضرورة في بعض المواضع، وههنا لا ضرورة إلا أن يرجعوا مرة أخرى إلى فصل المدح والذم، فحينئذٍ نرجع أيضًا إلى مسألتي الداعي والعلم.

النعمة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ وفيه قولان: أحدهما: أي جعلناهم أئمة يدعون الناس إلى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا وإذننا. الثاني: قول أبي مسلم أن هذه الإمامة هي النبوة. والأول أَوْلى لئلا يلزم التكرار، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أمرين: أحدهما: على خلق الأفعال بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ وتقريره ما مضى. والثاني: على أن الدعوة إلى الحق والمنع عن الباطل لا يجوز إلا بأمر الله تعالى؛ لأن الأمر لو لم يكن معتبرًا لما كان في قوله: (بأمرنا) فائدة.

النعمة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهذا يدل على أنه سبحانه خصهم بشرف النبوة، وذلك من أعظم النعم على الأب، قال الزجاج: حذف الهاء من إقامة الصلاة لأن الإضافة عوض عنه. وقال غيره: الإقام والإقامة مصدر. قال أبو القاسم الأنصاري: الصلاة أشرف العبادات البدنية وشُرعت لذكر الله تعالى، والزكاة أشرف العبادات المالية، ومجموعهما التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله.

واعلم أنه سبحانه وصفهم أولاً بالصلاح لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى، ثم ترقى فوصفهم بالإمامة، ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحي. وإذا كان الصلاح الذي هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على أن الأنبياء معصومون، فإن المحروم عن أول المراتب أَوْلى بأن يكون محرومًا عن النهاية، ثم إنه سبحانه كما بَيَّن أصناف نعمه عليهم بَيَّن بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية في الإحسان والإنعام، فَهُمْ أيضًا وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

(القصة الثالثة، قصة لوط عليه السلام)

اعلم أنه سبحانه بعد بيان ما أنعم به على إبراهيم عليه السلام، أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل، **وههنا مسألتان:**

المسألة الأولى: في الواو في قوله: ﴿وَلُوطًا﴾ قولان: أحدهما: -وهو قول الزجاج- أنه عطف على قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. والثاني: قول أبي مسلم أنه عطف على قوله: ﴿ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١] ولا بد من ضمير في قوله: ﴿وَلُوطًا﴾ فكأنه قال (وآتينا لوطًا) فأضمر ذكره.

المسألة الثانية: في أصناف النعم وهي أربعة وجوه: أحدها: الحكم، أي الحكمة وهي التي يجب فعلها، أو الفصل بين الخصوم، وقيل: هي النبوة. وثانيها: العلم، واعلم أن إدخال

التنوين عليهما يدل على علو شأن ذلك العلم وذلك الحكم. وثالثها: قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَٰٓئِثَ﴾ والمراد أهل القرية لأنهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية، ولأن الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك، ثم بَيَّن سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ ما أراده بالخبائث، وأمْرهم فيما كانوا يُقدمون عليه ظاهر. ورابعها: قوله: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ الصَّٰلِحِينَ﴾ وفي تفسير الرحمة قولان: الأول: أنه النبوة، أي أنه لما كان صالحًا للنبوة أدخله الله في رحمته لكي يقوم بحقها. عن مقاتل. الثاني: أنه الثواب. عن ابن عباس والضحاك، ويحتمل أن يقال: إنه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلساء السوء، فُتحت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الإلهية، وهي بحر لا ساحل له، وهي الرحمة في الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾

(القصة الرابعة، قصة نوح عليه السلام)

أما قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: لا شبهة في أن المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب، ويؤكده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الإجمال وهو قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] وتارة على التفصيل وهو قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ويدل عليه أيضًا أن الله تعالى أجابه بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ وهذا الجواب يدل على أن الإنجاء المذكور فيه كان هو المطلوب في السؤال، فدل هذا على أن نداءه ودعاءه كان بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الأذى بالتكذيب، والرد عليه، وبأن ينصره عليهم وأن يهلكهم؛ فلذلك قال بعده: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

المسألة الثانية: أجمع المحققون على أن ذلك النداء كان بأمر الله تعالى؛ لأنه لو لم يكن بأمره لم يُؤمَن أن يكون الصلاح أن لايجاب إليه فيصير ذلك سببًا لنقصان حال الأنبياء، ولأن الإقدام على أمثال هذه المطالب لو لم يكن بالأمر لكان ذلك مبالغة في الإضرار. وقال آخرون: إنه عليه السلام لم يكن مأذونًا له في ذلك. وقال أبو أمامة: لم يتحسر أحد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح، فحسرة آدم على قبول وسوسة إبليس، وحسرة نوح على دعائه على قومه، فأوحى الله تعالى إليه أن لا تتحسر فإن دعوتك وافقت قدري.

أما قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ فالمراد بالأهل ههنا أهل دينه، وفي

تفسير الكرب وجوه: أحدها: أنه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق، وهو قول أكثر المفسرين. وثانيها: أنه تكذيب قومه إياه وما لقي منهم من الأذى. وثالثها: أنه مجموع الأمرين، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وهو الأقرب لأنه عليه السلام كان قد دعاهم إلى الله تعالى مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه، وكان الغم يتزايد بسبب ذلك، وعند إعلام الله تعالى إياه أنه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك، كان أيضًا على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذي يتخلص من الغرق ومن الذي يغرق، فأزال الله تعالى عنه الكرب العظيم بأن خلصه من جميع ذلك وخلَّص جميع من آمن به معه.

أما قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ فقراءة أُبي بن كعب: (ونصرناه على القوم) ثم قال المبرد: تقديره (ونصرناه من مكروه القوم) وقال تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾[غافر: ٢٩] أي يعصمنا من عذابه، قال أبو عبيدة: من بمعنى على. وقال صاحب (الكشاف): إنه نصر الذي مطاوعه انتصر وسمعت هذليًا يدعو على سارق: (اللهم انصرهم منه) أي اجعلهم منتصرين منه.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ فالمعنى أنهم كانوا قوم سوء لأجل ردهم عليه وتكذيبهم له فأغرقناهم أجمعين، فبين ذلك الوجه الذي به خلصه منهم.

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

(القصة الخامسة. قصة داود وسليمان عليهما السلام)

اعلم أن قوله تعالى: (وداود وسليمان وأيوب وزكريا وذا النون) كله نسق على ما تقدم من قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾[الأنبياء: ٥١] ومن قوله: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء: ٧٤] واعلم أن المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان، فذكر أولاً النعمة المشتركة بينهما، ثم ذكر ما يختص به كل واحد منهما من النعم:

أما النعمة المشتركة: فهي القصة المذكورة وهي قصة الحكومة، ووجه النعمة فيها أن الله تعالى زَيَّنهما بالعلم والفهم في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ثم في هذا تنبيه على أن العلم أفضل الكمالات وأعظمها، وذلك لأن الله تعالى قَدَّم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل

تسخير الجبال والطير والريح والجن، وإذا كان العلم مقدمًا على أمثال هذه الأشياء فما ظنك بغيرها؟ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال ابن السكيت: النفش أن تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راعٍ. وهذا قول جمهور المفسرين، وعن الحسن أنه يجوز ذلك ليلاً ونهارًا.

المسألة الثانية: أكثر المفسرين على أن الحرث هو الزرع. وقال بعضهم: هو الكرم. والأول أشبه بالعُرْف.

المسألة الثالثة: احتج من قال: أقل الجمع اثنان بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ مع أن المراد داود وسليمان. جوابه: أن الحكم كما يضاف إلى الحاكم فقد يضاف إلى المحكوم له، فإذا أضيف الحكم إلى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الاثنين، وقرئ: (وكنا لحكمهما شاهدين).

المسألة الرابعة: في كيفية القصة وجهان: **الأول**:قال أكثر المفسرين: دخل رجلان على داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن غنم هذا دخلت حرثي وما أبقت منه شيئًا. فقال داود عليه السلام: اذهب فإن الغنم لك. فخرجا فمرا على سليمان، فقال: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه فقال: لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير هذا. فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال: كيف كنت تقضي بينهما؟ فقال: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدَّر والنسل والوبر، حتى إذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أُكل، دُفعت الغنم إلى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه. **الثاني**:قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهم الله: إن راعيًا نزل ذات ليلة بجنب كرم، فدخلت الأغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم، فذهب صاحب الكرم من الغد إلى داود عليه السلام فقضى له بالغنم؛ لأنه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت، فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهم: كيف قضى بينكما؟ فأخبراه به، فقال: غير هذا أرفق بالفريقين. فأُخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال له: بحق الأبوة والنبوة إلا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين. فقال: تُسلم الغنم إلى صاحب الكرم حتى يرتفق بمنافعها، ويعمل الراعي في إصلاح الكرم حتى يصير كما كان، ثم ترد الغنم إلى صاحبها. فقال داود عليه السلام: إنما القضاء ما قضيتَ!! وحَكَم بذلك [١]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: حكم سليمان بذلك وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وههنا أمور ولا بد من البحث عنها:

السؤال الأول: هل في الآية دلالة على أنهما عليهما السلام اختلفا في الحكم أم لا؟ فإن

---

(١)لم أجده.

أبا بكر الأصم قال: إنهما لم يختلفا ألبتة، وأنه تعالى بَيَّن لهما الحكم لكنه بَيَّنه على لسان سليمان عليه السلام. **الجواب:** الصواب أنهما اختلفا، والدليل إجماع الصحابة والتابعين رضي الله عنهم على ما رويناه، وأيضًا فقد قال الله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ والفاء للتعقيب، فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقًا على هذا التفهيم، وذلك الحكم السابق إما أن يقال: اتفقا فيه أو اختلفا فيه، فإن اتفقا فيه لم يبق لقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ فائدة وإن اختلفا فيه فذلك هو المطلوب.

السؤال الثاني: سَلَّمنا أنهما اختلفا في الحكم، ولكن هل كان الحُكْمان صادرين عن النص أو عن الاجتهاد؟ **الجواب:** الأمران جائزان عندنا، وزعم الجبائي أنهما كانا صادرين عن النص، ثم إنه تارة يبني ذلك على أن الاجتهاد غير جائز من الأنبياء، وأخرى على أن الاجتهاد وإن كان جائزًا منهم في الجملة، ولكنه غير جائز في هذه المسألة.

أما المأخذ الأول: فقد تكلمنا فيه في الجملة في كتابنا المسمى بالمحصول في الأصول، ولنذكر ههنا أصول الكلام من الطرفين: احتج الجبائي على أن الاجتهاد غير جائز من الأنبياء عليهم السلام بأمور: أحدها: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ﴾ [يونس: ١٥] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]. وثانيها: أن الاجتهاد طريقه الظن وهو قادر على إدراكه يقينًا، فلا يجوز مصيره إلى الظن، كالمعاين للقبلة لا يجوز له أن يجتهد. ثالثها: أن مخالفة الرسول توجب الكفر لقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] ومخالفة المظنون والمجتهدات لا توجب الكفر. ورابعها: لو جاز أن يجتهد في الأحكام لكان لا يقف في شيء منها، ولما وقف في مسألة الظهار واللعان إلى ورود الوحي دل على أن الاجتهاد غير جائز عليه. وخامسها: أن الاجتهاد إنما يجوز المصير إليه عند فقد النص، لكن فقدان النص في حق الرسول كالممتنع، فوجب أن لا يجوز الاجتهاد منه. وسادسها: لو جاز الاجتهاد من الرسول لجاز أيضًا من جبريل عليه السلام، وحينئذٍ لا يحصل الأمان بأن هذه الشرائع التي جاء بها أهي من نصوص الله تعالى أو من اجتهاد جبريل؟

والجواب عن الأول: أن قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ﴾ [يونس: ١٥] لا يدل على قولكم لأنه وارد في إبدال آية بآية، لأنه عقيب قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾ [يونس: ١٥] ولا مدخل للاجتهاد في ذلك. وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣] فبعيد لأن من يُجوز له الاجتهاد يقول: إن الذي اجتهد فيه هو عن وحي على الجملة وإن لم يكن كذلك على التفصيل، وإن الآية واردة في الأداء عن الله تعالى لا في حكمه الذي يكون بالعقل. **والجواب عن الثاني:** أن الله تعالى إذا قال له: (إذا غلب على ظنك كون الحكم معللاً في الأصل بكذا، ثم غلب على ظنك قيام ذلك المعنى في صورة أخرى، فاحكم بذلك) فههنا الحكم مقطوع به والظن غير واقع فيه بل في طريقه. **والجواب عن الثالث:** أنا لا نسلم أن

مخالفة المجتهدات جائزة مطلقًا، بل جواز مخالفتها مشروط بصدورها عن غير المعصوم، والدليل عليه أنه يجوز على الأمة أن يُجمعوا اجتهادًا ثم يمتنع مخالفتهم وحال الرسول أوكد. **والجواب عن الرابع:** لعله عليه السلام كان ممنوعًا من الاجتهاد في بعض الأنواع أو كان مأذونًا مطلقًا، لكنه لم يظهر له في تلك الصورة وجه الاجتهاد، فلا جرم أنه توقف. **والجواب عن الخامس:** لِمَ لا يجوز أن يُحبس النص عنه في بعض الصور فحينئذٍ يحصل شرط جواز الاجتهاد. **والجواب عن السادس:** أن هذا الاحتمال مدفوع بإجماع الأمة على خلافه فهذا هو الجواب عن شبه المنكرين، والذي يدل على جواز الاجتهاد عليهم وجوه: **أحدها:** أنه عليه السلام إذا غلب على ظنه أن الحكم في الأصل معلل بمعنى، ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى في صورة أخرى، فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى في هذه الصورة مثل ما في الأصل، وعنده مقدمة يقينية وهي أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب، فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون. وعند هذا إما أن يُقْدم على الفعل والترك معًا، وهو محال لاستحالة الجمع بين النقيضين، أو يتركهما، وهو محال لاستحالة الخلو عن النقيضين، أو يرجح المرجوح على الراجح، وهو باطل ببديهة العقل، أو يرجح الراجح على المرجوح وذلك هو العمل بالقياس، وهذه النكتة هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس وهي قائمة أيضًا في حق الأنبياء عليهم السلام، وهذا يتوجه على جواز الاجتهاد من جبريل عليه السلام. **وثانيها:** قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ [الحشر: ٢] أمر للكل بالاعتبار، فوجب اندراج الرسول عليه السلام فيه لأنه إمام المعتبرين وأفضلهم. **وثالثها:** أن الاستنباط أرفع درجات العلماء فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل، وإلا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا الباب. فإن قيل: هذا إنما يلزم لو لم تكن درجة أعلى من الاعتبار، وليس الأمر كذلك؛ لأنه كان يستدرك الأحكام وحيًا على سبيل اليقين، فكان أرفع درجة من الاجتهاد الذي ليس قصاراه إلا الظن. **قلنا:** لا يمتنع أن لا يجد النص في بعض المواضع، فلو لم يتمكن من الاجتهاد لكان أقل درجة من المجتهد الذي يمكنه أن يعرف ذلك الحكم من الاجتهاد، وأيضًا قد بينا أن الله تعالى لما أمره بالاجتهاد كان ذلك مفيدًا للقطع بالحكم. **ورابعها:** قال عليه السلام: «**الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ**» فوجب أن يثبت للأنبياء درجة الاجتهاد ليرث العلماء عنهم ذلك. هذا تمام القول في هذه المسألة. **وخامسها:** أنه تعالى قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] فذاك الإذن إن كان بإذن الله تعالى استحال أن يقول: لِمَ أذنت لهم، وإن كان بهوى النفس فهو غير جائز، وإن كان بالاجتهاد فهو المطلوب.

المأخذ الثاني: قال الجبائي: لو جوزنا الاجتهاد من الأنبياء عليهم السلام ففي هذه المسألة يجب أن لا يجوز لوجوه: **أحدها:** أن الذي وصل إلى صاحب الزرع من در الماشية ومن منافعها مجهول المقدار، فكيف يجوز في الاجتهاد جعل أحدهما عوضًا عن الآخر؟ **وثانيها:** أن اجتهاد داود عليه السلام إن كان صوابًا لزم أن لا ينقض؛ لأن الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد، وإن كان خطأ وجب

أن يبين الله تعالى توبته كسائر ما حكاه عن الأنبياء عليهم السلام، فلما مدحهما بقوله: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ دل على أنه لم يقع الخطأ من داود. **وثالثها**:لو حكم بالاجتهاد لكان الحاصل هناك ظنًا لا علمًا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ . **ورابعها**:كيف يجوز أن يكون عن اجتهاد مع قوله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ .

والجواب عن الأول:أن الجهالة في القدر لا تمنع من الاجتهاد، كالجُعالات وحكم المصراة. **وعن الثاني**:لعله كان خطأ من باب الصغائر. **وعن الثالث**:بيّنا أن من تمسك بالقياس فالظن واقع في طريق إثبات الحكم فأما الحكم فمقطوع به. **وعن الرابع**:أنه إذا تأمل واجتهد فأداه اجتهاده إلى ما ذكرنا، كان الله تعالى فَهّمه من حيث بَيّن له طريق ذلك. فهذه جملة الكلام في بيان أنه لا يمتنع أن يكون اختلاف داود وسليمان عليهما السلام في ذلك الحكم إنما كان بسبب الاجتهاد.

وأما بيان أنه لا يمتنع أيضًا أن يكون اختلافهما فيه بسبب النص فطريقه أن يقال: إن داود عليه السلام كان مأمورًا من قِبل الله تعالى في هذه المسألة بالحكم الذي حكم به، ثم إنه سبحانه نسخ ذلك بالوحي إلى سليمان عليه السلام خاصة، وأمَره أن يعرف داود ذلك فصار ذلك الحكم حكمهما جميعًا فقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ أي أوحينا إليه فإن قيل: هذا باطل لوجهين: الأول: لما أنزل الله تعالى الحكم الأول على داود وجب أن ينزل نسخه أيضًا على داود لا على سليمان. الثاني: أن الله تعالى مدح كلاً منهما على الفهم ولو كان ذلك على سبيل النص لم يكن في فهمه كثير مدح، إنما المدح الكثير على قوة الخاطر والحذاقة في الاستنباط.

السؤال الثالث: إذا أثبتم أنه يجوز أن يكون اختلافهما لأجل النص وأن يكون لأجل الاجتهاد فأي القولين أولى؟ **والجواب**:الاجتهاد أرجح لوجوه: أحدها: أنه رُوي في الأخبار الكثيرة أن داود عليه السلام لم يكن قد بت الحكم في ذلك حتى سمع من سليمان أن غير ذلك أولى، وفي بعضها أن داود عليه السلام ناشده لكي يورد ما عنده، وكل ذلك لا يليق بالنص؛ لأنه لو كان نصًا لكان يُظهره ولا يكتمه.

السؤال الرابع: بَيّنوا أنه كيف كان طريق الاجتهاد؟ **الجواب**:أن وجه الاجتهاد فيه ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من أن داود عليه السلام قَوَّم قدر الضرر بالكرم فكان مساويًا لقيمة الغنم فكان عنده أن الواجب في ذلك الضرر أن يُزال بمثله من النفع، فلا جرم سَلَّم الغنم إلى المَجني عليه، كما قال أبو حنيفة رحمه الله في العبد إذا جنى على النفس، يدفعه المولى بذلك أو يفديه. وأما سليمان عليه السلام فإن اجتهاده أدى إلى أن يجب مقابلة الأصول بالأصول والزوائد بالزوائد، فأما مقابلة الأصول بالزوائد فغير جائز لأنه يقتضي الحيف والجور، ولعل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحَكَم به، كما قال الشافعي رضي الله عنه فيمن غصب عبدًا فأبق من يده، أنه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوته الغاصب من منافع العبد، فإذا ظهر ترادا.

السؤال الخامس: على تقدير أن ثبت قطعًا أن تلك المخالفة كانت مبنية على الاجتهاد، فهل تدل هذه القصة على أن المصيب واحد أو الكل مصيبون؟**الجواب:** أما القائلون بأن المصيب واحد ففيهم من استدل بقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ قال: ولو كان الكل مصيبًا لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة، وأما القائلون بأن الكل مصيبون ففيهم من استدل بقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ ولو كان المصيب واحدًا ومخالفه مخطئًا لمَا صح أن يقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ واعلم أن الاستدلالين ضعيفان: **أما الأول:** فلأن الله تعالى لم يقل: إنه فهمه الصواب، فيحتمل أنه فهَّمه الناسخ ولم يفهم ذلك داود عليه السلام لأنه لم يبلغه، وكل واحد منهما مصيب فيما حكم به، على أن أكثر ما في الآية أنها دالة على أن داود وسليمان عليهما السلام ما كانامصيبين، وذلك لا يوجب أن يكون الأمر كذلك في شرعنا. **وأما الثاني:** فلأنه تعالى لم يقل (إن كلًّا آتيناه حكمًا وعلمًا بما حكم به) بل يجوز أن يكون آتيناه حكمًا وعلمًا بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام، على أنه لا يلزم من كون كل مجتهد مصيبًا في شرعهم أن يكون الأمر كذلك في شرعنا.

السؤال السادس: لو وقعت هذه الواقعة في شرعنا ما حكمها؟**الجواب:** قال الحسن البصري: هذه الآية محكمة، والقضاة بذلك يقضون إلى يوم القيامة. واعلم أن كثيرًا من العلماء يزعمون أنه منسوخ بالإجماع، ثم اختلفوا في حكمه: فقال الشافعي رحمه الله: إن كان ذلك بالنهار لا ضمان؛ لأن لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار، وحِفظ الزرع بالنهار على صاحبه. وإن كان ليلًا يلزمه الضمان لأن حفظها بالليل عليه. وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا ضمان عليه ليلًا كان أو نهارًا إذا لم يكن متعديًا بالإرسال؛ لقولهﷺ: «**جُرْحُ الْعَجْمَاءِ جُبَارٌ**»[1] واحتج الشافعي رحمه الله بما روي عن البراء بن عازب أنه قال: «**كَانَتْ نَاقَةٌ ضَارِيَةٌ فَدَخَلَتْ حَائِطًا فَأَفْسَدَتْهُ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِﷺ فَقَضَى أَنَّ حِفظَ الْحَوَائِطِ بِالنَّهَارِ عَلَى أَهْلِهَا، وَأَنَّ حِفظَ الْمَاشِيَةِ بِاللَّيْلِ عَلَى أَهْلِهَا، وَأَنَّ عَلَى أَهْلِ الْمَاشِيَةِ مَا أَصَابَتْ مَاشِيَتُهُمْ بِاللَّيْلِ**»[2] وهذا تمام القول في هذه الآية. ثم إن الله تعالى ذكر بعد ذلك من النعم التي خص بها داود عليه أمرين: الأول: قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾**وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في تفسير هذا التسبيح وجهان:

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الزكاة) باب (في الزكاة الخمس) (٣/ ٤٤٥) حديث رقم/ ١٤٩٩ من طريق مالك... به. ومسلم في كتاب (الحدود) باب (جرح الجماء) (٣/ ٤٥/ ١٣٣٤) من طريق الليث... به. كلاهما (مالك، الليث) عن ابن شهاب... به.

(٢) **صحيح:** أخرجه أبو داود في كتاب (البيوع) باب (المواشي تُفسد زرع قوم) (٣/ ١٥٤٤) حديث رقم/ ٣٥٧٠ وابن ماجة في كتاب (الأحكام) باب (الحكم فيما أفسدت المواشي) (٢/ ٧٨١) حديث رقم/ ٢٣٣٢ وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٩٥) من طريق الزهري... به.

أحدهما: أن الجبال كانت تسبح . ثم ذكروا وجوهًا : **أحدها:** قال مقاتل : إذا ذكر داود عليه السلام ربه ، ذكرت الجبال والطير ربها معه . **وثانيها:** قال الكلبي : إذا سبح داود أجابته الجبال . **وثالثها:** قال سليمان بن حيان : كان داود عليه السلام إذا وجد فترة ، أمر الله تعالى الجبال فسبحت ، فيزداد نشاطًا واشتياقًا .

القول الثاني: -وهو اختيار بعض أصحاب المعاني- أنه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال والطير بمثابة قوله : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وتخصيص داود عليه السلام بذلك إنما كان بسبب أنه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقينًا وتعظيمًا . والقول الأول أقرب لأنه لا ضرورة في صرف اللفظ عن ظاهره .

وأما المعتزلة فقالوا: لو حصل الكلام من الجبل لحصل إما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه : والأول : محال لأن بنية الجبل لا تحتمل الحياة والعلم والقدرة ، وما لا يكون حيًا عالمًا قادرًا يستحيل منه الفعل . والثاني : أيضًا محال . لأن المتكلم عندهم من كان فاعلاً للكلام لا من كان محلاً للكلام ، فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل ، فثبت أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره . فعند هذا قالوا في ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ ومثله قوله تعالى : ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] معناه تصرفي معه وسيري بأمره و(يسبحن) من السبح الذي السباحة خرج اللفظ فيه على التكثير ، ولو لم يقصد التكثير لقيل (يَسْبَحن) فلما كثر قيل يسبحن معه ، أي سيرى وهو كقوله : ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧] أي تصرفًا ومذهبًا .

إذا ثبت هذا فنقول: إن سيرها هو التسبيح لدلالته على قدرة الله تعالى وعلى سائر ما تنزه عنه ، واعلم أن مدار هذا القول على أن بنية الجبل لا تقبل الحياة ، وهذا ممنوع ، وعلى أن التكلم من فعل الله وهو أيضًا ممنوع .

المسألة الثانية : أما الطير فلا امتناع في أن يصدر عنها الكلام ، ولكن أجمعت الأمة على أن المكلفين إما الجن أو الإنس أو الملائكة ، فيمتنع فيها أن تبلغ في العقل إلى درجة التكليف ، بل تكون على حالة كحال الطفل في أن يؤمر ويُنهى ، وإن لم يكن مكلفًا فصار ذلك معجزة من حيث جعلها في الفهم بمنزلة المراهق ، وأيضًا فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لا يجوز ، فيكون القول فيه كالقول في الجبال .

المسألة الثالثة : قال صاحب (الكشاف) : (يسبحن) حال بمعنى مسبحات أو استئناف ، كأن قائلاً قال : كيف سخرهن؟ فقال : يسبحن . والطير إما معطوف على الجبال وإما مفعول معه . فإن قلت : لمَ قُدمت الجبال على الطير؟ قلت : لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب ، وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز ؛ لأنها جماد والطير حيوان ناطق .

أما قوله: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ فالمعنى أنا قادرون على أن نفعل هذا وإن كان عجبًا عندكم .

وقيل: نفعل ذلك بالأنبياء عليهم السلام.

الإنعام الثالث: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اللبوس: اللباس، قال: البس لكل حالة لبوسها.

المسألة الثانية: (لتحصنكم) قرئ بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها: فالنون لله عز وجل، والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع، والياء لله تعالى أو لداود أو للبوس.

المسألة الثالثة: قال قتادة: أول من صنع الدرع داود عليه السلام، وإنما كانت صفائح قبله فهو أول من سردها واتخذها حِلقًا. ذكر الحسن أن لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدرع، فأراد أن يسأل عما يفعل ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه، فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله. قالوا: إن الله تعالى ألان الحديد له يعمل منه بغير نار كأنه طين.

المسألة الرابعة: البأس ههنا الحرب وإن وقع على السوء كله، والمعنى: ليمنعكم ويحرسكم من بأسكم، أي من الجَرح والقتل والسيف والسهم والرمح.

المسألة الخامسة: فيه دلالة على أن أول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه، فتوارث الناس عنه ذلك، فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق إلى آخر الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة.

واعلم أنه سبحانه لما ذكر النعم التي خص داود بها ذكر بعده النعم التي خص بها سليمان عليه السلام، وقال قتادة: وَرَّث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته، وزاده عليه أمرين سخر له الريح والشياطين.

الإنعام الأول: قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي جعلناها طائعة منقادة له، بمعنى أنه إن أرادها عاصفة كانت عاصفة، وإن أرادها لينة، كانت لينة والله تعالى مسخرها في الحالتين، فإن قيل: العاصف الشديدة الهبوب، وقد وصفها الله تعالى بالرخاوة في قوله: ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] فكيف يكون الجمع بينهما؟ والجواب من وجهين: الأول: أنها كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] وكانت جامعة بين الأمرين رخاء في نفسها وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم، آية إلى آية ومعجزة إلى معجزة. الثاني: أنها كانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفًا؛ لأجل هبوبها على حكم إرادته.

المسألة السادسة: قرئ (الريح والرياح) بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء والنصب للعطف على الجبال، فإن قيل: قال في دواد: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾ وقال في حق سليمان: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ فذكره في حق داود عليه السلام بكلمة مع وفي حق سليمان عليه السلام باللام وراعى هذا الترتيب أيضًا في قوله: ﴿يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وقال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ

تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ [ص: ٣٦]فما الفائدة في تخصيص داود عليه السلام بلفظ (مع) وسليمان باللام؟ قلنا: يحتمل أن الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف، فما أضيف إليه بلام التمليك، أما الريح فلم يصدر عنه إلا ما يجري مجرى الخدمة، فلا جرم أضيف إلى سليمان بلام التمليك، وهذا إقناعي.

أما قوله:﴿ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي إلى المضي إلى بيت المقدس، قال الكلبي: كانت تسير في إصطخر إلى الشام يركب عليها سليمان وأصحابه.

أما قوله:﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي لعلمنا بالأشياء صح منا أن ندبر هذا التدبير في رسلنا وفي خلقنا، وأن نفعل هذه المعجزات القاهرة.

الإنعام الثاني:قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: المراد أنهم يغوصون له في البحار، فيستخرجون الجواهر، ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة، كما قال: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ﴾ [سبأ: ١٣]وأما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنُّوْرة والطواحين والقوارير والصابون.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ يعني وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له، فيكون في موضع النصب نسقًا على الريح، قال الزجاج: ويجوز أن يكون في موضع رفع من وجهين: أحدهما: النسق على الريح، وأن يكون المعنى: ولسليمان الريح وله من يغوصون له من الشياطين، ويجوز أن يكون رفعًا على الابتداء ويكون (له) هو الخبر.

المسألة الثالثة: يحتمل أن يكون من يغوص منهم هو الذي يعمل سائر الأعمال، ويحتمل أنهم فرقة أخرى ويكون الكل داخلين في لفظة (مِن) وإن كان الأول هو الأقرب.

المسألة الرابعة: ليس في الظاهر إلا أنه سخرهم، لكنه قد رُوي أنه تعالى سخر كفارهم دون المؤمنين، وهو الأقرب من وجهين: أحدهما: إطلاق لفظ الشياطين. والثاني: قوله: ﴿ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ فإن المؤمن إذا سُخر في أمر لا يجب أن يحفظ لئلا يفسد، وإنما يجب ذلك في الكافر.

المسألة الخامسة: في تفسير قوله: ﴿ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ وجوه: أحدها: أنه تعالى وَكَّل بهم جمعًا من الملائكة أو جمعًا من مؤمني الجن. وثانيها: سخرهم الله تعالى بأن حبب إليهم طاعته وخَوَّفهم من مخالفته. وثالثها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد وسلطانه مقيم عليهم يفعل بهم ما يشاء، فإن قيل: وعن أي شيء كانوا محفوظين؟ قلنا: فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه تعالى كان يحفظهم عليه لئلا يذهبوا ويتركوه. وثانيها: قال الكلبي: كان يحفظهم من أن يهيجوا أحدًا في زمانه. وثالثها: كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا، فكان دأبهم أنهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه في الليل.

المسألة السادسة: سأل الجبائي نفسه وقال: كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرون على عمل الثقيل، وإنما يمكنهم الوسوسة؟ وأجاب بأنه سبحانه كَثَّف أجسامهم خاصة وقوَّاهم وزاد في عظمهم؛ ليكون ذلك معجزًا لسليمان عليه السلام، فلما مات سليمان ردهم الله إلى الخلقة الأولى لأنه لو بقاهم على الخلقة الثانية لصار شبهة على الناس، ولو ادعى متنبي النبوة وجعله دلالة، لكان كمعجزات الرسل، فلذا ردهم إلى خلقتهم الأولى.

واعلم أن هذا الكلام ساقط من وجوه: أحدها: لمَ قلت: إن الجن من الأجسام، ولمَ لا يجوز وجود مُحدث ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز ويكون الجن منهم؟ فإن قلت: لو كان الأمر كذلك لكان مثلاً للباري تعالى. قلت: هذا ضعيف لأن الاشتراك في اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك في الملزومات فكيف اللوازم السلبية؟ سَلَّمنا أنه جسم، لكن لا يجوز حصول القدرة على هذه الأعمال الشاقة في الجسم اللطيف، وكلامه بناء على البنية شرط وليس في يده إلا الاستقراء الضعيف. سَلَّمنا أنه لا بد من تكثيف أجسامهم لكن لمَ قلت بأنه لا بد من ردها إلى الخلقة الأولى بعد موت سليمان عليه السلام؟ فإن قال: لئلا يفضي إلى التلبيس. قلنا: التلبيس غير لازم؛ لأن المتنبي إذا جعل ذلك معجزة لنفسه فللمدعي أن يقول: لمَ لا يجوز أن يقال: إن قوة أجسادهم كانت معجزة لنبي آخر قبلك، ومع قيام هذا الاحتمال لا يتمكن المتنبي من الاستدلال به.

واعلم أن أجسام هذا العالم إما كثيفة أو لطيفة: أما الكثيف فأكثف الأجسام الحجارة والحديد، وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام، فأنطق الحجر وليَّن الحديد، وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر؛ لأنه لما قدر على إحياء الحجارة فأي بعد في إحياء العظام الرميمة؟ وإذا قدر على أن يجعل في إصبع داود عليه السلام قوة النار مع كون الإصبع في نهاية اللطافة، فأي بعد في أن يجعل التراب اليابس جسمًا حيوانيًّا، وألطف الأشياء في هذا العالم الهواءَ والنار، وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه السلام: أما الهواء فقوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ [ص: ٣٦] وأما النار فلأن الشياطين مخلوقون منها، وقد سخرهم الله تعالى، فكان يأمرهم بالغوص في المياه والنار تنطفئ بالماء وهم ما كان يضرهم ذلك، وذلك يدل على قدرته على إظهار الضد من الضد.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

(القصة السادسة. قصة أيوب عليه السلام)

اعلم أن في أمر أيوب عليه السلام وما ذكره الله تعالى من شأنه ههنا وفي غيره من القرآن من

العبر والدلائل - ما ليس في غيره؛ لأنه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفًا لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها، ويجتهد في القيام بحق الله تعالى، ويصبر على حالتي الضراء والسراء.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال وهب بن منبه: كان أيوب عليه السلام رجلاً من الروم، وهو أيوب بن أنوص وكان من ولد عيص بن إسحاق، وكانت أمه من ولد لوط، وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبيًّا، وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظًّا وافرًا من النعم والدواب والبساتين، وأعطاه أهلاً وولدًا من رجال ونساء، وكان رحيمًا بالمساكين، وكان يكفل الأيتام والأرامل ويكرم الضيف، وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله.

قال وهب: وإن لجبريل عليه السلام بين يدي الله تعالى مقامًا ليس لأحد من الملائكة مثله في القربة والفضيلة، وهو الذي يتلقى الكلام، فإذا ذكر الله عبدًا بخير تلقاه جبريل عليه السلام، ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام، ثم من حوله من الملائكة المقربين، فإذا شاع ذلك فهم يصلون عليه، ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الأرض.

وكان إبليس لم يُحجب عن شيء من السموات، وكان يقف فيهن حيثما أراد، ومن هناك وصل إلى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنة، ولم يزل على ذلك حتى رُفع عيسى عليه السلام فحُجب عن أربع. فكان يصعد بعد ذلك إلى ثلاث إلى زمان نبينا محمد ﷺ فحجب عند ذلك عن جميع السموات إلا من استرق السمع.

قال: فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، فأدركه الحسد، فصعد سريعًا حتى وقف من السماء موقفًا كان يقفه فقال: يا رب إنك أنعمت على عبدك أيوب فشكرك وعافيته فحمدك، ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء، وأنا لك زعيم لئن ضربتَه بالبلاء ليكفرن بك!! فقال الله تعالى: انطلِق فقد سلطتك على ماله. فانقض الملعون حتى وقع إلى الأرض وجَمَع عفاريت الشياطين، وقال لهم: ماذا عندكم من القوة فإني سُلطت على مال أيوب؟ قال عفريت: (أُعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصارًا من نار فأحرقت كل شيء آتي عليه) فقال إبليس: (فأتِ الإبل ورعاءها) فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لا يدنو منها شيء إلا احترق، فلم يزل يحرقها ورعاءها حتى أتى على آخرها، فذهب إبليس على شكل بعض أولئك الرعاة إلى أيوب فوجده قائمًا يصلي، فلما فرغ من الصلاة قال: يا أيوب هل تدري ما صنع ربك الذي اخترته بإبلك ورعائها؟ فقال أيوب: إنها ماله أعارنيه وهو أَوْلى به إذا شاء نزعه. قال إبليس: فإن ربك أرسل عليها نارًا من السماء فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها: فمن قائل يقول: ما كان أيوب يعبد شيئًا وما كان إلا في غرور. ومن قائل يقول:

لو كان إله أيوب يقدر على شيء لمنع من وليه. ومن قائل آخر يقول: بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت عدوه به ويفجع به صديقه. فقال أيوب عليه السلام: الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني، عريانًا خرجت من بطن أمي، وعريانًا أعود في التراب، وعريانًا أُحشر إلى الله تعالى، ولو علم الله فيك أيها العبد خيرًا لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيدًا وآجرني فيك، ولكن الله علم منك شرًّا فأخرك.

فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئًا، فقال عفريت آخر: عندي من القوة ما إذا شئت صحت صوتًا لا يسمعه ذو روح إلا خرجت روحه! فقال إبليس: (فأتِ الغنم ورعاءها) فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها، فخرج إبليس متمثلاً بقهرمان الرعاة إلى أيوب فقال له القول الأول ورد عليه أيوب الرد الأول.

فرجع إبليس صاغرًا، فقال عفريت آخر: عندي من القوة ما إذا شئت تحولتُ ريحًا عاصفة أقلع كل شيء أتيت عليه. قال: (فاذهب إلى الحرث والثيران) فأتاهم فأهلكهم ثم رجع إبليس متمثلاً حتى جاء أيوب وهو يصلي، فقال مثل قوله الأول فرد عليه أيوب الرد الأول.

فجعل إبليس يصيب أمواله شيئًا فشيئًا حتى أتى على جميعها.

فلما رأى إبليس صبره على ذلك وقف الموقف الذي كان يقفه عند الله تعالى وقال: يا إلهي هل أنت مسلطي على ولده، فإنها الفتنة المضلة؟ فقال الله تعالى: انطلِق فقد سلطتك على ولده. فأتى أولاد أيوب في قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم، ثم جاء إلى أيوب متمثلاً بالمعلم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه، فقال: لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لتَقَطَّع قلبك. فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق أيوب عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه، فاغتنم ذلك إبليس، ثم لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع.

فصعد إبليس ووقف موقفه وقال: يا إلهي إنما يهون على أيوب خطر المال والولد؛ لعلمه أنك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطي على جسده وإني لك زعيم لو ابتليته في جسده ليكفرن بك. فقال تعالى: انطلِق فقد سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه. فانقض عدو الله سريعًا فوجد أيوب عليه السلام ساجدًا لله تعالى، فأتاه من قِبل الأرض فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده وخرج به من فرقه إلى قدمه ثآليل، وقد وقعت فيه حكة لا يملكها، وكان يحك بأظفاره حتى سقطت أظفاره، ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم بالفخار والحجارة، ولم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير ونتن، فأخرجه أهل القرية، وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشًا، ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف عليه السلام، فكانت تُصلح أموره.

ثم إن وهبًا طوّل في الحكاية إلى أن قال: إن أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى مستغيثًا

متضرعًا إليه فقال: يا رب لأي شيء خلقتني؟! يا ليتني كنت حيضة ألقتني أمي، ويا ليتني كنت عرفت الذنب الذي أذنبته، والعمل الذي عملت حتى صرفتَ وجهكَ الكريم عني، ألم أكن للغريب دارًا، وللمسكين قرارًا، ولليتيم وليًّا، وللأرملة قيمًا، إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنتَ فالمن لك وإن أسأتُ فبيدك عقوبتي، جعلتني للبلاء غرضًا، وللفتنة نصبًا، وسلطت عليَّ ما لو سلطته على جبل لضعف من حمله، إلهي تقطعت أصابعي، وتساقطت لهواتي، وتناثر شعري وذهب المال، وصرت أسأل اللقمة فيطعمني من يمن بها عليَّ ويعيرني بفقري وهلاك أولادي!!

قال الإمام أبو القاسم الأنصاري رحمه الله، وفي جملة هذا الكلام: ليتك لو كرهتني لم تخلقني. ثم قال: ولو كان ذلك صحيحًا لاغتنمه إبليس، فإن قصده أن يحمله على الشكوى، وأن يخرجه عن حلية الصابرين، والله تعالى لم يخبر عنه إلا قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

واختلف العلماء في السبب الذي قال لأجله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وفي مدة بلائه.

فالرواية الأولى: روى ابن شهاب عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَقِيَ فِي الْبَلاَءِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ إِلاَّ رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ كَانَا يَغْدُوَانِ وَيَرُوحَانِ إِلَيْهِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ ذَاتَ يَوْمٍ: واللَّه لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ! فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ فَقَالَ: مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمْهُ اللَّه تَعَالَى وَلَمْ يَكْشِفْ مَا به! فلما راحا إِلَى أَيُّوبَ لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لأَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقَالَ أَيُّوبُ: مَا أدري ما تقولان، غَيْرَ أَنَّ اللَّه تَعَالَى يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ فَيَذْكُرَانِ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللَّه إِلاَّ فِي حَقٍّ»**[(١)].

وفي رواية أخرى: **«أَنَّ الرَّجُلَيْنِ لَمَّا دَخَلاَ عَلَيْهِ وَجَدَا رِيحًا فَقَالاَ: لَوْ كَانَ لأَيُّوبَ عِنْدَ اللَّه خَيْرٌ مَا بَلَغَ إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ! قَالَ: فَمَا شَقَّ عَلَى أَيُّوبَ شَيْءٌ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ أَشَدُّ مِمَّا سَمِعَ مِنْهُمَا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَبِتْ شَبْعَانًا وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَكَانِ جَائِعٍ فَصَدِّقْنِي فَصَدَّقَهُ وَهُمَا يَسْمَعَانِ، ثُمَّ خَرَّ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ سَاجِدًا ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لاَ أَرْفَعُ رَأْسِي حَتَّى تَكْشِفَ مَا بِي! قَالَ: فَكَشَفَ اللَّه مَا بِهِ»**[(٢)].

الرواية الثانية: قال الحسن رحمه الله: مكث أيوب عليه السلام بعد ما أُلقي على الكناسة سبع سنين وأشهرًا، ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة، صبرت معه وكانت تأتيه بالطعام، وتحمد الله تعالى مع أيوب، وكان أيوب مواظبًا على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه.

فصرخ إبليس صرخة جزعًا من صبر أيوب، فاجتمع جنوده من أقطار الأرض وقالوا له ما

(١) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

(٢) لم أجده.

خبرك؟ قال: أعياني هذا العبد الذي سألت الله أن يسلطني عليه وعلى ماله وولده، فلم أدع له مالاً ولا ولدًا، ولم يزدد بذلك إلا صبرًا وحمدًا لله تعالى، ثم سُلطت على جسده فتركته ملقى في كناسة وما يقربه إلا امرأته، وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمد لله! فاستعنت بكم لتعينوني عليه!! فقالوا له: أين مكرك؟! أين عملك الذي أهلكت به من مضى؟ قال: بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا عليَّ! قالوا: أدليت آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته؟ قال: من قبل امرأته. قالوا: فشأنك بأيوب من قِبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها لأنه لا يقربه أحد غيرها.

قال: أصبتم! فانطلق حتى أتى امرأته فتمثَّل لها في صورة رجل فقال: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت: هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده. فلما سمعها طمع أن يكون ذلك كله جزعًا، فوسوس إليها وذكَّرها ما كان لها من النعم والمال، وذكَّرها جمال أيوب وشبابه. قال الحسن رحمه الله: فصرخت، فلما صرخت علم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة، وقال: ليذبحْ هذه لي أيوب ويبرأ. قال: فجاءت تصرخ إلى أيوب: يا أيوب حتى متى يعذبك ربك، ألا يرحمك؟ أين المال، أين الماشية، أين الولد، أين الصديق، أين اللون الحسن، أين جسمك الذي قد بلي وصار مثل الرماد، وتردد فيه الدواب؟ اذبح هذه السخلة واسترح!! فقال أيوب عليه السلام: أتاكِ عدو الله ونفخ فيكِ فأجبتيه! ويلك أترين ما تبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة، من أعطانا ذلك؟ قالت: الله. قال: فكم مُتعنا به؟ قالت: ثمانين سنة. قال: فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء؟ قالت: منذ سبع سنين وأشهر. قال: ويلك، والله ما أنصفتِ ربك، ألا صبرتِ في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة؟! والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة، أمرتيني أن أذبح لغير الله؟! وحرام عليّ أن أذوق بعد هذا شيئًا من طعامك وشرابك الذي تأتيني به!!

فطردها فذهبت، فلما نظر أيوب في شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق، وقد ذهبت امرأته، خر ساجدًا وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فقال: ارفع رأسك فقد استجبت لك ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢] فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها، فلم يبق في ظاهر بدنه دابة إلا سقطت منه، ثم ضرب برجله مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها، فلم يبق في جوفه داء إلا خرج وقام صحيحًا، وعاد إليه شبابه وجماله حتى صار أحسن ما كان، ثم كُسي حلة، فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئًا مما كان له من الأهل والولد والمال، إلا وقد ضَعَّفه الله تعالى حتى صار أحسن مما كان، حتى ذكر أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جرادًا من ذهب. قال: فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه: يا أيوب ألم أُغنك؟ قال: بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها؟! قال: فخرج حتى جلس على مكان مشرف، ثم إن امرأته قالت: هب أنه طردني أفأتركه حتى يموت جوعًا وتأكله السباع؟! لأرجعن إليه. فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال، وإذا بالأمور قد تغيرت، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة

وتبكي وذلك بعين أيوب عليه السلام، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأله عنه، فأرسل إليها أيوب عليه السلام ودعاها وقال: ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت وقالت: أردت ذلك المبتلى الذي كان ملقى على الكناسة! فقال لها أيوب عليه السلام: ما كان منكِ؟ فبكت وقالت: بعلي. فقال: أتعرفينه إذا رأيتيه؟ قالت وهل يخفى على أحد يراه؟! فتبسم وقال: أنا هو!! فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال: إنكِ أمرتيني أن أذبح سخلة لإبليس، وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فردَّ عليَّ ما ترين.

الرواية الثالثة: قال الضحاك ومقاتل: بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات. وقال وهب رحمه الله: بقي في البلاء ثلاث سنين، فلما غلب أيوب إبليس لعنه الله ذهب إبليس إلى امرأته على هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجمال، على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها: أنت صاحبة أيوب؟ قالت: نعم. قال: فهل تعرفيني؟ قالت: لا. قال: أنا إله الأرض أنا صنعت بأيوب ما صنعت، وذلك أنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني، ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه جميع مالكما من مال وولد فإن ذلك عندي!! قال وهب: وسمعت أنه قال: لو أن صاحبكِ أكل طعامًا ولم يُسمِّ الله تعالى لعوفي مما هو فيه من البلاء. وفي رواية أخرى: بل قال لها: لو شئتِ فاسجدي لي سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافي زوجك. فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها، فقال لها أيوب: أتاكِ عدو الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم لئن عافاني الله لأجدلنك مائة جلدة! وقال عند ذلك: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ يعني من طمع إبليس في سجودي له وسجود زوجتي، ودعائه إياها وإياي إلى الكفر.

الرواية الرابعة: قال وهب: كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته، فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها، فالتمست ذات يوم شيئًا من الطعام فلم تجد شيئًا، فجزت قرنًا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها: أين قرنك؟ فأخبرته بذلك فحينئذٍ قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ .

الرواية الخامسة: قال إسماعيل السدي: لم يقل أيوب: (مسني الضر) إلا لأشياء ثلاث: أحدها: قول الرجلين له: (لو كان عملك الذي كنا نرى لله تعالى لما أصابك الذي أصابك). وثانيها: كان لامرأته ثلاث ذوائب فعمدت إلى إحداها وقطعتها وباعتها، فأعطوها بذلك خبزًا ولحمًا فجاءت إلى أيوب عليه السلام فقال: من أين هذا؟ فقالت: كل فإنه حلال. فلما كان من الغد لم تجد شيئًا فباعت الثانية. وكذلك فعلت في اليوم الثالث، وقالت: كل فإنه حلال. فقال: لا آكل ما لم تخبريني. فأخبرته فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم، وقيل: إنما باعت ذوائبها لأن إبليس تمَثَّل لقوم في صورة بشر، وقال: لئن تركتم أيوب في قريتكم فإني أخاف أن يعدي إليكم ما به من العلة، فأخرِجوه إلى باب البلد. ثم قال لهم: إن امرأته تدخل في بيوتكم

وتعمل وتمس زوجها، أما تخافون أن تعدي إليكم علته؟ فحينئذٍ لم يستعملها أحد فباعت ضفيرتها. وثالثها: حين قالت له امرأته ما قالت فحينئذٍ دعا.

الرواية السادسة: قيل: سقطت دودة من فخذه فرفعها وردَّها إلى موضعها، وقال: قد جعلني الله تعالى طُعمة لك فعضته عضة شديدة، فقال: مسني الضر. فأوحى الله تعالى إليه لولا أني جعلت تحت كل شعرة منك صبرًا لما صبرت.

المسألة الثانية: اعلم أن المعتزلة قد طعنوا في هذه القصة من وجوه:

أحدها: قال الجبائي: ذهب بعض الجهال إلى أن ما كان به من المرض كان فعلاً للشيطان سلطه الله عليه؛ لقوله تعالى حكاية عنه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] وهذا جهل، أما أولاً فلأنه لو قدر على إحداث الأمراض والأسقام وضدهما من العافية، لتهيأ له فعل الأجسام، ومَن هذا حاله يكون إلهًا. وأما ثانيًا فلأن الله تعالى أخبر عنه وعن جنوده بأنه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] والواجب تصديق خبر الله تعالى، دون الرجوع إلى ما يروى عن وهب بن منبه رضي الله عنه. واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف لأن المذكور في الحكاية أن الشيطان نفخ في منخره فوقعت الحكة فيه، فلمَ قلتم: إن القادر على النفخة التي تولد مثل هذه الحكة لا بد وأن يكون قادرًا على خلق الأجسام، وهل هذا إلا محض التحكم؟ وأما التمسك بالنص فضعيف، لأنه إنما يقدم على هذا الفعل متى علم أنه لو أقدم عليه لما منعه الله تعالى عنه، وهذه الحالة لم تحصل إلا في حق أيوب عليه السلام، على ما دلت الحكاية عليه من أنه استأذن الله تعالى فأذِن له فيه، ومتى كان كذلك لم يبق بين ذلك النص وبين هذه الحكاية مناقضة.

وثانيها: قالوا: ما روي أنه عليه السلام لم يسأل إلا عند أمور مخصوصة فبعيد؛ لأن الثابت في العقل أنه يحسن من المرء أن يسأل في ذلك ربه ويفزع إليه، كما يحسن منه المداواة، وإذا جاز أن يسأل ربه عند الغم مما يراه من إخوانه وأهله، جاز أيضًا أن يسأل ربه من قِبل نفسه، فإن قيل: أفلا يجوز أنه تعالى تعبده بأن لا يسأل الكشف إلا في آخر أمره؟ قلنا: يجوز ذلك بأن يعلمه بأن إنزال ذلك به مدة مخصوصة من مصالحه ومصالح غيره لا محالة، فعلم عليه السلام أنه لا وجه للمسألة في هذا الأمر الخاص، فإذا قرب الوقت جاز أن يسأل ذلك، من حيث يجوز أن يدوم ويجوز أن ينقطع.

وثالثها: قالوا: انتهاء ذلك المرض إلى حد التنفير عنه غير جائز؛ لأن الأمراض المنفرة من القَبول غير جائزة على الأنبياء عليهم السلام. فهذا جملة ما قيل في هذه الحكاية.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ أي ناداه بأني مسني الضر، وقرئ (إني) بالكسر على إضمار القول أو لتضمين النداء معناه، و(الضَّر) بالفتح الضرر في كل شيء، وبالضم الضرر في النفس من مرض وهزال.

المسألة الرابعة: أنه عليه السلام ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب. فإن قيل: أليس أن الشكوى تقدح في كونه صابرًا؟ والجواب: قال سفيان بن عيينة رحمه الله: من شكا إلى الله تعالى فإنه لا يعد ذلك جزعًا إذا كان في شكواه راضيًا بقضاء الله تعالى؛ إذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء، ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

أما قوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فالدليل على أنه سبحانه ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أمور: أحدها: أن كل من رحم غيره فإما أن يرحمه طلبًا للثناء في الدنيا، أو الثواب في الآخرة، أو دفعًا للرقة الجنسية عن الطبع، وحينئذٍ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة نفسه، أما الحق سبحانه فإنه يرحم عباده من غير وجه من هذه الوجوه، ومن غير أن يعود إليه من تلك الرحمة زيادة ولا نقصان من الثناء ومن صفات الكمال، فكان سبحانه أرحم الراحمين. وثانيها: أن كل من يرحم غيره فلا يكون ذلك إلا بمعونة رحمة الله تعالى؛ لأن من أعطى غيره طعامًا أو ثوبًا أو دفع عنه بلاء، فلولا أنه سبحانه خلق المطعوم والملبوس والأدوية والأغذية، وإلا لما قدر أحد على إعطاء ذلك الشيء، ثم بعد وصول تلك العطية إليه، فلولا أنه سبحانه جعله سببًا للراحة لما حصل النفع بذلك، فإذًا رحمة العباد مسبوقة برحمة الله تعالى وملحوقة برحمته، بل رحمتهم فيما بين الطرفين كالقطرة في البحر، فوجب أن يكون تعالى هو أرحم الراحمين. وثالثها: أن الله تعالى لو لم يخلق في قلب العبد تلك الدواعي والإرادات، لاستحال صدور ذلك الفعل عنه، فكان الراحم هو الحق سبحانه، من حيث إنه هو الذي أنشأ تلك الداعية، فثبت أنه أرحم الراحمين.

فإن قيل: كيف يكون أرحم الراحمين مع أنه سبحانه ملأ الدنيا من الآفات والأسقام والأمراض والآلام، وسلط البعض على البعض بالذبح والكسر والإيذاء، وكان قادرًا على أن يغني كل واحد عن إيلام الآخر وإيذائه؟ والجواب: أن كونه سبحانه ضارًا لا ينافي كونه نافعًا، بل هو الضار النافع، فإضراره ليس لدفع مشقة وإنفاعه ليس لجلب منفعة، بل لا يُسأل عما يفعل.

أما قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ فإنه يدل على أنه دعا ربه، لكن هذا الدعاء قد يجوز أن يكون واقعًا منه على سبيل التعريض، كما يقال: إن رأيت أو أردت أو أحببت فافعل كذا. ويجوز أن يكون على سبيل التصريح وإن كان الأليق بالأدب وبدلالة الآية هو الأول، ثم إنه سبحانه بَيَّن أنه كشف ما به من ضر، وذلك يقتضي إعادته إلى ما كان في بدنه وأحواله، وبَيَّن الله تعالى أنه آتاه أهله ويدخل فيه من يُنسب إليه من زوجة وولد وغيرهما، ثم فيه قولان: أحدهما: -وهو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبي وكعب رضي الله عنهم- أن الله تعالى أحيا له أهله يعني أولاده بأعيانهم. والثاني: روى الليث رضي الله عنه قال: أرسل مجاهد إلى عكرمة وسأله عن الآية فقال: قيل له: إن أهلك لك في الآخرة فإن شئت عجلناهم لك في الدنيا، وإن شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا. فقال: يكونون لي في الآخرة وأوتى مثلهم

في الدنيا. والقول الأول أَوْلى لأن قوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ يدل بظاهره على أنه تعالى أعادهم في الدنيا، وأعطاه معهم مثلهم أيضًا.

وأما قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ ففيه دلالة على أنه تعالى فعل ذلك لكي يُتفكر فيه فيكون داعية للعابدين في الصبر والاحتساب، وإنما خص العابدين بالذكر [ﷺ] لأنهم يختصون بالانتفاع بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

(القصة السابعة)

اعلم أنه تعالى لما ذكر صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه إليه، أتبعه بذكر هؤلاء فإنهم كانوا أيضًا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة، أما إسماعيل عليه السلام فلأنه صبر على الانقياد للذبح، وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء، وصبر في بناء البيت، فلا جرم أكرمه الله تعالى وأخرج من صلبه خاتم النبيين. وأما إدريس عليه السلام فقد تقدمت قصته في سورة مريم عليها السلام، قال ابن عمر رضي الله عنهما: (بُعِثَ إِلَى قَوْمِهِ دَاعِيًا لَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَأَبَوْا فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَرَفَعَ إِدْرِيسَ إِلى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ)[1].

وأما ذوا الكفل ففيه مسائل:

المسألة الأولى: فيها بحثان:

الأول: قال الزجاج: الكفل في اللغة الكساء الذي يُجعل على عجز البعير، والكفل أيضًا النصيب واختلفوا في أنه لم سُمي بهذا الاسم على وجوه: أحدها: -وهو قول المحققين- أنه كان له ضِعف عمل الأنبياء عليهم السلام في زمانه وضِعف ثوابهم. **وثانيها:** قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: (إِنَّ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالنُّبُوَّةَ، ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنِّي أُرِيدُ قَبْضَ رُوحِكَ، فَاعْرِضْ مُلْكَكَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَنْ تَكَفَّلَ لَكَ أَنَّهُ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ حَتَّى يُصْبِحَ وَيَصُومُ بِالنَّهَارِ فَلَا يُفْطِرُ، وَيَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ فَلَا يَغْضَبُ، فَادْفَعْ مُلْكَكَ إِلَيْهِ. فَقَامَ ذَلِكَ النَّبِيُّ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ، فَقَامَ شَابٌّ وَقَالَ: أَنَا أَتَكَفَّلُ لَكَ بِهَذَا. فَقَالَ فِي الْقَوْمِ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْكَ فَاقْعُدْ. ثُمَّ صَاحَ الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ، فَقَامَ الرَّجُلُ وَقَالَ: أَتَكَفَّلُ لَكَ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ. فَدَفَعَ إِلَيْهِ مُلْكَهُ، وَوَفَى بِمَا ضَمِنَ، فَحَسَدَهُ إِبْلِيسُ فَأَتَاهُ وَقْتَ مَا يُرِيدُ أَنْ يَقِيلَ، فَقَالَ: إِنَّ لِي غَرِيمًا قَدْ مَطَلَنِي حَقِّي وَقَدْ دَعَوْتُهُ إِلَيْكَ فَأَبَى فَأَرْسِلْ مَعِيَ مَنْ يَأْتِيكَ بِهِ. فَأَرْسَلَ مَعَهُ وَقَعَدَ حَتَّى

---

(١) أورده ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٩/ ٢٦٧) حديث رقم/ ١٤٢٠٩ قال: عن عبد الله بن عمرو بن العاص... فذكره.

فَاتَتْهُ الْقَيْلُولَةُ وَدَعَا إِلَى صِلاَتِهِ وَصَلَّى لَيْلَهُ إِلَى الصَّبَاحِ، ثُمَّ أَتَاهُ مِنَ الْغَدِ عِنْدَ الْقَيْلُولَةِ فَقَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي اسْتَأْذَنْتُكَ لَهُ فِي مَوْضِعِ كَذَا، فَلاَ تَبْرَحْ حَتَّى آتِيَكَ بِهِ. فَذَهَبَ وَبَقِيَ مُنْتَظِرًا حَتَّى فَاتَتْهُ الْقَيْلُولَةُ، ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: هَرَبَ مِنِّي فَمَضَى ذُو الْكِفْلِ إِلَى صِلاَتِهِ فَصَلَّى لَيْلَتَهُ حَتَّى أَصْبَحَ، فَأَتَاهُ إِبْلِيسُ وَعَرَّفَهُ نَفْسَهُ، وَقَالَ لَهُ: حَسَدْتُكَ عَلَى عِصْمَةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فَأَرَدْتُ أَنْ أُخْرِجَكَ حَتَّى لاَ تَفِيَ بِمَا تَكَفَّلْتَ بِهِ. فَشَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ وَنَبَّأَهُ، فَسُمِّيَ ذَا الْكِفْلِ). وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة. **وثالثها:** قال مجاهد: لما كبر اليسع عليه السلام، قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس في حياتي حتى أنظر كيف يعمل. فجمع الناس وقال: من يتقبل مني حتى أستخلفه ثلاثًا يصلي بالليل ويصوم بالنهار ويقضي فلا يغضب؟

وذكَر عليّ كرَّم الله وجهه نحو ما ذكره ابن عباس رضي الله عنه من فعل إبليس وتفويته عليه القيلولة ثلاثة أيام. وزاد أن ذا الكفل قال للبواب في اليوم الثالث: قد غلب عليَّ النعاس فلا تدعن أحدًا يقرب هذا الباب حتى أنام؛ فإني قد شق عليَّ النعاس. فجاء إبليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة في البيت وتسور فيها، فإذا هو يدق الباب من داخل، فاستيقظ الرجل وعاتب البواب، فقال: أما مِن قِبلي فلم تؤت. فقام إلى الباب فإذا هو مغلق وإبليس على صورة شيخ معه في البيت، فقال له: أتنام والخصوم على الباب؟ فعرفه فقال: أنت إبليس. قال: نعم أعييتني في كل شيء ففعلت هذه الأفعال لأغضبك، فعصمك الله مني. فسُمي ذا الكفل لأنه قد وفى بما تكفل به.

المسألة الثانية: قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ومجاهد: ذو الكفل لم يكن نبيًّا، ولكن كان عبدًا صالحًا. وقال الحسن والأكثرون: إنه من الأنبياء عليهم السلام. وهذا أَوْلى الوجوه: **أحدها:** أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقبًا وأن يكون اسمًا، والأقرب أن يكون مفيدًا؛ لأن الاسم إذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أَوْلى من اللقب. إذا ثبت هذا فنقول: الكفل هو النصيب، والظاهر أن الله تعالى إنما سماه بذلك على سبيل التعظيم، فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب، فهو إنما سمي بذلك لأن عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره، ولقد كان في زمنه أنبياء على ما روي، ومن ليس بنبي لا يكون أفضل من الأنبياء. **وثانيها:** أنه تعالى قرن ذكره بذكر إسماعيل وإدريس، والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم، وذلك يدل على نبوته. **وثالثها:** أن السورة ملقبة بسورة الأنبياء، فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبي.

المسألة الثالثة: قيل: إن ذا الكفل زكريا وقيل: يوشع وقيل: إلياس، ثم قالوا: خمسة من الأنبياء سماهم الله تعالى باسمين: إسرائيل ويعقوب، إلياس وذو الكفل، عيسى والمسيح، يونس وذو النون، محمد وأحمد.

وأما قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي على القيام بأمر الله تعالى، واحتمال الأذى في نصرة دينه. وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ قال مقاتل: الرحمة: النبوة. وقال آخرون: بل يتناول جميع أعمال البر والخير.

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

(القصة الثامنة. قصة يونس عليه السلام)

اعلم أن ههنا مسائل:

المسألة الأولى: أنه لا خلاف في أن ذا النون هو يونس عليه السلام؛ لأن النون هو السمكة، وقد ذكرنا أن الاسم إذا دار بين أن يكون لقبًا محضًا وبين أن يكون مفيدًا، فحَمْله على المفيد أَوْلى، خصوصًا إذا علمت الفائدة التي يصلح لها ذلك الوصف.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن وقوعه عليه السلام في بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء رسالة الله تعالى أو بعده:

أما القول الأول: فقال ابن عباس رضي الله عنه: كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين، فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفًا، وبقي سبطان ونصف، فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبي عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبيًا قويًّا أمينًا، فإني أُلقي في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل. فقال له الملك: فمن ترى؟ وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال: يونس بن متى؛ فإنه قوي أمين. فدعا الملك بيونس وأمَره أن يخرج فقال يونس: هل أمرك الله بإخراجي؟ قال: لا. قال: فهل سماني لك؟ قال: لا. قال: فههنا أنبياء غيري. فألحوا عليه فخرج مغاضبًا للملك ولقومه، فأتى بحر الروم فوجد قومًا هيأوا سفينة فركب معهم، فلما تلججت السفينة تكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا، فقال الملاحون: ههنا رجل عاصٍ أو عبد آبق لأن السفينة لا تفعل هذا من غير ريح إلا وفيها رجل عاصٍ، ومِن رسمنا أنا إذا ابتُلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع، فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق [و] أحد خير من أن تغرق السفينة. فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام، فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق.

وألقى نفسه في البحر فجاء حوت فابتلعه، فأوحى الله تعالى إلى الحوت لا تؤذ منه شعرة؛ فإني جعلت بطنك سجنًا له ولم أجعله طعامًا لك، ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف، ليس عليه شعر ولا جلد، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين

يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد، فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له: أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون، حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتهم؟!

ثم أوحى الله إليه وأمره أن يذهب إليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد، فأتاهم يونس عليه السلام، وقال لملكهم: إن الله تعالى أرسلني إليك لترسل معي بني إسرائيل. فقالوا: ما نعرف ما تقول، ولو علمنا أنك صادق لفعلنا، ولقد أتيناكم في دياركم وسبيناكم، فلو كان كما تقول لمَنَعَنا الله عنكم. فطاف ثلاثة أيام يدعوهم إلى ذلك فأبوا عليه، فأوحى الله تعالى إليه: قل لهم: إن لم تؤمنوا جاءكم العذاب. فأبلغهم فأبوا، فخرج من عندهم، فلما فقدوه ندموا على فعلهم، فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه، ثم ذكروا أمرهم وأمر يونس للعلماء الذين كانوا في دينهم، فقالوا: انظروا واطلبوه في المدينة، فإن كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شيء، وإن كان قد خرج فهو كما قال. فطلبوه فقيل لهم: إنه خرج العشي. فلما آيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والأمهات، ثم قاموا ينتظرون الصبح، فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء، فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها، وصاح الصبيان وثغت الأغنام والبقر، فرفع الله تعالى عنهم العذاب، فبعثوا إلى يونس عليه السلام فآمنوا به، وبعثوا معه بني إسرائيل.

فعلى هذا القول كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت، ودليل هذا القول قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٥- ١٤٧].

وفي هذا القول رواية أخرى وهي أن جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام: انطلِق إلى أهل نينوى وأنذِرهم أن العذاب قد حضرهم. فقال يونس عليه السلام: التمس دابة. فقال الأمر أعجل من ذلك. فغضب وانطلق إلى السفينة، وباقي الحكاية كما مرت إلى أن التقمه الحوت، فانطلق إلى أن وصل إلى نينوى فألقاه هناك.

أما القول الثاني: وهو أن قصة الحوت كانت بعد دعائه أهل نينوى وتبليغه رسالة الله إليهم قالوا: إنهم لما لم يؤمنوا وعدهم بالعذاب، فلما كشف العذاب عنهم بعد ما توعدهم به خرج منهم مغاضبًا. ثم ذكروا في سبب الخروج والغضب أمورًا: **أحدها:** أنه استحى أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب. **وثانيها:** أنه كان من عادتهم قتل الكاذب. **وثالثها:** أنه دخلته الأنفة. **ورابعها:** لما لم ينزل العذاب بأولئك.

وأكثر العلماء على القول بأن قصة الحوت وذهاب يونس عليه السلام مغاضبًا بعد أن أرسله الله تعالى إليهم، وبعد رفع العذاب عنهم.

المسألة الثالثة: احتج القائلون بجواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه: أحدها: أن أكثر المفسرين على أنه ذهب يونس مغاضبًا لربه ويقال: هذا قول ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبي وسعيد بن جبير ووهب، واختيار ابن قتيبة ومحمد بن جرير، فإذا كان كذلك فيلزم أن مغاضبته لله تعالى من أعظم الذنوب، ثم على تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى بل كانت مع ذلك الملك أو مع القوم، فهو أيضًا كان محظورًا لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] وذلك يقتضي أن ذلك الفعل من يونس كان محظورًا. وثانيها: قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وذلك يقتضي كونه شاكًّا في قدرة الله تعالى. وثالثها: قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨] ورابعها: أنه لو لم يصدر منه الذنب، فلمَ عاقبه الله بأن ألقاه في بطن الحوت؟ وخامسها: قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] والمليم هو ذو الملامة، ومن كان كذلك فهو مذنب. وسادسها: قوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] فإن لم يكن صاحب الحوت مذنبًا لم يجز النهي عن التشبه به، وإن كان مذنبًا فقد حصل الغرض. وسابعها: أنه قال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فلزم أن لا يكون يونس من أولي العزم، وكان موسى من أولي العزم، ثم قال: في حقه: «**لو كان ابن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعي**» وقال في يونس: «**لا تفضلوني على يونس بن متى**» (١) وهذا خارج عن تفسير الآية.

والجواب عن الأول: أنه ليس في الآية مَن غاضبه، لكنا نقطع على أنه لا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه؛ لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكًا للأمر والنهي، والجاهل بالله لا يكون مؤمنًا فضلاً عن أن يكون نبيًا، وأما ما روي أنه خرج مغاضبًا لأمر يرجع إلى الاستعداد وتناوُل النفل، فمما يرتفع حال الأنبياء عليهم السلام عنه؛ لأن الله تعالى إذا أمرهم بشيء فلا يجوز أن يخالفوه لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥] فإذا كان في الاستعداد مخالفة لم يجز أن يقع ذلك منهم، وإذا ثبت أنه لا يجوز صرف هذه المغاضبة إلى الله تعالى، وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضبًا لغير الله، والغالب أنه إنما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به، فيحتمل قومه أو الملك أو هما جميعًا، ومعنى مغاضبته لقومه أنه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها، وقرأ أبو شرف (مغضبًا).

أما قوله مغاضبة القوم أيضًا كانت محظورة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]

---

(١) ذكره الألباني في (تخريج شرح الطحاوية) (١/ ١٧٢) وقال: لا أصل له بهذا اللفظ.

قلنا: لا نُسلِّم أنها كانت محظورة، فإن الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة إليهم، وما أمَره بأن يبقى معهم أبدًا، فظاهر الأمر لا يقتضي التكرار، فلم يكن خروجه من بينهم معصية، وأما الغضب فلا نسلم أنه معصية، وذلك لأنه لما لم يكن منهيًّا عنه قبل ذلك فظن أن ذلك جائز، من حيث إنه لم يفعله إلا غضبًا لله تعالى وأنفة لدينه وبغضًا للكفر وأهله، بل كان الأَوْلى له أن يصابر وينتظر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨] كأن الله تعالى أراد لمحمد ﷺ أفضل المنازل وأعلاها.

والجواب عن الشبهة الثانية: -وهي التمسك بقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[الأنبياء: ٨٧] - أن نقول: من ظن عجز الله تعالى فهو كافر، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين، فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام؟! فإذن لا بد فيه من التأويل، وفيه وجوه: **أحدها:** ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[الأنبياء: ٨٧] لن نضيق عليه، وهو كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾[العنكبوت: ١٢] أي يضيق ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[الطلاق: ٧] أي ضُيق ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾[الفجر: ١٦] أي ضَيق، ومعناه أن لن نضيق عليه، واعلم أن على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا، وذلك لأن يونس عليه السلام ظن أنه مخير إن شاء أقام وإن شاء خرج، وأنه تعالى لا يضيق عليه في اختياره، وكان في المعلوم أن الصلاح في تأخر خروجه، وهذا من الله تعالى بيان لما يجري مجرى العذر له من حيث خرج، لا على تعمد المعصية، لكن لظنه أن الأمر في خروجه موسع يجوز أن يقدم ويؤخر، وكان الصلاح خلاف ذلك. **وثانيها:** أن يكون هذا من باب التمثيل بمعنى: فكانت حالته ممثلة بحالة من ظن أن لن نقدر عليه في خروجه من قومه من غير انتظار لأمر الله تعالى. **وثالثها:** أن تفسر القدرة بالقضاء، فالمعنى: فظن أن لن نقضي عليه بشدة. وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي، ورواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهم، واختيار الفراء والزجاج، قال الزجاج: نَقْدر بمعنى نُقَدر. يقال: قَدَر الله الشيء قدرًا وقَدَّره تقديرًا، فالقدر بمعنى التقدير. وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهري: (فظن أن لن نُقَدر عليه) بضم النون والتشديد، من التقدير، وقرأ عبيد بن عمر بالتشديد على المجهول، وقرأ يعقوب: (يُقْدَرُ عَلَيْهِ) بالتخفيف على المجهول، وروي أنه دخل ابن عباس رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه فقال معاوية: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فعرفت فيها فلم أجد لنفسي خلاصًا إلا بك! فقال: وما هي؟ قال: يظن نبي الله أن لن يقدر الله عليه؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا من القدر لا من القدرة. **ورابعها:** فظن أن لن نقدر: أي فظن أن لن نفعل لأن بين القدرة والفعل مناسبة، فلا يبعد جعل أحدهما مجازًا عن الآخر. **وخامسها:** أنه استفهام بمعنى التوبيخ، معناه أفظن أن لن نقدر عليه؟ عن ابن زيد. **وسادسها:** أن على قول من يقول: هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام. كان هذا الظن حاصلاً قبل الرسالة، ولا يبعد في حق غير الأنبياء والرسل أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان. ثم إنه يرده بالحجة والبرهان.

والجواب عن الثالث: -وهو التمسك بقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - فهو أن نقول: إنا لو حملناه على ما قبل النبوة فلا كلام، ولو حملناه على ما بعدها فهي واجبة التأويل لأنا لو أجريناها على ظاهرها، لوجب القول بكون النبي مستحقًا للعن، وهذا لا يقوله مسلم، وإذا وجب التأويل فنقول: لا شك أنه كان تاركًا للأفضل مع القدرة على تحصيل الأفضل فكان ذلك ظلمًا.

والجواب عن الرابع: أنا لا نُسلِّم أن ذلك كان عقوبة إذ الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، بل المراد به المحنة، لكن كثير من المفسرين يذكرون في كل مضرة تفعل لأجل ذنب أنها عقوبة.

والجواب عن الخامس: أن الملامة كانت بسبب ترك الأفضل.

المسألة الرابعة: قال صاحب (الكشاف): في الظلمات، أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت، كقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٧] وقوله: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ومنهم من اعتبر أنواعًا مختلفة من الظلمات، فإن كان النداء في الليل فهناك ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت، وإن كان في النهار أضيف إليه ظلمة أمعاء الحوت، أو أن حوتًا ابتلع الحوت الذي هو في بطنه، أو لأن الحوت إذا عظم غوصه في قعر البحر كان ما فوقه من البحر ظلمة في ظلمة. أما قول من قال: إن الحوت الذي ابتلعه غاص في الأرض السابعة، فإن ثبت ذلك بخبر فلا كلام، وإن قيل بذلك لكي يقع نداؤه في الظلمات، فما قدمناه يغني عن ذلك.

أما قوله: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ فالمعنى بأنه لا إله إلا أنت، أو بمعنى أي، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مَكْرُوبٍ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ إِلاَّ اسْتُجِيبَ لَهُ» وعن الحسن: ما نجاه الله تعالى إلا بإقراره عن نفسه بالظلم.

أما قوله ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز، وهذا يدل على أنه ما كان مراده من قوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أنه ظن العجز، وإنما قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ لأن تقديره: سبحانك أن تفعل ذلك جورًا أو شهوة للانتقام، أو عجزًا عن تخليصي عن هذا الحبس، بل فعلته بحق الإلهية وبمقتضى الحكمة.

أما قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالمعنى: ظلمت نفسي بفراري من قومي بغير إذنك، كأنه قال: كنت من الظالمين، وأنا الآن من التائبين النادمين، فاكشف عني المحنة. يدل عليه قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ وفيه وجه آخر وهو أنه عليه السلام وصفه بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ بكمال الربوبية ووَصَف نفسه بقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بضعف البشرية والقصور في أداء حق الربوبية، وهذا القدر يكفي في السؤال على ما قال المتنبي:

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ ... سُكُوتِي كَلاَمٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ[1]

(١) المتنبي تقدمت ترجمته.

وروى عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا أَرَادَ اللَّه حَبْسَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، أَوْحَى إِلَى الْحُوتِ أَنْ خُذْهُ وَلاَ تَخْدِشْ لَهُ لَحْمًا، وَلاَ تَكْسِرْ لَهُ عَظْمًا. فَأَخَذَهُ وَهَوَى بِهِ إِلَى أَسْفَلِ الْبَحْرِ، فَسَمِعَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حِسًّا، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا هَذَا؟ فَأَوْحَى اللَّه إِلَيْهِ هَذَا تَسْبِيحُ دَوَابِّ الْبَحْرِ. قَالَ: فَسَبَّحَ، فَسَمِعَتِ الْمَلاَئِكَةُ تَسْبِيحَهُ، فَقَالُوا مِثْلَهُ»[1].

أما قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي من غمه بسبب كونه في بطن الحوت وبسبب خطيئته، وكما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس إذ دعانا، كذلك ننجي المؤمنين من كربهم إذا استغاثوا بنا. روى سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، مَا دَعَا بِهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ قَطُّ وَهُوَ مَكْرُوبٌ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللَّه دُعَاءَهُ»[2] قال صاحب (الكشاف): قرئ (ننجي وننجي ونجي) والنون لا تدغم في الجيم، ومَن تمحل لصحته فجعله فعل وقال: نجي النجاء المؤمنين فأرسل الياء وأسنده إلى مصدره، ونصب المؤمنين بالنجاء، فتعسَّف بارد التعسف.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

(القصة التاسعة. قصة زكريا عليه السلام)

اعلم أنه تعالى بَيَّن انقطاع زكريا عليه السلام إلى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده، وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويكون قائمًا مقامه بعد موته، فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بأنه قادر على ذلك، وإن انتهت الحال به وبزوجته من كبر وغيره إلى اليأس من ذلك

---

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ٨١) من طريق سلمة، قال حدثني ابن إسحاق عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة زوج النبي قال/ سمعت أبا هريرة... به. وفي إسناده مجهول وهو شيخ ابن إسحاق.

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٦٣٩) حديث رقم/ ٤١٢٧ من طريق يحيى بن عبد الحميد حدثنا أبو خالد الأحمر... به. والضياء في (المختارة) (٣/ ٢٥٩) حديث رقم/ ١٠٦٣ من طريق أبي خالد الأحمر... به. والدورقي في (مسند سعد) (١/ ١١٨) حديث رقم/ ٦٣ من طريق أبي خالد الأحمر... به. وأبو يعلى في (مسنده) (٢/ ٦٥) حديث رقم/ ٧٠٧ قال: حدثنا أبو هشام الرفاعي حدثنا أبو خالد الأحمر... به. والبزار في (مسنده) (٣/ ٣٦٣) حديث رقم/ ١١٦٣ من طريق أبي خالد الأحمر... به. وابن عدي في (الكامل في الضعفاء) (٦/ ٦٨) في ترجمة كثير بن زيد... فذكره. وأورده الألباني في (صحيح الترغيب) (٢/ ١٧٢) حديث رقم/ ١٨٢٦ وقال: صحيح.

بحكم العادة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان سنه مائة وسن زوجته تسعًا وتسعين.

أما قوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أنه عليه السلام إنما ذكره في جملة دعائه على وجه الثناء على ربه؛ ليكشف عن علمه بأن مآل الأمور إلى الله تعالى. والثاني: كأنه عليه السلام قال: (إنْ لَمْ تَرْزُقْنِي مَنْ يَرِثُنِي، فَلاَ أُبَالِي فَإنَّكَ خَيْرُ وَارِثٍ).

وأما قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي فعلنا ما أراده لأجل سؤاله، وفي ذلك إعظام له، فلذلك تقول العلماء بأن الاستجابة ثواب لما فيه من الإعظام.

وأما قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة.

وفي تفسير قوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ **ثلاثة أقوال:** أحدها: أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع بالعادة، وهذا أليق بالقصة. والثاني: أنه أصلحها في أخلاقها، وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه، وجعل ذلك من نعمه عليه. والثالث: أنه سبحانه جعلها مصلحة في الدين، فإن صلاحها في الدين من أكبر أعوانه في كونه داعيًا إلى الله تعالى، فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والأهل جميعًا. وهذا كأنه أقرب إلى الظاهر لأنه إذا قيل: (أصلح الله فلانًا) فالأظهر فيه ما يتصل بالدين، واعلم أن قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ يدل على أن الواو لا تفيد الترتيب؛ لأن إصلاح الزوج مقدم على هبة الولد، مع أنه تعالى أخره في اللفظ وبيَّن تعالى مصداق ما ذكرناه فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وأراد بذلك زكريا وولده وأهله، فبيَّن أنه آتاهم ما طلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يُمدح المرء به لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قرئ (رغبًا ورهبًا)، وهو كقوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] والمعنى أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه. والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفًا من الإثم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

(القصة العاشرة. قصة مريم عليها السلام)

اعلم أن التقدير: واذكر التي أحصنت فرجها. ثم فيه قولان: أحدهما: أنها أحصنت فرجها إحصانًا كليًّا من الحلال والحرام جميعًا كما قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]. والثاني: من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها قبل أن تعرفه. والأول أَوْلى لأنه الظاهر من اللفظ.

وأما قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ فلقائل أن يقول: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] أي أحييته. وإذا ثبت ذلك كان قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ ظاهر الإشكال لأنه يدل على إحياء مريم عليها السلام. والجواب من وجوه: أحدها: معناه فنفخنا الروح في عيسى فيها، أي أحييناه في جوفها، كما يقول الزمار: (نفخت في بيت فلان) أي في المزمار في بيته. وثانيها: فعلنا النفخ في مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام؛ لأنه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها، ثم بيَّن تعالى بأخصر الكلام ما خص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

أما مريم فآياتها كثيرة: أحدها: ظهور الحَبَل فيها لا من ذكَر فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة. وثانيها: أنَّ رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة، وهو قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وثالثها ورابعها: قال الحسن: إنها لم تلتقم ثديًا يومًا قط وتكلمت هي أيضًا في صباها كما تكلم عيسى عليه السلام.

وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم بيانها، فبيَّن سبحانه أنه جعلهما آية للناس يتدبرون فيما خصا به من الآيات ويستدلون به على قدرته وحكمته سبحانه وتعالى. فإن قيل: هلا قيل آيتين كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ﴾ [الإسراء: ١٢] قلنا: لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل. وهنا آخر القصص.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): الأمة: الملة، وهو إشارة إلى ملة الإسلام، أي أن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها، يشار إليها بملة واحدة غير مختلفة، وأنا إلهكم إله واحد فاعبدون. ونصب الحسن (أمتكم) على البدل من (هذه) ورفع (أمة) خبرًا، وعنه رفعهما جميعًا خبرين، أو نوى للثاني المبتدأ.

أما قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ﴾ والأصل (وتقطعتم) إلا أن الكلام صُرف إلى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين ويُقبح عندهم فعلهم ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء؟ والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب؛ تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقًا وأحزابًا شتى.

أما قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ فقد توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو محاسبهم ومجازيهم، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**تَفَرَّقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى إِحْدَى**

وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَهَلَكَتْ سَبْعُونَ وَخَلَصَتْ فِرْقَةٌ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَتَهْلِكُ إِحْدَى وَسَبْعُونَ فِرْقَةً وَتَخْلُصُ فِرْقَةٌ وَاحِدَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ تِلْكَ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ الْجَمَاعَةُ الْجَمَاعَةُ»(1) فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ الجماعة المتمسكة بما بَيَّنه الله تعالى في هذه السورة من التوحيد والنبوات، وأن في قول الرسول ﷺ في الناجية إنها الجماعة إشارة إلى أن (هذه) أشار بها إلى أمة الإيمان، وإلا كان قوله في تعريف الفرقة الناجية إنها الجماعة لغوًا؛ إذ لا فرقة تمسكت بباطل أو بحق إلا وهي جماعة من حيث العدد.

وطَعَن بعضهم في صحة هذا الخبر، فقال: إن أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الأديان، فلم يبلغ هذا القدر، وإن أراد الفروع فإنها تتجاوز هذا القدر إلى أضعاف ذلك، وقيل أيضًا: قد رُوي ضد ذلك، وهو أنها كلها ناجية إلا فرقة واحدة. والجواب: المراد ستفترق أمتي في حال ما وليس فيه دلالة على أن افتراقها في سائر الأحوال لا يجوز أن يزيد وينقص.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر أمر الأمة من قبل، وذكر تفرقهم وأنهم أجمع راجعون إلى حيث لا أمر إلا له، أتبع ذلك بقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ بَيَّن أن مَن جمع بين أن يكون مؤمنًا وبين أن يعمل الصالحات، فيدخل في الأول العلم والتصديق بالله ورسوله، وفي الثاني فعل الواجبات وترك المحظورات: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي لا بطلان لثواب عمله، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] فالكفران مثل في حرمان الثواب، والشكر مثل في إعطائه وقوله: ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ المراد نفي الجنس ليكون في نهاية المبالغة؛ لأن نفي الماهية يستلزم نفي جميع أفرادها.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنن) باب (شرح السنة) (٤/ ١٩٧٠) حديث رقم/ ٤٥٩٧ من طريق أبي المغيرة وبقية.... به. وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٠٢) قال: حدثنا أبو المغيرة... به. والدارمي في كتاب (السير) باب (في افتراق هذه الأمة) (٢/ ١٠٨) حديث رقم/ ٢٥١٨ من طريق أبي المغيرة... به. والحاكم في (المستدرك) (١/ ١٢٨) وقال الحاكم: صحيح. ووافقه الذهبي. كلاهما (أبو المغيرة، وبقية بن الوليد) قالا: حدثنا صفوان قال: حدثني أزهر بن عبد الله... فذكره.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ فالمراد وإنا لسعيه كاتبون، فقيل: المراد حافظون لنجازي عليه، وقيل: كاتبون إما في أم الكتاب أو في الصحف التي تُعرض يوم القيامة، والمراد بذلك ترغيب العباد في التمسك بطاعة الله تعالى.

أما قوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فاعلم أن قوله: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ خبر فلا بد له من مبتدأ، وهو إما قوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أو شيء آخر: أما الأول: فالتقدير أن عدم رجوعهم حرام، أي ممتنع، وإذا كان عدم رجوعهم ممتنعًا كان رجوعهم واجبًا، فهذا الرجوع إما أن يكون المراد منه الرجوع إلى الآخرة أو إلى الدنيا: أما الأول: فيكون المعنى أن رجوعهم إلى الحياة في الدار الآخرة واجب، ويكون الغرض منه إبطال قول من ينكر البعث، وتحقيق ما تقدم أنه لا كفران لسعي أحد، فإنه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة. وهو تأويل أبي مسلم بن بحر. وأما الثاني: فيكون المعنى أن رجوعهم إلى الدنيا واجب، لكن المعلوم أنهم لم يرجعوا إلى الدنيا، فعند هذا ذكر المفسرون وجهين:

الأول: أن الحرام قد يجيء بمعنى الواجب، والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر: أما الآية فقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] وترك الشرك واجب وليس بمحرم. وأما الشعر فقول الخنساء:

وَإِنَّ حَرَامًا لاَ أَرَى الدَّهْرَ بَاكِيًا ... عَلَى شَجْوِهِ إِلاَّ بَكَيْتُ عَلَى عَمْرِو[١]

يعني وإن واجبًا. وأما الاستعمال فلأن تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى: ٤٠] إذا ثبت هذا فالمعنى أنه واجب على أهل كل قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون، ثم ذكروا في تفسير الرجوع أمرين: أحدهما: أنهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتولون عنه وهو قول مجاهد والحسن. وثانيها: لا يرجعون إلى الدنيا. وهو قول قتادة ومقاتل.

الوجه الثاني: أن يُترك قوله (وحرام) على ظاهره ويُجعل (لا) في قوله: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ صلة زائدة، كما أنه صلة في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] والمعنى: حرام على قرية أهلكناها رجوعهم إلى الدنيا. وهو كقوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠] أو يكون المعنى: وحرام عليهم رجوعهم عن الشرك وترك الإيمان، وهذا قول طائفة من المفسرين.

وهذا كله إذا جعلنا قوله (وحرام) خبرًا لقوله: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أما إذا جعلناه خبرًا لشيء آخر فالتقدير: وحرام على قرية أهلكناها ذاك. وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعي المشكور غير المكفور ثم علل فقال: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عن الكفر فكيف لا يمتنع ذلك؟! هذا على قراءة (إنهم) بالكسر والقراءة بالفتح يصح حملها أيضًا على هذا، أي أنهم لا يرجعون.

---

(١) الخنساء تقدمت ترجمتها.

أما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: أن (حتى) متعلقة بحرام، فأما على تأويل أبي مسلم، فالمعنى أن رجوعهم إلى الآخرة واجب حتى أن وجوبه يبلغ إلى حيث أنه إذا فُتحت يأجوج ومأجوج، واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا، والمعنى أنهم يكونون أول الناس حضورًا في محفل القيامة، فـ(حتى) متعلقة بحرام وهي غاية له ولكنه غاية من جنس الشيء، كقولك: (دخل الحاج حتى المشاة). وحتى ههنا هي التي يحكي بعدها الكلام. والكلام المحكي هو هذه الجملة من الشرط والجزاء أعني قوله: ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ فهناك يتحقق شخوص أبصار الذين كفروا، وذلك غير جائز لأن الشرط إنما يحصل في آخر أيام الدنيا والجزاء إنما يحصل في يوم القيامة، والشرط والجزاء لا بد وأن يكونا متقاربين، قلنا: التفاوت القليل يجري مجرى المعدوم، وأما على التأويلات الباقية فالمعنى أن امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم الساعة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ﴾ المعنى فُتح سد يأجوج ومأجوج فحذف المضاف وأُدخلت علامة التأنيث في (فُتحت) لما حذف المضاف لأن يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين، وقيل حتى إذا فُتحت جهة يأجوج.

المسألة الثالثة: هما قبيلتان من جنس الإنس، يقال: الناس عشرة أجزاء، تسعة منها يأجوج ومأجوج يخرجون حين يُفتح السد.

المسألة الرابعة: قيل: السد يفتحه الله تعالى ابتداء، وقيل: بل إذا جعل الله تعالى الأرض دكًا زالت الصلابة عن أجزاء الأرض، فحينئذٍ ينفتح السد.

أما قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فحشو في أثناء الكلام، والمعنى إذا فتحت يأجوج واقترب الوعد الحق شخصت أبصار الذين كفروا، والحدب النشز من الأرض، ومنه حدبة الأرض، ومنه حدبة الظهر، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما (من كل حدث ينسلنون) اعتبارًا بقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] وقرئ بضم السين، ونسل وعسل: أسرع، ثم فيه قولان: قال أكثر المفسرين: إنه كناية عن يأجوج ومأجوج. وقال مجاهد: هو كناية عن جميع المكلفين، أي يخرجون من قبورهم من كل موضع فيُحشرون إلى موقف الحساب. والأول هو الأوجه وإلا لتفكك النظم، وأن يأجوج ومأجوج إذا كثروا على ما رُوي في (الْخَبَرِ)، فلا بد من أن يُنشروا فيظهر إقبالهم على الناس من كل موضع مرتفع.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ فلا شبهة أن الوعد المذكور هو يوم القيامة.

أما قوله: ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ فاعلم أن (إِذَا) ههنا للمفاجأة، فسُمي الموعد وعدًا تجوزًا، وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على

وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل: (إذا هي شاخصة) أو (فهي شاخصة) كان سديدًا، أما لفظة ﴿هِيَ﴾ فقد ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه: **أحدها:** أن تكون كناية عن الأبصار، والمعنى: فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة أبصارهم، كنى عن الإبصار ثم أظهر. **والثاني:** أن تكون عمادًا ويصلح في موضعها (هو) فيكون كقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٩] ومثله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الحج: ٤٦] وجاز التأنيث لأن الأبصار مؤنثة وجاز التذكير للعماد وهو قول الفراء، وقال سيبويه: الضمير للقصة بمعنى فإذا القصة شاخصة، يعني أن القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك.

ومعنى الكلام أن القيامة إذا قامت شخصت أبصار هؤلاء من شدة الأهوال، فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم، ومن توقع ما يخافونه، ويقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ يعني في الدنيا حيث كذبناه وقلنا: إنه غير كائن، بل كنا ظالمين أنفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب محمد ﷺ وعبادة الأوثان، واعلم أنه لا بد قبل قوله: (يا ويلنا) من حذف والتقدير: يقولون يا ويلنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ۝١٠٠﴾

اعلم أن قوله: ﴿إِنَّكُمۡ﴾ خطاب لمشركي مكة وعبدة الأوثان.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ روي أنه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ فأفحمه، ثم تلا عليهم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية، فأقبل عبد الله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال: فيم خوضكم؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه، فقال ابن الزبعري أأنت قلت ذلك؟ قال: «نعم»، قال: قد خصمتك ورب الكعبة!! أليس اليهود عبدوا عزيرًا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة؟! ثم روي في ذلك روايتان: إحداهما: أن رسول الله ﷺ سكت ولم يجب فضحك القوم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨] ونزل في عيسى والملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآية، هذا قول ابن عباس. الرواية الثانية: أنه عليه السلام أجاب وقال: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك» فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآية، يعني عزيرًا والمسيح والملائكة.

واعلم أن سؤال ابن الزبعرى ساقط من وجوه: **أحدها:** أن قوله: ﴿إِنَّكُمۡ﴾ خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركي مكة وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط. **وثانيها:** أنه لم يقل: (ومن تعبدون)

بل قال (ما تعبدون) وكلمة (ما) لا تتناول العقلاء. أما قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] وقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]فهو محمول على الشيء، ونظيره ههنا أن يقال: (إنكم والشيء الذي تعبدون من دون الله) لكن لفظ (الشيء) لا يفيد العموم فلا يتوجه سؤال ابن الزبعرى. **وثالثها:**أن مَن عبد الملائكة لا يدعي أنهم آلهة، وقال سبحانه: ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ . **ورابعها:**هب أنه ثبت العموم لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية في حق الملائكة والمسيح وعزير لبراءتهم من الذنوب والمعاصي، ووعد الله إياهم بكل مكرمة، وهذا هو المراد من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. **وخامسها:**الجواب الذي ذكره رسول الله ﷺوهو أنهم كانوا يعبدون الشياطين، فإن قيل: الشياطين عقلاء، ولفظ (ما) لا يتناولهم فكيف قال الرسول ﷺذلك؟ قلنا: كأنه عليه السلام قال: لو ثبت لكم أنه يتناول العقلاء فسؤالكم أيضًا غير لازم من هذا الوجه. وأما ما قيل: إنه عليه السلام سكت عند إيراد ابن الزبعرى هذا السؤال فهو خطأ؛ لأنه لا أقل من أنه عليه السلام كان يتنبه لهذه الأجوبة التي ذكرها المفسرون؛ لأنه عليه السلام كان أعلم منهم باللغة وبتفسير القرآن، فكيف يجوز أن تظهر هذه الأجوبة لغيره، ولا يظهر شيء منها له عليه السلام؟! فإن قيل: جوزوا أن يسكت عليه السلام انتظارًا للبيان. **قلنا:**لما كان البيان حاضرًا معه لم يجز عليه السكوت لكيلا يتوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم، ومن الناس من أجاب عن سؤال ابن الزبعرى فقال: إن الله تعالى يصور لهم في النار مَلَكًا على صورة من عبدوه، وحينئذٍ تبقى الآية على ظاهرها. واعلم أن هذا ضعيف من وجهين: **الأول:**أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وإنما عبدوا شيئًا آخر لم يحصل معهم في النار. **الثاني:**وهو أن المَلَك لا يصير حصب جهنم في الحقيقة، وإن صح أن يدخلها، فإن خزنة النار يدخلونها مع أنهم ليسوا حصب جهنم.

المسألة الثانية: الحكمة في أنهم قُرنوا بآلهتهم أمور: **أحدها:**أنهم لا يزالون لمقارنتهم في زيادة غم وحسرة؛ لأنهم ما وقعوا في ذلك العذاب إلا بسببهم، والنظر إلى وجه العدو باب من العذاب. **وثانيها:**أن القوم قَدَّروا أنهم يشفعون لهم في الآخرة في دفع العذاب، فإذا وجدوا الأمر على عكس ما قَدَّروا لم يكن شيء أبغض إليهم منهم. **وثالثها:**أن إلقاءها في النار يجري مجرى الاستهزاء بعبادها. **ورابعها:**قيل ما كان منها حجرًا أو حديدًا يحمى ويلزق بعبادها، وما كان خشبًا يُجعل جمرة يعذب بها صاحبها.

أما قوله تعالى:﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ فالمراد يُقذفون في نار جهنم، فشَبَّههم بالحصباء التي يرمى بها الشيء، فلما رُمي بها كرمي الحصباء، جعلهم حصب جهنم تشبيهًا، قال صاحب (الكشاف): الحصب: الرمي، وقرئ بسكون الصاد وصفًا بالمصدر، وقرئ (حطب) و(حضب) بالضاد المنقوطة متحركًا وساكنًا.

أما قوله تعالى:﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ فإنما جاز مجيء اللام في (لها) لتقدمها على الفعل،

تقول (أنت لزيد ضارب) كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾[المؤمنون: ٨] ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾[المؤمنون: ٥] أي أنتم فيها داخلون، والمعنى أنه لا بد وأن تردوها ولا معدل لكم عن دخولها.

أما قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ فاعلم أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالأصنام أليق لدخول لفظة (ما)، وهذا الكلام بالشياطين أليق لقوله (هؤلاء) ويحتمل أن يريد الشياطين والأصنام فيغلب بأن يُذكروا بعبارة العقلاء، ونبه الله تعالى على أن من يرمي إلى النار لا يمكن أن يكون إلهًا. وههنا سؤال: وهو أن قوله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ لكنهم وردوها فهم ليسوا آلهة حجة، وهذه الحجة إما أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره، فإن ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه لأنه كان عالمًا بأنها ليست آلهة وإن ذكَرها لغيره: فإما أن يذكَرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب بنبوته: فإن ذكَرها لمن صَدَّق بنبوته فلا حاجة إلى هذه الحجة لأن كل من صدق بنبوته لم يقل بإلهية هذه الأصنام. وإن ذكَرها لمن يكذب بنبوته، فذلك المكذب لا يُسلِّم أن تلك الآلهة يردون النار ويكذبونه في ذلك، فكان ذكره هذه الحجة ضائعًا كيف كان، وأيضًا فالقائلون بآلهيتها لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم وإلا لكانوا مجانين، بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء، وذلك لا يمنع من دخولها في النار. **وأجيب عن ذلك بأن المفسرين قالوا:** المعنى لو كان هؤلاء - يعني الأصنام - آلهة على الحقيقة ما وردوها، أي ما دخل عابدوها النار، ثم إنه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة: أحدها: الخلود فقال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعني العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وثانيها: قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ قال الحسن: الزفير هو اللهيب، أي يرتفعون بسبب لهب النار حتى إذا ارتفعوا ورجوا الخروج، ضُربوا بمقامع الحديد فهووا إلى أسفلها سبعين خريفًا. قال الخليل: الزفير أن يملأ الرجل صدره غمًّا ثم يتنفس. قال أبو مسلم: وقوله لهم عام لكل معذب، فنقول: لهم زفير من شدة ما ينالهم. والضمير في قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ يرجع إلى المعبودين أي لا يسمعون صراخهم وشكواهم، ومعناه: أنهم لا يغيثونهم، وشِبهه (سَمِعَ الله لمن حمده) أي أجاب الله دعاءه. وثالثها: قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أنه محمول على الأصنام خاصة، على ما حكيناه عن أبي مسلم. والثاني: أنها محمولة على الكفار، ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: أن الكفار يُحشرون صمًّا كما يُحشرون عميًا زيادة في عذابهم. وثانيها: أنهم لا يسمعون ما ينفعهم لأنهم إنما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة. وثالثها: قال ابن مسعود: إن الكفار يُجعلون في توابيت من نار والتوابيت في توابيت أُخر فلذلك لا يسمعون شيئًا. والأول ضعيف لأن أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة؛ فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝١٠٣﴾

اعلم أن من الناس من زعم أن ابن الزبعرى لما أورد ذلك السؤال على الرسول ﷺ بقي ساكتًا حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جوابًا عن سؤاله؛ لأن هذه الآية كالاستثناء من تلك الآية، وأما نحن فقد بينا فساد هذا القول، وذكرنا أن سؤاله لم يكن واردًا، وأنه لا حاجة في دفع سؤاله إلى نزول هذه الآية، وإذا ثبت هذا لم يبق ههنا إلا أحد أمرين: الأول: أن يقال: إن عادة الله تعالى أنه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الأبرار؛ فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك فهي عامة في حق كل المؤمنين. الثاني: أن هذه الآية نزلت في تلك الواقعة لتكون كالتأكيد في دفع سؤال ابن الزبعرى، ثم من قال: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) وهو الحق أجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها، لا أن الآية مختصة بهم، ومن قال: (العبرة بخصوص السبب) خصص قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ بهؤلاء فقط.

اما قوله تعالى: ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ فقال صاحب (الكشاف): الحسنى: الخصلة المفضلة، والحسنى تأنيث الأحسن، وهي إما السعادة وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة. والحاصل أن مثبتي العفو حملوا الحسنى على وعد العفو، ومنكري العفو حملوه على وعد الثواب. ثم إنه سبحانه وتعالى شرح من أحوال ثوابهم أمور خمسة: أحدها: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ فقال أهل العفو: معناه أولئك عنها مخرجون. واحتجوا عليه بوجهين: الأول: قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] أثبت الورود وهو الدخول، فدل على أن هذا الإبعاد هو الإخراج. الثاني: أن إبعاد الشيء عن الشيء لا يصح إلا إذا كانا متقاربين؛ لأنهما لو كانا متباعدين استحال إبعاد أحدهما عن الآخر، لأن تحصيل الحاصل محال؛ واحتج القاضي عبد الجبار على فساد هذا القول الأول بأمور: أحدها: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ يقتضي أن الوعد بثوابهم قد تقدم في الدنيا، وليس هذا حال من يخرج من النار لو صح ذلك. وثانيها: أنه تعالى قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ وكيف يدخل في ذلك من وقع فيها. وثالثها: قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ وقوله: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ يمنع من ذلك. والجواب عن الأول: لا نسلم أن يقال المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ هو أن الوعد بثوابهم قد تقدم، ولِمَ لا يجوز أن المراد من الحسنى تقدم الوعد بالعفو؟ سَلَّمنا أن المراد من الحسنى تقدم الوعد بالثواب، لكن لِمَ قلتم: إن الوعد بالثواب لا يليق بحال من يخرج من النار، فإن عندنا المحابطة باطلة، ويجوز الجمع بين استحقاق الثواب والعقاب.

وعن الثاني: أنا بينا أن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ لا يمكن إجراؤه على ظاهره إلا في حق من كان في النار. وعن الثالث: أن قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ مخصوص بما بعد الخروج.

أما قوله: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ فالفزع الأكبر هو عذاب الكفار، وهذا بطريق المفهوم يقتضي أنهم يحزنهم الفزع الأصغر، فإن لم يدل عليه فلا أقل من أن لا يدل على ثبوته ولا على عدمه.

الوجه الثاني في تفسير قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ أن المراد الذين سبقت لهم منا الحسنى لا يدخلون النار ولا يقربونها ألبتة. وعلى هذا القول بطل قول من يقول: إن جميع الناس يردون النار ثم يخرجون إلى الجنة؛ لأن هذه الآية مانعة منه، وحينئذٍ يجب التوفيق بينه وبين قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] وقد تقدم.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ والحسيس: الصوت الذي يُحس، وفيه سؤالان: الأول: أي وجه في أن لا يسمعوا حسيسها من البشارة ولو سمعوه لم يتغير حالهم؟ قلنا: المراد تأكيد بعدهم عنها؛ لأن من لم يدخلها وقرب منها قد يسمع حسيسها. السؤال الثاني: أليس أن أهل الجنة يرون أهل النار فكيف لا يسمعون حسيس النار؟ الجواب: إذا حملناه على التأكيد زال هذا السؤال.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ والشهوة طلب النفس للذة، يعني نعيمها مؤبد، قال العارفون: للنفوس شهوة وللقلوب شهوة وللأرواح شهوة. وقال الجنيد: سبقت العناية في البداية، فظهرت الولاية في النهاية.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ **وفيه وجوه:** أحدها: أنها النفخة الأخيرة لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل: ٨٧]. وثانيها: أنه الموت، قالوا: إذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار، في النار بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ومعه الموت في صورة كبش أملح فيقول لأهل الدارين: أتعرفون هذا؟ فيقولون: لا. فيقول: هذا الموت. ثم يذبحه ثم ينادي: يا أهل الجنة خلود ولا موت أبدًا. وكذلك لأهل النار. واحتج هذا القائل بأن قوله: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ إنما ذُكر بعد قوله: ﴿وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥] فلا بد وأن يكون لأحدهما تعلق بالآخر، والفزع الأكبر الذي هو ينافي الخلود هو الموت. وثالثها: قال سعيد بن جبير: هو إطباق النارعلى أهلها فيفزعون لذلك فزعة عظيمة، قال القاضي عبد الجبار: الأولى في ذلك أنه الفزع من النار عند مشاهدتها لأنه لا فزع أكبر من ذلك، فإذا بيَّن تعالى أن ذلك لا يحزنهم، فقد صح أن المؤمن آمن من أهوال يوم القيامة. وهذا ضعيف لأن عذاب النار على مراتب، فعذاب الكفار أشد من عذاب الفساق، وإذا كانت مراتب التعذيب بالنار متفاوتة كانت مراتب الفزع منها متفاوتة، فلا يلزم من نفي الفزع الأكبر نفي الفزع من النار.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ قال الضحاك: هم الحفظة الذين كتبوا أعمالهم وأقوالهم، ويقولون لهم مبشرين: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

اعلم أن التقدير لا يحزنهم الفزع الأكبر يوم نطوي السماء، أو وتتلقاهم الملائكة يوم نطوي السماء. وقرئ (يوم تُطوى السماء) على البناء للمفعول والسِّجِل بوزن العِتل والسِّجْل بوزن الدَّلْو وروى فيه الكسر، وفي السجل قولان:

أحدهما: أنه اسم للطومار الذي يُكتب فيه، والكتاب أصله المصدر كالبناء، ثم يوقع على المكتوب، ومَن جمع فمعناه للمكتوبات، أي لما يُكتب فيه من المعاني الكثيرة، فيكون معنى طي السجل للكتاب: كون السجل ساترًا لتلك الكتابة ومخفيًا لها؛ لأن الطي ضد النشر الذي يكشف والمعنى: نطوي السماء كما يطوى الطومار الذي يُكتب فيه.

القول الثاني: أنه ليس اسمًا للطومار، ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما: السجل اسم مَلَك يطوي كتب بني آدم إذا رُفعت إليه. وهو مروي عن علي عليه السلام، وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه اسم كاتب كان لرسول الله ﷺ. وهذا بعيد؛ لأن كُتاب رسول الله ﷺ كانوا معروفين وليس فيهم من سُمي بهذا، وقال الزجاج: هو الرجل بلغة الحبشة، وعلى هذه الوجوه فهو على نحو ما يقال: (كطي زيد الكتاب) واللام في (للكتاب) زائدة كما في قوله (ردف لكم)، وإذا قلنا: المراد بالسجل الطومار فالمصدر وهو الطي مضاف إلى المفعول والفاعل محذوف، والتقدير (كطي الطاوي السجل)، وهذا الأخير هو قول الأكثرين.

أما قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال الفراء: انقطع الكلام عند قوله (الكتاب) ثم ابتدأ فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ﴾ ومنهم من قال: إنه تعالى لما قال: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] عقبه بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ فوصف اليوم بذلك، ثم وصفه بوصف آخر فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ .

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف) رحمه الله: ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ مفعول (نُعيدُ) الذي يفسره

(نعيده) والكاف مكفوفة بما والمعنى: نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهًا للإعادة بالابتداء، فإن قلت: ما بال خَلْق منكرًا؟ قلت: هو كقولك: أول رجل جاءني زيد. تريد أول الرجال ولكنك وحّدته ونكرته إرادة تفصيلهم رجلاً رجلاً، فكذلك معنى (أول خلق) أول الخلق، بمعنى أول الخلائق لأن الخلق مصدر لا يُجمع.

المسألة الثالثة: اختلفوا في كيفية الإعادة: فمنهم من قال: إن الله تعالى يفرق أجزاء الأجسام ولا يعدمها، ثم إنه يعيد تركيبها فذلك هو الإعادة. ومنهم من قال: إنه تعالى يعدمها بالكلية ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى. وهذه الآية دلالة على هذا الوجه لأنه سبحانه شبه الإعادة بالابتداء. ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم، وجب أن يكون الحال في الإعادة كذلك. واحتج القائلون بالمذهب الأول بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]فدل هذا على أن السموات حال كونها مطوية تكون موجودة، وبقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]وهذا يدل على أن أجزاء الأرض باقية لكنها جُعلت غير الأرض.

أما قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ ففيه قولان: أحدهما: أن وعدًا مصدر مؤكد لأن قوله: ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ عدة للإعادة. الثاني: أن يكون المراد حقًا علينا بسبب الإخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه، مع أن وقوع ما علم الله وقوعه واجب، ثم إنه تعالى حقق ذلك بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي سنفعل ذلك لا محالة، وهو تأكيد لما ذكره من الوعد.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة بضم الزاي والباقون بفتحها، يعني الزبور كالحلوب والركوب يقال: زبرت الكتاب، أي كتبته، والزُّبور بضم الزاي جمع زِبْر كقِشْر وقُشُور، ومعنى القراءتين واحد لأن الزبور هو الكتاب.

المسألة الثانية: في الزبور والذكر وجوه: أحدها: -وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد- الزبور هو الكتب المنزلة، والذكر الكتاب الذي هو أم الكتاب في السماء؛ لأن فيها كتابة كل ما سيكون اعتبارًا للملائكة، وكتب الأنبياء عليهم السلام من ذلك الكتاب تُنسخ. وثانيها: الزبور هو القرآن والذكر هو التوراة، وهو قول قتادة والشعبي. وثالثها: الزبور زبور داود عليه السلام، والذكر هو الذي يروي عنه عليه السلام، قال: كان الله تعالى ولم يكن معه شيء، ثم خلق الذكر. وعندي فيه وجه رابع: وهو أن المراد بالذكر: العلم، أي كتبنا ذلك في الزبور بعد أن كنا عالمين علمًا لا يجوز السهو والنسيان علينا. فإن من كتب شيئًا والتزمه ولكنه يجوز السهو عليه فإنه لا يعتمد عليه، أما من لم يجز عليه السهو والخلف، فإذا التزم شيئًا كان ذلك الشيء واجب الوقوع.

أما قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ ففيه وجوه: أحدها: الأرض أرض

الجنة، والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى، فالمعنى أن الله تعالى كتب في كتب الأنبياء عليهم السلام وفي اللوح المحفوظ -أنه سيورث الجنة من كان صالحًا من عباده. وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية. وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور:

أما أولاً: فقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾[الزمر: ٧٤].

وأما ثانيا: فلأنها الأرض التي يختص بها الصالحون لأنها لهم خُلقت، وغيرهم إذا حصل معهم في الجنة فعلى وجه التبع، فأما أرض الدنيا فلأنها للصالح وغير الصالح.

وأما ثالثا: فلأن هذه الأرض مذكورة عقيب الإعادة، وبعد الإعادة الأرض التي هذا وصفها لا تكون إلا الجنة.

وأما رابعا: فقد روى في الخبر أنها أرض الجنة فإنها بيضاء نقية[1].

---

(١) أورده الزيلعي في (تخريج أحاديث الكشاف) (٢/ ٣٦٩) وقال: رواه الواحدي في أسباب النزول أخبرنا عمر بن احمد بن عمر الماوردي أنا عبد الله بن محمد بن نصر الرازي، أنا محمد بن أيوب، أنا علي بن المديني، حدثنا يحيى بن نوح حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود عن أبي رزين عن أبي يحيى قال: قال ابن عباس: لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ شق ذلك على قريش وقالوا: يشتم آلهتنا. فجاء ابن الزبعرى فقال: ما لكم قالوا: يشتم آلهتنا. قال: فما قال؟ قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قال: ادعوه لي. فلما دعي النبي ﷺ قال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل مَن عُبد من دون الله؟ قال: لا، بل لكل مَن عُبد من دون الله. فقال ابن الزبعرى: خصمتك ورب الكعبة، ألستَ تزعم أن الملائكة عباد صالحون، وأن عيسى عبد صالح، وأن عزيرًا عبد صالح وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة، وهذه النصارى يعبدون عيسى، وهذه اليهود يعبدون عزيرًا. قال: فضج أهل مكة، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾. الآية. انتهى، ورواه ابن مردويه في تفسيره حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أيوب به سندًا ومتنًا. وفي أوائل سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق قال: جلس رسول الله ﷺ يومًا في المسجد مع رجال قريش، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾الآية، وقام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعرى حتى جلس فقال له الوليد بن المغيرة. زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته فسلوا محمدًا أكُل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع مَن عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرًا، والنصارى تعبد المسيح. فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (إن كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته) فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية. ورواه الطبري في تفسير بسنده إلى ابن إسحاق باللفظ المذكور. وصدر الحديث رواه الطبراني في آخر معجمه الصغير من حديث محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري عن علي بن عبد الله بن العباس عن ابن عباس قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا... الحديث. وذكر الثعلبي ثم البغوي الحديث بلفظ المصنف من غير سند، وقال السهيلي في الروض الأنف: واعترلض ابن الزبعرى عنه غير لازم فإن الخطاب مخصوص بقريش وما يعبدون من الأصنام، وكذلك أتى بـ(ما) الواقعة على ما لا يعقل. انتهى، وهذا منقوض بما في=

وثانيها: أن المراد من الأرض أرض الدنيا فإنه سبحانه وتعالى سيورثها المؤمنين في الدنيا، وهو قول الكلبي وابن عباس في بعض الروايات، ودليل هذا القول قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلى قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وثالثها: هي الأرض المقدسة يرثها الصالحون، ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] ثم بالآخرة يورثها أمة محمد ﷺ عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ فقوله هذا إشارة إلى المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية وما تبلغ به البغية.

وقيل في العابدين إنهم العالمون وقيل: بل العاملون، والأَوْلى أنهم الجامعون بين الأمرين؛ لأن العلم كالشجر والعمل كالثمر، والشجر بدون الثمر غير مفيد، والثمر بدون الشجر غير كائن.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: أنه عليه السلام كان رحمة في الدين وفي الدنيا:

أما في الدين فلأنه عليه السلام بُعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمدًا ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق وبَيَّن لهم سبيل الثواب، وشَرَع لهم الأحكام ومَيَّز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق، فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار، وكان التوفيق قرينًا له، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونُصروا ببركة دينه.

فإن قيل: كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الأموال؟ قلنا: الجواب من وجوه: أحدها: إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر، ومن أوصاف الله الرحمن الرحيم، ثم هو منتقم من العصاة. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩] ثم قد يكون سببًا للفساد. وثانيها: أن كل نبي قبل نبينا كان إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق، وأنه تعالى أخر عذاب من كَذَّب رسولنا إلى الموت أو إلى القيامة، قال تعالى: ﴿وَمَا

=متن الواحدي أن ابن الزبعرى قال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عُبد من دون الله؟ فقال: لا، بل لكل مَن عُبد من دون الله. فقال: خصمتك ورب الكعبة!! وفي متن السيرة قريب من ذلك.

كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾[الأنفال: ٣٣] لا يقال: أليس أنه تعالى قال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[التوبة: ١٤] وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾[الأحزاب: ٧٣] لأنا نقول: تخصيص العام لا يقدح فيه. وثالثها: أنه عليه السلام كان في نهاية حسن الخلق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤] وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قيل لرسول الله ﷺ: ادعُ على المشركين. قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً وَلَمْ أُبْعَثْ عَذَابًا»(١) وقال في رواية حذيفة: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ، فَاجْعَلْهَا اللَّهُمَّ عَلَيْهِ صَلَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢) ورابعها: قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني المؤمنين خاصة. قال الإمام أبو القاسم الأنصاري: والقولان يرجعان إلى معنى واحد؛ لِما بينا أنه كان رحمة للكل لو تدبروا في آيات الله وآيات رسوله، فأما من أعرض واستكبر، فإنما وقع في المحنة من قِبل نفسه كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾[فصلت: ٤٤].

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: لو كان الله تعالى أراد من الكافرين الكفر ولم يرد منهم القبول من الرسول، بل ما أراد منهم إلا الرد عليه وخَلَق ذلك فيهم ولم يخلقهم إلا كذلك كما يقوله أهل السنة، لوجب أن يكون إرساله نقمة وعذابًا عليهم لا رحمة، وذلك على خلاف هذا النص، لا يقال: إن رسالته عليه السلام رحمة للكفار من حيث لم يُعجل عذابهم في الدنيا، كما عجل عذاب سائر الأمم؛ لأنا نقول: إن كونه رحمة للجميع على حد واحد، وما ذكرتموه للكفار فهو حاصل للمؤمنين أيضًا، فإذًا يجب أن يكون رحمة للكافرين من الوجه الذي صار رحمة للمؤمنين. وأيضًا فإن الذي ذكروه من نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار قبل بعثته ﷺ كحصولها بعده، بل كانت نعمهم في الدنيا قبل بعثته أعظم لأن بعد بعثته نزل بهم الغم والخوف منه، ثم أُمر بالجهاد الذي فني أكثرهم فيه، فلا يجوز أن يكون هذا هو المراد. **والجواب**: أن نقول: لما علم الله سبحانه وتعالى أن أبا لهب لا يؤمن ألبتة وأخبر عنه أنه لا يؤمن، كان أمره إياه بالإيمان أمرًا يقلب علمه جهلًا وخبره الصدق كذبًا وذلك محال، فكان قد أمره بالمحال. وإن كانت البعثة مع هذا القول رحمة، فلِمَ لا يجوز أن يقال: البعثة رحمة مع أنه خلق الكفر في الكافر؟ ولأن قدرة الكافر إن لم تصلح إلا للكفر فقط فالسؤال عليهم لازم، وإن كانت صالحة للضدين توقف للترجيح على مرجح من قبل الله تعالى، قطعًا للتسلسل. وحينئذٍ يعود الإلزام.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (السنة) باب (في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ) (٤/ ٢١٥) حديث رقم/ ٤٦٥٩ من طريق زائدة بن قدامة الثقفي، حدثنا عمرو بن قيس الماصر... به. وأحمد في (مسنده) (٥/ ٤٣٧) حديث رقم/ ٢٣٧٥٧ من طريق زائدة، حدثنا عمر بن قيس الماصر... به. والطبراني في (الكبير) (٦/ ٢٦٠) حديث رقم/ ٦١٥٧ من طريق أبي أسامة عن مسعر... به. والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٩١) حديث رقم/ ٢٣٤ من طريق مسعر قال: حدثنا عمر بن قيس... به، وفيه زيادات، وأورده الألباني في (صحيح الجامع) (٤٤٩٤) عن سلمان وقال: صحيح.

ثم نقول: لِمَ لا يجوز أن يكون رحمة للكافر، بمعنى تأخير عذاب الاستئصال عنه؟ قوله: أولاً لما كان رحمة للجميع على حد واحد وجب أن يكون رحمة للكفار من الوجه الذي كان رحمة للمؤمنين. قلنا: ليس في الآية أنه عليه السلام رحمة للكل باعتبار واحد أو باعتبارين مختلفين، فدعواك بكون الوجه واحدًا تحكُّم. قوله: نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار من قبل. قلنا: نعم ولكنه عليه السلام لكونه رحمة للمؤمنين لما بُعث حصل الخوف للكفار من نزول العذاب، فلما اندفع ذلك عنهم بسبب حضوره كان ذلك رحمة في حق الكفار.

المسألة الثالثة: تمسكوا بهذه الآية في أنه أفضل من الملائكة، قالوا: لأن الملائكة من العالمين، فوجب بحكم هذه الآية أن يكون عليه السلام رحمة للملائكة، فوجب أن يكون أفضل منهم. والجواب: أنه معارض بقوله تعالى في حق الملائكة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] وذلك رحمة منهم في حق المؤمنين، والرسول عليه السلام داخل في المؤمنين، وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما أورد على الكفار الحجج في أن لا إله سواه من الوجوه التي تقدم ذكرها، وبَيَّن أنه أرسل رسوله رحمة للعالمين، أتبع ذلك بما يكون إعذارًا وإنذارًا في مجاهدتهم والإقدام عليهم، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): إنما يقصر الحكم على شيء أو يقصر الشيء على حكم، كقولك إنما زيد قائم أو إنما يقوم زيد. وقد اجتمع المثالان في هذه الآية؛ لأن ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد و﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بمنزلة إنما زيد قائم، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على إثبات وحدانية الله تعالى وفي قوله؛ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أن الوحي الوارد على هذا السنن يوجب أن تُخْلصوا التوحيد له وأن تتخلصوا من نسبة الأنداد، وفيه أنه يجوز إثبات التوحيد بالسمع. فإن قيل: لو دلت (إنما) على الحصر لزم أن يقال: إنه لم يوح إلى الرسول شيء إلا التوحيد، ومعلوم أن ذلك فاسد. قلنا: المقصود منه المبالغة.

أما قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ فقال صاحب (الكشاف): (آذن) منقول من (أذن) إذا علم ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار، ومنه قوله: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

إذا عرفت هذا فنقول: المفسرون ذكروا فيه وجوهًا: أحدها: قال أبو مسلم: الإيذان على السواء: الدعاء إلى الحرب مجاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] وفائدة ذلك أنه كان يجوز أن يقدر على من أشرك من قريش أن حالهم مخالف لسائر الكفار في المجاهدة، فعرفهم بذلك أنهم كالكفار في ذلك. وثانيها: أن المراد فقد أعلمتكم ما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره على السواء، فلم أفرق في الإبلاغ والبيان بينكم؛ لأني بُعثت معلمًا. والغرض منه إزاحة العذر لئلا يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤]. وثالثها: (على سواء) على إظهار وإعلان. ورابعها: على مهل، والمراد أني لا أعاجل بالحرب الذي آذنتكم به، بل أمهل وأؤخر رجاء الإسلام منكم.

أما قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ **ففيه وجهان:**

أحدهما: ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة ومن عذاب الدنيا، ثم قيل: نسخه قوله: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧] يعني منهما، فإن مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه.

وثانيها: المراد أن الذي آذنهم فيه من الحرب لا يدري هو قريب أم بعيد؛ لئلا يقدر أنه يتأخر، كأنه تعالى أمره بأن ينذرهم بالجهاد الذي يوحى إليه أن يأتيه من بعد ولم يُعرفه الوقت؛ فلذلك أمره أن يقول: إنه لا يعلم قربه أم بعده. تبين بذلك أن السورة مكية، وكان الأمر بالجهاد بعد الهجرة.

وثالثها: أن ما يوعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة، ولا بد أن يلحقهم بذلك الذل والصغار، وإن كنت لا أدري متى يكون، وذلك لأن الله تعالى لم يطلعني عليه.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ فالمقصود منه الأمر بالإخلاص وترك النفاق؛ لأنه تعالى إذا كان عالمًا بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ في الإخلاص.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ **ففيه وجوه:** أحدها: لعل تأخير العذاب عنكم. وثانيها: لعل إبهام الوقت الذي ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم، أي بلية واختبار لكم ليرى صنعكم وهل تُحْدثون توبة ورجوعًا عن كفركم أم لا. وثالثها: قال الحسن: لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم، والفتنة: البلوى والاختبار. ورابعها: لعل تأخير الجهاد فتنة لكم إذا أنتم دمتم على كفركم؛ لأن ما يؤدي إلى الضرر العظيم يكون فتنة، وإنما قال (لا أدري) لتجويز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة. وخامسها: أن يكون المراد: وإن أدري لعل ما بينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم؛ لأنه زيادة في عذابكم إن لم تؤمنوا لأن المُعْرض

عن الإيمان مع البيان حالاً بعد حال يكون عذابه أشد، وإذا متعه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه.

أما قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرىء: (قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ) على الاكتفاء بالكسرة (وَرَبُّ احْكُمْ) على الضم (وَرَبِّي أَحْكَمُ) أفعل التفضيل (وَرَبِّيَ أَحْكَمَ) من الإحكام.

المسألة الثانية: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ فيه وجوه: أحدها: أي ربي اقض بيني وبين قومي بالحق، أي بالعذاب. كأنه قال: اقص بيني وبين من كذبني بالعذاب. وقال قتادة: أمَره الله تعالى أن يقتدي بالأنبياء في هذه الدعوة، وكانوا يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر. وثانيها: افصل بيني وبينهم بما يُظهر الحق للجميع وهو أن تنصرني عليهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أي من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتي من الأباطيل والتكذيب، كأنه سبحانه قال: قل داعيًا لي: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وقل متوعدًا للكفار: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت، أي قل لأصحابك المؤمنين: (وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الأباطيل) أي من العون على دفع أباطيلهم. وثانيها: كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة، فكَذَّب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونَصَر رسوله ﷺ والمؤمنين وخذلهم، قال القاضي: إنما ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه عليه السلام كان قد بلغ في البيان الغاية لهم وبلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه، فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفًا أن المقصود مصلحتهم، فإذا أبوا إلا التمادي في كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره، وإما بتأخير ذلك، فإن أمرهم وإن تأخر فما هو كائن قريب، وما روي أنه عليه السلام كان يقول ذلك في حروبه كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم، وبالله التوفيق، وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليمًا، آمين.

سورة الأنبياء

مكية في قول الجميع، وهي مئة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قال عبد الله بن مسعود: الكهفُ ومريمُ وطه والأنبياءُ من العِتَاق الأُول، وهنَّ من تِلادي. يريد من قديم ما كسب وحَفِظَ من القرآن، كالمال التِّلاد(١).

وروي أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان يبني جداراً، فمرَّ به آخَرُ في يومِ نزول هذه السورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخَر: نزل ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فنفض يده من البنيان، وقال: واللهِ لا بَنَيْتُ أبداً وقد اقترب الحساب(٢).

«اقترب» أي: قَرُبَ الوقت الذي يحاسبون فيه على أعمالهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣ ، وسلف خبر ابن مسعود ١٣/ ٥ . والتِّلاد: كلُّ مال قديم من حيوان وغيره يورَث عن الآباء. اللسان (تلد).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣ .

«للناس» قال ابن عباس: المرادُ بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[(١)].

وقيل: الناسُ عمومٌ وإن كان المُشَارُ إليه في ذلك الوقتِ كفارَ قريش، يدلُّ على ذلك ما بَعْدُ من الآيات، ومَن عَلِم اقترابَ الساعة قَصُر أملُه، وطابت نفسُه بالتوبة، ولم يَرْكَنْ إلى الدنيا، فكأنَّ ما كان لم يكن إذا ذهب، وكلُّ آتٍ قريبٌ، والموتُ لا محالةَ آتٍ؛ وموتُ كلِّ إنسانٍ قيامُ ساعتِه، والقيامةُ أيضاً قريبةٌ بالإضافة إلى ما مضى من الزمان، فما بقي من الدنيا أقلُّ ممَّا مضى.

وقال الضحَّاك: معنى ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، أي: عذابُهم، يعني أهلَ مكة؛ لأنَّهم استَبْطَؤوا ما وُعِدوا به من العذاب تكذيباً، وكان قَتْلُهم يومَ بَدْر[(٢)].

النحاس[(٣)]: ولا يجوز في الكلام: اقترب حسابُهم للناس؛ لئلَّا يتقدَّم مُضْمَرٌ على مُظْهَرٍ لا يجوز أن يُنْوَى به التأخير. ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر، ويجوز النصبُ في غير القرآن على الحال. وفيه وجهان: أحدهما: «وهم في غفلةٍ معرِضون» يعني بالدنيا عن الآخرة. الثاني: عن التأهُّب للحساب وعمَّا جاء به محمدٌ ﷺ.

وهذه الواوُ عند سيبويه بمعنى «إذ» وهي التي يسمِّيها النَّحْويون واوَ الحال، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤][(٤)].

قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ «مُحْدَثٍ» نعتٌ لـ «ذِكْرٍ». وأجاز الكسائيُّ والفرَّاءُ: مُحْدَثاً، بمعنى: ما يأتيهم مُحْدَثاً؛ نصب على الحال. وأجاز الفرَّاء أيضاً رَفْعَ «مُحْدَث» على النعت للذِّكر[(٥)]؛ لأنك لو حذفتَ «مِن» رفعت

(١) أورده الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٦١ - ٥٦٢.
(٢) أورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٥.
(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٦٣.
(٤) ينظر الكتاب ١/ ٩٠، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٤١٣.
(٥) قرأ: محدثٌ: ابنُ أبي عبلة، وقرأ: محدثاً: زيد بن علي، والقراءتان من الشواذ. البحر ٦/ ٢٩٦.

ذكراً[١]، أي: ما يأتيهم ذكرٌ من ربِّهم مُحدَثٌ. يريد: في النزول وتلاوةِ جبريلَ على النبيِّ ﷺ؛ فإنَّه كان ينزل سورةً بعد سورةٍ، وآيةً بعد آيةٍ، كما كان ينزله الله تعالى عليه في وقتٍ بعد وقت، لا أنَّ القرآنَ مخلوق.

وقيل: الذِّكْرُ ما يذكِّرهم به النبيُّ ﷺ ويَعِظُهم به، وقال: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا يَنْطِقُ إلَّا بالوحي، فوَعْظُ النبيِّ ﷺ وتحذيرُه ذِكْر، وهو مُحْدَث[٢]؛ قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، ويقال: فلانٌ في مجلس الذكر.

وقيل: الذِّكْرُ الرسولُ نفسُه؛ قاله الحسين بن الفضل؛ بدليل ما في سياق الآية: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٣] ولو أراد بالذِّكر القرآنَ لقال: هل هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين، ودليلُ هذا التأويلِ قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥١-٥٢] يعني محمداً ﷺ، وقال: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ يعني محمداً ﷺ، أو القرآنَ من النبيِّ ﷺ، أو من أمته. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ الواوُ واوُ الحال يدلُّ عليه ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

ومعنى «يَلْعَبُونَ»، أي: يلهُون. وقيل: يشتغلون. فإنْ حُمِل تأويلُه على اللَّهو، احتَمَل ما يلهُون به وجهين: أحدهما: بلذَّاتهم. الثاني: بسماع ما يُتلى عليهم. وإن حُمل تأويلُه على الشُّغل، احتَمَل ما يتشاغلون به وجهين: أحدهما: بالدنيا لأنَّها لعب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦]. الثاني: يتشاغلون بالقَدْح فيه والاعتراض عليه. قال الحسن: كلَّما جَدَّد لهم الذكرَ استمرُّوا على الجهل[٤]. وقيل: يستمعون القرآنَ مستهزئين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٣، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ١٩٧ - ١٩٨.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٧٣.
(٣) أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٣٩.
(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٣٦.

قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ساهيةً قلوبُهم، مُعْرِضةً عن ذكر الله، متشاغلةً عن التأمُّل والتفهُّم، من قول العرب: لَهِيْتُ عن ذكر الشيء: إذا تركتَه وسَلَوْتَ عنه، أَلْهَى لُهِيًّا ولِهْياناً(١).

و«لاهية» نعتٌ تقدَّم الاسمَ، ومن حقِّ النَّعت أن يتبع المنعوتَ في جميع الإعراب، فإذا تقدَّم النعتُ الاسم انتصب، كقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٤] و﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ [الإنسان: ١٤] و﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾(٢) قال الشاعر:

لِعَزَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ يَلُوحُ كَأَنَّه خِلَلُ(٣)

أراد: طللٌ موحِشٌ. وأجاز الكسائيُّ والفرَّاء: لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ، بالرفع(٤) بمعنى: قلوبُهم لاهيةٌ. وأجاز غيرهما الرفعَ على أن يكون خبراً بعدَ خبر، وعلى إضمار مبتدأ. وقال الكسائيُّ: ويجوز أن يكون المعنى: إلَّا استمعوه لاهيةً قلوبُهم(٥).

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: تَناجَوْا فيما بينهم بالتكذيب، ثم بيَّن مَن هم فقال: «الَّذِينَ ظَلَمُوا»، أي: الذين أشركوا، فـ«الذين ظلموا» بدلٌ من الواو في «أسرُّوا»، وهو عائدٌ على الناس المتقدِّم ذِكْرُهم(٦)؛ ولا يوقَف على هذا القولِ على

---

(١) الصحاح (لها). وقيد الجوهري: لهِيتُ بالكسر، وذكر صاحب اللسان (لها) فيها وجهين: لهِي ولهَى.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٨ .

(٣) الجمل في النحو للخليل ص٧٦ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٦٦٤ ، واللسان خلل، والخزانة ٣/ ٢١١ ، وعندهم: لميَّة، بدل: لعزة. وجاء في شرح المفصل ٢/ ٦٤ :

لِعَزَّةَ موحشاً طللٌ قديم عَفَاه كلُّ أَسْحَمَ مُسْتَديمُ

وذكره البغدادي في الخزانة بلفظ: لمية وقال: مَن رواه: لعزة، قال: هو لكثير عزة، ومن رواه: لمية، قال: إنه لذي الرمة. والخِلل جمع خِلَّة: وهي بطانة يغشَّى بها جَفْنُ السيف ـ وهو غمده ـ تنقش بالذهب وغيره. اللسان (خلل).

(٤) قرأ بها ابن أبي عبلة وعيسى، وهي من الشواذ. البحر ٦/ ٢٩٦ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٣ - ٦٤ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٨ .

(٦) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٤ هذا القول عن سيبويه. وقال أبو حيان في البحر ٦/ ٢٩٧ : قاله المبرد، وعزاه ابن عطية إلى سيبويه.

«النجوى»[١]. قال المبرِّد: وهو كقولك: إنَّ الذين في الدار انطلقوا بنو عبد الله، فبنو بدلٌ من الواو في انطلقوا[٢].

وقيل: هو رفعٌ على الذمِّ، أي: هم الذين ظلموا[٣].

وقيل: على حذفِ القول، التقدير: يقول الذين ظلموا، وحذفَ القول، مثل: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]. واختار هذا القولَ النحاسُ[٤]؛ قال: والدليلُ على صحة هذا الجوابِ أنَّ بعده: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

وقول رابع: يكون منصوباً بمعنى: أعني الذين ظلموا[٥].

وأجاز الفراء أن يكون خفضاً بمعنى: اقترب للناس الذين ظلموا حسابُهم[٦]؛ ولا يوقَفُ على هذا الوجه على «النجوى»، ويوقَفُ على الوجوه المتقدِّمة الثلاثةِ قبلَه[٧]. فهذه خمسة أقوال.

وأجاز الأخفش[٨] الرفعَ على لغةِ مَن قال: أكلوني البراغيث. وهو حسن؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١]، وقال الشاعر:

بك نال النِّضالُ دون المساعي ... فاهتدينَ النِّبالُ للأغراضِ[٩]

---

(١) المكتفى في الوقف والابتداء للداني ص٣٨٥.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٢٩، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٨.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٦٣، وما قبله منه.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٤.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٩٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦٣.

(٧) المكتفى في الوقف والابتداء ص٣٨٥.

(٨) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٦٣.

(٩) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه بشرح التبريزي ٢/ ٣١٣ برواية: عاد، بدل: نال. قال التبريزي: =

وقال آخر:

ولكنْ دِيَافِيٌّ أبوه وأمُّهُ بحَوْرَانَ يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أقَارِبُهْ[١]

وقال الكسائيُّ: فيه تقديمٌ وتأخير، مَجازُه: والذين ظلموا أسرُّوا النجوى[٢].

أبو عبيدة[٣]: «أسرُّوا» هنا من الأضداد، فيَحْتَمِل أن يكونوا أَخْفَوْا كلامَهم، ويَحْتَمِل أن يكونوا أَظْهَروه وأعْلَنوه.

قوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: تناجَوْا بينهم وقالوا: هل هذا الذِّكْرُ الذي هو الرسولُ ـ أو هل هذا الذي يدعوكم ـ إلَّا بشرٌ مثلكم لا يتميَّز عنكم بشيء، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق كما تفعلون. وما عَلموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ بيَّن أنه لا يجوزُ أن يُرسِلَ إليهم إلَّا بشراً ليتفَّهموا ويعلِّمهم.

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: إنَّ الذي جاء به محمدٌ ﷺ سحرٌ، فكيف تجيئون[٤] إليه وتتَّبعونه؟ فأَطْلَع الله نبيَّه عليه الصلاة والسلام على ما تناجَوْا به. والسحر في اللغة: كلُّ مموَّهٍ لا حقيقةَ له ولا صحَّة. ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنه إنسانٌ مثلُكم، مثل: وأنتم تعقلون؛ لأنَّ: العقل البَصَرُ بالأشياء.

وقيل: المعنى: أفتَقْبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر؟ وقيل: المعنى: أفَتَعْدِلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحقَّ[٥]؟ ومعنى الكلامِ التوبيخ.

= أصل النضال في الرمي، وذلك أن يرمي الرجلان والجماعة في الغرض لينظر أيهم أرمى، ثم نقل ذلك إلى الحرب والتفاخر. اهـ. والغرض: هدف يرمى فيه. القاموس (غرض).

(١) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٦، والكتاب ٢/ ٤٠، والخزانة ٥/ ٢٣٤. قال الشنتمري في شرح الشواهد ص٢٥٢ - ٢٥٣: هجا رجلاً فجعله من أهل القرى المعتملين لإقامة عيشهم، ودياف قرية بالشام، والسليط: الزيت.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٣٨.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٣٤.

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ): تجيبون.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٧.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٞ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ ربِّي يعلم القولَ في السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يَخْفَى عليه شيءٌ ممَّا يقال في السماء والأرض. وفي مصاحف أهل الكوفة: ﴿قَالَ رَبِّي﴾[1] أي: قال محمدٌ: ربي يعلم القول، أي: هو عالمٌ بما تَناجَيْتُم به.

وقيل: إنَّ القراءة الأُولى أَوْلى؛ لأنهم أسرُّوا هذا القولَ، فأَظْهَر الله عزَّ وجلَّ عليه نبيَّه ﷺ، وأمره أن يقول لهم هذا؛ قال النحاس[2]: والقراءتان صحيحتان، وهما بمنزلة الآيتين، وفيهما من الفائدة أنَّ النبيَّ ﷺ أُمر، وأنه قال كما أُمر.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ﴾ قال الزجَّاج[3]: أي قالوا: الذي يأتي به أضغاثُ أحلام. وقال غيره: أي: قالوا: هو أخلاطٌ كالأحلام المختلِطة، أي: أهاويلُ رآها في المنام؛ قال معناه مجاهدٌ وقتادة[4]، ومنه قولُ الشاعر:

كضِغْثِ حُلْمٍ غُرَّ منه حَالِمُه[5]

وقال القُتبيُّ: إنَّها الرؤيا الكاذبة، ومنه قول الشاعر:

أحاديثُ طَسْمٍ أو سرابٌ بفَدْفَدٍ ... تَرقْرَقَ للسَّاري وأضغاثُ حالِمِ[6]

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿قَالَ﴾ بالألف، والباقون من السبعة بغير ألف. السبعة ص٤٢٨، والتيسير ص١٥٤.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٦٤.

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٣٨٤.

(٤) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٢٦، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٧، وسلف ١١/ ٣٦٢.

(٦) ذكر قول القُتبي مع البيت الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧. وطَسْم: قبيلة من عاد انقرضوا. والفَدْفد: الفلاة. اللسان (طسم)، و(فدد).

وقال اليزيديُّ: الأضغاثُ: ما لم يكن له تأويل[١]. وقد مضى هذا في «يوسف»[٢].

فلمَّا رأَوْا أنَّ الأمر ليس كما قالوا انتقلوا عن ذلك فقالوا: «بل افتراه»، ثم انتقلوا عن ذلك فقالوا: «بل هو شاعر»[٣]. أي: هم متحيِّرون لا يستقرُّون على شيء؛ قالوا مرةً: سحر، ومرةً: أضغاثُ أحلام، ومرةً: افتراه، ومرةً: شاعر.

وقيل: أي: قال فريقٌ: إنه ساحر، وفريقٌ: إنه أضغاث أحلام، وفريقٌ: إنه افتراه، وفريقٌ: إنه شاعر. والافتراءُ: الاختلاق؛ وقد تقدَّم[٤].

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: كما أُرسل موسى بالعصا وغيرِها من الآيات، ومثل ناقة صالح. وكانوا عالِمِين بأنَّ القرآن ليس بسحرٍ ولا رؤيا، ولكن قالوا: ينبغي أنْ يأتيَ بآيةٍ نقترحُها. ولم يكن لهم الاقتراحُ بعد ما رأَوْا آيةً واحدة.

وأيضاً إذا لم يؤمنوا بآيةٍ هي من جنسِ ما هم أعلمُ الناس به، ولا مجالَ للشُّبهة فيها، فكيف يؤمنون بآية غيرِها؟! ولو أبرأ الأكْمَهَ والأبرصَ لقالوا: هذا من بابِ الطبّ، وليس ذلك من صناعتنا. وإنما كان سؤالهم تعنُّتاً؛ إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفايةٌ، وبيَّن الله عزَّ وجلَّ أنَّهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣][٥].

قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: يريد قومَ صالحٍ وقومَ فرعون. ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ يريد: كان في علمنا هلاكُها ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يريد: يصدِّقون،

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٧ .
(٢) ١١/ ٣٦٢ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .
(٤) ٦/ ٤١١ .
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

أي: فما آمنوا بالآيات، فاستؤصلوا، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لَمَا آمنوا؛ لِمَا سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضاً، وإنَّما تأخَّر عقابهم لِعْلِمنا بأنَّ في أصلابهم مَن يؤمن. و«مِن» زائدةٌ في قوله: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾، كقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أرسَلْنا قَبْلَكَ إلَّا رجالاً يُوحَى إليهم﴾ هذا ردٌّ عليهم في قولهم: «هل هذا إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكم» وتأنيسٌ لنبيِّه ﷺ، أي: لم يُرسِل[1] قبلَك إلَّا رجالاً. ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يريد أهلَ التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ؛ قاله سفيان. وسمَّاهم أهلَ الذكر؛ لأنهم كان يذكُرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب. وكان كفار قريشٍ يراجعون أهل الكتاب في أمرِ محمدٍ ﷺ.

وقال ابنُ زيد: أراد بالذِّكر القرآن، أي: فاسألوا المؤمنين العالِمين من أهل القرآن. قال جابرٌ الجُعْفيُّ: لمَّا نزلت هذه الآيةُ قال عليٌّ ﷺ: نحن أهلُ الذِّكر[2].

وقد ثبت بالتَّواتُر أنَّ الرسل كانوا من البشر، فالمعنى: لا تبدؤوا بالإنكار، وبقولكم: ينبغي أن يكون الرسولُ من الملائكة، بل ناظِروا المؤمنين ليبيِّنوا لكم جوازَ أن يكون الرسول من البشر. والمَلَكُ لا يُسمَّى رجلاً؛ لأنَّ الرجل يقع على ما لَه ضدٌّ من لَفْظِه؛ تقول: رجلٌ وامرأة، ورجلٌ وصبيٌّ، فقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ أي: من بني

---

(١) في (خ): نرسل.

(٢) أخرج قول ابن زيد وقول علي ﷺ الطبريُّ ١٦/ ٢٢٩، وجابر الجعفي ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

آدم. وقرأ حفص: ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[(١)].

مسألة: لم يختلف العلماء أنَّ العامَّة عليها تقليدُ علمائها، وأنَّهم المرادُ بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾. وأجمعوا على أنَّ الأعمى لابدَّ له من تقليدِ غيره ممن يثقُ بمَيْزِه بالقبلة إذا أشكلتْ عليه، فكذلك مَن لا عِلْمَ له ولا بَصَرَ بمعنَى ما يَدِينُ به لابدَّ له من تقليدِ عالِمِه، وكذلك لم يختلف العلماء أنَّ العامَّة لا يجوز لها الفُتيا؛ لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليلُ والتحريمُ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ الضميرُ في: «جعلناهم» للأنبياء، أي: لم نجعل الرسلَ قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعامٍ وشراب ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ يريد: لا يموتون. وهذا جوابٌ لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ وقولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧].

و«جسداً» اسمُ جنس، ولهذا لم يقل: أجساداً[(٣)]. وقيل: لم يقل: أجساداً؛ لأنه أراد: وما جعلنا كلَّ واحدٍ منهم جسداً.

والجسد: البدن؛ تقول منه: تَجسَّد، كما تقول من الجسم: تَجسَّم. والجسدُ أيضاً: الزَّعْفَرَانُ أو نحوُه من الصِّبْغ، وهو الدَّمُ أيضاً؛ قال النابغة:

وما هُرِيقَ على الأنصابِ من جَسَدِ[(٤)]

وقال الكلبيُّ: والجسدُ هو المجسَّد[(٥)] الذي فيه الروحُ يأكل ويشرب، فعَلَى

---

(١) السبعة ص٤٢٨، والتيسير ص١٣٠. ووقع في النسخ: حفص وحمزة والكسائي، وذكر حمزة والكسائي في هذا الموضع وهم، والصواب أن ثلاثتهم قرؤوا: «نوحي» بالنون في الآية (٢٥) من هذه السورة كما سيرد في موضعه إن شاء الله. وينظر البحر ٦/ ٢٩٨، والدر المصون ٦/ ١٣٥.

(٢) ينظر الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ٢/ ٦٧ - ٦٨.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٦٤، وتفسير البغوي ٣/ ٢٣٩.

(٤) وصدره: فلا لَعَمْرُ الذي مسَّحْتُ كعبتَه، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص٣٥، والصحاح (جسد)، والكلام منه.

(٥) في (م): المتجسد.

مقتضَى هذا القولِ يكون ما لا يأكل ولا يشرب جسماً. وقال مجاهدٌ: الجسدُ: ما لا يأكل ولا يشرب؛ فعلى مقتضَى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نَفْساً؛ ذكره الماوَرْديّ[١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ يعني الأنبياء، أي: بإنجائهم ونَصْرِهم وإهلاكِ مكذِّبيهم. ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي: الذين صدَّقوا الأنبياء. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المشركين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ يعني القرآن ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ رفعٌ بالابتداء، والجملةُ في موضعِ نصبٍ لأنَّها نعتٌ لكتاب[٢]. والمرادُ بالذكر هنا الشرف، أي: فيه شرفُكم، مثل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤][٣]. ثم نبَّههم بالاستفهام الذي معناه التوقيفُ فقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٤].

وقيل: فيه ذكركُم، أي: ذِكْرُ أمرِ دينِكم، وأحكامِ شَرْعِكم، وما تصيرون إليه من ثوابٍ وعقاب، أفلا تعقلون هذه الأشياءَ التي ذكرناها؟!

وقال مجاهد: «فِيهِ ذِكْرُكُمْ»، أي: حديثكم. وقيل: مكارِمُ أخلاقِكم، ومحاسنُ أعمالكم. وقال سهل بن عبد الله: العملُ بما فيه حياتُكم[٥].

قلت: وهذه الأقوالُ بمعنًى، والأوّلُ يَعمُّها؛ إذ هي شرفٌ كلُّها، والكتابُ شرفٌ لنبيِّنا عليه الصلاةُ والسلام؛ لأنه معجزتُه، وهو شرفٌ لنا إنْ عملنا بما فيه، دليلُه قولُه

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ٤٣٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٣) الوسيط ٣/ ٢٣١ ، وهذا القول ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ عن ابن عيسى، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤١ من طريق أبي صالح عن ابن عباس، وذكره الطبري ١٦/ ٢٣٢ دون نسبة وقال: وهذا القول أشبه بمعنى الكلمة.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ ، وخبر مجاهد في تفسيره ١/ ٤٠٧ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٢ .

عليه الصلاةُ والسلام: «القرآن حُجَّةٌ لك أو عليك»(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ يريد مدائنَ كانت باليمن. وقال أهل التفسير والأخبار: إنه أراد أهلَ حَضُورٍ، وكان بُعث إليهم نبيٌّ اسمُه شعيب بن ذي مَهْدَم، وقبرُ شعيبٍ هذا باليمن بجبلٍ يقال له: ضِيْن(٢)، كثيرِ الثَّلج، وليس بشعيبٍ صاحبِ مَدْيَنَ؛ لأنَّ قصة حَضُورٍ قبل مدةِ عيسى عليه السلام، وبعد مِئينَ من السنين من مدَّةِ سليمانَ عليه السلام، وأنهم قتلوا نبيَّهم وقَتَل أصحابُ الرَّسِّ في ذلك التاريخ نبيًّا لهم اسمُه: حنظلة بنُ صفوان، وكانت حَضُورٌ بأرض الحجاز من ناحية الشام، فأَوحى الله إلى أرميا أنِ ائتِ بختنصَّر فأَعْلِمْه أنِّي قد سلَّطته على أرض العرب، وأنِّي منتقمٌ بكَ منهم، وأَوحى الله إلى أرميا أنِ احمِلْ مَعَدَّ بنَ عدنان على البُراقِ إلى أرض العراق كي لا تصيبه النِّقمةُ والبلاءُ معهم، فإنِّي مستخرجٌ من صُلْبِه نبيًّا في آخِر الزمان اسمُه محمد. فَحمَل مَعَدًّا وهو ابن اثنتي عَشرةَ سنةً، فكان مع بني إسرائيل إلى أنْ كبِر وتزوَّج امرأةً اسمُها معانة، ثم إنَّ بختنصَّر نهض(٣) بالجيوش، وكَمَنَ للعرب في مكانٍ - وهو أَوَّلُ مَن اتَّخذ المَكامِنَ فيما ذَكروا - ثم شنَّ الغارات على حَضُورٍ، فقتَل وسَبَى وخَرَّب العامِر، ولم يترك بحَضُورٍ(٤) أثراً، ثم انصرف راجعاً إلى السَّوَاد.

(١) قطعة من حديث أبي مالك الأشعري، أخرجه مسلم (٢٢٣)، وسلف ١/ ٦ .

(٢) اضطرب اللفظ في النسخ، والمثبت من التعريف والإعلام ص١١٢ ، والكلام منه، وكذا ذكره ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٤٦٥ وقال: ضِيْن بكسر الضاد وسكون الياء.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): نهد، ولم تجود في (د)، والمثبت من (م) والتعريف والإعلام.

(٤) في التعريف والإعلام: لحضور.

و«كَمْ» في موضع نصبٍ بـ «قصمنا»[١]. والقَصْمُ: الكسر؛ يقال: قَصَمْتُ ظَهْرَ فلانٍ [إذا كسرته]، وانقصَمَتْ سِنُّه: إذا انكسرت، والمَعْنيُّ به هاهنا: الإهلاك[٢]. وأمَّا الفَصْم ـ بالفاء ـ فهو الصَّدْعُ في الشيء من غير بينونة؛ قال الشاعر:

كـأنَّـهُ دُمْـلُـجٌ مـن فِـضَّـةٍ نَـبَـهٌ   في مَلْعبٍ من عَذَارَى الحيِّ مَفْصُومُ[٣]

ومنه الحديث: «فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَه لَيتفصَّدُ عَرَقاً»[٤].

وقولُه: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة، يعني: أهلها. والظلمُ: وضعُ الشيء في غيرِ مَوْضِعِه، وهم وَضَعوا الكفرَ مَوْضِعَ الإيمان. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أي: أَوْجَدْنَا وأَحْدَثْنا بعد إهلاكهم ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أي: رأَوْا عذابنا؛ يقال: أحسستُ منه ضَعْفاً. وقال الأخفش: «أحسُّوا»: خافوا وتوقَّعوا.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يهربون ويَفِرُّون. والرَّكضُ: العَدْوُ بشدَّةِ الوَطْء. والرَّكضُ: تحريكُ الرِّجل، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ ورَكَضْتُ الفرسَ برِجْلي: استَحْثَثْتُه ليَعْدُوَ، ثم كَثُر حتى قيل: رَكَض الفرسُ: إذا عَدَا، وليس بالأصل، والصوابُ: رُكِض الفرسُ، على ما لم يسمَّ فاعلُه، فهو مَرْكوض[٥].

﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أي: لا تَفِرُّوا. وقيل: إنَّ الملائكة نادتهم لمَّا انهزموا استهزاءً بهم

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٦، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٥.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٢٣٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) البيت لذي الرمة، والبيت في ديوانه ١/ ٣٩١، والصحاح (فصم). قال الجوهري: يذكر غزالاً يشبِّهه بدُمْلُج فضة، وإنما جعله مفصوماً؛ لتَثَنِّيه وانحنائه إذا نام. وقال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: نَبَهٌ: مَنْسيٌّ، انتبهوا له انتباهاً، لا يدرون أي موضع افتقدوه، وقوله: في ملعب، أي: حيث تلعب الجواري. اهـ والدملج: حلية تحيط بالعضد. المعجم الوسيط (دملج).

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٦١٩٨)، والبخاري (٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٥) الصحاح (ركض).

وقالت: «لا تركضوا»[١].

﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾ أي: إلى نعمكم التي كانت سببَ بَطَرِكم، والمُترَفُ: المتنعِّم، يقال: أُترفَ على فلان، أي: وُسِّعَ عليه في معاشه. وإنما أَتْرفَهم الله عزَّ وجلَّ كما قال: ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣].

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ أي: لعلكم تُسألون شيئاً من دنياكم؛ استهزاءً بهم؛ قاله قتادة[٢]. وقيل: المعنى: لعلكم تُسألون عمَّا نزل بكم من العقوبة فتخبِرون به. وقيل: المعنى: لعلكم تُسألون أنْ تؤمنوا كما كنتم تُسألون ذلك قبل نزول البأس بكم، قيل لهم ذلك استهزاءً وتقريعاً وتوبيخاً.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ﴾ لمَّا قالت لهم الملائكة: «لا تركضوا»، ونادت: يا لَثاراتِ الأنبياء! ولم يَرَوْا شخصاً يكلِّمهم، عرفوا أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي سلَّط عليهم عدوَّهم بقتلهم النبيَّ الذي بُعث فيهم، فعند ذلك قالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، فاعترفوا بأنَّهم ظَلموا حين لا ينفع الاعتراف.

﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: لم يزالوا يقولون: «يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» ﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا﴾ أي: بالسيوف كما يُحصَد الزرع بالمِنْجَل؛ قاله مجاهد[٣]. وقال الحسن: أي: بالعذاب[٤] ﴿خَٰمِدِينَ﴾ أي: ميتين. والخُمودُ: الهمودُ؛ كخمود النار إذا طَفِئَتْ، فشبَّه خمودَ الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات: قد طَفِئَ؛ تشبيهاً بانطفاء النار[٥].

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٣٦٣- ٣٦٤ ، ونسبه لقتادة ومقاتل.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ ، وأخرجه عنه الطبري ١٦/ ٢٣٦ .

(٣) أخرجه عنه بنحوه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٢ ، والطبري ١٦/ ٢٣٧ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٣٩ - ٤٤٠ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: عَبَثاً وباطلاً، بل للتَّنبيه على أنَّ لها خالقاً قادراً يجب امتثالُ أمره، وأنه يجازي المسيءَ والمُحْسِن؛ أي: ما خَلَقْنا السماءَ والأرض ليظلم بعضُ الناس بعضاً، ويكفُرَ بعضُهم، ويخالفَ بعضُهم ما أُمر به، ثم يموتوا ولا يُجازَوْا، ولا يؤمروا[1] في الدنيا بحَسَنٍ ولا يُنْهَوا عن قبيح. وهذا اللعبُ المَنْفيُّ عن الحكيم ضدُّه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ لمَّا اعتقدَ قومٌ أنَّ له ولداً قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ واللهوُ: المرأةُ بلغة اليمن؛ قاله قتادة[2].

وقال عقبة بن أبي جَسْرَة ـ وجاءه طاوسٌ وعطاءٌ ومجاهدٌ يسألونه عن قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ فقال ـ: اللهوُ: الزوجة. وقاله الحسن[3].

وقال ابن عباس: اللهو: الولد[4]. وقاله الحسن أيضاً[5].

قال الجوهريُّ[6]: وقد يُكْنَى باللَّهو عن الجِماع.

قلت: ومنه قولُ امرئ القيس:

---

(١) في (د) و(ز): ولا يأمروا، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٦ والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٩ .

(٣) كذا قال المصنف رحمه الله، والخبر كما أخرجه الطبري ١٦/ ٢٣٨ : عن عقبة عن أبي جسرة قال: شهدت الحسن بمكة، قال: وجاءه طاوسٌ وعطاءٌ ومجاهد فسألوه عن قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قال الحسن: اللهو: المرأة.

(٤) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٦٤ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢٣٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٤٣ ، وهو من رواية الكلبي عن ابن عباس كما ذكر الواحدي.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٤٠ .

(٦) في الصحاح (لها).

أَلَا زَعمتْ بَسْبَاسَةُ اليومَ أنَّني كَبِرتُ وأَلَّا يُحسِنَ اللَّهْوَ أمثالي[١]

وإنَّما سُمِّي الجماعُ لهواً؛ لأنَّه مَلْهًى للقلب، كما قال:

وفيهِنَّ مَلْهًى للصديق ومَنْظَرٌ[٢]

الجوهريُّ[٣]: وقولُه تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ قالوا: امرأةً، ويقال: ولداً.

﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: مِن عندِنا لا مِن عندِكم. قال ابن جريج: [لاتَّخذْنا نساءً وولداً] مِن أهل السماء لا مِن أهل الأرض[٤]. قيل: أراد الرَّدَّ على مَن قال: إنَّ الأصنام بناتُ الله، أي: كيف يكون مَنْحُوتكم ولداً لنا؟ وقال ابن قتيبة[٥]: الآيةُ ردٌّ على النصارى.

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال قتادةُ ومقاتلٌ وابن جريج والحسن: المعنى: ما كنا فاعلين[٦]، مثل: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣] أي: ما أنت إلَّا نذير. و«إن» بمعنى الجَحْدِ، وتمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾.

وقيل: إنه على معنى الشَّرط، أي: إن كنَّا فاعلين ذلك، ولكنْ لَسْنا بفاعلين ذلك[٧] لاستحالة أن يكون لنا ولد؛ إذ لو كان ذلك لم نخلقْ جنةً ولا ناراً، ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً[٨].

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٢٨.

(٢) صدر بيت لزهير وعجزه: أنيقٌ لعين الناظر المتوسم، وهو في شرح ديوانه ص١٠ برواية: للَّطيف، بدل: للصديق، وسلف ١٢/ ٢٣٣.

(٣) في الصحاح (لها).

(٤) أخرجه عنه الطبري ١٦/ ٢٣٩، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٠، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٥) في تأويل مشكل القرآن ص١٢٤.

(٦) أخرجه عن قتادة وابن جريج الطبري ١٦/ ٢٣٩، وذكره عن مقاتل البغوي ٣/ ٢٤١، وعن الحسن ابن الجوزي ٥/ ٣٤٤.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٧. وقال الزجاج: والقول الأول قول المفسرين، والثاني قول النحويين، وهم أجمعون يقولون القول الأول ويستجيدونه.

(٨) في (د) و(ز): حياتاً.

وقيل: لو أردنا أن نتخذ ولداً على طريق التبنِّي لاتخذناه من عندنا من الملائكة. ومالَ إلى هذا قوم؛ لأنَّ الإرادة قد تتعلَّق بالتبنِّي، فأمَّا اتِّخاذُ الولدِ فهو مُحال، والإرادةُ لا تتعلَّق بالمستحيل؛ ذكره القُشَيْريّ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ القذف: الرَّمْي، أي: نرمي بالحقِّ على الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يَقْهَره ويُهْلِكُه. وأصلُ الدَّمْغ: شجُّ الرأس حتى يبلغ الدماغ، ومنه: الدَّامِغة[١]. والحقُّ هنا: القرآن، والباطل: الشيطان؛ في قول مجاهد[٢]؛ قال: وكلُّ ما في القرآن من الباطل فهو الشيطان. وقيل: الباطلُ: كذبُهم ووَصْفُهم الله عزَّ وجلَّ بغير صفاته من الولد وغيره.

وقيل: أراد بالحقِّ: الحُجَّةَ، وبالباطل: شُبَهَهُم. وقيل: الحقُّ: المواعظ، والباطل: المعاصي[٣]. والمعنى متقارِبٌ، والقرآنُ يتضمَّن الحجَّةَ والموعظة.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾ أي: هالِكٌ تالِف؛ قاله قتادة[٤]. ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ أي: العذاب في الآخرة بسبب وَصْفِكم اللهَ بما لا يجوز وَصْفُه. وقال ابن عباس: الويلُ وادٍ في جهنَّم؛ وقد تقدَّم[٥].

﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: مما تكذبون؛ عن قتادة ومجاهد[٦]، نظيرُه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ﴾ [الأنعام:١٣٩] أي: تكذيبَهم[٧]. وقيل: مما تصفون اللهَ به من المُحال، وهو اتِّخاذُ الولد[٨].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٤١ ، والصحاح (دمغ).

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤١ عن قتادة، ولم نقف عليه من مجاهد.

(٣) ذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤١ وقال: قاله بعض أهل الخواطر.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣ ، والطبري ١٦/ ٢٤٠ .

(٥) ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١ مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وإسناده ضعيف ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤١ عن قتادة.

(٧) في (م): بكذبهم.

(٨) في (م): وهو اتخاذه سبحانه الولد.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: مِلْكاً وخَلْقاً، فكيف يجوز أن يُشرك به ما هو عَبْدُه وخَلْقُه؟! ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكة الذين ذكرتُم أنهم بناتُ الله. ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أي: لا يأْنفون ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ والتذلُّلِ له ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ أي: يُعْيُون؛ قاله قتادة. مأخوذٌ من الحسير: وهو البعيرُ المنقطِعُ بالإعياء والتعب[(١)]، حَسَر البعيرُ يَحسِر حُسوراً: أَعْيا وكَلَّ، واستَحْسَر وتَحَسَّر مِثْلُه، وحَسَرْتُه أنا حَسْراً، يتعدَّى ولا يتعدَّى، وأَحْسَرْته أيضاً فهو حَسير[(٢)].

وقال ابن زيد: لا يَمَلُّون[(٣)]. ابن عباس: لا يَستنكفون[(٤)]. وقال أبو زيد[(٥)]: لا يَكِلُّون. وقيل: لا يفشلون؛ ذكره ابن الأعرابي[(٦)]؛ والمعنى واحد.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: يُصَلُّون ويذكرون الله وينزِّهونه دائماً ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ أي لا يَضعفون ولا يسأمون، يُلْهَمون التَّسبيحَ والتَّقديسَ كما يُلهمون النَّفَس. قال عبدالله بن الحارث: سألت كعباً فقلت: أمَا لهم شغلٌ عن التسبيح؟ أمَا يَشْغلُهم عنه شيء؟ فقال: مَن هذا؟ فقلت: مِن بني عبد المطلب، فضمَّني إليه وقال: يا ابن أخي، هل يشغلك شيءٌ عن النَّفَس؟! إنَّ التسبيح لهم بمنزلة النَّفَس[(٧)]. وقد استدلَّ بهذه الآيةِ

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٤١، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣، والطبري ١٦/ ٢٤٣.

(٢) الصحاح (حسر).

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤٣.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤١ عن الكلبي، وأخرج الطبري ١٦/ ٢٤٢ عن ابن عباس قال: لا يرجعون.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): ابن زيد، ولم نقف على قوله.

(٦) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٥٩.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٤٤، والبيهقي في الشعب (١٦١).

مَن قال: إنَّ الملائكة أفضلُ من بني آدم. وقد تقدَّم والحمد لله(١).

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ قال المفضَّل: مقصودُ هذا الاستفهام: الجَحدُ، أي: لم يتَّخذوا آلهةً تقدِرُ على الإحياء. وقيل: «أم» بمعنى «هل»، أي: هل اتَّخذ هؤلاء المشركون آلهةً من الأرض يُحيون الموتى؟ ولا تكون «أم» هنا بمعنى بل؛ لأنَّ ذلك يُوجِب لهم إنشاءَ الموتى، إلَّا أن تقدَّر «أم» مع الاستفهام، فتكون «أم» المنقَطِعةَ، فيصحّ المعنى(٢)؛ قاله المبرِّد.

وقيل: «أم» عطفٌ على المعنى، أي: أفخلقْنا السماءَ والأرض لعباً، أم هذا الذي أضافوه إلينا من عندنا فيكونَ لهم مَوْضعَ شبهة؟ أو: هل ما اتَّخذوه من الآلهة في الأرض يُحيي الموتى فيكونَ موضعَ شُبْهةٍ؟. وقيل: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ١٠]، ثم عَطَفَ عليه بالمعاتبة، وعلى هذين التأويلين تكونُ «أم» متَّصلةً.

وقرأ الجمهور: ﴿يُنشِرُونَ﴾ بضمِّ الياء وكَسْرِ الشين مِن أَنْشَر الله الميتَ فنُشِر، أي: أحياه فحييَ. وقرأ الحسن بفتح الياء(٣)، أي: يَحْيَوْنَ ولا يموتون(٤).

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: لو كان في السماوات

---

(١) ١/ ٤٣٠ .

(٢) قال الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٦٦ : هذه أم المنقطعة، الكائنة بمعنى بل والهمزة، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٧٨ .

(٣) القراءات الشاذة ص٩١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٨ .

والأرضين آلهةٌ غيرُ الله معبودون لفَسَدَتا. قال الكسائيُّ وسيبويه: «إلَّا» بمعنى غير، فلمَّا جُعلت إلَّا في موضعِ غيرٍ؛ أُعرب الاسم الذي بعدها بإعراب غير، كما قال:

وكـــلُّ أخٍ مـــفـــارِقُـــه أخـــوهُ لَـعَـمْـرُ أبـيـكَ إلَّا الـفَـرْقَـدَانِ[١]

وحكى سيبويه: لو كان معنا رجلٌ إلَّا زيدٌ لهلَكْنا.

وقال الفراء: «إلا» هنا في موضعِ سوى، والمعنى: لو كان فيهما آلهةٌ سوى اللهِ لفَسَد أهلُهما[٢]. وقال غيره: أي: لو كان فيهما إلهان لفسد التدبير؛ لأنَّ أحدهما إن أراد شيئاً وأراد الآخَرُ ضدَّه كان أحدهما عاجزاً.

وقيل: معنى «لَفَسَدَتَا» أي: خَرِبتا وهَلَكَ مَن فيهما بوقوع التنازُع والاختلاف[٣] الواقعِ بين الشركاء.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ نَزَّه نفسه وأَمَر العباد أن ينزِّهوه عن أن يكون له شريكٌ أو ولد.

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ قاصمةٌ للقدريَّة وغيرهم. قال ابن جريج: المعنى: لا يسأله الخَلْقُ عن قضائه في خَلْقِه، وهو يَسأل الخَلْقَ عن عملهم؛ لأنهم عبيد. بيَّن بهذا أنَّ مَن يُسأل غداً عن أعماله كالمسيح والملائكة لا يصلُح للإلهية. وقيل: لا يؤاخَذ على أفعاله وهم يؤاخَذون[٤].

وروي عن عليٍّ ﷺ أنَّ رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، أيُحِبُّ ربُّنا أن يُعصَى؟

---

(١) الكتاب ٢/ ٣٣٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٧، والكلام منه، وسلف ١١/ ٥٤. والشاهد فيه: نعت «كلُّ» بقوله: «إلا الفرقدان» على تأويل «غير»، والتقدير: وكلُّ أخ غيرُ الفرقدين مفارقه أخوه. شرح الشواهد للشنتمري ص٣٦٨.

(٢) في النسخ: أهلها، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ١٠٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨ وعنه نقل المصنف.

(٣) في (د) و(ز) و(م): بالاختلاف، والمثبت من (خ) و(ظ).

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٤٢.

قال: أفيُعْصَى ربُّنا قَهْراً؟ قال: أرأيتَ إنْ منعني الهدى ومنحني الرَّدى، أأحْسَنَ إليَّ أم أساء؟ قال: إن منعك حقَّك فقد أساء، وإن منعك فَضْلَه فهو فضلُه يؤتيه مَن يشاء. ثم تلا الآية: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[١].

وعن ابن عباس قال: لمَّا بعث الله عزَّ وجلَّ موسى وكلَّمه، وأنزل عليه التوراة، قال: اللهمَّ إنك ربٌّ عظيم، لو شئتَ أن تُطاع لأُطِعت، ولو شئت ألَّا تُعصى ما عُصيتَ، وأنت تحبُّ أن تطاع، وأنت في ذلك تُعصى، فكيف هذا يا رب؟! فأوحى الله إليه: إنِّي لا أُسأل عمَّا أفعَلُ وهم يُسألون[٢].

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أعاد التعجُّبَ في اتِّخاذ الآلهة من دون الله مبالغةً في التوبيخ، أي: صفتهم كما تقدَّم في الإنشاء والإحياء، فتكون «أم» بمعنى هل، على ما تقدَّم، فليأتوا بالبرهان على ذلك.

وقيل: الأولُ احتجاجٌ من حيث المعقولُ؛ لأنه قال: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ ويُحيون الموتى، هيهات! والثاني احتجاجٌ بالمنقول، أي: هاتوا برهانكم من هذه الجهة، ففي أيِّ كتابٍ نزل هذا؟! في القرآن، أم في الكتب المنزلةِ على سائر الأنبياء؟!

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ بإخلاص التوحيد في القرآن ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِىۗ﴾ في التوراة والإنجيل وما أنزل الله من الكتب؛ فانظروا هل في كتابٍ من هذه الكتب أنَّ الله أمر باتخاذ آلهةٍ سواه؟! فالشرائعُ لم تختلف فيما يتعلَّق بالتوحيد، وإنما اختلفت في

---

(١) لم نقف عليه عن علي ﷺ، وذكره ابن شيث في حزّ الغلاصم ص١٨ عن جعفر بن محمد مع أحد القدرية، وذكر نحوه ابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٦٤ -٦٥ عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وأخرج القطعة الثانية منه وهي قوله: أرأيت إن منعني...، عن ابن عباس بنحوها. وذكره الحافظ في الفتح ١٣/ ٤٥١ بتمامه على أنه مناظرة بين بعض أئمة السنة مع بعض أئمة المعتزلة، وزاد في أوله: قال المعتزلي: سبحان مَن تنزَّه عن الفحشاء، فقال السُّنِّي: سبحان مَن لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فقال المعتزلي: أيشاء ربنا أن يعصى...

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٦٠٦) مطولاً، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٦٨) واللفظ له. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٠٠ : فيه أبو يحيى القتات، وهو ضعيف عند الجمهور... ومصعب بن سوار لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

الأوامر والنَّوَاهي.

وقال قتادة: الإشارة إلى القرآن، المعنى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ بما يلزمُهم من الحلال والحرام ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ من الأمم، ممَّن نجا بالإيمان وهلك بالشرك[١].

وقيل: ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ بما لهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ من الأمم السالفةِ فيما يُفعل بهم في الدنيا، وما يُفعل بهم في الآخرة[٢].

وقيل: معنى الكلامِ الوعيدُ والتهديد، أي: افعلوا ما شئتم، فعن قريب ينكشف الغطاء.

وحكى أبو حاتم: أنَّ يحيى بنَ يَعْمُر وطلحةَ بنَ مُصرِّفٍ قرأا: «هذا ذِكْرٌ مِن معي وذِكْرٌ مِن قَبْلي» بالتنوين وكَسْرِ الميم[٣]، وزعم أنه لا وجهَ لهذا. وقال أبو إسحاق الزجَّاج في هذه القراءة: المعنى: هذا ذكرٌ مما أُنزل إليَّ وممَّا هو معي، وذكرٌ مِن قَبْلي[٤]. وقيل: ذكرٌ كائن مِن قَبْلي، أي: جئتُ بما جاءت به الأنبياء مِن قَبْلي.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ وقرأ ابن مُحيصن والحسن: «الْحَقُّ» بالرفع، بمعنى: هو الحقُّ، أو هذا الحقُّ[٥]. وعلى هذا يوقفُ على: «لا يعلمون» ولا يوقف عليه على قراءة النصب. ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: عن الحقِّ، وهو القرآن، فلا يتأمَّلون حجَّةَ التوحيد.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٤٣، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٨.

(٣) المحتسب ٢/ ٦١، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩١ عن يحيى وحده، وذكر عن طلحة أنه قرأ: «هذا ذكرٌ معي وذكرٌ قبلي». والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٩، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٨.

(٥) في (د) و(ز) و(م): هو الحق وهذا هو الحق، والمثبت من (خ) و(ظ) والمحتسب ٢/ ٦١ والكلام منه. وذكر القراءة أيضاً عن ابن محيصن ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٩١.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رسولٍ إِلَّا يُوحَى إليه﴾. وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾ بالنون[1]؛ لقوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾. ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: قلنا للجميع: لا إله إلا الله؛ فأدلةُ العقل شاهدةٌ أنه لا شريكَ له، والنقلُ عن جميع الأنبياء موجود، والدليلُ إمَّا معقولٌ وإمَّا منقول. وقال قتادة: لم يُرسَل نبيٌّ إلَّا بالتوحيد، والشرائعُ مختلفةٌ في التوراة والإنجيل والقرآن، وكلُّ ذلك على الإخلاص والتوحيد[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ نزلت في خُزاعةَ حيث قالوا: الملائكةُ بناتُ الله[3]، وكانوا يعبدونهم طَمَعاً في شفاعتهم لهم. وروى معمرٌ عن قتادة قال: قالت اليهود ـ قال معمر في روايته[4]: أو طوائفُ من الناس ـ: [إن الله] خاتَنَ إلى الجنِّ، والملائكةُ من الجنِّ، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيهاً له ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ أي: بل هم عبادٌ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾[5]. أي: ليس كما زَعَم هؤلاء الكفار.

---

(١) السبعة ص٤٢٨، والتيسير ص١٥٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٥٠ بنحوه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٢، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٥٩.

(٤) يشير المصنف إلى رواية ثانية من غير طريق معمر، كما في التعليق التالي.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٣، والطبري ١٦/ ٢٥١، وما سلف بين حاصرتين منهما، وفيهما: وطوائف، بالواو. وأخرجه الطبري ١٦/ ٢٥٠ من طريق سعيد عن قتادة دون قوله: أو طوائف من الناس، وفيه: صاهر الجن، بدل: خاتن إلى الجن.

ويجوز النَّصب عند الزجَّاج[١] على معنى: بل اتخذ عباداً مُكْرمين. وأجازه الفراء[٢] على أن يَرُدَّه على ولد، أي: بل لم نتَّخذهم ولداً، بل اتخذناهم عباداً مُكْرمين.

والولدُ هاهنا للجمع، وقد يكون الواحدُ[٣] والجمعُ وَلَداً[٤]. ويجوز أن يكون لفظُ الولد للجنس، كما يقال: لفلانٍ مالٌ.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون حتى يقول، ولا يتكلَّمون إلَّا بما يأمرهم. ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ أي: بطاعته وأوامره. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما عملوا وما هم عاملون؛ قاله ابن عباس[٥]. وعنه أيضاً: «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ»: الآخرة، «وَمَا خَلْفَهُمْ»: الدنيا[٦]؛ ذكر الأولَ الثَّعْلبيُّ، والثاني القُشَيريّ.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ قال ابن عباس: هم أهلُ شهادةِ أنْ لا إله إلا الله. وقال مجاهد: هم كلُّ مَن رضيَ الله عنه[٧]، والملائكة يشفعون غداً في الآخرة كما في صحيح مسلم وغيره[٨]، وفي الدنيا أيضاً؛ فإنهم يستغفرون للمؤمنين ولمن في الأرض، كما نصَّ عليه التنزيل على ما يأتي[٩]. ﴿وَهُم﴾ يعني الملائكة ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ يعني من خوفه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون لا يأمَنون مَكْرَه.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٨٩ . وقال الزجاج: ولو قرئت: بل عباداً، لم يجز لمخالفة المصحف.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٠١ ، ويعني النصب في اللغة، لا في التلاوة.

(٣) في (ظ): للواحد.

(٤) في (ظ) و(ف): أولاد، وفي (خ) و(د) و(ز): أولادا، والمثبت من (م). وينظر الصحاح (ولد).

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٣ ، والرازي ٢٢/ ١٦٠ بلفظ: يعلم ما قدَّموا وما أخروا من عملهم.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٣ عن الكلبي.

(٧) ذكر قول ابن عباس وقول مجاهد البغوي ٣/ ٢٤٢ .

(٨) صحيح مسلم (١٨٣)، ومسند أحمد (١١٨٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ مطولاً.

(٩) عند تفسير الآية (٧) من سورة غافر.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ قال قتادة والضحاك وغيرهما: عنى بهذه الآية إبليس حيث ادَّعى الشركة، ودعا إلى عبادةِ نَفْسِه وكان من الملائكة، ولم يقل أحدٌ من الملائكة إنّي إلهٌ غيره[(١)].

وقيل: الإشارةُ إلى جميع الملائكة، أي: فذلك القائلُ ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾. وهذا دليلٌ على أنَّهم وإن أُكرموا بالعصمة فهم متعبَّدون، وليسوا مضطرِّين إلى العبادة كما ظنَّه بعضُ الجُهَّال. وقد استدلَّ ابنُ عباس بهذه الآية على أنَّ محمداً ﷺ أفضلُ من[(٢)] أهل السماء. وقد تقدَّم في «البقرة»[(٣)].

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: كما جزينا هذا بالنار؛ فكذلك نجزي الظالمين الواضِعِين الألوهيةَ والعبادة في غير موضعهما.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ قراءةُ العامة: ﴿أَوَلَمْ﴾ بالواو. وقرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وحميد وشِبل بن عبّاد: ﴿أَلَمْ يَرَ﴾ بغير واو[(٤)]، وكذلك هو في مصحف مكة[(٥)].

---

(١) أخرجه بنحوه عن قتادة عبد الرزاق ٢/ ٢٣ ، والطبري ١٣/ ٢٥٤ ، وأخرجه عن الضحاك ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣١٧ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٧٩ : وهذا ضعيف لأن إبليس لم يُرْوَ قطُّ أنه ادعى ربوبية.

(٢) قوله: من، من (ظ).

(٣) ٤/ ٢٥٥ .

(٤) السبعة ص٤٢٨ ، والتيسير ص١٥٥ عن ابن كثير.

(٥) المقنع لأبي عمرو الداني ص١٠٤ .

﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ بمعنى: يعلم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ قال الأخفش: قال: ﴿كَانَتَا﴾؛ لأنهما صنفان، كما تقول العرب: هما لِقَاحان أسودان[1]، وكما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: ٤١] قال أبو إسحاق: قال: «كانتا»؛ لأنه يعبِّر عن السماوات بلفظِ الواحدِ بسماء؛ ولأن السماوات كانت سماءً واحدة، وكذلك الأرضون. [قال:] وقال: «رَتقاً» ولم يقل: رَتْقَيْن؛ لأنه مصدرٌ، والمعنى: كانتا ذواتَيْ رَتْقٍ. وقرأ الحسن: «رَتَقاً» بفتح التاء. قال عيسى بن عمر: هو صوابٌ وهي لغة[2]. والرَّتْق: السدُّ، ضدُّ الفَتْق، وقد رَتَقْتُ الفَتْقَ أَرْتُقُه فارْتَتَق، أي: الْتأم، ومنه الرَّتْقاء للمنضمَّة الفَرْج[3].

قال ابن عباس والحسن وعطاءٌ والضحَّاك وقتادة: يعني أنَّها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين، ففَصَل الله بينهما بالهواء[4]. وكذلك قال كعب: خَلَقَ الله السماوات والأرضَ بعضَها على بعضٍ، ثم خلق ريحاً تَوسَّطَتْها[5] ففتحها بها، وجعل السماواتِ سبعاً والأرضين سبعاً.

وقولٌ ثانٍ قاله مجاهد والسدِّيُّ وأبو صالح: كانت السماواتُ مؤتلفةً طبقةً واحدةً، ففتقها فجعلها سبعَ سماوات، وكذلك الأرضين كانت مُرْتَتِقةً طبقةً واحدةً، ففتقها فجعلها سبعاً[6].

---

(١) لِقاح جمع لَقْحة، وهي الناقة القريبة العهد بالنِّتاج، أو الحلوب الغزيرة اللبن. معجم متن اللغة (لقح). وهذا من باب تثنية الجمع، مثل بُسْران وتمران، أي: ضربان مختلفان، وكذلك: إبلان. الكتاب ٣/ ٦٢٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٦٩ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وقول أبي إسحاق الزجاج في كتابه معاني القرآن ٣/ ٣٩٠ ، وقراءة الحسن في المحتسب ٢/ ٦٢ . وهي في القراءات الشاذة ص٩١ عن أبي حيوة.

(٣) تهذيب اللغة ٩/ ٥٣ - ٥٤ ، والصحاح (رتق).

(٤) أخرجه عن ابن عباس والحسن وقتادة الطبري ١٦/ ٢٥٥ - ٢٥٦ ، وذكره البغوي ٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣ عن ابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء.

(٥) في (م): بوسطها، وفي (ظ): متوسطتها. ووقع في مطبوع تفسير البغوي (والكلام منه) ٣/ ٢٤٣ : فوسطها.

(٦) أخرجه عنهم الطبري ١٦/ ٢٥٦ - ٢٥٧ ، وذكره البغوي ٣/ ٢٤٣ عن مجاهد والسدي.

وحكاه القُتبيُّ في «عيون الأخبار» له، عن إسماعيل بن أبي خالد في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ قال: كانت السماء مخلوقةً وحدَها والأرضُ مخلوقةً وحدَها، ففتق من هذه سبعَ سماوات، ومن هذه سبعَ أرضين؛ خلق الأرضَ العليا فجعل سكَّانها الجنَّ والإنس، وشقَّ فيها الأنهارَ، وأنبتَ فيها الأثمار، وجعل فيها البحار، وسمَّاها رِعاء، عرضُها مسيرةُ خمسِ مئة عام. ثم خلق الثانيةَ مثلَها في العَرْض والغِلَظ، وجعل فيها أقواماً؛ أفواهُهم كأفواه الكلاب، وأيديهم أيدي الناس، وآذانُهم آذانُ البقر، وشعورُهم شعورُ الغنم، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يَأْجوجَ ومأجوج، واسمُ تلك الأرض الدكماء[1]. ثم خلق الأرضَ الثالثة غِلَظُها مسيرةُ خمسِ مئة عام، ومنها هواءٌ إلى الأرض. الرابعةُ خَلَقَ فيها ظلمةً وعقاربَ لأهل النار مثلَ البغال السُّود، ولها أذنابٌ مثلُ أذناب الخيل الطِّوال، يأكل بعضُها بعضاً فتسلَّط[2] على بني آدم. ثم خلق الله الخامسةَ مثلَها[3] في الغلظِ والطول والعرض، فيها سلاسلُ وأغلالٌ وقيودٌ لأهل النار. ثم خلق الله الأرضَ السادسة واسمُها ماد، فيها حجارةٌ سُودٌ بُهْم، ومنها خُلقت تربة آدمَ عليه السلام، تُبعث تلك الحجارةُ يومَ القيامة، وكلُّ حجرٍ منها كالطَّوْد العظيم، وهي من كبريتٍ، تُعلَّقُ في أعناق الكفار، فتشتعل حتى تُحرقَ وجوههم وأيديَهم، فذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤، والتحريم: ٦]. ثم خلق الله الأرض السابعة واسمُها عربية وفيها جهنم، فيها بابان[4]؛ اسمُ الواحد: سجِّين، واسمُ الآخَرِ: الغَلَق، فأمَّا سجِّين فهو مفتوحٌ وإليه ينتهي كتابُ الكفار، وعليه يُعرض أصحاب المائدة وقومُ فرعون، وأمَّا الغَلق فهو مُغلقٌ لا يُفتح إلى يوم القيامة[5].

---

(١) في (ز) و(ف): الركما، وفي (د): الوكما، وفي (ظ): الرخاء، ولم تجود في (خ)، والمثبت من (م).

(٢) في (ظ): تتسلط.

(٣) في (ظ): كهن، والمثبت من (ز)، وسقطت من باقي النسخ.

(٤) في (ز) و(ظ): وفيها.

(٥) لم نقف عليه.

وقد مضى في «البقرة»(١) أنها سبعُ أرضين بين كلِّ أرضَيْن مسيرةُ خمس مئة عام، وسيأتي له في آخِرِ «الطلاق» زيادةُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

وقول ثالث قاله عكرمةُ وعطية وابن زيد، وابنُ عباس أيضاً فيما ذكر المَهْدَويُّ: إنَّ السماوات كانت رتقاً لا تُمْطِر، والأرض كانت رتقاً لا تُنْبِت، ففَتَقَ السماءَ بالمطر، والأرضَ بالنبات(٢)؛ نظيره قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١-١٢]. واختار هذا القولَ الطبريُّ(٣)؛ لأنَّ بعده: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قلت: وبه يقع الاعتبارُ مشاهَدةً ومُعاينة، ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية؛ ليدلَّ على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء. وقيل:

يَهونُ عليهم إذا يَغضبو ... نَ سُخْطُ العُدَاةِ وإرغامُها
ورَتْقُ الفُتوق وفَتْقُ الرُّتو ... ق ونَقْضُ الأمورِ وإبرامُها(٤)

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ثلاثُ تأويلات:

أحدُها: أنه خَلَق كلَّ شيءٍ من الماء؛ قاله قتادة.

الثاني: حَفِظَ حياةَ كلِّ شيءٍ [حيٍّ] بالماء.

الثالث: : وجَعَلْنا من ماء الصُّلْب كلَّ شيءٍ حيٍّ؛ قاله قطرب(٥).

«وجعلنا» بمعنى: خلقنا. وروى أبو حاتم البُسْتِيُّ في المسند الصحيح له من

---

(١) ١/ ٣٨٧.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٤٤، وأخرج قول عكرمة وعطية وابن زيد الطبري ١٦/ ٢٥٧، وأخرجه عن ابن عباس الحاكم ٢/ ٣٨٢، وفيه طلحة بن عمرو، قال عنه الذهبي في التلخيص: واه.

(٣) في تفسيره ١٦/ ٢٥٩.

(٤) قائلهما عبد الرحمن بن حسان بن ثابت كما في الحماسة البصرية ١/ ١٣٢، والنكت والعيون ٣/ ٤٤٤.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٤٤ وما سلف بين حاصرتين منه، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٣، والطبري ١٦/ ٢٦٠ بلفظ: كلُّ شيءٍ حيٌّ خلق من الماء.

حديث أبي هريرةَ قال: قلتُ: يا رسول الله، إذا رأيتُك طابت نفسي، وقَرَّتْ عيني؛ أنبِئْني عن كلِّ شيء؟ قال: «كلُّ شيءٍ خُلِقَ من الماء» الحديث؛ قال أبو حاتم: قولُ أبي هريرة: أنبئني عن كلِّ شيء، أراد به عن كلِّ شيءٍ خُلق من الماء، والدليلُ على صحة هذا جوابُ المصطفى إياه حيث قال: «كلُّ شيءٍ خُلِقَ من الماء» [فهذا جوابٌ خرج على سؤالٍ بعَيْنِه، لا أنَّ كلَّ خَلْقٍ من الماء] وإن لم يكن مخلوقاً[(١)].

وهذا احتجاجٌ آخَرُ سوى ما تقدَّم من كَوْن السماوات والأرضِ كانتا[(٢)] رَتْقاً.

وقيل: الكلُّ قد يُذْكَر بمعنى البعض، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقولِه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ والصحيحُ العمومُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ شيءٍ خُلق من الماء» والله أعلم.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدِّقون بما يُشاهِدون، وأنَّ ذلك لم يكن بنفسه، بل بمكوِّنٍ[(٣)] كوَّنه، ومدبِّرٍ أَوْجَدَه، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوِّن مُحْدَثاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالاً ثَوابِت ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلَّا تميدَ بهم ولا تتحرَّكَ؛ ليتمَّ القرارُ عليها؛ قاله الكوفيون. وقال البصريُّون: المعنى: كراهيةَ أن تميد. والمَيْدُ: التحرُّك والدوران. يقال: ماد رأسه، أي: دار. وقد مضى في «النحل» مستوفًى[(٤)].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ يعني في الرَّواسي؛ عن ابن عباس[(٥)]. والفِجاجُ: المسالك. والفَجُّ: الطريقُ الواسع بين الجبلين.

وقيل: وجعلنا في الأرض فِجاجاً، أي: مسالكَ، وهو اختيار الطبري[(٦)]؛

---

(١) صحيح ابن حبان (٢٥٥٩)، وما بين حاصرتين منه، وسلف ١/ ٣٨٥ .

(٢) قوله: كانتا، من (ظ).

(٣) في (م): لمكون.

(٤) ١٢/ ٣٠٣ - ٣٠٤ .

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٢ .

(٦) في تفسيره ١٦/ ٢٦٢ .

لقوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: يهتدون إلى السير في الأرض.

﴿سُبُلًا﴾ تفسير الفِجاج؛ لأنَّ الفَجَّ قد يكون طريقاً نافذاً مسلوكاً وقد لا يكون. وقيل: ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي: محفوظاً من أن يقع ويسقطَ على الأرض، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥][(١)].

وقيل: محفوظاً بالنجوم من الشياطين؛ قاله الفرَّاء[(٢)]، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

وقيل: محفوظاً من الهَدْم والنَّقْض[(٣)]، وعن أن يبلغه أحدٌ بحيلة. وقيل: محفوظاً فلا يحتاج إلى عماد.

وقال مجاهد: مرفوعاً. وقيل: محفوظاً من الشرك والمعاصي[(٤)].

﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفار ﴿عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ قال مجاهد: يعني الشمسَ والقمر [والنجوم][(٥)]. وأضاف الآياتِ إلى السماء لأنها مجعولةٌ فيها، وقد أضاف الآياتِ إلى نفسه في مواضع؛ لأنه الفاعلُ لها. بيَّن أنَّ المشركين غَفَلُوا عن النظر في السماوات وآياتها، من ليلها ونهارها، وشمسِها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى؛ إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أنَّ لها صانعاً قادراً واحداً يستحيل[(٦)] أن يكون له شريك.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٦٥، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٣.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٠١.

(٣) في (د) و(ف): والنقص.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٤٥، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٣.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٤، وما بين حاصرتين منه.

(٦) في (م): فيستحيل.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ذَكَّرهم نعمةً أخرى؛ أنْ[1] جَعَل لهم الليلَ ليسكنوا فيه، والنهارَ ليتصرَّفوا فيه لمعايشهم. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: وجَعَل الشمسَ آيةَ النهار، والقمرَ آيةَ الليل؛ لتُعلَم الشهورُ والسِّنونَ والحسابُ، كما تقدَّم في «سبحان» بيانُه[2].

﴿كُلٌّ﴾ يعني من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يَجْرُون ويسيرون بسرعةٍ؛ كالسابح في الماء[3]. قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣] ويقال للفرس الذي يَمدُّ يده في الجَرْي: سابح[4].

وفيه من النَّحْو أنه لم يقل: يَسْبَحْن، ولا تَسبح؛ فمذهب سيبويه: أنه لمَّا أخبر عنهنَّ بفعلِ مَن يَعْقِلُ وجَعَلهنَّ في الطاعة بمنزلةِ مَن يعقل، أخبر عنهنَّ بالواو والنون. ونحوَه قال الفرَّاء[5]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «يوسف»[6].

وقال الكسائيُّ: إنَّما قال: «يَسْبَحون» لأنه رأسُ آية، كما قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤] ولم يقل: منتصرون[7].

وقيل: الجريُ للفَلَكِ، فنسب إليها. والأصحُّ أنَّ السيارة تجري في الفَلَك، وهي سبعةُ أفلاكٍ دون السماواتِ المطبقة التي هي مجالُ الملائكة وأسباب الملكوت. فالقمرُ في الفَلَكِ الأدنى، ثُمَّ عُطَارِد، ثم الزُّهَرَة، ثم الشمس، ثم المِرِّيخ، ثم المُشْتَري، ثم زُحَل، والثامنُ فَلَكُ البروج، والتاسعُ الفَلَكُ الأعظم.

---

(١) لفظة «أن» من (ظ).

(٢) ١٣/ ٣٧ .

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٣ .

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٦ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠١ ، وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٤٧ .

(٦) ١١/ ٢٤٧ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٦ .

والفَلَكُ واحدُ أفلاكِ النجوم. قال أبو عمرو: ويجوز أن يُجمع على فُعْلٍ، مثل: أَسَدٍ وأُسْد، وخَشَبٍ وخُشْب. وأصلُ الكلمة من الدوران، ومنه فَلْكَةُ المِغزل لاستدارتها. ومنه قيل: فَلَّك ثَدْيُ المرأة تفليكاً، وتَفلَّك: استدار[١]. وفي حديث ابن مسعود: تركتُ فرسي كأنه يدور في فَلَك. كأنه لدورانه شبَّهه بفَلَكِ السماء الذي تدور عليه النجوم[٢].

قال ابن زيد: الأفلاك مجاري النجومِ والشمسِ والقمر، قال: وهي بين السماء والأرض[٣].

وقال قتادة: الفَلَكُ استدارةٌ في السماء تدور [فيها] النجوم[٤] مع ثبوت السماء.

وقال مجاهد: الفَلَكُ كهيئة حديدة الرَّحى وهو قُطْبُها. وقال الضحاك: فَلَكُها: مَجراها وسرعةُ سَيْرِها. وقيل: الفَلَكُ موجٌ مكفوف، ومجرى الشمسِ والقمر فيه[٥]؛ والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أي: دوامَ البقاءِ في الدنيا؛ نزلت حين قالوا: نتربَّص بمحمدٍ رَيْبَ المَنُون[٦]. وذلك أنَّ المشركين كانوا يدفعون نبوَّته

---

(١) الصحاح (فلك).

(٢) تهذيب اللغة ١٠/٢٥٦، وأخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ٤/٩٦، وهو فيهما بلفظ: أن رجلاً أتى رجلاً وهو جالس عند عبد الله، فقال: إني تركت فرسك يدور كأنه في فلك...، وأخرجه بنحوه مطولاً ابن أبي شيبة ١٠/ ٢٨٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/٢٦٦.

(٤) في النسخ عدا (ط): بالنجوم، والمثبت من (ظ) والنكت والعيون ٣/٤٤٦، والكلام وما بين حاصرتين منه، وينظر تفسير الطبري ١٦/ ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٦/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٦) الوسيط ٣/٢٣٧، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٤.

ويقولون: شاعرٌ نتربَّص به رَيْبَ المنون، ولعلَّه يموت كما مات شاعرُ بني فلان، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولَّى الله دينَه بالنصر والحِياطة، فهكذا نحفظ دينك وشَرْعك. ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ أي: أَفَهُم، مثل قول الشاعر:

رَفَوْني وقالوا يا خُوَيلِدُ لم[1] تُرَعْ فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ[2]

أي: أهم؟! فهو استفهامُ إنكار.

وقال الفرَّاء: جاء بالفاء ليدلَّ على الشَّرط؛ لأنه جوابُ قولهم: سيموت[3]. ويجوز أن يكون جيء بها؛ لأنَّ التقدير فيها: أَفَهُم الخالدون إنْ متَّ! قال الفرَّاء: ويجوز حذفُ الفاء وإضمارُها؛ لأنَّ «هم» لا يتبيَّن فيها الإعراب[4]. أي: إن متَّ فهم يموتون أيضاً، فلا شماتةَ في الإماتة.

وقُرئ: «مِتَّ» و«مُتَّ» بكسر الميم وضمِّها لغتان[5].

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تقدَّم في «آل عمران»[6] ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ «فِتْنَةً» مصدرٌ على غير اللفظ. أي: نختبركم بالشدَّة والرخاء والحلالِ والحرام، لننظر كيف شكركم وصبرُكم. ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: للجزاء بالأعمال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما

---

(١) في (م): لا، وهي رواية أخرى للبيت.

(٢) قائله أبو خراش، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ١٤٤، وسلف ٦/ ٤٦٩، و٨/ ٤٤٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٠، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٢، وهو أيضاً قول الطبري في التفسير ١٦/ ٢٦٨، ونصه: دخلت الفاء في الجزاء وهو «إن» وفي جوابه؛ لأن الجزاء متصل بكلام قبله، ودخلت الفاء في قوله «فهم» لأنه جواب للجزاء.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٠، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٦٨.

(٥) قرأ بضم الميم: ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر، والباقون بكسرها. السبعة ص٢١٨، والتيسير ص٩١.

(٦) ٥/ ٤٤٧.

يتَّخذونك. والهزءُ: السخريَة، وقد تقدَّم[١]. وهم المستهزئون المتقدِّمو الذكرِ في آخر سورة الحجر، في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الآية: ٩٥]. كانوا يَعيبون مَن جَحَد إلهيةَ أصنامِهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن! وهذا غايةُ الجهل.

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى﴾ أي: يقولون: أهذا الذي؟ فأضمر القول، وهو جواب «إذا»، وقولُه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ كلامٌ معترِضٌ بين «إذا» وجوابِه.

﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: بالسوء والعيب، ومنه قول عَنْتَرة:

لا تَـذْكُـري مُـهْـري ومـا أطـعـمـتُـه فيكونَ جِلْدُكِ مثلَ جِلْدِ الأَجْربِ[٢]

أي: لا تعيبي مُهري.

﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بالقرآن ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ «هم» الثانية توكيدُ كفرِهم، أي: هم الكافرون؛ مبالغةً في وَصْفِهم بالكفر.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: رُكِّب على العَجَلة فخلق عَجُولاً، كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤] أي: خلق الإنسان ضعيفاً، ويقال: خُلِقَ الإنسان من الشرّ، أي: شرِّيراً، إذا بالغتَ في وصفه به[٣]. ويقال: إنما

---

(١) ١/ ٣١٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٣، والمعاني الكبير لابن قتيبة ١/ ٨٩، والأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ٤٠٩، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ٣١٧ لخُزَز بن لَوْذان، وحكى البغدادي في الخزانة ٦/ ١٩٠ عن الصاغاني أن البيت موجود في ديوان أشعار عنترة وخزز، ومعناه ـ كما ذكر البغدادي ـ أنه يقول لزوجته: لا تلوميني في إيثار فرسي فأبغضك وأهجر مضجعك وأتحاماك كما يُتحامى الأجرب من الإبل، وقيل: معناه أضربك فيبقى أثر الضرب عليك كالجرب.

(٣) هذا قول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٩٢، وقال: إنما خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر الشيء: خلقت منه.

أنت ذهابٌ ومجيء. أي: ذاهب جائي[١]. أي: طَبْعُ الإنسانِ العجلة، فيستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مُضِرَّة.

ثم قيل: المرادُ بالإنسانِ آدمُ عليه السلام. قال سعيد بن جبير والسدِّي: لمَّا دخل الروحُ في عينَيْ آدمَ عليه السلام نظر في ثمار الجنة، فلمَّا دخل جوفَه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروحُ رجليه عجلانَ إلى ثمار الجنة، فذلك قولُه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾[٢].

وقيل: خُلق آدمُ يومَ الجمعة في آخر النهار، فلمَّا أحيا الله رأسه استعجل، وطلب تتميمَ نفخِ الروح فيه قبل غروب الشمس؛ قاله الكلبيُّ ومجاهدٌ وغيرهما[٣].

وقال أبو عبيدة وكثيرٌ من أهل المعاني: العَجَل: الطين بلغة حِمْيَر، وأنشدوا:

والنخلُ يَنبتُ بين الماءِ والعَجَلِ[٤]

وقيل: المرادُ بالإنسان الناسُ كلُّهم.

وقيل: المراد: النَّضْرُ بن الحارِث بن علقمةَ بن كلدة بن عبد الدار؛ في تفسير ابن عباس[٥]، أي: لا ينبغي لمن خُلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسله.

وقيل: إنه من المقلوب، أي: خُلق العَجَلُ من الإنسان. وهو مذهبُ أبي

(١) في (ظ): وجائي.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٤ ، وأخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٧١ .

(٣) أخرجه عن مجاهد ابنُ أبي شيبة ١٤/ ١١٥ ، والطبري ١٦/ ٢٧٢ ، وذكره عن الكلبيِّ الماورديُّ في النكت والعيون ٣/ ٤٤٧ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٨٢ : هذا قول ضعيف، ومعناه لا يناسب معنى الآية.

(٤) وصدره: والنبعُ في الصخرة الصمَّاء مَنْبَتُه، وهو في تهذيب اللغة ١/ ٣٦٩ والنكت والعيون ٣/ ٤٤٧ ، والكشاف ٢/ ٥٧٣ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٢ ، ومجمع البيان ١٧/ ٢٧ ، واللسان (عجل). قال ابن عطية: وهذا أيضاً ضعيف، ومعناه مباينٌ لمعنى الآية.

(٥) الكشاف ٢/ ٥٧٣ ، وزاد المسير ٥/ ٣٥١ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٧١ ، ومجمع البيان ١٧/ ٢٧ .

عبيدة[١]. النحاس: وهذا القول لا ينبغي أن يجاب[٢] به في كتاب الله؛ لأنَّ القَلْبَ إنما يقع في الشعر اضطراراً كما قال:

كما كان الزِّنَاءُ فريضةَ الرَّجْم[٣]

ونظيرُه هذه الآية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وقد مضى في «سبحان».

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ هذا يقوِّي القولَ الأول، وأنَّ طَبْعَ الإنسان العَجَلة، وأنه خُلق خلقاً لا يتمالك، كما قال عليه الصلاة والسلام، حَسْبَ ما تقدم في «سبحان»[٤].

والمرادُ بالآيات: ما دلَّ على صِدْقِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة. وقيل: ما طلبوه من العذاب، فأرادوا الاستعجال وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وما علموا أنَّ لكلِّ شيءٍ أجلاً مضروباً. نزلت في النضر بن الحارثِ وقوله: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢][٥].

وقال الأخفش سعيد: معنى «خلِق الإنسان مِن عَجَلٍ» أي: قيل له: كن، فكان[٦]. فمعنى «فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ» على هذا القول: أنه مَن يقول للشيء: كن، فيكون، لا يُعْجِزُه إظهارُ ما استعجلوه من الآيات.

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٣٨ - ٣٩ .

(٢) في (ظ): يجاء.

(٣) وتمامه: كانت فريضةَ ما أَتَيْتَ كما...، والبيت للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢٣٥ ، وقال الطبري ١٦/ ٢٧٤ : وفي إجماع أهل التأويل على خلاف هذا القول الكفايةُ المغنية عن الاستشهاد على فساده بغيره.

(٤) ١٣/ ٣٥ - ٣٦ .

(٥) سلف قريباً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكر هذا القول عن الأخفش الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٢٧ والرازي في تفسيره ٢٢/ ١٧٢ ، وذكره الطبري ١٦/ ٢٧٣ عن بعض أهل العربية من أهل البصرة، ولم يسمِّه. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٢ : وهذا أيضاً ضعيف، وفيه تخصيصُ ابن آدم بشيءٍ كلُّ مخلوقٍ يشاركه فيه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الموعود، كما يقال: الله رجاؤنا، أي: مَرْجُوُّنا. وقيل: معنى «الوعد» هنا: الوعيد، أي: الذي يَعِدُنا من العذاب. وقيل: القيامة.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يا معشر المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ العلمُ هنا بمعنى المعرفة، فلا يقتضي مفعولاً ثانياً، مثل: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وجوابُ «لو» محذوف، أي: لو علموا الوقت الذي ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وعَرَفوه، لَمَا استعجلوا الوعيد[١]. وقال الزجاج[٢]: أي: لعلموا صِدْقَ الوعد.

وقيل: المعنى: لو علموه لَمَا أقاموا على الكفر، ولآمنوا[٣].

وقال الكسائيُّ: هو تنبيهٌ على تحقيق وقوعِ الساعة، أي: لو علموه عِلْمَ يقينٍ لعلموا أنَّ الساعة آتيةٌ، ودل عليه: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة. يعني القيامة، وقيل: العقوبة، وقيل: النار، فلا يتمكَّنون من حيلة.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ قال الجوهريّ[٤]: بَهَتَه بَهْتاً: أَخَذَه بغتة؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾.

وقال الفراء: «فتبهتُهم» أي: تحيِّرهم؛ يقال: بَهَتَه يبهته: إذا واجهه بشيء يحيِّره[٥]. وقيل: فتَفْجَأُهم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: صَرْفَها عن ظهورهم. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يُمهَلون[٦] ويؤخَّرون لتوبةٍ واعتذار.

---

(١) الوسيط ٣/ ٢٣٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٣.
(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣.
(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧٦.
(٤) في الصحاح (بهت).
(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٣٨، دون نسبة، ولم نقف عليه في معاني القرآن للفراء.
(٦) في (م): أي لا يمهلون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتعزيةٌ له[١]. يقول: إن استَهزأ بك هؤلاء، فقد استُهزئ بمَن قبلك من الرسل[٢]، فاصبر كما صبروا. ثم وَعَدَه النصرَ فقال: ﴿فَحَاقَ﴾ أي: أحاط ودار ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ كفروا و﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ وهَزَؤوا بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: جزاءُ استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي: يحرسُكم ويحفظُكم. والكِلاءة: الحِراسةُ والحفظ؛ كَلأه الله كِلاءة[٣] ـ بالكسر ـ أي: حَفِظَه وحَرَسَه. يقال: اذهب في كِلاءة الله، واكتلأتُ منهم: احترست[٤]؛ قال الشاعر؛ هو ابنُ هَرْمة[٥]:

إنَّ سُلَيْمى واللهُ يَكلؤُها ضَنَّتْ بشيءٍ ما كان يَرْزَؤُها

وقال آخر:

أَنَخْتُ بَعِيري واكْتَلأتُ بعَيْنِه[٦]

---

(١) في (ظ): وتقوية.

(٢) في (م): فقد استهزئ برسل من قبلك.

(٣) في (م): كِلاءً، وكلاهما صحيح. القاموس كلأ.

(٤) الصحاح (كلأ).

(٥) ديوانه ص٥٥ ، ومجاز القرآن ٢/ ٣٩ . وابنُ هَرْمة: هو إبراهيم أبو إسحاق، آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم، وكان من مخضرمي الدولتين، مدح الوليد بن يزيد ثم أبا جعفر المنصور، وكانت وفاته في خلافة الرشيد بعد (١٥٠هـ). الخزانة ١/ ٤٢٥ .

(٦) الصحاح (كلأ)، وقائله كعب بن زهير، وهو في ديوانه ص٨٠ برواية: =

وحكى الكسائيُّ والفراء: «قل مَن يَكْلَوْكُمْ» بفتح اللام وإسكان الواو. وحَكَيا: «مَن يَكْلَاكُمْ»، على تخفيف الهمزة في الوجهين، والمعروفُ تحقيقُ الهمزة، وهي قراءةُ العامَّة[1]. فأما «يَكْلَاكُم» فخطأٌ من وجهين فيما ذكره النحاس[2]؛ أحدهما: أنَّ بدل الهمزة إنما يكون[3] في الشعر. والثاني: أنَّهما يقولان في الماضي: كَلَيْتُه، فينقلب المعنى؛ لأنَّ كَلَيته: أوجعتُ كُلْيَته، ومَن قال لرجل: كَلَاكَ الله، فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع في كُلْيته.

ثم قيل: مخرجُ اللفظ مخرجُ الاستفهام، والمرادُ به النَّفْيُ، وتقديره: قل: لا حافظَ لكم ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ إذا نمتم ﴿و﴾ بـ ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ إذا قمتم وتصرَّفتم في أموركم ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من عذابه وبأسه[4]، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٦٣] أي: من عذاب الله. والخطابُ لمن اعترف منهم بالصانع، أي: إذا أَقْرَرْتم بأنه الخالق، فهو القادرُ على إحلال العذاب الذي تستعجلونه.

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ أي: عن القرآن. وقيل: عن مواعظ ربِّهم. وقيل: عن معرفته. ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: لاهون غافلون.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ المعنى: ألهم، والميمُ صلة[5]. ﴿تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ أي: من عذابنا. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني الذين زعم هؤلاء الكفارُ أنهم ينصرونهم، لا يستطيعون ﴿نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾، فكيف ينصرون عابِديهم؟ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال ابن عباس: يُمنَعون[6]. وعنه: يُجَارُون[7]، وهو اختيارُ

= أنخت قَلُوصي واكتلأت بعينها وآمَرْتُ نفسي أيَّ أمريَّ أفعل

وكذا ذكره الزمخشري في أساس البلاغة (كلأ) وقال: أي: احترستُ بعينها؛ لأنها إذا رأت شيئاً ذُعرت.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧١، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٤، وذكَر الفراء أن هذين الوجهين في غير القرآن.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٧١.

(٣) في إعراب القرآن: إنما يجوز.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٢٧٨، والنكت والعيون ٣/ ٤٤٨.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٢٣٨، وتفسير الرازي ٢٢/ ١٧٤.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٥.

(٧) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٨٠.

الطبريّ[(١)]. تقول العرب: أنا لك جارٌ وصاحبٌ من فلان، أي: مجيرٌ منه؛ قال الشاعر:

يُنادِي بأعلى صوتِه متعوِّذاً ... ليُصحَبَ منها والرِّماحُ دَوَاني[(٢)]

وروى معمرٌ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: «يُنْصَرُونَ» أي: يُحفظون[(٣)]. قتادة: أي: لا يَصْحَبهم الله بخير[(٤)]، ولا يجعلُ رحمتَه صاحباً لهم.

قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ قال ابن عباس: يريد أهلَ مكة. أي: بَسَطْنا لهم ولآبائهم في نعيمها و﴿طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾ في النعمة، فظنوا أنَّها لا تزول عنهم، فاغترُّوا وأعرضوا عن تدبُّر حُججِ الله عزَّ وجلَّ.

﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾ أي: بالظهور عليها لك يا محمدُ أرضاً بعد أرضٍ، وفَتْحِها بلداً بعد بلدٍ ممَّا حَوْلَ مكة؛ قال معناه الحسنُ وغيره. وقيل: بالقتل والسَّبي؛ حكاه الكلبيّ. والمعنى واحد، وقد مضى في «الرعد» الكلامُ في هذا مستوفى[(٥)].

﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ ـ يعني كفارَ مكةَ ـ بعد أن نَقَصْنا من أطرافهم؟ بل أنت تغلبهم وتظهرُ عليهم.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ أي: أخوِّفكم وأحذِّركم بالقرآن ﴿وَلَا

(١) في تفسيره ١٦/ ٢٨١ .

(٢) ذكره الشوكاني في فتح القدير ٣/ ٤٠٩ ، وفيه: ليصحب منا...

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٤ ، والطبري ١٦/ ٢٨٠ .

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٥) ١٢/ ٩٥ - ٩٦ ، وقول الحسن وقول الكلبي ذكرهما أبو الليث ٢/ ٣٦٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٤٩ .

يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أي: مَن أَصَمَّ الله قلبَه، وخَتَم على سَمْعِه، وجَعَل على بصره غشاوةً، عن فَهْمِ الآيات وسماع الحقّ.

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلميُّ ومحمد بن السَّمَيفع: «ولا يُسْمَعُ»؛ بياءٍ مضمومةٍ وفتحِ الميم على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ «الصُّمُّ» رفعاً[(١)]، أي: إنَّ الله لا يُسمعهم.

وقرأ ابن عامر والسُّلَميُّ أيضاً، وأبو حَيْوَةَ ويحيى بنُ الحارِث: «ولا تُسْمِعُ»؛ بتاءٍ مضمومةٍ وكَسْرِ الميم؛ «الصُّمَّ» نصباً[(٢)]، أي: إنك يا محمدُ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ، فالخطابُ للنبيِّ ﷺ. وردَّ هذه القراءةَ بعضُ أهل اللغة. وقال: كان يجب أن يقول: إذا ما تنذرهم. قال النحاس[(٣)]: وذلك جائز؛ لأنه قد عُرِف المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٌ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: طَرَفٌ[(٤)]. قال قتادة: عقوبة[(٥)]. ابن كيسان: قليل[(٦)] وأدنى شيء، مأخوذٌ من نَفْح المسك؛ قال:

وعَمْرةُ من سَرَواتِ النِّسا ... ءِ تَنْفَحُ بالمسكِ أرْدَانُها[(٧)]

ابن جريج: نصيبٌ، كما يقال: نَفَحَ فلانٌ لفلانٍ من عطائه: إذا أعطاه نصيباً من المال[(٨)]؛ قال الشاعر:

لَمَّا أتيتُك أرجو فَضْلَ نَائِلِكُمْ ... نَفَحْتني نَفْحةً طابتْ لها العَرَبُ[(٩)]

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٢٨٣ ، عن السلمي، والقراءات الشاذة ص٩١ عن الحسن.

(٢) السبعة ص٤٢٩ ، والتيسير ص١٥٥ عن ابن عامر، وذكرها عن السلمي الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٠٥ ، والنحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٧٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٦ .

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٨٤ .

(٦) الوسيط ٣/ ٢٣٩ .

(٧) قائله قيس بن الخطيم كما في الأغاني ٢/ ٤٢٧ - ٤٢٨ ، وجمهرة اللغة ٢/ ٢٥٧ ، واللسان (ردن)، وهو بلا نسبة في الصحاح (ردن).

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٦ .

(٩) البيت لابن ميادة؛ قاله في مدح الوليد بن يزيد، وهو بهذه الرواية في الصحاح (نفح)، وهو في =

أي: طابت لها النفس.

والنفحةُ في اللغة: الدفعةُ اليسيرة؛ فالمعنى: ولئن مسَّهم أقلُّ شيءٍ من العذاب ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: متعدِّين، فيعترفون حين لا ينفعُهم الاعتراف.

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ الموازينُ جمعُ ميزان. فقيل: إنه يدلُّ بظاهره على أنَّ لكلِّ مكلَّفٍ ميزاناً توزن به أعمالُه، فتوضع الحسنات في كِفّة، والسيِّئاتُ في كِفّة.

وقيل: يجوز أن يكون هناك موازينُ للعامل الواحد، يوزن بكلِّ ميزانٍ منها صنفٌ من أعماله، كما قال:

مَلِكٌ تقومُ الحادثاتُ لعَدْلِه فلكلِّ حادثةٍ لها ميزانُ[1]

ويمكن أن يكون ميزاناً واحداً عبّر عنه بلفظ الجمع. وخرّج اللَّالَكائيُّ الحافظُ أبو القاسم في «سننه» عن أنس يرفعه: «إنَّ مَلَكاً موكَّلٌ بالميزان، فيؤتَى بابن آدمَ فيوقَفُ بين كِفَّتي الميزان، فإنْ رَجَح؛ نادى الملكُ بصوتٍ يُسمِعُ الخلائقَ: سَعِد فلانٌ سعادةً لا يَشْقَى بعدها أبداً، وإنْ خفَّ نادى الملك: شَقِيَ فلانٌ شقاوةً لا يَسْعدُ بعدها أبداً»[2].

= ديوانه برواية:

لـمَّا أتيتُكَ من نجدٍ وساكنه نَفَحْتَ لي نفحةً طارت بها العرب

(١) لم نقف عليه.

(٢) شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٢٢٠٥)، و أخرجه أيضاً الحارث (١١٢٥ - بغية الباحث)، والبزار (٣٤٤٥ - كشف)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ١٧٤ . قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٠ : فيه صالح المري، وهو مجمع على ضعفه. واللالكائي هو هبة الله بن الحسن بن منصور، الطبري الرازي الشافعي، الحافظ المفتي، توفي سنة (٤١٨هـ). السير ١٧/ ٤١٩ .

وخرَّج عن حذيفةَ ﷺ قال: «صاحبُ الميزان يومَ القيامة جبريلُ عليه السلام»[(١)].

وقيل: للميزان كِفَّتان، وخيوطٌ، ولسانٌ، والشاهين[(٢)]، فالجمع يرجع إليها.

وقال مجاهد وقتادة والضحاك: ذِكْرُ الميزان مَثَلٌ، و ليس ثَمَّ ميزانٌ، وإنما هو العدل[(٣)]. والذي وردت به الأخبارُ، وعليه السوادُ الأعظم، القولُ الأوّل.وقد مضى في «الأعراف» بيانُ هذا، وفي «الكهف» أيضاً[(٤)]. وذكرناه في كتاب «التذكرة»[(٥)] مستوفًى والحمد لله.

و«القِسط»: العدل، أي: ليس فيها بَخْسٌ ولا ظلم كما يكون في وزن الدنيا. و«الْقِسْطَ» صفةُ الموازين، ووحّد لأنه مصدر؛ يقال: ميزانٌ قِسْطٌ، وميزانان قِسْطٌ، وموازينُ قِسْطٌ. مثل: رجالٌ عَدْلٌ ورضاً[(٦)].و قرأت فرقة: «الْقِصْطَ»، بالصاد[(٧)].

﴿لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ أي: لأهل يوم القيامة. وقيل: المعنى: في يوم القيامة .﴿فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ أي: لا يُنْقَصُ من إحسان مُحْسِنٍ، ولا يزاد في إساءة مسيء.

﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ﴾ قرأ نافع وشيبةُ وأبو جعفر: ﴿مِثْقالُ حبةٍ﴾

---

(١) شرح أصول الاعتقاد (٢٢٠٩) من طريق يوسف بن صهيب، عن موسى بن أبي المختار، عن بلال العبسي، عن حذيفة. وموسى بن أبي المختار مجهول، تفرد بالرواية عنه يوسف بن صهيب، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان. ينظر حاشية الحديث (٢٣٢٦٦) من مسند أحمد . وينظر ما سلف ٩/ ١٥٩ .

(٢) الشاهين: عمود الميزان. القاموس (شهن). قال ابن حزم في الفصل في المِلل والأهواء والنحل ٥/ ٦٥ : وأمور الآخرة لا تُعلم إلا بما جاء في القرآن، أو بما جاء عن رسول الله ﷺ، ولم يأت عنه عليه الصلاة والسلام شيء يصح في صفة الميزان. فنقطع على أن الموازين توضع يوم القيامة لوزن أعمال العباد، ونقطع على أن تلك الموازين أشياء يبين الله عزَّ وجلَّ بها لعباده مقادير أعمالهم من خير وشر.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/ ١٧٦ ، وأخرجه عن مجاهد عبد الرزاق ٢/ ٢٤ ، والطبري ١٦/ ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٤) ٩/ ١٥٦ - ١٦٠ ، و١٣/ ٣٩٥ .

(٥) ص٣٠٩ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٤ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٨٥ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٨٥ ، والبحر ٦/ ٣١٦ دون نسبة.

بالرفع هنا وفي «لقمان»، على معنى: إنْ وقع أو حضر، فتكون «كان» تامةً، ولا تحتاج إلى خبر. الباقون: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنصب[١]، على معنى: وإن كان العملُ أو ذلك الشيءُ مثقالَ. ومثقالُ الشيء: ميزانُه من مِثْلِه.

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ مقصورةَ الألف قراءةُ الجمهور، أي: أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها. و«بها» أي: بالحبة[٢]، ولو قال به ـ أي: بالمثقال ـ لجاز. وقيل: مثقالُ الحبة ليس شيئاً غيرَ الحبة، فلهذا قال: «أَتَيْنَا بِهَا».

وقرأ مجاهد وعكرمةُ: «آتَيْنَا» بالمدِّ، على معنى: جازَيْنا بها[٣]، يقال: آتى يؤاتي مؤاتاة.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ أي: محاسبين على ما قدَّموه من خيرٍ وشرّ. وقيل: «حاسِبِين» أي[٤]: لا أحدَ أسرعُ حساباً منا. والحسابُ: العدّ. روى الترمذيُّ عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رجلاً قعد بين يدي النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! إنَّ لي مملوكِينَ يكذبونني ويخونونني ويَعْصونني، وأشتُمهم وأضربُهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «يُحسَبُ ما خانوك وعَصَوْك وكذبوك وعقابُكَ إيَّاهم، فإن كان عقابُك إيَّاهم بقَدْر ذنوبهم كان كَفَافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إيَّاهم دونَ ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك [إيَّاهم] فوق ذنوبهم اقتُصَّ لهم منك الفضلُ». قال: فتنحَّى الرجل فجعل يبكي ويهتف. فقال رسول الله ﷺ: «أمَا تقرأ كتاب الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾؟» فقال الرجل: والله يا رسول

(١) السبعة ص٤٢٩، والتيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٤ عن نافع وأبي جعفر، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١١١.

(٢) في (م): للمجازاة عليها ولها يجاء بها أي بالحبة.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٥ عن مجاهد، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٦٣ عن مجاهد وابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهم، ولم نقف عليها عن عكرمة.

(٤) في النسخ عدا (ظ): إذ، والمثبت من (ظ).

الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم، أُشهِدكَ أنَّهم أحرارٌ كلُّهم. قال: حديث غريب[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ وحُكي عن ابن عباس وعكرمة: «الفُرْقانَ ضياءً» بغير واو على الحال[(٢)]. وزعم الفرَّاء أنَّ حَذْفَ الواو والمجيءَ بها واحد، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا﴾ [الصافات:٦-٧] أي: حفظاً. وردَّ عليه هذا القولَ الزجَّاجُ؛ قال: لأنَّ الواو تجيءُ لمعنًى فلا تُزاد، قال: وتفسيرُ «الفرقان»: التوراة؛ لأنَّ فيها الفرقَ بين الحلال والحرام. قال: «وَضِيَاءً» مثل: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٦][(٣)].

وقال ابن زيد: «الفرقان» هنا: هو النصرُ على الأعداء، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال:٤١] يعني يومَ بدر[(٤)].

قال الثعلبيُّ: وهذا القولُ أشبهُ بظاهرِ الآية؛ لدخول الواو في الضياء، فيكون معنى الآية: ولقد آتينا موسى وهارون النَّصرَ والتوراةَ التي هي الضِّياءُ والذِّكر ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: غائبين؛ لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أنَّ لهم ربًّا قادراً يجازي على الأعمال، فهم يخشَوْنه في

---

(١) سنن الترمذي (٣١٦٥)، وهو عند أحمد (٢٦٤٠١)، وما سلف بين حاصرتين منهما. وهذا حديث ضعيف. ينظر التهذيب ٢/ ٥٤٢ ، وحاشية هذا الحديث في مسند أحمد.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٢ ، والمحتسب ٢/ ٦٤ ، والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٢ - ٧٣ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٠٥ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٧ ، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٢٨٨ .

سرائرهم وخَلَواتهم التي يغيبون فيها عن الناس، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: من قيامها قَبْلَ التوبة ﴿مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وَجِلُون.

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني القرآن ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ﴾ يا معشرَ العرب ﴿مُنكِرُونَ﴾ وهو معجزٌ لا تقدرون على الإتيان بمثله. وأجاز الفرَّاء[1]: وهذا ذِكْرٌ مُباركاً أنزلناه، بمعنى أنزلناه مباركاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ قال الفرَّاء[2]: أي: أعطيناه هُداه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ النُّبوَّة، أي: وفَّقناه للنظر والاستدلال لمَّا جَنَّ عليه الليلُ فرأى النجم والشمس والقمر.

وقيل: «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبلِ موسى وهارون، والرُّشْدُ على هذا: النبوَّة. وعلى الأول أكثرُ أهل التفسير، كما قال ليحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]. وقال القُرَظيُّ: رشده: صلاحه[3]. ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: أنه أهلٌ لإيتاء الرشد وصالحٌ للنبوة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ قيل: المعنى: أي: اذكر حين قال لأبيه، فيكون الكلام قد تمَّ عند قوله: «وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ». وقيل: المعنى: «وكنَّا به عالِمينَ إذْ قال»،

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢٠٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٣.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٠٦.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٧.

فيكون الكلام متَّصلاً ولا يوقف على قوله: «عالمِين». «لأبيه» وهو آزر ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ نمرود ومَن اتَّبعه.

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأصنام. والتمثالُ: اسمٌ موضوعٌ للشيء المصنوع مشبَّهاً بخَلْقٍ من خَلْقِ الله تعالى. يقال: مثَّلت الشيءَ بالشيء، أي: شبَّهته به. واسمُ ذلك الممثَّل: تمثال[1].

﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: مقيمون على عبادتها. ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: نعبدها تقليداً لأسلافنا. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خُسْرانٍ بعبادتها؛ إذ هي جماداتٌ لا تنفع ولا تضرُّ ولا تعلم.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أجادٌّ أنت مُحِقٌّ[2] فيما تقول؟ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي: لاعبٌ مازح ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لست بلاعبٍ، بل ربُّكم والقائمُ بتدبيركم خالقُ السماوات والأرض ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: خَلقهنَّ وأبدعهنَّ ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: على أنه ربُّ السماوات والأرض. والشاهدُ يبيِّن الحكم، ومنه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] أي: بَيَّن الله، فالمعنى: وأنا أبيِّن بالدليل ما أقول.

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أخبر أنه لم يكتفِ بالمُحاجَّة باللسان بل[3] كسَّر أصنامهم فِعْلَ واثقٍ بالله تعالى، مُوطِّنٍ نَفْسَه على مقاساة المكروه في

(١) الوسيط ٣/ ٢٤١.

(٢) في (ظ): أجاد محق، وفي (د): أجادلت بحق، وفي (م): أجاءِ أنت بحق، ولم تجود في (ز)، والمثبت من (خ). وينظر الوسيط ٣/ ٢٤١، والوجيز (على هامش مراح لبيد) ٢/ ٣٩.

(٣) في (ظ): حتى.

الذبُّ عن الدِّين. والتاء في «تَاللهِ» تختصُّ في القسم باسم الله وحده، والواو تختصُّ بكلّ مُظْهَرٍ، والباءُ بكلِّ مُضْمَرٍ ومظهَر[١]، قال الشاعر:

تـالـلـهِ يَـبْـقَـى عـلـى الأيـام ذو حِـيَـدٍ بِـمُـشْـمَـخِـرٍّ بـه الـظَّـيَّـانُ والآسُ[٢]

قال ابن عباس: أي: وحرمةِ الله لأكيدنَّ أصنامكم، أي: لأمْكُرنَّ بها. والكيدُ: المَكْر. كاده يَكيدُه كيداً ومَكِيدةً، وكذلك المُكايدة؛ وربما سمِّي الحربُ كيداً؛ يقال: غزا فلانٌ فلم يَلْقَ كيداً، وكلُّ شيءٍ تعالجه فأنت تَكِيدُه[٣].

﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ أي: مُنْطَلِقين ذاهبين. وكان لهم في كلِّ سنةٍ عيدٌ يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم: لو خرجتَ معنا إلى عيدنا أعجبك دينُنا ـ رُوي ذلك عن ابن مسعود على ما يأتي بيانُه في «والصافاتِ»[٤] ـ فقال إبراهيم في نفسه: تاللهِ لَأَكِيدَنَّ أصنامَكم.

قال مجاهد وقتادة: إنما قال ذلك إبراهيم في سرٍّ من قومه، ولم يسمعه إلَّا رجلٌ واحد، وهو الذي أفشاه عليه[٥]. والواحدُ يُخْبَر عنه بخبر الجمع إذا كان ما أُخبر به عنه[٦] ممَّا يَرضَى به غيره، ومثله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ٨].

---

(١) أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص٢٤٧.

(٢) نُسب البيت لمالك بن خالد الخُناعي، ولأبي ذؤيب الهذلي، ولأمية بن أبي عائذ، وللفضل بن عباس بن عتبة بن ربيعة، وهو في الصحاح (شمخر)، والحلل للبطليوسي ص٩٦، وأمالي ابن الشجري ٢/ ١٤٠ والخزانة ١٠/ ٩٥، وورد في الكتاب ٣/ ٤٩٦، والمقتضب ٢/ ٣٢٤، وشرح المفصل ٩/ ٩٨، والخزانة ٥/ ١٧ برواية: لله، بدل: تالله، وهما روايتان كما ذكر البطليوسي. وقوله: يبقى، هو جواب القسم بتقدير «لا» النافية. ويعني بقوله: ذو حيد: الوعل، ويروى بفتح الحاء وكسرها. والمشمخر: الجبل الشامخ. والظَّيَّان: ياسمين البرّ. والآس: الريحان. ينظر الخزانة ٥/ ١٧٧، وشرح الشواهد للشنتمري ص٥١٣.

(٣) الصحاح (كيد).

(٤) عند تفسير الآيات (٨٧ - ٨٩)، وينظر الوسيط ٣/ ٢٤٢.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٢٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٢٤٧.

(٦) قوله: عنه، ليس في (م).

وقيل: إنما قاله بعد خروج القوم، ولم يبقَ إلَّا الضعفاءُ، فهم الذين سمعوه. وكان إبراهيم احتال في التخلُّف عنهم بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أي: ضعيفٌ عن الحركة[١].

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: فُتاتاً. والجَذُّ: الكسر والقطع؛ جَذَذْتُ الشيءَ: كَسَرتُه وقَطَعتُه. والجِذاذ والجُذاذ: ما كُسِر منه، والضمُّ أفصح من كسره؛ قاله الجوهريُّ[٢]. الكسائي: ويقال لحجارة الذهب: جُذاذ؛ لأنها تُكْسَر.

وقرأ الكسائيُّ والأعمش وابن محيصن: «جِذاذاً»؛ بكسر الجيم، أي: كِسَراً وقِطَعاً، جمع جَذيذٍ: وهو الهشيم، مثل خَفيف وخِفاف، وظَريف وظِراف[٣]. قال الشاعر:

جَذَّذ الأصنامَ في مِحْرابِها ذاك في اللهِ العليِّ المقتَدِرْ[٤]

الباقون بالضمِّ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، كالحُطام[٥] والرُّفات، الواحدةُ: جُذَاذة.

وهذا هو الكيد الذي أقسم بالله ليفعلنَّه بها. وقال: «فجعلهم»؛ لأن القوم اعتقدوا في أصنامهم الإلهية.

وقرأ ابن عباس وأبو نَهِيكٍ وأبو السمَّال: «جَذَاذاً» بفتح الجيم، والفتح والكسر لغتان، كالحَصاد والحِصاد. أبو حاتم: الفتحُ والكسرُ والضمُّ بمعنى؛ حكاه قُطْرُب[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٢٩٥ مطولاً عن السدي.

(٢) في الصحاح (جذذ)، وما بعده منه.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٨ ،وقراءة الكسائي في السبعة ص٤٢٩ ، والتيسير ص١٥٥ . وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٥١ .

(٥) في النسخ: أي الحطام، والمثبت من المحتسب، وفيه قول أبي حاتم. وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦ .

(٦) المحتسب ٢/ ٦٤ . وقال أبو حاتم ـ فيما ذكر ابن جني ـ: وأجودها الضم، وقد سلف ذلك عنه قريباً.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: عظيم الآلهة في الخلق؛ فإنه لم يكسره. قال السدِّيُّ ومجاهد: ترك الصنم الأكبر وعلَّق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه[1]؛ ليَحتجَّ به عليهم. ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم ودينه ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إذا قامت الحجة عليهم. وقيل: «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ» أي: إلى الصنم الأكبر «يَرْجِعُونَ» في تكسيرها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المعنى: لمَّا رجعوا من عيدهم ورأوا ما أَحْدَثَ بآلهتهم، قالوا على جهة البحث والإنكار: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقيل: «مَن» ليس استفهاماً، بل هو ابتداءٌ، وخبرُه: «[إنه][2] لمِن الظالمِين»، أي: فاعلُ هذا ظالم. والأوّل أصحُّ؛ لقوله: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾، وهذا هو جوابُ: «مَنْ فَعَلَ هذا»، والضمير في «قالوا» للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم، أو الواحدِ، على ما تقدَّم. ومعنى «يذكُرهم»: يَعيبُهم ويسبُّهم، فلعلَّه الذي صنع هذا.

واختلف الناس في وجه رَفْعِ إبراهيم؛ فقال الزجَّاج: يرتفع على معنى: يقال له: هو إبراهيم[3]، ويكون مبتدأً وخبرُه محذوف[4]، والجملةُ مَحْكِيَّة. قال: ويجوز أن

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) زيادة يقتضيها السياق، وينظر الدر المصون ٨/ ١٧٤.

(٣) يعني أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو، أو: هذا، والكلام إلى هذا الموضع في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦.

(٤) وذلك على تقدير: إبراهيم فاعلُ ذلك. الإملاء ٢/ ٦ (بهامش الفتوحات الإلهية).

وقد وقع في النسخ الخطية: فيكون مبتدأ... الخ. ولعل ثمة سقطاً أو وهماً وقع فيها. ولفظة: «ويكون» المثبتة أعلاه بدل: «فيكون» أولى بالسياق. فبها يتبيَّن القولان السالفان في وجه رفع «إبراهيم» كما جاء في المصادر.

يكون رفعاً على النداء، وضمُّه بناءٌ، وقام «له» مقامَ ما لم يسمَّ فاعله[١].

وقيل: رَفْعُه على أنه مفعولُ ما لم يسمَّ فاعلُه؛ على أن يُجعل «إبراهيم» غيرَ دالٍّ على الشَّخص، بل يجعل النُّطقُ به دالًّا على بناءِ هذه اللفظة. أي: يقال له هذا القولُ وهذا اللفظُ، وهذا كما تقول: زيدٌ وزنُ فَعْل، أو: زيدٌ ثلاثةُ أحرفٍ، فلَمْ تدلَّ بوجهٍ على الشَّخص، بل دلَلْتَ بنُطقك على نفس اللفظة. وعلى هذه الطريقة تقول: قلتُ إبراهيمَ، ويكون مفعولاً صحيحاً أنزلته منزلةَ قولٍ وكلام؛ فلا يتعذَّر بعد ذلك أن يُبنَى الفعل فيه للمفعول. هذا اختيار ابن عطية في رَفْعِه[٢].

وقال الأستاذ أبو الحجَّاج الإشْبِيليُّ الأعْلَم[٣]: هو رفعٌ على الإهمال؛ قال ابن عطية[٤]: لمَّا رَأى وجوهَ الرفع كأنها لا تُوضح المعنى الذي قصدوه، ذهب إلى رَفْعِه بغيرِ شيءٍ، كما قد يَرفع التجرُّدُ والعِرْوُ عن العوامل الابتداءَ.

والفتى: الشابُّ، والفتاة: الشَّابَّة. قال ابن عباس: ما أرسل الله نبيًّا إلا شابًّا[٥]، ثم قرأ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ فيه مسألة واحدة،

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٩٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٣ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٤٨٠ ، والبيان ٢/ ١٦٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٧ ، وما قبله وبعده منه. وذكر السمين في الدر المصون ٨/ ١٧٥ أن في هذه المسألة خلافاً بين النحويين؛ يعني: تسلُّط القول على المفرد الذي لا يؤدِّي معنى جملة، مثل: قلت خطبة، وشعراً، ولا هو مقتطع من جملة، كقول الشاعر: إذا ذقتُ فاها قلتُ طعم مدامة...، ولا هو مصدرٌ لقال، ولا هو صفة لمصدره، نحو: قلت حقًّا.

(٣) يوسف بن سليمان الشنتمري الأندلسي النحوي، والأعلم هو المشقوق الشَّفة، والشنتمري نسبة إلى شَنْتَمرية ـ مدينة بالأندلس ـ من مصنفاته: تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، وهو شرح أبيات الكتاب لسيبويه. ينظر السير ١٨/ ٥٥٥ ، وإنباه الرواة ٤/ ٥٩ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٨٧ ، وقد ردَّ الآلوسي في روح المعاني ١٧/ ٦٤ قول الأعلم.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٥٥ (١٣٦٧١)، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

وهي: أنه لمَّا بلغ الخبرُ نمرودَ وأشرافَ قومه كرهوا أن يأخذوه بغير بيِّنة، فقالوا: ائتوا به ظاهراً بمرأى من الناس حتى يروه، لعلَّهم يَشْهَدون عليه بما قال؛ ليكون ذلك حجَّةً عليه. وقيل: لعلَّهم يشهدون عقابَه، فلا يُقْدِمُ أحدٌ على مِثْلِ ما أَقْدَمَ عليه. أو: لعلَّ قوماً يَشْهَدون بأنهم رأَوْه يكسر الأصنام، أو: لعلَّهم يَشْهَدون طَعْنَه على آلهتهم؛ ليعلموا أنه يَستحقُّ العقاب.

قلت: وفي هذا دليلٌ على أنه كان لا يؤخذ[1] أحدٌ بدعوى أحدٍ فيما تقدَّم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ وهكذا الأمر في شرعنا ولا خلافَ فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: لمَّا لم يكن السَّماعُ عامًّا ولا ثبتت الشهادة، استفهموه هل فَعَل أم لا؟ وفي الكلام حذف، أي: فجاء إبراهيم حين أُتِيَ به فقالوا: أأنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أي: إنه غار وغضب من أن يُعبد هو ويُعبَد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك[2]، إن كانوا ينطقون فاسألوهم. فعلَّق فِعْلَ الكبير بنطق الآخرين؛ تنبيهاً لهم على فساد اعتقادهم. كأنه قال: بل هو الفاعلُ إنْ نَطَق هؤلاء. وفي الكلام تقديمٌ على هذا التأويل في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

وقيل: أراد: بل فَعَلَه كبيرهم إن كانوا ينطقون. بيَّن أنَّ مَن لا يتكلَّم ولا يعلم لا يستحقُّ أن يُعبد. فكان قولُه من المعاريض، وفي المعاريض مندوحةٌ عن الكذب،

(١) في (د) و(م): يؤاخذ.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٧.

أي: سَلُوهم إنْ نطقوا فإنَّهم يَصْدُقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل.

وفي ضمن هذا الكلام اعترافٌ بأنه هو الفاعل، وهذا هو الصحيح؛ لأنه عدَّده على نفسه، فدلَّ أنه خرج مَخْرَج التعريض. وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتَّخذونهم آلهةً من دون الله، كما قال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ الآية [مريم: ٤٢]، فقال إبراهيم: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» ليقولوا: إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرُّون، فيقول لهم: فلمَ تعبدونهم؟ فتقوم عليهم الحجةُ منهم؛ ولهذا يجوز عند الأئمة[1] فرضُ الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحقِّ من ذات نفسه؛ فإنه أقربُ في الحجة وأَقْطَعُ للشُّبهة، كما قال لقومه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وهذه أختي، و﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] و﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[2].

وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «بل فَعَلَّهُ» بتشديد اللام[3]، بمعنى: فلعلَّ الفاعل كبيرهم.

وقال الكسائيُّ: الوقفُ عند قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ﴾ أي: فَعَلَه مَن فَعَلَه، ثم يبتدئ: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[4].

وقيل: أي: لِمَ تُنكرون أن يكون فَعَلَه كبيرهم؟ فهذا إلزامٌ بلفظ الخبر، أي: مَن اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لها فعلاً، والمعنى: بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم.

الثانية: روى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ في شيءٍ قطُّ إلَّا في ثلاثٍ؛ قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [ولم يكن سقيماً]، وقولُه لسارة: أختي، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾» لفظُ الترمذيّ. وقال: حديثٌ حسن صحيح[5].

---

(١) في النسخ: الأمة، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣ ، والكلام منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣ ، وقول إبراهيم: هذه أختي، سيأتي قريباً.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٤٩ ، والبحر ٦/ ٣٢٥ ، والدر المصون ٨/ ١٧٨ .

(٥) صحيح البخاري (٣٣٥٧) و(٣٣٥٨) و(٥٠٨٤) مرفوعاً وموقوفاً، وصحيح مسلم (٢٣٧١)، وسنن الترمذي (٣١٦٦)، وما سلف بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٩٢٤١).

ووقع في الإسراء في «صحيح» مسلم[١] من حديث أبي هريرةَ ﷺ في قصة إبراهيم قال: وذكر قوله في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾. فعلى هذا تكون الكذبات أربعاً، إلَّا أنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام قد نفى تلك بقوله: «لم يكذبْ إبراهيم النبيُّ قطُّ إلَّا ثلاثَ كذبات؛ ثِنْتين في ذات الله: قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾، وواحدة في شأن سارة». الحديثَ، لفظُ مسلم. وإنما لم يُعَدَّ عليه قولَه في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كذبةً ـ وهي داخلة في الكذب ـ لأنه ـ والله أعلم ـ كان حين قال ذلك في حالِ الطُّفولية، وليست حالَ تكليف[٢]. أو قاله لقومه مستفهماً لهم على جهة التوبيخِ والإنكار، وحُذفت همزةُ الاستفهام. أو على طريق الاحتجاج على قومه، تنبيهاً على أنَّ ما يتغيَّر لا يصلح للربوبية[٣]. وقد تقدَّمت هذه الوجوهُ كلُّها في «الأنعام» مبيَّنةً والحمد لله[٤].

الثالثة: قال القاضي أبو بكر بن العربيّ[٥]: في هذا الحديث نكتةٌ عُظمى تَقْصِمُ الظَّهر، وهي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لم يكذب إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذَبات» ثِنتين مَاحَلَ بهما عن دين الله، وهما قولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾»، ولم يعدَّ [قوله:] هذه أختي، في ذات الله تعالى وإن كان دَفَع بها مكروهاً، و لكنه لمَّا كان لإبراهيمَ عليه السلام فيها حظٌّ من صيانة فراشه وحماية أهله، لم يجعلها في ذات الله، وذلك لأنه لا يُجعل في جنب الله وذاتِه إلَّا العملُ الخالص من شوائب الدنيا، والمعاريضُ التي تَرجِع إلى النفس إذا خَلَصَتْ للدِّين

(١) برقم (١٩٤): (٣٢٨)، وهو حديث الشفاعة، وليس في الإسراء.

(٢) في (م): في حال الطفولة وليست حالة تكليف، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٦/ ١٨٤ والكلام منه.

(٣) المفهم ١/ ٤٣٢.

(٤) ٨/ ٤٣٨ وما بعدها.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

كانت لله سبحانه، كما قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. وهذا لو صَدَر منَّا لكان لله، ولكنَّ منزلة إبراهيمَ اقتضت هذا. والله أعلم.

الرابعة: قال علماؤنا: الكذبُ هو الإخبارُ عن الشيء بخلافِ ما هو عليه. والأَظْهَرُ أنَّ قولَ إبراهيم فيما أَخبر عنه عليه السلام كان من المعاريض، وإن كانت معاريضَ وحسناتٍ وحججاً في الخَلْق ودلالاتٍ، لكنَّها أثَّرت في الرتبة، وخفضت عن محمدٍ المنزلةَ، واستحيا منها قائلها ـ على ما ورد في حديث الشفاعة[1] ـ فإن الأنبياء يشفقون ممَّا لا يُشفق منه غيرهم؛ إجلالاً لله؛ فإنَّ الذي كان يليق بمرتبته في النبوَّة والخُلَّة أن يصدع بالحقِّ، ويصرِّحَ بالأمر كيفما كان[2]، ولكنه رخَّص له فقبل الرخصة، فكان ما كان من القصة؛ ولهذا جاء في حديث الشفاعة: «إنَّما اتُّخذت خليلاً من وراءَ وراءَ»[3] بنَصْبِ «وراءَ» فيهما على البناء كخمسةَ عَشَرَ، وكما قالوا: [هو] جاري بَيْتَ بَيْتَ [أي: بيتُه إلى بيتي][4].

ووقع في بعض نسخ مسلم «من وراء من وراء» بإعادة «من»، وحينئذٍ لا يجوز البناء على الفتح، وإنما يُبنَى كلُّ واحدٍ منهما على الضمّ؛ لأنه قُطِع عن الإضافة ونُويَ المضافُ، كقَبْلُ وبَعْدُ. وإن لم يُنْوَ المضافُ أُعرب ونوِّن، غيرَ أنَّ وراء لا ينصرف؛ لأنَّ أَلِفَه للتأنيث؛ لأنهم قالوا في تصغيرها: وُرَيْئَة ـ قال الجوهريّ[5]: وهي شاذة ـ

(١) أخرجه أحمد (١٢١٥٣)، والبخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣): (٣٢٢) من حديث أنس ﷺ. ولفظه عند مسلم:... فيأتون إبراهيم ﷺ، فيقول: لست هُنَاكُم (يعني لست أهلاً لذلك) ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربَّه منها...

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٣ (والكلام منه): ويصرح بالأمر فيكون ما كان.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥) مطولاً من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، وسلف ٢/ ٢٥٣ .

(٤) المفهم ١/ ٤٣٠ ، وما بين حاصرتين منه. قال أبو العباس: ومنه قولهم: هي همزة بينَ بينَ، وأتيتك صباحَ مساءَ. وقال النووي في شرح صحيح مسلم ٣/ ٧١ : المشهور الفتح فيهما بلا تنوين، ويجوز عند أهل العربية بناؤهما على الضم.

(٥) في الصحاح (ورى).

فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود «مِن» فيهما[١].

والمعنى: أنِّي كنتُ خليلاً متأخِّراً عن غيري. ويستفاد من هذا أنَّ الخُلَّة لم تصحَّ بكمالها إلَّا لمن صحَّ له في ذلك اليوم المقامُ المحمود[٢] كما تقدم[٣]. وهو نبيُّنا محمدٌ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ۝٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: رجع بعضهم إلى بعضٍ رجوعَ المنقطِع عن حُجَّته، المتفطِّنِ لصحَّةِ حُجَّةِ خصمه. ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بعبادةِ مَن لا ينطقُ بلفظة، ولا يملك لنفسه لحظةً، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس مَن لا يَردُّ عن رأسه الفأس؟!

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: عادوا إلى جهلهم وعِنادهم[٤]، فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فـ ﴿قَالَ﴾ قاطعاً لمَا به يَهْذون[٥]، ومُفْحِماً لهم فيما يتقوَّلون: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ . أُفّٖ لَّكُمۡ﴾ أي: النَّتَنُ لكم ﴿وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؟!

وقيل: ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: طأطؤوا رؤوسهم خجلاً من إبراهيم[٦]. وفيه

---

(١) ينظر الصحاح (ورى)، والمفهم ١/ ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٢) المفهم ١/ ٤٢٩ - ٤٣٠ .

(٣) ١٣/ ١٤٧ وما بعدها.

(٤) في (د) و(ز) و(م): وعبادتهم.

(٥) في (د) و(ظ): يهددون.

(٦) تفسير الرازي ٢٢/ ١٨٦ .

نظر؛ لأنه لم يقل: نَكَسوا رؤوسهم، بفتح الكاف، بل قال: ﴿نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رُدُّوا على ما كانوا عليه في أوَّل الأمر، وكذا قال ابن عباس؛ قال: أدركهم الشقاء، فعادوا إلى كفرهم(١).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ﴾ لمَّا انقطعوا بالحجَّة أخذتهم عزَّةٌ بإثم(٢)، وانصرفوا إلى طريق الغَشْم والغَلَبة، وقالوا: حرِّقوه. ورُوي أنَّ قائل هذه المقالةِ هو رجلٌ من الأكراد من أعراب فارس، أي: من باديتها؛ قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج(٣). ويقال: اسمه هيزر، فخسف الله به الأرض، فهو يَتَجلجلُ فيها إلى يوم القيامة(٤). وقيل: بل قاله ملكهم نمرود.

﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بتحريق إبراهيم؛ لأنه يسبُّها ويَعِيبُها. وجاء في الخبر: أنَّ نمرود بنى صرحاً طولُه ثمانون ذراعاً، وعرضُه أربعون ذراعاً. قال ابن إسحاق(٥): وجمعوا الحطب شهراً ثم أوقدوها، واشتعلت واشتدت حتى أنْ كان الطائر لَيمرُّ بجنباتها فيحترق من شدَّة وهجها. ثم قيَّدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولاً ـ ويقال: إنَّ إبليس صنع لهم المنجنيق يومئذٍ ـ فضجَّت السماوات والأرض ومَن فيهنَّ من الملائكة وجميعِ الخلق إلَّا الثقلين ضجةً واحدة [وقالوا: أي] ربَّنا! إبراهيم ليس في أرضك أحدٌ يعبدك غيرُه يُحرَق فيك، فأْذَنْ لنا في نُصرته. فقال الله تعالى: إن

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٤٣.

(٢) في (ظ): بالإثم، والمثبت من باقي النسخ، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٨ والكلام منه.

(٣) النكت والعيون ٣/ ٤٥٣، وأخرجه عن ابن عمر ومجاهد الطبري ١٦/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٠٥ عن شعيب الجَبَائي، ووقع فيه اسم الرجل: هيزن، وكذا ذكره البغوي ٣/ ٢٥٠.

(٥) ذكره عن ابن إسحاق الثعلبي في عرائس المجالس ص٧٨ - ٧٩. وما سيرد بين حاصرتين منه.

استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره، فقد أذنت له في ذلك، وإن لم يَدْعُ غيري، فأنا أعلم به وأنا وليُّه. فلمَّا أرادوا إلقاءه في النار، أتاه خُزَّان الماء ـ وهو في الهواء ـ فقالوا(١): يا إبراهيم إن أردتَ أخمدنا النار بالماء فقال: لا حاجةَ لي إليكم. وأتاه مَلَك الريح فقال: لو شئتَ طيَّرتُ النار. فقال: لا. ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهمَّ أنت الواحدُ في السماء، وأنا الواحدُ في الأرض(٢)، ليس أحدٌ يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل.

وروى أبيّ بن كعب ﷺ عن النبيِّ ﷺ(٣): «إنَّ إبراهيم حين قيَّدوه ليُلقوه في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمدُ ولك الملكُ لا شريكَ لك» قال: ثم رمَوْا به في المنجنيق من مَضْربٍ شاسع، فاستقبله جبريلُ فقال: يا إبراهيم ألك حاجةٌ؟ قال: أمَّا إليك فلا. فقال جبريل: فاسأل ربك. فقال: حَسْبي مِن سؤالي عِلْمُه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾(٤).

قال بعض العلماء: جعل الله فيها برداً يدفع(٥) حرَّها، وحرًّا يدفع بردَها، فصارت سلاماً عليه. قال أبو العالية: ولو لم يقل: «بَرْداً وَسَلَاماً» لكان بردها أشدَّ عليه من حرِّها، ولو لم يقل: «على إبراهيم» لكان بردها باقياً على الأبد(٦).

---

(١) في العرائس: أتاه ملك المياه فقال.

(٢) في العرائس: اللهم أنت الواحد في السماء وفي الأرض. وأخرج البزار (٢٣٤٩ - كشف الأستار) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: «لما ألقي إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك». وحسنه الحافظ ابن حجر في مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ٢٦٥ . وقال الذهبي في الميزان ٤/ ٦٩ : غريب جدًّا.

(٣) كذا ذكر المصنف، وذكره البغوي في التفسير ٣/ ٢٥٠ عن أبي بن كعب قوله، ووقع في العرائس ص٧٩ : معتمر عن أبي بن كعب عن أرقم، ولعل لفظة «أبيّ» مقحمة، فقد أخرجه الطبري ١٦/ ٣٠٩ من طريق معتمر عن ابن كعب عن أرقم، ولعل ابن كعب هو محمد.

(٤) عرائس المجالس ص٧٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٠ . وقوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٥٠ بلفظ: علمه بحالي يغني عن سؤالي. وقال: قال ابن تيمية: موضوع.

(٥) في (م): يرفع، في الموضعين، والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٣/ ٤٥٤ ، والكلام منه.

(٦) في (ظ): إلى الأبد، وفي (خ): على الأرض، والمثبت من باقي النسخ والنكت والعيون ٣/ ٤٥٤ =

وذكر بعض العلماء: أنَّ الله تعالى أنزل زَرْبِيَّة[(١)] من الجنة فبسطها في الجحيم، وأنزل الله ملائكة[(٢)]: جبريلَ وميكائيل ومَلَكَ البرد وملك السلامة.

وقال عليٌّ وابن عباس: لو لم تُتْبِع بردَها سلاماً لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذٍ نار إلا طَفِئتْ، ظنَّتْ أنها تُعنى[(٣)].

قال السُّدِّي: وأمر الله كلَّ عودٍ من شجرة أن يرجع إلى شجره ويطرح ثمرته.

وقال كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيمَ إلَّا وِثاقه[(٤)]. فأقام في النار سبعةَ أيامٍ لم يقدر أحدٌ أن يقرب من النار، ثم جاؤوا فإذا هو قائمٌ يصلِّي.

وقال المنهال بن عمرو: قال إبراهيم: ما كنتُ أياماً قطُّ أَنْعَمَ منِّي من[(٥)] الأيام التي كنتُ فيها في النار.

وقال كعبٌ وقتادةُ والزهريُّ: ولم تبقَ يومئذٍ دابَّةٌ إلا أطفأت عنه النار إلَّا الوَزَغُ؛ فإنها كانت تنفخ عليه؛ فلذلك أمر رسول الله ﷺ بقتلها وسمَّاها فُوَيْسقة[(٦)].

وقال شعيب الجَبَائي[(٧)]: أُلقي إبراهيم في النار وهو ابنُ ستَّ عَشْرةَ سنةً. وقال

= والكلام منه، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/٣٠٩.

(١) مفرد زرابيّ، وهي البُسُط، وقيل: كل ما بُسط واتُّكئ عليه. اللسان (زرب).

(٢) في (ظ): ملائكته.

(٣) عرائس المجالس ص٧٩، وأخرج قولهما الطبري ١٦/٣٠٦ - ٣٠٧، وخبر علي أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١١/٥١٩ - ٥٢٠.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/٣٠٧ و ٣٠٩ من طريق قتادة عن كعب.

(٥) في النسخ: في، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/٣٠٧، وقد أخرج الخبر فيه.

(٦) عرائس المجالس ص٧٩، وأخرجه عبد الرزاق ٢/٢٥، والطبري ١٦/٣٠٩ - ٣١٠ عن قتادة والزهري. وأخرج البخاري (٣٣٥٩) عن أم شَريك رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ، وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام». وأخرجه أحمد (٢٧٣٦٥)، ومسلم (٢٢٣٧) مختصراً بذكر قتل الوَزَغ.

(٧) في (ز): الجمالي، وفي باقي النسخ: الحماني، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/٣٠٨ وقد أخرج قوله. قال الذهبي في الميزان ٢/٢٧٨: أخباري متروك؛ قاله الأزدي.

ابن جُرَيْج: أُلقيَ إبراهيم في النار وهو ابن ستَّ وعشرين سنة. ذكر الأوّل الثَّعْلَبيُّ(١)، والثاني الماوَرْديّ(٢)، فالله أعلم.

وقال الكلبيُّ: بردت نيرانُ الأرض جميعاً فما أنضجت كُراعاً(٣)، فرآه نمرود من الصرح وهو جالسٌ على السرير يؤنسه مَلَكُ الظِّلّ. فقال: نِعْمَ الربُّ ربُّكَ! لأقرِّبنَّ له أربعةَ آلافِ بقرةٍ. وكَفَّ عنه(٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ أي: أراد نمرودُ وأصحابُه أن يمكروا به ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ في أعمالهم، وردَدْنا مكرهم عليهم بتسليطِ أضعفِ خَلْقِنا؛ قال ابن عباس: سلَّط الله عليهم أضعفَ خَلْقِهِ: البعوضَ، فما برح نمرودُ حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح، أكلت لحومهم وشربت دماءهم، ووقعت واحدةٌ في منخره، فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغَه، وكان أكرمَ الناس عليه الذي يضربُ رأسه بِمِرْزَبَّةٍ من حديد. فأقام بهذا نحواً من أربع مئة سنة(٥).

(١) في عرائس المجالس ص٨٠، ووقع في مطبوعه: الشعبي بدل: شعيب الجبائي.

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٥٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ذكره الثعلبي ص٧٩ - ٨٠ مطولاً عن ابن إسحاق. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٨ - ٨٩: وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم، وذكروا تحديد مدة بقائه في النار وصورة بقائه، ما رأيت اختصاره لقلة صحته، والصحيح من ذلك أنه ألقي في النار، فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً، فخرج منها سالماً، وكانت أعظم آية.

(٥) ذكره بنحوه عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٤٤، وأخرجه مطولاً عبد الرزاق في التفسير ١/ ١٠٥ - ١٠٦، والطبري ٤/ ٥٧٢ - ٥٧٣ عن زيد بن أسلم. وذكر الآلوسي في روح المعاني =

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يريد: نجَّينا إبراهيم ولوطاً إلى أرض الشام، وكانا بالعراق ـ وكان إبراهيم[١] عليه السلام عمَّه ـ قاله ابن عباس[٢]. وقيل لها: مباركةٌ؛ لكثرة خِصْبها وثمارها وأنهارها؛ ولأنها معادن الأنبياء. والبركةُ: ثبوت الخير، ومنه: بَرَكَ البعير: إذا لزم مكانه فلم يبرح. وقال ابن عباس: الأرض المباركة مكة[٣].

وقيل: بيت المقدس[٤]؛ لأنَّ منها بعثَ الله أكثرَ الأنبياء، وهي أيضاً كثيرة الخِصب والثمر[٥]، عذبةُ الماء، ومنها يتفرَّق في الأرض؛ قال أبو العالية: ليس ماءٌ عذبٌ إلَّا يهبطُ من السماء إلى الصخرة التي ببيت المقدس، ثم يتفرَّق في الأرض[٦]. ونحوه عن كعب الأحبار[٧]. وقيل: الأرض المباركة مصر.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: زيادة؛ لأنه دعا في إسحاق، وزِيْدَ يعقوب[٨] من غير دعاء، فكان ذلك نافلةً، أي: زيادة على ما سأل؛ إذ قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]. ويقال لولد الولد: نافلة؛ لأنه زيادةٌ على الولد.

= ١٧/ ٧٠ أن المعوَّل عليه في تفسير الآية: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي: أخْسَرَ مِنْ كلِّ خاسر، حيث عاد سعيُهم في إطفاء نور الحقِّ قولاً وفعلاً برهاناً قاطعاً على أنه عليه السلام على الحقّ، وهم على الباطل، وموجِباً لارتفاع درجته عليه السلام، واستحقاقهم لأشدِّ العذاب.

(١) في النسخ: لوط، وهو خطأ.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١١ عن أبي بن كعب والحسن وقتادة وغيرهم، ولم نقف عليه عن ابن عباس. وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٦٨ ، وهذا قول الأكثر .اهـ. واختاره الطبري ١٦/ ٣١٥ وقال: لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١٤ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٤ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): النمو.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٣١٤ . وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٨٩ : وهذا ضعيف.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٤ .

(٨) المثبت من (خ) و(ظ)، وفي باقي النسخ: وزيد في يعقوب.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: وكلًّا من إبراهيم وإسحاق ويعقوبَ جعلناه صالحاً عاملاً بطاعة الله. وجَعْلُهم صالحين إنما يتحقَّق بخَلْقِ الصلاح والطاعة لهم، وبخَلْقِ القدرة على الطاعة، ثم ما يكتسبُه العبدُ فهو مخلوقٌ لله تعالى[١].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: رؤساء يُقتدَى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات. ومعنى «بِأَمْرِنَا» أي: بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، فكأنه قال: يهدون بكتابنا. وقيل: المعنى: يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إيَّاهم بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أي: أن يفعلوا الطاعات. ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي: مطيعين.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ «لوطاً» منصوبٌ بفعلٍ مضمَرٍ دلَّ عليه الثاني، أي: وآتينا لوطاً آتيناه. وقيل: واذكر لوطاً. والحُكْم: النبوَّة، والعلم: المعرفةُ بأمر الدِّين وما يقع به الحُكْم بين الخصوم. وقيل: «عِلْماً»: فهماً، والمعنى واحد.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ يريد سَدُوم. ابنُ عباس: كانت سبعَ قُرًى، قَلَبَ جبريلُ عليه السلام ستةً وأبقى واحدةً للوطٍ وعيالِه، وهي زُغَر[٢] التي فيها الثمر من كُورة فلسطين إلى حدِّ الشراة[٣]، ولها قرى كثيرةٌ إلى حدِّ بحر الحجاز.

---

(١) في (ظ): فإن ما يكتسبه العبد مخلوق لله تعالى.

(٢) على وزن زُفَر، ذكرها ياقوت في معجم البلدان ٣/ ١٤٢ و ٤١١، وقال في الموضع الثاني: وهي البحيرة المقلوبة وبقية مدائن لوط، وإنها نجت لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة. وذكر الخبر أبو الليث ٢/ ١٣٧ - ١٣٨ بنحوه دون نسبة.

(٣) في النسخ الخطية: السراة، والمثبت من (م). قال ياقوت في معجم البلدان ٣/ ٣٣٢: الشراة: صُقْع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ. وذكر البكري في معجم ما استعجم ٢/ ٦٩٩ بيت حاتم الطائي: =

وفي الخبائث التي كانوا يعملونها قولان: أحدهما: اللِّواط، على ما تقدَّم. والثاني: الضُّراط[١]، أي: كانوا يَتضارَطُون في ناديهم ومجالسهم. وقيل: الضُّراط وحَذْفُ الحصى، وسيأتي[٢].

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، والفُسوقُ: الخروجُ، وقد تقدَّم[٣].

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ﴾ في النبوّة. وقيل: في الإسلام. وقيل: الجنة. وقيل: عنى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: واذكر نوحاً إذ نادى، أي: دعا. «مِنْ قَبْلُ» أي: من قبلِ إبراهيمَ ولوطٍ، على قومه وهو قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. وقال لمَّا كذبوه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: من الغرق. والكَرْبُ: الغمُّ الشديد. «وأَهْلَهُ» أي: المؤمنين منهم. ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ قال أبو عبيدة: «مِن» بمعنى على[٤]. وقيل: المعنى: فانتقمنا له من القوم الذينَ كذَّبوا بآياتنا. ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: الصغير منهم والكبير.

= سقى الله ربُّ الناس سحًّا وديمة جنوبَ الشَّراة من مآبَ إلى زُغَر

وقال: الشراة أرض في ناحية الشام، ومآب موضع هناك.

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٥٥.

(٢) عند تفسير الآية (٢٩) من سورة العنكبوت.

(٣) ١/ ٣٦٨.

(٤) ذكره عن أبي عبيدة البغوي ٣/ ٢٥٢، والرازي ٢٢/ ١٩٤، والطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٤٧، ولم نقف عليه في مجاز القرآن له.

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

فيه ست وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ أي: واذكرهما إذ يحكمان، ولم يُرِدْ بقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ الاجتماعَ في الحُكْم؛ وإنْ جَمَعَهما في القول؛ فإنَّ حَكَمين على حُكْم واحدٍ لا يجوز. وإنَّما حَكَمَ كلُّ واحدٍ منهما على انفراده، وكان سليمانُ الفاهِمَ لها بتفهيم الله تعالى إياه[1].

﴿فِي ٱلْحَرْثِ﴾ اختُلف فيه على قولين: فقيل: كان زرعاً؛ قاله قتادة. وقيل: كَرْماً نبتت[2] عناقيده؛ قاله ابن مسعود وشُريح[3]. والحرثُ يقال فيهما، وهو في الزرع أبعدُ من الاستعارة[4].

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: رَعَتْ فيه ليلاً، والنَّفْشُ: الرَّعْيُ بالليل. يقال: نَفَشَتْ بالليل وهَمَلت بالنهار: إذا رعت بلا راعٍ. وأنْفَشَها صاحبُها. وإبلٌ نُفَّاش[5]. وفي حديث عبد الله بن عمرو. الحبةُ في الجنة مِثْلُ كَرِش البعير يبيت نافِشاً، أي: راعياً[6]. حكاه الهَرويّ. وقال ابن سِيْدَه: لا يقال الهَمَل في الغنم، وإنما هو في الإبل[7].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٤ .

(٢) في (ظ): تدلت.

(٣) أخرج قولهما وقول قتادة الطبري ١٦/ ٣٢٠-٣٢١ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٩١ .

(٥) الصحاح (نفش) ، وقال الجوهري: ولا يكون النفش إلا بالليل، والهمل يكون ليلاً ونهاراً.

(٦) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث ٢/ ١٢٠ ، والزمخشري في الفائق ٤/ ١٤ ، وابن الأثير في النهاية (نفش).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢ .

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ أقلَّ الجمع اثنان. وقيل: المرادُ الحاكمان والمحكومُ عليه؛ فلذلك قال: «لِحكمِهِم».

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: فهَّمناه القضيةَ والحكومة، فكَنَى عنها؛ إذ سبق ما يدلُّ عليها. وفَضَلَ حُكْمُ سليمانَ حُكْمَ أبيه في أنه أحرز أن يبقى مِلْك[١] كلِّ واحدٍ منهما على متاعه، وتبقى نفسه طيبةً بذلك. وذلك أنَّ داودَ عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث. وقالت فرقة: بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث، والحرثَ إلى صاحب الغنم.

قال ابن عطية[٢]: فيُشْبِهُ على القول الواحد أنه رأى الغنم تُقاوِمُ الغلَّةَ التي أفسدت. وعلى القول الثاني رآها تقاومُ الحرث والغلَّة. فلمَّا خرج الخصمان على سليمانَ، وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخرَ، فقال: بمَ قضى بينكما نبيُّ الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث. فقال: لعلَّ الحكم غيرُ هذا، انصرفا معي. فأتى أباه فقال: يا نبيَّ الله، إنك حكمتَ بكذا وكذا، وإنِّي رأيتُ ما هو أَرْفَقُ بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث[٣]، فينتفع بألبانها وسُمُونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرعُ إلى حاله التي أصابته الغنم عليها[٤] في السنة المقبلة، ردَّ كلُّ واحدٍ منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفِّقت يا بنيَّ، لا يقطع الله فهمك. وقضى بما قضى به سليمان؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما[٥].

---

(١) قوله: ملك، من (ز) و(خ) والمحرر الوجيز ٤/ ٩١، والكلام منه.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٩١، وما قبله منه.

(٣) في (خ) و(ز) و(ظ): الزرع.

(٤) قوله: عليها، من (خ).

(٥) أخرجه عن ابن مسعود ومجاهد وغيرهما الطبري ١٦/ ٣٢٢-٣٢٨.

وقال الكلبيُّ: قوَّم داود الغنم والكرم الذي أفسدته الغنم، فكانت القيمتان سواءً، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم. وهكذا قال النحاس؛ قال: إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث؛ لأن ثمنها كان قريباً منه. وأمَّا في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمةُ ما نال من الغنم وقيمةُ ما أفسدت الغنم سواءً أيضاً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأوَّل قومٌ أنَّ داودَ عليه السلام لم يخطئ في هذه النازلة، بل فيها أُوتي الحُكْمَ والعلم، وحملوا قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ على أنه فضيلةٌ له على داودَ، وفضيلتُه راجعةٌ إلى داود، والوالدُ تَسُرُّه زيادةُ ولده عليه.

وقالت فرقة: بل لأنه لم يُصِب العينَ المطلوبة في هذه النازلة، وإنَّ ما مَدَحه الله بأنَّ له حكماً وعلماً يرجع إليه في غير هذه النازلة. وأمَّا في هذه فأصاب سليمانُ وأخطأ داودُ عليهما الصلاة والسلام، ولا يمتنع وجودُ الغلط والخطأ من الأنبياء كوجوده من غيرهم، لكن لا يُقَرُّون عليه، وإن أُقِرَّ عليه غيرهم[١].

ولمَّا هدم الوليد كنيسة دمشق، كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تَرْكَها، فإنْ كنتَ مصيباً فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيباً فقد أخطأتَ أنت! فأجابه الوليد: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[٢].

وقال قوم: كان داودُ وسليمانُ ـ عليهما السلام ـ نبيَّينِ يقضيان بما يوحَى إليهما، فحَكَمَ داود بوحيٍ، وحَكَم سليمان بوحيٍ نَسخ الله به حُكْم داود، وعلى هذا «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ»، أي: بطَريق الوحي الناسخ لمَا أُوحي إلى داود، وأُمر سليمان أن يبلِّغ ذلك داود؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. هذا قولُ جماعةٍ من

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٥٧ .

(٢) العقد الفريد ٢/ ٢٠٢ ، وأخرجه ابن عساكر ٢/ ٢٥٩ و ٦٣/ ١٧٧ .

العلماء، ومنها ابن فورك[١].

وقال الجمهور: إنَّ حُكْمهما كان باجتهادٍ وهي:

السادسة: واختلف العلماء في جواز الاجتهاد على الأنبياء؛ فمنَعَه قوم، وجوَّزه المحقِّقون[٢]؛ لأنه ليس فيه استحالةٌ عقلية؛ لأنه دليلٌ شرعيٌّ، فلا إحالةَ أن يستدلَّ به الأنبياء، كما لو قال له الله سبحانه وتعالى: إذا غلب على ظنِّك كذا؛ فاقطَعْ بأنَّ ما غلب على ظنِّك هو حُكْمي؛ فبلِّغه الأمة، فهذا غيرُ مستحيلٍ في العقل.

فإن قيل: إنَّما يكون دليلاً إذا عُدم النصُّ[٣]، وهم لا يعدمونه.

قلنا: إذا لم ينزل المَلَكُ فقد عُدِمَ النصُّ عندهم، وصاروا في البحث كغيرهم من المجتهدين عن معاني النصوص التي عندهم. والفرقُ بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الغلط والخطأ. وعن التقصير في اجتهادهم، وغيرُهم ليس كذلك[٤]. هذا مذهبُ[٥] الجمهور في أنَّ جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط في اجتهادهم.

وذهب أبو علي ابن أبي هريرة[٦] من أصحاب الشافعيِّ إلى أنَّ نبيَّنا ﷺ مخصوصٌ منهم في عدم جواز الخطأ عليه[٧]، وفرَّق بينه وبين غيره من الأنبياء: أنه لم يكن بعده

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩١ .

(٢) المفهم ٥/ ١٧٦ .

(٣) وقع في المفهم ٥/ ١٦٧ (والكلام منه): إن الاجتهاد إنما يسوغ عند فَقْد النص، بدل قوله: إنما يكون دليلاً إذا عدم النص.

(٤) المفهم ٥/ ١٧٦ .

(٥) في (م): كما ذهب، وفي (خ): هذا جواب.

(٦) الحسن بن الحسين البغدادي القاضي، شيخ الشافعية، انتهت إليه رئاسة المذهب، توفي سنة (٣٤٥ هـ). السير ١٥/ ٤٣٠ .

(٧) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: في جواز الخطأ عليهم، وفي النكت والعيون ٣/ ٤٥٧ (والكلام منه): بجواز الخطأ عليهم دونه.

مَن يستدرك غلطَه، ولذلك عصمه الله تعالى منه، وقد بُعِث بعدَ غيره من الأنبياء مَن يستدرك غلطَه.

وقد قيل: إنه على العموم في جميع الأنبياء، وإنَّ نبيَّنا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم في تجويز الخطأ على سواء، إلَّا أنهم لا يُقَرُّون على إمضائه، فلم يعتبر فيه استدراك مَن بعدَهم من الأنبياء.

هذا رسول الله ﷺ وقد سألته امرأةٌ عن العِدَّة، فقال لها: «اعتدِّي حيث شئتِ» ثم قال: «امكُثي في بيتك حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه»[1]. وقال له رجلٌ: أرأيتَ إن قُتِلتُ صابراً محتسباً، أيحجُزني عن الجنة شيء؟ فقال: «لا». ثم دعاه فقال: «إلَّا الدَّين، كذا أخبرني جبريل»[2].

السابعة: قال الحسن: لولا هذه الآيةُ لرأيت القضاةَ هَلَكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه، وعَذَر داود باجتهاده[3]. وقد اختلف الناس في المجتهدين في الفروع إذا اختلفوا، فقالت فرقة: الحقُّ في طرفٍ واحدٍ عند الله، وقد نَصَبَ على ذلك أدلةً، وحَمَلَ المجتهدين على البحث عنها، والنظرِ فيها، فَمَن صادفَ العين المطلوبة في المسألة فهو المصيبُ على الإطلاق، وله أجران؛ أجرٌ في الاجتهاد، وأجرٌ في الإصابة، ومَن لم يصادفها فهو مصيبٌ في اجتهاده؛ مخطئٌ في أنْ لم يُصب العينَ، فله أجرٌ وهو غيرُ معذور. وهذا سليمانُ قد صادف العين المطلوبة، وهي التي فهم. ورأت فرقة[4] أنَّ العالم المخطئَ لا إثمَ عليه في خطئه، وإن كان غيرَ معذور.

---

(١) النكت والعيون٣/ ٤٥٧-٤٥٨ ، والحديث أخرجه مطولاً أحمد (٢٧٠٨٧)، وأبو داود (٢٣٠٠)، والترمذي (١٢٠٤) من حديث فُرَيْعة بنت مالك رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٥٤٢) ، ومسلم (١٨٨٥) من حديث أبي قتادة ﷺ. وأخرجه أحمد (٨٠٧٥) والنسائي في المجتبى ٦/ ٣٣-٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ. والكلام من النكت والعيون ٣/ ٤٥٨ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٥٨ .

(٤) في المحْرر الوجيز ٤/ ٩١ (والكلام منه): ورأت هذه الفرقة.

وقالت فرقة: الحقُّ في طرفٍ واحدٍ، ولم يَنصِب الله تعالى عليه دليلاً، بل وَكَل الأمر إلى نظر المجتهدين، فَمَن أصابه أصاب، ومَن أخطأ فهو معذورٌ مأجور، ولم[1] نُتعبَّد بإصابة العين، بل تُعُبِّدْنا بالاجتهاد فقط.

وقال جمهور أهل السُّنة ـ وهو المحفوظُ عن مالك وأصحابه ـ: إنَّ الحقَّ في مسائل الفروع في الطَّرفين، وكلُّ مجتهدٍ مُصيبٌ، والمطلوبُ إنما هو الأفضلُ في ظنِّه، فكلُّ مجتهدٍ قد أدَّاه نظرهُ إلى الأفضل في ظنِّه؛ والدليلُ على هذه المقالة أنَّ الصحابة فَمَن بَعْدَهم قرَّر بعضهم خلافَ بعض، ولم يَرَ أحدٌ منهم أن يقع الانحمالُ على قوله دون قولِ مُخالفه. ومنه ردُّ مالك رحمه الله للمنصور أبي جعفر عن حَمْل الناس على «الموطأ»، فإذا قال عالمٌ في أمرٍ [ما]: حلالٌ، فذلك هو الحقُّ فيما يختصُّ بذلك العالم عند الله تعالى، وبكلِّ مَن أخذ بقوله، وكذا في العكس. قالوا: وإن كان سليمان عليه السلام فهم القضية المُثْلَى والتي هي أرجح، فالأُولى ليست بخطأ، وعلى هذا يحمِلون قولَه عليه الصلاة والسلام: «إذا اجتهد العالم فأخطأ» أي: فأخطأ الأفضلَ[2].

الثامنة: روى مسلم وغيره[3] عن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «إذا حَكَم الحاكمُ فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ، فله أجر». هكذا لفظُ الحديث في كتاب مسلم: «إذا حَكَم فاجتهد»[4]، فبدأ بالحُكْم قبل الاجتهاد، والأمرُ بالعكس، فإنَّ الاجتهاد مقدَّمٌ على الحكم، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع. وإنَّما معنى هذا الحديث: إذا أراد أن يحكم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾. فعند ذلك يجتهد في النازلة. ويفيد هذا صحةَ ما

(١) في (ظ): فإنا لم.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٩١-٩٢، وما سلف بين حاصرتين منه، وسيأتي تخريج الحديث في المسألة التالية.

(٣) صحيح مسلم (١٧١٦)، وهو عند أحمد (١٧٧٧٤) و(١٧٨١٦)، والبخاري (٧٢٥٣).

(٤) وهو لفظه أيضاً عند أحمد والبخاري.

قاله الأُصوليون: إنَّ المجتهد يجب عليه أن يجدِّد نظراً عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدِّم؛ لإمْكانِ أنْ يَظهر له ثانياً خلافُ ما ظهر له أوّلاً، اللهمَّ إلَّا أنْ يكون ذاكراً لأركان اجتهاده، مائلاً إليه، فلا يحتاج إلى استئنافِ نظرٍ في أمارةٍ أخرى(١).

التاسعة: إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد والسُّنَن والقياس، وقضاءِ مَن مضى؛ لأنَّ اجتهاده عبادةٌ، ولا يؤجَر على الخطأ، بل يوضع عنه الإثم فقط، فأمَّا مَن لم يكن محلًّا للاجتهاد فهو متكلِّفٌ لا يُعذر بالخطأ في الحكم، بل يُخاف عليه أعظمُ الوِزْر. يدلُّ على ذلك حديثُه الآخَر، رواه أبو داود: «القضاةُ ثلاثة»(٢) الحديث. قال ابن المنذر: إنَّما يؤجَر على اجتهاده في طلب الصَّواب، لا على الخطأ، ومما يؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ الآيةَ. قال الحسن: أثنى على سليمان ولم يذمَّ داود.

العاشرة: ذكر أبو التمام المالكيّ(٣) أنَّ مذهب مالك: أنَّ الحقَّ في واحدٍ من أقاويل المجتهدين، وليس ذلك في أقاويل المختلفين. وبه قال أكثر الفقهاء. قال: وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكاً عن اختلاف الصحابة، فقال: مخطئٌ ومُصيب، وليس الحقُّ في جميع أقاويلهم. وهذا القول قيل: هو المشهورُ عن مالك، وإليه ذهب محمد بن الحسن. واحتجَّ مَن قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو؛ قالوا: وهو نصٌّ

(١) المفهم ٥/ ١٦٧ .

(٢) سنن أبي داود (٣٥٧٣)، وأخرجه أيضاً الترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥) من حديث بريدة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار؛ فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحقَّ فقضى به، ورجلٌ عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار». لفظ أبي داود.

(٣) علي بن محمد بن أحمد البصري، من أصحاب الأبهري، له كتاب مختصر في الخلاف يسمى نكت الأدلة، وله كتاب آخر في الخلاف كبير، وكتاب في أصول الفقه. ترتيب المدارك ٤/ ٦٠٥ ، والديباج المذهب ٢/ ١٠٠ . وكلامه ذكره الباجي في إحكام الفصول في أحكام الأصول ص٧٠٧ .

على أنَّ في المجتهدين وفي الحاكمين مخطئاً ومصيباً[(١)]. قالوا: والقولُ بأنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ يؤدِّي إلى كون الشيء حلالاً حراماً، وواجباً ندباً.

واحتجَّ أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر؛ قال: نادى فينا رسول الله ﷺ يومَ انصرف من الأحزاب: «ألَا لا يصلِّينَّ أحدٌ العصرَ إلَّا في بني قُرَيظَة». فتخوَّف ناسٌ فَوْتَ الوقت، فصلَّوا دون بني قُرَيظة، وقال الآخَرون: لا نصلِّي إلا حيث أمَرَنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال: فما عنَّف واحداً من الفريقين[(٢)]. قالوا: فلو كان أحد الفريقين مخطئاً لعيَّنه النبيُّ ﷺ.

ويمكن أن يقال: لعلَّه إنما سكت عن تعيين المخطئ[(٣)] لأنه غيرُ آثمٍ بل مأجور، فاستغنى عن تعيينه. والله أعلم. ومسألةُ الاجتهاد طويلةٌ متشعِّبةٌ، وهذه النُّبذةُ التي ذكرناها كافيةٌ في معنى الآية، والله الموفِّق للهداية.

الحادية عشرة: ويتعلَّق بالآية فصلٌ آخَرُ: وهو رجوعُ الحاكم بعد قضائه من اجتهاده إلى اجتهادٍ آخَرَ أرجحَ من الأوّل، فإنَّ داود عليه السلام فَعَلَ ذلك. وقد اختلف في ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى؛ فقال عبد الملك ومُطَرِّفٌ في «الواضحة»: ذلك له ما دام في ولايته، فأمَّا إن كانت ولايةٌ أخرى فليس له ذلك، وهو بمنزلة غيره من القضاة. وهذا هو ظاهرُ قول مالكٍ رحمه الله في «المدونة».

وقال سحنون في رجوعه من اجتهادٍ فيه قولٌ إلى غيره مما رآه أصوبَ: ليس له ذلك. وقاله ابن عبد الحكم. قالا: ويَستأنف الحكم بما قويَ عنده. قال سحنون: إلَّا أن يكون نسيَ الأقوى عنده، أو وَهَمَ فحَكَم بغيره، فله نَقْضُه، وأمَّا إن حكم بحكمٍ هو الأقوى عنده في ذلك الوقتِ، ثم قويَ عنده غيرُه بعد ذلك، فلا سبيلَ إلى نقض الأوّل؛ قاله سحنون في كتاب ابنه.

---

(١) إحكام الفصول ص٧١٠، وينظر جامع بيان العلم ٢/ ٨٨٥.

(٢) أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

(٣) في النسخ: المخطئين، والمثبت من المفهم ٥/ ١٧٥، والكلام منه.

وقال أشهبُ في كتاب ابن الموَّاز: إن كان رجوعه إلى الأصوب في مالٍ فله نقضُ الأوّل، وإن كان في طلاقٍ أو نكاحٍ أو عتقٍ فليس له نَقْضُه(١).

قلت: رجوعُ القاضي عمَّا حَكَم به إذا تبيَّن له أنَّ الحقَّ في غيره ما دام في ولايته أَوْلَى. وهكذا في رسالة عمر إلى أبي موسى رضي الله عنهما(٢)؛ رواها الدارقطنيّ(٣)، وقد ذكرناها في «الأعراف»(٤) ولم نفصِّل(٥)، وهي الحجة لظاهِرِ قولِ مالك. ولم يختلف العلماء أنَّ القاضيَ إذا قضى تجوُّزاً وبخلاف أهل العلم، فهو مردودٌ وإن كان على وجه الاجتهاد، فأمَّا أن يتعقَّب قاضٍ حُكْمَ قاضٍ آخَرَ فلا يجوز ذلك له؛ لأنَّ فيه مضرةً عُظْمَى من جهة نقضِ الأحكام، وتبديل الحلال بالحرام، وعَدَمِ ضبط قوانين الإسلام، ولم يتعرَّض أحدٌ من الخلفاء(٦) لنقض ما رآه(٧) الآخَر، وإنما كان يَحكُم بما يَظْهَر له.

الثانية عشرة: قال بعض الناس: إنَّ داود عليه السلام لم يكن أَنْفَذَ الحكم وظَهَر له ما قال غيره. وقال آخرون: لم يكن حُكْماً وإنما كانت فتيا(٨).

قلت: وهكذا تَأَوَّلَ(٩) فيما رواه أبو هريرة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «بينما امرأتان معهما ابناهُما جاء الذئبُ فذهبَ بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢ ، وينظر المدونة ٥/ ١٤٤ ، والنوادر والزيادات ٨/ ٩٧ - ٩٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥ .

(٣) برقم (٤٤٧١)، وجاء فيها: ...لا يمنعك قضاءٌ قضيتَه راجعتَ فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك أن تُراجع الحقَّ؛ فإن الحق قديم، ومراجعةُ الحق خيرٌ من التمادي في الباطل...

(٤) ٩/ ١٦٨ .

(٥) في النسخ عدا (د): يفصل، والمثبت من (د).

(٦) في (م): العلماء، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥ والكلام منه.

(٧) في (م): رواه، والمثبت من النسخ الخطية وأحكام القرآن لابن العربي.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥ .

(٩) في (م): تؤول.

إنَّما ذهب بابنك أنتِ. وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتَحاكَمتا إلى داودَ، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمانَ بنِ داود عليهما السلام فأخْبرَتاه، فقال: ائتوني بالسكِّين أشقُّه بينكما، فقالت الصغرى: لا ـ يرحمكَ الله ـ هو ابنُها. فقضى به للصغرى» قال أبو هريرة: [واللهِ] إنْ سمعتُ بالسِّكِّين قطُّ إلَّا يومئذٍ، ما كنَّا نقول إلَّا المُدْية؛ أخرجه مسلم(١).

فأمَّا القولُ بأنَّ ذلك من داود [كان] فتيا فهو ضعيف؛ لأنه كان النبيَّ، وفُتياه حُكْمٌ. وأمَّا القولُ الآخَرُ فبعيدٌ(٢)؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ فبيَّن أنَّ كلَّ واحدٍ منهما كان قد حَكم(٣). وكذا قولُه في الحديث: فقضى به للكبرى، يدلُّ على إنفاذ القضاء وإنجازه.

ولقد أَبْعَدَ من قال: إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هي كبرى، [وهذا أيضاً فاسد؛ لأنَّ اللفظ ليس نصًّا في ذلك، و] لأنَّ الكبر والصغر طَرْدٌ مَحْضٌ عند الدعاوى، كالطُّول والقِصَر والسَّواد والبياض، وذلك لا يوجب ترجيحَ أحد المتداعِيَيْن حتى يُحكَم له أو عليه لأجل ذلك. وهذا مما يَقْطَع به مَن فَهِمَ ما جاءت به الشرائع.

والذي ينبغي أن يقال: إنَّ داود عليه السلام إنَّما قضى به للكبرى لسببٍ اقتضى عنده ترجيحَ قولها، ولم يُذكر في الحديث تعيينُه(٤) إذ لم تَدْعُ حاجةٌ إليه، فيمكن أن [يقال: إنَّ] الولد كان بيدها، وعَلِمَ عَجْزَ الأخرى عن إقامة البينة، فقضى به لها إبقاءً لِمَا كان على ما كان. وهذا التأويلُ أحسنُ ما قيل في هذا الحديث. وهو الذي تشهد له

---

(١) في صحيحه (١٧٢٠)، وهو عند أحمد (٨٢٨٠)، والبخاري (٣٤٢٧)، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) في (د) و(م): فيبعد.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) في (د): بعينه.

قاعدةُ الدعاوى الشرعية التي يبعد اختلافُ الشرائع فيها.

لا يقال[١]: فإنْ كان داود قضى بسببٍ شرعيٍّ، فكيف ساغ لسليمانَ نَقْضُ حكمه؟ فالجواب: أنَّ سليمان عليه السلام لم يتعرَّض لحكم أبيه بالنَّقْض، وإنَّما احتال حيلةً لطيفةً ظهر له بسببها صدقُ الصغرى، وهي أنه لمَّا قال: هاتِ السكينَ أشقُّه بينكما، قالت الصغرى: لا. فظهر له من قرينة الشفقة في الصغرى، وعُدْمِ ذلك في الكبرى، مع ما عساه انضاف إلى ذلك من القرائن، ما حصل له العلم بصِدْقها فحكم لها. ولعلَّه كان ممن سوِّغ له أن يحكم بعلمه[٢].

وقد ترجم النَّسائيُّ على هذا الحديث: حكم الحاكم بعلمه. وتَرجَم له أيضاً: السعة للحاكم أن يقول للشيء الذي لا يَفعله أفْعلُ ليستبين الحقّ. وتَرجم له أيضاً: نَقْضُ الحاكم ما يَحكم به غيرُه ممن هو مِثْلُه أو أَجَلُّ منه[٣].

ولعل الكبرى اعترفت بأنَّ الولد للصغرى عندما رأت من سليمان الحزمَ والجِدَّ في ذلك، فقضى بالولد للصغرى. ويكونُ هذا كما إذا حَكم الحاكم باليمين، فلما مضى ليحلف؛ حَضَر مَن استخرج من المنكِر ما أوجب إقرارَه، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين وبعدها، ولا يكون ذلك من باب نَقْضِ الحكم الأوّل، لكنْ من باب تبدُّل الأحكام بحسب تبدُّل الأسباب. والله أعلم[٤].

وفي هذا الحديث من الفقه: أنَّ الأنبياء سوِّغ لهم الحكم بالاجتهاد، وقد ذكرناه[٥].

وفيه من الفقه: استعمالُ الحكَّام الحيلَ التي تُستخرج بها الحقوق، وذلك يكون

---

(١) في المفهم ٥/ ١٧٦ (والكلام وما سلف بين حاصرتين منه): فإن قيل.

(٢) المفهم ٥/ ١٧٥ - ١٧٦ .

(٣) سنن النسائي (المجتبى) ٨/ ٢٣٤ و٢٣٦ .

(٤) المفهم ٥/ ١٧٦ .

(٥) في المسألة السادسة، والكلام من المفهم ٥/ ١٧٦ .

عن قوّة الذكاء والفطنة، وممارسةِ أحوال الخَلْق؛ وقد يكون في أهل التقوى فِراسةٌ دينية، وتوسُّماتٌ نُورية، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء. وفيه الحجة لمن يقول: إنَّ الأمَّ تُستلحَق، وليس مشهورَ مذهب مالك(١)، وليس هذا موضعَ ذكره. وعلى الجملة فقضاءُ سليمانَ في هذه القصة تضمَّنها مَدْحُه تعالى له بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾.

الثالثة عشرة: قد تقدَّم القول في الحرث(٢)، والحكمُ في هذه الواقعة في شرعنا: أنَّ على أصحاب المواشي حفظها بالليل، وعلى أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار، ثم الضمانُ في المِثْل بالمِثْليَّات، وبالقيمة في ذوات القيم. والأصلُ في هذه المسألة في شرعنا ما حَكَم به نبيُّنا ﷺ في ناقة البراء بن عازب؛ رواه مالك، عن ابن شهاب، عن حرام بن سعد بن مُحيِّصة: أنَّ ناقةً للبراء دخلت حائطَ رجلٍ فأفسدتْ فيه، فقضى رسول الله ﷺ أنَّ على أهل الحوائط حفظَها بالنهار(٣)، وأنَّ ما أفسدت المواشي بالليل ضامنٌ على أهلها(٤).

هكذا رواه جميع رواة [الموطأ](٥) مرسَلاً. وكذلك رواه أصحابُ ابن شهاب عن ابن شهاب، إلَّا ابنَ عيينة، فإنه رواه عن الزهري عن سعيد [بن المسيب] وحرام بن سعد بن مُحيِّصة: أنَّ ناقة، فذكر مثلَه بمعناه(٦).

ورواه ابن أبي ذئبٍ عن ابن شهاب: أنه بلغه أنَّ ناقةً للبراء دخلت حائط قوم،

---

(١) المفهم ٥/ ١٧٧ .

(٢) في المسألة الأولى.

(٣) في النسخ: بالليل، وهو خطأ.

(٤) الموطأ ٢/ ٧٤٧ ، وأخرجه موصولاً أحمد (١٨٦٠٦) و(٢٣٦٩١)، وأبو داود (٣٥٧٠)، وابن ماجه (٢٣٣٢).

(٥) في النسخ: جميع الرواة، والمثبت من التمهيد ١١/ ٨١ ، والاستذكار ٢٢/ ٢٥١ . والكلام وما بين حاصرتين منهما.

(٦) أخرجه أحمد (٢٣٦٩٤) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦١٦٠)، والبيهقي ٨/ ٣٤٢ ، وابن عبد البر في التمهيد ١١/ ٨٩ من طريق ابن عيينة بالإسناد المذكور.

مثلَ حديث مالك سواء، إلَّا أنه لم يذكرُ حرام بنَ سعد بن محيصة ولا غيره. قال أبو عمر(١): ولم يصنع ابن أبي ذئب شيئاً؛ لأنه(٢) أفسد إسناده. ورواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهريِّ، عن حرام بن محيِّصةَ، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ، ولم يتابَع عبد الرزاق على ذلك، وأنكروا عليه قولَه: عن أبيه(٣).

ورواه ابن جريج عن ابن شهاب قال: حدثني أبو أمامَة بنُ سهل بن حنيف: أنَّ ناقةً دخلت في حائط قومٍ فأفسدت(٤). فجعل الحديث لابن شهاب عن أبي أمامة، ولم يَذكر أنَّ الناقة كانت للبراء. وجائزٌ أن يكون الحديث عند(٥) ابن شهاب عن ابن مُحيِّصة، وعن سعيد بن المسيِّب، وعن أبي أمامة، والله أعلم. فحدَّث به عمَّن شاء منهم على ما حَضَره، وكلُّهم ثقات.

قال أبو عمر(٦): وهذا الحديث وإن كان مرسلاً فهو حديثٌ مشهورٌ أرسله الأئمة، وحدَّث به الثقات، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقَّوه بالقبول، وجرى في المدينة العملُ به، وحَسْبُكَ باستعمال أهل المدينة وسائرِ أهل الحجاز لهذا الحديث.

الرابعة عشرة: ذهب مالكٌ وجمهورُ الأئمة إلى القول بحديث البراء، وذهب أبو حنيفة وأصحابه وجماعةٌ من الكوفيين إلى أنَّ هذا الحكم منسوخ، وأنَّ البهائم إذا أفسدت زرعاً في ليلٍ أو نهارٍ أنه لا يلزم صاحبَها شيء، وأَدْخَلَ فسادها في عموم قوله ﷺ: «جُرحُ العَجْماءِ جُبَارٌ»، فقاس جميعَ أفعالها على جرحها. ويقال: إنه ما تقدَّم أبا حنيفةَ أحدٌ بهذا القول(٧)، ولا حجةَ له ولا لمَن تَبعه في حديث العجماء،

---

(١) في التمهيد ١١/ ٨١ .

(٢) في (م): إلا أنه، والمثبت من النسخ الخطية والتمهيد.

(٣) التمهيد ١١/ ٨١ ، والحديث في مصنف عبد الرزاق (١٨٤٣٧)، ومن طريقه أخرجه أبو داود (٣٥٦٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٨٤٣٨).

(٥) في (م): عن، والمثبت من النسخ الخطية والاستذكار ٢٢/ ٢٥١ ، والكلام منه.

(٦) في التمهيد ١١/ ٨٢ .

(٧) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٠١ - ٥٠٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٩٢ - ٩٣ ، وقوله: «جرح العجماء جبار» قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧١٢٠)، والبخاري (٦٩١٢)، ومسلم (١٧١٠) عن أبي هريرة ﷺ. والجبار: الذي لا قَوَد فيه ولا دية ولا شيء. المفهم ٥/ ١٤٤ .

وكونِه ناسخاً لحديث البراء ومُعارضاً له؛ فإنَّ النَّسْخَ شروطُه معدومة، والتعارُضُ إنما يصحُّ إذا لم يمكن[1] استعمالُ أحدهما إلّا بنفي الآخَر، وحديثُ: «العجماءُ جُرْحُها جُبَار» عمومٌ متفقٌ عليه، ثم خُصَّ منه الزرع والحوائط بحديث البراء؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لو جاء عنه في حديث واحد: العجماءُ جُرْحُها جُبَارٌ نهاراً لا ليلاً، وفي الزرع والحوائط والحرث [دون غيره]، لم يكن هذا مستحيلاً من القول، فكيف يجوز أن يقال في هذا: متعارض؟! وإنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكورٌ في الأصول.

الخامسة عشرة: إن قيل: ما الحكمةُ في تفريق الشارع بين الليل والنهار؟ وقد قال الليث بن سعد: يضمَن أربابُ المواشي بالليل والنهار كلَّ ما أفسدتْ[2]، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية؟

قلنا: الفرقُ بينهما واضح، وذلك أنَّ أهل المواشي بهم ضرورةٌ إلى إرسال مواشيهم لترعى بالنهار، والأغلبُ عندهم أنَّ مَن عنده زرعٌ، يتعاهدُه بالنهار ويحفظُه عمَّن أراده، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع؛ لأنه وقتُ التصرُّف في المعاش، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذي يرجع كلُّ شيء إلى موضعه وسكنه، كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، ويردُّ أهل المواشي مواشيَهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فرَّط صاحبُ الماشية في ردِّها إلى منزله، أو فرَّط في ضَبْطِها وحَبْسِها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئاً، فعليه ضمانُ ذلك[3]، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح،

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): يكن، والمثبت من (خ) و(م) والتمهيد ١١/ ٨٦، والكلام وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ١١/ ٨٤، والاستذكار ٢٢/ ٢٥٥ بلفظ: يضمن ربُّ الماشية ما أفسدت بالليل والنهار...

(٣) التمهيد ١١/ ٨٦ - ٨٧.

وكان ذلك أرفقَ بالفريقين، وأسهلَ على الطائفتين، وأحفظَ للمالين، وقد وضح الصبحُ لذي عينين، ولكن لسليم الحاسَّتين.

وأمَّا قولُ الليث: لا يضمن أكثرَ من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر: لا أعلم مِن أين قال هذا الليثُ بن سعد؟ إلَّا أنْ يجعله قياساً على العبد الجاني [أنه] لا يُفْتَكُّ بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيدَه في جنايته أكثرُ من قيمته، وهذا ضعيفُ الوجه. كذا قال في «التمهيد»[1]. وقال في «الاستذكار»[2]: فخالَفَ الحديثَ في «العجماءُ جرحُها جبار»، وخالَفَ [حديثَ] ناقةِ البراء، وقد تقدَّمه إلى ذلك طائفةٌ من العلماء؛ منهم عطاء؛ قال ابن جريج: قلتُ لعطاء: الحرثُ تصيبه الماشيةُ ليلاً أو نهاراً؟ قال: يضمن صاحبها ويغرم. قلت: كان عليه حَظْرٌ أو لم يكن؟ قال: نعم. قلت: ما يغرم؟ قال: قيمة ما أكل حماره ودابَّتُه وماشيته. وقال معمر عن ابن شُبْرُمة: يُقوَّم الزرع على حاله التي أصيب عليها دراهمَ. وروي عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: يضمن ربُّ الماشية ليلاً ونهاراً[3]، من طرقٍ لا تصحّ.

السادسة عشرة: قال مالك: ويقوَّم الزرع الذي أفسدت المواشي بالليل على الرجاء والخوف. قال: والحوائطُ التي تُحرس والتي لا تحرس، والمحظَّرُ عليها وغيرُ المحظَّرِ سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغاً ما بلغ، وإن كان أكثرَ من قيمتها. قال: وإذا انفلتت دابةٌ بالليل فوطئت على رجلٍ نائم لم يغرم صاحبها شيئاً، وإنما هذا في الحائط والزرع والحرث؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم. وقال ابن القاسم: ما أفسدت الماشية بالليل فهو في مال ربِّها وإن كان أضعافَ ثمنها؛ لأنَّ الجناية من قِبَله؛ إذ لم يربطها، وليست الماشية كالعبيد؛ حكاه سحنون وأصبغُ وأبو زيد عن ابن القاسم[4].

---

(١) ١١/ ٨٤ - ٨٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) ٢٢/ ٢٥٦، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في (د) و(م): أو نهاراً، والمثبت من باقي النسخ والاستذكار، وخبرا عطاء وابن شبرمة أخرجهما عبد الرزاق (١٨٤٢٩) و(١٨٤٣١).

(٤) التمهيد ١١/ ٨٢ - ٨٣.

السابعة عشرة: ولا يُستأنَى بالزَّرع أن ينبت أو لا ينبت كما يُفعل في سنِّ الصغير. وقال عيسى عن ابن القاسم: قيمتُه لو حلَّ بيعه. وقال أشهبُ وابن نافع في «المجموعة» عنه: وإن لم يَبْدُ صلاحُه. ابن العربيِّ[١]: والأوّلُ أقوى لأنَّها صفته، فيقوَّم كما يقوَّم كلُّ متلَفٍ على صفته.

الثامنة عشرة: لو لم يُقْضَ للمفسَد له[٢] بشيء حتى نَبَتَ وانجبر، فإن كان فيه قبلَ ذلك منفعةُ رعيٍ أو شيء ضمن تلك المنفعة، وإن لم تكن فيه منفعةٌ فلا ضمان. وقال أصبغ: يضمن؛ لأنَّ التلف قد تحقَّق، والجبر ليس من جهته؛ فلا يعتدُّ له به.

التاسعة عشرة: وقع في كتاب ابن سحنون: أنَّ الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطانٌ مُحْدَقة، وأمَّا البلادُ التي هي زروعٌ متَّصلةٌ غيرُ مُحظَرة، وبساتينُ كذلك، فيضمن أربابُ النَّعم ما أفسدت من ليلٍ أو نهار. كأنه ذهب إلى أنَّ ترك تثقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تعدٍّ؛ لأنها ولابدَّ تُفْسِد[٣]. وهذا جنوحٌ إلى قول الليث.

الموفية عشرين: قال أصبغُ في «المدنيَّة»[٤]: ليس لأهل المواشي أن يُخرجوا مواشيَهم إلى قرى الزرعِ بغير ذُوَّاد. فركَّب العلماء على هذا أنَّ البقعة لا تخلو أن تكون بقعةَ زرعٍ، أو بقعةَ سَرْحٍ؛ فإن كانت بقعةَ زرعٍ فلا تدخلها ماشيةٌ إلا ماشيةٌ تجتاح [في الزرع]، وعلى أربابها حِفْظُها، وما أفسدتْ فصاحبُها ضامنٌ ليلاً أو نهاراً. وإن كانت بقعةَ سرحٍ فعلى صاحب [الزرع] الذي حَرَثَه فيها حِفْظُه، ولا شيءَ على أرباب المواشي[٥].

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٧ (والكلام منه): في المفسد، بدل للمفسد له.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٢ .

(٤) «المدنيَّة» مجموعة كتب لعبد الرحمن بن دينار المالكي الأندلسي، سمعها منه أخوه عيسى بن دينار وعرضها على ابن القاسم. ترتيب المدارك ٣/ ١٥ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٧ - ١٢٥٨ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

الحادية والعشرون: المواشي على قسمين: ضَوَاري وحَريسة[١]، و عليهما قسمها مالك. فالضَّواري هي المعتادةُ للزرع والثمار، فقال مالك: تُغرَّبُ وتباع في بلدٍ لا زَرْعَ فيه؛ رواه ابن القاسم في «الكتاب» وغيره. قال ابن حبيب: وإن كره ذلك ربُّها، وكذلك قال مالك في الدابَّة التي ضَرِيَتْ[٢] إفساد الزرع: تغرَّبُ وتباع. وأمَّا ما يُستطاع الاحتراسُ منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه.

الثانية والعشرون: قال أصبغ: النَّحلُ والحمام والإوزُّ والدجاج كالماشية، لا يُمنع صاحبها من اتِّخاذها وإن أضرَّت، وعلى أهل القرية حِفْظُ زروعهم. قال ابن العربيِّ[٣]: وهذه روايةٌ ضعيفةٌ لا يُلتفت إليها، مَن أراد أن يتَّخذ ما ينتفع به مما لا يضرُّ بغيره مُكِّن منه، وأمَّا انتفاعُه بما يتَّخذه بإضراره بأحدٍ فلا سبيل إليه. قال عليه الصلاة والسلام: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ»[٤]. وهذه الضواري عن ابن القاسم في «المدنيَّة»: لا ضمانَ على أربابها إلَّا بعد التقدُّم. ابن العربيِّ: وأرى الضمان عليهم قبل التقدُّم إذا كانت ضواري.

الثالثة والعشرون: ذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الشعبيِّ: أنَّ شاةً وقعت في غزل حائكٍ، فاختصموا إلى شُرَيح، فقال الشَّعبيُّ: انظُروه فإنه سيسألهم: أليلا وقعت فيه أم[٥] نهاراً؟ ففعل، ثم قال: إن كان بالليل ضمن، وإن كان بالنهار لم يضمن، ثم قرأ شريحٌ: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: والنَّفَشُ بالليل، والهَمَل بالنهار[٦].

---

(١) الحريسة: فعيلة بمعنى مفعولة، أي: إن لها مَن يحرسها ويحفظها. والمواشي الضارية: هي المعتادة لرعي زروع الناس. النهاية (حرس) و(ضري).

(٢) أي اعتادت، ووقع بعدها في (د) و(م): في، وفي (ظ): على، والمثبت من (خ) و(ز)، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٥٨، والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٥٨، وما قبله منه.

(٤) سلف ٦/ ٨١.

(٥) في النسخ: أو، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٦) الاستذكار ٢٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣، والخبر في مصنف عبد الرزاق (١٨٤٣٩).

قلت: ومن هذا البابِ قولُه ﷺ: «العجماءُ جرحُها جُبَارٌ» الحديث. وقال ابن شهاب: والجُبار الهدر، والعجماء البهيمة[(١)]. قال علماؤنا: ظاهرُ قوله: «العجماءُ جُرْحُها جُبَار» أنَّ ما انفردت البهيمةُ بإتلافه لم يكن فيه شيءٌ، وهذا مُجْمَعٌ عليه. فلو كان معها قائدٌ أو سائقٌ أو راكبٌ، فحملها أحدهم على شيء فأتلفته، لزمه حكمُ المتلَف؛ فإن كانت جنايةً مضمونةً بالقصاص، وكان الحملُ عمداً، كان فيه القصاصُ ولا يُختلف فيه؛ لأنَّ الدابَّة كالآلة. وإن كان عن غير قصدٍ؛ كانت فيه الديةُ على العاقلة، وفي الأموال الغرامةُ في مال الجاني[(٢)].

الرابعة والعشرون: واختلفوا فيمَن أصابته برجلها أو ذَنَبها، فلم يضمِّن مالكٌ والليث والأوزاعيُّ صاحبها، وضمَّنه الشافعيُّ وابن أبي ليلى وابن شُبْرُمة. واختلفوا في الضَّارِيَة؛ فجمهورُهم أنَّها كغيرها، ومالكٌ وبعضُ أصحابه يضمِّنونه[(٣)].

الخامسة والعشرون: روى سفيان بن حسين، عن الزُّهريِّ، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «الرِّجْلُ جُبَارٌ»[(٤)] قال الدارقطنيُّ: لم يَرْوِه غيرُ سفيان بنِ حسين ولم يتابَع عليه، وخالفه الحُفَّاظ عن الزُّهريِّ؛ منهم مالكٌ وابنُ عيينةَ ويونسُ ومعمرٌ وابنُ جُريج والزبيديُّ وعقيلٌ وليث بنُ سعد وغيرهم، كلُّهم رَوَوْه عن الزُّهريِّ فقالوا: «العجماءُ جُبَارٌ، والبئر جُبَارٌ، والمعدنُ جُبَار»[(٥)] ولم يذكروا الرِّجل، وهو الصَّواب. وكذلك رواه أبو صالح السمان، وعبد الرحمن الأعرج، ومحمد بنُ سيرين، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة، لم يذكروا

---

(١) سنن الدارقطني (٣٣٠٤).

(٢) المفهم ٥/ ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٩٢)، والنسائي في الكبرى (٥٧٥٦)، والدارقطني (٣٣٠٦) و(٣٣٨٤)، وكلامه بعده فيه.

(٥) سلف تخريجه في المسألة الرابعة عشرة.

فيه: «والرِّجلُ جُبَارٌ»، وهو المحفوظُ عن أبي هريرة.

السادسة والعشرون: قولُه: «والبئر جُبار» قد رُوي موضعه: «والنار»؛ قال الدارقطنيُّ[(١)]: حدّثنا حمزة بن القاسم الهاشميُّ، حدَّثنا حنبل بن إسحاق قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بنَ حنبل يقول في حديث عبد الرزَّاق: حديثُ أبي هريرة: «والنارُ جُبَار» ليس بشيء، لم يكن في الكتاب[(٢)]، باطلٌ ليس هو بصحيح.

حدَّثنا محمد بن مَخْلَد، حدَّثنا أبو إسحاق إبراهيم بنُ هانئ قال: سمعت أحمد ابن حنبل يقول: أهلُ اليمن يكتبون النار: النير، ويكتبون البِير ـ يعني مثلَ ذلك ـ وإنما لُقِّن عبد الرزاق: «النار جبار»[(٣)]. قال الرَّمَاديّ[(٤)]: قال عبد الرزاق: قال معمر: لا أراه إلَّا وَهَماً.

قال أبو عمر: رويَ عن النبيِّ ﷺ [من] حديث مَعْمَر، عن همَّام بن مُنبِّه، عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «النار جُبار»[(٥)] وقال يحيى بن مَعِين: أصلُه: البئر، ولكنَّ معمراً صحَّفه. قال أبو عمر: لم يأتِ ابن مَعِين على قوله هذا بدليل، وليس هكذا تُردُّ أحاديثُ الثقات. ذكر وكيع، عن عبد العزيز بن حصين، عن يحيى بن يحيى الغسانيِّ

---

(١) في سننه (٣٣٠٨).

(٢) في مطبوع سنن الدارقطني: لم يكن في الكتب.

(٣) سنن الدارقطني (٣٣٠٩)، وحديث «النار جبار» أخرجه النسائي في الكبرى (٥٧٥٧)، وابن ماجه (٢٦٧٦)، والدارقطني (٣٣٠٧) من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن منبِّه، عن أبي هريرة به. وأخرجه أبو داود (٤٥٩٤) وابن حزم في المحلى ١١/ ٢٠ ، من طريق عبد الملك الصنعاني، عن معمر به. قال الخطابي في معالم السنن ٤/ ٤٠ : لم أزل أسمع أصحاب الحديث يقولون: غلط فيه عبد الرزاق، إنما هو: البئر، حتى وجدته لأبي داود عن عبد الملك الصنعاني عن معمر، فدلَّ أن الحديث لم ينفرد به عبد الرزاق. اهـ. وقال ابن حزم: هذا خبر صحيح تقوم به الحجة. وتتمة الكلام في هذا الحديث سترد من قول ابن عبد البر رحمه الله.

(٤) هو أحمد بن منصور، وذكر قوله الداقطني إثر الحديث (٣٣٠٧)، وهو الذي رواه عن عبد الرزاق عند الدارقطني.

(٥) في الاستذكار ٢٥/ ٢١٦ - ٢١٧ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

قال: أحرق رجل تبناً[(١)] في قَرَاحٍ له، فخرجت شررةٌ من نارٍ حتى أحرقت شيئاً لجاره. قال: فكتبت[(٢)] فيه إلى عمر بن عبد العزيز ﷺ[(٣)]، فكتب إليَّ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «العجماءُ جُبار» وأرى أنَّ النار جُبَار[(٤)].

وقد رُوي: «والسائمةُ جُبار»[(٥)] بدل العجماء. فهذا ما ورد في ألفاظ هذا الحديث، ولكلِّ معنًى لفظٌ صحيحٌ مذكورٌ في شرح الحديث وكتب الفقه.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ قال وَهْب: كان داودُ يمرُّ بالجبال مسبِّحاً والجبالُ تُجاوِبُه بالتسبيح، وكذلك الطير.

وقيل: كان داود إذا وجد فَترة أمر الجبال فسبحت حتى يشتاق؛ ولهذا قال: «وَسَخَّرْنَا» أي: جعلناها بحيث[(٦)] تطيعه إذا أمرها بالتسبيح.

وقيل: إنَّ سيرها[(٧)] معه [هو] تسبيحُها، والتسبيحُ مأخوذٌ من السباحة[(٨)]، دليله قوله تعالى: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال قتادة: «يُسَبِّحْنَ»: يُصلِّيْنَ معه إذا صلَّى[(٩)]، والتسبيحُ: الصلاة. وكلٌّ مُحتمِلٌ. وذلك فِعْلُ الله تعالى بها؛ ذلك لأنَّ الجبال لا تعقِل، فتسبيحُها دلالةٌ على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمُحْدثين.

---

(١) في (م): سافى، وفي (د): ساقى، وفي (ظ): بيتا في، والمثبت من (خ) و(ز) والاستذكار.

(٢) في النسخ: فكتب، والمثبت من الاستذكار.

(٣) بعدها في (د) و(ز) و(م): ابن حصين.

(٤) الاستذكار ٢٥/ ٢١٧ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٣٩٧ - ٣٩٨ ، ومن طريقه ذكره ابن حزم في المحلى ١١/ ٢٠ . والقراح: الأرض لا ماء فيها ولا شجر، أو المخلَّصة للزرع والغرس. القاموس (قرح).

(٥) أخرجه الدارمي (٢٣٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٨١٠) من حديث جابر ﷺ. وأخرجه الدارقطني (٣٣١٠) من طريق هزيل بن شرحبيل عن النبي ﷺ، مرسلاً.

(٦) قوله: بحيث، ليس في (ظ).

(٧) في (ظ): تسخيرها.

(٨) النكت والعيون ٣/ ٤٦٠ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٩) أخرْجه الطبري ١٦/ ٣٢٨ .

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ يعني اتِّخاذَ الدُّروع بإلانةِ الحديد له. واللَّبوسُ عند العرب: السلاحُ كلُّه؛ درعاً كان أو جَوْشَناً[(١)]، أو سيفاً أو رمحاً؛ قال الهُذَليُّ يصف رُمحاً:

ومَعِي لَبُوسٌ لِلْبَئِيسِ كأنَّهُ رَوْقٌ بجبهةِ ذي نِعَاجٍ مُجْفِلِ[(٢)]

واللَّبوسُ: كلُّ ما يُلبس، وأنشد ابن السِّكِّيت:

الْبَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها إمَّا نَعيمَها وإمَّا بُوسَهَا[(٣)]

وأراد الله تعالى هنا الدِّرع، وهو بمعنى الملبوس، نحو الرَّكوب والحَلُوب. قال قتادة: أوّلُ مَن صنع الدروع داود، وإنَّما كانت صفائحَ، فهو أوّلُ من سَرَدَها وحَلَّقها[(٤)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِيُحْصِنَكُمْ﴾: ليُحْرِزَكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: من حربكم. وقيل: من السيف والسَّهم والرمح، أي: من آلةِ بأسكم، فحذف المضاف. ابن عباس: من سلاحكم. الضحَّاك: من حرب أعدائكم[(٥)]. والمعنى واحدٌ.

وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر وحفصٌ ورَوْحٌ: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالتاء ردًّا على

---

(١) الجوشن: اسم الحديد الذي يلبس من السلاح. اللسان (جشن).

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٣٢٩، والهذلي هو أبو كبير عامر بن الحُلَيْس، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٩٨، وقال شارحه: ذي نعاج، يعني ثوراً. والرَّوْق: القَرْن. اهـ. والبئيس: الشجاع. القاموس (بئس).

(٣) الصحاح (لبس)، وإصلاح المنطق ص٣٦٧، والرجز لبيهس الفزاري كما في جمهرة الأمثال ٢/ ٢١٢، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٦٥٩، والخزانة ١١/ ١٠٣.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٧، والطبري ١٦/ ٣٢٩.

(٥) ذكر خبر ابن عباس وخبر الضحاك الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٠.

الصَّنْعة[1]، وقيل: على اللَّبوس والمَنَعة التي هي الدروع. وقرأ شيبةُ وأبو بكر والمفضَّل ورُوَيس وابن أبي إسحاق: «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون[2]؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾. وقرأ الباقون بالياء؛ جعلوا الفعل للَّبوس، أو يكون المعنى: لِيُحْصِنكم الله.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي: على تيسير نعمة الدروع لكم. وقيل: «هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ» بأن تطيعوا رسولي.

الثالثة: هذه الآيةُ أصلٌ في اتِّخاذ الصنائع والأسباب، وهو قولُ أهلِ العقول والألباب، لا قولُ الجَهَلةِ الأغبياء القائلين بأنَّ ذلك إنَّما شُرع للضُّعفاء، فالسببُ سُنَّةُ الله في خَلْقِه، فَمَن طَعَنَ في ذلك فقد طَعَنَ في الكتاب والسُّنة، ونَسَبَ مَن ذَكَرْنا إلى الضَّعْفِ وعَدمِ المِنَّة. وقد أخبر الله تعالى عن نبيِّه داودَ عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضاً يصنع [القفَّةَ من] الخُوْص[3]، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدمُ حَرَّاثاً، ونوحٌ نجَّاراً، ولقمانُ خيَّاطاً، وطالوتُ دَبَّاغاً، وقيل: سَقَّاءً. فالصنعةُ يكفُّ بها الإنسان نفسَه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس. وفي الحديث: «إنَّ الله يحبُّ المؤمن المُحترِفَ الضعيفَ[4] المتعفِّفَ، ويبغض السائل الملحِف»[5]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في سورة الفرقان[6]. وقد تقدَّم في غيرِ ما آيةٍ[7]

---

(١) في (د) و(م): الصفة، والمثبت من باقي النسخ وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٥ . والقراءة عن حفص وابن عامر في السبعة ص٤٣٠ ، والتيسير ص١٥٥ ، وعن أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٢٤ .

(٢) السبعة ص٤٣٠ ، والتيسير ص١٥٥ عن أبي بكر، والنشر ٢/ ٣٢٤ عن رُوَيْس.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص٩٣ عن عروة بن الزبير، وما بين حاصرتين منه، وقد سلف بنحوه ٧/ ٢٢٣ . والخوص بالضم: ورق النخل. القاموس (خوص).

(٤) في (ظ): والضعيف.

(٥) أخرجه ابن عدي ١/ ٣٦٩ ، وابن الجوزي في العلل (٩٦٨) مختصراً بلفظ: «إن الله يحب المؤمن المحترف» وقد سلف ٥/ ٢٩١ . وأخرجه بنحوه الطبراني في الكبير (١٠٤٤٢) من حديث أبي مسعود البدري ﷺ، والبزار (٢٠٣١ - كشف) من حديث أبي هريرة ﷺ، والطبري ٥/ ٣١ - ٣٢ عن قتادة عن النبي ﷺ، وهذه كلها أسانيد ضعيفة أو مرسلة. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ١/ ٢٣٩ : ولم يصح لهذا الحديث أصل، ولا عرف له سند.

(٦) عند تفسير الآية (٢٠) منها.

(٧) ينظر ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢ ، و ١٠/ ١٥٨ وما بعدها.

ما فيه كفايةٌ، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: وسخَّرْنا لسليمان الريح عاصفةً، أي: شديدةَ الهُبوب. يقال منه: عَصفت الريحُ، أي: اشتدَّت، فهي ريحٌ عاصِفٌ وعَصُوف. وفي لغةِ بني أسد: أعْصَفت الريحُ فهي مُعْصِفٌ ومُعْصِفة[1]. والعَصْفُ: التِّبن، فسمِّي به شدةُ الرِّيح؛ لأنها تعصفه بشدَّة تطيرها[2].

وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسُّلَميُّ[3] وأبو بكر: «ولِسليمانَ الرِّيحُ»[4] برفع الحاء على القطع ممَّا قبله؛ والمعنى: ولسليمان تسخيرُ الريح؛ ابتداءٌ وخبر.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ﴾ يعني الشام. يُروى أنها كانت تجري به وبأصحابه إلى حيث أراد، ثم تردُّه إلى الشام. وقال وهبٌ: كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجنُّ والإنس حتى يجلس على سريره. وكان امْرَأً غزَّاءً لا يقعد عن الغزو، فإذا أراد أن يغزو أمر بخُشبٍ، فمدَّتْ ورُفع عليها الناسُ والدَّوابُّ وآلةُ الحرب، ثم أمر العاصِفَ فأقلَّت ذلك، ثم أمر الرُّخَاءَ فمرَّت به شهراً في رَوَاحِه وشهراً في غُدُوِّه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[5] [ص:٣٦]. والرخاء اللينة. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ أي: بكلِّ شيء عملنا عالمين بتدبيره.

---

(١) الصحاح (عصف).

(٢) في (ظ): تطيره، ووقع في النكت والعيون ٣/ ٤٦٠ (والكلام منه): لأنها تعصفه لشدة تكسيرها له.

(٣) قوله: والسلمي، ليس في (ظ).

(٤) القراءات الشاذة ص٩٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٣٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٦ عن عبد الرحمن الأعرج، وهي في البحر ٦/ ٣٣٢، والدر المصون ٨/ ١٨٧ - ١٨٨ عن الأعرج وأبي بكر، ولم نقف عليها عن السلمي، وقراءة أبي بكر ـ وهو شعبة ـ المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٥) تفسير الطبري ١٦/ ٣٣١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٥٥.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: وسخرنا له مَن يغوصون، يريد: تحت الماء. أي: يستخرجون له الجواهرَ من البحر. والغَوْصُ: النزول تحت الماء، وقد غاص في الماء، والهاجِمُ على الشيء غائصٌ. والغوَّاص: الذي يغوص في البحر على اللُّؤلؤ، وفعلُه: الغِيَاصة[1].

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: سوى ذلك من الغَوْص؛ قاله الفرَّاء[2]. وقيل: يراد بذلك: المحاريبُ والتماثيل وغيرُ ذلك ممَّا يسخِّرهم فيه. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أي: لأعمالهم. وقال الفرَّاء: حافظين لهم مِن أن يُفْسِدوا أعمالهم[3]، أو يهيجوا أحداً من بني آدم في زمان سليمان. وقيل: حافظين من أن يهربوا أو يمتنعوا. أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره. وقد قيل: إن الحمَّام والنُّورة[4] والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: واذكر أيوبَ إذ نادى ربَّه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: نالني في بدني ضرٌّ وفي مالي وأهلي. قال ابن عباس: سمِّي أيوب لأنه آبَ إلى الله تعالى في كلِّ حال. وروي أنَّ أيوبَ عليه السلام كان رجلاً من الروم ذا مالٍ عظيم، وكان برًّا تقيًّا رحيماً بالمساكين، يكفُل الأيتام والأرامل، ويكرم

(١) الصحاح (غوص).

(٢) عبارة الفراء في معانيه ٢/ ٢٠٩ : ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون الغوص، يريد: سوى الغوص من البناء.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٩ .

(٤) النورة: الهِنَاء، والنُّورة من الحجر: الذي يحرق ويسوى منه الكلس، ويحلق به شعر العانة. ينظر تهذيب اللغة ١٥/ ٢٣٤ ، واللسان (نور).

الضيف، ويبلِّغ ابنَ السبيل، شاكراً لأَنْعُم الله تعالى، وأنه دخل مع قومه على جبَّارٍ عظيمٍ، فخاطبوه في أمر، فجعل أيوبُ يُلينُ له في القول من أجل زرعٍ كان له، فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله، وبالضرِّ في جسمه حتى تَناثَر لحمه وتدوَّد جسمه، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه[١].

قال الحسن: مكث بذلك سبعَ سنين وستةَ أشهر[٢]. فلما أراد الله أن يفرِّج عنه قال الله تعالى له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فيه شفاؤك، وقد وهبتُ لك أهلك[٣] وولدك ومثلَهم معهم. وسيأتي في «ص»[٤] ما للمفسرين في قصة أيوبَ من تسليط الشيطان عليه، والردّ عليهم إن شاء الله تعالى.

واختلف في قول أيوب: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» على خمسةَ عَشَرَ قولاً:

الأوّل: أنه وثب ليصلِّيَ فلم يقدر على النُّهوض فقال: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» إخباراً عن حاله، لا شكوى لبلائه؛ رواه أنسٌ مرفوعاً[٥].

الثاني: أنه إقرارٌ بالعجز، فلم يكن مُنافياً للصبر.

الثالث: أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجةً لأهل البلاء بعدَه في الإفصاح بما ينزل بهم.

الرابع: أنه أجراه على لسانه إلزاماً له في صفة الآدميّ في الضَّعْف عن تحمُّل البلاء.

---

(١) ما ذكر المصنف عن تناثر لحم النبيِّ أيوب عليه السلام وتدوّد جسمه وإخراجه من القرية، وغير ذلك مما سيذكره المصنف عن مرضه المنفِّر... كلُّه من الإسرائيليات، ولا تليق بعصمة الأنبياء عليهم السلام. قال القاسمي في محاسن التأويل ١١/ ٢٨٢: روى المفسرون هاهنا في بلاء أيوب روايات مختلفة بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثر وزن، ولا تُعار من الثقة أدنى نظر.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥٣.

(٣) بعدها في (م): ومالك.

(٤) عند تفسير الآية (٤١) منها.

(٥) النكْت والعيون ٣/ ٤٦٢.

الخامس: أنه انقطع الوحيُ عنه أربعين يوماً، فخاف هُجْرانَ ربِّه فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ». وهذا قول جعفر بن محمد[1].

السادس: أنَّ تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لمَّا أفضت حالُه إلى ما انتهت إليه؛ مَحَوْا ما كتبوا عنه، وقالوا: ما لهذا عند الله قَدْرٌ! فاشتكى الضرَّ في ذهاب الوحي والدِّين من أيدي الناس. وهذا ممَّا لم يصحَّ سنده، والله أعلم؛ قاله ابن العربيّ.

السابع: أنَّ دودةً سقطت من لحمه فأخذها وردَّها في موضعها، فعقرته فصاح: «مَسَّنيَ الضُّرُّ»، فقيل: أعلينا تتصبَّر. قال ابن العربي: وهذا بعيدٌ جدًّا، مع أنه يفتقر إلى نقلٍ صحيح، ولا سبيلَ إلى وجوده.

الثامن: أنَّ الدُّود كان يتناول بدنه، فصبر حتى تناولت دودةٌ قلبه، وأخرى لسانه، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» لاشتغاله عن ذكر الله. قال ابن العربيّ: وما أحسنَ هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة.

التاسع: أنَّه أُبهم عليه جهةُ أخذِ البلاء له: هل هو تأديبٌ، أو تعذيبٌ، أو تخصيص، أو تمحيص، أو ذُخر، أو طُهْر، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» أي: ضرُّ الإشكال في جهةِ أخذِ البلاء. قال ابن العربي: وهذا غُلوٌّ لا يُحتاج إليه.

العاشر: أنه قيل له: سَل الله العافيةَ، فقال: أقمتُ في النعيم سبعين سنة، فأقيم في البلاء سبعين سنة[2] وحينئذ أسأله، فقال: «مسَّنيَ الضُّرُّ». قال ابن العربيّ: وهذا ممكنٌ ولكنه لم يصحَّ في إقامته مدةٌ[3]، ولا في هذه القصة.

الحادي عشر: أنَّ ضرَّه قولُ إبليس لزوجه: اسجدي لي، فخاف ذهابَ الإيمان عنها، فتهلكُ ويبقى بغير كافل.

الثاني عشر: لمَّا ظهر به البلاء قال قومه: قد أَضرَّ بنا كونُه معنا وقَذَرُه، فليخرج

---

(١) النكت والعيون ٣/ ٤٦٣ .

(٢) في (م): وأقيم في البلاء سبع سنين.

(٣) بعدها في (م): خبر.

عنا، فأخرجته امرأته إلى ظاهر البلد، فكانوا إذا خرجوا رَأَوْه وتَطَيَّروا به وتشاءموا برؤيته، فقالوا: ليبعد بحيث لا نراه. فخرج إلى بعدٍ من القرية، فكانت امرأته تقوم عليه وتحمل قُوْتَه إليه. فقالوا: إنها تتناوله[(١)] وتُخالطنا، فيعود بسببه[(٢)] ضرُّه إلينا. فأرادوا قَطْعَها عنه، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ».

الثالث عشر: قال عبد الله بن عبيد بن عمير: كان لأيوبَ أخوان، فأتياه فقاما من بعيدٍ لا يقدران أن يدنوا منه من نَتَنِ ريحه، فقال أحدهما: لو علم الله في أيوبَ خيراً ما ابتلاه بهذا البلاء! فلم يسمع شيئاً أشدَّ عليه من هذه الكلمة، فعند ذلك قال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» ثم قال: اللهمَّ إنْ كنتَ تعلم أنِّي لم أَبِتْ شبعانَ قطُّ وأنا أعلم مكانَ جائع فصدِّقني. فنادى منادٍ من السماء: أنْ صَدَقَ عبدي، وهما يسمعان فخرَّا ساجِدَيْن[(٣)].

الرابع عشر: أنَّ معنى «مَسَّنيَ الضُّرُّ»: من شماتة الأعداء؛ ولهذا قيل له: ما كان أشدَّ عليك في بلائك؟ قال: شماتةُ الأعداء[(٤)]. قال ابن العربيّ: وهذا ممكنٌ فإنَّ الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

الخامس عشر: أن امرأته كانت ذاتَ ذوائبَ، فعَدِمَتْ[(٥)] حين مُنعتْ أن تتصرَّف لأحدٍ بسببه ما تَعُودُ به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممَّن يَصِلُها قوتاً وجاءت به إليه، وكان يستعين بذوائبها في تصرُّفه وتنقُّله، فلما عَدِمَها وأراد الحركة في تنقله لم يقدر، فقال: «مَسَّني الضُّرُّ».

---

(١) في (د) و(ظ): تناوله.

(٢) في (ظ): بسببها.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٦٣ وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٧٧ .

(٤) عرائس المجالس ص١٦٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٣ .

(٥) في (م): فعرفت، وفي (د) و(ظ): فقدمت.

وقيل: إنَّها لمَّا اشترت القوتَ بذوائبها، جاءه إبليس في صفة رجل وقال له: إنَّ أهلك بَغَتْ فأُخذتْ وحُلِقَ شعرها. فحلف أيوب أن يجلدها[١]؛ فكانت المحنةُ على قلب المرأة أشدَّ من المحنة على قلب أيوب.

قلت: وقول سادس عشر: ذكره ابن المبارك: أخبرنا يونس بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب: أنَّ رسول الله ﷺ ذكر يوماً أيوبَ النبيَّ ﷺ وما أصابه من البلاء، الحديث. وفيه: أنَّ بعض إخوانه ممن صابَرَه ولازَمَه قال: يا نبيَّ الله، لقد أعجبني أمرك، وذكرتُ[٢] إلى أخيك وصاحبك: أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفي جسدك منذ ثماني عشرةَ سنةً، حتى بلغتَ ما ترى، لا[٣] يرحمك فيكشف عنك! لقد أذنبتَ ذنباً ما أظنُّ أحداً بلغه! فقال أيوبُ عليه السلام: ما أدري ما تقولان! غيرَ أنَّ ربِّي عزَّ وجلَّ يعلم أنِّي كنت أمرُّ على الرجلين يتزاعمان فكلٌّ يحلف بالله ـ أو على النَّفَر يتزاعمون ـ فأنقلبُ إلى أهلي فأكفِّر عن أيمانهم؛ إرادةَ ألَّا يأثَم أحدٌ ذَكَره، ولا يَذْكُرَه أحدٌ إلَّا بالحقّ، فنادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وإنَّما كان دعاؤه عَرْضاً عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذي بلغه، صابراً لِمَا يكون من الله تبارك وتعالى فيه. وذكر الحديث[٤].

وقولٌ سابع عشر، سمعتُه ولم أَقِفْ عليه: أنَّ دودةً سقطت من جسده، فطلبها ليردَّها إلى موضعها فلم يجدها، فقال: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» لمَا فَقَدَ من أَجْرِ أَلَمِ تلك

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٦١ بنحوه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وذكرته، والمثبت من (ظ) والزهد لابن المبارك.

(٣) في (ظ) و(م): ألا، والمثبت من باقي النسخ والزهد.

(٤) الزهد لابن المبارك (١٧٩ - زوائد نعيم). قوله: يتزاعمان، أي: يتداعيان شيئاً فيختلفان فيه فيحلفان عليه. النهاية (زعم).

وأخرجه البزار (٢٣٥٧ - كشف)، وأبو يعلى (٣٦١٧)، وابن حبان (٢٨٩٨)، والطبري ٢٠/ ١٠٩-١١٠، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٧٤ - ٣٧٥ من طريق نافع بن يزيد، عن عقيل (وهو ابن خالد الأيلي) عن ابن شهاب، عن أنس، عن النبي ﷺ. وصححه الحاكم، وقال أبو نعيم: غريب من حديث الزهري، لم يروه عنه إلا عقيل، ورواته متفق على عدالتهم، تفرد به نافع. وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٥١١: وهذا رَفْعُه غريب جدًّا، والأشبه أن يكون موقوفاً.

الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفَّراً إلى وقت العافية، وهذا حسنٌ إلَّا أنَّه يحتاج إلى سند.

قال العلماء: ولم يكن قوله: «مَسَّنيَ الضُّرُّ» جَزَعاً؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، بل كان ذلك دعاءً منه، والجزعُ في الشكوى إلى الخَلْق لا إلى الله تعالى، والدعاءُ لا يُنافي الرضا. قال الثعلبي: سمعتُ أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرتُ مجلساً غاصًّا بالفقهاء والأدباء في دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية، بعد إجماعهم على أنَّ قول أيوب كان شكايةً، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾؟ فقلت: ليس هذا شكايةً وإنما كان دعاء، بيانُه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ والإجابةُ تتعقَّب الدعاء لا الاشتكاءَ. فاستَحْسَنوه وارتَضَوْه.

وسئل الجنيد عن هذه الآية فقال: عرَّفه فاقةَ السؤال لِيَمُنَّ عليه بكرم النَّوال[1].

قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ قال مجاهد وعكرمة: قيل لأيوبَ ﷺ: قد آتيناك أهلك في الجنة، فإن شئتَ تركناهم لك في الجنة، وإن شئتَ آتيناكهم في الدنيا. قال مجاهد: فتركهم الله عزَّ وجلَّ له في الجنة وأعطاه مثلَهم في الدنيا. قال النحاس[2]: والإسنادُ عنهما بذلك صحيح.

قلت: وحكاه المهدويُّ عن ابن عباس.

وقال الضحاك: قال عبد الله بن مسعود: كان أهل أيوبَ قد ماتوا إلَّا امرأتَه، فأحياهم الله عزَّ وجلَّ في أقلَّ من طرف البصر، وآتاه مثلَهم معهم. وعن ابن عباس أيضاً: كان بنُوه قد ماتوا، فأُحيوا له وولد له مثلُهم معهم[3]. وقاله قتادة وكعب

---

(١) عرائس المجالس ص١٦٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٧٦ ، وما قبله منه، وقول مجاهد أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٣٦٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٦ - ٧٧ ، وأخرج الطبري ١٦/ ٣٦٦ خبر ابن عباس بنحوه، وخبر ابن مسعود مختصراً، وأخرجه أيضاً عن ابن مسعود الطبراني في الكبير (٩٠٨٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٦٧ : إسناده منقطع. وقال الحافظ في التهذيب ٢/ ٢٢٦ ، عن الضحاك: وقيل: لم يثبت له سماع من أحد من الصحابة.

الأحبار والكلبيُّ وغيرهم. قال ابن مسعود: مات أولاده، وهم سبعةٌ من الذكور، وسبعةٌ من الإناث، فلمَّا عوفي نُشروا له، وولدتْ امرأته سبعةَ بنينَ وسبعَ بنات[(١)]. الثعلبيّ[(٢)]: وهذا القول أشبهُ بظاهر الآية.

قلت: لأنهم ماتوا ابتلاءً قبل آجالهم، حسب ما تقدَّم بيانُه في سورة البقرة، في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حَذَرَ الموت، وفي قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أُحيوا[(٣)]، وذلك أنَّهم ماتوا قبل آجالهم، وكذلك هنا، والله أعلم.

وعلى قول مجاهد وعكرمةَ يكون المعنى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ في الآخرة ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا.

وفي الخبر: إنَّ الله بعث إليه جبريل عليه السلام حتى[(٤)] ركض برجله على الأرض ركضة[(٥)] فظهرت عينُ ماء حارّ، وأخذ بيده ونَفَضَه نفضةً فتناثرت عنه الديدان، وغَاص في الماء غوصةً فنبت لحمه، وعاد إلى منزله، وردَّ الله عليه أهلَه ومثلَهم معهم، ونشأت سحابةٌ على قَدْرِ قواعد داره، فأمطرت ثلاثةَ أيام بلياليها جراداً من ذهب. فقال له جبريل: أَشَبِعْتَ؟ فقال: ومَن يشبعُ من فضل الله؟ فأوحى الله إليه: قد أثنيتُ عليك بالصبر قبل وقوعك في البلاء وبعده، ولولا أنِّي وضعتُ تحت كلِّ شعرةٍ منكَ صَبْراً ما صبرت[(٦)].

---

(١) ذكره أبو الليث ٢/٣٧٦ عن الكلبي، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٤ عن الفراء، وينظر التعليق السابق.

(٢) في عرائس المجالس ص٣٢٦ .

(٣) ليس في ذلك نص صحيح، وينظر ٢/ ١١٥ و ٤/ ٢٠٩ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): حين.

(٥) قوله: ركضة، ليس في (ظ).

(٦) نقل الشيخ أبو شهبة رحمه الله في «الإسرائيليات» ص٢٨١ عن أبي بكر ابن العربي قوله: لم يصحَّ عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين: الأولى في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ =

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: فَعَلْنا ذلك به رحمةً من عندنا. وقيل: ابتليناه ليعظُم ثوابُه غداً. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: وتذكيراً للعباد؛ لأنَّهم إذا ذكروا بلاءَ أيوب، وصبرَه عليه، ومحنته[1] له، وهو أفضلُ أهلِ زمانه، وطَّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نَحْوَ ما فَعَلَ أيوب، فيكونُ هذا تنبيهاً لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضَّرر.

واختلف في مدة إقامته في البلاء؛ فقال ابن عباس: كانت مدَّةُ البلاء سبعَ سنين وسبعةَ أشهرٍ وسبعةَ أيامٍ وسبعَ ليال[2]. وهب: ثلاثين سنة[3]. الحسن: سبع سنين وستةَ أشهر[4].

قلت: وأصحُّ من هذا والله أعلم: ثماني عَشْرةَ سنةً؛ رواه ابن شهاب عن النبيِّ ﷺ، ذكره ابن المبارك وقد تقدّم[5].

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ﴾ وهو أخنوخ وقد تقدَّم[6] ﴿وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أي:

= ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ والثانية: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. وأما النبي ﷺ؛ فلم يصحَّ عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله: «بينما أيوب يغتسل؛ إذ خرَّ عليه رِجْل من جراد من ذهب.. الحديث. اهـ. وهو في صحيح البخاري (٣٣٩١)، وتتمته: فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا ربّ، ولكن لا غنى لي عن بركتك». قال: وإذا لم يصحَّ فيه قرآن، ولا سنة إلا ما ذكرنا، فمن الذي يوصل السامع إلى أيوب خبره؟ أم على أيِّ لسان سمعه؟ والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمَّ عن سماعها أذنيك، فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تزيد فؤادك إلا خبالاً.

(١) في (د) و(ز): ومحبته.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ٢٦١ عن كعب، دون قوله: وسبع ليال.

(٣) كذا في النسخ، والذي أخرجه الطبري ١٦/ ٣٥٤ عن وهب أنه قال: لبث في البلاء ثلاث سنين لم يزد يوماً واحداً، وكذا ذكره الثعلبي في العرائس ص١٦٤ ، والبغوي ٣/ ٢٦١ .

(٤) سلف ص٢٥٧ من هذا الجزء .

(٥) ص٢٦٠ من هذا الجزء، وينظر فتح الباري ٦/ ٤٢١-٤٢٣ .

(٦) ١٣/ ٤٦٦ .

واذكرهم. وخرَّج الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول»[١] وغيره من حديث ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «كان في بني إسرائيل رجلٌ يقال له: ذو الكفل، لا يتورَّع من ذنبٍ عَمِلَه، فاتَّبع امرأة، فأعطاها ستِّين ديناراً [على أن يطأها]. فلمَّا قعد منها مَقْعَدَ الرجل من امرأته ارتعدتْ وبكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: من هذا العمل، واللهِ ما عملته قط، قال: أَكْرهتُك؟ قالت: لا، ولكن حملني عليه الحاجةُ، قال: اذهبي فهو لك، والله لا أعصي الله بعدها أبداً. ثم مات من ليلته، فوجدوا مكتوباً على باب داره: إنَّ الله قد غفر لذي الكفل».

وخرجه أبو عيسى الترمذيُّ أيضاً؛ ولَفْظُه: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبيَّ ﷺ يحدِّث حديثاً لو لم أسمعه إلَّا مرةً أو مرتين ـ حتى عدَّ سبعَ مرَّاتٍ ـ ولكنِّي سمعته أكثر من ذلك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كان الكفل[٢] من بني إسرائيل لا يتورَّع من ذنبٍ عَمِلَه، فأتته امرأةٌ فأعطاها ستِّين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد منها مقعدَ الرجل من امرأته ارتعدتْ وبكت، فقال: ما يبكيكِ، أأكرهتُكِ؟ قالت: لا، ولكنه عملٌ ما عملتُه قطُّ، وما حملني عليه إلا الحاجةُ. فقال: تفعلين أنتِ هذا وما فعلتِه! اذهبي فهي لك، وقال: والله لا أعصي الله بعدها أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: إنَّ الله قد غفر للكِفْل»[٣] قال: حديث حسن[٤].

وقيل: إنَّ اليسع لمَّا كبر قال: لو استخلفتُ رجلاً على الناس حتى أنظرَ كيف يعمل. فقال: مَن يتكفَّل لي بثلاث: بصيام النهار، وقيامِ الليل، وألَّا يغضب وهو يقضي؟ فقال رجل من ذرِّية العيص: أنا، فردَّه، ثم قال مثلَها من الغد، فقال الرجل:

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع منه.

(٢) في النسخ: ذو الكفل، والمثبت من سنن الترمذي.

(٣) في (خ) و(ظ) و(م): لذي الكفل، والمثبت من (د) و(ز) وسنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٢٤٩٦)، وهو عند أحمد (٤٧٤٧)، وما بين حاصرتين منهما. قال ابن كثير في البداية والنهاية ١/ ٥١٩ : حديث غريب جداً، وفي إسناده نظر. . . وإن كان محفوظاً فليس هو ذا الكفل، وإنما لفظ الحديث: الكفل، فهو رجل آخر غير المذكور في القرآن.

أنا، فاستخلفه فوفَّى، فأثنى الله عليه فسمِّي ذا الكفل؛ لأنه تكفَّل بأمر [فوفَّى به]؛ قاله أبو موسى ومجاهد وقتادة(١). وقاله(٢) عبد الله بن الحارث(٣).

وقال أبو موسى عن النبيِّ ﷺ: إنَّ ذا الكفل لم يكن نبيًّا، ولكنه كان عبداً صالحاً، فتكفَّل بعملِ رجلٍ صالحٍ عند موته، وكان يصلِّي لله كلَّ يومٍ مئةَ صلاة، فأحسنَ الله الثناءَ عليه(٤).

وقال كعب: كان في بني إسرائيل ملكٌ كافر، فمرّ ببلاده رجلٌ صالح فقال: والله إن خرجتُ من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام. فعرض عليه، فقال: ما جزائي؟ قال: الجنة ـ ووصفها له ـ قال: مَن يتكفَّل لي بذلك؟ قال: أنا، فأسلم الملك وتخلَّى عن المملكة، وأقبل على طاعة ربِّه حتى مات، فدُفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجةً من القبر وفيها رقعةٌ خضراء مكتوبٌ فيها بنورٍ أبيضَ: إنَّ الله قد غفر لي وأدخلني الجنة ووفَى بكفالة(٥) فلان. فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان، و يتكفَّلَ لهم بما تكفَّل به للملك، ففعل ذلك فآمنوا كلُّهم، فسمِّي ذا الكفل.

وقيل: كان رجلاً عفيفاً يتكفَّل بشأن كلِّ إنسانٍ وقع في بلاءٍ أو تهمةٍ أو مطالبةٍ، فينجِّيه الله على يديه.

وقيل: سمِّي ذا الكفل لأن الله تعالى تكفَّلَ له في سعيه وعمله بضِعْفِ عمل(٦) غيره من الأنبياء الذين كانوا في زمانه.

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٦/٣٦٩ - ٣٧٣، وخبر مجاهد فيه مطوَّل، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): وقال.

(٣) في النسخ: عمرو بن عبد الله بن الحارث، وهو خطأ، فقد أخرجه الطبري ١٦/٣٦٨ من طريق المنهال ابن عمرو عن عبد الله بن الحارث.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/٢٧، والطبري ١٦/٣٧٢ من طريق قتادة عن أبي موسى ﷺ موقوفاً. وهو منقطع، وأخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في البداية والنهاية ١/٥١٨ ـ من طريق قتادة، عن كنانة بن الأخنس، عن أبي موسى موقوفاً أيضاً.

(٥) في (خ) و(د) و(ز): كفالة، وفي (م): عن كفالة، والمثبت من (ظ).

(٦) في (د) و(ز): على.

والجمهورُ على أنه ليس بنبيّ. وقال الحسن: هو نبيٌّ قبل إلياس[١]. وقيل: هو زكريا بكفالة[٢] مريم. ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على أمر الله، والقيامِ بطاعته، واجتنابِ معاصيه. ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ أي: في الجنة ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: واذكر ذا النُّون، وهو لقبٌ ليونس بن متَّى لقِّب به[٣] لابتلاع النون إياه. والنونُ: الحوت. وفي حديث عثمان ﷺ: أنه رأى صبيًّا مَليحاً فقال: دَسِّموا نُونَته كي لا تصيبَه العين[٤]. روى ثعلب عن ابن الأعرابيِّ: النّونةُ: النقبة[٥] التي تكون في ذقن الصبيِّ الصغير، ومعنى دسِّموا: سَوِّدوا.

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ قال الحسن والشعبيُّ وسعيد بن جبير: مغاضباً لربِّه عزَّ وجلَّ. واختاره الطبريُّ[٦] والقُتَبيُّ[٧] واستحسنه المهدويُّ، ورُوي عن ابن مسعود. قال النحاس: وربَّما أنكر هذا مَن لا يعرف اللغةَ، وهو قولٌ صحيح. والمعنى: مغاضباً من أجل ربِّه، كما تقول: غضبتُ لك، أي: من أجلك. والمؤمنُ يغضب لله عزَّ وجلَّ إذا عُصي. وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أنَّ قول النبيِّ ﷺ لعائشة: «اشترطي لهم الولاءَ» من هذا[٨].

---

(١) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٤.

(٢) في (ظ): تكفل، وذكر هذا القول الثعلبي في عرائس المجالس ص٢٦٤، والبغوي ٣/ ٢٦٥ دون نسبة.

(٣) قوله: لقب به، من (ظ).

(٤) ذكره الخطابي في غريب الحديث ٢/ ١٣٩، والزمخشري في الفائق ١/ ٤٢٤، وابن الجوزي في غريب الحديث ١/ ٣٣٧، وابن الأثير في النهاية (دسم) و(نون).

(٥) وقع في شرح هذه الكلمة في المصادر السابقة: النقرة، بدل: النقبة.

(٦) في التفسير ١٦/ ٣٧٧، وأخرج قول الحسن والشعبي وسعيد بن جبير ١٦/ ٣٧٦ - ٣٧٨.

(٧) في تأويل مشكل القرآن ص٣١٤ - ٣١٥.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٧، والحديث سلف ٣/ ٣١٨.

وبالغ القُتَبيُّ في نصرة هذا القول، وفي الخبر في وصف يونس: إنَّه كان ضيِّق الصدر، فلمَّا حُمِّل أعباء النبوَّة تَفسَّخ تحتها تفسُّخ الرُّبَع تحت الحمل الثقيل، فمضَى على وجهه مُضيَّ الآبِقِ النادِّ[١].

وهذه المغاضبةُ كانت صغيرة، ولم يغضب على الله، ولكن غضب لله؛ إذ رَفَع العذاب عنهم. قال ابن مسعود: أبق من ربِّه، أي: من أمرِ ربِّه، حين[٢] أمره بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم. فإنه كان تَوَعَّد[٣] قومَه بنزول العذاب في وقتٍ معلوم، وخرج من عندهم في ذلك الوقت، فأظلَّهم العذاب، فتضرَّعوا، فرُفع عنهم، ولم يعلم يونس بتوبتهم؛ فلذلك ذهب مغاضباً، وكان من حقِّه ألَّا يذهبَ إلَّا بإذنٍ محدَّد[٤].

وقال الحسن: أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه، فسأل أن يُنظَر ليتأهَّب، فأعْجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلاً ليلبسها فلم يُنظَر، وقيل له: الأمر أَعْجَلُ من ذلك، وكان في خُلُقه ضِيقٌ، فخرج مغاضباً لربِّه[٥]. فهذا قولٌ، وقول النحاس أحسنُ ما قيل في تأويله. أي: خرج مغاضباً من أَجْلِ ربِّه، أي: غضب على قومه من أجل كفرهم بربِّه.

وقيل: إنه غاضَبَ قومَه حين طال عليه أمرهم وتعنُّتهم، فذهب فارًّا بنفسه ولم يصبر على أذاهم، وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجَه من بينهم من غير إذنٍ من الله. روي معناه عن ابن عباس والضحَّاك، وأنَّ يونس كان شابًّا ولم يحمل أثقال النبوَّة؛ ولهذا قيل للنبيِّ ﷺ: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨][٦].

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص٣١٦، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٦ عن وهب بن منبه. والرُّبَع: الفصيل الذي ينتج في الربيع، و تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل: إذا لم يُطِقْه. اللسان (ربع). و(فسخ).

(٢) في (ز) و(م): حتى.

(٣) في النسخ عدا (د): يتوعد، والمثبت من (د).

(٤) ذكره مطولاً البغوي ٢/ ٣٦٩ عن ابن مسعود وسعيد بن جبير ووهب بن منبه، وأخرجه بنحوه عن ابن مسعود ابن أبي شيبة ١١/ ٥٤١ – ٥٤٢.

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٣٧٧.

(٦) المحْرر الوجيز ٤/ ٩٦، وأخرج قول ابن عباس والضحاك الطبري ١٦/ ٣٧٤ مختصراً.

وعن الضحاك أيضاً: خرج مغاضباً لقومه؛ لأنَّ قومه لمَّا لم يقبلوا منه وهو رسولٌ من الله عزَّ وجلَّ، كفروا بهذا، فوجَبَ أن يغاضبهم، وعلى كلِّ أحدٍ أن يغاضب مَن عصى الله عزَّ وجلَّ.

وقالت فرقةٌ منهم الأخفش[١]: إنَّما خرج مغاضباً للملك الذي كان على قومه؛ قال ابن عباس: أراد شعيا النبيُّ والملكُ الذي كان في وقته ـ اسمُه حزقيا[٢] ـ أن يبعثا يونسَ إلى ملك نينوى ـ وكان غزا بني إسرائيلَ وسبَى الكثير منهم ـ ليكلِّمه حتى يرسل معه بني إسرائيل، وكان الأنبياء في ذلك الزمان يوحَى إليهم، والأمرُ والسياسةُ إلى ملكٍ قد اختاروه، فيعملُ على وَحْيِ ذلك النبيِّ، وكان أوحى الله إلى شعيا: أنْ قل لحزقيا[٣] الملكِ أن يختار نبيًّا قويًّا أميناً من بني إسرائيل، فيبعثه إلى أهل نِينوى، فيأمرهم بالتخلية عن بني إسرائيل، فإنِّي ملقٍ في قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخليةَ عنهم. فقال يونس لشعيا: هل أَمَرك الله بإخراجي؟ قال: لا. قال: فهل سمَّاني لك؟ قال: لا. قال: فها هنا أنبياءُ أمناءُ أقوياء! فألَحُّوا عليه، فخرج مغاضباً للنبيِّ والملكِ وقومه، فأتى بحر الروم، وكان من قصته ما كان[٤]. فابتُلي ببطن الحوت لتَرْكه أمر شعيا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ والمُليم: مَن فَعَل ما يُلام عليه. وكان ما فَعَله إمَّا صغيرةً، أو تَرْكَ الأَوْلى.

وقيل: خرج ولم يكن نبيًّا في ذلك الوقت، ولكنْ أَمَره ملكٌ من ملوك بني إسرائيل أن يأتي نِينوى ليدعوَ أهلها بأمر شعيا، فأَنِفَ أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحدٍ غيرِ الله، فخرج مغاضباً للملك، فلما نجا من بطن الحوت بَعَثه الله إلى قومه، فدعاهم وآمنوا به.

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٥ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): حزقيل.

(٣) في د) و(ز) و(ظ): لحزقيل.

(٤) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص٤١٠ .

وقال القشيريُّ: والأظهَرُ أنَّ هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلَّهم؛ فإنه كره رَفْعَ العذاب عنهم.

قلت: هذا أحسنُ ما قيل فيه، على ما يأتي بيانُه في «والصافات»(١) إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنه كان من أخلاق قومه قتلُ مَن جرَّبوا عليه الكذبَ، فخشيَ أن يُقتَل، فغضب وخرج فارًّا على وجهه حتى ركب في سفينة(٢)، فسكنت ولم تَجْر، فقال أهلها: أفيكم آبِقٌ؟ فقال: أنا هو. وكان من قصَّته ما كان، فابتُلي ببطن الحوت تمحيصاً من الصغيرة كما قال في أهل أُحدٍ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾(٣) [آل عمران: ١٥٢-١٥٤]. فمعاصي الأنبياءِ مغفورةٌ، ولكنْ قد يجري تمحيصٌ، ويتضمَّنُ ذلك زجراً عن المعاودة.

وقول رابع: أنَّه لم يغاضب ربَّه، ولا قومه، ولا الملك، وأنه من قولهم: غضب: إذا أَنِفَ. وفَاعَلَ قد يكون من واحد، فالمعنى: أنه لمَّا وَعَدَ قومه بالعذاب وخرج عنهم، تابوا وكُشفَ عنهم العذاب، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أَنِفَ من ذلك، فخرج آبقاً(٤)، وينشد هذا البيت:

وأغضب أن تُهجى تميمٌ بدارِمِ(٥)

---

(١) عند تفسير الآية (١٣٩).

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٩٧ . وقال ابن عطية: وفي هذا القول من الضعف ما لا خفاء به، مما لا يتصف به نبي.

(٣) في النسخ: وليمحص الله الذين آمنوا، وهي الآية (١٤١) من «آل عمران».

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٣١٤ - ٣١٥ ، وقال ابن قتيبة: خشي أن ينسب إلى الكذب ويُعيَّر به، لا سيما ولم تكن قرية آمنت عند حضور العذاب فنفعها إيمانها غير قومه، فدخلته الأنفة والحميَّة.

(٥) تأويل مشكل القرآن ص٣١٥ وفيه: وأعبد، بدل: وأغضب، والبيت للفرزدق، كما في إصلاح المنطق ص٥٩ ، والصحاح (عبد)، والحلل للبطلَيْوسي ص١٤٢ ، وهو عندهم برواية:

أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم وأَعْبَدُ أن أهجو كليباً بدارِمِ =

أي: آنَفُ. وهذا فيه نظر؛ فإنه يقال لصاحب هذا القول: إنَّ تلك المغاضبةَ وإن كانت من الأنفة، فالأنَفةُ لابدَّ أن يخالطها الغضب وإن دقَّ(١)، وأنت تقول: لم يغضب على ربِّه ولا على قومه، فذلك الغضبُ الذي يخالطُ الأنفةَ؛ على مَن كان؟!(٢).

قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قيل: معناه: استزلَّه إبليس، ووقع في ظنِّه إمكانُ ألَّا يقدِرَ الله عليه بمعاقبته(٣). وهذا قولٌ مردودٌ مرغوبٌ عنه؛ لأنه كفر. روي عن سعيد بن جبير، حكاه عنه المهدوي، والثعلبيُّ عن الحسن(٤).

وذكر الثعلبيُّ: وقال عطاء(٥) وكثيرٌ من العلماء: معناه: فظنَّ أنْ لن نضيِّق عليه الحبسَ(٦)، من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] أي: يضيِّق، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧].

قلت: وهذا الأشبهُ بقول سعيد والحسن. وقَدَر وقُدِرَ وقَتَر وقُتِر بمعنى، أي: ضيّق، وهو قولُ ابن عباس فيما ذكره الماورديّ(٧) والمهدويّ.

= ووقع في الحلل: آبائي، بدل: أحلاسي. وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٣٨، والعسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٥١٢ برواية:

أولئك قوم إن هجوني هجوتهم وأغبَدُ..................

ولم نقف عليه برواية: وأغضب. قال ابن قتيبة: العَبَد أصله: الغضب، ثم قد تسمَّى الأنفة عَبَداً.

(١) بعدها في النسخ: على من كان، ولا معنى لها هنا، وسترد في موضعها، ووقع بعد قوله: يخالطها الغضب في (م): وذلك الغضب.

(٢) قوله: فذلك الغضب الذي يخالط الأنفة على من كان، ليس في (م).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧.

(٤) عرائس المجالس ص٤١٢، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٠.

(٥) بعدها في النسخ عدا (ظ): وسعيد بن جبير، والمثبت من (ظ)، وعرائس المجالس ص٤١٢، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٦.

(٦) وقع في النسخ: قال الحسن، وهو تحريف، والمثبت من عرائس المجالس وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٦، وتفسير أبي الليث ٢/ ٣٧٧، والوسيط ٣/ ٢٤٩.

(٧) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٦.

وقيل: هو من القَدَر الذي هو القضاء والحكم، أي: فظنَّ أنْ لن نقضيَ عليه العقوبةَ؛ قاله قتادةُ ومجاهدٌ والفرَّاء[١]. مأخوذٌ من القَدَر، وهو الحكمُ، دون القدرة والاستطاعة. ورويَ عن أبي العباس أحمدَ بنِ يحيى ثعلب أنه قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: هو من التقدير؛ ليس من القدرة، يقال منه: قدَر الله لك الخير يَقْدِرُه قَدْراً، بمعنى: قدَّر الله لك الخير، وأنشد ثعلب:

فليست عشيّاتُ اللِّوى[٢] برواجعٍ لنا أبداً ما أبرمَ[٣] السَّلَمَ النَّضْرُ

ولا عائداً[٤] ذاك الزمان الذي مضى تباركْتَ ما تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ

يعني: ما تقدِّره وتقضي به يقع[٥]. وعلى هذين التأويلين العلماء.

وقرأ عمر بن عبد العزيز والزُّهريُّ: «فظَنَّ أنْ لن نُقَدِّرَ عليه» بضمِّ النون وتشديد الدال[٦] من التقدير. وحكى هذه القراءة الماورديُّ عن ابن عباس[٧].

وقرأ عبيد بن عمير وقتادةُ والأعرج: «أنْ لن يُقَدَّرَ عليه» بضم الياء مشدَّداً على الفعل المجهول[٨].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٠٩ ، والنكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وأخرج قول مجاهد وقتادة الطبري ١٦/ ٣٧٩ ، وذكره عنهما البغوي ٣/ ٢٦٦ .

(٢) في المصادر الآتية: الحمى.

(٣) في (د) و(ز) و(م): أورق، وكذا وردت في بعض المصادر على ما يأتي.

(٤) في (ظ) و(م): عائد، والمثبت من باقي النسخ والتمهيد ١٨/ ٤٤ ، والكلام منه.

(٥) التمهيد ١٨/ ٤٤ ، وورد كلام ثعلب أيضاً ولكن دون الشعر في ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٦٣-٣٦٤ . والبيتان من قصيدة لأبي صخر الهذلي كما ذكر ابن عبد البر، وذكرهما القالي في أماليه ١/ ١٥٠ دون نسبة، وذكر البيت الأول أبو الفرج في الأغاني ٢٤/ ١٢٤ عن أبي صخر برواية: أورق السلم.
قال ابن عبد البر: السلم، شجر من العضاه يدبغ به، والنضر: النضارة والتنعم، وأبرم السلم: أخرج برمته. اهـ. والبرمة ثمر السلم، والعضاه: كلُّ ذات شوك. معجم متن اللغة (برم) و(عضه).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٢٦٦ ، وتفسير الرازي ٢٢/ ٢١٥ ، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وأبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥ عن الزهري وحده.

(٧) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ .

(٨) ذكرها الرازي في التفسير ٢٢/ ٢١٥ عن عبيد بن عمير وحده، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٨١ دون نسبة.

وقرأ يعقوبُ وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن وابن عباس أيضاً: «يُقْدَرَ عليه» بياء مضمومة وفتحِ الدَّال مخفَّفاً على الفعل المجهول(١).

وعن الحسن أيضاً: «فظَنَّ أن لن يَقْدِرَ عليه»(٢). الباقون «نَقْدِرَ» بفتح النون وكسر الدال، وكلُّه بمعنى التقدير.

قلت: وهذان التأويلان تَأَوَّلهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قطُّ لأهله: «إذا مات فحرِّقوه، فوالله لئن قَدَر الله عليَّ» الحديث. فعلى التأويل الأوّل يكون تقديره: والله لئن ضيَّق الله عليَّ وبالَغ في محاسبتي وجزائي(٣) على ذنوبي ليكوننَّ ذلك، ثم أمر أن يُحرق [بعد موته من] إفراط(٤) خوفه.

وعلى التأويل الثاني: أي: لئن كان سَبَقَ في قدر الله وقضائه أن يعذِّب كلَّ ذي جُرْمٍ على جرمه، ليعذِّبني الله على إجرامي وذنوبي عذاباً لا يعذِّبه أحداً من العالمين غيري.

وحديثه خرَّجه الأئمة في «الموطأ» وغيره(٥). والرجلُ كان مؤمناً موحِّداً، وقد جاء في بعض طرقه: «لم يعمل خيراً قطُّ إلا التوحيد»(٦) وقد قال حين قال الله تعالى له: «لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب» والخشيةُ لا تكون إلا لمؤمنٍ مصدِّقٍ

(١) النشر ٢/ ٣٢٤ عن يعقوب، وذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥ عن ابن أبي ليلى وأبي شرف والكلبي ويعقوب.

(٢) ذكرها عن الحسن النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وأبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٥ .

(٣) في (ز): وجزاني، والمثبت من باقي النسخ والتمهيد ١٨/ ٤٣ والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه. ووقع في الاستذكار ٨/ ٣٦٩ : وجازاني.

(٤) في النسخ: بإفراط، والمثبت من التمهيد.

(٥) الموطأ ١/ ٢٤٠ ، وصحيح البخاري (٣٤٨١) و(٧٥٠٦)، وصحيح مسلم (٥٧٥٦)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرْجه بهذه الرواية أحمد (٨٠٤٠).

[بل ما تكاد تكون إلا لمؤمن عالم] قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨][١].

وقد قيل: إنَّ معنى «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» الاستفهام، وتقديره: أفظنَّ، فحذف ألف الاستفهام إيجازاً، وهو قول سليمان أبي المعتمر[٢]. وحكى القاضي منذر بنُ سعيد: أنَّ بعضهم قرأ: «أفظنَّ» بالألف[٣].

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: «فنادى في الظُّلُمات» اختلف العلماء في جمع الظلمات؛ ما المراد به؟ فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة: ظلمةُ الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت[٤]. وذكر ابن أبي الدنيا: حدَّثنا يوسف بن موسى، حدَّثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: حدَّثنا عبد الله بن مسعود في بيت المال قال: لمَّا ابتلع الحوتُ يونسَ عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض، فسمع يونسُ تسبيح الحصى، فنادى في الظلمات، ظلماتٍ ثلاث: بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥] كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش[٥].

---

(١) التمهيد ١٨/ ٤٠ ، والاستذكار ٨/ ٣٦٥ - ٣٦٦ ، وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وفيه: سليمان بن المعتمر، ونقله عنه المصنف، وهو خطأ، وهو سليمان بن طَرخان التيمي والد المعتمر بن سليمان، وذكر قوله أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٨٣ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨١ عن ابن زيد.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ .

(٤) النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ ، وأخرجه عن ابن عباس وقتادة وغيرهما الطبري ١٦/ ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٥) الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا (٣٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢ عن عبيد الله بن موسى بالإسناد المذكور مطولاً.

وقالت فرقةٌ منهم سالم بن أبي الجعد: ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأوّل. ويصحُّ أن يعبَّر بالظلمات عن جوف الحوت الأوّل فقط، كما قال: ﴿في غَيَابَات الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] وفي كلِّ جهاته ظلمةٌ، فجمعُها سائغ[١].

وذكر الماوَرْديّ[٢]: أنه يحتمل أن يعبَّر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة، وظلمة الشدّة، وظلمة الوحدة.

وروي: أنَّ الله تعالى أوحى إلى الحوت: لا تؤذِ منه شعرةً، فإنِّي جعلت بطنك سجنه، ولم أجعله طعامك. وروي: أنَّ يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر[٣].

وذكر ابن أبي الدنيا: حدَّثنا العباس بن يزيد العبدي، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا جعفر بن سليمان، عن عوفٍ، عن سعيد بن أبي الحسن قال: لمَّا التقم الحوت يونس عليه السلام ظنَّ أنه قد مات، فطول رجليه فإذا هو لم يمت، فقام إلى عادته[٤] يصلِّي، فقال في دعائه: واتَّخذتُ لك مسجداً حيث لم يتَّخذْه أحد[٥].

قال أبو المعالي: قوله ﷺ «لا تفضِّلوني على يونسَ بنِ متى»[٦] المعنى: فإنِّي لم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وأخرج قول سالم بن أبي الجعد الطبريُّ ١٦/ ٣٨٣ . والقراءة المذكورة من سورة يوسف هي قراءة نافع وأبي جعفر، وقد سلفت ١١/ ٢٦٢ .

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٩٧ ، وهذا الخبر والذي قبله ورد نحوهما في حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه البزار (٢٢٥٤ - كشف) والطبري ١٦/ ٣٨٤ - ٣٨٥ . وسيرد هذا الحديث بتمامه عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الصافات.

(٤) في (ظ): عبادته.

(٥) الفرج بعد الشدة (٣٦)، وأخرجه الحاكم ٢/ ٥٨٥ من طريق سنيد بن داود، عن جعفر بن سليمان، عن عوف الأعرابي، عن الحسن وفيه: ...فحرك رجليه فإذا هي تتحرك فسجد وقال...، وسعيد بن أبي الحسن هو أخو الحسن البصري، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٤ من طريق آخر عن جعفر بن سليمان عن عوف الأعرابي قوله.

(٦) ذكره بهذا اللفظ ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص١١٦ ، وأخرجه أحمد (٢١٦٧)، والبخاري (٣٤١٣)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: «لا يقل أحدٌ أنا خير من يونس ابن متَّى» وسلف ٤/ ٢٥٤ .

أكن وأنا في سدرة المنتهى بأقربَ إلى الله منه وهو في قعر البحر في بطن الحوت. وهذا يدلُّ على أنَّ الباريَ سبحانه وتعالى ليس في جهة[(١)]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة» و«الأعراف»[(٢)].

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبرِ عليهم.

وقيل: في الخروج من غير أن يؤذَن له. ولم يكن ذلك من الله عقوبة؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا، وإنما كان ذلك تمحيصاً. وقد يؤدَّب مَن لا يستحقُّ العقابَ كالصبيان؛ ذكره الماوردي[(٣)].

وقيل: من الظالمين في دعائي على قومي بالعذاب. وقد دعا نوحٌ على قومه فلم يؤاخَذ. وقال الواسطيُّ[(٤)] في معناه: نزَّه ربَّه عن الظلم؛ وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافاً واستحقاقاً. ومثلُ هذا قولُ آدمَ وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣]؛ إذ كانا السَّبَبَ في وضعهما أنفسَهما في غير الموضع الذي أُنزلا فيه.

الثانية: روى أبو داود، عن سعد بن أبي وقاص، عن النبيِّ ﷺ قال: «دعاء ذي النونِ في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يَدْعُ به رجلٌ مسلم في شيءٍ قطُّ إلَّا استُجيبَ له»[(٥)].

وقد قيل: إنه اسم الله الأعظم. ورواه سعدٌ عن النبيِّ ﷺ[(٦)]. وفي الخبر: في هذه

---

(١) ذكر قول أبي المعالي مطولاً ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٠٩، وسيرد بتمامه عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الصافات.

(٢) ١/ ٣٨٠ و ٩/ ٢٣٨.

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٤٦٧، ووقع فيه: تأديباً، بدل: تمحيصاً.

(٤) هو أبو بكر محمد بن موسى، وقوله مع ما سبقه ذكره القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٧١.

(٥) لم نقف عليه في سنن أبي داود، ولم ينسبه له المزي في التحفة، وهو في سنن الترمذي (٣٥٠٥)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٤١٧)، وأخرجه أحمد مطولاً (١٤٦٢).

(٦) أخرجه الحاكم ١/ ٥٠٥ - ٥٠٦، وأخرجه الطبري ١٦/ ٣٨٦ بلفظ: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متَّى» ولم يقل فيه: الأعظم، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٣٧١٤) عن الحسن قوله.

الآية شَرَطَ الله لمن دعاه أن يجيبَه كما أجابه، وينجيَه كما أنجاه، وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] وليس هاهنا صريحُ دعاءٍ، وإنَّما هو مضمونُ قوله: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاعترف بالظلم؛ فكان تلويحاً.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نخلِّصُهم من همِّهم بما سَبَقَ من عملهم، وذلك قوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. وهذا حِفْظٌ من الله عزَّ وجلَّ لعبده يونس؛ رعى له حقَّ تعبُّده، وحَفِظَ زِمامَ ما سلف له من الطاعة.

قال الأستاذ أبو إسحاق: صَحِب ذو النون الحوتَ أياماً قلائلَ، فإلى يوم القيامة يقال له: ذو النون، فما ظنُّك بعبدٍ عَبَدَه سبعين سنة، يبطل هذا عنده؟! لا يُظَنُّ به ذلك[٢]. «مِنَ الْغَمِّ» أي: من بطن الحوت.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قراءةُ العامَّة بنونين؛ من أَنْجَى يُنْجِي. وقرأ ابن عامر: «نُجِّي» بنونٍ واحدة وجيمٍ مشدَّدةٍ وتسكينِ الياء[٣] على الفعل الماضي وإضمارِ المصدر، أي: وكذلك نُجِّي النجاءُ المؤمنين، كما تقول: ضُرِب زيداً، بمعنى: ضُرِب الضربُ زيداً، وأنشد:

ولو وَلَدتْ قُفَيْرةُ جَرْوَ كَلْبٍ   لَسُبَّ بذلك الجروِ الكلابَا[٤]

(١) ورد ضمن حديث سعد ﷺ عند الطبري ١٦/ ٣٨٦ المذكور في التعليق السابق.

(٢) ورد هذا الكلام في لطائف الإشارات ٢/ ٥١٩ للأستاذ أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، وهو تلميذ الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني.

(٣) وقرأ بها أيضاً عاصم في رواية شعبة، كما في التيسير ص١٥٥ .

(٤) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٩ - ٤٠ ، والبيت لجرير كما في رسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني ص٥٣ ، والخزانة ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨ ، وهو بلا نسبة في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٤ ، والخصائص ١/ ٣٩٧ ، وشرح المفصل ٧/ ٧٥ ، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥١٨ . قال البغدادي: قُفَيْرة اسم أم الفرزدق، والمعنى: أنها لو ولدت جرواً لسُبَّتْ جميع الكلاب بسبب ذلك الجرو. ولم يرد البيت في ديوان جرير.

أراد: لَسُبَّ السَّبُّ بذلك الجرو. وسكنت ياؤه على لغة مَن يقول: بَقِيْ ورَضِيْ فلا يحرِّك الياء. وقرأ الحسن: «وَذَرُوا مَا بَقِيْ مِنَ الرِّبَا»(١) استثقالاً لتحريك ياءٍ قبلَها كسرة. وأنشد:

خَمَّرَ الشَّيبُ لِمَّتي تَخْمِيراً وَحَدَا بي إلى القُبور البَعِيرا
ليتَ شِعْري إذا القيامةُ قامتْ ودُعيْ بالحسابِ أين المصيرا(٢)

سكَّن الياء في دُعيْ استثقالاً لتحريكها وقَبْلَها كسرةٌ، وفاعلُ حدا: الشيب(٣)، أي: وحدا الشيبُ البعير. ليت شعري المصيرَ أين هو(٤).

هذا تأويلُ الفرَّاء(٥) وأبي عبيد وثعلب في تصويب هذه القراءة. وخطَّأها أبو حاتم والزجَّاج(٦) وقالا: هو لحنٌ؛ لأنه نَصَبَ اسمَ ما لم يسمَّ فاعلُه، وإنَّما يقال: نُجِّيَ المؤمنون. كما يقال: كُرِّمَ الصالحون. ولا يجوز: ضُرِب زيداً، بمعنى: ضُرِب الضَّربُ زيداً؛ لأنه لا فائدةَ [فيه]؛ إذ(٧) كان ضُرِب يدلُّ على الضرب. ولا يجوز أن يُحتجَّ بمثل ذلك البيت على كتاب الله تعالى.

ولأبي عبيد قولٌ آخَرُ ـ وقاله القتَبيُّ ـ وهو أنه أَدْغَم النون في الجيم. النحاس(٨):

---

(١) المحتسب ١/ ١٤١ .

(٢) الإفصاح للفارقي ص١٨١ ، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٦ ، والبيت الثاني في كتاب الشعر لأبي علي الفارسي ١/ ٣١٤ ، ووقع في الأمالي والشعر: ودعا، بدل: ودُعي. وفي الإفصاح: لحيتي، بدل: لمتي. قال ابن الشجري: قوله: خمر الشيب لمتي، معناه: غطَّى سوادها، وعنى بالبعير عمره.

(٣) في (د) و(خ) و(م): المشيب، في الموضعين، والمثبت من (ز) و(ظ) والإفصاح.

(٤) قال الفارقي: نصب «المصير» بمعنى قوله: ليت شعري؛ لأن معناه: ليتني أشعر. وقال ابن الشجري: «أين» خبر مبتدأ محذوف، تقديره: أين هو، وقد أساء بشيئين؛ بحذف المبتدأ، وبالفصل بين شعري ومعموله بأين، وهو أجنبي، ولو أُعطيَ الكلام حقَّه قيل: ليت شعري، المصيرَ أين هو؟

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢١٠ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٣ .

(٧) في (ظ): إذا، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٨ ، والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ٧٨ ، وما قبله منه، عدا قوله: وقاله القتبي. وذكر قول القتبي البغوي ٣/ ٢٦٧ .

وهذا القولُ لا يجوز عند أحدٍ من النَّحْويين؛ لبُعْدِ مخرج النون من مخرج الجيم فلا تُدغَم فيها، ولا يجوز في ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ [القصص:٨٤]: مَجَّاءَ بِالْحَسَنَةِ. قال النحاس: ولم أسمع في هذا أحسن من شيءٍ سمعته من عليِّ بن سليمان؛ قال: الأصلُ: ننجي، فحذف إحدى النونين لاجتماعهما، كما تُحذف إحدى التاءين لاجتماعهما؛ نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، والأصل: تتفرقوا.

وقرأ محمد بن السَّمَيفع وأبو العالية: «وكَذَلِكَ نَجَّى المُؤْمِنِينَ»(١)، أي: نَجَّى الله المؤمنين، وهي حسنة.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ أي: واذكر زكريا. وقد تقدَّم في «آل عمران» ذِكْرُه(٢). ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أي: منفرداً لا ولدَ لي، وقد تقدَّم(٣). ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ أي: خيرُ مَن يَبْقى بعد كلِّ مَن يموت، وإنما قال: «خير الْوَارِثِينَ» لِمَا تقدَّم من قوله: ﴿يَرِثُنِي﴾ [مريم:٦] أي: أعلمُ أنك لا تُضيع دِينَك، ولكنْ لا تقطعْ هذه الفضيلةَ التي هي القيامُ بأمر الدِّين عن عَقِبي. كما تقدَّم في «مريم» بيانُه(٤).

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي: أجبنا دعاءه ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ تقدَّم ذكره مستوفى(٥). ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين: إنها

---

(١) لم نقف على هذه القراءة عند غير المصنف.

(٢) ٥/ ١٠٧ . ٥/ ١١٥ وما بعدها.

(٣) ١٣/ ٥٠٩ .

(٤) ١٣/ ٤١٥ .

(٥) ٥/ ١١٥ وما بعدها.

كانت عاقراً فجُعلت وَلوداً[١]. وقال ابن عباس وعطاء: كانت سيئةَ الخُلُق، طويلةَ اللسان، فأصلحها الله فجعلها حسنةَ الخُلُق[٢].

قلت: ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين، فجُعِلَتْ حسنةَ الخُلُق ولوداً.

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني الأنبياء المسمَّيْنَ في هذه السورة ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾. وقيل: الكناية راجعةٌ إلى زكريَّا وامرأتِه ويحيى.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء وحالِ الشدة. وقيل: المعنى: يدعون وقتَ تعبُّدهم وهم بحالِ رغبةٍ ورجاءٍ، ورهبةٍ وخوف؛ لأنَّ الرَّغبة والرَّهبة متلازمان.

وقيل: الرَّغَب: رَفْعُ بطون الأكُفِّ إلى السماء، والرَّهَبُ: رَفْعُ ظهورها؛ قاله خُصَيْف. قال ابن عطية[٣]: وتلخيصُ هذا أنَّ عادة كلِّ داعٍ من البشر أن يستعين بيديه، فالرَّغَبُ من حيث هو طلبٌ يَحْسُنُ منه أن يوجِّه باطنَ الراحِ نحو المطلوب منه؛ إذ هي موضع إعطاء، أو بها يتملَّك[٤]، والرَّهَبُ من حيث هو دَفْعُ مَضَرَّةٍ يَحْسُنُ معه طَرْحُ ذلك، والإشارةُ إلى ذهابه وتَوَقِّيه بنفض اليد ونحوه.

الثانية: روى الترمذيُّ[٥] عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يَحُطَّهما حتى يمسح بهما وجهه. وقد مضى في «الأعراف»[٦]

(١) أخرج قول قتادة وسعيد بن جبير الطبري ١٦/ ٣٨٨ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٨ عن عطاء وابن كامل، وذكره ابن الجوزي ٥/ ٣٨٤ عن عطاء والسدي ومحمد بن كعب. ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٩٨ ، وما قبله منه.

(٤) في (ظ): إذ بها يتملك، وفي المحرر الوجيز: الإعطاء وبها يتملك.

(٥) في سننه (٣٣٨٦)، وسلف ٩/ ٢٤٦ .

(٦) ٩/ ٢٤٥ - ٢٤٧ .

الاختلافُ في رفع الأيدي، وذكرنا هذا الحديثَ وغيرَه هناك.

وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس في صفته، وإلى أين؟ فكان بعضُهم يختار أن يبسط كفَّيه رافعهما حَذْوَ صدرِه وبطونُهما إلى وجهه؛ روي عن ابن عمر وابن عباس. وكان عليٌّ يدعو بباطن كفَّيه، وعن أنسٍ مثلُه، وهو ظاهرُ حديث الترمذيِّ، وقولِه ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أَكُفِّكُم، ولا تسألوه بظهورها، وامسحوا بها وجوهكم»[1].

وروي عن ابن عمر وابن الزبير: برفعهما[2] إلى وجهه، واحتجُّوا بحديث أبي سعيد الخدري؛ قال: وقف رسول الله ﷺ بعرفةَ فجعل يدعو، وجعل ظَهْرَ كفَّيْه ممَّا يلي وجهه، ورَفَعهما فوق ثدييه وأسفلَ من منكبيه[3].

وقيل: يحاذي بهما وجهَه، وظهورُهما ممَّا يلي وجهه.

قال أبو جعفر الطبريُّ: والصوابُ أن يقال: إنَّ كلَّ هذه الآثارِ المرويَّةِ عن النبيِّ ﷺ متفقةٌ غيرُ مختلفة المعاني، وجائزٌ أن يكون ذلك من[4] النبيِّ ﷺ لاختلافِ أحوالِ الدعاء، كما قال ابن عباس: إذا أشار أحدُكم بإصبعٍ واحدٍ فهو الإخلاص، وإذا رفع يديه حَذْوَ صدره فهو الدعاء، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرُهما ممَّا يلي وجهه فهو الابتهال[5]. قال الطبري: وقد روى قتادة عن أنس قال: رأيت النبيَّ ﷺ

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨٥) من طريق محمد بن كعب، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. قال أبو داود: روي هذا الحديث من غير وجه عن محمد بن كعب كلها واهية، وهذا الطريق أمثلها، وهو ضعيف أيضاً.

(٢) في (ز): يرفعهما.

(٣) أخرجه أحمد (١١٠٩٣) و(١١٨٠٦)، وفيه: ثُنْدُوَتيه، بدل: ثدييه، قال السندي كما في حاشية الحديث (١١٠٩٣) من المسند: الثندوة للرجل كالثدي للمرأة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦٨ : فيه بشر بن حرب وهو ضعيف.

(٤) في (م): عن.

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٣٢٤٧)، وأبو داود (١٤٨٩) و(١٤٩٠) و(١٤٩١).

يدعو بظهر كفَّيْهِ وباطِنِهما[١].

و«رَغَباً وَرَهَباً» منصوبان على المصدر، أي: يرغبون رَغَباً ويرهبون رَهَباً. أو على المفعول من أجله، أي: للرَّغَبِ والرَّهَب. أو على الحال.

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: «وَيَدْعُونَا» بنون واحدة[٢].

وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان الغين والهاء[٣]، مثل: السُّقْم والبُخْل، والعُدْم والضُّر لغتان.

وابن وثاب والأعمش أيضاً: «رَغْباً وَرَهْباً» بالفتح في الراء والتخفيفِ في الغين والهاء، وهما لغتان مثل: نَهَر ونَهْر وصَخَر وصَخْر. ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو[٤]. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: متواضعين خاضعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: واذكر مريمَ التي أحصنت فرجها. وإنَّما ذَكَرها ـ وليست من الأنبياء ـ لتتميم[٥] ذِكْرِ عيسى عليه السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ولم يقل آيتين؛ لأنَّ معنى الكلام: وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتَهما آيةً للعالمين.

وقال الزجَّاج[٦]: إنَّ الآية فيهما واحدة؛ لأنها ولدته من غير فحل. وعلى مذهب

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨٧)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٩٠ . قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٢/ ١٤٤ : في إسناده عمر بن نبهان، ولا يحتج بحديثه.

(٢) ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٨٥ عن ابن مسعود وابن محيصن، وذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٦ دون نسبة، وذكر عن طلحة أنه قرأ بنون مشددة؛ أدغم نون الرفع في «نا» ضمير النصب.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٣٩٠ .

(٤) القراءات الشاذة ص٩٢ ، والقراءة المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٥) في (د): ليتمم، وفي (م): ليتم.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٨ .

سيبويه التقديرُ: وجعلناها آيةً للعالمين وجعلنا ابنها آيةً للعالمين، ثم حذف. وعلى مذهب محمد بن يزيد: وجعلناها آية للعالمين وابنَها، مثل قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢][(١)].

وقيل: إنَّ من آياتها أنها أولُ امرأة قُبلت في النذر في التعبُّد[(٢)]. ومنها: أنَّ الله عزَّ وجلَّ غَذَاها برزقٍ مِن عندِه لم يُجْرِه على يد عبدٍ من عبيده. وقيل: إنها لم تَلْقَم ثدياً قط[(٣)].

«وَأَحْصَنَتْ» معناه: عَفَّتْ فامتنعت من الفاحشة. وقيل: إنَّ المراد بالفرج فرجُ القميص، أي: لم تعلّق بثوبها ريبةً، أي: إنَّها طاهرةُ الأثواب. وفُروجُ القميص أربعةٌ: الكمَّان والأعلى والأسفل. قال السُّهَيليّ[(٤)]: فلا يذهبنَّ وهمُك إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية؛ لأنَّ القرآن أنْزه معنًى، وأوْزَنُ[(٥)] لفظاً، وألطفُ إشارةً، وأحسنُ عبارةً من أن يريد ما يذهب إليه وهمُ الجاهل، لا سيَّما والنفخُ من روح القُدُس بأمر القدُّوس، فأضف القُدُسَ إلى القدُّوس، ونزِّه المقدَّسَةَ المطهَّرة عن الظنِّ الكاذب والحدس.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ يعني أَمَرْنا جبريل حتى نفخ في دِرْعها، فأَحْدَثْنا بذلك النفخِ المسيحَ في بطنها. وقد مضى هذا في «النساء»[(٦)] و«مريم»[(٧)] فلا معنى

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/٧٨، ووقع في النسخ: الفراء، بدل: محمد بن يزيد، والمثبت من إعراب القرآن، وقد سلف هذا المذهب عن محمد بن يزيد، وكذلك مذهب سيبويه ١٠/ ٢٨٤ - ٢٨٥. أما قول الفراء الذي في معاني القرآن له ٢/ ٢١٠ فهو: ولم يقل آيتين لأن شأنهما واحد، ولو قيل آيتين لكان صواباً؛ لأنها ولدت وهي بكر، وتكلم عيسى في المهد.

(٢) في (خ) و(د) و(م): المتعبد.

(٣) ذكر هذا القول الرازي في التفسير ٢٢/ ٢١٨ عن الحسن، وفيه: تلتقم، بدل: تلقم.

(٤) في التعريف والإعلام ص١١٥، وما قبله منه.

(٥) في (خ) و(ظ): وأرزن.

(٦) ٧/ ٢٣٢.

(٧) ١٣/ ٤٢٩.

للإعادة. ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامةً وأعجوبةً للخَلْق، وعَلَماً لنبوَّة عيسى، ودلالةً على نفوذ قدرتنا فيما نشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لمَّا ذكر الأنبياء قال: هؤلاء كلُّهم مجتمعون على التوحيد، فالأمةُ هنا بمعنى الدِّين الذي هو الإسلام؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما[١]. فأمَّا المشركون فقد خالفوا الكلّ. ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ أي: إلهكم وحدي ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾[٢] أي: أَفْرِدوني بالعبادة.

وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق: «إنَّ هذه أمَّتكم أُمَّةٌ واحدةٌ»، ورواها حسين عن أبي عمرو[٣].

الباقون: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالنصب على القطع؛ لمجيء[٤] النكرة بعد تمام الكلام؛ قاله الفراء[٥]. الزجَّاج: انتصب «أُمَّةً» على الحال، أي: في حال اجتماعها على الحقّ، أي: هذه أمتكم ما دامت أمةً واحدةً واجتمعتم على التوحيد، فإذا تفرَّقتم وخالفتم فليس مَن خالَفَ الحقَّ من جملة أهل الدِّين الحقّ[٦]، وهو كما تقول: فلانٌ صديقي عفيفاً، أي: ما دام عفيفاً، فإذا خالف العفَّة لم يكن صديقي.

وأمَّا الرفعُ فيجوز أن يكون على البدل من «أمتكم». أو على إضمارِ مبتدأ، أي: إنَّ هذه أمتكُم، هذه أمةٌ واحدة. أو يكون خبراً بعد خبر[٧]. ولو نصبت «أمتكم» على

---

(١) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد الطبري ١٦/ ٣٩٢.

(٢) في (م): فاعبدوني، وهي قراءة يعقوب بالياء وصلاً ووقفاً.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٥، وحسين هو الجعفي، كما في البحر ٦/ ٣٣٧، والقراءة المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٤) في (م): بمجيء.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٢١٠. ويعني بالقطع أنه قُطع عن نعت ما قبله وصار حالاً.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩، دون قوله: أي: إن هذه أمتكم هذه أمة واحدة.

البدل من «هذه» لجاز، وتكون «أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ» خبر «إن»[١].

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْۖ﴾ أي: تفرَّقوا في الدِّين؛ قاله الكلبيّ. الأخفش: اختلفوا فيه[٢]. والمرادُ المشركون، ذمَّهم لمخالفة الحقِّ، واتِّخاذهم آلهةً من دون الله.

قال الأزهريُّ: أي: تفرَّقوا في أمرهم، فنصب «أَمْرَهُمْ» بحذف «في». فالمتقطِّع[٣] على هذا لازمٌ، وعلى الأوّل متعَدّ[٤]. والمرادُ جميعُ الخلق، أي: جعلوا أمرهم في أديانهم قِطَعاً وتقسَّموه بينهم، فمِن موحِّدٍ، ومن يهوديٍّ، ومن نصرانيٍّ، ومن عابدِ ملكٍ أو صنم. ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: إلى حكمنا فنجازيهم.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ «مِن» للتَّبعيض لا للجنس؛ إذ لا قدرةَ للمكلَّف أن يأتيَ بجميع الطاعات فَرْضِها ونَفْلِها، فالمعنى: مَن يعمل شيئاً من الطاعات فرضاً أو نفلاً وهو موحِّدٌ مسلم. قال ابن عباس: مصدِّقاً[٥] بمحمدٍ ﷺ[٦].

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: لا جحودَ لعمله، أي: لا يضيع جزاؤه ولا يغطَّى. والكفر ضدُّ[٧] الإيمان. والكفرُ أيضاً: جحودُ النعمة، وهو ضدُّ الشكر. وقد كَفَره

---

(١) المحتسب ٢/ ٦٥.

(٢) ذكر القولين الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٠.

(٣) في (ظ): فالتقطع.

(٤) عبارة الأزهري في تهذيب اللغة ١/ ١٨٨: هو كقولك: قطعوا أمرهم. قال أبو البقاء في الإملاء ٤/ ١٤: تقطَّعوا أمرهم، أي: تقطَّعوا في أمرهم، أي: تفرَّقوا، وقيل: عدِّي تقطَّعوا بنفسه؛ لأنه بمعنى: قطَّعوا، أي: فرقوا.

(٥) في (ظ): مصدق.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥١ دون نسبة.

(٧) في (م): ضده.

كفوراً وكُفْراناً. وفي حرف ابن مسعود: «فلا كُفْرَ لِسَعْيه»(١).

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ لعمله حافظون، نظيره: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أي: كلُّ ذلك محفوظٌ لنجازيَ به.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قراءةُ زيد بن ثابت وأهل المدينة: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ وهي اختيارُ أبي عبيدٍ وأبي حاتم. وأهل الكوفة ﴿وَحِرْمٌ﴾(٢) ورويت عن عليٍّ وابن مسعود وابن عباس ﷺ. وهما لغتان مثلُ: حِلّ وحَلَال.

وقد روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير(٣): «وحَرِمَ» بفتح الحاء والميم وكسر الراء. وعن ابن عباس أيضاً وعكرمةَ وأبي العالية: «وحَرُمَ» بضم الراء وفتح الحاء والميم. وعن ابن عباس أيضاً: «وحَرَمَ»، وعنه أيضاً: «وحَرَّمَ»، و«حُرِّمَ». وعن عكرمةَ أيضاً: «وحَرِمٌ». وعن قتادةَ ومطر الوراق: «وحَرْمٌ»؛ تسعُ قراءات. وقرأ السُّلَميُّ: «على قريةٍ أهلكتُها»(٤).

واختلف في «لا» في قوله: «لَا يَرْجِعُونَ»، فقيل: هي صلة؛ رويَ ذلك عن ابن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩ .

(٢) قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «وحِرْم» بكسر الحاء وإسكان الراء، والباقون: «وحرام» بفتحهما وألف بعد الراء. السبعة ص٤٣١ ، والتيسير ص١٥٥ . وذكر قراءة زيد ﷺ النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٧٩ .

(٣) كذا في النسخ، والذي في المحتسب ٢/ ٦٥ ، والبحر ٦/ ٣٣٨ : وسعيد بن المسيب.

(٤) ذكرت هذه القراءات في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٧٩ ، والقراءات الشاذة ص٩٣ ، والمحتسب ٢/ ٦٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٩٩ ، والبحر ٦/ ٣٣٨ .

عباس، واختاره أبو عبيد، أي: وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك. وقيل: ليست بصلة، وإنَّما هي ثابتةٌ، ويكون الحرام بمعنى الواجب، أي: وَجَب على قرية[(١)]، كما قالت الخنساء:

وإنَّ حَـرَامـاً لَا أَرَى الـدَّهْـرَ بَـاكِـيـاً ... على شَجْوِهِ إلَّا بكيتُ على صَخْرِ[(٢)]

تريد أخاها. فـ «لا» ثابتةٌ على هذا القول.

قال النحاس[(٣)]: والآيةُ مُشْكِلةٌ، ومن أحسن ما قيل فيها وأَجَلِّه ما رواه ابن عيينةَ وابن عُلَيَّةَ وهُشيم وابن إدريس ومحمد بن فُضيل وسليمان بن حيَّان ومعلّى، عن داود ابن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ﴾ قال: وَجَب أنهم لا يرجعون، قال: لا يتوبون. قال أبو جعفر[(٤)]: واشتقاقُ هذا بيِّنٌ في اللغة، وشَرْحُه: أنَّ معنى حُرِّم الشيء: حُظِر ومُنع منه، كما أنَّ معنى أُحِلَّ: أُبيح ولم يمنع منه، فإذا كان «حَرامٌ» و«حِرْمٌ» بمعنى واجب، فمعناه أنه قد ضيّق الخروج منه ومنع، فقد دخل في باب المحظور بهذا. فأمَّا قولُ أبي عبيد: إنَّ «لا» زائدة، فقد ردَّه عليه جماعة؛ لأنها لا تُزاد في مثل هذا الموضع، ولا فيما يقع فيه إشكال، ولو كانت زائدةً لكان التأويل بعيداً أيضاً؛ لأنه إن أراد: وحرامٌ على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا، فهذا ما لا فائدةَ فيه، وإن أراد التوبة فالتوبةُ لا تُحرِّم.

وقيل: في الكلام إضمارٌ، أي: وحرامٌ على قرية حكمنا باستئصالها، أو بالخَتْم

---

(١) ذكر هذين القولين دون نسبة الطبري ١٦/ ٣٩٧، وذكر قول أبي عبيد النحاسُ في إعراب القرآن ٣/ ٨٠، وسيأتي، ولم نقف عليه عن ابن عباس، والذي يذكر عنه القول بأن «لا» ثابتة وليست بصلة كما سيرد، وكما ذكر صاحب اللسان (حرم).

(٢) ذكره عن الخنساء أبو حيان في البحر ٦/ ٣٣٩، والسمين في الدر المصون ٨/ ١٩٩. ونسبه صاحب اللسان (حرم) لعبد الرحمن بن جمانة المحاربي برواية: على عمرو، بدل: على صخر، وقد سلف بهذه الرواية ٧/ ١٧٦.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٧٩.

(٤) هو النحاس.

على قلوبها، أن يُتقبَّل منهم عملٌ لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون؛ قاله الزَّجَّاج وأبو علي: و«لا» غير زائدة[١]. وهذا هو معنى قول ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ تقدَّم القول فيهم[٢]. وفي الكلام حذف، أي: حتى إذا فُتح سدُّ يأجوجَ ومأجوجَ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قال ابن عباس: من كلِّ شَرَفٍ يُقْبِلون[٣]، أي: لكثرتهم يَنْسِلون من كلِّ ناحية. والحَدَب: ما ارتفع من الأرض، والجمع: الحِداب[٤]؛ مأخوذ من حدبة الظَّهْر؛ قال عَنْتَرة:

فما رعِشت يداي ولا ازدهاني   تَواتُرهم إليَّ من الحِدَاب[٥]

وقيل: «يَنْسِلُونَ»: يخرجون، ومنه قولُ امرئ القيس:

فَسُلِّي ثيابي من ثِيابِك تَنْسِلِ[٦]

وقيل: يسرعون، ومنه قول النَّابغة:

عَسَلَانَ الذئبِ أمْسَى قَارِباً   بَردَ الليلُ عليهِ فَنَسَلْ[٧]

يقال: عَسَلَ الذئبُ يَعسِلُ عَسَلاً وعَسَلاناً: إذا أَعْنقَ وأسرع. وفي الحديث:

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٥ ، والحجة للفارسي ٥/ ٢٦١ .

(٢) ١٣/ ٣٧٨ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠ ، وأخرج قول ابن عباس الطبري ١٦/ ٤٠٧ .

(٤) الصحاح (حدب).

(٥) النكت والعيون ٣/ ٤٧١ ، ولم نقف عليه في ديوان عنترة.

(٦) وصدره: وإن كنت قد ساءتك مني خليقة، وهو من معلقته، وهو في ديوانه ص١٣ ، والنكت والعيون ٣/ ٤٧١ ، والكلام منه. وسلف ٣/ ٣٨٦ . .

(٧) الصحاح (عسل) ومجاز القرآن ٢/ ٤٢ ، وهو في ديوان النابغة الجعدي ص٩٠ ، ونسب للبيد كما في الكامل للمبرد ١/ ٤٧٤ ، والجمهرة ١/ ٢٥٢ . وذكره القالي في أماليه ١/ ١٥٥ وقال: العَسَلانُ: عدوٌ فيه اضطراب، والنَّسَلان قريب منه. اهـ. والقارب: طالب الماء ليلاً. اللسان (قرب).

«كَذبَ عليك العَسَلَ» أي: عليك بسرعة المشي[١]. وقال الزجَّاج: والنَّسَلان مِشيةُ الذئب إذا أسرع[٢]؛ يقال: نَسَلَ فلانٌ في العَدْوِ يَنْسِل ـ بالكسر والضم ـ نَسْلاً ونُسولاً ونَسَلاناً، أي: أسرع.

ثم قيل في الذين يَنْسِلُون من كلِّ حَدَب: إنهم يأجوج ومأجوج، وهو الأظهر، وهو قولُ ابن مسعود وابن عباس[٣].

وقيل: جميع الخَلْق، فإنهم يُحشرون إلى أرض الموقف وهم يسرعون من كلِّ صَوْب[٤].

وقرئ في الشواذ: «وهم من كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُون»[٥] أخذاً من قوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. وحَكَى هذه القراءة المَهْدويُّ عن ابن مسعود، والثعلبيُّ عن مجاهدٍ وأبي الصهباء.

قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القيامة. قال الفرَّاء[٦] والكسائيُّ وغيرهما: الواو زائدةٌ مُقْحَمة؛ والمعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعدُ الحقُّ، فـ «اقترب» جوابُ «إذا». وأنشد الفرَّاء:

---

(١) الصحاح (عسل)، والحديث ذكره أيضاً الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٣٧٠ ، والعسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ١٦٦ ، والزمخشري في الفائق ٣/ ٢٥٠ ، وابن الأثير في النهاية (كذب): أن عمرو بن معديكرب شكا إلى عمر ﷺ المعَص فقال: «كذب عليك العَسَل». قال ابن الأثير: والمَعَص بالعين المهملة: اِلْتواءٌ في عصب الرجل.

(٢) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٤٢٨ عن الليث، ولم نقف عليه عن الزجاج.

(٣) أخرجه عن ابن مسعود الطبري ١٦/ ٤٠٥ - ٤٠٦ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٢ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) أخرج هذا القول الطبري ١١/ ٤٠٥ عن مجاهد.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣ عن ابن عباس والكلبي والضحاك، والمحتسب ٢/ ٦٦ عن ابن مسعود، وتفسير البغوي ٣/ ٢٦٨ عن مجاهد.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢١١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٠ .

فلمَّا أَجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانْتَحَى[١]

أي: انتحى، والواوُ زائدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَهُ﴾ أي: للجبين ناديناه.

وأجاز الكسائيُّ أن يكون جواب «إذا»: ﴿فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويكون قوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ معطوفاً على الفعل الذي هو شرط. وقال البَصْريُّون: الجواب محذوف، والتقدير: قالوا: ﴿يَوَيْلَنَا﴾ وهو قولُ الزجَّاج[٢]، وهو قولٌ حسن. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمر: ٣]. المعنى: قالوا: «ما نعبدهم»، وحَذْفُ القول كثير[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ﴾ «هي» ضميرُ الأبصار، والأبصار المذكورة بعدها تفسيرٌ لها، كأنه قال: فإذا أبصارُ الذين كفروا شَخَصَتْ عند مجيء الوعد؛ وقال الشاعر:

لَعَمْرُ أبيها لا تقول ظَعينتي ألَا فرَّ عنِّي مالكُ بن أبي كعبِ[٤]

فكنَى عن الظعينة في «أبيها» ثم أَظْهَرها.

وقال الفرَّاء: «هي» عماد، مثل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ﴾[٥].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١١، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠، والبيت لامرئ القيس وهو من معلقته، وهو في ديوانه ص١٥، وعجزه: بنا بطنُ حِقْفٍ ذي ركام عَقَنْقَلِ، وسلف ٢/ ٨٥. قال شارح الديوان: أجزنا: قطعنا، والساحة: الفناء. والحِقف من الرمل: المعوجّ. ومعنى ركام: بعضه على بعض. والعقنقل: المنعقِد المتداخِل.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٥، والمعنى: حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق قالوا يا ويلنا.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٠ - ٨١.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٠، والبيت في معجم الشعراء للمرزباني ص٢٥٦، ونقد الشعر لأبي الفرج بن قدامة ص٢٢١، والأغاني ١٦/٢٣٨ برواية: حليلتي، بدل: ظعينتي. ومالك بن أبي كعب الخزرجي جاهلي، وهو والد كعب بن مالك الصحابي، ولمالك في حروب الأوس والخزرج التي كانت بينهم قبل الإسلام آثار وذكر. الأغاني ١٦/ ٢٢٦.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٠، وقوله: عماد، أي: ضمير فصل.

وقيل: إنَّ الكلام تمَّ عند قوله: «هي»، التقدير: فإذا هي ـ يعني القيامة ـ بارزةٌ واقعة، أي: مِن قُربها كأنها آتيةٌ حاضرة، ثم ابتدأ فقال: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على تقديم الخبر على الابتداء، أي: أبصار الذين كفروا شاخصةٌ من هذا اليوم[1]، أي: من هَوْله لا تكاد تَطْرُف، يقولون: يا ويلنا إنَّا كنَّا ظالمين بمعصيتنا، ووَضْعِنا العبادةَ في غير مَوْضِعها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ قال ابن عباس: آيةٌ لا يسألني الناس عنها، لا أدري؛ أعَرَفوها فلم يسألوا عنها، أم جهلوها فلا يسألون عنها؟! قيل: وما هي؟ قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ لمَّا أُنزلت شقَّ على كفار قريش، وقالوا: شتَم آلهتنا، وأتوا ابن الزِّبَعْرَى وأخبروه، فقال: لو حضرتُه لرددْتُ عليه. قالوا: وما كنتَ تقول؟ قال: كنتُ أقول له: هذا المسيحُ تعبده النصارى، واليهودُ تعبد عُزيراً، أفهُما من حصب جهنَّم؟! فعَجِبتْ قريش من مقالته، ورأوا أنَّ محمداً قد خُصم، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١][2] وفيه نزل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ يعني ابن الزِّبَعْرَى ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] بكسر الصاد، أي: يضجُّون، وسيأتي.

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٦٩ ، وذكر هذا القول الآلوسي في روح المعاني ١٧/ ٩٣ عن الثعلبي وقال: وهو وجه متكلَّف متنافر التركيب.

(٢) أخرجه مطولاً الواحدي في أسباب النزول ص٣١٥ ، وبنحوه الطبراني في الكبير (١٢٧٣٩)، ومختصراً الطبري ١٦/ ٤١٨ ، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٩١٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وليس فيه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾.

الثانية: هذه الآية أصلٌ في القول بالعموم، وأنَّ له صِيَغاً مخصوصة، خلافاً لمن قال: ليست له صيغةٌ موضوعةٌ للدلالة عليه. وهو باطلٌ بما دلَّت عليه هذه الآيةُ وغيرها، فهذا عبد الله بن الزّبعرى قد فَهِم من «ما» في جاهليته جميعَ مَن عُبِد، ووافَقَه على ذلك قريش وهم العربُ الفصحاء، واللُّسْنُ البلغاء، ولو لم تكن للعموم لمَا صحَّ أن يُستثنى منها، وقد وُجد ذلك، فهي للعموم[(١)]، وهذا واضح.

الثالثة: قراءةُ العامة بالصاد المهملة، أي: إنكم يا معشر الكفار والأوثانَ التي تعبدونها من دون الله وقودُ جهنم؛ قاله ابن عباس[(٢)].

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: حَطَبها[(٣)]. وقرأ علي بن أبي طالب وعائشة رضوان الله عليهما: «حَطَبُ جَهَنَّمَ» بالطاء[(٤)].

وقرأ ابن عباس: «حَضَبُ» بالضَّاد المعجَمة[(٥)]؛ قال الفراء[(٦)]: يريد الحَصَب. قال: وذُكر لنا أنَّ الحَضَب[(٧)] في لغة أهل اليمن الحطب، وكلُّ ما هيَّجْتَ به النارَ وأوقدْتَها به فهو حَضَب؛ ذكره الجوهري[(٨)]. والموقد مِحْضَب[(٩)].

---

(١) ينظر إحكام الفصول للباجي ص٢٣٤ ، والمستصفى للغزالي ٢/ ١١٧ ، والمحصول للرازي ٣/ ١٩٩ - ٢٠٢ ، والإحكام للآمدي ١/ ٤١٧ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤١١ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٢ .

(٣) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٤١١ - ٤١٢ ، وأخرجه عن قتادة أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٠ ، وعلقه البخاري عن عكرمة إثر الحديث (٤٧٣٩) بلفظ: ﴿حَصَبُ﴾: حطب بالحبشية.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٣ ، والمحتسب ٢/ ٦٧ .

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣ ، والمحتسب ٢/ ٦٦ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢١٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (حضب).

(٧) في (د) و(ز) و(م) والصحاح: الحضب، والمثبت من باقي النسخ ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٣ .

(٨) في الصحاح (حضب).

(٩) في (خ) و(د) و(ز): حضب، وفي (ظ): حصب، والمثبت من (م)، وفي اللسان (حضب): المحضب: المسعر، وهو عود تحرك به النار عند الإيقاد، وحكى ابن دريد عن أبي حاتم أنه قال: يسمى المِقْلَى: المِحْضَب.

وقال أبو عبيدة[١] في قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: كلُّ ما ألقيته في النار فقد حَصَبْتَها به.

ويظهر من هذه الآية أنَّ الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام حطبٌ لجهنم، ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]. وقيل: إنَّ المراد بالحجارة حجارةُ الكبريت، على ما تقدَّم في «البقرة»[٢]، وإنَّ النار لا تكون على الأصنام عذاباً ولا عقوبة؛ لأنها لم تُذْنِبْ، ولكن تكون عذاباً على مَن عبدها: أول شيء بالحسرة[٣]، ثم تجمع على النار فتكون نارها أشدَّ من كلِّ نار، ثم يعذَّبُون بها. وقيل: تُحمى فتلصَقُ بهم زيادةً في تعذيبهم. وقيل: إنما جُعلت في النار تبكيتاً لعبادتهم[٤].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي: فيها داخلون. والخطابُ للمشركين عبدةِ الأصنام، أي: أنتم واردوها مع الأصنام. ويجوز أن يقال: الخطابُ للأصنام وعَبَدَتِها؛ لأن الأصنام وإن كانت جماداتٍ فقد يخبَر عنها بكنايات الآدميِّين. وقال العلماء: ولا يدخل في هذا عيسى ولا عزيرٌ ولا الملائكةُ صلواتُ الله عليهم؛ لأن «ما» لغير الآدميين[٥]، فلو أراد ذلك لقال: «ومَن». قال الزجَّاج: ولأنَّ المخاطَبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي: لو كانت الأصنامُ آلهةً

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٤٢.

(٢) ١/ ٣٥٤.

(٣) في (ظ): لما فيها من الحسرة، بدل: أول شيء بالحسرة.

(٤) في (ظ): لعابديها. والتبكيت: التقريع والتوبيخ. اللسان (بكت).

(٥) تفسيرُ الطبري ١٦/ ٤٢٠، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨١.

لَمَا ورد عابِدُوها النار. وقيل: «ما وردوها» أي: العابدون والمعبودون؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: لهؤلاء الذين وَرَدوا النار من الكفار والشياطين، فأمَّا الأصنام فعلى الخلاف فيها؛ هل يحييها الله تعالى ويعذِّبها حتى يكون لها[1] زفير، أو لا؟ قولان. والزَّفير: صوتُ نَفَس المغموم يخرج من القلب. وقد تقدَّم في «هود»[2].

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: في الكلام حذف، والمعنى: وهم فيها لا يسمعون شيئاً؛ لأنَّهم يُحشرون صُمًّا، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧]. وفي سماع الأشياء رَوْحٌ وأُنْس، فمنَعَ الله الكفارَ ذلك في النار.

وقيل: لا يسمعون ما يسرُّهم، بل يسمعون صوت مَن يتولَّى تعذيبهم من الزَّبانية.

وقيل: إذا قيل لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] يصيرون حينئذٍ صُمًّا بُكماً، كما قال ابن مسعود: إذا بقي مَن يخلد في النار في جهنم، جُعلوا في توابيتَ من نار، ثم جُعلت التوابيت في توابيتَ أخرى فيها مساميرُ من نار، فلا يسمعون شيئاً، ولا يرى أحدٌ منهم أنَّ في النار مَن يُعذَّب غيره[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ أي: الجنة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾

---

(١) في النسخ الخطية: لهم.

(٢) ١١/ ٢١١.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤١٥، والبيهقي في البعث والنشور (٦٥٦) من طريق يونس بن خباب عن ابن مسعود، وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٠٨٧) من طريق يونس بن خباب، عمن حدثه، عن ابن مسعود.

أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فمعنى الكلام الاستثناء؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: «إنَّ» هاهنا بمعنى «إلا»[١]، وليس في القرآن غيره.

وقال محمد بن حاطب: سمعت علي بنَ أبي طالب ﷺ يقرأ هذه الآيةَ على المنبر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ فقال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ عثمانَ منهم»[٢].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ أي: حِسَّ النار وحركةَ لهبها. والحَسِيسُ والحِسُّ: الحركة. وروى ابنُ جُريج عن عطاء قال: قال أبو راشد الحَرُوريُّ لابن عباس: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ فقال ابن عباس: أمجنونٌ أنت؟ فأين قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] وقوله تعالى: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ [هود: ٩٨] وقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ [مريم: ٨٦]. ولقد كان من دعاء مَن مضى: اللهمَّ أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنةَ فائزاً[٣].

وقال أبو عثمان النَّهْديُّ: على الصِّراط حيَّاتٌ تلسعُ أهل النار فيقولون: حسّ حسّ[٤].

وقيل: إذا دخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ لم يسمعوا حسَّ النار[٥]، وقبل ذلك يسمعون، فالله أعلم.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٠، ويعني أنه استثناءٌ من قوله: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وذكر الطبري ١٦/ ٤١٩ أن هذا الاستثناء لا معنى له؛ لأن الاستثناء إنما هو إخراج المستثنى من المستثنى منه، ولا شك أن الذين سبقت لهم من الله الحسنى إنما هم ملائكة، وإما إنس، أو جان، وكل هؤلاء إذا ذكرتها العرب فإن أكثر ما تذكرها بـ «مَنْ»، لا بـ «ما».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٥١ - ٥٢، وأحمد في فضائل الصحابة (٧٧١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢١٦)، والطبري ١٦/ ٤١٥، كلُّهم روَوْه موقوفاً، ولم نقف عليه مرفوعاً.

(٣) أخرجه الطبري ١٥/ ٥٩١، وذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٧١) من سورة مريم، وأبو راشد الحروري هو نافع بن الأزرق.

(٤) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٢.

(٥) في (م): أهل النار.

﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ أي: دائمون، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعين؛ وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقرأ أبو جعفر وابن محيصن: ﴿لَا يُحْزِنُهُم﴾ بضمِّ الياء وكَسْرِ الزاي[١]. الباقون بفتح الياء وضمِّ الزاي. قال اليزيديُّ: حَزَنه لغةُ قريش، وأحزنه لغةُ تميم، وقد قُرئ بهما.

والفزعُ الأكبر: أهوالُ يوم القيامة والبعث؛ عن ابن عباس[٢].

وقال الحسن: هو وقتُ يؤمر بالعباد إلى النار[٣].

وقال ابنُ جُريج وسعيد بن جبير والضحَّاك: هو إذا أطبقت النار على أهلها، وذُبح الموت بين الجنة والنار[٤].

وقال ذو النُّون المِصْريُّ: هو القطيعةُ والفراق[٥].

وعن النبيِّ ﷺ: «ثلاثةٌ يومَ القيامة في كَثيبٍ من المِسْك الأذْفَر، لا يَحْزُنُهم الفزعُ الأكبر: رجلٌ أمَّ قوماً محتسباً وهم له راضون، ورجلٌ أذَّن لقومٍ محتسباً، ورجلٌ ابتُلِيَ برِقٍّ في الدنيا فلم يَشْغَلْه عن طاعة ربِّه»[٦].

وقال أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن: مررت برجلٍ يضرب غلاماً له، فأشار إليَّ

---

(١) النشر ٢/ ٢٤٤ عن أبي جعفر، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ عن ابن محيصن.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٢ بلفظ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ يعني النفخة الآخرة.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢١ - ٤٢٢ عن سعيد بن جبير وابن جريج.

(٥) ذكره أبو الليث في التفسير ٢/ ٣٨٠.

(٦) أخرجه بنحوه أحمد (٤٧٩٩)، والترمذي (١٩٨٦) و(٢٥٦٦)، والطبراني في الكبير (١٣٥٨٤)، وفي الأوسط (١١١٦). قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٣ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الغلام، فكلَّمتُ مولاه حتى عفا عنه، فلقيت أبا سعيد الخدريَّ فأخبرته، فقال: يا ابن أخي، مَن أغاث[1] مكروباً أعتقه الله من النار يومَ الفزع الأكبر» سمعت ذلك من رسول الله ﷺ[2].

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تستقبلُهم الملائكة على أبواب الجنة؛ يهنِّئونهم ويقولون لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وقيل: تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور؛ عن ابن عباس[3]. ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ﴾ أي: ويقولون لهم، فحذف. ﴿الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيه الكرامة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بنُ نِصَاح والأعرج والزُّهريُّ: «تُطْوَى» بتاء مضمومة، «السَّمَاءُ» رفعاً على ما لم يسمَّ فاعله[4]. مجاهد: «يَطْوي»[5]، على معنى: يطوي الله السماء. الباقون: ﴿نَطْوِي﴾ بنون العظمة.

وانتصابُ «يوم» على البدل من الهاء المحذوفة في الصلة، التقدير: الذي كنتم توعدونه يومَ نطوي السماء. أو يكون منصوباً بـ «نعيد» من قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾. أو بقوله: «لا يحزنهم» أي: لا يحزنهم الفزع الأكبر في اليوم الذي

---

(١) في (خ) ود): أعان.

(٢) لم نقف عليه. وقد ورد هذا المعنى في الصحيح ضمن حديث لأبي هريرة فيما أخرجه مسلم (٢٦٩٩) عنه، وفيه: «من نفَّس عن مؤمن كُربة من كرب الدنيا؛ نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة».

(٣) ذكره أبو الليث ٢/ ٣٨٠ عن مقاتل، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٤) النشر ٢/ ٣٢٤ عن أبي جعفر.

(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٦/ ٣٤٣ عن شيبة بن نِصاح، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٢ دون نسبة.

نطوي فيه السماء. أو على إضمارٍ: واذكر، وأراد بالسماء الجنس، دليله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكِتَٰبِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي: كَطيِّ الصحيفة على ما فيها(١). فاللام بمعنى «على».

وعن ابن عباس أيضاً: هو اسم كاتبِ رسول الله ﷺ(٢). وليس بالقويّ؛ لأن كُتَّاب رسول الله ﷺ معروفون وليس هذا منهم، ولا في أصحابه مَن اسمُه السِّجِلّ(٣).

وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر والسُّدِّيّ: «السِّجلّ» ملَك(٤)، وهو الذي يطوي كتبَ بني آدم إذا رُفعت إليه.

ويقال: إنه في السماء الثالثة، تُرفع إليه أعمال العباد، يرفعها إليه الحفظةُ الموكَّلون بالخَلْق في كلِّ خميس واثنين، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروتُ وماروت(٥).

والسِّجِلُّ: الصَّكُّ، وهو اسمٌ مشتقٌّ من المساجلة(٦)، وهي المكاتبة(٧)، وأصلُها من السَّجْل: وهو الدَّلْو؛ تقول: ساجَلْتُ الرجلَ: إذا نزعتَ دلواً ونزع دلواً، ثم

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٢٤ - ٤٢٥ .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٣٥)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٥)، والطبري ١٦/ ٤٢٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٢٢٥ ، والتعريف والإعلام ص١١٥ ، وردَّه أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: لا يصح، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ـ وإن كان في سنن أبي داود وغيره ـ منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزي، وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث وردَّه أتم ردّ... وأمَّا مَن ذكر في أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٢٣ عن ابن عمر والسدي، وذكره الرازي ٢٢/ ٢٢٨ عن ابن عباس.

(٥) التعريف والإعلام ص١١٥ .

(٦) في النسخ عدا (ز): السجالة، والمثبت من (ز) وهو الصواب. وينظر مجمل اللغة ٢/ ٤٨٧ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٧١ ، والمفهم ٧/ ٣٩٣ .

(٧) في (ظ) و(م): الكتابة.

استُعيرت، فسميت المكاتبةُ والمراجعة مساجلةً. وقد سَجَّل الحاكمُ تسجيلاً. وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

مَـن يُسَـاجِـلْـنـي يُـسـاجِـلْ مـاجـداً يَـمـلأ الـدَّلـوَ إلـى عَـقْـدِ الـكَـرَبْ[1]

ثم بني هذا الاسم على فِعِلّ، مثل: حِمِرّ وطِمِرّ وبِلِيّ.

وقرأ أبو زرعةَ بن عمرو بن جرير: «كَطَيِّ السُّجُلِّ» بضمِّ السين والجيم وتشديد اللام[2]. وقرأ الأعمش وطلحة: «كَطَيِّ السَّجْلِ» بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام[3]. قال النحاس: والمعنى واحدٌ إن شاء الله تعالى، والتمام عند قوله: «لِلْكِتَابِ»[4].

والطَّيُّ في هذه الآية يَحتمِلُ معنيين: أحدهما: الدَّرْج الذي هو ضدُّ النَّشْر، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. والثاني: الإخفاء والتعمية والمحو؛ لأنَّ الله تعالى يمحو ويطمسُ رُسومَها ويكدرُ نجومها.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١و٢و١١].

«لِلْكِتَابِ» وتمَّ الكلام ـ وقراءة الأعمش وحفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ ويحيى وخَلَف: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ جمعاً[5] ـ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: نحشرهم حُفاةً عراةً غُرْلاً كما بُدئوا في البطون.

---

(١) الصحاح (سجل)، والبيت في المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٧٩٥، والكامل للمبرد ١/ ٢٥٠، والحماسة البصرية ١/ ١٨٥. والكَرَب: هو الحبل يشد في وسط خشبة الدلو فوق الرشاء ليقويه. المعجم الوسيط (كرب). والفضل بن العباس هو أحد شعراء بني هاشم وفصائحهم، وأمه بنت العباس ابن عبد المطلب. الأغاني ١٦/ ١٧٥.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٧.

(٣) المحتسب ٢/ ٦٧ عن أبي السَّمَّال.

(٤) في (د) و(ز): للكتب، وهما قراءتان على ما يأتي.

(٥) السبعة ص٤٣١، والتيسير ص١٥٥ عن حمزة والكسائي وحفص، والنشر ٢/ ٣٢٥ عنهم وعن خلف، والباقون: «للكتاب» على الإفراد.

وروى النَّسائيُّ[(١)] عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُحشر الناس يومَ القيامة عُراةً غُرْلاً، وأوّلُ الخَلْقِ يُكسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾».

أخرجه مسلم[(٢)] أيضاً عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظةٍ فقال: «يا أيها الناس، إنَّكم تُحشرون إلى الله حُفاةً عُراةً غُرْلاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ألَا وإنَّ أوَّل الخلائق يُكسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام» وذكر الحديث. وقد ذكرنا هذا الباب في كتاب «التذكرة»[(٣)] مستوفًى.

وذكر سفيان الثوريُّ، عن سَلَمةَ بن كُهَيْل، عن أبي الزَّعْراء، عن عبد الله بن مسعود قال: يُرْسِلُ الله عزَّ وجلَّ ماءً[(٤)] من تحت العرش كمنيِّ الرجال، فتنبت منه لُحمانهم وجسمانهم كما تنبت الأرضُ بالثرى، وقرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾[(٥)].

وقال ابن عباس: المعنى: نُهلك كلَّ شيء ونُفْنيه كما كان أولَ مرة[(٦)]، وعلى هذا فالكلامُ متَّصلٌ بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفَناء، فلا تكون شيئاً.

وقيل: نُفني السماء ثم نعيدُها مرةً أخرى بعد طَيِّها وزوالها، كقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

---

(١) في المجتبى ٤/ ١١٤.

(٢) في صحيحه (٢٨٦٠)، وهو عند أحمد (١٩١٣) و(٢٠٩٦)، والبخاري (٣٣٤٩).

(٣) ص٢٠٧.

(٤) قبلها في (ظ): يوم القيامة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢، وأخرجه مطولاً ابن أبي شيبة ١٥/ ١٩١ - ١٩٥، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ٣١٤ - ٣١٦، والحاكم ٤/ ٤٩٦ - ٤٩٨. وأبو الزعراء الكندي هو عبد الله بن هانئ، قال فيه البخاري كما ذكر العقيلي: لا يتابع على حديثه.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٣١.

والقول الأوّل أصحُّ، وهو نظيرُ قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَعْدًا﴾ نصب على المصدر، أي: وَعَدْنا وعداً ﴿عَلَيْنَآ﴾ إنجازُه والوفاءُ به، أي: من البعث والإعادة، ففي الكلام حذف. ثم أكَّد ذلك بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال الزجَّاج(١): معنى «إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»: إنَّا كنَّا قادرين على [فِعْل] ما نشاء.

وقيل: «إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ» أي: ما وَعَدْناكم، وهو كما قال: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨].

وقيل: «كان» للإخبار بما سبق من قضائه. وقيل: صلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ الزبورُ والكتاب واحدٌ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل: زبور؛ [من] زَبَرْت، أي: كتبتُ، وجمعه: زُبُر(٢). قال سعيد ابن جبير: «الزَّبور»: التوراة والإنجيل والقرآن ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ الذي في السماء ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾: أرض الجنة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾. رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير(٣).

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٠٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٢، وما قبله وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٢ - ٨٣، وما بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه هناد في الزهد (١٦٠)، والطبري ١٦/ ٤٣٢ و ٤٣٥ من طريق الأعمش به. وقوله عن الذكر إنه الذي في السماء، يعني به أمَّ الكتاب، كما في تفسير الطبري ١٦/ ٤٣١، والوسيط ٢/ ٢٥٤، وزاد المسير ٥/ ٣٩٧، وسيأتي هذا القول عن مجاهد وابن زيد.

الشعبيُّ: «الزَّبور»: زبور داود، و«الذكر»: توراةُ موسى عليه السلام(١).

مجاهد وابن زيد: «الزَّبور»: كتب الأنبياء عليهم السلام، و«الذِّكر»: أمُّ الكتاب الذي عند الله في السماء(٢).

وقال ابن عباس: «الزَّبور»: الكتب التي أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه، و«الذِّكر»: التوراة المنزلة على موسى(٣).

وقرأ حمزة: «في الزُّبُورِ» بضم الزاي جمع زِبْرٍ(٤).

﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ أحسنُ ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة ـ كما قال سعيد بن جبير ـ لأنَّ الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم(٥). وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما(٦)؛ قال مجاهد وأبو العالية: ودليلُ هذا التأويل قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وعن ابن عباس: أنها الأرض المقدَّسة(٧). وعنه أيضاً: أنَّها أرض الأمم الكافرة تَرِثُها أمةُ محمدٍ ﷺ بالفتوح(٨).

وقيل: إن المراد بذلك بنو إسرائيل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وأكثرُ المفسرين على أنَّ المراد بالعباد الصالحين أمةُ محمدٍ ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٥٥ ، والطبري ١٦/ ٤٣٣ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٧٥ عن مجاهد، وأخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٣٢ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٢٥٤ ، وابن الجوزي ٥/ ٣٩٧ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٣٣ مختصراً.

(٤) السبعة ص٤٣١ ، والتيسير ص٩٨ ، قال الرازي ٢٢/ ٢٢٩ : ومعنى القراءتين واحد.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٣ .

(٦) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما الطبري ١٦/ ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٣٩٧ عن الكلبي.

(٨) أورده الطبري ١٦/ ٤٣٧ .

وقرأ حمزة: ﴿عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ بتسكين الياء[١].

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: فيما جرى ذكره في هذه السورة من الوعظ والتنبيه. وقيل: إنَّ في القرآن ﴿لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ قال أبو هريرة وسفيان الثوريُّ: هم أهلُ الصلوات الخمس[٢]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «عابدين»: مطيعين[٣]. والعابد: المتذلِّل الخاضع. قال القشيريُّ: ولا يَبْعُد أن يدخل فيه كلُّ عاقل؛ لأنه من حيث الفطرةُ متذلِّلٌ للخالق، وهو بحيث لو تأمَّل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة.

وقال ابن عباس أيضاً: هم أمةُ محمدٍ ﷺ، الذين يصلُّون الصلواتِ الخمسَ، ويصومون شهرَ رمضان[٤]. وهذا هو القول الأوّل بعينه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان محمدٌ ﷺ رحمةً لجميع الناس، فَمَن آمن به وصدَّق به سَعِد، ومَن لم يؤمن به سلِم ممَّا لَحِقَ الأممَ من الخَسْفِ والغرق[٥]. وقال ابن زيد: أراد بالعالَمين

---

(١) السبعة ص٤٣٢، والتيسير ص١٥٦.

(٢) أخرجه عن أبي هريرة سعيد بن منصور وابن المنذر كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤١، وذكره عن سفيان النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٨٣.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٧٥ دون نسبة، وأخرج الطبري ١٦/ ٤٣٩ عن ابن عباس قوله: «عابدين»: عالِمين.

(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في الشعب (٢٩١٢). وأخرجه بلفظ المصنف الطبري ١٦/ ٤٣٨ عن كعب الأحبار.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٣، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٤٠، والطبراني في الكبير (١٢٣٥٨)، وأبو الشيخ في تاريخ المحدثين بأصبهان (٥٧٢).

المؤمنين خاصة(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فلا يجوز الإشراك به. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون لتوحيد الله تعالى، أي: فأسلموا، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: إن أعرضوا عن الإسلام ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتُكم على بيانٍ أنَّا وإيَّاكم حربٌ لا صُلْحَ بيننا، كقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: أَعْلِمْهم أنك نقضتَ العهد نقضاً استويت به(٢) أنت وهم، فليس لفريقٍ عهدٌ ملتزَمٌ في حقِّ الفريق الآخر.

وقال الزَّجَّاج: المعنى: أعلمتُكم بما يوحَى إليَّ على استواءٍ في العلم به، ولم أُظهِر لأحدٍ شيئاً كتمتُه عن غيره(٣).

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ «إن» نافيةٌ بمعنى «ما»، أي: وما أدري. ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني أجل يوم القيامة لا يدريه أحدٌ، لا نبيٌّ مرسَلٌ، ولا مَلَكٌ مقرَّب؛ قاله ابن عباس. وقيل: آذنتكم بالحرب ولكنِّي لا أدري متى يؤذَن لي في محاربتكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: من الشِّرك، وهو المُجازِي عليه. ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أي: لعلَّ الإمهال ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي: اختبارٌ ليرى كيف صنيعكم، وهو أعلم. ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل: إلى انقضاء المدَّة.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٤٠ - ٤٤١.

(٢) قوله: به، من (ظ)، ووقع في (د) و(م): أي: استويت.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٨، ولفظه فيه: أعلمتكم بما يوحَى إلي لتستووا في الإيمان به.

ورويَ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى بني أمية في منامه يَلُون الناس، فخرج الحَكَمُ من عنده فأخبر بني أمية بذلك، فقالوا له: ارجع فسَلْه متى يكون ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: قل لهم ذلك(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾(٢) ختم السورة بأنْ أمر النبيَّ ﷺ بتفويض الأمر إليه، وتوقُّعِ الفَرَجِ مِن عنده، أي: احكُم بيني وبين هؤلاء المكذِّبين وانصرني عليهم. روى سعيد عن قتادة قال: كانت الأنبياء تقول: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأمر النبيُّ ﷺ أن يقول: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ فكان إذا لقيَ العدوَّ يقول وهو يعلم أنه على الحقِّ وعدوّه على الباطل: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: اقضِ به(٣).

وقال أبو عبيدة: الصفةُ هاهنا أقيمت مقامَ الموصوف، والتقدير: ربِّ احكم بحكمك الحقّ(٤).

و«ربِّ» في موضع نصب؛ لأنه نداءٌ مضاف.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن: «قُلْ رَبُّ احْكُمْ بالحقِّ» بضم الباء(٥)؛ قال النحاس(٦): وهذا لحنٌ عند النحويين؛ لا يجوز عندهم: رجلُ أَقْبِلْ، حتى تقول: يا رجلُ أقبلْ، أو ما أَشبهه.

وقرأ الضحَّاك وطلحةُ ويعقوب: «قال ربِّي أَحْكَمُ بالحقِّ» بقطع الألف مفتوحة

---

(١) لم نقف عليه، والضعف فيه ظاهر.

(٢) قرأ حفص عن عاصم: «قال» بالألف، والباقون: «قل» بغير ألف. السبعة ص٤٣١ - ٤٣٢ والتيسير ص١٥٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢.

(٤) ذكر هذا القول الطبري ١٦/ ٤٤٥ دون نسبة.

(٥) النشر ٢/ ٣٢٥ عن أبي جعفر، وهو من العشرة.

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ٨٤.

الكاف، والميمُ مضمومة[١]. أي: قال محمدٌ: ربِّي أحكَمُ بالحقِّ من كلِّ حاكم.

وقرأ الجحدريُّ: «قُلْ ربِّي أَحْكَمَ»[٢] على معنى: أَحْكَمَ الأمورَ بالحقّ.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: تصفونه من الكفر والتكذيب. وقرأ المفضَّل والسُّلَميُّ: «علَى ما يَصِفون» بالياء على الخبر[٣]. الباقون بالتاء على الخطاب.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٣ ، والمحتسب ٢/ ٧١ . والقراءة المتواترة عن يعقوب ـ وهو من العشرة ـ: ربِّ احْكُمْ، كقراءة الجماعة.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٣ .

(٣) رواية لابن ذكوان عن ابن عامر؛ كما في السبعة ص٤٣٢ ، ورواية المفضل عن عاصم، كما في النشر ٢/ ٣٢٥ .

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

مَكيَّةٌ، وهي مئةٌ واثنتا عشرَةَ آيةً(١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ بالإضافةِ إلى ما مَضى، أو: عندَ اللهِ؛ كقولِه(٢): ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦ ـ ٧]، وقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

أو لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قَريبٌ، وإنَّما البعيدَ ما انقرضَ ومَضى.

واللَّامُ صِلَةٌ لـ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ أو تأكيدُ الإضافةِ، وأصلُه: اقتربَ حِسابُ النَّاسِ، ثمَّ: اقتربَ للنَّاسِ الحِسابُ، ثمَّ: اقتربَ للنَّاسِ حِسابُهُم.

وخُصَّ النَاسُ بالكُفَّارِ لتَقييدِهِم بقولِه:

﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾؛ أي: في غفلةٍ مِن الحسابِ مُعرِضونَ عَن التَّفكُّرِ فيهِ، وهمَا خبرانِ للضَّميرِ، ويجوزُ أن يكونَ الظَّرفُ حالًا مِن المستكنِّ في ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾.

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ١٨٧)، وفيه: وهي مئة واثنتا عشرة آية في الكوفي، وإحدَى عشرةَ في عدد الباقين، اختلافها آية ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٦] عَدَّها الكوفي ولم يعدَّها الباقون.

(٢) في نسخة الخيالي: «لقوله».

(٢) ـ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ يُنبِّهُهُم عَـن سِنَةِ الغفلةِ والجَهالةِ ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ صفةٌ لـ﴿ذِكْرٍ﴾ أو صلةٌ لـ﴿يَأْتِيهِم﴾.

﴿مُّحْدَثٍ﴾ تنزيلُـهُ ليكـرِّرَ على أسـماعِهِم التَّنبيهَ كـي يَتَّعِظُوا، وقُـرِئَ بالرَّفعِ[1] حملًا علـى المحلِّ.

﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾: يَسـتهزِئونَ بـه ويَستَسـخِرُونَ منـه؛ لتَناهـي غَفْلَتِهم وفَـرْطِ إعراضِهِـم عـن النَّظـرِ فـي الأمـورِ والتَّفكُّرِ فـي العواقبِ.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حالٌ مِن الواوِ. وكذلكَ:

(٣) ـ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: اسـتمَعُوهُ جامِعيـنَ بيـنَ الاسـتهزاءِ بـه والتَّلَهِّي والذُّهـولِ عَـن التَّفكُّـرِ فيه. ويجـوزُ أن يكـونَ الحال مِـن واو ﴿يَلْعَبُونَ﴾.

وقُرِئَتْ بالرَّفعِ[2] على أنَّه خبرٌ آخرُ للضَّميرِ.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾: بالَغُوا في إخفائِها، أو جعَلُوها بحيثُ خَفِيَ تَناجيهِم بها.

﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدلٌ مِن واوِ (أسرُّوا) للإيماءِ بأنَّهُم ظالمونَ فيما أَسرُّوا به.

أو فاعلٌ له، والواوُ لعلامةِ الجمعِ.

أو مبتدأٌ، والجملةُ المتقدِّمَةُ خبرُه، وأصلُه: وهؤلاءِ أسرُّوا النَّجوى، فوضعَ المَوصولُ موضِعَهُ تَسجيلًا على فعلِهِم بأنَّه ظلمٌ.

أو منصوبٌ على الذمِّ.

---

(١) نسبت لابن أبي عبلة. انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٠)، و«الكشاف» (٥/ ٤٣٥)، و«البحر» (١٥/ ١٧٩).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٣) عن عيسى، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٠) عن ابن أبي عبلة، و«البحر المحيط» (١٥/ ١٧٩) عنهما.

﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ بأسرِهِ في مَوضِعِ النَّصبِ بدلًا مِن ﴿ٱلنَّجْوَى﴾ أو مفعولًا لقولٍ مُقدَّرٍ؛ كأنَّهم استدَلُّوا بكونِه بَشرًا على كَذبِهِ في ادِّعاءِ الرِّسالَةِ لاعتقادِهِم أنَّ الرَّسولَ لا يَكونُ إلَّا مَلَكًا، واستلزَمُوا منه أنَّ ما جاءَ بهِ مِن الخَوارقِ كالقرآنِ سحرٌ فأنكَرُوا حضورَهُ، وإنَّما أَسرُّوا به تشاورًا في استنباطِ ما يهدمُ أمرَهُ ويُظهرُ فسادَهُ للنَّاسِ عامةً.

(٤) ـ ﴿قُلْ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جهرًا كانَ أو سِرًّا فضلًا عمَّا أسرُّوا به، وهو آكدُ مِن قولِه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]، ولذلك اختيرَ هاهنا، وليطابقَ قولَه: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ: ﴿قَالَ﴾[١] بالإخبارِ عن الرَّسولِ.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فلا يَخْفَى عليه ما يُسِرُّونَ[٢] ولا ما يُضمِرُونَ.

(٥) ـ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ إضرابٌ لهم عَن قَولِهِم: هو سِحرٌ، إلى أنَّه تخاليطُ الأحلامِ، ثمَّ إلى أنَّه كلامٌ افتراهُ، ثمَّ إلى أنه قولُ شاعرٍ.

والظَّاهرُ أنَّ (بل) الأولى لتَمامِ حكايةٍ والابتداءِ بأخرى، أو للإضرابِ عَن تَجاوُزِهِم في شأنِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ وما ظهرَ عليهِ مِن الآياتِ إلى تَقاوُلِهِم في أمرِ القُرآنِ، والثَّانيةُ والثالثةُ لإضرابِهم عن كونِه أباطيلَ خُيِّلَت إليه وخلِّطَتْ عليه إلى كونِه مُفتَرياتٍ اختلقَها مِن تِلقاءِ نَفسِه، ثمَّ إلى أنَّه كلامٌ شِعريٌّ يُخَيِّلُ إلى السَّامعِ معانيَ لا حقيقةَ لها ويرغِّبُه فيها.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٥٤).

(٢) في نسخة الفاروقي: «ما يبرزون».

ويجوزُ أَنْ يكونَ الكلُّ مِن اللهِ(١) تنزيلًا لأقوالِهم في دَرجِ الفَسادِ؛ لأنَّ كونَه شِعرًا أبعدُ مِن كونِه مُفترًى؛ لأنَّه مَشحونٌ بالحَقائقِ والحِكَمِ ليسَ فيه(٢) ما يناسبُ قولَ الشُّعراءِ، وهو مِن كونِه(٣) أحلامًا؛ لأنَّه مُشتَمِلٌ على مغيباتٍ كَثيرةٍ طابقَتِ الواقعَ، والمُفترَى لا يكونُ كذلك بخلافِ الأحلامِ، ولأنَّهُم جرَّبُوا رسولَ اللهِ ﷺ نَيِّفًا وأربعينَ سنةً وما سَمِعُوا منه كذبًا قطُّ، وهو مِن كونِه سحرًا لأنَّه يُجانِسُه(٤) مِن حيثُ إنَّهُما مِن الخَوارقِ.

﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾؛ أي: كما أرسلَ به الأَوَّلونَ مثلَ اليدِ البَيضاءِ والعَصَا وإبراءِ الأكمَهِ وإحياءِ المَوْتَى، وصِحَّةُ التَّشبيهِ مِن حيثُ إنَّ الإرسالَ يَتضمَّنُ الإتيانَ بالآيةِ.

(٦) ـ ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ﴾: مِن أهلِ قريةٍ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ باقتراحِ الآياتِ لَمَّا جاءَتْهُم ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ لو جِئتَهُم بها وهم أَعْتَى مِنْهُم.

وفيه تنبيهٌ على أنَّ عدمَ الإتيانِ بالمقترحِ للإبقاءِ عليهِم؛ إذ لو أَتَى به ولم يُؤمِنُوا استوجبوا عذابَ الاستئصالِ كمَنْ قبلَهُم.

---

(١) أي يجوز أن يكون الإضراب كله في المحال الثلاثة من الله على طريق الترقي من الفاسد إلى الأفسد ثم الأفسد. «حاشية الشهاب».

(٢) في نسخة التفتازاني الطبلاوي: «فيها».

(٣) في نسخة الطبلاوي: «وهو أبعد»، والمثبت من باقي النسخ، وعليه شرح الشهاب (٣/ ٧٩) فقال: وضمير (وهو) راجع لكونه مفترى، و(من كونه) متعلق بـ(أبعد) مقدر، ولأنه تعليل له.

(٤) قوله: (لأنه يجانسه) أما كون القرآن من الخوارق فباعتبار إعجازه وأخباره عن المغيبات وصدوره من الأميِّ، وأمَّا كون السحر خارقاً فباعتبار الظاهر فلا ينافي كونه تمويهاً أو لأسباب خفية كما قيل. «حاشية الشهاب».

(٧) ـ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ جوابٌ لقَولِهِم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فأمرَهُم أن يسألُوا أهلَ الكتابِ عَن حالِ الرُّسُلِ المُتقدِّمَةِ لتزولَ عَنْهُم الشُّبهَةُ، والإحالةُ إليهِم: إمَّا للإلزامِ فإنَّ المُشركينَ كانوا يُشاوِرُونَهُم في أمرِ النَّبيِّ ويَثِقونَ بقَولِهم، أو لأنَّ إخبارَ الجَمِّ الغَفيرِ يوجِبُ العلمَ وإن كانوا كفارًا.

وقرأ حفصٌ: ﴿نُوحِىٓ﴾ بالنُّونِ[١].

(٨) ـ ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ نفيٌ لِمَا اعتَقدُوا أنَّها مِن خواصِّ الملَكِ عَن الرُّسلِ؛ تَحقيقًا لأنَّهُم كانوا أبشارًا[٢] مِثلَهُم.

وقيل: جوابٌ لقَولِهِم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ توكيدٌ وتقريرٌ له، فإنَّ التَّعيُّشَ بالطَّعامِ مِن تَوابعِ التَّحليلِ المؤدِّي إلى الفناءِ.

وتوحيدُ الجَسدِ لإرادةِ الجنسِ، أو لأنَّه مصدرٌ في الأصلِ، أو على حذفِ المضافِ[٣]، أو تأويلِ الضَّميرِ بكلِّ واحدٍ، وهو جسمٌ ذو لونٍ، ولذلكَ لا يطلَقُ على الماءِ والهواءِ، ومنه الجِسَادُ للزَّعفرانِ.

وقيل: جسمٌ ذو تركيبٍ؛ لأنَّ أصلَهُ لجمعِ[٤] الشَّيءِ واشتِدادِهِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

(٢) البشر: الإنسانُ، والواحدُ والجميعُ والمذكَّرُ والمؤنَّثُ في ذلك سواء وقد يُثَنَّى فيقال: بشرين، وجمعُ الجمع: أَبْشَارٌ. انظر: «المحكم» (٨/ ٥٧ ـ ٥٨).

(٣) أي: ذوو جسد.

(٤) في نسخة التفتازاني والفاروقي: «تجمع».

(٩) ـ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾؛ أي: في الوعدِ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ يعني: المؤمنينَ بهم، ومَن في إبقائِه حكمةٌ كمَن سيُؤمِنُ هو أو أحَدٌ من ذرِّيتِه، ولذلك حُمِيَت العربُ من عذابِ الاستئصالِ.

﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الكفرِ والمَعاصِي.

(١٠) ـ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا قُرَيشُ ﴿كِتَٰبًا﴾ يعني: القرآنَ ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾: صيتُكُم؛ كقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أو: مَوعِظَتُكم، أو: ما تَطلبونَ بهِ حُسْنَ الذِّكرِ مِن مَكارِمِ الأخلاقِ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتُؤمِنُونَ.

(١١) ـ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ واردةٌ عَن غَضبٍ عَظيمٍ؛ لأنَّ القصمَ كسرٌ يُبِينُ تلاؤمَ الأجزاءِ، بخلافِ الفَصْمِ.

﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ صِفَةٌ لأَهلِها، وُصِفَت بها لَمَّا أُقِيمَت مقامَه.

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾: بعد إهلاكِ أَهلِها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ مكانَهُم.

(١٢) ـ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ﴾: فلَمَّا أَدركُوا شدَّةَ عذابِنَا إدراكَ المُشاهَدِ المحسوسِ، والضَّميرُ للأهلِ المحذوفِ.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾: يَهربونَ مُسرعينَ راكِضين دَوابَّهُم، أو مشبَّهينَ بهم من فرطِ إسراعِهِم.

(١٣) ـ ﴿لَا تَرْكُضُوا۟﴾ على إرادةِ القَولِ؛ أي: قيلَ لَهُم استهزاءً: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟﴾ إمَّا بلِسانِ الحالِ أو المقالِ، والقائلُ مَلَكٌ، أو مَن ثَمَّ مِن المؤمنينَ.

﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ مِن التَّنعُّمِ والتَّلذُّذِ، والإترافُ: إبطارُ النِّعمَةِ.

﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كانَتْ لَكُم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ غدًا عَن أَعمالِكُم، أو:

تعذَّبـونَ، فإنَّ السُّـؤالَ مِـن مقدِّماتِ العَـذابِ، أو: تُقصَدونَ للسُّـؤالِ والتَّشـاوُرِ في المهامِّ والنَّـوازلِ[١].

(١٤) ـ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لَمَّا رَأَوا العَذابَ ولم يرَوا وجهَ النَّجاةِ فلذلك لم يَنفَعْهُم.

وقيل: إنَّ أهلَ حَضُورَ[٢] مِن قرى اليمنِ بُعثَ إليهِم نبيٌّ فقتلوهُ، فسلَّطَ اللهُ عليهِم بُخْتُنَصَّرَ فوضعَ السَّيفَ فيهم، فنَادَى مُنادٍ مِن السَّماءِ: يا لثاراتِ الأنبياءِ، فنَدِمُوا وقالوا ذلك[٣].

(١٥) ـ ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾: فما زالوا يُردِّدُونَ ذلك، وإنَّما سَمَّاه دَعْوَى لأنَّ المُوَلوِلَ كأنَّه يدعو الوَيْلَ ويقول: يا ويلُ تعالَ فهذا أوانُكَ.

وكـلٌّ مِن ﴿تِّلۡكَ﴾ و﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ يحتمِلُ الاسميَّةَ والخَبريَّةَ[٤].

﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا﴾: مثـلَ الحَصيـدِ، وهـو النَّبتُ المحصـودُ، ولذلك لم يُجمَع.

﴿خَٰمِدِينَ﴾: ميتينَ، مِن خَمَدَت النَّارُ، وهو مع ﴿حَصِيدًا﴾ بمنزلةِ المفعولِ الثَّاني كقَولِك: جعلتُه حلوًا حامضًا، إذ المعنى: وجَعَلْنَاهُم جامعينَ لِمُماثلةِ الحَصيدِ والخُمودِ، أو صفةٌ له[٥]، أو حالٌ مِن ضَميرِهِ.

---

(١) جاء على هامش نسخة الفاروقي: «وهذا المعنى الأخير للتهكم والاستهزاء».

(٢) حضور: بالفتح ثم الضم وسكون الواو وراء، بلدة باليمن من أعمال زبيد. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٢٧٢).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٤٧) عن وهب.

(٤) قوله: «يحتمل الاسمية والخبرية»؛ أي: يحتملُ أن يكونَ اسم ﴿زَالَت﴾ أو خبرَها.

(٥) قوله: «أو صفة له»؛ أي: أو ﴿خَٰمِدِينَ﴾ صفة لـ ﴿حَصِيدًا﴾.

(١٦) - ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ وإنَّما خلقْناها مَشحونةً بضُروبِ البَدائعِ تبصرةً للنُّظَّارِ، وتذكرةً لذَوِي الاعتبارِ، وتسبيبًا لِمَا ينتظِمُ به أمورُ العبادِ في المعاشِ والمعادِ، فيَنبَغِي أن يَتسلَّقُوا بها إلى تحصيلِ الكَمال، ولا يغترُّوا بزخارِفِها فإنَّها سريعةُ الزَّوالِ.

(١٧) - ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ما يُتلهَّى به ويُلعبُ ﴿لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾: مِن جِهةِ قُدرَتِنا، أو: مِن عندِنَا ممَّا يَليقُ بحَضرَتِنَا مِن المُجرَّداتِ، لا مِن الأجسامِ المَرفوعةِ والأجرامِ المبسوطةِ كعادَتِكُم في رفعِ السُّقوفِ وتَزويقِهَا وتَسوِيَةِ الفُرُشِ وتَزيينِها.

وقيل: اللَّهوُ: الولدُ بلغةِ اليَمنِ[1]، وقيل: الزَّوجةُ. والمرادُ الرَّدُّ على النَّصارَى.

﴿إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ ذلكَ، ويدلُّ على جوابِه الجوابُ المُتقدِّمُ.

وقيل: ﴿إِن﴾ نافيةٌ، والجملةُ كالنَّتيجةِ للشَّرطيَّةِ.

(١٨) - ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ﴾ إضرابٌ عَن اتِّخاذِ اللَّهوِ[2]، وتَنزيهٌ لذَاتِه عَن اللَّعبِ؛ أي: بل مِن شَأنِنا أَنْ نُغلِّبَ الحَقَّ الذي مِن جُملَتِه الجِدُّ[3] على الباطلِ الذي مِن عدادِه اللَّهوُ.

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾: فيمحقُهُ، وإنَّما استعارَ لذلك القذفَ وهو الرَّميُ البَعيدُ المُستلزمُ لصَلابةِ المَرميِّ، والدَّمغُ الذي هو كسرُ الدِّماغِ بحيثُ يشقُّ غشاءَه المؤدِّي إلى زهوقِ الرُّوحِ = تَصويرًا لإبطالِه ومُبالَغَةً فيه.

---

(١) رواه الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٠٠) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في نسخة الخيالي: «الولد».

(٣) الجد بكسر الجيم: ضد الهزل. من هامش نسخة الفاروقي.

وقُرِئَ: (فيَدْمَغَهُ) بالنَّصبِ[١] كقولِه:

سَـأَتْرُكُ مَنْزِلِـي لِبَـنِي تَـمِـيـمٍ   وَأَلْـحَقَ بِالحِجَـازِ وَأَسْـتَرِيحَا[٢]

ووجهُهُ معَ بُعدِه: الحَملُ على المعنى، والعَطفُ[٣] على الحقِّ.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾: هالِكٌ، والزُّهوقُ: ذَهابُ الرُّوحِ، وذكرُه لتَرشيحِ المَجازِ[٤].

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾: ممَّا تَصِفُونَه به ممَّا لا يَجوزُ عليه، وهو في مَوضعِ الحالِ، و(ما) مصدريَّةٌ أو مَوصولَةٌ أو مَوصوفَةٌ.

---

(١) نسبت لعيسى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤).

(٢) البيت دون نسبة في «الكتاب» (٣/ ٣٩ و٩٢)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٧٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٣٥٦)، و«المحتسب» (١/ ١٩٧)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٨/ ٥٢٢).
قال البغدادي: (والبيت لم يعزه أحدٌ من خَدَمة كتاب سيبويه إلى قائلٍ معين، ونسبه العينيُّ [في «المقاصد» (٤/ ١٨٧٢)] وتَبعهُ السيوطيّ في «أبيات المغني» [١/ ٤٩٧] إلى المغيرة بن حَبْناءَ بن عمرو بن ربيعة الحَنظلي التَّميمي، وقد رجعت إلى ديوانه وهو صغير فلم أجده فيه).
قال الطيبي في «فتوح الغيب» (١٠/ ٣١٢): قال النحاة: لا ينتصِب بإضمار (أن) بعد الكلام الموجَب، لا يقال: (يقومُ زيدٌ فيغضبَ) إلا في الضرورة كما في هذا البيت؛ لأن إضمار (أنْ) إنما يجبُ إذا لم يتَّسق الكلامُ بإدخال الثاني تحت حُكم الأول، فينصب الثاني إظهاراً لإرادة المخالفة، وفي الموجَب هما متحِدا الحكم، فكأن الشاعر توهَّم معنًى غيرَ الموجَب في الأول إما بالتمني أو بالشرط فنصب بعد الفاء.
قال: ووجه ضعفه: أنه ليس في جواب الستة، والعذر: أن فعل المضارع كالتمني والترجي في كونهما مترقَّبين.

(٣) قوله: «ووجهه مع ما بعده الحمل على المعنى، والعطف على الحق»؛ أي: أنْ يقال: بل نقذفُ بأنْ نُحِقَّ الحقَّ فيدمغَ الباطلَ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٦٩).

(٤) قولـه: «لترشيح المجاز»؛ أي: في إطـلاقِ القذفِ على دحـضِ الحقِّ. انظر: «حاشـية الأنصاري» (٤/ ٦٩).

(١٩) ـ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقًا ومُلكًا ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يَعني: الملائكةَ المُنزَّلِينَ مِنهُ ـ لكَرامَتِهِم عليه ـ مَنزِلَةَ المُقرَّبينَ عندَ الملوكِ، وهو مَعطوفٌ على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وإفرادُه للتَّعظيمِ، أو لأنَّه أعَمُّ منه مِن وَجهٍ، أو المرادُ به نَوعٌ مِن الملائكةِ مُتعالٍ عَن التَّبوُّؤِ في السَّماءِ والأَرضِ، أو مُبتدأٌ خبرُه:

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾: لا يَتعظَّمونَ عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾: ولا يَعْيَوْنَ مِنها.

وإنَّما جِيءَ بالاستحسارِ الذي هو أبلَغُ مِن الحُسورِ تنبيهًا على أنَّ عِبادَتَهُم بثِقَلِها ودَوامِهَا حقيقةٌ بأَنْ يُستَحْسَرَ مِنْهَا ولا يَستحسِرونَ.

(٢٠) ـ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: يُنزِّهونَهُ ويُعظِّمونَهُ دائمًا ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ حالٌ مِن الواوِ في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ وهو استئنافٌ أو حالٌ مِن ضميرٍ قبلَهُ(١).

(٢١) ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً﴾: بل أتَّخذُوا، والهمزةُ لإنكارِ اتِّخاذِهِم.

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ صفةٌ للآلهةِ، أو متعلقةٌ بالفعلِ على مَعنى الابتداءِ، وفائِدَتُها: التَّحقيرُ دونَ التَّخصيصِ.

﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ المَوْتَى، وهم وإنْ لم يُصَرِّحُوا به لكِنْ لزِمَ ادِّعاؤهُم لها الإلهيةَ، فإنَّ مِن لوازِمِها الاقتدارُ على جميعِ المُمكِنَاتِ، والمرادُ به: تَجهيلُهُم والتَّهكُّمُ بهم، وللمُبالغةِ في ذلك زِيدَ الضَّميرُ الموهِمُ لاختصاصِ الإنشارِ بِهِم.

(٢٢) ـ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: غيرُ اللهِ، وُصِفَ بـ﴿إِلَّا﴾ لَمَّا تَعذَّرَ الاستثناءُ؛ لعدمِ شُمولِ ما قبلَها لِمَا بعدَها، ودلالتِه على مُلازمةِ الفَسادِ لكونِ الآلهةِ فيهِمَا دونَهُ،

(١) قوله: «أو حال من ضمير قبله»؛ أي: من ضمير ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أو ﴿يَسْتَحْسِرُونَ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٧٠).

والمرادُ: مُلازَمَتُه لكونِها مُطلقًا أو معَهُ، حملًا لها على (غيرِ)[(١)] كما استَثْنَى بـ(غير) حملًا عليهَا.

ولا يجوزُ الرَّفعُ على البَدلِ لأَنَّه مُتفرِّعٌ على الاستثناءِ، ومَشروطٌ بأَنْ يكونَ في كلامٍ غيرِ مُوجَبٍ.

﴿لَفَسَدَتَا﴾: لبطلتَا؛ لِمَا يكونُ بينَهُما مِن الاختلافِ والتَّمانعِ، فإنَّها إِنْ توافَقَت في المرادِ تطارَدَتْ عليه القُدَرُ، وإن تَخالَفَت فيه تَعاوَقَتْ عنهُ.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ المحيطِ بجَميعِ الأَجسامِ الذي هو محلُّ التَّدابيرِ ومَنشأُ المَقاديرِ.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِن اتِّخاذِ الشَّريكِ والصَّاحِبَةِ والولدِ.

(٢٣) ـ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعَظمتِهِ وقوَّةِ سُلطانِهِ وتَفرُّدِه بالأُلوهيَّةِ والسَّلطنَةِ الذَّاتيَّةِ ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ لأَنَّهُم مَملوكونَ مُستَعْبدونَ، والضَّميرُ للآلهة أو للعِبادِ.

(٢٤) ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ كرَّرَه استعظامًا لكُفرِهِم واستِفظاعًا لأَمرِهِم، وتَبكيتًا وإظهارًا لجَهْلِهِم، أو ضَمًّا لإنكارِ ما يكونُ لَهُم سندًا مِن النَّقلِ

(١) قوله: «لعدم شمول ما قبلها لما بعدها»؛ أي: لكونه نكرةً في مقام الإيجاب «ودلالتِه»؛ أي: الاستثناءِ، وهو بالجرِّ عطف على (شمولِ). «على ملازمة الفساد» متعلق بـ (دلالتِه)؛ «لكون الآلهة» متعلق بـ (ملازمة) «فيهما»؛ أي: في السماوات والأرض «دونه»؛ أي: دون اللهِ؛ أي: وصف بـ ﴿إِلَّا﴾ عند تعذُّرِ الاستثناء؛ لعدم الشمولِ المذكورِ، وهو ظاهرٌ، ولعدم دلالة الاستثناء على ملازمة الفساد لوجود آلهةٍ فيهما غيرِ الله؛ إذ الاستثناءُ إنما يدلُّ على ضدِّ ذلك؛ إذ المعنى عليه: لو كان فيهما اللهُ لفسَدَتا، وهو فاسدٌ وإليه أشار بقوله: «والمراد»؛ أي: من الآيةِ شيئان: أحدهما: «ملازمته»؛ أي: الفسادِ «لكونها»؛ أي: الآلهةِ؛ أي: لوجودِها «مطلقاً»؛ أي: عن التقييدِ بكونِها معَ اللهِ، «أو معه»، وثانيهما: انتفاؤه؛ لوجودِه تعالى وحدَه «حملاً لها» تعليلٌ لقوله: «وصف بـ﴿إِلَّا﴾». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٧٠).

إلى إنكارِ ما يكونُ لهم دليلًا مِن العَقلِ، على مَعنى: أَوَجَدُوا آلهةً يُنشِرونَ الموتى فاتَّخذوهُمْ آلهةً لِمَا وجدُوا فيهِمْ مِن خواصِّ الألُوهيَّةِ، أو وجدُوا في الكتبِ الإلهيَّةِ الأمرَ بإشراكِهِم فاتَّخذوهُمْ مُتابعةً للأمرِ؟!! ويعضُدُ ذلك أنَّه رتَّبَ على الأوَّلِ ما يدلُّ على فسادِهِ عَقْلًا، وعلى الثَّاني ما يَدُلُّ على فسادِهِ نَقْلًا.

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على ذلك إمَّا مِن العَقلِ أو مِـن النَّقلِ، فإنَّه لا يَصِحُّ القَولُ بما لا دَليلَ عليه، كيفَ وقد تَطابَقَتِ الحُجَجُ على بطلانِه عقلًا ونقلًا.

﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ مِن الكتبِ السَّماويَّةِ، فانظرُوا هل تجدونَ فيها إلَّا الأمرَ بالتَّوحيدِ والنَّهيَ عَن الإشراكِ؟

والتَّوحيـدُ لمَّـا لـم يتوقَّـف[1] علـى صِحَّتِه بعثةُ الرُّسـلِ وإنـزالُ الكتـبِ = صحَّ الاسـتدلالُ فيـه بالنَّقلِ.

و﴿مَن مَّعِىَ﴾: أمَّتُه، و﴿مَن قَبْلِى﴾: الأممُ المتقدِّمَةُ، وإضافةُ الذِّكرِ إليهم لأنَّه عِظَتُهُم.

وقُرِئَ بالتَّنوينِ والإعمالِ[2]، وبه وبـ(مِن) الجارَّةِ[3] على أنَّ (مع) اسـمٌ هو ظرفٌ كـ: قَبلُ وبَعدُ وشِبْهِهما، وبِعَدَمِها[4].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «لما لم يكن متوقفاً»، وفي هامشها: «لما لم يتوقف»، وكتب عندها: «أصح».

(٢) أي: (ذكرٌ مَن معي وذكرٌ مَن قبلي) و(مَن) مفعولٌ مَنصُوبٌ بالذِّكر كقوله: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤ ـ ١٥] وهو الأصل، والإضافةُ من إضافةِ المَصدر إلى المفعول. انظر: «الكشاف» (٥/ ٤٥٣) ولم ينسبها، وذكرها الهذلي في «الكامل» (ص: ٦٠٠) عن الأويسي عن أبي جعفر.

(٣) أي: (ذكرٌ مِن معي وذكرٌ مِن قبلي)، نسبت ليحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، و«المحتسب» (٢/ ٦١)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٠)، ودون نسبة في «الكشاف» (٥/ ٤٥٣).

قال الزمخشري: وإدخالُ الجارِّ على (مع) غريبٌ، والعُذرُ فيه: أنَّه اسمٌ هو ظرفٌ نحو: قبلُ وبعدُ وعندَ ولَدُنْ وما أشبَه ذلك، فدَخل عليه (مِن) كما يَدخل على أخواته.

(٤) أي: (ذكرٌ معي وذكرٌ قبلي). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤) عن طلحة، ودون =

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ ولا يُميِّزونَ بينَهُ وبينَ الباطلِ.

وقُرِئَ: (الحَقُّ) بالرَّفعِ[1] علـى أنَّه خبرُ مَحذوفٍ وُسِّطَ للتَّوكيدِ بينَ السَّببِ والمُسبَّبِ.

﴿فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ مِن التَّوحيدِ واتِّباعِ الرَّسولِ مِن أجلِ ذلك.

(٢٥) ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ تَعميـمٌ بعـدَ تَخصيـصٍ، فـإنَّ ﴿ذِكۡرُ مَن قَبۡلِي﴾ مِـن حيثُ إنَّه خبرٌ لاسـمِ الإشـارةِ مخصـوصٌ بالمَوجودِ بيـنَ أَظهُرِهِم وهو الكتـبُ الثَّلاثةُ.

وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ بالنُّونِ وكسرِ الحاءِ[2].

(٢٦) ـ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ نزلَـتْ فـي خُزاعـةَ حيـثُ قالـوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ[3].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيـهٌ لَـه عَـن ذلـك ﴿بَلۡ عِبَادٞ﴾: بـل هُـم عبادٌ مِـن حَيـثُ إنَّهُم مَخلوقـونَ وليسـوا بـأَولادٍ ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾: مُقرَّبـونَ، وفيـه تَنبيهٌ علـى مَدْحَضِ[4] القومِ.

وقُرِئَ بالتَّشديدِ[5].

= نسبة في «الكشاف» (٥/ ٤٥٤).

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٦١)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٠)، عن الحسن وابن محيصن.

(٢) زاد في نسخة الطبلاوي: «والباقون بالياء وفتح الحاء». انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٥٤).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٨/ ١١٥).

(٤) «مدحض: مزالق». من هامش نسخة الفاروقي.

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤) عن عكرمة.

(٢٧) ـ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾: لا يَقولونَ شيئًا حتى يقولَه كمَا هو دَيدَنُ العَبيدِ المُؤدَّبين، وأصلُه: لا يسبقُ قولُهُم قولَهُ، فنُسبَ السَّبْقُ إليهم[1] وجُعلَ القولُ محلَّهُ وأداتَهُ تَنبيهًا على استهجانِ السَّبقِ المعرَّضِ به للقائلينَ على اللهِ ما لم يَقُلْهُ، وأُنِيبَ اللامُ عن الإضافةِ[2] اختصارًا وتَجافيًا عَن تَكريرِ الضَّميرِ.

وقُرِئَ: (لا يَسبُقُونَه) بالضمِّ[3] مِن سابَقْتُه[4] فسبَقْتُه أَسْبُقُه.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾: لا يعملونَ قَطُّ ما لم يَأْمُرْهُم به.

(٢٨) ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: لا تَخْفَى عليه خافِيَةٌ ممَّا قَدَّمُوا وأَخَّرُوا، وهو كالعِلَّةِ لِمَا قبلَهُ والتَّمهيدِ لِمَا بعدَهُ، فإنَّهُم لإحاطَتِهِم بذلك يَضبِطُونَ أنفُسَهُم ويراقبونَ أحوالَهُم.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أنْ يُشفعَ له مَهابةً منه ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾: عَظَمتِهِ ومَهابَتِه ﴿مُشْفِقُونَ﴾: مُرتَعِدُونَ.

وأصلُ الخَشيةِ: خوفٌ مَع تَعظيمٍ، ولذلك خُصَّ بها العُلماءُ، والإشفاقُ: خوفٌ مع اعتناءٍ، فإنْ عُدِّيَ بـ(مِن) فمَعنى الخوفِ فيه أظهرُ، وإن عُدِّيَ بـ(على) فبالعكسِ.

(٢٩) ـ ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾: مِن الملائكةِ، أو: مِن الخَلائقِ ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ

---

(١) في نسخة التفتازاني: «فنسب السبق إليه وإليهم»، وفي نسخة الفاروقي: «فنسب السبق إليه إليهم».

(٢) قوله: «وأنيبت اللام»؛ أي: في ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾ «عن الإضافة»؛ أي: بأن يقال: بقولِهم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٧٣).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤) عن بعضهم.

(٤) كتب تحتها في نسخة التفتازاني: «غالبته».

﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يريدُ به نَفْيَ البُنوَّةِ[(١)] وادِّعاءِ ذلك عَن الملائكةِ، وتهديدَ المشركينَ بتَهديدِ مُدَّعي الرُّبوبيَّةِ.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مَن ظَلَمَ بالإشراكِ وادِّعاءِ الرُّبوبيَّةِ.

(٣٠) ـ ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: أَوَلَمْ يَعْلَمُوا. وقرأَ ابنُ كثيرٍ بغيرِ واوٍ[(٢)].

﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا﴾: ذاتَ رتقٍ، أو: مَرْتُوقَتَيْنِ، وهو الضمُّ والالتحامُ؛ أي: كانتا شيئًا واحدًا وحقيقةً مُتَّحدَّةً ﴿فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾ بالتَّنويعِ والتَّمييزِ.

أو كانت السَّماواتُ واحدةً ففُتِقَتْ بالتَّحريكاتِ المُختَلِفَةِ حتى صارَتْ أَفلاكًا، وكانت الأرضونَ واحدةً فجُعِلَت باختلافِ كَيفيَّاتِها وأَحوالِها طَبقاتٍ وأَقاليمَ[(٣)].

وقيل: كانتا بحيثُ لا فُرجَةَ بينَهُمَا ففُرِجَ.

وقيل: كانتَا رتقًا لا تمطِرُ ولا تنبتُ، ففَتَقْنَاهما بالمطرِ والنَّباتِ، فيكونُ المرادُ بالسَّماواتِ سَماءَ الدُّنيَا وجمعُها باعتبارِ الآفاقِ، أو السَّماواتِ بأَسرِهَا على أنَّ لَها مَدخلًا ما في الأمطارِ.

والكفرةُ وإنْ لَمْ يَعلَمُوا ذلك فهُمْ مُتمَكِّنُونَ مِن العلمِ بِهِ نَظرًا ـ فإنَّ الفتقَ عارِضٌ مُفتَقِرٌ إلى مُؤثِّرٍ واجبٍ ابتداءً ـ، أو بوسطٍ، أو استفسارًا مِن العُلَماءِ ومُطالعَةَ الكُتبِ.

وإنَّما قال: ﴿كَانَتَا﴾ ولم يَقُل[(٤)]: (كُنَّ) لأنَّ المُرادَ جماعةُ السَّماواتِ وجماعةُ الأَرضِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «الربوبية»، وفي نسخة الطبلاوي: «التفوه».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

(٣) في نسخة التفتازاني والفاروقي: «أو أقاليم».

(٤) في نسخة الفاروقي: «كانتا دون».

وقُـرِئَ: (رَتَقًـا) بالفتـحِ[١] على تقديرِ: شـيئًا رَتَقًا؛ أي: مَرتوقًـا؛ كالرَّفَضِ بمَعنى المرفوضِ.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾: وخَلَقنا مِن الماءِ كُـلَّ حـيوانٍ، كقولِه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥]، وذلك لأنَّه مِن أَعظَمِ موادِّهِ[٢]، ولفَرْطِ[٣] احتياجِهِ إليه وانتِفَاعِه به بعينِه، أو: صَيَّرْنَا كلَّ شَيءٍ حيٍّ بسبَبٍ مِن الماءِ لا يَحْيَا دُونَه.

وقُرِئَ: (حَيًّا)[٤] على أنَّه صِفَةُ ﴿كُلَّ﴾، أو مفعولٌ ثانٍ والظَّرفُ لَغْوٌ.

والشَّيءُ مَخصوصٌ بالحَيوانِ.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع ظهورِ الآياتِ.

(٣١) ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾: ثابتاتٍ، مِن رَسَا: إذا ثبتَ.

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾: كراهةَ أَنْ تَميلَ[٥] بهم وتَضطَرِبَ.

وقيلَ: لأَنْ لا تميدَ، فحُذِفَ (لا) لأَمْنِ الإلباسِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، و«المحتسب» (٢/ ٦٢)، عن أبي حيوة، زاد ابن جني: الحسن وعيسى الثقفي.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «مواده في التركيب».

(٣) في نسخة الفاروقي: «أو لفرط». والمثبت من باقي النسخ، وهو ما رجحه الشهاب في «الحاشية» (٦/ ٢٥٢) حيث قال: قوله: «ولفرط احتياجه إليه» يشير به وبعدم عطفه بـ(أو) ليظهر التخصيص؛ لأن التراب كذلك ولذا ورد: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وذكرُه في مقام آخر يقتضيه، فلا وجه لما قيل: إنّ الأولى أن يقول: (أو) مع أنه وقع «أو» في بعض النسخ أيضاً.

(٤) انظر: «زاد المسير» (٣/ ١٨٩) عن معاذ القارئ وابن أبي عبلة وحميد بن قيس، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣١٧) عن ابن أبي عبلة، و«البحر» (/ ١٥٥) عن حميد.

(٥) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «تميد».

﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا﴾: في الأرضِ أو الرَّواسي ﴿فِجَاجٗا سُبُلٗا﴾: مسالك واسِعةً، وإنَّما قَدَّمَ ﴿فِجَاجٗا﴾ وهو وصفٌ له ليصيرَ حالًا فيدلَّ على أنَّه حينَ خَلقَها خَلقَها كذلك، أو ليُبدَلَ منها ﴿سُبُلٗا﴾ فيدلَّ ضِمنًا على أنَّه خلقَها ووَسَّعَها للسَّابلَةِ، مع ما يكونُ فيه مِن التَّوكيدِ[1].

﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ إلى مَصالِحِهم.

(٣٢) ـ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ عَن الوقوعِ بقُدرَتِه، أو: الفسادِ والانحلالِ إلى الوَقتِ المَعلومِ بمَشيئَتِه، أو: استراقِ السَّمعِ بالشُّهُبِ.

﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا﴾: أحوالِها الدَّالَّةِ على وُجودِ الصَّانعِ ووحدَتِه وكمالِ قُدرَتِه وتَناهي حِكمَتِه التي يُحَسُّ ببعضِها ويُبحَثُ عَن بعضِها في عِلمَي الطَّبيعَةِ والهيئةِ ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ غيرُ مُتفكِّرينَ.

(٣٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ بيانٌ لبَعضِ تلك الآياتِ.

﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ﴾؛ أي: كلُّ واحدٍ مِنْهُما، والتَّنوينُ بَدلُ المُضافِ إليه، والمرادُ بالفَلَكِ الجنسُ؛ كقولِهم: كسَاهُم الأَميرُ حُلَّةً.

﴿يَسۡبَحُونَ﴾: يُسرِعُونَ على سَطحِ الفَلَكِ إسراعَ السَّابحِ على سَطحِ الماءِ، وهو خبرُ ﴿كُلّٞ﴾، والجملةُ حالٌ مِن (الشَّمس والقَمر)، وجازَ انفِرادُهُما بها لعدمِ اللَّبْسِ، والضَّميرُ لَهُما، وإنَّما جمعَ باعتبارِ المطالعِ، وجَعْلُ واو العُقلاءِ لأنَّ السِّباحةَ فِعْلُهُم.

(٣٤) ـ ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ﴾ نزلَتْ حينَ قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وفي مَعناه قوله:

---

(١) علق عليه في هامش نسخة الفاروقي: «وهو الإيهام قبل التوضيح».

فَقُـلْ لِلشَّـامِتِينَ بِنَـا أَفِـيقُـوا سَيَلْقَى الشَّـامِتُونَ كَمَـا لَقِينَـا[1]

والفاءُ لتَعلُّقِ الشَّرطِ بما قبلَهُ والهمزةُ لإنكارِهِ بعدَما تقرَّر ذلك.

(٣٥) ـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾: ذائقةٌ مرارةَ مُفارَقَتِها جسدَهَا، وهو برهانٌ على ما أَنْكَرُوهُ.

﴿وَنَبْلُوكُم ﴾ ونُعامِلُكُـم مُعاملَـةَ المختبِرِ ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ ﴾: بالبَلايَـا والنِّعَـمِ ﴿فِتْنَةً ﴾: ابتلاءً، مصدرٌ من غيرِ لَفظِه.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فنُجازيكُمْ حسبَ ما يوجَدُ مِنْكُم مِن الصَّبرِ والشُّكرِ.

وفيه إيماءٌ بأنَّ المقصودَ مِن هذهِ الحياةِ: الابتلاءُ والتَّعريضُ للثَّوابِ والعقابِ تقريرًا لِمَا سبقَ.

(٣٦) ـ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾: مـا يَتَّخذونكَ. ﴿إِلَّا هُزُوًا ﴾:

مَهزوءًا بـه، ويقولـون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ ﴾؛ أي: بسُـوءٍ، وإنَّما أطلقَـهُ لدَلالـةِ الحـالِ، فـإنَّ ذكرَ العَـدُوِّ لا يكونُ إلا بسـوءٍ.

---

(١) نسب للفرزدق في «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٣/ ١٣١)، و«الحماسة» بشرح المرزوقي (ص: ٨٤٨)، و«محاضرات الأدباء» للراغب (٢/ ٥٢٠)، و«التذكرة الحمدونية» (٤/ ٣٠٣).

وهو في «أمالي المرتضى» (١/ ٢٥١) منسوب لذي الإصبع العدواني.

ونسبه ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» (١/ ٤٦٨) لخال الفرزدق وهو العلاء بن قرظة الضَّبِّيُّ، وكان شاعراً، قال: وكان الفرزدق يقول: إنما أتاني الشعر من قبل خالي، وخالي الذي يقول:

إذا مـا الدَّهـر جرَّ علـى أناس حـوادثـه أنـاخَ بـآخـريـنا

فـقـل للشـامتين...........

﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالتَّوحيدِ، أو بإرشادِه الخلقَ ببعثِ الرسلِ وإنزالِ الكُتبِ رحمةً عليهِم، أو بالقرآنِ ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾: مُنكرونَ، فهُمْ أحقُّ أن يُهزأَ بهم.

وتكريرُ الضَّميرِ للتَّأكيدِ والتَّخصيصِ، ولحَيْلولَةِ الصِّلَةِ بينَهُ وبينَ الخبرِ.

(٣٧) ـ ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كأنَّه خُلِقَ منه؛ لفَرْطِ استِعجالِه وقِلَّةِ ثَباتِه[١]؛ كقولِك: خُلِقَ زَيدٌ مِن الكرمِ، جُعل ما طُبعَ عليه بمنزلةِ المطبوعِ هو منه مبالغةً في لُزومِه له، ولذلك قيل: إنَّه على القلبِ.

ومِن عَجَلتِه: مبادرتُهُ إلى الكُفرِ، واستعجالُ الوعدِ؛ رُوِيَ أنَّها نَزَلَت في النَّضرِ بن الحارثِ حينَ استعجلَ[٢].

﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾: نقماتي في الدُّنيا كوقعةِ بَدرٍ، وفي الآخرةِ عذابَ النَّارِ.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيانِ بها، والنَّهيُ عمَّا جُبِلَت عليه نُفوسُهُم ليُقعِدُوهَا عَن مُرادِها[٣].

(٣٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: وقتُ وعدِ العَذابِ أو القيامةِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يَعنونَ النَّبيَّ وأَصحابَه.

(٣٩) ـ ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ محذوفُ الجَوابِ، و﴿حِينَ﴾ مفعولٌ به لـ﴿يَعْلَمُ﴾؛ أي: لو يعلمون

---

(١) في نسخة الطبلاوي والفاروقي: «تأنيه».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٧٨) من رواية عطاء عن ابن عباس، وهذا الإسناد الذي يكثر عند الواحدي إسناد تالف وقد استوفينا الكلام عليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧].

(٣) إقعادُ النفوس عن مرادها كنايةٌ زجرها وقمعها عنه. انظر: «حاشية ابن التمجيد على البيضاوي» (١٢/ ٥٢٢).

الوقتَ الذي يَستعجلونَ منه بقَوْلِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وهو حينَ تُحيطُ بهم النَّارُ مِن كلِّ جانبٍ بحيثُ لا يقدرونَ على دَفعِها، ولا يجدونَ ناصرًا يمنعُها= لَمَا استَعْجَلُوا.

ويجوزُ أن يُتركَ مَفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾ ويضمَرَ لـ﴿حِينَ﴾ فعلٌ بمعنى: لَوْ كانَ لَهُم علمٌ لَمَا استَعْجَلُوا، يعلمونَ بطلانَ ما هم عليه حين لا يكفُّون[1]، وإنَّما وُضِعَ الظَّاهرُ فيه موضِعَ الضَّميرِ للدَّلالةِ على ما أوجبَ لَهُم ذلك.

(٤٠) ـ ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ العِدَةُ، أو: النَّارُ، أو: السَّاعةُ ﴿بَغْتَةً﴾: فجأةً، مَصدرٌ أو حالٌ.

وقُرِئَ بفتحِ الغينِ[2].

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾: فتغلبُهُم، أو: تحيرُهُم.

وقُرِئَ الفِعلانِ بالياءِ[3]، والضَّميرُ للوَعدِ أو الحينِ، وكذا في قولِه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ لأنَّ الوعدَ بمَعنى النَّارِ، أو العِدَةِ، والحينَ بمَعنى السَّاعةِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ للنَّارِ أو للبَغتَةِ.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾: يُمْهَلونَ، وفيه تذكيرٌ بإمْهالِهم في الدُّنيَا.

(٤١) ـ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسليةٌ لرَسولِ اللهِ عليهِ السَّلامُ ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وعدٌ له بأَنَّ ما يَفعلونَه به يَحيقُ بهم كما حاقَ بالمستهزئينَ بالأنبياءِ ما فعلوا، يعني: جزاءَه.

---

(١) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني والخيالي والفاروقي: «يعلمون بطلان ما عليهم حين لا يكفون». والمثبت من نسخة خطية وقفنا عليها في مكتبة (أمجا زاده) برقم (٢٠)، ولم يقف الشهاب على هذه النسخة فلذلك قال: قوله: «يعلمون بطلان ما عليهم» بيان للمقدر، كذا في النسخ، والظاهر: ما هم عليه، ولذا قيل: إنه قلبٌ. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) نسبت للأعمش. انظر «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤).

(٣) نسبت للأعمش. انظر «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤).

(٤٢) ـ ﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ للمُستهزئينَ: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾: يحفظُكُم ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: مِن بَأسِهِ إنْ أرادَ بِكُم، وفي لفظِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تنبيهٌ على أنْ لا كالئَ غيرُ رَحمَتِه العامَّةِ، وأنَّ اندِفاعَهُ بمُهلَتِه[1].

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يُخطرونَهُ ببالِهِم فضلًا أَنْ يخافوا بأسَهُ، حتى إذا كُلِئوا منه عَرفُوا الكالِئَ وصَلَحوا للسُّؤالِ عنه[2].

(٤٣) ـ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾: بَلْ أَلَهُم آلهةٌ تَمنعُهُم مِن العَذابِ تتجاوزُ مَنْعَنا، أو: مِن عذابٍ يكونُ مِن عَندِنَا، والإضرابانِ عَن الأمرِ بالسُّؤالِ على التَّرتيبِ، فإنَّه عَن المُعرِضِ الغافلِ عَن الشَّيءِ بَعيدٌ وعَن المعتقِدِ لنقيضِهِ أبعَدُ.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ استئنافٌ بإبطالِ ما اعتقَدوه، فإنَّ ما لا يقدِرُ على نصرِ نفسِه ولا يَصحَبُه نَصرٌ مِن اللهِ كيفَ ينصرُ غيرَه؟

(٤٤) ـ ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ إضرابٌ عمَّا توهَّمُوا ببيانِ ما هو الدَّاعِي إلى حفظِهِم، وهو الاستدراجُ والتَّمتيعُ بما قدَّرَ لَهُم مِن الأعمارِ، أو عَن الدَّلالةِ على بطلانِه ببيانِ ما أوهمَهُم ذلكَ، وهو أنَّه تعالى مَتَّعَهم بالحياةِ الدُّنيا وأَمهَلَهُم حتى طالَتْ أَعمارُهُم فحَسِبُوا أنْ لا يَزالوا كذلكَ، وأنَّه بسببِ ما هم عليه، ولذلك عقَّبَه بما يدلُّ على أنَّه أمَلٌ كاذِبٌ فقال:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾: أرضَ الكَفرةِ ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بتَسليطِ المُسلمينَ علَيْها، وهو تَصويرٌ لِمَا يُجريهِ اللهُ تَعالى على أَيدِي المسلمين.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بها»، وفي نسخة التفتازاني: «بها مهلة».

(٢) «حاصل الكلام: أنهم لا يصلحوا لأن يسألوا من الله تعالى الحفظ، لإعراضهم عن ذكر من يحفظهم. كشاف» من هامش نسخة الفاروقي.

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ رسولَ اللهِ والمُؤمنينَ.

(٤٥) - ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾: بما أُوحِيَ إليَّ ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾، وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ﴾[1] على خطابِ النبيِّ، وقُرِئَ بالياءِ على أنَّ فيه ضَميرَه[2].

وإنَّما سمَّاهُم الصُّمَّ ووضعَهُ موضعَ ضميرِهِم للدَّلالةِ على تَصامِّهِم وعدمِ انتِفاعِهِم بما يَسمَعونَ.

﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ منصوبٌ بـ﴿يَسْمَعُ﴾ أو بالدُّعاءِ، والتقييدُ به لأنَّ الكلامَ في الإنذارِ، أو للمُبالغَةِ في تَصامِّهِم وتَجاسُرِهِم.

(٤٦) - ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾: أَدْنى شَيءٍ، وفيه مُبالغاتٌ: ذكرُ المسِّ، وما في النَّفحةِ مِن مَعنى القِلَّةِ فإنَّ أصلَ النَّفحِ: هبوبُ رائحةِ الشَّيءِ، والبناءُ الدالُّ على المَرَّةِ.

﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾: مِن الذي ينذرونَ به ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: لدَعَوْا على أَنفُسِهِم بالويلِ واعترَفُوا عليهَا بالظُّلمِ.

(٤٧) - ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾: العدلَ، توزَنُ بها صحائفُ الأعمالِ.

وقيل: وضعُ الميزانِ تَمثيلٌ لإرصادِ الحسابِ السَّوِيِّ، والجزاءِ على حسبِ الأَعمالِ بالعَدلِ.

وإفرادُ (القسطِ) لأنَّه مَصدَرٌ وُصِفَ به للمُبالغةِ.

﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: لجزاءِ يَومِ القِيامَةِ، أو لأَهلِهِ، أو فيه كقولِكَ: جئتُ لخَمْسٍ خَلَوْنَ مِن الشَّهرِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

(٢) هي قراءة الجماعة عدا ابن عامر.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ مِن حَقِّهِ أو مِن الظُّلْمِ.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ أي: وإن كانَ العَمَلُ أو الظُّلْمُ مِقدارَ حَبَّةٍ.

ورفعَ نافعٌ: ﴿مثقالُ﴾[1] على (كان) التَّامَّةِ.

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾: أحضرناها. وقُرِئَ: (آتينا)[2] بمَعنى: جازَيْنَا بها، مِن الإيتاءِ فإنَّه قَريبٌ مِن أَعْطينَا، أو مِن المؤاتاةِ فإنَّهُم أَتَوْهُ بالأعمالِ وأَتاهُم بالجزاءِ.

و: (أَثَبْنَا) مِن الثَّوابِ، و: (جِئْنَا)[3].

والضَّميرُ للمِثقالِ، وتأنيثُه لإضافَتِه إلى الجنَّةِ.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ إذ لا مزيدَ على عِلْمِنَا وعَدْلِنَا.

(٤٨) ـ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الكِتابَ الجامعَ لكونِه فارقًا بينَ الحَقِّ والباطلِ، وضياءً يُستضاءُ به في ظَلْماءِ[4] الحيرةِ والجهالةِ، وذِكرًا يتَّعِظُ به المتَّقونَ، أو ذِكْرَ ما يحتاجونَ إليه مِن الشَّرائعِ.

وقيل: (الفرقانُ): النَّصرُ، وقيل: فَلْقُ البَحرِ.

وقُرِئَ: (ضياءً) بغيرِ واوٍ[5] على أنَّه حالٌ من الفرقانِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، و«المحتسب» (٢/ ٦٣) عن ابن عباس ومجاهد، وزاد ابن جني نسبتها لسعيد بن جبير والعلاء بن سيابة وجعفر بن محمد.

(٣) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤).

(٤) في نسخة الفاروقي: «ظلمات».

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، و«المحتسب» (٢/ ٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد ابن جني نسبتها لعكرمة والضحاك.

(٤٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ صفةٌ لـ(المُتَّقين)، أو مدحٌ لَهُم منصوبٌ أو مرفوعٌ.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ مِن الفاعلِ أو المفعولِ ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾: خائفونَ.

وفي تَصديرِ الضَّميرِ وبناءِ الحكمِ عليه مُبالغةٌ وتَعريضٌ.

(٥٠) ـ ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يعني القُرآنَ ﴿مُّبَارَكٌ﴾: كثيرٌ خَيرُه ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على محمَّدٍ ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهامُ تَوبيخٍ.

(٥١) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾: الاهتداءَ لوُجوهِ الصَّلاحِ، وإضافتُه ليدلَّ على أنَّه رشدُ مثلِه وأنَّ لهُ شأنًا[١]. وقُرِئَ: (رَشَدَه)[٢]، وهو لغةٌ.

﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قبلِ مُوسَى وهارونَ، أو محمَّد.

وقيل: مِن قبلِ استِنْبائِه أو بلوغِه حيثُ قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ علِمْنَا أنَّه أهلٌ لِمَا آتَيْنَاهُ، أو: جامعٌ لِمَحاسنِ الأَوصافِ ومكارمِ الخِصالِ.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ فعلَهُ تَعالى باختيارٍ وحِكمَةٍ، وأنَّه عالمٌ بالجُزئيَّاتِ.

(٥٢) ـ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿ءَاتَيْنَآ﴾ أو بـ﴿رُشْدَهُۥ﴾ أو بمَحذوفٍ؛ أي: اذكُرْ مِن أوقاتِ رشدِهِ وقتَ قولِه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾، تحقيرٌ لشَأنِها وتوبيخٌ على إجلالِها؛ فإنَّ التِّمثالَ صُورَةٌ لا روحَ فيها لا تضرُّ ولا تَنفَعُ، واللامُ

---

(١) مَعنى الإضافةِ فيه بمَعنى اللامِ والاختصاصِ، المعنى والله أعلَمُ: والله لقد آتينَا بجلالَتِنا وعظمِ شَأنِنَا إبراهيمَ رُشدًا يليقُ بمثلِه وبحالِ مَن انتصبَ للرِّسالةِ وخُلةِ الرَّحمنِ ولإرادةِ هذه الوَصفيَّةِ قال: (رشدُ مثلِه) على الكِنايَةِ. «فتوح الغيب» (١٠/ ٣٦٠).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤) عن عيسى.

للاختصاصِ لا للتَّعدِيَةِ، فإنَّ تَعديةَ العكوفِ بـ(على)، والمعنى: وأنتُمْ فاعلونَ العُكوفَ لها، ويجوزُ أَنْ يؤوَّلَ بـ(عَلى) أو يُضمَّنُ العكوفُ مَعنى العبادةِ.

(٥٣) ـ ﴿ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴾ فقَلَّدْناهُم، وهو جوابٌ عمَّا لَزِمَ الاستفهامَ مِن السُّؤالِ عمَّا اقتَضَى عبادَتَها وحملَهُم عليها.

(٥٤) ـ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: مُنخَرِطونَ[1] في سلكِ ضلالٍ لا يَخْفَى على عاقلٍ؛ لعدمِ استنادِ الفريقينِ إلى دليلٍ، والتَّقليدُ إِنْ جازَ فإنَّما يجوزُ لِمَن عُلِمَ في الجملةِ أنَّه على حَقٍّ.

(٥٥) ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ كأنَّهُم لاستبعادِهِم تضليلَ آبائِهِم ظنُّوا أنَّ ما قالَه إنَّما قالَه على وجهِ المُلاعبَةِ، فقالوا: أَبِجِدٍّ تقولُه أم تلعبُ به[2].

(٥٦) ـ ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ ﴾ إضرابٌ عَن كونِه لاعبًا بإقامةِ البُرهانِ على ما ادَّعاه، و(هنَّ) لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أو لـ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾، وهو أدخَلُ في تَضليلِهِم وإلزامِ الحجَّةِ عليهِم.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ المذكورِ مِن التَّوحيدِ ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: مِن المُتحقِّقينَ له والمُبرهنينَ عليه، فإنَّ الشَّاهدَ مَن تَحقَّقَ الشَّيءَ وحَقَّقَه.

(٥٧) ـ ﴿ وَتَٱللَّهِ ﴾ وقُرِئَ بالباءِ[3] وهي الأصلُ، والتَّاءُ بدلٌ مِن الواوِ المبدلةِ منها، وفيها تَعجُّبٌ[4].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «منخرطين».

(٢) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «أم بلعب تقوله»، وفي الفاروقي: «فقالوا أتَجِدُّ بقولك أم تلعبُ به».

(٣) انظر: «الكشاف» (٥/ ٤٧٥) عن معاذ بن جبل، و«البحر» (١٥/ ٢٣٩) وزاد نسبتها للإمام أحمد بن حنبل.

(٤) علق عليه على هامش نسخة الفاروقي: «كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبته وتعذره لقوة سلطنة نمروذ».

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾: لأجتَهِدَنَّ في كَسرِها، ولفظُ الكَيدِ وما في التَّاءِ مِن التَّعجُّبِ لِصُعوبةِ الأمرِ وتَوقُّفِه على نوعٍ مِن الحِيَلِ.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ﴾ عَنْها ﴿مُدْبِرِينَ﴾ إلى عيدِكُم، ولعلَّه قالَ ذلكَ سِرًّا.

(٥٨) ـ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾: قُطَاعًا، فُعَالٌ بمَعْنَى مَفعولٍ كالحُطامِ، من الجَذِّ وهو القطعُ.

وقرأَ الكِسائيُّ بالكسرِ[١] وهو لغَةٌ، أو جمعُ جَذيذٍ كخِفَافٍ وخَفيفٍ.

وقُرِئَ بالفَتحِ[٢]، و: (جُذُذًا) جمعُ جَذِيذٍ، و: (جُذَذًا) جمعُ جُذَّةٍ[٣].

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾: للأصنامِ، كسرَ غيرَهُ واستبقاهُ وجعلَ الفأسَ على عُنُقِه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ لأنَّه غلَبَ على ظَنِّه أنَّهُم لا يرجعونَ إلا إليه؛ لتَفرُّدِه واشتِهارِه بعَداوَةِ آلِهَتِهِم، فيحاجُّهُم بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ فيَحجُّهُم، أو لأنَّهم يَرجِعونَ إلى الكبيرِ فيَسأَلونَهُ عن كاسِرِها؛ إذ مِن شأنِ المعبودِ أن يُرجَعَ إليه في حلِّ العُقَدِ فيبكتُهُم بذلك، أو إلى اللهِ؛ أي يرجعونَ إلى توحيدِه عندَ تحقُّقِهم عجزَ آلِهَتِهِم.

(٥٩) ـ ﴿قَالُواْ﴾ حينَ رَجَعُوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بجُرأَتِه على الآلهةِ الحقيقةِ بالإعظامِ، أو بإفراطِهِ في حَطْمِها، أو بتوريطِ نفسِهِ للهَلاكِ.

(٦٠) ـ ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾: يَعيبُهُم، فلعلَّهُ فَعَلَه، و(يذكرُ) ثاني مَفْعُولَيْ (سَمِعَ)، أو صفةٌ لِـ﴿فَتًى﴾ يُصحِّحُه لأنْ يَتعلَّقَ به السَّمعُ، وهو أبلَغُ في نِسبةِ الذِّكرِ إليه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤) عن أبي نهيك وأبي السمال.

(٣) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، و«البحر» (١٥/ ٢٤٢)، عن يحيى بن وثاب.

﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾: هو إبراهيمُ، ويجوز رفعُه بالفعلِ لأنَّ المرادَ به الاسمُ.

(٦١) ـ ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ بمَـرْأى مِنْهُـم بحيـثُ تَتمَكَّـنُ صُورَتُـه في أَعيُنِهِـم تَمكُّـنَ الرَّاكـبِ علـى المركـوبِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ بفعلِـه أو قولِـه، أو: يَحْضُـرونَ عُقوبَتَنـا له.

(٦٢) ـ ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ حـينَ أحـضـروه.

(٦٣) ـ ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ أسـندَ الفعلَ إليه تَجوُّزًا؛ لأنَّ غيظَهُ ـ لِـما رَأى مِن زيادةِ تَعظيمِهم له ـ تسبَّبَ لِمُباشرَتِهِ إيَّاه، أو تقريرًا لنَفيِهِ مع الاستهزاءِ والتَّبكيتِ على أسلوبِ تَعريضِيٍّ؛ كما لو قالَ لك مَن لا يُحسِنُ الخطَّ فيما كتَبْتَه بخطٍّ رَشيقٍ: أأنتَ كتَبْتَ هذا؟ فقلتَ: بَلْ كتبتَهُ أنتَ، أو حكايةً لِمَا يلزمُ مِن مَذهَبِهم جوازُه.

وقيل: إنَّه في المَعنَى مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾، وما بينَهُما اعتراضٌ.

أو إلى ضـميرِ ﴿فَتًى﴾[(١)]، أو ﴿إبراهيمَ﴾، وقولُه: ﴿كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾ مُبتدأٌ وخبرٌ، ولذلك وُقفَ على ﴿فَعَلَهُۥ﴾.

وما رُوِيَ أنَّه عليهِ السَّلامُ قال: «لإبراهيمَ ثلاثُ كَذَبَاتٍ»[(٢)] تسميةٌ للمَعاريضِ كَذِبًا لمَّا شابَهَت صُورَتُها صورَتَه.

(٦٤) ـ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وراجَعُـوا عقولَهُـم ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ فقـالَ بعضُهُـم لبَعضٍ:

---

(١) قوله: «أو إلى ضمير فتى» عطف على (إليه) في قوله: «أسند الفعل إليه».

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٧)، ومسلم (٢٣٧١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. و«كَذَبات» بفتح الكاف والذال: جمعُ كَذْبةٍ بإسكان الذال، وهي المرةُ الواحدةُ من كَذَبَ، فلمَّا جُمِعت فُتِحت الذالُ إتباعًا للكاف.

﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ بهذا السُّؤالِ، أو بعبادةِ ما لا ينطقُ ولا يضرُّ ولا ينفعُ، لا من ظَلَمْتُموهُ بقولِكُم: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

(٦٥) - ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾: انقلَبُوا إلى المُجادلَةِ بعدما استقامُوا بالمراجعَةِ، شبَّه عودَهُم إلى الباطلِ بصَيرورةِ أسفلِ الشَّيءِ مُستعلِيًا على أعلاه.

وقُرِئَ: (نكّسُوا) بالتَّشديدِ[١]، و: (نكَسُوا)[٢]؛ أي: نكَسوا أنفسَهُم.

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيفَ تأمرُ بسُؤالِها؟! وهو على إرادةِ القَولِ.

(٦٦) - ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إنكارٌ لعِبادَتِهُم لها بعدَ اعترافِهِم بأنَّها جماداتٌ لا تنفَعُ ولا تضرُّ فإنَّه يُنافي الأُلوهيَّةَ.

(٦٧) - ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تضجُّرٌ منه على إصرارِهِم بالباطلِ البيِّنِ، و(أفٍّ): صوتُ المُتضجِّرِ، ومعناه: قُبحًا ونَتْنًا، واللامُ لبيانِ المُتأفَّفِ له.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قُبْحَ صَنيعِكُم.

(٦٨) - ﴿قَالُواْ﴾ أخذُوا[٣] في المضارَّةِ لَمَّا عَجَزُوا عن المحاجَّةِ: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإنَّ النَّارَ أهوَلُ ما يعاقَبُ به ﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالانتقامِ لها ﴿إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾: إنْ كُنْتُم ناصرينَ لها[٤] نصرًا مُؤزَّرًا، والقائلُ فيهم رجلٌ مِن أكرادِ فارس اسمُه: هَيُونُ، خُسفَ به الأرض[٥]، وقيل: نُمروذُ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤) عن أبي حيوة.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، و«الكشاف» (٥/ ٤٨١)، و«البحر» (١٥/ ٢٤٩)، عن رضوان بن عبد المعبود، ولم أقف لرضوان هذا على ترجمة.

(٣) في نسخة الخيالي: «أخذاً».

(٤) في نسخة الفاروقي: «ناصريها».

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٠٥)، وفيه: «هيزن»، وفي «تاريخه» (١/ ٢٤١)، وفيه: «هينون». عن شعيب الجبائي.

(٦٩) ـ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾: ذاتَ بردٍ وسلامٍ؛ أي: ابْرُدي بردًا غيرَ ضارٍّ.

وفيه مبالغاتٌ: جَعْلُ النَّارِ المُسخَّرةِ لقدرتِه مَأمورةً مُطيعةً[1]، وإقامةُ (كوني ذاتَ بردٍ) مقامَ (ابرُدي)، ثمَّ حذفُ المضافِ وإقامةُ المُضافِ إليه مقامَه.

وقيل: نصبَ ﴿سلامًا﴾ بفعلِه؛ أي: وسلَّمْنَا سَلامًا عليه.

رُوِيَ أنَّهُم بَنَوا حَظيرَةً بكُوثَى[2]، وأجَّجوا[3] فيها نارًا عظيمَةً ثمَّ وَضعوهُ في المنجنيقِ مَغلولًا فرَمَوْا بهِ فيها، فقالَ له جبريلُ: هَلْ لك حاجةٌ؟ فقال: أمَّا إليكَ فلا، قال: فسَلْ ربَّكَ، فقال: حَسْبِي مِن سُؤالي عِلمُهُ بحَالي[4]، فجعلَ اللهُ ببركةِ قولِهِ الحَظيرةَ روضةً، ولم يحتَرِقْ مِنه إلا وِثاقُه، فاطَّلَعَ عليه نُمروذُ مِن الصَّرحِ فقال: إنِّي مقرِّبٌ إلى إلهكَ، فذبحَ أربعةَ آلافِ بقرةٍ وكفَّ عَن إبراهيمَ[5].

وكان إذ ذاكَ ابنَ ستَّةَ عشرَ سنةً.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «مأمورًا مطيعًا».

(٢) كُوثى: بلدة بالعراق إلى جانب بابل، وأخرى بمكة، والمقصود هنا التي بالعراق. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٤٨٧)، و«الروض المعطار» (ص: ٥٠٣).

(٣) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «وجمعوا».

(٤) ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٥٠) بلفظ: (علمه بحالي يغني عن سؤالي) ونقل عن ابن تيمية قوله: موضوع.

قلت: جاء في «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١/ ١٨٣) قوله: ليس له إسناد معروف، وهو باطل، بل الذي ثبت أنه قال: (حسبي الله ونعم الوكيل). رواه البخاري (٤٥٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: (حسبي الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيمُ عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(٥) انظر: «تاريخ الطبري» (١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٨/ ١٥٦).

وانقلابُ النَّارِ هواءً طيِّباً[١] ليس ببِدْعٍ، غيرَ أنَّه هكذا على خلافِ المُعتادِ، فهو إذَنْ مِن مُعجِزاتِه.

وقيل: كانَتِ النَّارُ بحالِها، لكنَّه تَعالى دفعَ عَنْهُ أَذِيَّتَها كما ترى في السَّمَنْدَرِ[٢]، ويُشعِرُ بِهِ قولُه: ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

(٧٠) - ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾: مَكرًا في إضرارِه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾: أخسَرَ مِن كلِّ خاسرٍ، عادَ سَعيُهُم بُرهانًا قاطِعًا على أنَّهُم على الباطلِ وإبراهيمَ على الحقِّ، وموجِبًا لِمَزيدِ درجتِهِ واستحقاقِهِم أشدَّ العَذابِ.

(٧١) - ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: مِن العراقِ إلى الشَّامِ، وبركاتُهُ[٣] العامَّةُ: أنَّ أكثرَ الأنبياءِ بُعثوا فيهِ، فانتشرَتْ في العالَمينَ شَرائِعُهم التي هي مَبادئُ الكمالاتِ والخَيراتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيَوِيَّةِ.

وقيل: كثرَةُ النِّعَمِ والخِصبِ الغالبِ.

رُوِيَ أنَّه نزلَ بِفِلَسطينَ، ولوطٌ بالمؤتفكَةِ، وبينَهُمَا مَسيرَةُ يومٍ وليلَةٍ[٤].

(٧٢) - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾: عطيَّةً، وهو حالٌ مِنْهُما، أو: ولدَ ولدٍ، أو: زيادةً على ما سألَ وهو إسحاقُ، فتختَصُّ بيعقوبَ ولا بأس للقرينَةِ.

﴿وَكُلًّا﴾ يعني: الأربعةَ ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ بأَنْ وَفَّقْناهُم للصَّلاحِ وحملناهُم عليه فصارُوا كامِلينَ.

---

(١) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني والخيالي: «طيبة».

(٢) السمندر بالراء أو اللام وبعضهم فرق بينهما: طائر أو دويبة كالفأرة لا تحرقها النار. انظر: «حاشية الشهاب».

(٣) جاء على هامش نسخة الفاروقي: «إرجاع الضمير باعتبار المكان».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ١٦١) عن ابن إسحاق.

(٧٣) ـ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتَدَى بهم ﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ إلى الحقِّ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلكَ، وأرسَلْنَا إيَّاهُم حتى صارُوا مُكمَّلِينَ.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ليَحُثُّوهُم عليها فيَتِمَّ كمالُهُم بانضمامِ العَملِ إلى العلمِ، وأصلُهُ: أن تُفعلَ الخيراتُ، ثمَّ: فِعْلاً الخيراتِ، ثمَّ: فِعْلَ الخيراتِ، وكذلك قولُه: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهو مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ للتَّفضيلِ، وحذفُ تاءِ الإقامَةِ المعوَّضَةِ مِن إحدى الأَلِفَيْنِ لقيامِ المُضافِ إليه مَقامَهَا.

﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾: مُوَحِّدينَ مُخلصينَ في العبادةِ، ولذلك قدَّمَ الصِّلةَ.

(٧٤) ـ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾: حكمةً، أو نبوَّةً، أو فصلًا بين الخُصومِ ﴿وَعِلْمًا﴾ بما يَنبَغِي عِلمُه للأَنبياءِ ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مِن قريَةِ سَذُوم[1] ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يعني: اللواطَ، وَصَفها بصِفَةِ أَهلِهَا وأسندَها إليها على حَذفِ المُضافِ وإقامَتِهَا مُقامَه، ويدلُّ عليه:

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ فإنَّه كالتَّعليلِ له.

(٧٥) ـ ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾: في أهلِ رَحمَتِنا، أو في جَنَّتِنَا ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين سَبقَتْ لَهُم مِنَّا الحُسْنَى.

(٧٦) ـ ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾: إذ دعا اللهَ سُبحانَهُ على قومِه بالهلاكِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ المذكورينَ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءَهُ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾: مِن الطُّوفانِ، أو أذى قومِهِ.

---

(١) بالذال المعجمة، وإهمالها، كما تقدم.

والكربُ: الغَمُّ الشَّديدُ.

(٧٧) ـ ﴿ وَنَصَرْنَهُ ﴾ مُطاوعُ انتصَرَ؛ أي: جَعلنَاهُ مُنتصِرًا ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لاجتماعِ الأَمرَيْنِ: تكذيبِ الحقِّ، والانهماكِ في الشَّرِّ، فإنَّهما لم يجتَمِعَا في قومٍ إلَّا وأهلَكَهُم اللهُ.

(٧٨) ـ ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ ﴾: في الزَّرعِ، وقيل: في كَرْمٍ تَدلَّتْ عَناقِيدُه.

﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ﴾: رعَتْهُ لَيْلًا ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴾: لحكمِ الحاكِمَيْنِ والمُتَحاكِمَيْنِ عالِمِينَ.

(٧٩) ـ ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ﴾ الضَّميرُ للحُكومَةِ أو الفَتوى، وقُرِئَ: (فَأَفْهَمْنَاها)(١).

رُوِيَ أنَّ داودَ عليهِ السَّلامُ حكمَ بالغنمِ لصَاحبِ الحرثِ(٢)، فقال سُليمانُ وهو ابنُ إحدَى عشرةَ سنةً: غيرُ هذا أرفقُ بهما، يُدفَعُ(٣) الغنمُ إلى أهلِ الحَرْثِ فيَنتفعونَ بأَلبانِها وأَولادِهَا وشعرِها(٤)، والحرثُ إلى أربابِ الغَنَمِ يَقومونَ عليه حتى يعودَ إلى ما كانَ، ثمَّ يَترادَّانِ(٥).

ولعلَّهُما قالا اجتهادًا، والأوَّلُ نَظيرُ قولِ أبي حنيفةَ في العبدِ الجاني، والثَّاني مثلُ قولِ الشَّافعيِّ بغرمِ الحيلولَةِ للعَبدِ المغصوبِ إذا أَبَقَ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤) عن عكرمة.

(٢) في نسخة الخيالي: «الزرع».

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «أمر بدفع».

(٤) في نسخة الخيالي: «وأشعارها».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٢٢) عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والزهري وابن زيد وغيرهم.

وحكمُهُ في شَرعِنَا عندَ الشَّافعيِّ: وجوبُ ضمانِ المُتلَفِ باللَّيلِ، إذ المعتادُ ضَبطُ الدَّوابِّ لَيْلًا، ولذلك قضى النَّبيُّ عليهِ السَّلامُ لَمَّا دخلَت ناقةُ البراءِ حائطًا وأفسدَتْهُ فقال: «على أَهلِ الأموالِ حِفظُهَا بالنَّهارِ وعلى أهلِ الماشِيَةِ حِفظُهَا باللَّيلِ»(١).

وعندَ أبي حنيفةَ: لا ضمانَ إلَّا أَنْ يكونَ مَعَها حافظٌ؛ لقولِه عليهِ السَّلامُ: «جرحُ العَجْماءِ جُبارٌ»(٢).

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ دليلٌ على أنَّ خطأَ المُجتهدِ لا يَقدحُ فيه.

وقيلَ: على أنَّ كلَّ مُجتهدٍ مصيبٌ، وهو مُخالفٌ مفهومَ قولِه تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ ولولا النَّقلُ لاحتملَ تَوافُقَهُما على أنَّ قولَهُ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ لإظهارِ ما تفضَّلَ عليه في صِغَرِه.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾: يُقدِّسنَ اللهَ معَهُ: إمَّا بلِسانِ الحالِ، أو بصَوتٍ يتمثَّلُ له، أو بخلقِ اللهِ فيها. وقيل: يَسِرْنَ مَعَه(٣)، مِن السِّباحَةِ.

وهو حالٌ، أو استئنافٌ لِبَيانِ وجهِ التَّسخيرِ، و﴿مَعَ﴾ مُتعلِّقَةٌ به أو بـ﴿سخرنا﴾(٤).

---

(١) رواه الإمام مالك في «الموطأ» (٢/ ٧٤٧)، ومن طريقه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٣٦٩١)، عن حرام بن سعد بن محيصة، ورواه أيضاً ابن ماجه (٢٣٣٢)، وأبو داود (٣٥٧٠)، وهو مرسل، ورواه بعضهم موصولاً، لكن لم يتابع عليه، وقال ابن عبد البر في «التمهيد» (١١/ ٨٢): هذا الحديث وإن كان مرسلاً، فهو حديث مشهور، أرسله الأئمة، وحدّث به الثقات، واستعمله فقهاء الحجاز، وتلقّوه بالقبول، وجرى في المدينة به العملُ.

(٢) رواه البخاري (١٤٩٩)، ومسلم (١٧١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هذا مشكل، لقولِه: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠] وتَسييرُ الجبالِ ليسَ في القرآنِ، ولا ضرورةَ في حملِ التَّسبيحِ على السَّير. قاله صاحب «الفوائد». انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٣٨٥).

(٤) في نسخة الطبلاوي والخيالي والتفتازاني: «و﴿مَعَ﴾ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿سخرنا﴾ أو بـ﴿يُسَبِّحْنَ﴾»، والمثبت من نسخة الفاروقي والمعنى واحد.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، أو مفعولٌ معَه.

وقُرِئَ بالرَّفعِ على الابتداءِ، أو العطفِ على الضَّميرِ على ضعفٍ[1].

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لأمثالِه، فليسَ ببِدْعٍ مِنَّا وإن كانَ عَجِيبًا عِندَكُم.

(٨٠) ـ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾: عملَ الدِّرعِ، وهو في الأصلِ: اللِّباسُ، قال:

اِلْبَسْ لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا ... إمَّا نعيمَها وإمَّا بوسَها[2]

قيل: كانَتْ صفائحَ فحلَّقَها وسرَدَها[3].

﴿لَكُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(علَّم) أو صِفَةٌ لـ﴿لَبُوسٍ﴾.

﴿لِيُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ بدلٌ منه بدلَ الاشتمالِ بإعادةِ الجارِّ، والضَّميرُ لـ﴿دَاوُۥدَ﴾ أو لـ﴿لَبُوسٍ﴾.

وفي قراءةِ ابنِ عامرٍ وحَفصٍ بالتَّاءِ للصَّنعةِ أو للَّبوسِ على تأويلِ الدِّرعِ، وفي قراءةِ أبي بَكرٍ ورُوَيسٍ بالنُّونِ للهِ عزَّ وجلَّ[4].

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ ذلك، أمرٌ أخرجَهُ في صورةِ الاستفهامِ للمُبالغَةِ والتَّقريعِ[5].

---

(١) انظر: «إعراب القرآن» للعكبري (٢/ ٩٢٣)، وفيه: ويقرأ شاذًّا بالرفع عطفاً على الضمير في ﴿يُسَبِّحْنَ﴾. وأجازها الزجاج في «معاني القرآن» (3 /400) لغة، لكنه قال: ولا أعلم أحداً قرأ بها.

(٢) الرجز لبيهس الفزاري؛ كما في «أمثال العرب» للمفضل الضبي (ص: ١١١)، و«الفاخر» للمفضل بن سلمة (ص: ٦٣)، ودون نسبة في «العين» (٧/ ٢٦٢)، و«إصلاح المنطق» (ص: ٢٣٦)، و«البسيط» للواحدي (١٥/ ١٤٢).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٢٩) عن قتادة.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

(٥) في نسخة الخيالي: «أو التقريع».

(٨١) ـ ﴿وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ﴾: وسَخَّرنا لهُ، ولعلَّ اللامَ فيه دونَ الأوَّلِ؛ لأنَّ الخارقَ فيه عائدٌ إلى سُليمانَ نافعٌ له، وفي الأوَّلِ أمرٌ يظهَرُ في الجبالِ والطيرِ مع داودَ بالإضافةِ(١) إليه(٢).

﴿عَاصِفَةً﴾: شديدةَ الهبوبِ مِن حيثُ إنَّها تبعدُ بكُرسيِّهِ في مدَّةٍ يَسيرةٍ كما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] وكانَتْ رُخاءً في نفسِهَا طَيِّبَةً.

وقيل: كانَتْ رخاءً تارةً وعاصفةً أخرى حسبَ إرادَتِه.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾: بمَشيئَتِه، حالٌ ثانيةٌ، أو بدلٌ مِن الأولى، أو حالٌ مِن ضَميرِها.

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾: إلى الشَّامِ رَواحًا بعدما سارَت بهِ منه بكرةً.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فنُجريهِ على ما تَقتضيهِ الحكمَةُ.

(٨٢) ـ ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحارِ ويُخرجونَ نفائِسَه، و﴿مَن﴾ عطفٌ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾ أو مبتدأٌ خبرُه ما قبلَهُ، وهي نكرةٌ موصوفةٌ.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: ويتجاوزونَ ذلك إلى أعمالٍ أُخرَ كبناءِ المدنِ والقُصورِ واختراعِ الصَّنائعِ الغريبةِ كقولِه: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ أنْ يزيغوا عن أمرِهِ أو يُفسدُوا على ما هو مُقتَضى جبلَّتِهم.

(٨٣) ـ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾: بأنِّي مَسَّني الضُّرُّ.

---

(١) في نسخة الطبلاوي والتفتازاني: «وبالإضافة».

(٢) في هامش نسخة الفاروقي: «أي بالنسبة إليه لا يتعدى إلى غيره، بخلاف معجزة سليمان».

وقُرِئَ بالكسرِ(١) على إضمارِ القَوْلِ، أو تضمينِ النِّداءِ معناه.

والضَّـرُّ بالفتـحِ شـائعٌ فـي كلِّ ضَـررٍ، وبالضمِّ خاصٌّ بمـا في النَّفْـسِ كمَرَضٍ وهُزَالٍ.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وصفَ ربَّهُ بغايَةِ الرَّحمَةِ بعدما ذكرَ نفسَهُ بما يوجِبُها، واكتفى بذلكَ عن عرضِ المطلوبِ لطفًا في السُّؤالِ.

وكـان رُومِيًّا مِـن أَولادِ(٢) عيصِ بنِ إسحاقَ، استنبأَهُ اللهُ، وكَثُرَ أهلُهُ ومالُه، فابتلاهُ اللهُ بهلاكِ أَولادِهِ بهدمِ بيتٍ عليهِمْ وذَهابِ أَموالِهِ والمرضِ في بدَنِه ثَماني عشرةَ سنةً(٣)، أو ثلاثَ عشرةَ سنةً(٤)، أو سبعًا وسبعةَ أشهُرٍ وسبعَ ساعاتٍ(٥).

رُوِيَ أنَّ امرأَتَهُ ماخيرَ بنتَ مَيْشَا بن يوسفَ ـ أو رحمةَ بنتِ إفراثيمَ بنِ يوسفَ

---

(١) نسبت لأبي عمران الجوني في «زاد المسير» (٣/ ٢٠٥)، وللكسائي عن أبي بكر وعن عيسى الكوفة في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣١٩)، ولعيسى بن عمر في «البحر المحيط» (١٥/ ٢٦٨).

(٢) في نسخة التفتازاني والفاروقي: «من ولد».

(٣) قطعة من خبر طويل رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٣٤ وما بعدها) عن وهب بن منبه. واختلف في مقدار لبثه في محنته، والذي رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٦٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٨٩٨)، ورواه أيضاً البزار (٢٣٥٧ ـ كشف)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٦١٦)، والضياء في «المختارة» (٢٦١٧)، عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ نبيَّ الله أيوبَ لَبِثَ به بلاؤهُ ثماني عشرة سنة، فرَفَضه القريبُ والبعيدُ إلا رجلانِ مِن إخوانه...» الحديث. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٠٨): رواه البزار وأبو يعلى ورجال البزار رجال الصحيح.

(٤) ذكر هذا القول الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٦/ ٤٢١) من حديث أنس رضي الله عنه، وعزاه لابن أبي حاتم والطبري وابن حبان والحاكم.

(٥) هذا قول مقاتل. انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٤٨).

ـ قالَتْ له يومًا: لَوْ دعوتَ اللهَ، فقال: كم كانَتْ مُدَّةُ الرَّخاءِ؟ فقالت: ثمانينَ سنةً، فقال: أَستَحْيِي مِن اللهِ أَنْ أَدعُوَهُ وما بلغَتْ مُدَّةُ بلائِي مُدَّةَ رخائِي[1].

(٨٤) ـ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ بالشِّفاءِ مِن مَرَضِه ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ بأن ولدَ له ضعفُ ما كان، أو أُحيِيَ وُلْدُه ووُلِدَ له منهم نوافِلُ.

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾: رحمةً على أيوبَ، وتَذكِرَةً لغيرِهِ مِن العابدينَ؛ ليصبرُوا كما صبرَ فيثابُوا كما أُثيبَ، أو: لرَحمَتِنَا العابدينَ فإنَّا نَذكُرُهم بالإحسانِ ولا نَنساهُم[2].

(٨٥) ـ ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾ يعني: إلياسَ، وقيل: يوشَعُ، وقيل: زكريَّا، سُمِّيَ به لأنَّه كانَ ذا حظٍّ مِن اللهِ، أو تكفُّلٍ منه، أو ضِعْفِ[3] عملِ

---

(١) قطعة من خبر طويل رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٣٦٠ ـ ٣٦٣) عن الحسن.

(٢) قوله: «أو لرحمتنا للعابدين فإنا نذكرهم...» إشارة إلى أن ﴿رَحْمَةً﴾ و﴿ذكرى﴾ تنازعا قوله: ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾ لا أنه متعلق بـ﴿ذكرى﴾ وحده كما في الوجه السابق، لكن قوله: «فإنا» بالفاء في أكثر النسخ، وهو في «الكشاف» وبعض النسخ بالواو، وهو الظاهر إذ لا وجه للتعليل كما قيل، ووجهه: أنّ مَن ذكره الله عنده بالخير علم أنه يجريه على عوائد برِّه ورحمته. انظر: «حاشية الشهاب».

قلت: وعبارة «الكشاف» (٥/ ٤٩٤): أي: لرحمتِنا العابدينَ وأنَّا نَذكُرُهم بالإحسان لا نَنسَاهُمْ.

وقال ابن التمجيد في «الحاشية» (١٢/ ٥٧٠): قوله: «أو لرحمتنا للعابدين» هذا على تقدير جعل ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾ صلة للرحمة، فيكون متعلق ﴿ذكرى﴾ محذوفا تقديره: رحمة للعابدين وذكرى لهم، ففسر (وذكرى لهم) بقوله: «وأنا نذكرهم بالإحسان لا ننساهم»، واللام في قوله: «لرحمتنا» إشارة إلى أن ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول له لـ(آتينا)... إلى آخر ما قال.

قلت: وفي كلامه ما يدل على أن في نسخه (وأنا) بالواو كما في عبارة الزمخشري وكما رجحه الشهاب.

(٣) قوله: «أو ضعف» هكذا جاءت في النسخ، وفي بعض الطبعات: «أو له ضعف». انظر: «حاشية =

أنبيـاءِ زَمانِـه وثَوابِهـم، والكِفْـلُ يجـيءُ بمعنـى النَّصيـبِ والكَفالـةِ والضِّعـفِ.

﴿كُلٌّ﴾: كلُّ هؤلاءِ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مشاقِّ التَّكاليفِ وشَدائدِ النُّوَبِ.

(٨٦) ـ ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ يعنـي: النُّبـوَّةَ، أو نِعمـةَ الآخـرةِ ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: الكامليـنَ فـي الصَّـلاحِ، وهم الأنبيـاءُ، فإنَّ صَلاحَهُـم مَعصومٌ عَن كـدرِ الفسادِ.

(٨٧) ـ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾: وصاحبَ الحُوتِ يونسَ بنَ متَّى ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ لقومِه لَمَّا بَرِمَ لطولِ دعوَتِهم وشِدَّةِ شَكيمَتِهم مُهاجرًا عنهم قبلَ أنْ يُؤمَرَ.

وقيل: وعدَهُم بالعذابِ فلَمْ يَأتِهم لِمِيعادِهِم[١] بتَوْبَتِهم، ولم يَعرفِ الحالَ، فظنَّ أنَّه كذَبَهُم، وغَضِبَ مِن ذلكَ، وهو مِن بناءِ المغالبَةِ للمُبالغَةِ.

أو لأنَّه أَغضَبَهُم بالمُهاجرَةِ لخَوْفِهِم لُحوقَ العَذابِ عندَها.

وقُرِئَ: (مُغْضَبًا)[٢].

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: لَـنْ نُضَيِّـقَ عليهِ، أو: لـن نقضِيَ عليـه بالعُقوبَةِ، مِن القَـدْرِ، ويعضُـدُه أنَّه قُـرِئَ مُثقَّلًا[٣].

أو: لَنْ نُعمِلَ فيه قُدرتَنا.

= القونوي» (١٢/ ٥٧٠). وهكذا عبارة «الكشاف»: وقيل: كان له ضِعْفُ عمل الأنبياء في زمانه وضِعْفُ ثوابهم.

(١) أي: للوقتِ الذي وعدَهم بإتيانه فيه إن لم يتوبوا. وفي نسخة الفاروقي: «الميعاده».

(٢) نسبت لأبي شرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥).

(٣) نسبت لابن أبي ليلى وأبي شرف والكلبي ويعقوب في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥).

وقيل: هو تَمثيلٌ لحالِهِ بحالِ مَن ظنَّ أن لَنْ نَقدِرَ[(١)] عليه في مُراغمَتِهِ قومَهُ مِن غيرِ انتظارٍ لأَمرِنَا، أو خَطْرةٌ شَيطانيَّةٌ سبقَتْ إلى وهمِهِ فسُمِّيَ ظَنًّا للمُبالغَةِ.

وقُرِئَ بالياءِ، وقرأ يعقوبُ على البناءِ للمَفعولِ، وقُرِئَ به مُثقَّلًا[(٢)].

﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾: في الظُّلمَةِ الشَّديدةِ المُتكاثِفَةِ، أو ظلماتِ بطنِ الحُوتِ والبَحرِ والليلِ: ﴿أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾: بأَنَّهُ لا إلهَ إلَّا أنتَ ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ أن يُعجِزَكَ شيءٌ ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لنَفسِي بالمبادرةِ إلى المهاجرةِ، وعن النبيِّ ﷺ: «ما مِن مَكروبٍ يَدْعُو بهذا الدُّعاءِ إلا استُجيبَ له»[(٣)].

(٨٨) ـ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ بأَنْ قَذفَهُ الحوتُ إلى السَّاحلِ بعدَ أربعِ ساعاتٍ كان في بَطنِه، وقيل: ثلاثةَ أيَّامٍ.

والغمُّ: غَمُّ الالتقامِ، وقيل: غمُّ الخَطيئَةِ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن غُمومٍ دَعَوا اللهَ فيها بالإخلاصِ.

وفي الإمامِ: ﴿نُجِّي﴾ فلذلك أخفى الجماعةُ النُّونَ الثَّانيةَ فإنَّها تَخْفَى مع حروفِ الفَمِ.

وقـرأَ ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ بتَشـديدِ الجيمِ[(٤)] على أنَّ أصلَـهُ: نُنَجِّي، فحُذِفَت النُّونُ

---

(١) في نسخة الفاروقي: «أن لا يقدر».

(٢) قرأ الجمهور: ﴿نَّقْدِرَ﴾، ويعقوب: ﴿يُقْدَرَ﴾. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٤). وقرأ عيسى: (يَقْدِرَ). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥). وقرأ عبيد بن عمير وقتادة: (يُقَدِّرَ). انظر: «تفسير الثعلبي» (١٨/ ٢٣٨).

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٦٢)، والترمذي في (٣٥٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤١٧)، وفي «عمل اليوم والليلة» (٦٥٥).

(٤) أي: ﴿نجِّي﴾ بنون واحدة مشدَّدًا، والباقون بنونين مخففًا. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

الثَّانيةُ كما حُذِفَت التَّاءُ في ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، وهي وإن كانَتْ فاءً فحَذفُهَا أوقَعُ مِن حَرفِ المُضارعَةِ التي لِمَعنًى، ولا يقدحُ فيه اختلافُ حَركتي النُّونَيْنِ، فإنَّ الدَّاعِيَ إلى الحذفِ اجتماعُ المِثلَينِ مَع تَعذُّرِ الإدغامِ، وامتناعُ الحذفِ في ﴿نَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: ١٦] لخوفِ اللَّبسِ.

وقيل: هو ماضٍ مَجهولٌ أُسنِدَ إلى ضَميرِ المَصدَرِ وسَكَنَ آخِرُه تَخفيفًا.

ورُدَّ: بأنَّه لا يُسنَدُ إلى المصدرِ والمفعولُ مَذكورٌ، والماضي لا يُسَكَّنُ آخرُه.

(٨٩) - ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾: وحيدًا بلا وَلدٍ يَرِثُني ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ فإنْ لَمْ تَرْزُقني مَن يرثُني فلا أُبالي به.

(٩٠) - ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾؛ أي: أصلَحْناهَا للوِلادَةِ بعدَ عُقرِهَا، أو لِزكريَّا بتَحسينِ خُلقِها وكانَتْ حَرِدَةً[1].

﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني: المُتوالدينَ، أو المذكورينَ مِن الأنبياءِ ﴿كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: يُبادِرُونَ إلى أبوابِ الخيرِ ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾: ذَوِي رَغَبٍ، أو: راغِبينَ في الثَّوابِ راجينَ الإجابةَ، أو: في الطَّاعةِ وخائفينَ العقابَ أو المَعصِيَةَ.

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾: مُخبِتينَ، أو: دائِبينَ[2] الوجلَ.

والمعنى: أنَّهُم نالوا مِن اللهِ ما نَالوا بهذهِ الخصالِ.

---

(١) «حَرِدة» بمهملة وراء مكسورة؛ أي: سريعةَ الغضبِ. وقال الطبري في «التفسير» (١٦/ ٣٨٨): والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أصلح لزكريا زوجه كما أخبر تعالى ذكرُه بأن جعلها ولوداً حسنة الخلق؛ لأن كل ذلك من معاني إصلاحه إياها، ولم يخصص الله جل ثناؤه بذلك بعضاً دون بعض في كتابه، ولا على لسان رسوله ﷺ، ولا وضع على خصوص ذلك دلالة، فهو على العموم، ما لم يأت ما يجب التسليم له بأن ذلك مراد به بعض دون بعض.

(٢) في نسخة التفتازاني والفاروقي: «دائمين».

(٩١) ـ ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ مِن الحَلالِ والحرامِ، يعني: مريم ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾: في عيسى فيها؛ أي: أحيَيْناهُ في جَوفِها، وقيل: وفَعَلْنَا النَّفخَ فيها.

﴿مِن رُّوحِنَا﴾: مِن الرُّوحِ الذي هو بأَمْرِنا وحدَهُ، أو مِن جهَةِ روحِنا، يعني: جبريلَ.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾؛ أي قِصَّتَهما، أو: حالَهُما، ولذلك وحَّدَ قولَه: ﴿ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ فإنَّ مَن تأمَّلَ حالَهُما تحقَّقَ كمالَ قُدرَةِ الصَّانعِ تعالى.

(٩٢) ـ ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾: إنَّ مِلَّةَ التَّوحيدِ أو الإسلامِ ملَّتُكُم التي يجبُ عليكم أَنْ تَكونُوا عَلَيْها فكونوا عَلَيْها.

﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: غيرَ مُختَلِفةٍ فيما بين الأنبياءِ؛ إذ لا مُشاركَةَ لغيرِها[1] في صِحَّةِ الاتِّباعِ.

وقُرِئَ: (أُمَّتَكُم) بالنَّصبِ على البدلِ و: (أمةٌ) بالرَّفعِ على الخبرِ[2]، وقُرِئَا بالرَّفعِ على أنَّهما خَبرانِ[3].

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ لا إله لَكُم غيري ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ لا غير.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «الأنبياء ولا مشاركة بغيرها».

(٢) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥)، و«الكشاف» (٥/ ٥٠١)، و«البحر» (١٥/ ٢٧٦).

وكأن ابن جني لم تصله هذه القراءة كما يشير إليه قوله في «المحتسب» (٢/ ٦٥): ولو قرئ (أُمَّتَكُمْ) بالنصب بدلاً وتوضيحاً لـ﴿هَذِهِ﴾ ورفع (أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ) لأنه خبر ﴿إِنَّ﴾ لكان وجهاً جميلاً حسناً.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥)، و«المحتسب» (٢/ ٦٥)، و«البحر» (١٥/ ٢٧٦)، عن ابن أبي إسحاق والأشهب العقيلي وأبي حيوة وغيرهم.

(٩٣) ـ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ صرفَهُ إلى الغَيبةِ التفاتًا ليَنْعَى على الذين تفرَّقُوا في الدِّينِ وجعلُوا أمرَهُ قطعًا مُوزَّعةً بقبيحِ فعلِهِم إلى غَيرِهِم.

﴿كُلٌّ﴾ مِن الفرقِ المُتحزِّبَةِ ﴿إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ فنُجازِيهِمْ.

(٩٤) ـ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ باللهِ ورُسُلهِ ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾: فلا تَضييعَ لسَعْيِه، استُعيرَ لِمَنعِ الثَّوابِ كمَا استُعِيرَ الشُّكرُ لإعطائِه، ونُفِيَ نَفْيَ الجنسِ للمُبالغةِ.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾: لسَعْيِه ﴿كَٰتِبُونَ﴾: مُثبِتُونَ في صَحيفَةِ عَملِهِ لا نُضيِّعُ[1] بوَجهٍ ما.

(٩٥) ـ ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ وممتنعٌ على أهلِهَا غيرُ مُتصوَّرٍ مِنْهُم.

وقرأَ أبو بكرٍ وحمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿وحِرْمٌ﴾ بكسرِ الحاءِ وإسكانِ الرَّاءِ[2]. وقُرِئَ: (وحَرْمٌ)[3].

﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾: حَكَمْنَا بإهلاكِهَا، أو: وَجَدْنَاها هالِكَةً.

﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾: رُجوعُهُم إلى التَّوبَةِ أو الحياةِ، و﴿لَا﴾ صِلَةٌ، أو: عدمُ رجوعِهِم للجَزاءِ.

وهو مُبتدَأٌ خبرُهُ: (حرامٌ)، أو فاعلٌ له سادٌّ مَسَدَّ خبرِهِ، أو دليلٌ عليه وتقديرُه: تَوْبَتُهُم أو حَيَاتُهُم أو عَدَمُ بَعثِهِم.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لا يضيع».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣١)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

(٣) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما بخلاف، ونسب إليه أيضاً: (وحَرُمَ)، وعنه أيضاً: (وحَرِمَ)، وعن عكرمة: (وحَرِمٌ)، وعن قتادة: (وحَرَمَ). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥)، و«المحتسب» (٢/ ٦٥).

أو: لأَنَّهُم لا يَرجِعُونَ ولا يُنيبونَ[١]، و(حرامُ) خبرُ مَحذوفٍ؛ أي: وحرامٌ عليها ذاك وهو المذكورُ في الآيةِ المتقدِّمَةِ، ويؤيِّدُه القِراءةُ بالكَسرِ[٢].

وقيل: (حرامٌ): عزمٌ ومُوجَبٌ عليهم أَنَّهُم لا يرجعونَ.

(٩٦) ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ ﴾ مُتَعلِّقٌ بـ(حرام)، أو بمحذوفٍ دَلَّ الكَلامُ عليهِ، أو بـ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾؛ أي: يَستَمِرُّ الامتناعُ أو الهلاكُ أو عدمُ الرُّجوعِ إلى قيامِ السَّاعةِ وظُهورِ أَمارَاتِها، وهو فَتحُ سدِّ يأجوجَ ومأجوجَ، وهي (حتَّى) التي يُحكَى الكلامُ بعدَها، والمَحكيُّ هي الجملَةُ الشَّرطيَّةُ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ ويعقوبُ: ﴿فُتِّحَتْ﴾ بالتَّشديدِ[٣].

﴿وَهُم﴾ يعني: يأجوجَ ومأجوجَ، أو النَّاسَ كلَّهُم ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾: نَشَزٍ من الأرضِ، وقُرِئَ: (جَدَثٍ)[٤] وهو القبرُ ﴿يَنسِلُونَ﴾: يُسرِعونَ، مِن نَسَلانِ الذِّئبِ. وقُرِئَ بضمِّ السِّينِ[٥].

---

(١) قوله: «أو لأنهم لا يرجعون» عطف في المعنى على «رجوعهم إلى التوبة»، والحاصلُ: أن جملةَ ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ إما مبتدأٌ، أو سادٌّ مسدَّ الخبرِ، أو دالٌّ عليه، أو تعليلٌ لما قدَّرَه بعدُ من قوله: «وحرام عليها ذاك». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٩٨).

(٢) أي: (إنهم) بكسر الهمزة، وهي بلا نسبة في «الكشاف» (٥/ ٥٠٣)، و«البحر» (١٥/ ٢٧٦). وأجازها الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٢٨٥) لغة دون التصريح بكونها قراءة، فقال: ويجوز: (إنهم لا يرجعون) بكسر (إن) ومعنى ذلك الاستئناف، المعنى: هم إليهم لا يرجعون.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣١)، و«التيسير» (ص: ١٠٢)، و«النشر» (٢/ ٢٥٨).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥) عن ابن عباس والكلبي والضحاك، و«المحتسب» (٢/ ٦٥) عن ابن مسعود.

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥) عن الضحاك، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٢١) عن ابن أبي إسحاق وأبي السمال.

(٩٧) ـ ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القيامَةُ ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جوابُ الشَّرطِ، و﴿إذا﴾ للمفاجأةِ تَسُدُّ[1] مَسدَّ الفاءِ الجَزائيَّةِ كقَوْلِه: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]، فإذا جاءَت مَعَها تَظاهَرَتْ على وَصلِ الجَزاءِ بالشَّرطِ فيتأكَّدُ، والضَّميرُ للقصَّةِ، أو مُبهَمٌ يُفسِّرُه الأَبصارُ.

﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ مُقدَّرٌ بالقولِ واقِعٌ موقِعَ الحالِ مِن المَوصولِ.

﴿قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ لم نَعْلَم أنَّه حَقٌّ ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأَنْفُسِنا بالإخلالِ بالنَّظَرِ والاعتدادِ بالنُّذرِ.

(٩٨) ـ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يحتَمِلُ الأَوثانَ، وإبليسَ وأَعْوانَه، لأنَّهم بطاعتِهِم لهم في حُكمِ عبدَتِهم؛ لِمَا رُوِيَ: أنَّه عليهِ السَّلامُ لَمَّا تلا الآيَةَ على المشركينَ قال له ابنُ الزِّبَعْرَى: قَدْ خَصَمْتُكَ وربِّ الكعبَةِ، أليسَ اليَهودُ عَبدُوا عُزَيرًا، والنَّصارَى عبدُوا المسيحَ، وبنو مليحٍ عبدُوا الملائكةَ، فقال عليهِ السَّلامُ: «بل هُمْ عَبَدُوا الشَّياطينَ التي أمرَتْهُم بذلكَ» فأنزلَ اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١][2].

وعلى هذا يعمُّ الخِطابُ، ويكونُ ﴿ما﴾ مؤوَّلًا بـ(مَن) أو بما يعمُّهُ، ويدلُّ عليه

---

(١) في نسخة الخيالي: «وتسد».

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٥٨ـ٣٥٩) عن ابن إسحاق، ورواه عنه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤١٧ ـ ٤١٨)، ورواه مختصراً الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢٧٣٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠٥)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٦٩): فيه عاصم بن بهدلة وقد وثِّق وضعفه جماعة. ورواه بنحوه دون ذكر الآية الإمام أحمد في «المسند» (٢٩١٨).

ما رُوِي: أنَّ ابنَ الزِّبَعْرَى قال: هذا شيءٌ لآلهتِنَا خاصَّةً أو لكلِّ مَن عُبِدَ مِن دونِ اللهِ؟ فقال عليهِ السَّلامُ: «بل لكلِّ مَن عُبِدَ مِن دونِ اللهِ»[1].

ويكون قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ بيانًا للتَّجوُّزِ أو التَّخصيصِ تأخَّرَ عَن الخطابِ.

﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: ما يُرمَى به إليها وتَهيجُ به، مِن حَصَبَه يَحْصِبُهُ: إذا رماهُ بالحَصباءِ.

وقُرِئَ بسُكونِ الصَّادِ[2] وَصفًا بالمَصدَرِ.

﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ استئنافٌ، أو بَدلٌ مِن ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ واللامُ مُعوَّضةٌ مِن (على) للاختصاصِ والدَّلالةِ على أنَّ وُرودَهُم لأَجلِها.

(٩٩) ـ ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ لأنَّ المؤاخَذَ المُعذَّبَ لا يكونُ إلهًا ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا خلاصَ لَهُم عنها.

(١٠٠) ـ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾: أَنِينٌ وتَنفُّسٌ شَديدٌ، وهو من إضافَةِ فعلِ البَعضِ إلى الكلِّ للتَّغليبِ إنْ أُريدَ بما تعبدونَ الأصنامُ.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ مِن الهولِ وشِدَّةِ العَذابِ، وقيل: لا يسمَعونَ ما يَسُرُّهُم.

(١٠١ ـ ١٠٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: الخَصْلَةُ الحُسنى، وهي السَّعادَةُ، أو التَّوفِيقُ للطَّاعَةِ، أو البُشرَى بالجنَّةِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ لأنَّهُم يُرفَعُونَ إلى أعلى عِلِّيِّينَ.

---

(١) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٢/ ١٦٩)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣/ ١٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وتتمته كما في الخبر المتقدم.

(٢) نسبت لابن السميفع. انظر: «المحتسب» (٢/ ٦٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٠١).

رُوِيَ: أنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عنه خطَبَ وقرَأَ هذهِ الآيَةَ ثمَّ قال: أنا مِنْهُم وأبو بكرٍ وعُمَرُ وعُثمانُ وطَلْحَةُ والزُّبَيْرُ وسَعْدٌ وسَعِيدٌ وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عوفٍ وابنُ الجرَّاحِ، ثمَّ أُقيمَتِ الصَّلاةُ فقامَ يجرُّ رِداءَهُ ويقولُ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[1].

وهو بدلٌ مِن ﴿مُبْعَدُونَ﴾، أو حالٌ مِن ضَميرِه سيقَ للمُبالغَةِ في إبعادِهِم عَنْها.

والحسيسُ: صَوْتٌ يُحَسُّ به.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: دائمونَ في غايةِ التَّنعُّمِ، وتقديمُ الظَّرفِ للاختصاصِ والاهتمامِ به.

(١٠٣) - ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾: النَّفخَةُ الأَخيرَةُ لقولِه: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]، أو الانصرافُ إلى النَّارِ، أو حينَ يُطْبَقُ على النَّارِ، أو يُذبَحُ الموتُ.

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: تَستَقبِلُهُم مُهنِّئِينَ: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ﴾: يومُ ثوابِكُم وهو مُقدَّرٌ بالقَولِ.

﴿الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدُّنْيا.

(١٠٤) - ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ مُقَدَّرٌ بـ: اذكُرْ، أو ظرفُ ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ﴾، أو ﴿تتلقَّاهم﴾، أو حالٌ مُقدَّرةٌ مِن العائدِ المَحذوفِ مِن ﴿تُوعَدُونَ﴾.

والطيُّ: ضِدُّ النَّشرِ، أو المحوُ مِن قولِك: (اطوِ عنِّي هذا الحديثَ)، وذلك لأنَّها نُشِرَت مُظِلَّةً لبني آدمَ، فإذا انتقَلُوا قُوِّضَت عَنْهُم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٦٩) (١٣٧٤٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٦٩)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٢٤)، وفيه ليث بن أبي سليم وهو ضعيف. وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٨٥) لابن مردويه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

وقُرِئَ بالياءِ[١]، والتَّاءِ والبناءِ للمَفعولِ[٢].

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ للكِتَابِ﴾: طَيًّا كطَيِّ الطُّومارِ[٣] لأجلِ الكتابةِ، أو لِمَا يُكتَبُ أو كُتبَ فيه.

ويـدلُّ عليـهِ قـراءَةُ حمـزةَ والكِسـائيِّ وحفـصٍ علـى الجمـعِ[٤]، أي: للمَعاني الكثيـرةِ المكتوبـةِ فيه.

وقيـل: السِّـجلُّ: مَلَـكٌ يطوِي كتـبَ الأَعمـالِ إذا رُفِعَت إليـه[٥]، أو كاتـبٌ كانَ لِرَسـولِ اللهِ ﷺ[٦].

---

(١) أي: (يطوِي السماءَ)، نسبت لمجاهد وشيبة. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٢٢). وأجازها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢١٣) لغة، وقال الزجاج في «معاني القرآن» (٣/ ٤٠٦): ولم يُقرأ بها.

(٢) أي: ﴿تُطْوَى السماءُ﴾، قرأ بها أبو جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٤٤).

(٣) الطامور والطومار: الصحيفة. انظر: «المخصص» (٤/ ٨).

(٤) قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ على الجمع، وقرأ الباقون: ﴿للكتاب﴾ على الواحد. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣١)، و«التيسير» (ص: ١٥٥).

(٥) رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٤٣٣)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٢٣) عن السدي.

(٦) رواه أبو داود (٢٩٣٥) عن ابن عباس رضي الله عنه، وفي سنده يزيد بن كعب العوذي، مجهول. وقد أنكر هذا الحديث أبو العباس ابن تيمية والمزي، نقل ذلك ابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٣٤٠).

وهذا القول ضعفه بعض العلماء، قال ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٦٨): وذلك مدفوع؛ لأن كتابه معروفون.

ثم قال ابن جني عن هذا القول والذي قبله: ويشبه أن يكون هذان القولان إنما قاد إليهما توهُّمُ مَن ظن أن السجلَّ هنا فاعلٌ في المعنى، وإنما هو مفعولٌ في المعنى. وهو كقولك: كطي الكتاب للكتابة؛ أي: كطي الكتاب لأن يكتب فيه. =

وقُرِئَ: (السَّجْل) كالدَّلْوِ[١]، و: (السُّجُلّ) كالعُتُلّ[٢]، وهما لُغَتانِ فيه.

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾؛ أي: نُعيدُ ما خَلَقْناهُ مُبتدأً إعادةً مثلَ بَدْئِنَا إيَّاه في كونِهِما إيجادًا عن العَدمِ، أو جمعًا من الأجزاءِ المُتبدِّدَةِ.

والمقصودُ: بَيانُ صِحَّةِ الإعادةِ بالقِياسِ على الإبداءِ؛ لشُمُولِ الإمكانِ الذَّاتيِّ المصحِّحِ للمَقْدُورِيَّةِ، وتناوُلِ القدرَةِ القَديمَةِ لَهُما على السَّواءِ.

و(ما) كافَّةٌ أو مَصْدرِيَّةٌ، و﴿أَوَّلَ﴾ مفعولٌ لِـ﴿بَدَأْنَآ﴾، أو لفعلٍ[٣] يُفَسِّرُه ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾، أو موصولةٌ والكافُ مُتعلِّقَةٌ بمَحذوفٍ يُفَسِّرُه ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾؛ أي: نعيدُ مثلَ الذي بدَأْنَاهُ، و﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ ظرفٌ لـ﴿بَدَأْنَآ﴾، أو حالٌ مِن ضَميرِ المَوصولِ المحذوفِ.

= وقال الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٥٤٤): وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: السجل في هذا الموضع الصحيفة، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، ولا يعرف لنبينا ﷺ كاتب كان اسمه السجلّ، ولا في الملائكة ملك ذلك اسمه.

وقال ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٤٣٧): وقد أنكر الثعلبي والسهيلي أن السجل اسم الكاتب بأنه لا يعرف في كتاب النبي ﷺ ولا في أصحابه من اسمه السجل، قال السهيلي: ولا وجد إلا في هذا الخبر، وهو حصر مردود فقد ذكره في الصحابة ابن منده وأبو نعيم [(٣٦٨٤)] وأوردا من طريق بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال: كان للنبي ﷺ كاتب يقال له: سجل، وأخرجه ابن مردويه من هذا الوجه.

وحديث ابن عمر هذا قال فيه ابن كثير في «البداية والنهاية» (٨/ ٣٤١): وهذا أيضاً منكر عن ابن عمر كما هو منكر عن ابن عباس، وقد ورد عن ابن عباس وابن عمر خلاف ذلك.

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٦٧) عن أبي السمال.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥) عن أبي هريرة، و«المحتسب» (٢/ ٦٧) عن أبي زرعة. قال ابن جني: وهذا أبو زرعة بن عمرو بن جرير، وكان قد قرأ على أبي هريرة.

(٣) في نسخة الخيالي زيادة: «أو مفعول فعل».

﴿وَعۡدًا﴾ مُقدَّرٌ بفعلِه تأكيدًا لـ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾، أو منتصِبٌ به لأنَّه عِدَةٌ بالإعادةِ.

﴿عَلَيۡنَآ﴾؛ أي: عَلَيْنَا إِنجازُه ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ذلكَ لا محالةَ.

(١٠٥) - ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾: في كتابِ داودَ ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾؛ أي: التَّوراةِ.

وقيل: المرادُ بالزَّبورِ: جِنسُ الكُتُبِ المُنزلةِ، وبالذِّكرِ: اللَّوحُ المحفوظُ.

﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أرضَ الجنَّةِ، أو الأرضَ المقدَّسةَ ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ يعني: عامَّةَ المُؤمنينَ، أو الذين كانوا يُستضعفونَ مَشارِقَ الأَرضِ ومغارِبَها، أو أُمَّةَ مُحمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ السَّلامُ.

(١٠٦) - ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾؛ أي: فيما ذكرَ مِن الأخبارِ والمواعظِ والمواعيدِ ﴿لَبَلَٰغٗا﴾: لكفايةً، أو: لسببُ بلوغٍ إلى البُغيةِ ﴿لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ همُّهُم العبادةُ دونَ العادةِ.

(١٠٧) - ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ لأنَّ ما بُعثْتَ به سَبَبٌ لإسعادِهِم، ومُوجِبٌ لصَلاحِ مَعاشِهِم ومَعادِهِم.

وقيل: كونُه رحمةً للكُفَّارِ: أَمْنُهُم به من الخسفِ والمَسْخِ وعذابِ الاستئصالِ.

(١٠٨) - ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ أي: ما يُوحَى إليَّ إلَّا أنَّه لا إلهَ لَكُم إلا إلهٌ واحدٌ، وذلك لأنَّ المَقصودَ الأَصليَّ مِن بعثَتِه[1] مَقصورٌ على التَّوحيدِ، فالأُولَى لقَصْرِ الحُكمِ على الشَّيءِ، والثَّانيَةُ على العكسِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «البعثة».

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: مُخلِصُونَ العبادةَ للهِ على مُقتَضى الوحيِ المُصدَّقِ بالحُجَّةِ، وقد عرفتَ أنَّ التَّوحيدَ ممَّا يَصِحُّ إثباتُهُ بالسَّمعِ.

(١٠٩) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عَن التَّوحيدِ ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾: أعلَمْتُكُم ما أُمِرْتُ به، أو حَرْبِي لَكُم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: مُسْتَوِينَ في الإعلامِ به، أو مُسْتَوِينَ أنا وأَنْتُم في العلمِ بما أعلَمْتُكُم بهِ أو في المعاداةِ. أو: إيذانًا على سواءٍ.

وقيل: أعلَمْتُكُم أنِّي عَلى سواءٍ؛ أي: عدلٍ واستِقامَةِ رأيٍ بالبُرهانِ النَّيِّرِ.

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾: وما أدرِي ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مِن غلبَةِ المُسلمينَ[1]، أو الحشرِ، لكنَّه كائِنٌ لا مَحالةَ.

(١١٠) ـ ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: ما تُجاهِرُونَ بِه مِن الطَّعنِ في الإسلامِ.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ مِن الإحَنِ والأَحقادِ للمُسلمينَ فيُجازِيكُم عليه.

(١١١) ـ ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾: وما أدري لَعَلَّ تَأخيرَ جَزائِكُم استدراجٌ لَكُم وزيادةٌ في افتتانِكُم، أو امتحانٌ لينظرَ كيفَ تَعمَلُون.

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: وتمتيعٌ إلى أجلٍ مُقدَّرٍ تَقتضيهِ مَشيئَتُه.

(١١٢) ـ ﴿قُلْ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾: اقضِ بينَنَا وبينَ أَهلِ مَكَّةَ بالعَدلِ المُقتَضِي لاستعجالِ العَذابِ والتَّشديدِ عَلَيهم.

وقرأ حَفْصٌ: ﴿قَٰلَ﴾[2] على حكايةِ قولِ رَسولِ اللهِ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «من غلبة الإسلام».

(٢) قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿قَٰلَ رَبِّ﴾ خبراً عن النبي ﷺ أنه قال هذا الدعاء، وقرأ الباقون: ﴿قل﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣١ ـ ٤٣٢)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

وقُـرِئَ: ﴿رَبُّ﴾ بالضـمِّ[١] و: (رَبِّي أَحْكَمُ)[٢] على بنـاءِ التَّفضيلِ، و: (أَحْكَمَ) مِن الإحكامِ[٣].

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: كثيرُ الرَّحمةِ على خلقِه ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾: المطلوبُ مِنه المَعونَةُ.

﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ مِن الحالِ بأَنَّ الشَّوكةَ تكونُ لَهُم، وأنَّ رايةَ الإسلامِ تَخْفِقُ أيامًا ثمَّ تسكُنُ، وأنَّ المُوْعَدَ به لو كانَ حَقًّا لنزلَ بِهِم، فأجابَ اللهُ دعوةَ رَسُولِه عليهِ السَّلامُ فخيَّبَ أَمانِيَّهم ونصرَ رسولَه عليهِم.

وقُرِئَ بالياءِ[٤].

وعن النبيِّ ﷺ: «مَـن قرأَ ﴿ٱقْتَرَبَ﴾ حاسبَهُ اللهُ حِسابًا يَسيرًا، وصافَحَهُ وسَلَّمَ عليه كلُّ نبيٍّ ذُكِرَ اسمُهُ في القُرآنِ»[٥].

* * *

(١) هي قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٥).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦)، و«المحتسب» (٢/ ٦٧)، و«البحر» (١٥/ ٢٩٥)، عن ابن عباس والجحدري وعكرمة والضحاك وابن محيصن.

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٠٥) عن الجحدري، و«البحر» (١٥/ ٢٩٥) دون نسبة.

(٤) بالياء رواية ابن ذكوان عن ابن عامر بخلف عنه، ورواية المفضل عن عاصم، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٢)، و«النشر» (٢/ ٣٢٥).

(٥) قطعـة مـن حديث أبي بن كعـب في فضائل السـور. رواه الثعلبي فـي «تفسـيره» (١٨/ ٩٤)، وابن مردويـه كمـا في «الكافي الشـاف» لابـن حجر (ص: ١١٢). وقـال المناوي في «الفتح السـماوي» (٢١/ ٨٣٢): أخرجـه الثَّعلبـيّ وابـن مردويـه من حديـث أبي بن كعـب، وهو موضوع.

(٢١) سورة الأنبياء مكية
وآياتها اثنتا عشرة ومائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

هذا تنبيه من الله عزّ وجلّ على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها، روي عن النبي ﷺ ﴿في غفلة معرضون﴾ قال: «في الدنيا»[1]. وقال تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾. وقال أبو العتاهية

الناس في غفلاتهم ورحا المنية تطحن

وروي عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾؛ ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطابُ مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ أي جديد إنزاله ﴿إلا استمعوه وهم يلعبون﴾، كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرَّفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يُشَب[2]. وقوله ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ أي

---

(١) الحديث أخرجه النسائي عن أبي سعيد الخدري .

(٢) أخرجه البخاري بنحوه ، ومعنى لم يُشَب : أي لم يخلط بغيره من الأباطيل والأضاليل .

قائلين فيما بينهم خفية ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحي دونهم، ولهذا قال ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر ، فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿ قال ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ : أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السماوات والأرض .

وقوله تعالى: ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد، وقوله : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ﴾، هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم فيه وضلالهم عنه؛ فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾، وقوله: ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ يعنون كناقة صالح وآيات موسى وعيسى، وقد قال الله: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾[1] أي ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيها الرسل آية على أيدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك ؟ كلا، بل ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات، والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ، ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾. وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم لأنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿ أبشر يهدوننا ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾، أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف، هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ وقوله: ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾: أي

(١) أخرج ابن جرير عن قتادة قال، قال أهل مكة للنبي عليه السلام: إن كان ما تقول حقاً ويسرك أن نؤمن، فحول لنا الصفا ذهباً، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم ولم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك. فنزلت الآية: ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ .

قد كانوا بشراً من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾. وقوله: ﴿وما كانوا خالدين﴾ أي في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عزّ وجلّ تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه، وقوله: ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين، صدقهم الله وعده وفعل ذلك، ولهذا قال ﴿فأنجيناهم ومن نشاء﴾ أي أتباعهم من المؤمنين، ﴿وأهلكنا المسرفين﴾: أي المكذبين بما جاءت به الرسل.

لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم﴾ قال ابن عباس: شرفكم، وقال مجاهد: حديثكم، وقال الحسن: دينكم ﴿أفلا تعقلون﴾: أي هذه النعمة وتتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾، وقوله: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة﴾ هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾، وقال تعالى: ﴿وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ...﴾ الآية، وقوله: ﴿وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ أي أمة أخرى بعدهم، ﴿فلما أحسوا بأسنا﴾ أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم ﴿إذا هم منها يركضون﴾ أي يفرون هاربين، ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم﴾ هذا تهكم بهم نزراً، أي قيل لهم نزراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة، قال قتادة: استهزاء بهم ﴿لعلكم تسألون﴾: أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم. ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾: أي ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هِجِّيرَاهم[1] حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى

(١) دأبهم وعادتهم وشأنهم.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

يخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق أي بالعدل والقسط، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾، وقوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، قال مجاهد: يعني من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً. وقال الحسن وقتادة ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن، وقال إبراهيم النخعي ﴿لاتخذناه﴾ من الحور العين. وقال عكرمة والسدي: والمراد باللهو ههنا الولد، وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً ولا سيما عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة ﴿سبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾، وقوله ﴿إن كنا فاعلين﴾ قال قتادة والسدي: أي ما كنا فاعلين، وقال مجاهد كل شيء في القرآن «إنْ» فهو إنكار. وقوله: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل﴾ أي نبين الحق فيدحض الباطل ولهذا قال: ﴿فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ أي ذاهب مضمحل، ﴿ولكم الويل﴾ أي أيها القائلون لله ولد ﴿مما تصفون﴾ أي تقولون وتفترون. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وله من في السماوات والأرض ومن عنده﴾ يعني الملائكة ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾: أي لا يستنكفون عنها كما قال: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾، وقوله ﴿ولا يستحسرون﴾ أي لا يتعبون ولا يملون، ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه كما قال تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾. وقال محمد بن إسحاق عن عبدالله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيت قول الله تعالى للملائكة: ﴿يسبّحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟ فقال: من هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قال: فقبّل رأسي ثم قال: يا بني إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾ أي يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي لا يقدرون على شيء من ذلك فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السماوات والأرض، فقال ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله﴾ أي في السماوات

والأرض ﴿ لفسدتا ﴾، كقوله تعالى: ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾، وقال ههنا: ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ أي عما يقولون ان له ولداً أو شريكاً. وقوله: ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه، وعدله ﴿ وهم يسألون ﴾ أي وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى: ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل ﴾ يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي دليلكم على ما تقولون، ﴿ هذا ذكر من معي ﴾ يعني القرآن، ﴿ وذكر من قبلي ﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون. فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه ﴿ لا إله إلا الله ﴾ ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه، ولهذا قال: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾، كما قال: ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾؟ فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

۞ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى راداً على من زعم أن له ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب إن الملائكة بنات الله فقال: ﴿ سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً، ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ أي لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾، وقوله ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾، كقوله: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾، وقوله: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ في آيات كثيرة في معنى ذلك ﴿ وهم من خشيته ﴾ أي من خوفه ورهبته ﴿ مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ أي ادعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله، ﴿ فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي كل من قال ذلك وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه كقوله: ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾.

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم، في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات فقال: ﴿أو لم ير الذين كفروا﴾ أي الجاحدون لإلٰهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه؟ ألم يروا أن السماوات والأرض ﴿كانتا رتقاً﴾ أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه فجعل السماوات سبعاً والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء

وفي كل شيء له آيـة تدل على أنه واحـد

عن عكرمة قال، سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم السماوات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار. وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عمر: أن رجلاً أتاه يسأله عن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما؟ قال: اذهب إلى ذلك الشيخ، فاسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال، فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: نعم، كانت السماوات رتقاً لا تمطر وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر، قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس في تفسير القرآن فالآن علمت أنه قـد أوتي في القرآن علماً، وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً تمطر فأمطرت وكانت هذه رتقاً لا تنبت فأنبتت، وقال سعيد بن جبير: كانت السماء والأرض ملترقتين فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه، وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء، وقوله ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي أصل كـل الأحياء. عن أبي هريرة قال، قلت: يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء» قال، قلت: أنبئني عن أمرٍ إذا عملت بـه دخلت الجنة؟ قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام»[(١)]

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾ أي جبالاً أرسى الأرض بها وثقلها لئلا تميد بالناس أي تضطرب

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد وإسناده على شرط الصحيحين، وأخرج ابن أبي حاتم بعضه.

وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها، لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء، وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات، ولهذا قال ﴿أن تميد بهم﴾: وقوله ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾ أي ثغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً، من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال: ﴿لعلهم يهتدون﴾، وقوله ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾: أي على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾، وقال: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾، والبناء هو نصب القبة كما قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس» أي خمسة دعائم وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب، ﴿محفوظاً﴾ أي عالياً محروساً أن ينال، وقال مجاهد: مرفوعاً، وقوله: ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ كقوله: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها، من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله، الذي قدّرها وسخّرها وسيّرها، ثم قال منبهاً على بعض آياته ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر، ﴿والشمس والقمر﴾ هذه لها نور يخصها وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر. ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ أي يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة، قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن، ، كما قال تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم﴾.

* وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك﴾ أي يا محمد ﴿الخلد﴾ أي في الدنيا[1] بل ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾، وقوله: ﴿أفائن مت﴾ أي يا محمد ﴿فهم الخالدون﴾؟ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك! لا يكون هذا بل كلٌّ إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وقد روي عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تمنى رجال أن أموت وإن أَمُتْ فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تهيأْ لأخرى مثلها فكأن قد

وقوله تعالى: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر

(١) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: نعي إلى النبي ﷺ نفسه، فقال: «يا رب، فمن لأمتي»، فنزلت: ﴿وما جعلنا لبشر﴾ الآية.

ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، قال ابن عباس: ونبلوكم يقول: نبتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدة والرخاء، والصحة والسَّقم، والغنى والفقر. والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال، وقوله: ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم.

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿ أن يتخذونك إلا هزواً ﴾ أي يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾؟ يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ أي وهم كافرون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾؟ وقوله: ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ كقوله: ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ أي في الأمور، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا، أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: ﴿ سأريكم آياتي ﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ فلا تستعجلون ﴾.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً فقال: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾؟ قال الله تعالى: ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾، وقال في هذه الآية: ﴿ حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا ناصر لهم، كما قال: ﴿ وما لهم من الله من واق ﴾، وقوله: ﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ أي تأتيهم النار بغتة أي فجأة، ﴿ فتبهتهم ﴾

(١) أخرج ابن أبي حاتم: عن السدي قال: مرَّ النبي ﷺ على أبي جهل وأبي سفيان وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك، وقال: ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب من غيَّر عهده، فنزلت: ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ الآية.

أي تذعرهم فيستسلمون لها، حائرين لا يدرون ما يصنعون ﴿فلا يستطيعون ردها﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾ أي بدل الرحمن يعني غيره، وقوله تعالى ﴿بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا، لا، ولا كما زعموا، ولهذا قال: ﴿لا يستطيعون نصر أنفسهم﴾ أي هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم، وقوله: ﴿ولا هم منا يصحبون﴾ قال ابن عباس: أي يجارون. وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير، وقال غيره ﴿يصحبون﴾ يُمنعون.

بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال: أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونعّموا، وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء؛ ثم قال واعظاً لهم: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة الرعد، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون﴾، وقال الحسن البصري يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه؟ وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين؟ ولهذا قال: ﴿أفهم الغالبون﴾ يعني بل هم المغلوبون الأخسرون الأرذلون، وقوله: ﴿قل إنما أنذركم بالوحي﴾ أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال، ليس ذلك

إلا عما أوحاه الله إليَّ ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿ولا يسمع الصم الدعـاء إذا ما ينذرون﴾، وقوله: ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنـا إنا كنا ظالمين﴾، أي ولئن مسَّ هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا، وقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيـامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنمـا هو ميزان واحد وإنمـا جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه، وقوله: ﴿فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بهـا وكفى بنـا حاسبين﴾، كما قال تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، وقال: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾، وقال لقمان: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بهـا الله إن الله لطيف خبير﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[1]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامـة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، قال: أفلك عذر أو حسنة؟ قال: فبهت الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيهـا أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هـذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، قال: ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم»[2]، وقال الإمام أحمد، عن عائشة، أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بـين يديه فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يحسب مـا خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقـدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضـلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك»، فجعل الرجل يبكي بـين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقـال رسول الله ﷺ: «ما له لا يقرأ كتاب الله ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيـامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بهـا وكفى بنـا حاسبين﴾ فقـال الرجل: يا رسول الله ما أجـد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم[3]

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان وختم البخاري رحمه الله صحيحه بهذا الحديث الشريف.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن غريب. (٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما وبين كتابيهما ولهذا قال: ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾، قال مجاهد: يعني الكتاب، وقال قتادة: التوراة حلالها وحرامها وما فرق الله بين الحق والباطل، وقال ابن زيد: يعني النصر، وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام وعلى ما يحصل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً، وإنابة وخشية، ولهذا قال: ﴿ الفرقان وضياء وذكراً للمتقين ﴾ أي تذكيراً لهم وعظة، ثم وصفهم فقال: ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾، كقوله: ﴿ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾، وقوله: ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾، ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون، ثم قال تعالى: ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ أي أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور ؟

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه كما قال تعالى: ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾، والمقصود أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل أي من قبل ذلك، وقوله: ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي وكان أهلاً لذلك، ثم قال: ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عزّ وجلّ، فقال ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾: أي معتكفون على عبادتها، قال ابن أبي حاتم: مرَّ علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها، ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال، ولهذا قال: ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أي الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم ﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ ؟ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محقاً فيه فإنا لم نسمع به قبلك، ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره وهو الذي خلق السماوات والأرض وما حوت من المخلوقات، الذي ابتدأ خلقهن وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي ليحرضن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أي إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه، قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون: مه، فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم، قال: ﴿تالله لأكيدن أصنامكم﴾، فسمعه أولئك. وقال ابن إسحاق، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم وقد كان بالأمس قال: ﴿تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ فسمعه ناس منهم، وقوله: ﴿فجعلهم جذاذاً﴾ أي حطاماً كسرها كلها ﴿إلا كبيراً لهم﴾ يعني إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾، وقوله: ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها، ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾؟ أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم، من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها، ﴿قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾ أي في صنيعه هذا، ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ أي قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم ﴿سمعنا فتى﴾ أي شاباً يذكرهم يقال له إبراهيم. عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾[1]. وقوله: ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس﴾ أي على رؤوس الأشهاد في الملإ الأكبر بحضرة الناس كلهم، هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم، في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟ ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ يعني الذي تركه لم يكسره، ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾، وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد.

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾، وقوله: ﴿إني سقيم﴾. قال: وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه (سارة) إذ نزل منزلاً. فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي، قال: فاذهب فارسل بها إليّ، فانطلق

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأُخِذَ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ، فذكر مثل المرتين الأوليين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابه فقال: إنك لم تأتني بإنسان ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال: مَهْيَم[1]، قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر فأخدمني هاجر»، قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: تلك أمكم يا بني ماء السماء[2]

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي بالملامة، فقالوا ﴿إنكم أنتم الظالمون﴾، أي في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض فقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾، قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾، وقال السدي ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾: أي في الفتنة، وقول قتادة أظهر في المعنى لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً، ولهذا قالوا له ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون وأنت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك ﴿أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾؟ أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر فلم تعبدونها من دون الله؟ ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾؟! أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ الآية.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

لما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم

(١) مَهْيَمْ: كلمة استفهام معناها: ما الخبر، ماذا حدث لك.

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة.

فقالوا: ﴿حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في جَوْبة[1] من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد، فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، روى البخاري عن ابن عباس أنه قال ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»، وروى الحافظ أبو يعلى، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك»، ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، وكان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة.

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فلي. ويروى عن ابن عباس قال: لما ألقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله، قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾، قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفئت، وقال كعب الأحبار: لم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه، وقال ابن عباس: لولا أن الله عزّ وجلّ قال ﴿وسلاماً﴾ لآذى إبراهيم بردها، وقال أبو هريرة: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار وجده يرشح جبينه قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم[2]. وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوَزَغ. وقال الزهري: أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقا، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم»، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله[3]، وقوله: ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾، أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك، وقال عطية العوفي: لما ألقي إبراهيم في النار جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه فأحرقته مثل الصوفة.

۞ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم، مهاجراً إلى بلاد الشام

---

(١) حفرة من الأرض. (٢) رواه أبو زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وفي بعض الروايات أن امرأة دخلت على عائشة فوجدت عندها رمحاً فقالت: ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ، وذكرت الحديث.

إلى الأرض المقدسة منها، عن أبي بن كعب قال: هي الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة، وقال قتادة: كان بأرض العراق، فأنجاه الله إلى الشام، وكان يقال للشام أعقار دار الهجرة، وما نقص من الأرض يزيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال هي أرض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وبها يهلك المسيح الدجال، وقوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ النافلة: ولد الولد يعني أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، وقال عبد الرحمن ابن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة، ﴿وكلا جعلنا صالحين﴾ أي الجميع أهل خير وصلاح، ﴿وجعلناهم أئمة﴾ أي يقتدى بهم ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي يدعون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿وكانوا لنا عابدين﴾: أي فاعلين لما يأمرون الناس به، وكان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ فآتاه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى (سدوم) وأعمالها فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾.

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه. ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾، وقال نوح: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله﴾ أي الذين آمنوا به، كما قال: ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾، وقوله: ﴿من الكرب العظيم﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على خلافه، وقوله ﴿ونصرناه من القوم﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾، أي أهلكهم الله بعامة، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم.

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قال ابن عباس : النفش الرعي، وقال قتادة: النفش لا يكون إلا بالليل، والهمل بالنهار، وعن ابن مسعود في قوله: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم﴾ قال: كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم. فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك ؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان، دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿ففهمناها سليمان﴾[1] وروى ابن أبي حاتم، عن مسروق قال: الحرث الذي نفشت فيه الغنم إنما كان كرماً فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته، فأتوا داود فأعطاهم رقابها، فقال سليمان: لا؛ بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم، فيكون لهم لبنها ونفعها، ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم .

وقوله تعالى: ﴿ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ قال ابن أبي حاتم: إن (إياس بن معاوية) لما استقضي أتاه الحسن فبكى، فقال: ما يبكيك ؟ قال: يا أبا سعيد بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة، فقال الحسن البصري: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين﴾فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود، ثم قال الحسن: إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً: لا يشتروا به ثمناً قليلاً، ولا يتبعوا فيه الهوى ولا يخشوا فيه أحداً ثم تلا: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾، وقال: ﴿فلا تخشوا الناس واخشوني﴾، وقال: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾. وفي صحيح البخاري عن عمرو ابن العاص أنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»، وفي السنن: القضاة ثلاثة قاض في الجنة وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار، وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب، فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا، فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها لا تشقه، فقضى به للصغرى»[2]

وقوله تعالى: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ الآية، وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور، وكان

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وكذا روي عن ابن عباس .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما وبوّب له النسائي في كتاب القضاء .

إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مرّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود»، قال: يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبّرته[1] لك تحبيراً، وقوله: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم﴾ يعني صنعة الدروع، قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح وهو أول من سردها حلقاً، كما قال تعالى: ﴿وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾ أي لا توسع الحلقة فتفلق المسمار ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة، ولهذا قال: ﴿لتحصنكم من بأسكم﴾ يعني في القتال، ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ أي نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعلمه ذلك من أجلكم، وقوله: ﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ يعني أرض الشام ﴿وكنا بكل شيء عالمين﴾، وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وحشمه، قال الله تعالى: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾، عن سعيد ابن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلهم، ثم يأمر الريح فتحملهم ﷺ[2]. وقوله: ﴿ومن الشياطين من يغوصون له﴾ أي في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك، ﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾ أي غير ذلك كما قال تعالى: ﴿والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾، وقوله: ﴿وكنا لهم حافظين﴾ أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال: ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾.

* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد كثيرة ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره. وقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة، ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل، حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه السلام: ما أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفّر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا في حق[3]، قال ابن عباس:

---

(١) حسنته وزينته.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

(٣) رواه ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك مرفوعاً وفي رفعه نظر، كما قال ابن كثير: رفع هذا غريب جداً.

ورد عليه ماله عياناً ومثلهم معهم، وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قرباناً واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه قال: فقيل له: يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك»[1]. وقوله: ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعينهم، وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته (رحمة) ويقال (ليا) بنت يعقوب عليه السلام، وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب إن أهلك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم، قال: لا بل أتركهم في الجنة، فتركوا له في الجنة، وعوض مثلهم في الدنيا، وقوله: ﴿رحمة من عندنا﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿وذكرى للعابدين﴾ أي وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله، وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا إدريس عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي، وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم. قال مجاهد في قوله: ﴿وذا الكفل﴾ قال: رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه، ويقيمهم له، ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي ذا الكفل. وقال ابن أبي حاتم، عن كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل بنبي ولكن كان - يعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل[2]

۞ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

هذه القصة مذكورة ههنا وفي الصافات وفي سورة ن، وذلك أن (يونس بن متى) عليه السلام بعثه الله إلى أهل نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه، وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾.

---

(١) أصل هذا الحديث في الصحيحين. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿ فساهم فكان من المدحضين﴾، فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم (يونس) حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك تكون له سجناً، وقوله: ﴿وذا النون﴾ يعني الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة، وقوله: ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ قال الضحّاك: لقومه ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ أي نضيّق[1] عليه في بطن الحوت، وقال عطية العوفي: أي نقضي عليه، فإن العرب تقول: قدر وقدّر بمعنى واحد. ومنه قوله تعالى: ﴿فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾: أي قدّر، وقوله: ﴿فنادى في الظلمات أن لا إلّه إلا أنت﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، وذلك أنه ذهب بـه الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك قال: ﴿لا إلّه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾، وقيل: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً، وقوله: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيبين إلينا. قال ﷺ: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لا إلّه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء إلا استجاب له»[2]. وفي الحديث: «من دعا بدعاء يونس استجيب له»، قال أبو سعيد يريد به ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾. وعن سعد بن أبي وقاس. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى» قال، قلت: يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس ابن متى خاصة، ولجماعة المؤمنين عـامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿فنادى في الظلمات أن لا إلّه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ❁ فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين﴾، فهو شرط من الله لمن دعاه به»[3]

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً، ﴿إذ نادى ربه﴾ أي خفية عن قومه ﴿رب لا تذرني فرداً﴾ أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿وأنت خير الوارثين﴾ دعاء وثنـاء مناسب للمسألة، قـال الله تعالى: ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه﴾ أي امرأته، قال ابن عباس

---

(١) هذا التفسير مروي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ أي ضيّق عليه في الرزق.

(٢) هذا الحديث جزء من حديث طويل ذكره الإمام أحمد ورواه الترمذي والنسائي.

(٣) أخرجه ابن جرير عن سعيد بن أبي وقاص مرفوعاً ورواه ابن أبي حاتم بمثله.

ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد فولدت، وقال عطاء: كان في لسانها طول، فأصلحها الله، وفي رواية: كان في خلقها شيء فأصلحها الله، والأظهر من السياق، الأول، وقوله: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾: أي في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ قال الثوري: رغباً فيما عندنا، ورهباً مما عندنا ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾، قال ابن عباس: أي مصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: مؤمنين حقاً، وقال أبو العالية: خائفين،

وقال الحسن وقتادة والضحّاك ﴿خاشعين﴾: أي متذللين لله عزّ وجل، وكل هذه الأقوال متقاربة. وروى ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال: أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله، وتثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله عزّ وجلّ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ .

وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام، مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، فيذكر أولا قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم، لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر، لم تكن تلد في حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم، وهي أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر، قال تعالى: ﴿والتي أحصنت فرجها﴾[1] يعني مريم عليها السلام، كما قال في سورة التحريم: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحها﴾، وقوله: ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وهذا كقوله ﴿ولنجعله آية للناس﴾ قال ابن عباس في قوله: ﴿للعالمين﴾ قال: العالمين الجن والإنس .

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

قال ابن عباس ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ يقول: دينكم دين واحد، أي هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم. وقال رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»، يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾، وقوله ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب، ولهذا قال ﴿كل إلينا راجعون﴾ أي يوم

---

(١) يراد من الفرج: فرج القميص: أي لم يعلق بثوبها ريبة، أي أنها طاهرة الأثواب، قال السهيلي: فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا من لطيف الكناية، لأن القرآن أنزه معنى، وأوزن لفظاً، وألطف إشارة، وأملح عبارة من أن يريد ما يذهب اليه وهم الجاهلين، لا سيا والنفخ من روح القدس بأمر القدوس، فأضعف القدس إلى القدوس ونزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس .

القيامة فيجازى كل بحسب عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولهذا قال ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مصدق وعمل عملاً صالحاً ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾، كقوله ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي لا يكفر سعيه وهو عمله، بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء .

وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى: ﴿ وحرام على قرية ﴾ قال ابن عباس: وجب، يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة، وفي رواية عن ابن عباس أنهم لا يرجعون أي لا يتوبون، والقول الأول أظهر والله أعلم، وقوله: ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد (يافث) أي أبي الترك، والترك شرذمة منهم، ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد، والحدب هو المرتفع من الأرض[1] . وهذه صفتهم في حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ هذا إخبار الذي يعلم غيب السماوات والأرض لا إله إلا هو، وقال ابن جرير: رأى ابن عباس صبياناً ينزو بعضهم على بعض يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا يخرج يأجوج ومأجوج، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنّة النبوية، فروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابساً، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ههنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء، قال: ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة، فبينا هم على ذلك بعث الله عزّ وجلّ دوداً في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فينحدر رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطنها على أنه مقتول فينزل، فيجدهم موتى بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عزّ وجلّ قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط »[2]

وفي حديث الدجال: « فبينا هم كذلك إذ أوحى الله عزّ وجلّ إلى عيسى بن مريم عليه السلام أني قد أخرجت

---

(١) قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري .

عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم، فحرر عبادي إلى الطور فيبعث الله عزّ وجلّ يأجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عزّ وجلّ، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون فَرْسَى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم ونتنهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عزّ وجلّ، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البُخْت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله »، قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال: فتطرحهم بالمهيل. قال ابن جابر، فقلت: يا أبا يزيد وأين المهيل؟ قال: مطلع الشمس، قال: « ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَة، ويقال للأرض انبتي ثمرك ودري بركتك، قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة، فيستظلون بقحفها ويبارك في الرسل، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عزّ وجلّ ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم - أو كما قال مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة »[1]

وقد ثبت في الحديث أن عيسى بن مريم يحج البيت العتيق، وعن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: « ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج ». وقوله: ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت، قال الكافرون: هذا يوم عسر، ولهذا قال تعالى: ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام، ﴿ يا ويلنا ﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿ قد كنا في غفلة من هذا ﴾ أي في الدنيا، ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى: مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ قال ابن عباس: اي وقودها، يعني كقوله ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾. وفي رواية قال: ﴿ حصب جهنم ﴾ يعني حطب جهنم[2]. وقال الضحّاك ﴿ حصب جهنم ﴾: أي ما يرمى به فيها، والجميع قريب، وقوله ﴿ أنتم لها واردون ﴾: أي داخلون، ﴿ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد آلهة صحيحة

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد وأصحاب السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) وهو قول مجاهد وعكرمة وقتادة.

لما وردوا النار وما دخلوها، ﴿وكل فيها خالدون﴾: أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون، ﴿لهم فيها زفير﴾ كما قال تعالى ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾، قال ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾، وقوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال عكرمة: الرحمة، وقال غيره: السعادة ﴿أولئك عنها مبعدون﴾. لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا كما قال تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وقال: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب، فقال ﴿أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها﴾ أي حريقها في الأجساد، عن أبي عثمان ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتهم قال حس حس، وقوله: ﴿وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب.

قال ابن عباس: ﴿أولئك عنها مبعدون﴾ فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق، ويبقى الكفّار فيها جثياً، فهذا مطابق لما ذكرناه. وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين وخرج منهم عزير والمسيح كما قال ابن عباس ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾، ثم استثنى، فقال: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ فيقال: هم الملائكة وعيسى ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عزّ وجلّ، وقال الضحّاك عن ابن عباس في قوله ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ قال: نزلت في عيسى بن مريم وعزير عليهما السلام. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿أولئك عنها مبعدون﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة، وقال الضحّاك: عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر. والآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها، ولهذا قال: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده؟ وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن (ما) لما لا يعقل عند العرب. وقوله: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ قيل: المراد بذلك الموت، قاله عطاء. وقيل: المراد بالفزع الأكبر النفخة في الصور، قاله ابن عباس واختاره ابن جرير في تفسيره. وقيل: حين يؤمر بالعبد إلى النار، قاله الحسن البصري؛ وقيل: حين تطبق النار على أهلها، قاله سعيد بن جبير وابن جريج، وقوله: ﴿وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ أي فأملوا ما يسركم.

يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾، كما قال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه»[١] وعن ابن عباس قال: يطوي الله السماوات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة[٢]. وقوله: ﴿كطي السجل للكتب﴾ قيل: المراد بالسجل الكتاب، وقيل: المراد بالسجل ههنا ملك من الملائكة، والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة؛ فعلى هذا يكون معنى الكلام: يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، أي على الكتاب بمعنى المكتوب كقوله: ﴿فلما أسلما وتله للجبين﴾ أي على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم. وقوله: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ يعني هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: ﴿إنا كنا فاعلين﴾. عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله عزّ وجلّ حفاة عراة غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين»، وذكر تمام الحديث[٣]، قال ابن عباس في قوله: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ قال: يهلك كل شيء كما كان أول مرة.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ وقال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾، وقال: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾، وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾. قال مجاهد: الزبور الكتاب، وقال ابن عباس والحسن: ﴿الزبور﴾ الذي أنزل على داود و ﴿الذكر﴾ التوراة، وعن ابن عباس: الذكر القرآن. وقال سعيد بن جبير: الذكر الذي في السماء، وقال مجاهد: الزبور الكتب، والذكر أم الكتاب عند الله، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء، والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون[٤]. وقال ابن عباس ﴿أن

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عمر مرفوعاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس

(٣) الحديث أخرجاه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد عن ابن عباس.

(٤) رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس

الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ قال: أرض الجنة، وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون، وقال السدي: هم المؤمنون[١]. وقوله ﴿إن في هـذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ أي إن في هـذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ ﴿لبلاغاً﴾ لمنفعة وكفاية ﴿لقوم عابدين﴾ وهم الذين عبدوا الله فيما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم. وقوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعـالمين﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردهـا وجحدها خسر الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار﴾.

وقال تعالى في صفة القرآن: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾. وقـال مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعـاناً وإنما بعثت رحمة»، وفي الحديث الآخر «إنمـا أنا رحمة مهداة»[٢]، وفي الحديث الذي رواه الطبراني: «إني رحمة بعثني الله ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه، لي خمسة أسماء: أنـا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد: «أيما رجل سببته في غضبي أو لعنته لعنة، فإنمـا أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما تغضبون وإنمـا بعثني الله رحمة للعالمين، فأجعلها صلاة عليه يوم القيامة»[٣]، فإن قيل: فأي رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين ﴿إنما يوحى إلي أنمـا إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون﴾؟ أي متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له، ﴿فإن تولوا﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فقل آذنتكم على سواء﴾ أي أعلمتكم أني حرب لكم كما أنتم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني، كقوله: ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون ممـا أعمل وأنا بريء ممـا تعملون﴾، وقال: ﴿وإما تخافن من قوم

---

(١) وقال أبو الدرداء: الأرض هي الشام، والصالحون: الأمة المحمدية.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عسـاكر عن أبي هريرة مرفوعـاً، وسئل البخاري عن هذا الحديث فقال: كان عند حفص بن غيـاث مرسلاً، وروي عن ابن عمر مرفوعاً: «إن الله بعثني رحمة مهداة بعثت برفع قوم وخفض آخرين».

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود ولفظه عن حذيفة أن رسول الله ﷺ خطب فقال ... فذكره.

خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾، أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء وهكذا ههنا ﴿ فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء﴾ أي أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك، وقوله: ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون﴾ أي هو واقع لا محالة ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده، ﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ أي إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في إجهارهم وإسرارهم، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل. وقوله ﴿ وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين، قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى[1]، ﴿ قال رب احكم بالحق﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق، قال قتادة: كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون: ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك. وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال: ﴿رب احكم بالحق﴾، وقوله: ﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

[آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام. ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) وحكي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

سورة الأنبياء

وهى مكية.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق: سمعت عبد الرحمن بن يزيد[١]، عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادى[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾.

هذا تنبيه من الله، عز وجل، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس فى غفلة عنها، أى: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها.

وقال النسائى: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى، حدثنا أبومعاوية، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: «فى الدنيا»[٣]، وقال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال [تعالى][٤]: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢].

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن هانئ أبى نُوَاس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

النَّاس فى غَفَلاتِهِمْ ... وَرَحا المنيَّة تَطْحَنُ

فقيل له: من أين أخذ[٥] هذا؟ قال[٦]: من قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[٧].

---

(١) فى أ: «زيد».
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٩).
(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٢).
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف، أ: «أخذت». (٦) فى ف، أ: «فقال».
(٧) تاريخ دمشق (٤/ ٦١١ «المخطوط»).

[وروى فى ترجمة «عامر بن ربيعة»، من طريق موسى بن عبيدة الآمدى، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عامر بن ربيعة: أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلّم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إنى استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً فى العرب، وقد أردت أن أقطعَ لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لى فى قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾][(١)] [(٢)].

ثم أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحي الذى أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾أى: جديد إنزاله﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونـه محـضاً لم يشـب. ورواه البخارى بنحوه[(٣)].

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: قائلين فيما بينهم خفيَةً ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعنونَ رسولَ الله ﷺ، يستبعدون كونه نبياً؛ لأنه بَشَرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحى دونهم؛ ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أى: أفتتبعونه فتكونون كمن أتى[(٤)] السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أى: الذى يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذى لايستطيع أحد أن يأتى بمثله، إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [أى: السميع][(٥)] لأقوالكم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ﴾: هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به[(٦)] القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩].

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾: يعنون ناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الآية][(٧)] [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يَدَىْ نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم

---

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) تاريخ دمشق (٨/ ٦٨٠ «المخطوط») .
(٣) صحيح البخارى برقم (٧٥٢٢) .
(٤) فى أ: «يأتى» .
(٥) زيادة من ف، أ .
(٦) فى ف، أ: «فيه» .
(٧) زيادة من ف .

بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو[١] رأوْها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧] .

هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدى رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شُوهِدَ مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال ابن أبى حاتم، رحمه الله: ذكر عن زيد بن الحباب، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا الحارث بن زيد الحضرمى، عن على بن رباح اللخمى، حدثنى من شهد عبادة بن الصامت، يقول: كنا فى المسجد ومعنا أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، يُقْرِئُ بعضنا بعضا القرآن، فجاء عبد الله بن أبى بن سلول، ومعه نُمْرُقة وزِرْبِيّة، فوضع واتكأ، وكان صبيحاً فصيحاً جدلاً، فقال: يا أبا بكر، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون؟ جاء موسى بالألواح، وجاء داود بالزبور، وجاء صالح بالناقة، وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة . فبكى أبو بكر، رضى الله عنه، فخرج رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: قوموا إلى رسول الله[٢] ﷺ نستغيث به من هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: « إنه لا يقام لى، إنما يقام لله عز وجل». فقلنا: يارسول الله، إنا لقينا من هذا المنافق. فقال: « إن[٣] جبريل قال[٤] لى: اخرج فأخبر بنعم الله التى أنعم بها عليك، وفضيلته التى فُضِّلت بها، فبشرنى أنى بعثت إلى الأحمر والأسود، وأمرنى أن أنذر الجن، وآتانى كتابه وأنا أمّى، وغفر ذنبى ما تقدم وما تأخر، وذكر اسمى فى الأذان وأيدنى[٥] بالملائكة، وآتانى النصر، وجعل الرعب أمامى، وآتانى الكوثر، وجعل حوضى من أعظم الحياض يوم القيامة، ووعدنى المقام المحمود والناس مهطعون مقنعو[٦] رؤوسهم، وجعلنى فى أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل فى شفاعتى سبعين ألفاً من أمتى الجنة بغير حساب وآتانى السلطان والملك، وجعلنى فى أعلى غرفة فى الجنة فى جنات النعيم[٧] ،فليس فوقى أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وأحل لى [٨] الغنائم[٩]، ولم تحل لأحد كان قبلنا».

وهذا الحديث غريب جداً .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) ﴾ .

يقول تعالى رادًا على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً يوحِي[١٠] إِلَيْهِمْ﴾

---

(١) فى ف: «ولو» . (٢) فى ف: «إلى رسوله». (٣) فى ف: «أتى».
(٤) فى ف: «فقال». (٥) فى أ: «وأمرنى». (٦) فى ف: «مقنعى».
(٧) فى ف، أ: «عدن». (٨) فى ف، أ: «لى ولأمتى». (٩) فى أ: «المغانم».
(١٠) فى ف، أ: : «نوحى».

أى: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً يوحي[1] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قل مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نِعمَ الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلاً[2] منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أى: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] أى: قد كانوا بشرا من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون فى قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أى: فى الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم[3] فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه.

وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أى: الذى وعدهم ربهم: «ليهلكن الظالمين»، صدقهم الله وعده ففعل ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ أى: أتباعهم من المؤمنين، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أى: المكذبين بما جاءت الرسل به.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾.

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن، ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، قال ابن عباس: شَرَفُكم.

وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم.

(١) فى ف، أ: «نوحى». (٢) فى ف، أ: «رسولا»، وهو خطأ. (٣) فى ف: «يحكمه».

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾: هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء:١٧].

وقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن[1] مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥]. وقوله :﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أى: أمة أخرى بعدهم ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أى: تيقنوا أن العذاب واقع[2] بهم، كما وعدهم نبيهم،﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أى: يفرون هاربين، ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾: هذا تهكم بهم قدراً أى: قيل لهم قدراً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والعيشة والمساكن الطيبة.

قال قتادة: استهزاء بهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أى: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أى: ما [3]زالت تلك المقالة، وهى الاعتراف بالظلم، هجيراهم حتى حصدناهم حصداً[4] وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) ﴾.

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أى: بالعدل والقسط،﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ [5]وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: قال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ يعنى: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً، ولا موتاً، ولا بعثاً ،ولا حساباً.

وقال الحسن، وقتادة ،وغيرهما: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن.

---

(١) فى ف: «وكأين». (٢) فى ف: «تيقنوا العذاب أنه واقع». (٣) فى ف: «فما».
(٤) فى ف، أ: «جعلناهم حصيدًا خامدين». (٥) فى ف، أ: «السماوات».

وقال إبراهيم النَّخعِي: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ﴾ من الحور العين.

و قال عكرمة والسدى: المراد باللهو هاهنا: الولد.

وهذا والذى قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ ﴾ [الزمر: ٤]، فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى ،أو العزير[١] ،أو الملائكة، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقوله: ﴿ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: قال قتادة، والسدى، وإبراهيم النخعى، ومغيرة بن مِقْسَم، أى: ماكنا فاعلين.

وقال مجاهد: كل شىء فى القرآن «إن» فهو إنكار.

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أى: نبين الحق فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أى: ذاهب مضمحل، ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ ﴾ أى: أيها القائلون: للّه ولد، ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أى: تقولون وتفترون.

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم فى طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ أى: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقوله: ﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أى: لايتعبون ولايَملُّون، ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن أبى دُلامة البغدادى، أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحرِز، عن حكيم بن حِزَام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه، إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شىء. فقال رسول الله ﷺ: «إنى لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، ومافيها موضع شِبْر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». غريب ولم يخرجوه[٢].

ثم رواه ابن أبى حاتم من طريق يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة مرسلاً.

وقال أبو إسحاق[٣]، عن حسان بن مخارق، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيت قول الله [للملائكة][٤]: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا

---

(١) فى ف: «أو عزير».

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٢٠١) والطحاوى فى مشكل الآثار برقم (١١٣٤) من طريق عبد الوهاب بن عطاء به، وله شاهد من حديث أبى ذر الغفارى أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٢٣١٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) فى هـ، ف، أ: «محمد بن إسحاق» والمثبت من الطبرى ١٧/ ٧٠.

(٤) زيادة من ف، أ.

يَفْتُرُونَ﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟. فقال: فمن هذا الغلام ؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قال: فقبل رأسي، ثم قال لي: يابني، إنه جعل لهم التسبيح، كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت تتنفس و [(١)]تمشي وأنت تتنفس ؟ .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) ﴾.

ينكر[(٢)] تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: بل **﴿ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾** أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لايقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه.

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: **﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ ﴾** أي: في السماء والأرض، **﴿لَفَسَدَتَا﴾** ،كقوله تعالى: **﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾** [المؤمنون: ٩١]، وقال هاهنا: **﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾** أي: عما يقولون إن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذين يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: **﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾** أي: هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، **﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾** أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: **﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الحجر: ٩٢، ٩٣] وهذا كقوله تعالى: **﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾** [المؤمنون: ٨٨].

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾.

يقول تعالى: بل **﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ ﴾** يا محمد: **﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾** أي: دليلكم على ماتقولون، **﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ ﴾** يعني: القرآن، **﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾** يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يوحى[(٣)] إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾**، كما قال: **﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ**

---

(١) في ف: «وأنت تمشي». (٢) في ف: «فينكر». (٣) في ف، أ: «نوحي».

آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبى بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾.

يقول تعالى رداً على من زعم أن له ـ تعالى وتقدس ـ ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أى: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، فى منازل عالية ومقامات سامية، وهم له فى غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أى: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمر[1] به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علْمَه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾، كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فى آيات كثيرة فى معنى ذلك.

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أى: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ. وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾ أى: من ادعى منهم أنه إلـه من دون الله، أى: مع الله، ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم فى خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الجاحدون لإلهيته العابدون[2] معه غيره، ألم يعلموا

---

(١) فى ف، أ: «أمرهم».
(٢) فى أ: «العابدين».

أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد غيره أو يشرك به ما سواه، ألم[١] يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أى: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه. فجعل السموات سبعاً، والأرض[٢] سبعاً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء:

فَفِى كُلِّ شىء لَهُ آيَة تَدُلُّ علَى أنَّه وَاحد

قال سفيان الثورى، عن أبيه، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن أبى حمزة، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبى محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؟. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرنى بما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله. فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت. فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتى فى القرآن علماً، صدق ـ هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتى فى القرآن علماً.

وقال عطية العَوْفى: كانت هذه رتقاً لا تمطر، فأمطرت. وكانت هذه رتقاً لا تنبت، فأنبتت.

وقال إسماعيل بن أبى خالد: سألت أبا صالح الحنَفِى عن قوله: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، قال: كانت السماء واحدة، ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين.

وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض متماستين.

وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذى ذكر الله فى كتابه.

وقال الحسن، وقتادة، كانتا جميعاً، ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أى: أصل كل الأحياء منه.

---

(١) فى أ: «أو لم».

(٢) فى ف، أ: « والأرضين ».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر[١]، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة عن أبي ميمونة[٢]، عن أبي هريرة أنه قال: يانبي الله، إذا رأيتك قرت عيني، وطابت نفسي، فأخبرني عن كل شيء ،قال: «كل شيء خلق من ماء».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة قال: قلت: يارسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت: أنبئني عن أمر إذا عملتُ به دخلت الجنة. قال: «أفْش السلام، وأطعم الطعام، وصِل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنَّة بسلام»[٣].

ورواه أيضاً عبد الصمد وعفان وبَهْز، عن همام[٤]. تفرد به أحمد ،وهذا إسناد على شرط الصحيحين، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذي يصحح له. وقد رواه سعيد ابن أبي عَرُوبة، عن قتادة مرسلاً ،والله[٥] أعلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً أرسى الأرض بها وقرّرها وثقلها؛ لئلا تميد بالناس، أي: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم عليها قرار[٦] لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء ومافيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تميد بهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً﴾ أي: ثغراً في الجبال، يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ـ ثغرة ـ ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا؛ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ أي: على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾[الشمس: ٥]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس» أي: خمس[٧] دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام، على ما[٨] تعهده العرب.

﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي: عالياً محروساً أن يُنال. وقال مجاهد: مرفوعا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتكي، حدثني

---

(١) في ف، أ: «الجماهير». (٢) في ف، أ: «أبي ميمون».

(٣) المسند (٢/ ٢٩٥) ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٢٩) من طريق يزيد بن هارون وصححه.

ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٤٢) «موارد» من طريق أبي عامر العقدي عن همام به.

(٤) المسند (٢/ ٣٢٣ ـ ٤٩٣) من طريق عبد الصمد، (٢/ ٣٢٣) من طريق عفان، (٢/ ٣٢٤) من طريق بهز.

وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٦): «رجاله رجال الصحيح، خلا أبي ميمونة وهو ثقة».

(٥) في ف: «فالله». (٦) في ف: «قرار عليها». (٧) في ف: «خمسة».

(٨) في ف: «كما».

أبى، عن أبيه، عن أشعث ـ يعنى ابن إسحاق القُمِّى ـ عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، قال رجل: يارسول الله، ما هذه السماء ،قال :« موج مكفوف عنكم »[(١)] إسناد غريب.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، كقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥] أى: لايتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات فى ليلها،وفى نهارها[(٢)] من هذه الشمس التى تقطع الفلك بكماله، فى يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الذى[(٣)] قدرها وسخرها وسيرها.

وقد ذكر ابن أبى الدنيا، رحمه الله، فى كتابه «التفكر والاعتبار»: أن بعض عباد بنى إسرائيل تعبد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامة، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما كان يرى لغيره، فشكى ذلك إلى أمه، فقالت له: يابنى، فلعلك أذنبت فى مدة عبادتك هذه، فقال: لا والله ما أعلم، قالت: فلعلك هممت؟ قال: لا[(٤)]، ولاهممت. قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم، كثيراً. قالت: فمن هاهنا أتيت.

ثم قال منبهاً على بعض آياته: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى: هذا فى ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر .﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور خاص آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر ،﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] ،أى: يدورون.

قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل فى الفلكة.وكذا قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يقول تعالى :﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: يامحمد، ﴿الْخُلْدَ﴾ أى: فى الدنيا بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ .وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر، عليه السلام، مات وليس بحى إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن

(١) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٥٣٩) من طريق أحمد بن القاسم عن أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى به.
(٢) فى ف، أ: «النهار». (٣) فى ف، أ: «الله». (٤) فى ف، أ: «بل والله».

قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾.

وقوله: ﴿أَفَإِن مِّتَّ﴾ أى: يامحمد، ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾؟! أى: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى فناء؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وقد روى عن الشافعى، رحمه الله، أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تمنى رجـــال أن أمُوت، وإن أمُتْ ... فَتلْكَ سَبِيل لَسْت فيهَا بأوْحَـــد

فقُلْ للَّذى يَبْغى خلاف الذى مضـى: ... تَهيَّأ لأخْرى مثْلها فــكَأن قد[1]

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أى: نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال على بن أبى طلحة،عن ابن عباس: ﴿وَنَبْلُوكُم﴾، يقول: نبتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال . .

وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أى: فنجازيكم بأعمالكم .

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى: كفار قريش كأبى جهل وأشباهه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا﴾ أى: يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يعنون: أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال فى الآية الآخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً . إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

وقوله ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ[2] الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١] أى: فى الأمور.

قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شىء من آخر النهار، من يوم خلق الخلائق فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ[3] أسفله قال: يارب، استعجل بخلقى قبل غروب الشمس.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « خير يوم طلعت فيه

---

(١) البيتان ذكرهما البيهقى فى مناقب الشافعى (٢/ ٦٢) والرازى فى مناقب الشافعى (ص ١١٩).

(٢) فى ف: « وخلق». (٣) فى ف: «تبلغ».

الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي - وقبض أصابعه قَلَّلَها[١] - فسأل الله خيراً، إلا أعطاه إياه». قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، وهي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهي التي خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[٢].

والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ها هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول، صلوات الله [وسلامه][٣] عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت[٤]، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني، ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)﴾.

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم، ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً[٥]﴾ أي: «تأتيهم النار بغتة»، أي: فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تذعرهم[٦] فيستسلمون لها حائرين، لا[٧] يدرون ما يصنعون، ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: ليس لهم حيلة في ذلك، ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤١)﴾

---

(١) في أ: «يقللها».

(٢) أخرج مالك في الموطأ (١/١٠٨) من طريق يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أبي سلمة عن أبي هريرة نحوه دون ذكر الآية وأخرج الشيخان أوله والله أعلم.

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) في ف، أ: «واستعجلت ذلك».

(٥) في ف: «بغتة فتبهتهم».

(٦) في ف، أ: «تدعوهم».

(٧) في ف: «حائرون ولا».

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله[صلوات الله وسلامه عليه][١] عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ يعنى: من العذاب الذى كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأنعام: ٣٤].

ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده فى حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التى لاتنام، فقال: ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾؟ أى: بدل الرحمن بمعنى غيره كما قال الشاعر[٢]:

جَارية لَمْ تَلْبَس المُرقَّقا   وَلَم تَذق منَ البُقول الفُسْتُقا

أى: لم تذق بدل البقول الفستق.

وقوله تعالى: ﴿**بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ أى: لا يعترفون[٣] بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿ **أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا**﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أى: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما [٤] زعموا ؛ولهذا قال: ﴿**لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ** ﴾ أى: هذه [الآلهة][٥] التى استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم.

وقوله: ﴿**وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ**﴾: قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿**وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ**﴾ أى: يجارون[٦] وقال قتادة لا يصحبون [من الله][٧] بخير وقال غيره: ﴿**وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ**﴾: يمنعون .

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) هو أبو نخيلة يعمر بن حزن، والبيت فى اللسان مادة (فسق) وصدره:

دسته لم تأكل المرققا

وقد حمل صاحب اللسان قوله بأنه ظن الفستق من البقول.

(٣) فى ف، أ: «لا يعرفون».   (٤) فى ف، أ: « ولا قد كما».   (٥) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ف، أ: «يجازون».   (٧) زيادة من ف.

حَاسِبِينَ (٤٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ماهم فيه من الضلال، أنهم مُتِّعوا فى الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شىء.

ثم قال واعظاً لهم: ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** ﴾، اختلف المفسرون فى معناه، وقد أسلفناه فى سورة «الرعد»، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[الأحقاف: ٢٧].

وقال الحسن البصرى: يعنى بذلك ظهور الإسلام على الكفر.

والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿ **أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ يعنى: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون.

وقوله: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ** ﴾ أى: إنما أنا مبلغ[1] عن الله ما أنذركم[2] به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلىّ، ولكن لايجدى هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ** ﴾.

وقوله: ﴿ **وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ أى: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شىء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم فى الدنيا.

وقوله: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا** ﴾ أى: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿ **فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ كما قال تعالى: ﴿ **وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ** ﴾ [لقمان: ١٦].

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطَّالَقَانى، حدثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد، حدثنى عامر بن يحيى، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً ؟

---

(١) فى ف، أ: «مبلغكم». (٢) فى ف، أ: «أنذرتكم».

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٥٦٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٩٤).

أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يارب، قال: أفلك عذر، أو حسنة؟» قال: فيبهت الرجل فيقول: لا، يارب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فيخرج له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، و أن[١] محمداً عبده ورسوله» فيقول: أحضروه، فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: « فتوضع السجلات في كفة [والبطاقة في كفة][٢]»، قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» قال: «ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم»[٣].

ورواه الترمذي وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد ، به،[٤]وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهِيعة، عن عمرو بن يحيى، عن أبي عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين[٥] يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، فيوضع[٦] ما أحصى عليه، فتمايل[٧] به الميزان» قال: «فيبعث به إلى النار» قال: فإذا أدبر به إذا[٨] صائح من عند الرحمن عز وجل يقول: [لاتعجلوا][٩]، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها «لا إله إلا الله» فتوضع مع الرجل في كفة[١٠]، حتى يميل به الميزان»[١١].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو نوح قراد[١٢]، أنبأنا ليث بن سعد، عن مالك بن أنس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة؛ أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، جلس بين يديه، فقال: يارسول الله، إن لي مملوكين، يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، إن[١٣] كان عقابك إياهم دون ذنوبهم، كان فضلا لك [عليهم][١٤] وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كفافا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل الذي يبقى[١٥] قبلك ». فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: « ماله أما يقرأ كتاب الله؟ : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾». فقال الرجل: يارسول الله، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء- يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم[١٦].

---

(١) في ف: «وأشهد أن». (٢) زيادة من ف، والترمذي وابن ماجه.
(٣) المسند (٢/ ٢١٣).
(٤) سنن الترمذي برقم (٢٦٣٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٠٠).
(٥) في ف: «يوضع الميزان». (٦) في ف: « ويوضع». (٧) في ف: «فيمايل».
(٨) في ف: «فإذا». (٩) زيادة من ف، والمسند. (١٠) في ف: «كفته».
(١١) المسند (٢/ ٢٢١).
(١٢) في ف، أ: «مراراً». (١٣) في ف: «فإن». (١٤) زيادة من ف، والمسند.
(١٥) في ف: «بقى».
(١٦) المسند (٦/ ٢٨٠).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٠) ﴾.

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾.

قال مجاهد: يعنى: الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة، وقال قتادة: التوراة، حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل. وقال ابن زيد: يعنى: النصر.

وجامع القول فى ذلك: أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغى والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً فى القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية؛ ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: [تذكيراً][1] لهم وعظة.

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، كقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أى: خائفون وجلون.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ يعنى: القرآن العظيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أى: أفتنكرونه وهو فى غاية [الجلاء][2] والظهور ؟ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) ﴾.

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم، عليه السلام، أنه آتاه رشده من قبل، أى: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾[الأنعام: ٨٣]، وما يذكر من الأخبار عنه[3] فى إدخال أبيه له فى السرب، وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكواكب والمخلوقات، فتبصر فيها وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ـ فعامتها أحاديث بنى إسرائيل، فما وافق منها الحق بما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف فى روايتها، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له

(١، ٢) زيادة من ف.

(٣) فى ف: «عنه من الأخبار».

مما ينتفع به فى الدين. ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين فى دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذى نسلكه[١] فى هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لاتفرقة[٢] عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة.

والمقصود هاهنا: أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده، من قبل، أى: من قبل ذلك، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أى: وكان أهلاً لذلك.

ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هذا هو الرشد الذى أوتيه من صغره، الإنكار على قومه فى عبادة الأصنام من دون الله، عز وجل، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أى: معتكفون على عبادتها.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة، قال: مر علىّ، على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟ لأن يمس صاحبكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ :لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال؛ ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم فى ضلال على غير الطريق المستقيم.

فلما سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ يقولون[٣]: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محقاً فيه؟ فإنا لم نسمع به قبلك. ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أى: ربكم الذى لا إله غيره، هو الذى خلق السموات [والأرض][٤] وما حوت من المخلوقات الذى ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾.

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أى: ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا[٥] مدبرين أى: إلى عيدهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه.

---

(١) فى هـ: «يذكر» والمثبت من ف. (٢) فى ف: «لا معرفة». (٣) فى ف: «يقول».
(٤) زيادة من ف. (٥) فى ف: «تولوا».

قال السدى: لما اقترب[١] وقت ذلك العيد قال أبوه: يابنى، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا! فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض. وقال: إنى سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع، فيقولون: مه! فيقول: إنى سقيم، فلما جاز عامتهم وبقى ضعفاؤهم قال: ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ فسمعه أولئك.

وقال أبو إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم، إلى عيدهم مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال: إنى سقيم. وقد كان بالأمس قال: ﴿تَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ فسمعه ناس منهم.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أى: حطاماً كسرها كلها ﴿ إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ يعنى: إلا الصنم الكبير عندهم كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣].

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القدوم فى يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غَارَ لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها.

﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على قدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فى صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أى: قال من سمعه يحلف أنه ليكيدنهم: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى﴾ أى: شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس [عن أبيه][٢]، عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أى: على رؤوس الأشهاد فى الملإ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يتبين[٣] فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم[٤] في عبادة هذه الأصنام التى لاتدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك[٥] لها نصراً، فكيف يطلب منها شىء من ذلك ؟.

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعنى: الذى تركه لم يكسره ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: « إن إبراهيم، عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: ثنتين فى ذات الله[٦]، قوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾» قال: « وبينا هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ومعه

(١) فى ف: «قرب». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ف، أ: «يبين».
(٤) فى ف: «عقولهم». (٥) فى ف: «ولا تستطيع». (٦) فى ف، أ: «كتاب».

سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس،فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هى أختى. قال: فاذهب فأرسل بها إلىّ، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار[١] سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده، فإنك أختى فى كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيرى وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلى. فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها، فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ، [فذكر][٢] مثل المرتين الأوليين[٣] ،فقال: ادعى الله فلا أضرك. فدعت، له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابه،فقال: إنك لم تأتنى بإنسان، وإنما[٤] أتيتنى بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر،فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته،قال[٥]:مَهْيَم ؟ قالت:كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخدمنى هاجر » قال محمد بن سيرين[٦]:وكان [٧] أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يابنى ماء السماء [٨].

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً [٩] عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: **﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾** أى: بالملامة فى عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: **﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾** أى: فى ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، **﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾** أى: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: **﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾** قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا: **﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾**.

وقال السدى: **﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾** أى: فى الفتنة.

وقال ابن زيد: أى فى الرأى.

وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً؛ ولهذا قالوا له: **﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾**، فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لاتنطق فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: **﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾** أى: إذا كانت لاتنطق[١٠]،وهى لا تضر ولا تنفع،فلم تعبدونها من دون الله **﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا**

---

(١) فى ف: «الجبار قد سألنى». (٢) زيادة من ف، والسنن. (٣) فى ف، أ: «الأولتين».
(٤) فى ف: «ولكنك». (٥) فى ف: «وقال». (٦) فى ف، أ: «إدريس».
(٧) فى ف: «فكان».
(٨) لم أجده فى الصحيحين من طريق هشام بن حسان وإنما هو فى السنن:
فرواه أبو داود فى السنن برقم (٢٢١٢) من طريق عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان.
ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٤) من طريق أبى أسامة عن هشام بن حسان.
وهو فى الصحيحين من طريق أيوب عن محمد بن سيرين؛صحيح البخارى برقم (٥٠٨٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٧١).
(٩) فى ف، أ: «يخبر تعالى». (١٠) فى أ: «كان لا ينطق».

تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة، وألزمهم بها؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾** الآية [الأنعام: ٨٣].

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾.

لما دَحَضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: **﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾**. فجمعوا حطباً كثيراً جداً ـ قال السدى: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم ـ ثم جعلوه فى جَوْبَة من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد قط نار[1] مثلها، وجعلوا إبراهيم، عليه السلام، فى كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد ـ قال شُعَيب الجبائى: اسمه هيزن ـ فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: «حسبى الله ونعم الوكيل»، كما رواه البخارى، عن ابن عباس أنه قال: «حسبى[2] الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها[3] محمد حين قالوا: **﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**[آل عمران: ١٧٣][4].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا ابن هشام، حدثنا إسحاق[5] بن سليمان، عن أبى جعفر، عن عاصم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لما ألقى إبراهيم، عليه السلام، فى النار قال: اللهم، إنك فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد أعبدك»[6].

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك[7].

وقال شعيب الجبائى: كان عمره ست عشرة سنة. فالله أعلم.

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو فى الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، [وأما من الله فبلى][8].

---

(١) فى ف، «نار قط». (٢) فى ف: «حسبنا». (٣) فى ف: «وقال».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٣).

(٥) فى ف، أ: «أبو إسحاق».

(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٤٩) «كشف الأستار» وأبو نعيم فى الحلية (١٩١١) والخطيب فى تاريخ بغداد (٣٤٦/١٠) من طريق أبي هشام الرفاعى به.

وقال البزار: «لا نعلم رواه عن عاصم إلا أبا جعفر، ولا عنه إلا إسحاق، ولم نسمعه إلا من أبى هشام» قلت: عاصم بن عمر ابن حفص متكلم فيه.

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٦٤٢/٥) عن أرقم.

(٨) زيادة من ف.

وقال سعيد بن جبير - ويروى[1] عن ابن عباس أيضاً - قال: لما أُلقىَ إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان[2] أمر الله أسرع من أمره، قال الله: [عز وجل][3] ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال: لم[4] يبق نار فى الأرض إلا طفئت.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع [أحد][5] يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

وقال الثورى، عن الأعمش، عن شيخ، عن على بن أبى طالب: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [قال: بَرَدَتْ عليه حتى كادت تقتله، حتى قيل: ﴿وَسَلامًا ﴾][6]، قال: لا تضرِّيه.

وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: ﴿وَسَلامًا ﴾ لآذى إبراهيم بَرْدُها.

وقال جُوَيبر، عن الضحاك: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال: صنعوا له حظيرة من حَطَب جَزْل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصبه منها شىء حتى أخمدها الله - قال: ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يُصِبْه منها شىء غيرُ ذلك.

وقال السدى: كان معه فيها ملك الظل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا مِهْران، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن المِنْهَال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار، فقال: كان[7] فيها إما خمسين وإما أربعين، قال: ما كنت أياماً وليالى قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها.

وقال أبو زُرْعَة بن عمرو بن جرير، عن أبى هريرة قال: إن أحسن [شىء][8] قال أبو إبراهيم - لما رفع عنه الطبق وهو فى النار، وجده يرشح جبينه - قال عند ذلك: نعمَ الربّ ربك يا إبراهيم.

وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوَزَغ - وقال الزهرى: أمر النبى ﷺ بقتله وسماه فويسقاً[9].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنى عمى، حدثنا جرير بن حازم، أن نافعاً حدثه قال: حدثتنى مولاة[10] الفاكه بن المغيرة المخزومى قالت: دخلت على عائشة فرأيت فى بيتها رمحا. فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى فى النار، لم يكن[11] فى الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الوَزَغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم»، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله[12].

---

(١) فى ف، أ: «وروى». (٢) فى ف: «وكان». (٣) زيادة من ف.
(٤) فى ف، أ: «فلم». (٥، ٦) زيادة من ف. (٧) فى ف: «فكان».
(٨) زيادة من ف.
(٩) جاء من حديث أم شريك: رواه البخارى برقم (٣٣٠٧) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٢٣٧).
(١٠) فى ف، أ: «حدثنى مولاه». (١١) فى ف: «تكن».
(١٢) ورواه أحمد فى المسند (٦/ ٨٣، ١٠٩) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٢٣١) من طريق نافع عن سائبة مولاة الفاكه به.

وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ أى: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبى الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

وقال عطية العوفى: لما أُلقِيَ إبراهيم فى النار، جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه ،فأحرقته مثل الصوفة .

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبىّ بن كعب فى قوله: ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة. وكذا قال أبو العالية أيضاً.

وقال قتادة: كانا بأرض العراق، فأنجيا إلى الشام، [وكان يقال للشام: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زيدَ فى الشام](١) وما نقص من الشام زيد فى فلسطين. وكان يقال: هى أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال.

وقال كعب الأحبار فى قوله: ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ : إلى حران.

وقال السدى: انطلق إبراهيم ولوط قِبَل الشام، فلقى إبراهيم سارة، وهى ابنة ملك حران، وقد طعنت على قومها فى دينهم، فتزوجها على ألا يغيرها .

رواه ابن جرير، وهو غريب [والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده](٢) .

وقال العَوفى، عن ابن عباس: إلى مكة؛ ألا تسمع قوله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران ٩٦].

وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء، ومجاهد: عطية.

وقال ابن عباس، وقتادة، والحكم بن عُيينة: النافلة ولد الولد، يعنى: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال : ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١].

(١ ، ٢) زيادة من ف .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة.

﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: الجميع أهل خير وصلاح، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: يقتدى بهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي: فاعلين لما يأمرون الناس به.

ثم عطف بذكر لوط ـ وهو لوط بن هاران بن آزر ـ كان قد آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فآتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سَدُومَ وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودَمَّر عليهم، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز؛ ولهذا قال: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ .وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح، عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[القمر: ١٠]، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ(١) وَأَهْلَهُ﴾ أي: الذين آمنوا بـه كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وقوله: ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون لأذاه(٢)، ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه.

وقوله: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أي: ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: أهلكهم الله بعامة، ولم يُبْقِ على وجه الأرض منهم أحدًا؛ إذ(٣) دعا عليهم نبيهم.

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ

---

(١) في ف، أ: «ونجيناه».
(٢) في ف: «أذاه».
(٣) في ف: «كما».

وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

قال أبو إسحاق، عن مُرّة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحرث كرماً قد نَبَتَتْ عناقيده. وكذا قال شُرَيْح.

قال ابن عباس: النَّفْشُ: الرعى.

وقال شُرَيح، والزهرى، وقتادة: النَّفْشُ بالليل. زاد قتادة: والهَمْلُ بالنهار.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب وهارون بن إدريسَ الأصم قالا: حدثنا المحاربى، عن أشعث، عن أبى إسحاق، عن مُرّة، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿**وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ**﴾ قال: كرم قد أنبتت عناقيده، فأفسدته. قال: فقضى داود بالغَنَم لصاحب الكَرْم، فقال سليمان: غيرُ هذا يا نبى الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيُصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ**﴾.

وهكذا روى العَوْفى، عن ابن عباس .

وقال حماد بن سلمة، عن على بن زيد، حدثنا[١] خليفة، عن ابن عباس قال: فحكم[٢] داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرِّعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيتُ بغير هذا! فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضى بينهم؟ قال[٣]: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ويبذُر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثلَ حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذى كان عليه أخذ أصحاب الحرث الحرثَ وردوا الغنم إلى أصحابها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا خُدَيْج، عن أبى إسحاق، عن مُرَّة، عن مسروق قال: الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرما نفشت فيه الغنم، فلم تَدَع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته، فأتوا داود، فأعطاهم رقابها، فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغنم فيعطاها[٤] أهلُ الكرم، فيكون لهم لبنها ونفعها، ويعطى أهل الغنم الكرم فيصلحوه ويعمروه[٥] حتى يعود كالذى كان ليلة نَفَشت فيه الغنم، ثم يُعطَى أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرم كرمهم .

---

(١) فى ف: «حدثنى» . (٢) فى ف، أ: «قضى» . (٣) فى ف: «فقال» .
(٤) فى ف: «فتعطى» . (٥) فى ف: «فيعمروه ويصلحوه» .

وهكذا قال شُرَيح، ومُرَّة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبى زياد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل، عن عامر، قال: جاء رجلان إلى شُرَيح، فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لى، فقال شريح: نهاراً أم ليلا؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشاة، وإن كان ليلاً ضَمِن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ﴾ الآية .

وهذا الذى قاله شُرَيح شبيه بما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد، عن الزهرى، عن حرَام بن مُحَيِّصة[١] ؛ أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً، فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها[٢] . وقد عُلِّل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه فى كتاب «الأحكام» وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن حميد؛ أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى، قال[٣] : ما يبكيك ؟ قال[٤]: يا أبا سعيد، بلغنى أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ، فهو فى النار، ورجل مال به الهوى فهو فى النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة. فقال الحسن البصرى: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾، فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال ـ يعنى: الحسن ـ: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشترون به ثمناً قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ] [٥]﴾ [ص: ٢٦] وقال :﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا﴾ [المائدة: ٤٤].

قلت: أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مُؤيَّدون من الله عز وجل. وهذا مما لا خلاف[٦] فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران،

---

(١) فى ف: «عن حرام عن الزهرى بن محيصة» .

(٢) المسند (٥/ ٤٣٥) وسنن أبى داود برقم (٣٥٧٠) وسنن ابن ماجه برقم (٢٣٣٢) .

تنبيه:

هذا الطريق إنما هو طريق ابن ماجه، أما أحمد فرواه عن مالك وسفيان ومعمر عن الزهرى، وأما أبو داود فرواه عن معمر والأوزاعى عن الزهرى .

(٣، ٤) فى ف، أ :«فقال» .　　(٥) زيادة من ف، أ .　　(٦) فى ف: «ما لا اختلاف فيه» .

وإذا اجتهد فأخطأ[١] فله أجر»[٢]، فهذا الحديث يرد نصا ما توهمه «إياس» من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو فى النار، والله أعلم.

وفى السنن : «القضاة ثلاثة: قاض فى الجنة، وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو فى النار[٣].

وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد فى مسنده ،حيث قال:

حدثنا على بن حَفْص، أخبرنا وَرْقاء عن أبى الزِّنَاد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء[٤] الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تَشُقُه، فقضى به للصغرى »[٥] .

وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما[٦] وبوّب عليه النسائى فى كتاب القضاء: (باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق)[٧] .

وهكذا القصة التى أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة «سليمان عليه السلام» من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس ـ فذكر قصة مطولة[٨] ملخصها ـ :أن امرأة حسناء فى زمان بنى إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على[٩] كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود، عليه السلام، أنها مكَّنت من نفسها كلباً لها، قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها. فلما كان عشية ذلك اليوم، جلس سليمان، واجتمع معه وِلْدانٌ، مثله، فانتصب حاكماً وتزيا أربعة منهم بزىّ أولئك، وآخر بزىّ المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان: فرقوا بينهم. فقال لأولهم: ما كان لون الكلب؟ فقال: أسود. فعزله، واستدى الآخر فسأله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: أغبش. وقال الآخر: أبيض. فأمر بقتلهم، فحكى ذلك لداود، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه، فأمر بقتلهم[١٠] .

---

(١) فى ف : «وأخطأ» .

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٣٥٢) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٥٧٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٩٢٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٣١٥).

(٤) فى ف: «إذ جاء».

(٥) المسند (٢/ ٣٢٢) .

(٦) فى ف: «صحيحيهما».

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٧٢٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٩٥٨) والباب فيه «التوسعة للحاكم في أن يقول للشىء الذى لا يفعله أفعل ليستبين له الحق» .

(٨) فى ف: «طويلة» .

(٩) فى أ: «عن» .

(١٠) تاريخ دمشق (٧/ ٥٦٥ «المخطوط») .

وقوله: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا تَرَنَّم به تقف الطير فى الهواء، فتجاوبه، وتَرد عليه الجبال تأويباً؛ ولهذا لَمَّا مَرَّ النبى ﷺ على أبى موسى الأشعرى، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب [جداً][1] ، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود ». قال يارسول الله، لو علمت أنك تسمع[2] لحبرته لك تحبيراً[3] .

وقال أبو عثمان النهدى: ما سمعت صوت صَنْج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبى موسى، رضى الله عنه، ومع هذا قال: لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود.

وقوله: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيحْصِنَكُم[4] مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعنى صنعة الدروع.

قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلَقاً. كما قال تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ .أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ [سبأ: ١٠، ١١] أى: لا توسع الحلقة فتقلق[5] المسمار، ولا تغلظ المسمار فتَقَدّ الحَلْقة ؛ولهذا قال: ﴿لِيُحْصِنَكُم[6] مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعنى: فى القتال، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أى: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم.

وقوله :﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أى: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة، ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعنى أرض الشام، ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾. وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة، والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر، إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه[7] ،قال الله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] ،وقال: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

قال ابن أبى حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة، عن أبى سنَان، عن سعيد بن جبير قال: كان يُوضَع لسليمان ستمائة ألف كرسى، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلهم، ثم يأمر الريح فتحمله ﷺ[8] .

وقال عبد الله بن عُبَيْد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح، فتجتَمع كالطَّود العظيم، كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفَرَس من ذوات الأجنحة، فترتفع[9] حتى تصعد[10] على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كُل شَرَف دون السماء، وهو مطأطئ رأسه، ما يلتفت يميناً ولا شمالاً، تعظيماً لله عز وجل، وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه فى ملك الله

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: «تستمع» .
(٣) سبق الحديث فى فضائل القرآن .
(٤) فى ف، أ: «لتحصنكم» . (٥) فى ف: «فتفلق» . (٦) فى ف: «لتحصنكم» .
(٧) فى أ: «وحشمه» .
(٨) فى أ: «فتحملهم عليه السلام» . (٩) فى ف، أ: «فيرتفع» .
(١٠) فى ف، أ: «يصعد».

تعالى[(١)] حتى تضعه[(٢)] الريح حيث شاء أن تضعه[(٣)] .

وقوله: ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أى: فى الماء يستخرجون اللآلئ [وغير ذلك. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ.][(٤)] وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾[ص: ٣٧، ٣٨] .

وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ [(٥)]حَافِظِينَ﴾ أى: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل فى قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو مُحكَّم[(٦)] فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء؛ ولهذا قال : ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾.

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ .

يذكر تعالى عن أيوب، عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء، فى ماله وولده وجسده[(٧)] ،وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية. فابتلى فى ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلى فى جسده ـ يقال: بالجذام فى سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفردَ فى ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد[(٨)] يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره[(٩)] ،ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبى ﷺ: « أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»[(١٠)] وفى الحديث الآخر: « يبتلى الرجل على قدر دينه، فان كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه »[(١١)] .

وقد كان نبى الله أيوب ،عليه السلام ،غاية فى الصبر ،وبه يضرب المثل فى ذلك.

وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب، عليه السلام، بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شيء،أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذى أحسنت إلى،أعطيتنى المال والولد، فلم يبق من قلبى شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله منى، وفرَّغت قلبى، ليس يحول بينى وبينك شيء، لو يعلم عدوى إبليس بالذى صنعت، حسدنى. قال: فلقى إبليس من ذلك منكراً.

قال: وقال أيوب، عليه السلام: يارب، إنك أعطيتنى المال والولد، فلم يقم على بابى أحد يشكونى لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك. وأنه كان يوطأ لى الفراش فأتركها وأقول لنفسى:

---

(١) فى ف، أ: «عز وجل» . (٢) فى ف: «يضعه» . (٣) فى ف، أ: «حيث يشاء أن يضعه» .
(٤) زيادة من ف، أ . (٥) فى ف: «له» . (٦) فى ف، أ: «يحكم» .
(٧) فى ف: «وجسده وولده» . (٨) فى ف: «أحد من الناس» . (٩) فى ف: «بأوده» .
(١٠) رواه أحمد فى المسند (١/ ١٧٢) والترمذى فى السنن برقم (٢٣٩٨) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه. وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح» .
(١١) هو جزء من الحديث المتقدم ، والله أعلم .

يانفس،إنك لم تخلقى لوطء الفرش[١] ،ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك. رواه ابن أبى حاتم.

وقد ذكر عن وهب بن منبه فى خبره قصة طويلة، ساقها ابن جرير وابن أبى حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخرى المفسرين، وفيها غرابة تركناها لحال الطول[٢].

وقد روى أنه مكث فى البلاء مدة طويلة، ثم اختلفوا فى السبب المهيج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادة: ابتلى أيوب، عليه السلام، سبع سنين وأشهراً، ملقى على كُنَاسَة بنى إسرائيل، تختلف الدواب فى جسده ففرج الله عنه، وَعَظَّم له الأجر، وأحسن عليه الثناء.

وقال وهب بن منبه: مكث فى البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص.

وقال السدى: تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالزاد يكون فيه، فقالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دعوت ربك[٣] يفرج عنك؟ فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهل[٤] قليل للّه أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزَعَت من ذلك فخرجت، فكانت تعمل للناس بأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من فلسطين كانا صديقين له وأخوين، فأتاهما فقال: أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه واحملا معكما من خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه بَرَأ. فأتياه، فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتما؟ فقالا[٥]: نحن فلان وفلان! فرحَّب بهما وقال: مرحباً بمن لا يجفونى عند البلاء، فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسر شيئاً وتظهر غيره، فلذلك ابتلاك الله؟ فرفع رأسه إلى السماء ثم قال:هو يعلم، ما أسررت شيئاً أظهرت غيره. ولكن ربى ابتلانى لينظر أأصبر أم أجزع، فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا فإنك إن شربت منه بَرَأت. قال: فغضب وقال جاءكما الخبيث فأمركما بهذا ؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما علىّ حرام. فقاما من عنده، وخرجت امرأته تعمل للناس فخبزت لأهل بيت لهم صبى، فجعلت لهم قرصاً[٦]، وكان ابنهم نائماً، فكرهوا أن يوقظوه، فوهبوه لها. فأتت به إلى أيوب، فأنكره وقال: ما كنت تأتينى بهذا، فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر. قال: فلعل الصبى قد استيقظ، فطلب القرص فلم يجده فهو يبكى على أهله. [فانطلقى به إليه. فأقبلت حتى بلغت درجة القوم، فنطحتها شاة لهم، فقالت: تعس أيوب الخطاء! فلما صعدت وجدت الصبى قد استيقظ وهو يطلب القرص، ويبكى على أهله][٧]، لا يقبل منهم شيئاً غيره، فقالت: رحم الله أيوب فدفعت القرص إليه ورجعت. ثم إن إبليس أتاها فى صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سُقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذباباً فليذبحه باسم صنم بنى فلان فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب، فقال: قد أتاك الخبيث. للّه علىّ إن برأت أن أجلدك مائة جلدة. فخرجت تسعى عليه، فحظر عنها الرزق، فجعلت لا تأتى أهل بيت فيريدونها، فلما اشتد عليها ذاك وخافت على أيوب

(١) فى ف: «الفراش».
(٢) تفسير الطبرى (١/ ٤٢).
(٣) فى ف، أ: «الله». (٤) فى أ: «فهو». (٥) فى ف، أ: «قالا».
(٦) فى ف، أ: «قرصة». (٧) زيادة من ف، أ.

الجوع حلقت من شعرها قرناً فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً فأتت به أيوب، فلما رآه أنكره وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عملت لأناس فأطعمونى. فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد فحلقت أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطعام، فأتت به أيوب، فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو؟ فوضعت خمارها، فلما رأى رأسها محلوقاً جزع جزعاً شديداً، فعند ذلك دعا ربه عز وجل: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن نَوْف البِكَالى؛ أن الشيطان الذى عرج فى أيوب كان يقال له: «سوط»[(١)]، قال: وكانت امرأة أيوب تقول: «ادع الله فيشفيك»، فجعل لا يدعو، حتى مر به نفر من بنى إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه، فعند ذلك قال: «رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين».

وحدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب، عليه السلام، أخوان فجاءا يوماً، فلم يستطيعا أن يدنوا منه، من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا؟ فجزع أيوب من قولهما جَزَعا لم يجزع من شىء قط، فقال: اللهم، إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان[(٢)] وأنا أعلم مكان جائع، فصدقنى. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم، إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط، وأنا أعلم مكان عار، فَصَدِّقنى فصدق من السماء وهما يسمعان. اللهم[(٣)] بعزتك ثم خر ساجداً، ثم قال[(٤)]: اللهم بعزتك لا أرفع رأسى أبداً حتى تكشف عنى. فما رفع رأسه حتى كشف عنه.

وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا فقال: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد، عن عُقَيل، عن الزهرى، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه، كانا[(٥)] يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تَعَلَّم ـ والله ـ لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف[(٦)] ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب، عليه السلام: لا أدرى ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما، كراهة أن يذكرا الله إلا فى حق. قال: وكان يخرج فى حاجته[(٧)]، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى إلى

(١) فى ف، أ: «مبسوط».
(٢) فى ف: «شبعانا».
(٣) فى ف، أ: «ثم قال: اللهم».
(٤) فى ف: «فقال».
(٥) فى ف، أ: «له».
(٦) فى ف: «فكشف».
(٧) فى ف: «حاجة».

أيوب فى مكانه: أن اركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب»[١].

رفع هذا الحديث غريب جداً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا على بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس، قال: وألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب فجلس فى ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أين ذهب المبتلى الذى كان ها هنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، فجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك! أنا أيوب! قالت: أتسخر منى يا عبد الله؟ فقال: ويحك! أنا أيوب، قد رد الله على جسدى.

وبه قال ابن عباس: ورد عليه ماله وولده عيانا، ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاءك، وقرب عن صاحبتك[٢] قرباناً، واستغفر لهم، فإنهم قد عصونى فيك. رواه ابن أبى حاتم.

[وقال][٣] أيضاً: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة، عن النضر ابن أنس، عن بَشير[٤] بن نَهِيك، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب، أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ بيده ويجعله فى ثوبه». قال: «فقيل له: يا أيوب، أما تشبع؟ قال: يا رب، ومن يشبع من رحمتك».

أصله فى الصحيحين[٥]، وسيأتى فى موضع آخر.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُم﴾: قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعيانهم. وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس أيضاً. وروى مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة.

وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النَّجْعَة، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب، وصح ذلك عنهم، فهو مما لا يصدق ولا يكذب. وقد سماها ابن عساكر فى تاريخه ـ رحمه الله تعالى ـ قال: ويقال: اسمها ليا ابنة مَنَشًّا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: ليا بنت يعقوب، عليه السلام، زوجة أيوب كانت معه بأرض البَثَنِيَّة.

وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب، إن أهلك لك فى الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت

---

(١) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٠٩١) «موارد» من طريق حرملة بن يحيى عن ابن وهب بنحوه.

(٢) فى ف: «صحابتك». (٣) زيادة من أ. (٤) فى ف: «بشر».

(٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٥٨٢) من طرق عن عمرو بن مرزوق به، وسيأتى أصل الحديث فى صحيح البخارى عند تفسير الآية: ٤٢ من سورة ص.

تركناهم لك فى الجنة، وعوضناك مثلهم. قال: لا بل اتركهم لى فى الجنة. فتُركوا له فى الجنة وعوض مثلهم فى الدنيا.

وقال حماد بن زيد، عن أبى عمران الجَوْنى، عن نَوف البِكَالى قال: أوتى أجرهم فى الآخرة، وأعطى مثلهم فى الدنيا. قال: فحدثت به مُطَرِّفًا، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم.

وهكذا روى عن قتادة، والسدى، وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أى: فعلنا به ذلك رحمة من الله به، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أى: وجعلناه فى ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك[1] لهوانهم علينا، وليتأسوا به فى الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما[2] يشاء، وله الحكمة البالغة فى ذلك.

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾.

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وقد تقدم ذكره فى سورة مريم، وكذلك إدريس، عليه السلام[3].

وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبى. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلا، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير فى ذلك، فالله أعلم.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبى، تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فَسُمى: ذا الكفل. وكذا روَى ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان، حدثنا وُهَيب، حدثنا داود، عن مجاهد قال: لما كبر اليسع قال: لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى، حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس، فقال: من يتقبل منى بثلاث: أستخلفه يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا. فقال: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فردهم[4] ذلك اليوم، وقال مثلها فى اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل وقال[5]: أنا. فاستخلفه، قال: وجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان. فأعياهم ذلك [6]، قال: دعونى [7] وإياه، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ـ

(١) فى ف: «إنما فعل ذلك بهم».
(٢) فى ف: «فيما».
(٣) انظر: تفسير الآيات: ٥٤ ـ ٥٧.
(٤) فى ف، أ: «فيردهم».
(٥) فى ف: «فقال».
(٦) فى ف، أ: «ذلك الرجل».
(٧) فى أ: «دعونى أنا وإياه».

وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة ـ فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم. قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقص عليه، فقال: إن بينى وبين قومى خصومة، وإنهم ظلمونى، وفعلوا بى وفعلوا. وجعل يُطَول عليه حتى حصر الرواح وذهبت القائلة، فقال[١]: إذا رحت فأتنى آخذ لك بحقك. فانطلق، وراح. فكان فى مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟ فلم يره، فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس، وينتظره ولا[٢] يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال[٣]: الشيخ الكبير المظلوم. ففتح له[٤] فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى؟ قال: إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا[٥] أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك. وإذا قمت جحدونى. قال: فانطلق، فإذا رحت فأتنى. قال: ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظره[٦] ولا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحداً يَقرب هذا الباب حتى أنام، فإنى قد شق علىّ النوم. فلما كان تلك الساعة أتاه[٧] فقال له الرجل: وراءك وراءك؟ فقال: إنى قد أتيته أمس، فذكرت له أمرى، فقال: لا، والله لقد أمرنا ألا ندع أحداً يقربه. فلما أعياه نظر فرأى كُوَّة فى البيت، فتسور منها، فإذا هو فى البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل، قال: فاستيقظ الرجل فقال: يا فلان، ألم آمرك؟ فقال[٨]: أما من قبلى والله فلم تؤتَ، فانظر من أين أتيت؟ قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه فى البيت، فعرفه، فقال: أعدو الله؟ قال: نعم، أعييتنى فى كل شىء، ففعلت ما تَرَى لأغضبك. فسماه الله ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر، فوفى به[٩].

وهكذا رواه بن أبى حاتم، من حديث زهير بن إسحاق، عن داود، عن مجاهد، بمثله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن مسلم، قال: قال ابن عباس: كان قاض فى بنى إسرائيل، فحضره الموت، فقال: من يقوم مقامى على ألا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا. فسمى ذا الكفل. قال: فكان[١٠] ليله جميعاً يصلى، ثم يصبح صائماً فيقضى بين الناس ـ قال: وله[١١] ساعة يقيلها ـ قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطان عند نومته، فقال له أصحابه: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق، وقد غلبنى عليه. قالوا: كما أنت حتى يستيقظ ـ قال: وهو فوق نائم ـ قال: فجعل يصيح عمدا حتى يوقظه[١٢]، قال: فسمع، فقال: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق. قال: اذهب فقل له يعطيك. قال: قد أبى. قال: اذهب أنت إليه. قال: فذهب، ثم جاء من الغد، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً. قال: اذهب إليه فقل له يعطيك حقك، قال: فذهب، ثم جاء من الغد حين قال، قال: فقال له أصحابه: اخرج، فعل الله بك، تجىء كل يوم حين ينام، لا

---

(١) فى ف: «وقال».
(٢) فى ف، أ: «فلا».
(٣) فى ف: «فقال».
(٤) فى ف: «ففتح الباب».
(٥) فى ف، أ: «اعترفوا».
(٦) فى ف: «ينتظر».
(٧) فى ف: «جاءه».
(٨) فى ت: «قال».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ٥٩).
(١٠) فى ف: «فقال».
(١١) فى ف: «فله».
(١٢) فى ف: «يغضبه».

تدعه ينام؟. فجعل[١] يصيح: من أجل أنى إنسان مسكين، لو كنت غنيا؟ قال: فسمع أيضاً، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فضربنى. قال: امش حتى أجىء معك. قال: فهو ممسك بيده، فلما رآه ذهب معه نَتَر يده منه [٢] فَفَر.

وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث، ومحمد بن قيس، وابن حُجَيرة الأكبر، وغيرهم من السلف، نحو من هذه القصة، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الجماهر[٣]، أخبرنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن أبى كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعرى وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل بنبى، ولكن كان ـ يعنى: فى بنى إسرائيل ـ رجل صالح يصلى كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة، فسمى ذا الكفل.

وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: «قال أبو موسى الأشعرى. . .» فذكره منقطعا[٤]، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال:

حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد[٥] مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين ـ حتى عدّ سبع مرات ـ ولكن قد سمعته أكثَرَ من ذلك، قال: «كان الكفل من بنى إسرائيل، لا يتورّع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا، على أن يَطَأها، فلما قعد منها[٦] مَقعدَ الرجل من امرأته، أرعدَت[٧] وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرَهتُك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حَمَلَنى عليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ فَنَزَل[٨] فقال: اذهبى فالدنانير لك. ثم قال: والله لا يَعصى الله الكفل أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل»[٩].

هكذا وقع فى هذه الرواية «الكفل»، من غير إضافة، فالله أعلم. وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة[١٠]، وإسناده غريب، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان «الكفل»، ولم يقل: «ذو الكفل»، فلعله رجل آخر، والله أعلم.

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ

(١) فى ف، أ: «قال: فجعل». (٢) فى أ: «منه فذهب». (٣) فى ف، أ: «أبو الجماهير».
(٤) تفسير الطبرى (١٧/ ٦٠).
(٥) فى ف، أ: «سعيد». (٦) فى أ: «معها». (٧) فى أ: «ارتعدت».
(٨) فى ف: «ثم نزل».
(٩) المسند (٢/ ٢٣).
(١٠) قلت: بل أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٦) من طريق عبيد بن أسباط عن أبيه به، وقال: «هذا حديث حسن قد رواه شيبان وغير واحد عن الأعمش نحو هذا ورفعوه وروى بعضهم عن الأعمش فلم يرفعه».

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾.

هذه القصة مذكورة ها هنا وفى سورة «الصافات» وفى سورة «ن»[(١)] وذلك أن يونس بن مَتَّى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية «نينوى»، وهى قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبى لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا[(٢)] إليه، ورغت الإبل وفُصْلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمْلانها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿**فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ**[(٣)] **الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ [يونس: ٩٨].

وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فَلَجَّجت بهم، وخافوا أن يغرقوا[(٤)]. فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا[(٥)] أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿**فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**﴾ [الصافات: ١٤١]، أى: وقعت عليه القرعة[(٦)]، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه فى البحر، وقد أرسل الله، سبحانه وتعالى، من البحر الأخضر ـ فيما قاله ابن مسعود ـ حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظما؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك له يكون سجناً.

وقوله: ﴿**وَذَا النُّونِ**﴾ يعنى: الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة.

وقوله: ﴿**إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا**﴾: قال الضحاك: لقومه، ﴿**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ [أى: نضيق عليه فى بطن الحوت. يُروَى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره[(٧)] ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿**وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾ [الطلاق: ٧].

وقال عطية العَوفى: ﴿**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾][(٨)]، أى: نقضى عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدَر وقدّر بمعنى واحد، وقال الشاعر:

---

(١) سورة الصافات الآيات: ١٣٩ ـ ١٤٨)، وسورة نون (القلم) الآيات: ٤٨ ـ ٥٠.
(٢) فى ت: «ولجؤوا».
(٣) فى ت: «العذاب».
(٤) فى ت، ف: «تغرق بهم».
(٥) فى ت: «فأتوا».
(٦) فى ف: «فوقعت القرعة عليه».
(٧) فى ت: «واختارهم».
(٨) زيادة من ت، ف، أ.

فَلاَ عَائد ذَاكَ الزّمَانُ الذى مَضَى　　　تباركت ما تَقْدرْ يكُنْ، فَلَكَ الأمْرُ

ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، أى: قُدّر.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روى عن ابن عباس[١]، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقتادة.

وقال سالم بن أبى الجعد: ظلمةُ حُوت فى بطن حوت[٢]، فى ظلمة البحر.

قال ابن مسعود، وابنُ عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوتُ فى البحار يَشُقُّها، حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع[٣] يونسُ تسبيح الحصى فى قراره، فعند ذلك وهنالكَ قال: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ﴾.

وقال عوف: لما صار يونس فى بطن الحوت، ظن أنه قد مات، ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب[٤]، اتخذت لك مسجداً[٥] فى موضع ما اتخذه[٦] أحد.

وقال سعيد بن الحسن البصرى: مكث فى بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما[٧] ابن جبير.

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عمن حدثه، عن عبد الله بن رافع ـ مولى أم سلمة ـ سمعتُ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حَبْسَ يونس فى بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حساً، فقال فى نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو فى بطن[٨] الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فَسَبَّح وهو فى بطن الحوت، فسمع[٩] الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً [بأرض غريبة][١٠] قال: ذلك عبدى يونس، عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عملٌ صالح؟. قال: نعم». قال: «فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل، كما قال الله عز وجل[١١]: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾» [الصافات: ١٤٥].

ورواه ابن جرير[١٢]، ورواه البزار فى مسنده، من طريق محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن رافع، عن أبى هريرة، فذكره بنحوه، ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد[١٣]، وروى ابن عبد الحق من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سَلَمَةَ[١٤]،

---

(١) فى ف: «ابن مسعود».
(٢) فى ف، أ: «حوت آخر».
(٣) فى ت، أ: «حتى يسمع»، وفى ف: «حتى سمع».
(٤) فى ت: «رب الحوت».
(٥) فى ت: «مسجد».
(٦) فى ف، أ: «ما أخذه».
(٧) فى ت: «رواها».
(٨) فى ف: «وهو ببطن».
(٩) فى ف، أ: «فسمعت».
(١٠) زيادة من ف، أ.
(١١) فى ت: «الله تعالى».
(١٢) تفسير الطبرى (١٧/ ٦٥).
(١٣) مسند البزار برقم (٢٢٥٤) «كشف الأستار».
(١٤) فى ت، ف: «مسلم».

عن على مرفوعاً: لا ينبغى لعبد أن يقول: «أنا[١]خير من يونس بن متى»؛ سبح لله فى الظلمات[٢].

وقد روى هذا الحديث بدون هذه الزيادة، من حديث ابن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن جعفر، وسيأتى أسانيدها فى سورة «ن»[٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخى ابن وهب، حدثنا عمى: حدثنى أبو صخر: أن يزيد الرقاشى حدثه قال: سمعت أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ أن يونس النبى، عليه السلام، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إنى كنت من الظالمين». فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش[٤]، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك[٥] ؟ قالوا: لا، يا رب[٦]، ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يُرفَع له عَمَلٌ متقبل[٧]، ودعوة مجابة؟. [قال: نعم][٨]. قالوا: يا رب، أَوَلا[٩] ترحم ما كان يصنع[١٠] فى الرخاء فتنجيَه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه فى العراء[١١].

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أى: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات، ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إذا كانوا فى الشدائد ودَعَونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء، فقد جاء الترغيب فى الدعاء بها عن سيد الأنبياء، قال الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيل بن عُمَر، حدثنا يونس بن أبى إسحاق الهمدانى، حدثنا إبراهيم بن محمد[١٢] ابن سعد، حدثنى والدى محمد عن أبيه سعد، ـ وهو ابن أبى وقاص ـ قال: مررت بعثمان بن عفان، رضى الله عنه، فى المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه منى ثم لم يَرْدُدْ علىّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث فى الإسلام شىء؟ مرتين، قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنى مررتُ بعثمان[١٣] آنفا فى المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه منى، ثم لم يَرْدُد[١٤] على السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رَدَدت على أخيك

---

(١) فى ف: «أنا عند الله خير».

(٢) كذا (ابن عبد الحق)، وأظنه تحريف عن عبد بن حميد، إلا أنى لا أجزم بذلك، وقد ذكره الهندى فى كنز العمال (١٢/ ٤٧٦) وعزاه لابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر فى تاريخه.

(٣) كذا قال الحافظ ابن كثير، وإنما ذكره هناك من حديث ابن مسعود وأبى هريرة رضى الله عنهما.
فأما حديث ابن عباس: فرواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣٩٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٧٧).
وأما حديث عبد الله بن جعفر: فرواه أبو داود فى السنن برقم (٤٦٧٠).

(٤) فى ت: «نحو العرش» وفى ف: «تحت العرش». (٥) فى ف: «ذلك». (٦) فى ت، ف: «يا ربنا».

(٧) فى ت، ف: «متقبلاً». (٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت، ف، أ: «أفلا».

(١٠) فى ت، ف: «يصنعه».

(١١) ورواه ابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة برقم (٣٢) من طريق أحمد بن صالح عن عبد الله بن وهب به.

(١٢) فى ت: «محمد بن إبراهيم». (١٣) فى ف، أ: «بعثمان بن عفان رضى الله عنه».

(١٤) فى ت: «يرد».

السلام؟ قال: ما فعلتُ. قال سعد: قلتُ: بلى[١]. حتى حلفَ وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكرَ فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بى آنفا وأنا أحدّث نفسى بكلمة سمعتُها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تَغْشَى بصرى وقلبى غشَاوة. قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا [أول دعوة][٢] ثم جاء أعرابى فشغله، حتى قامَ رسولُ الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض، فالتفت إلىّ رسولُ الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرتَ لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك. قال: «نعم، دعوةُ ذى النون، إذ هو فى بطن الحوت: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له».

ورواه الترمذى، والنسائى فى «اليوم والليلة»، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد[٣]، به[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كَثِير بن زيد، عن المطلب بن حنطب ـ قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب، يعنى: ابن سعد ـ عن سعد[٥] قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يونس، استُجيب[٦] له». قال أبو سعيد: يريد به ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[٧].

وقال ابن جرير: حدثنى عمران بن بكّار الكَلاَعى، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثنى بِشْر بن منصور، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك ـ وهو ابن أبى وقاص ـ يقول: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «اسم الله الذى إذا دُعى به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى، دعوةُ يونس بن متى». قال: قلت[٨]: يا رسول الله، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هى ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. فهو شرط من الله لمن دعاه به»[٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج، حدثنا داود بن المُحَبَّر بن قَحْذَم المقدسى، عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ قال: ابنَ أخى، أما تقرأ القرآن؟ قول الله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ

---

(١) فى ف: «ويلى». (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت: «ابن سعيد».
(٤) المسند (١/ ١٧٠) وسنن الترمذى برقم (٣٥٠٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٤٩٢).
(٥) فى ت: «عن سعيد». (٦) فى ت: «استجبت».
(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٨٤) من طريق يحيى بن عبد الحميد، وابن عدى فى الكامل (٦/ ٦٨) من طريق أبى هشام الرفاعى كلاهما عن أبى خالد الأحمر به.
(٨) فى ت، ف: «فقلت».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ٦٥).

مُغَاضِبًا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، ابن أخى، هذا اسم الله الأعظم، الذى إذا دُعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾.

يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلب أن يَهبَه الله ولدا، يكون من بعده نبياً. وقد تقدمت القصة مبسوطة فى أول سورة «مريم» وفى سورة «آل عمران» أيضا، وها هنا أخصر منهما؛ ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أى: خفية عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أى: لا ولدَ لى ولا وارثَ يقوم بعدى فى الناس، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، دعاء وثناء مناسب للمسألة.

قال الله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أى: امرأته.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير: كانت عاقراً لا تلد، فولدت.

وقال عبد الرحمن بن مهدى[1]، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء: كان فى لسانها طول فأصلحها الله. وفى رواية: كان فى خَلْقها شىء فأصلحها الله. وهكذا قال محمد بن كعب، والسدّى. والأظهر من السياق الأول.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: فى عمل القُرُبات وفعل الطاعات، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثورى: ﴿رَغَبًا﴾ فيما عندنا، و﴿رَهَبًا﴾ مما عندنا، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقا. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سِنَان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبداً. وعن مجاهد أيضاً ﴿خَاشِعِينَ﴾ أى: متواضعين. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿خَاشِعِينَ﴾ أى: متذللين لله عز وجل. وكل هذه الأقوال متقاربة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق بن[2] عبد الله القرشى، عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، رضى الله عنه، ثم قال: أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله، وتُثنُوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

---

(١) فى ت: «ابن منبه». (٢) فى ت، ف: «عن».

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾.

هكذا قَرَن تعالى[١] قصة مريم وابنها عيسى، عليه السلام، بقصة زكريا وابنه يحيى، عليهما السلام، فيذكر أولا قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مُوَطِّئة لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طَعَن فى السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع فى سورة «آل عمران»، وفى سورة «مريم»، وها هنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم، فقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعنى: مريم، عليها السلام، كما قال فى سورة التحريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: دلالة على أن الله على كل شىء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١].

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عَمْرو بن على، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مُخَلَّد[٢]، عن شَبِيب[٣] ـ يعنى: ابن بشر[٤] ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: العالمين: الجن والإنس.

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿إِنَّ[٥] هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يقول: دينكم دين واحد.

وقال الحسن البصرى؛ فى[٦] هذه الآية: بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: سنتكم سنة واحدة. فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾: إنّ واسمها، و﴿ أُمَّتُكُمْ﴾ خبر إن، أى: هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم، وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب[٧] على الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أولاد عَلاَّت ديننا واحد»، يعنى: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) فى ت: «يقرن الله تعالى» وفى ف، أ: «يقرن تعالى». (٢) فى ف: «عن مجلز». (٣) فى ت، ف، أ: «شعيب».
(٤) فى ف: «بشير». (٥) فى ت، ف: «وإن». (٦) فى ت: «من».
(٧) فى ت: «نصيب».

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أى: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مَصَدق لهم ومكذب؛ ولهذا قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أى: يوم القيامة، فيجازَى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: قلبه مصدق، وعمل عملا صالحا، ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠] أى: لا يُكْفَر سعيُه، وهو عمله، بل يُشْكَر، فلا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أى: يُكتب جميعُ عمله، فلا يَضيع عليه منه شىء.

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾: قال ابن عباس: وجب، يعنى: قدراً مُقَدراً[(١)] أن أهل كل[(٢)] قرية[(٣)] أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة. هكذا صرح به ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وقتادة، وغير واحد.

وفى رواية عن ابن عباس: ﴿أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ أى: لا يتوبون.

والقول الأول أظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: قد قدمنا أنهم من سلالة آدم، عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضا[(٤)]، من أولاد يافث أبى الترك، والترك شرذمة منهم، تُركوا من وراء السد الذى بناه ذو القرنين.

وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أى: يسرعون فى المشى إلى الفساد.

والحَدَب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثورى وغيرهم، وهذه صفتهم فى حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذى يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عُبَيد الله بن أبى يزيد قال: رأى ابنُ عباس صبيانا ينزو بعضهم على بعض، يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا

---

(١) فى ت، ف: «مقدورا».
(٢) فى ت، ف: «إن كل أهل».
(٣) فى ت: «القرية».
(٤) فى ف، أ: «عليه السلام».

يخرج يأجوج ومأجوج(١).

وقد ورد ذكر خروجهم فى أحاديث متعددة من السنة النبوية:

فالحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة، عن محمود بن لَبِيد، عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُفتَح يأجوجُ ومأجوجُ، فيخرجون كما قال الله عز وجل: ﴿[وَهُم](٢) مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فيغشونَ الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم(٣)، ويضمون إليهم مواشيَهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضَهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يَبَسا، حتى إن مَنْ بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول(٤): قد كان ها هنا ماء مرةً، حتى إذا لم يبقَ من الناس أحد إلا أحدٌ فى حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهلُ الأرض، قد فرغنا منهم، بقى أهلُ السماء. قال: «ثم يهزّ أحدُهم حربته، ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع إليه مُخْتَضبَةً دما؛ للبلاء والفتنة. فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودا فى أعناقهم كنَغَف الجراد الذى يخرج فى أعناقه، فيصبحون(٥) موتى لا يُسمَع لهم حِس، فيقول المسلمون: ألا رجل يَشْرى نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟» قال: «فيتجرّد رجل منهم محتسبا نفسه، قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادى: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويُسَرِّحون مواشيهم، فما يكون لها رعى إلا لحومهم، فَتَشْكر عنه كأحسن ما شكرَت عن شىء من النبات أصابته قط.

ورواه ابن ماجه، من حديث يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق، به(٦).

الحديث الثانى: قال [الإمام](٧) أحمد أيضا: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقى، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنى يحيى بن جابر الطائى ـ قاضى حمص ـ حدثنى عبد الرحمن ابن جُبَير بن نُفَير الحضرمى، عن أبيه، أنه سمع النَّوّاس بن سمْعانَ الكلابى قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غَداة، فخَفَض فيه ورَفَع، حتى ظنناه فى طائفة النخل، [فلما رُحْنَا إليه عرف ذلك فى وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل](٨). فقال: «غير الدجال أخْوَفُنى عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجيجُه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مسلم: إنه شاب جَعْدٌ قَطَط عينه

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٧٠).
(٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «وحضرتهم». (٤) فى ت: «فيقولون».
(٥) فى ت: «فيحصون».
(٦) المسند (٣/ ٧٧) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٩)، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٦٠): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».
(٧) زيادة من ت، ف، أ. (٨) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

طافية، وإنه يخرج خَلَّةَ بين الشام والعراق، فعاث يمينا وشمالا، يا عباد الله اثبتوا».

قلنا: يا رسول الله، ما لبثه فى الأرض؟ قال: «أربعين يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذى هو كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره».

قلنا: يا رسول الله، فما إسراعه فى الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح». قال: «فيمر بالحى فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهى أطول ما كانت ذُرَى، وأمده خواصر، وأسبغه ضروعا. ويمر بالحى فيدعوهم فيردون عليه قولَه، فتتبعه أموالهم، فيصبحون مُمْحلين، ليس لهم من أموالهم. ويمر بالخَربة فيقول لها: أخرجى كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل». قال: «ويأمر برجل فيُقتَل، فيضربه بالسيف فيقطعه جَزْلتين رَمْيَةَ الغَرَض، ثم يدعوه فيقبل إليه [يتهلل وجهه][١].

فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة[٢] البيضاء، شرقى دمشق، بين مَهْرُودَتَين واضعا يَدَه على أجنحة مَلَكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لُدّ الشرقى».

قال: «فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: أنى قد أخرجت عبادا من عبادى لا يَدَانِ لك بقتالهم، فَحَوِّز عبادى إلى الطور، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج، وهم كما قال الله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم نَغَفاً فى رقابهم، فيصبحون فَرْسى، كموت نفس واحدة.

فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون فى الأرض بيتا إلا قد ملأه زَهَمُهم ونَتْنهُم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم طيراً كأعناق البُخْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله».

قال ابن جابر[٣]: فحدثنى عطاء بن يزيد السَّكْسَكى[٤]، عن كعب ـ أو غيره ـ قال: فتطرحهم بالمَهْبِل. [قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وأين المَهْبِل؟][٥]، قال: مطلع الشمس.

قال: «ويرسل الله مطراً لا يكُنُّ[٦] منه بيت مَدَر ولا وَبَر أربعين يوما، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَة، ويقال للأرض: أنبتى ثمرتك، ورُدى بركتك». قال: «فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحْفها، ويُبَارك فى الرِّسْل، حتى إن اللِّقْحَةَ من الإبل لتكفى الفِئَامَ من الناس، واللقحة من البقر تكفى الفخذ، والشاة من الغنم تكفى أهل البيت».

(١) زيادة من ف، أ، والمسند. (٢) فى ت: «المنازل». (٣) فى ت: «جرير».
(٤) فى ت: «السلسلى». (٥) زيادة من ف، أ، والمسند. (٦) فى ت: «يكون».

قال: «فبينما هم على ذلك[١]، إذ بعث الله عز وجل ريحا طيبة تحت آباطهم، فتقبض روح كل مسلم ـ أو قال: كل مؤمن ـ ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة».

انفرد[٢] بإخراجه مسلم دون البخاري، فرواه مع بقية أهل السنن من طرق، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به[٣]. وقال الترمذي: حسن صحيح.

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، عن ابن حَرْمَلَة، عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عَقْرب، فقال: «إنكم تقولون: «لا عدو[٤]»، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً، حتى يأتى يأجوج ومأجوج عراض الوجوه، صغار العيون، صُهْبَ الشّعاف، من كل حَدَب ينسلون، كأن وجوههم المَجَانّ المُطرَقة»[٥].

وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث محمد بن عمرو، عن خالد بن عبد الله بن حَرْمَلة المدلجى، عن خالة له، عن النبى ﷺ، فذكر مثله[٦].

الحديث الرابع: قد تقدم فى تفسير آخر سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد، عن هُشَيْم، عن العَوَّام، عن جَبَلَة ابن سُحَيْم، عن مُؤثر بن عَفَازَةَ، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، قال: فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لى بها[٧]، فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها[٨]. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وَجْبَتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيها عهد إلى ربى أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص» قال: «فيهلكه الله إذا رآنى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتى كافراً، فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب يَنسلون، فيطؤون بلادهم، لا[٩] يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه». قال: «ثم يرجع الناس إلىّ يشكونهم، فأدعو الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تَجوى الأرض من نَتْن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم، حتى يقذفهم فى البحر. ففيما عهد إلىّ ربى أن ذلك إذا كان كذلك، أن الساعة كالحامل المُتِمّ، لا يدرى أهلها متى تَفْجُؤهم بولادها ليلا أو نهارا».

ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العَوَّام بن حَوْشَب، به[١٠]،

---

(١) فى ف: «هم كذلك». (٢) فى ت: «وانفرد».
(٣) المسند (٤/ ١٨١) وصحيح مسلم برقم (٢١٣٧) وسنن أبى داود برقم (٤٣٢١) وسنن الترمذى برقم (٢٢٤٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٥).
(٤) فى ت، ف، أ: «لا عدو لكم».
(٥) المسند (٥/ ٢١٧).
(٦) فى ت، أ: «مثله سواء». (٧، ٨) فى ت: «فيها».
(٩) فى ت، ف: «ولا».
(١٠) المسند (١/ ٣٧٥) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٨١) وسبق عند تفسير الآية: ١٨٧ من سورة الأعراف.

نحوه وزاد: «قال العَوَّام، ووجد تصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

ورواه ابن جرير ها هنا من حديث جبلة، به(١).

والأحاديث فى هذا كثيرة جدا، والآثار عن السلف كذلك.

وقد روى ابنُ جرير وابن أبى حاتم، من حديث مَعْمَر، عن غير واحد، عن حميد بن هلال، عن أبى الصَّيف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجىء غدا فنخرج، فيعيده الله كما كان. فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم بقول: نجىء غدا فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون حتى يخرجوا. فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة، فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون(٢): قد كان ها هنا مرة ماء، ويفر الناس منهم، فلا يقوم لهم شىء. ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليه مُخَضَّبة بالدماء فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء. فيدعو عليهم عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقول: «اللهم، لا طاقة ولا يَدَين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت»، فيسلط الله عليهم دودا يقال له: النغف، فيفرس(٣) رقابهم، ويبعث الله عليهم طيرا تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم فى البحر، ويبعث الله عينا يقال لها: «الحياة» يطهر الله الأرض وينبتها، حتى إن الرمانة ليشبع منها السَّكْن». قيل: وما السَّكن يا كعب؟ قال: أهل البيت ـ قال: «فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصَّريخ أن ذا السُّويقَتَين يريده. قال: فيبعث(٤) عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عَجَاج(٥) الناس، فيتسافدون كما تَسَافَدُ البهائم، فَمَثَل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع؟ قال كعب: فمن تكلف بعد قولى هذا شيئا ـ أو بعد علمى هذا شيئا ـ فهو المتكلف(٦).

هذا من أحسن سياقات كعب الأحبار، لما شهد له من صحيح الأخبار.

وقد ثبت فى الحديث أن عيسى ابن مريم يحجّ البيت العتيق، وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان ابن داود، حدثنا عمران، عن قتادة، عن عبد الله بن أبى عُتْبَةَ، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليُحَجَّنَّ هذا البيت، وليُعْتَمَرنّ بعد خروج يأجوج ومأجوج». انفرد بإخراجه البخارى(٧).

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٧٢).

(٢) فى ت: «فيقول».

(٣) فى ت: «فيفرش».

(٤) فى ت: «فيبعث الله عيسى».

(٥) فى ت، ف: «عجاج من».

(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ٧١).

(٧) المسند (٣/ ٢٧) وصحيح البخارى برقم (١٥٩٣).

وقوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعنى: يوم القيامة، إذا وُجدت هذه الأهوال والزلازل والبلابل، أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أى: يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أى: فى الدنيا، ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾.

يقول تعالى مخاطبا لأهل مكة من مشركى قريش، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال ابن عباس: أى وقودها، يعنى كقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن عباس أيضا: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بمعنى: شجر جهنم. وفى رواية قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعنى: حطب جهنم، بالزنجية.

وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: حطبها. وهى كذلك فى قراءة على وعائشة ـ رضى الله عنهما.

وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أى: ما يرمى به فيها.

وكذا قال غيره. والجميع قريب.

وقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أى: داخلون، ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ يعنى: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التى اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، ولما دخلوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾، كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا ابن فُضَيْل، حدثنا عبدالرحمن ـ يعنى: المسعودى ـ عن أبيه قال: قال ابن مسعود: إذا بقى من يخلد فى النار، جُعلوا فى توابيت من نار، فيها مسامير من نار، فلا يَرَى أحد منهم أنه يعذب فى النار غيره، ثم تلا

عبدالله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾.

ورواه ابن جرير، من حديث حجاج بن محمد، عن المسعودى، عن يونس بن خبّاب[١] ، عن ابن مسعود فذكره.

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾: قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة، ﴿أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسُله[٢]، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة فى الدنيا، كما قال: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: وقال ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فكما أحسنوا العمل فى الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحَصَل[٣] لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أى: حريقها فى الأجساد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبيه، عن الجريرى[٤] ، عن أبى عثمان: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال: حيات على الصراط[٥] تلسعهم، فإذا لسعتهم قال: حَسَ حَسَ.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج، حدثنا محمد بن الحسن بن أبى يزيد الهمدانى، عن ليث بن أبى سليم، عن ابن عم النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال ـ وسَمَرَ مع على ذات ليلة، فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم ـ أو قال: سعد منهم ـ قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يجر ثوبه، وهو يقول: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

وقال شعبة، عن أبى بشر، عن يوسف المكى، عن محمد بن حاطب[٦] قال: سمعت عليا يقول فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ قال: عثمان وأصحابه.

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد ـ وليس بابن ماهك ـ عن محمد بن حاطب، عن على، فذكره ولفظه: عثمان منهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جثياً.

---

(١) فى ت: «ابن حبان». (٢) فى ت: «ورسوله». (٣) فى ت: «وجعل».
(٤) فى ت، ف، أ: «عن أبى عثمان الجريرى». (٥) فى ت: «على الصراط المستقيم». (٦) فى ت: «خاطب».

فهذا مطابق لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عَزير والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، فيقال[(١)]: هم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل. وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج[(٢)].

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: نزلت فى عيسى ابن مريم وعُزَير، عليهما السلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الحسين بن عيسى بن مَيْسَرَة، حدثنا أبو زُهَير، حدثنا سعد بن طَرِيف، عن الأصبغ، عن علىّ فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ قال: كل شىء يعبد من دون الله فى النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم. إسناده ضعيف.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، قال: عيسى، وعُزَيْز، والملائكة.

وقال الضحاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا روى عن سعيد بن جُبَيْر، وأبى صالح وغير واحد.

وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً غريباً جدا، فقال: حدثنا الفضل بن يعقوب الرُّخَّانى، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، حدثنا الليث بن أبى سليم، عن مُغيث، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: عيسى، وعُزَيز، والملائكة[(٣)].

وذكر بعضهم قصة ابن الزِّبَعْرَى ومناظرةَ المشركين، قال أبو بكر بن مَرْدُويه:

حدثنا محمد بن على بن سهل، حدثنا محمد بن حسن الأنماطى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرَةَ، حدثنا يزيد بن أبى حكيم، حدثنا الحكم ـ يعنى: ابن أبان ـ عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبى ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾، فقال ابن الزبعرى: قد عُبدت الشمس والقمر والملائكة، وعُزَير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا؟ فنزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً[(٤)] بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾، ثم نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. رواه الحافظ أبو عبد الله فى كتابه «الأحاديث المختارة».

---

(١) فى ف: «فقال». (٢) فى ت: «وابن ماجه وابن جريج».

(٣) وفى إسناده سعيد بن مسلمة وشيخه ليث بن أبى سليم وهما ضعيفان.

(٤) فى ت: «مثلا».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا قَبيصة بن عقبة، حدثنا سفيان ـ يعنى: الثورى ـ عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قال المشركون: فالملائكة[١]، وعُزَير، وعيسى يُعْبَدون من دون الله؟ فنزلت: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، الآلهة التى يعبدون، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وروى عن أبى كُدَيْنَة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس مثل ذلك، وقال فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

وقال [الإمام][٢] محمد بن إسحاق بن يسار[٣]، رحمه الله، فى كتاب «السيرة»: وجلس رسول الله ـ فيما بلغنى ـ يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المسجد[٤] غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾[٥]، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد[٦] من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لَخَصمته، فسلوا محمداً: كل ما يُعْبَد[٧] من دون الله فى جهنم مع من عَبَده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس، من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فَذُكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كل مَنْ أَحَبَّ أن يُعْبَدَ من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين[٨] ومن أمرَتْهم[٩] بعبادته. وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أى: عيسى وعزير ومن عُبدوا من الأحبار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونَزَل فيما يذكرون، أنهم يعبدون الملائكة، وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩]، ونَزَل فيما ذُكر من أمر عيسى، وأنه يعبد من دون الله، وعَجَب الوليد ومن حَضَره من حُجَّته وخصومته: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ

---

(١) فى ت: «والملائكة». (٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى ت: «ابن بشار». (٤) فى ف: «المجلس».
(٥) فى ت، ف: «أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون. لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون».
(٦) فى ت: «تعبدون». (٧) فى ت: «يعبدون». (٨) فى ت، ف: «الشيطان».
(٩) فى ف: «أمرهم».

فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦١] أى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿**فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ [الزخرف ٦١]. [١].

وهذا الذى قاله ابن الزبعرى خطأ كبير؛ لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة فى عبادتهم الأصنام التى هى جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها؛ ولهذا قال: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**﴾، فكيف يُورَد عَلَى هذا المسيح والعزير[٢] ونحوهما، ممن[٣] له عمل صالح، ولم يَرْضَ بعبادة من عبده. وعوّل ابن جرير فى تفسيره فى الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب.

وقد أسلم عبد الله بن الزبعرى بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يهاجى المسلمين أولا، ثم قال معتذراً.

يا رَسُولَ المليك، إنّ لسانى رَاتقٌ مَا فتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ
إذْ أجَارى الشَّيطَانَ فى سَنَن الغَى وَمَنْ مَالَ مَيْلَه مَثْبُور[٤]

وقوله: ﴿**لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ**﴾: قيل المراد بذلك الموت. رواه عبد الرزاق، عن يحيى بن ربيعة عن عطاء.

وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة فى الصور. قاله العَوْفى عن ابن عباس، وأبو سِنَان سعيد[٥] ابن سنان الشيبانى، واختاره ابن جرير فى تفسيره.

وقيل: حين يُؤْمَر بالعبد إلى النار. قاله الحسن البصرى.

وقيل: حين تُطبق النار على أهلها. قاله سعيد بن جُبَيْر، وابن جُرَيج.

وقيل: حين يُذبَح الموت بين الجنة والنار. قاله أبو بكر الهذلى[٦]، فيما رواه ابن أبى حاتم، عنه.

وقوله: ﴿**وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾، يعنى: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: ﴿**هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ أى: قابلوا[٧] ما يسركم.

﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** (١٠٤) ﴾.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٥٨) ،ورواه الطبرى فى تفسيره (١٧/٧٦).
(٢) فى ف: «وعزير». (٣) فى ت: «وممن».
(٤) البيتين فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤١٩).
(٥) فى ت، ف، أ: «سعد». (٦) فى ف، أ: «الهمدانى». (٧) فى ت: «فاملوا».

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقد قال البخارى:

حدثنا مُقَدم بن محمد، حدثنى عمى القاسم بن يحيى، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضَين، وتكون السموات بيمينه»(١).

انفرد به من هذا الوجه البخارى، رحمه الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرَّقّى، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبى الواصل(٢)، عن أبى المليح الأزدى(٣)، عن أبى الجوزاء الأزدى، عن ابن عباس قال: يطوى الله(٤) السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة، يطوى ذلك كله(٥) بيمينه، يكون ذلك كله فى يده بمنزلة خردلة.

وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾: قيل: المراد بالسجل [الكتاب. وقيل: المراد بالسجل](٦) هاهنا: مَلَك من الملائكة.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أبو الوفاء الأشجعى، عن أبيه، عن ابن عمر فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال: السجل: مَلَك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نوراً.

وهكذا رواه ابن جرير، عن أبى كُرَيْب، عن ابن يمان، به.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن أبى جعفر(٧) محمد بن على بن الحسين أن السجل ملك.

وقال السدى فى هذه الآية: السجل: مَلَك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع(٨) كتابُه إلى السجل فطواه، ورفعه إلى يوم القيامة.

وقيل: المراد به اسم رجل صحابى، كان يكتب للنبى ﷺ الوحى:

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا نصر بن على الجَهْضَمىّ، حدثنا نوح بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس: [﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتَابِ﴾](٩)، قال: السجل: هو الرجل.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٧٤١٢).
(٢) فى ت: «المواصل». (٣) فى ت: «الأودى». (٤) فى ت: «إليه».
(٥) فى ف: «كله ذلك». (٦) زيادة من ف. (٧) فى ت: «أبى حفص».
(٨) فى ت: «دفع». (٩) زيادة من ف.

قال نوح: وأخبرني يزيد بن كعب ـ هو العَوْذى ـ عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس قال: السجل كاتب[١] للنبى ﷺ.

وهكذا رواه أبو داود والنسائى عن قتيبة بن سعيد[٢]، عن نوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السجل كاتب[٣] للنبى ﷺ[٤].

ورواه ابن جرير عن نصر بن على الجهضمى، كما تقدم. ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النُّكْرىّ عن أبيه، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبى[٥] ﷺ كاتب يسمى[٦] السجل وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال: كما يطوى السجل الكتاب، كذلك نطوى السماء، ثم قال: وهو غير محفوظ[٧].

وقال الخطيب البغدادى فى تاريخه: أنبأنا أبو بكر البَرْقَانى، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجى، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخى، أن حمدان بن سعيد حدثهم، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: السجلّ: كاتب للنبى ﷺ[٨].

وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلا، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبى داود وغيره، لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ـ وإن كان فى سنن أبى داود ـ منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المِزِّى، فَسَح الله فى عمره، ونَسَأ فى أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدة[٩]، ولله الحمد. وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، ورده أتم رد، وقال: لا يُعَرف فى الصحابة أحد[١٠] اسمه السجل، وكُتَّاب النبى ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصَدَق رحمه الله فى ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكَارة هذا الحديث. وأما مَنْ ذكر فى أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هى الصحيفة، قاله على بن أبى طلحة والعوفى، عنه. ونص على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف فى اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أى: على [هذا][١١] الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، أى: على الجبين، وله نظائر فى اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعنى: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم[١]، وذلك واجب الوقوع، لأنه من

---

(١) فى ت: «كانت». (٢) فى ت: «سعد». (٣) فى ت: «كانت».
(٤) سنن أبى داود برقم (٢٩٣٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٣٥).
(٥) فى ت: «كان لرسول الله». (٦) فى ت: «كانت تسمى».
(٧) الكامل (٧/ ٢٠٥)
(٨) تاريخ بغداد (٨/ ١٧٥).
(٩) فى أ: «حدته». (١٠) فى ف: «لا يعرف أحد فى الصحابة». (١١) زيادة من ف، أ.

جملة وعد الله الذى لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك. ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وابن جعفر المعنى[٢]، قالا[٣]: حدثنا شعبة، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غُرْلا كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين»؛ وذكر تمام الحديث، أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة. ورواه[٤] البخارى عند هذه الآية فى كتابه[٥].

وقد روى ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن عائشة عن النبى[٦] ﷺ، نحو ذلك.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ قال: نهلك كل شىء، كما كان أول مرة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾.

يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة فى الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض فى الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ [وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا][٧]﴾، الآية [النور: ٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور فى الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، قال الأعمش: سألت سعيد بن جُبَير عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فقال الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن[٨].

وقال مجاهد: الزبور: الكتاب.

وقال ابن عباس، والشعبى، والحسن، وقتادة، وغير واحد: الزبور: الذى أنزل على داود، والذكر: التوراة، وعن ابن عباس: الزبور: القرآن.

وقال سعيد بن جُبَير: الذكر: الذى فى السماء.

---

(١) فى ت: «إعادته». (٢) فى هـ، ت، ف، أ: «وابن جعفر، وعفان المعنى» والمثبت من المسند.
(٣) فى ت: «قالوا». (٤) فى ت: «وذكره»، وفى ف، أ: «ذكره».
(٥) المسند (١/ ٢٣٥) وصحيح البخارى برقم (٤٦٢٥)، (٤٧٤٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٠).
(٦) فى ت، ف: «عن رسول الله». (٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى أ: «الفرقان».

وقال مجاهد: الزبور: الكتبُ بعد الذكر، والذكر: أمّ الكتاب عند الله.

واختار ذلك ابن جرير رحمه الله[١]، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول. وقال الثورى: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكتب التى نُزّلت على الأنبياء، والذكر: أم الكتاب الذى [٢]يكتب فيه الأشياء قبل ذلك.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه[٣] فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يُورثَ أمةَ محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: أرض الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والشعبى، وقتادة، والسدى، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والثورى [رحمهم الله تعالى][٤].

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أى: إن فى هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبَلاغاً: لَمَنْفعةَ وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

وقوله [تعالى][٥]: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: يخبر تعالى أن الله جَعَل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أى: أرسله رحمة لهم كلّهم، فمن قَبِل هذه الرحمةَ وشكَر هذه النعمةَ، سَعد فى الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدها خسر فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ[٦] الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال الله تعالى فى صفة القرآن: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا مروان الفَزَارىّ، عن يزيد بن كَيْسَان، عن ابن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إنى لم أبعَثْ لَعَّاناً، وإنما بُعثْتُ رحمة». انفرد بإخراجه مسلم[٧].

وفى الحديث الآخر: «إنما أنا رحمة مهداة». رواه عبد الله بن أبى عرابة، وغيره، عن وَكيع، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعا[٨]. قال إبراهيم الحربى: وقد رواه غيره عن وكيع،

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٨١).

(٢) فى ت: «أم الكتاب والذى».

(٣) فى ف: «الله تعالى».

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) زيادة من ت، وفى ف، أ: «عز وجل».

(٦) فى ت، ف، أ: «فبئس».

(٧) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٩).

(٨) رواه أبو الحسن السكرى فى «الفوائد المنتقاة» (٢/١٥٧). كما فى السلسلة الصحيحة (١/ ٨٠٣) للألبانى ـ حدثنا عبد الله بن محمد ابن أسد، حدثنا حاتم بن منصور الشاشى قال: حدثنا عبد الله بن أبى عرابة الشاشى به.
ورواه غيره متصلاً:
فرواه عبد الله بن نصر الأصم عن وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعاً. =

فلم يذكر أبا هريرة[١]. وكذا قال البخارى، وقد سئل عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلا.

قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه مالك بن سُعَير بن الْخِمْس، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعا[٢]. ثم ساقه من طريق أبى بكر بن المقرئ وأبى أحمد الحاكم، كلاهما عن بكر ابن محمد بن إبراهيم الصوفى: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، عن أبى أسامة، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس[٣] بن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة».

ثم أورده من طريق الصَّلْت بن مسعود، عن سفيان بن عيينة، عن مِسْعَر[٤]، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثنى رحمة مهداة، بُعثْتُ برفع قوم وخفض آخرين»[٥].

قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدّراوردى وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمد بن صالح التمار، عن ابن [شهاب][٦]، عن محمد بن جُبَير بن مطعم، عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قدم [مكة][٧] منصرفه عن حَمْزَة: يا معشر قريش، إن محمداً نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئا، فاحذروا أن تمروا طريقَه أو تقاربوه[٨]، فإنه كالأسد الضارى؛ إنه حَنِق عليكم؛ لأنكم نفيتموه نفى القِرْدَان عن المناسم[٩]، والله إن له لَسحْرَةً، ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشيطان، وإنكم قد عرفتم عداوة ابنى قَيلَةَ ـ يعنى: الأوس والخزرج ـ لهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدى: يا أبا الحكم، والله ما رأيتُ أحداً أصدقَ لساناً، ولا أصدق موعداً، من أخيكم الذى طردتم، وإذ فعلتم الذى فعلتم فكونوا أكف الناس عنه. قال [أبو سفيان][١٠] بن الحارث: كونوا أشدّ ما كنتم عليه، إن[١١] ابنى قيلَةَ إن ظفَرُوا بكم لم يرقُبوا فيكم إلاً ولا ذمة، وإن أطعتمونى ألجأتموهم خير كنابة، أو تخرجوا محمداً

= خرجه ابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٣١) من طريق عمر بن سنان عن عبد الله بن نصر.
وقال: «هكذا حدثناه عمر بن سنان عن عبد الله بن نصر عن وكيع عن الأعمش، وهذا غير محفوظ عن وكيع عن الأعمش، إنما يرويه مالك بن سعيد عن الأعمش، وعبد الله بن نصر هذا له غير ما ذكرت مما أنكرت عليه».

(١) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١١/ ٥٠٤) عن وكيع مرسلاً، ورواه ابن سعد فى الطبقات (١/ ١٨٢) عن وكيع مرسلاً، ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٥٧) من طريق إبراهيم بن عبد الله عن وكيع مرسلاً.

(٢) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٦٩) «كشف الأستار» والبيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٥٨) من طريق زياد بن يحيى عن مالك بن سعيد به، وقال البزار: «لا نعلم أحداً وصله إلا مالك بن سعيد، وغيره يرسله».

(٣) فى ت، أ: «حسن». (٤) فى أ: «عن شعبة».

(٥) وذكره السيوطى فى الجامع الصغير ورمز له الألبانى بالضعف.

(٦، ٧) زيادة من أ. (٨) فى ت: «أو تحاربوه». (٩) فى أ: «الناس».

(١٠) زيادة من أ. (١١) فى ت: «فإن».

من بين ظهرانيهم، فيكون وحيدا مطرودا، وأما [ابنا قَيْلة فوالله ما هما][١] وأهل [دهلك][٢] فى المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم، وقال:

سَأَمْنَحُ جَـانباً منّى غَليظاً عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُرب وبُعْد

رجَالُ الخَزْرَجيَّة أهْلُ ذُل إذا مَا كَانَ هَزْل بَعْدَ جـــد

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «والذى نفسى بيده، لأقتلنهم ولأصلبَنَّهم ولأهدينهم وهم كارهون، إنى رحمة بعثنى الله، ولا يَتَوفَّانى حتى يظهر الله دينه، لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحى الذى يمحى الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب»[٣].

وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثنى عَمْرو بن قَيس، عن عمرو بن أبى قُرّة الكِنْدىّ قال: كان حُذيفةُ بالمدائن، فكان يذكر أشياء قالها رسولُ الله ﷺ، فجاء حذيفةُ إلى سَلْمان فقال سلمان: يا حذيفةَ، إنّ رسولَ الله ﷺ[كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول: لقد علمت أنّ رسول الله ﷺ][٤] خطَب فقال: «أيما رجل من أمتى سَبَبتُه [سبَّةً][٥] فى غَضَبى أو لعنته لعنةً، فإنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنما بعثنى رحمةً للعالمين، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة».

ورواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، عن زائدة[٦].

فإن قيل: فأىّ رحمة حصلت لمن كَفَر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا إسحاق ابن شاهين، حدثنا إسحاق الأزرق، عن المسعودى، عن رجل يقال له: سعيد، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كُتبَ له الرحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفِى مما أصاب الأمم من الخسف والقذف[٧].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم، من حديث المسعودى، عن أبى سعد ـ وهو سعيد بن المرزبان البقّال ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره بنحوه، والله أعلم.

وقد رواه أبو القاسمُ الطبرانى عن عبدان بن أحمد، عن عيسى بن يونس الرَمْلى، عن أيوب ابن سُوَيد، عن المسعودى، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من تبعه كان له رحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عُوفِى مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والقذف[٨].

(١، ٢) زيادة من ت، أ.

(٣) المعجم الكبير (٢/ ١٢٣).

(٤، ٥) زيادة من ت، أ، والمسند

(٦) المسند (٥/ ٤٣٧) وسنن أبى داود برقم (٤٦٥٩).

(٧) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٣).

(٨) المعجم الكبير (١٢/ ٢٣).

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢) ﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أى: متبعون على ذلك، مستسلمون منقادون[1] له. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أى: تركوا ما دعوتهم إليه، ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى: أعلمتكم أنى حَرْب لكم، كما أنكم حَرْبٌ لى، برىء منكم كما أنكم بُرَآء منى، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]: ليكن[2] علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ها هنا، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى: أعلمتكم ببراءتى منكم، وبراءتكم منى؛ لعلمى بذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أى: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لى بقربه ولا ببعده، ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أى: إن الله يعلم الغيب جميعَه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون فى أجهارهم وأسرارهم، وسيجزيهم على ذلك، على القليل والجليل.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: وما أدرى لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين.

قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك[3] عنكم فتنة لكم، ومتاع إلى أجل مسمى[4]. وحكاه عون، عن ابن عباس، والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق.

قال قتادة: كان الأنبياء، عليهم السلام، يقولون: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالا قال: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾

وقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أى: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون فى مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم فى ذلك[5].

---

(١) فى ت: «متقاربين». (٢) فى ت: «لكن». (٣) فى أ: «هذا».
(٤) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٤).
(٥) وقع فى ت: «آخر تفسير «سورة الأنبياء» عليهم السلام، ولله الحمد والمنة، عفا الله لمن نظر فيه ولكاتبه وللمسلمين أجمعين».

/ سورة الأنبياء[1] [٧٢و]

مكّيّة، وهي مائة واثنتا عشرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لِما قبلها مِن الخاتمة الشريفة غنيّة عن البيان. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «المراد بـ﴿النَّاسِ﴾: المشركون»،[2] وهو الذي يُفصح عنه ما بعده. والمراد باقتراب حسابهم اقترابُه في ضمن اقتراب الساعة. وإسناد الاقتراب إليه لا إلى الساعة مع استتباعها له ولِسائر ما فيها مِن الأحوال والأهوال الفظيعة لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه وإعراضهم عمّا يذكّرهم ذلك.

و"اللام" متعلّقة بالفعل، وتقديمها على الفاعل للمسارعة إلى إدخال الروعة، فإنّ نسبة الاقتراب إليهم مِن أوّل الأمر ممّا يسوءهم، ويورثهم رهبةً وانزعاجًا مِن المقترِب، كما أنّ تقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة، ٢٩/٢] لتعجيل المسرّة، لِما أنّ بيان كون الخلق لأجل المخاطَبين ممّا يسرّهم ويزيدهم رغبة فيما خُلق لهم وشوقًا إليه.

وجعلُها تأكيدًا لِلإضافة -على أنّ الأصل المتعارَف فيما بين الأوساط "اقترَب حساب الناس"، ثمّ "اقترَب للناس الحساب"، ثمّ "اقترَب للناس حسابهم"-[3] مع أنّه تعسّف تامّ بمَعزِل ممّا يقتضيه المقام، وإنّما الذي يستدعيه حُسن النظام ما قدّمناه. والمعنى: دنا منهم حساب أعمالهم السيّئة الموجِبة للعقاب.

---

١ ط س + عليهم السلام.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٠١/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٤٢/١٣.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٠٠/٣؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٥/٤. وردّه أبو حيّان في البحر المحيط، ٤٠٦/٧.

وفي إسناد الاقتراب المبنيّ على التوجّه نحوَهم إلى الحساب مع إمكان العكس بأن يُعتبر التوجّه والإقبال مِن جهتهم نحوَه مِن تفخيم شأنه وتهويل أمره ما لا يخفى، لِما فيه مِن تصويره بصورة شيء مُقبِل عليهم، لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالةَ، ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوّه منهم بعد بُعده عنهم، فإنّه في كلّ ساعة مِن ساعات الزمان أقرب إليهم منه في الساعة السابقة.

[٧٢ظ] هذا، وأمّا الاعتذار بأنّ قربه بالإضافة إلى ما مضى مِن الزمان / أو بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ أو باعتبار أنّ كلّ آتٍ قريب فلا تعلّق له بما نحن فيه مِن الاقتراب المستفاد مِن صيغة الماضي، ولا حاجة إليه في تحقيق أصل معناه، نعم قد يُفهَم منه عُرفًا كونه قريبًا في نفسه أيضًا، فيصار حينئذ إلى التوجيه بالوجه الأوّلِ دون الأخيرين. أمّا الثاني فلا سبيل إلى اعتباره ههنا؛ لأنّ قربه بالنسبة إليه تعالى ممّا لا يتصوّر فيه التجدّد والتفاوت حتمًا، وإنّما اعتباره في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى، ١٧/٤٢] ونظائرِه ممّا لا دلالةَ فيه على الحدوث. وأمّا الثالث فلا دلالةَ فيه على القرب حقيقةً ولو بالنسبة إلى شيء آخرَ.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: في غفلةٍ تامّة منه ساهون عنه بالمرّة، لا أنّهم غيرُ مبالين به مع اعترافهم بإتيانه؛ بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم أنّ الأعمال لا بدّ لها مِن الجزاء.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي: عن الآيات والنُذُر المنبّهة لهم عن سِنة الغفلة. وهما خبران للضمير. وحيث كانت الغفلة أمرًا جِبلّيًا لهم جُعل الخبر الأوّل ظرفًا منبئًا عن الاستقرار بخلاف الإعراض. والجملة حال مِن ﴿النَّاسِ﴾، وقد جُوّز كون الظرف حالًا مِن المستكنّ في ﴿مُعْرِضُونَ﴾.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝﴾

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ مِن طائفةٍ نازلة مِن القرآن تُذكّرهم ذلك أكمل تذكير، وتُنبّههم عن الغفلة أتمّ تنبيه، كأنّها نفس الذِّكر. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّهِم﴾

لابتداء الغاية مجازًا متعلّقةً بـ﴿يَأۡتِيهِم﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿ذِكۡرٍ﴾. وأيًّا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه، وكمالِ شناعة ما فعلوا به. والتعرّض لعنوان الربوبيّة لتشديد التشنيع.

﴿مُّحۡدَثٍ﴾ بالجرّ صفة لـ﴿ذِكۡرٍ﴾. وقُرئ بالرفع[1] حملًا على محلّه، أي: مُحدَثٍ تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ استثناء مفرَّغ محلّه النصب على أنّه حال مِن مفعول ﴿يَأۡتِيهِم﴾ بإضمار "قد" أو بدونه على الخلاف المشهور.

/ وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿ٱسۡتَمَعُوهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ إمّا حال أخرى منه، أو مِن واو ﴿يَلۡعَبُونَ﴾، والمعنى: ما يأتيهم ذكر مِن ربّهم محدَث في حال مِن الأحوال إلّا حالَ استماعهم إيّاه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه، أو لاعبين به حالَ كون قلوبهم لاهيةً عنه؛ لتناهي غفلتهم، وفرطِ إعراضهم عن النظر في الأمور، والتفكّرِ في العواقب. وقُرئ: "لَاهِيَةٌ" بالرفع[2] على أنّه خبر بعد خبر. [٧٣و]

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان جناية خاصّة إثر حكاية جناياتهم المعتادة. و﴿ٱلنَّجۡوَى﴾ اسم مِن التناجي، ومعنى إسرارها مع أنّها لا تكون إلّا سرًّا أنّهم بالَغوا في إخفائها، أو أسرّوا نفس التناجي بحيث لم يَشعر أحد بأنّهم متناجُون.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بدل مِن وَاوِ ﴿أَسَرُّواْ﴾، منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما أسرّوا به، أو هو مبتدأ، خبره: ﴿أَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾، قُدّم عليه اهتمامًا به، والمعنى: هم أسرّوا النجوى، فوُضع الموصول موضع الضمير تسجيلًا على فعلهم بكَونه ظلمًا، أو منصوب على الذمّ.

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾... إلخ في حيّز النصب على أنّه مفعول[3] لِقولٍ مُضمَر هو جواب عن سؤال نشأ عمّا قبله، كأنّه قيل: ماذا قالوا

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة كذلك عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٦.

[3] س: مقول.

في نجواهم؟ فقيل: قالوا: هل هذا... إلخ، أو بدل مِن ﴿أَسَرُّواْ﴾، أو معطوف عليه، أو على أنّه بدل مِن ﴿ٱلنَّجْوَى﴾،[١] أي: أسرّوا هذا الحديث. و﴿هَلْ﴾ بمعنى النفي.

و"الهمزة" في قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدّر يقتضيه المقام. وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَأْتُونَ﴾ مقرّرة للإنكار، ومؤكِّدة للاستبعاد. والمعنى: ما هذا إلّا بشر مثلكم، أي: مِن جنسكم، وما أتى به سحر، أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنّه سحر؟

قالوه بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أنّ الرسول لا يكون إلّا ملَكًا، وأنّ كلّ ما يظهر على يد البشر مِن / الخوارق مِن قَبيل السحر، وزلّ عنهم أنّ إرسال البشر إلى عامّة البشر هو الذي يقتضيه الحكمة التشريعيّة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون. وإنّما أسرّوا ذلك لأنّه كان على طريق توثيق العهد، وترتيبِ مبادي الشرّ والفساد، وتمهيدِ مقدّمات المكر والكيد في هدم أمر النبوّة وإطفاءِ نور الدين، والله متمّ نوره ولو كره المشركون. [٧٣ظ]

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حكاية مِن جهته تعالى لِما قاله عليه السلام بعد ما أوحى إليه أحوالهم وأقوالَهم بيانًا لِظهور أمرهم، وانكشاف سرّهم. وإيثار القول المنتظِم للسرّ والجهر على السرّ لإثبات علمه تعالى بالسرّ على النهج البرهاني، مع ما فيه مِن الإيذان بأنّ علمه تعالى بالسرّ والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعًا كما في علوم الخلق. وقُرئ: "قُل رَبِّي"... إلخ.[٢]

---

[١] وفي هامش م: فإن جُعلت عبارة عن القول الذي جرى عنهم بطريق التناجي فهو بدل "الكلّ"، وإن جُعلت عبارة عن فعل التناجي فهو بدل اشتمال «منه».

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٣/٢.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن القول، أي: كائنًا في السماء والأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: المبالغ في العِلم بالمسموعات والمعلومات التي مِن جملتها ما أسرّوه مِن النجوى، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم، اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله، متضمّن للوعيد.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝﴾

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ إضراب مِن جهته تعالى، وانتقال مِن حكاية قولهم السابق إلى حكاية قول آخر مضطربٍ في مَطَارِب[1] البطلان، أي: لم يقتصروا على أن يقولوا في حقّه عليه السلام: هل هذا إلّا بشرٌ؟ وفي حقّ ما ظهر على يده مِن القرآن الكريم: إنّه سحرٌ؛ بل قالوا: تخاليط الأحلام.

ثمّ أضربوا عنه فقالوا: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ مِن تِلقاء نفسه، مِن غير أن يكون له أصل أو شبهة أصلٍ. ثمّ قالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما أتى به شعر يخيّل إلى السامع معاني لا حقيقة لها، وهكذا شأن المبطِل المحجوج؛ متحيّر لا يزال يتردّد بين باطل وأبطلَ، ويتذبذب بين فاسد وأفسدَ.

فالإضراب الأوّل كما ترى مِن جهته تعالى، والثاني والثالث مِن قِبَلهم.
/ وقد قيل:[2] الكلّ مِن قِبَلهم حيث أضربوا عن قولهم: "هو سحر" إلى أنّه [٧٤و] "تَخاليط أحلام"، ثمّ إلى أنّه "كلامٌ مفترًى"، ثمّ إلى أنّه "قول شاعرٍ". ولا ريبَ في أنّه كان ينبغي حينئذ أن يقال: "قالوا: بل أضغاث أحلامٍ". والاعتذار بأنّ ﴿بَلْ قَالُوٓاْ﴾ مقول لِـ"قالوا" المُضمَر قبل قوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ﴾... إلخ،[3] كأنّه قيل: "وأسرّوا النجوى قالوا: هل هذا" إلى قوله: "بل أضغاث أحلام"، وإنّما صُرِّح بـ﴿قَالُوٓاْ﴾ بعد ﴿بَلْ﴾ لبُعد العهد؛ ممّا يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله.

---

[1] وفي هامش م: مسالك. | المَطارب: طرق متفرّقة، واحدها مَطرَبة ومَطرَب. **الصحاح** للجوهري، «طرب».

[2] قاله الزمخشري في **الكشّاف**، ١٠٣/٣؛ والبيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٤٦/٤.

[3] الأنبياء، ٣/٢١.

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ جواب شرط محذوف يُفصح عنه السياق، كأنّه قيل: وإن لم يكن كما قلنا -بل كان رسولًا مِن الله تعالى- فليأتنا بآية ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: مثل الآية التي أُرسل بها الأوّلون -كاليد والعصا ونظائرِهما- حتّى نؤمن به. فـ﴿مَا﴾ موصولةٌ، ومحلُّ "الكاف" الجرُّ على أنّها صفةٌ لـ﴿ءَايَةٍ﴾، ويجوز أن تكون مصدريّة، فـ"الكاف" منصوبة على أنّها مصدر تشبيهي، أي: نعت لمصدر محذوف، أي: فليأتنا بآية إتيانًا كائنًا مثلَ إرسال الأوّلين بها. وصحّة التشبيه مِن حيث إنّ الإتيان بالآية مِن فروع الإرسال بها، أي: مثل إتيانٍ مترتّب على الإرسال.

ويجوز أن يُحمل النظم الكريم على أنّه أُريدَ كلّ واحد مِن الإتيان والإرسال في كلّ واحد مِن طرفَي التشبيه، لكنّه تُرِك في جانب المشبَّه ذكر الإرسال، وفي جانب المشبَّه به ذكر الإتيان؛ اكتفاءً بما ذُكر في كلّ موطنٍ عمّا تُرك في الموطن الآخر، حسبما مرّ في آخر سورة يونس عليه السلام.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ كلام مستأنَف مسوق لتكذيبهم فيما يُنبئ عنه خاتمة مقالهم[1] مِن الوعد الضِّمني بالإيمان كما أشير إليه، وبيانِ أنّهم في اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بِظِلْفِه،[2] وأنّ في ترك الإجابة إليه إبقاءً عليهم، كيف لا ولو أُعطُوا ما اقترحوا مع عدم إيمانهم قطعًا لوجب استئصالهم؟ لجريان سنّة الله عزّ وجلّ في الأمم السالفة على أنّ المقترِحين إذا أُعطوا ما اقترحوه ثمّ لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالةَ، وقد سبقت كلمة الحقّ منه تعالى أنّ هذه الأمّة لا يعذَّبون بعذاب الاستئصال.

---

[1] وفي هامش م: وما فيه مِن معنى المضيّ إنّما هو بالنسبة إلى زمان نزول الآية، لا إلى زمان عدم الإيمان، ضرورةَ تقدّمه على الإهلاك، وقد مرّ نظيره في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ الآيةَ [المائدة، ٥/٧٩]. «منه».

[2] الظِّلف -بالكسر- للبقرة والشاة والظبي وشبهها: بمنزلة القدَم لنا. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «ظلف».

فقوله: ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ -أي: مِن أهل قرية- في محلّ الرفع على الفاعليّة، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد العموم، وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ -أي: بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء ما اقترحوه[١] مِن الآيات- صفةٌ لـ﴿قَرْيَةٍ﴾.

و"الهمزة" في قوله تعالى: / ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لإنكار الوقوع، و"الفاء" للعطف، إمّا على مقدّر دخلته "الهمزة"، فأفادت إنكار وقوع إيمانهم، ونَفْيَه عقيب عدم إيمان الأوّلين.[٢] فالمعنى: إنّه لم يؤمن أمّة مِن الأمم المهلَكة عند إعطاء ما اقترحوه مِن الآيات، أَهُم لم يؤمنوا، فهؤلاءِ يؤمنون لو أُجيبوا إلى ما سألوا، وأُعطُوا ما اقترحوا مع كونهم أعتى منهم وأطغى؟[٣] [٧٤ظ]

وَإمّا على ﴿مَآ ءَامَنَتْ﴾ على أنّ "الفاء" متقدّمةٌ على "الهمزة" في الاعتبار، مفيدة لِترتيب إنكار وقوع إيمانهم على عدم إيمان الأوّلين،[٤] وإنّما قُدّمت عليها "الهمزة" لاقتضائها الصدارة كما هو رأي الجمهور.[٥]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْۖ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ جواب لقولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ﴾... إلخ،[٦] متضمّن لردّ ما دسّوا تحت قولهم: ﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[٧] مِن التعريض بعدم كونه صلّى الله عليه وسلّم مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين، ولذلك قدّم عليه جوابُ قولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾،[٨] ولأنّهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلا بدّ مِن المسارعة إلى ردّه وإبطاله، كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود، ٣٣/١١]،

---

١ ط س: اقترحوها.

٢ م س - فأفادت إنكار وقوع إيمانهم، ونَفْيَه عقيب عدم إيمان الأوّلين ["صح" في الهامش].

٣ وفي هامش م: وحاصله إنكار ترتّب إيمان هؤلاء على عدم إيمان أولئك. «منه».

٤ وفي هامش م: وحاصله ترتيب إنكار إيمان هؤلاء على عدم إيمان أولئك. «منه».

٥ وفي هامش م: لو كان مكان الهمزة "هَلْ" لكان النظم: ما آمنت قبلهم مِن قرية أهلكناها، فهل هم يؤمنون؟ «منه».

٦ الأنبياء، ٣/٢١.

٧ الأنبياء، ٥/٢١.

٨ الأنبياء، ٥/٢١.

وقولِه تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر، ١٥/٨]، ولأنّ في هذا الجواب نوعَ بسطٍ يُخلّ تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم.

والحقّ أنّ ما اتّخذوه سببًا للتكذيب موجِب للتصديق في الحقيقة؛ لأنّ مقتضى الحكمة أن يُرسَل إلى البشر البشر، وإلى الملَك الملَك، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء، ١٧/٩٥]، فإنّ عامّة البشر بمَعزِل مِن استحقاق المفاوضة الملكيّة؛ لتوقّفها على التناسب بين المفيض والمستفيض. فبعثُ الملَكِ إليهم مزاحم للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع. وإنّما الذي يقتضيه الحكمة أن يُبعَث الملَك منهم إلى الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكيّة المؤيّدين بالقوّة القدسيّة المتعلّقين بكلا العالَمين الروحاني والجسماني؛ ليتَلَقَّوا مِن جانب، ويُلقُوا إلى جانب.

وقوله تعالى: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة الإرسال. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرّة. وحذف المفعول لعدم القصد إلى خصوصه. والمعنى: وما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك إلى أمّتك إلّا رجالًا مخصوصين
[٧٥و] مِن / أفراد الجنس مستأهِلين للاصطفاء والإرسال، نوحي إليهم بواسطة الملَك ما نوحِي مِن الشرائع والأحكام وغيرهما مِن القَصص والأخبار كما نوحي إليك مِن غير فرق بينهما في حقيقةِ الوحي وحقّيّةِ مدلوله، حسبما يحكيه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء، ٤/١٦٣-١٦٤]، كما لا فرق بينك وبينهم في البشريّة، فما لهم لا يفهمون أنّك لستَ بِدعًا مِن الرسل، وأنّ ما أوحي إليك ليس مخالفًا لِما أوحي إليهم فيقولون ما يقولون؟

وقُرئ: "يُوحَى إِلَيْهِمْ" بالياء[١] على صيغة المبنيّ للمفعول جريًا على سَنن الكبرياء، وإيذانًا بتعيّن الفاعل.

وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير إثرَ تحقيق الحقّ

---

١ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص في روايته عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٦.

على طريقة الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّه الحقيق بالخطاب في أمثال تلك الحقائق الأنيقة، وأمّا الوقوف عليها بالاستخبار مِن الغير فهو مِن وظائف العوام.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة المذكور عليه، أي: إن كنتم لا تعلمون ما ذُكِر فاسألوا أيّها الجهلة أهلَ الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلوات[1] لتزول شبهتكم. أُمِروا بذلك لأنّ إخبار الجمّ الغفير توجب[2] العلم، لا سيّما وهم كانوا يشايعون المشركين في عداوته صلّى الله عليه وسلّم، ويشاورونهم في أمره عليه السلام، ففيه مِن الدلالة على كمال وضوح الأمر وقوّة شأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ما لا يخفى.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوةً لسائر أفراد الجنسِ في أحكام الطبيعة البشريّة إثر بيان كونهم أسوةً لهم في نفس البشريّة. و"الجسد" جسم الإنسان والجنّ والملائكة، ونصبه إمّا على أنّه مفعول ثان للجعل، لكن لا بمعنى جعله جسدًا بعد أن لم يكن كذلك / كما هو المشهور [٧٥ظ]
مِن معنى التصيير؛ بل بمعنى جعله كذلك ابتداءً على طريقة قولهم: "سبحان مَن صغّر البعوضَ وكبّر الفيل"، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء، ١٢/١٧]، وإمّا حال مِن الضمير، والجعلُ إبداعي، وإفراده لإرادة الجنس المنتظِم للكثير أيضًا. وقيل: بتقدير المضاف، أي: ذوي جسد.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة له، أي: وما جعلناهم جسدًا مستغنيًا عن الأكل والشرب؛ بل محتاجًا إلى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلّل منه. ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ لأنّ مآل التحلّل هو الفناء لا محالةَ. وفي إيثار ﴿مَا كَانُوا۟﴾ على "ما جعلناهم" تنبيه على أنّ عدم الخلود مقتضى جبلّتهم التي أشيرَ إليها بقوله تعالى:

---

[1] س: عليهم السلام.

[2] س: يوجب.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾... إلخ، لا بالجعل المستأنَف. والمراد بالخلود إمّا المكث المديد كما هو شأن الملائكة، أو الأبديّة وهم معتقدون أنّهم لا يموتون.

والمعنى: جعلناهم أجسادًا متغذّيةً صائرةً إلى الموت بالآخرة على حسب آجالهم، لا ملائكةً، ولا أجسادًا مستغنية عن الأغذية مصونةً عن التحلّل كالملائكة، فلم يكن لها خلود كخلودهم، فالجملة مقرِّرة لِما قبلها مِن كون الرسل السالفة عليهم السلام بشرًا لا ملَكًا، مع ما في ذلك مِن الردّ على قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان، ٢٥/٧].

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ عطفٌ على ما يُفهم مِن حكاية وحيه تعالى إليهم على الاستمرار التجدّدي، كأنّه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثمّ صدّقناهم في الوعد الذي وعدناهم في تضاعيف الوحي بإهلاك أعدائهم. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ مِن المؤمنين وغيرهم ممّن يستدعي الحكمة إبقاءَه، كمَن سيؤمن هو أو بعضُ فروعه بالآخرة، وهو السرّ في حماية العرب مِن عذاب الاستئصال. ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المجاوزين للحدود في الكفر والمعاصي.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ كلام مستأنَف مسوق لتحقيق حقّيّة القرآن العظيم الذي / ذكر في صدر السورة الكريمة إعراضُ الناس عمّا يأتيهم مِن آياته، [٧٦و]
واستهزاؤُهم به، وتسميتُهم تارة سحرًا، وتارةً أضغاثَ أحلام، وأخرى مفترًى وشعرًا، وبيانِ علوّ رتبته إثر تحقيق رسالته صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام.

قد صُدِّر بالتوكيد القَسمي إظهارًا لِمزيد الاعتناء بمضمونه، وإيذانًا بكون المخاطَبين في أقصى مراتب النكير، أي: واللهِ لقد أنزلنا إليكم يا معشر قريش ﴿كِتَٰبًا﴾ عظيمَ الشأن نيّر البرهان. وقوله تعالى: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صفة لـ﴿كِتَٰبًا﴾

مؤكِّدةٌ لِما أفاده التنكير التفخيمي مِن كونه جليلَ المقدار بأنّه جميل الآثار مستجلِب لهم منافعَ جليلة، أي: فيه شرفكم وصِيتكم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]. وقيل: ما تحتاجون إليه في أمور دينكم ودنياكم. وقيل: فيه ما تطلبون به حسن الذكر مِن مكارم الأخلاق.

وقيل: فيه موعظتكم، وهو الأنسب لسباق النظم الكريم وسياقه، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ إنكار توبيخي فيه بعث لهم على التدبّر في أمر الكتاب، والتأمّل فيما في تضاعيفه مِن فنون المواعظ والزواجر التي مِن جملتها القوارع السابقة واللاحقة. و"الفاء" للعطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام، أي: ألَا تتفكّرون فلا تعقلون أنّ الأمرَ كذلك؟ أو لا تعقلون شيئًا مِن الأشياء التي مِن جملتها ما ذُكر؟

﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ١١ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ نوع تفصيل لإجمال قوله تعالى: ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾،[1] وبيانٍ لكيفيّة إهلاكهم وسببه، وتنبيهٍ على كثرتهم. و﴿كَمۡ﴾ خبريّة مفيدة للتكثير، محلّها النصب على أنّها مفعول لـ﴿قَصَمۡنَا﴾، و﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾ تمييز، وفي لفظ "القَصْم" -الذي هو عبارة عن الكسر بإبانة[2] أجزاء المكسور وإزالةِ تأليفها بالكلّيّة- مِن الدلالة على قوّة الغضب وشدّة السخط ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾ في محلّ الجرّ على أنّها صفة لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾ بتقدير مضاف ينبئ عنه الضمير الآتي، أي: وكثيرًا / قصمنا مِن أهل قرية كانوا ظالمين [٧٦ظ] بآيات الله تعالى، كافرين بها كدأبكم، ﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا﴾ أي: بعد إهلاكها ﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي: ليسوا منهم نسبًا ولا دينًا، ففيه تنبيه على استئصال الأوّلين، وقطع دابرهم بالكلّيّة، وهو السرّ في تقديم حكاية إنشاءِ هؤلاء على حكاية مبادي إهلاك أولئك بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ أي: أدركوا عذابنا الشديد إدراكًا تامًّا،

---

١ الأنبياء، ٩/٢١.

٢ س: بإنانة.

كأنّه إدراك المشاهَد المحسوس، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يهربون مسرعين راكضين دوابُّهم، أو مشبَّهين بهم في فرط الإسراع.

﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ١٣﴾

﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أي: قيل لهم بلسان الحال، أو بلسان المقال مِن الملَك، أو ممّن ثمّة مِن المؤمنين، بطريق الاستهزاء والتوبيخ: لا تركُضوا ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ مِن النعم والتلذّذ. و"الإتراف": إبطار النعمة. ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كنتم تفتخرون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ تُقصَدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمّات والنوازل، أو تُتَفقَّدُون إذا رُئيَتْ مساكنكم خاليةً، وتُسألُون: أين أصحابُها؟ أو يسألكم الوافدون نوالَكم على أنّهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياءً، أو بخلاءَ فقيل لهم ذلك تهكّمًا إلى تهكّم.

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤﴾

﴿قَالُواْ﴾ لمّا يئسوا مِن الخلاص بالهرب، وأيقنوا بنزول العذاب: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ أي: هلاكنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: مستوجِبين للعذاب، وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب، وندمٌ عليه حين لم ينفعهم ذلك.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: فما زالوا يردّدون تلك الكلمة. وتسميتها "دعوى" -أي: دعوةً- لأنّ المُوَلْوِل كأنّه يدعو الويل قائلًا: يا ويلُ تعالَ، فهذا أوانُك. ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: مثل الحصيد؛ وهو المحصود مِن الزرع والنبت، ولذلك لم يُجمع.

[٧٧و] ﴿خَٰمِدِينَ﴾ أي: ميّتِين، مِن "خَمَدت النارُ" إذا طَفِئَت، / وهو مع ﴿حَصِيدًا﴾ في حيّز المفعول الثاني للجعل، كقولك: "جعلته حُلوًا حامِضًا". والمعنى: جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخُمود،[١] أو حال مِن الضمير المنصوب

[١] وفي هامش م: عطفٌ على "مماثلة". «منه».

في ﴿جَعَلْنَٰهُمْ﴾، أو مِن المستكنّ في ﴿حَصِيدًا﴾، أو صفة لـ﴿حَصِيدًا﴾ لتعدّده معنى؛ لأنّه في حكم "جعلناهم أمثالَ حصيد".

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ﴾ إشارة إجماليّة إلى أنّ تكوين العالَم وإبداعَ بني آدمَ مؤسَّس على قواعد الحِكَم البالغة المستتبِعة للغايات الجليلة، وتنبيهٌ على أنّ ما حُكي مِن العذاب الهائل والعقاب النازل بأهل القرى مِن مقتَضيات تلك الحِكَم ومتفرّعاتها حسب اقتضاء أعمالهم إيّاه، وأنّ للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذَنوبًا مثل ذَنوبهم،[١] أي: ما خلقناهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن المخلوقات التي لا تُحصى أجناسها وأفرادها، ولا تُحصَر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والأسلوب المَنيع، خالية عن الحِكَم والمصالح.

وإنّما عُبّر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل: ﴿لَٰعِبِينَ﴾ لبيان كمالِ تنزّهه تعالى عن الخلق الخالي عن الحِكمة بتصويره بصورةِ ما لا يرتاب أحد في استحالة صدوره عنه سبحانه؛ بل إنّما خلقناهما وما بينهما ليكون مبدأً لوجود الإنسان، وسببًا لمعاشه، ودليلًا يقوده إلى تحصيل معرفتنا التي هي الغاية القصوى بواسطة طاعتنا وعبادتنا، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات، ٥٦/٥١].

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ استئناف مقرّر لِما قبله مِن انتفاء اللعب واللهو، أي: لو أردنا أن نتّخذ ما يُتَلهّى به ويُلعَب ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: مِن جهة قدرتنا، / أو مِن عندنا ممّا يليق بشأننا مِن المجرّدات، لا مِن الأجسام [٧٧ظ]

---

١ الذَّنوب: الدلو المَلأى ماءً. الصحاح للجوهري، «ذنب». والمراد هنا: نصيبًا وافرًا مِن العذاب مثلَ أنصباءِ نُظَرائِهم. كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ [الذاريات، ٥٩/٥١]. انظر: تفسير الذاريات، ٥٩/٥١.

المرفوعة والأجرام الموضوعة، كدَيدَن الجبابرة في رفع العروش وتحسينها، وتسويةِ الفروش وتزيينها، لكن يستحيل إرادتنا له لمنافاته الحِكمةَ، فيستحيل اتّخاذُنا له قطعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ جوابه محذوف ثقةً بدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنّا فاعلين لاتّخذناه. وقيل: ﴿إن﴾ نافية، أي: ما كنّا فاعلين، أي: لاتّخاذ اللهو؛ لعدم إرادتنا إيّاه، فيكون بيانًا لانتفاء التالي لانتفاء المقدَّم، أو لإرادة اتّخاذه، فيكون بيانًا لانتفاء المقدَّم المستلزِم لانتفاء التالي. وقيل: "اللهو" الولد بلغة اليمن.[١] وقيل: الزوجة، والمراد الردّ على النصارى،[٢] ولا يخفى بُعده.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ إضراب عن اتّخاذ اللهو؛ بل عن إرادته، كأنّه قيل: لكنّا لا نريده؛ بل شأننا أن نغلّب الحقَّ الذي مِن جملته الجدُّ على الباطل الذي مِن قَبيله اللهو. وتخصيصُ شأنه هذا مِن بين سائر شئونه تعالى بالذكر للتخلّص إلى ما سيأتي مِن الوعيد. ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يمحقه بالكلّيّة كما فعلنا بأهل القرى المَحكيّة.

وقد استعير لإيراد الحقّ على الباطل "القذفُ" الذي هو الرمي الشديد بالجِرمِ الصُّلْبِ كالصخرة، ولمحقِه للباطل "الدمغُ" الذي هو كسر الشيء الرِّخو الأجوف -وهو الدماغ- بحيث يشقّ غشاءَه المؤدّي إلى زهوق الروح تصويرًا له بذلك. وقُرئ: "فَيَدْمَغَهُ" بالنصب،[٣] وهو ضعيف. وقُرئ: "فَيَدْمُغُهُ" بضمّ الميم.[٤]

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب بالكلّيّة، وفي ﴿إِذَا﴾ الفجائيّة والجملة الاسميّة مِن الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلانِ ما لا يخفى، فكأنّه زاهق مِن الأصل.

---

[١] **الكشّاف** للزمخشري، ١٠٧/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٧/٤.

[٢] **الكشّاف** للزمخشري، ١٠٧/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٧/٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤١٦/٧.

[٤] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤١٦/٧.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ / وعيد لقريش بأنّ لهم أيضًا مثلَ ما لأولئك مِن العذاب والعقاب. و﴿مِن﴾ تعليليّة متعلّقة بـ"الاستقرار" الذي تعلّق به الخبر، أو بمحذوف هو حال مِن ﴿ٱلْوَيْلُ﴾، أو مِن ضميره في الخبر. و﴿مَا﴾ إمّا مصدريّة، أو موصولة، أو موصوفة، أي: واستقرّ لكم الويل والهلاك مِن أجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل، أو بالذي تصفونه، أو بشيء تصفونه به مِن الولد، أو كائنًا ممّا تصفونه تعالى به. [٧٨و]

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل، وأنّه تعالى يُحِقّ الحقّ ويُزْهِق الباطل، أي: له تعالى خاصّةً جميع المخلوقات خلقًا، ومُلكًا، وتدبيرًا، وتصرّفًا، وإحياءً، وإماتةً، وتعذيبًا، وإثابةً، مِن غير أن يكون لأحد في ذلك دخل ما استقلالًا أو استتباعًا.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ وهم الملائكة عليهم السلام، عُبّر عنهم بذلك إثر ما عُبّر عنهم بـ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تنزيلًا لهم -لكرامتهم عليه عزّ وعلا وزُلفاهم عنده- منزلةَ المقرّبين عند الملوك بطريق التمثيل، وهو مبتدأ خبره: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: لا يتعظّمون عنها، ولا يَعدّون أنفسهم كبيرًا.

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يكِلّون ولا يَعْيَون. وصيغة الاستفعال المنبئةُ عن المبالغة في الحسور للتنبيه على أنّ عباداتهم بثِقلها ودوامها حقيقةٌ بأن يُستحسَر منها، ومع ذلك لا يَستحسِرون، لا لإفادة نفي المبالغة في الحسور مع ثبوت أصله في الجملة، كما أنّ نفي الظلّاميّة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق، ٥٠/٢٩]؛ / لإفادة كثرة الظلم المفروضِ تعلّقُه بالعبيد، لا لإفادة نفي المبالغة في الظلم مع ثبوت أصل الظلم في الجملة. [٧٨ظ]

وقيل: ﴿مَنْ عِندَهُۥ﴾ معطوف على ﴿مَن﴾ الأولى، وإفرادهم بالذكر مع دخولهم في ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة، ٢/٩٨]. فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ حينئذ حال مِن الثانية.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: ينزّهونه في جميع الأوقات، ويعظّمونه ويمجّدونه دائمًا. وهو استئناف وقع جوابًا عمّا نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: ماذا يصنعون في عبادتهم؟ أو كيف يعبدون؟ فقيل: يسبّحون... إلخ، أو حال مِن فاعل ﴿يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾،[١] وكذا قوله تعالى: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ أي: لا يتخلّل تسبيحَهم فترة أصلًا بفراغ أو بشغل آخرَ.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً﴾ حكاية لِجناية أخرى مِن جناياتهم بطريق الإضراب والانتقال مِن فنّ إلى فنّ آخر مِن التوبيخ إثر تحقيق الحقّ ببيان أنّه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحِكمة، وأنّهم قاطبة تحت ملكوته تعالى وقهره، وأنّ عباده مذعِنون لطاعته، ومثابرون على عبادته، منزّهون له عن كلّ ما لا يليق بشأنه مِن الأمور التي مِن جملتها الأنداد. ومعنى "الهمزة" في ﴿أَمِ﴾ المنقطعةِ إنكارُ الوقوع، لا إنكار الواقع.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿ءَالِهَةً﴾. وأيًّا ما كان فالمراد هو التحقير، لا التخصيص، وقوله تعالى: ﴿هُمۡ يُنشِرُونَ﴾ أي: يبعثون الموتى، صفة لـ﴿ءَالِهَةً﴾، وهو الذي يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع، لا نفسُ الاتّخاذ، فإنّه واقع لا محالةَ، أي: بل أاتّخذوا[٢] آلهة مِن الأرض هم خاصّةً مع حقارتهم وجماديّتهم يَنشُرون الموتى، كلّا، فإنّ ما اتّخذوها[٣] / بمَعزِل مِن ذلك، وهم وإن لم يقولوا بذلك صريحًا لكنّهم حيث ادّعَوا لها الإلهيّة فكأنّهم ادّعَوا لها الإنشارَ ضرورةَ أنّه مِن الخصائص الإلهيّة حتمًا. [٧٩و]

ومعنى التخصيص في تقديم الضمير ما أشير إليه مِن التنبيه على كمال مباينَة حالهم للإنشار، الموجبةِ لمزيد الإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب إسقاط الألف الثانية خطًّا ولفظًا.

[٣] ط س + آلهة.

[إبراهيم، ١٠/١٤]، وقوله تعالى: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ[١] كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة، ٦٥/٩]، فإنّ تقديم الجارّ والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لِأن يُشكّ فيه ويُستَهزأ به. ويجوز أن يُجعل ذلك[٢] مِن مستتبِعات ادّعائهم الباطل، فإنّ الألوهيّة مقتضية للاستقلال بالإبداء والإعادة، فحيث ادَّعَوا للأصنام الإلهيّة فكأنّهم ادّعَوا لها الاستقلال بالإنشار، كما أنّهم جُعِلوا بذلك مدّعين لأصل الإنشار.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إبطال لتعدّد الإله بإقامة البرهان على انتفائه؛ بل على استحالته. وإيراد الجمع لوروده إثر إنكار اتخاذ الآلهة، لا لأنّ للجمعيّة مدخلًا في الاستدلال، وكذا فَرض كونها فيهما.

و﴿إِلَّا﴾ بمعنى "غير" على أنّها صفة لـ﴿ءَالِهَةٌ﴾، ولا مساغَ للاستثناء؛ لاستحالة شمول ما قبلها لِما بعدها، وإفضائه إلى فساد المعنى؛ لدلالته حينئذ على أنّ الفساد لكونها فيهما بدونه تعالى، ولا للرفع على البدل؛ لأنّه متفرّع على الاستثناء، ومشروط بأن يكون في كلام غيرِ موجَب، أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي: لبطلتا بما فيهما جميعًا، وحيث انتفى التالي عُلم انتفاءُ المقدَّم قطعًا.

بيان الملازمة أنّ الإلهيّة مستلزِمة للقدرة على الاستبداد بالتصرّف فيهما على الإطلاق تغييرًا وتبديلًا وإيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتةً، فبقاؤهما / على ما هما عليه إمّا بتأثير كلّ منها، وهو مُحال؛ لاستحالة وقوع المعلول المعيّن بعلل متعدّدة، وإمّا بتأثير واحد منها، فالبواقي بمَعزِل مِن الإلهيّة قطعًا. [٧٩ظ]

واعلم أنّ جَعْلَ التالي فسادهما بعد وجودهما لِما أنّه اعتُبر في المقدّم تعدّد الآلهة فيهما، وإلّا فالبرهان يقضي باستحالة التعدّد على الإطلاق، فإنّه لو تعدّد الإله فإنْ توافق الكلّ في المراد تطاردت عليهِ القُدَر، وإن تخالفت تعاوقت، فلا يوجد موجود أصلًا، وحيث انتفى التالي تعيّن انتفاء المقدَّم.

---

[١] م س - ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾.

[٢] وفي هامش م: أي: التخصيص.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن ثبوت الوحدانيّة بالبرهان، أي: فسبّحوه سبحانَه اللائقَ به، ونزّهوه عمّا لا يليق به مِن الأمور التي مِن جملتها أن يكون له شريك في الألوهيّة. وإيراد الجلالة في موقع الإضمار للإشعار بعلّة الحكم، فإنّ الألوهيّة مناط لجميع صفات كماله التي مِن جملتها تنزّهه تعالى عمّا لا يليق به، ولتربية المهابة، وإدخال الروعة.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ صفة للاسم الجليل، مؤكِّدة لتنزّهه عزّ وجلّ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ متعلّق بالتسبيح، أي: فسبّحوه عمّا يصفونه مِن أن يكون مِن دونه آلهة.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ استئناف ببيان أنّه تعالى لقوّة عظمته وعزّةِ سلطانه القاهرِ بحيث ليس لأحد مِن مخلوقاته أن يناقشه ويسألَه عمّا يفعل مِن أفعال إثرَ بيان أن ليس له شريك في الإلهيّة. ﴿وَهُمْ﴾ أي: العباد ﴿يُسْـَٔلُونَ﴾ عمّا يفعلون نقيرًا وقطميرًا؛ لأنّهم مَملوكون له تعالى، مستعبَدون، ففيه وعيد للكفَرة.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إضراب / وانتقال مِن إظهار بطلان كون ما [٨٠و]
اتّخذوه آلهةً آلهةً حقيقةً بإظهار خلوّها عن خصائص الإلهيّة التي مِن جملتها الإنشار، وإقامةِ البرهان القاطع على استحالة تعدّد الإله على الإطلاق وتفرّده سبحانه بالألوهيّة إلى إظهار بطلان اتّخاذهم تلك الآلهة مع عَرائها عن تلك الخصائص بالمرّة شركاءَ لله عزّ سلطانه، وتبكيتِهم بإلجائهم إلى إقامة البرهان على دعواهم الباطلة، وتحقيقِ أنّ جميع الكتب السماويّة ناطقة بحقّيّة التوحيد وبطلان الإشراك.

و"الهمزة" لإنكار الاتّخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه. و﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾. والمعنى: بل أاتّخذوا[1] متجاوزين إيّاه تعالى مع ظهور شئونه الجليلة الموجبة لتفرّده بالألوهيّة آلهةً مع ظهور خلوّهم عن خواصّ الألوهيّة بالكلّيّة؟

﴿قُلْ﴾ لهم بطريق التبكيت وإلقام الحجَر: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على ما تدّعونه مِن جهة العقل أو النقل، فإنّه لا صحّة لقولٍ لا دليل عليه في الأمور الدينيّة، لا سيّما في مثل هذا الشأن الخطير. وما في إضافة "البرهان" إلى ضميرهم مِن الإشعار بأنّ لهم برهانًا ضَربٌ مِن التهكّم بهم.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ إنارة لبرهانه، وإشارة إلى أنّه ممّا نطقت به الكتب الإلهيّة قاطبةً، وشهِدت به ألسنة الرسل المتقدّمة كافّةً، وزيادةُ تهييج لهم على إقامة البرهان لإظهار كمال عجزهم، أي: هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمّن للبرهان القاطع العقلي ذكرُ أمّتي -أي: عِظتهم- وذكرُ الأمم السالفة قد أقمتُه، فأقيموا أنتم أيضًا برهانكم.

وقيل: المعنى: هذا كتاب أُنزل على أمّتي، وهذا كتاب أُنزل على أمم الأنبياء عليهم السلام مِن الكتب الثلاثة والصحف، فراجعوها وانظروا هل في واحد منها غير الأمر بالتوحيد / والنهيِ عن الإشراك؟ ففيه تبكيت لهم متضمّن لإثبات نقيض مدّعاهم. [٨٠ظ]

وقُرئ بالتنوين والإعمال،[2] كقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا﴾ [البلد، ٩٠/١٤-١٥]، وبه وبـ"مِن" الجارّة،[3] على أنّ ﴿مَع﴾ اسم هو ظرف، كـ"قَبلُ" و"بعدُ".

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ إضراب مِن جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقّن، وانتقالٌ مِن الأمر بتبكيتهم بمطالبة البرهان إلى بيان أنّه لا ينجع فيهم المحاجّة بإظهار حقيقة الحقّ وبطلان الباطل، فإنّ أكثرهم

---

١ كذا في الأصول الخطّيّة، والصواب إسقاط الألف الثانية خطًّا ولفظًا.

٢ أي: "هَذَا ذِكْرٌ مَن مُعِي وَذِكْرٌ مَن قَبْلِي". قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وابن يَعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٦.

٣ أي: "هَذَا ذِكْرٌ مِن مُعِي وَذِكْرٌ مِن قَبْلِي". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن يَعمر وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٦.

لا يفهمون الحقّ، ولا يُميّزون بينه وبين الباطل.

﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُعْرِضُونَ﴾ أي: مستمرّون على الإعراض عن التوحيد واتّباعِ الرسول، لا يرعَوون عمّا هم عليه مِن الغيّ والضلال وإن كُرِّرت عليهم البيّنات والحجج، أو مُعرِضون عمّا ألقي عليهم مِن البراهين العقليّة والنقليّة. وقُرئ: "الحَقُّ" بالرفع[1] على أنّه خبر مبتدأ محذوف وُسّط بين السبب والمسبَّب تأكيدًا للسببيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ استئناف مقرّر لِما أُجمل فيما قبله مِن كون التوحيد ممّا نطقت به الكتب الإلهيّة، وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام. وقُرئ: "يُوحَى"[2] على صيغة الغائب مبنيًّا للمفعول. وأيًّا ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لِصورة الوحي.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ حكاية لجناية فريق مِن المشركين، جيء بها لإظهار بطلانها وبيانِ تنزّهه تعالى عن ذلك إثر بيان تنزّهه سبحانه عن الشركاء على الإطلاق. وهم حيّ مِن خُزاعة، يقولون: الملائكة بنات الله تعالى.[3] ونقل الواحدي أنّ قريشًا وبعض أجناس العرب جُهَينةَ وبني سلمة وخُزاعة وبني مُلَيح يقولون ذلك.[4]

[٨١و] والتعرّض لعنوان الرحمانيّة المنبئة عن كون جميع ما سواه تعالى / مربوبًا له تعالى نعمةً أو منعَمًا عليه لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزّه بالذات تنزّهَه اللائقَ به، على أنّ "السُّبحان" مصدر مِن "سبَحَ"، أي: بَعُد، أو أُسَبِّحه تسبيحَه، على أنّه علَم للتسبيح، وهو مَقول على ألسنة العباد، أو سبِّحوه تسبيحَه.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٦.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٩٦/٢.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٣/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١١٢/٣.

[4] التفسير البسيط للواحدي، ١١٨/١٩.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ إضراب وإبطال لِما قالوه، كأنّه قيل: ليست الملائكة كما قالوا؛ بل هم عباد له تعالى ﴿مُكْرَمُونَ﴾ مقرّبون عنده. وقُرئ: "مُكَرَّمُونَ" بالتشديد،[١] وفيه تنبيه على منشأ غلَط القوم.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ صفة أخرى لـ﴿عِبَادٌ﴾ منبئةٌ عن كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره تعالى، أي: لا يقولون شيئًا حتّى يقولَه تعالى أو يأمرَهم به، وأصله "لا يَسبق قولُهم قولَه تعالى"، فأُسنِد السبقُ إليه منسوبًا إليه تعالى تنزيلًا لسَبق قولهم قولَه تعالى منزلةَ سبقهم إيّاه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك، وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرَّضِ به للذين يقولون ما لا يقوله الله تعالى. وجُعِل القولُ محلًّا للسبق وأداةً له، ثمّ أُنيب "اللام" عن الإضافة للاختصار والتجافي عن التكرار.

وقُرئ: "لَا يَسْبُقُونَهُ" بضمّ الباء،[٢] مِن "سبَقْته أسبُقُه"، وفيه مزيد استهجان للسبق، وإشعارٌ بأنّ مَن سبَق قولُه قولَه تعالى فقد تصدّى لمغالبته تعالى في السبق، فسبَقه فغلبه والعياذ بالله تعالى، وزيادةُ تنزيه لهم عمّا نُفي عنهم ببيان أنّ ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة، فأنّى يُتوهّم صدوره عنهم.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ بيان لتبعيّتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيّتهم له تعالى في الأقوال، / فإنّ نفي سَبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيّتهم له [٨١ظ] تعالى فيه، كأنّه قيل: هم بأمره يقولون، وبأمره يعملون، لا بغير أمره أصلًا، فالقصر المستفاد مِن تقديم الجارّ معتبر بالنسبة إلى غير أمره، لا إلى أمر غيره.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ استئناف وقع تعليلًا لِما قبله، وتمهيدًا لِما بعده، فإنّهم لعلمهم بإحاطته تعالى بما قدّموا وأخّروا مِن الأقوال والأعمال، لا يزالون يراقبون أحوالَهم، فلا يُقدمون على قول أو عمل بغير أمره تعالى.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٢٢/٧.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٢٢/٧.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أن يُشفعَ له مهابةً منه تعالى. ﴿وَهُم﴾ مع ذلك ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ عزّ وجلّ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ مرتَعدون. وأصل الخشية الخوف مع التعظيم، ولذلك خُصّ بها العلماء،[1] و"الإشفاق": الخوفُ مع الاعتناء، فعند تعديته بـ"مِن" يكون معنى الخوف فيه أظهر، وعند تعديته بـ"على" ينعكس الأمر.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي: مِن الملائكة، إذ الكلامَ فيهم وفي كونهم بمَعزِل ممّا قالوا في حقّهم: ﴿إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ متجاوزًا إيّاه تعالى، ﴿فَذَٰلِكَ﴾ الذي فُرِض قولُه فرضَ محال ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ كسائر المجرمين، ولا يغني عنهم ما ذُكر مِن صفاتهم السنيّة وأفعالهم المرضيّة. وفيه مِن الدلالة على قوّة ملكوته تعالى وعزّةِ جبروته واستحالةِ كون الملائكة بحيث يُتوهّم في حقّهم ما تَوهّمه أولئك الكفرة ما لا يخفى.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مصدر تشبيهي مؤكِّد لِمضمون ما قبله، أي: مثلَ ذلك الجزاء الفظيع نجزي الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها، ويَتَعدَّوْنَ أطوارَهم. والقصر المستفاد مِن التقديم معتبر بالنسبة إلى النقصان دون الزيادة، أي: لا جزاءَ أنقصَ منه.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾

[٨٢و] / ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ تجهيل لهم بتقصيرهم في التدبّر في الآيات التكوينيّة الدالّة على استقلاله تعالى بالألوهيّة، وكونِ جميع ما سواه مقهورًا تحت ملكوته. و"الهمزة" للإنكار، و"الواو" للعطف على مقدَّر. وقُرئ بغير واو.[2] والرؤية قلبيّة، أي: ألَم يتفكّروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا﴾ أي: جَماعَتا السماوات والأرَضين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر، ٤١/٣٥].

---

[1] في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر، ٢٨/٣٥].

[2] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٢٣/٢.

﴿رَتْقًا﴾ الرَّتْق: الضمّ والالتِحام. والمعنى إمّا على حذف المضاف، أو هو بمعنى المفعول، أي: كانتا ذواتَي رَتْق، أو مَرتوقتَين. وقُرئ: "رَتَقًا"،[١] أي: شيئًا رَتَقًا، أي: مَرتوقًا.

﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما في رواية عكرمة والحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبير: «كانتا شيئًا واحدًا ملتزمين،[٢] ففَصل الله تعالى بينهما، ورفع السماء إلى حيث هي، وأقرّ الأرض».[٣]

وقال كعب: «خلق الله تعالى السماوات والأرض مُلتصِقتَين، ثمّ خلق رِيحًا فتوسّطَتْها ففَتَقتْها».[٤]

وعن الحسن: «خلق الله تعالى الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفِهر[٥] عليها دخان مُلتزِق بها، ثمّ أصعَد الدخانَ وخلق منه السماوات، وأمسك الفِهرَ في موضعها وبسطَ منها الأرض»، وذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.[٦]

وقال مجاهد والسدّي: «كانت السماوات مُرتَتَقة طبقة واحدة، ففتَقها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرض كانت مُرتَتَقة طبقة واحدة، ففتَقها فجعلها سبع أرَضين».[٧]

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما في رواية عطاء، وعليه أكثر المفسّرين: «إنّ السماوات كانت رَتْقًا مستوية صلبة لا تمطر، والأرض رتقًا لا تُنبت، ففتَق السماءَ بالمطر، والأرضَ بالنبات».[٨]

فيكون المراد بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السماءَ الدنيا، والجمع باعتبار الآفاق، أو السماواتِ / جميعًا على أنّ لها مدخلًا في الأمطار. وعِلمُ الكفرة الرَّتْقَ والفَتْقَ [٨٢ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والثقفي وأبي حياة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٧.

٢ في جامع البيان للطبري، ١٦/٢٥٥؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٦/٢٧٤: "ملتزقتين".

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٦/٢٧٤؛ اللباب لابن عادل، ١٣/٤٨٥.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٦/٢٧٤؛ اللباب لابن عادل، ١٣/٤٨٥.

٥ الفِهر: الحجر مِلءَ الكفِّ. الصحاح للجوهري، «فهر».

٦ الكشّاف للزمخشري، ١/١٢٤ (البقرة، ٢/٢٩).

٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٦/٢٧٤؛ اللباب لابن عادل، ١٣/٤٨٥.

٨ اللباب لابن عادل، ١٣/٤٨٦. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ٦/٢٧٤ عن عكرمة وعطيّة وابن زيد.

بهذا المعنى ممّا لا سُترة به، وأمّا بالمعاني الأُوَل فهم وإن لم يعلموهما لكنّهم متمكِّنون مِن عِلمهما، إمّا بطريق النظر والتفكّر، فإنّ الفَتْق عارض مُفتقِر إلى مؤثِّر قديم، وإمّا بالاستفسار مِن العلماء ومطالعة الكتب.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أي: خلقنا مِن الماء كلَّ حيوان، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور، ٢٤/٤٥]، وذلك لأنّه مِن أعظم موادّه، أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به، أو صيّرنا كلّ شيء حيّ مِن الماء، أي: بسبب منه لا بدّ له مِن ذلك. وتقديم المفعول الثاني للاهتمام به، لا لمجرّد أنّ المفعولَين في الأصل مبتدأ وخبر، وحقُّ الخبر عند كونه ظرفًا أن يتقدّم على المبتدأ، فإنّ ذلك مصحِّح مَحض لا مرجِّح.

وقُرئ: "حَيًّا"[1] على أنّه صفةُ ﴿كُلَّ﴾، أو مفعول ثانٍ، والظرفُ -كما في الوجه الأوّل- قُدّم على المفعول للاهتمام به، والتشويق إلى المؤخَّر.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ إنكار لعدم إيمانهم بالله تعالى وحدَه مع ظهور ما يوجبه حتمًا مِن الآيات الآفاقيّة والأنفسيّة الدالّة على تفرّده عزّ وجلّ[2] بالألوهيّة، وعلى كون ما سواه مِن مخلوقاته مقهورةً تحت ملكوته وقدرته، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يستدعيه الإنكار السابق، أي: أيعلمون ذلك فلا يؤمنون؟

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالًا ثوابت، جمع "راسية"، مِن "رَسا الشيءُ" إذا ثبَت ورَسَخ. ووصفُ جمع المذكّر بجمع المؤنّث في غير العقلاء ممّا لا ريب في صحّته، كقوله تعالى: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة، ٢/١٩٧]، و﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة، ٢/١٨٤].

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: كراهةَ أن تتحرّك وتضطرب بهم، أو لِئلّا تميدَ بهم، بحذف "اللام" و"لا" لِعدم الإلباس. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، وتكريرُ الفعل لاختلاف

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٧.

[2] س: عزّ وعلا.

المَجعولين، ولِتوفية مقام الامتنان حقَّه، أو في الرواسي؛ لأنّها المحتاجة إلى الطرُق.

/ ﴿فِجَاجًا﴾ مسالك واسعة. وإنّما قُدّم على قوله تعالى: ﴿سُبُلًا﴾ -وهو وصف له- ليصير حالًا، فيفيد أنّه تعالى حين خلقها خلَقها كذلك، أو لِيُبدل منها ﴿سُبُلًا﴾، فيدلّ ضمنًا على أنّه تعالى خلقها ووسّعها للسابِلة، مع ما فيه مِن التوكيد. ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى مصالحهم ومهمّاتهم. [٨٣و]

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ مِن الوقوع بقدرتنا القاهرة، أو مِن الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئتنا، أو مِن استراق السمع بالشُّهُب. ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا﴾ الدالّة على وحدانيّته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وإرادته التي بعضُها محسوس وبعضُها معلوم بالبحث عنه في علمَيِ الطبيعة والهيئة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتدبّرون فيها، فيبقَون على ما هم عليه مِن الكفر والضلال.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ اللّذَين هما آيتاهما، بيان لبعض تلك الآيات التي هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجِب لتأكيد الاعتناء بفَحوى الكلام،[1] أي: هو الذي خلقهنّ وحده.

﴿كُلٌّ﴾ أي: كلّ واحدٍ منهما، على أنّ التنوين عوض عن المضاف إليه. ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يَجرُون في سطح الفلك كالسَّبْح في الماء. والمراد بـ"الفَلَك" الجنس، كقولك: "كساهم الخليفة حُلّة". والجملة حال مِن ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، وجاز انفرادهما بها لعدم اللَّبس،[2] والضمير لهما، والجمع باعتبار المطالع. وجعلُ الضمير واوَ العقلاء لأنّ السباحة حالهم.

---

١ وفي هامش م: فإنّ تغيير الكلام المَسوق لمعنًى مِن المعاني وصَرفَه عن سَننه المَسلوك يُنبئ عن اهتمام بشأنٍ جديد مِن المتكلِّم، ويستجلب مزيدَ رغبة فيه مِن المخاطَب، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة، ٢/٣]. «منه».

٢ وفي هامش م: إذ لا احتمال لكونها حالًا مِن ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾. «منه».

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ٣٤﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أي: في الدنيا لكونه مخالِفًا للحكمة التكوينيّة والتشريعيّة. ﴿أَفَإِين مِّتَّ﴾ بمقتضى حكمتنا ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ نزلت حين قالوا: "نتربّص به ريبَ المنون".[١] و"الفاءُ" لتعليق الشرطيّة بما قبلها، و"الهمزة" لإنكار مضمونها بعد تقرّر القاعدة الكلّيّة النافية لذلك بالمرّة. والمراد بإنكار خلودهم ونَفيِه إنكارُ ما هو مدارٌ له وجودًا وعدمًا مِن شماتتهم بموته عليه السلام، فإنّ الشماتة بما يعتريه أيضًا ممّا لا ينبغي أن يصدُر عن العاقل، كأنّه قيل: أفإن مِتَّ فهم الخالدون حتّى يشمَتوا بموتك.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾

[٨٣ظ] / وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: ذائقةُ مرارةِ مفارقتِها جَسدَها، برهان على ما أُنكِرَ مِن خلودهم.

﴿وَنَبْلُوكُم﴾ الخطاب إمّا للناس كافّة بطريق التلوين، أو للكفرة بطريق الالتفات، أي: نعاملكم معاملةَ مَن يبلوكم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ بالبلايا والنِّعَم، هل تصبرون وتشكرون أو لا؟ ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿نَبْلُوكُم﴾ مِن غير لفظه.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غيرنا، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، فنجازيكم حسبما يظهر منكم مِن الأعمال، فهو على الأوّل وعد ووعيد، وعلى الثاني وعيد محض. وفيه إيماء إلى أنّ المقصود مِن هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب. وقُرئ: "يُرْجَعُونَ"[٢] بالياء على الالتفات.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٦﴾

---

[١] قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور، ٥٢/٣٠].

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الواقدي عن قتادة والثعلبي عن ابن ذكوان. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣١٧.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: المشركون ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[١] أي: ما يتّخذونك إلّا مهزوءًا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتّخاذهم إيّاه هزوًا، لا على معنى قصر اتّخاذهم على كونه هزوًا كما هو المتبادَر، كأنّه قيل: ما يفعلون بك إلّا اتّخاذَك هزوًا، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام، ٥٠/٦].

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ على إرادة القول، أي: ويقولون، أو قائلين ذلك، أي: يَذكُرهم بسوء، كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾... إلخ [الأنبياء، ٦٠/٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ في حيّز النصب على الحاليّة مِن ضمير القول المقدّر، والمعنى: إنّهم يَعيبون عليه عليه السلام أن يذكر آلهتَهم التي لا تضرّ ولا تنفع بالسوء، والحال أنّهم بذِكرِ الرحمن المنعِم عليهم بما يليق به مِن التوحيد أو بإرشاد الخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب أو بالقرآن كافرون، فهم أحِقّاء بالعيب والإنكار. فالضمير الأوّل مبتدأ خبره ﴿كَٰفِرُونَ﴾، و﴿بِذِكْرِ﴾ متعلّق بالخبر، والتقدير: وهم كافرون بذِكر الرحمن. والضمير الثاني تأكيد لفظي للأوّل، فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكِّد، وبين المؤكَّد والمؤكِّد بالمعمول.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ جُعل لفَرط استعجاله وقِلّة صبره كأنّه مخلوق منه / تنزيلًا لِما طُبع عليه مِن الأخلاق منزلةَ ما طُبع منه مِن الأركان إيذانًا بغاية [٨٤و] لزومه له وعدمِ انفكاكه عنه. ومِن عجلته مبادرتُه إلى الكفر واستعجالُه بالوعد.

رُوي أنّها نزلت في النضر بن الحارث حين استعجل العذاب بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ﴾ الآية [الأنفال، ٣٢/٨].[٢] وعن ابن عبّاس

[١] م: هُزُؤًا. | وقرأ بالهمز جميع القرّاء العشر غير حفص. وقرأ حمزة وخلف بإسكان الزاي. انظر: النشر لابن الجزري، ٢١٥/٢.

[٢] عن ابن عبّاس رضي الله عنه في رواية عطاء. التفسير الوسيط للواحدي، ٢٣٧/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١١٧/٣.

رضي الله تعالى[١] عنهما: «أنّ المراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ آدم عليه السلام، وأنّه حين بلغ الروحُ صدرَه ولم يتبالغ فيه أراد أن يقوم».[٢] ورُوي أنّه لمّا دخل الروحُ في عينيه نظر إلى ثمار الجنّة، ولمّا دخل جوفَه اشتهى الطعام.[٣]

وقيل: خلقه الله تعالى في آخر النهار يوم الجمعة قبل غروب الشمس، فأسرع في خَلْقه قبل غَيبتها.[٤] فالمعنى: خُلق الإنسان خَلقًا ناشئًا مِن عجَل، فذكره لبيان أنّه مِن دواعي عجلته في الأمور.

والأظهر أنّ المراد به الجنس وإن كان خلقه عليه السلام ساريًا إلى أولاده.

وقيل: "العَجَل" الطين بلغة حِمْير،[٥] ولا تقريب له ههنا.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المستعجِلين بطريق التهديد والوعيد، أي: سأُريكم نقماتي في الآخرة كعذاب النار وغيره، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالإتيان بها. والنهي عمّا جُبلت عليه نفوسهم ليُقْعِدُوها عن مرادها.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وقت مجيء الساعة التي كانوا يوعدون، وإنّما كانوا يقولونه استعجالًا لمجيئه بطريق الاستهزاء والإنكار كما يرشد إليه الجواب، لا طلبًا لتعيين وقته بطريق الإلزام كما في سورة المُلك.[٦]

[٨٤ظ] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في وعدكم بأنّه يأتينا. / والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمةَ المنبئة عن مجيء الساعة.

---

١ س – تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١١٧/٣. وهو في جامع البيان للطبري، ٢٧١/١٦، عن سعيد بن جبير. وفي التفسير الوسيط للواحدي، ٢٣٧/٣، عن عكرمة.

٣ عن السدّي في جامع البيان للطبري، ٢٧١/١٦؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٥/٦.

٤ جامع البيان للطبري، ٢٧١/١٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٥/٦.

٥ عن أبي عبيدة في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٦/٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٠١/١٣. | بنو حِمْيَر -بكسر الحاء وسكون الميم- قبيلة مِن بني سبأ مِن القحطانيّة، وهم بنو حِمْير بن سبأ. ومِن حِمْيَر كانت ملوك اليمن مِن التبابعة إلّا مَن تخلّل في خِلال مُلكهم في قليل مِن الزمن. نهاية الأرب للقلقشندي، ٢٣٧/١.

٦ الملك، ٢٥/٦٧.

وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة ما قبله عليه حسبما حذف في مثل قوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود، ٣٢/١١]، فإنّ قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استبطاء منهم للموعود، وطلبٌ لإتيانه بطريق العجلة، فإنّ ذلك في قوّة الأمر بالإتيان عجلةً، كأنّه قيل: فليأتنا بسرعة إن كنتم صادقين.

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استئناف مَسوق لبيان شدّة هول ما يستعجلونه، وفظاعةِ ما فيه مِن العذاب، وأنّهم إنّما يستعجلونه لجهلهم بشأنه. وإيثار صيغة المضارع في الشرط وإن كان المعنى المضيّ لإفادة استمرار عدم العلم، فإنّ المضارع المنفيّ الواقعَ موقع الماضي ليس بنصّ في إفادة انتفاء استمرار الفعل؛ بل يفيد استمرار انتفائه أيضًا بحسب المقام، كما في قولك: "لو تُحسنُ إليّ لَشكرتك"، فإنّ المعنى أنّ انتفاء الشكر لاستمرار انتفاءِ الإحسان، لا لانتفاءِ استمرار الإحسان. ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيّز الصلة على علّة استعجالهم.

وقوله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ مفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾، وهو عبارة عن الوقت الموعود الذي كانوا يستعجلونه. وإضافته إلى الجملة الجارية مَجرى الصفة التي حقّها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب أيضًا مع إنكار الكفرة بذلك؛ للإيذان بأنّه مِن الظهور بحيث لا حاجة له إلى الإخبار به، وإنّما حقّه الانتظام في سِلك المسلَّمات المفروغِ عنها.

وجواب / ﴿لَوْ﴾ محذوف، أي: لو لم يستمرّ عدمُ علمهم بالوقت الذي [٨٥و]
يستعجلونه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مِن الحين الذي يحيط بهم النار فيه مِن كلّ جانب -وتخصيصُ الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدّام والخلف لكونهما أشهر الجوانب، واستلزامِ الإحاطة بهما للإحاطة بالكلّ بحيث لا يقدرون على دفعها

بأنفسهم مِن جانب مِن جوانبهم- ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ مِن جهة الغير في دفعها... إلخ لَمَا[١] فعلوا ما فعلوا مِن الاستعجال.

ويجوز أن يكون ﴿يَعْلَمُ﴾ متروك المفعول مُنزّلًا منزلة اللازم، أي: لو كان لهم علم لَمَا فعلوه. وقوله تعالى: ﴿حِينَ﴾... إلخ استئناف مقرِّر لجهلهم، ومبيّن لاستمراره إلى ذلك الوقت، كأنّه قيل: حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾،[٢] أي: لا يكفّونها؛ بل تأتيهم -أي: العِدَة أو النار أو الساعة- ﴿بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تغلبهم أو تحيّرهم، وقُرِئ الفعلان بالتذكير[٣] على أنّ الضمير للوعد أو الحين، وكذا "الهاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ بتأويل ﴿الْوَعْدُ﴾[٤] بالنار أو العِدَة، و"الحين" بالساعة، ويجوز عوده إلى ﴿النَّارَ﴾،[٥] وقيل: إلى "البَغتة"، أي: لا يستطيعون ردّها عنهم بالكلّيّة. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يُمهَلون ليستريحوا طرفة عَين. وفيه تذكير لإمهالهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤١﴾

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن استهزائهم به عليه السلام في ضِمن الاستعجال، وعِدَةٌ ضِمنيّة بأنّه يصيبهم مثلُ ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام. وتصديرها بالقسَم لزيادة تحقيق مضمونها. وتنوين "الرسل" للتفخيم والتكثير. و﴿مِن﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة له، أي: وبالله لقد استُهزئ / برسلٍ أولي شأن خطير، [٨٥ظ] وذوي عدد كثير، كائنين مِن زمان قبل زمانك، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه.

---

١ وفي هامش م: إشارة إلى أنّ الجواب مقدّر بعد قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. «منه».

٢ في الآية السابقة.

٣ أي: "بَلْ يَأْتِيهِم بَغْتَةً فَيَبْهَتُهُمْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٧.

٤ الأنبياء، ٣٨/٢١.

٥ في الآية السابقة.

﴿فَحَاقَ﴾ أي: أحاط عَقيب ذلك، أو نزَل، أو حَلَّ، أو نحو ذلك، فإنّ معناه يدور على الشمول واللزوم، ولا يكاد يستعمل إلّا في الشرّ، والحَيق: ما يشتمل على الإنسان مِن مكروهِ فِعلِه.[١] وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم﴾ أي: مِن أولئك الرسل عليهم السلام. متعلّق بـ﴿حَاقَ﴾، وتقديمُه على فاعله -الذي هو قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾- للمسارعة إلى بيان لحوق الشرّ بهم.

و﴿مَا﴾ إمّا موصولة مفيدة للتهويل، والضميرُ المجرور عائد إليها، والجارُّ متعلّق بالفعل، وتقديمُه عليه لرعاية الفواصل، أي: فأحاط بهم الذي كانوا يستهزءون به حيث أُهلكوا لِأجله. وإمّا مصدريّة، فالضمير المجرور راجع حينئذ إلى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا، ولعلّ إيثارَه على الجمع للتنبيه على أنّه يَحيق بهم جزاءُ استهزائهم بكلّ واحد واحد منهم عليهم السلام، لا جزاءُ استهزائهم بكلّهم مِن حيث هو كلّ فقط، أي: فنزل بهم جزاء استهزائهم، على وضع السبب موضع المسبَّب إيذانًا بكمال الملابسة بينهما، أو عينُ استهزائهم إن أريد بذلك العذاب الأخروي بناءً على تجسّم الأعمال، فإنّ الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصُورٍ عرضيّة تُبرَز في النشأة الآخرة بصُورٍ جوهريّة مناسبة لها في الحسن والقبح، وعلى ذلك بُني الوَزن، وقد مرّ تفصيله في سورة الأعراف،[٢] وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ الآية إلى آخرها [يونس، ٢٣/١٠].

﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ٤٢﴾

﴿قُلۡ﴾ خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم إثرَ تسليته بما ذُكر مِن مصير أمرهم إلى الهلاك، وأَمْرٌ له عليه السلام بأن يقول لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتبكيت: ﴿مَن يَكۡلَؤُكُم﴾ أي: يحفظكم ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: مِن بأسه الذي تستحقّون نزوله ليلًا أو نهارًا؟ وتقديم الليل لِما أنّ الدواهي أكثر فيه وقوعًا وأشدّ وَقعًا. وفي التعرّض لعنوان الرحمانيّة إيذانٌ بأنّ كالِئهم ليس إلّا رحمتَه العامّة.

---

[١] **معاني القرآن** للزجّاج، ٢٣١/٢.

[٢] الأعراف، ٨/٧.

وبعد ما أُمر عليه السلام بما ذُكر مِن السؤال على الوجه المذكور حسبما يقتضيه حالهم لأنّهم بحيث لولا أنّ الله تعالى يحفظهم في المَلَوَين[١] لحلَّ بهم فنون الآفات، فَهُم أحِقّاء بِأن يُكَلَّفُوا الاعتراف بذلك فيُوَبَّخوا على ما هم عليه مِن الإشراك، أُضرِبَ عن ذلك بقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ بِبَيان أنّ لهم حالًا أخرى مقتضيةً لصَرف / الخطاب عنهم، هي أنّهم لا يُخطِرُون [٨٦و] ذكره تعالى ببالهم فضلًا أن يخافوا بأسَه ويعدّوا ما كانوا عليه مِن الأمْن والدَّعَة حفظًا وكِلاءةً حتّى يُسألوا عن الكالئ، على طريقة[٢] قول مَن قال:

عُوجوا فَحَيُّوا لِنُعْمٍ[٣] دِمْنَةَ الدارِ ماذا تُحَيُّون مِن نُؤْيٍ وأحجارِ[٤]

وفي تعليق الإعراض بذكره تعالى وإيرادِ اسم الربّ المضافِ إلى ضميرهم المنبئِ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى مِن الدلالة على كونهم في الغاية القاصية مِن الضلالة والغيّ ما لا يخفى.

﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾

وكلمةُ ﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للإضراب والانتقال عمّا قبله -مِن بيان أنّ جهلَهم بحفظه تعالى إيّاهم لعدم خوفهم الناشئ عن إعراضهم عن ذكر ربّهم بالكلّيّة- إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهتهم وإسنادهم الحفظَ إليها. و"الهمزةِ"[٥] لإنكار أن تكون لهم آلهة تقدِر على ذلك. والمعنى: بل أَلَهم آلهةٌ تمنعهم مِن العذاب تتجاوز مَنْعَنا أو حفظنا، أو مِن عذاب كائنٍ مِن عندنا، فهم معوِّلون عليها واثِقون بِحفظها؟

وفي توجيه الإنكار والنفي إلى وجود الآلهة الموصوفة بما ذُكر مِن المنع -لا إلى نفس الصفة بأن يقال: أم تمنعهم آلهتهم... إلخ- مِن الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلًا عن رتبة المنع ما لا يخفى.

---

[١] وفي هامش م: أي: الليل والنهار. | انظر: الصحاح للجوهري، «ملا».

[٢] وفي هامش م: متعلّق بقوله: "أُضرِب عن ذلك"، لا بقوله: "يُسألوا". «منه».

[٣] م ط س - لِنُعمى ["صح" في هامش م]. | فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[٤] للنابغة الذبياني في ديوانه، ص ٢٠٢، بلفظ: "لنُعْمٍ".

[٥] أي: وما فيها مِن معنى الهمزةِ...

وقوله عزّ وعلا: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله مِن الإنكار، وموضِّح لبطلان اعتقادهم، أي: هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، ولا يُصحَبون بالنصر مِن جهتنا، فكيف يُتوهَّم أن يَنصروا غيرهم؟

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ إضراب عمّا توهّموا / ببيان أنّ الداعي إلى حفظهم تمتيعُنا إيّاهم بما قُدّر لهم مِن الأعمار، أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك، وهو أنّه تعالى متّعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتّى طالت أعمارهم، فحسبوا أن لا يزالوا كذلك، وأنّه بسبب ما هم عليه، ولذلك عُقِب بما يدلّ على أنه طمع فارغ وأمل كاذب حيث قيل: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: ألا ينظرون فلا يرون ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَ الكفرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فكيف يتوهّمون أنّهم ناجون مِن بأسنا؟ وهو تمثيل وتصوير لِما يخرّبه الله عزّ وجلّ مِن ديارهم على أيدي المسلمين، ويضيفها إلى دار الإسلام. [٨٦ظ]

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين. و"الفاء" لإنكار ترتيب الغالبيّة على ما ذكر مِن نقص أرض الكفرة بتسليط المسلمين عليها، كأنّه قيل: أَبَعْدَ ظهور ما ذُكِر ورؤيتهم له يُتوهّم غلَبتُهم؟ كما مرّ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود، ١٧/١١]، وقولِه تعالى: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الرعد، ١٦/١٣]. وفي التعريف تعريض بأنّ المسلمين هم المتعيِّنون للغلَبة المعروفون بها.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ بعد ما بيّن مِن جهته تعالى غايةُ هول ما يستعجله المستعجلون، ونهايةُ سوء حالهم عند إتيانه، ونُعِي عليهم جهلُهم بذلك وإعراضُهم عن ذكر ربّهم الذي يكلؤهم مِن طوارق الليل والنهار وغيرُ ذلك

مِن مساوي أحوالهم، أُمِر عليه السلام بأن يقول لهم: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ ما تستعجلونه مِن الساعة ﴿بِٱلْوَحْيِ﴾ الصادقِ الناطق بإتيانها وفظاعة ما فيها مِن الأهوال، أي: إنّما شأني أن أنذركم بالإخبار بذلك، لا بالإتيان بها، فإنّه مزاحم للحكمة التكوينيّة والتشريعيّة، إذ الإيمان برهاني لا عِياني.

[٨٧و] وقوله تعالى: / ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ إمّا مِن تتمّة الكلام الملقَّن تذييل له بطريق الاعتراض، قد أُمِر عليه السلام بأن يقوله لهم توبيخًا وتقريعًا وتسجيلًا عليهم بكمال الجهل والعناد. و"اللام" للجنس المنتظِم للمخاطَبين انتظامًا أوّليًا، أو للعهد، فوُضع المُظهَر مَوضع المُضمَر للتسجيل عليهم بالتصامّ. وتقييد نفي السماع بقوله تعالى: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ مع أنّ الصمَّ لا يسمعون الكلام إنذارًا كان أو تبشيرًا لبيان كمال شدّة الصمَم، كما أنّ إيثار الدعاء الذي هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك، فإنّ الإنذار عادةً يكون بأصوات عالية مكرّرة مقارِنة لهيئاتٍ دالّة عليه، فإذا لم يسمعوها يكون صمَمهم في غايةٍ لا غايةَ وراءها.

وإمّا مِن جهته تعالى[١] على طريقة قولِه تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾،[٢] ويؤيّده القراءة على خطاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن "الإسماع" بنصب ﴿ٱلصُّمُّ﴾ و﴿ٱلدُّعَآءَ﴾،[٣] كأنّه قيل: قل لهم ذلك وأنت بمَعزِل مِن إسماعهم. وقُرئ بالياء أيضًا[٤] على أنّ الفاعل هو عليه السلام. وقُرئ على البناء للمفعول،[٥] أي: لا يقدر أحد على إسماع الصمّ.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ بيان لسرعة تأثّرهم مِن مجيء

---

١ السياق: إمّا مِن تتمّة الكلام... وإمّا مِن جهته تعالى...

٢ الأنبياء، ٤٢/٢١. | وفي هامش م: وما ذُكر في تفسيره مِن البيت. «منه».

٣ أي: "وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ". قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٢٣/٢.

٤ أي: "وَلَا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي عمرو وكرداب وأحمد بن جبير عن اليزيدي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٧.

٥ أي: "وَلَا يُسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١١٩/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٤/٧.

نفس العذاب إثرَ بيان عدم تأثّرهم بمجيء[١] خبره على نهج التوكيد القَسمي، أي: وبالله لئن أصابهم أدنى إصابة أدنى شيءٍ مِن عذابه تعالى كما ينبئ عنه المسّ والنفحة بجوهرها وبنائها، فإنّ أصل "النفح" هبوب رائحة الشيء.

﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لَيَدْعُنّ على أنفسهم بالويل والهلاك، ويعترِفُنّ عليها بالظلم.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ بيان لِما سيقع عند إتيان ما أُنذِروه، أي: نقيم الموازين العادلة التي توزَن بها صحائف الأعمال. / وقيل: وضعُ الموازين تمثيل لإرصاد الحساب السويّ والجزاء على حسب الأعمال، وقد مرّ تفصيل ما فيه مِن الكلام في سورة الأعراف.[٢] وإفراد ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ لأنّه مصدر وُصف به مبالغة. [٨٧ظ]

﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ التي كانوا يستعجلونها، أي: لِجزائه، أو لأجل أهله، أو فيه كما في قولك: "جِئتُ لِخمسٍ خَلَون مِن الشهر".

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مِن النفوس ﴿شَيْـًٔا﴾ حقًّا مِن حقوقها، أو شيئًا ما مِن الظلم؛ بل يوفّى كلّ ذي حقّ حقّه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. و"الفاء" لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين.

﴿وَإِن كَانَ﴾ أي: العملُ المدلولُ عليه بوضع الموازين ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: مقدارَ حبّة كائنة مِن خردل، أي: وإن كان في غاية القِلّة والحقارة، فإنّ حبّة الخردل مَثَل في الصِغَر. وقُرِئ: "مِثْقَالُ حَبَّةٍ" بالرفع[٣] على أنّ ﴿كَانَ﴾ تامّة. ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: أحضرنا ذلك العمل المعبَّر عنه بمثقال حبّة الخردل للوزن.

---

١ ط س: مِن مجيء.
٢ الأعراف، ٨/٧.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

والتأنيث لإضافته إلى الحبّة. وقُرئ: "آتَيْنَا بِهَا"،[١] أي: جازينا بها، مِن "الإيتاء" بمعنى المجازاة والمكافأة؛ لأنّهم أتَوه بالأعمال وأتاهم بالجزاء. وقُرئ: "أَثَبْنَا"[٢] مِن الثواب. وقُرئ: "جِئْنَا بِهَا".[٣]

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ إذ لا مزيدَ على علمنا وعدلنا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا[٤] لِّلْمُتَّقِينَ﴾ نوعُ تفصيلٍ لِما أُجمِل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾،[٥] وإشارة إلى كيفيّة إنجائهم وإهلاك أعدائهم. وتصديره بالتوكيد القَسمي لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه.

والمراد بـ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ هو التوراة، وكذا بـ"الضياء" و"الذكرى"، أي: وبالله لقد آتيناهما وحيًا ساطعًا وكتابًا جامعًا بين كونه فارقًا بين الحقّ والباطل وضياءً يُستَضاءُ به في ظلمات الجهلِ والغِواية، / وذكرى يتّعظ به الناس. وتخصيصُ [٨٨و] المتّقين بالذكر لأنّهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره،[٦] أو ذكرى ما يحتاجون إليه مِن الشرائع والأحكام.

وقيل: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ النصر. وقيل: فَلْق البحر. والأوّل هو اللائق بمساق النظم الكريم، فإنّه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الإلهيّة لا سيّما التوراة فيما ذكر مِن الصفات، ولأنّ فَلْق البحر هو الذي اقترح الكفرة مثلَه بقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾.[٧] وقُرئ: "ضِيَاءً"[٨] بغير واوٍ على أنّه حال مِن ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد وابن جبير ومحمّد بن جعفر وابن شريح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٢٠/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٣٦/٧.

٤ م ط س: وذكرى. | قال أبو عمرو الداني: «وكتبوا ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا﴾ بالألف، كلّ ما كان منوّنًا فهو مثل ذلك، نحو قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة، ٢٠٠/٢] و﴿مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه، ٩٩/٢٠] و﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق، ١٠/٦٥]، ورُسم جميعه في كلّ المصاحف بالألف على نيّة الوقف، ولا يجوز غير ذلك». المقنع لأبي عمرو، ص ٩١.

٥ الأنبياء، ٧/٢١-٩.

٦ وفي هامش م: اغتنم عنده غنيمةً.

٧ الأنبياء، ٥/٢١.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٨.

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ۝٤٩﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ أي: عذابَهُ، مجرور المحلّ على أنّه صفة مادحة للمتّقين، أو بدل، أو بيان، أو منصوب، أو مرفوع على المدح. ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حال مِن المفعول، أي: يخشَون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهَد لهم، ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثّرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أُنذِروه. وقيل: مِن الفاعل.

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ أي: خائفون منها بطريق الاعتناء. وتقديم الجارّ لمراعاة الفواصل، وتخصيصُ إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المَخوفات، وللتنصيص على اتّصافهم بضدّ ما اتّصف به المستعجلون. وإيثار الجملة الاسميّة للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه.

﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾

﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن الكريم، أشيرَ إليه بهذا إيذانًا بغاية وضوح أمره ﴿ذِكۡرٞ﴾ يتذكّر به مَن تذكّر. وُصِف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته لِما مرّ في صدر السورة الكريمة.[١] ﴿مُّبَارَكٌ﴾ كثير الخير، غزير النفع، يُتَبَرَّكُ به. ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ إمّا صفة ثانية لِـ﴿ذِكۡرٞ﴾ / أو خبر آخر. [٨٨ظ]

﴿أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ إنكار لإنكارهم بعد ظهور كون إنزاله كإيتاء التوراة، كأنّه قيل: أبَعدَ أن علِمتم أنّ شأنه كشأن التوراة في الإيتاء والإيحاء أنتم منكرون لكونه منزَّلًا مِن عندنا؟ فإنّ ذلك بعد ملاحظة حال التوراة ممّا لا مساغَ له أصلًا.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ أي: الرشدَ اللائق به وبأمثاله مِن الرسل الكبار، وهو الاهتداء الكامل المستند إلى الهداية الخاصّة الحاصلة بالوحي، والاقتدارُ

---

[١] وهو قوله تعالى: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ﴾ [الأنبياء، ٢١/٢].

على إصلاح الأمّة باستعمال النواميس الإلهيّة. وقُرِئ: "رَشَدَهُ"،[١] وهما لغة، كالحُزْن والحَزَن. ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: مِن قبل إيتاءِ موسى وهارون التوراة. وتقديم ذكر إيتائها لِما بينه وبين إنزال القرآن مِن الشبَه التامّ. وقيل: مِن قَبل استنبائه، أو قبل بلوغه،[٢] ويأباه المقام.

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ أي: بأنّه أهل لِما آتيناه. وفيه مِن الدليل على أنّه تعالى عالم بالجزئيّات، مختار في أفعاله ما لا يخفى.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝﴾

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ ظرف لـ﴿ءَاتَيۡنَا﴾[٣] على أنّه وقت متّسع وقع فيه الإيتاء وما ترتّب عليه مِن أفعاله وأقواله. وقيل: مفعول لمُضمَر مستأنَف وقع تعليلًا لِما قبله، أي: اذكر وقتَ قوله لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ لتقِف على كمال رشده وغايةِ فضله. والتِّمثال: اسم لشيء مصنوع مشبَّهًا بخلقٍ مِن خلائق الله تعالى.

وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بـ﴿مَا﴾ التي يطلب بها بيان الحقيقة أو شرحُ الاسم، كأنّه لا يعرف أنّها ماذا مع إحاطته بأنّ حقيقتها حجَر أو شجَر اتّخذوها معبودًا. وعَبّر عن عبادتهم لها بمطلق العكوف الذي هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض مِن الأغراض قصدًا إلى تحقيرها وإذلالها، وتوبيخًا لهم / على إجلالها. و"اللام" في ﴿لَهَا﴾ للاختصاص [٨٩و]
دون التعدية، وإلّا لَجيء بكلمة "على". والمعنى: أنتم فاعلون العكوف لها.

وقد جُوّز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ أجابوا بذلك لِما أنّ مآل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن سبب عبادتهم لها كما ينبئ عنه وصفُه عليه السلام إيّاهم بالعكوف لها،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٨.

٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤/٥٣.

٣ في الآية السابقة.

كأنّه عليه السلام قال: ما هي؟ هل تستحقّ ما تصنعون مِن العكوف عليها؟ فلمّا لم يكن لهم ملجأ يُعتدّ به التجئوا إلى التقليد فأبطله عليه السلام على طريقة التوكيد القَسمي حيث ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ الذين سنّوا لكم هذه السنّة الباطلة ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عجيبٍ لا يقادَر قدرُه ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: ظاهرٍ بيّنٍ بحيث لا يخفى على أحد مِن العقلاء كونُه كذلك.

ومعنى ﴿كُنتُمْ﴾ مطلق استقرارهم على الضلال، لا استقرارُهم الماضي الحاصل قبل زمان الخطاب المتناوِلُ لهم ولآبائهم، أي: والله لقد كنتم مستقرّين على ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده إلى دليلٍ ما، والتقليد إنّما يجوز فيما يحتمل الحقّيّة في الجملة.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ لمّا سمعوا مقالته عليه السلام استبعادًا لكون ما هم عليه ضلالًا وتعجّبًا مِن تضليله عليه السلام إيّاهم بطريق التوكيد القَسمي، وتردّدًا في كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجدّ: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالجِدّ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزاح. وفي إيراد الشقّ الأخير بالجملة الاسميّة الدالّة على الثبات إيذان برجحانه عندهم.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾

﴿قَالَ﴾ عليه السلام إضرابًا عمّا بنَوا عليه مقالتهم مِن اعتقاد كونها أربابًا لهم كما يُفصح عنه قولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٧١]، كأنّه قيل: ليس الأمر كذلك ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ وقيل: هو إضراب عن كونه لاعبًا بإقامة البرهان على ما ادّعاه. وضمير ﴿هُنَّ﴾ لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وصفه تعالى بإيجادهنّ إثْرَ وَصْفِه تعالى بربوبيّته تعالى لهنّ تحقيقًا للحقّ وتنبيهًا على أنّ ما لا يكون كذلك بمَعزِل مِن الربوبيّة، أي: أنشأهنّ بما فيهنّ

[٨٩ظ] مِن المخلوقات التي مِن جملتها أنتم / وآباؤكم وما تعبدونه مِن غير مثال يحتذيه، ولا قانون ينتحيه. ورجعُ الضمير إلى ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾[١] أدخَل في تضليلهم، وأظهرُ في إلزام الحجّة عليهم، لِما فيه مِن التصريح المُغني عن التأمّل في كون ما يعبدونه مِن جملة المخلوقات.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ الذي ذكرته مِن كون ربّكم ربَّ السماوات والأرض فقط دون ما عداه كائنًا ما كان ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: العالِمين به على سبيل الحقيقة المُبرهِنين عليه، فإنّ الشاهد على الشيء مَن تَحقّقه وحقّقه، وشهادتُه على ذلك إدلاؤه بالحجّة عليه وإثباته بها، كأنّه قال: وأنا أبيّن ذلك وأبرهِن عليه.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧﴾

﴿وَتَٱللَّهِ﴾ وقُرئ بالباء،[٢] وهو الأصل، والتاء بدل مِن الواو التي هي بدل مِن الأصل، وفيها تعجّب، ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ أي: لأجتهدنّ في كسرها. وفيه إيذان بصعوبة الانتهاز وتوقّفه على استعمال الحيَل، وإنّما قاله عليه السلام سرًّا. وقيل: سمعه رجل واحد.

﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ مِن عبادتها إلى عيدكم. وقُرئ: "تَوَلَّوْا"[٣] مِن "التولّي" بحذف إحدى التاءَين، ويعضُدها قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾ [الصافات، ٩٠/٣٧].

﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ﴾ فصيحة، أي: فَوَلَّوْا فجعلهم ﴿جُذَٰذًا﴾ أي: قِطاعًا، "فُعال" بمعنى مفعول، مِن "الجَذّ" الذي هو القطع، كالحُطام مِن "الحَطْم" الذي هو الكَسر. وقُرئ بالكسر[٤] وهي لغة، أو جمع "جَذيذ"، كخِفاف وخَفيف.

---

١ الأنبياء، ٥٢/٢١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه وأحمد بن حنبل. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. البحر المحيط لأبي حيّان. ٤٤٥/٧.

٤ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

وقُرئ بالفتح.[1] و"جُذُذًا"[2] جمع "جَذيذ"، و"جُذَذًا"[3] جمع "جُذّة".[4]

رُوي أنّ آزَر خرج به في يوم عيدٍ لهم، فبدءوا ببيت الأصنام فدخلوه، فسجدوا لَها ووضعوا بينها طعامًا خرجوا به معهم، وقالوا: إلى أن نرجِعَ برّكت الآلهة على طعامنا، فذهبوا وبقي إبراهيم عليه السلام، فنظر إلى الأصنام، وكانت سبعين صنمًا مصطفًّا، وثَمّ صنم عظيم مستقبل الباب، وكان مِن ذهَب، وفي عينيه جوهرتان تضيئان بالليل، فكسر الكلَّ بفأس كان في يده، ولم يُبقِ إلّا الكبير، وعلّق الفأس / في عنقه.[5] [٩٠و]

وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: للأصنام ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى إبراهيم عليه السلام ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيحاجّهم بما سيأتي فيحجّهم ويبكّتهم. وقيل: يَرجعون إلى الكبير فيسألونه عن الكاسر؛ لأنّ مِن شأن المعبود أن يُرجَع إليه في المُلمّات. وقيل: يَرجعون إلى الله تعالى وتوحيده عند تحقّقهم عجز آلهتهم عن دفع ما يصيبهم وعن الإضرار بمَن كسَرهم.

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: حين رجعوا مِن عيدهم ورأَوا ما رأَوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ على طريقة الإنكار والتوبيخ والتشنيع. وإنّما عبّروا عنها بما ذُكر ولم يشيروا إليها بـ"هؤلاءِ" وهي بين أيديهم مبالغةً في التشنيع. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئناف مقرّر لِما قبله.

وقيل: ﴿مَن﴾ موصولة، وهذه الجملة في حيّز الرفع على أنّها خبر لها، والمعنى: الذي فعل هذا الكَسْر والحَطْم بآلهتنا إنّه معدود مِن جملة الظلَمة،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وأبي نهيك وأبي السّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٨.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثاب. البحر المحيط لأبي حيّان. ٤٤٥/٧.

[3] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٢٣/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان. ٤٤٥/٧.

[4] ما عليه جُذّةٌ، أي: شيء مِن الثياب. الصحاح للجوهري، «جذذ».

[5] الكشّاف للزمخشري، ١٢٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٢٧/١٣.

إمّا لجرأته على إهانتها وهي حقيقة بالإعظام، أو لإفراطه في الكَسْر والحَطْم، وتماديه في الاستهانة بها، أو بتعريض نفسه للهلَكة.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: بعض منهم مجيبين للسائلين: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يَعيبهم، فلعلّه فعل ذلك بها. فقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ إمّا مفعول ثان لـ﴿سَمِعَ﴾ لتعلّقه بالعين، أو صفة لـ﴿فَتًى﴾ مُصحِّحة لتعلّقه به. هذا إذا كان القائلون سمعوه عليه السلام بالذات يَذكرهم، وإن كانوا قد سمعوا مِن الناس أنّه عليه السلام يَذكرهم بسوء فلا حاجة إلى المصحِّح. ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ صفة أخرى لـ﴿فَتًى﴾، أي: يطلق عليه هذا الاسم.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾

﴿قَالُواْ﴾ أي: السائلون: ﴿فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بمرأى منهم بحيث يكون نُصب أعينهم في مكان مرتفع لا يكاد يخفى على أحد، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون عقوبتنا له. وقيل: / لعلّهم يشهدون بفعله أو بقوله ذلك، فالضمير [٩٠ظ] حينئذ ليس لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ بل لبعضٍ منهم مبهَمٍ أو معهود.

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية قولهم، كأنّه قيل: فماذا فعلوا به بعد ذلك؟ هل أتَوا به أو لا؟ فقيل: قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ اقتصارًا على حكاية مخاطبتهم إيّاه عليه السلام للتنبيه على أنّ إتيانهم به ومسارعتَهم إلى ذلك أمر محقَّق غنيّ عن البيان.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤﴾

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ مشيرًا إلى الذي لم يكسره. سلَك عليه السلام مسلكًا تعريضيًا يؤدّيه إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجّةَ على ألطف وجه

وأحسنِه بحملهم على التأمّل في شأن آلهتهم، مع ما فيه مِن التوقّي مِن الكذب، حيث أبرز الكبير قولًا في معرض المباشر للفعل بإسناده إليه، كما أبرزه في ذلك المعرض فعلًا بجعل الفأس في عنقه، وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الأصنام غاظَتْهُ[1] عليه السلام حين أبصرها مصطفّة مرتّبةً للعبادة مِن دون الله سبحانه، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشدّ حسب زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه باعتبار أنّه الحامل عليه.

وقيل: هو حكاية لِما يقود إلى تجويزه مذهبُهم، كأنّه قال لهم: «ما تنكرون[2] أن يفعله كبيرهم؟ فإنّ مِن حقّ مَن يُعبَدُ ويُدعَى إلهًا أن يقدر على ما هو أشدّ مِن ذلك». ويُحكى أنّه عليه السلام قال: «فعله كبيرهم هذا، غَضِبَ أن تُعْبَدَ معه هذه الصغار وهو أكبر منها»، فيكون تمثيلًا أراد به عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لإشراكهم بعبادته الأصنامَ.

وأمّا ما قيل[3] مِن أنّه عليه السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم؛ بل إنّما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه مِن إلزامهم الحجّةَ وتبكيتِهم، ومثّل لذلك بما لو قال / لك أمّي فيما [٩١و] كتبته بخطّ رشيق وأنت شهير بحُسن الخطّ: أَأَنتَ كتبتَ هذا؟ فقلتَ له: بل أنت كتبتَه، كان قصدُك تقريرَ الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل، لا نفيَها عنك وإثباتها له؛ فبمَعزِل مِن التحقيق؛ لأنّ خلاصة المعنى في المثال المذكور مجرّد تقرير الكتابة لنفسك وادّعاء ظهور الأمر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيلِه في السؤال؛ لابتنائه على أنّ صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك.

ولا ريب في أنّ مراده عليه السلام مِن إسناد الكسر إلى الصنم ليس مجرّدَ تقريره لنفسه ولا تجهيلَهم في سؤالهم؛ لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم؛ بل إنّما مراده عليه السلام توجيهُهم نحو التأمّل في أحوال أصنامهم كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ أي: إن كانوا ممّن يمكن أن ينطقوا.

---

[1] س: عاظته.

[2] س: ما ينكرون.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٢٤/٣.

وإنّما لم يقل عليه السلام: إن كانوا يسمعون، أو يعقلون، مع أنّ السؤال موقوف على السمع والعقل أيضًا، لِما أنّ نتيجة السؤال هو الجواب وأنّ عدم نطقهم أظهر، وتبكيتهم بذلك أدخل.

وقد حصل ذلك أوّلًا حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: راجَعوا عقولَهم، وتذكّروا أنّ ما لا يقدر على دفع المضَرّة عن نفسه ولا على[1] الإضرار بمَن كسره بوجه مِن الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرّة عن غيره أو جلب منفعة له، فكيف يستحقّ أن يكون معبودًا؟ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي: قال بعضهم لبعضٍ فيما بينهم: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: بهذا السؤال؛ لأنّه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة، أو بعبادة الأصنام، لا مَن ظلّمتموه بقولكم: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،[2] أو أنتم الظالمون بعبادتها لا مَن كسرها.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شُبِّه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه. وقُرئ: "نُكِّسوا" / بالتشديد،[3] و"نَكَسُوا"[4] على البناء للفاعل، أي: نكَسوا أنفسهم. [٩١ظ]

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ على إرادة القول، أي: قائلين: والله لقد علمتَ أن ليس مِن شأنهم النطق، فكيف تأمرنا بسؤالهم؟ على أنّ المراد استمرار نفي النطق، لا نفيُ استمراره كما يوهمه صيغة المضارع.

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾

﴿قَالَ﴾ مبكّتًا لهم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ﴾ أي: أتعلمون ذلك فتعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: متجاوزين عبادته تعالى ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ مِن النفع ﴿وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾، فإنّ العلم بحاله المنافيةِ للألوهيّة ممّا يوجب الاجتناب عن عبادته قطعًا.

---

١ س: عن.

٢ الأنبياء، ٥٩/٢١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرف وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر رضوان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تضجّر منه عليه السلام مِن إصرارهم على الباطل البيّن. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لمزيد استقباح ما فعلوا. و﴿أُفٍّ﴾ صوتُ المتضجّر، ومعناه: قُبحًا ونَتْنًا. و"اللام" لبيان المتأفَّف له. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تتفكّرون فلا تعقلون قُبح صنيعكم.

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾

﴿قَالُوا۟﴾ أي: قال بعضهم لبعضٍ لمّا عجزوا عن المُحاجّة، وضاقت عليهم الحِيَل، وعَيَّت بهم العلل، وهكذا ديدن المبطِل المحجوج إذا قُرِعت شبهتُه بالحجّة القاطعة وافتُضِح لا يبقى له مَفزع إلّا المناصبة: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإنّه أشدّ العقوبات ﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام لها ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: للنصر، أو لشيء يُعتدّ به. قيل: القائل نمرود بن كنعان بن السنحاريب بن نمرود بن كوس بن حام بن نوح.[1] وقيل: رجل مِن أكراد فارس اسمه هيّون. وقيل: هدير خسِفت به الأرض.

رُوي أنّهم لمّا أجمعوا على إحراقه عليه السلام بنَوا له حظيرة بكوثى؛[2] قرية مِن قرى الأنباط، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات، ٩٧/٣٧]، فجمعوا له صِلاب الحطب مِن أصناف الخشب مدّة أربعين يومًا، فأوقدوا نارًا عظيمة لا يكاد يحوم حولها أحد، / حتّى إن كانت الطير [٩٢و]
لتَمرّ بها وهي في أقصى الجوّ فتحترق مِن شِدّة وَهجها، ولم يكد أحد يحوم حولها، فلم يعلموا كيف يُلقونه عليه السلام فيها، فأتى إبليس وعلّمهم عمل المنجنيق فعملوه.

---

[1] في مطبوع الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٩/٢ (البقرة، ٢٥٨/٢): نمرود بن كنعان بن سخاريب بن كوش بن سام بن نوح.

[2] كُوثى: مدينة بالعراق إلى جانب بابل، وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، وفتحها سعد بن أبي وقّاص في سنة عشر. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٨٧/٤؛ والروض المعطار للحميري، ص ٥٠٣.

وقيل: صنعه لهم رجل مِن الأكراد، فخسف الله تعالى به الأرض، فهو يتجَلجَل فيها إلى يوم القيامة، ثمّ عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولًا فرموا به فيها، فقال له جبريل عليهما السلام: «هل لك حاجة؟» قال: «أمّا إليك فلا»، قال: «فاسأل ربّك»، قال: «حسبي مِن سؤالي علمُه بحالي»، فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرةَ روضةً.[١]

وذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: كوني ذات برد وسلام، أي: ابرُدي بردًا غيرَ ضارّ. وفيه مبالغات: جعلُ النار المسخّرة لقدرته تعالى مأمورةً مطاوِعة، وإقامةُ "كوني ذات بردٍ" مُقامَ "ابرُدي"، ثمّ حذفُ المضاف وإقامةُ المضاف إليه مُقامه. وقيل: نصب ﴿سَلَٰمًا﴾ بفعله، أي: وسلّمنا سلامًا عليه.

رُوي أنّ الملائكة أخذوا بضَبعَي[٢] إبراهيم وأقعدوه على الأرض، فإذا عينُ ماءٍ عذب ووَرد أحمر ونرجِس.[٣] ولم تحرق النارُ منه إلّا وَثاقه.[٤]

ورُوي أنّه عليه السلام مكث فيها أربعين يومًا أو خمسين، وقال: «ما كنت أطيبَ عيشًا منّي إذ كنت فيها».[٥]

قال ابن يَسار: «وبعث الله تعالى مَلَك الظلّ، فقعد إلى جنبه يؤنسه، فنظر نمرود مِن صرحه فأشرف عليه، فرآه جالسًا في روضة مُونَقة ومعه جليس على أحسن ما يكون مِن الهيئة والنارُ محيطة به، فناداه: "يا إبراهيم، هل تستطيع أن تخرج منها؟" قال: "نعم"، قال: "فقُم فاخرج"، فقام يمشي فخرج منها، فاستقبله نمرود وعظّمه، وقال: "مَن الرجل الذي رأيته معك؟" قال: "ذلك ملَك الظلّ، أرسله ربّي ليُؤنسني"، فقال: "إنّي مقرِّب إلى إلهك قُربانًا لِما رأيت مِن قدرته / وعزّته فيما صنع بك"، فقال عليه السلام: "لا يقبل الله منك [٩٢ظ]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨١/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١٢٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٥/٤.

٢ الضَبْعُ: العَضُد. الصحاح للجوهري، «ضبع».

٣ قاله السدّي. الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٦؛ اللباب لابن عادل، ٥٣٩/١٣.

٤ قاله كعب. جامع البيان للطبري، ٣٠٧/١٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٦.

٥ تفسير ابن أبي حاتم، ٢٤٥٦/٨؛ اللباب لابن عادل، ٥٣٩/١٣.

ما دمت على دينك هذا"، قال: "لا أستطيع تركَ مُلكي، ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة"، فذبحها وكفّ عن إبراهيم عليه السلام».[١] وكان إذا ذاك ابن ستّ عشرة سنةً.[٢]

وهذا كما ترى مِن أبدع المعجزات، فإنّ انقلاب النار هواءً طيّبًا وإن لم يكن بِدْعًا مِن قدرة الله عزّ وجلّ لكنّ[٣] وقوع ذلك على هذه الهيئة ممّا يخرق العادات. وقيل: كانت النار على حالها لكنّه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه في السمَندر،[٤] كما يُشعر به ظاهر قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠﴾

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ مكرًا عظيمًا في الإضرار به ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أي: أخسرَ مِن كلّ خاسر، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحقّ برهانًا قاطعًا على أنّه عليه السلام على الحقّ وهم على الباطل، وموجِبًا لارتفاع درجته واستحقاقهم لأشدّ العذاب.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢﴾

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مِن العراق إلى الشام وبركاته العامّة، إنّ أكثر الأنبياء بُعِثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينيّة والدنيويّة. وقيل: كثرة النعم والخِصب الغالب. رُوي أنّه عليه السلام نزل بِفلَسطين، ولوطٌ عليه السلام بالمؤتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٦؛ اللباب لابن عادل، ٥٣٩/١٣.

٢ جامع البيان للطبري، ٣٠٨/١٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٢/٦.

٣ س: ولكنّ.

٤ السمَندل -باللام- طائر مشهور، وهو بـ"اللام" عند الأزهري، وبـ"الراء" عند غيره. وظاهر كلام القاموس أنّهما متغايران، فإنّه قال: «السمَندر والسمَيدر: دابّة»، وقال في "اللام": «السمَندل: طائر بالهند لا يحترق بالنار». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤٤/٦.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: عطيّةً، فهي حال منهما، أو ولدَ ولدٍ، أو زيادة على ما سأل، وهو إسحاق فتختصّ بيعقوب، ولا لَبس فيه للقرينة الظاهرة. ﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحد مِن هؤلاء الأربعة، لا بعضَهم دونَ بعضٍ ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ بأن وفّقناهم للصلاح في الدين والدنيا فصاروا كاملين.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدَى بهم في أمور الدين إجابةً لدعائه عليه السلام بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [البقرة، ٢/١٢٤].

﴿يَهْدُونَ﴾ أي: الأمّة إلى الحقّ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك، وإرسالنا إيّاهم حتّى صاروا مكمَّلين، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ليحثّوهم عليه / فيتمّ كمالُهم [٩٣و] بانضمام العمل إلى العلم. وأصلُه "أن تُفعَل الخيراتُ" ثمّ "فِعْلًا الخيراتُ"،[1] وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهو مِن عطف الخاصّ على العامّ دلالةً على فضله وإنافته، وحُذفت تاء الإقامة المعوّضة مِن إحدى الألفَين لقيام المضاف إليه مَقامه. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا﴾ خاصّةً دون غيرنا ﴿عَٰبِدِينَ﴾ لا يخطر ببالهم غيرُ عبادتنا.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَلُوطًا﴾ قيل: هو منصوب بمُضمَر يفسّره قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ أي: وآتينا لوطًا. وقيل: بـ"اذكر". ﴿حُكْمًا﴾ أي: حِكمةً، أو نبوّة، أو فصلًا بين الخصوم بالحقّ، ﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي علمه للأنبياء عليهم السلام. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أي: اللواطة، وُصفت بصفة أهلها وأُسندت إليها

---

[1] قال الشهاب الخفاجي: «و"الخيراتُ" في قوله: "فِعلًا الخيراتُ" مرفوعة على القيام مَقام فاعله، وكونُ المصدر يكون مبنيًا للمفعول رافعًا لنائبه مختلف فيه، فأجاز ذلك الأخفش». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٦/٢٦٣.

على حذف المضاف وإقامتِها مُقامه، كما يؤذِن به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ فإنّه كالتعليل له.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَا﴾ أي: في أهل رحمتنا، أو في جنّتنا. ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين سبقت لهم منّا الحسنى.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَنُوحًا﴾ أي: اذكر نوحًا، أي: خبره. وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: دعا الله تعالى على قومه بالهلاك، ظرف للمضاف المقدّر، أي: اذكر نبأَه الواقعَ وَقتَ دعائه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هؤلاء المذكورين، ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: دعاءَه الذي مِن جملته قوله: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر، ١٠/٥٤].

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الطوفان، وقيل: أذيّة قومه. وأصل "الكَرْب" الغمّ الشديد.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ نصرًا مستتبِعًا للانتقام والانتصار، ولذلك قيل: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وحملُه على "فَانْتَصَر"[1] يأباه ما ذُكر مِن دعائه عليه السلام،[2] فإنّ ظاهره يوجب إسناد الانتصار إليه تعالى مع ما فيه مِن تهويل الأمر.

وقوله تعالى: / ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ تعليل لِما قبله، وتمهيد لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فإنّ الإصرار على تكذيب الحقّ والانهماك في الشرّ والفساد ممّا يوجب الإهلاك قطعًا. [٩٣ظ]

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١١٢٨/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧/٤.

٢ وفي هامش م: وهو قوله: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر، ١٠/٥٤]. «منه».

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إمّا عطفٌ على ﴿نُوحًا﴾[١] معمول لعامله، وإمّا لمُضمَر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ ظرف للمضاف المقدّر، وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها، أي: اذكر خبرَهما وقت حكمهما ﴿فِى ٱلْحَرْثِ﴾ أي: في حقّ الزرع، أو الكَرْم المُتدلّي عناقيدُه كما قيل، أو بدل اشتمال منهما.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ أي: تفرّقت وانتشرت ﴿فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ ليلًا بلا راعٍ فرَعَته وأفسدَته، ظرف للحكم. ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ أي: لحكم الحاكمَين والمتحاكِمين إليهما، فإنّ الإضافة لمجرّد الاختصاص المنتظِم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع. وقُرئ: "لِحُكْمِهِمَا".[٢] ﴿شَٰهِدِينَ﴾ حاضرين عِلمًا. والجملة اعتراض مقرِّر للحكم، ومفيد لمزيد الاعتناءِ بشأنه.

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ عطفٌ على ﴿يَحْكُمَانِ﴾،[٣] فإنّه في حكم الماضي. وقُرئ: "فَأَفْهَمْنَاهَا".[٤] والضمير للحكومة، أو الفتيا.

رُوي أنّه دخل على داود عليه السلام رجلان، فقال أحدهما: «إنّ غنَم هذا دخلت في حَرثي ليلًا فأفسدَته»، فقضى له بالغنم، فخرجا فمرّا على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك، فقال: «غير هذا أرفق بالفريقين»، فسمعه داود فدعاه، فقال له: «بحقّ النبوّة والأبوّة إلّا أخبرتني بالذي أرفق بالفريقين»، فقال: «أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض لينتفع بدَرّها ونَسلها وصوفها، والحرْثَ إلى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتّى يعودَ إلى ما كان، ثمّ يَترادّا»، فقال: «القضاء ما قضيتَ»، وأمضى الحكم بذلك.[٥]

---

١ الأنبياء، ٧٦/٢١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

٥ اللباب لابن عادل، ٥٥٢/١٣. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٥/٦؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢٤٦/٣.

والذي عندي أنّ حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد، فإنّ قول سليمان عليه السلام: «غير هذا / أرفق بالفريقين»، ثمّ قولَه: «أرى أن تدفع»... إلخ [٩٤و] صريح في أنّه ليس بطريق الوحي، وإلّا لَبَتّ القول بذلك، ولَما ناشده[١] داودُ عليهما السلام لإظهار ما عنده؛ بل وجب عليه أن يظهره بَدءًا وحرُم عليه كَتمه، ومِن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضًا كذلك ضرورةَ استحالة نقضِ حكم النصّ بالاجتهاد؛ بل أقول -والله تعالى أعلم-: إنّ رأي سليمان عليه السلام استحسان، كما ينبئ عنه قوله: «أرفق بالفريقين»، ورأيَ داود عليه السلام قياس، كما أنّ العبد إذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبي حنيفة[٢] إلى المجنيّ عليه، أو يفديه ويبيعه في ذلك،[٣] أو يفديه عند الشافعي.[٤] وقد رُوي أنّه لم يكن بين قيمة الحَرث وقيمة الغنم تفاوت.

وأمّا سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بإزاء ما فات مِن الانتفاع بالحَرث مِن غير أن يزول مِلك المالك مِن الغنم، وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحَرث إلى أن يزول الضرر الذي أتاه مِن قِبَله، كما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبدًا فأبَق منه: أنّه يضمن القيمة فينتفع بها المغصوب منه بإزاء ما فوّته الغاصب مِن المنافع، فإذا ظهر الآبِق ترادّا.[٥]

وفي قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ دليل على رجحان قوله. ورجوع داود عليه السلام إليه مع أنّ الحكم المبنيّ على الاجتهاد لا يُنقَض باجتهاد آخر وإن كان أقوى منه لِما أنّ ذلك مِن خصائص شريعتنا، على أنّه ورد في الأخبار أنّ داود عليه السلام لم يكن بَتّ الحكم في ذلك حتّى سمع مِن سليمان ما سمع.

وأمّا حكم المسألة في شريعتنا فعند أبي حنيفة رحمه الله لا ضمان إن لم يكن معها سائق أو قائد،[٦] وعند الشافعي يجب الضمان ليلًا لا نهارًا.[٧]

---

[١] وفي هامش م: وقد ناشَدَهُ مناشَدة ونشادًا؛ حلّفه. «قاموس». «منه». | **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «نشد».

[٢] س: أبيحنيفه.

[٣] انظر: **ردّ المحتار** لابن عابدين، ٦/٦١٣.

[٤] انظر: **مغني المحتاج** للخطيب الشربيني، ٥/٣٦٤.

[٥] انظر: **نهاية المطلب** للجويني، ٧/٢٨٦.

[٦] انظر: **الهداية** للمرغيناني، ٤/٤٨٣.

[٧] انظر: **الحاوي الكبير** للماوردي، ١٣/٤٦٦.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم مِن عدم كون حكم داود عليه السلام حكمًا شرعيًا، أي: وكلٌّ واحد منهما آتينا حكمًا وعلمًا كثيرًا، لا سليمان وحده. / وهذا [٩٤ظ] إنّما يدلّ على أنّ خطأ المجتهد لا يقدَح في كونه مجتهدًا. وقيل: بل على أنّ كلّ مجتهد مصيب، وهو مخالف لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾، ولولا النقل لاحتمل توافقهما، على أنّ قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ﴾ لإظهار ما تفضّل عليه في صغره، فإنّه عليه السلام كان حينئذ ابن إحدى عشرة سنةً.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾ شروع في بيان ما يختصّ بكلّ منهما مِن كراماته تعالى إثرَ بيان كرامته العامّة لهما. ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ أي: يقدّسن الله عزّ وجلّ معه بصوت يتمثّل له، أو يخلق الله تعالى فيها الكلام. وقيل: يَسِرن معه، مِن السِّباحة. وهو حال مِن ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، أو استئناف مبيّن لكيفيّة التسخير. و﴿مَعَ﴾ متعلّقة بالتسخير، وقيل: بالتسبيح،[١] وهو بعيد.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾، أو مفعول معه. وقُرئ بالرفع[٢] على الابتداء، والخبرُ محذوف، أي: والطير مسخَّرات. وقيل: على العطف على الضمير في ﴿يُسَبِّحْنَ﴾،[٣] وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل.

﴿وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ أي: مِن شأننا أن نفعل أمثالَه، فليس ذلك ببِدْعٍ منّا وإن كان بديعًا عندكم.

﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ أي: عملَ الدرع، وهو في الأصل: اللباس، قال قائلهم:

الْبَسْ لكلّ حالةٍ لَبوسَها إمّا نعيمَها وإمّا بوسَها[٤]

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٥٧.

٢ قراءة شاذّة، جوّزها الزجّاج، وقال: "ولا أعلم أحدًا قرأ بها". انظر: معاني القرآن إعرابه للزجّاج، ٣/٤٠٠؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

٣ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٥٧.

٤ لبَيْهَس الفَزاري. انظر: لسان العرب لابن منظور، «لبس».

وقيل: كانت صفائح فحلّقها وسرَدها.[١]

﴿لَكُمْ﴾ متعلّق بـ﴿عَلَّمْنَا﴾، أو بمحذوف هو صفة ﴿لَبُوسٍ﴾. ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ أي: اللَّبوسُ، بتأويل "الدِّرع". وقُرئ بالتذكير[٢] على أنّ الضمير لداود عليه السلام، أو لـ﴿لَبُوسٍ﴾. وقُرئ بنون العظمة.[٣] وهو بدل اشتمال مِن ﴿لَكُمْ﴾ بإعادة الجارّ مبيّنٌ لكيفيّة الاختصاص والمنفعة المستفادة مِن "لام" ﴿لَكُمْ﴾. ﴿مِنۢ بَأْسِكُمْ﴾ قيل: مِن حرب عدوّكم. وقيل: مِن وَقْع السلاح فيكم. ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أمرٌ وارد على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخّرنا له الريح، وإيراد "اللام" ههنا دون الأوّل للدلالة على ما بين التسخيرين مِن التفاوت، فإنّ تسخير ما سُخّر له عليه السلام مِن الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلّي له، والامتثالِ بأمره ونهيه، والمقهوريّةِ[٤] تحت ملكوته، وأمّا تسخير / الجبال والطير لداود عليه السلام [٩٥و] فلم يكن بهذه المثابة؛ بل بطريق التبعيّة له عليه السلام والاقتداء به في عبادة الله عزّ وعلا.

﴿عَاصِفَةً﴾ حال مِن ﴿ٱلرِّيحَ﴾، والعامل فيها الفعل المقدّر، أي: وسخّرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب مِن حيث إنّها كانت تَبعُد بكرسيّه في مدّة يسيرة مِن الزمان كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ، ١٢/٣٤]، وكانت رُخاءً في نفسها طيّبة. وقيل: كانت رُخاءً تارةً وعاصفةً أخرى حسب إرادته عليه السلام.

---

١ "فحَلَّقَها" -بالتشديد- أي: جعلها حِلَقًا. "وسَرَدَها" أدخَل الحِلَق بعضَها في بعض. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٦٦/٦.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٣ قرأ بها شعبة عن عاصم ورُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٤ وفي هامش م: مصدر مِن المبنيّ للمفعول. «منه».

وقُرئ: "الرِّيحُ" بالرفع[١] على الابتداء، والخبرُ هو الظرف المقدّم، و﴿عَاصِفَةً﴾ حينئذ حال مِن ضمير المبتدأ في الخبر، والعاملُ ما فيه مِن معنى الاستقرار. وقُرئ: "الرِّيَاحُ" نصبًا[٢] ورفعًا.[٣]

﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ بمشيئته، حال ثانية، أو بدل مِن الأولى، أو حال مِن ضميرها. ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ وهي الشام، رواحًا بعد ما سار به منه بُكرةً. قال الكلبيّ: «كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها مِن إصْطَخْر[٤] إلى الشام، وإلى حيث شاء، ثمّ يعود إلى منزله».[٥] ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فنُجريه حسبما يقتضيه الحكمة.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وسخّرنا له مِن الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار، ويستخرجون له مِن نفائسها. وقيل: ﴿مَن﴾ رفع على الابتداء، وخبرُه ما قبله، والأوّل هو الأظهر.

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غيرَ ما ذكر مِن بناء المُدُنِ والقصور، واختراعِ الصنائع الغريبة؛ لقوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ الآية [سبأ، ١٣/٣٤]. وهؤلاء إمّا الفِرقة الأولى أو غيرها، لعموم كلمة ﴿مَن﴾، كأنّه قيل: ومَن يعملون. وجمعُ الضمير الراجع إليها باعتبار معناها بعد ما رَشَح جانبه بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾. رُوي أنّ المسخَّر له عليه السلام كفّارهم لا مؤمنوهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

[٩٥ظ] وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: / مِن أن يَزيغوا عن أمره، أو يُفسدوا على ما هو مقتضى جِبِلّتهم. قيل: وكِّل بهم جمعًا مِن الملائكة وجمعًا

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

٢ قرأ بها أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.

٤ إصْطَخْر: بلدة بفارس مِن أعيان حصون فارس ومدنها وكُوَرها، قيل: كان أوّل مَن أنشأها إصْطَخْر بن طهمورث ملِك الفرس. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢١١/١.

٥ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٥٨/٧؛ اللباب لابن عادل، ٥٦٢/١٣.

مِن مؤمني الجنّ. وقال الزجّاج: «كان يحفظهم مِن أن يُفسدوا ما عملوا»،[١] وكان دأبهم أن يُفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾

﴿وَأَيُّوبَ﴾ الكلام فيه كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾،[٢] أي: واذكر خبر أيّوب ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى﴾ أي: بأنّي ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ وقُرئ بالكسر[٣] على إضمار القول، أو تضمين النداء معناه. و﴿ٱلضُّرُّ﴾ شائع في كلّ ضَرر، وبالضمّ خاصّ بما في النفس مِن مرض وهُزال ونحوهما.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكَر نفسَه بما يوجبها، واكتفى به عن عرض المطلب لطفًا في السؤال.

وكان عليه السلام روميًّا مِن ولد عِيص بن إسحاق استنبأه الله تعالى، وكثُر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بهَدم بيت عليهم، وذهابِ أمواله، والمرضِ في بدنه ثماني عشرة سنةً، أو ثلاث عشرة سنةً، أو سبعًا وسبعةَ أشهر وسبعةَ أيّام وسبعَ ساعات.

رُوي أنّ امرأته ماخير بنت ميشا بن يوسف عليه السلام -أو رحمة بنت أفرائيم بن يوسف- قالت له يومًا: «لو دعوتَ الله تعالى»، فقال: «كم كانت مدّة الرخاء؟» فقالت: «ثمانين سنةً»، فقال: «أستحيي مِن الله تعالى أن أدعوه وما بلغَتْ مدّةُ بلائي مدّةَ رخائي».[٤]

ورُوي أنّ إبليس أتاها على هيئةٍ عظيمة، فقال: أنا إله الأرض فعلتُ بزوجك ما فعلتُ لأنّه تركني وعبدَ إله السماء، فلو سجد لي سجدة لَرددتُ عليه وعليكِ جميع ما أخذت منكما. وفي رواية: لو سجدتِ لي سجدة لرجعتُ المال والولد، وعافيتُ زوجك.

---

١ معاني القرآن للزجّاج، ٤٠١/٣.
٢ الأنبياء، ٧٨/٢١.
٣ أي: "إنّي". قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الكوفة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣١٩.
٤ الكشّاف للزمخشري، ١٣١/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٨/٤.

فرجَعتْ إلى أيّوب، وكان مُلْقًى في الكُناسة لا يقرب منه أحد، فأخبرته بالقصّة، / فقال عليه السلام: «كأنّكِ افتتنتِ بقول اللعين، لَئن عافاني الله عزّ وجلّ لأضربنّك مائة سوط، وحرامٌ عليّ أن أذوق بعد هذا شيئًا مِن طعامك وشرابك»، فطردها، فبقي طريحًا في الكُناسة، لا يحوم حوله أحد مِن الناس، فعند ذلك خرّ ساجدًا، فقال: «ربّ إنّي مسّني الضرّ، وأنت أرحم الراحمين». [٩٦و]

فقيل له: «ارفع رأسك، فقد استجيب لك، اركض برجلك»، فركض فنبعت مِن تحته عين ماء، فاغتسل منها، فلم يبقَ في ظاهر بدنه دابّةٌ إلّا سقطت، ولا جراحة إلّا برئت، ثمّ ركض مرّة أخرى، فنبعت عين أخرى، فشرب منها، فلم يبْق في جوفه داء إلّا خرج وعاد صحيحًا، ورجع إليه شبابه وجماله، ثمّ كُسِي حلّة. وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾.

فلمّا قام جعل يلتفت فلا يرى شيئًا ممّا كان له مِن الأهل والمالِ إلّا وقد ضاعفه الله تعالى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾. وقيل: كان ذلك بأن وُلد له ضِعفُ ما كان.

ثمّ إنّ امرأته قالت في نفسها: «هَب أنّه طردني، أفأتركه حتّى يموت جوعًا، وتأكله السباع، لأرجعنّ إليه»، فلمّا رجعت ما رأت تلك الكُناسة ولا تلك الحال، وقد تغيّرت الأمور، فجعلت تطوف حيث كانت الكُناسة وتبكي، وهابت صاحبَ الحلّة أن تأتيه وتسأل عنه، فأرسل إليها أيّوب ودعاها، فقال: «ما تريدين يا أمة الله؟» فبكت، وقالت: «أريد ذلك المبتلى الذي كان ملقًى على الكُناسة»، قال لها: «ما كان منك؟» فبكت، وقالت: «بَعلي»، قال: «أتعرفينه إذا رأيته؟» قالت: «وهل يخفى عليّ؟» فتبسّم فقال: «أنا ذلك»، فعرفَتْهُ بضحكه، فاعتنقته.[١]

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: آتيناه ما ذُكر لرحمتنا أيّوب، وتذكِرة لغيره مِن العابدين؛ ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أُثيب، أو لرحمتنا العابدين الذين مِن جملتهم أيّوب، وذكرِنا إيّاهم بالإحسان، وعدمِ نسياننا لهم.

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ١٦/٣٥٤؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٦/٢٩٦.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥﴾

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ / أي: واذكرهم، و"ذو الكِفل" إلياس. وقيل: [٩٦ظ] يوشع بن نون. وقيل: زكريّا. سمّي به لأنّه كان ذا حظّ مِن الله تعالى، أو تكفّل منه، أو ضِعف عمل أنبياء زمانه وثوابِهم، فإنّ "الكِفل" يجيء بمعنى النصيب والكفالة والضِّعف.

﴿كُلّٞ﴾ أي: كلّ واحد مِن هؤلاء ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على مشاقّ التكاليف وشدائد النُّوَب. والجملة استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن الأمر بذكرهم.

﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦﴾

﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَا﴾ أي: في النبوّة، أو في نعمة الآخرة، ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح الكامل الذي لا يحوم حوله شائبة الفساد، وهم الأنبياء، فإنّ صلاحهم معصوم مِن كَدَر الفساد.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: واذكر صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام، ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ أي: مراغِمًا لقومه لمّا بَرِم[1] مِن طول دعوته إيّاهم وشدّة شكيمتهم وتمادي إصرارِهم مهاجرًا عنهم قبل أن يؤمر. وقيل: وعدهم بالعذاب فلم يأتهم لميعادهم بتوبتهم، ولم يعرف الحال، فظنّ أنّه كذَبهم، فغضب مِن ذلك. وهو مِن بناء المغالبة للمبالغة. أو لأنّه أغضبهم بالمهاجَرة لخوفهم لحوق العذاب عندها. وقُرئ: "مُغْضَبًا".[2]

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي: لن نضيّق عليه، أو لن نقضي عليه بالعقوبة، مِن "القَدَر"، ويؤيّده أنّه قُرئ مشدّدًا.[3] أو لن نُعمِل فيه قدرتَنا. وقيل: هو تمثيل لحاله

---

١ بَرِمَ به -بالكسر- إذا سئمه. الصحاح للجوهري، «برم».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي شرف. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٣١/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦١/٧.

٣ أي: "نُقَدِّرَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦١/٧.

بحال مَن يظنّ أن لن نقدر عليه، أي: نعامل معاملة مَن يظنّ أن لن نقدر عليه في مراغمته قومَه مِن غير انتظار لأمرنا، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة، ٣/١٠٤]، أي: نعامل معاملة مَن يحسب ذلك. وقيل: خَطْرة شيطانيّة سبقت إلى وهمه فسمّيت "ظنًّا" للمبالغة. وقُرئ بالياء مخفّفًا[١] ومثقّلًا[٢] مبنيًّا للفاعل ومبنيًّا للمفعول.

[٩٧و] / ﴿فَنَادَىٰ﴾ "الفاء" فصيحة، أي: فكان ما كان مِن المساهمة والتقام الحوت، فنادى ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة، أو في ظلمات بطن الحوتِ والبحر والليل. وقيل: ابتلعَ حوتَه حوتٌ أكبرُ منه، فحصل في ظلمتَي بطنَي الحوتَين وظلمتَي البحر والليل.

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أي: بأنّه لا إله إلّا أنت، على أنّ ﴿أَن﴾ مخفّفة مِن "أنّ"، وضمير الشأن محذوف، أو أي: لا إله إلّا أنت، على أنّها مفسّرة.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أنزّهك تنزيهًا لائقًا بك مِن أن يُعجزك شيء، أو أن يكون ابتلائي بهذا بغير سبب مِن جهتي. ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضها للهلَكة حيث بادرتُ إلى المهاجَرة.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: دعاءَه الذي دعاه في ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه. عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما مِن مكروب يدعو بهذا الدعاء إلّا استُجيب له».[٣]

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات كان فيها في بطنه. وقيل: بعد ثلاثة أيّام. وقيل: ﴿ٱلْغَمِّ﴾ غمّ الالتِقام. وقيل: الخطيئة.

---

١ أي: "يُقْدَرَ". قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٢ أي: "يُقَدَّرَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه واليماني. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦١/٧.

٣ الكشّاف للزمخشري، ١٣٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٩/٤. وأخرجه الترمذي في السنن، ٥٢٩/٥ (٣٥٠٥)، عن سعد، بلفظ: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فإنّه لم يدعُ بها رجل مسلم في شيء قطّ إلّا استجاب الله له».

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنجاء الكامل ﴿نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن غمومٍ دعَوُا الله تعالى فيها بالإخلاص، لا إنجاءً أدنى منه. وفي الإمام: "نجي"،[١] فلذلك أخفى الجماعة النون الثانية، فإنّها تُخفى مع حروف الفم.

وقُرئ بتشديد الجيم[٢] على أنّ أصله "نُنَجِّي" فحذفت الثانية كما حذفت التاء في ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ [البقرة، ٨٥/٢]، وهي وإن كانت فاءً فحذفُها أوقَع مِن حذف حرف المضارَعة التي / لِمعنًى، ولا يقدح اختلاف حركتَي النونَين، فإنّ الداعي [٩٧ظ]
إلى الحذف اجتماع المثلَين مع تعذّر الإدغام، وامتناعُ الحذف في ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة، ١٦/٣٢] لِخوف اللَّبس. وقيل: هو ماض مجهول، أُسندَ إلى ضمير المصدر وسُكّنَ آخره تخفيفًا، ورُدّ بأنّه لا يُسنَد إلى المصدر والمفعولُ مذكور، والماضي لا يسكّن آخره.[٣]

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ أي: واذكر خبره ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ أي: وحيدًا بلا ولد يرثني، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ فحسبي أنت إن لم ترزقني وارثًا.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ وقد مرّ بيان كيفيّة الاستجابة والهبة في سورة مريم. ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي: أصلحناها للولادة بعد عُقرها، أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خُلُقها وكانت حَرِدَةً.[٤]

١ قال أبو عبيد: «رأيت في الذي يقال له: الإمام؛ مصحف عثمان رضي الله عنه: ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ في يوسف [١١٠/١٢]، و﴿نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الأنبياء بنونٍ واحدة»، قال: «ثمّ اجتمعت عليها المصاحف في الأمصار كلِّها، فلا نعلمها اختلفت». المقنع لأبي عمرو الداني، ص ٩٥.

٢ أي: "نُجِّي". قرأ بها ابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٩/٤.

٤ رجلٌ حَرِد: مُعتزِل مُتنَحّ. القاموس المحيط للفيروزابادي، «حرد».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تعليل لِما فُصِّل مِن فنون إحسانه تعالى المتعلّقة بالأنبياء المذكورين، أي: كانوا يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير، وهو السرّ في إيثار كلمة ﴿فِى﴾ على كلمة "إلى" المشعرةِ بخلاف المقصود؛ مِن كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجّهين إليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران، ٣/١٣٣].

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ذَوي رَغَب ورَهَب، أو راغبين في الثواب، راجين للإجابة، أو في الطاعة، وخائفين العقابَ أو المعصية، أو للرغَب والرهَب. ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ أي: مُخبِتين مُتضرِّعين أو دائمي الوَجَل. والمعنى أنّهم
[٩٨و] / نالوا مِن الله تعالى ما نالوا بسبب اتّصافهم بهذه الخِصال الحميدة.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: اذكر خبر التي أحصنَتْه على الإطلاق مِن الحلال والحرام. والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها وتنزيهها عمّا زعموه في حقّها آثِرَ ذي أَثِير. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أي: أحيينا عيسى في جوفها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ مِن الروح الذي هو مِن أمرنا. وقيل: فعلنا النفخ فيها مِن جهة روحنا جبريل عليه السلام.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ أي: قصّتهما، أو حالهما ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنّ مَن تأمّل حالَهما تحقّق كمال قدرته عزّ وجلّ. فالمراد بالآية ما حصل بهما مِن الآية التامّة مع تكاثر آيات كلّ واحد منهما. وقيل: أُريدَ بالآية الجنس الشامل لِمَا لِكلّ واحد منهما مِن الآيات المستقلّة. وقيل: المعنى: وجعلناها آية وابنَها آية، فحُذفت الأولى لدلالة الثانية عليها.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: ملّة التوحيد والإسلام، أشيرَ إليها بهذه تنبيهًا على كمال ظهور أمرها في الصحّة والسداد. ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ملّتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولا تُخِلُّوا بشيء منها، والخطابُ للناس قاطبةً.

﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب على الحاليّة مِن ﴿أُمَّتُكُمْ﴾، أي: غيرَ مُختلِفة فيما بين الأنبياء عليهم السلام، إذ لا مشاركة لغيرها في صحّة الاتّباع، ولا احتمال لتبدّلها وتغيّرها كفروع الشرائع المتبدِّلة حسب تبدّل الأمم والأعصار. وقُرئ: "أُمَّتَكُمْ" بالنصب على البدليّة مِن اسم ﴿إِنَّ﴾، "أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ" بالرفع[1] على الخبريّة، وقُرئتا بالرفع[2] على أنّهما خبران.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ لا إله لكم غيري ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ / خاصّةً لا غير. [٩٨ظ]

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ التفات إلى الغيبة؛ لِيُنعى عليهم ما أفسدوه مِن التفرّق في الدين، وجعلِ أمره قِطَعًا موزّعة، ويُنهَى قبائحُ أفعالهم إلى الآخرين، كأنّه قيل: ألا ترون إلى عظيمِ ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي أجمعت عليه كافّة الأنبياء؟ ﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدة مِن الفِرق المتقطّعة، أو كلُّ واحد مِن آحاد كلّ واحدة مِن تلك الفِرَق ﴿إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ بالبعث لا إلى غيرنا، فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم. وإيراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقّق.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾... إلخ تفصيل للجزاء، أي: فمَن يعمل بعض الصالحات، أو بعضًا مِن الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: لا حرمانَ لثواب عمله ذلك. عُبِّر عن ذلك بالكفران الذي هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى مِن القبائح، وإبرازِ الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى، ونُفِي نَفيَ الجنس للمبالغة في التنزيه، وعُبِّر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢١.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأشهَب العقيلي وأبي حيوة وابن أبي عبلة والجُعفي وهارون عن أبي عمرو والزعفراني. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٤/٧؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢١.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ أي: لسعيه ﴿كَٰتِبُونَ﴾ أي: مُثبِتون في صحائف أعمالهم، لا نغادر مِن ذلك شيئًا.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ أي: ممتنع على أهلها غير متصوَّرٍ منهم. وقُرِئ: "حِرْمٌ"،[١] وهي لغة كـ"الحِلّ" و"الحلال". ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ قدّرنا هلاكها، أو حكمنا به لغاية طغيانهم وعُتوّهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ في حيّز الرفع على أنّه مبتدأ خبرُه ﴿حَرَٰمٌ﴾، أو فاعل له سادٌّ مَسدَّ خبره. والجملة لتقرير مضمون ما قبلها مِن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾، وما في ﴿أَنَّ﴾ مِن معنى التحقيق معتبَر في النفي المستفاد مِن ﴿حَرَٰمٌ﴾، لا في المنفيّ، أي: ممتنع البتّة عدمُ رجوعِهم / إلينا للجزاء، لا أنّ عدم رجوعهم المحقَّقِ ممتنع. [٩٩و]

وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكلّ حسبما نطَق به قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ لأنّهم المنكِرون للبعث والرجوع دون غيرهم. وقيل: ممتنع رجوعهم إلى التوبة، على أنّ ﴿لَا﴾ صلة.

وقُرِئ: "إِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ" بالكسر،[٢] على أنّه استئناف تعليلي لِما قبله، فـ﴿حَرَٰمٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: حرام عليها ذلك، وهو ما ذُكر في الآية السابقة مِن العمل الصالح المشفوعِ بالإيمان والسعي المشكور، ثمّ عُلّل بقوله تعالى: "إِنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ" عمّا هم عليه مِن الكفر، فكيف لا يمتنع ذلك؟ ويجوز حملُ المفتوحة أيضًا على هذا المعنى بحذف "اللام" عنها، أي: لأنّهم لا يرجعون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾... إلخ هي التي

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٤.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٤٦٤.

يُحكَى بعدها الكلام، وهي على الأوّل[1] غاية لِما يدلّ عليه ما قبلها، كأنّه قيل: يستمرّون على ما هم عليه مِن الهلاك، حتّى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا ويقولون: يا ويلنا... إلخ. وعلى الثاني[2] غايةٌ للحُرمة، أي: يستمرّ امتناع رجوعهم إلى التوبة حتّى إذا قامت القيامة يرجعون إليها حين لا ينفعهم التوبة. وعلى الثالث[3] غاية لعدم الرجوع عن الكفر، أي: لا يرجعون عنه حتّى إذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع.

ويأجوج ومأجوج قبيلتان مِن الإنس. قالوا: "الناس عشرة أجزاء، تسعةٌ منها يأجوج ومأجوج".[4] والمراد بفتحها فتحُ سدّها على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه. وقُرئ: "فُتِّحَتْ" بالتشديد.[5]

﴿وَهُم﴾ أي: يأجوج ومأجوج، وقيل: الناس ﴿مِن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي: نَشَزٍ[6] مِن الأرض، وقُرئ: "جَدَثٍ"،[7] وهو القبر ﴿يَنسِلُونَ﴾ / أي: يُسرعون، وأصله مقاربةُ الخَطْو مع الإسراع. وقُرئ بضمّ السين.[8] [٩٩ظ]

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ عطفٌ على ﴿فُتِحَتۡ﴾،[9] والمراد به ما بعد النفخة الثانية مِن البعث والحساب والجزاء، لا النفخة الأولى، ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جواب الشرط، و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة تسدُّ مَسدّ "الفاء" الجزائيّة،

---

[1] وهو أنّ قوله: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ في حيّز الرفع على أنّه مبتدأ خبرُه ﴿حَرَامٌ﴾.

[2] وهو أنّ قوله: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ فاعل لـ﴿حَرَامٌ﴾ سادٌّ مَسدَّ خبره.

[3] وهو أنّ قوله: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ تعليل لِما قبله، على القراءتين.

[4] جامع البيان للطبري، ٤٠١/١٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣٥/٣.

[5] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢.

[6] النُشُزُ والنَشَزُ: المكان المرتفع. الصحاح للجوهري، «نشز».

[7] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢١.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق وأبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢١.

[9] في الآية السابقة.

كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم، ٣٠/٣٦]، فإذا دخلتها "الفاء" تظاهرت على وصل الجزاء بالشرط، والضمير للقصّة، أو مُبهم يفسّره ما بعده.

﴿يَوَيْلَنَا﴾ على تقدير قولٍ وقع حالًا مِن الموصول، أي: يقولون: يا ويلنا تعالَ فهذا أوان حضورك. وقيل: هو الجواب للشرط.[١] ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾ تامّةٍ ﴿مِنْ هَٰذَا﴾ الذي دَهِمَنا مِن البعث والرجوع إليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنّه حقّ؛ ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إضراب عمّا قبله مِن وصف أنفسهم بالغفلة، أي: لم نكن غافلين منه حيثُ نُبِّهْنا عليه بالآيات والنُّذُر؛ بل كنّا ظالمين بتلك الآيات والنُّذُر مكذِّبين بها، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ خطاب لكفّار مكّة، وتصريحٌ بمآل أمرهم مع كونه معلومًا ممّا سبق على وجه الإجمالِ مبالغةً في الإنذار وإزاحةِ الأعذار، و"ما يَعبدون" عبارة عن أصنامهم؛ لأنّها التي يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ﴿مَا﴾.

وقد رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين تلا الآية وقال له ابنُ الزِّبَعْرَى:[٢] «خصمتُك وربِّ الكعبة، أليست اليهودُ عبدوا عُزيرًا، والنصارى المسيحَ، وبنو مُلَيح الملائكةَ؟» ردّ عليه بقوله عليه السلام: «ما أجهلك بلغة قومك، أما فهمتَ أنَّ "ما" / لِما لا يَعقل؟».[٣] [١٠٠و]

---

١ وفي هامش م: وهذا يؤيّد الوجه الأوّل مِن الوجوه الثلاثة. «منه».

٢ هو عبد الله بن الزِّبعرى بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص القرشي السهمي (ت. نحو ١٥هـ/٦٣٦م)، الشاعر. كان في الجاهليّة مِن أشدّ الناس على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعلى أصحابه بلسانه ونفسه، وكان يناضل عن قريش ويهاجي المسلمين، وكان مِن أشعَر قريش، ثمّ أسلم عبد الله بعد الفتح، وحسُن إسلامه. **أسد الغابة** لابن الأثير، ٣/٢٣٩؛ **الأعلام** للزركلي، ٤/٨٧.

٣ قال الحافظ ابن حجر: «وقع في كلام كثير مِن فضلاء العجم ما نصّه: نُقل أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لابن الزِّبَعْرَى: "ما أجهلك بلغة قومك، إن 'مَا' لِما لا يعقل". انتهى. وهذا لا أصل له مِن طريق ثابتة ولا واهية، وكأنّ المُوقع في ذلك قول ابن الحاجب: "وأجيب بأن 'ما' لِما لا يعقل، فظنّوا أنّه مِن جواب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم"». **موافقة الخبر** لابن حجر، ٢/١٧٥.

ولا يعارضه ما رُوي أنّه عليه السلام ردّه بقوله: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمَرَتْهم بذلك»،[١] ولا ما رُوي أنّ ابن الزِّبَعْرَى قال: «هذا شيء لآلهتنا خاصّةً، أو لكلّ مَن عُبِد مِن دون الله؟»[٢] فقال عليه السلام: «بل لكلّ مَن عُبِد مِن دون الله تعالى»،[٣] إذ ليس شيء منهما نصًّا في عموم كلمة ﴿مَا﴾، كما أنّ الأوّل[٤] نصّ في خصوصها، وشمولُ حكم النصّ لا يقتضي شمولَه بطريق العبارة؛ بل يكفي في ذلك شمولُه لهم[٥] بطريق دلالة النصّ بجامع الشركة في المعبوديّة مِن دون الله تعالى، فلعلّه عليه السلام بعد ما بيّن مدلولَ النظم الكريم بما ذُكر، وعدمَ دخول المذكورين[٦] في حكمه بطريق العبارة؛ بيّنَ عدمَ دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضًا تأكيدًا للردّ والإلزام، وتكريرًا للتبكيت والإفحام، لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم، فإنّ إخراجَ بعضِ المعبودين عن حكمٍ[٧] منبئ عن الغضب على العبَدة والمعبودين ممّا يوهمُ الرخصةَ في عبادته في الجملة؛ بل بتحقيق الحقّ وبيانِ أنّهم ليسوا مِن المعبوديّة في شيء حتّى يتوهّم دخولهم في الحكم المذكور دلالةً بموجب شركَتهم للأصنام في المعبوديّة مِن دون الله تعالى، وإنّما معبودهم الشياطين التي أمَرَتْهم بعبادتهم، كما نطق به قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ الآيةَ [سبأ، ٣٤/٤١]، فهم الداخلون في الحكم المذكور لإشراكهم الأصنام في المعبوديّة مِن دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام، وهذا هو الوجه في التوفيق بين الأخبار المذكورة، وأمّا تعميم كلمةِ ﴿مَا﴾ للعقلاء أيضًا وجعلُ ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾... إلخ،[٨] / بيانًا للتجوّز أو التخصيص[٩] فممّا لا يساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم. [١٠٠ظ]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣/١٣٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٦١.

[٢] س + تعالى.

[٣] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٦١. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول، ص ٣٠٥.

[٤] وفي هامش م: هو قوله عليه السلام: «ما أجهلك»... إلى آخره. «منه».

[٥] وفي هامش م: أي: للشياطين. «منه».

[٦] وفي هامش م: مِن الأنبياء والملائكة. «منه».

[٧] وفي هامش م: هو الحكم بكونهم حَصَب جهنّم. «منه».

[٨] الأنبياء، ٢١/١٠١.

[٩] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٦١.

و"الحصَب" ما يُرمَى به ويُهيَّج به النار، مِن "حصَبه" إذا رماه بالحَصباء. وقُرئ بسكون الصاد[١] وصفًا له بالمصدر للمبالغة.

﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ استئناف، أو بدل مِن ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، و"اللامُ" معوَّضة مِن "على" للدلالة على الاختصاص، وأنّ ورودهم لأجلها، والخطاب لهم ولِما يَعبدون تغليبًا.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩﴾

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أصنامُهم ﴿ءَالِهَةً﴾ كما يزعمون ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾ وحيث تبيّن ورودهم إيّاها تعيّن امتناع كونها آلهة بالضرورة. وهذا كما ترى صريح في أنّ المراد بـ"ما يعبدون" هي الأصنام؛ لأنّ المراد إثباتُ نقيض ما يدّعونه، وهم إنّما يدّعون إلهيّة الأصنام، لا إلهيّة الشياطين حتّى يحتجّ بورودها النار على عدم آلهيّتها.

وأمّا ما وقع في الحديث الشريف فقد وقع بطريق التكملة بانجرار الكلام إليه عند بيان ما سيق له النظم الكريم بطريق العبارة، حيث سأل ابنُ الزِّبَعْرَى عن حال سائر المعبودين، وكان الاقتصار على الجواب الأوّل ممّا يوهم الرخصة في عبادتهم في الجملة؛ لأنّهم المعبودون عندهم، فأجيب[٢] ببيان أنّ المعبودين هم الشياطين، وأنّهم داخلون في حكم النصّ، لكن بطريق الدلالة، لا بطريق العبارة؛ لئلّا يلزم التدافع بين الخبرَين.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي: مِن العبَدة والمعبودين ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا خلاصَ لهم عنها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: أنينٌ وتنفّسٌ شديد، وهو مع كونه مِن أفعال العبَدة أضيفَ إلى الكلِّ للتغليب، ويجوز أن يكون الضمير للعبَدة؛ لعدم الإلباس،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٢.

[٢] ط س: أجيب.

وكذا في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمع بعضهم زفيرَ بعض لشدّة الهول وفظاعة العذاب. / وقيل: لا يسمعون ما يَسرّهم مِن الكلام. [١٠١و]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين إثرَ شرح حال الكفرة حسبما جرَت به سنّة التنزيل مِن شفع الوعد بالوعيد، وإيرادِ الترغيب مع الترهيب، أي: سبقت لهم منّا في التقدير الخصلةُ الحُسنى التي هي أحسن الخصال وهي السعادة، وقيل: التوفيقُ للطاعة، أو سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة، وهو الأظهر الأدخَل في الحمل عليها، لِما أنّ الأوّلَين مع خفائهما ليسا مِن مقدورات المكلّفين، فالجملة مع ما بعدها تفصيل لِما أُجملَ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾،[١] كما أنّ ما قبلها مِن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾... إلخ[٢] تفصيل لِما أُجملَ في قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾... إلخ.[٣]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ درجتهم، وبُعدِ منزلتهم في الشرف والفضل، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر مِن النعت الجميل ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن جهنّم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ لأنّهم في الجنّة، وشتّان بينها وبين النار.

وما رُوي أنّ عليًا رضي الله تعالى[٤] عنه خَطب يومًا فقرأ هذه الآية ثمّ قال: «أنا منهم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجرّاح» رضوان الله تعالى[٥] عليهم أجمعين، ثمّ أقيمت الصلاة فقام يجرّ رداءه ويقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾[٦] ليس بنصّ في كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة.

---

١ الأنبياء، ٩٤/٢١.

٢ الأنبياء، ٩٨/٢١.

٣ الأنبياء، ٩٥/٢١.

٤ س - تعالى.

٥ س - تعالى.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣٧/٣.

و"الحسيس" صوت يُحَسّ به، أي: لا يسمعون صوتها سمعًا ضعيفًا كما
[١٠١ظ] هو المعهود عند كون المصوِّتِ بعيدًا وإن كان صوته في غاية الشدّة، لا / أنّهم لا يسمعون صوتها الخفيّ في نفسه فقط. والجملة بدل مِن ﴿مُبْعَدُونَ﴾، أو حال مِن ضميره مَسوقة للمبالغة في إبعادهم[١] عنها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ بيان لفوزهم بالمَطالب إثر بيان خلاصهم عن المَهالك والمَعاطب، أي: دائمون في غاية التنعّم. وتقديم الظرف للقصر والاهتمامِ به.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ بيان لنجاتهم مِن الأفزاع بالكلّيّة بعد بيان نجاتِهم مِن النار؛ لأنّهم إذا لم يحزنهم أكبر الأفزاع لا يحزنهم ما عداه بالضرورة. عن الحسن رضي الله عنه: «أنّه الانصراف إلى النار».[٢] وعن الضحّاك: «حين يُطبَق على النار».[٣] وقيل: حين يُذبح الموت في صورة كَبش أَملَح.[٤] وقيل: النفخة الأخيرة؛[٥] لقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل، ٨٧/٢٧]، وليس بذاك، فإنّ الآمِن مِن ذلك الفزَع مَن استثناه الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل، ٨٧/٢٧]، لا جميعُ المؤمنين الموصوفين بالأعمال الصالحة، على أنّ الأكثرين على أنّ ذلك في النفخة الأولى دون الأخيرة كما سيأتي في سورة النمل.[٦]

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم مهنّئين لهم ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ على إرادة القول، أي: قائلين: هذا اليوم يومُكم ﴿الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا، وتُبشَّرون

---

١ ط س: إنقاذهم.
٢ جامع البيان للطبري، ٤٢٢/١٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦.
٣ الكشّاف للزمخشري، ١٣٧/٣. ونحوه عن سعيد بن جبير في جامع البيان للطبري، ٤٢١/١٦.
٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣٧/٣. وحديث ذبح الموت في صورة كَبش أَملَح، أخرجه البخاري في صحيحه، ٩٣/٦ (٤٧٣٠)؛ ومسلم في صحيحه، ٢١٨٨/٤ (٢٨٤٩).
٥ جامع البيان للطبري، ٤٢٢/١٦، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.
٦ النمل، ٨٨/٢٧.

بما فيه مِن فنون المَثوبات على الإيمان والطاعات. وهذا كما ترى صريح في أنّ المراد بـ"الذين سبقت لهم الحُسنى"[١] كافّةُ المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة، لا مَن ذُكر مِن المسيح وعُزير والملائكة عليهم السلام خاصّةً كما قيل.[٢]

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ بنون العظمة منصوب بـ"اذكر". وقيل: ظرف لقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ﴾.[٣] وقيل: لـ﴿تَتَلَقَّىٰهُمْ﴾.[٤] وقيل: حال مقدّرة مِن الضمير المحذوف في ﴿تُوعَدُونَ﴾.[٥] و"الطيّ" ضدّ النشر، وقيل: المَحْو. وقُرئ: "يَطْوِي" بالياء،[٦] والتاء والبناء للمفعول.[٧]

﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ وهي الصحيفة، أي: طيًّا كطيّ الطومار.[٨] وقُرئ: "السَّجْلِ"،[٩] كلفظ "الدَّلْو"، وبالكسر،[١٠] و"السُّجُلّ"[١١] على وزن / "العُتُلّ"،[١٢] وهما لغتان. [١٠٢و]

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ متعلّقة بمحذوف هو حال مِن ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾، أو صفة له على رأي مَن يُجوّز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: كطيّ السجِلّ كائنًا للكُتُب، أو الكائنِ للكُتُب، فإنّ "الكُتُب" عبارة عن الصحائف وما كُتب فيها، فسِجِلُّها بعض أجزائها، وبه يتعلّق الطيّ حقيقةً.

---

١ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١].

٢ جامع البيان للطبري، ٤١٧/١٦؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٣/٣.

٣ في الآية السابقة.

٤ ط س: بـ﴿تَتَلَقَّىٰهُمْ﴾. | في الآية السابقة.

٥ في الآية السابقة.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وشيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٢.

٧ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٢٤/٢.

٨ الطُّومارُ: الصحيفة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «طمر».

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٢.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٣.

١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي زُرعة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٢.

١٢ العتل: الغليظ الجافي. الصحاح للجوهري، «عتل».

وقُرئ: "لِلْكِتَابِ"،[١] وهو إمّا مصدر و"اللام" للتعليل، أي: كما يُطوى الطومار للكتابة، أو اسم كـ"الإمام"، فـ"اللام" كما ذُكر أوّلًا.

وقيل: ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ اسم مَلَك يَطوي كتب أعمال بني آدم إذا رُفعت إليه.[٢] وقيل: هو كاتبٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[٣]

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي: نعيد ما خلقناه مبتدَأً إعادةً مثلَ بَدْئنا إيّاه في كونها إيجادًا بعد العدَم، أو جمعًا مِن الأجزاء المتبدِّدة، والمقصودُ بيان صحّة الإعادة بالقياس على المَبدأ؛ لِشمول الإمكان الذاتي المصحِّح للمقدوريّة، وتناولِ القدرة لهما على السواء.

و﴿مَا﴾ كافّة أو مصدريّة، و﴿أَوَّلَ﴾ مفعول لـ﴿بَدَأْنَا﴾، أو لفعل يفسّره ﴿نُعِيدُهُۥ﴾، أو موصولة، و"الكاف" متعلّقة بمحذوف يفسّره ﴿نُعِيدُهُۥ﴾، أي: نعيد مثلَ الذي بدأناه، و﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ ظرف لـ﴿بَدَأْنَا﴾، أو حال مِن ضمير الموصول المحذوف.

﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكِّد لفعله، ومقرّر لِـ﴿نُعِيدُهُۥ﴾، أو منتصِب به؛ لأنّه عِدَة بالإعادة ﴿عَلَيْنَآ﴾ أي: علينا إنجازه، ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لِما ذُكر لا محالةَ.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ هو كتاب داود عليه السلام. وقيل: هو اسم لجنس ما أُنزل على الأنبياء عليهم السلام. ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: التوراة. وقيل: اللوح المحفوظ. أي: وبالله لقد كتبنا في كتاب داود بعد ما كتبنا في التوراة، أو كتبنا في جميع الكتب المنزّلة بعد ما كتبنا وأثبتنا في اللوح المحفوظ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: عامّة المؤمنين بعد إجلاء الكفّار، وهذا وعد منه تعالى بإظهار الدين وإعزاز أهله، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ المراد أرض الجنّة،[٤]

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٤٢٣/١٦؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١١/٦؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٣/٣.

[٣] جامع البيان للطبري، ٤٢٤/١٦. وأخرجه أبو داود في السنن، ٥٦٠/٤ (٢٩٣٥)، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

[٤] جامع البيان للطبري، ٤٣٤/١٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١٣٨/٣.

/ كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر، ٣٩/٧٤]. وقيل: الأرض المقدّسة يرثها أمّةُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم. [١٠٢ظ]

﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾

﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ أي: فيما ذُكر في السورة الكريمة مِن الأخبار والمواعظ البالغة، والوعد والوعيد، والبراهين القاطعة الدالّة على التوحيد وصحّة النبوّة ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي: كفايةً، أو سببَ بلوغ إلى البُغية ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي: لقوم همّهم العبادة دون العادة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بما ذُكر وبأمثاله مِن الشرائع والأحكام وغير ذلك مِن الأمور التي هي مناط لسعادة الدارين ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هو في حيّز النصب على أنّه استثناء مِن أعمّ العلل، أو مِن أعمّ الأحوال، أي: ما أرسلناك بما ذُكر لعلّة مِن العلل إلّا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة، أو ما أرسلناك في حال مِن الأحوال إلّا حال كونك رحمة لهم، فإنّ ما بُعثتَ به سبب لسعادة الدارين، ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين، ومَن لم يغتنم مغانِمَ آثاره فإنّما فرّط في نفسه وحَرَمَهُ حقّه، لا أنّه تعالى حَرَمه ممّا يُسعده. وقيل: كونه رحمة في حقّ الكفّار أمْنُهم مِن الخَسف والمَسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال، ٨/٣٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: ما يوحى إليّ إلّا أنّه لا إلهَ لكم إلّا إله واحد؛ لأنّه المقصود الأصلي مِن البعثة، وأمّا ما عداه فمِن الأحكام المتفرّعة عليه، فـ﴿إِنَّمَا﴾ الأولى لِقَصر الحكم على الشيء، كقولك: إنّما يقوم زيد، أي: ما يقوم إلّا زيد، والثانية لِقَصر الشيء على الحكم، كقولك: إنّما زيد قائم، أي: ليس له إلّا صفة القيام.

[١٠٣و] ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي: مخلصونَ / العبادةَ لله تعالى، مخصِّصون لها به تعالى. و"الفاء" للدلالة على أنّ ما قبلها موجِب لِما بعدها. قالوا: فيه دلالة على أنّ صفَة الوحدانيّة تصحّ أن يكون طريقها السمعَ.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن الإسلام، ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه مِن الوحي ﴿فَقُلۡ﴾ لهم ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾ أي: أعلَمتكم ما أُمِرت به، أو حربي لكم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٖ﴾ كائنين على سواء في الإعلام به، لم أطوِهِ عن أحد منكم، أو مستَوين به أنا وأنتم في العلم بما أعلمتكم به، أو في المعاداة، أو إيذانًا على سواء. وقيل: أعلمتكم أنّي على سواء، أي: عدلٍ واستقامةِ رأيٍ بالبرهان النيّر.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ أي: ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مِن غلبة المسلمين وظهور الدين، أو الحشر مع كونه آتيًا لا محالةَ.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أي: ما تُجاهرون به مِن الطعن في الإسلام وتكذيب الآيات التي مِن جملتها ما نطق بمجيء الموعود، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ مِن الإحَنِ والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه نقيرًا وقطميرًا.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ﴾ أي: ما أدري لعلّ تأخيرَ جزائكم استدراجٌ لكم وزيادةٌ في افتِتانكم، أو امتحانٌ لكم لينظر كيف تعملون. ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: وتمتيع لكم إلى أجل مقدَّر يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة؛ ليكون ذلك حجّة عليكم.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ حكايةٌ لدعائه صلّى الله عليه وسلّم. وقُرئ:

"قُلْ رَبِّ"[١] على صيغة الأمر، / أي: اقضِ بيننا وبين أهل مكّة بالعدل المقتضي [١٠٣ظ] لتعجيل العذاب والتشديد عليهم، وقد استُجيب دعاؤه عليه السلام حيث عُذِّبوا ببدرٍ أيَّ تعذيب. وقُرئ: "رَبُّ احْكُمْ" بضمّ الباء،[٢] و"رَبِّي أَحْكَمُ"[٣] على صيغةِ التفضيل، و"رَبِّي أَحْكَمَ"[٤] مِن "الإحكام".

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبر، أي: كثير الرحمة على عباده. وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: المطلوب منه المعونةُ، خبر آخر للمبتدأ. وإضافة الربّ فيما سبق إلى ضميره عليه السلام خاصّةً لِما أنّ الدعاء مِن الوظائف الخاصّة به عليه السلام، كما أنّ إضافته ههنا إلى ضمير الجمع المنتظِم للمؤمنين أيضًا، لِما أنّ الاستعانة مِن الوظائف العامّة لهم.

﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ مِن الحال، فإنّهم كانوا يقولون: إنّ الشوكة تكون لهم، وإنّ راية الإسلام تَخفِق ثمّ تركُد، وإنّ المتوعَّد به لو كان حقًّا لنزل بهم، إلى غير ذلك ممّا لا خيرَ فيه، فاستجاب الله عزّ وجلّ دعوةَ رسوله صلّى الله عليه وسلّم فخيّب آمالهم، وغيّر أحوالهم، ونصر أولياءَه عليهم، فأصابهم يومَ بدر ما أصابهم. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبلَه. وقُرئ: "يَصِفُونَ" بالياء التحتانيّة.[٥]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿ٱقْتَرَبَ﴾ حاسبه الله تعالى حسابًا يسيرًا، وصافحه وسلّم عليه كلُّ نبيّ ذُكر اسمه في القرآن».[٦]

---

[١] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٥.

[٢] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٥.

[٣] س: أَحْكَمَ. | قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة والجحدري وابن مُحيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة وابن يَعمر. انظر: اللباب لابن عادل، ١٣/٦٢٨.

[٥] قرأ بها ابن ذكوان عن ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٥.

[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ٦/٢٦٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٢٢٩. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد في أواخر رجب الفرد سنة تسع وستّين وتسعمائة حامدًا لله تعالى، ومصلّيًا ومسلّمًا على سيّدنا محمّد، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين والملائكة أجمعين.

٢١

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

مكية، وهي مِائَةٌ وإحدى أو اثنتا عشرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿اقترَبَ﴾: قرُبَ ﴿لِلنّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة مُنكري البعث ﴿حِسابُهُم﴾: يومُ القيامة، ﴿وهُم في غَفْلةٍ﴾ عنه، ﴿مُعرِضُونَ﴾ عن التأهّب له بالإيمان، ٢ ـ ﴿ما يأتِيهِم مِن ذِكرٍ مِن رَبِّهِم، مُحدَثٍ﴾: شيئًا فشيئًا، أي: لفظِ قرآنٍ ﴿إلاّ استَمَعُوهُ، وهُم يَلعَبُونَ﴾:

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

قولُه: (قَرُبَ) بالإضافَةِ إلى ما مَضى، أو: عندَ اللهِ، أو: لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، وإنَّما البَعيدُ ما انقرَضَ ومَضى.

قولُه: (أَهْلِ مَكَّةَ) الأَولى التَّعميمُ، وإنَّما خصَّ النَّاسَ بالكُفَّارِ لتقييدِهم بما بعدَهُ.

قولُه: (عَنْهُ) أي: الحسابِ.

قولُه: (عَنِ التَّأَهُّبِ) أو التَّفكُّرِ فيه.

قولُه تعالى: (﴿مِنْ ذِكْرٍ﴾) ينبِّهُهم عن سِنةِ الغفْلةِ والجهَالةِ، و﴿مِنْ﴾ زائدةٌ، والثَّانيةُ صِلةٌ لـ﴿يَأْتِيهِمْ﴾، أو صِفةٌ لـ﴿ذِكْرٍ﴾.

قولُه: (شَيْئاً) أي: تنزيلُهُ؛ ليُكرِّرَ على سماعِهِم التَّنبيهَ كي يتَّعِظوا.

وقولُه: (لَفظ قُرآنٍ) إشارةٌ إلى أنَّ كلامَ اللهِ تعالى القدسيَّ قديمٌ، وأمَّا تلفُّظُه بألسنَتِنا وحفظُه بقُلوبِنا وكتابتُهُ بأيدينا فمُحدَثةٌ مخلوقةٌ، وقالَ كثيرٌ من أهلِ التَّفسيرِ: المرادُ بالمُحدَثِ إنَّما هو التَّذكيرُ والمواعظُ الواردةُ على لسانِ الرَّسولِ ﷺ الخارجةُ عن القرآنِ[1].

---

(١) وانظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٢٨٢).

يستهزئون، ٣ ـ ﴿لاهِيَةً﴾: غافلةً ﴿قُلُوبُهُم﴾عن معناه، ﴿وأَسَرُّوا النَّجوَى﴾ أي: الكلامَ، ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: بدلٌ من واو «أسرّوا النجوى»: ﴿هَل هذا﴾ أي: مُحمّد ﴿إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُم﴾؟ يأتي به سِحرٌ. ﴿أفتأتُونَ السِّحرَ﴾: تتّبعونه، ﴿وأنتُم تُبصِرُونَ﴾: تعلمون أنه سِحر؟ ٤ ـ ﴿قُـلْ﴾ لهم: ﴿رَبِّي يَعلَمُ القَولَ﴾ كائنًا ﴿في السَّماءِ والأرضِ، وهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِما أسرّوه ﴿العَلِيمُ﴾ به.

٥ ـ ﴿بَل﴾: للانتقال من غرض إلى آخَر في المواضع الثلاثة ﴿قالُوا﴾ فيما أتى به من القرآن: هو ﴿أضغاثُ أحلامٍ﴾: أخلاطٌ، رآها في النوم،.......................

قولُه: (يَسْتَهزِئُونَ) لتَناهِي غفلتِهِم.

قولُه: (أي: الكَلامَ) أي: بالغوا في إخفائِها، وإنَّما أسرُّوا به تشاوُراً في استِنباطِ ما يَهدمُ أمرَهُ ويُظهرُ فسادَهُ للنَّاسِ عامَّةً.

قولُه: (بدَلٌ) للإيماءِ بأنَّهم ظالمونَ فيما أسرُّوا به، أو منصوبٌ أو مرفوعٌ على الذَّمِّ.

قولُه: (﴿هَلْ هَذَا﴾) إلى هنا[١] في موضعِ النَّصبِ بدلاً من ﴿النَّجْوَى﴾ أي: هذا الكلامُ، أو مفعولاً لقولٍ[٢] مقدَّرٍ، وهو الأظهَرُ.

قولُه: (فَمَا يَأْتِي بِهِ سِحْرٌ) كأنَّهم استدلُّوا بكونِه بشراً على كذبِهِ في ادِّعاءِ الرِّسالةِ؛ لاعتقادِهِم أنَّ الرَّسولَ لا يكونُ إلَّا مَلَكاً، واستلزَموا منه أنَّ ما جاءَ به من الخوارقِ كالقرآنِ سحرٌ، فأنكروا حضورَهُ.

قولُه: (لَهُمْ) وحفصٌ وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿قَالَ﴾[٣] بالإخبارِ عن الرَّسولِ.

قولُه: (كَائِناً) جهراً كانَ أو سرًّا فضلاً عمَّا أسرُّوا به.

قولُه: (لِمَا أَسَرُّوْهُ) فضلاً عمَّا أعلنوهُ.

قولُه: (للانْتِقَالِ) ففيهِ قلبٌ تقديرُهُ: قالوا: بل.

قولُه: (مِنْ غَرَضٍ) هو قولُهُم: سحرٌ، إلى أنَّه تخاليطُ الأحلامِ، إلى أنَّه كلامٌ افتراهُ، إلى أنَّه قولُ شاعرٍ.

قولُه: (أَخْلاطٌ) حقُّه التَّقدُّمُ على ﴿أَحْلَامٍ﴾ ليَكونَ تفسيرًا لـ﴿أَضْغَاثُ﴾.

---

(١) أي: إلى قوله: ﴿وأنتم تبصرون﴾ كما في «الكشاف» و«أنوار التنزيل».

(٢) في النسخ عدا (ص): «الفعل»، والمثبت منها وهو الموافق لما عند الزمخشري والبيضاوي والكلام منه، ولفظ الزمخشري: ويجوز أن يتعلّق بـ«قالُوا» مُضمَراً.

(٣) والبقية قرأ: (قل ربي). انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٥).

﴿بَلِ افتَرَاهُ﴾: اختلقه، ﴿بَل هُوَ شاعِرٌ﴾ فما أتى به شِعر. ﴿فلْيأتِنا بِآيةٍ كَما أُرسِلَ الأوَّلُونَ﴾ كالناقة والعصا واليد.

٦ ـ قال تعالى: ﴿ما آمَنَتْ قَبلَهُم مِن قَرْيةٍ﴾ أي: أهلُها، ﴿أهلَكْناها﴾ بتكذيبها ما أتاها من الآيات ـ ﴿أفَهُم يُؤمِنُونَ﴾؟ لا ـ ٧ ـ ﴿وما أرسَلْنا قَبلَكَ إلاّ رِجالاً، يُوحَى﴾، وفي قراءة بالنون وكسر الحاء، ﴿إلَيهِم﴾ لا ملائكةً ـ ﴿فاسألُوا أهلَ الذِّكرِ﴾: العُلماءَ بالتوارة والإنجيل، ﴿إن كُنتُم لا تَعلَمُونَ﴾ ذلك فإنهم يعلمونه، وأنتم إلى تصديقهم أقربُ من تصديق المؤمنين بمُحمّد ـ ٨ ـ ﴿وما جَعَلْناهُم﴾ أي: الرسلَ ﴿جَسَدًا﴾ بمعنى أجسادًا، ﴿لا يأكُلُونَ الطَّعامَ﴾ بل يأكلونه، ﴿وما كانُوا خالِدِينَ﴾ في الدنيا، ٩ ـ ﴿ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الوَعدَ﴾ بإنجائهم، ﴿فأنجَيناهُم ومَن نَشاءُ﴾ أي: المُصدِّقين لهم، ﴿وأهلَكْنا المُسرِفِينَ﴾: المُكذّبين لهم.

قولُه: (واليَدِ) وإبراءِ الأكمَهِ، وإحياءِ الموتى.

قولُه: (أي: أَهْلُهَا) و﴿مِنْ﴾ زائدةٌ.

قولُه: (مِن الآيَاتِ) المعترِضة.

قولُه: (لا) يعني: أَفَهُم يُؤمِنونَ لو جئتَهُم بها وهم أشدُّ استِكباراً؟!

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحفصٍ[1].

قولُه: (لا مَلائِكَةً) جوابٌ لقولِهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾.

قولُه: (العُلَمَاءَ) الظَّاهرُ أنَّ المرادَ بهم[2] مؤمِنوهُم؛ إذ قالوا: ما أنزلَ اللهُ على بشرٍ مِن شيءٍ.

قولُه: (مِن تَصْدِيقِ المُؤمِنِينَ) إضافَةٌ إلى المفعولِ.

قولُه: (بِمَعْنَى أَجْسَاداً) يعني: وُحِّدَ لإرادةِ الجنسِ، أو لأنَّه مصدرٌ في الأصلِ، أو على حذفِ المضافِ؛ أي: ذوي جسَدٍ، أو تأويلِ الضَّميرِ بكلِّ واحدٍ.

قولُه: (بَلْ يَأكُلُونَهُ) جوابٌ لقولِهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧].

قولُه: (بِإنْجَائِهِم) أي: في الوَعدِ به.

قولُه: (أي: المُصَدِّقِينَ) ومَن في إبقائِهِ حكمَةٌ، كمَن سيؤمنُ هو أو أحدٌ من ذرِّيَّتِه، ولذلك حُميَتِ العربُ عن عذابِ الاستئصالِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٦).

(٢) «بهم» من (ص).

١٠ ـ ﴿لَقَد أنزَلْنا إلَيكُم﴾ ـ يا مَعشر قُريش ـ ﴿كِتابًا، فِيهِ ذِكرُكُم﴾ لأنه بلُغتكم. ﴿أفلا تعقِلُونَ﴾ فتؤمنونَ به؟ ١١ ـ ١٢ ـ ﴿وكَم قَصَمْنا﴾: أهلكْنا ﴿مِن قَرْيةٍ﴾ أي: أهلَها، ﴿كانَت ظالِمةً﴾: كافرة، ﴿وأنشأنا بَعدَها قَومًا آخَرِينَ! فلَمّا أحَسُّوا بأسَنا﴾ أي: شعر أهل القرية بالإهلاك ﴿إذا هُم مِنها يَركُضُونَ﴾: يهربون مسرعين، فقالت لهم الملائكة استهزاءً: ١٣ ـ ﴿لا تَركُضُوا، وارجِعُوا إلَى ما أُترِفتُم﴾: نَعِمتم ﴿فِيهِ ومَساكِنِكُم، لَعَلَّكُم تُسألُونَ﴾ شيئًا من دنياكم على العادة. ١٤ ـ ﴿قالُوا: يا﴾: للتنبيه ﴿وَيلَنا﴾: هلاكَنا. ﴿إنّا كُنّا ظالِمِينَ﴾ بالكُفر. ١٥ ـ ﴿فما زالَتْ تِلكَ﴾ الكلماتُ ﴿دَعواهُم﴾ يدعون بها وَيردّدونها ﴿حَتَّى جَعَلْناهُم حَصِيدًا﴾ أي: كالزرع المحصود بالمَناجل بأن قُتلوا بالسيوف ﴿خامِدِينَ﴾: ميّتين كخُمود النار إذا طَفِئتْ.

١٦ ـ ﴿وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَينَهُما لاعِبِينَ﴾: عابِثِين بل دالّينَ على قُدرتنا ونافعين عِبادَنا. ١٧ ـ ﴿لَو أرَدْنا أن نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أي: ما يُلهَى به..............................

قولُه: (لأنَّهُ بِلُغتِكُم) فـ﴿ذِكرُكُم﴾: صيتُكم، والصِّيتُ: الشَّرفُ والذِّكرُ الجميلُ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أو: موعظتُكم، أو: ما تطلبونَ به حُسنَ الذِّكرِ من مكارمِ الأخلاقِ.

قولُه: (كَافِرَةً) صفةٌ لأَهلِهَا وُصِفت بها لمَّا أقيمَت مقامَهُ.

قولُه تعالى: (﴿بَعْدَهَا﴾) أي: بعدَ إهلاكِ أهلِها.

قولُه: (أي: شَعَرَ) أي: أدرَكوا شِدَّةَ عَذابِنا إدراكَ المشاهَدِ المحسوسِ.

قولُه: (مُسْرِعِينَ) راكضينَ دوابَّهُم؛ أي: حامِليها على الرَّكضِ، أو مشبَّهينَ بهم أو بها من فرطِ إسراعِهِم.

قولُه: (نُعِّمْتُم) وأُعطيتُم من التَّنعُّمِ والتَّلذُّذِ على إرادةِ القَولِ؛ أي: قيلَ لهم استِهزاءً: لا تَركضُوا، إمَّا بلسانِ الحالِ، أو القالِ والقائل مَلَك أو مَن ثَمَّ من المؤمنينَ.

قولُه: (مِن دُنْيَاكُم) أي: يسألونَكُم خدمُكم والفُقراءُ، أو تُسألونَ للمُشاوَرةِ في المهامِّ والنَّوازلِ.

قولُه: (هَلاكَنَا) لمَّا رأوا العذابَ ولم يرَوا وجهَ النَّجاةِ.

قولُه: (المَحْصُودِ) والفعيلُ بمَعنى: المفعولِ، يَستَوي فيه الجمعُ والإفرادُ.

قولُه: (بأَنْ قُتِلُوا) الصَّوابُ: أنَّ وجهَ الشَّبهِ هو الطَّرحُ والكسرُ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ ولا يُعرَفُ إهلاكُ قريةٍ بالسَّيفِ، قولُه تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قولُه: (مَا يُلْهَى) إشارةٌ إلى أنَّ المصدرَ بمعنى المفعولِ.

من زوجة أو ولد ﴿لاتَّخَذْناهُ مِن لَدُنّا﴾: من عِندنا من الحُور العِين [والوِلدان] والملائكة، ﴿إن كُنّا فاعِلِينَ﴾ ذلك. لكنّا لم نفعله، فلم نُرِده. ١٨ ـ ﴿بَل نَقذِفُ﴾: نرمي ﴿بِالحَقِّ﴾: الإيمانِ ﴿علَى الباطِلِ﴾: الكُفرِ، ﴿فيَدمَغُهُ﴾: يُذهبه، ﴿فإذا هُوَ زاهِقٌ﴾: ذاهب. و«دَمَغَه» في الأصل: أصابَ دِماغه بالضرب، وهو مَقتَلٌ. ﴿ولَكُمُ﴾ ـ يا كُفّار مكّة ـ ﴿الوَيلُ﴾: العذاب الشديد ﴿مِمّا تَصِفُونَ﴾ اللهَ به من الزوجة والولد. ١٩ ـ ﴿ولَهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿مَن في السَّماواتِ والأرضِ﴾ مُلكًا، ﴿ومَن عِندَهُ﴾ أي: الملائكةُ مبتدأٌ خبرُه: ﴿لا يَستَكبِرُونَ عَن عِبادَتِهِ، ولا يَستَحسِرُونَ﴾: لا يَعيَون، ٢٠ ـ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ والنَّهارَ، لا يَفتُرُونَ﴾ عنه. فهو منهم كالنفَس منّا لا يَشغلنا عنه شاغل.

٢١ ـ ﴿أمِ﴾ بمعنى «بل» للانتقال وهمزةِ الإنكار ﴿اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ كائنة..................

قولُه: (مِنْ زَوْجَةٍ) قيلَ: اللَّهوُ بلغةِ اليمنِ: الولدُ، وقيلَ: الزَّوجةُ(١)، والمرادُ: الرَّدُّ على النَّصارى.

قولُه: (ذَلِكَ) ويدلُّ على جوابِهِ الجوابُ المتقدِّمُ بمعنى: ﴿لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾.

وقيلَ: ﴿إِنْ﴾ نافيةٌ، والجملةُ كالنَّتيجةِ للشَّرطيَّةِ؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣].

قولُه: (فلم نُرِدْهُ) إذ يلزمُ من عدمِ الفعلِ عدمُ الإرادةِ.

قولُه: (الإِيمَانِ) أو: نغلِّبُ الحقَّ الَّذي من جملتِهِ الجدُّ على الباطِلِ الَّذي من عدادِهِ اللَّهو فيمحقُهُ.

قولُه: (يَا كُفَّارَ مَكَّةَ) أو: أيُّها الكفَّارُ.

قولُه: (مِنَ الزَّوجَةِ) أو ممَّا لا يجوزُ عليهِ.

قولُه: (مُلْكاً) وخَلْقاً.

قولُه: (أي: المَلَائِكَةُ) المنزَلونَ منه ـ لكرامتِهم عليه ـ منزلةَ المقرَّبينَ عندَ الملوكِ.

والصَّحيحُ: أنَّ المرادَ جنسُ الملكِ، ولا وجهَ لتَخصِيصِ القاضِي بنَوعٍ منهم(٢).

قولُه: (لا يَعيَونَ) منها.

قولُه: (عَنهُ) أي: التَّسبيحِ.

قولُه: (كَائِنَةً) صفةُ الآلهةِ، وفائدَتُها التَّحقيرُ دونَ التَّخصيصِ.

(١) عن قتادة: أن اللهو في بعض لغة أهل اليمن: المرأة، رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٢٠). وانظر: «تاج العروس» (٣٩/ ٥٠٢).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٤٨).

﴿مِنَ الأرضِ﴾ كحجَر وذهب وفِضّة؟ أ﴿هُم﴾ أي: الآلهةُ ﴿يُنشِرُونَ﴾ أي: يُحيُون الموتى؟ لا. ولا يكون إلـٰهًا إلاّ من يُحيي الموتى. ٢٢ ـ ﴿لَو كانَ فِيهِما﴾ أي: السماواتِ والأرض ﴿آلِهَةٌ إلاّ اللهُ﴾ أي: غيرُه ﴿لَفَسَدَتا﴾: خرجتا عن نظامهما المُشاهَد، لوجود التمانُع بينهم على وَفق العادة عِند تعدّد الحاكم، من التمانع في الشيء وعدم الاتفاق عليه. ....

قولُه: (أَ﴿هُم﴾) زيادَةُ الهمزةِ لزيادَةِ التَّأكيدِ، وإلَّا فالإنكارُ مفهومٌ ممَّا سبقَ، بل هذا هو محطُّ الإنكارِ، ويمكنُ أن يكونَ الأوَّلُ إنكارَ الاتِّخاذِ، والثَّاني إنكارَ النَّشرِ.

قولُه: (أي: يُحْيُونَ) وهم وإن لم يُصرِّحوا بذلك لَزِمَ بادِّعائِهم لها الإلهيَّةَ.

قولُه: (أي: غَيْرُهُ) وصفَ بـ﴿إلَّا﴾ لمَّا تعذَّرَ الاستثناءُ؛ لعدمِ شُمولِ ما قَبلها لما بَعدَها، ودلالتِه على ملازمةِ الفَسادِ لكونِ الآلهةِ فيهما دونَهُ، والمرادُ: ملازمتُهُ لكَونِها مطلقاً، أو معه حملاً لها على «غيرٍ»[1] كما استثنى بـ«غير» حملاً عليها، والمعنَى: لو كانَ يُدبِّرُ أمرَ السَّماواتِ والأرضِ آلهةٌ شتَّى غيرُ الواحدِ الَّذي هو فاطرُهُما لخرِبَتا.

وقولُه: (خَرَجَتَا) رُوعيَ فيه معنى أصلِ الفِسقِ.

قولُه: (عَلَى وَفْقِ العَادَةِ) يعني: الحجَّةُ إقناعيَّةٌ، وهي الَّتي يُظنُّ في أوَّلِ الأمرِ أنَّها حُجَّةٌ، ويزولُ ذلك بالتَّأمُّلِ، والملازمَةُ عاديَّةٌ، فإنَّ العادَةَ جاريةٌ بوجودِ التَّمانُعِ والتَّغالُبِ عند تعدُّدِ الحاكِمِ على ما أُشيرَ إليه بقولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] كذا قالَهُ التَّفتازانيُّ[2] والمحقِّقُونَ كالغزاليِّ[3] وابنِ الهمامِ[4] والقاضي[5]، ....

---

(١) قوله: «لعدم شمول ما قبلها لما بعدها»؛ أي: لكونه نكرةً في مقام الإيجاب «ودلالتِه»؛ أي: الاستثناءِ، وهو بالجرِّ عطف على (شمولِ) «على ملازمة الفساد» متعلق بـ(دلالتِه)؛ «لكون الآلهة» متعلق بـ(ملازمة) «فيهما»؛ أي: في السماوات والأرض «دونه»؛ أي: دون اللهِ؛ أي: وصف بـ﴿إلا﴾ عند تعذُّرِ الاستثناء؛ لعدم الشمولِ المذكورِ، وهو ظاهرٌ، ولعدم دلالة الاستثناء على ملازمة الفساد لوجود آلهةٍ فيهما غيرِ الله؛ إذ الاستثناءُ إنما يدلُّ على ضدِّ ذلك؛ إذ المعنى عليه: لو كان فيهما اللهُ لفسَدَتا، وهو فاسدٌ وإليه أشار بقوله: «والمراد»؛ أي: من الآيةِ شيئان: أحدهما: «ملازمته»؛ أي: الفسادِ «لكونها»؛ أي: الآلهةِ؛ أي: لوجودِها «مطلقاً»؛ أي: عن التقييدِ بكونِها معَ اللهِ، «أو معه»، وثانيهما: انتفاؤه؛ لوجودِه تعالى وحدَه «حملاً لها» تعليلٌ لقوله: «وصف بـ﴿إلا﴾». انظر: «حاشية زكريا الأنصاري على البيضاوي» (٤/ ٧٠).

(٢) انظر: «شرح العقائد النسفية» (ص: ٤٩).

(٣) انظر: «قواعد العقائد» (ص: ١٧٣).

(٤) انظر: «المسايرة في علم الكلام» (ص: ٢٢).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٤٨).

﴿فسُبحانَ﴾: تنزيهَ ﴿اللهِ، رَبِّ﴾: خالقِ ﴿العَرشِ﴾: الكرسيّ ﴿عَمّا يَصِفُونَ﴾ أي: الكُفّارُ اللهَ به من الشريكِ له وغيرِه! ٢٣ ـ ﴿لا يُسألُ عَمّا يَفعَلُ، وهُم يُسألُونَ﴾ عن أفعالهم.

٢٤ ـ ﴿أمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾ ـ تعالى ـ أي: سِواه ﴿آلِهَةً﴾؟ فيه استفهامُ توبيخٍ. ﴿قُلْ: هاتُوا بُرهانَكُم﴾ على ذلك. ولا سبيل إليه. ﴿هذا ذِكرُ مَن مَعِي﴾ أي: أُمّتي، وهو القُرآنُ، ﴿وذِكرُ مَن قَبلِي﴾ من الأُمم، وهو التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله، ليس في واحد منها أنّ مع الله إلـٰهًا ممّا قالوا. تعالى عن ذلك. ﴿بَل أكثَرُهُم لا يَعلَمُونَ الحَقَّ﴾ أي: توحيد الله، ﴿فهُم مُعرِضُونَ﴾ عن النظر المُوصِّل إليه. ٢٥ ـ ﴿وما أرسَلْنا مِن قَبلِكَ مِن رَسُولٍ إلاّ يُوحَى﴾ ـ وفي قراءة بالنون وكسر الحاء ـ ﴿إلَيهِ أنَّهُ لا إلـٰهَ إلاّ أنا. فاعبُدُونِ﴾ أي: وحِّدونِ.

٢٦ ـ ﴿وقالُوا: اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَدًا﴾ من الملائكة. ﴿سُبحانَهُ! بَل﴾ هم ﴿عِبادٌ مُكرَمُونَ﴾ عِندَه ـ والعُبوديةُ تُنافي الولادة ـ ٢٧ ـ ﴿لا يَسبِقُونَهُ بِالقَولِ﴾: ....

ما قَنعوا بالإقناعيَّةِ، وجَعَلوها حقيقَةً قطعيَّةً حتَّى قيلَ بكُفرِ التَّفتازانيِّ[1]، والمسألةُ مُستَوفاةٌ في الكُتبِ الكلاميَّةِ.

قولُه: (الكُرْسِيِّ) الصَّحيحُ أنَّه غيرُ الكرسيِّ، بل هو المحيطُ بجميعِ الأجسامِ الَّذي هو محلُّ التَّدابيرِ ومنشأُ المقاديرِ.

قولُه: (وغَيرِهِ) من الصَّاحِبةِ والوَلَدِ.

قولُه: (استِفهَامُ تَوبِيخٍ) وكَرَّرَهُ استِعظاماً لكُفرِهم، واستِقباحاً لأمرِهم، وإظهاراً لجهلِهِم.

قولُه: (عَلَى ذَلِكَ) إمَّا من العَقلِ أو النَّقلِ، فإنَّه لا يصحُّ القولُ بما لا دليلَ عليهِ، كيف وقد تطابقَتِ الحُجَجُ على بُطلانِهِ عقلاً ونقلاً.

قولُه: (مِمَّا قَالُوا) لا مفهومَ له، والأحسَنُ تركُهُ.

قولُه: (أي: تَوحِيدَ اللهِ) أو: لا يُميِّزونَ بينَ الحقِّ والباطِلِ.

قولُه: (عنِ النَّظَرِ) أو عن التَّوحيدِ واتِّباعِ الرَّسولِ.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لحفصٍ وحمزةَ والكِسائيِّ[2].

قولُه: (عِنْدَهُ) أي: مُقرَّبونَ، وفيه تنبيهٌ على مزلقِ القَومِ.

---

(١) انظر: «حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع» (١/ ٤٥٣) وبين فيه الاعتراض على التفتازاني والدفاع عنه، فانظره.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٦).

لا يأتون بقولهم إلاّ بعد قوله، ﴿وهُم بأمرِهِ يَعمَلُونَ﴾ أي: بعدَه، ٢٨ ـ ﴿يَعلَمُ ما بَينَ أيدِيهِم وما خَلفَهُم﴾ أي: ما عملوا وما هم عاملون، ﴿ولا يَشفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارتَضَى﴾ تعالى أن يُشفع له، ﴿وهُم مِن خَشيَتِهِ﴾ ـ تعالى ـ ﴿مُشفِقُونَ﴾ أي: خائفون، ٢٩ ـ ﴿ومَن يَقُل مِنهُم: إنِّي إلـٰهٌ مِن دُونِهِ﴾ أي: الله أي: غيرُه ـ وهو إبليس دعا إلى عِبادة نفسه وأمر بطاعتها ـ ﴿فذلِكَ نَجزِيهِ جَهَنَّمَ. كَذلِكَ﴾: كما نجزيه ﴿نَجزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: المشركين.

٣٠ ـ ﴿أوَلَم﴾ ـ بواو وتركِها ـ ﴿يَرَ﴾: يعلم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أنَّ السَّماواتِ والأرضَ كانَتا رَتقًا﴾ أي: سدًّا بمعنى مسدودة، ﴿ففَتَقْناهُما﴾ أي: جعلنا السماء سبعًا والأرض سبعًا، أو فتقُ السماء: أن كانت لا تُمطر فأمطرت، وفتقُ الأرض: أن كانت لا تُنبت فأنبتت، ﴿وجَعَلْنا مِنَ الماءِ﴾ النازلِ من السماء والنابعِ من الأرض ﴿كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ﴾: نباتٍ وغيره، ....

قولُه: (لا يَأْتُونَ) الظَّاهرُ: لا يَقولونَ شيئاً حتَّى يقولَهُ كما هو عادَةُ العبيدِ المؤدَّبينَ.

قولُه: (أَي: بَعْدَهُ) أي: لا يعلمُونَ ما لم يأمرْهُم به.

قولُه: (خشيتِه تَعَالى) أي: عظمتِه ومهابتِه، وأصلُ الخشيَةِ: خَوفٌ مع تعظيمٍ، ولذلك خُصَّ بها العُلماءَ.

قولُه: (أي: خَائِفُونَ) أو من خوفِ عذابِه حذِرونَ.

قولُه تعالى: (﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾) مِن الملائكَةِ أو الخلقِ.

قولُه: (وأَمَرَ) عَطفُ تفسيرٍ؛ إذ لم يعرفْ أنَّه عبدٌ، لكنَّ الشَّرطيَّةَ لا تقتَضِي الوجودَ.

قولُه: (أي: المُشْرِكِينَ) ومدَّعي الرُّبوبيَّةِ.

قولُه: (وتَرْكِهَا) مكِّيٌّ[1].

قولُه: (سدًّا) وإنَّما قالَ: ﴿رَتْقًا﴾ على التَّوحيدِ؛ لأنَّه مصدرٌ وُضِعَ موضِعَ الاسمِ، والتَّقديرُ: ذاتَ رتقٍ، أو: مرتوقيتين، وهو الضَّمُّ والالتحامُ والسَّدُّ؛ أي: كانَتا شيئاً واحداً ففتَقْناهُما بالتَّنويعِ والتَّمييزِ، وقيل: كانَتا بحيثُ لا فُرجةَ بينهُما ففُرِجَ، وتفسيرُ الشَّيخِ يحتملُهُما.

وقولُه: (أو فَتَقَ السَّمَاءَ) فيكونُ المرادُ بالسَّماواتِ سماءَ الدُّنيا، وجمعُها باعتِبارِ الآفاقِ، أو السَّماواتِ بأسرِها على أنَّ لها مدخلاً في الأمطارِ، والكفرَةُ وإن لم يَعلموا ذلك فهم متمكِّنونَ[2] من العلمِ به نظراً أو استِفساراً من العُلماءِ أو مطالعةً للكُتبِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٧).

(٢) في (ص): «ممكَّنُون».

أي: فالماء سبب لحياته؟ ﴿أفلا يُؤمِنُونَ﴾ بتوحيدي؟

٣١ ـ ﴿وجَعَلْنا في الأرضِ رَواسِيَ﴾: جبالاً ثوابتَ، لِـ ﴿أن﴾ لا ﴿تَمِيدَ﴾: تتحرّكَ ﴿بِهِم، وجَعَلْنا فِيها﴾ أي: الرواسي ﴿فِجاجًا﴾: مَسالكَ، ﴿سُبُلاً﴾: بدلٌ أي: طُرقًا نافذة واسعة، ﴿لَعَلَّهُم يَهتَدُونَ﴾ إلى مقاصدهم في الأسفار، ٣٢ ـ ﴿وجَعَلْنا السَّماءَ سَقفًا﴾ للأرض كالسقف للبيت ﴿مَحفُوظًا﴾ عن الوقوع. ﴿وهُم عَن آياتِها﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿مُعرِضُونَ﴾: لا يتفكّرون فيها، فيعلمون أنّ خالقها لا شريك له.

٣٣ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ، كُلٌّ﴾ ـ تنوينه عوضٌ من المضاف إليه، أي: كلٌّ من الشمس والقمرِ وتابعِه. وهو النجوم ـ ﴿في فَلَكٍ﴾ أي: مُستدير كالطاحونة في السماء ﴿يَسبَحُونَ﴾:

قولُه: (سَبَبٌ لحَيَاتِهِ) فـ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: أحيَيْنا، وقالَ القاضِي: أي: خَلقْنا من الماءِ كلَّ حيوانٍ كقولِهِ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور: ٤٥]، وذلك لأنَّه من أعظَمِ موادِّهِ، أو لفرطِ[(١)] احتياجِهِ إليه وانتفاعِهِ [به] بعينِهِ[(٢)].

قولُه: (بِتَوحِيْدِي) مع ظهورِ الآياتِ.

قولُه: (لـ﴿أَنْ﴾ لا) كذا قيل، فحُذِفَ (لا) لأمنِ اللَّبسِ، والأولَى تقديرُ: كراهَةَ.

قولُه: (أي: الرَّوَاسِي) أو الأرضِ.

قولُه: (مَسَالِكَ) واسِعةً.

قولُه: (أي: طُرُقاً) وإنَّما قدَّمَ ﴿فِجَاجاً﴾، وهو وصفٌ لـ﴿سُبُلاً﴾ ليُبدِلَ منها ﴿سُبُلاً﴾ فيدلَّ ضِمناً على أنَّه خلَقَها ووسَّعَها للسَّابلةِ معَ ما يكونُ فيه من التَّوكيدِ؛ إذِ البَدلُ في حكمِ تكريرِ العاملِ.

قولُه: (إلى مَصَالِحِهِمْ) ومقاصدِهِم في الأسفارِ.

قولُه: (وَهُو النُّجُومُ) أو التَّقديرُ: كلُّ واحدٍ منهُما، وإنَّما جُمِعَ باعتبارِ المطالعِ.

قولُه: (فِي السَّمَاءِ) أي: جهةِ العلوِّ متعلِّقٌ بـ(مُسْتَدِيرٌ).

---

(١) قوله: «أو لفرط» كذا في بعض نسخ البيضاوي، وفي أخرى: «ولفرط» بالواو، وهو ما رجحه الشهاب في «الحاشية على البيضاوي» (٦/ ٢٥٢) حيث قال: قوله: «ولفرط احتياجه إليه» يشير به وبعدم عطفه بـ(أو) ليظهر التخصيص؛ لأن التراب كذلك، ولذا ورد: ﴿خلقه من تراب﴾ [آل عمران: ٥٩]، وذكره في مقام آخر يقتضيه، فلا وجه لما قيل: إنّ الأولى أن يقول: (أو) مع أنه وقع «أو» في بعض النسخ أيضاً.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٥٠)، وما بين معكوفتين منه.

يسيرون بسرعة كالسابح في الماء. وللتشبيه به أتى بضمير جمعِ مَن يعقل.

ونزل لمّا قال الكُفّار: «إنّ مُحمّدًا سيَموتُ»: ٣٤ ـ ﴿وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِن قَبلِكَ الخُلدَ﴾ أي: البقاء في الدنيا. ﴿أفإن مُتَّ فهُمُ الخالِدُونَ﴾ فيها؟ لا. فالجملة الأخيرة محلُّ الاستفهام الإنكاري.

٣٥ ـ ﴿كُلُّ نَفسٍ ذائقةُ المَوتِ﴾ في الدنيا، ﴿ونَبلُوكُم﴾: نختبركم ﴿بِالشَّرِّ والخَيرِ﴾ كفَقر وغِنى وسقَم وصِحّة ﴿فِتنَةً﴾: مفعول له، أي: لننظر: أتصبرون وتشكرون أم لا؟ ﴿وإلَينا تُرجَعُونَ﴾ فنُجازيكم.

٣٦ ـ ﴿وإذا رآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إن﴾: ما ﴿يَتَّخِذُونَكَ إلاّ هُزُوًا﴾أي: مهزوءًا به، يقولون: ﴿أهذا الَّذِي يَذكُرُ آلِهتَكُم﴾ أي: يَعيبها؟ ﴿وهُم بِذِكرِ الرَّحمنِ﴾ لهم ﴿هُم﴾: تأكيد ﴿كافِرُونَ﴾ به، إذ قالوا: ما نعرفه.

ونزل في استعجالهم العذابَ: ٣٧ ـ ﴿خُلِقَ الإنسانُ مِن عَجَلٍ﴾ أي: أنه لكثرة عَجَلَتِهِ..........

قولُه: (وللتَّشبِيْهِ بِهِ) أي: بالسَّابحِ، والسِّباحةُ فعْلُ العُقَلاءِ.

قولُه: (إنَّ مُحَمَّداً) أو حيثُ قالوا: نتربَّصُ به رَيبَ المنونِ؛ أي: حوادِثَ الدَّهرِ، ومنهُ الموتُ، وسُمِّيَ بالمَنونِ لأنَّهُ قاطعٌ.

قولُه: (فِيهَا) وفي معناهُ قولُ الشَّاعرِ:

فَقُـلْ لِلشَّـامِتِينَ بِنَـا أَفِيقُـوا سَيَلْقَى الشَّـامِتُونَ كَمَـا لَقِينَـا[1]

قولُه تعالى: (﴿ذَائِقَةُ المَوتِ﴾) أي: مرارَةِ مُفارقتِها جسَدَها.

قولُه: (فِي الدُّنْيَا) إلَّا مَن شاءَ اللهُ مِن حمَلَةِ العرشِ وخزنَةِ الجِنانِ وزبانيَةِ النِّيرانِ.

قولُه: (نَخْتَبِرُكُم) أي: نعاملُكُم معامَلَةَ المختبِرِ بالبلاءِ والنِّعمةِ، والبلاءُ بمعنى النِّعمةِ والنِّقمةِ ضدٌّ.

قولُه: (مَفْعُولٌ لَهُ) والأظهرُ أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلِهِ من غيرِ لفظِهِ.

قولُـه: (فَنُجَازِيْكُـم) علـى الصَّبـرِ والشُّكـرِ، وفيـه: أنَّ المقصـودَ مـن هـذه الحيـاةِ الابتـلاءُ والتَّعريـضُ للثَّـوابِ والعِقـابِ.

قولُه: (يعِيْبُهَا) ويذكرُهَا بسُوءٍ.

قولُه: (لَهُم) أي: بالتَّوحيدِ، أو بالقُرآنِ.

قولُه: (لِكَثْرَةِ عَجَلِهِ) وقلَّةِ ثباتِهِ، ومن عجلتِه: مبادَرتُهُ إلى الكفرِ واستِعجالُ الوعيدِ.

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة» (٣٣٠٥) من قول خال الفرزدق.

في أحواله كأنه خُلق منه. ﴿سأُرِيكُم آياتِي﴾: مواعيدي بالعذاب. ﴿فلا تَستَعجِلُونِ﴾ فيه. فأراهم القتلَ ببدر. ٣٨ ـ ﴿ويَقُولُونَ: مَتَى هذا الوَعدُ﴾ بالقِيامة، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ فيه؟

٣٩ ـ قال تعالى: ﴿لَو يَعلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ﴾: يدفعون ﴿عَن وُجُوهِهِم النّارَ ولا عَن ظُهُورِهِم، ولا هُم يُنصَرُونَ﴾: يُمنعون منها في القِيامة ـ وجواب لو: ما قالوا ذلك ـ ٤٠ ـ ﴿بَل تأتِيهِم﴾ القِيامةُ ﴿بَغتَةً، فتَبهَتُهُم﴾: تُحيّرهم، ﴿فلا يَستَطِيعُونَ رَدَّها، ولا هُم يُنظَرُونَ﴾: يُمهَلون لتوبة أو مَعذِرة. ٤١ ـ ﴿ولَقَدِ استُهزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبلِكَ﴾ ـ فيه تسلية للنبيّ ﷺ ـ ﴿فحاقَ﴾: نزل ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنهُم ما كانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ﴾، وهو العذاب. فكذا يَحيق بمن استهزأ بك.

٤٢ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَن يَكلَؤُكُم﴾: يحفظُكم ﴿بِاللَّيلِ والنَّهارِ مِنَ الرَّحمنِ﴾: من عذابه، إن نزل بكم؟ أي: لا أحد يفعل ذلك. والمُخاطَبون لا يخافون عذاب الله لإنكارهم له، ﴿بَل هُم عَن ذِكرِ رَبِّهِم﴾ أي: القُرآنِ ﴿مُعرِضُونَ﴾: لا يتفكّرون فيه.

قولُه: (مَوَاعِيْدِي) أي: نقماتي في الدُّنيا كوقعةِ بدرٍ، وفي الآخرةِ عذابُ النَّارِ.

قولُه: (فِيْهِ) أو: بالإتيانِ بها.

قولُه: (بالقِيَامَةِ) الظَّاهرُ: وقت وعدِ العَذابِ، أو يوم القيامةِ.

قولُه: (فِيْهِ) يعنُونَ: النَّبيَّ ﷺ وأصحابَهُ.

قولُه: (يدفَعُونَ) و﴿حِيْنَ﴾ مفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾؛ أي: [لو يعلمون] الوقتَ الَّذي يستعجلونَ منه بقولِهم: ﴿متى هذا الوَعدُ﴾، وهو حينَ تُحيطُ بهم النَّارُ مِن كلِّ جانبٍ بحيثُ لا يقدِرونَ على دفعِها ولا يجدونَ ناصراً قائماً يمنعُها= لَمَا استَعجَلوا.

قولُه: (القِيَامَةُ) أو العِدَةُ، أو النَّارُ، أو السَّاعةُ، أو الآياتُ.

قولُه: (تُحَيِّرُهُم) أو تغلبُهُم.

قولُه: (مِن عَذَابِهِ) وفي لفظِ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ تنبيهٌ على ألَّا كالئَ غيرُ رحمتِهِ العامَّةِ، وأنَّ اندفاعَهُ بمهلتِهِ.

قولُه: (والمُخَاطَبُونَ) وهُم المستهزِئونَ.

قولُه: (لا يَتَفَكَّرُونَ) أو: لا يُخطِرونَهُ ببالِهم فضلاً أن يَخافُوا بأسَهُ، حتَّى إذا كُلِئوا منه عرَفوا الكالِئَ وصلحوا للسُّؤالِ عن الكَلئِ[1].

---

(١) كذا في النسخ، وفي «الكشاف» و«أنوار التنزيل» و«مدارك التنزيل» و«البحر المحيط»: «وصلحوا للسؤال عنه».

٤٣ ـ ﴿أم﴾ فيها معنى الهمزة للإنكار، أي: أ ﴿لَهُم آلِهَةٌ تَمنَعُهُم﴾ ممّا يسوءُهم ﴿مِن دُونِنا﴾ أي: ألَهم من يمنعهم منه غيرُنا؟ لا. ﴿لا يَستَطِيعُونَ﴾ أي: الآلهةُ ﴿نَصرَ أَنفُسِهِم﴾ فلا ينصرونهم، ﴿ولا هُم﴾ أي: الكُفّارُ ﴿مِنّا﴾: من عذابنا ﴿يُصحَبُونَ﴾: يُجارُون. يقال: صَحِبَكَ اللهُ، أي حفظك وأجارك. ٤٤ ـ ﴿بَل مَتَّعنا هؤُلاءِ وآباءَهُم﴾ بما أنعمنا عليهم ﴿حَتّى طالَ عَلَيهِمِ العُمُرُ﴾ فاغترّوا بذلك. ﴿أفلا يَرَونَ أَنّا نأتِي الأرضَ﴾: نقصِدُ أرضَهم، ﴿نَنقُصُها مِن أطرافِها﴾ بالفتح على النبيّ؟ ﴿أفهُمُ الغالِبُونَ﴾؟ لا، بل النبيُّ وأصحابه.

٤٥ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّما أُنذِرُكُم بِالوَحيِ﴾ من الله لا من قِبَل نفسي. ﴿ولا يَسمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إذا﴾ ـ بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية بينها وبين الياء ـ ﴿ما يُنذَرُونَ﴾ أي: هم لتركهم العمل بما سمعوه من الإنذار كالصُّمّ، ٤٦ ـ ﴿ولَئِنْ مَسَّتهُم نَفحَةٌ﴾: وقعة خفيفة، ﴿مِن عَذابِ رَبِّكَ، لَيَقُولُنَّ: يا﴾ للتنبيه ﴿وَيلَنا﴾: هلاكَنا. ﴿إنّا كُنّا ظالِمِينَ﴾ بالإشراك وتكذيب مُحمّد. ٤٧ ـ ﴿ونَضَعُ المَوازِينَ القِسطَ﴾: ذواتِ العدل ﴿لِيَومِ القِيامةِ﴾..

قولُه: (فِيْهَا) يعني: معَ وجودِ ﴿بل﴾.

قولُه: (أي: ﴿أَلَهُم﴾) كذا في نُسخةٍ، والظَّاهرُ: بل ألَهُم، وقيل: الميمُ زائدةٌ عند الكوفيِّينَ.

قولُه: (غَيْرُنَا) أو: من عَذابٍ يكونُ من عندِنا.

قولُه: (أي: الكُفَّارُ) الظَّاهرُ أنَّ الضَّميرينَ للآلهةِ، والمعنَى: أنَّ من لا يقدِرُ على نَصرِ نفسِهِ ولا يصحبُهُ نصرٌ من اللهِ فكيفَ ينصُرُ غيرَهُ؟

قولُه: (أَرْضَهُم) أي: الكفرَةِ؛ يعني: هذه سُنَّتُنَا.

قولُه: (بالفَتْحِ) وبتَسليطِ المؤمنينَ عليها.

قولُه: (منَ اللهِ) أي: بما أوحيَ إليَّ.

قولُه: (وتَسْهِيلِ) الحرميَّانِ والبَصريُّ[1]، وقرأ ابنُ عامرٍ: (ولا تُسمِعُ) على خطابِ النَّبيِّ ونصبِ (الصُّمَّ)[2].

قولُه: (وَقْعَةٌ خَفِيْفَةٌ) أي: أدنى شَيءٍ.

قولُه: (للتَّنبِيْهِ) الظَّاهرُ أنَّ ﴿يَا﴾ للنِّداءِ مجازاً؛ أي: هذا أوانُكِ فاحضُري.

قولُه: (ذَوَاتِ) القِسْطِ، أو: العادلَةِ، أو: للعَدلِ، أو مصدرٌ وُصِفَ به للمُبالغَةِ، والجمعُ باعتِبارِ الموزوناتِ،

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٣٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٧).

أي: فيه، ﴿فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئًا﴾ من نقص حسنة أو زيادة سيئة، ﴿وإن كانَ﴾ العملُ ﴿مِثقالَ﴾: زِنةَ ﴿حبّةٍ مِن خَردلٍ أتَينا بِها﴾: بموزونها، ﴿وكَفَى بِنا حاسِبينَ﴾: مُحصِين في كل شيء!

٤٨ ـ ٤٩ ـ ﴿ولَقَد آتَينا مُوسَى وهارُونَ الفُرْقانَ﴾أي: التوراة الفارقة بين الحقّ والباطل والحلالِ والحرام، ﴿وضِياءً﴾ بها ﴿وذِكرًا﴾ أي: عِظة بها ﴿لِلمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم بِالغَيبِ﴾ عن الناس أي: في الخلاء عنهم، ﴿وهُم مِنَ السّاعةِ﴾ أي: أهوالها ﴿مُشفِقُونَ﴾ أي: خائفون. ٥٠ ـ ﴿وهذا﴾ أي: القُرآن ﴿ذِكرٌ مُبارَكٌ أنزَلْناهُ. أفأنتُم لَهُ مُنكِرُونَ﴾؟ الاستفهام فيه للتوبيخ.

٥١ ـ ﴿ولَقَد آتَينا إبراهِيمَ رُشدَهُ مِن قَبلُ﴾ أي: هُداه قبل بُلوغه،..........................

يوزَنُ بها صحائِفُ الأعمالِ على الأصحِّ، قيل: صاحبُ الموازينِ يومَ القيامَةِ جبريلُ.

قولُه: (فِيْهِ) كقولِكَ: جئتُ لخمسٍ خلَونَ من الشَّهرِ، أو: لجزائِهِ، أو: لأهلِهِ.

قولُه: (مِن نَقْصٍ) يعني: من حقِّها، فهو مفعولٌ ثانٍ، أو من الظُّلمِ فمَصدرٌ.

قولُه: (العَمَلُ) أو الظُّلمُ.

قولُه: (زِنَةَ) أي: مقدارَ، ورفعُ ﴿مِثقَالُ﴾[1] على ﴿كَانَ﴾ التَّامَّةِ.

قولُه: (أي: بمَوْزُونِهَا) وهو الصَّحيفةُ؛ يعني: على حذفِ المضافِ؛ إذ العَمَلُ عرَضٌ لا يبقَى زمانينِ، وقيلَ: تُجسَّد الأعمالُ، فيكونُ المعنى: أحضَرْناها.

قولُه: (مُحْصِينَ) ومُحيطينَ؛ إذ لا مزيدَ على عِلمِنا وعَدلِنا.

قولُه: (﴿وَضِيَاءً﴾) يُستَضاءُ به في ظُلمةِ الحيرةِ والجهالَةِ.

قولُه: (أي: عِظَةً) أو ذكرَ ما يُحتاجُ إليه في الدِّينِ.

قولُه: (عَنِ النَّاسِ) حالٌ عن الفاعلِ، وجوَّزَ عن المفعولِ.

قولُه تعالى: (﴿مُبَارَكٌ﴾) أي: كثيرٌ خيرُهُ في الدَّارينِ.

قولُه: (الاستِفهَامُ) الأحصَرُ: استِفهامُ توبيخٍ.

قولُه: (أي: هُدَاهُ) أي: الاهتِداءَ لوجوهِ الصَّلاحِ.

قولُه: (قَبْلَ بُلُوغِهِ) حيثُ قالَ: ﴿إِنِّي وجَّهتُ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقيلَ: قبلَ موسَى وهارونَ، أو محمَّدٍ عليهم

---

(١) أي: قرئ بالرفع وهي قراءة نافع كما في «السبعة» (ص: ٤٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٥). أما في المتن فهو بالنصب على قراءة باقي السبعة؛ لأن المصنف اعتبر ﴿كان﴾ هي الناقصة حيث ذكر اسمها.

﴿وكُنّا بِهِ عالِمِينَ﴾ بأنه أهل لذلك، ٥٢ ـ ﴿إذ قالَ لِأبِيهِ وقَومِهِ: ما هذِهِ التَّماثِيلُ﴾: الأصنام ﴿الَّتِي أنتُم لَها عاكِفُونَ﴾ أي: على عبادتها مُقيمون؟ ٥٣ ـ ﴿قالُوا: وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ﴾، فاقتدينا بهم. ٥٤ ـ ﴿قالَ﴾ لهم: ﴿لَقَد كُنتُم أنتُم وآباؤُكُم﴾ بعبادتها ﴿في ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بَيِّنٍ.

٥٥ ـ ﴿قالُوا: أجِئتَنا بِالحَقِّ﴾ في قولك هذا، ﴿أم أنتَ مِنَ اللاّعِبِينَ﴾ فيه؟ ٥٦ ـ ﴿قالَ: بَل رَبُّكُم﴾ المُستحقّ للعبادة ﴿رَبُّ﴾: مالكُ ﴿السَّماواتِ والأرضِ، الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾: خلقهنّ على غير مِثال سبق، ﴿وأنا علَى ذلِكُم﴾ الذي قلته ﴿مِنَ الشّاهِدِينَ﴾ به، ٥٧ ـ ٥٨ ـ ﴿وتاللهِ لَأكِيدَنَّ أصنامَكُم، بَعدَ أنْ تُوَلُّوا مُدبِرِينَ! فجَعَلَهُم﴾ بعد ذَهابهم إلى مُجتمعهم في يوم عِيد لهم ﴿جُذاذًا﴾، بضمّ الجيم وكسرها: فُتاتًا بفأس، ﴿إلاّ كَبِيرًا لَهُم﴾ علّق الفأس في عُنقه، ﴿لَعَلَّهُم إلَيهِ﴾ أي: الكبيرِ ﴿يَرجِعُونَ﴾ فيرَون ما فُعِلَ بغيره.

السَّلامُ، وسُئلَ الجُنَيدُ: متى أُوتيَ رُشدَهُ؟ فقال: حينَ لا متى[1]. قلتُ: لو قيلَ: «قبلَ متى» لأتى بالمَأتيِّ.

قولُه: (لِذَلِكَ) أي: لما آتيناهُ.

قولُه: (عَلَى عِبَادَتِهَا) فاللّامُ بمَعنى: على.

قولُه: (مُقِيمُونَ) أي: مُداوِمونَ ومواظِبونَ ومُقبِلونَ.

قولُه: (فَاقْتَدَيْنَا) الأظهرُ: فقلَّدْناهُم.

قولُه: (فِيْهِ) استِبعاداً لتَضليلِ آبائِهم.

قولُه: (خَلَقَهُنَّ) وقيل: هنَّ لـ﴿التَّماثيلُ﴾.

قولُه: (قُلْتُهُ) من التَّوحيدِ.

قولُه: (بِهِ) المتحقِّقينَ له، والمُبرهنينَ عليه؟

وقولُه: (﴿لَأَكِيْدَنَّ﴾) لأجتهِدنَّ في كسرِها، ولعلَّه قال ذلك سرًّا.

قولُه: (وكَسْرِهَا) كسائيٌّ[2].

قولُه: (فُتَاتاً) وقطاعاً، فُعالٌ بمعنى مَفعولٍ.

قولُه: (﴿إِلَيْهِ﴾) إلى الكَبيرِ، وقيل: إلى إبراهيمَ، أو إلى اللهِ.

قولُه: (فَيَرَوْنَ) ويسألونَهُ عن كاسِرِها؛ إذ مِن شأنِ المعبودِ أن يُرجِعَ إليه في حلِّ العُقدِ.

---

(١) انظر: «حقائق التأويل» للسلمي (٢/ ٨)، و«روح المعاني» (٩/ ١٠٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٨).

٥٩ ـ ﴿قالُوا﴾ بعد رُجوعهم ورُؤيتهم ما فُعِل: ﴿مَن فَعَلَ هذا بِآلِهتِنا؟ إنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه.

٦٠ ـ ٦١ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض: ﴿سَمِعْنا فَتًى يَذكُرُهُم﴾ أي يَعيبهم، ﴿يُقالُ لَهُ إبراهِيمُ. قالُوا: فائْتُوا بِهِ عَلَى أعيُنِ النّاسِ﴾ أي: ظاهرًا، ﴿لَعَلَّهُم يَشهَدُونَ﴾ عليه أنه الفاعل.

٦٢ ـ ٦٣ ـ ﴿قالُوا﴾ له بعد إتيانه: ﴿أأنتَ﴾ ـ بتحقيق الهمزتين، وإبدال الثانية ألفًا، وتسهيلها وإدخال ألف بين المسهلة والأخرى وتركه ـ ﴿فَعَلتَ هذا بِآلِهتِنا؟ يا إبراهِيمُ. قالَ﴾ ساكتًا عن فعله: ﴿بَل فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هذا. فاسألُوهُم﴾ عن فاعله، ﴿إن كانُوا يَنطِقُونَ﴾. فيه تقديم جواب الشرط، وفيما قبله تعريض لهم بأنّ الصنم المعلومَ عجزُه عن الفعل لا يكون إلـٰهًا.

٦٤ ـ ﴿فرَجَعُوا إلَى أنفُسِهِم﴾ بالتفكّر، ....

قولُه: (فِيْهِ) بجُرأتِه.

قولُه: (يَعِيبُهُم) فلعلَّهُ فعَلَهُ.

قولُه: (أي: ظَاهِراً) فالجارُّ والمجرورُ في موضعِ الحالِ.

قولُه: (عَلَيهِ) بفعلِه، أو قولِه، أو يحضرونَ عُقوبتَنا له.

قولُه: (بتَحْقِيقِ) حُقِّقَ مِراراً.

قولُه: (عَن فِعْلِهِ) أي: فعلِ نفسِه.

وقولُه تعالى: (﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾) أسندَ الفعلَ إلى الكَبيرِ تجوُّزًا؛ لأنَّ غيظَهُ لِمَا رأى من زيادَةِ تعظيمِهم له سببٌ لمباشَرتِه الكَسرَ، وقيل: إلى ضميرِ ﴿فَتًى﴾ أو ﴿إِبْرَاهِيم﴾، وقولُهُ: ﴿كَبِيْرُهُم هَذَا﴾ مبتدأٌ وخبرٌ، ولذلك وُقِفَ على[1]: ﴿فَعَلَهُ﴾.

قولُه: (فِيهِ تَقدِيمُ جَوَابِ الشَّرْطِ) أي: جوازُهُ، وفيه: أنَّ حذفَ جوابِ الشَّرطِ واجبٌ إن تقدَّمَ عليه كما في «المغني»[2]، ويُمكنُ أن يُحمَلَ كلامُ الشَّيخِ عليه بتكلُّفٍ.

قولُه: (تَعْرِيضٌ) فيه إشارَةٌ إلى أنَّ ما رُوِيَ أنّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ: «لم يَكذِبْ إلَّا ثَلاثَ كذباتٍ»[3] تسميةٌ للمَعاريضِ كذباً لمَّا شابهَت صورَتُها صورتَهُ.

قولُه: (بالتَّفَكُّرِ) إلى قلوبِهِم وعقولِهم، أو بعضِهِم إلى بعضٍ.

---

(١) في (ص) زيادة: «قوله».

(٢) انظر: «مغني اللبيب» (ص: ٨٤٩).

(٣) رواه البخاري (٥٠٨٤)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فقالُوا﴾ لأنفُسهم: ﴿إنَّكُم أنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، أي: بعِبادتكم من لا ينطق. ٦٥ ـ ﴿ثُمَّ نُكِسُوا﴾ من الله ﴿علَى رُؤُوسِهِم﴾ أي: رُدّوا إلى كُفرهم، وقالوا: واللهِ ﴿لَقَد عَلِمتَ: ما هؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾ أي: فكيف تأمرنا بسُؤالهم؟

٦٦ ـ ﴿قالَ: أفتَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ﴿ما لا يَنفَعُكُم شَيئًا﴾ من رِزق وغيره، ﴿ولا يَضُرُّكُم﴾ شيئًا، إن لم تعبدوه؟ ٦٧ ـ ﴿أُفٍّ﴾ ـ بكسر الفاء وفتحها ـ بمعنى مصدر أي: نَتنًا وقُبحًا ﴿لكُم، ولِما تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه. ﴿أفلا تَعقِلُونَ﴾ أنّ هذه الأصنام لا تستحقّ العِبادة ولا تصلح لها، وإنما يستحقّها الله تعالى ٦٨ ـ ﴿قالُوا: حَرِّقُوهُ﴾ أي: إبراهيمَ، ﴿وانصُرُوا آلِهتَكُم﴾ أي: بتحريقه، ﴿إن كُنتُم فاعِلِينَ﴾ نُصرتَها.

قولُه: (لِأَنفُسِهِم) الظَّاهرُ: قالَ بعضُهُم لبعضٍ.

قولُه: (بعِبَادَتِكُم) لا مَن نسبتُموهُ إلى الظُّلمِ بقولِكُم: ﴿إنَّه لمِن الظَّالمينَ﴾.

قولُه: (مِنَ اللهِ) أي: انقَلبوا إلى المجادَلَةِ بعد ما استَقامُوا بالمراجَعةِ.

قولُه: (رُدُّوا) شبَّهَ عودَهُم إلى الباطِلِ بصَيرُورةِ أسفلِ الشَّيءِ مُستعلياً على أعلاهُ.

قولُه: (وقَالُوا) أو: قائِلينَ.

قولُه: (وغَيرِهِ) كجَوابِ سؤالٍ: إذا عبَدتُموهُ.

قولُه: (بكَسْرِ الفَاءِ) مع التَّنوينِ نافعٌ وحفصٌ، وبدونِهِ بصريٌّ وكوفيٌّ غيرُ حفصٍ[1].

قولُه: (وفَتحِهَا) مكِّيٌّ وشاميٌّ[2].

قولُه: (تَبًّا) أو: (نتناً)[3]، واللَّامُ لبيانِ المتأفَّفِ له.

قولُه: (أي: غَيره) تضجُّرٌ منه عليهِ السَّلامُ على إصرارِهِم بالباطِلِ البيِّنِ.

قولُه: (أَنَّ هذِهِ) الأخصَرُ: قبحَ صنيعِكُم.

قولُه: (أي: إبرَاهِيمَ) أخَذوا في المضارَّةِ لمَّا عجِزُوا عن المحاجَّةِ.

قولُه: (أي: بتَحْرِيقِهِ) الأظهرُ: بالانتِقامِ لها.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٠).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٢٩).

(٣) وهو لفظ المتن.

فجمعوا له الحطب الكثير وأضرموا النار في جميعه، وأوثقوا إبراهيم وجعلوه في مَنجَنيقٍ ورمَوه في النار. ٦٩ ـ قال الله تعالى: ﴿قُلْنا: يا نارُ، كُونِي بَرْدًا وسَلامًا على إبراهِيمَ﴾، ....

قولُه: (أَضْرَمُوا) أوقَدُوا.

قولُه: (فِي جُمْعةٍ)[1] وقيل: مدَّةَ شهرٍ، وكانَ الرَّجلُ يمرضُ فيقولُ: لئِن عافاني اللهُ لأجمعنَّ حطباً لإبراهيمَ[2]، وكانت المرأةُ تغزِلُ وتشتَري الحطبَ فتُلقيهِ احتِساباً[3].

قولُه: (كِتَافاً) كذا في نسخةٍ[4]، نصبٌ بنزعِ الخافِضِ، وهو حبلٌ يُشَدُّ به.

قولُه: (مَنْجَنِيقٍ) وتُكسرُ ميمُه، آلةٌ يُرمى بها الحجارَةُ، مُعرَّبةٌ، وقد تذكَّرُ، فارسيَّتُها: من جه نيك[5]؛ أي: ما أجودني.

قولُه: (وَرَمَوهُ) فصاحت السَّماءُ والأرضُ ومَن فيهما من الملائكةِ والخَلقِ إلَّا الثَّقلينِ صيحةً واحِدةً: أي ربَّنَا، خليلُكَ يُلقى في النَّارِ وليسَ في أرضِكَ أحدٌ يعبدُكَ غيرَهُ، فأْذَنْ لنا في نُصرتِهِ، فقالَ تعالى: إنِ استَغاثَ بكُم فانصُروهُ، فقالَ له جبريلُ: هل لكَ حاجَةٌ؟ قالَ: أمَّا إليكَ فلا، فقالَ: فسَل ربَّكَ، قالَ: حَسبي مِن سُؤالي علمُه بحالي[6]، فجعَلَ اللهُ ببركةِ قولِهِ الحظيرَةَ روضةً، فاطَّلعَ عليه نمرودُ من القَصرِ فقالَ: إنِّي مقرِّبٌ إلى ربِّكَ، فذبحَ أربعةَ آلافِ بقرةٍ، وكفَّ عن إبراهيمَ[7]، وكانَ إذ ذاكَ ابن ستَّ عشرةَ سنةً.

قولُه تعالى: (﴿بَرْداً وَسَلَاماً﴾) أي: ذاتَ بردٍ وسَلامٍ، أو مصدَرانِ للمُبالغةِ؛ أي: ابرُدي برداً غيرَ ضارٍّ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ: لو لم يقلْ: ﴿وسَلَاماً﴾ لَماتَ إبراهيمُ مِن بَردِها[8].

---

(١) كذا ذكر، ولعل الصواب هو الذي في المتن: «في جميعه»؛ أي: جميع الحطب، ولم أجد من ذكر الجمعة في مدة جمع الحطب.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٦٥) عن السدي.

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٩٤).

(٤) ليست في المتن، ولعلها بعد قوله: «وأوثقوا إبراهيم».

(٥) انظر: «لسان العرب» (١٠/ ٣٣٨).

(٦) ذكره ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٥٠) بلفظ: «علمه بحالي يغني عن سؤالي» ونقل عن ابن تيمية قوله: موضوع. وجاء في «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١/ ١٨٣): ليس له إسناد معروف، وهو باطل، بل الذي ثبت أنه قال: (حسبي الله ونعم الوكيل). رواه البخاري (٤٥٦٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: (حسبي الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيمُ عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

(٧) انظر: «تاريخ الطبري» (١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).

(٨) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ٤٦٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢٣٦).

فلم تُحرق منه غيرَ وِثاقه، وذهبت حرارتها وبقيت إضاءتها. وبقوله «سلامًا» سلِمَ من الموت ببردها.

٧٠ ـ ﴿وأرادُوا بِهِ كَيدًا﴾ ـ وهو التحريق ـ ﴿فجَعَلْناهُمُ الأخسَرِينَ﴾ في مُرادهم، ٧١ ـ ﴿ونَجَّيناهُ ولُوطًا﴾ ابنَ أخيه هارانَ من العِراق ﴿إلَى الأرضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلعالَمِينَ﴾ بكثرة الأنهار والأشجار ـ وهي الشام. نزل إبراهيمُ بفِلَسطينَ ولوطٌ بالمؤتفكة، وبينهما يوم ـ ٧٢ ـ ﴿ووَهَبْنا لَهُ﴾: لإبراهيم ـ وكان سأل ولدًا كما ذُكر في «الصافات» ـ ﴿إسحاقَ، ويَعقُوبَ نافِلَةً﴾ أي: زيادةً على المسؤول، أو هو ولدُ الولد...

ومِن المعروفِ في الآثارِ أنَّه لم يبقَ يومئذٍ نارٌ في الأرضِ إلَّا طفِئت[1]، فلم يُنتفَعْ في ذلك اليومِ بنارٍ في العالمِ، ولو لم يقلْ: ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ بقيَتْ ذاتَ بردٍ أبداً.

قولُه: (وَذَهَبَتْ حَرَارَتُهَا) في البَيضاويِّ: وانقِلابُ النَّارِ هواءً طيِّباً ليسَ ببدعٍ، غيرَ أنَّه هكذا على خلافِ المعتادِ، فهو إذن من مُعجزاتِهِ، وقيل: كانت النَّارُ بحالِها، لكنَّهُ تعالى دفعَ عنه أذيَّتَها كما ترى في السَّمندَرِ[2]، ويُشعِرُ به قولُه: ﴿عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[3].

والشيخُ مالَ إلى هذا القيلِ، وعليه اقتصَرَ صاحبُ «المداركِ»[4].

قولُه: (فِي مُرَادِهِم) حيثُ عادَ كيدُهُم بُرهاناً قاطعاً على أنَّهم على الباطِلِ وإبراهيمَ على الحقِّ، ومُوجِباً لمزيدِ درجتِهِ واستحقاقِهِم عذابَ النَّارِ.

قولُه: (هَارَانَ) عطفُ بيانٍ لـ«أخيه».

قولُه: (بِكَثْرَةِ الأَنْهَارِ) وبمهبطِ أكثرِ الأنبياءِ الكبارِ.

قولُه: (بِفِلسطِيْنَ) بكسرِ أوَّلِهِ وقد يُفتَحُ فاؤُهُ: ناحيةٌ بالشَّامِ.

قولُه: (يَوْمٌ) أو ليلةٌ.

قولُه: (عَلَى المَسْؤُولِ) وهو إسحاقُ (أو هُوَ وَلَدُ الوَلَدِ) الأظهرُ أن يقولَ: أو ولدُ ولدٍ، وعلى القولَينِ يختصُّ بيعقوبَ، ولا بأسَ للقرينةِ.

---

(١) وهذا مذكور في الأثر السابق لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (ص): «السمندل». جاء في «حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي» (٦/ ٢٦٣): السمندل: وفي نسخة: السمندر، بالراء، وفي أخرى: السمند، وهي لغات فيه لتلاعبهم فيه؛ لأنه معرب، وهو طائر أو دويبة كالفأر لا تحرقها النار، ويجعل من ريشها أو وبرها مناديل، ولا تحرقها النار.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٥٦).

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٤١٢).

﴿وكُلًّا﴾ أي: هو وولداه ﴿جَعَلْنا صالِحِينَ﴾ أي: أنبياءَ، ٧٣ ـ ﴿ وجَعَلْناهُم أئمَّةً﴾، بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية ياء: يُقتدَى بهم في الخير، ﴿يَهدُونَ﴾ الناس ﴿بِأمرِنا﴾ إلى دِيننا، ﴿وأوحَينا إِلَيهِم فِعلَ الخَيراتِ، وإقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ﴾ أي: أن تُفعل وتُقام وتُؤتى منهم ومن أتباعهم. وحذفُ هاء «إقامة» تخفيف. ﴿وكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾.

٧٤ ـ ٧٥ ـ ﴿ولُوطًا آتَيناهُ حُكمًا﴾: فصلاً بين الخُصوم ﴿وعِلمًا، ونَجَّيناهُ مِنَ القَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعمَلُ﴾ أي: أهلُها الأعمالَ ﴿الخَبائثَ﴾ من اللِّواط والرمي بالبُندق واللعب بالطيور وغير ذلك ـ ﴿إنَّهُم كانُوا قَومَ سَوءٍ﴾: مصدرُ: ساءَه، نقيضِ: سرَّه ﴿فاسِقِينَ ـ وأدخَلْناهُ في رَحْمَتِنا﴾ بأن أنجيناه من قومه. ﴿إنَّهُ مِنَ الصّالِحِينَ﴾.

٧٦ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿نُوحًا﴾ ـ وما بعده بدلٌ منه ـ ﴿إذ نادَى﴾: دعا على قومه، بقوله: «رَبِّ لا تَذَرْ» إلى آخره، ﴿مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ إبراهيمَ ولُوطٍ، ﴿فاستَجَبْنا لَهُ، فنَجَّيناهُ وأهلَهُ﴾ الذين في سفينته ﴿مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ﴾ أي: الغرقِ وتكذيب قومه له،........................

وقيلَ: ﴿نَافِلَةً﴾: عطيَّةً، فهو حالٌ منهما، وقيل: مصدرٌ من غيرِ فعلِهِ.

قولُه: (أي: هُوَ وَوَلَدَاهُ) وقالَ البيضاويُّ: يعني: الأربعةَ[١]. فأدخَلَ لوطاً.

قولُه: (بتَحْقِيقِ) تقدَّمَ في التَّوبةِ[٢].

قولُه: (أن تُفعَلَ) فالمصادرُ[٣] بمعنى المفعولِ، وفيه تخصِيصٌ بعدَ تعميمِ.

قولُه: (تَخْفِيفٌ) والتَّحقيقُ: أنَّ حذفَ تاءِ «الإقامةِ» المعوَّضةِ من إحدى الألفَينِ ـ وهي الزَّائدةُ عند الجمهُورِ ـ لقيامِ المضافِ إليه مَقامَها.

قولُه: (وغَيرِ ذَلِكَ) من الضُّراطِ، وحذفِ المارَّةِ بالحَصا.

قولُه تعالى: (﴿في رَحْمَتِنَا﴾) أي: في أهلِ رحمَتِنا، أو: في جنَّتِنا.

قولُه: (أي: قَبْلِ إبرَاهِيْمَ) الأخصرُ: قَبْلِ المذكورينَ.

قولُه: (وتَكْذِيْبِ قَوْمِهِ) والكَربُ: الغمُّ الشَّديدُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٥٦).

(٢) انظر: الآية (١٢) من سورة التوبة.

(٣) في (ص): «فالمصدر».

٧٧ ـ ﴿ونَصَرْناهُ﴾: منعناه ﴿مِنَ القَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ الدالّة على رسالته، ألاّ يَصِلوا إليه بسُوء. ﴿إنَّهُم كانُوا قَومَ سَوءٍ، فأغرَقْناهُم أجمَعِينَ﴾.

٧٨ ـ ﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿داوُدَ وسُلَيمانَ﴾ أي: قِصّتَهما، ويُبدل منهما: ﴿إذ يَحكُمانِ في الحَرْثِ﴾ هو زرع أو كرمٌ، ﴿إذ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَومِ﴾ أي: رعته ليلاً بلا راع بأن انفلتتْ، ﴿وكُنّا لِحُكمِهِم شاهِدِينَ﴾ ـ فيه استعمال ضمير الجمع لاثنين. قال داود: لصاحبِ الحرث رقابُ الغنم. وقال سُليمان: يَنتفع بدَرّها ونسلها وصوفها إلى أن يعود الحرث كما كان بإصلاح صاحبها، فيردَّها إليه ـ ٧٩ ـ ﴿ففَهَّمْناها﴾ أي: الحُكومةَ ﴿سُلَيمانَ﴾ ـ وحكمُهما باجتهادٍ ورجَعَ داود إلى سليمان، وقيل: بوحيٍ والثاني ناسخ للأول ـ ﴿وكُلًّا﴾ منهما ﴿آتينا﴾هُ ﴿حُكمًا﴾: نُبوّة ﴿وعِلمًا﴾ بأمور الدِّين، ﴿وسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الجِبالَ، يُسَبِّحْنَ، والطَّيرَ﴾ كذلك، سُخِّرا للتسبيح معه، لِأمره به إذا وَجدَ فترة لينشط له، ﴿وكُنّا فاعِلِينَ﴾ تسخيرَ تسبيحهما معه، وإن كان عجَبًا عندكم، أي: مجاوبةً للسيد داود، ٨٠ ـ ﴿وعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ وهي الدِّرع لأنها تُلبس ـ وهو أوّل مَن صنعها وكان قبلها صفائحُ ـ ﴿لَكُم﴾ في جملة الناس،...............

قولُه: (بِسُوءٍ) أي: بشَيءٍ ممَّا يسوؤُهُ من الأذَى.

قولُه: (أو كَرْمٌ) تدلَّتْ عناقيدُهُ.

قولُه: (لاثْنَينِ) وقُرئ: (لِحُكْمِهِمَا)[1]، أو: لحُكمِ الحاكِمَينِ والمتحاكِمَينِ، فالإضافَةُ إلى الفاعلِ والمفعولِ.

قولُه: (لِصَاحِبِ) خبرٌ مقدَّمٌ.

قولُه: (سُلَيمَانُ) وهو ابنُ إحدى عشرةَ سنةً.

قولُه: (يَنتَفِعُ) صاحِبُ الحرثِ.

قولُه: (صَاحِبِهَا) أي: الغَنمِ.

قولُه: (فَيَرُدَّهَا إلَيهِ) أي: صاحبُ الحَرثِ الغَنمَ إلى صاحِبِ الغنمِ.

قولُه: (لِأَمْرِهِ بِهِ) أي: لأمرِ اللهِ بالتَّسبيحِ بخَلقِ اللهِ فيهما.

قولُه: (تَسْخِيرَ) أو: لأمثالِهِ، فليسَ ببِدْعٍ منَّا وإن كانَ عجيباً عندَكُم.

قولُه: (قَبْلَهَا) أو قبلهُ، فحلَّقَها وسرَدَها؛ أي: نَظَمَها.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣١٩) ونسبت لابن مسعود وابن أبي عبلة.

﴿لِنُحصِنَكُم﴾ بالنون لله، وبالتحتانيّة لداودَ، وبالفوقانيّة للبُوس، ﴿مِن بأسِكُم﴾: حربكم مع أعدائكم. ﴿فَهَل أنتُم﴾ - يا أهل مكّة - ﴿شاكِرُونَ﴾ نِعمتي بتصديق الرسول؟ أي: اشكروني بذلك.

٨١ - ﴿و﴾ سخّرنا ﴿لِسُلَيمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً﴾ - وفي آية أُخرى: «رُخاءً» - أي: شديدةَ الهبوب وخفيفتَه بحسَب إرادته، ﴿تَجرِي بِأمرِهِ إلَى الأرضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها﴾ وهي الشام، ﴿وكُنّا بِكُلِّ شَيءٍ عالِمِينَ﴾. من ذلك علمُه - تعالى - بأنّ ما يُعطيه سليمانَ يدعوه إلى الخضوع لربّه. ففعلَه - تعالى - على مُقتضى علمه، ٨٢ - ﴿و﴾ سخّرنا ﴿مِنَ الشَّياطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾:..............

قولُه: (بالنُّونِ) شعبةُ[1].

قولُه: (لِدَاوُدَ) أو لـ﴿لبوسٍ﴾، أو للهِ تعالى.

قولُه: (وبالفَوْقَانِيَّةِ) شاميٌّ وحفصٌ[2].

قولُه: (لِـ﴿لَبُوسٍ﴾) على تأويلِ الدِّرعِ، والظَّاهرُ: للصَّنعةِ.

قولُه: (يَا أَهْلَ مَكَّةَ) الأعمُّ أتمُّ.

قولُه: (بتَصدِيقِ الرَّسُولِ) يناسِبُ الخطابَ بأهلِ مكَّةَ.

قولُه: (أي: اشْكُرُونِي) الأَولى: اشكُروا لي[3]؛ يَعني: أنَّه أمرٌ أخرجَهُ في صورَةِ الاستِفهامِ للمُبالغَةِ.

قولُه: (بذَلِكَ) أي: بذلكَ التَّصديقِ، أو: بما ذكرَ من النِّعَمِ، والكافُ لمطلقِ الخطابِ.

قولُه: (أي: شَدِيدَةَ الهُبُوبِ) نَشرٌ.

قولُه: (بحَسْبِ إرَادَتِهِ) أي: سُليمانَ؛ يعني: كانت رُخاءً تارةً وعاصفةً أُخرى، أو عاصفةً من حيثُ إنَّها تَبعد[4] بكرسيِّهِ في مدَّةٍ يسيرةٍ، كما قالَ: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، وكانت رُخاءً في نفسِها طيِّبةً لا تكسرُ سنبلةً ولا تغبِّرُ.

وقيل: أوَّلُها عاصفةٌ إذ محطُّ سليمانَ مائةُ فرسخٍ.

قولُه: (وهِيَ الشَّامُ) رواحاً بعدَ ما سارَ منها بُكرةً.

قولُه: (سَخَّرْنا) إشارَةٌ إلى أنَّ ﴿مَن﴾ عطفٌ على ﴿الرِّيحَ﴾، وقيل: مبتدأٌ خبرُهُ ما قبْلَه[5].

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٦٩).

(٢) انظر المصادر السابقة.

(٣) في (م): «إلي».

(٤) في (ص): «تغدوا».

(٥) أي: ﴿من يغوصون﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿من الشياطين﴾ خبر مقدم.

يدخلون في البحر فيُخرجون منه الجواهر لسُليمان، ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: سِوى الغَوصِ من البناء وغيره، ﴿وَكُنَّا لَهُم حافِظِينَ﴾ من أن يُفسدوا ما عملوا لأنهم كانوا إذا فرَغوا من عمل قبل الليل أفسدوه، إن لم يشتغلوا بغيره.

٨٣ ـ ٨٤ ـ ﴿وَ﴾ اذكرْ ﴿أَيُّوبَ﴾، ويُبدل منه: ﴿إِذ نادَى رَبَّهُ﴾ لمّا ابتُلي بفقدِ جميع ماله وولده وتمزيقِ جسده وهجرِ جميع الناس له إلاّ زوجتَه، سنين ثلاثًا أو سبعًا أو ثمانيَ عشْرةَ، وضُيِّق عيشُه: ﴿أَنِّي﴾ ـ بفتح الهمزة بتقدير الباء ـ ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أي: الشِّدّة، ﴿وأنتَ أرحَمُ الرّاحِمِينَ. فاستَجَبْنا لَهُ﴾ دعاءه، ﴿فكَشَفْنا ما بِهِ مِن ضُرٍّ، وآتَيناهُ أهلَهُ﴾: أولاده الذكور والإناث بأن أُحيُوا له، وكُلّ من الصِّنفين ثلاث أو سبع، ﴿ومِثلَهُم مَعَهُم﴾ من زوجته، وزِيدَ في شبابها. «وكانَ لهُ أندَرٌ للقَمحِ وأندَرٌ للشَّعيرِ، فبعَثَ اللهُ سحابتَينِ، أفرَغَتْ إحداهُما على أندَرِ القَمحِ الذَّهَبَ، وأفرَغَتِ الأُخرَى على أندَرِ الشَّعيرِ الوَرِقَ، حتَّى فاضَ»، ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول له ﴿مِن عِندِنا﴾: صفةٌ، ﴿وذِكرَى لِلعابِدِينَ﴾ ليصبروا فيُثابوا.

قولُه: (مِنَ البِنَاءِ) أي: بناءِ المدُنِ والقُصورِ.

قولُه: (وغَيرِهِ) من اختِراعِ الصَّنائعِ الغَريبةِ.

قولُه: (أنْ يُفسِدُوا) أو يَميلوا عن أمرِهِ.

قولُه: (كَانُوا) على ما هو مُقتَضى جبلَّتِهِم.

قولُه: (سِنِينَ) رُوِيَ: أنَّ امرأتَهُ قالت له يوماً: لو دعَوتَ اللهَ، فقالَ: كم كانت مدَّةُ الرَّخاءِ؟ فقالت: ثمانينَ سنةً، فقال: أستحيِي مِن اللهِ أن أدعوهُ وما بلغَتْ مدَّةُ بلائي مدَّةَ رخائي[١].

قال القاضي: وصفَ ربَّهُ بغايةِ الرَّحمةِ بعدَ ما ذكَّرَ نفسَه بما يوجِبُها، واكتفَى بذلك عن عرضِ المطلوبِ لطفاً في السُّؤالِ[٢].

قولُه: (نِدَاءَهُ) المتضمِّنَ دعاءَهُ.

قولُه: (مِنْ زَوجَتِهِ) أي: مثلَ الأولادِ منها، وقيل: وُلِدَ له منهم نوافِلُ، وقيل: وُلِدَ لهُ ضعفُ ما كانَ.

قولُه: (أَنْدَرٌ) أي: بَيْدَر، وهو الكُدْسُ.

قولُه: (حَتَّى فَاضَ) يقالُ: فاضَ الماءُ؛ أي: كثرَ[٣] حتَّى سالَ كالوادِي.

---

(١) لم أقف عليه مسنداً. وانظر: «الكشاف» (٣/ ١٣١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٥٨).

(٣) في (م) و(ن): «أكثر».

٨٥ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إسماعِيلَ وإدرِيسَ وذا الكِفلِ، كُلٌّ مِنَ الصّابِرِينَ﴾ على طاعة الله وعن معاصيه، ٨٦ ـ ﴿وأدخَلْناهُم في رَحْمتِنا﴾ من النُّبوّة. ﴿إنَّهُم مِنَ الصّالِحِينَ﴾ لها. وسُمّي ذا الكِفل لأنه تكفّل بصيام جميع نهاره وقِيام جميع ليله، وأن يقضي بين الناس ولا يغضب، فوفى بذلك. وقيل: لم يكن نبيًّا.

٨٧ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿ذا النُّونِ﴾: صاحبَ الحُوت ـ وهو يُونُس بن مَتَّى ـ ويُبدل منه: ﴿إذ ذَهَبَ مُغاضِبًا﴾ لقومه، أي: غضبانَ عليهم ممّا قاسى منهم، ولم يُؤذَن له في ذلك، ﴿فظَنَّ أن لَن نَقدِرَ علَيهِ﴾ أي: نقضيَ عليه ما قضيناه من حبسه في بطن الحُوت، أو نضيّق عليه بذلك، ﴿فنادَى في الظُّلُماتِ﴾: ظُلمةِ الليل وظُلمة البحر وظُلمة بطن الحُوت: ﴿أن﴾ أي: بأن ﴿لا إلــٰهَ إلاّ أنتَ، سُبحانَكَ! إنِّي كُنتُ مِنَ الظّالِمِينَ﴾ في ذَهابي من بين قومي بلا إذن. ٨٨ ـ ﴿فاستَجَبْنا لَهُ، ونَجَّيناهُ مِنَ الغَمِّ﴾ بتلك الظلمات.

قولُه تعالى: (﴿وذَا الكِفْلِ﴾) يعني: إلياسَ، وقيلَ: يُوشَعُ، وقيلَ: زكريَّا، وقيلَ: نبيٌّ مستقلٌّ؛ [سمِّي به][١] لأنَّهُ كانَ ذا حظٍّ من اللهِ، أو تكفَّلَ أُمَّتَه، أو له ضِعفُ عملِ أنبياءِ زمانِهِ وثوابِهم.

قولُه: (وعَنْ مَعَاصِيْهِ) وفي أنواعِ بلائِهِ.

قولُه: (مِنَ النُّبُوَّةِ) أو نعمَةِ الآخِرةِ.

قولُه: (لَهَا) أي: للنُّبوَّةِ، أو للرَّحمةِ، أو الصَّلاحُ: القيامُ بحقوقِ اللهِ وحقوقِ العبادِ.

قولُه: (وسُمِّيَ) كانَ حقُّهُ التَّقدُّمَ.

قولُه: (لِمَا قَاسَى) لطولِ دَعوتِهِم وتَمادي إصرارِهِم مُهاجراً عنهُم.

قولُه: (فِي ذَلِكَ) أي: الذَّهابِ، وقيلَ: وعدَهُم بالعذابِ بعدَ ثلاثٍ فخرجَ من بينِهِم فلم يأتِهِم بميعادِهِ[٢] لتوبتِهِم، ولم يعرِف الحالَ فحسبَ أنَّهُ كذبَهُم وغضبَ مِن ذلكَ، والمغالَبةُ للمُبالغَةِ.

قولُه: (أي: نَقْضِي) أو: لن تعملَ فيه قدرتُنا، وقالَ جُنَيدٌ: أن لا نُريَهُ قدْرَ نفسِهِ في سخطِهِ على عبادِنا[٣].

قولُه: (بَطْنِ الحُوْتِ) قيلَ: ابتلعَهُ حوتٌ آخَرُ.

قولُه تعالى: (﴿سُبْحَانَكَ﴾) أن يُعجِزَكَ شيءٌ.

قولُه: (بِتِلْكَ الظُّلُمَاتِ) يعني: الغمُّ غمُّ الالتقامِ، وقيل: غمُّ الخطيئةِ. بأنْ قذفَهُ[٤] الحوتُ إلى السَّاحلِ بعدَ

---

(١) من «الكشاف» و«أنوار التنزيل» و«مدارك التنزيل»، وقوله: «أو نبي مستقل» لم أجد من ذكره.

(٢) في (ص): «بميعادهم».

(٣) انظر: «حقائق التأويل» للسلمي (٢/ ١٤).

(٤) أي: نجيناه بأن قذفه.

﴿وكَذلِكَ﴾ كما أنجيناه ﴿نُنْجِي المُؤمِنِينَ﴾ من كربهم إذا استغاثوا بنا داعين.

٨٩ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿زَكَرِيّاءَ﴾ ويُبدل منه: ﴿إذ نادَى رَبَّهُ﴾ بقوله: ﴿رَبِّ، لا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: بلا ولد يرثني. ﴿وأنتَ خَيرُ الوارِثِينَ﴾ الباقي بعد فناء خلقك. ٩٠ ـ ﴿فاستَجَبْنا لَهُ﴾ نِداءه، ﴿ووَهَبْنا لَهُ يَحيَى﴾ ولدًا، ﴿وأصلَحْنا لَهُ زَوجَهُ﴾ فأتت بالولد بعد عُقمها. ﴿إنَّهُم﴾ أي: مَن ذُكر من الأنبياء ﴿كانُوا يُسارِعُونَ﴾: يُبادرون ﴿في الخَيراتِ﴾: الطاعات، ﴿ويَدعُونَنا رَغَبًا﴾ في رحمتنا ﴿ورَهَبًا﴾ من عذابنا، ﴿وكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾: متواضعين في عِبادتهم.

٩١ ـ ﴿و﴾ اذكرْ مَريمَ ﴿الَّتِي أحصَنَتْ فَرْجَها﴾: حَفظتْه من أن يُنال، ﴿فنَفَخْنا فِيها مِن رُوحِنا﴾ أي: جِبريلَ، حيث نفخ في جيب دِرعها فحملت بعيسَى،........................

أربعِ ساعاتٍ في بطنِهِ، وقيل: ثلاثةِ أيام، وقيلَ: أربعين.

قولُه: (دَاعِينَ) مخلِصينَ، عن النَّبيِّ ﷺ: «ما مِن مَكرُوبٍ يَدعُو بِهَذا الدُّعاءِ إلَّا استُجِيبَ لهُ» رواهُ التِّرمذيُّ والحاكمُ وصحَّحَهُ[١].

وقرأ شاميٌّ وشعبةُ بتشديدِ الجيمِ على حذفِ النُّون الثَّانيةِ[٢].

قولُه: (البَاقِي) فإن لم ترزُقْنِي مَن يرثُنِي فلا أُبالي بِهِ.

قولُه: (نِدَاءَهُ) الأظهرُ: دعاءَهُ.

قولُه: (يُبَادِرُونَ) أي: إلى أبوابِ الخيرِ.

قولُه: (فِيْ رَحمَتِنَا) من الثَّوابِ والإجابَةِ والطَّاعةِ؛ أي: للرَّغبةِ، أو: ذَوي رغبةٍ، أو: راغِبينَ.

قولُه: (مِن عَذَابِنَا) أو عدمِ قَبولِ الإجابَةِ، أو من المعصيَةِ.

قولُه: (مُتَوَاضِعِينَ) أو: مُخبِتِينَ، أو: مخلِصينَ.

قولُه: (فِي عِبَادَتِهِم) أو: مع عِبادِنا لنا لا لهمُ ولا لأنفسِهِم.

والمعنى: أنَّهُم نالوا من اللهِ ما نالوا بهذِه الخِصالِ.

قولُه: (﴿فِيهَا﴾) أي: في عيسَى فيها؛ أي: أحيَيناهُ في جَوفِها، وقيل: ففَعلنَا النَّفخَ فيها.

قولُه: (أي: جِبْرِيلَ) أي: من جهةِ روحنا جبريلَ، أو من الرُّوحِ الَّذي هو بأمرِنا وحدَهُ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٠٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٤٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٦٩).

﴿وجَعَلْناها وابنَها آيَةً لِلعالَمِينَ﴾: الإنسِ والجنّ والملائكة، حيثُ ولدتْه من غير فحل ـ ٩٢ ـ ﴿إنَّ هذِهِ﴾ أي: مِلّةَ الإسلام ﴿أُمّتُكُم﴾: دِينكم، أيها المُخاطَبون، أي: يجب أن تكونوا عليها، ﴿أُمّةً واحِدةً﴾: حالٌ لازمة، ﴿وأنا رَبُّكُم. فاعبُدُونِ﴾: وحِّدُونِ ـ ٩٣ ـ ﴿وتَقَطَّعُوا﴾ أي: بعضُ المخاطَبين ﴿أمرَهُم بَينَهُم﴾ أي: تفرّقوا أمر دِينهم مُتخالفين فيه، وهم طوائف اليهود والنصارى. قال تعالى: ﴿كُلٌّ إلَينا راجِعُونَ﴾، أي: فنُجازيه بعمله. ٩٤ ـ ﴿فمَن يَعمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ، وهْوَ مُؤمِنٌ، فلا كُفْرانَ﴾ أي: جحودَ ﴿لِسَعيِهِ، وإنّا لَهُ كاتِبُونَ﴾ بأن نأمر الحَفَظة بكتبه فنُجازيه عليه.

قولُه تعالى: (﴿وَابْنَهَا﴾) أي: قصّتَهُما، أو: حالَهُما؛ ولذلك وحّدَ ﴿آيَةً﴾، فإنَّ مَن تأمّلَ حالَهُما تحقّقَ كمالَ قُدرةِ الصّانعِ.

قولُه: (أي: مِلَّةَ الإِسْلامِ) أو: ملةَ التَّوحيدِ الَّتي هي ملَّةُ جَميعِ الأنبياءِ.

قولُه: (دِينُكُم) أي: ملَّتُكُم.

قولُه: (أيُّهَا المُخَاطَبُونَ) وهم جميعُ الأُمَمِ.

قولُه: (أي: يجِبُ) أي: الَّتي يجِبُ عليكُم.

قولُه: (حَالٌ لازِمَةٌ) أي: مُتوحِّدَةً غيرَ متفرِّقةٍ ومختلفةٍ للأنبياءِ، والعامِلُ: ما دلَّ عليه اسمُ الإشارَةِ، وقيلَ: العامِلُ فيها ﴿إِنَّ﴾ إذ الحالُ يكفي في العَملِ فيها رائحةُ الفِعلِ.

قولُه: (بَعْضُ المُخَاطَبِينَ) يعني: صرَفَهُ إلى الغيبَةِ التِفاتاً ليوبِّخَ على الَّذينَ تفرَّقوا في الدِّينِ وجَعلوا أمرَهُ قِطعاً بقبيحِ فعلِهِم إلى غيرِهِم من المؤمنينَ.

قولُه: (أَمْرَ دِينِهِم) الظَّاهرُ: في أمرِ.

قولُه: (طَوَائِفُ اليَهُودِ) ونحوِهِم.

قولُه: (فَنُجَازِيهِ) قالَ البيضاويُّ: فنُجازيهِم[1]. فالإفرادُ باعتبارِ لفظِ الـ﴿كلٌّ﴾؛ إذِ المعنى: كلٌّ من الفِرَقِ المُتحزِّبةِ، أو أعمُّ، والجمعُ باعتِبارِ المعنى.

قولُه: (أي: جُحُودَ) استُعيرَ الكُفرانُ لمنعِ الثَّوابِ، كما استُعِيرَ الشُّكرُ لإعطائِه، ونُفِي نفيَ الجنسِ للمُبالغَةِ.

قولُه: (بكَتْبِهِ) أي: بكَتْبِ سعيِهِ.

قولُه: (فنُجَازِيه) الأَولى: فلا نُضيعُ بوجهٍ ما.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٦٠).

٩٥ ـ ﴿وَحَرامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهلَكْناها﴾ أُريدَ أهلُها، ﴿أَنَّهُم لا﴾: زائدةٌ ﴿يَرجِعُونَ﴾ أي: مُمتنع رُجوعُهم إلى الدنيا. ٩٦ ـ ﴿حَتَّى﴾: غايةٌ لامتناع رُجوعهم ﴿إذا فُتِحَتْ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿يأجُوجُ ومأجُوجُ﴾، بالهمز وتركه: اسمان أعجميّان لقبيلتين، ويقدَّر قبله مضاف أي: سدُّهما ـ وذلك قربَ القيامة ـ ﴿وهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ﴾: مُرتفِعٍ من الأرض ﴿يَنسِلُونَ﴾: يُسرعون، ٩٧ ـ ﴿واقترَبَ الوَعدُ الحَقُّ﴾ أي: يومُ القيامة، ﴿فإذا هِيَ﴾ أي: القِصّة ﴿شاخِصةٌ أبصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في ذلك اليوم لشِدّته، يقولون: ﴿يا﴾: للتنبيه ﴿وَيلَنا﴾: هلاكَنا. ﴿قَد كُنّا﴾ في الدنيا ﴿في غَفْلةٍ مِن هذا﴾ اليوم، ﴿بَل كُنّا ظالِمِينَ﴾ أنفُسَنا بتكذيبنا الرسلَ.

٩٨ ـ ﴿إنَّكُم﴾ ـ يا أهلَ مكّة ـ ﴿وما تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه من الأوثان ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: وَقودُها، ﴿أنتُم لَها وارِدُونَ﴾: داخلون فيها........................

قولُه: (أي: مُمْتَنِعٌ) وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ وشعبةُ بكسرِ الحاءِ وسكونِ الرَّاءِ[1].

وقيل: عزمٌ عدمُ رجوعِهِم، فـ﴿لَا﴾ غيرُ زائِدةٍ.

قولُه: (والتَّشدِيدِ) شاميٌّ[2].

قولُه: (بالهَمْزِ) عاصمٌ[3].

قولُه: (قُرْبَ القِيامَةِ) وظُهورِ أماراتِها.

قولُه: (مُرتَفَعٍ منَ الأَرضِ) والضَّميرُ إلى النَّاسِ كلِّهم، وقيلَ: إلى يأجوجَ ومأجوجَ.

قولُه: (أي: القِصَّةُ) أو ضميرٌ مُبهَمٌ مفسِّرُهُ الـ﴿أبصارُ﴾؛ أي: مرتفعةُ الأجفانِ لا تكادُ تَطرفُ مِن هولِ ما هُم عليه.

قولُه: (يَقُولُونَ) أو: قائلينَ.

قولُه: (اليَومِ) لم نعلَم أنَّه حقٌّ.

قولُه: (يا أَهلَ مَكَّةَ) الصَّحيحُ أنَّه عامٌّ للكفَّارِ.

قولُه: (مِنَ الأَوثَانِ) قيل: وإبليسَ وأعوانِهِ؛ لأنَّهم بطاعتِهِم لهم في حُكمِ عبَدَتِهم.

قولُه: (وَقُودُها) وقُرِئ: (حَطَبُ جَهَنَّمَ)[4].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣١).

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٩٥) ونسبت لعلي بن أبي طالب وعائشة وابن الزبير رضي الله عنهم.

٩٩ ـ ١٠٠ ـ ﴿لَو كانَ هؤُلاءِ﴾ الأوثانُ ﴿آلِهَةً﴾ كما زعمتم ﴿ما وَرَدُوها﴾: دخلوها، ﴿وكُلٌّ﴾ من العابدين والمعبودين ﴿فِيها خالِدُونَ، لَهُم﴾: للعابدين ﴿فِيها زَفِيرٌ، وهُم فِيها لا يَسمَعُونَ﴾ شيئًا لشِدّة غليانها.

ونزل لمّا قال ابن الزِّبَعرَى: «عُبِدَ عُزيرٌ والمسيحُ والملائكةُ، فهم في النار» على مُقتضى ما تقدّم: ١٠١ ـ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنّا﴾ المنزلةُ ﴿الحُسنَى﴾، ومنهم من ذُكر، ﴿أُولئِكَ عَنها مُبعَدُونَ، لا يَسمَعُونَ حَسِيسَها﴾: صوتها، ﴿وهُم فِيما اشتَهَتْ أنفُسُهُم﴾ من النعيم ﴿خالِدُونَ، لا يَحزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكبَرُ﴾ ـ وهو أن يؤمر بالعبد إلى النار ـ ﴿وتَتَلَقّاهُمُ﴾: تستقبلهم ﴿المَلائكَةُ﴾ عِند خُروجهم من القُبور، يقولون لهم: ﴿هذا يَومُكُمُ الَّذِي كُنتُم تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

١٠٤ ـ ﴿يَومَ﴾: منصوب بـ «اذكرْ» مُقدّرًا قبله ﴿نَطوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾: اسمُ ملَكٍ ﴿لِلكِتابِ﴾: صحيفةِ ابن آدم عِند موته ـ واللام: زائدة. أو السِّجِلُّ: الصحيفة، والكتابُ بمعنى المكتوب، واللام بمعنى: على..

قولُه: (دَخَلُوهَا) لأنَّ المُؤاخَذَ المعذَّبَ لا يكونُ إلهاً.

قولُه تعالى: (﴿زَفِيرٌ﴾) أنينٌ وتنفُّسٌ شديدٌ، وهو مِن إضافةِ فعلِ البَعضِ إلى الكلِّ للتَّغليبِ إن أُريدَ بـ﴿ما يَعبُدُونَ﴾ الأصنامُ فقَط.

قولُه: (شَيْئاً) أو ما يسرُّهم.

قولُه: (الزِّبَعْرَى) قبلَ أن يؤمِنَ، وهو بكسرِ الزَّاي وفتحِ الباء والرَّاء.

قولُه: (عَلَى مُقْتَضَى مَا تَقَدَّمَ) فإنَّ اليهودَ عَبَدوا عُزَيراً، والنَّصارى المسيحَ، وبنو مُلَيحٍ الملائكَةَ.

قولُه: (المَنْزِلَةُ) أو الخصلةُ، وهي السَّعادةُ، أو التَّوفيقُ للطَّاعةِ، أو البُشرى بالجنَّةِ.

وقولُه تعالى: (﴿أُولَئِكَ عَنْهَا﴾) أو: عن عَذابِها؛ لئلَّا يَرِدَ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

قولُه: (صَوْتَهَا) الحسيسُ: صَوتٌ يُحَسُّ به.

قولُه: (وهُوَ أن يُؤْمَرَ) أو النَّفخةُ الأخيرةُ، أو حين يُطبَقُ على النَّارِ، أو يُذبَحُ الموتُ.

قولُه: (عِنْدَ خُرُوْجِهِم) أو مهنِّئينَ على أبوابِ الجنَّةِ.

قولُه: (فِي الدُّنيَا) أي: هذا يومُ ثوابِكُم.

قولُه: (صَحِيفَةِ ابنِ آدَمَ) إذا رُفِعَتْ إليه، وهو قولُ الأكثَرينَ من السَّلفِ، والطَّيُّ: ضدُّ النَّشرِ.

قولُه: (بمَعنَى: المَكتُوبِ) أو الكتابَةِ؛ يعني: ليكتُبَ فيه، أو لِمَا يكتبُ فيه.

وفي قراءة: «لِلكُتُبِ» جمعًا ـ ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلقٍ﴾ عن عدمٍ ﴿نُعِيدُهُ﴾ بعد إعدامه ـ فالكاف: مُتعلّقة بـ «نُعيد» وضميره عائد إلى «أوّل» وما: مصدريّة ـ ﴿وَعدًا عَلَينا﴾: منصوب بـ «وعَدْنا» مُقدّرًا قبله، وهو مؤكِّد لمضمون ما قبله. ﴿إنّا كُنّا فاعِلِينَ﴾ ما وعدْنا.

١٠٥ ـ ﴿ولَقَد كَتَبْنا في الزَّبُورِ﴾ بمعنى الكتاب، أي: كُتبِ الله المُنزّلة، ﴿مِن بَعدِ الذِّكرِ﴾ بمعنى أُمِّ الكِتاب الذي عِند الله، ﴿أنَّ الأرضَ﴾: أرض الجنّة ﴿يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ﴾..................

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحفصٍ وحمزةَ والكِسائيِّ[1].

قولُه: (بَعْدَ إِعدَامِهِ) أي: إعدامِ جسدِهِ؛ يعني: معظمَهُ؛ إذ لا يَبلى عَجْبُ الذَّنبِ، والأنبياءُ مخصُوصونَ لأنَّ اللهَ حرَّمَ على الأرضِ أن تأكُلَ أجسادَ الأنبياءِ.

قولُه: (بـ﴿نُعِيدُ﴾) المذكورِ، أو المقدَّرِ المفسَّرِ بالمذكورِ، و﴿مَا﴾ موصولةٌ؛ أي: نعيدُ مثلَ الَّذي بَدأناهُ نُعيدُهُ.

وقيل: الكافُ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: نُعيدُهُ عَوداً مثلَ بدئِهِ، و﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ ظرفٌ لـ﴿بَدَأْنَا﴾؛ أي: أوَّلَ ما خُلِقَ، أو حالٌ من ضميرِ الموصولِ السَّاقطِ من اللَّفظِ الثَّابتِ في المعنى، فأوَّلُ الخلقِ: إيجادُهُ؛ أي: فكما أوجدَهُ أوَّلاً يُعيدُهُ ثانياً؛ تشبيهاً للإعادَةِ بالإبداءِ في تناولِ القدرةِ لهما على السَّواءِ، والتَّنكيرُ[2] في ﴿خلقٍ﴾ مثلُه في قولكَ: هو أوَّلُ رجلٍ جاءَنِي؛ تريدُ: أوَّلُ الرِّجالِ، ولكنَّكَ وحَّدتَهُ ونكَّرتَهُ إرادةَ تفصيلهم رجلاً رجلاً، فكذلكَ معنى [﴿أولَ خلقٍ﴾]: أوَّلَ الخلقِ، بمعنى: أوَّلَ الخلائقِ؛ لأنَّ الخلْقَ مصدرٌ لا يُجمَعُ.

قولُه: (إِلَى ﴿أَوَّلَ﴾) فيكونُ بنزعِ الخافضِ.

قولُه: (و﴿ما﴾ مَصْدَرِيَّةٌ) أو كافَّةٌ.

قولُه: (مَا قَبْلَهُ) وهو ﴿نُعِيدُهُ﴾.

وقولُه: (﴿عَلَينَا﴾) أي: إنجازُهُ؛ أي: وَعْداً كائِناً لا محالةَ.

قولُه: (بِمَعْنَى الكِتَابِ) أي: الجنسِ، أو كتابِ داودَ، وضمَّ حمزةُ الزَّايَ[3].

قولُه: (أُمِّ الكِتَابِ) أي: اللَّوحِ المحفوظِ، أو التَّوراةِ.

قولُه: (أي: الجَنَّةِ) أو الشَّامَ، أو أرضَ الكفَّارِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣١)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧٠).

(٢) تحرفت في النسخ إلى: «والتفكر»، والتصويب مستفاد من «الكشاف» (٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨)، وكذا ما سيأتي بين معكوفتين منه.

(٣) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٧١).

عامٌّ في كُلِّ صالحٍ. ١٠٦ ـ ﴿إنَّ في هذا﴾ القرآنِ ﴿لَبَلاغًا﴾: كفايةً في دُخولِ الجنّةِ، ﴿لِقَومٍ عابِدِينَ﴾: عاملين به. ١٠٧ ـ ﴿وما أرسَلْناكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿إلاّ رَحْمةً﴾ أي: للرحمة ﴿لِلعالَمِينَ﴾: الإنسِ والجنِّ بك.

١٠٨ ـ ﴿قُلْ: إنَّما يُوحَى إلَيَّ أنَّما إلٰـهُكُم إلٰـهٌ واحِدٌ﴾، أي: ما يُوحى إليَّ في أمرِ الإلٰـهِ إلاّ وحدانيّتُه. ﴿فهَل أنتُم مُسلِمُونَ﴾: مُنقادون لِما يُوحَى إليَّ من وحدانيّةِ الإلٰـهِ؟ والاستفهامُ بمعنى الأمرِ. ١٠٩ ـ ﴿فإن تَوَلَّوا﴾ عن ذلك ﴿فقُلْ: آذَنتُكُم﴾: أعلمتكم بالحربِ ﴿علَى سَواءٍ﴾: حالٌ من الفاعلِ والمفعولِ، أي: مُستَوِينَ في عِلمِه لا أستبِدُّ به دُونَكم لتتأهّبوا. ﴿وإنْ﴾: ما ﴿أدرِي: أقَرِيبٌ أم بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ﴾ من العذابِ أو القيامةِ المُشتمِلةِ عليه؟..........................

قولُه: (كُلِّ صَالِحٍ) أي: مؤمنٍ، أو: المستضعَفونَ مشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها، أو: أمّةُ محمّدٍ ﷺ.

قولُه: (القُرْآنِ) أو: فيما ذُكِرَ في هذه السُّورةِ من الأخبارِ والمواعِظِ والمواعيدِ.

قولُه: (كِفَايَةً) أو: سببَ بلوغٍ إلى المطلوبِ، وأصلُهُ ما تُبلَغُ به البُغيَةُ.

قولُه: (عَامِلِينَ) همُّهُم العبادةُ دونَ العادةِ.

قولُه: (للرَّحْمَةِ) أو: ذا رحمةٍ، فعلةٌ[1]، أو حالٌ.

قولُه: (بِكَ) كذا في نُسخةٍ؛ لأنَّ ما بُعِثتَ به سببٌ لإسعادِهِم، وموجِبٌ لإصلاحِ معاشِهِم ومعادِهِم. وقيلَ: كونُهُ رحمةً للكفَّارِ: أمنُهُم مِن الخسفِ والمسخِ وعذابِ الاستِئصالِ.

قولُه: (فِي أَمْرِ الإِلَهِ) فالقصرُ إضافيٌّ.

قولُه: (عَن ذَلِكَ) أي: التَّوحيدِ.

قولُه: (بالحَرْبِ) أي: بحَربي لكُم، أو: أعلمتكُم ما أُمِرتُ به.

قولُه: (مُستَوِينَ) أنا وأنتُم.

قولُه: (فِي عِلْمِهِ) أي: في العلمِ بما أعلمتكُم بهِ.

قولُه: (لا أَستَبِدُّ بِهِ) ولا أُخصِّصُ بعضَكُم، وفيه بُطلانُ مذهبِ الباطنيَّةِ والرَّافضَةِ.

قولُه: (مِنَ العَذَابِ) في الدُّنيا، أو مِن غلبَةِ المسلمينَ.

قولُه: (عَلَيهِ) أي: على العَذابِ.

(١) «فعلة» كذا في النسخ، والصواب: «مفعول له»، يعني: إن كان المعنى: «للرحمة» فهو مفعول له، وإن كان: «ذا رحمة» فهو حال. انظر: «التبيان» للعكبري (٢/ ٩٢٩).

وإنما يعلمه الله ـ ١١٠ ـ ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿يَعلَمُ الجَهرَ مِنَ القَولِ﴾ والفعلَ منكم ومن غيرِكم، ﴿ويَعلَمُ ما تَكتُمُونَ﴾ أنتم وغيركم من السرّ ـ ١١١ ـ ﴿وإن﴾: ما ﴿أدرِي لَعَلَّهُ﴾ أي: ما أعلمتُكم به، ولم يُعلَم وقتُه، ﴿فِتنَةٌ﴾: اختبارٌ ﴿لَكُم﴾ ليَرى كيف صُنعكم؟ ﴿ومَتاعٌ﴾: تمتّعٌ به ﴿إلَى حِينٍ﴾ أي: انقضاءِ آجالكم. وهذا مُقابِل للأوّل المُترجَّى بـ«لعلّ»، وليس الثاني محلًّا للترجّي.

١١٢ ـ ﴿قُلْ﴾ ـ وفي قراءة: «قالَ» ـ: ﴿رَبِّ، احكُمْ﴾ بيني وبين مُكذّبيَّ ﴿بِالحَقِّ﴾: بالعذاب لهم أو النصر عليهم. فعُذّبوا ببدر وأُحُد والأحزاب وحُنَين والخندق، ونُصر عليهم. ﴿ورَبُّنا الرَّحمنُ المُستَعانُ علَى ما تَصِفُونَ﴾ من كذبكم على الله في قولكم: «اتَّخَذَ وَلَدًا»، وعليَّ في قولكم: ساحرٌ، وعلى القرآن في قولكم: شِعرٌ.

قولُه: (وإنَّمَا يَعْلَمُهُ اللهُ) أي: قربَهُ وبُعدَهُ، لكنَّه كائنٌ لا محالَةَ.

قولُه: (اختِبَارٌ) أي: امتِحانٌ، أو: ما أدري لعلَّ تأخيرَ جزائِكُم استِدراجٌ لكم وزيادةٌ في افتتانِكُم.

قولُه: (وهَذَا) أي: متاعٌ إلى حينٍ.

قولُه: (المُتَرَجَّى) مجهولٌ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحفصٍ[1].

قولُه: (قَالَ) على حكايَةِ رسولِ اللهِ.

قولُه: (بالعَذَابِ) أي: بالعَدلِ المقتَضِي لاستعجالِ العذابِ والتَّشديدِ عليهِم.

قولُه: (ونُصِرَ) أي: النَّبيُّ ﷺ.

قولُه تعالى: (﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾) أي: كثيرُ الرَّحمةِ على خلقِهِ (﴿المُسْتَعَانُ﴾) المطلوبُ منه المعونَةُ.

قولُه: (مِن كَذِبِكُم) أو: مِن الحالِ بأنَّ الشَّوكَةَ تكونُ لهم، وأنَّ رايَةَ الإسلامِ تتحرَّكُ أيَّاماً ثمَّ تسكنُ، وأنَّ الموعودَ به لو كانَ حقًّا لنزلَ بهِم، فأجابَ اللهُ دعوةَ رسولِهِ، فخيَّبَ أمانيَّهم ونصرَ رسولَهُ عليهِم آخرَ الأمرِ، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣١)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧١).

سورة الأنبياء

نزلت بمكَّة كما أخرج ابنُ مردويه عن ابنِ عباس، وابنِ الزبير ﵃، وفي «البحر»[1]: إنَّها مكيَّة بلا خلافٍ، وأطلق ذلك فيها، واستثنى منها في «الإتقان»[2] قولَه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ الآية [الأنبياء: ٤٤].

وهي مئة واثنتا عشرة آية في عدِّ الكوفي، وإحدى عشرة في عدِّ الباقين، كما قاله الطبرسيُّ[3] والدانيُّ[4].

ووجه اتصالها بما قبلها غنيٌّ عن البيان.

وهي سورة عظيمة فيها موعظة فخيمة؛ فقد أخرج ابن مردويه، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن عساكر عن عامرِ بنِ ربيعة أنه نزل به رجلٌ من العرب فأكْرَم عامرٌ مثواه، وكلَّم فيه رسولَ الله ﷺ، فجاءه الرجلُ فقال: إني استقطعتُ رسولَ الله ﷺ وادياً ما في العرب وادٍ أفضل منه، وقد أردتُ أن أقطع لك منه قطعةً تكون لك ولعقبك مِنْ بعدك. فقال عامر: لا حاجةَ لي في قطيعتك، نزلت اليومَ سورةٌ أذهلتنا عن الدنيا: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ) إلى آخره[5].

---

(١) ٦/ ٢٩٥.

(٢) ١/ ٤٧.

(٣) مجمع البيان ١٧/ ٥.

(٤) في كتابه «العدد» كما ذكر ذلك الشهاب في حاشيته ٦/ ٢٣٧.

(٥) حلية الأولياء ١/ ١٧٩، وتاريخ مدينة دمشق ٢٥/ ٣٢٧، وأخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ٣١٣-٣١٤، وهو عند ابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٨٤.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ روي عن ابنِ عباس كما قال الإمام[1]، والقرطبيُّ[2]، والزمخشريُّ[3] أنَّ المراد بالناس المشركون. ويدلُّ عليه ما ستسمعه بعدُ ـ إن شاء الله تعالى ـ من الآيات، فإنها ظاهرة في وصف المشركينَ.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ ما فيها من قبيل نسبة ما للبعض إلى الكلِّ، فلا ينافي كون تعريفه للجنسِ، ووجه حُسْنه هاهنا كون أولئك البعض هم الأكثرون، وللأكثر حكم الكلِّ شرعاً وعرفاً.

ومن الناس من جوَّز إرادةَ الجنس والضمائر فيما بعد لمشركي أهلِ مكة وإن لم يتقدَّم ذِكْرهم في هذه السورة، وليس بأبعدَ مما سبق.

وقال بعضهم: إن دلالةَ ما ذكر على التخصيص ليست إلا على تقدير تفسيرِ الأوصاف بما فسَّروها به، ويمكن أن يُحمل كلٌّ منها على معنى يشترك فيه عصاةُ الموحِّدين، ولا يخفى أنَّ في ذلك ارتكابَ خلافِ الظاهر جدًّا.

واللام صلة لـ «اقترب» كما هو الظاهر، وهي بمعنى «إلى» أو بمعنى «من»، فإنَّ «اقترب» افتَعَلَ من القرب ضدّ البعد، وهو يتعدَّى بـ «إلى» وبـ «من»، واقتصر بعضهم على القول بأنها بمعنى «إلى»، فقيل فيه تحكُّم لحديث تعدِّي القرب بهما؟ وأجيب بأنه يمكن أن يكون ذلك؛ لأنَّ كلًّا من «من» و«إلى» اللتين هما صلتا القرب بمعنى انتهاء الغاية، إلا أنَّ «إلى» عريقة في هذا المعنى، و«من» عريقة في ابتداء الغاية فلذا أوثرَ التعبيرُ عن كون اللام المذكورة بمعنى انتهاءِ الغاية، كالتي في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] القول بأنها بمعنى «إلى» واقتصر عليه. وفي «الكشف»: المعنى على تقدير كونه صلة لـ «اقترب»: اقترب من الناس؛ لأن معنى

(١) تفسير الرازي ٢٢/ ١٣٩.
(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ١٧١.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٦١.

الاختصاص وابتداء الغاية كلاهما مستقيم يحصل به الغرضُ. انتهى. وفيه بحث؛ فإن المفهومَ منه أن يكون كلمة «من» التي يتعدّى بها فعلُ الاقتراب بمعنى ابتداءِ الغاية، وليس كذلك؛ لعدم ملاءمة ذلك المعنى مواقعَ استعمال تلك الكلمة، فالحقُّ أنها بمعنى انتهاء الغاية، فإنهم ذكروا أن «من» يجيءُ لذلك.

قال الشُّمُنِّي[١]: وفي «الجنى الداني» مثَّل ابن مالك لانتهاءِ الغاية بقولهم: تقرَّبت منه، فإنَّه مساوٍ لـ: تقرَّبت إليه. ومما يشهد لذلك أن فعل الاقتراب كما يستعمل بـ «من» يستعمل بـ «إلى» وقد ذكر في معاني «من» انتهاء الغاية، كما سمعت، ولم يذكر أحد في معاني «إلى» ابتداءَ الغاية، والأصل أن تكون الصلتان بمعنًى، فتُحمل «من» على «إلى» في كون المراد بها الانتهاء، وغاية ما يقال في توجيه ذلك أنَّ صاحب «الكشف» حملها على ابتداءِ الغاية؛ لأنه أشهر معانيها، حتى ذهب بعضُ النحاة إلى إرجاع سائرِها إليه، وجعل تعديته بها؛ حملًا على ضدِّه المتعدِّي بها، وهو فعل البعد، كما أن فعل البيع يعدَّى بـ «من» حملًا له على فعل الشراء المتعدِّي بها، على ما ذكره نجم الأئمة الرضي في بحث الحروف الجارَّة.

والمشهور أن «اقترب» بمعنى قرب، كارْتَقَبَ بمعنى رَقَبَ، وحكى في «البحر»[٢] أنه أبلغُ منه؛ لزيادة مبناه.

والمراد من اقتراب الحساب: اقترابُ زمانِه وهو الساعة.

ووجه إيثار بيانِ اقترابه مع أنَّ الكلامَ مع المشركين المنكرين لأصل بعث الأموات ونفس إحياء العظام الرفات، فكأنَّ ظاهر ما يقتضيه المقام أن يؤتى بما يفيد أصلَ الوقوع بدل الاقتراب، وأن يُسنَد ذلك إلى نفس الساعة لا إلى الحسابِ؛ للإشارة إلى أنَّ وقوعَ القيام وحصولَ بعث الأجساد والأجسام أمر ظاهر بلا تمويه، وشيءٌ واضح لا ريبَ فيه، وأنه وَصَلَ في الظهور والجلاء إلى حيث لا يكاد يَخفى على العقلاء، وأنَّ الذي يرخي في بيانه أعنَّة المقالِ بعض ما يستتبعه من الأحوال والأهوال، كالحساب الموجب للاضطراب، بل نفس وقوع الحساب أيضاً غنيٌّ عن

(١) في حاشيته المسماة: المنصف من الكلام على مغني ابن هشام ٢/ ٨٩.
(٢) ٦/ ٢٩٥.

البيان لا ينبغي أن ترتابَ فيه العقول والأذهان، وأن الذي قصد بيانه هاهنا أنَّه دنا أوانُه واقتربَ زمانه، فيكون الكلام مفصحاً عن تحقُّق القيام الذي هو مقتضى المقام على وجهٍ وجيه أكيد، ونهجٍ بديع سديد، لا يَخفى لطفه على من ألقى السمع وهو شهيد.

وجوّز أن يكون الكلامُ مع المشركين السائلينَ عن زمان الساعة المستعجلينَ لها استهزاءً، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١] فحينئذٍ يكون الإخبار عن الاقتراب على مقتضى الظاهر، وإيثارُ بيان اقتراب الحساب على بيانِ اقتراب سائرِ وقوع مستتبعات البعث، كفنون العذاب وشُجون العقاب؛ للإشعار بأن مجرَّد اقتراب الحساب ـ الذي هو من مبادئ العذاب ومقدِّماته ـ كافٍ في التحذير عمَّا هم عليه من الإنكار، ووافٍ بالردع عمَّا هم عليه من العلوِّ والاستكبار، فكيف الحال في نفس العذاب والنكال؟!

وذكر شيخُ الإسلام مولانا أبو السعود[1] ـ عليه الرحمة ـ أن إسناد ذلك إلى الحساب لا إلى الساعة؛ لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه، وإعراضِهم عمَّا يذكِّرهم إيَّاه، وفيه ما فيه.

ثم الوجه اللائح في النظر الجليل لإسناد الاقتراب إلى الحساب دون الناس، مع جواز العكس، هو أن الاقترابَ إذا حصل بين شيئين يُسنَد إلى ما هو مُقبِل على الآخَر، متحرِّك ومتوجِّه إلى جهته حقيقةً أو حكماً، حتى أنَّه لو كان كلٌّ منهما متوجِّهاً إلى الآخرِ يصحُّ إلى كلٍّ منهما، وقد سمعت أنَّ المرادَ من اقتراب الحساب اقترابُ زمانه، وقد صرَّح به أجلَّة المفسِّرين، وأنت خبير بأنَّ الشائعَ المستفيض اعتبارُ التوجُّه والإتيان من الزمان إلى ذي الزمان، لا بالعكس، فلذلك يوصف الزمانُ بالمضيِّ والاستقبال، فكان الجدير أن يُسنَد الاقترابُ إلى زمان الحساب، ويجعل الناس مدنوًّا إليهم.

وذكر شيخ الإسلام أنَّ في هذا الإسناد من تفخيم شأن المسنَد إليه، وتهويل أمرِه ما لا يَخفى؛ لما فيه من تصوير ذلك بصورة شيء مُقبِل عليهم لا يزال يطلبهم

(١) في تفسيره ٦/ ٥٣.

فيصيبهم لا محالةَ. انتهى. وهو معنى زائد على ما ذكرنا لا يَخفى لطفُه على الناقد البصير واليلمعيِّ[(١)] الخبير.

والمراد من اقتراب ذلك من الناس على ما اختاره الشيخ ـ قدّس سرُّه ـ دنوُّه منهم بَعْدَ بُعْدِه عنهم، فإنه في كلِّ ساعة يكون أقربَ إليهم منه في الساعة السابقة.

واعترض قول الزمخشريِّ[(٢)] المراد من ذلك كون الباقي من مدَّة الدنيا أقلّ وأقصر مما مضى فإنَّه كصُبابة[(٣)] الإناء ودُرْدِيِّ[(٤)] الوعاء: بأنه لا تعلُّق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفادِ من صيغة الماضي، ولا حاجةَ إليه في تحقيق أصل معناه. نعم، قد يفهم منه عرفاً كونه قريباً في نفسه أيضاً، فيصار حينئذٍ إلى هذا التوجيه.

وتعقَّبه بعضُ الأفاضل بأنَّ القول بعدم التعلُّق بالاقتراب المستفاد من صيغة الماضي خارجٌ عن دائرة الإنصاف، فإنَّه إن أراد أنَّه لا تعلُّق له بالحدوث المستفاد منها، فلا وجهَ له، إذ الاقترابُ بالمعنى المذكور أمرٌ حَدَثَ بمضيِّ الأكثر من مدَّة الدنيا، وإن أراد أنه لا تعلُّق له بالمضيِّ المستفاد منها، فلا وجهَ له أيضاً؛ إذ الدلائل دلَّت على حصول هذا الاقترابِ حين مبعث النبيِّ ﷺ الموعود في آخِر الزمان المتقدِّم على نزول الآية.

ثم قال: فليتَ شِعْري ما معنى عدم تعلُّقه بما نحن فيه، بل ربَّما يمكن أن يدَّعي عدمَ المناسبة في المعنى الذي اختاره نفسه، فإن الاقترابَ بذلك المعنى مستمرٌّ من أول بدء الدنيا إلى يوم نزول الآية، بل إلى ما بعد، فالذي يناسبه هو الصيغة المنبئة عن الاستمرار والدوام، ثم لا يَخفى على أصحاب الأفهام أنَّ هذا المعنى الذي اعترضه أنسبُ بما هو مقتضى المقام من إخافة الكفرة اللئام المرتابينَ في أمر القيام؛ لما فيه من بيانِ قربه الواقع في نفس الأمر. اهـ. فتدبَّر.

وقيل المراد: اقترابُ ذلك عند الله تعالى.

---

(١) الألمع والألمعي واليلمعي: الذكي المتوقِّد. القاموس (لمع).

(٢) في الكشاف ٢/ ٥٦١.

(٣) الصُّبابة: بقية الماء في الإناء. المصباح (صبب).

(٤) دُرْدِيُّ الزيت: ما يبقى أسفله. القاموس (درد).

وتعقّب بأنه لا عندَ لله عزَّ وجلَّ، إذ لا نسبةَ للكائنات إليه عزَّ وجلَّ بالقُرب والبعد.

ورُدَّ بأنه غفلة أو تغافل عن المراد، فإن المرادَ من عند الله في علمه الأزليِّ أو في حكمه، وتقديره: لا الدنو والاقتراب المعروف، وعلى هذا يكون المراد من القرب تحقُّقه في علمه تعالى أو تقديره.

وقال بعض الأفاضل: ليس المراد من كون القرب عند الله تعالى نسبته إليه سبحانه، بأن يجعل هو عزَّ وجلَّ مدنوًّا منه ومقرَّباً إليه، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، بل المراد قُرْبُ الحساب للناس عندَ الله تعالى، وحاصله أنه تعالى شأنُه لبلوغ تأنِّيه إلى حدِّ الكمال يستقصر المددَ الطوال، فيكون الحسابُ قريباً من الناس عندَ جنابه المتعال، وإن كان بينه وبينهم أعوام وأحوال، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧] وهذا المعنى يفيد ـ وراء إفادته تحقُّق الثبوت لا محالةَ ـ أن المدَّةَ الباقيةَ بينهم وبين الحساب شيءٌ قليل في الحقيقة، وما عليه الناسُ من استطالته واستكثاره فمن التسويلاتِ الشيطانيَّة، وأنَّ اللائقَ بأصحاب البصيرة أن يَعدُّوا تلك المدةَ قصيرةً، فيشمِّروا الذيلَ ليوم يكشفُ فيه عن ساقٍ، ويكون إلى الله تعالى شأنه المساق.

وقول شيخ الإسلام(١) في الاعتراض على ما قيل: إنه لا سبيل إلى اعتباره ها هنا؛ لأن قُرْبه بالنسبة إليه تعالى مما لا يتصوَّر فيه التجدُّد والتفاوت حتماً، وإنما اعتباره في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى:١٧] ونظائره مما لا دلالةَ فيه على الحدوث = مبنيٌّ على حمل القُرب عنده تعالى على القُرب إليه تعالى، بمعنى حضورِ ذلك في علمه الأزليِّ، فإنه الذي لا يَجري فيه التفاوت حتماً، وأما قُرب الأشياء بعضها إلى بعض زماناً أو مكاناً فلا ريبَ أنه يتجدَّد تعلقاتُ عِلْمه سبحانه بذلك، فيعلمه على ما هو عليه مع كون صفةِ العلم نفسِها قديمةً على ما تقرَّر في موضعه. اهـ.

واختار بعضُهم أن المرادَ بالعنديَّة ما سمعته أولًا، وهو معنى شائع في الاستعمال وجعل التجدُّد باعتبار التعلُّق كما قيل بذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٥٣.

لِنَعْلَمَ﴾[1] الآية [الكهف: ١٢]، وقيل: المراد من اقترابه تحقُّق وقوعه لا محالةَ، فإن كلَّ آتٍ قريبٌ، والبعيد ما وقع ومضى، ولذا قيل:

فـلا زالَ مـا تـهـواهُ أقـربَ مـن غَـدِ ولا زالَ ما تخشاه أبعدَ من أمسِ[2]

ولا بدَّ أن يراد من تحقُّق وقوعه تحقُّقه في نفسه لا تحقُّقه في العلم الأزليِّ؛ ليغاير القولَ السابقَ.

وبعض الأفاضل قال: إنه على هذا الوجه عدم تعلُّقه بالاقتراب المستفادِ من صيغة الماضي إلا أن يُصار إلى القول بتجرُّد الصيغة عن الدلالة على الحدوث، كما في قولهم: سبحانَ من تقدَّسَ عن الأندادِ وتنزَّه عن الأضدادِ، فتأمَّل ولا تغفل.

وتقديم الجارِّ والمجرور على الفاعل، كما صرَّح به شيخُ الإسلام[3]؛ للمسارعة إلى إدخالِ الروعة، فإن نسبةَ الاقتراب إلى المشركين من أول الأمر يسوؤهم، ويُورِثهم رهبةً وانزعاجاً من المقتَرب.

واعتُرض بأن هؤلاء المشركين لا يحصل لهم الترويع والانزعاجُ لما ستسمع من غفلتهم وإعراضهم وعدمِ اعتدادهم بالآيات النازلةِ عليهم، فكيف يتأتَّى تعجيل المساءة؟!

وأجيب بأن ذلك لا يقتضي أن لا يزعجهم الإنذارُ والتذكير، ولا يروِّعهم التخويفُ والتحذير؛ لجواز أن يختلج في ذهنهم احتمالُ الصدق ولو مرجوحاً، فيحصلَ لهم الخوف والإشفاق.

وأُيِّدَ بما ذكره بعضُ المفسِّرين من أنه لما نزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] قال الكفار فيما بينهم: إن هذا يزعم أن القيامةَ قد قربت، فأَمسِكوا عن بعض ما تعملونَ حتى ننظرَ ما هو كائن. فلما تأخَّرت قالوا: ما نرى شيئاً! فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] فأشفقوا فانتظروا قُرْبها، فلما امتدَّت الأيام قالوا: يا محمد ما نرى شيئاً مما تخوِّفنا به؟! انتهى.

---

(١) في الأصل و(م): وكذلك بعثناهم لنعلم.

(٢) البيت لابن دراج القسطلي، وهو في ديوانه برواية:

ولا زال مـا تـرجـوه أقـرب مـن غـدِ ولا انفكَّ ما تخشاه أبعد من أمسِ

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٥٣.

وقال بعضهم في بيان ذلك: إن الاقترابَ منبئٌ عن التوجُّه والإقبال نحو شيء، فإذا قيل: اقتربَ، أشعرَ أن هناك أمراً مقبلًا على شيء طالباً له من غير دلالةٍ على خصوصيَّة المقترب منه، فإذا قيل بعد ذلك: «للناس» دلَّ على أنَّ ذلك الأمرَ طالبٌ لهم، مُقبِل عليهم، وهم هاربون منه، فأفاد أنَّ المقترِبَ مما يسوؤهم، فيحصل لهم الخوف والاضطراب قبل ذِكْر الحسابِ، بخلاف ما إذا قيل: اقترب الحسابُ للناس، فإنَّ كون إقبال الحساب نحوَهم لا يُفهَم على ذلك التقدير إلا بعد ذكرٍ للناس، فتحقُّق فائدة التعجيل في التقديم[1] مما لا شبهةَ فيه، بل فيه فائدة زائدة وهي ذهاب الوهم في تعيين ذلك الأمر الهائل إلى كلِّ مذهب إلى أن يذكر الفاعل.

ويمكن أيضاً أن يقال في وجه تعجيلِ التهويل: إنَّ جريانَ عادته الكريمة ﷺ على إنذار المشركين وتحذيرهم وبيانِ ما يزعجهم يدلُّ على أنَّ ما بين اقترابه منهم شيء سَيِّئ هائل، فإذا قدّم الجارّ يحصل التخويف حيث يعلم من أول الأمر أنَّ الكلام في حقِّ المشركين الجاري عادته الكريمة عليه الصلاة والسلام على تحذيرِهم، بخلاف ما إذا قدّم الفاعل حيث لايعلم المقتربُ منه إلى أن يذكر الجارّ والمجرور، والقرينة المذكورة لا تدلُّ على تعيين المقتَرب كما تدلُّ على تعيين المقتَرَب، إذ من المعلوم من عادته الكريمة ﷺ أنَّه إذا تكلَّم في شأنهم يتكلَّم غالباً بما يسوؤهم، لا أنَّه عليه الصلاة والسلام يتكلَّم في غالب أحواله بما يسوؤهم، وفرق بين العادتين، ولا يَقدح في تماميَّة المرام توقُّف تحقُّق نكتة التقديم على ضمِّ ضميمة العادة، إذ يتم المراد بأن يكون للتقديم مدخل في حصول تلك النكتة، بحيث لو فات التقديم لفاتت النكتةُ، وقد عرفت أنَّ الأمر كذلك، وليس في كلام الشيخ ـ قدِّس سرُّه ـ ما يدلُّ على أن المسارعة المذكورةَ حاصلةٌ من التقديم وحده، كذا قيل.

ولك أن تقول: التقديم؛ لتعجيل التخويف، ولا ينافي ذلك عدمَ حصوله، كما لا ينافي عدمُ حصولِ التخويف كونَ إنزال الآياتِ للتخويف، فافهم.

(١) ليست في الأصل.

وجوَّز الزمخشريُّ(١) كون اللام تأكيداً، لإضافة الحساب إليهم. قال في «الكشف»: فالأصل: اقترب حسابُ الناس؛ لأنَّ المقتَرَبَ منه معلومٌ، ثم اقترب للناس الحساب على أنه ظرف مستقرٌّ مقدَّم، لا أنه يحتاج إلى مضاف مقدَّر حُذفَ؛ لأن المتأخِّر مفسِّر، أي: اقترب الحسابُ للناس الحساب، كما زعم الطيبيُّ، وفي التقديم والتصريح باللام وتعريف الحساب مبالغاتٌ ليست في الأصل، ثم اقترب للناس حسابهم، فصارت اللام مؤكِّدة لمعنى الاختصاص الإضافيِّ، لا لمجرَّد التأكيد، كما في: لا أبا له(٢)، وما ثُنِّي فيه الظرفُ من نحو: فيكَ زيدٌ راغبٌ فيك. انتهى.

وادَّعى الزمخشريُّ(٣) أنَّ هذا الوجه أغربُ؛ بناءً على أنَّ فيه مبالغاتٍ ونكتاً ليست في الوجه الأول.

وادَّعى شيخُ الإسلام(٤) أنَّه مع كونه تعسُّفاً تامًّا بمعزل عمَّا يقتضيه المقامُ، وبحث فيه أيضاً أبو حيان(٥) وغيرُه، ومن الناس من انتصر له وذبَّ عنه.

وبالجملة للعلماء في ذلك مناظرة عظمى ومعركة كبرى، والأَولى بعد كلِّ حساب جعل اللام صلةَ الاقتراب هذا.

واستدلَّ بالآية على ثبوت الحساب، وذكر البيضاويُّ(٦) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] أنَّ المعتزلة والخوارج ينكرونه. ويعضده ما ذكره الإمام النسفيُّ في بعض مؤلَّفاته حيث قال: قالت المعتزلة: لا ميزانَ ولا حسابَ ولا صراطَ ولا حوضَ ولا شفاعةَ، وكلُّ موضع ذكَر اللهُ تعالى فيه الميزانَ أو الحساب، أراد سبحانه به العدلَ. انتهى.

---

(١) في الكشاف ٢/ ٥٦١.

(٢) كلام جرى مجرى المثل، وذلك أنك إذا قلت هذا، فإنك لا تنفي في الحقيقة أباه، وإنما تخرجه مخرج الدعاء، أي: هو ممن يستحقُّ أن يُدعى عليه بفقد أبيه. الخصائص لابن جني ١/ ٣٤٣.

(٣) في الكشاف ٢/ ٥٦١.

(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ٥٣.

(٥) في البحر المحيط ٦/ ٢٩٥.

(٦) في تفسيره ١/ ٢٧٢.

لكن المذكور في عامَّة المعتبرات الكلاميَّة أنَّ أكثرهم ينفي الصراط، وجميعهم ينفي الميزانَ، ولم يتعرَّض فيها لنفيهم الحسابَ، والحقُّ أنَّ الحساب بمعنى المجازاة مما لا ينكره إلا المشركون.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: في غفلة عظيمة وجهالة فخيمة عنه.

وقيل: الأَولى التعميم، أي: في غفلة تامَّة وجهالة عامَّة من توحيده تعالى والإيمان بكتبه ورسله عليهم السلام، ووقوع الحسابِ ووجود الثواب العقابِ، وسائرِ ما جاء به النبيُّ الكريم عليه الصلاة والتسليم.

وذِكْرُ غفلتهم عن ذلك عقيبَ بيانِ اقتراب الحساب لا يقتضي قَصْرَ الغفلة عليه، فإن وقوعَ تأسُّفهم وندامتهم وظهور أَثَر جهلهم وحماقتهم لمَّا كان مما يقع في يوم الحساب، كان سبباً للتعقيب المذكور. انتهى.

وقد يقال: إنَّ ظاهرَ التعقيب يقتضي ذلك، ومن غفل عن مجازاةِ الله تعالى له المرادِ من الحساب، صَدَرَ منه كلُّ ضلالة، وركب متنَ كلِّ جهالة.

والجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوف وقع خبراً لـ «لهم».

وقوله سبحانه: ﴿مُّعْرِضُونَ ①﴾ أي: عن الآيات والنذرِ الناطقة بذلك الداعية إلى الإيمان به المنجي من المهالك، خبر بعد خبر، واجتماع الغفلة والإعراض على ما أشرنا إليه مما لا غبارَ عليه.

وللإشارة إلى تمكُّنهم في الغفلة التي هي منشأُ الإعراض المستمرِّ جِيْءَ بالكلام على ما سمعت، والجملة في موضع الحال من «الناس».

وقال الزمخشريُّ[1]: وصفهم بالغفلة مع الإعراض على معنى أنهم غافلون عن حسابهم، ساهون لا يتفكَّرون في عاقبتهم، ولا يتفطَّنون لما ترجعُ إليه خاتمةُ[2] أمرهم مع اقتضاء عقولِهم أنَّه لا بُدَّ من جزاء للمحسن والمسِيْء، ولذا إذا قرعت لهم العصا، ونبِّهوا عن سِنَة الغفلة، وفطنوا لذلك بما يُتلى عليهم من الآيات

(١) في الكشاف ٢/ ٥٦٢.
(٢) في الأصل: عاقبة.

والنذر، أَعرضوا وسَدُّوا أسماعَهم ونفروا، إلى آخر ما قال.

وحاصله يتضمَّن دفعَ التنافي بين الغفلة التي هي عدم التنبُّه، والإعراض الذي يكون من المتنبِّه، بأنَّ الغفلةَ عن الحساب في أوَّل أمرِهم، والإعراضَ بعد قَرْعِ عصا الإنذار، أو بأنَّ الغفلةَ عن الحساب، والإعراضَ عن التفكُّر في عاقبتهم وأمر خاتمتهم.

وفي «الكشف»: أرادَ أنَّ حالهم المستمرَّة الغفلةُ عن مقتضى الأدلَّة العقليَّة، ثم إذا عاضدتها الأدلَّة السمعية، وأُرشدوا لطريقِ النظر، أَعرضوا، وفيه بيانُ فائدة إيرادِ الأول جملةً ظرفية؛ لما في حرف الظرف من الدلالة على التمكُّن، وإيراد الثاني وصفاً منتقلاً دالًّا على نوع تجدُّد، ومنه يظهر ضعف الحمل على أنَّ الظرفيَّة حالٌ من الضمير المستكن في «معرضون» قدِّمت عليه. انتهى.

ولا يخفى أنَّ القولَ باقتضاء العقول أنه لا بُدَّ من الجزاء، لا يتسنَّى إلا على القول بالحُسن والقبح العقليين، والأشاعرة ينكرون ذلك أشدَّ الإنكار. وقال بعض الأفاضل: يمكن أن يُحمل الإعراض على الاتساع كما في قوله:

عطاءُ فتًى تمكَّن في المعالي وأَعرضَ في المعالي واستطالا[1]

وذكره بعض المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧] فيكون المعنى: وهم متسعون في الغفلة، مفرطون فيها.

ويمكن أيضاً أن يراد بالغفلة معنى الإهمال، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] فلا تنافيَ بين الوصفين.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ من طائفةٍ نازلة من القرآن تذكِّرهم أكملَ تذكير، وتبيِّن لهم الأمر أتمَّ تبيين، كأنها نفسُ الذكر، و«من» سيف خطيب، وما بعدها مرفوع المحلِّ على الفاعليَّة، والقول بأنها تبعيضيَّة بعيدٌ، و«من» في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ لابتداءِ الغاية مجازاً، متعلِّقة بـ «يأتيهم»، أو بمحذوف هو صفة لـ «ذِكْر»، وأيًّا ما كان ففيه دلالةٌ على فضله وشرفِه وكمال شناعة ما فعلوا به، والتعرُّض لعنوان الربوبية؛ لتشديد التشنيع.

---

(١) البيت لذي الرمة، وسلف عند تفسير الآية (٦٧) من سورة الإسراء.

﴿مُحْدَثٍ﴾ بالجرِّ، صفة لـ «ذِكْر».

وقرأ ابن أبي عبلة بالرفع، على أنه صفة له أيضاً على المحلِّ، وزيد بن علي ﷺ بالنصب على أنه حال منه، بناء على وصفه بقوله تعالى: «من ربهم»[1].

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ استثناء مفرغ، محلُّه النصب على أنه حال من مفعول «يأتيهم» بإضمار «قد» أو بدونه، على الخلاف المشهور على ما قيل، وقال نجم الأئمة الرضيُّ: إذا كان الماضي بعد «إلا» فاكتفاؤه بالضمير من دون الواو و«قد» أكثر، نحو: ما لقيتُه إلا أكرَمني، لأنَّ دخولَ «لا» في الأغلب على الأسماء، فهو بتأويل: إلا مكرِّماً، فصار كالمضارع المثبت.

وجوّز أن يكون حالًا من المفعول؛ لأنه حاملٌ لضميره أيضاً، والمعنى لا يأباه، وهو خلاف الظاهر.

وأَبعدُ من ذلك ما قيل: إنَّه يحتمل أن يكون صفةً لـ «ذكر»، وكلمة: «إلا» وإن كانت مانعةً عند الجمهور، إذ التفريغ في الصفات غيرُ جائز عندهم، إلا أنه يجوز أن يقدَّر ذِكر آخرُ بعد «إلا» فتجعل هذه الجملة صفةً له، ويكون ذلك بمنزلة وصف المذكور، أي: ما يأتيهم من ذكر إلا ذِكْر استمعوه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝﴾ حال من فاعل: «استمعوه».

وقوله سبحانه: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ إما حال أُخرى منه، فتكون مترادفةً، أو حال من واو «يلعبون» فتكون متداخلةً، والمعنى: ما يأتيهم من ذِكْر من ربِّهم مُحدَث في حالٍ من الأحوال إلا حال استماعِهم إيَّاه لاعبينَ مستهزئينَ به لاهين عنه، أو لاعبين به حالَ كون قلوبهم لاهيةً عنه.

وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى «لاهية» بالرفع[2] على أنه خبرٌ بعد خبرٍ لـ «هم» والسِّرُّ في اختلاف الخبرين لا يَخفى.

و «لاهية» من لَهِيَ عن الشيء ـ بالكسر ـ لُهيًّا ولِهْياناً: إذا سَلَا عنه، وتَرَكَ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٢٩٦، وقراءة ابن أبي عبلة ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٥٦٣.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٢٩٦، وقراءة عيسى في القراءات الشاذة ص٩١.

ذِكْره، وأَضرَبَ عنه، كما في «الصحاح»(١). وفي «الكشاف»(٢) هي مِن لَهَا عنه، إذا ذهل وغفل.

وحيث اعتبر في الغفلة فيما مرَّ أن لا يكون للغافل شعور بالمغفولِ عنه أصلًا بأن لا يخطر بباله ولا يَقرَع سمعه، أَشكل وصفُ قلوبهم بالغفلة بعد سماع الآيات، إذ قد زالت عنهم بذلك، وحصل لهم الشعور وإن لم يوفَّقوا للإيمان، وبَقَوا في غيابة الخزي والخذلان؟

وأجيب بأنَّ الوصفَ بذلك على تنزيل شعورِهم ـ لعدم انتِفاعِهم به ـ منزلةَ العَدم، نظيرَ ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وأنت تعلم أنه لا بأس أن يُراد من الغفلة المذكورة في تفسير لَهِيَ، التَّرْكُ والإعراضُ على ما تُفصِح عنه عبارةُ «الصحاح».

وإنَّما لم يجعل ذلك من اللهو بمعنى اللعب، على ما هو المشهور؛ لأنَّ تعقيبَ «يلعبون» بذلك حينئذٍ مما لا يناسبُ جزالةَ التنزيل، ولا يوافق جلالةَ نظمه الجزيل، وإن أمكن تصحيحُ معناه بنوع من التأويل.

و المراد بالحدوث الذي يستدعيه «محدث» التجدُّد، وهو يقتضي المسبوقيَّة بالعدم، ووصف الذِّكْر بذلك باعتبارِ تنزيله لا باعتبارِه نفسه، وإن صحَّ ذلك، بناءً على حمل الذكر على الكلام اللفظيِّ.

والقولُ بما شاع عن الأشاعرة من حدوثِهِ ضرورةَ أنه مؤلَّف من الحروف والأصوات؛ لأنَّ الذي يقتضيه المقام، ويستدعيه حسن الانتظام، بيان أنَّه كلما تجدَّد لهم التنبيه والتذكير، وتكرَّر على أسماعهم كلمات التخويف والتحذير، ونزلت عليهم الآيات، وقُرعت لهم العصا، ونُبِّهوا عن سِنَة الغفلة والجهالة عددَ الحصا، وأُرشدوا إلى طريق الحقِّ مراراً، لا يزيدهم ذلك إلا فراراً.

---

(١) مادة (لهي).
(٢) ٢/ ٥٦٢.

وأمَّا أنَّ ذلك المنزلَ حادثٌ أو قديم فممَّا لا تعلُّق له بالمقام، كما لا يخفى على ذوي الأفهام.

وجوز أن يكون المراد بالذكر الكلامَ النفسيَّ، وإسناد الإتيان إليه مجاز، بل إسناده إلى الكلام مطلقاً كذلك، والمراد من الحدوث التجدُّد، ويقال: إن وصفَه بذلك باعتبار التنزيل، فلا ينافي القولَ بقِدَم الكلام النفسيِّ الذي ذهب إليه مثبتوه من أهل السنة والجماعة.

والحنابلة القائلون بقِدَم اللفظيِّ كالنفسي يتعيَّن عندهم كون الوصف باعتبار ذلك، لئلَّا تقوم الآيةُ حجَّةً عليهم.

وقال الحسن بن الفضل: المراد بالذكر النبيُّ ﷺ، وقد سُمِّي ذِكْراً في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠-١١] ويدلُّ عليه هنا «هل هذا» [الآية: ٣] إلخ، الآتي قريباً إن شاء الله تعالى، وفيه نظر.

وبالجملة ليست الآيةُ مما تقام حجَّةً على ردِّ أهل السنة ولو الحنابلة، كما لا يخفى.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾: كلام مستأنف مسوقٌ لبيان جنايةٍ أخرى من جناياتهم.

و «النجوى» اسم من التناجي، ولا تكون إلا سرًّا، فمعنى إسرارها المبالغةُ في إخفائها.

ويجوز أن تكون مصدراً بمعنى التناجي، فالمعنى: أخفوا تناجِيهم، بأن لم يتناجَوا بمرأى من غيرِهم، وهذا على ما في «الكشف» أظهرُ وأحسن موقعاً.

وقال أبو عبيدة[١]: الإسرار من الأضداد. ويحتمل أن يكون هنا بمعنى الإظهار، ومنه قول الفرزدق:

فلما رأى الحجَّاجَ جرَّد سيفَه أسرَّ الحروريُّ الذي كان أضْمَرا[٢]

---

(١) في مجاز القرآن له ٢/ ٣٤.

(٢) البيت لم نقف عليه في ديوانه، وذكره أبو البركات الأنباري في الأضداد ص٤٦، وابن منظور في اللسان (نجد)، والأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٥.

وأنت تعلم أنَّ الشائع في الاستعمال معنى الإخفاء، وإن قلنا إنَّه من الأضداد، كما نصَّ عليه التبريزيُّ[(١)]، ولا موجبَ للعدول عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بدل من ضمير «أسروا» كما قال المبرِّد، وعزاه ابنُ عطيَّة[(٢)] إلى سيبويه[(٣)]، وفيه إشعار بكونهم موصوفينَ بالظلم الفاحشِ فيما أَسروا به.

وقال أبو عبيدة[(٤)]، والأخفش[(٥)]، وغيرهما: هو فاعل «أسرُّوا» والواو حرف دالٌّ على الجمعية، كواو: قائمون، وتاء: قامت، وهذا على لغة: أكلوني البراغيث، وهي لغة لأزدِشنوءة، قال شاعرهم:

يَلومُونني في اشْتراءِ النَّخِيـ ـلِ أهلي وكلُّهُمُ ألومُ[(٦)].

وهي لغة حسنة على ما نصَّ أبو حيان[(٧)]، وليست شاذَّة كما زعمه بعضهم، وقال الكسائيُّ: هو مُبتدأ، والجملة قبله خبره، وقدِّم؛ اهتماماً به، والمعنى: هم أسروا النجوى، فوضع الموصول موضعَ الضمير، تسجيلًا على فعلهم بكونه ظلماً.

وقيل: هو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هم الذين.

وقيل: هو فاعل لفعل محذوف، أي: يقول الذين، والقول كثيراً ما يُضمَر، واختاره النحَّاس[(٨)]، وهو على هذه الأقوال في محلِّ الرفع.

وجوّز أن يكون في محلِّ النصب على الذَّمِّ، كما ذهب إليه الزجَّاج[(٩)]، أو على

---

(١) كذا ذكره عنه أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢٩٦.
(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ٧٤.
(٣) الكتاب ٢/ ٤١.
(٤) في مجاز القرآن له ٢/ ٣٤.
(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٢.
(٦) البيت لأمية بن أبي الصلت، وهو في ديوانه ص١٢٧.
(٧) في البحر المحيط ٦/ ٢٩٧.
(٨) في إعراب القرآن له ٣/ ٦٤.
(٩) كذا نقل عنه أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٢٩٧ وما بعده منه أيضاً، والذي ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٨٣ - ٣٨٤ أنه في موضع رفع بدلًا من الواو في «أسرُّوا»، =

إضمار: أعني، كما ذهب إليه بعضهم.

وأن يكون في محلِّ الجرِّ، على أن يكون نعتاً «للناس» كما قال أبو البقاء[١]، أو بدلًا منه، كما قال الفرَّاء[٢]، وكلاهما كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ﴾ إلخ، في حيِّز النصب على أنَّه مفعولٌ لقول مُضمَر بعد الموصول، وصلته هو جواب عن سؤال نَشَأَ مما قبله، كأنه قيل: ماذا قالوا في نجواهم؟ فقيل: قالوا: «هل هذا» إلخ.

أو بدل من «أسروا»، أو معطوف عليه، وقيل: حال، أي: قائلين: «هل هذا»... إلخ، وهو مفعول لقول مُضمَر قبل الموصول، على ما اختاره النحَّاس[٣]، وقيل: مفعول للنجوى نفسِها؛ لأنَّها في معنى القول، والمصدر المعرَّف يجوِّز إعمالَه الخليلُ وسيبويه، وقيل: بدل منها، أي: أسرُّوا هذا الحديث.

و «هل» بمعنى النفي، وليست للاستفهام التعجُّبي، كما زعم أبو حيان[٤].

والهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ للإنكار، والفاء للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ حال من فاعل «تأتون» مقرِّرة للإنكار، مؤكِّدة للاستبعاد، وأرادوا كما قيل: ما هذا إلا بشر مثلكم، أي: من جنسِكم وما أَتى به سحرٌ تعلمون ذلك، فتأتونه وتحضرونه على وجهِ الإذعان والقَبول، وأنتم تعاينون أنَّه سحر؟! قالوه بناءً على ما ارتكز في اعتقادِهم الزائغ أنَّ الرسولَ لا يكون إلا مَلكاً، وأنَّ كلَّ ما يظهر على يدِ البشر من الخوارق من قبيل السحر، وعَنَوا بالسحر ها هنا القرآن، ففي ذلك إنكار لحقِّيته على أبلغ وجهٍ، قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون.

= ويجوز أن يكون رفعاً على الذم على معنى: هم الذين ظلموا، أو أن يكون في موضع نصب على معنى: أعني الذين ظلموا.

(١) في إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٦١٠.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ١٩٨.

(٣) في إعراب القرآن له ٣/ ٦٤.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٢٩٧.

وإنَّما أسرُّوا ذلك؛ لأنَّه كان على طريق توثيقِ العهد، وترتيب مبادئ الشَّرِّ والفساد، وتمهيد مقدِّمات المكر والكيد في هدم أَمْرِ النبوَّة، وإطفاءِ نورِ الدين، واللهُ تعالى يأبى إلا أن يتمَّ نورَه ولو كره المشركون.

وقيل: أسرُّوه ليقولوا للرسول ﷺ والمؤمنين: إن كان ما تَدَّعونه حقًّا، فأخبرونا بما أسررناه؟!

وردَّه في «الكشف» بأنه لا يساعده النظمُ، ولا يناسب المبالغةَ في قوله تعالى: «وأسروا النجوى الذين ظلموا» ولا في قوله سبحانه: (أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ).

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حكاية من جهته تعالى لما قال عليه الصلاة والسلام بعد ما أوحى إليه أحوالَهم وأقوالهم، بياناً لظهور أمرِهم، وانكشاف سرِّهم، ففاعل: «قال» ضميرُه ﷺ، والجملة بعده مفعولُه.

وهذه القراءة قراءةُ حمزة، والكسائيِّ، وحفص، والأعمش، وطلحة، وابنِ أبي ليلى، وأيوب، وخَلَف، وابن سعدان، وابن جبير الأنطاكيِّ، وابنِ جرير. وقرأ باقي السبعة: (قل) على الأمر لنبيِّه ﷺ(١).

والقول عامٌّ يشمل السِّرَّ والجهرَ، فإيثاره على السِّرِّ؛ لإثبات عِلْمه سبحانه به على النهج البرهانيِّ، مع ما فيه من الإيذان بأنَّ علمه تعالى بالأمرين على وتيرةٍ واحدة لا تفاوتَ بينهما بالجلاء والخفاء قطعاً كما في علوم الخَلْق.

وفي «الكشف» أنَّ بين السِّرِّ والقول عموماً وخصوصاً من وجه، والمناسب في هذا المقام تعميمُ القول؛ ليشملَ جهرَه وسرَّه والأخفى، فيكون كأنَّه قيل: يَعلمَ هذا الضرب، وما هو أَعلى من ذلك، وأدنى منه، وفي ذلك من المبالغة في إحاطة عِلْمه تعالى المناسبةِ لما حكى عنهم من المبالغة في الإخفاء ما فيه، وإيثار السِّرِّ على القول في بعض الآيات لنكتةٍ تقتضيه هناك، ولكلٍّ مقام مقالٌ، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوف وقع حالًا من القول، أي: كائناً في السماء والأرض.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ أي: بجميع المسموعات ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾ أي: بجميع المعلومات، وقيل: أي: المبالغ في العِلْم بالمسموعات والمعلومات،

---

(١) التيسير ص١٥٤، والنشر ٢/٣٢٣، والبحر المحيط ٦/٢٩٧.

ويدخل في ذلك أقوالُهم وأفعالُهم دخولًا أوليًّا = اعتراض تَذْييلي مقدَّر لمضمون ما قبله، متضمِّن للوعيد بمجازاتِهم على ما صدر منهم، ويفهم من كلام «البحر»[(١)] أنَّ ما قبل متضمِّن ذلك أيضاً.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ﴾ إضراب من جهته تعالى، وانتقالٌ من حكاية قولِهم السابق إلى حكاية قولٍ آخرَ مُضْطرب باطلٍ، أي: لم يقتصروا على القول في حقِّه ﷺ: هل هذا إلا بشر مثلكم، وفي حقِّ ما ظهر على يده من القرآن الكريم: إنَّه سحر، بل قالوا: هو، أي: القرآن تخاليطُ الأحلام، ثم أضربوا عنه فقالوا: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ من تلقاء نفسِه من غير أن يكون له أصلٌ أو شبهةُ أصل، ثم أضربوا فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما أتى به شعر يخيِّل إلى السامع معاني لا حقيقةَ لها، وهذا الاضْطِراب شأنُ المبطِل المحجوجِ، فإنَّه لا يزال يتردَّد بين باطل وأبطل، ويتذبذبُ بين فاسد وأفسد؛ فـ «بل» الأُولى ـ كما نرى ـ من كلامه عزَّ وجلَّ وهي انتقاليَّة، والمنتقَل منه ماتقدَّم باعتبار خصوصه، والأخيرتان من كلامهم المحكي، وهما إبطاليتان؛ لتردُّدهم وتحيُّرهم في تزويرهم، وجملة المقول داخلةٌ في النجوى.

ويجوز أن تكون الأُولى[(٢)] انتقاليةً، والمنتقَل منه ما تقدَّم، بقطع النظر عن خصوصِه، والجملة غيرُ داخلة في النجوى، وكلا الوجهين وجيهٌ، وليس فيهما إلا اختلاف معنى «بل»، وكون الأُولى من الحكاية، والأخيرتين من المحكيِّ، ولامانع منه.

وجوّز أن تكون الأُولى من كلامهم وهي إبطاليَّةأيضاً، متعلِّقة بقولهم: هو سحر، المدلول عليه بـ : «أفتأتون السحر».

ورُدَّ بأنَّه إنَّما يصحُّ لو كان النظم الكريم: قالوا: بل. . .إلخ، ليفيد حكايةَ إضرابهم، وكونه من القلب، وأصله: قالوا: بل، لا يخفى ما فيه؟

وقد أجيب أيضاً بأنَّه إضراب في قولهم المحكيِّ بالقول المقدَّر قبل قوله تعالى: «هل هذا» إلخ، أو الذي تضمَّنه النجوى.

---

(١) ٦/ ٢٩٧.

(٢) ليست في الأصل.

وأعيد القولُ؛ للفاصل أو لكونه غيرَ مصرَّح به، ولا يخفى ما فيه أيضاً.

وجوّز أن تكون الثلاثةُ من كلامه عزَّ وجلَّ على أنَّ ذلك تنزيلٌ لأقوالهم في دَرْج الفساد، وأنَّ قولهم الثاني أفسدُ من الأوَّل، والثالث أفسدُ من الثاني، وكذلك الرابعُ من الثالث. ويُطْلق على نحو هذا الإضراب: الترقي، لكن لم يقل هنا: ترقِّياً؛ إشارةً إلى أنَّ الترقيَ في القُبْح تنزيلٌ في الحقيقة، ووجه ذلك كما قال في «الكشف» أنَّ قولَهم: إنَّه سحر، أقربُ من الثاني، فقد يقال: إنَّ من البيان لسحراً؛ لأنَّ تخاليطَ الكلام التي لا تنضبط لا شِبْه لها بوجه بالنظم الأنيق الذي أَبْكَم كلَّ مِنْطيق.

ثم ادِّعاء أنَّها مع كونها تخاليطَ مفترياتٍ أَبعد وأبعد؛ لأنَّ النظم بمادته وصورته من أتمِّ القواطع دلالةً على الصدق، كيف وقد انضمَّ إليه أنَّ القائلَ عليه الصلاة والسلام عَلَمٌ عندهم في الأمانة والصدق، والأخيرَ هذيان المبرسَمين[1]؛ لأنَّهم أعرفُ الناس بالتمييز بين المنظوم والمنثور طبعاً، وبين ما يُساق له الشعرُ، وما سيق له هذا الكلام الذي لا يُشِبه بليغات خطبِهم، فضلًا عن ذلك، وبين محسِّناتِ الشعر ومحسِّناتِ هذا النثر، هذا فيما يرجع إلى الصورة وحدها، ثم إذا جئت إلى المادة وتركُّب الشعر من المخيِّلات والمعاني النازلة التي يَهتدي إليها الأجلاف، وهذا من اليقينيَّات العقديَّة، والدينيَّات العمليَّة التي عليها مدارُ المعادِ والمعاش، وبها تتفاضل الأشرافُ فأَظهر وأَظهر، هذا والقائل عليه الصلاة والتسليم ممن لا يتسهَّل له الشعر وإن أراده، خالطوه وذاقوه أربعين سنة. اهـ.

وكون تركُّب الشعر من المخيِّلات باعتبار الغالب، فلا ينافيه قولُه ﷺ: «إنَّ من الشعر لحكمةً»[2] لأنَّه باعتبار النَّدْرة، ويؤيِّده التأكيدُ بأنَّ الدالَّة على التردُّد فيه، وقد جاء الشاعر بمعنى الكاذب، بل قال الراغبُ[3]: إنَّ الشاعر في القرآن بمعنى الكاذب بالطبع. وعليه يكون قد أرادوا ـ قاتلهم الله تعالى ـ بل هو ـ وحاشاه ـ ذو افتراءات كثيرة، وليس في «بل» هنا على هذا الوجه إبطالٌ، بل إثباتٌ للحكم الأوَّل وزيادة عليه، كما صرَّح بذلك الراغبُ.

---

(١) البرسام: علَّة يُهذى فيها، وهو مبرسم. القاموس (برسم).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٧٥٥) عن أُبيِّ بن كعب رضي الله عنه.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن ص٤٥٦.

وفي وقوعها للإبطال في كلام الله تعالى خلاف، فأثبته ابنُ هشام[1] ومثَّل له بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ووهم ابنُ مالك في «شرح الكافية» فنفاه.

والحقُّ أنَّ الإبطال إن كان لما صَدَرَ عن الغير، فهو واقع في القرآن، وإن كان لما صَدَرَ عنه تعالى، فغير واقع، بل هو محالٌ؛ لأنَّه بداء، وربَّما يقال: مراد ابنِ مالك بالمنفي الضربُ الثاني، ثم إنَّ هذا الوجه ـ وإن كان فيه بُعْدٌ ـ لا يخلو عن حُسن، كما قيل، فتدبَّر.

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾: جواب شرطٍ محذوف يُفصِح عنه السياق، كأنَّه قيل: وإن لم يكن كما قلنا، بل كان رسولًا من الله عزَّ وجلَّ كما يقول، فليأتنا بآية ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ⑤﴾ وقدَّر النيسابوريُّ[2] غيرَ هذا الشرط، فقال أخذاً من كلام الإمام في بيان حاصل معنى الآية: إنَّهم أنكروا أوَّلًا كون الرسول من جنسِ البشر، ثم إنَّهم كأنهم قالوا: سلَّمنا ذلك، ولكن الذي ادَّعيت أنَّه معجزٌ، ليس بمعجز، غايته أنَّه خارقٌ للعادة، وما كلُّ خارق لها معجزٌ، فقد يكون سحراً، هذا إذا ساعدنا على أنَّ فصاحةَ القرآن خارجةٌ عن العادة، لكنَّا عن تسليم هذه المقدِّمة بمراحلَ، فإنَّا ندَّعي أنَّه في غاية الركاكة وسوء النظم، كأضغاث أحلام، سلَّمنا ولكنه من جنسِ كلام الأوساط افْتَراه من عنده، سلَّمنا أنَّه كلام فصيحٌ، لكنَّه لا يتجاوز فصاحةَ الشِّعْر، وإذا كان حالُ هذا المعجِز هكذا، فليأتنا بآية لا يتطرَّق إليها شيءٌ من هذه الاحتمالات كما أرسل الأولون. انتهى. وهو كما ترى.

و «ما» موصولة في محلِّ الجرِّ بالكاف، والجملة بعدها صلة، والعائدُ محذوف، والجارُّ والمجرور متعلِّق بمقدَّر وقع صفةً لـ «آية»، أي: فليأتنا بآية مثل الآيةِ التي أُرسل الأولونَ، ولا يضرُّ فَقْدُ بعض شروط جواز حذفِ العائد المجرور بالحرف، إذ لا اتفاقَ على اشتراط ذلك، ومن اشترط اعتبر العائدَ المحذوفَ هنا منصوباً من باب الحذفِ والإيصال، وهو مَهْيَع[3] واسع.

---

(١) مغني اللبيب ص١٥١-١٥٢.

(٢) غرائب القرآن ١٧/٧.

(٣) طريق مَهْيَع: بيِّن. القاموس (هيع).

وأَرادوا بالآية المشبَّه بها، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما الناقة والعصا ونحوهما، وكان الظاهر أن يقال: فليأتنا بما أُتيَ به الأولون، أو بمثل ما أُتيَ به الأولون، إلا أنَّه عدل عنه إلى ما في النظم الكريم؛ لدلالته على ما دلَّ عليه مع زيادة كونه مرسلًا به من الله عزَّ وجلَّ، وفي التعبير في حقِّه ﷺ بالإتيان والعدول عن الظاهر فيما بعده إيماء إلى أنَّ ما أتى به ﷺ مِن عنده، وما أَتى به الأولون من الله تبارك وتعالى، ففيه تعريضٌ مناسِب لما قبله من الافتراءِ، قاله الخفاجيُّ(١)، وذَكرَ أنَّ ما قيل: إنَّ العدول عن: كما أتى به الأولون؛ لأنَّ مرادَهم اقتراحُ آيةٍ مثلِ آيةِ موسى وآيةِ عيسى عليهما السلام لا غيرهما، مما أَتى به سائرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ وأنَّ العلامةَ البيضاويَّ أشار إلى ذلك(٢) ـ مما لا وجهَ له.

وجوّز أن تكون «ما» مصدرية، والكاف منصوبة على أنَّها مصدر تشبيهيٌّ، أي: نعتٌ لمصدر محذوف، أي: فليأتنا بآية إتياناً كائناً مثل إرسالِ الأوَّلين بها، وصحَّة التشبيه مِن حيث إنَّ المراد مثلُ إتيان الأوَّلين بها؛ لأنَّ إرسال الرسل عليهم السلام متضمِّن الإتيانَ المذكورَ كما في «الكشاف»(٣)، وفي «الكشف» إنَّه يدلُّ على أنَّ قوله تعالى: «كما أرسل الأولون» كناية في هذا المقام، وفائدة العدول بَعْدَ حُسنِ الكناية تحقيقُ كونها آيةً مسليةً، بمثلها تثبت الرسالةُ، لا تنازعَ فيها ويترتَّب المقصود عليها، والقول بأنَّ الإرسال المشبَّه به مصدر المجهول، ومعناه كونه مرسلًا من الله تعالى بالآيات لا يُسمِن ولا يغني في توجيه التشبيه؛ لأنَّ ذلك مغاير للإتيان أيضاً، وإن لم ينفكَّ عنه. وقيل: يجوز أن يحمل النظم الكريم على أنَّه أُريد كلُّ واحد من الإتيان والإرسال في كلِّ واحد من طرفي التشبيه، لكنه تُرِك في جانب المشبَّه ذِكْر الإرسال، وفي جانب المشبَّه به ذِكْر الإتيان، اكتفاءً بما ذكر في كلِّ موطن عمَّا تُرك في الموطن الآخر، ولا يخفى بُعدُه، ثم إنَّ الظاهر أنَّ إقرارَهم بإرسال الأوَّلين ليس عن صميم الفؤاد، بل هو أمر اقتضاه اضْطِرابهم وتحيُّرهم، وذكر بعضُ الأجلَّة أنَّ مما يرجِّح الحمل على أنَّ ما تقدَّم حكاية أقوالِهم المضْطربة هذه الحكاية؛ لأنَّهم

(١) حاشية الشهاب الخفاجي ٦/ ٢٤٢.
(٢) تفسير البيضاوي ٤/ ٣٦.
(٣) ٢/ ٥٦٣.

منعوا أوَّلًا أن يكون الرسولُ بشراً وبَتُّوا القولَ به، وبَنَوا ما بَنَوا، ثم سلَّموا أنَّ الأوَّلين كانوا ذوي آيات، وطالبوه عليه الصلاة والسلام بالإتيان بنحوِ ما أَتَوا به منها، وعلى وجه التنزيل لأقوالهم على دَرْج الفساد يحمل هذا على أنّه تنزُّل منهم، والعدول إلى الكناية؛ لتحقيق تنزُّله عن شأوهم. انتهى، فتأمَّل ولا تغفل.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾: كلام مستأنف مسوقٌ لتكذيبهم فيما يُنبئُ عنه خاتمةُ مقالهم من الوعد الضمنيّ بالإيمان عند إتيانِ الآية المقترحة، وبيان أنَّهم في اقتراح ذلك كالباحث عن حتفِه بظَلْفه، وإنَّ في تَرْك الإجابة إليه إبقاءً عليهم، كيف لا، ولو أُعطوا ما اقترحوه مع عدم إيمانهم قطعاً لاستؤصلوا، لجريان سُنَّة الله ـ تعالى شأنه ـ في الأمم السالفة على استئصال المقترحين منهم إذا أُعطوا ما اقترحوه ثم لم يؤمنوا، وقد سبقت كلمته سبحانه أنَّ هذه الأمَّةَ لا يعذَّبون بعذاب الاستئصال، وهذا أولى مما قيل: إنَّهم لما طعنوا في القرآن وأنّه معجزةٌ، وبالغوا في ذلك حتى أخذوا من قوله تعالى «أفتاتون السحر» إلى أن انتهوا إلى قوله سبحانه: «فليأتنا» إلخ، جِيْءَ بقوله عزَّ وجلَّ: «ما آمنت» إلخ تسلية له ﷺ في أنَّ الإنذار لا يجدي فيهم.

وأيًّا ما كان فقوله سبحانه: «من قرية» على حذف المضاف، أي: من أهل قرية، و«من» مزيدة لتأكيد العموم، وما بعدها في محلِّ الرفع على الفاعليَّة.

وقوله سبحانه: ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ في محلِّ جرٍّ، أو رفع صفة «قرية»، والمراد: أهلكناها بإهلاك أهلِها؛ لعدم إيمانهم بعد مَجِيءِ ما اقترحوه من الآيات، وقيل: القرية، مجاز عن أهلها، فلا حاجةَ إلى تقدير المضاف.

واعترض بأنَّ «أهلكناها» يأباه، والاستخدام وإن كثر في الكلام خلافُ الظاهر، وقال بعضهم: لك أن تقول: إنَّ إهلاكَها كنايةٌ عن إهلاكِ أهلها، وما ذُكر أوّلًا أولى.

والهمزة في قوله سبحانه: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ لإنكار الوقوع، والفاء للعطف إما على مقدَّر دخلته الهمزةُ فأفادت إنكارَ وقوع إيمانهم، ونفيه عقيبَ عدم إيمان الأوَّلين، فالمعنى أنَّه لم يُؤمِن أمَّة من الأمم المهلَكة عند إعطاء ما اقترحوه من الآيات، أهم لم يؤمنوا، فهؤلاء يؤمنون لو أُعطوا ما اقترحوه، أي: مع أنَّهم

أعتى وأطغى كما يفهم بمعونة السياق، والعدول عن: فهم لا يؤمنون أيضاً، وإما على «ما آمنت» على أنَّ الفاء متقدِّمة على الهمزة في الاعتبار، مفيدةٌ لترتيب إنكار وقوعِ إيمانهم على عدم إيمان الأوَّلين، وإنَّما قدِّمت عليها الهمزة، لاقتضائها الصدارة.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ جواب لما زعموه من أنَّ الرسول لا يكون إلا مَلَكاً المشار إليه بقولهم: «هل هذا إلا بشر مثلكم» الذي بَنَوا عليه ما بَنَوا، فهو متعلِّق بذلك، وقدِّم عليه جواب قولهم: «فليأتنا» لأنَّهم قالوا ذلك بطريق التعجيز، فلا بدَّ من المسارعة إلى ردِّه وإبطاله، ولأنَّ في هذا الجواب نوعَ بسطٍ يُخِلُّ تقديمه بتجاوبِ النظم الكريم.

وقوله تعالى: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ استئناف مبيِّن لكيفية الإرسال، وصيغة المضارع؛ لحكاية الحال الماضية المستمرَّة، وحذف المفعول؛ لعدم القصد إلى خصوصِه، والمعنى: ما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك إلى أمَّتك إلا رجالًا لا ملائكةً، نوحي إليهم بواسطة المَلَك ما نُوحي من الشرائع والأحكام وغيرهما من القصص والأخبار كما نوحي إليكَ من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي وحقِّيَّة مدلوله، كما لافرقَ بينك وبينهم في البشرية، فما لهم لا يفهمون أنَّك لست بِدْعاً من الرسل؟! وأنَّ ما أُوحي إليك ليس مخالفاً لما أُوحي إليهم، فيقولون ما يقولون؟!

وقال بعضُ الأفاضل: إنَّ الجملة في محلِّ النصب صفة مادحة لـ «رجالًا» وهو الذي يقتضيه النظم الجليل.

وقرأ الجمهور: «يوحى إليهم» بالياء على صيغة المبني للمفعول(١)؛ جرياً على سَنَن الكبرياء، وإيذاناً بتعين الفاعل.

وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⑦﴾ تلوين للخطاب وتوجيهٌ له إلى الكفرة، لتَبْكيتهم واستنزالِهم عن رتبة الاستبعاد والنكير، إثر تحقيق الحقِّ، على طريقة الخطاب لرسولِ الله ﷺ؛ لأنَّه الحقيق بالخطاب في أمثالِ تلك الحقائق الأنيقة، وأما الوقوف عليها بالسؤالِ من الغير، فهو من وظائف العوامِّ،

(١) التيسير ص١٣٠، والنشر ٢/٢٩٦.

وأَمْرُه ﷺ بالسؤال في بعض الآيات ليس للوقوف، وتحصيل العلم بالمسؤول عنه لأمرٍ آخر.

والفاء لترتيب ما بعدَها على ما قبلها.

وأهلُ الذكر: أهلُ الكتاب، كما روي عن الحسن وقتادة وغيرهما، وجواب الشرط محذوف؛ ثقةً بدلالة المذكور عليه، أي: إن كنتم لا تعلمون ما ذكر، فاسألوا أيُّها الجهلة أهلَ الكتاب الواقفينَ على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام؛ لتزولَ شبهتُكم، أُمروا بذلك؛ لأنَّ إخبار الجمِّ الغفير يفيد العلمَ في مثل ذلك، لا سيَّما وهم كانوا يشايعون المشركينَ في عداوته ﷺ، ويشاورونهم في أمره عليه الصلاة والسلام، ففيه من الدلالة على كمال وضوح الأمر وقوَّة شأن النبيِّ ﷺ ما لا يخفى.

وعن ابنِ زيد أنَّ أهلَ الذكر هم أهلُ القرآن. وردَّه ابنُ عطيَّة[1] بأنَّهم كانوا خَصومَهم، فكيف يُؤمرون بسؤالهم؟!

ويردُّ ذلك على ما زعمته الإماميَّة من أنَّهم آلهُ ﷺ، وقد تقدَّم الكلام في ذلك.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾: بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوةً لسائر أفراد الجنس في أحكام الطبيعة البشريَّة.

والجسد على ما في «القاموس»[2]: جسم الإنس والجنِّ والمَلَك. وقال الراغب: هو كالجسم إلا أنَّه أخصُّ منه. قال الخليل: لا يُقال الجسد لغير الإنسان من خَلْق الأرض ونحوه، وأيضاً فإنَّ الجسد يقال لما لَهُ لونٌ، والجسم لما لا يبين له لونٌ، كالهواء والماء. وقوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا) إلخ، يشهد لما قاله الخليل[3]. انتهى.

وقيل: هو جسم ذو تركيب، وظاهره أنَّه أعمُّ من الحيوان، ومنهم من[4] خصَّه به.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٧٥.

(٢) مادة (جسد).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (جسد)، وجاء في هامش الأصل و(م) ما نصه: «قال الرازي: له لون ولا يحجب ما وراءه. اهـ. منه».

(٤) ليست في (م).

وقال بعضهم: هو في الأصل مصدر جَسِدَ الدمُ يَجْسَد، أي: التصق، وأُطلق على الجسم المركَّب؛ لأنه ذو أجزاء ملتصق بعضُها ببعض، ثم الظاهر أنَّ الذي يقول بتخصيصِه بحيث لا يشمل غيرَ العاقل من الحيوان مثلًا غاية ما يدَّعي أنَّ ذلك بحسب أصل وَضْعه، ولا يقول بعدم جواز تعميمه بعد ذلك، فلا تغفل.

ونصبه إمَّا على أنَّه مفعول ثانٍ للجعل، والمراد تصييره كذلك ابتداءً على طريقة قولهم: سبحان من صغَّر البعوضَ وكبَّر الفيلَ. وإما حالٌ من الضمير.

والجعل إبداعيٌّ، وإفراده؛ لإعادة الجنس الشامل للكثير، أو لأنه في الأصل على ما سمعتَ مصدر، وهو يطلق على الواحد المذكَّر وغيره. وقيل: لإرادة الاستغراق الإفراديِّ في الضمير، أي: جعلنا كلَّ واحد منهم.

وقيل: هو بتقدير مضاف، أي: ذوي جسد، وفي «التسهيل»(١) أنَّه يُستغنى بتثنية المضاف وجمعه عن تثنية المضاف إليه وجمعه في الأعلام، وكذا ما ليس فيه لُبْسٌ من أسماء الأجناس.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة «جسداً» أي: وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الغذاء، بل محتاجاً إليه ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ۝٨﴾ أي: باقين أبداً، وجوّز أن يكون الخلودُ بمنى المكْثِ المديد، واختير الأوَّل؛ لأنَّ الجملة مقرّرة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام بشراً لا ملائكةً، كما يقتضيه اعتقاد المشركين الفاسد وزعمهم الكاسد، والظاهر هم يعتقدون أيضاً في الملائكة عليهم السلام الأبديَّة كاعتقاد الفلاسفة فيهم ذلك، إلا أنَّهم يسمُّونهم عقولًا مجرَّدة.

وحاصل المعنى: جعلناهم أجساداً متغذِّية صائرةً إلى الموت بالآخرة حسب آجالهم، ولم نجعلهم ملائكةً لا يتغذَّون ولا يموتون حسبما تزعمون.

وقيل: الجملة ردٌّ على قولهم: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] إلخ، والأوَّل أَولى، نعم هي مع كونها مقرَّرة لما قبلها فيها ردٌّ على ذلك. وفي إيثار «وما كانوا» على «وما جعلناهم» تنبيهٌ على أنَّ عدمَ الخلود والبقاءِ من توابع جبلَّتهم في هذه النشأة التي أُشير إليها بقوله تعالى: «وما جعلناهم جسداً» إلخ

---

(١) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك ص١٩.

لا بالجعل المستأنف، بل إذا نظرت إلى سائر المركَّبات من العناصر المتضادَّة رأيتَ بقاءها سويعة أمراً غريباً، وانتهضت إلى طلب العلَّة لذلك، ومن هنا قيل:

ولا تُتْبِع الماضي سؤالَكَ لِمْ مَضَى وعرِّج على الباقي وسائِلْه لِمْ بَقِي[١]

بل لا يَبعُد أن تكون الممكنات مطلقاً كذلك، فقد قالوا: إنَّ الممكن إذا خُلِّي وذاته يكون معدوماً، إذ العدم لا يحتاج إلى علَّة وتأثير، بخلاف الوجود، ولا يلزم على هذا أن يكون العدمُ مقتضى الذات حتى يصيرَ ممتنعاً، إذ مرجع ذلك إلى أولويَّة العدم وأليقيَّته بالنسبة إلى الذات، ويشير إلى ذلك على ما قيل قولُ أبي عليٍّ في «إلهيات»: «الشفاء»[٢] للمعلول في نفسِه أن يكون ليس، وله عن علته أن يكون آيساً، وقولهم باستواء طرفَي الممكن بالنظر إلى ذاته، معناه: استواؤه في عدم وجوب واحدٍ منهما بالنظر إلى ذاته، وقولهم: علَّة العدمِ عدمُ علَّة الوجود، بمعنى أنَّ العدمَ لا يحتاج إلى تأثير وجعلٍ، بل يكفيه انعدامُ العلَّة، لا أنَّ عدمَ العلَّة مؤثِّرة في عدم المعلول، ولعلَّ في قوله ﷺ: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن»[٣] إشارةٌ إلى هذا، فتدبَّر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ قيل: عطف على ما يفهم من حكاية وَحْيه تعالى إلى المرسلين على الاستمرار التجدُّدي، كأنَّه قيل: أوحينا إليهم ما أوحينا، ثم صدقناهم الوعدَ الذي وعدناهم في تضاعيفِ الوحي بإهلاك أعدائهم.

وقيل: عطف على «نوحي» السابق بمعنى: أوحينا، وتوسيط الأمر بالسؤال وما معه؛ اهتماماً بإلزامهم والرَّدِّ عليهم. وقال الخفاجيُّ[٤]: هو عطف على قوله تعالى: «أرسلنا»، و«ثم» للتراخي الذكري، أي: أرسلنا رسلًا من البشر وصَدَقناهم ما وعدناهم، فكذا محمَّد ﷺ، فاحذروا تكذيبَه ومخالفتَه، فالآيات كما تضمَّنت الجواب تضمَّنت التهديدَ. انتهى. وفيه تأمُّل.

---

(١) البيت للبحتري، وهو في ديوانه ٣/ ١٥٤٩.

(٢) ونقله عنه العطار في حاشيته على جمع الجوامع ٢/ ٥٠١.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٧٥٦) عن ابنةٍ للنبيِّ ﷺ، ضمن دعاءٍ علَّمها النبيُّ ﷺ إياه.

(٤) حاشية الشهاب ٦/ ٢٤٤.

ونصب «الوعد» على نَزْعِ الخافض، والأصل: صدقناهم في الوعد، ومنه: صدقوهم القتالَ، وصدقني سِنُّ بَكْره.

وقيل: على أنَّه مفعول ثانٍ. و«صدق» قد تتعدَّى للمفعولين من غير توسُّط حرف الجرِّ أصلًا.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي: من المؤمنين بهم، كما عليه جماعةٌ من المفسِّرين، وقيل: منهم ومن غيرهم ممَّن تستدعي الحكمة إبقاءَه، كمن سيؤمن هو أو بعض فروعِه بالآخرة، وهو السِّرُّ في حماية الذين كذَّبوه وآذوه ﷺ من عذاب الاستئصال.

ورجِّح ما عليه الجماعة بالمقابلة بقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ وذلك لحمل التعريف على الاستغراق والمسرِفين على الكفَّار مطلقاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] بناءً على أنَّ المرادَ بأصحاب النار ملازموها والمخلَّدون فيها، ولا يُخلَّد فيها عندنا إلا الكفار.

ومن عمَّم أوَّلًا قال: المراد بالمسرفين من عدا أولئك المنجَين.

والتعبير بـ «من نشاء» دون: من آمن، أو: من معهم، مثلًا، ظاهرٌ في أنَّ المرادَ بذلك المؤمنون وآخَرون معهم، ولا يظهر على التخصيص وجهُ العدول عمَّا ذكر إلى ما في النظم الكريم، والتعبيرُ بـ «نشاء» مع أنَّ الظاهرَ: شئنا؛ لحكاية الحال الماضية.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ كلام مستأنَف، مسوقٌ لتحقيق حقِّيَّة القرآن العظيم الذي ذَكَرَ في صدر السورة الكريمة إعراضَ الناس عمَّا يأتيهم من آياته، واستهزاءَهم به، واضْطِرابهم في أمره، وبيان علوِّ مرتبته إثْرَ تحقيقِ رسالته ﷺ ببيان أنَّه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، قد صُدِّر بالتوكيدِ القَسَمي؛ إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه، وإيذاناً بكون المخاطبين في أقصى مراتب النكير.

والخطاب لقريش، وجوِّز أن يكون لجميع العرب. وتنوين «كتاباً» للتعظيم والتفخيم، أي: كتاباً عظيمَ الشأن نيِّر البرهان.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ صفة له، مؤكِّدة لما أَفاده التنكيرُ التفخيميُّ من كونه جليلَ القدر، بأنَّه جميلُ الآثار، مستجلب لهم منافعَ جليلة.

والمراد بالذِّكر، كما أخرج البيهقيُّ في «شعب الإيمان» وابنُ المنذر وغيرهما عن ابن عباسٍ: الصِّيْتُ والشرف[1] مجازاً، أي: فيه ما يوجب الشرفَ لكم؛ لأنَّه بلسانِكم ومنزل على نبيٍّ منكم تتشرَّفونَ بشرفِه، وتشتهرون بشهرته؛ لأنَّكم حَمَلَته، والمرجع في حلِّ معاقده، وجعل ذلك فيه مبالغة في سببيَّته له.

وعن سفيان أنَّه مكارمُ الأخلاق ومحاسنُ الأعمال. أي: فيه ما يحصل به الذِّكر، أي: الثناء الحسن، وحسن الأُحدوثة من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، إطلاقاً لاسم المسبَّب على السبب، فهو مجاز عن ذلك أيضاً.

وأخرج غيرُ واحد عن الحسن أنَّ المرادَ فيه ما تحتاجون إليه في أمور دينكم، وزاد بعض: ودنياكم.

وقيل: الذكر بمعنى التذكير، مضاف للمفعول، والمعنى: فيه موعظتكم، ورجِّح ذلك بأنَّه الأنسبُ بسباق النظم الكريم، وسياقه، فإن قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠﴾ إنكار توبيخيٌّ فيه بَعْثٌ لهم على التدبُّر في أمر الكتاب، والتدبُّرِ فيما في تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التي من جملتها القوارع السابقة واللاحقة.

وقال صاحب «التحرير»: الذي يقتضيه سياق الآيات أنَّ المعنى: فيه ذِكْرُ قبائحكم ومثالبِكم وما عاملتم به أنبياءَ الله تعالى عليهم الصلاة والسلام من التكذيب والعناد.

وقوله تعالى: «أفلا تعقلون» إنكار عليهم في عدم تفكُّرهم، مؤدٍّ إلى التنبُّه عن سِنَة الغفلة. انتهى. وفيه بُعْدٌ.

والفاء للعطف على مقدَّر ينسحب عليه الكلام، أي: ألا تتفكرون فلا تعقلون أنَّ الأمرَ كذلك، أولا تعقلون شيئاً من الأشياء التي من جملتها ما ذكر.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ نوع تفصيل لإجمال قولِه تعالى: «وأهلكنا المسرفين» وبيان لكيفيَّة إهلاكهم، وتنبيه على كثرتهم، فـ «كم» خبريَّة مفيدةٌ

---

(١) شعب الإيمان (١٦١٦)، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (١٤٩٨)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣١٤ إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

للتكثير، محلُّها النصب على أنَّها مفعول لـ «قصمنا» و«من قرية» تمييزٌ.

وفي لفظ القَصْم الذي هو عبارة عن الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكليَّة ـ كما يشعر به الإتيان بالقاف الشديدة ـ من الدلالة على قوَّة الغضب وشدَّة السخط ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ صفة «قرية»، وكان الأصل على ما قيل: أهل قرية، كما يُنبئ عنه الضمير الآتي ـ إن شاء الله تعالى ـ فحذف المضاف وأقيم المضافُ إليه مقامَه، فوصف بما هو من صفات المضاف، أعني: الظلم، فكأنه قيل: وكثيراً قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمينَ بآياتِ الله تعالى، كافرين بها مثلكم.

وفي «الكشاف»[1]: المراد بالقرية أهلُها، ولذلك وصفت بالظلم، فيكون التجوُّز[2] في الطَّرف. وقال بعضهم: لك أن تقول: وصفها بذلك على الإسناد المجازيِّ.

وقوله: «قصمنا من قرية» كناية عن قَصْم أهلها؛ للزوم إهلاكها إهلاكَهم، فلا مجاز ولا حذف، وأيًّا ما كان فليس المرادُ قريةً معيَّنة.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن الكلبيِّ[3] أنَّها «حَضُور»: قريةٌ باليمن.

وأخرج ابن مردويه من طريقه[4] عن أبي صالح، عن ابن عباس أنَّه قال: بعث الله تعالى نبيًّا من حِمْيَر، يقال له: شعيب، فوثب إليه عبدٌ، فضربه بعصاً، فسار إليهم بُخْتنصَّر، فقاتلهم فقتلهم حتى لم يبقَ منهم شيءٌ، وفيهم أنزل الله تعالى: «وكم قصمنا» إلخ.

---

(١) ٢/ ٥٦٤.

(٢) في (م): التجور.

(٣) ونقله عنه أيضاً ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤٣٦، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣١٤، إلا أنه ورد في مطبوع الدر المنثور: حصون بني أزد. اهـ. وسمِّي هذا البلد بحَضُور بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زرعة، وهو سبأ الأصغر. معجم ما استعجم ٢/ ٤٥٦.

(٤) أي: طريق الكلبي، والخبر أورده عنه أيضاً السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣١٤.

وفي «البحر»[١]: أنَّ هؤلاء كانوا بحَضُور، وأنَّ الله تعالى بعث إليهم نبياً فقتلوه، فسلط الله تعالى عليهم بُختنصَّر، كما سلطه على أهل بيت المقدس، بعث إليهم جيشاً فهزموه، ثم بعث إليهم آخرَ فَهَزموه، فخرج إليهم بنفسه، فهزمهم وقتلهم.

وعن بعضهم أنَّه كان اسم هذا النبيِّ موسى بن ميشا.

وعن ابن وهب أنَّ الآيةَ في قريتين باليمن إحداهما «حَضُور» والأخرى «قلابة» بَطِرَ أهلُهما، فأهلكهم اللهُ تعالى على يد بُخْتنصَّر. ولا يخفى أنَّه مما يأباه ظاهرُ الآية.

والقول بأنَّها من قبيل قولك: كم أخذتَ من دراهمِ زيد. على أنَّ الجارَّ متعلِّق بـ «أخذت» والتمييز محذوف، أي: كم درهمٍ أخذتَ من دراهمِ زيد، ويقال هنا: إنَّها بتقدير: كم ساكنٍ قصمنا من ساكني قرية، أو نحو ذلك، مما لا ينبغي أن يُلتَفت إليه إلا بالردِّ عليه، فلعلَّ ما في الروايات محمولٌ على سبيل التمثيل، ومثل ذلك غيرُ قليل.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي: بعد إهلاكِ أهلها لا بعد تلك الفعلة كما تُوهِم. ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١﴾ أي: ليسوا منهم في شيء، تنبيهٌ على استئصال الأوَّلين، وقَطْع دابرهم بالكليَّة، وهو السِّرُّ في تقديم حكاية إنشاء هؤلاء على حكاية مبادئ إهلاك أولئك بقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ فضمير الجمع للأهل، لا لقومٍ آخرين؛ إذ لا ذَنْبَ لهم يقتضي ما تضمَّنه هذا الكلام.

والإحساس: الإدراكُ بالحاسَّة، أي: فلما أدركوا بحاسَّتهم عذابَنا الشديد، ولعلَّ ذلك العذاب كان مما يُدَرك بإحدى الحواسِّ الظاهرة.

وجوّز أن يكون في البأس استعارةٌ مكنيَّة، ويكون الإحساس تخييلًا، وأن يكون الإحساس مجازاً عن مطلق الإدراك، أي: فلما أَدركوا ذلك ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا﴾ أي: من القرية، فـ «من» ابتدائية، أو من البأس، والتأنيثُ؛ لأنَّه في معنى النقمة والبأساء، فـ «من» تعليليَّة، وهي على الاحتمالين متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿يَرْكُضُونَ ۝١٢﴾. و«إذا» فجائيَّة، والجملة جواب «لمَّا».

---

(١) ٦/ ٣٠٠.

وركض ـ من باب قتل ـ بمعنى ضَرَبَ الدابَّةَ برِجْله، وهو متعدٍّ، وقد يردُ لازماً كرُكِضَ الفرسُ بمعنى جرى، كما قاله أبو زيد، ولا عبرةَ بمن أنكره.

والركض هنا كنايةٌ عن الهرب، أي: فإذا هم يهربون مسرعينَ، راكضينَ دوابَّهم.

وجوّز أن يكون المعنى: مشبَّهين بمن يُركِضُ الدوابَّ، على أنَّ هناك استعارة تبعيَّة، ولا مانعَ من حمل الكلام على حقيقته على ما قيل: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟﴾ أي: قيل لهم ذلك، والقائل يحتمل أن يكون ملائكةَ العذاب، أو من كان ثمَّة من المؤمنين، قالوا ذلك على سبيل الهزء بهم.

وقال ابن عطيَّة[1]: يحتمل على الرواية السابقةِ أن يكون القائلُ من جيش بُخْتنصَّر، وأراد بذلك خدعَهم والاستهزاءَ بهم.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد يجعلون خُلَقاءَ بأن يقال لهم ذلك وإن لم يُقَل، على معنى أنَّهم بلغوا في الركض والفرار من العذاب بعد الإتراف والتنعُّم بحيث من رآهم قال: لا تركضوا ﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من النِّعَم والتلذُّذ، والإتراف: إبطار النعمة.

و «في» ظرفية، وجوّز كونها سببيَّة. ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي كنتم تفتخرونَ بها ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل، أو تسألون عمَّا جرى عليكم ونزل بأموالكم ومنازِلكم، فتجيبوا السائل عن عِلْم ومشاهدة، أو: يسألكم حشمُكم وعبيدكم فيقولوا لكم: بمَ تأمرونَ وماذا ترسمون، وكيف نأتي ونذر كما كنتم من قَبْلُ، أو: يسألكم الوافدون نوالكم، إما لأنَّهم كانوا أسخياءَ ينفقون أموالهم رئاءَ الناس وطلب الثناء، أو كانوا بخلاءَ، فقيل لهم ذلك تهكُّما إلى تهكُّم.

وقيل على الرواية المتقدِّمة، المعنى: لعلكم تسألون صلحاً أو جزية أو أمراً تتفقون مع المَلَك عليه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٧٦.

وقيل: المراد بمساكنهم: النار، فيكون المرادُ بـ: ارجعوا إلى مساكنكم: ادخلوا النار تهكُّماً.

والمراد بالسؤال السؤال عن الأعمال، أو المراد به العذاب على سبيلِ المجازِ المرسل بذِكْر السبب وإرادة المسبَّب، أي: ادخلوا النار كي تسألوا أو تعذَّبوا على ظلمكم وتكذيبِكم بآيات الله تعالى، وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى.

﴿قَالُوا﴾ لما يئسوا من الخلاص بالهربِ وأيقنوا استيلاءَ العذاب ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ يا هلاكَنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ بآيات الله تعالى، مستوجبينَ للعذاب، وهذا اعترافٌ منهم بالظلم واستتباعه للعذاب، ونَدَمٌ عليه حين لا ينفعهم ذلك.

وقيل على الرواية السالفة: إنَّ هذا الندمَ والاعترافَ كان منهم حين أخذتهم السيوفُ، ونادى منادٍ من السماء: يالثارات الأنبياء.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: فما زالوا يردِّدون تلك الكلمةَ، وتسميتها دعوَى بمعنى الدعوة، فإنَّه يقال: دعا دعوى ودعوةً؛ لأنَّ المُوَلْوِلَ كأنَّه يدعو الويلَ، قائلًا: يا ويل تَعالَ، فهذا أوانُك.

وجوَّز الحوفيُّ، والزمخشريُّ، وأبو البقاء كونَ «تلك» اسم «زال»، و«دعواهم» خبرها، والعكس، قال أبو حيان[1]: وقد قال ذلك قبلهم الزجَّاج[2]، وأما أصحابنا المتأخِّرون فعلى أنَّ اسمَ كان وخبرَها مشبَّه بالفاعل والمفعول، فكما لا يجوز في الفاعل والمفعول التقدُّم والتأخُّر إذا أوقع ذلك في اللبس، لعدم ظهور الإعراب، لا يجوز في باب «كان» ولم يَنازع فيه أحد إلا أبو العباس أحمد بنُ الحاج من نبهاء تلاميذ الشلوبين. اهـ.

وقال الفاضل الخفاجيُّ[3]: إنَّ ما ذكره ابنُ الحاجِّ في كتاب «المدخل» أنَّه ليس فيه التباس، وأنَّه من عدم الفرق بين الالتباس وهو أن يفهم منه خلاف المرادِ، والإجمال وهو أن لا يتعيَّن فيه أحدُ الجانبين، ولأجل هذا جوَّزه، وما ذكره محلّ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٠١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه له ٣/ ٣٨٦.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٢٤٥ وما قبله منه أيضاً.

كلامٍ وتدبُّر. وفي حواشي الفاضل البهلوان على «تفسير» البيضاويِّ: إنَّ هذا في الفاعِل والمفعول، وفي المبتدأ والخبر إذا انتفى الإعراب، والقرينة مسلَّم مصرَّح به، وأما في باب «كان» وأخواتها، فغير مسلم. اهـ.

والظاهر أنَّه لا فرقَ بين باب «كان» وغيرها مما ذكر، وإن سلِّم عدم التصريح، لاشتراكِ ما ذكروه علّة للمنع، ثم إنَّ ذلك إلى الالتباس أقربُ منه إلى الإجمال، لا سيَّما في الآية في رأي، فافهم.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾: أي: إلى أن جعلناهم بمنزلة النباتِ المحصود والنارِ الخامدة في الهلاك، قاله العلَّامة الثاني في «شرح المفتاح»[1]، ثم قال: في ذلك استعارتان بالكناية بلفظ واحد، وهو ضمير «جعلناهم» حيث شبِّه بالنبات وبالنار، وأفرد بالذكر وأريد به المشبَّه بهما، أعني: النبات والنار، ادِّعاء بقرينة أنَّه نسب إليه الحصادَ الذي هو من خواصِّ النبات، والخمود الذي هو من خواصِّ النار، ولا يجعل من باب التشبيه مثل: هم صمٌّ بكمٌ عميٌ؛ لأنَّ جمع «خامدين» جمع العقلاء ينافي التشبيهَ، إذ ليس لنا قوم خامدون يُعتَبر تشبيهُ أهل القرية بهم، اذ الخمود من خواصِّ النار، بخلاف الصمم مثلًا، فإنَّه يجعل بمنزلة: هم كقوم صُمٍّ، وكذا يعتبر: «حصيداً» بمعنى محصودين، على استواء الجمع والواحد في فعيل بمعنى مفعول؛ ليلائمَ «خامدين»، نعم يجوز تشبيه هلاكِ القوم بقَطْع النبات وخمودِ النار، فيكون استعارةً تصريحيَّة تبعيَّة في الوصفين. انتهى. وكذا في «شرح المفتاح» للسيِّد السند، بَيْدَ أنَّه جوَّز أن يجعل «حصيداً» فقط من باب التشبيه بناءً على ما في «الكشاف»[2]، أي: جعلناهم مثل الحصيد، كما تقول: جعلناهم رماداً، أي: مثلَ الرماد، وجعل غيرُ واحد إفراد الحصيدِ لهذا التأويل، فإنَّ مثلًا لكونه مصدراً في الأصل يُطلَق على الواحد وغيره، وهو الخبر، حقيقة في التشبيه البليغ، ويلزم على ذلك صحَّة: الرجال أسد، وهو كما ترى.

واعترض على قول الشارحين: إذ ليس لنا... إلخ، أنَّ فيه بحثاً، مع أنَّ مدارَ ما ذكراه من كون «خامدين» لا يحتمل التشبيهَ جمعُه جمعَ العقلاء المانع من أن

(١) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصه: إلا أنه جعل ذلك في أهل حَضُور. انتهى. منه.
(٢) ٢/ ٥٦٥.

يكون صفةً للنار، حتى لو قيل: خامدة، كان تشبيهاً، وقد صرَّح به الشريف في «حواشيه» لكنَّه محلُّ تردُّد؛ لأنَّه لما صحَّ الحمل في التشبيه ادِّعاءً، فلم لا يصحُّ جمعه لذلك، ولولاه لما صحَّت الاستعارة أيضاً، وذهب العلامة الطيبيُّ والفاضل اليمني إلى التشبيه في الموضعين، ففي الآية أربعةُ احتمالات، فتدبَّر جميعَ ذلك. و«خامدين» مع «حصيداً» في حيِّز المفعول الثاني للجعل، كجعلته حلواً حامضاً، والمعنى: جعلناهم جامعينَ للحصاد والخمود، أو لمماثلة الحصيد والخامد، أو لمماثلة الحصيد والخمود، أو جعلناهم هالكينَ على أتمِّ وجه، فلا يَرِدُ أنَّ الجعلَ نصبَ ثلاثةَ مفاعيلَ هنا، وهو مما ينصب مفعولين، أو هو حال من الضمير المنصوب في «جعلناهم»، أو من المستكن في «حصيداً»، أو هو صفة لـ «حصيداً»، وهو متعدِّد معنًى.

واعترض بعضهم بأنَّ كونه صفةً له مع كونه تشبيهاً أُريد به مالا يعقل؟ يأباه كونه للعقلاء.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: ماسوَّينا هذا السقفَ المرفوعَ وهذا المهادَ الموضوعَ وما بينهما من أصنافِ الخلائق، مشحونة بضروب البدائع والعجائب، كما تسوِّي الجبابرةُ سقوفَهم وفرشهم وسائرَ زخارفهم للَّهو واللعب، وإنَّما سوَّيناها للفوائد الدينيَّة والحِكَم الربَّانيَّة، كأن تكون سبباً للاعتبار ودليلًا للمعرفة، مع منافعَ لا تُحصى وحِكَم لا تستقصى، وحاصله: ما خلقنا ذلك خالياً عن الحكم والمصالح، إلا أنَّه عبَّر عن ذلك باللعب، وهو كما قال الراغب[1]: الفعل الذي لا يُقصَد به مقصدٌ صحيح. لبيانِ كمال تنزُّهه تعالى عن الخَلْق الخالي عن الحكمة، بتصويره بصورة ما لا يرتاب أحدٌ في استحالة صدورِه عنه سبحانه، وهذا الكلام على ما قيل إشارة إجماليَّة إلى أنَّ تكوين العالَم وإبداعَ بني آدم مؤسَّس على قواعدِ الحكمة البالغة المستتبعة للغاياتِ الجليلة، وتنبيه على أنَّ ما حُكيَ من العذاب النازل بأهل القرى من مقتضياتِ تلك الحِكَمِ ومتفرِّعاتها حسب اقتضاءِ أعمالهم إيَّاه مع التخلُّص إلى وعيد المخاطبين.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (لعب).

وفي «الكشف»: إنَّ الآيات لإثبات أَمْرِ النبوَّة، ونفي تلك المطاعين السابقة، على ما ذكره الإمام[١]، وهو الحقُّ؛ لأنَّه قد تكرَّر في الكتاب العزيز أنَّ الحكمة في خَلْقِ السماء والأرض وما بينهما العبادةُ والمعرفةُ وجزاءُ من قام بهما، ومن لم يقم، ولن يتمَّ ذلك إلَّا بإنزال الكتب وإرسال الرسل عليهم السلام، فمُنكِر الرسالة جاعلٌ خَلْقَ السماء والأرض لعباً، تعالى خالقهما وخالقُ كلِّ شيء عنه، وعن كلِّ نقص علوًّا كبيراً، ومُنكِر نبوَّة محمد ﷺ جعلَ إظهارَ المعجزة على يديه من باب العَبَثِ واللَّعب، ففيه إثبات نبوَّته عليه الصلاة والسلام، وفسادُ تلك المطاعن كلِّها.

وقوله سبحانه: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ استئناف مقرِّر لما قبله من انتفاءِ اللعب في خَلْق السماء والأرض وما بينهما، ومعنى الآية على ما استظهره صاحب «الكشف»: لو أردنا اتِّخاذَ لَهْوٍ، لكان اتِّخاذَ لهوٍ من جهتنا، أي: لهواً إلهيًّا، أي: حكمة اتَّخذتموها لهواً من جهتِكم، وهذا عين الجدِّ والحكمة، في معنى: لو أردناه لامتنع.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾ كالتكرير لذلك المعنى، مبالغة في الامتناع، على أنَّ «إنْ» شرطيَّة، وجوابها محذوف، أي: إن كنَّا فاعلينَ ما يوصفُ بفعله باللهو، فكهذا[٢] يكون فعلنا، ولو حمل على النفي، ليكون تصريحاً بنتيجة السابق ـ كما عليه جمهور المفسرين ـ لكان حسناً بالغاً. انتهى.

وقال الزمخشريُّ: «من لدنا» أي: من جهة قُدْرتنا، وجعل حاصلَ المعنى: إنَّا لو أردنا ذلك لاتَّخذنا، فإنَّا قادرون على كلِّ شيء إلا أنَّا لم نُرِده؛ لأنَّ الحكمةَ صارفةٌ عنه. وذكر صاحب «الكشف» أنَّ تفسيرَه ذلك بالقدرة غيرُ بيِّن، وقد فسَّره به أيضاً البيضاويُّ[٣] وغيره، وظاهره أنَّ اتِّخاذَ اللهو داخلٌ تحت القُدرة. وقد قيل: إنَّه ممتنع عليه تعالى امتناعاً ذاتيًّا، والممتنع لا يصلح متعلَّقاً للقدرة؟

وأجيب: بأنَّ صدقَ الشرطيَّة لا يقتضي صدقَ الطرفين، فهو تعليق على امتناعِ الإرادة، أو يقال: الحكمة غيرُ منافية لاتِّخاذ ما مِن شأنِه أن يتلهَّى به، وإنَّما تنافي

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/١٤٧.
(٢) في الأصل: فكذا.
(٣) تفسير البيضاوي ٤/٣٧.

أن يَفعَل فعلًا يكون هو سبحانه بنفسه لاهياً به، فلا امتناعَ في الاتِّخاذ، بل في وصفه. انتهى.

والحقُّ عندي أنَّ العبثَ لكونه نقصاً، مستحيلٌ في حقِّه تعالى، فتَرْكه واجبٌ عنه سبحانه وتعالى، ونحن وإن لم نقل بالوحوب عليه تعالى، لكنَّا قائلون بالوجوب عنه عزَّ وجلَّ.

قال أفضل المتأخِّرين الكلنبويُّ: إنَّ مذهب الماتريديَّة المثبتين للأفعال جهةً محسِّنة أو مقبِّحة قَبْلَ ورودِ الشرع، أنَّه إن كان في الفعل جهةٌ تقتضي القبحَ، فذلك الفعل محالٌ في حقِّه تعالى، فتَرْكه واجبٌ عنه سبحانه، لا واجب عليه عزَّ وجلَّ، وذلك كالتكليف بما لا يطاق عندهم، وكالكذب عند محقِّقي الأشاعرة والماتريديَّة، وإن لم يكن فيه تلك الجهة، فذلك الفعلُ ممكِن له تعالى، وليس بواجبٍ عليه سبحانه، فهم يوافقون الأشاعرةَ في أنَّه تعالى لا يجب عليه شيء. انتهى.

ومن أنكر أنَّ كونَ العَبَث نقصاً كالكذب، فقد كابر عقلَه، وأبلغُ من هذا أنَّه يفهم من كلام بعض المحقِّقين القول بوجوب رعايةِ مطلَق الحكمة عليه سبحانه، لئلَّا يلزم أحدُ المحالات المشهورة، وأنَّ المرادَ من نفي الأصحاب الوجوبَ عليه تعالى نفيُ الوجوب في الخصوصيَّات على ما يقوله المعتزلةُ، ولعلَّه حينئذٍ يراد بالوجوب لزوم صدور الفعلِ عنه تعالى، بحيث لا يتمكَّن من تَرْكه، بناءً على استلزامه مُحالًا بعد صدور موجبِه اختياراً لا مطلقاً ولا بشرط تمام الاستعداد، لئلا يلزمَ رفضُ قاعدةِ الاختيار، كما لا يلزم رفضُها في اختيار الإمام الرازيِّ[1] ما اختاره كثير من الأشاعرة من لزوم العلم للنظر عقلًا، ومع هذا ينبغي التحاشي عن إطلاق الوجوب عليه تعالى، فتدبَّره فإنَّه مهم.

وقيل: معنى: من عندنا، مما يليقُ بحضرتنا من المجرَّدات، أي: لا تَّخذناه من ذلك لا من الأجرام المرفوعة والأجسام الموضوعة، كدَيْدَن الجبابرة في رَفْع العروش وتحسينِها، وتسوية الفروش[2] وتزيينها. انتهى.

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/١٤٨.

(٢) في الأصل: العروش.

ولا يخفى أنَّ أكثرَ أهلِ السنة على إنكار المجرَّدات، ثم على تقدير تفسير الآية بما ذكر، المرادُ الرَّدُّ على من يزعم اتِّخاذ اللهوِ في هذا العالَم، لا أنَّه يجوِّز اتِّخاذه من المجرَّدات، بل هو فيها أظهرُ في الاستحالة، وعن الجبائيِّ أنَّ المعنى: لو أردنا اتِّخاذ اللهو لاتَّخذناه مِن عندنا، بحيث لا يطَّلع عليه أحد؛ لأنَّه نقصٌ، فستره أَولى، أو هو أسرع تبادراً مما في «الكشف» وذلَك أبعد مغزًى.

وقال الإمام الواحديُّ[1]: اللهو: طلب الترويح عن النفس، ثم المرأة تسمى لهواً، وكذا الولد، لأنَّه يستروح بكلٍّ منهما، ولهذا يقال لامرأةِ الرجلِ وولدِه: ريحانتاه، والمعنى: لو أردنا أن نتَّخذ امرأةً ذاتَ لهو، أو ولداً ذا لهو، لاتَّخذناه مِن لدنا، أي: ممَّا نصطفيه ونختاره مما نشاء، كقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] وقال المفسِّرون: أي: من الحور العين، وهذا ردٌّ لقول اليهودِ في عُزَير، وقولِ النصارى في المسيح وأمِّه، من كونه عليه السلام ولداً وكونها صاحبةً.

ومعنى «من لدنا»: مِن عندنا، بحيث لا يجري لأحدٍ فيه تصرُّف، لأنَّ ولدَ الرجل وزوجتَه يكونان عنده لا عند غيره. انتهى.

وتفسير اللهو هنا بالولد مرويٌّ عن ابن عباس والسديِّ، وعن الزجَّاج[2] أنَّه الولد بلغة حضرموت. وكونه بمعنى المرأةِ حكاه قتادةُ عن أهل اليمن ولم ينسبه لأهلِ بلدة منه، وزعم الطبرسيُّ[3] أنَّ أصله الجماعُ، ويكنى به عن المرأة؛ لأنَّها تُجامَع، وأنشد قولَ امرئ القيس:

ألا زعمت بسباسةُ اليوم أنَّني كَبِرتُ وأن لا يُحْسِنَ اللهوَ أمثالي[4]

والظاهر حملُ اللهو على ما سمعتَ أوَّلًا؛ لقوله تعالى: «وما بينهما لاعبين»، ولأنَّ نفيَ الولدِ سيجيءُ مصرَّحاً إن شاء الله تعالى، ويعلم من ذلك أنَّ كون المراد الردَّ على النصارى وأضرابِهم غير مناسبٍ هنا، ثمَّ إنَّ الظاهرَ من السياق أنَّ «إنْ»

(١) الوسيط ٣/ ٢٣٢.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٨٦.
(٣) مجمع البيان ١٧/ ١٤.
(٤) ديوان امرئ القيس ص٢٨، وبسباسة: امرأة عيَّرته بالكِبر، وأنه لا يحسن اللهو.

شرطيَّة، والجواب محذوف، ثقةً بدلالة ما قَبْلُ عليه، أي: إن كنا فاعلين لاتَّخذناه من لدنا، وكونها نافية وإن كان حسناً معنى، وقد قاله جماعة منهم مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن جريج، استدرك عليه بعضهم بأنَّ أكثر مجيء «إنْ» النافية مع اللام الفارقة، لكن الأمر في ذلك سهل.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ إضراب عن اتِّخاذ اللهو واللعب، بل عن إرادة الاتِّخاذ، كأنَّه قيل: لكنَّا لا نُريده، بل شأننا أن نُغلِّب الحقَّ الذي من جملته الجِدُّ، على الباطل الذي من جملته اللهو، وتخصيص هذا الشأن من بين سائرِ شؤونه ـ تعالى ـ بالذكر؛ للتخلُّص ـ لما سيأتي إن شاء الله تعالى ـ من الوعيد.

وعن مجاهد أنَّ الحقَّ القرآنُ، والباطلَ الشيطانُ. وقيل: الحقُّ الحجَّةُ، والباطلُ شُبَهُهم، ووصفهم اللهَ تعالى بغير صفاتِه من الولد وغيرِه، والعموم هو الأَولى.

وأصل القذفِ: الرمي البعيد، كما قال الراغب(١)، وهو مستلزم لصلابة الرمي، وقد استُعير للإيراد، أي: نُورد الحقَّ على الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي يمَحقه بالكلِّية، كما فعلنا بأهل القرى المحكمة، وأصل الدَّمْغ: كسرُ الشيء الرخوِ الأجوف، وقد استُعير للمَحْق.

وجوّز أن يكون هناك تمثيل لغلبة الحقِّ على الباطل حتى يذهبَه، برمي جِرْم صُلْب على رأسٍ دماغُه رِخْوٌ ليشقَّه، وفيه إيماءٌ إلى علوِّ الحقِّ وتسفُّل الباطل، وأنَّ جانبَ الأوَّلِ باقٍ، والثاني فانٍ.

وجوّز أيضاً أن يكون استعارةً مكنيةً بتشبيه الحقِّ بشيءٍ صُلْب يجيء من مكان عالٍ، والباطل بجِرْم رخوٍ أجوف سافل، ولعلَّ القولَ بالتمثيل أمثلُ.

وقرأ عيسى بن عمر: «فيَدْمَغَه» بالنصب(٢)، وضُعِّفَ بأن ما بعد الفاء إنَّما ينتصب بإضمار «أنْ» لا بالفاء، خلافاً للكوفيين في جواب الأشياء الستَّة، وما هنا ليس منها، ولم يُرَ مثله إلا في الشعر كقوله:

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (قذف).

(٢) القراءات الشاذة ص٩١.

سأترك منزلي لبني تميم وألحق بالحجاز فأستريحا(١)

على أنَّه قد قيل في هذا: إنَّ «أَستريحا» ليس منصوباً، بل مرفوع مؤكَّد بالنون الخفيفة، موقوف عليه بالألف، ووجِّه بأنَّ النصبَ في جواب المضارع المستقبل(٢)، وهو يشبه التمنِّي في الترقُّب، ولا يخفى أنَّ المعنى في الآية ليس على خصوص المستقبل. وقد قالوا: إنَّ هذا التوجيهَ في البيت ضعيفٌ، فيكون ما في الآية أضعفَ منه مأخذاً.

والعطف على هذه القراءة على «الحقِّ» عند أبي البقاء(٣)، والمعنى: بل نقذف بالحقِّ فندمغه على الباطل، أي: نرمي بالحقِّ، فإبطالُه به.

وذكر بعضُ الأفاضل أنَّه لو جُعل من قَبيل:

عَلَفْتُها تبناً وماءً بارداً(٤)

أصحّ، واستظهر أنَّ العطفَ على المعنى، أي: نفعل القذفَ فالدمغَ.

وقرئ: «فَيَدْمُغُه» بضمِّ الميم والغين(٥).

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب بالكليَّة، وفي «إذا» الفجائية والجملةِ الاسميَّة من الدلالة على كمالِ المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يَخفى، فكأنَّه زاهق من الأصل.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ وعيد لقريشٍ أو لجميع الكفار من العرب، بأنَّ لهم أيضاً مثل ما لأولئكَ من العذاب والعقاب، و«ما» تعليلية متعلِّقة بالاستقرار الذي تعلَّق به الخبر، أو بمحذوف هو حال من «الويل» على مذهب بعضهم، أو من ضميره المستتر في الخبر، و«ما» إما مصدريَّة أو موصولة أو موصوفة، أي: ومستقرٌّ لكم الويلُ والهلاكُ من أجل وصفِكم له تعالى بمالا يليقُ بشأنه الجليل تعالى شأنه،

---

(١) سلف ٦/ ٢٤٠.
(٢) في (م): المستقيل.
(٣) الإملاء ٣/ ٦١١.
(٤) البيت لا يعرف قائله، وسلف ٥/ ٢٩١.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٠٢.

أو بالذي تصفونه، أو بشيء تصفونه به من الولد ونحوه، أو كائناً ممَّا تصفونه عزَّ وجلَّ به.

وكون الخطاب لمن سمعتَ مما لا اخفاءَ فيه ولا بُعْدَ، وأَبعدَ كلَّ البعدِ من قال: إنَّه خطابٌ لأهل القرى، على طريق الالتفاتِ من الغيبة في قوله تعالى: (فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَىٰهُمْ) إليه.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ مقرِّر لما قبله من خَلْقه لجميع مخلوقاتِه على حكمة بالغة ونظام كامل، وأنَّه سبحانه يحقُّ الحقَّ ويُزهق الباطلَ.

وقيل: هو عديل لقوله تعالى: (وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ) وهو كما ترى، أي: وله تعالى خاصَّة جميعُ المخلوقات خَلْقاً ومِلْكاً، وتدبيراً وتصرُّفاً، وإحياءً وإماتة، وتعذيباً وإثابة، من غيرِ أن يكون لأحدٍ في ذلك دخلٌ ما استقلالًا واستتباعاً، وكأنَّه أُريد هنا إظهار مزيدِ العظمة فجيءَ بالسماوات جمعاً، على معنى: له كلُّ من هو في واحدة واحدة من السماوات، ولم يُرد فيما مرَّ سوى بيانِ اشتمال هذا السقفِ المشاهد والفِراش الممهَّد، وما استقرَّ بينهما على الحِكَم التي لا تُحصى، فلذا جيءَ بالسماء بصيغة الإفراد دون الجمع.

وفي «الإتقان»(١): حيث يُراد العدد يُؤتى بالسماء مجموعةً، وحيث يُراد الجهةُ يؤتى بها مفردةً.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ وهم الملائكة مطلقاً عليهم السلام، على ما روي عن قتادة وغيره، والمراد بالعنديَّة عنديَّة الشرف، لا عنديَّة المكان، وقد شبَّه قُربَ المكانة والمنزلة، بقُرب المكان والمسافة، فعبَّر عن المشبَّه بلفظ دالٍّ على المشبَّه به، فهناك استعارة مصرَّحة.

وقيل: عبَّر عنهم بذلك؛ تنزيلًا لهم ـ لكرامتهم عليه عزَّ وجلَّ ـ منزلَة المقرَّبين عند الملوكِ بطريق التمثيل.

والموصول مبتدأ، خبره قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي:

---

(١) ١/ ٦١٤.

لا يتعظَّمون عنها، ولا يعدُّون أنفسَهم كبراء. ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ⑲﴾ أي: لا يَكِلُّون ولا يتعبون، يقال: حَسَرَ البعيرُ واسْتَحْسَر: كَلَّ وتَعبَ، وحَسَرْته أنا، فهو متعدٍّ ولازم، ويقال أيضاً: أحسرته بالهمز.

والظاهر أنَّ الاستحسار حيث لا طلبَ ـ كما هنا ـ أَبلغُ من الحسور، فإنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، والمراد من الاتِّحاد بينهما الدالِّ عليه كلامهم، الاتحادُ في أصل المعنى، والتعبير به؛ للتنبيه على أنَّ عبادتهم بثِقَلها ودوامِها حقيقةٌ بأَنْ يُستَحسر منها، ومع ذلك لا يستحسِرون، وليس لنفي المبالغة في الحسور مع ثبوتِ أصله في الجملة، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] على أحد الأوجهِ المشهورة فيه.

وجوَّز أبو البقاء(١) وغيرُه أن يكون ذلك معطوفاً على «مَن» الأولى، وأَمْرُ تفسيرِه بالملائكة عليهم السلام على حالِه، وذكر أنَّ هذا العطفَ لكون المعطوف أخصَّ من المعطوف عليه في نفس الأمرِ، كالعطف في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤] في الدلالة على رفعةِ شَأْن المعطوف وتعظيمه، حيث أُفرد بالذكر مع اندراجه في عموم ما قبلَه.

وقيل: إنَّما أُفرد؛ لأنَّه أعمُّ من وجهٍ، فإنَّ من في الأرض يشمَل البشرَ ونحوَهم، وهو يشمل الحافِّين بالعرش دونَه.

وجوّز أن يُراد: «مَن عنده»: نوع من الملائكة عليهم السلام متعالٍ عن التبوُّء والاستقرار في السماء والأرض. وكأنَّ هذا مَيْلٌ إلى القول بتجرُّد نوع من الملائكة عليهم السلام، وأنت تعلم أنَّ جمهورَ أهل الإسلام لا يقولون بتجرُّد شيءٍ من الممكنات، والمشهور عن القائلين القولُ بتجرُّد الملائكة مطلقاً، لا بتجرُّد بعض دون بعض.

ثم إنَّ أبا البقاء(٢) جوَّز في قوله تعالى: «لا يستكبرون» على هذا الوجه أن يكون حالًا من الأولى والثانية على قول من رفعَ بالظرف، أو من الضمير في

(١) الإملاء ٣/ ٦١١.
(٢) الإملاء ٣/ ٦١١.

الظرف الذي هو الخبر، أو من الضمير في «عنده»، ويتعيَّن أحدُ الأخيرين عند من يُعرِب «من» مبتدأ، ولا يجوِّز مجيءَ الحال من المبتدأ، ولا يخفى[١].

وجوّز بعضُ الأفاضل أن تكون الجملةُ مستأنفةً، والأظهر جعلها خبراً لـ «من عنده»، وفي بعض أوجه الحاليَّة ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ استئناف وقع جواباً عمَّا نشأ مما قبله، كأنَّه قيل: ماذا يصنعون في عبادتهم، أو كيف يعبدون؟ فقيل: «يسبحون» إلخ.

وجوّز أن يكون في موضع الحال من ضمير «لا يستحسرون».

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَفْتُرُونَ ٢٠﴾ في موضع الحال من ضمير «يسبحون» على تقديرَي الاستئناف والحاليَّة، وجوِّز على تقدير الحاليَّة أن يكون هذا حالًا من ضمير «لا يستحسرون» أيضاً، ولا يجوز على تقدير الاستئناف كونه حالًا منه؛ للفصل.

وجوّز أن يكون استئنافاً، والمعنى: ينزِّهون اللهَ تعالى ويعظِّمونه ويمجِّدونه في كلِّ الأوقات، لا يتخلَّل تسبيحَهم فَتْرةٌ أصلًا بفَراغ أو شُغْل آخرَ.

واستشكل كون الملائكة مطلقاً كذلك، مع أنَّ منهم رسلًا يبلِّغون الرسالةَ، ولا يتأتَّى التسبيح حالَ التبليغ، ومنهم من يَلعنُ الكفرةَ، كما ورد في آية أخرى[٢]، وقد سَألَ عبدُ الله بنُ الحارث بنِ نوفل كعباً عن ذلك، كما أخرج ابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة»، والبيهقي في «الشعب» فأجاب بأنَّه جعل لهم التسبيح كالتنفُّس[٣]، فلا يمنعُ عن التكلُّم بشيء آخرَ.

وتعقِّب بأنَّ فيه بُعْداً.

وقيل: إنَّ الله تعالى خلق لهم ألسنةً فيسبِّحون ببعض، ويبلِّغون مثلًا ببعض آخر، وقيل: تبليغهم ولعنهم الكفرةَ تسبيحٌ معنًى.

---

(١) ليست في الأصل.

(٢) بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٤٩ (١٣٦٣٠)، والعظمة (٣٢٢)، وشعب الإيمان (١٦١)، وأخرجه أيضاً الطبري في تفسيره ١٦/ ٢٤٤.

وقال الخفاجيُّ[(١)]: الظاهر أنَّه إن لم يحمل على بعضهم، فالمراد به المبالغةُ، كما يقال: فلان لا يَفترُ عن ثنائك، وشكرِ آلائك. انتهى. ولا يخفى حسنه.

ويجوز أن يقال: إنَّ هذا التسبيحَ كالحضور والذكر القلبيِّ الذي يحصل لكثير من السالكين، وذلك ممَّا يجتمع مع التبليغ وغيره من الأعمال الظاهرة، ثم إنَّ كون الملائكة يسبِّحون الليل والنهار لا يستلزم أن يكون عندهم في السماء ليلٌ ونهارٌ؛ لأنَّ المرادَ إفادةُ دوامِهم على التسبيح على الوجه المتعارَف.

وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً﴾ حكاية لجناية أُخرى من جناياتِ أولئك الكفرة، هي أعظم من جناية طَعْنهم في النبوَّة.

و«أم» هي المنقطعة، وتقدَّر بـ «بل» الإضرابيَّة والهمزةِ الإنكارية، وهي لإنكار الوقوع، لا إنكار الواقع.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّق بـ «اتخذوا»، و«مِن» ابتدائيَّة على معنى أنَّ اتخاذَهم إيَّاها مبتدأ من أجزاء الأرض كالحجارة وأنواع المعادن، ويجوز كونها تبعيضيَّة.

وقال أبو البقاء[(٢)] وغيره: يجوز أن تكون متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً لآلهة، أي: آلهة كائنةً من جنس الأرض. وأيًّا ما كان، فالمراد التحقير لا التخصيصُ، ومن جوَّزه التزمَ تخصيصَ الإنكار بالشديد، وهو غيرُ سديد.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: يبعثون الموتى، صفة لـ «آلهة»، وهو الذي يدور عليه الإنكار والتجهيل والتشنيع، لا نفس الاتِّخاذ، فإنَّه واقع لا محالة، أي: بل اتَّخذوا آلهةً من الأرض هم خاصَّة - مع حقارتهم وجماديتهم - ينشرون الموتى، كلَّا فإنَّ ما اتخذوه آلهةً بمعزل من ذلك، وهم وإن لم يقولوا بذلك صريحاً، لكنَّهم حيث ادَّعوا لها الإلهيَّة فكأنَّهم ادَّعوا لها الإنشار ضرورةَ أنَّه من الخصائص الإلهيَّة حتماً، ومعنى التخصيص في تقديم الضمير ما أشير إليه من التنبيه على كمال مباينة حالِهم للإنشار، الموجبة لمزيدِ الإنكار، كما أنَّ تقديمَ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠] للتنبيه على كمال مباينة

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٢٤٧.

(٢) الإملاء ٣/ ٦١٢.

أمره تعالى لأنْ يشكَّ فيه، ويجوز أن يجعل ذلك من مستتبعاتِ ادِّعائهم الباطل، فإنَّ الألوهيَّة مقتضيةٌ للاستقلال بالإبداء والإعادة، فحيث ادَّعوا للأصنام الإلهيَّة، فكأنَّهم ادَّعوا لهم الاستقلالَ بالإنشار، كما أنَّهم جعلوا بذلك مدَّعين لأصل الإنشار، قاله المولى أبو السعود[١].

وقال بعضهم: تقديم الضمير للتقوى، وما ذهب إليه من إفادته معنى التخصيص تبع فيه الزمخشريَّ[٢]، وفي «الكشف»: الداعي إلى ترجيحه على التقوى أنَّه ترشيح[٣] لما أبداه أوَّلاً من أنَّ الإلهيَّة لا تصحُّ دون القدرة على الإنشار، ولا وجهَ لتجويز كونه فضلًا. انتهى.

وجوّز أن تكون جملة: «هم ينشرون» مستأنفة، مقدَّراً معها استفهام إنكاريّ لبيان علَّة إنكار الاتِّخاذ، ولعلَّ مجوِّز ذلك لا يُسلِّم لزومَ كون معنى الهمزة في «أم» المنقطعة إنكار الوقوع، ويجوِّز كونه إنكار الواقع.

وتفسير «ينشرون» بـ: يبعثون، هو المشهور، وعليه الجمهور. وقال قطرب[٤]: هو بمعنى: يخلقون.

وقرأ الحسن ومجاهد: «يَنشُرون»[٥] بفتح الياء على أنَّه مِن نَشَرَ، وهو أَنْشر بمعنًى، وقد يَجيءُ نَشَرَ لازماً، يقال: أنشَر اللهُ تعالى الموتى، فَنَشَروا.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ إبطال لتعدُّد الإله، وضمير «فيهما» للسماء والأرض، والمراد بهما: العالَم كلّه علويه وسُفْليه، والمراد بالكون فيهما التمكُّن البالغ من التصرُّف والتدبير، لا التمكُّن والاستقرار فيهما، كما توهَّمه الفاضل الكلنبوي، والظرف على هذا متعلِّق بـ «كان».

وقال الطيبيُّ: إنَّه ظرف لـ «آلهة» على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٦١.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٦٧.
(٣) في الأصل: ترجيح.
(٤) ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٣٠٤.
(٥) الكشاف ٢/ ٥٦٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٠٤.

﴿ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] وجعل تعلُّق الظرف بما ذكر هاهنا باعتبار تضمُّنه معنى الخالقيَّة والمؤثريَّة.

وأنت تعلم أنَّ الظاهر ما ذكر أوَّلًا، و«إلا» لمغايرة ما بعدها لما قَبلها، فهي بمنزلة «غير».

وفي «المغني»(١) أنَّها تكون صفة بمنزلة «غير» فيُوصَف بها وبتاليها جمعٌ منكَّر أو شِبْهُه، ومثَّل للأوَّل بهذه الآية، وقد صرَّح غيرُ واحد من المفسِّرين أنَّ المعنى: لو كان فيهما آلهةٌ غير الله.

وجعل ذلك الخفاجيُّ(٢) إشارة إلى أنَّ «إلا» هنا اسمٌ بمعنى «غير» صفةٌ لما قَبلها، وظهر إعرابها فيما بعدَها؛ لكونها على صورة الحرف، كما في «أل» الموصولة في اسم الفاعل مثلًا.

وأنكر الفاضل الشُّمُنيُّ(٣) كونَها بمنزلة «غير» في الاسميَّة لما في «حواشي» العلَّامة الثاني عند قوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ﴾ [البقرة: ٦٨] من أنَّه لا قائلَ باسميَّة «إلا» التي بمنزلة «غير»، ثم ذكر أنَّ المرادَ بكونها بمنزلة «غير» أنَّها بمنزلتها في مغايرة ما بعدَها لما قبلها ذاتاً أو صفة، ففي «شرح الكافية» للرضيِّ: أصل «غير» أن تكون صفةً مفيدةً لمغايرة مجرورِها لموصوفها، إمَّا بالذات نحو: مررتُ برجلٍ غيرِ زيدٍ، وإمَّا بالصفة نحو: دخلت بوجهٍ غيرِ الذي خرجتُ بهِ، وأصل «إلا» التي هي أمُّ أدوات الاستثناء، مغايرةُ ما بعدَها لما قبلها نفياً أو إثباتاً، فلما اجتمع ما بعد «إلا» وما بعد «غير» في معنى المغايرة حملت «إلا» على «غير» في الصفة، فصار ما بعد «إلا» مغايراً لما قَبلها ذاتاً أو صفة، من غير اعتبارِ مغايرته له نفياً أو إثباتاً، وحملت «غير» على «إلا» في الاستثناء، فصار ما بعدَها مغايراً لما قَبلها نفياً أو إثباتاً من غيرِ مغايرته له ذاتاً أو صفةً، إلا أنَّ حمل «غير» على «إلا» أكثرُ من حمل «إلا» على «غير»؛ لأنَّ «غير» اسم، والتصرُّف في الأسماء أكثر منه في الحروف، فلذلك تقع «غير» في جميع مواقع «إلا». انتهى.

---

(١) مغني اللبيب ص٩٩.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٢٤٨.

(٣) في المنصف من الكلام على مغني ابن هشام له ١/ ١٥٣-١٥٤.

وأنت تعلم أنَّ المتبادر كون «إلا» حين إفادتها معنى «غير» اسماً، وفي بقائها على الحرفيَّة مع كونها وحدها أو مع ما بعدَها يجعلهما كالشيء الواحد صفةً لما قبلها، نظرٌ ظاهر، وهو في كونها وحدها كذلك أظهر، ولعلَّ الخفاجيَّ لم يقل ما قال إلا وهو مطَّلع على قائل باسميَّتها، ويحتمل أنَّه اضْطَره إلى القول بذلك ما يرد على القول ببقائها على الحرفيَّة، ولعمري إنَّه أصاب المِحَزَّ، وإن قال العلَّامة ما قال. وكلام الرضيِّ ليس نصًّا في أحد الأمرين، كما لا يخفى على المنصف.

ولا يصحُّ أن تكون للاستثناء من جهة العربيَّة عند الجمهور؛ لأنَّ «آلهة» جمعٌ منكَّر في الإثبات، ومذهب الأكثرين كما صرَّح به في «التلويح» أنَّه لا استغراقَ له، فلا يدخل فيه ما بعدَها حتى يحتاجَ لإخراجِه بها، وهم يوجبون دخولَ المستثنى في المستثنى منه في الاستثناء المتَّصل، ولا يكتفون بجواز الدخول، كما ذهب إليه المبرِّد[1] وبعض الأصوليين، فلا يجوز عندهم: قام رجالٌ إلا زيداً، على كون الاستثناء متصلًا، وكذا على كونه منقطعاً، بناء على أنَّه لابُدَّ فيه من الجزم بعدمِ الدخول، وهو مفقود جزماً.

ومن أجاز الاستثناءَ في مثل هذا التركيب كالمبرِّد جعلَ الرفع في الاسم الجليل على البدليَّة.

واعترض بعدم تقدُّم النفي؟ وأُجيب: بأنَّ «لو» للشرط، وهو كالنفي.

وعنه أنَّه أجاب بأنَّها تدلُّ على الامتناع، وامتناعُ الشيء انتفاؤه، وزعم أنَّ التفريغ بعدها جائز، وأنَّ نحو: لو كان معنا إلا زيدٌ لَهَلَكْنا[2]، أجود كلام، وخالف في ذلك سيبويه[3] فإنَّه قال: لو قلت: لو كان معنا.. المثال، لكنتَ قد أَحلْتَ.

ورُدَّ بأنَّهم لا يقولون: لو جاءني ديَّار أَكرمتُه، ولا: لو جاءني من أحدٍ أكرمتُه، ولو كانت بمنزلة النافي لجاز ذلك[4]، كما يجوزُ: ما فيها ديَّار، وما جاءني من

(١) ينظر المقتضب ٤/ ٣٨٩-٣٩٠.
(٢) في (م): لهكنا.
(٣) الكتاب ٢/ ٣٣١.
(٤) مغني اللبيب ص٩٩.

أحد، وتعقَّبه الدمامينيُّ[1]: بأنَّ للمبرّد أن يقول: قد أجمعنا على إجراءِ أَبَى مجرى النفي الصريح، وأجزنا التفريغَ فيه، قال الله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال سبحانه: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢] مع أنَّه لا يجوز: أَبَى ديَّار المجِيءَ، و: أبى من أحدٍ الذهاب، فما هو جوابكم عن هذا، فهو جوابنا.

وقال الرضيُّ: أجاز المبرِّد الرفعَ في الآية على البدل؛ لأنَّ في «لو» معنى النفي، وهذا كما أجاز الزجَّاج البدل في ﴿قَوۡمَ يُونُسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾ الآية [يونس: ٩٨] إجراءً للتحضيض مجرى النفي، والأولى عدم إجراء ذينك في جواز الإبدال والتفريغ معهما مجراه إذ لم يثبت[2]. انتهى.

وذكر المالكيّ في «شرح التسهيل» أنَّ كلامَ المبرِّد في «المقتضب» مثل كلامِ سيبويه، وأنَّ التفريغَ والبدلَ بعد «لو» غيرُ جائز[3]، وكذا لا يصحُّ الاستثناء من جهة المعنى، ففي «الكشف» أنَّ البدل والاستثناء في الآية ممتنعان معنًى؛ لأنَّه إذ ذاك لا يفيد ما سيقَ له الكلام من انتفاء التعدُّد، ويؤدِّي إلى كون الآلهة بحيث لا يدخل في عِدادِهم الإلهُ الحقُّ مفضٍ[4] إلى الفساد، فنفي الفساد يدلُّ على دخوله فيهم، وهو من الفساد بمكان، ثم إنَّ الصفة على ما ذهب إليه ابن هشام[5] مؤكِّدة صالحة للإسقاط، مثلها في قوله تعالى: ﴿نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ [الحاقة: ١٣] فلو قيل: لو كان فيهما ءالهةٌ لفسدتا، لصحَّ، وتأتّى المراد.

وقال الشَّلَوْبين، وابنُ الضائع[6]: لا يصحُّ المعنى حتى تكون «إلا» بمعنى «غير» التي يراد بها البدل والعوض.

---

(١) في تحفة الغريب في حاشية مغني اللبيب له ١/ ١٥٥.

(٢) المنصف من الكلام على مغني ابن هشام ١/ ١٥٥.

(٣) شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ٢٩٩، والمقتضب ٤/ ٤٠٨، والكتاب ٢/ ٣٣١-٣٣٢.

(٤) كذا في الأصل و(م)، ولعلَّ الوجه: مفضياً.

(٥) مغني اللبيب ص١٠١.

(٦) في (م): ابن الصائغ. وكذا ورد في مطبوع البحر المحيط ٦/ ٣٠٥، وهو خطأ. والصواب: ابن الضائع. كما هو في الأصل، وقد سلفت ترجمته، وكلامه في مغني اللبيب ص٩٩.

ورُدَّ بأنَّه يصير المعنى حينئذٍ: لو كان فيهما عددٌ من الآلهة بدلٌ وعوض منه ـ تعالى شأنه ـ لفسدتا، وذلك يقتضي بمفهومه أنَّه لو كان فيهما اثنان هو عزَّ وجلَّ أحدهما، لم تفسدا، وذلك باطل.

وأُجيب بأنَّ معنى الآية حينئذٍ لا يقتضي هذا المفهوم؛ لأنَّ معناها: لو كان فيهما عددٌ من الآلهة دونه أو به ـ سبحانه ـ بدلًا منه وحدَه عزَّ وجلَّ، لفسدتا، وذلك مما لاغبارَ عليه، فاعرف.

والذي عليه الجمهور إرادةُ المغايرة، والمراد بالفساد البطلان والاضْمحلال، أو عدم التكوُّن، والآية كما قال غيرُ واحد مشيرة إلى دليل عقليٍّ على نفي تعدُّد الإله، وهو قياس استثنائي استثني فيه نقيض التالي لينتجَ نقيض المقدَّم، فكأنَّه قيل: لو تعدَّد الإله في العالم، لفسد، لكنَّه لم يفسد، ينتج أنَّه لم يتعدَّد الإله. وفي هذا استعمال لـ «لو» غير الاستعمال المشهور.

قال السَّيِّد السند: إن «لو» قد تستعمل في مقام الاستدلالِ، فيفهم منها ارتباط وجود التالي بوجود المقدَّم مع انتفاء التالي، فيُعلم منه انتفاءُ المقدَّم، وهو على قلَّته موجود في اللغة، يقال: لو كان زيد في البلد لجاءنا، ليُعلم منه أنَّه ليس فيه، ومنه قوله تعالى: «لو كان فيهما ءالهة إلا الله لفسدتا».

وقال العلَّامة الثاني: إنَّ أربابَ المعقول قد جعلوا «لو» أداةً للتلازم دالَّة على لزوم الجزاءِ للشرط من غيرِ قصد إلى القَطْع بانتفائهما، ولهذا صحَّ عندهم استثناء عين المقدَّم، هم يستعملونها للدلالة على أنَّ العِلْمَ بانتفاء الثاني علَّةٌ للعلم بانتفاء الأوَّل، ضرورةَ انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم، من غيرِ التفات إلى أنَّ علَّة انتفاءِ الجزاء في الخارج ما هي؛ لأنَّهم يستعملونها في القياسات لاكتساب العلوم والتصديقات، ولا شكَّ أنَّ العلم بانتفاء الملزوم لا يوجب العلمَ بانتفاء اللازم، بل الأمر بالعكس، وإذا تصفَّحنا، وجدنا استعمالها على قاعدة اللغةِ أكثرَ، لكن قد تستعمل على قاعدتهم كما في قوله تعالى: «لو كان فيهما» إلخ، لظهور أنَّ الغرضَ منه التصديقُ بانتفاء تعدُّد الآلهة، لا بيان سببِ انتفاء الفساد. اهـ.

وفيه بحث يُدفَع بالعناية، ولايخفى عليك أنَّ لبعض النحويين نحو هذا القول، فقد قال الشَّلَوْبِين، وابنُ عصفور: إنَّ «لو» لمجرَّد التعليق بين الحصولين في

الماضي من غيرِ دلالة على امتناعِ الأوَّل والثاني، كما أنَّ «إنْ» لمجرَّد التعليق في الاستقبال، والظاهر أنَّ خصوصيَّةَ المضيِّ هاهنا غيرُ معتبرة.

وزعم بعضُهم: أنَّ «لو» هنا لانتفاء الثاني؛ لانتفاء الأوَّل، كما هوالمشهور فيها، ويتمُّ الاستدلالُ، ولا يخفى ما فيه على من دقَّق النظر، ثم إنَّ العلَّامة قال في «شرح العقائد»[1]: إنَّ الحجَّةَ إقناعيَّةٌ، والملازمةَ عاديَّة على ماهو اللائق بالخطابيَّات، فإنَّ العادةَ جاريةٌ بوقوع التمانع والتغالبِ عند تعدُّد الحاكم، وإلا، فإن أُريد الفساد بالفعل، أي: خروجهما عن هذا النظام المشاهد، فمجرَّد التعدُّد لايستلزمه، لجواز الاتفاقِ على هذا النظام، وإن أُريد إمكان الفساد، فلا دليلَ على انتفائه، بل النصوص شاهدةٌ بطيِّ السماوات ورَفْع هذا النظام، فيكون ممكناً لا محالةَ. وكذا لو أُريد بفسادِهما عدم تكوُّنهما بمعنى أنَّه لو فُرضَ صانعان لأمكنَ بينهما تمانع في الأفعال، فلم يكن أحدهما صانعاً، فلم يوجد مصنوع، لا تكون الملازمةُ قطعيَّةً؛ لأنَّ إمكان التمانع لا يستلزم إلا عدم تعدُّد الصانع، وهو لا يستلزم انتفاءَ المصنوع على أنَّه يرد منعُ الملازمة إن أُريد عدم التكوُّن بالفعل، ومنع انتفاء اللازم إن أُريد بالإمكان. انتهى.

فنفى أن تكون الآيةُ برهاناً، سواء حمل الفسادُ على الخروج عن النظام، أو على عدم التكوُّن، وفيه قَدْحٌ لما أشار إليه في «شرح المقاصد» من كون كونها برهاناً على الثاني، فإنَّه بعدما قرَّر برهانَ التمانع قال: وهذا البرهان يُسمَّى برهانَ التمانع، وإليه الإشارة بقوله تعالى: «لو كان فيهما آلهة» الآية، فإن أُريد عدم التكوُّن، فتقريره أن يقال: لو تعدَّد الإله[2]، لم تتكوَّن السماء والأرض؛ لأنَّ تكوُّنهما إمَّا بمجموع القدرتَين، أو بكلٍّ منهما، أو بأحدهما، والكلُّ باطلٌ، أمَّا الأوَّل، فلأنَّ مِن شأنِ الإله كمال القدرة، وأمَّا الأخيران فلما مرَّ من التوارد والرجحان من غيرِ مرجِّح. وإن أريد بالفساد الخروجُ عمَّا هما عليه من النظام، فتقريره أن يقال: إنَّه لو تعدَّد[3] الإلهُ، لكان بينهما التنازع والتغالُب، وتمييزُ صنيعِ

(١) ص٤٣.
(٢) في الأصل و(م): الآلهة. والمثبت من شرح المقاصد للتفتازاني ٤/ ٣٧، والكلام منه.
(٣) في (م): تعددت.

كلٌّ منهما عن الآخَر بحكم اللزوم العاديِّ، فلم يحصل بين أجزاء العالَم هذا الالتئامُ الذي باعتباره صار الكلُّ بمنزلة شخصٍ واحد، ويختلُّ أمرُ النظام الذي فيه بقاء الأنواع وترتُّب الآثار. انتهى.

وذلك القدح بأن يقال: تعدُّد الإلهِ لا يستلزم التمانعَ بالفعل بطريق إرادةِ كلٍّ منهما وجودَ العالَم بالاستقلال من غير مدخليَّة قدرةِ الآخَر، بل إمكان ذلك التمانع والإمكان لا يستلزم الوقوع، فيجوز أن لايقع، بل يتفقان على الإيجاد بالاشتراك، أو يفوِّض أحدُهما إلى الآخَر.

وبحث فيه المولى الخَيَالي بغير ذلك أيضاً ثم قال: التحقيقُ في هذا المقام أنَّه إن حملت الآيةُ الكريمةُ على نفي تعدُّد الصانع مطلقاً، فهي حجَّة إقناعيَّة، لكنَّ الظاهر من الآية نفيُ تعدُّد الصانع المؤثِّر في السماء والأرض، إذ ليس المراد من الكون فيهما التمكُّن فيهما، بل التصرُّف والتأثير، فالحقُّ أنَّ الملازمةَ قطعيَّةٌ، إذ التوارد باطلٌ، فتأثيرهما إمَّا على سبيل الاجتماعِ أو التوزيع، فيلزم انعدامُ الكلِّ أو البعض عند عدم كونِ أحدِهما صانعاً؛ لأنَّه جزءُ علَّة، أو علَّةٌ تامَّة، فيفسد العالَم، أي: لا يوجد هذا المحسوس كلًّا أو بعضاً، ويمكن أن توجَّه الملازمة بحيث تكون قطعيَّة على الإطلاق، وهو أن يقال: لو تعدَّد الإلهُ، لم يكن العالَم ممكناً، فضلًا عن الوجود، وإلَّا، لأمكنَ التمانعُ بينهما المستلزم للمحالِ، لأنَّ إمكان التمانع لازمٌ لمجموع الأمْرين من التعدُّد وإمكان شيء من الأشياء، فإذا فرض التعدُّد، يلزم أن لا يمُكن شيء من الأشياء حتى لا يمكن التمانع المستلزم للمُحال. انتهى.

وأورد الفاضل الكلنبويُّ على الأوَّل خمسةَ أبحاث، فيها الغثُّ والسمين، ثم قال: فالحقُّ أنَّ توجيهَه الثاني لقطعيَّة الملازمة صحيحٌ دون الأوَّل، وللعلامة الدَّوَاني كلامٌ في هذا المقام قد ذكرالفاضلُ المذكور ما لَهُ وما عليهِ من النقض والإبرام، ثم ذكر أنَّ للتمانع عندهم معنيين:

أحدهما: إرادةُ أحد القادرَين وجودَ المقدور، والآخَرِ عدمَه، وهو المراد بالتمانع في البرهان المشهور ببرهان التمانع.

وثانيهما: إرادة كلٍّ منهما إيجادَه بالاستقلال من غيرِ مدخليَّة قدرةِ الآخَر فيه، وهو التمانع الذي اعتبروه في امتناع مقدورٍ بين قادرَيْن.

وقولهم: لو تعدَّد الإله لم يوجد شيءٌ من الممكنات؛ لاستلزامه أحدَ المحالين، إمَّا وقوع مقدور بين قادرَيْن، وإمَّا الترجيح بلا مرجِّح، مبنيٌّ على هذا، وحاصل البرهان عليه أنَّه لو وجد إلهان قادران على الكمال، لأمكن بينهما تمانع، واللازم باطلٌ، إذ لو تمانعا وأرادَ كلٌّ منهما الإيجادَ بالاستقلال، يلزم إمَّا أن لا يقعَ مصنوعٌ أصلًا، أو يقعَ بقدرة كلٍّ منهما أو بأحدهما، والكلُّ باطل، ووقوعُه بمجموع القدرتَيْن مع هذه الإرادة يوجب عجزهما؛ لتخلُّف مرادِ كلٍّ منهما عن إرادته، فلا يكونان إلهين قادرَيْن على الكمال، وقد فُرضا كذلك.

ومن هنا ظهر أنَّه على تقدير التعدُّد لو وُجد مصنوع، لزم إمكانُ أحدِ المحالين، إمَّا إمكان التوارد، وإمَّا إمكان الرجحان من غير مرجِّح، والكلُّ محالٌ، وبهذا الاعتبار مع حَمْل الفساد على عدم الكون، قيل بقطعيَّة الملازمة في الآية، فهي دليل إقناعيٌّ من وجه، ودليل قطعيٌّ من وجه آخر، والأوَّل بالنسبة إلى العوام، والثاني بالنسبة إلى الخواصِّ.

وقال مصلح الدين اللاري(١) بعد كلامٍ طويل، وقالٍ وقيل، أقول: أقرِّر الحجَّة المستفادةَ من الآية الكريمة على وجهٍ أوجهَ ممَّا عداه، وهو أنَّ الإلهَ المستحقَّ للعبادة لابُدَّ أن يكون واجبَ الوجود، وواجبُ الوجود وجودُه عينُ ذاتهِ عند أرباب التحقيق، إذ لو غايره، لكان ممكناً؛ لاحتياجه في موجوديَّته إلى غيرِه الذي هو الوجود، فلو تعدَّد، لزم أن لا يكونَ وجوداً، فلا تكون الأشياءُ موجودةً؛ لأنَّ موجوديَّة الأشياء بارتباطها بالوجود، فظهر فسادُ السماء والأرض بالمعنى الظاهر، لا بمعنى عدم التكوُّن؛ لأنَّه تكلُّف ظاهر. انتهى.

وأنت تَعلم أنَّ إرادةَ عدم التكوُّن أظهرُ على هذا الاستدلال، ثم إنَّ هذا النحوَ من الاستدلالِ ممَّا ذهب إليه الحكماء، بل أكثر براهينِهم الدالَّة على التوحيد الذي هو أجلُّ المطالب الإلهيَّة، بل جميعُها، يتوقَّف على أنَّ حقيقةَ الواجب تعالى هو

---

(١) هو: مصلح الدين محمد بن صلاح بن جلال الملتوي، المشهور: بمنلا مصلح الدين اللَّاري، له مؤلفات عديدة، منها: شرح الشمائل، وشرح الأربعين النووية، وحاشية على مواضع من «المطوَّل»، وغيرها. (ت٩٦٧هـ). شذرات الذهب ١٠/ ٥١٠-٥١١، والأعلام ٦/ ١٦٩-١٧٠ إلا أن وفاته فيه (٩٧٩هـ).

الوجودُ البحتُ القائمُ بذاته المعبَّر عنه بالوجوب الذاتيِّ، والوجود المتأكّد، وأنَّ ما يعرضه الوجوبُ أو الوجود، فهو في حدِّ نفسه مُمكِن، ووجوده كوجوبه يُستفاد من الغير، فلا يكون واجباً، ومن أشهرها أنَّه لو فرضنا موجودَيْن واجِبَي الوجود، لكانا مشتركَيْن في وجوب الوجود، ومتغايرين بأمر من الأمور، وإلا لم يكونا اثنين، وما به الامتياز إمَّا أن يكون تمامَ الحقيقة أو جزءَها، لا سبيلَ إلى الأوَّل؛ لأنَّ الامتيازَ لو كان بتمام الحقيقة، لكان وجوبُ الوجود المشتَرك بينهما خارجاً عن حقيقة كلٍّ منهما، أو عن حقيقة أحدِهما، وهو محالٌ؛ لما تقرَّر من أنَّ وجوبَ الوجود نفسُ حقيقةِ واجبِ الوجود لذاتِهِ، ولا سبيلَ إلى الثاني؛ لأنَّ كلَّ واحد منهما يكون مركَّباً ممَّا به الاشتراكُ، وما به الامتيازُ، وكلُّ مركَّب محتاجٌ، فلا يكون واجباً، لإمكانه، فيكون كلٌّ من الواجبَيْن أو أحدُهما ممكناً لذاتِه، هذا خلف.

واعترض بأنَّ معنى قولِهم: وجوبُ الوجود نفسُ حقيقةِ واجبِ الوجود، أنَّه يظهر من نفسِ تلك الحقيقة أثر صفةِ وجوبِ الوجود، لا أنَّ تلك الحقيقةَ عينُ هذه الصفة، فلا يكون اشتراكُ موجودين واجِبَي الوجود في وجوب الوجود، إلا أن يظهر من نفسِ كلٍّ منهما أثرُ صفة الوجوب، فلا منافاةَ بين اشتراكهما في وجوب الوجود، وتمايزهما بتمام الحقيقة.

وأجيب بأنَّ المرادَ العينيَّةُ، ومعنى قولهم: إنَّ وجوبَ الوجود عينُ حقيقة الواجب، هو أنَّ ذاتَه بنفس ذاتِه مصداقُ هذا الحكم ومنشأُ انتزاعِه من دون انضمام أمرٍ آخَر، ومن غير ملاحظة حيثيَّة أخرى غير ذاته تعالى، أيَّة حيثيَّة كانت، حقيقيَّة أو إضافيَّة أو سَلْبيَّة، وكذلك قياس سائرِ صفاته ـ سبحانه ـ عند القائلين بعينيَّتها من أهلِ التحقيق.

وتوضيح ذلك على مشربهم أنَّك كما قد تعقل المتصل مثلًا نفسَ المتصل، كالجزء الصوريِّ للجسم من حيث هو جسم، وقد تعقل شيئاً ذلك الشيء هو المتَّصل كالمادة، فكذلك قد تعقل واجبَ الوجود بما هو واجبُ الوجود، وقد تعقل شيئاً ذلك الشيء هو واجبُ الوجود، ومصداق الحكم به ومطابقه في الأوَّل حقيقةُ الموضوع وذاتُه فقط، وفي الثاني هي مع حيثيَّة أخرى، هي صفة قائمةٌ بالموضوع حقيقيَّة أو انتزاعيَّة، وكلُّ واجب الوجود لم يكن نفسَ واجب الوجود،

بل يكون له حقيقة، تلك الحقيقةُ متَّصفة بكونها واجبةَ الوجود، ففي اتِّصافها تحتاج إلى عُروض هذا الأمر، وإلى جاعلٍ يجعلها بحيث يُنتَزع منها هذا الأمر، فهي في حدِّ ذاتها ممكنةُ الوجودِ، وبه صارت واجبةَ الوجود، فلا تكون واجبَ الوجود بذاته، فهو نفسُ واجبِ الوجودِ بذاته، وليُقَسْ على ذلك سائرُ صفاته تعالى الحقيقيَّة الكماليَّة، كالعلم والقدرة وغيرهما.

واعترض أيضاً بأنَّه لِمَ لا يجوز أن يكون ما به الامتيازُ أمراً عارضاً لا مقوِّماً حتى يلزم التركيبُ؟

وأجيب بأنَّ ذلك يوجب أن يكون التعيُّنُ عارضاً، وهو خلاف ما ثبت بالبرهان.

ولابن كَمُّونة(١) في هذا المقام شبهةٌ شاع أنَّها عويصةُ الدفع عسيرةُ الحلِّ حتى إنَّ بعضَهم سمَّاه لإبدائها بافتخارِ الشياطين، وهي أنَّه لِمَ لا يجوز أن يكون هناك هويَّتان بسيطتان مجهولتا الكُنْهِ، مختلفتان بتمام الماهيَّة، يكون كلٌّ منهما واجباً بذاته، ويكون مفهومُ واجبِ الوجود منتزعاً منهما، مقولًا عليها قولًا عَرَضيًّا، وقد رأيت في «ملخَّص» الإمام ـ عليه الرحمة ـ نحوَها(٢).

ولعلَّك إذا أحطتَ خبراً بحقيقة ما ذكرنا، يَسهُل عليكَ حلُّها، وإن أردتَ التوضيحَ، فاستمع لما قيل في ذلك: إنَّ مفهومَ واجبِ الوجود لا يخلو إمَّا أن يكون انتزاعُه عن نفس ذات كلٍّ منهما مِن دون اعتبار حيثيَّة خارجةٍ، أيَّةِ حيثيَّة كانت، أو مع اعتبار تلك الحيثيَّة، وكلا الشِّقَّين محالٌ، أمَّا الثاني، فلما تقرَّر أنَّ كلَّ ما لم يكن ذاته مجرَّدَ حيثيَّةِ انتزاع الوجوب، فهو ممكن في ذاته. وأمَّا الأول؛ فلأنَّ مصداقَ حملِ مفهومٍ واحد ومطابقِ صدقُه بالذات، مع قَطْع النظر عن أيَّة حيثيَّة

---

(١) هو عز الدولة سعد بن منصور بن سعد، المعروف بـ : ابن كَمُّونة، كيميائي له اشتغال بالمنطق والحكمة، من أهل بغداد، له: تذكرة في الكيمياء، وشرح تلويحات السهروردي، والمنطق الطبيعي مع الحكمة الجديدة، وغيرها. (ت٦٨٣، وقيل: ٦٧٦هـ). هدية العارفين ١/ ٣٨٥، والأعلام ٣/ ٩٠٢ - ١٠٣.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: بل إنها بنفسها قد أوردها شيخ الإشراق في المطارحات تصريحاً، وفي التلويحات تلميحاً، لكنها إشتهرت باسم ابن كمونة.

كانت، لا يمكن أن يكون حقائقَ متخالفة متباينة بالذات غير مشتركة في ذاتيٍّ أصلًا، ولعلَّ كلَّ سليم الفطرة يَحكُم بأنَّ الأمور المتخالفةَ من حيث كونها متخالفةً بلا حيثيَّة جامعة، لا تكون مصداقاً لحكم واحد ومحكيّاً عنها به، نعم يجوز ذلك إذا كانت تلك الأمورُ متماثلةً من جهةِ كونها متماثلةً، ولو في أمر سلبيٍّ، بل نقول: لو نظرنا إلى نفسِ مفهوم الوجود المصدريِّ المعلوم بوجهٍ من الوجوه بديهةً، أدَّانا النظرُ والبحثُ إلى أنَّ حقيقته وما يُنتزَع هو منه أمرٌ قائمٌ بذاته، هو الواجب الحقُّ والوجودُ المطلَق الذي لا يَشوبه عمومٌ ولا خصوصٌ ولا تعدُّد، إذ كلُّ ما وجودُه هذا الوجود، لا يمكن أن يكون بينَه وبين شيءٍ آخَر له أيضاً هذا الوجود فرضاً مباينةٌ أصلًا ولا تغاير، فلا يكون اثنان، بل يكون هناك ذاتٌ واحدة، ووجود واحدٌ، كما لوَّح إليه صاحب «التلويحات» بقوله: صَرْفُ الوجود الذي لا أتمَّ منه، كلما فرضته ثانياً، فإذا نظرتَ فهوَ هو، إذ لا ميزَ في صَرْف شيء، فوجوب وجودِه تعالى الذي هو ذاته سبحانه تدلُّ على وحدتِه جلَّ وعلا. انتهى[1]. فتأمل.

ولا يخفى عليك أنَّ أكثرَ البراهين على هذا المطلب الجليل الشأن، يمكن تخريجُ الآيةِ الكريمة عليه، ويحملِ حينئذٍ الفساد على عدم التكوُّن، فعليك بالتخريج وإن أحوجكَ إلى بعض تكلُّف، وإيَّاك أن تقنعَ بجعلها حجَّة إقناعيَّة، كما ذهب إليه كثير، فإن هذا المطلبَ الجليلَ أجلُّ من أن يكتفى فيه بالإقناعات المبنيَّة على الشهرة والعادة، ولصاحب «الكشف» ـ طاب ثراه ـ كلامٌ يلوح عليه مخايلُ التحقيق في هذا المقام، سنذكره إن شاء الله، كما اختاره في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] ثم لا تتوهمنَّ أنَّه لا يلزم من الآية نفيُ الاثنين والواحد؛ لأنَّ نفيَ آلهة تغاير الواحدَ المعيَّن شخصاً، يستلزم بالضرورة أن كلَّ واحدٍ واحدٍ منهم يغايره شخصاً، وهو أبلغ من نفي واحد يغاير المعيَّن في الشخص على أنَّه طوبق به قوله تعالى: «أم اتخذوا آلهة من الأرض» وقيام الملازمة كافٍ في نفي الواحد والاثنين أيضاً.

واستشكل سياقُ الآية الكريمة بأنَّ الظاهرَ أنَّها إنَّما سِيْقت لإبطال عبادةِ الأصنام المشار إليه بقوله تعالى: «أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون» لذكرها

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: وقد دفعت بغير ذلك.

بعدَه، وهي لا تُبطِل إلا تعدُّدَ الإله الخالق القادر المدبِّر التامِّ الألوهيَّة، وهو غير متعدِّد عند المشركين، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] وهم يقولون في آلهتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فما قالوا به لا تبطله الآية، وما تبطله الآية لم يقولوا به، ومن هنا قيل معنى الآية: لو كان في السماء والأرض آلهةٌ كما يقول عبدةُ الأوثان، لزم فسادُ العالَم؛ لأنَّ تلك الآلهة التي يقولون بها جمادات لا تَقدِر على تدبيرِ العالَم، فيلزم فسادُ العالَم.

وأُجيب بأنَّ قولَه تعالى: «أم اتخذوا» إلخ مسوق للزجر عن عبادةِ الأصنام، وإن لم تكن لها الألوهيَّة التامَّة؛ لأنَّ العبادةَ إنَّما تليق لمن له ذلك، وبعدَ الزجرِ عن ذلك أَشار سبحانه إلى أنَّ من له ما ذُكرَ لا يكون إلا واحداً، على أنَّ شرحَ اسم الإله هو الواجبُ الوجود لذاته، الحيُّ العالِم، المريد القادر، الخالق المدبِّر، فمتى أَطلقوه على شيء، لزمهم وصفُه بذلك شاؤوا أو أَبوا، فالآيةُ لإبطال ما يلزم قولهم على أتمِّ وجه.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: نزِّهوه أكملَ تنزيه عن أن يكون مَن دونه تعالى آلهة كما يزعمون، فالفاء لترتيب ما بعدَه على ما قبلها من ثبوت الوحدانيَّة، وإبرازِ الجلالة في موقع الإضمار؛ للإشعار بعلَّة الحكم، فإنَّ الألوهيَّة مناطُ لجميع صفاتِ الكمال التي من جملتها تنزُّهه تعالى عن الشَّرِكة، ولتربية المهابة، وإدخال الرَّوعة، والوصف بربِّ العرش؛ لتأكيد التنزُّه، مع ما في ذلك من تربية المهابة، والظاهر أنَّ المرادَ حقيقةُ الأمر بالتنزيه.

وقيل: المراد بالتعجيب ممَّن عَبَدَ تلك المعبوداتِ الخسيسةَ وعدَّها شريكاً مع وجود المعبود العظيم الخالق لأعظمِ الأشياء، والكلام عليه أيضاً كالنتيجة لما قَبْلَه من الدليل.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ يمكن أن يكون جوابَ سؤال مقدَّر ناشئ من إثبات توحُّده سبحانه في الألوهيَّة المتضمِّن توحُّدَه تعالى في الخَلْق والتصرُّفِ، ووصف الكفرة إيَّاه سبحانه بما لا يليقُ، كأنَّه قيل: إذا كان اللهُ تعالى هو الإلهَ الخالقَ المتصرِّف، فلِمَ خَلَقَ أولئك الكفرةَ ولم يَصرفهم عمَّا يقولون؟.

فأجيب بقوله سبحانه: «لا يسئل» إلخ، وحاصله أنَّه تعالى لا ينبغي لأحدٍ أن يَعترض عليه في شيء من أفعاله، إذ هو حكيم مُطلق، لا يَفعلُ ما يَردُ عليه الاعتراضُ.

﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ عمَّا يَفعلونَ، ويَعترضُ عليهم، وهذا الحكم في حقِّه تعالى عامٌّ لجميع أفعالِه سبحانه، ويندرج فيه خَلْق الكفرة وإيجادُهم على ما هم عليه، ووجه حلِّ السؤال الناشئ مما تقدَّم بناءً على ما يشير إليه هذا الجوابُ الإجماليُّ أنَّه تعالى خَلَقَ الكفرةَ، بل جميع المكلَّفين على حسَب ما عَلِمَهم ممَّا هم عليه في أنفسهم؛ لأنَّ الخَلْق مسبوقٌ بالإرادة، والإرادة مسبوقةٌ بالعِلْم، والعِلْم تابعٌ للمعلوم فيتعلَّق به على ما هو عليه في ثبوته الغيرِ المجعول، ممَّا يقتضيه استعدادُه الأزليُّ، وقد يشير إلى بعض ذلك قولُ الشافعيِّ ـ عليه الرحمة ـ من أبيات:

خَلَقْتَ العبادَ على ما عَلِمتَ ففي العِلْم يَجري الفتى والمُسِنُّ[1]

ثم بعد أنْ خَلَقهم على حسَب ذلك، كلَّفهم لاستخراج سرٍّ ما سبق به العِلْم التابعُ للمعلوم من الطَّوْع والإباء اللَّذين في استعدادهم الأزليِّ، وأرسل الرسلَ مبشِّرين ومنذرين لتتحرَّك الدواعي، ويَهلك من هَلَكَ عن بيِّنة، ويحيا من حيَّ عن بيِّنة، ولا يكون للناس على الله تعالى حجَّةٌ، فلا يتوجَّه على الله تعالى اعتراضٌ بخَلْق الكافر، وإنَّما يتوجَّه الاعتراض على الكافر بكفره حيث إنَّه من توابع استعدادِه في ثبوته الغير المجعول، وقد يشير إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨] وقوله عليه الصلاة والسلام: «فمَن وَجَدَ خيراً، فليحمدِ اللهَ، ومن وَجَدَ غيرَ ذلك، فلا يَلومَنَّ إلا نفسَه»[2] وهذا وإن كان ممَّا فيه قيلٌ وقال، ونزاعٌ وجدال، إلا أنَّه ممَّا ارتضاه كثيرٌ من المحقِّقين والأجلَّة العارفين، وقال البعض: إنَّ ذلك استئنافٌ ببيان أنَّه تعالى لقوَّة عظمتِه الباهرة، وعِزَّة سلطنته القاهرة، بحيث ليس لأحدٍ من مخلوقاتِه أن يناقشه ويسألَه عمَّا يفعل من أفعاله، إثر بيان أنْ ليس له شريكٌ في الألوهيَّة.

---

(١) البيت ذكره الصفدي في الوافي بالوفيات ٢/ ١٧٩ في ترجمة الشافعي.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذرٍّ الغفاري ﷺ، وسلف ١/ ٣٩٠.

وضمير «هم» للعباد، أي: والعباد يُسألون عمَّا يفعلون نقيراً وقِطْميراً[(١)]؛ لأنَّهم مملوكون له تعالى مستعبدون، وفي هذا وعيدٌ للكفرة.

والظاهر أنَّ المرادَ عمومُ النفي جميعَ الأزمان، أي: لا يُسْأَل سبحانه في وقتٍ من الأوقات عمَّا يَفعل، وخَصَّ ذلك الزجَّاجُ[(٢)] بيوم القيامة، والأوَّل أولى، وإن كان أمرُ الوعيد على هذا أظهرَ.

واستدلَّ بالآية على أنَّ أفعالَه ـ تعالى ـ لا تعلَّل بالأغراض والغايات، فلا يقال: فَعَلَ كذا لكذا، إذ لو كانت معلَّلة، لكان للعبد أن يَسأَلَ فيقولَ: لِمَ فَعَل؟ وإلى ذلك ذهب الأشاعرةُ، ولهم عليه أدلَّة عقلَّية أيضاً، وأوَّلوا ما ظاهرُه التعليلُ بالحملِ على المجاز، أو جَعْلِ الأداة فيه للعاقبة. ومذهب الماتريديَّة كما في «شرح المقاصد»[(٣)] والمعتزلة أنَّها تعلَّل بذلك، وإليه ذهب الحنابلة، كما قال الطوفيُّ[(٤)] وغيرُه.

وقال العلَّامة أبو عبد الله محمدُ بنُ أبي بكرِ الدمشقيُّ الحنبليُّ المعروف بابنِ القيِّم في كتاب «شفاء العليل»: إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى حكيمٌ لا يَفعلُ شيئاً عبثاً، ولا لغير معنًى ومصلحة وحكمة هي الغايةُ المقصودة بالفعل، بل أفعالُه سبحانه صادرةٌ عن حكمةٍ بالغة لأجلها فَعَل، وقد دلَّ كلامُه تعالى وكلامُ رسوله ﷺ على هذا في مواضع لا تكاد تُحصَى، ولا سبيلَ إلى استيعاب أفرادِها، فنذكر بعضَ أنواعها[(٥)].

وساق اثنينِ وعشرينَ نوعاً في بضعةَ عشرةَ ورقة، ثم قال: لو ذهبنا نذكر ما يطَّلع عليه أمثالُنا من حكمة الله تعالى في خَلْقه وأمره، لزاد ذلك على عشرة آلافِ موضع.

ثم قال: وهل إبطالُ الحكم والمناسبات والأوصاف التي شُرعت الأحكام

---

(١) النقير: النكتة في ظهر النواة. والقِطْمير: شقُّ النواة، أو القشرةُ التي فيها، أو القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة، أو النكتة البيضاء في ظهرها. القاموس (نقر) و(قطمر).

(٢) في معاني القرآن وإعرابه له ٣/ ٣٨٨.

(٣) ٤/ ٢٩٦.

(٤) في شرح مختصر الروضة له ١/ ٤٠٩ - ٤١٠.

(٥) شفاء العليل ص٣١٩.

لأجلها إلا إبطال الشرع جملة، وهل يمكن فقيهاً على وجه الأرض أن يتكلَّم في الفقه مع اعتقادِه بطلانَ الحكمة والمناسبة والتعليل، وقصد الشارع بالأحكام مصالحَ العباد.

ثم قال: والحقُّ الذي لا يجوز غيرُه هو أنَّه سبحانه يَفعلُ بمشيئتِه وقدرتِه وإرادته ويَفعلُ ما يفعل بأسبابٍ وحكم وغايات محمودة، وقد أودع العالَم من القوى والغرائز ما به قام الخَلْق والأَمْرُ، وهذا قولُ جمهورِ أهل الاسلام، وأكثر طوائف النُّظَّار، وهو قولُ الفقهاء قاطبةً[1]. اهـ.

والظاهر أنَّ ابنَ القيِّم وأضرابَه من أهلِ السنة القائلين بتعليلِ أفعاله تعالى لا يجعلون كالأشاعرة المخصِّص لأَحَد الضدين بالوقوع محضَ تعلُّق الإرادة بالمعنى المشهور، ومحقِّقو المعتزلة كأبي الحسن، والنظَّام، والجاحظ، والعلَّاف، وأبي القاسم البلخي، وغيرهم يقولون: إنَّ العِلْم بترتُّب النفع على إيجاد النافع هو المخصِّصُ للنافع بالوقوع، ويسمُّون ذلك العِلْمَ بالداعي، وهو الإرادة عندهم.

وأُوردَ عليهم أنَّ الواجبَ ـ تعالى ـ موجبٌ في تعلُّق علمه سبحانه بجميع المعلوماتِ، فلو كان المخصِّص الموجبُ للوقوع هو العلمَ بالنفع، كان ذلك المخصِّص لازماً لذاته تعالى، فيكون فعلُه سبحانه واجباً لأمرٍ خارج ضروريٍّ للفاعل، وهو ينافي الاختيارَ بالمعنى الأخصِّ قطعاً، فلا يكون الواجبُ مختاراً بهذا المعنى، بل يؤول إلى ما ذهب إليه الفلاسفةُ من الاختيار المجامع للإيجاب، ولا يَرِدُ ذلك على القائلين بأنَّ المخصِّص هو تعلُّقُ الإرادة الأزليَّة؛ لأنَّ ذلك التعلُّق غيرُ لازم لذاتِ الواجب تعالى، وإن كان أزليًّا دائماً؛ لإمكان تعلُّقها بالضدِّ الآخر بدل الضدِّ الواقع، نعم يَرِدُ عليهم ما يصعب التفصِّي عنه ممَّا هو مذكور في الكتب الكلاميَّة.

وأُورد نظيرُ ماذكر على الحنفيَّة، فإنَّهم ذهبوا إلى التعليل، وجعلوا العِلْم بترتُّب المصالح علَّةً لتعلُّق العِلْم بالوقوع، فلا يتسنَّى لهم القول بكون الواجب تعالى مختاراً بالمعنى الأخصِّ؛ لأنَّ الذاتَ يوجب العِلْمَ، والعِلْمَ يوجب تعلُّقَ الإرادة،

(١) شفاء العليل ص٣٤٥ - ٣٤٦ ومابعده منه أيضاً.

وتعلُّق الإرادةِ يوجب الفعلَ، ولا مَخْلَصَ إلا بأن يقال: إنَّ إيجابَ العِلْم بالنفع والمصلحةِ لتعلُّق الإرادة ممنوعٌ عندهم، بل هو مرجّح ترجيحاً غيرَ بالغ إلى حدِّ الوجوب، وما قيل: إذا لم يبلغ الترجيحُ إلى حدِّ الوجوب، جاز وقوع الراجح في وقت، وعدمُ وقوعِه في وقت ءاخَر مع ذلك المرجِّح، فإن كان اختصاصُ أحدِ الوقتين بالوقوع بانضمام شيءٍ آخَر إلى ذلك المرجِّح، لم يكن المرجِّح مرجِّحاً، وإلا يلزم الترجيح من غير مرجِّح، بل يلزم ترجيحُ المرجوح عدمه في الوقت الآخَر؛ لأنَّ الوقوع كان راجحاً بذلك المرجِّح، فمدفوع بوجهين إلا أنَّه إنَّما يجري في العلَّة التامَّة بالنسبة إلى معلولِها، لا في الفاعل المختار بالنسبة إلى فِعْله، فإنَّه إن أُريد لزومُ الرجحان من غير مرجِّح كما هو اللازم في العلَّة التامَّة، فعدمُ اللزوم ظاهرٌ، وإن أُريد الترجيحُ من غير مرجِّح، فبطلان اللازم في الفاعل المختار ممنوعٌ، وإلا فما الفرقُ بين الفاعل الموجب والمختار؟ الثاني: إنَّ المرجِّح بالنسبة إلى وقت ربَّما لا يكون مرجِّحاً بالنسبة إلى وقت آخرَ، بل منافياً للمصلحة، فلا يلزم ترجيحُ أحدِ المتساويين أو المرجوح في وقت آخَر، بل يلزم ترجيحُ الراجحِ في كلِّ وقت، وهو تعالى عالمٌ بجميع المصالح اللائقة بالأوقات، فتتعلَّق إرادتُه سبحانه بوقوع كلِّ ممكن في وقتٍ لترتُّب المصالح اللائقة بذلك الوقتِ على عدمه، فلا إشكالَ، وهذا هو المعوَّل عليه، إذ لقائل أن يقول على الأوَّل: إنَّ ترجيحَ المرجوح مستحيلٌ في حقِّ الواجب الحكيم، وإن جاز في حقِّ غيره من أفراد الفاعل بالاختيار.

هذا ووقع في كلام الفلاسفة أنَّ أفعالَ اللهِ تعالى غيرُ معلَّلة بالأغراض والغايات، ومرادهم على ما قاله بعضُهم نفي التعليل عن فِعْله سبحانه بما هو غير ذاته؛ لأنَّه جلَّ شأنه تامُّ الفاعليَّة لا يتوقَّف فيها على غيرِه، ولا يلزم من ذلك نفي الغاية والغرضِ عن فِعْله تعالى مطلقاً، ولذا صحَّ أن يقولوا: عِلْمه تعالى بنظام الخير الذي هو عين ذاته تعالى علَّة غائيَّة وغرض في الإيجاد.

ومرادهم بالاقتضاء في قولهم في تعريف العلَّة الغائيَّة: ما يقتضي فاعليَّةَ الفاعل، مطلَق عدمِ الانفكاك، لكنَّهم تسامحوا في ذلك اعتماداً على فَهْمِ المتدرِّب في العلوم، وصرَّحوا بأنَّه تعالى ليس له غرض في الممكنات وقَصْد إلى منافعها؛

لأنَّ كلَّ فاعلٍ يفعل لغرض غيرِ ذاته فهو فقيرٌ إلى ذلك الغرض، مستكمل به، والمكمِّل يجب أن يكون أشرفَ، فغرضُ الفاعل يجب أن يكون ما هو فوقَه، وإن كان بحسَب الظن، وليس له غرض فيما دونه، وحصول وجودِ الممكنات منه تعالى على غاية من الإتقان ونهايةٍ من الإحكام ليس إلا لأنَّ ذاته تعالى ذاتٌ لا تحصل منه الأشياءُ إلا على أتمِّ ما ينبغي، وأبلغ ما يمكن من المصالح، فالواجب سبحانه عندهم يَلزم من تعقُّله لذاته ـ الذي هو مبدأ كلِّ خير ـ وكمالِ حصول الممكنات على الوجه الأتمِّ والنظام الأقوم واللوازم غاياتٌ عرضيَّة إن أُريد بالغاية ما يقتضي فاعليَّة الفاعل، وذاتيَّةٌ إن أُريد بها ما يترتَّب على الفعل ترتُّباً ذاتيًّا لا عرضيًّا، كوجود مبادئِ الشَّرِّ وغيرها في الطبائع الهيولانيَّة، ثم كما أنَّه تعالى غاية بالمعنى الذي أشير إليه، فهو غاية بمعنى أنَّ جميعَ الأشياء طالبةٌ له متشوِّقة إليه طبعاً وإرادةً؛ لأنَّه الخير المحضُ والمعشوق الحقيقيُّ، جلَّ جلاله وعمَّ نواله.

والحكماء المتألِّهون قد حكموا بسريان نُور العشق في جميع الموجوداتِ على تفاوت طبقاتِها، ولولا ذلك ما دار الفَلَكُ ولا استنارَ الحَلَك، فسبحانه من إلهٍ قاهرٍ، وهو الأوَّل والآخِر، وتمام الكلام في هذا المقام على مشرب المتكلِّمين والفلاسفة يطلب من محلِّه.

وقرأ الحسن: «لا يُسَل»، و«يُسَلُون» بنقل فتحةِ الهمزة إلى السين وحذفها[1].

وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ إضرابٌ وانتقال من إظهار بطلانِ كون ما اتَّخذوه آلهةً حقيقةً، بإظهار خلوِّها عن خصائص الإلهيَّة التي من جملتها الإنشارُ وإقامة البرهان القطعيِّ على استحالة تعدُّد الإله مطلقاً، وتفرُّده سبحانه بالألوهيَّة، إلى بطلان اتِّخاذهم تلك الآلهةَ مع عَرَائها عن تلك الخصائص بالمرَّة شركاءَ لله تعالى شأنه، وتبكيتهم بإلجائهم إقامةَ البرهان على دعواهم الباطلة، وتحقيق أنَّ جميعَ الكتب السماوية ناطقةٌ بحقِّية التوحيد، وبطلانِ الإشراك.

وجوِّز أن يكون هذا انتقالًا؛ لإظهار بطلان الآلهة مطلقاً، بعد إظهار بطلان الآلهة الأرضيَّة، والهمزة لإنكار الاتِّخاذ المذكور واستقباحِه واستعظامه، و«من»

(١) البحر المحيط ٦/٣٠٦.

متعلِّقة بـ «اتخذوا»، والمعنى: بل اتَّخذوا متجاوزينَ إيَّاه تعالى مع ظهور شؤونه الجليلة الموجبة لتفرُّده بالألوهيَّة آلهةً، مع ظهور أنَّها عارية عن خواصِّ الألوهيَّة بالكليَّة.

﴿قُلْ﴾ لهم بطريق التبكيتِ وإلقامِ الحَجَر: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ على ما تدَّعونه من جهة العقل الصريح أو النقل الصحيح، فإنَّه لا يصحُّ القولُ بمثل ذلك من غيرِ دليلٍ عليه، وما في إضافةِ البرهان إلى ضميرِهم من الإشعار بأنَّ لهم برهاناً، ضَرْبٌ من التهكُّم بهم.

وقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ إنارةٌ لبرهانِه وإشارةٌ إلى أنَّه ممَّا نطقت به الكتبُ الإلهيَّة قاطبةً، وزيادةُ تهييجٍ لهم على إقامة البرهان لإظهار كمالِ عجزهم، أي: هذا الوحي الوارد في شأن التوحيد المتضمِّن للبرهان القاطع، ذكر أمَّتي وعظتهم وذكر الأمم السالفة قد أقمته، فأقيموا أنتم أيضاً برهانكم.

وأُعيد لفظ «ذكر» ولم يكتفِ بعطف الموصول على الموصول المستدعي للانسحاب؛ لأنَّ كون المشخَّص ذكر مَن معه ظاهر، وكونه ذكر مَن قبله باعتبار اتِّحاده بالحقيقة مع الوحي المتضمِّن ذلك.

وقيل: المراد بالذكر: الكتاب، أي: هذا كتابٌ أُنزِل على أمَّتي، وهذا كتاب أُنزلَ على أممِ الأنبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصُّحُف، فراجعوها وانظروا هل في واحدٍ منها غير الأَمْرِ بالتوحيد والنهي عن الإشراك، ففيه تبكيتٌ لهم متضمِّن لنقيضِ مدَّعاهم.

وقرئ بتنوين «ذِكْر» الأوَّل والثاني، وجَعْل ما بعده منصوبَ المحلِّ على المفعوليَّة[(١)] له؛ لأنَّه مصدر وإعماله هو الأصل، نحو: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا﴾ [البلد: ١٤-١٥].

وقرأ يحيى بن يعمر، وطلحة، بالتنوين وكسر ميم «من»[(٢)] فهي على هذا حرفُ جرٍّ، و«مع» مجرورة بها، وهي اسم يدلُّ على الصحبة والاجتماع جُعلت هنا ظ،فاً

(١) القراءات الشاذة ص٩١.

كقَبل وبَعْد، فجاز إدخالُ «مِن» عليها، كما جاز إدخالُها عليهما، لكن دخولها عليها نادرٌ، ونصَّ أبو حيان[١] أنَّها حينئذٍ بمعنى «عند».

وقيل: «من» داخلة على موصوفها، أي: عظةٌ مِن كتاب معي، وعظةٌ مِن كتابٍ مِن قَبلي، وأبو حاتم ضعَّف هذه القراءةَ؛ لما فيها من دخول «من» على «مع» ولم يَرَ له وجهاً[٢]. وعن طلحة أنَّه قرأ: «هذا ذِكْرٌ معي وذِكْرٌ قَبلي»[٣] بتنوين «ذكر» وإسقاط «من». وقرأت فرقة: «هذا ذِكْرُ مَن» بالإضافة، و«ذِكْرٌ مِن قَبلي» بالتنوين وكسر الميم[٤].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ إضراب من جهته تعالى غير داخل في الكلام الملقَّن، وانتقالٌ من الأمر بتبكيتِهم بمطالعة البرهان إلى بيانِ أنَّ الاحتجاجَ عليهم لا ينفع؛ لفقدِهم التمييز بين الحقِّ والباطل ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ مستمرُّون على الإعراض عن التوحيد واتِّباع الرسول لا يَرْعَوون عمَّا هم عليه من الغيِّ والضلال، وإن كرّرت عليهم البينات والحُجَجُ، أو: فهم معرضون عمَّا ألقى عليهم من البراهين العقليَّة والنقليَّة.

وقرأ الحسن، وحميد، وابنُ محيصن: «الحقُّ» بالرفع[٥] على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحقُّ، والجملة معترضة بين السبب والمسبَّب تأكيداً للربط بينهما.

وجوَّز الزمخشريُّ[٦] أن يكون المنصوبُ أيضاً على معنى التأكيد، كما تقول: هذا عبدُ اللهِ الحقَّ لا الباطل.

والظاهر أنَّه منصوب على أنَّه مفعول به لـ «يعلمون» والعِلْم بمعنى المعرفة.

---

(١) البحر المحيط ٦/٣٠٦.
(٢) البحر المحيط ٦/٣٠٦.
(٣) القراءات الشاذة ص٩١، والبحر المحيط ٦/٣٠٦.
(٤) البحر المحيط ٦/٣٠٦.
(٥) القراءات الشاذة ص٩١، والمحتسب ٢/٦١.
(٦) الكشاف ٢/٥٦٩.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ استئنافٌ مقرِّر لما سبق من آيِ التوحيد، وقد يقال: إنَّ فيه تعميماً بعد تخصيصٍ إذا أُريد مِن «ذكر من قبلي» الكتبُ الثلاثة، ولما كان «من رسول» عامًّا معنًى، فكان هناك لفظ ومعنًى أفرِدَ على اللفظ في «نوحي إليه»، ثم جُمع على المعنى في «فاعبدون»، ولم يأتِ التركيب: فاعبدني، وهذا بناءً على أنَّ «فاعبدون» داخل في المُوحى. وجوِّز عدم الدخول على الأَمْر له ﷺ ولأمَّته.

وقرأ أكثرُ السبعة: «يُوحَى» على صيغة الغائب مبنياً للمفعول[1]. وأيًّا ما كان فصيغةُ المضارع لحكاية الحالِ الماضية، استحضاراً لصورة الوحي.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾: حكاية لجنايةِ فريقٍ من المشركين لإظهار بطلانها وبيانِ تنزُّهه سبحانه عن ذلك، إثر بيان تنزُّهه جلَّ وعلا عن الشركاء على الإطلاق، وهم حيٌّ من خُزَاعة، قالوا: الملائكةُ بناتُ الله سبحانه. ونقل الواحديُّ أنَّ قريشاً وبعضَ العرب جهينة وبني سلامة، وخزاعة وبني مليح، قالوا ذلك.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة قال: قالت اليهود: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ صاهَرَ الجنَّ، فكانت بينهم الملائكة، فنزلت[2]. والمشهور الأوَّل.

والآية مشنِّعة على كلِّ من نسبَ إليه سبحانه ذلك، كالنصارى القائلين عيسى ابنُ الله، واليهود القائلينَ عزيرٌ ابنُ الله، تعالى اللهُ عمَّا يقولون علوًّا كبيراً، والتعرُّض لعنوان الرحمانيَّة المنبِئة عن جميعِ ما سواه تعالى مربوباً له تعالى؛ لإبراز كمال شناعة مقالتِهم الباطلة.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزُّهه بالذات تنزُّهه اللائق به، على أنَّ السبحان مصدر سبَّح، أي: بعد أن أسبِّحه تسبيحه، على أنَّه عَلَم للتسبيح، وهو مقولٌ على ألسنة العباد، أو: سبِّحوه تسبيحَه.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ إضراب وإبطال لما قالوا، كأنَّه قيل: ليست

---

(١) قرأ حفص والكسائي في الثاني: بالنون وكسر الحاء، وقرأ الباقون: بالياء وفتح الحاء. التيسير ص١٥٤، والنشر ٢/ ٣٢٣.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣١٧.

الملائكةُ كما قالوا، بل هم عبادٌ من حيث إنّهم مخلوقون له تعالى، فهم مِلْكه سبحانه، والولد لا يصحُّ تملّكه، وفي قوله تعالى: ﴿مُكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ أي: مقرَّبون عنده تعالى، تنبيه على منشأ غَلَطهم.

وقرأ عكرمة: «مكرَّمون» بالتشديد(١).

﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون شيئاً حتى يقولَه تعالى، أو يأمرَهم به، كما هو دَيْدَنُ العبيد المؤدَّبين، ففيه تنبيهٌ على كمالِ طاعتهم وانقيادِهم لأمره عزَّ وجلَّ وتأدُّبهم معه تعالى.

والأصل: لا يسبق قولُهم قولَه تعالى، فأسند السَّبقَ إليهم منسوباً إليه تعالى، تنزيلًا لسَبْق قولِهم قولَه سبحانه، منزلةَ سبقِهم إيَّاه عزَّ وجلَّ؛ لمزيد تنزيههم عن ذلك، وللتنبيه على غايةِ استهجان السَّبْق المعرَّض به للذين يقولون مالم يَقُلْه تعالى، وجُعل القولُ محلَّ السبق وآلته التي يسبق بها، وأُنيبت اللامُ عن الإضافة إلى الضمير على ما ذهب إليه الكوفيُّون؛ للاختصاص والتجافي عن التكرار.

وقرئ: «لا يسبُقُونَه» بضمِّ الباء الموحدة(٢) على أنَّه من باب المغالبة، يقال: سابَقَني فسبَقْتُه وأَسبُقُه، ويلزم فيه ضمُّ عينِ المضارع ما لم تكن عينُه أو لامُه ياءً، وفيه مزيدُ استهجانٍ للسبق، وإشعارٌ بأنَّ مَن سبقَ قولُه قولَه تعالى، فقد تصدَّى لمغالبتِه تعالى في السبق، وزيادةُ تنزيهٍ عمَّا نفي عنهم ببيانِ أنَّ ذلك عندهم بمنزلة الغَلَبة بعد المغالبة، فأنَّى يتوهَّم صدورُه عنهم.

﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾: بيانٌ لتبعيَّتهم له تعالى في الأعمال، إثْرَ بيان تبعيَّتهم له سبحانه في الأقوال، كأنَّه قيل: هم بأمره يقولون وبأمره يعملون، لا بغير أمرِه تعالى أصلًا، بأن يعملوا من تلقاءِ أنفسهم، فالحصر المستفادُ من تقديم الجارِّ بالنسبة إلى غير أمره تعالى، لا إلى أمرِ غيره سبحانه.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: استئناف وقع تعليلًا لما قَبله وتمهيداً لما بعده، كأنَّه قيل: إنَّما لَم يُقْدِموا على قول أو عمل بغيرِ أمره تعالى؛ لأنَّه سبحانه

(١) القراءات الشاذة ص٩١.
(٢) القراءات الشاذة ص٩١.

لا يَخفى عليه خافيةٌ مما قدَّموا أو أخَّروا، فلا يزالون يراقبونَ أحوالَهم حيث إنَّهم يعلمون ذلك.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ اللهُ تعالى أنْ يشفعَ له.

وهو كما أخرج ابنُ جرير، وابنُ المنذر، والبيهقي في «البعث»، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس: من قال: لا إلهَ إلا اللهُ[1]. وشفاعتهم الاستغفار، وهي كما في الصحيح تكون في الدنيا والآخرة[2].

ولا متمسَّك للمعتزلة في الآية على أنَّ الشفاعة لا تكون لأصحاب الكبائر، فإنَّها لا تدلُّ على أكثر من أَنْ لا يشفعوا لمن لا تُرتضى الشفاعةُ له، مع أنَّ عدمَ شفاعة الملائكة لا تدلُّ على عدم شفاعةِ غيرِهم.

﴿وَهُم﴾ مع ذلك ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ أي: بسبب خوفِ عذابِه عزَّ وجلَّ ﴿مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ متوقِّعون من أمارة ضعيفة، كائنون على حذرٍ ورِقْبَة، لا يأمنونَ مَكْرَ الله تعالى، فـ «من» تعليليَّة، والكلام على حذفِ مضاف، وقد يُراد من خشيته تعالى ذلك، فلا حاجةَ إليه.

وقيل: يحتمل أن يكون المعنى: إنَّهم يخشون اللهَ تعالى، ومع ذلك يحذرون من وقوعِ تقصير في خشيتِهم، وعلى هذا تكون «من» صلةً لـ «مشفقون».

وفرِّق بين الخشية والإشفاق؛ بأنَّ الأوَّل خوفٌ مشوب بتعظيم ومهابة، ولذلك خصَّ به العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، والثاني خوفٌ مع اعتناء، ويُعدَّى بـ «من» كما يعدَّى الخوف، وقد يُعدَّى بـ «على» بملاحظة الحنوِّ والعطف.

وزعم بعضهم أنَّ الخشيةَ هاهنا مجازٌ عن سببها، وأنَّ المرادَ من الإشفاق شدَّةُ الخوف، أي: وهم من مهابته تعالى شديدو الخوفِ، والحقُّ أنَّه لا ضرورةَ لارتكاب المجاز.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣١٧، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٥٢، والبعث للبيهقي (٢)، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٤٩ (١٣٦٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٣)، وأحمد (١١٨٩٨) من حديث أبي سعيد الخدري مطوَّلًا.

وجوّز أن يكون المعنى: وهم خائفون من خوفِ عذابِه تعالى، على أنَّ «من» صلة لما بعدها، وإضافةُ خشية إلى المضاف والمحذوف، مِن إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: خائفونَ من العذاب المخُوف، ولا يَخفى ما فيه من التكلُّف المستغنى عنه، ثم إنَّ هذا الإشفاقَ صفةٌ لهم دنيا وأُخرى، كما يُشعِر به الجملة الاسميَّة.

وقد كثرت الأخبارُ الدالَّة على شدَّة خوفِهم، ومن ذلك ما أَخرج ابنُ أبي حاتم عن جابر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليلةَ أُسريَ بي مررتُ بجبريلَ عليه السلام وهو بالملأِ الأَعلى ملقًى كالحِلْس البالي من خشيةِ الله تعالى»(١).

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي: من الملائكة عليهم السلام، وقيل: من الخلائق، والأوَّل هو الذي يقتضيه السياق، إذ الكلام في الملائكة عليهم السلام، وفي كونهم بمعزل عمَّا قالوه في حقِّهم، والمراد: ومَن يَقُل منهم على سبيل الفرض: ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: متجاوزاً إيَّاه تعالى ﴿فَذَٰلِكَ﴾ أي: الذي فُرض قولُه ما ذكر فرضٌ محالٌ ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ كسائرِ المجرمين، ولا يغني عنه ما سبق من الصفات السَّنِيَّة والأفعال المرضيَّة.

وعن الضحاك، وقتادة عدمُ اعتبارِ الفرض، وقالا: إنَّ الآيَةَ خاصَّة بإبليسَ ـ عليه اللعنة ـ فإنَّه دعا إلى عبادة نفسه وشَرَعَ الكفر.

والمعوَّل عليه ما ذكرنا، وفيه من الدلالة على قوَّة ملكوته تعالى، وعزَّة جبروته، واستحالة كونِ الملائكة بحيث يتوهَّم في حقِّهم ما يتوهَّم أولئك الكفرةُ، ما لا يَخفى.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣١٧، وأخرجه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (٦٢١)، والطبراني في الأوسط (٤٦٧٩). وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٧٨، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح.
وأخرجه أيضاً ابن خزيمة كما في الكافي الشاف ص١١٠ عن ابن مسعود بنحوه، وقوّى إسناده ابن حجر، وغلّط ابنَ الجوزي [في العلل المتناهية ٢/ ١٨٣] في تضعيفه لمحمد بن ميمون شيخ ابن خزيمة.
والحِلْس: كساء يكون تحت برذعة البعير. غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٢٩٢.

وقرأ أبو عبد الرحمن المقرئ: «نُجْزيه» بضمِّ النون[(١)]، أراد: نُجزئه، بالهمزة، مِن أَجزأني كذا: كفاني، ثم خفّف الهمزة، فانقلبت ياءً.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ مصدر تشبيهيٌّ مؤكِّد لمضمون ما قَبله، أي: مثل ذلك الجزاءِ الفظيع نَجزي الذين يضعون الأشياءَ في غير مواضِعها، ويتعدَّون أطوارَهم، والقَصْر المستفاد من التقديم يعتبر بالنسبة إلى النُّقصان دون الزيادة، أي: لاجزاءَ أنقصُ منه.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ تجهيلٌ لهم بتقصيرِهم عن التدبُّر في الآيات التكوينيَّة الدالَّة على عظيم قدرتِه وتصرُّفه، وكونِ جميعِ ما سواه مقهوراً تحت مَلَكوته على وجه ينتفعون به، ويعلمون أنَّ مَن كان كذلك لا ينبغي أن يعدلَ عن عبادته إلى عبادةِ حَجَر أو نحوِه مما لا يضرُّ ولا ينفع، والهمزة للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر.

وقرأ ابنُ كثير، وحميد، وابنُ محيصن بغير واو[(٢)].

والرؤية قلبيَّة، أي: أَلَم يتفكَّروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا﴾ الضمير للسماوات والأرض، والمراد من السماوات طائفتُها، ولذا ثنَّى الضميرَ ولم يجمع، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: ٤١] وكذا قول الأسود بن يعفر:

إنَّ المنيةَ والحُتُوفَ كلاهما ... دون المحارِمِ يَرقُبان سوادي[(٣)]

وأفردَ الخبر، أعني قولَه تعالى ﴿رَتْقًا﴾ ولم يُثَنَّ؛ لأنَّه مصدر، والحمل إمَّا بتأويله بمشتقٍّ، أو لقصد المبالغة، أو بتقدير مضاف، أي: ذاتَي رَتقٍ.

وهو في الأصل: الضَّمُّ والالتحامُ خِلْقةً كان أم صنعةً، ومنه: الرتقاءُ: الملتحمة محلَّ الجِماع.

---

(١) المحتسب ٢/ ٦١ بضمِّ الهاء والنون.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٠٨، وقراءة ابن كثير في التيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٣.

(٣) المفضليات ص٢١٦، ومنتهى الطلب ١/ ٤١٥، وجاء عجزه عندهما هكذا:

يوفي المخارمَ يرقبان سوادي

والحتوف: جمع حتف، وهو الموت. ويوفي: يعلو. والمخارم: جمع مخرم، وهو منقطع أنف الجبل. وسوادي: شخصي.

وقرأ الحسن، وزيد بنُ علي، وأبو حَيوة، وعيسى: رَتَقاً بفتح التاء[1]، وهو اسم المرتوق، كالنَّقْض والنَّقَض، فكان قياسه أن يثنَّى هنا؛ ليطابقَ الاسمَ، فقال الزمخشريُّ[2]: هو على تقدير موصوفٍ، أي: كانتا شيئاً رتقاً، وشيء اسمُ جنس شاملٌ للقليل والكثير، فيصحُّ الإخبار به عن المثنى كالجمع، ويحسنه أنَّه في حالة الرتقيَّة لا تعدُّدَ فيه.

وقال أبو الفضل الرازيُّ: الأكثر في هذا الباب أن يكون المتحرِّك منه اسماً بمعنى المفعول، والساكن مصدراً، وقد يكونان مصدرين، والأَولى هنا كونُهما كذلك، وحينئذٍ لا حاجةَ إلى ما قاله الزمخشريُّ في توجيه الإخبار.

وقد أُريد بالرتق على ما نُقلَ عن أبي مسلم الأصفهانيِّ[3] حالة العَدَم، إذ ليس فيه ذوات متميِّزة، فكأنَّ السماواتِ والأرضَ أمرٌ واحد متَّصل متشابه.

وأُريد بالفَتق ـ وأصلُه الفصلُ ـ في قوله تعالى: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَآ﴾ الإيجادُ لحصولِ التمييز وانفصالِ بعضِ الحقائق عن البعض به، فيكون كقوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] بناءً على أنَّ الفَطْر الشَّقُّ، وظاهره نفي تمايزِ المعدومات، والذي حقَّقه مولانا الكورانيُّ في «جلاء الفهوم» وذبَّ عنه حسَب جهده أنَّ المعدومَ الممكن متميِّز في نفسِ الأمر؛ لأنَّه متصوَّر، ولا يمكن تصوُّر الشيء إلا بتميُّزه عن غيره، وإلا لم يكن بكونه متصوَّراً أَولى من غيرِه، ولأنَّ بعضَ المعدومات قد يكون مراداً دونَ بعض، ولولا التميُّز بينها لما عقل ذلك، إذ القصدُ إلى إيجاد غيرِ المتعيَّن ممتنعٌ؛ لأنَّ ما ليس بمتعيَّن في نفسه، لم يتميَّز القصد إليه عن القصد إلى غيره، وقد يقال على هذا: يكفي في تلك الإرادة عدمُ تمايز السماوات والأرض في حالة العدم، نظراً إلى الخارج المشاهد.

وأيًّا ما كان، فمعنى الآية: ألم يعلموا أنَّ السماوات والأرضَ كانتا معدومتَيْن، فأوجدناهما، ومعنى علمهم بذلك: تمكُّنهم من العِلْم به بأدنى نظرٍ؛ لأنَّهما ممكنان،

---

(١) القراءات الشاذة ص٩١، والمحتسب ٢/ ٦١.
(٢) الكشاف ٢/ ٥٧٠.
(٣) ونقله عنه الرازي في تفسيره ٢٢/ ١٦٣.

والمُمكن باعتبار ذاتِه وحدها يكون معدوماً، واتِّصافه بالوجود لا يكون إلا من واجبِ الوجود.

قال ابن سينا في المقالة الثامنة من إلهيات[1] «الشفاء»: سائرُ الأشياء غير واجبِ الوجود لا تستحقُّ الوجودَ، بل هي في أنفسها، ومع قطع إضافتِها الى الواجب تستحقُّ العدم، ولا يعقل أن يكون وجودُ السماوات والأرض مع إمكانهما الضروريِّ عن غيرِ علَّة.

وأما ما ذهب اليه ذيمقراطيس من أنَّ وجودَ العالم إنَّما كان بالاتفاق، وذلك لأنَّ مباديه أجرامٌ صغار لا تتجزَّأ لصلابتها، وهي مبثوثة في خلاءٍ غيرِ متناهٍ، وهي متشاكلةُ الطبائع، مختلفة الأشكال، دائمةُ الحركة، فاتفق أَنْ تضامَّت جملةٌ منها واجتمعت على هيئةٍ مخصوصة، فتكوَّن منها هذا العالَم = فضَرْبٌ من الهَذَيان.

ووافقه عليه ـ على ما قيل ـ أبناذقلس، لكنَّ الأوَّل زعم أن تكوُّن الحيوانِ والنبات ليس بالاتفاق، وهذا زعمَ أن تكوُّن الأجرام الأسطقسية بالاتفاق أيضاً، إلا أنَّ ما اتفقَ إن كان ذا هيئةٍ اجتماعيَّة على وجه يَصلحُ للبقاء والنسل، بقي، وما اتفق إن لم يكن كذلك، لم يَبْق.

وهذا الهذيان بعيدٌ من هذا الرجل، فإنَّهم ذكروا أنَّه من رؤوساء يونان، كان في زمن داودَ عليه السلام، وتلقَّى العِلْم منه، واختلف إلى لقمانَ الحكيم واقتبسَ منه الحكمةَ، ثم إنَّ وجودَهما عن العلَّة حادثٌ، بل العالم المحسوسُ منه، وغيرُه حادثٌ حدوثاً زمانيًّا بإجماع المسلمين وما يتوهَّم من بعضِ عبارات بعض الصوفيَّة من أنَّه حادث بالذات قديمٌ بالزمان، مصروفٌ عن ظاهرِه، إذ هم أجلُّ من أن يقولوا به، لما أنَّه كفر.

والفلاسفة في هذه المسألة على ثلاثةِ آراء:

فجماعة من الأوائل الذين هم أساطين من الملطية وساميا صاروا إلى القول بحدوثِ موجودات العالم مباديها وبسائطها ومركَّباتها.

---

(١) في (م): الهيئات.

وطائفة من الأثينينية وأصحابِ الرواق صاروا إلى قِدَمِ مباديها من العقل والنفس والمفارقات والبسائط، دون المتوسِّطات والمركبات، فإنَّ المبادي عندهم فوق الدهر والزمان، فلا يتحقَّق فيها حدوث زماني، بخلاف المركّبات التي هي تحت الدهر والزمان، ومنعوا كونَ الحركات سرمديَّة.

ومذهب أرسطو ومَن تابعه مِن تلامذته أنَّ العالَمَ قديمٌ، وأنَّ الحركات الدوريَّة سرمديَّةٌ، وهذا بناء على المشهور عنه، وإلا فقد ذكر في «الأسفار»[1] أنَّ أساطينَ الحكمة المعتبرين عند الطائفة ثمانيةٌ، ثلاثة من الملطيين: ثالس، وانكسيمانس، وأغاثاذيموس، وخمسة من اليونانيين: أَنْباذُقْليس، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وكلُّهم قائلون بما قال به الأنبياءُ عليهم السلام وأتباعهم مِن حدوثِ العالَم بجميع جواهره وأعراضه، وأَفلاكه وأَملاكه، وبسائطه ومركَّباته، ونقل عن كلٍّ كلمات تؤيِّد ذلك، وكذا نقل عن غيرِ أولئك من الفلاسفة، وأطال الكلام في هذا المقام، ولولا مخافةُ السآمة، لنقلتُ ذلك، ولعلِّي أنقل شيئاً منه في محلِّه الأليق به، إن شاء الله تعالى.

وجاء عن ابنِ عباس في رواية عكرمة، والحسن، وقتادة، وابن جبير، أنَّ السماواتِ والأرضَ كانتا شيئاً واحداً ملتزقَتَيْن، ففصَل اللهُ تعالى بينهما، ورفَع السماء إلى حيث هي، وأَقرَّ الأرضَ.

وقال كعب: خلق اللهُ تعالى السماوات والأرضَ ملتصقتَيْن[2]، ثم خَلَق ريحاً فتوسطهما ففتقهما.

وعن الحسن: خلق اللهُ تعالى الأرضَ في موضعِ بيت المقدس كهيئة الفِهْر[3]، عليها دخان ملتصِق بها، ثم أصعدَ الدخانَ وخلَق منه السماوات، وأَمسكَ الفهر في موضعها، وبسط منها الأرض، وذلك قوله تعالى: «كانتا رَتْقاً ففتقناهما» فجعل سبع سماوات، وكذلك الأرض كانت مرتَّقة طبقةً واحدة، ففتقها، فجعلها سبعَ أرضين، والمراد من العِلْم على هذه الأقوال التمكُّن منه أيضاً إلا أنَّ ذلك ليس

(١) وهو لصدر الدين الشيرازي كما سيذكر ذلك المؤلِّف ص ٨٢.
(٢) في الأصل: ملتزقتين.
(٣) الفِهْر: الحَجَر قَدْرَ ما يُدقُّ به الجوز، أو ما يملأُ الكفَّ. القاموس (فهر).

بطريق النظر، بل بالاستفسار من علماءِ أهل الكتاب الذين كانوا يُخالطونهم ويَقبلُون أقوالَهم، وقيل بذلك أو بمطالعة الكتبِ السماوية، ويَدخُل فيها القرآنُ وإن لم يَقبلُوه؛ لكونه معجزةً في نفسه، وفي ذلك دغدغةٌ لا تَخفى.

وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في «الحلية» مِن طريق عبد الله بنِ دينار، عن ابنِ عمر: أنَّ رجلًا أتاه فسأله عن الآية، فقال: اذهب إلى ذلك الشيخِ فاسْأَله، ثم تعالَ فأخبرني. وكان ابنَ عباس، فذهب إليه فسأَلَهُ فقال: نَعَم كانت السماوات رتقاً لا تُمطِر، وكانت الأرضُ رتقاً لا تُنبِت، فلما خلَق الله تعالى للأرض أهلًا فتقَ هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجلُ إلى ابنِ عمر فأَخبره، فقال ابنُ عمر: الآنَ علمتُ أنَّ ابنَ عباس قد أُوتيَ في القرآن علمًا، صدق ابنُ عباس هكذا كانت[١]. وروى عنه ما هو بمعنى ذلك جماعةٌ منهم الحاكم وصحَّحه[٢]، وإليه ذهب أكثر المفسِّرين.

وقال ابن عطيَّة[٣]: هو قولٌ حسنٌ، يَجمع العبرةَ والحجَّة وتعديدَ النعمة، ويناسب ما يُذكَر بعد. والرَّتْق والفَتْق مجازيان عليه، كما هما كذلك على الوجه الأوَّل.

والمراد بالسماوات جهةُ العلوِّ أو سماء الدنيا، والجمع باعتبار الآفاق، أو من باب: ثوبٌ أخلاقٌ[٤]، وقيل: هو على ظاهره، ولكلٍّ من السماوات مدخل في المطر.

والمراد بالرؤية العِلْم أيضاً، وعِلْم الكفرة بذلك ظاهر. وجوّز أن تكون الرؤيةُ بصريَّةً، وجَعلها علميَّة أَولى.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣١٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٥٠ (١٣٦٣٩)، وحلية الأولياء ١/ ٣٢٠.

(٢) مستدرك الحاكم ٢/ ٣٨٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: طلحة بن عمرو واهٍ. اهـ. وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣١٧ إلى الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الأسماء والصفات، والحاكم.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٨٠.

(٤) قال ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٦٢١: قال الكسائي: وإنما قالوا: ثوبٌ أخلاقٌ، أرادوا أن نواحيَه أخلاق فلذلك جُمع. اهـ. والثوب الخَلَق: البالي. القاموس (خلق).

ومن البعيد ما نقل عن بعض علماء الإسلام أنَّ الرَّتْقَ: انطباقُ منطقتي الحركتين الأُولى والثانية، الموجب لبطلان العمارات وفصول السنة. والفَتْق: افتراقهما المقتضي لإمكان العمارة، وتميُّز الفصول. بل لا يكاد يصحُّ على الأصول الإسلاميَّة التي أصَّلَها السلف الصالح كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ عطف على «أن السموات» إلخ، ولا حاجةَ إلى تكلُّف عطفِه على فتقنا، والجعل بمعنى الخَلْق المتعدِّي لمفعول واحد، و«من» ابتدائية.

والماء: هو المعروف، أي: خلقنا من الماء كلَّ حيوان، أي: متَّصف بالحياة الحقيقيَّة. ونقل ذلك عن الكلبيِّ[1] وجماعة، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]، ووجه كونِ الماء مبدأ ومادةً للحيوان وتخصيصه بذلك، أنَّه أعظمُ مواده، وفَرْطُ احتياجِه إليه وانتفاعه به بعينه، ولا بُدَّ من تخصيص العامِّ؛ لأنَّ الملائكةَ عليهم السلام ـ وكذا الجنُّ ـ أحياءٌ، وليسوا مخلوقينَ من الماء، ولا محتاجينَ إليه، على الصحيح.

وقال قتادة: المعنى: خلقنا كلَّ نام من الماء، فيدخل النباتُ، ويراد بالحياة النموُّ أو نحوه، ولعلَّ من زعم أنَّ في النبات حسًّا وشعوراً، أَبقى الحياةَ على ظاهرها.

وقال قطرب وجماعة: المراد بالماء النطفةُ، ولا بُدَّ من التخصيص بما سوى الملائكةِ عليهم السلام والجنِّ أيضاً، بل بما سوى ذلك والحيواناتِ المخلوقة من غيرِ نطفة كأكثر الحشرات الأرضيَّة.

ويجوز أن يكون الجعل بمعنى التصيير المتعدِّي لمفعولين، وهما هنا: «كل» و«من الماء»، وتقديم المفعول الثاني؛ للاهتمام به، و«من» اتصاليَّة كما قيل في قوله ﷺ: «ما أنا مِن دَدٍ، ولا الدَّدُ منِّي»[2]. والمعنى: صيَّرنا كلَّ شيء حيٍّ متصلًا

---

(١) في كتابه التسهيل لعلوم التنزيل ٣/ ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٥)، والبزار (٢٤٠٢ كشف الأستار)، والطبراني في الكبير ١٩/ (٧٩٤)، وفي الأوسط (٤١٣) بلفظ: «لستُ من دَدٍ، ولا دَدٌ منِّي». يعني: لست من باطل، ولا باطلٌ منِّي.

=

بالماء، أي: مخالطاً له غيرَ منفكٍّ عنه، والمراد أنَّه لا يَحيا دونه، وجوَّز أبو البقاء[1] على الوجه الأوَّل أن يكون الجارُّ والمجرور في موضع الحال من «كل» وجعل الطيبيُّ «من» على هذا بيانيَّة تجريديَّة، فيكون قد جرّد من الماء الحيِّ، مبالغة كأنَّه هو.

وقرأ حميد: «حيًّا» بالنصب[2]، على أنَّه صفة «كل» أو مفعول ثانٍ لجعل، والظرف متعلِّق بما عنده لا بحيًّا، والشيء مخصوصٌ بالحيوان؛ لأنَّه الموصوفُ بالحياة، وجوّز تعميمه للنبات.

وأنت تَعلَم أنَّ مِن الناس من يقول: إنَّ كلَّ شيءٍ من العلويَّات والسفليَّات حيٌّ حياةً لائقة به، وهم الذين ذهبوا إلى أنَّ تسبيحَ الأشياء المفادَ بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] قاليٌّ لا حاليٌّ، وإذا قيل بذلك، فلا بُدَّ من تخصيص الشيء أيضاً، إذ لم يجعل من الماء كلَّ شيءٍ حيًّا، ولم أقف على مخالِف في ذلك منَّا، نعم نقل عن ثالس المَلَطي ـ وهو أوَّل من تفلسفَ بمَلَطْية ـ أنَّ أصلَ الموجودات الماءُ حيث قال: الماءُ قابلُ كلِّ صورةٍ، ومنه أُبدِعت الجواهرُ كلُّها من السماء والأرض[3]. انتهى.

ويمكن تخريجه على مشرب صوفيٍّ بأن يقال: إنَّه أراد بالماء الوجودَ الانبساطيَّ المعبَّر عنه في اصطلاح الصوفيَّة بالنفس الرحماني، وحينئذٍ لو جُعلت الإشارةُ في الآية إلى ذلك عندهم، لم يَبعُد.

= قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٤: رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفيه: يحيى بن محمد بن قيس، وقد وثق، ولكن ذكروا هذا الحديث من منكرات حديثه، والله أعلم. وقال الذهبي: قد تابعه عليه غيره.

وقال ابن حجر في الكافي الشاف ص١١٠: وقال ابن أبي حاتم: رواه الدراوردي عن عمرو، عن المطلب، عن معاوية نحوه مرفوعاً. ونقل عن أبيه وأبي زرعة أن رواية الدراوردي أشبه بالصواب.

(١) الإملاء ٣/ ٦١٥.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٠٩.

(٣) الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٦٢-٦٣، ومَلَطْية: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام. معجم البلدان ٥/ ١٩٢-١٩٣.

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ إنكارٌ لعدم إيمانِهم بالله تعالى وحدَه مع ظهورِ ما يوجبه حتماً من الآيات، والفاء للعطف على مقدَّر يستدعيه الإنكار، أي: أَيعلمون ذلك فلا يؤمنون؟!

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ، جمع راسِيَة، من رَسَا الشيءُ: إذا ثبت ورَسَخ، ووَصْفُ جمعِ المذكَّر بجمع المؤنَّث في غيرِ العقلاء ممَّا لا ريبَ في صحَّته.

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: كراهَة أن تتحرَّك وتَضْطَرب بهم، أو لئلَّا تميدَ بهم، فحذف اللام و«لا»؛ لعدم الإلباس، وهذا مذهب الكوفيين، والأوَّل أولى.

وفي «الانتصاف»[1] أَولى من هذين الوجهين، أن يكون مثل قولك: أعددتُ هذه الخشبةَ أن يميلَ الحائطُ، على ما قال سيبويه، من أنَّ معناه: أعدَدْتها أن أدعمَ الحائطَ بها إذا مَالَ، وقدَّم ذِكْر المَيْل[2]؛ عنايةً بأمرِه، ولأنَّه السبب في الإدعام، والإدعام سببُ إعدادِ الخشبة، فعومل سببُ السببِ معاملةَ السبب، فكذا فيما نحن فيه، يكون الأصل: وجعلنا في الأرض رواسيَ أَنْ نثبتها إذا مادتْ بهم، فجعل المَيْدَ هو السببَ، كما جعل الميلَ في المثال سبباً، وصار الكلام: وجعلنا في الأرض رواسيَ أن تميدَ بهم، فنثبتها، ثم حذف: فنثبتها؛ لأَمْنِ الإلباس إيجازاً، وهذا أقربُ إلى الواقع مما ذكر أوَّلًا، فإنَّ مقتضاه أنْ لا تميدَ الأرض بأهلها؛ لأنَّ اللهَ تعالى كَرِهَ ذلك، ومحالٌ أن يقعَ ما يَكرهه سبحانه، والمشاهدة بخلافِه، فكم من زلزلةٍ أَمادت الأرضَ حتى كادت تنقلب، وعلى ما ذكرنا يكون المراد: إنَّ الله تعالى يُثبِّت الأرضَ بالجبال إذا مادت، وهذا لا يأبى وقوعَ الميد، لكنَّه ميدٌ يستعقبه التثبيتُ، وكذلك الواقع من الزلزال إنَّما هو كاللَّمحة، ثم يثبِّتها اللهُ تعالى. انتهى.

وفي «الكشف»: إنَّ قولهم: كراهةَ أن تميدَ، بيانٌ للمعنى، لا أنَّ هناك إضمار ألبتة، ولهذا كان مذهبُ الكوفيين خليقاً بالرَّدِّ، وما في «الانتصاف» من أنَّ الأَولى

---

(١) ٢/ ٥٧٠.
(٢) في (م): الميد.

أن يكون من باب: أعددتُ الخشبة أن يميلَ الحائطُ، على ما قرَّر، راجعٌ إلى ما ذكرناه، ولا مخالفَ له، أمَّا ما ذكره من الرَّدِّ بمخالفة الواقعِ المشاهد، فليس بالوجه؛ لأنَّ ميدودةَ الأرض غيرُ كائنة ألبتة، وليست هذه الزلازلُ منها في شيء. انتهى.

وهو كلام رصين كما لايَخفى، وقد طعن بعضُ الكفرةِ المعاصرين فيما دلَّت عليه الآيةُ الكريمة بأنَّ الأرضَ لطلبها المركزَ طبعاً ساكنةٌ لا يتصوَّر فيها الميدُ، ولو لم يكن فيها الجبال؟.

وأُجيب أوَّلًا بعد الإغماض عمَّا في دعوى طلبها المركزَ طبعاً وسكونِها عنده من القِيل والقال، يجوز أن يكون اللهُ تعالى قد خلَق الأرضَ يوم خَلَقها عريَّةً عن الجبال مختلفةَ الأجزاء ثِقَلًا وخفَّة، اختلافاً تامًّا، أو عرضَ لها الاختلاف المذكور، ومع هذا لم يجعل سبحانه لمجموعِها من الثِّقَل ما لايظهر بالنسبة إليه ثِقَل ما عَلِم جلَّ وعلا أنَّه يتحرَّك عليها من الأجسام الثقيلة، فيكون لها مركزان متغايران، مركزُ حجمٍ، ومركزُ ثِقَلٍ، وهي إنَّما تطلب بطبعِها عندهم أن ينطبقَ مركزُ ثِقَلها على مركزِ العالم، وذلك وإن اقتضى سكونها إلا أنَّه يلزم أن تتحرَّك بتحرُّك هاتيك الأجسام، فخلَق جلَّ جلاله الجبالَ فيها ليحصلَ لها من الثِّقَل مالا يظهر معه ثقلُ المتحرِّك، فلا تتحرَّك بتحركه أصلًا، وكون نسبة ارتفاعِ أعظم الجبال إلى قُطْرها كنسبة سبعِ عَرْضِ شعيرةٍ إلى ذراعٍ، إنَّما ينفع في أمر الكريَّة الحسيَّة، وأمَّا أنَّه يلزم منه أن لا يكونَ لمجموعِ الجبالِ ثِقَلٌ معتدٌّ به بالنسبة إلى ثقل الأرض، فلا.

ثم ليس خَلق الجبال لهذه الحكمةِ فقط، بل لحِكَمٍ لا تُحصى ومنافعَ لا تستقصى، فلا يقال: إنَّه يغني عن الجبالَ خلقها بحيث لا يظهر للأجسام الثقيلة المتحرِّكة عليها أثرٌ بالنسبة إلى ثِقَلها.

وثانياً: أنَّها بحسَب طبعِها تقتضي أنْ تكون مغمورةً بالماء، بحيث تكون الخطوطُ الخارجة من مركزها المنطبق على مركزِ العالم إلى محدَّب الماء متساويةً من جميع الجوانب، فبروز هذا المقدارِ المعمورِ منها قسريٌّ، ويجوز أن يكون للَجبال مدخلٌ في القَسْر باحتباس الأبخرة فيها، وصيرورةِ الأرض بسبب ذلك،

كزِقٍّ[(١)] في الماء نفخ نفخاً ظهر به شيءٌ منه على وجه الماء، ولولا ذلك لم يكن القَسْر قويًّا بحيث لا يعارضه ما يكون فوق الأرض من الحيوانات وغيرِها، وذلك يوجب المَيْدَ الذي قد يفضي بها إلى الانغمارِ، فتأمَّل، وقد مرَّ لك ما يتعلَّق بهذا المطلب، فتذكَّر.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، وتكرير الفعلِ لاختلاف المجعولين، مع ما فيه من الإشارة إلى كمال الامتنانِ، أو في الرواسي على ما أخرجه ابنُ جرير، وابنُ المنذر، عن ابنِ عباس[(٢)]، ويؤيِّده أنَّها المحتاجة لأنْ يجعل سبحانَه فيها ﴿فِجَاجًا﴾ جمع فجٍّ، قال الراغب[(٣)]: هو شُقَّة يكتنفها جبلان. وقال الزجَّاج[(٤)]: كلُّ مخترق بين جبلَيْن، فهو فجٌّ.

وقال بعضهم: هو مطلَق الواسع، سواء كان طريقاً بين جبلَيْن أم لا، ولذا يقال: جرح فجٌّ.

والظاهر أنَّ «فجاجاً» نصب على المفعوليَّة لـ «جعل».

وقوله سبحانه: ﴿سُبُلًا﴾ بدلٌ منه، فيدلُّ ضمناً على أنَّه تعالى خَلَقها ووسَّعها للسابلة مع ما فيه من التأكيد؛ لأنَّ البدلَ كالتكرار، وعلى نيَّة تكرار العامل، والمبدَل منه ليس في حكم السقوط مطلقًا.

وقال في «الكشاف»[(٥)]: هو حال من «سبلاً»، ولو تأخَّر لكان صفةً، كما في قوله تعالى في سورة نوح: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [الآية: ٢٠] وإنَّما لم يُؤتَ به كذلك، بل قدِّم فصار حالًا؛ ليدلَّ على أنَّه في حال جَعْلها سبلًا كانت واسعةً، ولو أتى به صفةً، لم يدلَّ على ذلك.

وأَوجب بعضُهم كونَه مفعولًا، وكون «سبلًا» بدلًا منه، وكذا أَوجب في قوله تعالى: «لتسلكوا» إلخ، كون «سبلًا» مفعولًا، وكون «فجاجاً» بدلًا، قائلًا: إنَّ الفجَّ

---

(١) الزِّقُّ: السِّقاء، أو جِلْدٌ يُجَزُّ ولا ينتف للشراب وغيره. القاموس (زقق).

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣١٨، وتفسير الطبري ١٦/ ٢٦٢.

(٣) في المفردات (فجج).

(٤) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٣٩٠.

(٥) ٢/ ٥٧٠.

اسمٌ لا صفةٌ، لدلالتِه على ذات معيَّنة، وهو الطريق الواسع، والاسم يُوصَف ولا يُوصَف به، ولذا وقع موصوفاً في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] والحمل على تجرِيده عن دلالتِه على ذات معيَّنة لا قرينةَ عليه.

وتُعقِّب بأنَّا لا نُسلِّم أنَّ معناه ذلك، بل معناه مطلَق الواسع، وتخصيصُه بالطريق عارض، وهو لا يمَنع الوصفيَّة، ولو سلِّم فمراد من قال: إنَّه وصف، أنَّه في معنى الوصف بالنسبة إلى السبيلِ؛ لأنَّ السبيلَ الطريقُ، وهو الطريقُ الواسع، فإذا قُدِّم عليه، يكون ذكرُه بَعْدُ لغواً لو لم يكن حالاً.

وظاهر كلام الفاضل اليمني في «المطلع»(١) أنَّ «سبلًا» عطفُ بيانٍ، وهو سائغٌ في النكرات، حيث قال: هو تفسيرٌ للفجاج، وبيان أنَّ تلك الفجاجَ نافذةٌ، فقد يكون الفجُّ غيرَ نافذ، وقُدِّم هنا وأُخِّر في آية سورة نوحٍ؛ لأنَّ تلك الآيةَ واردةٌ للامتنان على سبيلِ الإجمال، وهذه للاعتبار والحثِّ على إمعان النظر، وذلك يقتضي التفصيل، ومن ثم ذُكرت عَقِبَ قوله تعالى: «كانتا رتقاً» إلخ. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ الأظهر نصبُ «فجاجاً» هنا على المفعوليَّة لـ «جعل»، ووجه التغاير بين الآيتين لا يَخفى، فتأمَّل.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١﴾ إلى الاستدلالِ على التوحيد وكمالِ القدرة والحكمة، وقيل: إلى مصالِحهم ومهمَّاتِهم.

ورُدَّ على ما تقدَّم بأنَّه يغني عن ذلك قولُه تعالى فيما بَعْدُ: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الآية: ٣١] وبأنَّ خَلْق السُّبُل لا تظهر دلالته على ما ذكر. انتهى. وفيه ما فيه.

وجوِّز أن يكون المرادُ ما هو أعمّ من الاهتداء إلى الاستدلالِ والاهتداء إلى المصالح. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾ من البِلَى والتغيُّر على طول الدهر، كما روي عن قتادة، والمراد أنَّها جُعلت محفوظةً عن ذلك الدهر الطويل، ولا ينافيه أنَّها تُطوى يومَ القيامة طيَّ السِّجل للكُتُب، وإلى تغيُّرها ودثورها ذهب جميعُ

---

(١) ونقله عنه الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٦/ ٣٥٣.

المسلمين ومعظمُ أَجِلَّة الفلاسفة، كما برهن عليه صدرُ الدين الشيرازي في «أسفاره» وسنذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في محلِّه[1].

وقيل: من الوقوع. وقال الفرَّاء: من استراقِ السمع بالرُّجوم. وقيل عليه: إنَّه يكون ذِكْرُ السقف لغواً لا يناسب البلاغةَ فضلًا عن الإعجاز، وذكر في وجهه أنَّ المراد أنَّ حِفْظها ليس كحفظ دورِ الأرض، فإنَّ السُّرَّاق ربَّما تسلَّقت من سقوفِها، بخلافِ هذه.

وقيل: إنَّه للدلالة على حِفْظها عمَّن تحتها، ويدلُّ على حفظها عنهم على أتمِّ وجه، وفي الحديث عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ نَظَرَ إلى السماء، فقال: «إنَّ السماءَ سقفٌ مرفوعٌ، وموجٌ مكفوف، تجري كما يجري السهم، محفوظة من الشياطين»[2] وهو إذا صحَّ لا يكون نصًّا في معنى الآية، كما زعم أبو حيَّان[3]، وقيل: من الشرك والمعاصي، ويَرِدُ عليه ما أُورد على سابقه، كما لا يخفى.

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ الدالَّة على وحدانيتِنا وعِلْمنا، وحكمتنا وقدرتنا، وإرادتنا التي بعضُها ظاهر كالشمس، وبعضها معلومٌ بالبحث عنه ﴿مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ذاهلونَ عنها لايجيلونَ قِدَاحَ الفِكْر فيها.

وقرأ مجاهد، وحميد: «عن آيتها» بالإفراد[4]، ووجِّه بأنَّه لما كان كلُّ واحد ممَّا فيها كافياً في الدلالة على وجودِ الصانع وصفاتِ كماله، وحِّدت الآيةُ لذلك، وجُعل الإعراضُ على هذه القراءة بمعنى إنكارِ كونها آيةً بيِّنةً دالَّة على الخالق،

---

(١) في الصفحة ٢١٠ من هذا الجزء.

(٢) هكذا أورده أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٠٩، وقال بعده: وإذا صحَّ هذا الحديث، كان نصاً في معنى الآية. اهـ. وردَّ كلامه الآلوسي كما سيأتي قريباً.
وأخرجه أحمد (٨٨٢٨)، والترمذي (٣٢٩٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ضمن حديث طويل، بلفظ: «هل تدرون ما فوقكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها الرقيع، سقف محفوظ، وموج مكفوف» ثم قال: «هل تدرون كم بينكم وبينها»؟ قالوا: . . . . الحديث.
قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(٣) انظر التعليق السابق.

(٤) القراءات الشاذة ص٩١.

كما يشير إليه قوله في «الكشاف»[(١)] أي: هم متفطِّنون لما يَرِدُ عليهم من السماء من المنافع، وهم عن كونها آيةً بيِّنة على الخالق معرضون، وليس بلازم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ اللَّذين هما آيتاهما، ولذا لم يعدَّ الفعل بياناً لبعض تلك الآياتِ التي هم عنها معرضون بطريق الالتفاتِ الموجِب لتأكيد الاعتناءِ بفحوى الكلام، ولمَّا كان إيجادُ الليل والنهار ليس على نمطِ إيجاد الحيوانات وإيجادِ الرواسي، لم يتَّحد اللفظُ الدالُّ على ذلك، بل جيء بالجعل هناك، وبالخلق هنا، كذا قيل، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ، وتنوينه عوضٌ عن المضاف إليه، واعتبره صاحب «الكشاف» مفرداً نكرة، أي: كلٌّ واحدٍ من الشمس والقمر.

واعترض بأنَّه قد صرَّح ابنُ هشامٍ في «المغني»[(٢)] بأنَّ المقدَّر إذا كان مفرداً نكرةً، يجب الإفراد في الضمير العائدِ على «كلٌّ» كما لو صرَّح به. وهنا قد جُمعَ فيجب على هذا اعتباره جمعاً معرّفاً، أي: كلُّهم، ومتى اعتبر كذلك، وجب عند ابنِ هشام جمع العائد، وإن كان لو ذكر، لم يجب، ووجوب الإفرادِ في المسألة الأولى والجمعِ في الثانية؛ للتنبيه على حالِ المحذوف.

وأبو حيَّان[(٣)] يجوِّز الإفراد والجمعَ مطلقاً، فيجوِّز هنا اعتبارَ المضاف إليه مفرداً نكرة مع جمعِ الضمير بَعْدُ، كما فعل الزمخشريُّ[(٤)]، وهو من تعلم عُلوَّ شأنه في العربيَّة.

وقوله سبحانه: ﴿فِى فَلَكٍ﴾ خبرُه، ووَجْه إفرادِه ظاهر؛ لأنَّ النكرة المقدَّرة للعموم البدليِّ لا الشموليِّ، ومن قدَّر جمعاً معرَّفاً، قال: المراد به الجنسُ الكليُّ المؤوَّل بالجمع، نحو: كساهم حلَّة، بناءً على أنَّ المجموعَ ليس في فلكٍ واحد.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ حالٌ؛ ويجوز أن يكون الخبرَ، و«في فلك»

---

(١) ٢/ ٥٧١.
(٢) ص٢٥٧-٢٥٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣١٠.
(٤) الكشاف ٢/ ٥٧١.

حالًا أو متعلِّقاً به، وجملة «كلٌ» إلخ حال من «الشمس والقمر»، والرابط الضميرُ دون واوٍ، بناءً على جواز ذلك من غير قبح، ومن استقبحه جعلَها متسأنفَةً، وكان ضميرُهما جمعاً اعتباراً للتكثير بتكاثر المطالع، فيكون لهما نظراً إلى مفهومِهما الوضعيِّ أفرادٌ خارجيَّة بهذا الاعتبار لا حقيقةً، ولهذا السبب يقال: شموس وأقمار، وإن لم يكن في الخارج إلا شمسٌ واحد، وقمرٌ واحد، والذي حسَّن ذلك هنا توافقُ الفواصل.

وزعم بعضُهم أنَّه غُلِّب القمران؛ لشرفِهما على سائر الكواكب، فجمعَ الضمير لذلك.

وقيل: الضمير للنجوم، وإن لم تُذكَر؛ لدلالة ما ذُكر عليها.

وقيل: الضميرُ للشمسِ والقمر والليل والنهار، وفيه أنَّ الليلَ والنهارَ لا يَحسُن وصفُهما بالسِّباحة وإن كانت مجازاً عن السير، واختيار ضميرِ العقلاء؛ إمَّا لأنَّهما عقلاء حقيقةً، كما ذهب إليه بعضُ المسلمين كالفلاسفة، وإمَّا لأنَّهما عقلاء ادِّعاءً وتنزيلًا، حيث نَسب إليهما السباحةَ، وهي من صنائع العقلاء.

والفَلَكُ في الأصل: كلُّ شيء دائر، ومنه: فَلْكَة المِغْزَل، والمراد به هنا على ما روي عن ابن عباس، والسديِّ ﷺ: السماءُ.

وقال أكثرُ المفسِّرين: هو موج مكفوفٌ تحتَ السماء يجري فيه الشمس والقمر. وقال الضحَّاك: هو ليس بجسم، وإنَّما هو مدارُ هذه النجوم، والمشهور ما روي عن ابن عباس، والسديِّ، وفيه القولُ باستدارةِ السماء، وفي «كلٌّ في فلك» رمز خفيٌّ إليه، فإنَّه لا يستحيل بالانقلاب، وعليه أدلَّة جمَّة، وكونها سقفاً لا يأبى ذلك.

وقد وقع في كلام الفلاسفة إطلاق الفَلَك على السماء، ووصفوه بأنَّه حيٌّ عالِمٌ مُتحرِّك بالإرادة حركةً مستديرة لا غير، ولا يَقبلُ الكونَ والفسادَ والنموَّ والذبولَ والخرقَ والالتئامَ، ونوعه منحصِر في شخصِه، وأنَّه لا حارٌّ ولا بارد، ولا رَطْب ولا يابس، ولا خفيفٌ ولا ثقيل، وأكثر هذه الأوصاف متفرِّع على أنَّه ليس في طباعه ميلٌ مستقيم.

وقد رُدَّ ذلك في الكتب الكلاميَّة، وبَنَوا على امتناع الخَرْق والالتئام أنَّ الكوكبَ لا يتحرَّك إلا بحركة الفَلَك، ولمَّا رَأَوْا حركاتٍ مختلفةً، قالوا بتعدُّد الأفلاك، والمشهور أنَّ الأفلاكَ الكليَّة تسعةٌ، سبعة للسبع السيَّارة، وواحد للثوابت، وآخَرُ لتحريك الجميع الحركةَ اليومية، والحقُّ أنَّه لا قاطعَ على نفي ما عدا ذلك، ألا ترى أنَّ الشيخَ الرئيسَ لم يظهر له أنَّ الثوابت في كرةٍ واحدة، أو في كرات منطوٍ بعضُها على بعض.

وقولهم: إنَّ حركاتِ الثوابت متشابهةٌ، ومتى كانت كذلك، كانت مركوزةً في فَلَك واحدٍ، غير يقيني، أما صُغْراه فلأنَّ حركاتها وإن كانت في الحسِّ متشابهةً، لكن لعلَّها لا تكون في الحقيقة كذلك، لأنَّا لو قدَّرنا أنَّ الواحدةَ منها تتمِّم الدورةَ في ستٍّ وثلاثين ألفَ سنةٍ، والأخرى تتمِّمها في هذا الزمان، لكن بنقصان عاشرة، أو أقلَّ، فالذي يخصُّ الدرجةَ الواحدة من هذا القَدْر من التفاوت يَقِلُّ جدًّا بحيث لا تفي أعمارُنا بضبطه، وإذا احتمل ذلك، سقط القَطْع بالتشابه، ومما يزيد ذلك سقوطاً والاحتمالَ قوَّة، وجدانُ المتأخِّرين من أهل الأرصاد كوكباً أسرعَ حركةً من الثوابت وأبطأَ من السَّيارة، سمَّوه بهرشل[١]، ولم يظفر به أحدٌ من المتقدِّمين في الدهور الماضية، وأما كبراه، فلاحتمالِ اشتراك الأشياء المختلفة في كثير من اللوازم، فيجوز أنَّ لكلٍّ فلكاً على حِدَة، وتكون تلك الأفلاكُ متوافقةً في حركاتها جهةً وقطباً، ومنطقة وبطئاً[٢]، ثمَّ إنَّ الاحتمال غيرُ مختصٍّ بفلك الثوابت، بل حاصل في كلِّ الأفلاك، فيجوز أن يكون بين أفلاكِ السيَّارة أفلاكٌ أُخَر.

وما يقال في إبطاله من أنَّ أقربَ قُرْبِ كلِّ كوكب يساوي أبعدَ بُعْدِ كلِّ الكواكب التي فُرضت تحته، ليس بشيء؛ لأنَّ بين أبعدِ بُعْدِ القمر وأقربِ قُربِ عطارد ثخن فَلَك جَوْزَهر القمر، وقد ذكر المحقِّقون من أصحاب الهيئة أنَّ لفلك التدويرلكلٍّ من العلويَّة ثلاث أُكَر، محيطٌ بعضها ببعض، وجرمُ الكوكب مركوزٌ في الكرة الداخلة، فيكون مقدارُ ثخنِ أربعِ كرات من تلك التداوير من كلِّ واحد من السافل والعالي ثخنَ كرتين، حائلًا بين أقرب قُرب العالي وأبعد بُعْدِ السافل، وأثبتوا للسفليَّة خمسة

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: اسمُ من ظفر به أولًا منهم.
(٢) في (م): بطناً.

تداوير، فيكون بين أقربِ قُربِ الزهرة وأبعدِ بُعْدِ عطارد، ثخنُ ثمانِ كرات، على أنَّهم إنَّما اعتقدوا أنَّ أقربَ قُربِ العالي مساوٍ لأبعدِ بُعْدِ السافل؛ لاعتقادهم أوَّلاً أنَّه ليس بين هذه الأفلاك ما يتخلَّلها، فليس يمكنهم بناء ذلك عليه، وإلا لزم الدورُ، بل لا بُدَّ فيه من دليلٍ آخر، وقولهم: لا فَضْلَ في الفلكيَّات، مع أنَّه كما ترى يُبطله ما قالوا في عظم ثخنِ المحدّد، ويجوز أيضاً أن يكون فوق التاسع من الأفلاك ما لا يَعلمُه إلا الله تعالى، بل يحتمل أن يكون هذا الفلك التاسع بما فيه من الكرات مركوزاً في ثخن كُرة أخرى عظيمة، ويكون في ثخن تلك الكرة ألفُ ألف كرةٍ مثل هذه الكرات، وليس ذلك مستبعداً، فإنَّ تدويرَ المريخ أعظمُ من ممثل الشمس، فإذا عُقلَ ذلك، فأيُّ بأسٍ بأن يفرضَ مثله مما هو أعظم منه؟!

ويجوز أيضاً كما قيل أن تكون الأفلاكُ الكليَّة ثمانيةً لإمكان كون جميع الثوابت مركوزة في محدّب ممثل زحل، أي في متمِّمه الحاوي على أن يتحرك بالحركة البطيئة، والفلك الثامن يتحرك بالحركة السريعة، بل قيل: من الجائز أن تكون سبعة، بأن تفرض الثوابت ودوائر البروج على محدَّب ممثل زحل، ونفسان تتَّصل إحداهما بمجموع السبعة، وتحرِّكها إحدى الحركتين السريعة والبطيئة، والأخرى بالفلك السابع وتحرِّكه الأُخرى، فلا قاطعَ أيضاً على نفي أن تكون الأفلاك أقلَّ من تسعة.

ثم الظاهر من الآية أنَّ كلًّا من الشمس والقمر يجري في ثخن فَلَكه، ولا مانعَ منه عقلًا، ودليلُ امتناع الخرق والالتئام ـ وهو أنَّه لو كان الفلك قابلًا لذلك، لكان قابلًا للحركة المستقيمة، وهي محالٌ عليه ـ غيرُ تامٍّ، وعلى فرض تمامِه إنَّما يتمُّ في المحدّد على أنَّه يجوز أن يحصل الخَرْقُ في الفلك من جهةٍ بعض أجزائه على الاستدارةِ، فلا مانعَ من أن يقال: الكواكب مطلقاً متحرِّكة في أفلاكها حركة الحيتان في الماء ولا يبطل به علم الهيئة؛ لأنَّ حركاتها يلزم أن تكون متشابهة حول مراكز أفلاكها أي: لا تُسرع ولا تبطئ، ولا تقف ولا ترجع، ولا تتعطف.

وقول السهرورديُّ في «المطارحات»[1]: لو كانت الأفلاك قابلةً للخَرْق ـ وقد

---

(١) وهو: المطارحات في المنطق والحكمة لأبي الفتوح شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي الحكيم المقتول سنة (٥٨٧هـ). كشف الظنون ٢/ ١٧١٣.

برهن على كونها ذات حياةٍ ـ فعند حصول الخرق فيها وتبدُّدِ الأجزاء، فإن لم تحسَّ، فليس جزؤها المنخرقُ له نسبةٌ إلى الآخَر بجامعٍ إدراكيٍّ، ولا خبرَ لها عن أجزائها، وما سرى لنفسها قوَّةٌ في بدنها جامعةٌ لتلك الأجزاء، فلا علاقةَ لنفسها مع بدنها، وقد قيل: إنَّها ذاتُ حياة، وان كانت تحسُّ، فلا بُدَّ من التألُّم بتبديدِ الأجزاء، فإنَّه شعور بالمنافي، وكلُّ شعور بالمنافي، إمَّا ألمٌ أو موجبٌ لألم، وإذا كان كذا وكانت الكواكبُ تخرقها بجريها، كانت في عذابٍ دائم، وسنبرهن على أنَّ الأمورَ الدائمة غيرَ الممكن الأشرفِ لا يتصوَّر عليها، لا يخفى أنَّه من الخطابيَّات، بل مما هو أدون منها.

وزعم بعضهم أنَّه من البراهين القويَّة مما لا برهانَ عليه من البراهين الضعيفة، وادَّعى الإمام أنَّها كما تدلُّ على جري الكوكب تدلُّ على سكون الفَلَك، والحقُّ أنَّها مجملة بالنسبة إلى السكون غيرُ ظاهرة فيه، وإلى حركته وسكون الفلكِ بأسره ذهب بعضُ المسلمين ـ ويحكى عن الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه ـ ويجوز أن يكون الفَلَك متحرِّكاً، والكوكب يتحرَّك فيه إمَّا مخالفاً لجهة حركته أو موافقاً لها، إمَّا بحركة مساوية في السرعة الفَلَكَ متحرِّكاً، والكوكب يتحرَّك فيه إمَّا مخالفاً لجهة حركته أو موافقاً لها، إمَّا بحركة مساوية في السرعة والبُطْء لحركة الفَلَك أو مخالفةٍ، ويجوز أيضاً أن يكون الكوكبُ مغروزاً في الفَلَك ساكناً فيه، كما هو عند أكثرِ الفلاسفة أو متحرِّكاً على نفسِه كما هو عند محقِّقيهم، والفلك بأسرِه متحرِّكاً، وهو الذي أوجبه الفلاسفةُ لما لا يسلمُ لهم ولا يتمُّ عليه برهان منهم.

ويجوز أيضاً أن يكون الكوكبُ في جسم منفصل عن ثِخَن الفَلَك، شبيهٍ بحَلْقة، قُطْره مساوٍ لقُطْر الكوكب، وهو الذي يتحرَّك به، ويكون الفَلَك ساكناً، ويجوز أيضاً أن يكون في ثِخَن الفَلَك خَلاءٌ يدور الكوكبُ فيه، مع سُكون الفلك أو حركته، وليس في هذا قولٌ بالخَرْق والالتئام، بل فيه القولُ بالخلاء، وهو عندنا وعند أكثر الفلاسفة جائزٌ، خلافاً لأرسطوطاليس وأتباعه، ودليلُ الجواز أقوى من صخرةٍ ملساءَ، والقول بأنَّ الفَلَك بسيطٌ، فبساطته مانعةٌ من أن يكون في ثخنه ذلك، ليس بشيء، فما ذكروه من الدليل على البساطة على ضعفِه لا يتأتَّى إلا في المحدّد دون سائر الأفلاك، وأيضاً متى جاز أن يكون الفَلَك مجوَّفاً مع بساطته، فليجز ما ذكره معها، ولا يكاد يتمُّ لهم التفصي عن ذلك.

وجاء في بعض الآثار أنَّ الكواكب جميعَها معلَّقة بسلاسلَ من نورٍ تحت سماء الدنيا بأيدي ملائكة يجرُّونها حيث شاء اللهُ تعالى[1]، ولا يكاد يصحُّ، وإن كان اللهُ عزَّ وجلَّ على كل شيء قديراً.

والذي عليه معظم الفلاسفة والهيئيين أنَّ الحركَة الخاصَّة بالكوكب الثابتةَ لفلكه أولاً وبالذات آخذةٌ من المغرب إلى المشرق، وهي الحركة على توالي البروج، وتسمَّى الحركةَ الثانية والحركة البطيئة، وهي ظاهرة في السيَّارات، وفي القمر منها في غاية الظهور، وفي الثوابت خفيَّة، ولهذا لم يثبتها المتقدِّمون منهم، وغير الخاصَّة به الثابتة لفلكه ثانياً وبالعَرْض آخذة من المشرق إلى المغرب، وتسمَّى الحركة الأُولى والحركة السريعة، وهي بواسطة حركة المحدَّد، وبها يكون الليلُ والنهار في سائر المعمورة، وأما في عَرْضٍ تسعين ونحوه، ففي الحركة الثانية، فعندهم للكوكب حركتان مختلفتان جهةً وبُطْأً، ومثَّلوهما بحركة رحًى إلى جهة سريعاً، وحركةِ نملةٍ عليها إلى خلاف تلك الجهة بطيئاً.

وذهب بعضُ الأوائلِ إلى أنَّه لا حركةَ في الأجرام العلويَّة من المغرب إلى المشرق، بل حركاتها كلُّها من المشرق إلى المغرب؛ لأنَّها أَولى بهذه الأجرام لكونها أقلَّ مخالفةً، ولأنَّ غايةَ الحركة للجرم الأقصى، وغايةَ السكون للأرض، فيجب أن يكون ما هو أقربُ إلى الأقصى أسرعَ مما هو أَبعدُ، ولأنَّه لو كان بعضها من المشرق وبعضها من المغرب، يلزم أن يتحرَّك الكوكب بحركتين مختلفتين جهةً، وذلك محالٌ؛ لأنَّ الحركةَ إلى جهة تقتضي حصولَ المتحرِّك في الجهة المنتقل إليها، فلو تحرَّك الجسمُ الواحد دفعةً واحدة إلى جهتين، لزم حصولُه دفعةً واحدة في مكانين، وهو محالٌ، ولا فَرْقَ في ذلك بين أن تكون الحركتان طبيعيَّتين، أو قسريَّتين، أو إحداهما طبيعيَّة والأخرى قسريَّة.

ولا يُدفَع هذا بما يُشاهد من حركة النملةِ على الرَّحى إلى جهة حال حركة الرحى إلى خلافِها؛ لأنَّه مثال، والمثال لا يَقدَح في البرهان، ولأنَّ القَطْع على مثل هذه الحركات جائزٌ، أمَّا على الحركات الفلكيَّة فمحال، وما استدلَّ به على أنَّ غيرَ

(١) انظر ما سلف ١٣/ ٢٩٧.

الحركة السريعة من المغرب إلى المشرق لا يدلُّ عليه، لجواز أن تكون من المشرق ويُظَنّ أنَّها من المغرب، وبيانه أنَّ المتحرِّكين إلى جهة واحدة حركةً دوريَّة، متى كان أحدُهما أسرعَ من حركة الآخَر، فإنَّهما إذا تحرَّكا إلى تلك الجهة رُئيَ الأبطأُ منهما متخلِّفاً، فيظنّ أنَّه متحرِّك إلى خلافِ تلك الجهة؛ لأنَّهما إذا اقترنا ثم تحرَّكا في الجهة بما لَهما من الحركة، فسار السريعُ دورةً تامَّة، وسار البطيءُ دورةً إلا قوساً، يُرى البَطِيءُ متخلِّفاً عن السريع في الجهة المخالفة لجهةِ حركتِهما بتلك القوس، وقالوا: يجب المصيرُ إلى ذلك لما أنَّ البرهانَ يقتضيه، ولا يُبطله شيءٌ من الأعمال النجوميَّة.

وقد أورد الإمامُ في «الملخَّص» ـ ما ذكر في الاستدلال على مُحاليَّة الحركتين المختلفتي الجهةِ للجسم الواحد ـ إشكالًا على القائلين بهما، ثم قال: ولقوَّة هذا الكلام أَثبتَ بعضُهم الحركةَ اليوميَّة لكرة الأرض لا لكرةِ السماء، وإن كان ذلك باطلًا، وأورده في «التفسير»[1]، وسمَّاه برهانًا قاطعاً، وذهب فيه إلى ما ذهب إليه هذا البعض من أنَّ الحركاتِ كلَّها من المشرق إلى المغرب، لكنَّها مختلفةٌ سرعةً وبُطْأً، وفيما ذكروه نَظَرٌ؛ لأنَّ الشُّبهتين الأُولَيين إقناعيَّتان، والثالثة ـ وإن كانت برهانيَّة ـ لكن فسادَها أظهرُ من أن يَخفى، وأمَّا أنَّ شيئاً من الأعمال النجوميَّة لا يُبطِله، فباطل؛ لأنَّ هذه الحركةَ الخاصَّة للكوكبِ ـ أعني حركةَ القمرِ من المشرق إلى المغرب مثلًا دورةٌ إلا قوساً ـ لا يجوز أن تكون على قطبَي البروج؛ لأنَّها توجد موازيةً لمعدَّل النهار، ولا على قطبي المعدِّل، وإلَّا لما زالت عن موازاتِه، ولما انتظمت من القِسيِّ التي تتأخَّر فيها كلَّ يومٍ دائرةٌ عظيمة، مقاطعة للمعدِّل، كدائرة البروج من القِسيِّ التي تأخَّرت الشمسُ فيها، بل انتظمت صغيرةً موازيةً له، اللَّهمَّ إلا إذا كان الكوكب على المعدِّل مقدارَ ما يتمِّم بحركته دورةً، فإنَّ المنتظمةَ حينئذٍ تكون نفسَ المعدّل، لكنَّ هذا غيرُ موجود في الكواكب التي نعرفها، ولا على قطبين غيرِ قطبيهما، وإلَّا لكان يُرى مسيرُه فوق الأرض على دائرة مقاطعة للدوائر المتوازية، ولم تكن دائرةُ نصفِ النهار تفصلُ الزمانَ الذي من حين يطلع إلى حين يغربِ بنصفين؛ لأنَّ قطبي فَلَكه المائل لا يكون دائماً على دائرة نصف

---

(١) تفسير الرازي ٢٢/١٦٦.

النهار، فلا تنفصلُ قِسيُّ مداراته الظاهرةُ بنصفين، ولأنَّه لو كان الأمر كما توهمَّوا لكانت الشمس تصل إلى أَوجِها وحضيضِها وبُعْدَيها الأوسطين، بل إلى الشمال والجنوب، فيجب أن تحصل جميعُ الأظلالِ اللائقة بكون الشمس في هذه المواضع في اليوم الواحد، والوجودُ بخلافه.

وقول من قال: يجوز أن تكون حركةُ الشمسِ في دائرة البروج إلى المغرب، ظاهر الفساد؛ لأنَّه لو كان كذلك، لكان اليومُ الواحد بليلته ينقص عن دورِ معدَّل النهار بقَدْر القوس التي قطعتها الشمسُ بالتقريب، بخلاف ما هو الواقع؛ لأنَّه يزيدُ على دور المعدَّل بذلك القَدْر، ولكان يُرى قَطْعها البروجَ على خلاف التوالي، وليس كذلك؛ لتأخُّرها عن الجزء الذي يتوسَّط معها من المعدّل في كلِّ يوم نحو المشرق، فإذاً حركاتُ الأفلاك الشاملة للأرض ثنتان، حركة إلى التوالي وأخرى إلى خلافه، وأما حركات التداوير فخارجة عن القسمين؛ لأن حركات أعاليها مخالفة لحركات أسافلها لا محالةَ، لكونها غيرَ شاملة للأرض، فإن كانت حركةُ الأعلى من المغرب إلى المشرق، فحركة الأسفل بالعكس كما في المتحيرة، وإن كانت حركةُ الأعلى من المشرق إلى المغرب، كانت حركةُ الأسفل بالعكس كما في القمر.

هذا، وقصارى ما نقول في هذا المقام: إنَّ ما ذكره الفلاسفةُ في أمر الأفلاك الكليَّة والجزئيَّة، وكيفيَّة حركاتها وأوضاعِها، أَمْرٌ ممكن في نفسه، ولا دليلَ على أنَّه هو الواقعُ لا غير، وقد ذهب إلى خلافهِ أهل لندن وغيرُهم من أصحاب الأرصاد اليومَ، وكذا أصحاب الأرصاد القلبيَّة والمعارجِ المعنويَّة كالشيخ الأكبر ـ قُدِّسَ سرُّه ـ وقد أطال الكلامَ في ذلك في «الفتوحات المكيَّة».

وأمَّا السلفُ الصالح فلم يصحَّ عنهم تفصيلُ الكلامِ في ذلك؛ لما أنَّه قليلُ الجدوى، ووقفوا حيث صحَّ الخبرُ، وقالوا: إنَّ اختلافَ الحركات ونحوَه بتقدير العزيزِ العليم، وتشبَّثوا فيما صحَّ وخفيَ سببُه بأذيال التسليم.

والذي أَميل إليه أنَّ السماوات على طبق ما صحَّت به الأخبارُ النبويَّة في أمر الثِّخَن وما بين كلِّ سماءٍ وسماء، ولا أخرج عن دائرة هذا الميل.

وأقول: يجوز أن يكون ثِخَنُ كلِّ سماء فَلَكٌ لكلِّ واحدة من السيَّارات على نحوِ الفلك الذي أثبته الفلاسفةُ لها، وحركته الذاتيَّة على نحوِ حركته عندهم، وحركته العَرضيَّة بواسطة حركةِ سمائه إلى المغرب الحركة اليوميَّة، فتكون حركات السماوات متساويةً، وإن أبيت تحرُّكَ السماءِ بجميعِ ما فيها لإباء بعضِ الأخبار عنه، مع عدم دليلٍ قطعيٍّ يوجبه. قلت: يجوز أن يكون هناك محرِّك في ثِخَنِ السماء أيضاً، ويبقى ما يبقى منها ساكناً بقُدرة الله تعالى على سطحِه الأعلى ملائكةٌ يسبِّحون الليلَ والنهار لا يفترون.

وللفلاسفة في تحقيق أنَّ المحيط كيف يُحرِّك المحاطَ به، كلامٌ تعقَّبه الإمام، ثم قال: الصحيح أنَّ المحرِّك للكلِّ هو الله تعالى باختيارِه وإن ثبت على قانونِ قولِهم كون الحاوي محرِّكاً للمحوى، فإنَّه يكون محرِّكاً بقوَّة نفسِه لا بالمماسَّة. وأما الثوابت فيحتمل أن تكون في فلكٍ فوقَ السماوات السبع، ويحتمل أن يكون في ثِخَنِ السماء السابعة فوقَ فَلَك زحل، بل إذا قيل بأنَّ جميعَ الكواكب الثوابت والسيَّارات في ثِخَنِ السماء الدنيا تتحرَّك على أفلاك مماثلة للأفلاك التي أثبتها لها الفلاسفة، ويكون لها حركتان على نحو ما يقولون، لم يَبعُد، وفيه حفظٌ لظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥] وما ذكروه في عِلْم الأجرام والأبعاد على اضطرابِه، لا يلزمنا تسليمُه، فلا يَرِدُ أنَّهم قالوا: بُعْدُ الثوابتِ عن مركز الأرض خمسةٌ وعشرونَ ألفَ ألفٍ وأربعُ مئة واثنا عشر ألفاً، وثمانُ مئة وتسع وتسعون فَرْسخاً، وما ورد في الخبر من أنَّ بين السماء والأرض خمسمئة عام، وسَمْك السماء كذلك[1]، يقتضي أن يكون بين وجه الأرض والثوابت على هذا التقدير ألف عام، وفراسخُ مسيرةِ ذلك مع فراسخِ نصفِ قُطْر الأرض وهي ألف ومئتان وثلاثة وسبعون تقريباً، على ما قيل، دون ما ذكر بكثير.

ولا حاجةَ إلى أن يقال: العددُ لا مفهومَ له، واختيار خمس مئة لما أنَّ الخمسةَ عددٌ دائر، فيكون في ذلك رمز خفيٌّ إلى الاستدارة كما قيل في كلِّ فلك، ويشير إلى صحَّة احتمال أن يكون الفَلَك في ثخن السماءِ ما أَخرجه ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: الشمسُ بمنزلة الساقية تجري في السماء في

(١) سلفت الأخبار بذلك ١٣/ ٤٣١ وما بعد.

فلكها، فإذا غربت جرَّت الليلَ في فَلَكها تحتَ الأرض حتى تطلعَ من مشرقها[١]، وكذلك القمر، والأخبار المرفوعة والموقوفة في أَمْرِ الكواكب والسماوات والأرض كثيرة.

وقد ذكر الجلال السيوطيُّ منها ما ذكر في رسالة أَلَّفها في بيان «الهيئة السنية»، وإذا رصدتها رأيتَ أكثرَها مائلًا عن دائرة بروجِ القبول، وفيه ما يُشعِر بأنَّ للكوكب حركةً قسريَّة نحو ما أَخرجه ابنُ المنذر عن عكرمة: ما طلعت الشمسُ حتى يوترَ لها كما توتر القوس.

ثم الظاهر أن يُراد بالسباحة الحركةُ الذاتيَّة، ويجوز أن يُراد بها الحركة العَرَضية، بل قيل: هذا أَولى؛ لأنَّ تلك غيرُ مشاهدةٍ مشاهدةَ هذه، بل عوامُّ الناس لا يعرفونها.

وقيل: يجوز أن يُراد بها ما يعمُّ الحركتين، واستنبط بعضهم من نسبة السباحة إلى الكوكب أنْ ليس هناك حاملٌ له يتحرَّك بحركته مطلقاً، بل هو متحرِّك بنفسه في الفلك تحرُّكَ السمكة في الماء، إذ لا يقال للجالس في صندوق، أو على جذع يجري في الماء: إنَّه يَسْبَح، واختار أنَّه يجري في مجرًى قابلٍ للخرق والالتئام كالماء، ودون إثبات استحالة ذلك العروجِ إلى السماء السابعة، والله تعالى أعلم بحقيقة الحالِ، وهو سبحانه وليُّ التوفيق وعلى محور هدايته تدورُ كرةُ التحقيق، وهذه نبذةٌ مما رأينا إيرادَه مناسباً لهذا المقام، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ نبذةٌ أُخرى مما يتعلَّق بذلك من الكلام.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ﴾ كائناً مَن كان ﴿مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أي: الخلودَ والبقاءَ في الدنيا؛ لكونه مخالفاً للحكمة التكوينيَّة والتشريعيَّة، وقيل: الخلد: المُكْثُ الطويل، ومنه قولهم للأثافي[٢]: خوالد.

واستدلَّ بذلك على عدمِ حياةِ الخَضِرِ عليه السلام، وفيه نظر.

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ بمقتضى حكمتِنا ﴿فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ نزلت حين قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ

(١) سلف ١٣/ ٢٦٩.

(٢) الأُثْفِيَّة: الحَجَر يُوضع عليه القِدْر، والجمع: أثافي. القاموس (أثف).

بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، والفاء الأُولى لتعليقِ الجملة الشرطيَّة بما قبلها، والهمزة لإنكار مضمونها، وهي في الحقيقة لإنكار جزائها، أعني: ما بعد الفاء الثانية. وزعم يونس أنَّ تلك الجملةَ مصبُّ الإنكار، والشرطُ معترض بينهما، وجوابه محذوف تدلُّ عليه تلك الجملةُ، وليس بذاك.

ويتضمَّن إنكارُ ما ذُكر إنكارَ ما هو مدارٌ له وجودًا وعدماً من شماتتِهم بموتِه ﷺ، كأنَّه قيل: أَفَإِنْ متَّ، فهم الخالدون حتى يَشْمتوا بموتِك، وفي معنى ذلك قولُ الإمام الشافعيِّ عليه الرحمة:

تمنَّى رجالٌ أن أموتَ وإنْ أَمُتْ فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ
فقل للذي يبغي خلافَ الذي مضى تزوَّد لأُخرى مثلِها فكأَنْ قَدِ(١)

وقولِ ذي الأصبع العدواني:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ كَلاكلَه أناخَ بآخَرينا
فقل للشامتينَ بنا أفيقُوا سَيلقى الشامتونَ كما لقينا(٢)

وذكر العلَّامة الطيبيُّ، ونقله صاحب «الكشف» بأدنى زيادة أنَّ هذا رجوعٌ إلى ما سِيقَت له السورة الكريمة من حيث النبوَّةُ ليتخلَّص منه إلى تقريرِ مشروع آخرَ، وذلك لأنَّه تعالى لما أَفحم القائلينَ باتِّخاذ الولد والمتَّخذِين له سبحانه شركاءَ

---

(١) هكذا نسبه ابن خلِّكان في وفيات الأعيان ١/ ٢٣٩، والصفدي في الوافي بالوفيات ٩/ ٢٧٨-٢٧٩ و١٧/ ٥٤٣، ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٣٠١، والطبري في تفسيره ٢٤/ ٤٧٨، وابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٤٦-٧٤٧ إلى طرفة، ونسبه الأخفش في الاختيارين ص١٦١ إلى مالك بن القَيْن، وهما في ديوان عبيد بن الأبرص ص٦٨ برواية: تمنَّى مُرَيْئُ القيس موتي......

(٢) هكذا نسبه المرتضى في أماليه ١/ ٢٥١، والبغدادي في خزانة الأدب ٥/ ٢٨٧، ونسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ١١٤، والمرزوقي في شرح ديوان الحماسة ٣/ ١٢٠٨ للفرزدق، ونسبه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٤٧٨، وابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٤٧، والأصفهاني في الأغاني ٢١/ ٣٩٦ للعلاء بن قرظة خال الفرزدق، وعبارة ابن قتيبة في الشعر والشعراء: وكان الفرزدق يقول: إنما أتاني الشعر من قِبل خالي، وخالي الذي يقول: إذا ما الدهر..... إلى آخر البيتين.

وبَكَتهم، ذَكَر ما يدلُّ على إفحامهم، وهو قوله تعالى: «أفإن» إلخ، لأنَّ الخصمَ إذا لم يبقَ له متشبَّث، تمنَّى هلاكَ خصمه.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ برهان على ما أنكر من خلودِهم، وفيه تأكيدٌ لقوله سبحانه: «وما جعلنا» إلخ، والموت عند الشيخ الأشعريِّ: كيفيَّةٌ وجوديَّة تضادُّ الحياةَ[1]، وعند الإسفراييني ـ وعزي للأكثرين ـ أنَّه عدمُ الحياة عمَّا مِن شأنه الحياةُ بالفعل، فيكون عدمَ تلك الحياة، كما في العمى الطارئ على البصر لا مُطلَق العمى، فلا يلزم كون عدمِ الحياة عن الجنين عند استعدادِه للحياة موتاً، وقيل: عدمُ الحياة عمَّا مِن شأنه الحياةُ مطلقاً، فيلزم ذلك ولا ضيرَ، لقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] واستدلَّ الأشعريُّ على كونه وجوديًّا بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] فإنَّ الخَلْقَ هو الإيجادُ والإخراجُ من العَدَم، وبأنَّه جائزٌ، والجائزُ لا بُدَّ له من فاعلٍ، والعَدَم لا يَفعلُ.

وأجيب عن الأوَّل بأنَّه يجوز أن يكون بمعنى التقدير، وهو أعمُّ من الإيجاد، ولو سُلِّم كونه بمعنى الإيجاد، فيجوز أن يُراد بخَلْق الموتِ إيجادُ أسبابه، أو يقدَّر المضاف، وهو غير عزيز في الكلام.

وعن الأستاذ أنَّ المرادَ بالموت: الآخرةُ، والحياةِ: الدنيا؛ لما روي عن ابن عباس تفسيرهما بذلك، وعن الثاني بأنَّ الفاعلَ قد يُريد العَدَم كما يريد الحياةَ، فالفاعل يعدم الحياة، كما يعدم البصر مثلًا.

وقال اللَّقاني: الظاهر قاضٍ بما عليه الأشعريُّ، والعدولُ عن الظاهر من غيرِ داعٍ غيرُ مرضيٍّ عند العدول، وكلامُه صريح في أنَّه عَرَضٌ.

وتوقَّف بعضُ العلماء القائلينَ بأنَّه وجوديٌّ في أنَّه جوهر أو عَرَضٌ، لما أنَّ في بعضِ الأحاديث أنَّه معنًى خَلَقه اللهُ تعالى في كفِّ مَلَك الموت[2]، وفي بعضها

---

(١) وذكره عنه عبد السلام اللقاني في إتحاف المريد بجوهرة التوحيد ص٢١٢.

(٢) أخرج أبو الشيخ في العظمة (٤٤٥) عن أشعث قال: سأل إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليماً ملكَ الموت عليه السلام واسمه عزرائيل . . . قال: أُدعُ الأرواح بإذن الله عز وجل، فتكون بين أصبعي هاتين . . . الخبر، وإسناده منقطع.

أنَّ الله تعالى خَلَقه على صورةِ كبش لا يمرُّ بشيءٍ يجد ريحَه إلا ماتَ[١].

وجُلُّ عباراتِ العلماء أنَّه عَرَضٌ يَعقُب الحياةَ، أو فسادُ بُنيَة الحيوانِ، والأوَّل غيرُ مانع، والثاني رَسْمٌ بالثمرة، وقريبٌ منه ما قاله بعضُ الأفاضل: إنَّه تعطُّل القوى لانطفاءِ الحرارة الغريزيَّة التي هي آلتها، فإن كان ذلك لانطفاءِ الرطوبة الغريزيَّة، فهو الموت الطبيعيُّ، وإلا فهو الغير الطبيعيُّ، والناس لا يعرفونَ من الموت إلا انقطاع تعلُّق الرُّوح بالبدنِ التعلُّق المخصوصَ، ومفارقتها إيَّاه.

والمراد بالنفس: النفسُ الحيوانيَّة، وهي مطلقاً أعمُّ من النفس الإنسانيَّة، كما أنَّ الحيوانَ مطلقاً أعمُّ من الإنسان.

والنفوسُ عند الفلاسفةِ ومَن حذا حَذْوهم ثلاثةٌ: النباتيَّة، والحيوانيَّة، والفلكيَّة، والنفس مقولةٌ على الثلاثة بالاشتراك اللفظيِّ على ما حكاه الإمام في «الملخَّص» عن المحقِّقين، وبالاشتراك المعنويِّ على ما يقتضيه كلامُ الشيخ في «الشفاء»[٢]، وتحقيق ذلك في محلِّه، وإرادةُ ما يشمل الجميعَ هنا مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه.

وقال بعضهم: المرادُ بها النفسُ الانسانيَّة؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ لنفي خلودِ البشر، واختير عمومُها؛ لتشملَ نفوسَ البشر والجنِّ وسائر أنواعِ الحيوان، ولا يضرُّ ذلك بالسّوق، بل هو أنفعُ فيه، ولا شكَّ في موت كلٍّ من أفراد تلك الأنواعِ، نعم اختلف في أنَّه هل يصحُّ إرادةُ عمومِها بحيث تشمل نفسَ كلِّ حيٍّ كالمَلَك وغيرِه، أم لا، بناءً على الاختلاف في موت الملائكة عليهم السلام، والحورِ العين؟

فقال بعضهم: إنَّ الكلَّ يموتون، ولو لحظةً؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال بعضهم: إنَّهم لا يموتون؛ لدلالة بعضِ الأخبار على ذلك، والمراد من كلِّ نفس النفوسُ الأرضيَّة، والآية التي استُدلَّ بها مؤوَّلةٌ بما ستعلمه إن شاء الله تعالى ـ وهم داخلونَ في المستثنى في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي

---

(١) تفسير القرطبي ٢١/١١١ وعزاه لابن عباس والكلبي ومقاتل. ووهَّاه ابن حجر كما في السيرة الحلبية.

(٢) الشفاء الطبيعيات (النفس) ص١١.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] أو لا يسلمُ أنَّ كلَّ صعقٍ موتٌ.

وقال بعضهم: إنَّ الملائكةَ يموتون، والحور لا تموت.

وقال آخرونَ: إنَّ بعضَ الملائكةِ عليهم السلام يموتونَ، وبعضهم لا يموت، كجبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل عليهم السلام، ورجّح قول البعض.

ولا يَرِدُ أنَّ الموتَ يقتضي مفارقةَ الروح البدنَ، والملائكة عليهم السلام لا أبدانَ لهم؛ لأنَّ القائلَ بموتهم يقول بأنَّ لهم أبداناً لكنَّها لطيفةٌ، كما هو الحقُّ الذي دلَّت عليه النصوص، وربَّما يمنعُ اقتضاء الموت البدن.

وبالغ بعضُهم، فادَّعى أنَّ النفوسَ أنفسَها تموتُ بعد مفارقتِها للبدن، وإن لم تكن بعد المفارقة ذاتَ بدن، وكأنَّه يلتزم تفسيرَ الموت بالعَدَم والاضمحلالِ.

والحقُّ أنَّها لا تموتُ، سواء فسِّر الموتُ بما ذُكر، أم لا، وقد أشار أحمدُ بنُ الحسين الكنديُّ إلى هذا الاختلاف بقوله:

تنازعَ الناسُ حتى لا اتفاقَ لهم ... إلا على شَجَبٍ والخُلْفُ في شَجَبِ
فقيل تَخْلُصُ نفسُ المرءِ سالمةً ... وقيل تَشْرَك جسمَ المرءِ في العطبِ[1]

وذهب الإمام[2] إلى العموم في الآية، إلا أنَّه قال: هو مخصوصٌ، فإن له تعالى نفساً كما قال سبحانه حكايةً عن عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] مع أنَّ الموت مستحيلٌ عليه سبحانه، وكذا الجمادات لها نفوس وهي لا تموت، ثم قال: والعامُّ المخصوص حجَّةٌ، فيبقى معمولًا به على ظاهره، فيما عدا ما أُخرج منه، وذلك يُبطل قولَ الفلاسفة في الأرواح البشريَّة، والعقول المفارقة، والنفوس الفلكيَّة، أنَّها لا تموت. اهـ.

وفيه أنَّه إن أراد بالنفس الجوهرَ المتعلِّقَ بالبدن تعلُّقَ التدبير والتصريف، كما قاله الفلاسفة ومَن وافقهم، أو الجسمَ النورانيَّ الخفيفَ الحيَّ المتحرِّك النافذَ

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح عبد الرحمن البرقوقي ٢/ ٢٢٤، وفيه: تخالف، بدل: تنازع. قال شارحه: الشَّجَب: الهلاك. والخُلْف: الاختلاف. والمراد بالنفس الروح.

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٢/ ١٦٩.

في الأعضاء، الساري فيها سريانَ ماءِ الورد في الورد، كما عليه جمهور المحدِّثين، وذكر له ابنُ القيم مئةَ دليل[(١)]، فالله تعالى منزَّه عن ذلك أصلًا.

وكذا الجمادات لا تتَّصف بها على الشائع، وأيضاً ليس للأرواح البشريَّة والعقول المفارقة عند الفلاسفة نفساً بأحدِ ذينك المعنَيْن، فكيف يبطلُ بالآيةِ الكريمة قولهم، وإن أراد بها الذات، كما هو أحدُ معانيها، جاز أن تثبتَ لله تعالى، وقد قيل به في الآية التي ذكرها، وكذا هي ثابتة للجمادات، لكن يَرِدُ عليه أنَّه إن أراد بالموت مفارقةَ الروح للبدن أو نحوَ ذلك، يبطل قولُه: وذلك يبطل إلخ؛ لأنَّ الأرواحَ والعقولَ المذكورة لا أبدانَ لها عند الفلاسفة، فلا يتصوَّر فيها الموتُ بذلك المعنى، وإن أراد به العدمَ والاضمحلالَ، يَرِدُ عليه أنَّ الجمادات تتَّصف به، فلا يصحُّ قوله: وهي لا تموت، وبالجملة لا يَخفى على المتذكِّر أنَّ الإمام سها في هذا المقام، ثم إنَّ معنى كون النفس ذائقة الموت، أنَّها تُلابسه على وجه تتألَّم به، أو تلتذُّ من حيث إنَّها تَخلُص به من مضيق الدنيا الدنِيْئة إلى عالم المَلَكوت وحظائرِ القدس، كذا قيل.

والظاهر أنَّ كلَّ نفسٍ تتألَّم بالموت، لكن ذلك مختلف شدَّة وضعفاً، وفي الحديث: «إنَّ للموت سكرات»[(٢)]. ولا يلزم من التخلُّص المذكور لبعضِ الناس عدمُ التألُّم، ولعلَّ في اختيار الذوق إيماء إلى ذلك، لمن له ذَوْقٌ، فإنَّه أكثرُ ما جاء في العذاب. وقال الإمام[(٣)]: إنَّ الذوقَ إدراكٌ خاصٌّ، وهو هاهنا مجاز عن أصل الإدراكِ، ولا يمكن إجراؤه على ظاهره؛ لأنَّ الموتَ ليس من جنس الطعام حتى يُذاق.

وذكر أنَّ المرادَ من الموت مقدِّماتُه من الآلام العظيمة؛ لأنَّه قبل دخولِه في الوجود ممتنعُ الإدراك، وحالَ وجودِه يصيِّر الشخصَ ميتاً، والميِّتُ لا يُدرِك.

وتُعقِّب بأنَّ المدرِكَ النفسُ المفارقةُ، وتُدرِك أَلَمَ مفارقتِها البدنَ.

---

(١) في كتابه: معرفة الروح والنفس، كما نصَّ على ذلك في كتابه الروح ص٦٢، وهو خلاف كتاب الروح كما ذكر ذلك بكر أبو زيد في كتابه: ابن قيِّم الجوزية حياته وآثاره ص١٦١، عند ذكره لمؤلفات ابن القيم.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) تفسير الرازي ٢٢/١٦٩.

﴿وَنَبْلُوكُم﴾ الخطاب إمَّا للناس كافَّة بطريق التلوين، أو للكفرة بطريق الالتفات، أي: نعاملكم معاملَة من يختبركم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ بالمكروه والمحبوب، هل تصبرونَ وتشكرون، أو لا؟!.

وتفسير الشَّرِّ والخير بما ذُكر مرويٌّ عن ابنِ زيد، وروي عن ابنِ عباس أنَّهما الشدَّةُ والرخاء. وقال الضحَّاك: الفقرُ والمرض، والغنى والصحة. والتعميمُ أَولى، وقدّم الشَّرُّ؛ لأنَّه اللائقُ بالمنكَر عليهم، أو لأنَّه ألصق بالموت المذكور قبلَه.

وذكر الراغبُ[1] أنَّ اختبارَ الله تعالى للعباد تارةً بالمسارِّ ليشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليصبروا، فالمنحة والمحنة جميعاً بلاءٌ، فالمحنة مقتضيةٌ للصبر، والمنحة مقتضيةٌ للشكر، والقيام بحقوق الصبرِ أيسرُ من القيام بحقوق الشكر، فالمنحة أعظمُ البلاءين، وبهذا النظر قال عمر ﷺ: بُلينا بالضراء فصبرنا، وبُلينا بالسراء فلم نصبر. ولهذا قال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه: مَن وُسِّع عليه دنياه، فلم يَعلم أنَّه قد مُكر به، فهو مخدوع عن عقله. اهـ. ولعلَّه يُعلمَ منه وجهٌ لتقديم الشَّرِّ ﴿فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاءً، فهو مصدر مؤكد «نبلوكم» على غيرِ لفظه.

وجوِّز أن يكون مفعولًا له أو حالًا على معنى: نبلوكم بالشَّرِّ والخير؛ لأجل إظهار جودتِكم ورداءتكم، أو مظهرين ذلك، فتأمل ولا تغفل.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ لا إلى غيرِنا، استقلالًا ولا اشتراكاً، فنجازيكم حسبما يَظهر منكم من الأعمال، فهو على الأوَّل من وجهي الخطاب وعدٌ ووعيدٌ، وعلى الثاني منهما وعيدٌ محضٌ.

وفي الآية إيماءٌ إلى أنَّ المراد من هذه الحياة الدنيا الابتلاءُ والتعريضُ للثواب والعقاب.

وقرئَ: «يرجعون» بياء الغيبة على الالتفات[2].

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: المشركون ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما يتخذونك إلا مهزوءاً به على معنى قَصْرِ معاملتهم معه ﷺ على اتِّخاذهم

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (بلي).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨١، والبحر المحيط ٦/ ٣١١.

إيَّاه ـ عاملهم اللهُ تعالى بعَدْله ـ هزواً لا على معنى قَصْر اتِّخاذهم على كونه هزواً، كما هو المتبادر، كأنَّه قيل: ما يفعلون بكَ إلا اتِّخاذك هزواً.

والظاهر أنَّ جملةَ: «إن يتَّخذونَكَ» إلخ، جواب «إذا»، ولم يحتج إلى الفاء، كما لم يحتج جوابُها المقترن بـ «ما» إليها في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ [الجاثية: ٢٥] وهذا بخلاف جوابِ غيرِ «إذا» من أدوات الشرط المقترن بـ «ما»، فإنَّه يلزم فيه الاقترانُ بالفاء، نحو: إن تَزُرْنا، فما نُسِيْءُ إليك.

وقيل: الجواب محذوف، وهو: يقولون، المحكي به قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وقوله سبحانه: «إن يتخذونك» إلخ، اعتراضٌ، وليس بذاك، نعم لا بُدَّ من تقدير القول فيما ذُكر، وهو إما معطوف على جملة: «إن يتخذونك» أو حال، أي: ويقولون، أو: قائلين، والاستفهام للإنكار والتعجُّب، ويفيدان أنَّ المرادَ: يَذكُر آلهتَكم بسوء، وقد يكتفى بدلالة الحالِ عليه كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠] فإنَّ ذِكْرَ العدوِّ لا يكون إلا بسوء، وقد تحاشَوا عن التصريح؛ أدباً مع آلهتهم.

وفي «مجمع البيان»[1]: تقول العرب: ذكرتُ فلاناً، أي: عبتُه، وعليه قول عنترة:

لا تَـذْكُـري مُـهْـري ومـا أَطْـعـمـتُـه فيكونَ جِلْدُك مثلَ جِلْدِ الأجربِ[2]

انتهى. والإشارة مثلها في قوله:

هـذا أبـو الـصقرِ فـرداً في مـحـاسـنِهِ من نَسْلِ شيبانَ بين الضَّال والسَّلمِ[3]

فيكون في ذلك نوع بيانٍ للاتِّخاذ هزواً.

---

(١) ٢٦/١٧.
(٢) ديوان عنترة ص٣٣.
(٣) القائل ابن الرومي، وجاءت رواية البيت كما هنا في معاهد التنصيص للعباسي ١٠٧/١، وجاءت رواية البيت في ديوانه ٦/ ٢٣٩٩ هكذا:
هـذا أبـو الـصـقـر فـرد فـي كـتـابـتـه وهـو ابن شيـبـان بيـن الطلح والسلم
قال العباسي: الضال والسلم: شجرتان من شجر البادية. وفرداً: منصوب على المدح أو الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ في حين النصب على الحاليَّة من ضميرِ القول المقدَّر، والمعنى: إنَّهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يَذكُر آلهتهم التي لا تضرُّ ولا تنفع بالسوء، والحال أنَّهم بالقرآن ـ الذي أنزل رحمةً ـ كافرون، فهم أحقَّاء بالعَيب والإنكار، فالضمير الأوَّل مبتدأ، خبره: «كافرون»، وبه يتعلَّق «بذكر»، وقدِّم؛ رعايةً للفاصلة، وإضافته لاميَّة، والضمير الثاني تأكيدٌ لفظيٌّ للأوَّل، والفصل بين العامل والمعمول بالمؤكِّد، وبين المؤكِّد والمؤكَّد بالمعمول، جائز.

ويجوز أن يُراد «بذكر الرحمن» توحيدُه، على أنَّ «ذِكْر» مصدرٌ مضاف إلى المفعول، أي: وهم كافرون بتوحيدِ الرحمن المنعِم عليهم بما يستدعي توحيدَه والإيمانَ به سبحانه، وأن يُراد به عظتُه تعالى وإرشادُه الخَلْق بإرسال الرسل، وإنزال الكتب على أنَّه مصدرٌ مضاف إلى الفاعل.

وقيل: المراد بذِكْر الرحمن ذِكْره ﷺ هذا اللفظَ وإطلاقه عليه تعالى.

والمراد بكفرهم به، قولُهم: ما نعرف الرحمنَ إلا رحمنَ اليمامة، فهو مصدرٌ مضاف إلى المفعولِ لا غير، وليس بشيء كما لا يخفى.

وجعل الزمخشريُّ[1] الجملةَ حالًا من ضمير «يتخذونك» أي: يتَّخذونك هزواً وهم على حال هي أصل الهزء والسخرية، وهي الكُفْر بذِكْر الرحمن.

وسبب نزولِ الآية على ما أخرج ابنُ أبي حاتم عن السُّدِّيِّ أنَّه ﷺ مرَّ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدَّثان، فلما رآه أبو جهل، ضَحِكَ، وقال لأبي سفيان: هذا نبيُّ بني عبدِ منافٍ. فغضب أبو سفيان، فقال: ما تُنكِر أن يكون لبني عبدِ منافٍ نبيٌّ؟! فسمعها النبيُّ ﷺ، فرجع إلى أبي جهل، فوقع به وخوَّفه، وقال: «ما أراكَ منتهياً حتى يصيبَك ما أصابَ عمَّك» الوليدَ بنَ المغيرة، وقال لأبي سفيان: «أمَا إنَّك لم تقل ما قلتَ إلا حميَّة»[2]. وأنا أرى أنَّ القلبَ لا يَثلجُ لكونِ هذا سبباً للنزول، والله تعالى أعلم.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٢.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٥٢ - ٢٤٥٣ (١٣٦٥٥).

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ﴾ هو: طلب الشيء وتحرِّيه قبل أوانِه.

والمراد بالإنسان جنسه، جُعلَ لفَرط استعجالِه وقلَّةِ صبره، كأنَّه مخلوقٌ من نفسِ العَجَل، تنزيلًا لما طُبع عليه من الأخلاق منزلةَ ما طُبع منه من الأركان، إيذاناً بغايةِ لزومه له، وعدم انفكاكِه عنه، وقال أبو عمرو، وأبو عبيدة[1]، وقطرب: في ذلك قَلْبٌ، والتقدير: خُلقَ العَجَل من الإنسان، على معنى أنَّه جُعل من طبائعه وأخلاقه؛ للزومه له، وبذلك قرأ عبد الله[2]. وهو قُلْبٌ غيرُ مقبول، وقد شاع في كلامهم مثل ذلك عند إرادةِ المبالغة، فيقولون لمن لازَمَ اللعبَ: أنتَ من لَعِب، ومنه قوله:

وإنَّا لَمِمَّا يَضْرِبُ الكبشَ ضربةً ... على رأسِه يُلقي اللسانَ من الفَمِ[3]

وقيل المراد بالإنسان: النضرُ بنُ الحارث؛ لأنَّ الآيةَ نزلت فيه حينَ استعجلَ العذابَ بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ﴾ [الأنفال: ٣٢] إلخ، وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسديُّ، والضحَّاك، ومقاتل، والكلبيُّ: المراد به آدم عليه السلام، أرادَ أن يقومَ قبل أن يتمَّ نَفْخُ الروحِ فيه وتصلَ إلى رجليه. وقيل: خَلقَه اللهُ في آخر النهار يومَ الجمعة، فلما أجرى الروحَ في عينيه ولسانِه، ولم يبلغ أسفلَه، قال: يا ربِّ استَعْجِل بخلقي قبل غروبِ الشمس. وروي ذلك عن مجاهد.

وقيل: المراد أنَّه خُلِقَ بسرعة على غيرِ ترتيبِ خَلْقِ بَنِيْه حيث تدرَّج في خَلْقهم، وذُكر ذلك لبيان أنَّ خَلْقَه كذلك من دواعي عجلتِه في الأمور.

والأظهر: إرادة الجنس، وإن كان خَلْقه عليه السلام وما يقتضيه سارياً إلى أولاده، وما تقدَّم في سبب النزول لا يأباه كما لا يخفى.

وقيل: العَجَل: الطين، بلغة حِمْير، وأنشد أبو عبيدةَ لبعضهم:

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٣٨-٣٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣١٢.

(٣) القائل: أبو حيَّة النميري، والبيت من شواهد سيبويه في الكتاب ٣/ ١٥٦، وفيه: نضرب، بدل: يضرب. وتلقي، بدل: يلقي. وكذا وردت روايته في خزانة الأدب ١٠/ ٢١٤.

والنبعُ في الصخرة الصَّمَّاء منبتُه   والنَّخْلُ ينبتُ بين الماءِ والعَجَلِ[١]

واعترض بأنَّه لا تقريبَ لهذا المعنى هاهنا. وقال الطيبيُّ: يكون القصدُ عليه تحقيرَ شَأن جنسِ الإنسان؛ تتميماً لمعنى التهديد في قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ والمعوَّل عليه المعنى الأوَّل، والخطاب للكفرةِ المستعجلين.

والمراد بآياته تعالى نقماتُه عزَّ وجلَّ، والمراد بإراءتهم إيَّاها إصابتُه تعالى إيّاهم بها، وتلك الإراءة في الآخرة على ما يشير إليه ما بعد، وقيل: فيها وفي الدنيا، والنهي عن استعجالهم إياهُ تعالى بالإتيان بها، مع أنَّ نفوسَهم جُبلَت على العَجَلة؛ ليمنعوها عمَّا تريده، وليس هذا من التكليف بما لا يُطاق؛ لأنَّ اللهَ تعالى أعطاهم من الأسباب ما يستطيعون به كفَّ النفس عن مقتضاها، ويرجع هذا النهي إلى الأمر بالصبر.

وقرأ مجاهد، وحميد، وابن مقسم: «خَلَقَ الإنسانَ»[٢] ببناء «خلق» للفاعل، ونصب «الإنسان».

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: وقت وقوعِ الساعة الموعودِ بها، وكانوا يقولون ذلك؛ استعجالًا لمجيئه بطريقِ الاستهزاء والإنكار، كما يُرشِد إليه الجواب، لا طلباً لتعيين وقتِه بطريق الإلزام، كما في سورة «المُلْك»[٣]، و«متى» في موضع رَفْعٍ على أنَّه خبرٌ لهذا.

ونقل عن بعضِ الكوفيين أنَّه في موضعِ نصبٍ على الظرفيَّة، والعامل فيه فعلٌ مقدَّر، أي: متى يأتي هذا الوعدُ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ بأنَّه يأتي، والخطابُ للنبيِّ ﷺ والمؤمنينَ الذين يتلونَ الآياتِ الكريمةَ المنبئةَ عن إتيانِ

---

(١) وقع في الأصل و(م): منبته في، بدل: ينبت بين، وكذا ورد البيت في حاشية الشهاب ٦/ ٣٥٥، والمثبت من تهذيب اللغة ١/ ٣٦٩، والنكت والعيون ٣/ ٤٤٧، والكشاف ٢/ ٥٧٣، والمحرر الوجيز ٤/ ٨٢، وتفسير القرطبي ١٤/ ٢٠٤، واللسان (عجل)، ولم نقف على قائله، وقال ابن عطية: وهذا أيضاً ضعيف، ومعناه مباين لمعنى الآية. اهـ.

(٢) القراءات الشاذة ص٩١، والبحر المحيط ٦/ ٣١٣.

(٣) بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٥-٢٦].

الساعة، وجوابُ الشرط محذوفٌ؛ ثقةً بدلالة ما قَبله عليه، فإنَّ قولهم: «متى هذا الوعد» حيث كان استبطاءً منهم للموعود، وطلباً لإتيانِه بطريق العَجَلة، في قوَّة طلب إتيانه بالعجلة، فكأنَّه قيل: إن كنتم صادقين، فليأتنا بسرعة.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ استئنافٌ مسوق لبيانِ شدَّة هَوْلِ ما يستعجلونه، وفظاعة ما فيه من العذاب، وأنَّهم إنَّما يستعجلونه؛ لجهلهم بشأنه، وإيثارُ صيغة المضارع في الشرط ـ وإن كان المعنى على المضيِّ ـ لإفادة استمرارِ عدم العلم بحسب المقام، وإلا، فكثيراً ما يفيدُ المضارع المنفيُّ انتفاءَ الاستمرار، ووضع الموصولُ موضعَ الضمير؛ للتنبيه بما في حيِّز الصلةِ على علَّة استعجالهم.

وقوله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ مفعول «يعلم»، على ما اختاره الزمخشريُّ[(١)]، وهو عبارة عن الوقت الموعودِ الذي كانوا يستعجلونه، وإضافتُه إلى الجملة الجارية مجرى الصفة التي حقُّها أن تكون معلومةَ الانتساب إلى الموصوف عند المخاطَب أيضاً مع إنكار الكفرةِ ذلك؛ للإيذان بأنَّه من الظهور بحيث لا حاجةَ إلى الإخبار به، وإنَّما حقُّه الانتظامُ في سلك المسلَّمات المفروغِ منها.

وجواب «لو» محذوف، أي: لو لم يستمرَّ عدمُ علمهم بالوقت الذي يستعجلونه بقولهم: «متى هذا الوعد»، وهو الوقت الذين تحيطُ بهم النارُ فيه من كلِّ جانب.

وتخصيصُ الوجوهِ والظهور بالذِّكْر بمعنى القدَّام والخَلْف؛ لكونهما أشهرَ الجوانب، واستلزام الإحاطة بهما للإحاطة بالكُلِّ بحيث لا يقدرونَ على دَفْعها[(٢)] بأنفسهم من جانبٍ من جوانبهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٣٩﴾ من جهة الغير في دَفْعها... إلخ، لما فَعلوا ما فعلوا من الاستعجال.

وقدَّر الحوفيُّ: لسارعوا إلى الإيمان. وبعضُهم: لعلموا صحَّة البعث، وكلاهما ليس بشيء، وقيل: إنَّ «لو» للتمنِّي لا جوابَ لها، وهو كما ترى.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٣.

(٢) في (م): رفعها.

وجوِّز أن يكون «يعلم» متروكَ المفعول، منزَّلًا منزلَة اللازم، أي: لو كان لهم عِلْم لما فَعلوا ذلك.

وقوله تعالى: «حين» إلخ، استئناف مقرِّر لجهلهم ومبيِّن لاستمراره إلى ذلك الوقت، كأنَّه قيل: حين يَرَوْن ما يَرَوْن يعلمونَ حقيقةَ الحال، وفي «الكشف» كأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، وذلك أنَّه لما نفى العِلْم كان مظنَّة أن يُسأَلَ: فأيّ وقتٍ يعلمون؟ فأُجيبَ: حين لا ينفعهم. والظاهر كون «حين» إلخ مفعولًا به لـ «يعلم».

وقال أبو حيَّان: الذي يظهر أنَّ مفعولَه محذوفٌ؛ لدلالة ما قبله عليه، أي: لو يعلم الذين كفروا مَجِيْءَ الموعودِ الذي سألوا عنه واستبطؤوه، و«حين» منصوبٌ بذلك المفعول(١). وليس عندي بظاهر.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ عطفٌ على «يكفُّون»، وزعم ابنُ عطيَّة(٢) أنَّه استدراكٌ مقدَّر قبله نفيٌ، والتقدير: إنَّ الآيات لا تأتي بحسَب اقتراحِهم، بل تأتيهم بغتةً.

وقيل: إنَّه استدراك عن قوله تعالى: «لو يعلم» إلخ، وهو منفيٌّ معنًى، كأنَّه قيل: لا يعلمونَ ذلك، بل تأتيهم... إلخ. وبينه وبين ما زعمه ابنُ عطيَّة، كما بينَ السماء والأرض.

والمضمر في «تأتيهم» عائد على «الوعد»؛ لتأويله بالعِدَة أو الموعدة، أو الحين؛ لتأويله بالساعة، أو على «النار»، واستظهره في «البحر»(٣).

و«بغتة» أي: فجأة، مصدر في موضعِ الحال، أو مفعول مُطلق لـ «تأتيهم»، وهو مصدر من غيرِ لفظه.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تدهشُهُم وتحيِّرهم أو تغلبهم، على أنَّه مَعنًى كنائيٌّ.

وقرأ الأعمش: «بل يَأْتِيْهم» بياءِ الغيبة، «بَغَتةً» بفتح الغين، وهو لغةٌ فيها، وقيل: إنَّه يجوز في كلِّ ما عَيْنُه حرف حَلْق. «فيبهتهم» بياء الغيبة أيضاً(٤)، فالضمير

(١) البحر المحيط ٦/ ٣١٣.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٣.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٣١٤.
(٤) القراءات الشاذة ص٩١، والبحر المحيط ٦/ ٣١٤.

المستتر في كلٍّ من الفعلين للوعد أو للحين، على ما قال الزمخشريُّ(١).

وقال أبو الفضل الرازيُّ(٢): يحتمل أن يكونَ للنار، بجعلِها بمعنى العذاب.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ الضمير المجرور عائدٌ على ما عادَ عليه ضميرُ المؤنَّث فيما قَبله.

وقيل: على البغتة، أي: لا يستطيعون ردَّها عنهم بالكليَّة.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: يُمهَلون ليستريحوا طرفةَ عينٍ، وفيه تذكيرٌ بإمهالهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إلخ، تسليةٌ لرسولِه ﷺ عن استهزائِهم بعد أن قضى الوَطَر من ذِكْر الأجوبة عن مطاعنِهم في النبوَّة، وما أدمج فيها من المعاني التي هي لبابُ المقاصد، وفيه أنَّه عليه الصلاة والسلام قضى ما عليه من عُهدة الإبلاغ، وأنَّه المنصور في العاقبة، ولهذا بُدِئَ بذِكْر أجلَّة الأنبياءِ عليهم السلام؛ للتأسِّي، وختم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ إلخ [الأنبياء: ١٠٥]، وتصدير ذلك بالقَسَم؛ لزيادة تحقيقِ مضمونه. وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير. و«من» متعلِّقة بمحذوف هو صفة له، أي: وبالله لقد استهزئَ برسلٍ أُولي شَأْن خطير، وذوي عددٍ كثير، كائنينَ من زمان قَبْلَ زمانِك، على حذف المضافِ وإقامة المضافِ إليه مقامَه.

﴿فَحَاقَ﴾ أي: أحاط عقيبَ ذلك، أو نزل، أو حلَّ، أو نحو ذلك، فإنَّ معناه يدور على الشمول واللزوم، ولا يكاد يستعمل إلا في الشَّرِّ.

والحَيْقُ: ما يشتمل على الإنسانِ من مكروهِ فِعْله.

وقيل: أصل حَاقَ: حقَّ، كزال وزلَّ، وذَام وذمَّ.

وقوله تعالى: ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم﴾ أي: من أولئك الرسل عليهم السلام، متعلِّق بـ «حاق». وتقديمه على فاعله الذي هو قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ للمسارعة إلى بيانِ لحوقِ الشَّرِّ بهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٧٣.

(٢) ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٣١٤.

و «ما» إمَّا موصولة مفيدةٌ للتهويل، والضمير المجرور عائدٌ عليها، والجارُّ متعلِّق بالفعل بعده، وتقديمُه لرعاية الفواصل، أي: فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به، حيث أُهلكوا لأجله.

وإمَّا مصدريَّة، فالضمير راجع إلى جنسِ الرسول المدلول عليه بالجمع، كما قالوا. ولعلَّ إيثارَ الإفراد على الجمع؛ للتنبيه على أنَّه يحيقُ بهم جزاءُ استهزائهم بكلِّ واحدٍ منهم عليهم السلام، لا جزاءُ استهزائهم بكلِّهم من حيث هو فقط، أي: فنزل بهم جزاءُ استهزائهم، على وَضْع السبب موضعَ المسبب؛ إيذاناً بكمال الملابسة بينهما، أو عين استهزائهم إن أُريد بذلك العذاب الأخرويُّ، بناءً على ظهور الأعمال في النشأة الأخرويَّة بصور مناسبةٍ لها في الحُسْن والقُبح.

﴿قُلْ﴾ أمرٌ له ﷺ أن يَسألَ أولئك المستهزئينَ سؤالَ تقريع وتنبيهٍ كيلا يغترُّوا بما غشيَهم من نِعَم اللهِ تعالى، ويقول: ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ أي: يحفظُكم ﴿بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي: من بأسِه، بقرينةِ الحفظ، وتقديم الليل؛ لما أنَّ الدواهيَ فيه أكثرُ وقوعاً وأشدُّ وَقْعاً. وفي التعرُّض لعنوان الرحمانيَّة تنبيه على أنَّه لا حفظَ لهم إلا برحمته تعالى، وتلقينٌ للجواب، كما قيل في قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، وقيل: إنَّ ذلك إيماء إلى أنَّ بأسَه تعالى إذا أرادَ شديدٌ أليمٌ، ولذا يقال: نعوذُ بالله عزَّ وجلَّ من غضبِ الحليم، وتنديمٌ لهم حيث عذَّبهم من غلبتْ رحمتُه، ودلالةٌ على شدَّة خُبْثهم.

وقرأ أبو جعفر، والزهريُّ، وشيبةُ: «يَكْلُوكُم» بضمَّة خفيفة من غير همز، وحكى الكسائيُّ والفرَّاء: «يَكْلَوْكُم» بفتح اللام وإسكان الواو[1].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إضرابٌ عن ذلك، تسجيلًا عليهم بأنَّهم ليسوا من أهلِ السماع، وأنَّهم قومٌ أَلْهَتْهُم النِّعَمُ عن المنعِم، فلا يذكرونه ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى يخافوا بأسَه، أو يعدُّوا ما كانوا فيه من الأمن والدَّعَة حفظاً وكلاءةً، ليسألوا عن الكالئ، على طريقة قوله:

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣١٤.

عُوجوا فحيُّوا لنُعْمى دمْنَةَ الدارِ ... ماذا تُحيُّون من نُؤْيٍ وأَحجارِ[(١)]

وفيه أنَّهم مستمرُّون على الإعراض، ذُكِّروا ونبِّهوا أَوْ لا، وفي تعليق الإعراض بذِكْره تعالى وإيرادِ اسمِ الربِّ المضاف إلى ضميرهم المنبئِ عن كونِهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى، من الدلالةِ على كونهم في الغاية القاصية من الضلالة والغيِّ ما لا يَخفى.

وقيل: إنَّه إضراب عن مقدَّر، أي: إنَّهم غيرُ غافلين عن الله تعالى حتى لا يجدي السؤال عنه سبحانه، كيف وهم إنَّما اتَّخذوا الآلهةَ وعبدوها لتشفعَ لهم عنده تعالى، وتقرِّبهم إليه زلفى، بل هم معرضون عن ذِكْره عزَّ وجلَّ، فالتذكير يناسبُهم، وهذا مع ظهورِه من مساقِ الكلام ووضوحِ انطباقه على مقتضى المقام قد خفيَ عن الناظرين وغفلوا عنه أجمعينِ. اهـ.

وتعقّب بأنَّ السياق لتجهيلهم والتسجيل عليهم بأنَّهم إذا ذُكِّروا لا يَذْكرون، ألا يرى قولَه تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الأنبياء: ٤٥] وما ذكر يقتضي العكسَ؛ لتضمُّنه وصفَهم بإجداء الإنذار والدعاء، مع أنَّ قولَه: غير غافلين، منافٍ لما يدلُّ عليه النظمُ الكريم، فالحقُّ ما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ إعراض عن وصفِهم بالإعراض إلى توبيخِهم باعتمادهم على آلهتهم، وإسنادِهم الحفظَ إليها، فـ «أم» منقطعة مقدَّرة بـ «بل» والهمزة، و«لهم» خبر مقدَّم، و«آلهة» مبتدأ، وجملة «تمنعهم» صفته، و«من دوننا»: قيل: صفة بعد صفة، أي: بل أَلَهُم آلهةٌ مانعةٌ لهم، متجاوزة مَنْعَنا أو حفظَنا، فهم معوِّلون عليها، واثقونَ بحفظها.

وروي عن ابنِ عباس ﷺ أنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً، والأصل: أم لهم آلهةٌ مِن دوننا تمنعهم. وعليه يكون «من دوننا» صفة أيضاً، وقال الحوفيُّ: إنَّه متعلِّق بـ «تمنعهم»، أي: بل ألهم آلهة تمنعهم من عذابٍ مِن عندنا.

والاستفهامُ؛ لإنكار أن يكون لهم آلهةٌ كذلك، وفي توجيه الإنكار والنفي إلى

(١) القائل: النابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٤٨، والدِّمْنة: ما اجتمع من آثار الدار. والنؤي: ما يكون حول الخباء لمنع المطر.

وجود الآلهة الموصوفة بما ذُكر، لا إلى نفس الصفة، بأن يقال: أم تمنعهم آلهتُهم إلخ، من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجودِ ـ فضلًا عن رتبة المنع ـ ما لا يخفى.

وقال بعضُ الأجلَّة: إنَّ الإضرابَ الذي تضمَّنته «أم» عائدٌ على الأمر بالسؤال، كالإضراب السابق، لكنه أبلغُ منه من حيث إنَّ سؤالَ الغافل عن الشيء بعيدٌ، وسؤال المعتقدِ لنقيضه أَبعدُ، وفَهِمَ منه بعضُهم أنَّ الهمزة عليه للتقرير بما في زعم الكفرة تهكُّماً.

وتعقَّب أنَّه ليس بمتعيَّن، فيجوز أن يكون للإنكار لا بمعنى أنَّه لم يكن منهم زَعْم ذلك، بل بمعنى أنَّه لِمَ كان مثله مما لا حقيقةَ له.

والأظهر عندي جعلُه عائداً على الوصف بالإعراض كما سمعت أوَّلًا. وفي «الكشف» ضمِّن الإعراضُ عن وصفهم بالإعراض، إنكارَه أبلغَ الإنكار، بأنَّهم في إعراضهم عن ذِكْره تعالى كمن له كالئٌ يمنعه عن بأسِنا، معرِّضاً فيه بجانب آلهتهم، وأنَّهم أعرضوا عنه تعالى واشتغلوا بهم، ولهذا رُشِّح بما بعدُ، كأنَّه قيل: دَعْ حديثَ الإعراض، وانظر إلى من أعرضوا عن ربِّهم ـ سبحانه ـ إليه، فإنَّ هذا أطمُّ وأطمُّ، فتأمَّله؛ فإنَّه دقيق.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ استئناف مقرِّر لما قبله من الإنكار، أي: لا يستطيعون أن ينصروا أنفسَهم ويدفعوا عنها ما ينزلُ بها، ولاهم منا يُصحَبون بنصرٍ، أو بمَن يَدفعُ عنهم ذلك من جهتِنا، فهم في غاية العَجْز، وغيرُ معتنى بهم، فكيف يُتوهَّم فيهم ما يُتوهَّم، فالضمائر الآلهة؛ بتنزيلهم منزلَة العقلاء.

وروي عن قتادة، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها للكفرة، على معنى: ولا يستطيع الكفار نَصْر أنفسهم بآلهتِهم، ولا يَصحبُهم نصرٌ من جهتنا.

والأوَّل أولى بالمقام، وإن كان هذا أبعدَ عن التفكيك.

و «منَّا» على القولين، يحتمل أن يتعلَّق بالفعل بعدَه، وأن يتعلَّق بمقدَّر وقعَ صفةً لمحذوف.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ إلخ، إضراب على ما في «الكشف» عن الضَّرْب السابق من الكلامِ إلى وعيدِهم، وأنَّهم من أهل الاستدراج، وأخرجهم عن الخطاب؛ عدم مبالاةٍ بهم، وفي العدول إلى الإشارة عن الضمير إشارةٌ إلى تحقيرهم.

وفي غيرِ كتابٍ أنَّه إضراب عمَّا توهَّموه من أنَّ ما هم فيه من الكلاءة من جهة أنَّ لهم آلهة تَمنعُهم من تطرُّقِ البأس إليهم، كأنَّه قيل: دَعْ ما زعموا من كونهم محفوظينَ بكلاءةِ آلهتهم، بل ما هم فيه من الحفظ منَّا لا غير، حَفِظْناهم من البأساءِ ومتَّعناهم بأنواعِ السَّرَّاء؛ لكونهم من أهل الاستدراجِ والانهماكِ فيما يؤدِّيهم إلى العذاب الأليم.

ويحتمل أن يكون إضراباً عمَّا يدلُّ عليه الاستئنافُ السابقُ من بطلان توهُّمهم، كأنَّه قيل: دَعْ ما يبيِّن بطلانَ توهُّمهم من أن يكون لهم آلهة تمنعهم، واعلم أنَّهم إنَّما وقعوا في ورطة ذلك التوهُّم الباطل، بسبب أنَّا متَّعناهم بما يشتهونَ حتى طالت مدَّة عمارةِ أبدانهم بالحياة، فحسبوا أنَّ ذلك يدوم، فاغترُّوا وأعرضوا عن الحقِّ واتَّبعوا ما سوَّلت لهم أنفسُهم، وذلك طمعٌ فارغ وأملٌ كاذب.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أي: أَلَا ينظرونَ فلا يرونَ ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَ الكفرة أو أرضَهم ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ بتسليطِ المسلمين عليها، وحَوْزِ ما يحوزونَه منها، ونظمِه في سِلْكِ مِلْكهم، والعدول عن: أنَّا ننقصُ الأرضَ من أطرافها، إلى ما في النظم الجليل؛ لتصوير كيفيَّة نَقْصها وانتزاعِها من أيديهم، فإنَّه بإتيان جيوشِ المسلمين واستيلائهم، وكان الأصل: يأتي جيوشُ المسلمين، لكنَّه أسندَ الإتيانَ إليه عزَّ وجلَّ؛ تعظيماً لهم وإشارةً إلى أنَّه بقدرته تعالى ورضاه، وفيه تعظيمٌ للجهاد والمجاهدين.

والآية كما قدَّمنا أوَّلَ السورة مدنيَّة، وهي نازلة بعد فَرْضِ الجهاد، فلا يَرِدُ أنَّ السورةَ مكيَّةٌ والجهاد فُرضَ بعدها، حتى يقال: إنَّ ذلك إخبارٌ عن المستقبل، أو يقال: إنَّ المرادَ: ننقُصها بإذهاب بركتها، كما جاء في روايةٍ عن ابنِ عباس، أو بتخريب قُراها وموتِ أهلها، كما روي عن عكرمة.

وقيل: ننقُصها بموتِ العلماء، وهذا إن صحَّ عن رسول الله ﷺ فلا معدلَ عنه[1]، وإلا، فالأظهرُ ـ نظراً إلى المقام ـ ما تقدَّم، ويؤيِّده قولُه تعالى: ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾ على رسولِ الله ﷺ والمؤمنين.

والمراد إنكار ترتيب الغالبيَّة على ما ذكر من نقصِ أرض الكفرة بتسليط المؤمنين عليها، كأنَّه قيل: أَبَعْدَ ظهورِ ما ذُكر ورؤيتهم له يُتوهَّم غلبتُهم، وفي التعريف تعريضٌ بأنَّ المسلمين هم المتعيِّنون للغلبة المعروفون فيها.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ بعد ما بيَّن من جهته تعالى غايةَ هول ما يستعجله المستعجلونَ ونهايةَ سُوءِ حالهم عند إتيانه، ونعى عليهم جهلَهم بذلك، وإعراضَهم عن ذِكْر ربِّهم الذي يكلؤهم من طوارقِ الليل وحوادث النهار، وغير ذلك من مساويهم، أَمَرَ عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم: إنَّما أُنذركم ما تستعجلونه من الساعة ﴿بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ الصادقِ الناطق بإثباتها وفظاعة ما فيها من الأهوال، أي: إنَّما شأني أن أُنذركم بالإخبار بذلك، لا بالإتيان بها، فإنَّه مزاحم للحكمة التكوينيَّة والتشريعيَّة، فإنَّ الإيمانَ برهانيٌّ لا عيانيٌّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ إمَّا من تتمَّة الكلام الملقَّن، تذييلٌ له بطريقِ الاعتراض، قد أُمِرَ ﷺ بأن يقولَه لهم؛ توبيخاً وتقريعاً وتسجيلًا عليهم بكمال الجهل والعناد، وإمَّا من جهتِه تعالى على طريقة قوله سبحانه: «بل هم عن ذِكْر ربِّهم معرضُون» كأنَّه قيل: قل لهم ذلك وهم بمعزلٍ عن السماع.

واللام في «الصُّمّ» إمَّا للجنس المنتظِم لهؤلاء الكفرة انتظاماً أوليًّا، وإمَّا للعهد، فوضعَ المظهَر موضعَ المضمَر؛ للتسجيل عليهم بالتصامم، وتقييد نفي السماع بقوله تعالى: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥﴾ مع أنَّ الصُّمَّ لا يسمعون مطلقاً؛ لبيان كمالِ شدة الصَّمَم كما أنَّ إيثارَ الدعاء ـ الذي هو عبارةٌ عن الصوت والنداء ـ على الكلام لذلك فإنَّ الإنذارَ عادةً يكون بأصوات عالية مكرَّرة مقارنة لهيئات دالَّة عليه، فإذا لم يسمعوها، يكن صممُهم في غايةٍ لم يُسمَع بمثلها. وقيل: لأنَّ الكلامَ في الإنذار، ألا ترى قولَه تعالى: «قل إنما أنذركم بالوحي» وفيه دغدغةٌ لا تَخفى.

---

(١) أخرج ابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/٦٨ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ قال: «ذهاب العلماء».

وقرأ ابنُ عامر، وابنُ جبير عن أبي عمرو، وابنُ الصَّلْت عن حفصٍ: «تُسمِع» بالتاء على الخطاب للنبيِّ ﷺ من الإسماع، «الصُّمَّ الدعاءَ» بنصبهما على المفعوليَّة[1]، وهذه القراءة تؤيِّد احتمالَ كون الجملة من جهته تعالى.

وقُرِئَ: «يُسمِع» بالياء على الغيبة، وإسناد الفعل إلى ضميرِه ﷺ، «الصُّمَّ الدعاءَ» بنصبِهما على ما مرَّ[2].

وذَكَر ابنُ خَالويه[3] أنَّه قُرِئَ: «يُسمَع» مبنيًّا للمفعول، «الصُّمُّ» بالرفع على النيابة عن الفاعل، «الدعاءَ» بالنصب على المفعوليَّة.

وقرأ أحمد بنُ جبير الأنطاكيُّ، عن اليزيديِّ، عن أبي عمرٍو: «يُسمِع» بضمِّ ياء الغيبة وكسر الميم، «الصُّمَّ» بالنصب على المفعوليَّة، «الدعاءُ» بالرفع على الفاعليَّة بـ «يسمع»، وإسناد الإسماع إليه من باب الاتِّساع، والمفعول الثاني محذوف كأنَّه قيل: ولا يُسمِع الدعاءُ الصُّمَّ شيئاً[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ بيان لسرعة تأثُّرهم من مَجِيءِ نفسِ العذاب إثْرَ بيانِ عدم تأثُّرهم من مَجيءِ خبرِه، على نهج التوكيد القَسَمي، أي: وبالله لئن مسَّهم أدنى شيءٍ من عذابِه تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦﴾ أي: لَيَدْعُنَّ على أنفسِهم بالويل والهلاكِ، ويعترفُنَّ عليها بالظلم السابق.

وفي «مسَّتهم نفحةٌ» ثلاثُ مبالغاتٍ، كما قال الزمخشريُّ[5]، وهي كما في «الكشف» ذكْرُ المسِّ وهو دون النفوذ، ويكفي في تحقُّقه إيصالٌ ما، وما في النفحِ من معنى النَّزَارة، فإنَّ أصلَه هبوبُ رائحةِ الشيءِ، ويقال: نَفَحته الدابَّةُ: ضربته بحدِّ حافرِها. ونَفَحه بعطيَّة: رَضَخَهُ، وأعطاه يسيراً. وبناءُ المرَّة وهي لأقلِّ ما ينطلق عليه الاسمُ، وجعل السكَّاكيُّ التنكيرَ رابعتَها[6]؛ لما يفيده من التحقير، واستفادة ذلك - إن

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣١٥، وقراءة ابن عامر في التيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٣.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣١٥.
(٣) في القراءات الشاذة ص٩١، ونسبها للحسن.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٣١٥ - ٣١٦، وورد في (م): الصمَّ الدعاءُ، بدل: الدعاءُ الصُّمَّ.
(٥) الكشاف ٢/ ٥٧٤.
(٦) حاشية الشهاب ٦/ ٣٥٧، وينظر مفتاح العلوم للسكاكي ص١٩٣.

سُلِّمت ـ من بناءِ المرَّة ونفس الكلمة لا يعكِّر عليه، كما زعم صاحب «الإيضاح»(١).

واعترضَ بعضُهم المبالغةَ في المسِّ بأنَّه أقوى من الإصابة، لما فيه من الدلالة على تأثُّر حاسَّة الممسوس، وممَّا ذكر في «الكشف» يُعلمَ اندفاعُه لمن مسَّته نفحةُ عنايةٍ، ولعلَّ في الآية مبالغة خامسة تظهر بالتأمُّل؛ ثمَّ الظاهر أنَّ هذا المسَّ يوم القيامة كما رمزنا إليه، وقيل: في الدنيا؛ بناءً على ما روي عن ابنِ عباس رضي الله عنهما من تفسيرِ النفحة بالجوع الذي نزل بمكَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ بيانٌ لما سيقع عند إتيانِ ما أُنْذِرُوه.

وجعل الطيبيُّ الجملةَ حالًا من الضمير في «ليقولنَّ» بتقدير: ونحن نضع، وهي في الخلوِّ عن العائد نحو: جِئتُكَ والشمسُ طالعةٌ، ويجوز أن يقال: أُقيم العمومُ في «نفس» الآتي بَعْدُ مقامَ العائد، وهو كما ترى، أي: ونُحضِر الموازينَ العادلةَ التي تُوزن بها صحائفُ الأعمال كما يقضي بذلك حديثُ السِّجلَّات والبطاقة الذي ذكره مسلم وغيره(٢)، أو نفسُ الأعمال كما قيل.

وتظهر بصور جوهريَّة مشرقةٍ إن كانت حسناتٍ، ومظلمةٍ إن كانت سيئاتٍ، وجمع الموازينِ ظاهرٌ في تعدُّد الميزان حقيقةً، وقد قيل به، فقيل: لكلِّ أُمَّة ميزانٌ، وقيل: لكلِّ مكلَّف ميزان، وقيل: للمؤمن موازينُ بعددِ خيراته وأنواع حسناته.

والأصحُّ الأشهرُ: أنَّه ميزانٌ واحدٌ لجميع الأُمم ولجميع الأعمال، كِفَّتاه كأطباق السماوات والأرض؛ لصَحَّة الأخبار بذلك(٣)، والتعدُّد اعتباريٌّ، وقد يعبَّر عن الواحد بما يدلُّ على الجمع؛ للتعظيم، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] وقوله:

أَلَا فارحموني يا إلَهَ محمَّدٍ(٤)

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني ١/ ٤٧.
(٢) لم نقف عليه عند مسلم، والحديث سلف عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.
(٣) ينظر ما سلف منها عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.
(٤) هذا صدر بيت لحسان بن ثابت كما ذكر ذلك الشنقيطي في أضواء البيان ٥/ ٨٢١، وعجزه:

فإن لم أكن أهلًا فأنت له أهل

وإحضار ذلك تجاهَ العرشِ بين الجنَّة والنار، ويأخذ جبريلُ عليه السلام بعمودِه ناظراً إلى لسانِه، وميكائيلُ عليه السلام أمينٌ عليه، كما في «نوادر الأصول»(١).

وهل هو مخلوقٌ اليومَ أو سيُخلَق غداً؟ قال اللقانيُّ(٢): لم أقف على نصٍّ في ذلك، كما لم أقف على نصٍّ في أنَّه من أيِّ الجواهر هو. اهـ.

وما روي من أنَّ داودَ عليه السلام سأل ربَّه سبحانه أن يُرِيَه الميزانَ، فلما رآه، غُشي عليه، ثم أفاق، فقال: ياإلهي مَن الذي يَقدِرُ أن يَملأَ كفَّته حسناتٍ؟ فقال تعالى: يا داود إنِّي إذا رضيتُ عن عبدي ملأتُها بتمرةٍ(٣) = نصٌّ في أنَّه مخلوقٌ اليوم، لكن لا أدري حالَ الحديث فليُنَقَّر(٤).

وأنكر المعتزلةُ الميزانَ بالمعنى الحقيقيِّ، وقالوا: يجب أن يُحمَل ما ورد في القرآن من ذلك على رعايةِ العدل والإنصاف، ووَضْعُ الموازينِ عندهم تمثيلٌ لإرصاد الحساب السويِّ، والجزاء على حسَب الأعمال، وروي هذا عن الضحَّاك، وقتادة، ومجاهد، والأعمش. ولا داعي إلى العدول عن الظاهر.

وإفرادُ القِسْط مع كونه صفة الجمع؛ لأنَّه مصدرٌ، ووُصِفَ به مبالغةً، ويجوز أن يكون على حذفِ مضاف، أي: ذوات القِسْط، وجوَّز أبو حيَّان(٥) أن يكون مفعولًا لأجله، نحو قوله:

لا أَقْعُدُ الجُبْنَ عن الهَيْجاءِ(٦)

وحينئذٍ يستغنى عن توجيه إفراده. وقرئ: «القصط» بالصاد(٧).

---

(١) لم نقف عليه في مطبوعه.

(٢) في كتابه شرح جوهرة التوحيد ص٢٣٤.

(٣) أورده البغوي في تفسيره ٣/ ٢٤٦، وعزاه المناوي في فيض القدير ٢/ ٢٠٢ إليه.

(٤) نَقَرَ الشيءَ: بحث عنه، كنقَّره، ونقر عنه، وتنقَّره. القاموس (نقر).

(٥) في البحر المحيط ٦/ ٣١٦.

(٦) الرجز ذكره ابن مالك في ألفيته كما في شرح ابن عقيل ١/ ٥٧٥ مستشهداً به، ولم نقف على قائله، وتمامه: ولو توالت زُمَرُ الأعداء.
وقال العيني في المقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية (بهامش خزانة الأدب) ٣/ ٦٩: رجز راجز لم أقف على اسمه.

(٧) البحر المحيط ٦/ ٣١٦.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بمعنى «في» كما نصَّ عليه ابنُ مالك، وأَنشد لمجيئِها كذلك قولَ مسكين الدارميّ:

أولئك قومي قد مَضَوا لسبيلِهم كما قد مضى مِن قَبْلُ عادٌ وتُبَّعُ(١)

وهو مذهب الكوفيين، ووافقهم ابنُ قتيبة، أي: نضع الموازينَ في يوم القيامة التي كانوا يستعجلونها.

وقال غيرُ واحد: هي للتعليل، أي: لأَجْل حسابِ يوم القيامة، أو: لأَجْل أهلِه.

وجعلَها بعضُهم للاختصاص، كما هو أحد احتمالين في قولك: جئتُ لخمسٍ ليالٍ خلونَ من الشهر. والمشهور فيه ـ وهو الاحتمال الثاني ـ أنَّ اللامَ بمعنى «في».

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿شَيْـًٔا﴾ من الظُّلم فلا ينقص ثوابُها الموعود، ولا يُزاد عذابُها المعهود، فالشيء منصوب على المصدريَّة، والظلمُ هو بمعناه المشهور.

وجوِّز أن يكون «شيئاً» مفعولًا به على الحذف والإيصال، والظلم بحاله، أي: فلا تُظلَم في شيء، بأن تُمنَع ثواباً، أو تُزاد عذاباً.

وبعضهم فسَّر الظلمَ بالنقص، وجوَّز في «شيئاً» المصدريَّةَ والمفعوليَّةَ من غيرِ اعتبار الحذف والإيصال، أي: فلا تَنقُص شيئاً من النقص، أو شيئاً من الثواب، ويُفهَم عدمُ الزيادة في العقاب من إشارةِ النصِّ واللزومِ المتعارف، واختير ما لا يحتاج فيه إلى الإشارة واللزوم. والفاءُ لترتيب انتفاءِ الظلم على وَضْع الموازين.

---

(١) البحر المحيط ٦/٣١٦، والبيت في خزانة الأدب ٤/١٠١، إلا أن عجز البيت جاء هكذا:

كما مات لقمانُ بن عادٍ وتُبَّعُ

والبيت من قصيدة ذكر فيها الشاعر شعراءَ، كلٌّ منهم نسبَ قبره إلى بلده ومسقط رأسه، وذكر حال الشعراء المتقدِّمين وأنهم ذهبوا ولم يبقَ منهم أحد.

وربَّما يُفهَم من ذلك أنَّ كلَّ أحدٍ تُوزَن أعمالُه، وقال القرطبيُّ[(١)]: الميزانُ حقٌّ، ولا يكون في حقِّ كلِّ أحدٍ؛ بدليل الحديث الصحيح: «فيقال: يا محمَّد أَدخل الجنَّة من أمَّتك مَن لا حسابَ عليه مِن البابِ الأيمنِ...» الحديث[(٢)]. وأحرى الأنبياءُ عليهم السلام، وقولِه تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] وقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] وقوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وإنَّما يبقى الوزنُ لمن شاء اللهُ سبحانه من الفريقين.

وذكر القاضي منذرُ بنُ سعيدٍ البلُّوطيُّ[(٣)] أنَّ أهلَ الصبر لا تُوزَن أعمالُهم، وإنَّما يُصَبُّ لهم الأجر صَبًّا، وظواهرُ أكثرِ الآيات والأحاديث تقتضي وَزْنَ أعمالِ الكفَّار، وأوّلَ لها ما اقتضى ظاهرُه خلافَ ذلك، وهو قليلٌ بالنسبة إليها، وعندي: لا قاطعَ في عموم الوزن، وأَميلُ إلى عدم العموم، ثم إنَّه كما اختلف في عمومه بالنسبة إلى أفراد الإنْس اختُلف في عمومِه بالنسبة إلى نَوْعَي الإنس والجنِّ، والحقُّ أنَّ مؤمِني الجنِّ كمؤمِني الإنس، وكافرَهم ككافرِهم، كما بحثه القرطبيُّ[(٤)] واستنبطه من عدَّة آيات، وبسط اللقانيُّ القولَ في ذلك في «شرحه الكبير للجوهرة»[(٥)]، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ بيانُ الخلاف في كيفيَّة الوزنِ.

﴿وَإِن كَانَ﴾ أي: العمل المدلولُ عليه بوضْع الموازين، وقيل: الضميرُ راجع لـ «شيئاً» بناءً على أنَّ المعنى: فلا تُظلَم جزاءَ عملٍ من الأعمال ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: مقدارَ حبَّة كائنةٍ من خردلٍ، فالجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوف وقعَ صفةً لـ «حبة».

---

(١) في كتابه التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص٣١١.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) (٣٢٧)، وأحمد (٩٦٢٣).

(٣) هو: أبو الحكم منذر بن سعيد البلُّوطي، كان متفنناً في ضروب من العلوم، وله تفسير على الكتاب العزيز، والإبانة عن حقائق أصول الديانة، وغيرها، (ت٣٥٥هـ). معجم الأدباء ١٩/ ١٧٤، والروض المعطار ص٩٥.

(٤) في تفسيره ٢١/ ٢٧٧.

(٥) شرح جوهرة التوحيد من ص٢٣٣-٢٣٥.

وجوّز أن يكون صفةً لـ «مثقال»، والأوَّل أقربُ، والمراد: وإن كان في غاية القلَّة والحقارة، فإنَّ حبَّةَ الخردلِ مثَلٌ في الصِّغَر.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ ﷺ، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع: «مثقالُ» بالرفع[1] على أنَّ «كان» تامَّةٌ.

﴿أَتَيۡنَا بِهَاۗ﴾ أي: «جئنا بها»، وبه قرأ أُبَيٌّ[2]، والمراد: أحضرناها، فالباء للتعدية، والضميرُ لـ «مثقال»، وأنِّث لاكتسابِ التأنيث من المضافِ إليه، والجملة جوابُ «إنْ» الشرطية، وجوِّز أن تكون «إنْ» وصليَّةً، والجملة مستأنفة، وهو خلافُ الظاهر.

وقرأ ابنُ عباس، ومجاهد، وابنُ جبير، وابنُ أبي إسحاق، والعلاءُ بنُ سَيَابَة، وجعفرُ بنُ محمد، وابنُ شريح الأصبهانيُّ: «آتينا» بمدَّة[3]، على أنَّه مفاعلةٌ من الإتيان بمعنى المجازاة والمكافأة؛ لأنَّهم أَتَوْهُ تعالى بالأعمال وأتاهم بالجزاء.

وقيل: هو من الإيتاء، وأصله: أأتينا، فأُبدلت الهمزةُ الثانية ألفاً، والمراد: جازينا أيضاً مجازاً، ولذا عُدِّي بالباء، ولو كان المراد: أعطينا ـ كما قال بعضُهم ـ لتعدَّى بنفسِه، كما قال ابنُ جِنِّي[4] وغيرُه.

وقرأ حميد: «أثبنا» من الثواب[5].

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ قيل: أي عادِّين ومُحصِين أعمالَهم على أنَّه من الحساب مراداً به معناه اللغويُّ وهو العدُّ، وروي ذلك عن السديِّ، وجوِّز أن يكون كنايةً عن المجازاة.

وذكر اللقانيُّ أنَّ الحسابَ في عُرف الشرع توقيفُ اللهِ تعالى عبادَه ـ إلا من

---

(١) التيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٤، والبحر المحيط ٦/ ٣١٦.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٢، والكشاف ٢/ ٥٧٥، والبحر المحيط ٦/ ٣١٦.
(٣) المحتسب ٢/ ٦٣، والبحر المحيط ٦/ ٣١٦.
(٤) في المحتسب ٢/ ٦٣-٦٤.
(٥) القراءات الشاذة ص٩٢، والكشاف ٢/ ٥٧٥، والبحر المحيط ٦/ ٣١٦.

استثنى منهم ـ قبل الانصرافِ من المحشر على أعمالهم، خيراً كانت أو شرًّا، تفصيلًا لا بالوزن[١]. وأنَّه كما ذكر الواحديُّ[٢] وغيرُه، وجزم به صاحب «كنز الأسرار»[٣] قَبْلَ الوزنِ، ولا يَخفى أنَّ في الآية إشارةً ما إلى أنَّ الحسابَ المذكور فيها بعد وَضْع الموازين، فتأمَّل، ونَصْبُ الوصفِ إمَّا على أنَّه تمييز أو على أنَّه حالٌ، واستظهر الأوَّلَ في «البحر»[٤].

❁ ❁ ❁

هذا، ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ إلخ فيه إشارةٌ إلى سوءِ حال المحجوبين بحبِّ الدنيا عن الاستعداد للأخرى، فغفلوا عن إصلاح أمرهم وأعرضوا عن طاعة ربِّهم، وغَدَت قلوبُهم عن الذِّكْر لاهيةً، وعن التفكُّر في جلاله وجمالِه سبحانه ساهيةً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إشارةٌ إلى سوء حالِ بعض المنكِرين على أولياءِ الله تعالى، فإنَّ نفوسَهم الخبيثةَ الشيطانيَّة تأبى اتِّباعهم، لما يرونَ من المشاركة في العوارض البشريَّة.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ في الظُّلْم خراب العمران، فمتى ظَلَم الإنسانُ خرَّب قلبَه، وجرَّ ذلك إلى خرابِ بدنِه وهلاكِه بالعذاب.

وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مداومةَ الذِّكْر سببٌ لانجلاءِ الظُّلمة عن القلبِ وتطهُّره من دَنَس الأغيار، بحيث لا يبقى فيه سواه سبحانه ديَّار.

---

(١) شرح جوهرة التوحيد ص٢٢٧.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٤٠.

(٣) وهو: كنز الأسرار ولواقح الأفكار لأبي عبد الله محمد بن سعيد بن عمر الصنهاجي المتوفى سنة (٧٩٥هـ). كشف الظنون ٢/ ١٥١٣.

(٤) ٦/ ٣١٧.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ قيل: هم الكاملون الذين في الحَضْرة، فإنَّهم لا يتحرَّكون ولا يسكنون إلا مع الحضور، ولا تَشقُّ عليهم عبادةٌ، ولا تُلهيهم عنه تعالى تجارةٌ، بواطنُهم مع الحقِّ، وظواهرُهم مع الخَلْق، أنفاسُهم تسبيحٌ وتقديسٌ، وهو سبحانه لهم خيرُ أنيس.

وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ الكاملَ لا يختار شيئاً، بل شأنه التفويضُ والجريان تحت مَجاري الأقدار مع طِيْب النَّفْس، ومن هنا قيل: إنَّ القُطْبَ الربانيَّ الشيخَ عبدَ القادر الكيلانيَّ ـ قدِّس سرُّه وغمرنا بِرُّه ـ لم يتوفَّ حتى ترقَّى عن مقام الإدلال إلى التفويض المحضِ، وقد نصَّ على ذلك الشيخُ عبدُ الوهَّاب الشَّعْرانيُّ في كتابه «الجواهر واليواقيت». ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ قد تقدَّم ما فيه من الإشارة.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ قال الجنيد قُدِّس سرُّه: من كانت حياتُه بروحِه، يكون مماتُه بذهابها، ومن كانت حياتُه بربِّه تعالى، فإنَّه يُنقَل من حياة الطبع إلى حياةِ الأصل، وهي الحياة على الحقيقة.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ قيل، أي: بالقهر واللُّطف، والفِراق والوِصال، والإدبار والإقبال، والجهل والعِلْم، إلى غيرِ ذلك، ولا يخفى أنَّه كثيراً ما يُمتَحن السالكُ بالقَبْض والبَسْط، فينبغي له التثبُّت في كلٍّ عمَّا يحطُّه عن درجته، ولعلَّ فتنةَ البَسْط أشدُّ من فتنة القبضِ، فليتحفَّظ هناك أشدَّ تحفُّظ.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قال بعض الصوفيَّة: الموازين متعدِّدة، فللعاشقين ميزان، وللوالهين ميزان، وللعاملين ميزان، وهكذا، ومن ذلك ميزانٌ للعارفين تُوزَن به أنفاسُهم، ولا يَزِنُ نفساً منها السماواتُ والأرضُ.

وذكروا أنَّ في الدنيا موازينَ أيضاً، وأعظمُ موازينها الشريعةُ، وكفَّتاه الكتابُ والسنَّة، ولعمري لقد عطَّل هذا الميزانَ متصوِّفةُ هذا الزمان، أعاذنا الله تعالى والمسلمين ممَّا هُم عليه من الضَّلال، إنَّه عزَّ وجلَّ المُتَفضِّل بأنواع الإفضال.

❁ ❁ ❁

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ نوعُ تفصيلٍ لما أُجمل في قوله تعالى: «وما أرسلنا قَبْلَكَ إلا رجالًا نوحي إليهم» إلى قوله سبحانه: «وأهلكنا المُسْرفينَ» وإشارةٌ إلى كيفيةِ إنجائهم، وإهلاكِ أعدائهم، وتصديره بالتوكيد القَسَميِّ؛ لإظهار كمال الاعتناءِ بمضمونه.

والمراد بالفرقان: التوراةُ، وكذا بالضياء والذِّكر، والعطف كما في قوله:

إلى المَلِكِ القَرمِ وابنِ الهُمامِ ... ولَيْثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَم[1]

ونقل الطيبيُّ أنَّه أدخل الواو على «ضياء» وإن كان صفةً في المعنى دون اللفظ، كما يدخل على الصفة التي هي صفة لفظاً، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] وقال سيبويه[2]: إذا قلت: مررتُ بزيدٍ وصاحبِكَ، جاز، وإذا قلت: ومررتُ بزيدٍ فصاحبكَ، بالفاء، لم يجز، كما جاز بالواو؛ لأنَّ الفاءَ تقتضي التعقيبَ وتأخيرَ الاسم عن المعطوفِ عليه، بخلاف الواو، وأما قول القائل:

يا لَهْفَ زيّابةَ للحارثِ الصَّا ... بِحِ فالغانمِ فالآيبِ[3]

فإنَّما ذكر بالفاء وجاد؛ لأنَّه ليس بصفةٍ على ذلك الحدِّ؛ لأنَّ «أل» بمعنى «الذي» أي: فالذي صبح، فالذي غنم، فالذي آبَ، وأبو الحسن يجيزُ المسألةَ بالفاء كما يجيزها بالواو. انتهى.

والمعنى: وبالله لقد آتيناهما كتاباً جامعاً بين كونه فارقاً بين الحقِّ والباطل، وضياءً يُستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، وذِكْراً يتَّعظ به الناسُ ويتذكَّرون، وتخصيصُ المتَّقين بالذِّكْر؛ لأنَّهم المنتفعونَ به، أو ذكر ما يحتاجونَ إليه[4] من الشرائع والأحكام، أو شرفٌ لهم.

وقيل: الفرقان: النصر، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]

---

(١) سلف ٢/ ٣٥٠.
(٢) الكتاب ١/ ٣٩٩.
(٣) البيت لابن زيَّابة التيمي، وسلف ١١/ ٤٠٩.
(٤) في (م): به.

وأُطلق عليه؛ لفَرْقِه بين الوليِّ والعدوِّ، وجاء ذلك في روايةٍ عن ابن عباس، والضياء حينئذٍ إمَّا التوراةُ، أو الشريعةُ، أو اليدُ البيضاء، والذِّكْر بأحدِ المعاني المذكورة.

وعن الضحَّاك أنَّ الفرقانَ فَلْقُ البحر، والفَرْق والفَلْق أخوان، وإلى الأوَّل ذهب مجاهد، وقتادة، وهو اللائق بمساقِ النظم الكريم، فإنَّه لتحقيق أَمْرِ القرآن المشارِك لسائر الكتب الإلهيَّة، لاسيما التوراة فيما ذُكر من الصفات، ولأنَّ فلقَ البحر هو الذي اقترح الكفرةُ مثلَه بقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والضحَّاك: «ضياء» بغير واوٍ[(١)]، على أنَّه حالٌ من «الفرقان»، وهذه القراءة تؤيِّد أيضاً التفسيرَ الأوَّل.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ مجرورُ المحلِّ على أنَّه صفةٌ مادحةٌ «للمتقين» أو بدل، أو بيان، أو منصوبٌ، أو مرفوعٌ على المدح، والمراد على كلِّ تقدير: يَخشَون عذابَ ربِّهم.

وقوله سبحانه: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من المفعول، أي: يخشون ذلك، وهو غائبٌ عنهم غيرُ مرئيٍّ لهم، ففيه تعريضٌ بالكفرة حيث لا يتأثَّرون بالإنذار ما لم يُشاهدوا ما أُنذروه.

وقال الزجَّاج: حال من الفاعل، أي: يخشونه غائبينَ عن أعينِ الناس. ورجَّحه ابنُ عطيَّة[(٢)]. وقيل: يخشونه بقلوبهم.

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ أي: خائفون منها[(٣)] بطريقِ الاعتناء، والجملة تحتملُ العطفَ على الصلة، وتحتملُ الاستئنافَ، وتقديم الجارِّ؛ لرعاية الفواصل، وتخصيصُ إشفاقِهم من الساعة بالذِّكْر بعد وصفِهم بالخشية على الإطلاق؛ للإيذان بكونها معظمَ المخوِّفات[(٤)]، وللتنصيص على اتِّصافهم بضدِّ

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٢، والمحتسب ٢/ ٦٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٥.

(٣) ليست في (م).

(٤) في الأصل و(م): المخلوقات. والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٧١.

ما اتَّصفَ به المستعجلون، وإيثارُ الجملةِ الاسميَّة؛ للدلالة على أنَّ حالتهم فيما يتعلَّق بالآخرة الإشفاقُ الدائمُ.

﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن الكريم، أُشير إليه بـ «هذا»؛ للإيذان بسهولةِ تناوله ووضوحِ أمره. وقيل: لقُرب زمانه.

﴿ذِكْرٌ﴾ يتذكَّر به مَن تذكَّر، وصف بالوصف الأخيرِ للتوراة؛ لمناسبة المقام، وموافقتِه لما مرَّ في صَدْرِ السورة الكريمة، مع انطواءِ جميع ما تقدَّم في وصفه بقوله سبحانه: ﴿مُّبَارَكٌ﴾ أي: كثيرُ الخيرِ، غزيرُ النفع، ولقد عاد علينا ـ ولله تعالى الحمدُ ـ من بركتِه ما عاد.

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إمَّا صفةٌ ثانية لـ «ذِكْر»، أو خبرٌ آخَرُ لـ «هذا»، وفيه على التقديرين مِن تعظيمِ أَمْر القرآن الكريم ما فيه.

﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾: إنكارٌ لإنكارِهم بعد ظهورِ كونه كالتوراة، كأنَّه قيل: أَبَعْدَ أَنْ علمتِم أنَّ شأنَه كشأنِ التوراة، أنتم منكرونَ لكونِه منزلًا مِن عندنا، فإنَّ ذلك بعد ملاحظة حالِ التوراة ممَّا لا مساغَ له أصلًا.

وتقديمُ الجارِّ والمجرور؛ لرعاية الفواصل، أو للحصر، لأنَّهم معترفونَ بغيرِه مما في أيدي أهل الكتاب.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أي: الرشدَ اللائقَ به وبأمثاله من الرسل الكبار، وهو الرشدُ الكامل، أعني: الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا، والإرشاد بالنواميس الإلهيَّة. وقيل: الصحف. وقيل: الحكمة. وقيل: التوفيق للخير صغيراً، واختار بعضُهم التعميمَ.

وقرأ عيسى الثقفيُّ: «رَشَدَهُ» بفتح الراء والشين[1]، وهما لغةٌ، كالحُزْن والحَزَن.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قَبل موسى وهارونَ، وقيل: مِن قَبل البلوغ حينَ خرج من السِّرْب. وقيل: مِن قَبل أن يولدَ حين كان في صُلْب آدمَ عليه السلام. وقيل: مِن

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٢.

قَبل محمَّد ﷺ. والأوَّل مرويٌّ عن ابنِ عباس وابنِ عمر ﷺ. قال في «الكشف»: وهو الوجه الأوفق لفظاً ومعنًى، أمَّا الأوَّل؛ فللقُرب، وأمَّا الثاني؛ فلأنَّ ذِكْرَ الأنبياء عليهم السلام للتأسِّي، وكان القياسُ أن يُذكَر نوحٌ، ثم إبراهيمُ، ثم موسى عليهم السلام، لكن رُوعيَ في ذلك ترشيحُ التسلِّي والتأسِّي، فقد ذكرَ موسى عليه السلام؛ لأنَّ حالَهُ وما قاساه من قومِه وكثرةَ آياته وتكاثف أمَّته، أشبه بحال نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، ثم ثنَّى بذِكْر إبراهيم عليه السلام، وقيل: «من قبل» لهذا، ألَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٧٦] أي: من قَبل هؤلاء المذكورين. وقيل: من قبل إبراهيم ولوط. اهـ.

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ أي: بأحواله وما فيه من الكمالاتِ، وهذا كقولك في خيرٍ من الناس: أنا عالمٌ بفلانٍ، فإنَّه من الاحتواء على محاسنِ الأوصاف بمنزل.

وجوَّز أن يكون هذا كنايةً عن حفظه تعالى إيَّاه وعدم إضاعته، وقد قال عليه السلام يومَ إلقائه في النار، وقول جبريلَ عليه السلام له: سَلْ ربَّكَ: عِلْمه بحالي يغني عن سؤالي. وهو خلافُ الظاهر.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ ظرف لـ «آتينا» على أنَّه وقت متَّسع وقعَ فيه الإيتاءُ وما يترتَّب عليه من أقواله وأفعاله، وجوَّز أن يكون ظرفاً «للرشد» أو لـ «عالمين»، وأن يكون بدلًا مِن موضع «من قبل»، وأن ينتصبَ بإضمار: أعني، أو: اذكُر، وبدأ بذِكْر الأبِ؛ لأنَّه كان الأهمَّ عنده عليه السلام في النصيحة والإنقاذ من الضلال.

والظاهر أنَّه عليه السلام قال له ولقومِه مجتمعينَ: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ أراد عليه السلام ما هذه الأصنام، إلَّا أنَّه عبَّر عنها بالتماثيل؛ تحقيراً لشأنها، فإنَّ التمثالَ الصورةُ المصنوعة مشبَّهة بمخلوقٍ من مخلوقاتِ الله تعالى، من مثَّلتُ الشيءَ بالشيءِ إذا شبَّهتَه به.

وكانت ـ على ما قيل ـ صورَ الرجالِ يعتقدون فيهم، وقد انقرضوا. وقيل: كانت صوراً لكواكب[1] صنعوها حسبما تخيَّلوا، وفي الإشارة إليها بما يُشار به للقريب؛ إشارةٌ إلى التحقير أيضاً، والسؤال عنها بما التي يُطلَب بها بيانُ الحقيقة،

---

(١) في (م): صور الكواكب.

أو شرحُ الاسمِ من باب تجاهلِ العارف، كأنَّه لا يَعرِفُ أنَّها ماذا، وإلا، فهو عليه السلام محيطٌ بأنَّ حقيقتها حَجَرٌ أو نحوه.

والعُكوف: الإقبال على الشيء وملازمتُه على سبيل التعظيمِ له. وقيل: اللزوم والاستمرار على الشيءِ لغَرَض من الأغراض، وهو على التفسيرين دون العبادة، ففي اختياره عليها إيماءٌ إلى تفظيع شأنِ العبادة غايةَ التفظيع.

واللام في «لها» للبيان، فهي متعلِّقة بمحذوف كما في قوله تعالى: ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، أو للتعليل، فهي متعلِّقة بـ «عاكفون»، وليست للتعدية؛ لأنَّ عَكَفَ إنَّما يتعدَّى بـ «على» كما في قوله تعالى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وقد نزِّل الوصفُ منزلةَ اللازمِ، أي: التي أنتم لها فاعلون العكوفَ.

واستظهر أبو حيَّان[١] كونَها للتعليل، وصلة «عاكفون» محذوفة، أي: عاكفونَ على عبادتها، ويجوز أن تكون اللامُ بمعنى «على»، كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وتتعلَّق حينئذٍ بـ «عاكفون» على أنَّها للتعدية.

وجوِّز أن يؤوَّل العكوفُ بالعبادة، فاللام حينئذٍ كما قيل: دعامةٌ لا معدِّيةٌ، لتعدِّيه بنفسه، ورجِّح هذا الوجهُ بما بعد.

وقيل: لا يبعد أن تكون اللامُ للاختصاص، والجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوف وقع خبراً، و«عاكفون» خبرٌ بعد خبرٍ، وأنت تعلَم أنَّ نفيَ بعده مكابرةٌ.

ومن الناس من لم يَرتضِ تأويلَ العكوف بالعبادة؛ لما أخرج ابنُ أبي شيبة، وعبد بنُ حميد، وابنُ أبي الدنيا في «ذمِّ الملاهي»، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الشعب» عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجَهه، أنَّه مرَّ على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفون؛ لأَنْ يمسَّ أحدكم جمراً حتى يَطْفَأَ خيرٌ له من أن يمسَّها[٢]. وفيه نظرٌ لا يخفى، نَعَمْ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٢٠.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٢١، ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٧٣٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٥٥ (١٣٦٧٠)، وشعب الإيمان (٦٥١٨).

لا يبعدُ أن يكون الأولى إبقاءُ العكوف على ظاهره، ومع ذلك المقصودُ بالذات الاستفسارُ عن سبب العبادة والتوبيخ عليها بألطفِ أسلوب، ولمَّا لم يجدوا ما يعوَّل عليه في أمرها، التجؤوا إلى التشبُّث بحشيشِ التقليد المحضِ، حيث ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ وأبطل عليه السلام ذلكَ على طريقة التوكيدِ القَسَميِّ، حيث ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ الذين وجدتموهم كذلك ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ عجيبٍ لا يقادرُ قدرُه ﴿مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ ظاهرٌ بيِّن، بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه ضلالًا؛ لاستنادِكم وإيَّاهم إلى غيرِ دليل، بل إلى هوًى متَّبع وشيطانٍ مطاعٍ.

و«أنتم» تأكيدٌ للضمير المتَّصل في «كنتم»، ولا بدَّ منه عند البصريينَ؛ لجواز العطفِ على مثلِ هذا الضمير، ومعنى كنتم في ضلالٍ، مطلَقُ استقرارِهم وتمكُّنهم فيه لا استقرارُهم الماضي الحاصل قَبل زمَان الخطاب المتناوِل لهم ولآبائِهم، وفي اختيار «في ضلال» على «ضالِّين» ما لا يَخفى من المبالغة في ضلالهم.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ الباطل لا يصير حقًّا بكثرةِ المتمسِّكين به.

﴿قَالُوٓاْ﴾ لمَّا سمعوا مقالته عليه السلام استبعاداً لكونِ ما هم عليه ضلالًا وتعجُّباً من تضليلِهِ عليه السلام إيَّاهم على أتمِّ وجه: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالجِدِّ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: الهازلين، فالاستفهامُ ليس على ظاهرِه، بل هو استفهامُ مستَبْعد متعجِّب، وقولهم: «أم أنت» إلخ، عديله كلامُ منصفٍ مومئ فيه بألطفِ وجهٍ أنَّ الثابت هو القسمُ الثاني، لما فيه من أنواع المبالغة، وأشار في «الكشاف»[1] كما في «الكشف» إلى أنَّ الأصلَ: هذا الذي جئتنا به أهو جِدٌّ وحقٌّ، أم لَعِبٌ وهزلٌ، إلا أنَّه عَدَلَ عنه إلى ما عليه النظمُ الكريم؛ لما أشير اليه.

وقال صاحب «المفتاح»[2]: أي: أجدَّدتَ وأحدثتَ عندنا تعاطي الحقِّ، أم أحوالُ الصِّبَا بَعْدُ على الاستمرار، وهو أقربُ إلى الظاهر، وفيه الإشارةُ إلى فائدة العدولِ عن المعادل ظاهراً، وبيان المراد بالمجيء.

---

(١) ٢/ ٥٧٥-٥٧٦.

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي ص٢٧٢.

وظاهرُ كلامِ الشيخين(١) أنَّ «أم» متَّصلة، واختار العلَّامة الطيبيُّ أنَّها منقطعة فقال: إنَّهم لمَّا سمعوا منه عليه السلام ما يدلُّ على تحقير آلهتِهم وتضليلهم وآبائهم على أبلغِ وجهٍ وشاهدوا منه الغلظةَ والجِدَّ، طلبوا منه عليه السلام البرهانَ، فكأنَّهم قالوا: هَبْ أنَّا قد قلَّدنا آباءَنا فيما نحن فيه، فهل معك دليلٌ على ما ادَّعيتَ، أجئتَنا بالحقِّ؟! ثم أضربوا عن ذلك، وجاؤوا بـ «أم» المتضمِّنة لمعنى «بل» الإضرابيَّة، والهمزة التقريريَّة(٢)، فأضربوا بـ «بل» عمَّا أثبتوا له، وقرَّروا بالهمزة خلافَه، على سبيل التوكيد والبتِّ، وذلك أنَّهم قطعوا أنَّه لاعبٌ وليس بمُحِقٍّ ألبتة؛ لأنَّ إدخالَهم إيَّاه في زمرة اللاعبين، أي: أنت غريقٌ في اللعب، داخلٌ في زمرة الذين قصارى أمرهم في إثبات الدعاوى اللعبُ واللهوُ على سبيل الكنايةِ الإيمائيَّة، دلَّ على إثبات ذلك بالدليل والبرهان، وهذه الكنايةُ تُوقِفك على أنَّ «أم» لا يجوز أن تكون متَّصلةً قطعاً، وكذا «بل» فيما بَعْدُ. انتهى.

والحقُّ أنَّ جوازَ الانقطاع مما لاريبَ فيه، وأما وجوبُه، ففيه ما فيه.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: أنشأهنَّ بما فيهنَّ من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غيرِ مثال يَحتذيه، ولا قانون ينتحيه، وهذا انتقالٌ عن تضليلهم في عبادة الأصنام ونفي عدمِ استحقاقها لذلك إلى بيانِ الحقِّ وتعيينِ المستحقِّ للعبادة.

وضمير «فطرهنَّ» إمَّا للسماوات والأرض، واستظهره أبو حيَّان(٣)، ووصفُه تعالى بإيجادهنَّ إثْرَ وصفِه سبحانه بربوبيَّته لهنَّ؛ تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزلٍ عن الربوبيَّة التي هي منشأ استحقاقِ العبادة.

وإمَّا للتماثيل، ورجِّح بأنَّه أدخلُ في تحقيق الحقِّ وإرشاد المخاطَبين إليه، وليس هذا الضميرُ من الضمائر التي تَخصُّ من يعقلُ من المؤنَّثات، كما ظنَّه ابنُ عطيَّة(٤)، فتكلَّف لتوجيه عودِه لما لا يَعقلُ.

---

(١) أي: السعد التفتازاني والشريف الجرجاني، كما صرّح بهما ١/ ١٢٤.

(٢) في (م): التقديرية.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٢١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٨٦.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾ تذييلٌ متضمِّن لردِّ نسبتهم إيّاه عليه السلام إلى اللعبِ والهزلِ، والإشارة إلى المذكور، والجارُّ الأوَّل متعلِّق بمحذوف، أي: وأنا شاهدٌ على ذلكم من الشاهدين، أو على جهة البيان، أي: أعني على ذلكم، أو متعلِّق بالوصف بَعدَه، وإن كان في صلة «أل» لاتِّساعهم في المظروف أقوالٌ مشهورة، والمعنى: وأنا على ذلكم الذي ذكرتُه من العالِمين به على سبيل الحقيقة، المبرهنين عليه، ولستُ من اللاعبين، فإنَّ الشاهدَ على الشيء من تحقَّقه وحقَّقه، وشهادتُه على ذلك إدلاؤه بالحجَّة عليها وإثباته بها.

وقال شيخُ الاسلام(١): إنَّ قوله: «بل ربكم» إلخ، إضرابٌ عمَّا بَنَوا عليه مقالَهم من اعتقادِ كونِ تلك التماثيل أرباباً لهم، كأنَّه قيل: ليس الأمرُ كذلك، بل ربُّكم، إلخ.

وقال القاضي: هو إضرابٌ عن كونِه عليه السلام لاعباً بإقامة البرهانِ على ما ادَّعاه(١). وجعله الطيبيُّ إضراباً عن ذلك أيضاً، قال: وهذا الجوابُ واردٌ على الأسلوب الحكيم، وكان من الظاهر أن يُجيبهم عليه السلام بقولِه: بل أنا من المحقِّين ولستُ من اللاعبين. فجاء بقوله: «بل ربكم» الآية، لينبِّه به على أنَّ إبطالي لما أنتم عاكفونَ عليه وتضليلي إيَّاكم مما لا حاجةَ فيه - لوضوحِه - إلى الدليل، ولكنِ انظروا إلى هذه العظيمة، وهي أنَّكم تتركونَ عبادة خالقِكم ومالِكِ أمرِكم ورازقِكم ومالِكِ العالَمين، والذي فطر ما أَنتم لها عاكفونَ وتشتغلونَ بعبادتها دونَه، فأيُّ باطلٍ أظهرُ من ذلك، وأيُّ ضلالٍ أَبينُ منه.

وقوله: «وأنا على ذلكم من الشاهدين» تذييلٌ للجواب بما هو مقابل لقولهم: «أم أنت من اللاعبين» مِن حيث الأسلوبُ وهو الكنايةُ، ومن حيث التركيبُ وهو بناءُ الخبر على الضمير، كأنَّه قال: لستُ من اللاعبين في الدعاوى، بل من العالِمين فيها بالبراهينِ القاطعة والحججِ الساطعة، كالشاهد الذي نقطع به الدعاوى. اهـ.

ولا يخفى أنَّه يمكن إجراءُ هذا على احتمال كونِ «أم» متَّصلة، فافهم وتأمَّل؛ ليظهر لكَ أيُّ التوجيهات لهذا الإضرابِ أَولى.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٧٣.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ أي: لأجتهدنَّ في كسرها، وأصلُ الكيدِ: الاحتيالُ في إيجاد ما يضرُّ مع إظهار خلافِه، وهو يستلزم الاجتهادَ، فتجوِّز به عنه، وفيه إيذانٌ بصعوبة الانتهاز وتوقُّفه على استعمال الحِيَلِ ليحتاطوا في الحفظ، فيكون الظَّفَرُ بالمطلوب أتمَّ في التبكيتِ، وكان هذا منه عليه السلام عزماً على الإرشاد إلى ضلالِهم بنوع آخر، ولا يأباه ما روي عن قتادة أنَّه قال: نَرى أنَّه عليه السلام قال ذلك من حيث لا يسمعونَ. وقيل: سمعه رجلٌ واحد منهم. وقيل: قوم من ضَعَفتهم ممَّن كان يسيرُ في آخرِ الناس يومَ خرجوا إلى العيد، وكانت الأصنامُ سبعين. وقيل: اثنتين وسبعين.

وقرأ معاذ بنُ جبل، وأحمد بن حنبل: «بالله» بالباء[1] ثانيةِ الحروف، وهي أصلُ حروفِ القَسَم، إذ تدخلُ على الظاهر والمضمَر، ويُصرَّح بفعل القَسَم معها ويُحذف، والتاء بدلٌ من الواوِ، كما في: تجاه، والواو قائمةٌ مقامَ الباء؛ للمناسبة بينهما من حيث كونُهما شفويَّتين، ومن حيث إنَّ الواوَ تفيد معنًى قريباً من معنى الإلصاق، على ما ذكره كثيرٌ من النحاة.

وتعقَّبه في «البحر»[2] بأنَّه لا يقومُ على ذلك دليلٌ، وقد ردَّه السهيليُّ، والذي يقتضيه النظرُ أنه ليس شيء من هذه الأحرف أصلًا لآخَر، وفرَّق بعضُهم بين الباء والتاء، بأنَّ في التاء المثناة زيادة معنًى، وهو التعجُّب، وكأنَّ التعجُّب هنا من إقدامِه عليه السلام على أمْرٍ فيه مخاطرةٌ. ونصوص النُّحاة أنَّ التاءَ يجوز أن يكون معها تعجُّب، ويجوز أن لا يكون، واللام هي التي يلزمها التعجُّب في القَسَم، وفرَّق آخرون بينهما استعمالًا، بأنَّ التاءَ لا تستعمل إلا مع اسم الله الجليل، أو مع «ربِّ» مضافاً إلى الكعبة[3]، على قلَّة.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ من عبادتها إلى عيدِكم.

وقرأ عيسى بنُ عمر: «تَوَلَّوْا»[4] من التولِّي، بحذف إحدى التاءين وهي الثانية،

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٢١، والكشاف ٢/ ٥٧٦.
(٢) ٦/ ٣٢٢.
(٣) أي: رُبَّما قالوا: تربِّي، وتَرَبِّ الكعبة، وتالرَّحمن. مغني اللبيب ص١٥٧.
(٤) القراءات الشاذة ص٩٢.

عند البصريين، والأُولى عند هشام، ويعضد هذه القراءة قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: ٩٠]، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ فصيحةٌ، أي: فَوَلَّوا، فأتى إبراهيمُ عليه السلام الأصنامَ فجعلهم ﴿جُذَاذًا﴾ أي: قِطَعاً، فُعال بمعنى مفعول، من الجَذِّ الذي هو القَطْع، قال الشاعر:

بنو المهلَّب جَذَّ اللهُ دابرَهم ... أَمْسَوا رماداً فلا أصلٌ ولا طَرَفُ[1]

فهو كالحطام من الحَطْم الذي هو الكسر.

وقرأ الكسائيُّ، وابنُ محيصن، وابنُ مقسم، وأبو حَيْوة، وحُميد، والأعمشُ في رواية: «جِذَاذاً» بكسر الجيم[2].

وابنُ عباس، وابن نهيك، وأبو السَّمَّال: «جَذاذاً» بالفتح[3].

والضَّمُّ قراءةُ الجمهور، وهي كما روى ابنُ جَنِّي[4] عن أبي حاتم لغاتٌ، أجودُها الضَّمُّ؛ ونصَّ قطرب أنَّه في لغاته الثلاث مصدرٌ لا يثنَّى ولا يُجمَع. وقال اليزيديُّ: جُذاذاً، بالضم، جمع جذاذة، كزُجاج وزُجاجة، وقيل: بالكسر، جمعُ جَذِيْذ، ككريم وكِرام، وقيل: هو بالفتح، مصدر، كالحصاد بمعنى المحصود[5].

وقرأ يحيى بن وثّاب «جُذُذاً» بضمَّتين جمع جَذِيْذ، كسرير وسُرُر. وقرئ «جُذَذاً» بضمٍّ ففتحٍ، جمع جُذَّة كقُبَّة وقُبَب، أو مخفَّف فُعُل بضمَّتين.

روي أنَّ آزرَ خرج به في عيدٍ لهم فبدؤوا ببيتِ الأصنام فدخلوه فسجدوا لها، ووضعوا بينها طعاماً خرجوا به معهم، وقالوا: إلى أن نرجعَ برَّكت الآلهةُ على طعامنا. فذهبوا، فلما كان إبراهيمُ عليه السلام في الطريق ثَنَى عَزْمه عن المسيرِ معهم فقَعد، وقال: إنِّي سقيمٌ، فدخل على الأصنام وهي مصطفَّة وثَمَّ صنمٌ عظيم مستقبِل الباب، وكان من ذَهَبٍ، وفي عينَيْه جوهرتان تضيئان بالليل، فكسَر الكلَّ

(١) القائل جرير، والبيت في ديوانه ١/ ١٧٦، وورد فيه: آل، بدل: بنو.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٢٢.
(٣) القراءات الشاذة ص٩٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٢٢.
(٤) في المحتسب ٢/ ٦٤.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٢٢.

بفأسٍ كان في يده، ولم يُبْقِ إلا الكبيرَ، وعلَّق الفأسَ في عنقه، وقيل: في يده، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: الأصنام، كما هو الظاهر ممَّا سيأتي إن شاء الله تعالى.

وضمير العقلاء هنا وفيما مرَّ على زعم الكفرة، والكِبَر إمَّا في المنزلة على زعمهم أيضاً أو في الجُثَّة. وقال أبو حيَّان(١): يحتمل أن يكون الضميرُ للعَبَدة، قيل: ويؤيِّده أنَّه لو كان للأصنام لقيل: إلا كبيرَهم.

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ استئنافٌ لبيان وَجْهِ الكسر واستبقاءِ الكبير، وضمير «إليه» عند الجمهور عائدٌ على إبراهيم عليه السلام، أي: لعلَّهم يرجعونَ إلى إبراهيمَ عليه السلام لا إلى غيرِه، فيحاجّهم ويبْكتهم بما سيأتي من الجواب إن شاء الله تعالى.

وقيل: الضمير لله تعالى، أي: لعلَّهم يرجعونَ إلى اللهِ تعالى وتوحيدِه حين يسألونه عليه السلام، فيجيبهم ويُظهرَ عَجْزَ آلهتهم، ويُعلَم من هذا أنَّ قوله سبحانه: «إلَّا كبيراً لهم» ليس أجنبيًّا في البين على هذا القول كما توهّم، نعم لا يخفى بعدُه.

وعن الكلبيِّ أنَّ الضميرَ للكبير، أي: لعلَّهم يرجعونَ إلى الكبير، كما يُرجَع إلى العالِم في حلِّ المشكلات، فيقولون له: ما لهؤلاء مكسورة، ومالَكَ صحيحاً، والفأسُ في عنقك أو في يدك؟ وحينئذٍ يتبيَّن لهم أنَّه عاجزٌ لا يَنفع ولا يضرُّ، ويظهر أنَّهم في عبادته على جهلٍ عظيم، وكأنَّ هذا بناءً على ظنِّه عليه السلام بهم لما جرَّب وذاقَ من مكابرتهم لعقولِهم واعتقادهم في آلهتهم وتعظيمِهم لها.

ويحتمل أنَّه عليه السلام يَعلم أنَّهم لا يَرجعون إليه، لكن ذلك من باب الاستهزاءِ والاستجهال واعتبار حالِ الكبير عندهم، فإنَّ قياسَ حالِ مَن يُسجَد له ويُؤهَّل للعبادة أن يُرجَع إليه في حلِّ المُشكل.

وعلى الاحتمالين لا إشكالَ في دخول «لعلَّ» في الكلام، ولعلَّ هذا الوجهَ أسرعُ الأوجه تبادراً، لكن جمهور المفسِّرين على الأوَّل، والجارُّ والمجرور متعلِّق بـ «يرجعون»، والتقديم للحَصْر على الأوجه الثلاثة على ما قيل، وقيل: هو متعيِّن

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٢٢.

لذلك في الوجه الأوَّل، وغيرُ متعيَّن له في الأخيرين، بل يجوز أن يكونَ لأداءِ حقِّ الفاصلة، فتأمَّل.

وقد يُستأنَس بفعل إبراهيم عليه السلام من كَسْر الأصنام لمن قال من أصحابِنا: إنَّه لاضمانَ على مَن كسَر ما يُعمَل من الفخَّار مثلًا من الصور ليلعبَ به الصبيانُ ونحوهم، وهو القول المشهورُ عند الجمهور.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: حين رجعوا من عيدِهم، ورَأَوا ما رَأَوا ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾ الأمرَ العظيم ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ قالوه على طريقةِ الإنكار والتوبيخِ والتشنيع، والتعبيرُ عنها بالآلهة دون الأصنام، أو: هؤلاء؛ للمبالغة في التشنيع، وقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ استئنافٌ مقرِّر لما قَبله، وجوَّز أبو البقاء[1] أن تكون «مَن» موصولة متبدأ، وهذه الجملة في محلِّ الرفع، خبره أي: الذي فَعَلَ هذا الكسرَ والحطم بآلهتِنا إنَّه معدودٌ من جملة الظَّلَمة، إمَّا لجرأتِه على إهانتها، وهي الحقيَّة بالإعظام، أو لتعريض نفسِه للهَلَكة، أو لإفراطه في الكَسْر والحطم، والظلم على الأوجهِ الثلاثة بمعنى وَضْعِ الشيءِ في غيرِ موضعه.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: بعضٌ منهم، وهم الذين سمعوا قولَه عليه السلام: «وتاللهِ لأكيدنَّ أصنامَكُم» عند بعضٍ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ يَعيبُهم، فلعلَّه الذي فَعَلَ ذلك بهم، وسَمِعَ كما قال بعضُ الأجلَّة: حقُّه أن يتعدَّى إلى واحدٍ، كسائر أفعالِ الحواسِّ، كما قرَّره السهيليُّ، ويتعدَّى إليه بنفسه كثيراً، وقد يتعدَّى إليه بـ «إلى» أو اللام أو الباء، وتعدِّيه إلى مفعولَين مما اختُلف فيه، فذهب الأخفشُ، والفارسيُّ في «الإيضاح»، وابنُ مالك، وغيرهم إلى أنَّه إن وَلِيَهُ ما يُسمَع، تعدَّى إلى واحدٍ كـ: سمعتُ الحديثَ، وهذا متَّفق عليه، وإن وَلِيَهُ ما لا يُسمَع، تعدَّى إلى اثنين، ثانيهما ممَّا يدل على صوتٍ[2].

واشترط بعضُهم كونَه جملةً، كـ: سمعتُ زيداً يقول كذا. دون: قائلًا كذا؛ لأنَّه دالٌّ على ذاتٍ لا تُسمَع، وأمَّا قوله تعالى: (هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ) فعلى

---

(١) الإملاء ٤/ ٦.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٢٦٠، وما بعده منه أيضاً، وقول ابن مالك في كتابه: التسهيل ص٧١.

تقديرِ مضافٍ، أي: هل يَسمعُون دعاءَكم، وقيل: ما أُضيف إليه الظرفُ مغنٍ عنه، وفيه نظرٌ. وقال بعضُهم: إنَّه ناصبٌ لواحد بتقدير مضافٍ مسموع قبل اسم الذاتِ، والجملةُ ـ إن كانت ـ حالٌ بعد المعرفةِ، صفةٌ بعد النكرة، ولا تكون مفعولًا ثانياً؛ لأنَّها لا تكون كذلك إلا في الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر، وليس هذا منها.

وتُعقِّب بأنَّه من الملحقات بـ «رأى» العِلْميَّة؛ لأنَّ السمعَ طريقُ العِلْمِ كما في «التسهيل»[١] وشروحه، فجوّز هنا كون «فتى» مفعولًا أوَّلًا، وجملة: «يذكرهم» مفعولًا ثانياً، وكونه مفعولًا والجملة صفة له؛ لأنَّه نكرةٌ، وقيل: إنَّها بدلٌ منه، ورجَّحه بعضُهم باستغنائِه عن التجوُّز والإضمار، إذ هي مسموعة، والبدلُ هو المقصودُ بالنسبة، وإبدال الجملة من المفرد جائزٌ. وفي «الهمع» أنَّ بدلَ الجملة من المفرد بدلُ اشتمالٍ. وفي «التصريح»: تُبدل الجملةُ من المفرَد بدلَ كلٍّ مِن كلٍّ، فلا تغفل. وقال بعضُهم: إنَّ كونَ الجملة صفةً أبلغُ في نسبة الذِّكْر إليه عليه السلام؛ لما في ذلك من إيقاع الفعلِ على المسموع منه، وجَعْلُه بمنزلةِ المسموع مبالغةٌ في عدم الواسطة، فيفيد أنَّهم سمعوه بدونِ واسطة.

ووجَّه بعضُهم الأبلغيَّة بغير ما ذكر ممَّا بُحثَ فيه، ولعلَّ الوجهَ المذكورَ مما يتأتَّى على احتمال البدليَّة، فلا تفوتُ المبالغةُ عليه.

وقد يقال: إنَّ هذا التركيبَ كيفما أُعربَ أَبلغُ من قولك: سمعنا ذِكْرَ فتًى، ونحوه، مما لا يحتاج فيه إلى مفعولَين اتفاقاً؛ لما أنَّ «سمعنا» لمَّا تعلَّق بـ «فتى» أفادَ إجمالًا أنَّ المسموعَ نحو ذكره، إذ لا معنى لأنْ يكون نفسُ الذات مسموعاً، ثم إذا ذكر «يذكرهم» علمَ ذلك مرَّة أخرى، ولما فيه من تقوِّي الحكم بتكرُّر الإسناد على ما بيِّن في علم المعاني، ولهذا رجّح أسلوب الآية على غيرِه، فتدبَّر.

وقوله تعالى: ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ صفة لـ «فتى»، وجوِّز أن يكون استئنافاً بيانيًّا، والأوَّل أظهر، ورفع «إبراهيم» على أنَّه نائبُ الفاعل لـ «يقال» على اختيار

---

(١) ينظر التعليق السابق.

الزمخشريّ[١]، وابنِ عطية[٢]، والمراد لفظُه، أي: يطلق عليه هذا اللفظُ.

وقد اختُلف في جواز كون مفعولِ القول مفرداً لا يؤدي معناه جملة، ك: قلتُ قصيدةً وخطبةً، ولا هو مصدراً لقولٍ أو صفته، ك: قلت قولًا أو حقًّا، فذَهبَ الزجَّاجي[٣]، والزمخشريُّ، وابنُ خروف، وابنُ مالك إلى الجواز إذا أُريد بالمفرد لفظُه، بل ذكر الدنوشريُّ أنَّه إذا كان المرادُ بالمفرد الواقع بعد القولِ نفسَ لفظِه، تجب حكايتُه ورعايةُ إعرابه، وآخرون إلى المنع، قال أبو حيَّان[٤]: وهو الصحيح إذ لا يُحفَظ من لسانهم: قال فلانٌ زيداً، ولا: قال ضربَ، وإنَّما وقعَ القولُ في كلامهم لحكاية الجمل وما في معناها.

وجعل المانعون «إبراهيم» مرفوعاً على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو أو هذا إبراهيم، والجملة محكيَّة بالقول، كما في قوله:

إذا ذُقْـتُ فـاهـا قُـلـتُ طـعـمُ مُـدامـةٍ[٥]

وجوِّز أن يكون مبتدأ، خبره محذوفٌ، أي: «إبراهيم» فاعلُه، وأن يكون منادًى حُذف منه حرفُ النداء، أي: يقال له حين يُدعى: يا إبراهيم.

وعندي أنَّ الآيةَ ظاهرةٌ فيما اختاره الزمخشريُّ[٦]، وابنُ عطيَّة[٧]، ويكفي الظهور مرجِّحاً في أمثال هذه المطالب.

وذهب الأَعْلَمُ الى أنَّ «إبراهيم» ارتفع بالإهمال؛ لأنَّه لم يتقدَّمه عاملٌ يؤثِّر في

---

(١) الكشاف ٢/ ٦٢-٦٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٨٧.

(٣) في الأصل و(م): الزجَّاج. والمثبت من البحر المحيط ٦/ ٣٢٤، والدر المصون ٨/ ١٧٥-١٧٦، ولعلَّه ـ والله تعالى أعلم ـ الصواب.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٢٤.

(٥) القائل: امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص١١٠، وتمامه:

مـعـتَّـقـةٍ مـمَّـا يَـجـيءُ بـهـا الـتُّـجُـرْ

والمدامة: الخمر القديمة، والمعتَّقة كذلك. والتُّجر: التجار بالخمر المعتَّقة.

(٦) الكشاف ٢/ ٥٧٦-٥٧٧.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٨٧.

لفظه، إذ القولُ لا يؤثِّر إلا في المفرَد المتضمِّن لمعنى الجملة، فبقي مهملًا، والمهمل إذا ضُمَّ إلى غيرِه ارتفع، نحو قولهم: واحد واثنان، إذا عدُّوا، ولم يُدخلوا عاملًا لا في اللفظ ولا في التقدير، وعطفوا بعضَ أسماء العدد على بعض[١].

ولا يَخفى أنَّ كلامَ هذا الأعلم لا يقوله إلا الأجهل، وَلَأن يكون الرجلُ أفلحَ أعلمَ خيرٌ له مِن أنْ ينَطِقَ بمثلِه ويتكلَّم.

﴿قَالُوا﴾ أولئك القائلونَ «مَن فعل» إلخ: إذا كان الأَمْرُ كذا ﴿فَأْتُوا بِهِۦ﴾ أي: أَحضروه ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ مشاهداً معايناً لهم على أتمِّ وجه، كما تفيده «على» المستعارة لتمكُّن الرؤية ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: يحضرون عقوبتَنا له، وقيل: يَشهدون بفعله، أو بقوله ذلك، فالضمير حينئذٍ ليس للناس، بل لبعضٍ منهم مبهمٍ أو معهودٍ، والأوَّل مرويٌّ عن ابنِ عباس والضحَّاك، والثاني عن الحسن وقتادة، والترجِّي أوفق به.

﴿قَالُوٓا۟﴾ استئناف مبنيٌّ على سؤال نَشَأ من حكايةِ قولهم، كأنَّه قيل: فماذا فعلوا به بعد ذلك، هل أَتَوا به أو لا؟ فقيل: قالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ اقتصاراً على حكاية مخاطبتِهم إيَّاه عليه السلام؛ للتنبيه على أنَّ إتيانَهم به ومسارعتَهم إلى ذلك أمرٌ محقَّق غنيٌّ عن البيان.

والهمزة كما قال العلَّامة التفتازاني للتقرير بالفاعل، إذ ليس مرادُ الكفرة حَمْلَه عليه السلام على الإقرار بأنَّ كسرَ الأصنام قد كان[٢]، بل على الإقرار بأنَّه منه، كيف وقد أشاروا إلى الفعل في قولهم: «أأنت فعلت هذا» وأيضاً ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ولو كان التقريرُ بالفعل، لكان الجواب: فعلتُ، أو: لم أفعل.

واعترض ذلك الخطيبُ بأنَّه يجوز أن يكون الاستفهامُ على أصله، إذ ليس في السياق ما يدلُّ على أنَّهم كانوا عالِمين بأنَّه عليه السلام هو الذي كسر الأصنامَ حتى يمتنعَ حملُه على حقيقة الاستفهام.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٢٤.

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: أي: منه، يدل عليه لفظ الإقرار، فاندفع ما توهمه بعضهم في هذا المقام. انتهى. منه.

وأجيب عليه بأنَّه يدلُّ عليه ما قَبل الآيةِ، وهو أنَّه عليه السلام قد حلَف بقوله: «تَاللهِ لَأكيدنَّ أَصنامَكُم» إلخ، ثم لمَّا رَأَوا كسرَ الأصنام قالوا: «من فعل هذا» إلخ، فالظاهر أنَّهم قد عَلموا ذلك من حَلِفِه وذمِّه الأصنامَ.

ولقائل أن يقول: إنَّ الحَلِفَ - كما قاله كثيرٌ - كان سرًّا، أو سمعه رجلٌ واحد، وقوله سبحانه: «قالوا سمعنا» إلخ، مع قوله تعالى: «قالوا مَن فَعَلَ هذا» إلخ، يدلُّ على أنَّ منهم من لا يَعلم كونه عليه السلام هو الذي كسَر الأصنامَ، فلا يبعد أن يكون: «أأنت فعلت» كلامُ ذلك البعض؟.

وقد يقال: إنَّهم بعد المفاوضة في أمرِ الأصنام وإخبار البعضِ البعضَ بما يقنعه بأنَّه عليه السلام هو الذي كسرها، تيقَّنوا كلُّهم أنَّه الكاسرُ ف «أأنتَ فعلتَ» ممَّن صدرَ للتقرير بالفاعل.

وقد سلَك عليه السلام في الجواب مسلكاً تعريضيًّا يؤدي به إلى مقصدِه - الذي هو إلزامهم الحجَّة - على ألطفِ وجهٍ وأحسنِه يَحملهم على التأمُّل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقِّي من الكذب، فقد أبرزَ الكبيرَ قولًا في معرض المباشِر للفعل بإسناده إليه، كما أَبرزه في ذلك المعرِض فعلًا بجعل الفأس في عنقه أو في يده، وقد قصد إسنادَه اليه بطريق التسبُّب، حيث رأى تعظيمَهم إيَّاه أشدَّ من تعظيمِهم لسائر ما معه مِن الأصنام المصطفَّة المرتَّبة للعبادةِ من دون الله تعالى، فغضبَ لذلك زيادة الغضب، فأسند الفعلَ إليه إسناداً مجازيًّا عقليًّا باعتبار أنَّه الحاملُ عليه، والأصل: فعلتُه لزيادةِ غضبي من زيادةِ تعظيمِ هذا، وإنَّما لم يكسره - وإن كان مقتضى غضبِه ذلك - لتظهرَ الحجَّة.

وتسميةُ ذلك كذباً، كما ورد في الحديث الصحيح(١)، من بابِ المجاز لما أنَّ المعاريضَ تُشبِه صورتُها صورتَه، فبطل الاحتجاجُ بما ذُكر على عدم عصمةِ الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) أخرج البخاري (٣٣٥٧)، ومسلم (٢٣٧١)، وأحمد (٩٢٤١) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيمُ النبيُّ عليه السلام قطُّ إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وواحدةً في شأن سارة. . . .» الحديث.

وقيل في توجيه ذلك أيضاً: إنَّه حكايةٌ لما يلزم من مذهبِهم جوازه، يعني: أنَّهم لمَّا ذهبوا إلى أنَّه أعظمُ الآلهة، فعِظَمُ ألوهيتِه يقتضي أنْ لا يُعبدَ غيرُه معه، ويقتضي إفناءَ مَن شاركه في ذلك، فكأنَّه قيل: فَعَلَه هذا الكبيرُ، على مقتضى مذهبكم، والقضيَّة ممكنة.

ويُحكى أنَّه عليه السلام قال: فَعَلَه كبيرُهم هذا. غَضِبَ أن يُعبَدَ معه هذه وهو أكبرُ منها. قيل: فيكون حينئذٍ تمثيلًا أراد به عليه السلام تنبيهَهم على غضبِ الله تعالى عليهم؛ لإشراكهم بعبادته الأصنام.

وقيل: إنَّه عليه السلام لم يَقصِد بذلك إلا إثباتَ الفعل لنفسِه على الوجه الأبلغ مضمِّناً فيه الاستهزاءَ والتضليل، كما إذا قال لكَ أُمِّيٌّ فيما كتبته بخطٍّ رشيقٍ، وأنت شهيرٌ بحُسن الخطِّ: أأنتَ كتبتَ هذا؟ فقلت له: بل كتبتَه أنتَ. فإنَّك لم تقصد نفيَه عن نفسِك وإثباتَه للأُمِّيِّ، وإنَّما قصدتَ إثباتَه وتقريرَه لنفسِك مع الاستهزاءِ بمخاطَبك.

وتعقَّبه صاحبُ «الفرائد» بأنَّه إنَّما يصحُّ إذا كان الفعل دائراً بينه عليه السلام وبين كبيرهم، ولا يحتمل ثالثاً.

ورُدَّ بأنَّه ليس بشيء؛ لأنَّ السؤالَ في «أأنت فعلتَ» تقريرٌ لا استفهامٌ، كما سمعتَ عن العلَّامة، وصرَّح به الشيخُ عبد القاهر[١]، والإمام السكَّاكيُّ[٢]، فاحتمال الثالث مندفعٌ، ولو سُلِّم أنَّ الاستفهامَ على ظاهره، فقرينةُ الإسناد في الجواب إلى ما لا يَصلح له بكلمة الإضراب كافيةٌ؛ لأنَّ معناه أنَّ السؤال لا وجهَ له، وأنَّه لا يَصلحُ لهذا الفعل غيري، نعم يَرِدُ أنَّ توجيهَهم بذلك نحو التأمُّل في حال آلهتهم، وإلزامهم الحجَّة كما يُنبئُ عنه قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ أي: إن كانوا ممَّن يمكن أن ينطقوا، غيرُ ظاهرٍ على هذا.

وقيل: إنَّ «فَعَلَهُ كبيرُهم» جوابُ قولِه: «إن كانوا ينطقون» معنًى، وقولُه: «فاسألوا» جملةٌ معترضة مقترنةٌ بالفاء، كما في قوله:

---

(١) في كتابه دلائل الإعجاز ص١١٣.

(٢) في مفتاح العلوم ص٣١٥.

فـاعـلَـم فـعِـلْـمُ الـمـرءِ يَـنـفـعُـه[١]

فيكون كون الكبير فاعلًا، مشروطاً بكونِهم ناطقينَ ومعلَّقاً به، وهو محالٌ، فالمعلَّق به كذلك، وإلى نحو ذلك أشار ابنُ قتيبة[٢]، وهو خلافُ الظاهر، وقيل: إنَّ الكلامَ تمَّ عند قوله: «فعله» والضمير المستترفيه يعود على «فتى» أو إلى «إبراهيمَ» ولا يخفى أنَّ كلًّا من «فتى» و«إبراهيم» مذكورٌ في كلامٍ لم يَصدُر بمحضرٍ من إبراهيم عليه السلام حتى يعودَ عليه الضميرُ، وأنَّ الإضرابَ ليس في محلِّه حينئذٍ، والمناسب في الجواب: نعم، ولا مقتضى للعدولِ عن الظاهر هنا، كما قيل، وعُزيَ إلى الكسائيِّ أنَّه جعل الوقفَ على «فَعَله» أيضاً، إلَّا أنَّه قال: الفاعلُ محذوف، أي: فَعَله مَن فَعَله.

وتعقَّبه أبو البقاء[٣] بأنَّه بعيد؛ لأنَّ حذفَ الفاعل لا يسوغُ، أي: عند الجمهور، وإلَّا فالكسائيُّ يقول بجوازِ حذفه.

وقيل: يجوز أن يقال: إنَّه أراد بالحذف الإضمارَ، وأكثر القرَّاء اليومَ على الوقفِ على ذلك، وليس بشيء، وقيل: الوقف على «كبيرهم» وأراد به عليه السلام نفسَه؛ لأنَّ الإنسانَ أكبرُ من كلِّ صنم، وهذا التوجيه عندي ضَرْبٌ من الهذيان، ومثله أن يُراد به اللهُ عزَّ وجلَّ، فإنَّه سبحانه كبيرُ الآلهةِ ولا يُلاحظ ما أَرادوه بها، ويُعزى للفرَّاء[٤] أنَّ الفاءَ في «فَعَلَه» عاطفةٌ، وعلَّه بمعنى: لعلَّه، فخفِّف، واستدلَّ عليه بقراءةِ ابنِ السَّمَيْفع: «فَعَلَّهُ» مشدَّد اللام[٥]، ولا يَخفى أنْ يُجلَّ كلامُ الله تعالى العزيزُ عن مثلِ هذا التخريج، والآيةُ عليه في غاية الغموضِ، وما ذُكرَ في معناها بعيدٌ بمراحلَ عن لفظها.

وزعم بعضُهم أنَّ الآيةَ على ظاهرها، وادَّعى أنَّ صدورَ الكذب من الأنبياء

---

(١) وتمامه: أنْ سوف يأتي كلُّ ما قُدِرا
وسلف ١/ ٤٢٨.

(٢) في كتابه تأويل مشكل القرآن ص٢٠٨.

(٣) الإملاء ٢/ ٨.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٢.

عليهم السلام لمصلحةٍ جائزٌ، وفيه أنَّ ذلك يُوجِب رفعَ الوثوقِ بالشرائع؛ لاحتمالِ الكذب فيها لمصلحةٍ، فالحقُّ أنْ لا كذبَ أصلًا، وأنَّ في المعاريض لمندوحةً عن الكذب، وإنَّما قال عليه السلام: «إن كانوا ينطقون» دون: إن كانوا يسمعون، أو: يعقلون، مع أنَّ السؤالَ موقوفٌ على السمع والعقل أيضاً، لما أنَّ نتيجةَ السؤال هو الجوابُ، وأنَّ عدمَ نطقِهم أظهرُ، وتبكيتهم بذلك أدخلُ، وقد حصل ذلك حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فتفكَّروا وتدبَّروا وتذكَّروا أنَّ ما لا يقدرُ على دفع المضرَّة عن نفسِه، ولا على الإضرار بمن كسَره بوجهٍ من الوجوه يستحيلُ أن يقدرَ على دفعِ مضرَّة عن غيرِه، أو جَلْبِ منفعة له، فكيف يستحقُّ أن يكون معبوداً؟!

﴿فَقَالُوٓا۟﴾ أي: قال بعضُهم لبعضٍ فيما بينهم: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: بعبادةِ ما لا ينطقُ، قاله ابنُ عباس، أو بسؤالِكم إبراهيمَ عليه السلام وعُدُولكم عن سؤالها، وهي آلهتكم، ذكره ابنُ جرير[1]، أو بنفس سؤالِكم إبراهيمَ عليه السلام، حيث كان متضمِّناً التوبيخَ المستتبع للمؤاخذة، كما قيل، أو بغفلتكم عن آلهتِكم وعدمِ حفظكم إيَّاها، أو بعبادةِ الأصاغرِ مع هذا الكبير، قالهما وهبٌ، أو بأنِ اتَّهمتم إبراهيمَ عليه السلام والفأسُ في عنقِ الكبير، قاله مقاتل، وابن إسحاق. والحَصْرُ إضافيٌّ بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أصل النَّكْس: قلبُ الشيء بحيث يصيرُ أعلاه أسفلَه، ولا يلغو ذِكْرُ الرأس، بل يكون من التأكيد، أو يعتبر التجريدُ، وقد يستعمل النَّكْس لغةً في مطلَق قلب الشيءِ من حالٍ إلى حالٍ أُخرى، ويُذكَر الرأسُ للتصوير والتقبيح.

وذكر الزمخشريُّ[2] على ما في «الكشف» في المراد به هنا ثلاثةَ أوجهٍ:

الأوَّل: أنَّه الرجوعُ عن الفكرة المستقيمة الصالحة في تظليم أنفسهم إلى الفكرة الفاسدة في تجويز عبادتِها مع الاعترافِ بتقاصرِ حالها عن الحيوان، فضلًا أن تكون في معرض الإلهيَّة، فمعنى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ لا يَخفى علينا

---

(١) تفسير الطبري ١٦/٣٠١.

(٢) الكشاف ٢/٥٧٧.

وعليكَ أيُّها المبكِّتُ بأنَّها لا تنطقُ أنَّها كذلك، وإنَّا إنَّما اتَّخذناها آلهةً مع العلمِ بالوصف، والدليل عليه جوابُ إبراهيمَ عليه السلام الآتي.

والثاني: أنَّه الرجوعُ عن الجدال معه عليه السلام بالباطلِ في قولهم: «مَن فَعَلَ هذا بآلهتِنا»، وقولِهم: «أأَنْتَ فَعلتَ» إلى الجدال عنه بالحقِّ في قولهم: «لقدْ عَلِمْتَ» لأنَّه نفيٌّ للقدرة عنها واعترافٌ بعجزِها، وأنَّها لا تَصلحُ للإلهيَّة، وسُمِّيَ نكساً وإن كان حقًّا؛ لأنَّه ما أَفادهم عقداً، فهو نكسٌ بالنسبة إلى ما كانوا عليه من الباطلِ حيث اعترفوا بعجزِها وأَصرُّوا. وفي «لباب التفسير»[1] ما يقربُ منه مأخذاً، لكنَّه قدَّر الرجوعَ عن الجدال عنه في قَولهم: «إنَّكم أنتمُ الظالمونَ» إلى الجدالِ معه عليه السلام بالباطل في قولهم: «لقد عَلِمْتَ».

والثالث أنَّ النكسَ مبالغةٌ في إطراقهم رؤوسَهم خَجَلًا، وقولهم: «لقدْ عَلِمْتَ» إلخ، رميٌ عن حَيْرة، ولهذا أَتَوا بما هو حجَّة عليهم، وجاز أن يُجعل كنايةً عن مبالغةِ الحَيْرة وانخذالِ الحجَّة، فإنَّها لا تنافي الحقيقةَ، قال في «الكشف»: وهذا وجهٌ حسن، وكذلك الأوَّل.

وكون المرادِ النكسَ في الرأي، رواه ابنُ أبي حاتم[2] عن ابنِ زيد، وهو للوجهين الأوَّلين. وقال مجاهد: معنى: «نكسوا على رؤوسهم» ردَّت السفلةُ على الرؤوساء، فالمراد بالرؤوس الرؤساء.

والأظهر عندي الوجهُ الثالث، وأيًّا ما كان فالجارُّ متعلِّق بـ «نكسوا»، وجوِّز أن يتعلَّق بمحذوف وقع حالًا، والجملة القسميَّة مقولةٌ لقولٍ مقدَّر، أي: قائلين: «لقد» إلخ، والخطاب في «علمتَ» لإبراهيمَ عليه السلام لا لكلِّ من يَصلحُ للخطاب، والجملة المنفيَّة في موضع مفعولي «علم» إن تعدَّت إلى اثنين، أو في موضع مفعولٍ واحد إن تعدَّت لواحد، والمراد استمرارُ النفي لا نفيُ الاستمرار، كما يوهمه صيغة المضارع.

---

(١) وهو المسمَّى: لباب التفسير وعجائب التأويل لمحمود بن حمزة بن نصر المقرئ الكرماني، المعروف بتاج القرَّاء. كشف الظنون ٢/ ١٥٤١.

(٢) في الأصل و(م): أبو حاتم. ولعلَّ المثبت هو الصواب، وكلام ابن أبي حاتم في تفسيره ٨/ ٢٤٥٦ (١٣٦٧٦).

وقرأ أبو حيوة، وابنُ أبي عبلة، وابنُ مقسم، وابنُ الجارود والبكراويُّ كلاهما عن هشام بتشديد كافِ «نُكِّسُوا». وقرأ رضوانُ بنُ عبد المعبود: «نَكَسوا» بتخفيف الكافِ مبنياً للفاعل[١]، أي: نَكَسوا أنفسَهم، وقيل: رجعوا على رؤسائهم؛ بناء على ما يقتضيه تفسيرُ مجاهد.

﴿قَالَ﴾ عليه السلام مبكِّتاً لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ﴾ أي: أتعلمونَ ذلك فتعبدونَ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مجاوزين عبادتَه تعالى ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ من النفع، وقيل: بشيء ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦﴾ فإنَّ العِلْم بحاله المنافية للألوهيَّة مما يوجب الاجتنابَ عن عبادته قطعاً ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تضجُّر منه عليه السلام من إصرارِهم على الباطل بعد انقطاعِ العُذْر ووضوح الحقِّ.

وأصل أفٍّ: صوتُ المتضجِّر من استقذارِ شيءٍ على ما قال الراغبُ[٢]، ثم صار اسمَ فعلٍ بمعنى: أتضجَّر، وفيه لغاتٌ كثيرة، واللام لبيان المتأفِّف له، وإظهار الاسمِ الجليل في موضع الإضمار؛ لمزيد استقباحِ ما فَعلوا.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ أي: أَلَا تتفكَّرون فلا تعقلونَ قُبْحَ صنيعكم؟!

﴿قَالُوا۟﴾ أي: قال بعضُهم لبعضٍ لمَّا عجزوا عن المحاجَّة، وضاقت بهمُ الحيلُ، وهذا ديدنُ المُبطِل المحجوج إذا بُهتَ بالحجَّة وكانت له قدرةٌ، يفزع إلى المناصَبة: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ فإنَّ النارَ أشدُّ العقوبات، ولذا جاء: «لا يُعذِّب بالنار إلا خالقُها»[٣].

﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام لها ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨﴾ أي: إن كنتم ناصرينَ آلهتكم نصراً مؤزَّراً، فاختاروا له ذلك، وإلا فرَّطتم في نصرتها، وكأنَّكم لم تفعلوا شيئاً ما فيها، ويُشعر بذلك العدولُ عن: إن تنصروا آلهتكم فحرِّقوه، إلى ما في النظم الكريم، وأشار بذلك على المشهور، ورضي به الجميع نمروذُ بنُ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٢٥-٣٢٦، والكشاف ٢/ ٥٧٧.

(٢) المفردات (أفف).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٥٤)، وأحمد (٨٠٦٨) من حديث أبي هريرة ﷺ، بلفظ: «...وإنَّ النار لا يُعذِّب بها إلا الله عزَّ وجلَّ» الحديث، وفيه قصة.

كنعان بنِ سنحاريب بنِ نمروذ بنِ كوس بن حام بنِ نوحٍ عليه السلام[١].

وأخرج ابنُ جرير[٢] عن مجاهد قال: تلوتُ هذه الآيةَ على عبدِ الله بنِ عمر فقال: أتدري يا مجاهدُ مَن الذي أشار بتحريق إبراهيم عليه السلام بالنار؟ قلتُ: لا. قال: رجل من أعرابِ فارس. يعني الأكراد، ونصَّ على أنَّه من الأكراد ابنُ عطيَّة[٣]. وذَكَر أنَّ الله تعالى خَسَفَ به الأرضَ، فهو يَتَجلجلُ فيها إلى يومِ القيامة.

واسمُه على ما أخرجَ ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم عن شعيبٍ الجباري: هيون[٤]، وقيل: هدير[٥].

وفي «البحر» أنَّهم ذكروا له اسماً مختلفاً فيه لا يُوقَف منه على حقيقة[٦].

وروي أنَّهم حين همُّوا بإحراقه حبسوه ثم بَنوا بيتاً كالحظيرة بكوثى - قريةٍ من قرى الأنباط في حدود بابل من العراق - وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧] فجمعوا له صِلابَ الحطب من أصنافِ الخشب مدَّةَ أربعينَ يوماً، فأوقَدوا ناراً عظيمةً لا يَكاد يمرُّ عليها طائرٌ في أقصى الجوِّ؛ لشدَّة وَهجها، فلم يَعلموا كيف يُلقونه عليه السلام فيها، فأتى إبليسُ وعلَّمهم عملَ المنجنيقِ فعَملوه، وقيل: صنعه الكرديُّ الذي أشار بالتحريق، ثم خُسفَ به، ثم عمدوا إلى إبراهيم عليه السلام فوضعوه في المنجنيق مقيَّداً مغلولاً، فصاحت

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/٧٦، وورد فيه: السنجاريب، بدل: سنحاريب. وورد في الإعلام بأصول الأعلام للدكتور عبد الرحيم ص١٧٩: نمروذ بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام. وينظر تتمة الكلام عليه ثمَّة.

(٢) في تفسيره ١٦/ ٣٠٥.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٨٨.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٣٠٥، وفيه: هيزن، بدل: هيون. كما جاءت أيضاً في تفسير أبي السعود ٦/ ٧٦، وتفسير البيضاوي ٤/ ٤٣، وورد في تفسير البغوي ٣/ ٢٥٠: هيزر، وفي تفسير الرازي ٢٢/ ١٨٧: هبرين. وينظر ما قاله صاحب البحر المحيط الآتي قريباً.

(٥) تفسير أبي السعود ٦/ ٧٦.

(٦) البحر المحيط ٦/ ٣٢٨، وتمام كلامه: لكونه ليس مضبوطاً بالشكل والنقط، وهكذا تقع أسماء كثيرة أعجمية في التفاسير لا يمكن الوقوف منها على حقيقة لفظ؛ لعدم الشكل والنقط، فينبغي اطِّراح نقلها.

ملائكة السماءُ والأرض: إلهنا ما في أرضك أحدٌ يَعبدُك غير إبراهيمَ عليه السلام وإنَّه يُحرَق فيكَ، فَأْذَنْ لنا في نصرتِه، فقال جلَّ وعلا: إنِ استغاثَ بأحدٍ منكم فلينصره، وإن لم يَدْعُ غيري، فأنا أعلمُ به وأنا وليّه، فخلُّوا بيني وبينه، فإنَّه خليلي ليس لي خليلٌ غيره، وأنا إلهُه ليس له إلهٌ غيري، فأتاه خازنُ الرياح وخازنُ المياه يستأْذنانه في إعدام النار، فقال عليه السلام: لا حاجةَ لي إليكم حسبيَ اللهُ ونِعْمَ الوكيل.

وروي عن أبيِّ بنِ كعب قال: حين أَوثقوهُ لِيُلقُوه في النار قال عليه السلام: لا إلهَ إلا أنتَ سبحانك، لكَ الحمدُ ولكَ الملْكُ، لا شريكَ لك، ثم رَمَوا به، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال: يا إبراهيمُ أَلَكَ حاجةٌ؟ قال: أمَّا إليك فلا، قال جبريل عليه السلام: فاسْأَل ربَّك. فقال: حسبي من سؤالي عِلْمه بحالي.

ويُروى أنَّ الوزغَ كان ينفخُ في النار، وقد جاء ذلك في رواية البخاريِّ(١).

وفي «البحر»(٢): ذَكَر المفسِّرون أشياءَ صدرت عن الوَزَغ والبَغْلِ والخُطَّافِ والضِّفْدِع والعَضْرَفُوط(٣)، واللهُ تعالى أعلمُ بذلك. فلما وصلَ عليه السلام الحظيرةَ جعلها اللهُ تعالى ببركَةِ قوله عليه السلام روضةً، وذلك قولُه سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: كوني ذاتَ بَرْدٍ وسلامٍ، أي: ابردي بَرْداً غيرَ ضارٍّ، ولذا قال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه فيما أخرجه عنه أحمدُ وغيره: لو لم يقل سبحانه: «سلاماً» لقتَله بَرْدُها(٤).

وفيه مبالغاتٌ: جَعْلُ النارِ المسخَّرة لقدرتِه تعالى مأسورة مطاوعة، وإقامة: كوني ذاتَ بردٍ، مقامَ: ابْرُدي، ثم حَذْف المضافِ وإقامة المضافِ إليه مقامَه.

وقيل: نصب «سلاماً» بفعله، أي: وسلَّمنا سلاماً عليه، والجملة عطف على «قلنا»، وهو خلافُ الظاهر الذي أيَّدته الآثارُ، روي أنَّ الملائكةَ عليهم السلام

---

(١) برقم (٣٣٥٩).

(٢) ٦/ ٣٢٨.

(٣) العَضْرفُوط: هو العِسْودُّ، وهو من العِظَاء، والعَظَاية والعَظاءة: دُويبَّة على خلقة سامِّ أَبْرَصَ. اللسان (عسد) و(عظي).

(٤) الزهد ص١٠١، والعلل ومعرفة الرجال لأحمد (٤٩٦١)، وابن أبي شيبة ١١/ ٥١٩-٥٢٠.

أخذوا بضَبعَي[١] إبراهيم عليه السلام فأقعدوه على الأرض، فإذا عينُ ماءٍ عذبٍ وورِدٌ أحمرُ ونرجس، ولم تحرق النارُ إلّا وَثاقَه[٢]، كما روي عن كعب.

وروي أنَّه عليه السلام مكثَ فيها أربعين يوماً أو خمسين يوماً، وقال عليه السلام: ما كنتُ أطيبَ عيشاً منيٍّ إذ كنتُ فيها. قال ابنُ إسحاق: وبعث اللهُ تعالى مَلَكَ الظِّلِّ في صورة إبراهيمَ عليهما السلام يُؤنِسه، قالوا: وبعث اللهُ عزَّ وجلَّ جبريلَ عليه السلام بقميصٍ من حريرِ الجنَّة وطَنْفَسةٍ[٣]، فألبسه القميصَ وأقعده على الطَّنْفَسَة، وقعد معه يحدِّثه، وقال جبريل عليه السلام: يا إبراهيمُ إنَّ ربَّك يقول: أَمَا علمتَ أنَّ النارَ لا تضرُّ أحبابي، ثم أشرف نمروذُ ونَظَرَ من صَرْحٍ له، فرآه جالساً في روضةٍ، والمَلَكُ قاعدٌ إلى جنبِه والنارُ محيطةٌ به، فنادى: يا إبراهيمُ كبيرٌ إلهُكَ الذي بَلَغت قدرته أنْ حالَ بينك وبين ما أرى، يا إبراهيم هل تستطيعُ أن تخرجَ منها؟ قال إبراهيم عليه السلام: نعم. قال: هل تخشى إن نمتَ فيها أن تضرَّك؟ قال: لا. قال: فقم فاخرُج منها. فقام عليه السلام يمشي فيها حتى خرجَ منها، فاستقبله نمروذُ وعظَّمه، وقال له: يا إبراهيمُ مَن الرجلُ الذي رأيته معكَ في صورتك قاعداً إلى جنبك؟ قال: ذلك مَلَكُ الظِّلِّ أرسله إليَّ ربِّي ليؤنسني فيها. فقال: يا إبراهيمُ إنِّي مقرِّب إلى إلهِكَ قرباناً لما رأيت من قدرته وعزَّته فيما صنعَ بكَ حين أَبَيْتَ إلا عبادتَه وتوحيدَه، إنِّي ذابحٌ له أربعةَ آلافِ بقرةٍ. فقال له إبراهيمُ عليه السلام: إنَّه لا يَقبلُ اللهُ تعالى منكَ ما كنتَ على دينِك حتى تفارقَه وترجعَ إلى ديني. فقال: لا أستطيعُ تَرْكَ مِلْكي، ولكن سوف أَذبحها له، فذبحها وكفَّ عن إبراهيم عليه السلام. وكان إبراهيم عليه السلام إذ ذاك ابنَ ستَّ عشرةَ سنةً.

وفي بعض الآثار أنَّهم لما رَأَوه عليه السلام لم يحترق، قالوا: إنَّه سَحَرَ النارَ. فرمَوا فيها شيخاً منهم فاحترق.

وفي بعضها أنَّهم لما رَأَوه عليه السلام سالماً لم يُحرَق منه غير وَثاقه، قال

---

(١) الضَّبْع: العَضُد كلها وأوسطها بلحمها، أو الإبط، أو ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاه. القاموس (ضبع).

(٢) الوَثاق: ما يشدُّ به. القاموس (وثق).

(٣) الطَّنفسة: واحدة الطنافس للبُسُط والثياب. القاموس (طنفس).

هاران أبو لوط عليه السلام: إنَّ النارَ لا تُحرِقه؛ لأنَّه سحرَها، لكنِ اجعلوه على شيءٍ وأَوقدوا تحته، فإنَّ الدخانَ يقتله، فجعلوه فوقَ تِبْنٍ وأَوقدوا تحتَه، فطارت شرارةٌ إلى لحيةِ هاران فأحرقته.

وأخرج عبدُ بنُ حميد عن سليمان بن صُرَد، وكان قَد أدركَ النبيَّ ﷺ: إنَّ أبا لوطٍ قال ـ وكان عمَّه ـ: إنَّ النارَ لم تُحرقه من أجل قرابته منيِّ. فأَرسلَ اللهُ تعالى عُنُقاً من النار فأحرقه[1].

والأخبارُ في هذه القصةِ كثيرة لكن قال في «البحر»[2]: قد أَكثرَ الناسُ في حكاية ماجرى لإبراهيم عليه السلام، والذي صحَّ هو ما ذكره تعالى من أنَّه عليه السلام أُلقي في النار، فجعلها اللهُ تعالى عليه عليه السلام برداً وسلاماً.

ثم الظاهر أنَّ اللهَ تعالى هو القائلُ لها: «كوني برداً» إلخ، وأنَّ هناك قولًا حقيقةً. وقيل: القائل جبرائيلُ عليه السلام بأمره سبحانه. وقيل: قول ذلك مجازٌ عن جَعْلها باردةً، والظاهر أيضاً أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ سَلَبها خاصَّتها من الحرارة والإحراق، وأَبقى فيها الإضاءةَ والإشراق. وقيل: إنَّها انقلبت هواءً طيِّباً، وهو على هذه الهيئة من أعظم الخوارق. وقيل: كانت على حالِها، لكنَّه سبحانه ـ جلَّت قدرته ـ دَفَعَ أذاها كما تَرى في السمندل[3] كما يُشعِر به قولُه تعالى: «على إبراهيم»، وذلك لأنَّ ما ذُكر خلافُ المعتاد فيختصُّ بمَن خُصَّ به، ويبقى بالنسبة إلى غيرِه على الأصل، لا نظراً إلى مفهوم اللقب، إذ الأكثرون على عدمِ اعتباره، وفي بعضِ الآثار السابقة ما يؤيِّده.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٢٢، وأخرجه أيضاً الطبري في التفسير ١٩/ ٥٧٧، وفيه أن القائل: ابن لوط، أو: ابن أخي لوط، وأورده القرطبي في التفسير ١٨/ ٦٠، وفيه أن القائل: أبو لوط، وكان ابن عمه، وينظر ما سيأتي قريباً.

(٢) ٦/ ٣٢٨.

(٣) في الأصل و(م): السمندر، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٧٧. قال الدميري في حياة الحيوان ٢/ ٣٣-٣٤: السَّمَنْدل: طائر يأكل البيش وهو نبت بأرض الصين، ومن عجيب أمر السمندل استلذاذه بالنار ومكثه فيها. . . . وزعم آخرون أن السمندل طائر ببلاد الهند يبيض ويفرخ في النار، وهو بالخاصية لا تؤثر فيه النار.
وقال عن السمندر: دابَّة معروفة عند أهل الهند والصين.

وأيًّا ما كان فهو آيةٌ عظيمةٌ وقد يقع نظيرُها لبعضِ صلحاء الأمَّة المحمَّديَّة؛ كرامةً لهم لمتابعتهم النبيَّ الحبيبَ ﷺ، وما يُشاهد من وقوعِه لبعض المنتسبينَ إلى حضرة الوليِّ الكامل الشيخ أحمدَ الرفاعيِّ ـ قُدِّسَ سرُّه ـ من الفَسَقةِ الذين كادوا يكونون لكثرةِ فِسْقِهم كفَّاراً، فقيل: إنَّه بابٌ من السحر المختَلَف في كفر فاعلِه وقَتْلِه، فإنَّ لهم أسماءً مجهولة المعنى يتلونها عند دخولِ النار والضربِ بالسلاح، ولا يبعُدَ أن تكون كفراً وإن كان معها ما لا كفرَ فيه، وقد ذكر بعضُهم أنَّهم يقولون عند ذلك: تلسف تلسف، هيف هيف، أعوذُ بكلمات الله تعالى التامَّة من شرِّ ما خلقَ، أقسمتُ عليكِ يا أيَّتها النار، أو: أيُّها السلاح، بحقِّ حي حلي ونور سجي[1] ومحمَّدٍ ﷺ أن لا تضرِّي أو: لا تضرِّي غلامَ الطريقة، ولم يكن ذلك في زمن الشيخ الرفاعيِّ قُدِّسَ سرُّه العزيز، فقد كان أكثرَ الناس اتِّباعاً للسنة وأشدَّهم تجنُّباً عن مظانِّ البدعة، وكان أصحابُه سالكينَ مسلكَه متشبِّثين بذيلِ اتِّباعه ـ قُدِّسَ سرُّه ـ ثم طرأ على بعضِ المنتسبين إليه ما طرأ.

قال في «العبر»[2]: قد كثر الزغل في أصحاب الشيخ ـ قُدِّسَ سرُّه ـ وتجدَّدت لهم أحوالٌ شيطانيَّة منذ أخذتِ التاتار العراقَ، من دخولِ النيران، وركوبِ السباع، واللعب بالحيَّات، وهذا لا يعرفُه الشيخُ ولا صلحاءُ أصحابِه، فنعوذُ بالله تعالى من الشيطان الرجيم. انتهى.

والحقُّ أنَّ قراءةَ شيءٍ ما عندهم ليست شرطاً؛ لعدم التأثُّر بالدخول في النار ونحوه، فكثير منهم من ينادي إذا أُوقدت له النار، وضُربت الدفوفُ: يا شيخ أحمد، يا رفاعي، أو: يا شيخ فلان، لشيخٍ أَخَذَ منه الطريقَ ويدخل النارَ ولا يتأثَّر مِن دون تلاوةِ شيء أصلًا، والأكثر منهم إذا قرأ الأسماءَ على النار ولم تُضرَب له الدفوفُ، ولم يحصل له تغيُّر حالٍ، لم يقدر على مسِّ جمرة، وقد يتَّفق أن يقرأَ أحدُهم الأسماءَ وتُضرَب له الدفوفُ وينادي من ينادي من المشايخ، فيدخل ويتأثَّر.

والحاصل أنَّا لم نَرَ لهم قاعدةً مضبوطة بَيْدَ أنَّ الأغلبَ أنَّهم إذا ضُربت لهم

---

(١) في (م): سبحي.

(٢) العبر في خبر من غبر للذهبي ٤/ ٢٣٣.

الدفوفُ واستغاثوا بمشايخهم وعَرْبدوا[١]، يفعلونَ ما يفعلونَ ولا يتأثَّرون، وقد رأيتُ منهم من يأخذ زِقَّ الخمرِ ويستغيث بمَن يستغيث، ويدخل تنوراً كبيراً تَضْطرم فيه النارُ فيقعد في النار فيشربُ الخمر ويَبقى حتى تخمدَ النار، فيخرج ولم يَحترِق من ثيابِه أو جسده شيءٌ.

وأقربُ ما يقال في مثلِ ذلك: إنَّه استدراجٌ وابتلاءٌ، وأمَّا أن يقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أكرَمَ حضرةَ الشيخِ أحمدَ الرفاعي ـ قُدِّس سرُّه ـ بعدم تأثُّر المنتسبينَ إليه كيفما كانوا بالنار ونحوها مِن السلاحِ وغيره إذا هتفوا باسمِه أو اسمِ منتسبٍ إليه في بعض الأحوال، فبعيدٌ، بل كأنِّي بكَ تقول بعدمِ جوازِه، وقد يتَّفق ذلك لبعض المؤمنين في بعض الأحوال إعانةً له، وقد يأخذ بعضُ الناس النارَ بيدِه ولا يتأثَّر لأجزاء يَطْلي بها يدَه من خاصِّيتها عدمُ إضرارِ النارِ للجسد إذا طُليَ بها، فيُوهِم فاعلُ ذلك أنَّه كرامةٌ.

هذا واستدلَّ بالآية مَن قال: إنَّ الله تعالى أودعَ في كلِّ شيءٍ خاصَّةً حسبما اقتضته حكمتُه سبحانه، فليس الفَرْقُ بين الماء والنار مثلًا بمجرَّد أنَّه جرت عادةُ الله تعالى بأن يَخلُق الإحراقَ ونحوه عند النارِ، والرِّيَّ ونحوه عند الماء، بل أَودع في هذا خاصَّةَ الرِّيِّ مثلًا، وفي تلك خاصةَ الإحراقِ مثلًا، لكن لا تَحرِق هذه ولا يَروي ذاك إلا بإذنه عزَّ وجلَّ، فإنَّه لو لم يكن أَودعَ في النار الحرارةَ والإحراق ما قالَ لها ما قال. ولا قائل بالفَرْق، فتأمَّل.

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ مكراً عظيماً في الإضرار به ومغلوبيتِه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ٧٠﴾ أي: أخسرَ مِن كلِّ خاسرٍ، حيث عاد سعيُهم في إطفاء نورِ الحقِّ ـ قولًا وفعلًا ـ برهاناً قاطعاً على أنَّه عليه السلام على الحقِّ وهم على الباطل، وموجباً لارتفاعِ درجتِه عليه السلام واستحقاقِهم لأشدِّ العذاب.

وقيل: جعلهم الأخسرينَ من حيث إنَّه سبحانه سلَّط عليهم ما هو مِن أحقرِ خَلْقه وأضعفِه هو البعوضُ يأكل مِن لحومهم ويشربُ مِن دمائهم، وسلَّط على نمروذَ بعوضةً أيضاً، فبقيت تؤذيه إلى أن ماتَ لعنه اللهُ تعالى. والمعوَّل عليه التفسيرُ الأول.

---

(١) العَرْبَدة: سوءُ الخُلُق، والمُعَرْبِد: مؤذي نديمَه في سُكْره. القاموس (عربد).

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا﴾ وهو على ما تقدَّم ابنُ عمه، وقيل: هو ابنُ أخيه، وروي ذلك في «المستدرك» عن ابنِ عباس رضي الله عنهما[1].

وقد ضمِّن «نجَّيناه» معنى: أخرجناه، فلذا عُدِّي بـ «إلى» في قوله سبحانه: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ وقيل: هي متعلِّقة بمحذوف وقع حالًا، أي: منتهياً إلى الأرض، فلا تضمينَ، والمراد بهذه الأرض أرضُ الشام، وقيل: أرضُ مكَّة، وقيل: مصرَ، والصحيحُ الأوَّل.

ووصفها بعمومِ البركة؛ لأنَّ أكثرَ الأنبياءِ عليهم السلام بُعِثُوا فيها وانتشرت في العالمَ شرائعُهم التي هي مبادئ الكمالات والخيرات الدينيَّة والدنيويَّة، ولم يقل: التي باركناها، للمبالغة بجعلها محيطةً بالبركة.

وقيل: المراد بالبركات النِّعَم الدنيويَّة مِن الخِصْب وغيرِه، والأوَّل أظهرُ وأنسبُ بحال الأنبياء عليهم السلام.

روي أنَّه عليه السلام خرج من العراقِ ومعه لوطٌ وسارةُ بنتُ عمِّه هارانَ الأكبرِ، وقد كانا مؤمنَين به عليه السلام، يلتمس الفرارَ بدينه، فنزل حرَّانَ فمكث بها ما شاء اللهُ تعالى.

وزعم بعضهم أنَّ سارةَ بنت مَلِكِ حرَّانَ تزوَّجها عليه السلام هناك وشَرَط أبوها أنْ لا يغيِّرها عن دينِها. والصحيحُ الأوَّل، ثم قدمَ مصرَ ثم خرج منها إلى الشام، فنزل السَّبْعَ من أرضِ فلسطين، ونزل لوطٌ بالمؤتفكةِ على مسيرةِ يومٍ وليلةٍ من السَّبْعِ أو أقرب.

وفي الآية مِن مَدْحِ الشام ما فيها، وفي الحديث: «ستكونُ هجرةٌ بعد هجرةٍ، فخيارُ أهلِ الأرض ألزمُهم مُهاجَرَ إبراهيمَ». أخرجه أبو داود[2].

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «طُوبى لأهلِ الشام». فقلتُ: وما ذاكَ يا رسولَ الله؟ قال: «لأنَّ الملائكةَ عليهم السلام باسطةٌ أجنحتَها عليها»

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٢٣، ومستدرك الحاكم ٢/ ٥٦١، وقال: هذا إسناد صحيح.

(٢) أبو داود (٢٤٨٢)، وهو عند أحمد (٦٩٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

أخرجه الترمذيُّ عن بهزِ بنِ حكيم، عن أبيه، عن جدِّه(١).

وأما العراقُ فقد ذَكَر الغزاليُّ ـ عليه الرحمة ـ في باب المحبةِ(٢) من «الإحياء» اتفاقَ جماعةٍ من العلماء على ذمِّه وكراهةِ سُكْناه واستحبابِ الفرار منه. لعلَّ وجهَ ذلك غنيٌّ عن البيان فلا نُتْعِب(٣) فيه البَنان.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: عطيَّةً، كما روي عن مجاهد، وعطاء، مِن نَفَله بمعنى: أعطاه، وهو على ما اختاره أبو حيَّان(٤) مصدرٌ كالعاقبة والعافية، منصوبٌ بـ «وهبنا» على حدِّ: قعدتُ جلوساً، واختارَ جمعٌ كونَه حالًا مِن «إسحاق ويعقوب» أو: ولد ولدٍ، أو زيادةً على ما سأل عليه السلام، وهو إسحاق فيكون حالًا من «يعقوب»، ولا لُبْسَ فيه؛ للقرينة الظاهرة.

﴿وَكُلًّا﴾ من المذكورين، وهم: إبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، عليهم السلام لا بعضهم دون بعضٍ ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ بأن وفَّقناهم للصلاح في الدين والدنيا، فصاروا كاملينَ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدَى بهم في أمور الدين ﴿يَهْدُونَ﴾ أي: الأمَّةَ إلى الحقِّ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ لهم بذلك، وإرسالنا إيَّاهم حتى صاروا مكمَّلين.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ليتمَّ الكمالُ بانضمامِ العمل إلى العِلْم، وأصله على ما ذهب إليه الزمخشريُّ(٥) ومَن تابعه أن تُفعَل الخيراتُ ببناءِ الفعل لما لم يسمَّ فاعلُه، ورفعُ «الخيرات» على النيابة عن الفاعل، ثم فِعلًا الخيراتُ بتنوينِ المصدر، ورفع «الخيرات» أيضاً على أنَّه نائبُ الفاعل لمصدر المجهول، ثمَّ فِعْلَ الخيراتِ بحذفِ التنوين وإضافةِ المصدر لمعمولِه القائم مقامَ فاعله، والدَّاعي لذلك كما قيل أنَّ «فِعْلَ الخيراتِ» بالمعنى المصدريِّ ليس موحًى، إنَّما الموحى أن تُفعَل، ومصدر

---

(١) سنن الترمذي (٣٩٥٤) من حديث زيد بن ثابت، وكذا عزاه السخاوي في المقاصد الحسنة ص٣٩٩، ولم نقف عليه من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدِّه. وسلف عند تفسير الآية (١٣٧) من سورة الأعراف.

(٢) في الأصل و(م): المحنة، والمثبت من إحياء علوم الدين للغزالي ٤/ ٣٥٤.

(٣) في (م): ننقب.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٢٩.

(٥) الكشاف ٢/ ٥٧٩.

المبنيِّ للمفعول، والحاصل بالمصدر كالمترادفين، وأيضاً الوحيُ عامٌّ للأنبياء المذكورين عليهم السلام وأُممِهم، فلذا بُنِيَ للمجهول.

وتَعقَّب ذلك أبو حيَّان[١] بأنَّ بناءَ المصدرِ لما لم يُسَمَّ فاعلُه مختلفٌ فيه، فأجاز ذلك الأخفشُ، والصحيح منعُه، وما ذُكر مِن عموم الوحي لا يُوجِب ذلك هنا، إذ يجوز أن يكون المصدرُ مبنيًّا للفاعل، ومضافاً مِن حيث المعنى إلى ظاهر محذوف يشمل الموحى إليهم وغيرَهم، أي: فعل المكلَّفين الخيراتِ، ويجوز أن يكون مضافاً إلى الموحى إليهم، أي: أن يفعلوا الخيراتِ، وإذا كانوا قد أُوحي إليهم ذلك فأتباعُهم جارونَ مَجْراهم في ذلك، ولا يلزم اختصاصهم به. انتهى.

وانتصر للزمخشريِّ بأنَّ ما ذكره بيانٌ لأَمْر مقرَّر في النحو، والدَّاعي إليه أمران، ثانيهما ما ذُكر من عموم الموحى الذي اعتُرض عليه، والأوَّل سالم عن الاعتراض، ذكر أكثر ذلك الخفاجيُّ[٢]، ثم قال: الظاهر أنَّ المصدرَ هنا للأمر كضَرْبِ الرقاب، وحينئذٍ فالظاهر أنَّ الخطابَ للأنبياء عليهم السلام فيكون الموحى قولُ الله تعالى: افعلوا الخيراتِ، وكان ذلك؛ لأنَّ الوحيَ مما فيه معنى القول كما قالوا، فيتعلَّق به لا بالفعل، إلا أنَّه قيل: يرد عليه ما أُشير أوَّلًا إليه مِن أنَّ ما ذُكر ليس مِن الأحكام المختصَّة بالأنبياء عليهم السلام، ولا يخفى أنَّ الأمرَ فيه سهلٌ، وجوِّز أن يكون المرادُ شَرَعْنا لهم فِعْلَ ذلك بالإيحاء إليهم، فتأمَّل.

والكلام في قوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ على هذا الطَّرْزِ، وهو كما قال غيرُ واحد مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ دلالةً على فَضْله وإنافته.

وأصل «إقام»: إقْوَام، فقلبت واوه ألفاً بعد نَقْلِ حركتِها لما قبلها، وحَذْفِ إحدى أَلِفَيْه؛ لالتقاء الساكنين، والأكثر تعويضُ التاءِ عنها، فيقال: إقامة، وقد تُترَك التاءُ إمَّا مطلقاً، كما ذهب إليه سيبويه[٣] والسماعُ يَشهدُ له، وإمَّا بشرط الإضافة ليكون المضافُ سادًّا مسدَّها كما ذهب إليه الفرَّاء[٤]، وهو كما قال

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٢٩.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٢٦٤.

(٣) الكتاب ٢/ ٢٤٤-٢٤٥.

(٤) معاني القرآن ٢/ ٢٠٧.

أبو حيَّان[١]: مذهبٌ مرجوح، والذي حسَّن الحذفَ هنا المشاكلةُ، والآيةُ ظاهرة في أنَّه كان في الأمم السالفة صلاةٌ وزكاة وهو ممَّا تضافرت عليه النصوصُ إلَّا أنَّهما ليسا كالصلاة والزكاة المفروضَتَيْن على هذه الأمَّة المحمَّدية على نبيِّها أفضلُ الصلاة وأكملُ التحية.

﴿وَكَانُواْ لَنَا﴾ خاصَّة دون غيرنا ﴿عَـٰبِدِينَ ۝٧٣﴾ لا يَخطُر ببالهم غير عبادتِنا، كأنَّه تعالى أشَار بذلك إلى أنَّهم وفَّوا بعهد العبوديَّة بعد أن أشار إلى أنَّه سبحانه وفَّى لهم بعهد الربوبية.

﴿وَلُوطًا﴾ قيل: هو منصوبٌ بمضمَر يفسِّره قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ﴾ أي: وآتينا لوطاً آتيناه، والجملة عطف على «وهبنا له» جَمَعَ سبحانه إبراهيمَ ولوطاً في قوله تعالى: «ونجيناه ولوطاً» ثم بيَّن ما أنعم به على كلٍّ منهما بالخصوص، وما وقع في البين بيانٌ على وجه العموم.

والطبرسيُّ[٢] جعَل المرادَ من قوله تعالى: «وكُلًّا» إلخ أي: كلًّا من إبراهيمَ وولدَيْه إسحاق ويعقوب، جعلنا... إلخ، فلا اندراجَ للوطٍ عليه السلام هناك، وله وجه، وأمَّا كون المراد: وكلًّا مِن إسحاق ويعقوبَ، فلا وجهَ له، ويحتاج إلى تكليف توجيهِ الجَمْع فيما بعدَه، وقيل ما ذكر مقدَّرًا، وجملة: «آتيناه» مستأنفةٌ.

﴿حُكْمًا﴾ أي: حكمة، والمراد بها ما يجب فِعْلُه، أو نبوَّةً، فإنَّ النبيَّ حاكمٌ على أمَّته، أو الفصلَ بين الخصوم في القضاء، وقيل: حِفْظُ صُحُفِ إبراهيمَ عليه السلام، وفيه بُعْدٌ.

﴿وَعِلْمًا﴾ بما ينبغي عِلْمه للأنبياء عليهم السلام ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ﴾ قيل: أي: اللواطة، والجمع باعتبار تعدُّد المواد. وقيل: المراد الأعمالُ الخبيثةُ مطلقاً إلَّا أنَّ أشنعَها اللواطةُ، فقد أخرج إسحاقُ بنُ بشر، والخطيبُ، وابنُ عساكر، عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «عشرُ خصالٍ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٢٩.
(٢) مجمع البيان ١٧/ ٤٤.

عَمِلَتها قومُ لوطٍ بها أُهلِكوا: إتيانُ الرجال بعضِهم بعضاً، ورميُهم بالجُلاهِق[١]، والخَذْفِ[٢]، ولعبُهم بالحَمام، وضربُ الدفوف، وشربُ الخمور، وقصُّ اللحيةِ، وطولُ الشارب، والصَّفْر والتصفيقُ، ولباسُ الحرير، وتَزيدُها أُمَّتي بخلَّة: إتيانُ النساءِ بعضِهنَّ بعضاً»[٣].

وأسند ذلك إلى القرية على حذفِ المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامُه، فالنعت سببيٌّ نحو: جاءني رجلٌ زنى غلامُه، ولو جعل الإسناد مجازيًّا بدون تقديرٍ، أو القريةَ مجازاً عن أهلها، جاز.

واسمُ القرية: سَدُوم، وقيل: كانت قراهم سبعاً، فعبَّر عنها ببعضها؛ لأنَّها أشهرُها. وفي «البحر»[٤]: إنَّه عبَّر عنها بالواحدة؛ لاتفاقِ أهلِها على الفاحشة. ويُروى أنَّها كلَّها قُلبَت إلا زُغَر؛ لأنَّها كانت محلَّ مَن آمن بلوطٍ عليه السلام، والمشهور قَلْبُ الجميع.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: خارجينَ عن الطاعة غير منقادينَ للوطٍ عليه السلام، والجملة تعليلٌ لـ «تعمل الخبائث»، وقيل: لـ «نجَّيناه»، وهو كما ترى.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ أي: في أهل رحمتِنا، أي: جعلناه في جملتهم وعِدادهم، فالظرفيَّة مجازيَّة أو: في جنَّتِنا، فالظرفيَّة حقيقيَّة، والرحمة مجازٌ كما في حديثِ الصحيحين: «قال الله عزَّ وجلَّ للجنة: أنتِ رحمتي أَرْحَمُ بكِ مَن أشاء مِن

---

(١) فوقها في الأصل: أي: البيادق. اهـ منه. والجُلاهق: البُنْدق الذي يرمى به. القاموس (جلهق).

(٢) في الأصل: والحذف. والخذف: رَمْيُك بحصاة أو نواة أو نحوهما، تأخذه بين سبَّابتيك تحذف به أو بمحذفة من خشب. القاموس (خذف).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٢٤، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٥٠/ ٣٢٢، وإسحاق بن بشر لعلَّه: إسحاق بن بشر بن محمد بن عبد الله الهاشمي أبو حذيفة البخاري، مؤرِّخ، اشتغل بالحديث فوصم بالكذب، له كتاب: المبتدأ، صنَّفه في بدء الخَلْق، وكتاب في الفتوح. تاريخ بغداد ٦/ ٣٢٤-٣٢٦، والأعلام ١/ ٢٩٤، والخبر أورده الألباني في السلسلة الضعيفة (١٢٣٣) وقال عنه: موضوع. وينظر تتمة كلامه.

(٤) ٦/ ٣٢٩.

عبادي»[١]، ويجوز أن تكونَ الرحمةُ مجازاً عن النبوَّة، وتكون الظرفيَّة مجازيَّةً أيضاً، فتأمَّل.

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ الذين سبقت لهم منَّا الحسنى، والجملة تعليلٌ لما قبلها.

﴿وَنُوحًا﴾ أي: واذكُر نوحاً، أي: نَبَأه عليه السلام، وزعم ابنُ عطيَّة[٢] أنَّ «نوحاً» عطف على «لوطاً» المفعول لـ «آتينا»، على معنى: وآتينا نوحاً، ولم يَستبعد ذلك أبو حيَّان[٣]، وليس بشيء.

قيل: ولما ذكَر سبحانه قصَّة إبراهيم عليه السلام وهو أبو العرب، أردفَها ـ جلَّ شأنه ـ بقصَّة أبي البَشَر، وهو الأبُ الثاني كما أنَّ آدمَ عليه السلام الأَبُ الأوَّل؛ بناءً على المشهور مِن أنَّ جميعَ الناس الباقين بعد الطُّوفان من ذرِّيَّته عليه السلام، وهو: ابنُ لَمْك ابنِ مَتُّوْشَلخ بنِ أَخَنُوْخ وهو إدريس فيما يقال، وهو أَطولُ الأنبياء عليهم السلام على ما في «التهذيب»[٤] عُمُراً، وذكر الحاكم في «المستدرك» أنَّ اسمَه: عبدُ الغفَّار، وأنَّه قيل له: نوح؛ لكثرة بكائِه على نفسِه[٥]. وقال الجواليقيُّ[٦]: إنَّ لفظَ نوحٍ أعجميٌّ معرَّب. زاد الكرمانيُّ: ومعناه بالسريانية: الساكن.

﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي: دعا اللهَ تعالى بقوله: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] وقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، و«إذ» ظرف للمضاف المقدَّر، كما أشرنا إليه، ومن لم يقدِّر يجعله بدلَ اشتمالٍ من نوح.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل هؤلاء المذكورين، وذكرنا قَبْلُ قولًا آخَر.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءَه ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾ وهو الطوفان، أو أذيَّة قومِه، وأصل الكَرْبِ: الغَمُّ الشديدُ، وكأنَّه ـ على ما قيل ـ من كَرْبِ الأرض، وهو قَلْبُها بالحَفْر، إذِ الغَمُّ يثيرُ النفسَ إثارة ذلك، أو مِن: كربتِ

---

(١) البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦)، وهو عند أحمد (٨١٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٩٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٣٠.

(٤) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٢/ ١٣٤.

(٥) لم نقف عليه في مطبوع المستدرك.

(٦) في المعرَّب ص٣٧٨.

الشمسُ: إذا دَنَتْ للمغيبِ، فإنَّ الغمَّ الشديدَ تكاد شمسُ الروح تَغرُب منه، أو مِن الكربِ، وهو عِقْدٌ غليظ في رشاءِ الدلو، فإنَّ الغمَّ كعقدةٍ على القلب، وفي وَصْفِه بالعظيم تأكيدٌ لما يدلُّ هو عليه.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ اي: منعناه وحميناهُ منهم بإهلاكهم وتخليصِه، وقيل: أي: نصرناه عليهم فـ «من» بمعنى «على»، وقال بعضُهم: إنَّ النصرَ يتعدَّى بـ «على» و«من»، ففي «الأساس»: نصره اللهُ تعالى على عدوِّه، ونصره مِن عدوِّه[١]. وفرّق بينهما بأنَّ المتعدِّي بـ «على» يدلُّ على مجرَّدِ الإعانة، والمتعدِّي بـ «من» يدلُّ على استتباع ذلك؛ للانتقام من العدوِّ والانتصار.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ منهمكين في الشَّرِّ، والجملة تعليلٌ لما قبلها، وتمهيدٌ لما بَعْدُ مِن قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فإنَّ تكذيبَ الحقِّ والانهماكَ في الشَّرِّ ممَّا يترتَّب عليه الإهلاكُ قطعاً في الأمم السابقة.

ونصب «أجمعين» قيل على الحاليَّة مِن الضمير المنصوب، وهو كما ترى، وقال أبو حيَّان[٢]: على أنَّه تأكيدٌ له، وقد كثر التأكيدُ بـ «أجمعين» غيرَ تابع لـ «كلّ» في القرآن، فكان ذلك حجَّة على ابنِ مالكٍ[٣] في زعمِه أنَّ التأكيدَ به كذلك قليل، والكثير استعماله تابعاً لـ «كلّ». انتهى.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إمَّا عطف على «نوحاً» معمولٌ لعاملِه، أعني: اذكر عليه، على ما زعم ابنُ عطيَّة[٤]، وإمَّا مفعول لمضمَر معطوف على ذلك العاملِ بتقدير المضاف، أي: نبَأ داودَ وسليمانَ.

وداود: ابنُ إيشا بن عُوْبر بن باعر بن سلمون بن يخيشون[٥] بن عمي بن يارب بن حضرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام.

---

(١) أساس البلاغة للزمخشري (نصر).
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣٠.
(٣) ينظر التسهيل ص١٦٥-١٦٦.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٩٠.
(٥) في (م): «يخشون».

كان ـ كما روي عن كعب ـ أحمرَ الوجهِ، سبطَ الرأس، أبيضَ الجسم، طويل اللحيةِ، فيها جعودةٌ، حسنَ الصوتِ، وجمع له بين النبوَّة والمِلْك، ونقل النوويُّ[١] عن أهلِ التاريخ أنَّه عاش مئةَ سنةٍ، ومدَّة مِلْكه منها أربعون، وكان له اثنا عشر ابناً، وسليمان عليه السلام أحد أبنائه، وكان عليه السلام يُشاوَر في كثير مِن أمورِه مع صِغَر سنِّه، لوفورِ عقلِه وعِلْمه.

وذكر كعبٌ أنَّه كان أبيضَ جسيماً وسيماً وضيئاً خاشعاً متواضعاً، ومَلَكَ ـ كما قال المؤرخون ـ وهو ابنُ ثلاثَ عشرة سنةً، ومات وله ثلاثٌ وخمسونَ سنةً.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ ظرفٌ لذلك المقدَّر، وجوِّزت البدليَّة على طَرْزِ ما مرَّ، والمراد إذ حكما ﴿فِي ٱلْحَرْثِ﴾ إلَّا أنَّه جِيْءَ بصيغة المضارعِ حكايةً للحال الماضية، لاستحضار صورتها، والمراد بالحرث هنا الزرعُ.

وأخرج جماعةٌ عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّه الكَرْمُ. وقيل: إنَّه يقال فيهما، إلا أنَّه في الزرع أكثرُ. وقال الخفاجيُّ[٢]: لعلَّه بمعنى الكرم مجازٌ على التشبيه بالزرع، والمعنى: إذ يحكمان في حقِّ الحرث.

﴿إِذْ نَفَشَتْ﴾ ظرف للحكم، والنَّفْش: رعيُ الماشية في الليل بغيرِ راعٍ، كما أنَّ الهَمَل رعيُها في النهار كذلك، وكأنَّ أصلَه الانتشارُ والتفرُّق، أي: إذ تفرَّقت وانتشرت ﴿فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ ليلًا بلا راعٍ، فرعَتْه وأفسدَتْه ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨﴾ أي: حاضرين عِلْماً، وضميرُ الجمع قيل: لداودَ وسليمانَ، ويؤيِّده قراءةُ ابنِ عباس رضي الله عنهما: «لحكمهما» بضمير التثنية[٣]، واستدلَّ بذلك مَن قال: إنَّ أقلَّ الجمع اثنان، وجوِّز أن يكونَ الجمعُ للتعظيم كما في ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩].

وقيل: هو للحاكمين والمتحاكمين. واعتُرِض بأَنَّ إضافةَ حكم إلى الفاعل على سبيلِ القيام، وإلى المفعول على سبيل الوقوع، وهما في المعنى معمولان له، فكيف يصحُّ سلكهما في قرن؟!

---

(١) في تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٨١، ونقل قولَ كعبٍ السالف آنفاً.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٢٦٥.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٣١، والكشاف ٢/ ٥٧٩.

وأُجيب بأنَّ الحكمَ في معنى القضيَّة لا نَظَر هاهنا إلى عِلْمه، وإنَّما يُنظر إليه إذا كان مصدراً صِرْفاً، وأظهر منه كما في «الكشف» أنَّ الاختصاصَ يَجمع القيامَ والوقوعَ وهو معنى الإضافة، ولم يَبْقَ النظر إلى العمل بعدها لالفظاً ولا معنًى، فالمعنى: وكنَّا للحكم الواقع بينهم شاهدينَ، والجملة اعتراضٌ مقرِّر للحكم، وقد يقال: إنَّه مادحٌ له، كأنَّه قيل: وكنَّا مراقبينَ لحكمهم لانقرُّهم على خَلَلٍ فيه، وهذا على طريقة قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] في إفادة العناية والحفظ.

وقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ عطف على «يحكمان» فإنَّه في حكم الماضي، كما مضى.

وقرأ عكرمة: «فأفْهَمناها» بهمزة التعدية[١]، والضميرُ للحكومة أو الفتيا المفهومة مِن السياق.

روي أنَّه كانت امرأةٌ عابدةٌ مِن بني اسرائيل، وكانت قد تبتَّلت، وكان لها جاريتان جميلتان، فقالت إحداهما للأُخرى: قد طال علينا البلاءُ، أمَّا هذه فلا تريد الرجالَ، ولا نزال بِشَرٍّ ما كنَّا لها، فلو أنَّا فضحناها فرُجمت. فصِرنا إلى الرجال فأَخذا ماءَ البيض فأَتياها وهي ساجدةٌ فكشفتا عنها ثوبَها ونضحتاه في دُبُرها وصرختا أنَّها قد بَغَت، وكان مَن زنى فيهم حَدُّه الرجمُ، فرُفعت إلى داودَ وماءُ البيض في ثيابِها، فأرادَ رَجْمها، فقال سليمان: ائتوا بنارٍ، فإنَّه إن كان ماءَ الرجل تفرَّق، وإن كان ماءَ البيض اجتمع، فأُتي بنارٍ فوضعها عليه فاجتمع، فدَرَأَ عنها الرجمَ، فعطف عليه داودُ عليه السلام فأحبَّه جدًّا، فاتَّفق أن دخل على داودَ عليه السلام رجلان، فقال أحدُهما: إنَّ غنَم هذا دخلت في حرثي ليلًا فأفسدته، فقضى له بالغنم، فخرجا فمرَّا على سليمانَ، وكان يجلس على الباب الذي يَخرُج منه الخصومُ فقال: كيف قضى بينكما أبي؟ فأخبراه، فقال: غيرُ هذا أرفقُ بالجانبين. فسمعه داودُ عليه السلام فدعاه فقال له: بحقِّ النبوَّة والأبوَّة إلَّا أخبرتني بالذي هو أرفقُ. فقال: أَرى أن تدفعَ الغنَم إلى صاحب الأرض لينتفعَ بدَرِّها ونَسْلِها وصوفِها، والحرثَ إلى صاحب الغنم ليقومَ عليه حتى يعودَ كما كان، ثم يترادَّا، فقال: القضاءُ ما قضيتَ، وأمضى الحُكم بذلك، وكان عُمُره إذا ذاك إحدى عشرة سنةً.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٣٠، والكشاف ٢/ ٥٧٩.

ومال كثيرٌ إلى أنَّ حكمَهما عليهما السلام كان بالاجتهادِ وهو جائزٌ على الأنبياء عليهم السلام كما بُيِّنَ في الأصول، وبذلك أقولُ، فإنَّ قولَ سليمانَ عليه السلام: غيرُ هذا أرفق، ثم قولُه: أرَى أن تُدفَع . . . إلخ، صريحٌ في أنَّه ليس بطريق الوحي، وإلا لَبَتَّ القولَ بذلك، ولما ناشدَه داودُ عليهما السلام لإظهار ما عندَه، بل وجب عليه أن يُظهِره بداءً وحَرُمَ عليه كتمُه، مع أنَّ الظاهرَ أنَّه عليه السلام لم يكن نبيًّا في ذلك السِّنِّ، ومن ضرورتِهِ أن يكون القضاءُ السابق أيضاً كذلك، ضرورةَ استحالة نقضِ حُكم النَّصِّ بالاجتهاد، وفي «الكشف»: إنَّ القولَ بأنَّ كلا الحكمين عن اجتهادٍ، باطلٌ؛ لأنَّ حُكم سليمانَ نَقَضَ حكمَ داودَ عليهما السلام، والاجتهادُ لا يُنقَض بالاجتهادِ ألبتةَ، فدلَّ على أنَّهما جميعاً حكما بالوحي، ويكون ما أُوحيَ به لسليمانَ عليه السلام ناسخاً لحكم داودَ عليه السلام، أو كان حُكم سليمانَ وحدَه بالوحي، وقوله تعالى: «ففهمناها» لا يدلُّ على أنَّ ذلك اجتهادٌ.

وتُعقِّب بأنَّه إن أرادَ بعدم نَقْضِ الاجتهادِ بالاجتهادِ عدمَ نقضِه باجتهادِ غيرِه حتى يلزم تقليدُه به، فليس ما نحن فيه، وإن أراد عدمَ نَقْضِه باجتهادِ نفسِه ثانياً، وهو عبارة عن تغيُّر اجتهاده، لظهور دليلٍ آخَر، فهو غيرُ باطل، بدليلِ أنَّ المجتهدَ قد يُنقَل عنه في مسألة قولانِ، كمذهبِ الشافعيِّ ﷺ القديمِ والجديدِ، ورجوعِ كبار الصحابة ﷺ إلى آراءِ بعضِهم وهم مجتهدونَ.

وقيل: يجوز أن يكون أُوحيَ إلى داودَ عليه السلام أن يرجعَ عن اجتهادِهِ ويقضيَ بما قضى به سليمانُ عليه السلام عن اجتهادٍ.

وقيل: إنَّ عدمَ نقض الاجتهادِ بالاجتهاد مِن خصائص شريعتِنا، على أنَّه ورد في بعضِ الأخبار أنَّ داودَ عليه السلام لم يكن بَتَّ الحكمَ في ذلك حتى سمعَ من سليمانَ عليه السلام ما سَمِعَ.

وممَّن اختار كونَ كلَا الحكمين عن اجتهادٍ شيخُ الإسلام مولانا أبو السّعود[1] قدِّس سرُّه، ثم قال: بل أقول ـ والله تعالى أعلم ـ: إن رأي سليمان عليه السلام

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٧٩.

استحسانٌ، كما يُنبئُ عنه قولُه: أَرفقُ بالجانبين. ورَأْيُ داودَ عليه السلام قياسٌ كما أنَّ العبدَ إذا جنى على النفسِ يَدفعه المولى عند الإمام أبي حنيفة ﷺ إلى المجنيِّ عليه، أو يفديه ويبيعه في ذلك، أو يفديه عند الإمام الشافعيِّ ﷺ.

وقد رُويَ أنَّه لم يكن بين قيمةِ الحرث وقيمةِ الغنم تفاوتٌ، وأمَّا سليمان عليه السلام فقد استحسنَ حيث جعلَ الانتفاعَ بالغنم بإزاء ما فاتَ من الانتفاع بالحرث مِن غير أن يزولَ مِلْكُ المالكِ من الغنم، وأَوجبَ على صاحب الغنم أن يعمل في الحرثِ إلى أن يزولَ الضررُ الذي أتاه مِن قِبَله، كما قال بعضُ أصحابِ الشافعيِّ فيمَن غصب عبداً فأبق منه، أنَّه يَضمنُ القيمةَ فينتفع بها المغصوبُ منه بإزاء ما فوَّته الغاصبُ من المنافع، فإذا ظهر الآبق ترادَّا. انتهى.

وأما حكم المسألة في شريعتنا: فعند الإمام أبي حنيفة ﷺ ـ لا ضمانَ إذا لم يكن معها سائقٌ أو قائدٌ؛ لما روى الشيخان مِن قوله ﷺ: «جرْحُ العَجْماء جُبارٌ»[١] ولا تقييدَ فيه بليلٍ أو نهارٍ، وعند الشافعيِّ يجبُ الضمانُ ليلًا لا نهاراً؛ لما في السنن مِن أنَّ ناقةَ البراءِ دخلت حائطَ رجلٍ فأفسدته، فقضى رسولُ الله ﷺ على أهل الأموالِ بحفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي بحفظها بالليل[٢].

وأُجيبَ بأنَّ في الحديث اضطراباً، وفي رجال سندِه كلاماً، مع أنَّه يجوز أن يكون البراءُ أَرسلَها، كما يجوز في هذه القصَّة أن يكون كذلكَ، فلا دليلَ فيه.

﴿وَكُلًّا﴾ مِن داودَ وسليمانَ ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ كثيراً، ومنه العِلْم بطريق الاجتهادِ، لا سليمانَ عليه السلام وحدَه، فالجملة لدَفْع هذا التوهُّم، وفيها دلالةٌ على أنَّ خطأَ المجتهدِ لا يَقدحُ في كونه مجتهداً.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في المجتبى ٥/ ٤٥، وهو عند البخاري (١٤٩٩)، ومسلم (١٧١٠)، وأحمد (٧٢٥٤) عن أبي هريرة ﷺ بلفظ: «العجماء جَرْحها جبار....».

(٢) السنن المأثورة للشافعي (٥٢٦)، ومسند الشافعي ٢/ ١٠٧، وأخرجه أيضاً مالك في الموطأ ٢/ ٧٤٧ عن حرام بن سعد بن محيِّصة مرسلًا. وأخرجه موصولًا أبو داود (٣٥٧٠)، وابن ماجه (٢٣٣٢)، وأحمد (١٨٦٠٦)، عن حرام بن محيِّصة، عن البراء بن عازب ﷺ. قال ابن عبد البر في التمهيد ١١/ ٨٢: وهذا الحديث وإن كان مرسلًا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة، وحدَّث به الثقات، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقَّوه بالقبول، وجرى في المدينة العمل به.

وقيل: إنَّ الآيةَ دليلٌ على أنَّ كلَّ مجتهدٍ في مسألة لا قاطعَ فيها مصيبٌ، فحُكم اللهِ تعالى في حقِّه وحقِّ مقلِّده ما أدى إليه اجتهادُه فيها، ولا حكمَ له سبحانه قَبل الاجتهاد، وهو قولُ جمهور المتكلِّمين منَّا كالأشعريِّ، والقاضي، ومِن المعتزلة كأبي الهذيل، والجبَّائيِّ وأتباعهم، ونُقل عن الأئمة الأربعة ـ رضي الله عنهم ـ القولُ بتصويبِ كلِّ مجتهدٍ، والقول بوحدة الحقِّ وتخطئةِ البعض، وعَدَّ في «الإحكام» الأشعريَّ ممَّن يقول كذلك.

ورُدَّ بأنَّ اللهَ تعالى خصَّص سليمانَ بفهم الحقِّ في الواقعة بقوله سبحانه: «ففهَّمناها سُليمانَ» وذلك يدلُّ على عدم فهم داودَ عليه السلام ذلك فيها، وإلَّا لما كان التخصيصُ مفيداً.

وتعقَّبَه الآمديُّ[1] بقوله: ولقائلٍ أن يقولَ: إنَّ غايةَ ما في قوله تعالى: «ففهمناها سُلَيمان» تخصيصُه عليه السلام بالتفهيم، ولا دلالةَ له على عدم ذلك في حقِّ داودَ عليه السلام إلَّا بطريقِ المفهوم، وليس بحجَّة ـ وإن سَلَّمنا أنَّه حجَّة ـ غير أنَّه قد روي أنَّهما حكما بالنصِّ حكماً واحداً، ثم نَسخ اللهُ تعالى الحكمَ في مثل تلك القضيَّة في المستقبل، وعِلْم سليمانَ بالنصِّ الناسخِ دون داودَ عليهما السلام، فكان هذا هو الفهمَ الذي أُضيف إليه، والذي يدلُّ على هذا قولُه تعالى: «وكلًّا آتيناَ حكماً وعِلْماً»، ولو كان أحدُهما مخطئاً لما كان قد أُوتي في تلك الواقعة حكمًا وعِلْماً، وإن سَلَّمنا أنَّ حكمَهما كان مختلفاً، لكن يحتمل أنَّهما حَكَما بالاجتهاد مع الإذن فيه، وكانا محقَّين في الحكم إلَّا أنَّه نزل الوحيُ على وَفْق ما حكم به سليمانُ عليه السلام، فصار ما حكم به حقًّا متعيَّناً بنزول الوحي به، ونُسبَ التفهيمُ إلى سليمانَ عليه السلام بسبب ذلك، وإنَّ سلَّمنا أنَّ داودَ عليه السلام كان مخطئاً في تلك الواقعة، غيرَ أنَّه كان فيها نصٌّ اطَّلع عليه سليمانُ دون داودَ، ونحن نسلِّم الخطأَ في مثل هذه الصورة، وإنَّما النزاعُ فيما إذا حكما بالاجتهاد، وليس في الواقعة نصٌّ. انتهى.

وأكثرُ الأخبارِ تساعد أنَّ الذي ظَفِرَ بحكم اللهِ تعالى في هذه الواقعة هو سليمانُ عليه السلام، وما ذُكر لا يَخلو ممَّا فيه نظرٌ، فانظر وتأمَّل.

---

(١) في الإحكام ٤/ ٢٢٣-٢٢٤.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ﴾ شروعٌ في بيان ما يختصُّ بكلٍّ منهما عليهما السلام مِن كراماته تعالى إثر ذِكْر الكرامةِ العامَّة لهما عليهما السلام.

﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يقدِّسْنَ اللهَ تعالى بلسانِ القَالِ، كما سبَّح الحصى في كفِّ رسولِ الله ﷺ وسَمِعَه الناسُ[1]، وكان عند الأكثرين يقول: سبحانَ الله تعالى، وكان داودُ عليه السلام وحدَه يَسمعُه على ما قاله يحيى بن سلَّام، وقيل: يَسمعُه كلُّ أحدٍ. وقيل: بصوتٍ يَظهر له مِن جانبها وليس منها، وهو خلافُ الظاهر، وليس فيه مِن إظهار الكرامة ما في الأوَّل، بل إذا كان هذا هو الصدى، فليس بشيءٍ أصلًا، ودونه ما قيل: إنَّ ذلك بلسانِ الحال.

وقيل: «يُسبِّحنَ» بمعنى: يَسِرْنَ، مِن السباحةِ.

وتُعقِّب بمخالفته للظاهر، مع أنَّ هذا المعنى لم يذكره أهلُ اللغة ولا جاء في آيةٍ أخرى أو خبرٍ سَيْرُ الجبالِ معه عليه السلام.

وقيل: إسنادُ التسبيح إليهنَّ مجازٌ؛ لأنَّها كانت تسيرُ معه، فتَحمل مَن رآها على التسبيح، فأسند إليها، وهو كما ترى.

وتأوَّل الجُبَّائيُّ وعليُّ بنُ عيسى جَعلَ التسبيحِ بمعنى السير، بأنَّه مجازٌ؛ لأنَّ السيرَ سببٌ له، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّه مِن السِّباحة، ومع هذا لا يَخفى ما فيه، والجملة في موضع الحالِ مِن «الجبال»، أو استئنافٌ مبيِّن لكيفية التسخيرِ، و«مع»

---

(١) أخرج أبو نعيم في دلائل النبوة (٣٣٩) عن أبي ذرٍّ قال: كنَّا جلوساً مع النبيِّ ﷺ فأخذ حصيات في كفه فَسَبَّحْن، ثم وضعهنَّ في الأرض فسكتنَ، ثم أخذهنَّ فسبَّحن. وهو عند البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٦٤ مطوَّلًا.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٩٩: رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات، وفي بعضهم ضعف. وقال ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٥٩٢: وأما تسبيح الحصى فليست له إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها.
وأخرج الطبراني في الأوسط (١٢٤٤)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٣٣٨) عن أبي ذرٍّ قال: إنِّي لشاهد عند النبيِّ ﷺ في حلقة، وفي يده حصى، فسبَّحن في يده... الخبر.
وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤٠٩٧) عن أبي ذرٍّ بنحوه.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ١٧٩: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: محمد بن أبي حميد، وهو ضعيف.

متعلِّقة بالتسخير، وقال أبو البقاء(١): بـ «يُسبِّحْن»، وهو نظيرُ قولِه تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠] والتقديمُ للتخصيص، ويُعلم منه ما في حَمْلِ التسبيحِ على التسبيح بلسانِ الحال، وعلى ما يكون بالصدى.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطف على «الجبال» أو مفعولٌ معه، وفي الآثارِ تصريحٌ بأنَّها كانت تسبِّح معه عليه السلام كالجبال.

وقرئ: «والطيرُ» بالرفع(٢) على الابتداء، والخبرُ محذوف، أي: والطير مسخَّرات، وقيل: على العطف على الضمير في «يُسبِّحْن»، ومثله جائزٌ عند الكوفيين.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾ تذييلٌ لما قَبْله، أي: مِن شأنِنا أن نفعلَ أمثالَه، فليس ذلك ببدعٍ منَّا، وإن كان بديعاً عندكم.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ أي: عملَ الدِّرْعِ، وأصله كلُّ ما يُلبَس، وأنشد ابنُ السِّكِّيت(٣):

الْبَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها إمَّا نعيمَها وإمَّا بُوسَها

وقيل: هو اسمٌ للسلاح كلِّه، درعاً كان أو غيرَه، واختاره الطبرسيُّ، وأنشد للهذليِّ يصف رمْحاً:

ومَعِي لَبوسٌ للبئيسِ كأنَّه رَوْقٌ بجبهةِ ذي نعاجٍ مُجْفِلِ(٤)

قال قتادة: كانت الدروُع قبل ذلك صفائحَ، فأوَّل من سَرَدها وحَلَّقها داودُ عليه السلام، فجمعتِ الخفَّة والتحصينَ.

---

(١) الإملاء ٤/ ١٠.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣١.

(٣) في إصلاح المنطق ص٣٦٧، والرجز لبيهس الفزاري كما في جمهرة الأمثال ٢/ ٢١٢، ومجمع الأمثال ١/ ١٥٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٦٥٩، والخزانة ١١/ ١٠٣.

(٤) مجمع البيان للطبرسي ١٧/ ٤٥-٤٦، والهذليُّ هو: أبو كبير عامر بن الحُلَيْس، والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٩٨، وقال شارحه: ذي نعاج، يعني ثوراً. والرَّوق: القرن. اهـ. والبئيس: الشجاع. القاموس (بئس).

ويُروى أنَّه نزل مَلَكان من السماء فمرَّا به عليه السلام، فقال أحدهما للآخَر: نِعْمَ الرجلُ داودُ إلا أنَّه يأكل مِن بيت المالِ، فسأل اللهَ تعالى أن يرزقَه مِن كَسْبه، فألانَ له الحديدَ، فصنع منه الدرعَ.

وقرئ: «لُبوس» بضمِّ اللام[1]. ﴿لَكُمْ﴾ متعلِّق بمحذوف، وقع صفةً لـ «لبوس»، وجوَّز أبو البقاء[2] تعلُّقَه بـ: علَّمنا، أو بـ «صنعة».

وقوله تعالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ متعلِّق بـ: علَّمنا، أو بدل اشتمالٍ مِن «لكم» بإعادة الجارِّ، مبين لكيفيَّة الاختصاصِ والمنفعةِ المستفادة من لام «لكم» والضمير المستتر لـ «لبوس»، والتأنيث بتأويلِ الدِّرْع وهي مؤنَّث سماعيٌّ، أو لـ «لصنعة».

وقرأ جماعةٌ: «ليُحْصِنكم» بالياء التحتيَّة[3]، على أنَّ الضميرَ لـ «لبوس» أو لـ «داود» عليه السلام، قيل: أو: التعليم، وجوِّز أن يكون للهِ تعالى على سبيلِ الالتفات، وأُيِّدَ بقراءة أبي بكرٍ عن عاصم: «لنُحْصِنكم» بالنون[4]، وكلُّ هذه القراءاتِ بإسكان الحاءِ والتخفيف.

وقرأ الفقيميُّ عن أبي عمرو، وابنُ أبي حمَّاد عن أبي بكر بالياء التحتيَّة وفتحِ الحاءِ وتشديد الصادِ. وابنُ وثاب، والأعمشُ بالتاء الفوقيَّة والتشديد[5].

﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ قيل: أي: من حربِ عدوِّكم، والمراد ممَّا يقع فيها، وقيل: الكلام على تقديرِ مضاف، أي: مِن آلةِ بأسِكم كالسيف.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أمر واردٌ على صورةِ الاستفهام؛ لما فيه من التقريع بالإيماء إلى التقصير في الشكر والمبالغة بدلالته على أنَّ الشكرَ مستحقُّ الوقوع بدون أمرٍ، فسأل عنه هل وَقَعَ ذلك الأمرُ اللازمُ الوقوعِ، أم لا.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٣٢.
(٢) الإملاء ٤/ ١٠-١١.
(٣) التيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٤، وهي قراءة ابن كثير ونافع والكسائي وأبي عمرو وخلف ويعقوب.
(٤) التيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٤.
(٥) القراءات الشاذة ص٩٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٢.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي: وسخَّرنا له الريحَ، وجِيءَ باللام هنا دونَ الأوَّل؛ للدلالةِ على ما بين التسخيرَين مِن التفاوت، فإنَّ تسخيرَ ما سُخِّر له عليه السلام كان بطريق التبعيَّة والاقتداءِ به عليه السلام في عبادة الله عزَّ وجلَّ.

﴿عَاصِفَةً﴾ حال من «الريح»، والعامل فيها الفعلُ المقدَّر، أي: وسخَّرنا له الريحَ كونها شديدةَ الهبوب، ولا ينافي وصفها بذلك هنا وصفها في موضع آخر بأنَّها رخاءٌ[1]، بمعنى طيِّبة ليِّنة، لأنَّ الرُّخاءَ وصفٌ لها باعتبار نفسِها، والعَصْف وصفٌ لها باعتبار قَطْعها المسافة البعيدةَ في زمان يسيرٍ كالعاصفة في نفسِها فهي مع كونها ليِّنةً، تَفعلُ فِعْلَ العاصفة.

ويجوز أن يكون وصفها بكلٍّ مِن الوصفين بالنسبة إلى الوقتِ الذي يريده سليمانُ عليه السلام فيه، وقيل: وصفها بالرُّخاء في الذهاب، ووصفها بالعصفِ بالإياب، على عادةِ البشر في الإسراع إلى الوطن، فهي عاصفةٌ في وقت، رخاءٌ في آخر.

وقرأ ابنُ هرمز، وأبو بكرٍ في رواية: «الريحُ» بالرفع مع الإفراد. وقرأ الحسنُ، وأبو رجاء: «الرياحَ» بالنصبِ والجمع، وأبو حيوة بالرفعِ والجمع[2].

ووجهُ النصب ظاهرٌ، وأمَّا الرفعُ فعلى أنَّ المرفوعَ مبتدأٌ، والخبر هو الظرفُ المقدَّم، و«عاصفة» حالٌ مِن ضميرِ المبتدأ في الخبر، والعامل ما فيه من معنى الاستقرار.

﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: بمشيئته وعلى وَفْقِ إرادتِه، وهو استعمالٌ شائع، ويجوز أن يأمرها حقيقةً ويَخلُق الله تعالى لها فَهْماً لأمرِه كما قيل في مجيءِ الشجرِ للنبيِّ ﷺ حين دعاها[3].

---

(١) في قوله تعالى في سورة ص: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [الآية:٣٦].

(٢) القراءات الشاذة ص٩٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٢.

(٣) منها ما أخرجه مسلم (٣٠١٢) عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا... وفيه: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أَفْيَح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإدواة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم يَرَ شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى =

والجملة إمَّا حالٌ ثانية، أو بدلٌ مِن الأُولى على ماقيل، وقد مرَّ لك - غيرَ بعيد - الكلامُ في إبدال الجملة من المفرَد فتذكَّر، أو حالٌ مِن ضمير الأولى.

﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام كما أَخرج ابنُ عساكر[1] عن السُّدِّيِّ، وكان عليه السلام مسكنه فيها، فالمراد أنَّها تجري بأمرِه إلى الشام رواحاً بعد ما سارت به منها بُكرةً، ولشيوع كونه عليه السلام ساكناً في تلك الأرض، لم يذكر جريانها بأمرِه منها، واقتصر على ذِكْر جريانها إليها، وهو أظهر في الامتنان، وقيل: كان مسكنُه اصطخرَ، وكان عليه السلام يَركبُ الريحَ منها، فتجري بأمرِه إلى الشام.

وقيل: يحتمل أن تكون الأرضُ أعمَّ من الشام، ووصفها بالبركةِ؛ لأنَّه عليه السلام إذا حلَّ أرضاً أَمَرَ بقتل كفَّارها وإثباتِ الإيمان فيها وبثِّ العدل، ولا بركةَ أعظمُ مِن ذلك، ويبعد أنَّ المتبادر كون تلك الأرضِ مباركاً فيها قبل الوصول إليها، وما ذكر يقتضي أنْ تكون مباركاً فيها مِن بَعْدُ.

وأَبْعدَ جدًّا منذرُ بنُ سعيد بقوله: إنَّ الكلامَ قد تمَّ عند قوله تعالى: «إلى الأرض»، و«التي باركنا فيها» صفةٌ «للريح»؛ وفي الآية تقديمٌ وتأخير، والأصل: ولسليمان الريحَ التي باركنا فيها عاصفةً تجري بأمره، بل لا يخفى أنَّه لا ينبغي أن يحمل كلامُ الله تعالى العزيز على مثل ذلك، وكلام أدنى البلغاء يُجَلُّ عنه، ثمَّ الظاهرُ أنَّ المرادَ بالريح هذا العنصرُ المعروفُ العامُّ لجميع أصنافِه المشهورة، وقيل: المراد بها الصَّبَا.

وفي بعض الأخبار ما ظاهره ذلك، فعن مقاتل أنَّه قال: نَسجت لسليمانَ عليه السلام الشياطينُ بساطاً مِن ذهب وإبريسم، فرسخاً في فرسخ، ووضعت له منبراً مِن ذهبٍ يَقعُد عليه، وحوله كراسي مِن ذهب يَقعُد عليها الأنبياءُ عليهم السلام،

= إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «انقادي عليَّ بإذن الله» فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف مما بينهما لأَم بينهما (يعني جمعهما) فقال: «التئما عليَّ بإذن الله» فالتأمتا... الخبر. ومعنى أفيح: أي: واسع. والأخبار في ذلك كثيرة، ينظر إمتاع الأسماع للمقريزي ٥/ ٣٤-٤٣.

(١) في تاريخ مدينة دمشق ١/ ١٤٣.

وكراسيّ مِن فضَّة يقعد عليها العلماءُ، وحولَهم سائرُ الناس، وحول الناسِ الجنُّ والشياطينُ والطيرُ تظلُّه مِن الشمس، وتَرفعُ ريحُ الصَّبا البساطَ مسيرةَ شهرٍ من الصباح إلى الرَّواح، ومِن الرواحِ إلى الصباح.

وما ذكر من أنَّه يُحمَل على البساطِ هو المشهور، ولعلَّ ذلك في بعض الأوقات، وإلا فقد أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن زيدٍ أنَّه قال: كان لسليمانَ عليه السلام مركبٌ مِن خشب، وكان فيه ألفُ ركن، في كلِّ ركنٍ ألفُ بيتٍ، يَركبُ معه فيه الجنُّ والإنسُ، تحت كلِّ ركن ألفُ شيطان يرفعونَ ذلك المركبَ، فإذا ارتفع أتَتِ الريحُ الرُّخاءُ فسارت به فساروا معه، فلا يدري القومُ إلا وقد أظلَّهم منه الجيوش والجنود[١].

وقيل في وجه الجَمْع: إنَّ البساطَ في المركب المذكور، وليس بذاك.

وذُكرَ عن الحسن أنَّ إكرامَ الله تعالى لسليمان عليه السلام بتسخيرِ الريح لِمَا فَعَلَ بالخيل حين فاتَتْه بسببها صلاةُ العصر، وذلك أنَّه تركها للهِ تعالى، فعوَّضه اللهُ سبحانه خيراً منها من حيث السرعةُ مع الراحة.

ومِن العَجَبِ أنَّ أهلَ لندن قد أتعبوا أنفسَهم منذ زمانٍ بعمل سفينة تجري مرتفعةً في الهواء إلى حيث شاؤوا بواسطة أبخرة يحبسونها فيها؛ اغتراراً بما ظهر منذ سنوات مِن عملِ سفينة تجري في الماء بواسطة آلاتٍ تحرِّكها أبخرةٌ فيها، فلم يتمَّ لهم ذلك، ولا أظنُّه يتمُّ حسب إرادتهم على الوجه الأكمل، وأخبرني بعضُ المطَّلعين أنَّهم صنعوا سفينةً تجري في الهواء، لكن لا إلى حيث شاؤوا بل إلى حيث ألقت رَحْلها.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ۝٨١﴾ فما أعطيناه ما أعطيناه إلا لما نَعلمُه مِن الحكمة.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: وسخَّرنا له مِن الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ فـ «من» في موضع نَصْبٍ لـ «سخَّرنا»، وجوِّز أن تكون في موضع رفع على الابتداء، وخبرُه ما قبله، وهي على الوجهين على ما استظهره أبو حيَّان[٢] موصولةٌ، وعلى ما اختاره

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٢٧.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣٣.

جمعٌ نكرةٌ موصوفةٌ، ووجهُ اختيارِ ذلك على الموصوليَّة أنَّه لا عهدَ هنا، وكون الموصولِ قد يكون للعهد الذهنيِّ خلاف الظاهر، وجِيءَ بضمير الجمع نظراً للمعنى، وحسَّنه تقدُّم جمعٍ قبله.

والغوصُ: الدخولُ تحت الماء، وإخراجُ شيءٍ منه، ولما كان الغائصُ قد يغوص لنفسِه ولغيرِه قيل «له»؛ للإيذان بأنَّ الغوصَ ليس لأنفسِهم، بل لأجله عليه السلام. وقد كان عليه السلام يأمرهم فيغوصونَ في البحار ويستخرجون له من نفائِسه.

﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ له ﴿عَمَلًا﴾ كثيراً ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير ما ذُكر مِن بناء المدن والقُصور واختراع الصنائع الغريبة؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ الآية [١٣ من سورة سبأ]، قيل: إنَّ الحمَّام والنُّورةَ[١] والطاحونَ والقواريرَ والصابونَ مِن أعمالهم، وذكر ذلك الإمام الرازيُّ في «التفسير»[٢].

لكنّ في كون الصابونِ من أعمالهم خلافاً، ففي «التذكرة»[٣]: الصابونُ من الصناعة القديمة، قيل: وجد في كتب هرمس وأندوخيا، وهو الأظهر. وقيل: من صناعة بقراط وجالينوس. انتهى. وقيل: هو من صناعة الفارابيِّ وأوَّل ما صنعه في دمشقَ الشام، ولا يصحُّ ذلك، وماشتهر أنَّ أوَّل مَن صنعه البونيُّ، فمِن كذب العوامِّ وخرافاتهم.

ثم هؤلاء إمَّا الفرقة الأولى أو غيرها؛ لعموم كلمة «من» كأنَّه قيل: «ومن يعملون».

والشياطين: أجسامٌ لطيفة ناريَّة عاقلةٌ، وحصولُ القدرة على الأعمال الشاقَّة في الجسم اللطيف غيرُ مستبعَدٍ، فإنَّ ذلك نظيرُ قَلْع الهواء الأجسامَ الثقيلة.

---

(١) النُّورة: حجر الكلس، ثم غلبت على أخلاط تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره، وتستعمل لإزالة الشعر. المصباح (نور).

(٢) ٢٢/ ٢٠٢.

(٣) لعله: التذكرة النصيرية في الهيئة لنصير الدين محمد بن محمد الطوسي المتوفى سنة (٦٧٢هـ). كشف الظنون ١/ ٣٩١.

وقال الجبائيُّ: إنَّه سبحانه كثَّف أجسامَهم خاصَّة وقواهم، وزاد في عِظمهم؛ ليكون ذلك معجزةً لسليمان عليه السلام، فلما توفِّي ردَّهم إلى خِلْقتهم الأُولى؛ لئلا يفضي إبقاؤهم إلى تلبيس المتنبِّئ، وهو كلامٌ ساقط عن درجة القَبول كما لا يخفى.

والظاهر أنَّ المسخَّرين كانوا كفاراً؛ لأنَّ لفظَ الشياطين أكثرُ إطلاقاً عليهم، وجاء التنصيصُ عليه في بعض الروايات، ويؤيِّده قولُه تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ أي: مِن أن يزيغوا عن أمرِه أو يفسدوا. وقال الزجَّاج[1]: كان يحفظهم من أن يُفسِدوا ما عَملوه بالنهار.

وقيل: حافظينَ لهم من أن يهيِّجوا أحداً؛ والأنسب بالتذييلِ ما تقدَّم، وذكر في حفظهم أنَّه وكَّل بهم جمعاً من الملائكة عليهم السلام وجمعاً مِن مؤمني الجنِّ، هذا، وفي قصتي داودَ وسليمانَ عليهما السلام ما يدلُّ على عِظَم قدرةِ الله تعالى.

قال الإمام[2]: وتسخيرُ أكثفِ الأجسامِ لداودَ عليه السلام وهو الحَجَر إذ أنطقه اللهُ تعالى بالتسبيح، والحديدُ إذ ألانَهُ سبحانه له، وتسخير ألطفِ الأجسام لسليمانَ عليه السلام وهو الريحُ، والشياطينُ وهم مِن نارٍ، وكانوا يغوصون في الماء فلا يضرّهم، دليلٌ واضحٌ على باهرِ قدرتِه سبحانه وإظهارِ الضدِّ من الضدِّ، وإمكان إحياءِ العظم الرميم، وجعلِ التراب اليابس حيواناً، فإذا أخبر الصادق بوقوعه، وجب قَبوله واعتقادُه.

﴿وَأَيُّوبَ﴾ الكلامُ فيه كما مرَّ في قوله تعالى: «وداود وسليمان». ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي﴾ أي: بأنِّي ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ وقرأ عيسى بنُ عمر ـ بكسر الهمزة[3] ـ على إضمار القولِ عند البصريين، أي: قائلًا: إنِّي، ومذهب الكوفيين إجراء نادى مجرى: قال.

والضَّرُّ بالفتح شائعٌ في كلِّ ضررٍ، وبالضَّمِّ خاصٌّ بما في النفس مِن مرض وهُزال ونحوهما.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٠١.

(٢) تفسير الرازي ٢٢/ ٢٠٣.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٣٤.

﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: وأنت أعظمُ رحمةً مِن كلِّ من يتَّصف بالرحمة في الجملة، وإلا، فلا راحمَ في الحقيقة سواه جلَّ شأنه وعلاه، ولا يَخفى ما في وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسَه بما يوجبها مكتفياً بذلك عن عَرْضِ الطلب من استمطارِ سحائب الرحمةِ على ألطف وجه.

ويُحكى في التلطُّف في الطلب أنَّ امرأةً شكت إلى بعضِ ولدِ سعدِ بنِ عبادة قلَّة الفَارِ في بيتها فقال: املؤوا بيتها خبزاً وسمنًا ولحماً.

وهو عليه السلام على ما قال ابنُ جرير[1]: ابن أموص بن رزاح بن عيص بنِ إسحاق.

وحكى ابنُ عساكر[2] أنَّ أمَّه بنتُ لوطٍ عليه السلام، وأنَّ أباه ممَّن آمنَ بإبراهيم عليه السلام، فعلى هذا كان قَبل موسى عليه السلام. وقال ابنُ جريرٍ[3]: كان بعدَ شعيبٍ عليه السلام. وقال ابنُ أبي خيثمة: كان بعدَ سليمانَ عليه السلام.

وأخرج ابنُ سعد عن الكلبيِّ قال: أوَّل نبيٍّ بُعث: إدريسُ ثم نوحٌ ثم إبراهيمُ ثم إسماعيل وإسحاق، ثم يعقوبُ ثم يوسفُ ثم لوطٌ ثم هودٌ ثم صالحٌ ثم شعيبٌ ثم موسى وهارون، ثم إلياس ثم اليَسَع ثم يونس ثم أيوبُ عليهم السلام[4].

وقال ابنُ إسحاق: الصحيح أنَّه كان من بني اسرائيل، ولم يصحَّ في نسبه شيء إلا أنَّ اسمَ أبيه: أموص.

وكان عليه السلام على ما أخرج الحاكمُ[5] من طريق سَمُرةَ عن كعب: طويلًا، جَعْدَ الشعر، واسعَ العينين، حَسَنَ الخَلْق، قصيرَ العُنُق، عريضَ الصَّدْر، غليظَ الساقَين والساعدَين.

وكان قد اصطفاه اللهُ تعالى وبسطَ عليه الدنيا وكثَّر أهله وماله، فكان له

---

(١) في تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٢٢، وورد فيه: موص، بدل: أموص.
(٢) في تاريخ مدينة دمشق ١٠/ ٥٨.
(٣) في تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٢٥.
(٤) طبقات ابن سعد ١/ ٥٤-٥٥.
(٥) في المستدرك ٢/ ٥٨٠-٥٨١.

سبعةُ بنينَ وسبعُ بناتٍ، وله أصنافُ البهائم، وخمس مئة فدَّان، يَتبعُها خمس مئةِ عبدٍ، لكلِّ عبدٍ امرأةٌ وولدٌ، فابتلاه اللهُ تعالى بذهابِ ولده بِهَدْمِ بيتٍ عليهم، وبذهابِ أموالِهِ، وبالمرض في بدنِه ثماني عشرة سنةً، أو ثلاث عشرة سنةً، أو سبعاً وسبعةَ أشهر وسبعةَ أيام وسبعَ ساعات، أو ثلاث سنين، وعمره إذ ذاك سبعون سنة، وقيل: ثمانون سنة، وقيل أكثر، ومدَّة عمره على ما روى الطبراني(١) ثلاثٌ وتسعونَ سنةً. وقيل أكثر.

رويَ أنَّ امرأته ـ وكونها ماضر بنت ميشا بنِ يوسف عليه السلام، أو: رحمة بنت أفرائيم بنِ يوسف، إنَّما يتسنَّى على بعض الروايات السابقة في زمانِه عليه السلام ـ قالت له يوماً: لو دعوتَ اللهَ تعالى، فقال: كم كانت مدَّةُ الرخاءِ؟ فذكرت مدَّة كثيرةً، وفي بعض الروايات: ثمانينَ سنةً، فقال عليه السلام: أستحي مِن الله تعالى أن أدعوَه وما بلغت مدَّةُ بلائي مدَّةَ رخائي.

وروي أنَّ إبليسَ ـ عليه اللعنةُ ـ أتاها على هيئة عظيمةٍ، فقال لها: أنا إلهُ الأرضِ فعلتُ بزوجِك ما فعلتُ؛ لأنَّه تركني وعبدَ إلهَ السماء، فلو سجدَ لي سجدةً، رددتُ عليه وعليكِ جميع ما أخذتُ منكما ـ وفي رواية: لو سجدْتِ لي سجدةً، لرددتُ المالَ والولدَ وعافيتُ زوجَكَ ـ فرجعت إلى أيوبَ عليه السلام وكان ملقًى في الكُناسة ببيتِ المقدس لا يَقرَبُ منه أحدٌ، فأخبرته بالقصَّة، فقال عليه السلام: لعلَّكِ افتُتنتِ بقول اللعين، لئن عافاني اللهُ عزَّ وجلَّ لأضربنَّكِ مئةَ سوطٍ، وحرامٌ عليَّ أن أذوقَ بعد هذا من طعامِك وشرابك شيئاً، فطردها، فبقيَ طريحاً في الكُناسة لا يَحوم حولَه أحدٌ من الناس، فعند ذلك خرَّ ساجداً فقال: «ربِّ أنيِّ مسَّنيَ الضُّرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين».

وأخرج ابنُ عساكر(٢) عن الحسن: أنَّه عليه السلام قال ذلك حين مرَّ به رجلان، فقال أحدُهما لصاحبه: لو كان للهِ تعالى في هذا حاجةٌ ما بَلَغَ به هذا كلَّه، فسمع عليه السلام فشقَّ عليه، فقال «ربِّ». . . إلخ.

---

(١) لم نقف عليه عند الطبراني في معاجمه الثلاثة، وأورده الطبري في تاريخ الأمم والملوك ١/ ٣٢٤، ولعله المراد.

(٢) في تاريخ مدينة دمشق ١٠/ ٦٣.

وروى أنسٌ مرفوعاً: أنَّه عليه السلام نهض مرَّة ليصلِّي فلم يَقدِر على النهوض، فقال: «ربِّ» إلخ[١]. وقيل غير ذلك، ولعلَّ هذا الأخيرَ أمثلُ الأقوال.

وكان عليه السلام بلاؤه في بدنه في غاية الشدَّة، فقد أخرج ابنُ جرير، عن وهبِ بنِ منبِّه قال: كان يَخرُج في بدنه مثلُ ثَدْي النساءِ ثم يتفقَّأ[٢].

وأخرج أحمد في «الزهد»[٣] عن الحسن أنَّه قال: ما كان بقي من أيوبَ عليه السلام إلا عيناه وقلبُه ولسانُه، فكانت الدوابُّ تختلف في جسده.

وأخرج أبو نُعيم، وابنُ عساكر عنه أنَّ الدودةَ لتقعُ من جسدِ أيوبَ عليه السلام فيعيدها إلى مكانها ويقول: كُلِي مِن رزقِ الله تعالى[٤].

وما أصاب منه إبليسُ في مرضه كما أخرج البيهقيُّ في «الشعب»[٥] إلا الأنين.

وسببُ ابتلائه على ما أخرج ابنُ عساكر[٦] من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابنِ عباس أنَّه استعانَ به مسكينٌ على دَرْءِ ظلمٍ عنه، فلم يُعِنْهُ.

وأخرج ابنُ عساكر[٧] عن أبي إدريسَ الخولانيِّ في ذلك أنَّ الشامَ أجدبَ، فكتب فرعونُ إليه عليه السلام أنْ هلَّم إلينا، فإنَّ لك عندنا سعةً، فأقبلَ بما عنده فأقطعه أرضاً، فاتَّفق أن دخلَ شعيب على فرعونَ وأيوبُ عليه السلام عنده، فقال: أمَا تخافُ أن يغضبَ اللهُ تعالى غضبةً فيغضبَ لغضبه أهلُ السماوات والأرض

---

(١) لم نقف عليه مسنداً، وأورده الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٤٦٢، والقرطبي في التفسير ١٤/ ٢٥٧.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٣٠ وعزاه لعبد الرزاق [في تفسيره ٢/ ١٦٧]، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن عساكر [في تاريخ مدينة دمشق ١٠/ ٦٥]. ولم نقف عليه عند ابن جرير.

(٣) ص٥٤.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٣٠، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٠/ ٦٤، وكلُّ هذه الأخبار من الإسرائيليات، ولا تليق بعصمة الأنبياء عليهم السلام. قال القاسمي في محاسن التأويل ١١/ ٢٨٢: روى المفسرون هاهنا في بلاء أيوب روايات مختلفة بأسانيد واهيات، لا يقام لها عند أئمة الأثرِ وزنٌ، ولا تُعار من الثقة أدنى نظر.

(٥) شعب الإيمان (١٠٠٧٧).

(٦) في تاريخ مدينة دمشق ١٠/ ٦٠.

(٧) في تاريخ مدينة دمشق ١٠/ ٦٠.

والجبال والبحار، فسكت أيوبُ، فلما خرجا مِن عنده أوحى اللهُ تعالى إلى أيوبَ: أَوَسَكتَّ عن فرعونَ لذهابِك إلى أرضِه، استَعدَّ للبلاء، قال: فَدِيْني؟ قال سبحانه: أُسلِمه لك. قال: لا أبالي. والله تعالى أعلم بصحَّة هذه الأخبار.

ثم إنَّه عليه السلام لما سجدَ فقال ذلك، قيل له: ارفَع رأسَك فقد استُجيبَ لك، اركُض برِجْلك، فركضَ فنبعت مِن تحته عينُ ماءٍ، فاغتسل منها، فلم يَبْقَ في ظاهر بدنِه دابَّةٌ إلا سقطت، ولا جِراحة إلا بَرِئَتْ، ثم ركض مرَّة أخرى فنبعت عينٌ أخرى، فشرب منها، فلم يَبْقَ في جوفِه داءٌ إلَّا خرج، وعاد صحيحاً، ورجع إليه شبابُه وجمالُه، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ ثم كُسيَ حلَّةً، وجلس على مكان مُشرِف، ولم تَعلم امرأتُه بذلك، فأَدركتها الرِّقَّةُ عليه فقالت في نفسها: هَبْ أنَّه طردني أفأتركُه حتى يموتَ جوعاً وتأكلَه السباعُ، لأَرجعنَّ، فلما رَجعتْ ما رأت تلكَ الكناسةَ، ولا تلك الحالَ، فجعلت تطوفُ حيث الكناسة وتبكي، وهابَتْ صاحبَ الحُلَّة أن تأتيَه وتسأله، فدعاها أيوبُ عليه السلام، فقال: ما تريدينَ يا أَمَةَ اللهِ؟ فبكت، وقالت: أُريد ذلك المُبتلَى الذي كان ملقًى على الكناسة. قال لها: ما كانَ منك؟ فبكت، وقالت: بَعْلِي. قال: أتعرفينَه إذا رأيتيه؟ قالت: وهل يخفى عليَّ؟! فتبسَّم، فقال: أنا ذلك، فعرفته بضحكِه فاعتنقته.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ الظاهر أنَّه عطفٌ على «كشفنا» فيلزم أن يكون داخلًا معه في حيِّز تفصيل استجابة الدعاء، وفيه خفاءٌ؛ لعدم ظهور كون الإيتاء[(١)] المذكور مدعوًّا به، وإذا عطف على «استجبنا» لا يلزم ذلك.

وقد سُئل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآيةِ، أخرج ابنُ مردويه، وابنُ عساكر من طريق جُويبر، عن الضحَّاك، عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عن قوله تعالى: «وآتيناه» إلخ، قال: «ردَّ اللهُ تعالى امرأتَه إليه، وزاد في شبابها حتى ولدت له ستًّا وعشرينَ ذَكَراً»[(٢)]. فالمعنى على هذا: آتيناه في الدنيا مثلَ أهلِه عدداً مع زيادة مِثْل آخر.

---

(١) في (م): الإتيان.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٣٠، ولم نقف عليه عند ابن عساكر، وأورده العراقي في طرح التثريب في شرح التقريب ٢/ ٢٣٣ وعزاه لأبي بكر بن مردويه في تفسيره.

وقال ابن مسعود، والحسن، وقتادة في الآية: إنَّ اللهَ تعالى أحيى له أولادَه الذين هلكوا في بلائه، وأوتي مثلَهم في الدنيا. والظاهر أنَّ المِثْل مِن صُلْبه عليه السلام أيضاً، وقيل: كانوا نوافلَ.

وجاء في خبر أنَّه عليه السلام كان له أَنْدَران[1]، أَنْدَر للقمح، وأَنْدَر للشعير، فبعث اللهُ تعالى سحابتَين، فأفرغت إحداهما في أَنْدر القمح الذهبَ حتى فاضَ، وأفرغت الأخرى في أَنْدر الشعير الوَرِقَ حتى فاضَ.

وأخرج أحمد والبخاريُّ وغيرهما، عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «بينما أيوبُ عليه السلام يغتسل عرياناً خرَّ عليه جرادٌ مِن ذهبٍ، فجعل أيوبُ عليه السلام يَحْثي في ثوبه، فناداه ربُّه سبحانه: يا أيوبُ أَلَم أَكُنْ أغنيتُكَ عمَّا ترى؟ قال: بلى وعزَّتِك، لكن لا غِنَى بي عن بركتِك»[2].

وعاش عليه السلام بعد الخلاصِ من البلاء على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما سبعينَ سنةً، ويظهر من هذا مع القول بأنَّ عمرَه حين أَصابه البلاءُ سبعونَ أنَّ مدَّةَ عمرِه فوق ثلاثٍ وتسعينَ بكثير، ولما مات عليه السلام أوصى إلى ابنِه حرمل، كما روي عن وهب.

والآيةُ ظاهرة في أنَّ الأهلَ ليس المرأةَ ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ أي: وآتيناه ما ذكرَ لرحمتنا أيوب عليه السلام، وتذكرةً لغيره من العابدينَ ليصبروا كما صبر، فيثابوا كما أُثيبَ، فـ «رحمة» نصب على أنَّه مفعول له، و«للعابدين» متعلِّق بـ «ذكرى»، وجوِّز أن يكون «رحمة» و«ذكرى» تنازعا فيه، على معنى: وآتيناه العابِدينَ الذين مِن جُملتهم أيوبُ عليه السلام وذكرنا إيَّاهم بالإحسان وعدم نسيانِنا لهم. وجوَّز أبو البقاء[3] نصبَ «رحمة» على المصدر، وهو كما ترى.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ أي: واذكُرهم. وظاهرُ نَظْمِ ذي الكفل في سِلْك الأنبياء عليهم السلام أنَّه منهم، وهو الذي ذهب إليه الأكثرُ.

---

(١) الأَنْدَر: البيدر، أو كُدْس القمح. القاموس (ندر).
(٢) أحمد (٨١٥٩)، والبخاري (٢٧٩)، وأخرجه أيضاً النسائي في المجتبى ١/ ٢٠٠-٢٠١.
(٣) الإملاء ٢/ ١١.

واختلف في اسمه، فقيل: بشر، وهو ابنُ أيوبَ عليه السلام بعثه اللهُ تعالى نبيًّا بعد أبيه، وسمَّاه: ذا الكفل، وأَمره سبحانه بالدعاء إلى توحيدِه، وكان مقيماً بالشام عمرَه، ومات وهو ابنُ خمسٍ وسبعينَ سنةً، وأوصى إلى ابنِه عبدان[١]، وأخرج ذلك الحاكمُ عن وهب.

وقيل: هو إلياس بنُ ياسين بنِ فنحاص بنِ العيزار بن هارون أخي موسى ابن عمران عليهم السلام، وصنيع بعضِهم يشعر باختياره.

وقيل: يوشع بن نون، وقيل: اسمه: ذو الكفل، وقيل: هو زكريا، حكى كلَّ ذلك الكرمانيُّ في «العجائب».

وقيل: هو اليسع بنُ أخطوب بنِ العجوز، وزعمت اليهود أنَّه حزقيال. وجاءته النبوَّة وهو في وسط سبي بختنصَّر على نهر خوبار[٢].

وقال أبو موسى الأشعريُّ، ومجاهد: لم يكن نبيًّا وكان عبداً صالحاً استخلفه ـ على ما أخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، عن مجاهدٍ ـ اليسع عليه السلام، بشرط أن يصوم النهارَ ويقومَ الليل ولا يغضبَ، ففعل[٣]. ولم يَذكُر مجاهدٌ ما اسمُه.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن ابنِ عباس أنَّه قال: كان قاضٍ في بني إسرائيل فحضره الموتُ، فقال: مَن يقوم مقامي على أن لا يغضبَ؟ فقال رجل: أنا، يُسمَّى ذا الكفل... الخبر[٤]. وأخرج عن ابن حجيرة الأكبر: كان مَلِكٌ من ملوك بني إسرائيل، فحضرته الوفاةُ، فأتاه رؤوس بني إسرائيل، فقالوا: اسْتَخلِف علينا ملكاً نفزع إليه؟ فقال: من تكفَّل لي بثلاث فأولِّيه ملكي؟ فلم يتكلَّم إلا فتىً من القوم قال: أنا. فقال: اجلس، ثم قالها ثانية، فلم يتكلَّم أحد إلا الفتى، فقال: تكفَّل لي بثلاث وأولِّيك ملكي: تقوم الليلَ فلا ترقد، وتصوم فلا تفطر، وتحكُم فلا تغضب. قال: نعم. قال: قد ولَّيتك ملكي.. الخبر[٥]، وفيه ـ وكذا في الخبر السابق ـ قصَّة

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: ثم بعث الله تعالى شعيباً. انتهى منه.
(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: هو: الخابور. انتهى. منه.
(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٣٦٩-٣٧٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٦١ (١٣٧٠٢).
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٦٢ (١٣٧٠٣).
(٥) الدر المنثور ٤/ ٣٣٢.

إرادةِ إبليسَ ـ عليه اللعنةُ ـ إغضابَه وحِفْظ اللهِ تعالى إيَّاه منه.

والكِفْل: الكَفالةُ والحظُّ والضِّعْفُ، وإطلاق ذلك عليه إن لم يكن اسمَه؛ إمَّا لأنَّه تكفَّل بأمرٍ فوفَّى به، وإمَّا لأنَّه كان له ذا حظٍّ من الله تعالى، وقيل: لأنَّه كان له ضِعْف عملِ الأنبياء عليهم السلام في زمانه وضِعْف ثوابِهم.

ومَن قال: إنَّه زكريا عليه السلام، قال: إنَّ إطلاقَ ذلك عليه لكفالتِه مريم، وهو داخلٌ في الوجه الأوَّل، وفي «البحر»(١): وقيل: في تسميته: ذا الكفل، أقوالٌ مُضْطربة لا تصحُّ، والله تعالى أعلم.

﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدٍ مِن هؤلاء ﴿مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝٨٥﴾ أي: على مشاقِّ التكاليف وشدائدِ النوب، ويُعلم هذا مِن ذِكْر هؤلاء بَعْدَ أيوبَ عليهم السلام، والجملةُ استئناف وقعَ جواباً عن سؤال نَشَأَ مِن الأمر بذِكْرهم.

﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ الكلامُ فيه على طَرْزِ ما سبقَ مِن نظيره آنفاً.

﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٨٦﴾ أي: الكاملين في الصلاح؛ لعصمتِهم مِن الذنوب. والجملة في موضعِ التعليل، وليس فيه تعليلُ الشيءِ بنفسِه مِن غيرِ حاجة إلى جعل «من» ابتدائية، كما يظهر بأدنى نظر.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: واذكُر صاحبَ الحوتِ يونسَ ـ عليه السلام ـ بن متَّى، وهو اسمُ أبيه على ما في «صحيح البخاري» وغيره(٢)، وصحَّحه ابنُ حجر(٣)، ثم قال: ولم أقف في شيءٍ من الأخبار على اتِّصال نسبه. وقد قيل: إنَّه كان في زمن ملوك الطوائفِ من الفرس. وقال ابنُ الأثير(٤) كغيره: إنَّه اسمُ أمِّه، ولم يُنسَب أحدٌ من الأنبياء إلى أمِّه غيرَه وغيرَ عيسى عليهما السلام.

واليهود قالوا بما تقدَّم إلَّا أنَّهم سمَّوه: يونه بن أميتاي، وبعضهم يقول:

---

(١) ٦/ ٣٣٤.

(٢) أخرج البخاري (٣٣٩٥) عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى» ونسبه إلى أبيه، وهو عند مسلم (٢٣٧٧).

(٣) فتح الباري ٦/ ٤٥١-٤٥٢.

(٤) في الكامل في التاريخ ١/ ٣٦٠.

يونان بن أماثي، والنون: الحوت، كما أشرنا إليه، ويجمع على نينان، كما في «البحر»[١]، و: أنْوان أيضاً، كما في «القاموس»[٢].

﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي: غضبانَ على قومِه؛ لشدَّة شكيمتِهم[٣] وتمادي إصرارِهم، مع طول دعوتِه إيَّاهم، وكان ذهابُه هذا هجرةً عنهم، لكنَّه لم يُؤمَر به.

وقيل: غضبانَ على المَلِكِ حزقيل، فقد روي عن ابنِ عباس أنَّه قال: كان يونسُ وقومُه يسكنون فلسطينَ، فغزاهم مَلِكٌ وسبى منهم تسعةَ أسباطٍ ونصفاً، فأوحى اللهُ تعالى إلى شعياء النبيِّ أنِ اذهَبْ إلى حزقيل المَلِك، وقل له يوجِّه خمسةً من الأنبياء لقتالِ هذا الملك، فقال: أوجِّه يونسَ ابنَ متَّى، فإنَّه قويٌّ أمينٌ، فدعاه الملكُ وأمره أن يَخرُج، فقال يونس: هل أَمَرَكَ اللهُ تعالى بإخراجي؟ قال: لا. قال: هل سمَّاني لكَ. قال: لا. فقال يونس: فهاهنا أنبياءُ غيري. فألحُّوا عليه، فخرج مغاضباً، فأتى بحرَ الرومِ، فوجد قوماً هيَّؤوا سفينةً، فركب معهم، فلما وصلوا اللُّجَّة تكفَّأَتْ بهم السفينةُ، وأشرفت على الغَرَق، فقال الملاحون: معنا رجلٌ عاصٍ، أو عبدٌ آبقٌ، ومِن رَسْمنا إذا ابتُلينا بذلك أن نقترعَ، فمَن وقعت عليه القرعةُ، ألقيناه في البحر، ولأنْ يغرقَ أحدُنا خيرٌ من أن تغرقَ السفينةُ، فاقترعوا ثلاثَ مرَّات، فوقعت القرعةُ فيها كلِّها على يونسَ عليه السلام، فقال: أنا الرجلُ العاصي والعبدُ الآبقُ. فألقى نفسه في البحر، فجاءت حوتٌ فابتلعتْه، فأوحى اللهُ تعالى إليها أنْ لا تؤذيه بشعرةٍ، فإنِّي جعلتُ بطنَك سجناً له ولم أجعله طعاماً، ثم نجَّاه اللهُ تعالى مِن بطنها ونبذَه بالعراء، وقد رقَّ جلدُه فأنبتَ عليه شجرةً مِن يقطين يستظلُّ بها ويأكلُ مِن ثمرها حتى اشتدَّ، فلما يبست الشجرةُ، حَزِنَ عليها يونسُ عليه السلام، فقيل له: أتحزنُ على شجرةٍ ولم تَحزن على مئة ألفٍ أو يزيدونَ حيث لم تذهب إليهم ولم تطلب راحتَهم؟! فأوحى اللهُ تعالى إليه، وأَمَرَه أن يذهبَ إليهم، فتوجَّه نحوَهم حتى دخل أرضَهم وهم منه غيرَ بعيد، فأتاهم وقال لملكِهم: إنَّ اللهَ تعالى أرسلني إليكَ، فأرسل معيَ بني إسرائيل. قالوا: ما نَعرفُ ما تقول،

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٣٤.

(٢) مادة: (نون).

(٣) الشَّكِيمة: الأنَفة. القاموس (شكم).

ولو عَلِمْنا أنَّك صادقٌ لفَعَلْنا، وقد أتيناكم في دياركم وسَبَيْناكم، فلو كان الأمرُ كما تقول لمنَعَنا اللهُ تعالى عنكم، فطافَ فيهم ثلاثةَ أيام يَدعُوهم إلى ذلك، فأَبَوا عليه، فأوحى اللهُ تعالى إليه، قل لهم: إن لم يؤمنوا جاءهم العذابُ. فأبَلغهم، فأَبَوا، فخرج مِن عندهم، فلمَّا فقدوه، ندموا على فِعْلهم، فانطلقوا يطلبونه فلم يَقدروا عليه، ثم ذكروا أمرَهم وأمرَ يونسَ عليه السلام للعلماءِ الذين عندهم فقالوا: انظروا واطلبُوه في المدينة، فإن كان فيها فليس كما ذَكَر مِن نزولِ العذاب، وإن كان قد خرج فهو كما قال، فطلبوه، فقيل لهم: إنَّه خرجَ العشيَّة فلما أيسوا غلَّقوا بابَ مدينتهم، ولم يُدخِلَوا فيها دوابَّهم ولا غيرها، وعزلوا كلَّ واحدةٍ عن ولدها، وكذا الصبيان والأمَّهات، ثم قاموا ينتظرونَ الصبحَ، فلمَّا انشقَّ الصبحُ نزل العذابُ من السماء، فشقُّوا جيوبَهم، ووضعت الحواملُ ما في بطونِها، وصاحت الصبيانُ والدوابُّ، فرفع اللهُ تعالى العذابَ عنهم، فبعثوا إلى يونسَ حتى لقوهُ فآمنوا به وبعثوا معه بني إسرائيل.

وقيل: مغاضباً لربِّه عزَّ وجلَّ، وحكي في هذه المغاضبة كيفيَّات، وتَعقَّب ذلك في «البحر»[(١)] بأنَّه يجب اطِّراحُ هذا القولِ؛ إذ لا يناسبُ ذلك منصبَ النبوَّة، وينبغي أن يُتَأَوَّل لمن قال ذلك من العلماء، كالحسن، والشعبيِّ، وابنِ جبير، وغيرهم مِن التابعين، وابن مسعود من الصحابة ﵃، بأن يكون معنى قولهم: لربِّه، لأجل ربِّه تعالى وحميَّةً لدينه، فاللام لامُ العلَّة لا اللامُ الموصلةُ للمفعول به. انتهى.

وكون المراد مغاضباً لربِّه عزَّ وجلَّ مقتضى زَعْمِ اليهود، فإنَّهم زعموا أنَّ اللهَ أَمَره أن يذهب إلى نِيْنوى ويُنذِر أهلَها، فهرب إلى ترسيس مِن ذلك وانحدرَ إلى يافا، ونزل في السفينة فعظمت الأمواجُ وأشرفت السفينةُ على الغَرَق، فاقترعَ أهلُها، فوقعت القرعةُ عليه، فرمى بنفسِه إلى البحر، فالتقمه الحوتُ، ثم ألقاه وذهب إلى نِيْنوى، فكان ما كان، ولا يَخفى أنَّ مثلَ هذا الهرب مما يُجَلُّ عنه الأنبياء عليه السلام، واليهودُ قومٌ بُهْتٌ.

---

(١) ٦/ ٣٣٥.

ونصب «مغاضباً» على الحال، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكاً نحو: عاقبتُ اللصَّ وسافرتُ، وكأنَّه استعمل ذلك هنا؛ للمبالغةِ. وقيل: المفاعلة على ظاهرِها، فإنَّه عليه السلام غضب على قومِه لكُفرهم، وهم غضبوا عليه بالذهاب؛ لخوفِهم لحوقَ العذاب.

وقرأ أبو سرف: «مُغْضَباً»(١) اسم مفعول.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: إنَّه ـ أي: الشأن ـ لن نقدرَ ونقضيَ عليه بعقوبة ونحوها، أو: لن نضيِّقَ عليه في أمرِه بحبسٍ ونحوه.

ويؤيِّد الأوَّلَ قراءةُ عمرَ بنِ عبد العزيز، والزهريِّ: «نُقَدِّر» بالنون مضمومةً وفتحِ القاف وكسر الدالِ مشدَّدة، وقراءة عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، واليمانيِّ: «يُقَدَّر» بضمِّ الياء وفتح القاف والدال مشدَّدة(٢)، فإنَّ الفعلَ فيهما مِن التقدير بمعنى القضاء والحُكم، كما هو المشهور، ويجوز أن يكون بمعنى التضيُّق، فإنَّه ورد بهذا المعنى أيضاً كما ذكره الراغب(٣).

وظنَّ معاويةُ ﷺ أنَّه مِن القُدرة، فاستشكل ذلك إذ لا يظنُّ أحدٌ ـ فَضْلًا عن النبيِّ عليه السلام ـ عَدَمَ قُدرةِ الله تعالى عليه، وفَزِعَ إلى ابنِ عباس ﷺ، فأجابه بما ذكرناه أوَّلًا.

وجوَّز أن يكون مِن القدرة وتكون مجازاً عن أعمالها، أي: فظنَّ أن لن نُعمِلَ قدرتَنا فيه، أو يكون الكلامُ مِن باب التمثيل، أي: فَعَلَ فِعْلَ مَن ظنَّ أن لن نقدرَ عليه في مُراغمته قومَه مِن غير انتظارٍ لأمرنا.

وقيل: يجوز أن يسبقَ ذلك إلى وهمِه عليه السلام بوسوسةِ الشيطان، ثم يَردعَهُ، ويُردُّ بالبرهان كما يفعل المؤمنُ المحقَّق بنزغاتِ الشيطان وما يُوسوِس إليه

(١) القراءات الشاذة ص٩٢، والكشاف ٢/ ٥٨١، وتفسير الرازي ٢٢/ ٢١٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٥، والدر المصون ٨/ ١٩٠، إلا أنه ورد في المصادر كلها: أبو شرف، بدل: أبو سرف. وورد في الدر المصون: مغاضباً، بدل: مغضباً. ولم نقف على ترجمة القارئ، وذُكر في مواضع أخرى من المصادر المذكورة آنفاً: وأبو شرف مولى كندة.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣٥، والكشاف ٢/ ٥٨١.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (قدر).

في كلِّ وقت، ومنه: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠] والخطاب للمؤمنين.

وتعقَّبه صاحبُ «الفرائد» بأنَّ مثلَه عن المؤمن بعيدٌ، فضلًا عن النبيِّ المعصوم؛ لأنَّه كفرٌ، وقوله تعالى: «تَظُنونَ» إلخ، ليس من هذا القبيل على أنَّه شامل للخُلَّص وغيرِهم، وبأنَّ ما هجَس ولم يستقرَّ لا يُسمَّى ظنًّا، وبأنَّ الخواطرَ لا عتبَ عليها، وبأنَّه لو كان حامله على الخروج لم يكن مِن قبيل الوسوسة.

وأجيبَ بأنَّ الظنَّ بمعنى الهَجْس في الخاطر مِن غير ترجيحٍ مجازٌ مستعملٌ، والعَتَب على ذهابِه مغاضباً، ولا وجهَ لجعله حاملًا على الخروج، ومع هذا هو وجهٌ لا وجاهةَ له.

وقرأ ابنُ أبي ليلى، وأبو سرف، والكلبيُّ، وحميد بنُ قيس، ويعقوب: «يُقدَر» بضمِّ الياء وفتح الدالِ مخفَّفاً(١). وعيسى، والحسن بالياء مفتوحةً وكسرِ الدال(٢).

﴿فَنَادَىٰ﴾ الفاء فصيحةٌ، أي: فكان ما كان من المساهمةِ والْتِقَامِ الحوتِ فنادى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطنِ الحوت، جعلت الظلمة لشدَّتها كأنَّها ظلماتٌ، وأنشد السيرافيُّ:

وليلٍ يقول الناسُ في ظُلُماتِه ... سواء صحيحاتُ العيونِ وعُوْرُها(٣)

أو الجمع على ظاهرِه، والمراد ظلمةُ بطنِ الحوت، وظلمةُ البحر، وظلمةُ الليل. وقيل: ابتلع حوتَه حوتٌ أكبرُ منه، فحصل في ظلمتَي بطني الحوتَين وظلمتَي البحر والليل.

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أي: بأنَّه لا إلهَ إلا أنتَ، على أنَّ «أنْ» مخفَّفة مِن الثقيلة، والجارُّ مقدَّر، وضميرُ الشأن محذوفٌ، أو: أي: لا إلهَ إلا أنتَ، على أنَّها مفسِّرة.

---

(١) النشر ٢/ ٣٢٤، والقراءات الشاذة ص٩٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٥.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٥.

(٣) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٤٢٣، وفيه: القوم، بدل: الناس، وبصيرات، بدل: صحيحات. وأورده ابن الشجري في الحماسة ٢/ ٧١٠، ٧٢٨، والبغدادي في خزانة الأدب ٥/ ١٨، ونسباه لمضرس بن رِبْعي.

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: أنزِّهكَ تنزيهاً لائقاً بكَ مِن أن يُعجِزك شيءٌ، أو: أن يكون ابتلائي بهذا من غيرِ سببٍ مِن جهتي ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ لأنفسِهم بتعريضهم للهَلَكة، حيث بادرت إلى المهاجرة مِن غير أمرٍ على خلاف معادِ الأنبياء عليهم السلام، وهذا اعترافٌ منه عليه السلام بذنبِه، وإظهارٌ لتوبته ليفرِّج عنه كربتهِ.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي: دعاءَه الذي دعاه في ضمن الاعترافِ وإظهارِ التوبة على ألطف وجهٍ وأحسنه.

أخرج أحمد، والترمذيُّ، والنسائيُّ، والحكيم في «نوادر الأصول»، والحاكم وصحَّحه، وابنُ جريرٍ، والبيهقيُّ في «الشعب»، وجماعة، عن سعد بنِ أبي وقاص، عن النبيِّ ﷺ قال: «دعوةُ ذي النون إذ هو في بطنِ الحوت: لا إلهَ إلا أنتَ سبحانَك إنِّي كنتُ من الظالمين. لم يَدْعُ بها مسلمٌ ربَّه في شيءٍ قطُّ إلا استجابَ له»(١).

وأخرج ابنُ أبي حاتمٍ(٢) عن الحسن أنَّ ذلك اسمُ اللهِ تعالى الأعظم. وأخرج ذلك الحاكم عن سعدٍ مرفوعاً(٣).

وقد شاهدتُ أثَرَ الدعاءِ به، ولله تعالى الحمدُ حين أمرني بذلك مَن أظنُّ ولايته مِن الغرباء المجاورين في حضرة الباز الأشهب، وكان قد أصابني من البلاء ما اللهُ تعالى أَعلمُ به، وفي شَرْحه طُول، وأنتَ ملول.

وجاء عن أنسٍ مرفوعاً أنَّه عليه السلام حين دعا بذلك أَقبلت دعوتُه تحفُّ بالعرشِ، فقالت الملائكةُ عليهم السلام: هذا صوتٌ ضعيفٍ معروف مِن بلاد غريبة، فقال اللهُ تعالى: أَمَا تعرفونَ ذلك؟ قالوا: يا ربّ ومَن هو؟ قال: ذاك عبدي يونس. قالوا: عبدكَ يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبَّل ودعوةٌ مجابة، يا ربِّ أَفَلَا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيَه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوتَ

---

(١) أحمد (١٤٦٢)، والترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٥٥)، ونوادر الأصول ص١٣٤، ومستدرك الحاكم ١/ ٥٠٥، وشعب الإيمان (١٠٢٢٤)، ولم نقف عليه عند ابن جرير.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٦٥ (١٣٧١٤).

(٣) المستدرك ١/ ٥٠٥-٥٠٦.

فطرحه[1]. وذلك قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي: الذي ناله حين التقمه الحوتُ، بأن قَذفه إلى الساحل بعدَ ساعاتٍ.

قال الشعبيُّ: التقمه ضحًى ولَفَظَه عشيَّة. وعن قتادة: أنَّه بقي في بطنِه ثلاثةَ أيام، وهو الذي زعمته اليهود، وعن جعفرٍ الصادقِ رضي الله عنه أنَّه بقيَ سبعةَ أيام.

وروى ابنُ أبي حاتم عن أبي مالك أنَّه بقي أربعينَ يوماً، وقيل: المراد بالغمِّ غمُّ الخطيئةِ. وما تقدَّم أَظهرُ، ولم يقل جلَّ شأنُه: فنجيناه، كما قال تعالى في قصَّة أيوبَ عليه السلام: فكشفنا، قال بعضُ الأجلَّة: لأنَّه دعا بالخلاص من الضُّرِّ، فالكشف المذكور يترتَّب على استجابتِه، ويونس عليه السلام لم يَدْعُ، فلم يوجد وجهُ الترتيبِ في استجابته.

ورُدَّ بأنَّ الفاءَ في قصَّة أيوبَ عليه السلام تفسيريَّة، والعطف هنا أيضاً تفسيريٌّ، والتفنُّن طريقةٌ مسلوكة في البلاغة، ثم لا نُسلِّم أنَّ يونسَ عليه السلام لم يَدْعُ ولو لم يكن منه دعاءٌ، لم تتحقَّق الاستجابة. اهـ.

وتعقَّبه الخفاجيُّ[2] بأنَّه لا محصِّلَ لهُ، وكونه تفسيراً لا يَدفعُ السؤالَ؛ لأنَّ حاصله: لِمَ أُتيَ بالفاء ثَمَّتَ، ولم يؤتَ بها هنا؟ فالظاهر أن يقال: إنَّ الأوَّل دعاءٌ بكشف الضُّرِّ على وجه التلطُّف، فلما أَجْملَ في الاستجابة، وكان السؤالُ بطريق الإيماءِ، ناسبَ أن يُؤتَى بالفاء التفصيليَّة، وأما هنا فلما هاجرَ عليه السلام مِن غير أمرٍ، كان ذلك ذنباً بالنسبة إليه عليه السلام، كما أشار إليه بقوله: «إنِّي كنتُ مِن الظالمينَ»، فما أومأ[3] إليه هو الدعاء بعدمِ مؤاخذته بما صدر منه، فالاستجابةُ عبارة عن قَبول توبته وعدمِ مؤاخذته، وليس ما بعده تفسيراً له، بل زيادةُ إحسانٍ على مطلوبه، ولذا عطف بالواو. اهـ.

ولا يخفى أنَّ ما ذكره لا يتسنَّى في قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وقوله سبحانه:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة (٣٢)، وابن أبي حاتم في التفسير ٨/ ٢٤٦٤ - ٢٤٦٥ (١٣٧١١)، وابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ٣٣٤.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٢٦٩-٢٧٠، وما قبله منه أيضاً.

(٣) في (م): أوحى.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠] إذ لم يكن سؤالُ نوحٍ عليه السلام بطريق الإيماء مع أنَّه قال تعالى في قصَّته: «فنجَّينا» بالفاء، وزكريا عليه السلام لم يَصدُر منه ما يُعَدُّ ذنباً بالنسبة إليه ليتلطَّف في سؤال عدمِ المؤاخذة مع أنَّه قال سبحانه في قصَّته: «ووهَبْنا» بالواو، فلا بُدَّ حينئذٍ من بيانِ نُكتةٍ ـ غير ما ذُكر ـ للتعبير في كلِّ موضعٍ مِن هذين الموضعين بما عبَّر، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما ذكره الشهابُ في الآية الأخيرة، وربَّما يقال: إنَّه جِيءَ بالفاء التفصيليَّة في قصَّتي نوحٍ وأيوبَ عليهما السلام، اعتناءً بشأن الاستجابة لمكان الإجمال والتفصيل، لعظمِ ما كانا فيه وتفاقُمِه جدًّا، ألا ترى كيف يضربُ المثل ببلاءِ أيوبَ عليه السلام حيث كان في النفس والأهل والمال واستمرَّ إلى ما شاء اللهُ تعالى، وكيف وصفَ اللهُ تعالى ما نجَّى اللهُ سبحانه منه نوحاً عليه السلام، حيث قال عزَّ وجلَّ: «فنجيناه وأهلَه من الكَرْبِ العظيم» ولا كذلك ما كان فيه ذو النون وزكريا عليهما السلام بالنسبة إلى ذلك، فلذا جِيءَ في آيتيهما بالواو، وهي إن جاءت للتفسير، لكن مجيء الفاء لذلك أكثر، ولا يَبعُد عندي ما ذكره الخفاجيُّ[١] في هذه الآية مِن كون الاستجابة عبارة عن قَبول توبتِه عليه السلام، والتنجية زيادةُ إحسانٍ على مطلوبه، ويقال فيما سيأتي ما ستسمعه إن شاء الله تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنجاءِ الكاملِ ﴿نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ مِن غمومٍ دعوا اللهَ تعالى فيها بالإخلاص، لا إنجاءً أدنى منه.

وقرأ الجحدريُّ: «نُنَجِّي» مشدَّداً[٢]، مضارع «نجَّى»، وقرأ ابنُ عامر، وأبو بكر: «نُجِّي» بنونٍ واحدةٍ مضمومة، وتشديد الجيم، وإسكان الياء[٣]، واختار أبو عبيدةَ هذه القراءةَ على القراءة بنونين[٤]؛ لكونها أوفقَ بالرسم العثمانيِّ لما أنَّه بنونٍ واحدة، وقال أبو عليٍّ في «الحجَّة»[٥]: روي عن أبي عمرو: «نُجِّي»

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٢٧٠.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٥.
(٣) التيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٤.
(٤) ونقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٣٣٥.
(٥) ٥/ ٢٩٥.

بالإدغام، والنونُ لا تدغم في الجيم، وإنَّما أُخفيت؛ لأنَّها ساكنةٌ تَخرُج مِن الخياشيم، فحذفت مِن الكتاب وهي في اللفظ، ومن قال: تُدغَم، فقد غلط؛ لأنَّ هذه النونَ تخفى مع حروف الفَم، وتُسمَّى الأحرفَ الشجريَّة، وهي الجيم، والشين، والضاد، وتَبيينها لحنٌ، فلما أُخفيَ ظنَّ السامع أنَّه مدغم. انتهى.

وقال أبو الفتح ابنُ جنِّي: أصله: نُنَجِّي، كما في قراءة الجحدريِّ، فحذفت النونُ الثانية؛ لتوالي المِثْلين، والأخرى جِيء بها لمعنًى، والثقل إنَّما حصل بالثانية، وذلك كما حُذفت التاءُ الثانية في ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]، ولا يضرُّ كونها أصليَّة، وكذا لا يضرُّ عدمُ اتِّحادِ حركتها مع حركةِ النون الأولى، فإنَّ الداعيَ إلى الحذف اجتماعُ المثلين مع تعذُّر الإدغام، فقول أبي البقاء(١): إنَّ هذا التوجيهَ ضعيفٌ لوجهين: أحدهما: أنَّ النونَ الثانية أصلٌ، وهي فاءُ الكلمة، فحذفها يَبعُد جدًّا. والثاني: أنَّ حركتَها غيرُ حركة النون الأولى، فلا يُستثقل الجمعُ بينهما، بخلاف: ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ = ليس في حيِّز القبول، وإنَّما امتنع الحذفُ في: ﴿نَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: ١٦] لخوفِ اللبس بالماضي، بخلاف ما نحن فيه؛ لأنَّه لو كان ماضياً، لم يُسكَّن آخرُه، وكونه سكِّن تخفيفاً خلاف الظاهر، وقيل: هو فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعلُه، وسكِّنت الياءُ للتخفيف، كما في قراءة مَن قرأ: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾(٢) [البقرة: ٢٧٨] وقوله:

هو الخليفةُ فارْضَوْا ما رَضِيْ لَكمُ ... ماضِي العزيمةِ ما في حُكْمه جَنَفُ(٣)

ونائبُ الفاعلِ ضميرُ المصدر، و«المؤمنين» مفعولٌ به، وقد أجاز قيامَ المصدر مقامَ الفاعل مع وجود المفعول به الأخفشُ، والكوفيُّون، وأبو عبيدٍ، وخرَّجوا على ذلك قراءةَ أبي جعفر: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾(٤) [الجاثية: ١٤] وقوله:

---

(١) الإملاء ٤/ ١٢.
(٢) القراءات الشاذة ص١٧ ونسبها إلى أُبَيٍّ، والمحتسب ١/ ١٤١ ونسبها للحسن.
(٣) القائل: جرير، والبيت باللفظ المذكور في المحتسب ١/ ١٤١، وورد في الديوان ١/ ١٧٥ بلفظ:

هو الخليفة فارضوا ما قضى لكُمُ ... بالحقِّ يصدع ما في قوله جَنَفُ

والجَنَف: الميل.
(٤) النشر ٢/ ٣٧٢، ونسبها لعاصم أيضاً في رواية عنه.

ولـو وَلَـدتْ قُـفَـيْـرةُ جِـرْوَ كـلـبٍ لَـسُـبَّ بـذلـك الـكـلـبِ الـكِـلابـا[(١)]

والمشهور عن البصريين أنَّه متى وُجد المفعولُ به، لم يقم غيرُه مقامَ الفاعل.

وقيل: إنَّ «المؤمنين» منصوبٌ بإضمار فعلٍ، أي: وكذلك نُجِّيَ هو، أي: الإنجاء، نُنْجي المؤمنين. وقيل: هو منصوبٌ بضمير المصدر، والكلُّ كما ترى.

﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ أي: واذكُر خبرَه عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ أي: وحيداً بلا ولدٍ يرثني، كما يُشعِر به التذييلُ بقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ ولو كان المرادُ بلا ولدٍ يصاحبني ويعاونني، لقيل: وأنت خير المُعينين، والمراد بقوله: «وأنتَ خيرُ الوارثين» وأنت خيرُ حيٍّ يبقى بعد ميتٍ، وفيه مدحٌ له تعالى بالبقاء، وإشارةٌ إلى فَنَاء مَن سواه مِن الأحياء، وفي ذلك استمطارٌ لسحائبِ لطفِه عزَّ وجلَّ.

وقيل: أراد بذلك ردَّ الأمرِ إليه سبحانه، كأنَّه قال: إن لم تَرزقني ولداً يرثني، فأنتَ خيرُ وارثٍ، فحسبي أنتَ.

واعتُرض بأنَّه لا يناسبُ مقامَ الدعاء، إذ مِن آداب الدَّاعي أن يدعوَ بجِدٍّ واجتهادٍ وتصميمٍ منه، ففي الصحيحين عن رسولِ الله ﷺ: «إذا دَعَا أحدُكم، فلا يَقُل: اللَّهمَّ اغفر لي إن شئتَ، ارحمني إن شئتَ، ارزقني إن شئتَ، ليَعزِم مسألتَه، فإنَّ اللهَ تعالى يفعلُ ما يشاء لا مُكرِه له»[(٢)]، وفي رواية في «صحيح مسلم»[(٣)]: «ولكن ليَعزِم المسألةَ، وليَعزِم الرغبةَ، فإنَّ اللهَ تعالى لا يتعاظمه شيءٌ أعطاه».

---

(١) البيت لجرير يهجو الفرزدق كما في خزانة الأدب ١/٣٣٧، ولم نقف عليه في ديوانه ولا في النقائض، والبيت مذكور من غير نسبة في تأويل مشكل القرآن ص٣٩-٤٠، وإعراب القرآن للنحاس ٤/١٤٤، والخصائص ١/٣٩٧، وشرح المفصل ٧/٧٥، وأمالي ابن الشجري ٢/٥١٨. وورد في المصادر كلها: الجرو، بدل: الكلب. قال ابن جنِّي في الخصائص: قيل: هذا من أقبح الضرورة، ومثله لا يعتدُّ أصلاً، بل لا يثبت إلا مختصراً شاذاً. اهـ. وقال البغداديُّ: قُفَيْرة: اسمُ أمِّ الفرزدق، والمعنى: أنها إن ولدت جرواً لسُبَّت جميعُ الكلاب بسبب ذلك الجرو.

(٢) البخاري (٧٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧٩) (٩) بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) برقم (٢٦٧٩) (٨)، وفيه: وليعظم، بدل: وليعزم.

ويمكن أن يقال: ليس هذا مِن قبيل: ارزقني إن شئتَ، إذ ليس المقصودُ منه إلا إظهارَ الرضا والاعتمادَ على اللهِ عزَّ وجلَّ لو لم يجب دعاءَه، وليس المقصود مِن: ارزقني إن شئتَ، ذلك، فتأمَّل.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ دعاءَه ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ وقد مرَّ بيان كيفيَّة ذلك ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ أي: أصلحناها للمعاشرة بتحسينِ خُلُقها، وكانت سيِّئةَ الخُلُق طويلَة اللسان، كما روي عن ابنِ عباس، وعطاءِ بنِ أبي رباح، ومحمد بنِ كعبٍ القرظيِّ، وعونِ بنِ عبد الله، أو: أصلحناها له عليه السلام بردِّ شبابها إليها وجَعْلِها وَلوداً، وكانت لا تَلِد، كما روي عن ابنِ جبير، وقتادة، وعلى الأوَّل تكون هذه الجملةُ عطفاً على جملة: «استجبنا» لأنَّه عليه السلام لم يَدْعُ بتحسينِ خُلُق زوجِه.

قال الخفاجيُّ[1]: ويجوز عطفها على «وهبنا»، وحينئذٍ يظهر عطفُه بالواو؛ لأنَّه لما فيه من الزيادة على المطلوبِ لا يعطف بالفاء التفصيليَّة، وعلى الثاني العطف على «وهبنا»، وقدَّم هبةَ يحيى مع توقُّفها على إصلاحِ الزوج للولادة؛ لأنَّها المطلوبُ الأعظمُ، والواو لا تقتضي ترتيباً، فلا حاجةَ لما قيل: المرادُ بالهبة إرادتُها، قال الخفاجيُّ: ولم يقل سبحانه: فوهبنا؛ لأنَّ المرادَ الامتنانُ لا التفسيرُ، لعدم الاحتياجِ إليه، مع أنَّه لا يلزم التفسير بالفاء، بل قد يكون العطفُ التفسيريُّ بالواو. انتهى. ولا يَخفى ما فيه، فتدبَّر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ تعليلٌ لما فصَّل من فنونِ إحسانه المتعلِّقة بالأنبياء المذكورين سابقاً عليهم السلام، فضمائر الجمع للأنبياء المتقدِّمين.

وقيل: لزكريا، وزوجِه، ويحيى، والجملة تعليلٌ لما يُفهَم من الكلامِ من حصول القُربى والزُّلفى والمراتب العالية لهم، أو استئناف وقعَ جواباً عن سؤال تقديره: ما حالهم؟ والمعوَّل عليه ما تقدَّم، والمعنى: إنَّهم كانوا يجدُّون ويرغبونَ في أنواع الأعمال الحسنةِ، وكثيراً ما يتعدَّى أسرع بـ «في» لما فيه مِن معنى الجِدِّ

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٢٧١.

والرغبة، فليست «في» بمعنى «إلى»، أو للتعليل، ولا الكلام مِن قبيل:

... يـجـرح فـي عـراقـيـبـهـا نَـصْـلِـي[(١)]

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ أي: راغبين في نعمنا وراهبين مِن نقمنا، أو راغبينَ في قَبول أعمالهم وراهبينَ من ردِّها، فـ «رغباً» و«رهباً» مصدران في موضعِ الحالِ بتأويلهما باسمِ الفاعل، ويجوز أن يكونَ ذلك بتقديرِ مضافٍ، أي: ذوي رغب، ويجوز إبقاؤهما على الظاهر مبالغةً، وجوِّز أن يكونا جمعَين، كخَدَم جمع خادم، لكن قالوا: إنَّ هذا الجمعَ مسموعٌ في ألفاظ نادرة، وجوِّز أن يكونا نصباً على التعليل، أي: لأجل الرغبة والرهبة، وجوَّز أبو البقاءِ[(٢)] نصبَهما على المصدر، نحو: قعدتُ جلوساً، وهو كما ترى.

وحكى في «مجمع البيان»[(٣)] أنَّ الدعاءَ رغبةً ببطونِ الأكفِّ، ورهبةً بظهورها.

وقد قال به بعضُ علمائنا: والظاهر أنَّ الجملةَ معطوفةٌ على جملة: «يسارعون» فهي داخلةٌ معها في حيِّز «كانوا»، وفي عدم إعادتها رمزٌ إلى أنَّ الدعاءَ المذكورَ مِن توابعِ تلك المسارعة.

وقرأت فرقةٌ: «يَدْعُونَا» بحذف نونِ الرفع[(٤)]. وقرأ طلحةُ: «يَدْعُونَّا» بنون مشدَّدة، أدغم نون الرفع في نون ضميرِ النصب[(٥)]. وقرئ: «رَغْباً ورَهْباً» بفتحِ الراء وإسكان ما بعدها[(٦)]، و«رُغْباً ورُهْباً» بالضمِّ والإسكان[(٧)].

---

(١) البيت لذي الرُّمَّة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وتمامه:

وإن تعتذر بالمَحْل من ذي ضروعها   على الضيف يجرح في عراقيبها نَصْلي

وسلف ١٠/ ١٦١.

(٢) الإملاء ٤/ ١٣.

(٣) ١٧/ ٥٥.

(٤) زاد المسير ٥/ ٣٨٥ ونسبها إلى ابن مسعود وابن محيصن، وتفسير القرطبي ١٤/ ٢٨١ ونسبها لطلحة بن مصرِّف، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٦ دون نسبة.

(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٣٦.

(٦) القراءات الشاذة ص٩٢ عن الأعمش، ورواية عن أبي عمرو.

(٧) تفسير القرطبي ١٤/ ٢٨١ ونسبها للأعمش، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٦.

﴿وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ أي: مخبتينَ متضرِّعين، أو دائمي الوَجَل، وحاصلُ التعليل أنَّهم نالوا مِن الله تعالى ما نالوا بسببِ اتِّصافهم بهذِه الخصالِ الحميدة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ نُصب نصبَ نظائرِه السابقة، وقيل: رفعٌ على الابتداء، والخبر محذوف، أي: ممَّا يُتلَى عليكم، أو: هو قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ والفاء زائدةٌ عند مَن يجيزه، والمرادُ بالموصول مريمُ عليها السلام، والإحصانُ بمعناه اللغويِّ، وهو المنعُ مطلقاً، والفَرْج في الأصل: الشَّقُّ بين الشيئين، كالفُرجة وما بين الرجلين، ويُكنَى به عن السَّوْأَة، وكثر حتى صارَ كالصريح في ذلك، وهو المرادُ به هنا عند جماعةٍ، أي: منعَت فَرْجهَا مِن النكاح بقسمَيْه، كما قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] وكان التبتُّلُ إذ ذاكَ مشروعاً للنساء والرجال، وقيل: الفَرْجُ هنا جَيْبُ قميصِها مَنَعَته مِن جبريل عليه السلام لما قربَ منها لينفخَ؛ حيث لم تعرفه.

وعبَّر عنها بما ذُكرَ؛ لتفخيمِ شأنها وتنزيهِها عمَّا زعموه في حقِّها، والمراد مِن الروح معناه المعروف، والإضافة إلى ضميرِه تعالى للتشريف، ونفخ الروح عبارةٌ عن الإحياء، وليس هناك نفخٌ حقيقةً، ثم هذا الإحياء لعيسى عليه السلام، وهو لكونه في بطنها صحَّ أن يقال: نفخنا فيها، فإنَّ ما يكون فيما في الشيءِ يكون فيه، فلا يلزمُ أن يكون المعنى: أحييناها، وليس بمراد، وهذا كما يقول الزمَّار: نفختُ في بيتِ فلان، وهو قد نفخَ في المزمار في بيته، وقال أبو حيَّان[1]: الكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: فنفخنا في ابنِها.

ويجوز أن يكونَ المرادُ من الروح جبريلَ عليه السلام، كما قيل في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] و«مِن» ابتدائيَّة، وهناك نفخٌ حقيقةً، وإسنادُه إليه تعالى مجازٌ، أي: فنفخنا فيها مِن جهةِ روحنا، وكان جبريلُ عليه السلام قد نفخَ مِن جَيْبِ دِرْعها، فوصل النفخُ إلى جوفِها، فصحَّ أنَّ النفخَ فيها مِن غير غبارٍ يَحتاج إلى النفخ، ثم النفخُ لازمٌ، وقد يتعدَّى فيقال: نفخنا الروحَ، وقد جاء ذلك في بعضِ الشواذِّ، ونصَّ عليه بعضُ الأجلَّة، فإنكارُه مِن عدم الاطِّلاع.

(١) البحر المحيط ٦/٣٣٦.

﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ أي: جعلنا قصَّتهما أو حالَهما ﴿ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ فإنَّ مَن تأمَّل حالتهما، تحقَّق كمالَ قدرتِه عزَّ وجلَّ، فالمراد بالآية ما حصل بهما مِن الآية التامَّة مع تكاثرِ آياتِ كلٍّ واحد منهما، وقيل: أُريد بالآية الجنسُ الشاملُ ما لكلٍّ واحدٍ منهما مِن الآيات المستقلَّة.

وقيل: المعنى: وجعلناها آيةً وابنَها آيةً، فحذفت الأُولى؛ لدلالة الثانية عليها، واستدلَّ بذِكْر مريمَ عليها السلام مع الأنبياء في هذه السورة على أنَّها كانت نبيَّةً إذ قُرنت معهم في الذِّكْر.

وفيه أنَّه لا يَلزم مِن ذِكْرِها معهم كونها منهم، ولعلَّها إنَّما ذُكرت؛ لأجل عيسى عليه السلام، وناسبَ ذكرهما هنا قصَّة زكريا وزوجِه وابنِهما يحيى؛ للقَرابة التي بينهم عليهم السلام.

﴿إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ خطابٌ للناس قاطبةً، والإشارة إلى ملَّة التوحيد والإسلام، وذلك من باب: ﴿هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] وهذا أخوك، تصوّر المشار إليه في الذهنِ وأُشير إليه، وفيه أنَّه متميِّز أكملَ التمييز، ولهذا لم يبيّن بالوصف.

والأُمَّةُ على ما قاله صاحب «المطلع»: أصلها القوم يجتمعون على دينٍ واحد، ثم اتُّسعَ فيها حتى أطلقت على نفسِ الدين، والأَشهر أنَّها الناسُ المجتمعون على أمرٍ، أو في زمان، وإطلاقها على نفسِ الدين مجازٌ، وظاهرُ كلامِ الراغب(١) أنَّه حقيقةٌ أيضاً، وهو المرادُ هنا، وأُريد بالجملة الخبرية الأمرُ بالمحافظة على تلك الملَّة ومراعاة حقوقِها، والمعنى: أنَّ ملَّة الإسلام ملَّتكم التي يجب أن تُحافظوا على حدودِها وتُراعوا حقوقَها، فافعلوا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ نصب على الحال مِن «أمَّة»، والعامل فيها اسمُ الإشارة، ويجوز أن يكون العامل في الحال غير العامل في صاحبها، وإن كان الأكثر الاتحادَ، كما في «شرح التسهيل» لأبي حيَّان، وقيل: بدل مِن «هذه»، ومعنى وحدتها: اتفاقُ الأنبياء عليهم السلام عليها، أي: إنَّ هذه أمَّتكم أمَّة غير

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (أمّ).

مختلفةٍ فيما بين الأنبياء عليهم السلام، بل أجمعوا كلُّهم عليها، فلم تتبدَّل في عصر من الأعصار، كما تبدَّلت الفروع، وقيل: معنى وحدتِها عدمُ مشاركة غيرِها ـ وهو الشِّرْك ـ لها في القَبول وصحَّة الاتِّباع.

وجوِّز أن تكون الإشارةُ إلى طريقة الأنبياء المذكورين عليهم السلام، والمراد بها التوحيدُ أيضاً، وقيل: هي إشارةٌ إلى طريقةِ إبراهيم عليه السلام، والكلام متَّصل بقصَّته، وهو بعيدٌ جدًّا، وأَبعدُ منه بمراحلَ ما قيل: إنَّها إشارةٌ إلى ملَّة عيسى عليه السلام، والكلام متَّصل بما عنده، كأنَّه قيل: وجعلناها وابنَها آيةً العالمين، قائلين لهم: إنَّ هذه، أي: الملَّة التي بُعث بها عيسى أمَّتكم... إلخ، بل لا ينبغي أن يُلتفت إليه أصلًا.

وقيل: إنَّ «هذه» إشارةٌ إلى جماعة الأنبياء المذكورين عليهم السلام، والأمَّة بمعنى الجماعة، أي: إنَّ هؤلاء جماعتكم التي يَلزمكُم الاقتداءُ بهم مجتمعينَ على الحقِّ غيرَ مختلفين، وفيه جهةُ حُسْن كما لا يَخفى، والأوَّل أَحسن وعليه جمهورُ المفسِّرين، وهو المرويُّ عن ابنِ عباس، ومجاهد، وقتادة.

وجوِّز بعضُهم كونَ الخطاب للمؤمنين كافَّة، وجعله الطيبيُّ للمعاندين خاصَّة حيث قال في وجه ترتيبِ النظم الكريم: إنَّ هذه السورةَ نازلةٌ في بيان النبوَّة وما يتعلَّق بها، والمخاطبون المعاندون مِن أمَّة محمَّد ﷺ، فلما فرغ مِن بيان النبوَّة وتكريرِه تقريراً، ومِن ذكر الأنبياء عليهم السلام مسلِّياً، عاد إلى خطابِهم بقوله تعالى شأنه: «إنَّ هذه أمتكم» إلخ، أي: هذه الملَّة التي كرَّرتها عليكم ملَّةٌ واحدة، أختارُها لكم لتتمسَّكوا بها، وبعبادةِ اللهِ تعالى والقولِ بالتوحيد، وهي التي أَدعوكم إليها لتعضُّوا عليها بالنواجذِ؛ لأنَّ سائرَ الكتب نازلةٌ في شأنها، والأنبياء كلُّهم مبعوثون للدعوة إليها، ومتَّفقون عليها، ثم لمَّا عَلِمَ إصرارَهم قيل: «وتقطَّعوا» [الآية: ٩٣] إلخ، وحاصل المعنى: الملَّة واحدة، والربُّ واحدٌ، والأنبياء عليهم السلام متَّفقون عليها، وهؤلاء البُعداء جعلوا أَمْرَ الدين الواحدِ فيما بينهم قطعاً، كما يتوزَّع الجماعةُ الشيءَ الواحدَ. انتهى. والأظهر العموم، وأَمْرُ النظم عليه يؤخذ مِن كلام الطيبيِّ بأدنى التفات.

وقرأ الحسنُ: «أمَّتَكُم» بالنصبِ على أنَّه بدلٌ مِن «هذه»، أو عطفُ بيانٍ عليه،

و«أمَّةٌ واحدةٌ» بالرفع على أنَّه خبر «إنَّ»(١). وقرأ هو أيضاً وابنُ إسحاق، والأشهبُ العقيليُّ، وأبو حيوةَ، وابنُ أبي عبلةَ، والجعفيُّ، وهارون عن أبي عمرو، والزعفرانيُّ برفعهما على أنَّهما خبرا «إنَّ»(٢)، وقيل: الأوَّل خبر، والثاني بدلٌ منه بدل نكرةٍ مِن معرفةٍ، أو هو خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: هي أمَّة واحدةٌ.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ أي: أنا إلهكم إلهٌ واحد ﴿فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ خاصَّة، وتفسيرُ الربِّ بالإله؛ لأنَّه رتَّب عليه الأمر بالعبادة، والدلالة على الوحدة مِن حدةِ الملَّة، وفي لفظ الرَّبِّ إشعارٌ بذلك مِن حيث إنَّ الرَّبَّ وإن توهِّم جواز تعدُّده في نفسه، لا يمكن أن يكون لكلِّ مربوب إلا ربٌّ واحدٌ؛ لأنَّه مفيضُ الوجودِ وكمالاتِه معاً، وفي العدول إلى لفظ الربِّ ترجيحُ جانبِ الرحمة، وأنَّه تعالى يدعوهم إلى عبادتِه بلسانِ الترغيب والبسط، قاله في «الكشف».

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: جعلوا أَمْرَ دينهم فيما بينهم قِطَعاً، على أنَّ «تقطَّع» مضمَّن معنى الجعل، فلذا تعدَّى إلى «أمرهم» بنفسه، وقال أبو البقاء(٣): تقطَّعوا أمرَهم، أي: في أمرهم، أي: تفرَّقوا. وقيل: عُدِّيَ بنفسه؛ لأنَّه بمعنى قطَّعوا، أي: فرَّقوا. وقيل: «أمرهم» تمييزٌ محوَّل عن الفاعل، أي: تقطَّع أمرُهم. انتهى.

وما ذكر أوَّلًا أظهرُ، وأمرُ التمييزِ لا يَخفى على ذي تمييز، ثم أصلُ الكلام: وتقطَّعتم أمرَكم بينهم على الخطاب، فالتفتَ إلى الغَيبة؛ لينعي عليهم ما فَعلُوا من التفرُّق في الدين، وجَعْله قِطَعاً موزَّعة، وينهي ذلك إلى الآخرين، كأنَّه قيل: أَلَا ترونَ إلى عظم ما ارتكبَ هؤلاء في دينِ الله تعالى الذي أَجمعت عليه كافَّة الأنبياء عليهم السلام، وفي ذلك ذمٌّ للاختلاف في الأصول.

﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ واحدة مِن الفِرَق المتقطِّعة، أو: كلُّ واحد مِن آحاد كلِّ واحدةٍ من تلك الفرق.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٧.

(٣) الإملاء ٤/ ١٤-١٥.

﴿إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ بالبعث لا إلى غيرِنا، فنجازيهم حينئذٍ بحسَب أعمالهم، ولا يخفى ما في الجملة مِن الدلالة على الثبوتِ والتحقُّق.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تفصيلٌ للجزاءِ، أي: فمن يَعمل بعضَ الصالحات أو بعضاً من الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجبُ الإيمانُ به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: لا حرمانَ لثواب عملِه ذلك، عبَّر عنه بالكفران ـ الذي هو سَتْرُ النعمة وجحودها ـ لبيانِ كمال نزاهتِه تعالى عنه، بتصويره بصورةٍ ما يستحيلُ صدورُه عنه سبحانه من القبائح، وإبرازُ الإثابة في معرضِ الأمور الواجبة عليه تعالى، ونفي نفي الجنسِ المفيد للعموم؛ للمبالغة في التنزيه، والظاهر أنَّ التركيب على طَرْزِ: «لا مانع لما أعطيت»[(١)]، والكلام فيه مشهورٌ بين علماء العربية، وعبَّر عن العمل بالسعي؛ لإظهار الاعتدادِ به، وفي حرف عبد الله: «فلا كُفْرَ»[(٢)]، والمعنى واحد.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ أي: لسعيه، وقيل: الضمير لـ «من»، وليس بشيء، ﴿كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: مثبتونَ في صحيفة عملِه، لا يضيعُ بوجهٍ ما، واستدلَّ بالآية على أنَّ قبولَ العمل الصالح مطلقاً مشروطٌ بالإيمان، وهو قولٌ لبعضهم، وقال آخرونَ: الإيمانُ شرطٌ لقَبول ما يحتاج إلى النية مِن الأعمال، وتحقيقه في موضعه.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ أي: على أهلِ قرية، فالكلامُ على تقدير مضافٍ، أو: القرية مجازٌ عن أهلها.

والحرام مستعارٌ للممتنع وجودهُ بجامع أنَّ كلَّ واحدٍ منهما غيرُ مرجوِّ الحصول، وقال الراغب[(٣)]: الحرامُ: الممنوعُ منه إمَّا بتسخيرٍ إلهيٍّ، وإمَّا بمنعٍ قهريٍّ، وإمَّا بمنعٍ مِن جهة العقل، أو مِن جهة الشرع، أو مِن جهة مَن يرتسمُ أمره، وذكر أنَّه قد حمل في هذه الآية على التحريم بالتسخير، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢].

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣)، وأحمد (١٨١٣٩) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣٨.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (حرم).

وقرأ أبو حنيفة، وحمزةُ، والكسائيُّ، وأبو بكرٍ، وطلحةُ، والأعمشُ، وأبو عمرٍو في رواية: «وحِرْمٌ» بكسر الحاء وسكون الراء[١].

وقرأ[٢] قتادةُ، ومطر الورَّاقُ، ومحبوبٌ عن أبي عمرو: بفتحِ الحاءِ وسكون الراءِ[٣].

وقرأ عكرمةُ: «وحَرِمٌ» [بفتح] الحاء وكسرِ الراء والتنوين[٤].

وقرأ ابنُ عباس، وعكرمة أيضاً، وابنُ المسيب، وقتادة أيضاً بكسر الراء وفتح الحاء والميم على المضيِّ[٥].

وقرأ ابنُ عباس، وعكرمةُ بخلاف عنهما، وأبو العالية، وزيد بنُ عليٍّ بضمِّ الراء وفتح الحاء والميم على المضيِّ أيضاً[٦]، وفي رواية أخرى عن ابنِ عباس أنَّه قرأ بفتحِ الحاء والراء والميم على المضيِّ أيضاً[٧]،

وقرأ اليماني: «وحُرِّمَ» بضمِّ الحاءِ وكسر الراء مشدَّدة وفتحِ الميم[٨]، على أنَّه فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه.

﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي: قدَّرنا هلاكَها، أو حكمنا به في الأزلِ؛ لغاية طغيانهم وعتوِّهم فيما لا يزال.

وقرأ السلميُّ، وقتادة: «أَهْلَكتُها» بتاءِ المتكلِّم[٩].

---

(١) التيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٨.

(٢) من هنا سقط من الأصل، إلى قوله الآتي: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية. عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الآية: ١٠٢].

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٣٨، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة إلى عكرمة، وابن جنّي في المحتسب ٢/ ٦٥ إلى ابن عباس.

(٤) المحتسب ٢/ ٦٥، وما بين حاصرتين لم يرد في (م)، واستدركت منه، مع العلم بأن هذا الموضع ساقط من الأصل، كما أشرنا إليه قريباً.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٨.

(٦) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٨.

(٧) المحتسب ٢/ ٦٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٨.

(٨) القراءات الشاذة ص٩٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٨.

(٩) تفسير القرطبي ١٤/ ٢٨٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٨.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ في تأويلِ اسمٍ مرفوعٍ على الابتداء، خبره: «حرام»، قال ابنُ الحاجب في «أماليه»: ويجب حينئذٍ تقديمه؛ لما تقرَّر في النحو من أنَّ الخبرَ عن «أنَّ» يجبُ تقديمهُ، وجوَّز أن يكون «حرام» مبتدأ، و«أنَّهم» فاعلٌ له سدَّ مسدَّ خبرِه، وإن لم يعتمد على نفي أو استفهام، بناءً على مذهب الأخفش، فإنَّه لا يشترط في ذلك الاعتماد، خلافاً للجمهور كما هو المشهور.

وذهب ابنُ مالك[1] أنَّ رَفْعَ الوصفِ الواقع مبتدأً لمكتفًى به عن الخبر مِن غير اعتمادٍ، جائزٌ بلا خلاف، وإنَّما الخلافُ في الاستحسان وعدمِه، فسيبويه يقول: هو ليس بحَسَن[2]. والأخفش يقول: هو حَسَن، وكذا الكوفيُّون كما في «شرح التسهيل». والجملة لتقريرِ ما قبلها مِن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الآية: ٩٣] وما في «أنَّ» من معنى التحقيقِ معتبر في النفي المستفاد في «حرام» لا في المنفيِّ، أي: ممتنع ألبتة عدمُ رجوعهم إلينا للجزاء، لا أنَّ عدمَ رجوعهم المحقَّق ممتنعٌ، وتخصيصُ امتناعِ عدم رجوعهم بالذكر مع شمولِ الامتناع لعدم رجوعِ الكلِّ حسبما نطق به قوله تعالى: «كلٌّ إلينا راجعونَ» لأنَّهم المنكِرون للبعث والرجوعِ دون غيرِهم، وهذا المعنى محكيٌّ عن أبي مسلم ابنِ بحر، ونقله أبو حيَّان[3] عنه، لكنَّه قال: إنَّ الغرضَ من الجملة على ذلك إبطالُ قولِ مَنَ يُنكِر البعثَ، وتحقيق ما تقدَّم مِن أنَّه لا كفرانَ لسعي أحدٍ، وأنَّه يُجزى على ذلك يوم القيامة، ولا يخفى ما فيه.

وقال أبو عتبة: المعنى: وممتنعٌ على قريةٍ قدَّرنا هلاكَها، أو حَكَمْنا به، رجوعُهم إلينا، أي: توبتهم، على أن «لا» سيفُ خطيب، مثلها في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] في قولٍ، وقيل: «حرام» بمعنى واجب، كما في قول الخنساء:

وإنَّ حـرامـاً لا أرى الـدهـرَ بـاكـيـاً ... على شَجْوِهِ إلا بكيتُ على صَخْرِ[4]

---

(١) ينظر التسهيل ص٤٧.

(٢) الكتاب ١/ ٢٧٨.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٣٨.

(٤) تفسير القرطبي ١٤/ ٢٨٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٣٩، ولم نقف عليه في ديوان الخنساء.

=

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلخ فإنَّ تَرْكَ الشركِ واجبٌ، وعلى هذا قال مجاهد، والحسن: «لا يرجعون»: لا يتوبون عن الشرك.

وقال قتادة، ومقاتل: لا يرجعونَ إلى الدنيا. والظاهر على هذا أنَّ المرادَ بـ «أهلكناها»: أوجدنا إهلاكَها بالفعل، والمرادُ بالهلاك الهلاكُ الحسيُّ، ويجوز على القول بأنَّ المرادَ بعدم الرجوع عدمُ التوبة أَنْ يُراد به الهلاكُ المعنويُّ بالكفر والمعاصي.

وقرئ: «إنَّهم» بكسرِ الهمزة[١]، على أنَّ الجملةَ استئنافٌ تعليليٌّ لما قبلها، فـ «حرام» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: حرام عليها ذلك، وهو ما ذكر في الآية السابقة مِن العمل الصالح المشفوع بالإيمان والسعي المشكور، ثم علَّل بقوله تعالى: «إنَّهم لا يرجعون» عمَّا هم عليه من الكُفر، فكيف لا يمتنع ذلك؟!.

ويجوز حملُ الكلام على قراءة الجمهور بالفتح على هذا المعنى بحذف حرفِ التعليل، أي: لأنَّهم لا يرجعون. والزجَّاجُ قدَّر المبتدأ في ذلك أن يُتقبَّل عملُهم، فقال: المعنى: وحرامٌ على قريةٍ حَكَمْنا بهلاكِها أن يُتقبَّل عملُهم؛ لأنَّهم لا يتوبونَ[٢]. ودلَّ على ذلك قولُه تعالى قبل: «فلا كفرانَ لسَعْيه» حيث إنَّ المرادَ منه يُتقبَّل عملُه.

و «حتى» في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ابتدائيَّة، والكلامُ بعدَها غايةٌ لما يدلُّ عليه ما قَبلها، كأنَّه قيل: يستمرُّونَ على ما هم عليه مِن الهلاك حتى إذا قامت القيامةُ يرجعون إلينا، ويقولون: يا ويلنا... إلخ، أو غايةٌ للحرمة، أي: يستمرُّ امتناعُ رجوعهم إلى التوبة حتى إذا قامت القيامةُ يرجعون عنه، وهو

= وأورده ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص٢٨٨، وفي المعاني الكبير ٢/٨٣٨، والقرطبي في تفسيره ٨/١٧٦، ولم ينسباه، ونسبه ابن منظور في اللسان (رحم) لعبد الرحمن بن جمانة المحاربي، إلا أنه ورد عن ابن قتيبة وابن منظور: على عمرو، بدل: على صخر. في حين ورد عند القرطبي: على عُمر.

(١) الكشاف ٢/٥٨٣، والبحر المحيط ٦/٣٣٨.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/٤٠٥.

حين لا ينفعهم الرجوعُ، أو غايةٌ لعدم الرجوعِ عن الكفر، أي: لا يرجعونَ عنه حتى إذا قامت القيامةُ يرجعون عنه، وهو حين لا ينفعُهم ذلك، وهذا بحسَب تعدُّد الأقوال في معنى الآية المتقدِّمة، والتوزيع غيرُ خفيٍّ، وقال ابنُ عطيَّة[1]: «حتى» متعلِّقة بقوله تعالى: «تقطَّعوا» إلخ. قال أبو حيَّان[2]: وفيه بُعْدٌ؛ مِن كثرة الفَصْل، لكنَّه من جهة المعنى جيِّد، وحاصله أنَّهم لا يزالونَ مختلفِين غيرَ مجتمعينَ على دينِ الحقِّ إلى قُرب مجيء الساعة، فإذا جاءت الساعةُ انقطعَ ذلك الاختلافُ، وعَلم الجميعُ أنَّ مولاهم الحقُّ، وأنَّ الدينَ المنجي كان دينَ التوحيد.

ونسبةُ الفتحِ إلى يأجوج ومأجوج مجازٌ، وهي حقيقةٌ إلى السَّدِّ، أو الكلام على حذفِ المضاف وهو السَّدُّ وإقامةِ المضاف إليه مقامَه.

وقرأت فرقةٌ: «فُتِّحَتْ» بالتشديد[3]، وتقدَّم الكلام في يأجوج ومأجوج.

﴿وَهُم﴾ أي: يأجوجُ ومأجوجُ، وقيل: الناس، وروي عن مجاهد ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي: مرتفع من الأرض كجبل وأَكَمة.

وقرأ ابنُ عباس: «جَدَث» بالجيم والثاء المثلَّثة[4]، وهو القبرُ، وهذه القراءة تؤيِّد رجوعَ الضمير إلى الناس، وقرئ: بالجيم والفاء[5]، وهي بدلُ الثاءِ عند تميمٍ، ولا يختصُّ إبدالُها عندهم في آخِر الكلمة، فإنَّهم يقولون: مغثور، مكان: مغفور.

﴿يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: يُسرعون، وأصل النَّسَلان بفتحتين: مقارَبة الخَطْوِ مع الإسراع، قيل: يختصُّ وضعاً بالذئب، وعليه يكون مجازاً هنا.

وقرأ ابنُ إسحاق، وأبو السَّمَّال بضمِّ السين[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٩٩.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣٩.
(٣) التيسير ص١٠٢، والنشر ٢/ ٢٥٨.
(٤) القراءات الشاذة ص٩٣، ونسبه في المحتسب ٢/ ٦٦ لابن مسعود.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٣٩.
(٦) القراءات الشاذة ص٩٣، والبحر ٦/ ٣٣٩.

﴿وَٱقۡتَرَبَ﴾ أي: قَرُبَ، وقيل: هو أبلغ في القُرب مِن قَرُبَ ﴿ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ وهو ما بعدَ النفخةِ الثانية مِن البعث والحسابِ والجزاء لا النفخة الأُولى، والجملة عطفٌ على «فتحت يأجوج».

ثم إنَّ هذا الفتحَ في زمنِ نزول عيسى عليه السلام مِن السماء، وبعد قَتْلِه الدجالَ عند باب لُدٍّ[1] الشرقيِّ، فقد أخرج مسلم، وأبو داود، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه مِن حديث طويل: «إن اللهَ تعالى يُوحي إلى عيسى عليه السلام بعد أن يَقتُلَ الدجالَ: إنِّي قد أخرجتُ عباداً مِن عبادي لا يَدَانِ لكَ بقتالِهم، فحَرِّزْ عبادي إلى الطُّور، فيبعث اللهُ تعالى يأجوجَ ومأجوجَ، وهم كما قال الله تعالى: «مِن كلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُون» فيَرغبُ عيسى عليه السلام وأصحابُه إلى الله عزَّ وجلَّ، فيُرسِلُ عليهم نغفاً في رقابهم، فيصبحون موتى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى عليه السلام وأصحابه، فيرسل عليهم طيراً كأعناق البُخْتِ، فتَحمِلهم فتطرَحُهم حيث شاء اللهُ تعالى، ويرسل اللهُ عزَّ وجلَّ مطراً لا يَكُنُّ منه بَيتٌ[2] مَدَرٍ ولا وَبَرٍ أربعينَ يوماً، فيغسلُ الأرضَ حتى يتركَها زَلَفَةً، ويقال للأرض: أَنبتي ثمرتَكِ، فيومئذٍ يَأكلُ النفرُ مِن الرُّمَّانة ويستظلُّون بقِحْفها، ويُبارَك في الرِّسْل، حتى إنَّ اللِّقْحةَ مِن الإبل لتكفي الفِئام مِن الناس، واللِّقْحةَ مِن البقر تكفي الفَخِذَ، والشاةَ من الغنمِ تكفي البيتَ، فبينما هم على ذلك، إذ بعثَ اللهُ تعالى ريحاً طيِّبة تحت آباطِهم، فتقبضُ روحَ كلِّ مسلم، ويبقى شرارُ الناس، يتهارجون تهارجَ الحُمُرِ، وعليهم تقومُ الساعة»[3].

وجاء مِن حديثٍ رواه أحمد، وجماعة: «إنَّ الساعةَ بعد أن يهلك يأجوج

---

(١) قرية قرب بيت المقدس. معجم البلدان (اللُّد).

(٢) في (م): نبت. والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) مسلم (٢٩٣٧)، وأبو داود (٤٣٢١)، والترمذي (٢٢٤٠)، والنسائي في الكبرى (٧٩٧٠) و(١٠٧١٧)، وابن ماجه (٤٠٧٥)، وهو عند أحمد (١٧٦٢٩) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.
وقوله: فحرِّز. قال السندي في حاشيته على مسند أحمد: أي: ضمهم واجعله لهم حرزاً. والنَّغَف: دودٌ في أنوف الإبل والغنم. والبُخْت: واحدة: بختيَّة وبُخْتي، وهما الأنثى والذكر من الجِمال البُخت. والقِحْف: القِشْر. والرِّسْل: الرخاء والخِصْب. النهاية (نغف) و(بخت) و(قحف) و(رسل). والحديث سلف عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الكهف.

ومأجوج كالحامل المتمِّ لا يدري أهلُها حتى تفجأهم بولادِها ليلًا أو نهاراً»[١].

وأخرج ابنُ المنذر عن ابنِ جريج قال: ذكر لنا أنَّ النبي ﷺ قال: «لو نُتجتْ فرسٌ عند خروجِهم، ما رُكب فلوُّها حتى تقومَ الساعةُ»[٢] وهذا مبالغةٌ في القُرب، كالخبر الذي قَبلَه.

﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جواب الشرط، و«إذا» للمفاجأة، وهي تسدُّ مسدَّ الفاء الجزائيَّة في الربط، وليس عوضاً عنها، فمتى كانت الجملةُ الاسميَّة الواقعةُ جزاءً مقترنةً بها لم تَحتج إلى الفاءِ، نحو: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] وإذا جيءَ بهما معاً كما هنا يتقوَّى الربط، والضمير للقصَّة والشأن، وهو مبتدأ، و«شاخصةٌ» خبر مقدَّم، و«أبصار» متبدأٌ مؤخَّر، والجملة خبرُ الضمير، ولا يجوز أن يكون «شاخصةٌ» الخبرَ، و«أبصارٌ» مرفوعاً به؛ لأنَّ خبرَ ضميرِ الشأن لا يكون إلا جملةً مصرَّحاً بجُزْأيها، وأجاز بعضُ الكوفيِّين كونه مفرداً، فيجوز ما ذكر عنده.

وعن الفرَّاء[٣] أنَّ «هي» ضميرُ الأبصار، فهو ضمير مُبهَم يفسِّره ما في حيِّز خبرِه، وعودُ الضميرِ على متأخِّر لفظاً ورتبةً في مثل ذلك جائزٌ عند ابنِ مالك وغيره، كما في ضميرِ الشأن، ومِن ذلك قوله:

هو الجَدُّ حتى تَفْضُلَ العينُ أختَها[٤]

بل نقلَ عن الفرَّاء[٥] أنَّه متى دلَّ الكلامُ على المرجع وذُكر بعدَه ما يفسِّره وإن لم يكن في حيِّز خبرِه لا يضرُّ تقدُّمه، وأنشد قوله:

---

(١) أحمد (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٤٠٨١) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٣٧.

(٣) معاني القرآن ٢/ ٢١٢.

(٤) صدر بيت للمتنبي، وعجزه:

وحتى يصيرَ اليومُ لليوم سيِّدا

وسلف عند تفسير الآية (٢٨) من سورة الأنعام.

(٥) معاني القرآن ٢/ ٢١٢.

فَلَا وأبيها لا تقولُ خليلتي ... أَلَا فَرَّ عنِّي مالكُ بنُ أبي كعبِ(١)

ونقل عنه أيضاً أنَّ «هي» ضميرُ فَصْلٍ وعمادٍ، يَصلحُ موضعه «هو»، وأنشد قوله:

بثوبٍ ودينارٍ وشاةٍ ودِرْهمٍ ... فهل هو مرفوعٌ بما هاهنا راسُ(٢)

وهذا لا يتمشَّى إلا على أحد قولي الكسائيِّ مِن إجازته تقديمَ الفَصْل مع الخبر على المبتدأ، وقول من أجاز كونه قبل خبرِه نكرةً، وذكر الثعلبيُّ أنَّ الكلامَ قد تمَّ عند قوله تعالى: «فإذا هي» أي: فإذا هي، أي: الساعةُ حاصلةٌ، أو بارزةٌ، أو واقعةٌ، ثم ابتدئ فقيل: «شاخصةٌ أبصارُ الذين كَفَروا» وهو وجه متكلَّف متنافر التركيب(٣)، وقيل: جوابُ الشرط: «اقترب» والواو سيفُ خطيب. ونقَل ذلك في «مجمع البيان»(٤) عن الفرَّاء.

ونقل عن الزجَّاج أنَّ البصريينَ لا يجوِّزون زيادةَ الواو، وأنَّ الجوابَ عندهم قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ أي: القول المقدَّر قبله، فإنَّه بتقدير: قالوا: يا ويلنا. ومَن جعل الجوابَ ما تقدَّم، قدَّر القولَ هاهنا أيضاً، وجعله حالًا مِن الموصول، يقولون أو قائلين: «يا ويلنا»، وجوّز كون جملة: يقولون: يا ويلنا، استئنافاً.

---

(١) القائل مالك بن أبي كعب الخزرجي، والبيت في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ص٢٢١، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٢٥٦، وسر الفصاحة للخفاجي ص١١٤، وتفسير القرطبي ١٤/ ٢٨٩، والأغاني ١٦/ ٢٣٨. وورد في المصادر: لعمر أبيها، بدل: فلا وأبيها. وورد في بعضها: حليلتي، وفي بعضها الآخر: ظعينتي، بدل: خليلتي.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٢، وتفسير الطبري ٢/ ٢١٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٤٠. ولم ينسبوه، وجاء قبله عند الفراء والطبري:

فأبلغ أبا يحيى إذا ما لقيتَه ... على العِيس في آباطها عَرَقٌ يَبْسُ

بأنَّ السُّلاميَّ الذي بضريَّةٍ ... أميرَ الحمى قد باع حقِّي بني عَبْسِ

وضَريَّة: أرض بنجدٍ، ويُنسب إليها حمى ضريَّة، ينزلها حاجُّ البصرة. معجم البلدان ٣/ ٤٥٧.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٤٠.

(٤) ١٧/ ٦١.

وشُخوصُ الأبصارِ: رَفْعُ أجفانِها إلى فوق مِن دون أن تَطرُف، وذلك للكفرةِ يوم القيامة مِن شدَّة الهول، وأرادوا مِن نداء الويلِ التحسُّرَ، وكأنَّهم قالوا: يا ويلنا تعالَ، فهذا أوانُ حضورِك.

﴿قَدْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ تامَّة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ الذي دَهَمنا مِن البعث والرجوع إليه عزَّ وجلَّ للجزاء، وقيل: مِن هذا اليوم، ولم نعلم أنَّه حقٌّ ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ إضرابٌ عن وَصْفِ أنفسِهم بالغفلة، أي: لم نكن في غفلة منه حيث نُبِّهنا عليه بالآيات والنُّذُر، بل كنَّا ظالمينَ بتركِ الآيات والنُّذُر، مكذِّبين بها، أو ظالمينَ لأنفسنا بتعريضِها للعذاب الخالد بالتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ خطابٌ لكفَّار مكَّة، وتصريحٌ بمآلِ أمرِهم، مع كونِه معلوماً مما سَبق على وجه الإجمال، مبالغة في الإنذار وإزاحة الأعذار، فـ «ما» عبارةٌ عن أصنامهم، والتعبير عنها بـ «ما» على بابه، لأنَّها على المشهور لما لا يَعقلُ، فلا يرد أنَّ عيسى وعُزَيراً والملائكةَ عليهم الصلاة والسلام عُبدوا مِن دونَ الله تعالى مع أنَّ الحُكم لا يشملُهم.

وشاع أنَّ عبد الله بنَ الزِّبَعْرى[1] القرشيَّ اعترضَ بذلك قبل إسلامه على رسول الله ﷺ، فقال له عليه الصلاة والسلام: «يا غلامُ ما أَجهلكَ بلغةِ قومِك، لأنِّي قلت: «وما تعبدون»، و«ما» لِمَا لَم يَعقِل، ولم أقل: «ومَن تعبدون». وتعقَّبه ابنُ حجر في «تخريج أحاديث الكشافِ»[2] بأنَّه اشتهر على ألسنةِ كثيرٍ من علماء العجم، وفي كتبهم[3]، وهو لا أصلَ له، ولم يوجد في شيءٍ مِن كتب الحديث مسنداً ولا غيرَ مسندٍ، والوضع عليه ظاهر، والعجَب ممَّن نقله من المحدِّثين. انتهى.

ويشكل على ما قلنا ما أَخرجه أبو داود في «ناسخه»، وابنُ المنذر، وابنُ مردويه، والطبرانيُّ عن ابنِ عباس، قال: لما نزل: «إنَّكم وما تعبدونَ» إلخ، شَقَّ

---

(١) جاء فوقها في الأصل: أي: سيِّئ الخلق.اهـ. منه. وخبره في تفسير أبي السعود ٦/ ٨٦.

(٢) الكافي الشاف ص١١١-١١٢، وعزا الخبرَ لابن مردويه، والواحدي [في أسباب النزول ص٣١٥] عن ابن عباس رضي الله عنهما ضمن خبر طويل.

(٣) جاء فوقها في الأصل: كشرح المواقف [للشريف الجرجاني ١/ ٢٦٧-٢٦٨] وغيره مما لا يحصى. انتهى. منه.

ذلك على أهل مكَّة، وقالوا: أتشتُم آلهتنا؟ فقال ابنُ الزِّبَعرى: أنا أخصمُ لكم محمداً، ادْعُوهُ لي، فَدُعيَ عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمَّد هذا شيءٌ لآلهتِنا خاصَّةً، أم لكلِّ مَن عُبِدَ مِن دون الله تعالى؟ قال: «بل لكلِّ مَن عُبِدَ مِن دون الله تعالى»، فقال ابنُ الزِّبَعرى: خُصِمْتَ وربِّ هذه البنيةِ ـ يعني الكعبةَ ـ ألستَ تزعمُ يا محمَّد أنَّ عيسى عبدٌ صالح، وأنَّ عُزَيراً عبدٌ صالح، وأنَّ الملائكةَ صالحون؟ قال: «بلى» قال: فهذه النصارى تعبدُ عيسى، وهذه اليهودُ تعبدُ عُزَيراً، وهذه بنو مُلَيح[1] تعبدُ الملائكةَ! فضجَّ أهلُ مكَّة وفرحوا، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] إلخ، ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧] إلخ[2]. وجاء في رواياتٍ أُخَر ما يَعضُده[3]، فإنَّ ظاهرَ ذلك أنَّ «ما» هنا شاملٌ للعقلاء وغيرِهم؟.

وأُجيبَ بأنَّ الشمولَ للعقلاء الذي ادَّعاه رسولُ الله ﷺ كان بطريق دلالة النَّصِّ؛ بجامع الشركة في المعبوديَّة مِن دون الله تعالى، فلما أشار ﷺ إلى عموم الآية بطريقِ الدلالة، اعترَض ابنُ الزِّبَعرى بما اعترض، وتوهَّم أنَّه قد بَلَغَ الغرضَ، فتولَّى اللهُ تعالى الجوابَ بنفسِه بقوله عزَّ وجلَّ: (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ) الآية.

---

(١) جاء فوقها في الأصل: بالتصغير، بطن من خزاعة. انتهى. منه.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٣٨-٣٣٩، والطبراني في الكبير (١٢٧٣٩)، وأخرجه أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٣١٥-٣١٦. وهو عند أحمد (٢٩١٨٩)، والطبري في التفسير ١٦/ ٤١٨ بنحوه.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٦٨-٦٩: رواه الطبراني، وفيه: عاصم بن بهدلة، وقد وثق، وضعَّفه جماعة.

(٣) منها ما أخرجه البزار ـ كما في الدر المنثور ٤/ ٣٣٩ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآيــة: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ ثــم نسختها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ يعني: عيسى ومن كان معه.

ومنها ما أخرجه الطبري في التفسير ١٦/ ٤١٨ عن الضحاك قال: يقول ناسٌ من الناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾: يعني مِن الناسِ أجمعين: فليس كذلك، إنما يعني مَن يُعبَد من الآلهة وهو لله مطيعٌ، مثلَ عيسى وأمِّه، وعُزَير، والملائكةِ، واستثنى الله هؤلاء من الآلهة المعبودة التي هي ومَن يعبدها في النار.

وحاصله تخصيصُ العمومِ المفهوم مِن دلالةِ النَّصِّ بما سوى الصلحاءِ الذين سبقت لهم الحسنى، فيبقى الشياطينُ الذين عُبِدوا مِن دون الله سبحانه داخلينَ في الحكم؛ بحكم دلالة النَّصِّ، فيفيد النَّصُّ بعدَ هذا التخصيصِ عبارةً ودلالةً حُكْمَ الأصنامِ والشياطين، ويندفعُ الاعتراضُ.

وقال بعضهم: إنَّ «ما» تعمُّ العقلاءَ وغيرَهم، وهو مذهبُ جمهورِ أئمَّة اللغةِ، كما قال العلَّامة الثاني في «التلويح»، ودليلُ ذلك النصُّ والإطلاقُ. والمعنى: أمَّا النصُّ بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ٣] وقوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] وقوله سبحانه: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣].

وأمَّا الإطلاق فمِن وجهين: الأوَّل: أنَّ «ما» قد تُطلقَ بمعنى «الذي» باتِّفاق أهلِ اللغة، والذي يصحُّ إطلاقُه على مَن يعقل، بدليل قولهم: الذي جاز زيد، فـ «ما» كذلك.

الثاني: أنَّه يصحُّ أن يُقال: ما في داري مِن العبيد أحرارٌ.

وأمَّا المعنى فمِن وجهين أيضاً: الأوَّل: أنَّ مشركي قريش كما جاء مِن عدَّة طرقٍ عن ابنِ عباس لما سمعوا هذه الآيةَ اعترضوا بعيسى، وعُزَير، والملائكةِ عليهم السلام، وهم مِن فُصحاء العربِ، فلو لم يفهموا العمومَ، لما اعترضوا.

الثاني: أنَّ «ما» لو كانت مختصَّةً بغيرِ العالِم، لما احتيجَ إلى قوله تعالى: «من دونِ الله»، وحيث كانت بعمومِها متناولةً له عزَّ وجلَّ، احتيج إلى التقييدِ بقوله سبحانه: «مِن دونِ الله»، وحينئذٍ تكون الآيةُ شاملةً عبادةً لأولئكَ الكرام عليهم الصلاة والسلام، ويكون الجوابُ الذي تولَّاه اللهُ تعالى بنفسِه جواباً بالتخصيص، وفي ذلك حجَّةٌ للشافعيِّ في قوله بجوازِ تخصيصِ العامِّ بكلامٍ مستقلٍّ متراخٍ، خلافاً للحنفيَّة.

وأُجيب بأنَّ ما ذُكر مِن النصوص والإطلاقات، فغايته جوازُ إطلاق «ما» على مَن يعلم، ولا يلزم مِن ذلك أن تكون ظاهرةً فيه، أو فيما يعمُّه، بل هي ظاهرةٌ في غيرِ العالم، لا سيَّما هنا؛ لأنَّ الخطابَ مع عبدةِ الأصنام، وإذا كانت ظاهرةً فيما لا يَعقِلُ، وجب تنزيلُها عليه.

وما ذُكرَ مِن الوجه الأوَّل في المعنى فليس بنصٍّ في أنَّ المعترِضِين إنَّما اعترضوا لفهمِهم العمومَ من «ما» وَضْعاً، لجواز أن يكون ذلك لفهمِهم إيَّاه مِن دلالة النصِّ كما مرَّ.

وما ذُكرَ مِن الوجه الثاني مِن عدم الاحتياج إلى قوله تعالى: «مِن دونِ الله» فإنَّما يصحُّ أنْ لو لم تكن فيه فائدةٌ، وفائدته مع التأكيد تقبيحُ ما كانوا عليه، وإن سلَّمنا أنَّ «ما» حقيقةٌ فيمَن يعقل، فلا نُسلِّم أنَّ بيانَ التخصيص لم يكن مقارناً للآية، فإنَّ دليلَ العقل صالحٌ للتخصيص، خلافاً لطائفة شاذَّة مِن المتكلِّمين، والعقل قد دلَّ على امتناع تعذيبِ أحدٍ بجرْمِ صادر مِن غيرِه، اللَّهمَّ إلا أن يكون راضياً بِجِرْمِ ذلك الغير، وأحدٌ من العقلاء لم يَخطُر بباله رضا المسيح، وعُزَيرٍ، والملائكةِ عليهم السلام بعبادة مَن عبدهم، وما مثل هذا الدليلُ العقليُّ، فلا نسلِّم عدمَ مقارنته للآية.

وأمَّا قوله تعالى: «إنَّ الذينَ سَبَقَتْ لهم منَّا الحُسنى» الآية، فإنَّما وردَ تأكيداً بضمِّ الدليل الشرعيِّ إلى الدليل العقليِّ مع الاستغناء عن أصلِه، أمَّا أن يكون هو المستقلَّ بالبيان، فلا، وعدم تعرُّضه ﷺ للدليل العقليِّ لم يكن لأنَّه لم يكن، بل لأنَّه عليه الصلاة والسلام لمَّا رآهم لم يَلتفتُوا إليه، وأَعرضوا عنه، فاعترضوا بما اعترضوا مع ظهورِه، انتظر ما يقوِّيه مِن الدليل السمعيِّ، أو لأنَّ الوحيَ سَبَقه عليه الصلاة والسلام فنزلت الآيةُ قبل أن ينبِّههم على ذلك.

وقيل: إنَّهم تعنَّتوا بنوعٍ من المجاز، فنزل ما يدفعه. وقيل: إنَّ هذا خبرٌ لا تكليفَ فيه، والاختلاف في جواز تأخيرِ البيان مخصوصٌ بما فيه تكليف، وفيه نظر.

وقال العلَّامة ابنُ الكمالِ: لا خلافَ بيننا وبين الشافعيِّ في قَصْرِ العامِّ على بعضِ ما يتناوله بكلامٍ مستقلٍّ متراخٍ، إنَّما الخلافُ في أنَّه تخصيصٌ حتى يصير العامُّ به ظنيًّا في الباقي، أو نسخٌ حتى يبقى على ما كان، فلا وجهَ للاحتجاج بقوله تعالى: «وما تعبدونَ مِن دونِ الله» لأنَّ الثابتَ به على تقدير التمام قَصْرُ العامِّ بالمتراخي، والخلاف فيما وراءَه، والدليل قاصرٌ عن بيانِه، ولا للجواب بأنَّ ما تعبدونَ لا يتناولُ عيسى، وعُزَيراً، والملائكةَ عليهم السلام، لأنَّ «ما» لغير

العقلاء، لما أنَّه على خلافِ ما عليه الجمهور، بل لأنَّهم ماعُبِدوا حقيقةً على ما أفَصحَ عنه ﷺ حين قال ابنُ الزِّبَعرى: أليسَ اليهودُ عبدوا عُزَيراً، والنصارى عبدوا المسيحَ، وبنو مُلَيْحٍ عبدوا الملائكةَ، بقوله ﷺ: «بل هم عَبَدوا الشياطين التي أَمرتهم بذلك»، فقوله تعالى «إن الذين» الآية، لدفع ذهابِ الوهم إلى التناول لهم، نظراً إلى الظاهر.

وجوابه ﷺ بذلك مما رواه ابنُ مردويه، والواحديُّ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، وفيه: فأنزلَ اللهُ تعالى: «إنَّ الذين سبقت» الآية، وعلى وَفق هذا وردَ جوابُ الملائكةِ عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] والجمع بين هذه الروايةِ والروايةِ السابقة أنَّه ﷺ بعد أن ذَكَر لابنِ الزِّبَعرى أنَّ الآيةَ عامَّةٌ لكلِّ مَن عُبِدَ مِن دونِ الله تعالى بطريق دلالةِ النصِّ. وقال ابنُ الزِّبَعرى: أليسَ اليهود.. إلخ، ذَكَر عدمَ تناولها المذكورين عليهم السلام مِن حيث إنَّهم لم يشاركوا الأصنامَ في المعبوديَّة مِن دون الله تعالى؛ لعدم أمرِهم ولا رضاهم بما كان الكفرةُ يَفعلونَ، ولعلَّ فيه رمزاً خفيًّا إلى الدليل العقليِّ على عدمِ مؤاخذتهم، ثم نزلت الآيةُ تأكيداً لعدم التناولِ، لكن لا يَخفى أنَّ هذه الروايةَ - إن صَحَّت - تقتضي أن لا تكونَ الأصنامُ معبودةً أيضاً؛ لأنَّها لم تأمُرهم بالعبادة، فلا تكون «ما» مطلقة عليها، بل على الشياطين؛ بناء على أنَّها هي الآمرةُ الراضيةُ بذلك فهي معبوداتهم، ولذا قال إبراهيمُ عليه السلام ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤] مع أنَّه كان يعبدُ الأصنامَ ظاهراً.

ووجهُ إطلاقِها عليها بناء على أنَّها ليست لذوي العقول، أنَّها أُجريت مجرى الجمادات لكُفرها، وفي قوله ﷺ: «التي أمرتهم»، دون: الذين أَمروهم، إشارةٌ إلى ذلك، ثم في عدم تناولِ الآيةِ الأصنامَ هنا مِن البُعد ما فيه، فلعلَّ هذه الروايةَ لم تَثبت، ولمولانا أبي السعود[١] كلامٌ مبناهُ خبر أنَّه ﷺ رَدَّ على ابنِ الزِّبعرى بقوله: «ما أجهلكَ بلغةِ قومك» إلخ، وقد علمتَ ما قاله الحافظ ابنُ حجر[٢] فيه،

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/٨٦.

(٢) في الكافي الشاف ص١١١-١١٢.

وهو وأمثالُه المعوَّل عليهم في أمثال ذلك، فلا ينبغي الاغترارُ بذكرِه في «إحكام» الآمديِّ، و«شرح المواقف»، و«فصول البدائع» للفناري وغير ذلك مما لا يُحصى كثرةً: فماءٌ ولا كَصَدَّاء[1]، ومرعًى ولا كالسَّعْدَان[2].

وأورد على القول بأنَّ العمومَ بدلالة النصِّ والتخصيص بما نزل بعد حديث الخلاف في التخصيص بالمستقلِّ المتراخي، ويُعلَم الجوابُ عنه ممَّا تقدَّم، وقيل هنا زيادة على ذلك: إنَّ ذلك ليس من تخصيصِ العامِّ المختلف فيه؛ لأنَّ العامَّ هناك هو اللفظُ الواحد الدالُّ على مسمَّيين فصاعداً مطلقاً معاً، وهو ظاهرٌ فيما فيه الدلالةُ عبارة، والعموم هنا إنَّما فهم مِن دلالة النصِّ، ولا يخفى أنَّ الأَمْرَ المانعَ مِن التأخير ظاهرٌ في عدم الفرق، فتدبَّر، فالمقام حريٌّ به.

والحَصَب: ما يُرمَى به وتَهيجُ به النار، مِن حَصَبه: إذا رماهُ بالحَصْباء، وهي: صغارُ الحجارة، فهو خاصٌّ وَضْعًا، عامٌّ استعمالًا. وعن ابنِ عباس أنَّه الحَطَب بالزنجيَّة.

وقرأ عليٌّ، وأبيٌّ، وعائشةُ وابنُ الزبير، وزيدُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهم: «حَطَبُ» بالطاء[3]. وقرأ ابنُ السَّمَيفع، وابنُ أبي عبلة، ومحبوبٌ، وأبو حاتم عن ابنِ كثير: «حَصْبُ» بإسكان الصاد، ورويت عن ابنِ عباس رضي الله عنهما[4]، وهو مصدرٌ وُصف به؛ للمبالغة، وفي رواية أخرى عنه أنَّه قرأ: «حَضَب» بالضادَ المعجمة المفتوحة، وجاء عنه أيضاً إسكانها، وبه قرأ كُثَيِّرُ عزَّة[5]، ومعنى الكلِّ واحدٌ، وهو معنى الحصب بالصاد.

﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ استئناف نَحْويٌّ مؤكِّد لما قَبله، أو بدلٌ مِن «حصبُ جهنَّم»، وتُبدل الجملةُ مِن المفرد، ولا يضرُّ كونه في حكم النتيجة، وجوَّز

---

(١) قال المفضَّل: صدَّاء: ركيَّة لم يكن عندهم ماءٌ أعذب من مائها. مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٧٧.

(٢) قال بعض الرواة: السعدان أخثرُ العشب لبناً، وإذا خَثَر لبنُ الراعية كان أفضلَ ما يكون وأطيبَ وأدسمَ... مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٧٥-٢٧٦.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٤٠.

(٤) المحتسب ٢/ ٦٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٤٠.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٤٠.

أبو البقاءِ[1] كونَ الجملة حالاً مِن «جهنَّم»، وهو كما ترى، واللام معوضة مِن «على»؛ للدلالة على الاختصاص، وأنَّ ورودَهم لأجلها، وهذا مبنيٌّ على أنَّ الأصلَ تعدِّي الورودِ إلى ذلك بـ «على»، كما أشار إليه في «القاموس»[2] بتفسيره بالإشراف على الماء، وهو في الاستعمال كثيرٌ، وإلا فقد قيل: إنَّه متعدٍّ بنفسِه، كما في قوله تعالى: «وَرَدُوها» فاللامُ للتقوية، لكونِ المعمول مقدَّماً، والعامل فرعيٌّ، وقيل: إنَّ اللامَ بمعنى «إلى» كمافي قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، وليس بذلك. والظاهر أنَّ الورودَ هنا ورودُ دخولٍ، والخطاب للكفرة وما يَعبدون؛ تغليباً.

﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً﴾ كما تزعمون أيُّها العابدون إيَّاها ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ وحيث تبيَّن ورودُهم إيَّاها على أتمِّ وجهٍ حيث إنَّهم حَصَبُ جهنَّم، امتنع كونُهم آلهةً بالضرورة، وهذا ظاهر في أنَّ المرادَ ممَّا يعبدون الأصنام لا الشياطين؛ لأنَّ المرادَ به إثباتُ نقيضِ ما يدَّعونه، وهم يدَّعون إلهيَّة الأصنام لا إلهيَّتها حتى يحتجَّ بورودها النارَ على عدمها، نعم الشياطينُ التي تُعبَد داخلةٌ في حكم النصِّ بطريق الدلالة، فلا تغفل.

﴿وَكُلٌّ﴾ مِن العبدةِ والمعبودين ﴿فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ باقونَ إلى الأبد ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ هو صوتُ نَفَسِ المغموم يخرجُ مِن أقصى الجوف، وأصل الزَّفْر، كما قال الراغبُ[3]: ترديدُ النَّفَسِ حتى تنتفخَ منه الضلوعُ.

والظاهر أنَّ ضميرَ «لهم» للكلِّ أعني: العبدةَ والمعبودينَ، وفيه تغليبُ العقلاءِ على غيرهم مِن الأصنام، حيث جُيءَ بضميرِ العقلاء راجعاً إلى الكلِّ، ويجري ذلك في «خالدون» أيضاً، وكذا غلَّب مَن يتأتَّى منه الزفيرُ ممَّن فيه حياةٌ على غيرِه مِن الأصنام أيضاً حيث نَسبَ الزفيرَ للجميع، وجوّز أن يَجعل اللهُ تعالى للأصنام التي عُبدَت حياةً، فيكون حالُها حالَ مَن معها، ولها ما لهم، فلا تغليبَ، وقيل: الضمير للمخاطبين في «إنَّكم» خاصَّة على سبيل الالتفاتِ، فلا حاجةَ إلى القول بالتغليب أصلاً.

---

(١) الإملاء ٤/ ١٧.

(٢) مادة (ورد).

(٣) مفرادات ألفاظ القرآن (زفر).

ورُدَّ بأنَّه يُوجب تنافرَ النظم الكريم، أَلَا ترى قولَه تعالى: «أنتم لها واردون» كيف جمعَ بينهم؛ تغليباً للمخاطبين، فلو خصَّ «لهم فيها زفير» لزمَ التفكيكُ.

وكذا الكلامُ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: لا يَسمَعُ بعضُهم زفيرَ بعضٍ؛ لشدَّة الهولِ وفظاعة العذابِ على ما قيل، وقيل: لا يَسمعونَ لونودي عليهم؛ لشدَّة زفيرِهم. وقيل: لا يسمعونَ ما يُسرُّهم مِن الكلام، إذ لا يُكلَّمون إلا بما يَكرهون، وقيل: إنَّهم يُبتَلونَ بالصَّمم حقيقةً؛ لظاهرِ قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وهو كما ترى، وذكر في حكمةِ إدخال المشركينَ النارَ مع معبوداتِهم أنَّها زيادةُ غمِّهم برؤيتهم إيَّاها معذَّبةً مثلَهم، وقد كانوا يرجونَ شفاعتها، وقيل: زيادةُ غمِّهم برؤيتها معهم وهي السبب في عذابهم، فقد قيل:

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيـ ... ـه غذاءٌ تَضْنَى به الأجسامُ[1]

وظاهرُ بعضِ الأخبار أنَّ نهايةَ المخلَّدين أنْ لا يرى بعضُهم بعضاً، فقد روى ابنُ جرير، وجماعةٌ، عن ابنِ مسعود أنَّه قال: إذا بقيَ في النار مَن يخلَّد فيها جُعلوا في توابيتَ مِن حديدٍ، فيها مساميرُ مِن حديد، ثم جُعلت تلك التوابيتُ في توابيتَ مِن حديدٍ، ثم قذفوا في أسفلِ الجحيم، فما يرى أحدُهم أنَّه يعذَّب في النار غيرُه[2]، ثم قرأ الآية: «لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون»[2]. ومنه يُعلَم قولٌ آخَرُ في «لا يسمعون»، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ أي: الخصلة المفضَّلة في الحُسْنِ وهي السعادةُ، وقيل: التوفيقُ للطاعة، والمراد مِن سبق ذلك تقديرُه في الأزَل، وقيل: الحسنى: الكلمة الحسنى، وهي المتضمِّنة للبشارة بثوابِهم وشكرِ أعمالهم، والمراد مِن سَبْق ذلك تقدُّمه في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤] وهو خلافُ الظاهر، والظاهر أنَّ المرادَ مِن الموصول كلُّ مَن اتَّصف بعنوان الصلَة، وخصوص السببِ لا يخصِّص،

---

(١) القائل: المتنبي، والبيت في ديوانه ٤/ ٢١٦، وورد فيه: تضوى، بدل: تضنى.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٣٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٤١٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٦٨ (١٣٧٣٣)، والطبراني في الكبير (٩٠٨٧)، والبيهقي في البعث والنشور (٦٥٦).

وما ذكر في بعض الآثار مِن تفسيره بعيسى وعُزَير والملائكةِ عليهم السلام، فهو مِن الاقتصار على بعضِ أفراد العامِّ حيث إنه السبب في النزول، وينبغي أن يُجعَل مِن باب الاقتصار ما أخرجه ابن أبي شيبة وغيره، عن محمَّد بنِ حاطب، عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه أنَّه فسَّر الموصولَ بعثمان وأصحابِه ﷺ[1].

وروى ابنُ أبي حاتم وجماعةٌ، عن النعمان بنِ بشير، أنَّ عليًّا ـ كرَّم الله وجهَه ـ قَرَأَ الآيَةَ فقال: أنا منهم، وعمرُ منهم، وعثمانُ منهم، والزبيرُ منهم، وطلحةُ منهم، وسعدٌ وعبدُ الرحمن منهم. كذا رأيته في «الدرِّ المنثور»[2]، ورأيت في غيرِه عدَّ العشرة المبشَّرة ﷺ.

والجاران متعلِّقان بـ «سبقت». وجوَّز أبو البقاء في الثاني كونه متعلِّقاً بمحذوفٍ وقع حالًا من «الحسنى»[3].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبار اتِّصافه بما في حيِّز الصلة، وما فيه مِن معنى البعد؛ للإيذان بعلوِّ درجتهم، وبُعْدِ منزلتِهم في الشرف والفضل. أي: أولئك المنعوتونَ بما ذُكر مِن النعت الجميل ﴿عَنْهَا﴾ أي: عن جهنَّم ﴿مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ لأنَّهم في الجنَّة، وشتانَ بينها وبين النار.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: صوتَها الذي يحسُّ مِن حركتها، والجملة بدلٌ من «مبعدون»، وجوّز أن تكون حالًا مِن ضميره، وأن تكون خبراً بعدَ خبرٍ، واستظهر كونها مؤكِّدة لما أفادته الجملةُ الأولى مِن بُعْدِهم عنها، وقيل: إنَّ الإبعادَ يكون بَعْدَ القُرب، فيفهم منه أنَّهم وَرَدوها أوَّلًا، ولما كان مظنَّةَ التأذِّي بها، دُفعَ بقوله سبحانه: «لا يسمعونَ» فهي مستأنفة لدَفْعِ ذلك، فعلى هذا يكون عدمُ سماعِ الحسيس قبلَ الدخول إلى الجنَّة، ومَن قال به قال: إنَّ ذلك حين المرورِ على الصراط، وذلك لأنَّهم ـ على ما ورد في بعض الآثار ـ يمرُّون عليها وهي خامدةٌ

(١) ابن أبي شيبة ١٢/ ٥١٠٥٢، وأحمد في فضائل الصحابة (٧٧١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢١٦)، والطبري في التفسير ١٦/ ٤١٥.

(٢) ٤/ ٣٣٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٦٩ (١٣٧٤٨)، والكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/ ٩٨٥-٩٨٦.

(٣) الإملاء ٤/ ١٧.

لا حركةَ لها حتى إنَّهم يظنُّون وهم في الجنَّة أنَّهم لم يمرُّوا عليها، وقيل: لا يسمعونَ ذلك؛ لسرعة مرورِهم، وهو ظاهرُ ما أخرجه ابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم، عن ابنِ عباس ﵄، أنَّه قال في الآية[١]: أولئك أولياءُ الله تعالى يمرُّون على الصراط مرًّا هو أسرع مِن البرقِ، فلا تصيبهم، ولا يسمعونَ حسيسَها، ويبقى الكفَّار جِثيًّا[٢]. لكن جاء في خبرٍ آخَر رواه عنه ابنُ أبي حاتم أيضاً، وابنُ جرير، أنَّه قال في «لا يسمعون» إلخ: لا يَسمعُ أهلُ الجنَّة حسيسَ النار، إذا نزلوا منازلهم في الجنَّة[٣]

وقيل: إنَّ الإبعادَ عنها قبل الدخول إلى الجنَّة أيضاً، والمراد بذلك حفظُ الله تعالى إيَّاهم عن الوقوعِ فيها، كما يقال: أَبعدَ اللهُ تعالى فلاناً عن فِعْلِ الشَّرِّ. والأظهر أنَّ كلا الأمرين بَعْدَ دخول الجنَّة، وذلك بيانٌ لخلاصِهم عن المهالك والمعاطِب.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ بيانٌ بفوزهم بالمطالب بعدَ ذلك الخلاصِ، والمرادُ أنَّهم دائمونَ في غاية التنعُّم، وتقديمُ الظرفِ؛ للقَصْر والاهتمام ورعايةِ الفواصل.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ بيانٌ لنجاتِهم من الإفزاع بالكليَّة بعد نجاتِهم مِن النار؛ لأنَّهم إذا لم يَحزُنهم أكبرُ الإفزاع، لم يَحزُنهم ما عَدَاه بالضرورة، كذا قيل، وليلاحظ ذلك مع ما جاء في الأخبار أنَّ النارَ تَزْفِرُ في الموقف زفرةً لا يبقى نبيٌّ ولا مَلَكٌ إلا جَثَا على ركبتيه[٤]، فإن قلنا: إنَّ ذلك لا ينافي عدمَ الحزن، فلا إشكالَ، وإذا قلنا: إنَّه ينافي، فهو مُشكِل، إلَّا أن يقال: إنَّ ذلك لقلّة زمانِه وسرعةِ الأمن ممَّا يترتَّب عليه، نُزِّلَ منزلة العدم، فتأمَّل.

---

(١) إلى هنا نهاية السقط في الأصل.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٦٩ (١٣٧٣٥).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٣٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٢١، ولم نقف عليه في تفسير ابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه البغدادي في تاريخ بغداد ١٢/ ٣٠٣ عن ابن عباس ﵄، وابن أبي شيبة ١٢/ ١٥١، والبغدادي في حلية الأولياء ٥/ ٣٧٣ عن كعب، وهناد في الزهد (٢٥٥) عن عبيد بن عمير بنحوه.

والفَزَع كما قال الراغبُ(١): انقباضٌ ونِفارٌ يعتري الإنسانَ مِن الشيء المُخيفِ، وهو مِن جنس الجَزَع. ويُطلقَ على الذهاب بسرعةٍ لما يَهُول.

واختلف في وقت هذا الفزعِ، فعن الحسن، وابنِ جبير، وابنِ جريج، أنَّه حينَ انصرافِ أهلِ النار إلى النار.

ونُقلَ عن الحسن أنَّه فسَّر الفَزَعَ الأكبرَ بنفسِ هذا الانصراف، فيكون الفزعُ بمعنى الذهاب المتقدِّم، وعن الضَّحَّاك أنَّه حينَ وقوعِ طَبَقِ جهنَّم عليها، وغَلْقِها على مَن فيها، وجاء ذلك في رواية ابنِ أبي الدنيا عن ابنِ عباس(٢). وقيل: حين ينادى أهلُ النار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وقيل: حين يُذبَح الموتُ بين الجنَّة والنار. وقيلَ: يوم تُطوى السماءُ. وقيل: حينَ النفخةِ الأخيرة. وأخرج ذلك ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، عن ابنِ عباس(٣). والظاهر أنَّ المرادَ بها النفخةُ للقيام مِن القبور لربِّ العالمين.

وقال في قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم بالرحمةِ عند قيامِهم مِن قبورهم. وقيل: بالسلام عليهم حينئذٍ قائلينَ: ﴿هَـٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ في الدنيا مَجيئَهُ، وتبشَّرون بما فيه لكم مِن المثوباتِ على الإيمان والطاعة.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن مجاهد أنَّه قال في الآية: تتلقَّاهم الملائكةُ الذين كانوا قرناءَهم في الدنيا يوم القيامة، فيقولون: نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا نفارقكم حتى تدخلوا الجنَّة(٤). وقيل: تتلقَّاهم عند باب الجنَّة بالهدايا أو بالسلام، والأظهر أنَّ ذلك عند القيام مِن القبور، وهو كالقرينةِ على أنَّ عدمَ الحزن حين النفخةِ الأخيرة، وظاهرُ أكثر الجمل يقتضي عدمَ دخولِ الملائكة في الموصول السابق، بل قوله تعالى: «وتتلقَّاهم» إلخ، نصٌّ في ذلك، فلعلَّ الإسنادَ في ذلك عند مَن أدرجَ الملائكةَ عليهم السلام في عموم الموصول لسبب

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (فزع).

(٢) ونقله عنه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٣٩.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٦٩ (١٣٧٤٩).

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٤٠.

النزول على سبيلِ التغليب، أو يقال: إنَّ استثناءَهم مِن العموم السابق لهذه الآية بطريقِ دلالة النصِّ، كما أنَّ دخولهم فيما قبل كان كذلك.

وقرأ أبو جعفرٍ: «لا يُحْزِنُهُم»(١) مضارعُ: أَحْزَنَ، وهي لغةُ تميم، وحَزَنَ لغةُ قريش.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ منصوبٌ بـ «اذكر»، وقيل: ظرف لـ «لا يحزنهم»، وقيل: «للفزع»، والمصدر المعرّف وإن كان ضعيفاً في العمل لا سيَّما وقد فُصلَ بينه وبين معمولِه بأجنبيٍّ إلا أنَّ الظرفَ محلُّ التوسُّع، قاله في «الكشف».

وقال الخفاجيُّ(٢): إنَّ المصدرَ الموصوفَ لا يعمل على الصحيح، وإن كان الظرفُ قد يتوسَّع فيه. وقيل: ظرف لـ «تتلقَّاهم»، وقيل: هو بدلٌ مِن العائد المحذوف مِن «توعدون» بدل كلٍّ مِن كلٍّ، وتُوهِّم أنَّه بدلُ اشتمالٍ، وقيل: حالٌ مقدَّرة مِن ذلك العائد؛ لأنَّ يومَ الطَّيِّ بعد الوعد.

وقرأ شيبة بنُ نِصَاح وجماعةٌ: «يَطوي» بالياء والبناء للفاعل(٣)، وهو الله عزَّ وجلَّ.

وقرأ أبو جعفر وأُخرى: بالتاء الفوقية والبناء للمفعول، ورفع «السماء» على النيابة(٤).

والطيُّ: ضدُّ النشر، وقيل: الإفناء والإزالة، من قولك: اِطْوِ عنِّي هذا الحديثَ. وأنكر ابنُ القيِّم(٥) إفناءَ السماءِ وإعدامَها إعداماً صِرْفاً، وادَّعى أنَّ النصوصَ إنَّما تدلُّ على تبديلها وتغييرِها مِن حالٍ إلى حال، ويبعد القولَ بالإفناء ظاهر التشبيه في قوله تعالى: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ وهو الصحيفةُ على ما أخرج ابنُ

(١) النشر ٢/ ٢٤٤.
(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٢٧٧.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٤٣، وذكرها القرطبي في التفسير ١٤/ ٢٩٦ ونسبها لمجاهد، ولم ينسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٢.
(٤) النشر ٢/ ٣٢٤.
(٥) في كتابه مفتاح دار السعادة ٢/ ٣٥.

جرير وغيرُه عن مجاهدٍ[١]، ونسبه في «مجمع البيان»[٢] إلى ابنِ عباس، وقتادة، والكلبيِّ، أيضاً. وخصَّه بعضُهم بصحيفةِ العهد، وقيل: هو في الأصل حَجَرٌ يُكتَب فيه، ثم سمِّي به كلُّ ما يُكتَب فيه مِن قِرْطاسٍ وغيرِه، والجارُّ والمجرور في موضعِ الصفة لمصدر مقدَّر، أي: طيًّا كطيِّ الصحيفة.

وقرأ أبو هريرة، وصاحبُه أبو زرعة بنُ عمرِو بنِ جرير: «السُّجُلِّ» بضمتين وشدِّ اللام[٣]. والأعمشُ، وطلحةُ، وأبو السَّمَّال: «السَّجْلِ» بفتح السين[٤]. والحسن، وعيسى بكسرِها[٥]، والجيم في هاتين القراءتين ساكنةٌ واللامُ مخفَّفة. وقال أبو عمرو[٦]: قرأ أهلُ مكّة كالحسن.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ هو حالٌ مِن «السجل» أو صفةٌ له على رأي مَن يجوِّز حذفَ الموصول مع بعضِ صلته، أي: كطيِّ السِّجلِّ كائناً للكتب، أو الكائن للكتب، فإنَّ الكُتُبِ عبارةٌ عن الصحائف وما كُتبَ فيها، فسجلُّها بعضُ أجزائها، وبه يتعلَّق الطيُّ حقيقةً.

وقرأ الأعمشُ: «للكُتْبِ» بإسكان التاء[٧]، وقرأ الأكثرُ: «للكتاب» بالإفراد[٨]، وهو إمَّا مصدرٌ واللامُ للتعليل، أي: كما يُطوى الطُّومارُ[٩] للكتابة، أي: ليكتبَ فيه، وذلك كنايةٌ عن اتِّخاذه لها ووضعه مسوًّى مطويًّا حتى إذا احتيجَ إلى الكتابة، لم يحتج إلى تسويتِه، فلا يردُ أنَّ المعهودَ نَشْرُ الطُّومارِ للكتابة لا طيُّه لها. وإمَّا اسمٌ كالإمام، فاللام كما ذكر أوَّلًا.

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٥، والدر المنثور ٤/ ٣٤٠ ونسبه أيضاً لعبد بن حميد وابن المنذر.
(٢) ١٧/ ٦٦.
(٣) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٧.
(٤) المحتسب ٢/ ٦٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٤٣.
(٥) القراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٧.
(٦) وحكاه عنه ابن جني في المحتسب ٢/ ٦٧، وأبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٣٤٣.
(٧) البحر المحيط ٦/ ٣٤٣.
(٨) قرأ حفص وحمزة والكسائي «للكتب» بالجمع، والباقون على التوحيد. التيسير ص١٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٥.
(٩) الطَّامور والطُّومار: الصحيفة، والجمع: طوامير. القاموس (طمر).

وأخرج عبدُ بنُ حميد عن عليٍّ كرَّم اللهُ تعالى وجهَه أنَّ السجلَّ اسْمُ مَلَكٍ[1]، وأخرج ذلك ابنُ أبي حاتم، وابنُ عساكر عن الباقر رضي الله عنه[2]، وأخرج ابنُ جرير، وغيرُه عن السُّدِّيِّ نحوه إلا أنَّه قال: إنَّه موكَّل بالصحف، فإذا مات الإنسانُ دفع كتابه إليه، فطواه ورَفَعه إلى يوم القيامة[3]. واللام على هذا قيل: متعلِّقة بطيّ، وقيل: سيفُ خطيب، وكونها بمعنى «على» كما ترى. واعتُرض هذا القول بأنَّه لا يَحسُن التشبيه عليه، إذ ليس المشبَّه به أقوى ولا أشهر.

وأجيبَ بأنَّه أقوى نظراً؛ لما في أذهان العامَّة من قوَّة الطاوي وضَعْفِ المُطْوَى وصِغَر حَجْمه بالنسبة للسماء، أي: نظراً لما في أذهانهم مِن مجموع الأمرين، فتأمَّل.

وأخرج أبو داود، والنسائيُّ وجماعةٌ منهم البيهقيُّ في سننه وصحَّحه عن ابنِ عباس أنَّ السجلَّ كاتبٌ للنبيِّ ﷺ[4]. وأخرج جماعةٌ عن ابنِ عمر رضي الله عنهما نحوَه[5]، وضُعِّفَ ذلك، بل قيل: إنَّه قولٌ واهٍ جدًّا؛ لأنَّه لم يُعرَف أحدٌ من الصحابة رضي الله عنهم اسمُه السجلُّ، ولا حَسُنَ التشبيهُ عليه أيضاً[6].

وأخرج النسائيُّ، وابنُ جرير، وابن أبي حاتم، وابنُ عساكر، وابنُ مردويه عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه الرجلُ. زاد ابن مَرْدَوَيْه: بلغة الحبشة[7]، ونقل ذلك عن

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٤٠.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٧٨ (٣٢٧)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤/ ٣٣٣.

(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٦٩ (١٣٧٥١).

(٤) أبو داود (٢٩٣٥)، والنسائي في الكبرى (١١٢٧٢)، والبيهقي ١٠/ ١٢٦، وأخرجه أيضاً الطبري في التفسير ١٦/ ٤٢٤.

(٥) أخرجه الخطيب البغدادي ٨/ ١٧٥، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤/ ٣٣٢-٣٣٣، وابن مردويه وابن مندة وأبو نعيم كما في فتح الباري ٨/ ٤٣٧.
قال البرقاني كما في تاريخ بغداد: قال أبو الفتح الأزدي: تفرَّد به ابن نمير، إن صحَّ. اهـ.
وردَّ هذا القولَ ابنُ حجر في الإصابة ٤/ ١٢٢ بقوله: ابن نمير من كبار الثقات، فهذا الحديث صحيح بهذه الطرق.

(٦) ينظر تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٥، وتفسير ابن كثير ٥/ ٣٨٢-٣٨٣، وفتح الباري ٨/ ٤٣٧، والإصابة ٤/ ١٢٢-١٢٣.

(٧) النسائي في الكبرى (١١٢٧٣)، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٢٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٧٠ (١٣٧٥٣)، وتاريخ مدينة دمشق ٤/ ٣٣٢، وابن مردويه كما في فتح الباري ٨/ ٤٣٧.

الزجّاج(١)، وقال بعضُهم: يمكن حملُ الروايةِ السابقة عن ابنِ عباس على هذا، والأكثر على ما قيل على تفسير السجلِّ بالصحيفة.

واختلف في أنَّه عربيٌّ أو معرَّب، فذهب البصريونَ إلى أنَّه عربيٌّ، وقال أبو الفضل الرازيُّ: الأصحُّ أنَّه فارسيٌّ معرَّب.

هذا ثم إنَّ الآيةَ نصٌّ في دُثُور السماءِ، وهو خلافُ ما شاعَ عن الفلاسفة، نعم ذكر صدرُ الدين الشيرازيُّ في كتابه «الأسفار» أنَّ مذهبَ أساطين الفلاسفةِ المتقدِّمين القولُ بالدثور، والقول بخلافِ ذلك إنَّما هو لمتأخِّريهم؛ لقصورِ أنظارهم وعدمِ صفاء ضمائرهم، فمِن الأساطين انكسيمانس الملطي قال: إنَّما ثبات هذا العالَم بقَدْر ما فيه مِن قليل نورِ ذلك العالَم، وأراد به عالَمَ المجرَّدات المحضة، وإلا، لما ثبت طرفةَ عين، ويبقى ثباتُه إلى أن يَصفى جزؤه الممتزج جُزْأَها المختلط، فإذا صفي الجزآن عند ذلك، دُثرت أجزاء هذا العالَم، وفسدت وبقيت مظلمةً، وبقيت الأنفسُ الدنسةُ في هذه الظلمة لا نورَ لها ولا سرورَ ولا راحةَ ولا سكونَ ولا سلوةَ.

ومنهم فيثاغورس نقل عنه أنَّه قيل له: لم قلتَ بإبطال العالم؟ فقال: لأنَّه يبلغ العلَّة التي مِن أجلها كان، فإذا بَلَغها سكنت حركتُه، ومنهم أفلاطون حكى الشيخ أبو الحسن العامريُّ أنَّه ذكر في كتابه المعروف: «بطيماوس» أنَّ العالَم مكوَّن، وأنَّ الباريَ تعالى قد صرفه مِن لا نظام إلى نظام، وأنَّ جواهرَه كلَّها مركَّبةٌ مِن المادَّة والصورة، وأنَّ كلَّ مركَّب معرَّض للانحلال، نعم إنَّه قال في أسولوطيقوس، أي: تدبير البدن: إنَّ العالَم أبديٌّ غيرُ مكوَّن، دائمُ البقاء، وتعلَّق بهذا أبرقلس، فبينَ كلامَيْه تنافٍ، وقد وفَّق بينهما تلميذُه أرسطوطاليس بما فيه نظرٌ، ولعلَّ الأوفقَ أن يقال على مشربهم: أرادَ بالعالَم الأبديِّ عالمَ المفارقات المحضة، ومنهم أرسطوطاليس قال في كتاب «أثولوجيا»: إنَّ الأشياءَ العقليَّة تلزم الأشياء الحسيَّة، والباري سبحانه لا يَلزم الأشياءَ الحسيَّة والعقليَّة، بل هو سبحانه ممسكٌ لجميع الأشياء غيرَ أنَّ الأشياء العقليَّة هي آنياتٌ حقيَّة؛ لأنَّها مبتَدَعةٌ مِن العلَّة الأولى بغير

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٠٦، وتحرف في المطبوع: الجيش، بدل: الحَبَش.

وسطٍ، وأمَّا الأشياء الحسِّيَّة فهي آنياتٌ دائرة؛ لأنَّها رسومُ الآنيات الحقيَّة ومثالُها، وإنَّما قوامُها ودوامُها بالكون والتناسلِ[1] كي تدوم وتبقى، تشبيهاً بالأشياء العقليَّة الثابتة الدائمة.

وقال في كتاب «الربوبية»: أبدع العقلُ صورةَ النفس مِن غير أن يتحرَّك تشبيهاً بالواحد الحقِّ، وذلك أنَّ العقلَ أبدعه الواحدُ الحقُّ وهو ساكنٌ فكذلكَ النفس أبدعها العقلُ، وهو ساكنٌ أيضاً، غير أنَّ الواحدَ الحقَّ أبدع هويَّة العقل، وأبدعَ العقلُ صورةَ النفس، ولما كانت معلولةً مِن معلول لم تَقْوَ أن تَفعَل فِعْلَها بغيرِ حركة، بل فَعَلَته بحركة وأَبدعت صنماً، وإنَّما سُمِّيَ صنماً؛ لأنَّه فعل دائر غيرُ ثابت ولا باقٍ؛ لأنه كان يحرِّكه، والحركة لا تأتي بالشيء الثابت الباقي، بل إنَّما بالشيء الدائر، وإلا لكان فِعْلُها أكرمَ منها، وهو قبيحٌ جدًّا.

وسأله بعضُ الدهريَّة: إذا كان المُبدِع لم يَزُلْ ولا شيء غيره ثم أحدث العالَم، فَلِمَ أحدثه؟ فقال: لِمَ غيرُ جائزةٍ عليه؛ لأنَّ لِمَ تقتضي عليَّةً، والعلَّة محمولة فيما هي علَّةٌ عليه مِن مُعِلٍّ فوقَه، وليس بمركَّب يتحمَّل ذاته العلل، فَلِمَ عنه منفيَّةٌ، فإنَّما فَعَلَ ما فَعَلَ؛ لأنَّه جوادٌ، فقيل: يجب أن يكون فاعلاً لم يَزُل. فقال: معنى لم يَزُل: لا أوَّل له، وفعل فاعل يقتضي أوَّلاً، واجتماع أن يكون ما لا أوَّلَ له، وذا أوَّل في القول والذات، محضٌ متناقضٌ، فقيل: فهل يُبطِل هذا العالَم؟ قال: نعم. فقيل: فإذا أَبطله بطلَ الجود؟ فقال: يبطل؛ ليصوغه الصيغة التي لا تحتمل الفسادَ؛ لأنَّ هذه الصيغة تحتملُ الفسادَ.

ومنهم فُرْفُرْيوس واضع إيساغوجي، قال: المكوَّنات كلُّها إنَّما تتكوَّن بتكوُّن الصورة على سبيل التغيُّر، وتفسد بخلوِّ الصورة، إلى غير ذلك مِن الفلاسفة وأقوالهم.

وذُكر جميع ذلك ممَّا يفضي إلى المَلَل، ومَن أراده فليرجع إلى «الأسفار» وغيره من كتب الصدر.

---

(١) جاء في هامش الأصل: قيل: أراد بالكون الوجود التدريجي على نعت الاتصال كما في الفلكيات، وبالتناسل التعاقب في الكون على نهج الانفصال كما في العنصريات من الطبائع المنتشرة الشخصيات قبل الحيوان والنبات. انتهى. منه.

والحقُّ أنَّه قد وقع في كلام متقدِّمي الفلاسفةِ كثيراً ممَّا هو ظاهر في مخالفة مدلولِ الآية الكريمة، ولا يكاد يحتمل التأويلَ، وهو مقتضى أصولهم وما يتراءى منه الموافقة، فإنَّما يتراءى منه الموافقة في الجملة، والتزامُ التوفيقِ بين ما يقوله المسلمون في أَمْرِ العالَم بأسره وما يقوله الفلاسفةُ في ذلك، كالتزام التوفيق بين الضَّبِّ والنُّونِ، بل كالتزام الجمع بين الحركة والسكون.

أيُّها المنكِحُ الثريا سُهَيلًا عَمْرَكَ الله كيفَ يلتقيان
هي شاميَّةٌ إذا ما استقلَّت وسهيلٌ إذا ما استقلَّ يماني[1]

فعليكَ بما نطق به الكتابُ المبينُ أو صحَّ عن الصادقِ الأمين ﷺ، وما عليكَ إذا خالفتَ الفلاسفةَ فأغلب ما جاؤوا به جهلٌ وَسَفَهٌ، ولعَمْري لقد ضلَّ بكلامهم كثيرٌ من الناس، وباضَ وفرَّخ في صدورهم الوسواسُ الخناسُ، وهو جعجعةٌ بلا طِحْنٍ[2]، وقَعْقَعةٌ كقَعْقَعَة شَنٍّ[3]، ولولا الضرورةُ التي لا أُبديها والعلَّة التي عزَّ مداويها لما أَضعت في درسه وتدريسِه شَرْخَ شبابي، ولما ذكرت شيئاً منه خلالَ سطورِ كتابي، هذا وأنا أسأل الله تعالى التوفيقَ للتمسُّك بحبل الحقِّ الوثيق.

ثم إنَّ الظاهرَ من الأخبار الصحيحة أنَّ العرشَ لا يُطوى كما تُطوى السماء، فإنَّ كان هو المحدّد كما يزعمه الفلاسفة ومَن تبعَ آثارهم، فعدم دثورِه بخصوصِه ممَّا صرَّح به من الفلاسفة الإسكندر الأفروديسي مِن كبار أصحابِ أرسطوطاليس وإن خالفه في بعض المسائل، ومَن حمل كلامَه على خلافِ ذلك، فقد تعسَّف وأتى بما لا يُسلَّم له، وظاهرُ الآيةِ الكريمة أيضاً مُشعِر بعدم طيِّه، للاقتصارِ فيها على طيِّ السماء، والشائعُ عدمُ إطلاقها على العرش، ثم إنَّ الطيَّ لا يختصُّ بسماءٍ دون سماءٍ بل تُطوى جميعُها؛ لقوله تعالى ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ الظاهر أنَّ الكافَ جارَّةٌ، و«ما» مصدريَّة،

---

(١) القائل عمر بن أبي ربيعة، والبيتان سلفا ٤/ ٤٣٨.
(٢) الجعجعة: صوت الرحى، وأسمعُ جعجعةً ولا أرى طحناً: يُضرَب للجبان يوعِد ولا يوقِع، وللبخيل يَعدُ ولا يُنجِز. القاموس (جعع).
(٣) الشَّنُّ: القِربة الخَلَق الصغيرة. القاموس (شنن).

والمصدر مجرورٌ بها، والجارُّ والمجرور صفةُ مصدرٍ مقدَّر، و«أوَّل» مفعولُ «بدأنا» أي: نعيدُ أوَّلَ خَلْقٍ إعادةً مثل بَدْئِنا إيَّاه، أي: في السهولة وعدم التعذُّر. وقيل: أي: في كونها إيجاداً بعد العدم، أو جمعاً مِن الأجزاء المتفرِّقة، ولا يَخفى أنَّ في كون الإعادة إيجاداً بعد العدم مطلقاً بحثاً، نعم قال اللقانيُّ: مذهبُ الأكثرين أنَّ الله سبحانه يَعدمُ الذواتِ بالكليَّة ثم يعيدها، وهو قولُ أهلِ السنة والمعتزلةِ القائلين بصحَّة الفناءِ على الأجسام، بل بوقوعه(١). وقال البدر الزركشيُّ، والآمديُّ(٢): إنَّه الصحيح.

والقولُ بأنَّ الإعادة عن تفريقٍ محضٍ قولُ الأقلِّ، وحكاه جمع بصيغة التمريض، لكن في «المواقف» وشرحه: هل يَعدِم اللهُ تعالى الأجزاءَ البدنيَّة ثم يعيدها، أو يفرِّقها ويعيد فيها التآليف؟ الحقُّ أنَّه لم يثبت في ذلك شيء، فلا جزمَ فيه نفيًا ولا إثباتاً؛ لعدم الدليل على شيء من الطرفين(٣).

وفي «الاقتصاد»(٤) لحجَّة الإسلام الغزاليِّ: فإن قيل: هل تُعدَم الجواهرُ والأعراض، ثم تعادانِ جميعاً، أو تُعدَم الأعراضُ دون الجواهر، وتعادُ الأعراض؟ قلنا: كلُّ ذلك ممكن، والحقُّ أن ليس في الشرع دليلٌ قاطع على تعيين أحدِ هذه الممكنات.

وقال بعضُهم: الحقُّ وقوعُ الأمرين جميعاً، إعادة ما انعدمَ بعينه وإعادة ما تفرَّق بأعراضه، وأنتَ تَعلم أنَّ الأخبارَ صحَّت ببقاءِ عَجْب الذَّنَب مِن الإنسان(٥)، فإعادةُ الإنسان ليست كبدئِهِ، وكذا روي: «إنَّ اللهَ تعالى عزَّ وجلَّ حرَّمَ على الأرض أجسادَ الأنبياءَ»(٦)، وهو حديث حسن عند ابنِ العربيِّ، وقال غيرهُ: صحيحٌ. وجاء نحو

---

(١) إتحاف المريد بجوهرة التوحيد لعبد السلام اللقاني ص٢٢٥.
(٢) أبكار الأفكار ٣/ ٣٦٤.
(٣) المواقف ص٣٧٣، وشرحه للجرجاني ٨/ ٢٩٧.
(٤) ص٢٠٠.
(٥) أخرج البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) عن أبي هريرة: «.... ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبْلى إلا عظماً وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يُركَّب الخَلْقُ يوم القيامة». وسلف عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الإسراء.
(٦) أخرجه أبو داود (١٠٤٧) و(١٥٣١)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٩١، وأحمد (١٦١٦٢) عن أوس بن أوس ﷺ.

ذلك في المؤذنين احتساباً وحديثهم في الطبرانيِّ، وفي حَمَلة القرآن وحديثهم عند ابنِ مندَه، وفيمَن لم يعمل خطيئةً قطُّ وحديثهم عند المروزي[1]، فلا تغفل. وكذا في كون البدء جمعاً مِن الأجزاء المتفرِّقة إن صحَّ في المركَّب مِن العناصر كالإنسان لا يصحُّ في نفس العناصر مثلًا؛ لأنَّها لم تخلق أوَّلًا مِن أجزاءٍ متفرِّقة بإجماع المسلمين، فلعلَّ ما ذكرناه في وجهِ الشبه أبعد عن القالِ والقِيْل.

واعترض جعل «أوَّل» مفعول «بدأنا»، بأنَّ تعلُّق البداءةِ بأوَّل الشيءِ المشروع فيه ركيكٌ لا يقال: بدأتُ أوَّل كذا، وإنَّما يقال: بدأتُ كذا، وذلك لأنَّ بدايةَ الشيءِ هي الشروعُ[2] فيه، والشروع[2] يلاقي الأوَّل لا محالَة، فيكون ذِكْره تكراراً، ونُظرَ فيه بأنَّ المرادَ: بدأنا ما كان أوَّلًا سابقاً في الوجود، وليس المرادُ بالأوَّل أوَّلَ الأجزاء حتى يتوهَّم ما ذُكر.

وقيل: «أوَّل خَلْقٍ» مفعولُ «نعيد» الذي يفسِّره «نعيده»، والكاف مكفوفة بـ «ما»، أي: نعيدُ أوَّل خَلْقٍ نعيدُه، وقد تمَّ الكلام بذلك، ويكون «كما بدأنا» جملة منقطعة عن ذلك، على معنى: تحقُّق ذلك مثلُ تحقُّقه، وليس المعنى على إعادةٍ مثل البدء، ومحلُّ الكاف في مثله الرفعُ على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ جيءَ به تأكيداً، والمقام يقتضيه كما يُشعر به التذنيبُ، فلا يقال: إنَّه لا داعي إلى ارتكاب خلافِ الظاهر، وتنكير «خَلْق» لإرادة التفصيل، وهو قائمٌ مقامَ الجمع في إفادة تناول الجميع، فكأنَّه قيل: نعيدُ المخلوقينَ الأوَّلين.

وجوّز أن تنصبَ الكافُ بفعل مضمَر يفسِّره «نعيده»، و«ما» موصولة، و«أول» ظرفٌ لـ «بدأنا»؛ لأنَّ الموصولَ يستدعي عائداً، فإذا قدِّر هنا يكون مفعولًا، ولـ «أوَّل» قابلية النصبِ على الظرفيَّة فينصب عليها، ويجوز أن يكون في موضع الحالِ مِن ذلك العائد، وحاصل المعنى: نعيدُ مثلَ الذي بدأناه في أوَّل خَلْقٍ، أو: كائناً أوَّل خَلْقٍ، والخَلْق على الأوَّل مصدر، وعلى الثاني بمعنى المخلوق، وجوّز كونَ «ما» موصوفة، وباقي الكلام بحاله.

---

(١) سلفت هذه الأخبار عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الإسراء.
(٢) في (م): المشروع.

وتَعقَّب أبو حيَّان[١] نصبَ الكاف، بأنَّه قولٌ باسميَّتها، وليس مذهبَ الجمهور، وإنَّما ذهب إليه الأخفشُ، ومذهب البصريينَ سواه أنَّ كونها اسماً مخصوصٌ بالشعر، وأورد نحوه على القول بأنَّ محلَّها الرفعُ في الوجه السابق، وإذا قيل بأنَّ للمكفوفة متعلَّقاً كما اختاره بعضُهم، خلافاً للرضيِّ ومَن معه، فليكن متعلَّقها خبر مبتدأٍ محذوف هناك.

ورجَّح كون المراد: نعيدُ مثلَ الذي بدأناه في أوَّل خَلْقٍ، بما أخرجه ابنُ جرير عن عائشةَ ﵂ قالت: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وعندي عجوزٌ مِن بني عامر، فقال: «مَن هذه العجوزُ يا عائشةُ»؟ فقلت: إحدى خالاتي. فقالت: ادْعُ الله تعالى أن يُدخِلني الجنَّة. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الجنَّةَ لا يَدخُلها العُجُزُ» فأَخذ العجوزَ ما أَخَذَها، فقال ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى يُنْشِئُهنَّ خَلْقاً غيرَ خلقهنَّ». ثم قال: «تُحشَرون حفاةً عراةً غُلْفاً». فقالت: حاشَ للهِ تعالى مِن ذلك؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «بلى إنَّ اللهَ تعالى قال: «كما بدأنا أول خلق نعيده»»[٢]. ومثل هذا المعنى حاصلٌ على ما جوَّزه ابنُ الحاجب مِن كون «كما بدأنا» في موضع الحال مِن ضمير «نعيده» أي: نعيدُ أوَّل خَلْقٍ مماثلًا للذي بدأناهُ، ولاتغفل عمَّا يقتضيه التشبيهُ مِن مغايرة الطرفين، وأيًّا ما كان فالمراد الإخبار بالبعث، وليست «ما» في شيء مِن الأوجه خاصَّة بالسماء، إذ ليس المعنى عليه ولا اللفظُ يساعده.

وأخرج ابنُ جريرٍ عن ابنِ عباس ﵄ أنَّ معنى الآية: نُهلكُ كلَّ شيءٍ كما كان أوَّل مرَّة[٣]، ويحتاج ذلك إلى تدبُّر، فتدبَّر.

﴿وَعۡدًا﴾ مصدرٌ منصوبٌ بفعله المحذوف؛ تأكيداً له، والجملة: مؤكِّدة لما قَبلها، أو منصوب بـ «نعيد»، لأنَّه عِدَةٌ بالإعادة، وإلى هذا ذهب الزجَّاج[٤]، واستجود الأوَّلَ الطبرسيُّ[٥] بأنَّ القرَّاء يقفون على «نعيده».

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٤٣.
(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٤٢٩.
(٣) تفسير الطبري ١٦/ ٤٣١.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٠٦.
(٥) مجمع البيان ١٧/ ٦٦.

﴿عَلَيْنَآ﴾ في موضع الصفة لـ «وعداً» أي: وَعْداً لازماً علينا، والمراد: لزمَ إنجازُه مِن غيرِ حاجةٍ إلى تكلُّفِ الاستخدام ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ ذلك بالفعل لا محالةَ، والأفعال المستقبَلة التي عَلِمَ اللهُ تعالى وقوعَها كالماضية في التحقُّق، ولذا عبّر عن المستقبل بالماضي في مواضعَ كثيرة مِن الكتاب العزيز، أو: قادرينَ على أن نفعلَ ذلك، واختاره الزمخشريُّ[(١)]، وقيل عليه: إنَّه خلافُ الظاهر.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ الظاهر أنَّه زبورُ داود عليه السلام، وروي ذلك عن الشعبيِّ. وأخرج ابنُ جريرٍ[(٢)] عن ابنِ عباس أنَّه الكُتُبُ.

والذِّكْرُ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ التوراةُ. وروي تفسيرُه بذلك عن الضحَّاك أيضاً، وقال في «الزبور»: الكتب مَن بعدِ التوراة. وأخرجَ عن ابنِ جبير أنَّ الذِّكْرَ التوراةُ، والزبورَ القرآنُ. وأخرج عن ابن زيد أنَّ الزبورَ الكُتُبُ التي أُنزلت على الأنبياء عليهم السلام، والذِّكْرَ أمُّ الكتاب الذي يُكتبَ فيه الأشياء قَبلَ ذلك، وهو اللوحُ المحفوظ كما في بعضِ الآثار، واختار تفسيرَه بذلك الزجَّاجُ[(٣)]، وإطلاقُ الذِّكْرِ عليه مجازٌ.

وقد وقع في حديث البخاريِّ[(٤)] عنه ﷺ: «كان اللهُ تعالى ولم يكن قَبلَه شيءٌ، وكان عَرْشُه على الماء، ثم خَلَق اللهُ السماواتِ والأرضَ، وكَتَبَ في الذِّكْر كلَّ شيءٍ».

وقيل: الذِّكْرُ: العِلْمُ، وهو المرادُ بأمِّ الكتاب.

وأصلُ الزبورِ: كلُّ كتابٍ غليظِ الكتابة، مِن زبرتُ الكتابَ أَزْبَر بفتح الموحَّدة وضمِّها كما في «المحكم»: إذا كتبتَه كتابةً غليظةً، وخصَّ في المشهور بالكتاب المنزَلُ على داودَ عليه السلام، وقال بعضهم: اسمٌ للكتاب المقصور على الحكمة العقليَّة دون الأحكام الشرعيَّة، ولهذا يقال للمنزَل على داود عليه السلام، إذ لا يتضمَّن شيئاً من الأحكام الشرعيَّة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٥.
(٢) تفسيرالطبري ١٦/ ٤٣٣، وفيه أثر الضحاك الآتي بعده.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٠٧، وعبارته فيه: الزبور: جميع الكتب التوراة والإنجيل والفرقان زبور؛ لأنَّ الزبورَ والكتاب بمعنى واحد.
(٤) برقم (٣١٩١) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

والظاهر أنَّه اسمٌ عربيٌّ بمعنى المزبُور، ولذا جوَّز تعلُّق «مِن بعد» به، كما جوَّز تعلُّقه بـ «كتبنا»، وقال حمزة: هو اسمٌ سريانيٌّ، وأيًّا ما كان، فإذا أُريد منه الكتبُ، كان اللامُ فيه للجنس، أي: كتبنا في جنس الزبور.

﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ أخرج ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، وغيرُهما، عن ابنِ عباسٍ أنَّ المرادَ بالأرض أرضُ الجنة(١). قال الإمام(٢): ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤] وأنَّها الأرضُ التي يختصُّ بها الصالحون؛ لأنَّها لهم خُلقَتْ، وغيرهم إذا حَصَلوا فيها فعلى وجهِ التَّبعِ، وأنَّ الآيةَ ذُكرت عقيبَ ذِكْر الإعادة، وليس بَعْدَ الإعادة أرضٌ يستقرُّ بها الصالحون ويمتنُّ بها عليهم سوى أرضِ الجنَّة، ورُوي هذا القولُ عن مجاهد، وابنِ جبير، وعكرمة، والسُّدِّيِّ، وأبي العالية، وفي رواية أخرى عن ابنِ عباس رضي الله عنهما: أنَّ المرادَ بها أرضُ الدنيا يرثُها المؤمنونَ ويستولون عليها، وهو قولُ الكلبيِّ، وأيِّد بقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

وأخرج مسلم، وأبو داود، والترمذيُّ، عن ثوبان قال: قال رسولُ الله ﷺ «إنَّ اللهَ تعالى زَوَى ليَ الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ أمَّتي سيبلغ مِلْكُها ما زُوِيَ لي منها»(٣). وهذا وعدٌ منه تعالى بإظهار الدين وإعزازِ أهله واستيلائِهم على أكثرِ المعمورة التي يَكثُر تردُّد المسافرين إليها، وإلَّا، فَمِنَ الأرضِ ما لم يَطأها المؤمنونَ كالأرض الشهيرة بالدنيا الجديدةِ وبالهند الغربيِّ.

وإن قلنا بأنَّ جميعَ ذلك يكون في حَوْزة المؤمنين أيَّام المهديِّ رضي الله عنه ونزولِ عيسى عليه السلام، فلا حاجةَ إلى ما ذُكِرَ.

وقيل: المرادُ بها الأرضُ المقدَّسة، وقيل: الشام.

ولعلَّ بقاءَ الكفَّار وحدَهم في الأرض جميعها في آخر الزمان كما صحت به

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٤٣٤-٤٣٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٧٠ (١٣٧٥٩).

(٢) الرازي في التفسير ٢٢/ ٢٢٩-٢٣٠.

(٣) مسلم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦)، وسلف عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الأنعام.

الأخبار[1] لا يضرُّ في هذه الوراثة، لما أنّ بين استقلالهم في الأرض حينئذٍ وقيامِ الساعة زمناً يسيراً لا يعتدُّ به، وقد عُدَّ ذلك مِن المبادي القريبة ليومِ القيامة.

والأَولى أن تفسَّر الأرضُ بأرض الجنَّة، كما ذهب إليه الأكثرون، وهو أوفقُ بالمقام.

ومِن الغرائب قصَّةُ تفاؤلِ السلطانِ سليم بهذه الآية حين أضمرَ محاربتَه للغوري، وبشارة ابنِ كمال له أخذاً بما رمزت إليه الآيةُ بملكه مصرَ في سنةٍ كذا، ووقوع الأمر كما بشَّر، وهي قصَّة شهيرةٌ، وذلك من الأمور الاتِّفاقيَّة ومثله لا يعوَّل عليه.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أي: فيما ذُكرَ في هذه السورة الكريمة مِن الأخبار والمواعظ البالغة، والوعد والوعيد، والبراهين القاطعة الدالَّة على التوحيد وصحَّة النبوَّة. وقيل: الإشارة إلى القرآنِ كلِّه ﴿لَبَلَٰغًا﴾ أي: كفايةً، أو سبب بلوغٍ إلى البُغية، أو نفس البلوغ إليها، على سبيل المبالغة ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: لقوم همُّهم العبادةُ دون العادة. وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الحسن أنَّهم الذين يصلُّونَ الصلواتِ الخمسَ بالجماعة[2].

وأخرج ابنُ مردويه عن ابنِ عباس أنَّ رسولَ الله ﷺ قرأ ذلك فقال: «هي الصلواتُ الخمسُ في المسجد الحرام جماعة»[3].

وضمير «هي» للعبادة المفهومة مِن «عابدين»، وقال أبو هريرة، ومحمد بنُ كعب، ومجاهد: هي الصلواتُ الخمسُ. ولم يقيِّدوا بشيءٍ، وعن كعبِ الأحبار تفسيرُها بصيام شهرِ رمضان وصلاةِ الخمس. والظاهر العمومُ، وأنَّ ما ذُكرَ مِن باب الاقتصار على بعضِ الأفراد؛ لنُكتة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ بما ذُكرَ وبأمثالِهِ مِن الشرائع والأحكام وغيرِ ذلك مما هو مناطٌ لسعادة الدارين ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ استثناءٌ مِن أعمِّ العلل، أي:

---

(١) أخرج مسلم (٢٩٤٩) عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»، وهو عند أحمد (٤١٤٤).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٧١ (١٣٧٦٣).

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٤١.

وما أرسلناك بما ذُكرَ لعلَّة مِن العلل إلا لترحم العالمينَ بإرسالكَ، أو مِن أعمِّ الأحوال، أي: وما أرسلناك في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كونك رحمةً، وذا رحمةٍ، أو راحماً لهم، ببيانِ ما أُرسلتَ به.

والظاهر أنَّ المرادَ بالعالمين ما يشمل الكفَّار، ووجهُ ذلك عليه أنَّه عليه الصلاة والسلام أُرسلَ بما هو سببٌ لسعادة الدارين ومصلحة النشأتَين إلا أنَّ الكافرَ فوَّت على نفسه الانتفاعَ بذلك وأَعرضَ؛ لفسادِ استعدادِه عمَّا هنالك، فلا يضرُّ ذلك في كونه ﷺ أُرسلَ رحمةً بالنسبة إليه أيضاً، كما لا يضرُّ في كون العين العَذْبة مثلًا نافعةً عدم انتفاعِ الكسلان بها لكَسَله، وهذا ظاهرٌ، خلافاً لمن ناقشَ فيه.

وهل يُراد بـ «العالمين» ما يشملُ الملائكة عليهم السلام أيضاً، فيه خلاف مبنيٌّ على خلاف في عمومِ بعثتِه ﷺ لهم، فإذا قلنا بالعموم كما رجَّحه مِن الشافعية البارزيُّ، وتقيُّ الدين السبكيُّ، والجلال المحلِّي في «خصائصه»، ومِن الحنابلة ابنُ تيميَّة(١)، وابنُ حامد، وابنُ مفلح في كتاب «الفروع»(٢)، ومِن المالكيَّة عبدُ الحقِّ، قلنا بشمولِ العالَمين لهم هنا. وكونه ﷺ أُرسلَ رحمةً بالنسبة إليهم؛ لأنَّه جاء عليه الصلاة والسلام أيضاً بما فيه تكليفُهم من الأوامر والنواهي، وإن لم نعلم ما هي، ولا شكَّ أنَّ في امتثالِ المكلَّف ما كُلِّفَ به نفعاً له وسعادة، وإن قلنا بعدمِ العموم، كما جزم به الحَلِيميُّ، والبيهقيُّ، والجلال المحليُّ في «شرح جمع الجوامع»(٣)، وزين الدين العراقي في «نكته على ابن الصلاح» من الشافعيَّة، ومحمود بن حمزة في كتابه: «العجائب والغرائب» من الحنفيَّة، بل نقل البرهانُ النسفيُّ، والفخرُ الرازيُّ في تفسيرَيْهما الإجماع عليه(٤)، وإن لم يُسلَّم، قلنا بعدمِ شموله لهم هنا، وإرادة مَن عداهم منه، وقيل: هم داخلونَ هنا في العموم وإن لم نقل ببعثتِه ﷺ إليهم؛ لأنَّهم وقفوا بواسطة إرسالِه عليه الصلاة والسلام على علوم جمَّة وأسرارٍ عظيمة ممَّا أودع في كتابه الذي فيه بناءُ ما كان وما يكون عبارةً وإشارةً، وأيُّ

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ١٠١-١٠٢.
(٢) ١٠/ ٣٤.
(٣) حاشية العطار على شرح جمع الجوامع ٢/ ٤٧٣، وفيه نقل كلام الحليمي والبيهقي.
(٤) تفسير النسفي ٣/ ٩١، وتفسير الرازي ٣/ ١٧.

سعادةٍ أعظمُ مِن التحلِّي بزينة العلم؟ وكونهم عليهم السلام لا يَجهلُون شيئاً ممَّا لم يذهب إليه أحدٌ من المسلمين، وقيل: لأنَّهم أظهرَ مِن فَضْلهم على لسانِه الشريف ما أظهرَ.

وقال بعضُهم: إنَّ الرحمةَ في حقِّ الكفَّار أَمْنُهم ببعثتِه ﷺ مِن الخَسْفِ والمَسْخِ والقَذْف والاسْتِئصالِ، وأخرج ذلك الطبرانيُّ، والبيهقيُّ، وجماعةٌ عن ابنِ عباس[1]، وذكرَ أنَّها في حَقِّ الملائكة عليهم السلام الأَمْنُ مِن نحو ما ابتُلي به هاروتُ وماروتُ، وأُيِّد بما ذكره صاحب «الشفا» أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجبريلَ عليه السلام: «هل أصابكَ مِن هذه الرحمة شيءٌ؟ قال: نعم، كنتُ أخشى العاقبةَ، فأَمِنْتُ لثناءِ الله تعالى عليَّ في القرآن بقوله سبحانه: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]»[2]. وإذا صحَّ هذا الحديثُ، لزم القولُ بشمول العالَمينَ للملائكة عليهم السلام إلا أنَّ الجلالَ السيوطيَّ ذكر في «تزيين الأرائك» أنَّه لم يُوقَف له على إسناد. وقيل: المرادُ بالعالمين جميعُ الخَلْق، فإنَّ العالَم ما سوى الله تعالى وصفاته جلَّ شأنه، وجُمع جَمْعَ العقلاءِ؛ تغليباً للأشرافِ على غيره.

وكونه ﷺ رحمةً للجميع باعتبار أنَّه عليه الصلاة والسلام واسطةُ الفيضِ الإلهيِّ على الممكنات على حسب القوابل، ولذا كان نورُه ﷺ أوَّلَ المخلوقات، ففي الخبر: «أوَّل ما خَلَقَ اللهُ تعالى نورَ نبيِّك يا جابرُ»[3]، وجاء: «الله تعالى المعطي وأنا القاسم»[4].

وللصوفيَّة ـ قدِّست أسرارهم ـ في هذا الفَضْل كلامٌ فوقَ ذلك، وفي «مفتاح السعادة»[5] لابنِ القيِّم أنَّه لولا النبوَّات لم يكن في العالَم عِلْمٌ نافع ألبتَةَ، ولا عملٌ

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٢٣٥٨)، ودلائل النبوة للبيهقي ٥/ ٤٨٦، وأخرجه أيضاً الطبري في التفسير ١٦/ ٤٤٠، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان ٣/ ١٦٠.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ١/ ٥٧، وقال العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٤٤٣: هذا باطل لا أصل له، كما نبَّه على ذلك جلال الدين السيوطي في كتابه المسمى بـ: ما رواه الخواصُّ في تكذيب القصاص.

(٣) سلف ١/ ٢١٢.

(٤) أخرجه البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧) (١٠٠) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٥) ٢/ ١١٨.

صالحٌ، ولا صلاحٌ في معيشة، ولا قوامٌ لمملكة، ولكان الناسُ بمنزلةِ البهائمِ والسباع العادِيَة والكلاب الضارية التي يَعْدُو بعضُها على بعض، وكلُّ خيرٍ في العالم فمِن آثارِ النبوَّة، وكلُّ شرٍّ وقع في العالَم أو سيقع، فبسبب خفاءِ آثارِ النبوَّة ودُرُوسِها، فالعالَم جسدٌ روحُه النبوَّة، ولا قيامَ للجسد بدون روحِه، ولهذا إذا انكسفت شمسُ النبوَّة مِن العالم ولم يَبْقَ في الأرض شيء مِن آثارها ألبتة، انشقَّت سماؤه، وانتشرت كواكبُه، وكوِّرت شمسُه، وخُسفَ قمرُه، ونُسفت جبالُه، وزُلزلت أرضُه، وأُهلك مَن عليها، فلا قيامَ للعالَم إلا بآثار النبوَّة. اهـ. وإذا سُلِّمَ هذا، عُلمَ منه بواسطة كونه ﷺ أكملَ النبيين وما جاء به أجلُّ ممَّا جاؤوا به عليهم السلام وإن لم يكن في الأصول اختلافُ وجهِ كونه عليه الصلاة والسلام أرسل رحمةً للعالمين أيضاً، لكن لا يخلو ذلك عن بحث.

وزعم بعضُهم أنَّ العالمينَ هنا خاصٌّ بالمؤمنين، وليس بشيءٍ، ولواحدٍ من الفضلاء كلامٌ طويل في هذه الآية الكريمة، نقضَ فيه وأبرمَ، ومنعَ وسلَّم، ولا أرى له منشأً سوى قلَّةِ الاطِّلاع على الحقِّ الحقيق بالاتِّباع، وأنت متى أخذت العنايةُ بيدِك بعد الاطِّلاع عليه، سَهُلَ عليك ردُّه ولم يهولكَ هزلُه وجِدُّه، والذي أختاره أنَّه ﷺ إنَّما بُعِثَ رحمةً لكلِّ فردٍ فردٍ مِن العالمين ملائكتِهم وإنسِهم وجنِّهم، ولا فرقَ بين المؤمن والكافر مِن الإنس والجنِّ في ذلك، والرحمة متفاوتةٌ، ولبعض مِن العالمين المعلَّى والرقيب[١] منها، وما يُرى أنَّه ليس مِن الرحمة؛ فهو إمَّا منها في النظر الدقيق، أو ليس مقصوداً بالقصد الأولى كسائر الشرورِ الواقعة في العالَم بناءً على ما حقِّق في محلِّه أنَّ الشَّرَّ ليس داخلًا في قضاء الله تعالى بالذات، وممَّا هو ظاهر في عموم العالمين الكفار ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة قال: قيلَ يا رسولَ الله: ادْعُ على المشركين: قال: «إنِّي لم أُبعَث لعَّاناً، وإنَّما بُعِثْتُ رحمةً»[٢]، ولعلَّه يؤيِّد نصبَ «رحمة» في الآية على الحالِ، كقوله ﷺ الذي أخرجه البيهقيُّ في «الدلائل» عن أبي هريرة: «إنَّما أنا رحمةٌ مهداةٌ»[٣]، ولا يشينُ احتمال

(١) سلف معناهما ٣/ ٣٨٢.

(٢) سلف ٤/ ٢٠٠.

(٣) سلف ٤/ ٦٣.

التعليلِ ما ذهب إليه الأشاعرةُ مِن عدم تعليلِ أفعاله عزَّ وجلَّ، فإنَّ الماتريديَّةَ وكذا الحنابلة ذهبوا إلى خلافِه، وردُّوه بما لا مزيدَ عليه، على أنَّه لا مانعَ مِن أن يقال فيه كما قيل في سائرِ ما ظاهرُه التعليل، ووجودُ المانع هنا توهُّم محضٌ، فتدبَّر، ثم لا يخفى أنَّ تعلق «للعالمين» بـ «رحمة» هو الظاهر.

وقال ابنُ عطيَّة[١]: يحتمل أن يتعلَّق بـ «أرسلناك». وفي «البحر»[٢]: لا يجوز على المشهور أنْ يتعلَّق الجارُّ بعد «إلَّا» بالفعل قبلها، إلا إن كان العاملُ مفرغاً له، نحو: ما مررتُ إلَّا بزيد.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ذهب جماعةٌ إلى أنَّ في الآية حصرين بناءً على أنَّ «أنَّما» المفتوحة تفيد ذلك كالمكسورة، والأوَّل لقَصْرِ الصفة على الموصوف، والثاني لقَصْر الموصوف على الصفة، فالثاني قصرَ فيه الله تعالى على الوحدانيَّة، والأول قصرَ فيه الوحي على الوحدانيَّة، والمعنى: ما يُوحَى إليَّ إلَّا اختصاصُ اللهِ تعالى بالوحدانيَّة.

واعتُرِضَ بأنَّه كيف يُقصَر الوحي على الوحدانيَّة، وقد أُوحي إليه ﷺ أمورٌ كثيرة غيرُ ذلك كالتكاليف والقصص؟.

وأُجيب بوجهين: الأوَّل: أنَّ معنى قَصْره عليه أنَّه الأصلُ الأصيل، وما عداه راجعٌ إليه أو غيرُ منظور إليه في جنبه، فهو قَصْر ادعائيٌّ.

والثاني: أنَّه قَصْرُ قَلْب بالنسبة إلى الشِّرْكِ الصادر من الكفَّار، وكذا الكلام في القَصْر الثاني.

وأنكر أبو حيَّان[٣] إفادةَ «أنَّما» المفتوحةَ الحصرَ؛ لأنَّها مؤوَّلة بمصدر واسم مفردٍ، وليست كالمكسورة المؤوَّلة بـ «ما» و«إلا»، وقال: لا نَعلمُ خلافاً في عدم إفادتِها ذلك، والخلاف إنَّما هو في إفادة «إنَّما» المكسورة إيَّاه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٣.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٤٤.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٤٤.

وأنتَ تَعلم أنَّ الزمخشريَّ[١] وأكثرَ المفسرين ذهبوا إلى إفادتها ذلك، والحقُّ مع الجماعة، ويؤيِّده هنا أنَّها بمعنى المكسورة؛ لوقوعها بعد الوحي الذي هو في معنى القول، ولأنَّها مقولةُ «قل» في الحقيقة، ولا شكَّ في إفادتها التأكيد، فإذا اقتضى المقامُ القَصْرَ كما فيما نحن فيه، انضمَّ إلى التأكيد، لكنَّه ليس بالوضع كما في المكسورة، فقد جاء ما لا يَحتمله كقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ [ص: ٢٤] ولذا فسَّره الزمخشريُّ[٢] بقوله: ابتليناه لا محالَة، مع تصريحه بالحَصْر هنا، نعم في توجيه القَصْر هنا بما سمعتَ مِن كونه قَصْر اللهِ تعالى على الوحدانيَّة ما سمعته في آخِر سورة الكهف، فتذكَّر.

وجوَّز في «ما» في «إنَّما يوحى» أن تكون موصولةً، وهو خلافُ الظاهر. وتجويزه فيما بَعْدُ بعيدٌ جدًّا موجبٌ لتكلُّفٍ لا يخفى.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: منقادونَ لما يُوحَى إليَّ من التوحيد، وهو استفهام يتضمَّن الأَمْرَ بالانقياد، وبعضُهم فسَّر الإسلامَ بلازمه، وهو إخلاصُ العبادة له تعالى، وما أشرنا إليه أَولى.

والفاء للدلالة على أنَّ ما قبلها موجبٌ لما بعدها، قالوا: فيه دلالةٌ على أنَّ صفةَ الوحدانيَّة يصحُّ أن يكون طريقها السمع؛ بخلاف إثباتِ الواجب، فإنَّ طريقَه العقلُ؛ لئلَّا يلزم الدورُ.

قال في «شرح المقاصد»[٣]: إنَّ بعثةَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصِدْقَهم لا يتوقَّف على الوحدانيَّة، فيجوز التمسُّك بالأدلَّة السمعيَّة، كإجماع الأنبياء عليهم السلام على الدعوة إلى التوحيد ونفي الشريك، وكالنصوص القطعيَّة مِن كتاب الله تعالى على ذلك، وما قيل: إنَّ التعدُّدَ يستلزم الإمكانَ لما عرفت مِن أدلة التوحيد، وما لم تعرف أنَّ اللهَ تعالى واجبُ الوجود خارجٌ عن جميع الممكنات لم يتأتَّ إثباتُ البعثة والرسالة = ليس بشيء؛ لأنَّ غايةَ استلزامِ الوجوب الوحدةُ لا استلزامُ

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٦.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٧١.
(٣) للتفتازاني ٤/ ٣٨.

معرفتِه معرفتَها، فضلًا عن التوقُّف، وسبب الغَلَط عدمُ التفرقة بين ثبوت الشيء والعلم بثبوته. انتهى.

وتفريعُ الاستفهام هنا صريحٌ في ثبوت الوحدانيَّة بما ذكر، وقول صاحب «الكشف»: إنَّ الآيةَ لا تَصلُح دليلًا لذلك؛ لأنَّه إنَّما يُوحَى إليه ﷺ ذلك مبرهناً لا على قانونِ الخطابة، فلعلَّ نزولُها كان مصحوباً بالبرهان العقليِّ ليس بشيء؛ لظهور أنَّ التفريعَ على نفس هذا الموحى، وكون نزولِه مصحوباً بالبرهان العقليِّ، والتفريع باعتباره غيرُ ظاهر.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام، ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي: أَعلمتُكم ما أُمرتُ به، أو: حربي لكم.

والإيذان: إفعالٌ مِن الإذن، وأصله العِلْم بالإجازة في شيء وترخيصه، ثم تجوِّز به عن مُطلَق العِلْم، وصيغ منه الإفعال، وكثيراً ما يتضمَّن معنى التحذير والإنذار، وهو يتعدَّى لمفعولين الثاني منهما مقدَّر كما أشير إليه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ في موضع الحال مِن المفعول الأوَّل، أي: كائنين على سواء في الإعلام بذلك، لم أخصَّ أحداً منكم دون أحدٍ. وجوِّز أن يكون في موضع الحال مِن الفاعل والمفعول معاً، أي: مستوياً أنا وأنتم في المعاداة، أو في العِلْم بما أَعلمتكم به مِن وحدانيَّة الله تعالى؛ لقيام الأدلّة عليها.

وقيل: ما أعلمهم ﷺ به يجوز أن يكون ذلك، وأن يكون وقوعُ الحرب في البينِ واستوائِهم في العِلْم بذلك جاء مِن إعلامِهم به، وهم يعلمون أنَّه عليه الصلاة والسلام الصادقُ الأمينُ، وإن كانوا يجحدونَ بعضَ ما يُخبِر به؛ عناداً، فتدبَّر.

وجوِّز أن يكون الجارُّ والمجرورُ في موضع الصفة لمصدر مقدَّر، أي: إيذاناً على سواء. وأن يكون في موضع الخبر؛ لأنَّ مقدَّره، أي: أعلمتكم أنِّي على سواء، أي: عدلٍ واستقامةِ رأي بالبرهان النيِّر، وهذا خلافُ المتبادر جدًّا.

وفي «الكشاف»[1] إنَّ قوله تعالى: «آذنتكم» إلخ، استعارةٌ تمثيليَّة، شُبِّهَ بمَن بينه

(١) للزمخشري ٢/٥٨٦.

وبين أعدائه هُدْنةٌ، فأحسَّ بغَدْرِهم فنبذَ إليهم العهدَ وشَهَرَ النَّبْذَ وأَشاعه وآذنَهُم جميعاً بذلك، وهو مِن الحُسْنِ بمكان.

﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي: مـا أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ مـن غـلـبـة المسلمينَ عليكم وظهور الدين، أو الحشرِ مع كونه آتياً لا محالةَ، والجملة في موضع نصبٍ بـ «أدري». ولم يَجيء التركيبُ: أقريب ما توعدون أم بعيدٌ؛ لرعايةَ الفواصل.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: ما تجهرونَ به مِن الطَّعْنِ في الإسلام وتكذيبِ الآيات التي مِن جملتها ما نطق بمَجيْءِ الموعود ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ من الإِحَن والأحقاد للمسلمين، فيجازيكم عليه نقيراً وقِطْميراً.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي: ما أَدري لعلَّ تأخيرَ جزائِكم[1] استدراجٌ لكم وزيادةٌ في افتتانِكم، أو امتحانٌ لكم لينظرَ كيف تعلمون، وجملة «لعلَّه» إلخ في موضع المفعول على قياس ما تقدَّم.

والكوفيُّون يُجرونَ «لعلَّ» مُجرى «هل» في كونها معلَّقة. قال أبو حيَّان[2]: ولا أَعلمُ أحداً ذهب إلى أنَّ «لعلَّ» مِن أدواتِ التعليق، وإن كان ذلك ظاهراً فيها.

وعن ابنِ عامر[3] في روايةٍ أنَّه قرأ: «أدريَ» بفتح الياء في الموضعين؛ تشبيهاً لها بياء الإضافة لفظاً، وإن كانت لامَ الفعل ولا تُفتَح إلا بعامل، وأنكر ابنُ مجاهدٍ فتحَ هذه الياء.

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ أي: وتمتيعٌ لكم وتأخيرٌ إلى أجلٍ مقدَّر تقتضيه مشيئتُه المبنيَّة على الحِكم البالغة، ليكون ذلك حجَّة عليكم. وقيل: المرادُ بالحينِ يوم بدرٍ. وقيل: يوم القيامة.

---

(١) جاء فوقها في الأصل: فالضمير لما علم من الكلام. انتهى. منه.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٤٥.

(٣) في الأصل و(م): ابن عباس، والمثبت من البحر المحيط ٦/ ٣٤٥، والكلام وما بعده منه أيضاً، والقراءة عن ابن عامرٍ - في رواية - عند ابن جني في المحتسب ٢/ ٦٨، وذكرها أيضاً العكبري في الإملاء ٤/ ٢١ دون نسبة. ولم نقف على قراءةٍ بذلك لابن عباس.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ حكايةٌ لدعائه ﷺ. وقرأ الأكثر: «قُلْ» على صيغة الأمر[1].

والحُكْم: القضاءُ. والحقُّ: العدلُ، أي: ربِّ اقْضِ بيننا وبين أهلِ مكَّة بالعدل المقتضي لتعجيل العذاب والتشديد عليهم، فهو دعاءٌ بالتعجيل والتشديد، وإلا فكلُّ قضائه تعالى عَدْلٌ وحقٌّ، وقد استُجيب ذلك حيث عُذِّبوا ببدرٍ أيَّ تعذيبٍ.

وقرأ أبو جعفرٍ: «ربُّ» بالضمِّ[2] على أنَّه منادى مفرد، كما قال صاحب «اللوامح»، وتعقَّبه بأنَّ حذفَ حرفِ النداء مِن اسمِ الجنس شاذٌّ بابُه الشِّعْرُ. وقال أبو حيَّان[3]: إنَّه ليس بمنادى مُفرَد، بل هو منادى مضافٌ إلى الياء، حُذف المضافُ إليه وبُنيَ على الضمِّ، «كقَبْلُ» و«بَعْدُ»، وذلك لغةٌ حكاها سيبويه[4] في المضاف إلى ياء المتكلِّم حالَ ندائه، ولا شذوذَ فيه.

وقرأ ابن عباس، وعكرمةُ، والجحدريُّ، وابنُ محيصن: «ربِّيْ» بياء ساكنة، «أَحْكَم» على صيغة التفضيل[5]، أي: أَنْفَذُ، أو: أعدل حكماً، أو: أعظمُ حكمة. فـ «ربِّي أَحْكَمُ»: مبتدأٌ وخبرٌ.

وقرأت فرقةٌ: «أَحْكَمَ» فعلًا ماضياً[6] ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ وخبرٌ، أي: كثيرُ الرحمة على عبادِه. وقوله سبحانه: ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: المطلوب منه العونُ، خبرٌ آخَرُ للمبتدأ. وجوِّز كونه صفة لـ «الرحمن»، بناءً على إجرائه مُجرى العلم. وإضافة الرَّبِّ فيما سَبَقَ إلى ضميرِه ﷺ خاصَّة لما أنَّ الاستعانةَ مِن الوظائف الخاصَّة به عليه الصلاة والسلام كما أنَّ إضافته هاهنا إلى ضميرِ الجمع المنتظم للمؤمنينَ أيضاً لما أنَّ الاستعانةَ مِن الوظائف العامَّة لهم.

---

(١) قرأ حفص: «قال»، وقرأ الباقون: «قُلْ». التيسير ص١٥٦، والنشر ٢/ ٣٢٥.

(٢) النشر ٢/ ٣٢٥، والقراءات الشاذة ص٩٣، والمحتسب ٢/ ٦٩، وزاد ابن خالويه نسبتها لابن كثير في رواية، ووجه القراءة في النشر على أنها لغة معروفة جائزة، وليس على أنها منادى مفرد كما نُقل عن أبي الفضل الرازي في كتابه اللوامح، وسيذكره عنه المصنِّفُ قريباً. نقله عنه أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٣٤٥، وهو الآتي قريباً.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٤٥، وما قبله منه أيضاً.

(٤) الكتاب ٢/ ١٩٩.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٤٥.

(٦) البحر المحيط ٦/ ٣٤٥، والكشاف ٢/ ٥٨٧.

﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ مِن الحال، فإنَّهم كانوا يقولون: إنَّ الشركةَ تكون لهم، وإنَّ رايةَ الإسلام تخفقُ ثم تَسكُن، وإنَّ المتوعَّد به لو كان حقًّا لنزل بهم، إلى غيرِ ذلك مما لا خيرَ فيه، فاستجابَ اللهُ عزَّ وجلَّ دعوةَ رسولِه ﷺ، فخيَّب آمالَهم، وغيَّر أحوالَهم، ونَصَرَ أولياءَه عليهم، فأصابهم يومَ بدرٍ ما أَصابهم. والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لمضمونِ ما قبله. ورويَ أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قرأ على أُبيٍّ رضي الله عنه: «يَصِفون» بياء الغيبة، ورويت عن ابنِ عامر، وعاصم[1].

هذا وفي جَعْلِ خاتمِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وما يتعلَّق به خاتمةً لسورة الأنبياءِ طِيْبٌ، كما قال الطيبيُّ يتضوَّع منه مِسْكُ الختام.

❋ ❋ ❋

ومِن بابِ الإشارة في الآيات: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ قيل: ذلك الرشدُ إيثارُ الحقِّ جلَّ شأنه على ما سِواه سبحانه، وسُئلَ الجنيدُ متى آتاه ذلك؟ فقال: حين لا متى.

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ طَلَبَ المحتاج من المحتاج سَفَهٌ في رَأْيه وضلَّة في عَقْله.

وقال حمدون القصَّار: استعانةُ الخَلْقِ بالخَلْقِ، كاستعانة المسجون بالمسجون.

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال ابنُ عطاء: كان ذلك لسلامةِ قَلْبِ إبراهيمَ عليه السلام، وخلوِّه مِن الالتفاتِ إلى الأسباب، وصحَّة توكُّله على اللهِ تعالى، ولذا قال عليه السلام حينَ قال له جبريلُ عليه السلام: أَلَكَ حاجةٌ؟ أمَّا إليك فلا.

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الفَضْلَ بيدِ الله تعالى يؤتيه مَن يشاءُ، ولا تعلُّق له بالصِّغَر والكِبَر، فكم مِن صغيرٍ هو أفضل مِن كبيرٍ بكثير.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٤٥، وقراءة ابن عامر رواها عنه ابن ذكوان كما في السبعة ص٤٣٢، والنشر ٢/ ٣٢٥، ورواية عاصم رواها عنه المفضل كما في النشر ٢/ ٣٢٥.

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا﴾ قيل: معرفةً بأحكام الربوبيَّة، «وعلماً»: معرفةً بأحكام العبوديَّة.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ قيل: كان عليه السلام يخلو في الكهوفِ لذِكْره تعالى وتسبيحِه فيشاركه في ذلك الجبالُ ويُسبِّحنَ معه، وذكر بعضُهم أنَّ الجبالَ لكونها خاليةً عن صُنْعِ الخَلق حالية بأنوارِ قُدرةِ الحقِّ يحبُّ العاشقون الخلوةَ فيه، ولذا تحنَّث ﷺ في غارِ حِراء، واختارَ كثيرٌ مِن الصالحين الانقطاعَ للعبادة فيها.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ذُكرَ أنَّه عليه السلام قال ذلك حين قصدت دودةٌ قلبَه ودودةٌ لسانَه، فخاف أن يُشغَلَ موضعُ فِكْره وموضعُ ذِكْره. وقال جعفرٌ: كان ذلك منه عليه السلام استدعاءً للجواب من الحقِّ سبحانه ليسكنَ إليه ولم يكن شكوى، وكيف يشكو المحبُّ حبيبَه، وكلُّ ما فَعَلَ المحبوبُ محبوبٌ، وقد حفظ عليه السلام آدابَ الخطاب.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قيل: إنَّ ذلك رشحةٌ مِن دَنِّ خمرِ الدَّلالِ، وذكروا أنَّ مقام الدَّلِّ دون مقام العبودية المحضة؛ لعدم فناء الإرادة فيه، ولذا نادى عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: حيث اختلجَ في سرِّي أن أُريدَ غيرَه ما أَردتُ.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ قيل: إنَّه عليه السلام أراد ولداً يصلح لأَنْ يكون محلًّا لإفشاء الأسرار الإلهيَّة إليه، فإنَّ العارفَ متى كان فرداً غيرَ واجدٍ مَن يُفشِي إليه السِّرَّ، ضاق ذَرْعُه.

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قيل: أي رغبةً فينا ورهبةً عمَّا سوانا، أو رغبةً في لقائنا ورهبةً من الاحتجاب عنَّا.

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ قال أبو يزيد: الخشوعُ: خمودُ القَلْبِ عن الدعاوى، وقيل: الفناءُ تحتَ أذيالِ العظمة ورداء الكبرياءِ.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أكثرُ الصوفيَّة قدسِّت أسرارُهم على أنَّ المرادَ مِن العالمين جميعُ الخَلْقِ وهو ﷺ رحمةٌ لكلٍّ منهم إلا أنَّ الحظوظَ متفاوتةٌ،

ويشترك الجميعُ في أنَّه عليه الصلاة والسلام سببٌ لوجودهم، بل قالوا: إنَّ العالَم كلَّه مخلوقٌ مِن نورِه ﷺ، وقد صرَّح بذلك الشيخ عبدُ الغنيِّ النابلسيُّ قدِّس سرُّه في قوله، وقد تقدَّم غيرَ مرَّة:

طَه النبيُّ تكوَّنت مِن نورِهِ كلُّ الخليقةِ ثم لو تُركَ الغَطا[1]

وأشار بقوله: لو ترك الغطا[2]، إلى وجهِ الانقسام إلى المؤمن والكافر بعد تكوُّن الجميع مِن نوره عليه الصلاة والسلام، فتأمَّل.

هذا ونسأل الله تعالى أنَ يجعلَ حظَّنا مِن رحمته الحظَّ الوافرَ، وأن يُيَسِّر لنا أمورَ الدنيا والآخِرة بلطفه المتواتر.

---

(١) في الأصل و(م): القطا. والمثبت من ديوان الشيخ عبد الغني النابلسي ٢/ ٢٤٦، وسلف ٢/ ١١٣.

(٢) في الأصل و(م): القطا. والمثبت من الديوان كما سلف آنفاً.

(٢٢) سُورة الحج مدنية وآياتها ثمان وسبعون

سورة الحج من السور المدنيَّة التي تتناول جانب التشريع « أحكامَ الحج ، وأحكام الهَدْي ، وأحكامَ القتال » وغيرها من الأحكام التشريعية ، وقد نزلت بعد سورة النور وفيها بعضُ الآيات المكية ، ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها جوُّ السور المكية ، فموضوعُ الإيمان ، والتوحيدِ ، والتخويف من الساعة ، وموضوعُ البعثِ والجزاء ، ومشاهدِ القيامة ، وآياتِ الله المنبثَّة في صفحات هذا الكون المشهود ، هو البارز في السورة حتى ليكاد الإنسان يظنها من السور المكية ، هذا إلى جانب الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال ، وحمايةِ الشعائر الدينية ، والموعدِ بنصر الله للمؤمنين ، والأمرِ بالجهاد في سبيل الله إلى غير ما هنالك من مواضيعَ هي من خصائص السور المدنية ، لقد عدَّها بعض العلماء من السور المشتركة بين المكي والمدنيّ لغلبة طابعَ السور المكية من القوة والشدة ، والعُنف والرهبة ، والتحذير والترهيب . سميت السورةُ الكريمةُ « سورة الحج » لأن الله تعالى ذكر فيها أحكام الحج ، وقصة بناء البيت العتيق ، وما قام به الخليل بعد انتهائه من بناء البيت المعظَّم ، من دعوةِ الناس إلى حَجِّ بيت الله امتثالاً لأمر ربه ، فلَّبى الناسُ دعوتَه من كل قِطرٍ من الأقطار ، القريبةِ والبعيدة ، حتى من لم يجد الظهرَ والمركب ، قطع المسافاتِ على قدميه استجابةً لنداء الخليل إبراهيم عليه السلام وإلى ذلك تشير الآياتِ الكريمة ﴿ وأَذِّنْ في الناسِ بالحجِ

يأتوكَ رجَالاً – يعني مشاةً على أقدامهم – وعَلى كلِّ ضَامِرٍ يَأْتينَ مِنْ كلِّ فجٍ عميق . ليشهدوا منافعَ لهم ويذكروا اسمَ اللهِ في أيامٍ معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثهم ولْيوفُوا نُذُورهُمْ ولْيطَّوَّفوا بالبيت العتيق﴾ روى ابن كثير أن ابراهيم عليه السلام لما انتهى من بناء البيت وأمره ربه أن ينادي الناسَ لحج بيت الله الحرام قال : يا ربِّ كيف أُبلّغُ الناس وصوتي لا يصل إليهم ! فقال يا إبراهيم : نادِ وعلينا البلاغ فقام على جبل أبي قبيس ونادى : أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه ، فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوتُ أرجاء الأرض ، وأسمعَ من في الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيءٍ سَمِعَه من حجرٍ ، ومَدَرٍ ، وشجر ، ومن كتب الله له الحج إلى يوم القيامة فأجابوا النداء « لبيك اللهمَّ لبيك » وهذا هو السرّ في اقتران التلبية بالإحرام . **تبتدىء السورة الكريمة** بمطلعٍ عنيفٍ مخيفٍ ، ترتجف لهوله القلوب ، مطلع الزلزالِ العنيف ، الذي لا يدكُ القصور والبُنيان فحسب ، بل يزيد في الهول على خيال الإنسان ، في المرضعات الذاهلات عن أطفالِهن ، والحواملِ الملقيات حملهن ، والناسِ الذين يترنحون كأنهم سكارى وما بهم شيءٌ من الخمر والسكر ، ولكنه الموقف المرهوب الذي تتزلزل له القلوب ﴿يا أيها الناسُ اتقوا ربكم إنَّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيم يوم ترونها تَذْهلُ كلُّ مرضعةٍ عمّا أَرضَعَتْ ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حملها ، وترى الناسَ سكارى وما هم بسكارى ولكنَّ عذاب الله شديد﴾ . ومن أهوال الساعة إلى أدلةِ البعثِ والنشور ، فلا بدَّ بعد هذه الحياة من دار أُخرى ينال الإنسان فيها جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرٌ ، ولن يُفلت المرء من الحساب أياً كان ، وقدرةُ اللهِ لا يُعجزها شيء ، فإن الذي خلق الإنسان من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ،

ثم سوّاه بشراً سوياً لن يَعجزه أنْ يعيده مرةً أخرى ، فكما تموت النباتات والأشجار ثم تحيا وهي مشاهدة بالعيان فكذلك الإنسان ﴿ يا أيها الناسُ إن كنتم في ريبٍ من البعث فإنا خلقناكم من ترابٍ ، ثم من نطفةٍ ، ثم من علقة ، ثم من مُضْغةٍ مُخَلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقَةٍ لنبيّنَ لكم ، ونُقِرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مُسمًّى ، ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أَشُدَّكم ، ومنكم من يُتَوَفَّى ومنكم من يُرَدُّ الى أَرْذَلِ العُمُرِ لكيلا يعلمَ من بعد علم شيئاً ، وترى الأرضَ هامدة فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّتْ ورَبَتْ وأنبتَتْ من كلِ زوجٍ بهيج . ذلك بأن اللهَ هو الحقُّ ، وأنه يُحيي الموتى ، وأنه على كل شيءٍ قدير . وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها ، وأنَّ الله يبعث من في القبور﴾ . وتتحدث السورة عن نموذجٍ من البشر يزنون العقيدة بميزان الربح والخسارة وكأنها صفقةٌ ماديةٌ في سوق التجارة ﴿ ومن الناسِ من يعبدُ اللهَ على حَرْفٍ ، فإن أصابه خيرٌ اطمأنَّ به وإنْ أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه ، خَسِرَ الدنيا والآخرةَ ذلك هو الخسران المبين﴾ ثم تتناول السورة الكريمة مشهداً من مشاهد القيامة يتجلّى فيه الهوانُ والذلُّ لفريق ، والإنعامُ والإكرامُ لفريق ، أما الفريق الأول فهم أعداء الله ، وأما الفريق الثاني فهم أولياء الله ، وكلاهما كان في الدنيا عدواً للآخر وخصماً له ﴿ هذان خصمانِ اختصموا في ربهم ، فالذين كفروا قُطِّعت لهم لهم ثيابٌ من نار، يُصَبُّ من فوق رءوسهم الحميمُ ، يُصْهرُ به ما في بطونهم والجلودُ لهم مَقَامِعُ من حديد . كلما أرادوا أنْ يَخْرجوا منها من غَمٍّ أعيدوا فيها وذُوقوا عذاب الحريق﴾ هذا هو الفريق الأول ، أما الفريق الثاني فقد جاء الحديث عنه بعد ذلك مباشرة بقوله تعالى ﴿ إنَّ الله يُدخلُ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ، يُحلَّونَ فيها من أَساوِرَ من ذَهَبٍ ولُؤْلُؤاً ولباسُهم فيها حرير﴾ ثم تناولت السورةُ مشروعية القتال في

الإسلام ، فقد أذن الله للمؤمنين بقتال الأعداء لا حباً في سفك الدماء بل دفعاً للظلم والطغيان ، وإذا كان الشر يبطش دون تحرج ولا رحمة ، فلا بدَّ للخير والحق من قوة تحميه من البطش ، وتقيه من الفتنة ، وتدفع عنه الظلم والطغيان ، ولهذا جاء الإذنُ للمؤمنين بالقتال مقروناً بالحكمة التي شُرع من أجله ﴿ أُذِنَ للذينَ يُقَاتَلُونَ بأَنهم ظُلِموا ، وإنَّ الله على نصرهم لقدير . الذينَ أُخْرِجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنَا اللهُ ، ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمتْ صوامعُ ، وَبيعٌ ، وصلواتٌ ، ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ من يَنْصُرُه إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيز . الذين إنْ مكَّنَّاهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتَوُا الزكاة ، وأَمَروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر ، ولله عاقبةُ الأمور﴾ .

وتنتقل السورة إلى الحديث عن القرى المدمَّرة بسبب ظلمها وطغيانها ، ومصارع الغابرين من المكذبين ، وذلك لبيانِ سُنَّةِ الله في الدعوات ، وتسليةً لرسول الله ﷺ عمّا يلقاه من صدٍّ وإعراض من الكافرين الجاحدين ، وتطميناً للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين ، وقد يبطىء النصر أحياناً ولكنْ لا بدَّ من تحققه على وجه اليقين ﴿ فكأيِّنْ من قريةٍ أهلكناها وهي ظالمةٌ فهي خاويةٌ على عروشها وبئرٍ معطَّلَةٍ وقصيرٍ مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها ؟ فإنها لا تَعْمى الأبصارُ ولكنْ تَعْمى القلوبُ التي في الصدور . ويستعجلونك بالعذاب ولن يُخْلف اللهُ وعدَهُ وإنَّ يوماً عند ربك كألفِ سنةٍ ممَّا يعدُّون﴾ وتضرب السورةُ مثلاً للأصنام والآلهة المزعومة بأنها أعجزُ من أن تخلق ذبابةً فضلاً عن خلقِ إنسان ، ولو سلبها الذبابُ شيئاً لما قَدَرتْ على استعادته واستردادِه ، وذلك منتهى الضعف والعجز فكيف تكون آلهة مع الله ﴿ يا أيها الناسُ ضُربَ

مثلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يَخْلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب﴾ وتختم السورة الكريمة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد ، والجهاد في الله حق جهاده ، والاعتصام بالله وحده ، وفعلِ الخير والطاعات ، وتذكّرهم بنعمة الإسلام التي هي ملةُ الخليلِ إبراهيم عليه السلام ، ركنِ التوحيد وكهفِ العقيدة والإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخيرَ لعلكم تفلحون . وجاهدوا في اللهِ حقَّ جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حَرَج ، ملةَ ابيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبلُ وفي هذا ليكون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾

سورة الحج

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ [الحج: ٨] الآية.

[٦٠٨] أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾(١) قال نزلت في النضر بن الحارث.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] الآية.

[٦٠٩] أخرج البخاري عن ابن عباس قال: كان الرجل يقدم المدينة فيسلم فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته ولداً ذكراً ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء فأنزل الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾(٢) الآية.

[٦١٠] وأخرج ابن مردويه من طريق عطية عن ابن مسعود قال: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام فقال لم أصب من ديني هذا خيراً ذهب بصري ومالي ومات ولدي فنزلت: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾(٣) الآية.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج: ١٩] الآية.

[٦١١] أخرج الشيخان وغيرهما(٤) عن أبي ذر قال: نزلت هذه الآية: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾(٥) في حمزة وعبيدة وعلي بن أبي طالب وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة.

---

[٦٠٨] (١) سورة الحج: الآية (٨).

[٦٠٩] (٢) سورة الحج: الآية (١١).

[٦١٠] (٣) سورة الحج: الآية (١١).

[٦١١] (٤) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٧٦) من طريق أبي هاشم عن أبي مجلز عن قيس بن عباد به مثله.

(٥) سورة الحج: الآية (١٩).

[٦١٢] وأخرج الحاكم(١) عن علي قال فينا نزلت هذه الآية في مبارزتنا يوم بدر: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾(٢).

[٦١٣] وأخرج من وجه آخر عنه قال: نزلت في الذين بارزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

[٦١٤] وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس: أنها نزلت في أهل الكتاب قالوا للمؤمنين نحن أولى بالله منكم وأقدم كتاباً ونبينا قبل نبيكم فقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب. وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة مثله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ﴾ [الحج: ٢٥] الآية.

[٦١٥] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال بعث النبي [ﷺ] عبدالله بن أنيس مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار فافتخروا في الأنساب فغضب عبدالله بن أنيس فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة فنزلت فيه ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾(٣) الآية.

[٦١٦] أخرج ابن جرير عن مجاهد قال كانوا لا يركبون فأنزل الله: ﴿يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾(٤) فأمرهم بالزاد ورخص لهم في الركوب والمتجر.

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ [الحج: ٣٧] الآية.

[٦١٧] أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال كان أهل الجاهلية يضمخون البيت بلحوم الإبل ودمائها فقال أصحاب النبي [ﷺ] فنحن أحق أن نضمخ فأنزل الله ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾(٥).

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] الآية.

[٦١٨] أخرج أحمد والترمذي وحسّنه والحاكم وصححه عن ابن عباس قال

---

[٦١٢] (١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٧٦) من طريق أبي مجلز عن قيس بن عباد عن علي مثله.

(٢) سورة الحج: الآية (١٨و ٢٢).

[٦١٥] (٣) سورة الحج: الآية (٢٥).

[٦١٦] (٤) سورة الحج: الآية (٢٧).

[٦١٧] (٥) سورة الحج: الآية (٣٧).

خرج النبي [ﷺ] من مكة فقال أبو بكر أخرجوا نبيهم ليهلكهن فأنزل الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ [الحج: ٥٢] الآية.

[٦١٩] أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال: قرأ النبى [ﷺ] بمكة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ - ولما بلغ - ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾(٢) ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجي فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا فنزلت: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾(٣) الآية. وأخرجه البزار وابن مردويه من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسبه وقال لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد وتفرد بوصله أمية ابن خالد وهو ثقة مشهور وأخرجه البخاري عن ابن عباس بسند فيه الواقدي وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس وأورده ابن إسحاق في السيرة عن محمد بن كعب وموسى بن عقبة عن ابن شهاب وابن جرير عن محمد بن كعب ومحمد بن قيس وابن أبي حاتم عن السدي كلهم بمعنى واحد وكلها إما ضعيفة أو منقطعة سوى طريق سعيد بن جبير الأولى قال الحافظ ابن حجر لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً مع أن لها طريقين صحيحين مرسلين أخرجهما ابن جرير أحدهما من طريق الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام والآخر من طريق داود بن أبي هند عن أبي العالية ولا عبرة بقول ابن العربي وعياض أن هذه الروايات باطلة لا أصل لها.. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٦٠] الآية.

[٦٢٠] أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنها نزلت في سرية بعثها النبي [ﷺ] فلقوا المشركين لليلتين بقيتا من المحرم فقال المشركون بعضهم لبعض قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام فناشدهم الصحابة وذكروهم بالله أن لا يعرضوا لقتالهم فإنهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام فأبى المشركون ذلك وقاتلوهم وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون ونصروا فنزلت هذه الآية.

* * *

---

[٦١٨] (١) سورة الحج: الآية (٣٩).
(٢) سورة النجم: الآية (١٩ و٢٠).
[٦١٩] (٣) سورة الحج: الآية (٥٢).

سورة الحج

سبعون وست آيات وهي مكية إلا ثلاث آيات ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ - إلى قوله - ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى أمر الناس بالتقوى فدخل فيه أن يتقي كل مُحَرَّم ويتقي ترك كل واجب، وإنما دخل فيه الأمران؛ لأن المتقي إنما يتقي ما يخافه من عذاب الله تعالى؛ فيدع لأجله المحَرَّم ويفعل لأجله الواجب، ولا يكاد يدخل فيه النوافل لأن المكلف لا يخاف بتركها العذاب، وإنما يرجو بفعلها الثواب فإذا قال: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ فالمراد اتقوا عذاب ربكم.

أما قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الزلزلة شدة حركة الشيء، قال صاحب الكشاف: ولا تخلو الساعة من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هي التي تزلزل الأشياء على المجاز الحكمي؛ فتكون الزلزلة مصدرًا مضافًا إلى فاعله، أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف وإجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣] وهي الزلزلة المذكورة في قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

المسألة الثانية: اختلفوا في وقتها فعن علقمة، والشعبي أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا، وهي التي يكون معها طلوع الشمس من مغربها. وقيل: هي التي تكون معها الساعة. وروي عن رسول الله ﷺ في حديث الصور «**إِنَّهُ قَرْنٌ عَظِيمٌ يُنفَخُ فِيهِ ثَلَاثُ نَفَخَاتٍ: نَفْخَةُ الْفَزَعِ، وَنَفْخَةُ الصَّعْقَةِ، وَنَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَإِنَّ عِندَ نَفْخَةِ الْفَزَعِ يُسَيِّرُ اللَّهُ الْجِبَالَ وَتَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ، وَتَكُونُ الْأَرْضُ كَالسَّفِينَةِ تَضْرِبُهَا الْأَمْوَاجُ، أَوْ كَالْقِنْدِيلِ الْمُعَلَّقِ تُرَجْرِجُهُ الرِّيَاحُ**»(١) وقال مقاتل وابن زيد: هذا في أول يوم من أيام الآخرة. واعلم أنه ليس في اللفظ دلالة على شيء من هذه الأقسام؛ لأن هذه الإضافة تصح وإن كانت الزلزلة قبلها، وتكون

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن راهويه في (مسنده) (١/ ٨٤/ ١٠) من طريق محمد بن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب العرفي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة... به، أبو الشيخ في (العظمة) (٣/ ٨٢١)، حديث رقم (٣٨٦) من طريق عبدة بن سليمان الرواسي حدثنا إسماعيل بن رافع، عن محمد بن يزيد، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة... به، وابن أبي الدنيا في (الأهوال) (١/ ٥٧)، حديث رقم (٥٤) من طريق محمد بن يزيد بن أبي زياد... به، الطبري في (تفسيره) (١٨/ ١٢٢) من طريق إسماعيل بن رافع العرفي، =

من أماراتها وأشراطها، وتصح إذا كانت فيها ومعها، كقولنا: آيات الساعة، وأمارات الساعة.

المسألة الثالثة: روى أن هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون، فنادى رسول الله ﷺ فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم، فلم ير باكيًا أكثر من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطوا السرج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور، والناس بين باك وجالس حزين متفكر. فقال عليه السلام: «**أَتَدْرُونَ أَيَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ هُوَ؟ قَالُوا: اللَّه وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذَلِكَ يَوْمٌ يَقُولُ اللَّه لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ وَلَدِكَ، فَيَقُولُ آدَمُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ يَعْنِي مِنْ كَمْ كَمْ؟ فَيَقُولُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى؛ فَكَبُرَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَبَكَوْا، وَقَالُوا: فَمَنْ يَنْجُو يَا رَسُولَ اللَّه؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: أَبْشِرُوا وَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ مَعَكُمْ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَا فِي قَوْمٍ إِلاَّ كَثَّرَتَاهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، ثم قال: إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرُوا، ثم قال: إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرُوا وَحَمِدُوا اللَّه، ثم قال: إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَيْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِائَةٌ وعشرون صفا ثمانون منها أُمَّتِي، وَمَا الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلاَّ كَالشَّامَةِ فِي جَنْبِ الْبَعِيرِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، ثم قال: وَيَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا إِلَى الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَقَالَ عُمَرُ: سَبْعُونَ أَلْفًا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَمَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، ادْعُ اللَّه أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: مِثْلَ قَوْلِهِ، فَقَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**» فخاض الناس في السبعين ألفًا فقال بعضهم: هم الذين ولدوا على الإسلام، وقال بعضهم: هم الذين آمنوا وجاهدوا مع رسول الله ﷺ فأخبروا رسول الله ﷺ بما قالوا فقال: «**هُمُ الَّذِينَ لاَ يَكْتَوُونَ وَلاَ يَكْوُونَ وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»(١).

المسألة الرابعة: أنه سبحانه أمر الناس بالتقوى، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها

=عن يزيد بن فلان، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة... به، وابن أبي حاتم في (التفسير) (١١/ ٢١٠) من طريق محمد بن شعيب بن شابور أنبأنا أبو رافع المديني إسماعيل بن رافع، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة... به، وابن المقرئ في (معجمه) (٣/ ١٥٢)، حديث رقم (١٠٩٠) من طريق إسماعيل بن رافع، عن محمد بن يزيد بن أبي زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة... به، والحديث مداره على محمد بن يزيد بن أبي زياد وهو مجهول وفيه أيضًا من لم يسم.

(١) **صحيح:** أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٤٢٠)، حديث رقم (٣٩٨٧) من طريق هشام، عن قتادة، عن الحسن... به، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٦٢١)، حديث رقم (٨٧٢١) من طريق سعيد، عن قتادة عن الحسن والعلاء بن زياد عن عمران بن حصين عن عبد الله بن مسعود... به، وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه بهذه السياقة، وأبو يعلى في (مسنده) (٩/ ٢٣١)، حديث رقم (٥٣٣٩) من طريق شيبان، عن قتادة، عن الحسن... به، وجاء أيضًا من طريق هشام، عن الحسن، عن عمران بن حصين... فذكره وليس فيه ابن مسعود، أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٤٣٦)، والبزار في مسنده (٩/ ٤٥)، حديث رقم (٣٥٦٥)، والروياني في (مسنده) (١/ ١٠٠)، حديث رقم (٧٤)، والطبراني في (الكبير) (١٨/ ١٦٩)، حديث رقم (٣٨٠)، جميعًا من طريق هشام عن الحسن... به.

بأهول صفة، والمعنى أن التقوى تقتضي دفع مثل هذا الضرر العظيم عن النفس، ودفع الضرر عن النفس معلوم الوجوب، فيلزم أن تكون التقوى واجبة.

المسألة الخامسة: احتجت المعتزلة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وصفها بأنها شيء مع أنها معدومة، واحتجوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] فالشيء الذي قدر الله عليه إما أن يكون موجودًا أو معدومًا، والأول محال وإلا لزم كون القادر قادرًا على إيجاد الموجود، وإذا بطل هذا ثبت أن الشيء الذي قدر الله عليه معدوم، فالمعدوم شيء. واحتجوا أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣] أطلق اسم الشيء في الحال على ما يصير مفعولاً غدًا، والذي يصير مفعولاً غدًا يكون معدومًا في الحال، فالمعدوم شيء والله أعلم، والجواب: عن الأول أن الزلزلة عبارة عن الأجسام المتحركة وهي جواهر قامت بها أعراض وتحقق ذلك في المعدوم محال، فالزلزلة يستحيل أن تكون شيئًا حال عدمها، فلا بد من التأويل بالاتفاق. ويكون المعنى أنها إذا وجدت صارت شيئًا، وهذا هو الجواب عن البواقي.

المسألة السادسة: وصف الله تعالى الزلزلة بالعظيم ولا عظيم أعظم مما عظمه الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ فهو منصوب بتذهل أي: تذهل في ذلك اليوم والضمير في ترونها يحتمل أن يرجع إلى الزلزلة، وأن يرجع إلى الساعة؛ لتقدم ذكرهما، والأقرب رجوعه إلى الزلزلة؛ لأن مشاهدتها هي التي توجب الخوف الشديد. واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر من أهوال ذلك اليوم أمورًا ثلاثة أحدها: قوله: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الأمر مع دهشة، فإن قيل: لم قال: مرضعة دون مرضع؟ قلت: المرضعة هي التي في حال الإرضاع وهي ملقمة ثديها الصبي والمرضع شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها؛ نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة، وقوله: ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن إرضاعها أو عن الذي أرضعته وهو الطفل فتكون (ما) بمعنى (من) على هذا التأويل. وثانيها: قوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ والمعنى: أنها تسقط ولدها لتمام، أو لغير تمام من هول ذلك اليوم، وهذا يدل على أن هذه الزلزلة إنما تكون قبل البعث، قال الحسن: تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام، وألقت الحوامل ما في بطونها لغير تمام، وقال القفال: يحتمل أن يقال: من ماتت حاملاً أو مرضعة تبعث حاملاً أو مرضعة تضع حملها من الفزع، ويحتمل أن يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل على جهة المثل كما قد تأول قوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

وثالثها: قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرىء (وتُري) بالضم تقول: أُريتك قائمًا، أو رأيتك قائمًا، والناس بالنصب

والرفع، أما النصب فظاهر، وأما الرفع؛ فلأنه جعل الناس اسم ما لم يسم فاعله، وأنثه على تأويل الجماعة، وقرىء: (سكرى) و(سكارى)، وهو نظير جوعى وعطشى في جوعان وعطشان، سَكارى وسُكارى نحو كسالى وعجالى، وعن الأعمش: سَكرى وسُكرى بالضم وهو غريب.

المسألة الثانية: المعنى وتراهم سكارى على التشبيه ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ على التحقيق، ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذي أذهب عقولهم وطيّر تمييزهم، وقال ابن عباس والحسن وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب، فإن قلت: لم قيل أولا: (تَرَوْنَ) ثم قيل: (تَرَى) على الإفراد؟ قلنا: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة، فجعل الناس جميعًا رائين لها، وهي معلقة آخرًا بكون الناس على حال من السكر، فلا بد وأن يجعل كل واحد منهم رائيًا لسائرهم.

المسألة الثالثة: إن قيل: أتقولون إن شدة ذلك اليوم تحصل لكل أحد، أو لأهل النار خاصة؟ قلنا: قال قوم: إن الفزع الأكبر وغيره يختص بأهل النار، وإن أهل الجنة يحشرون وهم آمنون. وقيل: بل يحصل للكل؛ لأنه سبحانه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله، وليس لأحد عليه حق.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم وجهان: **الأول:** أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها، ودعا الناس إلى تقوى الله، ثم بيَّن في هذه الآية قومًا من الناس الذين ذكروا في الأول، وأخبر عن مجادلتهم. **الثاني:** أنه تعالى بيَّن أنه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها، فإن من الناس من يجادل في الله بغير علم، ثم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وجهان: الأول: أنهم الذين ينكرون البعث، ويدل عليه قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] إلى آخر الآية. وأيضًا فإن ما قبل هذه الآية وصف البعث وما بعدها في الدلالة على البعث؛ فوجب أن يكون المراد من هذه المجادلة هو المجادلة في البعث، والثاني: أنها نزلت في النضر بن الحرث، كان يكذِّب بالقرآن ويزعم أنه أساطير الأولين، ويقول: ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية. وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

المسألة الثانية: هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة؛ لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة، فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الزخرف: ٥٨] والمجادلة الحقة هي المراد من قوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ قولان: أحدهما: يجوز أن يريد شياطين الإنس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر. والثاني: أن يكون المراد بذلك إبليس وجنوده، قال الزجاج: المريد والمارد المرتفع الأملس، يقال: صخرة مرداء أي ملساء، ويجوز أن يستعمل في غير الشيطان إذا جاوز حد مثله.

أما قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أن الكتبة عليه مثل، أي: كأنما كتب إضلال من عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله.

والثاني: كتب عليه في أم الكتاب، واعلم أن هذه الهاء بعد ذكر من يجادل وبعد ذكر الشيطان، يحتمل أن يكون راجعًا إلى كل واحد منهما، فإن رجع إلى من يجادل فإنه يرجع إلى لفظه الذي هو موحد، فكأنه قال كتب: على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه إلى النار. وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال: كتب على من هذا حاله أنه يصير أهلاً لهذا الوعيد، فإن رجع إلى الشيطان كان المعنى ويتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال. وعلى هذا الوجه أيضًا يكون زجرًا عن اتباعه **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: قال القاضي عبد الجبار: إذا قيل: المراد بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قضى عليه فلا جائز أن يرد إلا إلى من يتبع الشيطان؛ لأنه تعالى لا يجوز أن يقضي على الشيطان أنه يضل، ويجوز أن يقضي على من يقبله بقوله: قد أضله عن الجنة وهداه إلى النار. قال أصحابنا رحمهم الله: لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذبًا، وذلك محال ومستلزم المحال محال، فكان لا وقوعه محالاً.

المسألة الثانية: دلت الآية على أن المجادل في الله إن كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب، فيدل على أن المعارف ليست ضرورية.

المسألة الثالثة: قال القاضي: فيه دلالة على أن المجادلة في الله ليست من خلق الله تعالى وبإرادته، وإلا لما كانت مضافة إلى اتباع الشيطان، وكان لا يصح القول بأن الشيطان يضله، بل كان الله تعالى قد أضله، والجواب: المعارضة بمسألة العلم وبمسألة الداعي.

المسألة الرابعة: قرىء (أَنَّهُ) بالفتح والكسر، فمن فتح فلأن الأول فاعل كتب والثاني عطف عليه، ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام، كما يقول: كتبت أن الله هو الغني الحميد، أو على تقدير قيل، أو على أن كتب فيه معنى القول.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا

أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾

القراءة: قرأ الحسن (مِنَ الْبَعَثِ) بالتحريك ونظيره الحَلَب والطَرَد في الحَلْب وفي الطَرْد، و(مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) بجر التاء والراء، وقرأ ابن أبي عبلة بنصبهما القراءة المعروفة بالنون في قوله: (لِنُبَيِّنَ) وفي قوله: (وَنُقِرُّ) وفي قوله: (نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) ابن أبي عبلة بالياء في هذه الثلاثة، أما القراءة بالنون ففيها وجوه: أحدها: القراءة المشهورة، وثانيها: روى السيرافي، عن داود، عن يعقوب (ونَقُرُّ) بفتح النون وضم القاف والراء وهو من قر الماء إذا صبه، وفي رواية أخرى عنه كذلك إلا أنه بنصب الراء وثالثها: (ونقر)، و(نخرجكم) بنصب الراء والجيم، أما القراءة بالياء ففيها وجوه: أحدها: يقر ويخرجكم بفتح القاف والراء والجيم، وثانيها: يقر ويخرجكم بضم القاف والراء والجيم، وثالثها: بفتح الياء وكسر القاف وضم الراء أبو حاتم (وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى) بفتح الياء أي: يتوفاه الله تعالى ابن عمرة والأعمش (العمر) بإسكان الميم القراءة المعروفة (وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) وفي حرف عبد الله ومنكم من يتوفى ومنكم من يكون شيوخًا بغير القراءة المعروفة، وربت أبو جعفر، وربأت أي: ارتفعت، وروى العمري عنه بتليين الهمزة، وقرىء وأنه باعث.

المعاني: اعلم أنه سبحانه لما حكى عنهم الجدال بغير العلم في إثبات الحشر والنشر وذمهم عليه فهو سبحانه، أورد الدلالة على صحة ذلك من وجهين: أحدهما: الاستدلال بخلقة الحيوان أولاً، وهو موافق لما أجمله في قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] فكأنه سبحانه وتعالى قال: إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث، فتذكروا في خلقتكم الأولى؛ لتعلموا أن القادر على خلقكم أولاً قادر على خلقكم ثانيًا، ثم إنه سبحانه ذكر من مراتب الخلقة الأولى أمورًا سبعة: المرتبة الأولى: قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: إنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب؛ لقوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، والثاني: أن خلقة الإنسان من المني ودم الطمث وهما إنما يتولدان من الأغذية، والأغذية إما حيوان أو نبات، وغذاء الحيوان ينتهي قطعًا للتسلسل إلى النبات، والنبات إنما يتولد من الأرض والماء، فصح قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾. المرتبة الثانية:

قوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ والنطفة اسم للماء القليل أي ماء كان، وهو هاهنا ماء الفحل فكأنه سبحانه يقول: أنا الذي قلبت ذلك التراب اليابس ماء لطيفًا، مع أنه لا مناسبة بينهما ألبتة. المرتبة الثالثة: قوله: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ العلقة: قطعة الدم الجامدة، ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة. المرتبة الرابعة: قوله: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ فالمضغة: اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ، والمخلقة: المسواة الملساء السالمة من النقصان والعيب، يقال: خلق السواك والعود إذا سواه وملسه، من قولهم: صخرة خلقاء إذا كانت ملساء. ثم للمفسرين فيه أقوال:

احدها: أن يكون المراد مَنْ تمت فيه أحوال الخلق ومَنْ لم تتم، كأنه سبحانه قسم المضغة إلى قسمين: أحدهما: تامة الصور والحواس والتخاطيط. وثانيهما: الناقصة في هذه الأمور، فبين أن بعد أن صيره مضغة منها ما خلقه إنسانًا تامًا بلا نقص، ومنها ما ليس كذلك وهذا قول قتادة، والضحاك، فكأن الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة، منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك؛ فتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم؛ وصورهم؛ وطولهم؛ وقصرهم؛ وتمامهم؛ ونقصانهم.

وثانيها: المخلقة: الولد الذي يخرج حيًّا، وغير المخلقة: السقط، وهو قول مجاهد.

وثالثها: المخلقة: المصورة، وغير المخلقة أي: غير المصورة، وهو الذي يبقى لحمًا من غير تخطيط وتشكيل، واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله قال: «**إِذَا وَقَعَتِ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ بَعَثَ اللَّه مَلَكًا وَقَالَ: يَا رَبِّ، مُخَلَّقَةٌ أَوْ غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ، فَإِنْ قَالَ: غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ مَجَّتْهَا الْأَرْحَامُ دَمًا، وَإِنْ قَالَ: مُخَلَّقَةٌ، قَالَ: يَا رَبِّ، فَمَا صِفَتُهَا، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، مَا رِزْقُهَا، مَا أَجَلُهَا، أَشَقِيٌّ، أَمْ سَعِيدٌ؟ فَيَقُولُ اللَّه سُبْحَانَهُ: انْطَلِقْ إِلَى أُمِّ الْكِتَابِ فَاسْتَنْسِخْ مِنْهُ صِفَةَ هَذِهِ النُّطْفَةِ، فَيَنْطَلِقُ الْمَلَكُ فَيَنْسَخُهَا، فَلَا يَزَالُ مَعَهُ حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى آخِرِ صِفَتِهَا**»(١).

ورابعها: قال القفال: التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الأطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذاك هو المخلق؛ لتتابع الخلق عليه، قالوا: فما تم فهو المخلق وما لم يتم فهو غير المخلق؛ لأنه لم يتوارد عليه التخليقات. والقول الأول أقرب؛ لأنه تعالى قال في أول الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ وأشار إلى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير إنسانًا

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٨/ ٥٦٧) من طريق معاوية، عن داود بن أبي هند، عن عامر، عن علقمة، عن عبد الله... فذكره (قلت) والحديث أصله في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا، أخرجه البخاري في (صحيحه) (٣/ ١١٧٤)، حديث رقم (٣٠٢٦)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، كلاهما من طريق زيد بن وهب عن عبد الله... فذكره، ولفظه: عن زيد بن وهب قال عبد الله: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: ثم إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح... الحديث. واللفظ للبخاري.

وذلك يبعد في السقط؛ لأنه قد يكون سقطًا ولم يتكامل فيه الخلقة، فإن قيل: هلا حملتم ذلك على السقط لأجل قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ وذلك كالدلالة على أن فيه مالا يقره في الرحم وهو السقط، قلنا: إن ذلك لا يمنع من صحة ما ذكرنا في كون المضغة مخلقة وغير مخلقة؛ لأنه بعد أن تمم خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يتكامل ذلك بل فيه ما يقره الله في الرحم، وفيه مالا يقره وإن كان قد أظهر فيه خلقة الإنسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط.

أما قوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: لنبين لكم أن تغيير المضغة إلى المخلقة هو باختيار الفاعل المختار، ولولاه لما صار بعضه مخلقًا وبعضه غير مخلق.

وثانيهما: التقدير إن كنتم في ريب من البعث فإنا أخبرناكم أنا خلقناكم من كذا وكذا؛ لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب في أمر بعثكم، فإن القادر على هذه الأشياء كيف يكون عاجزًا عن الإعادة؟!

أما قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فالمراد منه من يبلغه الله تعالى حد الولادة، والأجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة أشهر، أو تسعة، أو أربع سنين أو كما شاء وقدر الله تعالى فإن كتب ذلك صار أجلاً مسمى. المرتبة الخامسة: قوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وإنما وحد الطفل؛ لأن الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل أن يخرج كل واحد منكم طفلاً كقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. المرتبة السادسة: قوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ والأشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد وكأنها شدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع، والمراد والله أعلم ثم سهل في تربيتكم وأغذيتكم أمورًا لتبلغوا أشدكم فنبه بذلك على الأحوال التي بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الأشد ويكون بين الحالتين وسائط، وذكر بعضهم أنه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الأشد واسطة حتى جوز أن يبلغ في السن ويكون طفلاً كما يكون غلامًا ثم يدخل في الأشد. المرتبة السابعة: قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ والمعنى: أن منكم من يتوفى على قوته وكماله، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر وهو الهرم والخرف؛ فيصير كما كان في أول طفوليته ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم. فإن قيل كيف قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ مع أنه يعلم بعض الأشياء كالطفل؟ قلنا: المراد أنه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيئًا؛ لأن مثل ذلك قد يذكر في النفي لأجل المبالغة، ومن الناس من قال: هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٥، ٦] وهو ضعيف؛ لأن معنى قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجري مجرى العقوبة ولذلك قال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] فهذا تمام الاستدلال بحال خلقة الحيوان على صحة البعث الوجه الثاني: الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ وهمودها يبسها وخلوها عن النبات والخضرة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ والاهتزاز الحركة على سرور فلا يكاد يقال: اهتز فلان لكيت وكيت إلا إذا كان الأمر من المحاسن والمنافع فقوله: ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي تحركت بالنبات وانتفخت.

أما قوله: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ فهو مجاز؛ لأن الأرض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك، لكنه يضاف إليها توسعًا، ومعنى ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرس، والبهجة: حسن الشيء ونضارته، والبهيج: بمعنى المبهج قال المبرد: وهو الشيء المشرق الجميل، ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أمورًا خمسة: أحدها: قوله ذلك: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ والحق هو الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع إلى أن حدوث هذه الأمراض المتنافية وتواردها على الأجسام يدل على وجود الصانع. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإله إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات. وثالثها: قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعني أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لا بد وأن يكون واجب الإنصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادرًا على جميع الممكنات ومن كان كذلك فإنه لا بد وأن يكون قادرًا على الإعادة. ورابعها: قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرًا على الإعادة في نفسها، وإذا ثبت الإمكان والصادق أخبر عن وقوعه فلا بد من القطع بوقوعه، واعلم أن تحرير هذه الدلالة على الوجه النظري أن يقال: الإعادة في نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلا بد من القطع بوقوعها، أما بيان الإمكان فالدليل عليه أن هذه الأجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات التي كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة، والباريء سبحانه عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات الممكنة وذلك يقتضي القطع بإمكان الإعادة لما قلنا إن تلك الإجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات؛ لأنها لو لم تكن قابلة لها في وقت لما كانت قابلة لها في شيء من الأوقات لأن الأمور الذاتية لا تزول، ولو لم تكن قابلة لها في شيء من الأوقات لما كانت حية عاقلة في شيء من الأوقات، لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبدًا لهذه الصفات.

وأما أن الباريء سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلأنه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالمًا بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين وقادرًا على كل الممكنات، فيكون قادرًا على إيجاد تلك الصفات في تلك الذوات. فثبت أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن. فثبت أن الإعادة ممكنة في نفسها. فإذا أخبر الصادق عن وقوعها فلا بد

من القطع بوقوعها، فهذا هو الكلام في تقرير هذا الأصل. فإن قيل: فأي منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات في هذه الدلالة؟ قلنا: إنها تدل على أنه سبحانه قادر على كل الممكنات وعالم بكل المعلومات، ومتى صح ذلك فقد صح كون الإعادة ممكنة فإن الخصم لا ينكر المعاد إلا بناء على إنكار أحد هذين الأصلين، ولذلك فإن الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث في كتابه ذكر معه كونه قادرًا عالمًا كقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]فقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ [يس: ٧٩]بيان للقدرة وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]بيان للعلم والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠ ﴾

القراءة:(ثانِيَ عِطْفِهِ) بكسر العين، الحسن وحده بفتح العين (لِيُضِلَّ) قرىء بضم الياء، وفتحها القراءة المعروفة (وَنُذِيقُهُ) بالنون وقرأ زيد بن علي أذيقه.

المعاني في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أن المراد بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]من هم؟ على وجوه: **أحدها:** قال أبو مسلم: الآية الأولى وهي قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ واردة في الأتباع المقلدين، وهذه الآية واردة في المتبوعين المقلدين، فإن كلا المجادلين جادل بغير علم وإن كان أحدهما تبعًا والآخر متبوعًا وبيَّن ذلك قوله: ﴿ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فإن مثل ذلك لا يقال في المقلد، وإنما يقال فيمن يخاصم بناء على شبهة، فإن قيل: كيف يصح ما قلتم والمقلد لا يكون مجادلاً؟ قلنا: قد يجادل تصويبًا لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة إذا تمكن منها وإن كان معتمده الأصلي هو التقليد. **وثانيها:** أن الآية الأولى نزلت في النضر بن الحرث، وهذه الآية في أبي جهل. **وثالثها:** أن هذه الآية نزلت أيضًا في النضر وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وفائدة التكرير المبالغة في الذم وأيضًا ذكر في الآية الأولى اتباعه للشيطان تقليدًا بغير حجة، وفي الثانية مجادلته في الدين وإضلاله غيره بغير حجة والوجه الأول أقرب لما تقدم.

المسألة الثانية: الآية دالة على أن الجدال مع العلم والهدى والكتاب المنير حق حسن على ما مر تقريره.

المسألة الثالثة: المراد بالعلم: العلم الضروري، وبالهدى: الاستدلال والنظر؛ لأنه يهدي إلى المعرفة وبالكتاب المنير الوحي، والمعنى أنه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا

سمعية وهو كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الحج: ٧١] وقوله: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ [الأحقاف: ٤] أما قوله: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فاعلم أن ثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد ولي الجيد وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأما القراءة بضم الياء فدلالة على أن هذا المجادل فعل الجدال وأظهر التكبر لكي يتبعه غيره فيضله عن طريق الحق فجمع بين الضلال والكفر وإضلال الغير. وأما القراءة بفتح الياء فالمعنى أنه لما أدى جداله إلى الضلال جعل كأنه غرضه، ثم إنه سبحانه وتعالى شرح حاله في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فيوم بدر روينا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهما نزلت في النضر بن الحرث وأنه قتل يوم بدر، وأما الذين لم يخصصوا هذه الآية بواحد معين قالوا: المراد بالخزي في الدنيا ما أمر المؤمنون بذمه ولعنه ومجاهدته وأما في الآخرة فقوله: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ثم بيَّن تعالى أن هذا الخزي المعجل وذلك العقاب المؤجل لأجل ما قدمت يداه، قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على مطالب: **الأول:** دلت الآية على أنه إنما وقع في ذلك العقاب بسبب عمله وفعله فلو كان فعله خلقًا لله تعالى لكان حينما خلقه الله سبحانه وتعالى استحال منه أن ينفك عنه، وحينما لا يخلقه الله تعالى استحال منه أن يتصف به، فلا يكون ذلك العقاب بسبب فعله فإذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم وذلك على خلاف النص. **الثاني:** أن قوله بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ دليل على أنه سبحانه إنما لم يكن ظالمًا بفعل ذلك العذاب لأجل أن المكلف فعل فعلاً استحق به ذلك العقاب وذلك يدل على أنه لو عاقبه لا بسبب فعل يصدر من جهته لكان ظالمًا، وهذا يدل على أنه لا يجوز تعذيب الأطفال بكفر آبائهم. **الثالث:** أنه سبحانه تمدح بأنه لا يفعل الظلم فوجب أن يكون قادرًا عليه خلاف ما يقوله النظام، وأن يصح ذلك منه خلاف ما يقوله أهل السنة. **الرابع:** وهو أن لا يجوز الاستدلال بهذه الآية على أنه تعالى لا يظلم؛ لأن عندهم صحة نبوة النبي ﷺ موقوفة على نفي الظلم فلو أثبتنا ذلك بالدليل السمعي لزم الدور والجواب: عن الكل المعارضة بالعلم والداعي.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ⑪ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ⑫ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ⑬﴾

القراءة: قرىء (خَاسِرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ) بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وفي حرف عبد الله (مَنْ ضَرُّهُ) بغير لام، واعلم أنه تعالى لما بين حال المظهرين للشرك المجادلين فيه على ما ذكرنا عقبه بذكر المنافقين فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ

عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾ وفي تفسير الحرف وجهان: الأول: ما قاله الحسن: وهو أن المرء في باب الدين معتمده القلب واللسان فهما حرفا الدين، فإذا وافق أحدهما الآخر فقد تكامل في الدين، وإذا أظهر بلسانه الدين لبعض الأغراض وفي قلبه النفاق جاز أن يقال فيه على وجه الذم: يعبد الله على حرف. الثاني: قوله: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾ أي: على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون طمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر فإن أحس بغنيمة قر واطمأن وإلا فر وطار على وجهه. وهذا هو المراد ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ لأن الثبات في الدين إنما يكون لو كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الله والخوف من عقابه، فأما إذا كان غرضه الخير المعجل فإنه يظهر الدين عند السراء ويرجع عنه عند الضراء فلا يكون إلا منافقًا مذمومًا وهو مثل قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣] وكقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: ١٤١].

المسألة الثانية: قال الكلبي: نزلت هذه الآية في أعراب كانوا يقدمون على النبي ﷺ بالمدينة مهاجرين من باديتهم، فكان أحدهم إذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرًا حسنًا وولدت امرأته غلامًا وكثر ماله وماشيته رضي به واطمأن إليه، وإن أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه[1] وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له: ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والحسن ومجاهدة وقتادة. وثانيها: وهو قول الضحاك نزلت في المؤلفة قلوبهم، منهم عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس قال بعضهم لبعض: ندخل في دين محمد فإن أصبنا خيرًا عرفنا أنه حق، وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل. وثالثها: قال أبو سعيد الخدري: (أَسْلَمَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ فَذَهَبَ بَصَرُهُ وَمَالُهُ وَوَلَدُهُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه: أَقِلْنِي فَإِنِّي لَمْ أُصِبْ مِنْ دِينِي هَذَا خَيْرًا، ذَهَبَ بَصَرِي وَوَلَدِي وَمَالِي. فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ الإِسْلاَمَ لاَ يُقَالُ، إِنَّ الإِسْلاَمَ لَيَسْبِكُ كَمَا تَسْبِكُ النَّارُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»[2] فنزلت هذه الآية.

وأما قوله: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ ففيه سؤالات: الأول: كيف قال: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ والخير أيضًا فتنة؟ لأنه امتحان وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. والجواب: مثل هذا كثير في اللغة؛ لأن النعمة بلاء وابتلاء لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥] ولكن إنما يطلق اسم البلاء على ما يثقل على الطبع، والمنافق ليس عنده الخير إلا الخير الدنيوي، وليس عنده الشر إلا الشر الدنيوي؛ لأنه لا دين له. فلذلك

---

(١) الرماك جمع رمكة وهي الفرس أنثى الحصان، أو البرذونة أنثى الحمار، تتخذ للنسل والنتاج، وتجمع على أرماك أيضًا.

(٢) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٧/ ١٢٢) من طريق محمد بن سعد قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس . . . به، (قلت): وهذا إسناد مسلسل بالعوفيين الضعفاء كلهم.

وردت الآية على ما يعتقدونه، وإن كان الخير كله فتنة، لكن أكثر ما يستعمل فيما يشتد ويثقل.

السؤال الثاني: إذا كانت الآية في المنافق فما معنى قوله: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ وهو في الحقيقة لم يسلم حتى ينقلب ويرتد؟ والجواب: المراد أنه أظهر بلسانه خلاف ما كان أظهره فصار يذم الدين عند الشدة وكان من قبل يمدحه وذلك انقلاب في الحقيقة.

السؤال الثالث: قال مقاتل: الخير هو ضد الشر فلما قال: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ كان يجب أن يقول: وإن أصابه شر انقلب على وجهه؟ الجواب: لما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى وإن أصابه شر بل وصفه بما لا يفيد فيه القبح.

أما قوله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ فذلك لأنه يخسر في الدنيا العزة والكرامة وإصابة الغنيمة وأهلية الشهادة والإمامة والقضاء ولا يبقى ماله ودمه مصونًا، وأما في الآخرة فيفوته الثواب الدائم ويحصل له العقاب الدائم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أما قوله: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ فالأقرب أنه المشرك الذي يعبد الأوثان وهذا كالدلالة على أن الآية لم ترد في اليهودي؛ لأنه ليس ممن يدعو من دون الله الأصنام، والأقرب أنها واردة في المشركين الذين انقطعوا إلى رسول الله ﷺ على وجه النفاق وبيّن تعالى أن: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾، وأراد به عظم ضلالهم وكفرهم، ويحتمل أن يعني بذلك بعد ضلالهم عن الصواب؛ لأن جميعه وإن كان يشترك في أنه خطأ فبعضه أبعد من الحق من البعض، واستعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه ضالاً وطالت وبعدت مسافة ضلاله.

أما قوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: اختلفوا في تفسيره على وجهين: أحدهما: أن المراد رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون إليهم؛ لأنه يصح منهم أن يضروا، وحجة هذا القول أن الله تعالى بيّن في الآية الأولى أن الأوثان لا تضرهم ولا تنفعهم، وهذه الآية تقتضي كون المذكور فيها ضارًا نافعًا، فلو كان المذكور في هذه الآية هو الأوثان لزم التناقض. القول الثاني: أن المراد الوثن وأجابوا عن التناقض بأمور: أحدها: أنها لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفي في إضافة الضرر إليها، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] فأضاف الإضلال إليهم من حيث كانوا سببًا للضلال، فكذا هاهنا نفي الضرر عنهم في الآية الأولى بمعنى كونها فاعلة وأضاف الضرر إليهم في هذه الآية بمعنى أن عبادتها سبب الضرر. وثانيها: كأنه سبحانه وتعالى بين في الآية الأولى أنها في الحقيقة لا تضر ولا تنفع، ثم قال في الآية الثانية: لو سلمنا كونها ضارة نافعة لكن ضررها أكثر من نفعها. وثالثها: كان الكفار إذا أنصفوا علموا أنه لا يحصل منها نفع ولا ضرر في الدنيا، ثم إنهم في الآخرة يشاهدون العذاب العظيم بسبب عبادتها، فكأنهم يقولون لها في الآخرة: إن ضرركم أعظم من نفعكم.

المسألة الثانية: اختلف النحويون في إعراب قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ﴾.

أما قوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ فالمولى: هو الولي والناصر، والعشير الصاحب والمعاشر، واعلم أن هذا الوصف بالرؤساء أليق؛ لأن ذلك لا يكاد يستعمل في الأوثان، فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله تعالى الذي يجمع خير الدنيا والآخرة إلى عبادة الأصنام وإلى طاعة الرؤساء، ثم ذم الرؤساء بقوله: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ والمراد ذم من انتصر بهم والتجأ إليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين في الآية السابقة حال عبادة المنافقين وحال معبودهم، بيَّن في هذه الآية صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم، أما عبادتهم فقد كانت على الطريق الذي لا يمكن صوابه، وأما معبودهم فلا يضر ولا ينفع. وأما المؤمنون فعبادتهم حقيقية ومعبودهم يعطيهم أعظم المنافع وهو الجنة، ثم بيَّن كمال الجنة التي تجمع بين الزرع والشجر وأن تجري من تحتها الأنهار وبيَّن تعالى أنه يفعل ما يريد بهم من أنواع الفضل والإحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣] واحتج أصحابنا في خلق الأفعال بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ قالوا: أجمعنا على أنه سبحانه يريد الإيمان ولفظة (ما) للعموم فوجب أن يكون فاعلاً للإيمان لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؟ أجاب الكعبي عنه بأن الله تعالى يفعل ما يريد أن يفعله لا ما يريد أن يفعله غيره. والجواب: أن قوله ﴿مَا يُرِيدُ﴾ أعم من قولنا ما يريد أن يفعله ومن قولنا ما يريد أن يفعله غيره فالتقييد خلاف النص.

أما قوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فالهاء إلى ماذا يرجع؟ فيه وجهان: الأول: وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي، واختيار الفراء والزجاج أنه يرجع إلى محمد ﷺ يريد أن من ظن أن لن ينصر الله محمدًا ﷺ في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول ﷺ وإن لم يجر له ذكر في الآية ففيها ما يدل عليه وهو ذكر الإيمان في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والإيمان لا يتم إلا بالله ورسوله فيجب البحث هاهنا عن أمرين: أحدهما: أنه من الذي كان يظن أن الله تعالى لا ينصر محمدًا ﷺ؟ والثاني: أنه ما معنى قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾؟

أما البحث الأول: فذكروا فيه وجوهًا: أحدها: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت هذه الآية. وثانيها: قال مقاتل: نزلت في نفر من أسد وغطفان قالوا: نخاف أن الله لا ينصر محمدًا فينقطع الذي بيننا وبين

حلفائنا من اليهود فلا يميروننا. وثالثها: أن حساده وأعداءه كانوا يتوقعون أن لا ينصره الله وأن لا يعليه على أعدائه، فمتى شاهدوا أن الله نصره غاظهم ذلك.

وأما البحث الثاني: فاعلم أن في لفظ السبب قولين: أحدهما: أنه الحبل وهؤلاء اختلفوا في السماء فمنهم من قال: هو سماء البيت، ومنهم من قال: هو السماء في الحقيقة، فقالوا المعنى: من كان يظن أن لن ينصره الله، ثم يغيظه أنه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه في إزالة ما يغيظه بأن يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلاً إلى سماء بيته فاختنق، فلينظر أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه. وعلى هذا القول اختلفوا في القطع فقال بعضهم: سمى الاختناق قطعًا؛ لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه، وسمى فعله كيدًا؛ لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء إلا أنه لم يكد به محسوده وإنما كاد به نفسه، والمراد ليس في يده إلا ما ليس بمذهب لما يغيظ. وهذا قول الكلبي ومقاتل وقال ابن عباس رضي الله عنه: يشد الحبل في عنقه وفي سقف البيت، ثم ليقطع الحبل حتى يختنق ويهلك، هذا كله إذا حملنا السماء على سقف البيت وهو قول كثير من المفسرين. وقال آخرون: المراد منه نفس السماء فإنه يمكن حمل الكلام على نفس السماء فهو أولى من حمله على سماء البيت؛ لأن ذلك لا يفهم منه إلا مقيدًا؛ ولأن الغرض ليس الأمر بأن يفعل ذلك، بل الغرض أن يكون ذلك صارفًا له عن الغيظ إلى طاعة الله تعالى، وإذا كان كذلك فكل ما كان المذكور أبعد من الإمكان كان أولى بأن يكون هو المراد، ومعلوم أن مد الحبل إلى سماء الدنيا والاختناق به أبعد في الإمكان من مده إلى سقف البيت لأن ذلك ممكن. أما الذين قالوا: السبب ليس هو الحبل فقد ذكروا وجهين:

الأول: كأنه قال: فليمدد بسبب إلى السماء، ثم ليقطع بذلك السبب المسافة، ثم لينظر فإنه يعلم أن مع تحمل المشقة فيما ظنه خاسر الصفقة كأن لم يفعل شيئًا وهو قول أبي مسلم.

والثاني: كأنه قال: فليطلب سببًا يصل به إلى السماء فليقطع نصر الله لنبيه، ولينظر هل يتهيأ له الوصول إلى السماء بحيلة، وهل يتهيأ له أن يقطع بذلك نصر الله عن رسوله؟! فإذا كان ذلك ممتنعًا كان غيظه عديم الفائدة، واعلم أن المقصد على كل هذه الوجوه معلوم فإنه زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه، وهو في معنى قوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ٣٥] مبينًا بذلك أنه لا حيلة له في الآيات التي اقترحوها القول الثاني: أن الهاء في قوله: ﴿لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ راجع إلى من في أول الآية؛ لأنه المذكور ومن حق الكناية أن ترجع إلى مذكور إذا أمكن ذلك ومن قال بذلك حمل النصرة على الرزق. وقال أبو عبيدة: وقف علينا سائل من بني بكر فقال: من ينصرني نصره الله. أي من يعطيني أعطاه الله، فكأنه قال: من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة، فلهذا الظن يعدل عن التمسك بدين محمد ﷺ كما وصفه تعالى في قوله: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١] فيبلغ غاية الجزع وهو

الاختناق فإن ذلك لا يغلب التسمية ويجعله مرزوقًا.

أما قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فمعناه ومثل ذلك الإنزال أنزلنا القرآن كله آيات بينات.

أما قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ فقد احتج أصحابنا به فقالوا: المراد من الهداية، إما وضع الأدلة، أو خلق المعرفة والأول غير جائز؛ لأنه تعالى فعل ذلك في حق كل المكلفين، ولأن قوله: ﴿يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ دليل على أن الهداية غير واجبة عليه بل هي معلقة بمشيئته سبحانه ووضع الأدلة عند الخصم واجب فبقي أن المراد منه خلق المعرفة قال القاضي عبد الجبار في (الاعتذار): هذا يحتمل وجوهًا: أحدها: يكلف من يريد لأن من كلف أحدًا شيئًا فقد وصفه له وبينه له. وثانيها: أن يكون المراد يهدي إلى الجنة والإثابة من يريد ممن آمن وعمل صالحًا. وثالثها: أن يكون المراد أن الله تعالى يلطف بمن يريد ممن علم أنه إذا زاده هدى ثبت على إيمانه كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وهذا الوجه هو الذي أشار الحسن إليه بقوله: إن الله يهدي من قبل لا من لم يقبل، والوجهان الأولان ذكرهما أبو علي والجواب: عن الأول أن الله تعالى ذكر ذلك بعد بيان الأدلة والجواب عن الشبهات فلا يجوز حمله على محض التكليف، وأما الوجهان الأخيران فمدفوعان لأنهما عندك واجبان على الله تعالى وقوله: ﴿يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ يقتضي عدم الوجوب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

القراءة: قرى (حُقَّ) بالضم وقرىء (حَقًّا) أي حق عليه العذاب حقًا وقرئ (مُكْرَم) بفتح الراء بمعنى الإكرام، واعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦] أتبعه في هذه الآية ببيان من يهديه ومن لا يهديه، واعلم أن المسلم لا يخالفه في المسائل الأصولية إلا طبقات ثلاثة: أحدها: الطبقة المشاركة له في نبوة نبيه كالخلاف بين الجبرية والقدرية في خلق الأفعال البشرية والخلاف بين مثبتي الصفات والرؤية ونفاتها. وثانيها: الذين يخالفونه في النبوة ولكن يشاركونه في الاعتراف بالفاعل المختار كالخلاف بين المسلمين واليهود والنصارى في نبوة محمد ﷺ وعيسى وموسى عليهما السلام. وثالثها: الذين يخالفونه في الإله وهؤلاء هم السوفسطائية المتوقفون في الحقائق، والدهرية الذين لا يعترفون بوجود مؤثر في العالم،

والفلاسفة الذين يثبتون مؤثرًا موجبًا لا مختارًا. فإذا كانت الاختلافات الواقعة في أصول الأديان محصورة في هذه الأقسام الثلاثة، ثم لا يشك أن أعظم جهات الخلاف هو من جهة القسم الأخير منها. وهذا القسم الأخير بأقسامه الثلاثة لا يوجدون في العالم المتظاهرين بعقائدهم ومذاهبهم بل يكونون مستترين، أما القسم الثاني وهو الاختلاف الحاصل بسبب الأنبياء عليهم السلام، فتقسيمه أن يقال القائلون بالفاعل المختار، إما أن يكونوا معترفين بوجود الأنبياء، أو لا يكونوا معترفين بذلك، فإما أن يكونوا أتباعًا لمن كان نبيًا في الحقيقة أو لمن كان متنبئًا، أما أتباع الأنبياء عليهم السلام فهم المسلمون واليهود والنصارى، وفرقة أخرى بين اليهود والنصارى وهم الصابئون، وأما أتباع المتنبىء فهم المجوس، وأما المنكرون للأنبياء على الإطلاق فهم عبدة الأصنام والأوثان، وهم المسمون بالمشركين، ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم. فثبت أن الأديان الحاصلة بسبب الاختلافات في الأنبياء عليهم السلام هي هذه الستة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، قال قتادة ومقاتل: الأديان ستة واحدة لله تعالى وهو الإسلام وخمسة للشيطان، وتمام الكلام في هذه الآية قد تقدم في سورة البقرة.

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الزجاج: هذا خبر لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كما تقول إن أخاك، إن الدين عليه لكثير. قال جرير:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنَّ اللَّهَ سَرْبَلَهُ   سِرْبَالَ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ[1]

المسألة الثانية: الفصل مطلق فيحتمل الفصل بينهم في الأحوال والأماكن جميعًا فلا يجازيهم جزاءً واحدًا بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد وقيل: يفصل بينهم: يقضي بينهم.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فالمراد أنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجري في ذلك الفصل ظلم ولا حيف.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ ففيه أسئلة:

السؤال الأول: ما الرؤية هاهنا الجواب: أنها العلم أي ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض، وإنما عرف ذلك بخبر الله لا أنه رآه.

السؤال الثاني: ما السجود هاهنا قلنا: فيه وجوه: أحدها: قال الزجاج: أجود الوجوه في سجود هذه الأمور أنها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] والمعنى أن هذه الأجسام لما كانت قابلة لجميع الأعراض التي

---

(١) هذا البيت من البحر البسيط ضمن قصيدة لجرير وقد تقدم ترجمته وأول البيت قوله:
يكفي الخليفة أن الله سربله... البيت.

يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع ألبتة أشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فإن قيل: هذا التأويل يبطله قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإن السجود بالمعنى الذي ذكرته عام في كل الناس فإسناده إلى كثير منهم يكون تخصيصًا من غير فائدة والجواب من وجوه: أحدها: أن السجود بالمعنى الذي ذكرناه وإن كان عامًا في حق الكل إلا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر، فهذا الشخص وإن كان ساجدًا بذاته لكنه متمرد بظاهره، أما المؤمن فإنه ساجد بذاته وبظاهره فلأجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر. وثانيها: أن نقطع قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه: الأول: أن نقول تقدير الآية: ولله يسجد من في السموات ومن في الأرض ويسجد له كثير من الناس؛ فيكون السجود الأول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة، وإنما فعلنا ذلك؛ لأنه قامت الدلالة على أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في معانيه جميعًا. الثاني: أن يكون قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لأن خبر مقابله يدل عليه وهو قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، والثالث: أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل: وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب. وثالثها: أن من يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعًا يقول: المراد بالسجود في حق الأحياء العقلاء العبادة وفي حق الجمادات الانقياد، ومن ينكر ذلك يقول إن الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين، فعنى بها في حق العقلاء، الطاعة وفي حق الجمادات الانقياد.

السؤال الثالث: قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة أخرى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الجواب: لو اقتصر على ما تقدم لأوهم أن كل الناس يسجدون كما أن كل الملائكة يسجدون فبيّن أن كثيرًا منهم يسجدون طوعًا دون كثير منهم فإنه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب. القول الثاني: في تفسير السجود أن كل ما سوى الله تعالى فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه إلا عند الانتهاء إلى الواجب لذاته كما قال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] وكما أن الإمكان لازم للممكن حال حدوثه وبقائه فافتقاره إلى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه، وهذا الافتقار الذاتي اللازم للماهية أدل على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الأرض فإن ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتي، وقد يتطرق إليها الصدق والكذب، أما نفس الافتقار الذاتي فإنه ممتنع التغير والتبدل، فجميع الممكنات ساجدة بهذا المعنى لله تعالى أي خاضعة متذللة معترفة بالفاقة إليه والحاجة إلى تخليقه وتكوينه، وعلى هذا تأولوا قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهذا قول القفال رحمه الله. القول الثالث: أن سجود هذه الأشياء سجود ظلها كقوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] وهو قول مجاهد.

وأما قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ فقال ابن عباس في رواية عطاء

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يوحده ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ ممن لا يوحده، وروى عنه أيضًا أنه قال (وكثير من الناس) في الجنة. وهذه الرواية تؤكد ما ذكرنا أن قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ مبتدأ وخبره محذوف، وقال آخرون: الوقف على قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم استأنف فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي وجب بإبائه وامتناعه من السجود.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ فالمعنى أن الذين حق عليهم العذاب ليس لهم أحد يقدر على إزالة ذلك الهوان عنهم فيكون مكرمًا لهم، ثم بيَّن بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أنه الذي يصح منه الإكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

القراءة: روي عن الكسائي (خِصْمَانِ) بكسر الخاء، وقرىء (قُطِعَتْ) بالتخفيف كأن الله يقدر لهم نيرانًا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة، قرأ الأعمش: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ رُدُّوا فِيهَا) الحسن (يُصَهَّرُ) بتشديد الهاء للمبالغة، وقرىء (وَلُؤْلُؤًا) بالنصب على تقدير ويؤتون لؤلؤًا كقوله وحورًا عينًا، ولؤلوًا بقلب الهمزة الثانية واوًا، واعلم أنه سبحانه لما بين أن الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر هاهنا كيفية اختصامهم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج من قال: أقل الجمع اثنان بقوله: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾، **والجواب:** الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان يختصمان، فقوله: ﴿هَٰذَانِ﴾ للفظ واختصموا للمعنى كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟﴾ [محمد: ١٦].

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير الخصمين وجوهًا: **أحدها:** المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم، وطائفة الكفار وجماعتهم وأن كل الكفار يدخلون في ذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما يرجع إلى أهل الأديان الستة ﴿فِى رَبِّهِمْ﴾ أي في ذاته وصفاته. **وثانيها:** روي أن أهل الكتاب قالوا

نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابًا ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدًا، فهذه خصومتهم في ربهم. **وثالثها:** روى قيس ابن عبادة عن أبي ذر الغفاري رحمه الله أنه كان يحلف بالله أن هذه الآية نزلت في ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، وقال علي عليه السلام أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى يوم القيامة. **ورابعها:** قال عكرمة: هما الجنة والنار قالت النار: خلقني الله لعقوبته. وقالت الجنة: خلقني الله لرحمته فقص الله من خبرهما على محمد ﷺ ذلك، والأقرب هو الأول؛ لأن السبب وإن كان خاصًا فالواجب حمل الكلام على ظاهره قوله: ﴿هَٰذَانِ﴾ كالإشارة إلى من تقدم ذكره وهم أهل الأديان الستة، وأيضًا ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته ممن حق عليه العذاب، فوجب أن يكون رجوع ذلك إليهما، فمن خص به مشركي العرب أو اليهود من حيث قالوا في كتابهم ونبيهم ما حكيناه فقد أخطأ، وهذا هو الذي يدل عليه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ١٧] أراد به الحكم؛ لأن ذكر التخاصم يقتضي الواقع بعده يكون حكمًا فبيَّن الله تعالى حكمه في الكفار، وذكر من أحوالهم أمورًا ثلاثة:

أحدها: قوله: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ والمراد بالثياب إحاطة النار بهم كقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] عن أنس، وقال سعيد بن جبير: من نحاس أذيب بالنار أخذًا من قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥] وأخرج الكلام بلفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩]، ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] لأن ما كان من أمر الآخرة فهو كالواقع.

وثانيها: قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ يصهر به ما في بطونهم والجلود، الحميم الماء الحار، قال ابن عباس رضي الله عنهما لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها، (يصهر): أي: يذاب أي: إذا صب الحميم على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. وثالثها: قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ المقامع: السياط وفي الحديث «**لَوْ وُضِعَتْ مِقْمَعَةٌ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ فَاجْتَمَعَ عَلَيْهَا الثَّقَلَانِ مَا أَقَلُّوهَا**» وأما قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ فاعلم أن الإعادة لا تكون إلا بعد الخروج والمعنى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا أعيدوا فيها، ومعنى الخروج ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقاطع فهووا فيها سبعين خريفًا وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق، والحريق الغليظ من النار العظيم الإهلاك، ثم إنه سبحانه ذكر حكمه في المؤمنين من أربعة أوجه:

أحدها: المسكن، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. **وثانيها:** الحلية، وهو قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا

حَرِيرٌ﴾ فبيّن تعالى أنه موصلهم في الآخرة إلى ما حرمه عليهم في الدنيا من هذه الأمور وإن كان من أحله لهم أيضًا شاركهم فيه؛ لأن المحلل للنساء في الدنيا يسير بالإضافة إلى ما سيحصل لهم في الآخرة. وثالثها: الملبوس وهو قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. ورابعها: قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وفيه وجوه: أحدها: أن شهادة لا إله إلا الله هو الطيب من القول لقوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤] وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وهو صراط الحميد لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وثانيها: قال السدي: (وهدوا إلى الطيب من القول) هو القرآن. وثالثها: قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء. هو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده. ورابعها: أنهم إذا ساروا إلى الدار الآخرة هدوا إلى البشارات التي تأتيهم من قبل الله تعالى بدوام النعيم والسرور والسلام، وهو معنى قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وعندي فيه وجه خامس: وهو أن العلاقة البدنية جارية مجرى الحجاب للأرواح البشرية في الاتصال بعالم القدس فإذا فارقت أبدانها انكشف الغطاء ولاحت الأنوار الإلهية، وظهور تلك الأنوار هو المراد من قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ والتعبير عنها هو المراد من قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾

اعلم أنه تعالى بعد أن فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمه البيت وعظم كفر هؤلاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وذلك بالمنع من الهجرة والجهاد؛ لأنهم كانوا يأبون ذلك. وفيه إشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الماضي وهو قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾. والجواب: عنه من وجهين: الأول: أنه يقال: فلان يحسن إلى الفقراء ويعين الضعفاء لا يراد به حال ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه في جميع أزمنته وأوقاته، فكأنه قيل: إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله، ونظيره قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]. وثانيهما: قال أبو علي الفارسي: التقدير إن الذين كفروا فيما مضى وهم الآن يصدون ويدخل فيه أنهم يفعلون ذلك في الحال والمستقبل، أما قوله: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني: ويصدوهم أيضًا عن المسجد الحرام، قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت الآية في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية عن المسجد الحرام عن أن يحجوا ويعتمروا وينحروا الهدي، فكره رسول الله ﷺ قتالهم وكان محرمًا بعمرة ثم صالحوه على أن يعود في العام القابل.

أما قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو علي الفارسي: أي جعلناه للناس منسكًا ومتعبدًا وقوله: ﴿سَوَآءٌ ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ رفع على أنه خبر مبتدأ مقدم أي: العاكف والباد فيه سواء، وتقدير الآية المسجد الحرام الذي جعلناه للناس منسكًا فالعاكف والبادي فيه سواء وقرأ عاصم ويعقوب (سَوَاءً) بالنصب بإيقاع الجعل عليه؛ لأن الجعل يتعدى إلى مفعولين، والله أعلم.

المسألة الثانية: العاكف: المقيم به الحاضر. والبادي: الطارىء من البدو وهو النازع إليه من غربته، وقال بعضهم: يدخل في العاكف القريب إذا جاور ولزمه للتعبد، وإن لم يكن من أهله.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أنهما في أي شيء يستويان قال ابن عباس رضي الله عنهما: في بعض الروايات إنهما يستويان في سكنى مكة والنزول بها، فليس أحدهما أحق بالمنزل الذي يكون فيه من الآخر إلا أن يكون واحد سبق إلى المنزل وهو قول قتادة، وسعيد بن جبير، ومن مذهب هؤلاء أن كراء دور مكة وبيعها حرام واحتجوا عليه بالآية والخبر، أما الآية فهي هذه قالوا: إن أرض مكة لا تملك، فإنها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي، فلما استويا ثبت أن سبيله سبيل المساجد، وأما الخبر فقوله عليه السلام: «**مكة مباح لمن سبق إليها**» وهذا مذهب ابن عمر، وعمر بن عبد العزيز، ومذهب أبي حنيفة، وإسحق الحنظلي رضي الله عنهم وعلى هذا المراد بالمسجد الحرام الحرم كله؛ لأن إطلاق لفظ المسجد الحرام والمراد منه البلد جائز بدليل قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] وهاهنا قد دل الدليل وهو قوله: ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ لأن المراد منه المقيم إقامة، وإقامته لا تكون في المسجد بل في المنازل فيجب أن يقال: ذكر المسجد وأراد مكة. القول الثاني: المراد جعل الله الناس في العبادة في المسجد سواء، ليس للمقيم أن يمنع البادي وبالعكس قال عليه السلام: «**يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئًا فَلَا يَمْنَعَنَّ أَحَدًا طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ أَوْ صَلَّى أَيَّةَ سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ**» وهذا قول الحسن، ومجاهد، وقول من أجاز بيع دور مكة. وقد جرت مناظرة بين الشافعي وإسحق الحنظلي بمكة وكان إسحق لا يرخص في كراء بيوت مكة، واحتج الشافعي رحمه الله بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠] فأضيفت الدار إلى مالكها وإلى غير مالكها، وقال عليه السلام يوم فتح مكة: «**من أغلق بابه فهو آمن**»(١) وقال ﷺ: «**هَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رَبْعٍ**»(٢) وقد اشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنه دار السجن، أترى أنه

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٣/ ١٤٠٥/ ١٧٨٠)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٥٣٨)، حديث رقم (١٠٩٦١)، كلاهما من طريق سليمان بن المغيرة. . . به.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في (المغازي)، باب: (أين ركز النبي الراية يوم الفتح) (٧/ ٦٠٦)، حديث رقم (٤٢٨٢) من طريق الزهري. . . به، ومسلم في (الحج)، باب: (النزول بمكة للحاج) (٢/ ٤٤٠/ ٩٨٤) من طريق عبد الرزاق. . . به.

اشتراها من مالكها أو من غير مالكها؟ قال إسحق: فلما علمت أن الحجة قد لزمتني تركت قولي. أما الذي قالوه من حمل لفظ المسجد على مكة بقرينة قوله: (العاكف)، فضعيف؛ لأن العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام، أو في الأكثر فلا يلزم ما ذكروه، ويحتمل أن يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات.

أما قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرىء (يَرِدْ) بفتح الياء من الورود، ومعناه: من أتى فيه بإلحاد، وعن الحسن ومن يرد إلحاده بظلم، والمعنى: ومن يرد إيقاع إلحاد فيه، فالإضافة صحيحة على الاتساع في الظرف كمكر الليل والنهار، ومعناه: ومن يرد أن يلحد فيه ظالمًا.

المسألة الثانية: الإلحاد: العدول عن القصد وأصله إلحاد الحافر، وذكر المفسرون في تفسير الإلحاد وجوهًا: أحدها: أنه الشرك، يعني: من لجأ إلى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى، وهو إحدى الروايات عن ابن عباس، وقول عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل. وثانيها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في عبد الله بن سعد حيث استسلمه النبي ﷺ فارتد مشركًا، وفي قيس بن ضبابة. وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن خطل حين قتل الأنصاري وهرب إلى مكة كافرًا، فأمر النبي ﷺ بقتله يوم الفتح كافرًا. وثالثها: قتل ما نهى الله تعالى عنه من الصيد. ورابعها: دخول مكة بغير إحرام وارتكاب ما لا يحل للمحرم. وخامسها: أنه الاحتكار عن مجاهد، وسعيد بن جبير. وسادسها: المنع من عمارته. وسابعها: عن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله. وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل، فقيل له فقال: كنا نحدث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: لا والله وبلى والله. وثامنها: وهو قول المحققين: أن الإلحاد بظلم عام في كل المعاصي؛ لأن كل ذلك صغر أم كبر يكون هناك أعظم منه في سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: لو أن رجلاً بعدن هَمَّ بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذابًا أليمًا. وقال مجاهد: تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات، فإن قيل: كيف يقال ذلك مع أن قوله: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ غير لائق بكل المعاصي؟ قلنا: لا نسلم، فإن كل عذاب يكون أليمًا، إلا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية.

المسألة الثالثة: الباء في قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: وهو الأولى وهو اختيار صاحب (الكشاف) أن قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ حالان مترادفان، ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال: ومن يرد فيه مرادًا ما عادلاً عن القصد ظالمًا نذقه من عذاب أليم، يعني أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده. الثاني: قال أبو عبيدة: مجازه ومن يرد فيه إلحادًا والباء من حروف الزوائد.

المسألة الرابعة: لما كان الإلحاد بمعنى الميل من أمر إلى أمر بيَّن الله تعالى أن المراد بهذا الإلحاد ما يكون ميلاً إلى الظلم، فلهذا قرن الظلم بالإلحاد لأنه؛ لا معصية كبرت أم صغرت إلا وهو ظلم، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

أما قوله تعالى: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فهو بيان الوعيد وفيه مسائل:

المسألة الأولى: من قال: الآية نزلت في ابن خطل قال: المراد بالعذاب أن رسول الله ﷺ قتله يوم الفتح[١]، ولا وجه للتخصيص إذا أمكن التعميم، بل يجب أن يكون المراد العذاب في الآخرة؛ لأنه من أعظم ما يتوعد به.

المسألة الثانية: أن هذه الآية تدل على أن المرء يستحق العذاب بإرادته للظلم كما يستحقه على عمل جوارحه.

المسألة الثالثة: ذكروا قولين في خبر (إن) المذكور في أول الآية: الأول: التقدير إن الذين كفروا ويصدون ومن يرد فيه بإلحاد نذقه من عذاب فهو عائد إلى كلتا الجملتين. الثاني: أنه محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره: إن الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم. وكل من ارتكب فيه ذنبًا فهو كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي: واذكر حين جعلنا لإبراهيم مكان البيت مباءة، أي: مرجعًا يرجع إليه للعمارة والعبادة. وكان قد رفع البيت إلى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء، فأعلم الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها فكشفت ما حوله فبناه على وضعه الأول، وقيل: أُمِرَ إبراهيم بأن يأتي موضع البيت فيبني، فانطلق فخفي عليه مكانه فبعث الله تعالى على قدر البيت الحرام في العرض والطول غمامة وفيها رأس يتكلم وله لسان وعينان فقال: يا إبراهيم، ابن على قدري وحيالي فأخذ في البناء وذهبت السحابة. وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: لا شك أن (أَنْ) هي المفسرة فكيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيرًا للتبوئة؟ الجواب: أنه سبحانه لما قال: جعلنا البيت مرجعًا لإبراهيم، فكأنه قيل: ما

---

(١) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

معنى كون البيت مرجعًا له؟ فأجيب عنه بأن معناه أن يكون بقلبه موحدًا لرب البيت عن الشريك والنظير، وبقالبه مشتغلاً بتنظيف البيت عن الأوثان والأصنام.

السؤال الثاني: أن إبراهيم لما لم يشرك بالله فكيف قال: أن لا تشرك بي؟ الجواب: المعنى لا تجعل في العبادة لي شريكًا، ولا تشرك بي غرضًا آخر في بناء البيت.

السؤال الثالث: البيت ما كان معمورًا قبل ذلك فكيف قال: وطهِّر بيتي؟ الجواب: لعل ذلك المكان كان صحراء وكانوا يرمون إليها الأقذار، فأُمِرَ إبراهيم ببناء البيت في ذلك المكان وتطهيره من الأقذار، وكانت معمورة فكانوا قد وضعوا فيها أصنامًا فأمره الله تعالى بتخريب ذلك البناء ووضع بناء جديد وذلك هو التطهير عن الأوثان، أو يقال: المراد أنك بعد أن تبنيه فطهره عما لا ينبغي من الشرك وقول الزور.

وأما قوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: للطائفين بالبيت من غير أهل مكة ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ أي: المقيمين بها ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: من المصلين من الكل، وقال آخرون: القائمون وهم المصلون؛ لأن المصلي لا بد وأن يكون في صلاته جامعًا بين القيام والركوع والسجود، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن محيصن (وَآذِنْ) بمعنى أعلم.

المسألة الثانية: في المأمور قولان: أحدهما: وعليه أكثر المفسرين أنه هو إبراهيم عليه السلام قالوا: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال سبحانه: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ قال: يارب، وما يبلغ صوتي؟ قال: عليك الأذان وعلى البلاغ. فصعد إبراهيم عليه السلام الصفا، وفي رواية أخرى أبا قبيس، وفي رواية أخرى على المقام قال إبراهيم: كيف أقول؟ قال جبريل عليه السلام: قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى، وفي رواية أخرى أنه صعد الصفا فقال: يأيها الناس، إن الله كتب عليكم حج البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والأرض، فما بقي شيء سمع صوته إلا أقبل يلبي يقول: لبيك اللهم لبيك، وفي رواية أخرى إن الله يدعوكم إلى حج البيت الحرام ليثيبكم به الجنة ويخرجكم من النار، فأجابه يومئذ من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وكل من وصل إليه صوته من حجر أو شجر ومدر وأكمة أو تراب، قال مجاهد: فما حج إنسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة إلا وقد أسمعه ذلك النداء، فمن أجاب مرة حج مرة، ومن أجاب مرتين أو أكثر. فالحج مرتين أو أكثر على ذلك المقدار، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أُمِرَ إبراهيم عليه السلام بالأذان تواضعت له الجبال وخفضت، وارتفعت له القرى، قال القاضي عبد الجبار: يبعد قولهم إنه أجابه الصخر والمدر؛ لأن الإعلام لا يكون إلا لمن يؤمر بالحج دون الجماد، فأما من يسمع من أهل المشرق والمغرب نداءه فلا يمتنع إذا قواه الله تعالى ورفع الموانع، ومثل ذلك قد يجوز في زمان الأنبياء عليهم السلام.

القول الثاني: أن المأمور بقوله: ﴿وَأَذِّن﴾ هو محمد ﷺ وهو قول الحسن واختيار أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ما جاء في القرآن وأمكن حمله على أن محمدًا ﷺ هو المخاطب به فهو أولى وتقدم قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ لا يوجب أن يكون قوله: ﴿وَأَذِّن﴾ يرجع إليه إذ قد بيَّنا أن معنى قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ أي واذكر يا محمد ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ فهو في حكم المذكور، فإذا قال تعالى: ﴿وَأَذِّن﴾ فإليه يرجع الخطاب وعلى هذا القول ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن﴾ وجوهًا: أحدها: أن الله تعالى أمر محمدًا ﷺ بأن يعلم الناس بالحج. وثانيها: قال الجبائي: أمره الله تعالى أن يعلن التلبية فيعلم الناس أنه حاج فيحجوا معه. قال: وفي قوله: ﴿يَأْتُوكَ﴾ دلالة على أن المراد أن يحج فيقتدي به. وثالثها: أنه ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول ﷺ.

أما قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الرجال المشاة واحدهم راجل كنيام ونائم، وقرىء رجال بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ورجال كعجال عن ابن عباس رضي الله عنهما وقوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: ركبانًا والضمور: الهزال ضمر يضمر ضمورًا، والمعنى أن الناقة صارت ضامرة لطول سفرها. وإنما قال: ﴿يَأْتِينَ﴾ أي جماعة الإبل وهي الضوامر لأن قوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ معناه: على إبل ضامرة فجعل الفعل بمعنى كل ولو قال يأتي على اللفظ صح وقرىء يأتون صفة للرجال والركبان، والفج: الطريق بين الجبلين، ثم يستعمل في سائر الطرق اتساعًا، والعميق: البعيد قرأ ابن مسعود معيق يقال: بئر بعيدة العمق والمعق.

المسألة الثانية: المعنى: وأذن؛ ليأتوك رجالاً وعلى كل ضامر، أي: وأذن؛ ليأتوك على هاتين الصفتين، أو يكون المراد: وأذن فإنهم يأتوك على هاتين الصفتين.

المسألة الثالثة: بدأ الله بذكر المشاة تشريفًا لهم، وروى سعيد بن جبير بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الْحَاجَّ الرَّاكِبَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا رَاحِلَتُهُ سَبْعُونَ حَسَنَةً وَلِلْمَاشِي سَبْعُمِائَةِ حَسَنَةٍ مِنْ حَسَنَاتِ الْحَرَمِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا حَسَنَاتُ الْحَرَمِ قَالَ: الْحَسَنَةُ بِمِائَةِ أَلْفِ حَسَنَةٍ**»[١].

المسألة الرابعة: إنما قال: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ لأنه هو المنادي فمن أتى بمكة حاجًا فكأنه أتى إبراهيم عليه السلام؛ لأنه يجيب نداءه.

أما قوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى لما أمر بالحج في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ ذكر حكمة ذلك

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (١/ ٦٣١)، حديث رقم (١٦٩٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ٢٤٤)، حديث رقم (٢٧٩١)، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٤/ ٣٣١)، والطبراني في (الأوسط) (٣/ ١٢٢)، حديث رقم/ ٢٦٧٥، وفي (الكبير) (١٢/ ١٠٥)، حديث رقم (١٢٦٠٦)، جميعًا من طريق عيسى بن سوادة عن إسماعيل بن أبي خالد عن زاذان عن ابن عباس... به، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٤٩٦)، وقال: ضعيف.

الأمر في قوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا. وهي أن يتجرو في أيام الحج، وبعضهم حملها على منافع الآخرة، وهي العفو والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام، وبعضهم حملها على الأمرين جميعًا، وهو الأولى.

المسألة الثانية: إنما نكَّر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات.

المسألة الثالثة: كنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا وذبحوا وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى، وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان قال مقاتل: إذا ذبحت فقل باسم الله والله أكبر، اللهم منك وإليك وتستقبل القبلة، وزاد الكلبي فقال: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، قال القفال: وكان المتقرب بها وبإراقة دمائها متصور بصورة من يفدى نفسه بما يعادلها، فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته طلبًا لمرضاة الله تعالى، واعترافًا بأن تقصيره كاد يستحق مهجته.

المسألة الرابعة: أكثر العلماء صاروا إلى أن الأيام المعلومات عشر ذي الحجة والمعدودات أيام التشريق، وهذا قول مجاهد، وعطاء، وقتادة، والحسن، ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعي وأبي حنيفة رحمهم الله، واحتجوا بأنها معلومة عند الناس؛ لحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها. ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة، والمشعر الحرام وكذلك الذبائح لها وقت منها وهو يوم النحر، وقال ابن عباس في رواية عطاء: إنها يوم النحر وثلاثة أيام بعده وهو اختيار أبي مسلم قال: لأنها كانت معروفة عند العرب بعدها وهي أيام النحر وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله.

اما قوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ فقال صاحب (الكشاف): البهمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر، فبيِّنت بالأنعام وهي الإبل والبقر والضأن والمعز.

اما قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ فمن الناس من قال: إنه أمر وجوب؛ لأن أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها ترفعًا على الفقراء، فأُمِر المسلمين بذلك لما فيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستعمال التواضع، وقال الأكثرون: إنه ليس على الوجوب. ثم قال العلماء: من أهدى أو ضحى فحسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ ومنهم من قال: يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق بالثلث، ومذهب الشافعي رحمه الله أن الأكل مستحب والإطعام واجب فإن أطعم جميعها أجزأه وإن أكل جميعها لم يجزه، هذا فيما كان تطوعًا، فأما الواجبات كالنذور، والكفارات، والجبرانات لنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الإساءة ودماء القلم والحلق فلا يؤكل منها.

اما قوله: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ فلا شبهة في أنه أمر إيجاب، والبائس الذي أصابه بؤس

أي: شدة والفقير الذي أضعفه الإعسار وهو مأخوذ من فقار الظهر. قال ابن عباس: البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه، والفقير الذي لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني.

أما قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال الزجاج: إن أهل اللغة لا يعرفون التفث إلا من التفسير، وقال المبرد: أصل التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقضها. والمراد هاهنا قص الشارب والأظفار ونتف الإبط وحلق العانة، والمراد من القضاء إزالة التفث، وقال القفال: قال نفطويه: سألت أعرابيًا فصيحًا ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾؟ فقال: ما أفسر القرآن ولكنا نقول للرجل ما أتفثك وما أدرنك، ثم قال القفال وهذا أولى من قول الزجاج لأن القول قول المثبت لا قول النافي.

أما قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ فقرىء بتشديد الفاء ثم يحتمل ذلك ما أوجبه الدخول في الحج من أنواع المناسك، ويحتمل أن يكون المراد ما أوجبوه بالنذر الذي هو القول، وهذا القول هو الأقرب فإن الرجل إذا حج أو اعتمر فقد يوجب على نفسه من الهدي وغيره ما لولا إيجابه لم يكن الحج يقتضيه فأمر الله تعالى بالوفاء بذلك.

أما قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فالمراد الطواف الواجب وهو طواف الإفاضة والزيارة، أما كون هذا الطواف بعد الوقوف ورمي الجمار والحلق، ثم هو في يوم النحر أو بعده ففيه تفصيل، وسمي البيت العتيق لوجوه: أحدها: العتيق: القديم لأنه أول بيت وضع للناس، عن الحسن. وثانيها: لأنه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى وهو قول ابن عباس وقول ابن الزبير، ورووه عن رسول الله ﷺ ولما قصد أبرهة فُعِلَ به ما فُعِل، فإن قيل: فقد تسلط الحجاج عليه فالجواب: قلنا: ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به عبد الله بن الزبير فاحتال لإخراجه ثم بناه. وثالثها: لم يُمْلَكْ قط، عن ابن عيينة. ورابعها: أعتق من الغرق، عن مجاهد. وخامسها: بيت كريم من قولهم: عتاق الطير والخيل، واعلم أن اللام في ليقضوا وليوفوا وليطوفوا لام الأمر، وفي قراءة ابن كثير ونافع والأكثرين تخفيف هذه اللامات، وفي قراءة أبي عمرو تحريكها بالكسر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): (ذلِكَ) خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر والشأن ذلك كما يقدم

الكاتب جملة من كلامه في بعض المعاني فإذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا، والحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها يحتمل أن يكون عامًا في جميع تكاليفه، ويحتمل أن يكون خاصًا فيما يتعلق بالحج، وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس: الكعبة الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمشعر الحرام، وقال المتكلمون: ولا تدخل النوافل في حرمات الله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: فالتعظيم خير له للعلم بأنه يجب القيام بمراعاتها وحفظها، وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ يدل على الثواب المدخر؛ لأنه لا يقال: عند ربه فيما قد حصل من الخيرات، قال الأصم: فهو خير له من التهاون بذلك، ثم إنه تعالى عاد إلى بيان حكم الحج فقال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ فقد كان يجوز أن يظن أن الإحرام إذا حرم الصيد وغيره فالأنعام أيضًا تحرم فبيَّن الله تعالى أن الإحرام لا يؤثر فيها فهي محللة، واستثنى منه ما يتلى في كتاب الله من المحرمات من النعم وهو المذكور في سورة المائدة وهو قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[المائدة: ١] وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾[المائدة: ٣] وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾[الأنعام: ١٢١]، ثم إنه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وحمد من يعظمها أتبعه بالأمر باجتناب الأوثان وقول الزور؛ لأن توحيد الله تعالى وصدق القول أعظم الخيرات، وإنما جمع الشرك وقول الزور في سلك واحد؛ لأن الشرك من باب الزور؛ لأن المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور، واجتنبوا قول الزور كله، ولا تقربوا منه شيئًا لتماديه في القبح والسماجة، وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان وسمى الأوثان رجسًا لا للنجاسة، لكن لأن وجوب تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس ولأن عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات. ثم قال الأصم: إنما وصفها بذلك لأن عادتهم في المتقربات أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها وهذا بعيد وقيل: إنه إنما وصفها بذلك استحقارًا واستخفافًا وهذا أقرب، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ بيان للرجس وتمييز له كقوله عندي عشرون من الدراهم؛ لأن الرجس لما فيه من الإيهام يتناول كل شيء، فكأنه قال: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وليس المراد أن بعضها ليس كذلك، والزور من الزور والإزورار وهو الانحراف، كما أن الإفك من أفكه إذا صرفه، والمفسرون ذكروا في قول الزور وجوهًا: أحدها: أنه قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم. وثانيها: شهادة الزور عن النبي ﷺ: أنه صلى الصبح فلما سلم قام قائمًا واستقبل الناس بوجهه وقال: «**عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الْإِشْرَاكَ بِاللَّهِ**»(١)

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود في كتاب (الأقضية)، باب: (في شهادة الزور) (٣/ ١٥٥٧)، حديث رقم (٣٥٩٩)، والترمذي في (الشهادات)، باب: (في شهادة الزور) (٤/ ٤٧٥)، حديث رقم (٢٣٠٠)، وقال أبو عيسى: هذا عندي أصح، وابن ماجه في (الأحكام)، باب: (شهادة الزور) (٢/ ٧٩٤)، حديث رقم (٢٣٧٢)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٣٢١)، جميعًا من طريق محمد بن عبيد... به، في إسناده سفيان العصفري وشيخه مقبولان.

وتلا هذه الآية. وثالثها: الكذب والبهتان. ورابعها: قول أهل الجاهلية في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك.

أما قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ فقد تقدم ذكر تفسير ذلك وأنه الاستقامة على قول بعضهم والميل إلى الحق على قول البعض، والمراد في هذا الموضع ما قيل من أنه الإخلاص فكأنه قال: تمسكوا بهذه الأمور التي أمرت ونهيت على وجه العبادة لله وحده لا على وجه إشراك غير الله به. ولذلك قال: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وهذا يدل على أن الواجب على المكلف أن ينوي بما يأتيه من العبادة الإخلاص فبيَّن تعالى مثلين للكفر لا مزيد عليهما في بيان أن الكافر ضار بنفسه غير منتفع بها. وهو قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ قال صاحب (الكشاف): إن كان هذا تشبيهًا مركبًا فكأنه قيل: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكًا ليس وراءه هلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاؤه في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة. وإن كان تشبيهًا مفرقًا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله كالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطرحه في وادي الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة. وقرىء بكسر الخاء والطاء وبكسر الفاء مع كسرهما وهي قراءة الحسن وأصلها تختطفه وقرىء الرياح، ثم إنه سبحانه أكد ما تقدم فقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ اللَّهِ﴾ واختلفوا فقال بعضهم: يدخل فيه كل عبادة، وقال بعضهم: بل المناسك في الحج وقال بعضهم: بل المراد الهدي خاصة والأصل في الشعائر الأعلام التي بها يعرف الشيء فإذا فسرنا الشعائر بالهدايا فتعظيمها على وجهين: أحدهما: أن يختارها عظام الأجسام حسانًا جسامًا سمانًا غالية الأثمان ويترك المكاس في شرائها، فقد كانوا يتغالون في ثلاثة ويكرهون المكاس فيهن: الهدي والأضحية والرقبة. روي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن أبيه (أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدنًا فنهاه عن ذلك، وقال: «بَلْ أَهْدِهَا» (وَأَهْدَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل فِي أَنْفِهِ بُرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ)[1] والوجه الثاني: في تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم أمر عظيم لا بد وأن يحتفل به ويتسارع فيه ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي: إن تعظيمها من أفعال ذوي تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات، ولا يستقيم المعنى إلا بتقديرها؛ لأنه لا بد من راجع من

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود في كتاب (المناسك)، باب: (في الهدي) (٢/ ٧٥٦)، حديث رقم/ ١٧٤٩، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٦١)، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ٢٨٦)، حديث رقم (٢٨٩٧)، وأيضًا في (٤/ ٢٨٧) حديث رقم (٢٨٩٨)، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٤٦٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال أحمد شاكر في (تعليقه على المسند) (٢٣٦٢): إسناده صحيح.

الجزاء إلى من ارتبط به وإنما ذكرت القلوب لأن المنافق قد يظهر التقوى من نفسه. ولكن لما كان قلبه خاليًا عنها لا جرم لا يكون مجدًا في أداء الطاعات، أما المخلص الذي تكون التقوى متمكنة في قلبه فإنه يبالغ في أداء الطاعات على سبيل الإخلاص، فإن قال قائل: ما الحكمة في أن الله تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات هذه المبالغة؟ فالجواب:

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لا يليق إلا بأن تحمل الشعائر على الهدي الذي فيه منافع إلى وقت النحر، ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول: لكم فيها أي: في التمسك بها منافع إلى أجل ينقطع التكليف عنده، والأول هو قول جمهور المفسرين، ولا شك أنه أقرب. وعلى هذا القول فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والأوبار وركوب ظهورها، فأما قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ففيه قولان: أحدهما: أن لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم إلى أن تسموها ضحية وهديًا فإذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وقتادة، والضحاك. وقال آخرون: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في البدن ﴿مَنَافِعُ﴾ مع تسميتها هديًا بأن تركبوها إن احتجتم إليها وأن تشربوا ألبانها إذا اضطررتم إليها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني: إلى أن تنحروها هذه هي الرواية الثانية عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو اختيار الشافعي، وهذا القول أولى لأنه تعالى قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أي: في الشعائر ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هديًا وروى أبو هريرة أنه عليه السلام مر برجل يسوق بدنة وهو في جهد، فقال عليه السلام: «ارْكَبْهَا» فقال: يا رسول الله، إنها هدى فقال: «ارْكَبْهَا وَيْلَكَ»(١) وروى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ارْكَبُوا الْهَدْيَ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّى تَجِدُوا ظَهْرًا»(٢) واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بأن لا يجوز له أن يؤجرها للركوب، فلو كان مالكًا لمنافعها

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الحج)، باب: (ركوب البدن) (٣/ ٦٢٦)، حديث رقم (١٦٨٩)، ومسلم في كتاب (الحج)، باب: (جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها) (٣/ ٣٧١/ ٩٦٠) جميعًا من طريق مالك... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الحج)، باب: (جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها) (٢/ ٣٧٥/ ٩٦١)، وأبو داود في كتاب (المناسك)، باب: (في ركوب البدن) (٢/ ٧٦١)، حديث رقم (١٧٦١)، والنسائي في كتاب (المناسك)، باب: (ركوب البدنة بالمعروف) (٥/ ١٩٤)، حديث رقم (٢٨٠١)، جميعًا من طريق يحيى... به.

اركبها بالمعروف: أي: بوجه لا يلحقها ضرر إذا ألجئت: أي: إذا اضطررت. قال النووي: هذا دليل على ركوب البدنة المهداة وفيه مذاهب انتهى.

لملك عقد الإجارة عليها كمنافع سائر المملوكات، وهذا ضعيف لأن أم الولد لا يمكنه بيعها، ويمكنه الانتفاع بها فكذا هاهنا.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ فالمعنى: أن لكم في الهدايا منافع كثيرة في دنياكم ودينكم وأعظم هذه المنافع محلها إلى البيت العتيق أي: وجوب نحرها، أو وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت، كقوله: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] وبالجملة فقوله: ﴿مَحِلُّهَآ﴾ يعني حيث يحل نحرها، وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله، ودليله قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] أي: الحرم كله فالمنحر على هذا القول كل مكة، ولكنها تنزهت عن الدماء إلى منى، ومنى من مكة، قال عليه السلام: «كُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ وَكُلُّ فِجَاجِ مِنًى مَنْحَرٌ» قال القفال: هذا إنما يختص بالهدايا التي بلغت منى فأما الهدي المتطوع به إذا عطب قبل بلوغ مكة فإن محله موضعه.

أما قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ فالمعنى: شرعنا لكل أمة من الأمم السالفة من عهد إبراهيم عليه السلام إلى من بعده ضربًا من القربان، وجعل العلة في ذلك أن يذكروا اسم الله تقدست أسماؤه على المناسك، وما كانت العرب تذبحه للصنم يسمى العتر والعتيرة كالذبح والذبيحة، وقرأ أهل الكوفة إلا عاصمًا منسكًا بكسر السين، وقرأ الباقون بالفتح وهو مصدر بمعنى النسك والمكسور بمعنى الموضع.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ففي كيفية النظم وجهان:

أحدهما: أن الإله واحد، وإنما اختلفت التكاليف باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلاف المصالح.

الثاني: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ أي: أخلصوا له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه إشراك ألبتة، والمراد الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه، ومن انقاد له كان مخبتًا فلذلك قال بعده: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ والمخبت: المتواضع الخاشع. قال أبو مسلم: حقيقة المخبت من صار في خبت من الأرض، يقال: أخبت الرجل إذا صار في الخبت كما يقال: أنجد وأشأم وأتهم، والخبت: هو المطمئن من الأرض. وللمفسرين فيه عبارات أحدها: المخبتين المتواضعين، عن ابن عباس، وقتادة. وثانيها: المجتهدين في العبادة، عن الكلبي. وثالثها: المخلصين، عن مقاتل. ورابعها: المطمئنين إلى ذكر الله تعالى والصالحين، عن مجاهد وخامسها: هم الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا، عن عمرو بن أوس.

ثم وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فيظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى والخشوع والتواضع لله، ثم لذلك الوجل أثران أحدهما: الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ وعلى ما يكون من قبل الله تعالى؛ لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن والمصائب، فأما ما يصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير

واجب بل إن أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة والثاني: الاشتغال بالخدمة وأعز الأشياء عند الإنسان نفسه وماله. أما الخدمة بالنفس فهي الصلاة، وهو المراد بقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قرأ الحسن ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بالنصب على تقدير النون، وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الأصل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾.

فيه مسائل:

المسألة الأولى: البدن جمع بدنة كخشب وخشبة، سميت بذلك إذا أهديت للحرم لعظم بدنها وهي الإبل خاصة، ولكن رسول الله ﷺ ألحق البقر بالإبل حين قال: «الْبَدَنَةُ عَنْ سَبْعَةٍ وَالْبَقَرَةُ عَنْ سَبْعَةٍ»(١) ولأنه قال: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ وهذا يختص بالإبل فإنها تنحر قائمة دون البقر، وقال قوم: البدن: الإبل والبقر التي يُتقرب بها إلى الله تعالى في الحج والعمرة؛ لأنه إنما سمي بذلك لعظم البدن فالأولى دخولها فيه، أما الشاة فلا تدخل وإن كانت تجوز في النسك؛ لأنها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة.

المسألة الثانية: قرأ الحسن والبُدُن بضمتين كثُمُر في جمع ثمرة، وابن أبي إسحق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف، وقرىء بالنصب والرفع كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] والله أعلم.

المسألة الثالثة: إذا قال: لله عليَّ بدنة، هل يجوز له نحرها في غير مكة؟ قال أبو حنيفة

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحج)، باب: (الاشتراك في الهدي) (٢/ ٣٥٠/ ٩٥٥)، وأبو داود في كتاب (الضحايا)، باب: (في البقر والجزور عن كم تجزيء) (٣/ ١٢٢٥/ ١٢٢٦)، حديث رقم (٢٨٠٩)، والترمذي في كتاب (الحج)، باب: (الاشتراك في البدنة والبقرة) (٣/ ٢٤٨)، حديث رقم (٩٠٤)، والنسائي في (السنن)، كتاب: (الحج)، باب: (الاشتراك في الهدي) (٢/ ٤٥١)، حديث رقم (٤١٢٢)، وابن ماجه في (الأضاحي)، باب: (ما تجزئ البدنة والبقرة) (٢/ ١٠٤٧)، حديث رقم (٣١٣٢)، والدارمي في (الضحايا)، حديث رقم (١٩٥٦)، ومالك في (الموطأ) (١/ ٤٨٦)، حديث رقم (٩)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢٩٣)، جميعًا من طريق مالك... به.

ومحمد رحمهما الله: يجوز، وقال أبو يوسف رحمه الله: لا يجوز إلا بمكة، واتفقوا فيمن نذر هديًا أن عليه ذبحه بمكة، ولو قال: لله عليَّ جزور، أنه يذبحه حيث شاء، وقال أبو حنيفة رحمه الله: البدنة بمنزلة الجزور فوجب أن يجوز له نحرها حيث يشاء بخلاف الهدي فإنه تعالى قال: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥] فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدي، واحتج أبو يوسف رحمه الله بقوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدي، أجاب أبو حنيفة رحمه الله بأنه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم فإن الأضحية قربة وهي جائزة في سائر الأماكن.

أما قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُمْ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما خلق البدن وأوجب أن تهدى في الحج جاز أن يقول: ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أما قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ فالكلام فيه ما تقدم في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ [الحج: ٣٣] وإذا كان قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كالترغيب فالأولى أن يراد به الثواب في الآخرة وما أخلق العاقل بالحرص على شيء شهد الله تعالى بأن فيه خيرًا وبأن فيه منافع، أما قوله: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ ففيه حذف أي: اذكروا اسم الله على نحرها، قال المفسرون: هو أن يقال عند النحر أو الذبح: باسم الله والله أكبر اللهم منك وإليك، أما قوله: ﴿صَوَآفَّ﴾، فالمعنى: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن، وقرىء صوافن من صفون الفرس، وهو أن تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه؛ لأن البدنة تعقل إحدى يديها فتقوم على ثلاث، وقرىء صوافي أي: خوالص لوجه الله تعالى لا تشركوا بالله في التسمية على نحرها أحدًا كما كان يفعله المشركون، وعن عمرو ابن عبيد صوافيًا بالتنوين عوضًا عن حرف الإطلاق عند الوقف، وعن بعضهم صوافي نحو قول العرب: اعط القوس باريها، ولا يبعد أن تكون الحكمة في إصفافها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرًا وأقرب إلى ظهور التكبير وإعلاء اسم الله وشعائر دينه، وأما قوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فاعلم أن وجوب الجُنُوب وقوعها على الأرض من وجب الحائط وجبة إذا سقط، ووجبت الشمس وجبة إذا غربت، والمعنى: إذا سقطت على الأرض وذلك عند خروج الروح منها ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيما يجوز أكله منها ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ القانع: السائل يقال: قنع يقنع قنوعًا إذا سأل قال أبو عبيد: هو الرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم ونحوه، قال الفراء: والمعنى الثاني: القانع هو الذي لا يسأل من القناعة يقال: قنع يقنع قناعة إذا رضي بما قسم له وترك السؤال، أما المعتر فقيل: إنه المتعرض بغير سؤال، وقيل: إنه المتعرض بالسؤال قال الأزهري: قال ابن الأعرابي: يقال: عروت فلانًا وأعررته وعروته واعتريته إذا أتيته تطلب معروفه ونحوه، قال أبو عبيد: والأقرب أن القانع: هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح، والمعتر: هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع إليه أبدًا وقرأ الحسن والمعتري، وقرأ أبو رجاء القنع وهو الراضي لا غير يقال: قنع فهو قنع وقانع.

أما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ فالمعنى: أنها أجسم وأعظم وأقوى من السباع وغيرها مما يمتنع علينا التمكن منه، فالله تعالى جعل الإبل والبقر بالصفة التي يمكننا تصريفها على ما نريد، وذلك نعمة عظيمة من الله تعالى في الدين والدنيا، ثم لما بيَّن تعالى هذه النعمة قال بعده: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ والمراد: لكي تشكروا. قالت المعتزلة: هذا يدل على أنه سبحانه أراد من جميعهم أن يشكروا فدل هذا على أنه يريد كل ما أمر به ممن أطاع وعصى، لا كما يقوله أهل السنة: من أنه تعالى لم يرد ذلك إلا من المعلوم أن يطيع، والكلام عليه قد تقدم غير مرة.

أما قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: لما كانت عادة الجاهلية على ما روي في القربان أنهم يلوثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان الكعبة بيَّن تعالى ما هو القصد من النحر فقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ فبيَّن أن الذي يصل إليه تعالى ويرتفع إليه من صنع المهدي من قوله ونحره وما شاكله من فرائضه هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم، ومعلوم أن شيئًا من الأشياء لا يوصف بأنه يناله سبحانه فالمراد وصول ذلك إلى حيث يكتب يدل عليه قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[فاطر: ١٠].

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: دلت هذه الآية على أمور: **أحدها:** أن الذي ينتفع به المرء فعله دون الجسم الذي ينتفع بنحره. **وثانيها:** أنه سبحانه غني عن كل ذلك، وإنما المراد أن يجتهد العبد في امتثال أوامره. **وثالثها:** أنه لما لم ينتفع بالأجسام التي هي اللحوم والدماء وانتفع بتقواه وجب أن تكون تقواه فعلاً وإلا لكانت تقواه بمنزلة اللحوم. ورابعها: أنه لما شرط القبول بالتقوى وصاحب الكبيرة غير متق فوجب أن لا يكون عمله مقبولاً وأنه لا ثواب له. **والجواب:** أما الأولان فحقان، وأما الثالث فمعارض بالداعي والعلم، وأما الرابع فصاحب الكبيرة وإن لم يكن متقيًا مطلقًا ولكنه متق فيما أتى به من الطاعة على سبيل الإخلاص فوجب أن تكون طاعته مقبولة وعند هذا تنقلب الآية حجة عليهم.

المسألة الثالثة: كلهم قرأوا ﴿يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ ويناله بالياء إلا يعقوب فإنه قرأ بالتاء في الحرفين فمن أنث فقد رده إلى اللفظ ومن ذكر فللحائل بين الاسم والفعل. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ والمراد أنه إنما سخرها كذلك لتكبروا الله وهو التعظيم، بما نفعله عند النحر وقبله وبعده على ما هدانا ودلنا عليه وبينه لنا، ثم قال بعده على وجه الوعد لمن امتثل أمره: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ كما قال من قبل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[الحج: ٣٤] والمحسن: هو الذي يفعل الحسن من الأعمال ويتمسك به فيصير محسنًا إلى نفسه بتوفير الثواب عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ

مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة، وقد ذكرنا من قبل أن الكفار صدوهم، أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد ويؤمن معه التمكن من الحج فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف فيهما. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾ بالألف ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾ بغير ألف، فمن قرأ يدافع فمعناه يبالغ في الدفع عنهم، وقال الخليل: يقال: دفع الله المكروه عنك دفعًا ودافع عنك دفاعًا والدفاع أحسنهما.

المسألة الثانية: ذكر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم، وإن كان في الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين. فلذلك قال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته.

المسألة الثالثة: قال مقاتل: إن الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة، هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبي ﷺ في قتلهم سرًا فنهاهم.

المسألة الرابعة: هذه الآية بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم وهي كقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١] وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٥١] وقال: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ [الصف: ١٣].

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فالمعنى أنه سبحانه جعل العلة في أنه يدافع عن الذين آمنوا أن الله لا يحب صدهم، وهو الخوان الكفور أي: خوان في أمانة الله كفور لنعمته ونظيره قوله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧] قال مقاتل: أقروا بالصانع وعبدوا غيره فأي خيانة أعظم من هذه؟

أما قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم في رواية حفص ﴿أُذِنَ﴾ بضم الألف والباقون بفتحها أي: أذن الله لهم في القتال، وقرأ أهل المدينة وعاصم (يُقَاتَلُونَ) بنصب التاء،

وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (أَذن) بنصب الألف (ويقاتِلون) بكسر التاء. قال الفراء والزجاج: يعني أذن الله للذين يحرصون على قتال المشركين في المستقبل، ومن قرأ بفتح التاء فالتقدير أذن للذين يقاتلون في القتال.

المسألة الثانية: في الآية محذوف والتقدير أذن للذين يقاتلون في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه.

أما قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ فالمراد أنهم أذنوا في القتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركوا مكة يؤذونهم أذى شديدًا وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بقتال حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية، وقيل: نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركوا مكة فأذن في مقاتلتهم.

أما قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فذلك وعد منه تعالى بنصرهم كما يقول المرء لغيره: إن أطعتني فأنا قادر على مجازاتك، لا يعني بذلك القدرة بل يريد أنه سيفعل ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بيَّن أنهم إنما أذنوا في القتال لأجل أنهم ظلموا فبين ذلك الظلم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ فبيَّن تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين: أحدهما: أنهم أخرجوهم من ديارهم. والثاني: أنهم أخرجوهم بسبب أنهم قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وكل واحد من الوجهين عظيم في الظلم، فإن قيل: كيف استثنى من غير حق قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وهو من الحق؟ قلنا: تقدير الكلام أنهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار والتمكين لا موجب الإخراج والتسيير، ومثله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩] ثم بيَّن سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ﴾ أن عادته جل جلاله أن يحفظ دينه بهذا الأمر قرأ نافع (لَهُدِمت) بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: ما المراد بهذا الدفاع الذي أضافه إلى نفسه؟

الجواب: هو إذنه لأهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى: ولولا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين، من حيث يأذن لهم في جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة، ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين ليتفرغ أهل الدين للعبادة وبناء البيوت لها، ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبيع والصلوات وإن كانت لغير أهل الإسلام، وذكر المفسرون وجوهًا أخر: أحدها: قال الكلبي: يدفع الله بالنبيين عن المؤمنين، وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد. وثانيها: روى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يدفع الله بالمحسن عن المسيء، وبالذي يصلي عن الذي لا يصلي، وبالذي يتصدق عن الذي لا يتصدق، وبالذي يحج عن الذي لا يحج، وعن ابن عمر عن

النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّه يَدْفَعُ بِالْمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِائَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَمِنْ جِيرَانِهِ»(١) ثم تلا هذه الآية وثالثها: قال الضحاك: عن ابن عباس رضي الله عنهما يدفع بدين الإسلام وبأهله عن أهل الذمة ورابعها: قال مجاهد: يدفع عن الحقوق بالشهود وعن النفوس بالقصاص.

السؤال الثاني: لماذا جمع الله بين مواضع عبادات اليهود والنصارى وبين مواضع عبادة المسلمين؟ الجواب: لأجل ما سألت عنه اختلفوا على وجوه: **أحدها:** قال الحسن: المراد بهذه المواضع أجمع مواضع المؤمنين، وإن اختلفت العبارات عنها. **وثانيها:** قول الزجاج: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شرع كل نبي المكان الذي يصلي فيه، فلولا ذلك الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه، وفي زمن عيسى الصوامع، وفي زمن نبينا محمد ﷺ المساجد فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ. **وثالثها:** بل المراد لهدمت هذه الصوامع في أيام الرسول ﷺ لأنها على كل حال يجري فيها ذكر الله تعالى فليست بمنزلة عبادة الأوثان.

السؤال الثالث: ما الصوامع والبيع والصلوات والمساجد؟ الجواب: ذكروا فيها وجوهًا: أحدها: الصوامع للنصارى، والبيع لليهود، والصلوات للصابئين، والمساجد للمسلمين عن أبي العالية رضي الله عنه وثانيها: الصوامع للنصارى وهي التي بنوها في الصحارى، والبيع لهم أيضًا وهي التي يبنونها في البلد، والصلوات لليهود، قال الزجاج: وهي بالعبرانية صلوتًا وثالثها: الصوامع للصابئين، والبيع للنصارى، والصلوات لليهود، عن قتادة ورابعها: أنها بأسرها أسماء المساجد، عن الحسن، أما الصوامع فلأن المسلمين قد يتخذون الصوامع، وأما البيع فأطلق هذا الاسم على المساجد على سبيل التشبيه، وأما الصلوات فالمعنى أنه لولا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات ولخربت المساجد.

السؤال الرابع: الصلوات كيف تهدم خصوصًا على تأويل من تأوله على صلاة المسلمين؟ الجواب: من وجوه: **أحدها:** المراد بهدم الصلاة إبطالها وإهلاك من يفعلها كقولهم: هدم فلان إحسان فلان إذا قابله بالكفر دون الشكر. **وثانيها:** بل المراد مكان الصلوات؛ لأنه الذي يصح هدمه كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهلها. **وثالثها:** لما كان الأغلب فيما ذكر ما يصح أن يهدم جاز ضم ما لا يصح أن يهدم إليه، كقولهم: متقلدًا سيفًا ورمحًا، وإن كان الرمح لا يتقلد.

السؤال الخامس: قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ مختص بالمساجد أو عائد إلى الكل؟ الجواب: قال الكلبي ومقاتل: عائد إلى الكل؛ لأن الله تعالى يذكر في هذه المواضع كثيرًا، والأقرب أنه مختص بالمساجد تشريفًا لها بأن ذكر الله يحصل فيها كثيرًا.

السؤال السادس: لم قدم الصوامع والبيع في الذكر على المساجد؟ **الجواب:** لأنها أقدم في

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير بغير إسناد.

الوجود، وقيل: أخرها في الذكر كما في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] ولأن أول الفكر آخر العمل، فلما كان رسول الله ﷺ خير الرسل وأمته خير الأمم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال عليه السلام: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ»(١).

أما قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ فقال بعضهم: من ينصره بتلقي الجهاد بالقبول نصرة لدين الله تعالى، وقال آخرون: بل المراد من يقوم بسائر دينه، وإنما قالوا ذلك لأن نصرة الله على الحقيقة لا تصح، وإنما المراد من نصرة الله نصرة دينه كما يقال في ولاية الله وعداوته مثل ذلك وفي قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ وعد بالنصر لمن هذه حاله، ونصر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائمًا بإيضاح الأدلة والبينات، ويكون بالإعانة على المعارف والطاعات، وفيه ترغيب في الجهاد من حيث وعدهم النصر، ثم بيَّن تعالى أنه قوي على هذه النصرة التي وعدها المؤمنين، وأنه لا يجوز عليه المنع وهو معنى قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ لأن العزيز هو الذي لا يضام ولا يمنع مما يريده. ثم إنه سبحانه وتعالى وصف الذين أذن لهم في القتال في الآية الأولى فقال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ والمراد من هذا التمكن السلطنة ونفاذ القول على الخلق؛ لأن المتبادر إلى الفهم من قوله: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ليس إلا هذا، ولأنا لو حملناه على أصل القدرة لكان كل العباد كذلك وحينئذ يبطل ترتب الأمور الأربعة المذكورة عليه في معرض الجزاء؛ لأنه ليس كل من كان قادرًا على الفعل أتى بهذه الأشياء. إذا ثبت هذا فنقول: المراد بذلك هم المهاجرون؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ﴾ صفة لمن تقدم وهو قوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ والأنصار ما أخرجوا من ديارهم فيصير معنى الآية أن الله تعالى وصف المهاجرين بأنه إن مكنهم من الأرض وأعطاهم السلطنة، فإنهم أتوا بالأمور الأربعة، وهي إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لكن قد ثبت أن الله تعالى مكن الأئمة الأربعة من الأرض وأعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الأمور الأربعة. وإذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق، فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على إمامة الأربعة. ولا يجوز حمل الآية على علي عليه السلام وحده؛ لأن الآية دالة على الجمع، وفي قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ دلالة على أن الذي تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة. ثم إن الأمور ترجع إلى الله تعالى بالعاقبة فإنه سبحانه هو الذي لا يزول ملكه أبدًا وهو أيضًا يؤكد ما قلناه.

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري في كتاب (الجمعة)، باب: (هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم) (٢/ ٤٤٤)، حديث رقم (٨٩٦) من طريق وهيب... به، ومسلم في كتاب (الجمعة)، باب: (هداية هذه الأمة ليوم الجمعة والطيب والسواك) (٢/ ١٩/ ٥٨٥) من طريق سفيان... به، كلاهما (وهيب، سفيان) عن ابن طاوس... به.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن فيما تقدم إخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق، وأذن في مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين أن لله عاقبة الأمور، أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول ﷺ في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره، فقال: وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الأمم أنبياءهم، وذكر الله سبعة منهم. فإن قيل: ولم قال: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ ولم يقل قوم موسى؟ فالجواب: من وجهين: الأول: أن موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو إسرائيل وإنما كذبه غير قومه وهم القبط. الثاني: كأنه قيل: بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسوله، وكذب موسى أيضًا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني أمهلتهم إلى الوقت المعلوم عندي ثم أخذتهم بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهام تقرير (ي)، أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب، أليس كان واقعًا قطعًا؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتًا وبالعمارة خرابًا؟ ألست أعطيت الأنبياء جميع ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الأرض؟ فينبغي أن تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم، فإنه تعالى إنما يمهل للمصلحة فلا بد من الرضاء والتسليم، وإن شق ذلك على القلب. واعلم أن بدون ذلك يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول عليه السلام، فكيف بذلك مع منزلته، لكنه في كل وقت يصل إليه من جهتهم ما يزيده غمًا، فأجرى الله عادته بأن يصبره حالاً بعد حال، وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وبأي جنس من عذاب الاستئصال هلكوا.

وهاهنا بحث، وهو أن هذه الآية تدل على أنه سبحانه يفعل به وبقومه كل ما فعل بهم وبقومهم إلا عذاب الاستئصال فإنه لا يفعله بقوم محمد ﷺ وإن كان قد مكنهم من قتل أعدائهم وثبتهم. قال الحسن: السبب في تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الأمة أن ذلك العذاب مشروط بأمرين: أحدهما: أن عند الله حدًا من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه. والثاني: أن الله لا يعذب قومًا حتى يعلم أن أحدًا منهم لا يؤمن، فأما إذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله أن أحدًا منهم لا يؤمن، فحينئذ يأمر الأنبياء فيدعون على أممهم

فيستجيب الله دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠] أي: من إجابة القوم، وقوله لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦] وإذا عذبهم الله تعالى فإنه ينجي المؤمنين لقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ [هود: ٦٦] أي: بالعذاب نجينا هودًا، واعلم أن الكلام في هذه المسألة قد تقدم فلا فائدة في الإعادة، فإن قيل: كيف يوصف ما ينزله بالكفار من الهلاك بالعذاب المعجل بأنه نكير؟ قلنا: إذا كان رادعًا لغيره وصادعًا له عن مثل ما أوجب ذلك صار نكيرًا.

أما قوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال بعضهم: المراد من قوله: ﴿فَكَأَيِّن﴾ فكم على وجه التكثير، وقيل أيضًا معناه: ورُبَّ قرية. والأول أولى؛ لأنه أوكد في الزجر، فكأنه تعالى لما بين حال قوم من المكذبين وأنه عجل إهلاكهم أتبعه بما دل على أن لذلك أمثالاً وإن لم يذكر مفصلاً.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأهل الكوفة والمدينة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بالنون، وقرأ أبو عمرو ويعقوب (أهلكتها) وهو اختيار أبي عبيد لقوله في الآية الأولى ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ أي أهلها ودل بقوله: وهي ظالمة على ما ذكرنا، ويحتمل أن يكون المراد إهلاك نفس القرية، فيدخل تحت إهلاكها إهلاك من فيها؛ لأن العذاب النازل إذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة حصل بهلاكها هلاك من فيها وإن كان الأول أقرب.

أما قوله وهي: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ **ففيه سؤالان:**

السؤال الأول: ما معنى هذه اللفظة؟ فقال صاحب الكشاف: كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة فهو عرش، والخاوي: الساقط من خوى النجم إذا سقط أو الخالي من خوى المنزل إذا خلا من أهله، فإن فسرنا الخاوي بالساقط، كان المعنى أنها ساقطة على سقوفها، أي: خرت سقوفها على الأرض، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، وإن فسرناه بالخالي كان المعنى أنها خالية عن الناس مع بقاء عروشها وسلامتها، قال: ويمكن أن يكون خبرًا بعد خبر، كأنه قيل: هي خاوية وهي على عروشها، بمعنى أن السقوف سقطت على الأرض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان قائمة فهي مشرفة على السقوف الساقطة، وبالجملة فالآية دالة على أنها بقيت محلاً للاعتبار.

السؤال الثاني: ما محل هاتين الجملتين من الإعراب. أعني ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؟ **الجواب:** الأولى: في محل النصب على الحال، والثانية: لا محل لها؛ لأنها معطوفة على (أهلكناها) وهذا الفعل ليس له محل. قال أبو مسلم: المعنى فكأين من قرية أهلكناها وهي كانت ظالمة وهي الآن خاوية.

أما قوله: ﴿وَبِئۡرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصۡرٍ مَّشِيدٍ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ الحسن ﴿مُعۡطَلَةٍ﴾ من أعطله بمعنى معطلة ومعنى المعطلة أنها عامرة

فيها الماء ويمكن الاستقاء منها إلا أنها عطلت أي: تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها وفي المشيد قولان: **أحدهما:** أنه المجصص؛ لأن الجص بالمدينة يسمى الشيد. **والثاني:** أنه المرفوع المطول، والمعنى أنه تعالى بين أن القرية مع تكلف بنائهم لها واغتباطهم بها جعلت لأجل كفرهم بهذا الوصف، وكذلك البئر التي كلفوها وصارت شربهم صارت معطلة بلا شارب ولا وارد، والقصر الذي أحكموه بالجص وطولوه صار ظاهرًا خاليًا بلا ساكن، وجعل ذلك تعالى عبرة لمن اعتبر وتدبر. وفيه دلالة على أن تفسير على بمع أولى؛ لأن التقدير وهي خاوية مع عروشها ومعلوم أنها إذا كانت كذلك كانت أدخل في الاعتبار وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧]، والله أعلم بالصواب.

المسألة الثانية: روى أبو هريرة رضي الله عنه أن هذه البئر نزل عليها صالح مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به، ونجاهم الله تعالى من العذاب وهم بحضرموت، وإنما سميت بذلك؛ لأن صالحًا حين حضرها مات، وثم بلدة عند البئر اسمها حاضورًا بناها قوم صالح، وأمَّروا عليها حاسر بن جلاس وجعلوا وزيره سنجاريب وأقاموا بها زمانًا ثم كفروا وعبدوا صنمًا، وأرسل الله تعالى إليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه في السوق فأهلكهم الله تعالى، وعطل بئرهم وخرَّب قصورهم، قال الإمام أبو القاسم الأنصاري: وهذا عجيب لأني زرت قبر صالح بالشام ببلدة يقال لها: عكة فكيف يقال: إنه بحضرموت.

أما قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار؛ لأن الرؤية لها حظ عظيم في الاعتبار وكذلك استماع الأخبار فيه مدخل، ولكن لا يكمل هذان الأمران إلا بتدبر القلب؛ لأن من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع ألبتة ولو تفكر فيها سمع لانتفع، فلهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ كأنه قال: لا عمى في أبصارهم فإنهم يرون بها، لكن العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه. **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هل يدل على الأمر بالسفر؟ الجواب: يحتمل أنهم ما سافروا فحثهم على السفر؛ ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا، ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا.

السؤال الثاني: ما معنى الضمير في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾؟ والجواب: هذا الضمير ضمير القصة والشأن يجيء مؤنثًا ومذكرًا وفي قراءة ابن مسعود (فإنه) ويجوز أن يكون ضميرًا مبهمًا يفسره الأبصار.

السؤال الثالث: أي فائدة في ذكر الصدور مع أن كل أحد يعلم أن القلب لا يكون إلا في الصدر؟ الجواب: أن المتعارف أن العمى مكانه الحدقة، فلما أريد إثباته للقلب على خلاف المتعارف

احتيج إلى زيادة بيان كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسان وتثبيت؛ لأن محل المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك سهوًا، ولكني تعمدته على اليقين. وعندي فيه وجه آخر وهو أن القلب قد يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وعند قوم أن محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى بين أن محل ذلك هو الصدر.

السؤال الرابع: هل تدل الآية على أن العقل هو العلم وعلى أن محل العلم هو القلب؟ الجواب: نعم، لأن المقصود من قوله: ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ العلم وقوله: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ كالدلالة على أن القلب آلة لهذا التعقل، فوجب جعل القلب محلاً للتعقل ويسمى الجهل بالعمى؛ لأن الجاهل لكونه متحيرًا يشبه الأعمى.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى من عظم ما هم عليه من التكذيب أنهم يستهزئون باستعجال العذاب فقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ وفي ذلك دلالة على أنه عليه السلام كان يخوفهم بالعذاب إن استمروا على كفرهم ولأن قولهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الحجر: ٧] يدل على ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لأن الوعد بالعذاب إذا كان في الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بيَّن أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني فيما ينالهم من العذاب وشدته ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾ لو بقي وعذب في كثرة الآلام وشدتها فبيَّن سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه، وهذا قول أبي مسلم وهو أولى الوجوه. الوجه الثاني: أن المراد طول أيام الآخرة في المحاسبة ويرجع معناه إلى قريب مما تقدم، وذلك أن الأيام القصيرة إذا مرت في الشدة كانت مستطيلة فكيف تكون الأيام المستطيلة إذا مرت في الشدة. ثم إن العذاب الذي يكون طول أيامها إلى هذا الحد لا ينبغي للعاقل أن يستعجله. والوجه الثالث: أن اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة إليه على السواء؛ لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء، فإذا لم يستبعدوا إمهال يوم فلا يستبعدوا أيضًا إمهال ألف سنة.

اما قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ فالمراد وكم من قرية أخرت إهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاغتروا بذلك التأخير ثم أخذتهم بأن أنزلت العذاب بهم، ومع ذلك فعذابهم مدخر إذا صاروا إليَّ وهو تفسير قوله: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فإن قيل: فلم قال فيما قبل: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥] وقال هاهنا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾

الأولى بالفاء وهذه بالواو؟ قلنا: الأولى وقعت بدلاً عن قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤] وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو، أعني قوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

أما قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فالمعنى أنه تعالى أمر رسوله بأن يديم لهم التخويف والإنذار، وأن لا يصده ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل الهزؤ عن إدامة التخويف والإنذار، وأن يقول لهم: إنما بعثت للإنذار فاستهزاؤكم بذلك لا يمنعني منه.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن للرسول ﷺ أنه يجب أن يقول لهم: أنا نذير مبين، أردف ذلك بأن أمره بوعدهم ووعيدهم؛ لأن الرجل إنما يكون منذرًا بذكر الوعد للمطيعين والوعيد للعاصين. فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات فجمع بين الوصفين وهذا دليل على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان وبه يبطل قول المعتزلة، ويدخل في الإيمان كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان، ويدخل في العمل الصالح أداء كل واجب وترك كل محظور، ثم بيَّن سبحانه أن من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم. أما المغفرة فإما أن تكون عبارة عن غفران الصغائر، أو عن غفران الكبائر بعد التوبة، أو عن غفرانها قبل التوبة، والأولان واجبان عند الخصم، وأداء الواجب لا يسمى غفرانًا، فبقي الثالث وهو دلالته على العفو عن أصحاب الكبائر من أهل القبلة. وأما الرزق الكريم فهو إشارة إلى الثواب، وكرمه يحتمل أن يكون للصفات السلبية، وهو أن الإنسان هناك يستغني عن المكاسب وتحمل المشاق والذل فيها وارتكاب المآثم والدناءة بسببها، وأن يكون للصفات الثبوتية، وهو أن يكون رزقًا كثيرًا دائمًا خالصًا عن شوائب الضرر، مقرونًا بالتعظيم والتبجيل. والأولى جعل الكريم دالاً على كل هذه الصفات، فهذا شرح حال المؤمنين. وأما حال الكفار فقال: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ والمراد: اجتهدوا في ردها والتكذيب بها حيث سموها سحرًا وشعرًا وأساطير الأولين، ويقال لمن بذل جهده في أمر: إنه سعى فيه توسعًا من حيث بلغ في بذل الجهد النهاية، كما إذا بلغ الماشي نهاية طاقته فيقال له سعى، وذكر الآيات وأراد التكذيب بها مجازًا. قال صاحب (الكشاف): يقال: سعى في أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه، أما المعاجز فيقال: عاجزته، أي: طمعت في إعجازه، واختلفوا في المراد، هل معاجزين لله أو للرسول وللمؤمنين؟ والأقرب هو الثاني؛ لأنهم إن أنكروا الله استحال منهم أن يطمعوا في إعجازه وإن أثبتوه فيبعد أن يعتقدوا أنهم يعجزونه ويغلبونه، ويصح منهم أن يظنوا ذلك في الرسول بالحيل والمكايد. أما الذين قالوا: المراد معاجزين لله، فقد ذكروا وجوهًا: أحدها: المراد بمعاجزين

مغالبين مفوتين لربهم من عذابهم وحسابهم حيث جحدوا البعث وثانيها: أنهم يثبطون غيرهم عن التصديق بالله ويثبطونهم بسبب الترغيب والترهيب وثالثها: يعجزون الله بإدخال الشبه في قلوب الناس. والجواب عن الأول: أن من جحد أصل الشيء لا يوصف بأنه مغالب لمن يفعل ذلك الشيء، ومن تأول الآية على ذلك فيجب أن يكون مراده أنهم ظنوا مغالبة الرسول ﷺ فيما كان يقوله من أمر الحشر والنشر والجواب عن الثاني والثالث: أن المغالبة في الحقيقة ترجع إلى الرسول والأمة، لا إلى الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فالمراد أنهم يدومون فيها وشبههم من حيث الدوام بالصاحب، فإن قيل: إنه عليه السلام في هذه الآية بشر المؤمنين أولاً وأنذر الكافرين ثانيًا، فكان القياس أن يقال: قل: يأيها الناس إنما أنا لكم بشير ونذير، قلنا: الكلام مسوق إلى المشركين، ويأيها الناس نداء لهم، وهم الذين قيل فيهم: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحج: ٤٦] ووصفوا بالاستعجال وإنما ألقى ذكر المؤمنين وثوابهم في البين زيادة لغيظهم وإيذائهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾﴾

أما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: من الناس من قال: الرسول هو الذي حدث وأرسل، والنبي هو الذي لم يرسل ولكنه ألهم أو رأى في النوم، ومن الناس من قال: إن كل رسول نبي، وليس كل نبي يكون رسولاً، وهو قول الكلبي والفراء. وقالت المعتزلة: كل رسول نبي، وكل نبي رسول، ولا فرق بينهما، واحتجوا على فساد القول الأول بوجوه: أحدها: هذه الآية فإنها دالة على أن النبي قد يكون مرسلاً، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: ٩٤]. وثانيها:

أن الله تعالى خاطب محمدًا مرة بالنبي ومرة بالرسول، فدل على أنه لا منافاة بين الأمرين، وعلى القول الأول المنافاة حاصلة. وثالثها: أنه تعالى نص على أنه خاتم النبيين. ورابعها: أن اشتقاق لفظ النبي إما من النبأ وهو الخبر، أو من قولهم: نبأ إذا ارتفع، والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسالة. أما القول الثاني: فاعلم أن شيئًا من تلك الوجوه لا يبطله، بل هذه الآية دالة عليه؛ لأنه عطف النبي على الرسول، وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص. وقال في موضع آخر: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦] وذلك يدل على أنه كان نبيًا، فجعله الله مرسلاً وهو يدل على قولنا: وقِيلَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ كم المرسلون؟ فقال «ثلاثمائة وثلاثة عشرة»، فَقِيلَ وَكَم الْأَنْبِيَاءُ؟ فَقَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا الْجَمُّ الْغَفِيرُ»(١) إذا ثبت هذا فنقول: ذكروا في الفرق بين الرسول والنبي أمورًا: أحدها: أن الرسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو إلى كتاب من قبله. والثاني: أن من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعًا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول، وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا إسحق، ويعقوب، وأيوب، ويونس، وهارون، وداود، وسليمان، رسلاً؛ لأنهم ما جاءوا بكتاب ناسخ. والثالث: أن من جاءه الملك ظاهرًا وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولاً، أو أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله، فهو النبي الذي لا يكون رسولاً وهذا هو الأولى.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن الرسول ﷺ لما رأى إعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على إيمانهم فجلس ذات يوم في نادٍ من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ قوله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] ألقى الشيطان على لسانه «تِلْكَ الْغَرَانِيقُ العلى مِنْهَا الشَّفَاعَةُ تُرْتَجَى» فلما

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه النسائي في كتاب (الاستعاذة)، باب: (الاستعاذة من الشياطين الإنس) (٨/ ٢٧٥)، حديث رقم (٥٥٠٧) من طريق جعفر بن عون، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبي عمر، عن عبيد بن خشخاش... به مختصرًا على الاستعاذة فقط، وأحمد في (مسنده) (٥/ ١٧٩)، حديث رقم (٢١٥٩٢)، قال: حدثنا يزيد أخبرنا المسعودي عن أبي عمر والشامي بن عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر... به، وأبو داود الطيالسي في (مسنده) (١/ ٦٥)، حديث رقم (٤٧٨) قال: حدثنا المسعودي عن أبي عمرو الشامي، عن عبيد بن الخشني، عن ابي ذر... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ٢٩١)، حديث رقم (٣٥٧٦) من طريق أبي داود حدثنا المسعودي... به، وهناد في (الزهد) (٢/ ٥١٦ - ٥١٧)، حديث رقم (١٠٦٥)، قال: حدثنا محمد بن عبيد حدثنا المسعودي عن أبي عمرو... به، وفي إسناده: عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، صدوق اختلط قبل موته، وضابطه أن من سمع منه ببغداد مبعد الاختلاط، وأبو عمر، ويقال أبو عمرو الدمشقي قال الحافظ: ضعيف وعبيد بن الخشخاش لين كما قال الحافظ.

سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة، وأبي أحيحة سعيد بن العاصي، فإنهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها إلى جبهتيهما وسجدا عليها؛ لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال: ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك؟! فحزن رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا وخاف من الله خوفًا عظيمًا حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ (١) الآية. هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول.

أما القرآن فوجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. وثانيها: قوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ﴾ [يونس: ١٥]. وثالثها: قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلي لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال وذلك لا يقوله مسلم. ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣] وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل. وخامسها: قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل. وسادسها: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وسابعها: قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]. وأما السنة فهي ما روي عن محمد بن إسحق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتابًا. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم، وأيضًا فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي عليه السلام قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيه حديث الغرانيق (٢). وروي هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الغرانيق. **وأما المعقول فمن وجوه:**

أحدها: أن من جوز على الرسول ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الطبراني في (الكبير) (٩/ ٣٤)، حديث رقم (٨٣١٦) من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٦/ ٣٤)، وقال: رواه الطبراني هكذا مرسلاً وفيه ابن لهيعة أيضا.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (١/ ٣٦٤)، حديث رقم (١٠٢١)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٠٩)، حديث رقم (٣٧٤٥)، وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه بهذه السياقة، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٢/ ٣١٤)، حديث رقم (٣٥٢٧)، جميعًا من طريق أيوب عن عكرمة عن ابن عباس... به.

أعظم سعيه كان في نفي الأوثان وثانيها: أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنًا أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه، وإنما كان يصلي إذا لم يحضروها ليلاً أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم. وثالثها: أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجدًا مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم. ورابعها: قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها، فإذا أراد الله إحكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنًا، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً أولى. وخامسها: وهو أقوى الوجوه أنَّا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب أن جمعًا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر، وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة، ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لأمرين: أحدهما: تمنى القلب، والثاني: القراءة، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي: إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة، وقال حسان:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ ... وَآخِرَهَا لاَقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ[1]

قيل: إنما سميت القراءة أمنية؛ لأن القارىء إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها، وقال أبو مسلم: التمني هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية: وفاة الإنسان في الوقت الذي قدره الله تعالى، ومنى الله لك أي: قدر لك. وقال رواة اللغة: الأمنية القراءة واحتجوا ببيت حسان، وذلك راجع إلى الأصل الذي ذكرناه فإن التالي مقدر للحروف ويذكرها شيئًا فشيئًا، فالحاصل من هذا البحث أن الأمنية، إما القراءة، وإما الخاطر، أما إذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان: الأول: أنه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول ﷺ فيه ويشتبه على القارىء دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى. الثاني: المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد

---

(١) وقاله هذا البيت أيضًا كعب بن مالك الأنصاري وهو كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري السلمي الخزرجي. ؟- ٥٠ هـ/ ؟- ٦٧٠م، صحابي من أكابر الشعراء من أهل المدينة واشتهر في الجاهلية وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ وشهد أكثر الوقائع.

تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة النجم اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب إليه جماعة وهو ضعيف لوجوه: أحدها: أن التوهم في مثل ذلك إنما يصح فيما قد جرت العادة بسماعه فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه. وثانيها: أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فإن العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم في الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد في المحسوسات. وثالثها: لو كان كذلك لم يكن مضافًا إلى الشيطان.

الوجه الثاني: قالوا: إن ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه في درج تلك التلاوة في بعض وقفاته؛ ليظن أنه من جنس الكلام المسموع من الرسول ﷺ قالوا: والذي يؤكده أنه لا خلاف في أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتي الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات في أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فإذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصًا آخر ظن الحاضرون أنه كلام الرسول، ثم هذا لا يكون قادحًا في النبوة لما لم يكن فعلاً له، وهذا أيضًا ضعيف فإنك إذا جوزت أن يتكلم في أثناء الشيطان كلام الرسول ﷺ بما يشتبه على كل السامعين كونه كلامًا للرسول بقي هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول فيفضي إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع، فإن قيل: هذا الاحتمال قائم في الكل ولكنه لو وقع لوجب في حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما في هذه الواقعة إزالة للتلبيس، قلنا: لا يجب على الله إزالة الاحتمالات كما في المتشابهات وإذا لم يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل.

الوجه الثالث: أن يقال: المتكلم بذلك بعض شياطين الإنس وهم الكفرة فإنه عليه السلام لما انتهى في قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها فقال بعض من حضر: تلك الغرانيق العلى فاشتبه الأمر على القوم لكثرة لغط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه وإخفاء قراءته، ولعل ذلك كان في صلاته؛ لأنهم كانوا يقربون منه في حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها، وقيل: إنه عليه السلام كان إذا تلا القرآن على قريش توقف في فصول الآيات فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام في تلك الوقفات فتوهم القوم أنه من قراءة الرسول ﷺ ثم أضاف الله تعالى ذلك إلى الشيطان؛ لأنه بوسوسته يحصل أولاً، ولأنه سبحانه جعل ذلك المتكلم في نفسه شيطانًا وهذا أيضًا ضعيف لوجهين: أحدهما: أنه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول ﷺ إزالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل وإظهار أن هذه الكلمة منه صدرت. وثانيهما: لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل، فإن قيل: إنما لم يفعل الرسول ﷺ ذلك؛ لأنه كان قد أدى السورة بكمالها إلى الأمة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديًا إلى التلبيس كما يؤدي سهوه في الصلاة بعد أن وصفها إلى اللبس، قلنا: إن القرآن لم يكن

مستقرًا على حالة واحدة في زمان حياته؛ لأنه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببًا لزوال اللبس، وأيضًا فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على ما رواه القوم.

الوجه الرابع: هو أن المتكلم بهذا هو الرسول ﷺ ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فإنه إما أن يكون قال هذه الكلمة سهوًا، أو قسرًا، أو اختيارًا.

أما الوجه الأول: وهو أنه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوًا فكما يروى عن قتادة ومقاتل أنهما قالا إنه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من في المسجد وفرح المشركون بما سمعوه، وأتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه، فلما انتهى إلى الغرانيق قال: لم آتك بهذا، فحزن رسول الله ﷺ إلى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف أيضًا لوجوه: أحدها: أنه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع. وثانيها: أن الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها، فإنا نعلم بالضرورة أن واحدًا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها. وثالثها: هب أنه تكلم بذلك سهوًا، فكيف لم ينبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر.

أما الوجه الثاني: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك قسرًا وهو الذي قال قوم: إن الشيطان أجبر النبي ﷺ على أن يتكلم بهذا فهذا أيضًا فاسد لوجوه: أحدها: أن الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك بإجبار الشياطين. وثانيها: أن الشيطان لو قدر على هذا الإجبار لارتفع الأمان عن الوحي لقيام هذا الاحتمال. وثالثها: أنه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيًا عن الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠] وقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠] ولا شك أنه عليه السلام كان سيد المخلصين.

أما الوجه الثالث: وهو أنه عليه السلام تكلم بذلك اختيارًا فهاهنا وجهان:

أحدهما: أن نقول إن هذه الكلمة باطلة. والثاني: أن نقول إنها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الأول فذكروا فيه طريقين: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: إن شيطانًا يقال له: الأبيض أتاه على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ إلى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام: أنا ما جئتك بهذه، قال رسول الله ﷺ: إنه أتاني آت على صورتك فألقاها على لساني الطريق. الثاني: قال بعض الجهال: إنه عليه السلام لشدة حرصه

على إيمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها، وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم ألبتة؛ لأن الأول يقتضي أنه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثاني يقتضي أنه كان خائنًا في الوحي وكل واحد منهما خروج عن الدين.

أما الوجه الثاني: وهو أن هذه الكلمة ليست باطلة فهاهنا أيضًا طرق: **الأول:** أن يقال: الغرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآنًا منزلاً في وصف الملائكة. فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته. **الثاني:** أن يقال: المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار، فكأنه قال: أشفاعتهن ترتجى؟ **الثالث:** أن يقال إنه ذكر الإثبات وأراد النفي كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦] أي: لا تضلوا كما قد يذكر النفي ويريد به الإثبات كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١] والمعنى: أن تشركوا. وهذان الوجهان الأخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة القرآن أو في الصلاة بناء على هذا التأويل، ولكن الأصل في الدين أن لا يجوز عليهم شيء من ذلك؛ لأن الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن في ذلك أو ينفر، ومثل ذلك في التنفير أعظم من الأمور التي حثه الله تعالى على تركها كنحو الفظاظة، والكتابة، وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة في قوله: تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها، فهذا كله إذا فسرنا التمني بالتلاوة. وأما إذا فسرناها بالخاطر وتمنى القلب فالمعنى أن النبي ﷺ متى تمنى بعض ما يتمناه من الأمور يوسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغي ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه إلى ترك الالتفات إلى وسوسته، ثم اختلفوا في كيفية تلك الوسوسة على وجوه:

احدها: أنه يتمنى ما يتقرب به إلى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا: إنه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك في نفسه فعندما لحقه النعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت في نفسه وهذا أيضًا خروج عن الدين وبيانه ما تقدم. وثانيها: ما قال مجاهد: من أنه عليه السلام كان يتمنى إنزال الوحي عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بأن إنزال ذلك بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها. وثالثها: يحتمل أنه عليه السلام عند نزول الوحي كان يتفكر في تأويله إن كان مجملاً فيلقى الشيطان في جملته ما لم يرده، فبيَّن تعالى أنه ينسخ ذلك بالإبطال ويحكم ما أراده الله تعالى بأدلته وآياته. ورابعها: معنى الآية إذا تمنى إذا أراد فعلاً مقربًا إلى الله تعالى ألقى الشيطان في فكره ما يخالفه فيرجع إلى الله تعالى في ذلك وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وكقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] ومن الناس من قال: لا يجوز حمل الأمنية على تمني القلب؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله ﷺ فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ والجواب: لا يبعد أنه إذا قوي التمني اشتغل الخاطر به فحصل السهو في الأفعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول في هذه المسألة.

المسألة الثالثة: يرجع حاصل البحث إلى أن الغرض من هذه الآية بيان أن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان، بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر فالواجب أن لا يتبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم، وقال أبو مسلم: معنى الآية أنه لم يرسل نبيًّا إلا إذا تمنى كأنه قيل: وما أرسلنا إلى البشر ملكًا وما أرسلنا إليهم نبيًّا إلا منهم، وما أرسلنا نبيًّا خلا عند تلاوته الوحي من وسوسة الشيطان وأن يلقي في خاطره وما يضاد الوحي ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبي على الوحي وعلى حفظه ويعلمه صواب ذلك وبطلان ما يكون من الشيطان، قال: وفيما تقدم من قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تقوية لهذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين: أنا نذير لكم لكنني من البشر لا من الملائكة، ولم يرسل الله تعالى مثلي ملكًا بل أرسل رجالاً فقد وسوس الشيطان إليهم، فإن قيل هذا إنما يصح لو كان السهو لا يجوز على الملائكة، قلنا: إذا كانت الملائكة أعظم درجة من الأنبياء لم يلزم من استيلائهم بالوسوسة على الأنبياء استيلاؤهم بالوسوسة على الملائكة، واعلم أنه سبحانه لما شرح حال هذه الوسوسة أردف ذلك ببحثين:

البحث الأول: كيفية إزالتها وذلك هو قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فالمراد: إزالته وإزالة تأثيره فهو النسخ اللغوي لا النسخ الشرعي المستعمل في الأحكام. أما قوله: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فإذا حمل التمني على القراءة فالمراد به آيات القرآن وإلا فيحمل على أحكام الأدلة التي لا يجوز فيها الغلط.

البحث الثاني: أنه تعالى بيَّن أثر تلك الوسوسة، ثم إنه سبحانه شرح أثرها في حق الكفار أولاً ثم في حق المؤمنين ثانيًا، أما في حق الكفار فهو قوله: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ والمراد به تشديد التبعيد؛ لأن عندما يظهر من الرسول ﷺ الاشتباه في القرآن سهوًا يلزمهم البحث عن ذلك ليميزوا السهو من العمد وليعلموا أن العمد صواب والسهو قد لا يكون صوابًا.

أما قوله: ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ **ففيه سؤالان:**

السؤال الأول: لم قال: ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ولم خصهم بذلك؟ الجواب: لأنهم مع كفرهم يحتاجون إلى ذلك التدبر، وأما المؤمنون فقد تقدم علمهم بذلك فلا يحتاجون إلى التدبر.

السؤال الثاني: ما مرض القلب؟ الجواب: أنه الشك والشبهة وهم المنافقون كما قال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وأما القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرون على جهلهم ظاهرًا وباطنًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ يريد أن هؤلاء المنافقين والمشركين فأصله وإنهم، فوضع الظاهر موضع المضمر قضاء عليهم بالظلم والشقاق والمشاقة والمعاداة

والمباعدة سواء، وأما في حق المؤمنين فهو قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وفي الكناية ثلاثة أوجه: أحدها: أنها عائدة إلى نسخ ما ألقاه الشيطان، عن الكلبي. وثانيها: أنه الحق أي: القرآن عن مقاتل. وثالثها: أن تمكن الشيطان من ذلك الإلقاء هو الحق، أما على قولنا فلأنه سبحانه وتعالى أي شيء فعل فقد تصرف في مُلكه ومِلكه بضم الميم وكسرها فكان حقًا، وأما على قول المعتزلة فلأنه سبحانه حكيم فتكون كل أفعاله صوابًا فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم أي: تخضع وتسكن لعلمهم بأن المقضي كائن، وكل ميسر لما خلق له، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ إلى أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا ما أشكل منه من المجمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة وقرىء (لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا) بالتنوين، ولما بيَّن سبحانه حال الكافرين أولاً ثم حال المؤمنين ثانيًا عاد إلى شرح حال الكافرين مرة أخرى فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن أو من الرسول، وذلك يدل على أن الأعصار إلى قيام الساعة لا تخلو ممن هذا وصفه.

اما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من دون أن يشعروا ثم جعل الساعة غاية لكفرهم، وأنهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الإلجاء. واختلف في المراد باليوم العقيم وفيه قولان: أحدهما: أنه يوم بدر وإنما وصف يوم الحرب بالعقيم لوجوه أربعة: أحدها: أن أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن. وثانيها: أن المقاتلين يقال لهم: أبناء الحرب فإذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز. وثالثها: هو الذي لا خير فيه يقال: ريح عقيم إذا لم تنشىء مطرًا ولم تلقح شجرًا. ورابعها: أنه لا مثل له في عظم أمره، وذلك لقتال الملائكة فيه. القول الثاني: أنه يوم القيامة، وإنما وصف بالعقيم لوجوه: أحدها: أنهم لا يرون فيه خيرًا. وثانيها: أنه لا ليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة. وثالثها: أن كل ذات حمل تضع حملها في ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه، وهذا القول أولى؛ لأنه لا يجوز أن يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ويكون المراد يوم بدر؛ لأن من المعلوم أنهم في مرية بعد يوم بدر، فإن قيل: لما ذكر الساعة. فلو حملتم اليوم العقيم على يوم القيامة لزم التكرار. قلنا: ليس كذلك؛ لأن الساعة من مقدمات القيامة واليوم العقيم هو نفس ذلك اليوم، وعلى أن الأمر لو كان كما قاله لم يكن تكرارًا؛ لأن في الأول ذكر الساعة، وفي الثاني ذكر عذاب ذلك اليوم، ويحتمل أن يكون المراد بالساعة وقت موت كل أحد وبعذاب يوم عقيم القيامة.

اما قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فمن أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم وأراد بذلك أنه لا مالك في ذلك اليوم سواه فهو بخلاف أيام الدنيا التي ملك الله الأمور غيره، وبيَّن أنه الحاكم بينهم لا حاكم سواه وذلك زجر عن معصيته ثم بيَّن كيف يحكم بينهم، وأنه يصير المؤمنين إلى جنات النعيم، والكافرين في العذاب المهين، وقد تقدم وصف الجنة والنار فإن

قيل: التنوين في يومئذ عن أي جملة ينوب؟ قلنا: تقديره الملك يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن الملك له يوم القيامة وأنه يحكم بينهم ويدخل المؤمنين الجنات أتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين، وأفردهم بالذكر تفخيمًا لشأنهم فقال عز من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ واختلفوا فيمن أريد بذلك، فقال بعضهم: من هاجر إلى المدينة طالبًا لنصرة الرسول ﷺ وتقربًا إلى الله تعالى، وقال آخرون: بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول ﷺ أو في سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده، ومنهم من حمله على الأمرين. واختلفوا من وجه آخر فقال قوم: المراد قوم مخصوصون، روى مجاهد أنها نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم، وظاهر الكلام للعموم. ثم إنه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم، أما الرزق فقوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: لا شبهة في أن الرزق الحسن هو نعيم الجنة، وقال الأصم: إنه العلم والفهم كقول شعيب عليه السلام: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨] فهذا في الدنيا وفي الآخرة الجنة، وقال الكلبي: رزقًا حسنًا حلالاً وهو الغنيمة وهذان الوجهان ضعيفان؛ لأنه تعالى جعله جزاء على هجرتهم في سبيل الله بعد القتل والموت وبعدهما لا يكون إلا نعيم الجنة.

المسألة الثانية: لا بد من شرط اجتناب الكبائر في كل وعد في القرآن؛ لأن هذا المهاجر لو ارتكب كبيرة لكان حكمه في المشيئة على قولنا، ولخرج عن أن يكون أهلاً للجنة قطعًا على قول المعتزلة. فإن قيل: فما فضله على سائر المؤمنين في الوعد إن كان كما قلتم؟ قلنا: فضلهم يظهر لأن ثوابهم أعظم وقد قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠] فمعلوم أن من هاجر مع الرسول ﷺ وفارق دياره وأهله لتقويته ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعله كالسبب لقوة الدين، وعلى هذا الوجه عظم محل الأنصار حتى صار

ذكرهم والثناء عليهم تاليًا لذكر المهاجرين لما آووه ونصروه.

المسألة الثالثة: اختلفوا في معنى قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه: أحدها: التفاوت إنما كان بسبب أنه سبحانه مختص بأن يرزق ما لا يقدر عليه غيره. وثانيها: أن يكون المراد أنه الأصل في الرزق، وغيره إنما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى. وثالثها: أن غيره ينقل الرزق من يده إلى يد غيره لا أنه يفعل نفس الرزق. ورابعها: أن غيره إذا رزق فإنما يرزق لانتفاعه به، إما لأجل أن يخرج عن الواجب، وإما لأجل أن يستحق به حمدًا أو ثناء، وإما لأجل دفع الرقة الجنسية، فكان الواحد منا إذا رَزَق فقد طلب العوض، أما الحق سبحانه فإن كماله صفة ذاتية له فلا يستفيد من شيء كمالاً زائدًا فكان الرزق الصادر منه لمحض الإحسان. وخامسها: أن غيره إنما يرزق لو حصل في قلبه إرادة ذلك الفعل، وتلك الإرادة من الله، فالرازق في الحقيقة هو الله تعالى. وسادسها: أن المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى أسهل تحملاً من منة الغير، فكان هو خير الرازقين. وسابعها: أن الغير إذا رزق فلولا أن الله تعالى أعطى ذلك الإنسان أنواع الحواس وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به، ورزق الغير لا بد وأن يكون مسبوقًا برزق الله وملحوقًا به حتى يحصل الانتفاع، وأما رزق الله تعالى فإنه لا حاجة به إلى رزق غيره، فثبت أنه سبحانه خير الرازقين.

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: الآية تدل على أمور ثلاثة: أحدها: أن الله تعالى قادر. وثانيها: أن غير الله يصح منه أن يرزق ويملك، ولولا كونه قادرًا فاعلاً لما صح ذلك. وثالثها: أن الرزق لا يكون إلا حلالاً لأن قوله ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ دلالة على كونهم ممدوحين. والجواب: لا نزاع في كون العبد قادرًا، فإن عندنا القدرة مع الداعي مؤثرة في الفعل بمعنى الاستلزام. وأما الثالث فبحث لفظي وقد سبق الكلام فيه.

المسألة الخامسة: لما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ فسوى بينهما في الوعد، ظن قوم أن حال المقتول في الجهاد والميت على فراشه سواء، وهذا إن أخذوه من الظاهر فلا دلالة فيه؛ لأن الجمع بينهما في الوعد لا يدل على تفضيل ولا تسوية، كما أن الجمع بين المؤمنين لا يدل على ذلك. وإن أخذوه من دليل آخر فهو حق، فإنه روى أنس أن النبي ﷺ قال: «**الْمَقْتُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْمُتَوَفَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ قَتْلٍ، هُمَا فِي الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ شَرِيكَانِ**»(١) ولفظ الشركة مشعر بالتسوية، وإلا فلا يبقى لتخصيصهما بالذكر فائدة. وروى أيضًا: أن طوائف من أصحاب النبي ﷺ قالوا يا رسول الله، هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن متنا معك؛ فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وهذا يدل

(١) لم أجده.

على التسوية؛ لأنهم لما طلبوا مقدار الأجر، فلولا التسوية لم يكن الجواب مفيدًا. أما المسكن فقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرئ مُدخلاً بضم الميم وهو من الإدخال، ومن قرأ بالفتح فالمراد الموضع.

المسألة الثانية: قيل في المدخل الذي يرضونه: إنه خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع، وقال أبو القاسم القشيري: هو أن يدخلهم الجنة من غير مكروه تقدم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما قال: يرضونه؛ لأنهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ولا يبغون عنها حولاً، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ [التوبة: ٢٤] وقوله: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] وقوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨] وقوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

المسألة الثالثة: إن قيل: ما معنى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ وما تعلقه بما تقدم؟ قلنا: يحتمل أنه عليم بما يستحقونه فيفعله بهم ويزيدهم، ويحتمل أن يكون المراد أنه عليم بما يرضونه فيعطيهم ذلك في الجنة، وأما الحليم فالمراد أنه لحلمه لا يعجل بالعقوبة فيمن يقدم على المعصية، بل يمهل ليقع منه التوبة فيستحق منه الجنة.

أما قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ قد مضى الكلام فيه في هذه الآية في هذه السورة. وقال الزجاج: أي: الأمر ما قصصنا عليك من إنجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ معناه: قاتل من كان يقاتله، ثم كان المقاتل مبغيًا عليه بأن اضطر إلى الهجرة ومفارقة الوطن وابتدىء بالقتال، قال مقاتل: نزلت في قوم من المشركين لقوا قومًا من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم، فقال بعضهم لبعض: إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر، فأبوا وقاتلوهم. فذلك بغيهم عليهم، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم. فوقع في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام ما وقع، فأنزل الله تعالى هذه الآية: وعفا عنهم وغفر لهم **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: أي تعلق لهذه الآية بما قبلها؟ الجواب: كأنه سبحانه وتعالى قال: مع إكرامي لهم في الآخرة بهذا الوعد لا أدع نصرتهم في الدنيا على من بغى عليهم.

السؤال الثاني: هل يرجع ذلك إلى المهاجرين خاصة أو إليهم وإلى المؤمنين؟ الجواب: الأقرب أنه يعود إلى الفريقين فإنه تقدم ذكرهما، وبيَّن ذلك قوله تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ وبعد القتل والموت لا يمكن ذلك في الدنيا.

السؤال الثالث: ما المراد بالعقوبة المذكورة؟ الجواب فيه وجهان: أحدهما: المراد ما فعله مشركو مكة مع المهاجرين بمكة من طلب آثارهم، ورد بعضهم إلى غير ذلك، فبيَّن تعالى أن من عاقب هؤلاء الكفار بمثل ما فعلوا فسينصره عليهم، وهذه النصرة المذكورة تقوي تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لا على القصاص لأن ظاهر النص لا يليق إلا بذلك. والجواب الثاني: أن هذه الآية في القصاص والجراحات، وهي آية مدنية عن الضحاك.

السؤال الرابع: لم سمى ابتداء فعلهم بالعقوبة؟ الجواب: أطلق اسم العقوبة على الأول للتعلق الذي بينه وبين الثاني كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢].

السؤال الخامس: أي تعلق لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ بما تقدم؟ الجواب فيه وجوه: أحدها: أن الله تعالى ندب المعاقب إلى العفو عن الجاني بقوله: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع إساءة، فكأنه سبحانه قال: إني قد عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها، فإني أنا الذي أذنت لك فيه. وثانيها: أنه سبحانه وإن ضمن له النصر على الباغي، لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلوح بذكر هاتين الصفتين. وثالثها: أنه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة؛ لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده.

السؤال السادس: أي تعلق لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بما قبله؟ والجواب من وجهين: أحدهما: ذلك أي: ذلك النصر بسبب أنه قادر ومن آيات قدرته البالغة كونه خالقًا لليل والنهار ومتصرفًا فيهما، فوجب أن يكون قادرًا عالمًا بما يجري فيهما، وإذا كان كذلك كان قادرًا على النصر مصيبًا فيه. وثانيها: المراد أنه سبحانه مع ذلك النصر ينعم في الدنيا بما يفعله من تعاقب الليل والنهار وولوج أحدهما في الآخر.

السؤال السابع: ما معنى إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل؟

الجواب فيه وجهان: أحدهما: يحصل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك بغيبوبة الشمس، وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا بطلوعها، كما يضيء البيت بالسراج ويظلم بفقده. وثانيهما: أنه سبحانه يزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات.

السؤال الثامن: أي تعلق لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ بما تقدم؟ الجواب: المراد أنه كما يقدر على ما لا يقدر عليه غيره، فكذلك يدرك المسموع والمبصر، ولا يجوز المنع عليه، ويكون ذلك كالتحذير من الإقدام على ما لا يجوز في المسموع والمبصر.

السؤال التاسع: ما معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ وأي تعلق له بما تقدم؟

الجواب فيه وجهان: أحدهما: المراد أن ذلك الوصف الذي تقدم ذكره من القدرة على هذه

الأمور إنما حصل لأجل أن الله هو الحق أي: هو الموجود الواجب لذاته الذي يمتنع عليه التغير والزوال فلا جرم أتى بالوعد والوعيد. ثانيهما: أن ما يفعل من عبادته هو الحق وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل كما قال: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [غافر: ٤٣].

السؤال العاشر: أي تعلق لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ بما تقدم؟ والجواب: معنى العلي: القاهر المقتدر الذي لا يغلب فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد مرغبًا بذلك في عبادته زاجرًا عن عبادة غيره، فأما الكبير فهو العظيم في قدرته وسلطانه، وذلك أيضًا يفيد كمال القدرة.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ إخبار عن الغيب فإنه وجد مخبره كما أخبر فكان من المعجزات.

المسألة الرابعة: قال الشافعي رحمه الله: من حرق حرقناه، ومن غرق غرقناه. وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل يقتل بالسيف. واحتج الشافعي رحمه الله بهذه الآية، فإن الله تعالى جوز للمظلوم أن يعاقب بمثل ما عوقب به ووعده النصر عليه.

المسألة الخامسة: قرأ نافع وابن عامر (تدعون) بالتاء هاهنا وفي لقمان، وفي المؤمنين، وفي العنكبوت. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، كلها بالياء على الخبر، والعرب قد تنصرف من الخطاب إلى الإخبار ومن الإخبار إلى الخطاب.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما دل على قدرته من قبل بما ذكره من ولوج الليل في النهار ونبه به على نعمه، أتبعه بأنواع أخر من الدلائل على قدرته ونعمته وهي ستة.

أولها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ذكروا في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وجوهًا ثلاثة: أحدها: أن المراد هو الرؤية الحقيقية، قالوا؛ لأن الماء النازل من السماء يُرى بالعين واخضرار النبات على الأرض مرئي، وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى. وثانيها: أن المراد ألم تخبر على سبيل

الاستفهام. وثالثها: المراد ألم تعلم والقول الأول ضعيف؛ لأن الماء وإن كان مرئيًا إلا أن كون الله منزلاً له من السماء غير مرئي إذا ثبت هذا وجب حمله على العلم؛ لأن المقصود من تلك الرؤية هو العلم؛ لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل.

المسألة الثانية: قرئ (مُخْضَرَة) كمبقلة ومسبعة أي ذات خضرة، **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: لم قال: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ﴾ ولم يقل فأصبحت؟ الجواب: لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان، كما تقول: أنعم عليَّ فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكرًا له، ولو قلت: فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع.

السؤال الثاني: لم رفع ولم ينصب جوابًا للاستفهام؟ والجواب: لو نصب لأعطى عكس ما هو الغرض؛ لأن معناه إثبات الإخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الإخضرار، مثاله أن تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر. وإن نصبته فأنت نافٍ لشكره شاكٍ لتفريطه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر.

السؤال الثالث: لم أورد تعالى ذلك دلالة على قدرته على الإعادة، كما قال أبو مسلم؟ الجواب: يحتمل ذلك ويحتمل أنه نبه به على عظيم قدرته وواسع نعمه.

السؤال الرابع: ما تعلق قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ بما تُقدم؟ الجواب: من وجوه أحدها: أراد أنه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به؛ لأن الأرض إذا أصبحت مخضرة والسماء إذا أمطرت كان ذلك سببًا لعيش الحيوانات على اختلافها أجمع. ومعنى (خَبِيرٌ) أنه عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر ذلك من دون زيادة ونقصان وثانيها: قال ابن عباس (لَطِيفٌ) بأرزاق عباده (خَبِيرٌ) بما في قلوبهم من القنوط وثالثها: قال الكلبي: (لَطِيفٌ) في أفعاله (خَبِيرٌ) بأعمال خلقه. ورابعها: قال مقاتل: (لَطِيفٌ) باستخراج النبت (خَبِيرٌ) بكيفية خلقه.

الدلالة الثانية: قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ والمعنى: أن كل ذلك منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه وهو غني عن الأشياء كلها وعن حمد الحامدين أيضًا؛ لأنه كامل لذاته، والكامل لذاته غني عن كل ما عداه في كل الأمور، ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد في الحكمة من قطر ونبات فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعامًا عليهم، لا لحاجة به إلى ذلك. وإذا كان كذلك كان إنعامه خاليًا عن غرض عائد إليه فكان مستحقًا للحمد.

فكأنه قال: إنه لكونه غنيًا لم يفعل ما فعله إلا للإحسان، ومن كان كذلك كان مستحقًا للحمد فوجب أن يكون حميدًا. فلهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

الدلالة الثالثة: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبة من النار، وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضًا حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها، فلولا أن

سخر الله تعالى الإبل والبقر مع قوتهما حتى يذللهما الضعيف من الناس ويتمكن منهما لما كان ذلك نعمة .

الدلالة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ والأقرب أن المراد وسخر لكم الفلك لتجري في البحر، وكيفية تسخيره الفلك هو من حيث سخر الماء والرياح لجريها، فلولا صفتهما على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص أو تقف أو تعطب. فنبه تعالى على نعمه بذلك، وبأن خلق ما تعمل منه السفن، وبأن بيَّن كيف تعمل، وإنما قال: بأمره لأنه؛ سبحانه لما كان المجري لها بالرياح نسب ذلك إلى أمره توسعًا؛ لأن ذلك يفيد تعظيمه بأكثر مما يفيد لو أضافه إلى فعل بناء على عادة الملوك في مثل هذه اللفظة.

الدلالة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ واعلم أن النعم المتقدمة لا تكمل إلا بهذه؛ لأن السماء مسكن الملائكة فوجب أن يكون صلبًا. ووجب أن يكون ثقيلاً، وما كان كذلك فلا بد من الهوى لولا مانع يمنع منه، وهذه الحجة مبنية على ظاهر الأوهام، وقوله تعالى: ﴿أَن تَقَعَ﴾ قال الكوفيون: كي لا تقع، وقال البصريون: كراهية أن تقع، وهذا بناء على مسألة كلامية وهي أن الإرادات والكراهات هل تتعلق بالعدم؟ فمن منع من ذلك صار إلى التأويل الأول، والمعنى أنه أمسكها لكي لا تقع فتبطل النعم التي أنعم بها.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فالمعنى أن المنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين قد بلغ الغاية في الإحسان والإنعام، فهو إذن رؤوف رحيم.

الدلالة السادسة: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ والمعنى: أن من سخر له هذه الأمور، وأنعم عليه بها فهو الذي أحياه فنبه بالإحياء الأول على إنعام الدنيا علينا بكل ما تقدم. ونبه بالإماتة والإحياء الثاني على نعم الدين علينا، فإنه سبحانه وتعالى خلق الدنيا بسائر أحوالها للآخرة وإلا لم يكن للنعم على هذا الوجه معنى. يبين ذلك أنه لولا أمر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوانات وذبحها إلى غير ذلك معنى، بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقي، وإنما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به في باب الدين ولما فصل تعالى هذه النعم قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ وهذا كما قد يعدد المرء نعمه على ولده، ثم يقول: إن الولد لكفور لنعم الوالد زجرًا له عن الكفران وبعثًا له على الشكر، فلذلك أورد تعالى ذلك في الكفار، فبيَّن أنهم دفعوا هذه النعم وكفروا بها وجهلوا خالقها مع وضوح أمرها ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإنسان هاهنا هو الكافر، وقال: أيضًا هو الأسود بن عبد الأسد وأبو جهل والعاص وأبيّ بن خلف، والأولى تعميمه في كل المنكرين.

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه وبين أنه رؤوف رحيم بعباده وإن كان منهم من يكفر ولا يشكر، أتبعه بذكر نعمه بما كلف فقال: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إنما حذف الواو في قوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ لأنه لا تعلق لهذا الكلام بما قبله فلا جرم حذف العاطف.

المسألة الثانية: في المنسك أقوال: أحدها: قال ابن عباس عيدًا يذبحون فيه. وثانيها: قربانًا ولفظ المنسك مختص بالذبائح عن مجاهد. وثالثها: مألفًا يألفونه إما مكانًا معينًا أو زمانًا معينًا لأداء الطاعات. ورابعها: المنسك هو الشريعة والمنهاج وهو قول ابن عباس في رواية عطاء واختيار القفال وهو الأقرب لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ولأن المنسك مأخوذ من النسك وهو العبادة، وإذا وقع الاسم على كل عبادة فلا وجه للتخصيص.

فإن قيل: هلا حملتموه على الذبح؛ لأن المنسك في العرف لا يفهم منه إلا الذبح؟ وهلا حملتموه على موضع العبادة أو على وقتها؟ الجواب: عن الأول لا نسلم أن المنسك في العرف مخصوص بالذبح، والدليل عليه أن سائر ما يفعل في الحج يوصف بأنه مناسك ولأجله قال عليه السلام: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ» وعن الثاني: أن قوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أليق بالعبادة منه بالوقت والمكان.

المسألة الثالثة: زعم قوم أن المراد من قوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ من كان في زمن الرسول ﷺ متمسكًا بشرع كاليهود والنصارى، ولا يمتنع أن يريد كل من تعبد من الأمم سواء بقيت آثارهم أو لم تبق؛ لأن قوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ كالوصف للأمم وإن لم يعبدوا في الحال.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ فقرىء (فلا ينزعنك) أي: أثبت في دينك ثباتًا لا يطمعون أن يخدعوك ليزيلوك عنه. وأما قوله: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾ ففيه قولان: أحدهما: وهو قول الزجاج: أنه نهى لهم عن منازعتهم، كما تقول: لا يضاربنك فلان أي: لا تضاربه. والثاني: أن المراد أن عليهم اتباعك وترك مخالفتك، وقد استقر الأمر الآن على شرعك وعلى أنه ناسخ لكل ما عداه. فكأنه تعالى نهى كل أمة بقيت منها بقية أن تستمر على تلك العادة، وألزمها أن تتحول إلى اتباع الرسول ﷺ فلذلك قال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: لا تخص بالدعاء أمة دون أمة فكلهم أمتك فادعهم إلى شريعتك فإنك على هدى مستقيم، والهدى يحتمل نفس الدين ويحتمل أدلة الدين وهو أولى. كأنه قال: ادعهم إلى هذا الدين فإنك من حيث الدلالة على طريقة واضحة ولهذا قال: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ﴾ والمعنى فإن عدلوا عن النظر في هذه الأدلة إلى طريقة المراء

والتمسك بالعادة فقد بينت وأظهرت ما يلزمك ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لأنه ليس بعد إيضاح الأدلة إلا هذا الجنس الذي يجري مجرى الوعيد والتحذير من حكم يوم القيامة الذي يتردد بين جنة وثواب لمن قبل، وبين نار وعقاب لمن رد وأنكر. فقال: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فتعرفون حينئذ الحق من الباطل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال من قبل: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحج: ٦٩] أتبعه بما به يعلم أنه سبحانه عالم بما يستحقه كل أحد منهم، فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور فقال لرسوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ هو على لفظ الاستفهام لكن معناه تقوية قلب الرسول ﷺ والوعد له وإيعاد الكافرين بأن كل فعلهم محفوظ عند الله لا يضل عنه ولا ينسى.

المسألة الثانية: الخطاب مع الرسول ﷺ والمراد سائر العباد ولأن الرسالة لا تثبت إلا بعد العلم بكونه تعالى عالمًا بكل المعلومات إذ لو لم يثبت ذلك لجاز أن يشتبه عليه الكاذب بالصادق، فحينئذ لا يكون إظهار المعجز دليلاً على الصدق، وإذا كان كذلك استحال أن لا يكون الرسول عالمًا بذلك. فثبت أن المراد أن يكون خطابًا مع الغير.

أما قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ ففيه قولان: أحدهما: وهو قول أبي مسلم أن معنى الكتاب الحفظ والضبط والشد يقال: كتبت المزادة أكتبها إذا خرزتها فحفظت بذلك ما فيها، ومعناه ومعنى الكتاب بين الناس: حفظ ما يتعاملون به، فالمراد من قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ أنه محفوظ عنده والتالي وهو قول الجمهور أن كل ما يحدثه الله في السموات والأرض فقد كتبه في اللوح المحفوظ قالوا: وهذا أولى؛ لأن القول الأول وإن كان صحيحًا نظرًا إلى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف، ومعلوم أن الكتاب هو ما تكتب فيه الأمور فكان حمله عليه أولى. فإن قيل: فقد يوهم ذلك أن علمه مستفاد من الكتاب وأيضًا فأي فائدة في ذلك الكتاب؟

والجواب عن الأول: أن كتبه تلك الأشياء في ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من أدل الدلائل على أنه سبحانه غني في علمه عن ذلك الكتاب. وعن الثاني: أن الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة في الوجود على وفقه فصار ذلك دليلاً لهم زائدًا على كونه سبحانه عالمًا بكل المعلومات.

أما قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فمعناه أن كتبه جملة الحوادث مع أنها من الغيب مما يتعذر على الخلق لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت فعبر عن ذلك بأنه يسير، وإن كان هذا الوصف لا يستعمل إلا فينا من حيث تسهل وتصعب علينا الأمور، وتعالى الله عن ذلك ثم بيَّن سبحانه ما يقدم الكفار عليه مع عظيم نعمه، ووضوح دلائله. فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فبين أن عبادتهم لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعي وهو المراد من قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ولا عن دليل عقلي وهو المراد من قوله: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وإذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل أو شبهة، فوجب في كل قول هذا شأنه أن يكون باطلاً، فمن هذا الوجه يدل على أن الكافر قد يكون كافرًا، وإن لم يعلم كونه كافرًا، ويدل أيضًا على فساد التقليد.

أما قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أنهم ليس لهم أحد ينتصر لهم من الله كما قد تتفق النصرة في الدنيا. والثاني: ما لهم في كفرهم ناصر بالحجة فإن الحجة ليست إلا للحق، واحتجت المعتزلة بهذه الآية في نفي الشفاعة والكلام عليه معلوم.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: من تقدم ذكره وهذه الآيات هي القرآن، ووصفها بأنها بينات؛ لكونها متضمنة للدلائل العقلية وبيان الأحكام، فبيَّن أنهم مع جهلهم إذا نبهوا على الأدلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر في وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب، قال صاحب (الكشاف): المنكر الفظيع من التهجم والفجور والنشوز والإنكار، كالمكرم بمعنى الإكرام وقرىء تعرف على ما لم يسم فاعله، وللمفسرين في المنكر عبارات: أحدها: قال الكلبي: تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن. ثانيها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: التجبر والترفع. وثالثها: قال مقاتل: أنكروا أن يكون من الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ فقال الخليل والفراء والزجاج: السطو شدة البطش والوثوب، والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيمًا لإنكار ما خوطبوا، به فحكى تعالى عظيم تمردهم على الأنبياء والمؤمنين ثم أمر رسوله بأن يقابلهم بالوعيد فقال: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ قال صاحب (الكشاف): قوله ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ أي: من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم، أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم، فقوله: ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ فيه وجهان: أحدهما: المراد أن الذي ينالكم من النار التي تكادون تقتحمونها بسوء فعالكم أعظم مما ينالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم. والثاني: أن يكون المراد بشر من

ذلكم ما تهمون به فيمن يحاجكم فإن أكبر ما يمكنكم فيه الإهلاك ثم بعده مصيرهم إلى الجنة وأنتم تصيرون إلى النار الدائمة التي لا فرج لكم عنها، وأما ﴿ ٱلنَّارُ﴾ فقال صاحب (الكشاف): قرىء (النَّارُ) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأن قائلاً يقول ما شر من ذلك؟ فقيل: النار أي هو النار. وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر. ثم بيَّن سبحانه أنه وعدها الذين كفروا إذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير، قال صاحب (الكشاف): ﴿ وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ استئناف كلام ويحتمل أن يكون النار مبتدأ ووَعَدَهَا خبرًا.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بين من قبل أنهم يعبدون من دون الله مالا حجة لهم فيه ولا علم، ذكر في هذه الآية ما يدل على إبطال قولهم.

أما قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ ففيه سؤالات:

السؤال الأول: الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلاً؟ والجواب: لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلاً.

السؤال الثاني: قوله: ﴿ ضُرِبَ﴾ يفيد فيما مضى والله تعالى هو المتكلم بهذا الكلام ابتداء؟ الجواب: إذا كان ما يورد من الوصف معلومًا من قبل جاز ذلك فيه، ويكون ذكره بمنزلة إعادة أمر قد تقدم.

أما قوله: ﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي: تدبروه حق تدبره؛ لأن نفس السَّمَاع لا ينفع، وإنما ينفع التدبر. واعلم أن الذباب لما كان في غاية الضعف احتج الله تعالى به على إبطال قولهم من وجهين: الأول: قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ قرىء يدعون بالياء والتاء ويدعون مبنيًا للمفعول و(لن) أصل في نفي المستقبل إلا أنه ينفيه نفيًا مؤكدًا فكأنه سبحانه قال: إن هذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودًا؟! فقوله: ﴿ وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ نصب على الحال كأنه قال: يستحيل أن يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم؟! والثاني: أن قوله: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ كأنه سبحانه قال: أترك أمر الخلق والإيجاد وأتكلم فيما هو أسهل منه، فإن الذباب إن سلب منها شيئًا، فهي لا تقدر على استنقاذ ذلك الشيء من الذباب، واعلم أن الدلالة الأولى صالحة لأن يتمسك بها في نفي كون المسيح والملائكة آلهة،

أما الثانية فلا، فإن قيل: هذا الاستدلال إما أن يكون لنفي كون الأوثان خالقة عالمة حية مدبرة، أو لنفي كونها مستحقة للتعظيم. والأول: فاسد لأن نفي كونها كذلك معلوم بالضرورة، فأي فائدة في إقامة الدلالة عليه، وأما الثاني: فهذه الدلالة لا تفيده لأنه لا يلزم من نفي كونها حية أن لا تكون معظمة، فإن جهات التعظيم مختلفة، فالقوم كانوا يعتقدون فيها أنها طلسمات موضوعة على صورة الكواكب، أو أنها تماثيل الملائكة والأنبياء المتقدمين، وكانوا يعظمونها على أن تعظيمها يوجب تعظيم الملائكة، وأولئك الأنبياء المتقدمين. والجواب: أما كونها طلسمات موضوعة على الكواكب بحيث يحصل منها الإضرار والانتفاع، فهو يبطل بهذه الدلالة فإنها لما لم تنفع نفسها في هذا القدر وهو تخليص النفس عن الذبابة فلأن لا تنفع غيرها أولى، وأما أنها تماثيل الملائكة والأنبياء المتقدمين، فقد تقرر في العقل أن تعظيم غير الله تعالى ينبغي أن يكون أقل من تعظيم الله تعالى، والقوم كانوا يعظمونها غاية التعظيم، وحينئذ كان يلزم التسوية بينها وبين الخالق سبحانه في التعظيم، فمن هاهنا صاروا مستوجبين للذم والملام.

أما قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ ففيه قولان: أحدهما: المراد منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث إنه لو طلب أن يخلقه ويستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب. الثاني: أن الطالب من عبد الصنم، والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها، وهذا أقرب؛ لأن كون الصنم طالبًا ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير، أما هاهنا فعلى سبيل التحقيق لكن المجاز فيه حاصل لأن الوثن لا يصح أن يكون ضعيفًا؛ لأن الضعف لا يجوز إلا على من يصح أن يقوى، وهاهنا وجه ثالث وهو أن يكون معنى قوله: ﴿ضَعُفَ﴾ لا من حيث القوة ولكن لظهور قبح هذا المذهب، كما يقال للمرء عند المناظرة: ما أضعف هذا المذهب وما أضعف هذا الوجه.

أما قوله: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عظموه حق تعظيمه، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة له في المعبودية، وهذه الكلمة مفسرة في سورة الأنعام، وهو قوي لا يتعذر عليه فعل شيء، و(عزيز) لا يقدر أحد على مغالبته، فأي حاجة إلى القول بالشريك. قال الكلبي في هذه الآية ونظيرها في سورة الأنعام: إنها نزلت في جماعة من اليهود وهم مالك بن الصيف، وكعب بن الأشرف وكعب بن أسد وغيرهم لعنهم الله، حيث قالوا: إنه سبحانه لما فرغ من خلق السموات والأرض أعيا من خلقها فاستلقى واستراح ووضع إحدى رجليه على الأخرى، فنزلت هذه الآية تكذيبًا لهم ونزل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. واعلم أن منشأ هذه الشبهات هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة، وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية، وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الأفعال، أعني الغرض والداعي واستحقاق المدح والذم خلاف ما تقوله المعتزلة، قال الإمام أبو القاسم الأنصاري رحمه الله: فهو سبحانه جبار النعت، عزيز

الوصف، فالأوهام لا تصوره، والأفكار لا تقدره، والعقول لا تمثله، والأزمنة لا تدركه، والجهات لا تحويه ولا تحده، صمدي الذات، سرمدي الصفات.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦﴾

اعلم أنه سبحانه لما قدم ما يتعلق بالإلهيات ذكر هاهنا ما يتعلق بالنبوات، قال مقاتل: قال الوليد بن المغيرة: أأنزل عليه الذكر من بيننا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: **وهاهنا سؤالان:**

السؤال الأول: كلمة (من) للتبعيض فقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يقتضي أن تكون الرسل بعضهم لا كلهم، وقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] يقتضي كون كلهم رسلاً فوقع التناقض. والجواب: جاز أن يكون المذكور هاهنا من كان رسلاً إلى بني آدم، وهم أكابر الملائكة كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم، وأما كل الملائكة فبعضهم رسل إلى البعض فزال التناقض.

السؤال الثاني: قال في سورة الزمر: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤] فدل على أن ولده يجب أن يكون مصطفى، وهذه الآية دلت على أن بعض الملائكة وبعض الناس من المصطفين، فيلزم بمجموع الآيتين إثبات الولد. والجواب: أن قوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ﴾ [الزمر: ٤] يدل على أن كل ولد مصطفى، ولا يدل على أن كل مصطفى ولد، فلا يلزم من دلالة هذه الآية على وجود مصطفى كونه ولدًا، وفي هذه الآية وجه آخر، وهو أن المراد تبكيت من عبد غير الله تعالى من الملائكة، كأنه سبحانه أبطل في الآية الأولى قول عبدة الأوثان، وفي هذه الآية أبطل قول عبدة الملائكة، فبيَّن أن علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة، بل لأن الله تعالى اصطفاهم لمكان عبادتهم، فكأنه تعالى بيَّن أنهم ما قدروا الله حق قدره أن جعلوا الملائكة معبودين مع الله، ثم بيَّن سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ أنه يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون، ولذلك أتبعه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فقال بعضهم: ما تقدم في الدنيا وما تأخر، وقال بعضهم: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أمر الدنيا، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارة إلى العلم التام وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ إشارة إلى القدرة التامة والتفرد بالإلهية والحكم، ومجموعهما يتضمن نهاية الزجر عن الإقدام على المعصية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا

جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

اعلم أنه سبحانه لما تكلم في الإلهيات ثم في النبوات أتبعه بالكلام في الشرائع وهو من أربع أوجه: أولها: تعيين المأمور. وثانيها: أقسام المأمور به. وثالثها: ذكر ما يوجب قبول تلك الأوامر. ورابعها: تأكيد ذلك التكليف.

أما النوع الأول: وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وفيه قولان: أحدهما: المراد منه كل المكلفين سواء كان مؤمنًا أو كافرًا؛ لأن التكليف بهذه الأشياء عام في كل المكلفين فلا معنى لتخصيص المؤمنين بذلك. والثاني: أن المراد بذلك المؤمنون فقط أما أولاً: فلأن اللفظ صريح فيه، وأما ثانيًا: فلأن قوله بعد ذلك ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ وقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وقوله: ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ كل ذلك لا يليق إلا بالمؤمنين. أقصى ما في الباب أن يقال: لما كان ذلك واجبًا على الكل فأي فائدة في تخصيص المؤمنين؟ لكنا نقول: تخصيصهم بالذكر لا يدل على نفي ذلك عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مأمورين بهذه الأشياء ودلت سائر الآيات على كون الكل مأمورين بها. ويمكن أن يقال: فائدة التخصيص أنه لما جاء الخطاب العام مرة بعد أخرى ثم إنه ما قبله إلا المؤمنون خصهم الله تعالى بهذا الخطاب؛ ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم في ذلك الإقرار والتخصيص.

أما النوع الثاني: وهو المأمور به فقد ذكر الله أمورًا أربعة: **الأول:** الصلاة وهو المراد من قوله: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ وذلك لأن أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود والصلاة هي المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريًا مجرى ذكر الصلاة وذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن الناس في أول إسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتى نزلت هذه الآية. الثاني: قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ وذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** اعبدوه ولا تعبدوا غيره. **وثانيها:** واعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات. **وثالثها:** افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة؛ لأنه لا يكفي أن يفعل فإنه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع في باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود. الثالث: قوله تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد به صلة الرحم ومكارم الأخلاق والوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير؛ لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر

والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال: كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات.

أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فقيل: معناه لتفلحوا، والفلاح الظفر بنعيم الآخرة، وقال الإمام أبو القاسم الأنصاري: لعل: كلمة للترجية فإن الإنسان قلما يخلو في أداء الفريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذي أتي به هل هو مقبول عند الله تعالى والعواقب أيضًا مستورة «وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ». الرابع: قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ قال صاحب (الكشاف): ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في ذات الله، ومن أجله. يقال هو حق عالم، وجد عالم، أي: عالم حقًا وجدًا ومنه ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾؟ والجواب: الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصًا بالله من حيث إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت الإضافة إليه.

السؤال الثاني: ما هذا الجهاد؟ الجواب فيه وجوه: أحدها: أن المراد قتال الكفار خاصة، ومعنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أن لا يفعل إلا عبادة لا رغبة في الدنيا من حيث الإسم أو الغنيمة. والثاني: أن يجاهدوا آخرًا كما جاهدوا أولاً فقد كان جهادهم في الأول أقوى وكانوا فيه أثبت نحو صنعهم يوم بدر، روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لعبد الرحمن بن عوف: أما علمت أنا كنا نقرأ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ في آخر الزمان كما جاهدتموه في أوله، فقال عبد الرحمن ومتى ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت بنو أمية الأمراء وبنو المغيرة الوزراء. واعلم أنه يبعد أن تكون هذه الزيادة من القرآن وإلا لنقل كنقل نظائره، ولعله إن صح ذلك عن الرسول فإنما قاله كالتفسير للآية، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ وجاهدوا في الله حق جهاده كما جاهدتم أول مرة. فقال عمر: من الذي أمرنا بجهاده؟ فقال قبيلتان من قريش مخزوم وعبد شمس، فقال: صدقت. والثالث: قال ابن عباس: حق جهاده، لا تخافوا في الله لومة لائم. والرابع: قال الضحاك: واعملوا لله حق عمله. والخامس: استفرغوا وسعكم في إحياء دين الله وإقامة حقوقه بالحرب باليد واللسان وجميع ما يمكن وردوا أنفسكم عن الهوى والميل. والوجه السادس: قال عبد الله ابن المبارك: حق جهاده، مجاهدة النفس والهوى. ولما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك قال: «**رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ**»(١) والأولى أن يحمل ذلك على كل التكاليف، فكل ما أمر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد.

---

(١) **إسناده ضعيف**: وأورده العجلوني في (كشف الخفاء) (١/ ٥١١)، وقال: قال الحافظ ابن حجر في (تسديد القوس): هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عيلة انتهى. وأقول: الحديث في الإحياء قال العراقي: رواه البيهقي بسند ضعيف عن جابر ورواه الخطيب في (تاريخه) عن جابر بلفظ قدم النبي ﷺ من غزاة فقال عليه الصلاة والسلام: «قدمتم من خير مقدم وحمرتها من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قالوا: وما الجهاد الأكبر؟=

السؤال الثالث: هل يصح ما نقل عن مقاتل والكلبي أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] كما أن قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] منسوخ بذلك؟ الجواب: هذا بعيد؛ لأن التكليف مشروط بالقدرة لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فكيف يقول الله وجاهدوا في الله على وجه لا تقدرون عليه، وكيف وقد كان الجهاد في الأول مضيقًا حتى لا يصح أن يفر الواحد من عشرة، ثم خففه الله بقوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦] أفيجوز مع ذلك أن يوجبه على وجه لا يطاق حتى يقال إنه منسوخ.

النوع الثالث: بيان ما يوجب قبول هذه الأوامر وهو ثلاثة: الأول: قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ ومعناه: أن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد، فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته، فأي رتبة أعلى من هذا، وأي سعادة فوق هذا، ويحتمل في اجتباكم خصكم بالهداية والمعونة والتيسير.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فهو كالجواب عن سؤال يذكر وهو أن التكليف وإن كان تشريفًا واجبًا كما ذكرتم لكنه شاق شديد على النفس؟ فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ روي أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: كيف قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ مع أنه منعنا عن الزنا والسرقة؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: بلى ولكن الإصر الذي كان على بني إسرائيل وضع عنكم. **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: ما الحرج في أصل اللغة؟ الجواب: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لبعض هذيل: ما تعدون الحرج فيكم؟ قال: الضيق، وعن عائشة رضي الله عنها: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنِ ذَلِكَ فَقَالَ: «الضِّيقُ»(١).

السؤال الثاني: ما المراد من الحرج في الآية؟ الجواب: قيل: هو الإتيان بالرخص، فمن لم يستطع أن يصلي قائمًا فليصل جالسًا ومن لم يستطع ذلك فليؤم، وأباح للصائم الفطر في السفر والقصر فيه. وأيضًا فإنه سبحانه لم يبتل عبده بشيء من الذنوب إلا وجعل له مخرجًا منها إما بالتوبة أو بالكفارة، وعن ابن عمر رضي الله عنهما **«إِنَّهُ مَنْ جَاءَتْهُ رُخْصَةٌ فَرَغِبَ عَنْهَا كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَحْمِلَ ثِقَلَ تِنِّينٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ»** وعن النبي ﷺ **«إِذَا اجْتَمَعَ أَمْرَانِ فَأَحَبُّهُمَا إِلَى اللَّه تَعَالَى أَيْسَرُهُمَا»**(٢) وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاثًا لم يعطهم إلا للأنبياء: **«جَعَلَهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْهِمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، وَقَالَ: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»**.

=قال: مجاهدة العبد هواه انتهى. والمشهور على الألسنة رجعنا من الجهاد الأصغر دون باقيه ففيه اقتصار انتهى. وأورده الألباني في (الضعيفة) (٢٤٦٠)، وقال: منكر ثم قال: وقد استنكر ابن تيمية في (مجموع الفتاوي) تسميته بالجهاد الأصغر؛ لأن جهاد الكفار من أعظم الأعمال بل هو أعظم ما تطوع له الإنسان. ا.هـ.

(١) أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (١/ ١١٣٠)، حديث رقم (٢٠٨٢٥) من طريق أحمد بن نجدة حدثنا سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عبيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس رضي الله عنه... به.

(٢) أخرجه الحارث في (مسنده) (١/ ٥٤٤) (حديث رقم ٤٨٨) من طريق محمد بن سعيد عن أبان عن أنس... به.

السؤال الثالث: استدلت المعتزلة بهذه الآية في المنع من تكليف مالا يطاق، فقالوا: لما خلق الله الكفر والمعصية في الكافر والعاصي ثم نهاه عنهما كان ذلك من أعظم الحرج وذلك منفي بصريح هذا النص. والجواب: لما أمره بترك الكفر، وترك الكفر يقتضي انقلاب علمه جهلاً فقد أمر الله المكلف بقلب علم الله جهلاً وذلك من أعظم الحرج، ولما استوى القدمان زال السؤال.

الموجب الثاني: لقبول التكليف قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ وفي نصب الملة وجهان: أحدهما: وهو قول الفراء أنها منصوبة بمضمون ما تقدمها كأنه قيل: وسع دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم، ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. والثاني: أن يكون منصوبًا على المدح والتعظيم أي: أعني بالدين ملة أبيكم إبراهيم، واعلم أن المقصود من ذكره التنبيه على أن هذه التكاليف والشرائع هي شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام. والعرب كانوا محبين لإبراهيم عليه السلام؛ لأنهم من أولاده، فكان التنبيه على ذلك كالسبب لصيرورتهم منقادين لقبول هذا الدين **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: لم قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ولم يدخل في الخطاب المؤمنون الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ ولم يكن من ولده؟ والجواب: من وجهين: أحدهما: لما كان أكثرهم من ولده كالرسول ورهطه وجميع العرب جاز ذلك. وثانيهما: وهو قول الحسن أن الله تعالى جعل حرمة إبراهيم عليه السلام على المسلمين كحرمة الوالد على ولده، ومنه قوله تعالى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فجعل حرمته كحرمة الوالد على الولد، وحرمة نسائه كحرمة الوالدة على ما قال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

السؤال الثاني: هذا يقتضي أن تكون ملة محمد كملة إبراهيم عليهما السلام سواء، فيكون الرسول ليس له شرع مخصوص ويؤكده قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣]، الجواب: هذا الكلام إنما وقع مع عبدة الأوثان، فكأنه تعالى قال: عبادة الله وترك الأوثان هي ملة إبراهيم فأما تفاصيل الشرائع فلا تعلق لها بهذا الموضع.

السؤال الثالث: ما معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾؟ الجواب: فيه قولان: أحدهما: أن الكناية راجعة إلى إبراهيم عليه السلام، فإن لكل نبي دعوة مستجابة وهو قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فاستجاب الله تعالى له فجعلها أمة محمد ﷺ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله تعالى سيبعث محمدًا بمثل ملته وأنه ستسمى أمته بالمسلمين. والثاني: أن الكناية راجعة إلى الله تعالى في قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ فروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ» أي: في كل الكتب، وفي هذا أي: في القرآن. وهذا الوجه أقرب؛ لأنه تعالى قال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فبيّن أنه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق إلا بالله، ويدل عليه أيضًا قراءة أبي بن كعب (الله سماكم)

والمعنى: أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن، وفي القرآن أيضًا بيَّن فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم؛ لأجل الشهادة المذكورة. فلما خصكم الله بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه. وهذا هو العلة الثالثة: الموجبة لقبول التكليف، وأما الكلام في أنه كيف يكون الرسول شهيدًا علينا، وكيف تكون أمته شهداء على الناس؟ فقد تقدم في سورة البقرة، وبيَّنَّا أنه أخذ منه ما يدل على أن الإجماع حجة.

النوع الرابع: شرح ما يجري مجرى المؤكد لما مضى، وهو قوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ويجب صرفها إلى المفروضات؛ لأنها هي المعهودة ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: بدلائله العقلية والسمعية وألطافه وعصمته، قال ابن عباس: «سَلُوا اللَّه الْعِصْمَةَ عَنْ كُلِّ الْمُحَرَّمَاتِ» وقال القفال: اجعلوا الله عصمة لكم مما تحذرون هو مولاكم وسيدكم المتصرف فيكم فنعم المولى ونعم البصير، فكأنه سبحانه قال: أنا مولاك بل أنا ناصرك وحسبك، واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآيات من وجوه: **أحدها:** أن قوله: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ يدل على أنه سبحانه أراد الإيمان من الكل؛ لأنه تعالى لا يجعل الشهيد على عباده إلا من كان عدلاً مرضيًا، فإذا أراد أن تكونوا شهداء على الناس فقد أراد أن تكونوا جميعًا صالحين عدولاً، وقد علمنا أن منهم فاسقًا، فدل ذلك على أن الله تعالى أراد من الفسق كونه عدلاً. **وثانيها:** قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وكيف يمكن الاعتصام به مع أن الشر لا يوجد إلا منه؟ **وثالثها:** قوله: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لأنه لو كان كما يقوله أهل السنة: من أنه خلق أكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثم يعذبهم لما كان نعم المولى، بل كان لا يوجد من شرار الموالي أحد إلا وهو شر منه. فكان يجب أن يوصف بأنه بئس المولى وذلك باطل فدل على أنه سبحانه ما أراد من جميعهم إلا الصلاح. فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون نعم المولى للمؤمنين خاصة كما أنه نعم النصير لهم خاصة؟ قلنا: إنه تعالى مولى المؤمنين والكافرين جميعًا فيجب أن يقال: إنه نعم المولى للمؤمنين وبئس المولى للكافرين. فإن ارتكبوا ذلك فقد ردوا القرآن والإجماع وصرحوا بشتم الله تعالى. ورابعها: أن قوله: ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ يدل على إثبات الأسماء الشرعية وأنها من قبل الله تعالى؛ لأنها لو كانت لغة لما أضيفت إلى الله تعالى على وجه الخصوص. والجواب: عن الأول وهو قوله كونه تعالى مريدًا لكونه شاهدًا يستلزم كونه مريدًا لكونه عدلاً، فنقول: إن كانت إرادة الشيء مستلزمة لإرادة لوازمه فإرادة الإيمان من الكافر توجب أن تكون مستلزمة لإرادة جهل الله تعالى فيلزم كونه تعالى مريدًا لجهل نفسه. وإن لم يكن ذلك واجبًا سقط الكلام.

وأما قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ فيقال: هذا أيضًا وارد عليكم فإنه سبحانه خلق الشهوة في قلب الفاسق وأكدها، وخلق المشتهي وقربه منه، ورفع المانع، ثم سلط عليه الشياطين من الإنس والجن وعلم أنه لا محالة يقع في الفجور والضلال، وفي الشاهد كل من فعل ذلك فإنه يكون بئس المولى، فإن صح قياس الغائب على الشاهد فهذا لازم عليكم وإن بطل سقط كلامكم بالكلية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة الحج

وهي مكِّيةٌ، سوى ثلاثِ آيات: قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الآية: ١٩] إلى تمام ثلاثِ آيات؛ قاله ابن عباس ومجاهد[١]. وعن ابن عباس أيضاً أنهنَّ أربعُ آيات، إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الآية: ٢٢]. وقال الضحاك وابن عباس أيضاً: هي مدنية[٢]. وقال قتادة[٣]: [مدنية] إلَّا أربعَ آيات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ إلى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الآيات: ٥٢-٥٥]، فهنَّ مكِّيات.

وعَدَّ النقَّاش ما نزل بالمدينة عَشْرَ آيات. وقال الجمهور: السورةُ مختلِطَة؛ منها مكِّيٌّ ومنها مَدَنيّ. وهذا هو الأصحُّ؛ لأنَّ الآيات تقتضي ذلك[٤]؛ لأنَّ «يا أيها الناس» مكيّ، و«يا أيها الذين آمنوا» مَدَنيّ[٥].

الغَزْنَويُّ: وهي من أعاجيب السُّوَر، نزلت ليلاً ونهاراً، سَفَراً وحَضَراً، مكيًّا ومدنيًّا، سِلْمِيًّا وحَرْبِيًّا، ناسخاً ومنسوخاً، مُحْكَماً ومتشابهاً؛ مختلف العدد.

قلت: وجاء في فضلها ما رواه الترمذيُّ وأبو داود والدارَقُطْنيُّ عن عقبة بن عامر

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، وأخرجه عن ابن عباس مطولاً النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٠٩ .

(٢) ذكر الخبرين ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، ولم يذكر ابنَ عباس في الخبر الثاني، وقد أخرجه عن ابن عباس ابن مردويه كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ .

(٣) في النسخ: قاله قتادة، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ ، والكلام منه. وأخرجه ابن المنذر عنه كما في الدر المنثور ٤/ ٣٤٢ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥ عن ابن عباس.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٠٩ . وذكر المصنف ٦/ ٥ أن القول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: مكي حيث وقع؛ ليس بصحيح. وينظر ١/ ٣٢٩ .

قال: قلت: يا رسول الله، فُضِّلت سورة الحجّ بأنَّ فيها سجدتين؟ قال: «نعم، ومَن لم يَسْجُدْهما فلا يقرأْهما». لفظُ الترمذيّ. وقال: هذا حديث[1] ليس إسناده بالقويّ، واختلف أهل العلم في هذا؛ فروي عن عمر بن الخطاب - ﷺ - وابنِ عمر أنهما قالا: فُضِّلت سورةُ الحج بأنَّ فيها سجدتين. وبه يقول ابن المبارك والشافعيُّ وأحمد وإسحاق. ورأى بعضهم أنَّ فيها سجدةً واحدة، وهو قولُ سفيان الثَّوْري[2]. وروى الدارَقُطْنيّ عن عبد الله بن ثعلبةَ قال: رأيت عمر بن الخطاب سَجَدَ في الحج سجدتين، قلت: في الصبح؟ قال: في الصبح[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾

روى الترمذِيّ[4] عن عِمْران بنِ حُصين أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: أنزلت عليه هذه الآيةُ وهو في سفر، فقال: «أتَدرون أيُّ يومٍ ذلك»؟ فقالوا: الله ورسولُه أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله لآدمَ: ابْعَثْ بَعْثَ النار، قال: يا ربِّ، وما بَعْثُ النار؟ قال: تِسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة». فأنشأ

---

(١) بعدها في النسخ: حسن، والمثبت من سنن الترمذي، والتحفة ٧/ ٣٢٢.

(٢) سنن الترمذي (٥٧٨)، والحديث عند أبي داود (١٤٠٢)، والدارقطني (١٥٢١)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٣٦٤).

وأخرجه دون قوله: «فمن لم يسجدهما...» أبو داود في المراسيل (٧٨) من طريق خالد بن معدان عن النبي ﷺ. وابنُ أبي شيبة ٢/ ١١ عن عمر ﷺ موقوفاً.

(٣) سنن الدارقطني (١٥٢٣)، وأخرجه بنحوه الحاكم ٢/ ٣٩٠، ووقع في (د) و(ز) و(ظ): الصحيح، بدل: الصبح، في الموضعين، والمثبت من باقي النسخ والمصادر. والسائل لعبد الله بن ثعلبة هو سعد ابن إبراهيم الراوي عنه.

(٤) في سننه (٣١٦٨).

المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قارِبُوا وسَدِّدوا، فإنه لم تكن نُبُوَّةٌ قطُّ إلَّا كان بين يديها جاهليةٌ». قال: «فيؤخذ العددُ من الجاهلية، فإن تَمَّت، وإلَّا كَمُلت من المنافقين، وما مَثَلُكم والأُمَم إلَّا كَمَثل الرَّقْمة[١] في ذراع الدابة، أو كالشامَة في جَنْب البعير». ثم قال: «إنِّي لأَرجو أن تكونوا ربعَ أهل الجنة». فكبَّروا، ثم قال: «إنِّي لأرجو أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة». فكبَّروا، ثم قال: «إنِّي لأرجو أن تكونوا نصفَ أهل الجنة». فكبَّروا. قال: لا أدري قال: الثلثين أم لا. قال: هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غيرِ وجهٍ عن الحسن عن عِمران بن حُصين. وفيه: فيئِس القوم حتى ما أبْدَوْا بضاحكةٍ، فلما رأى رسول الله ﷺ [الذي بأصحابه] قال: «اعملوا وأبشروا، فَوَالَّذي نفسي بيده إنَّكم لمَعَ خلِيقتين ما كانتا مع شيء إلَّا كَثَرَتاه[٢]: يأجوج ومأجوج، ومَن مات من بني آدم وبني إبليس» قال: فَسُرِّيَ عن القوم بعضُ الذي يجدون، فقال: «اعملوا وأبشروا، فَوَالَّذي نفسُ محمدٍ بيده، ما أنتم في الناس إلَّا كالشَّامَة في جَنْبِ البعير، أو كالرَّقْمة في ذراع الدابة». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[٣].

وفي «صحيح» مسلم[٤]، عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لَبَّيْكَ وسَعْدَيك، والخيرُ في يديك» قال: «يقول: أَخْرِج بَعْثَ النار، قال: وما بَعْثُ النار؟ قال: من كلِّ ألفٍ تِسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعين»[٥] قال: «فذاك حين يَشيبُ الصغيرُ، وتَضَع كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وترى الناس سُكارَى وما هم بسكارَى ولكنَّ عذابَ الله شديد» قال: فاشتدَّ ذلك عليهم، قالوا: يا رسول الله،

(١) الرقمة: هي الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل، وهما رقمتان في ذراعيها. النهاية (رقم).

(٢) قال السندي ـ كما في حاشية المسند (١٩٩٠١) ـ: كَثَرَتاه، بالتخفيف، أي: غلبتاه بالكثرة. وقوله: بضاحكة، هي واحدة الضواحك، وهي أربعة، وسميت ضواحك؛ لأنها تظهر عند الضحك.

(٣) سنن الترمذي (٣١٦٩) وما سلف بين حاصرتين منه، وهو بهذه الرواية عند أحمد (١٩٩٠١).

(٤) برقم (٢٢٢)، وهو عند أحمد (١١٢٨٤)، والبخاري (٣٣٤٨).

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): وتسعون.

أيُّنا ذلك الرجل؟ فقال: «أبشِروا، فإنَّ من يأجوجَ ومأجوجَ ألفاً ومنكم رجل». وذَكَر الحديث بنَحْوِ ما تقدَّم في حديث عِمران بن حصين.

وذكر أبو جعفر النحاس قال: حدَّثنا أحمد بن محمد بن نافع، قال: حدَّثنا سلمة، قال: حدَّثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة، عن أنس بن مالك ﷺ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ قال: نزلت على النبي ﷺ وهو في مَسِيرٍ له، فرفع بها صوته حتى ثابَ إليه أصحابه، فقال: «أتدرون أيُّ يوم هذا؟ هذا يومَ يقول الله عزَّ وجلَّ لآدم: يا آدمُ، قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ أهل النار: من كلِّ ألفٍ تِسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعون إلى النار وواحدٌ إلى الجنة». فكَبُر ذلك على المسلمين، فقال النبيُّ ﷺ: «سَدِّدُوا وقارِبوا وأَبْشِروا، فوالَّذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلَّا كالشَّامَة في جَنْبِ البعير، أو كالرَّقْمة في ذراع الحمار، وإنَّ معكم خليقتين ما كانتا مع شيءٍ إلَّا كَثَرتاه: يأجوج ومأجوج، ومَن هَلَكَ من كَفَرةِ الجنِّ والإنس»(١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ المرادُ بهذا النداء المكلَّفون، أي: اخشَوْه في أوامره أن تتركوها، ونَواهِيه أن تُقدِموا عليها. والاتِّقاء: الاحتراسُ من المكروه، وقد تقدَّم في أوّل البقرة القولُ فيه مستوفًى(٢)، فلا معنى لإعادته. والمعنى: احترِسوا بطاعته عن(٣) عقوبته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلةُ: شدَّة الحركة، ومنه: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وأصلُ الكلمة من زَلَّ عن الموضع، أي: زال عنه وتحرَّك. وزلزل الله قَدَمه، أي: حرَّكها. وهذه اللفظةُ تُستعمل في تهويل الشيء.

---

(١) هو عند عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣١، وأخرجه من طريقه أبو يعلى (٣١٢٢)، وابن حبان (٧٣٥٤)، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٥٢ - ٤٥٣ من طريق معمر به.

(٢) ١/ ٢٤٨ وما بعدها.

(٣) في (ظ): من.

وقيل: هي الزلزلةُ المعروفة التي هي إحدى شرائط الساعة، التي تكون في الدنيا قبل يوم القيامة؛ هذا قول الجمهور. وقد قيل: إن هذه الزلزلة تكون في النصف من شهر رمضان، ومِن بعدها طلوعُ الشمس من مغربها؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ الهاءُ في «تَرَوْنَها» عائدةٌ عند الجمهور على الزلزلة، ويقوِّي هذا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾. والرضاعُ والحملُ إنَّما هو في الدنيا(١).

وقالت فرقة: الزلزلةُ في يوم القيامة، واحتجُّوا بحديث عِمران بن حُصين الذي ذكرناه، وفيه: «أتدرون أيَّ يومٍ ذلك...» الحديث. وهو الذي يقتضيه سياقُ مُسْلم في حديث أبي سعيد الخُدْريّ.

قوله: ﴿تَذْهَلُ﴾ أي: تشتغل؛ قاله قُطْرُب، وأنشد:

ضَرْباً يُزيلُ الهامَ عن مَقِيلِهِ ... ويُذهِلُ الخَليلَ عن خَليلِهِ(٢)

وقيل: تنسَى. وقيل: تلهو. وقيل: تَسْلو(٣)، والمعنى متقارب.

﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ قال المبرِّد: «ما» بمعنى المصدر، أي: تَذْهُل عن الإرضاع. قال: وهذا يدلُّ على أنَّ هذه الزلزلةَ في الدنيا؛ إذ ليس بعد البعث حَمْلٌ وإرضاع، إلَّا

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٦.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٦، والرجز نسبه ابن إسحاق لعبد الله بن رواحة، كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٧١، إلا أن ابن هشام نسبه لعمار بن ياسر. ونسبه لعبد الله أيضاً ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٤. وقد اقتبس هذا الرجز الحجاج في خطبته بعد دير الجماجم، وهي في البيان والتبيين ٢/ ١٣٩، والعقد الفريد ٤/ ١١٦. وفيهما: بضرب، بدل: ضرباً، وكذلك وقع في (خ) و(د): بضرب.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦، الأول عن اليزيدي، والثاني عن الكلبي، والثالث عن الأخفش.

أن يقال: مَنْ ماتت حاملاً تُبعث حاملاً فتضع حَمْلَها للهَوْل، ومَن ماتت مُرضعةً بُعثت كذلك.

ويقال: هذا كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل:١٧].

وقيل: تكون مع النفخة الأولى. وقيل: تكون مع قيام الساعة، حين[1] يتحرَّك الناس من قبورهم في النفخة الثانية.

ويحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارةً عن أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة:٢١]، وكما قال عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ اهزمهم وزلزلهم»[2].

وفائدةُ ذِكْرِ هَوْل ذلك اليومِ التحريضُ على التأهُّب له والاستعدادِ بالعمل الصالح. وتسميةُ الزلزلة بـ «شيء» إمَّا لأنَّها حاصلةٌ متيقَّنٌ وقوعُها، فيُسْتَسْهل لذلك أن تسمَّى شيئاً وهي معدومة؛ إذ اليقينُ يشبِه الموجودات. وإمَّا على المآل، أي: هي إذا وقعت شيءٌ عظيم. وكأنه لم يطلق الاسمَ الآن، بل المعنى: أنها إذا كانت فهي إذاً شيء عظيم[3]، ولذلك تَذْهَلُ المراضعُ ويَسْكَرُ الناسُ، كما قال: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ أي: من هَوْلها ومما يُدركهم من الخوف والفزع. ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ من الخمر.

وقال أهل المعاني: وترى الناس كأنَّهم سُكارى. يدلُّ عليه قراءةُ أبي زُرْعة هَرِم ابن عمرو بن جرير بن عبد الله[4]: «وتُرَى الناسَ» بضمِّ التاء؛ أي: تظنُّ ويخيَّل إليك.

---

(١) في (د) و(م): حتى.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩١٠٧)، والبخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢) عن عبد الله ابن أبي أوفى ﷺ في دعائه ﷺ على الأحزاب.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٥ .

(٤) البجلي الكوفي، وقيل اسمه عبد الله، وقيل: عمرو، وقيل: جرير، وذكر ابن حبان في الثقات أبا زرعة بن عمرو بن جرير فيمن اسمه هرم، ثم قال: ويقال: اسمه كنيته. روى عن جده وأبي هريرة ومعاوية وغيرهم. التهذيب ٤/ ٥٢٤ . وقراءته في القراءات الشاذة ص٩٤ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٥٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠٦ .

وقرأ حمزة والكسائيُّ: «سَكْرَى» بغير ألف[١]. الباقون: «سُكارى»، وهما لغتان لجمع سكران، مثلُ: كَسْلى وكُسَالى.

والزلزلة: التحريك العنيف. والذُّهول: الغَفْلَة عن الشيء بِطَرَيَان[٢] ما يشغَل عنه من همٍّ أو وجعٍ أو غيره. قال ابن زيد: المعنى: تَتْرُكُ ولدها للكَرْبِ الذي نزل بها[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قيل: المراد النضر بنُ الحارث؛ قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ غيرُ قادر على إحياءِ مَن قد بَلِيَ وعاد تراباً[٤]. ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: في قوله ذلك ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾: متمرِّد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ قال قتادة ومجاهد: أي: مَن تَوَلَّى الشيطان[٥] ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ إلى قوله: ﴿مُّسَمًّى﴾

---

(١) وكذلك: «وما هم بسَكْرى». السبعة ص٤٣٤، والتيسير ص١٥٦.

(٢) كذا في النسخ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠٦، والكلام منه.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٤، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٥٩ عن ابن جريج. وذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦ عن ابن عباس.

(٥) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٥٩ - ٤٦٠، وخبر قتادة أيضاً أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٢.

فيه اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ هذا احتجاجٌ على العالَم بالبداءة الأولى. وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ فِي ريبٍ» [شرطٌ] متضمِّنُه التوقيف. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «البَعَث» بفتح العين، وهي لغةٌ في «البَعْث» عند البصريين. وهي عند الكوفيين تخفيفُ «بَعَث»(١).

والمعنى: يا أيها الناس، إن كنتم في شكٍّ من الإعادة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ أي: خلقنا أباكم الذي هو أصلُ البشر، يعني آدمَ عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ خلقنا ذرِّيته ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾: وهو المنيُّ؛ سُمِّيَ نطفةً لقلَّته، وهو القليلُ من الماء، وقد يقع على الكثير منه، ومنه الحديث: «حتى يسير الراكبُ بين النُّطفتين لا يخشى جَوْراً». أراد بحر المشرق وبحر المغرب(٢). والنَّطْف: القَطْر. نَطَف يَنْطِفُ وينطُف. وليلةٌ نَطوفة: دائمة القَطْر(٣).

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: وهو الدَّم الجامد. والعَلَق: الدَّم العَبِيط، أي: الطَّرِيّ. وقيل: الشديدُ الحُمْرة.

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾: وهي لَحمةٌ قليلةٌ قَدْرُ ما يُمضغ، ومنه الحديث: «ألَا وإنَّ في الجسد مُضْغةً»(٤). وهذه الأطوارُ أربعةُ أشهر. قال ابن عباس: وفي العشر بعدَ الأشهرِ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وذكر القراءة عن الحسن أيضاً الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥ . قال الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٤١١ : ذكر جميع الكوفيين أن كلَّ ما كان ثانيه حرفاً من حروف الحلق، وكان مسكَّناً مفتوحَ الأول، جاز فيه فتح المسكَّن، نحو: شَعْر وشَعَر، ونَهْر ونَهَر.

(٢) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٦ ، وفيه: لا يخشى إلا جوراً، وهي رواية، ومعناها: لا يخاف في طريقه غير الضلال والجورِ عن الطريق، وعلى الرواية الأخرى - يعني بحذف «إلا» - يكون الجور بمعنى الظلم. النهاية (جور) و(نطف)، وذكره أيضاً الزمخشري في الفائق ٣/ ٤٤٢ ، ولفظه: «لا يزال الإسلام يزيد وأهله، وينقص الشرك وأهله، حتى يسير الراكب...».

(٣) أي: تمطر حتى الصباح. تهذيب اللغة ١٣/ ٣٦٥ .

(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير ﷺ.

الأربعة يُنفخ فيه الروح[١]. فذلك عِدَّةُ المتوفَّى عنها زوجُها، أربعةُ أشهرٍ وعشر.

الثانية: روى يحيى بن زكريَّا بن أبي زائدة: حدَّثنا داودُ، عن عامر، عن علقمةَ، عن ابن مسعود ـ وعن ابن عمر ـ أنَّ النطفة إذا استقرَّت في الرَّحم؛ أخذها مَلَكٌ بكفِّه فقال: يا ربِّ، ذكرٌ أم أنثى، شقيٌّ أم سعيد، ما الأجلُ والأثر، بأيِّ أرضٍ تموت؟ فيقال له: انطلِقْ إلى أمِّ الكتاب، فإنَّك تجدُ فيها قصةَ هذه النطفة، فينطلقُ فيجدُ قصَّتها في أمِّ الكتاب، فتُخلَقُ، فتأكل رزقَها وتطأُ أثرها، فإذا جاء أجلها؛ قُبضت فدُفنت في المكان الذي قُدِّر لها، ثم قرأ عامر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[٢].

وفي الصحيح عن أنس بن مالك[٣] ـ ورفع الحديث ـ قال: «إنَّ الله قد وَكَّل بالرَّحِمِ مَلَكاً، فيقول: أيْ ربِّ نطفةٌ. أيْ رَبِّ عَلَقة. أيْ رَبِّ مُضْغَة. فإذا أراد الله أن يقضيَ خَلْقاً قال، قال المَلَك: أيْ رَبِّ! ذَكَرٌ أو أنثى؟ شقيٌّ أو سعيد؟ فما الرزقُ؟ فما الأجل؟ فيُكتب كذلك في بطن أمِّه».

وفي الصحيح أيضاً عن حُذيفة بن أَسِيد الغِفاريِّ[٤] قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا مَرَّ بالنطفة ثِنْتانِ وأربعون ليلةً بعث الله إليها مَلَكاً، فصوَّرها، وخَلَق سمعها وبصرها، وجِلْدَها ولحمها وعظامها، ثم يقول: أيْ ربِّ أذَكَر أم أنثى...». وذكر الحديث.

---

(١) قطعة من خبر ابن عباس، أخرجه اللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٦٠)، وفي إسناده محمد بن حميد الرازي وهو ضعيف، كما ذكر الحافظ في التقريب. وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ١٦٢ : في إسناده نظر.

(٢) الكلام في المفهم ٦/ ٦٥١ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٠ ، وأخرج الحديث عن ابن مسعود بهذا الإسناد الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٩ ، وأخرجه الطبري ١٦/ ٤٦١ ، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية من طريق داود بن أبي هند به. وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٧١ . وعلقمة هو ابن قيس، وعامر هو الشعبي. أما خبر ابن عمر فأخرجه البزار (٢١٤٩ - كشف)، وأبو يعلى (٥٧٧٥) مرفوعاً إلى النبي ﷺ بنحو خبر ابن مسعود.

(٣) صحيح البخاري (٣١٨)، وصحيح مسلم (٢٦٤٦) واللفظ له، وهو عند أحمد (١٢١٥٧).

(٤) صحيح مسلم (٢٦٤٥)، وهو عند أحمد (١٦١٤٢).

وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود[1] قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إنَّ أحدكم يُجمعُ خَلْقُه في بطن أمِّه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك عَلَقةً مثلَ ذلك، ثم يكون [في ذلك] مُضغةً مثلَ ذلك، ثم يُرسَل المَلَك فينفخُ فيه الروحَ، ويُؤمر بأربع كلماتٍ: بكَتْب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيد...» الحديث. فهذا الحديثُ مفسِّرٌ للأحاديث الأُوَل؛ فإنَّ فيه: «يُجمع خَلْقُ أحدِكم في بطن أمِّه أربعين يوماً نطفةً، ثم أربعين يوماً علقةً، ثم أربعين يوماً مضغةً، ثم يُبعث الملك، فينفخ فيه الروح» فهذه أربعةُ أشهرٍ، وفي العشر يَنْفُخُ الملك الروح، وهذه عِدَّة المتوفَّى [عنها زوجها] كما قال ابن عباس[2].

وقولُه: «إنَّ أحدَكم يُجمع خلقه في بطن أمِّه» قد فسَّره ابن مسعود؛ سئل الأعمش: ما يُجمع في بطن أمِّه؟ فقال: حدَّثنا خَيْثمة، قال: قال عبد الله: إذا وقعت النطفةُ في الرَّحِم فأراد الله أن يخلق منها بشراً، طارت في بشرة المرأة تحت كلّ ظفرٍ وشعرٍ، ثم تمكث أربعين يوماً، ثم تصير دماً في الرَّحِم، فذلك جَمْعُها، وهذا وقتُ كونها علقةً[3].

الثالثة: نسبةُ الخَلْقِ والتَّصوير للمَلَك نسبةٌ مَجازيَّةٌ لا حقيقية، وإنَّما صَدَر عنه فِعْل ما في المضغة ـ كأنَّ عنه[4] التصوير والتشكيل ـ بقدرة الله وخَلْقِه واختراعه؛ ألَا تراه سبحانه قد أضاف إليه الخَلقةَ الحقيقية، وقَطَع عنها نسبَ جميع الخليقة فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن

(١) صحيح البخاري (٣٢٠٨)، وصحيح مسلم (٢٦٤٣)، واللفظ له وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو عند أحمد (٣٦٢٤).

(٢) سلف في المسألة الأولى.

(٣) أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٦٨٢ ، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير عند تفسير الآية (١٤) من سورة المؤمنون، وذكره القاضي عياض في إكمال المعلم ٨/ ١٢٦ ، وأبو العباس في المفهم ٦/ ٦٥٠ .

(٤) في (ظ) و(م): كان عند، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ٦٥٦ ، والكلام منه.

طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. وقال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]. ثم قال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]. وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَنَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وقال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]. إلى غير ذلك من الآيات، [هذا] مع ما دلَّت عليه قاطعاتُ البراهين أنْ لا خالقَ لشيءٍ من المخلوقات إلا ربُّ العالمين(١).

وهكذا القولُ في قوله: «ثم يُرسَل الملك فينفخُ فيه الروحَ» أي أنَّ النفخ سببُ خَلْقِ الله فيها الروحَ والحياة. وكذلك القولُ في سائر الأسباب المعتادة، فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره. فتأمَّلْ هذا الأصلَ وتمسَّكْ به، فبِهِ النجاةُ من مذاهب أهل الضلال [من أهل] الطبائع وغيرهم(٢).

الرابعة: لم يختلف العلماء أنَّ نفخ الروح فيه يكون بعد مئة وعشرين يوماً، وذلك تمامُ أربعةِ أشهرٍ ودخوله في الخامس؛ كما بيَّنَّاه بالأحاديث. وعليه يعوَّل فيما يُحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع، وفي وجوب النفقات على حَمْلِ المطلَّقات؛ وذلك لتيقُّنِه بحركة الجنين في الجوف. وقد قيل: إنه الحكمةُ في عِدَّة المرأة من الوفاة بأربعة أشهرٍ وعَشْرٍ، وهذا الدخول في الخامس يحقِّق براءةَ الرَّحِم ببلوغ هذه المدَّة إذا لم يَظْهَرْ حَمْلٌ(٣).

الخامسة: النطفةُ ليست بشيء يقيناً، ولا يتعلَّق بها حكم إذا ألقتها المرأة؛ إذ لم تجتمع في الرحم، فهي كما لو كانت في صُلْبِ الرجل، فإذا طَرَحَتْه علقةً تحقَّقنا أنَّ النطفة قد استقرَّت واجتمعت واستحالت إلى أوّل أحوال ما يُتحقَّق به أنه ولد. وعلى هذا فيكون وضعُ العلقة فما فوقَها من المضغة وَضْعَ حملٍ تَبْرَأ به الرَّحِم،

(١) المفهم ٦/ ٦٥٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) المفهم ٦/ ٦٥١ ، وما بين حاصرتين منه.

(٣) إكمال المعلم ٨/ ١٢٣ - ١٢٤ ، والمفهم ٦/ ٦٥١ .

وتنقضي به العِدَّة، ويَثْبُت به لها حكمُ أمِّ الولد. وهذا مذهبُ مالك ﷺ وأصحابِه. وقال الشافعيُّ ﷺ: لا اعتبارَ بإسقاط العَلَقة، وإنما الاعتبارُ بظهور الصورة والتخطيط، فإن خَفِيَ التخطيطُ وكان لحماً، فقولان بالنقل والتخريج(١)، والمنصوصُ أنه تنقضي به العدَّة، ولا تكونُ أمَّ ولد. قالوا: لأنَّ العدَّة تنقضي بالدَّمِ الجاري، فبغيرِه أَوْلى.

السادسة: قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ قال الفرَّاء(٢): «مخلَّقة»: تامَّةُ الخَلْق، «وغيرِ مخلَّقة»: السَّقْط. وقال ابن الأعرابيّ: «مخلَّقة»: قد بدا خَلْقُها، «وغير مخلَّقة»: لم تصوَّر بعد(٣).

ابن زيد: المخلَّقة التي خَلَقَ الله فيها الرأسَ واليدين والرجلين، وغير مخلَّقة: التي لم يُخلق فيها شيء. قال ابن العربيّ(٤): إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإنَّ النطفة والعلقة والمضغة مخلَّقةٌ؛ لأنَّ الكلَّ خَلْقُ الله تعالى، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقةِ كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فذلك ما قال ابن زيد.

قلت: التخليقُ من الخَلْق، وفيه معنى الكَثْرة، فما تتابع عليه الأطوارُ فقد خُلق خلقاً بعد خَلْقٍ، وإذا كان نطفةً فهو مخلوق؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ والله أعلم.

وقد قيل: إنَّ قوله: «مخلَّقةٍ وغيرِ مخلَّقةٍ» يرجع إلى الولد بعينه(٥) لا إلى السَّقْط،

---

(١) المفهم ٦/ ٦٥٢. والتخريج: هو نقلُ حكمِ مسألة إلى ما يشبهها، والتسويةُ بينهما فيه. الإنصاف للمرداوي ١/ ٩. وقال ابن بدران في المدخل ص٦٠: اعلم أن بين التخريج والنقل فرقاً من حيث إن الأول أعم من الثاني؛ لأن التخريج يكون من القواعد الكلية للإمام أو الشرع أو العقل؛ لأن حاصل معناه بناءُ فرعٍ على أصلٍ بجامعٍ مشترك... وأمَّا النقل فهو أن ينقل النصَّ عن الإمام، ثم يخرِّج عليه فروعاً، فيجعلَ كلام الإمام أصلاً وما يخرجه فرعاً، وذلك الأصل مختصٌّ بنصوص الإمام.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢١٥.

(٣) ياقوتة الصراط لغلام ثعلب ص٣٦٧ - ٣٦٨.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١، وما قبله منه.

(٥) في (خ) و(ظ): نفسه.

أي: منهم مَن يُتِمُّ الربُّ سبحانه مضغته، فيخلق له الأعضاء أَجْمعَ، ومنهم مَن يكون خَدِيجاً ناقصاً غير تام[١].

وقيل: المخلَّقةُ أنْ تلدَ المرأة لتمام الوقت. ابن عباس: المخلَّقةُ ما كان حيًّا، وغيرُ المخلقة السَّقْط[٢]؛ قال:

أفي غير المخلَّقة البكاءُ فأين الحزمُ ويحك والحياءُ[٣]

السابعة: أجمع العلماء على أنَّ الأمَة تكون أمَّ ولدٍ بما تُسْقِطُه من ولدٍ تامِّ الخَلْق. وعند مالكٍ والأوزاعيِّ وغيرِهما: بالمضغة، كانت مخلَّقةً أو غيرَ مخلقة. قال مالك: إذا عُلم أنها مضغةُ [الولد][٤]. وقال الشافعيُّ وأبو حنيفة: إن كان قد تبيَّن له شيءٌ من خَلْقِ بني آدم؛ أصبعٌ أو عينٌ أو غيرُ ذلك؛ فهي أمُّ ولد[٥].

وأجمعوا على أنَّ المولود إذا استهلَّ صارخاً يُصلَّى عليه[٦]؛ فإن لم يَستَهِلَّ صارخاً لم يُصَلَّ عليه عند مالكٍ وأبي حنيفة والشافعيِّ وغيرهم. وروي عن ابن عمر: أنه يصلَّى عليه، وقاله ابن المسيِّب وابنُ سِيرين وغيرهما[٧].

وروي عن المغيرة بن شعبة أنه كان يأمر بالصلاة على السَّقْط، ويقول: سمُّوهم واغسلوهم وكفِّنوهم وحنِّطوهم؛ فإنَّ الله أكرمَ بالإسلام كبيرَكم وصغيرَكم، ويتلو هذه الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ إلى: ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾؛ قال ابن العربيّ[٨]:

---

(١) في (م): تمام.

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٥٩.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٧.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٨، وما بين حاصرتين منه.

(٥) الإشراف لابن المنذر ٤/ ٣٠٩، ووقع في (خ) و(م): فهي له أم ولد.

(٦) الإجماع لابن المنذر ص٣٠.

(٧) الاستذكار ٨/ ٢٥٩ - ٢٦٠، وقول ابن عمر وابن سيرين وابن المسيب أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٣١٧ - ٣١٨.

(٨) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١، وما قبله منه. وخبر المغيرة أخرجه عبد الرزاق (٦٦٠٢) وأبو داود =

لعلَّ المغيرة بن شعبة أراد بالسَّقْطِ ما تبيَّن خَلْقُه، فهو الذي يسمَّى، وما لم يَتَبيَّن خَلْقُه فلا وجودَ له.

وقال بعض السَّلَف: يصلَّى عليه متى نُفخ فيه الروحُ وتمتْ له أربعةُ أشهر. وروى أبو داود[1] عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا استهَلَّ المولود وَرِث». الاستهلال: رفعُ الصوت، فكلُّ مولودٍ كان ذلك منه، أو حركةٌ أو عطاسٌ أو تنفُّسٌ، فإنه يورَّث لوجود ما فيه من دلالة الحياة. وإلى هذا ذهب سفيان الثوريُّ والأوزاعيُّ والشافعيُّ. قال الخطابيُّ[2]: وأحسبُه قولَ أصحاب الرأي. وقال مالك: لا ميراثَ له وإن تحرَّك أو عَطَس ما لم يستهِلَّ. وروي عن محمد بن سيرين والشَّعْبيِّ والزهريِّ وقتادة.

الثامنة: قال مالك ﷺ: ما طرحته المرأة ـ من مضغةٍ أو علقةٍ أو ما يُعلم أنه ولدٌ ـ إذا ضُرب بطنُها ففيه الغُرّة. وقال الشافعيُّ: لا شيء فيه حتى يتبيَّن من خَلْقِه شيءٌ. قال مالك: إذا سقط الجنين فلم يستهِلَّ صارخاً ففيه الغُرَّة، وسواءٌ تحرَّك أو عطس؛ فيه الغُرَّةُ أبداً، حتى يستهِلَّ، فإذا استهلَّ[3] صارخاً ففيه الديةُ كاملةً. وقال الشافعيُّ ﷺ وسائرُ فقهاءِ الأمصار: إذا عُلمت حياتُه بحركةٍ أو بعطاسٍ أو باستهلالٍ، أو بغير ذلك مما تُسْتَيقَنُ به حياتُه، ففيه الديةُ [كاملةً][4].

التاسعة: ذكر القاضي إسماعيلُ أنَّ عِدَّة المرأة تنقضي بالسَّقْطِ الموضوع، واحتجَّ عليه بأنه حَمْلٌ، وقال: قال الله تعالى: ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾

= (٣١٨٠) مختصراً بلفظ: السقط يصلَّى عليه، ويدعى لأبويه بالعافية والرحمة. وأخرجه مرفوعاً بنحوه أحمد (١٨١٦٢)، والترمذي (١٠٣١) وصححه. قال الحافظ في التلخيص الحبير ٢/ ١١٤ : ورجح الدارقطني في العلل الموقوفَ. وينظر علل الدارقطني ٧/ ١٣٤ .

(١) في سننه (٢٩٢٠).

(٢) في معالم السنن ٤/ ١٠٥ ، وما قبله منه.

(٣) قوله: فإذا استهل من (ظ).

(٤) التمهيد ٦/ ٤٨٣ ، وما بين حاصرتين منه، وسلف الكلام في هذه المسألة ٧/ ٢١ - ٢٣ .

[الطلاق: ٤]. قال القاضي إسماعيل: والدليلُ على ذلك أنه يرث أباه، فدلَّ على وجوده خَلْقاً وكونه ولداً وحملاً. قال ابن العربي[(١)]: [وكذلك قال: لا تكون به أمَّ ولد]، ولا يرتبط به شيءٌ من هذه الأحكام إلَّا أن يكون مخلَّقاً.

قلت: ما ذكرناه من الاشتقاق، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ أحدكم يُجمعُ خَلْقُه في بطنِ أمِّه»، يدلُّ على صحة ما قلناه، وبأنَّ[(٢)] مُسْقطةَ العلقةِ والمضغة يَصْدُقُ على المرأة إذا ألقته أنها[(٣)] كانت حاملاً وضعتْ ما استقرَّ في رَحِمها، فيشملُها قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. ولأنَّها وضعت مَبْدأ الولد عن نطفةٍ متجسِّداً كالمخطَّط، وهذا بيِّن.

العاشرة: روى ابن ماجه: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدَّثنا خالد بن مَخْلَد، حدَّثنا يزيد بن عبد الملك النَّوفليُّ، عن يزيد بن رُومان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَسَقْطٌ أقدِّمه بين يديَّ أَحَبُّ إليَّ من فارسٍ أُخلِّفه خلفي»[(٤)]. وأخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث له، عن سهيل بن أبي صالحٍ، عن أبيه، عن أبي هريرة فقال: «أحبُّ إلي من ألفِ فارسٍ أخلِّفه ورائي»[(٥)].

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦١ - ١٢٦٢ ، وما قبله وما سيرد بين حاصريتن منه.

(٢) في (م): ولأن.

(٣) في (ظ): إذا ألقتها يصدق عليها أنها، بدل: يصدق على المرأة إذا ألقته أنها، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٦/ ٦٥٢ - ٦٥٣ ، والكلام منه.

(٤) سنن ابن ماجه (١٦٠٧) وفيه: أخلِّفُه خلفي. وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٠٣ ، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٨٥ ، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٧١٥ - ٢٧١٦ ، وابن الجوزي في العلل ٢/ ٩٠٦ من طريق يزيد من عبد الملك، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة به. قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، والحَمْل فيه على يزيد النوفلي؛ قال أحمد: عنده مناكير، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال العقيلي: لا يتابع على هذا الحديث إلا من جهة لا تصح.

(٥) معرفة علوم الحديث ص١٨٦ من طريق خالد بن يزيد العمري، عن أبي مودود عبد العزيز بن أبي سليمان، عن سهيل بن أبي صالح به. قال البخاري في التاريخ الكبير ٣/ ١٨٤ : خالد بن يزيد العمري مكي ذاهب الحديث. وقال ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٨٥ : لا يُشتغل بذكره لأنه يروي الموضوعات عن الأثبات.

الحادية عشرة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ﴾ يريد: كمالَ قدرتنا بتصريفنا أطوارَ خَلْقِكم ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ قرئ بنصب «نُقِرّ» و«نخرج»، رواه أبو حاتم، عن أبي زيد، عن المفضَّل، عن عاصم. قال أبو حاتم: النصبُ على العطف. وقال الزجَّاج: «نقرّ» بالرفع لا غير؛ لأنه ليس المعنى: فعلنا ذلك لنقرَّ في الأرحام ما نشاء، وإنَّما خَلَقهم عزَّ وجلَّ ليدلَّهم على الرُّشْدِ والصَّلاح[(١)].

وقيل: المعنى: لنبيِّن[(٢)] أمرَ البعث، فهو اعتراضٌ بين الكلامين. وقرأت هذه الفرقة بالرفع: «ونقرُّ»، المعنى: ونحن نقرُّ. وهي قراءة الجمهور.

وقرئ: «ويقر» و«يخرجكم» بالياء، والرفعُ على هذا سائغ. وقرأ ابن وَثّاب: «ما نِشاء» بكسر النون. والأجلُ المسمَّى يختلف بحسَبِ جَنِينٍ جنين، فثَمَّ مَن يسقط، وثَمَّ مَن يَكْمُلُ أمرُه ويخرج حَيًّا[(٣)].

وقال: «ما نشاء»، ولم يقل: مَن نشاء؛ لأنه يرجع إلى الحمل؛ أي: نقرُّ في الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة، وهي جماد، فكَنَى عنها بلفظِ «ما».

الثانية عشرة: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالاً، فهو اسمُ جنسٍ. وأيضاً فإنَّ العرب قد تسمِّي الجمعَ باسم الواحد؛ قال الشاعر:

يَلْحَيْنَني في حبِّها ويَلُمْنَني ... إنَّ العواذلَ ليس لي بأميرِ[(٤)]

ولم يقل: أمراء. وقال المبرِّد: هو اسمٌ يُستعمل مصدراً؛ كالرضا والعَدْل، فيقع

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٧، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤١٢، وقراءة المفضل عن عاصم ذكرها أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٠٨ ثم قال: وحكى أبو عمرو الداني أن رواية المفضل هذه هي بالياء في «يقرّ» وفي «يخرجكم». وسيذكر المصنف القراءة بالياء دون نسبة، وينظر القراءات الشاذة ص٩٤، وجامع البيان للداني ٢/ ٢٩٥.

(٢) بعدها في (م): لهم، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز ٤/ ١٠٨، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٨.

(٤) مجاز القرآن ٢/ ٤٤ - ٤٥، وهو في تفسير الطبري ١٦/ ٥٣٤، واللسان (ظهر) برواية:

يا عاذلاتي لا تزدن مودَّتي ... إن العواذل لَسْنَ لي بأميرِ

على الواحد والجمع؛ قال الله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: ٣١]. وقاله الطبري(١). وهو نصبٌ على التمييز، كقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ [النساء: ٤](٢).

وقيل: المعنى: ثم نخرج كلَّ واحدٍ منكم طفلاً(٣).

والطفلُ يطلَق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ. وولَدُ كُلِّ وَحْشِيَّةٍ أيضاً طفلٌ. ويقال: جارِيةٌ طِفْلٌ، وجاريتان طِفْل، وجَوارٍ طِفْلٌ، وغلامٌ طِفْلٌ، وغلمانٌ طِفْل. ويقال أيضاً: طِفْلٌ وطِفْلة، وطِفْلان وطِفْلتان وأطفال، ولا يقال: طِفْلات(٤). وأَطْفَلت المرأة: صارت ذاتَ طِفْلٍ. والمُطْفِل(٥): الظبيةُ معها طِفْلُها، وهي قريبةُ عهدٍ بالنِّتاج. وكذلك الناقة، [والجمع] مَطافِلُ ومَطافيل. والطَّفْلُ؛ بالفتح في الطاء: الناعم؛ يقال: جاريةٌ طَفْلة، أي: ناعمة، وبَنانٌ طَفْل. وقد طَفَّل الليل: إذا أقبل ظلامُه. والطَّفَل بالتحريك: بعد العصر إذا طَفَلت الشمس للغروب. والطَّفَل أيضاً: مطر؛ قال:

لِوَهْدٍ جادهُ طَفَلُ الثُّرَيّا(٦)

﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾ قيل: إنَّ «ثم» زائدةٌ، كالواو في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ لأنَّ «ثم» من حروف النَّسَق، كالواو. و«أَشُدَّكم»: كمال

---

(١) في (د) و(ز) و(م): وقال الطبري، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو في تفسيره ١٦/ ٤٦٥ .

(٢) المقتضب للمبرد ٢/ ١٧٣-١٧٤ ، وقال فيه: هو كقولك: زيد أحسن الناس ثوباً. . . وإنه ليحسن ثوباً، ويكثُر أمةً وعبداً.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٢ .

(٤) كذا قال المصنف رحمه الله، وفي تهذيب اللغة ١٣/ ٣٤٨ واللسان (طفل): وطفلات في القياس.

(٥) في النسخ: والمطفلة، والمثبت من الصحاح (طفل)، وما بعده وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو موافق لما في مجمل اللغة ٢/ ٥٨٣ ، واللسان (طفل)، والقاموس (طفل).

(٦) الصحاح (طفل)، ومجمل اللغة ٢/ ٥٨٣ ، وأساس البلاغة (طفل)، واللسان (طفل)، ولم يذكروا الشطرَ الآخر، وقوله: وَهْد، جمع وَهْدَة، وهو المكان المطمئن، أي: المنخفض من الأرض.

عقولكم ونهاية قُواكم. وقد مضى في «الأنعام» بيانُه[1].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: أخسِّه وأدْوَنِه، وهو الهَرَمُ والخَرَف حتى لا يعقِل؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، كما قال في سورة يس: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [الآية:٦٨]. وكان النبيُّ ﷺ يدعو فيقول: «اللهُمّ إنِّي أعوذُ بك من البُخْل، وأعوذُ بك من الجُبْن، وأعوذُ بك من أنْ أُرَدَّ إلى أَرْذَلِ العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر»[2]. أخرجه النَّسائيُّ عن سعد، وقال: كان يعلِّمهنَّ بَنِيهِ كما يعلِّم المُكْتِبُ الغلمان[3]. وقد مضى في «النحل» هذا المعنى[4].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ذَكَر دلالةً أخرى[5] على البعث، فقال في الأوّل: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ فخاطب جَمْعاً. وقال في الثاني: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ فخاطب واحداً، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكنَّ المعنى متَّصلٌ من حيث الاحتجاجُ على مُنْكِري البعث.

﴿هَامِدَةً﴾: يابسةً لا تُنبت شيئاً؛ قاله ابن جُريج[6]. وقيل: دراسةً. والهُمودُ: الدروس، قال الأعشى:

قالت قُتيلَةُ ما لجسمك شاحِباً وأرى ثيابَك بالياتِ هُمَّدَا[7]

(١) ٩/١١١ - ١١٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٥)، والبخاري (٢٨٢٢) و(٦٣٦٥) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ. وسلف ١٢/٣٧٥.

(٣) المجتبى ٨/٢٦٦، وقائل هذا الكلام مصعب بن سعد وعمرو بن ميمون الأودي، ومن طريقهما أخرجه النسائي عن سعد. وذكر هذا الكلام أيضاً عن عمرو بن ميمون البخاري في الرواية (٢٨٢٢) وفيه: المعلِّم، بدل: المكتب.

(٤) ١٢/٣٧٤.

(٥) في (م): أقوى.

(٦) النكت والعيون ٤/٨، وأخرجه بنحوه الطبري ١٦/٤٦٦.

(٧) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٢٧٧، وفيه سايئاً، بدل: شاحباً، وهو براوية المصنف في النكت والعيون ٤/٨.

الهَرَوِيُّ: «هامدة»، أي: جافَّةً ذاتَ تراب. وقال شَمِر[١]: يقال: هَمَد شجر الأرض: إذا بَلِيَ وذهب. وهَمَدَتْ أصواتهم: إذا سَكَنَتْ. وهُمودُ الأرض ألَّا يكون فيها حياةٌ ولا نَبْتٌ ولا عودٌ، ولم يُصِبْها مطر. وفي الحديث: «حتى كاد يَهْمُد من الجوع»[٢] أي: يهلك. يقال: هَمَد الثوبُ يَهْمُد: إذا بَلِيَ. وهَمَدت النار تَهْمُد.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحرَّكت. والاهتزاز: شدَّة الحركة؛ يقال: هَزَزْتُ الشيءَ فاهتزَّ، أي: حركتُه فتحرَّك. وهَزَّ الحادِي الإبلَ هزيزاً فاهتزَّتْ هي: إذا تحرَّكت في سيرها لحُدائه[٣]. واهتزَّ الكوكب في انقضاضه، وكوكبٌ هازّ.

فالأرضُ تهتزُّ بالنبات؛ لأنَّ النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضَها من بعضٍ إزالةً خفيفة[٤]، فسمَّاه اهتزازاً مَجازاً.

وقيل: اهتزَّ نباتها، فحذف المضاف؛ قاله المبرِّد[٥]. واهتزازُه: شدَّة حركته، كما قال الشاعر:

تَثَنَّى إذا قامت وتهتزُّ إن مَشَتْ ... كما اهتزَّ غصنُ البان في ورقٍ خُضْرِ[٦]

والاهتزازُ في النبات أَظْهَرُ منه في الأرض.

﴿وَرَبَتْ﴾ أي: ارتفعت وزادت. وقيل: انتفخت، والمعنى واحد، وأصلُه الزيادة.

(١) هو ابن حمدويه، وكلامه في تهذيب اللغة ٦/ ٢٢٨ .

(٢) ذكره الخطابي في غريب الحديث ٢/ ٢٩١ ، والزمخشري في الفائق ٢/ ٢٠ و ٣٧٩ ، وابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٥٠٠ ، وابن الأثير في النهاية (همد)، وهو من حديث عامر بن ربيعة ﷺ في وصف مصعب بن عمير ﷺ.

(٣) في النسخ عدا (ظ): بحدائه، والمثبت من (ظ) والصحاح (هزز) والكلام منه.

(٤) في (خ) و(م): خفية، وفي (د): حقيقة.

(٥) ذكره عنه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٦٠ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ٩ .

رَبَا الشيءُ يَرْبُو رُبُوًّا، أي: زاد، ومنه الرِّبا والرَّبوة.

وقرأ يزيد بن القَعْقاع وخالد بن إلياس: «وَرَبَأَتْ»، أي: ارتفعت حتى صارت بمنزلة الربيئة، وهو الذي يحفظ القوم على شيءٍ مُشْرِف، فهو رابئٌ، ورَبِيئة على المبالغة(١)، قال امرؤ القيس:

بَعَثْنَا رَبِيئاً قبل ذلك مُخْمَلاً(٢) كذئب الغَضَا يمشي الضَّرَاءَ ويتَّقي(٣)

﴿وَأَنۢبَتَتۡ﴾ أي: أخرجت ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾ أي: لون ﴿بَهِيجٖ﴾ أي: حسن؛ عن قتادة(٤). أي: يُبهج مَن يراه. والبَهجة: الحُسْن؛ يقال: رجلٌ ذو بَهجة. وقد بَهُج ـ بالضمّ ـ بَهاجةً وبَهْجة، فهو بَهيج(٥). وأَبْهجني: أعجبني بحسنه. ولمَّا وصف الأرض بالإنبات دلَّ على أنَّ قوله: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ يرجع إلى الأرض لا إلى النبات. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ⁦(٦)⁩ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ⁦(٧)⁩﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ لمَّا ذكر افتقارَ الموجوداتِ إليه وتسخيرَها على وَفْقِ اقتداره واختياره في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ إلى قوله: ﴿بَهِيجٖ﴾، قال بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٨١، وقراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٢٥. وخالد بن إلياس ـ ويقال: إياس ـ هو أبو الهيثم العدوي المدني، من رجال التهذيب.

(٢) في النسخ الخطية: قبل ذلك مخمصاً، وفي (م): قبل ذاك مخملاً. والمثبت من الديوان على ما يأتي.

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٧٢، وقال شارحه: الربيء والربيئة: الذي يربأ للقوم، أي: ينظر الصيد من مكان مرتفع. ومُخمَلاً يعني: يُخمل نفسه، أي: يسترها ويخفيها. والغضا: شجر، وأخبثُ الذئاب ما كان منشؤه ومأواه الغضا. اهـ. ويمشي الضَّرَاء، أي: مستخفياً فيما يواري من الشجر. الصحاح (ضرا).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٢، والطبري ١٦/ ٤٦٧.

(٥) الصحاح (بهج).

قَدِيرٌ . وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ فنبَّه سبحانه وتعالى بهذا على أنَّ كلَّ ما سواه، وإنْ كان موجوداً حقًّا، فإنَّه لا حقيقةَ له من نفسه؛ لأنه مسخَّرٌ مصرَّف، والحقُّ الحقيقيُّ: هو الموجودُ المطلَقُ الغنيُّ المطلَق. وأنَّ وجودَ كلِّ ذي وجودٍ عن وجوبِ وجوده؛ ولهذا قال في آخر السورة: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الآية: ٦٢](١) والحقُّ: الموجودُ الثابت الذي لا يتغيَّر ولا يزول، وهو الله تعالى.

وقيل: ذو الحقِّ على عباده. وقيل: «الحقّ» بمعنى: في أفعاله.

وقال الزجَّاج: «ذلك» في موضعِ رفعٍ، [المعنى: الأمر ذلك] أي: الأمرُ ما وُصف لكم وبُيِّن. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: لأنَّ الله هو الحقّ. قال: ويجوز أن يكون «ذلك» نصباً؛ أي: فَعَلَ الله ذلك بأنه هو الحق(٢).

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: بأنه ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: وبأنه قادرٌ على ما أراد. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ من حيث اللفظ، وليس عطفاً في المعنى؛ إذ لا يقال: فَعَل الله ما ذُكر بأنَّ الساعةَ آتيةٌ، بل لابدَّ من إضمارِ فعلٍ يتضمَّنه، أي: وليعلموا أنَّ الساعةَ آتيةٌ ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: لا شكَّ. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ يريد للثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: نَيِّرٍ بيِّنِ الحُجَّة. نزلت في النَّضْر بن الحارث(٣). وقيل: في أبي جهل بن هشام؛ قاله

---

(١) ذكر المصنف هذا الكلام أيضاً في كتاب الأسنى ص١٤٨ نقلاً عن ابن الحصار.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٩ عن الكلبي.

ابن عباس[1]. والمُعْظَم على أنَّها نزلت في النضر بن الحارث كالآية الأولى[2]، فهما في فريقٍ واحد، والتكرير للمبالغة في الذمّ، كما تقول للرجل تذمُّه وتوبِّخه: أنت فعلت هذا! أنت فعلت هذا! ويجوز أن يكون التكرير لأنه وصفَه في كلِّ آيةٍ بزيادة، فكأنه قال: إنَّ النضر بن الحارث يجادل في الله بغير علمٍ، ويتَّبع كلَّ شيطانٍ مَريد، والنضر بن الحارث يجادل في الله من غير علمٍ ومن غير هُدًى وكتابٍ منير؛ ليُضِلَّ عن سبيل الله، وهو كقولك: زيدٌ يشتمني وزيدٌ يضربني، وهو تكرارٌ مفيدٌ؛ قاله القشيريّ.

وقد قيل: نزلت فيه بضعَ عَشْرَةَ آيةً. فالمرادُ بالآية الأولى: إنكارُه البعثَ، وبالثانية: إنكارُه النبوّةَ وأنَّ القرآن منزلٌ من جهة الله. وقد قيل: كان من قول النضر ابن الحارث: إنَّ الملائكة بناتُ الله[3]، وهذا جِدالٌ في الله تعالى.

«مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، والخبرُ في قوله: «ومِنَ الناسِ». ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ نصب على الحال، ويتأوَّل على معنيين: أحدهما: روي عن ابن عباس أنه قال: هو النضر بن الحارث، لَوَى عنقه مَرَحاً وتعظُّماً. والمعنى الآخر ـ وهو قولُ الفرَّاء ـ أنَّ التقدير: ومِن الناس مَن يجادلُ في الله بغير علمٍ ثانيَ عِطْفِه، أي: مُعْرِضاً عن الذِّكر؛ ذكره النحاس[4].

وقال مجاهد وقتادة: لاوِياً عنقَه كفراً. ابن عباس: مُعْرِضاً عمَّا يُدْعَى إليه كفراً[5]. والمعنى واحد.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٦ .

(٢) يعني الآية (٣) من هذه السورة، وينظر ما سلف ص٣١٢ من هذا الجزء .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٠٥ عن مقاتل.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٨٨ ، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٦ ، وفيه: ثانياً عطفَه، بدل: ثاني عطفه.

(٥) أخرج هذه الأخبار بنحوها الطبري ١٦/ ٤٦٩ - ٤٧٠ .

وروى الأوزاعيُّ، عن مَخْلد بن حسين، عن هشام بن حسان، عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قال: هو صاحبُ البدعة. المبرِّد: العِطْفُ: ما انثنى من العنق[١].

وقال المفضَّل: والعِطْفُ: الجانب، ومنه قولُهم: فلانٌ ينظر في أعطافه، أي: في جوانبه[٢]. وعِطْفَا الرجل: [جانباه] من لَدُنْ رأسه إلى وَرِكَيْه، وكذلك عِطْفَا كلِّ شيءٍ جانباه. ويقال: ثَنَى فلانٌ عنِّي عِطْفَه: إذا أعرض عنك[٣].

فالمعنى: أي: هو مُعْرِضٌ عن الحقِّ في جِدَاله، ومُوَلٍّ عن النظر في كلامه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان:٧]، وقولِه تعالى: ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون:٥]، وقولِه: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٣]، وقوله: ﴿ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة:٣٣].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن طاعة الله تعالى. وقرئ: «لِيَضِل» بفتح الياء[٤]؛ واللامُ لامُ العاقبة، أي: يجادلُ فيَضِلُّ، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] أي: فكان لهم كذلك. ونظيرُه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا۟﴾ [النحل:٥٤].

﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ أي: هوانٌ وذُلٌّ بما يجري له من الذِّكر القبيح على ألسنة المؤمنين إلى يوم القيامة، كما قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ الآية [القلم:١٠]، وقولِه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

وقيل: الخزيُ هاهنا: القتل؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قتل النضر بن الحارث يومَ بدرٍ صَبْراً،

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٨٢، ولم نقف على خبر ابن عباس.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٩ .

(٣) الصحاح (عطف)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو. السبعة ص٢٦٧، والتيسير ص١٣٤ .

كما تقدَّم في آخر الأنفال[١].

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: نار جهنم. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: يقال له في الآخرة إذا دخل النار: ذلك العذابُ بما قدَّمتْ يداك من المعاصي والكفر. وعبَّر باليد عن الجملة؛ لأنَّ اليد التي تفعلُ وتبطِشُ للجملة. و«ذلك» بمعنى هذا، كما تقدَّم في أوّل «البقرة»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾ «مَن» في موضعِ رفعٍ بالابتداء. والتمامُ: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ على قراءة الجمهور «خَسِر»[٣]. وهذه الآيةُ خبرٌ عن المنافقين. قال ابن عباس: يريد شيبة بنَ ربيعة؛ كان قد أسلم قبل أن يظهر رسول الله ﷺ، فلمَّا أُوحي إليه ارتدَّ شيبة بنُ ربيعة[٤].

وقال أبو سعيد الخُدْرِيُّ: أسلم رجلٌ من اليهود، فذهب بصره وماله [وولده] فتشاءم بالإسلام، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: أقِلْني! فقال: «إنَّ الإسلام لا يُقال» فقال: إنِّي لم أُصِبْ في ديني هذا خيراً؛ ذهب بصري ومالي وولدي! فقال: «يا يهوديّ إنَّ الإسلام يَسْبِكُ الرجال كما تَسْبِكُ النارُ خَبَث الحديد والفضة والذهب». فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾[٥].

---

(١) ١٠/ ٢٣ و ٨٩ - ٩٠.

(٢) ١/ ٢٤٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٣١٧ وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه ابن مردويه كما في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١١٢، قال ابن حجر: إسناده ضعيف.

وأخرجه العقيلي في الضعفاء ٣/ ٣٦٨ من حديث جابر ﷺ، ولم يذكر فيه نزول الآية، وفي إسناده عنبسة ابن سعيد، قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: وعنبسة ضعيف جدًّا.

وروى إسرائيل عن أبي حَصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: «ومن الناس من يعبد الله على حَرْف» قال: كان الرجل يَقْدَم المدينة، فإن وَلَدَتْ امرأته غلاماً ونُتِجت خيلُه قال: هذا دِينٌ صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تُنْتَج خيلُه قال: هذا دِين سُوء[(١)].

وقال المفسرون: نزلت في أعرابٍ كانوا يَقْدَمون على النبيِّ ﷺ فيُسلِمون، فإن نالوا رخاءً أقاموا، وإن نالتهم شدَّةٌ ارتدُّوا[(٢)].

وقيل: نزلت في النضر بن الحارث. وقال ابن زيد وغيره: نزلت في المنافقين[(٣)].

ومعنى ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شكٍّ؛ قاله مجاهد وغيره[(٤)]. وحقيقتُه: أنه على ضعفٍ في عبادته، كضعفِ القائم على حرفٍ مضطربٍ فيه. وحرفُ كلِّ شيءٍ: طَرَفُه وشَفِيرُه وحدُّه، ومنه حرفُ الجبل، وهو أعلاه المحدَّد.

وقيل: «على حرف» أي: على وجهٍ واحد، وهو أن يعبدَه على السرَّاء دون الضرَّاء، ولو عبدوا الله على الشكر في السَّراء، والصبرِ على الضراء، لَمَا عبدوا الله على حرف.

وقيل: «على حرف»: على شرط، وذلك أنَّ شيبة بن ربيعةَ قال للنبيِّ ﷺ قبل أن يظهر أمره: ادعُ لي ربَّك أن يرزقني مالاً وإبلاً وخيلاً وولداً حتى أُومِنَ بك وأعدِلَ إلى دينك، فدعا له، فرزقه الله عزَّ وجلَّ ما تمنَّى، ثم أراد الله عزَّ وجلَّ فتنته واختباره وهو أعلم به، فأخذ منه ما كان رَزَقه بعد أن أسلم، فارتدَّ عن الإسلام، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ يريد: على شرط.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤٢).

(٢) ينظر هذا القول وما ورد فيه من أخبار في تفسير الطبري ١٦/ ٤٧٢ - ٤٧٤ .

(٣) أخرجه عن ابن زيد الطبري ١٦/ ٤٧٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٧٣ و ٤٧٤ عن مجاهد وقتادة.

وقال الحسن: هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه[١].

وبالجملة؛ فهذا الذي يعبد الله على حَرْفٍ ليس داخلاً بكلِّيَّته، وبيَّن هذا بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾: صحةُ جسمٍ ورَخاءُ معيشةٍ، رضيَ وأقام على دينه. ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أي: خلافُ ذلك مما يُختبر به ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ارتدَّ، فرجع إلى وجهه الذي كان عليه من الكفر.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ قرأ مجاهد وحميد بن قيس الأعرج[٢] والزُّهريُّ وابن أبي إسحاق، وروي عن يعقوب: «خاسِرَ الدنيا» ـ بألفٍ[٣] ـ نصباً على الحال، وعليه فلا يوقَف على: «وجهه». وخسْرانُه الدنيا بأنْ لا حظَّ له في غنيمةٍ ولا ثناء، والآخرةَ بأن لا ثوابَ له فيها.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي يرجع إلى الكفر يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ قال الفرَّاء[٤]: الطويل.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أي: هذا الذي انقلب على وجهه يعبد[٥] مَن ضرُّه أدنى من نَفْعِه، أي: في الآخرة؛ لأنه بعبادته دخل النار، ولم ير منه

---

(١) ذكره البغوي ٣/ ٢٧٧ .

(٢) في النسخ: والأعرج، بالواو، والصواب ما أثبتناه. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٧٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٠ .

(٣) القراءات الشاذة ص٩٤ ، والمحتسب ٢/ ٧٥ عن مجاهد وحميد بن قيس، وتفسير البغوي ٣/ ٢٧٧ عن يعقوب، والقراءة المشهورة عنه ـ وهو من العشرة ـ كقراءة الجماعة.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨ .

(٥) في (م): يدعو.

نفعاً أصلاً، ولكنه قال: «ضرُّه أقربُ من نفعه» ترفيعاً للكلام، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقيل: يعبدونهم تَوَهُّمَ أنهم يشفعون لهم غداً، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقال الفرَّاء والكسائيُّ والزجَّاج: معنى الكلام القسمُ والتأخير، أي: يدعو واللهِ مَن لَضَرُّه[(١)] أقربُ من نفعه. فاللامُ مقدَّمةٌ في غير موضعها. و«مَن» في موضع نصبٍ بـ«يدعو»، واللامُ جوابُ القَسَم. و«ضَرُّه» مبتدأ. و«أقْرَبُ» خبره[(٢)]. وضعَّف النحاس[(٣)] تأخيرَ اللام وقال: وليس لِلَّامِ من التصرُّف ما يوجب أن يكون فيها تقديمٌ ولا تأخير.

قلت: حقُّ اللام التقديم، وقد تؤخَّر؛ قال الشاعر:

خالي لأنتَ ومَن جَرِيرٌ خالُه ... ينلِ العَلَاءَ ويُكرِمِ الأخوالا

أي: لخالي أنت، وقد تقدم[(٤)].

النحاس: وحكى لنا عليّ بن سليمان عن محمد بن يزيد قال: في الكلام حذفٌ، والمعنى: يدعو لمَن ضرُّه أقرب من نَفْعِه إلهاً؛ قال النحَّاس: وأحسِبُ هذا القولَ غلطاً على محمد بن يزيد؛ لأنه لا معنى له، لأنَّ ما بعد اللام مبتدأٌ، فلا يجوز نصبُ إله، وما أحسِب مذهبَ محمد بن يزيد إلَّا قولَ الأخفش، وهو أحسنُ ما قيل في الآية عندي، والله أعلم؛ قال: «يدعو» بمعنى يقول، و«مَن» مبتدأٌ وخبرُه محذوف،

---

(١) في (د) و(م): لمن ضره، وهو خطأ.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧، وللزجاج ٣/ ٤١٥، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩، ومشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٤٨٧.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ٨٩.

(٤) ص٩٤ من هذا الجزء.

والمعنى: يقول: لمَن ضرُّه أقرب من نفعه إلهُه[١].

قلت: وذكر هذا القول القُشَيْريُّ ـ رحمه الله ـ عن الزجَّاج[٢]، والمهدوِيُّ عن الأخفش، وكمَّل إعرابه فقال: «يدعو» بمعنى يقول، و«مَن» مبتدأ، و«ضرُّه» مبتدأٌ ثانٍ، و«أقربُ» خبرُه، والجملةُ صلةُ «مَن»، وخبرُ «مَن» محذوفٌ، والتقدير: يقول لمن ضره أقرب من نفعه إلهُه، ومِثْلُه قول عنترة:

يدعون عَنْتَرَ والرِّماحُ كأنها أشْطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدْهَمِ[٣]

قال القشيريُّ: والكافر الذي يقول: الصنم معبودي، لا يقول: ضَرُّه أقربُ من نفعه، ولكن المعنى: يقول الكافر: لمَن ضرُّه أقربُ من نَفْعِه ـ في قول المسلمين ـ معبودي وإلهي. وهو كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:٤٩]؛ أي: يا أيها الساحرُ عند أولئك الذي يدعونك ساحراً.

وقال الزجَّاج: يجوز أن يكون «يدعو» في موضع الحال، وفيه هاءٌ محذوفة، أي: ذلك هو الضلالُ البعيد يدعوه، أي: في حال دعائه إياه، ففي «يدعو» هاءٌ مضمَرةٌ، ويوقف على هذا على «يدعو»، وقولُه: «لَمَن ضَرُّه أقربُ من نفعِه» كلامٌ مستأنَفٌ مرفوع بالابتداء، وخبرُه: «لَبِئْسَ الْمَولَى»[٤]، وهذا لأنَّ اللام لليَمين والتوكيدِ، فجعلها أوّلَ الكلام.

قال الزجاج[٥]: ويجوز أن يكون «ذلك» بمعنى الذي، ويكون في محلِّ النصب

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩، وقول الأخفش سعيد بن مسعدة في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٥ - ٦٣٦.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٤١٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٦، والبيت من معلقة عنترة، وهو في ديوانه ص٢٩. قوله: يدعون عنتر، قال النحاس في شرح المعلقات ٢/ ٤٣ : الأجود فيه فتح الراء، والأشطان جمع شَطَن: وهو حبل البئر، واللبان: الصدر.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٥ - ٤١٦، وذكر هذا القول أيضاً الفراء في معاني القرآن ٢/ ٤١٧.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤١٦.

بوقوع «يدعو» عليه، أي: الذي هو الضلالُ البعيد يدعو، كما قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:١٧] أي: ما الذي[١]، ثم قولُه: «لَمَن ضرُّه» كلامٌ مبتدأ، و«لبئس المولى» خبرُ المبتدأ، وتقديرُ الآية على هذا: يدعو الذي هو الضلال البعيد، قدَّم المفعولَ وهو الذي، كما تقول: زيداً يَضْرِبُ، واستحسنه أبو عليٍّ[٢]. وزعم الزجَّاجُ أنَّ النَّحْويين أغفلوا هذا القول، وأنشد:

عَدَسْ ما لِعَبَّادٍ عليك إمارةٌ نَجَوْتِ وهذا تَحْمِلِين طَلِيقُ[٣]

أي: والذي.

وقال الزجَّاج أيضاً والفَرَّاء: يجوز أن يكون «يدعو» مكررةً على ما قَبْلَها، على جهة تكثير هذا الفعل الذي هو الدعاء، ولا تُعدِّيه إذ قد عدَّيتَه أوَّلاً، أي: يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضرُّه يدعو، مثل: ضربتُ زيداً ضربت[٤].

[وقيل: معناه: يدعو لَمَن ضرُّه أقرب من نفعه يدعو] ثم حذفت يدعو الآخرة اكتفاءً بالأولى[٥].

قال الفرَّاء: ويجوز: «لِمَنْ ضَرُّه» بكسر اللام، أي: يدعو إلى مَن ضَرُّه أقربُ مِن نَفْعِه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة:٥] أي: إليها[٦].

وقال الفرَّاء أيضاً والقَفَّال: اللامُ صلة، أي: يدعو مَن ضرُّه أقربُ من نفعه، أي:

---

(١) كذا في النسخ، وفي معاني القرآن للزجاج: ما التي.

(٢) ذكر كلامه مطولاً الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٨٣ - ٨٥.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤١٧، والبيت ليزيد بن مفرغ الحميري، وهو في ديوانه ص١١٥، وسلف ٢/ ١٤٩.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٨ بنحوه، وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٧/ ٨٤ عن أبي علي. ولم نقف عليه في معاني القرآن للزجاج.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٧٧، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٨٩. ولا يقرأ بهذا الوجه كما ذكر الفراء.

يعبده. وكذلك هو في قراءة عبد الله بن مسعود[١].

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أي: في التناصُر[٢] ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ أي: المُعاشِر والصاحب والخليل. مجاهد: يعني الوثن[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لمَّا ذكر حالَ المشركين وحالَ المنافقين والشياطين؛ ذَكَر حال المؤمنين في الآخرة أيضاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: يُثيب مَن يشاء ويعذِّب مَن يشاء، فللمؤمنين الجنةُ بحكم وَعْدِه الصِّدْقِ وبفضله، وللكافرين النارُ بما سبق من عدله، لا أنَّ فِعْلَ الربِّ معلَّلٌ بفعلِ العبيد.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قال أبو جعفر النحاس: مِن أَحْسَن ما قيل فيها: إنَّ المعنى: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصر الله محمداً ﷺ[٤]، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أُوتيه ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فليطلُبْ حيلةً يصل بها إلى السماء ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ثم ليقطع النصر إن تهيَّأ له ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾ وحيلتُه ما يَغيظُه من نصر النبيِّ ﷺ. والفائدةُ في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيدُ والحيلة بأن يفعل مثلَ هذا لم يَصِلْ إلى قطع النصر[٥].

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٧ ، والقراءة عند ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٤ دون نسبة.

(٢) في (ظ): أي الناصر.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٧٧ .

(٤) بعدها في (ظ): في الدنيا.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٠ .

وكذا قال ابن عباس: إنَّ الكناية في «ينصره الله» ترجع إلى محمدٍ ﷺ[١]. وهو وإن لم يَجْرِ ذِكْرُه فجميعُ الكلام دالٌّ عليه؛ لأنَّ الإيمان هو الإيمانُ بالله وبمحمدٍ ﷺ[٢]، والانقلابُ عن الدِّين انقلابٌ عن الدِّين الذي أتى به محمدٌ ﷺ، أي: مَن كان يظنُّ ممن يعادي محمداً ﷺ ومَن يعبد الله على حَرْف أنَّا لا ننصر محمداً، فلْيفعَلْ كذا وكذا.

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ الهاء تعود على «مَن»، والمعنى: مَن كان يظنُّ أنَّ الله لا يرزقه فليختنقْ، فليقتل نفسه[٣]؛ إذ لا خيرَ في حياةٍ تخلو من عَوْن الله. والنصرُ على هذا القول الرزقُ؛ تقول العرب: مَن ينصرني نصره الله، أي: مَن أعطاني أعطاه الله. ومِن ذلك قولُ العرب: أرضٌ منصورة، أي: ممطورة؛ قال الفَقْعسيُّ[٤]:

وإنَّــك لا تــعــطــي امْــرَأً فــوقَ حــقِّــه ... ولا تملك الشِّقَّ[٥] الذي الغيثُ ناصِرُه

وكذا روى ابنُ أبي نَجيح عن مجاهدٍ قال: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: لن يرزقه[٦]. وهو قولُ أبي عبيدة[٧].

وقيل: إنَّ الهاء تعود على الدِّين، والمعنى: مَن كان يظنُّ أنْ لن ينصر الله دينه.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي: بحبل، والسببُ: ما يُتوصَّل به إلى الشيء. ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: إلى سقف البيت. ابن زيد: هي السماء المعروفة[٨].

وقرأ الكوفيون: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ بإسكان اللام[٩]. قال النحاس[١٠]: وهذا بعيدٌ في

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٠ .

(٢) في (ظ): لأن الإيمان بالله إيمان بمحمد ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨١ - ٤٨٢ ، والسماء على هذا القول هي سقف البيت، كما جاء في خبر ابن عباس.

(٤) اضطرب الاسم في النسخ، والمثبت من تفسير الطبري ١٦/ ٤٨٠ ، والبيت دون نسبة في مجاز القرآن ٢/ ٤٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١١١ .

(٥) في النسخ الخطية: الشيء، والمثبت من (م) والمصادر.

(٦) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٢ .

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٤٦ - ٤٧ .

(٨) أخرجه الطبري مطولاً ١٦/ ٤٧٩ .

(٩) قرأ ورش وأبو عمرو وابن عامر بكسر اللام، والباقون بإسكانها. السبعة ص٤٣٤ ، والتيسير ص١٥٦ .

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ٩٠ .

العربية؛ لأن «ثم» ليست مثلَ الواو والفاء؛ لأنها يُوقف عليها وتنفرد.

وفي قراءة عبد الله: «فليقطعه ثم لينظر هل يُذهبنَّ كيدُه ما يغيظ»(١).

قيل: «ما» بمعنى الذي، أي: هل يُذهبنَّ كيدُه الذي يغيظُه، فحذف الهاء ليكون أخفَّ. وقيل: بمعنى المصدر، أي: هل يذهبنَّ كيدُه غيظَه.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: وكذلك أنَّ الله ﴿يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾، علَّق وجودَ الهداية بإرادته، فهو الهادي لا هادِيَ سواه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بالله وبمحمدٍ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: اليهود، وهم المنتسبون إلى ملَّةِ موسى عليه السلام. ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: هم قومٌ يعبدون النجوم. ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: هم المنتسبون إلى ملَّة عيسى. ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾: هم عَبَدةُ النيران القائلون إنَّ للعالَم أصلين: نوراً وظلمةً. قال قتادة: الأديانُ خمسة، أربعةٌ للشيطان، وواحدٌ للرحمن(٢). وقيل: المجوس في الأصل: النّجوس؛ لتديُّنهم باستعمال النجاسات، والميم والنونُ يتعاقبان، كالغيم والغين، والأيْم والأين. وقد مضى في «البقرة» هذا كلُّه مستوفًى(٣). ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾: هم العربُ عَبَدةُ الأوثان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يقضي ويَحكم، فللكافرين النار،

---

(١) لم نقف على هذه القراءة عن ابن مسعود ﷺ، وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٨، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١١ أن قراءة ابن مسعود هي: «ثم ليقطعه».

(٢) أخرجه مطولاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٩، والطبري ١٦/ ٤٨٥، ونسبه السيوطي في الدر المنثور لعبد بن حميد وابن أبي حاتم، إلا أن لفظه عندهم: والأديان ستة، خمسة للشيطان، وواحد للرحمن.

(٣) ينظر ٢/ ١٥٨ وما بعدها، وينظر أيضاً في الكلام عن المجوس ٨/ ٤٨٠، و١٠/ ١٦٤.

وللمؤمنين الجنة. وقيل: هذا الفصلُ بأنْ يعرِّفهم المحقَّ من المُبْطِل بمعرفةٍ ضرورية، واليومَ يتميَّز المحقُّ عن المبطل بالنظر والاستدلال. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: من أعمال خَلْقِه وحركاتهم وأقوالهم، فلا يَعْزُب عنه شيءٌ منها؛ سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾ خبرُ «إنَّ» في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، كما تقول: إنَّ زيداً إنَّ الخيرَ عنده. وقال الفرَّاء[1]: ولا يجوز في الكلام: إنَّ زيداً إنَّ أخاه منطلقٌ، وزعم أنه إنما جاز في الآية؛ لأنَّ في الكلام معنى المجازاة، أي: مَن آمن ومَن تهوَّد أو تنصَّر أو صبأ، يفصلُ[2] بَيْنِهم وحسابُهم على الله عزَّ وجلَّ.

وردَّ أبو إسحاقَ[3] على الفرَّاء هذا القولَ، واستقبح قولَه: لا يجوز: إنَّ زيداً إنَّ أخاه منطلقٌ؛ قال: لأنه لا فرقَ بين زيد وبين الذين، و«إنَّ» تدخل على كلِّ مبتدأ، فتقول: إنَّ زيداً هو منطلقٌ، ثم تأتي بإنَّ فتقول: إنَّ زيداً إنه منطلقٌ؛ وقال الشاعر:

إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ سَرْبَلَهُ ... سِربالَ عِزٍّ به تُرْجَى الخواتيمُ[4]

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذه رؤيةُ القلب، أي: ألم تَرَ بقلبك وعقلك. وتقدَّم معنى السجودِ في «البقرة»[5]، وسجود

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢١٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٠.

(٢) في معاني القرآن للفراء، وإعراب القرآن للنحاس: ففصل.

(٣) هو الزجاج، والكلام في معاني القرآن له ٣/ ٤١٧، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٠، وعنه نقل المصنف.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢١٨، وللزجاج ٣/ ٤١٨، وأمالي الزجاجي ص٦٢، والخزانة ١٠/ ٣٦٤، والبيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٦٧٢ برواية:

يكفي الخليفة أن الله سربله ... سربال مُلْك به تُرْجى الخواتيم

(٥) ١/ ٤٣٤.

الجماد في «النحل»[١]. ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ معطوفةٌ على «مَن»، وكذا ﴿وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهذا مُشْكِلٌ من الإعراب، كيف لم ينصب ليعطفَ ما عَمِلَ فيه الفعلُ على ما عَمِلَ فيه الفعل، مثل: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١]؟ فزعم الكسائيُّ والفرَّاء أنه لو نصب لكان حسناً، ولكن اختِير الرفعُ لأنَّ المعنى: وكثيرٌ أبَى السجود، فيكون ابتداءً وخبراً، وتمَّ الكلام عند قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. ويجوز أن يكون معطوفاً، على أنْ يكون السجود: التذلُّلَ والانقيادَ لتدبير الله عزَّ وجلَّ من ضَعْفٍ وقوّةٍ وصحةٍ وسقمٍ وحسنٍ وقُبْح، وهذا يدخل فيه كلُّ شيء[٢].

ويجوز أن ينتصب على تقدير: وأهان كثيراً حقَّ عليه العذاب، ونحوه.

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «والدَّوابُّ»، ثم ابتدأ فقال: «وكثيرٌ من الناس» في الجنةِ «وكثيرٌ حقَّ عليه العذاب»، وكذا روي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: وكثيرٌ من الناس في الجنة وكثيرٌ حقَّ عليه العذاب؛ ذكره ابن الأنباري[٣].

وقال أبو العالية: ما في السماوات نجمٌ ولا قمرٌ ولا شمسٌ إلَّا يقع ساجداً لله حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيرجع من مطلعه[٤]. قال القُشَيريُّ: وورد هذا في خبرٍ مسنَد في حقِّ الشمس، فهذا سجودٌ حقيقيٌّ، ومن ضرورته تركيبُ الحياة والعقل في هذا الساجد.

قلت: الحديث المسند الذي أشار إليه خرَّجه مسلم[٥]، وسيأتي في سورة «يس»

---

(١) ١٢/ ٣٣٥.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١، وقول الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢١٩.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٨٢.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٨٧.

(٥) في صحيحه (١٥٩) من حديث أبي ذر ﷺ مطولاً، وأخرجه البخاري مختصراً (٤٨٠٢).

عند قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [الآية:٣٨]. وقد تقدَّم في «البقرة» معنى السجودِ لغةً ومعنًى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أي: مَن أهانه بالشَّقاء والكفرِ لا يَقْدِرُ أحدٌ على دفع الهوان عنه. وقال ابن عباس: إنَّ مَن تَهاوَنَ بعبادة الله صار إلى النار. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ يريد أنَّ مصيرهم إلى النار، فلا اعتراضَ لأحدٍ عليه. وحكى الأخفش والكسائيُّ والفرَّاء: «ومَنْ يُهِن اللهُ فما له من مُكْرَمٍ» أي: إكرام[١].

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ خرَّج مسلم[٢] عن قيس بن عُبَادٍ قال: سمعت أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَماً: إنَّ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ إنها نزلت في الذين بَرَزُوا يومَ بدرٍ: حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ بن الحارث ﷺ، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ والوليدُ بن عتبة. وبهذا الحديث ختم مسلمٌ رحمه الله كتابه.

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآياتُ الثلاثُ على النبيِّ ﷺ بالمدينة في ثلاثةِ نفرٍ من المؤمنين وثلاثةِ نفرٍ كافرين؛ وسمَّاهم كما ذكر أبو ذرّ[٣].

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: إني لأوّلُ مَن يجثو للخصومة بين يدي الله يومَ القيامة. يريد قصته في مبارزته هو وصاحباه؛ ذكره البخاري[٤]. وإلى هذا القول ذهب

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢١٩ ، والقراءة بفتح الراء ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٤ وقال: ذكره أبو معاذ. وهي في المحرر الوجيز ٤/ ١١٣ عن ابن أبي عبلة.

(٢) في صحيحه (٣٠٣٣)، وهو عند البخاري (٣٩٦٩) و(٤٧٤٣).

(٣) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٠٩ .

(٤) في صحيحه (٣٩٦٥) و(٣٩٦٧).

هلال بنُ يِساف وعطاء بن يَسار وغيرهما[١].

وقال عكرمة: المراد بالخصمين: الجنةُ والنار؛ اختصمتا، فقالت النار: خلقني لعقوبته. وقالت الجنة: خلقني لرحمته[٢].

قلت: وقد ورد بتخاصُم الجنة والنار حديثٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّت الجنةُ والنار، فقالت هذه: يَدْخلُني الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاءُ والمساكين، فقال الله تعالى لهذه: أنتِ عذابي أعذِّبُ بكِ مَن أشاء، وقال لهذه: أنتِ رحمتي أَرْحَم بكِ مَن أشاء، ولكلِّ واحدةٍ منكما مِلؤها». خرَّجه البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح[٣].

وقال ابن عباس أيضاً: هم أهلُ الكتاب؛ قالوا للمؤمنين: نحن أَوْلَى بالله منكم، وأقدمُ منكم كتاباً، ونبيُّنا قبل نبيِّكم. وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله[٤]، آمنَّا بمحمدٍ وآمنَّا بنبيِّكم وبما أُنزل إليه من كتاب[٥]، وأنتم تعرفون نبيَّنا وتركتموه وكفرتم به حَسَداً. فكانت هذه خصومتَهم، وأُنزلت فيهم هذه الآية. وهذا قولُ قتادة[٦].

والقول الأوّل أصحُّ، رواه البخاريُّ عن حَجَّاج بن مِنْهالٍ، عن هُشَيْمٍ، عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد، عن أبي ذر، ومسلمٌ عن عمرو بن زُرَارة، عن هُشيم[٧]. ورواه سليمان التيميُّ عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد، عن عليٍّ قال:

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٩٣ .

(٣) صحيح البخاري (٤٨٥٠)، وصحيح مسلم (٢٨٤٦)، وسنن الترمذي (٢٥٦١)، وهو في مسند أحمد (٧٧١٨).

(٤) بعدها في (د) و(ز) و(م): منكم، والمثبت من باقي النسخ، وهو موافق لما تفسير الطبري ١٦/ ٤٩١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٢٨٠ .

(٥) في تفسير الطبري وتفسير البغوي: وبما أنزل الله من كتاب.

(٦) ذكره البغوي ٣/ ٢٨٠ .

(٧) صحيح البخاري (٤٧٤٣) وصحيح مسلم (٣٠٣٣)، وسلف في بداية تفسير الآية.

فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يومَ بدرٍ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[١].

وقرأ ابن كثير: ﴿هذانِّ خصمان﴾ بتشديد النون من «هذان»[٢].

وتَأَوَّلَ الفرَّاء[٣] الخصْمَين على أنهما فريقان أهلُ دينَيْن، وزعم أنَّ الخصم الواحدَ المسلمون، والآخَرَ اليهودُ والنصارى، اختصموا في دين ربِّهم؛ قال: فقال: «اختصموا» لأنهم جَمْعٌ، قال: ولو قال: «اختصما» لجاز. قال النحاس[٤]: وهذا تأويلُ مَن لا دُرْبَةَ[٥] له بالحديث ولا بكُتُبِ أهل التفسير؛ لأنَّ الحديث في هذه الآية مشهورٌ، رواه سفيان الثَّوْريُّ وغيره عن أبي هاشم، عن أبي مِجْلَز، عن قيس بن عُباد قال: سمعتُ أبا ذَرٍّ يُقسم قَسَماً: إنَّ هذه الآية نزلت في حمزةَ وعليٍّ وعبيدة بنِ الحارث بن عبد المطلب، وعتبةَ وشيبةَ ابني ربيعةَ والوليد بن عتبة. وهكذا روى أبو عمرو بن العلاء عن مجاهد عن ابن عباس[٦].

وفيه قولٌ رابعٌ: أنهم المؤمنون كلُّهم، والكافرون كلُّهم من أيِّ ملةٍ كانوا؛ قاله مجاهد والحسن وعطاء بن أبي رَبَاح وعاصم بن أبي النَّجُود والكلبيّ[٧]. وهذا القولُ بالعموم يجمع المنزَلَ فيهم وغيرَهم.

وقيل: نزلت في الخصومة في البعث والجزاء؛ إذ قال به قومٌ وأنكره قوم[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٣٩٦٥) و(٣٩٦٧)، وسلف في بداية تفسير الآية.

(٢) السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص٩٥ .

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢١٩ - ٢٢٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩١ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ٩١ .

(٥) في (د) و(م): دراية.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩١ ، وسلف تخريج خبر ابن عباس في بداية تفسير هذه الآية.

(٧) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٤٩٢ .

(٨) أخوجه الطبري ١٦/ ٤٩٢ بنحوه عن مجاهد.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني من الفِرق الذين تقدَّم ذكرهم ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: خِيطَتْ وسُوِّيت، وشبِّهت النار بالثياب لأنها لباسٌ لهم كالثياب.

وقوله: ﴿قُطِّعَتْ﴾ أي: تُقطَّع لهم في الآخرة ثيابٌ من نار؛ وذُكر بلَفْظِ الماضي لأنَّ ما كان من أخبار الآخرة فالموعودُ منه كالواقع المحقَّق؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] أي: يقول الله تعالى. ويحتمل أن يقال: قد أُعِدَّت الآنَ تلك الثيابُ لهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار.

وقال سعيد بن جبير: «من نار»: من نحاس، فتلك الثياب من نحاسٍ قد أذيبت، وهي السرابيلُ المذكورة في «قِطْرٍ آنٍ»[(١)]، وليس في الآنية شيءٌ إذا حَمِيَ يكون أشدَّ حرًّا منه[(٢)].

وقيل: المعنى: أنَّ النار قد أحاطت بهم كإحاطة الثياب المقطوعة إذا لبسوها عليهم، فصارت من هذا الوجه ثياباً لأنها بالإحاطة كالثياب، مثلُ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠].

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي: الماء الحارُّ المُغَلَّى بنار جهنَّم. وروى الترمذيّ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الحميم لَيُصَبُّ على رؤوسهم، فينفذ الحميم حتى يَخْلُص إلى جوفه، فيَسْلِتُ ما في جوفه حتى يَمْرُق من قدميه، وهو الصَّهْر، ثم يعاد كما كان». قال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب[(٣)].

﴿يُصْهَرُ﴾: يذاب ﴿بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ والصَّهر: إذابةُ الشَّحْم. والصُّهارة: ما

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠] والقراءة أعلاه في القراءات الشاذة ص٧٠، والمحتسب ١/ ٣٦٦، وسلفت ١٢/ ١٧٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٦/ ٤٦٤ دون قوله: فتلك الثياب من نحاس قد أذيبت وهي السرابيل المذكورة في قطر آن. وأورده دون هذه العبارة أيضاً البغوي ٣/ ٢٨٠.

(٣) سنن الترمذي (٢٥٨٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٨٦٤)، والطبري ١٦/ ٤٩٥، وفيهما: فينفذ الجمجمة، بدل: فينفذ الحميم.

ذاب منه؛ يقال: صَهَرْت الشيء فانصهر، أي: أذبتُه فذاب، فهو صهير. قال ابن أحمر يصف فرخَ قَطاةٍ:

تَـرْوِي لَـقًـى أُلـقِـيَ فـي صَـفْـصَـفٍ تَـصْـهـرُه الـشـمـسُ فـمـا يَـنْـصَـهِـرْ[١]

أي: تُذيبه الشمس فيصبر على ذلك.

﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ أي: وتُحرَق الجلود، أو تُشوَى الجلود؛ فإنَّ الجلود لا تذاب، ولكن يُضَمُّ[٢] في كلِّ شيء ما يَليقُ به، فهو كما تقول: أتيته فأطعمني ثريداً، إي والله ولبناً قارِصاً[٣]؛ أي: وسقاني لبناً؛ قال الشاعر:

عَـلَـفْـتُـهـا تِـبْـنـاً ومـاءً بـارداً[٤]

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ أي: يُضربون بها ويُدفعون، الواحدة مِقْمَعة، ومِقْمَع أيضاً كالمِحْجَن، يُضرب به على رأس الفيل. وقد قَمَعتُه: إذا ضربتَه بها. وقَمعته وأقْمعته بمعنًى، أي: قهرتُه وأذْللتُه فانقمع. قال ابن السِّكِّيت: أقمعتُ الرجلَ عنِّي إقماعاً: إذا طَلَع عليك فردَدْتَه عنك[٥].

وقيل: المَقَامع: المَطارِقُ، وهي المَرازِب أيضاً. وفي الحديث: «بِيَدِ كلِّ مَلَكٍ من خَزَنةِ جهنَّم مِرْزَبَةٌ لها شُعبتان، فيضربُ الضربةَ، فيهوي بها سبعين ألفاً»[٦]. وقيل: المقامع: سِياطٌ من نار. وسُمِّيت بذلك لأنها تَقْمَعُ المضروب، أي: تذلِّله.

---

(١) الصحاح (صهر)، والبيت في تهذيب اللغة ١٥/ ٣١٤، وأساس البلاغة (روي)، واللسان (روي) و(صهر) و(لقا) وفيه: اللقى: الشيء الملقى لهوانه، وجمعه ألقاء. وتروي: تسوق إليه الماء، أي: تصير كالراوية. اهـ. والصفصف: الذي لا نبات فيه، تاج العروس (صفف).

(٢) في (خ): يذم.

(٣) هو الحامض من ألبان الإبل خاصة، وقيل: القارص: اللبن الذي يَحْذي اللسان، فأطلق ولم يخصص الإبل. اللسان (قرص).

(٤) وعجزه: حتى شَتَتْ همَّالةً عيناها، وسلف ١/ ٢٩١، و٧/ ٣٤٩.

(٥) الصحاح (قمع).

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٤٠ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة ٣/ ١٧٣ - ١٧٤ من طريق رجل من بني تميم، عن أبي العوام من قوله مطولاً.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي: من النار ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بالضرب بالمَقامع؛ قال أبو ظَبيان: ذُكر لنا أنَّهم يحاولون الخروج من النار حين تَجيشُ بهم وتفورُ، فتُلْقي مَن فيها إلى أعلى أبوابها، فيريدون الخروجَ، فتعيدُهم الخُزَّانُ إليها بالمَقامع[1].

وقيل: إذا اشتدَّ غمُّهم فيها فرُّوا، فَمَن خَلَص منهم إلى شَفِيرها أعادتهم الملائكة فيها بالمَقامع، ويقولون لهم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: المُحْرِق؛ مثلُ الأليمُ والوَجِيعُ. وقيل: الحريقُ: الاسم من الاحتراق، تحرَّق الشيءُ بالنار واحترق، والاسم: الحُرْقة والحريق[2]. والذَّوْق: مماسَّةٌ يحصل معها إدراكُ الطعم، وهو هنا توسُّعٌ، والمراد به إدراكُهم الألم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ لمَّا ذكر أحد الخصمين، وهو الكافر؛ ذكر حال الخصم الآخر، وهو المؤمن. ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ «مِن» صِلة[3]. والأساور جمع

(١) أخرجه الطبري ١٦/٤٩٨.

(٢) الصحاح (حرق).

(٣) وهذا على مذهب مَن أجاز زيادة «من» في الإيجاب، ينظر أسرار العربية لأبي البركات الأنباري ص٢٣٤، والدرّ المصون ٨/ ٢٥٢، وروح المعاني ١٧/ ١٣٥. وقيل: هي للتبعيض، أي: بعض أساور. وقيل: لبيان الجنس، ذكرهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٥، والسمين في الدر المصون ٨/ ٢٥٢.

أَسوِرة، وأسورة واحدها سِوار، وفيه ثلاثُ لغاتٍ: ضمُّ السين، وكَسْرُها، وإسوار[١].

قال المفسِّرون: لمَّا كانت الملوك تلبَس في الدنيا الأساور والتِّيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحدٌ من أهل الجنة إلَّا وفي يده ثلاثةُ أسورة: سِوارٌ من ذهب، وسوارٌ من فضة، وسوارٌ من لؤلؤ؛ قال هنا وفي «فاطر»: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣]، وقال في سورة الإنسان: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الآية: ٢١].

وفي صحيح مسلمٍ من حديث أبي هريرة: سمعتُ خليلي ﷺ يقول: «تَبْلغُ الحِلْيةُ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[٢].

وقيل: تُحَلَّى النساءُ بالذهب والرجالُ بالفضة. وفيه نظر، والقرآن يردُّه.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قرأ نافع وابن القَعْقاع وشيبةُ وعاصمٌ هنا وفي سورة الملائكة: «لؤلؤاً» بالنصب[٣]، على معنى: ويُحَلَّون لؤلؤاً، واستدلُّوا بأنها مكتوبةٌ في جميع المصاحف هنا بألف[٤]. وكذلك قرأ يعقوبُ والجَحْدَرِيُّ وعيسى بنُ عمر بالنصب هنا، والخفضِ في «فاطر»[٥]؛ اتِّباعاً للمصحف، ولأنها كُتبت هاهنا بألفٍ وهناك بغير ألف[٦]. الباقون بالخفض في الموضعين. وكان أبو بكر لا يهمز «اللؤلؤ» في كلِّ القرآن[٧]. وهو

(١) ينظر الصحاح (سور)، وتهذيب اللغة ١٣/ ٥١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٥٠)، وسلف ٧/ ٣٣٤ .

(٣) السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص١٥٦ عن عاصم ونافع، وأما ابن القعقاع ـ وهو يزيد أبو جعفر ـ فقد قرأ: لُولؤاً؛ بإبدال الهمزة الأولى واواً ساكنة مدّيّة، وكذلك قرأها أبو بكر شعبة عن عاصم، كما سيذكر المصنف. النشر ٢/ ٣٢٦ .

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٤٩٩ ، والمقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار للداني ص٤٠ .

(٥) النشر ٢/ ٣٢٦ عن يعقوب.

(٦) المقنع للداني ص٤٠ ، وقد وقع في مصاحفنا بألف في الموضعين، فليحرر.

(٧) أي: لُولُؤاً؛ بإبدال الهمزة الأولى فقط واواً ساكنة مدّيّة. وكذلك أبدلها أبو عمرو في رواية السوسي، غير أنه قرأ بالخفض. السبعة ص٤٣٥ ، والتيسير ص١٥٦ ، والكشف ٢/ ١١٨ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ عن أبي علي الفارسي قوله: هَمْزُهما وتخفيفُهما، وهَمْزُ إحداهما دون الأخرى جائز كلُّه. وينظر الحجة للفارسي ٥/ ٢٦٧ - ٢٦٨ .

ما يُستخرج من البحر من جَوْفِ الصَّدَف.

قال القُشيرِيُّ: والمرادُ ترصيع السوار باللؤلؤ، ولا يبعدُ أن يكون في الجنة سوارٌ من لؤلؤٍ مُصْمَتٍ[١].

قلت: وهو ظاهِرُ القرآن، بل نصُّه.

وقال ابن الأنباريِّ[٢]: مَن قرأ: «ولؤلؤٍ» بالخفض، وَقَفَ عليه، ولم يقف على الذهب. وقال السِّجِسْتانيُّ: مَن نَصَبَ «اللؤلؤ» فالوقفُ الكافي: «من ذهب»؛ لأن المعنى: ويُحلَّوْن لؤلؤاً. قال ابن الأنباريِّ: وليس كما قال؛ لأنَّا إذا خَفَضْنا «اللؤلؤ» نَسَقْناه على لفظِ الأساور، وإذا نصبناه نَسَقْناه على تأويل الأساور، وكأنَّا قلنا: يحلَّون فيها أساور ولؤلؤاً، فهو في النَّصب بمنزلته في الخفض، فلا معنى لقَطْعِه من الأوّل.

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: وجميع ما يلبَسونه من فُرُشهم ولباسهم وسُتورهم حريرٌ، وهو أعلى ممَّا في الدنيا بكثير.

وروى النَّسائيُّ عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن لَبِسَ الحريرَ في الدنيا لم يَلْبَسْه في الآخرة، ومَن شَرِبَ الخمر في الدنيا لم يَشْرَبْه في الآخرة، ومَن شرب في آنيةِ الذَّهب والفضة لم يشرب بها في الآخرة». ثم قال رسول الله ﷺ: «لباسُ أهلِ الجنةِ، وشرابُ أهلِ الجنة، وآنيةُ أهل الجنة»[٣].

فإن قيل: قد سوَّى النبيُّ ﷺ بين هذه الأشياء الثلاثة، وأنه يُحْرَمُها في الآخرة؛ فهل يحرمُها إذا دخل الجنة؟ قلنا: نعم! إذا لم يتب منها؛ حُرِمها في الآخرة، وإنْ

(١) الحلي المصمت: هو الذي لا يخالطه غيره. اللسان (صمت).

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٨٣.

(٣) سنن النسائي الكبرى (٦٨٤٠). وقوله منه: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» أخرجه أحمد (٢٥١) (١١٩٨٥) (١٦١١٨)، والبخاري (٥٨٣٤) (٥٨٣٢) (٥٨٣٣) عن عمر وأنس وعبد الله بن الزبير، وأخرجه مسلم (٢٠٦٩): (١١) و(٢٠٧٣) و(٢٠٧٤) عن عمر وأنس وأبي أمامة .

دخل الجنة؛ لاستعجاله ما حرَّم الله عليه في الدنيا.

لا يقال: إنما يُحْرَم ذلك في الوقت الذي يعذَّب في النار، أو بطول مُقامِه في الموقف، فأمَّا إذا دخل الجنةَ فلا؛ لأنَّ حِرْمانَ شيءٍ من لذَّات الجنة لمن كان في الجنة نوعُ عقوبةٍ ومؤاخذةٍ، والجنةُ ليست بدارِ عقوبة، ولا مؤاخذةَ فيها بوجه.

فإنَّا نقول: ما ذكرتموه محتملٌ، لولا ما جاء ما يدفع هذا الاحتمال ويردُّه من ظاهر الحديث الذي ذكرناه، وما رواه الأئمةُ من حديث ابن عمر عن النبيِّ ﷺ: «مَن شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها، حُرِمها في الآخرة»[(١)]. والأصلُ التمسُّكُ بالظاهر حتى يَرِدَ نصٌّ يدفعه، بل قد ورد نصٌّ على صحة ما ذكرناه، وهو ما رواه أبو داود الطَّيَالسيُّ في «مسنده»: حدَّثنا هشام، عن قتادةَ، عن داود السرَّاج، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن لبس الحريرَ في الدنيا لم يَلْبَسْه في الآخرة، وإن دَخَلَ الجنة لَبِسَه أهلُ الجنة ولم يَلْبَسْه هو»[(٢)]. وهذا نصٌّ صريح وإسنادٌ صحيح[(٣)]. فإن كان: «وإن دخل الجنة لبسه أهلُ الجنة ولم يلبسه هو» من قول النبيِّ ﷺ فهو الغايةُ في البيان، وإن كان من كلام الراوي على ما ذُكِر [أنه موقوف][(٤)] فهو أعلمُ بالمقال وأَقْعَدُ بالحال، ومثلُه لا يقال بالرأي، والله أعلم.

وكذلك: «مَن شرب الخمر ولم يَتُبْ» و«مَن استعمل آنيةَ الذَّهبِ والفضَّة» وكما لا

---

(١) أخرجه أحمد (٤٦٩٠)، والبخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).

(٢) مسند الطيالسي (٢٢١٧)، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٩٥٣٨)، وابن حبان (٥٤٣٧). وهو عند أحمد (١١١٧٩) دون قوله: «وإن دخل الجنة...»، وذكر الحافظ في الفتح ١٠/ ٢٨٩ أن قوله: «وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو» يحتمل أن يكون مُدْرَجاً.

(٣) في (خ) و(م): وإسناده صحيح. والحديث بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف في إسناده داود السراج، وهو لم يرو عنه إلا قتادة، كما ذكر الذهبي في الميزان ٢/ ٢٢. وقال ابن المديني: مجهول لا أعرفه، وذكره ابن حبان في الثقات. التهذيب ١/ ٥٧٣. أما أول الحديث فصحيح كما سلف.

(٤) أخرجه موقوفاً النسائي في الكبرى (٩٥٣٦) دون قوله: وإن دخل الجنة . . .، وأخرجه بتمامه موقوفاً الخطيب البغدادي في الفصل للوصل ١/ ٥٧٣.

يشتهي منزلةَ مَن هو أرْفَعُ منه، وليس ذلك بعقوبةٍ، كذلك لا يشتهي خمرَ الجنة ولا حريرَها، ولا يكون ذلك عقوبةً. وقد ذكرنا هذا كلَّه في كتاب «التذكرة»[١]، والحمد لله، وذكرنا فيها أنَّ شجر الجنة وثمارَها يَتفتَّق عن ثياب الجنة[٢]، وقد ذكرناه في سورة الكهف[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: أُرشِدوا إلى ذلك. قال ابن عباس: يريد: لا إله إلا الله والحمد لله[٤]. وقيل: القرآن. ثم قيل: هذا في الدنيا، هُدُوا إلى الشهادة وقراءة القرآن. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى صراط الله. وصراطُ الله: دِينُه، وهو الإسلام.

وقيل: هُدُوا في الآخرة إلى الطيِّب من القول، وهو: الحمدُ لله؛ لأنهم يقولون غداً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، فليس في الجنة لَغْوٌ ولا كَذِبٌ، فما يقولونه فهو طيِّبُ القول. وقد هُدُوا في الجنة إلى صراط الله؛ إذ ليس في الجنة شيءٌ من مخالفة أمر الله.

وقيل: الطيِّبُ من القول: ما يأتيهم من الله من البِشارات الحسنة. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى طريق الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

فيه سبع مسائل:

---

(١) ص٤٤٨ - ٤٤٩، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) التذكرة ص٤٥٤.

(٣) ١٣/ ٢٦٧، وينظر أيضاً ما ورد ١٢/ ٦٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

الأولى: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ﴾ أعاد الكلام إلى مشركي العرب حين صَدُّوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عامَ الحُدَيْبِيَة، وذلك أنه لم يُعلم لهم صَدٌّ قبل ذلك الجمع، إلَّا أنْ يريدَ صدَّهم لأفرادٍ من الناس، فقد وقع ذلك في صَدْرِ المَبْعَث. والصَّدُّ: المنع. أي: وهم يصدُّون، وبهذا حَسُنَ عَطْفُ المستقبل على الماضي.

وقيل: الواوُ زائدة، و«يصدون» خبرُ «إنَّ». وهذا مُفْسِدٌ للمعنى المقصود، وإنَّما الخبرُ محذوفٌ مقدَّرٌ عند قوله: ﴿وَٱلْبَادِ﴾، تقديره: خسروا، أو[1] هلكوا.

وجاء «ويصدُّون» مستقبَلاً؛ إذ هو فعلٌ يُديمُونه، كما جاء قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٢٨]. فكأنه قال: إنَّ الذين كفروا من شأنهم الصدُّ. ولو قال: إنَّ الذين كفروا وصدُّوا، لجَاز.

قال النحَّاس[2]: وفي كتابي عن أبي إسحاق[3] قال: وجائز أن يكون ـ وهو الوجهُ ـ الخبر: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. قال أبو جعفر: وهذا غلط! ولستُ أعرف ما الوجهُ فيه؛ لأنه جاء بخبرِ «إنَّ» جَزْماً، وأيضاً فإنه جوابُ الشرط، ولو كان خبرَ «إنَّ» لبقي الشرطُ بلا جواب، ولا سيما والفعلُ الذي في الشرط مستقبلٌ، فلابُدَّ له من جواب.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيل: إنه المسجدُ نفسه، وهو ظاهرُ القرآن؛ لأنه لم يذكر غيره. وقيل: الحرمُ كلُّه؛ لأنَّ المشركين صدُّوا رسولَ الله ﷺ وأصحابَه عنه عامَ الحديبية، فنزل خارجاً عنه؛ قال الله تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح:٢٥]، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

---

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(م): إذ، وفي (ظ): إذا، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٥، والكلام من بداية هذه المسألة منه.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ٩٣.

(٣) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن له ٣/ ٤٢٠.

[الإسراء: ١]. وهذا صحيحٌ، لكنه قَصَدَ هنا بالذِّكر المهمَّ المقصودَ من ذلك[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: للصَّلاة والطَّواف والعبادة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦].

﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ العاكفُ: المقيم المُلازِمُ. والبادي: أهلُ البادية ومَن يَقْدَم عليهم. يقول: سواءٌ في تعظيم حُرمته وقضاءِ النُّسك فيه الحاضرُ والذي يأتيه من البلاد، فليس أهلُ مكةَ أحقَّ من النازِعِ[٢] إليه.

وقيل: إنَّ المساواة إنَّما هي في دُوره ومنازله، ليس المقيم فيها أَوْلَى من الطارئ عليها. وهذا على أنَّ المسجدَ الحرامَ الحَرَمُ كلُّه؛ وهذا قولُ مجاهدٍ ومالكٍ؛ رواه عنه ابن القاسم[٣].

ورُويَ عن عمر وابن عباس وجماعةٍ: إلى أنَّ القادم له النزولُ حيث وُجِد، وعلى ربِّ المنزل أن يؤوِيَه شاء أو أبى. وقال ذلك سفيان الثوريُّ وغيره. وكذلك كان الأمر في الصدر الأوّل، [قال ابن سابط:] كانت دُورُهم بغير أبوابٍ حتى كَثُرت السرقة، فاتَّخذ رجلٌ باباً، فأنكر عليه عمر وقال: أتغلقُ باباً في وجه حاجٍّ بيتِ الله؟ فقال: إنَّما أردتُ حِفْظَ متاعِهم من السرقة. فتركه فاتَّخذ الناس الأبواب[٤].

ورويَ عن عمر بن الخطاب ﷺ أيضاً: أنه كان يأمر في الموسم بقَلْع أبواب دُور مكة، حتى يدخلها الذي يَقْدَم فينزل حيث شاء، وكانت الفساطيطُ تُضرب في الدُّور[٥].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ .

(٢) في (م): النازح.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣ ، وأخرجه عن مجاهد ابن أبي شيبة ٤/ ٧٩ ، والطبري ١٦/ ٥٠٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وخبر ابن سابط أخرجه الطبري ١٦/ ٥٠١ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق (٩٢١٠) عن عطاء، وفيه أن أول مَن بوَّب داره هو سهيل بن عمرو.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣ ، وأخرج الخبر بنحوه عبد الرزاق (٩٢١١).

ورويَ عن مالك أنَّ الدور ليست كالمسجد، ولأهلها الامتناعُ بها[١] والاستبداد؛ وهذا هو العملُ اليوم. وقال بهذا جمهورٌ من الأمة.

وهذا الخلاف يُبْنَى على أصلين: أحدُهما: أنَّ دُورَ مكةَ؛ هل هي مِلكٌ لأربابها أم للناس؟[٢].

وللخلاف سببان: أحدهما: هل فَتْحُ مكة كان عَنْوَةً فتكونَ مغنومةً، لكن النبيّ ﷺ لم يقسمها وأقرَّها لأهلها ولمن جاء بعدهم، كما فعل عمر ﷺ بأرضِ السَّواد، وعفا لهم عن الخَراج كما عفا عن سَبْيِهم واسترقاقهم إحساناً إليهم دون سائر الكفار، فتبقى على ذلك لا تُباع ولا تُكرَى، ومَن سَبَقَ إلى موضعٍ كان أولى به. وبهذا قال مالكٌ وأبو حنيفةَ والأوزاعيُّ.

أو كان فتحُها صُلْحاً ـ وإليه ذهب الشافعيُّ ـ فتبقى ديارهم بأيديهم، وفي أملاكهم يتصرفون كيف شاؤوا. ورويَ عن عمر أنه اشترى دار صَفْوان بنِ أميةَ بأربعة آلافٍ وجعلها سجناً[٣]، وهو أوّلُ مَن حَبَس في السجن في الإسلام، على ما تقدَّم بيانُه في آية المحاربين من سورة المائدة[٤]. وقد رويَ أنَّ النبيَّ ﷺ حَبَس في تُهمة[٥]. وكان طاوسٌ يكره السجن بمكةَ ويقول: لا ينبغي لبيتِ عذابٍ أن يكون في بيت رحمة[٦].

قلت: الصحيح ما قاله مالك، وعليه تدلُّ ظواهرُ الأخبار الثابتة: بأنَّها فُتحت

(١) في النسخ: منها، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٦ ، والكلام منه.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٣ ، وقال بعده: الثاني ينبني عليه هذا الأصل، وهو أن مكة هل افتتحت عنوة أو صلحاً؟.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٣٠٦ ، والفاكهي في أخبار مكة (٢٠٧٦). وعلقه البخاري قبل الحديث (٢٤٢٣) دون ذكر الثَّمن.

(٤) ٧/ ٤٣٩ .

(٥) سلف ٨/ ٢٦٥ من حديث معاوية بن حَيْدة ﷺ.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ١١٥ .

عَنوة. قال أبو عبيد[١]: ولا نعلم مكةَ يشبهها شيءٌ من البلاد. وروى الدّارَقُطْنيُّ[٢] عن علقمة بن نَضْلة قال: توفِّيَ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما وما تُدْعَى رِباعُ مكة إلَّا السوائب؛ مَن احتاج سَكَن، ومَن استغنى أَسْكَن. وزاد في رواية: وعثمان[٣].

ورَوَى أيضاً عن علقمة بن نَضْلة الكنانيِّ قال: كانت تُدعَى بيوتُ مكةَ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما السوائب، لا تباع؛ مَن احتاج سَكَن، ومَن استغنى أَسْكَن[٤].

ورَوَى أيضاً عن عبد الله بن عمرو عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى حرَّم مكةَ، فحرامٌ بيعُ رِبَاعِها وأكلُ ثمنها». وقال: «مَن أكلَ من أجرِ بيوت مكة شيئاً فإنما يأكلُ ناراً». قال الدارقطنيُّ: كذا رواه أبو حنيفة مرفوعاً ووَهَم فيه، ووهَم أيضاً في قوله: عبيد الله بن أبي يزيد، وإنما هو ابنُ أبي زياد القدَّاح، والصحيحُ أنه موقوف[٥].

وأسند الدارقطنيُّ أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «مكةُ مُناخٌ، لا تُباعُ رِباعُها، ولا تؤاجَر بيوتها»[٦].

---

(١) في الأموال ص٨٢، وسلف قوله ١٠/ ٩.

(٢) في سننه (٣٠١٩)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣١٠٧). قال الحافظ في الفتح ٣/ ٤٥٠: في إسناده انقطاع وإرسال.

(٣) سنن الدارقطني (٣٠٢٠).

(٤) سنن الدارقطني (٣٠٢١).

(٥) سنن الدارقطني (٣٠١٥)، والحديث عنده من طريق محمد بن الحسن، عن أبي حنيفة، عن عبيد الله ابن أبي يزيد، عن ابن نجيح، عن ابن عمرو، عن النبي ﷺ. قال ابن القطان في بيان الوهم ٣/ ٥١٩: وقد رواه القاسم بن الحكم عن أبي حنيفة على الصواب، فقال فيه: ابن أبي زياد، فلعل الوهم من صاحبه محمد بن الحسن. اهـ قلنا: وهو في كتاب الآثار لمحمد بن الحسن (٣٧١) و(٣٧٢)، وفيه: ابن أبي زياد، على الصواب أيضاً. والموقوف أخرجه الدارقطني (٣٠١٦) و(٣٠١٧).

(٦) سنن الدارقطني (٣٠١٩). وفي إسناده إسماعيل بن إبراهيم، قال الدارقطني بإثر الحديث: إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر ضعيف، ولم يروه غيره.

وروى أبو داودَ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ يا رسول الله: ألَا أبني لك بمنًى بيتاً أو بناءً يُظِلُّك من الشمس؟ فقال: «لا، إنما هو مُناخُ مَن سَبَقَ إليه»(١).

وتمسَّك الشافعيُّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ [الحج: ٤٠]، فأضافها إليهم، وقال عليه الصلاة والسلام يومَ الفتح: «مَن أغلق بابه فهو آمنٌ، ومَن دَخَلَ دارَ أبي سفيان فهو آمن»(٢).

الرابعة: قرأ جمهور الناس: ﴿سواءٌ﴾ بالرفع، وهو على الابتداء، و«العاكفُ» خبرُه. وقيل: الخبر «سواءٌ» وهو مقدَّم؛ أي: العاكفُ فيه والبادي سواءٌ؛ وهو قولُ أبي علي، والمعنى: الذي جعلناه للناس قِبلةً أو متعبَّداً؛ العاكفُ فيه والبادي سواءٌ(٣).

وقرأ حفصٌ عن عاصم: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب، وهي قراءةُ الأعمش. وذلك يحتمِلُ أيضاً وجهين: أحدهما: أن يكون مفعولاً ثانياً لجعل، ويرتفعُ «العاكف» به لأنه مصدر، فأُعمِل عَمَلَ اسمِ الفاعل؛ لأنه في معنى مُسْتوٍ. والوجه الثاني: أن يكون حالاً من الضمير في «جعلناه»(٤).

وقرأت فرقة: «سواءً» بالنصب «العاكفِ» بالخفض عطفاً على الناس(٥)، التقدير:

---

(١) سنن أبي داود (٢٠١٩)، وهو عند أحمد (٢٥٥٤١)، والترمذي (٨٨١)، وابن ماجه (٣٠٠٦). ووقع في مطبوع الترمذي: حسن صحيح، وفي التحفة ١٢/ ٤٣٤، ومختصر سنن أبي داود للمنذري ٢/ ٤٣٨: حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٢٢)، ومسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. قال ابن سيد الناس في عيون الأثر ٢/ ١٧٠: فكان هذا أماناً منه لكلِّ مَن لم يقاتل من أهل مكة، ولهذا قال جماعة من أهل العلم - منهم الإمام الشافعي رحمه الله -: إن مكة مؤمنة وليست عنوة، والأمان كالصلح.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦، وقول أبي علي الفارسي في الحجة ٥/ ٢٧٠ - ٢٧١.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦، وقراءة حفص عن عاصم في السبعة ص٤٣٥، والتيسير ص١٥٧.

(٥) وقع في النسخ: العاكف بالخفض والبادي عطفاً على الناس، بزيادة لفظ: «والبادي»، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٥ (والكلام منه): ويعني بالعطف هنا عطف البيان، كما ذكر السمين في الدر المصون ٨/ ٢٥٩ وقال: وهذا الذي أراد ابن عطية بقوله: عطفاً على الناس.

الذي جعلناه للناس العاكفِ والبادي.

وقراءةُ ابنِ كَثير في الوقف والوصل بالياء، ووقف أبو عمرو بغير ياء وَوَصَل بالياء. وقرأ نافعٌ بغير ياءٍ في الوصل والوقف.(١) وأجمعَ الناس على الاستواء في نفس المسجد الحرام، واختلفوا في مكةَ، وقد ذكرناه(٢).

الخامسة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ شرطٌ، وجوابُه: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. والإلحادُ في اللغة: الميل، إلَّا أنَّ الله تعالى بيَّن أنَّ الميل بالظلم هو المراد. واختُلف في الظلم؛ فروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: الشِّرك. وقال عطاء: الشرك والقتل(٣).

وقيل: معناه: صَيْدُ حمامِه، وقطعُ شجرِه، ودخولُه غيرَ محرِمٍ(٤).

وقال ابن عمر: كنا تتحدَّث أنَّ الإلحاد فيه أن يقول الإنسان: لا والله، وبلى والله، وكلَّا والله. ولذلك كان له فسطاطان؛ أحدُهما في الحِلِّ، والآخَرُ في الحَرَم؛ فكان إذا أراد الصلاة دخل فسطاطَ الحَرَم، وإذا أراد بعضَ شأنه دخل فسطاط الحِلّ، صيانةً للحَرَم عن قولهم: كلَّا والله، وبلى والله، حين عظَّم الله الذنبَ فيه(٥).

وكذلك كان لعبد الله بن عمرو بن العاص فسطاطان؛ أحدهما في الحِلِّ، والآخَرُ في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهلَه عاتبهم في الحِلّ، وإذا أراد أن يصلِّي صلَّى في الحرم، فقيل له في ذلك، فقال: إن كنَّا لنتحدَّث(٦) أنَّ من الإلحاد في الحرم

(١) وذلك في رواية قالون عنه، وكذلك قرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. وأما قراءة نافع في رواية ورش عنه فهي بحذف الياء وقفاً وإثباتها وصلاً، كقراءة أبي عمرو. السبعة ص٤٣٦، والتيسير ص١٥٨.

(٢) في المسألة الثانية.

(٣) ذكر القولين النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٤، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٦/ ٥٠٦ - ٥٠٧.

(٤) وهذا قول عطاء، كما ذكر البغوي ٣/ ٢٨٣.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٤، وينظر التعليق التالي.

(٦) في (خ) و(ز): لنحدث، وهو موافق لبعض مصادر التخريج.

أن يقول: كلَّا والله، وبلى والله[١].

والمعاصي تُضاعَفُ بمكةَ كما تُضاعَفُ الحسنات، فتكون المعصيةُ معصيتين؛ إحداهما بنفس المخالفة، والثانية بإسقاط حُرمة البلد الحرام، وهكذا الأشهرُ الحُرُم سواء[٢]. وقد تقدَّم.

وروى أبو داود عن يَعْلَى بن أميةَ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «احتكارُ الطعام في الحَرم إلحادٌ فيه»[٣]. وهو قولُ عمر بن الخطاب[٤]. والعمومُ يأتي على هذا كلِّه.

السادسة: ذهب قومٌ من أهل التأويل ـ منهم الضحاكُ وابنُ زيدٍ ـ إلى أنَّ هذه الآيَةَ تَدلُّ على أنَّ الإنسان يعاقَبُ على ما ينوِيه من المعاصي بمكةَ وإنْ لم يعمله. وقد رُوِيَ نحوُ ذلك عن ابن مسعود وابن عمر، قالوا: لو همَّ رجلٌ بقتلِ رجلٍ بهذا البيتِ وهو بِعَدَنِ أَبْيَن؛ لَعَذَّبه الله[٥].

---

(١) كذا ذكر المصنف هذين الخبرين عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، والصواب أنه خبر واحد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، فقد قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١١٢ : ما في نسخ الكشاف: ابن عمر، تصحيف، وإنما هو ابن عمرو. وكذلك أخرجه عن ابن عمرو ابن أبي شيبة ٤/ ٢٨٥ (نشرة العمروي)، والأزرقي في تاريخ مكة ٢/ ١٣١ ، والطبري ١٧/ ١٤١ (طبعة الحلبي)، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، وذكره ابن كثير مختصراً عند تفسير هذه الآية، جميعهم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) الكلام بنحوه في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٥ .

(٣) سنن أبي داود (٢٠٢٠). وينظر التعليق التالي.

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٥٥ من طريق يعلى بن مُنْية عن عمر ﷺ، ويعلى بن منية هو يعلى بن أمية، ومنية أمه، كما ذكر الحافظ في التقريب، وقال: صحابي مشهور، مات سنة بضع وأربعين. وأخرجه أيضاً عن عمر بإسناد آخر الفاكهي في أخبار مكة (١٧٧٧). قال المنذري في مختصر السنن ٢/ ٤٣٨ : يشبه أن يكون البخاري علل المسند بهذا.

(٥) أخرجه عن ابن مسعود الطبري ١٦/ ٥٠٨ ، وروي عنه مرفوعاً كما في مسند أحمد (٤٠٧١). وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: وَقْفُه أشبهُ من رَفْعِه. وقال الدارقطني في العلل ٥/ ٢٦٩ : يرويه السدي، وقد اختلف عنه، فرفعه شعبة عن السدي، ووقفه الثوري، والقول قول شعبة. اهـ وعدن =

قلت: هذا صحيحٌ، وقد جاء هذا المعنى في سورة «ن والقلمِ» مبيَّناً، على ما يأتي بيانُه هناك إن شاء الله تعالى[(١)].

السابعة: الباءُ في «بإلحادٍ» زائدةٌ كزيادتها في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وعليه حَمَلوا قولَ الشاعر:

نحن بنو جَعْدةَ أصحابُ[(٢)] الفَلَجْ نَضربُ بالسيف ونرجو بالفَرَجْ[(٣)]

أراد: نرجو الفرج. وقال الأعشى:

ضَمِنَتْ برزقِ عيالِنا أرْماحُنا[(٤)]

أي: رِزْقَ. وقال آخر:

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمي بما لاقَتْ لَبُونُ بني زيادِ[(٥)]

أي: ما لاقت، والباء زائدة، وهو كثير. وقال الفراء[(٦)]: سمعتُ أعرابيًّا، وسألتُه عن شيء، فقال: أرجو بذاك، أي: أرجو ذاك. وقال الشاعر:

= أبين: مدينة معروفة باليمن، أضيفت إلى أَبْيَنَ، وهو رجل من حِمير عدن بها، أي: أقام. ولم نقف عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(١) عند تفسير الآيات (١٧ - ١٩) منها.

(٢) في (ظ): أبناء.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٦ ، والرجز للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢١٦ برواية: نضرب بالبِيض. وذكره البغدادي في الخزانة ٩/ ٥٢٠ - ٥٢١ وقال: البيض السيوف، وقال ياقوت: الفَلَج مدينة بأرض اليمامة لبني جعدة وقشير. وينظر معجم البلدان ٤/ ٢٧١ .

(٤) وعجزه: ملءَ المراجل والصريحَ الأجردا، كما في مجاز القرآن ٢/ ٤٩ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٠٥ ، وفيه: بين، بدل: ملء. وذكر صدره ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٥٢٢ ، وهو في ديوان الأعشى ص٢٨١ براوية:

ضَمِنَتْ لنا أعجازُهنَّ قدورَنا وضروعُهنَّ لنا الصريحَ الأجردا

وينظر الاقتضاب ص٤٥٧ .

(٥) البيت لقيس بن زهير، وسلف ١١/ ٤٤٣ .

(٦) في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٣ .

بـوادٍ يَـمـانٍ يُـنْـبِـتُ الـشَّـثَّ صَـدْرُه وأسـفـلُـه بـالـمَـرْخِ والـشَّـبَـهـانِ[١]

أي: المَرخ: وهو قول الأخفش؛ والمعنى عنده: ومَن يُرِدْ فيه إلحاداً بظلم[٢].

وقال الكوفيون: دخلت الباء لأنَّ المعنى: بأن يلحد، والباء مع «أن» تدخلُ وتُحذف[٣]. ويجوز أن يكون التقدير: ومَن يُرِد الناسَ فيه بإلحاد.

وهذا الإلحادُ والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر، فَلِعِظَمِ حُرمةِ المكان توعَّد الله تعالى على نية السيئة فيه، ومَن نوى سيئةً ولم يعملها لم يحاسَب عليها إلَّا في مكة[٤]. هذا قولُ ابن مسعود وجماعةٍ من الصحابة وغيرِهم، وقد ذكرناه آنفاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: واذكر إذ بوَّأنا لإبراهيم؛ يقال: بوَّأته منزلاً وبوَّأتُ له، كما يقال: مكَّنتكَ ومكنتُ لك، فاللامُ في قوله: «لإبراهيم» صلةٌ للتأكيد، كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]، وهذا قولُ الفراء[٥].

وقيل: «بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت» أي: أَرَيْناه أَصْلَه ليَبْنِيَه، وكان قد دَرَس

(١) مجاز القرآن ٢/ ٤٩، وأدب الكاتب ص٥٢١، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٠٥، وجمهرة اللغة ١/ ٤٥، و٤/ ٤١٤، ونسبه أبو الفرج في الأغاني ٢٢/ ١٤٩، والبغدادي في الخزانة ٥/ ٢٧٦ ليعلى الأحول الأزدي، وهو عندهما برواية: ينبت السِّدْر. ونسبه ابن منظور في اللسان (شبه) لرجل من عبد القيس. والشَّثُّ: ضرب من الشجر، والشَّبَهان: ضرب من النَّبْت. قاله ابن دريد. وقال البغدادي: المَرخ: شجر سريع الوَرْي.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٣٦.

(٣) الكلام في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٢ بنحوه مطولاً.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٣.

بالطُّوفان وغيره، فلمَّا جاءت مدَّةُ إبراهيم عليه السلام أمره الله ببنائه، فجاء إلى موضعه، وجعل يطلب أثراً، فبعث الله ريحاً، فكشفت عن أساس آدمَ عليه السلام، فرتَّب قواعده عليه[١]، حَسْبَما تقدَّم بيانُه في «البقرة»[٢].

وقيل: «بوَّأنا» نازلةٌ منزلةَ فِعْلٍ يتعدَّى باللام؛ كنحو: جعلنا، أي: جعلنا لإبراهيم مكانَ البيت مُبَوَّأً[٣]. وقال الشاعر:

كم من أخٍ لي ماجدٍ ... بوَّأتُه بيديَّ لَحْداً[٤]

الثانية: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ هي مخاطَبةٌ لإبراهيمَ عليه السلام في قول الجمهور. وقرأ عكرمة: «أنْ لا يُشْرِكَ» بالياء، على نقلِ معنى القولِ الذي قيل له. قال أبو حاتم: ولابدَّ من نصبِ الكاف على هذه القراءة، بمعنى: لأنْ لا يشركَ[٥].

وقيل: إنَّ «أنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة. وقيل: مُفَسِّرة. وقيل: زائدة؛ مثل: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ [يوسف: ٩٦].

وفي الآية طعنٌ على مَن أشْرَكَ من قُطَّانِ البيت؛ أي: هذا كان الشرطُ على أبيكم فمَن بَعْدَه، وأنتم لم[٦] تَفُوا، بل أشركتم. وقالت فرقة: الخطابُ من قوله: «أن لا تشرك» لمحمدٍ ﷺ؛ وأُمِر بتطهير البيت والأذانِ بالحجّ. والجمهورُ على أنَّ ذلك لإبراهيم، وهو الأصحّ.

وتطهيرُ البيت عامٌّ في الكفر والبِدَع وجميعِ الأنجاس والدماء[٧]. وقيل: عنى به

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧.

(٢) ٢/ ٣٨٦ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٤، والمحرر الوجيز ٤/ ١١٧.

(٤) قائله عمرو بن معدي كَرِب، كما في الكامل للمبرد ٣/ ١٣٧٧، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٧٩، والخزانة ١١/ ٢١٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧، والقراءة في القراءات الشاذة ص٩٥ عن عكرمة وأبي نهيك.

(٦) في النسخ: فلم، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١١٧، والكلام منه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧.

التطهير عن الأوثان، كما قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]؛ وذلك أنَّ جُرْهُماً والعمالقةَ كانت لهم أصنامٌ في محلِّ البيت وحولَه قبل أن يبنيَه إبراهيم عليه السلام. وقيل: المعنى: نزِّه بيتي عن أن يُعبد فيه صنم، وهذا أمرٌ بإظهار التوحيد فيه. وقد مضى ما للعلماء في تنزيه المسجد الحرام وغيره من المساجد بما فيه كفايةٌ في «براءة»(١).

والقائمون: هم المصلُّون. وذَكَر تعالى من أركان الصلاة أَعْظَمَها، وهو القيامُ والركوع والسجود.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ قرأ جمهور الناس: ﴿وَأَذِّن﴾ بتشديد الذال. وقرأ الحسن بن أبي الحسن وابنُ مُحَيْصِن: «وآذِنْ» بتخفيف الذَّال ومدِّ الألف. ابن عطية: وتصحَّف هذا علَى ابنِ جِنِّي، فإنه حكى عنهما: «وأَذِنَ» على أنه فعلٌ ماضٍ، وأَعْرَبَ على ذلك بأنْ جعله عطفاً على: «بوَّأنا»(٢). والأذانُ: الإعلام، وقد تقدَّم في «براءة»(٣).

الثانية: لـمَّا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، وقيل له: أَذِّنْ في الناس بالحجّ، قال: يا ربِّ! وما يبلغ صوتي؟ قال: أَذِّنْ، وعليَّ الإبلاغُ، فصعِد إبراهيم

---

(١) ١٠/ ١٥٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ وما قبله منه. وتعقبه السمين في الدر المصون ٨/ ٢٦٤ فقال: ولم يتصحف فعله، بل حكى تلك القراءة أبو الفضل الرازي في اللوامح له عنهما، وذكرها أيضاً ابن خالويه، ولكنه لم يطلع عليها، فنسب مَن اطَّلع إلى التصحيف. قلنا: قراءة «أذن» بالقصر وتخفيف الذَّال هي في المحتسب ٢/ ٧٨، والقراءات الشاذة ص٩٥.

(٣) ١٠/ ١٠٤.

خليلُ الله جبلَ أبي قُبيس وصاح: يا أيها الناس، إنَّ الله قد أمركم بحجِّ هذا البيتِ ليُثِيبَكم به الجنةَ ويُجيركم من عذاب النار، فحُجُّوا، فأجابه مَن كان في أصلاب الرجال وأرحامِ النساء: لَبَّيْكَ اللَّهُمَ لَبَّيْك. فَمَن أجاب يومئذٍ حجَّ على قَدْرِ الإجابة، إنْ أجاب مرَّةً فمرة، وإن أجاب مرتين فمرتين، وجرت التلبيةُ على ذلك؛ قاله ابن عباس وابن جبير(١).

ورُوي عن أبي الطُّفيل قال: قال لي ابنُ عباس: أتدري ما كان أصلُ التلبية؟ قلت: لا! قال: لمَّا أُمِر إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن في الناس بالحجّ، خَفَضَت الجبال رؤوسها ورُفعت له القرى، فنادى في الناس بالحجّ، فأجابه كلُّ شيء: لَبَّيْكَ اللَّهُمّ لَبَّيْك(٢).

وقيل: إنَّ الخطاب لإبراهيمَ عليه السلام تمَّ عند قوله: «السجود»، ثم خاطب الله عزَّ وجلَّ محمداً عليه الصلاة والسلام فقال: «وأذِّن في الناس بالحجّ»، أي: أَعْلِمْهم أنَّ عليهم الحجّ.

وقول ثالث: إنَّ الخطاب من قوله: «أن لا تشرك» مخاطبةٌ للنبيِّ. وهذا قولُ أهل النظر؛ لأنَّ القرآن أُنزل على النبيِّ ﷺ، فكلُّ ما فيه من المخاطبة فهي له، إلَّا أنْ يَدلَّ دليلٌ قاطعٌ على غير ذلك، وهاهنا دليلٌ آخَرُ يدلُّ على أنَّ المخاطبة للنبيِّ ﷺ، وهو: «أنْ لا تُشْرِكْ» بالتاء، وهذا مخاطَبةٌ لمشاهِدٍ، وإبراهيم عليه السلام غائبٌ، فالمعنى على هذا: وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكانَ البيت، فجعلنا لك الدلائلَ على توحيد الله تعالى، وعلى أنَّ إبراهيم كان يعبد الله وحدَه(٣).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧، دون قوله: فمن أجاب يومئذ حج على قدر الإجابة ـ إلى قوله ـ فمرتين. وهذه العبارة أخرجها الديلمي بسند واهٍ عن علي رَفَعه، كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٤، وأخرجها الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٦٦ ضمن خبر مطوَّل عن ابن إسحاق. وينظر خبر ابن عباس ومجاهد وغيرهما في تفسير الطبري ١٦/ ٥١٤ - ٥١٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥، وهذه قطعة من خبر مطول أخرجه أحمد (٢٧٠٧).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥.

وقرأ جمهور الناس: «بالحجّ» بفتح الحاء. وقرأ ابن أبي إسحاقَ في كلِّ القرآن بكسرها[١].

وقيل: إنَّ نداء إبراهيم من جملة ما أُمِر به من شرائع الدين. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ وَعَدَه إجابةَ الناس إلى حجّ البيت ما بين راجلٍ وراكب، وإنَّما قال: «يأتوك» وإنْ كانوا يأتون الكعبة؛ لأنَّ المناديَ إبراهيم، فَمَن أتَى الكعبة حاجًّا فكأنه أتَى إبراهيم؛ لأنه أجاب نداءه، وفيه تشريفُ إبراهيم. ابن عطية: «رجالاً» جمعُ راجلٍ، مثل: تاجِرٍ وتِجَار[٢]، وصاحبٍ وصِحاب. وقيل: الرجال جمع رَجْل، والرَّجْل جمع راجل؛ مثل: تِجَارٍ وتَجْرٍ وتاجِر، وصِحَابٍ وصَحْبٍ وصاحِب. وقد يقال في الجمع: رُجَّال، بالتشديد، مثل: كافر وكفَّار[٣]. وقرأ ابن أبي إسحاق وعكرمة: «رُجَالاً» بضمِّ الراء وتخفيف الجيم، وهو قليلٌ في أبنية الجمع، ورويت عن مجاهد. وقرأ مجاهد: «رُجَالَى» على وزن: فُعَالَى، فهو مثلُ: كسالى[٤].

قال النحاس[٥]: في جَمْعِ راجِلٍ خمسةُ أَوْجُهٍ: رُجَّال مثل رُكَّاب، وهو الذي روي عن عكرمة، ورِجَال مثل قِيَام، ورَجْلة، ورَجْل، ورَجَّالة. والذي روي عن مجاهد رُجَالاً غير معروف، والأشبهُ به أن يكون غيرَ منوَّنٍ، مثل كُسالى وسُكارى، ولو نُوِّن لكان على فُعالٍ، وفُعَالٌ في الجمع قليل. وقدَّم الرجال على الرُّكبان في الذكر لزيادةِ تعبهم في المشي.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٣٩٧ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ .

(٣) ينظر ما سلف ٤/ ١٩٨ - ١٩٩ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧ - ١١٨ ، والقراءتان في المحتسب ٢/ ٧٩ . والثانية في القراءات الشاذة ص٩٥ عن ابن عباس وعطاء وابن جبير.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٣٩٨ .

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾ لأنَّ معنى «ضامر» معنى ضوامر، قال الفرَّاء: ويجوز: «يأتي» على اللفظ(١). والضامر: البعير المهزولُ الذي أتعبه السفر؛ يقال: ضَمُرَ يَضْمُر ضُموراً، فوصفها الله تعالى بالمآل الذي انتهت عليه إلى مكة. وذَكَر سبب الضُّمور فقال: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: أثَّر فيها طولُ السفر. ورَدَّ الضمير إلى الإبل تكرمةً لها لقصدها الحجّ مع أربابها، كما قال: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١] في خيلِ الجهاد تكرمةً لها حين سَعَتْ في سبيل الله(٢).

الرابعة: قال بعضهم: إنَّما قال: «رجالاً»؛ لأنَّ الغالب خروج الرجال إلى الحجّ دون الإناث، فقوله: «رجالاً» من قولك: هذا رجلٌ. وهذا فيه بعدٌ؛ لقوله: «وعلى كلِّ ضامر» يعني الرُّكْبانَ، فدخل فيه الرجالُ والنساء.

ولمَّا قال تعالى: «رجالاً» وبدأ بهم دلَّ ذلك على أنَّ حجَّ الراجل أفضلُ من حجِّ الراكب. قال ابن عباس: ما آسَى على شيءٍ فاتني إلَّا أنْ لا أكون حججتُ ماشياً، فإنِّي سمعت الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾. وقال ابن أبي نجِيح: حجَّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيَيْن. وقرأ أصحاب ابن مسعود: «يأتون»، وهي قراءة ابن أبي عَبْلَةَ والضحَّاك، والضميرُ للناس(٣).

الخامسة: لا خلافَ في جواز الركوب والمشي، واختلفوا في الأفضل منهما؛ فذهب مالك والشافعيُّ في آخَرين إلى أنَّ الركوب أفضل، اقتداءً بالنبيِّ ﷺ، ولكثرة النفقة، ولتعظيم شعائر الحج بأُبَّهة(٤) الركوب. وذهب غيرهم إلى أنَّ المشيَ أفضلُ؛ لِما فيه من المشقَّة على النفس(٥)، ولحديث أبي سعيد قال: حجَّ النبيُّ ﷺ وأصحابُه

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٥، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٦٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١١٨، وقراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص٩٥. وأخرج قولي ابن عباس وابن أبي نجيح الطبري ١٦/ ٥١٨.

(٤) في (م): بأهبة.

(٥) المفهم ٣/ ٣٢٣.

مشاةً من المدينة إلى مكة، وقال: «ارْبطوا أوساطكم بأزُرِكم» ومشَى خِلْطَ الهَرْولة. خرَّجه ابن ماجه في «سننه»[١]. ولا خلافَ في أنَّ الركوبَ في الوقوف بعرفة أفضلُ، واختُلف في الطواف والسعي، والركوبُ[٢] عند مالكٍ في المناسك كلِّها أفضل؛ للاقتداء بالنبيِّ ﷺ.

السادسة: استدلَّ بعضُ العلماء بسقوط ذِكر البحر من هذه الآية على أنَّ فرض الحجّ بالبحر ساقط. قال مالك في «المَوَّازِيَّة»: لا أسمع للبحر ذكراً. وهذا تَأَنُّسٌ، لا أنه يلزم من سقوط ذِكْرِه سقوطُ الفَرْضِ فيه؛ وذلك أنَّ مكة ليست في ضِفَّةِ بحرٍ فيأتيَها الناس في السفن، ولابدَّ لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة[٣] إمَّا راجلاً وإمَّا على ضامر، فإنما ذُكرت حالتا الوصول. وإسقاطُ فرضِ الحج بمجرَّدِ البحر[٤] ليس بالكثير ولا بالقويّ، فأمَّا إذا اقترن به عدوٌّ وخوفٌ، أو هَوْل شديد، أو مرضٌ يَلْحَق شخصاً، فمالكٌ والشافعيُّ وجمهورُ الناس على سقوط الوجوب بهذه الأعذار، وأنه ليس بسبيلٍ يستطاع. قال ابن عطية: وذَكَر صاحب «الاستظهار» في هذا المعنى كلاماً، ظاهرُهُ أنَّ الوجوبَ لا يسقط بشيءٍ من هذه الأعذار، وهذا ضعيف.

قلت: وأضعفُ من ضعيفٍ، وقد مضى في «البقرة» بيانه[٥].

والفَجُّ: الطريق الواسعة، والجمع فِجاج. وقد مضى في «الأنبياء»[٦]. والعميقُ معناه: البعيد. وقراءة الجماعة: «يأتِين». وقرأ أصحاب عبد الله: «يأتون»، وهذا

---

(١) برقم (٣١١٩)، وأخرجه أيضاً ابن عدي ٢/ ٨٤٣ . قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ١٥٣ : هذا إسناد ضعيف. وفي شرح السندي لابن ماجه ٢/ ٢٧٠ : وقال الدميري: وهو ضعيف منكر مردود بالأحاديث الصحيحة التي تقدمت أن النبي ﷺ وأصحابه لم يكونوا مشاة من المدينة إلى مكة. وقوله: خِلْط الهرولة (بالكسر) قال السندي: أي شيئاً مخلوطاً بالهرولة، بأن يمشي حيناً ويهرول حيناً أو معتدلاً.

(٢) من قوله: في الوقوف بعرفة، إلى هذا الموضع، سقط من (د) و(م)، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٣/ ٣٢٣ ، والكلام منه.

(٣) في (ظ): أن يصير إلى مكة، والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز ٤/ ١١٨ ، والكلام منه.

(٤) في (ظ): بمجرد إسقاط ذكر البحر، والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز.

(٥) لم نقف عليه في سورة البقرة، وينظر ٥/ ٢٢١ وما بعدها.

(٦) ص١٩٨ من هذا الجزء .

للركبان، و«يأتِين» للجمال؛ كأنه قال: وعلى إبلٍ ضامرةٍ يأتين ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد؛ ومنه: بئرٌ عميقة، أي: بعيدةُ القعر؛ ومنه:

وقاتِمِ الأعْماق خاوِي المُخْتَرقْ[1]

السابعة: واختلفوا في الواصل إلى البيت؛ هل يرفعُ يديه عند رؤيته أم لا؟ فروى أبو داود قال: سُئل جابر بن عبد الله عن الرجل يرى البيت ويرفع يديه فقال: ما كنتُ أرى أحداً يفعل هذا إلَّا اليهود، وقد حَجَجْنا مع رسول الله ﷺ، فلم نكن نفعله[2].

وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «تُرفع الأيدي في سبعِ مَوَاطنَ: افتتاح الصلاة، واستقبال البيت، والصَّفَا والْمَرْوة، والموقفين، والجمرتين»[3]. وإلى حديث ابن عباس هذا ذهب الثوريُّ وابن المبارك وأحمدُ وإسحاقُ، وضعَّفوا حديث جابر؛ لأنَّ مهاجراً المكيَّ راويه مجهولٌ. وكان ابن عمر يرفع يديه عند رؤية البيت. وعن ابن عباس مثلُه[4].

قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة:

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٢، والرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص١٠٤، وبعده: مُشْتَبِهِ الأعلام لمَّاعِ الخَفَقْ.

(٢) سنن أبي داود (١٨٧٠)، وأخرجه أيضاً النسائي في المجتبى ٥/ ٢١٢ وهو من طريق المهاجر المكي، عن جابر به. والمهاجر المكي هو ابن عكرمة المخزومي، كما ذكر ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤/ ٢٨٦، وقال: ولا يعرف حاله، وهناك رجل آخر يقال له مهاجر المكي، وهو ابن القبطية، وهو ثقة.

(٣) أخرجه الطبراني (١٢٠٧٢). وأخرجه أيضاً البزار (٥١٩) عن ابن عباس وابن عمر. وأخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٩٦ عن ابن عباس موقوفاً. قال ابن القيم في المنار المنيف ص١٣٨: لا يصح رَفْعُه، والصحيح وَقْفُه على ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما. وينظر السنن الكبرى للبيهقي ٥/ ٧٢ - ٧٣، ونصب الراية ١/ ٣٩٠ - ٣٩١.

(٤) معالم السنن ٢/ ١٩١.

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا﴾ أي: أذِّن بالحجّ يأتوك رجالاً وركباناً ليشهدوا، أي: ليَحْضُروا. والشُّهود: الحُضور. ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي: المناسك، كعرفات والمَشْعَر الحرام. وقيل: المغفرة. وقيل: التجارة. وقيل: هو عموم، أي: ليحضروا منافعَ لهم، أي: ما يُرضي اللهَ تعالى من أمر الدنيا والآخرة؛ قاله مجاهد وعطاء، واختاره ابن العربي[1]؛ فإنه يجمع ذلك كلَّه من نسكٍ وتجارةٍ ومغفرةٍ ومنفعةِ دنيا وأخرى[2]. ولا خلافَ في أنَّ المرادَ بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] التجارة.

الثانية: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ قد مضى في «البقرة» الكلامُ في الأيام المعلومات والمعدودات[3]. والمرادُ بذكر اسم الله ذِكْرُ التسمية عند الذبح والنحر، مثل قولك: باسم الله والله أكبر، اللهمَّ منك ولك[4]. ومثل قولك عند الذبح: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢]. وكان الكفار يذبحون على أسماء أصنامهم، فبيَّن الربُّ أنَّ الواجب الذبحُ على اسم الله، وقد مضى في «الأنعام»[5].

الثالثة: واختلف العلماء في وقت الذبح يومَ النحر؛ فقال مالك ﷺ: بعد صلاة الإمام وذَبْحِه، إلَّا أن يؤخِّر تأخيراً يتعدَّى فيه، فيسقط الاقتداء به. وراعَى أبو حنيفةَ الفراغَ من الصلاة دون مراعاةِ ذبحِ الإمام[6]. والشافعيُّ دخولَ وقتِ الصلاة ومقدارَ ما تُوقَع فيه مع الخطبتين، فاعتَبر الوقتَ دون الصلاة. هذه روايةُ المُزَنيِّ عنه، وهو قول

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٦٨ وما سيأتي منه، وأخرجه عن مجاهد عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٦، والطبري ١٦/ ٥٢١.

(٢) في أحكام القرآن: وآخرة.

(٣) ٣/ ٣٢٠ و ٣٦٢.

(٤) في (ظ): وإليك.

(٥) ٩/ ١٢ وما بعدها.

(٦) وقع في النسخ: دون ذبح، بدل قوله: دون مراعاة ذبح الإمام، والمثبت من المفهم ٥/ ٣٥٣، والكلام منه.

الطبريّ. وذكر الربيع عن البُوَيْطيِّ قال: قال الشافعيُّ: ولا يَذبح أحدٌ حتى يذبح الإمامُ إلَّا أن يكون ممن لا يذبح، فإذا صلَّى وفرغ من الخطبة حلَّ الذَّبْح. وهذا كقول مالك. وقال أحمد: إذا انصرف الإمام فاذبح. وهو قولُ إبراهيم(١).

وأصحُّ هذه الأقوال قولُ مالك؛ لحديث جابر بن عبد الله قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ يومَ النحر بالمدينة، فتقدَّم رجالٌ فنحروا، وظنُّوا أنَّ النبيَّ ﷺ قد نحر، فأمر النبيُّ ﷺ مَن كان نحر أن يعيد بنحرٍ آخَر، ولا ينحروا حتى ينحر النبيُّ ﷺ. خرَّجه مسلم(٢)، والترمذيُّ وقال: وفي الباب عن جابرٍ وجُنْدَب وأنس وعُوَيْمر بن أشقر وابن عمر وأبي زيد الأنصاريِّ، وهذا حديثٌ حسنٌ صحيح، والعمل على هذا عند [أكثر] أهل العلم: ألَّا يضحَّى بالمصر حتى يصلِّيَ الإمام(٣).

وقد احتجَّ أبو حنيفة بحديث البَرَاء، وفيه: «ومَن ذبح بعد الصلاة فقد تَمَّ نُسُكُه وأصاب سنَّةَ المسلمين». خرجه مسلم أيضاً. فعلَّق الذبح على الصلاة ولم يذكر الذبح [للإمام](٤)، وحديثُ جابر يقيِّده. وكذلك حديثُ البراء أيضاً؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلِّيَ، ثم نرجع فننحر، فَمَن فَعَلَ ذلك فقد أصاب سُنَّتنا» الحديث(٥).

---

(١) التمهيد ٢٣/ ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) في صحيحه (١٩٦٤)، وهو عند أحمد (١٤١٣٠).

(٣) الحديث الذي أشار إليه المصنف عند الترمذي هو برقم (١٥٠٨)، وهو من حديث البراء، وقال بإثره: وفي الباب عن جابر. . . الخ ولفظ حديث البراء عنده: خطبنا رسول الله ﷺ في يوم نحر فقال: «لا يذبحنَّ أحدكم حتى نصلي» قال: فقام خالي فقال: يا رسول الله، هذا يومٌ اللحمُ فيه مكروه، وإنِّي عجَّلت نسكي لأطعم أهلي وأهل داري أو جيراني، قال: «فأعِدْ ذبحاً آخر»...، ولفظ الحديث، وكلام الترمذي بعده لا يفيد مراد المصنف: في إيراده شاهداً على إيقاف الأمر على ذبح الإمام، وينظر عارضة الأحوذي ٦/ ٣٠٧ . وحديث البراء هذا في الصحيحين، وسترد بعض رواياته.

(٤) المفهم ٥/ ٣٥٣ ، وما بين حاصرتين منه، وحديث البراء عند مسلم (١٩٦١): (٤)، وأخرجه أيضاً البخاري (٥٥٤٦).

(٥) أخرجه أحمد (١٨٤٨١)، والبخاري (٩٥١)، ومسلم (١٩٦١): (٧).

وقال أبو عمر بن عبد البرِّ: لا أعلم خلافاً بين العلماء أنَّ مَن ذبح قبل الصلاة وكان من أهل المصر أنه غير مُضَحٍّ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن ذَبَح قبل الصلاةِ فتلك شاةُ لحمٍ»(١).

الرابعة: وأمَّا أهلُ البوادي ومَن لا إمامَ له، فمشهورُ مذهبِ مالكٍ: يتحرَّى وقتَ ذبحِ الإمام، أو أقربِ الأئمة إليه. وقال ربيعةُ وعطاءٌ فيمَن لا إمامَ له: إنْ ذَبَح قبل طلوع الشمس لم يجزه، ويجزيه إنْ ذَبَح بعده. وقال أهلُ الرأي: يجزيهم من بعد الفجر. وهو قولُ ابن المبارك؛ ذكره عنه الترمذيُّ. وتمسَّكوا بقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، فأضاف النَّحر إلى اليوم. وهل اليومُ من طلوع الفجر أو من طلوع الشمس؟(٢) قولان. ولا خلافَ أنه لا يجزي ذبحُ الأضحيَّة قبل طلوع الفجر من يوم النحر.

الخامسة: واختلفوا كم أيامُ النحر؟ فقال مالك: ثلاثة، يومُ النَّحْر ويومان بعده. وبه قال أبو حنيفة والثوريُّ وأحمد بن حنبل، ورويَ ذلك عن أبي هريرة وأنس بن مالك من غير اختلافٍ عنهما. وقال الشافعيُّ: أربعة، يومُ النحر وثلاثةٌ بعده. وبه قال الأوزاعيُّ، ورُوي ذلك عن عليٍّ ﷺ، وابنِ عباس وابنِ عمر ﷺ، ورُويَ عنهم أيضاً مثلُ قولِ مالكٍ وأحمد. وقيل: هو يومُ النحر خاصةً، وهو العاشرُ من ذي الحجة، ورُوي عن ابن سِيرين. وعن سعيد بن جبير وجابر بن زيد أنَّهما قالا: النحرُ في الأمصار يومٌ واحدٌ، وفي منًى ثلاثةُ أيام. وعن الحسن البصريِّ في ذلك ثلاثُ رواياتٍ: إحداها كما قال مالك، والثانية كما قال الشافعيُّ. والثالثة: إلى آخرِ يوم من ذي الحجة، فإذا أهلَّ هلالُ المحرَّم فلا أَضحَى(٣).

---

(١) التمهيد ٢٣/ ١٨٢، وهذه قطعة من حديث البراء المتقدم، وأخرجه بهذا اللفظ البخاري (٩٥٥)، ومسلم (١٩٦١): (٤).

(٢) المفهم ٥/ ٣٥٣، وقول ابن المبارك في سنن الترمذي إثر الحديث (١٥٠٨).

(٣) الاستذكار ١٥/ ٢٠٠ - ٢٠٢.

قلت: وهو قولُ سليمانَ بنِ يسار وأبي سلمةَ بنِ عبد الرحمن، ورويا حديثاً مرسَلاً مرفوعاً خرَّجه الدَّارَقُطْنيُّ: الضحايا إلى هلالِ المحرَّم. ولم يصح[١]، ودليلُنا قولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ الآية، وهذا جمعُ قِلَّة، لكن المتيقَّن منه الثلاثة، وما بعد الثلاثةِ غيرُ متيقَّنٍ، فلا يُعمل به[٢].

قال أبو عمر بن عبد البرّ[٣]: أجمع العلماء على أنَّ يومَ النحر يومُ الأضْحَى، وأجمعوا أنْ لا أضحى بعد انسلاخ ذي الحجة، ولا يصح عندي في هذه إلَّا قولان: أحدهما: قولُ مالكٍ والكوفيين، والآخَر: قولُ الشافعيِّ والشاميين؛ وهذان القولان مَرْوِيَّان عن الصحابة، فلا معنى للاشتغال بما خالفهما؛ لأنَّ ما خالفهما لا أصلَ له في السنَّة ولا في قول الصحابة، وما خَرَج عن هذين فمتروكٌ لهما.

وقد رُوي عن قتادةَ قولٌ سادس، وهو أنَّ الأضحى يومُ النحر وستةُ أيامٍ بعده[٤]، وهذا أيضاً خارجٌ عن قول الصحابة، فلا معنى له.

السادسة: واختلفوا في ليالي النَّحْرِ؛ هل تدخلُ مع الأيام فيجوز فيها الذبح، أوْ لا؟ فرويَ عن مالكٍ في المشهور: أنَّها لا تدخل، فلا يجوز الذبح بالليل. وعليه جمهورُ أصحابه[٥] وأصحابِ الرأي[٦]؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ﴾

---

(١) سنن الدارقطني (٤٧٤٢) وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (٣٧٧) كلاهما عن أبي سلمة وسليمان بن يسار أنه بلغهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الضحايا إلى آخر الشهر لمن أراد أن يستأني ذلك» لفظ الدارقطني. ووقع في النسخ عدا (ظ): ذي الحجة، بدل: المحرم، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لرواية الحديث في مراسيل أبي داود (٣٧٧).

(٢) المفهم ٥/ ٣٥٤ .

(٣) في الاستذكار ١٥/ ٢٠٥ .

(٤) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ١٩٦ ، والاستذكار ١٥/ ٢٠٣ .

(٥) إكمال المعلم ٦/ ٤٠٢ ، والمفهم ٥/ ٣٥٤ .

(٦) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٨ ، والذي في تحفة الفقهاء لعلاء الدين السمرقندي ٣/ ٨٣ ، وبدائع الصنائع ٦/ ٣١٢ ، وحاشية ابن عابدين ٦/ ٣١٦ عن الأحناف جواز الذبح بالليل مع الكراهة. وهذه الكراهة تنزيهية كما في حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٢٠ . وسيذكر المصنف القول بالجواز عن أبي حنيفة فيما يأتي نقلاً عن إكمال المعلم والمفهم.

فذَكرَ الأيامَ، وذِكرُ الأيامِ دليلٌ على أنَّ الذبح في الليل لا يجوز.

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ وأحمدُ وإسحاقُ وأبو ثور: الليالي داخلةٌ في الأيام ويجزي الذبحُ فيها. وروي عن مالكٍ وأشهبَ نحوُه، ولأشهبَ تفريقٌ بين الهَدْي والضحِيَّة، فأجاز الهَدْيَ ليلاً، ولم يُجِز الضحيَّةَ ليلاً[1].

السابعة: قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ أي: على ذَبْحِ ما رَزَقَهم. ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ والأنعامُ هنا: الإبلُ والبقر والغنم. وبهيمةُ الأنعام هي الأنعام، فهو كقولك: صلاةُ الأولى، ومسجدُ الجامع.

الثامنة: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أمرٌ معناه الندب عند الجمهور. ويستحبُّ للرجل أن يأكل من هَدْيه وأضْحِيَّته وأن يتصدَّق بالأكثر، مع تجويزهم الصدقةَ بالكلِّ وأكلَ الكلِّ[2]. وشذَّتْ طائفةٌ فأوجبت الأكلَ والإطعام بظاهر الأمر[3]، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «فكلوا وادَّخروا وتصدَّقوا»[4]. قال الكِيَا[5]: قولُه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ﴾ يدلُّ على أنه لا يجوز بيعُ جميعِه، ولا التَّصَدُّقُ بجميعه.

التاسعة: دماءُ الكفارات لا يأكل منها أصحابها. ومشهورُ مذهب مالك ﷺ أنه لا يأكل من ثلاث: جزاء الصيد، ونذر المساكين، وفِدْية الأذى، ويأكل مما سوى ذلك إذا بلغ مَحِلَّه، واجباً كان أو تطوُّعاً. ووافقه على ذلك جماعةٌ من السلف وفقهاءِ الأمصار[6].

العاشرة: فإنْ أكَل مما مُنع منه؛ فهل يَغْرَمُ قَدْرَ ما أكَلَ، أو يغرمُ هَدْياً كاملاً؟

---

(١) إكمال المعلم ٦/ ٤٠٢ ، والمفهم ٥/ ٣٥٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ .

(٣) في (د) و(م): بظاهر الآية، والمثبت من باقي النسخ والمفهم ٥/ ٣٨٠ ، والكلام منه.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٢٤٩)، ومسلم (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ٢٨١ .

(٦) المفهم ٣/ ٤٢٦ .

قولان في مذهبنا[١]. وبالأول قال ابن الماجِشون[٢]؛ قال ابن العربيِّ: وهو الحقُّ، لا شيءَ عليه غيره. وكذلك لو نَذَر هَدْياً للمساكين فيأكل منه بعد أن بلغ مَحِلَّه، لا يَغْرَم إلَّا ما أكل ـ خلافاً للمدوَّنة ـ لأنَّ النحر قد وقع، والتعدِّي إنما هو على اللحم، فيغرم قَدْرَ ما تعدَّى فيه[٣]. وقوله[٤] تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ يدلُّ على وجوب إخراج النذر وإن كان دَماً أو هَدْياً أو غيره، ويدلُّ ذلك على أنَّ النذر لا يجوز أن يأكل منه وفاءً بالنذر[٥]، وكذلك جزاءُ الصيد وفِديةُ الأذى؛ لأنَّ المطلوب أن يأتيَ به كاملاً من غير نقصِ لحمٍ ولا غيرِه، فإن أكل من ذلك كان عليه هَدْيٌ كامل. والله أعلم.

الحادية عشرة: هل يَغْرَم قيمةَ اللحم، أو يغرمُ طعاماً؟ ففي كتاب محمد عن عبد الملك: أنه يغرم طعاماً. والأولُ أصح؛ لأن الطعام إنما هو في مقابلة الهَدْي كلِّه عند تعذُّره عبادة، وليس حكم التعدِّي حكمَ العبادة[٦].

الثانية عشرة: فإن عَطِب من هذا الهَدْي المضمونِ الذي هو جزاءُ الصيدِ وفِديةُ الأذَى ونذرُ المساكين شيءٌ قبلَ مَحِلِّه، أَكل منه صاحبه وأطعم منه الأغنياء والفقراء ومَن أَحَبّ، ولا يبيع من لحمه ولا جلده ولا من قلائده شيئاً. قال إسماعيل بن إسحاق: لأن الهديَ المضمونَ إذا عَطِب قبل أن يبلغ مَحِلَّه كان عليه بدلُه، ولذلك جاز أن يأكل منه صاحبه ويُطعم. فإذا عطِب الهدي التطوُّعُ قبل أن يبلغ مَحِلَّه لم يَجُزْ أن يأكل منه ولا يُطعِم؛ لأنه لمَّا لم يكن عليه بدلُه خِيفَ أن يفعل ذلك بالهَدْي وينحر من غير أن يعطَب، فاحتيط على الناس، وبذلك مضى العمل [في هدي التطوُّع إذا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عقد الجواهر الثمينة ١/ ٤٥٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٠ .

(٤) في النسخ عدا (ظ): قوله، والمثبت من (ظ).

(٥) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٨١ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ١٢٨٠ .

عطب في الطريق نَحره صاحبُه وخلَّى بينه وبين الناس][(١)].

وروى أبو داود عن ناجيةَ الأسلميِّ: أن رسول الله ﷺ بعث معه بهَدْيٍ وقال: «إنْ عَطِبَ منها شيءٌ فانْحره، ثم اصبغ نعلَه في دمه، ثم خلِّ بينه وبين الناس»[(٢)]. وبهذا الحديث قال مالك والشافعيُّ في أحد قوليه، وأحمد وإسحاق وأبو ثَوْر وأصحاب الرأي ومن اتَّبعهم في الهدي التطوع: لا يأكل منها سائقُها شيئاً، ويخلِّي بينها وبين الناس يأكلونها[(٣)].

وفي صحيح مسلم: «ولا تأكل منها أنت ولا أحدٌ من أهل رفقتك»[(٤)]. وبظاهِرِ هذا النهي قال ابن عباس والشافعيُّ في قوله الآخر، واختاره ابن المنذر، فقالا: لا يأكل منها [سائقها] ولا أحد من أهل رفقته[(٥)].

وقال أبو عمر[(٦)]: قولُه عليه الصلاة والسلام: «ولا[(٧)] أحدٌ من أهل رفقتك» لا يوجد إلَّا في حديثِ ابنِ عباس. وليس ذلك في حديث هشام بنِ عروة، عن أبيه، عن

(١) التمهيد ٢٢/ ٢٦٦، وما بين حاصرتين منه.

(٢) سنن أبي داود (١٧٦٢)، وهو عند أحمد (١٨٩٤٣)، والترمذي (٩١٠)، وابن ماجه (٣١٠٦). قال الترمذي: حديث ناجية حديث حسن صحيح. وقوله: «ثم اصبغ نعله في دمه» يعني به النعل الذي قلَّدها به، والتقليد أن يعلَّق في عنق البُدْن نعلٌ ليُعرف أنه هدي. التمهيد ٢٢/ ٢٦٤.

(٣) المفهم ٣/ ٤٢٦، دون قوله عن الشافعي: في أحد قوليه.

(٤) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند مسلم (١٣٢٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨٦٩).

(٥) المفهم ٣/ ٤٢٥ - ٤٢٦، وما بين حاصرتين منه، وليس فيه: والشافعي في قوله الآخر. قال النووي في المجموع ٨/ ٢٨٣: وهل يجوز للفقراء من رفقة صاحب الهدي الأكل منه؟ فيه وجهان مشهوران أصحهما: لا يجوز، وهو المنصوص للشافعي، وصححه الأصحاب للحديث. ثم ذكر في الرفقة وجهين؛ أحدهما: أنهم الذين يخالطونه في الأكل وغيره دون القافلة. والثاني: جميع القافلة؛ قال: وهو أصحهما، وهو الذي يقتضيه ظاهر الأحاديث.

(٦) في التمهيد ٢٢/ ٢٧٦، وبنحوه في الاستذكار ١٢/ ٢٨٠.

(٧) قبلها في (ز) و(م): ولا تأكل منها، وفي (خ): ولا يأكل منها أحد، وسقط هذا الموضع من (د) و(ظ)، والمثبت من التمهيد والاستذكار.

ناجيةَ. وهو عندنا أصحُّ من حديث ابن عباس، وعليه العملُ عند الفقهاء. ويدخل في قوله عليه الصلاة والسلام: «خلِّ بينها وبين الناس» أهلُ رفقته وغيرُهم.

وقال الشافعيُّ وأبو ثور: ما كان من الهَدْي أصلُه واجباً فلا يأكل منه، وما كان تطوُّعاً ونسكاً أَكَلَ منه وأهدى وادَّخر وتصدَّق. والمتعةُ والقِران عنده نسكٌ. ونحوُه مذهبُ الأوزاعيّ. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يأكل من هَدْي المتعة والتطوُّع، ولا يأكل ممَّا سوى ذلك مما وجب بحكم الإحرام. وحُكي عن مالك: لا يأكل من دم الفساد. وعلى قياسِ هذا: لا يأكل من دم الجبر، كقول الشافعيّ والأوزاعيّ[١].

تمسَّك مالك بأنَّ جزاء الصيد جعله الله للمساكين بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال في فِدْية الأذى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]. وقال ﷺ لكعب بن عُجْرَةَ: «أَطْعِمْ ستةَ مساكين مُدَّيْن لكلِّ مسكينٍ، أو صُمْ ثلاثةَ أيامٍ، أو انْسُكْ شاة»[٢]. ونَذْرُ المساكين مصرَّحٌ به، وأمَّا غيرُ ذلك من الهدايا فهو باقٍ على أصلِ قوله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ [الحج: ٣٦]. وقد أكل النبيُّ ﷺ وعليٌّ ﷺ من الهدي الذي جاء به، وشَرِبا من مَرَقِه، وكان عليه الصلاة والسلام قارِناً في أصح الأقوال والروايات، فكان هَدْيُه على هذا واجباً، فما تعلَّق به أبو حنيفةَ غيرُ صحيح[٣]. والله أعلم.

وإنَّما أَذِنَ الله سبحانه في الأكل من الهدايا لأجْلِ أنَّ العرب كانت لا ترى أنْ تأكلَ من نُسكها، فأمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه ﷺ بمخالفتهم؛ فلا جَرَم كذلك شَرَع وبلَّغ، وكذلك فَعَلَ حين أهدى وأَحْرَمَ ﷺ[٤].

---

(١) المفهم ٣/ ٤٢٦ ، وقوله: دم الجَبْر (أو الجُبْران، كما وقع في ظ): هو ما يَجْبُرُ الخلل الواقع في الحج.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩ ، وسلف حديث كعب بن عجرة ٣/ ٢٩٠ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩ ، والحديث أخرجه مطولاً أحمد (١٤٤٤٠)، ومسلم (١٢١٨) من حديث جابر ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩ .

الثالثة عشرة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ناسخٌ لِفِعْلِهم؛ لأنهم كانوا يحرِّمون لحومَ الضحايا على أنفسهم ولا يأكلون منها ـ كما قلناه في الهدايا ـ فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾، وبقول النبيِّ ﷺ: «مَن ضحَّى فلْيأكل من أضحيَّته» ولأنه عليه الصلاة والسلام أكل من أضحيَّته وهَدْيِه. وقال الزُّهريُّ: من السُّنة أن تأكل أوّلاً من الكبِد(١).

الرابعة عشرة: ذهب أكثر العلماء إلى أنه يُستحبُّ أن يتصدَّق بالثلث، ويُطعِم الثلث، ويأكل هو وأهلُه الثلث(٢). وقال ابن القاسم عن مالك: ليس عندنا في الضحايا قَسْمٌ معلومٌ موصوف. قال مالك في حديثه: وبلغني عن ابن مسعود [شيءٌ]، وليس عليه العمل [عندنا]. رَوى الصحيح وأبو داود قال: ضحَّى رسول الله ﷺ بشاةٍ ثم قال: «يا ثَوْبانُ، أَصْلِحْ لحمَ هذه الشاة» قال: فما زلت أُطعمه منها حتى قَدِمَ المدينة. وهذا نصٌّ في الغَرَض(٣). واختلف قول الشافعيِّ؛ فمرةً قال: يأكل النصفَ ويتصدَّق بالنصف؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فذكر شخصين. وقال مرةً: يأكل ثلثاً، ويُهدي ثلثاً، ويُطعم ثُلُثاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فذكَر ثلاثة(٤).

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١١ - ٥١٢ ، وقوله ﷺ: «من ضحى فليأكل من أضحيته» أخرجه أحمد (٩٠٧٨) من طريق عطاء عن أبي هريرة ـ ﷺ ـ مرفوعاً، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال الحافظ في التقريب: صدوق سيئ الحفظ جدًّا. وذكره ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٤٢ من طريق عطاء عن النبي ﷺ مرسلاً، وقال: قال أبي: هذا الصحيح.

وأخرجه الطبراني (١٢٧١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٥ : وفيه عبد الله بن خراش، وثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ، وضعَّفه الجمهور.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٢ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٢ ، وما سلف بين حاصرتين منه، ووقع فيه: في المسألة، بدل: في الغرض. وحديث ثوبان عند مسلم (١٩٧٥)، وأبي داود (٢٨١٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٢٣٩١).

(٤) التنبيه للشيرازي ص٨١ ، والمجموع للنووي ٨/ ٣٢٩ ، والأول هو قول الشافعي في القديم، والثاني قوله في الجديد.

الخامسة عشرة: المسافرُ مُخاطَبٌ بالأضحيَّة كما يخاطب بها الحاضر؛ إذ الأصلُ عمومُ الخطاب بها، وهو قولُ كافَّةِ العلماء. وخالف في ذلك أبو حنيفة والنَّخَعيُّ، وروي عن عليٍّ؛ والحديث حجة عليهم. واستثنى مالكٌ من المسافرين الحاجَّ بمنًى، فلم ير عليه أضحيةً، وبه قال النَّخَعيُّ. وروي ذلك عن الخليفتين أبي بكر وعمر وجماعةٍ من السَّلَف ﷺ؛ لأنَّ الحاجَّ إنما هو مخاطبٌ في الأصل بالهَدْي، فإذا أراد أن يضحِّي جعله هدياً، والناسُ غيرُ الحاجِّ إنما أُمروا بالأضحية ليتشبَّهوا بأهل منًى، فيحصل لهم حظٌّ من أجرهم[١].

السادسة عشرة: اختلف العلماء في الإدِّخار على أربعة أقوال. رُوي عن عليٍّ وابنِ عمر رضي الله عنهما من وجهٍ صحيح أنه لا يُدَّخر من الضحايا بعد ثلاثٍ. ورَوياه عن النبيِّ ﷺ، وسيأتي[٢].

وقالت جماعة: ما رُوي من النهي عن الادِّخار منسوخٌ، فيدَّخر إلى أيِّ وقتٍ أَحبَّ. وبه قال أبو سعيد الخُدْريُّ و بُريدةُ الأَسْلميُّ[٣].

وقالت فرقةٌ: يجوز الأكلُ منها مطلقاً.

وقالت طائفة: إن كانت بالناس حاجةٌ إليها فلا يدَّخر؛ لأنَّ النهي إنَّما كان لعلةٍ، وهي قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّما نهيتُكم من أجل الدَّافَّة التي دفَّت». ولمَّا ارتفعَتْ ارتفع المنعُ المتقدِّمُ لارتفاع مُوجِبه، لا لأنه منسوخ[٤]. وتنشأ هنا مسألةٌ أصوليةٌ، وهي:

---

(١) المفهم ٥/ ٣٨١.

(٢) في المسألة الثامنة عشرة.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٤ - ٥١٥.

(٤) المفهم ٥/ ٣٧٨، والحديث أخرجه أحمد (٢٤٢٤٩)، ومسلم (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلفت قطعة منه في المسألة الثامنة. وقوله «الدافَّة»: هم قوم قدموا المدينة في ذلك الوقت مساكينُ أراد رسول الله ﷺ أن يحسن إليهم أهل المدينة ويتصدقوا عليهم. الاستذكار ١٥/ ١٧٠.

السابعة عشرة: وهي الفرقُ بين رَفْعِ الحُكْمِ بالنَّسْخِ، ورَفْعِه لارتفاع علَّتِه. اعلم أنَّ المرفوع بالنسخ لا يُحكم به أبداً، والمرفوع لارتفاع علَّته يعود الحكم لعَوْدِ العلة؛ فلو قَدِمَ على أهل بلدةٍ ناسٌ محتاجون في زمانِ الأَضْحى؛ ولم يكن عند أهل ذلك البلد سَعةٌ يسدُّون بها فاقتهم إلَّا الضحايا، لَتَعيَّن عليهم ألَّا يدَّخروها فوق ثلاثٍ، كما فعل النبيُّ ﷺ[1].

الثامنة عشرة: الأحاديثُ الواردةُ في هذا الباب بالمنع والإباحة صِحاحٌ ثابتة. وقد جاء المنعُ والإباحةُ معاً، كما هو منصوصٌ في حديث عائشةَ وسَلَمةَ بنِ الأكْوَع وأبي سعيد الخُدْريِّ، رواها الصحيح[2].

ورَوَى الصحيح عن أبي عبيدٍ مَوْلَى ابنِ أَزْهَرَ أنه شهد العيد مع عمر بن الخطاب، قال: ثم صلَّيتُ العيد مع عليِّ بن أبي طالب ﷺ، قال: فصلَّى لنا قبل الخطبة، ثم خطب الناس فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد نهاكم أن تأكلوا لحومَ نُسُككم فوق ثلاثِ ليالٍ فلا تأكلوها[3].

ورَوَى عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ نَهى أن تؤكل لحومُ الأضاحي بعد[4] ثلاث. قال سالم: فكان ابن عمر لا يأكل لحومَ الأضاحي فوق ثلاث[5].

وروى أبو داود عن نُبيشةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّا كنا نهيناكم عن لحومها فوق ثلاثٍ لكي تَسَعَكم، جاء الله بالسَّعة، فكُلوا وادَّخروا واتَّجروا، ألا إنَّ هذه

---

(١) المفهم ٥/ ٣٧٩.

(٢) حديث عائشة في صحيح البخاري (٥٤٢٣)، وصحيح مسلم (١٩٧١)، وهو عند أحمد (٢٤٢٤٩) و(٢٤٩٦٢)، وسلف في المسألة الثامنة، والمسألة السادسة عشرة. وحديث سلمة في صحيح البخاري (٥٥٦٩)، وصحيح مسلم (١٩٧٤). وحديث أبي سعيد الخدري في صحيح البخاري (٣٩٩٧)، وصحيح مسلم (١٩٧٣)، وهو عند أحمد (١١١٧٦) و(١١٨١١).

(٣) صحيح البخاري (٥٥٧٣)، وصحيح مسلم (١٩٦٩): (٢٥)، وهو عند أحمد (٥٨٧).

(٤) في (ظ) و(م): فوق.

(٥) صحيح مسلم (١٩٧٠): (٢٧).

الأيامَ أيامُ أكلٍ وشرب وذكرٍ لِله عزَّ وجلَّ»[(١)].

قال أبو جعفر النحاس: وهذا القولُ أحسنُ ما قيل في هذا، حتى تتَّفق الأحاديثُ ولا تتضادَّ، ويكون قولُ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ـ وعثمانُ محصورٌ ـ لأنَّ الناس كانوا في شدَّةٍ محتاجين، ففعل كما فعل رسول الله ﷺ حين قدمت الدافَّة. والدليلُ على هذا ما حدَّثنا إبراهيم بن شريك قال: حدَّثنا أحمد قال: حدَّثنا ليث قال: حدَّثني الحارث بن يعقوب، عن يزيد بن أبي يزيد، عن امرأته؛ أنها سألت عائشةَ رضي الله عنها عن لحوم الأضاحي فقالت: قَدِمَ علينا عليّ بنُ أبي طالب من سفرٍ فقدَّمنا إليه منه، فأبى أن يأكل حتى يسأل رسول الله ﷺ، فسأله، فقال: «كُلْ من ذي الحجة إلى ذي الحجة»[(٢)].

وقال الشافعيُّ: مَن قال بالنهي عن الادِّخار بعد ثلاثٍ لم يسمع الرخصةَ. ومَن قال بالرخصةِ مطلقاً لم يسمع النهيَ عن الادِّخار. ومَن قال بالنهي والرخصة سمعهما جميعاً، فعمِل بمقتضاهما. والله أعلم. وسيأتي في سورة الكوثر الاختلافُ في وجوب الأضحيَّة وندبيَّتها، وأنها ناسخةٌ لكلِّ ذبحٍ تقدَّم[(٣)]، إن شاء الله تعالى.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ «الفقير» من صفة البائس، وهو الذي ناله البؤسُ وشدَّةُ الفقر؛ يقال: بَئِس يَبْأس بأساً: إذا افْتقَر، فهو بائس. وقد يُستعمل فيمَن نزلت به نازلةُ دهرٍ وإن لم تكن فَقْراً[(٤)]؛ ومنه قوله عليه

---

(١) سنن أبي داود (٢٨١٣)، وهو عند أحمد (٢٠٧٢٣). قوله: وائتجروا ـ بهمزة قطع ـ قال ابن الأثير في النهاية (أجر): أي: تصدَّقوا طالبين الأجر بذلك، ولا يجوز فيه «اتَّجروا» بالإدغام؛ لأن الهمزة لا تدغم في التاء، وإنما هو من الأجر لا من التجارة.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥١٦ ، وهو عند أحمد (٢٥٢١٨) و(٢٦٤١٥).

(٣) لم يذكر المصنف في سورة الكوثر شيئاً عن الأضحية، وإنما أعاد الكلام فيها إلى سورة الحج، وسورة الصافات، وقد تكلم عنها بشكل مفصل في الآية (١٠٧) من «الصافات». وسلف ذكر نسخ الأضحية لكل ذبح تقدم ٦/ ٢١٥ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): وإن لم يكن فقيراً، والمثبت من (خ) و(ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ١١٩ ، والكلام منه.

الصلاة والسلام: «لكنِ البائسُ سعد بنُ خَوْلة»[١]. ويقال: رجل بَئِيسٌ، أي: شديد. وقد بَؤُسَ يبْؤس بأساً: إذا اشتدَّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥] أي: شديد.

وكلَّما كان التصدُّقُ بلحم الأضحيَّة أكثرَ؛ كان الأجر أَوْفرَ. وفي القَدْر الذي يجوز أكلُه خلافٌ قد ذكرناه[٢]؛ فقيل: النصف؛ لقوله: ﴿فَكُلُوا۟﴾ ﴿وَأَطْعِمُوا۟﴾. وقيل: الثلثان؛ لقوله: «فكُلُوا وادَّخِروا وائتجروا»[٣] أي: اطلبوا الأجر بالإطعام.

واختلف في الأكل والإطعام؛ فقيل: واجبان. وقيل: مُسْتحبَّان. وقيل بالفرق بين الأكل والإطعام؛ فالأكلُ مستحبٌّ والإطعامُ واجبٌ، وهو قولُ الشافعيِّ[٤].

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أي: ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا والهدايا ما بقي عليهم من أمر الحج، كالحَلْق ورَمْي الجمار وإزالةِ شَعَثٍ ونحوِه. قال ابن عرفة: أي: ليزيلوا عنهم أدرانهم. وقال الأزهريّ[٥]: التَّفَثُ: الأخذُ من الشارب، وقصُّ الأظفار، ونَتْفُ الإبطِ، وحَلْقُ العانة، وهذا عند الخروج من الإحرام.

وقال النَّضْر بن شُميل: التَّفَثُ في كلام العرب: إذهابُ الشَّعَث[٦].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٥٢٤)، والبخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، وقد رثى رسول الله ﷺ لسعد بن خولة أن مات بمكة كما جاء في تتمة الحديث، وينظر ما سلف ٤/ ١٢٨ .

(٢) في المسألة الرابعة عشرة.

(٣) سلف في المسألة السابقة من حديث نبيشة ﷺ.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩ .

(٥) في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٦ ، وقد ذكره الأزهري عن الزجاج، وهو في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٤ .

(٦) الشعث: أن يغبرَّ الشعر وينتتف لبعد عهده بالتعهُّد من المشط والدهن. الفائق ٣/ ٢٨ . وقال الأزهري: لم يفسر أحد من اللغويين التفث كما فسره ابن شميل؛ جعل التفث التشعُّثَ وجعل قضاءه إذهاب الشعث بالحلق والتقليم وما أشبهه.

وسمعتُ الأزهريَّ يقول: التفثُ في كلام العرب لا يُعرف إلَّا من قولِ ابن عباسٍ وأهلِ التفسير(١).

وقال الحسن: هو إزالةُ قَشَفِ الإحرام. وقيل: التَّفَثُ مناسكُ الحجِّ كلُّها؛ رواه ابن عمر وابن عباس. قال ابن العربيِّ(٢): لو صحَّ عنهما لكان حجةً؛ لشرف الصُّحبة والإحاطةِ باللغة، قال: وهذه اللفظةُ غريبةٌ [عَرَبيةٌ] لم يجد أهل العربية(٣) فيها شعراً ولا أحاطوا بها خبراً، لكنِّي تتبَّعْتُ التَّفَثَ لغةً فرأيتُ أبا عبيدةَ مَعْمر بنَ المُثَنَّى قال: إنه قصُّ الأظفار، وأخذُ الشارب، وكلُّ ما يَحْرُم على المحرِمِ إلَّا النكاح. قال(٤): ولم يَجِئ فيه بشعرٍ(٥) يُحتجُّ به. وقال صاحب العين: التفثُ: هو الرميُ، والحَلْقُ، والتقصيرُ، والذبحُ، وقصُّ الأظفار والشارب، ونتفُ الإبط. وذكر الزجَّاج والفرَّاء(٦) نحوه، ولا أراه أخذوه إلَّا من قول العلماء. وقال قُطْرُب: تفثَ الرجلُ: إذا كَثُر وَسَخُه. قال أميّة بن أبي الصَّلْت:

حَفُّوا رؤوسَهمُ لم يحلِقوا تَفَثاً ... ولم يَسُلُّوا لهم قَمْلاً وصِئبانا

وما أشار إليه قُطْرب هو الذي قاله ابن وهب عن مالك(٧)، وهو الصحيحُ في

(١) تهذيب اللغة ١٤/ ٢٦٦، وقد نقله الأزهري عن الزجاج. ولعل القائل: سمعت الأزهري، هو أبو عبيد الهروي صاحب الغريبين.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٧٠ - ١٢٧١، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه، وقول ابن عباس وابن عمر أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٨٤ - ٨٥، والطبري ١٦/ ٥٢٦ وقوله: القشف، أي: قذر الجلد، ورثاثة الهيئة. القاموس (قشف).

(٣) في أحكام القرآن: أهل المعرفة.

(٤) هو ابن العربي، وكلام أبي عبيدة بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٥٠.

(٥) في النسخ عدا (خ): شعر، والمثبت من (خ) وأحكام القرآن لابن العربي.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٤، وللفراء ٢/ ٢٢٤.

(٧) وقول ابن وهب عن مالك كما ذكره ابن العربي: التفث: حلق الشعر، ولبس الثياب، وما أتبع ذلك مما يحل به المحرم.

التَّفَث. وهذه صورةُ قضاء[١] التفثِ لغةً، وأمَّا حقيقتُه الشرعيةُ، فإذا نحر الحاجُّ أو المُعْتَمِر هَدْيَه، وحلق رأسه، وأزال وسخه، وتطهَّر وتنقَّى ولبس، فقد أزال تَفَثه ووفَّى نَذْرَه، والنذرُ ما لزم الإنسان والتزمه.

قلت: ما حكاه عن قُطْرب وذكر من الشعر قد ذكره في تفسيره الماورديُّ، وذكر بيتاً آخر فقال:

قَضَوْا تَفَثاً ونَحْباً ثم ساروا إلى نَجْدٍ وما انتظروا عَلِيّا[٢]

وقال الثعلبيُّ: وأصلُ التَّفَث في اللغة: الوسخ؛ تقول العرب للرجل تستقذرُه: ما أتفثك! أي: ما أوْسخك وأقذرك! قال أميةُ بن أبي الصلت:

شاحين[٣] آباطهم لم يقذفوا تَفَثاً وينزعوا عنهم قَمْلاً وصِئبانا[٤]

الماورديّ[٥]: قيل لبعض الصلحاء: ما المعْنيُّ في شَعَث المُحْرِم؟ قال: ليشهدَ الله تعالى منك الإعراضَ عن العناية بنفسك، فيعلم صِدْقَكَ في بَذْلها لطاعته.

الحادية والعشرون: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أمرٌ[٦] بوفاء النذر مطلقاً، إلَّا ما كان معصيةً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا وفاءَ لنذرٍ في معصية الله»[٧]، وقولِه: «مَن نذر أن يطيع الله فليُطِعْه، ومَن نذر أن يَعْصِيَه فلا يَعْصِه»[٨].

---

(١) في (خ): إلغاء، وفي (م): إلقاء، ولم تجود في (د)، وليست في (ز) و(ظ)، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٢٠ .

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): ساحين، وفي (ظ) و(م): ساخين، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٤) ذكره الجاحظ في الحيوان ٥/ ٣٧٦ برواية:

شاحين آباطهم لم ينزعوا تفثاً ولم يسلُّوا لهم قملاً وصئبانا

وكذا ذكره الزمخشري في الفائق ٣/ ٢٨ ، إلا أنه قال: لم يقربوا تفثاً، وهما روايتان كما ذكر الجاحظ.

(٥) في النكت والعيون ٤/ ٢٠ .

(٦) في (د) و(م): أمروا.

(٧) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٩٨٦٣)، ومسلم (١٦٤١) عن عمران بن حصين ﷺ.

(٨) أخرجه أحمد (٢٤٠٧٥)، والبخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الطَّوافُ المذكور في هذه الآية هو طوافُ الإفاضة الذي هو من واجبات الحج. قال الطبريُّ(١): لا خلافَ بين المتأوِّلين في ذلك.

الثانية والعشرون: للحجِّ ثلاثةُ أطوافٍ: طوافُ القُدوم، وطوافُ الإفاضة، وطوافُ الوَداع. قال إسماعيل بن إسحاق: طوافُ القدوم سُنَّةٌ، وهو ساقطٌ عن المراهق وعن المكيِّ وعن كلِّ مَن يُحرِم بالحجِّ من مكة. قال: والطوافُ الواجبُ الذي لا يسقط بوجهٍ من الوجوه، هو طوافُ الإفاضة الذي يكون بعد عَرَفة؛ قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾. قال: فهذا هو الطوافُ المفترض في كتاب الله عزَّ وجلَّ، وهو الذي يَحِلُّ به الحاجُّ من إحرامه كلِّه.

قال الحافظ أبو عمر(٢): ما ذكره إسماعيل في طواف الإفاضة هو قولُ مالكٍ عند أهل المدينة، وهي روايةُ ابن وهبٍ وابنِ نافع وأشهبَ عنه. وهو قولُ جمهور أهل العلم من فقهاء أهل الحجاز والعراق. وقد روى ابن القاسم وابن عبد الحكم عن مالك: أنَّ طوافَ القدوم واجبٌ [وطوافَ الإفاضة واجبٌ]. وقال ابن القاسم في غير موضعٍ من «المدوَّنة» ورواه أيضاً عن مالك: الطوافُ الواجبُ طوافُ القادم مكة. وقال: مَن نَسِيَ الطَّوافَ في حين دخوله مكةَ، أو نَسِيَ شوطاً منه، أو نَسِيَ السَّعْي أو شوطاً منه، حتى رجع إلى بلده ثم ذكره، فإنْ لم يكن أصاب النساء رجع إلى مكة حتى يطوفَ بالبيت ويركعَ ويسعى بين الصفا والمروة، ثم يُهْدِي. وإن أصاب النساء رجع فطاف وسَعَى، ثم اعتمر وأهدى. وهذا كقوله فيمَن نَسِيَ طواف الإفاضة سواء. فعلى هذه الرواية الطوافان جميعاً واجبان، والسَّعْيُ أيضاً.

وأمّا طواف الصَّدَر؛ وهو المسمَّى بطواف الوداع: فروى ابن القاسم وغيره عن

(١) في التفسير ١٦/ ٥٣١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ ، وما قبله منه.

(٢) في الكافي ١/ ٣٦٠ ، وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

مالك فيمَن طاف طوافَ الإفاضةِ على غير وضوء: أنه يرجع من بلده فيُفيضُ، إلَّا أن يكون تطوَّعَ بعد ذلك. وهذا مما أجمعَ عليه مالكٌ وأصحابه، وأنه يَجزيه تطوُّعُه عن الواجب المفترَضِ عليه من طوافه(١). وكذلك أجمعوا أنَّ مَن فَعَل في حجه شيئاً تطوَّع به من عمل الحجّ، وذلك الشي واجبٌ في الحج قد جاز وقته، فإنَّ تطوُّعَه ذلك يصير للواجب لا للتطوُّع، بخلاف الصلاة. فإذا كان التطوُّع ينوب عن الفرض في الحجّ، كان الطوافُ لدخول مكة أحْرَى أن ينوب عن طواف الإفاضة، إلا أنَّ إسماعيل وغيره ـ وهو مذهبُ ابن القاسم ـ لا ينوبُ عندهم عن طواف الإفاضة(٢) إلَّا ما كان من الطواف بعد رَمْي جمرة العَقَبة يومَ النحر أو بعده للوداع. وروايةُ ابن عبد الحكم عن مالكٍ بخلاف ذلك؛ لأن فيها أنَّ طواف الدخول مع السَّعي ينوب عن طواف الإفاضة لمن رجع إلى بلده مع الهَدْي، كما ينوب طوافُ الإفاضة مع السَّعي لمن لم يَطُف ولم يَسْعَ حين دخوله مكة ـ مع الهدي أيضاً ـ عن طواف القدوم. ومَن قال هذا قال: إنما قيل لطواف الدخول: واجبٌ، ولطواف الإفاضة: واجب؛ لأنَّ بعضهما ينوب عن بعض، ولأنه قد رُويَ عن مالك أنه يرجع مَن نَسِيَ أحدهما من بلده على ما ذكرنا، ولأن الله عزَّ وجلَّ لم يفترض على الحاجِّ إلا طوافاً واحداً بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾، وقال في سياق الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ والواوُ عندهم في هذه الآية وغيرها لا توجب رتبةً إلَّا بتوقيف.

وأسند الطبريُّ عن عمرو بن أبي سلمة قال: سألت زهيراً عن قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ فقال: هو طوافُ الوداع(٣). وهذا يدلُّ على أنه واجب، وهو أحدُ قولي الشافعيِّ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام رخَّص للحائض أن تَنْفِر دون أن

(١) يعني أن من نَسِيَ طواف الإفاضة، أو طافَه على غير وضوء، ثم تطوعَ بعده بطواف طافَه قبل خروجه من مكة، فإنه ـ عند مالك وأصحابه ـ يجزيه تطوعُه عن الواجب المفترض عليه من طوافه. الكافي ٢/ ٣٦٢.

(٢) من قوله: إلا أن إسماعيل وغيره، إلى هذا الموضع سقط من (م).

(٣) في تفسير الطبري ١٦/ ٥٣٢، وزهير هو ابن محمد التميمي.

تطوفه، ولا يرخِّص إلَّا في الواجب.

الثالثة والعشرون: اختلف المتأوِّلون في وجه صفة البيت بالعتيق، فقال مجاهد والحسن: العتيق: القديم. يقال: سيفٌ عتيق، وقد عَتُق، أي: قَدُم؛ وهذا قولٌ يَعْضُده النظر[١]؛ وفي الصحيح: «أنه أوّلُ مسجدٍ وُضع في الأرض»[٢].

وقيل: سمي عتيقاً لأنَّ الله أعتقه من أن يتسلَّط عليه جبَّارٌ بالهوان إلى انقضاء الزمان؛ قال معناه ابن الزبير ومجاهد[٣]. وفي الترمذيِّ عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما سُمِّيَ البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبَّار». قال: هذا حديثٌ حسن غريب، وقد رويَ عن النبيِّ ﷺ مرسلاً[٤].

فإن ذكر ذاكرٌ الحجَّاجَ بن يوسف ونَصْبَه المَنْجَنِيق على الكعبة حتى كسرها. قيل له: إنَّما أعتقها عن كفارِ الجبابرة؛ لأنهم إذا أتَوْا بأنفسهم[٥] متمردين، ولحرمة البيت غيرَ معتقدين، وقصدوا الكعبة بالسوء، فعُصِمت منهم ولم تنلها أيديهم، كان ذلك دلالةً على أنَّ الله عزَّ وجلَّ صرفهم عنها قسراً. فأمَّا المسلمون الذين اعتقدوا حُرمتها فإنهم إن كُفُّوا عنها لم يكن في ذلك من الدلالة على منزلتها عند الله مثل ما يكون منها في كفِّ الأعداء، فقَصَر الله تعالى هذه الطائفة على[٦] الكفِّ بالنَّهي والوعيد، ولم

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ .

(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٦)، وصحيح مسلم (٥٢٠)، وأخرجه أحمد (٢١٣٣٣)، وهو من حديث أبي ذر ﷺ.

(٣) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٢٩ – ٥٣٠ ، وقول ابن الزبير أخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٧ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٧٠) وأخرجه أيضاً البزار في مسنده (٢٢١٥)، وقد أخرج الترمذي المرسل من طريق الزهري عن النبي ﷺ ولم يذكر لفظه.

ووقع في (م) ومطبوع الترمذي: حسن صحيح، والمثبت من النسخ الخطية، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية، وتحفة الأحوذي، وذكر المزي في تحفة الأشراف ٤/ ٣٢٩ المرفوع والمرسل عن الترمذي، ولم يذكر شيئاً من كلام الترمذي. وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا عن ابن الزبير عنه، ولا نعلم له طريقاً عن ابن الزبير إلا هذا الطريق. وقال المناوي في فيض القدير ٢/ ٥٧٥ : فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ضعفه الأئمة، وبقية رجاله ثقات.

(٥) في (ظ): إذا أتوا الكعبة.

(٦) في (ز) و(م): عن.

يتجاوزه إلى الصَّرْفِ بالإلجاء والاضطرار، وجعل الساعةَ موعدَهم، والساعةُ أدْهَى وأمَرّ.

وقالت طائفة: سُمِّيَ عتيقاً لأنه لم يُمْلَك موضعُه قطُّ. وقالت فرقة: سمِّي عتيقاً لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعتِقُ فيه رقابَ المذنبين من العذاب[(١)].

وقيل: سمي عتيقاً لأنه أُعتِق من غرق الطوفان؛ قاله ابن جُبير[(٢)].

وقيل: العتيق: الكريم. والعِتْق: الكرم. قال طَرفَة يصف أذن الفرس:

مُـؤَلَّـلَـتـانِ تَـعْـرِفُ الـعِـتْـقَ فـيـهـمـا كـسـامِـعَـتَـيْ مـذعـورةٍ وَسْـطَ رَبْـرَبِ[(٣)]

وعِتْقُ الرقيقِ: الخروج من ذُلِّ الرِّقِّ إلى كرم الحرية.

ويحتمل أن يكون العتيق صفةَ مدحٍ تقتضي جودةَ الشيء، كما قال عمر: حملتُ على فرسٍ عتيق، الحديث[(٤)].

والقولُ الأول أصحّ؛ للنظرِ والحديثِ الصحيح. قال مجاهد: خَلَق الله البيتَ قبل الأرض بألفي عام[(٥)]، وسمي عتيقاً لهذا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾

فيه ثماني مسائل:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ ، وقال ابن عطية: وهذا قول يردُّه التصريف.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ .

(٣) ديوان طرفة ص٢٨ ، ورواية العجز فيه: كسامعتي شاة بحومَل مُفرَد، وقد سلف بهذه الرواية ١٠/ ١١٩ ، أما الرواية التي ذكرها المصنف هنا فهي في ديوان امرئ القيس ص٤٨ وفيه: له أذنان، بدل: مؤللتان. وهي أيضاً في ديوان علقمة الفحل بشرح الأعلم الشنتمري ص٨٩ برواية: له حُرَّتان، ويعني بذلك أذنيه، قال الأعلم: والرَّبْرَب: جماعةُ بقرِ الوحش.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١١٩ - ١٢٠ ، والحديث بهذه الرواية أخرجه مسلم (١٦٢٠)، وقد سلف تخريجه ١٠/ ٦٠ .

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (٩٠٩٧) والأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣٢ ، والطبري ٢/ ٥٥٥ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفعٍ بتقدير: فَرْضُكم ذلك، أو: الواجبُ ذلك. ويحتمل أن يكون في موضع نصبٍ بتقدير: امتثلوا ذلك، ونحوُ هذه الإشارةِ البليغةِ قولُ زهير:

هـذا ولـيـس كـمـن يَـعْـيَـا بـخُـطَّـتِـهِ وَسْطَ الـنَّـدِيِّ إذا ما قـائـلٌ نـطـقـا[١]

والحرماتُ المقصودةُ هنا: هي أفعالُ الحج المشارُ إليها في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، ويدخل في ذلك تعظيمُ المواضع؛ قاله ابن زيد وغيره[٢]. ويجمع ذلك أن تقول: الحرماتُ امتثالُ الأمر من فرائضه وسننه. وقولُه: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: التعظيم خيرٌ له عند ربِّه من التهاوُن بشيء منها. وقيل: ذلك التعظيم خيرٌ من خيراته يُنتفع به، وليست للتفضيل، وإنما هي عِدَةٌ بخير.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي: بهيمة الأنعام، أن تأكلوها، وهي الإبلُ والبقر والغنم. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في الكتاب من المحرَّمات، وهي المَيْتةُ والمَوْقُوذة وأخواتها. ولهذا اتصالٌ بأمر الحجِّ؛ فإنَّ في الحجِّ الذبح، فبيَّن ما يَحِلُّ ذبحه وأكلُ لحمه. وقيل: «إلا ما يتلى عليكم» غيرَ مُحِلِّي الصيد وأنتم حُرُم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ الرِّجس: الشيء القَذِر. والوَثَن: التمثالُ من خشبٍ أو حديدٍ أو ذهبٍ أو فضةٍ ونحوها، وكانت العربُ تنصِبها وتعبدها. والنصارى تنصِب الصليب وتعبده وتعظِّمه، فهو كالتمثال أيضاً؛ قال عَدِيّ ابن حاتم: أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب، فقال: «ألْقِ هذا الوثَنَ عنك»[٣] أي: الصليب؛ وأصلُه من وَثَن الشيء، أي: أقام في مقامه. وسمِّي الصنم وَثَناً لأنه يُنصَب ويُركَز في مكانٍ فلا يبرح عنه. يريد: اجتنبوا عبادة الأوثان؛ روي عن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ ، والبيت في ديوان زهير ص٥٥ برواية: وسط الرجال. وذكره قدامة بن جعفر في نقد الشعر ص٧٢ ، وابن رشيق في العمدة ٢/ ١٣٤ برواية: بخطبته، بدل: بخطته.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ ، وخبر ابن زيد أخرجه الطبري ١٦/ ٥٣٤ بلفظ: الحرمات: المشعر الحرام، والبيت الحرام، والمسجد الحرام، والبلد الحرام، هؤلاء الحرمات.

(٣) سلف ١٠/ ١٧٧ - ١٧٨ .

ابن عباس وابن جُريج[١]. وسمَّاها رجساً لأنها سببُ الرِّجز، وهو العذاب.

وقيل: وَصَفَها بالرجس، والرجسُ النَّجَس، فهي نجسةٌ حكماً. وليست النجاسةُ وصفاً ذاتيًّا للأعيان، وإنما هي وصفٌ شرعيٌّ من أحكام الإيمان، فلا تُزال إلَّا بالإيمان؛ كما لا تجوز الطهارة إلَّا بالماء[٢].

الرابعة: ﴿مِنَ﴾ في قوله: «مِن الأوثانِ» قيل: إنَّها لبيان الجنس، فيقع نَهْيُه عن رجس الأوثان فقط، ويبقى سائر الأرجاس نَهْيُها في غير هذا الموضع. ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية، فكأنه نهاهم عن الرجس عاماً، ثم عيَّن لهم مبدأه الذي منه يلحقهم؛ إذ عبادةُ الوثن جامعةٌ لكلِّ فسادٍ ورجس. ومَن قال: إنَّ «مِن» للتبعيض، قَلَبَ معنى الآيةِ وأفْسَده[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ الزُّور: الباطلُ والكذب. وسمِّيَ زوراً لأنه أميل[٤] عن الحقّ، ومنه: ﴿تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:١٧]، ومدينةٌ زَوْراء، أي: مائلة. وكلُّ ما عدا الحقِّ فهو كذبٌ وباطلٌ وزُور. وفي الخبر: أنه عليه الصلاة والسلام قام خطيباً فقال: «عُدلتْ شهادةُ الزور بالشِّرك[٥] بالله». قالها مرتين أو ثلاثاً[٦]. يعني أنها قد جُمعت مع عبادة الوثن في النهي عنها.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٣٥ .
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٢ .
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ .
(٤) في (ظ): ميل.
(٥) في (م): الشرك.
(٦) أخرجه أحمد (١٧٦٠٣)، والترمذي (٢٢٩٩) من طريق سفيان بن زياد العصفري، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم عن النبي ﷺ. قال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان ابن زياد، واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ. قلنا: وفاتك بن فضالة مجهول الحال، كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه أحمد (١٨٨٩٨)، وأبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢٣٧٢) من طريق سفيان بن زياد العصفري، عن أبيه، عن حبيب بن النعمان عن خريم بن فاتك مرفوعاً. قال الترمذي: هذا عندي أصحّ، وخريم بن فاتك له صحبة. اهـ وقال ابن القطان في بيان الوهم والإيهام ٤/ ٥٤٨ : وهو لا يصح، وحبيب لا يعرف بغير هذا، ولا تعرف حاله، وزياد العصفري مجهول.

السادسة: هذه الآيةُ تضمَّنت الوعيدَ على الشهادة بالزُّور، وينبغي للحاكم إذا عَثَر على الشاهد بالزور أن يعزِّره وينادِيَ عليه ليُعرف؛ لئلَّا يَغتَرَّ بشهادته أحدٌ. ويختلف الحكم في شهادته إذا تاب، فإن كان من أهل العدالة المشهور بها المبرِّز فيها لم تُقبل؛ لأنه لا سبيلَ إلى علم حاله في التوبة؛ إذ لا يستطيع أن يفعل من القُرُبات أكثرَ ممَّا هو عليه. وإن كان دون ذلك فشمَّر في العبادة وزادت حالُه في التُّقَى قُبلت شهادتُه.

وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إنَّ من أكبر الكبائر الإشراكَ بالله، وعقوقَ الوالدين، وشهادةَ الزور ـ أو: قولَ الزور». وكان رسول الله ﷺ متَّكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: لَيْتَه سكت[١].

السابعة: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ معناه: مستقيمين، أو مسلمين مائلين إلى الحقّ. ولفظةُ «حنفاء» من الأضداد؛ تقع على الاستقامة وتقع على الميل. و«حنفاء» نصبٌ على الحال. وقيل: «حنفاء»: حُجَّاجاً، وهذا تخصيصٌ لا حجةَ معه[٢].

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: هو يومَ القيامة بمنزلةِ مَن لا يملك لنفسه نفعاً، ولا يدفع عن نفسه ضرًّا ولا عذاباً، فهو بمنزلة مَن خَرَّ من السماء، فهو لا يقدر أن يدفع عن نفسه. ومعنى ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه بمخالبها.

وقيل: هذا عند خروج روحِه وصعودِ الملائكة بها إلى سماء الدنيا، فلا يُفتح لها، فيرمى بها إلى الأرض، كما في حديث البَرَاء، وقد ذكرناه في «التذكرة»[٣].

---

(١) صحيح البخاري (٢٦٥٤)، وصحيح مسلم (٨٧)، وهو عند أحمد (٢٠٣٨٥)، وهو من حديث أبي بكرة ﵁، ولفظُه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثاً) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله. . . . ووقع بلفظ: «إن من أكبر الكبائر. . .» عند أحمد (١٦٠٤٣)، والترمذي (٣٠٢٠)، وابن حبان (٥٥٦٣) من حديث عبد الله بن أنيس ﵁، وفيه اليمين الغموس، بدل: شهادة الزور، ودون قوله: وكان متكئاً فجلس. . . وفي الباب عن أنس ﵁ عند أحمد (١٢٣٣٦)، والبخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٨).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠ .

(٣) ص١١٩ ، وأخرجه مطولاً أحمد (١٨٥٣٤).

والسحيق: البعيد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «سُحْقاً سحقاً»[١].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ؛ قيل: يكون في موضع رفعٍ بالابتداء، أي: ذلك أمر الله. ويجوز أن يكون في موضع رفعٍ على خبرِ ابتداءٍ محذوف. ويجوز أن يكون في موضع نصب، أي: اتَّبعوا ذلك[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الشعائرُ جمعُ شَعيرة، وهو كلُّ شيء لله تعالى فيه أمرٌ أشعَرَ به وأعْلَم[٣]؛ ومنه شِعارُ القوم في الحرب، أي: علامتهم التي يتعارفون بها. ومنه إشعارُ البَدَنة، وهو الطعن في جانبها الأيمن حتى يسيلَ الدمُ فيكون علامة، فهي تسمَّى شَعِيرة بمعنى المشعورة. فشعائر الله: أعلامُ دينه لا سيما ما يتعلَّق بالمناسك.

وقال قوم: المرادُ هنا: تسمينُ البُدْن، والاهتبالُ[٤] بأمرها، والمغالاة بها؛ قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة[٥]. وفيه إشارةٌ لطيفةٌ، وذلك أنَّ أصل شراء البُدْن ربَّما يُحمل على فعلِ ما لابدَّ منه، فلا يدلُّ على الإخلاص، فإذا عظَّمها مع حصول

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد (٧٩٩٣)، ومسلم (٢٤٩).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٧ ، وسلف نحوه في الآية (٣٠).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١ .

(٤) في (ز) و(م): والاهتمام بأمرها والمثبت من باقي النسخ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢١ ، والكلام منه، يعني الإسراع بأمرها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١ ، وأخرجه عن ابن عباس ومجاهد ابنُ أبي شيبة ٤/ ٢٩٤ و ٢٩٥ (نشرة العمروي)، و الطبري ١٦/ ٥٤٠ .

الإجزاء بما دونه فلا يظهر له مَحْمَلٌ(١) إلَّا تعظيمُ الشرع، وهو من تقوى القلوب. والله أعلم.

الثالثة: الضمير في «إنها» عائدٌ على الفَعلة التي يتضمَّنها الكلام، ولو قال: فإنه؛ لجاز. وقيل: إنها راجعةٌ إلى الشعائر، أي: فإنَّ تعظيم الشعائر، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه، فرجعت الكنايةُ إلى الشعائر.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ قرئ: «القلوبُ» بالرفع على أنها فاعلةٌ بالمصدر الذي هو «تَقْوَى»(٢). وأضاف إلى القلب لأنَّ حقيقةَ التقوى في القلب؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث: «التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره(٣).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ يعني البُدْنَ، من الركوب والدَّرِّ والنَّسل والصوف وغير ذلك، إذا لم يبعثها ربُّها هَدْياً، فإذا بعثها فهو الأجل المسمَّى؛ قاله ابن عباس(٤). فإذا صارت بُدْناً هَدْياً، فالمنافعُ فيها أيضاً: ركوبُها عند الحاجة، وشربُ لبنها بعد رِيِّ فَصِيلها. وفي الصحيح عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بَدَنةً فقال: «ارْكَبْها» فقال: إنها بدنةٌ! فقال: «ارْكَبْها» قال: إنها بدنة! قال: «اركبها وَيْلَكَ» في الثانية أو في الثالثة(٥).

وروي عن جابر بن عبد الله وسُئل عن ركوب الهَدْي فقال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «اركبها بالمعروف إذا أُلجِئْتَ إليها حتى تَجِدَ ظَهْراً»(٦). والأجلُ المسمَّى على

---

(١) في (خ) و(م): عمل، والمثبت من باقي النسخ وأحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٨٢، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١.

(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٧٧٢٧)، ومسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة ﵁.

(٤) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٢.

(٥) صحيح البخاري (١٦٨٩)، وصحيح مسلم (١٣٢٢)، وهو عند أحمد (٧٣٥٠).

(٦) أخرجه أحمد (١٤٤١٣)، ومسلم (١٣٢٤).

هذا القولِ نحرُها؛ قاله عطاء بن أبي رَباح[١].

السادسة: ذهب بعض العلماء إلى وجوب ركوب البدنة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «اركبها». ومِمَّن أَخَذ بظاهِرِه أحمد وإسحاقُ وأهلُ الظاهر[٢]. وروى ابن نافع عن مالك: لا بأس بركوب البَدَنة ركوباً غيرَ فادحٍ. والمشهورُ أنه لا يركبها إلَّا إن اضطُرَّ إليها؛ لحديث جابرٍ؛ فإنه مقيَّد، والمقيَّد يقضي على المطلَق. وبنحو ذلك قال الشافعيُّ وأبو حنيفة. ثم إذا ركبها عند الحاجة [فاستراح] نزل، قال[٣] إسماعيل القاضي: وهو الذي يدلُّ عليه مذهبُ مالك، وهو خلافُ ما ذكره ابن القاسم: أنه لا يلزمه النزول، وحجته إباحةُ النبيِّ ﷺ له الركوب، فجاز له استصحابه.

وقوله: «إذا أُلجئتَ إليها حتى تجد ظَهْراً» يدلُّ على صحة ما قاله الإمام الشافعيُّ وأبو حنيفة رضي الله عنهما، وما حكاه إسماعيلُ عن مذهب مالك. وقد جاء صريحاً أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رجلاً يسوق بدَنةً وقد جُهد، فقال: «اركبها». وقال أبو حنيفة والشافعيُّ: إن نَقَصها الركوبُ المباحُ فعليه قيمةُ ذلك ويتصدَّق به[٤].

السابعة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ يريد أنها تنتهي إلى البيت، وهو الطواف. فقوله: «مَحِلُّها» مأخوذٌ من إحلال المحرِم. والمعنى: أنَّ شعائر الحجِّ كلَّها من الوقوف بعرفة ورمي الجِمار والسَّعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. فالبيتُ على هذا التأويلِ مرادٌ بنفسه؛ قاله مالك في «الموطأ»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٥ .

(٢) المفهم ٣/ ٤٢٢ ، وقوله: وممن أخذ بظاهره، يعني بجواز الركوب، كما جاء مصرحاً به في إكمال المعلم ٤/ ٤١٠ ، والكلام فيه بنحوه.

(٣) في النسخ عدا (ظ): قاله، والمثبت من (ظ) والمفهم ٣/ ٤٢٢ ، وإكمال المعلم ٤/ ٤١٠ ، والكلام وما بين حاصرتين منهما.

(٤) المفهم ٣/ ٤٢٢ - ٤٢٤ ، والحديث الأخير أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/ ١٦١ عن أنس ﷺ.

(٥) ١/ ٣٧٠ .

وقال عطاء: ينتهي إلى مكة[١]. وقال الشافعيُّ: إلى الحرم. وهذا بناءً على أنَّ الشعائر هي البُدْن، ولا وجهَ لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاءِ خصوصيةِ ذكرِ البيت[٢]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ الآية، لمَّا ذكر تعالى الذبائح بيَّن أنه لم يُخلِ منها أمَّةً، والأمةُ: القومُ المجتمعون على مذهبٍ واحد، أي: ولكلٍّ جماعةٍ مؤمنةٍ جعلنا مَنْسَكاً.

والمنسك: الذَّبْح وإراقة الدم؛ قاله مجاهد[٣]. يقال: نَسَك: إذا ذَبح، يَنْسُك نَسْكاً. والذبيحةُ نسيكة، وجمعُها نُسُك، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]. والنُّسُك أيضاً: الطاعة.

وقال الأزهريُّ في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسِكاً﴾: إنه يدلُّ على موضع النحر في هذا الموضع، أراد: مكانَ نَسْك[٤]. ويقال: مَنْسَك ومَنْسِك، لغتان. وقرئ بهما؛ قرأ الكوفيون إلَّا عاصماً بكَسْرِ السين، الباقون بفتحها[٥].

وقال الفراء[٦]: المَنْسَك في كلام العرب: الموضعُ المعتادُ في خير أو شر، وقيل: مناسك الحج؛ لتَرْداد الناس إليها، من الوقوف بعرفةَ ورمي الجمار والسعي.

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٤٧ .

(٢) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٥٥٠ .

(٤) تهذيب اللغة ١٠/ ٧٤ نقلاً عن الزجاج، وهو في معاني القرآن له ٣/ ٤٢٧ ، إلا أنه ذكره في معنى منسِكاً بكسر السين، وقال: هو مثل مجلِس: مكان جلوس، ومن قال منسَك، فهو بمعنى المصدر.

(٥) السبعة ص٤٣٦ ، والتيسير ص١٥٧ .

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٣٠ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ٩٨ .

وقال ابن عرفة في قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مذهباً من طاعة الله تعالى؛ يقال: نَسَك نَسْكَ قومه: إذا سلك مذهبهم.

وقيل: منسكاً: عيداً؛ قاله الفرّاء. وقيل: حجًّا؛ قاله قتادة[١].

والقولُ الأول أظهرُ؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: على ذبح ما رزقهم. فأمر تعالى عند الذبح بذكره وأن يكون الذبح له؛ لأنه رازقُ ذلك.

ثم رجع اللفظُ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه: فالإله واحدٌ لجميعكم، فكذلك الأمرُ في الذبيحة إنَّما ينبغي أن تخلصَ له.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ معناه: لحقِّه ولوجهه وإنعامه آمِنوا وأسلِموا. ويحتمل أن يريد الاستسلام، أي: له أطيعوا وانقادوا.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ المخبِت: المتواضِعُ الخاشع من المؤمنين. والخَبْت: ما انخفض من الأرض، أي: بشِّرْهم بالثواب الجزيل. قال عمرو بن أوس: المخبِتون: الذين لا يَظْلِمون، وإذا ظُلموا لم يَنْتصِروا. وقال مجاهد فيما روى عنه سفيان عن ابن أبي نجيح: المخبتون: المطمئنُّون بأمر الله عزَّ وجلَّ[٢].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت وَحذِرت مخالفتَه. فوَصَفَهم بالخوف والوَجَل عند ذكره، وذلك لقوَّة يقينهم ومراعاتهم لربِّهم وكأنهم بين يديه،

---

(١) ذكر قول قتادة والفراء ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٢٧٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ ، وقول مجاهد وقول عمرو بن أوس أخرجهما الطبري ١٦/ ٥٥١ ، وأخرج قول مجاهد أيضاً عبد الرزاق ٢/ ٣٨ ، وقول عمرو بن أوس أخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٨ .

ووصفهم بالصبر وإقامة الصلاة وإدامتها. وروي أنَّ هذه الآيةَ قولَه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ نزلت في أبي بكرٍ وعمرَ وعليٍّ رضوانُ الله عليهم[1].

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بالخفض على الإضافة، وقرأ أبو عمرو: «الصلاةَ» بالنصب على توهُّم النون، وأنَّ حَذْفَها للتخفيف لطول الاسم[2]، وأنشد سيبويه:

الحافظُو عَوْرةَ العَشِيرة[3]...

الثانية: هذه الآيةُ نظيرُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣]. هذه حالةُ العارفين بالله، الخائفين من سَطْوته وعقوبته، لا كما يفعله جُهَّال العوامِّ والمبتدِعةُ الطَّغامُ، من الزَّعيق والزئير، ومن النُّهاق الذي يشبه نُهاق الحمير، فيقال لمن تَعاطَى ذلك وزعم أنَّ ذلك وَجْدٌ وخشوع: إنك لم تبلغ أن تساويَ حالَ رسول الله ﷺ ولا حالَ أصحابه في المعرفة بالله تعالى والخوف منه والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالُهم عند المواعظ الفهمَ عن الله، والبكاءَ خوفاً من الله. وكذلك وَصَفَ الله تعالى أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوةِ كتابه، ومَن لم يكن كذلك فليس على هَدْيهم ولا على

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢.

(٢) المحتسب ٢/ ٨٠، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٢، وهي في القراءات الشاذة ص٩٥ عن ابن أبي إسحاق، والقراءةُ المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٣) الكتاب ١/ ١٨٦ و ٢٠٢، وعزاه لرجل من الأنصار، وتمامه:

الحافظو عورةَ العشيرة لا يأتيهم من ورائنا نَطَفُ

وهو في جمهرة أشعار العرب ٢/ ٦٧٥ ضمن قصيدة لعمرو بن امرئ القيس، وهذا ما رجحه البغدادي في الخزانة ٤/ ٢٨٣، ونسبه البَطَلْيَوْسي في الحلل ص١٢٢ لقيس بن الخطيم، وهو في الجمهرة والحلل برواية وَكَفُ، بدل: نطف. قال البطليوسي: الوَكَف هنا: العيب، ويروى: نَطَف، وهو نحو الوكف. اهـ وروي: عورةِ، بالجر كما ذكر صاحب الخزانة ٤/ ٢٧٣.

طريقتهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣]. فهذا وصفُ حالهم وحكايةُ مَقَالِهم، فَمَن كان مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنّ، ومَن تَعاطَى أحوالَ المجانين والجنونِ فهو مِن أخسِّهم حالاً، والجنونُ فنون[1].

روى الصحيح عن أنس بن مالك: أنَّ الناس سألوا النبيَّ ﷺ حتى أحْفَوْه في المسألة، فخرج ذاتَ يومٍ فصَعِد المِنبر فقال: «سَلُوني، لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنته لكم ما دمتُ في مَقَامي هذا». فلما سمع ذلك القومُ أَرَمُّوا، ورَهِبُوا أن يكون بين [يدي] أمرٍ قد حَضَر. قال أنس: فجعلتُ ألتفتُ يميناً وشِمالاً فإذا كلُّ إنسانٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي. وذكر الحديث[2]. وقد مضى القول في هذه المسألة بأشبعَ من هذا في سورة الأنفال[3] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

فيها عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ﴾ وقرأ ابن أبي إسحاق: «والبُدُن»[4]؛ لغتان، واحدتُها بَدَنة. كما يقال: ثمرة وثُمُر وثُمْر، وخشبة وخُشُب وخُشْب، وفي التنزيل:

(١) المفهم ٦/ ١٦٠ . وكان من الأَولى الاكتفاءُ في الردّ بما ورد من الكتاب والسنة. فالتقريع لا يزيد المسلمين إلا فُرقة وضغناً.

(٢) صحيح مسلم (٢٣٥٩): (١٣٧)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أحمد (١٢٨٢٠)، والبخاري (٦٣٦٢). وقد سلف ٩/ ٤٥٠ . وقوله: أحفوه، أي: ألَحُّوا عليه. وأرمُّوا: سكتوا. وقوله: ورهبوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر، أي: خافوا أن تقع بهم عقوبة عند غضبه. المفهم ١٥٨/٦ - ١٥٩ .

(٣) ٩/ ٤٥٠ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٩٨/٣ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٥ عن الحسن وعيسى، وذكر عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «والبُدُنّ» بضمتين وتشديد النون.

﴿وكان له ثُمُر﴾ [الكهف: ٣٤]، وقرئ: ﴿ثُمْر﴾[(١)] لغتان. وسمِّيت بَدَنة لأنها تَبْدُن، والبَدانةُ: السِّمَن. وقيل: إن هذا الاسم خاصٌّ بالإبل. وقيل: البُدْن جمعُ «بَدَن» بفتح الباء والدال. ويقال: بَدُن الرجل؛ بضم الدَّال: إذا سَمِن. وبدَّن؛ بتشديدها: إذا كَبِرَ وأَسَنَّ؛ وفي الحديث «إنِّي قد بدَّنْتُ»[(٢)] أي: كَبِرتُ وأَسْنَنْتُ. وروي «بَدُنْت» وليس له معنى؛ لأنه خلافُ صفته ﷺ، ومعناه: كثرةُ اللحم[(٣)]. يقال: بَدُنَ الرجل يبدُن بَدْناً وبَدانة فهو بادِنٌ، أي: ضخم.

الثانية: اختلف العلماء في البُدْن؛ هل تُطلَقُ على غير الإبل من البقر أم لا؟ فقال ابن مسعود وعطاء والشافعيُّ: لا. وقال مالك وأبو حنيفة: نعم. وفائدةُ الخلاف فيمَن نذر بَدَنةً فلم يجد البَدَنةَ، أو لم يَقْدِرْ عليها وقَدَر على البقرة؛ فهل تَجزيه أم لا؟ فعلى مذهبِ الشافعيِّ وعطاء لا تَجزيه. وعلى مذهب مالك تَجزيه[(٤)].

والصحيح ما ذهب إليه الشافعيُّ وعطاء؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح في يوم الجمعة: «مَن راحَ في الساعةِ الأولى فكأنَّما قَرَّبَ بَدَنةً، ومَن راحَ في الساعةِ الثانيةِ فكأنَّما قرَّبَ بقرة» الحديث[(٥)]. فتفريقُه عليه الصلاة والسلام بين البقرة والبَدَنة يدلُّ على أنَّ البقر لا يقال عليها بُدن، والله أعلم. وأيضاً قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يدلُّ على ذلك، فإن الوصف خاصٌّ بالإبل. والبقرُ يُضْجَع ويذبح كالغنم؛ على ما يأتي[(٦)].

---

(١) قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وحمزة والكسائي: «ثُمُر» بضم الثاء والميم، وقرأ أبو عمرو: «ثُمْر» بضم الثاء وإسكان الميم، وقرأ عاصم: «ثَمَر» بفتح الثاء والميم. السبعة ص٣٩٠ ، والتيسير ص١٤٣ .

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٦٨٣٨)، وأبو داود (٦١٩)، وابن ماجه (٩٦٣)، وابن حبان (٢٢٢٩) عن معاوية ﷺ، وأخرجه ابن حبان أيضاً (٢٢٣١) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) غريب الحديث لأبي عبيد ١/ ١٥٢ - ١٥٣ ، وتهذيب اللغة ١٤/ ١٤٤ ، وما بعده منه.

(٤) المفهم ٢/ ٤٨٨ .

(٥) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٩٩٢٦)، والبخاري (٨٨١)، ومسلم (٨٥٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٦) في المسألة السادسة.

ودليلُنا أنَّ البَدَنة مأخوذةٌ من البَدانة، وهو الضخامة، والضخامةُ توجد فيهما جميعاً. وأيضاً فإنَّ البقرة في التقرُّب إلى الله تعالى بإراقة الدم بمنزلة الإبل، حتى تجوزُ البقرة في الضحايا عن سبعةٍ كالإبل. وهذا حجةٌ لأبي حنيفةَ حيث وافقه الشافعيُّ على ذلك، وليس ذلك في مذهبنا.

وحكى ابن شجرة أنه يقال في الغنم: بدنة، وهو قولٌ شاذّ. والبُدْنُ هي الإبل التي تُهْدَى إلى الكعبة. والهَدْيُ عامٌّ في الإبل والبقر والغنم[1].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ نصٌّ في أنَّها بعضُ الشعائر. وقوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٌ﴾ يريد به المنافعَ التي تقدَّم ذكرها. والصوابُ عمومُه في خير الدنيا والآخرة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ أي: انحروها على اسم الله، و«صوافَّ» أي: قد صَفَّتْ قوائمها[2]. والإبل تُنحر قياماً معقولة. وأصلُ هذا الوصف في الخيل؛ يقال: صَفَنَ الفرس فهو صافنٌ: إذا قام على ثلاثِ قوائمَ وثَنَى سُنْبُك الرابعة؛ والسُّنبكُ: طَرَفُ الحافر. والبعير إذا أرادوا نحره تُعقل إحدى يديه فيقوم على ثلاث قوائم.

وقرأ الحسن والأعرج ومجاهدٌ وزيد بن أسلم وأبو موسى الأشعريُّ: «صَوافيَ»[3] أي: خَوَالصَ لله عزَّ وجلَّ لا يشركون به في التسمية على نحرها أحداً.

وعن الحسن أيضاً: «صَوَافٍ» بكسر الفاء وتنوينها مخفَّفةً، وهي بمعنى التي قبلها لكنْ حُذفت الياء تخفيفاً على غير قياس[4].

و«صوافَّ» قراءة الجمهور بفتح الفاء وشدِّها؛ من صفَّ يَصُفُّ. وواحدُ صوافّ:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٦ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٢٨ ، وقال الزجاج: أي: فاذكروا اسم الله عليها في حال نحرها، والبعير ينحر قائماً، وهذه الآية تدلُّ على ذلك.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٥ ، والمحتسب ٢/ ٨١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٢ ، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٥ دون نسبة.

صافَّة، وواحدُ صَوَافي: صافية.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن عمر وأبو جعفر محمد بن علي: «صَوَافِنَ» بالنون[١] جمع صافنة. ولا يكون واحدُها صافناً[٢]؛ لأنَّ فاعلاً لا يجمع على فَوَاعِلَ إلَّا في حروفٍ مختصَّةٍ لا يقاسُ عليها؛ وهي: فارسٌ وفوارس، وهالكٌ وهوالك، وخالفٌ وخوالف[٣]. والصافنة: هي التي قد رُفعت إحدى يديها بالعَقْل لئلَّا تضطرب. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١]، وقال عمرو بن كُلْثوم:

تركنا الخيلَ عاكفةً عليه ... مقلَّدةً أعنَّتَها صُفُونَا[٤]

ويروى:

تظلُّ جيادُه نَوْحاً عليه ... مقلَّدةً أعنَّتَها صفونا[٥]

وقال آخر:

أَلِفَ الصُّفونَ فما يزال كأنه ... ممَّا يقوم على الثلاثِ كَسِيرا[٦]

وقال أبو عُمر الجَرْمِيُّ: الصافنُ: عِرْقٌ في مقدَّم الرجل، فإذا ضُرب على الفرس رفع رجله[٧]. وقال الأعشى:

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٥ ، والمحتسب ٢/ ٨١ .

(٢) لكن الأزهري نقل في تهذيب اللغة ١٢/ ٢٠٦ عن أبي زيد قوله: العرب تقول لجميع الصافن: صَوافن، وصافنات، وصُفون.

(٣) وكذا ناكس ونواكس، وغائب وغوائب، وغافل وغوافل، وباسل وبواسل. . . وهو ما شذَّ من وصف المذكر العاقل في جمع فاعل على فواعل. والأصل في هذا الجمع أن يكون وصفاً لمؤنث عاقل كحائض وحوائض، وطالق وطوالق، وقاعد وقواعد، أو وصفاً لمذكر غير عاقل، كصاهل وصواهل. وقد نقل المصنف ١٠/ ٣٢٧ عن النحاس قوله: قد يقال للرجل: خالفه وخالف أيضاً.

(٤) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم، وهو في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٩٩ ، وشرح المعلقات للتبريزي ص٢٦٣ . قال النحاس: والصُّفُون جمع صافن، وهو القائم، وقيل: هو الذي رفع إحدى قوائمه من التعب.

(٥) لم نقف عليه.

(٦) النكت والعيون ٤/ ٢٧ ، وأساس البلاغة واللسان (صفن).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٩٩ .

وكــلَّ كُـمَـيْـتٍ كـجِـذْع الـسَّـحـوق يَـزيـنُ الـفِـنـاء إذا مـا صَـفَـنْ[(١)]

الخامسة: قال ابن وَهْب: أخبرني ابن أبي ذئب أنه سأل ابن شهاب عن الصوافّ فقال: يقيِّدها ثم يصفُّها. وقال لي مالك بن أنس مثلَه[(٢)]. وكافَّةُ العلماء على استحباب ذلك، إلَّا أبا حنيفة والثَّوريَّ؛ فإنهما أجازا أن تُنحر باركةً وقياماً. وشذَّ عطاء فخالف واستَحَبَّ نَحْرَها باركة[(٣)]. والصحيحُ ما عليه الجمهورُ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ معناه: سقطت بعد نَحْرِها، ومنه: وَجَبت الشمس. وفي «صحيح» مسلم[(٤)] عن زياد بن جُبير: أنَّ ابن عمر أتى على رجلٍ وهو ينحر بَدَنته باركةً فقال: ابعثْها قائمةً مقيَّدةً سنَّة نبيِّكم ﷺ.

وروى أبو داود[(٥)] عن أبي الزبير عن جابر: وأخبرني عبد الرحمن بنُ سابطٍ أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه كانوا ينحرون البَدَنةَ معقولةَ اليسرى قائمةً على ما بقي من قوائمها.

السادسة: قال مالك: فإن ضَعُف إنسانٌ أو تخوَّف أن تَنْفلتَ بَدَنتُه فلا أرى بأساً أن ينحرها معقولةً. والاختيارُ أن تُنحر الإبلُ قائمةً غيرَ معقولةٍ، إلَّا أن يتعذَّر ذلك فتُعقَل، ولا تُعَرْقَب إلَّا أن يخاف أن يضعفَ عنها ولا يَقْوَى عليها. ونحرُها باركةً أفضلُ من أن تُعرقَبَ. وكان ابن عمر يأخذ الحربة بيده في عنفوانِ أَيْدِه[(٦)]، فينحرها في صدرها ويُخْرِجها على سنامها، فلما أسنَّ كان ينحرها باركةً لضعفه، ويُمسك معه الحربةَ رجلٌ آخرُ، وآخَرُ بخِطامها[(٧)].

---

(١) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٧١ برواية: الخصاب، بدل: السحوق. وقال شارحه: المعنى: والفرس الأسود كأنه الجذع في طول متنه، يزين فناء البيت إذا ما صفن.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٧ .

(٣) المفهم ٣/ ٤٢٠ .

(٤) برقم (١٣٢٠)، وهو في صحيح البخاري (١٧١٣).

(٥) في سننه (١٧٦٧).

(٦) الأَيْد: القوة، ووقع في (ظ): شبابه.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٧ - ١٢٧٨ .

السابعة: وتُضْجَع البقر والغنم(١). ولا يجوز النحرُ قبل الفجر من يوم النحر بإجماع، وكذلك الأضحيَّةُ لا تجوز قبل الفجر، فإذا طلع الفجر حلَّ النحر بمِنًى، وليس عليهم انتظارُ نحرِ إمامهم، بخلاف الأضحيَّة في سائر البلاد. والمَنْحَرُ مِنًى لكلِّ حاجٍّ، ومكةُ لكلِّ معتمِر. ولو نحر الحاجُّ بمكةَ والمعتمرُ بمنًى؛ لم يَحْرَج واحدٌ منهما إن شاء الله تعالى(٢).

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يقال: وَجَبت الشمس: إذا سقطت، ووَجَبَ الحائط: إذا سقط؛ قال قيس بن الخَطِيم:

أطاعت بنو عوفٍ أميراً نهاهُمُ ... عن السِّلْم حتى كان أوّلَ واجِبِ(٣)

وقال أوْس بن حَجَر:

ألم تُكْسَفِ الشمسُ والبدرُ والـ ... كواكبُ للجبل الواجبِ(٤)

فقوله تعالى: «فإذا وجَبَتْ جُنُوبُها» يريد: إذا سقطت على جنوبها ميتةً. كنَى عن الموت بالسقوط على الجنب، كما كنَى عن النحر والذبح بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾. والكناياتُ في أكثر المواضع أبلغُ من التصريح(٥)؛ قال الشاعر:

---

(١) قوله: وتضجع البقر والغنم، وقع في (خ) و(م) قبل قوله: السابعة.

(٢) الكافي ١/ ٤٠٥ ، وقد سلف الاختلاف في وقت الذبح للأضحية، وهل هو قبل ذبح الإمام أو بعده ص٣٦٦ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) المعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ٩٦٩ ، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٦٥٢ ، ومنتهى الطلب في أشعار العرب ٦/ ٣٥١ . قال ابن قتيبة: واجب: ميت.

(٤) ديوان أوس بن حجر ص١٠ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٦٠ ، ووقع في النسخ عدا (ظ) والنكت والعيون ٤/ ٢٧ :

ألم تكسف الشمس ضوء النهار ... والبدر للجبل الواجب

وذكره ياقوت في معجم الأدباء ١٨/ ١٦٩ برواية:

ألم تُكسَفِ الشمسُ شمسُ النها ... رِ والبدرُ للقمر الواجب

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٨ .

فـتـركـتُـه جَـزَرَ الـسـبـاعِ يَـنُـشْـنَـهُ ما بـيـن قُـلَّـةِ رأسِـه والـمِـعْـصَـمِ[١]

وقال عنترة:

وضربتُ قَرْنَيْ كَبْشِها فَتَجدَّلا[٢]

أي: سقط مقتولاً إلى الجَدالة، وهي الأرض؛ ومثلُه كثير.

والوُجوبُ للجَنْب بعد النحر علامةُ نزفِ الدَّم وخروجِ الروح منها، وهو وقتُ الأكل، أي: وقتُ قُرْبِ الأكل؛ لأنه أول ما[٣] يبتدأ بالسلخ وقطعِ شيءٍ من الذبيحة ثم يُطبخ. ولا تُسلخ حتى تَبْرُد؛ لأنَّ ذلك من باب التعذيب؛ ولهذا قال عمر ﷺ: لا تَعْجَلوا الأنفس أنْ تَزْهَق[٤].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمرٌ معناه النَّدْبُ. وكلُّ العلماء يستحبُّ أن يأكل الإنسان من هَدْيه، وفيه أجرٌ وامتثال؛ إذْ كان أهلُ الجاهلية لا يأكلون من هَدْيهم كما تقدَّم[٥].

وقال أبو العباس بن سُريج: الأكلُ والإطعامُ مستحبَّان، وله الاقتصارُ على أيِّهما شاء. وقال الشافعيُّ: الأكلُ مستَحَبٌّ والإطعامُ واجب[٦]، فإن أَطْعَمَ جميعَها أجزأه، وإن أكل جميعَها لم يُجزه، وهذا فيما كان تطوُّعاً، فأمَّا واجباتُ الدماء فلا يجوز أن يأكل منها شيئاً حَسْبَما تقدَّم بيانه[٧].

---

(١) البيت من معلقة عنترة، وهو في ديوانه ص٢٦، وشرح المعلقات للنحاس ٢/ ٣٣، وللتبريزي ص٢٣٩ قال التبريزي: الجَزَر جمع جزرة، والجزرة: الشاة والناقة تذبح وتنحر، وينُشْنَه: يتناوَلْنَه بالأكل، وقُلَّةُ كلِّ شيء أعلاه. اهـ. وقال الجوهري: في الصحاح (جزر): جَزَر السِّباع: اللحم الذي تأكله، يقال: تركوهم جَزَراً، بالتحريك: إذا قتلوهم.

(٢) وعجزه: وحملتُ مُهْري وَسْطَها فمَضاها، وهو في ديوانه ص٧٥.

(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: إنما، بدل: أول ما.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٨٦١٤)، وابن أبي شيبة ٥/ ٣٩٢ - ٣٩٣، والبيهقي ٩/ ٢٧٨ واللفظ له.

(٥) ص٣٧٤ من هذا الجزء، والكلام من المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٧٩، وينظر تفصيل هذين القولين في المجموع ٨/ ٣٢٩ وما بعدها.

(٧) ص٣٧٣ من هذا الجزء.

العاشرة: قولُه تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ قال مجاهدٌ وإبراهيم والطبريُّ: قوله: «وأطعِموا» أمرُ إباحةٍ[١]. و«القانِع»: السائل. يقال: قَنَع الرجل يَقْنَع قنوعاً: إذا سأل، بفتح النون في الماضي[٢]، وقَنِع يقنَع قناعةً فهو قَنِعٌ: إذا تعفَّف واستغنى ببُلْغته ولم يسأل، مثل: حمِد يحمَد، قَناعةً وقَنَعاً وقَنَعاناً؛ قاله الخليل[٣]. ومن الأوّل قول الشمَّاخ:

لَمَالُ المرءِ يُصلِحُه فيُغْني ... مَفاقِرَه أعفُّ من القُنُوعِ[٤]

وقال ابن السِّكِّيت[٥]: مِن العرب مَن ذَكَر القُنوعَ بمعنى القناعة، وهي الرِّضا والتعفُّفُ وتركُ المسألة. ورويَ عن أبي رجاءٍ أنه قرأ: «وأطعِموا القَنِعَ». ومعنى هذا مخالفٌ للأوّل؛ يقال: قَنِعَ الرجل فهو قَنِعٌ: إذا رضي[٦].

وأمَّا المعترُّ فهو الذي يُطيف بك يطلب ما عندك، سائلاً كان أو ساكتاً. وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ ومجاهدٌ وإبراهيم والكلبيُّ والحسن بن أبي الحسن: المعترُّ: المتعرض من غير سؤال[٧]، قال زهير:

على مُكْثِرِيهمْ رِزْقُ مَن يعتريهمُ ... وعند المُقِلِّينَ السماحةُ والبَذْلُ[٨]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، وقول الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٢٣ ، وفيه تخريج خبر مجاهد وإبراهيم.

(٢) بعدها في النسخ: وكسرها في المستقبل، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ والكلام منه. وليس في كتب اللغة «يقنِع» بكسر النون. ينظر العين ١/ ١٧٠ ، وتهذيب اللغة ١/ ٢٥٩ ، ومقاييس اللغة ٥/ ٣٣ ، والصحاح ومفردات الراغب واللسان (قنع).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، دون قوله: قناعة وقنعاً وقنعاناً، ولم ترد أيضاً هذه المصادر في كتاب العين ١/ ١٧٠ ، وذكرها الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٦٩ .

(٤) ديوان الشمَّاخ ص٢٢١ . وقوله: مفاقر، أي: وجوه الفقر، يقال: سدَّ الله مفاقره، أي: أغناه، وسدَّ وجوه فقره. الصحاح (فقر).

(٥) قوله في تهذيب اللغة ١/ ٢٥٩ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١٣ ، والقراءة ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ٨٢ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ ، وأخرج هذا القول عن مجاهد ومحمد بن كعب والحسن الطبريُّ ١٦/ ٥٦٣ و ٥٦٥ - ٥٦٦ . ووقع في النسخ: المعترض، بدل المتعرض، والمثبت من المصادر.

(٨) ديوان زهير ص١١٤ (بشرح ثعلب).

وقال مالك: أحسنُ ما سمعت: أنَّ القانع: الفقيرُ، والمعترّ: الزائر. وروي عن الحسن أنه قرأ: «والمعترِيَ»، ومعناه كمعنى المعترّ. يقال: اعترَّه واعتراه، وعرَّه وعرَاه: إذا تعرَّض لمَا عنده أو طلبه؛ ذكره النحاس[1].

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يضرِّجون البيت بدماء البُدْن، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك، فنزلت الآية[2].

والنَّيْلُ لا يتعلَّق بالبارئ تعالى، ولكنه عبَّر به[3] تعبيراً مجازيًّا عن القبول، المعنى: لن يَصِلَ إليه. وقال ابن عباس: لن يصعد إليه. ابن عيسى: لن يَقْبَلَ لحومَها ولا دماءها، ولكنْ يصلُ إليه التقوى منكم[4]، أي: ما أريد به وجهُه؛ فذلك الذي يقبله ويُرفع إليه ويسمعه ويُثِيب عليه؛ ومنه الحديث: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات».

والقراءة: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ و﴿يَنَالُهُ﴾ بالياء فيهما. وعن يعقوب بالتاء فيهما[5]، نظراً إلى اللحوم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ مَنَّ سبحانه علينا بتَذْليلها وتمكيننا من

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٤١٣ – ٤١٤ ، والقراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٨٢ عن أبي رجاء وعمرو بن عبيد.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤١٥ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٣ . ونسبه الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٢ للكلبي.

(٣) في النسخ: عنه، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣ ، والكلام منه.

(٤) ذكر القولين عن ابن عباس وابن عيسى الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٢٨ ، وخبر ابن عباس فيه مطول.

(٥) النشر ٢/ ٣٢٦ .

تصريفها، وهي أعظمُ مِنَّا أبداناً وأقوى منَّا أعضاءً، ذلك ليَعْلَمَ العبدُ أنَّ الأمور ليست على ما تَظْهرُ إلى العبد من التدبير، وإنما هي بحسَب ما يريدها العزيز القدير، فيغلِبُ الصغيرُ الكبيرَ؛ ليعلم الخلقُ أنَّ الغالب هو الله الواحدُ القهار[١] فوقَ عباده.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ ذكر سبحانه ذِكْرَ اسمِه عليها في الآية قَبْلَها، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾، وذكرَ هنا التكبير. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يجمع بينهما إذا نَحَر هَدْيَه فيقول: باسم الله والله أكبر؛ وهذا من فِقْهِه ﷺ[٢].

وفي الصحيح عن أنس قال: ضَحَّى رسول الله ﷺ بكَبْشَيْنِ أمْلَحَيْن أقْرَنَيْن. قال: ورأيتُه يذبحهما بيده، ورأيتُه واضعاً قدمَه على صِفاحهما، وسَمَّى وكبَّر[٣].

وقد اختلف العلماء في هذا؛ فقال أبو ثور: التسميةُ متعيِّنةٌ؛ كالتكبير في الصلاة، وكافَّةُ العلماء على استحباب ذلك. فلو قال ذِكْراً آخَرَ فيه اسمٌ من أسماء الله تعالى وأراد به التسميةَ جاز. وكذلك لو قال: الله أكبر، فقط، أو: لا إله إلا الله؛ قاله ابن حبيب. فلو لم يُرد التسميةَ لم يُجْزِ عن التسمية ولا تؤكل؛ قاله الشافعيُّ ومحمد ابن الحسن. وكره كافةُ العلماء من أصحابنا وغيرهم الصلاةَ على النبيِّ ﷺ عند التسمية في الذبح أو ذِكرَه، وقالوا: لا يُذكر هنا إلَّا اللهُ وحدَه. وأجاز الشافعيُّ الصلاةَ على النبيِّ ﷺ عند الذبح[٤].

الرابعة: ذهب الجمهور إلى أنَّ قول المضحِّي: اللَّهُمَّ تقبَّلْ منِّي، جائز. وكره ذلك أبو حنيفةَ، والحجةُ عليه ما رواه الصحيح عن عائشةَ رضي الله عنها، وفيه: ثم

---

(١) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣ (والكلام منه): القاهر.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٣ .

(٣) صحيح البخاري (٥٥٦٥)، وصحيح مسلم (١٩٦٦): (١٨)، وهو عند أحمد (١١٩٦٠). قوله: أملحين، قيل: الأملح هو الأبيض، وقيل: الملحة من الألوان: بياض يخالطه سواد. ينظر المفهم ٥/ ٣٦١ .

(٤) المفهم ٥/ ٣٦٣ .

قال: «باسم الله، اللَّهُمَّ تقبَّل من محمدٍ وآلِ محمد ومن أمَّة محمد». ثم ضحَّى به. واستحبَّ بعضُهم أن يقول ذلك بنصِّ الآية: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧](١).

وكره مالكٌ قولَهم: اللهمَّ منك وإليك، وقال: هذه بدعةٌ. وأجاز ذلك ابنُ حبيب من أصحابنا والحسن، والحجةُ لهما ما رواه أبو داود(٢) عن جابر بن عبد الله قال: ذبح النبيُّ ﷺ يومَ الذَّبح كَبْشَين أقْرَنين مَوْجُوءين(٣) أملَحين، فلمَّا وجَّههما قال: «﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ وقرأ إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ اللَّهُمَّ منك وإليك(٤)، عن محمدٍ وأمتِه، باسم الله والله أكبر». ثم ذبح. فلعلَّ مالكاً لم يبلغه هذا الخبر، أوْ لم يصحَّ عنده، أو رأى العملَ يخالفُه. وعلى هذا يدلُّ قولُه: إنه بدعة(٥). والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ رُوي أنَّها نزلت في الخلفاء الأربعة؛ حَسْبَما تقدَّم في الآية التي قبلها. فأمَّا ظاهِرُ اللفظ فيقتضي العمومَ في كلِّ مُحْسِن.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

رُوي أنَّها نزلت بسبب المؤمنين؛ لمَّا كثروا بمكةَ وآذاهم الكفارُ وهاجر مَن هاجر

---

(١) المفهم ٥/ ٣٦٣ ، والحديث في صحيح مسلم (١٩٦٧)، وهو عند أحمد (٢٤٤٩١).

(٢) في سننه (٢٧٩٥)، وهو في سنن ابن ماجه (٣١٢١) بنحوه.

(٣) أي: خَصِيَّيْن. النهاية (وجأ). ووقع في (خ): موجيين، وفي مطبوع سنن أبي داود: مُوْجَئَين، وفي بعض نسخه: مَوْجِيَّيْن، ينظر سنن أبي داود بتحقيق محمد عوامة (٢٧٨٨). قال ابن الأثير: منهم مَن يرويه: مُوْجَأَين، على وزن: مُكْرَمَين، وهو خطأ، ومنهم مَن يرويه: مَوْجِيَّيْن بغير همز على التخفيف، ويكون من وَجَيْتُه وَجْياً فهو مَوْجِيّ.

(٤) في (م): ولك، وهو موافق لما في سنن أبي داود وسنن ابن ماجه، والمثبت من النسخ الخطية والمفهم ٥/ ٣٦٣ ، والكلام منه.

(٥) المفهم ٥/ ٣٦٤ .

إلى أرض الحبشة؛ أراد بعضُ مؤمني مكةَ أن يقتل مَن أَمْكَنَه من الكفار، ويغتالَ ويَغْدِر ويحتال، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿كَفُورٍ﴾. فوعد فيها سبحانه بالمدافعة، ونَهَى أفصحَ نهيٍ عن الخيانة والغدر[١]. وقد مضى في «الأنفال» التشديدُ في الغدر؛ وأنه: «يُنصب للغادر لواءٌ عند استِه[٢] بقَدْرِ غَدْرته يقال: هذه غَدْرةُ فلان»[٣].

وقيل: المعنى: يَدْفَع عن المؤمنين بأن يُديم توفيقَهم حتى يتمكَّن الإيمان من[٤] قلوبهم، فلا يقدر الكفار على إمالتهم عن دينهم، وإن جرى إكراهٌ فيعصمهم حتى لا يرتدُّوا بقلوبهم.

وقيل: يدفعُ عن المؤمنين بإعلائهم بالحُجَّة. وإن قتلَ كافرٌ مؤمناً؛ فقد دفعَ اللهُ[٥] عن ذلك المؤمنِ بأنْ قَبَضَه إلى رحمته.

وقرأ نافع: «يُدافِعُ»، «ولولا دِفاعُ». وقرأ أبو عمرو وابن كَثير: «يَدْفَعُ»، «ولولا دَفْعُ». وقرأ [ابن عامر و] عاصم وحمزة والكسائيُّ: «يُدافِعُ»، «ولولا دَفْعُ الله»[٦]. ويُدافع بمعنى يَدْفعُ، مثل: عاقَبْتُ اللصَّ، وعافاه الله، والمصدرُ دفعاً. وحكى الزَّهراويُّ: أنَّ «دِفاعاً» مصدرُ دَفَع، كحَسَب حِساباً[٧].

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٢) في (ظ): عند بعثه.

(٣) ينظر ١٠/ ٥٢ - ٥٣ .

(٤) في (ظ): في.

(٥) في (م): ثم قتل كافر مؤمناً نادر وإن فيدفع الله.

(٦) السبعة ص٤٣٧ ، والتيسير ص٨٢ و ١٥٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ قيل: هذا بيانُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: يدفع عنهم غوائلَ الكفار بأن يُبيحَ لهم القتالَ وينصرَهم، وفيه إضمارٌ، أي: أُذن للَّذين يَصْلُحون للقتال في القتال، فحذف لدلالة الكلام على المحذوف. وقال الضحَّاك: استأذن أصحابُ رسول الله ﷺ في قتال الكفَّار إذ آذَوْهم بمكة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فلمَّا هاجر نزلت: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾. وهذا ناسخٌ لكلِّ ما في القرآن من إعراضٍ وتركِ صَفْحٍ[(١)]. وهي أوَّلُ آيةٍ نزلت في القتال[(٢)].

قال ابن عباس وابن جبير: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة[(٣)]؛ وروى النَّسائيُّ والترمذيُّ عن ابن عباس قال: لمَّا أُخرج النبيُّ ﷺ من مكةَ قال أبو بكر: أَخرَجوا نبيَّهم، لَيَهْلِكُنّ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. فقال أبو بكر: لقد علمتُ أنه سيكون قتال. قال: هذا حديثٌ حسن. وقد روى غيرُ واحدٍ عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البَطِين، عن سعيد ابن جُبير مرسلاً، ليس فيه: عن ابن عباس[(٤)].

الثانية: في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ الإباحة من الشَّرْع، خلافاً للمعتزلة؛ لأنَّ قوله: «أُذِن»، معناه: أُبيح؛ وهو لفظٌ موضوعٌ في اللغة لإباحة كلِّ ممنوع[(٥)]. وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[(٦)] وغيرِ موضع.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٤ ، وذكر خبر الضحاك بنحوه الطبري ٦/ ٥٧٦ وقال: وهذا قول ذُكر عن الضحاك بن مزاحم من وجه غير ثبت.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٢٥ ، وقد أخرج النحاس هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٤) سنن الترمذي (٣١٧١)، وسنن النسائي ٦/ ٢ ، وهو عند أحمد (١٨٦٥)، وزاد أحمد والنسائي عن ابن عباس قوله: وهي أول آية نزلت في القتال. وأخرج المرسل عن سعيد بن جبير الترمذي إثر الحديث (٣١٧١)، و(٣١٧٢).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٤ ، دون قوله: خلافاً للمعتزلة.

(٦) ينظر ١/ ٣٧٧ .

وقرئ: «أذن» بفتح الهمزة، أي: أَذِنَ الله، «يقاتِلون» بكسر التاء، أي: يقاتلون عدوَّهم. وقرئ: «يقاتَلون» بفتح التاء[1]، أي: يقاتلهم المشركون، وهم المؤمنون. ولهذا قال: «بأنهم ظُلِموا» أي: أُخرجوا من ديارهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ هذا أحدُ[2] ما ظُلِموا به، وإنَّما أُخرجوا لقولهم: ربُّنا اللهُ وحدَه. فقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ استثناءٌ منقطع، أي: لكنْ لقولهم: ربُّنا الله؛ قاله سيبويه. وقال الفرَّاء: يجوز أن يكون [أن] في موضع خَفْضٍ؛ يقدِّرها مردودةً على الباء، وهو قولُ أبي إسحاقَ الزجَّاجِ، والمعنى عنده: الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلَّا بأن يقولوا: ربُّنا الله، أي: أُخرجوا بتوحيدهم، أخرجهم أهلُ الأوثان. و«الذِين أُخرِجوا» في موضع خفضٍ بدلاً من قوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾[3].

الثانية: قال ابن العربيِّ[4]: قال علماؤنا: كان رسول الله ﷺ قبل بَيْعة العَقَبة لم يؤذن له في الحرب، ولم تَحِلَّ له الدماء، إنَّما أمر[5] بالدعاء إلى الله والصبرِ على

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم: «أُذن» بضم الهمزة، والباقون بفتحها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «يقاتَلون» بفتح التاء، والباقون بكسرها. السبعة ص٤٣٧ ، والتيسير ص١٥٧ .

(٢) في (د): آخر.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠١ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٧ ، وقول الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤٣٠ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٨٤ - ١٢٨٦ .

(٥) في (د) و(م) وأحكام القرآن: يؤمر.

الأذى والصفحِ عن الجاهل مدَّةَ عشرة أعوام؛ لإقامة حجةِ الله تعالى عليهم، ووفاءً بوعده الذي امتنَّ به بفضله في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فاستمرَّ الناس في الطغيان، وما استدلُّوا بواضح البرهان، وكانت قريشٌ قد اضطهدت مَن اتَّبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنُوهم عن دينهم، ونفَوْهم عن بلادهم؛ فمنهم مَن فرَّ إلى أرض الحبشة، ومنهم مَن خرج إلى المدينة، ومنهم مَن صَبَر على الأذى. فلمَّا عَتَتْ قريش على الله تعالى، وردُّوا أمره وكذَّبوا نبيَّه عليه الصلاة والسلام، وعذَّبوا مَن آمن به ووحَّده وعبده، وصدَّق نبيَّه عليه الصلاة والسلام، واعتصم بدينه، أَذِن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم، وأنزل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾.

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ[١] الفعلَ الموجودَ من المُلْجَأ المُكْرَهِ منسوبٌ إلى الذي أَلْجأه وأكْرهَه؛ لأنَّ الله تعالى نَسَبَ الإخراج إلى الكفار؛ لأنَّ الكلام في معنى تقديرِ الذَّنب وإلزامه. وهذه الآيةُ مِثْلُ قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ٤٠] والكلامُ فيهما واحدٌ، وقد تقدَّم في «براءة»[٢] والحمد لله.

الرابعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا ما شَرَعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء؛ لاستَوْلَى أهل الشِّرك وعطَّلوا ما بَنَتْه[٣] أربابُ الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دَفَع بأنْ أَوْجَبَ القتال ليتفرَّغ أهل الدين للعبادة. فالجهاد أمر متقدِّم في الأمم، وبه صَلَحت الشرائع واجتمعت المتعبَّدات، فكأنه قال: أُذِنَ في القتال، فلْيقاتِل المؤمنون. ثم قوَّى هذا الأمر في القتال بقوله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، أي: لولا القتالُ والجهاد لتُغُلِّب على الحقِّ في كلِّ

(١) بعدها في النسخ عدا (ظ): نسبة، والمثبت من (ظ).

(٢) ١٠/ ٢١١ ، وينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٨٦ .

(٣) في (د) و(ظ): بينه.

أمة[١]. فَمَن استبشع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقضٌ لمذهبه؛ إذ لولا القتالُ لَمَا بقي الدِّين الذي يذبُّ عنه.

وأيضاً هذه المواضع التي اتُّخِذت قبل تحريفهم وتبديلهم، وقبل نَسْخِ تلك الملل بالإسلام، إنما ذُكرت لهذا المعنى، أي: لولا هذا الدفعُ لهُدمَ في زمن موسى الكنائسُ، وفي زمن عيسى الصوامعُ والبِيَعُ، وفي زمن محمدٍ عليه الصلاة والسلام المساجد[٢]. ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ من هدمتُ البناء، أي: نقضته فانهدم.

قال ابن عطية[٣]: هذا أصوبُ ما قيل في تأويل الآية. وروي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ أنه قال: ولولا دفعُ الله بأصحاب محمدٍ ﷺ الكفارَ عن التابعين فَمَن بعدهم. وهذا وإن كان فيه دفعُ قومٍ بقومٍ إلَّا أنَّ معنى القتال أَلْيَقُ، كما تقدّم[٤].

وقال مجاهد: لولا دَفْعُ اللهِ ظلمَ قومٍ بشهادةِ العدول. وقالت فرقة: ولولا دفعُ الله ظلمَ الظَّلَمة بعَدْلِ الولاة[٥].

وقال أبو الدَّرْداء: لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ يدفع بمن في المساجد عمَّن ليس في المساجد، وبمن يغزو عمَّن لا يغزو، لأتاهم العذاب[٦].

وقالت فرقةٌ: ولولا دفعُ الله العذابَ بدعاء الفُضَلاء والأخيار. إلى غير ذلك من التفصيل المُفْسِد[٧] لمعنى الآية؛ وذلك أنَّ الآية ولابدَّ تقتضي مدفوعاً من الناس

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣١ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ ، وقد قاله ابن عطية إثر ما تقدم من قوله: أي لولا القتال والجهاد لتُغلب على الحق في كل أمة.

(٤) يعني بما تقدم من الآية، كما في المحرر الوجيز. وخبر علي ﷺ أخرجه الطبري ١٦/ ٥٧٨ - ٥٧٩ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٤ ، وقول مجاهد أخرجه بنحوه الطبري ١٦/ ٥٧٩ .

(٦) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠١ .

(٧) في (م): المفسر، والمثبت من النسخ الخطية، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، والكلام منه.

ومدفوعاً عنه، فتأمَّلْه.

الخامسة: قال ابن خُوَيْزمَنْداد: تضمَّنت هذه الآيةُ المَنْعَ من هَدْم كنائس أهل الذِّمَّة وبِيَعِهم وبيوت نيرانهم، ولا يُتركون أن يُحْدِثوا ما لم يكن، ولا يزيدون في البنيان لا سَعةً ولا ارتفاعاً، ولا ينبغي للمسلمين أن يدخلوها ولا يصلُّوا فيها، ومتى أَحْدَثوا زيادةً وَجَبَ نَقْضُها. ويُنقض ما وُجد في بلاد الحرب من البِيَع والكنائس. وإنما لم يُنْقَضْ ما في بلاد الإسلام لأهل الذمة؛ لأنها جرت مَجْرَى بيوتهم وأموالهم التي عاهدوا عليها في الصيانة. ولا يجوز أن يُمَكَّنوا من الزيادة؛ لأنَّ في ذلك إظهارَ أسباب الكفر. وجائزٌ أن يُنقض المسجد ليعاد بنيانه؛ وقد فعل ذلك عثمانُ ﷺ بمسجد النبيِّ ﷺ[١].

السادسة: قرئ: «لهدمت» بتخفيف الدَّال وتشديدها[٢]. ﴿صَوَٰمِعُ﴾ جمعُ صوْمعة، وزنها فَوْعلة، وهي بناءٌ مرتفعٌ حديدُ الأعلى؛ يقال: صمَّع الثريدة، أي: رفَّع رَأسَها وحَدَّدَه. ورجلٌ أَصْمعُ القلب، أي: حادُّ الفِطْنة. والأصمعُ من الرجال: الحديدُ القول. وقيل: هو الصغير الأذن من الناس وغيرهم. وكانت قبل الإسلام مختصَّةً برهبان النصارى، وبعُبَّاد الصابئين؛ قاله قتادة. ثم استُعمل في مئذنة المسلمين[٣].

والبِيَعُ جمع بِيعة، وهي كنيسةُ النصارى. وقال الطبريُّ: وقيل: هي كنائس اليهود. ثم أَدْخَل عن مجاهدٍ ما لا يقتضي ذلك[٤].

---

(١) ينظر ما ورد في توسيع عثمان لمسجد النبي ﷺ تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٧ .

(٢) قرأ ابن كثير ونافع: «لَهُدِمَت» بتخفيف الدال، والباقون بتشديدها. السبعة ص٤٣٨ ، والتيسير ص١٥٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، وخبر قتادة أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩ ، والطبري ١٦/ ٥٨١ بلفظ: هي للصابئين.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، وقول الطبري في تفسيره ١٦/ ٥٨٣ ، وخبر مجاهد الذي أخرجه الطبري في هذا الموضع هو قوله: ﴿وَبِيَعٌ﴾ قال: وكنائس. ولم يذكر اليهود فيه.

﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ قال الزجَّاج والحسن: هي كنائس اليهود، وهي بالعبرانية: صَلُوتا[١]. وقال أبو عبيدة: الصلوات بيوتٌ تُبنى للنصارى في البراري يصلُّون فيها في أسفارهم، تسمَّى صلوتا، فعرِّبت فقيل: صلوات.

وفي «صلوات» تسعُ قراءات ذكرها ابن عطية[٢]: صَلْوات، صِلْوات، صُلْوات[٣]، صُلُوت على وزن فُعول[٤]، صُلُوب بالباء بواحدةٍ جمع صليب[٥]، صُلُوث بالثاء المثلثة على وزن فُعول، صُلُوات بضمِّ الصاد واللام وألفٍ بعد الواو، صُلُوثا بضمِّ الصاد واللام وقَصْر الألف بعد الثاء المثلَّثة، صِلْوِيثَا بكسر الصاد والثَّاء المثلَّثة[٦].

وذكر النحاس[٧]: وروي عن عاصم الجَحْدَرِيِّ أنه قرأ: «وصُلُوت» [بضم الصاد والتاء المُعْجَمة بنقطتين]. وروي عن الضحاك: «وصلُوث» بالثاء معجَمة بثلاث، ولا أدري أفتَحَ الصَّادَ أم ضمَّها؟

قلت: فعلَى هذا تجيءُ هنا عَشْرُ قراءات.

وقال ابن عباس: الصلواتُ الكنائس. أبو العالية: الصلواتُ مساجدُ الصابئين. ابن زيد: هي صلوات المسلمين، تنقطع إذا دخل عليهم العدوُّ وتُهدَم المساجد[٨]؛ فعلى هذا استُعير الهدْمُ للصلوات من حيث تُعَطَّل، أو أراد: موضعَ صلوات، فحذف

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٠، وأخرجه الطبري ١٦/ ٥٨٤ عن الضحاك، وخبر الحسن ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤١٩، وفيه: صلوثا، بالثاء.

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٦ عن جعفر بن محمد.

(٤) في (د) و(م): صلولى على وزن فعولى، وهو تصحيف.

(٥) قال أبو حيان في البحر ٦/ ٣٧٥: وهو جمع شاذ، أعني جمع فَعيل على فُعُول.

(٦) في المحرر الوجيز: صِلْوِيثا بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد الثاء.

(٧) في معاني القرآن ٤/ ٤١٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٨) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٦/ ٥٨٣ - ٥٨٥.

المضاف. وعلى قول ابن عباس والزجّاج وغيرِهم يكون الهدم حقيقةً. وقال الحسن: هَدْمُ الصلواتِ تَرْكُها[١]. قُطْرُب: هي الصوامع الصغار، ولم يُسمع لها واحد.

وذهب خَصِيف إلى أنَّ القَصْدَ بهذه الأسماء تقسيمُ مُتَعبَّدات الأمم. فالصوامعُ للرُّهبان، والبِيَع للنصارى، والصلوات لليهود، والمساجدُ للمسلمين. قال ابن عطية[٢]: والأَظْهَرُ أنها قُصِد بها المبالغةُ في ذكر المتعبَّدات. وهذه الأسماءُ تشترك الأمم في مسمَّياتها؛ إلَّا البِيعةَ، فإنها مختصَّةٌ بالنصارى في لغة العرب. ومعاني هذه الأسماءِ هي في الأمم التي لها كتابٌ على قديم الدهر. ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الإشراك؛ لأنَّ هؤلاء ليس لهم ما يجب حمايته، ولا يوجد ذكرُ الله إلَّا عند أهل الشرائع.

وقال النحاس[٣]: «يُذْكَرُ فيها اسمُ الله»: الذي يجبُ في كلامِ العرب على حقيقةِ النظر أن يكون «يُذْكَرُ فيها اسمُ الله» عائداً على المساجد لا على غيرها؛ لأنَّ الضمير يليها. ويجوز أن يعود على «صوامع» وما بعدها، ويكون المعنى: وقتَ شرائعهم وإقامَتِهم الحقَّ.

السابعة: فإن قيل: لِمَ قدِّمت مساجدُ أهل الذمّة ومصلَّياتُهم على مساجد المسلمين؟ قيل: لأنها أقدمُ بناءً. وقيل: لقُرْبها من الهَدْم وقُرْبِ المساجد من الذِّكر، كما أَخَّر السابقَ في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

قوله[٤] تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: مَن ينصُرُ دينَه ونبيَّه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ أي: قادر. قال الخطابيُّ: القَوِيُّ يكون بمعنى القادر، ومَن قَوِيَ على شيء

---

(١) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤١٨ .

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥ ، وما قبله منه، وقول خصيف أخرجه النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤١٧-٤١٨ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٠١ .

(٤) قبلها في النسخ عدا (ظ): الثامنة.

فقد قَدر عليه. ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: جليل شريف؛ قاله الزجاج[١]. وقيل: الممتنع الذي لا يُرام. وقد بيَّنّاهما في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

قال الزجَّاج: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ نصبٍ رَدًّا على «مَن»، يعني في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾. وقال غيره: «الذِين» في موضع خفضٍ ردًّا على قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، ويكون «الذين إن مكَّناهم في الأرض» أربعةً من أصحاب رسول الله ﷺ لم يمكّن في الأرض غيرهم[٣].

وقال ابن عباس: المرادُ المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان. وقال قتادة: هم أصحاب محمدٍ ﷺ. وقال عِكرمةُ: هم أهلُ الصلوات الخمس[٤]. وقال الحسن وأبو العالية: هم هذه الأمة، إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة. وقال ابن أبي نَجِيح: يعني الولاة[٥].

وقال الضحَّاك: هو شَرْطٌ شَرَطَه الله عزَّ وجلَّ على مَن آتاه المُلْك[٦]، وهذا حسن.

قال سهل بن عبد الله: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر واجبٌ على السلطان

---

(١) كذا في النسخ، ولعله: الزجَّاجي، وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، والكلام في كتابه اشتقاق أسماء الله ص٢٣٧ . وقول الزجاج الذي في معاني القرآن له ١/ ٢٨٠ : معنى «عزيز»: لا يعجزونه، ولا يعجزه شيء.

(٢) ص ٢٠١ و ٢٦٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠١ ، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٣/ ٤٣١ .

(٤) ذكر قولي قتادة وعكرمة الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٧٤ .

(٥) ذكر قولي الحسن وابن أبي نجيح النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤١٩ .

(٦) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥ عن قتادة بلفظ: هذا شرط الله على هذه الأمة، وعزاه لابن أبي حاتم ولم نقف عليه عن الضحاك.

وعلى العلماء الذين يأتونه. وليس على الناس أن يأمروا السلطان؛ لأنَّ ذلك لازمٌ له واجبٌ عليه، ولا يأمروا العلماء فإنَّ الحجة قد وجبت عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤﴾

هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتعزيةٌ، أي: كان قبلك أنبياءُ كُذِّبوا فصَبَروا إلى أن أهلك الله المكذِّبين، فاقتدِ بهم واصْبِرْ. ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي: كذَّبه فرعونُ وقومُه. فأمَّا بنو إسرائيل فما كذَّبوه، فلهذا لم يَعْطِفه على ما قَبْلَه فيكون: وقوم موسى. ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أخَّرتُ عنهم العقوبة. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فعاقبتهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهامٌ بمعنى التغيير، أي: فانظُرْ كيف كان تغييري ما كانوا فيه من النِّعم بالعذاب والهلاك، فكذلك أفعلُ بالمكذبين من قريش. قال الجوهريّ[1]: النكيرُ والإنكار: تغييرُ المنكر، والمُنْكَر واحدُ المناكير.

قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: أهلكنا أهلَها. وقد مضى في «آل عمران»[2] الكلامُ في كأين. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: بالكفر ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ تقدَّم في «الكهف»[3].

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال الزجَّاج: «وبئرٍ معطلةٍ» معطوفٌ على «مِن قريةٍ»، أي: ومِن أهلِ قريةٍ ومِن أهلِ بئر. والفرَّاء[4] يذهب إلى أنَّ «وبئرٍ» معطوفٌ

---

(١) في الصحاح (نكر).

(٢) ٥/ ٣٤٩.

(٣) ١٣/ ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٨، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٢ وما قبله منه، ولم نقف على قول الزجاج في معانيه.

على «عروشِها».

وقال الأصمعيُّ: سألتُ نافع بنَ أبي نعيم: أيُهمز[١] البئر والذئب؟ فقال: إن كانت العربُ تهمزُهما فاهمِزْهما. وأكثر الرواة[٢] عن نافعٍ بهَمْزِهما إلّا وَرْشاً، فإنَّ روايته عنه بغيرِ همزٍ فيهما، والأصلُ الهمز.

ومعنى «معطَّلةٍ»: متروكة؛ قاله الضحاك[٣]. وقيل: خالية من أهلها؛ لهلاكهم. وقيل: غائرة الماء. وقيل: معطَّلة من دِلائها وأَرْشِيَتها[٤]. والمعنى متقارب.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قال قتادة والضحَّاك ومقاتل: رفيع طويل[٥]. قال عديّ بن زيد:

شاده مَرْمَراً وجَلَّله كِلْـ ... ـساً فللطير في ذُراه وُكورُ[٦]

أي: رَفَعه. وقال سعيد بن جبير وعطاء وعكرمةُ ومجاهد: مجصَّص[٧]، من الشِّيد، وهو الجصّ. قال الرَّاجز[٨]:

لا تَحْسَبَنِّي وإن كنتُ امرأً غَمِراً ... كحيَّة الماء بين الطِّينِ والشِّيدِ[٩]

---

(١) في (ظ): أتهمز.

(٢) في (ظ): الرواية، وفي إعراب القرآن: الروايات.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٢٨ وقراءة ورش عن نافع في السبعة ص٣٤٦ و ٤٣٨، وينظر ما سلف ١١/ ٢٧٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٣]. وخبر الضحاك أخرجه الطبري ١٦/ ٥٩٢: بلفظ لا أهل لها.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٣١، والأرشية جمع رِشاء، وهو الحبل. اللسان (رشا).

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٢٩١، وأخرجه عن الضحاك الطبري ١٦/ ٥٩٤.

(٦) سيرة ابن هشام ١/ ٧١، والكامل ١/ ١٣٢، والشعر والشعراء ١/ ٢٢٦، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٩٥، والنكت والعيون ٤/ ٣١. وقوله: وُكور، هو جمع وَكْر، وهو عُشُّ الطائر حيث كان في جبل أو شجر.

(٧) أخرج قولهم الطبري ١٦/ ٥٩٢ - ٥٩٣، وأخرجه عن عكرمة وعطاء أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٩.

(٨) كذا قال المصنف والطبري ١٦/ ٥٩٤، والصواب أن البيت من البسيط، وقائله الشماخ بن ضرار.

(٩) ديوان الشماخ ص١٢١، والكامل ١/ ٣١، واللسان غمر، وذكر الطبري ١٦/ ٥٩٤ عجزه، ووقع فيه =

وقال امرؤ القيس:

ولا أُطُـمـاً إلَّا مَـشـيـداً بـجَـنْـدَلِ[١]

وقال ابن عباس: «مَشِيدٍ» أي: حَصِين. وقاله الكلبيّ[٢]. وهو مَفْعِلٌ بمعنى مفعول، كمبيع بمعنى مبيوع. وقال الجوهريّ[٣]: والمشِيد: المعمول بالشِّيد. والشِّيد ـ بالكسر ـ: كلُّ شيء طلَيتَ به الحائطَ من جِصٍّ أو بَلاط[٤]، وبالفتح المصدر. تقول: شاده يَشِيدُه شَيْداً: جَصَّصه. والمُشيَّد؛ بالتشديد: المطوَّل. وقال الكسائيُّ: «المَشِيد» للواحد، من قوله تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾. والمُشَيَّد للجمع[٥]، من قوله تعالى: ﴿فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وفي الكلام مضمَرٌ محذوفٌ تقديره: وقصرٍ مَشِيدٍ مثلها معطَّل.

ويقال: إنَّ هذه البئرَ والقصرَ بحضرموت معروفان، فالقصرُ مُشْرِفٌ على قُلَّةِ جبل[٦] لا يُرتَقى إليه بحال، والبئر في سَفْحه لا تُقِرُّ الريح شيئاً سقط فيه إلَّا أخرجته. وأصحابُ القصورِ ملوكُ الحضر، وأصحابُ الآبار ملوكُ البوادي، أي: فأهلكنا

= وفي الديوان: الطَّيِّ، بدل: الطين، وفي اللسان بدلاً منها: الصخر، وقال صاحبه: رجل غُمر: لا تجربة له بحرب ولا أمر، ولم تحنِّكه التجارب.

(١) وصدره: وتيماء لم يترك بها جذع نخلة، وهو في ديوانه ص٢٥ ، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٩٤ . قال شارح الديوان: تيماء: اسم موضع، والأُطُم: البيت المسطَّح، يقول: لم يدع هذا السَّيل بيتاً إلا هدَّمه، إلا هذا المشيد بجندل.

(٢) ذكره عن الكلبي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣١ ، ولم نقف عليه عن ابن عباس.

(٣) في الصحاح (شيد).

(٤) كذا في النسخ، ومختار الصحاح (شيد)، وتهذيب اللغة ١١/ ٣٩٤ ، واللسان (شيد) قال الفيروزآبادي في القاموس (شيد): بلاط بالباء غلط، والصواب: ملاط بالميم؛ لأن البلاط حجارة لا يُطلى بها، وإنما يُطلى بالملاط، وهو الطين. اهـ. وقد وقع في مطبوع الصحاح: ملاط بالميم. وينظر مجاز القرآن ٢/ ٥٣ .

(٥) قال الفيروزآبادي في القاموس (شيد): المشيَّد للجمع غلط، وإنما المشيَّدة جمع المشيَّد. وينظر اللسان (شيد).

(٦) أي: قمَّته وأعلاه. ووقع في (ظ): تلة جبل.

هؤلاء وهؤلاء[(١)].

وذكر الضحَّاك وغيره ـ فيما ذكر الثعلبيُّ وأبو بكر محمد بن الحسن المُقْرِئ[(٢)] وغيرهما ـ أنَّ البئر الرَّسُّ، وكانت بعدن باليمن بحضرَمَوْتَ، في بلدٍ يقال له: حَضُور، نزل بها أربعةُ آلافٍ ممن آمَنَ بصالح، ونَجَوْا من العذاب ومعهم صالح، فمات صالح فسُمِّيَ المكان: حضرموت؛ لأنَّ صالحاً لمَّا حَضَره مات. فبنَوْا حَضُورَ وقعدوا على هذه البئر، وأمَّروا عليهم رجلاً يقال له: العلس بن جلاس بن سويد، فيما ذكر الغزنويُّ. الثعلبيُّ: جلهس بن جلاس. وكان حسنَ السيرة فيهم عاملاً عليهم، وجعلوا وزيره سنحاريب بن سوادة، فأقاموا دهراً وتناسلوا حتى كثروا، وكانت البئر تسقي المدينة كلَّها وباديتَها، وجميعَ ما فيها من الدوابِّ والغنم والبقر وغير ذلك؛ لأنها كانت لها بكراتٌ كثيرةٌ منصوبةٌ عليها، ورجالٌ كثيرون موكَّلون بها، وأبازنُ ـ بالنون ـ من رخامٍ ـ وهي شِبْهُ الحياضِ ـ كثيرةٌ تُملأ للناس، وأُخَرُ للدَّوابِّ، وأُخَر للبقر، وأُخرَ للغنم. والقُوَّام يسقون عليها بالليل والنهار يتداولون، ولم يكن لهم ماءٌ غيرها. وطال عمر الملك الذي أمَّروه، فلمَّا جاءه الموت؛ طُليَ بدهنٍ لتبقى صورتُه لا تتغيَّر، وكذلك كانوا يفعلون إذا مات منهم الميت، وكان ممن يكرمُ عليهم، فلمَّا مات شقَّ ذلك عليهم ورأَوْا أنَّ أمرهم قد فَسَد، وضجُّوا جميعاً بالبكاء، واغتنمها الشيطان منهم، فدخل في جثة الملك بعد موته بأيامٍ كثيرة، فكلَّمهم وقال: إنِّي لم أَمُتْ، ولكنْ تغيَّبتُ عنكم حتى أرى صنيعَكم. ففرِحوا أشدَّ الفرح، وأمر خاصَّته أن يضربوا له حجاباً بينه وبينهم ويكلِّمهم من ورائه؛ لئلَّا يُعرف الموت في صورته. فنصبوا صنماً من وراء الحجاب لا يأكل ولا يشرب. وأخبرهم أنه لا يموت أبداً، وأنه إلهٌ لهم، وذلك كلُّه يتكلَّم به الشيطان على لسانه، فصدَّق كثيرٌ منهم

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٣١ - ٣٢.

(٢) وهو النقاش، والخبر في تفسيره كما ذكر السهيلي في التعريف والإعلام ص١١٨ ونقل هذا الخبر عنه، وذكره مختصراً عن الضحاك البغوي ٣/ ٢٩١.

وارتاب بعضُهم، وكان المؤمن المكذِّب منهم أقلَّ من المصدِّق له، وكلَّما تكلَّم ناصحٌ لهم زُجِر وقُهِر. فأَصْفَقوا[١] على عبادته، فبعث الله إليهم نبيًّا كان الوحيُ ينزل عليه في النوم دون اليقظة ـ كان اسمه حنظلة بنَ صفوان ـ فأَعْلَمهم أنَّ الصورة صنمٌ لا روحَ له، وأنَّ الشيطان قد أضلَّهم، وأنَّ الله لا يتمثَّل بالخَلْق، وأنَّ الملِك لا يجوز أن يكون شريكاً لله، ووعَظَهم ونصحهم وحذَّرهم سطوةَ ربِّهم ونقمتَه، فآذَوْه وعادَوْه، وهو يتعهَّدهم بالموعظة ولا يُغِبُّهم بالنصيحة، حتى قتلوه[٢] في السوق وطرحوه في بئر، فعند ذلك أصابتهم النقمةُ، فباتوا شِباعاً رِوَاءً من الماء؛ وأصبحوا والبئرُ قد غار ماؤها وتعطَّل رِشاؤها، فصاحوا بأجمعهم وضجَّ النساء والولدان، وضجَّت البهائم عطشاً، حتى عمَّهم الموتُ وشَمِلهم الهلاك، وخَلَفتهم في أرضهم السباعُ، وفي منازلهم الثعالبُ والضِّباع، وتبدَّلت جنَّاتُهم وأموالُهم بالسِّدْر وشَوْك العِضَاهِ والقَتاد[٣]، فلا يُسمع فيها إلَّا عزيفُ الجنِّ وزئيرُ الأسد، نعوذ بالله من سَطَواته، ومن الإصرار على ما يوجب نَقِماته.

قال السُّهيليُّ[٤]: وأما القصرُ المَشِيدُ؛ فقصرٌ بناه شدَّاد بن عاد بن إرم، لم يُبْنَ في الأرض مثلُه؛ فيما ذكروا وزعموا، وحالُه أيضاً كحال هذه البئرِ المذكورة في إيحاشه بعد الأُنْس، وإقفارِه بعد العمران، وإنَّ أحداً لا يستطيع أن يدنوَ منه على أميال؛ لمَا يُسمع فيه من عزيف الجنِّ والأصواتِ المنكَرة، بعد النعيم والعيش الرَّغَد وبَهاءِ المُلْك، وانتظامِ الأهل كالسِّلك، فبادُوا وما عادُوا؛ فذكَرهم الله تعالى في هذه الآية

---

(١) أي: أطبقوا. اللسان (صفق)، وفي التعريف والإعلام: فأجمعوا.

(٢) قوله: لا يُغِبُّهم بالنصيحة، أي: يقدم لهم: النصيحة كل يوم. قال صاحب القاموس (غبب): فلان لا يُغِبُّنا عطاؤه، أي: يأتينا كلَّ يوم. ووقع في (ظ): ويحذرهم سطوة ربه ونقمته فقتلوه، بدل قوله: ولا يُغبهم بالنصيحة حتى قتلوه.

(٣) القتاد: شجر له شوك أمثال الإبر. والعِضَاه: كل شجر له شوك، وقيل: العضاه اسم يقع على ما عظُم من شجر الشوك وطال واشتد شوكه. والسدر من العضاه. اللسان (قتد) و(عضه) و(سدر).

(٤) في التعريف والإعلام ص١١٨ .

موعظةً وعبرةً وتَذْكِرةً، وذِكْراً وتحذيراً من مَغَبَّة المعصية، وسوءِ عاقبةِ المخالفة، نعوذ بالله من ذلك ونستجيرُ به من سوء المآل.

وقيل: إنَّ الذي أهلكهم بختنصَّر، على ما تقدَّم في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الآية: ١١]، فتعطَّلت بئرُهم وخرِبت قصورهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني كفارَ مكة، فيشاهدوا هذه القرى فيتَّعظوا، ويحذَروا عقابَ الله أن ينزل بهم كما نزل بمن قبلهم. ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ أضاف العقلَ إلى القلب؛ لأنه مَحَلُّه؛ كما أنَّ السمع محلُّه الأذن. وقد قيل: إنَّ العقلَ محلُّه الدماغ، وروي عن أبي حنيفة، وما أراها عنه صحيحة[١].

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ قال الفرَّاء: الهاء عماد، ويجوز أن يقال: فإنه، وهي قراءةُ عبد الله بن مسعود[٢]. والمعنى واحدٌ؛ التذكير على الخبر، والتأنيثُ على الأبصار أو القصة[٣]، أي: فإنَّ الأبصار لا تَعْمَى، أو: فإنَّ القصة.

﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ أي: أبصارُ العيون ثابتةٌ لهم. ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: عن دَرَك الحقِّ والاعتبار. وقال قتادة: البصرُ الناظِرُ جُعِلَ بُلْغة ومنفعةً، والبصرُ النافعُ في القلب[٤].

وقال مجاهد: لكلِّ عينٍ أربعُ أَعْيُن، يعني لكلِّ إنسانٍ أربعُ أعين: عينانِ في رأسه

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم ١١/ ٢٩ : وفيه خلاف مشهور؛ مذهب أصحابنا وجماهيرِ المتكلمين أنه في القلب، وقال أبو حنيفة: هو في الدماغ. اهـ. وذكره عن أبي حنيفة أيضاً أبو العباس في المفهم ٤/ ٤٩٥ وقال: وما أظنها عنه صحيحة.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٨ ، وذكرها عن ابن مسعود أيضاً الطبري ١٦/ ٥٩٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٢ .

(٤) ذكره النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٢٢ . وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥ .

لدُنْياه، وعينانِ في قلبه لآخِرته، فإنْ عَمِيتْ عينا رأسِه وأبصرَتْ عينا قلبِه لم يضرَّه عماهُ شيئاً، وإن أَبْصَرتْ عينا رأسِه وعَمِيَتْ عينا قلبِه لم يَنْفَعه نظرهُ شيئاً[١].

وقال قتادة وابن جُبير: نزلت هذه الآية في ابن أُمِّ مَكْتُومِ الأعمى[٢]. قال ابن عباس ومقاتل: لمَّا نزل: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] قال ابن أمِّ مكتوم: يا رسول الله، فأنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾. أي: مَن كان في هذه أعمى بقلبه عن الإسلام، فهو في الآخرة في النار[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ نزلت في النضر بن الحارث، وهو قوله: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠][٤]. وقيل: نزلت في أبي جهل ابن هشام، وهو قولُه: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢][٥].

﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ أي: في إنزال العذاب. قال الزجَّاج: استعجَلوا العذابَ فأعلمهم الله أنه لا يفوته شيء، وقد نزل بهم في الدنيا يومَ بَدْر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني من الأيام التي خَلَق الله فيها السماوات والأرض[٦]. عكرمة: يعني

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٢ عن قتادة، وأخرجه عنه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٥.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٢٩١، وفيه أن قول النضر هو: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء.

(٥) الصواب أن قول أبي جهل: إن كان هذا هو الحق...، نزل فيه الآيتان (٣٣ و ٣٤) من سورة الأنفال، كما في صحيح البخاري (٤٦٤٨)، وصحيح مسلم (٢٧٩٦) عن أنس ﷺ، وسلف ٩/ ٤٩٥.

(٦) أخرج قولهما الطبري ١٦/ ٥٩٦ - ٥٩٧.

من أيام الآخرة[(١)]؛ أَعْلَمهم الله إذ استعجلوه[(٢)] بالعذاب في أيامٍ قصيرة أنه يأتيهم به في أيامٍ طويلة.

قال الفرَّاء: هذا وعيدٌ لهم بامتداد عذابِهم في الآخرة، أي: يومٌ من أيام عذابهم في الآخرة ألفُ سنة[(٣)].

وقيل: المعنى: وإنَّ يوماً في الخوف والشدَّة في الآخرة كألفِ سنةٍ من سِنِي الدنيا فيها خوفٌ وشدة، وكذلك يومُ النعيم قياساً.

وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿مِما يَعُدُّون﴾ بالياء المثنَّاة تحت، واختاره أبو عبيد لقوله: «ويستعجِلونك». والباقون بالتاء على الخطاب[(٤)]، واختاره أبو حاتم.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ أي: أمْهلتُها مع عُتُوِّها ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ أي: بالعذاب ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني أهلَ مكة ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: منذرٌ مُخَوِّف. وقد تقدَّم في «البقرة» الإنذارُ في أوّلها[(٥)]. ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: أُبيِّن لكم ما

(١) أخرجه الطبري ١٦/٥٩٨.

(٢) في (ظ): أعلمهم الله أنهم إذا استعجلوا.

(٣) في معاني القرآن للفراء ٢/٢٢٨: يوم من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة مما تعدون في الدنيا.

(٤) السبعة ص٤٣٩، والتيسير ص١٥٨.

(٥) ١/٢٨١.

تحتاجون إليه من أمرِ دينكم. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في إبطالِ آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مُغالِبين مُشاقِّين؛ قاله ابن عباس[١]. الفَرَّاء[٢]: مُعانِدين. وقال عبد الله بن الزبير: إنما هي: «معجِّزين»، أي: مثبِّطين عن الإسلام[٣]. وقال الأخفش: «معاجزين»[٤]: مسابِقين. الزجَّاج[٥]: أي: ظانِّين أنَّهم يُعْجِزوننا؛ لأنهم ظنُّوا أنْ لا بَعْثَ، وظنُّوا أنَّ الله لا يقدر عليهم. وقاله قتادة[٦]. وكذلك معنى قراءةِ ابنِ كثير وأبي عمرو: ﴿مُعَجِّزِين﴾ بلا ألفٍ مشدَّداً[٧]. ويجوز أن يكون معناه: أنهم يعجِّزون المؤمنين في الإيمان بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام وبالآيات؛ قاله السُّدِّيّ[٨]. وقيل: أي: يَنْسُبون مَن اتَّبع محمداً ﷺ إلى العجز، كقولهم: جهَّلْتُه وفسَّقْتُه[٩]. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

---

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٠ - ٦٠١ دون قوله: مغالبين.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٢٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٩. وسقط من (م) قوله: إنما هي معجزين أي.

(٤) في (م): معاندين، وليست في (خ)، والمثبت من باقي النسخ، وذكر هذا القول مكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٣ دون نسبة.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٣٣.

(٦) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٤٠ و ١٢٦، والطبري ١٦/ ٦٠١.

(٧) السبعة ص٤٣٩، والتيسير ص١٥٨.

(٨) ذكره عن السدي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٣ بلفظ: مثبطين لمن أراد اتِّباع النبيِّ ﷺ.

(٩) الحجة للفارسي ٥/ ٢٨٤.

الأولى: قولُه تعالى: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: قرأ وتَلا. و﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: قراءتِه وتلاوته. وقد تقدَّم في البقرة[١].

قال ابن عطيةَ: وجاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نَبيٍّ ولا مُحَدَّثٍ» ذكره مَسْلمةُ بن القاسم بن عبد الله[٢]، ورواه سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس[٣]. قال مسلمةُ: فوجَدْنا المُحَدَّثين معتصِمين بالنبوَّة ـ على قراءةِ ابن عباس ـ لأنَّهم تكلَّموا بأمورٍ عاليةٍ من أنباء الغيب خَطَرات، ونطقوا بالحكمة الباطنة، فأصابوا فيما تكلَّموا وعُصموا فيما نَطَقوا، كعمر بن الخطاب في قصة سارية[٤]، وما تكلَّم به من البراهين العالية.

قلت: وقد ذكر هذا الخبرَ أبو بكر الأنباريُّ في كتاب «الردِّ» له: وقد حدَّثني أبي رحمه الله، حدّثنا عليّ بنُ حرب، حدَّثنا سفيان بن عُيينة، عن عمرو، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ: «وما أرسلنا مِن قَبْلك مِن رسولٍ ولا نَبيٍّ ولا مُحَدَّثٍ»، قال أبو بكر: فهذا حديثٌ لا يؤخذ به على أنَّ ذلك قرآن. والمحدَّث هو الذي يوحَى إليه في نومه؛ لأنَّ رُؤْيا الأنبياءِ وَحْيٌ.

الثانية: قال العلماء: إنَّ هذه الآيةَ مشكلةٌ من جهتين: إحداهما: أنَّ قوماً يَرَوْن أنَّ الأنبياء صلواتُ الله عليهم فيهم مُرْسَلون وفيهم غيرُ مُرْسَلين. وغيرهم يذهب إلى

---

(١) ٢/ ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) أبو القاسم الأندلسي القرطبي، المحدِّث الرحَّال، قال ابن الفَرَضي: سمعت مَن ينسبه إلى الكذب، وقال لي محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج: لم يكن كذاباً، بل كان ضعيف العقل، قال: وحُفظ عليه سوء كلام في التشبيه. توفي سنة (٣٥٣هـ). تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ٢/ ١٣٠، والسير ١٦/ ١١٠.

(٣) أخرجه بهذا الإسناد إسحاق بن راهويه (١٠٥٩)، وعلقه البخاري عنه بإثر الحديث (٣٦٨٩).

(٤) أخرجها أبو نعيم في دلائل النبوة (٥٢٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٢٥٣٧)، والبيهقي في الاعتقاد ص٢٠٣، وابن عساكر في تاريخه ٢٠/ ٢٤ - ٢٦. وحسن إسناده ابن كثير وابن حجر رحمهما الله، وينظر تفصيل الكلام فيه في البداية والنهاية ١٠/ ١٧٣ - ١٧٦، والإصابة ٤/ ٩٧ - ٩٨.

أنه لا يجوز أن يقال نبيٌّ حتى يكون مرسَلاً. والدليلُ على صحة هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فأوجب للنبيِّ الرسالةَ. وأنَّ معنى «نَبيّ»: أنبأ عن الله عزَّ وجلَّ، ومعنى أنبأ[1] عن الله عزَّ وجلَّ الإرسالُ بعينه.

وقال الفرَّاء: الرسولُ الذي أُرسل إلى الخلق بإرسال جبريلَ عليه السلام إليه عِيَاناً، والنبيُّ الذي تكون نبوَّته إلهاماً أو مناماً، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً[2]. قال المهدوِيُّ: وهذا هو الصحيحُ، أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً.

وكذا ذكر القاضي عِياض في كتاب «الشِّفا»[3] قال: والصحيحُ والذي عليه الجمَّاءُ الغفيرُ[4] أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، واحتجَّ بحديث أبي ذرٍّ، وأنَّ الرسلَ من الأنبياء ثلاث مئة وثلاثةَ عَشَر، أوَّلُهم آدمُ، وآخِرُهم محمدٌ ﷺ[5].

والجهةُ الأخرى التي فيها الإشكالُ وهي:

الثالثة: الأحاديثُ المروِيَّة في نزول هذه الآية، وليس منها شيءٌ يصحُّ. وكان مما تموَّه[6] به الكفار على عوامِّهم قولُهم: حقُّ الأنبياء ألَّا يَعجِزوا عن شيءٍ، فلِم لا يأتينا محمدٌ بالعذاب وقد بالَغْنا في عداوته؟ وكانوا يقولون أيضاً: ينبغي ألَّا يجريَ عليهم سَهْوٌ وغلط، فبيَّن الربُّ سبحانه أنهم بَشَر، والآتي بالعذاب هو الله تعالى على

---

(١) في (ظ): وأن معنى النبي المنبأ عن الله عزَّ وجلَّ ومعنى الإنباء. . .، والمثبت من باقي النسخ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٢ - ١٠٣، والكلام منه.

(٢) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢٩، ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام دقيق في هذه المسألة ملخصه: أن النبي هو الذي ينبئه الله، وهو يُنبئ بما أنبأ اللهُ به، فإن أُرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه، فهو رسول، وأما إذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يرسَل هو إلى أحدٍ يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي وليس برسول. ينظر كتاب النبوات ص٢٥٥ .

(٣) ١/ ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): الجم الغفير. ويقال: جاؤوا جمًّا غفيراً، وجمَّ الغفير، وجمَّاءَ الغفير، والجمَّاءَ الغفير، وجمَّاءَ غفيراً، أي: جميعاً. القاموس (غفر).

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨) مطولاً، وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٦) في (ظ): موه.

ما يريد، ويجوز على البشر السَّهوُ والنِّسْيانُ والغلطُ؛ إلى أن يُحكم الله آياته. ويَنْسَخ حِيَل الشيطان.

روى اللَّيث عن يونس، عن الزُّهريِّ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فلمَّا بلغ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ سها فقال: إنَّ شفاعتهم تُرْتَجَى. فلقيَه المشركون والذين في قلوبهم مرضٌ، فسلَّموا عليه وفرحوا، فقال: «إنَّ ذلك من الشيطان». فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية[١]. قال النحاس[٢]: وهذا حديثٌ منقطِعٌ، وفيه هذا الأمرُ العظيم، وكذا حديثُ قتادةَ وزاد فيه: «وإنهنَّ لهنَّ الغَرَانِيق العُلا»[٣]. وأَقْطَعُ من هذا ما ذكره الواقديُّ عن كثير بن زيد، عن المطَّلب بن عبد الله قال: سجد المشركون كلُّهم إلَّا الوليد بنَ المغيرة؛ فإنه أخذ تراباً من الأرض، فرفعه إلى جبهته وسجد عليه، وكان شيخاً كبيراً، ويقال: إنه أبو أُحَيْحة سعيد بن العاص، حتى نزل جبريل عليه السلام، فقرأ عليه النبيُّ ﷺ [هذا]، فقال: «ما جئتك به»! وأنزل الله: ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. قال النحاس[٤]: وهذا حديثٌ منكَر منقطِعٌ، ولا سيما من حديث الواقديّ. وفي البخاريِّ أنَّ الذي أخذ قبضةً من تراب ورفعها إلى جبهته هو أمية بنُ خلف[٥]. وسيأتي تمامُ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٥ - ٤٢٦، والناسخ والمنسوخ له ١/ ٤٤٨ و ٢/ ٥٢٧، وأخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٨ - ٦٠٩ من طريق يونس بهذا الإسناد.

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٢٨، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه الطبري مطولاً ١٦/ ٦١٢.

(٤) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٢٩، وخبر الواقدي أخرجه مطولاً ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٠٥، والواقدي متروك كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٥) صحيح البخاري (٤٨٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، ولفظه: أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد مَن خَلْفَه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف. وأخرجه بنحوه أحمد (٣٦٨٢)، ومسلم (٥٧٦) بنحوه، وليس فيه اسم الذي لم يسجد.

كلام النحاس على الحديث ـ إن شاء الله ـ آخِرَ الباب.

قال ابن عطية[١]: وهذا الحديثُ ـ الذي فيه: هي الغرانقة[٢] العلا ـ وقع في كتب التفسير ونحوِها، ولم يُدْخِله البخاريُّ ولا مسلمٌ، ولا ذَكَره في علمِي مصنَّفٌ مشهورٌ، بل يقتضي مذهبُ أهلِ الحديث أنَّ الشيطان ألقَى، ولا يعيِّنون هذا السببَ ولا غيره. ولا خلافَ أنَّ إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظٍ مسموعة، بها وقعت الفتنة .

ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء، فالذي في التفاسير ـ وهو مشهورُ القول ـ أنَّ النبيَّ ﷺ تكلَّم بتلك الألفاظ على لسانه. وحدَّثني أبي ﷺ أنه لَقِيَ بالشرق من شيوخ العلماء والمتكلِّمين مَن قال: هذا لا يجوز على النبيِّ ﷺ وهو المعصومُ في التبليغ، وإنَّما الأمرُ أنَّ الشيطان نَطَقَ بلفظٍ أسمعه الكفارَ عند قول النبيِّ ﷺ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، وقرَّب صوته من صوت النبيِّ ﷺ حتى الْتَبَس الأمرُ على المشركين وقالوا: محمدٌ قرأها. وقد روي نحوُ هذا التأويل عن الإمام أبي المَعَالي.

وقيل: الذي ألقى شيطانُ الإنس؛ كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]. قتادة: هو ما تلاه ناعساً[٣].

وقال القاضي عِياض في كتاب «الشِّفا»[٤]؛ بعد أن ذكر الدليل على صِدْق النبيِّ ﷺ، وأنَّ الأمة أجمعت فيما طريقُه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيءٍ بخلافِ ما هو عليه، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً[٥]: اعلم ـ أكْرمكَ الله ـ أنَّ لنا في الكلام على مُشْكِلِ هذا الحديث مأخذين: أحدهما في توهين أصله، والثاني على تسليمه:

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ١٢٩ .

(٢) في (د) و(م): الغرانيق، وهما روايتان كما ذكر ابن عطية بعد ذلك.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٣٥ ، وأخرجه مطولاً ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٨ .
قال القاضي عياض في الشفا ٢/ ٢٩٨ : وهذا لا يصح؛ إذ لا يجوز على النبي ﷺ مثله في حالة من أحواله، ولا يخلقه الله على لسانه، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة.

(٤) ٢/ ٢٨٩ .

(٥) في (خ) و(ز) و(ظ): أو غلطاً، وفي (د) و(م): وغلطاً، والمثبت من الشفا ٢/ ٢٨٥ .

أمَّا المأخذُ الأوّل؛ فيكفيك أنَّ هذا حديثٌ لم يخرِّجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسندٍ سليمٍ متَّصِلٍ ثقةٌ؛ وإنَّما أُولِع به وبمثله المفسِّرون والمؤرخون المولَعون بكلِّ غريب، المتلقِّفون من الصحف كلَّ صحيحٍ وسقيم. قال أبو بكر البزَّار: وهذا الحديثُ لا نعلمه يُروى عن النبيِّ ﷺ بإسنادٍ متَّصِلٍ يجوزُ ذكره، إلَّا ما رواه شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فيما أحسب ـ الشكُّ في الحديث ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان بمكة... وذكر القصة. ولم يُسنده عن شعبةَ إلَّا أمية بنُ خالد، وغيرُه يُرسلُه عن سعيد بن جبير. وإنَّما يُعرفُ عن الكلبيِّ عن أبي صالح عن ابن عباس(١).

فقد بيَّن لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يُعرف من طريقٍ يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبَّه عليه مع وقوع الشكِّ فيه الذي(٢) ذكرناه، الذي لا يُوثَق به ولا حقيقةَ معه. وأمَّا حديثُ الكلبيِّ فمما لا تجوز الروايةُ عنه ولا ذِكْره؛ لقوّة ضَعْفِه وكذبه، كما أشار إليه البزَّار رحمه الله. والذي منه في الصحيح: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ: «والنجم» بمكةَ، فسجد، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنس(٣)؛ هذا توهينُه من طريق النقل.

---

(١) كشف الأستار (٢٢٦٣)، دون قوله: ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، فهو من الشفا. والحديث أخرجه أيضاً بالإسناد المذكور الطبراني في الكبير (١٢٤٥٠).

(٢) في الشفا: كما.

(٣) أخرجه البخاري (١٠٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقد سلف نحوه من حديث ابن مسعود ﷺ. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرانيق، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح. اهـ. وقال الرازي ٢٣/ ٥٠ : أما أهل التحقيق فقد قالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول... وروي عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال: هذا وضعٌ من الزنادقة، وصنف فيه كتاباً. وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم. اهـ

وأما رد الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٤٣٩ على القاضي عياض وابن العربي في توهينهما لهذه القصة، وقوله: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً. فقد قال الآلوسي رحمه الله في تفسيره ١٧/ ١٨٢ : لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد؛ فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلَّاء عارفون بالغث والسمين من الأخبار، وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحقِّ فيه فلم يرووه إلا مردوداً... ويغلب على الظن أنهم وقفوا على رواته في سائر الطرق فرأوهم مجروحين، وفات ذلك القائلَ بالقبول.

وأما المأخذُ الثاني فهو مَبْنيٌّ على تسليم الحديث لو صحّ. وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كلِّ حالٍ فقد أجاب أئمةُ المسلمين عنه بأجوبة؛ منها الغَثّ والسَّمين. والذي يظهر ويترجَّح في تأويله ـ على تسليمه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ كان كما أمره ربُّه يرتِّلُ القرآن ترتيلاً، ويفصِّل الآيَ تفصيلاً في قراءته، كما رواه الثقات عنه، فيمكن ترصُّد الشيطان لتلك السَّكتات ودسُّه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات، مُحاكياً نغمةَ النبيِّ ﷺ بحيث يسمعه مَن دنا إليه من الكفار، فظنُّوها من قول النبيِّ ﷺ وأشاعوها. ولم يَقْدَحْ ذلك عند المسلمين؛ لحِفْظِ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله، وتَحقُّقِهم من حالِ النبيِّ ﷺ في ذمِّ الأوثان وعَيْبِها ما عُرف منه، فيكون ما رُويَ من حزن النبيِّ ﷺ لهذه الإشاعةِ والشُبهة وسببِ هذه الفتنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآية[1].

قلت: وهذا التأويلُ أَحْسَنُ ما قيل في هذا، وقد قال سليمان بن حرب: إنَّ «في» بمعنى عند، أي: ألقى الشيطان في قلوب الكفار عند تلاوةِ النبيِّ ﷺ، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا﴾ [الشعراء:١٨] أي: عندنا. وهذا هو معنى ما حكاه ابن عطية عن أبيه عن علماء الشرق، وإليه أشار القاضي أبو بكر بنُ العربي، وقال قبله: إنَّ هذه الآيةَ نصٌّ في غرضنا، دليلٌ على صحة مذهبنا، أصلٌ في براءة النبيِّ ﷺ مما يُنْسَب إليه أنه قاله، وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: في تلاوته. فأخبر الله تعالى أنَّ مِن سنَّته في رسله وسيرتِه في أنبيائه إذا قالوا عن الله تعالى قولاً زاد الشيطان فيه مِن قِبَلِ نَفْسِه كما يَفْعَل سائرَ المعاصي، تقول: ألقيتُ في الدار كذا، وألقيتُ في الكيس كذا. فهذا نصٌّ في الشَّيطان أنه زاد في الذي قاله النبيُّ ﷺ، لا أنَّ النبيَّ ﷺ تكلَّمَ به. ثم ذَكَر معنى كلامِ عياض إلى أن قال: وما هُدِي لهذا إلَّا الطبريُّ لجلالة قَدْرِه وصفاءِ فِكْرِه، وسَعَةِ باعِه

---

(١) الشفا ٢/٢٩٨ - ٣٠١.

في العلم، وشِدَّة ساعده في النَّظَر، وكأنه أشار إلى هذا الغرض، وصوَّب على هذا المرمى، وقَرْطَسَ بعد ما ذَكَر في ذلك رواياتٍ كثيرةً كلُّها باطلٌ لا أصلَ لها، ولو شاء ربُّك لَمَا رواها أحدٌ ولا سَطرها، ولكنه فعَّالٌ لِمَا يريد[١].

وأمَّا غيرُه من التأويلات مِمَّا[٢] حكاه قومٌ: أنَّ الشيطان أكرهه حتى قال كذا، فهو مُحال؛ إذ ليس للشيطان قدرةٌ على سَلْبِ الإنسان الاختيارَ، قال الله تعالى مُخبِراً عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ولو كان للشَّيطان هذه القدرةُ لَمَا بقي لأحدٍ من بني آدم قوّةٌ في طاعة[٣]، ومَن توَهَّم أنَّ للشيطان هذه القوّةَ[٤] فهو قولُ الثَّنَوِيَّة والمجوس في أنَّ الخير من الله والشرَّ من الشيطان.

ومَن قال: جرى ذلك على لسانه سهواً؛ قال: لا يَبْعُدُ أنه كان سمع الكلمتين من المشركين وكانتا على حِفْظِه، فجرى عند قراءة السورةِ ما كان في حِفْظِه سهواً، وعلى هذا يجوز السَّهْوُ عليهم ولا يُقَرُّون عليه، وأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآيةَ تمهيداً لعُذْرِه وتسليةً له؛ لئلَّا يقال: إنه رجع عن بعض قراءته. وبَيَّن أنَّ مثلَ هذا جرى على الأنبياء سهواً، والسَّهوُ إنَّما ينتفي عن الله تعالى[٥].

وقد قال ابن عباس: إنَّ شيطاناً يقال له: الأبيض، كان قد أتى رسولَ الله ﷺ في صورة جبريلَ عليه السلام، وألقى في قراءة النبيِّ ﷺ: تلك الغرانيقُ العُلا، وإن

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٠ - ١٢٩١ ، وينظر تفسير الطبري ١٦/ ٦١٠ - ٦١١ ، وليس في كلامه ما يشير إلى ما نسبه إليه ابن العربي.

(٢) في (د) و(م): فما.

(٣) وينظر أيضاً هذا القول والردود عليه في تفسير الرازي ٢٣/ ٥٣ .

(٤) في (ظ): القدرة.

(٥) قال القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٠٢ ردًّا على هذا القول: وهذا السهو في القراءة إنما يصح فيما ليس طريقه تغييرَ المعاني، وتبديلَ الألفاظ، وزيادةَ ما ليس في القرآن، بل السهو عن إسقاط آية منه أو كلمة، ولكنه لا يقَرُّ على هذا السهو، بل ينبَّه عليه، ويذكَّر به للحين.

شَفَاعتهنَّ لتُرْتَجَى. وهذا التأويلُ وإن كان أشْبهَ ممَّا قَبْلَه(١)، فالتأويلُ الأوّلُ عليه المعوَّل، فلا يُعدَل عنه إلى غيره لاختيارِ العلماء المحقِّقين إياه.

وضَعْفُ الحديثِ مُغْنٍ عن كلِّ تأويل، والحمد لله. وممَّا يدلُّ على ضَعْفِه أيضاً وتَوْهينِه من الكتاب قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] الآيتين؛ فإنهما تَردَّان الخبر الذي روَوْه؛ لأنَّ الله تعالى ذَكَر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتريَ، وأنه لولا أنْ ثبَّته لكان(٢) يركَنُ إليهم. فمضمونُ هذا ومفهومُه أنَّ الله تعالى عَصَمَه من أن يفتريَ، وثبَّته حتى لم يركنْ إليهم قليلاً، فكيف كثيراً. وهم يروُون في أخبارهم الواهيةِ أنه زاد على الركون والافتراءِ بمدحِ آلهتهم، وأنه قال عليه الصلاة والسلام: افتريتُ على الله وقلتُ ما لم يَقُل. وهذا ضدُّ مفهومِ الآية، وهي تُضعِّفُ الحديثَ لو صحّ، فكيف ولا صحةَ له. وهذا مِثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ [النساء: ١١٣] قال القُشَيْريُّ: ولقد طالبتْه قريشٌ وثَقِيفٌ إذ مرَّ بآلهتهم أن يُقبِلَ بوجهه إليها، ووعدوه بالإيمان به إن فعل ذلك، فما فَعَلَ، ولا كان لِيَفْعَلَ! قال ابن الأنباريِّ: ما قارَبَ الرسول ولا رَكَن(٣). وقال الزجاج(٤): أي: كادوا، ودخلت «إنْ» واللام للتأكيد.

وقد قيل: إنَّ معنى «تمنَّى»: حدَّث، لا «تلا»؛ روي عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ قال: إلَّا إذا حدَّث ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قال: في حديثه ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ قال: فيُبْطِلُ الله ما يلقي

(١) وقد ردَّ هذا القول الإمامُ الرازي في تفسيره ٢٣/ ٥٣ بعد أن ذكر خبر ابن عباس بقوله: هذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث!!

(٢) في الشفا ٢/ ٢٩٦ (والكلام منه): لكاد.

(٣) الشفا ٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٥٣ .

الشيطان. قال النحاس[١]: وهذا من أَحْسَنِ ما قيل في الآية وأعلاه وأجلِّه. وقد قال أحمد بن محمد بن حنبل: بمصرَ صحيفةٌ في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رَحَلَ رجلٌ فيها إلى مصرَ قاصداً، ما كان كثيراً.

والمعنى عليه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا حدّثَ نفسَه ألقَى الشيطان في حديثه على جهة الحيْطة، فيقول: لو سألتَ الله عزَّ وجلَّ أن يغنِّمك ليتَّسعَ المسلمون. ويَعْلَمُ الله عزَّ وجلَّ أنَّ الصلاح في غير ذلك، فيُبْطِلُ ما يلقي الشيطانُ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. وحَكَى الكسائيُّ والفرَّاء جميعاً: «تمنَّى»: إذا حدَّث نفسه، وهذا هو المعروفُ في اللغة. وحَكَيَا أيضاً: «تمنَّى»: إذا تلا[٢]. وروي عن ابن عباس أيضاً، وقاله مجاهدٌ والضحَّاك وغيرهما[٣].

وقال أبو الحسن بنُ مَهْدي[٤]: ليس هذا التمنِّي من القرآن والوحيِ في شيء، وإنما كان النبيُّ ﷺ إذا صَفِرَتْ يداه من المال، ورأى ما بأصحابه من سوء الحال، تمنَّى الدنيا بقلبه ووسوسةِ الشيطان.

وذكر المهدويُّ عن ابن عباس أنَّ المعنى: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه؛ وهو اختيارُ الطبريّ[٥].

قلت: قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ الآية، يردُّ حديثَ النَّفْس، وقد قال ابن عطية: لا خلافَ أنَّ إلقاء الشيطان إنَّما هو لألفاظٍ مسموعة، بها وقعت الفتنة[٦]، فالله أعلم.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤ ، وما قبله منه، وخبر ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٦/ ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٤ ، وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٩ .

(٣) أخرجه عن مجاهد والضحاك الطبري ١٦/ ٦١٠ ، وذكره عن ابن عباس الواحدي ٣/ ٢٧٦ .

(٤) هو علي بن محمد بن مهدي، وقد سلفت ترجمته ٩/ ٣٢٦ .

(٥) في تفسيره ١٦/ ٦١٠ ، وسلف قريباً خبر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٩ ، وسلف ص٤٢٦ من هذا الجزء .

قال النحاس[١]: ولو صحَّ الحديثُ واتَّصل إسنادُه؛ لكان المعنى فيه صحيحاً، ويكون معنى سها: أَسْقَطَ[٢]. ويكون تقديره: أفرأيتم اللَّاتَ والعُزَّى، وتمَّ الكلام. ثم أَسْقَط: والغرانيقَ العلا؛ يعني الملائكةَ. فإنَّ شفاعتهم، يعود الضمير على الملائكة. وأمَّا مَن رَوَى: فإنَّهن الغرانيقُ العلا، ففي روايته أجوبةٌ؛ منها: أنْ يكون القولُ محذوفاً كما تَستعمل العرب في أشياءَ كثيرة. ويجوز أن يكون بغير حذفٍ، ويكون توبيخاً؛ لأنَّ قبله: «أفرأيتم»، ويكون هذا احتجاجاً عليهم، فإنْ كان في الصلاة فقد كان الكلام مباحاً في الصلاة.

وقد رُويَ في هذه القصةِ أنه كان ممَّا يُقرأ: أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى، ومناةَ الثالثةَ الأُخرى، والغَرانِقَةَ العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرْتَجَى. رُوي معناه عن مجاهد[٣]. وقال الحسن: أراد بالغرانيق العُلا الملائكةَ[٤]، وبهذا فسَّر الكلبيُّ الغرانقةَ أنَّها الملائكة. وذلك أنَّ الكفار كانوا يعتقدون [أنَّ] الأوثان والملائكةَ بناتُ الله، كما حَكى الله تعالى عنهم، وردَّ عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]. فأنكر الله كلَّ هذا من قولهم. ورجاءُ الشفاعة من الملائكة صحيحٌ، فلمَّا تأوَّله المشركون على أنَّ المراد بهذا الذِّكر آلهتُهم، ولبَّس عليهم الشيطان بذلك؛ نَسَخَ الله ما ألقَى الشيطان، وأَحْكَم الله آياتِه، ورَفَع تلاوة تلك اللفظتين اللَّتين وَجد الشيطان بهما سبيلاً للتلبيس، كما نُسخ كثيرٌ من القرآن؛ ورُفعت تلاوته[٥].

قال القُشَيريُّ: وهذا غيرُ سديد؛ لقوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: يُبْطله، وشفاعةُ الملائكةِ غيرُ باطلة.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٣.

(٢) يشير إلى خبر الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن، والذي فيه: سها، وقد سلف ص٤٢٥ من هذا الجزء.

(٣) ذكره القاضي عياض في الشفا ٢/ ٣٠٢، وذكره الرازي ٢٣/ ٥٣ دون نسبة.

(٤) ذكره عن الحسن الماورديُّ في النكت والعيون ٤/ ٣٥.

(٥) الشفا ٢/ ٣٠٢ - ٣٠٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «عليم» بما أوحى إلى نبيِّه ﷺ. «حكيم» في خَلْقِه.

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ أي: ضلالة ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شرك ونفاق، ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا تَلينُ لأمر الله تعالى. قال الثعلبيُّ: وفي الآية دليلٌ على أنَّ الأنبياء يجوز عليهم السَّهوُ والنسيانُ والغلطُ بوسواسِ الشيطان، أو عند شَغْل القلب حتى يغلَط، ثم يُنَبَّه ويرجع إلى الصحيح، وهو معنى قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾. ولكن إنَّما يكون الغلطُ على حَسَبِ ما يغلَط أحدُنا، فأمَّا ما يضافُ إليه من قولهم: تلك الغرانيق العلا، فكذِبٌ على النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ فيه تعظيمَ الأصنام، ولا يجوز ذلك على الأنبياء، كما لا يجوز أن يَقْرأ بعضَ القرآن ثم يُنشد شعراً، ويقول: غلِطتُ وظننتُه[1] قرآناً.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: الكافرين لفي خلافٍ وعصيانٍ ومُشاقَّةٍ لله عزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ. وقد تقدَّم في «البقرة»[2] والحمد لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: من المؤمنين. وقيل: أهل الكتاب. ﴿أَنَّهُ﴾ أي: إنَّ الذي أُحكم من آيات القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشعَ وتَسْكُنَ. وقيل: تَخْلُص. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قرأ أبو حَيْوَةَ: «وإنَّ اللهَ لَهادٍ الذين آمنوا» بالتنوين[3]. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

---

(١) في (ظ): أو ظننته.

(٢) ٢/ ٤١٩.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٦.

أي: يثبّتهم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ يعني في شكٍّ من القرآن؛ قاله ابن جُريج. وغيرُه: من الدِّين، وهو الصراط المستقيم[(١)].

وقيل: ممَّا ألقى الشيطان على لسانِ محمدٍ ﷺ، ويقولون: ما بالُه ذَكَرَ الأصنامَ بخيرٍ ثم ارتدَّ عنها؟

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلميُّ: «في مُرْيةٍ» بضمِّ الميم، والكسرُ أعْرفُ؛ ذكره النحاس[(٢)].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ قال الضحَّاك: عذابُ يومٍ لا ليلةَ له، وهو يومُ القيامة[(٣)]. النحاس[(٤)]: سمِّي يومُ القيامة عقيماً لأنه ليس يُعْقِبُ بعدَه يوماً مثلَه؛ وهو معنى قولِ الضحَّاك.

والعقيمُ في اللغة عبارةٌ عمَّن لا يكون له ولد، ولمَّا كان الولد يكون بين الأبوين، وكانت الأيامُ تتوالى قبلُ وبعدُ؛ جُعل الإتْباع فيها بالبَعْدية كهيئة الولادة، ولمَّا لم يكن بعد ذلك اليومِ يومٌ؛ وُصف بالعقيم.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادةُ: المراد عذابُ يومِ بدر[(٥)]، ومعنى «عقيم»: لا مِثْلَ له في عِظَمِه؛ لأنَّ الملائكة قاتلتْ فيه. ابن جُريج: لأنهم لم يُنظَروا فيه إلى

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٥ ، وقول ابن جريج أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٥ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤ .

(٣) أخرجه الطبري ١٦/ ٦١٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٤ .

(٥) الوسيط ٣/ ٢٧٧ ، وأخرجه عن مجاهد وقتادة الطبري ١٦/ ٦١٦ - ٦١٧ .

الليل، بل قُتلوا قبل المساء، فصار يوماً لا ليلةَ له[١]. وكذلك يكون معنى قولِ الضحَّاك أنه يومُ القيامة؛ لأنه لا ليلةَ له. وقيل: لأنه لم يكن فيه رأفةٌ ولا رحمةٌ، وكان عقيماً من كلِّ خير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١] أي: التي لا خيرَ فيها، ولا تأتي بمطرٍ ولا رحمة.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يوم القيامة هو لله وحدَه لا مُنازِعَ له فيه ولا مُدَافِع. والمُلْكُ هو اتساعُ المقدور لمن له تدبير الأمور. ثم بيَّن حُكْمه فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ . وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

قلت: وقد يَحتمِلُ أن تكون الإشارة بـ«يومَئِذ» ليوم بَدْر، وقد حَكَم فيه بإهلاك الكافر وسعادةِ المؤمن، وقد قال عليه الصلاة والسلام لعمرَ: «وما يدريكَ لعلَّ الله اطَّلعَ على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

أفردَ ذِكْرَ المهاجرين الذين ماتوا وقُتلوا تفضيلاً لهم وتشريفاً على سائر الموتى.

وسببُ نزولِ هذه الآيةِ أنه لمَّا مات بالمدينة عثمان بنُ مَظْعُون وأبو سلمة بنُ عبد الأسد قال بعض الناس: مَن قُتل في سبيل الله أفضلُ ممن مات حَتْفَ أنفِه، فنزلت

(١) أخرجه الطبري ١٦/٦١٦ ، وذكره البغوي ٣/ ٢٩٥ .

(٢) أخرجه أحمد (٦٠٠)، والبخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وسلف ١٠/ ٧٨ .

هذه الآية مُسَوِّيَةً بينهم، وأنَّ الله يرزق جميعَهم رزقاً حسناً. وظاهِرُ الشريعةِ يدلُّ على أنَّ المقتول أفضلُ. وقد قال بعضُ أهل العلم: إنَّ المقتول في سبيل الله والميتَ في سبيل الله شهيد؛ ولكنْ للمقتول مَزِيَّةٌ ما أصابه في ذات الله[١].

وقال بعضهم: هما سواءٌ، واحتجَّ بالآية، وبقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، وبحديث أمِّ حَرام؛ فإنها صُرعت عن دابَّتها، فماتت ولم تُقتل، وقال لها النبيُّ ﷺ: «أنتِ من الأوَّلين»[٢]، وبقول النبيِّ ﷺ في حديث عبد الله بن عَتيك: «مَن خَرَج من بيته مجاهداً[٣] في سبيل الله، فخرَّ عن دابَّته فمات، أو لدغته حيةٌ فمات، أو مات حَتْفَ أَنْفِه، فقد وقع أجرُه على الله، ومَن مات قَعْصاً فقد استَوْجَبَ المآب»[٤].

وذكر ابن المبارك عن فَضالةَ بن عبيد في حديثٍ ذَكَر فيه رجلين؛ أحدُهما أصيبَ في غَزاةٍ بِمَنْجَنيقٍ فمات، والآخَرُ مات هناك، فجلس فَضالةُ عند الميت، فقيل له: تركتَ الشهيد ولم تجلس عنده؟! فقال: ما أبالي من أيِّ حفرتيهما بُعثتُ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟﴾ الآيةَ كلَّها[٥].

وقال سليمان بن عامر: كان فَضالةُ برُودِس أميراً على الأرباع، فخُرِج بجنازتي رجلين، أحدُهما قتيلٌ والآخَر متوَفًّى؛ فرأى مَيْلَ الناس مع جنازة القتيل إلى حفرته،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٠.

(٢) التمهيد ١/ ٢٣٥ - ٢٣٦، والحديث أخرجه أحمد (٢٧٠٣٢)، والبخاري (٢٧٨٨، ٢٧٨٩)، ومسلم (١٩١٢) مطولاً من حديث أم حرام رضي الله عنها.

(٣) في (د) و(م): مهاجراً.

(٤) التمهيد ١/ ٢٣٦، وأخرجه أحمد (١٦٤١٤) مطولاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٢٧٦ - ٢٧٧: فيه محمد بن إسحاق مدلس، وبقية رجاله ثقات. قلنا: وفيه محمد بن عبد الله بن عتيك، وهو مجهول الحال. ينظر الميزان ٣/ ٥٩٥. قوله: قَعْصاً، القَعْص: أن يُضرب الإنسان فيموت مكانه، وأراد بوجوب المآب: حُسْنَ المَرْجِع بعد الموت. النهاية (قعص).

(٥) الجهاد لابن المبارك (٦٦)، والكلام من التمهيد ١/ ٢٣٦.

فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل! فوالذي نفسي بيده، ما أبالي من أيِّ حفرتيهما بُعثت، اقرؤوا قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾[(١)]. كذا ذكره الثعلبيُّ في تفسيره، وهو معنًى ما ذكره ابن المبارك.

واحتجَّ مَن قال: إنَّ للمقتول زيادةَ فضلٍ بما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «مَن أُهْرِيق دمُه وعُقر جوادُه». وإذا كان مَن أهريق دمُه وعُقر جوادُه أفضلَ الشهداءِ؛ عُلم أنه مَن لم يكن بتلك الصفة مَفْضُول[(٢)].

وقرأ ابن عامر وأهل الشام: ﴿قُتِّلوا﴾ بالتشديد على التكثير. الباقون بالتخفيف[(٣)].

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ أي: الجِنان. قراءةُ أهل المدينة: ﴿مَدخلًا﴾ بفتح الميم، أي: دخولاً. وضمَّها الباقون[(٤)]، وقد مضى في «سبحان»[(٥)]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ قال ابن عباس: عليمٌ بنيَّاتهم، حليمٌ عن عقابهم[(٦)].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ «ذلك» في موضعِ رَفْعٍ، أي: ذلك الأمرُ الذي قَصَصْنا عليك. قال مقاتل: نزلت في قوم من مشركي مكةَ؛ لَقُوا قوماً من المسلمين

---

(١) أخرجه الطبري ٦١٩/١٦ . ورُودِس؛ بضم أوله وكسر الدال: جزيرة مقابل الإسكندرية، وقد غزاها معاوية هي وقبرس. معجم البلدان ٧٨/٣ .

(٢) التمهيد ٢٣٦/١ - ٢٣٧ ، والحديث أخرجه أحمد (١٥٤٠١)، وأبو داود (١٤٤٩)، والنسائي في المجتبى ٥٨/٥ من حديث عبد الله بن حُبْشي الخثعمي. وأخرجه أحمد (١٤٢١١) من حديث جابر ﷺ.

(٣) السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص٩١ .

(٤) قرأ نافع: «مَدْخلاً» بفتح الميم، والباقون بضمِّها. السبعة ص٤٣٩ ، والتيسير ص٩٥ .

(٥) ١٥٢/١٣ - ١٥٣ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٢٧٨/٣ دون نسبة.

لِلَيْلتين بقيتا من المحرَّم فقالوا: إنَّ أصحاب محمدٍ يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم؛ فناشدهم المسلمون ألَّا يقاتلوهم في الشهر الحرام؛ فأبى المشركون إلَّا القتال، فحملوا عليهم، فثبت المسلمون ونَصَرهم الله على المشركين، وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيءٌ؛ فنزلت هذه الآية(١).

وقيل: نزلت في قومٍ من المشركين، مثَّلوا بقومٍ من المسلمين قتلوهم يومُ أُحُدٍ، فعاقبهم رسول الله ﷺ بمِثْلِه(٢).

فمعنى «مَن عاقب بمثل ما عوقب به» أي: مَن جازَى الظالمَ بمثل ما ظَلَمه، فسمَّى جزاءَ العقوبة عقوبةً لاستواء الفعلين في الصورة، فهو مثلُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، ومثل: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقد تقدَّم(٣).

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾ أي: بالكلام والإزعاج من وطنه؛ وذلك أنَّ المشركين كذَّبوا نبيَّهم وآذَوْا مَن آمَن به، وأخرجوه وأخرجوهم من مكة، وظاهَروا على إخراجهم.

﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: لينصرَنَّ الله محمداً ﷺ وأصحابه، فإنَّ الكفار بَغَوْا عليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ أي: عفا عن المؤمنين ذنوبَهم وقتالَهم في الشهر الحرام وسَتَر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي: ذلك الذي

---

(١) ذكره أبو الليث ٢/ ٤٠٢، وابن الجوزي ٥/ ٤٤٦، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٤/ ٣٦٩.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٣٧.

(٣) ٣/ ٢٥٠ - ٢٥١.

قصصتُ عليك من نَصْرِ المظلوم هو بأنّي أنا الذي أُوْلج الليل في النهار، فلا يقدرُ أحدٌ على ما أَقْدِرُ عليه، أي: مَن قَدَرَ على هذا قَدَرَ على أن ينصر عبدَه. وقد مضى في «آل عمران» معنى يولج الليلَ في النهار[1]. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يسمع الأقوال ويُبصر الأفعال، فلا يَعْزُب عنه مثقالُ ذرَّةٍ ولا دبِيبُ نملةٍ إلَّا يعلمها ويسمعها ويُبصرها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذو الحق؛ فَدِينُه الحقُّ، وعبادته حقٌّ[2]. والمؤمنون يستحِقُّون منه النصر بحكم وعدِه الحقِّ. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: الأصنام التي لا استحقاقَ لها في العبادات.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر: «وأنَّ ما تدعون» بالتاء على الخطاب[3]، واختاره أبو حاتم. الباقون بالياء على الخبر هنا وفي لقمان[4]، واختاره أبو عبيد.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ أي: العالي على كلِّ شيءٍ بقدرته، والعالي عن الأشباه والأنداد[5]، المُتقدِّس[6] عما يقول الظالمون من الصفات التي لا تليق بجلاله. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: الموصوف بالعظمة والجلال وكِبرِ الشأن. وقيل: الكبير: ذو الكبرياء. والكبرياء: عبارةٌ عن كمال الذات، أي: له الوجودُ المُطلَقُ أبداً وأزلاً، فهو الأول القديم[7]، والآخِر الباقي بعد فناء خلقه.

---

(١) ٥/٨٦.
(٢) الوسيط ٣/٢٧٨.
(٣) السبعة ص٤٤٠، والتيسير ص١٥٨.
(٤) عند الآية (٣٠).
(٥) سبق التأكيد على أن الله عز وجل يثبت له أنواع العلوِّ الثلاثة: علو المكان، وعلو القدر والمنزلة، وعلو القهر.
(٦) في (م): المقدس.
(٧) لفظ (القديم) من الألفاظ التي أحدثها المتكلمون في أسماء الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ دليلٌ على كمال قدرته، أي: مَنْ قَدَر على هذا قَدَر على إعادة الحياة بعد الموت، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]. ومثلُه كثير.

«فتُصبِحُ» ليس بجوابٍ فيكون منصوباً، وإنما هو خبرٌ عند الخليل وسيبويه؛ قال الخليل: المعنى: انْتَبِه! أنزل الله من السماء ماءً فكان كذا وكذا، كما قال:

ألم تسألِ الرَّبْعَ القَوَاء فيَنْطِقُ   وهل تُخْبِرَنْكَ اليومَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ[(١)]

معناه: قد سألتَه فنطق. وقيل: استفهام تحقيق، أي: قد رأيتَ، فتأمل كيف تصبح. أو عطف، لأن المعنى: ألم تر أن الله يُنزل[(٢)]. وقال الفراء[(٣)]: «ألم تر» خبر، كما تقول في الكلام: إِعلم أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ينزل من السماء ماءً. «فتصبِحُ الأرضُ مَخْضَرَةً» أي: ذاتَ خُضرة؛ كما تقول: مَبْقَلة ومَسْبَعة؛ أي: ذاتَ بقلٍ وسباع[(٤)]. وهو عبارةٌ عن استعجالها إثر نزول الماء بالنبات، واستمرارِها كذلك عادةً. قال ابن عطية[(٥)]: ورُوي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلا بمكة وتِهامة. ومعنى هذا: أنه أخذ قوله: «فتُصبِحُ» مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار يتأخَّر في سائر البلاد، وقد شاهدتُ هذا في السوس الأقصى؛ نزل المطر ليلاً بعد قحطٍ أصبحت تلك الأرضُ الرملةُ التي نسفتها الرياح قد اخضرَّت بنباتٍ

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥ . والبيت لجميل بُثينة، وهو في ديوانه ص١٤٤ . الرَّبع: المنزل والدار. والقَواء، بالمد والقصر: القفر، ومنزل قَواء: لا أنيسَ به. والسملَّق: القاع المستوي الأجرد الذي لا شجر فيه. اللسان (ربع) و(قوا) و(سملق).

(٢) من قوله: وقيل استفهام تحقيق. . . إلى هذا الموضع، من (م).

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٢٩ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢٠ ، وهذه القراءة شاذة، وينظر الدر المصون ٨/ ٣٠٢ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ١٣١ ، وما قبله منه.

ضعيفٍ رقيق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ قال ابن عباس: «خبيرٌ» بما ينطوي عليه العبدُ من القنوط عند تأخير المطر. «لطيفٌ» بأرزاق عباده. وقيل: لطيفٌ باستخراج النبات من الأرض[(١)]، «خبيرٌ» بحاجتهم وفاقتهم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، وكلٌّ محتاجٌ إلى تدبيره وإتقانه. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فلا يحتاج إلى شيء، وهو المحمود في كلِّ حال[(٢)].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذكر نعمةً أخرى، فأخبر أنه سخَّر لعباده ما يحتاجون إليه من الدوابِّ والشجر والأنهار.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ أي: وسخَّر لكم الفلك في حال جَرْيِها[(٣)]. وقرأ عبد الرحمن الأعرج: «والفُلكُ» رفعاً على الابتداء وما بعده خبره. الباقون: بالنصب نسقاً على قوله: «ما في الأرض»[(٤)]. ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كراهية أن تقع.

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧٨ بنحوه.

(٢) في (ظ): زمان.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٧ .

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٣ . ونسب ابن خالويه القراءة في القراءات الشاذة ص٩٦ ، للأعرج والسلمي، وهو أبو عبد الرحمن، ووقع في (م): أبو عبد الرحمن الأعرج، وصواب العبارة عندئذ: أبو عبد الرحمن، والأعرج.

وقال الكوفيون: لئلَّا تقع[١]. وإمساكه لها خلق السكون فيها حالاً بعد حال. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ أي: إلا بإذن الله لها بالوقوع، فتقع بإذنه، أي: بإرادته وتخليته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: في هذه الأشياء التي سخَّرها لهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ أي: بعد أن كنتم نُطَفاً. ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي: للحساب والثواب والعقاب. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جَحودٌ لما ظهر من الآيات الدالَّة على قدرته ووحدانيته[٣]. قال ابن عباس: يريد الأسودَ بن عبد الأسد وأبا جهل بن هشام والعاص بن هشام وجماعةً من المشركين. وقيل: إنما قال ذلك؛ لأنَّ الغالبَ على الإنسان كفر النعم، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[٤] [سبأ: ١٣].

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: شرعاً ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: عاملون به[٥]. ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: لا يُنازعَنَّكَ أحدٌ منهم فيما يُشرَعُ لأمتك؛ فقد كانتِ الشرائعُ في كلِّ عصر.

وروت فرقةٌ أنَّ هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وقولهم

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٦٣.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٧٩، وزاد المسير ٥/ ٤٤٨.

(٣) الوسيط ٣/ ٢٧٩.

(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ٦٣ بمعناه.

(٥) الوسيط ٣/ ٢٧٩، ومجمع البيان ١٧/ ١٢٦ عن ابن عباس ﷺ.

للمؤمنين: تأكلون ما ذبحتم، ولا تأكلون ما ذبحَ اللهُ من الميتة، فكان ما قتلَ اللهُ أحقَّ أن تأكلوه مما قتلتُم أنتم بسكاكينكم، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة[١]. وقد مضى هذا في «الأنعام»[٢] والحمد لله. وقد تقدم في هذه السورة ما للعلماء في قوله تعالى: ﴿مَنسَكًا﴾[٣]. وقوله: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ يعطي: أنَّ المَنْسكَ المصدرُ، ولو كان الموضع لقال: هم ناسكون فيه[٤]. وقال الزجَّاج: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: فلا يُجادِلُنَّك. ودلَّ على هذا: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾. ويُقال: قد نازعوه، فكيف قال: «فلا يُنازِعُنَّك؟!» فالجواب أنَّ المعنى: فلا تُنازِعْهم أنتَ. نزلت الآية قبل الأمر بالقتال، تقول: لا يُضارِبَنَّك فلانٌ فلا تُضارِبْه أنتَ؛ فيجري هذا في باب المفاعلة. ولا يُقال: لا يَضْرِبَنَّكَ زيدٌ، وأنت تُريد: لا تضرِبْ زيداً. وقرأ أبو مِجْلَز «فلا يَنْزِعنَّكَ في الأمر» أي: لا يَسْتَخِفَّنَّكَ ولا يغلِبَنَّكَ عن دينك[٥]. وقراءة الجماعة من المنازعة. ولفظ النهي في القراءتين للكفار، والمراد النبيّ ﷺ.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى توحيده ودينه والإيمان به[٦]. ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أي: دين[٧]. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: قويمٍ لا اعْوِجاجَ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ أي: خاصموك يا محمد؛ يريد مشركي مكة. ﴿فَقُلِ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٢ .

(٢) ٩/ ٨ .

(٣) عند تفسير الآية (٣٤).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٢ .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٧ بمعناه. وقراءة أبي مجلز في الشاذة ص٩٦ .

(٦) زاد المسير ٥/ ٤٤٩ .

(٧) الوسيط ٣/ ٢٧٩ .

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يريد مِن تكذيبهم محمداً ﷺ؛ عن ابن عباس. وقال مُقاتل: هذه الآية نزلت على النبيِّ ﷺ ليلةَ الإسراء وهو في السماء السابعة لمَّا رأى من آيات ربِّه الكبرى، فأوحى الله إليه: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ بالباطل فادفعهم بقولك: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، فأمره الله تعالى بالإعراض عن مُماراتهم؛ صيانةً له عن الاشتغال بتعنُّتهم، ولا جواب لصاحب العِناد. ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يريد: بين النبيِّ ﷺ وقومِه. ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يريد: في خلافكم آياتي، فتعرفون حينئذٍ الحقَّ من الباطل(١).

مسألة: في هذه الآية أدبٌ حَسَنٌ علَّمه الله عبادَه في الردِّ على مَنْ جادل تعنُّتاً ومِراءً ألَّا يُجابَ ولا يُناظَرَ ويُدفَعَ بهذا القول الذي علَّمه الله لنبيِّه ﷺ. وقد قيل: إن هذه الآية منسوخةٌ بالسيف(٢)؛ يعني السكوت عن مخالِفه، والاكتفاء بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وإذ قد علمتَ يا محمدُ هذا وأيقنتَ؛ فاعلم أنه يعلم أيضاً ما أنتم مختلفون فيه، فهو يحكم بينكم. وقد قيل: إنه استفهام تقرير للغير(٣).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: كلُّ ما يجري في العالَم فهو مكتوبٌ عند الله في أمِّ الكتاب(٤).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إنَّ الفصل بين المختلفين على الله يسير. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٦٢٩، وتفسير البغوي ٣/ ٢٩٧، وتفسير الرازي ٢٣/ ٦٥.

(٢) زاد المسير ٥/ ٤٥٠.

(٣) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٧٩، ووقع في (ظ): استفهام تقريري.

(٤) بنحوه في تفسير الطبري ١٦/ ٦٢٩.

المعنى: إنَّ كتابَ القلم الذي أمره أن يكتب ما هو كائِنٌ إلى يوم القيامة على الله يسير[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ يريد كفارَ قريش. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حُجَّةً وبرهاناً[٢]. وقد تقدَّم في «آل عمران»[٣]. ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: الغضب والعُبوس. ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ أي: يبطشون[٤]. والسَّطوةُ: شِدَّةُ البطش[٥]؛ يقال: سطا به يسطو: إذا بطش به، كان ذلك بضربٍ أو بشتمٍ، وسطا عليه[٦]. ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾. وقال ابن عباس: يسطون: يبسطون إليهم أيديهم[٧]. محمد بن كعب: أي: يقعون بهم. الضحَّاك: أي:

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٦٣١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٣.

(٣) ٥/ ٣٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٨، وتفسير «يسطون» بـ «يبطشون» أخرجه الطبري ١٦/ ٦٣٣ عن ابن عباس ومجاهد.

(٥) تهذيب اللغة ٣/ ٢٤.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٣١ دون لفظة: «وسطا عليه» وهي في الوسيط للواحدي ٣/ ٢٨٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٢٨٠ من غير نسبة.

يأخذونهم أخذاً باليد[١]، والمعنى واحد. وأصل السَّطْو: القهر. والله ذو سَطَوات؛ أي: أخَذاتٍ شديدة. ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ﴾ أي: أكره من هذا القرآن الذي تسمعونه هو النار[٢]. فكأنهم قالوا: ما الذي هو شرٌّ؟ فقيل: هو النار[٣]. وقيل: أي هل أنبئكم بشرّ مما يلحق تالي القرآن منكم؟ هو النار[٤]. فيكون هذا وعيداً لهم على سَطَواتهم بالذين يتلون القرآن.

ويجوز في «النار» الرفع والنصب والخفض؛ فالرفع: على هو النار، أو: هي النار. والنصب بمعنى أعني، أو على إضمارِ فعلٍ مثلِ الثاني، أو يكون محمولاً على المعنى، أي: أُعرِّفكم بشرٍّ من ذلكم النارَ. والخفض على البدل[٥].

﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ في القيامة. ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: الموضع الذي يصيرون إليه، وهو النار.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾. وإنما قال: ﴿ضُرِبَ مَثَلٞ﴾ لأن حُجَجَ الله تعالى عليهم بضرب الأمثال لهم أقربُ إلى أفهامهم[٦]. فإن قيل: فأين المثَلُ المضروب؟ ففيه وجهان:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٢١ .
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٢٩٨ .
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٣٨ .
(٤) من قوله: وقيل: أي هل أنبئكم... إلى هذا الموضع، من (م).
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥ .
(٦) النكت والعيون ٤/ ٣٩ .

الأوّل: قال الأخفش: ليس ثَمَّ مثَلٌ، وإنما المعنى: ضربوا لي مثلاً فاستمعوا قولهم، يعني أن الكفار جعلوا لله مثلاً بعبادتهم غيره، فكأنَّه قال: جعلوا لي شبيهاً في عبادتي فاستَمَعوا خبر هذا الشبه[١].

الثاني: قول القُتَبيِّ: وأن المعنى: يا أيها الناس، مَثَلُ مَنْ عبدَ آلهةً لم تستطِعْ أن تخلُقَ ذباباً وإن سلبها الذبابُ شيئاً لم تستطِعْ أن تستنقِذَه منه[٢].

وقال النحاس: المعنى: ضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ مما يُعبَدُ من دونه مثلاً. قال: وهذا مِنْ أحسن ما قيل فيه[٣]، أي: بيَّنَ اللهُ لكم شبَهاً ولمعبودكم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قراءة العامة: «تدعون» بالتاء. وقرأ السُّلَمِيُّ وأبو العالِية ويعقوب: «يدعون» بالياء على الخبر[٤]. والمراد الأوثان الذين عبدوهم من دون الله، وكانت حول الكعبة، وهي ثلاث مئة وستون صنماً. وقيل: السادة الذين صرفوهم عن طاعة الله عزَّ وجلَّ. وقيل: الشياطين الذين حملوهم على معصية الله تعالى[٥]. والأوّل أصْوَبُ.

﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ الذباب: اسمُ واحدٍ للذكر والأنثى، والجمع القليل: أذِبَّة، والكثير ذِبَّان؛ على مثل: غُراب وأغْرِبة وغِرْبان؛ وسُمِّيَ به لكثرة حركته. الجوهري: والذُّباب معروفٌ، الواحدة ذُبابة، ولا تقل: ذِبَّانة. والمِذَبَّة ما يُذَبُّ به الذُّباب. وذُبَاب أسنان الإبل: حَدُّها. وذُباب السيف: طَرَفُه الذي يضرب به. وذُبابُ العين: إنسانها. والذُّبَابة: البقية من الدَّين. وذَبَّبَ النهارُ: إذا لم يبق منه إلا بقية. والتَّذبذُبُ: التحرُّكُ.

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٣٧ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ص٦٠ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٥ .

(٤) قراءة يعقوب من العشرة، وهي في النشر ٢/ ٣٢٧ .

(٥) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ٤٠ دون قوله: وكانت حول الكعبة، وهي ثلاث مئة وستون صنماً. وهو في الوسيط ٣/ ٢٨٠ ، ومجمع البيان ١٧/ ١٢٩ .

والذَّبْذَبةُ: نَوْسُ الشيء المُعلَّقِ في الهواء. والذَّبْذَبُ: الذَّكر؛ لتردُّده. وفي الحديث: «مَن وُقِيَ شَرَّ ذَبْذَبِه»[1]. وهذا مما لم يذكُرْه، أعني قوله: وفي الحديث[2].

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ الاستنقاذ والإنقاذ: التخليص. قال ابن عباس: كانوا يَطْلُون أصنامَهم بالزَّعفران فتجِفُّ، فيأتي فيختلِسُه. وقال السُّدِّي: كانوا يجعلون للأصنام طعاماً، فيقعُ عليه الذبابُ فيأكله[3].

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ قيل: الطالب: الآلهةُ، والمطلوب: الذبابُ. وقيل بالعكس[4]. وقيل: الطالب: عابدُ الصنم، والمطلوبُ: الصنم؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرُّب إليه، والصنم المطلوب إليه[5]. وقد قيل: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ راجِعٌ إلى ألمه في قَرْصِ أبدانهم حتى يسلبهم الصبرَ لها والوقارَ معها.

وخَصَّ الذبابَ لأربعة أمورٍ تخُصُّه: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته[6]، فإذا كان هذا الذي هو أضعفُ الحيوان وأحقرُه لا يقدِرُ مَنْ عبدوه من دون الله عزَّ وجلَّ على خَلْقِ مثلِه ودَفْعِ أذيَّته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهةً معبودين، وأرباباً مطاعين؟! وهذا من أقوى حجةٍ وأوضحِ برهان.

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عظَّموه حقَّ عظمته؛ حيث

---

(١) الصحاح (ذبب) وقوله: «من وُقيَ شرَّ ذبذبه» ليس بحديث، وقد أخرجه ابن قتيبة في غريب الحديث ١/ ١٧٠ من كلام أبي الأشهب العطاردي.

(٢) بل هو في الصحاح، ولعله ليس في نسخة المصنف.

(٣) ذكرهما الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٨٠ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٢٩٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٥٢ .

(٤) الوسيط ٣/ ٢٨٠ ونسب الأول إلى ابن عباس والكلبي، والثاني إلى الكلبي.

(٥) زاد المسير ٥/ ٤٥٢ ، ونسبه إلى الضحاك والسُّدِّيّ.

(٦) زاد المسير ٥/ ٤٥٢ ، وفيه ذكر أمور، لم يذكر: وضعفه.

جعلوا هذه الأصنام شركاء له[١]. وقد مضى في «الأنعام»[٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ ختم السورة بأنَّ الله اصطفى محمداً ﷺ لتبليغ الرسالة، أي: ليس بَعْثُه محمداً أمراً بِدْعِيًّا.

وقيل: إن الوليد بن المغيرة قال: أَوَ أُنزِلَ عليه الذِّكْرُ من بيننا؟ فنزلت الآية. وأخبر أنَّ الاختيار إليه سبحانه وتعالى[٤]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يختاره من خلقه لرسالته[٥]. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يريد ما قدَّموا. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْۗ﴾ يريد ما خلَّفوا[٦]، مثل قوله في يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ [الآية: ١٢] يريد ما بين أيديهم، ﴿وآثارَهم﴾: يريد ما خلَّفوا. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ تقدَّم في أوَّلِ السورة أنها فُضِّلتْ بسجدتين، وهذه السجدة الثانية لم يرَها مالكٌ وأبو حنيفة من العزائم؛ لأنه

(١) الوسيط ٣/ ٢٨٠، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٥، وزاد المسير ٥/ ٤٥٣.

(٢) ٨/ ٤٥٤.

(٣) عند تفسير الآية (٤٠) من هذه السورة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٤.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٥.

(٦) الوسيط ٣/ ٢٨١.

قرَنَ الركوعَ بالسجود، وأنَّ المراد بها الصلاةُ المفروضة، وخصَّ الركوع والسجود تشريفاً للصلاة[(١)]. وقد مضى القول في الركوع والسجود مبيَّناً في «البقرة»[(٢)] والحمد لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: امتثِلوا أمْرَه. ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ نَدْبٌ فيما عدا الواجبات التي صحَّ وجوبُها من غير هذا الموضع[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ قيل: عنى به جهادَ الكفار. وقيل: هو إشارةٌ إلى امتثالِ جميعِ ما أمرَ اللهُ به، والانتهاءِ عن كلِّ ما نهى عنه، أي: جاهدوا أنفسكم في طاعة الله، وردِّها[(٤)] عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في ردِّ وسوسَتِه، والظَّلَمةَ في رَدِّ ظُلمِهم، والكافرينَ في رَدِّ كفرهم.

قال ابنُ عطية: وقال مقاتل: وهذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وكذا قال هبة الله: إنَّ قولَه: ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وقولَه في الآية الأخرى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢] منسوخٌ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر[(٥)].

---

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٢٥ ، والاستذكار ٢/ ٥٠٦ .

(٢) ٢/ ٢٥ - ٢٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٤ .

(٤) في (د): وردُّوها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٥ بمعناه دون ذكر قول مقاتل، وقد ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٠ .

ولا حاجةَ إلى تقدير النسخ؛ فإنَّ هذا هو المراد من أوّل الحكم؛ لأنَّ «حقَّ جهاده» ما ارتفع عنه الحرج. وقد روى سعيد بن المسيِّب قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ دينِكُم أيْسَرُه»(١). وقال أبو جعفر النحاس(٢): وهذا ممَّا لا يجوز أن يقع فيه نسخٌ؛ لأنَّه واجبٌ على الإنسان، كما روى حَيْوَةُ بنُ شُريحٍ يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: «المجاهِدُ مَنْ جاهَدَ نفسَه للهِ عزَّ وجلَّ»(٣). وكما روى أبو غالب، عن أبي أُمامةَ، أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ ﷺ: أيُّ الجهاد أفضل؟ ـ عند الجمرة الأولى ـ فلم يُجِبْه، ثم سأله عند الجمرة الثانية فلم يُجِبْه، ثم سأله عند جمرة العقبة، فقال النبيُّ ﷺ: «أينَ السائِلُ؟» فقال: أنا ذا. فقال عليه الصلاة والسلام: «كلمةُ عَدْلٍ عند سلطانٍ جائر»(٤).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم للذَّبِّ عن دينِه والتزامِ أمره؛ وهذا تأكيدٌ للأمر بالمجاهدة، أي: وجَبَ عليكم أن تجاهدوا؛ لأنَّ اللهَ اختاركم له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ **فيه ثلاثُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضِيق(٥). وقد تقدَّم في «الأنعام»(٦).

وهذه الآية تدخل في كثيرٍ من الأحكام؛ وهي ممَّا خَصَّ اللهُ بها هذه الأمة؛ روى معمر عن قَتادة قال: أُعطِيَتْ هذه الأمةُ ثلاثاً لم يُعْطَها إلا نبيٌّ: كان يُقال للنبيِّ: اذهَبْ فلا حرَجَ عليك، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، والنبيُّ شهيدٌ على أمته، وقيل لهذه الأمة: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، ويُقال

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٤٢ . والحديث أخرجه أحمد (١٥٩٣٦) من حديث أعرابيٍّ سمع النبي ﷺ، و(١٨٩٧٦) من حديث محجن بن الأدرع ﷺ.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٩٥١) من طريق حيوة بن شريح، عن أبي هانئ الخولاني، عن عمرو بن مالك الجنبي، عن فضالة بن عبيد ﷺ، مرفوعاً.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٢).

(٥) أخرجه الطبري ١٦/ ٦٤١ -٦٤٢ ، والحاكم ٢/ ٣٩١ عن عائشة مرفوعاً. وأخرجه الطبري ١٦/ ٦٤١ - ٦٤٤ عن ابن عباس وأبي العالية والحسن والقاسم بن محمد وقتادة والضحاك.

(٦) ٩/ ٢٣ - ٢٥ .

للنبيِّ: سَلْ تُعْطَه، وقيل لهذه الأمة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(١)] [غافر: ٦٠].

الثانية: واختلفَ العلماء في هذا الحَرَج الذي رفَعه الله تعالى، فقال عكرمة: هو ما أُحِلَّ من النساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُباع، وما ملكَتْ يَمينك[(٢)].

وقيل: المراد قَصرُ الصلاة، والإفطارُ للمسافِر، وصلاةُ الإيماء لمن لا يقدِرُ على غيره، وحَطُّ الجهادِ عن الأعمى والأعرجِ والمريضِ والعَدِيم الذي لا يجِدُ ما يُنفِقُ في غَزْوه، والغَرِيمُ، ومن له والدان، وحَطَّ الإصْرَ الذي كان على بني إسرائيل. وقد مضى تفصيلُ أكثر هذه الأشياء[(٣)].

ورُوِيَ عن ابن عباس والحسن البصري أنَّ هذا في تقديم الأهِلَّة وتأخيرها في الفطر والأضحى والصوم[(٤)]؛ فإذا أخطأتِ الجماعةُ هلالَ ذي الحِجَّة، فوقفوا قبل عرفة بيومٍ، أو وقفوا يوم النحر، أجزأهم، على خلافٍ فيه بيَّنَّاه في كتاب «المُقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس ﷺ». وما ذكرناه هو الصحيح في الباب. وكذلك الفطر والأضحى؛ لِما رواه حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فِطْرُكم يوم تُفْطِرونَ، وأضحاكُم يومَ تُضَحُّون». خرَّجه أبو داود والدَّارَقُطْنيّ[(٥)]، ولفظه ما ذكرناه. والمعنى: باجتهادكم من غير حرجٍ يلحقكم.

وقد روى الأئمةُ أنَّه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ يومَ النَّحرِ عن أشياء، فما سُئِلَ عن أمرٍ مما ينسى المرءُ أو يجهلُ من تقديم الأمور بعضِها قبلَ بعضٍ وأشباهِها إلَّا قال

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤١ - ٤٢، والطبري ١٦/ ٦٤٧ -٦٤٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٣.

(٣) ٤/ ٥٠٠ و ٩/ ٣٥٦.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٣ عن ابن عباس وحده.

(٥) سنن أبي داود (٢٣٢٤)، وسنن الدارقطني (٢٤٤٥).

فيها: «افعَلْ ولا حَرَج»[١].

الثالثة: قال العلماء: رَفْعُ الحَرَج إنَّما هو لمن استقامَ على منهاج الشرع، وأما السَّلَّابةُ والسُّرَّاقُ وأصحابُ الحدودِ فعليهمُ الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدِّين، وليس في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت رجلٍ لاثنين في سبيل الله تعالى، ومع صِحَّة اليقينِ وجُودَةِ العزمِ ليس بحرج[٢].

قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ قال الزَّجَّاج[٣]: المعنى: اتَّبِعوا مِلَّةَ أبيكم. الفرَّاء[٤]: انتصب على تقديرِ حذفِ الكاف، كأنه قال: كمِلَّةِ. وقيل: المعنى: وافعلوا الخيرَ فِعْلَ أبيكم[٥]، فأقام الفِعْلَ مقامَ المِلَّة. وإبراهيم هو أبو العرب قاطبةً. وقيل: الخطاب لجميع المسلمين، وإنْ لم يكُنِ الكلُّ من ولده؛ لأنَّ حُرْمَةَ إبراهيمَ على المسلمين كَحُرمةِ الوالدِ على الولد[٦].

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قال ابن زيد والحسن: «هو» راجعٌ إلى إبراهيم، والمعنى: هو سمَّاكم المسلمين من قبل النبيِّ ﷺ[٧]. ﴿وَفِي هَٰذَا﴾: أي: وفي حُكمِه أنَّ منِ اتَّبعَ محمداً ﷺ فهو مسلم[٨]. قال ابن زيد: وهو معنى قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[٩] [البقرة:١٢٨]. قال النحَّاس[١٠]: وهذا القولُ

(١) أخرجه البخاري (١٢٤)، ومسلم (١٣٠٦)، وأحمد (٦٤٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٥.

(٣) في معاني القرآن له ٣/ ٤٤٠، وذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣١، وذكره عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٦.

(٦) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٥١، وزاد المسير ٥/ ٤٥٦.

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٠ عن ابن زيد، ومجمع البيان ١٧/ ١٣٢ عن الحسن.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٤٤٠.

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٠ - ٣٠١، ومجمع البيان ١٧/ ١٣٢.

(١٠) في إعراب القرآن ٣/ ١٠٦ - ١٠٧.

مخالفٌ لقول عُلماءِ[١] الأمة؛ روى عليُّ بنَ أبي طلحة عن ابن عباس قال: سمَّاكم اللهُ عزَّ وجلَّ المسلمينَ من قبلُ، أي: في الكتب المتقدِّمة وفي هذا القرآن. وقاله مجاهد وغيره.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: بتبليغه إياكم. ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أنَّ رسلَهم قد بلَّغتْهم[٢]، كما تقدَّم في «البقرة»[٣]. ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تقدَّم مستوفًى[٤] والحمد لله.

تم الجزء الرابع عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء الخامس عشر ويبدأ بسورة «المؤمنون»

(١) في (م): عظماء.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠١.

(٣) ٢/ ٤٣٥.

(٤) ١/ ٢٥٣ و ٢/ ٢٢ و ٥/ ٢٣٦.

سُورَةُ الحَجّ

مَكِّيَّةٌ، إلا ستَّ آياتٍ مِن ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ إلى ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾

وهـي ثمانٍ وسبعونَ آيةً(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾: تَحريكَها للأشياءِ، عـلـى الإسنادِ المَجازِيِّ، أو: تحريكَ الأشياءِ فيها، فأُضِيفَت إلَيْها إضافةً مَعنويَّةً بتقديرِ (في)، أو إضافةِ المصدَرِ إلى الظَّرفِ على إجرائِه مُجرى المَفعولِ به.

وقيـل: هـي زلزلَـةٌ تَكـونُ قُبَيـلَ طُلـوعِ الشَّـمسِ مِـن مَغرِبِهـا، وإضافَتُهـا إلى السَّـاعةِ لأنَّهـا من أشـراطِها.

﴿شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾: هائلٌ، علَّلَ أمرَهُم بالتَّقوَى بفظاعةِ السَّاعةِ ليَتصوَّرُوها بعُقولِهم

---

(١) في «البيان في عد أي القرآن» للداني (ص: ١٨٩): (وهي سبعون وأربع آيات في الشَّامي، وخمس في البَصري، وست في المدنيين، وسبع في المكِّي، وثمان في الكوفي، اختلافها خمس آيات...) ثم عددها.

أما ما جاء من استثناء المدني فذكره الداني غير أنه قال: (إلا أربع آيات وهن قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾) قال: (هذا قول ابن عباس وعطاء بن يسَار إلَّا أن ابن عباس لم يذكر إلى أين ينتهين وذكره عَطاء)، وأورد فيها أقوالاً أخر عن ابن عباس ومجاهد وقتادة تنظر ثمة.

ويعلَمُوا أنَّه[١] لا يؤمِّنُهم منها سِوى التَّدرُّعِ بلباسِ التَّقوَى، فيُبْقُوا على أَنفُسِهِم ويتَّقُوها بملازمَةِ التَّقوَى.

(٢) ـ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ تصويرٌ لهَوْلِها، والضَّميرُ للزَّلزلَةِ.

و﴿يَوْمَ﴾ منصوبٌ بـ﴿تَذْهَلُ﴾.

وقُرِئَ: (تُذهَل) و: (تُذهِل) مجهولًا ومَعروفًا[٢]؛ أي: تُذْهِلُها الزَّلزلةُ.

والذُّهولُ: الذَّهابُ عَن الأمرِ بدَهشةٍ، والمقصودُ: الدَّلالةُ على أنَّ هَوْلَها بحيثُ إذا دهشَتِ التي ألقمَتِ الرَّضيعَ ثديَها نزعَتْهُ عَن فيه وذهلَتْ عنه.

و(ما) موصولةٌ أو مصدريَّةٌ.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾: جنينَها ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾: كأنَّهم سُكارَى ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ على الحقيقةِ.

﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فأرهقَهُم هولُه بحيثُ طيَّرَ عُقولَهُم وأذهبَ تَمييزَهُم.

وقُرِئَ: (تُرَى) مِن (أُرِيتُكَ قائِمًا) أو: (رَأَيْتُكَ قائمًا) بنصبِ (النَّاس) ورفعِه[٣]

---

(١) في نسخة الخيالي: «أنهم».

(٢) القراءتان لابن أبي عبلة كما في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٢٤)، والثانية نسبت أيضاً لليماني. انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٦)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣٠٦). واليماني هو محمد بن السميفع.

(٣) نسبت لأبي هريرة وأبي زرعة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٤)، وزاد في «البحر» (١٥/ ٣٠٦) نسبتها لأبي نهيك، وللزعفراني وعباس في اختياره. على أن الأخيرين قرأا: (الناسُ) بالرفع، والأولين: (الناسَ) بالنصب. =

على أنَّه منابُ الفاعلِ، وتأنيثُه على تأويلِ الجَماعةِ، وإفرادُهُ بعدَ جَمعِهِ لأنَّ الزَّلزلةَ يراها الجميعُ[١]، وأثرُ السُّكرِ إنَّما يراهُ كلُّ أحدٍ على غيرِه.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿سَكۡرَىٰ﴾[٢] كعَطْشَى؛ إجراءً للسُّكرِ مُجرَى العِلَلِ.

(٣) - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ نزلَتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ وكان جَدِلًا يقولُ: الملائكةُ بناتُ اللهِ، والقرآنُ أساطيرُ الأولينَ، ولا بعثَ بعدَ المَوتِ[٣]. وهي تعمُّهُ وأضرابَهُ.

﴿وَيَتَّبِعُ﴾ في المجادلَةِ أو في عامَّةِ أحوالِه ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ مُتجرِّدٍ للفَسادِ، وأصلُه العُرْي[٤].

= قوله: «من: أُريتك قائماً» على أن الفعلَ متعدٍّ إلى ثلاث، «أو: رأيتك قائماً» على أن الفعلَ متعدٍّ إلى اثنين، قيل: والرؤية فيهما بمعنى الظنِّ «بنصب الناس» راجعٌ إلى الأول، «ورفعه» راجعٌ إلى الثاني، والفعل في قراءة ضم التاء وكسر الراء مسندٌ إلى الزلزلة، أو الساعة. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٠٦).

وقال الطيبي في «فتوح الغيب» (١٠/ ٤٣١): إن كان (تُرى) مِن: أريتُك قائماً، فمعناهُ: تظنُّ أنت الناس سُكارى، أقيم الضميرُ مقام الفاعل، ونصب (النَّاسَ) و(سُكَارَى) على أنهما مفعولان؛ لأن أُريت مُتعدٍّ إلى ثلاثةٍ، وإن كان من: «رأيتُك قائماً»، فالمعنى: تُظَنُّ الناسُ سُكارى، أقيم (الناسُ) مُقام الفاعل، ونُصبَ (سُكَارَى) على المفعولية؛ لأن (رأيتُ) متعدٍّ إلى اثنين.

(١) قوله: «وتأنيثه»؛ أي: (تُرَى الناسُ) في قراءة الرفع، «وإفراده»؛ أي: في (تُرى الناسُ) (بعد جمعه)؛ أي: في ﴿تَرَوۡنَهَا﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٠٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٥٩) عن ابن جريج، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٢٧٧) عن الكلبي.

(٤) رملة مرداء: لا نبت فيها. وغصن أمرد: لا ورق عليه. وفرس أمرد: لا شعر على ثنته. وغلام أمرد بين المرد. انظر: «الصحاح» (مادة: مرد).

(٤) ـ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾: على الشَّيطانِ ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾: تبعَهُ، والضَّميرُ للشَّأنِ[1].

﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ خبرٌ لِـ﴿مَن﴾ أو جوابٌ له، والمعنى: كُتبَ عليه إضلالُ مَن تَولَّاهُ لأنَّه جُبِلَ عليه.

وقُرِئَ بالفَتحِ على تقديرِ: فشَأنُه أَنْ يُضِلَّهُ، لا على العطفِ، فإنَّه يكونُ بعدَ تمامِ الكَلامِ.

وقُرِئَ بالكسرِ في الموضعَيْنِ[2] على حكايةِ المكتوبِ، أو إضمارِ القَوْلِ، أو تضمينِ الكَتْبِ معناه.

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بالحملِ على ما يؤدِّي إليه.

(٥) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾: مِن إمكانِه وكونِه مَقدورًا. وقُرِئَ: (مِنَ البَعَثِ) بالتَّحريكِ كالجَلَبِ[3].

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾؛ أي: فانظرُوا في بدءِ خَلقِكُم فإنَّه يزيحُ رَيْبَكُم، فإنَّا خَلَقْنَاكُم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ إذ خُلقَ آدمُ منه، أو الأغذيةِ[4] التي يتكوَّنُ منها المنيُّ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «للشيطان».

(٢) بالفتح قراءة الجمهور، وبالكسر رويت عن أبي عمرو في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٧)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٢٥)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣١٠).

(٣) نسبت للحسن. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ١٠٧)، و«شواذ القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«الكشاف» (٥/ ٥٢٦)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣١١). وجاء في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦) عن الحسن: «يوم البعث بفتح الميم»، ولعلها مصحفة، والصواب: «من البعث بفتح العين».

(٤) قوله: «أو الأغذية» قال الأنصاري: عطف على ضمير «منه»، والتقدير: بخلق آدمَ من الترابِ، وبخلقِ ذريَّتِه من الأغذية. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٠٧).

وجعله ابن التمجيد والقونوي في «حاشيتيهما» (١٣/ ١٢) معطوفاً على «آدم»، قال ابن التمجيد: =

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾: منيٍّ، مِن النَّطْفِ وهو الصَّبُّ.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾: قطعةٍ مِن الدَّمِ جامدةٍ.

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾: قطعةٍ مِن اللَّحمِ، وهي في الأصلِ[1] قَدْرَ ما يُمضَغُ.

﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾: مُسَوَّاةٍ لا نقصَ فيها ولا عيبَ، وغيرِ مُسوَّاةٍ، أو: تامَّةٍ وساقطَةٍ، أو: مصوَّرةٍ وغيرِ مُصوَّرةٍ.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بهذا التَّدريجِ قُدرَتَنا وحِكمتَنَا، وأنَّ ما قَبِلَ التَّغيُّرَ والفَسادَ والتَّكوُّنَ مرَّةً قَبِلَها أخرى، وأنَّ مَنْ قَدَرَ على تَغييرِهِ وتَصويرِهِ أوَّلًا قَدَرَ على ذلكَ ثانيًا.

وحُذِفَ المفعولُ إيماءً إلى أنَّ أفعالَهُ هذه يتبيَّنُ بها من قُدرتِهِ وحكمَتِهِ ما لا يحيطُ به الذِّكرُ.

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ أن نُقِرَّهُ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقتُ الوَضعِ، وأدناهُ بعدَ سِتَّةِ أَشهُرٍ، وأقصاهُ آخرُ أربعِ سِنينَ.

وقُرِئَ: (ونُقِرَّ) بالنَّصبِ[2]، وكذا قولُه: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[3] عطفًا على (نبيِّنَ)

= «الأغذية» عطف على «آدم» فمعناه: أو خلق منه الأغذية التي يتكون منها المني الذي خلق منه الإنسان غير آدم.

(١) «وهي في الأصل» من نسخة التفتازاني والطبلاوي.

(٢) رواية المفضل عن عاصم، وهي خلاف المشهور عنه. انظر: «الوقف والابتداء» لابن الأنباري (٢/ ٧٨٠)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٦١)، و«جامع البيان في القراءات» (٣/ ١٣٧٦)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٣). ونقل النحاس عن أبي إسحاق أنه بالرفع لا غير؛ لأنه كما قال: ليس المعنى: فعلنا ذلك لنقرّ في الأرحام ما نشاء؛ لأن الله جل وعز لم يخلق الأنام ليقرّ في الأرحام ما يشاء، وإنّما خلقهم ليدلّهم على الرشد والصلاح.

(٣) أي قرئ (ثمَّ نخرجَكم) بالنصب، وهي شاذة. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٢٥)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٣)، عن المفضل عن عاصم.

كأنَّ خلقَهُم مدرَّجًا لغَرَضينِ: تبيينِ القُدرَةِ، وتقريرِهِم في الأرحامِ حتَّى يولَدُوا ويُنشَؤوا ويبلغُوا حدَّ التَّكليفِ.

وقُرِئَا باليَاءِ رفعًا ونصبًا، و(يَقِرُّ) بالياءِ و(نَقُرُّ)[1] مِن قَرَرْتُ الماءَ: إذا صَبَبْتَه.

و﴿طِفۡلٗا﴾ حالٌ أُجرِيَت على تأويلِ كلِّ واحدٍ، أو الدلالةِ على الجنسِ، أو لأنَّهُ في الأصلِ مصدرٌ.

﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾: كمالَكُم في القوَّةِ والعقلِ، جمع شِدَّةٍ كالأَنْعُمِ جمعُ نِعمَةٍ، كأنَّها شِدَّةٌ في الأمورِ.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ عندَ بُلوغِ الأَشُدِّ أو قبلَه. وقُرِئَ: (يَتَوَفَّى)[2] أي: يَتوفَّاهُ اللهُ.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾: الهرمِ والخرفِ. وقُرِئَ بسكونِ الميمِ[3].

﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾: ليعودَ كهَيئَتِه الأُولى في أوانِ الطُّفوليَّةِ مِن سَخافةِ العقلِ وقِلَّةِ الفهمِ، فيَنْسَى ما عَلِمَه وينكرُ ما عرفَهُ.

والآيةُ استدلالٌ ثانٍ على إمكانِ البَعثِ بما يَعترِي الإنسانَ في أَسنانِه مِن الأمورِ المختلفةِ والأحوالِ المتضادَّةِ، فإنَّ مَن قَدَرَ على ذلك قَدَرَ على نَظائرِه.

---

(١) قرأ: (ويُقِرَّ) أبو حاتم، (ويُقِرُّ) ابن أبي عبلة، و(يَقَرُّ) ابن مسعود وأبو رجاء، و(نَقُرُّ) يعقوب في رواية. انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٣)، و«الكشاف» (٥/ ٥٢٧)، و«زاد المسير» (٥/ ٢٠٧)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣١٣)، و«الدر المصون» (١٠/ ٣٥٥).

(٢) حكاه أبو حاتم عن بعضهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٣٨٠)، وقال: ومعناه يستوفي أجله.

(٣) نسبت لأبي عمرو في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦)، و«الكشاف» (٥/ ٥٢٩)، ولنافع في غير المشهور عنه. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٢٥).

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾: ميتةً يابسَةً، من هَمَدَتِ النَّارُ: إذا صارَتْ رَمادًا.

﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾: تحرَّكَت بالنَّباتِ ﴿وَرَبَتۡ﴾: وانتفَخَتْ.

وقُرِئَ: ﴿وَرَبَأَتْ﴾[1]؛ أي: ارتفعَتْ.

﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ﴾: مِن كلِّ صنفٍ ﴿بَهِيجٖ﴾: حَسَنٍ رائقٍ[2]، وهذه دلالةٌ ثالثةٌ كرَّرَها الله تعالى في كتابِه لظُهورِهَا وكونِها مُشاهدَةً.

(٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكرَ مِن خلقِ الإنسانِ في أطوارٍ مُختَلِفَةٍ، وتحويلِه على أحوالٍ مُتضادَّةٍ، وإحياءِ الأرضِ بعدَ مَوْتِها، وهو مُبتدأٌ خبرُه:

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: بسببِ أنَّه الثَّابتُ في نفسِه الذي به تتحقَّقُ[3] الأشياءُ.

﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ وإلَّا لَمَا أحيَا النُّطفةَ والأرضَ الميتةَ.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لأنَّ قُدرتَهُ لذاتِه[4] الذي نسبتُه إلى الكلِّ على سَواءٍ، فلمَّا دَلَّتِ المشاهدةُ على قُدرَتِه على إحياءِ بعضِ الأمواتِ لزِمَ اقتدارُهُ على إحياءِ كلِّها.

(٧) ـ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ فإنَّ التَّغيُّرَ من مُقدِّماتِ الانصرامِ وطَلائِعِه.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ بمُقتضَى وَعدِهِ الذي لا يقبلُ الخُلْفَ.

(٨) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ، ولِمَا نِيطَ به مِن الدَّلالةِ بقولِه: ﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ على أنَّه لا سندَ لَهُ مِن استدلالٍ أو وَحْيٍ،

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٥).

(٢) في نسخة التفتازاني: «أنيق».

(٣) في نسخة التفتازاني: «تحقيق».

(٤) قوله: (لأنَّ قدرته لذاته) يعني أنها صفة ذاتية ثابتة بمقتضى الذات، وجميع الممكنات لتجانسها بالذات بالإمكان مستوية لديه. «حاشية الشهاب».

أو الأوَّلُ في المقلِّدينَ وهذا في المقلَّدينَ، والمرادُ بالعلم: العِلمُ الفِطريُّ؛ ليَصِحَّ عَطفُ الهُدى والكِتابِ عليه.

(٩) ـ ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾: مُتكبِّرًا، وثَنْيُ العِطْفِ كِنايةٌ عَن التَّكبُّرِ؛ كلَيِّ الجِيدِ، أو: مُعْرِضًا عن الحقِّ استخفافًا به. وقُرِئَ بفَتحِ العينِ[1]، أي: مانعَ تعطُّفِه.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عِلَّةٌ للجِدالِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورُوَيسٌ بفتحِ الياءِ[2] على أنَّ إعراضَه عن الهُدى المتمكِّنِ مِنه بالإقبالِ على الجدالِ الباطلِ خروجٌ مِن الهُدَى إلى الضلالِ، وأنَّه مِن حيثُ هو مؤدَّاه كالغَرضِ له.

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو ما أصابَهُ يومَ بَدرٍ ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: المحرِقُ، وهو النَّارُ.

(١٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ على الالتفاتِ، أو إرادةِ القولِ؛ أي: يقالُ له يومَ القيامةِ: ذلكَ الخزيُ والتَّعذيبُ بسببِ ما اقترفْتَهُ من الكفرِ والمعاصِي.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وإنَّما هو مُجازٍ لهم على أعمالِهِم، والمبالغةُ لكثرةِ العَبيدِ.

(١١) ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على طرفٍ مِن الدِّينِ لا ثباتَ لَهُ فيه، كالذي يكونُ على طرفِ الجيشِ فإنْ أحسَّ بظَفَرٍ قرَّ وإلَّا فرَّ.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ رُوِيَ أنَّها نزلَتْ في أَعاريبَ قَدِمُوا إلى المدينةِ، فكان أحدُهُم إذا صحَّ بدنُه ونتجَتْ فرسُهُ مُهْرًا سَرِيًّا

(١) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٤)، و«النشر» (٢/ ٢٩٩).

وولدَت امرأتُه غلامًا سَوِيًّا وكَثُرَ مالُه وماشيتُهُ قال: ما أصبْتُ منذُ دخلْتُ في ديني هذا إلا خيرًا، واطمأنَّ، وإن كان الأمرُ بخلافِه قال: ما أصبْتُ إلا شرًّا، وانقلبَ[1].

وعن أبي سعيدٍ: أنَّ يَهودِيًّا أسلمَ فأصابَتْه مصائبُ، فتَشاءَمَ بالإسلامِ فأتى النَّبيَّ ﷺ فقال: أَقِلْنِي، فقال: «إنَّ الإسلامَ لا يُقالُ» فنزَلَتْ[2].

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ بذهابِ عِصمَتِه وحبوطِ عَمَلِه بالارتدادِ.

وقُرِئَ: (خاسِرَ) بالنَّصبِ[3] على الحالِ، والرَّفعِ على الفاعليَّةِ[4] ووَضْعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ الضَّميرِ تَنصيصًا على خُسرانِه، أو على أنه خبرُ مَحذوفٍ.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ إذ لا خُسرانَ مِثلَه.

(١٢) ـ ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾: يعبدُ جَمادًا لا يَضرُّ بنَفسِه ولا يَنفعُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ عَن المقصدِ، مُستعارٌ مِنْ ضَلالِ مَنْ أبعدَ في التِّيهِ ضَلالًا.

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٤٧٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٧٢ ـ ٤٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة.

(٢) هكذا ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٠٧) لكن بغير إسناد. وأخرجه ابن مردويه من رواية عطية عن أبي سعيد بنحوه، قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١١٢): وإسناده ضعيف. وأخرج العقيلي نحوه في «الضعفاء» (٣/ ٣٦٨) من رواية عنبسة بن سعيد عن أبي الزبير عن جابر ولم يذكر فيه نزول الآية. قال الحافظ: وعنبسة ضعيف جدًّا.

(٣) رواه الإمام أحمد في «العلل» (١/ ٣٩٨) عن حميد الأعرج عن مجاهد أنه قرأ بها. وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢١٧)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٦ ـ ٩٧)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٦٣)، و«المحتسب» (٢/ ٧٥).
وذكرها الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٠٦) رواية عن يعقوب.

(٤) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٥٣٣)، وأبو حيان في «البحر» (١٥/ ٣٢٠) دون نسبة.

(١٣) ـ ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ بكونِه مَعبودًا؛ لأنَّه يوجبُ القتلَ في الدُّنيا والعذابَ في الآخرةِ.

﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ الذي يَتَوَقَّعُ بعبادَتِه، وهو الشَّفاعةُ والتَّوسُّلُ بها إلى اللهِ تعالى.

واللامُ مُعَلِّقةٌ لـ﴿يدعو﴾ مِن حيثُ إنه بمَعنى: يزعُمُ، والزَّعمُ قولٌ مع اعتقادٍ، أو داخلةٌ على الجملةِ الواقعةِ مَقولًا إجراءً له مُجرى (يقول)؛ أي: يقولُ الكافرُ ذلكَ بدُعاءٍ وصُراخٍ حين يرى استضرارَهُ به، أو مُستأنفةٌ على أنَّ (يدعو) تكريرٌ للأوَّلِ، و(مَن) مبتدأٌ خبرُه:

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾: النَّاصرُ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾: الصَّاحِبُ.

(١٤) ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مِن إثابةِ المُوحِّدِ الصَّالحِ وعقابِ المشركِ، لا دافعَ له ولا مانعَ.

(١٥) ـ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ كلامٌ فيه اختصارٌ، والمعنى: أنَّ اللهَ ناصرٌ رسولَهُ في الدُّنيا والآخرةِ، فمَنْ كانَ يَظُنُّ خلافَ ذلكَ ويَتوقَّعُه مِنْ غَيظِهِ، وقيل: المرادُ بالنَّصرِ الرِّزقُ، والضَّميرُ لـ﴿مَن﴾.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾: فلْيَستَقْصِ في إزالَةِ غيظِه أو جَزَعِه بأَنْ يفعلَ كُلَّ ما يفعلُهُ المُمتلِئُ غَضَبًا، أو المبالِغُ جَزَعًا، حتى يمدَّ حبلًا إلى سماءِ بيتِه فيَختنقَ، مِنْ قَطَعَ: إذا اختنقَ، فإنَّ المختنِقَ يقطعُ نَفَسَهُ بحبسِ مجاريهِ.

أو: فليَمدُدْ حَبْلًا إلى سماءِ الدُّنيا، ثمَّ ليَقْطعْ بهِ المسافةَ حتى يبلغَ عَنانَهُ فيجتهدَ في دفعِ نَصرِهِ أو تحصيلِ رزقِه.

وقرأ ورشٌ وأبو عَمرو وابنُ عامر: ﴿لِيَقْطَعْ﴾ بكسر اللام(١).

﴿فَلْيَنظُرْ﴾: فليُصوِّر في نفسِه ﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ﴾: فعلُه ذلكَ، وسمَّاه على الأوَّلِ كيدًا لأنَّه مُنتهَى ما يقدرُ عليه ﴿مَا يَغِيظُ﴾: غيظَه، أو الذي يغيظُه من نصرِ اللهِ.

وقيل: نزلَتْ في قومٍ مُسلمينَ استَبطَؤوا نصرَ اللهَ لاستِعجالِهم وشِدَّةِ غيظِهم على المُشركينَ(٢).

(١٦) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: ومثلَ ذلكَ الإنزالِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾: أنزلْنا القُرآنَ كُلَّه ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتٍ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾: ولأنَّ الله يهدي بهِ، أو: يثبِّتُ على الهُدَى ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هِدايتَهُ، أو ثباتَهُ، أنزلَه كذلكَ مبيَّنًا.

(١٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالحكومَةِ بينَهُم، وإظهارِ المحقِّ منهم عن المُبطلِ، أو: الجَزاءِ فيُجازِي كُلًّا ما يليقُ به، ويُدخلُه المحلَّ المُعدَّ له، وإنَّما دخلَتْ ﴿إِنَّ﴾ على كلِّ واحدٍ مِن طَرَفي الجملةِ لِمَزيدِ التَّأكيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: عالمٌ به مُراقِبٌ لأَحوَالِه.

(١٨) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَتسخَّرُ لقُدرَتِه ولا يَتأتَّى عَن تَدبيرِهِ، أو يدلُّ بذلِّه على عظمَةِ مُدبِّرِهِ، و(مَن) يجوزُ أن يَعُمَّ أولي العقلِ وغيرَهُم على التَّغليبِ، فيكونُ قولُه: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفرادًا لها بالذِّكرِ لشُهرَتِها واستبعادِ ذلكَ منها.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٧ و٤٣٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

(٢) ذكره ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» (ص: ٢١١)، وعنه أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٤٥٢)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣١٠).

وقُرِئَ: (والدَّوابُ) بالتَّخفيفِ[١] كراهةَ التَّضعيفِ، أو الجمعِ بين السَّاكِنَينِ.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطفٌ عليها إن جُوِّزَ إعمالُ اللَّفظِ الواحدِ في كلِّ واحدٍ مِن مَفهومَيْهِ، وإسنادُه باعتبارِ أحدِهما إلى أمرٍ وباعتبارِ الآخرِ إلى آخرَ، فإنَّ تخصيصَ الكثيرِ يدلُّ على خُصوصِ المعنى المسنَدِ إليهِمْ.

أو مُبتدأٌ خبرُهُ مَحذوفٌ دلَّ عليه خبرُ قَسِيمِهِ، نحو: حقَّ لهُ الثَّوابُ.

أو فاعلُ فعلٍ مُضمَرٍ، أي: ويسجُدُ له كثيرٌ من النَّاسِ سجودَ طاعةٍ.

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ بكُفرِهِ وإبائِه عن الطَّاعةِ.

ويجوزُ أن يُجْعَلَ ﴿وَكَثِيرٌ﴾ تكريرًا للأوَّلِ مبالغةً في تكثيرِ المَحقوقينَ بالعذابِ، وأن يعطفَ به على السَّاجدينَ بالمعنى العامِّ موصوفًا بما بعدَه.

وقُرِئَ: (حُقَّ) بالضمِّ[٢]، و: (حَقًّا) بإضمارِ فعلِه[٣].

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بالشَّقاوةِ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يُكرِمُهُ بالسَّعادةِ، وقُرِئَ بالفَتحِ بمعنى الإكرامِ[٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن الإكرامِ والإهانَةِ.

(١٩) ـ ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾؛ أي: فوجانِ مُختَصِمانِ، ولذلك قال: ﴿ٱخْتَصَمُوا۟﴾ حملًا على المَعنى، ولو عكسَ جازَ، والمرادُ بهما: المؤمنونَ والكافِرونَ.

﴿فِى رَبِّهِمْ﴾: في دينِه، أو في ذاتِه وصِفاتِه.

---

(١) نسبت للزهري. انظر: «المحتسب» (٢/ ٧٢)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٢٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (٥/ ٥٣٨)، و«البحر» (١٥/ ٣٣٠).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧) عن ابن جبير، و«الكشاف» (٥/ ٥٣٨)، و«البحر» (١٥/ ٣٣٠) دون نسبة. وذكر ابن خالويه أيضًا: (وكثير حقٌّ) بالتنوين والرفع عن جناح بن حبيش.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧) عن أبي معاذ.

وقيل: تخاصَمَت اليَهودُ والمُؤمنونَ فقالت[١] اليَهودُ: نحنُ أحقُّ باللهِ وأقدَمُ مِنكُم كتابًا، ونَبِيُّنا قبلَ نَبيِّكُم، وقالَ المؤمنونَ: نحنُ أحَقُّ باللهِ آمنَّا بمُحمَّدٍ وبنبيِّكُم وبما أنزلَ اللهُ مِن كتابٍ، وأنتُمْ تَعرِفُونَ كتابنَا ونبيَّنَا، ثمَّ كَفَرْتُم بهِ حسَدًا، فنزلَتْ[٢].

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فصلٌ لخصومَتِهم، وهو المعنيُّ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧] ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ﴾: قُدِّرَتْ على مَقاديرِ جُثَثِهم. وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[٣].

﴿ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾: نيرانٌ تحيطُ بهم إحاطةَ الثِّيابِ ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ حالٌ من الضَّميرِ في ﴿لَهُمْ﴾ أو خبرٌ ثانٍ، والحميمُ: الماءُ الحارُّ.

(٢٠) - ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾؛ أي: يؤثِّرُ مِن فَرْطِ حَرارَتِه في باطِنِهم تأثيرَهُ في ظاهرِهِم، فيذابُ به أحشاؤُهُم كما يُذابُ به جلودُهُم، والجملَةُ حالٌ مِن ﴿الْحَمِيمُ﴾ أو ضَميرِهِم.

وقُرِئَ بالتَّشديدِ للتَّكثيرِ[٤].

(٢١) - ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾: سياطٌ مِنه يجلدونَ بها، جمعُ مِقْمَعَةٍ، وحقيقتُها: ما يُقمَعُ به؛ أي: يُكَفُّ بعُنفٍ.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فقال».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٩١) عن ابن عباس بإسناد ضعيف. وروى البخاري (٣٩٦٩)، ومسلم (٣٠٣٣) عن قيس بن عباد، قال: سمعت أبا ذر، يقسم قسمًا: إن هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث، وعتبة، وشيبة، ابني ربيعة، والوليد بن عتبة.

(٣) انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦٠٣) عن الزعفراني.

(٤) أي: (يصهَّرُ) بتشديد الهاء. نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

(٢٢) ـ ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا ﴾: مِن النَّارِ ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ مِن غُمومِها، بدلٌ من الهاءِ بإعادةِ الجَارِّ ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾؛ أي: فخرَجُوا أُعِيدُوا؛ لأنَّ الإعادةَ لا تكونُ إلا بعدَ الخُروجِ.

وقيل: يَضرِبُهُم لَهيبُ النَّارِ فيَرمِيهِم[1] إلى أعلاها فيُضرَبُونَ بالمقامعِ فيَهوُونَ فيها[2].

﴿وَذُوقُواْ﴾؛ أي: وقيلَ لهم: ذُوقُوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: النَّارِ البالغةِ في الإحراقِ.

(٢٣) ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ غيَّرَ الأسلوبَ فيه، وأسندَ الإدخالَ إلى اللهِ تعالى، وأكَّدَه بـ﴿ إِنَّ ﴾؛ إحمادًا لحالِ المؤمنينَ وتعظيمًا لشَأنِهم.

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا ﴾ مِن حُلِّيَتِ المَرأةُ: إذا لَبِسَتِ الحليَ. وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[3]، والمَعنى واحدٌ.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ صفةُ مَفعولٍ مَحذوفٍ، و﴿أَسَاوِرَ﴾ جمعُ أَسْوِرَةٍ، وهي جمعُ سِوَارٍ ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيانٌ له ﴿ولؤلؤٍ﴾ عطفٌ عليها، لا على ﴿ذَهَبٍ﴾؛ لأنَّه لم يُعهَد السِّوارُ مِنهُ، إلا أن يرادَ المُرصَّعةُ به.

ونصبَهُ نافعٌ وعاصِمٌ عطفًا على محلِّها، أو إضمارًا لناصبٍ مثلَ: ويؤتَونَ.

وروى حفصٌ بهمزتينِ، وترك أبو بكرٍ والسوسيُّ عن أبي عمرو الهمزةَ

---

(١) وفي نسخة الفاروقي: «فترفعهم»، وفي نسخة التفتازاني: «فيدفعهم».

(٢) رواه نعيم في زوائده على «الزهد» لابن المبارك (٣٣٩) من طريق رجل عن الحسن. وبنحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٩٨) من قول أبي ظبيان.

(٣) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧)، و«المحتسب» (٢/ ٧٧).

الأولـى[١]، وقُـرِئَ: (لُؤْلُـوًا) فقُلِبَـت الثَّانيـةُ واوًا[٢]، و: (لُولِيًـا) بقلبِهِمـا واويـنِ ثمَّ قُلِبَـت الثَّانيَـةُ يـاءً[٣]، و(لِيلِيًـا) بقلبِهِمَا ياءَيـنِ[٤] و(لـولٍ) كأدلٍ[٥].

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ غيَّرَ أسلوبَ الكلامِ فيه للدَّلالةِ على أنَّ الحريرَ ثيابُهم المعتادةُ، أو للمحافظةِ على هيئةِ الفَواصِلِ.

(٢٤) ـ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو قولُهُم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، أو: كلمةُ التَّوحيدِ.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾: المحمودِ نفسُه أو عاقبَتُه، وهو الجنَّةُ أو الحقُّ، أو: المستحِقِّ لذاتِه الحمدَ[٦]، وهو اللهُ تَعالى، وصراطُه الإسلامُ.

---

(١) نافع وعاصم: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب والباقون بالخفض، وترك أبو بكر وأبو عمرو إذا خفَّف الهمزة الأولى، وحمزة إذا وقف سهَّل الهمزتين على أصله، وهشام يسهل الثانية في غير النصب على أصله، والباقون يحققونهما. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٦).

(٢) هي رواية المعلى بن منصور عن أبي بكر عن عاصم كما في «السبعة» (ص: ٤٣٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧)، وقال ابن مجاهد: وهذا غلط.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧) عن الفياض.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧)، و«الكشاف» (٥/ ٥٤٢)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) نسبت لطلحة في «البحر» (١٥/ ٣٣٦)، ودون نسبة في «الكشاف» (٥/ ٥٤٢)، ووقع في مطبوع «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧) عن طلحة: (ولوليَ).

(٦) قوله: «وهو الجنة» ناظر إلى «المحمود نفسه»، وقوله: «أو الحق» ـ وهو الإسلام ـ ناظرٌ إلى «المحمود عاقبته»، ففي الكلام لفٌّ ونشر مرتب، كأنه قيل: وهدوا إلى صراط الجنة المحمودة نفسها، أو إلى صراط الحق المحمود عاقبته، أو إلى صراط الله تعالى المستحِق لذاته الحمد. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ١٠٠)، و«حاشية القونوي» (١٣/ ٤٠).

(٢٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا يريدُ بهِ حالًا ولا استقبالًا، وإنَّما يريدُ استمرارَ الصَّدِّ مِنْهُم[١] كقولِهِم: فلانٌ يُعطِي ويمنَعُ، ولذلك حَسُن عطفُه على الماضي.

وقيل: هو حالٌ مِن فاعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾.

وخبرُ ﴿إِنَّ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه آخِرُ الآيةِ؛ أي: مُعذَّبُون.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطفٌ على اسمِ اللهِ، وأوَّلَه الحنفيَّةُ بمكَّةَ، واستشهَدُوا بقوله: ﴿الذي جَعَلْناه للناسِ سَواءٌ العاكفُ فيهِ والبادِ﴾؛ أي: المقيمُ والطَّارئُ، على عدمِ جوازِ بيعِ دُورِها وإجارتِها، وهو مَع ضعفِه مُعارَضٌ بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ [الحج: ٤٠]، وشراءِ عُمرَ دارَ السجنِ فيها مِن غيرِ نكيرٍ[٢].

و﴿سواءٌ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ، والجملةُ مَفعولٌ ثانٍ لـ﴿جَعَلْنَـٰهُ﴾ إنْ جُعِل ﴿لِلنَّاسِ﴾ حالاً[٣] من الهاء، وإلَّا فحالٌ مِن المستكِنِّ فيه، ونصَبَهُ حفصٌ[٤] على أنَّه المفعولُ أو الحالُ، و﴿ٱلْعَـٰكِفُ﴾ مرتفعٌ بهِ.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «استمرار الصدود»، وفي نسخة الفاروقي والتفتازاني: «استمرار الصد». والصد والصدود كلاهما مصدر: صدَّ، لكن الأول متعد والثاني لازم. ولعل المراد هنا المتعدي كما أثبتناه؛ لتمثيله بالإعطاء والمنع وكلاهما متعدٍّ.

(٢) علقه البخاري قبل حديث (٢٤٢٣)، ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٢١٣)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٣٢٠١) عن ابن جريج، ورواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١١١٨٠) عن عبد الرحمن بن فروخ.

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «والجملة مفعول ثان لـ﴿جَعَلْنَـٰهُ﴾ ويكونُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ حالاً».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

وقُرِئَ: (العاكفِ) بالجرِّ[1] على أنَّه بدلٌ مِن (النَّاس).

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ ممَّا تُرِكَ مفعولُه ليتناولَ كلَّ مُتناوَلٍ.

وقُرِئَ بالفَتحِ مِن الورودِ[2].

﴿بِإِلْحَادٍ﴾: عُدُولٌ عن القَصْدِ ﴿بِظُلْمٍ﴾: بغيرِ حَقٍّ، وهما حَالانِ مُترادِفانِ، أو الثَّاني بدلٌ مِن الأوَّلِ بإعادةِ الجارِّ، أو صِلَةٌ لَه؛ أي: مُلحدًا بسببِ الظُّلمِ؛ كالإشراكِ واقترافِ الآثامِ.

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جوابٌ لِـ(مَن).

(٢٦) ـ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾؛ أي: واذكُر إذ عينَّاه وجعلْناهُ لـه مَباءةً.

وقيل: اللامُ زائدةٌ و﴿مَكَانَ﴾ ظرفٌ؛ أي: وإذ أَنزَلْنَا فيه.

قيل: رُفِعَ البيتَ إلى السَّماءِ أو انطمسَ أيَّامَ الطُّوفانِ، فأعلَمَ اللهُ مكانَهُ بريحٍ أرسلَها فكنسَتْ ما حولَهُ، فبناهُ على أُسِّه[3] القَديمِ[4].

﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: ﴿أَنْ﴾ مُفسِّرَةٌ لـ﴿بَوَّأْنَا﴾ مِن حَيثُ إنَّه تَضمَّنَ مَعنى: تَعبَّدنا؛ لأنَّ التَّبوِئَةَ مِن أجلِ

---

(١) انظر: «الوقف والابتداء» لأبي بكر الأنباري (٢/ ٧٨٣) عن بعض القراء. ونسبت للأعمش. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٢٧).

(٢) حكاها الكسائي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧)، ونسبت لطاوس في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٢٧).

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «بنائه».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥١٢) عن السدي. وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٢٢).

العبادةِ، أو مَصدريَّةٌ مَوصولةٌ بالنَّهيِ؛ أي: فعَلْنَا ذلك لئلَّا تُشرِكَ بعِبادَتِي وتُطهِّرَ بيتي مِن الأَوثانِ والأقذارِ لِمَن يَطوفُ بِهِ ويُصلِّي فيه.

ولعلَّه عبَّرَ عَن الصَّلاةِ بأركانِها للدَّلالةِ على أنَّ كُلَّ واحدٍ مِنْهَا مُستقلٌّ باقتضاءِ ذلك، كيفَ وقد اجتمعَتْ.

وقُرِئَ: (يُشْرِك) بالياءِ[1].

(٢٧) - ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾: نادِ فيهم، وقُرِئَ: (وآذِنْ)[2] ﴿بِٱلْحَجِّ﴾: بدعوةِ الحجِّ والأمرِ بـه.

رُوِيَ: أنَّه صَعِدَ أبا قُبيسٍ[3] فقال: يا أيُّها النَّاسُ! حُجُّوا بيتَ رَبِّكُم، فأسمعَهُ اللهُ مَن في أصلابِ الرِّجالِ وأرحامِ النِّساءِ فيما بينَ المشرقِ والمغربِ ممَّنْ سبقَ في علمِه أنْ يَحُجَّ[4].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧) عن أبي نهيك وعكرمة.

(٢) نسبت لابن محيصن. انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٢٧)، و«الكشاف» (٥/ ٥٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١١٧)، و«البحر» (١٥/ ٣٤٣).

(٣) أبو قبيس: اسم الجبل المشرف على مكة. انظر: «معجم البلدان» (١/ ٨٠).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣١٨١٨)، والطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥١٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤٦٤) وصححه، من طريق قابوس عن أبيه عن ابن عباس.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٤٠٢٦) وصححه، من طريق عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٠٩٩) عن علي رضي الله عنه.

وليس فيها «صعد أبا قبيس»، وجاءت تسمية جبل أبي قبيس فيما رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: الخِطابُ لرَسولِ اللهِ ﷺ أُمر بذلك في حجةِ الوداعِ[1].

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾: مشاةً، جمعُ راجلٍ كقائمٍ وقِيَامٍ.

وقُرِئَ بضمِّ الرَّاءِ مُخففَ الجيمِ ومُثقَّلَه[2]، و: (رُجَالَى) كعُجَالَى[3].

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ أي: وركبانًا على كلِّ بعيرٍ مَهزولٍ أتعبَهُ بُعْدُ السَّفرِ فهَزَلَه.

﴿يَأْتِينَ﴾ صفةٌ لـ﴿ضَامِرٍ﴾ محمولةٌ على معناهُ، وقُرِئَ: (يأتونَ)[4] صفةً للرِّجالِ والرُّكبانِ، أو استئنافٌ فيكونُ الضَّميرُ لـ﴿النَّاسِ﴾.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٤٢)، والواحدي في «البسيط» (١٥/ ٣٥٨)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ٣٧٩)، عن الحسن، وقد أشاروا إلى تفرد الحسن بهذا القول المخالف لظاهر الآيات، لكن ذكره النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية عن مقاتل.

وقال محمد علي السايس في «تفسير آيات الأحكام» (ص: ٤٩٥) في تعقب هذا القول: ولكنك ترى أنّ في الآية الأولى أوامر ونواهيَ كلها متوجهة إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فالظاهر أنّ الأمر بالتأذين أيضاً لإبراهيم، إذ الغرض من تطهير البيت إعدادُه للطائفين والقائمين والركع السجود، فيكون دعاؤه الناس بعد ذلك للحج متناسباً غاية التناسب مع إعداد البيت وتطهيره.

قال: وبعض العلماء ردّ احتمال توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ بأن سورة الحج مكية، فنزولها قبل حجة الوداع بالضرورة، فلا يستقيم أن يكون المأمور بالدعاء هو النبي ﷺ.

(٢) بتخفيف الجيم نسبها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٧٩) لعكرمة وابن أبي إسحاق وأبي مجلز والحسن والزهري. وبتشديد الجيم نسبها ابن جني لابن عباس وعكرمة وأبي مجلز والحسن ومجاهد وجعفر بن محمد، واقتصر ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧) على عكرمة.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧) عن ابن عباس وعطاء وابن جبير، و«المحتسب» (٢/ ٧٩) عن عكرمة.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾: طريقٍ ﴿عَمِيقٍ﴾: بعيدٍ، وقُرِئَ: (مَعِيق)(١)؛ يقال: بئرٌ بعيدةُ العَمْقِ والمَعْقِ بمَعنًى.

(٢٨) - ﴿لِّيَشْهَدُواْ﴾: ليَحْضُرُوا ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ دينيَّةً ودُنيويَّةً، وتنكيرُها لأنَّ المُرادَ بها نوعٌ مِن المنافعِ مَخصوصٌ بهذهِ العِبادَةِ.

﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عندَ إعدادِ الهدايا والضَّحايا وذبحِها.

وقيل: كنَى بالذِّكْرِ عن النَّحرِ؛ لأنَّ ذبحَ المسلمينَ لا ينفكُّ عنه؛ تنبيهًا على أنَّه المقصودُ ممَّا يُتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ تعالى.

﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ هي عشرُ ذي الحجَّةِ، وقيل: أيَّامُ النَّحرِ.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ علَّقَ الفِعلَ بالمرزوقِ وبيَّنَهُ بالبهيمةِ؛ تحريضًا على التَّقرُّبِ، وتنبيهًا على مُقتضى الذِّكرِ.

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾: مِن لُحومِها، أَمَر(٢) بذلك إباحةً وإزاحةً لِمَا عليه أهلُ الجاهليَّةِ مِن التَّحرُّجِ فيه، أو ندبًا إلى مُواساةِ الفُقَراءِ ومُساواتهم(٣)، وهذا في المتطوَّعِ به دونَ الواجبِ(٤).

﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ﴾: الذي أصابَهُ بؤسٌ؛ أي: شِدَّةٌ ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾: المحتاجَ.

والأمرُ فيه للوجوبِ، وقد قيلَ بهِ في الأوَّلِ.

---

(١) انظر: «البحر» (١٥/ ٣٤٣). ونقل الأزهري في «تهذيب اللغة» (١/ ١٩١) عن الفراء قوله: لغة أهل الحجاز عميق، وبنو تميم يقولون: معيق.

(٢) في نسخة الفاروقي: «والأمر».

(٣) في نسخة الطبلاوي: «ومواساتهم».

(٤) جاء على هامش نسخة الفاروقي: «ومن ثم استحب الفقهاء أن يأكل الموسع من أضحيته مقدار الثلث. كشاف».

(٢٩) ـ ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾: ثمَّ ليُزِيلوا وَسَخَهُم بقصِّ الشَّاربِ والأظفارِ ونتفِ الإبطِ والاستحدادِ عندَ الإحلالِ.

﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾: ما ينذرونَ مِن البرِّ في حَجِّهِم، وقيل: مَواجبَ الحجِّ.

وقرأ أبو بكرٍ بفتحِ الواو وتشديدِ الفاء(١).

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ طوافَ الرُّكنِ الذي به تمامُ التَّحليلِ(٢)، فإنَّه قرينةُ قضاءِ التَّفَثِ.

وقيل: طوافَ الوداعِ.

﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: القديمِ؛ لأنَّه أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ، أو المعتَقُ مِن تَسلُّطِ الجَبَابِرَةِ(٣)، فكَمْ مِن جَبَّارٍ سارَ إليه ليهدِمَهُ فمنعَهُ الله، وأمَّا الحَجَّاج فإنما قصدَ إخراجَ ابنِ الزُّبَيرِ منه دونَ التَّسلُّطِ عليه.

(٣٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبرُ مَحذوفٍ؛ أي: الأمرُ ذلكَ، وهو وأمثالُه يطلَقُ للفصلِ بينَ كلامَينِ.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ﴾: أحكامَه وسائرَ ما لا يَحِلُّ هَتكُه، أو: الحرَمَ وما

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٦).

(٢) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «التحلل».

(٣) في هامش نسخة الفاروقي: «عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار» هذا حديث حسن غريب، وعن الزهري مرسل ومتصل. من جامع الترمذي». قلت: رواه الترمذي (٣١٧٠) وفي سند المتصل: عبد الله بن صالح المصري كاتب الليث؛ سيء الحفظ.

وهناك أقوال أخرى في سبب تسمية البيت بالعتيق، فقيل: لأن الله أعتقه من الغرق زمن الطوفان، وقيل: لكرمه، من قول العرب: حسب عتيق: إذا كان كريماً، وكذلك: فرس عتيق. انظر: «الزاهر» (٢/ ١٧٨).

يَتعلَّقُ بالحجِّ مِن التَّكاليفِ، وقيل: الكعبةُ والمسجِدُ الحرامُ والبلدُ الحرامُ والشَّهرُ الحرامُ والمُحرَّمُ.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾: فالتَّعظيمُ خيرٌ له ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ثوابًا.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: إلا المتلوَّ عليكُم تحريمُه، وهو ما حرِّمَ منها لعارضٍ كالميتةِ، وما أُهِلَّ بهِ لغيرِ اللهِ، فلا تحرِّموا منها غيرَ ما حرَّمَهُ اللهُ كالبَحِيرةِ والسَّائبةِ.

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾: فاجتَنِبُوا الرِّجسَ الذي هو الأوثانُ كما تُجتنَبُ الأنجاسُ، وهو غايةُ المُبالغةِ في النَّهيِ عَن تَعظيمِها والتَّنفيرِ عَن عبادَتِها.

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ تعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ؛ فإنَّ عبادةَ الأوثانِ رأسُ الزُّورِ، كأنَّه لَمَّا حثَّ على تعظيمِ الحُرماتِ أتبعَهُ ذلكَ ردًّا لِمَا كانت الكَفرةُ عليه مِنْ تحريمِ البَحائرِ والسَّوائبِ وتَعظيمِ الأوثانِ، والافتراءِ على اللهِ بأنَّه حكَمَ بذلكَ.

وقيل: شهادةَ الزُّورِ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ قال: «عَدَلَتْ شهادةُ الزُّورِ الإشراكَ باللهِ» ثلاثًا، وتلا هذه الآيةَ[1].

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢٣٧٢)، من طريق محمد بن عُبيد، عن سفيان بن زياد العُصْفُريَّ، عن أبيه، عن حبيب بن النُّعمان الأسدي عن خُريمِ بنِ فاتكٍ، عن النبي ﷺ. قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ٣٤٩): إسناده مجهول.

قلت: زيادٌ أبو سفيان العصفري وحبيب بن النعمان مجهولان.

ورواه الترمذي (٢٢٩٩) من طريق مروان بن معاوية الفزاري، عن سفيان العصفري، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خُريم مرفوعاً. وقال: «هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد، واختلفوا في رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ». قلنا: وفاتِكُ بنُ فضالة مجهول.

وفي الباب ما يغني عنه عن أبي بكرة عند البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧)، ولفظه: «ألا أنبئكم =

والزُّورُ مِن الزَّوْرِ، وهو الانحرافُ؛ كما أنَّ الإفكَ مِن الأَفْكِ، وهو الصَّرْفُ، فإن الكذبَ مُنحرفٌ مَصروفٌ عن الواقعِ.

(٣١) ـ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾: مخلصينَ له ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وهما حالان من الواو.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنَّه سقطَ من أَوْجِ الإيمانِ إلى حضيضِ الكُفْرِ ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ فإنَّ الأهواءَ المُرْدِيةَ توزِّعُ أفكارَهُ.

﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾: بعيدٍ؛ فإنَّ الشَّيطانَ قد طوَّحَ به في الضَّلالةِ.

و﴿أَوْ﴾ للتَّخييرِ كما في قَولِه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩]، أو للتَّنويعِ؛ فإنَّ مِن المشركينَ مَن لا خلاصَ لهُ أَصلًا، ومِنْهُم مَن يمكنُ خلاصُه بالتَّوبةِ ولكنْ على بُعْدٍ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ[١] مِن التَّشبيهاتِ المركَّبَةِ فيكونُ المَعنى: ومَن يُشرِكْ باللهِ فقدْ هَلكَتْ نَفسُهُ هَلاكًا يُشبِهُ أَحَدَ الهَلاكَيْنِ[٢].

وقرأ نافع: ﴿فَتَخَطَّفُهُ﴾ بفتح الخاء وتشديد الطاء[٣].

(٣٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: دينَ اللهِ، أو فرائضَ الحَجِّ ومواضعَ نُسُكِهِ، أو الهدايا؛ لأنَّها مِن مَعالِمِ الحَجِّ، وهو أوفَقُ لظاهرِ ما بعدَهُ، وتعظيمُهَا أن تُختارَ جِساماً سِمانًا غاليةَ الأثمانِ.

رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ أهدى مئةَ بدنةٍ فيها جملٌ لأبي جَهلٍ في أنفهِ بُرَةٌ مِن ذهبٍ[٤].

= بأكبر الكبائر؟ ـ ثلاثاً ـ: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، أو قول الزور».

وعن أنس بن مالك عند البخاري (٥٩٧٧)، ومسلم (٨٨).

(١) في نسخة الفاروقي: «يكونا».

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «الهالكين».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨٨١)، والبزار في «مسنده» (٦١٧)، من حديث علي =

وأنَّ عُمرَ أهدى نَجيبةً طُلِبَت مِنه بثَلاثِ مئةِ دينارٍ(١).

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾: فإنَّ تَعظيمَهَا مِـن أَفعالِ ذَوِي تَقوَى القُلوبِ، فحُذِفَت هذه المُضافاتُ والعائدُ إلى ﴿مَن﴾.

وذكَر القلوبَ لأنَّها مَنشأُ التَّقوَى والفُجورِ والآمرةُ بهما.

(٣٣) ـ ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾؛ أي: لَكُم فيها مَنافِعُ: دَرُّها ونَسلُها وصوفُها وظَهرُها إلى أن تُنحَر، ثمَّ وقتَ نَحرِها مُنتهيَةً إلى البيتِ؛ أي: ما يليهِ مِن الحرمِ.

= رضي الله عنه. ولم يسق أحمد لفظه. وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣٨٥): ورواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» وقال: «برة من فضَّة».

وكذلك رواه إبراهيم الحربي في «غريب الحديث» بسند ابن راهويه ومتنه ونقل عن الأصمعي أنه قال: البرة: الحَلْقة تُجْعَل فِي أنف البعير.

وله شاهد من حديث ابن عباس رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٢٨)، وأبو داود (١٧٤٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٨٩٨). وعندهم أيضا: «برة من فضة»، إلا في رواية ثانية للحديث عند أبي داود جاء فيها: «بُرَةٌ مِن ذهب».

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٣٢٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٣٠)، وأبو داود (١٧٥٦)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٩١١)، من طريق جَهمِ بن الجارود عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال: «أهدَى عمَرُ...» الحديث. وإسناده ضعيف؛ جهم بن الجارود قال البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/ ٢٣٠): لا يُعرف لجهم سماع من سالم. وقال الذهبي في «الميزان»: فيه جهالة.

وتتمة الخبر: أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أهديت نجيباً فأعطيت بها ثلاث مئة دينار، أفأبيعها وأشتري بثمنها بُدنا، قال: «لا انحرها إياها». قال أبو داود: هذا لأنه كان أشعرها.

النجيبة: تأنيث النجيب، وهو الفاضل من كل حيوان. وجاء في بعض الروايات: «بختية» وهي الأنثى من الجمال البخت، والذكر: بختي، وهي جمال طوال الأعناق. انظر: «النهاية» (مادة: نجب وبخت).

و﴿ثُمَّ﴾ تحتمِلُ التَّراخِيَ في الوقتِ والتَّراخِيَ في الرُّتبةِ؛ أي: لَكُم فيها منافعُ دُنيويَّةٌ إلى وقتِ النَّحرِ، وبعدَهُ مَنافعُ دينيَّةٌ أعظَمُ منها.

وهو على الأوَّلَينِ: إمَّا مُتَّصِلٌ بحديثِ الأنعامِ والضَّميرُ فيه لها.

أو المرادُ على الأوَّلِ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ دينيَّةٌ تَنتفِعونَ بها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الموتُ ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ منتهيةً ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ﴾ الذي تُرفَعُ إليه الأعمالُ، أو يكونُ فيه ثَوابُها، وهو البيتُ المعمورُ أو الجنَّةُ.

وعلى الثَّاني: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾: التِّجاراتُ في الأسواقِ إلى وقتِ المراجعَةِ، ثمَّ وقتَ الخروجِ منها منتهيَةً إلى الكعبةِ بالإحلالِ بطوافِ الزِّيارَةِ.

(٣٤) ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾: ولكُلِّ أهلِ دينٍ ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ مُتعبَّدًا، أو قُربانًا يتقرَّبونَ بهِ إلى اللهِ تَعالى. وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بالكَسرِ(١)؛ أي: مَوضِعَ نُسُكٍ.

﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ دونَ غيرِه ويجعَلُوا نسكَهُم(٢) لوَجهِهِ، علَّلَ الجعلَ به تنبيهًا على أنَّ المقصودَ مِن المَناسكِ تذكُّرُ المَعبودِ.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عنـدَ ذَبحِهَـا، وفيـه تَنبيـهٌ علـى أنَّ القُربانَ يجـبُ أَنْ يكـونَ نعَمًا.

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾: أخلِصُـوا التَّقـرُّبَ أو الذِّكـرَ ولا تَشُـوبوه بالإشـراكِ.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: المُتواضِعينَ، أو المُخلِصينَ؛ فإنَّ الإخباتَ صِفَتُهُم.

(٣٥) ـ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هيبةً مِنه لإشراقِ أشعَّةِ جلالِه علَيْها.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

(٢) في نسخة الفاروقي: «نسيكتهم»، وفي نسخة الطبلاوي: «نسيكهم».

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مِن المَصائبِ والكُلَفِ.

﴿وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتِها. وقُرِئَ: (والمقيمينَ الصَّلاةَ) على الأصلِ[١].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوهِ الخَيرِ.

(٣٦) ـ ﴿وَٱلْبُدْنَ﴾: جمعُ بَدَنَةٍ، كخُشْبٍ وخَشَبَةٍ، وأصلهُ الضمُّ وقَد قُرِئَ به[٢]، وإنَّما سُمِّيَت بها الإبلُ لعِظَمِ بَدَنِها، مأخوذةٌ مِن بَدُنَ بَدَانَةً، ولا يلزَمُ مِن مُشاركَةِ البَقرِ لها في إجزائِها عَن سبعةٍ بقولِه عليه السَّلامُ: «البَدَنةُ عَن سبعةٍ والبَقَرَةُ عَن سبعةٍ»[٣] تناولُ اسمِ البَدَنةِ لها شرعًا، بل الحديثُ يمنَعُ ذلكَ[٤].

وانتصابُهُ بفعلٍ يُفَسِّرُه: ﴿جَعَلْنَٰهَا لَكُم﴾ ومَن رَفَعَهُ[٥] جعَلَه مُبتدأً.

﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾: مِن أعلامِ دينِه التي شرعَهَا الله.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾: مَنافِعُ دِينيَّةٌ ودُنيَوِيَّةٌ.

---

(١) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٢٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

(٢) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧).

(٣) رواه مسلم (١٣١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بلفظ: «نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة».

(٤) في هامش نسخة الفاروقي: «قوله: (ولا يلزم...) رد لصاحب الكشاف حيث قال: لما جعَل البقرة في حُكم الإبل صارت البَدَنةُ في الشَّريعة متناوِلةً للجِنْسين عند أبي حنيفة وأصحابِه رحمهم الله، وإلَّا فَالبُدْنُ هي الإبلُ وعليه تَدُلُّ الآية، وقرأ الحَسَن: (والبُدُنَ) بضمَّتين كثُمُر في جَمع ثَمرَةٍ، وابنُ أبي إسحاق بضمَّتين وتشديدِ النونِ على لفظِ الوقف. وقرئ بالنَّصب والرفع؛ كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ [يس: ٣٩]».

(٥) قراءة الرفع في «الكشاف» (٥/ ٥٦١)، و«البحر» (١٥/ ٣٥٩) بلا نسبة.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأَنْ تَقُولُوا عندَ ذَبحِها: اللهُ أكبرُ، لا إله إلا اللهُ، والله أكبرُ، اللهمَّ منكَ وإليك.

﴿صَوَافَّ﴾: قائماتٍ قَدْ صَفَفْنَ أيديَهُنَّ وأَرجُلَهُنَّ.

وقُرِئَ: (صَوَافِنَ)[1] مِن صَفَنَ الفرسُ: إذا قامَ على ثلاثٍ وطرفِ سُنْبُكِ[2] الرَّابعةِ؛ لأنَّ البدنةَ تُعقَلُ إحدى يَدَيْهَا فتقومُ على ثلاثٍ.

و: (صَوافِنًا)[3] بإبدالِ التَّنوينِ حرفَ الإطلاقِ عندَ الوَقفِ.

و: (صَوَافيَ)[4]؛ أي: خوالِصَ لوجهِ اللهِ.

و: (صَوَافيْ)[5] على لغةِ مَن يُسكِّنُ الياء مطلقًا كقولِهِم: (أَعطِ القَوْسَ بَارِيْهَا)[6].

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾: سقطَتْ على الأرضِ، وهو كنايةٌ عَن الموتِ.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾: الرَّاضـي بمَـا عِنـدَهُ وبما يعطَى من غيرِ مَسـألةٍ،

---

(١) نسبت لابن مسعود وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧ ـ ٩٨)، و«المحتسب» (٢/ ٨١)، و«البحر» (١٥/ ٣٦٠).

(٢) السنبك: طرف حافر الدابة. انظر: «مقاييس اللغة» (مادة: سبك).

(٣) كذا بالنون نسبها في «الكشاف» (٥/ ٥٦٢) لعمرو بن عبيد، والذي في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٢٩)، و«البحر» (١٥/ ٣٥٩)، عن عمرو بن عبيد: (صوافياً) بتنوين الياء.

(٤) نسبت لأبي موسى الأشعري والحسن وزيد بن أسلم وجمع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٧) و«المحتسب» (٢/ ٨١)، و«البحر» (١٥/ ٣٥٩).

(٥) نسبت للحسن أيضاً. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٥)، و«البحر» (١٥/ ٣٦٠).

(٦) قطعة من بيت كما في «جمهرة الأمثال» (١/ ٧٦)، وتمامه:

يـا بـاريَ القـوسِ بريًـا لسْـتَ تُحْكِمُـه ... لا تظلـمِ القـوسَ أعـطِ القـوسَ باريهـا

ويؤيِّـدُه أنـه قُـرِئَ: (القَنِـعَ)(١)، أو: السـائلَ، مِـن قَنِعْتُ إليـه قنوعًـا: إذا خَضَعتُ له في السُّـؤالِ.

﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ والمتعرِّضَ بالسُّؤالِ(٢).

وقُرِئَ: (والمُعْتَرِي)(٣)، يقال: عرَّهُ وعَرَاهُ واعْتَرَّهُ واعْتَرَاهُ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ما وصَفْنا مِن نَحرِها قِيامًا ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع عِظَمِها وقُوَّتها، حتى تأخذوهَا مُنقادةً فتعْقِلوهَا وتحبِسُوها صافَّةً قوائِمَها ثمَّ تطعُنونَ في لَبَّاتِها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامَنا عليكُم بالتَّقرُّبِ والإخلاصِ.

(٣٧) ـ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾: لن يُصيبَ رضاه ولن يقَعَ مِنه موقِعَ القَبولِ ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدَّقُ بها ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المُهراقةُ بالنَّحرِ، من حيثُ إنَّها لحومٌ ودِماءٌ.

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾: ولكنْ يُصيبُه ما يَصحَبُه مِن تَقوى قُلوبِكُم التي تَدْعُوكُم إلى تعظيمِ أَمرِ اللهِ والتَّقرُّبِ إليه والإخلاصِ له.

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٨٢) عن أبي رجاء.

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي والطبلاوي: «والمعترض بالسؤال»، والمثبت من نسخة الفاروقي، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٥/ ٥٦٣).

وثمة إيراد هنا على المؤلف رحمه الله، وهو أنه فسر القانع بوجهين والمعتر بوجه واحد، والثاني من معنيي القانع ـ وهو أنه بمعنى: السائل ـ موافق لما فسر به المعتر، فيكون في اعتباره تكرارٌ ينزه عنه القرآن، أما «الكشاف» فقد سلم من هذا الإشكال، حيث فسر كل واحد منهما بوجهين:

الأول: أن (القانع): السَّائل، من قَنَعْتُ إليه: إذا خَضعْتَ له وسَألتَه، و(المعترَّ): المُتعرِّضُ بغير سؤالٍ. والثاني: (القانِعُ): الراضي بما عنده وبما يُعطَى من غير سؤالٍ من قَنِعْتُ قَنَعاً وقنَاعةً، و(المعترُّ): المتعرِّضُ بالسؤال.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨) عن الحسن، و«المحتسب» (٢/ ٨٢) عن أبي رجاء وعمرو بن عبيد.

وقيل: كان أَهلُ الجاهلِيَّةِ إذا ذبحوا القرابينَ لَطَخُوا الكعبةَ بدِمائِها قربةً إلى اللهِ فهَمَّ به المسلمونَ فنزلَتْ[1].

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾: كرَّرَه تذكيرًا للنِّعمةِ، وتَعليلًا له بقوله: ﴿لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: لتَعرِفُوا عظمَتَه باقتدارِهِ على ما لا يقدرُ عليه غيرُه فتُوَحِّدُوهُ بالكبرياءِ.

وقيل: هو التَّكبيرُ عندَ الإحلالِ أو الذَّبحِ.

﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾: أرشدَكُم إلى طريقِ تَسخيرِهَا وكيفيَّةِ التَّقرُّبِ بها.

و﴿مَا﴾ تحتملُ المَصدريَّةَ والخبريَّةَ و﴿عَلَىٰ﴾ مُتعلِّقَةٌ بـ(تُكبِّرُوا) لتَضمُّنِه معنى الشُّكرِ.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: المُخلِصينَ فيمَا يأتونَهُ ويَذَرُونَه.

(٣٨) ـ ﴿إِنَّ اللهَ يَدْفَعُ عَنِ الذينَ آمَنُوا﴾ غائلةَ المُشركينَ، وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ والكوفيونَ: ﴿يُدَافِعُ﴾[2]؛ أي: يُبالِغُ في الدَّفعِ مُبالغةَ مَن يُغالِبُ فيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ في أمانةِ اللهِ ﴿كَفُورٍ﴾ لنِعمَتِه، كمَن يَتقرَّبُ إلى الأصنامِ بذَبِيحَتِه، فلا يَرتَضِي فعلَهُم ولا ينصرُهُم.

---

(١) رواه ابن المنذر وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٥ ـ ٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه الطبري في «تفسيره» (٨/ ٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٩٥) عن ابن جريج. وانظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٢٩)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٤٦١)، و«تفسير الثعلبي» (١٨/ ٣٦٩).

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر: ﴿إنَّ اللهَ يُدافِعُ.. ولولا دَفْعُ الله الناسَ﴾، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إنَّ اللهَ يَدْفَعُ.. ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ﴾، وقرأ نافع: ﴿إنَّ اللهَ يُدافِعُ.. ولولا دفاعُ اللهِ الناسَ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٧)، و«التيسير» (ص: ٨٢).

(٣٩) ـ ﴿أُذِنَ﴾: رُخِّصَ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وحمزَةُ والكِسائيُّ على البناءِ للفاعلِ[١]، وهو اللهُ.

﴿للذين يُقاتِلونَ﴾ المشركينَ، والمأذونُ فيه مَحذوفٌ لدلالتِه عليه[٢].

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحفصٌ بفتحِ التَّاءِ[٣]؛ أي: للَّذين يُقاتِلُهم المُشركون.

﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾: بسببِ أنَّهُم ظُلِمُوا، وهُم أَصحابُ رَسولِ اللهِ ﷺ، كانَ المُشرِكُونَ يُؤذونَهُم، وكانوا يأتونَهُ مِن بينِ مَضروبٍ ومَشجوجٍ يَتظلَّمُونَ إليه، فيقولُ لهم: «اصبِرُوا فإنِّي لم أؤمَرْ بالقتالِ» حتى هاجرَ، فأُنزِلَت[٤].

وهي أَوَّلُ آيةٍ نَزَلَتْ في القتالِ[٥] بعدما نُهِيَ عنه في نَيِّفٍ وسبعينَ آيةً.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ وَعَدَ لهم بالنَّصرِ كما وَعَدَ بدفعِ أَذَى الكُفَّارِ عنهم.

(٤٠) ـ ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ يعني: مكَّةَ ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾: بغيرِ موجبٍ استَحقُّوا به ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ على طريقةِ قولِ النَّابغَةِ:

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

(٢) قوله: «والمأذون فيه محذوف»؛ أي: في القتالِ؛ «لدلالته»؛ أي: لدلالةِ ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٢٦).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٧)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٨/ ٢٥)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٠٩)، وعزاه للمفسرين، وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣٨٨): غريب جدًّا.

وذكره ابن حجر في «العجاب في بيان الأسباب» (٢/ ٩١٨) عن قتادة ومقاتل.

(٥) قطعة من خبر رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٤٠٨)، والإمام أحمد في «المسند» (١٨٦٥)، والترمذي (٣١٧١) وحسنه، والنسائي (٣٠٨٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. ولم ترد هذه القطعة في رواية الترمذي.

ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم بهنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكتائبِ[١]

وقيل: مُنقَطِعٌ.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بتَسليطِ المؤمنينَ مِنْهُم على الكافرين ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ لخُرِّبَتْ باستيلاءِ المُشركينَ على أهلِ المِلَلِ.

وقرأ نافِعٌ: ﴿دِفاع﴾[٢]، وقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ: ﴿لهُدِمَت﴾ بالتَّخفيفِ[٣].

﴿صَوَٰمِعُ﴾: صوامِعُ الرَّهبانيَّةِ ﴿وَبِيَعٌ﴾: وبِيَعُ النَّصارَى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾: وكنائسُ اليهودِ، وسُمِّيَتْ بها لأنَّها يُصَلَّى فيها، وقيل: أَصْلُها: (صَلُوتا) بالعبريَّةِ فعُرِّبَت.

﴿وَمَسَٰجِدُ﴾: ومساجدُ المسلمينَ.

﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ صفةٌ للأربعِ، أو لـ﴿مَساجدُ﴾ خُصَّتْ بها تَفضيلًا.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾: مَن يَنصُرُ دينَهُ، وقد أنجزَ وعدَهُ بأَنْ سلَّطَ المهاجرينَ والأنصارَ على صناديدِ العَربِ وأكاسِرَةِ العَجمِ وقياصِرَتِهم، وأورثَهُم أرضَهُم ودِيارَهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على نَصرِهِم ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُمانِعُه شيءٌ.

(٤١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وصفٌ للَّذينَ أُخرِجُوا، وهو ثناءٌ قبلَ بلاءٍ[٤].

---

(١) انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص: ١٥)، وتقدم مراراً.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٧)، و«التيسير» (ص: ٨٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٨)، و«التيسير» (ص: ١٥٧).

(٤) «وهو ثناء قبل بلاء» رواه خليفة بن خياط في «تاريخه» (ص: ١٧١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٣٤٧)، عن عثمانَ رضي الله عنه؛ يريدُ: أنَّ الله قد أثنى عليهم قبلَ أن يُحدِثُوا من الخيرِ ما أحدَثُوا. انظر: «الكشاف» (٥/ ٥٦٧).

وفيه دَليلٌ على صِحَّةِ أَمرِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ؛ إذْ لم يَستجمِعْ ذلك[١] غيرُهُم مِن المهاجرينَ.

وقيل: بدلٌ مِن ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإنَّ مَرجِعَها إلى حُكمِه، وفيه تأكيدٌ لِمَا وعدَهُ.

(٤٢ ـ ٤٤) ـ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ تسليةٌ له بأنَّ قومَهُ إن كذَّبوه فهو ليسَ بأَوْحَدِيٍّ في التَّكذيبِ، فإنَّ هؤلاء قد كذَّبوا رُسلَهُم قبلَ قومِه.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ غيَّرَ فيه النَّظمَ وبَنى الفعلَ للمفعولِ لأنَّ قومَهُ بنو إسرائيلَ ولم يُكَذِّبوهُ، وإنَّما كَذَّبه القِبطُ، ولأنَّ[٢] تكذيبَهُ كانَ أشنعَ، وآياتِه كانَتْ أعظمَ وأَشيَعَ.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾: فأَمْهَلْتُهم حتى انصرمَتْ آجالُهُم المُقدَّرَةُ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: إنكاري عليهِم: بتَغييرِ النِّعمةِ محنةً، والحياةِ هلاكًا، والعَمارَةِ خَرابًا.

(٤٥) ـ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بإهلاكِ أَهلِها. وقرأ البَصريَّانِ بغير لفظِ التَّعظيمِ[٣].

﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾؛ أي: أهلُها ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: ساقطةٌ حيطانُها على سُقوفِها، بأَنْ تَعطَّلَ بنيانُها فخَرَّت سُقوفُها، ثُمَّ تهدَّمَت حِيطانُها فسقطَتْ فوقَ السُّقوفِ.

---

(١) بعدها في نسخة الخيالي: «في».

(٢) في نسخة الخيالي: «أو لأن».

(٣) أي: ﴿أهلَكْتُها﴾. انظر: «التيسير» (ص: ٤٣٨)، و«النشر» (٢/ ٣٢٧).

أو: خاليةٌ مَع بقاءِ عُروشِها وسَلامَتِها. فيكونُ الجارُّ مُتعلِّقًا بـ﴿خَاوِيَةٌ﴾[١].

ويجوزُ أن يكونَ خبرًا بعدَ خَبرٍ؛ أي: هي خاليَةٌ وهي على عُروشِها؛ أي: مُظِلَّةٌ[٢] عليها بأن سقطَتْ وبقيَتِ الحيطانُ مائلةً[٣] مشرِفةً عليها.

والجملةُ مَعطوفةٌ على ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، لا علـى ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ فإنَّها حالٌ، والإهلاكُ ليسَ حالَ خَوائها[٤]، فلا محلَّ لها إن نَصَبْتَ ﴿كأين﴾ بمُقدَّرٍ يفسِّرُه ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، وإنْ رفَعْتَه بالابتداءِ فمَحَلُّها الرَّفعُ[٥].

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطفٌ على ﴿قَرْيَةٍ﴾؛ أي: وكَمْ بئرٍ عامِرَةٍ في البَوادِي تُرِكَت لا يُستقَى مِنْها لهلاكِ أهلِها. وقُرِئَ بالتَّخفيفِ[٦] مِن أعطلَهُ بمَعنى: عَطَّلَه.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: مرفوعٍ أو مُجصَّصٍ أَخْلَيْناهُ عَن ساكنيهِ، وذلك يُقَوِّي أنَّ مَعنى ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: خاليةٌ مع بقاءِ عُروشِها.

وقيل: المرادُ بـ(بئرٍ): بئرٌ في سفحِ جبلٍ بحَضرموتَ، وبـ(قصرٍ): قصرٌ مشرفٌ على قُلَّتِه، كانا لقومِ حنظلةَ بنِ صفوانَ مِن بقايا قومِ صالحٍ، فلَمَّا قَتلوهُ أهلَكَهُم اللهُ وعَطَّلَهُما[٧].

---

(١) قوله: «فيكون الجار متعلقاً بـ ﴿خَاوِيَةٌ﴾» تفريع على القولين قبلَه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٢٨).

(٢) في هامش نسخة الفاروقي: «في نسخة: مطلة».

(٣) في هامش نسخة الفاروقي: «في نسخة: ماثلة».

(٤) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «خرابها».

(٥) قوله: «وفي ﴿تَعْمَى﴾»؛ أي: والضميرُ فيه (راجع إليه)؛ أي: إلى المُبهَمِ، «أو الظاهر»؛ أي: وهو ﴿الْأَبْصَارُ﴾ «أقيم مقامه»؛ أي: مقام الضمير في ﴿تَعْمَى﴾ وإن كان الظاهرُ مفسِّراً للمُبهَم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٢٩).

(٦) أي: (مُعْطَلَةٍ). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨) عن الجحدري.

(٧) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤١٤) عن سعيد بن جبير والكلبي والخليل.

(٤٦) ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ حثٌّ لَهُم على أَنْ يُسافِرُوا ليَرَوْا مَصارِعَ المُهْلَكِينَ فيَعتبِرُوا، وهُم وإنْ كانُوا قد سافروا لم يُسافِرُوا لذلك.

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾: ما يجبُ أن يُعقَلَ مِن التَّوحيدِ بما حصلَ لَهُم مِن الاستبصارِ والاستدلالِ.

﴿أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾: ما يجبُ أَنْ يُسمعَ مِن الوَحيِ، والتَّذكيرِ بحالِ مَن شاهدَ آثارَهُم.

﴿فَإِنَّهَا﴾ الضَّميرُ للقِصَّةِ، أو مُبهَمٌ يُفسِّرُه ﴿الْأَبْصَارُ﴾، وفي ﴿تَعْمَى﴾ راجعٌ إليه، أو الظَّاهرُ أقيمَ مُقامَه[1].

﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ عن الاعتبارِ؛ أي: ليسَ الخَلَلُ في مشاعِرِهم، وإنَّما إيفَتْ[2] عُقُولُهُم[3] باتِّباعِ الهَوَى والانهماكِ في التَّقليدِ.

وذكرُ الصُّدورِ للتَّأكيدِ ونَفيِ التَّجوُّزِ، وفضلِ[4] التَّنبيهِ على أنَّ العَمَى الحَقيقيَّ ليسَ المتعارفَ الذي يخصُّ البصرَ.

قيل: لَمَّا نزلَ ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ قال ابنُ أمِّ مَكتومٍ: يا رسولَ اللهِ! أنا في الدُّنيا أَعمَى أفأَكونُ في الآخرةِ أَعْمَى؟ فنزلت[5].

---

(١) قوله: «فلا محل لها»؛ أي: لجملة ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ «إن نصبت كأيِّن»؛ لأنها تكون حينئذ معطوفةً على جملة ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، وهي مفسِّرةٌ لا محلَّ لها «وإن رفعته»؛ أي: (كأيِّن) «فمحلها الرفع» خبراً ثانياً لـ(كأيِّن)، والخبرُ الأولُ ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٢٦).

(٢) بالبناء للمجهول، أي أصابتها آفة.

(٣) في هامش نسخة الفاروقي: «في نسخة: قلوبهم».

(٤) في نسخة الطبلاوي: «وقصد».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٣٨٣) عن ابن عباس ومقاتل. وصدره المصنف بقوله: (قيل) =

(٤٧) ـ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ المتوعَّـدِ بـهِ ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لامتناعِ الخُلـفِ فـي خبـرِهِ، فيصيبُهم مـا أوعدَهُم به ولـو بعدَ حيـنٍ، لكنَّه صَبـورٌ لا يُعجِّلُ بالعقوبَةِ.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ بيانٌ لتَناهي صَبرِهِ وتَأنِّيه حتى استقصَرَ المُدَدَ الطِّوالَ، أو لتَمادِي عذابِهِ وطولِ أيَّامِه حقيقةً، أو مِن حيثُ إنَّ أيَّامَ الشَّدائدِ مُستطالَةٌ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ بالياء[1].

(٤٨) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾: وكم مِن أَهلِ قريةٍ، فحُذِفَ المضافُ وأقيمَ المُضافُ إليه مُقامَهُ في الإعرابِ ورَجْعِ الضَّمائرِ والأحكامِ مبالغةً في التَّعميمِ والتَّهويلِ.

وإنَّما عَطَفَ الأولى بالفاءِ وهذه بالواوِ لأنَّ الأولى بدلٌ عَن قولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وهذه في حُكمِ ما تَقدَّمَها مِن الجُملتَينِ لبَيانِ أنَّ المتوعَّدَ به يَحيقُ بهم لا مَحالةَ وأنَّ تأخيرَه[2] لعادَتِه تعالى.

﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كمـا أمهلْتُكم ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مثلَكـم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعَذابِ ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾: وإلـى حكمِي مرجـعُ الجميعِ.

(٤٩) ـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أُوَضِّحُ لكم ما أُنذِرُكُم به.

والاقتصارُ على الإنذارِ مع عمومِ الخطابِ وذِكْرِ الفريقَيْنِ لأنَّ صدرَ الكلامِ ومساقَه للمُشركين، وإنَّما ذُكِرَ المؤمنونَ وثوابُهم زيادةً في غيظِهِم.

= علامة على تضعيفه، فقال الشهاب في «الحاشية»: لعل تمريضه لعدم ثبوته عنده؛ لأنَّ ابن أم مكتوم رضي الله عنه لا يخفى عليه مثله.

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٢) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «وإنْ تأخَّر».

(٥٠) ـ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لِمَا نَدَرَ مِنهم[1] ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هي الجنَّةُ، والكريمُ مِن كلِّ نوعٍ: ما يجمَعُ فَضائِلَه.

(٥١) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ بالـرَّدِّ والإبطالِ ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾: مُسابقينَ مُشاقِّينَ للسَّاعينَ فيها بالقَبولِ والتَّحقيقِ، مِن عَاجَزَهُ فأعجزَهُ وعَجَّزَهُ: إذا سابقَهُ فسبقَهُ؛ لأنَّ كُلًّا مِن المتسابقَينِ يطلبُ إعجازَ الآخر عَن اللَّحاقِ به.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو: ﴿مُعجِّزينَ﴾[2] على أنَّه حالٌ مُقدَّرةٌ.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾: النَّارِ الموقدةِ، وقيل: اسمُ دركةٍ.

(٥٢) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الرَّسولُ: مَن بعثَهُ اللهُ بشَريعةٍ مُجدَّدةٍ يدعو النَّاسَ إليها، والنَّبيُّ يَعمُّهُ ومَن بعثَهُ[3] لتقريرِ شرعٍ سابقٍ، كأنبياءِ بني إسرائيلَ الذين كانوا بينَ مُوسى وعيسى عليهِم السَّلام، ولذلك شبَّهَ النَّبيُّ ﷺ علماءَ أُمَّتِه بهم[4].

فالنبيُّ أعمُّ مِن الرَّسولِ، ويدلُّ عليه أنَّه عليه السَّلامُ سُئِلَ عَن الأنبياءِ فقال: «مئةُ

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «لما يندر منهم»، وفي نسخة التفتازاني: «لما بدر منهم أي من الصالحات»، وفي نسخة الخيالي والفاروقي: «لما ندر منهم»، وعلق عليه على هامش نسخة الفاروقي: «ندر: نادر، منهم: من الذنوب»، وعليه شرح في «حاشية الشهاب» فقال: «وقوله: (ندر) بالنون ودال مهملة؛ أي: ظهر وصدر منهم، من قولهم: ندر فلان من بلده إذا خرج، أو المراد: صدر على طريق الندور؛ بيان لأغلب حال المؤمنين، وهو غلبة حسناتهم على سيئاتهم».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٣٩)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٣) في نسخة الفاروقي: «بعثه الله».

(٤) يشير إلى حديث: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»، قال الزركشي في «التذكرة» (ص: ١٦٦): لا يعرف له أصل، وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص: ٤٥٩): قال شيخنا ـ أي ابن حجر ـ ومن قبله الدميري والزركشي: إنه لا أصل له، زاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر، ولأبي نعيم في فضل العالم العفيف بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد».

ألفٍ وأربعةٌ وعِشرونَ ألفًا»، قيل: فكَم الرُّسلُ مِنْهُم؟ قال: «ثلاثُ مئةٍ وثلاثةَ عشرَ جَمًّا غَفِيرًا»(١).

وقيل: الرَّسولُ: مَن جمعَ إلى المُعجِزَةِ كتابًا منزلًا عليه، والنَّبيُّ غيرُ الرَّسولِ: مَن لا كتابَ له.

وقيل: الرَّسولُ: مَن يأتيهِ الملكُ بالوَحي، والنَّبيُّ يقالُ له ولِمَن يوحَى إليه في المَنامِ.

﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾: إذا زوَّرَ في نفسِهِ ما يَهواه ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ في تَشَهِّيهِ ما يوجبُ اشتغالَهُ بالدُّنيا، كما قالَ عليهِ السَّلامُ «وإنَّه لَيُغانُ على قلبي فأستغفرُ اللهَ في اليومِ سَبعينَ مَرَّةً»(٢).

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فيُبْطِلُه ويذهَبُ به بعِصمَتِه عن الركونِ إليه، والإرشادِ إلى ما يزيحُه، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾: ثم يُثبت آياتِه الدَّاعيةَ إلى الاستغراقِ في أمرِ الآخرة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالِ النَّاسِ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يَفعلُه بهم.

قيل: حَدَّثَ نفسَهُ بزوالِ المسكنَةِ فنزلَتْ(٣).

---

(١) قطعة من حديث رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١)، والخطابي في «غريب الحديث» (٢/ ١٥٧)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه. وجاء فيه عندهما عدد الأنبياء: «مئة ألف وعشرون ألفًا»، والحديث ضعيف جدًّا بسبب إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني.
ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٢٨٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٨٧١)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وإسناده ضعيف جدًّا أيضاً من أجل علي بن يزيد الألهاني.

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المزني رضي الله عنه، ولفظ البخاري: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، ولفظ مسلم: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة».

(٣) قال الشهاب في «حاشيته على البيضاوي» (٦/ ٣٠٥): ضعفه لأنه لا يلائم قوله: ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

وقيل: تَمنَّى لحرصِه على إيمانِ قومِه أنْ ينزلَ عليه ما يقرِّبُهم إليه، واستمرَّ به ذلكَ حتى كانَ في ناديهِمْ فنزلَتْ عليهِ سُورةُ ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ فأخذَ يقرَؤُها فلَمَّا بلغَ: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٠] وسوسَ إليه الشَّيطانُ حتَّى سبقَ لِسانُه سهوًا إلى أَنْ قال: (تلكَ الغرانيقُ العُلَى وإنَّ شَفاعَتَهُنَّ لتُرتَجَى) ففرِحَ به المشركونَ حتَّى شايَعُوه بالسُّجودِ لَمَّا سجدَ في آخرِها بحيثُ لم يبقَ في المسجدِ مُؤمِنٌ ولا مُشرِكٌ إلا سجدَ، ثمَّ نَبَّهَه جبريلُ فاغتمَّ به، فعزَّاهُ اللهُ بهذه الآيةِ[1].

وهو مردودٌ عند المحقِّقينَ، وإن صَحَّ فابتلاءٌ يتميَّزُ به الثَّابتُ على الإيمانِ عَن المُتزلزلِ فيه.

وقيل: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: قرأَ، كقولِه:

تَمَنَّـى كتـابَ اللهِ أَوَّلَ ليـلِـهِ ... تَمَنِّيَ دَاودَ الزَّبُـورَ عَلَـى رِسْـلِ[2]

---

(١) قصة الغرانيق معروفة، ولا يصح فيها شيء، فقد رويت فيها مرسلات عن قتادة والضحاك وأبي العالية وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وغيرهم، وروي فيها خبر من طريق عطية العوفي عن ابن عباس، لكن إسناده ضعيف جدًا. وتنظر هذه الأخبار في «تفسير الطبري» (١٦/ ٦٠٤ ـ ٦١٢).
وقد تكلم العلماء المحققون في توهين ما روي في هذه القصة وردها عقلاً ونقلاً.
وممن تكلم في توهين هذه القصة الإمام أبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية، فذكر ثلاثة وجوه في إبطالها بحيث لا يبقى شكٌّ في ذلك لمن طالع كلامه. ثم ختم ذلك بقوله: فبَطَلت الوجوه كلُّها، ولم يبق إلا وجهٌ واحد، وهو أن النبي ﷺ سكت عند قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ والشيطانُ حاضرٌ، فتكلَّم الشيطان بهذه الكلمات متَّصلاً بقراءة النبيِّ ﷺ، فوقع عند بعضهم أن النبيَّ ﷺ هو الذي تكلَّم بها، ويكون هذا إلقاءً في قراءة النبي ﷺ، وكان الشيطان يتكلَّم في زمن النبي ﷺ ويُسمَع كلامه؛ كما ذُكر عنه في اليوم الذي مكَروا بالنبيِّ ﷺ في دار الندوة، وإبليس ظهر يوم أحدٍ على صورة شيخ نجديٍّ... إلى آخر ما قال.

(٢) البيت برواية المؤلف دون نسبة في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٣٨)، و«المنجد في اللغة» =

وأُمنيَّتُه: قِراءَتُه، وإلقاءُ الشَّيطانِ فيها: أن تكلَّمَ بذلك رافعًا صوتَهُ بحيثُ ظنَّ السَّامعونَ أنَّه مِن قراءةِ النَّبيِّ.

وقد رُدَّ بأنَّه أيضًا يُخلُّ بالوثوقِ على القرآنِ، ولا يَندَفِعُ بقولِه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢] لأنَّه أيضًا يَحتَمِلُه.

والآيةُ تدلُّ على جوازِ السَّهوِ على الأنبياءِ وتطرُّقِ الوَسوَسَةِ إليهِم.

(٥٣) ـ ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عِلَّةٌ لتَمكينِ الشَّيطانِ مِنْه، وذلك يَدُلُّ على أنَّ المَلقِيَّ أمرٌ ظاهِرٌ عرفَهُ المحِقُّ والمُبطِلُ.

﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: شَكٌّ ونفاقٌ ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركينَ.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: الفريقينِ، فوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوضِعَ ضَميرِهِم قضاءً عليهِمْ بالظُّلمِ.

﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ عَنِ الحقِّ، أو عَنِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ والمؤمنينَ[1].

= لكراع النمل (ص: ١٥٤)، و«الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ١٥١)، و«تفسير القرآن» لابن أبي زمنين (٣/ ١٨٩)، و«الغريبين» للهروي (مادة: منا)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٢٨)، و«المحكم» لابن سيده (١٠/ ٥١١). وعزاه الآلوسي في «روح المعاني» (١٧/ ٣٦٠) لحسان، وليس في ديوانه. و«رِسْل» بكسر فسكون بمعنى: تؤدة وهينة.

وذكروا بيتاً آخر بهذا الصدر والعجزُ مختلف، كما في «العين» (٨/ ٣٩٠)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٣٨)، و«المنجد في اللغة» لكراع النمل (ص: ١٥٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٣٥)، و«الزاهر» لابن الأنباري (٢/ ١٥٠)، و«أمالي الزجاجي» (ص: ٢٠)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٤٦٤)، و«الوجوه والنظائر» لأبي هلال العسكري (ص: ١٥٠)، و«الغريبين» للهروي (مادة: منا)، و«تفسير الثعلبي» (١٨/ ٣٢٢)، و«المحكم» لابن سيده (١٠/ ٥١١)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٢٨). وعجزه:

وآخِــرَه لاقَــى حِمَــامَ المَقَــادِرِ

وذكر بعضهم كابن الأنباري والهروي والثعلبي أنه في رثاء عثمان رضي الله عنه.

(١) في نسخة الخيالي: «وعن المؤمنين».

(٥٤) ـ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: أنَّ القُرآنَ هو الحقُّ النَّازِلُ مِن عندِ اللهِ، أو: تمكينُ الشَّيطانِ مِن الإلقاءِ هو الحَقُّ الصَّادرُ مِن اللهِ؛ لأنَّه ممَّا جرَتْ به عادَتُه في جنسِ الإنسِ مِن لَدُن آدمَ.

﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾: بالقُرآنِ، أو: باللهِ ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقيادِ والخَشيةِ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فيما أَشْكَلَ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو نظرٌ صَحيحٌ يُوصِلُهُم إلى ما هوَ الحَقُّ فيه.

(٥٥) ـ ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ﴾: في شَكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾: مِن القُرآنِ، أو الرَّسُولِ، أو: ممَّا أَلْقَى الشَّيطانُ في أُمنيَّتِه، يقولون: ما بالُه ذكرَهَا بخيرٍ ثمَّ ارتدَّ عنه؟!

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾: القيامَةُ، أو أشراطُها، أو الموتُ ﴿بَغْتَةً﴾: فجأةً ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: يومِ حربٍ يُقْتَلُونَ فيه كيوم بَدْرٍ، سُمِّيَ به لأنَّ أولادَ النِّساءِ يُقتَلُونَ فيه فيَصِرْنَ كالعُقُمِ، أو لأنَّ المقاتلينَ أبناءُ الحربِ فإذا قُتِلُوا صارَتْ عَقِيمًا، فوُصِفَ اليومَ بوَصْفِهَا اتِّساعًا[1]، أو لأنَّهُ لا خيرَ لَهُم فيه، ومنه: الرِّيحُ العقيمُ، لِمَا لم تُنْشِئ مَطَرًا ولم تُلقِحْ شَجَرًا، أو لأنَّه لا مثلَ له لقتالِ الملائكةِ فيه.

أو: يومِ القيامةِ على أنَّ المُرادَ بالسَّاعةِ غيرُه، أو على وَضعِهِ مَوضِعَ ضَميرِهَا للتَّهويلِ.

---

(١) من باب الاستعارة المكنية، فالمستعارُ له اليومُ، والمستعارُ منه المرأة، والجامعُ: فقدانُ النتيجة، وكما أن المرأة إذا فقدتِ الولدَ وُصفت بالعقم، أي: الثكل، كذلك اليوم إذا فُقِدَ فيه المحاربونَ يوصفُ بالعُقْم كأنهُ أمُّهم، ومثلُه قولهم: ابنُ اليوم، وأبناءُ الزمان، وأبناءُ الحرب، والاستعارةُ واقعةٌ في اليوم بأن شبه اليوم بالمرأة في فقدان، مشتملةً تشبيهاً بليغاً، ثم توهم أن اليوم هي المرأة على سبيل التخييل، ثم أطلق اليوم الذي هو اسم المشبه، وأريد به اليوم المتخيل، والقرينة نسبةٌ العقيم إليه. «فتوح الغيب» (١٠/ ٥١٤-٥١٥).

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ التَّنوينُ فيه مَنوبٌ عَن الجُملَةِ التي دلَّتْ عليه الغايةُ؛ أي: يومَ تَزُولُ مِرْيَتُهم ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بالمجازاةِ، والضَّميرُ يَعُمُّ المُؤمنينَ والكافرينَ لتفصيلِه بقولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

وإدخالُ الفاءِ في خبرِ الثَّاني دونَ الأوَّلِ تَنبيهٌ على أنَّ إثابةَ المؤمنينَ بالجَنَّاتِ تفضُّلٌ مِن اللهِ تَعالى، وأنَّ عِقابَ الكافرين مُسَبَّبٌ مِن أعمالِهم، ولذلك قالَ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ ولم يَقُل: هم في عذابٍ.

(٥٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ في الجِهادِ ﴿أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: الجنَّةَ ونَعيمَها، وإنَّما سَوَّى بينَ مَن قُتِلَ في الجِهادِ ومَن ماتَ حتفَ أَنفِهِ في الوَعدِ؛ لاستِوائِهما في القَصْدِ وأَصْلِ العَمَلِ.

رُوِيَ أنَّ بعضَ الصَّحابةِ قالوا: يا نَبِيَّ اللهِ، هؤلاءِ الذين قُتِلُوا قد عَلِمْنَا ما أعطاهُم اللهُ مِن الخيرِ، ونحنُ نجاهِدُ معكَ كما جاهَدُوا، فما لنا إنْ مُتنَا؟ فنزَلَتْ[1].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنَّه يرزُقُ بغيرِ حِسابٍ.

(٥٩) ـ ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ هو الجنَّةُ فيها ما يحبُّونَه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالِهم وأحوالِ مَعادِهِم[2] ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجِلُ في العقوبَةِ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٥/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠)، ولم أجده في كتب المتقدمين، وإنما ذكره تُبَّاع الزمخشري في تفاسيرهم؛ كالفخر الرازي والنسفي وأبي حيان وأبي السعود والآلوسي. وذكر نحوه مقاتل بن سليمان في «تفسيره» (٣/ ١٣٤) ولفظه: وذلك أن نفراً من المسلمين قالوا للنبي ﷺ: نحن نقاتل المشركين فنقتل منهم ولا نستشهد، فما لنا شهادة فأشركهم الله عز وجل جميعًا في الجنة، فنزلت فيهم. وانظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٦١٩)، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب (٧/ ٤٩٢٢).

(٢) في نسخة الفاروقي: «معاديهم».

(٦٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمرُ ذلكَ ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ ولم يَزِدْ في الاقتصاصِ، وإنَّما سُمِّيَ الابتداءُ بالعقابِ الذي هو الجَزاءُ للازدواجِ، أو لأنَّه سببُه.

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودَةِ إلى العُقوبَةِ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ لا محالةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ للمُنتَصِرِ حيثُ اتَّبعَ هواه في الانتقامِ وأعرضَ عمَّا نَدَبَ اللهُ إليه بقولِه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وفيه تعريضٌ بالحثِّ على العفوِ والمَغفِرَةِ، فإنَّه تَعالى مع كمالِ قُدرَتِه[1] وتعالي شأنِه لَمَّا كانَ يعفو ويَغفِرُ فغيرُهُ بذلك أَوْلَى، وتنبيهٌ على أنه قادِرٌ على العقوبَةِ إذ لا يُوصَفُ بالعفوِ إلا القادِرُ على ضِدِّه.

(٦١) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذلكَ النَّصرُ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾: بسببِ أنَّ اللهَ قادِرٌ على تغليبِ بعضِ الأمورِ على بعضٍ، جارٍ عادتُه على المداولةِ بينَ الأشياءِ المُتعانِدَةِ، ومن ذلك إيلاجُ أحدِ المَلَوينِ[2] في الآخرِ بأَنْ يزيدَ فيه ما يَنقصُ منه، أو بتَحصيلِ ظُلْمَةِ الليلِ في مكانِ ضوءِ النَّهارِ بتَغييبِ الشَّمسِ وعكسِ ذلك باطلاعِها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يسمَعُ قولَ المعاقِبِ والمعاقَبِ ﴿بَصِيرٌ﴾ يَرَى أفعالَهُما فلا يُهمِلُهُما.

(٦٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوصفُ بكمالِ القُدرَةِ والعلمِ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ في نفسِهِ الواجبُ لذاتِه وحدَه، فإنَّ وُجوبَ وُجودِه ووحدتَهُ يَقتَضِيَانِ أن يكونَ مبدأً لكلِّ ما يوجَدُ سواهُ، عالِمًا بذاتِه وبما عداهُ.

أو: الثَّابتُ الإلهيَّةِ، ولا يصلحُ لها إلَّا مَن كانَ قادِرًا عالِمًا.

---

(١) في نسخة الخيالي: «مع كماله».

(٢) المَلَوَانِ: اللَّيلُ والنَّهارُ، الواحدُ مَلا مَقصورٌ. انظر: «الصحاح» مادة: (ملا).

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهًا، وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ بالتَّاءِ[١] على مخاطبةِ المشركينَ.

وقُرِئَ بالبناءِ للمَفعولِ[٢] فتكونُ الواوُ لـ﴿مَا﴾ فإنَّه في مَعنى الآلهةِ[٣].

﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: المعدومُ في حَدِّ ذاتِه، أو باطلُ الأُلوهيَّةِ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على الأشياءِ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ عَن أَنْ يكونَ له شريكٌ، لا شيءَ أَعْلَى منه شأنًا وأكبرَ سُلطانًا.

(٦٣) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استفهامُ تَقريرٍ، ولذلك رُفِعَ ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ عطفًا على ﴿أَنزَلَ﴾؛ إذ لو نُصبَ جوابًا لَدَلَّ على نفيِ الاخضرارِ كما في قولِك: (أَلَمْ تَرَ أَنِّي جِئتُكَ فتُكْرِمَني)، والمقصودُ إثباتُه، وإنَّما عُدلَ بهِ عَن صيغَةِ الماضي للدَّلالةِ على بقاءِ أثرِ المَطرِ زمانًا بعدَ زمانٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصلُ عِلمُهُ ولطفُه إلى كلِّ ما جَلَّ ودَقَّ ﴿خَبِيرٌ﴾ بالتَّدابيرِ الظَّاهرةِ والباطِنَةِ.

(٦٤) ـ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقًا ومُلْكًا ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ في ذاتِه عَن كُلِّ شَيءٍ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: المستوجِبُ للحَمدِ بصِفاتِه وأَفعالِه.

(٦٥) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: جعَلَها مُذلَّلَةً لَكُم معدَّةً لِمَنافِعِكُم.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ عطفٌ على ﴿ما﴾ أو على اسمِ ﴿أَنَّ﴾، وقُرِئَ بالرَّفعِ[٤] على الابتداءِ.

﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حالٌ مِنْها أو خبرٌ.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾: مِن أَنْ تقعَ، أو: كراهةَ أَنْ تقعَ، بأَنْ خَلَقَها على صُورةٍ مُتداعيَةٍ إلى الاستمساكِ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٠)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨) عن أبي حيوة.

(٣) في نسخة الطبلاوي: «الإلهية».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨) عن الأعرج والسلمي.

﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾: إلا بمَشيئَتِه، وذلكَ يومَ القِيامَةِ، وفيه رَدٌّ لاستِمساكِهَا بذاتِها فإنَّها مُساوِيَةٌ لسائرِ الأجسامِ في الجِسمِيَّةِ، فتكونُ قابلةً للمَيْلِ الهابطِ قَبولَ غيرِها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيثُ هَيَّأَ لَهُم أسبابَ الاستدلالِ، وفتحَ لَهُم[1] أبوابَ المنافعِ، ودفعَ عَنْهُم أنواعَ[2] المَضارِّ.

(٦٦) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بعدَ أَنْ كُنْتُم جمادًا عناصرَ ونُطَفًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا جاءَ أَجَلُكُم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في الآخرةِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾: لجَحُودٍ للنِّعَمِ مع ظُهورِها.

(٦٧) ـ ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾: أهلِ دينٍ ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: متعبَّدًا أو شَريعةً تُعُبِّدُوا بها، وقيل: عيدًا ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾: ينسكونَه ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ سائرُ أربابِ المِلَلِ ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾: في أمرِ الدِّينِ أو النَّسائكِ؛ لأَنَّهُم بينَ جُهَّالٍ وأهلِ عِنادٍ، أو لأنَّ أمرَ دينِكَ أظهَرُ مِن أَنْ يقبَلَ النِّزاعَ.

وقيل: المرادُ نَهْيُ الرَّسولِ عليه السَّلامُ عَنِ الالتفاتِ إلى قولِهِم وتمكينِهِم مِن المناظرةِ المُؤدِّيَةِ إلى نزاعِهِم، فإنَّها إنَّما تنفعُ طالِبَ الحقِّ وهؤلاءِ أهلُ مِراءٍ، أو عَن مُنازَعَتِهِم كقولِكَ: (لا يضاربنَّكَ زَيدٌ)، وهذا إنَّما يَجوزُ في أَفعالِ المُغالبةِ للتَّلازُمِ.

وقيل: نزلَتْ في كُفَّارِ خزاعةَ قالوا للمُسلمينَ: ما لكم تأكلونَ ما قتلتُمْ، ولا تأكلونَ ما قتلَهُ اللهُ[3]؟!

---

(١) في نسخة التفتازاني والفاروقي: «عليهم».

(٢) في نسخة التفتازاني: «أبواب».

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٨/ ٤٠٣) ولم يذكر له سنداً ولا رواياً. وروي نحو هذا في نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]. رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٨٥٠) عن قتادة، ورواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ٥٢٢ ـ ٥٢٦) عن ابن عباس وعكرمة وقتادة ومجاهد والضحاك وغيرهم.

وقُرِئَ: (فَلَا يَنْزِعُنَّكَ)[1] على تهييجِ الرَّسولِ والمبالغةِ في تَثبيتِه على دينِه، على أنَّه مِن نازَعْتُه فنَزَعْتُه: إذا غَلَبْتَه.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: إلى تَوحيدِه وعِبادَتِه ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾: طريقٍ إلى الحَقِّ سَوِيٍّ.

(٦٨) ـ ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ وقد ظهرَ الحَقُّ ولَزِمَتِ الحُجَّةُ ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن المُجادلَةِ الباطِلَةِ وغيرِها فيجازِيكُم عليها، وهو وَعيدٌ فيه رِفقٌ.

(٦٩) ـ ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾: يفصلُ بين المؤمنينَ مِنْكُم والكافرينَ بالثَّوابِ والعقابِ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كما فصَلَ في الدُّنيَا بالحُجَجِ والآياتِ ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أَمْرِ الدِّينِ.

(٧٠) ـ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يَخْفَى عليهِ شيءٌ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ هو اللَّوحُ كتبَهُ فيه قبلَ حُدوثِه[2]، فلا يُهِمَّنَّكَ أمرُهُم مع عِلمِنَا بهِ وحِفظِنا له.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾: إنَّ الإحاطةَ بهِ وإثباتَهُ في اللَّوحِ، أو: الحكمَ بينكُم ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنَّ عِلمَهُ مُقتضَى ذاتِه المتعلِّقِ بكلِّ المعلوماتِ على سَواءٍ.

(٧١) ـ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: حجَّةً تَدُلُّ على جوازِ عِبادَتِه ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ حصلَ لَهُم مِن ضَرورَةِ العَقلِ أو استدلالِه.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: وما للَّذينَ ارتَكَبُوا مثلَ هذا الظُّلمِ ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يقرِّرُ مذهبَهُم، أو يدفَعُ العذابَ عَنْهُم.

(٧٢) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ مِن القُرآنِ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدَّلالةِ على العقائدِ الحقَّةِ والأحكامِ الإلهيَّةِ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨) عن لاحق بن حميد، و«المحتسب» (٢/ ٨٥) عن أبي مجلز، وهي كنية لاحق بن حميد. وهي في «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٣٧) دون نسبة.

(٢) في نسخة التفتازاني: «وجوده».

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾: الإنكارَ لفَرطِ نكيرِهِم للحَقِّ وغيظِهِم لأَباطيلَ أَخَذُوهَا تقليدًا، وهذا منتهَى الجَهالَةِ، وللإشعارِ بذلك وضعَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ، أو: ما يقصدونَه مِن الشَّرِّ[1].

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾: يَثِبُونَ ويَبطشونَ بهم.

﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾: مِن غَيظِكُم على التَّالينَ وسَطْوَتِكُم عليهِمْ، أو مِمَّا أصابَكُم مِن الضَّجرِ بسببِ ما تَلَوْا عَلَيكُم:

﴿ٱلنَّارُ﴾؛ أي: هو النَّارُ، كأَنَّه جوابُ سائلٍ قال: ما هو؟ ويجوزُ أن يكونَ مُبتدأً خبرُه: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقُرِئَ بالنَّصبِ على الاختصاصِ، وبالجرِّ[2] بدلًا مِن (شرٍّ) فتكونُ الجملَةُ استئنافًا كما إذا رُفِعَتَ خبرًا أو حالًا مِنْها[3].

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النارُ.

(٧٣) - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾: بُيِّنَ لكُمْ حالٌ مُستغرَبةٌ أو قصَّةٌ رائعةٌ، ولذلك سمَّاها مَثلًا، أو: جُعِلَ للهِ مثلٌ؛ أي: مثلٌ في استحقاقِ العبادةِ.

﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾: للمثلِ، أو: لبيانِه، استماعَ تَدبُّرٍ وتَفكُّرٍ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنامَ، وقرأ يعقوبُ بالياءِ[4]، وقُرِئَ بِهِ مَبنِيًّا للمَفعولِ[5]، والراجِعُ إلى الموصولِ مَحذوفٌ على الأوَّلَينِ.

---

(١) قوله: «أو ما يقصدونه من الشر» عطف على «الإنكار». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٤٠).

(٢) قرأ بالنصب الضحاك وابن أبي عبلة، وبالجر إبراهيم بن نوح عن قتيبة. انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٣٢). وزاد نسبتها في «البحر» (١٥/ ٤٠٤) بالنصب للأعشى وزيد بن علي، وبالجر لابن أبي إسحاق.

(٣) قوله: «فتكون الجملة»؛ أي: جملةُ ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾، «أو حالًا منها» عطف على «استئنافاً». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٤٠).

(٤) انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٧).

(٥) نسبت لليماني وموسى الأسواري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩).

﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾: لا يقدرونَ على خَلقِهِ مع صِغَرِه؛ لأنَّ (لن) بما فيها مِن تأكيدِ النَّفيِ دالَّةٌ على منافاةِ ما بين المنفيِّ والمنفيِّ عنه.

والذُّبابُ مِن الذَّبِّ لأنَّه يُذَبُّ، وجمعُهُ: أَذِبَّةٌ وذُبَّانٌ.

﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ بجوابِه المقدَّرِ في مَوضعِ حالٍ جيءَ بها للمُبالغَةِ؛ أي: لا يقدرونَ على خلقِهِ مُجتَمِعِينَ له مُتعاوِنينَ عليه، فكيفَ إذا كانوا مُنفَرِدينَ؟!

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ جهَّلَهُم غايةَ التَّجهيلِ بأَنْ أشرَكُوا إلهًا قَدِرَ على المقدوراتِ كلِّها، وتفرَّدَ بإيجادِ الموجوداتِ بأَسرِهَا تماثيلَ هي أعجَزُ الأشياءِ، وبيَّنَ ذلك بأنَّها لا تَقدِرُ على خلقِ أقلِّ الأحياءِ وأذلِّها ولو اجتمَعُوا له، بل لا تَقْوَى على مُقاوِمَةِ هذا الأقلِّ الأذَلِّ، وتَعْجَزُ عن ذبِّه عَن نفسِهَا واستنقاذِ ما يختَطِفُه مِن عندِها.

قيل: كانوا يَطلونَها بالطِّيبِ والعَسَلِ ويُغلقونَ عليها الأبوابَ، فيدخلُ الذُّبابُ مِن الكُوَى فيأكلُه[1].

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾: عابِدُ الصَّنَمِ ومَعبودُه، أو: الذُّبابُ بطلبِ ما يَسْلُبُ عَن الصَّنمِ مِن الطِّيبِ والصَّنمُ بطلبِ الذُّبابِ منه السَّلْبَ، أو الصَّنمُ والذُّبابُ كأنَّه يطلبُه ليستنقذَ منه ما يسلبُه، فلو حقَّقْتَ وجَدْتَ الصَّنمَ أضعفَ بدَرجاتٍ.

(٧٤) ـ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: ما عَرَفُوه حقَّ مَعرِفَتِه حيثُ أَشرَكُوا به وسَمَّوْا باسمِه ما هو أبعَدُ الأشياءِ عنه مُناسبَةً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ على خلقِ الممكناتِ بأَسرِها ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلبُه شيءٌ، وآلهتُهُم التي يَدْعونَها عَجَزةٌ عن أقلِّها مَقهورَةٌ مِن أذلِّها.

(٧٥) ـ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسَّطونَ بينَه وبينَ الأنبياءِ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٠٦ - ٤٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وزاد: «فإذا رأوا ذلك قالوا: أكلت آلهتُنا العسل».

بالـوحي ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يَدْعونَ سائرَهُم إلى الحقِّ ويبلِّغونَ إليهم ما نزلَ عليهم، كأنَّه لَمَّا قرَّرَ وَحدانيَّتَه في الألوهيَّةِ ونَفى أَنْ يُشارِكَه غيرُهُ في صِفَاتِها؛ بيَّنَ أنَّ لَهُ عِبادًا مُصطَفَيْنَ للرِّسالَةِ يُتوسَّلُ بإجابَتِهِم والاقتداءِ بهم إلى عبادةِ الله سُبحانَه، وهو أعلى المَراتبِ ومُنتَهَى الدَّرجاتِ لِمَن عداه مِن الموجوداتِ؛ تقريرًا للنُّبوَّةِ وتَزييفًا لقولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، و: (الملائكةُ بناتُ اللهِ) ونحو ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾: مُدرِكٌ للأشياءِ كُلِّها.

(٧٦) - ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾: عالمٌ بواقِعِها ومُترقَّبِها.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾: وإليه مَرجِعُ الأمورِ كُلِّها لأنَّه مالِكُها بالذَّاتِ، لا يُسأَلُ عمَّا يفعَلُ مِن الاصطفاءِ وغيرِهِ وهُم يُسأَلُون.

(٧٧) - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ في صَلاتِكُم، أمـرَهُم بهما لأنَّهُم ما كانوا يَفعَلُونَهُما أوَّلَ الإسلامِ، أو: صَلُّوا، وعَبَّرَ عن الصَّلاةِ بهما لأنَّهُما أعظَمُ أركانِها، أو: اخضَعُوا للهِ وخُرُّوا له سُجَّدًا.

﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بسائرِ ما تَعبَّدَكُم به.

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾: وتحرَّوْا ما هُوَ خيرٌ وأصلَحُ فيما تأتونَ وتَذَرونَ؛ كنَوافلِ الطَّاعاتِ، وصِلَةِ الأرحامِ، ومَكارمِ الأخلاقِ.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾؛ أي: افعَلُوا هذه كلَّها وأنتُم راجونَ الفلاحَ غيرُ مُتيقِّنينَ له واثقينَ على أعمالِكُم.

والآيةُ آيةُ سَجدَةٍ عندَنا؛ لظاهرِ ما فيها من الأمرِ بالسُّجودِ، ولقولِه عليه السَّلامُ «فُضِّلَتْ سورةُ الحجِّ بسَجدَتَينِ مَن لَمْ يَسجُدْهُمَا فلا يَقْرَأْهَا»(١).

---

(١) رواه أبو داود (١٤٠٢)، والترمذي (٥٧٨)، وفيهما: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أفي سورة الحج سجدتان؟ قال: «نعم، ومَن لم يسجدهما فلا يقرأهما»، قال الترمذي: إسناده ليس بذاك القوي، واختلف أهل العلم في هذا، فروي عن عمر بن الخطاب، وابن =

(٧٨) ـ ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾: للهِ ومِن أَجلِهِ أعداءَ دينِه: الظَّاهرةَ كـأَهـلِ الزَّيغِ، والباطنَةَ كالهوى والنَّفسِ، وعنه عليه السَّلامُ: أنه رَجَعَ عَن غزوةِ تبوكَ فقال: «رَجَعْنَا مِن الجهادِ الأصغَرِ إلى الجهادِ الأكبَرِ»[(١)].

﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾؛ أي: جِهادًا فيه حَقًّا خالِصًا لوَجهِهِ، فعكسَ، وأُضيفَ الحَقُّ إلى الجهادِ مُبالغَةً كقولِك: هو حقُّ عالمٍ، وأضيفَ الجهادُ إلى الضَّميرِ اتِّساعًا، أو لأَنَّهُ مُختَصٌّ باللهِ مِن حيثُ إنَّه مَفعولٌ لوجهِ اللهِ ومِن أَجلِه.

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾: اختارَكُم لدينِه ولنُصرَتِه، وفيه تَنبيهٌ على المُقتضي للجِهادِ والدَّاعي إليه.

وفي قولِه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: ضِيقٍ بتكليفِ ما يشتَدُّ القيامُ به عليكُمْ؛ إشارةٌ إلى أنَّه لا مانِعَ لَهُم عنه ولا عُذرَ لَهُم في تركِه، أو إلى الرُّخصَةِ في إغفالِ بعضِ ما أمرَهُم بِهِ مِن حَيثُ شَقَّ عليهِم؛ لقولِه عليهِ السَّلامُ «إذا أَمَرْتُكُم بشَيءٍ فَأْتُوا منه ما اسْتَطعْتُم»[(٢)].

وقيل: ذلك بأَنْ جعلَ لهم مِن كُلِّ ذَنبٍ مخرجًا، بأَنْ رَخَّصَ لهم في المضايقِ وفتحَ عليهِمْ بابَ التَّوبَةِ، وشرعَ لَهُم الكَفَّاراتِ في حقوقِه، والأُروشَ والدِّياتِ في حقوقِ العِبادِ.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مُنتصبةٌ على المصدرِ لفعلٍ دَلَّ عليهِ مَضمونُ ما قبلَها بحذفِ المُضافِ؛ أي: وسَّعَ دينكُم تَوسِعَةَ مِلَّةِ أبيكُمْ، أو على الإغراءِ، أو الاختصاصِ.

وإنَّما جعلَهُ أباهم لأنَّه أبو رسولِ اللهِ ﷺ، وهو كالأَبِ لأُمَّتِه مِن حيثُ إنَّه سببٌ

= عمر، أنهما قالا: «فُضِّلَتْ سورة الحج بأن فيها سجدتين».

(١) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٥٢٣)، والبيهقي في «الزهد» (٣٧٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وقال: إسناده ضعيف.

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لحَيَاتِهم الأبديَّةِ ووُجودِهِم على الوَجهِ المُعتَدِّ به في الآخرَةِ، أو لأنَّ أكثرَ العَرَبِ كانُوا مِن ذُرِّيَّتِه فغُلِّبُوا على غيرِهِم.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾: مِن قبلِ القرآنِ في الكتبِ المُتقدِّمَةِ ﴿وَفِي هَٰذَا﴾: وفي القرآنِ، والضَّميرُ للهِ، ويَدُلُّ عليه أنَّه قُرِئَ: (اللهُ سَمَّاكُم)(١)، أو: لإبراهيمَ، وتَسمِيَتُهُم مسلمينَ في القرآنِ وإنْ لَمْ تَكُن منه كانَتْ بسببِ تَسمِيَتِه مِن قَبلُ في قولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقيل: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ تقديرُه: وفي هذا بيانُ تَسمِيَتِه إيَّاكُم مُسلمينَ.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يومَ القيامَةِ، مُتعلِّقٌ بـ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾.

﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأنَّه بَلَّغَكُم، فيدلُّ على قَبولِ شَهادَتِه لنَفسِه اعتمادًا على عِصمَتِه، أو: بطاعةِ مَن أطاعَ وعِصيانِ مَن عَصى.

﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتَبليغِ الرُّسُلِ إليهم.

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فتَقرَّبُوا إلى اللهِ بأنواعِ الطَّاعاتِ لِمَا خَصَّكُم بهذا الفَضلِ والشَّرفِ.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: وثِقُوا به في مجامِعِ أُمورِكُم، ولا تَطلُبُوا الإعانَةَ والنُّصرَةَ إلَّا مِنهُ.

﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: ناصِرُكُم ومُتولِّي أُمورِكُم.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ هو، إذْ لا مِثْلَ لَهُ في الوِلايَةِ والنُّصرَةِ، بَلْ لا مَوْلَى ولا نَصِيرَ سِواهُ في الحقيقَةِ.

عَن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورَةَ الحَجِّ أُعطِيَ من الأجر كحَجَّةٍ حجَّها وعُمرةٍ(٢) اعتمرَهَا بعددِ مَن حَجَّ واعتمرَ فيما مَضَى وفيمَا بَقِيَ»(٣).

---

(١) نسبت لأبي بن كعب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩).

(٢) في نسخة التفتازاني: «أو عمرة».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٢٨٩ - ٢٩٠)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٢٢) سورة الحج مدنية
وآياتها ثمان وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وأحوالها، وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة، أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم، كما قال تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها﴾، وقال تعالى: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة﴾ الآية، فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة، عن علقمة في قوله ﴿إن زلزله الساعة شيء عظيم﴾ قال: قبل الساعة[1]. وعن عامر الشعبي قال: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة، وقد أورد الإمام ابن جرير في حديث الصور عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السماوات والأرض، خلق الصور فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». قال أبو هريرة: يا رسول الله! وما الصور؟ قال: «قرن»، قال: فكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾، فتسير الجبال فتكون تراباً، وترج الأرض بأهلها رجاً وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة﴾، فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح، فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهي التي يقول الله تعالى:

---

(١) ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم عن إبراهيم عن علقمة.

﴿يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد﴾. فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خسف شمسها وقمرها وانتثرت نجومها ثم كشطت عنهم - قال رسول الله ﷺ: والاموات لا يعلمون بشيء من ذلك»، قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء﴾ قال: «أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ووقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه وهو الذي يقول الله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾»[1]. وهذا الحديث دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، أضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال أشراط الساعة ونحو ذلك والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

(الحديث الأول): عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: لما نزلت ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم - إلى قوله - ولكن عذاب الله شديد﴾ قال: نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال: «أتدرون أي يوم ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة»، فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية، قال فيؤخذ العدد من الجاهليه فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير»، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، فكبروا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فكبروا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبروا، ثم قال: ولا أدري أقال الثلثين أم لا؟[2]

(الحديث الثاني): قال البخاري عند تفسير هذه الآية، عن أبي سعيد الخدري قال، قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾»، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة»، فكبرنا[3]

---

(١) الحديث رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والإمام أحمد عن عمران بن حصين، وقال الترمذي: حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي سعيد الخدري.

(**الحديث الثالث**) : عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: « إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلاً »، قالت عائشة: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض، قال: « يا عائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك »[1]

(**الحديث الرابع**) : عن عائشة قالت، قلت: يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال: « يا عائشة أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا، وأما عند تطاير الكتب إما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا، وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد – قال: فينطوي عليهم ويرميهم في غمرات جهنم، ولجهنم جسر أرق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذان من شاء الله، والناس عليه كالبرق وكالطرف وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: يا رب سلم سلم، فناج مسلَّم ومخدوش مسلَّم، ومكوّر في النار على وجهه »[2] والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ أي أمر عظيم وخطب جليل، والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع، كما قال تعالى: ﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾، ثم قال تعالى: ﴿يوم ترونها﴾ هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسراً له: ﴿تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ أي فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه تدهش عنه في حال إرضاعها له، ولهذا قال: ﴿كل مرضعة﴾ ولم يقل مرضع، وقال ﴿عما أرضعت﴾ أي عن رضيعها وفطامه، وقوله: ﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول﴿وترى الناس سكارى﴾أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد﴾ .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ أي علم صحيح، ﴿ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه﴾ قال مجاهد يعني الشيطان، يعني كتب عليه كتابة قدرية ﴿أنه من تولاه﴾ أي اتبعه وقلده ﴿فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ أي يضله في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج، قال السدي: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وروى أبو كعب المكي قال: قال خبيث من خبثاء قريش: أخبرنا عن ربكم من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ فتقعقعت السماء قعقعة – والقعقعة في كلام العرب الرعد – فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه[3] .

---

(١) أخرجاه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد، وفي رواية: إن الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها . (٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب المكي .

وقال مجاهد: جاء يهودي فقال يا محمد: أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ من در أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق فقال: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب﴾ أي في شك، ﴿من البعث﴾ وهو المعاد، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة، ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ أي أصل برئه لكم من تراب وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفة﴾ أي ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثم من علقة ثم من مضغة﴾، وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ أي كما تشاهدونها، ﴿لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ أي وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة أرسل الله تعالى ملكا إليها فنفخ فيها الروح وسوَّاها كما يشاء الله عز وجل، من حسن وقبح وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح».

وروى ابن أبي حاتم، عن عبدالله بن مسعود قال: النطفة إذا استقرت في الرحم جاءها ملك بكفه، فقال: يا رب مخلَّقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دماً، وإن قيل: مخلقة، قال: أي رب ذكر أو أنثى، شقي أو سعيد، ما الأجل وما الأثر؟ وبأي أرض يموت؟ قال، فيقال للنطفة من ربك؟ فتقول: الله، فيقال من رازقك؟ فتقول: الله، فيقال له: اذهب إلى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة، قال: فتخلق فتعيش في أجلها وتأكل رزقها، وتطأ أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك، ثم تلا عامر

الشعبي: ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾[١]، وقال ابن أبي حاتم، عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين يوماً أو خمس وأربعين فيقول: أي رب أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص »[٢]. ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ أي ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف بـه ويحنن عليه والديه، ولهذا قال ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أي بتكامل القوى، ويتزايد ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر، ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي في حـال شبابه وقواه، ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ولهـذا قال: ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾، كما قال تعالى: ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء. وقال قتادة: غبراء متهشمة، وقال السدي: ميتة، ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾: أي فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿ اهتزت ﴾ أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، ﴿ وربت ﴾ أي ارتفعت لـمـا سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من ثمار وزروع، وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالهـا ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي حسن المنظر طيب الريح، وقوله ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الخالق المدبر الفعال لـمـا يشاء، ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾، ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أي كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمماً ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿ قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل شيء عليم ﴾ والآيات في هذا كثيرة. وقد روى الإمام أحمد. عن لقيط ابن عامر أنه قـال: يا رسول الله أكلنا يرى ربه عزّ وجلّ يوم القيامة وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به؟ » قلنا: بلى، قال: فالله أعظم، قال، قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال: « أما مررت بوادي أهلك ممحلاً؟ » قال: بلى، قال: « ثم مررت به يهتز خضراً » قال: بلى، قال: « فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه »[٣] وقال ابن أبي حاتم، عن معـاذ ابن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؛ دخل الجنة[٤]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه مسلم بنحو معناه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجة.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾

لما ذكر تعالى حال الضلّال الجهّال المقلدين في قوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلالة من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ أي بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى، وقوله ﴿ثاني عطفه﴾ قال ابن عباس: مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه، وقال مجاهد وقتادة: لاوي عطفه وهي رقبته يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق، ويثني رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً﴾ الآية، وقوله: ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة لأنه قد لا يقصد ذلك، ثم قال تعالى: ﴿له في الدنيا خزي﴾ وهو الإهانة والذل كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقّاه الله المذلة في الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر همه ومبلغ علمه ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق. ذلك بما قدمت يداك﴾ أي يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ كقوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هـذا ما كنتم بـه تمترون﴾. عن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة[١]

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾

قال مجاهد: ﴿على حرف﴾ على شك، وقال غيره: على طرف، ومنه حرف الجبل أي طرفه، أي دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر، عن ابن عباس ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء[٢]. وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب، وعام ولاد حسن قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

الله على نبيه: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به﴾ الآية. وهكذا ذكر قتادة والضحّاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية، وقال عبد الرحمن بن زيد: هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر[١]، وقال مجاهد في قوله ﴿انقلب على وجهه﴾ أي ارتد كافراً، وقوله: ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة، وقوله: ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ أي من الأصنام والأنداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾، وقوله ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن، وقوله: ﴿لبئس المولى ولبئس العشير﴾ قال مجاهد: يعني الوثن، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى، يعني ولياً وناصراً، ﴿وبئس العشير﴾ وهو المخالط والمعاشر، واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب، ﴿من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ وقول مجاهد: إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

* إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾.

مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب أي بحبل ﴿إلى السماء﴾ أي سماء بيته، ﴿ثم ليقطع﴾ يقول: ثم ليختنق به، وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾، أي ليتوصل إلى بلوغ السماء فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء، ﴿ثم ليقطع﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك، وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى:

---

(١) في اللباب: وكذلك: أخرج ابن مردويه: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده، فتشاءم بالإسلام، فقال: لم أصب من ديني هذا خيراً، فنزلت: ﴿ومن الناس﴾ الآية.

(٢) وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم.

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ الآية، ولهذا قال ﴿فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ قال السدي: يعني من شأن محمد ﷺ، وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ، وقوله: ﴿وكذلك أنزلناه﴾ أي القرآن ﴿آيات بينات﴾ أي واضحات في لفظها ومعناها حجة من الله على الناس، ﴿وأن الله يهدي من يريد﴾ أي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك، ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين[1] ، والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره فإنه تعالى ﴿يفصل بينهم يوم القيامة﴾ ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تكن ضمائرهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به كما قال تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون﴾ وقال ههنا ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض﴾، أي من الملائكة في أقطار السماوات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، ﴿وإن من شيء إلا يسبّح بحمده﴾، وقوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة، ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ الآية. وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت». وفي حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عزّ وجلّ إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له»[2]

وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ثم ينصرف حتى يؤذن له

---

(١) تقدم في سورة البقرة التعريف بهم واختلاف الأقوال فيهم فارجع إليه هناك .

(٢) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة .

فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه، وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل. وعن ابن عباس قال: جـاء رجل فقال: يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدتُ، فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بهـا عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس: فقرأ رسول الله ﷺ سجدة، ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة[1]. وقوله: ﴿والدواب﴾ أي الحيوانات، كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، فرب مركوبـة خير وأكثر ذكراً لله تعالى من راكبها. وقوله ﴿وكثير من الناس﴾ أي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾. وقال ابن أبي حاتم: قيل لعلي إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة، فقال له علي: يا عبدالله، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء، قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلـك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف، وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد لها اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»[2]

* هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر[3]، وروى البخاري عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. وقال قتادة في قوله ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ قـال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم فأفلج الله الإسلام على من ناوأه، وأنزل: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾. وقال مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث، وقال مجاهد وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون

(١) رواه الترمذي وابن ماجة وابن حبان.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٣) هذا لفظ البخاري في كتاب التفسير.

والكافرون. وقال عكرمة ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ قال: هي الجنة والنار، قالت النار: اجعلني للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلني للرحمة، وقول مجاهد وعطاء إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عزّ وجلّ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل، وهذا اختيار ابن جرير وهو حسن، ولهذا قال ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار﴾ أي فصلت لهم مقطعات من النار، قال سعيد بن جبير: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم ❊ يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ أي إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة، وقال سعيد بن جبير: هو النحاس المذاب أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء[1]، وكذلك تذوب جلودهم.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر ثم يعاد كما كان»[2]. وفي رواية: يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرّهه، قال: فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه، فيفرغ دماغه، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾. وقوله ﴿ولهم مقامع من حديد﴾، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن مقمعاً من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض»[3]. وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان، ولو أن دلواً من غسّاق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»[4]، وقال ابن عباس في قوله ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ قال: يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور، وقوله: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾، قال سلمان: النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منهامن غم أعيدوا فيها﴾، وقال زيد بن أسلم في هذه الآية: بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون، وقال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها، وقوله: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾، كقوله: ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾، ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، وما هم فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة فقال: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم.
(٢) رواه ابن جرير والترمذي وقال: حسن صحيح وأخرجه ابن أبي حاتم بنحوه.
(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها يصرفونها حيث شاءوا وأين أرادوا، ﴿يحلون فيها﴾ من الحلية، ﴿من أساور من ذهب ولؤلؤاً﴾ أي في أيديهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». وقوله: ﴿ولباسهم فيها حرير﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه، كما قال: ﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق﴾، وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»، وقال عبدالله بن الزبير: من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿ولباسهم فيها حرير﴾، وقوله: ﴿وهدوا إلى الطيب من القول﴾ كقوله تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾، وقوله: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً﴾ فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾ لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به، يقال لهم: ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾، وقوله: ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾ أي إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم، وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح: «أنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»، وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿وهدوا إلى الطيب من القول﴾ أي القرآن، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿وهدوا إلى صراط الحميد﴾ أي الطريق المستقيم في الدنيا، وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى منكراً على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه، ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام﴾ أي ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين، الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وقوله: ﴿الذي جعلناه للناس سواءاً العاكف فيه والباد﴾ أي يمنعون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله للناس لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه، ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾، ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال ابن عباس: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام؛ وقال مجاهد: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل، وقال قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله؛ وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً. فذهب رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهري عن أسامة بن زيد قال، قلت: يا رسول الله أتنزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع» ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر»[1]، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من (صفوان بن أمية) داراً بمكة فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم، وذهب

(١) هذا الحديث مخرج في الصحيحين.

إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر، وهو مذهب طائفة من السلف، واحتج إسحاق بن راهويه بما روي عن علقمة بن نضلة قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن[1]. وقال عبد الله بن عمرو: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها، وكان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم. وقال عمر بن الخطاب: يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء، وروى الدارقطني عن عبد الله بن عمرو موقوفاً: «من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً»، وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتورث ولا تؤجر جمعاً بين الأدلة والله أعلم

وقوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ قال بعض المفسرين: الباء ههنا زائدة، كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾ أي تنبت الدهن، وكذا قوله: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ تقديره إلحاداً. والأجود أنه ضمن الفعل ههنا معنى يهم، ولهذا عداه بالباء فقال: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ أي يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار، وقوله: ﴿بظلم﴾ أي عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول، وقال ابن عباس: بظلم بشرك، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله، وكذا قال قتادة وغير واحد. وقال العوفي عن ابن عباس: بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم. وقال مجاهد: بظلم يعمل فيه عملاً سيئاً، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه، كما قال ابن مسعود: لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم وهو بعدن أبين لأذاقه الله من العذاب الأليم[2]. وقال الثوري عن عبد الله بن مسعود قال: ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه ولو أن رجلاً بعدن أبين هم أن يقتل رجلاً بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم؛ وقال سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم فما فوقه؛ وقال ابن عباس في قول الله: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، ثم هرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ يعني من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعني بميل عن الإسلام. وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها؛ ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم ﴿طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾ أي دمرهم وجعلهم عبرة ونكالاً لكل من أراده بسوء، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم» وعن سعيد بن عمرو قال: أتى عبدُ الله بن عمر عبدَ الله بن الزبير وهو جالس في الحجر فقال: يا ابن الزبير إياك والإلحاد في الحرم، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها» قال: فانظر لا تكن هو[3]

---

(١) رواه ابن ماجة عن علقمة بن نضلة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

ذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت أي أرشده إليه، وسلمه له وأذن له في بنائه، واستدل به كثير ممن قال إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وأنه لم يبن قبله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس» قلت كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، وقد قال الله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس لَلَّذي ببكة مباركاً﴾ الآيتين، وقال تعالى: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن إعادته ههنا، وقال تعالى ههنا: ﴿أن لا تشرك بي شيئاً﴾ أي ابنه على اسمي وحدي ﴿وطهر بيتي﴾ قال مجاهد: من الشرك ﴿للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿والقائمين﴾ أي في الصلاة، ولهذا قال ﴿والركع السجود﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت

وقوله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ أي ناد في الناس بالحج داعياً لهم لحج هذا البيت الذي أمرناك ببنائه فذكر أنه قال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا، وقيل على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك؛ هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والله أعلم، وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة، وقوله: ﴿يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر﴾[1] الآية. قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، وقال ابن عباس: ما أساء على شيء إلا أني وددت أني كنت حججت ماشياً، لأن الله يقول: ﴿يأتوك رجالاً﴾، والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام. وقوله: ﴿يأتين من كل فج﴾ يعني طريق، كما قال: ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً﴾، وقوله: ﴿عميق﴾ أي بعيد. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار

لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

(١) الضامر: البعير الذي قد هزل من كثرة المشي.

قال ابن عباس ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾، قال: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات، وكذا قال مجاهد وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾، وقوله: ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾، قال ابن عباس: الأيام المعلومات أيام العشر، وهو مذهب الشافعي والمشهور عن أحمد بن حنبل، وقال البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء»، وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»، وقال البخاري: وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما، وقد روي عن جابر مرفوعاً أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله: ﴿والفجر وليال عشر﴾؛ وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وأتممناها بعشر﴾.

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة، وقد سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال: أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية[1]، ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله، وبالجملة فهذا العشر قد قيل إنه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث، وفضّله كثير على عشر رمضان الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيرها، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه، وقيل ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر؛ وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل وليالي ذاك أفضل؛ وبهذا يجتمع شمل الأدلة والله أعلم، (**قول ثان**) في الأيام المعلومات: قال ابن عباس: الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده؛ وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه. (**قول ثالث**): عن نافع عن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات المعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس. (**قول رابع**): إنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده وهو مذهب أبي حنيفة، وقوله: ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام. وقوله: ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي، وهو قول غريب والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها، وقال مالك أحب أن يأكل من أضحيته، لأن الله يقول: ﴿فكلوا منها﴾، وقال سفيان الثوري عن إبراهيم ﴿فكلوا منها﴾ قال: المشركون لا يأكلون من ذبائحهم، فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل. وعن مجاهد في قوله ﴿فكلوا منها﴾ قال: هي كقوله: ﴿فإذا حللتم فاصطادوا﴾ ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه

وقوله تعالى: ﴿ البائس الفقير ﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس وهو الفقير المتعفف، وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده. وقال قتادة: هو الزَّمِن. وقال مقاتل: هو الضرير، وقوله: ﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾، قال ابن عباس: هو وضع الإحرام من حلق الرأس، ولبس الثياب، وقص الأظافر ونحو ذلك، وقوله: ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ يعني نحر ما نذر من أمر البدن، وقال مجاهد ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج، وعنه: كل نذر إلى أجل، وقوله: ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ قال مجاهد: يعني الطواف الواجب يوم النحر، وقال أبو حمزة قال، قال لي ابن عباس: أتقرأ سورة الحج، يقول الله تعالى: ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ ؟ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق[1]، قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى مِنى يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت، وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض، وقوله: ﴿ بالبيت العتيق ﴾، قال الحسن البصري في قوله ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ قال: لأنه أول بيت وضع للناس، وقال خصيف: إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وعن مجاهد: لم يرده أحد بسوء إلا هلك، وفي الحديث: « إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار »[2]. روي مرفوعاً ومرسلاً.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

يقول تعالى هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقى عليها من الثواب الجزيل، ﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه، ﴿ فهو خير له عند ربه ﴾ أي فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات. قال مجاهد في قوله ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ﴾ قال: الحرمات مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها، وقوله: ﴿ وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام، وقوله: ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ أي من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة الآية، قال ذلك ابن جرير وحكاه عن قتادة، وقوله: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾، أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ومنه شهادة الزور. وفي الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا: بلى يا رسول الله، قال: « الإشراك بالله وعقوق الوالدين – وكان متكئاً فجلس – فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور »؛ فما زال يكررها حتى

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٢) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً وكذا رواه ابن جرير وقال الترمذي: حديث حسن غريب .

قلنا: ليته سكت. وعن خريم بن فاتك الأسدي قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائماً، فقال: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجلّ»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾(١)، وقوله ﴿حنفاء لله﴾: أي مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق، ولهذا قال: ﴿غير مشركين به﴾، ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، فقال: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء﴾ أي سقط منها، ﴿فتخطفه الطير﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء، ﴿أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ أي بعيد، مهلك لمن هوى فيه، ولهذا جاء في حديث البراء: أن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحاً من هناك، ثم قرأ هذه الآية: ﴿فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى: هذا ﴿ومن يعظم شعائر الله﴾ أي أوامره، ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾، ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال ابن عباس: تعظيمها استسمانها واستحسانها. وقال أبو أمامة عن سهل: كنّا نسمِّن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمِّنون(٢) وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفراء أحب إلى الله من دم سوداوين»، رواه أحمد وابن ماجه، قالوا: والعفراء - هي البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزىء أيضاً لما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين، وفي سنن ابن ماجه عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوئين، وعن علي رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحي بمقابلة ولا مدابرة، ولا شرقاء ولا خرقاء؛ وعن البراء قال، قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البيّن عورها، والمريضة البيّن مرضها، والعرجاء البيّن ضلعها، والكسيرة التي لا تنقى»(٣)، وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي، لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزىء التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة كما هو ظاهر الحديث، ولهذا جاء في الحديث: أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن أي أن تكون الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة، كما روى عبد الله بن عمر: أهدي عمر نجيباً فأعطي بها ثلثمائة دينار، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أهديت نجيباً فأعطيت بها ثلثمائة دينار، أفأبيعها وأشتري بثمنها بدناً؟ قال: «لا، إنحرها إياها»(٤). وقال ابن عباس: البدن من شعائر الله، وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله؛ وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٢) رواه البخاري في صحيحه.

(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي.

(٤) رواه الإمام أحمد وأبو داود.

وقوله: ﴿ لكم فيها منافع ﴾ أي لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى، قال مجاهد في قوله ﴿ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ﴾ قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سميت بدنة أو هدياً ذهب ذلك كله[1]، وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك؛ كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: «اركبها» قال: إنها بدنة، قال: «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة، وفي رواية لمسلم: «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها». وعن علي أنه رأى رجلاً يسوق بدنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها، وقوله: ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ أي محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾، وقال: ﴿ والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ﴾. وقال عطاء، كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى: أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل. قال ابن عباس ﴿ مَنْسكاً ﴾: عيداً، وقال عكرمة: ذبحاً، وقال زيد بن أسلم في قوله ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ﴾: إنها مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها، وقوله: ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتي رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين فسمَّى وكبر ووضع رجله على صفاحهما، وقال الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم قال، قلت أو قالوا: يا رسول الله ما هــذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم»، قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة»، قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة»[2]، وقوله: ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا ﴾ أي معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾، ولهذا قال: ﴿ فله أسلموا ﴾ أي أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته، ﴿ وبشر المخبتين ﴾ قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك: المتواضعين، وقال السدي: الوجلين، وقال الثوري: المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له، وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أي خافت منه قلوبهم، ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ أي من المصائب، قال الحسن البصري: والله لنصبرن أو لنهلكن، ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله.

---

(١) كذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يقول تعالى: ممتناً على عبيده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدى إليه. قال عطاء ﴿والبدن﴾: البقرة والبعير[1]. وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح الحديث، ثم جمهور العلماء على أنه يجزىء البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة، كما ثبت عن جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي: البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة[2]، وقوله: ﴿لكم فيها خير﴾ أي ثواب في الدار الآخرة، لما روي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فَطِيبُوا بها نفساً»[3]، وقال سفيان الثوري: كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول ﴿لكم فيها خير﴾، وقال مجاهد ﴿لكم فيها خير﴾ قال: أجر ومنافع، وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها، وقوله: ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾، وعن جابر بن عبد الله قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتي بكبش فذبحه، فقال: «بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يضح من أمتي»[4]. وروى محمد بن إسحاق عن جابر قال: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد فقال حين وجههما: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين ❊ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك عن محمد وأمته»، ثم سمَّى وكبر وذبح

وعن علي بن الحسين عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية ثم يقول: «اللهم هذا عن أمتي جميعها من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ. ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمهما جميعاً للمساكين ويأكل هو وأهله منهما[5]. وقال الأعمش عن ابن عباس في قوله ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ قال: قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول: باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله، اللهم منك ولك، وقال ليث عن مجاهد: إذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث. وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنّة أبي القاسي ﷺ[6]، وعن جابر

---

(١) وكذا روي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

(٣) رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه.

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٥) رواه أحمد وابن ماجة.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم.

أن رسول الله ﷺ وأصحابه: كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها[1]. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ يعني نحرت، وقال ابن أسلم: ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ يعني ماتت؛ وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها، وقد جاء في حديث مرفوع: «لا تعجلوا النفوس أن تزهق»، ويؤيده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[2]. وقوله: ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ قال بعض السلف: قوله ﴿ فكلوا منها ﴾ أمر إباحة، وقال مالك: يستحب ذلك، وقال غيره يجب، واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر، فقال ابن عباس: القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل، وكذا قال مجاهد، وقال ابن عباس: القانع المتعفف، والمعتر السائل[3]، وقال سعيد بن جبير: القانع هو السائل، أما سمعت قول الشماخ

لَمَالُ المرءِ يصلحه فيغني ... مفاقِرَه أعفُّ من القنوع

أي: يغني من السؤال، وقال زيد بن أسلم: القانع المسكين الذي يطوف، والمعتر الصديق والضعيف الذي يزور، واختار ابن جرير: أن القانع هو السائل لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعتراء وهو الذي يتعرض لأكل اللحم، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث فكلوا وادخروا ما بدا لكم»، وفي رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا».

مسألة

عن البراء بن عازب قال، قال رسول الله ﷺ «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر، فمن فعل فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء»[4]، فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين، زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء في صحيح مسلم: وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام، وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوها فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم، وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام والله أعلم. ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده، وقيل: يوم النحر ويوم بعده للجميع، وقيل: ويومان بعده، وبه قال الإمام أحمد، وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي، لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق كلها ذبح»[5]، وقوله: ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾، يقول تعالى من أجل هذا ﴿ سخرناها لكم ﴾ أي ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم خاضعة إن شئتم ركبتم وإن شئتم حلبتم وإن شئتم ذبحتم ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾.

(١) رواه أبو داود في سننه. (٢) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٣) وهذا قول قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه.
(٤) أخرجاه في الصحيحين. (٥) رواه الإمام أحمد وابن حبان.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى إنما شرع لكم نحر هذه الضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها، فهو الغني عما سواه، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم، وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: ﴿لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها﴾. عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾[١] أي يتقبل ذلك ويجزي عليه، كما جاء في الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وجاء في الحديث: «إن الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض»[٢]، وقوله: ﴿كذلك سخرها لكم﴾ أي من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿لتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي لتعظموه على ما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه، وقوله: ﴿وبشر المحسنين﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين في عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ما شرع لهم، المصدّقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عزَّ وجلَّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

يخبر تعالى: أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه، شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾؟ وقال: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾، وقوله: ﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يفي بما قال، والكفر: الجحد للنعم فلا يعترف بها

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾

قال ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف: هذه أول آية نزلت في الجهاد، وقال ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، قال ابن عباس: فأنزل الله

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) تقدم الحديث عن عائشة مرفوعاً وقد رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه.

عزَّ وجلَّ: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾، قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال، زاد أحمد: وهي أول آية نزلت في القتال[1]. وقوله: ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته كما قال: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾، وقال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، وقال: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾، وقال: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ والآيات في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وقد فعل، وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون وهم أقل بقتال الباقين لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفاً وثمانين قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي، يعنون أهل منى ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أومر بهذا»، فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله وشردوا أصحابه، فلما استقروا بالمدينة وصارت لهم دار إسلام، ومعقلاً يلجئون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ۞ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق﴾ قال ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمداً وأصحابه، ﴿إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ أي ما كان لهم إساءة ولا ذنب، إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾، وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾

ثم قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم، ويكف شرور أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض، ولأهلك القوي الضعيف، ﴿لهدمت صوامع﴾ وهي المعابد للرهبان[2]، وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية عنه: صوامع المجوس، ﴿وبيع﴾ وهي أوسع منها وهي للنصارى أيضاً، وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود، وعن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، وقوله: ﴿وصلوات﴾ قال ابن عباس: الصلوات الكنائس، وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة: إنها كنائس اليهود وهم يسمونها صلوات، وحكى السدي عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى، وقال أبو العالية وغيره: الصلوات معابد الصابئين. وقال مجاهد: الصلوات مساجد لأهل الكتاب، ولأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي للمسلمين. وقوله: ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾، فقد قيل: الضمير في قوله ﴿يذكر فيها﴾ عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات، وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها الله كثيراً، وقال ابن جرير: الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم.

كثيراً، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا تَرَقٍ من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد، وهي أكثر عُمّاراً وأكثر عبَّاداً، وهم ذوو القصد الصحيح. وقوله: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾، كقوله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾، وقوله: ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة؛ فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله لقوي عزيز﴾.

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قال عثمان بن عفان: فينا نزلت ﴿الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله ثم مكنّا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي[1]. وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾، وقوله: ﴿ولله عاقبة الأمور﴾، كقوله تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾، وقال زيد بن أسلم: ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا.

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح - إلى أن قال - وكذب موسى﴾ أي مع ما جاء به من الآيات والدلائل الواضحات، ﴿فأمليت للكافرين﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثم أخذتهم فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وبين إهلاك الله له أربعون سنة، وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾[2]، ثم قال تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكناها﴾ أي كم

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن عثمان رضي الله عنه. (٢) أخرجه البخاري ومسلم.

من قرية أهلكتها ﴿وهي ظالمة﴾ أي مكذبة لرسلها، ﴿فهي خاوية على عروشها﴾، قال الضحاك: سقوفها، أي قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها، ﴿وبئر معطلة﴾ أي لا يستقى منها ولا يردها أحد، بعد كثرة وارديها والازدحام عليها، ﴿وقصر مشيد﴾ قال عكرمة: يعني المبيض بالجص، وقال آخرون هو المنيف المرتفع، وقال آخرون: المشيد المنيع الحصين، وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهلَه شدةُ بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾، وقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ أي بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك للاعتبار، أي انظروا ما حل بالامم المكذبة من النقم والنكال، ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾ أي فيعتبرون بها، ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ أي ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ أي هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾، وقوله: ﴿ولن يخلف الله وعده﴾ أي الذي قد وعد من إقامة الساعة، والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه، وقوله: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ أي هو تعالى لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجّل وأنظر، ولهذا قال بعد هذا: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير﴾. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام»[(1)] وعن ابن عباس ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض. وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به: ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾ أي إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إليّ من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب وإن شاء أخّره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح

عليه الشقاوة وهو الفعال لما يشاء، ﴿وإنما أنا لكم نذير مبين * فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم، قال القرظي[1] : إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿ورزق كريم﴾ فهو الجنة، وقوله: ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ قال مجاهد: يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ، وقال ابن عباس ﴿معاجزين﴾ مراغمين ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ وهي النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها أجارنا الله منها

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا (قصة الغرانيق) وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، وخلاصتها عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ قال: فألقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى»، قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾، وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات والله أعلم. وقد ساقها البغوي في تفسيره ثم سأل ههنا سؤالاً: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلاة الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك. فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان، لا عن رسول الرحمن ﷺ والله أعلم. وقوله: ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه، قال البخاري قال ابن عباس ﴿في أمنيته﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ﴿ثم يحكم الله آياته﴾. وقال مجاهد: ﴿إذا تمنى﴾ يعني إذا قال، ويقال أمنيته قراءته ﴿إلا أماني﴾ يقرؤون ولا يكتبون. قال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله ﴿تمنى﴾ أي تلا وقرأ كتاب الله ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تمنّى كتاب الله أول ليلـــه ... وآخرها لاقى حمـام المقادر

وقال الضحاك ﴿إذا تمنى﴾: إذا تلا، قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله تعالى: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع، قال ابن عباس: أي فيبطل

(١) هو محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه.

الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان[1]؛ وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته، وقوله: ﴿والله عليم﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿حكيم﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة، ولهذا قال: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله وإنما كان من الشيطان، قال ابن جريج ﴿للذين في قلوبهم مرض﴾ هم المنافقون، ﴿والقاسية قلوبهم﴾ هم المشركون، وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود، ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد أي من الحق والصواب، ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به﴾ أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك، هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه، وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب عزيز ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، وقوله: ﴿فيؤمنوا به﴾ أي يصدقوه وينقادوا له ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي تخضع وتذل له قلوبهم، ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في ﴿مرية﴾ أي في شك وريب من هذا القرآن قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وقال سعيد بن جبير وابن زيد ﴿منه﴾ أي مما ألقى الشيطان، ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾ قال مجاهد: فجأة، وقال قتادة: ﴿بغتة﴾ بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون، وقوله: ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ قال أبي بن كعب: هو يوم بدر؛ وقال عكرمة ومجاهد: هو يوم القيامة لا ليل له، وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد، ولهذا قال: ﴿الملك يومئذ لله يحكم بينهم﴾، كقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾، وقوله: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا مع توافق قلوبهم وأقوالهم ﴿في جنات النعيم﴾ أي لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد، ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وجحدته، وكذبوا به وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم، ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾ أي

(١)قال السيوطي بعدما ذكر هذه الروايات في اللباب: وكلها إما ضعيفة وإما منقطعة، قال الحافظ ابن حجر: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً، وقال ابن العربي: إن هذه الروايات باطلة لا أصل لها .

مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي صاغرين

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله ونصرة لدين الله ﴿ثم قتلوا﴾ أي في الجهاد ﴿أو ماتوا﴾ أي حتف أنفهم من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾، وقوله: ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ أي ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وإن الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلاً يرضونه﴾ أي الجنة، كما قال تعالى: ﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم﴾ فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم، كما قال ههنا: ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾، ثم قال: ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم﴾ أي بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك، ﴿حليم﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب، فأما من قتل في سبيل الله فإنه حي عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾. والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم، وأما من توفي في سبيل الله فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه، قال ابن أبي حاتم عن ابن عقبة يعني أبا عبيدة بن عقبة قال، قال شرحبيل بن السمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فر بي سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه فقال، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتَّانين» واقرأوا إن شئتم ﴿والذين هاجروا في الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم﴾ وعن عبد الرحمن بن جحدم الخولاني أنه حضر (فضالة بن عبيد) في البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده، فقال: ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت، إن الله يقول: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ الآيتين، فما تبتغي أيها العبد إذا أدخلت مدخلاً ترضاه ورزقت رزقاً حسناً! والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت[1]. وقوله: ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾ الآية، نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم ﴿إن الله لعفو غفور﴾[2]

---

(١) رواه ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير بنحوه.

(٢) ذكره مقاتل بن حيان وابن جرير

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ الآية، ومعنى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل، إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف، وقوله: ﴿وأن الله سميع بصير﴾ أي سميع بأقوال عباده بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ولما تبين أنه المتصرف في الوجود الحاكم الذي لا معقب لحكمه قال: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ أي الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه ﴿وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ أي من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل، لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً، وقوله: ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾، كما قال: ﴿وهو العلي العظيم﴾، وقال: ﴿وهو الكبير المتعال﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته لا إله إلا هو ولا رب سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه عزَّ وجلَّ عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، وأنه يرسل الرياح فتثير سحاباً فيمطر على الأرض الجرز، التي لا نبات فيها وهي هامدة يابسة سوداء ممحلة ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾، وقوله: ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ أي خضراء بعد يبسها ومحولها، ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها، لا يخفى عليه خافية، كما قال لقمان: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾، وقال تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ملكه جميع الأشياء وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه عبد لديه، وقوله: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ أي من حيوان وجماد وزروع وثمار كما قال: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿والفلك تجري في البحر بأمره﴾ أي بتسخيره وتسييره، أي في البحر العجاج وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة فيحملون فيها ما شاءوا من بضائع ومنافع، من بلد إلى بلد وقطر

إلى قطر ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي مع ظلمهم كما قال في الآية الأخرى ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾، وقوله: ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور﴾، كقوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾، وقوله: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾، وقوله: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ ومعنى الكلام كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف، ﴿وهو الذي أحياكم﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر فأوجدكم، ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ أي يوم القيامة، ﴿إن الإنسان لكفور﴾ أي جحود لربه .

* لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه، ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها، والمراد لكل أمة نبي جعلنا منسكاً، ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ أي هؤلاء المشركون، ﴿هم ناسكوه﴾ أي فاعلوه، فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، ولهذا قال: ﴿وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أي طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود، وهذه كقوله: ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾، وقوله: ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله: ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾، ولهذا قال: ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾، وهذه كقوله تعالى: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ الآية .

* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السماوات وما في الأرض، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»[1]، وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ: «قال أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن،

(١) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو .

فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة »، وقال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى: اكتب فقال القلم: وما أكتب؟ قال علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة فذلك قوله: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾، وهذا من تمام علمه تعالى علم الأشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضاً، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره وهذا يعصي باختياره وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه يسير لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

يقول مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني حجة وبرهاناً كقوله: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾، ولهذا قال ههنا ﴿ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم﴾ أي ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سوّل لهم الشيطان وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وما للظالمين من نصير﴾ أي من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال؛ ثم قال: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ أي يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿قل﴾ أي يا محمد لهؤلاء ﴿أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأشق، وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم، وقوله: ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئس النار مقيلا ومنزلاً ومرجعاً وموئلاً ومقاماً ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿يا أيها الناس ضرب مثل﴾ أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿فاستمعوا له﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد، على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك؛ كما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: « قال الله عزَّ وجلَّ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا

ذرة، فليخلقوا شعيرة»[1]، ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾، قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب، واختاره ابن جرير، وقال السدي وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم، ثم قال: ﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾، وقوله ﴿عزيز﴾ أي قد عزَّ كل شي وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار.

* ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته، ﴿إن الله سميع بصير﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم كما قال: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾، وقوله: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

اختلف في هذه السجدة الثانية على قولين وقد قدمنا عن النبي ﷺ قال: «فضلت سورة الحج بسجدتين فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»، وقوله: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾، وقوله: ﴿هو اجتباكم﴾ أي يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع، ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، ولهذا قال عليه السلام: «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بشّرا ولا تنفّرا، ويسّرا ولا تعسّرا»، والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾

(١) أخرجاه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد.

يعني من ضيق، وقوله: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ قال ابن جرير: نصب على تقدير ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي من ضيق بل وسَّعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم، ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم

(**قلت**): وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً﴾ الآية، وقوله: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾، قال ابن عباس في قوله ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ قال: الله عزَّ وجلَّ. وقال ابن أسلم ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ يعني إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾ قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي الذكر، ﴿وفي هذا﴾ يعني القرآن وكذا قال غيره. (**قلت**): وهذا هو الصواب لأنه تعالى قال: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه ملة إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة، بما نوه به من ذكرها والثناء عليها، في سالف الدهر وقديم الزمان، في كتب الأنبياء يتلى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿وفي هذا﴾، روى النسائي عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم»، قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: «نعم وإن صام وصلى» فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله»[1]، ولهذا قال: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً، عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة ﴿شهداء على الناس﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلّغها ذلك، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾، وقوله: ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿واعتصموا بالله﴾ أي اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به، ﴿هو مولاكم﴾ أي حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم، ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾: يعني نعم الولي، ونعم الناصر من الأعداء.

[آخر تفسير سورة الحج، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه النسائي في سننه.

تفسير سورة الحج

[وهى مكية][١].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾.

يقول تعالى آمرا عباده بتقواه، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة: هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عَرَصَات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[الزلزلة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴾ [الواقعة: ٤ـ٦].

فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة فى قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة.

ورواه ابن أبى حاتم من حديث الثورى، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، فذكره. قال: وروى عن الشعبى، وإبراهيم، وعُبَيْد بن عُمَيْر، نحو ذلك.

وقال أبو كُدَيْنَةَ، عن عطاء، عن عامر الشعبى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية، قال: هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة.

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مُسْتَنَدَ مَنْ قال ذلك فى حديث الصُّور، من رواية إسماعيل ابن رافع قاضى أهل المدينة، عن يزيد بن أبى زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظى، عن رجل، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فِيه، شاخص ببصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». قال أبو هريرة: يارسول الله، وما الصور؟

قال: «قرن» قال: فكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات، الأولى نفخة الفزع،

(١) زيادة من ت.

والثانية نفخة الصَّعْق، والثالثة نفخة [(١)] القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع. فيفزعُ أهل السموات وأهل الأرض، إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهى التى يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] فَيُسير الله الجبال، فتكون سرابا وتُرج الأرض بأهلها رجا، وهى التى يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦ـ ٨]، فتكون الأرض، كالسفينة الموبقة [(٢)] فى البحر، تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح. فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل. ويشيب [(٣)] الولدان، وتطير الشياطين هاربة، حتى تأتى الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها، فترجع، ويولى [(٤)] الناس مدبرين، ينادى بعضهم بعضا، وهو الذى يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ [(٥)]. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] فبينما هم على ذلك إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، فَرَأَوا أمرا عظيما، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل، ثم خسف شمسها وخُسفَ قمرها، وانتثرت نجومها، ثم كُشطت عنهم» قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشىء من ذلك» قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن [(٦)] شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذى يقول الله: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[(٧)].

وهذا الحديث قد رواه الطبرانى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وغير واحد[(٨)]، مطولا جداً. والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة [(٩)] كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة فى العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتجوا بأحاديث:

الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنا [(١٠)] قتادة، عن الحسن، عن عمران [ابن] [(١١)]حُصَين؛ أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

(١) فى ت: «والنفخة الثالثة». (٢) فى ت: «المرسية». (٣) فى ت، أ: «وتشيب».
(٤) فى ت: «وتولى». (٥) فى ت: «التنادى». (٦) فى ت: «ما».
(٧) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٥).
(٨) حديث الصور سبق عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٩) فى ت: «الزلزلة له». (١٠) فى ت: «عن». (١١) زيادة من ت، أ، والمسند.

مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حَثْوا المُطى، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشهوا حوله قال: «أتدرون أى يوم ذاك؟ يوم ينادى آدم، عليه السلام، فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار فيقول: يارب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار، وواحد فى الجنة». قال فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذى نفس محمد بيده، إنكم لمع [(١)] خَليقتين ما كانتا مع شىء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس» قال: فسُرِّى عنهم، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فوالذى نفس محمد بيده، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعيرة، أو الرقمة فى ذراع الدابة».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننيهما، عن محمد بن بَشَّار، عن يحيى ـ وهو القَطَّان ـ عن هشام ـ وهو الدستوائى ـ عن قتادة، به [(٢)] بنحوه. وقال الترمذى: حسن صحيح.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال[(٣)] الترمذى: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جُدعان، عن الحسن، عن عمران بن حُصَيْن؛ أن النبى ﷺ قال: لما نزلت: ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ**[(٤)] **اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**﴾، قال: أنزلت عليه هذه، وهو فى سفر، فقال: «أتدرون أى يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسَدِّدوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» قال: «فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كُمِّلت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرَّقمة فى ذراع الدابة، أو كالشامة [(٥)] فى جنب البعير» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، قال: ولا أدرى أقال الثلثين أم لا؟

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عُيَيْنَة[(٦)]، ثم قال الترمذى أيضا: هذا حديث حسن صحيح.

وقد روى عن سعيد بن أبى عَرُوبة عن الحسن، عن عمران بن الحصين. وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن والعلاء بن زياد العدوى، عن عمران بن الحصين[(٧)]، فذكره.

---

(١) فى ت: «مع».

(٢) المسند (٤/ ٤٣٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٦٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٠).

(٣) فى ت: «وقال». (٤) فى ت: «يأيها الذين آمنوا» وهو خطأ. (٥) فى ت: «وكالشامة».

(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٦٨) والمسند (٤/ ٤٣٢).

(٧) فى ت: «ابن حصين».

وهكذا روى ابن جرير عن بُنْدَار، عن غُنْدرَ، عن عوف، عن الحسن قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العُسرة ومعه أصحابه بعدما شارف المدينة قرأ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر الحديث [١]، فذكر نحو سياق ابن جُدْعَان، فالله أعلم.

الحديث الثانى: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن الطَّبَّاع، حدثنا أبو سفيان ـ [يعنى] [٢] المعمرى ـ عن مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس قال: نزلت: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر ـ يعنى: نحو سياق الحسن عن عمران ـ غير أنه قال: «ومن هلك من كفرة الجن والإنس».

رواه ابن جرير بطوله، من حديث معمر [٣].

الحديث الثالث: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد ـ يعنى: ابن العوام ـ حدثنا هلال بن خباب [٤]،عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا [٥] رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه، وقال فيه: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، ثم قال:«إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» ففرحوا، وزاد أيضاً: «وإنما أنتم جزء من ألف جزء» [٦].

الحديث الرابع: قال البخارى عند هذه الآية: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعين [٧]. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبى ﷺ:«من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين [٨]، ومنكم واحد، ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود، وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال:«ثلث أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبرنا [٩].

وقد رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائى فى تفسيره، من طرق، عن الأعمش، به [١٠].

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٦).
(٢) زيادة من أ.
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٧).
(٤) فى ت: «ابن حبان». (٥) فى ت:«قال».
(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٢٣٥) «كشف الأستار» حدثنا أبو بكر بن إسحاق عن سعد بن سليمان به، وقال:«لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد».
وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٦٩): «قلت فى الصحيح بعضه، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة».
(٧، ٨) فى ت:« وتسعون».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٤١).
(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٣٤٨، ٧٤٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٩).

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا عمار [١]بن محمد ـ ابن أخت سفيان الثورى ـ وعبيدة المعنى، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة مناديا [ينادى][٢]: يا آدم، إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يارب، من هم؟ فيقال له: من كل مائة تسعة وتسعين». فقال رجل من القوم: من هذا الناجى منا بعد هذا يارسول الله؟ قال[٣]: «هل تدرون ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى صدر البعير»[٤].

انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد.

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبى صغيرة، حدثنا ابن أبى مُلَيْكَةَ؛ أن القاسم بن محمد أخبره، عن عائشة، عن النبى ﷺ قال: «إنكم تحشرون يوم القيامة حُفاة عراة غرلا». قالت عائشة: يارسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك». أخرجاه فى الصحيحين[٥].

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهيعة، عن خالد بن أبى عِمْران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف، فلا. وأما عند تطاير الكتب فإما يعطى بيمينه أو يعطى بشماله، فلا. وحين يخرج عُنُق من النار فينطوى عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة: وكلت بمن ادعى مع الله إلها آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد» قال: «فينطوى [٦] عليهم، ويرميهم فى غمرات، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك يأخُذْنَ من شاء الله، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب، سَلِّم، سَلِّم. فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكوّر [٧] فى النار على وجهه[٨] »[٩].

والأحاديث فى أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدا، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ أى: أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل، وكائن عجيب.

والزلزال[١٠]: هو ما يحصل للنفوس من الفزع، والرعب كما قال تعالى: ﴿ **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾[الأحزاب: ١١].

---

(١) فى ت: «عمارة». (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت: «فقال».
(٤) المسند (١/ ٣٨٨).
(٥) المسند (٦/ ٥٣) وصحيح البخارى برقم (٦٥٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٥).
(٦) فى ت: «وينطوى». (٧) فى أ: « ومكبوب». (٨) فى ت: «وجوههم».
(٩) المسند (٦/ ١١٠).
(١٠) فى ت: «والزلازل».

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مرضع» وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي: عن رضيعها قبل فطامه.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: قبل تمامه لشدة الهول، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ وقرئ: «سَكْرَى» أي: من شدة الأمر الذي [قد] [1]صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سكارى، ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال [2] والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: علم صحيح، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ . كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعني الشيطان، يعني: كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلده، ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: يضله في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق.

وقد قال السدي، عن أبي مالك: نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث. وكذلك [3] قال ابن جريج.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن سلم [4] البصري، حدثنا عمرو بن المحرم أبو قتادة، حدثنا المعمر[5]، حدثنا أبو كعب المكي قال: قال خبيث من خُبثاء قريش: أخبرنا [6] عن ربكم، من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ فقعقعت السماء قعقعة ـ والقعقعة في كلام العرب: الرعد ـ فإذا قِحْفُ رأسه ساقط بين يديه.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: جاء يهودي فقال: يامحمد، أخبرني عن ربك: من أي شيء هو؟ من در أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ

---

(١) زيادة من ت.
(٢) في ت: «الضلالة».
(٣) في ف: «وكذا».
(٤) في ت، ف: «ابن مسلم».
(٥) في ت: «المعتمر».
(٦) في ت: «حدثنا».

عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)﴾.

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق[١]، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أى: فى شك ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أى: أصل بَرْئه [٢] لكم من تراب، وهو الذى خلق منه آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أى: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ ذلك أنه إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة ـ قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ـ ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أى: كما تشاهدونها، ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوما، وهى مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكا فنفخ [٣] فيها الروح، وسواها كما يشاء الله عز وجل[٤]،من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقى أو سعيد، كما ثبت فى الصحيحين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ:« إن خلق أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله وأجله ورزقه، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»[٥].

وروى ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث داود بن أبى هند، عن الشعبى، عن علقمة، عن عبدالله قال: النطفة إذا استقرت فى الرحم، أخذها[٦] ملك بكفه قال[٧]: يارب، مخلقة أو غير

---

(١) فى ت:«بما شاهد من بين يديه للخلق»، وفى ف: «بما يشاهده من بين يديه للخلق».
(٢) فى ت، ف: «تربه». (٣) فى أ: «فينفخ». (٤) فى ف، أ: «الله تعالى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٦٥٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).
(٦) فى هـ، ت، ف: «جاءها»، والمثبت من الدر المنثور ٣/ ٣٤٥. (٧) فى ت، ف:«فقال».

مخلقة؟ فإن قيل: «غير مخلقة» لم تكن نسمة، وقذفتها الأرحام دما. وإن قيل: «مخلقة»، قال: أى رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأى أرض يموت[1]؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش فى أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت، فدفنت فى ذلك المكان، ثم تلا عامر الشعبى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة، فإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دماً، وإن كانت مخلقة نكست فى الخلق.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبى الطفيل، عن حذيفة بن أسيد ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أى رب، أشقى أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص[2]».

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، ومن طرق أخر، عن أبى الطُّفَيل، بنحو معناه[3].

وقوله: ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أى: ضعيفا فى بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا، ويلطف[4] به، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾أى: يتكامل[5] القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾، أى: فى حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، وهو الشيخوخة والهَرَم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف[6] وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلا[7] يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقد قال الحافظ أبو يعلى [أحمد][8] بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا منصور بن أبى مزاحم[9]، حدثنا خالد الزيات، حدثنى داود أبو سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر ابن حزم الأنصارى، عن أنس بن مالك ـ رفع الحديث ـ قال: «المولود حتى يبلغ الحنث، ما عمل من حسنة، كتبت لوالده أو لوالدته[10]، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث جرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة فى

(١) فى ف: «تموت». (٢) فى ف: «ولاينقص».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٤).
(٤) فى أ: «ويتلطف». (٥) فى ت: «تتكامل». (٦) فى ت، ف، أ: «من الحزن».
(٧) فى ت: «لا». (٨) زيادة من ت، ف،أ. (٩) فى أ: «ابن أبى عاصم».
(١٠) فى ت، ف: «لوالديه».

الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص. فإذا بلغ الخمسين، خفف الله حسابه. فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه فى أهل بيته، وكان أسير الله فى أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر ﴿ **لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** ﴾، كتب الله له مثل ما كان يعمل فى صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه»(١).

هذا حديث غريب جدا، وفيه نكارة شديدة. ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده مرفوعا وموقوفا فقال:

حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العامرى(٢)، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة، أمنه الله من أنواع البلايا، من الجنون والجذام والبرص(٣)، فإذا بلغ الخمسين لَيَّن الله حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله، وأحبه أهل السماء، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته، ومحا عنه سيئاته، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله فى الأرض، وشفع فى أهله (٤).

ثم قال: حدثنا هاشم، حدثنا الفرج، حدثنى محمد بن عبد الله العامرى، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبى ﷺ، مثله(٥).

ورواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا أنس بن عياض، حدثنى يوسف بن أبى ذرة (٦) الأنصارى، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمْرى، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من معمر يعمر فى الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون والجذام والبرص(٧). . . . وذكر تمام الحديث، كما تقدم سواء(٨).

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله بن شبيب، عن أبى شيبة، عن عبد الله بن عبد الملك(٩)، عن أبى قتادة العُذْرى، عن ابن أخى الزهرى، عن عمه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يعمر فى الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء: الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله، وأحبه أهل السماء(١٠)، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غَفَر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسُمى أسير الله فى أرضه، وشفع فى أهل بيته»(١١).

---

(١) مسند أبى يعلى (٦/ ٣٥٢).
(٢) فى ت، ف: «العاملى».
(٣) فى ف: «البرص والجذام».
(٤) المسند (٢/ ٨٩).
(٥) المسند (٢/ ٨٩).
(٦) فى هـ، ت، ف: «أبى بردة»، والتصويب من كتب الرجال.
(٧) فى ت: «أو الجذام أو البرص».
(٨) المسند (٣/ ٢١٧) وفى إسناده يوسف بن أبى ذرة وهو ضعيف.
(٩) فى ت: «عبد الله بن مالك».
(١٠) فى أ: «السماوات».
(١١) مسند البزار برقم (٣٥٨٨) «كشف الأستار».

وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهى القحلَة التى لا نبت فيها ولا شىء[(١)].

وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدى: ميتة.

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أى: تحركت وحيَيت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الخالق المدبر الفعال لما يشاء، ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [أى: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع؛ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمُوتَىٰ﴾][(٢)]، ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فـ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أى: يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم رمما، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٠] والآيات فى هذا كثيرة[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهز[(٤)]، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى عن عطاء، عن وكيع ابن حُدُس[(٥)]، عن عمه أبى رَزين العقيلى ـ واسمه لَقيط بن عامر[(٦)] ـ أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْليا به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى، وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: «أما مررت بوادى أهلك محلا[(٧)]» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضرا؟». قال: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى، وذلك آيته فى خلقه».

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث حماد بن سلمة، به[(٨)].

ثم رواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبى رَزين العُقَيْلى قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ قال: «أمررت بأرض من أرضك مُجْدبةً، ثم مررت بها

---

(١) فى ت: «التى لا ينبت فيها شيئا». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت: «الكثيرة».
(٤) فى ت: «يزيد».
(٥) فى ت: «عدس»، وفى ف، أ: «عدى».
(٦) فى ت: «ليث بن أبى عامر». (٧) فى أ: «ممحلا».
(٨) المسند (٤/ ١١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣١) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٠).

مخصبة؟» قال: نعم. قال: «كذلك النشور»[١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عُبَيس[٢] بن مرحوم، حدثنا بُكَيْر بن أبى السُّمَيْط، عن قتادة، عن أبى الحجاج، عن معاذ بن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور ـ دخل الجنة. [والله أعلم][٣].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠)﴾.

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلّدين فى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾، ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾، أى: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأى والهوى.

وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾: قال ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعى إليه.

وقال مجاهد، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أى: لاوى عنقه، وهى رقبته، يعنى: يعرض عما يدعى إليه من الحق رقَبَته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥]: وقال لقمان لابنه: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أى: تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين[٤]، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذى يجعله ممن يضل عن سبيل الله.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله المذلة فى الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر هَمّه ومبلغ علمه، ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ

(١) المسند (٤/ ١١).

(٢) فى ف، أ: «عيسى». (٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ت، ف: «المعاندون».

الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أى: يقال له هذا تقريعاً وتوبيخا، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ .ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ .إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٥٠].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن الصبّاح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بلغنى أن أحدهم يُحرق فى اليوم سبعين ألف مرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾.

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شك[(١)].

وقال غيرهم: على طرف. ومنه حرف الجبل، أى: طرفه، أى: دخل فى الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر، وإلا انشمر.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيى بن أبى بُكَيْر[(٢)]، حدثنا إسرائيل، عن أبى حَصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يَقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما، ونُتِجَت خيلُه، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تُنتَج[(٣)] خيله قال: هذا دين سوء[(٤)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبى، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القُمِّى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيُسْلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غَيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: «إن ديننا هذا لصالح، فتمسَّكُوا به». وإن وجدوا عام جُدوبة وعام ولاد سَوء وعام قحط، قالوا: «ما فى ديننا هذا خير». فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

وقال العوفى، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قَدم المدينة، وهى أرض وبيئة[(٥)]، فإن صح بها جسمه، ونُتِجت فرسه مهراً حسنا، وولدت امرأته غلاماً، رضى به واطمأن إليه، وقال: «ما أصبت منذ كنتُ على ديني هذا إلا خيرا». وإن أصابته فتنة ـ والفتنة: البلاء ـ أى: وإن أصابه وجع المدينة،

---

(١) فى ت: «على شدة». (٢) فى ف: «ابن أبى بكر». (٣) فى ت، ف: «ينتج».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٢).

(٥) فى هـ، ت: «وهم أرض دونه» والمثبت من ف، أ.

وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينكَ هذا إلا شراً. وذلك الفتنة.

وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جُريج، وغير واحد من السلف، في تفسير هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لِمَا صلح من دنياه، فإن[1] أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر.

وقال مجاهد في قوله: ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي: ارتد كافراً.

وقوله: ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ أي: فلا هو حَصَّل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ﴾ أي: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ. يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾: قال مجاهد: يعني الوثن، يعني: بئس هذا الذي دعا به من دون الله مولى، يعني: ولياً وناصراً، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر.

واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب من يعبد [الله][2] على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) ﴾.

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، [وتركوا المنكرات][3]، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، في روضات الجنات.

ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ

---

(١) في ت، ف، أ: «فإذا».

(٢) زيادة من ت، ف، أ.

(٣) زيادة من ف، أ.

فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ (١٦) ﴾.

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة، ﴿**فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ**﴾ أى: بحبل ﴿**إِلَى السَّمَاءِ**﴾ أى: سماء بيته، ﴿ **ثُمَّ لْيَقْطَعْ**﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿**فَلْيَمْدُدْ**[١] **بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ**﴾ أى: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتى محمداً من السماء، ﴿ **ثُمَّ لْيَقْطَعْ**﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى، وأبلغ فى التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]؛ ولهذا قال: ﴿**فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**﴾.

قال السدى: يعنى: مِنْ شأن محمد[٢] ﷺ.

وقال عطاء الخراسانى: فلينظر هل يشفى ذلك ما يجد فى صدره من الغيظ.

وقوله: ﴿**وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ**﴾ أى: القرآن ﴿ **آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** ﴾ أى: واضحات فى لفظها ومعناها، حجةً من الله على الناس ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ**﴾ أى: يضل من يشاء، ويهدى من يشاء، وله الحكمة التامة و الحجة[٣] القاطعة فى ذلك، ﴿**لا**[٤] **يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)** ﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين ـ وقد قدمنا فى سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلافَ الناس فيهم ـ والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالى ﴿**يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾، ويحكم بينهم بالعدل[٥]، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به[٦] النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تُكِن ضمائرهم.

---

(١) فى ت: «وليمدد». (٢) فى ت: «محمداً». (٣) فى ت: «وله الحجة».
(٤) فى ت: «ولا».
(٥) فى ت: «بالعذاب». (٦) فى ت، أ: «إلى».

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨) ﴾.

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد[١] لعظمته كل شيء طوعا وكرها وسجود [كل شيء مما][٢] يختص به، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا[٣] إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]. وقال ها هنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ أى: من الملائكة فى أقطار السموات، والحيوانات فى جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾: إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وفى الصحيحين عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعى من حيث جئت»[٤].

وفى المسند وسنن أبى داود، والنسائى، وابن ماجه، فى حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خَلْقان من خَلْق الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل إذا تَجَلى لشىء من خلقه خشع[٥] له»[٦].

وقال أبو العالية: ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفَىء ظلالهما[٧] عن اليمين والشمائل: وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم، كأنى أصلى خلف شجرة، فسجدتُ فسجَدَت الشجرة لسجودى، فسمعتُها وهى تقول: اللهم، اكتب لى بها عندك أجراً، وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخراً، وتقبَّلها منى كما تقبلتَها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ

---

(١) فى ت: «سجد». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: «يرى».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩).
(٥) فى ف، أ: «خضع».
(٦) المسند (٤/٢٦٧) وسنن أبى داود برقم (١١٧٧) وسنن النسائى (١٤١١٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٢٦٢).
(٧) فى ت: «فسجودها على ظلالها».

النبى[١] ﷺ سجدة ثم سَجَد، فسمعته وهو يقولُ مثلَ ما أخبره الرجل عن قول الشجرة.

رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن حبّان فى صحيحه[٢].

وقوله: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أى: الحيوانات كلها.

وقد جاء فى الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب[٣] منابر[٤]. فرب مركوبة خير[٥] وأكثر ذكراً لله من راكبها.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: يسجد لله طوعا مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أى: ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملى، حدثنا القداح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على قال: قيل لعلى: إن ها هنا رجلا يتكلم فى المشيئة. فقال له على: يا عبد الله، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت[٦]؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربتُ الذى فيه عيناك بالسيف.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدم السجدة اعتزل[٧] الشيطان يبكى يقول: يا ويله. أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمِرتُ بالسجود فأبيتُ، فلى النار» رواه مسلم[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالا: حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا مَشْرَح بن هاعان[٩] أبو مُصعب المعافرى قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: قلت يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما».

ورواه أبو داود والترمذى، من حديث عبد الله بن لهيعة، به[١٠]. وقال الترمذى: «ليس بقوى[١١]» وفى هذا نظر؛ فإن ابن لَهِيعة قد صَرح فيه بالسماع، وأكثر ما نَقَموا عليه تدليسه.

---

(١) فى ت: «رسول الله».
(٢) سنن الترمذى برقم (٥٧٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٣) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من هذا الوجه».
(٣) فى ف، أ: «الحيوانات».
(٤) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٥٦٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٥) فى ف: «خيراً». (٦) فى ت، ف: «لما يشاء أو لما شئت». (٧) فى ف: «فاعتزل».
(٨) صحيح مسلم برقم (٨١).
(٩) فى أ: «عاهان».
(١٠) المسند (٤/ ١٥١) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٢) وسنن الترمذى برقم (٥٧٨).
(١١) فى ف: «ليس هو بقوى».

وقد قال أبو داود في المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السَّرح، أنبأنا ابن وَهْب، أخبرني معاوية بن صالح، عن عامر بن جَشِب[١]، عن خالد بن مَعْدان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلت سورة الحج على القرآن بسجدتين».

ثم قال أبو داود: وقد أسندَ هذا، يعني: من غير هذا الوجه، ولا يصح[٢].

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي: حدثنا ابن أبي داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن عنان، حدثني نافع، حدثني أبو الجهم: أن عمر سجد سجدتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجدتين[٣].

وروى أبو داود وابن ماجه، من حديث الحارث بن سعيد العُتَقيّ، عن عبد الله بن مُنَين، عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المُفَصّل، وفي سورة الحج سجدتان[٤]. فهذه [٥]شواهد يَشُدّ بعضها بعضا.

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) ﴾.

ثبت في الصحيحين، من[٦] حديث أبي مجلَز، عن قيس بن عُبَاد، عن أبي ذر؛ أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحِبَيه، وعتبةَ وصاحبيه، يوم برزوا في بدر[٧].

لفظ البخاري عند تفسيرها، ثم قال البخاري:

حدثنا الحجاج بن مِنْهَال، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا أبو مِجْلز عن قيس بن عُبَاد، عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يَجثُو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: عليّ وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخاري[٨].

وقال سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة في قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم. فنحن أولى بالله

(١) في ف، أ: «جيب».
(٢) المراسيل برقم (٧٨).
(٣) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٢/٣١٧) من طريق نافع عن رجل من أهل مصر أنه صلى مع عمر بن الخطاب فذكر مثله.
(٤) سنن أبي داود برقم (١٤٠١) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٧).
(٥) في ف: «فهو». (٦) في ت: «عن».
(٧) صحيح البخاري برقم (٤٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (٣٠٣٣).
(٨) صحيح البخاري برقم (٤٧٤٤).

منكم. وقال المسلمون: كتابنا يقضى على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم. فأفلج الله الإسلامَ على من ناوأه، وأنزل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾. وكذا روى العَوفى، عن ابن عباس.

وقال شعبة، عن قتادة فى قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: مُصدق ومكذب.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد فى هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث. وقال ـ فى رواية: هو وعطاء فى هذه الآية ـ: هم المؤمنون والكافرون.

وقال عكرمة: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: هى الجنة والنار، قالت النار: اجعلنى للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلنى للرحمة.

وقولُ مجاهد وعطاء: إن المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلانَ الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حَسَن؛ ولهذا قال: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أى: فصلت لهم مقطعات من نار.

قال سعيد بن جبير: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أى: إذا صب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار فى غاية الحرارة.

وقال سعيد [ابن جبير][١]: هو النحاس المذاب، أذاب ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وكذلك تذوب[٢] جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تساقط.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا إبراهيم أبو إسحاق الطالَقانى، حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن زيد[٣]، عن أبى السَّمْح، عن ابن[٤] حُجَيرة، عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الحميم ليُصَب على رؤوسهم، فينفُذ الجمجمةَ حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت[٥] ما فى جوفه، حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان».

ورواه الترمذى من حديث ابن المبارك[٦]، وقال: حسن صحيح. وهكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أبى نعيم، عن ابن المبارك، به ثم قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَارىّ، سمعت عبد الله بن السُّرِّىّ قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بِكَلْبتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرهه، قال: فيرفع مِقْمَعَة معه فيضرب

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: «يذوب». (٣) فى ت، ف: «يزيد».
(٤) فى ت: «أبى». (٥) فى أ: «فيسلب».
(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٥٨٢).

بها رأسه، فيُفرغ(١) دماغه، ثم يُفرغ(٢) الإناء من دماغه، فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾

وقوله: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾، قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا درَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن مِقْمَعا من حديد وُضِع فى(٣) الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أقلُّوه من الأرض»(٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا بن لَهِيعة، حدثنا(٥) درَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لو ضُرب الجبلُ بمقْمَع من حديد، لتفتت ثم عاد كما كان، ولو أن دلوا من غسَّاق يُهَرَاق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا»(٦).

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله، فيدعون(٧) بالثبور.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾: قال الأعمش، عن أبي ظَبْيان، عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة، لا يضيء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

وقال زيد بن أسلم فى هذه الآية: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، قال: بلغنى أن أهل النار فى النار لا يتنفسون.

وقال الفُضيل(٨) بن عياض: والله ما طمعوا فى الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدى لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهم(٩) مقامعها.

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياذاً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنَّكال

(١) فى ت، ف: «فيقرع». (٢) فى ت: «يقرع». (٣) فى ت: «على».
(٤) المسند (٣/ ٢٩).
(٥) فى ت، ف: «عن».
(٦) المسند (٣/ ٨٣) ودراج عن أبي الهيثم ضعيف.
(٧) فى ت، ف: «فيدعو». (٨) فى ت: «الفضل». (٩) فى ف: «ويردهم».

والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة ـ نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة ـ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: تتخرّق فى أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من الحلية، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أى: فى أيديهم، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحِلْيَة من المؤمن حيث يبلغ الوُضُوء»[١].

وقال كعب الأحبار: إن فى الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميتُه، يصوغ لأهل الجنة الحلى منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز قُلْب منها ـ أى: سوار منها ـ لرد شعاع الشمس، كما ترد[٢] الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: فى مقابلة ثياب أهل النار التى فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسُنْدُسه، كما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفى الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج فى الدنيا، فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»[٣].

قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير فى الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، كقوله: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذى يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذى يُرَوّعون به[٤] ويقرعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى: إلى المكان الذى يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء فى الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النَّفَسَ».

وقد قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أى: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى: الطريق المستقيم فى الدنيا. وكل هذا لا ينافى ما ذكرناه، والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٤٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) فى ف: «يرد».

(٣) الحديث فى صحيح البخارى برقم (٥٤٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦٧) من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(٤) فى ت: «يوبخون فيه»، وفى ف، أ: «يوبخون به».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾ .

يقول تعالى منكراً على الكفار فى صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وفى هذه الآية دليل [على][١] أنها مَدنية، كما قال فى سورة «البقرة»: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أى: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به فى نفس الأمر، وهذا التركيب فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] أى: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [أى: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائى عنه البعيد الدار منه، ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾][٢] ومن ذلك استواء الناس فى رباع مكة وسكناها، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام.

وقال مجاهد [فى قوله][٣]: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾: أهل مكة وغيرهم فيه سواء فى المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد [بن أسلم][٤].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعى وإسحاق بن راهَويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر[٥] أيضاً، فذهب الشافعى، رحمه الله[٦]، إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهرى، عن على بن الحُسَين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غداً فى دارك[٧] بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عَقيل من رباع». ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر». وهذا الحديث مُخَرّج فى الصحيحين[٨] [وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة، فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار.

وذهب إسحاق بن راهَويه إلا أنها تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ف. (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «حاضراً». (٦) فى ف: «رضى الله عنه»، وفى أ: «رضى الله تعالى عنه».
(٧) فى ف: «بدارك»
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه.

مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهَويه بما رواه ابن ماجه، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن عيسى ابن يونس، عن عُمَر بن سعيد بن أبى حُسَين[١]، عن عثمان بن أبى سليمان، عن علقمة بن نَضْلة قال: تُوفِّى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وما تدعى رباع مكة إلا[٢] السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن[٣].

وقال عبد الرزاق عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها.

وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء فى الحرم، وأخبرنى أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبوّب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج فى عَرَصاتها، فكان أول من بَوّب داره سُهَيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب فى ذلك، فقال: أنظرنى يا أمير المؤمنين، إنى كنت امرأ تاجرا، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لى ظهرى قال: فذلك إذاً.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن منصور، عن مجاهد؛ أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادى حيث يشاء[٤].

قال: وأخبرنا مَعْمر، عمن سمع عطاء يقول [فى قوله][٥]: **﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾**، قال: ينزلون حيث شاؤوا.

وروى الدارقطنى من حديث ابن أبى نَجِيح، عن عبد الله بن عمرو موقوفا[٦]: من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً[٧].

وتوسط الإمام أحمد [فيما نقله صالح ابنه][٨] فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعا بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: **﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**: قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: **﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾** [المؤمنون: ٢٠] أى: تُنْبِتُ الدهن، وكذا قوله: **﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ[٩]﴾** تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى:

ضَمِنَتْ برزق عيالنا أرْماحُنا   بين المَرَاجِل، والصّرِيحَ الأجرد[١٠]

وقال الآخر[١١]:

بوَادٍ يمَانٍ يُنْبتُ الشَّثّ صَدْرُهُ   وَأَسْفَله بالمَرْخ والشَّبَهَان

(١) فى ت: «جبير»، وفى ف، أ: «حيوة».
(٢) زيادة من ت، ف، أ.
(٣) سنن ابن ماجه برقم (٣١٠٧) وهو مرسل.
(٤) فى ت، ف: «شاء».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ف، أ: «مرفوعاً».
(٧) سنن الدارقطنى (٢/ ٣٠٠).
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى ف، أ: «بإلحاد بظلم».
(١٠) البيت فى تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٣).
(١١) البيت فى تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٣) غير منسوب.

والأجود أنه ضمن الفعل ها هنا معنى «يَهُمّ»، ولهذا[١] عداه بالباء، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ أى: يَهُمّ فيه بأمر فظيع من المعاصى الكبار.

وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أى: عامدا قاصدا أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج[٢]، عن ابن عباس: هو [التعمد][٣].

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: بشرك.

وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: هو أن تَستحلَ من الحرام ما حَرّم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَل ذلك فقد وَجَب [له][٤] العذاب الأليم.

وقال مجاهد: ﴿بِظُلْمٍ﴾: يعمل فيه عملا سيئا.

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادى فيه الشر، إذا كان عازما عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبى حاتم فى تفسيره:

حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السُّدِّى: أنه سمع مُرَّة يحدث عن عبد الله ـ يعنى: ابن مسعود ـ فى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: لو أن رَجُلا أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بعَدَن أبينَ، أذاقه[٥] الله من العذاب الأليم.

قال شعبة: هو رفعه لنا، وأنا لا أرفعه لكم. قال يزيد: هو قد رفعه، ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون، به[٦].

[قلت: هذا الإسناد][٧] صحيح على شرط البخارى، ووقفه أشبه من رفعه؛ ولهذا صَمم شعبة على وَقْفه من كلام ابن مسعود. وكذلك رواه أسباط، وسفيان الثورى، عن السدى، عن مُرة، عن ابن مسعود موقوفا، والله أعلم.

وقال الثورى، عن السدى، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلا بَعَدن أبينَ هَمّ أن يقتل رجلا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم. وكذا قال الضحاك بن مُزاحم.

وقال سفيان [الثورى][٨]، عن منصور، عن مجاهد «إلحاد فيه»، لا والله، وبلى والله. وروى عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، مثله.

---

(١) فى ف: «ولذا».
(٢) فى ت: «جرير».
(٣) زيادة من ف، أ.
(٤) زيادة من أ.
(٥) فى ت، ف، أ: «لأذاقه».
(٦) المسند (١/٤٢٨).
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) زيادة من ف.

وقال سعيد بن جُبَير: شتم الخادم ظلم فما فوقَه.

وقال سفيان الثورى، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مِهْرَان، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: تجارة الأمير فيه.

وعن ابن عمر: بيع الطعام [بمكة][1] إلحاد.

وقال حبيب[2] بن أبى ثابت: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهرى، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثنى موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية؛ أن رسولَ الله ﷺ قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد»[3].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر[4]، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنى عطاء بن دينار، حدثنى سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس فى قول الله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت فى عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا فى الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصارىّ، ثم ارتد عن الإسلام، وهَرَب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ يعنى: من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعنى بميل عن الإسلام.

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]، أى: دمَّرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء؛ ولذلك ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم» الحديث[5].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كُنَاسة، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبدُ الله بن عمر عبدَ الله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد فى حَرَم الله، فإنى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنه سيلحدُ فيه رجل من قريش، لو تُوزَن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر لا تكن هو[6].

وقال أيضا [فى مسند عبد الله بن عمرو بن العاص][7]: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد،

---

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) فى ت: «جندب».

(٣) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٠٢٠)، والفاكهى فى تاريخ مكة برقم (١٧٧١) من طريق أبى عاصم به.

(٤) فى ت، ف: «بكر».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢١١٨) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) المسند (٢/١٣٦).

(٧) زيادة من ف، أ.

حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبدُ الله بن عمرو بن الزبير، وهو جالس فى الحِجْر فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحادَ فى الحرم، فإنى أشهد لسَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش، ولو وُزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها». قال: فانظر لا تكن(١) هو(٢).

ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾.

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، فى البقعة التى أسسّتْ من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بَوأ إبراهيم مكانَ البيت، أى: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له فى بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله»، كما ثبت فى الصحيح(٣) عن أبى ذر قلت: يا رسول الله، أى مسجد وُضعَ أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أى؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»(٤).

وقد قال الله تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾** الآية [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: **﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** [البقرة: ١٢٥].

وقد قدمنا ذكر ما ورد فى بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا(٥).

وقال تعالى هاهنا: **﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي﴾** أى: ابنْه على اسمى وحدى، **﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾** قال مجاهد وقتادة: من الشرك، **﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** أى: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، **﴿وَالْقَائِمِينَ﴾** أى: فى الصلاة؛ ولهذا قال: **﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**، فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه فى غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفى الحرب، وفى النافلة فى السفر، والله أعلم.

---

(١) فى ت: «لا يكون» وفى ف: «لا تكون».

(٢) المسند (٢١٩١٢).

(٣) فى ف: «الصحيحين».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).

(٥) انظر تفسير الآية: ١٢٥ من سورة البقرة.

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أى: ناد فى الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه. فَذُكر أنه قال: يارب، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبى قُبَيس، وقال: يأيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمعَ مَن فى الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شىء سمعه من حَجَر ومَدَر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لبيك اللهم لبيك».

هذا مضمون ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وغير واحد من السلف، والله أعلم. أوردها ابن جَرير، وابن أبى حاتم مُطَوّلة[(١)(٢)].

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا، لمن قدر عليه، أفضلُ من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم فى الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، والذى عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته، عليه السلام.

وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ يعنى: طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أى: بعيد. قاله مجاهد، وعطاء، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والثورى، وغير واحد.

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال فى دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾.

قال ابن عباس: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والربح[(٣)] والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة: ١٩٨].

---

(١) فى ف: «بطوله».

(٢) تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٦).

(٣) فى ت، ف، أ: «والذبائح».

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ [فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ][١] عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، قال شعبة [وهُشَيْم][٢] عن [أبى بشر عن سعيد][٣] عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وعلقه البخارى عنه بصيغة الجزم به[٤]. ويروى مثله عن أبى موسى الأشعرى، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى، وإبراهيم النَّخعى. وهو مذهب الشافعى، والمشهور عن أحمد بن حنبل.

وقال البخارى: حدثنا محمد بن عَرْعَرَة، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه» قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء».

ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه[٥]. وقال الترمذى: حديث حسن غريب صحيح. وفى الباب عن ابن عمر، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر.

قلت: وقد تقصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حدته[٦]، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد:

حدثنا عَفَّان، أنبأنا أبو عَوَانة، عن يزيد بن أبى زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العملُ فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهم من التهليل والتكبير والتحميد»[٧] وروى من وجه آخر، عن مجاهد، عن ابن عمر، بنحوه[٨].

وقال البخارى: وكان ابن عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق فى أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما[٩].

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعا: أن هذا هو العشر الذى أقسم الله به فى قوله: ﴿وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢][١٠].

وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾[الأعراف: ١٤٢].

وفى سنن أبى داود: أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر[١١].

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذى ثبت فى صحيح مسلم عن أبى قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية»[١٢].

(١، ٢، ٣) زيادة من ف، أ.
(٤) صحيح البخارى (٢/ ٤٥٧) «فتح».
(٥) صحيح البخارى برقم (٩٦٩) وسنن أبى داود برقم (٢٤٣٨) وسنن الترمذى برقم (٧٥٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٢٧).
(٦) سماه: «الأحاديث الواردة فى فضل الأيام العشرة من ذى الحجة».
(٧) المسند (٢/ ٧٥).
(٨) رواه أبو عوانة. كما فى إرواء الغليل (٣٩٨١٣) عن الحافظ ابن حجر ـ من طريق موسى بن أبى عائشة عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما.
(٩) صحيح البخارى (٢/ ٤٥٧) «فتح».
(١٠) المسند (٣/ ٣٢٧).
(١١) سنن أبى داود برقم (٢٤٣٧).
(١٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٢) من حديث أبى قتادة رضى الله عنه.

ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد فى حديث أنه أفضل الأيام عند الله[(١)].

وبالجملة، فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع فى ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه.

وقيل: ذاك أفضل لاشتماله على ليلة القدر، التى هى خير من ألف شهر.

وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالى ذاك أفضل. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان فى الأيام المعلومات: قال الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم النَّخَعى، وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه.

قول ثالث: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن المدينى، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن عَجْلان، حدثنى نافع؛ أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر.

هذا إسناد صحيح إليه، وقاله [(٢)] السدى: وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذى قبله قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**﴾ يعنى به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: إنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبى حنيفة.

وقال ابن وهب: حدثنى [(٣)] ابن زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق.

وقوله: ﴿**عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى فى سورة الأنعام وأنها ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣].

وقوله﴿ **فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحى وهو قول غريب، والذى عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها[(٤)].

وقال عبد الله بن وهب: [قال لى مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا**﴾: قال ابن وهب][(٥)]: وسألت الليث، فقال لى مثل ذلك.

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٣٥٠) وأبو داود فى السنن برقم (١٧٦٥) من حديث عبد الله بن قرط رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «وقال».　　(٣) فى ت، ف: «وقال ابن وهب وحدثنى».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٥) زيادة من ف، أ.

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل. وروى عن مجاهد، وعطاء نحو ذلك.

قال هُشَيْم، عن حُصَين، عن مجاهد فى قوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾: هى كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ[1] الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾[الجمعة: ١٠].

وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحى يتصدق منها بالنصف بقوله فى هذه الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فجزأها نصفين: نصف للمضحى، ونصف للفقراء.

والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله فى الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[الحج: ٣٦] وسيأتى الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، قال عكرمة: هو المضطر الذى عليه البؤس، [والفقير][2]: المتعفف.

وقال مجاهد: هو الذى لا يبسط يده. وقال قتادة: هو الزَّمِن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير.

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو وضع [الإحرام][3]، من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القُرَظى.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفث: المناسك.

وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: نحر ما نذر من أمر البُدن.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شىء يكون فى الحج.

وقال إبراهيم بن مَيْسَرَة، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: الذبائح.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: كل نذر إلى أجل.

وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال: [حجهم.

وكذا روى الإمام ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان فى قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال:][4] نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت

---

(١) فى ت: «قضيتم». (٢، ٣) زيادة من ف، أ. (٤) زيادة من ت، ف، أ.

وبين الصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ورمى الجمار، على ما أمروا به. وروى عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ : قال مجاهد: يعنى: الطواف الواجب يوم النحر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أبى حمزة قال: قال لى ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول (١) الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت.

قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمى الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفى الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض(٢).

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل (٣) البيت الذى بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحِجْر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر العَدَنى، حدثنا سفيان، عن هشام بن حُجْر، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسول الله ﷺ من ورائه(٤).

وقال قتادة، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [قال](٥): لأنه أول بيت وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن عكرمة أنه قال: إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح.

وقال خَصِيف: إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط.

وقال ابن أبى نَجِيح وليث عن مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة.

وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُرِده أحد بسوء إلا هلك.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن ابن الزبير قال: إنما سمى البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة(٦).

وقال الترمذى: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرنى

(١) فى ت: «فيقول».
(٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.
(٣) فى أ: «داخل».
(٤) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٦/ ٤١).
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٢).

الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار».

وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل النجارى[١]، عن عبد الله بن صالح، به[٢]. وقال: إن كان صحيحاً وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهرى، مرسلا[٣].

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾.

يقول تعالى: هذا الذى أمرنا به من الطاعات فى أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما فى نفسه، **﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾** أى: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، وكذلك على ترك المحرمات و[اجتناب] [٤] المحظورات.

قال ابن جريج: قال مجاهد فى قوله: **﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾** قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

وقوله: **﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾** أى: أحللنا [٥] لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام.

وقوله: **﴿إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾** أى: من تحريم **﴿ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ [إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ][٦]﴾** الآية [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: **﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾**: «من» هاهنا لبيان الجنس، أى: اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان. وقرن الشرك بالله [٧]بقول الزور، كقوله: **﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفى الصحيحين عن أبى بَكْرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئا فجلس، فقال: ـ ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت[٨].

---

(١) فى ف: «المحاربى».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٧٠) وفيه «هذا حديث حسن صحيح» وأظنه خطأ.

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «أحلت». (٦) زيادة من ت، ف، أ. (٧) فى أ: «به».

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، أنبأنا سفيان بن زياد، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكا بالله» ثلاثا، ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

وهكذا رواه الترمذى، عن أحمد بن منيع، عن مروان بن معاوية، به[(١)]. ثم قال: «غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه فى رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبى ﷺ».

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العُصْفُرِىّ، عن أبيه، عن حبيب ابن النعمان الأسدى، عن خريم بن فاتك [(٢)] الأسدى قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائما فقال: «عدلت شهادة الزور الإشرك بالله، عز وجل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[(٣)].

وقال سفيان الثورى، عن عاصم بن أبى النجود، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية[(٤)].

وقوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ أى: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصدا إلى الحق؛ ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

ثم ضرب للمشرك مثلا فى ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أى: سقط منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾، أى: تقطعه الطيور فى الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أى: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء فى حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحا من هناك». ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث فى سورة «إبراهيم» [(٥)] بحروفه وألفاظه وطرقه.

وقد ضرب[الله][(٦)]تعالى للمشرك مثلا آخر فى سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ [وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ][(٧)]﴾[الأنعام: ٧١].

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)﴾.

---

(١) المسند (٤/ ١٧٨) وسنن الترمذى برقم (٢٢٩٩).

(٢) فى ت: «مقاتل».

(٣) المسند(٤/ ٣٢١).

(٤) تفسير الطبرى(١٧/ ١١٢).

(٥) انظر تفسير الآية: ٢٧.

(٦) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ف، أ، وفى الأصل: «الآية».

يقول تعالى: هذا﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أى: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبى ليلى، عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام.

وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمّنون. رواه البخارى[١].

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفراءَ أحبّ إلى الله من دم سَوداوين». رواه أحمد، وابن ماجه[٢].

قالوا: والعفراء هى البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزئ أيضا؛ لما ثبت فى صحيح البخارى، عن أنس: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين[٣].

وعن أبى سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فَحيل[٤] يأكل فى سواد، وينظر فى سواد، ويمشى فى سواد.

رواه أهل السنن، وصححه الترمذى[٥]، أى: بكبش أسود[٦] فى هذه الأماكن.

وفى سنن ابن ماجه، عن أبى رافع: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين[٧]. قيل: هما الخَصِيَان. وقيل: اللذان رُضَّ خُصْياهما، ولم يقطعهما[٨]، والله أعلم.

وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين موجوءين [والموجوءين قيل: هما الخصيين][٩] [١٠].

وعن على رضى الله عنه، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحى بمقابَلَة، ولا مدابَرَة، ولا شَرْقاء، ولا خَرْقاء.

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى[١١].

ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن نُضحى[١٢] بأعضب القرن والأذن[١٣].

---

(١) صحيح البخارى (١٠/ ٩) «فتح» معلقاً.
(٢) المسند (٢/ ٤١٧) ولم يقع لى فى سنن ابن ماجه.
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٥٥٨).
(٤) فى ف: «فحل».
(٥) سنن أبى داود برقم (٢٧٩٦) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٦) وسنن النسائى (٧/ ٢٢١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٨).
(٦) فى أ: «فيه نكتة سوداء».
(٧) لم يقع فى سنن ابن ماجه من حديث أبى رافع وإنما من حديث عائشة وأبى هريرة برقم (٣١٢٢) وحديث أبى رافع رواه أحمد فى المسند (٦/ ٨).
(٨) فى ت: «ولم يقطعها».
(٩) زيادة من ت، ف، أ.
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٧٩٥).
(١١) المسند (١/ ٨٠)، وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٨) وسنن النسائى (٧/ ٢١٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٢).
(١٢) فى ت: «يضحى».
(١٣) المسند (١/ ٨٣) وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٥) وسنن الترمذى برقم (١٥٠٤) وسنن النسائى (٧/ ٢١٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٥).

وقال سعيد بن المسيب: العضب: النصْف فأكثر.

وقال بعض أهل اللغة: إن كُسر قرنها الأعلى فهى قصماء، فأما العَضْب فهو كسر الأسفل، وعضب الأذن قطع بعضها.

وعند الشافعى أن التضحية بذلك مجزئة، لكن تكره.

وقال [الإمام](١) أحمد: لا تجزئ الأضحية بأعضب القرن والأذن؛ لهذا الحديث.

وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ، وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابلة: فهى التى قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها. والشرقاء: هى التى قطعت أذنها طولا، قاله الشافعى. والخرقاء: هى التى خرَقت السّمَةُ أذنها خرقا مُدَوّراً، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز فى الأضاحى: العوراء البيّن عَوَرها، والمريضة البين مَرَضها، والعرجاء البين ظَلَعها(٢)، والكسيرة التى لا تُنقِى».

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى(٣).

وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعى؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية(٤) بها عند الشافعى وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث. واختلف قول الشافعى فى المريضة مرضاً يسيراً، على قولين.

وروى أبو داود، عن عُتبة بن عبد السّلمَى؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن المُصْفَرَة، والمستأصَلَة، والبَخْقاء، والمشيَّعة، والكسراء(٥)(٦).

فالمصفرة قيل: الهزيلة. وقيل: المستأصلة الأذُن. والمستأصلة: المكسورة القرن. والبخقاء: هى العوراء. والمشيعة: هى التى لا تزال تُشَيَّع خَلفَ الغنم، ولا تَتْبَع لضعفها. والكسراء: العرجاء.

فهذه العيوب كلها مانعة [من الإجزاء، فإن طرأ العيب](٧) بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عيبه عند الشافعى خلافا لأبى حنيفة.

وقد روى الإمامُ أحمد، عن أبى سعيد قال: اشتريت كبشا أضحى به، فعدا الذئب فأخذ الألية. فسألت النبى ﷺ، فقال: «ضَحِّ به»(٨).

ولهذا [جاء](٩) فى الحديث: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. أى: أن تكون

---

(١) زيادة من ت.
(٢) فى ت، أ: «عرجها».
(٣) المسند (٤/ ٢٨٤) وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٢) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٧) وسنن النسائى (٧/ ٢١٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٤).
(٤) فى أ: «الأضحية».
(٥) فى أ: «الكسيرة».
(٦) سنن أبى داود برقم (٢٨٠٣).
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) المسند (٣/ ٣٢).
(٩) زيادة من أ.

الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: أهَدى عمر نَجيباً، فأعطى بها ثلاثمائة دينار، فأتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أهديت نجيباً، فأعطِيتُ بها ثلاثمائة دينار، أفأبيعها وأشترى بثمنها بدْناً؟ قال: «لا، انحرها إياها»(١).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: البدن من شعائر الله.

وقال محمد بن أبى موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمى والبدن والحلق: من شعائر الله.

وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أى: لكم فى البدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: قال مِقْسَم، عن ابن عباس [فى قوله](٢): ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: ما لم يُسَمّ بُدناً.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سُمّيت بَدنَةً أو هَدياً، ذهب ذلك كله. وكذا قال عطاء، والضحاك، وقتادة، [ومقاتل](٣) وعطاء الخراسانى، وغيرهم.

وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديا، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدَنَةً، قال: «اركبها». قال: إنها بَدنَة. قال: «اركبها، ويحك»، فى الثانية أو الثالثة(٤).

وفى رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئتَ إليها»(٥).

وقال شعبة، عن زهير بن أبى ثابت الأعمى، عن المغيرة بن حَذْف، عن على؛ أنه رأى رجلا يسوق بدنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدَها.

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى: مَحِل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريبا، ولله الحمد(٦).

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت، فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

---

(١) المسند (٢/ ١٤٥) وسنن أبى داود برقم (١٧٥٦).
(٢) زيادة من ت، ف، أ. (٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) صحيح البخارى برقم (١٦٩٠) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٣).
(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٢٣).
(٦) فى ت: «والله أعلم».

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾.

يخبر تعالى أنه لم يَزَل ذبحُ المناسك وإراقةُ الدماء على اسم الله مشروعاً فى جميع الملل.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قال: عيداً.

وقال عكرمة: ذبحا. وقال زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها.

[وقوله][1]: ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبر، ووضع رجله على صِفَاحهما[2].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سَلاّم بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعى، عن أبى داود ـ وهو نُفَيْع بن الحارث ـ عن زيد بن أرقم قال: قلت ـ أو: قالوا ـ: يا رسول الله، ما هذه الأضاحى؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم». قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة».

وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى سننه، من حديث سلام بن مسكين، به[3].

وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: معبودكم واحد، وإن تَنوّعَت شرائع الأنبياء ونَسخَ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي[4] إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[5][الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾: قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين. وقال السدى: الوجلين. وقال عمرو بن أوس[6]: المخبتون[7]: الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وقال الثورى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له.

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٥٥٨) وصحيح مسلم برقم (١٩٦٦).

(٣) المسند (٤/٣٦٨).

(٤) فى ت، أ: «يوحى».

(٥) فى ت: «فاعبدونى».

(٦) فى ت، ف، أ: «إدريس».

(٧) فى ت: «المخبتين».

وأحسن ما يفسّر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: خافت منه قلوبُهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أى: من المصائب.

قال الحسن البصرى: والله لتصبرنّ أو لتهلكنّ.

﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾: قرأ الجمهور بالإضافة. السبعةَ، وبقيةَ العشرة أيضا. وقرأ ابن(١) السَّمَيْقَع: «والمقيمينَ الصلاة» بالنصب.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾، وإنما حذفت النون هاهنا تخفيفا، ولو حذفت للإضافة لوجب خفضَ الصلاة، ولكن على سبيل التخفيف فنصبت.

أى: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أى: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله. وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره فى سورة «براءة» [فلله الحمد والمنة](٢) (٣).

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦)﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام، بل هى أفضل ما يهدى [إلى بيته الحرام](٤)، كما قال تعالى: ﴿لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ [وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا](٥)﴾ الآية: [المائدة: ٢].

قال ابن جُرَيج: قال عطاء فى قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، قال: البقرة، والبعير. وكذا رُوى عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصرى.

وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل.

قلت: أما إطلاق البَدَنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح فى الحديث.

ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله [وغيره](٦)، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشتركَ فى الأضاحى،

---

(١) فى ت: «أبو»
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) انظر تفسير الآية: ٦٧.
(٤ ـ ٦) زيادة من أ.

البدنةُ عن سبعة، والبقرة عن سبعة[١].

[وقال إسحاق بنُ رَاهَوَيه وغيره: بل تُجزئ البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة][٢]. وقد ورد به حديث في مسند الإمام أحمد، وسنن النسائي، وغيرهما[٣]، فالله أعلم.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أي: ثواب في الدار الآخرة.

وعن سليمان بن يزيد الكعبي، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما عَمِل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبّ إلى الله من هِرَاقة دم، وإنه ليأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطِيبُوا بها نفسا». رواه ابن ماجه، والترمذي وحَسنه[٤].

وقال سفيان الثوري: كان أبو حاتم[٥] يستدين ويسوق البُدْن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنفقت الوَرِقَ في شيء أفضلَ من نحيرة في يوم عيد». رواه الدارقطني في سننه[٦].

وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع.

وقال إبراهيم النَّخَعِيّ: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾: وعن [المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن][٧] جابر ابن عبد الله قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ عيدَ الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يُضَحِّ من أمتي».

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي[٨].

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن ابن عباس، عن جابر قال: ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته». ثم سمى الله وكبر

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٣١٨).

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) المسند (١/ ٢٧٥) وسنن النسائي (٧/ ٢٢٢) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فحضر النحر فاشتركنا في البعير عن عشرة والبقرة عن سبعة».

(٤) سنن الترمذي برقم (١٤٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٦).

(٥) في أ: «أبو حازم».

(٦) سنن الدارقطني (٤/ ٢٨٢) من طريق إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس.

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) المسند (٣/ ٣٥٦) وسنن أبي داود برقم (٢٨١٠) وسنن الترمذي برقم (١٥٢١) وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

وذبح[١].

وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى[٢] بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية[٣]، ثم يقول: «اللهم، هذا عن أمتي جميعها، مَنْ شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ». ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيُطعمهما جميعاً المساكين، [ويأكل][٤] هو وأهله منهما.

رواه أحمد، وابن ماجه[٥].

وقال الأعمش، عن أبي ظَبْيان، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾، قال: قياما على ثلاث قوائم، معقولة يدُها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبر[٦]، اللهم منك ولك». وكذلك روى مجاهد، وعلي بن أبي طلحة، والعَوْفي، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال ليث، عن مجاهد: إذا عُقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث. ورَوَى ابن أبي نَجِيح، عنه، نحوه[٧].

وقال الضحاك: تُعقل رجل[٨] واحدة فتكون على ثلاث.

وفي الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بَدَنَته وهو ينحرها، فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ[٩].

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ وأصحابَه كانوا ينحَرون البُدْن معقولةَ اليسرى، قائمة على ما بقي من قوائمها. رواه أبو داود[١٠].

وقال ابن لَهِيعة: حدثني عطاء بن دينار، أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك: قفْ من شقها الأيمن، وانحرْ من شقها الأيسر.

وفي صحيح مسلم، عن جابر، في صفة حجة الوَدَاع، قال فيه: فنحر رسولُ الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بَدَنَة، جعل[١١] يَطعَنُها بحَربة في يده[١٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود: «صوافن»، أي: مُعقَّلة[١٣] قياما[١٤].

---

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٦٢ من سورة «الأنعام».
(٢) في ت: «أمر». (٣) في ت، أ: «بالمدينة». (٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المسند (٦/٨) وتقدم الحديث في هذه السورة.
(٦) في ف، أ: «والله أكبر، لا إله إلا الله». (٧) في أ: «نحو هذا». (٨) في ت، ف: «يعقل يداً».
(٩) صحيح البخاري برقم (١٧١٣) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٠).
(١٠) سنن أبي داود برقم (١٧٦٧).
(١١) في ت: «وجعل».
(١٢) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).
(١٣) في ت، أ: «معلقة».
(١٤) تفسير عبد الرزاق (٢/٣٣).

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن مجاهد: مَن قرأها «صوافن» قال: معقولة. ومن قرأها ﴿صَوَافَ﴾، قال: تصف بين يديها.

وقال طاوس، والحسن، وغيرهما: «فاذكروا اسم الله عليها صوافى» يعنى: خالصة لله عز وجل. وكذا رواه مالك، عن الزهرى.

وقال عبد الرحمن بن زيد: «صوافىَ»: ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال: ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: يعنى: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى: نحرت.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى: ماتت.

وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنَة[١] إذا نُحرت حتى تموت وتَبْرد حركتها. وقد جاء فى حديث مرفوع: «ولا تُعجلُوا النفوسَ أن تَزْهَق»[٢]. وقد رواه الثورى فى جامعه، عن أيوب، عن يحيى ابن أبى كثير، عن فَرافصَة الحنفى، عن عمر بن الخطاب؛ أنه قال ذلك[٣]. ويؤيده حديث شَدّاد بن أوس فى صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح[٤]، ولْيُحدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذَبِيحته»[٥].

وعن أبى واقد الليثى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قُطع من البهيمة وهى حية، فهو ميتة».

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى وصححه[٦].

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال بعض السلف[٧]: قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر إباحة.

وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْه لبعض الشافعية. واختلف فى المراد بالقانع والمعتر، فقال العوفى، عن ابن عباس: القانع: المستغنى بما أعطيته، وهو فى بيته. والمعترّ: الذى يتعرض لك، ويُلمّ بك أن تعطيَه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرَظِىّ.

---

(١) فى ت: «البدن».

(٢) رواه الدارقطنى فى السنن (٤/٢٨٣) من طريق سعيد بن سلام العطار عن عبد الله بن بديل عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً وسعيد بن سلام العطار كذبه أحمد وابن نمير، وضعف البيهقى هذا الحديث فى السنن الكبرى (٩/٢٧٨).

(٣) ومن طريقه رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٩/٢٧٨).

(٤) فى ت: «الذبحة».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٥٥).

(٦) المسند (٥/٢١٨) وسنن أبى داود برقم (٢٨٥٨) وسنن الترمذى برقم (١٤٨٠).

(٧) فى أ: «الناس».

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: القانع: المتعفف. والمعتر: السائل. وهذا قولُ قتادة، وإبراهيم النَّخَعى، ومجاهد فى رواية عنه.

وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم وعِكْرِمَة[١]، والحسن البصرى، وابن الكلبى، ومُقَاتِل بن حَيَّان، ومالك بن أنس: القانع: هو الذى يَقْنع إليك ويسألك. والمعتر: الذى يعتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن.

وقال سعيد بن جبير: القانع: هو السائل، ثم قال: أما سمعت قول الشَّمَّاخ.

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحُه فَيُغْنى مَفَاقِرَه[٢]، أَعَفُّ مِنَ القُنُوعِ[٣]

قال: يعنى من السؤال، وبه قال ابن زيد.

وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذى يطوف. والمعتر: الصديق والضعيف[٤] الذى يزور. وهو رواية عن عبد الله[٥] بن زيد أيضاً.

وعن مجاهد أيضا: القانع: جارك الغنى [الذى يبصر ما يدخل بيتك][٦]. والمعتر: الذى يعتريك[٧] من الناس.

وعنه: أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذى يَعْتَر بالبُدْن من غنى أو فقير.

وعن عكرمة نحوه، وعنه القانع: أهل مكة.

واختار ابنُ جرير أنّ القانع: هو السائل؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعترار، وهو: الذى يتعرض لأكل اللحم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزَّأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله [منها][٨]، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. وفى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إنى كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم»[٩]. وفى رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا». وفى رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا»[١٠].

والقول الثانى: أن المضحى يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله فى الآية المتقدمة: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، ولقوله فى الحديث: «فكلوا وادخروا وتصدقوا».

فإن أكل الكل فقيل[١١]: لا يضمن شيئا. وبه قال ابن سُرَيج من الشافعية.

---

(١) فى ف، أ: «وعكرمة وزيد بن أسلم». (٢) فى ت: «مفارقه».
(٣) البيت فى ديوانه (ص٢٢١) أ.هـ مستفاداً من حاشية الشعب.
(٤) فى ت: «والضيف». (٥) فى أ: «عن أبيه عبد الرحمن». (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى أ: «يعتزل». (٨) زيادة من ت، ف، أ.
(٩) صحيح مسلم برقم (٩٧٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضى الله عنه.
(١٠) رواه مالك فى الموطأ (٢/ ٤٨٤) من حديث جابر رضى الله عنه.
(١١) فى ت، ف، أ: «فقد قيل».

وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها. وهو المشهور من مذهب الشافعى.

وأما الجلود، ففى مسند أحمد عن قتادة بن النعمان فى حديث الأضاحى: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها»[١].

ومن العلماء من رخص [فى ذلك][٢]، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم.

[مسألة][٣]:

عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ[٤] به فى يومنا هذا أن نصلى، ثم نرجع فننحر. فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم [عجله][٥] لأهله، ليس هو من النسك فى شىء» أخرجاه[٦].

فلهذا قال الشافعى وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحى إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء فى صحيح مسلم: «وألا تذبحوا حتى يذبح الإمام»[٧].

وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم[٨]، فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد[٩] عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلى الإمام، والله أعلم.

ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر[١٠] الأضاحى عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعى؛ لحديث جبير بن مطعم: أن رسول الله ﷺ قال: «وأيام التشريق كلها ذبح». رواه أحمد وابن حبان[١١].

وقيل: إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذى الحجة، وبه قال إبراهيم النَّخَعِىّ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن. وهو قول غريب.

وقوله: ﴿**كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾: يقول تعالى: من أجل هذا ﴿**سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ**﴾ أى: ذللناها لكم، أى: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ**

---

(١) المسند (٤/ ١٥).

(٢، ٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ت: «يبدأ». (٥) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى، وفى هـ: «يبديه».

(٦) صحيح البخارى برقم (٥٥٤٥) وصحيح مسلم برقم (١٩٦١).

(٧) لم يقع لى فى مسلم هذا اللفظ وينظر صحيح مسلم (٣/ ١٥٥١).

(٨) فى ف: «وغيرها». (٩) فى أ: «عيد تشرع». (١٠) فى ف: «لتيسير».

(١١) المسند (٤/ ٨٢).

فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾ .

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق[١] لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغنى عما سواه .

وقد كانوا فى جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابتنهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾ .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن أبى حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله : ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أى: يتقبل ذلك ويجزى عليه .

كما جاء فى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم[٢]، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٣] وما جاء فى الحديث: «إن الصدقة لتقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم الحديث. رواه[٤] ابن ماجه، والترمذى وحَسّنه عن عائشة مرفوعا. فمعناه: أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص فى عمله، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم .

وقال وَكيع، عن [يحيى][٥] بن مسلم أبى الضحاك: سألت عامرًا الشعبى عن جلود الأضاحى، فقال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾، إن شئت فبع، وإن شئت فأمسك، وإن شئت فتصدق .

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أى: من أجل ذلك سخر[٦] لكم البُدن، ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أى: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه، ، وما يرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه .

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: وبشر يا محمد المحسنين، أى: فى عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ماشرَعَ لهم، المصدقين الرسولَ فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

[مسألة][٧]:

وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثورى إلى القول[٨] بوجوب الأضحية على من ملك نصابا، وزاد

---

(١) فى ت، ف: «الرزاق» . (٢) فى ت، ف: «ألوانكم» .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) .
(٤) فى ت: «ورواه». (٥) زيادة من ت. (٦) فى ت، ف: «سخرناها» .
(٧) زيادة من ف . (٨) فى ت: «بالقول» .

أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضًا. واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات، عن أبي هريرة مرفوعا: «من وجد سَعَة فلم يُضَحِّ، فلا يقربن مُصَلانا»[١] على أن فيه غرابة، واستنكره أحمد بن حنبل[٢].

وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحي. رواه الترمذي[٣].

وقال الشافعي، وأحمد: لاتجب الأضحية، بل هي مستحبة؛ لما جاء في الحديث: «ليس في المال حق سوى الزكاة»[٤]. وقد تقدم أنه، عليه السلام[٥]، ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم.

وقال أبو سَرِيحةَ: كنت جارًا لأبي بكر وعمر، فكانا لايضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما.

وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة، سقطت عن الباقين؛ لأن المقصود إظهار الشعار.

وقد روى الإمام أحمد، وأهل السنن ـ وحسنه الترمذي ـ عن مِخْنَف بن سليم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «على كل أهل بيت في كل عام أضحاة وعَتِيرة، هل تدرون ما العتيرة؟ هي[٦] التي تدعونها الرَّجبية». وقد تكلم في إسناده[٧].

وقال أبو أيوب: كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، يأكلون ويطعمون [حتى تباهى][٨] الناس فصار كما ترى.

رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه[٩].

وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله. رواه البخاري.

وأما مقدار سِنّ الأضحية، فقد روى مسلم عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مُسِنَّة، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن»[١٠].

---

(١) المسند (٢/ ٣٢١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٣).

(٢) في إسناده عبد الله بن عياش، قال البوصيري في الزوائد (٣/ ٥٠): «وإن روى له مسلم فإنما روى له في المتابعات والشواهد فقد ضعفه أبو داود والنسائي، وقال أبو حاتم ،وابن يونس: منكر الحديث وذكره ابن حبان في الثقات».
ثم نقل عن البيهقي أنه بلغه عن الترمذي: أن الصحيح عن أبي هريرة موقوف ا. هـ.
ويمكن أن يجاب بأن هذا الحديث لا يدل على الوجوب، كما في حديث: «من أكل الثوم فلا يقربن مصلانا» ذكر ذلك ابن الجوزي وهناك لايلزم استنكاره.

(٣) سنن الترمذي برقم (١٥٠٧) وحسنه.

(٤) رواه ابن ماجه في السنن برقم (١٧٨٩) من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

(٥) في أ: «ﷺ».

(٦) في ف، أ: «قال: هي».

(٧) المسند (٤/ ١٢٥) وسنن أبي داود برقم (٢٧٨٨) وسنن الترمذي برقم (١٥١٨) وسنن النسائي (٧/ ١٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٥).

(٨) زيادة من ت، ف.

(٩) سنن الترمذي برقم (١٥٠٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٧).

(١٠) صحيح مسلم برقم (١٩٦٣).

ومن هاهنا ذهب الزهرى إلى أن الجذَعَ لايجزئ. وقابله الأوزاعى فذهب إلى أن الجذَعَ يجزئ من كل جنس، وهما غريبان. وقال الجمهور: إنما يجزئ الثَّنى من الإبل والبقر والمعز، والجذع من الضأن، فأما الثنى من الإبل: فهو الذى له خمس سنين، ودخل فى السادسة. ومن البقر: ما له [سنتان][1] ودخل فى [الثالثة][2]، وقيل: [ما له][3] ثلاث [ودخل فى][4] الرابعة. ومن المعز: ما له سنتان. وأما الجذع من الضأن فقيل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل فى سنِّه، وما دونه فهو حَمَل، والفرق بينهما: أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذَع شعر ظهره نائم، قد انعدل صدْعين، والله أعلم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾.

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** ﴾ أى: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة فى العهود والمواثيق، لا يفى بما قال. والكفر[5]: الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾.

قال العَوفى، عن ابن عباس: نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة.

وقال غير واحد من السلف[6]: هذه أول آية نزلت فى الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وقاله مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنى يحيى بن داود الواسطى: حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم ـ هو البَطِين ـ عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: لما أخرج[7] النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكُن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾، قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال.

(١ ـ ٤) زيادة من ف.
(٥) فى ت: «والكفور».
(٦) فى ف، أ: «وقال مجاهد والضحاك وقتادة».
(٧) فى ت، ف: «خرج».

ورواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق، به[(١)] وزاد: قال ابن عباس: وهى أول آية نزلت فى القتال.

ورواه الترمذى، والنسائى فى التفسير من سننيهما، وابن أبى حاتم[(٢)] من حديث إسحاق بن يوسف ـ زاد الترمذى: ووكيع، كلاهما عن سفيان الثورى، به. وقال الترمذى: حديث حسن، وقد رواه غير واحد، عن الثورى، وليس فيه ابن عباس[(٣)].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أى: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلوا[(٤)] جهدهم فى طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ[(٥)] وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ [اللَّهُ][(٦)] الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

والآيات فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فعَل.

وإنما شرع [الله][(٧)] تعالى الجهادَ فى الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمرَ المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقين[(٨)] لشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادى ـ يعنون أهل مِنَى ـ ليالى مِنى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنى لم أومر بهذا». فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبى ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذَرَ مَذَر، فذهب[(٩)] منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومَعْقلا يلجؤون إليه ـ شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٣) والمسند (١/ ٢١٦).
(٢) فى ت: «ماجه».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٧١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٥).
(٤) فى ت، أ: «يبذلوا».
(٥) فى ت: «بأيديهم».
(٦) زيادة من ت، ف، أ.
(٧) زيادة من ف.
(٨) فى ت: «المنافقين».
(٩) فى ف: «فذهبت».

لَقَديرٌ .الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

قال العَوْفى، عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعنى: محمداً وأصحابه.

﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أى: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله[1] وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]. ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون فى بناء الخندق، ويقولون:

لاَهُمّ[2] لَولاَ أنتَ ما اهتَدَينا ... وَلاَ تَصَـــدَّقْنَا وَلاَ صَـلَّينَا
فَأنْزلَـــنْ سَــكِينَةً عَلَيْنَـا ... وَثَبِّت الأقْـــدَامَ إنْ لاَقَينَا
إنّ الألَـــى قد بَغَوا عَلَينَا ... إذَا أرَادوا فتْنَــةً أبَيْنَـــا[3]

فيوافقهم رسول الله ﷺ، ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنة أبينا»، يقول: «أبينا»، يمد بها صوته.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أى: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشفُ شَرّ أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوى الضعيف.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾: وهى المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعِكْرِمة، والضحاك، وغيرهم.

وقال قتادة: هى معابد الصابئين. وفى رواية عنه: صوامع المجوس.

وقال مقاتل بن حَيَّان: هى البيوت التى على الطرق.

﴿وَبِيَعٌ﴾: وهى أوسع منها، وأكثر عابدين فيها. وهى للنصارى أيضاً. قاله أبو العالية، وقتادة، والضحاك، وابن[4] صخر، ومقاتل بن حيان، وخُصَيف، وغيرهم.

وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكى السدى، عمن حَدّثه، عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هى الكنائس، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾: قال العوفى، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقتادة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صَلُوتا.

وحكى السدى، عمن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى.

---

(١) فى ف، أ: «وحد الله». (٢) فى أ: «والله».
(٣) الأبيات لعامر بن الأكوع كما فى صحيح مسلم برقم (١٨٠٣).
(٤) فى أ: «أبو».

وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهى للمسلمين.

وقوله: ﴿ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾: فقد قيل: الضمير فى قوله: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات.

وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا.

وقال ابن جرير: الصوابُ: لهدمت صوامع الرهبان وبِيعُ النصارى وصلوات اليهود، وهى كنائسهم، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب.

وقال بعض العلماء: هذا تَرَقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهى إلى المساجد، وهى أكثر عُمَّارا وأكثر عبادا، وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾، كقوله[1] تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٧، ٨].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وَصَفَ نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شىء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شىء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوىّ العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ .وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات ١٧١ ـ ١٧٣] وقال [الله][2] تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الربيع الزَّهْرَانى، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: «ربنا الله»، ثم مُكنّا فى الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهى لى ولأصحابى.

---

(١) فى ت: «لقوله».

(٢) زيادة من ت.

وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ.

وقال الصباح بن سوادة الكِنْدِيّ: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: إلا أنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذَلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها.

وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ [كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ][(1)]﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾، كقوله تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾: وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾.

يقول تعالى مسليا نبيَّه محمدا ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال[(2)]: ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، أي: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟!

ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة.

وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٢][(3)].

---

(١) زيادة من أ. (٢) في ف، أ: «وعاد وثمود. وقوم إبراهيم وقوم لوط. وأصحاب مدين».

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣).

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن [١]مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾][٢] أى: مكذبة لرسولها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها، أى: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها.

﴿ وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ ﴾ أى: لا يستقى منها، ولا يَرِدُها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: قال عكرمة: يعنى المُبَيّض بالجص.

وروى عن على بن أبى طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبى المَلِيح، والضحاك، نحو ذلك.

وقال آخرون: هو المُنيف المرتفع.

وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين.

وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْمِ أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أى: بأبدانهم وبفكرهم أيضا، وذلك كاف، كما قال ابن أبى الدنيا فى كتاب «التفكر والاعتبار»:

حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سَيَّار، حدثنا[٣] جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى، عليه السلام، أن يا موسى، اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سِحْ فى الأرض، واطلب الآثار والعبر، حتى تتخرق النعلان[٤] وتكسر العصا.

وقال ابن أبى الدنيا: قال بعض الحكماء: أحْيِ قلبك بالمواعظ، ونَوِّره بالفكْر، ومَوِّته بالزهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّلْهُ بالموت[٥]، وقرِّره بالفناء[٦]، وبَصِّره فجائع[٧] الدنيا، وحَذِّره صولة[٨] الدهر وفحشُ تَقَلُّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب[٩] من كان قبله، وسِرْ فى ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حَلُّوا، وعَمَّ انقلبوا.

أى: فانظروا[١٠] ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال، ﴿ فَتَكُونَ[١١] لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أى: فيعتبرون بها، ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أى: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدرى ما الخبر. وما أحسن ما قاله بعض الشعراء فى هذا المعنى ـ وهو أبو محمد عبد الله ابن محمد بن سارة[١٢] الأندلسى الشَّنْتَرينى، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

(١) فى ت، ف: «وكأين». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت، ف: «ابن».
(٤) فى ت، ف: «تخرق النعال». (٥) فى ت، ف: «بالقرب». (٦) فى ت، ف: «وتدبره بالثناء».
(٧) فى ت، ف، أ: «بمجامع». (٨) فى ف: «بصولة». (٩) فى ت، أ: «وذكره بأم كتاب».
(١٠) فى ت، ف: «فينظروا». (١١) فى ت: «فيكون». (١٢) فى ت، ف، أ: «ابن حبان».

يا مَن يُصيخَ إلى دَاعى الشقَاء، وقَد ... نَادَى به الناعيَان: الشيبُ والكبَرُ
إن كُنتَ لا تَسْمَع الذكْرَى، ففيم تُرَى ... فى رَأسك الوَاعيان: السمعُ والبَصَرُ؟
ليسَ الأصَمّ ولا الأعمَى سوَى رَجُل ... لم يَهْده الهَاديان: العَينُ والأثرُ
لاَ الدّهرُ يَبْقَى ولاَ الدنيا، ولاَ الفَلَكُ الـ ... ـأعلى ولا النَّيِّران: الشَّمْسُ وَالقمَرُ
لَيَرْحَلَنّ عَن الدنيا، وإن كَرِها[١] ... فرَاقها، الثاويان: البَدْو والحَضَرُ

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه[٢]. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أى: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون[٣] بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال [الله][٤] تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى: الذى قد وَعَد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

قال الأصمعى: كنت عند أبى عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد، فقال له: أمن[٥] العجم أنت؟ إن العرب تَعدُ الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما، أو مَا سمعتَ قول الشاعر[٦]:

لا يُرْهِبُ ابنَ العم منى[٧] سَطْوَتى ... ولا أخْتَتِى[٨] من سَطْوة المُتَهَدّد
فإنّى وَإن أوْعَدْتُه أوْ وَعَدْتُه ... لَمُخْلفُ إيعَادى ومُنْجزُ مَوْعدى

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ أى: هو تعالى لا يَعجَل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شىء، وإن أجَّلَ وأنظَر وأملى؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفَة، حدثنى عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن

(١) فى ت، ف، أ: «كرهن». (٢) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٣) فى ت، ف: «الملحدين المكذبين».
(٤) زيادة من ف. (٥) فى ت، ف، أ: «من». (٦) هو عامر بن الطفيل والبيت فى اللسان مادة (ختأ)، (وعد).
(٧) فى ت، ف، أ: «والجار». (٨) فى ت، ف، أ: «ينثنى».

أبى سلمة، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام».

ورواه الترمذى والنسائى، من حديث الثورى، عن محمد بن عمرو، به[(١)]. وقال الترمذى: حسن صحيح. وقد رواه ابن جرير، عن أبى هريرة موقوفا[(٢)]، فقال:

حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّةَ، حدثنا سعيد الجُرَيرى، عن أبى نَضْرَةَ، عن سُمَيْر بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم. قلت: وما نصف يوم؟ قال: أوَ ما تقرأ القرآن؟. قلت: بلى. قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[(٣)].

وقال أبو داود فى آخر كتاب الملاحم من سننه: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، عن شُرَيح بن[(٤)] عُبَيد، عن سعد بن أبى وَقاص، عن النبى ﷺ أنه قال: «إنى لأرجو ألا تَعْجِزَ أمتى عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة[(٥)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنَان[(٦)]، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدىّ، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض.

رواه ابن جرير، عن ابن بَشّار[(٧)]، عن ابن مهدى[(٨)]. وبه قال مجاهد، وعكرمة، ونص عليه أحمد بن حنبل فى كتاب «الردّ على الجهمية».

وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عارم ـ محمد بن الفضل ـ حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن عَتِيق، عن محمد بن سيرين، عن رجل من أهل الكتاب أسلمَ قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة فى اليوم السابع، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، فقد مضت الستة الأيام، وأنتم فى اليوم السابع. فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها، فى أية لحظة ولدت كان تماما.

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٣٥٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٨) أى أن النصف يوم خمسمائة عام.
(٢) فى ت: «مرفوعاً».
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٩).
(٤) فى ت: «عن».
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٣٥٠).
(٦) فى ف، أ: «شيبان».
(٧) فى ت: «يسار».
(٨) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٩).

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وُقُوعَ العذاب، واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: إنما أرسلنى الله إليكم نذيراً لكم بين يدى عذاب شديد، وليس إلى من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، [و][1] ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] و﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أى: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حَسَنَةٌ على القليل من حسناتهم.

[و][2] قال محمد بن كعب القُرَظِيّ: إذا سمعتَ الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾: قال مجاهد: يُثَبِّطون الناس عن متابعة النبى ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين.

وقال ابن عباس: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: مراغمين.

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: وهى النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾.

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغَرَانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظَنًا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم.

---

(١) زيادة من ف.

(٢) زيادة من ت.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبي بِشْر، عن سعيد بن جُبَيْر، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ قال: فألقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرَانيق العلى. وإن شفاعتهن[(١)] ترتجى». قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجدَ وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ [فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ][(٢)]﴾.

رواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، به نحوه[(٣)]، وهو مرسل، وقد رواه البزار فى مسنده، عن يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ فيما أحسب، الشك فى الحديث ـ أن النبى ﷺ قرأ بمكة سورة «النجم»، حتى انتهى إلى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾، وذكر بقيته. ثم قال البزار: لا[(٤)] يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور. وإنما يُروى هذا من طريق الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس[(٥)].

ثم رواه ابن أبى حاتم، عن أبى العالية، وعن السدى، مرسلا. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد ابن كعب القرظى، ومحمد بن قيس، مرسلا أيضا[(٦)].

وقال قتادة: كان النبى ﷺ [يصلى][(٧)] عند المقام إذ نَعَس، فألقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعتها لترتجى. وإنها لمع الغرانيق العلى»، فحفظها المشركون. وأجرى الشيطان أن نبى الله قد قرأها، فزلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ [وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ][(٨)]﴾ الآية، فَدَحَر الله الشيطان.

ثم قال ابن أبى حاتم: حدثنا موسى بن أبى موسى الكوفى، حدثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبى، حدثنا محمد بن فُلَيْح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم، فكان[(٩)] يتمنى هُداهم، فلما أنزل الله سورة

---

(١) فى ت، ف: «شفاعتهم». (٢) زيادة من ف، أ وفى ت: «الآية».
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٣).
(٤) فى ف، أ: «لانعلمه».
(٥) مسند البزار برقم (٢٢٦٣) «كشف الأستار».
(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣١).
(٧) زيادة من أ. (٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى ف: «وكان».

«النجم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: «وإنهن لهن الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى[(١)]». وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة، وزلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمدا، قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه. فلما بلغ رسول الله ﷺ [آخر النجم][(٢)]، سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك. غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلا كبيرا، فرفع على [(٣)] كفه ترابا، فسجد عليه. فعجب الفريقان كلاهما [(٤)] من جماعتهم فى السجود، لسجود رسول الله ﷺ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ـ ولم يكن المسلمون سمعوا الآية التى [(٥)] ألقى الشيطان فى مسامع المشركين ـ فأطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطانُ فى أمنية رسول الله ﷺ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها فى السورة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم. ففشت تلك الكلمة فى الناس، وأظهرها الشيطان، حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وحُدِّثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة فأقبلوا سراعا وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، وحفظه[(٦)] من الفرية، وقال [تعالى][(٧)]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، فلما بين الله قضاءه، وبرأه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالهم [(٨)] وعداوتهم المسلمين، واشتدوا عليهم. وهذا أيضاً مرسل.

وفى تفسير ابن جرير عن الزهرى، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نحوه[(٩)]. وقد رواه الإمام [(١٠)] أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة» فلم يَجُزْ به موسى بن عقبة، ساقه فى مغازيه بنحوه، قال: وقد روينا عن ابن إسحاق هذه القصة.

قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق فى السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات، فالله أعلم. وقد ساقها البغوى فى تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرَظِىّ، وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالا: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك فى نفس الأمر، بل إنما

---

(١) فى أ: «ترجى».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى ت، أ: «ملء».
(٤) فى ت: «الفريقان منهما كلاهما».
(٥) فى أ: «الذى».
(٦) فى ت، أ: «وحفظه الله».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف: «بضلالتهم».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٣).
(١٠) فى أ: «الحافظ».

كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم(١).

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته. وقد تعرض القاضى عياض، رحمه الله، فى كتاب «الشفاء» لهذا، وأجاب بما حاصله(٢).

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٥/ ٣٩٤).

(٢) كذا فى جميع النسخ وكلام القاضى عياض فى الشفاء (٢/ ١٠٧) أذكره مختصراً له، قال رحمه الله:

«فاعلم، أكرمك الله أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: فى توهين أصله. والثانى: على تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل.. وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وصدق القاضى بكر بن العلاء المالكى حيث قال: لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه فى الصلاة، وآخر يقول: قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه وإن النبى ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ماهكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبى ﷺ قرأها فلما بلغ النبى ﷺ ذلك قال: «والله ما هكذا أنزلت».

إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة وأهية.

والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبى بشرٍ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: فيما أحسب ـ الشك فى الحديث أن النبى ﷺ كان بمكة وذكر القصة.

قال أبو بكر البزار: هذا لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس.

فقد بين لك أبو بكر، رحمه الله، أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه.

أما حديث الكلبى فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البزار، رحمه الله.

والذى منه فى الصحيح: أن النبى ﷺ قرأ «والنجم» وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس هذا توهينه من طريق النقل.

أما من جهة المعنى، فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبى ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل، عليه السلام، وذلك كله ممتنع فى حقه ﷺ.

أو يقول ذلك النبى ﷺ من قبل نفسه عمدا وذلك كفر، أو سهواً وهو معصوم من هذا كله.

ووجه ثان: هو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً. وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبى ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه، واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه!!

ووجه ثالث: أنه قد علم من عادة المنافقين، ومعاندى المشركين، وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين، نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبى ﷺ لاقل فتنة، وتعييرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة...

ولم يحك أحد فى هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة.

ووجه رابع: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت ﴿**وإن كادوا ليفتنونك..**﴾ الآيتين.

وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم.

فمضمون هذا ومفهومه: أن الله تعالى عصمه من أن يفترى، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً فكيف كثيرا وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال ﷺ: افتريت على الله وقلت ما لم يقل وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح، فكيف ولا صحة له، وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿**ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت**=

وقوله: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه﴾، هذا فيه تسلية له، صلوات الله وسلامه عليه(١)، أى: لا يَهيدنّك ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

قال البخارى: قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّته﴾ إذا حَدّث ألقى الشيطان فى حديثه، فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ [أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه﴾، يقول: إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه.

وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّى](٢)﴾، يعنى: إذا قال.

ويقال: ﴿أُمْنِيَّته﴾: قراءته، ﴿إِلا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، يقولون ولا يكتبون.

قال البغوى: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّىٰ﴾ أى: تلا وقرأ كتاب الله، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه﴾ أى: فى تلاوته، قال الشاعر فى عثمان حين قتل:

تَمَنّى كتَابَ الله أوّل لَيْلة ... وآخرَها لاقَى حمَامَ المَقَادرِ(٣)

وقال الضحاك: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾: إذا تلا.

قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَان﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى فيبطل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما ألقى الشيطان.

وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيم(٤)﴾، [أى: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية](٥)، ﴿حَكِيمٌ ﴾ أى: فى تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان.

= طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء﴾.

وأما المأخذ الثانى: فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح. وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين.

ثم ذكر الأجوبة على ذلك (٢/ ١١١ـ١١٤) وممن أنكرها الإمام ابن خزيمة وقال: «هذا من وضع الزنادقة» وهذا هو الصواب.

للاستزادة: انظر: الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ـ ٣١٤ لمحمد أبى شهبة، ونصب المجانيق لأبطال قصة الغرانيق لمحد ناصر الدين الألبانى.

(١) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٢) زيادة من ف، أ.

(٣) البيت فى اللسان، مادة (منى) غير منسوب.

(٤) فى ف،أ: «عليم حكيم». (٥) زيادة من ت.

قال ابن جريج: ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾هم: المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون.

وقال مقاتل بن حيان: هم [الكافرون] (١) اليهود.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أى: من الحق والصواب.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذى يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذى أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفى الآخرة يهديهم [إلى] (٢) الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون فى مرية، أى: فى شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: ﴿مِّنْهُ﴾ أى: مما ألقى الشيطان.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: قال مجاهد: فجأة. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾، بغت [القوم] (٣) أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله(٤) إلا القوم الفاسقون.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: قال مجاهد: قال أبى بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال عكرمة، ومجاهد [فى رواية عنهما](٥):هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصرى .

وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من حملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «اليوم» والمثبت من ف، أ.
(٤) فى أ: «فلا يغتر به». (٥) زيادة من ت، ف، أ.

قال : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، كقوله﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٤]، وقوله : ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾أى: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم[١].

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، أى: لهم النعيم المقيم، الذى لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به[٢] وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: مقابلة استكبارهم وإعراضهم [٣] عن الحق، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾.

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلبا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين واالخلاَّن، وفارق بلاده فى الله ورسوله، ونصرة لدين الله﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أى: فى الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ أى: حتف أنفهم[٤] ،أى: من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أى : ليُجريَن عليهم [٥] من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ أى: الجنة. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أى:بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله، وبمن يستحق ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فأما من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حى عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث فى هذا كثيرة، كما تقدم[٦] وأما من تُوفى

(١) فى أ: «وأفعالهم». (٢) فى أ: «وجحدته». (٣) فى أ: «وإبائهم».
(٤) فى أ: «أنفسهم». (٥) فى أ: «ليجزيهم عليه». (٦) فى أ: «مرَّ».

فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيَّب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن ابن شُرَيْح، عن ابن [(١)] الحارث ـ يعنى: عبد الكريم ـ عن ابن عقبة ـ يعنى: أبا عبيدة بن عقبة ـ قال: حدثنا[(٢)] شُرَحْبِيل بن السِّمْط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بى سلمان ـ يعنى: الفارسى ـ رضى الله عنه، فقال: إنى سمعت رسول الله يقول: «من مات مرابطاً، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن [(٣)] من الفتَّانين» واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

وقال أيضا: حدثنا أبو زرعة، حدثنا زيد بن بشر، أخبرنى همام، أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافرى يقولان: كنا برودس، ومعنا فَضَالة بن عبيد الأنصارى ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ فمر بجنازتين، إحداهما قتيل والأخرى متوفى، فمال الناس على القتيل، فقال فضالة: ما لى [(٤)] أرى الناس مالوا مع هذا، وتركوا هذا؟! فقالوا: هذا قتيل فى سبيل الله تعالى. فقال: والله ما أبالى من أى حُفرتيهما بُعثت، اسمعوا كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا [لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ][(٥)]﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا عبدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا ابن لَهيعة، حدثنا سلامان بن عامر الشعبانى، أن عبد الرحمن بن جَحْدَم الخولانى حدثه: أنه حضر فضالة بن عبيد فى البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفى، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالى من أى حفرتيهما بعثتُ، إن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا [لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً][(٦)] يَرْضَوْنَهُ﴾، فما تبتغى [(٧)] أيها العبد إذا أدخلت مدخلا ترضاه ورزقت رزقاً حسناً، والله ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت.

ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، أخبرنى عبد الرحمن بن شُرَيْح، عن سلامان بن عامر قال: كان فضالة برودس أميراً على الأرباع، فخرج بجنازتى رجلين، أحدهما قتيل [(٨)] والآخر متوفى. . . فذكر نحو ما تقدم[(٩)].

---

(١) فى أ: «أبى». (٢) فى أ: «قال».
(٣) فى أ: «وأومن». (٤) فى أ: «ما». (٥) زيادة من ف، أ وفى هـ، ت: «حتى آخر الآية».
(٦) زيادة من ف، وفى ت: «إلى قوله». (٧) فى أ: «ينبغى». (٨) فى أ: «قتل».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٦).

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ذكر [(١)] مقاتل بن حيان وابن جريج أنها نزلت فى سرية من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين فى شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم فى الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم، [و] [(٢)] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)﴾.

يقول تعالى منبها على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ [وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ] [(٣)]﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] ومعنى إيلاجه الليل فى النهار، والنهار فى الليل: إدخاله من هذا فى هذا، ومن هذا فى هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما فى الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما فى الصيف.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية فى أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف فى الوجود، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الإله الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شىء فقير إليه، ذليل لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ [(٤)] الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، فكل شىء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذى لا أعظم منه، العلى الذى لا أعلى منه، الكبير الذى لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون [المعتدون] [(٥)] علوا كبيرا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ

---

(١) فى أ: «قال».
(٢) زيادة من أ.
(٣) زيادة من ف، أ: وفى ت: «الآية».
(٤) فى ت، ف: «وهو الكبير».
(٥) زيادة من أ.

اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾.

وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل[1] الرياح، فتثير سحابا، فيمطر على الأرض الجُرُز التى [2] لا نبات فيها، وهى هامدة يابسة سوداء قحلة، ﴿ **فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿**فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾، «الفاء» هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شىء بحسبه، كما قال: ﴿**خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا**﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت فى الصحيحين: «أن بين كل شيئين أربعين يوماً» ومع هذا هو معقب [3] بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿**فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً**﴾ أى: خضراء بعد يبسها ومُحُولها[4].

وقد ذكر عن بعض أهل [5] الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾ أى: عليم بما فى أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾[لقمان: ١٦] وقال: ﴿ **أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النمل: ٢٥]، وقال تعالى: : ﴿ **وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ**﴾ الآية [يونس: ٦١]؛ ولهذا قال أمية بن [أبى] [6] الصلت ـ أو: زيد بن عمرو بن نُفيل ـ فى قصيدته:

وَقُولا لَه: مَن يُنْبِتُ الحبَّ فى الثَّرَى ... فَيُصبِحَ منْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابيًا؟
ويُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّه فـى رُؤُوسِـه ... فَفى ذَاكَ آيات لِمَنْ كَانَ وَاعيا[7]

وقوله: ﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ أى: ملكه جميع الأشياء، وهو غنى عما سواه، وكل شىء فقير إليه، عبد لديه.

وقوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ**﴾ أى: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار. كما قال: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣] أى: من إحسانه وفضله وامتنانه، ﴿**وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**﴾أى: بتسخيره وتسييره، أى: فى البحر العَجَاج، وتلاطم الأمواج، تجرى الفلك بأهلها[8] بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع

---

(١) فى أ: «وأنه مرسل». (٢) فى أ: «الذى». (٣) فى أ: «تعقيب».
(٤) فى أ: «وقحوطا». (٥) فى هـ ت: « أرض» والمثبت من ف،أ. (٦) زيادة من ف،أ.
(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).
(٨) فى أ: «بأمرها».

ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾أى: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: مع ظلمهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون [مع] (١) الله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أى: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾أى: جحود.

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم (٢) منسكا.

قال ابن جرير: يعنى: لكل أمة نبى منسكا. قال: وأصل المنسك فى كلام العرب: هو الموضع الذى يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها (٣).

فإن كان كما قال من أن المراد: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ أى: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: «لكل أمة جعلنا منسكا جعلا قدريا ـ كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أى: فاعلوه ـ فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أى: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود.

وهذه كقوله: ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧].

---

(١) زيادة من ت، ف. (٢) فى ت: «أمة».

(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٨).

وقوله: ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ ولهذا قال: ﴿ اللَّهُ[1] يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) ﴾.

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما فى السموات وما فى الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك فى كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت فى صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[2].

وفى السنن، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»[3].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا ابن بُكَيْر، حدثنى ابن لَهيعة، حدثنى عطاء بن دينار، حدثنى سعيد بن جُبَيْر قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ مَسيرَة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق ـ وهو على العرش تبارك وتعالى ـ : اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال: علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة. فجرى القلم بما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة. فذلك قوله تعالى للنبى ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذى يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصى باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شىء علما، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

(١) فى ت: «والله» وهو خطأ.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) بلفظ «كتب الله مقادير الخلائق».

(٣) جاء من حديث عبادة بن الصامت: أخرجه أبو داود فى السنن برقم (٤٧٠٠) والترمذى فى السنن برقم (٣٣١٩) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

وجاء من حديث ابن عباس: رواه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص٣٧٨).

﴿ ويَعْبُدُونَ من دُون اللَّه ما لَمْ يُنزِّلْ به سُلْطَانًا وَمَا لَيْس لَهُم به عِلْمٌ وَمَا للظَّالمِينَ من نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، يعنى: حجة وبرهانا، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] . ولهذا قال هاهنا: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أى: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولاحجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أى: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق، ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء! ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لهؤلاء: ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا(١) ﴾ أى: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم.

وقوله : ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: وبئس النار منزلا ومقيلا ومرجعا وموئلا ومقاما، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾.

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أى: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أى: أنصتوا وتفهموا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أى: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا

(١) فى ت، ف، أ: «كفروا وبئس المصير».

على خلق ذباب واحد ماقدروا على ذلك. كما قال الإمام أحمد.

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شَرِيك، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعة، عن أبى هريرة ـ رفع الحديث ـ قال: «ومن أظلم ممن خلق [خلقا] [١] كخلقى؟ فليخلقوا مثل خلقى ذَرّة، أو ذبابة، أو حَبّة»[٢].

وأخرجه صاحبا الصحيح، من طريق عُمَارة، عن أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: قال الله عز وجل: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى؟ فليخلقوا ذرة، فيلخلقوا شعيرة»[٣].

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أى: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذى عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا[قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾][٤].

قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق.

وقال السدى وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى: ماعرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه[٥] التى لاتقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى: هو القوى الذى بقدرته وقوته خلق كل شىء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ .إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أى: قد عز[٦] كل شىء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقَدَره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى: يعلم ما يفعل برسله فيما

(١) زيادة من ت، ف، والمسند.
(٢) المسند (٢/ ٣٩١).
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢١١١).
(٤) زيادة، ت، ف. (٥) فى أ: «هذا الذى». (٦) فى ف: «قدر».

أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شىء، كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ [فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا . لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ] (١) وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾.

اختلف الأئمة، رحمهم الله، فى هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هى مشروع السجودُ فيها أم لا؟ على قولين. وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ: «فُضلت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما».

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أى: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أى: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشىء فَشَقَ عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة ـ التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين ـ تجب فى الحَضَر أربعاً وفى السفر تُقْصَر إلى ثِنْتَين، وفى الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتُصَلى رجالا وركبانا، مستقبلى القبلة وغير مستقبليها. وكذا فى النافلة فى السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، فى سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال، عليه السلام(٢): «بُعِثْتُ بالحَنِيفيَّة السَّمحة»(٣)، وقال لمعاذ وأبى موسى، حين بعثهما أميرَين إلى اليمن: «بَشِّرا ولا

(١) زيادة من ف، أ. وفى ت: «إلى قوله».

(٢) فى ت: «عليه الصلاة والسلام»، وفى ف، أ: «ﷺ».

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٦٦) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

تنفرا، ويَسِّرا ولا تُعسِّرَا»(١). والأحاديث فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعنى: من ضيق.

وقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾: قال ابن جرير: نصب على تقدير: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: من ضيق، بل وَسَّعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم. [قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم(٢)].

قلت: وهذا المعنى فى هذه الآية كقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآية [الأنعام: ١٦١].

وقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾: قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فى قوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ يعنى: إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[البقرة: ١٢٨].

قال ابن جرير: وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسمّ هذه الأمة فى القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة وفى الذكر، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ يعنى: القرآن. وكذا قال غيره.

قلت: وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نَوّه به من ذكرها والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان، فى كتب الأنبياء، يتلى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَٰذَا﴾، وقد قال النسائى عند تفسير هذه الآية:

أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شُعَيب، أنبأنا معاوية بن سلاّم(٣)، أن أخاه زيد بن سَلاّم أخبره، عن أبى سلاّم أنه أخبره قال: أخبرنى الحارث الأشعرى، عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثىّ جهنم». قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نعم، وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله»(٤).

وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ من سورة البقرة [الآية: ٢١]؛ ولهذا قال: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٠٣٨) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٣٢).
(٢) زيادة من ت، ف. (٣) فى ت: «سالم».
(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٩).

﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عُدولا[(١)] خيارا، مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها[(٢)] على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، فى أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أى: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغنى، من إخراج جزء نزر من ماله فى السَّنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله فى آية الزكاة من سورة «التوبة»[(٣)].

وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أى: اعتضدوا بالله[(٤)]، واستعينوا به، وتوكلوا[(٥)] عليه، وتأيَّدوا به، ﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾ أى: حافظكم وناصركم ومُظفركُم على أعدائكم، ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعنى: [نعم][(٦)] الولى ونعم الناصر من الأعداء.

قال وُهَيْب بن الورد: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرنى إذا غضبتَ أذكرك إذا غضبتُ، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظُلمتَ فاصبر، وارض بنصرتى، فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبى حاتم.

والله تعالى أعلم وله الحمد والمنة، والثناء الحسن والنعمة، وأسأله التوفيق والعصمة، فى سائر الأفعال والأقوال.

هذا آخر تفسير سورة «الحج»، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وشرف وكرم، ورضى الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين[(٧)]

---

(١) فى أ: «عدلاً». (٢) فى أ: «بسيادتهم وفضلهم».
(٣) انظر تفسير الآية: ٦٠ من سورة التوبة.
(٤) فى أ: «به». (٥) فى أ: «اتكلوا». (٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

سورة الحجّ

مكّيّة غير ستّ آيات وهي ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج، ١٩/٢٢]
إلى ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج، ٢٤/٢٢]، وهي ثمان وسبعون آيةً.[١]

/ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [١٠٤و]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ خطاب يعمّ حكمُه المكلّفين عند النزول ومَن سينتظم في سِلْكهم بعدُ مِن الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة، وإن كان خطاب المشافهة مختصًّا بالفريق الأوّل على الوجه الذي مرّ تقريره في مطلع سورة النساء.

ولفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ ينتظِم الذكورَ والإناثَ حقيقةً، وأمّا صيغة جمع المذكّر فواردة على نهج التغليب؛ لعدم تناولها للإناث حقيقةً إلّا عند الحنابلة.[٢]

والمأمور به مطلَق التقوى الذي هو التجنّب عن كلّ ما يؤثّم مِن فعلٍ وتركٍ، ويندرج فيه الإيمان بالله واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجًا أوّليًّا.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة المنبئة عن المالكيّة والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترهيبًا وترغيبًا. أي: احذروا عقوبةَ مالِكِ أموركم ومربّيكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ تعليل لموجَب الأمر بذكر بعض عقوباته الهائلة، فإنّ ملاحظة عِظَمها وهَولها وفظاعةِ ما هي مِن مباديه

---

[١] م - سورة الحجّ مكّيّة غير ستّ آيات وهي ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الحج، ١٩/٢٢] إلى ﴿صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج، ٢٤/٢٢]، وهي ثمان وسبعون آيةً.

[٢] انظر: الإحكام للآمدي، ٢٦٥/٢.

ومقدّماته مِن الأحوال والأهوال التي لا ملجأَ منها سوى التدرّع بلباس التقوى ممّا يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالةَ.

و"الزلزلة" التحريك الشديد والإزعاج العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء مِن مَقارّها، ويخرجها عن مراكزها. وإضافتها إلى ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ إمّا إضافةُ المصدر إلى فاعله على المجاز الحكمي، كأنّها هي التي تزلزل الأشياء، أو إضافتُه إلى الظرف، إمّا بإجرائه / مُجرى المفعول به [١٠٤ظ] اتّساعًا، أو بتقدير "في"، كما في قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ، ٣٣/٣٤]، وهي الزلزلة المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا﴾ [الزلزلة، ١/٩٩].

عن الحسن: «أنّها تكون[١] يوم القيامة».[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾: قيامها».[٣] وعن علقمة والشعبيّ: «أنّها قبل طلوع الشمس مِن مَغربها»،[٤] فإضافتها إلى ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ حينئذ لكونها مِن أشراطها.

وفي التعبير عنها بـ"الشيء" إيذان بأنّ العقول قاصرة عن إدراك كُنهها، والعبارة ضيّقة لا تحيط بها إلّا على وجه الإبهام.

﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾ منتصِب بما بعده، قُدّم عليه اهتمامًا به. والضمير لـ"الزلزلة"،[٥] أي: وقتَ رؤيتكم إيّاها، ومشاهدتِكم لهَول مَطلعها ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾ أي: مباشِرةٍ للإرضاع ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ أي: تغفل وتذهب مع دهشةٍ عمّا هي بصدَد إرضاعه مِن طفلها الذي أَلْقَمَتْه ثديَها. والتعبير عنه بـ﴿مَا﴾ دون "مَن" لتأكيد الذهول، وكونِه بحيث لا يخطُر ببالها أنّه ماذا، لا أنّها تعرف شيئيّته،

---

١ س: يكون.

٢ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٥٧/٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٤١/٣.

٣ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٥٧/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٤/١٤.

٤ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٥٧/٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٤١/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٤/١٤.

٥ في الآية السابقة.

لكن لا تدري مَن هو بخصوصه. وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: تَذهل عن إرضاعها. والأوّل أدلّ على شدّة الهَول وكمال الانزعاج.

وقرئ: "تُذْهَلُ" مِن "الإذهال" مبنيًا للمفعول[1] ومبنيًا للفاعل[2] مع نصب ﴿كُلّ﴾، أي: تُذهِلها الزلزلة.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تُلقي جنينها لغير تمام، كما أنّ المرضعة تَذهل عن ولدها لغير فِطام. وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبي، وأمّا على ما رُوي عن ابنِ عبّاس رضي الله تعالى[3] عنهما فقد قيل: إنّه تمثيل لتهويل الأمر، وفيه أنّ الأمر حينئذ أشدّ مِن ذلك، وأعظَم وأهوَل ممّا وُصف / وأطَمّ. [١٠٥و]

وقيل: إنّ ذلك تكون عند النفخة الثانية، فإنّهم يقومون على ما صَعِقوا في النفخة الأولى، فتقوم المرضعة على إرضاعها، والحامل على حَملها. ولا ريب في أنّ قيام الناس عن قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلَها حتّى يُتصوَّر ما ذُكر.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ بفتح التاء والراء على خطاب كلِّ أحد مِن المخاطَبين برؤية الزلزلة. والاختلاف بالجمعيّة والإفراد لِما أنّ المرئيّ في الأوّل هي الزلزلة التي يشاهدها الجميع، وفي الثاني حَالُ مَن عدا المخاطَبَ منهم، فلا بدّ مِن إفراد المخاطَب على وجه يعمّ كلَّ واحد منهم، لكن مِن غير اعتبار اتّصافه بتلك الحالة، فإنّ المراد بيان تأثير الزلزلة في المرئيّ -لا في الرائي- باختلال مشاعره؛ لأنّ مداره حيثيّة رؤيته للزلزلة، لا لغيرها، كأنّه قيل: ويصير الناس سُكارى... إلخ، وإنّما أوثرَ عليه ما في التنزيل للإيذان بكمال ظهور تلك الحالة فيهم، وبلوغِها مِن الجلاء إلى حدّ لا يكاد يخفى على أحد، أي: يراهم كلّ أحد ﴿سُكَـٰرَىٰ﴾ أي: كأنّهم سُكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ حقيقةً ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فيُرهِقهم هولُه، ويُطيِّر عقولَهم، ويسلُب تمييزَهم، فهو الذي جعلهم كما وُصِفوا.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٤.

[3] س - تعالى.

وقُرِئ: "تُرَى" بضمّ التاء وفتح الراء مسندًا إلى المخاطَب، مِن "أُريتُك قائمًا"، أو "رُؤِيتُك[١] قائمًا"، و﴿ٱلنَّاسَ﴾ منصوب،[٢] أي: تظنّهم سكارى. وقُرِئ برفع ﴿ٱلنَّاسَ﴾[٣] على إسناد الفعل المجهول إليه، والتأنيث[٤] على تأويل الجماعة. وقُرِئ: "تُرِي" بضمّ التاء وكسر الراء،[٥] أي: تُرِي الزلزلةُ الخلقَ جميعَ الناس سُكارى. / وقُرِئ: "سَكْرَى"، و"بِسَكْرَى"،[٦] كـ"عَطْشَى" و"جَوْعَى" إجراءً للسُّكْر مُجرى العِلل. [١٠٥ظ]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ كلام مبتدَأ جيء به إثرَ بيان عِظَم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانًا لحال بعض المنكرين لها. ومحلّ الجارّ الرفع على الابتداء، إمّا بحَمله على المعنى، أو بتقدير ما يتعلّق به كما مرّ مرارًا، أي: وبعضُ الناس، أو وبعضٌ كائنٌ مِن الناس ﴿مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: في شأنه تعالى، ويقول فيه ما لا خيرَ فيه مِن الأباطيل.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال مِن ضمير ﴿يُجَـٰدِلُ﴾، موضحةٌ لِمَا يُشعر بها المجادلة مِن الجهل، أي: ملابسًا بغير علم. رُوي أنّها نزلت في النضر بن الحارث وكان جَدِلًا يقول: «الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأوّلين، ولا بعثَ بعد الموت».[٧] وهي عامّة له ولأضرابه مِن العُتاة المتمرِّدين.

﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أي: فيما يتعاطاه مِن المجادَلة، أو في كلّ ما يأتي وما يَذَر مِن الأمور الباطلة التي مِن جملتها ذلك. ﴿كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ عاتٍ متمرِّد متجرّد

---

[١] وفي هامش م: قال الأزهري: «رُؤِيتُ، مقلوب، والأصلُ أُريتُ، فأخِرت الهمزة فقيل: رُؤِيتُ، وهو بمعنى الظنّ». «منه». | تهذيب اللغة للأزهري، «رأى».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هريرة ويزيد بن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن حميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٤.

[٤] أي: في ﴿وَتَرَى﴾.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٨٢/٧.

[٦] قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

[٧] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٤٣/٣.

للفساد. وأصله العُرْيُ المُنبئ عن التمحّض له، كالتشمّر، ولعلّه مأخوذ مِن تَجرُّد المصارعين عند المصارعة. قال الزجّاج: «المَرِيد والمارِد: المرتفع الأملَس».[١] والمراد إمّا رؤساء الكفرة الذين يدعون مَن دونهم إلى الكفر، وإمّا إبليس وجنوده.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الشيطان، صفة أخرى له. وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ﴾ فاعل ﴿كُتِبَ﴾، والضمير للشأن، أي: رُقِم به لظهور ذلك مِن حاله أنّ الشأن ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتّخذه وليًا وتبعه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ بالفتح على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، والجملة جواب الشرط إن جُعلت ﴿مَن﴾ شرطيّةً، وخبرٌ لها إن جُعلت موصولةً متضمّنةً لمعنى الشرط، أي: مَن تولّاه فشأنه أنّه يضلّه مِن طريق الجنّة،[٢] أو طريق الحقّ، أو فحقٌّ أنّه يُضلّه قطعًا.

وقيل: ﴿فَأَنَّهُ﴾ معطوف على ﴿أَنَّهُ﴾،[٣] / وفيه مِن التعسّف ما لا يخفى. وقيل وقيل ممّا لا يخلو عن التمحّل والتأويل. [١٠٦و]

وقُرئ: "فَإِنَّهُ" بالكسر[٤] على أنّه خبر لـ﴿مَن﴾، أو جواب لها. وقُرئ بالكسر فيهما[٥] على حكاية المكتوب كما هو، مثل ما في قولك: "كتبت: إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان"، أو على إضمار القول، أو تضمين الكَتْب معناه على رأي مَن يراه.[٦]

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بحمله على مباشرة ما يؤدّي إليه مِن السيّئات.

---

[١] مفاتيح الغيب للرازي، ٢٠٢/٢٣؛ اللباب لابن عادل، ١٣/١٤.

[٢] وفي هامش م: وهذا الأنسب لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾. «منه».

[٣] قاله الزمخشري في الكشّاف، ١٤٣/٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسين وهارون عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

[٦] وفي هامش م: كان البصريّين لا يجوّزون الكسر إلّا بعد القول الصريح. «منه».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إثرَ ما حُكِي أحوال المجادلين بغير علم وأشيرَ إلى ما يئول إليه أمرهم أقيمت الحجّة الدالّة على تحقّق ما جادلوا فيه مِن البعث ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ مِن إمكانه، وكونِه مقدورًا له تعالى، أو مِن وقوعه. وقُرِئ: "مِنَ البَعَثِ" بالتحريك،[١] كـ"الجَلَب" في "الجَلْب". والتعبير عن اعتقادهم في حقّه بـ"الرَّيب" مع التنكير المنبئ عن القِلّة مع أنّهم جازمون باستحالته، وإيرادُ كلمة الشكّ مع تقرّر حالهم في ذلك، وإيثارُ ما عليه النظم الكريم على أن يقال: "إن ارتَبتم في البَعث"؛ قد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة، ٢/٢٣].

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم﴾ أي: فانظروا إلى مَبدأ خلقكم ليَزول رَيبكم، فإنّا خلقناكم، أي: خلقنا كلّ فرد منكم ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ في ضمن خلق آدم منه خَلقًا إجماليًّا، فإنّ خلق كلّ فرد مِن أفراد البشر له حظّ مِن خَلقه عليه السلام، إذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه؛ بل كانت أنموذَجًا مُنطويًا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجماليًّا مستتبِعًا لجريانِ آثارها على الكلّ، فكان خَلقه عليه السلام مِن التراب خَلقًا للكلّ منه، كما مرَّ تحقيقه مرارًا.

[١٠٦ظ] ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمّ / خلقناكم خلقًا تفصيليًّا مِن نطفة، أي: منيّ، مِن "النَّطْف" الذي هو الصَّبّ، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: قطعةٍ مِن الدم جامدةٍ متكوّنةٍ مِن المنيّ.

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي: قطعةٍ مِن اللحم متكوّنة مِن العلَقة، وهي في الأصل مقدارُ ما يُمضَغ، ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ بالجرّ، صفةُ ﴿مُّضْغَةٍ﴾،[٢] أي: مستبينةِ الخَلق مصوّرةٍ،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.

[٢] س: لمضغة.

﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ أي: لـم يستبِنْ خَلقها وصورتُها بعدُ. والمراد تفصيل حال المضغة وكونِها أوّلًا قطعةً لـم يظهر فيها شيء مِن الأعضاء، ثـمّ ظهرت بعد ذلك شيئًا فشيئًا. وكان مقتضى الترتيب السابق المبنيّ على التدرّج مِن المبادي البعيدة إلى القريبة أن يُقدَّمَ "غيرُ المُخلّقة" على "المُخلّقة"، وإنّما أُخِّرت عنها لأنّها عدمُ المَلَكة.[١] هذا وقد فُسِّرتا بالمسوّاة وغير المسوّاة، وبالتامّة والساقطة، وليس بذاك.[٢]

وفي جعل كلّ واحدة مِن هذه المراتب مبدأً لِخَلْقِهم لا لِخَلقِ ما بعدها مِن المراتب كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾ الآيةَ [المؤمنون، ١٤/٢٣] مزيدُ دلالة على عظيم قدرته تعالى، وكسرٌ لِسَوْرَةِ[٣] استبعادِهم.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ متعلّق بـ﴿خَلَقۡنَا﴾. وترك المفعول لتفخيمه كمًّا وكيفًا، أي: خلقناكم على هذا النمط البديع لنبيّن لكم بذلك ما لا تحصره العبارة مِن الحقائق والدقائق التي مِن جملتها سرّ البعث، فإنّ مَن تأمّل فيما ذُكر مِن الخَلق التدريجي تأمّلًا حقيقيًّا جزَم جزْمًا ضروريًّا بأنّ مَن قدَر على خلق البشر أوّلًا مِن ترابٍ لم يشمّ رائحة الحياة قَطّ، وإنشائِه على وجه مصحِّحٍ لتوليد مثله مرّة بعد أخرى بتصريفه في أطوار الخِلقة، وتحويلِه مِن حال إلى حالٍ مع ما بين تلك الأطوار والأحوال مِن المخالفة والتباين؛ فهو قادر على إعادته؛ بل هو أهون في القياس نظرًا إلى الفاعل والقابل.

/ وقُرئ: "لِيُبَيِّنَ"[٤] بطريق الالتفات. [١٠٧و]

وقوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خَلقهم. وعدم نظم هذا وما عُطف عليه في سِلك الخَلق المعلَّل بالتبيين مع كونهما مِن متمّماته ومِن مبادي التبيين أيضًا لِمَا أنّ دلالة الأوّل على كمال قدرته تعالى على جميعِ المقدورات التي مِن جملتها البعث المبحوث عنه أجلى وأظهر، أي: ونحنُ نُقرّ في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقرّه فيها.

---

١ وفي هامش م: والأعدام مسبوقة بمَلَكاتها. «منه».

٢ وفي هامش م: فإنّ التعرّض للسِّقط وناقص الخلق بصدَد تفصيل دلائل البعث وشواهده ممّا لا وجه له قطعًا. «منه».

٣ سَورة الخَمر وغيرها: حِدّتها، وسَورة السلطان: سَطوته وغضبه. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «سور».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٥.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت الوضع، وأدناه ستّة أشهر، وأقصاه سنتان، وقيل: أربع سنين. وفيه إشارة إلى أنّ بعض ما في الأرحام لا يشاء الله تعالى إقرارَه فيها بعد تكامُلِ خلقه فتُسقطه. والتعرّض للإزلاق لا يُناسب المقام؛ لأنّ الكلام فيما جرى عليه أطوار الخلقِ، وهذا صريح في أنّ المراد بـ"غير المخلّقة" ليس مَن وُلد ناقصًا أو مَعيبًا،[١] وأنّ ما فصِّل إلى هنا هي الأطوار المتواردة على المولود قبل الولادة.

وقُرئ: "يُقِرُّ" بالياء،[٢] و"نَقُرُّ"[٣] و"يَقُرُّ" بضمّ القاف،[٤] مِن "قَرَرت الماء" إذا صبَبتَه.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ أي: مِن بطون أمّهاتكم بعد إقراركم فيها عند تمام الأجل المسمّى ﴿طِفْلًا﴾ أي: حال كونكم أطفالًا. والإفراد باعتبار كلّ واحد منهم، أو بإرادة الجنس المنتظِم للواحد والمتعدِّد. وقُرئ: "يُخْرِجُكُمْ" بالياء.[٥] وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ علّة لـ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾، معطوفة على علّة أُخرى له مناسبةٍ لها، كأنّه قيل: ثمّ نخرجكم لتَكبُروا شيئًا فشيئًا، ثمّ لتَبلغوا كمالَكم في القوّة والعقل والتمييز. وقيل: التقدير: ثمّ نمهلكم لتبلغوا... إلخ. وما قيل: إنّه معطوف على ﴿نُبَيِّنَ﴾[٦] مخلّ بجزالة النظم الكريم.

[١٠٧ظ] هذا، وقد / قُرئ ما قبله مِن الفعلين بالنصب[٧] حكايةً وغيبةً. فهو حينئذ عطف على ﴿نُبَيِّنَ﴾ مثلَهما. والمعنى: خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين

---

١ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٤٤؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٦٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٥.

٣ كذا ضبطها أبو حيّان بفتح النون وضمّ القاف والراء. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٤٨٥.

٤ لم أجد مَن ذكَر ضمّ القاف مع الياء. والذي ذكره القرّاء والمفسّرون: "وَيَقِرُّ" بفتح الياء والراء وكسر القاف. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي زيد النحوي. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٤٨٥.

٥ بالياء مع الرفع قراءة شاذّة مرويّة عن عمر بن شبّة. وبالياء مع النصب قراءة شاذّة كذلك مرويّة عن أبي حاتم. انظر: **الكامل** للهذلي، ص ٦٠٣؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٤٨٥.

٦ قاله البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٤/٦٥.

٧ أي: "وَنُقِرَّ" و"نُخْرِجَكُم". قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضّل عن عاصم ويعقوب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٥.

مترتّبتين عليه؛ إحداهما أن نبيّن شئونَنا، والثانية أنِ نُقرّكم في الأرحام، ثمّ نخرجَكم صغارًا، ثمّ لتَبلغوا أشدَّكم.

وتقديم التبيين على ما بعده مع أنّ حصوله بالفعل بعد الكلّ للإيذان بأنّه غاية الغايات ومقصود بالذات. وإعادة "اللام" ههنا مع تجريد الأوّلين عنها للإشعار بأصالته في الغرضيّة بالنسبة إليهما، إذ عليه يدور التكليف المؤدّي إلى السعادة والشقاوة.

وإيثارُ البلوغ مُسنَدًا إلى المخاطبين على التبليغ مُسنَدًا إليه تعالى كالأفعال السابقة لأنّه المناسب لبيان حال اتّصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئيّة الآثارِ والأفعال.

و"الأشدّ" مِن ألفاظ الجموع التي لم يُستعمل لها واحد، كـ"الأسِدّة"[١] و"القَتُودِ"،[٢] وكأنّها حيث كانت شدّة في غير شيء بُنِيت على لفظ الجمع.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ أي: بعد بلوغ الأشدّ أو قبلَه. وقُرئ: "يَتَوَفَّى"[٣] مبنيًا للفاعل، أي: يَتوفّاه الله تعالى.[٤]

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو الهرَم والخرَف. وقُرئ بسكون الميم.[٥] وإيراد الردّ والتوَفّي على صيغة المبنيّ للمفعول للجري على سَنن الكبرياء لتعيّن الفاعل.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ أي: علمٍ كثير ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، أو شيئًا مِن العلم مبالغةً في انتقاص علمه وانتكاس حاله، أي: ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفوليّة مِن ضَعف البنية وسخافة العقل وقلّة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر ما عرَفه، ويعجَز عمّا قدر عليه. وفيه مِن التنبيه على صحّة البعث ما لا يخفى.

---

١ وفي هامش م: أسِدّة: عُيوب. | **الصحاح** للجوهري، «سدد».

٢ وفي هامش م: قتود: خشب الرَّحْل. | **الصحاح** للجوهري، «قتد».

٣ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذَكر قارئها. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٨٦/٧.

٤ وقال أبو حيّان: «أي: يَستوفي أجلَه». انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٨٦/٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن نافع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٥.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ حجّة أخرى على صحّة البعث. والخطاب لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤية. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرار. وهي بصَريّة. و﴿هَامِدَةً﴾ حال مِن ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، أي: ميّتةً يابسة، مِن "هَمَدَت النارُ" إذا صارت رمادًا.

[١٠٨و] ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي: المطر / ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحرّكت بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت وازدادت، وقُرئ: "رَبَأَتْ"،[١] أي: ارتفعت. ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صِنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حَسَن رائق يَسرّ ناظره.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كلام مستأنَف، جيء به إثرَ تحقيق حقّيّة البعث وإقامة البرهان عليه مِن العالَمين الإنسانيّ والنباتيّ؛ لبيان أنّ ذلك مِن آثار ألوهيّته تعالى، وأحكام شئونه الذاتيّة والوصفيّة والفعليّة، وأنّ ما ينكرون وجودَه -بل إمكانَه- مِن إتيان الساعة والبعث مِن أسباب[٢] تلك الآثار العجيبة التي يشاهدونها في الأنفُس والآفاق، ومبادي صدورها عنه تعالى.

وفيه مِن الإيذان بقوّة الدليل وأصالة المدلول في التحقّق وإظهار بطلان إنكاره ما لا يخفى، فإنّ إنكار تحقّق السبب مع الجزم بتحقّق المسبَّب ممّا يقضي ببطلانه بديهةُ العقول. والمراد بـ﴿ٱلْحَقُّ﴾ هو الثابت الذي يحقّ ثبوته لا محالةَ لكونه لذاته، لا الثابتُ مطلقًا.

و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن خَلق الإنسان على أطوارٍ مختلفة، وتصريفِه في أحوال متباينة، وإحياءِ الأرض بعد موتها، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلته في الكمال، وهو مبتدأٌ خبرُه الجارّ والمجرور، أي: ذلك الصنع البديع حاصل بسبب أنّه تعالى هو الحقّ وحدَه في ذاته وصفاته وأفعاله المحقِّقُ لِما سواه مِن الأشياء.

---

[١] قرأ بها أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٣٢٥/٢.

[٢] وفي هامش م: خبر "أنّ".

﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: شأنه وعادته إحياؤها. وحاصله أنّه تعالى قادر على إحيائها بَدءًا وإعادةً، وإلّا لَما أحيَى النطفة والأرض الميّتة مِرارًا بعد مِرارٍ. وما يفيده صيغة المضارع مِن التجدّد إنّما هو باعتبار تعلّق القدرة ومتعلّقها، لا باعتبار نفسها.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: مبالِغ في القدرة، وإلّا لَما أَوجد هذه الموجودات الفائتةَ للحَصر / التي مِن جملتها ما ذُكر. وأمّا الاستدلال على ذلك بأنّ قدرته تعالى لذاته الذي نسبته إلى الكلّ سواء فلمّا دلّت المشاهدة على قدرته على إحياء بعض الأموات لزِم اقتدارُه على إحياء كلّها[١] فمنشؤه الغُفول عمّا سيق له النظم الكريم مِن بيان كون الآثار الخاصّة المذكورة مِن فروع القدرة العامّة التامّة ومسبَّباتها. وتخصيص إحياء الموتى بالذكر مع كونه مِن جملة الأشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع، والدفعِ في نُحور المنكرين. وتقديمُه لإبراز الاعتناء به. [١٠٨ظ]

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ﴾ أي: فيما سيأتي. وإيثار صيغة الفاعل على الفعل للدلالة على تحقّق إتيانها وتقرّرِه البتّة؛ لاقتضاء الحكمة إيّاه لا محالةَ. وتعليله بأنّ التغيّر مِن مقدّمات الانصرام وطلائعِه[٢] مبنيّ على ما ذكر مِن الغفول.

وقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهَا﴾ إمّا خبر ثانٍ لـ﴿أَنَّ﴾، أو حال مِن ضمير ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في الخبر. ومعنى نفي الريب عنها أنّها في ظهور أمرها وضوح دلائلها التكوينيّة والتنزيليّة بحيث ليس فيها مظِنّة أن يُرتابَ في إتيانها حسبما مرّ في مطلع سورة البقرة. والجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها مِن الجملتين، داخلةٌ مثلَهما في حيّز السببيّة، وكذا قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ لكن لا مِن حيث إنّ إتيان الساعة وبعثَ الموتى مؤثّران فيما ذُكر مِن أفاعيله تعالى تأثيرَ القدرة فيها؛ بل مِن حيث إنّ كلًّا منهما سبب داعٍ له عزّ وعلا

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٦٥.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٦٦.

بموجَب رأفته بالعباد المبنيّة على الحِكم البالغة إلى ما ذُكر مِن خَلقهم ومِن إحياء الأرض الميتة على نمط بديعٍ صالح للاستشهاد به على مكانهما؛ ليتأمّلوا في ذلك، ويستدلُّوا به على وقوعهما لا محالةَ، / ويصدّقوا بما ينطق بهما مِن الوحي المبين، وينالوا به السعادة الأبديّة، ولولا ذلك لَما فعل تعالى ما فعل؛ بل لَما خلق العالم رأسًا. وهذا كما ترى مِن أحكام حقّيّته تعالى في أفعاله، وابتنائِها على الحِكم الباهرة، كما أنّ ما قبله مِن أحكام حقّيّته تعالى في صفاته وكونِها في غاية الكمال. [١٠٩و]

وقد جُعل إتيان الساعة وبعثُ مَن في القبور لكونهما مِن روادِف الحكمة كنايةً عن كونه تعالى حكيمًا، كأنّه قيل ذلك بسبب أنّه تعالى قادر على إحياء الموتى وعلى كلّ مقدور، وأنّه حكيم لا يُخلف ميعاده، وقد وعد الساعة والبعث، فلا بدّ أن يَفي بما وَعد، وأنت خبير بأنّ مَآله الاستدلال بحكمته تعالى على إتيان الساعة والبعث، وليس الكلام في ذلك؛ بل إنّما هو في سببيّتهما لِما مرّ مِن خَلق الإنسان وإحياء الأرض، فتأمّل وكن على الحقّ المبين.

وقيل: قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ ليس معطوفًا على المجرور بـ"الباء"، ولا داخلًا في حيّز السببيّة؛ بل هو خبر، والمبتدأ محذوف لفهم المعنى، والتقدير: والأمرُ أنّ الساعة آتيةٌ. و﴿أَنَّ﴾ الثانية معطوفة على الأولى. وقيل: المعنى: ذلك لتعلموا بأنّ الله هو الحقّ... الآيتين.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ هو أبو جهل بن هشام حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما.[٢] وقيل: هو مَن يتصدّى لإضلال الناس وإغوائهم كائنًا مَن كان، كما أنّ الأوّل مَن يقلّدهم على أنّ "الشيطان" عبارة عن المضلّ المُغوي على الإطلاق.

---

[١] س - تعالى.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ١٤٦/٣؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١٠٧/٤.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن ضمير ﴿يُجَٰدِلُ﴾، أي: كائنًا بغير علم، والمراد بـ"العِلم" العِلمُ الضروري، كما أنّ المراد بـ"الهدى" / في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُدًى﴾ هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادي إلى المعرفة. ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ وحيٍ مُظهرٍ للحقّ، أي: يجادل في شأنه تعالى مِن غير تمسّك بمقدّمة ضروريّة، ولا بحجّة نظريّة، ولا ببرهان سمعي، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الحج، ٢٢/٧١]. [١٠٩ظ]

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد به المجادل الأوّل، والتكريرُ للتأكيد والتمهيدِ لِما بعده مِن بيان أنّه لا سندَ له مِن استدلالٍ أو وحي[١] فلا يساعده النظم الكريم، كيف لا وإنّ وصفه باتّباع كلِّ شيطان موصوفٍ بما ذُكر يغني عن وصفه بالعَراء عن الدليل العقلي والسمعي.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ حال أخرى مِن فاعل ﴿يُجَٰدِلُ﴾،[٢] أي: عاطفًا لجانبه وطاويًا كَشْحَه[٣] معرِضًا متكبّرًا، فإنّ ثَنْيَ العِطفِ كنايةٌ عن التكبّر. وقُرئ بفتح العين،[٤] أي: مانعًا لتَعطّفه.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿يُجَٰدِلُ﴾،[٥] فإنّ غرضه الإضلال عنه، وإن لم يعترف بأنّه إضلال. والمراد به إمّا الإخراج مِن الهدى إلى الضلال، فالمفعول مَن يجادله مِن المؤمنين أو الناسُ جميعًا بتغليب المؤمنين على غيرهم، وإمّا التثبيت على الضلال أو الزيادةُ عليه مجازًا، فالمفعول هم الكفرةُ خاصّةً.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٦/٤.
٢ في الآية السابقة.
٣ الكَشْحُ: ما بين الخاصرة إلى الضِلَعِ الخَلْفِ. و"طوى فلان عَنّي كَشْحَهُ" إذا قَطَعَك. و"طويتُ كَشْحي على الأمر" إذا أضمَرْتَه وسَتَرْتَه. الصحاح للجوهري، «كشح».
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٥.
٥ في الآية السابقة.

وقُرئ بفتح الياء.[١] وجعلُ ضلاله غايةً لجدالِه مِن حيث إنّ المراد به الضلال المبين الذي لا هدايةَ له بعده مع تمكّنه منها قبل ذلك.

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان نتيجة ما سلكه مِن الطريقة، أي: يَثبت له في الدنيا بسبب ما فعله خزيٌ، وهو ما أصابه يوم بدر مِن القتل والصَّغار. / ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: النارِ المحرِقة. [١١٠و]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن العذابِ الدنيوي والأخروي. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بكونه في الغاية القاصية مِن الهول والفظاعة. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ أي: بسبب ما اقترفتَه مِن الكفر والمعاصي. وإسناده إلى "يديه" لِما أنّ الاكتساب عادةً يكون بالأيدي. والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد.

ومحلّ ﴿أَنَّ﴾ في قوله عزّ وعلا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أي: والأمر أنّه تعالى ليس بمعذِّب لعبيده بغير ذنب مِن قِبَلهم. والتعبير عن ذلك بنفي الظلم مع أنّ تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعًا على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة فضلًا عن كونه ظلمًا بالغًا قد مرّ تحقيقه في سورة آل عمران.[٢] والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبلها. وأمّا ما قيل مِن أنّ محلّ ﴿أَنَّ﴾ هو الجرّ بالعطف على ﴿مَا قَدَّمَتۡ﴾[٣] فقد عرفتَ حاله في سورة الأنفال.[٤]

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ شروع في بيان حال المذَبذَبين إثرَ بيان حال المجاهرين، أي: ومنهم مَن يعبده تعالى على طرَف مِن الدين لا ثباتَ له فيه، كالذي ينحرف إلى طرَف الجيش، فإن أحسّ بظفَر قَرّ، وإلّا فَرّ.

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٩.
٢ آل عمران، ٣/١٨٢.
٣ انظر: اللباب لابن عادل، ١٤/٢٨.
٤ الأنفال، ٨/٥١.

﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ أي: دنيوي مِن الصحّة والسَّعة ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي: ثبَت على ما كان عليه ظاهرًا، لا أنّه اطمأنّ به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم عنه صارف ولا يثنيهم عاطف. ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ أي: شيءٌ / يُفتَنُ به مِن مكروهٍ [١١٠ظ] يَعتريه في نفسه أو أهله أو ماله ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾.

رُوي أنّها نزلت في أعاريبَ قدموا المدينةَ، وكان أحدهم إذا صحّ بدنه، ونُتِجت فرسه مُهرًا سَرِيًّا، وولدت امرأته ولدًا سويًّا، وكثُر مالُه وماشيته، قال: «ما أصبتُ منذ دخلت في ديني هذا إلّا خيرًا»، واطمأنّ، وإن كان الأمر بخلافه قال: «ما أصبتُ إلّا شرًّا وانقلب».[١] وعن أبي سعيد رضي الله عنه: أنّ يهوديًّا أسلمَ، فأصابته مصائب، فتشاءَم بالإسلام، فأتى النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أقِلْني»، قال عليه السلام: «إنّ الإسلام لا يُقال»، فنزلت.[٢] وقيل: نزلت في "المؤلّفة قلوبُهم".[٣]

﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فَقَدَهما وضيَّعهما بذهاب عصمته وحُبوط عمله بالارتداد. وقُرئ: "خَاسِرَ" بالنصب[٤] على الحال، وبالرفع[٥] على الفاعليّة ووضعِ الظاهر موضعَ الضمير تنصيصًا على خُسرانه، أو على أنّه خبر مبتدأ محذوف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن الخُسران. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بكونه في غاية ما يكون. ﴿هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الواضح كونه خُسرانًا، إذ لا خُسران مثله.

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استئناف مبيّن لعِظم الخُسران، أي: يعبد متجاوزًا عبادةَ الله تعالى ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ إذا لم يعبده ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ إن عَبَده، أي: جمادًا ليس مِن شأنه الضرّ والنفع، كما يلوّح به تكرير كلمة ﴿مَا﴾. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٤٦؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٦٦.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٤٦؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٦٦. وقال السيوطي: «أخرجه ابن مَردويه». **الدرّ المنثور** للسيوطي، ٦/١٤.

٣ عن الضحّاك في **اللباب** لابن عادل، ١٤/٣٠. وانظر: **جامع البيان** للطبري، ١٦/٤٧٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس ومجاهد وابن محيصن وزيد عن يعقوب. انظر: **المحتسب** لابن جنّي، ٢/٧٥؛ **والنشر** لابن الجزري، ٢/٣٢٦.

٥ ط س: والرفع. | قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٤٨٩.

﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ عن الحقّ والهدى، مستعار مِن ضلال مَن أبعدَ في التّيه ضالًا عن الطريق.

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ استئناف مَسوق لبيان مآل دعائه المذكور، وتقريرِ كونه ضلالًا بعيدًا، مع إزاحة ما عسى يُتوهّم مِن نفي الضرر عن معبوده / بطريق المباشرة نفيُه عنه بطريق التسبيب أيضًا، فـ"الدعاء" بمعنى [١١١و] القول، و"اللام" داخلة على الجملة الواقعة مَقولًا له، و﴿مَن﴾ مبتدأ، و﴿ضَرُّهُۥٓ﴾ مبتدأ ثان، خبره ﴿أَقۡرَبُ﴾، والجملة صلة للمبتدأ الأوّل. وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ جواب لقسم مقدّر هو وجوابه خبر للمبتدأ الأوّل. وإيثار ﴿مَن﴾ على "ما" مع كون معبوده جمادًا وإيرادُ صيغة التفضيل مع خلوّه عن النفع بالمرّة للمبالغة في تقبيح حاله، والإمعانِ في ذمّه.

أي: يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصراخ حين يرى تضرّره بمعبوده ودخولَه النار بسببه، ولا يرى منه أثر النفع أصلًا: لَمَن ضرُّه أقربُ مِن نفعه واللهِ لبئس الناصر هو، ولبئس الصاحب هو، فكيف بما هو ضرر محضٌ عارٍ عن النفع بالكلّيّة؟

ويجوز أن يكون ﴿يَدۡعُواْ﴾ الثاني إعادةً للأوّل، لا تأكيدًا له فقط؛ بل وتمهيدًا لِمَا بَعده مِن بيان سُوءِ حال معبوده إثرَ بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾،[١] كأنّه قيل مِن جهته تعالى بعدَ ذكر عبادته لِما لا يضرّه ولا ينفعه: يدعو ذلك، ثمّ قيل: لَمَن ضرّه أقرب مِن نفعه واللهِ لبئس المولى ولبئس العشير، فكلمةُ ﴿مَن﴾ وصيغة التفضيل للتهكّم به.

وقيل: "اللام" زائدة، و﴿مَن﴾ مفعول ﴿يَدۡعُواْ﴾، ويؤيّده القراءة بغير "لام"،[٢] أي: يعبد مَن ضرّه أقرب مِن نفعه، وإيرادُ كلمة ﴿مَن﴾ وصيغة التفضيل تهكّم به أيضًا، والجملة القسميّة مستأنَفة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ أي: "يَدْعُو مَنْ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١١٤٧/٣؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٩١/٧.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ استئناف جيء به لبيان كمال حسنِ حالِ المؤمنين العابدين له تعالى وأنّ الله عزّ وجلّ يتفضّل عليهم بما لا غاية وراءه مِن أجلّ المنافع وأعظم الخيرات إثرَ بيان غاية سوءِ حالِ الكفرة ومآلهم مِن فريقَي المجاهرين والمذَبذَبين، وأنّ معبودهم لا يُجديهم شيئًا مِن النفع؛ بل يضرّهم مضرّة عظيمة، وأنّهم يعترفون بسوء ولايته وعشرته، ويذمّونه مَذمّةً تامّةً.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾، فإن أريدَ بها الأشجار / المتكاثفة الساترة لِما تحتَها فجريانُ الأنهار مِن تحتها ظاهر، وإن أريدَ بها الأرض فلا بدّ مِن تقدير مضاف، أي: مِن تحت أشجارها، وإن جُعلت عبارة عن مجموع الأرض والأشجار فاعتبار التحتيّة بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحِّح لإطلاق اسم الجنّة على الكلّ كما مرّ تفصيله في أوائل سورة البقرة.[١] [١١١ظ]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليل لِما قبله، وتقرير له بطريق التحقيق، أي: يفعل البتّة كلَّ ما يريده مِن الأفعال المتقنة اللائقة المبنيّة على الحِكَم الرائقة التي مِن جملتها إثابة مَن آمَن به وصدّق رسوله صلّى الله عليه وسلّم، وعقابُ مَن أشرك به وكذّب برسوله عليه السلام. ولمّا كان هذا مِن آثار نصرته تعالى له عليه السلام عُقِّب بقوله عزّ وعلا:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ تحقيقًا لها وتقريرًا لِثبوتها على أبلغ وجه وآكَده. وفيه إيجاز بارع واختصار رائع، والمعنى: أنّه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة لا محالةَ مِن غير صارف يلويه، ولا عاطفٍ يثنيه،

---

[١] البقرة، ٢/٢٥.

فمَن كان يُغيظه ذلك مِن أعاديه وحسّاده، ويظنّ أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور، ومباشرة ما يردّه مِن المكائد؛ فلْيبالغ في استفراغ المجهود، ولْيُجاوز في الجِدّ كلَّ حدٍّ معهود، فقُصارى أمره وعاقبةُ مَكره أن يختنق حَنَقًا[١] ممّا يرى مِن ضلال مساعيه، وعدمِ إنتاج مقدّماته ومباديه.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فليمدُد حبلًا إلى سقف بيته ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ليَختنق، مِن "قَطَع" إذا اختنق؛ لأنّه يقطع نفَسه بحبس مجاريه. وقيل: لِيَقطع الحبلَ بعد الاختناق، على أنّ المراد به فرض القطع وتقديره، كما أنّ المراد بالنظر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ تقدير النظر وتصويره، أي: فليصوِّر في نفسه / النظرَ؛ هل يُذهِبنّ كيدُه ذلك الذي هو أقصى ما انتهتْ [١١٢و] إليه قدرتُه في باب المُضادّة والمُضارّة ما يغيظه مِن النصرة؟ كلَّا، ويجوز أن يُراد: فلينظر الآن أنّه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه؟

وقيل: المعنى: فلْيَمدد حبلًا إلى السماء المُظِلّة، ولْيَصعد عليه، ثمّ لْيَقطع الوحي. وقيل: لِيَقطع المسافةَ حتّى يبلغ عَنانها، فيجتهد في دفع نصره.[٢] ويأباه أنّ مساق النظم الكريم بيانُ أنّ الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحقّقها بمَعزِل مِن إذهاب ما يَغيظ، ومِن البيّن أن لا معنى لفَرض وقوع الأمور المُمتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لا سيّما قطع الوحي. فإنّ فَرضَ وقوعه مُخِلّ بالمَرام قطعًا.

وقيل: كان قوم مِن المسلمين لشدّة غيظهم وحَنَقِهم[٣] على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسولَه صلّى الله عليه وسلّم مِن النصر، وآخرون مِن المشركين يريدون اتّباعه عليه السلام، ويخشَون أن لا يَثبت أمره، فنزلت.[٤]

وقد فُسّر "النصر" بالرزق، فالمعنى: إنّ الأرزاق بيد الله تعالى لا تُنال إلّا بمشيئته، فلا بدّ للعبد مِن الرضا بقِسمته، فمَن ظنّ أنّ الله تعالى غيرُ رازقه

---

١ ط س: خنقًا. | والحَنَق: الغيظ. **الصحاح** للجوهري، «حنق».

٢ قاله البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٦٧/٤.

٣ ط س: وخنقهم. | والحَنَق: الغيظ. **الصحاح** للجوهري، «حنق».

٤ **التفسير البسيط** للواحدي، ٣١٠/١٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٤٨/٣.

ولـم يصبر ولـم يستسلم فليبلغ غاية الجزَع وهو الاختناق، فإنّ ذلك لا يقلب القِسمة، ولا يردّه مرزوقًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ۝١٦﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنزال البديع المنطوي على الحِكم البالغة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ الكريم كلَّه. وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحاتِ الدلالة على معانيها الرائقة، حال مِن الضمير المنصوب، مبيّنةٌ لِما أشيرَ إليه بذلك.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ به ابتداءً، أو يُثبِّت على الهدى، أو يزيد فيه ﴿مَن يُرِيدُ﴾ هدايتَه أو تثبيتَه أو زيادتَه فيها. ومحلّ الجملة إمّا الجرّ على حذف الجارّ المتعلّق بمحذوف مؤخَّر، أي: ولأنّ الله يهدي مَن يريد أنزله كذلك، أو الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: / والأمر أنّ الله يهدي مَن يريد هدايته. [١١٢ظ]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بما ذُكر مِن الآيات البيّنات بهداية الله تعالى، أو بكلّ ما يجب أن يؤمَن به، فيدخلُ فيه ما ذُكر دخولًا أوّليًا. ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾ قيل: هم قوم يعبدون النار. وقيل: الشمسَ والقمرَ. وقيل: هم قوم مِن النصارى اعتزلوا عنهم ولبسوا المُسوح. وقيل: أخذوا مِن دين النصارى شيئًا ومِن دين اليهود شيئًا، وهم القائلون بأنّ للعالَم أصلين نورًا وظلمة. ﴿وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ هم عبدة الأصنام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في حيّز الرفع على أنّه خبر لـ﴿إِنَّ﴾ السابقة، وتصديرُ طرَفي الجملة بحرف التحقيق لزيادة التقرير والتأكيد، أي: يقضي بين المؤمنين وبين الفِرَق الخمس المتّفقة على ملّة الكفر بإظهار المُحقّ مِن المُبطِل، وتوفيةِ كلٍّ منهما حقَّه مِن الجزاء بإثابة الأوّل وعقاب الثاني بحسب استحقاق أفراد كلّ منهما.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ﴾ تعليل لِما قبله مِن "الفصل"، أي: عالمٌ بكلّ شيء مِن الأشياء، ومراقب لأحواله، ومِن قضيّته الإحاطةُ بتفاصيل ما صدر عن كلّ فرد مِن أفراد الفِرَق المذكورة، وإجراءُ جزائه اللائق به عليه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾... إلخ بيان لِما يوجب الفصل المذكور مِن أعمال الفِرَق المذكورة مع الإشارة إلى كيفيّته وكونِه بطريق التعذيب والإثابة والإكرام والإهانة إثرَ بيان ما يوجبه مِن كونه تعالى شهيدًا على جميع الأشياء التي مِن جملتها أحوالهم وأفعالهم.

والمراد بـ"الرؤية" العلم، عُبّر عنه بها إشعارًا بظهور المعلوم. والخطاب لكلّ أحد ممّن يتأتّى منه الرؤية بناءً على أنّه مِن الجَلاء بحيث لا يخفى على أحدٍ.

[١١٣و] / والمراد بـ"السجود" هو الانقياد التامّ لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة المبنيّة على تشبيهه بأكمل أفعال المكلَّف في باب الطاعة إيذانًا بكونه في أقصى مراتب التسخّر والتذلّل، لا سجودُ الطاعة الخاصّة بالعقلاء، سواء جُعلت كلمة ﴿مَن﴾ عامّة لغيرهم أيضًا، وهو الأنسب بالمقام لإفادته شمولَ الحُكم لكلّ ما فيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئيّة منهما، فيكون قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفرادًا لها بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها عادةً، أو جُعلت خاصّةً بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلّهم حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإنّه مرتفع بفعل مضمر يدلّ عليه المذكور، أي: ويسجد له كثير مِن الناس سجودَ طاعةٍ وعبادةٍ، ومِن قضيّته انتفاء ذلك عن بعضهم.

وقيل: هو مرفوع على الابتداء، حُذف خبره ثقةً بدلالة خبر قَسيمه عليه، نحو: حقّ له الثواب. والأوّل هو الأَولى لِما فيه مِن الترغيب في السجود والطاعة.

وقد جُوّز أن يكون ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ خبرًا له، أي: مِن الناس الذين هم الناس على الحقيقة، وهم الصالحون والمتّقون، وأن يكون قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ﴾ معطوفًا على ﴿كَثِيرٌ﴾ الأوّل للإيذان بغاية الكثرة، ثمّ يُخبَر عنهم باستحقاق العذاب، كأنّه قيل: وكثير وكثير مِن الناس ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: بكفره واستعصائه. وقُرئ: "حُقَّ" بالضمّ،[١] و"حَقًّا"،[٢] أي: حقّ عليه العذاب حقًّا.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بأن كتب عليه الشقاوةَ حسبما عَلِمه مِن صرف اختياره إلى الشرّ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ يكرمه بالسعادة. وقُرئ بفتح الراء[٣] على أنّه مصدر ميميّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإكرام والإهانة.

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾

﴿هَٰذَانِ﴾ تعيين لطرَفي الخِصام، وإزاحةٌ لِما عسى يتبادر إلى الوهم مِن كونه بين كلّ واحدة مِن الفِرَق الستّ وبين البواقي، وتحريرٌ لمحلّه، أي: فريق المؤمنين، / وفريقُ الكفرة المنقسمُ إلى الفِرَق الخمس.[٤] [١١٣ظ]

﴿خَصۡمَانِ﴾ أي: فريقان مختصمان، وإنّما قيل: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ حملًا على المعنى، أي: اختصموا في شأنه عزّ وجلّ. وقيل: في دينه. وقيل: في ذاته وصفاته. والكلّ مِن شئونه تعالى، فإنّ اعتقاد كلّ مِن الفريقين بحقّيّة ما هو عليه، وبطلانِ ما عليه صاحبُه، وبناءَ أقواله وأفعاله عليه، خصومةٌ للفريق الآخر، وإن لم يجرِ بينهما التحاور والخِصام.

وقيل: تخاصمت اليهود والمؤمنون، فقالت اليهود: «نحن أحقّ بالله، وأقدَم منكم كتابًا، ونبيّنا قبل نبيّكم»، وقال المؤمنون: «نحن أحقّ بالله منكم،

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٤٩؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٤٩٥.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٤٩؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧/٤٩٥.

٣ أي: "مُكْرَم". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٦.

٤ وفي هامش م: هم اليهود والصابئون والنصارى والمجوس والمشركون. «منه».

آمنّا بمحمّد عليه السلام[١] وبنبيّكم وبما أنزل الله مِن كتاب، وأنتم تعرفون كتابنا ونبيّنا ثم كفرتم به حسدًا»، فنزلت.[٢]

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تفصيل لِمَا أُجمِل في قوله تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.[٣] ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ﴾ أي: قدّرت على مقادير جُثثهم. وقُرئ بالتخفيف.[٤] ﴿ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ أي: نيران هائلة تحيط بهم إحاطةَ الثياب بلابسِها، ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ أي: الماءُ الحارّ الذي انتهت حرارته. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «لو قطَرت قطرة منه على جبال الدنيا لَأذابتها».[٥] والجملة مستأنَفة، أو خبر ثانٍ للموصول، أو حال مِن ضمير ﴿لَهُمۡ﴾.

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾

﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ﴾ أي: يُذاب ﴿مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ مِن الأمعاء والأحشاء. وقُرئ: "يُصَهَّرُ" بالتشديد.[٦] ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ عطفٌ على ﴿مَا﴾، وتأخيرُه عنه إمّا لمراعاة الفواصل، أو للإشعار بغاية شدّة الحرارة بإيهام أنّ تأثيرها في الباطن أقدم مِن تأثيرها في الظاهر، مع أنّ ملابستها على العكس. والجملة حال مِن ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾.[٧]

﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾

[١١٤و] / ﴿وَلَهُم﴾ للكفرة، أي: لتعذيبهم وأجلِهم ﴿مَقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ جمع "مِقْمَعة"، وهي آلة القَمع.[٨]

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي: أشرفوا على الخروج مِن النار ودنَوا منه،

---

١ س – عليه السلام.
٢ جامع البيان للطبري، ٤٩١/١٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣/٧.
٣ الحج، ١٧/٢٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزعفراني عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.
٥ الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٩/١٤.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.
٧ في الآية السابقة.
٨ المِقْمَعَة: واحدة المَقامِع مِن حديدٍ كالمِحجن، يُضرَب بها على رأس الفيل. وقد قَمَعْتُه إذا ضرَبته بها. الصحاح للجوهري، «قمع».

حسبما يُروى أنّها تَضربهم بلَهيبها فترفعهم، حتّى إذا كانوا في أعلاها ضُرِبوا بالمَقامع، فَهوَوا فيها سبعين خريفًا.[١] ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ أي: مِن غمّ شديد مِن غُمومها، وهو بدل اشتمال مِن "الهاء" بإعادة الجارّ، والرابط محذوف كما أشيرَ إليه، أو مفعول له للخروج.

﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: في قَعرها، بأن رُدّوا مِن أعاليها إلى أسافلِها مِن غير أن يخرجوا منها، ﴿وَذُوقُواْ﴾ على تقدير قول معطوف على ﴿أُعِيدُواْ﴾، أي: وقيل لهم: ذوقوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: الغليظِ مِن النار المنتشرِ العظيمِ الإهلاكِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيان لِحُسن حال المؤمنين إثرَ بيان سوء حال الكفرة، وقد غُيّر الأسلوب فيه بإسناد الإدخال إلى الله عزّ وجلّ. وتصدير الجملة بحرف التحقيق إيذانًا بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة، وإظهارًا لمزيد العناية بأمر المؤمنين، ودلالةً على تحقّق مضمون الكلام.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ على البناء للمفعول بالتشديد مِن "التَّحلية". وقُرئ بالتخفيف،[٢] مِن "الإخلاء" بمعنى الإلباس. أي: يُحلّيهم الملائكة بأمره تعالى. وقُرئ: "يَحْلَوْنَ"،[٣] مِن "حَلِيَت المَرأةُ" إذا لبِسَت حُلِيَّها.

و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ إمّا للتبعيضِ، أي: بعضُ أساور، وهي جمع "أَسْوِرة" جمعِ "سِوار"، أو للبيان لِما أنّ ذكر التحلية ممّا ينبئ عن الحَلْيِ المبهَم. وقيل: زائدة. وقيل: نعت لمفعول محذوف / لِ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، فإنّه بمعنى "يُلْبَسُون". ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيان لـ"الأساور". [١١٤ظ]

---

[١] عن الحسن في التفسير الوسيط للواحدي، ٢٦٤/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٣.

[٢] أي: "يُحْلَوْنَ". قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٦/٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفٌ على محلّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، أو على المفعول المحذوف، أو منصوب بفعل مُضمَر يدلّ عليه ﴿يُحَلَّوْنَ﴾، أي: يؤتَون. وقُرئ بالجرّ[١] عطفًا على ﴿أَسَاوِرَ﴾. وقُرئ: "لُؤْلُوًا" بقلب الهمزة الثانية واوًا،[٢] و"لُولِيًا"[٣] بقَلبها ياءً بعد قلبهما واوًا، و"لِيلِيًا" بقلبهما ياءً.[٤]

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ غُيّر الأسلوب حيث لم يُقَل: ويُلبَسون فيها حريرًا، لكن لا للدلالة على أنّ الحرير ثيابهم المعتادة، أو لمجرّد المحافظة على هيئة الفواصل؛ بل للإيذان بأنّ ثبوت اللباس لهم أمر محقّق غنيّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنّما المحتاج إلى البيان أنّ لباسهم ماذا، بخلاف الأساور واللؤلؤ، فإنّها ليست مِن اللوازم الضروريّة، فجُعل بيان تحليتهم بها مقصودًا بالذات، ولعلّ هذا هو الباعث إلى تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[٥] الآيةَ [الزمر، ٧٤/٣٩]. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: المحمودِ نفسُه، أو عاقبتُه، وهي الجنّة، ووجه تأخير هذه الهداية عن ذكر الهداية إلى القول المذكور المتأخِّرِ عن دخول الجنّة المتأخِّرِ عن الهداية إلى طريقها لرعاية[٦] الفواصل. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ الحقُّ المستحِقُّ لذاته لغاية الحمد،

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن المعلى بن منصور عن شعبة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٧/٧. والرواية الصحيحة عن شعبة إبدال الهمزة الأولى دون الثانية. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٩٤/١. وقرأ هشام في أحد الوجهين عنه عند الوقف عليها بإبدال الهمزة الثانية واوًا ساكنة دون ألف بعدها. وقرأ حمزة عند الوقف كذلك بإبدال كلٍّ مِن الهمزتين واوًا ساكنة. انظر: النشر لابن الجزري، ٤٣٠/١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الفيّاض انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٩٧/٧.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

[٥] ط س: وأورثنا الجنّة. ["صح" في هامش م]. | لعلّ المؤلف صحّحها بعد نسخ ط س.

[٦] ط س: رعاية.

وهو الله عزّ وجلّ، وصراطُه الإسلام. ووجه التأخير حينئذ أنّ ذكر "الحمد" يستدعي ذكر "المَحمود".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٥﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليس المراد به حالًا ولا استقبالًا، وإنّما هو استمرارُ الصدّ، ولذلك حَسُن عطفه على الماضي، كما في قوله تعالى: / ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد، ٢٨/١٣]. وقيل: هو حال [١١٥و] مِن فاعل ﴿كَفَرُواْ﴾، أي: وهم يصدّون، وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوف لدلالة آخِر الآية الكريمة عليه، فإنّ مَن أَلْحَد في الحَرَم حيث عُوقب بالعذاب الأليم فلأَن يعاقَب مَن جمع إليه الكفرَ والصدَّ عن سبيل الله بأشدَّ مِن ذلك[١] أحقُّ وأولى.

﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ عطف على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. قيل: المراد به مكّة، بدليل وصفه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: كائنًا مَن كان، مِن غير فرق بين مكّي وآفاقي.

﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي: المقيم والطارئ، و﴿سَوَآءً﴾ أي: مستويًا، مفعول ثانٍ لـ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ مرتفع به، و"اللام" متعلّق به ظرف له. وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك زيادةُ تشنيعِ الصادّين عنه. وقُرِئ: "سَوَاءٌ" بالرفع[٢] على أنّه خبر مقدّم. و﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ مبتدأ، والجملة مفعول ثانٍ للجَعل. وقُرِئ: "الْعَاكِفِ" بالجرّ[٣] على أنّه بدل مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ ممّا تُرك مفعوله ليتناول كلّ متناوَل، كأنّه قيل: ومَن يُرد فيه مرادًا ما ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ بعُدولٍ عن القصد ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حقّ، وهما حالان مترادِفان، والثاني بدل مِن الأوّل بإعادة الجارّ، أو صلة له، أي: ملحِدًا بسبب الظلم، كالإشراك واقتراف الآثام ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جواب لـ﴿مَن﴾.

---

١ وفي هامش م: أي: جوابِ أشدّ مِن ذلك. «منه».
٢ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٧.

﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾

﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا﴾ يقال: "بوّأه مَنزِلًا"، أي: أنزله فيه. ولمّا لزمه جعلُ الثاني مَباءةً للأوّل قيل: ﴿لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ وعليه مبنى قول ابن عبّاس رضي الله عنهما: «جعلناه»،[1] أي: اذكر وقت جعلِنا مكانَ البيت مَباءةً له عليه السلام، أي: مرجعًا يرجع إليه للعمارة والعبادة. وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنّ المقصود
[١١٥ظ] / تذكير ما وقع فيه مِن الحوادث قد مرّ بيانه غير مرّة.

وقيل: "اللام" زائدة، و﴿مَكَانَ﴾ ظرف كما في أصل الاستعمال، أي: أنزلناه فيه.

قيل: رُفع البيت إلى السماء أيّام الطوفان، وكان مِن ياقوتة حمراء، فأعلمَ الله تعالى إبراهيم عليه السلام مكانَه بريح أرسلها يقال لها: "الخَجُوج"،[2] كنَسَت ما حوله، فبناه على أُسّه القديم.[3]

رُوي أنّ الكعبة الكريمة بُنيت خمسَ مرّات؛ **إحداها**: بناء الملائكة، وكانت مِن ياقوتة حمراء، ثمّ رُفعت أيّامَ الطوفان. **والثانية**: بناء إبراهيم عليه السلام. **والثالثة**: بناء قريش في الجاهليّة، وقد حضر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هذا البناء. **والرابعة**: بناء ابن الزبير رضي الله عنه. **والخامسة**: بناء الحجّاج. وقد أوردنا ما في هذا الشأن مِن الأقاويل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [البقرة، ١٢٧/٢].

و﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾ مفسِّرة لـ﴿بَوَّأۡنَا﴾ مِن حيث إنّه متضمّن لمعنى "تعبّدنا"؛ لأنّ التبوِئة للعبادة، أو مصدريّة موصولة بالنهي، وقد مرّ تحقيقه في أوائل سورة هود.[4] أي: فعلنا ذلك لئلّا تشرك بي في العبادة شيئًا.

---

[1] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٧/٧؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٣٧٨/٥.

[2] قال الأصمعي: الخَجوج مِن الرياح: الشديدة المَرّ. **الصحاح** للجوهري، «خجج».

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٩/٤.

[4] هود، ٢/١١.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: وتُطهِّر بيتي مِن الأوثان والأقذار لِمَن يطوف به ويصلّي فيه. ولعلّ التعبيرَ عن الصلاة بأركانها للدلالة على أنّ كلّ واحد منها مستقلّ باقتضاء ذلك، فكيف وقد اجتَمعت. وقُرئ: "يُشْرِكْ" بالياء.[١]

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: نَادِ فيهم. وقُرئ: "آذِنْ".[٢] ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوة الحجّ، والأمرِ به. رُوي أنّه عليه السلام صَعِد أبا قبيس، فقال: «يا أيّها الناس حُجّوا بَيت ربّكم»، / فأسمعه الله تعالى مَنْ في أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق [١١٦و] والمغرب مِمّن سبَق في علمه تعالى أن يحجّ.[٣] وقيل: الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أُمر بذلك في حجّة الوداع،[٤] ويأباه كون السورة مكّيّة.

﴿يَأْتُوكَ﴾ جواب للأمر ﴿رِجَالًا﴾ أي: مشاةً، جمع "راجل"، كـ"قيام" جمع "قائم". وقُرئ بضمّ الراء وتخفيف الجيم[٥] وتشديده،[٦] و"رُجَالَى"[٧] كـ"عُجَالَى".

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ عطفٌ على ﴿رِجَالًا﴾، أي: ورُكبانًا على كلّ بعير مَهزول أتعبه بُعد الشُقّة فهزله أو زاد هُزاله. ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ﴿ضَامِرٍ﴾ محمولة على المعنى. وقُرئ: "يَأْتُونَ"[٨] على أنّه صفة للرجال والركبان، أو استئناف، فيكون الضمير لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾. ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق واسع ﴿عَمِيقٍ﴾ بعيد. وقُرئ: "مَعِيقٍ"،[٩] يقال: "بئر بعيدةُ العُمْق"، و"بعيدةُ المُعْق" بمعنًى، كـ"الجَذْب" و"الجَبْذ".

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن محيصن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٧.

[٣] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٠/٤.

[٤] **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٠/٤.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهد عكرمة والحسَن وابن أبي إسحاق. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠١/٧؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٨.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة والحسن وأبي مجلز ومجاهد وجعفر بن محمد. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠١/٧.

[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠١/٧.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وجعفر بن محمد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٨.

[٩] قراءة شاذّة، ذكرها الكرماني وقال: "لغة تميم". انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٧.

﴿لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ٢٨﴾

﴿لِيَشْهَدُواْ﴾ متعلّق بـ﴿يَأْتُوكَ﴾،[1] لا بـ﴿أَذِّن﴾،[2] أي: ليَحضروا ﴿مَنَٰفِعَ﴾ عظيمةَ الخَطر، كثيرةَ العدد، أو نوعًا مِن المنافع الدينيّة والدنيويّة المختصّة بهذه العبادة. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿مَنَٰفِعَ﴾، أي: منافع كائنة لهم.

﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ عند إعداد الهدايا والضحايا وذبحها. وفي جعله غاية للإتيان إيذان بأنّه الغاية القُصوى دون غيره. وقيل: هو كناية عن الذبح؛ لأنّه لا ينفكّ عنه. ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ هي أيّام النحر، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فإنّ المراد بـ"الذِّكر" ما وقع عند الذبح. وقيل: هي عِشر ذي الحجّة. وقد عُلّق الفعل بالمرزوق وبيّن / بالبهيمة تحريضًا على التقرّب وتنبيهًا على الذِّكر. [١١٦ظ]

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ التفات إلى الخطاب، و"الفاء" فصيحة عاطفة لمَدخولها على مقدَّر قد حُذف للإشعار بأنّه أمر محقّق غير محتاج إلى التصريح به، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة، ٦٠/٢]، أي: فاذكروا اسم الله تعالى على ضحاياكم فكلوا مِن لحومها. والأمر للإباحة وإزاحة ما كانت عليه أهل الجاهليّة مِن التحرّج فيه، أو للندب إلى مواساة الفقراء ومساواتهم. ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ﴾ أي: الذي أصابه بؤس وشِدّة ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ المحتاجَ، وهذا الأمر للوجوب. وقد قيل به في الأوّل أيضًا.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٢٩﴾

﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ أي: ليؤدّوا إزالة وسخِهم، أو ليُحكموها بقصّ الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد عند الإحلال. ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرون مِن البِرّ في حجّهم. وقيل: مواجب الحجّ. وقُرئ بفتح الواو وتشديد "الفاء".[3]

---

[1] في الآية السابقة.

[2] في الآية السابقة.

[3] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾ طوافَ الركن الذي به يتمّ التحلّل، فإنّه قرينة قضاء التّفث، وقيل: طواف الوداع.[١] ﴿بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: القديم، فإنّه أوّل بيت وُضع للناس، أو المعتَق مِن تَسلّط الجبابرة، فكأيٍّ مِن جبّار سار إليه ليهدمه فقصَمه الله عزّ وجلّ. وأمّا الحجّاج الثقفي فإنّما قصد إخراج ابنِ الزبير رضي الله عنهما منه، لا التسلّط عليه.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهَي كلام واحد ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: أحكامَه وسائرَ ما لا يحلّ هَتْكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجَبه. وقيل: الحَرَمَ وما يتعلّق بالحجّ / مِن [١١٧و] التكاليف. وقيل: الكعبةَ والمسجدَ الحرام والبلدَ الحرام والشهرَ الحرام. ﴿فَهُوَ خَيْرٞ لَّهُۥ﴾ أي: فالتعظيم خير له ثوابًا ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أي: في الآخرة. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير «مَن» لتشريفه والإشعارِ بعلّة الحكم.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ وهي الأزواج الثمانية[٢] على الإطلاق، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلّا ما يُتلى عليكم آية تحريمه. استثناء متّصل منها على أنّ «مَا» عبارة عمّا حُرّم منها لعارض، كالميتة وما أُهلّ به لغير الله تعالى.

والجملة اعتراض جيء به تقريرًا لِما قبله مِن الأمر بالأكل والإطعام، ودفعًا لِما عسى يُتوهّم أنّ الإحرام يحرّمه[٣] كما يحرّم الصيد. وعدم الاكتفاء ببيان عدم كونها[٤] مِن ذلك القبيل -بحمل الأنعام على ما ذُكر مِن الضحايا والهدايا المعهودة خاصّةً؛ لئلّا يحتاج إلى الاستثناء المذكور، إذ ليس فيها ما حُرّم لعارض قطعًا- لمراعاة حُسن التخلّص إلى ما بعده مِن قوله تعالى:

---

١ وفي هامش م: ويُفسَّر تغيير الصيغة في الأوامر الثلاثة لتعميم الحكم للفقراء أيضًا ضرورةَ اختصاص الأمرين السابقين بالأغنياء. «منه».

٢ المذكورة في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾... الآيتين [الأنعام، ١٤٣/٦-١٤٤].

٣ وفي هامش م: أي: الأكل. «منه».

٤ ط س: كونه. | وفي هامش م: أي: الأنعام. «منه».

﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾، فإنّه مترتّب على ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِن وجوب مراعاتها والاجتناب عن هَتكها.

ولمّا كان بيان حلّ الأنعام مِن دواعي التعاطي -لا مِن مبادي الاجتناب- عُقّب[١] بما يجب[٢] الاجتناب عنه مِن الحُرُمات، ثمّ أُمر بالاجتناب عمّا هو أقصى الحُرُمات، كأنّه قيل: ومَن يعظّم حُرُمات الله فهو خير له، والأنعامُ ليست مِن الحُرُمات، فإنّها محلّلة لكم إلّا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه، فإنّه ممّا يجب الاجتناب عنه، فاجتنبوا ما هو معظم الأمور التي يجب الاجتناب عنها.

[١١٧ظ] وقوله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإنّ / عبادة الأوثان رأس الزور، وكأنّه لمّا حثّ على تعظيم الحُرُمات أتْبع ذلك ردًّا لِما كانت الكفرة عليه مِن تحريم البَحائر والسوائب ونحوهما، والافتراءِ على الله تعالى بأنّه حَكم بذلك.

وقيل: شهادةَ الزور، لِما رُوي أنّه عليه السلام قال: «عدَلَت شهادةُ الزور الإشراكَ بالله تعالى» ثلاثًا، وتلا هذه الآية.[٣] و﴿ٱلزُّورِ﴾ مِن "الزَّوْر"، وهو الانحراف، كـ"الإفك" المأخوذ مِن "الأَفْك" الذي هو القَلب والصَّرف، فإنّ الكذِب منحرف مَصروف عن الواقع. وقيل: هو قول أهل الجاهليّة في تلبيتهم: "لبّيك لا شريك لك إلّا شريكٌ هو لك تَملِكُه وما مَلك".[٤]

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مائلين عن كلّ دين زائغ إلى الدين الحقّ، مخلصين لله تعالى ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، فيدخل في ذلك الأوثانُ دخولًا أوّليًا. وهما حالان مِن "واو" ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ﴾.[٥]

---

١ وفي هامش م: أي: بيان حِلّ الأنعام.

٢ ط س: يوجب. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ سنن أبي داود، ٤٥١/٥ (٣٥٩٩)؛ سنن الترمذي، ٥٤٧/٤ (٢٢٩٩).

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢١/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٥/٣.

٥ في الآية السابقة.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ جملة مبتدأة مؤكِّدة لِما قبلها مِن الاجتناب مِن الإشراك. وإظهار الاسم الجليل لإظهار كمال قُبح الإشراك، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنّه سقط مِن أَوج الإيمان إلى حَضيض الكفرِ، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ فإنّ الأهواء المُردية توزِّع أفكاره. وقُرئ: "فَتَخَطَّفُهُ" بفتح الخاء وتشديد الطاء.[١] وبكسر الخاء والطاء،[٢] وبكسر التاء مع كسرهما،[٣] وأصلُهما "تَخْتَطِفُهُ".

﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تُسقِطه وتَقذفه ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد، فإنّ الشيطان قد طوّح به في الضلالة. و﴿أَوْ﴾ للتخيير كما في ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة، ١٩/٢]، أو للتنويع. ويجوز أن يكون مِن باب التشبيه المركّب، / فيكون المعنى: ومَن يشرك بالله فقد هلَكت نفسُه هلاكًا شبيهًا بهلاك أحد الهالكين. [١١٨و]

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو امتثِلوا ذلك. ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: الهدايا، فإنّها مِن معالم الحجّ وشعائره تعالى، كما ينبئ عنه: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾،[٤] وهو الأوفق لِما بعده. و"تعظيمُها" اعتقادُ أنّ التقرّب بها مِن أجلّ القُربات، وأن يختارها حِسانًا سِمانًا غالية الأثمان.

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم أهدَى مائةَ بدَنة، فيها جَمَل لأبي جهل في أنفه بُرَة مِن ذهب،[٥] وأنّ عمر رضي الله عنه أهدى نَجيبةً طُلِبت منه بثلاثمائة دينار.[٦]

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

٢ أي: "فَتِخِطِّفُهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٨.

٣ أي: "فَتِخِطِّفُهُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء والأعمش. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٥/٧.

٤ الحج، ٣٦/٢٢.

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٦/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧١/٤. وأخرجه أبو داود في السنن، ١٦٨/٣ (١٧٤٩). وفيه زاد بعض رواته: "يغيظ بذلك المشركين". والبُرَة: حلْقة تُجعل في لحم الأنف. **النهاية** لابن الأثير، «بره».

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٦/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧١/٤. وأخرجه ابن خزيمة في **صحيحه**، ١٣٦٨/٢ (٢٩١١). والنجيب: الفاضل مِن كلّ حيوان. **النهاية** لابن الأثير، «نجب». وأخرجه أبو داود في السنن، ١٧٣/٣ (١٧٥٦)، بلفظ: "أهدى عمَر بن الخطّاب بُختيًّا". والبختي: الذكَر مِن الجمال البخت، وهي جمال طِوال الأعناق. **النهاية** لابن الأثير، «بخت».

﴿فَإِنَّهَا﴾ أي: فإنّ تعظيمها ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي: مِن أفعال ذوي تقوى القلوب، فحُذفت هذه المضافات، والعائد إلى ﴿مَن﴾، أو فإنّ تعظيمها ناشِئٌ مِن تقوى القلوب. وتخصيصها بالإضافة لأنّها مراكز التقوى التي إذا ثبتَت فيها وتمكّنت ظهَر أثَرها في سائر الأعضاء.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٣٣﴾

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الهدايا ﴿مَنَٰفِعُ﴾ هي دَرّها ونَسْلها وصوفها وظَهرها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقت نَحرها والتصدّقِ بلحمها والأكلِ منه، ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: وجوبُ نَحرها، أو وقتُ نَحرها منتهيةً ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: إلى ما يليه مِن الحَرَم. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزماني أو الرتبي، أي: لكم فيها منافع دنيويّة إلى وقت نَحرها، ثمّ منافع دينيّة، أعظمها في النّفع مَحِلّها، أي: وجوبُ نَحرها، أو وقتُ وجوب نَحرها إلى البيت العتيق، أي: منتهيةً إليه.

هذا، وقد قيل: المراد بـ"الشعائر" مناسكُ الحجّ ومَعالمه، والمعنى: لكم فيها منافع بالأجر والثواب في قضاء المناسك وإقامة شعائر الحجّ إلى أجل مسمّى، هو انقضاء أيّام الحجّ، ثمّ مَحِلّها -أي: مَحِلّ الناس مِن إحرامهم- / إلى [١١٨ظ]
البيت العتيق، أي: مُنتهٍ إليه، بأن يطوفوا به طوافَ الزيارة يوم النحر بعد قضاء المناسك، فإضافة "المَحِلّ" إليها لأدنى ملابسة.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: لكلّ أهل دين ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: مُتعبَّدًا، أو قُربانًا[١] يتقرّبون به إلى الله عزّ وجلّ. وقُرئ بكسر السين،[٢] أي: مَوضعَ نُسُك. وتقديم الجارّ والمجرور على الفعل للتخصيص، أي: لكلّ أمّة مِن الأمم جعلنا مَنسَكًا، لا لبعضٍ منهم دون بعض ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ خاصّةً دون غيره، ويجعلوا نَسيكتَهم

---

[١] ط س: وقربانًا.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

لوجهه الكريم. عُلِّل الجعلُ به تنبيهًا على أنّ المقصود الأصلي مِن المناسك تذكّر المعبود. ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ عند ذبحها. وفيه تنبيه على أنّ القُربان يجب أن يكون مِن الأنعام.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ للكلّ تغليبًا. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ جعله تعالى لكلّ أمّة مِن الأمم مَنْسكًا ممّا يدلّ على وحدانيّته تعالى. وإنّما قيل: ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ولم يُقَل: "واحد" لِمَا أنّ المراد بيان أنّه تعالى واحد في ذاته، كما أنّه واحد في إلهيّته للكلّ.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ لترتيب ما بعدها مِن الأمر بالإسلام على وحدانيّته تعالى. وتقديم الجارّ والمجرور على الأمر للقصر، أي: فإذا كان إلهكم إلهًا واحدًا فأخلِصوا له التقرّب -أو الذكر- واجعلوه لوجهه خاصّة، ولا تشوبوه بالشرك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ تجريد للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أي: المتواضعين أو المخلِصين، فإنّ الإخْبات مِن الوظائف الخاصّة بهم.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ منه تعالى لإشراق أشعّة جلاله عليها، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ مِن مشاقّ التكاليف ومُؤنات النوائب، ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاتها. / وقُرئ بنصب ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾[1] على تقدير "النون". وقُرئ: "وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ"[2] على الأصل. ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخيرات. [١١٩و]

﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٥٧/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٠٨/٧.

﴿وَٱلۡبُدۡنَ﴾ بضمّ الباء وسكون الدّال. وقُرئ بضمّهما.[١] وهما جَمعا "بَدَنة"، وقيل: الأصل ضمّ الدال، كـ"خُشُب" و"خَشَبة"، والتسكينُ تخفيف منه. وقُرئ بتشديد النون[٢] على لفظ الوقف.[٣] وإنّما سمّيت بها الإبل لِعِظَم بدَنها، مأخوذة مِن "بَدُن بَدانةً"، وحيث شاركها البقرة[٤] في الإجزاء عن سبعة بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «البدَنة عن سبعة، والبقرة[٥] عن سبعة»[٦] جُعلا في الشريعة جنسًا واحدًا. وانتصابه لِمُضمَر يفسّره: ﴿جَعَلۡنَٰهَا لَكُم﴾. وقُرئ بالرفع[٧] على أنّه مبتدأ، والجملة خبره.

وقوله تعالى: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن أعلام دينه التي شرعها الله تعالى. مفعول ثان للجَعل. و﴿لَكُم﴾ ظرف لغو متعلّق به. وقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ﴾ أي: منافع دينيّة ودنيويّة. جملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها.

﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: «الله أكبر، لا إله إلّا الله، والله أكبر، اللّهمّ منك وإليك».[٨]

﴿صَوَآفَّ﴾ أي: قائماتٍ قد صفَفنَ أيديَهنّ وأرجلهنّ. وقُرئ: "صَوَافِنَ"[٩] مِن "صَفَنَ الفرسُ" إذا قام على ثلاث وعلى طرف سَنبك[١٠] الرابعة؛ لأنّ البدَنة

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر ونافع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٩.

٢ أي: "وَالبُدُنَّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٩/٧.

٣ قال أبو حيّان: «احتمل أن يكون اسمًا مفردًا بُني على فعل كـ"عُتُلّ"، واحتمل أن يكون التشديد مِن التضعيف الجائز في الوقف، وأُجرِي الوصل مُجرى الوقف». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٩/٧.

٤ ط س: البقر. | وكتبت التاء المربوطة في نسخة المؤلّف بخط صغير، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٥ ط س: البقر. | وكتبت التاء المربوطة في نسخة المؤلّف بخط صغير، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٢/٤. وأخرجه مسلم في **صحيحه**، ٩٥٥/٢ (١٣١٨)، موقوفًا على جابر بن عبد الله، قال: «نَحرنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عام الحديبية البدَنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة».

٧ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٠٩/٧.

٨ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٨/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٢/٤. وأخرجه الحاكم في **المستدرك**، ٢٦٠/٤ (٧٥٧١)، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم والأعمش. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٢٩.

١٠ السُّنبك: طرف مقدَّم الحافر، والجمع السَّنابك. **الصحاح** للجوهري، «سبك».

تَعقِل إحدى يَديها فيَقوم على ثلاث. وقُرئ: "صَوَافِنًا"[١] بإبدال التنوين مِن حرف الإطلاق عند الوقف. وقُرئ: "صَوَافِيَ"،[٢] أي: خوالِص لوجه الله عزّ وجلّ. و"صَوَافِ"[٣] على لغة مَن يسكّن الياء على الإطلاق، كما في قوله:

لعلّي أرى باقٍ على الحَدَثانِ[٤]

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقَطت على الأرض، وهي كناية عن الموت ﴿فَكُلُواْ / مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ﴾ أي: الراضي بما عنده وبما يُعطي مِن غير مسألة، ويؤيّده [١١٩ظ] أنّه قُرئ: "الْقَنِعَ".[٥] أو السائلَ، مِن "قَنِع إليه قُنوعًا" إذا خَضَع له في السؤال، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ أي: المتعرِّض للسؤال. وقُرئ: "الْمُعْتَرِي"،[٦] يقال: "عَرَّه" و"عَراه"، و"اعترّه" و"اعتَراه".

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التسخير البديع المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿صَوَآفَّ﴾ ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع كمال عِظَمها، ونهاية قوّتها، فلا تستعصي[٧] عليكم حتّى تأخذونها منقادةً فتعقلونها وتحبسونها صافّة قوائمَها ثمّ تطعنون في لَبّاتها.[٨] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لِتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرّب والإخلاص.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن عبيد. وهي كذلك "صَوَافِنًا" بالنون في الكشّاف للزمخشري، ١٥٨/٣. وضبطها أبو حيّان في البحر المحيط، ٥٠٩/٧؛ والسمين الحلبي في الدرّ المصون، ٢٧٧/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٩١/٤؛ والشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي، ٢٩٧/٦: "صَوَافِيًا" بالياء.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي موسى الأشعري والحسن وزيد بن أسلم والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٤ وفي هامش م: صدره:
خُذا حدِّثاني عن فُلٍ وفُلانٍ
وهو لأبي العبّاس التطيلي في الحماسة المغربيّة للجراوي، ٨٨٧/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٢٩.

٧ ط س: يستعصي. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٨ اللَّبّة: المَنْحَر، وهو موضع القِلادة مِن الصدر مِن كلِّ شيء، والجمع اللَّبّات. الصحاح للجوهري، «لبب».

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ أي: لن يبلغ مرضاته، ولن يقع موقع القَبول ﴿لُحُومُهَا﴾ المتصدَّقُ بها ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ المُهراقة بالنحر مِن حيث إنّها لحوم ودماء. ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصيب تقوى قلوبكم التي يدعوكم إلى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتقرّب إليه والإخلاص له.

وقيل: كان أهل الجاهليّة يلطّخون الكعبة بدماء قرابينهم، فهَمّ به المسلمون، فنزلت.[1]

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ تكرير للتذكير والتعليل بقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لِتَعرفوا عظمته باقتداره على ما لا يقدِر عليه غيره، فتوحّدوه بالكبرياء. وقيل: هو التكبير عند الإحلال أو الذبح. ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: أرشدَكم إلى طريق تسخيرها وكيفيّة التقرّب بها. و﴿مَا﴾ مصدريّة، أو موصولة، أي: على هدايته
١٢٠و إيّاكم، أو على ما هداكم إليه. و﴿عَلَىٰ﴾ متعلّقة بـ﴿تُكَبِّرُواْ﴾ لتضمّنه / معنى الشكر.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: المخلصين في كلّ ما يَأتون وما يَذرون في أمور دينهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتَوطين قلوب المؤمنين ببيان أنّ الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدّهم عن الحجّ؛ ليتفرّغوا إلى أداء مناسكه. وتصديره بكلمة التحقيق لإبراز الاعتناء التامّ بمضمونه.

وصيغة المفاعلة إمّا للمبالغة أو للدلالة على تكرّر الدفع، فإنّها قد تُجَرَّدُ عن وقوع الفعل المتكرّر مِن الجانبين، فيبقى تكرّره كما في الممارسة، أي: يبالغ في دفع غائلة المشركين وضررهم الذي مِن جملته الصدّ عن سبيل الله مبالغةَ مَن يغالب فيه، أو يدفعها عنهم مرّة بعد أخرى حسبما تجدّد منهم القصد إلى الإضرار بالمسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة، ٦٤/٥]. وقرئ: "يَدْفَعُ"،[2] والمفعول محذوف.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٢/٤.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تعليل لِمَا في ضِمن الوعد الكريم مِن الوعيد للمشركين، وإيذان بأنّ دفعهم بطريق القهر والخِزي. ونفي المحبّة كناية عن البغض، أي: إنّ الله يبغض كلّ خوّان في أماناته تعالى، وهي أوامره ونواهيه، أو في جميعِ الأمانات التي هي معظمها كُفور لنعمته. وصيغة المبالغة فيهما لبيان أنّهم كذلك، لا لتقييد البغض بغاية الخيانة والكفر، أو للمبالغة في نفي المحبّة على اعتبار النفي أوّلًا،[١] وإيرادِ معنى المبالغة ثانيًا.[٢]

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾

﴿أُذِنَ﴾ أي: رُخِّص. وقُرئ على البناء للفاعل،[٣] أي: أَذِن الله تعالى ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أي: يقاتلهم المشركون. والمأذون فيه محذوف / لدلالة المذكور عليه، [١٢٠ظ]
فإنّ مقاتلة المشركين إيّاهم دالّة على مقاتلتهم إيّاهم دلالةً نيّرةً. وقُرئ على صيغة المبنيّ للفاعل،[٤] أي: يريدون أن يقاتلوا المشركين فيما سيأتي ويحرصون عليه. فدلالته على المحذوف أظهر.

﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ أي: بسبب أنّهم ظُلِموا، وهم أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ورضي عنهم، كان المشركون يؤذونهم، وكانوا يأتونه عليه السلام بين مَضروب ومَشجوج، ويتظلّمون إليه، فيقول عليه السلام لهم: «اصبروا فإنّي لم أُومَر بالقتال»، حتّى هاجروا، فأنزلت.[٥] وهي أوّل آية نزلت في القتال بعد ما نُهي عنه في نيّف وسبعين آيةً.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وعدٌ لهم بالنصر، وتأكيدٌ لِمَا مرّ مِن العِدَة الكريمة بالدفع، وتصريحٌ بأنّ المراد به ليس مجرّدَ تخليصهم عن أيدي المشركين؛

---

١ وفي هامش م: فإنّ اعتبار المبالغة فيما عُلّل به نفي المحبّة مِن أصل الخيانة والكفر مستلزم لاعتبار المبالغة في معلولهما قطعًا. «منه».

٢ وفي هامش م: كما هو شأن الكلّيّة، فإنّها معتبرة بعد النفي لا قبل، وإلّا لأفاد نفي الشمول، لا شمول النفي الذي هو المقصود. «منه».

٣ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخَلَف بخُلْف عن إدريس. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

٤ أي: "يُقاتِلُونَ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٢٦/٢.

٥ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٧٣/٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٦٠/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٣/٤.

بل تغليبهم وإظهارُهم عليهم. والإخبار بقدرته تعالى على نصرهم وارد على سَنن الكبرياء. وتأكيده بكلمة التحقيق و"اللام" لمزيد تحقيق مضمونه، وزيادةِ تَوطين نفوس المؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ في حيّز الجرّ على أنّه صفة للموصول الأوّل، أو بيان له، أو بدل منه، أو في محلّ النصب على المدح، أو في محلّ الرفع بإضمار مبتدأ، والجملة مرفوعة على المدح. والمراد بـ﴿دِيَٰرِهِم﴾ مكّة المعظّمة. ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ متعلّق بـ﴿أُخۡرِجُواْ﴾، أي: أُخرِجوا بغير ما يوجب إخراجهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ بدل مِن ﴿حَقٍّ﴾، أي: بغير موجِب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجِبًا للإقرار والتمكين دون الإخراج والتسيير، لكن لا على الظاهر؛ بل على طريقة قول النابغة:

[١٢١و] ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم / بهنّ فُلول مِن قِراع الكتائبِ[١]

وقيل: الاستثناء منقطع.

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ بتسليط المؤمنين على الكافرين في كلّ عصر وزمان. وقُرئ: "دِفَاعُ".[٢] ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ لخُرّبت باستيلاء المشركين على أهل المِلَل. وقُرئ: "هُدِمَتْ" بالتخفيف.[٣] ﴿صَوَٰمِعُ﴾ للرهابِنة ﴿وَبِيَعٞ﴾ للنصارى ﴿وَصَلَوَٰتٞ﴾ أي: وكنائس لليهود، سمّيت بها لأنّها تصلّى فيها. وقيل: أصلها "صَلُوتَا" بالعبريّة، فعرّبت. ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ للمسلمين ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ أي: ذِكرًا كثيرًا، أو وقتًا كثيرًا، صفة مادحة للمساجد، خُصّت بها دلالةً على فضلها

---

١ ديوان النابغة الذبياني، ص ٤٤.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٠.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٧.

وفضل أهلها. وقيل: صفة للأربع،[١] وليس كذلك، فإنّ بيان ذكر الله عزّ وجلّ في الصوامع والبِيَع والكنائس بعد انتساخ شرعيّتها ممّا لا يَقتضيه المقام، ولا يرتضيه الأفهام.[٢]

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: وبالله لينصرنّ الله مَن يَنصر أولياءه، أو مَن يَنصر دينه، ولقد أنجز الله عزّ سلطانه وعدَه، حيث سلّط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم، وأورثهم أرضَهم وديارَهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على كلّ ما يريده مِن مراداته التي مِن جملتها نصرهم. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شيء ولا يدافعه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وصفٌ مِن الله عزّ وجلّ للذين أُخرجوا مِن ديارهم بما سيكون منهم مِن حُسن السيرة عند تمكينه تعالى إيّاهم في الأرض، وإعطائِه إيّاهم زِمام الأحكام، مُنبئ عن عِدَة كريمة على أبلغ وجه وألطفه.

وعن عثمانَ رضي الله تعالى[٣] عنه: «هذا واللهِ ثناء قبل بلاء».[٤] يريد أنّه تعالى أثنى عليهم قبل أن يُحدِثوا مِن الخير ما أحدَثوا. قالوا: وفيه دليل على صحّة أمر الخلفاء الراشدين؛ / لأنّه تعالى لم يُعطِ التمكين ونفاذ الأمر مع [١٢١ظ] السيرة العادلة غيرَهم مِن المهاجرين، لا حظَّ في ذلك للأنصار والطلَقاء. وعن الحسن رضي الله عنه: «هم أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[٥] وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل مِن قوله: ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾.

---

[١] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤//٧٣.

[٢] قال الشهاب الخفاجي: «كون الذِكر بعد نسخ الشريعة ممّا لا يقتضيه المقام ليس بشيء؛ لأنّ النسخ لا ينافي بقاءَها ببركة ذِكر الله فيها، مع أنّ معنى الآية عامّ لِمَا قبل النسخ، وبه صرّح المفسّرون». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٦/٣٠٠.

[٣] س - تعالى.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٣/١٦٠؛ البحر المحيط لأبي حيان، ٧/٥١٨.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٢٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٦١.

﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصّةً ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فإنّ مرجعها إلى حُكمه وتقديره فقط. وفيه تأكيد للوعد بإظهار أوليائه، وإعلاءِ كلمته.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم متضمّنة للوعد الكريم بإهلاك مَن يعاديه مِن الكفرة، وتعيينٌ لكيفيّة نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ﴾،[1] وبيان لرجوع عاقبة الأمور إليه تعالى.

وصيغة المضارع في الشرط مع تحقّق التكذيب لِمَا أنّ المقصود تسليته عليه السلام عمّا يترتّب على التكذيب مِن الحُزن المتوقَّع،[2] أي: وإن تَحزن على تكذيبهم إيّاك فاعلَم أنّك لستَ بأَوحَديّ في ذلك، فقد كذّبَتْ قبل تكذيب قومك إيّاك قومُ نوح، ﴿وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ أي: رسلَهم ممَّن ذُكر ومَن لم يُذكر، وإنّما حُذف لكمال ظهور المراد، أو لأنّ المراد نفس الفعل، أي: فعلَت التكذيبَ قومُ نوح... إلى آخره.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ غُيّر النظم الكريم بذكر المفعول وبناءِ الفعل له، لا لأنّ قومه بنو إسرائيل، وهم لم يكذّبوه، وإنّما كذّبه القِبط، لِمَا أنّ ذلك إنّما يقتضي عدمَ ذكرهم بعنوان كونهم قومَ موسى، لا بعنوان آخر، على أنّ بني إسرائيل أيضًا قد كذّبوه مرّة بعد أخرى، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة، ٥٥/٢]، ونحو ذلك مِن الآيات الكريمة؛ بل للإيذان بأنّ تكذيبهم له كان في غاية الشناعة؛ لكون آياته في كمال الوضوح.

وقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أمهلتهم حتّى انصَرمت حِبال آجالهم.
[١٢٢و] / و"الفاء" لترتيب إمهال كلّ فريق مِن فِرَق المكذّبين على تكذيب ذلك الفريق،

---

[1] الحج، ٤٠/٢٢.

[2] وفي هامش م: ويجوز أن يكون المراد استمرارهم على التكذيب. «منه».

لا لترتيب إمهال الكلّ على تكذيب الكلّ. ووضع الظاهر مَوضع الضمير العائد إلى المكذّبين لذمّهم بالكفر، والتصريحِ بمكذّبي موسى عليه السلام حيث لم يُذكَروا فيما قبلُ صريحًا.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أخذت كلّ فريق مِن فِرَق المكذّبين بعد انقضاء مدّة إملائه وإمهاله. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بالإهلاك، أي: فكان ذلك في غاية ما يكون مِن الهَول والفظاعة.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ منصوب بمُضمَر يفسّره قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ أي: فأهلكنا كثيرًا مِن القرى بإهلاك أهلها. والجملة بدل مِن قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾،[١] أو مرفوع على الابتداء، و﴿أَهْلَكْنَا﴾ خبره، أي: فكثيرٌ مِن القرى أهلكناها. وقُرئ: "أَهْلَكْتُهَا"[٢] على وَفق قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.[٣] ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ جملة حاليّة مِن مَفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾، لا على ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾؛ لأنّها حال، والإهلاك ليس في حال خَوائِها. فعلى الأوّل لا محلّ له مِن الإعراب كالمعطوف عليه، وعلى الثاني في محلّ الرفع لِعَطفه على الخبر.

و"الخَواء" إمّا بمعنى السقوط، مِن "خَوَى النجمُ" إذا سقَط، فالمعنى: فهي ساقطة حيطانها ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: سُقوفِها، بأن يُعطّل بنيانها، فخرّت سقوفها، ثمّ تهدّمت حيطانها، فسقطت فوق السقوف. وإسناد السقوط على العروش إليها لتنزيل الحيطان منزلة كلّ البنيان؛ لكونها عمدة فيه.

وإمّا بمعنى الخلوّ، مِن "خَوَى المنزلُ" إذا خَلا مِن أهله، فالمعنى: فهي خالية مع بقاء عروشها وسلامتِها، فيكون ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى "مع".

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

٣ في الآية السابقة.

ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ خبرًا بعد خبر، أي: فهي خالية وهي على عروشها، أي: قائمة مشرفة على عروشها، على معنى أنّ السقوف سقَطت إلى الأرض، وبقيت الحيطان قائمةً، فهي مشرفة / على السقوف الساقطة. وإسنادُ [١٢٢ظ] الإشراف إلى الكلّ مع كونه حالَ الحيطان لِمَا مرّ آنفًا.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطف على ﴿قَرْيَةٍ﴾، أي: وكم بئرٍ عامرة في البوادي تُركت لا يُسقى منها لهلاك أهلها. وقُرئ بالتخفيف[١] مِن "أَعْطَلَه" بمعنى "عَطَّلَه".

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مرفوعِ البنيانِ، أو مُجَصَّصٍ، أخليناه عن ساكنيه، وهذا يؤيّد كونَ معنى ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: خالية مع بقاء عروشها.

وقيل: المراد بـ"البئر" بئرٌ بسفح جبل بحضرموت، وبـ"القَصر" قصرٌ مشرف على قُلّته،[٢] كانا لقوم حنظلة بن صفوان مِن بقايا قوم صالح، فلمّا قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطّلهما.[٣]

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حَثّ لهم على أن يسافروا ليَرَوا مَصارع المُهلَكين فيعتبروا، وهم وإن كانوا قد سافروا فيها ولكنّهم حيث لم يسافروا للاعتبار جُعلوا غيرَ مسافرين، فَحُثُّوا على ذلك. و"الفاء" لعطف ما بعدها على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أغَفِلوا فلم يسيروا فيها؟

﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ بسبب ما شاهدوه مِن موادّ الاعتبار، ومظانّ الاستبصار ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُعقل مِن التوحيد ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ما يجب أن يُسمع مِن الوحي، أو مِن أخبار الأمم المهلَكة ممّن يحاورهم مِن[٤] الناس، فإنّهم أعرف منهم بحالهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٠.

[٢] القُلّة: أعلى الجبل. الصحاح للجوهري، «قلل».

[٣] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٧٤.

[٤] م + مِن.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الضمير للقصّة، أو مبهم يفسّره ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾. وفي ﴿تَعْمَى﴾ ضمير راجع إليه، وقد أقيمَ الظاهر مُقامه، ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: ليس الخلل في مشاعرهم، وإنّما هو في عقولهم باتّباع الهوى والانهماك في الغفلة. وذكرُ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ للتأكيد ونفيِ توهّم التجوّز / وفضلِ [١٢٣و]
التنبيه على أنّ العمى الحقيقي ليس المتعارفَ الذي يختصّ بالبصر.

قيل: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَمَن[١] كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء، ٧٢/١٧]، قال ابن أمّ مكتوم: يا رسول الله، أنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى؟ فنزلت.[٢]

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ كانوا منكرين لمجيء العذاب المتوعَّد به أشدّ الإنكار، وإنّما كانوا يستعجلون به استهزاءً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتعجيزًا له على زعمهم، فَحُكِي عنهم ذلك بطريق التخطئة والاستنكار. فقوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ إمّا جملة حاليّة جيء بها لبيان بطلان إنكارهم لمجيئه في ضمن استعجالهم به، وإظهارِ خطئهم فيه، كأنّه قيل: كيف ينكرون مجيء العذاب الموعود، والحال أنّه تعالى لا يخلف وعدَه أبدًا؟ وقد سبق الوعد، فلا بدّ مِن مجيئه حتمًا، أو اعتراضيّة مبنيّة لِما ذُكر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ جملة مستأنفة إن كانت الأولى حاليّة، ومعطوفة عليها إن كانت اعتراضيّة، سيقت لبيان خطئهم في الاستعجال المذكور ببيان كمال سَعة ساحة حِلمه تعالى ووَقاره، وإظهارِ غاية ضيق عَطَنهم[٣] المستتبع لكون المدّة القصيرة عنده تعالى مُدَدًا طِوالًا عندهم،

---

[١] م س: مَن.
[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧/٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٤/٤.
[٣] قولهم: "فلانٌ ضَيِّق العَطَن" معناه: قليل العطاء، ضيق النفس. فكني بالعَطَن عن ذلك. والأصل في "العَطَن": الموضع الذي تَبْرُكُ فيه الإبل إلى الماء إذا شربت. الزاهر للأنباري، ٣٩٣/٢.

حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج، ٧٠/٦-٧]، ولذلك يرون مجيئه بعيدًا، ويتّخذونه ذريعة إلى إنكاره، ويجترئون على الاستعجال به، ولا يدرون أنّ معيار تقدير الأمور كلِّها وقوعًا وأخبارًا ما عنده تعالى مِن المقدار. وقراءة: "يَعُدُّونَ"[١] على صيغة الغيبة -أي: يعدّه المستعجلون- أوفقُ لهذا المعنى، وقد جُعل الخطاب في القراءة المشهورة لهم أيضًا بطريق الالتفات، لكنّ الظاهر أنّه للرسول صلّى الله عليه وسلّم ومَن معه مِن المؤمنين.

وقيل: المراد بوعده تعالى ما جُعل لهلاك كلّ أمّة مِن موعد معيّن وأجل مسمّى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت، ٢٩/٥٣]، فيكون الجملة الأُولى حاليّةً كانت أو اعتراضيّةً مبيّنةً لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل وقته الموعود، والجملةُ الأخيرة بيانًا لبطلانه ببيان ابتنائه على استطالة ما هو قصير عنده تعالى / على الوجه الذي مرّ بيانه، فلا يكون في النظم الكريم حينئذ تعرّض لإنكارهم الذي دسّوه تحت الاستعجال؛ بل يكون الجواب مبنيًّا على ظاهر مقالهم، ويُكتَفَى في ردّ إنكارهم ببيان عاقبة مَن قبلهم مِن أمثالهم. [١٢٣ظ]

هذا، وحَملُ المستعجَلِ به على عذاب الآخرة وجعلُ "اليوم" عبارةً عن يوم العذاب المستطال لشدّته أو عن أيّام الآخرة الطويلة حقيقةً أو المستطالة لشدّة عذابها[٢] ممّا لا يساعده سباق النظم الجليل ولا سياقه، فإنّ كلًّا منهما ناطق بأنّ المراد هو العذاب الدنيوي، وأنّ الزمان الممتدّ هو الذي مرّ عليهم قبل حلوله بطريق الإملاء والإمهال، لا الزمان المقارن له، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾... إلخ؟ فإنّه كما سلف مِن قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾،[٣] صريح في أنّ المراد هو الأخذ العاجل الشديد بعد الإملاء المديد، أي: وكم مِن أهل قرية، فحُذف المضاف، وأُقيمَ المضاف إليه مُقامه في الإعراب ورجعِ الضمائر والأحكام مبالغةً في التعميم والتهويل.

---

[١] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٧.

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٧٤.

[٣] الحج، ٢٢/٤٤.

﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمليت لهؤلاء حتّى أنكَروا مجيء ما وُعِدوا مِن العذاب، واستعجلوا به استهزاءً برسلهم كما فعل هؤلاء. ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ جملة حاليّة مفيدة لكمال حِلمه تعالى، ومشعرةٌ بطريق التعريض بظلم المستعجلين، أي: أمليت لها والحال أنّها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنّكال بعد طول الإملاء والإمهال.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله، ومصرِّحٌ بما أفاده ذلك بطريق التعريض مِن أنّ مآل أمر المستعجلين أيضًا ما ذُكر مِن الأخذ الوبيل، أي: إلى حُكمي مرجعُ الكلّ جميعًا، لا إلى أحد غيري، لا استقلالًا ولا شركةً، فأفعل بهم ما أفعل ممّا يليق بأعمالهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذركم إنذارًا بيّنًا بما أوحي مِن أنباء الأمم المهلَكة مِن غير أن يكون لي دخل في إتيان ما تُوعَدونه مِن العذاب حتّى تستعجلوني به. والاقتصار على الإنذار مع بيان حال الفريقين بعده لِما أشيرَ إليه مِن أنّ مساق الحديث للمشركين وعقابهم، وإنّما ذُكر المؤمنون وثوابهم زيادةً في غيظهم.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لِمَا ندَر منهم مِن الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ / هي الجنّة. و"الكريم" مِن كلّ نوع ما يجمع فضائله ويَحوز كمالاته. [١٢٤و]

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم، طامعين أنّ كيدهم للإسلام يتمّ لهم. وأصله مِن "عاجَزه فأعجَزه وعجَّزه"[١]

---

[١] ط س: وعجّزه فأعجزه. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

إذا سابقه فسبَقه؛ لأنّ كلًّا مِن المتسابِقين يريد إعجاز الآخر عن اللّحاق به. وقُرئ: "مُعَجِّزِينَ"،[1] أي: مثبِّطين الناس عن الإيمان على أنّه حال مقدّرة.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن السعي والمعاجَزة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: ملازِموا النار الموقدة. وقيل: هو اسم دَرَكة مِن دَرَكاتها.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ "الرسول" مَن بعثه الله تعالى بشريعة جديدة يدعو الناس إليها، و"النبيّ" يعمّه ومَن بَعَثَه لتقرير شريعة سابقة، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ولذلك شبّه عليه السلام علماء أمّته بهم. فالنبيّ أعمّ مِن الرسول، ويدلّ عليه أنّه عليه السلام سُئل عن الأنبياء، فقال: «مائةُ ألف وأربعة وعشرون ألفًا» قيل: فكم الرسل منهم؟ فقال: «ثلاثمائة وثلاثةَ عشرَ جمّاء غفيرًا».[2]

وقيل: "الرسول" مَن جمع إلى المعجزة كتابًا منزّلًا عليه، و"النبيّ" غير الرسول مَن لا كتابَ له. وقيل: "الرسول" مَن يأتيه الملَك بالوحي، و"النبيّ" يقال له ولمَن يوحَى إليه في المنام.

[١٢٤ظ] ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: هيّأ في نفسه ما يهواه ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ / في تَشهّيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا، كما قال عليه السلام: «وإنّه لَيُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرّة».[3]

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ فيُبطله ويذهب به بِعصمته عن الركون إليه وإرشاده إلى ما يُزيحه، ﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يُثبت آياته الداعية

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

[2] الكشّاف للزمخشري، ١٦٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/٤. وأخرجه الإمام أحمد في المسند، ٦١٩/٣٦ (٢٢٢٨٨)؛ والحاكم في المستدرك، ٦٥٢/٢ (٤١٦٦).

[3] وأخرجه مسلم في صحيحه، ٢٠٧٥/٤ (٢٧٠٢)، بلفظ: «إنّه لَيُغان على قلبي، وإنّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

إلى الاستغراق في شئون الحقّ. وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجدّدي. وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بأنّ الألوهيّة مِن موجبات أحكام آياته الباهرة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بكلّ ما مِن شأنه أن يُعلَم، ومِن جملته ما صدر عن العباد مِن قول وفعل، عمدًا أو خطأً. ﴿حَكِيمٌ﴾ في كلّ ما يفعل. والإظهار ههنا أيضًا لِما ذُكر، مع ما فيه مِن تأكيد استقلال الاعتراض التذييلي.

قيل: حدّث نفسه بزوال المسكنة، فنزلت.[1] وقيل: تمنّى لحِرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقرّبهم إليه، واستمرّ به ذلك حتّى كان في ناديهم، فنزلت عليه سورة النجم، فأخذ يقرؤها، فلمّا بلغ: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم، ٢٠/٥٣] وسوس إليه الشيطان حتّى سبَق لسانه سهوًا إلى أن قال: «تلك الغرانيق العُلى، وإنّ شفاعتهنّ لَتُرتَجى»، ففرح به المشركون حتّى شايَعوه بالسجود لمّا سجَد في آخرها، بحيث لم يبقَ في المسجد مؤمن ولا مشرك إلّا سجَد، ثمّ نبّهه جبريل عليهما السلام، فاغتمّ به، فعزّاه الله عزّ وجلّ بهذه الآية.[2] وهو مردود عند المحقّقين، ولَئِن صحّ فابتلاءٌ يتميّز به الثابت على الإيمان عن المتزلزِل فيه.

وقيل: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ بمعنى "قرأ"، كقوله:

تمنّى كتابَ الله أوّل ليلةٍ تمنّيَ داودَ الزبورَ على رِسلِ[3]

و﴿أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قراءتِه، و"إلقاءُ الشيطان فيها" أن يتكلّم بذلك رافعًا صوته بحيث ظنّ السامعون أنّه مِن قراءة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. / وقد رُدّ بأنّه أيضًا يُخلّ [١٢٥و]
بالوثوق بالقرآن، ولا يندفع بقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾؛ لأنّه أيضًا يحتمله. وفي الآية دلالة على جواز السهو مِن الأنبياء عليهم السلام وتَطرّقِ الوسوسة.

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٥/٤.

[2] جامع البيان للطبري، ٦٠٤/١٦؛ المعجم الكبير للطبراني، ٣٤/٩ (٨٣١٦).

[3] بغير نسبة في لسان العرب لابن منظور، «مني»، وقال: «أي: تلا كتاب الله مترسّلًا فيه كما تلا داود الزبورَ مترسّلًا فيه».

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ علَّة لِما يُنبئ عنه ما ذُكر مِن إلقاء الشيطان مِن تمكينه تعالى إيّاه مِن ذلك في حقّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خاصّةً كما يُعرب عنه سياق النظم الكريم، لِمَا أنّ تمكينه تعالى إيّاه مِن الإلقاء في حقّ سائر الأنبياء عليهم السلام لا يمكن تعليله بما سيأتي، وفيه دلالة على أنّ ما يلقيه أمر ظاهر يعرفه المُحِقّ والمُبطِل.

﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكّ ونفاق، كما في قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/١٠]. ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: المشركين.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الفريقَين المذكورَين، فوُضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلًا عليهم بالظلم مع ما وُصِفوا به مِن المرض والقساوة. ﴿لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: عداوةٍ شديدةٍ، ومخالفةٍ تامّةٍ. ووصفُ الشقاق بالبعد مع أنّ الموصوفَ به حقيقةً هو مَعروضه للمبالغة. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ﴾ أي: القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: هو الحقّ النازل مِن عنده تعالى. وقيل: ليعلموا أنّ تمكين الشيطان مِن الإلقاء هو الحقّ المتضمّن للحكمة البالغة والغاية الجميلة؛[1] لأنّه ممّا جرت به عادته في جنس الإنس مِن لَدن آدم عليه السلام، فحينئذ لا حاجة إلى تخصيص التمكين فيما سبق بالإلقاء في حقّه عليه السلام، لكن يأباه قوله تعالى: ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، أي: يثبتوا على الإيمان به، أو يزدادوا إيمانًا بردّ ما يلقي الشيطان، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقياد والخشية والإذعان لِمَا فيه مِن الأوامر والنواهي. ورجعُ الضميرين[2] -لا سيّما الثاني- إلى تمكين الشيطان مِن الإلقاء ممّا لا وجه له.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/١٦٦.

٢ وفي هامش م: ضمير ﴿أَنَّهُ﴾ وضمير ﴿بِهِۦ﴾. «منه».

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: في الأمور الدينيّة خصوصًا في المداحض والمشكلات التي مِن جملتها ما ذكر. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو النظر الصحيح الموصل إلى الحقّ الصريح. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكّ وجدال ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن القرآن. وقيل: مِن الرسول صلّى الله عليه وسلّم. / والأوّل هو الأظهر بشهادة ما [١٢٥ظ] سبق مِن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾،[١] وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾،[٢] وما لحق مِن قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.[٣]

وأمّا تجويز كون الضمير لِـ"ما ألقى الشيطان في أمنيّته" فممّا لا مساغ له؛ لأنّ ذلك ليس مِن هَناتهم التي تستمرّ إلى الأمد المذكور؛ بل إنّما هي مِريتهم في شأن القرآن. ولا يُجدي حمل ﴿مِن﴾ على السببيّة دون الابتدائيّة، لِما أنّ مِريتهم المستمرّة كما أنّها ليست مبتدَأة مِن ذلك ليست ناشئةً منه ضرورةَ أنّها مستمرّة منهم مِن لدن نزول القرآن الكريم.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ نفسها كما يُؤذن به قوله تعالى: ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً، فإنّها الموصوفة بالإتيان كذلك، لا أشراطها، وقيل: الموت، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي: يومٍ لا يومَ بعده، كأنّ كلّ يوم يلِد ما بعده مِن الأيّام، فما لا يومَ بعده يكون عقيمًا، والمراد به الساعة أيضًا، كأنّه قيل: أو يأتيهم عذابها، فوُضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل. ولا سبيلَ إلى حمل ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ على أشراطها لِما عرفته.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد يوم حربٍ يقتلون فيه كيوم بدر، سمّي به لأنّ أولاد النساء يقتلون فيه، فيَصرن كأنّهنّ عُقم لم يلِدنَ، أو لأنّ المقاتلين أبناء الحرب،

---

[١] الحج، ٥٢/٢٢.
[٢] الحج، ٥٤/٢٢.
[٣] الحج، ٥٧/٢٢.

فإذا قُتِلوا صارت عقيمًا، أي: ثَكلى فوُصفَ اليوم بوصفها اتّساعًا، أو لأنّه لا خير لهم فيه، ومنه: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات، ٤١/٥١] لِما لم يُنشئ مطرًا، ولم يلقّح شجرًا، أو لأنّه لا مثلَ له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه؛[١] فممّا[٢] لا يساعده سياق النظم الكريم أصلًا، كيف لا وإنّ تخصيص المُلك والتصرّف الكلّي فيه بالله عزّ وجلّ ثمّ بيانَ ما يقع فيه مِن حُكمه تعالى بين الفريقين بالثواب والعذاب الأخرويّين يقضي بأنّ المراد به يوم القيامة قضاءً بيّنًا لا ريب فيه.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ أي: السلطان القاهر، والاستيلاء التامّ، والتصرّف على الإطلاق ﴿يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ وحدَه بلا شريك أصلًا بحيث لا يكون فيه لأحدٍ تصرّف مِن التصرّفات في أمر مِن الأمور، لا حقيقةً ولا مجازًا، ولا صورةً ولا معنًى، كما في الدنيا، فإنّ للبعض فيها تصرّفًا صوريًّا في الجملة.

وليس التنوين نائبًا عمّا يدلّ عليه الغاية مِن زوال مِريتهم كما قيل،[٣] ولا عمّا يستلزمه ذلك مِن إيمانهم كما قيل،[٤] لِما أنّ القيد المعتبَر مع اليوم حيث وُسّط بين طرفَي الجملة يجب أن يكون مدارًا لحُكمها، أعني: كون المُلك لله عزّ وجلّ وما [١٢٦و] يتفرّع عليه مِن / الإثابة والتعذيب، ولا ريب في أنّ إيمانهم أو زوالَ مِريتهم ليس ممّا له تعلّقٌ ما بما ذكر فضلًا عن المداريّة له، فلا سبيل إلى اعتبار شيء منهما مع اليوم قطعًا، وإنّما الذي يدور عليه ما ذكر إتيانُ الساعة التي هي منتهى تصرّفات الخلق ومبدأ ظهور أحكام المَلِكِ الحقّ جلّ جلاله، فإذن هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غايةً لمِريتهم، فالمعنى: المُلك يومَ إذ تأتيهم الساعةَ أو عذابُها لله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ جملة مستأنَفة وقعت جوابًا عن سؤال نشأ مِن الإخبار بكونِ المُلك يومئذ لله تعالى،[٥] كأنّه قيل: فماذا يَصنع بهم حينئذٍ؟ فقيل: يَحكم بين فريقي المؤمنين به والمُمارين فيه بالمُجازاة.

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٦/٤.

٢ السياق: وأمّا ما قيل... فممّا...

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٦/٤.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/٣.

٥ س – تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلخ تفسيرٌ للحكم المذكور وتفصيل له، أي: فالذين آمنوا بالقرآن الكريم ولم يُماروا فيه ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ امتثالًا بما أُمِروا في تضاعيفه ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: مستقِرّون فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: أصرّوا على ذلك واستمرّوا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة مِن الكفر والتكذيب. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الشرّ والفساد، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن الكفر والتكذيب. وهو مبتدأ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ جملة اسميّة مِن مبتدأ وخبر مقدَّم عليه وقعت خبرًا لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أو ﴿لَهُمۡ﴾ خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، و﴿عَذَابٞ﴾ مرتفع على الفاعليّة بالاستقرار في الجارّ والمجرور لاعتماده على المبتدأ. و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مع خبره على الوجهين خبر للموصول، وتصديرُه بـ"الفاء" للدلالة على أنّ تعذيب الكفّار بسبب أعمالهم السيّئة، كما أنّ تجريد خبر الموصول الأوّل عنها للإيذان بأنّ إثابة المؤمنين بطريق التفضّل، لا لإيجاب الأعمال الصالحة إيّاها.

وقوله تعالى: ﴿مُّهِينٞ﴾ صفة لـ﴿عَذَابٞ﴾ مؤكِّدة لِما أفاده التنوين مِن الفخامة. وفيه مِن المبالغة مِن وجوه شتّى ما لا يخفى.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد حسبما يلوّح به قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾ أي: في تضاعيف المهاجَرة. ومحلّ الموصول الرفع على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ جواب لقسَمٍ محذوف، والجملة خبره. ومَن منع وقوع الجملة القسميّة وجوابها / خبرًا للمبتدأ يُضمِر قولًا هو الخبر، والجملة محكيّة به. [١٢٦ظ]

وقوله تعالى: ﴿رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ إمّا مفعول ثان على أنّه مِن باب "الرِّعْي" و"الذِّبْح"، أي: مرزوقًا حسنًا، أو مصدر مؤكِّد، والمراد به ما لا ينقطع أبدًا مِن نعيم الجنّة،

وإنّما سَوّى بينهما في الوعد لاستوائهما في القصد. وأصل العمل على أنّ مراتب الحسن متفاوتة، فيجوز تفاوُت حال المرزوقين حسب تفاوت الأرزاق الحسنة.

ورُوي أنّ بعض أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالوا: «يا نبيّ الله، هؤلاء الذين قُتلوا في سبيل الله قد علمنا ما أعطاهم الله تعالى مِن الخير، ونحن نجاهد معك كما جاهدوا، فما لنا إن مِتنا معك؟»، فنزلت.[١]

وقيل: نزلت في طوائفَ خرجوا مِن مكّة إلى المدينة للهجرة، فتبعهم المشركون فقاتلوهم.[٢]

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنّه يرزق بغير حساب، مع أنّ ما يرزقه لا يَقدر عليه أحد غيرُه. والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾

وقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ بدل مِن قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾،[٣] أو استئناف مقرِّر لمضمونه. و﴿مُّدْخَلًا﴾ إمّا اسم مكان أريدَ به الجنّة، فهو مفعول ثانٍ للإدخال، أو مصدر ميميّ أُكِّد به فعله.

قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[٤] عنهما: «إنّما قيل: ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ لِمَا أنّهم يرون فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيَرضونه».[٥]

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وأحوال مُعاديهم، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك. والجملة لتقرير ما قبله، والتنبيهِ على أنّ ما بعده كلام مستأنَف.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٦٦/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٦/٤.

٢ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٢٩/٧؛ اللباب لابن عادل، ١٣١/١٤.

٣ في الآية السابقة.

٤ س - تعالى.

٥ اللباب لابن عادل، ١٣٢/١٤.

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي: لم يَزد في الاقتصاص، وإنّما سمّي الابتداء بالعقاب الذي هو جزاء الجناية للمشاكلة، أو لكونه سببًا له، ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ / بالمعاودة إلى العقوبة، ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ على مَن بغَى عليه لا محالةَ. [١٢٧و]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: مبالِغ في العفو والغفران، فيعفو عن المنتصِر ويغفر له ما صدر عنه مِن ترجيح الانتقام على العفوِ والصبرِ المندوب إليهما بقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ[1] ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن الصبر والمغفرة ﴿لَمِنْ[2] عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى، ٤٣/٤٢]، فتدبّر،[3] فإنّ فيه حثًّا بليغًا على العفو والمغفرة، فإنّه تعالى مع كمال قدرته لمّا كان يعفو ويغفر فغيرُه أولى بذلك، وتنبيهًا على أنّه تعالى قادر على العقوبة، إذ لا يوصف بالعفو إلّا القادرُ على ضدّه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى النصر. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعلوّ رتبته. ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: بسبب أنّه تعالى مِن شأنه وسنّته تغليبُ بعض مخلوقاته على بعض، والمداولةُ بين الأشياء المتضادّة، وعُبّر عن ذلك بإدخال أحد المَلَوين في الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص عن الآخر، أو بتحصيل أحدهما في مكان الآخر؛ لكونه أظهر الموادّ وأوضحها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ بكلّ المسموعات التي مِن جملتها قول المعاقَب ﴿بَصِيرٌ﴾ بجميع المبصَرات، ومِن جملتها أفعالُه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الاتّصاف بما ذُكر مِن كمال القدرة والعلم. وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ آنفًا. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الواجب لذاته، الثابت في نفسه وصفاته وأفعاله وحدَه، فإنّ وجوب وجوده ووحدتَه

---

١ م ط س: فإنّ.
٢ م ط س: مِن.
٣ ط س – فتدبّر.

يقتضيان كونه مبدأً لكلّ ما يوجد مِن الموجودات عالمًا بكلّ المعلومات أو الثابتَ إلهيّته، فلا يصلح لها إلّا مَن كان عالمًا قادرًا.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهًا. وقُرئ على البناء للمفعول،[١] على أنّ الواو لِـ﴿مَا﴾، فإنّه عبارة عن الآلهة. وقُرئ بالتاء[٢] على خطاب المشركين. ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: المعدوم في حدّ ذاته، أو الباطل ألوهيّته، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ مِن أن يكون له شريك، لا شيءَ أعلى منه شأنًا، وأكبرَ سلطانًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استفهام تقرير كما يفصح عنه الرفع في قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بالعطف على ﴿أَنزَلَ﴾. وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدّد أثر الإنزال واستمراره، أو لاستحضار صورة الاخضرار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصِل لطفه أو علمه إلى كلّ ما جَلّ ودَقّ، ﴿خَبِيرٌ﴾ بما يليق مِن التدابير الحسنة ظاهرًا وباطنًا.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كلّ شيء ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستوجِب للحمد بصفاته وأفعاله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعل ما فيها مِن الأشياء مذلَّلة لكم، مُعدَّة لمَنافعكم، تتصرّفون فيها كيف شئتم، فلا أصلبَ مِن الحجَر، ولا أشدَّ مِن الحديد، ولا أهيبَ مِن النار، وهي مسخّرة لكم. وتقديم الجارّ والمجرور

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٦٨/٣.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر وخلَف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدّم لتعجيل المسرّة، والتشويقِ إلى المؤخّر.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ عطفٌ على ﴿مَا﴾، أو على اسم ﴿أَنَّ﴾. وقُرئ بالرفع على الابتداء.[١]
﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ حال مِن ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ / على الأوّل، وخبر على الأخيرين. [١٢٧ظ]
﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن أن تقع، أو كراهةَ أن تقع، بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك، ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بمشيئته، وذلك يوم القيامة، وفيه ردّ لاستمساكها بذاتها، فإنّها مساوية في الجسميّة لسائر الأجسام القابلة للمَيل الهابط، فتقبله كقَبول غيرها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث هيّأ لهم أسباب معاشهم، وفتح عليهم أبواب المنافع، وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينيّة والتنزيليّة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ بعد أن كنتم جمادًا عناصرَ ونُطفًا، حسبما فُصِّل في مطلع السورة الكريمة، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند مجيء آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ عند البعث. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ أي: جَحود للنعم مع ظهورها، وهذا وصف للجنس بوصف بعض أفراده.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ كلام مستأنَف جيء به لزجر معاصريه عليه السلام مِن أهل الأديان السماويّة عن منازعته عليه السلام ببيان حال ما تمسّكوا به مِن الشرائع، وإظهارِ خطَئهم في النظر، أي: لكلّ أمّة معيّنةٍ مِن الأمم الخالية والباقية ﴿جَعَلْنَا﴾ أي: وضعنا وعيّنّا ﴿مَنسَكًا﴾ أي: شريعة خاصّةً، لا لأمّة أخرى منهم، على معنى:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي والأعرج وطلحة وأبو حيوة والزعفراني. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٠٣.

عيّنّا كلّ شريعة لأمّة معيّنة مِن الأمم بحيث لا تتخطّا أمّةٌ منهم شريعتها المعيّنة لها إلى شريعة أخرى، لا استقلالًا ولا اشتراكًا.

وقوله تعالى: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ صفة لـ﴿مَنسَكًا﴾ مؤكِّدة للقصر المستفاد مِن تقديم الجارّ والمجرور على الفعل. والضمير لكلّ أمّة باعتبار خصوصها، أي: تلك الأمّة المعيّنة ناسكوه والعاملون به، لا أمّةٌ أخرى، فالأمّة التي كانت مِن مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام مَنسكُهم **التوراة** هم ناسكوها والعاملون بها، لا غيرهم، والتي كانت مِن مبعث عيسى إلى مبعث النبيّ عليهم[1] السلام مَنسكُهم **الإنجيل** هم ناسكوه والعاملون به، لا غيرُهم، وأمّا الأمّة الموجودة عند بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومَن بعدهم مِن الموجودين إلى يوم القيامة فهم أمّة واحدة مَنسكُهم الفرقان، ليس إلّا كما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، ٤٨/٥].

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ لترتيب النهي أو موجَبِه[2] على ما قبلها، فإنّ تعيينه تعالى لكلّ أمّة مِن الأمم التي مِن جملتهم هذه الأمّة شريعةً مستقلّةً بحيث لا يتخطّا أمّةً منهم شريعتُها المعيَّنة لها موجِبٌ لطاعة هؤلاء لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعدمِ منازعتهم إيّاه في أمر الدين زعمًا منهم أنّ شريعتَهم ما عُيّن لآبائهم الأوّلين مِن **التوراة والإنجيل**، فإنّهما شريعتان لمَن مضى مِن الأمم قبل انتساخهما، وهؤلاء أمّة مستقلّة مَنسكُهم **القرآن المجيد** فحسب.

والنهي إمّا على حقيقته، أو كناية عن نهيه صلّى الله عليه وسلّم[3] عن الالتفات إلى نزاعهم المبنيّ على زعمهم المذكور، وأمّا جعله عبارة عن نهيه عليه السلام عن منازعتهم[4] فلا يساعده المقام. وقُرئ: "فَلَا يَنْزَعَنَّكَ"[5] على تهييجِه عليه السلام، والمبالغةِ في تثبيته. وأيًّا ما كان فمحلّ النزاع ما ذكرناه،

---

[1] س: عليهما.
[2] م ط س - أو موجَبه. ["صح" في هامش م].
[3] س: عليه السلام.
[4] انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٤٣٧/٣.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن لاحق بن حُميد. المحتسب لابن جنّي، ٨٥/٢.

وتخصيصه بأمر النسائك، وجعلُه عبارة عن قول الخزاعيّين وغيرهم للمسلمين: «ما لكم تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتله الله تعالى»؛[١] ممّا لا سبيل إليه أصلًا، كيف لا وإنّه يستدعي أن يكون أكل الميتة وسائر ما يدينونه مِن الأباطيل مِن جملة المناسك التي جعلها الله تعالى لبعض الأمم، ولا يرتابُ في بطلانه عاقل.

﴿وَٱدْعُ﴾ أي: وَادْعُهُم، أو وادْعُ الناس كافّة، على أنّهم داخلون فيهم دخولًا أوّليًا / ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته حسبما بُيّن لهم في مَنسكهم وشريعتهم، [١٢٨و] ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق موصل إلى الحقّ سويّ. والمراد به إمّا الدين والشريعة، أو أدلّتها.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ بعد ظهور الحقّ بما ذُكر مِن التحقيق ولزوم الحجّة عليهم ﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيد: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن الأباطيل التي مِن جملتها المجادلة.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالثواب والعقاب، كما فصل في الدنيا بالحُجج والآيات ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمر الدين.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ استئناف مقرّر لمضمون ما قبله، والاستفهام للتقرير، أي: قد علمتَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء مِن الأشياء التي مِن جملتها ما يقوله الكفرة وما يعملونه.

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ١٦٩/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٨/٤.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما في السماء والأرض ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ هو اللوح، قد كُتِب فيه قبل حدوثه، فلا يهمّنّك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن العلم والإحاطة به وإثباته في اللوح، أو الحكمَ بينهم[١] ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنّ علمه وقدرته مقتضى ذاته، فلا يخفى عليه شيء، ولا يعسر عليه مقدور.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٧١﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حكاية لبعض أباطيل المشركين، وأحوالِهم الدالّة على كمال سخافة عقولهم ورَكاكة آرائهم، هي بناءُ أمر دينهم على غير مبنًى مِن دليل سمعي أو عقلي، وإعراضُهم عمّا أُلقي عليهم مِن سلطانٍ بيّن هو أساس الدين وقاعدته أشدَّ إعراض، أي: يعبدون متجاوزين عبادةَ الله ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي: بجواز عبادته ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجّة، ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ﴾ أي: بجواز عبادته ﴿عِلْمٌ﴾ مِن ضرورة العقل أو استدلاله.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم الذي يقضي ببطلانه وكونِه ظلمًا بديهةُ العقول ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقريرِ رأيهم أو بدفع العذاب الذي يعتريهم بسببِ ظلمهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٢﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ عطفٌ على ﴿يَعْبُدُونَ﴾،[٢] وما بينهما اعتراض. وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجدّدي. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الحقّة والأحكام الصادقة، أو على بطلان ما هم عليه مِن عبادة الأصنام، أو على كونها مِن عند الله عزّ وجلّ.

---

١ ط س: بينكم.

٢ في الآية السابقة.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: الإنكارَ، كـ"المُكرَم" بمعنى "الإكرام"، أو الفظيعَ مِن التجهّم والبُسور، أو الشرَّ الذي يقصدونه بظهور مَخائله مِن الأوضاع والهيئات، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يَثِبون ويبطشون بهم مِن فَرْط الغيظ والغضب لأباطيلَ أخذوها تقليدًا، وهل جهالةٌ أعظمُ وأطمُّ مِن أن يعبدوا ما لا يُوهِم صحّةَ عبادته شيءٍ ما أصلًا؛ بل يقضي ببطلانها العقل والنقل، ويُظهِروا لِمَن يهديهم إلى الحقّ البيّن بالسلطان المبين مثلَ هذا المنكرِ الشنيع؟ كلّا، ولهذا وُضع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ موضع الضمير.

﴿قُلْ﴾ ردًّا عليهم وإقناطًا عمّا يقصدونه مِن الإضرار بالمسلمين: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أأُخاطبكم فأخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فيكم مِن غيظكم على التالين وسَطوتِكم بهم، أو ممّا تبغونهم مِن الغوائل، أو ممّا أصابكم مِن الضجَر بسبب ما تلَوه عليكم؟

/ ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هو النار، على أنّه جواب لسؤال مقدَّر، كأنّه قيل: ما هو؟ [١٢٨ظ]
وقيل: هو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. وقُرئ: "النّارَ"[١] بالنصب على الاختصاص، وبالجرّ[٢] بدلًا مِن ﴿شَرٍّ﴾، فيكون الجملة الفعليّة استئنافًا كالوجه الأوّل، أو حالًا مِن ﴿ٱلنَّارُ﴾ بإضمار "قد". ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: النار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: بُيِّن لكم حالٌ مستغرَبة، أو قصّةٌ بديعة رائعة حقيقةٌ بأن تُسمّى مَثلًا، وتُسَيَّرَ في الأمصار والأعصار، أو جُعل لله مَثلٌ، أي: مِثلٌ في استحقاق العبادة، وأريدَ بذلك ما حُكي عنهم مِن عبادتهم للأصنام.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم بن نوح عن قتيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: للمَثَل نفسه استماعَ تدبّر وتفكّر، أو فاستمعوا لِأجله ما أقول، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾... إلخ بيان للمَثَل وتفسير له على الأوّل، وتعليلٌ لبطلان جعلهم الأصنام مِثلًا لله سبحانه في استحقاق العبادة على الثاني. وقُرئ بياء الغيبة مبنيًا للفاعل[١] ومبنيًا للمفعول،[٢] والراجع إلى الموصول على الأوّلَين محذوف.

﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ أي: لن يقدِروا على خلقه أبدًا مع صِغره وحَقارته، فإنّ ﴿لَن﴾ بما فيها مِن تأكيد النفي دالّةٌ على مُنافاة ما بين المنفيّ والمنفيّ عنه. ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي: لِخَلقه، وجواب ﴿لَو﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة معطوفة على شرطيّةٍ أخرى محذوفةٍ ثقةً بدلالة هذه عليها، أي: لو لم يجتمعوا عليه لن يخلقوه، ولو اجتمعوا له لن يخلقوه، كما مرّ تحقيقه مِرارًا، وهما في موضع الحال، كأنّه قيل: لن يخلقوا ذبابًا على كلّ حال.

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ بيان لعجزهم عن الامتناع عمّا يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خَلقه، أي: إن يأخذ الذباب منهم شيئًا ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ مع غاية ضعفه، ولقد جُهّلوا غايةَ التجهيلِ في إشراكهم بالله القادر على جميع المقدورات المتفرّد بإيجاد كافّة الموجودات تماثيلَ هي أعجز الأشياء، وبيّن ذلك بأنّها لا تقدر على أقلّ الأحياء وأَذَلّها ولو اتّفقوا عليه؛ بل لا يقوى على مقاومة هذا الأقلّ الأذلّ ويَعجِز عن ذَبّه عن نفسها واستنقاذِ ما يختطفه منها.

قيل: كانوا يطيّبونها بالطيب والعسل، ويغلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب مِن الكُوى[٣] فيأكله.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ أي: عابد الصنم ومعبوده، أو الذبابُ الطالب لِما يسلبه عن الصنم مِن الطيب والصنمُ المطلوبُ منه ذلك، أو الصنمُ والذباب،

---

[١] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٧/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وموسى الأسواري. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٣٧/٧.

[٣] الكُوى مفرد الكُوَة، وهي نَقب البيت. **الصحاح** للجوهري، «كوى».

كأنّه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه، ولو حقّقتَ وجدتَ الصنمَ أعجزَ مِن الذباب بدرجات، وعابِدَه أجهلَ مِن كلّ جاهل، وأضلَّ مِن كلّ ضالّ.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي: ما عرفوه حقّ معرفته حيث أشركوا به وسمّوا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبةً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلق الممكنات بأسرها، / وإفناء الموجودات عن آخرها. ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع الأشياء، [١٢٩و]
وقد عُرفتْ حالُ آلهتهم المقهورةِ لِأذلّها العجزةِ عن أقلّها. والجملة تعليل لِما قبلها مِن نفي معرفتهم له تعالى.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ٧٥﴾

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسّطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحي، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم المختصّون بالنفوس الزكيّة، المؤيَّدون بالقوّة القدسيّة، المتعلِّقون بكِلا العالمَين الروحاني والجسماني، يتلقّون مِن جانبٍ ويُلْقُون إلى جانبٍ، ولا يَعوقهم التعلّق بمصالح الخلق عن التبتّل إلى جناب الحقّ، فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلّمونهم شرائعه وأحكامه، كأنّه تعالى لمّا قرّر وحدانيّته في الألوهيّة، ونَفَى أن يشاركه فيها شيء مِن الأشياء بيّن أنّ له عبادًا مصطفَين للرسالة، يُتوسَّل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادته عزّ وجلّ، وهو أعلى الدرجات وأقصى الغايات لمَن عداه مِن الموجودات تقريرًا للنبوّة وتزييفًا لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون، ٢٤/٢٣]، وقولِهم: "إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زُلفى"،[١] وقولِهم: "الملائكة بنات الله"،[٢] وغيرِ ذلك مِن الأباطيل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ عليم بجميع المسموعات والمبصرات، فلا يخفى عليه شيء مِن الأقوال والأفعال.

---

١ قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر، ٣/٣٩].

٢ قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل، ٥٧/١٦].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لا إلى أحدٍ غيره، لا اشتراكًا ولا استقلالًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ أي: في صلواتكم، أمرهم بهما لِما أنّهم ما كانوا يفعلونهما أوّلَ الإسلام، أو صلّوا، عُبّر عن الصلاة بهما لأنّهما أعظم أركانها، أو اخضعوا لله تعالى، وخرّوا له سجّدًا.

﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبّدكم به، ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ وتحرّوا ما هو خير وأصلح في كلّ ما تأتون وما تذرون، كنوافل الطاعات، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: افعلوا هذه كلّها وأنتم راجون بها الفلاح غير متيقّنين له واثقين بأعمالكم.

والآية آية سجدة عند الشافعي رحمه الله[١] لظاهر ما فيها مِن الأمر بالسجود، ولقوله عليه السلام: «فُضّلت سورة الحجّ بسجدتين، مَن لم يسجدهما فلا يقرأها».[٢]

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: لله تعالى ولأجله أعداءَ دينه الظاهرةَ كأهل الزيغ، والباطنةَ كالهوى والنفس. وعنه عليه السلام أنّه رجع عن غزوة تبوك فقال:

---

١ انظر: المجموع للنووي، ٥٩/٤.

٢ المعجم الكبير للطبراني، ٣٠٧/١٧ (٨٤٦)؛ المستدرك للحاكم، ٣٤٣/١ (٨٠٥).

«رجعنا مِن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».[١] ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي: جهادًا فيه حقًّا خالصًا لوجهه، فعُكِس وأضيفَ "الحقّ" إلى "الجهاد" مبالغةً، كقولك: "هو حقُّ عالِمٍ"، وأضيف "الجهاد" إلى الضمير اتّساعًا، أو لأنّه مختصّ به تعالى مِن حيث إنّه مفعول لوجهه ومِن أجله.

﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ أي: هو اختاركم لدينه ونصرته، / لا غيره. وفيه تنبيه على ما يقتضي الجهادُ ويدعو إليه. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ أي: ضِيقٍ بتكليف ما يشقّ عليكم إقامته إشارةً إلى أنّه لا مانعَ لهم عنه، ولا عذرَ لهم في تركه، أو إلى الرخصة في إغفال بعض ما أمرهم به حيث يشقّ عليهم؛ لقوله عليه السلام: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم».[٢] [١٢٩ظ]

وقيل: ذلك بأن جعل لهم مِن كلّ ذنب مخرجًا، بأن رخّص لهم في المضائق، وفتح عليهم باب التوبة، وسوّغ لهم الكفّارات في حقوقه، والأروشَ[٣] والدياتِ في حقوق العباد.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ نصب على المصدر بفعل دلّ عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف، أي: وسّع عليكم دينكم توسعةَ ملّةِ أبيكم، أو على الإغراء، أو على الاختصاص، وإنّما جعله أباهم لأنّه أبو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو كالأب لأمّته مِن حيث إنّه سبب لحياتهم الأبديّة ووجودِهم على الوجه المعتدّ به في الآخرة، أو لأنّ أكثر العرب كانوا مِن ذُرّيته عليه السلام، فغُلِّبوا على غيرهم.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ في الكتب المتقدّمة ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي: في القرآن. والضمير لله تعالى، ويؤيّده أنّه قُرئ: "اللهُ سَمَّاكُمْ"،[٤] أو لإبراهيم،

---

[١] أخرجه البيهقي في الزهد، ص ١٦٥ (٣٧٣)، عن جابر رضي الله عنه قال: قَدم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قوم غزاة، فقال صلّى الله عليه وسلّم «قدمتم خير مَقدم، مِن الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد هواه». قال البيهقي: «هذا إسناد ضعيف». وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/٣٩٥.

[٢] صحيح البخاري، ٩/٩٤ (٧٢٨٨)؛ صحيح مسلم، ٢/٩٧٥ (١٣٣٧).

[٣] الأروش: جمع الأرْش، وهو دية الجراحات. الصحاح للجوهري، «أرش».

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/١٧٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٤٠.

وتسميتهم بالمسلمين في القرآن وإن لم تكن منه عليه السلام كانت بسبب تسميته مِن قبلُ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة، ١٢٨/٢]. وقيل: ﴿فِي هَٰذَا﴾ تقديره: في هذا بيانُ تسميته إيّاكم مسلمين.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يوم القيامة، متعلّق بـ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾. ﴿شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ بأنّه بلّغكم، فيدلّ على قبول شهادته لنفسه اعتمادًا على عصمته، أو بطاعة مَن أطاع، وعصيانِ مَن عصى.

﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتبليغ الرسل إليهم. ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: فتقرّبوا إلى الله تعالى بأنواع الطاعات. وتخصيصهما بالذكر لإنافتهما وفضلهما.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: ثِقوا به في مجامع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلّا منه. ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ ناصركم ومتولّي أموركم، ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ إذ لا مِثل له في الولاية والنصرة؛ بل لا وليَّ ولا نصيرَ في الحقيقة سواه عزّ وجلّ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحجّ أعطيَ مِن الأجر كحِجّة حَجّها وعمرة اعتمرها بعدد مَن حجّ واعتمر فيما مضى وما بقي».[١]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٥/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٧/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٢٢

سورة الحج

مكية إلاَّ «ومِن الناس مَن يعبد الله» الآيتين، أو إلاَّ «هذان خصمان» الستَّ آيات فمدنيات، وهي أربعٌ أو خمس أو ست أو سبع أو ثمان وسبعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿**يا أيُّها النّاسُ**﴾: أي أهلَ مكّة وغيرَهم، ﴿**اتَّقوا رَبَّكُم**﴾ أي: عِقابَه بأن تُطيعوه. ﴿**إنَّ زَلزَلَةَ السّاعةِ**﴾ أي: الحركةَ الشديدة للأرض التي يكون بعدها طلوع الشمس من مغربها، الذي هو قُرب الساعة، ﴿**شَيءٌ عَظِيمٌ**﴾ في إزعاج الناس، الذي هو نوع من العِقاب، ٢ ـ ﴿**يَومَ تَرونَها تَذهَلُ**﴾ بسببها ﴿**كُلُّ مُرضِعةٍ**﴾ بالفعل ﴿**عَمّا أرضَعَتْ**﴾ أي: تنساه، ﴿**وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَملٍ**﴾........

سورة الحج

قولُهُ: (أَيْ) ندائيَّةٌ أو تفسيريَّةٌ.

وقولُهُ: (أَهْلَ مَكَّةَ) أصلاً وأوَّلاً.

وقولُهُ: (وَغَيْرَهُم) تبعاً وآخِراً.

قوله: (عِقَابَهُ) أو مخالفتَهُ.

قوله: (قُرْبُ السَّاعَةِ) وإضافتُها إلى السَّاعةِ لأنَّها من أشراطِها.

قوله: (بالفِعْلِ) يعني: لا بالقوَّةِ، فلا تكونُ الآية من بابِ التَّمثيلِ والتَّخييلِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ بالمُرضِعَةِ وصفُها بالفعلِ لا بالقوَّةِ؛ ولهذا أدخلَ فيه التَّاءَ مع أنَّ هذا الوصفَ مخصوصٌ بالنِّساءِ.

قوله: (تَنْسَاهُ) الذُّهولُ: الذَّهابُ عن الأمرِ بدَهشةٍ.

أي: حُبلَى ﴿حَملَها، وتَرَى النّاسَ سُكارَى﴾ من شِدّة الخوف، ﴿وما هُم بِسُكارَى﴾ من الشراب، ﴿ولكِنَّ عَذابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾، فهم يخافونه.

ونزل في النضر بن الحارث وجماعة: ٣ ـ ﴿ومِنَ النّاسِ مَن يُجادِلُ في اللهِ بغَيرِ عِلمٍ﴾، قالوا: «الملائكة بناتُ الله، والقُرآنُ أساطيرُ الأوّلِين»، وأنكروا البعث وإحياء من صار ترابًا، ﴿ويَتّبِعُ﴾ في جِداله ﴿كُلَّ شَيطانٍ مَرِيدٍ﴾ أي: مُتمرّد، ٤ ـ ﴿كُتِبَ علَيهِ﴾: قُضي على الشيطان ﴿أنَّهُ مَن تَوَلاّهُ﴾ أي: اتّبعَه ﴿فأنّهُ يُضِلُّهُ، ويَهدِيهِ﴾: يدعوه ﴿إلَى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ أي: النارِ.

٥ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ﴾ أي: أهلَ مكّة، ﴿إن كُنتُم في رَيبٍ﴾: شكّ ﴿مِنَ البَعثِ فإنّا خَلَقْناكُم﴾.....

قولُهُ: (أي: حُبْلَى) يعني: تُسقِطُ جنينَها.

قوله: (مِن شِدَّةِ الخَوْفِ) كأنَّهم سُكارى.

قولُهُ: (مِنَ الشَّرَابِ) على الحقيقةِ.

قوله: (فَهُم يَخَافُونَهُ) لِمَا يلحقُهُم هولُهُ بحيثُ طيَّرَ عقولَهُم وأذهبَ تمييزَهُم، وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: (سَكرى) كعَطْشى[١]؛ إجراءً للسُّكرِ مُجرى العِللِ؛ لأنَّ فَعلى خاصٌّ بالعِللِ كمَرضَى وجَرحَى وقَتلى.

قوله: (في جِدَالِهِ) أو عامَّةِ أحوالِهِ.

قوله: (أي: مُتَمَرِّدٍ) أي: مُتجرِّدٍ للفَسادِ، وأصلُهُ: العُرْيُ، ومنه المَرَدُ[٢].

قوله: (أي: اتَّبَعَهُ) والضَّميرُ الأوَّلُ للشَّأنِ، أو الشَّيطانِ.

قولُهُ: (يَدْعُوهُ) أي: بالحَملِ على ما يُؤدِّي إليهِ، قالَ القاضي: قُرِئَ ـ يعني: ﴿فأنَّهُ﴾ ـ بالفتحِ على تقديرِ: فشأنُه أنّه يُضلُّهُ[٣]. فأوهَمَ أنّه شاذٌّ، والكسرُ متواترٌ، والحالُ أنَّ الأمرَ بالعَكسِ[٤].

قوله: (أي: أَهْلَ مَكَّةَ) وكذلك غيرُهُم.

قوله: (شَكٌّ ﴿مِنَ البَعْثِ﴾) أي: من إمكانِهِ وكونِهِ مقدوراً (﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: أصلَكم) أي: فانظُروا في بدءِ خلْقِكُم فإنَّهُ يُزيلُ ريبكُم ﴿فإنّا خلقْناكُم مِن ترابٍ﴾ بخلقِ آدمَ منه، أو الأغذيةِ التي يتكوَّنُ منها المنيُّ، فجوابُ الشَّرطِ مقدَّرٌ، وقولُهُ: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ بيانُ بدءِ الخلقِ، فتأمَّل.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧٢).

(٢) رملة مرداء: لا نبت فيها. وغصن أمرد: لا ورق عليه. وفرس أمرد: لا شعر على ثنته. وغلام أمرد بين المرد. انظر: «الصحاح» (مادة: مرد).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٦٤).

(٤) أي: (فإنه) قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٩٦) ونسبت للنخعي عن أبي عمرو والأعمش.

أي: أصلكم آدمَ ﴿مِن تُرابٍ، ثُمَّ﴾ خلقنا ذُرّيّته ﴿مِن نُطْفةٍ﴾ منيٍّ، ﴿ثُمَّ مِن عَلَقةٍ﴾ وهي الدم الجامد، ﴿ثُمَّ مِن مُضْغةٍ﴾ وهي لحمةٌ قدرُ ما يُمضغ، ﴿مُخَلَّقةٍ﴾: مُصوّرة تامّة الخَلق، ﴿وغَيرِ مُخَلَّقةٍ﴾ أي: غير تامّة الخلق، ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُم﴾ كمال قُدرتنا، لتستدلّوا بها في ابتداء الخلق على إعادته، ﴿ونُقِرُّ﴾ ـ مُستأنفٌ ـ ﴿في الأرحامِ ما نَشاءُ إلَى أجَلٍ مُسَمًّى﴾: وقتِ خُروجه، ﴿ثُمَّ نُخرِجُكُم﴾ من بطون أُمّهاتكم ﴿طِفلاً﴾ بمعنى: أطفالاً، ﴿ثُمَّ﴾ نُعمّركم ﴿لِتَبلُغُوا أشُدَّكُم﴾ أي: الكمال والقُوّة ـ وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين سنة ـ ﴿ومِنكُم مَن يُتَوَفَّى﴾: يموتُ قبل بلوغ الأشُدّ، ﴿ومِنكُم مَن يُرَدُّ إلَى أرذَلِ العُمُرِ﴾: أخسّه من الهرم والخرف، ﴿لِكَيلا يَعلَمَ مِن بَعدِ عِلمٍ شَيئًا﴾ ـ قال عِكرمة: مَن قرأ القرآن لم يصِر بهذه الحالة ـ ﴿وتَرَى الأرضَ هامِدةً﴾: يابسة،..........

قولُهُ: (مَنِيٍّ) المرادُ به: الجِنسُ.

قوله: (وهِيَ الدَّمُ) أي: قطعةٌ من الدَّمِ جامِدةٌ.

قوله: (وهِيَ لَحْمَةٌ) أي: قطعَةٌ من اللَّحمِ، وهي في الأصلِ: (قَدْرُ ما يُمضَغُ).

قوله: (تَامَّةُ الخَلْقِ) الظَّاهرُ، أن التَّامَّةَ ضدُّها السَّاقطةُ، أو المعنى: مُسوَّاةٌ لا نقصَ فيها ولا عيبَ، وغيرُ مُسوَّاةٍ.

قوله: (كَمَالَ قُدْرَتِنَا) وحكمَتِنا بهذا التَّدريجِ، وأنَّ ما قَبِلَ التَّغيُّرَ والفسادَ والتَّكوُّنَ مرةً قَبلَها أُخرى، وأنَّ مَن قدرَ على تغييرِهِ وتصويرِهِ أوَّلًا قدرَ على ذلك ثانياً، وحُذِفَ المفعولُ إيماءً إلى أنَّ أفعالَهُ هذه يُتبيَّنُ بها مِن قدرتِهِ وحكمتِهِ ما لا يحيطُ به الذِّكرُ.

قوله: (وَقْتَ خُرُوجِهِ) ووضعِهِ، وأدناهُ بعد ستَّةِ أشهرٍ، وأقصاهُ أربعُ سنينَ عندَ الشَّافعيِّ(١)، وسنتانِ عندَنا(٢).

قولُهُ: (بِمَعْنَى: أَطْفَالاً) حالٌ أُجريَتْ على تأويلِ كلِّ واحدٍ، أو الدَّلالةِ على الجنسِ، أو لأنَّهُ في الأصلِ مصدرٌ.

قوله: (أي: الكَمَالَ والقُوَّةَ) الظَّاهرُ: كمالَكُم في القوَّةِ والعَقلِ.

قوله: (قَبْلَ بُلُوغِ الأَشُدِّ) أو عندَه.

قولُهُ تعالى: (﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾) أي: ليَعودَ كهيئتِهِ الأولى في أوانِ الطُّفوليَّةِ من سخافَةِ العقلِ وقلَّةِ الفهمِ، فينسى ما علمَهُ وينكرُ ما عرفَهُ.

وفي الآيةِ استدلالٌ ثانٍ على إمكانِ البَعثِ بما يعتَري الإنسانَ في أسنانِهِ من الأمورِ المختلفَةِ والأحوالِ المتضادَّةِ الَّتي لا يُمكِنُ لأحدٍ إنكارُها، فمَن قدرَ على ذلك قدرَ على نظائرِها.

---

(١) انظر: «الحاوي الكبير» (١١/ ٢٠٥).

(٢) انظر: «الهداية» (٢/ ٢٨٢).

﴿فإذا أنزَلْنا علَيها الماءَ اهتزَّتْ﴾: تحرّكت، ﴿وربَتْ﴾: ارتفعت وزادت، ﴿وأنبَتَتْ مِن﴾: زائدةٌ ﴿كُلِّ زَوجٍ﴾: صنفٍ ﴿بَهِيجٍ﴾: حسن.

٦ ـ ٧ ـ ﴿ذلِكَ﴾ المذكور من بدء الخلق للإنسان إلى آخر إحياء الأرض ﴿بِأنَّ﴾: بسببِ أنّ ﴿اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾: الثابت الدائم، ﴿وأنّهُ يُحيِي المَوتَى، وأنّهُ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، وأنَّ السّاعةَ آتِيةٌ لا رَيبَ﴾: شكَّ ﴿فِيها، وأنَّ اللهَ يَبعَثُ مَن في القُبُورِ﴾.

ونزل في أبي جهل: ٨ ـ ﴿ومِنَ النّاسِ مَن يُجادِلُ في اللهِ بِغَيرِ عِلمٍ ولا هُدًى﴾ معه ﴿ولا كِتابٍ مُنِيرٍ﴾: له نورٌ معه، ٩ ـ ﴿ثانِيَ عِطفِهِ﴾: حالٌ أي: لاوِيَ عُنقِه تكبّرًا عن الإيمان ـ والعِطفُ: الجانب عن يمين أو شِمال ـ ﴿لِيَضِلَّ﴾، بفتح الياء وضمِّها، ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: دِينه. ﴿لَهُ في الدُّنيا خِزْيٌ﴾:

قولُهُ: (تحرَّكَتْ) بالنَّباتِ.

قوله: (ارْتَفَعَتْ) هذا يلائِمُ قراءَةَ أبي جعفرٍ بالهمزَةِ[1].

قوله: (زَادَتْ) وانتفخَتْ.

قوله: (﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ) الظَّاهرُ أنّها تبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ كلَّ مرَّةٍ ما تُنبتُ كلَّ زوجٍ.

قوله: (حَسَنٍ) وهذه دلالَةٌ ثالثةٌ كرَّرَها اللهُ تعالى في كتابِهِ لظهورِها وكونِها مشاهَدةً.

قولُهُ: (الثَّابِتُ) في نفسِهِ، الَّذي بِهِ تتحقَّقُ الأشياءُ.

قولُهُ تعالى: (﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ﴾) أي: والأمرُ والشَّأنُ أنَّ السَّاعةَ.

قوله: (مَعَهُ) كرَّرَهُ[2] للتَّأكيدِ، ولِمَا تَعَلَّقَ به[3] من الدِّلالةِ بقولِهِ: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ على أنَّهُ لا سندَ لهُ من استدلالٍ أو وحيٍ، أو المرادُ بالهُدَى: السُّنَّةُ، والمرادُ بالعلمِ: النَّظريُّ، ليصحَّ عطفُ الهُدى والكتابِ عليهِ، والحاصلُ: أنّه يُجادِلُ بالتَّقليدِ.

قوله: (حَالٌ) أي: متكبِّرًا، وثنيُ العِطْفِ كنايَةٌ عن التَّكبرِ، أو: مُعرِضاً عن الحقِّ.

قوله: (بفَتْحِ اليَاءِ) مكّيٌّ وبصريٌّ[4]، واللَّامُ للصَّيرورةِ والعاقِبةِ.

---

(١) أي: (وربأت). انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٣٠٥).

(٢) أي: كرر قوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ كما يدل عليه كلام البيضاوي.

(٣) في النسخ: «ولا تعلق»، والمثبت مستفاد من كلام البيضاوي، ولفظه: «ولما نيط به... ».

(٤) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٧٢).

عذاب فقُتل يوم بدر، ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: الإحراقِ بالنار، ويقال له: ١٠ ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ أي: قدمَته ـ عُبِّرَ عنه بهما دُون غيرهما لأنّ أكثر الأفعال تُزاول بهما ـ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ﴾ أي: بذي ظُلم ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾، فيُعذّبهم بغير ذنب.

١١ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ أي: شكٍّ في عِبادته ـ شُبّهَ بالحالّ على حرف جبل

قوله: (فَقُتِلَ) كلٌّ من النَّضرِ وأبي جهلٍ[1].

قوله: (أي: الإِحْرَاقِ) أو: المُحْرق[2].

قوله: (ويُقَالُ لَهُ) يَومَ القيامةِ، وقيل: التفات.

قولُهُ: (أي: قَدَّمْتَهُ) أي: ذلك الخزيُ والعَذابُ بسببِ ما اقترفْتَهُ مِن الكفرِ والمعاصي، فالتّاءُ للخطابِ، أو للتأنيثِ، فيكونُ إشارةً إلى أنَّ ﴿مَا﴾ موصولَةٌ.

قوله: (دُوْنَ غَيرِهِمَا) مع أنَّ بعضَ الأفعالِ يكونُ بغيرِهِما.

قوله: (تُزَاوَلُ) تُعالَجُ.

قوله: (أي: بِذِيْ ظُلْمٍ) ففعَّالٌ للنِّسبةِ كتمَّارٍ وخيَّاطٍ، وقيلَ: إنَّه للمُبالغَةِ؛ لكثرةِ العبيدِ، فيَكونُ لمقابَلَةِ الوَصْفِ الموضوعِ للكثيرِ بالجمعِ الكَثيرِ.

قولُهُ: (فَيُعَذِّبَهُم بِغَيْرِ ذَنْبٍ) فيه: أنَّه ثبتَ في الحديثِ الصَّحيحِ: «لو أنَّ اللهَ عذَّبَ أهلَ سماواتِهِ وأهلَ أرضِهِ[3]؛ عذَّبَهُم وهُوَ غيرُ ظالمٍ لهُم»[4] فالأَولى أن يُقالَ: وإنَّما هو مُجازٍ لهم على أعمالِهِم لا ينقصُ منها شيئًا ولا يزيدُ، بل جزاءً وفاقاً بمُقتضَى العدلِ، ولهُ أنْ يخصَّ مَن شاءَ بما شاءَ بموجِبِ الفضلِ.

ويمكِنُ الجمعُ بينَهُما: بأنَّ الظُّلمَ في الآيةِ بمعنى وضعِ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ، وفي الحديثِ بالتَّصرُّفِ في ملكِ الغيرِ، مع أن الشَّرطيَّةَ لا تقتَضِي الوقوعَ.

قوله: (شَكٍّ) أي: على طرفٍ من الدِّينِ لا ثباتَ له فيهِ.

قوله: (بالحَالِ) النَّازلِ.

قوله: (عَلَى حَرْفِ جَبَلٍ) أو: على طَرفِ جيشٍ، فإن أحسَّ بظَفرٍ قرَّ وإلا فرَّ.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٥٦٦)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ١٥).

(٢) فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة والمراد: العذابَ الحريقَ؛ أي: المحرق جدا. انظر: «روح المعاني» (٩/ ١١٨).

(٣) في (د): «السموات... الأرض».

(٤) رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد في «مسنده» (٢١٥٨٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٢٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٩)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

في عدم ثباته ـ ﴿فإن أصابَهُ خَيرٌ﴾: صِحّة وسلامة في نفسه وماله ﴿اطمأَنَّ بِهِ، وإن أصابَتهُ فِتنَةٌ﴾: مِحنة وسَقم في نفسه وماله ﴿انقلَبَ علَى وَجهِهِ﴾ أي: رجَعَ إلى الكُفر، ﴿خَسِرَ الدُّنيا﴾ بفوات ما أمّله منها ﴿والآخِرَةَ﴾ بالكُفر ـ ﴿ذلِكَ هُوَ الخُسرانُ المُبِينُ﴾: البيِّن ـ ١٢ ـ ﴿يَدعُو﴾: يعبد، ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ من الصنم ﴿ما لا يَضُرُّهُ﴾ إن لم يعبده، ﴿وما لا يَنفَعُهُ﴾ إن عَبَدَه ـ ﴿ذلِكَ﴾ الدعاء ﴿هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ﴾ عن الحقّ ـ ١٣ ـ ﴿يَدعُو لَمَن﴾، اللام: زائدة، ﴿ضَرُّهُ﴾ بعِبادته........

قوله: (بِفَوَاتِ) وبذهابِ عصمتِه.

قولُهُ: (بالكُفرِ) أي: يحبطُ عملُهُ بالارتدادِ.

قوله: (البَيِّنُ) إذ لا خسرانَ مثلُه، قيل: الخُسرانُ في الدُّنيا: تركُ الطَّاعاتِ ولُزومُ المخَالفاتِ، وفي الآخرةِ: كثرةُ الخصُومِ والتَّبِعاتِ.

قوله: (إنْ عَبَدَهُ) وقالَ ابنُ عطاءٍ: مَن ركَنَ إلى غيرِهِ تعالى فقد ركنَ إلى ما لا يضرُّهُ ولا ينفعُه[1].

قال القاضي: أي: جَماداً لا يضرُّ بنفسِهِ ولا ينفعُ[2]. يعني: أصلًا لا مبَاشرةً ولا تسبُّباً، بخلافِ جانِبِ الضُّرِّ، فإنَّه قد يكونُ سبباً لهُ.

قال البغويُّ: هذه الآيةُ من مُشكِلاتِ القُرآنِ[3]؛ يعني: أنَّها تَنفي النَّفعَ والضُّرَّ، والَّتي بعدها تُثبِتُهُما، وحاصِلُ التَّأويلِ: أنَّ النَّفيَ حقيقيٌّ والإثباتَ سببيٌّ وتخييليٌّ.

قولُهُ: (اللَّامُ زَائِدَةٌ) ضعَّفَهُ ابنُ الحاجِبِ في «الأمالي»[4]، وقالَ صاحبُ «المغني»: هذا مردودٌ؛ لأنَّ زيادةَ هذهِ اللَّامِ في غايةِ الشُّذوذِ، فلا يليقُ تخريجُ التَّنزيلِ عليه، والصَّحيحُ: أنَّها لامُ الابتداءِ، و﴿مَنْ﴾ مبتدأٌ خبرُهُ ﴿بِئْسَ المَوْلَى﴾ بتقديرِ: هو[5]. انتهى.

والأظهرُ: أنَّ ﴿يَدْعُو﴾ الثانيَ[6] تكريرٌ للأوَّلِ، أو مفعولُهُ محذوفٌ، ولذا قيلَ بالوَقفِ عليه[7].

قوله: (بِعِبَادَتِهِ) أي: بسببِ كونِهِ مَعبوداً؛ لأنَّهُ يوجِبُ القَتلَ في الدُّنيا، والعِقابَ في العُقبى.

---

(١) وانظر: «حقائق التأويل» للسلمي (٢/ ١٩).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٦٦).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٣٢٦).

(٤) انظر: «أمالي ابن الحاجب» (١/ ١٢٠).

(٥) انظر: «مغني اللبيب» (ص: ٣٠٨).

(٦) «الثاني» من (ص).

(٧) انظر: «المكتفى في الوقف والابتدا» (ص: ١٣٦).

﴿أقرَبُ مِن نَفعِهِ﴾، إن نفع بتخيّله، ﴿لَبِئسَ المَولَى﴾ هو أي: الناصرُ! ﴿ولَبِئسَ العَشِيرُ﴾: الصاحبُ هو!

وعُقِّبَ ذِكرُ الشاكِّ بالخسران بذِكر المؤمنين في الثواب في: ١٤ ـ ﴿إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾ من الفُروض والنوافل ﴿جَنّاتٍ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ. إنَّ اللهَ يَفعَلُ ما يُرِيدُ﴾، من إكرام من يُطيعه وإهانة من يَعصِيه.

١٥ ـ ﴿مَن كانَ يَظُنُّ أن لَن يَنصُرَهُ اللهُ﴾، أي: مُحمّدًا نبيَّه، ﴿في الدُّنيا والآخِرةِ فلْيَمدُدْ بِسَبَبٍ﴾: بحبلٍ ﴿إلَى السَّماءِ﴾ أي: سقف بيته، يشدّه فيه وفي عُنقه، ﴿ثُمَّ لْيَقطَعْ﴾ أي: لِيختنقْ به بأن يقطعَ نفسه من الأرض كما في «الصِّحاح»، ﴿فلْيَنظُرْ: هَل يُذهِبَنَّ كَيدُهُ﴾ في عدم نُصرة النبيّ ﴿ما يَغِيظُـ﴾ ـهُ منها؟ المعنى: فليختنق غيظًا منها فلا بُدّ منها.

قوله: (بِتَخَيُّلِهِ) أي: من نفعِهِ الَّذي يُتوقَّعُ بعبادتِهِ، وهو الشَّفاعةُ والتَّوسُّلُ بها إلى اللهِ تعالى.

قوله: (والنَّوَافِلِ) هي زياداتٌ للدَّرجاتِ.

قوله: (مَنْ يَعْصِيهِ) لا دافِعَ له ولا مانعَ.

قولُهُ: (كَمَا فِي «الصِّحاحِ»[1]) قالَ في «القاموس»: قطَعَ فلانٌ الحَبلَ: اختنَقَ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾[2].

وقالَ القاضي: من قطعَ إذا اختنَقَ، فإنَّ المختنِقَ يُقطَعُ نَفَسُهُ بحبسِ مجاريهِ[3].

يعني: ذُكِرَ اللّازمُ وهو القَطعُ وأُريدَ الملزُومُ الَّذي هو الاختِناقُ، فيكونُ كنايةً.

وقرأ ورشٌ وبصريٌّ وشاميٌّ بكسرِ اللّامِ[4].

قوله: (فِي عَدَمِ) أو: يُذهِبنَّ فعلُهُ ذلك.

قوله: (ما يغِيْظُهُ) أو: غيظَهُ.

قوله: (مِنْهَا) أي: نُصرةِ النَّبيِّ.

قوله: (فليَخْتَنِقْ) أو: فليمُت؛ كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

---

(١) انظر: «الصحاح» (٣/ ١٢٦٦).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٥٢).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٦٧).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٤، ٤٣٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧٣).

١٦ ـ ﴿وكَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ إنزالنا الآياتِ السابقةَ ﴿أنزَلْناهُ﴾ أي: القُرآنَ الباقيَ، ﴿آياتٍ بيِّناتٍ﴾: ظاهراتٍ حالٌ، ﴿وأنَّ اللهَ يَهدِي مَن يُرِيدُ﴾ هُداه، معطوف على هاء «أنزلناه».

١٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هادُوا﴾، هم اليهود، ﴿والصّابِئِينَ﴾: طائفة منهم، ﴿والنَّصارَى والمَجُوسَ والَّذِينَ أشرَكُوا، إنَّ اللهَ يَفصِلُ بَينَهُم يَومَ القِيامةِ﴾ بإدخال المُؤمنين الجنَّةَ، وإدخال غيرهم النارَ. ﴿إنَّ اللهَ علَى كُلِّ شَيءٍ﴾ من عملهم ﴿شَهِيدٌ﴾: عالمٌ به عِلمَ مُشاهدة.

١٨ ـ ﴿ألَم تَرَ﴾: تعلمْ ﴿أنَّ اللهَ يَسجُدُ لَهُ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ، والشَّمسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ والجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ﴾، أي: تخضع له بما يُراد منها، ﴿وكَثِيرٌ مِنَ النّاسِ﴾ وهم المُؤمنون؟

قوله: (ظَاهِرَاتٍ) واضِحاتٍ.

قولُهُ: (مَعْطُوفٌ) أو التَّقديرُ: ولأنَّ اللهَ يهدِي به أنزلَهُ كذلك مبيَّناً.

قوله: (طَائِفَةٌ مِنهُم) تقدَّمَ الخِلافُ[1].

قوله: (بِإدْخَالِ) وإنَّما أُدخِلت ﴿إنَّ﴾ على كلِّ واحدٍ من طرفَي الجُملَةِ من الاسمِ والخبرِ لمزيدِ التَّأكيدِ، قالَ:

إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ فضَّلَهُ[2]

قوله: (تَخضَعُ) أي: يَتَسخَّرُ لقُدرتِهِ ولا يتأبَّى عن تدبيرِهِ، أو يدلُّ بذلِّه على عظمَةِ[3] مُدبِّره.

قولُهُ: (وَهُم المُؤمِنُونَ) قالَ القاضي: عَطفٌ على ما قبلَهُ إن جوَّزَ إعمالَ اللَّفظِ الواحدِ في كلِّ واحدٍ من مفهومَيهِ ـ يعني: الحقيقيَّ والمجازيَّ[4] على سبيلِ الجمعِ بينَ معنى المشترَكِ ـ وإسنادُهُ باعتِبارِ أحدِهِما إلى أمرٍ وباعتبارِ الآخرِ إلى آخرَ، فإنَّ تخصيصَ الكثيرِ بالذِّكرِ يدلُّ على خصُوصِ المعنى المسنَدِ إليهم، وهو وضعُ الجبهةِ[5]. انتهى.

---

(١) انظر: المائدة: (٦٩)، وآخر سورة الإسراء.

(٢) البيت في «ديوان جرير» بشرح محمد بن حبيب (١/ ١٤٩) وهو:

يكفي الخليفة أن الله فضله ... عزم وثيق وعقد غير تغرير

وجاء في (٢/ ٦٧٢):

يكفى الخليفة أن الله سربله ... سربال ملك به تزجى الخواتيم

(٣) في (ص): «عظم».

(٤) في (ص): «يعني الحقيقة والمجاز».

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٦٧ ـ ٦٨).

بزيادة على الخضوع في سُجود الصلاة، ﴿وكَثِيرٌ حَقَّ علَيهِ العَذابُ﴾. وهم الكافرون لأنهم أبَوُا السجود المُتوقّف على الإيمان. ﴿ومَن يُهِنِ اللهُ﴾: يُشْقِه ﴿فما لَهُ مِن مُكرِمٍ﴾: مُسعِدٍ. ﴿إنَّ اللهَ يَفعَلُ ما يَشاءُ﴾ من الإهانة والإكرام.

١٩ ـ ﴿هذانِ خَصمانِ﴾ أي: المُؤمنون خصم، والكُفّار الخمسة خصم ـ وهو يُطلق على الواحد والجماعة ـ ﴿اختَصَمُوا في رَبِّهِم﴾ أي: في دِينه، ﴿فالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُم ثِيابٌ مِن نارٍ﴾ يلبسونها، يعني أحيطت بهم النار، ﴿يُصَبُّ مِن فَوقِ رُؤُوسِهِمِ الحَمِيمُ﴾: الماء البالغُ نِهايةَ الحرارة، ٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿يُصهَرُ﴾: يُذاب ﴿بِهِ ما في بُطُونِهِم﴾ من شُحوم وغيرها، ﴿و﴾ تُشوَى به ﴿الجُلُودُ، ولَهُم مَقامِعُ مِن حَدِيدٍ﴾........

وهو غيرُ جائزٍ عندَنا، فالصَّحيحُ أنَّهُ مبتدأٌ خبرُهُ محذُوفٌ دلَّ عليه خبرُ قسيمِهِ الآتي، نحو: حقَّ له الثَّوابُ، أو فاعلُ فعلٍ مُضمَرٍ، أي: ويسجدُ له كثيرٌ سجودَ طاعةٍ، وهو مختارُ صاحبِ «المدارِكِ»[1].

وقيلَ: للأشياء سجودٌ لا نعرفُها كما أنَّ لها تسبيحاتٍ لا نفقهُها.

قولُهُ: (السُّجُودَ) أي: المقبولَ.

قوله: (يُشْقِهِ) مِن الإشقاءِ.

قوله: (مُسعِدٍ) من الإسعادِ، أو بالشَّقاوةِ والسَّعادةِ[2]، قيل: مَن قدَّرَ اللهُ عليه الإهانةَ في السَّبقِ لا يقدِرُ على كرامتِهِ أحدٌ.

قوله: (خَصْمٌ) أي: فوجانِ مُختصِمانِ، وتكون الإشارةُ إلى الفوجَينِ، [ولذلك][3] قالَ: ﴿اخْتَصَمُوا﴾ حملاً على المعنى.

قوله: (أي: فِي دِيْنِهِ) أو: في ذاتِهِ وصفاتِهِ.

قولِهِ: (يَلبَسُونَهَا) وقال بعضُهُم: يلبَسونَ مقطَّعاتٍ من نارٍ، ويؤيِّدُه: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، ومعنَى ﴿قُطِّعَتْ﴾: قُدِّرَت على مقاديرِ جُثَّتِهِم.

قولُهُ: (أُحِيْطَتْ) إحاطَةَ الثِّيابِ باللَّابسِ، فالأَولى تركُه.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٤٣٣).

(٢) أي: ﴿ومن يهن الله﴾ بالشَّقاوة ﴿فما له من مكرم﴾ يُكرِمُهُ بالسَّعادةِ.

(٣) من «أنوار التنزيل» (٤/ ٦٨)؛ أي: لما كان كل خصم فريقا يجمع طائفة قال: ﴿اختصموا﴾ بصيغة الجمع كقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ١٩] فالجمع لمراعاة المعنى، وقال الزمخشري: ﴿هذان﴾ للَّفظ و﴿اختصموا﴾ للمعنى؛ كقوله: ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا﴾ [محمد: ١٦]، ولو قيل: اختصما صح. انظر: «حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي» (٦/ ٢٨٨).

لضرب رُؤوسهم، ٢٢ ـ ﴿كُلَّما أرادُوا أن يَخرُجُوا مِنها﴾ أي: النارِ ﴿مِن غَمٍّ﴾ يلحقهم بها ﴿أُعِيدُوا فِيها﴾: رُدّوا إليها بالمقامع، ﴿و﴾ قيل لهم: ﴿ذُوقُوا عَذابَ الحَرِيقِ﴾ أي: البالغِ نِهايةَ الإحراق.

قوله: (لِضَرْبِ) وفي نسخةٍ: «تُضرَبُ» فيقدَّرُ: بها، و﴿مَقَامِعُ﴾: سياطٌ، كذا قالَهُ القاضي[1].

وقالَ اللَّيثُ: المِقْمَعَةُ شبْهُ الجُرْزِ من الحديدِ[2]، قمعتُ رأسَهُ: إذا ضربتَهُ ضَرباً عنيفاً، وفي الخبرِ: «لو وُضِعَ مَقمَعٌ من حديدٍ في الأَرضِ، ثمَّ اجتمَعَ عليه الثَّقلانِ ما أَقَلُّوهُ منَ الأَرضِ»[3] كذا في «المعالم»[4].

قولُهُ: (رُؤُوْسِهِم) في «القاموسِ»: المِقْمَعَةُ كمِكْنَسَةٍ: العَمودُ مِن حديدٍ، وخشبةٌ يُضرَبُ بها الإنسانُ على رأسِهِ[5].

قوله: (رُدُّوا) أي: فخرَجوا؛ لأنَّ الإعادةَ لا تكونُ إلَّا بعد الخروجِ، كذا ذكرَهُ البيضاويُّ[6]، وفيه: أنَّ هذا المعنى يخالِفُ قولَهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧] وأنَّه لو تحقَّقَ لهم الخروجُ كلَّما أرادوا لأَرادوا دائماً؛ لحصولِ تخفيفٍ ما، وقد قالَ تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، فالمعتمَدُ ما عبَّر عنهُ[7] بقولِهِ: وقيلَ: يضربهُم[8] لهيبُ النَّارِ فيرفعُهُم إلى أعلاها، فيُضرَبونَ بالمقامِعِ فيَسقُطونَ فيها[9].

ولا يَبعدُ أن يُقالَ: التَّقديرُ: أُعيدوا في قَعرِها؛ أي: رُدُّوا إلى أسفلَ منها ممَّا العذابُ أشدُّ فيها. والحاصِلُ: أنَّهم كلَّما أرادوا العُلوَّ ليُخفَّفَ عنهم العذابُ رُدُّوا إلى السُّفلِ[10] ممَّا فيه أشدُّ العِقابِ، فيوافِقُ قولَه تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٦٨).

(٢) انظر: «تهذيب اللغة» (١/ ١٩٢)، و«تاج العروس» (٢٢/ ٧٥). والجُرْزُ: هو عَمُود من حَدِيد. انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ٣٢٢).

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (١١٢٣٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٣٨٨)، والحاكم في «المستدرك» (٨٧٧٣) وصححه، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥٣٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٨٨): رواه أحمد وأبو يعلى وفيه ضعفاء وثِّقوا.

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٣٣١).

(٥) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٧٥٥).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٦٨).

(٧) أي: البيضاوي.

(٨) في النسخ: «يضرهم» والتصويب من البيضاوي.

(٩) رواه نعيم في زوائده على «الزهد» لابن المبارك (٣٣٩) من طريق رجل عن الحسن. وبنحوه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٤٩٨) من قول أبي ظبيان.

(١٠) في (م): «أسفل».

وقال في المُؤمنين: ٢٣ ـ ﴿إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنّاتٍ، تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ، يُحَلَّونَ فِيها مِن أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلُؤٍ﴾ ـ بالجرِّ، أي: منهما بأن يُرصّع اللؤلؤ بالذهب، وبالنصبِ عطفًا على محلّ «من أساور» ـ ﴿ولِباسُهُم فِيها حَرِيرٌ﴾ هو المُحرَّم لُبسه على الرجال في الدنيا، ٢٤ ـ ﴿ وهُدُوا﴾ في الدنيا ﴿إلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَولِ﴾ ـ وهو: لا إلـٰهَ إلاّ اللهُ ـ ﴿وهُدُوا إلَى صِراطِ الحَمِيدِ﴾ أي: طريقِ الله المحمود ودينِه.

٢٥ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، ويَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾: طاعتِه ﴿و﴾ عن ﴿المَسجِدِ الحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ﴾ مَنسَكًا ومُتعبَّدًا ﴿لِلنّاسِ، سَواءً العاكِفُ﴾: المُقيمُ ﴿فِيهِ والبادِي﴾: الطارئ، ﴿ومَن يُرِدْ فِيهِ بِإلحادٍ﴾ ـ الباء: زائدة ـ ﴿بِظُلمٍ﴾ ....

قولُهُ: (بالنَّصْبِ) نافعٌ وعاصمٌ، وإبدالِ الهمزةِ كسائيٌّ[1] وشعبةُ، وكذا حمزةُ مع الثَّانيةِ وقفاً[2].

قوله: (عَلَى مَحَلِّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾) ـ جمعُ: أسورةٍ، جمعِ سِوارٍ ـ؛ لأنَّه صِفةُ مفعولٍ محذوفٍ؛ أي: حُليًّا أو شيئاً.

قوله: (المَحْمُودِ) صِفةُ (طَرِيق) أو (اللهِ)؛ أي: المحمودِ عاقبتُهُ، أو: المستحَقِّ لذاتِهِ الحمدَ.

قوله: (﴿وَ﴾﴿عَنْ﴾) عطفٌ على اسمِ اللهِ، أو سبيلِهِ، وأوَّلَه الحنفيَّةُ بمكَّةَ[3] بقرينةِ ﴿العَاكِفُ فِيهِ والبَادِ﴾ [الحج: ٢٥]؛ أي: المقيمُ والطَّارئُ، والإقامةُ لا تكونُ في المسجِدِ، بل في المنازِلِ.

قولُهُ: (مَنْسَكاً) في «المدارك»: إن أُريدَ بـ﴿الْمَسْجِدِ﴾ مكَّةُ ففيهِ دليلٌ على أن لا تُباعُ دورُ مكَّةَ، وإن أُريدَ به البيتُ فالمعنى أنَّه قِبلةٌ لجميعِ النَّاسِ، و﴿سواءً﴾ بالنَّصبِ حفصٌ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿جَعَلْنَاهُ﴾؛ أي: جعلناهُ مُستوياً، وغيرُه بالرَّفعِ[4] على أنَّه خبرٌ، والمبتدأُ مؤخَّرٌ؛ أي: العاكِفُ فيه والبادِ سواءٌ، والجملةُ مفعولٌ ثانٍ، و﴿لِلنَّاسِ﴾ حالٌ[5].

قوله: (البَاءُ زَائِدَةٌ) في «المداركِ»: ﴿بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ حالانِ مُترادِفانِ، ومفعول ﴿يرد﴾ متروكٌ ليتناوَلَ كلَّ متناوَلٍ، كأنَّهُ قالَ: ومَن يُرِد فيه مُراداً مَّا عادِلاً عن القَصدِ ظالماً[6].

---

(١) كذا قال، والصواب: السوسي، قال في «البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة» (ص: ٢١٤): وأبدل الهمزة الأولى واواً ساكنة مدية وصلاً ووقفاً شعبةُ والسوسي.

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٥٦)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٥٠).

(٣) انظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٥/ ٦٢).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧٥).

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٤٣٥).

(٦) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٤٣٥).

أي: بسببه بأن ارتكب مَنهيًّا، ولو بشتمِ الخادمِ، ﴿نُذِقْهُ مِن عَذابٍ أَلِيمٍ﴾: مُؤلمٍ أي: بعضَه. ومن هذا يُؤخذ خبر «إنّ» أي: نذيقُهم من عذاب أليم.

٢٦ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿إذ بَوّأْنا﴾: بيَّنّا ﴿لإبراهِيمَ مَكانَ البَيتِ﴾ لِيَبنيَه، وكان قد رُفع من زمن الطوفان، وأمرناه ﴿أن لا تُشرِكْ بِي شَيئًا، وطَهِّرْ بَيتِيَ﴾ من الأوثان ﴿لِلطّائِفِينَ والقائِمِينَ﴾: المُقيمين به، ﴿والرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾: جمع راكع وساجد: المُصلّين، ٢٧ ـ ﴿ وأذِّنْ﴾: نادِ ﴿في النّاسِ بِالحَجِّ﴾ ـ فنادى على جبل أبي قُبيس: «يا أيُّها النّاسُ، إنّ رَبَّكُم بَنَى بَيتًا، وأوجَبَ عليكُمُ الحَجَّ إلَيهِ. فأجِيبُوا رَبَّكُم». والتفتَ بوجهه يمينًا وشِمالاً وشرقًا وغربًا، فأجابه كُلّ مَن كُتب له أن يحجّ، من أصلاب الرجال وأرحام الأمهات: لبَّيكَ اللّهُمَّ لبَّيكَ ـ وجواب الأمر: ﴿يأتُوكَ رِجالاً﴾: مُشاةً، جمع راجِلٍ كقائم وقِيام، ﴿و﴾ رُكبانًا ﴿عَلَى كُلِّ ضامِرٍ﴾ أي: بعيرٍ مهزول ـ وهو يُطلق على الذكر والأنثى ـ ﴿يأتِينَ﴾ أي: الضوامرُ حملاً على المعنى، ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: طريق بعيد، ٢٨ ـ ﴿لِيَشهَدُوا﴾ أي: ليحضُروا ﴿مَنافِعَ لَهُم﴾ في الدنيا بالتجارة أو في الآخرة أو فيهما ـ أقوالٌ ـ ﴿ويَذكُرُوا اسمَ اللهِ في أيّامٍ مَعلُوماتٍ﴾ أي: عَشرِ ذي الحِجّة

قوله: (أي: بَعْضِهِ) في الآخِرةِ.

قولُهُ: (أَمَرْنَاهُ) أي: كلَّفْناه[1].

قوله: (الأَوْثَانِ) والأقذارِ.

قوله: (المُقِيْمِينَ) أي: بحرَمِهِ، أو: المعتكِفينَ في مسجدِه، ويؤيِّدُه: ﴿والْعَاكِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، أو: القائِمينَ في الصَّلاةِ، وعبَّرَ عن الصَّلاةِ بأركانِها للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ واحدٍ منهما مستقِلٌّ باقتِضاءِ ذلك، كيف وقد اجتمعَت.

قوله: (نَادِ) أي: بدَعوَةِ الحجِّ والأمرِ به، (فَأَجَابَهُ) قيلَ: بعددِ[2] حجِّهِ، و(مِنْ أَصْلابِ) متعلِّقٌ بـ(أجَابَ)، والظَّاهرُ: مَن في أصلابٍ؛ يعني: حقيقةً أو حُكماً.

قولُهُ: (حَمْلاً) جمعيتهُ.

قوله: (عَلَى المَعْنَى) أي: مَعنى ﴿كُلِّ﴾.

قوله: (أَقْوَالٌ) أي: للسَّلفِ، أصحُّها وأفيَدُها الثَّالثُ.

قوله: (أي: عَشْرِ ذِي الحِجَّةِ) عندَ تهيئتِه[3] الضَّحايا والهدايا وذبحِها.

---

(١) في النسخ عدا (د): «أي كلفنا به».

(٢) كذا في النسخ، ولعل الصواب: «بعد».

(٣) كذا في النسخ، ولعل الصواب: «تهيئة».

أو يومِ عرفةَ أو يومِ النحر إلى آخر أيام التشريق ـ أقوالٌ ـ ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُم، مِن بَهِيمَةِ الأنعامِ﴾: الإبل والبقر والغنم التي تُنحر في يوم العيد وما بعده من الهدايا والضحايا. ﴿فَكُلُوا مِنهَا﴾ إذ كانت مُستحبّة، ﴿وأطعِمُوا البائسَ الفَقِيرَ﴾ أي: الشديد الفقر، ٢٩ ـ ﴿ثُمَّ لْيَقضُوا تَفَثَهُم﴾ أي: يُزيلوا أوساخهم وشَعَثَهم كطول الظُّفر، ﴿ولْيُوفُوا﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿نُذُورَهُم﴾ من الهدايا والضحايا، ﴿ولْيَطَّوَّفُوا﴾ طوافَ الإفاضة ﴿بِالبَيْتِ العَتِيقِ﴾ أي: القديم، لأنه أوّل بيت وُضع للناس.

٣٠ ـ ﴿ذلِكَ﴾ خبر مبتدأ مُقدّر، أي: الأمرُ أو الشأن ذلك المذكور، ﴿ومَن يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ﴾، هي ما لا يَحِلّ انتهاكه، ﴿فهُوَ﴾..

قوله: (إلى آخرِ) غايَةٌ للقَولينِ.

قولُهُ: (أَقْوَالٌ) الأوَّلُ قولُ ابنِ عبَّاسٍ[1] وأكثرِ المفسِّرينَ.

قوله: (إِذَا كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً) يعني: تطوُّعاً دون الواجِبِ، إلَّا دمَ التَّمتُّعِ والقِرانِ عندَنا[2]، والأمرُ للإباحَةِ، وقيلَ: للنَّدبِ.

قوله: (أي: الشَّدِيْدَ الفَقْرِ) تفسيرٌ لهما، أو للبائسِ، وهو الَّذي أصابَهُ بُؤسٌ؛ أي: شدَّةٌ، والفقيرُ: المحتاجُ الَّذي أضعفَهُ الإعسارُ، والأمرُ عندَنا[3] للنَّدبِ، قالَ القاضي: والأمرُ فيه للوُجوبِ. وقد قيلَ به في الأوَّلِ[4].

قولُهُ: (أَوْسَاخَهُم) الأَولى: وسخَهُم.

قوله: (والتَّشدِيدِ) شعبةُ[5].

قوله: (أي: القَدِيمِ) أو: المُعتَقِ من تسلُّطِ الجبابِرةِ، أو من الغَرقِ، أو من الملَّاكِ، ويحتملُ أن يكونَ بمعنى: المعتِقِ؛ بكسرِ التاء؛ لأنَّه سببٌ لعتقِ مَن يقصدُهُ[6] من النَّارِ.

قوله: (خَبَرُ مُبْتَدَأٍ) وهو وأمثالُهُ من نحوِ هذا وهذهِ وتلك يُطلقُ للفَصلِ بينَ الكلامَينِ، وقيلَ: التَّقديرُ: ليَفعلوا ذلك، ويمكنُ ضدُّ ذلك.

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٤٥)، وذكره البخاري (٢/ ٢٠) تعليقاً بصيغة الجزم.

(٢) انظر: «الهداية» (١/ ١٨١).

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٧٠).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٦).

(٦) في (ص): «قصده».

أي: تعظيمُها ﴿خَيرٌ لَهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ في الآخرة. ﴿وأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعامُ﴾ أكلاً بعدَ الذبح، ﴿إلاّ ما يُتلَى علَيكُم﴾ تحريمُه في «حُرِّمَتْ علَيكُمُ المَيْتةُ» الآيةَ. فالاستثناء منقطع. ويجوز أن يكون متّصلاً، والتحريم لما عرض من الموت ونحوه. ﴿فاجتَنِبُوا الرِّجسَ مِنَ الأوثانِ﴾ من: للبيانِ، أي: الذي هو الأوثان، ﴿واجتَنِبُوا قَولَ الزُّورِ﴾ أي: الشِّركَ بالله في تلبيتهم، أو شهادةَ الزور، ٣١ ـ ﴿حُنَفاءَ لِلهِ﴾: مُسلمين عادلين عن كُلّ دِين سِوى دِينه، ﴿غَيرَ مُشرِكِينَ بِهِ﴾: تأكيدٌ لما قبله، وهما حالان من الواو. ﴿ومَن يُشرِكْ بِاللهِ فكَأنَّما خَرَّ﴾: سقطَ ﴿مِنَ السَّماءِ، فتَخطَفُهُ الطَّيرُ﴾ أي: تأخذُه بسُرعة، ﴿أو تَهوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أي: تُسقطه ﴿في مَكانٍ سَحِيقٍ﴾: بعيد. فهو لا يُرجَى خلاصُه.

٣٢ ـ ﴿ذلِكَ﴾ يُقدَّر قبله «الأمرُ»: مبتدأ، ﴿ومَن يُعَظِّمْ شَعائرَ اللهِ فإنَّها﴾ أي: فإنّ تعظيمها ـ وهي البُدن التي تُهدى للحرم ـ بأن تُستَحسَنَ وتُستَسمنَ...

قوله: (فِي الآخِرَةِ) و﴿خيرٌ﴾ لمجرَّدِ زيادةِ الخيرِ، وتمييزُه: ثواباً.

قوله: (تَحْرِيمُهُ) أوّلَه بهذا لأنَّ نفسَ المتلوِّ لا يُستَثنى.

قوله: (مُنْقَطِعٌ) للتَّقييدِ بالأكلِ بعد الذَّبحِ.

قولُهُ: (ويَجُوزُ) ظاهرُه أنَّه قولُه، مع أنَّه اقتصرَ عليه البَيضاويُّ[1].

قوله: (ونَحْوِهِ) كما أُهلَّ به لغيرِ اللهِ.

قوله: (هُوَ الأَوْثَانُ) كما تُجتنبُ الأنجاسُ.

قوله: (أَيِ: الشِّرْكَ باللهِ) ويمكنُ القَولُ باتِّخاذِ الصَّاحبةِ والولدِ وغيرِه.

قوله: (تَأكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ) وقيلَ: ﴿حنفاءَ﴾: مُخلصينَ، والتَّأسيسُ أولى.

قوله: (سَقَطَ) لأنَّه سقطَ من أوجِ الإيمانِ إلى حضيضِ الكُفرِ.

قوله: (أَيِ: تَأْخُذُهُ) فإنَّ الأهواءَ المُرديَةَ[2] توزِّعُ أفكارَهُ.

قوله: (أَيِ: بَعِيدٍ) فإنَّ الشَّيطانَ قد رَمى به في الضَّلالةِ، و﴿أَوْ﴾ للتَّخييرِ أو التَّنويعِ.

قولُهُ: (مُبتَدَأٌ) حالٌ.

[قوله]: (تُستَحْسَنَ) روى البزَّارُ في «مسندِهِ»: (أنَّه عليهِ السَّلامُ أهدى مائةَ بدَنَةٍ فيها جَمَلٌ في أنفِهِ بُرَةٌ من

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٧٠).

(٢) في (ص): «الردية».

﴿مِن تَقوَى القُلُوبِ﴾ منهم.

وسُمِّيتْ شعائر لإشعارها بما تُعرف به أنها هَدي كطعن حديدة بسنامها. ٣٣ ـ ﴿لَكُم فِيها مَنافِعُ﴾ كركوبها والحمل عليها ما لا يضرّها، ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾: وقتِ نحرها، ﴿ثُمَّ مَحِلُّها﴾ أي: مكان حِلّ نحرها ﴿إِلَى البَيتِ العَتِيقِ﴾ أي: عِنده. والمراد الحَرَم جميعه.

٣٤ ـ ﴿ولِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: جماعة مُؤمنة سلفتْ قبلكم، ﴿جَعَلْنا مَنسَكًا﴾ ـ بفتح السين: مصدر، وبكسرها: اسم مكان ـ أي: ذَبحًا قُربانًا أو مكانَه، ﴿لِيَذكُرُوا اسمَ اللهِ علَى ما رَزَقَهُم مِن بَهِيمةِ الأنعامِ﴾ عِند ذبحها. ﴿فإلٰـهُكُم إلٰـهٌ واحِدٌ. فلَهُ أسلِمُوا﴾: انقادوا، ﴿وبَشِّرِ المُخبِتِينَ﴾: المُطيعين المُتواضعين، ٣٥ ـ ﴿الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ﴾: خافت ﴿قُلُوبُهُم، والصّابِرِينَ علَى ما أصابَهُم﴾ من البلايا،.......

ذَهبٍ»[1]، وأنَّ عُمرَ أهدى نجيبةً طُلِبَتْ منه بثلاثِ مائةِ دينارٍ[2].

قولُهُ: (مِنْهُم) أي: مِن أفعالِ ذَوي تَقوى القُلوبِ، فحُذِفَت هذه المضافاتُ والعائدُ إلى ﴿مَن﴾.

قوله: (مَا لا يَضرُّهَا) ظاهِرُ كلامِهِ: أنَّ الرُّكوبَ جائزٌ للضَّرورةِ وغيرِها، والحملُ إذا لم يضرَّهَا، ونقلَ ابنُ الهُمامِ أنَّ من العُلماءِ مَن قالَ: له أن يركبَها مطلقاً من غيرِ حاجَةٍ، وقالَ أصحابُنا والشَّافعيُّ: لا يركبُها إلَّا عند الحاجَةِ[3].

قوله: (جَمِيْعُهُ) الَّذي هو في حُكمِ البيتِ؛ إذِ الحَرَمُ حريمُ البيتِ.

قولُهُ: (وبكَسْرِهَا) حمزةُ والكِسائيُّ[4].

قوله: (قُرْبَاناً) يتقرَّبونَ به إلى اللهِ تعالى، وهو مُغنٍ عمَّا قبلَهُ.

قوله: (عِنْدَ ذَبْحِهَا) دونَ غيرِ اسمِ اللهِ، ويجعَلوا نسيكتَهُم لوجهِهِ.

قوله: (انقَادُوا) وأخلَصوا الذِّكرَ أو التَّقرُّبَ.

قوله: (المُطِيعِينَ) أي: المخلِصينَ.

قوله: (خَافَتْ) أي: هيبَةً.

قوله: (البَلايَا) والكلَفِ.

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٦١٧) عن علي رضي الله عنه. وقال: وقد روي عن ابن عباس، وعن سلمة بن الأكوع.

(٢) رواه أبو داود (١٧٥٦)، وأحمد في «مسنده» (٦٣٢٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٩١١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠٢٤٤).

(٣) انظر: «فتح القدير» (٣/ ١٦٥). وانظر: «الهداية» (١/ ١٨٢)، و«الحاوي الكبير» (٤/ ٣٧٦).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧٦).

﴿والمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾ في أوقاتها، ﴿ومِمّا رَزَقْناهُم يُنفِقُونَ﴾: يتصدّقون.

٣٦ ـ ﴿والبُدْنَ﴾: جمع بَدَنة ـ وهي الإبل ـ ﴿جَعَلْناها لَكُم مِن شَعائرِ اللهِ﴾: أعلامِ دِينه، ﴿لَكُم فِيها خَيرٌ﴾: نفع في الدنيا كما تقدّم، وآخَرُ في العُقبى. ﴿فاذكُرُوا اسمَ اللهِ علَيها﴾ عِند نحرها ﴿صَوافَّ﴾: قائمةً على ثلاث معقولةَ اليد اليُسرى، ﴿فإذا وَجَبَتْ جُنُوبُها﴾: سقطت إلى الأرض بعد النحر ـ وهو وقت الأكل منها ـ ﴿فكُلُوا مِنها﴾ إن شئتم، ﴿وأطعِمُوا القانِعَ﴾ الذي يقنع بما يُعطَى ولا يَسأل ولا يتعرّض، ﴿والمُعتَرَّ﴾: السائل أو المتعرِّض..........................

قوله: (يَتَصَدَّقُونَ) أو في وجوهِ الخيرِ، وهو أعمُّ وأتمُّ.

قوله: (وهِيَ الإبِلُ) والبَقَرُ أيضاً عندَنا[1].

قوله: (نَفْعٌ) يعني: خيراً مِن الخيور[2].

قوله: (قَائِمَةً) الأظهَرُ: قائِماتٍ صففنَ أيديَهُنَّ وأرجُلَهنَّ.

قولُهُ: (إلى الأَرْضِ) الظَّاهرُ: عليها.

قوله: (وَهُو) أي: السُّقوطُ، وفيه ما فيهِ، والظَّاهرُ أنَّ السُّقوطَ كنايَةٌ عن الموتِ.

قوله: (ولا يَسْأَلُ) من قَنِعَ بالكَسرِ قَناعَةً، أو: السَّائلَ، مِن قنَعَ بالفتحِ قُنوعاً: إذا خضعَ في السُّؤالِ[3]، والمضارِعُ بالفتحِ فيهِما، وما أحسَنَ ما قيلَ[4]:

العَبْـــدُ حُـــرٌّ إنْ قَـنِعْ وَالحُــرُّ عَبْــدٌ إنْ قَنَــع
فَــاقْنَعْ ولا تَـقْنَــعْ[5] فَمَـا شَــيءٌ يشينُ سِــوَى[6] الطَّمَع

وفي روايةٍ: أمرُّ.

قولُهُ: (ولا يَتَعَرَّضُ) أي: بِلِسانِ الحالِ.

قوله: (السَّائِلَ) بلسانِ القالِ.

---

(١) انظر: «الهداية» (١/ ١٥٠).

(٢) يعني: ليس الخير هنا اسم تفضيل.

(٣) انظر: «الصحاح» (٣/ ١٢٧٢).

(٤) البيتان للشافعي. انظر: «ديوانه» (ص: ٨٦).

(٥) في (د): «ولا تطمع»، وهو الموافق لما في الديوان، والمثبت من باقي النسخ وهو الأدخل في حسن الاستدلال.

(٦) في (د): «شيء أضر من».

﴿كَذلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك التسخير ﴿سَخَّرْناها لَكُم﴾ بأن تُنحر وتُركب ـ وإلاّ لم تُطَق ـ ﴿لَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ إنعامي عليكم.

٣٧ ـ ﴿لَن يَنالَ اللهَ لُحُومُها ولا دِماؤُها﴾ أي: لا يُرفعان إليه، ﴿ولكِن يَنالُهُ التَّقوَى مِنكُم﴾ أي: يُرفع إليه منكم العمل الصالح الخالص له مع الإيمان. ﴿كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُم، لِتُكَبِّرُوا اللهَ علَى ما هَداكُم﴾: أرشدكم لمعالم دِينه ومناسك حجّه. ﴿وبَشِّرِ المُحسِنِينَ﴾ أي: المُوحّدين.

٣٨ ـ ﴿إنَّ اللهَ يَدفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ غوائلَ المُشركين. ﴿إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوّانٍ﴾ في أمانته ﴿كَفُورٍ﴾ لنعمته، وهم المشركون. المعنى أنه يُعاقبهم. ٣٩ ـ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتِلُونَ﴾ أي: للمُؤمنين أن يُقاتِلوا ـ.........

قوله: (أي: مِثْلَ ذَلِكَ التَّسخِيْرِ) من نحرِها قياماً، وفي «المدارك»: كما أمَرناكُم بنحرِها سخَّرناها لكُم[1].

قوله: (لَم تُطَقْ) الظَّاهرُ أنَّه مجهولٌ؛ لقولِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]؛ أي: مُطيقينَ.

قولُهُ: (إِنْعَامِي) الأَولى: إنعامُنا.

وقولُهُ تعالى: (﴿كَذَلِكَ﴾) كرَّرَهُ تذكيراً للنِّعمةِ وتعليلاً له بقولِهِ: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾ أي: لتَعرِفوا عظمَتَهُ باقتدارِهِ على ما لا يقدِرُ عليه غيرُهُ فتوحِّدوهُ بالكِبرياءِ.

وقيل: هو التَّكبيرُ عندَ الذَّبحِ.

قوله: (لمَعَالِمِ) أو: طريقِ تسخيرِها وكيفيَّةِ التَّقرُّبِ بها.

قوله: (أي: المُوَحِّدِينَ) أو: المخلِصينَ فيما يأتونَهُ ويذَرونَهُ.

قوله: (﴿يدفَعُ﴾) حفصٌ ونافعٌ وشاميٌّ وكوفيٌّ: ﴿يُدَافِعُ﴾[2] للمُبالغَةِ.

قوله: (غَوَائِلَ) جمعُ غائلةٍ: أذًى.

قوله: (المُشرِكُونَ) أي: الكافِرونَ الَّذينَ يخونونَ اللهَ والرَّسولَ وأماناتِهِم ويكفرونَ نِعَمَ اللهِ ويحقِّرونَها.

قولُهُ: (أي: المُؤمِنِينَ) نافعٌ وبصريٌّ وعاصمٌ بضمِّ الهمزةِ، ونافعٌ وشاميٌّ وحفصٌ بفتحِ التَّاءِ[3]؛ أي: يقاتلُهُم المشركونَ.

قوله: (أنْ يُقَاتِلُوا) مفعولٌ حُذِف لدلالةِ ﴿يُقَاتَلُونَ﴾.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٤٤٢). ووقع في النسخ: «بتسخيرها» بدل: «بنحرها» والتصويب من المصدر.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧٨).

(٣) انظر المصادر السابقة

وهذه أول آية نزلتْ في الجِهاد ـ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ظُلِمُوا﴾ بظُلم الكافرين إيّاهم، ﴿وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصرِهِم لَقَدِيرٌ﴾.

٤٠ ـ هم ﴿الَّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ﴾ في الإخراج، ما أخرجوا ﴿إلاّ أن يَقُولُوا﴾ أي: بقولهم: ﴿رَبُّنا اللهُ﴾ وحدَه. وهذا القول حقّ، فالإخراج به إخراج بغير حقّ. ﴿ولَولا دَفعُ اللهِ النّاسَ بَعضَهُم﴾: بدلُ بعضٍ من «الناس» ﴿بِبَعضٍ لَهُدِّمَتْ﴾ ـ بالتشديد للتكثير، وبالتخفيف ـ ﴿صَوامِعُ﴾ للرهبان﴿وبِيَعٌ﴾: كنائسُ للنصارى ﴿وصَلَواتٌ﴾: كنائسُ لليهود بالعِبرانيّة ﴿ومَساجِدُ﴾ للمُسلمين، ﴿يُذكَرُ فِيها﴾ أي: المواضعِ المذكورة ﴿اسمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ وتنقطعُ العبادات بخرابها. ﴿ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ أي: ينصرُ دِينَه ـ ﴿إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ﴾ على خلقه ﴿عَزِيزٌ﴾: ....

قوله: (أَوَّلُ آيَةٍ) بعدَ ما نهى عنه في نيفٍ وسبعينَ آيةً.

قوله: (بِظُلْمِ الكَافِرِينَ إِيَّاهُم) وهم الصَّحابةُ، كانَ المشركونَ يُؤذونَهم، وكانوا يأتونَهُ من بين مَضروبٍ ومشجوجٍ يتظلَّمونَ إليه، فيقولُ لهم: «اصبِروا فإنِّي لم أُؤمَرْ بالقتالِ»، حتَّى هاجَرَ فأنزِلَتْ[1].

قوله: (مَا أُخْرِجُوا) فالاستِثناءُ مُفرَّغٌ، وقيل: منقطِعٌ؛ أي: لكن أُخرِجوا بقولِهم هذا، والأحسَنُ أنَّه متَّصلٌ للمبالغةِ من بابِ تأكيدِ المدحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ، والمعنى: بغيرِ موجِبٍ استَحقُّوا به إلَّا بهذا القَولِ، وهو موجِبٌ للتَّمكينِ لا للإخراجِ.

قوله: (بَدَلُ بَعْضٍ) ونافِعٌ: (دفاع)[2]؛ يعني: بتَسليطِ المؤمنينَ منهم على الكافِرينَ.

قولُهُ: (وبالتَّخْفِيفِ) الحِرميَّانِ[3].

قوله: (للرُّهْبَانِ) خواصِّ النَّصارى.

قوله: (كَنَائِسُ لليَهُودِ) سُمِّيَت بها لأنَّها تُصلِّي فيها، وقيلَ: أصلُها: صلوثا ـ بالمثلَّثةِ ـ فعُرِّبَت.

قوله: (للمُسلِمِينَ) وقُدِّم غيرُها عليها لتقدُّمِها وُجوداً.

قوله: (أي: المَوَاضِعِ) أو المساجِدِ.

قوله: (دِيْنَهُ) وأولياءَهُ[4].

---

(١) قال الزيلعي في «تخريج أحادث الكشاف» (٢/ ٣٨٨): غريب جدًّا. وعزاه الواحدي في «الوسيط» للمفسرين.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧٩).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧٩).

(٤) في (ص): «أو أولياؤه».

منيع في سُلطانه وقُدرته ـ ٤١ ـ ﴿الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُم فِي الأَرْضِ﴾ بنصرهم على عدوّهم ﴿أَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ، وأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ ونَهَوا عَنِ المُنكَرِ﴾: جوابُ الشرط، وهو وجوابه صلة الموصول. ويُقدَّر قبله «هم»: مبتدأ. ﴿و للهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ أي: إليه مَرجِعها في الآخرة.

٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ﴿وإن يُكَذِّبُوكَ﴾ إلى آخِره ـ فيه تسلية للنبيّ ﷺ ـ ﴿فقَد كَذَّبَتْ قَبلَهُم قَومُ نُوحٍ﴾، تأنيثُ «قوم» باعتبار المعنى، ﴿وعادٌ﴾: قومُ هود ﴿وثَمُودُ﴾: قوم صالح ﴿وقَومُ إبراهِيمَ وقَومُ لُوطٍ وأصحابُ مَدْيَنَ﴾ قومُ شُعيب، ﴿وكُذِّبَ مُوسَى﴾ كذّبه القِبط لا قومه بنو إسرائيل ـ أي: كذّب هؤلاء رُسلَهم، فلك أُسوة بهم ـ ﴿فأملَيتُ لِلكافِرِينَ﴾: أمهلتُهم بتأخير العِقاب لهم، ﴿ثُمَّ أَخَذتُهُم﴾ بالعذاب. ﴿فكَيفَ كانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم تكذيبَهم بإهلاكهم؟ والاستفهام للتقرير، أي: هو واقع موقعَه.

٤٥ ـ ﴿فكَأَيِّن﴾ أي: كم ﴿مِن قَرْيَةٍ أهلَكْتُها﴾ ـ وفي قراءة: «أهلَكْناها» ـ ﴿وهِيَ ظالِمَةٌ﴾ أي: أهلُها بكفرهم، ﴿فهِيَ خاوِيَةٌ﴾: ساقطة ﴿علَى عُرُوشِها﴾:..

قوله: (مَنِيعٌ) الأنسَبُ: قويٌّ قادرٌ على نصرِ أوليائِه، عزيزٌ غالِبٌ على انتِقامِ أعدائِه.

قوله: (بِنَصْرِهِم) وصفٌ للَّذينَ أُخرِجوا، وهو ثناءٌ قبلَ بلاءٍ، وفيه دليلٌ على صحَّةِ أمرِ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ.

قوله: (إِلَيْهِ) أي: حكمِهِ.

قولُهُ: (باعتِبَارِ المَعْنَى) أي: الجماعَةِ.

قوله: (لا قَومُهُ) ولذا غيَّرَ النَّظْمَ.

قوله: (بِهِم) فاصبِرِ كمَا صبَروا، وفيه تسليَةٌ لهُ ﷺ.

قوله: (بِتَأخِيْرِ) حتَّى انصرمَتْ آجالُهُم المقدَّرةُ.

قوله: (إِنْكَارِي) إشارَةٌ إلى أنَّ النَّكيرِ مصدَرٌ فيه مبالَغةٌ.

قوله: (بِإِهْلاكِهِم) أو بتغييرِ النِّعمةِ محنةً، والحياةِ هلاكاً، والعَمارةِ خَراباً.

قوله: (أي: كَمْ) أي: كثيراً.

قوله: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ البصريِّ[1] بلفظِ التَّعظيمِ؛ أي: أهلَكنَاها بإهلاكِ أهلِها.

قولُهُ: (سَاقِطَةٌ) حيطانُها.

(١) فقراءته: (أهلكتُها) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧٩).

سُقوفها، ﴿وَ﴾ كم من ﴿بِئرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾: متروكة بموت أهلها ﴿وقَصرٍ مَشِيدٍ﴾: رفيع، خال بموت أهله!

٤٦ ـ ﴿أفلَم يَسِيرُوا﴾ أي: كُفّارُ مكّة ﴿في الأرضِ، فتكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعقِلُونَ بِها﴾ ما نزلَ بالمكذّبين قبلهم، ﴿أو آذانٌ يَسمَعُونَ بِها﴾ أخبارَهم بالإهلاك وخراب الديار، فيعتبروا؟ ﴿فإنَّها﴾ أي: القِصّةَ ﴿لا تَعمَى الأبصارُ، ولكِن تَعمَى القُلُوبُ الَّتِي في الصُّدُورِ﴾ تأكيد.

٤٧ ـ ﴿ويَستَعجِلُونَك بِالعَذابِ، ولَن يُخلِفَ اللهُ وَعدَهُ﴾ بإنزال العذاب ـ فأنزلَه يوم بدر ـ ﴿وإنَّ يَومًا عِندَ رَبِّكَ﴾ من أيّام الآخرة بالعذاب، ﴿كألفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ في الدنيا،........

قوله: (سُقُوفِهَا) بأن تعطَّلَت بُنيانُها فخرَّتْ سقوفُها، ثمَّ تهدَّمَت حيطانُها، فسقَطَت فوقَ السُّقوفِ، أو: خاليةٌ مع بقاءِ عَرشِها، على حذفِ المضافِ، و﴿عَلَى﴾ للمُصاحبةِ، والجملةُ معطوفَةٌ على ﴿أهلكناها﴾ لا على ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ فإنَّها حالٌ، والإهلاكُ ليسَ حالَ خوائِها.

قوله: (﴿وَ﴾كَم مِنْ) يعني: عطفٌ على ﴿قَرْيَةٍ﴾.

قوله: (مَتْرُوكَةٍ) عطَّلناها لا يُستَقى منها.

قوله: (رَفِيْعٍ) أي: مَرفوعٍ، وقيل: مجصَّصٍ؛ أي: خلَّيناهُ عن ساكِنيهِ.

قوله: (كُفَّارُ مَكَّةَ) وغيرُهُم.

قولُهُ: (فَيَعْتَبِرُوا) وهُم وإن كانوا قد سافَروا لم يُسافِروا لذلك، فالمُعتبَرُ سيرُ الباطِنِ، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ﴾ [الحج: ٤٦]؛ أي: عن الاعتِبارِ.

قوله: (تَأكِيدٌ) نحوَ: رأيتُ بعَيني، أو لبَيانِ أنَّ محلَّ العلمِ القلبُ، قالَ ابنُ عبَّاسٍ:

إِنْ أَذْهَبَ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا ... فَفِي فُؤَادِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ[1]

أي: بدلَهُما.

قولُهُ: (والْيَاءِ) الغيبةُ مكِّيٌّ وحمزةُ وكسائيٌّ[2].

قوله: (فِي الدُّنيَا) بَيانٌ لتَطاولِ عذابِه وطولِ أيَّامِه حقيقةً، أو من حيثُ إنَّ أيَّامَ الشَّدائدِ مُستطالةٌ، و(أنْجَزَهُ) حملُ العَذابِ المستعجَلِ المتوعَّدِ به على غلبَةِ المسلِمينَ يومَ بدرٍ مُستبعدٌ، فالمعنى: لن يخلفَ اللهُ لامتِناعِ الخُلفَ في خبرِهِ، فيُصيبُهُم ما أوعدَهُم به ولو بعدَ حينٍ؛ لكنه صبورٌ لا يُعجِّلُ بالعُقوبَةِ.

---

(١) رواه الدينوري في «المجالسة» (١٨٥٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وذكره الجاحظ في «الحيوان» (٣/ ٥٨)، وابن قتيبة في «الشعر والشعراء» (٢/ ٨٤٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٠).

٤٨ ـ ﴿وكَأَيِّن مِن قَريةٍ أمليتُ لَها، وهْيَ ظالِمةٌ، ثُمَّ أخذتُها﴾ المرادُ أهلُها! ﴿وإلَيَّ المَصِيرُ﴾: المَرجِعُ.

٤٩ ـ ﴿قُلْ: يا أيُّها النّاسُ﴾ أي: أهلَ مكّة، ﴿إنَّما أنا لَكُم نَذيرٌ مُبينٌ﴾: بيِّنُ الإنذار، وأنا بشير للمؤمنين. ٥٠ ـ ﴿فالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُم مَغفِرةٌ﴾ من الذنوب، ﴿ورِزقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنّة، ٥١ ـ ﴿والَّذِينَ سَعَوا في آياتِنا﴾: القُرآنِ بإبطالها ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ مَن اتّبع النبيَّ، أي: ينسبونهم إلى العجز ويُثبّطونهم عن الإيمان، أو مقدِّرين عجْزَنا عنهم ـ وفي قراءة: «مُعاجِزِينَ»: مُسابِقينَ لنا، يظنّون أن يفوتونا بإنكارهم البعثَ والعِقاب ـ ﴿أُولئِكَ أصحابُ الجَحِيمِ﴾: النار.

٥٢ ـ ﴿ وما أرسَلْنا مِن قَبلِكَ مِن رَسُولٍ﴾ ـ هو نبيٌّ أُمر بالتبليغ ـ ﴿ولا نَبِيٍّ﴾ أي: لم يُؤمر بالتبليغ ﴿إلاّ إذا تَمَنّى﴾: قرأ ﴿ألقَى الشَّيطانُ في أُمنِيَّتِهِ﴾:........................

قوله: (المُرَادُ) بـ﴿قَرْيَةٍ﴾ والضَّمائرِ.

قولُهُ: (المَرْجِعُ) أي: مرجِعُ الكُلِّ إلى حُكمِي لا غَيري.

قوله: (أي: أَهْلَ مَكَّةَ) الحُكمُ عامٌّ.

قوله: (بيِّنُ الإِنْذَارِ) فهو من أبانَ اللّازِمِ، وفي نُسخةٍ: «مُظهِرٌ إنذَارِي وأنا بشِيرٌ للمُؤمِنِينَ».

قوله: (مِنَ الذُّنُوبِ) لِمَا بدَرَ منها ومنهُم.

قوله: (بإِبْطَالِهَا) وردِّها.

قوله: (وفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ مكّيٍّ وبَصريٍّ[1].

قوله: (النَّارِ) الموقدَةِ، وقيل: اسمُ دركةٍ.

قولُهُ: (لَم يُؤمَر) فـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بمعنى: بعَثْنا، وقيلَ: الرَّسولُ واضِعُ شرعٍ، والنَّبيُّ حافِظُ شرعِ غيرِه، وهذا أظهرُ ولو ما اشتهَر، فتدبَّرْ، وفي الآيةِ دليلٌ بيِّنٌ على ثُبوتِ التَّغايُرِ بينهُما، خِلافاً لبعضٍ، وفي حديثٍ رواهُ الإمامُ أحمدُ وغيرُه: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سُئِلَ عن الأنبياءِ فقالَ: «مِئةُ أَلفٍ وأَرْبَعَةٌ وعِشْرُونَ أَلفاً» قيل: فكَم الرُّسلُ منهم؟ فقال: «ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيراً»[2].

قولُهُ: (قَرَأَ) أي: كلُّ واحدٍ منهما، أو: إذا زوَّر في نفسِهِ ما يهواهُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٠)

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٨٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٦١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢١٧) (٧٨٧١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٥٩): ومداره على علي بن يزيد، وهو ضعيف.

قراءتِه ما ليس من القُرآن، ممّا يرضاه المُرسَلُ إليهم ـ وقد قرأ النبيّ ﷺ في سورة «النجم» بمجلس من قريش، بعدَ: «أفرَأَيتُمُ اللاتَ والعُزّى، ومَناةَ الثّالِثَةَ الأُخرَى»، بإلقاء الشيطان على لسانه من غير علمه به:

قيل: حدَّثَ في نفسِهِ بزَوالِ المسكَنةِ[١].

قوله: (قِرَاءَتِه) أو: في تشهِّيهِ ما يوجِبُ اشتغالَهُ بالدُّنيا كما قالَ عليه السَّلامُ: «وإنَّهُ ليُغانُ على قَلْبي فأستَغْفِرُ اللهَ في اليَومِ سبعينَ مرَّةً» رواهُ مسلمٌ[٢]، أرادَ: ما يَغشاهُ مِن السَّهوِ الَّذي لا يَخلو منه البشرُ؛ لأنَّ قلبَهُ أبداً كانَ مشغولاً باللهِ تعالى، فإن عَرَضَ له [في] وقتٍ ما عارِضٌ بشريٌّ ليَشغله عن أمورِ الملَّةِ ومصالحِ الأُمَّةِ عدَّ ذلك ذنباً، فيَفزعُ إلى الاستِغفارِ، ولذلك قيل: حسناتُ الأبرارِ سيِّئاتُ المقرَّبينَ.

قولُهُ: (المُرْسَلُ إلَيهِم) يعني: الكفَّار.

قوله: (وقَدْ قَرَأَ النَّبِيُّ) ردَّ هذه القصَّةَ غيرُ واحدٍ؛ منهم القاضي[٣]، لكنَّ شيخَ الإسلامِ ابنَ حجرٍ في «شرحِ البُخاريِّ» أطالَ في ثبوتِها، ثمَّ قالَ: وأحسَنُ ما قيلَ في التَّأويلِ: إنَّ الشَّيطانَ ألقَى ذلك في سكتَةٍ من سكتاتِهِ ولـم يفطَنْ لهَا ﷺ، وسمِعَها غيرُهُ فأشاعَها[٤].

قلتُ: والظَّاهرُ: الكافرونَ هُمُ السَّامعونَ.

قولُهُ: (عَلَى لِسَانِهِ) قالَ البَغَويُّ: الأكثَرونَ على أنَّها جرَت على لسانِهِ سهواً، ونُبِّه عليه[٥].

قالَ شيخُنا المرحومُ الشَّيخُ عطيَّةُ نقلاً عن شيخِهِ الإمامِ أبي الحسَنِ البَكريِّ: أنَّه لا يقدَحُ ذلك في العصمةِ لكونِهِ من غيرِ قصدٍ كحَركةِ المرتعِشِ، انتهى.

قالَ صاحِبُ «المدارِكِ»[٦]: إجراءُ الشَّيطانِ ذلك على لسانِهِ ﷺ جَبراً بحيث لـم يقدِر على الامتِناعِ عنه ممتنعٌ؛ لأنَّ الشَّيطانَ لا يقدرُ على ذلك في حقِّ غيرِه؛ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٧٥) وزاد: فنزلت. وعقب ذلك الشهاب في «حاشيته على البيضاوي» (٦/ ٣٠٥) بقوله: ضعفه لأنه لا يلائم قوله: ﴿فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾.

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغر المزني، وكانت له صحبة، وفيه: «مائة مرة» بدل: «سبعين مرة».

زروى البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٧٥). وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣٩١).

(٤) انظر: «فتح الباري» (٨/ ٤٣٩، ٤٤٠).

(٥) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٣٤٨).

(٦) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٤٤٨).

«تِلكَ الغَرانِيقُ العُلا، وإنَّ شَفاعتَهُنَّ لَتُرتَجَى»، ففرحوا بذلك، ثمّ أخبره جِبريل بما ألقاه الشيطان على لسانه، من ذلك، فحزن فسُلِّي بهذه الآية ليطمئنّ ـ ﴿فَيَنسَخُ اللهُ﴾: يُبطل ﴿ما يُلقِي الشَّيطانُ، ثُمَّ يُحكِمُ اللهُ آياتِهِ﴾: يُثبتها. ﴿واللهُ عَليمٌ﴾ بإلقاء الشيطان ما ذُكر ﴿حَكِيمٌ﴾ في تمكينه منه، يفعل ما يشاء.

٥٣ ـ ﴿لِيَجعَلَ ما يُلقِي الشَّيطانُ فِتْنَةً﴾: مِحنة ﴿لِلَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾: شَكّ ونفاق ﴿والقاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ أي: المُشركين، عن قبول الحقّ ـ ﴿وإنَّ الظّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ﴾: خِلافٍ طويل مع النبيّ والمُؤمنين، حيثُ جرى على لسانه ذِكرُ آلهتهم بما يُرضيهم، ثمّ أُبطل ذلك ـ ٥٤ ـ ﴿ولِيَعلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ﴾: التوحيدَ والقرآن ﴿أَنَّهُ﴾ أي: القرآنَ ﴿الحَقُّ مِن رَبِّكَ، فيُؤمِنُوا بِهِ فتُخبِتَ﴾: تطمئنّ ﴿لَهُ قُلُوبُهُم. وإنَّ اللهَ لَهادِي الَّذِينَ آمَنُوا إلَى صِراطٍ﴾: طريقٍ ﴿مُستَقِيمٍ﴾ أي: دِين الإسلام.

٥٥ ـ ﴿ولا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا في مِرْيَةٍ﴾: شكٍّ ﴿مِنهُ﴾ أي: القُرآنِ بما ألقاه الشيطان على لسان النبيّ ثمّ أُبطِل، ﴿حَتَّى تأتِيَهُمُ السّاعةُ بَغْتَةً﴾ أي: ساعةُ موتهم أو القيامةُ فجأةً، ....

[الحجر: ٤٢] ففي حقِّهِ أولى، والقَولُ بأنَّه جرى ذلك على لسانِهِ سهواً وغَفلةً مردودٌ أيضاً؛ لأنَّه لا يجوزُ مثلُ هذه الغَفلةِ عليه في حالِ تبليغِ الوَحيِ، ولو جازَ لبطَلَ الاعتِمادُ على قولِه.

ثمَّ اختارَ ما اختارَهُ ابنُ حجرٍ قالَ: وكانَ الشَّيطانُ يتكلَّمُ في زمنِ النَّبيِّ ﷺ.

قولُهُ: (الغَرَانِيْقُ) جمعُ الغُرْنوقِ أو الغُرْنَيْقِ، وهو الشَّابُّ النَّاعمُ[1].

قوله: (يُثْبِتُهَا) أي: الآياتِ القُرآنيَّةَ، أو الآياتِ الدَّاعِيةَ إلى استِغراقِ أمرِ الآخِرةِ.

قوله: (فِي تَمْكِينِهِ) تقدَّمَ ما يدلُّ على إبطالِهِ؛ إذ على تَقديرِ جوازِ السَّهوِ لا يُقالُ فيه: التَّمكينُ منه.

قوله: (يَفعَلُ) مذيِّلٌ لِمَا قبلَهُ، ومُعلِّلٌ لِمَا بعدَهُ.

قوله: (عَن قَبُولِ) متعلِّقٌ بـ﴿الْقَاسِيَةِ﴾ فكانَ حقُّهُ التَّقديمَ.

قوله: (الكَافِرِينَ) الظَّاهرُ: والمنافِقينَ.

قوله: (طَوِيلٌ) أو بعيدٌ عن الحقِّ.

قولُهُ تعالى: (﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾) بالقُرآنِ، أو: باللهِ.

قولُـهُ: (بِمَـا أَلْقَـى) وقالَ القاضي: مِـن القُرآنِ أو الرَّسـولِ ـ فـ﴿من﴾ ابتدائيَّـةٌ ـ، أو ممَّا ألقى الشَّـيطانُ ـ فـ﴿من﴾ تعليليَّةٌ ـ يقولونَ: ما بالُهُ ذكرَها بخيرٍ ثمَّ ارتدَّ عنه[2].

---

(١) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٥٣٧).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٧٦). وما بين معترضتين من كلام المصنف.

﴿أو يأتِيَهُم عَذابُ يَومٍ عَقِيمٍ﴾، هو يوم بدر لا خير فيه للكُفّار كالريح العقيم التي لا تأتي بخير، أو هو يوم القيامة لا ليل له.

٥٦ ـ ﴿المُلكُ يَومَئذٍ﴾ أي: يومَ القِيامة ﴿لِلهِ﴾ وحدَه ـ وما تضمّنه من الاستقرار ناصبٌ للظرف ـ ﴿يَحكُمُ بَينَهُم﴾ بالمجازاة بين المُؤمنين والكافرين بما بَيّن بعده. ﴿فالَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ في جَنّاتِ النَّعِيمِ﴾ فضلاً من الله، ٥٧ ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِآياتِنا فأُولئِكَ لَهُم عَذابٌ مُهِينٌ﴾: شديدٌ بسبب كُفرهم، ٥٨ ـ ﴿والَّذِينَ هاجَرُوا في سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: طاعتِه من مكّة إلى المدينة، ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أو ماتُوا، لَيَرزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزقًا حَسَنًا﴾ هو رِزق الجنّة ـ ﴿وإنَّ اللهَ لَهُوَ خَيرُ الرّازِقِينَ﴾: أفضل المُعطين ـ ٥٩ ـ ﴿لَيُدخِلَنَّهُم مُدخَلاً﴾، بضمّ الميم وفتحها، أي: إدخالاً أو مَوضعًا، ﴿يَرضَونَهُ﴾ وهو الجنّة. ﴿وإنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ﴾ بنِيّاتهم ﴿حَلِيمٌ﴾ عن عِقابهم.

٦٠ ـ الأمر ﴿ذلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك، ﴿ومَن عاقَبَ﴾: جازى ....

قوله: (يَومَ القِيَامَةِ) على أنَّ المرادَ بـ﴿السَّاعَةُ﴾ غيرُهُ.

قوله: (أي: يَوْمَ القِيَامَةِ) أو: يومَ تزولُ مريتُهُم.

قوله: (فَضلاً مِنَ اللهِ) لتَوفيقِ الإيمانِ والعَملِ الصَّالحِ.

قوله: (كُفْرِهِم) وتكذيبِهم عدلاً منهُ تعالى.

قولُهُ تعالى: (﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾) أي: في الجِهادِ.

قوله: (أَفْضَلُ المُعْطِينَ) فإنَّهُ يرزقُ بغيرِ حِسابٍ، وكلُّ مَن يُعطي إنَّما يُعطي من عَطائهِ لعطائِهِ.

قولُهُ: (وفَتْحِهَا) نافعٌ[١].

قوله: (أي: إِدْخَالاً) أو دُخولاً.

قوله: (أو مَوْضِعاً) للإدخالِ أو الدُّخولِ.

قوله: (وهُو الجَنَّةُ) أي: أعالي درَجاتِها، وفيها ما يُحبُّونَهُ.

قوله: (بنِيَّاتِهِم) الأَولى: بأحوالِ مبدئِهم ومعادِهِم.

قوله: (جَازَى) وإنَّما سمِّي الابتِداءُ بالعِقابِ الَّذي هو الجزاءُ [للازدواج]، أو[٢] لأنَّهُ سببُهُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨١).

(٢) «أو» من (د)، وما بين معكوفتين من «أنوار التنزيل».

من المؤمنين ﴿بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ﴾ ظُلمًا من المشركين، أي: قاتلهم كما قاتلوه في شهر المحرّم، ﴿ثُمَّ بُغِيَ علَيهِ﴾ منهم أي: ظُلم بإخراجه من منزله، ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللهُ. إنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ﴾ عن المؤمنين ﴿غَفُورٌ﴾ لهم عن قِتالهم في الشهر الحرام. ٦١ ـ ﴿ذلِكَ﴾ النصر ﴿بِأنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ﴾ أي: يُدخل كلًّا منهما في الآخر بأن يزيد به، وذلك من أثر قُدرته التي بها النصرُ، ﴿وأنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ دُعاءَ المؤمنين ﴿بَصِيرٌ﴾ بهم حيثُ جعل فيهم الإيمان، فأجاب دعاءهم. ٦٢ ـ ﴿ذلِكَ﴾ النصر أيضًا ﴿بِأنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ﴾: الثابت، ﴿وأنَّ ما يَدْعُونَ﴾، بالياء والتاء: يعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ ـ وهو الأصنام ـ ﴿هُوَ الباطِلُ﴾: الزائل، ﴿وأنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ﴾ أي: العالي على كُلّ شيء بقُدرته، ﴿الكَبِيرُ﴾ الذي يصغُر كُلّ شيء سواه.

٦٣ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تعلمْ ﴿أنَّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً﴾: مطرًا، ﴿فتُصبِحُ الأرضُ مُخضَرَّةً﴾ بالنبات؟

قوله: (مِنَ المُؤمِنِينَ) بَيانٌ لـ﴿مَنْ﴾.

قوله: (مِنَ المُشرِكِينَ) أي: مِن جهتِهِم.

قوله: (﴿عليه﴾) على مَن عاقَبَ؛ يعني: بَغى عليهِ بالمُعاوَدةِ إلى العُقوبةِ.

قولُهُ: (مِنْهُم) أي: من جهتِهِم.

قوله: (بأَنْ يَزِيدَ بِهِ) أي: في كلِّ واحِدٍ ما ينقُصُ منه.

قوله: (أَيْضاً) والأقرَبُ ما قالَهُ القاضي: ﴿ذلكَ﴾ الوَصفُ بكمالِ القُدرةِ والعِلمِ[١]. قالَ سعدِي جلبي: في العلمِ المدلولِ أيضًا بقولِهِ: ﴿يُولِجُ الَّيْلَ﴾.

أقولُ: الظَّاهرُ المدلولُ بقولِهِ: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾؛ لأنَّ معناهُما: عالمٌ[٢] بالمسموعَاتِ والمُبصَراتِ.

قوله: (الثَّابِتُ) في نفسِهِ، أو: الثَّابتُ الإلهيَّةِ.

قوله: (والتَّاءِ) الخطابُ حرميٌّ وشاميٌّ وشعبةُ[٣].

قولُهُ: (وهُوَ الأَصْنَامُ) أي: إلهاً أو آلهةً.

قوله: (الزَّائِلُ) المعدومُ في حدِّ ذاتِهِ أو باطِلُ الألوهيَّةِ.

قوله: (بالنَّبَاتِ) و«تصبحُ» بمعنى: تصيرُ، وإنَّما رُفِعَ لأنَّ الاستِفهامَ بمعنى الخَبرِ؛ أي: قد رأيتَ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٧٧).

(٢) في (ص): «عليم».

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٢).

وهذا من أثر قُدرته. ﴿إنَّ اللهَ لَطِيفٌ﴾ بعِباده في إخراج النبات بالماء ﴿خَبِيرٌ﴾ بما في قُلوبهم عِند تأخير المطر، ٦٤ ـ ﴿لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ على جِهة المُلك، ﴿وإنَّ اللهَ لَهُوَ الغَنِيُّ﴾ عن عِباده ﴿الحَمِيدُ﴾ لِأوليائه.

٦٥ ـ ﴿أَلَم تَرَ أنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم ما في الأرضِ﴾ من البهائم، ﴿والفُلكَ﴾: السُّفن ﴿تَجرِي في البَحرِ﴾ للركوب والحمل ﴿بِأمرِهِ﴾: بإذنه، ﴿ويُمسِكُ السَّماءَ﴾ من ﴿أن﴾ أو لئلاّ ﴿تَقَعَ علَى الأرضِ إلاّ بِإذنِهِ﴾ فتَهلِكوا؟ ﴿إنَّ اللهَ بِالنّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ في التسخير والإمساك. ٦٦ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي أحياكُم﴾ بالإنشاء، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُم﴾ عند انتهاء آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحيِيكُم﴾ عِند البعث. ﴿إنَّ الإنسانَ﴾ أي: المُشركَ ﴿لَكَفُورٌ﴾ لنِعم الله بتركه توحيدَه.

٦٧ ـ ٦٨ ـ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنسَكًا﴾، بفتح السين وكسرها: شريعةً، ﴿هُم ناسِكُوهُ﴾: عاملون به.

قولُهُ: (تَأخِيرِ المَطَرِ) وتقديمِهِ.

قوله: (عَلَى جِهَةِ المُلْكِ) ـ بالضَّمِّ والكسرِ ـ والخلقِ.

قوله: (عنِ الخَلْقِ) في ذاتِهِ.

قوله: (لأَوْلِيَائِهِ) أو: المُستوجِبُ للحمدِ بِصفاتِه وأفعالِه.

قولُهُ: (السُّفُنَ) عطفٌ على ﴿ما﴾ أو على اسمِ ﴿أنَّ﴾.

قوله: (للرُّكُوبِ) حالٌ منها، أو خبرٌ.

قوله: (أو لِئلًا) أو كراهَةَ أنْ.

قوله: (فَتَهْلِكُوا) محلُّهُ قبلَ ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾؛ أي: إلَّا بمشيئتِهِ، وذلك يومَ القيامَةِ.

قولُهُ: (بالإِنشَاءِ) بعدَ أن كنتُمْ أمواتاً جَماداً عناصرَ ونُطَفاً.

قوله: (لِنِعَمِ اللهِ) مع ظُهورِها.

قوله: (﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾) أهلِ دينٍ.

قوله: (وكَسْرِهَا) حمزَةُ والكِسائيُّ[1].

قولُهُ: (شَرِيعَةً) تُعُبِّدوا بها، أو: متعبَّداً، وقيلَ: عيداً.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٣٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٧٦).

﴿فلا يُنازِعُنَّكَ﴾ يُراد به: لا تُنازعْهم ﴿في الأمرِ﴾: أمر الذبيحة، إذ قالوا: «ما قتلَ اللهُ أحقُّ أن تأكلوه، ممّا قتلتُم»، ﴿وادعُ إلَى رَبِّكَ﴾: إلى دِينه ـ ﴿إنَّكَ لَعَلَى هُدًى﴾: دِينٍ ﴿مُستَقِيمٍ ـ وإن جادَلُوكَ﴾ في أمر الدِّين ﴿فقُلِ: اللهُ أعلَمُ بِما تَعمَلُونَ﴾ من التكذيب، فيُجازيكم عليه. وهذا قبلَ الأمر بالقتال.

٦٩ ـ ﴿اللهُ يَحكُمُ بَينَكُمْ﴾ ـ أيها المؤمنون والكافرون ـ ﴿يَومَ القِيامةِ فِيما كُنتُم فِيهِ تَختَلِفُونَ﴾ بأن يقول كُلّ من الفريقين خِلافَ قول الآخر. ٧٠ ـ ﴿ألَم تَعلَمْ﴾ ـ الاستفهام فيه للتقرير ـ ﴿أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في السَّماءِ والأرضِ؟ إنَّ ذلِكَ﴾ أي: ما ذُكر ﴿في كِتابٍ﴾ هو اللوح المحفوظ، ﴿إنَّ ذلِكَ﴾ أي: عِلمَ ما ذُكر ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾: سهلٌ.

٧١ ـ ﴿ويَعبُدُونَ﴾ أي: المُشركون، ﴿مِن دُونِ اللهِ ما لَم يُنَزِّل بِهِ﴾، هو الأصنام، ﴿سُلطانًا﴾: حُجّة، ﴿وما لَيسَ لَهُم بِهِ عِلمٌ﴾ أنها آلهةٌ، ﴿وما لِلظّالِمِينَ﴾ بالإشراك ﴿مِن نَصِيرٍ﴾ يمنع عنهم عذاب الله،...

قوله: (﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾) سائِرُ أربابِ المِلَلِ.

قوله: (لا تُنَازِعْهُم) إشارةٌ إلى ما قيلَ: المرادُ نهيُ الرَّسولِ عن منازعتِهم، كقولكَ: لا يُضاربنَّكَ زيدٌ، وهذا إنَّما يجوزُ في أفعالِ المغالبَةِ للتَّلازمِ.

قولُهُ: (أَمْرِ الذَّبِيحَةِ) إشارةٌ إلى ما قيلَ: نزلَت في كفَّارِ خُزاعَةَ[1]، والظَّاهرُ تفسيرُهُ بأمرِ الدِّينِ فإنَّهُ مُندرجٌ فيه، وليلائمَ كلامَهُ.

قوله: (إِلَى دِيْنِهِ) الأظهَرُ: إلى توحيدِهِ وعبادتِهِ.

قولُهُ: (فيُجَازِيْكُم) وهو وَعيدٌ فيه رِفقٌ.

قوله: (أَيُّهَا المُؤمِنُونَ) أي: يفصِلُ بالثَّوابِ والعِقابِ.

قوله: (بِأَنْ يَقُولَ) أي: في أمرِ الدِّينِ.

قوله: (مَا ذُكِرَ) أي: ما في السَّماءِ والأرضِ.

قوله: (هُو اللَّوْحُ) كتبَهُ فيه قبلَ حدوثِهِ.

قولُهُ: (عِلْمَ مَا ذُكِرَ) وإثباتَهُ في اللَّوحِ، أو الحكمَ بينكُم.

قوله: (حُجَّةً) تدلُّ على جوازِ عبادتِهِ، ولا مَفهومَ له[2].

قولُهُ تعالى: (﴿لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾) أي: حصَلَ لهم من ضَرورةِ العقلِ أو استدلالِهِ.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٥/ ٤٩٠) من قول مقاتل والكلبي.

(٢) «له»: ليس في (م) و(د)

٧٢ ـ ﴿وإذا تُتلَى علَيهِم آياتُنا﴾ من القرآن ﴿بيِّناتٍ﴾: ظاهراتٍ حالٌ ﴿تَعرِفُ في وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا المُنكَرَ﴾ أي: الإنكار لها، أي: أثرَه من الكراهة والعُبوس، ﴿يَكادُونَ يَسطُونَ بِالَّذِينَ يَتلُونَ علَيهِم آياتِنا﴾ من القرآن، أي: يقعون فيهم بالبطش. ﴿قُل: أفأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذلِكُمُ﴾ أي: بأكرهَ إليكم من القُرآنِ المتلوِّ عليكم؟ هو ﴿النَّارُ، وعَدَها اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنّ مصيرهم إليها، ﴿وبِئسَ المَصِيرُ﴾ هي!

٧٣ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ﴾ أي: أهلَ مكّة، ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ. فاستَمِعُوا لَهُ﴾. هو ﴿إنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ﴾: تعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ـ وهم الأصنام ـ ﴿لَن يَخلُقُوا ذُبابًا﴾ ـ اسمُ جنس، واحدُه ذبابة يقع على المُذكّر والمُؤنّث ـ ﴿ولَوِ اجتَمَعُوا لَهُ﴾: لخلقِه، ﴿وإن يَسلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيئًا﴾ ممّا عليهم من الطِّيبِ والزعفرانِ الملطَّخونَ به ﴿لا يَستَنقِذُوهُ﴾: لا يستردّوه ﴿مِنهُ﴾ لعجزهم. فكيف يُعبدون شركاءَ؟ تعالى. هذا أمر مستغرب، عُبّر عنه بـ «ضُرِبَ مَثَلٌ». ﴿ضَعُفَ الطّالِبُ﴾: العابد ﴿والمَطلُوبُ﴾: المعبود!

٧٤ ـ ﴿ما قَدَرُوا اللهَ﴾: عظّموه ﴿حَقَّ قَدرِهِ﴾: عظَمتِه، أن أشركوا به ما لم يمتنع من الذُّباب ولا ينتصف منه. ﴿إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: غالب.

قولُهُ: (الإِنْكَارَ) فـ﴿المُنْكَرَ﴾ مصدَرٌ ميميٌّ.

قوله: (لَهَا) للآياتِ؛ يعني: لفَرطِ نكيرِهِم للحقِّ وغيظِهِم لأباطيلَ أخَذُوها تقليداً، وهذا مُنتَهى الجهالَةِ، ولذلك قيلَ: الظَّاهرُ عنوانُ الباطِنِ.

قولُهُ: (هُوَ ﴿النَّارُ﴾) كأنَّهُ جوابُ سائلٍ قالَ: ما هو؟

قولُهُ: (أي: يَا أَهْلَ مَكَّةَ) لا خصوصيَّةَ.

قولُهُ تعالى: (﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾) أي: جُعِلَ، أو: بُيِّنَ لكم حالٌ مستغرَبةٌ، أو قصَّةٌ معجِبَةٌ.

وقولُهُ: (﴿لَهُ﴾) أي: للمثلِ، استِماعَ تدبُّرٍ وتفكُّرٍ.

قوله: (اسْمُ جِنْسٍ) من الذَّبِّ وهو الدَّفعُ، سُمِّي به لأنَّهُ كلما ذُبَّ آبَ.

قوله: (لِخَلْقِهِ) أي: لا يقدِرونَ على خلقِهِ مجتَمِعينَ لهُ متعاوِنينَ عليه، فكيفَ إذا كانوا منفَرِدينَ.

قولُهُ: (والزَّعْفَرَانِ) والعَسلِ.

قوله: (المَعْبُودُ) أي: عابِدُ الصَّنمِ ومعبودُهُ؛ أو الصَّنمُ والذُّبابُ، أو عكسُهُ، ولو حقَّقْتَ وجدتَ الصَّنمَ أضعَفَ بدرَجاتٍ.

قولُهُ تعالى: (﴿لَقَوِيٌّ﴾) على خَلقِ الممكِناتِ بأسرِها.

قوله: (غَالِبٌ) لا يغلبُهُ شيءٌ، وآلهتُهُم الَّتي يدعونَها عجزةٌ عن خلقِ أقلِّها، مغلوبَةٌ من مقاومَةِ أذلِّها.

٧٥ ـ ﴿اللهُ يَصطَفِي مِنَ المَلائكةِ رُسُلاً ومِنَ النّاسِ﴾ رُسلاً. نزل لمّا قال المشركون: «أأنزِلَ عليهِ الذِّكرُ مِن بَينِنا»؟ ﴿إنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بمن يتّخذه رسولاً كجِبريلَ وميكائيلَ، وإبراهيمَ ومُحمّدٍ وغيرهم ـ صلّى الله عليهم وسلّم ـ ٧٦ ـ ﴿يَعلَمُ ما بَينَ أيدِيهِم وما خَلفَهُم﴾ أي: ما قدّموا وما خلّفوا، أو ما عملوا وما هم عاملون بعدُ، ﴿وإلَى اللهِ تُرجَعُ الأُمُورُ﴾.

٧٧ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، اركَعُوا واسجُدُوا﴾ أي: صلّوا، ﴿واعبُدُوا رَبَّكُم﴾: وحّدوه، ﴿وافعَلُوا الخَيرَ﴾ كصِلة الرحِم ومكارم الأخلاق، ﴿لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾: تفوزون بالبقاء في الجنّة، ....

قوله: (بَعْدُ) أو: عالمٌ بواقِعِها ومترقَّبها.

قوله: (صَلُّوا) عبَّر عنها بِهما؛ لأنَّهما أعظمُ أركانِها، أو التَّقديرُ: في صلاتِكُم.

قولُهُ: (وَحِّدُوهُ) الظَّاهرُ أنَّه تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ.

قوله: (تَفُوزُونَ) أي: افعَلوا هذه كلَّها وأنتم راجونَ الفَلاحَ، قالَ القاضي: والآيةُ آيةُ سجدةٍ عندَنا[١] ـ يعني: خلافاً لأبي حنيفَةَ[٢] ومالكٍ[٣] ـ وقالَ: لظاهرُ ما فيها من الأمرِ بالسُّجودِ[٤].

قالَ سعدي: فيه: أنَّ المأمورَ[٥] على التَّفسيرينِ السَّابقينِ إنَّما هو السَّجدةُ الصَّلاتيَّةُ لا سجدةُ التِّلاوةِ، ولا حُجَّةَ في المحتمَلِ.

ثمَّ قالَ القاضي[٦]: ولقولِهِ ﷺ: «فُضِّلَتْ سُورةُ الحجِّ بسجدَتينِ، مَن لم يسجدْهُما فلا يقرأْهُما»[٧] قال سعدي جلبي: رواه التِّرمذيُّ وضعَّفَهُ.

أقولُ: وعلى تقديرِ صحَّتِه المرادُ بسجدَتينِ أولهما التِّلاويَّةِ[٨]، والأُخرى الصَّلاتيَّةِ.

---

(١) انظر: «الحاوي الكبير» (٢/ ٢٠٢).

(٢) انظر: «الهداية» (١/ ٧٨).

(٣) انظر: «المعونة على مذهب عالم المدينة» (ص: ٢٨٣).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٨٠).

(٥) في (ص): «الأمر».

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٨٠).

(٧) رواه أبو داود (١٤٠٢)، والترمذي (٥٧٨)، وأحمد في «مسنده» (٥٧٨) من حديث عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي.

(٨) في (م) و(ن): «التلاوتية».

٧٨ ـ ﴿وجاهِدُوا في اللهِ﴾ لإقامة دِينه ﴿حَقَّ جِهادِهِ﴾ باستفراغ الطاقة فيه. ونُصب «حقَّ» على المصدر. ﴿هُوَ اجتَبَاكُم﴾: اختاركم لدِينه، ﴿وما جَعَلَ علَيكُم في الدِّينِ مِن حَرَجٍ﴾ أي: ضيقٍ بأن سهّله عِند الضرورات كالقصر والتيمّم وأكل الميتة والفِطر للمرض والسفر، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُم﴾ ـ منصوبٌ بنزع الخافض الكاف ـ ﴿إبراهِيمَ﴾: عطفُ بيان. ﴿هُوَ﴾ أي: اللهُ ﴿سَمّاكُمُ المُسلِمِينَ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ هذا الكتاب ﴿وفي هذا﴾ أي: القُرآنِ، ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا علَيكُم﴾ يوم القيامة أنه بلّغكم، ﴿وتكُونُوا﴾ أنتم ﴿شُهَداءَ علَى النّاسِ﴾ أنّ رسلهم بلّغَتْهم. ﴿فأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾: داوموا عليها ﴿وآتُوا الزَّكاةَ، واعتَصِمُوا بِاللهِ﴾: ثِقوا به..........................

قولُهُ: (بِإِقَامَةِ دِيْنِهِ) و﴿فِي﴾ تعليليَّةٌ؛ بمعنى: لله ومن أجلِهِ أعداءَ دينِهِ: الظَّاهرةَ كأهلِ الزَّيغِ، والباطِنَةَ: كالهَوى والنَّفسِ، وعنهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه[1] رجعَ من غزوةِ تبوكَ فقالَ: «رجعْنَا مِن الجهَادِ الأصغرِ إلى الجهَادِ الأكبَرِ» أخرجَهُ البَيهقيُّ وضعَّفَه[2].

قولُهُ: (بنَزْعِ الخَافِضِ) أو على الإغراءِ، أو الاختِصاصِ.

قوله: (عَطْفُ بَيَانٍ) وإنَّما جعلَهُ أباهُم لأنَّه أبو النَّبيِّ ﷺ، وهو كالأبِ لأُمَّتِه من حيثُ إنَّه سببٌ لحياتِهِم الأبديَّةِ.

قوله: (أي: اللهُ) وقُرئَ به[3]، وقيلَ: إبراهيمُ.

قوله: (هَذَا الكِتَابِ) أي: نزولِه في الكُتبِ المتقدِّمةِ.

قولُهُ: (بلَّغكُم) واللَّامُ للعاقبةِ، متعلِّقٌ[4] بـ﴿سَمَّاكُمُ﴾.

قوله: (دَاوِمُوا) يعني: اثبُتوا على الجمعِ بين العباداتِ البدنيَّةِ[5] والماليَّةِ.

قوله: (ثِقُوا بِهِ) أي: لا بالصَّلاةِ والزَّكاةِ وغيرِهما، قالَ النوريُّ: الاعتِصامُ باللهِ للخَواصِّ، وهو خلوُّ القلبِ عمَّا يشغلُهُ عن اللهِ[6].

---

(١) في (ص): زيادة «لما».

(٢) رواه البيهقي في «الزهد الكبير» (٣٧٣) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال: هذا إسناد ضعيف.

وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢/ ٣٩٦).

(٣) أي: (الله سماكم المسلمين) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٩٩) ونسبت لأُبي.

(٤) أي: قوله: ﴿ليكون الرسول﴾.

(٥) في (ص): «الدينية».

(٦) انظر: «حقائق التأويل» (٢/ ٢٩).

﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾: ناصركم ومُتولِّي أُموركم. ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ هو! ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي: الناصرُ هو لكم!

والاعتصامُ بحَبلِ اللهِ للخاصِّ والعامِّ، قالَ تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهو التَّمسُّكُ بالأوامِرِ والسُّننِ.

قوله: (هُوَ) إذ لا مثلَ له في الولايَةِ والنُّصرةِ، بل لا مَولى ولا نصيرَ سِواهُ في الحقيقةِ، قالَ الإمامُ جعفرٌ: نِعمَ المُعينُ لمن استعانَ به، ونعمَ النَّصيرُ لِمَن استنصرَ به[1].

واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر المصدر السابق.

سورة الحج

أخرج ابنُ مردويه عن ابنِ عباس، وابن الزبير ﷺ أنَّها نزلت بالمدينة[1]، وهو قولُ الضَّحَّاك، وقيل: كلُّها مكِّية، وأخرج أبو جعفرٍ النحَّاسُ[2] عن مجاهدٍ عن ابنِ عباس أنَّها مكِّيَّة سوى ثلاثِ آياتٍ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الآية:١٩] إلى تمام الآياتِ الثلاث، فإنَّها نزلت بالمدينة، وفي روايةٍ عن ابنِ عباس: إلا أربعَ آيات: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ [الآية: ١٩] إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الآية: ٢٢].

وأخرج ابنُ المنذرِ عن قتادةَ أنَّها مدنيَّة غيرَ أربع آيات: «﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ [الآية: ٥٢] إلى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الآية: ٥٥] فإنَّها مكِّيَّات[3]، والأصحُّ القولُ بأنَّها مختلطةٌ، فيها مدنيٌّ ومكِّيٌّ، وإنِ اختلف في التعيين، وهو قولُ الجمهور.

وعدَّةُ آياتِها ثَمانٌ وتسعونَ في الكوفيِّ، وسبعٌ وتسعونَ في المكِّيِّ، وخمسٌ وتسعونَ في البَصْريِّ، وأربعٌ وتسعونَ في الشامِيِّ.

ووجهُ مناسبتِها للسورة التي قبلها ظاهر.

وجاء في فَضْلها ما أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ في «سننه» عن عقبةَ بنِ عامر ﷺ قال: قلتُ: يا رسولَ الله أَفُضِّلَتْ سورةُ الحجِّ على سائرِ القرآن بسجدتَيْن؟ قال: «نعم، فمَن لم يَسجُدهما فلا يَقْرَأْهما»[4].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٤٢.

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٠٩.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٤٢.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٤٢، وأحمد (١٧٣٦٤)، وأبو داود (١٤٠٢)، والترمذي (٥٧٨)، والبيهقي ٢/ ٣١٧. وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (٧٨) عن خالد بن معدان أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلت سورة الحج على القرآن بسجدتين». وقال: وقد أُسنِدَ هذا، ولا يصح.

والروايات في أنَّ فيها سجدتين متعدِّدةٌ مذكورةٌ في «الدُّرِّ المنثور»(١)، نعم أخرج ابنُ أبي شيبة مِن طريق [أبي] العريان المجاشعيِّ عن ابنِ عباس قال: في الحجِّ سجدةٌ واحدةٌ(٢). وهي الأُولى، كما جاء في رواية(٣)، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمام الكلام في ذلك.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ خطابٌ يعمُّ حُكمه المكلَّفينَ عند النزولِ ومَن سينتظم في سِلْكهم بَعْدُ مِن الموجودين القاصرينَ عن رتبةِ التكليف والحادِثين بعد ذلك إلى يومِ القيامة، لكن لا بطريق الحقيقة عندنا، بل بطريقِ التغليب أو تعميمِ الحُكم بدليلِ خارجيٍّ، فإنَّ خطابَ المشافهةِ لا يتناول من لم يُكلَّف بَعْدُ، وهو خاصٌّ بالمكلَّفين الموجودين عند النزول، خلافاً للحنابلة وطائفةٍ مِن السَّلَفيين والفقهاء حيث ذهبوا إلى تناوله الجميعَ حقيقةً، ولا خلافَ في دخول الإناث كما قال الآمديُّ في نحو «الناس»، مما يدلُّ على الجَمعِ ولم يظهر فيه علامةُ تذكيرٍ ولا تأنيثٍ، وإنَّما الخلافُ في دخولهنَّ في نحو ضمير: «اتقوا» و«المسلمين»، فذهبت الشافعيَّة، والأشاعرةُ، والجمعُ الكثير من الحنفيَّة، والمعتزلة، إلى نَفْيِهِ، وذهبت الحنابلةُ، وابنُ داودَ، وشذوذٌ مِن الناس إلى إثباته(٤). والدخول هنا عندنا بطريقِ التغليب.

وزعم بعضُهم أنَّ الخطابَ خاصٌّ بأهل مكَّة، وليس بذاك، والمأمور به مُطلَق التقوى الذي هو التجنُّب عن كلِّ ما يُؤثِم من فِعْلٍ وتَرْكٍ، ويندرج فيه الإيمانُ بالله تعالى واليومِ الآخر حسبما وردَ به الشرعُ اندراجاً أَوَّليًّا، لكن على وجه يعمُّ الإيجادَ والدوامَ، والمناسب لتخصيصِ الخطاب بأهلِ مكَّة أن يُرادَ بالتقوى المرتبةُ الأولى

---

(١) ٤/ ٣٤٢.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ١٢، وما بين حاصرتين استدرك منه.
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٢ عن سعيد بن المسيب والحسن، وعن إبراهيم.
(٤) إحكام الأحكام ٢/ ٣٢٥.

منها، وهي التوقّي عن الشِّرْك، والتعرُّض لعنوان الربوبيَّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين؛ لتأييد الأَمْرِ وتأكيد إيجابِ الامتثال به؛ ترهيباً وترغيباً، أي: احذروا عقوبةَ مالِكِ أَمْرِكم ومربِّيكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ①﴾ تعليلٌ لموجب الأمر بذِكْر أَمْرٍ هائلٍ، فإنَّ ملاحظةَ عِظَمِ ذلك وهولِه وفظاعة ما هو من مباديه ومقدِّماته مِن الأحوال والأهوال التي لا ملجأ منها سوى التدرُّع بلباسِ التقوى، ممَّا يُوجِبُ مزيدَ الاعتناء بملابستِه وملازمته لا محالَة.

والزلزلة: التحريكُ الشديدُ والإزعاجُ العنيفُ بطريقِ التكرير، بحيث يزيلُ الأشياءَ مِن مقارِّها ويُخرِجها عن مراكزها، وإضافتُها إلى «الساعة» إمَّا مِن إضافةِ المصدر إلى فاعِله لكن على سبيل المجاز في النسبة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] لأنَّ المحرِّك حقيقةً هو اللهُ تعالى، والمفعول الأرضُ أو الناسُ، أو مِن إضافتِه إلى المفعول، لكن على إجرائه مَجرى المفعول به اتِّساعاً، كما في قوله:

يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدارْ[1]

وجوِّز أن تكون الإضافةُ على معنى «في»، وقد أثبتها بعضُهم وقال بها في الآية السابقة[2].

وهي عند بعضِ المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] وتكون على ما قيل: عند النفخةِ الثانية وقيامِ الساعة، بل روي عن ابنِ عباس أنَّ زلزلةَ الساعةِ قيامُها.

وأخرج أحمد، وسعيدُ بنُ منصور، وعبدُ بنُ حميد، والنسائيُّ، والترمذيُّ، والحاكمُ وصحَّحاه، عن عمرانَ بنِ حُصَين قال: لما نزلت: «يا أيُّها الناسُ» إلى:

---

(١) من شواهد سيبويه في الكتاب ١/ ١٧٥، وسلف ٦/ ١٧.

(٢) أي: في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] وسيأتي عند تفسير الآية أن قتادة ويحيى بن يعمر قرأا بالتنوين ونصب الظرفين، أي: بل صدنا مكركم أو مكر عظيم في الليل والنهار.

«ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ» كان ﷺ في سَفر(١)، فقال: «أتدرونَ أيَّ يوم ذلك»؟ قالوا: اللهُ تعالى ورسولُه أعلم. قال: «ذلك يوم يقولُ اللهُ تعالى لآدمَ عليه السلام: ابْعَثْ بَعْثَ النارِ، قال: يا ربِّ وما بعثُ النار؟ قال: مِن كلِّ ألفٍ تسعَ مئةٍ وتسعةً وتسعينَ إلى النار وواحداً إلى الجنَّة» فأنشأَ المسلمونَ يَبكُون، فقال رسولُ الله ﷺ: «قَاربوا وسدِّدوا وأَبشروا، فإنَّها لم تكن نبوَّة قطُّ إلا كان بين يديها جاهليَّةٌ فتُؤخَذ العِدَةُ مِن الجاهلية، فإن تمَّت، وإلا كَملَتْ مِن المنافقين، وما مَثَلُكم في الأُمم إلا كَمَثَلِ الرَّقْمَة في ذِراع الدابَّةِ أو كالشامة في جَنْب البعير»، ثم قال: «إنِّي لأَرجو أن تكونوا رُبْعَ(٢) أهل الجنَّة» فكبَّروا، ثم قال: «إنِّي لأَرجو أن تكونوا ثلثَ أهلِ الجنَّة» فكبَّروا، ثم قال: «إنِّي لأَرجو أن تكونوا نصفَ أهلِ الجنَّة» فكبَّروا، قال: ولا أدري قال: الثلثين، أم لا(٣). وحديث البعثِ مذكورٌ في الصحيحين وغيرِهما(٤) لكن بلفظٍ آخَر، وفيه كالمذكور ما يؤيِّد كونَ هذه الزلزلة في يوم القيامة، وهو المرويُّ عن الحسن.

وأخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن علقمةَ، والشعبيِّ، وعبيدِ بنِ عمير، أنَّها تكون قبلَ طلوعِ الشمس مِن مغربها، وإضافتُها إلى الساعة على هذا؛ لكونها مِن أَماراتها، وقد وردت آثارٌ كثيرةٌ في حدوثِ زلزلةٍ عظيمة قبل قيامِ الساعة هي مِن أَشراطها إلا أنَّ في كون تلك الزلزلة هي المراد هنا نظراً، إذ لا يناسبُ ذلك كون الجملة تعليلًا لموجب أمر جميع الناس بالتقوى، ثمَّ إنَّها على هذا القول على معناها الحقيقيِّ وهو حركةُ الأرض العنيفةُ، وتَحدثُ هذه الحركةُ بتحريك مَلَك؛ بناءً على ما رُويَ أنَّ في الأرض عروقاً تنتهي إلى جبلِ قاف، وهي بيد

---

(١) جاء في هامش الأصل: وذلك في غزوة بني المصطلق كما صرَّح به في بعض الراوايات. انتهى. منه.

(٢) في الأصل و(م): نصف. وهو خطأ، والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٤٣، وأحمد (١٩٨٨٤) و(١٩٩٠١)، والنسائي في الكبرى (٣١٦٨)، والترمذي (٤٠٨٤)، والحاكم ٢/ ٢٣٣-٢٣٤ و٣٨٥ والرقمة: الهنة الناتئة في ذراع الدابة من داخل، وهما رقمتان في ذراعيها. النهاية (رقم).

(٤) البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢)، وأحمد (١١٢٨٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

مَلَكٍ هناك، فإذا أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ أمراً أَمَرهُ أن يحرِّك عرقاً، فإذا حرَّكه زُلزلت الأرضُ.

وعند الفلاسفة أنَّ البخارَ إذا احتُبسَ في الأرض وغَلُظَ بحيث لا ينفذُ في مجاريها؛ لشدَّة استحصافِها وتكاثفها، اجتمع طالباً للخروج ولم يمكنه، فزلزلت الأرضُ، وربَّما اشتدت الزلزلةُ فخسفت الأرض فيخرج نارٌ لشدَّة الحركة الموجبة لاشتعالِ البخار والدخان، لا سيَّما إذا امتزجا امتزاجاً مقرِّباً إلى الدهنية، وربَّما قويت المادةُ على شقِّ الأرض فتحدث أصواتٌ هائلة، وربَّما حدثت الزلزلةُ مِن تساقط عوالي وهداتٍ في باطنِ الأرض فيتموَّج بها الهواءُ المحتقن فتتزلزل به الأرضُ، وقليلًا ما تتزلزل بسقوطِ قُلَلِ الجبالِ عليها لبعض الأسباب.

وممَّا يستأنس به للقول بأنَّ سببَها احتباسُ البخارِ الغليظ وطلبُه للخروج وعدمُ تيسُّره له، كثرةُ الزلازل في الأرض الصلبة وشدَّتها بالنسبة إلى الأرض الرِّخْوة، ولا يخفى أنَّه إذا صحَّ حديث في بيان سبب الزلزلة لا ينبغي العدول عنه، وإلا فلا بأسَ بالقول برأي الفلاسفة في ذلك، وهو لا ينافي القولَ بالفاعل المختار كما ظنَّ بعضُهم.

وهي على القول بأنَّها يوم القيامة، قال بعضُهم: على حقيقتها أيضاً، وقال آخَرون: هي مجازٌ عن الأهوال والشدائد التي تكون في ذلك اليوم، وفي التعبير عنها بالشيء إيذانٌ بأنَّ العقولَ قاصرةٌ عن إدراك كُنْهها، والعبارة ضيِّقة لا تحيطُ بها إلا على وجه الإبهام. وفي «البحر»[1]: إنَّ إطلاقَ الشيء عليها مع أنَّه لم توجد بَعْدُ يدلُّ على أنَّه يُطلق على المعدوم، ومَن منع ذلك قال: إنَّ إطلاقَه عليها؛ لتيقُّن وقوعها وصيرورتها إلى الوجودِ لا محالةَ.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ الظاهر أنَّ الضميرَ المنصوبَ في «ترونها» للزلزلة؛ لأنَّها المحدَّث عنها، وقيل: هو للساعة، وهو كما ترى.

---

(١) ٦/ ٣٤٩.

و«يوم» منتصبٌ بـ «تَذْهَلُ» قدِّم عليه؛ للاهتمام، وقيل: بـ «عظيم»، وقيل: بإضمار: اذْكُر، وقيل: هو بدل مِن «الساعة» وفُتِحَ لبنائِه، كما قيل في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩] على قراءةِ «يوم» بالفتح(١)، وقيل: بدل مِن «زلزلة»، أو منصوب به إن اغتُفرَ الفصلُ بين المصدر ومعموله الظرفيِّ بالخبر، وجملةُ «تَذْهَلُ» على هذه الأوجه في موضع الحال مِن ضمير المفعول، والعائد محذوفٌ، أي: تذهل فيها.

والذهول: شُغْلٌ يُورِث حزْناً ونسياناً.

والمرضعة: هي التي في حالِ الإرضاع ملقمةً ثديَها، وهي بخلافِ المرضع بلاهاء، فإنَّها التي مِن شأنها أن ترضعَ وإن لم تباشِر الإرضاعَ في حالِ وصفِها به، وخصَّ بعضُ نحاةِ الكوفة أمَّ الصبيِّ بمرضعة بالهاء، والمستأجَرة بمرضع، ويردُّه قولُ الشاعر:

كمرضعةٍ أولادَ أُخرى وضيَّعتْ ... بَني بطنِها هذا الضلالُ عن القَصْدِ(٢)

والتعبير به هنا؛ ليدلَّ على شدَّة الأمرِ وتفاقم الهول، والظاهر أنَّ «ما» موصولة، والعائد محذوف، أي: عن الذي أرضعته، والتعبير بـ «ما» لتأكيدِ الذهول، وكونِ الطفل الرضيع بحيث لا يَخطُر ببالها أنَّه ماذا؛ لأنَّها تَعرف شيئيته لكن لا تدري مَن هو بخصوصه، وقيل: مصدريَّة، أي: تذهلُ عن إرضاعها، والأوَّل دلَّ على شدَّة الهول وكمالِ الانزعاج، والكلام على طريق التمثيل، وأنَّه لو كان هناك مرضعةٌ ورضيعٌ، لذهلت المرضعةُ عن رضيعها في حال إرضاعها إيَّاه؛ لشدَّة الهولِ، وكذا ما بَعْدُ، وهذا ظاهر إذا كانت الزلزلةُ عند النفخةِ الثانية أو في يوم القيامة حين أَمْر آدمَ عليه السلام ببعثِ بعثِ النار وبَعْث الجنَّة، إن لم نقل بأنَّ كلَّ أحدٍ يُحشَر على حاله التي فارق فيها الدنيا، فتحشر المرضعةُ مرضعةً، والحاملُ حاملةً، كما ورد في بعض الآثار، وأمَّا إذا قلنا بذلك أو بكون الزلزلة في الدنيا، فيجوز أن يكونَ الكلامُ على حقيقته، ولا يضرُّ في كونه تمثيلًا أنَّ الأمرَ إذ ذاك أشدُّ

---

(١) وهي قراءة نافع، وسلفت ٧/٥٠٨.

(٢) البيت نُسبَ في شرح الحماسة للمرزوقي ٢/٧٣٦، وللتبريزي ٢/١٢٩، للعُديل بن الفرخ العجلي، ونُسبَ في منتهى الطلب ٨/ ١٨٠ لأبي الأخيل العجلي.

وأعظمُ وأهولُ ممَّا وصف وأطمُّ؛ لشيوع ما ذكر في التهويل، كما لا يخفى على المنصِفِ النبيل.

وقرئ: «تُذْهَلُ» من الإذهال مبنياً للمفعول[١]، وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ واليمانيُّ: «تُذهِلُ» منه مبنيًّا للفاعل، و«كلَّ» بالنصب[٢]، أي: يومَ تُذهِلُ الزلزلةُ ـ وقيل: الساعةُ ـ كلَّ مرضعةٍ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تُلقي ذاتُ جنينٍ جنينَها لغير تمام، وإنَّما لم يقل: وتضعُ كلُّ حاملةٍ ما حَملتْ، على وزان ما تقدَّم، لما أنَّ ذلك ليس نصًّا في المراد وهو وضعُ الجنين، بخلافِ ما في النظم الجليل، فإنَّه نصٌّ فيه؛ لأنَّ الحَمْلَ ـ بالفتح ـ ما يُحمَل في البطن مِن الولد، وإطلاقه على نحوِ الثمرة في الشجرة، للتشبيه بحَملِ المرأة، وللتنصيصِ على ذلك مِن أوَّل الأمرِ لم يقل: وتضعُ كلُّ حاملةٍ حَمْلَها، كذا قيل. وتُعقِّب بأنَّ في دعوى تخصيصِ الحَمْل بما يُحمَل في البطن مِن الولد وأنَّ إطلاقَه على نحو الثمرة في الشجرة للتشبيه = بحثاً، ففي «البحر»[٣]: الحَمْلُ، بالفتح: ما كان في بطنٍ أو على رأس شجرة.

وفي «القاموس»: الحَمْلُ: ما يُحمَل في البطن مِن الولد، جمعه: حِمَالٌ وأَحْمالٌ، وحَمَلتِ المرأةُ تَحْمِلُ، عَلِقَتْ، ولا يقال: حَمَلَتْ به، أو قليلٌ، وهي حاملٌ وحامِلةٌ، والحَمْلُ: ثَمرُ الشجرِ، ويُكسَر، أو الفتحُ لما بَطَنَ مِن ثمرِه، والكسرُ لِمَا ظَهر، أو الفتحُ لَمَا كان في بطنٍ أو على رأسِ شجرة، والكسرُ لَمَا على ظهرٍ أو رأسٍ، أو ثمرُ الشجر بالكسر ما لم يَكْبُر، فإذا كَبُرَ فبالفتح، جمعه: أَحْمال وحُمول وحِمالٍ. اهـ.

وقيل: المتبادر وَضْعُ الجنينِ بأيِّ عبارةٍ كان التعبيرُ، إلا أنَّ ذاتَ حمل أبلغُ في التهويل مِن حامل أو حاملة؛ لإشعاره بالصحبة المشعرةِ بالملازمة فيشعر الكلامُ بأنَّ الحاملَ تَضَعُ إذ ذاكَ الجنينَ المستقرَّ في بطنها المتمكِّن فيه، هذا مع ما في الجمع بينَ ما يُشعِر بالمصاحبة وما يُشعِر بالمفارقة وهو الوضْع، مِن اللطف، فتأمَّل فلمسلكِ الذهن اتِّساعٌ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٥٠، والكشاف ٣/ ٤.

(٣) ٦/ ٣٥٠.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ بفتحِ التاء والراء، على خطاب كلِّ واحد مِن المخاطبين برؤية الزلزلة، والاختلاف بالجمعيَّة والإفراد، لما أنَّ المرئيَّ في الأوَّل هي الزلزلة التي يُشاهدها الجميعُ، وفي الثاني حالَ مَن عدا المخاطَب منهم، فلا بدَّ من إفراد المخاطَب على وجه يعمُّ كلَّ واحدٍ منهم، لكن مِن غير اعتبارِ اتِّصافه بتلك الحالة، فإنَّ المرادَ بيانُ تأثير الزلزلة في المرئيِّ لا في الرائي باختلاف مشاعرِه، لأنَّ مدارَه حيثيَّةُ رؤيتِه للزلزلة لا لغيرِها، كأنَّه قيل: وتصير الناسُ سَكارى. . . إلخ، وإنَّما أُوثر عليه ما في التنزيل؛ للإيذان بكمالِ ظهور تلك الحال فيهم وبلوغها مِن الجلاء إلى حدٍّ لا يكاد يَخفى على أحدٍ، قاله غيرُ واحد. وجوَّز بعضُهم كونَ الخطاب للنبيِّ ﷺ، والأوَّل أبلغُ في التهويل، والرؤية بصريَّة و«الناس» مفعولها.

وقوله تعالى: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ حالٌ منه، أي: يراهم كلُّ واحد مشابهينَ للسُّكارى، وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ أي: حقيقةُ حالٍ أيضًا لكنَّها مؤكِّدة، والحال المؤكِّدة تقترن بالواو لا سيَّما إذا كانت جملةً اسميَّةً، فلا يقال: إنَّه إذا كان معنى قوله تعالى: «ترى الناسَ سُكارى» على التشبيه، يكون «وما هم بسكارى» بالمعنى المذكور مستغنًى عنه، ولا وجهَ لجعله حالًا مؤكِّدة؛ لمكان الواو.

وجوِّز أن يكون «ترى» بمعنى تظنَّ، فـ «سكارى» مفعولٌ ثانٍ، وحينئذٍ يجوز أن يكون الكلامُ على التشبيه والجملة الاسميَّة في موضع الحالِ المؤكِّدة؛ ويجوز أن يكون على الحقيقة فلا تأكيدَ هنا، وأَمْرُ إفرادِ الخطاب وما فيه مِن المبالغة بحالِه، وأيًّا ما كان فالمراد في قوله تعالى: «وَمَا هُم بسُكارى» استمرارُ النفي، وأُكِّد بزيادة الباء؛ للتنبيه على أنَّ ما هم فيه ليس مِن المعهود في شيءٍ، وإنَّما هو أَمْرٌ لم يَعهدوا قَبْلَه مِثْلَه، وأشير إلى سببه بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ أي: إنَّ شدَّةَ عذابِه تعالى تَجعلهم كما ترى، وهو استدراكٌ على ما في «الانتصاف»[(١)] راجع إلى قوله تعالى: «وما همُ بسُكارى»، وزعم أبو حيَّان[(٢)] أنَّه استدراكٌ عن مقدَّر، كأنَّه قيل: هذه، أي: الذهول والوَضْعُ ورؤيةُ الناس سكارى أحوالُ هيِّنَة، ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ وليس بهيِّن، وهو خلاف الظاهر جدًّا.

---

(١) ٣/ ٤.

(٢) البحرالمحيط ٦/ ٣٥٠-٣٥٢.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «تُرِي» بضمِّ التاء وكسر الراءِ[١]، أي: تُري الزلزلةُ الخَلْقَ جميعَ الناسِ سكارى.

وقرأ الزعفرانيُّ: «تُرَى» بضمِّ التاء وفتحِ الراء، «الناسُ» بالرفع[٢] على إسناد الفعلِ المجهولِ إليه، والتأنيث على تأويل الجماعة.

وقرأ أبو هريرةَ، وأبو زرعة، وابنُ جرير، وأبو نهيك كذلك، إلَّا أنَّهم نصبوا «الناسَ»[٣]، و«ترى» على هذا متعدٍّ إلى ثلاثةِ مفاعيل كما في «البحر»[٤]؛ الأوَّل: الضميرُ المستتر وهو نائبُ الفاعل، والثاني: «الناسَ»، والثالث: «سكارى».

وقرأ أبو هريرةَ، وابنُ نهيك: «سَكارى» بفتح السين في الموضعين[٥]، وهو جمعُ تكسير، واحدُه: سكرانُ، وقال أبو حاتم: هي لغةُ تميم.

وأخرج الطبرانيُّ وغيرُه عن عمرانَ بنِ حصينٍ: أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: «سَكْرى» كعَطْشى في الموضعين[٦]، وكذلك روى أبو سعيد الخدريُّ[٧]، وهي قراءةُ عبدِ الله وأصحابِه، وحذيفةَ، وبها قرأ الأخوانِ، وابنُ سعدانَ، ومسعودُ بنُ صالح[٨]، وتُجمَع الصفةُ على فَعْلَى إذا كانت من الآفاتِ والأمراض، كقَتْلى ومَوْتى وحَمْقى، ولكون السُّكْرِ جارياً مَجرى ذلك؛ لما فيه مِن تعطيل القِوى والمشاعر، جُمعَ هذا الجمع، فهو جَمْعُ سكران. وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ[٩]: يصحُّ أن يكون جَمْعُ سَكِر كزَمْنى وزَمِن، وقد حكى سيبويه[١٠]: رَجُلٌ سَكِرٌ، بمعنى سكران.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥٠.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٠، والكشاف ٣/ ٤.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٥٠.

(٤) ٦/ ٣٥٠.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٠.

(٦) الطبراني في الكبير ١٨/ ١٤٤-١٤٥ (٣٠٦) و(٣٠٧) و(٣٠٨)، وجزء قراءات النبي ﷺ لأبي حفص الدوري (٨٣)، وسلف الحديث مطوَّلًا ص٢٣٢ من هذا الجزء.

(٧) هو في الصحيحين، وسلف ص٢٣٢ من هذا الجزء، وأخرجه أيضاً الدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (٨٤).

(٨) البحر المحيط ٦/ ٣٥٠.

(٩) الحجة ٥/ ٢٦٦.

(١٠) الكتاب ٣/ ٦٤٦.

وقرأ الحسنُ والأعرجُ، وأبو زرعة، وابنُ جبيرٍ والأعمشُ: «سُكْرى» بضمِّ السين فيهما(١)، قال الزمخشريُّ(٢): وهو غريبٌ. وقال أبو الفتح(٣): هو اسمٌ مُفرَد كالبُشرى، وبهذا أفتاني أبو علي وقد سألته عنه. انتهى.

وإلى كونه اسماً مفرَداً ذهب أبو الفضل الرازيُّ فقال: فُعلى بضمِّ الفاء مِن صفة الواحدة مِن الإناث، لكنَّها لمَّا جعلت مِن صفات الناس ـ وهم جماعةٌ ـ أُجريت الجماعةُ بمنزلة المؤنَّث الموحَّد.

وعن أبي زرعة: «سَكْرى» بفتح السين، «بسُكْرى» بضمِّها، وعن ابنِ جبير: «سكرى» بفتح السين مِن غير ألف «بسُكَارى» بالضمِّ والألف(٤) كما في قراءة الجمهور، والخلاف في فعالى، أهو جمعٌ، أو اسمُ جمعٍ مشهور.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت كما أخرج ابنُ أبي حاتم عن أبي مالكٍ رضي الله عنه في النَّضْرِ بنِ الحارث(٥)، وكان جَدِلًا يقول: الملائكةُ عليهم السلام بناتُ اللهِ سبحانه، والقرآنُ أساطيرُ الأوَّلين، ولا يَقْدِرُ اللهُ ـ تعالى شأنه ـ على إحياءِ مَن بَلِيَ وصار تراباً. وقيل: في أبي جهل، وقيل: في أُبَيِّ بنِ خَلَف.

وهي عامَّة في كلِّ مَن تعاطى الجدلَ فيما يجوز ومالا يجوز على اللهِ سبحانه مِن الصفات والأفعال، ولا يرجع إلى عِلْمٍ ولا برهانٍ ولا نصفةٍ، وخصوصُ السبب لا يُخرِجها عن العموم، وكأنَّ ذكرها إثرَ بيان عِظَمِ شأنِ الساعة المنبئة عن البعث؛ لبيانِ حالِ بعض المنكِرين لها.

ومحلُّ الجارِّ الرفعُ على الابتداء، إمَّا بحملِه على المعنى، أو بتقدير ما يتعلَّق به، و«بغيرعلم» في موضع الحالِ مِن ضمير «يجادل» لإيضاح ما تُشعِر به المجادلة مِن الجهل، أي: وبعضُ الناس، أو: بعضٌ كائنٌ مِن الناس مَن ينازع في شأنِ الله عزَّ وجلَّ ويقول مالا خيرَ فيه مِن الأباطيل ملابساً الجهلَ.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٤، والمحتسب ٢/ ٧٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٤.

(٣) المحتسب ٢/ ٧٣-٧٤.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٥٠.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٧٤ (١٣٧٧٦).

﴿وَيَتَّبِعُ﴾ فيما يتعاطاه مِن المجادلة، أو في كلِّ ما يأتي وما يَذَرُ مِن الأمورِ الباطلة التي مِن جملتها ذلك.

﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ متجرِّد للفساد، معرًى مِن الخير، مِن قولهم: شجرةٌ مَرْداء: لا ورقَ لها، ومنه قيل: رَمْلَة مَرْداء، إذا لم تنبت شيئاً، ومنه: الأَمْرَدُ؛ لتجرُّده عن الشعر. وقال الزجَّاج: أصلُ المريدِ والماردِ: المرتَفعُ الأملس، وفيه معنى التجُّرد والتعرِّي، والمراد به إمَّا إبليسُ وجنودُه، وإمَّا رؤساءُ الكفرةِ الذين يَدْعُون مَن دونهم إلى الكفر.

وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ ﵄: «ويَتْبَعُ» خفيفاً[1].

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ ضمير «عليه» للشيطان، وكذا الضميرُ المنصوب في «تولَّاه» والضمير في «فأنَّه»، والضميران المستتران في «يُضلُّه ويَهْدِيه» وضمير «أنَّه» للشأنِ، وباقي الضمائر لـ «من».

واختلف في إعرابِ الآية فقيل إنَّ: «أنَّه مَن تولَّاه» إلخ نائبُ فاعل: «كُتبَ»، والجملة في موضع الصفة الثانية لشيطان، و«من» جزائيَّة وجزاؤها محذوف، «فأنَّه يُضلُّه» إلخ عطف على «أنَّه» مع ما في حيِّزها وما يتَّصل بها، أي: كُتبَ على الشيطان أنَّ الشأنَ مَن تولَّاه أي: اتّخذه وليًّا وتبعه يهلكه، «فأنَّه يُضلُّه» عن طريق الجنَّة وثوابِها، «ويهديه» إلى طريقِ السعير وعذابها، والفاء لتفصيلِ الإهلاك كما في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وعلى ذلك حمل الطيبيُّ كلامَ «الكشَّاف»[2]، وهو وجهٌ حسن إلَّا أنَّ في كونه مراد الزمخشري خفاء، وقيل: «مَن» موصولة مبتدأ، وجملة «تولَّاه» صلته، والضمير المستتر عائده، و«أنَّه يُضلُّه» في تأويل مصدر خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، والجملة خبرُ الموصول، ودخول الفاء في خبره على التشبيه بالشرط، أي: كُتبَ عليه أنَّ الشأنَ من تولَّاه فشأنه أو فحقٌّ أنَّه يضلُّه ... إلخ. ويجوز أن تكون «مَن» شرطيَّة، والفاء جوابيَّة، وما بعدها مع المقدَّر جواب الشرط، وقيل: ضمير «أنَّه»

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥١.
(٢) ٣/ ٥.

للشيطانِ وهو اسمُ «أنَّ» و«مَن» موصولة أو موصوفة ـ والأوَّل أظهر ـ خبرُها والضمير المستتر في «تولَّاه» لبعض الناس والضمير البارز لـ «من»، والجملةُ صلة أو صفة.

وقوله تعالى: «فأنَّه يُضلُّه» عطف على «أنَّه مَن تولَّاه» والمعنى: ويتَّبع كلَّ شيطان كُتب عليه أنَّه هو الذي اتَّخذه بعدَ الناس وليًّا وأنَّه يُضلُّ مَن اتَّخذه وليًّا، فالأوَّل كأنَّه توطئةٌ للثاني، أي: يتَّبع شيطاناً مختصًّا به مكتوباً عليه أنَّه وليُّه، وأنَّه مُضلُّه فهو لا يَألُو جُهداً في إضلالِه، وهذا المعنى أبلغُ مِن المعنى السابق على احتمالِ كون «من» جزائية؛ لدلالتِه على أنَّ لكلِّ واحدٍ من المجادلين واحداً مِن مردةِ الشياطين، وارتضى هذا في «الكشف» وحمل عليه مرادَ صاحب «الكشاف».

وعن بعضِ الفضلاء أنَّ الضميرَ في «أنَّه» للمجادِل، أي: كُتبَ على الشيطان أنَّ المجادلَ مَن تولَّاه، وقوله تعالى: «فأنَّه» إلخ عطفَ على «أنَّه مَن تولَّاه»، واعتُرض بأنَّ اتصافَ الشيطانِ بتوليِّ المجادِل إيَّاه مقتضى المقام لا العكس، وأنَّه لو جُعلت «مَن» في «من تولَّاه» موصولةً، كما هو الظاهر، لزم أن لا يتولَّاه غيرُ المجادل، وهذا الحصرُ يُفوِّت المبالغةَ.

وفي «البحر»(١): الظاهر أنَّ الضميرَ في «عليه» عائدٌ على «مَن» لأنَّه المحدَّث عنه، وفي «أنَّه» و«تولَّاه»، وفي «فأنَّه» عائدٌ عليه أيضاً، والفاعل بتولِّي ضمير «مَن»، وكذا الهاء في «يُضلُّه»، ويجوز أن تكون الهاءُ في أنَّه على هذا الوجه ضميرَ الشأن، والمعنى أنَّ هذا المجادلَ لكثرةِ جِداله بالباطل واتِّباعه الشيطانَ، صار إماماً في الضلال لمن يتولَّاه، فشأنه أن يُضلَّ مَن يتولَّاه. انتهى. وعليه تكون جملة «كتب» إلخ مستأنفة لا صفة لشيطان، والأظهر جعلُ ضميرِ «عليه» عائداً على الشيطان، وهو المرويُّ عن قتادة، وأيًّا ما كان فـ «كُتبَ» بمعنى مضى وقُدِّر، ويجوز أن يكون على ظاهرِه، وفي «الكشاف»(٢) أنَّ الكتبةَ عليه مَثَلٌ، أي: كأنَّما كُتبَ عليه ذلك؛ لظهورِه في حاله. ولا يَخفى ما في «يهديه» مِن الاستعارة التمثيليَّة التهكميَّة.

---

(١) ٦/ ٣٥١.
(٢) ٣/ ٥.

وقُرِئ: «كَتَبَ» مَبنيًّا للفاعل[1]، أي: كَتَبَ اللهُ. وقرِئَ: «فإِنَّه» بكسر الهمزة[2]، فالجملة خبرُ «مَن»، أو جوابٌ لها، وقرأ الأعمشُ، والجعفيُّ عن أبي عمرو: «إنَّه»، «فإنَّه» بكسر الهمزة فيهما[3]، ووجهُ الكسر في الثانية ظاهرٌ، وأمَّا وجهُه في الأُولى، فهو كما استظهر أبو حيَّان[4] إسناد «كُتبَ» إلى الجملةِ إسناداً لفظيًّا، أي: كُتبَ عليه هذا الكلامُ، كما تقول: كُتبَ[5] إنَّ اللهَ تعالى يأمرُ بالعدل والإحسان، أو تقدير: قولٍ، وجعل الجملة معمولة له، أو تضمينُ الفعلِ معنى ذلك، أي: كُتبَ عليه مقولًا في شأنه: أنَّه مَن تولَّاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ إلخ إقامةٌ للحجَّة التي تُلقم المجادلين في البعث حَجَراً إثرَ الإشارة إلى ما يؤول إليه أمرُهم، واستظهر أنَّ المرادَ بالناس هنا الكفرةُ المجادلون المنكِرون للبعث. والتعبير عن اعتقادِهم في حقِّه بالريب، أي: الشَّك مع أنَّهم جازمون بعدم إمكانه، إمَّا للإيذان بأنَّ أقصى ما يُمكن صدورُه عنهم وإن كانوا في غايةِ ما يكون مِن المكابرة والعِناد هو الارتيابُ من شأنه، وإمَّا الجزم بعدمِ الإمكان، فخارج مِن دائرةِ الاحتمال كما أنَّ تنكيرَه وتصديرَه بكلمة الشَّكِّ؛ للإشعار بأنَّ حقَّه أن يكون ضعيفاً مشكوكَ الوقوع، وإمَّا للتنبيه على أنَّ جَزْمهم ذلك بمنزلة الريبِ الضعيف؛ لكمال وضوحِ دلائل الإمكان ونهاية قوَّتها. وإنَّما لم يقل: وإنِ ارتبتم في البعث؛ للمبالغة في تنزيهِ أمرِه عن شائبة وقوعِ الريب، والإشعار بأنَّ ذلك إنْ وَقَعَ فمِن جهتهم لا مِن جهته، واعتبار استقرارِهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي اعتبارَ ضعفِه وقلَّته؛ لما أنَّ ما يقتضيه ذلك هو دوامُ ملابستهم به لا قوَّته وكثرته.

و«من» ابتدائيَّةٌ متعلِّقة بمحذوف وَقَعَ صفة لـ «ريب»، واستظهر أنَّ المرادَ «في ريبٍ مِن» إمكان «البعث»؛ لأنَّه الذي يقتضيه ما بَعْدُ، وجوِّز أن يكونَ المرادُ مِن

---

(١) الإملاء للعكبري ٤/ ٢٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٥١.

(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥١.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٥١، وأوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٤ ونسبها إلى النخعي عن أبي عمرو والأعمش، وجاء في هامش المطبوع: لعلَّ الصواب: الأصمعي أو الجعفي.

(٤) في البحر المحيط ٦/ ٣٥١.

(٥) في (م): كتبت.

وقوع البعث، واعترُض بأنَّ الدليلَ المشارَ إليه فيما بَعْد إنَّما يدلُّ على الإمكان مع ما يلزم مِن التكرار مع قوله تعالى الآتي: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الآية: ٧] وفيه تأمُّل، فتأمَّل.

وقرأ الحسن: «من البَعَث» بفتح العين(١)، وهي لغةٌ فيه، كالجَلَب والطَّرَد في الجَلْب والطَّرْد عند البصريين، وعند الكوفيِّين إسكان العين تخفيف، وهو قياسيٌّ في كلِّ ما وسَطه حرف حَلْق كالنَّهْر والنَّهَر، والشَّعْر والشَّعَر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ دليلُ جوابِ الشرط، أو: هو الجواب بتأويلٍ، أي: وإنْ كنتم في ريبٍ مِن البعث، فانظروا إلى مَبْدَأ خَلْقِكم ليزولَ ريبكم، فإنَّا خلقناكم... إلخ، وقيل: التقدير: فأُخبركم وأُعلمكم أنَّا خلقناكم... إلخ، وليس بذاك، وخَلْقهم مِن تراب في ضمنِ خَلْق آدمَ عليه السلام منه، أو بخَلْقِ الأغذية التي يتكوَّن منها المنيُّ منه، وهي وإن تكوَّنت مِن سائر العناصر معه إلا أنَّه أعظمُ الأجزاء على ما قيل، فلذلك خصَّه بالذكر مِن بينها، واختير الأوَّل، وجعل المعنى: خلقناكم خَلْقاً إجماليًّا مِن تراب ﴿ثُمَّ﴾ خلقناكم خَلْقاً تفصيليًّا ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: مَنيٍّ، من النَّطْف بمعنى التقاطُر، وقال الراغب(٢): النطفةُ: الماءُ الصافي، ويعبَّر بها عن ماءِ الرجُل. قيل: والتخصيص على هذا مع أنَّ الخَلْقَ مِن ماءَين؛ لأنَّ معظمَ أجزاء الإنسان مخلوقٌ مِن ماءِ الرجل، والحقُّ أنَّ النطفةَ كما يعبَّر بها عن منيِّ الرجل يُعبَّر بها عن المني مطلقاً، وكلامُ الراغب ليس نصًّا في نفي ذلك، والظاهر أنَّ المرادَ النطفةُ التي يُخلَق منها كلُّ واحد بلا واسطة، وقيل: المراد نطفةُ آدمَ عليه السلام، وحكي ذلك عن النقَّاش، وهو مِن البعد في غايته.

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: قطعةٍ مِن الدم جامدةٍ متكوّنة مِن المنيِّ ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي: قطعةٍ مِن اللحم متكوِّنة مِن العَلَقة، وأصلها قطعةُ لحم بقَدْر ما يُمضَغ ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ بالجرِّ صفةُ «مضغة»، وكذا قوله تعالى: ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (نطف).

وقرأ ابنُ أبي عبلة بالنصب فيهما[1] على الحالِ مِن النكرة المتقدِّمة، وهو قليل، وقاسَه سيبويه.

والمشهور المتبادر أنَّ المخلَّقةَ المستبينةُ الخَلْق، أي: مضغةٌ مستبينة الخَلْق مصوَّرةٌ، ومضغةٌ لم يَسْتَبِنْ خَلْقها وصورتُها بَعْدُ، والمراد تفصيلُ حالِ المضغة وكونها أوّلًا قطعةً لم يظهر فيها شيءٌ من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً. وكان مقتضى الترتيب المبنيِّ على التدرُّج مِن المبادي البعيدة إلى القريبة أن يقدّم غيرَ المخلَّقة، وإنَّما أُخِّرت؛ لكونها عدمُ ملكةٍ، وصيغة التفعيل؛ لكثرةِ الأعضاء المختصِّ كلٌّ منها بخَلْقٍ وصورةٍ. وقيل: المخلَّقة: المسوَّاة الملساء مِن النقصان والعيب، يقال: خَلَقَ السواكَ والعودَ: سوَّاه وملَّسه، صخرةٌ خلقاء، أي: ملساء، وجَبلٌ أَخْلَق، أي: أملس، فالمعنى: مِن نطفة مسوَّاةٍ لا نقصَ فيها ولا عيبَ في ابتداءِ خَلْقها، ونطفةٍ غيرِ مسوَّاة فيها عيبٌ، فالنُّطَف التي يُخلَق منها الإنسانُ متفاوتةٌ؛ منها ما هو كاملُ الخِلْقة أملسُ مِن العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوتُ تفاوتَ الناس في خَلْقهم وصُورهم، وطولهم وقِصَرهم، وتمامِهم ونقصانِهم. وعن مجاهد، وقتادة، والشعبيِّ، وأبي العالية، وعكرمة أنَّ المخلَّقة التي تمَّ لها مدَّةُ الحَمْل وتواردَ عليها خَلْقٌ بعد خَلْق، وغيرُ المخلَّقة التي لم يتمَّ لها ذلك وسقطت، واستدلَّ له بما أخرجه الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول»، وابنُ أبي حاتم، عن ابنِ مسعود قال: النطفةُ إذا استقرَّت في الرحم، أَخَذَها مَلَك الأرحام بكفِّه فقال: يا ربِّ مخلَّقةٌ أم غيرُ مخلَّقة؟ فإن قيل: غيرُ مخلَّقة، لم تكن نَسَمة، وقَذَفها الرحم دماً، وإن قيل: مخلَّقةٌ، قال: يا ربِّ ذَكَرٌ أم أُنثى، شقيٌّ أم سعيدٌ، ما الأجلُ وما الأَثَر، وما الرزقُ، وبأيِّ أرض تموت؟ الخبر. وهو في حُكم المرفوع[2]، والمراد أنَّهم خُلقوا مِن جنسِ هذه النطفة الموصوفة بالتامَّة والساقطة، لا أنَّهم خُلِقوا من نطفةٍ تامة ومن نطفة ساقطة، إذ لا يتصوَّر الخَلْق مِن النطفة الساقطةِ وهو ظاهر، وكان التعرُّض على هذا لوصفها

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.

(٢) نوادر الأصول ص٧١-٧٢، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٦١-٤٦٢، وورد في تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٥٩٠ (٣١٥٦) إلا أنه من قول السدي، وأصل الخبر عند البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) عن ابن مسعود مرفوعاً بنحوه.

بما ذُكِرَ؛ لتعظيم شأنِ القدرة، وفي جعلِ كلٍّ واحدة مِن هذه المراتب مبدأً لخَلْقهم لا لخَلْقِ ما بعدها مِن المراتب، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ الآية [المؤمنون:١٤]، مزيدُ دلالةٍ على عِظَم قدرته تعالى.

﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ متعلِّق بـ «خلقنا»، وتركَ المفعول؛ لتفخيمه كمًّا وكيفاً، أي: خلقناكم على هذا النمطِ البديع لنبيِّن لكم ما تَحصُره العبارة مِن الحقائق والدقائق التي مِن جملتها أمرُ البعثِ، فإنَّ مَن تأمَّل فيما ذُكر مِن الخَلْق التدريجيِّ جزم بأنَّ مَن قَدرَ على خَلْق البشر أوَّلًا مِن ترابٍ لم يَذُقْ ماءَ الحياة قطُّ وإنشائه على وجهٍ مصحِّح لتوليدِ مثلِه مرَّة بعد أُخرى بتصريفه في أطوار الخِلْقة وتحويله مِن حالٍ إلى حالٍ مع ما بين تلك الأطوار والأحوال مِن المخالفة والتباين = فهو قادرٌ على إعادته، بل هي أهونُ في القياس، وقدَّر بعضهم المفعولَ خاصًّا، أي: لنبيِّن لكم أمرَ البعث وليس بذاك.

وأَبعدَ جدًّا مَن زعم أنَّ المعنى: لنبيِّن لكم أنَّ التخليقَ اختيارٌ مِن الفاعل المختار، ولولا ذلك ما صار بعضُ أفرادِ المضغةِ غيرَ مخلَّق.

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «ليبيِّن» بالياء على طريق الالتفاتِ، وكذا قَرأَ قولَه تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾[1]، وقرأ الجمهورُ بالنون.

والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لبيانِ حالِهم بعد تمام خَلْقهم وتواردِ الأطوارِ عليهم، أي: ونقرُّ في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقرَّه فيها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو وقتُ الوَضْع، وأدناهُ: ستة أشهر، وأقصاه عندنا: سنتان، وعند الشافعي ـ عليه الرحمة ـ أربع سنين.

وعن يعقوب أنه قرأ: «ونَقُرُّ» بفتح النون وضمِّ القاف[2]، مِن قررتُ الماءَ إذا صببتَه، وقرأ يحيى بن وثَّاب: «ما نِشاء» بكسر النون.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ أي: مِن الأرحام بعد إقراركم فيها عند تمامِ الأجل المسمى ﴿طِفْلًا﴾ حالٌ مِن ضمير المخاطبين، والإفراد إمَّا باعتبار كلٍّ واحد منهم، أو بإرادة الجنس الصادق على الكثير، أو لأنَّه مصدرٌ فيستوي فيه الواحدُ وغيرُه، كما قال

---

(١) الكشاف ٣/ ٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.

المبرِّد، أو لأنَّ المرادَ: طفلًا طفلًا، فاختصر، كما نقله الجلالُ السيوطيُّ في «الأشباه» النحويَّة.

وقرأ عمرُ بن شبَّة: «يخرجكم» بالياء[1].

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أي: كمالَكم في القوَّة والعقل والتمييز، وفي «القاموس»: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ويُضمُّ أوَّلُه، أي: قوَّتَه، وهو ما بين ثماني عَشْرةَ سنة إلى ثلاثينَ، واحدٌ جاء على بناء الجَمْع، كـ: آنُكٍ، ولا نظيرَ لهما، أو جَمْعٌ لا واحدَ له مِن لفظه، أو: واحدُه: شِدَّةٌ، بالكسر، مع أنَّ فِعْلَةً لا تُجمَع على أَفْعُل ـ أي: قياساً، فلا يَرِدُ: نِعْمةٌ وأَنْعُم ـ أو شَدٌّ ككَلْب وأَكْلُب، أو شِدٌّ كذِئْب وأَذْؤُبٍ، وما هما بمسموعَيْن بل قياس[2].

و«لتبلغوا»: قال العلَّامة أبو السعود[3]: علَّة: «نخرجكم» معطوف على علَّة أُخرى مناسبة لها، كأنَّه قيل: ثم نخرجُكم لتكبُروا شيئاً فشيئاً، ثم لتبلغوا... إلخ، وقيل: علَّة لمحذوف، والتقدير: ثم نمهلكم لتبلغوا... إلخ.

وجوَّز العلَّامة الطيبيُّ أن يكون التقدير: «ثم لتبلغوا أشدَّكم» كان ذلك الإقرار والإخراج، وقيل: إنَّه عطف على «نبيِّن»، وتعقَّبه العلَّامة[4] بأنَّه مخلٌّ بجزالة النظم الكريم، وجعله كغيرِه عطفاً عليه على قراءة: «نقرَّ» و«نخرجَ» بالنصب وهي قراءة المفضل وأبي حاتم، إلا أنّ الأوّل قرأ بالنون، والثاني قرأ بالياء[5] وكذا جعل الفعلين عطفاً عليه، وقال: المعنى: خلقناكم على التدريجِ المذكور؛ لأَمرين: أحدهما: أن نبيِّن شؤوننا. والثاني: أن نقرَّكم في الأرحام ثم نخرجكم صغاراً ثم لتبلغوا أشدَّكم، وتقديم التبيين على ما بعدَه مع أنَّ حصولَه بالفعل بعد الكلِّ؛ للإيذان بأنَّه غايةُ الغايات ومقصودٌ بالذات، وإعادة اللام في «لتبلغوا» مع تجريدِ «نقرّ» و«نخرج» عنها؛ للإشعار بأصالة البلوغ بالنسبة إلى الإقرار والإخراج، إذ عليه

---

(١) الكشاف ٣/ ٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.
(٢) القاموس (شدد).
(٣) في تفسيره ٦/ ٩٤.
(٤) يعني أبا السعود في تفسيره ٦/ ٩٤.
(٥) الكشاف ٣/ ٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٢.

يدور التكليفُ المؤدِّي إلى السعادة والشقاوة، وإيثار البلوغ مسنداً إلى المخاطبين على التبليغ مسنداً إليه تعالى، كالأفعال السابقة؛ لأنّه المناسبُ لبيانِ حالِ اتِّصافهم بالكمال واستقلالِهم بمبدئيَّة الآثار والأفعال. اهـ.

وما ذكره مِن عطف «نقرّ» و«نخرج» بالنصب على «نبيِّن» لم يرتضه الشيخُ ابنُ الحاجب، قال في «شرح المفصَّل»: إنَّه مما يتعذَّر فيه النصُب، إذ لو نصب عطفاً على «نبيِّن» ضَعُفَ المعنى، إذ اللامُ في «لنبيِّن» للتعليل، لما تقدَّم، والمقدَّم سبب للتبيين، فلو عطف: «ونقرّ» عليه لكان داخلًا في مسببية «إنَّا خلقناكم» إلخ، وخلقهم من تراب ثم ما تلاه لا يَصلُح سبباً للإقرار في الأرحام، وقال الزجَّاج[1]: لا يجوز في «ونقرّ» إلا الرفع، ولا يجوز أن يكون معناه: فَعَلْنا ذلك لنقرَّ في الأرحام؛ لأنَّ الله تعالى لم يَخلُق الأنامَ ليقرَّهم في الأرحام، وإنَّما خَلَقهم ليدلَّهم على رشدهم وصلاحِهم، وهو قولٌ بعدم جواز عطفِه على «نبيِّن».

وأُجيب بأنَّ الغرضَ في الحقيقة هو بلوغُ الأشدِّ والصلوح للتكليفِ، لكن لمَّا كان الإقرارُ وما تلاه مِن مقدِّماته، صحَّ إدخاله في التعليل، وما ذكره مِن أنَّ العطفَ على «نبيِّن» على قراءةِ الرفع مخلٌّ بجزالة النظم الكريم، فالظاهر أنَّه تعريضٌ بالزمخشريِّ[2] حيث جعلَ العطفَ على ذلك، وقال: فإن قلت: كيف يصحُّ عطفُ «لتبلغوا أشدَّكم» على «لنبيِّن» ولا طباقَ؟ قلت: الطباقُ حاصل؛ لأنَّ قولَه تعالى: «ونقرُّ» قرينٌ للتعليل، ومقارنته له والتباسه به ينزِّلانه منزلةَ نفسِه، فهو راجع مِن هذه الجهة إلى متانة القراءة بالنصب. اهـ.

وفيه ما يُومِئُ إلى أنَّ قراءةَ النصب أوضحُ كما أنَّها أمتنُ، ولم يَرْتَضِ ذلك المحقِّقون، ففي «الكشف» أنَّ القراءةَ بالرفع هي المشهورةُ الثابتةُ في السَّبْع، وهي الأَولى، وقد أُصيب بتركيبها هكذا شاكلة الرمي حتى لم يجعلِ الإقرارَ في الأرحام علَّة، بل جعل الغرضَ منه بلوغَ الأشدِّ وهو حالُ الاستكمال عِلْماً وعملًا، وحيث لم يعطف على «لنبيِّن» إلا بعد أنْ قدّم عليه «ونقرُّ»، ثم نخرج مجعولا «نقرّ» عطفاً على «إنَّا خَلَقناكُم» والعدول إلى المضارع؛ لتصوير الحال والدلالة على زيادةِ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤١٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٦.

الاختصاص، فالطباقُ حاصلٌ لفظاً ومعنًى مع أنَّ في الفصل بين العلَّتين مِن النُّكتة ما لا يَخفى على ذي لبٍّ، حَسُنَ موقعها بعد التأمُّل، وكذلك في الإتيان بـ «ثم» في قوله سبحانه: «ثم لتبلغوا» دلالةٌ على أنَّه الغرضُ الأصيلُ الذي خُلقَ الإنسانُ له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ولما كانت الأوائلُ في الدلالة على البعث أظهرَ، قدَّم قولُه تعالى: «لنبيِّن» على الإقرار والإخراج. اهـ.

ويُعلَم منه ما في قولِ العلَّامة: إنَّ عطف «لتبلغوا» إلخ على «لنبيِّن» مخلٌّ بجزالة النظم الكريم، وأنَّه لا يتعيَّن الاستئنافُ في «ونقرُّ»، وفيه أيضاً أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ إلخ إستئنافٌ لبيانِ أقسام الإخراج مِن الرحم، كما استوفى أقسامَ الأوَّل، وفيه تبيين تفضيلِ حالِ بلوغ الأشدِّ، وأنَّها الحقيقُ بأن تكون مقصودةً مِن الإنشاء، لكن منهم من لا يَصِلُ إليها فيُحتضَر، ومنهم مَن يجاوزها فيُحتَقر، أي: منكم مَن يموت قبل بلوغ الأشدِّ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أي: أرداه وأدناه، والمراد: يُرَدُّ إلى مِثْلِ زمنِ الطفوليَّة ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ﴾ أي: عِلْم كثير ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئاً مِن الأشياء، أو شيئاً مِن العِلْم، واللام متعلِّقة بـ «يُرَدُّ»، وهي لامُ العاقبة، والمرادُ المبالغةُ في انتقاصِ عِلْمه وانتكاسِ حاله، وليس لزمان ذلك الردّ حدٌّ محدودٌ، بل هو مختلفٌ باختلاف الأمزجة على ما في «البحر»(١)، وإيرادُ الردّ والتوفِّي على صيغة المبني للمفعول للجري على سَنَنِ الكبرياء لتعيُّن الفاعل، كما في «إرشاد العقل السليم»(٢)، وفي «شرح الكشاف» للطيبيِّ بعد تجويز أن يكون «ثم لِتَبلُغوا» بتقدير: «ثم لتبلغوا» كان ذلك الإقرار والإخراج، أنَّ فائدةَ ذلك الإيذان بأنَّ بلوغَ الأشدِّ أفضلُ الأحوال، والإخراج أبدعها، والردّ إلى أرذلِ العمر أسوؤها، وتغييرُ العبارةِ لذلك، ومِن ثمَّ نسبَ الإخراجَ إلى ذاتِه تعالى المقدَّسة، وحذفَ المعلل في الثاني، ولم ينسب الثالثَ إلى فاعله، وسلب فيه ما أثبتَ للإنسان في تلك الحالة مِن اتِّصافه بالعِلْم والقدرة المومِئ إليه بالأشدِّ، كأنَّه قيل: ثم يخرجكم مِن تلك الأطوارِ الخسيسة طفلًا إنشاءً غريباً، كما قال سبحانه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ثم لتبلغوا

---

(١) ٦/ ٣٥٣.

(٢) أي: تفسير أبي السعود ٦/ ٩٥.

أشدَّكم دُبُرَ ذلك التدبيرِ العجيب؛ لأنَّه أوان رسوخِ العِلْم والمعرفة والتمكُّن مِن العمل المقصودين مِن الإنشاء، ثم يميتكم أو يردُّكم إلى أرذلِ العمر الذي يُسلَب فيه العلمَ والقدرةَ على العمل. اهـ.

ويُفهَم منه جوازُ أن يكون المرادُ: ومنكم مَن يتوفَّى بعد بلوغِ الأشُدِّ، ومِن الناس من جوَّز أن يكون المرادُ[1]: ومنكم من يتوفَّى عند البلوغ، وقيل: إنَّ ذلك بجَعْل الجملة حاليَّةً ومِن صيغةِ المضارع، وهو كما ترى.

وقرئ: «يَتَوفَّى» على صيغة المعلوم[2]، وفاعله ضميرُ اللهِ تعالى، أي: مَن يتوفَّاه اللهُ تعالى، وجوّز أن يكون ضميرُ «مَن» أي: مَن يستوفي مدَّةَ عمره.

وروي عن أبي عمرو، ونافع: تسكين ميم «العُمُر»[3]. هذا، ثم لا يخفى ما في اختلافِ أحوال الإنسان بعد الإخراج مِن الرحم مِن التنبيه على صحَّة البعث، كما في اختلافها قَبْلُ، فتأمَّل جميعَ ما ذكر، ولله تعالى درُّ التنزيل ما أكثر احتمالاته.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ حجَّة أُخرى على صحَّة البعث، معطوفة على «إنَّا خَلَقْناكم» وهي حجَّة آفاقيَّة، وما تقدَّم حجَّة أنفسيَّة، والخطاب لكلِّ أحدٍ مَن تتأتَّى منه الرؤيةُ، وقيل: للمجادل، وصيغةُ المضارع للدلالةِ على التجدُّد والاستمرار، وهي بصريَّة لا علميَّة كما قيل، و«هامدةً» حالٌ مِن «الأرض» أي: ميتةً يابسةً، يقال: هَمَدَتِ الأرضُ: إذا يبسَت ودَرَسَت. وهَمَدَ الثوبُ: إذا بَلِيَ. وقال الأعشى:

قالت قُتَيْلةُ ما لجِسمِك شاحباً ... وأرى ثيابَكَ بالياتٍ هُمَّدا[4]

وأصله مِن: هَمَدَتِ النارُ: إذا صارت رماداً.

---

(١) ليست في الأصل.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/٣٥٣.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/٣٥٣.

(٤) ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٢٧٧، وفيه: سايئاً، بدل: شاحباً، ومعنى سايئاً: أي يسوء من رآه، وهو برواية المصنِّف في النكت والعيون ٤/٨.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ أي: ماءَ المطر، وقيل: ما يعمُّه وماء العيونِ والأنهار، وظاهرُ الإنزال يقتضي الأوّلَ ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ تحرَّك نباتُها، فالإسناد مجازيٌّ، أو تَخَلْخلَتْ وانفصلَ بعضُ أجزائها عن بعضٍ؛ لأجل خروجِ النبات، وحَمْلُ الاهتزازِ على الحركة في الكيف بعيدٌ ﴿وَرَبَتْ﴾ ازدادتْ وانتفختْ؛ لما يتداخلها مِن الماء والنبات.

وقرأ أبو جعفر، وعبد الله بنُ جعفر، وخالد بنُ إلياس، وأبو عمرو في رواية: «وَرَبَأَتْ» بالهمز[(١)]، أي: ارتفعت، يقال: فلانٌ يَربأُ بنفسِه عن كذا، أي: يرتفعُ بها عنه، وقال ابنُ عطيَّة[(٢)]: هو من رَبَأْتُ القومَ، إذا علوتَ شرفاً مِن الأرض طليعةً عليهم، فكأنَّ الأرضَ بالماء تتطاولُ وتَعلُو.

﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ أي: صِنْفٍ ﴿بَهِيجٍ ۝٥﴾ حَسَن سارٌّ للناظر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كلامٌ مستأنَف جِيْءَ به إِثْرَ تحقيقِ حقِّيَّة البعث وإقامة البرهان عليه على أتمِّ وجهٍ؛ لبيان أنَّ ما ذكر مِن خَلْق الإنسان على أطوار مختلفة وتصريفه في أحوالٍ متباينة وإحياء الأرض بعد موتِها الكاشف عن حقِّيَّة ذلك مِن آثار ألوهيَّته تعالى وأحكام شؤونه الذاتيَّة والوصفيَّة والفعليَّة، وأنَّ ما ينكرونه مِن إتيانِ الساعة والبعث مِن أسباب تلك الآثارِ العجيبة المعلومة لهم ومبادي صدورِها عنه تعالى، وفيه من الإيذان بقوَّة الدليل وأصالةِ المدلول في التحقُّق وإظهارِ بطلان إنكاره ما لا يَخفى، فإنَّ إنكارَ تحقُّق السبب مع الجزم بتحقُّق المسبَّب مما يقضي ببطلانه بديهةُ العقول، فذلك إشارةٌ إلى خَلْق الإنسان على أطوار مختلفة وما معه، والإفراد باعتبار المذكور وما فيه مِن معنى البُعْدِ؛ للإيذان بِبُعْدِ منزلتِه في الكمال، وهو مبتدأ، خبرُه الجارُّ والمجرور، والمراد بالحقِّ هو الثابت الذي يحقُّ ثبوتُه لا محالَة؛ لكونه لذاتِه، لا الثابت مطلقاً، فوجهُ الحَصْر ظاهُر، أي: ما ذكر مِن الصنع البديع حاصلٌ بسبب أنَّه تعالى هو الحقُّ وحدَه في ذاته وصفاتِه وأفعالِه المحقِّق لما سواه مِن الأشياء.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٤، والمحتسب ٢/ ٧٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٩.

﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: شأنه وعادته ـ تعالى شأنُه ـ إحياءُ الموتى، وحاصله أنَّه تعالى قادرٌ على إحيائها بَدْءاً وإعادةً، وإلا لما أَحيا النطفةَ والأرضَ الميتة مرَّة بعد مرَّة، وما تفيده صيغةُ المضارع مِن التجدُّد إنَّما هو باعتبار تعلُّق القدرةِ ومتعلَّقها لا باعتبار نفسها؛ لأنَّ القِدَمَ الشخصيَّ ينافي ذلك.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ أي: مبالغٌ في القدرة، وإلا لما أوجدَ هذه الموجوداتِ الفائتةَ للحَصْر التي مِن جملتها ما ذكر، وتخصيصُ إحياءِ الموتى بالذِّكْر مع كونِه مِن جملة الأشياء المقدور عليها؛ للتصريح بما فيه النزاع والدفع في نحورِ المُنكِرين، وتقديمه لإبراز الاعتناء به.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ﴾ أي: فيما سيأتي، والتعبير بذلك دونَ الفعل؛ للدلالة على تحقُّق إتيانها، وتقرُّره ألبتة؛ لاقتضاءِ الحكمة إيَّاه لا محالةَ، وقوله تعالى: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ إمَّا خبرٌ ثانٍ لـ «أنَّ»، أو حالٌ مِن ضمير «الساعة» في الخبر، ومعنى نفي الرَّيْبِ عنها أنَّها في ظهورِ أمرها ووضوحِ دلائلها بحيث ليس فيها مظنَّة أن يرتابَ في إتيانها.

و «أنَّ» وما بعدها في تأويل مصدر عطف على المصدر المجرور بباء السببيَّة داخل معه في حيِّزها، كالمصدرين الحاصلين مِن قوله تعالى: «وأنَّه يُحيي الموتَى» وقوله سبحانه: «وأنَّه على كلِّ شيء قدير» وكذا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ لكن لا مِن حيث إنَّ إتيانَ الساعة وبعثَ مَن في القبور مؤثِّران فيما ذكر مِن أفاعيله تعالى تأثيرَ القُدرة فيها، بل مِن حيث إنَّ كلًّا منهما بسبب[(١)] داعٍ له عزَّ وجلَّ بموجب رأفتِه بالعباد المبنيَّة على الحِكَم البالغة إلى ما ذكر مِن خَلْقهم ومِن إحياء الأرضِ الميتةِ على نمطٍ بديع صالح للاستشهاد به على إمكانهما؛ ليتأمَّلوا في ذلك ويستدلُّوا به عليه، أو على وقوعِهما، ويصدِّقوا بذلك؛ لينالوا السعادةَ الأبديَّة، ولولا ذلك لما فَعَلَ بل لما خَلَقَ العالَمَ رأساً، وهذا كما ترى مِن أحكام حقِّيَّته تعالى في أفعاله وابتنائِها على الحِكَم الباهرة، كما أنَّ ما قَبْلَه مِن أحكام حقِّيَّته تعالى في صفاته وكونها في غايةِ الكمال، هذا ما اختاره العلَّامة أبو السعود[(٢)] في تفسيرِ ذلك، وهو مما يميلُ إليه الطبعُ السليم.

---

(١) في تفسير أبي السعود ٦/ ٩٦: سبب. والكلام منه.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٩٦.

وجعل صاحبُ «الكشَّاف»[١] الإشارةَ إلى ما ذكر أيضاً إلا أنَّه بحسب الظاهر جعلَ إتيانَ الساعة وبعثَ مَن في القبور، حيث إنَّ ذلك مِن روادف الحكمةِ = كناية عنها، فكأنَّ الأصلَ ذلك حاصلٌ بسببِ أنَّ اللهَ تعالى هو الحقُّ الثابت الموجود، وأنَّه قادرٌ على إحياء الموتى وعلى كلِّ مقدورٍ، وأنَّه حكيمٌ، فاكتفى بمقتضى الحكمةِ عن الوصف بالحكمة؛ لما في الكناية مِن النُّكتة، خصوصاً والكلام مع منكري البعث للدفْع في نحورِهم. ولا يخلو عن بُعْدٍ، ونقل النيسابوريُّ[٢] عبارةَ «الكشَّاف» واعترضها بما لا يَخفى ردُّه، وأبَدى وجهاً في الآية ذكر أنَّه مما لم يَخطُر لغيرِه ورجا أن يكونَ صواباً، وهو مع اقتضائِه حَمْلَ الباء على ما يعمُّ السببيَّة الفاعليَّة والسببيَّة الغائيَّة، ممّا لا يخفى ما فيه.

وقيل: ذلك إشارةٌ إلى ما ذُكر، إلا أنَّ قولَه تعالى: «وأنَّ الساعةَ آتيةٌ» إلخ، ليس معطوفاً على المجرور بالباء، ولا داخلًا في حيِّز السببيَّة، بل هو خبرٌ، والمبتدأ محذوفٌ لفهم المعنى، والتقدير: والأمر أنَّ الساعةَ آتيةٌ. . . إلخ، وعليه اقتصر أبو حيَّان[٣] وفيه قطعٌ للكلام عن الانتظامِ.

وقيل: ذلك إشارةٌ إلى ما ذكر إلَّا أنَّ الباءَ صلةٌ لكونٍ خاصٍّ وليست سببيَّة، أي: مشعِرٌ بأنَّ اللهَ هو الحقُّ. . . إلخ، وفيه أنَّه لا قرينةَ على هذا الكون الخاصِّ، وقيل: المعنى: ذلك ليعلموا أنَّ اللهَ هو الحقُّ. . . إلخ، وفيه تلويحٌ ما إلى معنى الحديثِ القدسيِّ المشهور على الألسنة وفي كتب الصوفيَّة، وإن لم يثبت عند المُحدِّثين، وهو: «كنتُ كنزاً مخفيًّا فأحببتُ أن أُعرفَ فخلقتُ الخَلْقَ لأُعرفَ»[٤] وهو كما ترى.

وقيل: الإشارة إلى البعث المستدَلِّ عليه بما سَبق، واستظهره بعضُهم، ولا يَخفى عليكَ ما يحتاجُ إليه من التكلُّف، ونقل في «البحر»[٥] أنَّ ذلك منصوبٌ

---

(١) الكشاف ٣/ ٦.

(٢) في كتابه غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٧/ ٨٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٥٣.

(٤) حديث موضوع، وسلف ١/ ١٩٩.

(٥) ٦/ ٣٥٣.

بفعل مُضمَر، أي: فعلنا ذلك بأنَّ. . . إلخ. وأبو عليٍّ اقتصرَ على القولِ بأنَّه مرفوعٌ على الابتداء، والجارُّ والمجرور خبرُه، وقال: لا يجوز غيرُ ذلك، وكأنَّه عنى بالغير ما ذكر، وما نقله العكبريُّ[1] مِن أنَّه خبرٌ لمتبدأٍ محذوفٍ، أي: الأمر ذلك، والحقُّ الجوازُ إلا أنَّه خلافُ الظاهر جدًّا.

ثم إنَّ المرادَ مِن الساعة، قيل: يوم القيامة المشتمل على النَّشْر والحَشْر وغيرهما، وقال سعدي جلبي: المراد بها هنا فناءُ العالَم بالكليَّة؛ لئلَّا تتكرَّر مَعَ البعث، وقولُ الطيبيِّ: إنَّ سبيلَ قولِه تعالى: «أنَّ الساعةَ آتيةٌ» مِن قوله سبحانه: «أنَّ اللهَ يبعثُ مَن في القبور»، سبيلُ قولِهِ جلَّ وعلا: «أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ» مِن قوله عزَّ وجلَّ: «وأنَّه يُحيي الموتَى» لكن قدَّم وأخَّر؛ لرعايةِ الفواصل، ظاهر في الأوَّل.

هذا وفي «الإتقان»[2] للجلال السيوطيِّ: إنَّ الإسلاميينَ مِن أهل المنطق ذكروا أنَّ في أوَّل سورةِ الحجِّ إلى قوله تعالى: «وأنَّ اللهَ يبعثُ مَن في القبور» خمس نتائجَ تستنتجُ مِن عشرِ مقدِّمات.

ثم بيَّن ذلك بما يقضى منه العَجَب، ويدلّ على قُصورِ بَاعِه في ذلك العِلْم، وقد يقال في بيانِ ذلك: إنَّ النتائجَ الخمسَ هي الجملُ المتعاطفةُ الداخلة في حيِّز الباء، واستنتاجُ الأولى بأنَّه لو لم يكن اللهُ سبحانه هو الحقَّ، أي: الواجبَ الوجود لذاته، لما شُوهد بعضُ الممكنات مِن الإنسان والنبات وغيرِها، والتالي باطلٌ ضرورةً، فاللهُ تعالى هو الحقُّ، ودليلُ الملازمة برهانُ التمانع.

واستنتاجُ الثانيةُ بأنَّه لو لم يكن سبحانه قادراً على إحياء الموتى لما طوَّر الإنسانَ في أطوار مختلفة حتى جَعلَه حيًّا وأنزل مِن السماء ماءً فأحيا به الأرضَ بعد موتِها، والتالي باطلٌ ضرورةَ أنّ الخصمَ لا يُنكِر أنَّه تعالى أحيا الإنسانَ وأحيا الأرضَ، فالله تعالى قادرٌ على إحياءِ الموتى، ووجه الملازمة ظاهرٌ.

واستنتاجُ الثالثة بأنَّه إذا كان اللهُ تعالى قادراً على إحياء الموتى، فهو سبحانه على

---

(١) الإملاء ٤/ ٢٨.

(٢) ٢/ ١٠٥٥.

كلِّ شيء قدير، لكنَّه تعالى قادرٌ على إحياء الموتى، فهو على كل شيءٍ قدير، ووجهُ الملازمةِ أنَّ المرادَ مِن الشيءِ الممكنُ، وإحياءُ الموتى ممكنٌ، والقدرةُ على بعضِ الممكنات دون بعضٍ تنافي وجوبَ وجودِه تعالى الذاتيِّ؛ وأيضاً إحياءُ الموتى أصعبُ الأمور عند الخصم المجادِل حتى زعم أنَّه من الممتنعات، فإذا ثبت أنَّه سبحانه قادرٌ عليه بما سبقَ، ثبت أنَّه تعالى قادرٌ على سائرِ الممكنات بالطريق الأولى.

واستنتاجُ الرابعة بأنَّ الساعةَ أمرٌ ممكِن وعد الصادق بإتيانه، وكلُّ أمر ممكن وعد الصادق بإتيانه، فهو آتٍ، فالساعة آتيةٌ، أمَّا أنَّ الساعة أمرٌ ممكن؛ فلأنَّه لا يلزم مِن فرضِ وقوعها محالٌ، وأمَّا أنَّها وعد الصادق بإتيانها؛ فللآيات القرآنية المتحدى بها، وأمَّا أنَّ كلَّ أمرٍ ممكِن وعد الصادق بإتيانه، فهو آتٍ؛ فلاستحالةِ الكذب.

واستنتاجُ الخامسة بنحوِ ذلك، ولا يتعيَّن استنتاجُ كلٍّ بما ذكر، بل يمكن بغيرِ ذلك، واختياره لتسارعِه إلى الذهن، وربَّما يقتصرُ على ثلاثٍ من هذه الخمسِ بناءً على ما علمتَ بين قوله تعالى: «وأنَّه يُحيي الموتَى» وقوله تعالى: «وأنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ»، وكذا بين قوله سبحانه «وأنَّ الساعة آتيةٌ»، وقوله سبحانه: «وأنَّ اللهَ يبعثَ من في القبور» ويُعدّ مِن الخمس قوله تعالى: «إنَّ زلزلةَ الساعة شيءٌ عظيم» واستنتاجُها بأن يقال: زلزلةُ الساعة تُذهِلُ كلَّ مرضعةٍ عمَّا أَرضعت، وكلُّ ما هذا شأنه فهو شيءٌ عظيمٌ، فزلزلةُ الساعة شيءٌ عظيم، والتقوى واجبةٌ عليكم المدلول عليه بقوله تعالى: «اتَّقوا ربكم»، واستنتاجه بأن يقال: التقوى يَندفعُ بها ضررُ الساعة، وكلُّ ما يَندفعُ به الضررُ واجبٌ عليكم، فالتقوى واجبةٌ عليكم، ولا يَخفى أنَّ ما ذكر أوّلًا أَولى، إلا أنَّه لو كان مرادهم، لكان الظاهر أن يقولوا: إنَّ في قوله تعالى: «ذَلكَ بأنَّ اللهَ هو الحقُّ» إلى قوله سبحانه: «وأنَّ اللهَ يَبعثُ مَن في القبور» خمس نتائجَ دون أن يقولوا: إنَّ في أوَّل سورةِ الحجّ. . . إلى آخره، ويناسب هذا القولَ ما ذكر ثانياً إلا أنه يَردُ عليه أنَّ المتبادرَ مِن كلامهم كون كلٍّ مِن النتائج مذكوراً صريحاً، ولا شكَّ أنَّ التقوى واجبةٌ عليكم ليس مذكوراً كذلك، وإنَّما المذكور ما يدلُّ عليه في الجملة، وهو أيضاً ليس بقضيَّة كما لا يَخفى، وقد تكلَّف بعضُ الناسِ لبيان ذلك غير ما ذكرنا، رأينا تَرْكَ ذِكْره أَولى، فتأمَّل.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت على ما روي عن محمَّد بنِ كعب في الأخنس بنِ شُريق، وعلى ما روي عن ابنِ عباس في أبي جهلٍ، وعلى ما ذهب إليه جمعٌ في النَّضْر، كالآية السابقة، فإذا اتَّحد المجادِل في الآيتين، فالتكرار مبالغةٌ في الذَّمِّ، أو لكون كلٍّ مِن الآيتين مشتملةً على زيادةٍ ليست في الأُخرى.

وقال ابنُ عطيَّة[1]: كرِّرت الآيةُ على جهة التوبيخ، فكأنَّه قيل: هذه الأمثال في غايةِ الوضوح والبيان، ومِن الناس مَعَ ذلك مَن يجادل... إلى آخرِه، فالواو هنا واوُ الحالِ، وفي الآية المتقدِّمة واوُ العطف، عطفت جملة الكلام على ما قَبلها على معنى الإخبار لا التوبيخ. انتهى. وهو كما ترى.

وفي «الكشف»: إنَّ الأظهرَ في النظم والأوفقَ للمقام كون هذه الآية في المقلَّدين ـ بفتح اللام ـ وتلك في المقلِّدين ـ بكسر اللام ـ فالواو للعطفِ على الآية الأُولى، والمراد بالعِلْم العِلْم الضروري كما أنَّ المرادَ بالهدى في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُدًى﴾ الاستدلالُ والنظرُ الصحيح الهادي إلى المعرفة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ وحي مظهرٍ للحقِّ، أي: يجادل في شأنه ـ تعالى شأنه ـ من غير تمسُّك بمقدِّمة ضروريَّة ولا بحجَّة ولا ببرهان سمعيٍّ.

﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾ حال مِن ضمير: «يجادل» كالجارِّ والمجرور السابق، أي: لاوياً لجانبِه، وهو كنايةٌ عن عدمِ قَبوله، وهو مرادُ ابنِ عباس بقوله: متكبِّراً، والضَّحَّاك بقوله: شامخاً بأنفه، وابنِ جُريج بقوله: مُعرِضاً عن الحقِّ.

وقرأ الحسنُ: «عَطْفه» بفتح العين[2]، أي: مانعاً لتعطُّفه وترحُّمه.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ «يجادل» علَّة له، فإنَّ غرضه مِن الجدال الإضلالُ عن سبيلِه تعالى وإن لم يعترف بأنَّه إضلال، وجوَّز أبو البقاء[3] تعلُّقَه بـ «ثاني»، وليس بذاك، والمراد بالإضلالِ إمَّا الإخراجُ مِن الهدى إلى الضلال،

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٠٩.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٤.
(٣) الإملاء ٤/ ٢٩.

فالمفعول مَن يجادلُه مِن المؤمنين أو الناس جميعاً بتغليبِ المؤمنين على غيرِهم، وإمَّا التثبيتُ على الضلال أو الزيادةُ عليه مجازاً، فالمفعول هم الكفرةُ خاصَّة.

وقرأ مجاهد، وأهلُ مكَّة، وأبو عمرٍو في رواية: «ليَضِلَّ» بفتح الياء[1]، أي: ليَضِلَّ في نفسه، والتعبير بصيغةِ المضارع مع أنَّه لم يكن مهتدياً؛ لجَعْلِ تمكُّنه مِن الهدى كالهدى، لكونه هدًى بالقوَّة، ويجوز أن يُرادَ ليستمرَّ على الضلال أو ليزيدَ ضلالُه، وقيل: إنَّ ذلك لجَعْلِ ضلالِه الأوَّل كلاضلالٍ، وأيًّا ما كان فاللام للعاقبة.

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ جملة مستأنفةٌ لبيانِ نتيجةِ ما سلكه مِن الطريق، وجوَّز أبو البقاء[2] أن تكونَ حالًا مقدَّرة أو مقارنةً على معنى استحقاقِ ذلك، والأوَّل أظهرُ، أي: ثابت له في الدنيا بسبب ما فَعَله ذلٌّ وهوانٌ، والمراد به عند القائلينَ بأنَّ هذا المجادِلَ النضرُ أو أبو جهل، ما أصابه يومَ بدر، ومَن عمَّم - وهو الأولى - حَمَلَه على ذمِّ المؤمنين إيَّاه وإفحامِهم له عند البحث وعدم إدلائه بحجَّة أصلًا، أو على هذا مع ما يناله من النكال كالقتل، لكن بالنسبة إلى بعضِ الأفراد.

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩﴾ أي: النارَ البالغةَ في الإحراق، والإضافة على ما قيل مِن إضافةِ المسبَّب إلى السبب، وفسِّر «الحريقُ» أيضاً بطبقةٍ مِن طِباق جهنَّم، وجوِّز أن تكون الإضافةُ مِن إضافةِ الموصوف إلى الصفة، والمراد العذابُ الحريقُ، أي: المحرِق جدًّا.

وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ ﵁: «وأُذِيقُه» بهمزة المتكلِّم[3].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكرَ مِن ثبوت الخزي له في الدنيا وإذاقةِ عذاب الحريق في الأُخرى، وما فيه مِن معنى البعد؛ للإيذانِ بكونه في الغاية القاصية مِن الهول والفظاعة، وهو مبتدأٌ، خبرُه قولُه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ أي: بسبب ما اكتسبته مِن الكفر والمعاصي، وإسناده إلى يديه؛ لما أنَّ الاكتسابَ عادةً يكون بالأيدي، وجوِّز أن يكون ذلك خبراً لمبتدإٍ محذوف، أي: الأمر ذلك، وأن يكون مفعولًا

---

(١) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٣٢٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٤.

(٢) الإملاء ٤/ ٢٩.

(٣) تفسير الرازي ٢٣/ ١١، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٥.

لفعلٍ محذوف، أي: فعلنا ذلك إلخ، وهو خلافُ الظاهر، والجملةُ استئنافٌ لا محلَّ لها مِن الإعراب، وجوّز أن تكونَ في محلٍّ نصب مفعولة لقولٍ محذوفٍ وقع حالًا، أي: قائلينَ أو مقولًا له ذلك. . . إلخ، وعلى الأوّل يكون في الكلام التفاتٌ لتأكيدِ الوعيد وتشديدِ التهديد.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ الظاهر أنَّه عطفٌ على «ما»، وبه قال بعضُهم، وفائدتُه الدلالةُ على أنَّ سببيَّة ما اقترفوه مِن الذنوب لعذابهم مقيَّدةٌ بانضمام انتفاءِ ظُلْمِه تعالى إليه، إذ لولاه لأمكن أن يعذِّبَهم بغير ما اقترفوا، إلا أنْ لا يعذِّبَهم بما اقترفوا، وحاصله أنَّ تعذيبَ العصاةِ يحتمل أن يكون لذنوبِهم، ويحتمل أن يكون لمجرَّد إرادةِ عذابِهم مِن غير ذنب، فجيءَ بهذا؛ لرفعِ الاحتمال الثاني، وتعيين الأوّل للسببيَّة، لا لرفعِ احتمال أنْ لا يعذِّبَهم بذنوبِهم؛ لأنَّه جائز، بل بعضُ الآياتِ تدلُّ على وقوعِه في حقِّ بعضِ العصاة، ومرجعُ ذلك في الآخرة إلى تقريعِ الكفرة وتبكيتهم بأنَّه لا سببَ للعذاب إلا مِن قِبَلهم، كأنَّه قيل: إنَّ ذلك العذابَ إنَّما نَشَأَ مِن ذنوبِكم التي اكتسبتموها لا مِن شيءٍ آخَر.

واختار العلّامة أبو السعود[1] أنَّ محلَّ «أنْ» وما بعدها الرفعُ على الخبريَّة لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: والأمر أنَّه تعالى ليس بمعذِّب لعبيدِه مِن غير ذنب مِن قبَلِهم، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لمضمون ما قبلها، وقال في العطف: للدلالة على «أنَّ» سببيَّة. . . إلخ، أنَّه ليس بسديدٍ؛ لما أنَّ إمكانَ تعذيبِه تعالى لعبيدِه بغير ذنبٍ، بل وقوعُه لا ينافي كونَ تعذيبِ هؤلاء الكفرة المعينة بسببِ ذُنوبهم حتى يحتاجَ إلى اعتبار عدمِه معه، نعم لو كان المدَّعى كون جميع تعذيباتِه تعالى بسبب ذنوبِ المعذَّبين لاحتيجَ إلى ذلك. انتهى.

وتعقَّب قولُه: إنَّ إمكانَ. . . إلخ، بأنَّ الكلامَ ليس في منافاة ذينِكَ الأمرَيْن بحسَب ذاتهما، بل في منافاةِ احتمال التعذيبِ بلا ذنبٍ؛ لتعيُّن سببيَّة الذنوبِ له، وقوله: نعم لو كان المدَّعى. . . إلخ بأنَّ الاحتياجَ إلى ذلك القيد في كلٍّ مِن الصورتين إنَّما هو لتقريعِ المذنبين بأنَّه لا سببَ لتعذيبِهم إلا مِن قِبَلِهم، فالقولُ

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٩٧.

بالاحتياج في صورةِ الجميع وبعدمِه في صورة الخصوصيَّة، ركيكٌ جداً، وتعقِّب أيضاً بغيرِ ذلك، والقولُ بالاعتراض ـ وإن كان لايخلو عن بُعْدٍ ـ أَبعد عن الاعتراض، والتعبيرُ عن نفي تعذيبه تعالى لعبيدِه مِن غيرِ ذنبٍ بنفي الظُّلْم مع أنَّ تعذيبَهم بغير ذنب، ليس بظلمٍ على ما تقرَّر مِن قاعدة أهلِ السُّنَّة؛ لبيانِ كمالِ نزاهته تعالى عن ذلك بتصويرِه بصورة ما يستحيلُ صدورُه عنه سبحانه مِن الظُّلْم، وصيغةُ المبالغة لتأكيدِ هذا المعنى بإبراز ما ذُكر مِن التعذيب بغيرِ ذنب في صورة المبالغة في الظُّلْم، وقيل: هي لرعاية جمعية العبيدِ فتكون للمبالغة كمًّا لا كيفاً.

واعتُرِض بأنَّ نفيَ المبالغة كيفما كانت تُوهِمُ المحالَ، وقيل: يجوز أن تعتبرَ المبالغةُ بعد النفي فيكون ذلك مبالغةً في النفي لا نفياً للمبالغة.

واعتُرِض بأنَّ ذلك ليس مثلَ القيد المنفصلِ الذي يجوز اعتبار تأخُّره وتقدُّمه، كما قالوه في القيود الواقعة مع النفي، وجَعْلُه قَيْداً في التقدير؛ لأنَّه بمعنى ليس بذي ظلم عظيمٍ أو كثير = تكلُّف لا نظيرَ له، وقيل: إنَّ ظلَّاماً للنسبة، أي: ليس بذي ظُلم، ولا يختصُّ ذلك بصيغةِ فاعل، فقد جاء:

وليست بذي رُمْحٍ ولست بنبَّال[1]

وقيل غير ذلك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ شروع في حالِ المذبذبين، أي: ومنهم مَن يعبده تعالى كائناً على طَرَفٍ مِن الدين لاثباتَ له فيه، كالذي يكون في طَرف الجيش، فإن أحسَّ بظَفَر قرَّ، وإلا فرَّ، ففي الكلامِ استعارةٌ تمثيليَّة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾ إلخ، تفسيرٌ لذلك وبيانٌ لوجه الشَّبَه، والمراد مِن الخير الخيرُ الدنيويُّ كالرَّخاء والعافية والولد، أي: إن أصابَه ما يشتهي ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ أي: ثبت على ما كانَ عليه ظاهراً لا أنَّه اطمأنَّ به اطمئنانَ المؤمنين الذين لا يُزَحْزِحُهم عاصفٌ ولا يثنيهم عاطفٌ ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ﴾ أي: شيءٌ يُفتَن به مِن

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣٣ هكذا:

وليس بذي رمح فيطعنني به وليس بذي سيف وليس بنبَّال

مكروهٍ يَعتريه في نفسِه أو أهلِه أو ماله ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: مستولياً على الجهة التي يُواجِهها غيرَ ملتفتٍ يميناً وشمالًا، ولا مبالٍ بما يستقبلُه مِن حِرار وجبالٍ، وهو معنى قوله في «الكشاف»(١): طار على وجهِه. وجعله في «الكشف» كنايةً عن الهزيمة، وقيل: هو هاهنا عبارة عن القَلَق؛ لأنَّه في مقابلة «اطمأنَّ»، وأيًّا ما كان فالمراد: ارتدَّ ورجعَ عن دينِه إلى الكفر.

وأخرج البخاريُّ، وابنُ أبي حاتم، وابنُ مردويه عن ابنِ عبَّاس أنَّه قال في هذه الآية: كان الرجلُ يَقدَمُ المدينةَ، فإذا ولدت امرأتُه غلاماً ونُتِجَتْ خيلُه، قال: هذا دِينٌ صالحٌ، وإن لم تَلِدْ امرأتُه ولم تُنتِجْ خيلُه، قال: هذا دِينُ سُوء(٢).

وأخرج ابنُ مردويه عن أبي سعيدٍ قال: أَسلم رجلٌ مِن اليهود فذهب بصرُه ومالُه وولدُه، فتشاءَمَ مِن الإسلام، فأتَى النبيَّ ﷺ فقال: أَقِلْني. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الإسلامَ لا يُقال». فقال: لم أُصِبْ مِن ديني هذا خيراً، ذهب بصري ومالي ومات ولدي. فقال ﷺ: «يا يهودي الإسلامُ يَسْبُكُ الرجالَ كما تَسبكُ النارُ خَبَثَ الحديدِ والذهبِ والفضَّةِ»، فنزلت هذه الآية. وضعَّف هذا ابنُ حجر(٣)، وقيل: نزلت في شيبةَ بنِ ربيعةَ أَسلم قَبْلَ ظهورِه عليه الصلاةُ والسلامُ وارتدَّ بعد ظهورِه، وروي ذلك عن ابنِ عبَّاس.

وعن الحسن أنَّها نزلت في المنافقين.

---

(١) ٣/ ٧.

(٢) البخاري (٤٧٤٢)، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٧٦ (١٣٧٩٧)، والدر المنثور ٤/ ٣٤٦.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٤٦، وأورده أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٣١٧، والقرطبي في تفسيره ١٤/ ٣٢٩. وضعَّف إسناده ابن حجر في الكافي الشاف ص١١٢.
وأخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير ٣/ ٣٦٨ من حديث جابر ﷺ، ولم يذكر فيه نزول الآية، وفي إسناده: عنبسة بن سعيد، قال الحافظ في الكافي الشاف ص١١٢: وعنبسة ضعيف جداً.
وأخرج البخاري (٧٣٢٢)، ومسلم (١٨٨٣) عن جابر أن أعرابياً بايع رسولَ الله ﷺ، فأصاب الأعرابيَّ وَعْكٌ بالمدينة، فجاء الأعرابيُّ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أقلني بيعتي. فأبى رسول الله ﷺ، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي. فأبى، ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي. فأبى، فخرج الأعرابيُّ، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما المدينة كالكير تنفي خبثها، وينصع طِيبها».

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ، أو بدلٌ مِن «انْقَلَبَ»، كما قال أبو الفضل الرازيُّ، أو حالٌ مِن فاعلِه بتقدير «قد» أو بدونِها، كما هو رأي أبي حيَّان[١]، والمعنى: فَقَدَ الدنيا والآخرةَ وضيَّعهما، حيث فاتَه ما يسرُّه فيهما.

وقرأ مجاهدٌ، وحميدٌ، والأعرجُ، وابنُ محيصن مِن طريق الزعفرانيِّ، وقعنب، والجحدريُّ، وابنُ مقسم: «خاسر» بزنة فاعل[٢] منصوباً على الحال؛ لأنَّ إضافته لفظيَّةٌ، وقُرِئَ: «خاسر» بالرفع[٣] على أنَّه فاعل: «انقلب»، وفيه وضعُ الظاهر موضعَ المضمَر؛ ليفيدَ تعليلَ انقلابِه بخسرانه، وقيل: إنَّه من التجريد، ففيه مبالغةٌ، وجوِّز أن يكون خبرَ مبتدإٍ محذوفٍ، أي: هو خاسر، والجملة واردةٌ على الذمِّ والشتم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الخسران، وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإيذان بكونه في غاية ما يكون. وقيل: إنَّ أداة البُعد؛ لكون المشار إليه غيرَ مذكور صريحاً ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ⑪﴾ أي: الواضح كونه خسراناً لا غيرُ.

﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيل: استئنافٌ ناعٍ عليه بعضَ قبائحه، وقيل: استئناف مبيِّن لعِظَم الخسرانِ، ويجوز أن يكون حالًا مِن فاعل «انْقَلَبَ»، وما تقدَّمه اعتراض، وأيًّا ما كان فهو يُبعِد كونَ الآية في أحدٍ من اليهود؛ لأنَّهم لا يَدعُونَ الأصنامَ وإنِ اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً مِن دون اللهِ.

والظاهر أنَّ المدعوَّ الأصنامُ؛ لمكان «ما» في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ والمراد بالدعاء العبادةُ، أي: يعبد متجاوزاً عبادةَ الله تعالى مالا يضرُّه إن لم يَعبده، وما لا ينفعه إذا عَبَده، وجوّز أن يُرادَ بالدعاء النداء، أي: ينادي لأجل تخليصِه ممَّا أصابه مِن الفتنة جماداً ليس مِن شأنه الضرُّ والنفعُ، ويلوح بكون المرادِ جماداً كذلك كما في «إرشاد العقل السليم»[٤] تكريرُ كلمة «ما» ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي:

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥٥.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٥٥، والنشر ٢/ ٣٢٥، والمحتسب ٢/ ٧٥.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٥٥، والكشاف ٣/ ٧.
(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ٩٨.

الدعاء ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ۝١٢﴾ عن الحقِّ والهدى، مستعارٌ مِن ضلال مَن أبْعدَ في التِّيْهِ ضالًّا عن الطريق.

﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ استئنافٌ يبيِّن مآل دعائه وعبادتِه غيرَ الله تعالى، ويقرِّر كونَ ذلك ضلالًا بعيداً مع إزاحة ما عسى أن يتوهَّم مِن نفي الضررِ عن معبودِه بطريق المباشرة نفيه عنه بطريقِ التسبُّب أيضاً، فالدعاء هنا بمعنى القول، كما في قول عنترة:

يدعونَ عنترةَ الرماحُ كأنَّها ... أشْطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدْهمِ(١)

واللامُ داخلةٌ في الجملة الواقعة مقولًا له، وهي لامُ الابتداء، و«مَن» مبتدأٌ، و«ضَرُّه أقربُ» مبتدأٌ وخبرٌ، والجملةُ صلةٌ له.

وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ۝١٣﴾ جوابُ قَسَمٍ مقدَّر، واللام فيه جوابيَّة، وجملة القَسَم وجوابه خَبَرُ «مَن»، أي: يقول الكافرُ يومَ القيامة برَفْع صوتٍ وصراخٍ حين يرى تضرُّرَه بمعبوده ودخوله النارَ بسببِه، ولا يرى منه أثراً ممَّا كان يتوقَّعه منه مِن النفع لمَن ضرُّه أقربُ تحقُّقاً مِن نفعه: واللهِ لبئسَ الذي يُتَّخذُ ناصراً، ولبئسَ الذي يُعاشرَ ويُخالَط. فكيف بما هو ضررٌ محضٌ عارٍ عن النفع بالكليَّة، وفي هذا من المبالغة في تقبيحِ حالِ الصنمِ والإمعان في ذمِّه ما لا يخفَى، وهو سرُّ إيثار «مَن» على «ما» وإيرادِ صيغةِ التفضيل، وهذا الوجه مِن الإعراب اختاره السجاونديُّ، والمعنى عليه ممَّا لا إشكالَ فيه. وقد ذهبَ إليه أيضاً جارُ اللهِ(٢)، وجوّز أن يكونَ «يدعو» هنا إعادةً لـ «يدعو» السابق، تأكيداً له وتمهيداً لما بَعْدُ مِن بيانِ سوءِ حالِ معبودِه إثرَ بيانِ سوء حالِ عبادته بقوله تعالى: «ذلك هو الضلال البعيد»، كأنَّه قيل مِن جهته سبحانه بعد ذِكْر عبادةِ الكافر ما لا يضرُّه ولا ينفعه: يَدعو ذلك؟! ثم قيل لمَن ضرُّه بكونه معبوداً أقرب مِن نفعه بكونه شفيعاً: واللهِ لبئسَ المولى. . . إلخ، ولا تناقضَ عليه أيضاً إذ الضرُّ المنفيُّ ما يكون بطريق المباشرةِ، والمثبت ما يكون بطريقِ التسبُّب، وكذا النفعُ المنفيُّ هو الواقعيُّ، والمثبت هو

(١) ديوان عنترة ص٢٩، وفيه: عنترَ والرماح، بدل: عنترة الرماح. والشطن: الحبل الذي يستقى به. واللبان: الصدر.
(٢) الكشاف ٣/ ٧.

التوقُّعي، قيل: ولهذا الإثبات عبَّر بـ «مَن» فإنَّ الضرَّ والنفعَ مِن شأنِهما أن يَصدرا عن العقلاءِ، وفي «إرشاد العقل السليم»(١) أن إيرادَ كلمةِ «مَن» وصيغة التفضيل على تقديرِ أن يكون ذلك إخباراً مِن جهته سبحانه عن سوءِ حال معبودِ الكفرة؛ للتهكُّم به، ولا مانعَ عندي أن يكون ذلكَ كما في التقدير الأوَّل للمبالغة في تقبيح حالِ الصنم والإمعان في ذمِّه.

واعترض ابنُ هشام(٢) على هذا الوجه بأنَّ فيه دعوى خلافِ الأصل مرَّتين، إذ الأصلُ عدمُ التوكيد، والأصلُ أنْ لا يُفصلَ المؤكّد عن توكيدِه ولا سيَّما في التوكيد اللفظيِّ. وقال الأخفش(٣): إنَّ «يدعو» بمعنى: يقول، واللام للابتداء، و«مَن» موصول مبتدأ، صلته الجملةُ بعدَه، وخبره محذوفٌ، تقديره: إله أو إلهي، والجملة محكيَّة بالقول.

واعترض بأنَّه فاسدُ المعنى؛ لأنَّ هذا القول مِن الكافر إنَّما يكون في الدنيا وهو لا يعتقدُ فيه أنَّ الأوثانَ ضَرُّها أقرب مِن نفعِها.

وأُجيبَ بأنَّ المرادَ إنكارُ قولهم بألوهيَّة الأوثان إلَّا أنَّ الله تعالى عبَّر عنها بما ذُكر؛ للتهكُّم، نعَمْ الأَولى أن يقدَّر الخبر مولى؛ لأنَّ قولَه تعالى: «لبئس المولى ولبئس العشير» أدلُّ عليه، ومع هذا لا يَخفى بُعْدُ هذا الوجه، وقيل: «يدعو» مضمَّن معنى يزعم، وهي مُلحَقة بأفعال القلوبِ لكون الزعمِ قولًا مع اعتقاد. واللامُ ابتدائيَّة معلِّقة للفعل، و«مَن» مبتدأ، وخبرُها محذوف، كما في الوجه السابق، والجملة في محلِّ نصبٍ بـ «يدعو»، وإلى هذا الوجه أشار الفارسيُّ، ولا يَخفى عليكَ ما فيه.

وقال الفرَّاء(٤): إنَّ اللامَ دخلت في غير موضعها، والتقدير: يدعو مَن ضرُّه أقربُ مِن نفعه، فـ «مَن» في محلِّ نصبٍ بـ «يدعو»، وتعقَّبه أبو حيان(٥) وغيرُه بأنَّه

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٩٨.
(٢) مغني اللبيب ص٣٠٨.
(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٦٣٥ -٦٣٦.
(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢١٧.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٥٦-٣٥٧.

بعيدٌ؛ لأنَّ ما في صلة الموصول لا يتقدَّم على الموصول، وقال ابنُ الحاجبِ: قيل: اللامُ زائدة للتوكيد، و«مَن» مفعول «يدعو»، وليس بشيءٍ؛ لأنَّ اللامَ المفتوحة لا تُزاد بين الفعل ومفعولِه، لكن قويَ القولُ بالزيادة هنا بقراءةِ عبد الله: «يَدعُو مَن ضَرُّه» بإسقاط اللام، وقيل: «يدعو» بمعنى يُسمِّي، و«من» مفعوله الأوَّل، ومفعوله الثاني محذوف، أي: إلهاً. ولا يخفى عليكَ ما فيه، وقيل: إنَّ «يدعو» ليست عاملةً فيما بعدَها، وإنَّما هي عاملةٌ في ذلك قبلها، وهو موصول بمعنى «الذي»، ونقل هذا عن الفارسيِّ أيضاً، وهو على بُعْدِه لا يصحُّ إلَّا على قول الكوفيين، إذ يجيزون في اسمِ الإشارة مطلقاً أن يكون موصولاً، وأمَّا البصريونَ فلا يجيزونَ إلَّا في «ذا» بشرطِ أن يتقدَّمها الاستفهامُ بـ «ما» أو «من»، وقيل: هي عاملةٌ في ضميرٍ محذوف راجع إلى ذلك، أي: يَدعُوه، والجملة في موضع الحالِ، والتقدير: «ذلك هو الضلالُ البعيدُ» مدعوًّا، وفيه مع بُعْدِه أنَّ «يدعو» لا يُقدَّر بمدعوٍّ، وإنَّما يقدَّر بداعياً، والذي يقدَّر بمدعوٍّ إنَّما هو يُدعى المبني للمفعول، وقيل: «يدعو» عطف على «يدعو» الأوَّل، وأسقط حرفَ العطف؛ لقصد تعدادِ أحوال ذلك المذبذبِ، واللام زائدة، و«من» مفعول «يدعو»، وهي واقعةٌ على العاقل، والدعاءُ في الموضعين إمَّا بمعنى العبادة وإمَّا بمعنى النداء، والمرادُ إمَّا بيانُ حالِ طائفة منهم على معنى أنَّهم تارةً يدعُون مالا يضرُّ ولا ينفعُ، وتارةً يَدعُون مَن ضرُّه أقربُ من نفعه، وإمَّا بيانُ حالِ الجنس باعتبار ما تحتَه على معنى أنَّ منهم مَن يدعو مالا يضرُّ ولا ينفعُ، ومنهم مَن يدعو مَن ضرُّه أقربُ مِن نفعه، وهو كما ترى، وبالجملة أحسنُ الوجوه أوَّلُها(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ استئنافٌ لبيانِ كمالِ حسن حال المؤمنين العابدينَ له تعالى، وأنَّه تعالى يتفضَّل عليهم بالنعيم الدائم إثرَ بيانِ غاية سوءِ حالِ الكفرة.

وجملة «تجري» إلخ صفةٌ لـ «جنَّات»، فإن أُريد بها الأشجارُ المتكاثفة الساترةُ لما تحتها، فجريانُ الأنهار مِن تحتها ظاهرٌ، وإن أريد بها الأرضُ، فلابُدَّ مِن تقدير مضاف، أي: من تحتِ أشجارها، وإن جعلت عبارةً عن مجموع الأرض

(١) ينظر تفسير الطبري ١٦/٤٧٦، والبحر المحيط ٦/٣٥٧.

والأشجار، فاعتبار التحتيَّة بالنظر إلى الجزء الظاهر المصحِّح لإطلاق اسمِ الجنَّة على الكلِّ، كما في «إرشاد العقل السليم»(١).

وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ تعليلٌ لما قبله وتقريرٌ بطريقِ التحقيق، أي: هو تعالى يَفعل ألبتةَ كلّ ما يُريده من الأفعال المتقنة اللائقة المبنيَّة على الحِكَم الرائقة التي مِن جملتها إثابةُ مَن آمنَ به وصدَّق برسوله ﷺ، وعقابُ مَن كَفَرَ به وكذَّب برسولِه عليه الصلاة والسلام.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ الضمير في «ينصره» لرسولِ الله ﷺ على ما روي عن ابنِ عبَّاس، والكلبيِّ، ومقاتلٍ، والضحَّاكِ، وقتادةَ، وابنِ زيد، والسديِّ، واختاره الفرَّاء(٢)، والزجَّاج(٣)، كأنَّه لما ذكر المجادلَ بالباطل وخذلانه في الدنيا؛ لأنَّه لا يُدلي بحجَّةٍ ما، ضروريَّة أو نظريَّة أو سمعيَّة، ولما يؤول إليه أمره مِن النكال، وفي الآخرة بما هو أطمُّ وأطمُّ، ثم ذكر سبحانه مشايعيه وعمَّم خَسَارهم في الدارين، ذَكَرَ في مقابلهم المؤمنين وأتبعه ذِكْرَ المجادلِ عنهم وعن دينِ الله تعالى بالتي هي أحسن وهو رسولُه عليه الصلاة والسلام، وبالغ في كونه منصوراً بما لا مزيدَ عليه، واختصر الكلام؛ دلالةً على أنَّه ﷺ العَلَمُ الذي لايشتبه، وأنَّ الكلامَ فيه وله ومعه، وأنَّ ذِكْر غيرِه بتبعيَّة ذِكْره، فالمعنى أنَّه تعالى ناصرٌ لرسوله ﷺ في الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجتِه وإدخالِ مَن صدَّقه جناتٍ تجري مِن تحتها الأنهار، والانتقام ممَّن كذَّبه وإذاقته عذابَ الحريق لا يَصرفُه سبحانه عن ذلك صارفٌ ولا يَعطفه عنه عاطفٌ، فمَن كان يغيظه ذلك مِن أعاديه وحُسَّاده ويظنُّ أن لنْ يَفعله تعالى بسبب مدافعتِه ببعضِ الأمور ومباشرة ما يردُّه مِن المكايد، فليُبالغْ في استفراغِ المجهود وليتجاوز في الجدِّ كلَّ حدٍّ معهود، فقصارى أمرِه خيبةُ مساعِيْه وعِقَم مقدِّماته ومباديه وبقاء ما يغيظُ على حاله ودوام شَجْوه وبَلْباله، وقد وضع مقامَ هذا الجزاء قوله سبحانه: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ إلخ، فليمدد حبلًا ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إلى سقفِ

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٩٩.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢١٨.

(٣) في معاني القرآن وإعرابه له ٣/ ٤١٧.

بيته، كما أخرج عبدُ بنُ حميدٍ، وابنُ المنذر، عن الضحَّاك[1]. ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ليَختَنق، كما فسَّره بذلك ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما مِن قَطَعَ: إذا اختنقَ، كأنَّ أصلَه: قطع نَفَسه - بفتحتين - أو أجَله، ثم ترك المفعول نسياً منسيًّا، فصار بمعنى اختنقَ لازم خنقه،[2] وذكروا أنَّ قَطْعَ النَّفَس كنايةٌ عن الاختناقِ، وقيل: المعنى: ليقطعِ الحبلَ بعد الاختناقِ، على أنَّ المرادَ به فرضُ القَطْع، وتقديره كما أنَّ المرادَ بالنظر في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ⑮﴾ تقديرُ النظر وتصويرُه، وإلَّا فبعدَ الاختناقِ لا يتأتَّى منه ذلك، أي: فليقدِّر في نفسِه النظرَ هل يذهبنَّ كيدُه غيظَه، أو الذي يغيظه مِن النصر، ويجوز أن يُرادَ: فلينظر الآن أنَّه إن فَعَلَ ذلك هل يذهبُ ما يغيظه. وجوّز أن يكون المأمورُ بالنظر غيرَ المأمور الأوَّل ممَّن يصحُّ منه النظر، وأن يكون الكلامُ خارجاً مخرجَ التهكُّم كما قيل: إنَّ تسميةَ فِعْلِه ذلك كيداً خارجةٌ هذا المخرَج، وقال جمعٌ: إنَّ إطلاقَ الكيدِ على ذلك؛ لشَبَهه به، فإنَّ الكائدَ إذا كَادَ أَتَى بغاية ما يَقدرُ عليه، وذلك الفعلُ غايةُ ما يَقدرُ عليه ذلك العدوُّ الحسودُ، ونقل عن ابنِ زيدٍ أنَّ المعنى فليمدد حبلًا إلى السماء المظلَّة وليصعد عليه، ثم ليقطَع الوحيَ عنه ﷺ.

وقيل: ليقطع المسافةَ حتى يبلغَ عنانَ السماء فيجهدَ في دَفْع نصرِه عليه الصلاة والسلام النازل من جهتها.

وتعقَّبه المولى أبو السعود[3] بأنَّه يأباه أنَّ مساقَ النظمِ الكريم بيانُ أنَّ الأمورَ المفروضةَ على تقدير وقوعِها وتحقُّقها بمعزل من إذهابِ ما يغيظ، ومن البينِ أن لا معنى لفرض وقوعِ الأمور الممتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لا سيَّما قَطْع الوحي، فإنَّ فرضَ وقوعِه مخلٌّ بالمرام قطعاً.

ونُوقشَ في ذلك بما لا يَخفى على الناظر، نعم المعنى السابق هو الأَولى، وأيًّا

---

(١) الدر المنثور ٤/٣٤٧، وأخرجه أيضاً الطبري في التفسير ١٦/٤٨٣.
(٢) ليست في الأصل، وجاء بدلها فيه: «وإلا فبعد الاختناق لا يتأتَّى منه ذلك، أي: فليقدِّر في نفسه النظر»، وهذه العبارة ستأتي قريباً، ونقلت إلى هناك لضرورة المعنى، وهكذا جاءت في تفسير أبي السعود ٦/٩٩، والكلام منه.
(٣) تفسير أبي السعود ٦/٩٩.

ما كان فمن يظنُّ ذلك هم الكفرةُ الحاسدونَ له ﷺ، وقيل: أعراب مِن أَسْلَم وغَطَفان تباطؤوا عن الإسلام، وقالوا: نخافُ أن لا يُنصَر محمَّد عليه الصلاة والسلام فينقطعَ ما بيننا وبين حلفائنا مِن يهود، فلا يقرُّونا ولا يُؤْوونا، وقيل: قومٌ مِن المسلمين كانوا لشدَّة غيظهم من المشركين يستبطؤون ما وَعَدَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ مِن النصر، والمعنى عليه - وكذا على سابقه إن قيل: إنَّ أولئك الأعراب كانوا يستبطؤون النصرَ أيضاً -: مَن اسْتبطأ نَصْرَ اللهِ تعالى وطَلَبه عاجلًا فليقتل نفسَه؛ لأنَّ له وقتاً اقتضت الحكمةُ وقوعَه فيه، فلا يقع في غيرِه، وأنتَ تَعلَمُ بُعْدَ هذين القولين وأنَّ ثانيهما أبعدُ.

واستظهر أبو حيَّان[1] كونَ ضميرِ «ينصره» عائداً على «مَن» لأنَّه المذكور، وحقُّ الضمير أن يعودَ على مذكور، وهو قولُ مجاهد، وإليه ذهب بعضُهم، وفسَّر النصرَ بالرزق، وقال أبو عبيدة[2]: وَقَفَ علينا سائلٌ من بني بكر، فقال: مَن ينصرني نصرَه اللهُ تعالى؟ وقالوا: أرضٌ منصورةٌ، أي: ممطورة، وقال الفقعسيُّ:

وإنَّكَ لا تُعطي امْرَأً فوقَ حقِّه ... ولا تملكُ الشيءَ الذي أنتَ ناصره[3]

أي: معطيه، وكأنَّه مستعارٌ مِن النصر بمعنى العونِ، فالمعنى أنَّ الأرزاقَ بيدِ الله تعالى لا تُنال إلا بمشيئته فلا بُدَّ للعبد مِن الرضا بقسمتِه، فمَن ظنَّ أنَّ اللهَ تعالى غيرُ رازقِه ولم يَصبِر ولم يَستسلم، فليبلغ غايةَ الجَزَع وهو الاختناقُ، فإنَّ ذلك لا يَقلِبُ القسمةَ ولا يردُّه مرزوقاً، والغَرَضُ الحثُّ على الرضا بما قَسَمَ اللهُ تعالى لا كمَن يعبدُه على حرفٍ، وكأنَّه سبحانه لما ذَكَرَ المؤمنين عَقِيبهم - على ما مرَّ - حذَّرهم عن مِثْلِ حالِهم؛ لطفاً في شأنهم. ولا يخلو عن بُعْدٍ وإن كان ربطُ الآية بما قَبلها عليه قريباً.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥٧.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٤٧.

(٣) البيت في الأضداد للأنباري ص٣٠٣، وأمالي المرتضى ٢/ ١٩٢، إلا أنَّ روايته هكذا:

فإنك لا تعطي امرأً حظَّ غيره ... ولا تملك الشقَّ الذي الغيث ناصره

وأورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١١١ وجاء صدر البيت عنده كما ذكره المصنِّف، وعجزه كما في الأضداد، والأمالي.

والفقعسي: هو مضرِّس بن ربعي بن لقيط بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان بن فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين الأسدي. معجم الشعراء ص٣٠٧.

وقيل: الضمير لـ «من» والنصر على المتبادر منه، والمعنى: مَن كان يظنُّ أن لن ينصرَه اللهُ تعالى فيغتاظُ لانتفاءِ نصرِه، فليَحْتَل بأعظم حيلةٍ في نَصْرِ الله تعالى إيَّاه وليَستفرِغ جهدَه في إيصال النصرِ إليه، فلينظر هل يذهبنَّ ذلك ما يغيظه مِن انتفاء النصر. ولا يخفى ما في وجه الربطِ على هذا مِن الخفاء.

و«من» كما أشرنا إليه شرطيَّة، وجوِّز أن تكون موصولةً والفاء في حَيِّزها؛ لتضمُّنها معنى الشرط، و«هل يذهبنَّ» في محلِّ نصب بـ «ينظر»، وذكر أنَّه على إسقاط الخافض.

وقرأ البصريون، وابنُ عامر، وورش: «ثم لِيَقْطَعْ» بكسرِ لام الأمر(١)، والباقون بسكونها على تشبيهِ «ثم» بالواو والفاء؛ لأنَّ الجميعَ عواطف.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإنزالِ البديع المنطوي على الحِكَم البالغة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ الكريمَ كلَّه ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة على معانيها الرائقة، فالمشار إليه الإنزالُ المذكور بعد اسمِ الإشارة، ويجوز أن يكون المرادُ إنزالَ الآياتِ السابقة. وأيًّا ما كان ففيه أنَّ القرآنَ الكريم في جميعِ أبوابه كاملُ البيان لا في أَمْرِ البعث وحدَه.

ونصب «آيات» على الحالِ مِن الضمير المنصوب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ بتقدير اللام، وهو متعلِّق بمحذوفٍ يقدَّر مؤخَّراً؛ إفادةً للحَصْر الإضافيِّ، أي: ولأنَّ اللهَ تعالى يَهدي به ابتداءً، أو: يثبِّت على الهدى، أو: يزيد فيه مَن يريد هدايتَه أو ثباتَه أو زيادتَه فيها، أنزله كذلك، أو في تأويلِ مصدرٍ مرفوعٍ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: والأمرُ أنَّ اللهَ يهدي ... إلخ.

وجوِّز أن يكون معطوفاً على محلِّ مفعول «أنزلناه» أي: وأنزلنا أنَّ اللهَ يهدي... إلخ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: بما ذُكرَ مِن المنزل بهدايةِ الله تعالى أو بكلِّ ما يجب أن

---

(١) التيسير ص١٥٦، والنشر ٢/٣٢٦.

يؤمن به، ويَدخُل فيه ما ذُكرَ دخولًا أوَّليًّا ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ هم على ما أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن قتادة: قومٌ يَعبدونَ الملائكةَ ويُصلُّون إلى القِبْلة، ويقرؤون الزبور(١). وفي «القاموس»(٢): هم قومٌ يزعمونَ أنَّهم على دينِ نوحٍ عليه السلام وقبْلَتُهم مِن مهبِّ الشَّمالِ عند منتصفِ النهار. وفي كتاب «الملل والنحل»(٣) للشهرستاني: أنَّ الصابئةَ كانوا على عهدِ إبراهيم عليه السلام، ويقال لمقابليهم: الحنفاء، وكانوا يقولون: إنَّا نحتاجُ في معرفةِ الله تعالى ومعرفةِ طاعته وأمرِه وأحكامِه جلَّ شأنه إلى متوسِّط روحانيٍّ لا جسمانيٍّ. ومدارُ مذاهبِهم على التعصُّب للروحانيَّات وكانوا يعظِّمونها غايةَ التعظيم ويتقرَّبون إليها، ولمَّا لم يتيسَّر لهم التقرُّب إلى أعيانها والتلقِّي منها بذواتِها، فزعت جماعةٌ إلى هياكلها وهي السبع السيَّارات وبعض الثوابت، فصابئةُ الروم مفزعُها السيَّارات، وصابئةُ الهند مفزعُها الثوابتُ، وربَّما نزلوا عن الهياكلِ إلى الأشخاص التي لا تَسمعُ ولا تُبصِر ولا تغني شيئاً، والفرقةُ الأُولى هم عبدةُ الكواكب، والثانية هم عبدةُ الأصنام. وقد أفحمَ إبراهيمُ عليه السلام كلتا الفرقتَيْن، وألزمهم الحجَّةَ.

وذكر في موضع آخَر أنَّ ظهورَهم كان في أوَّل سنةٍ مِن مُلْكِ طهمورث مِن ملوك الفرس(٤).

ولفظُ الصابئة عربيٌّ مِن صَبَأَ ـ كمنع وكرم ـ صبئاً وصُبُوءاً: خرج مِن دينٍ إلى آخَر(٥).

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾ هم على ما روي عن قتادةَ أيضاً: قومٌ يعبدونَ الشمسَ والقمرَ والنِّيرانَ. واقتصر بعضُهم على وصفِهم بعبادة الشمسِ والقمر، وآخَرون على وصفِهم بعبادة النِّيران. وقيل: هم قومٌ اعتزلوا النصارى ولبسوا المسوحَ. وقيل:

---

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٤٨٥-٤٨٦، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنف (١٠٢٠٦)، وابن أبي حاتم ٤/ ١١٧٦ (٦٦٢٨).

(٢) مادة (صبأ).

(٣) ١/ ٢٣٠-٢٣٣.

(٤) الملل والنحل ١/ ٢٣٦.

(٥) القاموس المحيط (صبأ).

قومٌ أخذوا مِن دينِ النصارى شيئاً ومِن دينِ اليهود شيئاً، وهم قائلونَ بأنَّ للعالَمِ أصلين نورٌ أو ظلمةٌ.

وفي كتاب «الملل والنحل» ما يدلُّ على أنَّهم طوائفُ، وأنَّهم كانوا قَبْلَ اليهودِ والنصارى، وأنَّهم يقولون بالشرائع على خلافِ الصابئة، وأنَّ لهم شبهةَ كتابٍ، وأنَّهم يعظِّمون النارَ، وفيه أنَّ بيوتَ النيرانِ للمجوس كثيرةٌ: فأوَّل بيتٍ بناه أفريدون بيت نارٍ بطُوس، وآخَر بمدينة بُخارى هو بردسون، واتَّخذَ بهمن بيتاً بسجستان يُدعَى كركوا، ولهم بيتُ نارٍ ببُخارى أيضاً يُدعَى قباذان، وبيت نار يُسمَّى كونشه بين فارس وأصفهان بناه كيخسرو، وآخَر بقومش يُسمَّى جرير، وبيت نار كيكدر بناه في مشرقِ الصين، وآخَر بأرجان مِن فارس اتَّخذه أرجان جَدُّ كشتاسف، وكلُّ هذه البيوت كانت قَبْلَ زرادشت، ثم جَدَّدَ زرادشتُ بيتَ نار بنيسا بعد كشتاسف وأَمَرَ كشتاسف أن يطلب النارَ التي كان يعظِّمها جمٌّ، فوجدوها بمدينة خوارزم فنقلها إلى دارِ أبجرد، والمجوس يعظِّمونها أكثرَ من غيرها، وكيخسرو لمَّا غزا أفراسياب عظَّمها وسَجَدَ لها. ويقال: إنَّ أنوشروان هو الذي نقله إلى كارشان، فتركوا بعضَها هناك؛ وحملوا بعضَها إلى نسا. وفي بلاد الروم على باب قسطنطينيَّة بيت نار اتَّخذه شابورُ بنُ أزدشير، فلم تزل كذلك إلى أيامِ المهدي. وبيت نار باسفيثا على قُربِ مدينة السلام لبُوران بنتِ كسرى. وفي الهند والصين بيوتُ نيران أيضاً. والمجوس إنَّما يعظِّمون النارَ لمعانٍ، منها أنَّها جوهرٌ شريف علويٌّ يظنُّون أنَّ ذلك ينجِّيهم مِن عذاب نارِ يوم القيامة ولم يَدْرُوا أنَّ ذلك السببُ الأعظمُ لعذابِهم(١). اهـ. وفيه ما لا يَخفى على مَن راجع التواريخَ.

وفي «القاموس»: مَجوس، كصَبور: رجلٌ صغيرُ الأُذنين وَضَعَ دِيْناً ودعا إليه، معرَّب: ميخ كُوْش(٢).

---

(١) الملل والنحل ١/ ٢٥٤-٢٥٥، وورد فيه: كويسه، بدل: كونشه. وكنكدر، بدل: كيكدر. وكشتاسب، بدل: كشتاسف. وكارثان، بدل: كارشان. وأردشير، بدل: أزدشير. وإستينيا، بدل: إسفيثا. وما ورد بين حاصرتين استدرك منه.

(٢) القاموس (مجس)، وفيه: مِنْج، بدل: مِنح. وكذا وردت في تهذيب اللغة ١٠/ ٦٠١، واللسان (مجس).

وفي «الصّحاح» المجوسيَّة: نِحْلَةٌ، والمجوسيُّ نسبةٌ إليها، والجمع: المَجُوس. قال أبو عليٍّ النحويُّ: المجوسُ واليهودُ إنَّما عرِّفا على حدِّ يهوديٍّ ويَهود، ومجوسيٍّ ومَجُوس، فجمع على قياس شعيرة وشعير، ثم عُرِّفَ الجمعُ بالألف واللام، ولولا ذلك لم يجز دخولُ الألفِ واللامِ عليهما؛ لأنَّها مَعْرِفتان مؤنَّثان، فجريا في كلامهم مَجرى القبيلتين، ولم يُجعلا كالحيَّيْنِ في باب الصرف، وأنشد:

أحـارِ أُرِيـكَ بَـرْقـاً هَـبَّ وَهْـنـاً ... كـنـارِ مَـجُـوسَ يَـسْـتَـعِـرُ اسْـتِـعـارا[1]

انتهى. وذكر بعضُهم أنَّ مجُوس معرَّبُ: موكوش، وأُطلِقَ على أولئك القوم؛ لأنَّهم كانوا يُرسِلونَ شعورَ رؤوسِهم إلى آذانِهم. ونقل في «البحر»[2] أنَّ الميمَ بدلٌ مِن النون، وأطلق ذلك عليهم؛ لاستعمالهم النجاسات، وهو قولٌ لا يعوَّل عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ المشهور أنَّهم عبدةُ الأوثان، وقيل: ما يعمُّهم وسائر مَن عَبَدَ مع اللهِ تعالى إلهاً آخر مِن مَلَكٍ وكوكبٍ وغيرِهما ممَّن لم يَشتهر باسمٍ خاصٍّ كالصابئة والمجوس.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ في حيِّز الرفع على أنَّه خبرٌ لـ «إنَّ» السابقة، وأدخلت «إنَّ» على كلٍّ واحد مِن جزئي الجملة؛ لزيادة التأكيد، كما في قولِ جرير:

إنَّ الـخـلـيـفـةَ إنَّ اللهَ سَـرْبَـلَـهُ ... سِرْبالَ مُلْكٍ به تُزجَى الخواتِيمُ[3]

---

(١) اللسان (مجس)، وصدر البيت لامرئ القيس مالَطَ فيه التوأمَ اليشكريَّ، فقال اليشكريُّ النصفَ الآخَرَ من البيت. ومعنى مالَطه: قال نصفَ بيتٍ وأتمَّه الآخَرُ، كملَّطه. القاموس (ملط). والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٤٧.

(٢) ٦/ ٣٤٦.

(٣) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ٢/ ٦٧٢، وورد فيه هكذا:

يكفي الخليفة أن الله سربله ... سربال ملك به تُرجى الخواتيم

والبيت بلفظ المصنف في خزانة الأدب ١٠/ ٣٦٤ إلا أنه ورد فيه: لباس، بدل: سربال، قال البغدادي: وتزجى بالزاي والجيم، والإزجاء: السَّوق. والخواتيم: جمع خاتام لغة في الخاتم. يريد إن سلاطين الآفاق يرسلون إليه خواتمهم خوفاً منه، فيضاف ملكهم إلى ملكيه. ويُروى: ترجى، بالراء المهملة، من الرجاء، وهذه الرواية أكثر من الأولى. اهـ.

وقيل: خبرُ «إنَّ» الأُولى محذوفٌ، أي: مفترقون يومَ القيامة، أو نحو ذلك ممَّا يدلُّ عليه قوله سبحانه: «إنَّ الله يفصلُ بينهم» إلخ فإنَّ قولَك: إنَّ زيداً إنَّ عَمْراً يَضْربه، رَدِيءٌ، والبيت لا يتعيَّن فيه حَمْلُ الجملةِ المقترنة بـ «إنَّ» خبراً، بل يجوز أن تكون معترضةً، والخبر جملة: به تُزجَى الخواتيمُ، ولا يَخفى عليك ـ بعد تسليمِ الرداءة ـ أنَّ الآيةَ ليست كالمثال المذكور؛ لطولِ الفاصل فيها.

قال في «البحر»(١): وحَسَّنَ دخولَ «إنَّ» في الجملة الواقعة خبراً في الآية طولُ الفصلِ بالمعاطيف. وقال الزجَّاج(٢): زعم قومٌ أنَّ قولَك: إنَّ زيداً إنَّه قائمٌ، رَدِيءٌ، وأنَّ هذه الآيةَ إنَّما صلحت بتقدُّم الموصول، ولا فرقَ بين الموصول وغيرِه في باب «إنَّ»، وليس بين البصريين خلافٌ في أنَّ «إنَّ» تَدخُل على كلِّ مبتدأ وخبرٍ، فعلى هذا لا ينبغي العدولُ عن الوجه المتبادَر.

والمرادُ بالفَصْل القضاءُ، أي: إنَّه تعالى يقضي بين المؤمنين والفِرَقِ الخمسِ المتَّفقة على الكفر؛ بإظهار المُحِقِّ مِن المبطل، وتوفية كلٍّ منهما حقَّه مِن الجزاء بإثابة المؤمنين وعقاب الفِرَقِ الآخَرين بحسَب استحقاقِ أفراد كلٍّ منهما.

وقيل: المراد أنَّه تعالى يَفْصِلُ بين الفِرَقِ السِّتِّ في الأحوال والأماكن جميعاً، فلا يُجازيهم جزاءً واحداً بلا تفاوتٍ، بل يَجزي المؤمنين بما يليقُ بهم(٣) واليهودَ بما يليقُ بهم، وهكذا، ولا يَجمعهم في موطنٍ واحد، بل يجعل المؤمنين في الجنَّة، وكلًّا مِن الفِرَق الكافرةِ في طبقة مِن طبقات النار.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٧﴾ تعليلٌ لما قَبْله مِن الفصل، أي: إنَّه تعالى عالِم بكلِّ شيءٍ مِن الأشياء ومراقبٌ لأحواله، ومِن قضيَّته الإحاطةُ بتفاصيل ما صَدَرَ عن كلِّ فردٍ من أفراد الفِرَق المذكورة وإجراءُ جزائه اللائقِ به عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلخ، بيانٌ لما يُوجِب الفَصْلَ المذكور مِن أعمال الفِرَق مع الإشارة إلى كيفيَّته وكونه

---

(١) ٦/ ٣٥٩.
(٢) في معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤١٨.
(٣) ليست في (م).

بطريق التعذيبِ والإثابة والإكرامِ والإهانة، وجوّز أن يكون تنويراً؛ لكونه تعالى شهيداً على كلِّ شيء، وقيل: هو تفريعٌ على اختلاف الكفرة واستبعادٌ له، لوجوب الصارفِ، والمرادُ بالرؤية العِلْمُ والخطابُ لكلِّ مَن يتأتّى منه ذلك.

والمراد بالسجود دخولُ الأشياءِ تحت تسخيرِه تعالى وإرادته سبحانه وقابليتِها لما يُحدِثُ فيها عزَّ وجلَّ، وظاهرُ كلامِ الآمديِّ[1] أنَّه معنى حقيقيٌّ للسجود.

وفي «مفردات» الراغب[2]: السجود في الأصل: التطامُنُ[3] والتذلُّل، وجُعلَ ذلك عبارةً عن التذلُّل لله تعالى وعبادتِه، وهو عامٌّ في الإنسان والحيوان والجماد، وذلك ضربان: سجودٌ باختيار يكون للإنسان، وبه يستحقُّ الثوابَ. وسجودٌ بتسخيرٍ يكون للإنسان وغيرِه مِن الحيوانات والنباتات، وخُصَّ في الشريعة بالركن المعروفِ مِن الصلاة وما جَرى مجراه مِن سجودِ التلاوة وسجود الشكر. انتهى.

وذكر بعضُهم أنَّه كما خُصَّ في الشريعة بذلك خُصَّ في عُرف اللغة به. وقال ابنُ كمال: إنَّ حقيقتَه على ما نصَّ عليه في «المجمل»[4]: وَضْعُ الرأسِ. وقال العلَّامة الثاني: حقيقتُه: وَضْعُ الجبهةِ لا الرأسِ، حتى لو وَضَعَ الرأسَ مِن جانب القَفا لم يكن ساجداً. وعلى هذين القولَين ـ على عِلَّاتِهما ـ قيل: السجود هنا مجازٌ عن الدخول تحتَ تسخيرِه تعالى والانقياد لإرادته سبحانه، وجوّز أن يكونَ مجازاً عن دلالةِ لسانِ حال الأشياء ـ بذلَّتها وافتقارِها ـ على صانِعها وعظمتِه، جلَّت عظمتُه، ووجه التنوير على هذا ظاهرٌ، وكذا التفريعُ على الاختلاف.

و«من» إمَّا خاصَّة بالعقلاء، وإمَّا عامَّة لهم ولغيرهم بطريق التغليبِ، وهو الأَولى؛ لأنَّه الأنسبُ بالمقام؛ لإفادته شمولَ الحكم لكلِّ ما فيهما بطريقِ القرار فيهما أو بطريقِ الجزئيَّة منهما، ويكون قوله تعالى:

﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ إفراداً لها بالذِّكْر؛ لشهرتها، واستبعادُ ذلك منها بحسَب الظاهر في باديءِ النظر القاصر كما قيل، أو لأنَّها قد

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/٢٩٨.

(٢) مادة: (سجد).

(٣) التطامن: السكون أو الانخفاض. المعجم الوسيط (طمن).

(٤) لعلَّه يريد: مجمل اللغة لابن فارس، والكلام فيه ٢/٤٨٦ (سجد) بنحوه.

عُبدَت مِن دونِ الله تعالى إمَّا باعتبار شخصِها أو جنسِها؛ فالشمسُ عَبدَتْها حِمْيَر، والقمرُ عَبدَتْه كنانةُ، وعَبَدَ الدَّبَرانِ ـ مِن النجوم ـ تميم، والشِّعْرى لَخْم وقريش، والثريَّا طَيِّئ، وعطارد أَسْد، والمِرْزَم[١] ربيعة، وعَبَدَ أكثرُ العربِ الأصنامَ المنحوتة مِن الجبال، وعَبَدَتْ غطفان العُزَّى وهي سَمُرةٌ، واحدة السَّمُر: شجرٌ معروفٌ، ومِن الناس مَن عَبَدَ البقرَ.

وقرأ الزهريُّ، وابنُ وثَّاب: «الدَّوَابُ» بتخفيفِ الباء[٢]. وخصَّ ابنُ جنِّي في «المحتسب»[٣] هذه القراءةَ بالزهريِّ، وقال: لا أَعلم من خفَّفها سواه، وهو قليلٌ ضعيفٌ قياساً وسماعاً؛ لأنَّ التقاءَ الساكنين على حدِّه، وعذرُه كراهةُ التضعيف، ولذا قالوا في: ظَلِلْت: ظَلْت، وقالوا: جَان، بالتخفيف، وذكر له نظائر كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل: مرفوعٌ بفعل مضمَر يدلُّ عليه المذكور، أي: ويسجدُ له كثيرٌ من الناسِ سجودَ الطاعةِ المعروف.

واعترُض بأنَّه صرَّح في «المغني»[٤] بأنَّ شرطَ الدليل اللفظي على المحذوفِ أن يكون طِبْقَه لفظاً ومعنًى، أو معنًى لا لفظاً فقط، فلا يجوز: زيدٌ ضاربٌ وعمرٌو، على أنَّ خبرَ عمرو محذوفٌ، وهو ضارب من الضَّرْب في الأرض، أي: مسافرٌ، والمذكور بمعناه المعروف. وأجاب الخفاجيُّ[٥] بأنَّ ما ذكر غيرُ مسلَّم؛ لما ذكره النحاةُ مِن أنَّ المقدَّر قد يكون لازماً للمذكور نحو: زيداً ضربتُ غلامَه، أي: أهنتُ زيداً، ولا يكون مُشتركاً كالمثال المذكور، إلا أن يكون بينهما ملاءَمةٌ فيصحُّ إذا اتَّحَدا لفظاً، وكان مِن المشترك، وبينهما ملازمةٌ تدلُّ على المقدَّر، ولذا لم يصحَّ المثالُ المذكور. انتهى.

وعَطَفه بعضُهم على المذكوراتِ قَبْلَه وجعلَ السجودَ بالنسبة إليه بمعنى السجودِ المعروف، وفيما تقدَّم بمعنى الدخول تحتِ التسخير، أو الدلالة على عَظَمةِ الصانع

(١) المِرْزمان: نجمان مع الشِّعْرَيَيْن. القاموس (رزم).
(٢) المحتسب ٢/ ٧٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٩.
(٣) ٢/ ٧٦.
(٤) مغني اللبيب ص٧٩٠.
(٥) حاشية الشهاب ٦/ ٢٨٨.

جلَّ شأنه، واستدلَّ بذلك على جوازِ استعمال المشتَرك في معنيَيْه، أو استعمالِ اللفظ في حقيقته ومجازِه، والجواب ما علمتَ، ولا يجوز العطفُ وجعلُ السجودِ في الجميعِ بمعنى الدخول تحتَ التسخير أو الدلالةِ على العظمة؛ لأنَّ ذلك عامٌّ لجميع الناس، فلا يليقُ حينئذٍ ذِكْر «كثير»، وغيرُ العامِّ إنَّما هو السجودُ بالمعنى المعروف فيفيدُ ذِكْرَ «كثير» إذا أُريد أنَّ منهم مَن لم يتَّصف بذلك، وهو كذلك.

وما قيل: إنَّه يجوز أن يكون تخصيصُ الكثيرِ على إرادة السجود العامِّ؛ للدلالةِ على شَرَفهم والتنويه بهم، ليس بشيء، إذ كيف يتأتَّى التنويهُ وقد قُرِنَ بهم غيرُ العقلاءِ كالدوابِّ.

وقال ابنُ كمال: تمسُّك مَن جوَّز حَمْلَ المشتركِ في استعمال واحدٍ على أكثر مِن معنًى بقوله تعالى: «أَلَم تَرَ أنَّ اللهَ يَسجُد له مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ» الآية، بناء على أنَّ المرادَ بالسجود المنسوبِ إلى غير العقلاء الانقيادُ؛ لتعذُّر السجودِ المعهود في حقِّه، ومِن المنسوب إليهم ما هو المعهود دونَ الانقياد؛ لأنَّه شاملٌ للكلِّ غيرُ مخصوص بالكثير، ولا متمسَّكَ لهم في ذلك؛ لأنَّ كلًّا مِن التعليلين في مَعرِض المنع، أمَّا الأوَّل؛ فلأنَّ حقيقةَ السجود وَضْعُ الرأس، لا تعذُّر في نسبته إلى غيرِ العقلاء، ولا حاجةَ إلى إثبات حقيقة الرأس في الكلِّ؛ لأنَّ التغليبَ سائغٌ شائع. وأمَّا الثاني؛ فلأنَّ الكفار ـ لا سيَّما المتكبِّرين منهم ـ لا حظَّ لهم مِن الانقياد، لأنَّ المرادَ منه الإطاعةُ بما ورد في حقِّه مِن الأمر ـ تكليفيًّا كان أو تكوينيًّا ـ على وجهٍ وَرَدَ به الأمرُ، وتقدير فِعْلٍ آخَر في هذا المقام مِن ضِيْق العَطَن كما لا يَخفى على أرباب الفطن. انتهى.

وفيه القولُ بجواز العطفِ على كلا معنيي[1] السجودِ وَضْعِ الرأسِ والانقيادِ، وبيان فائدةِ تخصيص الكثير على الثاني، ولا يَخفى أن المتبادرَ مِن معتبرات كتب اللغة أنَّ السجودَ حقيقةٌ لغويَّةٌ في الخضوع مطلقاً، وأنَّ ما ذكره مِن حديث التغليب خلافُ الظاهر، وكذا حَمْلُ الانقيادِ على ما ذكره، وقد أخذ ـ رحمه الله تعالى ـ كلا المعنيين مِن «التوضيح»، وقد أسقط ممَّا فيه ما عنه غنًى، وما زعم أنَّه

(١) في (م): معنى.

مِن ضيْق العَطَن هو الذي ذهب إليه أكثرُ القوم، وعليه يكون «من الناس» صفة «كثير»، وأوردَ أنَّه حينئذٍ يَرِدُ أنَّ سجودَ الطاعةِ المعروفَ لا يختصُّ بكثيرٍ مِن الناس، فإنَّ كثيراً مِن الجنِّ متَّصف به أيضاً، وكونهم غيرَ مكلَّفين خلافُ القول الأصحِّ. نعم يمكن أن يقال: إنَّهم لم يكونوا مأمورينَ بالسجود عندِ نزول الآية، وعلى مدَّعيه البيانُ، والقولُ بأنَّه يجوز أن يُرادَ بالناس ما يعمُّ الجنَّ، فإنَّه يُطلَق عليه حسَب إطلاق النَّفَر والرجالِ عليهم، ليس بشيء.

ومِن الناس من أجابَ عن ذلك بأنَّ «يسجد» المقدَّر داخلٌ في الرؤية، وقد قالوا: المرادُ بها العِلْمُ والتعبيرُ بها عنه؛ للإشعار بظهور المعلوم، وظهور السجودِ بمعنى الدخولِ تحتَ التسخير في الأشياء المنسوب هو إليها ممَّا لا سترةَ عليه، وكذا ظهورُه بمعنى السجودِ المعروفِ في كثير من الناس، وأمَّا في الجنِّ فليس كذلك، فلذا وصف الكثير بكونه مِن الناس.

وتعقِّب بأنَّ الخطابَ في «ألم تَرَ» لمن يتأتَّى منه ذلك، ولا سترةَ في ظهور أمرِ السجود مطلقاً بالنسبة إليه.

وردَّ بأنَّ مرادَ المجيب أنَّ سجودَ الجنِّ ليس بظاهر في نفسِ الأمر، ومع قَطْع النظر عن المخاطب ـ كائناً مَن كان ـ ظهورُ دخولِ الأشياء المذكورة أوَّلًا تحت التسخيرِ بخلاف سجودِ كثير مِن الناس، فإنَّه ظاهرٌ ظهورَ ذلك في نفس الأمرِ، فخصَّ الكثير بكونه مِن الناس؛ ليكونَ الداخلُ في حيِّز الرؤية مِن صُقْعٍ واحد مِن الظهور في نفسِ الأمر.

وقيل: المقام يقتضي تكثيرَ الرائين لما يذكر في حيِّز الرؤية، والتخصيصُ أوفقُ بذلك، فلذا خصَّ الكثير بكونهم مِن الناس، والكلُّ كما ترى، والأولى أن يقال: تخصيصُ الكثير مِن الناس بنسبة السجودِ بالمعنى المعروف إليهم على القولِ بأنَّ كثيراً من الجنِّ كذلك؛ للتنويه بهم، ولا يردُ عليه ما مرَّ؛ لأنَّه لم يقرنْ بهم في هذا السجود غيرَ العقلاء، فتأمَّل.

وقيل: إنَّ «كثير» مرفوعٌ على الابتداءِ، حُذِفَ خبرُه؛ ثقةً بدلالة خبرِ قسيمه عليه، نحو: حُقَّ له الثوابُ، ويفيد الكلامُ كثرة الفريقين، والأوَّل أَولى؛ لما فيه مِن الترغيب في السجود والطاعةِ للحقِّ المعبود.

وجوّز أن يكون «كثير» مبتدأً، و«من الناس» خبرَه، والتعريف فيه للحقيقة والجنسِ، أي: وكثيرٌ مِن الناس الذين هم الناسُ على الحقيقة، وهم الصالحون المتّقون.

وقال الراغبُ: قد يُذكَر الناسُ ويُراد به الفضلاءُ دونَ مَن يتناوله اسمُ الناس تجوُّزاً، وذلك إذا اعتُبر معنى الإنسانيَّة، وهو وجودُ العقل والذِّكْر وسائرِ القوى المختصَّة به، فإنَّ كلَّ شيءٍ عُدمَ فِعْلُه المختصُّ به لا يكادُ يستحقُّ اسمَه. والمخصِّص للمبتدأ النكرة أنَّه صفةُ محذوفٍ بالحقيقة على أنَّ المعادلة مِن المخصِّصات إذا قلت: رجالٌ مكرمون، ورجالٌ مهانون، لأنَّه تفصيل مُجمَل، فهو موصوف تقديراً، ولأنَّ كلًّا مِن المقابلين موصوفٌ بمغايرة الآخَرِ، فهذا داخلٌ في الوصف المعنويِّ.

وأن يكون «كثير» مبتدأ، و«من الناسِ» صفتَه، وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ﴾ معطوف عليه، وقولُه سبحانه: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: ثبت وتقرَّر، خبرٌ، ويكون الكلامُ على حدِّ قولك: عندي ألفٌ وألفٌ، أي: ألوف كثيرة، ومثله شائعٌ في كلامهم فيفيدُ كثرةَ مَن حقَّ عليه العذابُ مِن الناس، وهذان الوجهان بعيدان، وقال في «البحر»[1]: ضعيفان.

والظاهر أنَّ «كثير» الثاني مبتدأٌ، والجملة بعدَه خبرُه، وقد أُقيمت مقامَ: لا يسجد، فكأنَّه قيل: ويسجد كثيرٌ مِن الناسِ ولا يسجد كثيرٌ منهم، ولا يَخفى ما في تلك الإقامة مِن الترهيب عن تَرْكِ السجود والطاعة، ولا يَخفى ما في عدمِ التصريح بتقييد الكثير بكونه مِن الناس مما يقوِّي دعوى أنَّ التقييدَ فيما تقدَّم للتنويه، وحَمْلُ عدمِ التقييد ليعمَّ الكثيرَ مِن الجنِّ خلافُ الظاهرِ جدًّا.

وجوّز أن يكون معطوفاً على «مَن» والسجود بأحدِ المعنيينِ السابقين، وجملةُ «حقَّ» إلخ، صفته، ويقدَّر وصفٌ لـ «كثير» الأوَّل بقرينة مقابله، أي: حقَّ له الثوابُ، و«من الناس» صفةٌ له أيضاً، ولا يَخفى ما فيه.

---

(١) البحرالمحيط ٦/ ٣٥٩.

وقرئ: «حُقَّ» بضمِّ الحاءِ[1]، و«حقًّا»[2] أي: حُقَّ عليه العذابُ حقًّا، فهو مصدرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجملة.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ بأَنْ كَتَبَ اللهُ تعالى عليه الشقاءَ حسبما استعدَّت له ذاتُه مِن الشَّرِّ، و«مَن» مفعول مقدَّر لـ «يُهِن» ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ يُكرِمه بالسعادة.

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «مُكرَم» بفتح الراء[3]، على أنَّه مصدر ميميٌّ، كما في «القاموس»[4]، أي: ممَّا له إكرام، وقيل: اسمُ مفعول بمعنى المصدر، ولا حاجةَ إلى التزامه، وقيل: يجوز أن يكون باقياً على ما هو الشائع في هذه الصيغة مِن كونه اسمَ مفعول، والمعنى: ما له مَن يُكرم ويَشفَعُ فيه ليخلصَ مِن الإهانة. ولا يخفى بُعْدُه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝١٨﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإكرامُ والإهانة، وهذا أَولى مِن تخصيص «ما» بقرينة السياقِ بهما.

﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ تعيينٌ لطرفَي الخصام وتحريرٌ لمحلِّه، فالمراد بـ «هذان» فريقُ المؤمنين، وفريقُ الكفرة المنقسم إلى الفِرَق الخمس. وروي عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وعطاءِ بن أبي رباح، والحسن، وعاصم، والكلبيِّ ما يؤيِّد ذلك، وبه يتعيَّن كونُ الفصلِ السابق بين المؤمنين ومجموعِ مَن عُطفَ عليهم، ولمَّا كَان كلُّ خصم فريقاً يَجمعُ طائفةً، جاء: «اختصموا» بصيغةِ الجمع.

وقرأ ابن أبي عبلة: «اختصما»[5]؛ مراعاةً للفظ: «خصمان»، وهو تثنيةُ: خَصْم، وذكروا أنَّه في الأصل مصدرٌ يستوي فيه الواحدُ المذكَّر وغيرُه، قال أبو البقاء[6]: وأكثرُ الاستعمال توحيدُه، فمن ثنَّاه وجمعَه حَمَلَه على الصفاتِ والأسماء.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٥٩، والكشاف ٣/ ٩.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٩.
(٣) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٥٩.
(٤) مادة (كرم).
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٦٠.
(٦) الإملاء ٤/ ٣٢.

وعن الكسائيِّ أنَّه قرأ: «خِصْمان» بكسر الخاء[1]، ومعنى اختصامهم في ربِّهم اختصامُهم في شأنه عزَّ شأنه، وقيل: في دِيْنه، وقيل: في ذاته وصفاتِه، والكلُّ مِن شؤونه تعالى، واعتقادُ كلٍّ مِن الفريقين حقيَّةَ ما هو عليه وبطلانَ ما عليه صاحبُه، وبناء أقوالِه وأفعالِه عليه يكفي في تحقُّق خصومتِه للفريق الآخَر ولا يتوقَّف عن التحاور.

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ مردويه، عن ابنِ عبَّاس أنَّه قال: تخاصمتِ المؤمنون واليهودُ، فقالت اليهودُ: نحنُ أَولى بالله تعالى وأقدمُ منكم كتاباً ونَبيُّنا قبل نبيِّكم. وقال المؤمنونَ: نحنُ أحقُّ بالله تعالى آمنَّا بمحمَّد ﷺ وآمنَّا بنبيِّكم وبما أنزل اللهُ تعالى مِن كتاب، وأنتم تعرفونَ كتابَنا ونبيَّنا، ثم تركتُموه وكفرتُم به حسداً، فنزلت[2].

وأخرج جماعة عن قتادةَ نحوَ ذلك[3].

واعتُرض بأنَّ الخصامَ على هذا ليس في الله تعالى بل في أيِّهما أقرب منه عزَّ شأنُه؟ وأجيب بأنَّه يستلزم ذلك، وهو كما ترى. وقيل عليه أيضاً: إنَّ تخصيصَ اليهود خلافُ مساقِ الكلام في هذا المقام. وفي «الكشف» قالوا: إنَّ هذا لا ينافي ما روي عن ابنِ عبَّاس مِن أنَّ الآيةَ ترجعُ إلى أهلِ الأديان الستَّة في التحقيق؛ لأنَّ العبرةَ بعموم اللفظِ لا بخصوص السبب.

وأخرج البخاريُّ، ومسلم، والترمذيُّ، وابنُ ماجه، والطبرانيُّ، وغيرُهم عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أنَّه كان يُقسِم قَسَماً أنَّ هذه الآية: «هذانِ خَصْمان» إلى قوله تعالى: «إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يُرِيْد» نزلت في الثلاثةِ والثلاثةِ الذين بارزوا يومَ بدر، وهم: حمزةُ بنُ عبدِ المطلب وعُبَيْدةُ بنُ الحارث وعليُّ بنُ أبي طالب، وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ والوليدُ بنُ عتبة[4]. وأنتَ تُعلَم أنَّ هذا الاختصامَ ليس اختصاماً في الله تعالى، بل منشؤه ذلك، فتأمَّل ولا تَغفل.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٠.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٤٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٩١.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٤٩ وعزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم [في التفسير ٨/ ٢٤٨٠ (١٣٨١٩)].

(٤) البخاري (٣٩٦٩)، ومسلم (٣٠٣٣)، وابن ماجه (٢٨٣٥)، والطبراني في الكبير (٢٩٥٤)، =

وأمَّا ما قيل مِن أنَّ المرادَ بهذين الخصمين الجنَّةُ والنارُ، فلا ينبغي أن يختلفَ في عدم قَبوله خصمان أو ينتطحَ فيه كبشان.

وفي الكلام ـ كما قال غيرُ واحد ـ تقسيمٌ وجمعٌ وتفريقٌ، فالتقسيمُ: «إن الذينَ آمنوا» إلى قوله تعالى: «والذين أشركوا»، والجمع: «إنَّ اللهَ يَفصِلُ بينهم» إلى قوله تعالى: «هذانِ خصمانِ اختصمُوا في ربِّهم»، والتفريق في قوله سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ إلخ، أي: أعدَّ لهم ذلك، وكأنَّه شبَّه إعدادَ النار المحيطة بهم بتقطيعِ ثيابٍ وتفصيلِها لهم على قَدْرِ جُثَثِهم، ففي الكلام استعارةٌ تمثيليَّة تهكميَّة، وليس هناك تقطيعٌ ولا ثيابٌ حقيقةً، وكأنَّ جَمْعَ الثياب؛ للإيذان بتراكم النار المحيطة بهم، وكون بعضها فوقَ بعض.

وجوّز أن يكون ذلك لمقابلة الجمع بالجمع، والأوَّل أبلغُ، وعبَّر بالماضي؛ لأنَّ الإعداد قد وقعَ، فليس مِن التعبير بالماضي؛ لتحقُّقه كما في: ﴿نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وأخرج جماعةٌ عن سعيدِ بنِ جبير أنَّ هذه الثيابَ مِن نحاسٍ مذابٍ، وليس شيءٌ حُمِّيَ في النار أشدَّ حرارةً منه(١). فليست الثيابُ مِن نفس النار، بل مِن شيء يُشْبِهها، وتكون هذه الثياب كسوةً لهم، وما أقبحها كسوةً. ولذا قال وهب: يُكسَى أهلُ النار، والعُرِيُّ خيرٌ لهم.

وقرأ الزعفرانيُّ في اختياره: «قُطِعَتْ» بالتخفيف(٢)، والتشديدُ أبلغ.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ أي: الماءُ الحارُّ الذي انتهت حرارتُه، وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما: لو سقط مِن الحميم نقطةٌ على جبالِ الدنيا لأذابَتْها. وفسَّره ابنُ جبير بالنحاس المذاب، والمشهور التفسيرُ السابق، ولعلَّه إنَّما جِيْءَ بـ «من» ليُؤْذِن بشدَّة الوقوع، والجملة مستأنفةٌ، أو خبرٌ ثانٍ للموصول، أو في موضع الحال

= ولم نقف عليه عند الترمذي، وعزاه إليه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٤٨، فلعلَّ المصنِّف نقله عنه.

(١) تفسير الطبري ١٦/ ٤٩٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٨١ (١٣٨٢٠).

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٠، والكشاف ٣/ ٩.

المقدَّرة مِن ضميرِ «لهم». ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ﴾ أي: يُذاب ﴿مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ مِن الأمعاء والأحشاء.

وأخرج عبدُ بنُ حميد، والترمذيُّ وصحَّحه، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في «زوائد الزهد»، وجماعةٌ، عن أبي هريرة أنَّه تلا هذه الآيةَ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الحميمَ ليُصَبُّ على رؤوسهم فينفذُ الجُمْجُمَةَ حتى يَخْلُصَ إلى جوفِه، فيَسْلُتُ ما في جوفه حتى يمرقَ إلى قدمَيْه وهو الصهرُ، ثم يعاد كما كان»[(١)].

وقرأ الحسنُ وفرقةٌ: «يُصَهَّر» بفتح الصاد وتشديد الهاء[(٢)].

والظاهر أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠﴾ عطف على «ما»، وتأخيرُه عنه، قيل: إمَّا لمراعاة الفواصل، أو للإشعار بغاية شدَّة الحرارة، بإيهام أنَّ تأثيرَها في الباطن أقدمُ مِن تأثيرِها في الظاهر، مع أنَّ ملابستها على العكس، وقيل: إنَّ التأثيرَ في الظاهر غنيٌّ عن البيان، وإنَّما ذكر؛ للإشارة إلى تساويهما، ولذا قُدِّمَ الباطنُ؛ لأنَّه المقصودُ الأهمُّ، وقيل: التقدير: ويَحرق الجلودَ؛ لأنَّ الجلودَ لا تُذاب وإنَّما تجتمع على النار وتَنكمِشُ. وفي «البحر»[(٣)] أنَّ هذا مِن باب:

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً[(٤)]

وقال بعضُهم: لا حاجةَ إلى التزامِ ذلك، فإنَّ أحوالَ تلك النشأة أمرٌ آخَر، وقيل: «يُصهَر» بمعنى يَنضَجُ، وأنشد:

تَصْهَرُه الشمسُ ولا يَنْصَهِرِ[(٥)]

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٤٩، والترمذي (٢٥٨٢)، وأحمد (٨٨٦٤)، والزهد لابن المبارك (٣١٣ زوائد نعيم)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٣٨٧، وحلية الأولياء ٨/ ١٨٢.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٠.

(٣) ٦/ ٣٦٠.

(٤) سلف ٥/ ٢٩١.

(٥) عجزُ بيتٍ لابن أحمر يصف فرخَ قطاة، وصدره:

تَروي لَقًى أُلقِيَ في صَفْصَفٍ

والبيت في الأضداد للأنباري ص١٦٥، واللَّقَى: الشيء الملقى الذي لا يلتفتُ إليه، فشبّه الفرخ به. ومعنى تروي: تسقي.

وحينئذٍ لا كلامَ في نسبته إلى الجلود، والجملة حال مِن «الحميم» أو مستأنفة. ﴿وَلَهُم﴾ أي: للكفرة، وكونُ الضميرِ للزبانية بعيدٌ، واللامُ للاستحقاقِ أو للفائدة؛ تهكُّماً بهم، وقيل: للأَجَل، والكلامُ على حذفِ مضاف، أي: لتعذيبِهم، وقيل: بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ [غافر: ٥٢] أي: وعليهم.

﴿مَّقَـٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١﴾ جمعُ: مِقْمَعَة، وحقيقتها ما يُقمَع به، أي: يكفُّ بعنفٍ. وفي «مجمع البيان»[(١)]: هي مِدَقَّةُ الرأسِ، مِن قَمَعَه قَمْعاً: إذا ردَعَه، وفسَّرها الضحَّاك وجماعةٌ بالمطارق، وبعضُهم بالسياط. وفي الحديث: «لو وُضِعَ مِقْمَعٌ منها في الأرض ثم اجتمعَ عليه الثقلان ما أقلُّوه مِن الأرض»[(٢)].

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أي: أشرفوا على الخروج مِن النار ودَنَوا منه حسبما يُروى أنَّها تضربُهم بلهبها فترفعهم، فإذا كانوا في أَعلاها ضُرِبوا بالمقامعِ، فهَوَوْا فيها سبعينَ خريفاً، فالإرادة مجازٌ عن الإشراف والقُرْب كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] وجعل بعضُهم ضميرَ «منها» للثياب، وهو ركيكٌ.

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ بدلُ اشتمال مِن ضمير «منها» بإعادة الجارِّ، والرابط محذوف، والتنكير للتفخيم، والمراد مِن غمٍّ عظيم مِن غمومها، أو مفعولٌ له للخروج، أي: كلما أرادوا الخروجَ منها لأجل غمٍّ عظيم يلحقهم مِن عذابها.

والغمُّ أخو الهمِّ وهو معروف، وقال بعضُهم: هو هنا مصدر غَمَمتُ الشيءَ، أي: غطَّيتُه، أي: كلَّما أرادوا أن يخرجوا مِن تغطية العذابِ لهم أو ممَّا يغطِّيهم مِن العذاب ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ أي: في قَعْرِها، بأن رُدُّوا مِن أعاليها إلى أسافلها مِن غير أن يخرجوا منها، إذ لا خروجَ لهم كما هو المشهور من حالهم، واستدلَّ له بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وفي اختيار «فيها» دون إليها؛ إشعارٌ بذلك، وقيل: الإعادة مجازٌ عن الإبقاء، وقيل: التقدير: كلمَّا أرادوا أن يخرجوا

---

(١) ١٧/ ٩١.

(٢) أخرجه أحمد (١١٢٣٣)، وأبو يعلى (١٣٨٨)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٦٠٠، والبيهقي في البعث والنشور (٥٩٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٨٨ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه ضعفاء وثقوا. اهـ. ومعنى ما أقلُّوه: أي: ما رفعوه.

منها، فخرجوا، أعيدوا فيها، فالإعادة معلَّقة على الخروج، وحذف؛ للإشعار بسرعة تعلّق الإرادة بالإعادة، ويجوز أن يحصلَ لهم، والمراد مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾ [البقرة: ١٦٧] نفيُ الاستمرارِ، أي: لا يستمرُّون على الخروجِ، لا استمرارُ النفي، وكثيراً ما يعدَّى العَوْدُ بـ «في» لمجرَّد الدلالة على التمكُّن والاستقرار.

وقال بعضُهم: إنَّ الخروجَ ليس من النار، وإنَّما هو من الأماكن المعدَّة لتعذيبهم فيها، والمعنى: كلَّما أراد أحدُهم أن يخرجَ مِن مكانه المعدِّ له في النار إلى مكانٍ آخر منها، فخرج منه، أُعيد فيه، وهو كما ترى، وهذه الإعادةُ على ما قيل بضَرْبِ الزبانية إيَّاهم بالمقامع، وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ﴾ على تقديرِ قولٍ معطوفٍ على «أعيدوا» أي: وقيل لهم: ذُوقوا ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ قد مرَّ الكلامُ فيه، والأمرُ؛ للإهانة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بيانٌ لحسن حالِ المؤمنين إثْرَ بيانِ سوءِ حالِ الكفرة، وغير الأسلوب فيه بإسناد الإدخالِ إلى الاسمِ الجامع وتصديرِ الجملة بحرف التحقيق وفصلها للاستئنافِ؛ إيذاناً بكمال مباينة حالِهم لحال الكفرةِ، وإظهاراً لمزيدِ العناية بأمرِ المؤمنين، ودلالة على تحقيق مضمونِ الكلام.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ بالبناء للمفعول والتشديد، مِن التحلية بالحَلْي، أي: تُحلِّيهم الملائكةُ عليهم السلام بأمره تعالى، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ قيل: متعلِّق بـ «يحلون»، و«من» ابتدائيَّة، والفعل متعدٍّ لواحد وهو النائبُ عن الفاعل، وقيل: متعلِّق بمحذوف وقعَ صفةً لمفعول محذوف، و«مِن» للبيان، والفعل متعدٍّ لاثنين أحدُهما النائبُ عن الفاعل والآخَرُ الموصوف المحذوف، أي: يُحلَّون حَلْياً أو شيئاً مِن أساور، وعلى القول بتعدِّي هذا الفعل لاثنين جوِّز أن تكون «مِن» للتبعيض واقعة موقعَ المفعول، وأن تكون زائدةً على مذهب الأخفش مِن جواز زيادتها في الإيجاب، و«أساورَ» مفعول «يُحلَّون».

وقوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ صفة لـ «أساور»، و«مِن» للبيان، وقيل: لابتداء الغاية، أي: أُنشِئت مِن ذهبٍ، وقيل: للتبعيض، وتعلُّقه بـ «يحلَّون» لا يَخفى حاله.

وقرئ: «يُحْلَونَ» بضمِّ الياء والتخفيف[(١)]، وهو على ما في «البحر»[(٢)] بمعنى المشدَّد، ويُشعِر كلامُ بعضٍ أنَّه متعدٍّ لواحد، وهو النائب عن الفاعل، فـ «من أساور» متعلِّق به، و«مِن» ابتدائيَّة.

وقرأ ابنُ عبَّاس: «يَحْلَون» بفتح الياء واللام وسكون الحاء[(٣)]، من حَلِيَتِ المرأةُ: إذا لَبِسَتْ حَلْيها. وقال أبو حيَّان[(٤)]: إذا صارت ذاتَ حَلْي، وقال أبو الفضل الرازيُّ: يجوز أن يكون مِن حَلِيَ بعيني يَحْلَى، إذا استحسنتَه، وهو في الأصل من الحلاوة، وتكون «مِن» حينئذٍ زائدة، والمعنى: يستحسنون فيها الأساورة، وقيل: هذا الفعل لازمٌ، و«مِن» سببيَّة، والمعنى: يَحْلَى بعضُهم بعينِ بعضٍ، بسببِ لباسِ أساور الذهب.

وجوَّز أبو الفضلِ أن يكون مِن حَلِيْتُ به، إذا ظفرتَ به، ومنه قولهم: لم يَحْلَ فلانٌ بطائلٍ، و«مِن» حينئذٍ بمعنى الباء، أي: يظفرون فيها بأساورَ مِن ذهب.

وقرأ ابنُ عباس: «مِن أَسَوِرَ» بفتح الراء مِن غير ألفٍ ولاهاءٍ[(٥)]، وكان قياسه أن يُصرَف؛ لأنَّه نَقَصَ بناؤه فصار كجَنَدِل، لكنَّه قدّر المحذوف موجوداً فمنع الصَّرْف، وقد تقدَّم الكلامُ على نظيرِ هذه الجملة في الكهف[(٦)]، فتذكَّر.

وقوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف على محلِّ «من أساور»، أو على الموصوف المحذوف، وحَمَلَه أبو الفتح[(٧)] على إضمار فعلٍ، أي: ويُؤتَون لؤلؤاً، أو نحوَ ذلك.

وقرأ أكثرُ السبعة، والحسن في رواية، وطلحةُ، وابنُ وثَّاب، والأعمشُ، وأهل

---

(١) الإملاء ٤/ ٣٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٠.
(٢) ٦/ ٣٦٠.
(٣) القراءات الشاذة ص٩٤-٩٥، والمحتسب ٢/ ٧٧.
(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٦٠-٣٦١.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٦١.
(٦) عند قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الآية: ٣١].
(٧) ابن جني في المحتسب ٢/ ٧٨.

مكَّة: «ولؤلؤٍ» بالخفض[1] عطفاً على «أساور» أو على «ذهب»؛ لأنَّ السوارَ قد يكون من ذهبٍ مرصَّع بلؤلؤ، وقد يكون مِن لؤلؤ فقط، كما رأيناه ويُسمَّى في ديارنا: خصراً، وأكثر ما يكون مِن المَرْجان.

واختلفوا هل في الإمام ألفٌ بعد الواو، فقال الجحدريُّ: نعم، وقال الأصمعيُّ: لا، وروى يحيى عن أبي بكرٍ همزَ الآخِر وقلبَ الهمزة الأولى واواً، وروى المعلَّى بنُ منصور عنه ضدَّ ذلك.

وقرأ الفياض: «لُوْلِيًا»[2] قلب الهمزتينِ واوين، فصارت الثانيةُ واواً قبلها ضمَّة، وحيث لم يكن في كلامهم اسمٌ متمكِّن آخره واو قبلها ضمَّة، قلب الواو ياء والضمة قبلها كسرة.

وقرأ ابنُ عباس: «ولِيْليا»[3] بقلب الهمزتين واوين ثم قلبهما ياءين، أمَّا قلبُ الثانية؛ فلما علمتَ، وأمَّا قلب الأولى؛ فللإتباع.

وقرأ طلحةُ: «ولُولٍ»[4] كـ: أدْلٍ في جمع دلوٍ، قلبت الهمزتان واوين، ثم قلبت ضمَّة اللام كسرة والواو ياء، ثم أعلَّ إعلالَ قاضٍ.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣﴾ غيّر الأسلوب، حيث لم يقل: ويلبسون فيها حريراً؛ للإيذان بأنَّ ثبوتَ اللباس لهم أمرٌ محقَّق غنيٌّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤهم عنه، وإنَّما المحتاجُ إلى البيان أنَّ لباسَهم ماذا؟ بخلاف التحلية، فإنَّها ليست مِن لوازمهم الضروريَّة، فلذا جعلَ بيانها مقصوداً بالذات. ولعلَّ هذا هو السِّرُّ في تقديم بيان التحلية على بيانِ حال اللباس، قاله العلَّامة شيخُ الإسلام[5]، ولم يرتضِ ما قيل: إنَّ التغييرَ؛ للدلالة على أنَّ الحريرَ لباسُهم المعتاد، أو لمجرَّد المحافظة على هيئة الفواصل، وظاهرُ كلامهم أنَّ الجملةَ معطوفةٌ على السابقة، وجوّز أن تكون في موضع الحالِ مِن ضمير «يُحلَّون»، ثم إنَّ الظاهرَ أنَّ هذا الحكمَ عامٌّ في كلِّ أهل

---

(١) التيسير ص١٥٦، والنشر ٢/ ٣٢٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٦١.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦١.
(٣) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦١.
(٤) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦١.
(٥) تفسير أبي السعود ٦/ ١٠٢.

الجنة، وقيل: هو باعتبار الأغلب؛ لما أخرج النسائيُّ، وابنُ حبَّان، وغيرُهما عن أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن لبسَ الحريرَ في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة، وإن دخل الجنَّة لَبِسَهُ أهلُ الجنَّة ولم يَلبَسْه»[(١)]، وحديث عدمِ لبْسِ ذلك له في الآخرة مذكورٌ في الصحيحين عن ابنِ عمر رضي الله عنهما مرفوعاً[(٢)].

والظاهرُ أنَّ حرمةَ استعمالِ الحرير للرجال في غيرِ ما استُثنيَ مُجمَعٌ عليها، وأنَّه يكفر مَن استحلَّ ذلك غيرَ متأوِّل، ولعلَّ خبرَ البيهقي في «سننه» وغيره عن ابنِ الزبير رضي الله عنهما مرفوعاً: «مَن لبسَ الحريرَ في الدنيا، لم يلبسه في الآخرة ولم يَدخُلِ الجنَّة»[(٣)] إن صحَّ محمولٌ على ما إذا كان اللُّبسُ محرَّماً بالإجماع، وقد استحلَّه فاعلُه مِن غير تأوُّل، أو على أنَّ المراد لم يَدخلِ الجنَّةَ مع السابقين، وإلا فعدمُ دخولِ اللابس مطلقاً الجنَّة مُشكِل.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤] كما روي عن ابنِ عبَّاس، وقيل: ما يعمُّه وسائر ما يقع في محاورةِ أهل الجنَّة بعضاً لبعض، وقيل: إنَّ هذه الهدايةَ في الدنيا فالطيِّب قولُ: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وفي رواية عن ابنِ عباس ذلك مع زيادةِ: والحمدُ لله، وزاد ابنُ زيدٍ: واللهُ أكبرُ، وعن السُّدِّيِّ: هو القرآن، وحكى الماورديُّ[(٤)]: هو الأمرُ

---

(١) النسائي في الكبرى (٩٥٣٨)، وابن حبان (٥٤٣٧)، وهو عند أحمد (١١١٧٩) دون قوله: «وإن دخل الجنة. . . .»، وذكر الحافظ في الفتح ١٠/ ٢٨٩ أن قوله ﷺ: «وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو» يحتمل أن يكون مُدْرجاً.

(٢) البخاري (٨٨٦)، ومسلم (٢٠٦٨) عن ابن عمر: أنَّ عمر بن الخطاب رأى حُلَّةً سيراء عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريتَ هذه فلبستها للناس يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما يلبس هذه من لا خلاقَ له في الآخرة». . . . الحديث. والحلة السيراء: بُرُود يخالطها حرير، وهي مضلعة بالحرير.
والحديث ورد أيضاً في الصحيحين عن غير واحد من الصحابة.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ٢/ ٤٢٢، ولم يرد فيه قوله ﷺ: «ولم يدخل الجنة» بل هو من قول ابن الزبير نفسِه، وقد ذُكرَ بعد رواية الحديث هكذا: قال عبد الله بن الزبير من قِبَلِ نفسه: ومن لم يلبسه في الآخرة، لم يدخل الجنة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. اهـ. وأصل الحديث عند البخاري (٥٨٣٤)، ومسلم (٢٠٦٩) (١١) دون قوله ﷺ: «ولم يدخل الجنَّة».

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٥.

بالمعروف، والنهيُ عن المنكر، وقيل: ما يعمُّ ذلك وسائر الأذكار.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: المحمود جدًّا، وإضافة «صراط» إليه، قيل: بيانيَّة، والمراد به الإسلام، فإنَّه صراطٌ محمودٌ مَن يسلكه، أو محمودٌ هو نفسُه أو عاقبتُه، وقيل: الجنَّة، وإطلاقُ الصراطِ عليها باعتبار أنَّها طريق للفوز بما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر. وقيل: «الحميد» هو الجنَّة، والإضافةُ على ظاهرها، والمراد بصراطِها الإسلامُ أو الطريقُ المحسوس الموصل إليها يومَ القيامة، واستظهر أنَّ المرادَ مِن الحميد: هو اللهُ عزَّ وجلَّ المستحقُّ لذاتِه لغايةِ الحمد. والمراد بصراطِه تعالى الإسلامُ، فإنَّه طريقٌ إلى رضوانه تعالى. وقيل: الجنَّة، فإنَّها طريقٌ للفوز بما تقدَّم، وأضيفت إليه تعالى؛ للتشريف.

وحاصل ما قالوه هنا أنَّ الهدايةَ تحتمل أن تكون في الآخرة، وأن تكون في الدنيا، وأنَّ المرادَ بالحميد إمَّا الحقُّ تعالى شأنه، وإمَّا الجنَّة، وإمَّا الصراطُ نفسُه، وبالصراط إمَّا الإسلام، وإمَّا الجنَّةُ، وإمَّا الطريقُ المحسوس الموصل إليها يومَ القيامة.

ووجَّهوا تأخيرَ هذه الجملةِ عن الجملة الأولى تارةً بأنَّه لرعاية الفواصل، وأخرى بأنَّ ذِكْر الحمد الذي تضمَّنته الأُولى يستدعي ذِكْرَ المحمود، ولا يبعد أن يقال: إنَّ الهدايةَ في الجملتين في الآخرة بعد دخول الجنَّة، وإن الإضافة هنا بيانيَّة، وإنَّ المرادَ بالقول الطيِّب القولُ الذي تستلذُّه النفوسُ الواقع في محاورة أهل الجنَّة بعضِهم لبعضٍ. وبالصراط الحميد ما يَسلُكه أهلُ الجنَّة في معاملة بعضِهم بعضاً مِن الأفعال التي يحمدون عليها، أو ممَّا هو أعمُّ مِن ذلك. فحاصلُ الجملة الأولى وصفُ أهلِ الجنة بحُسن الأقوال. وحاصلُ الثانية وصفُهم بحُسن الأفعال، أو ممَّا هو أعمُّ منها ومِن الأقوال. وكأنَّه تعالى بعد أن ذَكَر حُسْنَ مسكنِهم وحُلِيِّهم ولباسَهم، ذيَّل ذلك بحُسنِ معاملةِ بعضهم بعضاً في الأقوال والأفعال إيماءً إلى أنَّ ما هم فيه لا يُخرِجهم إلى خشونة المقال ورداءة الأفعالِ المشينتين لحُسنِ ما هم فيه والمنغِّصتين للذَّة الاجتماع. ووجهُ التقديم والتأخير على هذا غيرُ خفيٍّ على الفَطِن.

والذي اختاره أنَّ القولَ الطيِّبَ قولُهم بعد دخول الجنَّة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا

نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥]؛ لقوله تعالى: في سورةِ فاطر بعد قوله سبحانه: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ إلخ [فاطر:٣٣-٣٤]، والقرآن يفسِّر بعضُه بعضاً. وأنَّ المرادَ بالصراط الحميدِ ما يعمُّ الأقوالَ والأفعالَ الجارية بين أهل الجنَّة ممَّا يحمد سلوكُه في المعاشرة والاجتماع في هاتيكَ البقاع؛ فراراً مِن شائبة التأكيد كما لا يَخفى على ذي فكر سديد، فتأمَّل هُديتَ إلى صراطِ الحميد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وعيدٌ لصنفٍ من الكفرة، وحَسُنَ عطفُ المضارع على الماضي؛ لما أنَّه لم يَرِدْ بالمضارع حالٌ أو استقبال كما في قولهم: فلانٌ يُحسِنُ إلى الفقراء، فإنَّ المرادَ به استمرارُ وجودِ الإحسان، وقيل: «يصدُّون» بمعنى: صَدُّوا، إلا أنَّه عبَّر بالمضارع؛ استحضاراً للصورة الماضية؛ تهويلًا لأمر الصَّدِّ، وقيل: لا عطف، بل الجملةُ خبرُ مبتدأ محذوف، والمجموع في موضع الحال مِن فاعل «كفروا» أي: وهم يصدُّون، وجوّز أن تكون الجملةُ حالًا مِن غير تقدير مبتدأ؛ لشَبَهها بالجملة الاسميَّة معنًى، وخبر «إنَّ» محذوفٌ لدلالةِ آخِرِ الآية الكريمة عليه، أي: ونذيقهم مِن عذاب أليم، وقدَّره الزمخشريُّ[(١)] بعد «المسجد الحرام»، وتعقَّبه أبو حيَّان[(٢)] بأنَّه لا يصحُّ؛ لما فيه مِن الفَصْل بين الصفة وهو «المسجد»، والموصوف وهو «الذي».

وأجيب باحتمال أنَّه جعل «الذي» نعتاً مقطوعاً، وقدَّره ابنُ عطيَّة[(٣)] بعد «والبادِ»، وهو أَولى، إلا أنَّه قدَّر: خسروا، أو: هلكوا، وتقديرُ: نذيقهم.. إلخ أَولى منه، وقيل: الواو في «ويصدُّون» زائدةٌ، والجملة بعدَه خبر «إنَّ».

وتعقَّبه ابنُ عطيَّة بأنَّه مفسدٌ للمعنى المرادِ وغيره بأنَّ البصريين لا يُجيزون زيادةَ الواو، والقول بجواز زيادتها قولٌ كوفيٌّ مرغوب عنه، والظاهر أنَّ «المسجد» عطفٌ على «سبيل»، وجوِّز أن يكون معطوفاً على الاسم الجليل، والآية على ما روي عن ابنِ عباس رضي الله عنهما نزلت في أبي سفيان بنِ حرب وأصحابِه حين صَدُّوا رسولَ الله ﷺ

---

(١) الكشاف ٣/ ١٠.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٢.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١١٥.

وأصحابَه ﷺ عامَ الحديبيةِ عن المسجدِ الحرام، فكره عليه الصلاةُ والسلامُ أن يُقاتِلهم وكان مُحْرِماً بعمرةٍ، ثم صالحوه على أن يعودَ في العام القابلِ، والمراد بالمسجد الحرام مكَّة، وعبَّر به عنها؛ لأنَّه المقصودُ المهمُّ منها، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أي: كائناً مَن كان، مِن غير فرقٍ بين مكِّيٍّ وآفاقيٍّ ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ أي: المقيم فيه والطارئُ، فإنَّ الإقامةَ لا تكون في المسجد نفسِه، بل في منازل مكَّة، وفي وصفِه بذلك؛ زيادةُ التشنيعِ على الصادِّين عنه.

وقد استشهدَ بعضُ الأئمَّة بالآية على عدمِ جواز بَيْعِ دُورِ مكَّة وإجارتِها، وإلا لما استوى العاكفُ فيها والبادي، وقد وردَ التصريحُ بذلك في بعض الأحاديثِ الصحيحة، فروي مِن عدَّة طرق أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «مكَّة حرَّمها اللهُ تعالى لا يحلُّ بيعُ رباعِها، ولا إجارةُ بيوتها»[(١)].

وذكر ابنُ سابطٍ أنَّ دورَ أهلِ مكَّة كانت بغيرِ أبواب حتى كثرت السرقةُ، فاتَّخذ رجلٌ باباً، فأنكر عليه عمرُ ﷺ قال: أتغلقُ باباً في وجهِ حاجٍّ بيتِ الله تعالى؟ فقال: إنَّما أردتُ حفظَ متاعِهم مِن السرقة، فترَكه. فاتَّخذ الناسُ الأبوابَ.

وأخرج ابنُ ماجه، وابنُ أبي شيبة، عن علقمةَ بن نضلة، قال: توفِّي رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ وعمرُ ﷺ، وما تُدعَى رباعُ مكَّة إلا السوائبَ، مَنِ احتاج سكن، ومَن استغنى أَسكن[(٢)]. وقال ابنُ عمرَ ﷺ: مَن أكل كراءَ بيوتِ مكَّة،

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٦١)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٧٠ نشرة العمروي)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٠٥٣) عن مجاهد مرسلًا.
وأخرجه عبد الرزاق (٩٢٠)، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٧٠ (نشرة العمروي) عن مجاهد قوله.
وأخرجه الدارقطني (٣٠١٤) و(٣٠١٥) عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً بنحوه. وقال: كذا رواه أبو حنيفة مرفوعاً، ووهم فيه أيضاً في قوله: عبيد الله بن أبي يزيد، وإنما هو ابن أبي زياد القداح، والصحيح أنه موقوف. اهـ. والموقوف فيه برقم (٣٠١٦) و(٣٠١٧)، وهو عند عبد الرزاق أيضاً برقم (٩٢١٤).

(٢) ابن ماجه (٣١٠٧)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٧٢ نشرة العمروي)، وأخرجه أيضاً الدارقطني في «سننه» (٣٠١٩) و(٣٠٢٠) و(٣٠٢١).
قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح على شرط مسلم. اهـ. وعنون البخاري في =

فإنَّما أكلَ ناراً في بطنه؛ لأنَّ الناسَ في الانتفاع بها سواء، وجاء صدرُه مِن رواية الدارقطنيِّ مرفوعاً[١]. وفي «النهاية»: لا بأسَ ببيع بناء مكَّة، ويُكرَه بيعُ أرضِها، وهذا عند أبي حنيفة رضي الله عنه، وقال: لا بأسَ ببيع أرضها، وهو روايةٌ عنه أيضاً، وهو مذهب الشافعيِّ ـ عليه الرحمةُ ـ وعليه الفتوى. وفي «تنوير الأبصار» وشرحه «الدُّرِّ المختار»: وجاز بيعُ بناءِ بيوت مكَّة وأرضِها بلا كراهة، وبه قال الشافعيُّ، وبه يفتى. عيني[٢]، وفي «البرهان» في باب العشر: ولا يُكرَه بيعُ أرضِها كبنائها، وبه يعمل. وفي «مختارات النوازل» لصاحب «الهداية»: لا بأسَ ببيعِ بنائها وإجارتها، لكن في الزيلعيِّ وغيرِه: يُكرَهُ إجارتُها، وفي آخر الفصل الخامس مِن «التتارخانية» وإجارة الوهبانيَّة: قال أبو حنيفة: أَكرهُ إجارةَ بيوت مكَّة في أيام الموسم. وكان يفتي لهم أن ينزلوا عليهم في دُورهم؛ لقوله تعالى ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ ورخَّص فيها في غير أيَّام الموسم. انتهى. فليحفظ، قلت: وبهذا يظهر الفرقُ والتوفيقُ[٣]. انتهى.

والذي يُفهَم مِن «غاية البيان»[٤] أنَّ القولَ بكراهة إجارةِ بيوتها أيَّام الموسمِ مما لم يتفرَّد به الإمام بل وافقه عليه صاحباه حيث نقل عن «تقريبِ» االإمام الكرخيِّ ما نصُّه: وروى هشام، عن أبي يوسفَ، عن أبي حنيفة أنَّه كَره إجارةَ بيوت مكَّة في الموسم، ورخّص في غيره، وكذا قال أبو يوسف، وقال هشام: أخبرني محمد عن أبي حنيفةَ أنَّه يُكرهَ كراءُ بيوت مكَّة في الموسم، ويقول: لهم أن ينزلوا عليهم في دُورهم إن كان فيها فضلٌ، وإن لم يكن فلا، وهو قولُ محمد[٥]. انتهى.

= صحيحه في كتاب الحج: باب في توريث دور مكة وبيعها وشراءها. قال ابن حجر في الفتح ٣/ ٤٥٠: وأشار له [أي البخاري] بهذه الترجمة إلى تضعيف حديث علقمة بن نضلة، وفي إسناده انقطاع وإرسال. اهـ.

(١) سنن الدارقطني (٣٠١٥) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ولم نقف عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أي: بدر الدين العيني، وكلامه في كتابه البناية شرح الهداية ٩/ ٣٥٧.

(٣) الدر المختار ٢/ ٣٩٢-٣٩٣.

(٤) وهو لأمير كاتب العميد بن أمير غازي قوام الدين الإتقاني، وكتابه شرح فيه الهداية للمرغيناني، وسماه: غاية البيان ونادرة الأقران. الفوائد البهية في تراجم الحنفية للكنوي ص٨٧.

(٥) حاشية ابن عابدين ٦/ ٣٩٣.

والذي تحرَّر مما رأيناهُ مِن أكثرِ معتبرات كتب ساداتِنا الحنفيَّة أنَّ جوازَ بيعِ بناء البيوت متفق عليه؛ لأنَّه ملكٌ لمن بناهُ كمَن بنى في أرض الوقف بإذن المتولِّي، ولا يقال: إنَّه بناءُ غاصب، كمن بنى بيتاً في جامع؛ لظهور الإذن هنا دونه ثمَّة، وكذا كراهةُ الإجارة في أيَّام الموسم، وأمَّا بيعُ الأرض فعند الإمامين جائز بلا كراهةٍ قولًا واحداً، وعن الإمام روايتان الجواز وعدمُه، والمفتى به الجواز، ومستند مَن يجوِّز مِن الكتاب الجليل هذه الآية. وأجاب أصحابُ الشافعيِّ عنها: أنَّ المسجدَ الحرامَ في المطاف والعاكف في المعتكف للعبادة المعدود مِن أهل المسجد لملازمتِه له أظهر، وكذلك المساواة في أنَّه مِن شعائر الله تعالى المنصوبة لكلِّ عاكف وبادٍ أوضح، وهو المقابل للموصوف بالصَّدِّ عن سبيلِ الله تعالى والمسجد الحرام خاصَّة، فما كانوا يصدُّون عن مكَّة، ولا أنَّ الصدَّ عنها لغير مريدِ النسك معصيةٌ، وأيُّ مدخَل لحديثِ التمليك وعدمه في هذا المساق؟!.

والاستدراك بأنَّ له مدخلًا على سبيل الإدماجِ وإشارة النصّ، كلامٌ لا طائلَ تحته، وقد فسّر «سواء» بما فسّر، كذا في «الكشف»، وقد جرت مناظرةٌ بمكَّة بين الشافعيِّ وإسحاق بن راهويه الحنظلي، وكان إسحاق لا يرخِّص في كراء دور مكَّة، فاحتجَّ الشافعيُّ بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠] فأضيفت الديارُ إلى مالكيها، وقوله ﷺ يوم فتح مكَّة: «مَن أَغلقَ بابَه فهو آمن، ومَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن»(١)، وبأنَّه قد اشترى عمر ﷺ دار السجن، أترى أنَّه اشترى مِن مالكيها أو غيرِ مالكيها. قال إسحاق: فلما علمت أنَّ الحجَّةَ قد لزمتني تركتُ قولي. وأجاب بعضُهم أنَّ الإضافةَ إلى مالكي منفعة السكنى، وأنَّ عمر ﷺ اشترى البناء دون الأرض، وأرضى بالثمن مَن أنفق مالًا فيه؛ لحاجة العامَّة، وللإمام مِن ذلك ما ليس لغيره. وتعقَّب بأنَّ الاستدلالَ بالظاهر والعدولَ عن الظاهر دون سند أقوى غيرُ مُلتفَتٍ إليه، ولذا قال ابن راهويه ـ وهو أحدُ أركانِ المسلمين وعَلَمٌ مِن أعلام الدين ـ ما قال.

والظاهر أنَّ الأخبارَ المصرِّحة بتحريم البيع والإجارة، لم تصحَّ عند الشافعيِّ ﷺ، وعند مَن قال بمثل قوله.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٢٢)، ومسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ونصب «سواء» على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لجعلنا، والأوَّل الضمير الغائب المتصل، و«العاكف» مرتفع به؛ لأنَّه بمعنى مستو، وإن كان في الأصل مصدراً، ومِن كلامهم: مررتُ برجلٍ سواء هو والعدم، واللام ظرفٌ لما عنده.

وجوِّز أن يكون «للناس» في موضع المفعول الثاني، أي: جعلناه مباحاً للناس، أو معبداً لهم، و«سواء» حالًا من الهاء، وكذا يكون حالًا إذا لم يعدّ الجعل إلى مفعولين.

وقرأ الجمهورُ: «سواءٌ» بالرفع على أنَّه خبر، و«العاكفُ» مبتدأٌ[(١)]، وضعِّف العكسُ؛ لما فيه من الإخبار بالمعرفة عن النكرة، والجملة في موضع المفعول الثاني أو الحال، وجوّز أن تكون تفسيريَّة لجعله للناس.

وقرأت فرقة منهم الأعمشُ في رواية القطعي: «سواءً» بالنصب، «العاكفِ» فيه بالجرِّ[(٢)]، ووجه النصبِ ما تقدَّم، ووجه جرِّ «العاكف» أنَّه بدلُ تفصيلٍ مِن «الناس»، وقيل: هوعطف بيان.

وقُرئ: «والبادي» بإثبات الياء وصلًا ووقفاً[(٣)]، وقُرئ بتركها فيهما[(٤)]، وبإثباتها وصلًا وحذفها وقفاً[(٥)].

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ﴾ مما ترك مفعوله؛ ليتناول كلَّ متناول، أي: ومَن يُرد فيه شيئاً ما أو مُراداً ما، وقدَّر ابنُ عطيَّة[(٦)] المفعولَ: الناسَ، أي: ومَن يُرِد فيه الناسَ.

وقوله تعالى: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ أي: عدول عن القصد، أي: الاستقامة المعنويَّة، وأصله: إلحاد الحافر ﴿بِظُلْمٍ﴾ بغير حقٍّ، حالان مترادفان، أو الثاني بدلٌ مِن

---

(١) التيسير ص١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٦، في حين قرأ حفص: «سواءً» بالنصب.
(٢) تفسير القرطبي ١٤/ ٣٥٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٣.
(٣) وهي قراءة ابن كثير ويعقوب. التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧.
(٤) وهي قراءة عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي، ونافع في رواية قالون عنه. السبعة لابن مجاهد ص٤٣٦، والتيسير ص١٥٨، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٣.
(٥) وهي قراءة أبي عمرو وورش وأبي جعفر. السبعة لابن مجاهد ص٤٣٦، والتيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧، والبحر ٦/ ٣٦٣.
(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١١٦.

الأوَّل بإعادة الجارِّ، والباء فيهما للملابسةِ، أو الأوَّل حالٌ والثاني متعلِّق به، والباء فيه للسببيَّة، أي: ملحداً بسبب الظلم كالإشراك واقترافِ الآثام، وقال أبو عبيدةَ: الباء زائدة و«إلحاد» مفعول «يرد»، وأنشد عليه قولَ الأعشى:

ضَمِنَتْ برِزْقِ عيالنا أرماحُنا[(١)]

وأُيِّد بقراءة الحسن: «ومَن يُرد إلحادَهُ بظلم»[(٢)] وهي على معنى إلحاداً فيه إلا أنَّه توسّع فقيل: إلحاده. وقال أبو حيَّان[(٣)]: الأولى أن يُضمَّن «يُرِدْ» معنى يتلَبَّس، وتجعل الباء للتعدية.

وقرأت فرقةٌ: «يَرِدْ» بفتح الياء مِن الوُرود، وحكاها الكسائيُّ والفرَّاء[(٤)]، أي: مَن أتى فيه بإلحاد إلخ.

وتفسير الإلحاد بما ذكر هو الظاهر، فيشمل سائرَ الآثام؛ لأنَّ حاصل معناه الميلُ عن الحقِّ إلى الباطل، وهو محقَّق في جميع الآثام، وكذا المرادُ بالظلم عند جمعٍ، وجمعهما على هذا؛ للتأكيد، وقيل: المراد بذلك الشِّرْكُ، ولم يرتَضِه ابنُ أبي مُلَيكة، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد أنَّه سُئلَ عن قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ إلخ، فقال: ما كنَّا نشكُّ أنَّها الذنوبُ حتى جاء أعلاجٌ مِن أهل البصرة إلى أعلاجٍ مِن أهل الكوفة، فزعموا أنَّها الشركُ[(٥)].

---

(١) وعجزه:

مِلْءَ المراجل والصريحَ الأجردا

وهو في مجاز القرآن ٢/ ٤٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٠٥ وفيه: بين، بدل: ملء. وذكر صدره ابن قتيبة في أدب الكاتب ص٥٢٢، وهو في ديوان الأعشى ص٢٨١ برواية:

ضمنت لنا أعجازهنَّ قدورَنا ... وضروعهنَّ لنا الصريحَ الأجردا

(٢) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٣.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٦٣.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٣، والكلام منه، وقراءة الفراء ذكرها في معاني القرآن ٢/ ٢٢٣، وورد في مطبوعه: تَرِدْ. بالتاء.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٣٥٢، والأعلاج: جمع عِلْج، وهو: الرجل الضخم من كفار العجم، وبعض العرب يطلق العِلْج على الكافر مطلقاً. المصباح (علج).

وأخرج أبو داود وغيرُه عن يعلى بنِ أميَّة عن رسولِ الله ﷺ قال: «احتكارُ الطعام في الحرم إلحادٌ فيه»[١]، وهو مِن ذكر بعض الأفراد؛ لاقتضاء الحال إيَّاه، وجعل بعضُهم مِن ذلك دخولَه مِن غير إحرام، وروي عن عطاء تفسيرُ الإلحاد به. وأخرج ابنُ جرير وجماعةٌ، عن مجاهد قال: كان لعبد الله بنِ عمر ﷺ فسطاطان أحدهما في الحِلِّ والآخَر في الحرم، فإذا أراد أن يُصلِّي صلَّى في الذي في الحرم، وإذا أراد أن يعاتب أهلَه عاتبهم في الذي في الحلِّ، فقيل له، فقال: نحدث أنَّ مِن الإلحاد فيه: لا والله، بلى والله[٢].

﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾ جواب لـ «من» الشرطيَّة. والظاهر أنَّ الوعيدَ على إرادة ذلك مطلقاً فيفيد أنَّ مَن أراد سيئةً في مكَّة ولم يَعملها يحاسب على مجرَّد الإرادة، وهو قولُ ابنِ مسعود، وعكرمة، وأبي الحجاج، وقال الخفاجيُّ[٣]: الوعيدُ على الإرادة المقارنة للفعل لا على مجرَّد الإرادة، لكن في التعبير بها إشارة إلى مضاعفةِ السيئات هناك، والإرادة المصمّمة مما يُؤاخَذ عليها أيضاً، وإن قيل: إنَّها ليست كبيرة، وقد روي عن مالك كراهةُ المجاورة بمكَّة. انتهى.

وإلى مضاعفة السَّيِّئة في مكَّة ذهب مجاهدٌ، فقد أخرج عنه ابنُ المنذر وغيرُه أنَّه قال: تُضاعَف السيئات بمكَّة كما تُضاعَف الحسنات[٤]. وقال رحمه اللهُ تعالى:

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٢٠)، وعلقه أيضاً البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٥٥. قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٤٢٠: هذا حديث واهي الإسناد.
وأخرجه أيضاً البخاري في التاريخ الكبير ٧/ ٢٥٥ -٢٥٦ من طريق يعلى ابن منية ـ أي: ابن أمية؛ لأنَّ منيةَ أمُّه كما ذكر ذلك الحافظ في التقريب ـ عن عمر ﷺ موقوفاً. قال المنذري في مختصر السنن ٢/ ٤٣٨: يشبه أن يكون البخاري علَّل المسند بهذا.

(٢) كذا ذكر الخبرَ الزمخشريُّ في الكشاف ٣/ ١٠ عن ابن عمر، قال الحافظ في الكافي الشاف ص١١٢: ما في نسخ الكشاف: ابن عمر، تصحيف، وإنما هو: ابن عمرو. اهـ. وكذلك أخرجه عن ابن عمرو ابنُ أبي شيبة ٤/ ٢٨٥ (نشرة العمروي)، والأزرقي في تاريخ مكة ٢/ ١٣١، والطبري ١٧/ ١٤١ (طبعة الحلبي). وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٢ وعزاه لسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٢٩٢.

(٤) الدر المنثور ٤/ ٣٥٢، وعزاه أيضاً لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير.

سألتُ ابنَ عمر ـ وكان منزلُه في الحلِّ ومسجدُه في الحرم ـ لِمَ تفعلُ هذا؟ فقال: لأنَّ العملَ في الحرمِ أفضلُ، والخطيئة فيه أعظمُ، فينبغي لمن كان فيه أن يَضْبِطَ نفسَه، ويسلكَ طريقَ السداد في جميع ما يَهِمُّ به ويقصِده.

والظاهر أنَّ هذه الإذاقةَ في الآخرة، وقيل: كان قبل أن يستحلَّه أهلُه تعجَّل العقوبةُ في الدنيا لمن قَصَده بسوء. وأخرج ابنُ أبي حاتم عن الربيع بنِ أنس رضي الله عنه أنَّه قال في الآية: حدثنا رجلٌ سمعه مِن عقبِ المهاجرين والأنصار أنَّهم أخبروه أنَّ أيَّما أحدٍ أراد به ما أراد أصحابُ الفيل، عُجِّل لهم العقوبةُ في الدنيا، وقال: إنَّما يُؤتى[1] استحلاله مِن قِبَلِ أهله. وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما ينفعك في هذا المطلب.

وحَدَّ بعضُهم الحرمَ بقوله:

وللحَرَمِ التحديدُ مِن أرض طَيْبَةٍ ... ثلاثةُ أميالٍ إذا رُمْتَ إتقانَه
وسبعةُ أميال عِراقٌ وطائِفٌ ... وجِدَّةُ عَشْرٌ ثم تِسْعٌ جعرانَه
ومِن يَمَنٍ سبعٌ بتقديمِ سِينه ... وقد كَمَلَت فاشْكُرْ لربِّك إحسانَه[2]

(١) في (م): «يوفى»، والخبر في تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٨٤ (١٣٨٧٠).

(٢) الأبيات الثلاثة مذكورة في مغني المحتاج ١/ ٥٢٨-٥٢٩، وشفاء الغرام للفاسي ١/ ٦٤-٦٥، إلا أنَّ الفاسيَّ جاء عنده عجز البيت الثالث هكذا:

فسل ربك الوهاب يرزقك غفرانه

وزاد بيتاً رابعاً، وهو:

وقد زيد في حد لطائف أربع ... ولم يرض جمهور لذا القول رجحانه

وقال بعدها: والبيتان الأولان لا أعرف ناظمهما، والبيتان الآخران لجدِّي لأبي قاضي القضاة كمال الدين أبي الفضل محمد بن أحمد النويري الشافعي... على ما وجدت في تأليف له بخطِّ بعض مشايخنا يسمى: المعلم بدية الحر المسلم، وبعض الناس ينشد بيت جدِّي الأول على غير ما ذكرناه فيقول: ...... وقد كملت فاشكر لربك إحسانه. ثم ذكر كلاماً مطوَّلًا حول الأبيات فلتراجع لمن أراد التوسُّع.

وذكر البيتين الأول والثاني الحصكفي في الدر المختار ١/ ٢١٥ ونسبهما لابن الملقِّن، وعلَّق عليه ابن عابدين في حاشيته على الدر المختار ٢/ ٤٧٩ بقوله: هو من علماء الشافعية، ونقل عن شرح المهذب للنووي أن ناظم الأبيات المذكورة القاضي أبو الفضل النويري... ثم قال تعليقاً على البيت الثاني: لو قال:

=

وأمَّا المسجد الحرام فيُطلَق على الحرم كلِّه عند عطاء، فيكون حدُّه ما ذكر.

وفي «البحر العميق»(١) عن أبي هريرة قال: إنَّا لنجدُ في كتاب الله تعالى أنَّ حدَّ المسجد الحرام إلى آخر المسعى. وعن عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاص قال: أساسُ المسجد الحرام الذي وضعه إبراهيمُ عليه السلام مِن الحَزْوَرة(٢) إلى مخرجِ مسيل جِياد.

وقد ذكروا أنَّ طولَ المسجد اليوم أربع مئة ذراع وأربعة أذرع، وعَرْضه ثلاث مئة ذراع.

وحكي أنَّه لم يكن كذلك على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن له جدارٌ يحيط به، فلما استُخلف عمر بن الخطاب ﷺ وسَّع المسجدَ واشترى دوراً فهدمها وأدخلها فيه، ثم أحاطَ عليه جداراً قصيراً دون القامة وكانت المصابيحُ توضع عليه، ثم لما استُخلف عثمان اشترى دوراً أيضاً ووسَّع بها وبنى المسجدَ والأروقةَ، ثم إنَّ عبد الله بنَ الزبير زاد سنة بضع وستِّين في المسجد زيادةً كثيرةً في خلافته، ومِن ذلك بعض دار الأزرقيِّ اشتراه بسبعة آلافِ دينار، ثم عمره بعد ذلك عبد الله بنُ مروان ولم يزد فيه، لكن رفع جدار المسجد، وحمل إليه أعمدةَ الحجارة والرخام، ثم إنَّ المنصورَ زاد في شقِّه الشاميِّ وبناه وجعل فيه أعمدةً من الرخام، ثم زاد

= ومـــن يـــمـــن ســـبـــع عـــراق وطـــائـــف

لاستوفى واستغنى عن البيت الثالث المذكور في البحر، وهو:

ومـن يـمـن سـبـع بـتـقـديـم سـيـنـهـا   وقـد كـمـلـت فـاشـكـر لـربـه إحـسـانـه

مع ملاحظة أن نقله عن شرح المهذب للنووي وعزوه الأبيات للقاضي أبي الفضل النويري فيه نظر، فكيف ينسبها النووي للنويري مع العلم بأن وفاة النووي كانت سنة (٦٧٦هـ)، وولادة أبي الفضل النويري كانت سنة (٧٢٢هـ)؟! إلا إن كان يقصد النووي البيتين الأولين وكان يقصد نويريًّا غير هذا، ولم نقف على كلام النووي في المجموع شرح المهذب.

(١) وهو: البحر العميق في مناسك المعتمر والحاج إلى البيت العتيق لأبي البقاء محمد بن أحمد بن محمد بن العينا المكي القرشي الحنفي المتوفى سنة (٨٥٤هـ). كشف الظنون ١/ ٢٢٥.

(٢) موضع بمكة يلي البيت، وفيه دُفن عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله، ابن أخي طلحة بن عبيد الله وكان قُتل مع ابن الزبير. معجم ما استعجم ٢/ ٤٤٤.

المهديُّ بعدَه مرَّتين، وكانت الكعبة في جانب المسجد فأحبَّ أن تكون في الوسط فاشترى دوراً وزاد في المسجد ووسَّطها، كذا ذكره النوويُّ[(١)].

وفي «البحر العميق» أنَّ زيادةَ المهديِّ هي التي تلي دارَ الندوة خلفَ مقام الحنفيِّ، ثم لما انتهت الدولة إلى سلاطين آلِ عثمان ـ أبقى الله تعالى دولتهم ما دام الدوران ـ لم يألوا جهداً في خدمته والسعي في مَرَمَّتِه.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: اذكر لهؤلاء الكفرة الدين يصدُّون عن سبيلِ الله تعالى والمسجد الحرام وقتَ جَعْلِنا مكانَ البيت مباءةً لجدِّهم إبراهيم عليه السلام، أي: مرجعاً يُرجَع إليه للعمارة والعبادة، ويقال: بوَّأه منزلًا: إذا أنزله فيه، ولمَّا لزمه جَعْلُ الثاني مباءةً للأوَّل جِيْءَ باللام، فهي للتعدية، و«مكان» مفعول به.

وقال الزجَّاج[(٢)]: المعنى: بيَّنَّا له مكانَ البيتِ ليَبْنِيه، ويكون مباءةً له ولِعَقبه يرجعونَ إليه ويحجُّونه، والأوَّل مرويٌّ عن ابنِ عباس، وقيل: اللام زائدةٌ في المفعول به، و«مكان» ظرف لـ «بوَّأنا». واعترض بأنّ اللامَ إنَّما تزاد إذا قدّم المعمول، أو كان العاملُ فرعاً، وشيءٌ منهما غيرُ متحقّق هاهنا، وأن «مكان البيت» ظرف معيَّن، فحقُّه أن يتعدَّى الفعل إليه بـ «في»، وفيه نظرٌ كما يعلم من كتب العربية.

وقيل: مفعول «بوّأنا» محذوف، أي: بوَّأنا الناسَ، واللام في «لإبراهيم» لام العلَّة، أي: لأجل إبراهيم، أي: كرامةً له، والمعوَّل عليه ما قدَّمنا، وتوجيهُ الأمر بالذكر إلى الوقت مع أنَّ المرادَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مرَّ غير مرّة، والمكان المتعارف: ما يستقرُّ عليه الشيءُ ويمنعه مِن النزول، وللعلماء فيه مذاهبُ، وليس هذا مكانَ تحقيقها.

وأصلُ البيت: مأوى الإنسان بالليل، ثم قد يقال مِن غير اعتبار الليل فيه، وجمعه بأبيات، وبيوت، لكنَّ البيوتَ بالمسكنِ أخصُّ، والأبياتُ بالشَّعَرِ أخصُّ، ويقع ذلك على المتَّخذ مِن حَجَر ومِن مَدَرٍ، ومِن صوفٍ ووَبَر، ويُعبَّر عن مكان الشيء ببيتِه.

---

(١) المجموع شرح المهذب ٧/ ٤٤٦ بمعناه.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٤٢٢.

والمراد بالبيت بيتُ اللهِ عزَّ وجلَّ الكعبةُ المكرَّمة، وقد بُنِيَتْ خمسَ مرَّات، إحداها: بناءُ الملائكةِ عليهم السلام قَبْلَ آدمَ، وكانت من ياقوتةٍ حمراءَ، ثم رُفِعَ ذلك البناءُ إلى السماء أيَّام الطُّوفانِ.

والثانية: بناءُ إبراهيمَ عليه السلام، رُوِيَ أنَّه تعالى لما أَمَرَه ببناءِ البيتِ، لم يَدْرِ أينَ يَبني، فأرسلَ اللهُ تعالى له الريحَ الخجوجَ(١) فكشفت عن أسِّه القديم، فبنى عليه.

والثالثة: بناءُ قريش في الجاهليَّة، وقد حَضَره النبيُّ ﷺ وكان شابًّا، فلما أَرادوا أن يرفعوا الحَجَرَ الأسودَ اختصموا فيه، فأراد كلُّ قبيلةٍ أن يتولَّى رَفْعَه، ثم تَوافقوا على أَنْ يَحكُم بينهم أَوَّلُ رجل يَخرجُ مِن هذه السِّكَّة، فكان رسولُ الله ﷺ أوَّلَ مَن خرجَ، فقضى بينهم أن يَجعلُوه في مِرْطٍ(٢)، ثم يرفعه جميعُ القبائلِ، فرفعوه ثم ارتَقى ﷺ فرفعوه إليه، فوضعه مكانَه، وكانوا يَدْعُونه عليه السلام: الأمينَ، وكان ذلك قَبْلَ المبعثِ ـ فيما قيل ـ بخمسَ عَشْرة سنةً.

والرابعة: بناءُ عبدِ الله بنِ الزبير.

والخامسة: بناء الحجَّاج، وهو البناء الموجودُ اليومَ، وارتفاعها في السماء سبعةٌ وعشرونَ ذِرَاعاً ورُبْعَ ذراعٍ، والذراعُ أربعٌ وعشرونَ إصبعاً، والإصبع ستُّ شُعَيرات، والشعيرةُ ستُّ شعراتٍ من شَعَر البِرْذَون.

وأمَّا طولها في الأرضِ فمن الركن اليمانيِّ إلى الركن الأسود خمسةٌ وعشرونَ ذراعاً، وكذا ما بين اليمانيِّ والغربيِّ.

وأما عَرْضها فهو مِنَ الركن اليمانيِّ إلى الركن الأسود عشرونَ ذراعاً.

وطولُ الباب ستَّةُ أذرعٍ وعَشَرةُ أصابعَ، وعَرْضه أربعةُ أذرعٍ، والباب في جدارها الشرقيِّ، وهو مِن خشبِ الساجِ مضبَّب بالصفائح مِن الفضَّة.

وارتفاعُ ما تحتَ عَتَبةِ الباب مِن الأرض أربعةُ أذرعٍ وثلاثُ أصابعَ، والميزابُ

---

(١) هي الريح الشديدة المَرِّ، أو الملتوية في هبوبها كالخجوجاة. القاموس (خجج).
(٢) المِرْط: كساء من صوف أو خزٍّ. القاموس (مرط).

في وَسَطَ جدارِ الحجر. وعَرْضُ الملتزم ـ وهو ما بين البابِ والحَجَر الأسود ـ أربعة أذرعٍ، وارتفاعُ الحَجَر الأسود مِن الأرض ثلاثةُ أذرعٍ إلا سبعاً، وعَرْضُ القَدْرِ الذي بَدَرَ منه شبرٌ وأربعُ أصابع مضمومةً، وعَرْضُ المستجاد ـ وهو بين الركن اليمانيِّ إلى الباب المسدودِ في ظَهْر الكعبة مقابلًا للملتَزَم ـ أربعة أذرعٍ وخمسُ أصابعَ، وعَرْضُ الباب المسدود ثلاثةُ أذرعٍ ونصفُ ذراعٍ، وطُوله أكثرُ مِن خمسةِ أذرع.

وأمَّا الحِجْر، ويُسمَّى: الحطيمَ والحظيرةَ، فعلى هيئة نصفِ دائرة مِن صَوْبِ الشام والشَّمال بين الركن العراقيِّ والشامِيِّ، وحدُّه مِن جدار الكعبة الذي تحت الميزاب إلى جدارِ الحجر سبعةَ عشر ذراعاً وثماني أصابعَ منها سبعةُ أذرعٍ أو ستَّةٌ وشِبْر مِن أرض الكعبة، والباقي كان زَرْباً[1] لغنم سيِّدنا إسماعيل عليه السلام فأدخلوه في الحِجْر، وما بين بابي الحِجْر عشرونَ ذراعاً، وعَرْضُ جدار الحِجْر ذراعان، وذرع تدويرِ جدار الحِجْر مِن داخله ثمانيةٌ وثلاثونَ ذراعاً، ومِن خارجه أربعون ذراعاً وستُّ أصابع، وارتفاعُ جدارِ الحِجْر ذراعان، فذرع الطَّوقِ وحده حوالي الكعبة والحجر مئةُ ذراع وثلاثة وعشرون ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً. وهذا على ما ذكره الإمام حسين بنُ محمد الآمديُّ في رسالةٍ له في ذلك، والعُهْدة عليه، وإنَّا لنرجو مِن ربِّ البيتِ أن يوفِّقنا لزيارةِ بيتِه وتحقيقِ ذلك بلطفه وكرمه.

و «أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا﴾ قيل: مفسِّرة، والتفسير باعتبار أنَّ التبوئةَ مِن أجل العبادة، فكأنَّه قيل: أَمَرْنا إبراهيمَ عليه السلام بالعبادة، وذلك فيه معنى القول دون حروفِه، أو لأنَّ بوَّأناه بمعنى قلنا له: تبوَّأ، وقال ابنُ عطيَّة[2]: مخفَّفة من الثقيلة، وكأنَّه لتأويل بوَّأناه بأعلمناه، فلا يَرِدُ عليه أنَّه لا بُدَّ أن يتقدَّمها فِعْلُ تحقيقٍ أو ترجيح.

وقال أبو حيَّان: الأَولى أن تكون الناصبة، وكما تُوصَل بالمضارع تُوصَل بالماضي، والأمر والنهي[3]. انتهى. وحينئذٍ لا تنصبُ لفظاً، وقول أبي حاتم:

---

(١) الزَّرْب: المدخل، وموضع الغنم. القاموس (زرب).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤، والعبارة فيه: والأولى عندي أن تكون الناصبة للمضارع إذ يليها

لا بُدَّ مِن نصب الكافِ على هذا ردَّه في «الدُّرِّ المصون»[(١)] أي: فَعَلْنا ذلك لئلَّا تشركَ بي في العبادة شيئاً، والظاهر أنَّ الخطابَ لإبراهيمَ عليه السلام، ويؤيِّده قراءةُ عكرمة، وأبي نهيك: «أَنْ لا يُشْرِكَ»[(٢)] بالياء التحتية، وقيل: الخطابُ للنبيِّ ﷺ.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ المراد بالطهارة ما يَشمل الحسيَّة والمعنويَّة، أي: وطهِّر بيتيَ مِن الأوثان والأقذار لمن يطوفُ به ويصلِّي عنده، ولعلَّ التعبيرَ عن الصلاة بأركانها مِن القيام والركوع والسجودِ؛ للدلالة على أنَّ كلَّ واحدٍ منها مستقلٌّ باقتضاء التطهير أو التبوئة على ما قيل، فكيف وقد اجتمعت، أو للتنصيصِ على هذه الأمَّة المحمَّدية على نبيِّها أفضلُ الصلاةِ وأكملُ التحيَّة، إذ اجتماعُ هذه الأركان ليس إلا في صلاتهم، ولم يعطف السجود؛ لأنَّه مِن جنَس الركوع في الخضوع.

ويجوز أن يكون «القائمين» بمعنى المقيمين، و«الطائفين» بمعنى الطارئين، فيكون المرادُ بالركع السجود فقط المصلِّين إلَّا أنَّ المتبادرَ مِن الطائفين ما ذكر أوَّلًا.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: نادِ فيهم ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ بدعوةِ الحجِّ والأَمْرِ به، أخرج ابنُ أبي شيبة في «المصنَّف»، وابنُ جرير، وابنُ المنذر، والحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ في «سننه» عن ابنِ عباسٍ قال: لما فرغَ إبراهيمُ عليه السلام مِن بناء البيت قال: ربِّ قد فرغتُ. فقال: أَذِّنْ في الناس بالحج. قال: ياربِّ وما يبلغ صوتي؟ قال: أذِّن وعليّ البلاغ. قال: ربِّ كيف أقول؟ قال: قل يا أيها الناس كُتبَ عليكم الحجُّ إلى البيت العتيق، فسمعه أهلُ السماء والأرض، أَلَا ترى أَنَّهم يجيؤون[(٣)] مِن أقصى البلاد يلبُّون[(٤)].

= الفعل المتصرف من ماضٍ ومضارع وأمر، والنهي كالأمر. اهـ. وكذا نقل عنه السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٢٦٣.

(١) ٨/ ٢٦٣.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٣) في (م): «يجيبون».

(٤) في الأصل: «ويلبّون». والخبر عند ابن أبي شيبة ١١/ ٥١٨، والطبري ١٦/ ٥١٤-٥١٥، والحاكم ٢/ ٣٨٨، والبيهقي ٥/ ١٧٦.

وجاء في رواية أخرى عنه: أنَّه عليه السلام صَعِدَ أبا قُبَيْس، فوضع أصبعَيْه في أذنَيْه، ثم نادى: يا أيُّها الناسُ إنَّ اللهَ تعالى كَتَبَ عليكم الحجَّ فأَجيبوا ربَّكم. فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وأوَّل مَن أجابَ أهلُ اليمن فليس حاجٌّ يحجُّ مِن يومئذٍ إلى أنْ تقومَ الساعةُ إلا مَن أَجاب يومئذٍ إبراهيمَ عليه السلام. وفي رواية: أنَّه قام على الحَجَر فنادى.

وعن مجاهد أنَّه عليه السلام قام على الصفا، وفي رواية أخرى عنه أنَّه عليه السلام تطاوَل به المقام حتى كان كأطولِ جبل في الأرض فأذَّن في الحجِّ.

ويمكن الجمع بتكرُّر النداء، وأيًّا ما كان، فالخطابُ لإبراهيمَ عليه السلام.

وزعم بعضُهم أنَّه لنبيِّنا ﷺ أُمِرَ بذلك في حجَّة الوداع، وروي ذلك عن الحسن، وهو خلافُ الظاهر جدًّا، ولا قرينةَ عليه، وقيل: يأباهُ كونُ السورةِ مكِّيَّة، وقد علمتَ ما فيه أوَّلَها.

وقرأ الحسنُ، وابنُ محيصن: «وآذِنْ» بالمدِّ والتخفيف(١)، أي: أَعْلِمْ، كما قال البعضُ، وقال آخرون: المرادُ به هنا: أوقع الإيذان؛ لأنَّه على الأوَّل كان ينبغي أن يتعدَّى بنفسه لا بـ «في» فهو كقوله:

.... يَجرَح في عَرَاقِيبها نَصْلِي(٢)

وقال ابنُ عطيَّة(٣): قد تصحَّفت هذه القراءةُ على ابنِ جنيٍّ(٤) فإنَّه حكى عنهما: «وأَذِنَ» فعلًا ماضياً وجعله معطوفاً على «بوَّأنا»، وتعقَّبه أبو حيَّان(٥) بأنَّه ليس بتصحيف، بل قد حكى ذلك أبو عبد الله الحسين بنُ خالويه في «شواذِّ القراءات»(٦) من جمعه.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١١٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٢) القائل ذوالرمة، والبيت في ديوانه ١/ ١٥٦، وتمامه:

وإن تعتذر بالمَحْل من ذي ضروعها   على الضيف ....

وسلف ١٠/ ١٦١.

(٣) المحررالوجيز ٤/ ١١٧.

(٤) في المحتسب ٢/ ٧٨.

(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٦) القراءات الشاذة ص٩٥، وقال أيضاً السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٢٦٤: ... ولكنه =

وقرأ ابنُ أبي إسحاق: «بالحِجِّ» بكسر الحاء حيث وقع[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ﴾ جزم في جواب الأمر وهو «أذن» على القراءتين، و«طهِّر» على الثالثة، كما قال صاحب «اللوامح»: وإيقاعُ الإتيان على ضميرِه عليه السلام؛ لكون ذلك بندائه، والمراد: يَأْتوا بيتَكَ. وقوله سبحانه: ﴿رِجَالًا﴾ في موضع الحال، أي: مشاة، جَمْعُ: رَاجِلٍ، كقيام جمعُ قائم.

وقرأ ابنُ أبي إسحاق: «رُجَالًا» بضمِّ الراء والتخفيف[(٢)]، وروي ذلك عن عكرمة، والحسن، وأبي مجلز، وهو اسمُ جمع لراجل، كظؤار[(٣)] لظائر[(٤)]، أو هو جمعٌ نادر، وروي عن هؤلاء، وابنِ عباس، ومحمد بن جعفر، ومجاهد ﷺ: «رُجَّالًا» بالضمِّ والتشديد[(٥)]، على أنَّه جمع راجلٍ، كتاجر وتُجَّار، وعن عكرمة أنَّه قرأ: «رُجَالى» كسُكَارى[(٦)]، وهو جمع رَجْلان أو راجل، وعن ابنِ عباس، وعطاء، وابنِ حدير مِثْل ذلك إلَّا أنَّهم شدَّدوا الجيمَ[(٧)].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ عطف على «رجالًا» أي: وركباناً على كلِّ بعير مهزول أَتْعَبَه بُعْدُ الشُّقَّة فهزله، أو زادَ هُزالَه، والضامر يُطلقَ على المذكَّر والمؤنَّث، وعدل عن ركباناً الأخصر؛ للدلالة على كثرةِ الآتينَ مِن الأماكن البعيدة.

= لم يطَّلع عليها فنسب من اطَّلع إلى التصحيف، ولو تأنَّى أصاب أو كاد.

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٢) المحتسب ٢/ ٧٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٣) في الأصل و(م): «كظُؤار»، والمثبت من المحتسب ٢/ ٧٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤، والدر المصون ٨/ ٢٦٥. والظؤار جمع ظئر: وهي العاطفة على ولد غيرها المرضعةُ له، في الناس وغيرهم. القاموس (ظأر).

(٤) في الأصل و(م): «لطائر»، ولم نقف فيما بين أيدينا من مصادر على أن ظؤار جمع ظائر، بل هو جمع ظئر كما تقدم آنفاً، وما أثبت هو تبعاً لما ذهب إليه المصنِّف من أنَّه على وزن راجل.

(٥) القراءات الشاذة ص ٩٥، والمحتسب ٢/ ٧٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٦) القراءات الشاذة ص ٩٥، والمحتسب ٢/ ٧٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

(٧) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤.

وفي الآية دليلٌ على جواز المشي والركوب في الحجِّ، قال ابنُ العربيِّ(١): واستدلَّ علماؤنا بتقديم «رجالًا» على أنَّ المشيَ أفضلُ، وروي ذلك عن ابنِ عباس، فقد أخرج ابنُ سعدٍ، وابنُ أبي شيبة، والبيهقيُّ، وجماعةٌ أنَّه قال: ما آسى على شيءٍ فاتني إلَّا أنِّي لم أحجَّ ماشياً حتى أدركني الكِبَرُ، أسمع الله تعالى يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ فبدأ بالرجالِ قبل الركبان(٢). وفي ذلك حديثٌ مرفوع فقد أخرج ابنُ سعدٍ، وابنُ مردويه، وغيرُهما عنه أنَّه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ للحاجِّ الراكب بكلِّ خطوةٍ تخطوها راحلتُه سبعينَ حسنة، وللماشي بكلِّ قَدَم سبع مئة حسنة مِن حسنات الحرم» قيل: يا رسولَ الله وما حسناتُ الحَرَم؟ قال: «الحسنةُ مئةُ ألفِ حسنة»(٣). وأخرج ابنُ أبي شيبة عن مجاهد: أنَّ إبراهيمَ وإسماعيل عليهما السلام حَجَّا وهما ماشيان(٤).

وقال ابنُ الفَرَس: واستدلَّ بعضُهم بالآية على أنَّه لا يجبُ الحجُّ على مَن في طريقه بحرٌ ولا طريقَ له سواه؛ لكونه لم يُذكَر في الآية.

وتُعقِّب بأنَّه استدلالٌ ضعيف؛ لأنَّ مكَّة ليست على بحر، وإنَّما يُتوصَّل إليها على إحدى الحالين مَشي أو ركوب، وأيضاً في دلالة عدم الذِّكْر على عدمِ الوجوب نظرٌ.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ صفة لـ «ضامر» أو لـ «كل»، والجمع باعتبار المعنى كأنَّه قيل: وركباناً على ضوامر يأتين، و«كل» هنا للتكثير لا للإحاطة، وما قيل مِن أنَّها إذا أضيفت لنكرةٍ لم يُراعَ معناها إلا قليلًا، ردُّوه بهذه الآية ونظائرها، وكذا ما قيل: إنَّه يجوز إذا كانا في جملتين؛ لأنَّ هذه جملةٌ واحدة.

---

(١) في أحكام القرآن له ٣/ ١٢٦٨.

(٢) ابن أبي شيبة ٤/ ٩٧-٩٨، والبيهقي ٤/ ٣٣١، وأخرجه أيضاً الطبري ١٦/ ٥١٨.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٥٥، وأخرجه أيضاً الفاكهي في أخبار مكة (٨٣٢)، والأزرقي في أخبار مكة ٢/ ٧، والطبراني في الكبير ١٢/ (١٢٥٢٢) و(١٢٦٠٦)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ٢/ ٣٥٤، والبيهقي ٤/ ٣٣١، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٥٦٧ من طرق مختلفة وبأسانيد كلها فيها مقال، قال ابن الجوزي: هذان حديثان لا يصحان، مدارهما على إسماعيل بن أمية، قال الدارقطني: كان يضع الحديث. اهـ. وينظر علل الحديث للرازي ٢/ ٢٧٩، والسلسلة الضعيفة للألباني (٤٩٥) و(٤٩٦).

(٤) ابن أبي شيبة ٤/ ٩٨، وأخرجه أيضاً الأزرقي في أخبار مكة ١/ ٣٤.

وجوَّز أبو حيَّان[١] أن يكون الضميرُ شاملًا لرجال و«كل ضامرٍ»، والجملة صفةٌ لذلك على معنى الجماعات الرفاق.

وتُعقِّب بأنَّه يلزمه تغليبُ غيرِ العقلاء عليهم، وقد صرَّحوا بمنعه. نعم قرأ عبدُ الله وأصحابه، والضحَّاك، وابنُ أبي عبلة: «يأتون»[٢]، واعتبارُ التغليبِ فيه على بابه، والمشهور جَعْلُ الضمير لـ «رجالًا» و«ركباناً»، فلا تغليبَ، وجوّز جعلُ الضمير للناس، والجملة استئنافية.

﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ أي: طريق، كما روي عن ابنِ عباس ومجاهد، وقتادة، والضحَّاك، وأبي العالية، وهو في الأصل: شقَّة يَكتنفُها جبلان، ويستعمل في الطريق الواسع، وكأنَّهم جرَّدوه عن معنى السعة؛ لأنَّه لا يناسبُ هنا بل يخلو مِن خلل ﴿عَمِيقٍ ۝٢٧﴾ أي: بعيدٍ، وبه فسَّره الجماعة أيضاً، وأصله: البعيدُ سُفْلًا، وهو غيرُ مناسب هنا.

وقرأ ابنُ مسعود: «مَعِيْق»[٣]، قال الليث: يقال: عَمِيْق ومَعِيْق لتميم، وأَعْمقتُ البئرَ وأَمْعَقْتها، وقد عَمُقَتْ ومَعقَتْ عَماقةً ومَعَاقةً، وهي بعيدة العُمْق والمَعق.

﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ متعلِّق بـ: «يأتوك»، وجوَّز أبو البقاءِ[٤] تعلُّقه بـ «أَذِّن»، أي: ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ﴾ عظيمةَ الخَطَر كثيرةَ العدد، فتنكيرُها - وإن لم يكن فيه تنوينٌ - للتعظيمِ والتكثير، ويجوز أن يكون للتنويع، أي: نوعاً مِن المنافع الدينيَّة والدنيويَّة، وتعميمُ المنافع بحيث تشمل النوعينِ ممَّا ذهبَ إليه جمعٌ، وروي ذلك عن ابنِ عباس، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم[٥] عنه أنَّه قال في الآية: منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة، فأمَّا منافعُ الآخِرة فرضوانُ الله تعالى، وأمَّا منافعُ الدنيا فما يصيبونَ مِن لحوم البُدْنِ في ذلك اليوم والذبائح والتجارات.

وخصَّ مجاهدٌ منافعَ الدنيا بالتجارة، فهي جائزةٌ للحاجِّ مِن غير كراهة إذا لم

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٤.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.
(٣) الكشاف ٣/ ١١، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٤.
(٤) الإملاء ٤/ ٣٧.
(٥) في التفسير ٨/ ٢٤٨٨ (١٣٨٨٩).

تكن هي المقصودة مِن السفر. واعتُرض بأنَّ نداءَهم ودعوتهم لذلك مستبعدٌ، وفيه نظرٌ، على أنَّه إنَّما يتأتَّى على ما جوَّزه أبو البقاء، وعن الباقرِ ﵁ تخصيصُ المنافع بالأخرويَّة، وفي رواية عن ابنِ عباس تخصيصُها بالدنيويَّة، والتعميم أَولى.

﴿لَهُمْ﴾ في موضع الصفة لـ «منافع»، أي: منافع كائنة لهم ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ عند النحر ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ أي: مخصوصات، وهي أيَّام النحر، كما ذهب إليه جماعةٌ منهم أبو يوسف ومحمَّد، عليهما الرحمة.

وعدَّتها ثلاثةُ أيام؛ يوم العيد ويومان بعده عندنا، وعند الثوريِّ، وسعيد بنِ جبير، وسعيد بنِ المسيب؛ لما روي عن عمر، وعليٍّ، وابنِ عمر، وابنِ عباس، وأنسٍ، وأبي هريرة ﷺ أنَّهم قالوا: أيامُ النحر ثلاثةٌ، أفضلها أوَّلُها، وقد قالوه سماعاً؛ لأنَّ الرأيَ لا يهتدي إلى المقادير، وفي الأخبار التي يعوَّل عليها تعارضٌ، فأخذنا بالمتيقَّن وهو الأقلُّ، وقال الشافعيُّ، والحسنُ، وعطاء: أربعةُ أيَّام؛ يوم العيد وثلاثة بعدَه، لقوله ﷺ: «أيَّام التشريق كلُّها أيَّام ذَبْح»[1] وعند النخعيِّ: وقت النحر يومان، وعند ابنِ سيرين يومٌ واحد، وعن أبي سلمة، وسليمان بنِ يسار: الأضحى إلى هلال المحرَّم. ولم نجد في ذلك مستنداً يعوَّل عليه.

واستدلَّ بذِكْر الأيام على أنَّ الذبح لا يجوز ليلًا، قال أبو حيَّان[2]: وهو مذهبُ مالك وأصحابِ الرأي. انتهى. والمذكور في كتب الأصحاب أنَّه يجوز الذبحُ ليلًا إلا أنَّه يُكرَه؛ لاحتمال الغَلَط في ظُلمة الليل.

وأمَّا الاستدلال على عدم الجواز بذِكْر الأيَّام فكما ترى، وقيل: الأيَّام المعلومات عشرُ ذي الحجَّة، وإليه ذهب أبو حنيفة ـ عليه الرحمة ـ وروي عن ابنِ

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧٥٢)، والبزار (١١٢٦)، وابن حبان (٣٨٥٤)، والطبراني في الكبير (١٥٨٣)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١١٨، والدارقطني (٤٧٥٦) و(٤٧٥٨)، والبيهقي ٥/ ٢٣٩ و٩/ ٢٩٥ من حديث جبير بن مطعم ﵁.
قال ابن حجر في فتح الباري ١٠/ ٨: أخرجه أحمد لكن في سنده انقطاع، ووصله الدارقطني ورجاله ثقات.
وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٤٠٠ عن أبي سعيد الخدري ﵁. قال ابن أبي حاتم في العلل: قال أبي: هذا حديث موضوع بهذا الإسناد.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٥.

عباس، والحسن، وإبراهيم، وقتادة، ولعلَّ المرادَ بذِكْر اسمِه تعالى على هذا ما قيل: حمده وشكره عزَّ وجلَّ، وعلى الأوَّل قولُ الذابح: بسم الله واللهُ أكبر، على ما روي عن قتادة، وذكر أنَّه يقال مع ذلك: اللهمَّ منكَ ولكَ عن فلانٍ، وسيأتي إن شاء الله تعالى قولٌ آخَرُ. ورجِّح كونه بمعنى الشكر بأنَّه أوفقُ بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾.

واختار الزمخشريُّ[1] أنَّ الذِّكْرَ على بهيمة الأنعام أو مطلقاً على ما يقتضيه ظاهرُ كلامِ بعضهم كناية عن النَّحْر، وذكر أنَّه دلَّ بذلك على المقصود الأصلي مِن النحر ومايميِّزه عن العادات. وأَومأ فيه إلى أنَّ الأعمالَ الحجِّيَّة كلَّها شُرِعَت للذِّكْر. وأنَّه قيل «على ما رزقهم» إلى آخره؛ تشويقاً في التقرُّب ببهيمة الأنعام ـ المراد بها الإِبل والبقر والضَّأن والمَعْز ـ إلى الرازق، وتهويناً عليهم في الإنفاق، مع ما في ذلك من الإجمال والتفسير، وظَرفيَّة الأيام المعلومات على القول بأنَّها عشر ذي الحجَّة للنحر؛ باعتبار أنَّ يومَ النحر منها، وقد يقال مثلُ ذلك على تقدير إبقاءِ الذِّكْر على ما يتبادر منه.

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ التفاتٌ إلى الخطاب، والفاء فصيحة، أي: فاذكروا اسمَ الله تعالى على ضحاياكم، فكلوا مِن لحومها، والأمر للإباحة؛ بناءً على أنَّ الأكلَ كان منهيًّا عنه شرعاً. وقد قالوا: إنَّ الأمرَ بعد المنع يقتضي الإباحةَ، ويدلُّ على سَبْقِ النهي قوله ﷺ: «كنتُ نهيتكم عن أكلِ لحوم الأضاحي، فكلوا منها وادَّخِروا»[2]. وقيل: لأنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يتحرَّجون فيه، أو للندب على مواساة الفقراء ومساواتهم في الأكل منها، وهذا على ما قال الخفاجيُّ[3] مذهبُ أبي حنيفة رضي الله عنه.

﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ﴾ أي: الذي أصابه بؤسٌ، أي: شدَّة، وعن مجاهد وعكرمة تفسيره بالذي يمدُّ كفَّيه إلى الناس يسأل. ﴿ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: المحتاج، والأمر

---

(١) الكشاف ٣/ ١١.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧١٥٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو عند مسلم (١٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، و(١٩٧٧) (٣٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه بنحوه.

(٣) في حاشيته ٦/ ٢٩٣.

للندب عند الإمام على ما ذكره الخفاجيُّ[١] أيضاً، ويستحبُّ كما في «الهداية»[٢] أن لا ينقصَ ما يُطعَم عن الثلث؛ لأنَّ الجهاتِ: الأكلُ والإطعام الثابتان بالآية، والادِّخار الثابت بالحديث، فتقسم الأضحية عليها أثلاثاً. وقال بعضهم: لا تحديدَ فيما يُؤكل أو يُطعَم؛ لإطلاق الآية، وأوجبَ الشافعيَّة الإطعامَ، وذهب قومٌ إلى أنَّ الأكلَ مِن الأضحية واجبٌ أيضاً.

وتخصيصُ «البائسِ الفقير» بالإطعام لا ينفي جوازَ إطعام الغنيِّ. وقد يستدل على الجواز بالأمر الأوَّل؛ لإفادته جوازَ أكلِ الذابح، ومتى جاز أكله ـ وهو غني ـ جاز أن يُؤْكِله غنيًّا.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ هو في الأصل: الوسخُ والقَذَرُ، وعن قُطْرب: تفثَ الرجلُ: كَثُرَ وسخُه في سفره. وقال أبو محمَّد البصريُّ: التَّفَث: مِن التفِّ، وهو وَسَخُ الأظفارِ، وقلبت الفاءُ ثاءً كما في مُغْثُور، وفسَّره جمعٌ هنا بالشعور والأظفار والأخذ مِن الشوارب والعارِضَيْن كما في روايةٍ عن ابنِ عباس، ونتف الإبط وحَلْق الرأس والعانة، وقيل: القضاءُ مقابلُ الأداءِ، والكلام على حذف مضاف، أي: ليقضوا إزالةَ تَفَثهم، والتعبير بذلك؛ لأنَّه لمضيِّ زمانِ إزالته عُدَّ الفعل قضاء لما فات، وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّه قال: التَّفَثُ: النُّسُك كلُّه مِن الوقوف بعرفةَ والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار[٣]. والقضاء على هذا بمعنى الأداء، كأنَّه قيل: ثم ليؤدُّوا نُسُكَهم. وكأنَّ التعبير عن النسك بالتفث؛ لما أنَّه يستدعي حصولَه، فإن الحُجَّاج ما لم يحلُّوا شُعثٌ غُبْرٌ، وهو كما ترى، وقد يقال: إنَّ المرادَ مِن إزالة التَّفَث بالمعنى السابق قضاءُ المناسك كلِّها؛ لأنَّها لا تكون إلا بعده، فكأنَّه أراد أنَّ قضاءَ التَّفَث هو قضاءُ النسك كلِّه بضَرْب مِن التجوُّز، ويؤيِّده ما أخرجه جماعةٌ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: قضاءُ التَّفَث قضاءُ النسك كلِّه[٤].

---

(١) في حاشيته ٦/ ٢٩٤.

(٢) ٨/ ٧٦-٧٧.

(٣) ابن أبي شيبة ٤/ ٨٤، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٢٦.

(٤) تفسير الطبري ١٦/ ٥٢٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٨٩ (١٣٨٩٩)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٣٥٧ أيضاً إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ ما ينذرونه مِن أعمال البِرِّ في حجِّهم، وعن ابنِ عباس تخصيصُ ذلك بما ينذرونه مِنْ نحرِ البُدْن. وعن عكرمةَ: هي مواجب الحجِّ. وعن مجاهد: ما وجب مِن الحجِّ والهدي، وما نذره الإنسان مِن شيء يكون في الحجِّ، فالنذر بمعنى الواجب مطلقاً مجاز.

وقرأ شعبة عن عاصم: «وليُوَفُّوا» مشدَّداً[(١)] ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ طوافَ الإفاضة، وهو طوافُ الزيارة الذي هو من أركان الحجِّ، وبه تمامُ التحلُّل، فإنَّه قرينةُ قضاءِ التَّفَث بالمعنى السابق، وروي ذلك عن ابن عباس، ومجاهد، والضحَّاك، وجماعةٍ، بل قال الطبريُّ[(٢)] - وإن لم يُسلَّم له -: لا خلافَ بين المتأوِّلين في أنَّه طوافُ الإفاضة، ويكون ذلك يوم النحر، وقيل: طواف الصَّدَر وهو طواف الوداع، وفي عدِّه مِن المناسك خلافٌ.

﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ أخرج البخاريُّ في «تاريخه»، والترمذيُّ وحسَّنه، والحاكم وصحَّحه، وابنُ جرير، والطبرانيُّ، وغيرُهم عن ابنِ الزبير قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّما سمَّى اللهُ البيتَ العتيقَ؛ لأنَّه أَعتقه مِن الجبابرة، فلم يظهر عليه جبَّارٌ قطُّ»[(٣)] وإلى هذا ذهب ابنُ أبي نجيح، وقتادة.

وقد قصده تُبَّع[(٤)] ليَهْدِمه فأصابه الفالجُ، فأشير عليه أن يكفَّ عنه، وقيل: له ربٌّ يمنعه، فتركَه، وكساه وهو أوَّل مَن كساه. وقصده أبرهةُ فأصابه ما أَصابه، وأما الحجَّاج فلم يقصد التسلُّط على البيت، لكن تحصَّن به ابنُ الزبير فاحتالَ

---

(١) التيسير ص١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٦.

(٢) في التفسير ١٦/ ٥٣١.

(٣) التاريخ الكبير للبخاري ١/ ٢٠١، والترمذي (٣١٧٠)، والحاكم ٢/ ٣٨٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٥٣١، والطبراني في الكبير (٢٦٢)، وأخرجه أيضاً البيهقي في الدلائل ١/ ١٢٥، وفي الشُّعَب (٤٠١٠).

(٤) هو: حسان بن أسعد أبي كرب الحميري، ويقال: تُبَّع بن حسان، وقيل غير ذلك، من أعاظم تبابعة اليمن في الجاهلية، عاش في القرن العاشر قبل الهجرة أو قبل ذلك. وخبر هدمه للكعبة وأنه أول من كساها ذكره الأزرقي في أخبار مكة ١/ ١٣٣، ٢٤٩، وابن منظور في مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ٥/ ٢٩٥ وما بعدها.

لإخراجه ثم بناه[١]، ولعلَّ ما وقع مِن القرامطة ـ وإن أخذوا الحجرَ الأسودَ وبقي عندهم سنين ـ مِن هذا القبيل[٢]، ويقال فيما يكون آخر الزمان مِن هدم الحبشة إيَّاه وإلقاء أحجارِه في البحر[٣] ـ إن صحَّ ـ: إنَّ ذلك مِن أشراطِ الساعة التي لا ترد نقضاً على الأمور التي قيل باطِّرادها، وقيل في الجواب غير ذلك.

وعن مجاهد أنَّه إنَّما سمِّي بذلك؛ لأنَّه لم يُملَك موضِعُه قطُّ، وفي روايةٍ أخرى عنهُ أنَّ ذلكَ؛ لأنهُ أُعتقَ من الغَرَقِ زمانَ الطوفانِ، وعنِ ابنِ جبيرٍ أنَ العتيقَ بمعنى الجيِّدِ، من قولهم: عتاقُ الخيلِ وعتاقُ الطير، وقيلَ: فَعِيْل بمعنى مفعلٍ أي: مُعْتِق رقابَ المذنبين، ونسبة الإعتاقِ إليه مجازٌ؛ لأنَّه تعالى يُعتِقُ رقابَهم بسببِ الطَّواف به. وقال الحسن، وابنُ زيدٍ: العتيقُ: القديمُ، فإنَّه أوَّلُ بيتٍ وُضعَ للناس، وهذا هو المتبادَر إلَّا أنَّك تَعلمُ أنَّه إذا صحَّ الحديثُ لا يُعدَل عنه، ثم إنَّ حِفْظَه مِن الجبابرة وبقاءَه الدهرَ الطويل معظَّماً يؤتى مِن كلِّ فجٍّ عميقٍ بمحضِ إرادة اللهِ تعالى المبنيَّة على الحكم الباهرة.

وبعض المُلحدين زعموا أنَّه بني في شرف زُحَل والطالع الدلو أحد بيتَيْه، وله مناظرات سعيدةٌ، فاقتضى ذلك حفظَه مِن الجبابرة وبقاءَه معظماً الدهرَ الطويل، ويسمُّونه لذلك بيتَ زحل، وقد ضلُّوا بذلك ضلالاً بعيداً، وسنبيِّن ـ إن شاء الله تعالى ـ خَطَأَ من يقول بتأثيرِ الطالع أتمَّ بيانٍ، والله تعالى المستعان.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر، وهذا وأمثاله مِن أسماء الإشارة يُطلَق للفصل بين الكلامَيْن أو بين وجهي كلامٍ واحد، والمشهور مِن ذلك هذا، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَاۚ

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٥.
(٢) الخبر ذكره ابن الأثير في الكامل ٨/ ٢٠٧ وما بعدها، وابن كثير في البداية والنهاية ١١/ ١٦٠.
(٣) الخبر هكذا ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب ٢/ ١٢٢، وذكره أيضاً العيني في عمدة القاري ٩/ ٢٣٣ وعزاه لابن الجوزي، وأصله عند البخاري (١٥٩١) و(١٥٩٦)، ومسلم (٢٩٠٩) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخرِّب الكعبةَ ذو السويقتين من الحبشة» وهو أيضاً عند البخاري عن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «كأني به أسودَ أفحجَ، يقلعها حجراً حجراً». ولم يرد فيهما ذكر إلقاء الأحجار في البحرِ. ومعنى أفحج: أي بعيد ما بين الساقين. فتح الباري ٣/ ٤٦١.

﴿وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٥٥] وكقول زهير وقد تقدَّم له وصفُ هَرِمٍ بالكرم والشجاعة:

هـذا ولـيـسَ كَـمَـنْ يَـعْـيـا بـخُـطْـبـتـه وَسطَ الـنـديِّ إذا مـا نـاطـقٌ نـطـقـا[١]

واختيار «ذلكَ» هنا؛ لدلالته على تعظيم الأمر وبُعْدِ منزلته وهو مِن الاقتضاب القريب من التخلُّص لملاءَمة ما بعدَه لما قَبْله، وقيل: هو في موضع نصب بفعلٍ محذوفٍ، أي: امتثلوا ذلك.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ جمع: حُرْمَة، وهو: ما يُحتَرم شرعاً، والمرادُ بها جميعُ التكليفات مِن مناسك الحجِّ وغيرها. وتعظيمُها بالعِلْم بوجوب مراعاتِها والعمل بموجبه، وقال جمعٌ: هي ما أمرَ به مِن المناسك، وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: هي جميعُ المناهي في الحجِّ: فسوقٌ وجدال وجماعٌ وصَيْد، وتعظيمها أن لا يحومَ حولَها. وعن ابنِ زيد: هي خمسٌ: المشعرُ الحرام، والمسجدُ الحرام، والبيتُ الحرام، والشهرُ الحرام، والمُحرِم حتى يحلَّ. ﴿فَهُوَ﴾ أي: فالتعظيم ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ مِن غيره على أنَّ «خير» اسمُ تفضيل. وقال أبو حيَّان[٢]: الظاهر أنَّه ليس المرادُ به التفضيلَ، فلا يحتاج لتقدير متعلَّق، ومعنى كونه خيراً له ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أنَّه يُثاب عليه يومَ القيامة، والتعرُّض لعنوانِ الربوبيَّة مع الإضافة إلى ضمير «مَن»؛ لتشريفه والإشعار بعلَّة الحكم.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمُ﴾ أي: ذَبْحها وأكلها؛ لأنَّ ذاتها لا تُوصَف بحلٍّ وحُرمة، والمراد بها الأزواجُ الثمانية على الإطلاق، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه، استثناء متَّصل كما اختاره الأكثرونَ منها، على أنَّ «ما» عبارة عمَّا حرمَ منها لعارض، كالميتة وما أُهل به لغيرِ الله تعالى، وجوّز أن يكون الاستثناء منقطعاً؛ بناء على أنَّ «ما» عبارة عمَّا حرم في قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ الآية [٣ من سورة المائدة]، وفيه ما ليس مِن جنس

---

(١) شرح ديوان زهير ص٥٥، وفيه: بخطَّته، بدل: بخطبته، والرجال، بدل: الندي، وذكره بلفظ: بخطبته، ابن رشيق في العمدة ٢/ ١٣٤، وذكره القيراواني في زهر الآداب ٢/ ٧٠٥ بلفظ: بحُجَّته.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٦.

الأنعام، والفعل على الوجهين لم يَرد منه الاستقبالُ؛ لسَبقِ تلاوةِ آية التحريم، وكأنَّ التعبيرَ بالمضارع؛ استحضاراً للصورة الماضية لمزيدِ الاعتناء، وقيل: التعبيرُ بالمضارع للدلالة على الاستمرار التجدديِّ المناسب للمقام، والجملة معترضة مقرِّرة لما قبلها مِن الأَمْرِ بالأكل والإطعام، ودافعةٌ لما عسى يتوهَّم أنَّ الإحرام يُحرِّم ذلك كما يُحرِّم الصيدَ.

﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: القَذَر ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ﴾ أي: الذي هو الأوثان، على أنَّ «مِن» بيانيَّة.

وفي تعريف «الرجس» بلامِ الجنس مع الإبهام والتعيين وإيقاع الاجتناب على الذاتِ دونَ العبادة مالا يَخفى مِن المبالغة في التنفير عن عبادتها. وقيل: «مِن» لابتداءِ الغاية، فكأنَّه تعالى أَمرهم باجتنابِ الرجس عامًّا، ثم عيَّن سبحانه لهم مبدأه الذي منه يلحقهم، إذ عبادةُ الوَثَنِ جامعةٌ لكلِّ فسادٍ ورجسٍ، وفي «البحر»[1]: يمكن أن تكون للتبعيض، بأن يعني بالرجس عبادةَ الأوثان، وقد رُويَ ذلك عن ابنِ عباس، وابنِ جريج، فكأنَّه قيل: فاجتنبوا مِن الأوثان الرجسَ، وهو العبادة؛ لأنَّ المحرَّم منها إنَّما هو العبادة، ألا ترى أنَّه قد يتصوَّر استعمالُ الوَثَن في بناءٍ وغيرِ ذلك مما لم يُحرِّمه الشرعُ، فكأنَّ للوثنِ جهات، منها عبادته وهو المأمورُ باجتنابه، وعبادتُه بعضُ جهاته، فقول ابنِ عطيَّة[2]: إنَّ من جعل «مِن» للتبعيض قَلَب المعنى وأفسده، ليس في محلِّه. انتهى. ولا يَخفى ما في كلا الوجهين الابتداءِ والتبعيضِ مِن التكلُّف المستغنى عنه، وهاهنا احتمالٌ آخَر ستعلمه ـ مع ما فيه ـ إن شاء الله تعالى قريباً، والفاءُ لترتيب ما بعدَها على ما يفيده قوله تعالى: «ومَن يعظِّم» إلخ، مِن وجوب مراعاةِ الحرمات والاجتناب عن هَتْكها.

وذكر أنَّ بالاستثناء حسن التخلُّص إلى ذلك، وهو السِّرُّ في عدم حَمْلِ الأنعام على ما ذكر مِن الضحايا والهدايا المعهودة خاصَّة ليستغنى عنه، إذ ليس فيها ما حرم لعارض، فكأنَّه قيل: ومَن يُعظِّم حرماتِ اللهِ فهو خيرٌ له، والأنعام ليست مِن الحرمات فإنَّها محلَّلة لكم إلا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه، فإنَّه مما يجبُ الاجتناب

---

(١) ٦/ ٣٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٠.

عنه، فاجتنبوا ما هو معظم الأمور التي يجب الاجتنابُ عنها وهو عبادةُ الأوثان، وقيل: الظاهر أنَّ ما بعدَ الفاءِ متسبّب عن قوله تعالى: «أُحلَّت لكم الأنعام» فإنَّ ذلك نعمةٌ عظيمةٌ تستدعي الشكرَ للهِ تعالى لا الكفرَ والإشراكَ، بل لا يَبعُد أن يكون المعنى: فاجتنبوا الرجسَ مِن أجل الأوثان، على أنَّ «من» سببيَّة وهي تخصيصٌ لما أهلَّ به لغير الله تعالى بالذكر، فيتسبَّب عن قوله تعالى: «إلَّا ما يُتلى»، ويؤيِّده قولُه تعالى: فيما بعد ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الآية: ٣١] فإنَّه إذا حمل على ما حملوه كان تكراراً. انتهى. وأوردَ على ما ادَّعى ظهوره أنَّ إحلالَ الأنعام وإن كان مِن النِّعَم العظام إلَّا أنَّه مِن الأمور الشرعيَّة دونَ الأدلة الخارجيَّة التي يُعرَف بها التوحيد وبطلانُ الشرك فلا يَحسُن اعتبارُ تسبُّب اجتنابِ الأوثان عنه. وأمَّا ما ادَّعى عدم بُعدِه، فبعيدٌ جدًّا وإنكار ذلك مكابرةٌ، فتأمَّل.

وقوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ تعميمٌ بعد تخصيصٍ، فإنَّ عبادةَ الأوثان رأسُ الزُّور؛ لما فيها مِن ادِّعاء الاستحقاقِ، كأنَّه تعالى لما حثَّ على تعظيم الحرمات، أتبعَ ذلك بما فيه ردٌّ لما كانت الكفرة عليه مِن تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراءِ على الله تعالى، بأنَّه حَكَم بذلك، ولم يعطف «قولَ الزور» على «الرجس»، بل أعاد العاملَ؛ لمزيدِ الاعتِناء.

والمراد مِن «الزُّور»: مُطلَق الكذبِ وهو مِن الزَّوَر بمعنى الانحرافِ، فإنَّ الكذبَ منحرفٌ عن الواقع، والإضافة بيانيَّة، وقيل: هو أمرٌ باجتناب شهادةِ الزُّوْر؛ لما أخرج أحمدُ، وأبو داود، وابنُ ماجه، والطبرانيُّ، وغيرُهم عن ابنِ مسعود أنَّه ﷺ صلَّى صلاةَ الصبح، فلما انصرفَ قائماً قال: «عَدَلَتْ شهادةُ الزُّور الإشراكَ بالله تعالى» ثلاثَ مرَّات، ثم تلا هذه الآيَةَ(١).

---

(١) الطبراني في الكبير (٨٥٧٠)، ولم نقف عليه عند غيره من المصادر المذكورة أعلاه عن ابن مسعود رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٠١: رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن. اهـ. قلنا: وفيه ضرار بن صرد، وهو متروك. تهذيب الكمال.
وأخرجه أحمد (١٨٨٩٨)، وأبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠)، وابن ماجه (٢٣٧٢)، والطبراني في الكبير (٤١٦٢) من حديث خريم بن فاتك الأسدي رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (١٧٦٠٣)، والترمذي (٢٢٩٩) من حديث أيمن بن خريم رضي الله عنه. قال الترمذي: وهذا حديث غريب... ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبيِّ ﷺ. اهـ.
=

وتُعقِّب بأنَّه لا نصَّ فيما ذكر مِن الخبر ـ مع ما في سندِه في بعضِ الطرق مِن المقال ـ على التخصيصِ؛ لجواز بقاءِ الآية على العموم وتلاوتها لشمولِها لذلك، وأخرج ابنُ أبي حاتم عن مقاتل أنَّه قال: يعني بـ: «قول الزور»: الشركَ بالكلام، وذلك أنَّهم كانوا يطوفون بالبيت، فيقولون في تلبيتهم: لبيكَ لا شريكَ لكَ إلا شريكاً هو لكَ تَملكُه وما مَلَك[1]. وهو قولٌ بالتخصيص. ولا يَخفى أنَّ التعميمَ أَولى منه وإن لَاءَم المقامَ، كتخصيص بعضِهم ذلك بقولِ المشركين: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ مائلينَ عن كلِّ دينٍ زائغ إلى الدينِ الحقِّ، مخلصِين له تعالى ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ﴾ أي: شيئاً مِن الأشياء، فيدخل في ذلك الأوثان دخولاً أوليًّا، وهما حالانِ مؤكِّدتان مِن واو: «فاجتنبوا»، وجوّز أن يكون حالاً مِن واو «واجتنبوا»، وأخّر التبرِّي عن التوليِّ؛ ليتَّصل بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي جملةٌ مبتدأةٌ مؤكِّدة لما قَبلها مِن الاجتناب مِن الإشراك، وإظهار الاسم الجليل؛ لإظهار كمال قُبْحِ الإشراك، وقد شبّه الإيمان بالسماء؛ لعلوِّه، والإشراك بالسقوط منها، فالمشرك ساقطٌ مِن أوجِ الإيمان إلى حضيضِ الكفر، وهذا السقوط إن كان في حقِّ المرتدِّ فظاهر، وهو في حقِّ غيره باعتبار الفطرة، وجعل التمكُّن والقوَّة بمنزلة الفعل، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ فإنَّ الأهواءَ المُردِية توزِّع أفكارَه، وفي ذلك تشبيهُ الأفكار الموزَّعة بخطفِ جوارح الطيرِ، وهو مأخوذٌ مِن قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزمر: ٢٩] وأصلُ الخطفِ: الاختلاسُ بسرعة.

وقرأ نافع: «فَتَخَطَّفُهُ» بفتح الخاءِ والطاء مشدَّدة[2]. وقرأ الحسنُ، وأبو رجاء، والأعمش: «فَتِخِطِّفُهُ» بكسرِ التاء والخاء والطاء مشدَّدة[3]، وعن الحسنِ كذلك

= وقال عن حديث خريم بن فاتك: هذا عندي أصح، وخريم بن فاتك له صحبة، وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث، وهو مشهور.

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٩١ (١٣٩١٤).

(٢) التيسير ص١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٦.

(٣) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٦.

إلا أنَّه فتح الطاء مشدَّدة[١]. وقرأ الأعمش أيضاً: «تَخْطَفُهُ» بغير فاء، وإسكان الخاء وفتح الطاء مخفَّفة[٢]، والجملة على هذه القراءة في موضع الحالِ، وأمَّا على القراءات الأُوَل فالفاء للعطف، وما بعدها عطف على «خَرَّ»، وفي إيثار المضارع إشعارٌ باستحضار تلك الحالة العجيبةِ في مشاهدِ المخاطب تعجيباً له، وجوَّز أبو البقاء[٣] أن يكون الكلامُ بتقدير: فهو يخطفه، والعطف مِن عطف الجملة على الجملة ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي: تُسقِطه وتَقذِفه.

وقرأ أبو جعفر، وأبو رجاء: «الرياح»[٤] ﴿فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ بعيدٍ، فإنَّ الشيطانَ قد طوَّح به في الضلالة، وفي ذلك تشبيهُ الشيطان المُضِلِّ بالريح المهويَّة، وهو مأخوذٌ مِن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] فالتشبيه في الآية مفرّق، والظاهر أنَّ «تهوي» عطف على «تخطف»، و«أو» للتقسيم على معنى أنَّ مهلكَه إمَّا هوًى يتفرَّق به في شعب الخسار، أو شيطان يطوِّح به في مَهْمَهِ البوار، وفرق بين خاطر النفس والشيطان، فلا يرد ما قاله ابنُ المنيِّر[٥] مِن أنَّ الأفكارَ مِن نتائج وساوسِ الشيطان، والآية سيقت لجعلهما شيئين، وفي تفسير القاضي[٦] أنَّها للتخيير على معنى: أنتَ مخيَّر بين أن تُشبِّه المشركَ بمن خرَّ مِن السماء فتخطفه الطيرُ، وبين من خرَّ من السماء فتهوي به الريحُ في مكانٍ سحيق، أو للتنويع على معنى أنَّ المشبَّه به نوعان، والمشبَّه بالنوع الأوَّل ـ الذي توزَّع لحمُه في بطونِ جوارح الطير ـ المشركُ الذي لا خلاصَ له مِن الشرك ولا نجاةَ أصلاً، والمشبَّه بالنوع الثاني ـ الذي رمته الريح في المهاوي ـ المشركُ الذي يُرجى خلاصُه، على بُعْدٍ. وقال ابنُ المنيِّر[٧]: إنَّ الكافر قسمان لا غير: مُذبذَب متمادي على الشَّكِّ وعدم التصميم على ضلالة واحدة، وهذا مشبَّه بمن اختطفته الطيرُ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٦.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٦.
(٣) الإملاء ٤/ ٣٨.
(٤) النشر ٢/ ٢٢٤، والقراءات الشاذة ص٩٥.
(٥) في كتابه: الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ٣/ ١٣.
(٦) البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٦/ ٢٩٥.
(٧) الانتصاف ٣/ ١٣.

وتوزعته، فلا يستولي طائرٌ على قطعةٍ منه إلا انتهبها منه آخرُ، وتلك حالُ المذبذب لا يلوح له خيالٌ إلا اتَّبَعه وتَرَكَ ما كان عليه. ومشرك مصمِّم على مُعتقَد باطل لو نُشِرَ بالمناشيرلم يَكِعَّ[1]، ولم يرجع، لا سبيلَ إلى تشكيكِه ولا مطمَع في نَقْله عمَّا هو عليه، فهو فرح متبهجٌ بضلالته، وهذا مشبَّه في قراره على الكفر باستقرار مَن هوت به الريح إلى وادٍ سافلٍ هو أبعد الأحياز[2] عن السماء فاستقرَّ فيه. انتهى. ولا يخفى أنَّ ما ذكرناه أوفقُ بالظاهر.

وجوَّز غيرُ واحد أن يكون مِن التشبيهات المركَّبة، فكأنَّه سبحانه قال: مَن أشركَ بالله تعالى فقد أهلك نفسَه إهلاكاً ليس بعده [نهاية]، بأنْ صوَّرَ حاله بصورة حالِ مَن خرَّ من السماء، فاختطفَتْه الطيرُ فتفرَّقَ قِطَعاً في حواصلها، أو عصفت به الريحُ حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة[3]. وجعل في «الكشف» «أو» على هذا للتخيير، وليس بمتعيَّن فيما يظهر، وعلى الوجهين تفريقُ التشبيه وتركيبه في الآية تشبيهان.

وذكر الطيبيُّ أنَّ فيها على التركيب تشبيهين، و«تهوي» عطف على «خرَّ»، وعلى التفريق تشبيهاً واحداً، و«تهوي» عطف على «تخطف»، وزعم أنَّ في عبارة «الكشاف» ما يُؤذِن بذلك، وهو غير مُسلَّم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو: امتثلوا ذلك ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ أي: البُدْنَ الهدايا، كما روي عن ابنِ عباس، ومجاهد، وجماعةٍ، وهي جمعُ: شَعيرةٍ أو شِعارة بمعنى العَلَامة كالشِّعَار، وأطلقت على البُدْن الهدايا؛ لأنَّها مِن معالم الحجِّ أو علامات طاعتِه تعالى وهدايته.

وقال الراغبُ[4]: لأنَّها تُشعَر، أي: تُعلَّم، بأن تُدمَى بشعيرة، أي: حديدةٍ يُشعَر بها. ووجه الإضافة على الأوجه الثلاثة لا يَخفى، وتعظيمها أنْ تُختار حِسَاناً سماناً غاليةَ الأثمان، روي أنَّه ﷺ أَهدى مئةَ بدنةٍ فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرَةٌ

---

(١) كَعَّ يَكِعُّ ويَكُعُّ: جَبُنَ وضَعُفَ، فهوكَعٌّ وكاعٌّ وكُعْكُعٌ. القاموس (كعع).

(٢) في الانتصاف ٣/ ١٣: الأحياء.

(٣) الكشاف ٣/ ١٢ وما بين حاصرتين استدركت منه.

(٤) المفردات (شعر).

مِن ذهب[١]. وعن عمرَ أنَّه أهدى نَجِيبةً طُلبَت منه بثلاثِ مئةِ دينار، وقد سأل النبيَّ ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بُدْناً، فنهاه عن ذلك، وقال: «بل أَهْدِها»[٢].

وكان ابنُ عمر رضي الله عنهما يَسوقُ البُدْن مجلَّلة بالقباطي[٣]، فيتصدَّق بلحومِها وبجِلالها. وقال زيدُ بنُ أسلم: الشعائرُ ستٌّ: الصفا، والمروة، والبُدْن، والجِمار، والمسجدُ الحرام، وعرفةُ، والركنُ، وتعظيمها إتمامُ ما يُفعَل بها. وقال ابنُ عمر، والحسنُ، ومالكٌ، وابنُ زيدٍ: الشعائرُ: مواضعُ الحجِّ كلّها مِن منى وعرفةَ والمزدلفة والصفا والمروة والبيت وغيرِ ذلك، وهو نحو قول زيد.

وقيل: هي شرائعُ دينه تعالى، وتعظيمها: التزامها، والجمهور على الأوّل، وهو أوفقُ لما بعد.

و«من» إمَّا شرطيَّة، أو موصولة، وعلى التقديرين لا بُدَّ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ مِن ضمير يعود إليها، أو ما يقوم مقامَه، فقيل: إنَّ التقديرَ: فإنَّ تعظيمها إلخ، والتعظيم مصدرٌ مضاف إلى مفعولِه، ولا بُدَّ له مِن فاعل، وهو ليس إلا ضميراً يعود إلى «من»، فكأنَّه قيل: فإن تعظيمَه إيَّاها، و«من» تحتمل أن تكون للتعليل، أي: فإنَّ تعظيمَها لأجلِ تقوى القلوب، وأن تكون لابتداء الغاية، أي: فإنَّ تعظيمَها ناشئٌ مِن تقوى القلوب، وتقديرُ هذا المضاف واجبٌ على ما قيل مِن حيث إنَّ الشعائرَ نفسَها لا يصحُّ الإخبارُ عنها بأنَّها مِن التقوى بأيِّ معنًى كانت «من». وقال الزمخشريُّ[٤]: التقديرُ: فإنَّ تعظيمَها مِن أفعال ذوي تقوى القلوب،

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البزار في مسنده (٦١٧) من حديث علي رضي الله عنه. وهو عند أبي داود (١٧٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه، ودون ذكر عدد البُدْن.

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٥٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهو عند أحمد (٦٣٢٥)، والبخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٢٣٠. قال البخاري: لا يُعرف لجهم سماع من سالم. وقال الذهبي في الميزان: فيه جهالة. اهـ. والنجيبة: تأنيث النجيب، وهو الفاضل من كلِّ حيوان. ووردت عند أحمد: بختيَّة، والبُختيَّة: الأنثى من الجمال البُخت، والذكر بُختيٌّ، وهي جِمال طوال الأعناق. النهاية (نجب) و(بخت).

(٣) القُبْطِيَّة: الثوب من ثياب مصر رقيقة بيضاء، وكأنه منسوب إلى القِبْط وهم أهل مصر. النهاية (قبط).

(٤) الكشاف ٣/ ١٣-١٤.

فحذفت هذه المضافاتُ، ولا يستقيمُ المعنى إلا بتقديرها؛ لأنَّه لا بُدَّ من راجع مِن الجزاء إلى «من» ليرتبط به. اهـ.

وتعقَّبَهُ أبو حيَّانٍ[١] بأنَّ ما قدَّره عارٍ من راجعٍ إلى «من»، ولذا لمَّا سلكَ جمعٌ مسلَكَهُ في تقديرِ المضافات، قيل: التَّقديرُ: فإنَّ تعظيمَها منه من أفعال. . . إلخ، أو: فإنَّ تعظيمَها من أفعالِ ذوي تقوى القلوبِ منهم، فجاؤوا بضميرٍ مجرورٍ عائدٍ إلى «من» في آخرِ الكلامِ أو في أثنائِهِ، وبعضُ مَنْ سَلَكَ ذلكَ لم يقدِّرْ: «منه» ولا «منهم»، لكن التزم جعلَ اللَّام في «القلوب» بدلاً من الضميرِ المضاف إليه على رأي الكوفيين للربطِ، أي تقوى قلوبِهم. والدمامينيُّ[٢] جعلَ الرابطَ في تقدير الزمخشريِّ فاعلَ المصدرِ المحذوفِ؛ لفهم المعنى، فلا يكونُ ما قدَّرهُ عارياً عن الراجع إلى «من» كما زعمه أبو حيَّان، فإنَّ المحذوفَ المفهومَ بمنزلةِ المذكور.

وقال صاحبُ «الكشف» في الانتصار له أيضاً: أرادَ أنَّه على ما قدَّرهُ يكونُ عمومُ ذوي تقوى القلوبِ بمنزلة الضميرِ، فتقديرُ «منه» كما فعلَ البيضاويُّ[٣] ليس بالوجهِ. واعترضَ صاحبُ «التقريبِ» تقديرَ المضافين الأخيرَيْن، أعني: «أفعال» و«ذوي» بأنَّه إنَّما يحتاجُ إليه إذا جعلَ «من» للتبعيضِ، وأمَّا إذا جعلَ للابتداءِ فلا، إذ المعنى حينئذٍ: فإنَّ تعظيمَها ناشئٌ من تقوى القلوبِ، وهو قولٌ بأحدِ الوجهين اللذين سمعتهما أوّلاً، ولم يرتضِ ذلك صاحبُ «الكشفِ»، قال: إنَّ إضمارَ الأفعالِ؛ لأنَّ المعنى: إنَّ التعظيمَ بابٌ من التَّقوى ومن أعظمِ أبوابِها، لا أنَّ التعظيمَ صادرٌ من ذي تقوى. ومنه يظهرُ أنَّ الحملَ على أنَّ التعظيمَ ناشئٌ من تقوى القلوبِ، والاعتِراض بأنَّ قولَ الزمخشريِّ: إنَّما يستقيمُ إذا حُمِل على التبعيضِ، ليس على ما ينبغي، على أنَّه حينئذٍ إنْ قدِّر: من تقوى قلوبِهم، على المذهبِ الكوفيِّ، أو: من تقوى القلوبِ منهم، اتَّسعَ الخَرْقُ على الرَّاقعِ، ثم التَّقوى إنْ جُعِلَتْ متناولة للأفعالِ والتُّروكِ على العُرفِ الشرعيِّ، فالتعظيمُ بعضٌ ألبتةَ، وإنْ جُعِلَتْ خاصَّة بالتروك فمنشأ التعظيم منها غيرُ لائح إلا على التجوُّز. انتهى.

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٨.

(٢) ونقله عنه الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٦/ ٢٩٦-٢٩٧.

(٣) تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ٦/ ٢٩٦.

واعتُرِضَ بأنَّ دعواهُ أنَّ المعنى على أنَّ التعظيمَ بابٌ من التَّقوى دونَ أنَّ التَّعظيمَ صادرٌ من ذي تقوى، دعوى بلا شاهدٍ، وبأنَّه لا تظهرُ الدّلالةُ على أنَّه من أعظمِ أبوابِ التَّقوى كما ذكره، وبأنَّ القولَ بعدمِ الاحتياج إلى الإضمار على تقدير أنْ يكونَ التعظيمُ بعضاً من التَّقوى، صلحٌ لا يرضى به الخصمُ، وبأنَّه إذا صحَّ الكلامُ على التجوُّزِ لا يستقيم قولُ الزمخشريِّ: لا يستقيمُ. . . إلخ.

وتعقّب بأنَّه غيرُ واردٍ، أمَّا الأوَّل؛ فلأنَّ السِّياق للتحريض على تعظيمِ الشَّعائرِ، وهو يقتضي عدَّهُ من التَّقوى بل مِن أعظمِها، وكونه ناشئاً منها لا يقتضي كونَهُ منها، بل ربَّما يشعرُ بخلافِهِ.

وأمَّا الثَّاني؛ فلأنَّ الدلالةَ على الأعظميَّةِ مفهومة من السياقِ كما إذا قُلْتَ: هذا من أفعالِ المتَّقين، والعفو من شيمِ الكرامِ، والظُّلمُ من شيمِ النُّفوسِ، كما يشهد به الذَّوقُ.

وأمَّا الثَّالث؛ فلأنَّه لم يدَّعِ عدمَ الاحتياج إلى الإضمارِ على تقديرِ كونِ التعظيمِ بعضاً، بل يقولُ: الرَّابطُ العموم كما قال أوَّلاً.

وأمَّا الرَّابع؛ فلأنَّ صحةَ الكلامِ بدونِ تقديرٍ على التجوُّز؛ لكونِهِ خفيًّا في قوَّة الخطأ، إذ لا قرينةَ عليه، والتبعيضُ متبادرٌ منه، فلا غبارَ إلا على نظرِ المعترضِ، وأقول: لا يخفى أنَّه كلَّما كان التَّقديرُ أقلَّ كان أَولى، فيكونُ قولُ من قال: التَّقديرُ: فإنَّ تعظيمَها من تقوى القلوبِ أولى من قول من قال: التَّقديرُ: فإنَّ تعظيمَها مِن أفعالِ ذوي تقوى القلوب. و«من» في ذلك للتبعيضِ، وما يقتضيهِ السِّياقُ من تعظيم أمرِ هذا التعظيم يُفهم مِن جعلِه بعضَ تقوى القلوبِ بناءً على أنَّ تقييدَ التَّقوى بالقلوبِ للإشارة إلى أنَّ التقوى قسمان: تقوى القلوب والمرادُ بها التقوى الحقيقيَّة الصَّادقة التي يتَّصفُ بها المؤمنُ الصَّادقُ، وتقوى الأعضاءِ والمرادُ بها التَّقوى الصوريَّة الكاذبة التي يتَّصفُ بها المنافقُ الذي كثيراً ما تخشعُ أعضاؤُه، وقلبهُ ساهٍ لاهٍ. والتركيبُ أشبه التراكيبِ بقولهم: العَفْوُ من شيمِ الكرامِ، فمتى فُهِمَ منه كون العفوِ من أعظمِ أبوابِ الشيمِ، فليفهم من ذلكَ كونَ التعظيمِ من أعظمِ أبوابِ التقوى، والفرقُ تحكُّم، ولعلَّ كونَ الإضافةِ لهذة الإشارةِ أَولى من كونِها لأنَّ القلوبَ منشأُ التَّقوى والفجورِ والآمرةُ بهما، فتدبَّره، ومن الناسِ مَنْ لَمْ يوجبْ

تقديرَ التعظيمِ، وأرجعَ ضمير «فإنَّها» إلى الحرمةِ أوالخصلةِ كما قيلَ نَحو ذلك في قولِهِ ﷺ: «مَن توضَّأَ يومَ الجمعةِ فَبِها ونِعْمَتْ»(١) أو إلى مصدرٍمؤنَّثٍ مفهومٍ من «يُعَظِّم» أي: التعظيمة.

واعتُرِضَ هذا بأنَّ المصدرَ الذي تضمَّنه الفعلُ لايؤنَّثُ إلا إذا اشتُهِرَ تأنيثُهُ كرحمة، وهذا ليس كذلك، ونُظِرَ فيه: نَعم إنَّ اعتبارَذلك مما لايستلذُّه الذوقُ السليمُ، ومنه يُعلَم حال اعتبارِ التعظيماتِ بصيغةِ الجمعِ، على أنَّه قيل عليه: إنَّه يُوهِمُ أنَّ التعظيمةَ الواحدةَ ليست من التَّقوى، ولايدفعه أنَّه لااعتبارَ بالمفهومِ، أو أنَّ ذلك من مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ كما لايَخفى.

وإذا اعتُبرَ المذهبُ الكوفِيُّ في لامِ «القلوب» لم يحتج في الآيةِ إلى إضمارِ شيءٍ أصلاً.

وذَهَبَ بعضُ أهلِ الكمالِ إلى أنَّ الجزاء محذوف، تقديره: فهم متَّقون حقًّا؛ لدلالة التعليلِ القائم مقامَه عليه.

وتُعقِّب بأنَّ الحذفَ خلافُ الأصلِ، وما ذكرَ صالحٌ للجزائيَّةِ باعتبارِ الإعلامِ والإخبارِ كما عُرِفَ في أمثالِهِ، وأنت تعلَمُ أنَّ هذا التقديرَ ينساقُ إلى الذِّهنِ، ومثلُه كثير في الكتابِ الجليلِ.

وقرئ: «القلوبُ» بالرَّفع(٢)، على أنَّه فاعل بالمصدرِ الذي هو«تقوى».

واستدلَّ الشيعةُ ومَنْ يحذو حَذْوَهم بالآيةِ على مشروعيَّةِ تعظيمِ قبورِ الأئمَّةِ وسائرِ الصالحينَ بإيقادِ السُّرُجِ عليها وتعليقِ مصنوعاتِ الذَّهبِ والفضَّةِ ونحو ذلك مما فَاقُوا به عبدةَ الأصنامِ، ولا يَخفى ما فيه.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الشَّعائر بالمعنى السَّابقِ ﴿مَنَٰفِعُ﴾ هي دَرُّها ونسلُها وصوفُها ورُكوبُ ظهورِها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو وقتُ أَنْ يسمِّيها ويوجبَها هَدْياً، وحينئذٍ ليس لهم شيءٌ من منافِعِها، قالَه ابن عباسٍ في روايةِ مقسمٍ، ومجاهد، وقتادة، والضَّحَّاك، وكذا عند الإمامِ أبي حنيفةٍ، فإنَّ المُهدِي عنده بعد التسميةِ

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٤)، وهو عند أحمد (٢٠١٧٤) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.
(٢) تفسير القرطبي ١٤/٣٨٩، والبحر المحيط ٦/٣٨٦.

والإيجاب لا يَملكُ منافعَ الهدي أصلاً؛ لأنَّه لو مَلَكَ ذلك لجاز له أن يُؤْجِرَه للركوب، وليس له ذلك اتفاقاً، نَعمْ يجوزُ لهُ الانتفاعُ عند الضَّرورةِ، وعليه يُحمَلُ ما رُويَ عن أبي هريرةَ أنَّه ﷺ مرَّ برجلٍ يسوقُ هَدْيه وهو في جهادٍ، فقال عليه الصلاة والسَّلام: «ارْكَبْها» فقال: يا رسول الله! إنَّها هَديٌ. فقال: «اركَبْها، وَيْلَكَ»(١).

وقال عطاءٌ: منافِعُ الهدايا بعد إيجابِها وتسميتِها هَدْياً أنْ تُركبَ ويُشربَ لبنُها عند الحاجةِإلى أجلٍ مسمًّى وهو وقتُ أَنْ تُنْحرَ، وإلى ذلك ذَهَبَ الشافعيُّ،فعن جابرٍ أنَّه ﷺ قال: «اركبُوا الهَدْيَ بالمعروفِ حتَّى تجدُوا ظهراً»(٢) واعتُرضَ على ما تقدَّمَ بأنَّ مولَى أمِّ الولدِ يملكُ الانتفاعَ بها وليس له أَنْ يبيعَها، فلمَ لا يجوزُ أَنْ يكون الهَدْيُ كذلك لا يَملكُ المُهْدِي بيعَهُ وإجارتَهُ ويملكُ الانتفاعَ بهِ بغير ذلك. وقيل: الأجلُ المسمَّى: وقتُ أنْ تُشعَرَ فلا تركبُ حينئذٍ إلاعند الضرورةِ.

وروى أبو رزين عن ابنِ عبَّاس: الأجلُ المسمَّى: وقتُ الخروجِ من مكَّةَ،وفي روايةٍأخرى عنه: وقتُ الخروجِ والانتقالِ من هذه الشَّعائرِ إلى غيرها، وقيل: الأجلُ المسمَّى: يومُ القيامة، ولا يَخفى ضَعْفُهُ.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: وجوبُ نَحْرِها، على أنْ يكونَ محلُّ مصدراً ميمياً بمعنى الوجوبِ مِن حَلَّ الدينُ إذا وجبَ، أو وقتُ نحرِها على أَنْ يكونَ اسمَ زمانٍ، وهو على الاحتمالينِ معطوفٌ على «منافع»، والكلامُ على تقدير مضافٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ في موضع الحالِ، أي: منتهية إلى البيت، والمراد به ما يَليه؛ بعلاقة المجاورة، فإنَّها لاتنتهي إلى البيت نفسِه، وإنَّما تنتهي إلى ما يَقربُ منه، وقد جعلت منى منحراً، ففي الحديث: «كلُّ فجاجِ مكَّة منحرٌ، وكلُّ فجاجِ منًى منحرٌ»(٣) وقال القفَّال: هذا في الهدايا التي تبلغ منى،

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٨٩)، ومسلم (١٣٢٢)، وهوعند أحمد (٧٣٥٠).

(٢) أخرجه بهذااللفظ ابن حبان في (صحيحه) (٤٠١٧)، وهو عند مسلم (١٣٢٤) (٣٧٦)، وأحمد (١٤٧٥٧) بلفظ: «اركبها بالمعروف حتى تجد ظهراً».

(٣) قطعة من حديث أخرجه أبو داود (٢٣٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو عند مسلم (١٢١٨) (١٤٩) عن جابر رضي الله عنه مُقتصراً على قوله ﷺ: «ومنى كلها منحر».

وأمَّا الهَدي المتطوَّع به إذا عَطِبَ قبل بلوغِ مكَّة فمنحرُه موضعه. وقالت الإماميَّة: منحر هدي الحجِّ منى، ومنحرُهدي العمرة المفرَدة مكَّة قبالةَ الكعبة بالحَزْورة.

و«ثم» للتراخي الزمانيِّ أو الرتبي، أي: لكم فيها منافع دنيويَّة إلى أجلٍ مسمًّى، وبعده لكم منفعةٌ دينيَّة مقتضيةٌ للثواب الأخروي، وهو وجوبُ نحرِها أو وقتُ نحرِها، وفي ذلك مبالغةٌ في كون نفسِ النحر منفعة، والتراخي الرُّتبي ظاهر، وأما التراخي الزمانيُّ فهو باعتبار أوَّل زمانِ الثبوت، ، فلا تغفل. والمعنى على القول بأنَّ المرادَ مِن الشعائر مواضعُ الحجِّ: لكم في تلك المواضع منافعُ بالأجر والثوابِ الحاصل بأداءِ ما يَلزم أداؤه فيها إلى أجلٍ مسمًّى هو انقضاءُ أيَّام الحجِّ، ثم محلُّها، أي: محلُّ الناس مِن إحرامهم إلى البيت العتيق، أي: مُنْتَهٍ إليه، بأن يطوفوا به طوافَ الزيارة يومَ النحر بعد أداء ما يلزم في هاتيكَ المواضع، فإضافة المحلِّ إليها؛ لأدنى ملابسةٍ، وروي نحو ذلك عن مالك في «الموطأ»[1]، أو: لكم فيها منافعُ التجارات في الأسواق إلى وقتِ المراجعة، ثم وقت الخروجِ منها منتهية إلى الكعبة بالإحلال بطوافِ الزيارة، أو لكم منافع دنيويَّة وأخرويَّة إلى وقت المراجعةِ. . . إلخ، وهَكذا يقال على ما روي عن زيدِ بنِ أسلمَ مِن تخصيصها بالسِّتِّ.

وعلى القول بأنَّ المرادَ بها شرائعُ الدين: لكم في مراعاتها منافعُ دنيويَّة وأخرويَّة إلى انقطاعِ التكليف، ثم محلُّها الذي تُوصَل إليه إذا رُوعيت مُنْتَهٍ إلى البيت العتيق، وهو الجنَّة، أو محلُّ رعايتها منتهٍ إلى البيت العتيق، وهو معبدٌ للملائكة عليهم السلام، وكونه منتهى؛ لأنَّه تُرفَع إليه الأعمال، وقيل: كون محلّها منتهياً إلى البيت العتيق، أي: الكعبة، كماهو المتبادَر باعتبار أنَّ محلَّ بعضِها كالصلاة والحجِّ مُنْتَهٍ إلى ذلك، وقيل غير ذلك، والكلُّ ممَّا لا ينبغي أن يخرجَ عليه كلامُ أدنى الناس فضلاً عن كلام ربِّ العالمين، وأهون ما قيل: إنَّ الكلامَ على هاتيكَ الروايات متَّصل بقوله تعالى: «وأُحلَّت لكم الأنعام» وضمير: «فيها» لها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ عطف على قوله تعالى: «لكم فيها منافع»، أو على قوله تعالى: «ومن يعظم» إلخ، ومافي البين اعتراضٌ على ما قيل، وكأنِّي بك تختار الأوَّل، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامُ الكلام عليه عند نظيرِ الآية.

---

(١) ١/ ٣٧٠ عقب حديث (١٢٠).

والمَنْسك: موضع النُّسُك إذاكان اسمَ مكان، أو النسك إذا كان مصدراً، وفسَّره مجاهدٌ هنا بالذبح وإراقةِ الدماء على وجه التقرُّب إليه تعالى، فجعله مصدراً وحَمَلَ النسكَ على عبادةٍ خاصَّة وهو أحدُ استعمالاته، وإن كان في الأصل بمعنى العبادةِ مطلقًا وشاع في أعمال الحجِّ.

وقال الفَّراء[1]: المنسَك في كلام العرب: الموضع المعتادُ في خَيْرٍ وبِرٍّ، وفسَّره هنا بالعيد، وقال قتادة: هو الحجّ. وقال ابنُ عرفةَ: «مَنسكًا» أي: مذهبًا مِن طاعته تعالى.

واختار الزمخشريّ[2] ما روي عن مجاهد، وهو الأوفقُ، أي: شرع لكلِّ أهلِ دينٍ أن يذبحوا له تعالى على وجه التقرُّب لا لبعضٍ منهم، فتقديمُ الجارِّ والمجرور على الفعل للتخصيص.

وقرأ الأخوان، وابنُ سعدان، وأبو حاتم عن أبي عمرو، ويونس، ومحبوب، وعبد الوارث: «مَنْسِكًا»، بكسر السين[3]. قال ابنُ عطيَّة[4]: وهو في هذا شاذٌّ، ولا يجوز في القياس، ويشبه[5] أن يكون الكسائيُّ سمعه مِن العرب، قال الأزهريُّ: الفتحُ والكسرُ فيه لغتان مسموعتان[6].

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ خاصَّة دون غيرِه تعالى، كما يفهمه السياقُ والسباقُ، وفي تعليل الجعلِ بذلك فقط تنبيهٌ على أنَّ المقصودَ الأهمَّ مِن شرعيَّة النسك ذِكْره عزَّ وجلَّ ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عند ذَبحها، وفيه تنبيهٌ على أن القربان يجب أن يكون مِن الأنعام، فلا يجوز بالخيل ونحوها.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قيل: للتعليل، وما بعدها علَّة لتخصيصِ اسمِ الله تعالى بالذِّكر، والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ لترتيب

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣٠.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤.

(٣) التيسير ص١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢١.

(٥) جاء في هامش الأصل و(م): فيه أن القراءة بالرواية، فلا تغفل. انتهى منه.

(٦) الزاهر ص٢٧٦ بنحوه.

ما بعدَها مِن الأمر بالإسلام على وحدانيَّته عزَّ وجلَّ، وقيل: الفاء الأُولى لترتيب ما بعدها على ما قبلها أيضاً، فإنَّ جَعْلَه تعالى لكلِّ أُمَّة مِن الأمم منسكاً يدلُّ على وحدانيَّته جلَّ وعلا، ولا يخفى ما في وجه الدلالة مِن الخفاء، وتكلَّف بعضُهم في بيانه بأنَّ شَرْعَ المنسك لكلِّ أُمَّة ليذكروا اسمَ الله تعالى يقتضي أن يكون سبحانه إلهًا لهم؛ لئلَّا يلزم السَّفَه، ويلزم مِن كونه تعالى إلهًا لهم أن يكون عزَّ وجلَّ واحداً؛ لأنه لا يستحقُّ الألوهيَّة أصلاً مَن لم يتفرَّد بها، فإنَّ الشركةَ نقصٌ، وهو كما ترى.

وفي «الكشف»: لمَّا كانت العلَّةُ لقوله سبحانه: «لكلِّ أمَّة جعلنا منسكاً» ذِكْرَ اسمِه تعالى على المناسك، ومعلوم أنَّ الذكر إنَّما يكون ذِكْراً عند مواطأةِ القلبِ اللسانَ، وذكْر القلب إشعارٌ بالتعظيم، جاء قوله تعالى: «فله أَسْلِموا» مسبَّباً عنه تسبُّباً حسناً.

واعترض بقوله تعالى: «فإلهكم إلهٌ واحد» لأنَّه يؤكِّد الأمرَ بالإخلاص ويقوِّي السببَ تقويةً بالغة، ويؤكِّد أيضاً كون الذكر هو المقصودَ مِن شرعيَّة النسكِ. انتهى. وهو يُشعِر بأنَّ الفاءَ الأولى للاعتراض، والفاء الثانية للترتيب. ولعلَّ ما ذكر أوَّلاً أظهرُ.

وأمَّا ما قيل مِن أنَّ الفاءَ الأولى للتعليل، والمعلَّل محذوف، والمعنى: إنَّما اختلفت التكاليفُ باختلاف الأزمنة والأشخاص لاختلافِ المصالح لا لتعدُّد الإله، فإنَّ إلهَكم إلهٌ واحدٌ، فممَّا لا ينبغي أن يخرَّج عليه كلامُ الله تعالى الجليل كما لا يَخفى، وإنَّما قيل: «إله واحد» ولم يقل: واحدٌ، لما أنَّ المرادَ بيانُ أنَّه تعالى واحدٌ في ذاته كما أنَّه واحدٌ في إلهيَّته، وتقديم الجارِّ على الأمر؛ للقَصْر، والمراد: أخلصوا له تعالى الذكرَ خاصَّة، واجعلوه لوجهه سالماً خالصاً لا تشوبوه بإشراك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ خطابٌ له ﷺ، والمُخْبِتون: المطمئنُّون، كما روي عن مجاهد، أو: المتواضعون، كما روي عن الضحَّاك. وقال عمرو بنُ أوس: هم الذين لا يَظلمون الناسَ، وإذا ظُلِموا لم يَنتصروا. وقال سفيان: هم الراضونَ بقضاءِ الله تعالى. وقال الكلبيُّ: هم المجتهدونَ في العبادة. وهو مِن الإخبات، وأصله كما قال الراغبُ[1]: نزول الخَبْتِ وهو المطمئنُّ مِن الأرض. ولا يَخفى حُسْنُ موقعِ ذلك هنا مِن حيث إنَّ نزول الخَبْتِ مناسبٌ للحاجِّ.

---

(١) المفردات (خبت).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ أي: خافت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ منه عزَّ وجلَّ؛ لإشراق أشعةِ الجلالِ عليها ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ مِن مشاقِّ التكاليف ومؤُناتِ النوائب، كالأمراضِ والمِحَنِ والغُربة عن الأوطان، ولايخفى حُسْنُ موقعِ ذلك هنا أيضاً، والظاهر أنَّ الصبرَ على المكاره مطلقًا ممدوحٌ. وقال الرازيُّ[(١)]: يجب الصبر على ما كان مِن قِبَلِ الله تعالى، وأمَّا على ما يكون مِن قِبَلِ الظَّلَمة فغير واجبٍ، بل يجب دَفْعه على مَن يمكنه ذلك ولو بالقتال. انتهى. وفيه نظر.

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في أوقاته، ولعلَّ ذِكْرَ ذلك هنا؛ لأنَّ السفرَ مظنَّةُ التقصير في إقامة الصلاة.

وقرأ الحسنُ، وابنُ أبي إسحاق، وأبو عمرٍو في رواية: «الصلاةَ» بالنصب[(٢)] على المفعوليَّة لمقيمي، وحذفت النونُ منه؛ تخفيفاً، كما في بيت «الكتاب»:

الحافظو عورةَ العشيرةِ لا ... تأتيهم مِن ورائهم نَطَفُ[(٣)]

بنصبِ: عورةٍ، ونظير ذلك قوله:

إنَّ الذي حانَتْ بفَلْجٍ دماؤهم ... هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أُمَّ مالكِ[(٤)]

وقوله:

أَبني كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّذا ... قَتَلا المُلوكَ وفَكَّكا الأغلالا[(٥)]

---

(١) في تفسيره ٢٣/ ٣٤.

(٢) الكشاف ٣/ ١٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٣) الكتاب لسيبويه ١/ ٢٨٦ و٢٠٢، وعزاه لرجل من الأنصار، وهو في جمهرة أشعار العرب ٢/ ٦٧٥ ضمن قصيدة لعمرو بن امرئ القيس، وهذا ما رجَّحه البغدادي في الخزانة ٤/ ٢٨٣، ونسبه البطليوسي في الحلل ص ١١٢ لقيس بن الخطيم، وهو في الجمهرة والحلل برواية: وَكَف، بدل: نَطَف، قال البطليوسي: الوكف هنا: العيب، ويروى: نَطَف، وهو نحو الوكف، اهـ. وروي: عورة، بالجرِّ، كما ذكره صاحب الخزانة ٤/ ٢٧٣.

(٤) البيت للأشهب بن رُميلة، وسلف ٣/ ٤٤٨.

(٥) البيت للأخطل يهجو جريراً، وهو في ديوانه برواية اليزيدي ص ٤٤، وقوله: اللَّذا. أراد: اللذان، فحذف النون، وأحدُ عمَّيه أبو حنش قاتل شرحبيل بن الحارث بن عمرو آكل المرار يوم الكلاب الأول. وبنو كليب بن يربوع: رَهْط جرير.

وقرأ ابنُ مسعود، والأعمش: «والمقيمين الصلاةَ» بإثبات النون ونصبِ الصلاة على الأصل[١].

وقرأ الضحَّاك: «والمقيمَ الصلاةِ» بالإفراد والإضافة[٢].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ في وجوه الخير، ومِن ذلك إهداءُ الهدايا التي يُغالونَ فيها.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: مِن أعلام دينه التي شرعها الله تعالى، «والبُدْنَ» جمع: بَدَنَة، وهي كما قال الجوهريُّ[٣]: ناقةٌ أو بقرةٌ تُنحَر بمكَّة. وفي «القاموس»[٤]: هي مِن الإبل والبقر، كالأُضْحِيَة مِن الغنم تُهدَى إلى مكَّة، وتُطلَق على الذكر والأنثى، وسُمِّيت بذلك؛ لعظم بَدَنها، لأنَّهم كانوا يُسمِّنونها ثم يُهدونها، وكونها مِن النوعين قولُ معظم أئمَّة اللغة، وهو مذهب الحنفيَّة، فلو نذر نَحر بدنة، يجزئه نحرُ بقرةٍ عندهم، وهو قولُ عطاء، وسعيد بنِ المسيب، وأخرج عبد بنُ حميد وابنُ المنذر عن ابنِ عمر رضي الله عنهما: لا نعلمُ البدنَ إلا من الإبل والبَقر[٥].

وفي «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه: كنَّا ننحر البَدَنة عن سبعةٍ، فقيل: والبقرة؟ فقال: وهل هي إلا مِن البُدْنِ[٦]. وقال صاحب «البارع» مِن اللغويين: إنَّها لا تُطلَق على ما يكون مِن البقر. وروي ذلك عن مجاهد، والحسن، وهو مذهب الشافعيَّة، فلا يجزئ عندهم مَن نذر نحرَ بَدَنة، نَحْرُ بقرة، وأُيِّد بما رواه أبوداود عن جابرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «البدنةُ عن سبعةٍ، والبقرةُ عن سبعة»[٧]، فإنَّ العطفَ

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٣) الصحاح (بدن).

(٤) مادة (بدن).

(٥) الدر المنثور ٤/ ٣٦٠.

(٦) كذا أورده بهذا اللفظ ابن الجوزي في التحقيق في أحاديث الخلاف ٢/ ١٥٩، وابن قدامة في المغني ٥/ ٤٥٨ - ٤٥٩ دون عزو لمسلم، وهو عند مسلم (١٣١٨) (٣٥٣) بلفظ: اشتركنا مع النبي ﷺ في الحج والعمرة، كل سبعة في بدنة، فقال رجل لجابر: أيشترك في البدنة ما يشترك في الجزور؟ قال: ما هي إلا من البدن.

(٧) أبو داود (٢٨٠٨)، وهو عند مسلم (١٣١٨).

يقتضي المغايرةَ، وفيما يأتي آخراً تأييد لذلك أيضاً، والظاهر أنَّ استعمالَ البَدَنة فيما يكون من الإبل أكثر، وإن كان أمر الإجزاء متَّحداً.

ولعلَّ مراد جابر بقوله في البقرة: وهل هي إلا مِن البدن. أنَّ حكمَها حكمُها، وإلا فيبعد جهلُ السائل بالمدلول اللغويِّ ليردَّ عليه بذلك، ويمكن أن يقال فيما روي عن ابنِ عمر: إنَّ مرادَه بالبُدْنِ فيه البُدْنُ الشرعيَّة، ولعلَّه إذا قيل باشتراكها بين ما يكون مِن النوعين يُحكَّم العرفُ أونحوه في التعيين فيما إذا نذرَ الشخصُ بدنةً، ويشير إلى ذلك ما أخرجه ابنُ أبي شيبة، وعبدُ بنُ حميد عن يعقوب الرياحي، عن أبيه قال: أوصى إليَّ رجلٌ وأوصى ببدَنة، فأتيتُ ابنَ عباس، فقلتُ له: إنَّ رجلاً أوصى إليَّ وأوصى ببدنةٍ، فهل تُجزئ عنِّي بقرة؟ قال: نعم، ثم قال: ممَّن صاحبكم؟ فقلت: مِن رياح. قال: ومتى اقتنى بَنُو رِياح البقرَ إلى الإبل، وَهِمَ صاحبُكم، إنَّما البقرُ لأسدٍ وعبد القيس[(١)]. فتدبَّر.

وقرأ الحسن، وابنُ أبي إسحاق، وشيبة، وعيسى: «البُدُن» بضمِّ الباء والدال ـ قيل: وهو الأصل، كخُشُب وخَشَبة، وإسكان الدال تخفيفٌ منه ـ ورويت هذه القراءة عن نافع، وأبي جعفر[(٢)].

وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً: بضمِّ الباء والدالِ وتشديدِ النون[(٣)]، فاحتمل أن يكون اسماً مفرداً بني على فُعُلّ، كعُتُلّ[(٤)]، واحتمل أن يكون التشديدُ مِن التضعيف الجائز في الوقف، وأُجريَ الوصلُ مجرى الوقف.

والجمهور على نصب «البُدْن» على الاشتغال، أي: وجعلنا البدنَ جعلناها. وقرئ بالرفع على الابتداء[(٥)].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦١، وأخرجه أيضاً الفسوي في المعرفة والتاريخ ٣/ ٧.

(٢) القراءات الشاذة ص ٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٣) القراءات الشاذة ص ٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٤) العُتُلُّ: الغليظ الجافي، قال الله تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]. مختار الصحاح (عتل).

(٥) الكشاف ٣/ ١٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

وقوله تعالى: «لكم» ظرف متعلّق بالجعل، و«مِن شعائر الله» في موضع المفعول الثاني له.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: نفع في الدنيا وأَجْر في الآخرة، كما روي عن ابنِ عباس، وعن السُّدِّيِّ الاقتصار على الأجر، جملةٌ مستأنفة مقرِّرة لما قبلها.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ بأن تقولوا عند ذبحها: بسم الله والله أكبر، اللَّهمَّ منكَ ولكَ. وقد أخرج ذلك جماعةٌ عن ابنِ عباس، وفي «البحر»[1]: بأن يقولَ عند النحر: الله أكبر، لا إلهَ إلا الله، والله أكبر، اللَّهـمَّ منكَ وإليك. ﴿صَوَآفَّ﴾ أي: قائماتٍ قد صففنَ أيديهنَّ وأرجلهنَّ، فهو جمعُ صافَّة، ومفعوله مقدَّر.

وقرأ ابنُ عباس، وابنُ عمر، وابنُ مسعود، والباقر، ومجاهد، وقتادةُ، وعطاء، والكلبيُّ، والأعمش بخلافٍ عنه: «صوافنَ» بالنون[2]، جمع صافنة، وهو إمَّا مِن صَفَنَ الرجلُ: إذا صفَّ قدمَيْه، فيكون بمعنى صوافّ، أو مِن صَفَنَ الفرسُ: إذا قام على ثلاثٍ وطَرَفِ سُنْبُكِ[3] الرابعة؛ لأنَّ البدنةَ عند الذبح تُعقَل إحدى يدَيْها، فتقوم على ثلاث، وعَقْلُها عند النحر سنَّةٌ، فقد أخرج البخاريُّ ومسلم وغيرُهما، عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه رأى رجلاً قد أناخَ بدنته، وهو ينحرها فقال: ابعثها قياماً مقيَّدةً سنَّةَ محمد ﷺ[4].

والأكثرون على عَقْلِ اليد اليسرى، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن ابنِ سابط رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه كانوا يَعقلونَ يَدَ البدنة اليسرى وينحرونها قائمةً على ما بقي مِن قوائمها[5]. وأخرج عن الحسنِ قيل له: كيف تنحرُ البدنة؟ قال: تُعقَل يدُها اليسرى إذا أُريد نحرُها[6].

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٥، والمحتسب ٢/ ٨١، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.

(٣) السُّنْبُك: طَرَف الحافر، القاموس (سنبك).

(٤) البخاري (١٧١٣)، ومسلم (١٣٢٠)، وأحمد (٤٤٥٩)، وأبو داود (١٧٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ولم نقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ابن أبي شيبة ٤/ ٢٠٦ (نشرة العمروي)، وهو عند أبي داود أيضاً (١٧٦٧).

(٦) ابن أبي شيبة ٤/ ٢٠٧ (نشرة العمروي).

وذهب بعضٌ إلى عَقْلِ اليمنى؛ فقد أخرج ابنُ أبي شيبة أيضاً عن ابنِ عمر رضي الله عنهما أنَّه كان ينحرها وهي معقولة يدها اليمنى(١). وقيل: لافَرْقَ بين عَقْل اليسرى وعَقْل اليمنى، فقد أخرج ابنُ أبي شيبة أيضاً عن عطاء قال: اعْقِل أيَّ اليدينِ شئتَ.

وأخرج جماعةٌ عن ابنِ عمر أنَّه فسَّر «صوافَّ» بقائماتٍ معقولةً إحدى أيديهنَّ، فلا فرقَ في المراد بين «صوافّ» و«صوافِنَ» على هذا أصلاً، لكن روي عن مجاهد أنَّ «الصوافَّ» على أربعٍ، و«الصوافنَ» على ثلاثٍ.

وقرأ أبو موسى الأشعريُّ، والحسنُ، ومجاهد، وزيدُ بنُ أسلم، وشقيق، وسليمان التيميُّ، والأعرج: «صوافيَ» بالياء(٢)، جمع: صافية، أي: خوالص لوجهِ الله عزَّ وجلَّ لا يُشرَك فيها شيءٌ كما كانت الجاهليَّة تُشرِك.

ونوَّن الياءَ عمرو بنُ عبيد(٣)، وهو خلافُ الظاهر؛ لأنَّ«صوافي» ممنوعٌ مِن الصرف؛ لصيغة منتهى الجموع، وخرّج على وجهين، أحدهما: أنَّه وقفَ عليه بألفِ الإطلاق؛ لأنَّه منصوب، ثم نوّن تنوينَ الترنُّم لا تنوينَ الصَّرْف بدلاً مِن الألف. وثانيهما: أنَّه على لغة مَن يَصرفُ ما لا ينصرفُ، لاسيَّما الجمع المتناهي، ولذا قال بعضهم:

والصَّرْفُ في الجَمْعِ أتى كثيرا حتى ادَّعى قومٌ به التَّخْييرا(٤)

وقرأ الحسن أيضاً: «صوافٍ» بالتنوين والتخفيف(٥)، على لغة مَن ينصب المنقوصَ بحركة مقدَّرة ثم يحذف الياءَ، فأصل «صواف»: صوافي، حذفت الياء؛ لثقل الجمع، واكتفي بالكسرة التي قبلها، ثم عوّض عنها التنوين ونحوه.

ولو أنَّ واشٍ باليَمامة دارُه وداري بأعلى حَضْرَمَوتَ اهتَدى لِيا(٦)

وقد تبقى الياءُ ساكنةً، كما في قوله:

---

(١) ابن أبي شيبة ٤/ ٢٠٦ (نشرة العمروي).
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٥، والمحتسب ٢/ ٨١، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.
(٣) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.
(٤) الرجز في البحر المحيط ٦/ ٣٦٩ و٨/ ٣٩٤ ولم ينسبه.
(٥) القراءات الشاذة ص٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٩.
(٦) القائل مجنون ليلى، والبيت في ديوانه ص ٢٩٤.

يا باريَ القوسِ بَرْياً لستَ تُحْسِنها لا تُفْسِدَنْها وأَعْطِ القوسَ بارِيْها[١]

وعلى ذلك قراءةُ بعضِهم: «صوافي» بإثبات الياء ساكنة[٢]؛ بناءً على أنَّه كما في القراءة المشهورة حالٌ مِن ضمير «عليها»، ولو جعل - كما قيل - بدلاً مِن الضمير، لم يحتج إلى التخريج على لغة شاذَّة.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت على الأرض، وهو كنايةٌ عن الموت. وظاهر ذلك مع ما تقدَّم مِن الآثار يقتضي أنَّها تُذبَح وهي قائمة، وأيِّد به كون البُدْن مِن الإبل دون البقر؛ لأنَّه لم تَجْرِ عادةٌ بذبحها قائمةً، وإنَّما تُذبَح مضطجعةً، وقلّما شوهد نَحْرُ الإبل وهي مُضطَجعةً.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ أي: الراضيَ بما عنده وبما يُعطَى مِن غير مسألة ولا تعرُّضٍ لها، وعليه حمل قول لبيد:

فمنهم سعيدٌ آخذٌ بنصيبه ومنهم شقيٌّ بالمعيشةِ قانع[٣]

﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي: المعترض للسؤال، مِن اعترَّه: إذا تعرَّض له، وتفسيرهما بذلك مرويٌّ عن ابنِ عباس، وجماعة، وقال محمد بنُ كعب ومجاهد، وإبراهيم، والحسن، والكلبيّ: «القانع»: السائل، كما في قولِ عديِّ بنِ زيد:

وما خُنْتُ ذا عهدٍ وَأيتُ بعهدِه ولم أحْرِمِ المُضْطَرَّ إذ جاءَ قانِعا[٤]

«والمعترّ» المعترض مِن غير سؤال، فالقانع قيل على الأوَّل مِن قَنِعَ يَقْنَعُ كتَعِبَ يَتْعَبُ قَنَعاً: إذا رضيَ بماعنده مِن غير سؤال، وعلى الثاني مِن قَنَعَ يَقْنَعُ كسَأَلَ يَسْأَلُ لفظاً ومعنًى قُنُوعاً. وعلى ذلك جاءَ قول الشاعر:

العبدُ حرٌّ إنْ قَنِعْ

---

(١) البيت في التمثيل والمحاضرة ص٢٩٣، ومجمع الأمثال للميداني ٢/ ١٩، وخزانة الأدب ٨/ ٣٤٩.

(٢) الإملاء ٤/ ٤٠، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٠٧.

(٣) شرح ديوان لبيد ص ١٧٠.

(٤) البيت في غريب الحديث لأبي عبيد ٢/ ١٥٦، والصحاح (قنع)، واللسان (قنع) و(وأي)، وورد في المصادر كلها عدا اللسان (وأي): وَأُبْتُ، بدل: وَأَيْتُ. قال ابن منظور في اللسان (وأي): الوَأْيُ: الوعد. ووَأَيْتُ له على نفسي أَئي وَأْياً: ضمنتُ له عِدَةً.

والــحــرُّ عــبــدٌ إنْ قَــنَــعْ
فــاقــنَــعْ ولا تَــطــمــعْ فــمــا
شــيءٌ يــشــيــنُ ســوى الــطَّــمَــعْ[1]

فلا يكون «القانع» على هذا مِن الأضداد؛ لاختلاف الفعلين، ونصَّ على ذلك الخفاجيُّ[2] حاكماً بتوهُّم مَن يقول بخلافِه، وفي «الصحاح»[3] نقل القول بأنَّه مِن الأضداد عن بعضِ أهلِ العلم، ولم يتعقَّبه بشيء، ونقل عنه أيضاً أنه يجوز أن يكون السائلُ سُمِّيَ قانعاً؛ لأنَّه يَرضى بما يُعطَى قلَّ أو كثُرَ، ويقبله ولا يردُّ، فيكون معنى الكلمتين راجعاً إلى الرضا. وإلى كون قَنِعَ بالكسر بمعنى رَضِيَ، وقَنَعَ بالفتح بمعنى سَأَل، ذهبَ الراغبُ[4]، وجعل مصدر الأوَّل قَنَاعةً وقَنَعاناً، ومصدر الثاني قُنُوعاً. ونقل عن بعضِهم أنَّ أصلَ ذلك مِن القِناع وهو ما يُغطَّى به الرأسُ، فـ: قَنِعَ بالكسر: لَبِسَ القناعَ ساتراً لِفقْرِه، كقولهم: خَفِيَ: إذا لَبِسَ الخفاءَ، وقَنَعَ: إذا رَفَعَ قناعَه كاشفاً لفَقْره بالسؤال، نحو خَفيَ: إذا رَفَعَ الخَفاءَ. وأيِّد كون القانعِ بمعنى الراضي بقراءةِ أبي رجاء: «القَنِع» بوزن الحَذِر[5]، بناءً على أنَّه لم يرد بمعنى

---

(١) السجع ذكره كاملاً الزرقاني في شرحه على موطأ مالك ٣/ ٩٣ دون نسبة، وذكره العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٢٧٨ وعزاه للنبي ﷺ، ولم نقف عليه، والحصري في زهر الآداب ١/ ٣٥٩ ولم ينسبه، والأبشيهي في المستطرف ١/ ١٥٥ ونسبه للكندي، واقتصرت روايتهم على:

الــعــبــد حــر إن قــنــع
والــحــر عــبــد إن طــمــع

وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٣٢٤، والبيهقي في الزهد (٩٨)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٧/ ١٠١ عن بنان البغدادي، وروايته عندهم هكذا:

الــحــر عــبــد مــا طــمــع
والــعــبــد حــر مــا قــنــع

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٢٩٩.
(٣) الصحاح (قنع).
(٤) المفردات (قنع).
(٥) المحتسب ٢/ ٨٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٠.

السائل، بخلاف القانع فإنَّه ورد بالمعنيين، والأصل توافقُ القراءات، وعن مجاهد: «القانع»: الجارُ وإن كان غنيًّا، وأخرج ابنُ أبي شيبة عنه وعن ابنِ جبير أنَّ «القانعَ»: أهلُ مكَّة، «والمعترّ» سائرُ الناس[1]. وقيل: «المعترُّ»: الصديقُ الزائر، والذي أختاره مِن هذه الأقوال أوّلها.

وقرأ الحسن: «والمُعْتَرِيَ»[2] اسمُ فاعل مِن اعترى، وهو واعترَّ بمعنًى.

وقرأ عمرو وإسماعيل، كما نقل ابنُ خالويه: «المُعْتَرِ» بكسر الراء بدون ياء[3]، وروى ذلك المقري عن ابن عباس، وجاء ذلك أيضاً عن أبي رجاء[4]، وحذفت الياء؛ تخفيفاً منه واستغناءً بالكسرة عنها.

واستدلَّ بالآية على أنَّ الهديَ يُقسَم أثلاثاً، ثلثٌ لصاحبه، وثلثٌ للقانع، وثلث للمعترِّ، وروي ذلك عن ابنِ مسعود، وقال محمد بنُ جعفر ﵄ بقسمته أثلاثاً أيضاً إلا أنَّه قال: أُطعِم القانعَ والمعترَّ ثلثاً، والبائسَ الفقيرَ ثلثاً، وأهلي ثلثاً، وفي القلب مِن صحَّته شيءٌ.

وقال ابنُ المسيب: ليس لصاحب الهدي منه إلا الربعُ، وكأنَّه عدَّ القانعَ والمعترَّ والبائسَ الفقيرَ ثلاثة، وهو كما ترى، قال ابنُ عطيَّة[5]: وهذا كلُّه على جهة الاستحسانِ لا الفرض. وكأنَّه أرادَ بالاستحسان الندبَ، فيكون قد حمل كِلَا الأمرين في الآية على الندبِ.

وفي «التيسير»: أَمْرُ «كلوا» للإباحة، ولو لم يأكل جاز، وأَمْرُ«أطعموا» للندب، ولو صرفه كلَّه لنفسه، لم يضمن شيئاً، وهذا في كلِّ هَدْيِ نُسُكٍ ليس بكفَّارة، وكذا الأضحية، وأما الكفَّارة فعليه التصدُّق بجميعِها، فما أَكَلَه أو أهداه لغنيٍّ، ضمنه. وفي «الهداية»: يستحبُّ له أن يأكلَ مِن هدي التطوُّع والمتعة والقِران، وكذا

(١) ابن أبي شيبة ٤/ ٧٢ عن مجاهد، ولم يرد فيه عن ابن جبير.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٥، والمحتسب ٢/ ٨٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٠.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٠
(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٧٠.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣.

يستحبُّ أن يتصدَّق على الوجه الذي عرف في الضحايا[1]. وهو قولٌ بنحو ما يقتضيه كلام ابنِ عطيَّة في كلا الأمرين.

وأباح مالكٌ الأكلَ مِن الهدي الواجب إلا جزاء الصيد والأذى والنذر، وأباحه أحمد إلا مِن جزاء الصيد والنذر، وعند الحسن الأكلُ مِن جميع ذلك مباحٌ، وتحقيق ذلك في كتبِ الفقه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلُ ذلك التسخيرِ البديع المفهوم مِن قوله تعالى: «صواف»: ﴿سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ مع كمالِ عِظَمِها ونهايةِ قوَّتها، فلا تستعصي عليكم حتى إنَّكم تأخذونها منقادةً فتعقلونها وتحبسونها صافَّة قوائمها، ثم تطعنون في لبَّاتها، ولولا تسخيرُ الله تعالى لم تطقْ، ولم تكن بأعجزَ مِن بعض الوحوش التي هي أصغر منها جِرْماً وأقلَّ قوَّة، وكفى ما يتأبَّد مِن الإبل شاهداً وعبرة. وقال ابنُ عطيَّة[2]: كما أمرناكم فيها بهذا كلِّه سخَّرناها لكم. ولايَخفى بُعدُه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: لتشكروا إنعامنا عليكم بالتقرُّب والإخلاص.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ أي: لن يصيبَ رضا الله تعالى اللحومُ المتصدَّقُ بها ولا الدماءُ المهراقةُ بالنَّحر مِن حيث إنَّها لحوم ودماء ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكن يصيبه ما يَصحبُ ذلك مِن تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيمِه تعالى والتقرُّب له سبحانه والإخلاص له عزَّ وجلَّ.

وقال مجاهد: أراد المسلمونَ أن يفعلوا فِعْل المشركين مِن الذَّبْح وتشريحِ اللحم ونَصْبِه حولَ الكعبة ونضْجها بالدماء؛ تعظيماً لها وتقرُّباً إليه تعالى، فنزلت هذه الآية، وروي نحوه عن ابنِ عباس، وغيره.

وقرأ يعقوب، وجماعة: «لن تَنَالَ»، «ولكنْ تَنَالُه» بالتاء[3]. وقرأ أبو جعفر الأوَّلَ بالتاء والثاني بالياء آخِر الحروف[4]، وعن يحيى بنِ يعمر، والجحدريِّ

---

(١) الهداية مع شرحه فتح القدير ٢/ ٣٢٢.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٣.
(٣) مجمع البيان ١٧/ ١٠٦.
(٤) مجمع البيان ١٧/ ١٠٦.

أنَّهما قرأا بعكس ذلك(١). وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «لن يُنال»، «ولكن يُناله» بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعلُه في الموضعين، و«لُحومَها ولادِماءَها» بالنصب(٢).

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرَّره سبحانه؛ تذكيراً للنعمة وتعليلاً له بقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لتعرفوا عظمتَه تعالى باقتداره على مالا يَقدِرُ عليه غيرُه عزَّ وجلَّ، فتوحِّدوه بالكبرياء، وقيل: أي: لتقولوا: اللهُ أكبرُ، عند الإحلال أو الذَّبْح ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: على هدايته وإرشاده إيَّاكم إلى طريق تسخيرِها وكيفيَّة التقرُّب بها، فـ «ما» مصدريَّة، وجوِّز أن تكون موصوفة، وأن تكون موصولة، والعائدُ محذوفٌ، ولا بُدَّ أن يعتبر منصوباً عند مَن يشترط في حذف العائد المجرور أن يكون مجروراً بمثل ما جُرَّ به الموصول لفظاً ومعنًى ومتعلَّقاً، و«على» متعلِّقة بـ «تكبِّروا»؛ لتضمُّنه معنى الشكر أو الحمد، كأنَّه قيل: لتكبِّروهُ تعالى شاكرينَ أو حامدينَ على ما هداكم. وقال بعضهم: «على» بمعنى اللام التعليليَّة، ولا حاجةَ إلى اعتبار التضمين، ويؤيِّد ذلك قولُ الداعي على الصفا: اللهُ أكبرُ على ماهدانا، والحمد لله تعالى على ما أولانا. ولايَخفى أَنَّ لعدم اعتبارِ التضمين هنا وجهاً ليس فيما نحن فيه، فافهم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٧﴾ أي: المخلصين في كلِّ ما يأتون ويَذَرون في أمورِ دينهم. وعن ابنِ عباس: هم الموحِّدون.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ بالإعراض عن السِّوَى وطلب الجزاء، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ وهي مبادي القيامة الكبرى.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ وهي موادُّ الأشياء، فإنَّ لكلِّ شيء مادةً ملكوتيَّة ترضع رضيعها مِن الملكِ، وتربِّيه في مهد الاستعداد.

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ وهي الهيولات، ﴿حَمْلَهَا﴾ وهي الصورُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ الحيرة ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ المحبة، قيل: سُكْرُ الأعداء مِن رؤية القهريَّات، وسُكْرُ الموافقينَ مِن

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٥ -٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٠.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٧٠ مقتصراً على ذكر: «يُناله».

رؤية بدائعِ الأفعال، وسُكْرُ المريدينَ مِن لمعان الأنوار، وسُكْرُ المحبِّين مِن كشوف الأسرار، وسُكْرُ المشتاقين مِن ظهور سَنَى الصفات، وسُكْرُ العاشقينَ مِن مكاشفة الذات، وسُكْرُ المقرَّبين مِن الهيبة والجلال، وسُكْرُ العارفين مِن الدخول في حجالِ الوصال، وسُكْرُ الموحِّدين مِن استغراقهم في بحار الأوَّليَّة، وسُكْرُ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام مِن اطِّلاعهم على أسرار الأزليَّة:

ألمَّ بِنا ساقٍ يجلُّ عن الوصفِ   وفي طَرْفه خمرٌ وخمرٌ على الكفِّ
فأَسْكَرَ أصحابي بخمرةِ كفِّه   وأسكرني واللهِ مِن خمرةِ الطَّرْفِ(١)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ الآية، يدخل فيه مَن يعبدُ اللهَ تعالى طمعاً في الكرامات ومحمدةِ الخَلْق ونَيْلِ دنياهم، فإن رأى شيئاً مِن ذلك سَكَنَ إلى العبادة، وإن لم يَرَ، تركها وتهاونَ فيها ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بفقدان الجاه والقَبول والافتضاح عند الخَلْق ﴿وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ ببقائه في الحجابِ عن مشاهدة الحقِّ واحتراقِه بنار البُعد.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية، فيه إشارة إلى حُسْنِ مقام التسليم والرضا بما فَعَلَ الحكيم جلَّ جلاله. «وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكانَ البيتِ أن لاتشرك بي شيئاً وطهِّر بيتيَ للطائفين والقائمينَ والرُّكَّع السجود» فيه من تعظيم أَمْرِ الكعبةِ ما فيه، وقد جعلها اللهُ تعالى مثالاً لعرشه، وجَعَلَ الطائفينَ بها مِن البشر كالملائكة الحافِّين مِن حول العرش يسبِّحون بحمد ربِّهم إلا أنَّ تسبيحَ البشر وثناءَهم عليه عزَّ وجلَّ بكلمات إلهيَّة قرآنيَّة، فيكونون مِن حيث تسبيحُهم وثناؤهم بتلك الكلمات مِن حيث إنَّها كلماتُه تعالى نوَّاباً عنه عزَّ وجلَّ في ذلك، ويكون أهلُ القرآنِ وهم كما في الحديثِ: «أهل اللهِ تعالى وخاصَّته»(٢)، وللكعبة أيضاً امتيازٌ على العرش وسائر البيوت الأربعة عشر لأمر ما نقل إلينا أنَّه في العرش ولا في غيره مِن تلك البيوت وهو الحَجَر الأسود الذي جاء في الخبر أنَّه يمينُ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣)، ثم إنَّه تعالى جعل لبيته أربعةَ أركان لسرٍّ

(١) البيتان لأبي الحسن علي بن محمد بن علي النيريزي الشيرازي، المتوفى سنة (٦٠٢هـ). الوافي بالوفيات ٢٢/ ٨٨، وورد فيه: طيفٌ، بدل: ساقٍ.
(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٧٩)، وابن ماجه (٢١٥).
(٣) الخبر سلف عند تفسير الآية (١٧٤) من سورة الأعراف.

إلهيٌّ وهي في الحقيقة ثلاثة؛ لأنَّه شكل مكعَّب الركن الذي يلي الحَجَر كالحَجَر في الصورة مكعَّب الشكل، ولذلك سمّى الكعبة تشبيهاً بالكعب، ولما جعل اللهُ تعالى له بيتاً في العالَم الكبير جعل نظيرَه في العالَم الصغير وهو قلبُ المؤمن، وقد ذكروا أنَّه أشرفُ مِن هذا البيت: «ما وسعني أرضي ولا سمائي، ولكن وسعني قلبُ عبدي المؤمن»(١)، وجعل الخواطر التي تمرُّ عليه كالطائفين، وفيها مَثَلهم المحمود والمذموم، وجعل محلَّ الخواطر فيه كالأركان التي للبيت، فمحلُّ الخاطر الإلهيِّ كركن الحجر، ومحلُّ الخاطر المَلَكي كالركن اليمانيِّ، ومحلُّ الخاطر النفسي كالمكعب الذي في الحَجَر لا غير، وليس للخاطر الشيطانيِّ فيه محلٌّ، وعلى هذا قلوبُ الأنبياء عليهم السلام، وقد يقال: محلُّ الخاطر النفسيِّ كالركن الشاميِّ، ومحلُّ الخاطر الشيطانيِّ كالركن العراقيِّ، وإنما جعل ذلك للركن العراقيِّ؛ لأنَّ الشارعَ شرع أن يقال عنده: «أعوذ بالله تعالى مِن الشقاق والنفاق وسوءِ الأخلاق»(٢)، وعلى هذا قلوبُ المؤمنين ما عدا الأنبياءِ عليهم السلام، وأودع سبحانه فيه كنزاً أراد ﷺ أن يُخرِجه فلم يَفعلْ لمصلحةٍ رآها، وكذا أراد عمرُ فامتنع اقتداءً برسولِ الله ﷺ. وكذلك أودع جلَّ وعلا في قلب الكامل كنزَ العلم به عزَّ وجلَّ.

وارتفاعُ البيتِ ـ على ما مرَّ ـ سبعةٌ وعشرونَ ذراعاً وربعُ ذراعٍ. وقال بعضهم: ثمانيةٌ وعشرونَ ذراعاً، وعليه يكون ذلك نظير منازل القلب التي تقطعها كواكب الإيمان السيَّارة لإظهار حوادث تجري في النفس كما تقطع السيَّارة منازلَها في الفَلَك لإظهار الحوادث في العالم العنصريِّ إلى غيرِ ذلك مما لا يعرفه إلا أهلُ الكشف.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ أي: إلى ما يليه، فإنَّ النحرَ بمنًى، وجعلت محلًّا للقرابين على ما ذكر الشيخ الأكبر

(١) حديث موضوع، وسلف ٤/ ٢٢١.
(٢) كان من دعائه ﷺ ذلك، لكنه لم يرد بخصوص الركن العراقي بل ورد عنه الدعاء به مطلقاً، والخبر عند أبي داود(١٥٤٦)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٢٦٤ عن أبي هريرة ﷺ. قال المنذري في مختصر السنن ٢/ ١٥٩: في إسناده بقية بن الوليد ورُوَيد بن نافع، وفيهما مقال.

محيي الدين قدِّسَ سرُّه؛ لأنَّها مِن بلوغ الأمنية، ومَن بَلَغَ المنى المشروع فقد بلغَ الغاية، وفي نَحْرِ القرابين إتلافُ أرواحٍ عن تدبيرِ أجسام حيوانيَّة لتتغذَّى بها أجسام إنسانيَّة، فتنظر أرواحها إليها في حال تفريقِها فتدبرها إنسانيَّة بعدما كانت تدبرها إبلاً أو بقراً، وهذه مسألة دقيقة لم يفطن لها إلا مَن نوَّر اللهُ تعالى بصيرتَه مِن أهل الله تعالى(١). انتهى. وتعقُّله مفوَّض إلى أهله، فاجهد أن تكون منهم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ حسبما يحصل لهم من التجلِّي عند ذلك، وقد يحصل مِن الذكر طمأنينةُ القلب لاقتضاء التجلِّي إذ ذاك ذلك، وذكر بعضهم أنَّ لكلِّ اسم تجلِّياً خاصًّا، فإذا ذُكرَ اللهُ تعالى حصل حسَب الاستعداد، ومِن هاهنا يحصل تارةً وَجَلٌ، وتارةً طمأنينةٌ، و﴿إِذَا﴾ لاتقتضي الكليَّة، بل كثيراً ما يُؤتَى بها في الشرطيَّة الجزئيَّة، وقيل: العارف متى سمعَ الذِّكرَ مِن غيره تعالى وَجِلَ قلبُه، ومتى سمعه منه عزَّ وجلَّ اطمأنَّ. ويفهم مِن ظاهر كلامهم أنَّ السامعَ للذِّكر إمَّا وَجِلٌ أو مطمئنٌّ، ولم يصرِّح بقسم آخر، فإن كان فالباقي على حالِهِ قبل السماع، وأكثر مشايخِ زماننا يرقصونَ عند سماعِ الذِّكر، فما أدري أَينشأُ رقصُهم عن وَجَلٍ منه تعالى أم عن طمأنينةٍ؟ وسيظهر ذلك يوم تُبلى السرائر وتَظهرُ الضمائر.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ﴾ قد تقدَّم لكَ أنَّهم ينحرونَ البُدْنَ معقولَة اليد اليسرى قائمةً على ما بقيَ مِن قوائمها، وذكروا في سرِّ ذلك أنَّه لما كان نحرُها قُرْبةً، أراد ﷺ المناسبة في صفة نحرِها في الوتريَّة، فأقامها على ثلاثِ قوائم؛ لأنَّ اللهَ تعالى وِتْرٌ يحبُّ الوِتْرَ، والثلاثة أوَّل الإفراد، فلها أوَّل المراتب في ذلك، والأوليَّة وتريَّة أيضاً، وجعلها قائمةً؛ لأنَّ القيوميَّة مثل الوتريَّة صفةٌ إلهيَّة، فيذكر الذي ينحرها مشاهدةَ القائم على كلِّ نفس بما كسبت، وقد صحَّ أنَّ المناسكَ إنَّما شُرعت لإقامة ذِكْرِ الله تعالى، وشَفَعَ الرِّجْلَين؛ لقوله تعالى ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩] وهو اجتماع أَمْرِ الدنيا بالآخرة، وأفرد اليمين مِن يد البُدْن؛ حتى لا تعتمد إلاعلى وترٍ له الاقتدار.

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ٧٥٤.

وكان العَقْل في اليد اليسرى؛ لأنَّها خليَّة عن القوَّة التي لليمنى، والقيام لايكون إلاعن قوَّة. وقد أخرج مسلم عن ابنِ عباس أنَّه قال: صلَّى رسولُ الله ﷺ الظهرَ بذي الحليفة، ثم دعا بناقتِه فأشعرها في صَفْحةِ سنامها الأيمنِ، وسَلَتَ عنها الدمَ، وقلَّدها نعلين، ثم ركبَ راحلتَه. الحديث(١).

والسِّرُّ في كون هديه عليه الصلاة والسلام مِن الإبل ـ مع أنَّه جاء فيها أنَّها شياطينُ، ولذا كُرهت الصلاةُ في معاطِنها(٢) ـ الإشارةُ إلى أنَّ مقامَه عليه الصلاة والسلام رَدُّ البعداءِ مِن الله تعالى إلى حالِ التقريب، وفي إشعارِها في سنامها الذي هو أرفع ما فيها إشعارٌ منه ﷺ بأنه عليه الصلاة والسلام أتى عليهم مِن صفة الكبرياء الذي كانوا عليه في نفوسهم فليجتنبوها، فإنَّ الدارَ الآخرةَ إنَّما جُعلت للذين لا يريدونَ علوًّا في الأرض ولا فساداً، ووقع الإشعار في الصَّفْحة اليمنى؛ لأنَّ اليمين محلُّ الاقتدارِ والقوَّة، والصَّفْحة مِن الصَّفْح، ففي ذلك إشعارٌ بأنَّ الله تعالى يَصفحُ عمَّن هذه صفته إذا طَلَبَ القُربَ مِن الله تعالى وزالَ عن كبريائه الذي أوجب له البُعدَ، وجعل عليه الصلاة والسلام الدلالةَ على إزالة الكبرياء في شيطنة البُدْنِ في تعليقِ النعال في رقابها، إذ لا يُصْفَعُ بالنعال إلا أهلُ الهونِ والمذلَّة، ومَن كان بهذه المثابة فما بقيَ فيه كبرياء تشهد، وعلّق النعال بقلائد العِهْن ليتذكَّر بذلك ما أراد الله تعالى وتكون الجبال كالعِهْنِ المنفوش، وقد ذكروا لجميع أفعال الحجِّ أسراراً مِن هذا القبيل، وعندي أنَّ أكثرَها تعبديَّة، وأنَّ أكثرَ ما ذكروه مِن قبيل الشعر، والله تعالى الموفِّق للسداد.

❀ ❀ ❀

---

(١) مسلم (١٢٤٣). ومعنى: «وسَلَتَ عنها الدَم»: أماطه عنها.

(٢) أخرج ابن حبان في صحيحه (١٧٠٢) عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: «صلُّوا في مرابض الغنم، ولا تصلُّوا في معاطن الإبل، فإنها خُلقت من الشياطين». وهو عند أحمد (١٦٧٩٩).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٦: ورجال أحمد رجال الصحيح. اهـ. وقال ابن حبان إثر الحديث: قوله ﷺ: «فإنها خلقت من الشياطين» أراد به أن معها شياطين، وهكذا قوله ﷺ: «فليدرأه ما استطاع، فإن أبى فليقاتله، فإنه شيطان». اهـ. وهو عند البخاري (٥٠٩)، ومسلم (٥٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ﴾ كلامٌ مستأنَف مسوقٌ لتوطين قلوبِ المؤمنين ببيانِ أنَّ اللهَ تعالى ناصرُهم على أعدائهم بحيث لا يقدرونَ على صدِّهم عن الحجِّ، وذكر أنَّ ذلك متَّصلٌ بقوله تعالى: «إن الذين كفروا ويصدون» وأنَّ ما وقع في البَيْنِ مِن ذِكْرِالشعائرِ مستطردٌ؛ لمزيدِ تهجينِ فِعْلِهم وتقبيحِهم لازدياد قُبْحِ الصَّدِّ بازدياد تعظيمِ ما صدَّ عنه، وتصديره بكلمة التحقيقِ؛ لإبراز الاعتناء التامِّ بمضمونه، وصيغةُ المفاعلة إمَّا للمبالغة، أوللدلالةِ على تكرُّر الدَّفْعِ، فإنَّها قد تتجرَّد عن وقوع الفعل المتكرِّر مِن الجانبين، فيبقى تكرُّره كالممارسة، أي: إنَّ اللهَ تعالى يُبالغ في دَفْعِ غائلة المشركينَ وضررهم الذي مِن جملته الصَّدُّ عن سبيل الله تعالى والمسجدِ الحرام مبالغةَ مَن يُغالب فيه، أو يَدفعها عنهم مرَّة بعد أُخرى حسبما يتجدَّد منهم القصدُ إلى الإضرار بهم، كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقرأ أبو عمرو، وابنُ كثير: «يَدْفَعُ»(١)، والمفعول محذوف، كما أشير إليه، وفي «البحر»(٢): أنَّه لم يذكر ما يَدفعُه سبحانه عنهم؛ ليكون أعظمَ وأفخمَ وأعمَّ. وأنت تَعلمُ أنَّ المقامَ لا يقتضي العمومَ، بل هو غيرُ صحيح.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ تعليل لما في ضمن الوعدِ الكريم من الوعيدِ للمشركين، وإيذانٌ بأنَّ دفعَهم بطريق القَهْر والخِزْي. وقيل: تعليلٌ للدفاع عن المؤمنين ببُغْضِ المدفوعينَ على وجهٍ يتضمَّن أنَّ العلةَ في ذلك الخيانةُ والكفر، وأوثر: «لا يحب» على: يبغض؛ تنبيهاً على مكان التعريض، وأنَّ المؤمنين هم أحبَّاءُ الله تعالى، ولعلَّ الأوَّل أولى؛ لإيهام هذا أنَّ الآيةَ مِن قبيل قولك: إنِّي أدفعُ زيداً عن عمرٍو؛ لبغضي زيدًا، وليس في ذلك كثيرُ عناية بعمرٍو، أي: إنَّ الله تعالى يُبْغِضُ كلَّ خَوَّان في أماناته تعالى، وهي أوامره تعالى شأنه ونواهيه، أو في جميع الأمانات التي هي معظمها كفورٌ لنعمه عزَّ وجلَّ، وصيغةُ المبالغة فيهما؛ لبيان أنَّ المشركين كذلك، لا للتقييد المشعر بمحبَّة الخائن والكافر، أو لأنَّ خيانةَ أمانة الله تعالى وكفرانَ نعمته لا يكونان حقيرين، بل

---

(١) التيسير ص ١٥٧، والنشر ٢ /٣٢٦.

(٢) البحر المحيط ٦ /٣٧٣.

هما أمران عظيمان، أو لكثرة ما خانوا فيه مِن الأمانات وما كفروا به مِن النِّعَم، أو للمبالغة في نفي المحبة على اعتبار النفي أوَّلاً، وإيراد معنى المبالغة ثانياً، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] وقد علمتَ ما فيه.

وأيًّا ما كان، فالمراد نفيُ الحبِّ عن كلِّ فردٍ فردٍ من الخونةِ الكفرة.

﴿أُذِنَ﴾ أي: رُخِّصَ، وقرأ ابن عباس وابن كثير، وابنُ عامر، وحمزة، والكسائيُّ: «أَذِنَ» بالبناء للفاعل[١]، أي: أَذِنَ اللهُ تعالى ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أي: يُقاتلهم المشركون، والمأذونُ فيه القتالُ، وهو في قوَّة المذكور؛ لدلالة المذكور عليه دلالةً نيِّرة.

وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر، ويعقوب: «يُقاتِلونَ» على صيغة المبنيِّ للفاعل[٢]، أي: يريدون أن يقاتلوا المشركين في المستقبل ويحرصونَ عليه، فدلالته على المحذوف أنور.

﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ أي: بسبب أنَّهم ظُلموا. والمراد بالموصول أصحابُ النبيِّ ﷺ الذين في مكَّة، فقد نقل الواحديُّ وغيرُه أنَّ المشركينَ كانوا يُؤذونَهم، وكانوا يأتون النبيَّ عليه الصلاة والسلام بين مضروبٍ ومشجوج، ويتظلَّمون إليه صلوات الله تعالى وسلامُه عليه، فيقول لهم: «اصبروا فإنِّي لم أُومَرْ بالقتال» حتى هاجر، فأنزلت هذه الآيةُ[٣]. وهي أوَّل آيةٍ نزلت في القتال بعد ما نُهي عنه في نيفٍ وسبعين آية، على ما روى الحاكم في «المستدرك»[٤] عن ابنِ عباس رضي الله عنهما، وأخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الزهريِّ[٥].

---

(١) التيسير ص ١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٦.

(٢) النشر ٢/ ٣٢٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٣.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٣١٩.

(٤) ٢/ ٦٦، ٢٤٦، ٣٩٠، وهو عند أحمد (١٨٦٥)، والنسائي في المجتبى ٦/ ٢. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٥) مصنف عبد الرزاق (٩٧٤٣) ضمن حديث طويل فيمن هاجر إلى الحبشة، وأخرجه من طريقه ابن أبي عاصم في الأوائل (١٠١) مختصراً. وهو عند النسائي في الكبرى (١١٢٨٣)، وصحَّح إسناده ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٢٨٠.

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية: أنَّ أوَّل آيةٍ نزلت فيه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وفي «الإكليل» للحاكم: أنَّ أوَّلَ آيةٍ نزلت في ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾(١) [التوبة: ١١١].

وروى البيهقيُّ في «الدلائل» وجماعة أنَّها نزلت في أناس مؤمنينَ خرجوا مهاجرينَ مِن مكَّة إلى المدينة، فاتَّبعهم كفارُ قريش، فأذن اللهُ تعالى لهم في قتالهم(٢). وعدمُ التصريح بالظالم؛ لمزيد السُّخْطِ، تحاشياً عن ذِكْره.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ وَعْدٌ لهم بالنصر، وتأكيدٌ لما مرَّ من العِدَة، وتصريحٌ بأنَّ المرادَ به ليس مجرَّدَ تخليصهم مِن أيدي المشركين، بل تغليبُهم وإظهارُهم عليهم، وقد أُخرجَ الكلامُ على سننِ الكبرياء، فإنَّ الرَّمْزةَ والابتسامةَ مِن المَلِكِ الكبير كافيةٌ في تيقُّن الفوز بالمطلوب، وقد أُوكد تأكيداً بليغاً؛ زيادةً في توطين نفوس المؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ في حيِّز الجرِّ على أنَّه صفةٌ للموصول قَبْلُ، أو بيانٌ له، أو بدلٌ منه، أو في محلِّ النصب على المدح، أوفي محلِّ الرفع بإضمار مبتدأٍ، والجملة مرفوعةٌ على المدح، والمراد الذين أَخرجهم المشركون مِن مكَّة ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ متعلِّق بالإخراج، أي: أُخرجوا بغير ما يُوجِبُ إخراجَهم. وجوّز أن يكون صفةَ مصدر محذوف، أي: أُخرجوا إخراجاً كائناً بهذه الصفة، واختار الطبرسيُّ(٣) كونه في موضع الحال، أي: كائنينَ بغير حقٍّ مترتِّب عليهم يوجب إخراجَهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ استثناء متَّصل مِن «حقٍّ»، «وأنْ»

---

(١) الإتقان ١/ ٨٤، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٠٠، والقول الأول عن أبي العالية أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير ٣/ ٢٨٩ _ ٢٩٠، والبغوي في تفسيره ١/ ١٤٣ معلَّقاً عن الربيع، وأخرجه آدم بن أبي إياس في تفسيره كما في الدر المنثور ١/ ٢٠٥- ومن طريقه ابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ٣٢٥ (١٧١٩) - عن أبي جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٦٤ وعزاه أيضاً لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم [٨/ ٢٤٩٦ (١٣٩٦٢)] عن مجاهد، ولم نقف عليه في مطبوع دلائل النبوة للبيهقي، ولا في مطبوع ابن أبي شيبة.

(٣) مجمع البيان ١٧/ ١٠٩.

وما بعدها في تأويل مصدرٍ بدل منه، لما في «غير» من معنى النفي، وحاصل المعنى لا موجبَ لإخراجِهم إلا التوحيد، وهو إذا أُريد بالموجب النفسي الأمري، على حدِّ قول النابغة:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهم ... بهِنَّ فلولٌ مِن قراعِ الكتائبِ[(١)]

وجوّز أن يكون الإبدال مِن «غير»، وفي «أُخرجوا» معنى النفي، أي: لم يُقَرُّوا في ديارهم إلا بأن يقولوا... إلخ، وهو كما ترى، وجوّز أن يكون الاستثناء منقطعاً، وأوجبه أبو حيَّان[(٢)]، أي: ولكن أُخرِجوا بقولهم: ربُّنا اللهُ، وأَوجبَ نصبَ «ما» بعد «إلا» كما أوجبوه في قولهم: ما زاد إلا ما نقص، وما نفع إلا ما ضرّ، وردّ كونه متصلاً وكونَ «ما» بعد «إلا» بدلاً مِن «حقّ» بما هو أشبه شيء بالمغالطة، ويُفهَم مِن كلامه جواز أن تكون «إلا» بمعنى «سوى» صفة «الحقِّ»، أي: أُخرجوا بغير حقٍّ سوى التوحيد، وحاصله: أُخرجوا بكونهم موحِّدين.

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ﴾ تحريضٌ على القتال المأذونِ فيه بإفادة أنَّه تعالى أَجرى العادةَ بذلك في الأمم الماضية؛ لينتظمَ به الأمرُ، وتقومَ الشرائعُ، وتصانَ المتعبَّدات مِن الهَدْم، فكأنَّه لما قيل: «أُذنَ للذين يُقاتلونَ»... إلخ، قيل: فليقاتل المؤمنون، فلولا القتالُ وتسليطُ اللهِ تعالى المؤمنين على المشركينَ في كلِّ عصرٍ وزمان، لهدِّمت متعبَّداتهم، ولذهبوا شَذَر مَذَر، وقيل: المعنى: لولا دفعُ اللهِ بعضَ الناس ببعضٍ بتسليط مؤمني هذه الأمَّة على كفَّارها، لهدِّمت المتعبَّداتُ المذكورة، إلا أنَّه تعالى سلَّط المؤمنين على الكافرين، فبقيت هذه المتعبَّداتُ، بعضها للمؤمنين، وبعضها لمن في حمايتهم مِن أهل الذمَّة. وليس بذاك. وقال مجاهد: أي: لولا دَفْعُ ظُلْمِ قومٍ بشهادة العدولِ ونحو ذلك، لهدِّمت... إلخ.

وقال قوم: أي: لولا دَفْعُ ظُلْمِ الظلمة بعدلِ الولاة. وقالت فرقة: أي: لولا دَفْعُ العذاب عن الأشرار بدعاءِ الأخيار. وقال قطرب: أي: لولا الدَّفْع بالقصاص عن

(١) سلف ٥/ ٤٠٧.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٧٤.

النفوسِ. وقيل: بالنبيِّين عليهم السلام عن المؤمنين، والكلُّ مما لا يقتضيه المقامُ، ولا ترتضيه ذوو الأفهام.

والصَّوامع: جمع: صَوْمَعة بوزن فعولة[1]، وهي: بناءٌ مرتفعٌ حديدُ الأعلى، والأصْمَع مِن الرجال: الحديدُ القول، وقال الراغبُ: هي كلُّ بناءٍ متصمِّعُ الرَّأْسِ، أي: متلاصقُه، والأَصْمَع: اللاصقة أُذُنُهُ برأسِه[2]. وهو قريبٌ مِن قريبٍ، وكانت قبل الإسلامِ كماقال قتادة مختصَّة برهبانِ النصارى وبعبَّاد الصابئة، ثم استُعملت في مئذنة المسلمين، والمراد بها هنا متعبَّد الرهبان عند أبي العالية، ومتعبَّد الصابئة عند قتادة، ولا يخفى أنَّه لاينبغي إرادةُ ذلك حيث لم تكن الصابئةُ ذات ملَّة حقَّة في وقت مِن الأوقات.

والبِيَعُ: واحدها: بِيْعَة، بوزن فِعْلَة، وهى مصلَّى النصارى، ولا تختصُّ برهبانهم كالصومعة. قال الراغبُ: فإن يكن ذلك عربيًّا في الأصل، فوجه التسمية به لما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية [١١١ من سورة التوبة]. وقيل: هي كنيسةُ اليهود.

وقرأ أهل المدينة، ويعقوب: «ولولا دفاعُ»بالألف[3]. وقرأ الحِرْمِيَّان، وأيوب، وقتادة، وطلحة، وزائدة عن الأعمش، والزعفرانيُّ: «لَهُدِمَتْ» بالتخفيف[4]، والتضعيف باعتبار كثرةِ المواضع.

﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ جمع: صلاة، وهي: كنيسةُ اليهود، وقيل: معبدٌ للنصارى دون البِيْعة، والأوَّل أشهر، وسُمِّيت الكنيسةُ بذلك؛ لأنَّها يُصلَّى فيها، فهي مجاز مِن تسمية المحلِّ باسم الحالِّ، وقيل: هي بمعناها الحقيقيّ.

وهدِّمت: بمعنى عُطِّلت، أو في الكلام مضاف مقدَّر، وليس بذاك.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والبحر المحيط ٦/ ٣٧١، والذي في تفسير القرطبي ١٤/ ٤١٠، والدر المصون ٨/ ٢٨٥، والصحاح واللسان (صمع): وزنها فوعلة. ولعلها الصواب.

(٢) المفردات (صمع)، وورد فيه: اللاصق، بدل: اللاصقة.

(٣) التيسير ص ٨٢، والنشر ٢/ ٢٣٠.

(٤) التيسير ص ١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.

وقيل: «صَلَوات» معرَّب صَلُوْثا، بالثاء المثلَّثة والقَصْر، ومعناها بالعبرانيَّة: المصلَّى. وروي عن أبي رجاء، والجحدريِّ، وأبي العالية، ومجاهد أنَّهم قرؤوا بذلك[١]. والظاهر أنَّه على هذا القول اسمُ جنسٍ لا عَلَم، قَبْلَ التعريبِ وبعدَه، لكن ما رواه هارون عن أبي عمرو مِن عدم تنوينهِ وَمنْعِ صَرْفه للعلميَّة والعُجْمة[٢] يقتضي أنَّه عَلَمُ جنسٍ، إذ كونه اسمَ موضع بعينهِ كما قيل بعيدٌ، فعليه كان ينبغي مَنْعُ صَرْفهِ على القراءة المشهورة، فلذا قيل: إنَّه صُرِفَ؛ لمشابهته للجمع لفظاً، فيكون كعَرَفات، والظاهر أنَّه نُكِّر إذ جُعلَ عامًّا لمَّا عُرِّب، وأمَّا القول بأنَّ القائلَ به لا ينوِّنه، فتكلُّف، قاله الخفاجيُّ[٣]. وقرأ جعفرُ بنُ محمد ﷺ: «صُلُوات» بضمِّ الصاد واللام[٤]. وحكى عنه ابنُ خالويه بكسرِ الصاد وسكونِ اللام، وحُكيت عن الجحدريِّ[٥]، وحكي عنه أيضاً: «صُلَوات» بضمِّ الصاد وفتح اللام، وحكيت عن الكلبيِّ[٦]، وقرأ أبو العالية في رواية: «صَلْوات» بفتح الصادِ وسكون اللام[٧]، وقرأ الحجَّاج بنُ يوسف: «صُلُوت» بضمِّ الصاد واللامِ من غير ألفٍ، وحكيت عن الجحدريِّ أيضاً[٨]، وقرأ مجاهد: «صُلُوتا» بضمَّتين وتاء مثناة بعدها ألفٌ[٩]، وقرأ الضحَّاك، والكلبيُّ: «صُلُوث» بضمَّتين من غيرِ ألف وبثاء مثلَّثة[١٠]، وقرأ عكرمة: «صِلْوِيثا» بكسرِ الصاد وإسكان اللام، وواو مكسورة بعدها ياء، بعدها ثاء مثلَّثة بعدها ألف[١١]، وحكي عن الجحدري أيضاً: «صُلْوَاث» بضمِّ الصاد وسكون اللام

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٠١.
(٤) المحتسب ٢/ ٨٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٥) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٣، إلا أن ابن خالويه نسبها للجحدري فقط دون جعفر بن محمد.
(٦) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٣،والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٧) القراءات الشاذة ص ٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٨) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٣.
(٩) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحتسب٢/ ٨٣، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥، إلا أنه ورد في مطبوع القراءات الشاذة: صُلُوثا. بالثاء، بدل التاء.
(١٠)المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(١١)القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٣ إلا أنه وقع فيه: صلويتا، بالتاء بدل الثاء.

وواو مفتوحة بعدها ألف بعدها ثاء مثلَّثة[١]، وحكي عن مجاهد أنَّه قرأ كذلك إلا أنَّه بكسرِ الصاد[٢]، وحكى ابنُ خالويه وابنُ عطيَّة عن الحجَّاج والجحدريِّ: «صُلُوب» بضمَّتين وباء موحدة على أنَّه جمع صليب[٣]، كظريف وظُرُوف، وجَمْعُ فَعِيْل على فُعُول شاذٌّ، فهذه عدَّة قراءات قلَّما يوجد مثلها في كلمة واحدة.

﴿وَمَسَـٰجِدُ﴾ جمع: مسجد، وهو: معبدُ معروفٌ للمسلمين، وخصَّ بهذا الاسم؛ اعتناءً بشأنه مِن حيث إنَّ السجودَ أقربُ ما يكون العبدُ فيه إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، وقيل: لاختصاصِ السجود في الصلاة بالمسلمين، ورُدَّ بقوله تعالى: ﴿يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] وحَمْلُ السجودِ فيها على المعنى اللغويِّ بعيدٌ، وقال ابنُ عطيَّة[٤]: الأسماء المذكورة تشترك الأممُ في مسمَّياتها إلا البِيْعةَ، فإنَّها مختصَّة بالنصارى في عُرْفِ كلِّ لغة، والأكثرون على أنَّ الصوامعَ للرهبان، والبِيَعَ للنصارى، والصلواتِ لليهود، والمساجدَ للمسلمين.

ولعلَّ تأخيرَ ذِكْرِها مع أنَّ الظاهرَ تقديمُها لشرفِها؛ لأنَّ الترتيبَ الوجوديَّ كذلك، أو لتقع في جوار مَدْحِ أهلِها، أو للتبعيد مِن قُرب التهديم، ولعلَّ تأخيرَ «صلوات» عن «بِيَع» مع مخالفة الترتيبِ الوجوديِّ له؛ للمناسبة بينها وبين المساجد، كذا قيل، وقيل: إنَّما جِيْءَ بهذه المتعبَّدات على هذا النَّسَق؛ للانتقال مِن شريفٍ إلى أشرف، فإنَّ البِيَعَ أشرفُ من الصوامع؛ لكثرة العبَّاد فيها، فإنَّها معبدٌ للرهبان وغيرهم، والصوامع معبدٌ للرهبان فقط، وكنائس اليهود أشرفُ مِن البِيَع؛ لأنَّ حدوثَها أقدمُ، وزمان العبادة فيها أطولُ، والمساجدُ أشرفُ مِن الجميع؛ لأنَّ الله تعالى قد عُبِدَ فيها بما لم يُعْبَدْ به في غيرها.

ولعلَّ المراد مِن قوله تعالى: «لهُدِّمت»... إلخ، المبالغة في ظهورِ الفساد ووقوع الاختلال في أَمْرِ العباد لولا تسليطُ الله تعالى المحقِّين على المبطلين لا مجرَّد تهديم متعبَّدات للملِّيين.

(١) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٥.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٦، والمحرر الوجيز ٤/ ١٢٥.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٥.

﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ في موضع الصفةِ لـ «مساجد»، وقال الضحَّاك، ومقاتل، والكلبيُّ: في موضع الصفةِ للجميع، واستظهره أبو حيَّان[١]، وكونُ كونِ بيانِ ذِكْر الله عزَّ وجلَّ في الصوامع والبِيَع والكنائس بعد انتساخِ شرعيَّتها مما لا يقتضيه المقامُ = ليس بشيء؛ لأنَّ الانتساخَ لا ينفي بقاءَها ببركة ذِكرْ اللهِ تعالى فيها، مع أنَّ معنى الآية عامٌّ لما قَبْل الانتساخِ، كما مرَّ.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: وبالله لينصرنَّ اللهُ تعالى مَن ينصر دينَه، أو من يَنصُر أولياءَه، ولقد أَنجزَ اللهُ تعالى وَعْدَه حيث سلَّط المهاجرينَ والأنصار على صناديدِ العرب وأكاسرةِ العجم وقياصرةِ الروم، وأورثهم أرضَهم وديارَهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على كلِّ ما يريده مِن مراداته التي مِن جملتها نَصْرُهم ﴿عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ لا يمانعه شيءٌ ولا يدافعه.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وصفٌ للذين أُخرجوا، مقطوع أو غير مقطوع، وجوّز أن يكون بدلاً، والتمكينُ: السلطنةُ ونفاذُ الأمر، والمراد بالأرض جنسُها، وقيل: مكَّة، والمراد بالصلاة الصلاةُ المكتوبة، وبالزكاة الزكاةُ المفروضة، وبالمعروف التوحيدُ، وبالمنكَر الشِّرْكُ، على ما روي عن زيد بنِ أسلم.

ولعلَّ الأولى في الأخيرين التعميمُ، والوصف بما ذُكرَ كما روي عن عثمان ﷺ: ثناء قبل بلاء، يعني أنَّ اللهَ تعالى أثنى عليهم قبل أن يُحدِثوا مِن الخير ما أَحدثوا، قالوا: وفيه دليلٌ على صحَّة أَمْرِ الخلفاء الراشدين ﷺ أجمعين، وذلك على ما في «الكشف»؛ لأنَّ الآيةَ مخصوصةٌ بالمهاجرين؛ لأنهَّم المُخرَجُون بغير حقٍّ، والممكَّنون في الأرض، منهم الخلفاء دون غيرهم، فلو لم تثبت الأوصاف الباقية، لزم الخُلْفُ في المقال، تعالى الله سبحانه عنه، لدلالته على أنَّ كلَّ ممكن منهم يلزمه التوالي؛ لعموم اللفظ، ولمَّا كان التمكينُ واقعاً تمَّ الاستدلالُ دون نظر إلى استدعاءِ الشرطيَّة الوقوع، كالكلام المقرون بـ «لعلَّ» و«عسى» مِن العظماء، فإنَّ لزومَ التالي مقتضى اللفظ لا محالةَ، ولما وقع المقدَّم، لزم وقوعه أيضاً، وفي

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٧٥.

ثبوت التالي ثبوت حقِّيَّة الخلافة ألبتة، وهي واردةٌ على صيغة الجمعِ المنافية للتخصيص بعليٍّ وحده رضي الله عنه، وعن الحسن، وأبي العالية: هم أمَّة محمَّد ﷺ. والأولى على هذا أن يُجعل الموصول بدلاً مِن قوله تعالى: «مَن يَنْصُرُه» كما أعربه الزجَّاج[١]، وكذا يقال على ما روي عن ابنِ عباس أنهم المهاجرونَ والأنصار والتابعون، وعلى ما روي عن أبي نجيحٍ أنَّهم الولاةُ. وأنتَ تَعلمُ أنَّ المقامَ لا يقتضي إلا الأوَّلَ.

﴿وَلِلَّهِ﴾ خاصة ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ فإنَّ مرجعَها إلى حُكْمه تعالى وتقديرِه فقط، وفيه تأكيدٌ للوعد بإعلاء كلمتِه وإظهارِ أوليائه.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ، وصيغةُ المضارع في الشَّرْط مع تحقُّق التكذيبِ لما أنَّ المقصودَ تسليتُه عليه الصلاة والسلام عمَّا يترتَّب على التكذيب مِن الحزن المتوقَّع، أو للإشارة إلى أنَّه ممَّا لا ينبغي تحقُّقه، وإلحاق: كَذَّبَ، تاءَ التأنيث؛ لأن الفاعلَ وهو «قوم» اسمُ جمع يجوز تذكيرُه وتأنيثُه، ولا حاجةَ لتأويله بالأمَّة أو القبيلة، كما فعل أبو حيَّان[٢] ومَن تبعهُ، وفي اختيارِ التأنيث حطٌّ لقَدْر المكذِّبين، ومفعولُ كذَّب محذوفٌ؛ لكمال ظهورِ المراد.

وجوّز أن يكون الفعلُ منزَّلاً منزلةَ اللازم، أي: فَعَلَت التكذيبَ، واستغنى في «عادٍ وثمودَ» عن ذِكْر القومِ؛ لاشتهارِهم بهذا الاسمِ الأخصر، والأصل في التعبير العَلَمُ، فلذا لم يقل: قوم صالح وقوم هود. ولا عَلَم لغير هؤلاء، ولم يقل: وقوم شعيب، قيل: لأنَّ قومَه المكذِّبين له عليه السلام هم هؤلاء دونَ أهلِ الأيْكَة؛ لأنَّهم - وإنْ أُرسلَ عليه السلام إليهم فكذَّبوه - أجنبيُّون، وتكذيبُ هؤلاء أيضاً أسبقُ وأشدُّ، والتخصيص؛ لأنَّ التسليةَ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام عن تكذيبِ قومِه، أي: وإن يكذِّبك قومُك فاعْلَم أنَّكَ لست بأوحديٍّ في ذلك، فقد كذَّبَتْ قَبْلَ تكذيبِ قومِك إيَّاك قومُ نوحٍ... إلخ.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٣١.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٧٦.

﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ المكذِّب له عليه السلام هم القبطُ، وليسوا قومَه، بل قومه عليه السلام بنو إسرائيل ولم يكذِّبوه بأَسْرهم، ومَن كذَّبه منهم تابَ إلا اليسيرَ، وتكذيبُ اليسيرِ مِن القوم كلا تكذيبٍ، ألا ترى أنَّ تصديقَ اليسير مِن المذكورين قَبْلَ عدٍّ كلا تصديق، ولهذا لم يَقُل: وقوم موسى، كما قيل: «قوم نوح» و«قوم إبراهيم»، وأمَّا أنَّه لم يقل: والقِبْط، بل أُعيد الفعلُ مبنيًّا للمفعول؛ فللإيذان بأنَّ تكذيبَهم له عليه الصلاة والسلام في غاية الشناعة، لكون آياتِه في كمالِ الوضوح.

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أمهلتُهم حتى انصرمتْ حبالُ آجالِهم، والفاء لترتيب إمهال كلِّ فريق مِن فِرَقِ المكذِّبين على تكذيبِ ذلك الفريق، لا لترتيب إمهال الكلِّ على تكذيب الكلِّ. ووضعَ الظاهرُ موضعَ المضمرِ العائد على المكذِّبين لذمِّهم بالكفر، والتصريح بمكذِّبي موسى عليه السلام حيث لم يُذكَروا فيما قَبْلُ تصريحاً.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أخذتُ كلَّ فريقٍ مِن فِرَقِ المكذِّبين بعد انقضاءِ مدَّة إملائه وإمهاله، والأَخْذُ كنايةٌ عن الإهلاك ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: إنكاري عليهم، بتغيُّرِ ماهم عليه مِن الحياة والنِّعْمة وعمارةِ البلاد وتبديله لضدِّه، فهو مصدر مِن نكرتُ عليه إذا فعلتَ فعلاً يردعُه، بمعنى الإنكار كالنذير بمعنى الإنذار. وياءُ الضمير المضاف إليها محذوفةٌ؛ للفاصلة، وأثبتها بعضُ القرَّاء[1]، والاستفهام للتعجُّب، كأنَّه قيل: فما أشدّ ما كان إنكاري عليهم، وفي الجملة إرهابٌ لقريش.

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ منصوبٌ بمضمر يفسِّره قولُه تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أي: فأهلكنا كثيراً مِن القرى أهلكناها، والجملة بدلٌ مِن قوله سبحانه: «فكيف كان نكير»، أو مرفوع على الابتداء، وجملة«أهلكناها» خبره، أي: فكثير مِن القرى أَهلكناها، واختار هذا أبو حيَّان[2]، قال: الأجودُ في إعراب «كأيِّن» أن تكون مبتدأ، وكونها منصوبةً بفعل مضمر قليلٌ.

وقرأ أبو عمرو، وجماعة: «أهلكتُها» بتاء المتكلِّم[3] على وفقِ: «فأَمليتُ للكافرين ثم أخذتُهم»، ونسبةُ الإهلاك إلى القرى مجازيَّة، والمراد إهلاكُ أهلِها،

---

(١) أثبتها ورش وصلاً، ويعقوب وصلاً ووقفاً. التيسير ص ١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٧٦.

(٣) التيسير ص ١٥٧، والنشر ٢/ ٣٢٧.

ويجوز أن يكون الكلامُ بتقديرِ مضاف، وقيل: الإهلاك استعارةٌ؛ لعدم الانتفاع بها بإهلاك أهلِها.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ جملةٌ حاليَّة مِن مفعولِ: أهلكنا، وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ عطف على «أهلكناها» فلا محلَّ له من الإعراب، أو محلُّه الرفع كالمعطوف عليه، ويجوز عطفُه على جملة «كأيِّن» إلخ الاسميَّة، واختاره بعضُهم؛ لقضية التشاكل، والفاءُ غيرُ مانعة؛ بناءً على ترتُّب الخَوَاء على الإهلاك؛ لأنَّه على نحو: زيدٌ أبوكَ، فهو عطوفٌ عليك. وجوّز عطفُها على الجملة الحالية، واعترض بأن خواءها ليس في حال إهلاك أهلها، بل بعده، وأجيب بأنها حال مقدَّرة، ويصح عطفها على الحال المقارنة، أو يقال: هي حالٌ مقارنة أيضاً بأن يكون إهلاك الأهل بخوائِها عليهم، ولا يخفى أنَّ كلا الجوابين خلافُ الظاهر.

والخَواء إمَّا بمعنى السقوط مِن خَوَى النجمُ: إذا سقط، وقوله تعالى ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ متعلِّق به، والمراد بالعروش: السقوفُ، والمعنى: فهي ساقطةٌ حيطانُها على سقوفها، بأن تعطَّل بنيانها، فخرَّت سقوفُها، ثم تهدَّمت حيطانُها فسقطت فوقَ السقوف، وإسناد السقوطِ على العروش إليها؛ لتنزيل الحيطان منزلةَ كلِّ البُنيان؛ لكونها عمدةً فيه.

وإمَّا بمعنى الخلوِّ، مِن خَوَتِ الدارُ تَخوي خَواء: إذا خَلَت مِن أهلها، ويقال: خَوي البطنُ يَخوِي خَوًى، إذا خلا مِن الطعام، وجعل الراغبُ(١) أصلَ معنى الخَواء هذا، وجعل خَوَى النجمُ مِن ذلك، فقال: يقال: خَوَى النجمُ وأَخْوَى، إذا لم يكن منه عند سقوطِه مطرٌ، تشبيهاً بذلك. فقوله تعالى «على عروشها» إمَّا متعلِّق به، أو متعلِّق بمحذوف وقع حالاً، و«على» بمعنى «مع»، أي: فهي خاليةٌ مع بقاء عروشها وسلامتها، ويجوز على تفسير الخواء بالخلوِّ أن يكون «على عروشها» خبراً بعد خبر، أي: فهي خالية وهي على عروشها، أي: قائمةٌ مشرفة علي عروشها، على أنَّ السقوفَ سقطت إلى الأرض، وبقيت الحيطانُ قائمةً وهي مشرفةٌ على السقوف الساقطة، وإسنادُ الإشراف إلى الكلِّ مع كونه حالَ الحيطان؛ لما مرَّ آنفاً.

---

(١) المفردات (خوي).

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ عطف على «قرية»، والبئر مِن بَأَرْتُ، أي: حفرتُ، وهي مؤنَّثة على وزن فِعْل بمعنى مفعول، وقد تُذَكَّر على معنى القليب، وتجمع على أَبْآر، وآبار، وأبؤُر، وآبُر، وبِئار، وتعطيلُ الشيء إبطالُ منافعه، أي: وكم بئر عامرة في البوادي تُركَت لا يُسقَى منها؛ لهلاك أهلِها.

وقرأ الجحدريُّ، والحسن، وجماعة: «مُعْطَلَة» بالتخفيف[1]، من أَعْطَلَه بمعنى عَطَّلَه.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ عطف على ما تقدَّم أيضًا، أي: وكم قصر مرفوعِ البُنيان، أو مبنيٍّ بالشِّيْد ـ بالكسر ـ أي: الجِصّ، أخليناه عن ساكِنيه كما يُشعِر به السياقُ ووصفُ البئرِ بمعطَّلة، قيل: وهذا يؤيِّد كون معنى: «خاوية على عروشها»: خالية مع بقاءِ عروشها، وفي «البحر»[2]: ينبغي أن يكون «بئر» و«قصر» من حيث عطفُهما على «قرية» داخلين معها في حيِّز الإهلاك مخبراً به عنهما بضَرْبٍ من التجوُّز، أي: وكم بئرٍ معطَّلة وقصرٍ مشيدٍ أهلكنا أهلَهُما. وزعم بعضُهم عطفهما على «عروشها»، وليس بشيءٍ، وظاهر التنكيرِ فيهما عدم إرادةِ معيَّن منهما، وعن ابنِ عباس أنَّ البئرَ كانت لأهل عَدَن مِن اليمن وهي الرَّسُّ، وعن كعب الأحبار أنَّ القَصْر بناه عادٌ الثاني.

وعن الضحَّاك وغيرِه أنَّ القَصْر على قُلَّةِ جبلٍ بحَضْرَمَوْت، والبئر بسَفْحه، وأنَّ صالحاً عليه السلام نزل عليها مع أربعةِ آلاف نفر ممَّن آمَنَ به، ونجَّاهم اللهُ تعالى من العذاب، وسمِّيت حَضْرَمَوْت بفتح الراءِ والميم ويُضمَّان، ويُبنى ويُضاف؛ لأنَّ صالحاً عليه السلام حين حَضَرها مات[3]، وعند البئر بلدةٌ اسمها حاضُورا بناها قومُ صالحٍ وأمَّروا عليها جلهسَ بنَ جلاس، وأقاموا بها زماناً، ثم كفروا وعبدوا صنماً، وأرسل اللهُ تعالى إليهم حنظلَة بنَ صفوان نبيًّا، فقتلوه في السوق، فأهلكهم اللهُ تعالى عن آخِرهم، وعطَّل سبحانه بئرَهم وقَصْرَهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٦، والمحتسب ٢/ ٨٥.

(٢) ٦/ ٣٧٧.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصه: «فالظاهر أن قبره عليه السلام هناك، وقيل: هو بعكا، وعليه الإمام أبو القاسم الأنصاري، والله تعالى أعلم. اهـ. منه».

وجوّز أن يكون إرادةُ ذلك بطريقِ التعريض، وفيه بُعْدٌ.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حثٌّ لهم على السفر؛ للنَّظَر والاعتبارِ بمصارع الهالكين، هذا إن كانوا لم يسافروا، وإن كانوا سافروا، فهو حثٌّ على النظر والاعتبارِ، وذِكْر المسير؛ لتوقُّفه عليه: وجوّز أن يكون الاستفهامُ للإنكار أو التقرير، وأيًّا ما كان فالعطف على مقدَّر يقتضيه المقامُ.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ﴾ منصوبٌ في جواب الاستفهام عند ابنِ عطيَّة[١]، وفي جواب التقرير عند الحوفيِّ، وفي جواب النفي عند بعض، ومذهب البصريِّين أنَّ النصبَ بإضمار «أن» وينسبك منها ومن الفعل مصدرٌ يعطف على مصدرٍ متوهَّم. ومذهب الكوفيين أنَّه منصوبٌ على الصرف، إذ معنى الكلام الخبرُ، صرفوه عن الجَزْم على العطف على «يسيروا»، وردُّوه إلى أخي الجَزْم وهو النصبُ، وهو كما ترى. ومذهب الجرميِّ أنَّ النصبَ بالفاء نفسِها.

وقرأ مُبَشِّرُ بنُ عبيد: «فيكونَ» بالياء التحتيَّة[٢].

﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ أي: يَعلمون بها ما يَجب أن يُعلَم مِن التوحيدِ، فمفعول «يعقلون» محذوفٌ؛ لدلالة المقام عليه، وكذا يقال في قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي: يسمعونَ بها ما يَجب أن يُسمَع مِن الوحي أو مِن أخبارِ الأمم المُهلَكة ممَّن يجاورهم مِن الناس، فإنَّهم أعرفُ منهم بحالهم.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ ضمير «فإنَّها» للقصَّة، فهو مفسَّر بالجملة بعدَه، ويجوز في مثله التذكيرُ باعتبار الشأن، وعلى ذلك قراءةُ عبدِ الله: «فإنَّه»[٣]، وحَسَّنَ التأنيثَ هنا وقوعُ ما فيه تأنيثٌ بعده، وقيل: يجوز أن يكون ضميراً مبهَماً مفسَّراً بالأبصار، وكأن الأصل: فإنَّها الأبصارُ لا تَعمى، على أنَّ جملة «لا تعمى» مِن الفعل والفاعل المستتر خبرٌ بعد خبرٍ، فلمَّا تُرك الخبر الأوَّل أُقيم الظاهرُ مقامَ الضمير، لعدم ما يرجع إليه ظاهراً، فصار فاعلاً مفسِّراً

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٧.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٧.

(٣) الكشاف ٣/ ١٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٨.

للضمير. واعترضه أبو حيَّان[١] بأنَّه لا يجوز؛ لأنَّ الضميرَ المفسّر بمفرد بعدَه محصورٌ في أمور، وهي باب «رُبَّ»، وباب «نِعْمَ» و«بِئْسَ»، وباب الإعمال، وباب البدل، وباب المبتدأ والخبر، وما هنا ليس منها. ورُدَّ بأنَّه مِن باب المبتدأ والخبر، نحو: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩] ولا يضرُّه دخولُ الناسخ، وفيه نظرٌ، والمعنى أنَّه لا يعتدُّ بعمى الأبصار، وإنَّما يعتدُّ بعمَى القلوب، فكأنَّ عمى الأبصار ليس بعمًى بالإضافة إلى عَمَى القلوب، فالكلامُ تذييلٌ؛ لتهويلِ ما بهم مِن عدم فِقْهِ القلب، وأنَّه العمى الذي لا عمى بعدَه، بل لاعمَى إلا هو، أو المعنى: إنَّ أبصارَهم صحيحةٌ سالمة لا عمى بها، وإنّما العمى بقلوبهم، فكأنَّه قيل: أَفَلَم يسيروا فتكون لهم قلوبٌ ذاتُ بصائر، فإنَّ الآفةَ ببصائرِ قلوبهم لا بأبصار عيونهم، وهي الآفة التي كلُّ آفةٍ دونها، كأنَّه يحثُّهم على إزالة المرض، ويَنعي عليهم تقاعدَهم عنها. ووصف القلوب بالتي في الصدور على ما قال الزجَّاج[٢]؛ للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ [آل عمران: ٦٧] وقولك: نظرتُ بعيني.

وقال الزمخشريُّ[٣]: قد تُعورفَ واعتُقد أنَّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أَنْ تُصاب الحَدَقةُ بما يطمسُ نورَها، واستعمالُه في القلب استعارةٌ ومَثَلٌ، فلما أُريد إثباتُ ما هو خلافُ المعتَقَد مِن نسبة العمى إلى القلوب حقيقةً، ونفيُه عن الأبصار، احتاج هذا التصويرُ إلى زيادةِ تعيين وفَضْلِ تعريف؛ ليتقرَّر أنَّ مكانَ العمى هو القلوبُ لا الأبصار، كما تقول: ليس المَضَاء للسيف، ولكنه لِلِسَانِك الذي بين فكَّيك، وهو في حُكم قولك: ما نفيتُ المضاءَ عن السيف وأثبتُّه للسانِك فلتةً ولا سهواً منِّي، ولكن تعمَّدت به إيَّاه بعينه تعمُّداً.

وهذه الآية على ما قيل: نزلت في ابنِ أمِّ مكتوم حين سمع قولَه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢]، فقال: يا رسولَ الله، أنا في الدنيا أعمى، أفأكون في الآخرة أعمى[٤]؟! وربَّما يرجِّح بهذه الرواية - إن

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٧٨.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٣٢.

(٣) الكشاف ٣/ ١٧.

(٤) تفسير القرطبي ١٤/ ٤٢٠، وتفسير أبي السعود ٦/ ١١١، ولم نقف عليه مسنَداً.

صحَّتِ ـ المعنى الأوَّل، إذ حصولُ الجوابِ بالآية عليه ظاهرٌ جدًّا، فكأنَّه قيل له: أنتَ لا تدخل تحت عمومِ «ومَن كان» إلخ؛ لأنَّ عمى الأبصار في الدنيا ليس بعمًى في الحقيقة في جَنْبِ عمى القلوب، والذي يَدخُل تحت عمومِ ذلك منِ اتَّصف بعمى القلب، وهذا يكفي في الجواب، سواء كان معنى قولِه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢]: ومَن كان في الدنيا أعمى القلب فهو في الآخرة كذلك، أو: ومن كان في الدنيا أعمَى القلب فهو في الآخرة أعمى البصر؛ لأنَّه فيها تُبلَى السرائر فيظهر عمى القلب بصورةِ عمى البصر، نعم في صحَّة الرواية نَظَرٌ.

وفي «الدر المنثور»: أخرج ابنُ أبي حاتم عن قتادةَ أنَّه قال في هذه الآية: ذُكِرَ لنا أنَّها نزلت في عبدِ الله بنِ زائدة يعني: ابن أمِّ مكتوم[1]. ولا يخفى حُكْمُ الخبرِ إذا رُوِيَ هكذا.

واستدلَّ بقوله تعالى: «أفلم يسيروا»... إلخ على استحباب السياحة في الأرض وتطلُّب الآثار.

وقد أخرج ابنُ أبي الدنيا[2] في كتاب «التفكُّر» عن مالك بنِ دينار قال: أوحى اللهُ تعالى إلى موسى عليه السلام أنِ اتَّخِذْ نعلَيْن مِن حديدٍ وعصا، ثم سُحْ في الأرض، فاطلب الآثارَ والعِبَرَ حتى تَحفى النعلان، وتنكسر العصا.

وبقوله تعالى: «فتكون»... إلخ على أنَّ محلَّ العقل القلبُ لا الرأسُ، قاله الجلال السيوطيُّ في «أحكام القرآن العظيم».

وقال الإمام الرازيُّ[3]: في الآية دلالةٌ على أنَّ العقلَ هو العِلْمُ، وعلى أنَّ محلَّه هو القلبُ. وأنت تَعلمُ أنَّ كونَ العقل هو العِلْم هو اختيار أبي إسحاق الإسفراييني، واستدلَّ عليه بأنَّه يقال لمن عقلَ شيئاً: عَلِمَهُ، ولمن عَلِمَ شيئاً: عَقَلَهُ، وعلى تقديرِ التغاير لا يقال ذلك، وهو غيرُ سديد؛ لأنَّه إن أُريدَ بالعلم كلُّ عِلْمٍ،

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٩٨ (١٣٩٨٣).
(٢) في الأصل و(م): حاتم. والمثبت من الدر المنثور ٤/ ٣٦٥، وهو الصواب.
(٣) في تفسيره ٢٣/ ٤٥.

يَلزمُ منه أن لا يكونَ عاقلاً مَن فاته بعضُ العلوم مع كونه محصِّلاً لما عداه، وإن أُريد بعضُ العلوم فالتعريف غيرُ حاصل؛ لعدم التمييز، وما ذكر مِن الاستدلال غيرُ صحيح؛ لجواز أن يكون العِلْم مغايراً للعقل، وهما متلازمان.

وقال الأشعريُّ: لا فرقَ بين العَقْل والعِلْم إلا في العموم والخصوص، والعِلْم أعمُّ من العقل، فالعقلُ إذاً عِلْمٌ مخصوصٌ، فقيل: هو العِلْم الصارفُ عن القبيح الداعي إلى الحُسْنِ، وهو قول الجبَّائيِّ، وقيل: هو العِلْم بخَيْر الخيرَيْن وشَرِّ الشرَّيْن، وهو قولٌ لبعض المعتزلة أيضاً، ولهم أقوالٌ أُخَر، والذي اختاره القاضي أبو بكر أنَّه بعضُ العلوم الضروريَّة كالعِلْم باستحالة اجتماع الضِّدَّيْن، وأنَّه لا واسطةَ بين النفي والإثبات، وأنَّ الموجودَ لا يخرج عن أن يكون قديماً أو حادثاً ونحو ذلك. واحتجَّ إمامُ الحرمين على صحَّة ذلك وإبطال ما عداه بما ذكره الآمديُّ في «أبكار الأفكار»(١) بما له وعليه. واختار المحاسبيُّ ـ عليه الرحمة ـ أنَّه غريزةٌ يتوصَّل بها إلى المعرفة. ورُدَّ بأنَّه إن أراد بالغريزة العِلْمَ، لزمه ما لزمَ القائلَ بأنَّه العِلْم، وإن أراد بها غير العِلْم فقد لا يُسلَّم وجودُ أَمْر وراءَ العِلْم يتوصَّل به إلى المعرفة.

وقال صاحب «القاموس»(٢)، بعد نقل عدَّة أقوال في العقل: والحقُّ أنَّه نُورٌ رَوحانيٌّ به تُدرِك النفسُ العلومَ الضروريَّة والنظريَّة. ولعلَّنا نُحقِّق ذلك في موضع آخَر إن شاء الله تعالى.

ثم إنَّ في محلِّيَّة القَلْب للعِلْم خلافاً بين العقلاء، فالمشهور عن الفلاسفة أنَّ محلَّ العِلْم المتعلِّق بالكلِّيَّات والجزئيَّات المجرَّدة النفسُ الناطقة، ومحلُّ العِلْم المتعلِّق بالجزئيات الماديَّة قوى جسمانيَّة قائمةٌ بأجزاء خاصَّة مِن البَدَن، وهي منقسمةٌ إلى خمسٍ ظاهرة، وخمسٍ باطنة، وتُسمَّى الأُولى الحواسَّ الظاهرةَ، والثانيةَ الحواسَّ الباطنة، وأَمْرُ كلٍّ مشهورٌ.

وزعم بعضُ متفلسفة المتأخِّرين أنَّ المدرِك للكلِّيَّات والجزئيَّات إنَّما هو

(١) ١/ ١٣٠ والكلام السالف منه.
(٢) القاموس المحيط (عقل).

النَّفْسُ، والقوى مطلقاً غيرُ مُدرِكة، بل آلةٌ في إدراكِ النفس، وذهب إليه بعضٌ منَّا. وفي «أبكار الأفكار»(١) ـ بعد نَقْلِ قولِ الفلاسفة ـ: وأمَّا أصحابنا فالبُنْية المخصوصة غيرُ مشترطة عندهم، بل كلُّ جزءٍ من أجزاء بَدَن الإنسان إذا قام به إدراكٌ وعِلْم، فهو مُدرِك عالِم، وكون ذلك مما يقوم بالقلب أو غيرِه ممَّا لا يجب عقلاً ولا يمتنعُ، لكن دلَّ الشرعُ على القيام بالقلب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقولِه سبحانه: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. انتهى.

ولا يخفى أنَّ الاستدلالَ بما ذكر على محلِّيَّة القَلْب للعِلْم لا يخلو عن شيء، نعم لا يُنكر دلالةُ الآياتِ على أنَّ للقلب الإنسانيِّ ـ لِما أُودعَ فيه ـ مدخلاً تامًّا في الإدراك، والوجدان يَشهد بمدخليَّة ما أودع في الدماغ في ذلك أيضاً، ومِن هنا لا أرى للقول بأنَّ لأحدهما مدخلاً دون الآخَر وجهاً، وكون الإنسان قد يُضرَب على رأسه فيذهب عقلُه لا يدلُّ على أنَّ لِمَا أُودعَ في الدماغ لا غير مدخلاً في العِلْم، كما لا يَخفى على مَن له قلب سليمٌ وذهن مستقيم، فتأمَّل.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ الضميرُ لقريشٍ، كان ﷺ يُحذِّرهم عذابَ اللهِ تعالى ويُوعدهم مجيئَه، وهم يُنكِرون ذلك أشدَّ الإنكارِ، ويطلبون مجيئَه؛ استهزاءً وتعجيزاً له ﷺ، فأَنكر عليهم ذلك، فالجملة خبرٌ لفظاً واستفهامٌ وإنشاءٌ معنًى. وقوله تعالى: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ جملة حاليَّة جِيْءَ بها؛ لبيانِ بُطلان إنكارهم العذابَ في ضمنِ استعجالهم به، كأنَّه قيل: كيف تُنكرون مجيءَ العذاب الموعودِ والحالُ أنَّه تعالى لا يُخلِف وَعْدَه، وقد سَبَقَ الوعدُ، فلا بُدَّ مِن مجيئه، أو اعتراضيَّة؛ لما ذُكرَ أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ جملةٌ مستأنفةٌ إن كانت الأُولى حاليَّةً، ومعطوفةٌ عليها إن كانت اعتراضيَّةً، سيقت لتحقيق إنكارِ الاستعجال وبيان خَطَئِهم فيه، ببيان كمال سَعَةِ ساحة حِلْمه تعالى، وإظهارِ

(١) ١/١٠٩-١١٠، وما قبله منه أيضاً.

غاية ضِيْق عَطَنِهم المستتبعِ لكون المدَّة القصيرة عنده تعالى مدداً طِوالاً عندهم حسبما ينطقُ به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧] ولذا يَرَوْن مجيئَه بعيداً، ويتَّخذونه ذريعةً إلى إنكاره، ويجترؤون على الاستعجالِ به، ولا يَدْرُون أنَّ معيارَ تقديرِ الأمور كلِّها وقوعاً وإخباراً ما عنده مِن المقدار.

وقراءة الأخوين، وابنِ كثير: «يَعدُّون» على صيغة الغيْبة[1] - أي: يعدُّه المستعجلون - أوفقُ لهذا المعنى، وقد جعل الخطاب في قراءة الجمهور لهم أيضاً بطريق الالتفات، لكنَّ الظاهرَ أنَّه للرسول ﷺ ومَن معه مِن المؤمنين، وقيل: المراد بوَعْده تعالى ما جَعَلَ لهلاكِ كلِّ أمَّةٍ مِن موعد معيَّن وأجلٍ مسمًّى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣] فتكون الجملةُ الأولى مطلقاً مبيِّنة لبطلان الاستعجالِ به، ببيانِ استحالةِ مجيئه قبل وقتِه الموعود، والجملة الأخيرة بياناً لبطلانِه، ببيانِ ابتنائه على استطالةِ ما هو قصيرٌ عنده تعالى على الوجه المارِّ بيانه، وحينئذٍ لا يكون في النظم الكريم تعرُّض لإنكارهم مجيئَه الذي دسُّوه تحت الاستعجال، ويكتفى في ردِّ ذلك ببيان عاقبة مَن قبلهم مِن أمثالهم، وأيًّا ما كان فالعذاب المستعجَل به العذاب الدنيويّ، وهو الذي يقتضيه السباق والسياق. وقيل: المراد بالعذاب العذابُ الأُخرويُّ، والمراد باليوم المذكور يومُ ذلك العذابِ، واستطالتُه؛ لشدَّته، فإنَّ أيَّامَ الترحةِ مستطالةٌ، وأيَّامَ الفرحة مستقصرةٌ، كما قيل:

تمتَّعْ بأيَّام السرورِ فإنَّها ... قصارٌ وأيَّامُ الهمومِ طوالُ[2]

وعلى ذلك جاء قوله:

لَيْلي ولَيْلى نَفَى نومي اختلافُهما ... بالطُّول والطَّوْل يا طوبى لو اعْتَدَلَا
يَجودُ بالطُّول لَيْلي كلَّما بَخِلَتْ ... بالطَّوْل لَيْلَى وإن جادَتْ به بَخِلَا[3]

---

(١) التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧.
(٢) كذا ذكره الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي ٦/ ٣٠٤، ولم ينسبه.
(٣) البيتان ذكرهما العماد الأصفهاني في خريدة العصر وجريدة القصر ٢/ ١٠٢ (قسم شعراء الشام) وعزاهما لأبي المكارم الفضل بن عبد القاهر، وذكرهما أيضاً - دون نسبة - العباسي في معاهد التنصيص ١/ ٢٦٦، واليوسي في زهر الأكم ٢/ ١٧٨-١٧٩، إلا أن عجز البيت =

فيكون قد ردَّ عليهم إنكارَ مجيْءِ العذاب بالجملة الأولى، وأنكر عليهم الاستعجالَ به، وإن كان ذلك على وجهِ الاستهزاء بالجملة الثانية، فكأنَّه قيل: كيف تُنكرونَ مجيئَه وقد سَبَقَ به الوعدُ، ولن يُخلِفَ اللهُ تعالى وعدَه فلا بُدَّ مِن مجيئه حتماً، وكيف تستعجلونَ به واليوم الواحد مِن أيَّامه لشدَّته يُرى كألفِ سنةٍ ممَّا تعدُّون، ويقال نحو ذلك على القول بأنَّ المرادَ باليوم أحد أيَّام الآخِرة، فإنَّها اعتبرت طوالاً، أو أنَّها تستطال؛ لشدَّة عذابها.

واعتُرض بأنَّ ذلك ممَّا لا يُساعده السباقُ ولا السياق وقال الفرَّاء[1]: تضمَّنت الآيةُ عذابَ الدنيا والآخِرة، وأُريد بالعذاب المستعجَل به عذاب الدنيا، أي: لن يُخلِفَ اللهُ تعالى وعدَه في إنزال العذاب بكم في الدنيا، وإنَّ يوماً مِن أيَّام عذابكم في الآخرة كألفِ سنة مِن سِنِيِّ الدنيا. ولا يَخلو عن حُسْنٍ إلا أنَّ فيه بُعْداً كما لا يَخفى.

واستدلَّ المعتزلة بقوله تعالى: «لن يُخلِفَ اللهُ وعدَه» على أنَّ اللهَ سبحانه لا يَغفِرُ للعصاة؛ لأنَّ الوعدَ فيه بمعنى الوعيد، وقد أَخبر سبحانه أنَّه لا يُخلِفه، والمغفرةُ تستلزم الخُلْفَ المستلزِم للكذب المُحالِ عليه تعالى؟

وأجاب أهلُ السُّنَّة بأنَّ وعيداتِ سائرِ العصاة إنشاءاتٌ أو إخباراتٌ عن استحقاقِهم ما أُوعدوا به لا عن إيقاعِه، أو هي إخباراتٌ عن إيقاعِه مشروطةٌ بعدم العَفْو وتَرْكِ التصريح بالشرط بزيادةِ الترهيب، ولا كذلك وعيداتُ الكفار، فإنَّها محضُ إخباراتٍ عن الإيقاع غيرِ مشروطة بشرطٍ أصلاً، كمواعيد المؤمنين، والدَّاعي للتفرقة الجَمْعُ بين الآيات، وأنتَ تَعلمُ أنَّ وعيداتِ الكفَّار بالعذاب الدنيويِّ كوعيداتهم بالعذاب الأخرويِّ لا يتطرَّقها عدمُ الوقوع، فلا يجوز العفوُ عن عذابهم مطلقاً متى وعدَ به، وعندي في التسوية بين الأمرين تردُّد، ويُعلَم مِن ذلك

= الأول ورد عند العباسي هكذا:

حتى لقد صيَّراني في الهوى مثلا

وورد عند اليوسي هكذا:

قد صيَّراني جميعاً في الهوى مثلا

(١) ينظر معاني القرآن له ٢/ ٢٢٨-٢٢٩.

حالُ هذا الجواب على تقدير حَمْلِ العذاب في الآية على العذاب الدنيويِّ الأوفق للمقام، والوعد على الوَعْد به. وأجاب بعضُهم هنا بأنَّ المرادَ بالوعد وَعْدُه تعالى بالنُّظْرَة والإمهال، وهو مقابلٌ للوعيد في نظر المُمْهَل، ولا خلافَ في أنَّ اللهَ تعالى لا يُخلف الوعدَ المقابل للوعيدِ، وأنَّ ما يؤدى به خبرٌ محض لا شَرْط فيه. وقيل: المراد به وعدُه تعالى نبيَّه ﷺ بإنزال العذابِ المستعجَل به عليهم، وذلك مقابل للوعيد مِن حيث إنَّ فيه خيراً له عليه الصلاة والسلام، ولا مانعَ مِن أن يكون شيءٌ واحدٌ خيراً وشرًّا بالنسبة إلى شخصَيْن، فقد قيل:

مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ(١)

وحينئذٍ لا دليلَ للمعتزلة في الآية على دعواهم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كم مِن سَكَنةِ قرية ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ كما أمليتُ لهؤلاء حتى أنكروا مجِيْءَ ما وعد مِن العذاب واستعجلوا به استهزاءً وتعجيزاً لرسلهم عليهم السلام كما فعل هؤلاء، والجملة عطفٌ على ما تقدَّمها جِيْءَ بها؛ لتحقيق الردِّ كما تقدَّم، فلذا جِيْء بالواو، وجِيْءَ في نظيرتها السابقة بالفاء، قيل: لأنَّها أُبدلت مِن جملة مقرونة بها، وفي إعادة الفاء تحقيقٌ للبدليَّة، وقيل: جِيْءَ بالفاء هناك؛ لأنَّ الجملةَ مترتِّبة على ما قبلها، ولم يَجِئ بها هنا؛ لعدم الترتُّب.

وقوله تعالى: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ جملةٌ حاليَّة مفيدة لكمالِ حِلْمه تعالى، ومُشعِرة بطريق التعريض بظُلْم المستعجلينَ، أي: أَمليتُ لها والحال أنَّها ظالمةٌ مستوجبة لتعجيلِ العقوبة كدأْب هؤلاء ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنَّكال بعد طُول الإملاء والإمهال ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ أي: إلى حُكْمي مرجعُ جميعِ الناس، أو جميعِ أهلِ القرية لا إلى أحدٍ غيري لا استقلالاً ولا شَرِكةً، فأَفعلُ بهم ما أفعل ممَّا يليقُ بأعمالهم، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لما قَبْلَه مصرِّح بما أَفاده ذلك بطريق التعريضِ مِن أنَّ مآلَ أَمْرِ المستعجلين أيضاً ما ذكر مِن الأَخْذِ الوبيل.

---

(١) عجز بيت للمتنبي، وصدره:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها

وسلف ١٣/ ٢٢١.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ ظاهرُ السياق يقتضي أنَّ المرادَ بالناس المشركونَ، فإنَّ الحديثَ مسوقٌ لهم، فكأنَّه قيل: قل: يا أيُّها المشركونَ المستعجلونَ بالعذاب إنَّما أنا منذرٌ لكم إنذاراً بيِّناً بما أُوحي إليَّ مِن أنباءِ الأُمم المهلَكة مِن غير أن يكون لي دَخْلٌ في إتيان ما تستعجلونَ مِن العذاب الموعود حتى تَستعجلوني به، فوجهُ الاقتصارِ على الإنذار ظاهرٌ، وأمَّا وجهُ ذِكرِ المؤمنين وثوابِهم في قوله تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ فالزيادة في إغاظةِ المشركينَ فهو بحسب المآلِ إنذارٌ، ويجوز أن يقال: إنَّ قولَه سبحانه: «فالذين آمنوا» الآية، تفصيلٌ لمن نَجَعَ فيه الإنذارُ مِن الناس المشركين، ومَن بقي منهم على كُفْره غير ناجعٍ فيه ذلك، كأنَّه قيل: أَنْذِرْ يا محمَّد هؤلاء الكفرةَ المستعجلينَ بالعذاب وبَالِغْ فيه، فمَن آمَنَ ورَجَعَ عمَّا هو عليه فله كذا، ومَن داوم على كُفْره واستمرَّ على ما هو عليه فله كذا، واختاره الطيبيُّ، وهو كما في «الكشف» حَسَن، وعليه: لا يكون التقسيمُ داخلاً في المقول، بخلاف الوجه الأوَّل.

وقال بعضُ المحقِّقين: «الناسُ» عامٌّ للمؤمن والكافر، والمنذَر به قيامُ الساعة، وإنَّما كان ﷺ نذيراً مبيناً؛ لأنَّ بَعْثَهُ عليه الصلاة والسلام مِن أَشْراطها، فاجتمع فيه الإنذارُ قالاً وحالاً بقوله: «أنا لكم نذير مبين»، كقوله ﷺ الثابت في الصحيحين: «أنا النذيرُ العريان»(١)، وقد دلَّ على ذلك تعقيب الخطابِ بالإنذار تفصيلُ حالِ الفريقين عند قيامها. اهـ.

ولا مانعَ منه لولا ظاهرُ السياق، وكون المؤمنينَ لا يُنذَرون لاسيَّما وفيهم الصالحُ والطالحُ ممَّا لا وجهَ له، ومَن مَنَعَ مِن العموم لذلك قال: التقديرُ عليه: بشير ونذير، ونقل هذا عن الكرمانيِّ؛ ثم المغفرة تحتمل أنْ تكون لما نَدَرَ مِن الذين ءامنوا مِن الذُّنوب، وذلك لا ينافي وصفَهم بعمل الصالحات، وتحتمل أن تكون لما سَلَفَ منهم قبل الإيمان والرجوع عمَّا كانوا عليه.

والمرادُ بالرزق الكريم هنا الجنَّةُ، كما يُشعِر به وقوعُه بعدَ المغفرة، وكذلك في

---

(١) البخاري (٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وسلف عند تفسير الآية (٨٥) من سورة الإسراء.

جميع القرآن على ما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن محمَّد بنِ كعب القرظيِّ[1]، ومعنى الكريم في صفات غيرِ الآدميِّين: الفائق.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: بذلوا الجهدَ في إبطالها، فسمَّوها تارةً سحراً، وتارة شِعْراً، وتارةً أساطير الأولين. وأصلُ السعي: الإسراعُ في المشي، ويُطلَق على الإصلاح والإفساد، يقال: سعى في أَمْرِ فلانٍ: إذا أصلحه أو أَفسده بسَعْيه فيه ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقينَ للمؤمنين، والمراد بمسابقتهم مشاقَّتهم لهم ومعارضتهم، فكلما طلبوا إظهارَ الحقِّ طلب هؤلاء إبطالَه، وأصله مِن عاجَزَه فأَعْجَزَه وعَجَزَه، إذا سابقه فسَبَقه، فإنَّ كلًّا من المتسابقين يريد إعجازَ الآخَر عن اللَّحاق.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والجحدريُّ، وأبو السمَّال، والزعفرانيُّ: «مُعَجِّزين» بالتشديد[2]، أي: مثبِّطين الناسَ عن الإيمان. وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ[3]: ناسبينَ المسلمينَ إلى العَجْز، كما تقول: فَسَّقْتُ فلاناً، إذا نسبتَه إلى الفِسْق. وهو المناسب؛ لقوله تعالى: «يَستعجلونكَ بالعذاب».

وقرأ ابنُ الزبير: «مُعْجِزين» بسكونِ العين وتخفيف الزاي[4]، مِن أَعْجَزَكَ: إذا سبقكَ ففاتكَ. قال صاحب «اللوامح»: والمراد هنا ظانِّين أنَّهم يُعجِزوننا، وذلك لظنِّهم أنَّهم لا يُبعَثون، وفسَّر «معاجزين» في قراءةِ الجمهور بمثلِ ذلك، والوَصْفُ على جميع القراءات حالٌ مِن ضمير: «سعوا»، وليست مقدَّرة على شيءٍ منها، كما يظهر للمتأمِّل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفونَ بما ذُكر ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ أي: ملازمو النَّار الشديدة التأجُّج، وقيل: هو اسم دركةٍ من دَرَكات النار.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ «مِن» الأُولى ابتدائيَّة، والثانية مزيدةٌ؛ لاستغراقِ الجنس، والجملة المصدَّرة بـ «إذا» في موضع الحال عند أبي حيَّان[5]، وقيل: في موضعِ الصفة، وأُفرد الضمير بتأويلِ

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٤٩٩-٢٥٠٠ (١٣٩٩٠).

(٢) التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٧٩.

(٣) الحجَّة ٥/ ٢٨٤.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٧٩.

(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٨٢.

كلٌّ واحد، أو بتقدير جملةٍ مثل الجملةِ المذكورة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] والظاهر أنَّ «إذا» شرطيَّة، ونصَّ على ذلك الحوفيُّ، لكن قالوا: إنَّ «إلَّا» في النفي إمَّا أن يليها مضارعٌ نحو: ما زيدٌ إلَّا يفعل، وما رأيتُ زيداً إلَّا يفعل، أو يليها ماضٍ بشرط أن يتقدَّمه فِعْلٌ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ﴾ إلخ [الحجر: ١١]، أو(١) يكون الماضي مصحوباً بـ «قد» نحو: ما زيدٌ إلا قَد قام، ويُشكِل عليه هذه الآية إذ لَم يلِها فيها مضارعٌ ولا ماضٍ، بل جملة شرطيَّة، فإنَّ صحَّ ما قالوه، احتيج إلى التأويل، وأوَّلَ ذلك في «البحر»(٢) بأنَّ «إذا» جرِّدت للظرفيَّة، وقد فُصِلَ بها وبما أُضيفت إليه بين «إلَّا» والفعل الماضي الذي هو: «ألقى»، وهو فصلٌ جائز، فتكون «إلَّا» قد وَلِيها ماضٍ في التقدير ووُجِدَ الشرطُ، وعطف «نبيٍّ» على «رسول» يدلُّ على المغايرةِ بينهما وهو الشائع، ويَدلُّ على المغايرة أيضاً ما روي أنَّه ﷺ سُئِلَ عن الأنبياء فقال: «مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً». قيل: فكم الرسلُ منهم؟ قال: «ثلاث مئة وثلاثةَ عَشَر جمًّا غفيراً» وقد أخرج ذلك ـ كما قال السيوطيُّ ـ أحمدُ، وابنُ راهويه في مسنَدَيْهما مِن حديث أبي أمامة(٣)، وأخرجه ابنُ حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» مِن حديث أبي ذرٍّ(٤). وزعم ابنُ الجوزيِّ أنَّه موضوعٌ(٥)، وليس كذلك، نعم قيل في سندِه ضَعْفٌ، جُبرَ بالمتابعة؛ وجاء في رواية: «الرسل ثلاث مئة وخمسةَ عَشَر»(٦).

واختلفوا هنا في تفسير كلٍّ منهما فقيل: الرسول: ذَكَرٌ حرٌّ بعثه اللهُ تعالى بشرعٍ جديدٍ يَدعو الناسَ إليه. والنبيُّ يعمُّه، ومَن بعثه لتقريرِ شَرْعٍ سابق كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليه السلام.

وقيل: الرسول: ذَكَرٌ حرٌّ بعثه اللهُ تعالى إلى قومٍ بشرعٍ جديد بالنسبةِ إليهم، وإن

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصه: [«أو» لمنع الخلو. اهـ. منه].
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٨٢.
(٣) مسند أحمد (٢٢٢٨٨)، وفي إسناده ضعف.
(٤) ابن حبان (٣٦١)، والمستدرك ٢/ ٥٩٧، وسلف ٣/ ٢٢١.
(٥) ونقله عنه ابن حجر في الكافي الشاف ص١١٤.
(٦) وهي رواية أحمد (٢٢٢٨٨) من حديث أبي ذرٍّ، الآنفة الذكر.

لم يكن جديداً في نفسه، كإسماعيل عليه السلام إذ بُعِثَ لجُرْهم أوّلاً. والنبيُّ يعمُّه ومَن بُعِثَ بشرعٍ غير جديدٍ كذلك.

وقيل: الرسول: ذَكَرٌ حُرٌّ له تبليغ في الجملة وإن كان بياناً وتفصيلاً لشَرْعٍ سابق، والنبيُّ مَن أوحيَ إليه ولم يُؤمَر بتبليغٍ أصلاً، أو أعمُّ منه ومن الرسول، وقيل: الرسول من الأنبياء مَن جَمَعَ إلى المعجزة كتاباً مُنزَلاً عليه، والنبي غير الرسول مَن لا كتاب له، وقيل: الرسول مَن له كتابٌ أو نسخ في الجملة، والنبيُّ مَن لا كتابَ له ولا نسخ.

وقيل: الرسول[1]: مَن يأتيه المَلَكُ عليه السلام بالوحي يقظةً، والنبيُّ يقال له ولمن يُوحَى إليه في المنام لا غير. وهذا أغربُ الأقوالِ، ويقتضي أن بعضَ الأنبياء عليه السلام لم يُوحَ إليه إلا مناماً، وهو بعيدٌ، ومِثْلُه لا يُقال بالرأي.

وأنتَ تَعلمُ أنَّ المشهورَ أنَّ النبيَّ في عُرْفِ الشرع أعمُّ مِن الرسول، فإنَّه مَن أُوحيَ إليه، سواء أُمِرَ بالتبليغ أم لا، والرسول مَن أُوحيَ إليه وأُمرَ بالتبليغ، ولا يصحُّ إرادةُ ذلك؛ لأنَّه إذا قُوبلَ العامُّ بالخاصِّ، يُراد بالعامِّ ما عدا الخاصِّ، فمتى أُريدَ بالنبيِّ ما عدا الرسول، كان المرادُ به من لم يُؤمَر بالتبليغ، وحيث تعلَّق به الإرسالُ صار مأموراً بالتبليغ فيكون رسولاً، فلم يَبْقَ في الآية بعد تعلُّق الإرسال رسولٌ ونبيٌّ مقابل له، فلا بُدَّ لتحقيق المقابَلة أن يُرادَ بالرسول مَن بُعِثَ بشرعٍ جديد، وبالنبيِّ مَن بُعِثَ لتقرير شرعِ مَن قَبْله، أو يُراد بالرسول مَن بُعِثَ بكتابٍ، وبالنبيِّ مَن بُعِثَ بغير كتاب، أو يُراد نحو ذلك ممَّا يحصل به المقابلة مع تعلُّق الإرسال بهما.

والتمنِّي ـ على ما قال أبو مسلم ـ نهاية التقدير، ومنه المَنِيَّة: وفاةُ الإنسان للوقت الذي قدَّره الله تعالى. والأُمْنِية على ما قال الراغبُ[2]: الصورة الحاصلةُ في النفس مِن التمنِّي. وقال غيرُ واحد: التمنِّي: القراءةُ، وكذا الأُمنية، وأنشدوا قولَ حسانٍ في عثمان رضي الله عنه:

(١) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصه: «قائله الإمام الرازي»، وكلامه في تفسيره ٢٣/ ٤٩.
(٢) المفردات (مني).

تمنَّى كتابَ الله أوّلَ ليلِهِ   تمنِّيَ داودَ الزبورَ على رِسْلِ[1]

وفي «البحر»[2] أنَّ ذلك راجعٌ إلى الأصل المنقول عن أبي مسلم، فإنَّ التاليَ يقدّر الحروفَ ويتصوَّرها فيذكرها شيئاً فشيئاً. والمرادُ بذلك هنا عند كثيرِ القراءةُ، والآية مسوقةٌ لتسلية النبيِّ ﷺ بأنَّ السعيَ في إبطال الآيات أمرٌ معهود، وأنَّه لسعيٌ مردود، والمعنى: وما أرسلنا مِن قَبْلك رسولاً ولا نبيًّا إلا وحالُه أنَّه إذا قرأ شيئاً مِن الآيات ألقى الشيطانُ الشُّبَهَ والتخيُّلاتِ فيما يقرؤه على أوليائه ليجادلوه بالباطلِ ويَردُّوا ما جاء به كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وهذا كقولِهم عند سماع قراءةِ الرسول ﷺ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [البقرة: ١٧٣]: إنَّه يُحِلُّ ذبيحَ نفسِه ويُحرِّم ذبيحَ الله تعالى؟! وقولهم على ما في بعض الرواياتِ عند سماعِ قراءته عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: إنَّ عيسى عُبِدَ مِن دونِ الله تعالى، والملائكةَ عليهم السلام عُبِدُوا مِن دون الله تعالى؟!

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: فيُبطِل ما يلقيه مِن تلك الشُّبَه ويذهب به بتوفيق النبيِّ ﷺ لردِّه أو بإنزال ما يردُّه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يأتي بها محكمةً مثبَتةً لا تَقبلُ الردَّ بوجهٍ مِن الوجوه، و«ثم» للتراخي الرُّتبي، فإنَّ الإحكامَ أعلا رُتبةٍ من النَّسْخ، وصيغةُ المضارع في الفعلين؛ للدلالة على الاستمرارِ التجدُّدي، وإظهار الجلالة في موقع الإضمار؛ لزيادة التقرير، والإيذان بأنَّ الألوهيَّة من موجباتِ أحكام آياتِه تعالى الباهرة. ومِثْلُ ذلك في زيادةِ التقرير إظهارُ «الشيطان»، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مُبالِغ في العِلْم بكلِّ ما مِن شأنه أن يُعلَم، ومن جملته ما يصدر مِن الشيطان وأوليائه ﴿حَكِيمٌ ۝٥٢﴾ في كلِّ ما يَفعَل، ومِن جملته تمكينُ الشيطان مِن إلقاء الشُّبَه وأوليائِه مِن المجادلة بها، وإبداؤه تعالى ردَّها، والإظهار

---

(١) لم نقف عليه في المطبوع من ديوانه، وأورده القرطبي في تفسيره ٢/ ٢١٨، وأبو حيَّان في البحر المحيط ٦/ ٣٨٢، والسمين الحلبي في الدر المصون ١/ ٤٤٧، ولم ينسبوه.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٨٢.

هاهنا لما ذُكرَ أيضاً مع ما فيه مِن تأكيد استقلالِ الاعتراض التذييليِّ ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: الذي يُلقيه. وقيل: إلقاءه ﴿فِتْنَةً﴾ أي: عذاباً. وفي «البحر»[1]: ابتلاءً واختباراً ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شَكٌّ ونفاقٌ، وهو المناسبُ؛ لقولِه تعالى في المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] وتخصيصُ المرضِ بالقلب مؤيِّد له؛ لعدم إظهار كفرهم، بخلاف الكافرِ المجاهر ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: الكفَّار المجاهرينَ، وقيل: المراد من الأوَّلين عامَّةُ الكفار، ومِن الأخيرين خواصُّهم كأبي جهل، والنضر، وعتبةَ، وحَمْلُ الأوَّلين على الكفَّار مطلقاً والأخيرين على المنافقين؛ لأنَّهم أحقُّ بوصف القسوة؛ لعدم انجلاء صَدَأ قلوبِهم بصيقل المخالطةِ للمؤمنين، ليس بشيء.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الفريقَيْن المذكورَيْن، فوضع الظاهرُ موضعَ ضميرِهم؛ تسجيلاً عليهم بالظُّلم مع ما وصفوا به مِن المرض والقسوة ﴿لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ أي: عداوةٍ شديدة، ومخالفةٍ تامَّة، ووصف الشقاقُ بالبُعد مع أنَّ الموصوفَ به حقيقة هو معروضُه؛ للمبالغة، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لمضمون ما قَبْله، ولامُ «ليجعل» للتعليل، وهو عند الحوفيِّ متعلِّق بـ: «يُحْكِم»، وعند ابنِ عطيَّة[2] بـ: «ينسخ»، وعند غيرهما بـ: «ألقى»، لكنَّ التعليلَ لما يُنبئُ عنه إلقاءُ الشيطان مِن تمكينه تعالى إيَّاه مِن ذلك في حقِّ النبيِّ ﷺ خاصَّة؛ لعطفِ قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وكونُ ضمير «أنَّه» للقرآن، وقيل: لا حاجةَ للتخصيص، وضميرُ «أنَّه» لتمكينِ الشيطان مِن الإلقاء، أي: وليعلم العلماءُ أنَّ ذلك التمكينَ هو الحقُّ المتضمِّن للحكمة البالغة؛ لأنَّه مما جرت به عادتُه تعالى في جنس الإنس مِن لَدُنْ آدمَ عليه السلام، وضميرا «به»، و«له» في قوله تعالى: ﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: يثبتوا على الإيمان، أو: يزدادوا إيماناً ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ بالانقيادِ والخشية، للقرآن على التخصيص، وللربِّ على التعميم، وجعلهما لتمكينِ الشيطان لاسيَّما الثاني ممَّا لا وجهَ له.

ورجَّح ما قاله ابنُ عطيَّة بأنَّ أَمْر التعليل عليه أظهرُ، أي: فينسخ اللهُ تعالى

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٨٢.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٢٩.

ما يُلقيه الشيطان، ويردّه ليجعلَه بسبب الردِّ وظهور فسادِ التمسُّك به عذاباً للمنافقين والكافرين، أي: سبباً لعذابهم حيث استرسلوا معه مع ظهورِ فسادِه، أو اختباراً لهم هل يرجعونَ عنه، وليعلم الذين أُوتوا العلم أنَّ القرآنَ هو الحقُّ حيث بَطَلَ ما أُورِد مِن الشُّبَه عليه، ولم يَبطُل هو، وقد يُقال مثلُ ذلك على ما ذهب إليه الحوفيُّ، ولا يَبعد أن يكون قولُه تعالى: «ليجعل» إلخ متعلِّقاً بمحذوف، أي: فعل ذلك ليجعل إلخ، والإشارة إلى النَّسْخ والإحكام، ويجعل «ليجعل» علَّة لفعل النسخِ، «وليعلم» علَّة لفعل الإتيان بالآيات محكمة، ويجوز أن تكونَ الإشارةُ إلى التمكين المفهوم ممَّا تقدَّم مع النَّسْخ والإحكام، ويجعل «ليجعل» علَّة لفعل التمكين، وما بَعْدُ علَّة لما بعد، ويجوز أيضاً أن ترجعَ الضمائرُ في «أنه»، و«به»، و«له» للموحى الذي يقرأه كلٌّ مِن الرسل والأنبياء عليهم السلام المفهوم مِن الكلام، فلا حاجةَ للتخصيص، وأيًّا ما كان فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ اعتراضٌ مقرِّر لما قَبْله، والمراد بالذين آمنوا المؤمنون مِن هذه الأمَّة على تقدير التخصيص، أو المؤمنون مطلقاً على تقدير التعميم، والمراد بالصراطِ المستقيم النظرُ الصحيحُ الموصِل إلى الحقِّ الصريح، أي: إنَّه تعالى لهادي المؤمنين في الأمور الدينيَّة خصوصاً في المداحضِ والمُشكلات التي من جملتها ردُّ شُبَهِ الشياطين عن آياتِ الله عزَّ وجلَّ.

وقرأ أبو حيوةَ، وابنُ أبي عَبْلَة: «لهادٍ» بالتنوين(١).

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن، وقيل: مِن الرسول، ويجوز أن يرجع الضميرُ إلى الموحى على ما سمعتَ، و«من» على جميع ذلكَ ابتدائيَّة، وجوّز أن يرجعَ إلى ما ألقى الشيطان، واختير عليه أنَّ «مِن» سببيَّة، فإنَّ مريةَ الكفار فيما جاءت به الرسلُ عليهم السلام بسبب ما ألقى الشيطانُ في الموحى مِن الشُّبَه والتخيلاتِ، فتأمَّل ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: القيامةُ نفسُها كما يُؤذِن به قولُه تعالى: ﴿بَغۡتَةً﴾ أي: فجأة، فإنَّها الموصوفةُ بالإتيان كذلك، وقيل: أَشراطها على حذفِ المضاف، أو على التجوُّز.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٣.

وقيل: الموت، على أنَّ التعريفَ في «الساعة» للعهد ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ أي: منفرد عن سائرِ الأيام لا مِثْلَ له في شدَّته، أو لا يومَ بعدَهُ، كأنَّ كلَّ يوم يَلِدُ ما بعده مِن الأيام، فما لا يوم بعدَه يكون عقيماً، والمراد به الساعة بمعنى يوم القيامة أيضاً، كأنَّه قيل: أو يأتيهم عذابُها، فوضع ذلك موضعَ ضميرِها؛ لمزيد التهويل والتخويف.

و«أو» في محلِّها لتغاير الساعة وعذابها، وهي لَمنْع الخلوِّ، وكأنَّ المرادَ المبالغةُ في استمرارهم على المِرْية، وقيل: المراد بـ: «يوم عقيم» يومُ موتِهم؛ فإنَّه لا يومَ بعده بالنسبة إليهم، وقيل: المراد به يومُ حرب يُقتَلون فيه، ووصف بالعقيم؛ لأنَّ أولادَ النساء يُقتَلون فيه فيصرنَ كأنهنَّ عقمٌ لم يَلِدْنَ، أو لأنَّ المقاتلينَ يقال لهم: أبناء الحرب، فإذا قُتلوا وُصِفَ يومُ الحرب بالعقيم وفيه على الأول مجاز في الإسناد ومجاز في المفرد، من جعل الثُّكْل عقماً، وكذا على الثاني؛ لأن الولود والعقيم هي الحربُ على سبيل الاستعارة بالكناية، فإذا وُصِفَ يومُ الحرب بذلك كان مجازاً في الإسناد، ومِن ثَمَّ قيل: إنَّه مجازٌ موجَّه مِن قولهم: ثوبٌ مُوجَّه، له وجهان، وقيل: هو الذي لا خيرَ فيه يقال: ريحٌ عقيمٌ، إذا لم تُنْشِئْ مطراً ولم تلقحْ شجراً، وفيه على هذا استعارةٌ تبعيَّة؛ لأنَّ ما في اليوم مِن الصفة المانعة مِن الخير جعلَ بمنزلةِ العقم.

وخصَّ غيرُ واحدٍ هذا اليومَ بيوم بدرٍ، فإنَّه يومُ حربٍ قُتِلَ فيه عتاةُ الكَفَرة، ويومٌ لا خيرَ فيه لهم، ويصحُّ أيضاً أن يكون وَصْفه بعقيم؛ لتفرُّده بقتال الملائكةِ عليهم السلام فيه، وأنتَ تَعلمُ أنَّ الظاهرَ - ممَّا يأتي بَعْدُ إن شاء الله تعالى - تعيُّن تفسيرِ هذا اليوم بيوم القيامة، هذا وجوّز أن يُرادَ مِن الشيطان شَيطانُ الإنس كالنضر بنِ الحارث كان يُلقي الشُّبَه إلى قومه وإلى الوافدين يثبِّطهم بها عن الإسلام.

وقيل: ضمير «أُمنيَّتِه» للشيطان، والمراد بها الصورةُ الحاصلة في النَّفْس مِن تمنِّي الشَّيءَ، و«في» للسببيَّة مِثْلها في قوله ﷺ: «إنَّ امرأةً دخلت النارَ في هرَّة»(١) أي: ألقى الشيطانُ بسبب أمنيَّته الشُّبَه وأبداها ليُبْطِلَ بها الآيات.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٣)، وسلف ٣/ ١٠٥.

وقيل: «تمنَّى»: قرأ، و«أُمنيَّته»: قراءته، والضميرُ للنبيِّ أو الرسول، و«في» على ظاهرها، والمراد بـ: «ما يُلقي الشيطان» ما يقع للقارئ مِن إبدال كلمةٍ بكلمة، أو حرفٍ بحرف، أو تغييرِ إعراب سهواً، وقيل: المراد ما يلقيه في الآيات المتشابهة مِن الاحتمالات التي ليست مراداً لله تعالى، وقيل: «تمنَّى»: هيَّأ وقدَّر في نفسه ما يَهواهُ. و«أُمنيَّته»: قراءته، والمعنى: إذا تمنَّى إيمانَ قومِه وهدايتهم، ألقى الشيطانُ إلى أوليائه شُبَهاً، فينسخُ الله تعالى تلكَ الشُّبَه ويُحكِم الآياتِ الدالَّة على دَفْعها، وقيل: «تمنَّى»: قدَّر في نفسه ما يَهواهُ، و«أمنيَّته:» تشهِّيه، و«ما يلقيه الشيطانُ»: ما يوجبُ اشتغالَه في الدنيا، وجعله فتنةً باعتبار ما يظهر منه مِن الاشتغال بأمور الدنيا، ونَسْخُه: إبطالُه بعصمتِه عن الركون إليه والإرشاد إلى ما يزينه.

وقيل: «تمنَّى»: قرأ، و«أُمنيَّته»: قراءته، وما يُلقي الشيطان: كلماتٌ تُشابه الوحيَ يتكلَّم بها الشيطانُ بحيث يظنُّ السامعُ أنَّها مِن قراءة النبيِّ، وقد رُويَ أنَّ الآيةَ نزلت حين قَرَأَ عليه الصلاة والسلام: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠] فألقى الشيطانُ في سَكْتَتِه محاكياً نغمتَه عليه الصلاة والسلام بحيث يسمعه مَن حولَه: تلكَ الغرانيقُ العُلَا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتَجى. فظنَّ المشركونَ أنَّه عليه الصلاة والسلام هو المتكلِّم بذلك، ففرحوا وسَجَدوا معه لما سَجَد آخِرَ السورة.

وقيل: المتكلِّم بذلك بعضُ المشركين، وظنَّ سائرُهم أنَّه عليه الصلاة والسلام هو المتكلِّم به. وقيل: إنَّه ﷺ هو الذي تكلَّم بذلك عامداً؛ لكن مستفهماً على سبيل الإنكار والاحتجاجِ على المشركين، وجعل مِن إلقاء الشيطان لما ترتَّب عليه مِن ظَنِّ المشركين أنَّه مدحٌ لآلهتهم، ولا يمنع ذلك أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يُصلِّي؛ لأنَّ الكلامَ في الصلاة كان جائزاً إذ ذاك.

وقيل: بل كان ساهياً، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد مِن طريق يونسَ، عن ابنِ شهاب، قال: حدَّثني أبو بكر بنُ عبدِ الرحمن: «أنَّ رسولَ الله ﷺ وهو بمكَّة قرأ عليهم: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [الآية: ١٩-٢٠]، قال: «إنَّ شفاعتهنَّ تُرتجى» وسها رسولُ الله عليه الصلاة والسلام، ففرح المشركونَ بذلك، فقال ﷺ: «أَلَا إنَّما ذلك مِن الشيطان» فأنزل اللهُ تعالى:

«وما أرسلنا» حتى بلغ: «عذابَ يومٍ عقيم»، قال الجلال السيوطيُّ: وهو خبرٌ مُرسَل صحيحُ الإسناد[1].

وقيل: تكلَّم بذلك ناعساً، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: بَيْنا نبيُّ اللهِ ﷺ يُصلِّي عند المقام إذ نعس، فألقى الشيطانُ[2] على لسانِه كلمةً، فتكلَّم بها فقال: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتَجى وإنَّها لمَعَ الغرانيقِ العلا». فحفظها المشركونَ وأخبرهم الشيطانُ أنَّ نبيَّ الله ﷺ قد قَرَأَها، فزلَّت ألسنتهم، فأنزل اللهُ تعالى: «وما أرسلنا» الآية[3].

وقيل: «تمنَّى»: قدَّر في نفسه ما يَهواهُ، و«أمنيَّته»: قراءته، وما يُلقي الشيطانُ: كلماتٌ تُشابه الوحيَ، فقد أخرج ابنُ أبي حاتم مِن طريق موسى بنِ عقبة، عن ابنِ شهاب قال: أُنزلت سورةُ النجم، وكان المشركونَ يقولون: لو كان هذا الرجلُ يَذكُر آلهتنا بخير، أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا مِن الشَّتْم والشَّرِّ، وكان رسول الله ﷺ قد اشتدَّ عليه ما ناله أصحابُه مِن أذاهُم وتكذيبِهم، وأحزنَه ضلالتُهم، فكان يتمَّنى هداهُم، فلما أنزل اللهُ تعالى سورةَ النجم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطانُ عندها كلماتٍ، فقال: وإنَّهنَّ لهنَّ الغرانيقُ العُلا، وإنَّ شفاعتهنَّ لهي التي تُرتَجى. وكان ذلك مِن سَجعِ الشيطانِ وفتنتِه، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كلِّ مشركٍ بمكَّة، وزلَّت بهما ألسنتُهم وتباشروا بهما، وقالوا: إنَّ محمداً قَدْ رَجَعَ إلى دينِه الأوَّل ودينِ قومِه، فلما بلغَ رسولُ الله ﷺ آخِرَ النجم سَجَدَ وسَجَدَ كلُّ مَن حَضَر مِن مسلم أو مشركٍ، ففشت تلكُ الكلمة في الناس وأظهرها الشيطانُ حتى بلغت أرضَ الحبشة، فأنزل اللهُ تعالى «وما أرسلنا» الآيات[4].

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦٧.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م) ما نصه: «قيل: يقال لذلك: الشيطان الأبيض. اهـ. منه».

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٢ (١٤٠٠٢)، والدر المنثور ٤/ ٣٦٨.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠١ (١٣٩٩٩)، والدر المنثور ٤/ ٣٦٧، وورد فيهما: وذلقت، بدل: وزلَّت.

وقيل: إنَّ النبيَّ ﷺ حين أَلقاها الشيطانُ تكلَّم بها ظاناً أنَّها وَحْيٌ، حتى نبَّهه جبريلُ عليه السلام، ففي «الدُّرِّ المنثور»: أخرج ابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بنِ جبير قال: قرأ رسولُ الله ﷺ بمكَّة «النجم»، فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطانُ على لسانِه: تلك الغرانيقُ العُلا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتَجى. قالوا: ما ذَكَر آلهتَنا بخيرٍ قَبْلَ اليوم، فسجدَ وسجدُوا، ثم جاءَه جبريلُ عليهما الصلاة والسلام بعد ذلك، فقال: اعْرِضْ عليَّ ما جئتُكَ به، فلما بلغ: تلكَ الغرانيقُ العُلا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتَجى، قال له جبريل عليهما السلام: لم آتِكَ بهذا، هذا مِن الشيطان، فأنزل الله تعالى «وما أرسلنا» الآية(١).

وأخرج البزَّارُ، والطبريُّ، وابنُ مردويه، والضياءُ في «المختارة» بسندٍ رجالُه ثقاتٌ مِن طريق سعيد، عن ابنِ عباس نحوَ ذلك(٢)، لكن ليس فيه حديثُ السجود، وفيه أيضاً مغايرةٌ يسيرة غير ذلك، وجاء حديث السجود في خبرٍ آخَر عنه أخرجه البزَّار، وابنُ مردويه أيضاً مِن طريق أميةَ بنِ خالد، عن شعبةَ، لكن قال في إسناده: عن سعيد بنِ جبير، عن ابنِ عباس، فيما أحسبُ، فشكَّ في وَصْلِه(٣). وفي رواية ابن أبي حاتم عن السُّدِّيِّ: أنَّ جبريلَ عليه السلام، قال له عليه الصلاة والسلام حين عَرَضَ عليه ذلك: معاذَ اللهِ أن أكونَ أَقرأتُكَ هذا، فاشتدَّ عليه عليه الصلاة والسلام، فأنزل اللهُ تعالى وطيَّب نفسَه: «وما أرسلنا» الآية(٤).

قيل: ولمشابهةِ ما أَلقى الشيطانُ للوحي المُنزلِ وكونه في أثنائه، أُطلق على إبطاله اسمُ النَّسْخِ الشائع إيقاعُه على ما هو وحيٌ حقيقةً، لكن لا يخفى أنَّ النَّسْخَ الشرعيَّ لا يتعلَّق بنحو ما ذُكرَ مِن الأخبار، فلا بُدَّ مِن تأويلٍ ما لذلك.

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦٦، وتفسير الطبري ١٦/ ٦٠٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٠-٢٥٠١ (١٣٩٩٨)، وأخرجه أيضاً الواحدي في أسباب النزول ص٣٢١.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٦٦، وتفسير الطبري ١٦/ ٦٠٧-٦٠٨، والمختارة للمقدسي ١٠/ ٢٣٥-٢٣٦ (٢٤٧).

(٣) وذكره عنهما ابنُ حجر في الكافي الشاف ص١١٤.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٢ (١٤٠٠٣)، والدر المنثور ٤/ ٣٦٨.

وقد أنكر كثيرٌ من المحقِّقين هذه القصَّةَ فقال البيهقيُّ[١]: هذه القصَّةُ غيرُ ثابتة مِن جهة النقل. وقال القاضي عياض في «الشفا»[٢]: يكفيكَ في توهينِ هذا الحديث، أنَّه لم يُخرِّجْه أحدٌ مِن أهل الصِّحَّة، ولا رواه ثقةٌ بسندٍ صحيح سليم متَّصل، وإنَّما أُولِع به وبمثلِه المفسِّرون والمؤرِّخون المُولَعونَ بكلِّ غريبٍ المتلقِّفون مِن الصُّحُفِ كلَّ صحيح وسقيمٍ.

وفي «البحر»[٣]: إنَّ هذه القصَّةَ سُئِلَ عنها الإمامُ محمدُ بنُ إسحاق جامعُ «السيرة النبوية»، فقال: هذا مِن وَضْعِ الزنادقِة، وصنَّف في ذلك كتاباً. وذكَر الشيخُ أبو منصور الماتريديُّ في كتاب «حصص الأتقياء»[٤]: الصوابُ أنَّ قولَه: تلك الغرانيقُ العُلا، مِن جملة إيحاءِ الشيطان إلى أوليائه مِن الزنادقة حتى يُلْقُوا بين الضعفاء وأرقَّاء الدِّيْن؛ ليرتابوا في صحَّة الدِّيْن، وحَضْرةُ الرسالةِ بريئةٌ من مِثْل هذه الرواية.

وذكر غيرُ واحد أنَّه يَلزم على القول بأنَّ الناطقَ بذلك النبيُّ ﷺ بسبب إلقاء الشيطانِ الملبِّس بالمَلَك أمور:

منها تسلُّط الشيطانِ عليه عليه الصلاة والسلام، وهو ﷺ بالإجماع معصومٌ من الشيطان لاسيَّما في مِثْلِ هذا مِن أمور الوحي والتبليغِ والاعتقاد، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النحل: ٩٩] إلى غير ذلك.

ومنها زيادته ﷺ في القرآن ما ليس منه، وذلك مما يستحيل عليه عليه الصلاة والسلام؛ لمكان العصمة.

---

(١) ونقله عنه الرازي في التفسير ٢٣/ ٥٠، وأبو حيّان في البحر المحيط ٦/ ٣٨٢، والمناوي في الفتح السماوي ٢/ ٨٤٢، وينظر تتمة كلام المناوي حول الخبر ثمة.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٢٨٩-٢٩٠.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٨١-٣٨٢.

(٤) لم نقف على كتاب بهذا الاسم لأبي منصور الماتريدي فيما بين أيدينا من مصادر ترجمته، وذكره علاء الدين البخاري في كتابه كشف الأسرار ١/ ١٩٦ ولم ينسبه لأحد، وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٦٦٨ كتاباً وسمَّاه: حصن الأتقيا من قصص الأنبيا، وقال: قيل: لمسعود الكازروني، وهو فارسي.

ومنها اعتقادُ النبيِّ ﷺ ما ليس بقرآن أنَّه قرآن مع كونه بعيدَ الالتئام متناقضاً ممتزج المدح بالذَّمِّ، وهو خطأٌ شنيعٌ لا ينبغي أن يُتَساهل في نسبتِه إليه ﷺ.

ومنها أنَّه إمَّا أن يكون عليه الصلاة والسلام عند نُطْقه بذلك معتقداً ما اعتقده المشركونَ مِن مدح آلهتِهم بتلك الكلمات، وهو كفرٌ محالٌ في حقِّه ﷺ، وإمَّا أن يكون معتقداً معنًى آخَرَ مخالفاً لما اعتقدوه ومبايناً لظاهرِ العبارة، ولم يبيِّنه لهم مع فَرَحِهم وادِّعائهم أنَّه مَدَحَ آلهتَهم، فيكون مقرًّا لهم على الباطل، وحاشاه ﷺ أن يقرَّ على ذلك.

ومنها كونه ﷺ اشتَبه عليه ما يُلقيه الشيطانُ بما يلقيه عليه المَلَك، وهو يقتضي أنَّه عليه الصلاة والسلام على غيرِ بصيرة فيما يُوحى إليه، ويقتضي أيضاً جوازَ تصوُّر الشيطان بصورة المَلَك ملبِّساً على النبيِّ، ولا يصحُّ ذلك، كما قال في «الشفا»(١): لا في أوَّل الرسالة ولا بعدَها، والاعتماد في ذلك دليلُ المعجزة.

وقال ابنُ العربيِّ: تصوُّر الشيطانِ في صورة المَلَك ملبِّساً على النبيِّ كتصوُّره في صورة النبيِّ ملبِّساً على الخَلْق، وتسليطُ اللهِ تعالى له على ذلك كتسليطِه في هذا، فكيف يسوغُ في لبٍّ سليمٍ استجازة ذلك.

ومنها التقوُّل على الله تعالى إمَّا عمداً أو خطأً أو سهواً، وكلُّ ذلك محال في حقِّه عليه الصلاة والسلام، وقد اجتمعتِ الأمَّة على ما قال القاضي عياض(٢) على عِصْمَتِه ﷺ فيما كان طريقه البلاغ مِن الأقوال عن الإخبار بخلاف الواقع لا قصداً ولا سهواً.

ومنها الإخلال بالوثوق بالقرآن فلا يُؤمَن فيه التبديلُ والتغييرُ، ولا يندفع كما قال البيضاويُّ(٣) بقوله تعالى: «فينسخُ اللهُ ما يُلقي الشيطانُ ثم يُحْكِمُ اللهُ آياتِه» لأنَّه أيضاً يحتمل، إلى غير ذلك.

وذهب إلى صحَّتها الحافظ ابن حجر في «شرح البخاريِّ»(٤) وساق طرقاً عن

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ٢٨٥.

(٢) الشفا ٢/ ٢٨٥.

(٣) في تفسيره ٦/ ٣٠٦-٣٠٧ (بهامش حاشية الشهاب).

(٤) فتح الباري ٧/ ٤٣٩-٤٤٠.

ابنِ عباس وغيرِه، ثم قال: وكُلُّها سوى طريقِ سعيدِ بنِ جُبير إمَّا ضعيفٌ وإمَّا منقطعٌ، لكنَّ كثرةَ الطُّرق تدلُّ على أنَّ لها أصلاً، مع أنَّ لها طريقاً متَّصلاً بسند صحيحٍ أخرجه البزار(١)، وطريقَيْن آخرين مُرْسَلَين رجالهما على شَرْطِ الصحيحين؛ أحدهما: ما أخرجه الطبريُّ(٢) مِن طريق يونسَ بنِ يزيد، عن ابنِ شهاب. والثاني: ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمرِ بنِ سليمان، وحمَّاد بنِ سلمة - فرَّقهما - عن داودَ بنِ أبي هند، عن أبي العالية(٣)، ثم أَخَذَ في الرَّدِّ على أبي بكر بن العربيِّ، والقاضي عياض في إنكارِهما الصِّحَّةَ.

وذهب إلى صحَّة القصَّة أيضاً خاتمةُ المتأخِّرين الشيخُ إبراهيمُ الكورانيُّ ثم المدنيُّ، وذكر بعد كلامٍ طويل أنَّه تحصَّل مِن ذلك أنَّ الحديثَ أخرجه غيرُ واحد مِن أهل الصحَّة وأنَّه رواه ثقاتٌ بسند سليم متَّصل عن ابنِ عباس، وبثلاث أسانيدَ صحيحة عن ثلاثٍ من التابعين من أئمَّة التفسيرِ الآخِذين عن الصحابة، وهم سعيد بنُ جبير، وأبو بكر بنُ عبد الرحمن، وأبو العالية، وقد قال السيوطيُّ في «لباب النقول في أسباب النزول»(٤): قال الحاكم في «علوم الحديث»(٥): إذا أخبر الصحابيُّ الذي شهد الوحيَ والتنزيل عن آيةٍ مِن القرآن أنَّها نزلت في كذا، فإنَّه حديثٌ مسند. ومشى عليه ابنُ الصلاح(٦)، وغيره. ثم قال(٧): ما جعلناه مِن قبيل المسند مِن الصحابيِّ إذا وَقَعَ مِن تابعيٍّ فهو مرفوعٌ أيضاً، لكنَّه مُرسَل فقد يُقبَلُ إذا

---

(١) كشف الأستار (٢٢٦٣)، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (١٢٤٥٠). قال البزار: لا نعلمه يروى بإسناد متصل يجوز ذكره إلا بهذا الإسناد، وأمية بن خالد ثقة مشهور، وإنما يعرف هذا من حديث الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

(٢) في التفسير ١٦/٦٠٨-٦٠٩، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٧ وعزاه للطبري وعبد بن حميد.

(٣) تفسير الطبري ١٦/٦٠٦-٦٠٧، وأوردهما السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٦٧-٣٦٨، وعزاهما إلى الطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم [في التفسير ٨/٢٥٠١-٢٥٠٢ (١٤٠٠٠) و(١٤٠٠١)].

(٤) في مقدمة كتابه ص١٣-١٤.

(٥) ص٢٠.

(٦) في كتابه علوم الحديث، الذي اشتهر بـ: مقدمة ابن الصلاح ص٥٠.

(٧) أي: السيوطي، في كتابه لباب النقول ص١٥.

صحَّ السند إليه وكان مِن أئمَّة التفسير الآخذينَ عن الصحابة كمجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، أو اعتضد بمرسَل، ونحو ذلك. فعلى هذا يكون الخبرُ في هذه القصَّة مسنداً من الطريق المتصلة بابنِ عباس مرسلاً مرفوعاً من الطرق الثلاثة، والزيادة فيه التي رواها الثقاتُ عن ابنِ عباس في غير رواية البخاريِّ، ليست مخالفة لما في البخاريِّ(١) عنه، فلا تكون شاذَّةً، فإطلاق الطَّعْن فيه مِن حيث النقلُ ليس في محلِّه.

وأجاب عمَّا يلزم على تقدير كون الناطق بذلك النبيُّ ﷺ، أمَّا عن الأوَّل: فبأنَّ السلطان المنفيَّ عن العبادِ المُخلصين هو الإغواء، أعني التلبيس المخلَّ بأَمْرِ الدِّيْن، وهو الذي وقعَ الإجماع على أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام معصومٌ منه، وأمَّا غيرُ المُخلِّ، فلا دليلَ على نَفْيه ولا إجماعَ على العصمةِ منه، وما هنا غيرُ مخلٍّ؛ لعدم منافاتِه للتوحيد، كما يبين إن شاء اللهُ تعالى، بل فيه تأديبٌ وتصفيةٌ وترقيةٌ للحبيب الأعظم ﷺ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام تمنَّى هَدْيَ الكُلِّ، ولم يكن ذلك مراداً لله تعالى، والأكملُ في العبوديَّة فناءُ إرادته في إرادةِ الحقِّ سبحانه، فليس عليه عليه الصلاة والسلام الإلقاء حالةَ تمنِّي هَدْي الكُلِّ المصادم للقَدَر والمنافي لما هو الأكمل، ليترقَّى إلى الأكمل، وقد حصل ذلك بهذه المرَّة، ولذا لم يقع التلبيسُ مرَّة أُخرى، بل كان يُرسَل بَعْدُ مِن بين يديه ومِن خَلْفه رَصَدٌ ليَعلَم أن قد أَبلغوا رسالةَ ربِّه سبحانه، وفي ترتيب الإلقاء على التمنِّي ما يفهم العتابُ عليه.

وأمَّا عن الثاني: فبأنَّ المستحيلَ المنافيَ للعصمة أن يزيدَ عليه الصلاة والسلام فيه مِن تِلقاء نفسِه، أي: يزيدَ عليه الصلاة والسلام فيه ما يَعلمُ أنَّه ليس منه، وما هنا ليس كذلك؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام إنَّما تَبِعَ فيه الإلقاء الملبَّس عليه في حالةٍ خاصَّة فقط؛ تأديباً أن يعود لمثلِ تلك الحالة.

وأمَّا عن الثالث: فبأنَّه يجوز أن يكون النبيُّ ﷺ نَطَقَ به على فهم أنَّه استفهامٌ إنكاريٌّ حُذفَ منه الهمزةُ، أو حكاية عنهم بحَذْف القول، وحينئذٍ لا يكون بعيدَ

---

(١) وهي في صحيحه في كتاب التفسير، في تفسير سورة الحج، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: إذا حدَّث ألقى الشيطانُ في حديثه، فيُبطلُ اللهُ ما يلقي الشيطانُ، ويُحكم آياته.

الالتئام ولا متناقضاً ولا ممتزجَ المدح بالذَّمِّ. ولا بُدَّ مِن التزام أحدِ الأمرين على تقدير صحَّة الخبر لمكان العصمة، والنُّكتة في التعبير كذلك إيهامُ الذين في قلوبهم مرضٌ والقاسية قلوبُهم أنَّه عليه الصلاة والسلام مَدَحَ آلهتهم، ويحصل ذلك مراد اللهِ تعالى المشار إليه بقوله سبحانه: «ليجعل» إلخ.

وأمَّا عن الرابع: فبأنَّا نختارُ الشِّقَّ الثاني بناءً على أنَّه استفهامٌ حُذفَ منه الهمزةُ أو حكاية بَحذْف القول، وعلى التقديرين يكون عليه الصلاة والسلام معتقداً لمعنى مخالفٍ لما اعتقدوه، ولا يَلزمُ منه التقرير على الباطل؛ لأنَّه بيَّن بطلانَ معتقدِهم بقوله تعالى بَعْدُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣] فإن ما لم يُنزل اللهُ تعالى به سلطاناً، لا تُرجى شفاعتُه، إذ لا شفاعةَ إلا مِن بعد إذنٍ إلهيٍّ؛ لقوله تعالى بَعْدُ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وأمَّا عن الخامس: فبأنَّ هذا الاشتباهَ في حالة خاصَّة للتأديب لا يقتضي أن يكون ﷺ على غيرِ بصيرة فيما يُوحَى إليه في غير تلك الحالة.

وأمَّا قول القاضي عياض: لا يصحُّ أن يتصوَّر الشيطان بصورة المَلَك ويُلبِّس عليه عليه الصلاة والسلام، فإن أراد به أنَّه لا يصحُّ أن يُلبِّس تلبيساً قادحاً، فهو مسلَّم، لكنَّه لم يقع، وإن أراد مطلقاً ولو كان غيرَ مُخِلٍّ فلا دليلَ عليه، ودليلُ المعجزة إنَّما ينفي الاشتباهَ المخلَّ بأَمْرِ النبوَّة المنافي للتوحيد القادح في العصمة، وما ذكر غيرُ مخلٍّ بل فيه تأديبٌ بما يتضمَّن تنقيةً وترقيةً إلى الأكمل في العبوديَّة.

وأمَّا ما ذكر ابنُ العربيِّ، فقياسٌ مع الفارق؛ لأنَّ تصوُّر الشيطانِ في صورة النبيِّ مطلقاً منفيٌّ بالنَّصِّ الصحيحِ، وتصوُّره في صورته ملبِّساً على الخَلْق إغواء يعمُّ، وهو سلطان منفيّ بالنَّصِّ عن المخلصين، وأمَّا تصوُّره في صورةَ المَلَك في حالة خاصَّة ملبِّساً على النبيِّ بما لا يكون منافياً للتوحيد لما يريد الله تعالى بذلك تأديباً، ولإيهامه خلاف المراد فتنة لقوم، فليس من السلطان المنفيِّ ولا بالتصور الممنوع؛ لعدم إخلالِه بمقام النبوَّة.

وأمَّا عن السادسِ: فبأنَّ التقوُّلَ تكلُّفُ القولِ، ومَن لا يتَّبع إلا ما يُلقى إليه مِن الله تعالى حقيقةً أو اعتقاداً ناشئاً مِن تلبيس غيرِ مخلٍّ لا تَكلُّفَ للقولِ عنده،

فلا تقوُّل على الله تعالى أصلاً، وما أشبه هذه القصَّة بما تضمَّنه حديثُ ذي اليدين(١)، فالتلبيسُ عليه عليه الصلاة والسلام في الإلقاء في حالة التمنِّي تأديباً بإيقاع السهو عليه ﷺ في الصلاة باعتقاد التمامِ تشريعاً، والنطق بما ألقاه الشيطان في حالة خاصَّة ممَّا لا ينافي التوحيدَ على أنَّه قرآنٌ بناءً على اعتقاد أنَّ المُلْقِي مَلَكٌ تلبيساً للتأديبِ كالنطق بالسَّلام، ثم بـ: «لَم أَنْسَ»(٢) معتقداً أنَّه مطابق للواقع بناءً على اعتقاد التمام سهواً، ووقوعُ البيان على لسان جبريلَ عليه السلام ثم النَّسْخ والإحكام، كوقوع البيان على لسانِ الصحابيِّ ثم التدارك وسجود السهو، فكما أنَّ السهوَ للتشريعِ غيرُ قادحٍ في منصب النبوَّة، كذلك الاشتباه في الإلقاء للتأديب غيرُ قادحٍ، وكما أنَّ النطقَ بـ: «لمْ أَنْسَ» مع تبيُّن أنَّه عليه الصلاة والسلام قد نَسِيَ صِدْقٌ، بناءً على اعتقاد التمام سهواً، كذلك النطقُ بما يلقيه الشيطانُ في تلك الحالة على أنَّه قرآنٌ، بناء على اعتقاد أنَّ الملقي مَلَكٌ، صدقٌ، ولا شيء مِن الصدق بالتقوُّل، فلا شيء مِن النطق بما يُلقيه الشيطان في تلك الحالة به.

وما ذكر عن القاضي عياض مِن حكاية الإجماع على عدم جوازِ دخول السهو في الأقوال التبليغيَّة، كما قال الحافظ ابن حجر، مُتعقَّب.

وأمَّا عن السابع: فبأنَّه لا إخلالَ بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلمَ والذين ءامنوا؛ لأنَّ وثوقَ كلٍّ منهما تابع لوثوقِ متبوعِهم الصادق الأمين، فإذا جزم بشيءٍ أنَّه كذا جزموا به، وإذا رجع عن شيء بعد الجَزْم رجعوا، كما هو شأنهم في نَسْخِ غيرِ هذا مِن الآيات التي هي كلامُ الله تعالى لفظاً ومعنًى، إذ قَبْلَ نَسْخِ ما نُسِخَ لفظُه كانوا جازمين بأنَّهم متعبَّدون بتلاوتِه، وبعد النَّسْخ جزموا بأنَّهم ما هم متعبَّدين بتلاوته، وما نُسِخَ حكمهُ كانوا جازمين بأنَّهم مكلَّفون بحُكْمه، وبَعْدَ النَّسْخ جزموا بأنَّهم ما هم مكلَّفين به، فقول البيضاويِّ: إنَّ ذلك لا يَندفعُ بقوله تعالى: «فينسخ الله» إلخ؛ لأنَّه أيضاً يحتمله، ليس بشيءٍ، وبيانُه أنَّه إن أَراد أنَّه يَحتمله عند الفِرَقِ الأربعِ المذكورة في الآيات، وهم الذين في قلوبهم مرضٌ، والقاسيةُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣)، وهو عند أحمد (٧٢٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) هو جزء من حديث ذي اليدين، المشار إليه آنفاً.

قلوبهم، والذين أوتوا العلم، والذين آمنوا، فهو ممنوعٌ؛ لدلالةِ قوله تعالى: «وليعلم» إلخ، على انتفاءِ الاحتمال عند فريقَيْن مِن الفِرَقِ الأربع بعد النَّسْخ والإحكام، وإن أراد أنَّه يحتمله في الجملة، أي: عند بعضٍ دون بعض، فهو مسلَّم وغيرُ مُضِرٍّ؛ لعدم إخلالِه بالوثوق بالقرآن عند الذين أُوتوا العِلْمَ والذين آمنوا، وأمَّا إخلالُه بالنسبة إلى الفريقَيْن الآخرين، فهو مرادُ الله عزَّ وجلَّ.

هذا واعترض على الجواب الأوَّل بأنَّ التلبيسَ بحيث يَشتبه الأمرُ على النبيِّ ﷺ فيعتقد أنَّ الشيطانَ مَلَكٌ، مُخِلٌّ بمقام النبوَّة، ونقصٌ فيه، فإنَّ الوليَّ الذي هو دونَه عليه الصلاة والسلام بمراتِب لا يَكاد يَخفَى عليه الطائع مِن العاصي، فيُدرِك نورَ الطاعة وظلمةَ المعصية، فكيف بمَن هو سيِّد الأنبياء ونورُ عيون قلوبِ الأولياء يَلتبسُ عليه مَن هو محضُ نورٍ بمَن هو محضُ ديجور، واشتباهُ جبريلَ عليه السلام عليه ﷺ في بعض المرَّات حتى لم يعرفه إلى أن ذهب فقال: «والذي نفسي بيدِه ما شُبِّه عليَّ منذ أتاني قبل مرَّتي هذه، وما عرفتُه حتى وَلَّى»(1) إذا صحَّ، ليس مِن قبيل اشتباهِ الشيطان به عليه السلام، إذ يجوز أن يكون مِن اشتباه مَلَك بمَلَك، وكلٌّ منهما نورانيٌّ، وقد كان يأتيه ﷺ غيرُ جبريلَ عليه السلام مِن الملائكة الكرام، وأن يكون مِن اشتباه مَلَكٍ بواحدٍ مِن البشر نورانيٍّ أيضاً لم يكن رآهُ عليه الصلاة والسلام قبل ذلك كالخَضِر وإلياس مثلاً إن قلنا بحياتِهما.

وأيضاً قال المحقِّقون: إنَّ الأنبياءَ عليهم السلام ليس لهم خاطرٌ شيطانيٌّ، وكون ذلك ليس منه، بل كان مجرَّدَ إلقاءٍ على اللسان دونَ القَلْب، ممنوعٌ؛ ألا ترى أنَّه قال تعالى: «ألقى الشيطانُ في أمنيَّته» دون: ألقى الشيطانُ على لسانه، وتسميةُ القراءةِ أمنيَّة؛ لما أنَّ القارئَ يقدِّر الحروفَ في قلبه أوَّلاً، ثم يَذكرها شيئاً فشيئاً، وأيضاً حفظهُ ﷺ لذلك إلى أن أمسى ـ كما جاء في بعض الروايات ـ فنبَّهه عليه جبريلُ عليهما السلام، يُبعد كون الإلقاء على اللسان فقط، على أنَّا لو سلَّمنا ذلك وقلنا: إنَّ الشيطانَ ألقى على لسانِه ﷺ ولم يُلْقِ في قلبه، كما هو شأنُ الوحي

(1) أخرجه ابن خزيمة كما في فتح الباري ١/ ١١٦ـ ومن طريقه ابن منده في الإيمان (١٤) ـ وابن حبان في صحيحه (١٧٣)، والدارقطني (٢٧٠٨) من حديث عمر بن الخطاب ﵁. وهو حديث تعليمِ جبريلَ عليه السلام النبيَّ ﷺ أمورَ الدين، وأصله عند البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٨) من حديث عمر، لكن دون هذه الزيادة المذكورة أعلاه.

المشار إليه بقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] وقلنا: إنَّ ذلك مما يُعقَل، للزم أن يَعلَم ﷺ مِن خلوِّ قلبه واشتغالِ لسانه أنَّ ذلك ليس مِن الوحي في شيءٍ، ولم يَحتج إلى أن يُعلِمه جبريلُ عليه السلام، والقول بأنَّه لبّس الحال عليه عليه الصلاة والسلام للتأديبِ والترقية إلى المقام الأكمل في العبوديَّة وهو فناءُ إرادته ﷺ في إرادة مولاه عزَّ وجلَّ حيث تمنَّى إيمانَ الكلِّ وحرصَ عليه، ولم يكن مرادَ الله تعالى، ممَّا لا ينبغي أن يُلتَفت إليه؛ لأنَّ القائلَ به زَعَمَ أنَّ التأديبَ بذلك كان بَعْدَ قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] ولا شَكَّ أنَّ التأديبَ به لم يُبْقِ ولم يَذَر، ولم يقرن بما فيه تسليةٌ أصلاً، فإذا قيل - والعياذ بالله تعالى -: إنَّ ذلك لم ينجعْ، فكيف يَنجع ما دونه، وأيضاً أيَّة دلالة في الآية على التأديب وهي لم تَخرج مَخرجَ العتاب، بل مخرجَ التسلية على أبلغِ وجهٍ عمَّا كان يفعل المشركونَ مِن السعي في إبطال الآيات، ولا نُسلِّم أنَّ ترتيبَ الإلقاء على التمنِّي مع ما في السباق والسياق ممَّا يدلُّ على التسليةِ عن ذلك يُجدي نفعاً في هذا الباب، كما لا يخفى على ذوي الألباب.

ويرد على قوله: إنَّه بعد حصولِ التأديب بما ذكر، كان يرسل مِن بين يديه ومِن خَلْفه رَصَدٌ يحفظونه مِن إلقاء الشيطان، أنَّه لم يدلَّ دليلٌ على تخصيص الإرسال بما بعد ذلك، بل الظاهر أنَّ ذلك كان في جميع الأوقات، فقد أخرج عبدُ بنُ حميد وابنُ جرير عن الضحَّاك بنِ مزاحم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧] قال: كان النبيُّ ﷺ إذا بُعِثَ إليه المَلَك بالوحي، بُعِثَ معه ملائكةٌ يحرسونه مِن بين يديه ومِن خلفه؛ أن يتشبَّه الشيطان بالمَلَكَ[١]. وقد ذكروا أنَّ «كان» في ذلك للاستمرار.

وأخرج ابنُ أبي حاتم بسندٍ صحيح عن سعيدِ بنِ جبير قال: ما جاءَ جبريلُ عليه السلام بالقرآن إلى النبيِّ ﷺ إلا ومعه أربعةٌ مِن الملائكة حَفَظَةٌ[٢]. وهذا

(١) الدر المنثور ٦/٢٧٦، وتفسير الطبري ٢٣/٣٥٣.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٧٨ (١٩٠٠٩).

صريحٌ في ذلك، ولا شَكَّ أنَّ هذا الإلقاءَ عند مَن يقول به، كان عند نزول الوحي، فقد أخرج ابنُ جرير، وابنُ مردويه مِن طريق العوفيِّ، عن ابنِ عباس: أنَّ النبيَّ ﷺ بينما هو يُصلِّي إذ نزلت عليه قصَّة آلهةِ العرب، فجعل يتلوها، فسمعه المشركونَ، فقالوا: إنَّا نسمعُه يَذكُر آلهتنا بخير. فدَنَوا منه، فبينما هو يتلوها وهو يقول: «أفرأيتمُ اللاتَ والعُزَّى ومناةَ الثالثةَ الأُخرى» ألقى الشيطانُ: تلك الغرانيقُ العُلا منها الشفاعةُ تُرتَجى[1]. فعلى هذا ونحوه يكون الرَّصَد موجوداً مع عدم ترتُّب أثره عليه، والقول بأنَّ جبريلَ عليه السلام ومَن معه تنحَّوا عنه حتى أَلقى الشيطانُ ما ألقى، بناءً على ما أَخرج ابنُ مردويه عن ابنِ عباس أنَّه قال في آية الرَّصَد: كان النبيُّ ﷺ قَبل أن يُلقي الشيطانُ في أمنيَّته يَدنونَ منه، فلما ألقى الشيطانُ في أمنيَّته أَمرهم أن يتنحَّوا عنه قليلاً[2]. فإنَّ المرادَ مِن قولِه فيه: فلمَّا أَلقى: فلمَّا أَراد أن يُلقي، في حيِّز المنع، وكذا صحَّة هذا الخبر، ثم أيَّةُ فائدةٍ في إنزال الرَّصَدِ إذا لم يَحصُل به الحفظُ، بل كيف يسمَّى رَصَداً. وممَّا ذُكرَ في هذا الاعتراض يعلم ما في الجواب الثاني مِن الاعتراض، وهو ظاهر، وقد يقال: إنَّ إعجازَ القرآن معلومٌ له ﷺ ضرورةً، كما ذهب إليه أبو الحسن الأشعريُّ، بل قال القاضي: إنَّ كلَّ بليغ أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة يَعلَم ضرورة إعجازه، وذكرَ أنَّ الإعجازَ يتعلَّق بسورة أو قَدْرها مِن الكلام بحيثُ يتبيَّن فيه تفاضلُ قوى البلاغة، فإذا كانت آيةٌ بقَدْرِ حروف سورةٍ ـ وإن كانت كسورة الكوثر ـ فهو مُعجزٌ، وعلى هذا يمتنع أن يأتيَ الجنُّ والإنسُ ـ ولو كانَ بعضُهم لبعض ظهيراً ـ بمقدارِ أقصرِ سورةٍ منه تُشبِهه في البلاغة، ومتى أتى أَحَدٌ بما يَزعُم فيه ذلك، لم تَنفُق سُوقُه عند رسولِ الله ﷺ، وكذا عند كلِّ بليغ محيط بما تقدَّم، ولم يَخْفَ على الرسول عليه الصلاة والسلام ولا على ذلك البليغ عدمُ إعجازِه، فلا يَشتبه عنده بالقرآن أصلاً، ولا شَكَّ أنَّ ما ألقى الشيطانُ ـ على ما في بعض الروايات ـ حروفه بقَدْر حروفِ سورةِ الكوثر، بل أزيد إن اعتُبر الحرفُ المشدَّد بحرفَيْن، وهو: وإنَّهنَّ لهنَّ الغرانيقُ العُلا، وإنَّ شَفاعتهنَّ لهي التي

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٦٦-٣٦٧، وتفسير الطبري ١٦/ ٦٠٧-٦٠٨.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٧٥.

تُرتَجى. الوراد فيما أخرجه ابنُ أبي حاتم مِن طريق موسى بنِ عقبة عن ابنِ شهاب[(١)].

وجاء في رواية ابنِ جرير، وابنِ المنذر، وابنِ أبي حاتم بسندٍ ـ قال السيوطي: هو صحيح ـ عن أبي العالية، أنَّه ألقى: تلك الغرانيقُ العُلا وشفاعتهنَّ تُرتَجى تُرتَضى ومثلهنَّ لا يُنسى[(٢)]. وحروفُه أزيد مِن حروفِها، إذا لم يُعتَبر الحرف المشدَّد في شيء منهما بحرفَيْن، أمَّا إذا اعتُبر، فحروفُها أزيد بواحدٍ، فإن كان ما ذُكرَ ممَّا يتعلَّق به الإعجاز، فإن كان مُعجزاً، لزم أن يكون مِن الله تعالى لا مِن إلقاء عدوِّه؛ ضرورةَ عجزِه كسائر الجنِّ والإنس عن الإتيان بذلك، وإن لم يكن مما يتعلَّق به الإعجاز، فهو كلام غيرُ يسير يتنبَّه البليغُ الحاذق إذا سمعَه أثناء كلامٍ فوقَه بمراتب؛ لكونه ليس منه، فيبعد كلَّ البُعد أن يخفى عليه عليه الصلاة والسلام قصورُ بلاغتِه عن بلاغة شيءٍ مِن آيات القرآن، سواء قلنا بتفاوتِها في البلاغة، كما اختاره أبو نصر القشيريُّ وجماعةٌ، أم قلنا بعدمِ التفاوت، كما اختاره القاضي، فيعتقد أنَّه قرآنٌ حتى ينبِّهه جبريلُ عليه السلام، لا سيَّما وقد تكرَّر على سمعه الشريف سُكْرُ الآياتِ ومازَجَتْ لحمَه ودمَه، والواحد منَّا وإن لم يكن مِن البلاغة بمكانٍ إذا أَلِفَ شِعْرَ شاعرٍ وتكرَّر على سمعه يعلمُ إذا دُسَّ بيتٌ أو شَطْرٌ في قصيدةٍ له، أنَّ ذلك ليس له، وقد يُطالَب بالدليل فلا يَزيدُ على قوله: لأنَّ النَّفَسَ مُختلِفٌ، وهذا البُعد متحقِّق عندي على تقديرِ كون الملقى ما في الرواية الشائعة وهو: تلك الغرانيقُ العُلا وإنَّ شفاعتهنَّ لتُرتَجى، أيضاً لا سيَّما على قول جماعةٍ: إنَّ الإعجازَ يتعلَّق بقليلِ القرآنِ وكثيرِه مِن الجمل المفيدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] والقولُ بأنَّ النبيَّ ﷺ خَفِيَ عليه ذلك للتأديبِ، فيه ما فيه، ولا يَبعُد استحقاقُ قائلِه للتأنيب.

وما ذكره في الجواب عن الثالثِ من أنَّه لا بُدَّ مِن حَمْلِ الكلام على الاستفهام أو حَذْفِ القول، وهو دون الأوَّل إذا صحَّ الخبرُ، صحيحٌ لكنَّ إثباتَ صحَّة الخبر

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠١ (١٣٩٩٩).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٦٧، وتفسير الطبري ١٦/ ٦٠٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠١ (١٤٠٠٠).

أشدُّ مِن خَرْطِ القَتَاد[١]، فإنَّ الطاعنينَ فيه مِن حيث النقلُ علماءُ أجلَّاء عارفونَ بالغَثِّ والسمينِ مِن الأخبار، وقد بذلوا الوُسْعَ في تحقيق الحقِّ فيه، فلم يَروه[٢] إلا مردوداً، وما ألقى الشيطانُ إلى أوليائه معدوداً، وهم أكثر ممَّن قال بقبوله ومنهم مَن هو أعلم منه، ويغلب على الظَّنِّ أنَّهم وَقَفوا على رواتِه في سائر الطُّرُق فرأَوْهم مجروحينَ، وفات ذلك القائلَ بالقَبول، ولعمري إنَّ القولَ بأنَّ هذا الخبرَ ممَّا ألقاه الشيطانُ على بعضِ ألسنةِ الرواة، ثم وفَّق اللهُ تعالى جَمْعاً مِن خاصَّته لإبطاله، أهونُ مِن القول بأنَّ حديثَ الغرانيق ممَّا ألقاهُ الشيطانُ على لسانِ رسولِ الله ﷺ ثم نَسَخَه سبحانه وتعالى، لاسيَّما وهو ممَّا لم يتوقَّف على صحَّته أَمْرٌ ديني ولا معنى آية ولا ولا، سوى أنَّها يتوقَّف عليها حصولُ شُبَه في قلوب كثيرٍ مِن ضعفاء المؤمنين لا تكاد تُدفَع إلا بجهدٍ جهيد، ويؤيِّد عدمَ الثبوت؛ مخالفتُه لظواهر الآياتِ، فقد قال سبحانه في وصف القرآن: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] والمراد بالباطل ما كان باطلاً في نفسه، وذلك المُلقى كذلك وإن سوَّغ نُطْقُ النبيِّ ﷺ به تأويله بأحد التأويلين، والمراد بـ ﴿لَّا يَأْتِيهِ﴾ استمرارُ النفي لا نفيُ الاستمرار. وقال عزَّ وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فجِيْءَ بالجملة الاسميَّة مؤكَّدة بتأكيدين، ونسب فيها الحفظ المحذوف متعلَّقه؛ إفادةً للعموم إلى ضميرِ العظمة، وفي ذلك مِن الدلالة على الاعتناء بأمر القرآنِ ما فيه.

وقد استدلَّ بالآية من استدلَّ على حفظ القرآن مِن الزيادة والنقص، وما علينا ما قيل في ذلك، وكون الإلقاء المذكور لا ينافي الحفظَ، لأنَّه نُسِخَ ولم يَبْقَ إلا زماناً يسيراً، لا يخلو عن نَظَر، والظاهر أنَّه وإن لم يُنَافِ الحفظَ في الجملة، لكنَّه ينافي الحفظَ المشار إليه في الآية على ما يقتضيه ذلك الاعتناء، ثم إنْ قيل: بما روي عن الضحاك مِن أنَّ سورة الحجِّ كلَّها مدنيَّةٌ، لزم بقاءُ ما أَلقى الشيطان قرآناً في اعتقاد رسولِ الله ﷺ والمؤمنين زماناً طويلاً، والقول بذلك مِن الشَّنَاعة بمكان، وقال جلَّ

---

(١) الخَرْط: قَشْرُكَ الورق عن الشجرة اجتذاباً بكفِّك. والقتاد: شجر له شوك أمثال الإبر. وهو مَثَل يُضرَب للأمر دونه مانع. مجمع الأمثال للميداني ١/ ٢٦٥.

(٢) في (م): يرووه.

وعلا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] والظاهر أنَّ الضميرَ لما يَنطق به عليه الصلاة والسلام ممَّا يتعلَّق بالدِّيْن، ومِن هنا أخرج الدارمِيُّ عن يحيى بنِ أبي كثير، أنَّه قال: كان جبريلُ عليه السلام ينزل بالسُّنَّة كما يَنزِلُ بالقرآن(١).

والمتبادر مِن لحن الخطاب أنَّ جميعَ ما ينطِق به عليه الصلاة والسلام مِن ذلك ليس عن إلقاء شيطانيٍّ كما أنَّه ليس عن هوًى، وبقيت آياتٌ أُخَرُ في هذا الباب ظواهرُها تدلُّ على المدَّعى أيضاً، وتأويلُ جميع الظواهر الكثيرة لقول شِرْذمة قليلة بصحَّة الخبر المنافي لها مع قولِ جمٍّ غفير بعد الفحص التامِّ بعدم صحَّته، مما لا يَميلُ إليه القلبُ السليم ولا يَرتضيه ذو الطبعِ المستقيم، ويبعدُ القولَ بثبوته أيضاً عدمُ إخراج أحدٍ مِن المشايخ الكبار له في شيءٍ مِن الكتب السِّتِّ مع أنَّه مشتملٌ على قصَّة غريبة، وفي الطباع مَيْلٌ إلى سماعِ الغريب وروايتهِ، ومع إخراجهم حديثَ سجودِ المشركين معه ﷺ حين سَجَدَ آخِرَ النجم، فقد روى البخاريُّ، ومسلم، وأبو داود، والنسائيُّ، وغيرُهم عن ابنِ مسعود: أنَّ النبيَّ ﷺ قَرَأ: (وَٱلنَّجْمِ)، فسجد فيها وسَجَدَ كلُّ مَن كان معه، غير أنَّ شيخاً(٢) مِن قريش أَخَذَ كفًّا مِن حصًى أو ترابٍ ورَفَعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا(٣). وروى البخاريُّ أيضاً، والترمذيُّ عن ابنِ عباس: أنَّ رسول الله ﷺ سَجَدَ بالنجم وسَجَدَ معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنسُ(٤)، إلى غير ذلك. وليس لأحدٍ أن يقول: إنَّ سجودَ المشركين يدلُّ على أنَّه كان في السورة ما ظاهرُه مدحُ آلهتِهم، وإلَّا

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٢٢، والذي في سنن الدارمي (٥٨٧) عن يحيى بن أبي كثير، قال: السنة قاضية على القرآن، وليس القرآن بقاضٍ على السنة. وجاء بعده برقم (٥٨٨): أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن حسان، قال: كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن. فلعلَّ السيوطيَّ أخطأ في نقله عن الدارمي، واشتبه عليه يحيى بن أبي كثير بمحمد بن كثير شيخ الدارمي.
وقول حسان بن عطية أخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (٥٣٦)، والمروزي في السنة (٤٠٢)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة (٩٩).
وعزاه ابن حجر في فتح الباري ١٣/ ٢٩١ للبيهقي وصحَّحه.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): جاء في رواية: أنه أمية بن خلف. اهـ. منه.

(٣) البخاري (٤٨٦٣)، ومسلم(٥٧٦)، وأبو داود (١٤٠٦)، والنسائي في المجتبى ٢/ ١٦٠.

(٤) البخاري (١٠٧١)، والترمذي (٥٧٥).

لما سجدوا؛ لأنَّا نقول: يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشةٍ أصابتهم، وخوفٍ اعتراهم عند سماع السورة؛ لما فيها مِن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ إلى آخرِ الآياتِ [النجم: ٥٠-٥٤]، فاستشعروا نزولَ مِثْلِ ذلك بهم، ولعلَّهم لم يَسمعوا قبل ذلك مِثْلَها منه ﷺ وهو قائمٌ بين يَدَي ربِّه سبحانه في مقام خطرٍ وجمع كثير، وقد ظنُّوا مِن ترتيب الأمر بالسجود على ما تقدَّم أنَّ سجودَهم ولو لم يكن عن إيمانٍ كافٍ في دَفْعِ ما توهَّموه، ولا تستبعد خوفَهم مِن سماعِ مِثْلِ ذلك منه ﷺ، فقد نزلت سورةُ (حم) السجدة بعد ذلك كما جاء مصرَّحاً به في حديث عن ابنِ عباس، ذكره السيوطيُّ في أوَّل «الإتقان»(١)، فلما سمع عتبةُ بنُ ربيعة قولَهُ تعالى فيها: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] أمسكَ على فَمِ رسولِ الله ﷺ وناشَده الرَّحِمَ، واعتذرَ لقومه حين ظنُّوا به أنَّه صَبَأ، وقال: كيف وقد علمتم أنَّ محمداً إذا قال شيئاً لم يكذبْ، فخِفتُ أن يَنزلَ بكم العذابُ. وقد أخرج ذلك البيهقيُّ في «الدلائل» وابنُ عساكر في حديث طويلٍ عن جابر بنِ عبد الله رضي الله عنهما(٢).

ويمكن أن يُقال على بُعْدٍ: إنَّ سجودَهم كان لاستشعار مَدْحِ آلهتهم، ولا يلزم منه ثبوتُ ذلك الخبر؛ لجواز أن يكون ذلك الاستشعارُ مِن قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠] بناءً على أنَّ المفعولَ محذوفٌ وقدَّروه حسبما يشتهون، أو على أنَّ المفعولَ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] وتوهمَّوا أنَّ مصبَّ الإنكار فيه كون المذكوراتِ إناثاً، والحُبُّ للشيء يُعمِي ويُصِمُّ، وليس هذا بأبعدَ مِن حَمْلِهم: تلك الغرانيق العُلا وإن شفاعتهنَّ لتُرتَجى، على المدح حتى سجدوا لذلك آخِرَ السورة مع وقوعِه بين ذمَّيْن المانع مِن حمله

---

(١) ١/ ٢٧-٢٨.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٣٥٩، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٣٨/ ٢٤٢، ولم نقف عليه في دلائل النبوة للبيهقي، وهو في دلائل النبوة للأصفهاني (١٨٢)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٤/ ٢٩٥، وعبد بن حميد (١١٢٣)، وأبو يعلى (١٨١٨).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٠: رواه أبو يعلى، وفيه: الأجلح الكندي وثَّقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وباقي رجاله ثقات.

على المدح في البين، كما لا يَخفى على مَن سَلِمَتْ عينُ قلبه عن الغينِ.

واعترض على الجواب الرابع: بأنَّ سجودَهم كان مع رسول الله ﷺ آخِراً بَعْدَ سماع قولِه تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣] فكان ينبغي التنبيهُ بعد السجود، ولعلَّهم أَرجعوا ضميرَ «هي» للأسماء، وهي قولهم: اللات والعزى ومناة، كما هو أحدُ احتمالين فيه ذكرهما الزمخشريُّ[1]، فيكون المعنى: ما هذه الأسماء إلا أسماء سمَّيتم بها بهواكم وشهوتِكم، ليس لكم على صحَّة التسمية بها برهانٌ تتعلَّقون به، وحينئذٍ لا يكون فيه دليلٌ على ردِّ ما فهموه ممَّا أَلقى الشيطانُ مِن مدح آلهتِهم بأنَّها الغرانيقُ العُلا، ويَحتمل أنَّهم أوَّلُوه على وجهٍ آخَر، وبابُ التأويل واسعٌ.

واعترض على قوله في الجواب الخامس: إنَّ هذا الاشتباه في حالة خاصَّة للتأديب لا يقتضي أن يكون ﷺ على غير بصيرة فيما يُوحَى إليه في غير تلك الحالة، بأنَّ المعترض لم يُرِد أنَّه إذا اشتبه الأمرُ عليه عليه الصلاة والسلام مرَّةً يَلزم أن يكون على غيرِ بصيرة فيما يُوحَى إليه في غيرها، بل أراد أنَّ اللائقَ بمقام النبيِّ ﷺ أن يكون على بصيرةٍ في جميع ما يُوحَى إليه، وأنَّه متى اشتبه عليه عليه الصلاة والسلام في حالة مِن الأحوال، لم تَبْقَ الكُلِّيةُ كُلِّيَّةً، وهو خلافُ المراد.

وفي «التنقيح» أنَّ الوحيَ إمَّا ظاهرٌ أو باطن، أمَّا الظاهر فثلاثةُ أقسام:

الأوَّل: ما ثبتَ بلسان المَلَك فوقع في سمعه ﷺ بعد علْمه بالمبلغ بآية قاطعةٍ، والمراد بها كما قال ابنُ مَلَك: العِلْم الضروريُّ بأنَّ المبلِّغ مَلَكٌ نازل بالوحي مِن الله تعالى، والقرآنُ مِن هذا القَبيل.

والثاني: ما وضح له ﷺ بإشارة المَلَك مِن غير بيانٍ بالكلام، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ رُوْحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعي أنَّ نَفْساً لن تموتَ حتى تستكملَ رِزْقَها» الحديث[2]، وهذا يُسمَّى خاطرَ المَلَك.

والثالث: ما تبدَّى لقلبه الشريف بلا شُبهة بإلهام مِن الله تعالى بأنْ أراهُ بنورٍ مِن

(١) الكشاف ٣/ ٣١.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الكهف.

عنده كما قال تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وكلُّ ذلك حجَّة مطلقاً، بخلاف الإلهام للوليِّ فإنَّه لا يكون حجَّةً على غيره، وأمَّا الباطنُ فما يُنال بالرأي والاجتهاد، وفيه خلافٌ إلى آخرِ ما قال، وهو ظاهر في أنه ﷺ على بصيرة في جميع ما يوحى إليه من القرآن؛ لأنه جعله من القسم الأول من أقسام الوحي الظاهر، ويُعلَم منه عدمُ ثبوت تكلُّمه ﷺ بما ألقى الشيطانُ؛ لأنَّه عند زاعمه يكون قد اعتقدَه عليه الصلاة والسلام قرآناً ووحياً مِن الله تعالى، فيَجِبُ على ما سمعتَ أن يكونَ عليه الصلاة والسلام قد عَلِمَ ذلك عِلْماً ضروريًّا، فحيث إنَّه ليس كذلك في نفس الأَمْرِ يلزم انقلاب العِلْم جهلاً، واستثناءُ هذه المادة مِن العموم ممَّا لا دليلَ عليه عند الزاعم سوى الخبرِ الذي زعم صحَّته وبنى عليه تفسيرَ الآية بما فسَّرها به، وذلك أوَّل المسألة.

ويجوز أن يقال: إنَّه أراد أنَّه إذا وَقَعَ الاشتباهُ مرَّة، اقتضى أن لا يكونَ عليه الصلاة والسلام على بصيرةٍ في شيءٍ ممَّا يُوحَى إليه بَعْدُ؛ لأنَّ احتمالَ التأديبِ على تعاطي ما ليس أكملَ بالنسبة إليه ﷺ قائمٌ، والعصمة مِن ذلك ممنوعةٌ، فقد وقع منه ﷺ بَعْدَ هذه القصَّة التي زعمها الخَصْمُ ما عُوتبَ عليه كقصَّة الأسرى المشار إليها بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية [الأنفال: ٦٧]، وكقصَّة الإذن المشار إليها بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٤٣]، وكقصَّة زينبَ رضي الله عنها المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ودعوى أنَّ التأديبَ بذلك على غيرِ التمنِّي ممَّا لا تقتضيه الحكمةُ، فلا يمكن وقوعُه مما لم يقم عليه دليلٌ، وقصارى ما تفيده الآية أنَّ الإلقاءَ مشروطٌ بالتمنِّي أو في وقته، بناءً على الخلاف في أنَّ «إذا» للشرط أو لمجرَّد الظرفيَّة، وعند انتفاءِ ذلك الشرط أو عدم تحقُّق ذلك الوقت، يبقى الإلقاء على العدم الأصليِّ إنْ لم يكن هناك ما يقوم مقامَ ذلك الشرط، أو ذلك الوقت.

ولا شَكَّ أنَّ صدورَ خلافِ الأكمل لاسيَّما إذا كان كالتمنِّي أو فوقَه أو وقت صدوره ممَّا يقوم مقامَ ذلك فيما يقتضيه، فيلزم حينئذٍ أن يكون ﷺ في كلِّ وحي

متوقِّفاً غيرَ جازم بأنَّه وحي لا تلبيسٌ إلى أن يتضحَ له عليه الصلاة والسلام عدمُ صدورِ خلاف الأكمل بالنسبة إليه منه، وفي ذلك مِن البشاعة ما فيه.

واعترض على قوله في الجواب أيضاً: إنَّ ما قاله ابنُ العربيِّ قياسٌ مع الفارق. . . إلخ: بأنَّه غيرُ حاسم للقيلِ والقال، إذ لنا أن نقول: خلاصةُ ما أشار إليه ابنُ العربيِّ أنَّه قد صحَّ بل تواترَ قولُه ﷺ: «مَن رآني في المنام فقد رآني حقاً؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّل بي»[1] والظاهر أنَّه لا يتمثَّل به ﷺ أصلاً لا للمخلصين ولا لغيرِهم؛ لعموم «مَن»، ولزوم مطابقةِ التعليل المعلَّل، وإذا لم يتمثَّل مناماً فَلأَن لا يتمثَّل يقظةً مِن بَاب أَولى، وعلَّله الشُّرَّاح بلزوم اشتباهِ الحقِّ بالباطل.

وقالت الصوفيَّة في ذلك: إنَّ المصطفى ﷺ وإنْ ظَهَرَ بجميع أسماءِ الحقِّ تعالى وصفاته تخلُّقاً وتحقُّقاً، فمقتضى رسالتِه للخَلْق أن يكون الأظهر فيه حكماً وسلطنةً مِن صفات الحقِّ سبحانه وأسمائه جلَّ شأنه الهداية والاسم الهادي، والشيطان مَظهر الاسم المُضِلِّ والظاهر بصفة الضلالة، فهما ضدَّان فلا يَظهرُ أحدُهما بصفةِ الآخَر، والنبيُّ ﷺ خُلِقَ للهداية، فلو ساغَ ظهورُ إبليس بصورته لزالَ الاعتمادُ عليه عليه الصلاة والسلام، فلذلك عُصِمَتْ صورتُه ﷺ عن أن يَظهر بها شيطانٌ. اهـ. ولا شَكَّ أنَّ نسبةَ جبريلَ عليه السلام إليه ﷺ وكذا إلى سائرِ إخوانه الأنبياء عليهم السلام نسبةُ النبيِّ ﷺ إلى الأمَّة، فإذا استحالَ تمثُّل الشيطانِ بالنبيِّ ﷺ يقظةً أو مناماً لأحدٍ مِن أمَّته مُخْلِصاً أو غير مُخلِص؛ خوفَ الاشتباه وزوالِ الاعتماد وكمالِ التضادِّ، فليقل باستحالة تمثُّله بجبريلَ عليه السلام لذلك، ومَن ادَّعى الفَرْقَ، فَقَدَ كابر.

وتعقَّب ما ذكره في الجواب السادس بأنَّ كونَ المتبع لما يعتقده وحياً للتلبيس غير منقول، صحيحٌ إلا أنَّ القولَ باعتقاد ما ليس قرآناً قرآناً للتلبيس الناشئِ عن إرادةِ التأديب بسبب تمنِّي إيمان الجميع الغيرِ المراد له تعالى ليس به، وكون التلبيسِ للتأديب كالسهو في الصلاة للتشريع، ولا يَخفى ما فيه.

وأورد على قوله في الجواب السابع: إنَّه إخلال بالوثوق بالقرآن عند الذينِ أوتوا العِلْم والذين آمنوا؛ لأنَّ وثوقَ كلٍّ منهما تابعٌ لوثوق مَتبُوعهم الصادق

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٢٢٦٦)، وسلف ١٠/ ١٤٠.

الأمين ﷺ أنَّه إذا فتح باب التلبيس لا يُوثَق بالوثوق في شيء أصلاً؛ لجواز أن يكون كلُّ وثوقٍ ناشئاً عن تلبيس، كالوثوق بأنَّ: تلك الغرانيقَ العُلا وإنَّ شفاعتهن لتُرتَجى، قرآن، فلمَّا تطرَّق الاحتمال الوثوقَ، جاز أن يتطرَّق الرجوع، ولا يظهر فَرْقٌ بينهما، فلا يعوَّل حينئذٍ على جَزْمٍ ولا على رجوع.

وقوله فيما ذكره البيضاويُّ عليه الرحمةُ: ليس بشيءٍ. ليس بشيءٍ؛ لأنَّ مَنْعَ الاحتمالِ عند الفِرَقِ الأربع بعد القولِ بجواز التلبيس مكابرةٌ، والآية التي ادّعى دلالتها على انتفاء الاحتمال عند فريقين بعد النَّسْخ والإحكام فيها أيضاً ذلك الاحتمال، والحقُّ أنَّه لا يكادُ يُفتَح بابُ قَبول الشرائع ما لم يُسَدَّ هذا الباب.

ولا يجدي نفعاً كون الحكمة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨] آبيةً عن بقاء التلبيسِ، فلا أقلَّ مِن أن يتوقَّف قَبولُ معظم ما يجيء به النبيُّ عليه الصلاة والسلام إلى أن يتبيَّن كونه ليس داخلاً في باب التلبيسِ، مع أنَّا نرى الصحابة ﷺ يُسارِعون إلى امتثال الأوامر عند إخبارِه ﷺ إيَّاهم بوحي اللهِ تعالى إليه بها مِن غير انتظارِ ما يَجيْءُ بعد ذلك فيها ممَّا يُحقِّق أنَّها ليست عن تلبيسٍ، فافهم والله تعالى الموفق.

وتوسَّط جَمْعٌ في أَمْرِ هذه القصَّة فلم يُثبِتوها كما أثبتها الكورانيُّ ـ عفا الله تعالى عنه ـ مِن أنَّه ﷺ نَطَقَ بما نَطقَ عمداً معتقداً للتلبيس أنَّه وحيٌ، حاملاً له على خلافِ ظاهره، ولم يَنْفُوها بالكليَّة كما فَعَلَ أَجلَّة أثبات، وإليه أَميلُ، بل أثبتوها على وجهٍ غيرِ الوجه الذي أثبته الكورانيُّ، واختلفوا فيه على أوجهٍ تُعلَم مما أسلفناه من نقل الأقوال في الآية، وكلُّها عندي ممَّا لا ينبغي أن يُلتَفت إليها.

وفي «شرح الجوهرة» الأوسط: إنَّ حديثَ: تلك الغرانيق إلخ، ظاهرُه مخالفٌ للقواطع، فيجب تأويلُه ـ إن صحَّ ـ بما هو مذكورٌ في موضعه ممَّا أقرّ به على نظرٍ فيه أنَّ الشيطانَ ترصَّد قراءتَه عليه الصلاة والسلام وكان يُرتِّل القراءةَ إذ ذاك عند البيتِ، فحين انتهى عليه الصلاة والسلام إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ وكان منه عليه الصلاة والسلام وقفةٌ ما للترتيل، أدرج ذلك في تلاوته محاكياً صورته ﷺ، فظنَّ أنَّه من قوله عليه الصلاة والسلام، وليس به. انتهى.
والنظر الذي أشار إليه لا يَخفى على مَن أحاط بما قدَّمناه خبراً وأخذتِ العنايةُ بيديه.

وأقبحُ الأقوال التي رأيناها في هذا الباب وأظهرُها فساداً أنَّه ﷺ أدخل تلك الكلمةَ مِن تلقاء نفسه؛ حرصاً على إيمانِ قومه ثم رَجَعَ عنها، ويجب على قائلِ ذلك التوبةُ، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، وقريبٌ منه ما قيل: إنَّها كانت قرآناً منزلاً في وَصْفِ الملائكة عليهم السلام، فلمَّا توهَّم المشركونَ أنَّه يريد عليه الصلاة والسلام مَدْحَ آلهتِهم بها، نُسِخَتْ، وأنتَ تَعلمُ أنَّ تفسيرَ الآية ـ أعني قوله تعالى: «وما أرسلنا» إلخ لا يتوقَّف على ثبوتِ أصلٍ لهذه القصَّة، وأقربُ ما قيل في تفسيرِها على القول بعدمِ الثبوت ما قدَّمناه، وقيل: هو بعيدٌ، صدقوا لكن عن إيهام الإخلال بمقام النبوَّة ونحو ذلك، واستفتِ قَلْبَكَ إن كنتَ ذا قلبٍ سليم. هذا، وأخرجَ عبدُ بنُ حميد، وابنُ الأنباريِّ في «المصاحف» عن عمرو بنِ دينار قال: كان ابنُ عباس رضي الله عنهما يقرأ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾، فنُسِخَ: «ولا محدّث» والمحدَّثون: صاحبُ يس، ولقمان، ومؤمن آلِ فرعون، وصاحبُ موسى عليه السلام.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾ أي: السلطانُ القاهر والاستيلاءُ التامُّ والتصرُّف على الإطلاق ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ تأتيهم الساعةُ أو عذابها؛ وقيل: أي يوم إذ تزولُ مريتهم، وليس بذلك، ومثله ما قيل: أي يوم إذ يؤمنون ﴿لِّلَّهِ﴾ وحدَه بلا شريك أصلاً بحيث لا يكون فيه لأحدٍ تصرُّف مِن التصرفات في أمرٍ مِن الأمور لا حقيقةً ولا مجازاً ولا صورةً ولا معنىً كما في الدنيا، فإنَّ للبعض فيها تصرُّفاً صوريًّا في الجملة والتنوين في «إذ» عوض عن المضاف إليه، وإضافة «يوم» إليه مِن إضافة العامِّ إلى الخاصِّ وهو متعلِّق بالاستقرار الواقع خبراً.

وقوله سبحانه: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ جملةٌ مستأنفة وقعتْ جوابَ سؤالٍ نَشَأ مِن الإخبار بكون الملك يومئذٍ لله، وضميرُ الجَمْع للفريقَيْن المؤمنين والكافرين لذِكْرهما أوَّلاً واشتمالِ التفصيل عليهما آخِراً، نعم ذكر الكافرين قبيله ربَّما يُوهِم تخصيصَه بهم، كأنَّه قيل: فماذا يصنعُ سبحانه بالفريقين حينئذٍ؟ فقيل: يَحكُم بينهم بالمجازاةِ، وجوّز أن تكون حالاً مِن الاسم الجليل.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم الذين لا مرية لهم فيما أشير إليه سابقاً كيفما كان متعلَّق الإيمان ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦﴾ أي: مستقرُّون في جنَّات

مشتملةٍ على النِّعَم الكثيرة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وهم الذين لا يزالون في مريةٍ مِن ذلك، وفي متعلَّق الكفر احتمالات كاحتمالات متعلَّق الإيمان وزيادة، وهي احتمال أن يكونَ متعلَّقه الآياتُ، والظاهر أنَّ المرادَ بها الآيات التنزيلية، وجوّز أن يُراد بها الأدلَّة وأن يراد بها الأعمُّ، ويتحصَّل ممَّا ذُكِرَ خمسةَ عَشَرَ احتمالاً في الآية، ولعلَّ أولاها ما قَرُبَ به العطف إلى التأسيس، فتأمَّل. والموصول مبتدأٌ أوَّل، وقوله تعالى ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، وهو إشارة إلى الموصول باعتبار اتِّصافه بما في حيِّز الصلة، وما فيه مِن معنى البعد؛ للإيذان ببعد المنزلة في الشَّرِّ والفساد.

وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ جملة اسميَّة مِن مبتدأٍ وخبرٍ مقدَّم عليه، وقعت خبراً للمبتدأ الثاني، أو «لهم» خبرٌ له، و«عذاب» مرتفعٌ على الفاعليَّة بالاستقرار في الجارِّ والمجرور؛ لاعتماده على المبتدأ، وجملة المبتدأ الثاني وخبرِه خبرٌ للمبتدأ الأوَّل، وتصديره بالفاء؛ قيل للدلالة على أنَّ تعذيبَ الكفَّار بسبب قبائحِهم، ولذا جِيْءَ بـ «أولئك».

وقيل: لهم عذابٌ بلام الاستحقاقِ، وكأن الظاهر في «عذاب» كما قيل «في جنَّات»، وجُعِلَ تجريدُ خبرِ الموصول الأوَّل عنها؛ للإيذان بأنَّ إثابةَ المؤمنين بطريق التفضُّل لا لإيجاب محاسنِهم إيَّاهم، ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦] ونحوه؛ لأنَّها بمقتضى وَعْدِه تعالى على الإثابة عليها قد تُجعَل سبباً، وقيل: جِيْءَ بالفاء؛ لأنَّ الكلامَ لخروجه مَخْرج التفصيل بتقدير أمَّا، فكأنَّه قيل: فأمَّا الذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا فأولئك... إلخ، وليس بشيءٍ؛ لأنَّ ذلك يقتضي تقدير أمَّا في قوله تعالى: «فالذين آمنوا» إلخ، ولا يتسنَّى فيه؛ لعدم الفاء في الخبر.

وقوله تعالى: ﴿مُّهِينٌ ۝٥٧﴾ صفةٌ لعذاب مؤكِّدة لما أفاده التنوينُ مِن الفخامة، ولم يتعرَّض لوصف هؤلاء الكفرة بعملِ السيئات كما تعرَّض لوصف المؤمنين بعملِ الصالحات، قيل: لظهور عدمِ اتِّصافهم بغيره، أعني: العمل الصالح الذي شرعه اللهُ تعالى على لسانِ الرسول عليه الصلاة والسلام بعد كُفرِهم وتكذيبهم بالآيات، وقيل: مبالغة في تهويل أَمْرِ الكفر حيث أخبر سبحانه أنَّ للمتَّصف به دونَ عمل السيئات عذاباً مهيناً، ولو تعرَّض لذلك لأفاد أنَّ ذلك

العذابَ للمتَّصف بالمجموع فيَضعفُ التهويلُ، والقول بأنَّ المرادَ مِن التكذيب بالآيات عملُ السيئات، أو في الكلام صنعة الاحتباك، والأصل: فالذين آمنوا وصدَّقوا بآياتنا وعملوا الصالحات في جنَّات النعيم، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا وعملوا السيئاتِ فأولئك لهم عذاب مهينٌ، خلافُ الظاهر كما لا يخفى.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في الجهاد حسبما يَلوحُ به قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ أي: في تضاعيف المهاجرة.

وقرأ ابنُ عامر: «قُتِّلوا»(١) بالتشديد، ومحلُّ الموصول الرفعُ على الابتداء، وقولُه تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ﴾ جوابٌ لقَسَم محذوف، والجملة خبرُه على الأصحِّ مِن جواز وقوعِ القَسَم وجوابِه خبراً، ومَن مَنَعَ، أضمر قولاً هو الخبر، والجملة محكيَّة به، وقوله سبحانه: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ إمَّا مفعولٌ ثانٍ ليرزق على أنَّه من بابِ النقض(٢) والذبح، أي: مرزوقاً حسناً، أو مصدر مبيِّن للنوع، والمراد به عند بعضٍ ما يكون للشهداء في البرزخِ من الرزق، ويؤيِّده ما أخرجه ابنُ أبي حاتم، وابن مردويه، عن سلمان الفارسيِّ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن ماتَ مرابطاً، أُجريَ عليه الرزقُ وأَمِنَ مِن الفتَّانين، واقرؤوا إن شئتم: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا) إلى قوله تعالى: (حَلِيمٌ)(٣)» وقد نصَّ سبحانه في آية أخرى على أنَّ الذين يُقتَلون في سبيل الله تعالى أحياء عند ربِّهم يُرزقون، وليس ذلك في تلك الآية إلا في البَرْزخ. وقال آخرون: المراد به مالا يَنقطع أبداً مِن نعيم الجنَّة. ورُدَّ بأنَّ ذلك لا اختصاصَ له بمن هاجر في سبيل الله، ثم قتل أو مات، بل يكون للمؤمنين كلِّهم.

وتُعقِّب بأنَّ عدمَ الاختصاص ممنوعٌ، فإنَّ تنكيرَ «رزقاً» يجوز أن يكون للتنويع، ويختصُّ ذلك النوع بأولئك المهاجرين، وقيل: المراد تشريفُهم وتبشيرُهم بهذا الوَعْدِ الصادر ممَّن لا يُخلفِ الميعادَ المقترن بالتأكيد القَسَميِّ، ويكفي ذلك في تفضيلهم على سائر المؤمنين كما في المبشَّرين مِن الصحابة ﷺ، وفيه نَظَرٌ.

---

(١) التيسير ص٩١، والنشر ٢/ ٢٤٣.

(٢) في تفسير أبي السعود ٦/ ١١٦: الرعي، والكلام منه.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٣٦٨-٣٦٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٣ (١٤٠١٠).

وقال الكلبيُّ: هو الغنيمة، وقال الأَصَمُّ: هو العِلْم والفَهْم، كقولِ شعيب عليه السلام: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨] ويَرِدُ عليهما أنَّه تعالى جَعَلَ هذا الرزقَ جزاءً على قَتْلهم أو موتهم في تضاعيف المهاجرة في سبيل الله تعالى، فلا يصحُّ أن يكون في الدنيا، ولعلَّ قائل ذلك يقول: إنَّه في الآخرة، وفيها تتفاوت مراتبُ العِلْم أيضاً.

وظاهرُ الآية على ما قيل: استواءُ مَن قُتِلَ ومَن مات مهاجراً في سبيلِ الله تعالى في الرُّتبة، وبه أَخذ بعضُهم، وذكر أنَّه لما مات عثمانُ بنُ مظعون وأبو سلمةَ بنُ عبدِ الأسد قال بعضُ الناس: مَن قُتلَ مِن المهاجرين أفضلُ ممَّن مات حَتْفَ أنفِه، فنزلت الآيةُ مسوِّيةً بينهم(١).

وأخرج ابنُ جرير، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم عن فضالَة بنِ عبيد الأنصاريِّ الصحابيِّ أنَّه كان بموضع فمرُّوا بجنازتَيْن؛ إحداهما قتيلٌ والأُخرى متوفًّى، فمالَ الناسُ على القتيل في سبيلِ الله تعالى، فقال: واللهِ ما أُبالي مِن أَيِّ حفرتَيْهما بُعِثْتُ، اسمعوا كتابَ الله تعالى، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ الآية(٢).

ويؤيّد ذلك بما رويَ عن أنسٍ قال: قال ﷺ: «المقتولُ في سبيلِ الله تعالى والمتوفَّى في سبيلِ الله تعالى بغيرِ قتلٍ هما في الأَجْرِ شريكان»(٣). فإنَّ ظاهرَ الشركةِ يُشعِر بالتسوية، وظاهر القولِ بالتسوية أنَّ المتوفَّى مهاجراً في سبيل الله تعالى شهيداً كالقتيل، وبه صرَّح بعضُهم، وفي «البحر»(٤): إنَّ التسويةَ في الوعْدِ بالرِّزْق الحَسَن لا تدلُّ على تفضيلٍ في المُعطَى ولا تسوية، فإنْ يكن تفضيلٌ فمِن دليلٍ آخَر، وظاهرُ الشريعة أنَّ المقتولَ أَفضلُ. انتهى. وما تقدَّم في سبب النزول غيرُ مُجمَع عليه، فقد روي أنَّ طوائفَ مِن الصحابة ﷺ قالوا: يا نبيَّ اللهِ هؤلاء

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٠.

(٢) الدر المنثور ٤/ ٣٦٩، وتفسير الطبري ١٦/ ٦١٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٣ (١٤٠١١).

(٣) تفسير الرازي ٢٣/ ٥٨، وتفسير اللباب لابن عادل ١٤/ ١٣٢، ولم نقف عليه مسنداً.

(٤) البحر المحيط ٦/ ٣٨٣.

الذين قُتلوا قد عَلِمْنا ما أَعطاهم اللهُ تعالى مِن الخير، ونحن نجاهدُ معكَ كما جاهدوا، فما لنا إنْ مُتْنَا معكَ؟ فنزلت. واستدلَّ بعضُهم بهذا أيضاً على التسوية، وقال مجاهد: نزلت في طوائفَ خرجوا مِن مكَّة إلى المدينة للهجرة، فتَبِعَهم المشركونَ وقاتلوهم. وعلى هذا القول ليس المرادُ مِن المهاجرة في سبيله تعالى المهاجرةَ في الجهاد، وأيًّا ما كان فهذا ابتداءُ كلامٍ غيرِ داخل في حيِّز التفضيل. ويُوهِم ظاهرُ كلامِ بعضهم الدخولَ، وأنَّه تعالى أَفرَدَ المهاجرينَ بالذِّكْر مع دخولهم دخولاً أوليًّا في الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ تفخيماً لشأنِهم، وهو كما ترى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨﴾ فإنَّه جلَّ وعلا يَرزقُ بغير حساب مع أنَّ ما يرزقه قد لا يَقدِرُ عليه أحدٌ غيره سبحانه، وأنَّ غيرَه تعالى إنَّما يرزقُ ممَّا رَزَقه هو جِلَّ شأنه.

واستدلَّ بذلك على أنَّه قد يُقال لغيرِه تعالى: رازق، والمراد به معطي، والأَولى عندي أنْ لا يُطلَق رازقٌ على غيرِه تعالى، وأن لا يتجاوزَ عمَّا ورد.

وأمَّا إسناد الفعل إلى غيرِه تعالى، كـ: رَزَقَ الأميرُ الجنديَّ، وأَرزق فلاناً مِن كذا، فهو أهونُ مِن إطلاق رازق، ولعلَّه ممَّا لا بأسَ به، وصرَّح الراغبُ[1] بأنَّ الرَّزَّاقَ لا يُقال إلا للهِ تعالى، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّر لما قبله.

وقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ استئنافٌ مقرِّر لمضمونِ قولهِ سبحانه: «ليرزقنَّهم اللهُ» أو بدلٌ منه مقصود منه تأكيدُه، و«مُدخَلاً» إمَّا اسم مكانٍ أُريد به الجنَّة، كما قال السُّدِّيُّ وغيرُه، أو درجاتٌ فيها مخصوصة بأولئك المهاجرينَ كما قيل، وقيل: هو خيمةٌ مِن دُرَّةٍ بيضاءَ لا فصمَ فيها ولا وصمَ، لها سبعونَ ألف مصراعٍ، أو مصدر ميميٌّ، وهو على الاحتمال الأوَّل مفعولٌ ثانٍ للإدخال، وعلى الثاني مفعولٌ مُطلَق، ووصفه بـ يرضونه على الاحتمالين لما أنَّهم يَرَوْن إذا أدخلوا مالا عينٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمعتْ ولا خَطَر على قَلْبِ بشرٍ، وقيل على الثاني: إنَّ رضاهم لما أنَّ إدخالَهم مِن غير مشقَّة تنالهم، بل براحةٍ واحترام.

---

(١) المفردات (رزق).

وقرأ أهلُ المدينة: «مَدْخلاً» بالفتح، والباقون بالضَّمِّ[١]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بالذي يُرضِيهم فيعطيهم إيَّاه، أو لَعليمٌ بأحوالهم وأحوالِ أعدائهم الذين هاجروا لجهادهم ﴿حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ فلا يُعاجِل أعداءَهم بالعقوبة، وبهذا يظهر مناسبة هذا الوصفِ لما قبله، وفيه أيضاً مناسبةٌ لما بعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ قد حقَّق أمرُه ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي: مَن جازى الجاني بمثلِ ما جنى به عليه، وتسمية ما وَقَعَ ابتداءً عقاباً مع أنَّ العقابَ كما قال غيرُ واحد جزاءُ الجناية؛ لأنَّه يأتي عَقِبَها وهو في الأصل شيءٌ يأتي عَقِبَ شيءٍ؛ للمشاكلة، أو لأنَّ الابتداءَ لما كان سبباً للجزاء، أطلق عليه مجازاً مرسلاً بعلاقة السببيَّة، وقال بعضُ المحقِّقين: يجوز أن يقال: لا مشاكلةَ ولا مجازَ؛ بناءً على أنَّ العُرْفَ جارٍ على إطلاقه على ما يعذَّب به، وإن لم يكن جزاء جناية. و«من» موصولة، وجوّز أن تكون شرطيَّة سدَّ جوابُ القَسَم الآتي مَسَدَّ جوابِها، والجملةُ مستأنفة، والباء في الموضعين، قيل للسبب لا للآلةِ، وإليه ذهب أبو البقاء[٢]، وقال الخفاجيّ[٣]: باءُ «بمثل» آليَّة لا سببيَّة؛ لئلا يتكرَّر مع قوله تعالى: «به» والمنساقُ إلى ذهني القاصر كونها في الموضعين للآلة، وفيما ذكره الخفاجيُّ نَظَرٌ، فتأمَّل.

﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ بالمعاودة إلى العقاب ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ على مَن بَغى عليه لا محالَة عند كره للانتقامِ منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ تعليلٌ للنُصرة حيث كانت لمن ارتكبَ خلافَ الأَولى مِن العفوِ عن الجاني المندوبِ إليه والمستوجِبِ للمَدْح عنده تعالى، ولم يَنظُرْ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] بأنَّ ذلك لأنَّه لا يلوم على تَرْكِ الأَولى إذا رُوعِيَ الشريطة وهي عدمُ العدوان، وفيه تعريضٌ بمكان أَوْلَيَّة العفوِ، لأنَّ ذِكْرَ الصفتَيْن يدلُّ على أنَّ هناك شبهُ جناية، وإظهارُ الاسم الجليل في مقام الإضمار؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك مِن مقتضى الألوهيَّة.

---

(١) التيسير ص٩٥، والنشر ٢/ ٢٤٩.

(٢) الإملاء ٤/ ٤٦.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٠٩.

وحَمْلُ الجملةِ على ما ذكرَ أحدُ أوجهٍ ثلاثة ذَكَرها الزمخشريُّ[1] في بيان مطابقةِ ذِكْر العفوِ الغفورَ هذا الموضع.

وثانيها: أنَّه دلَّ بذلك على أنَّه تعالى قادرٌ على العقوبة؛ لأنَّه لا يُوصَف بالعفوِ إلا القادر على ضدِّه.

قال في «الكشف»: فهو، أي: «إنَّ اللهَ»... إلخ، على هذا أيضاً تعليلٌ للنُصرة، وأنَّ المعاقَبَ يستحقُّ فوقَ ذلك، وإنَّما الاكتفاءُ بالمِثْل لمكان عَفْوِ اللهِ تعالى وغفرانِه سبحانه، وفيه إدماجٌ أيضاً للحَثِّ على العَفْو، وهذا وجهٌ وجيه. اهـ.

وثالثها: أنَّه دلَّ بذلك على نفي اللوم على تَرْكِ الأَولى حسبما قرَّر أوَّلاً إلا أنَّ الجملةَ عليه خبر ثانٍ، لقوله تعالى: «مَن عاقبَ بمِثْل ما عُوقبَ به»، والخبر الآخَر قولُه تعالى: «ليَنْصرنَّه اللهُ» فيكون قد أخبرَ عنه بأنَّه لا يلومه على تَرْكِ العفو، وأنَّه ضامنٌ لنَصْره في إخلاله ثانياً بذلك.

وجعل ذلك بعضُهم مِن التقديم والتأخير، ولا ضرورةَ إليه، وقيل: إنَّ العفوَ ليس لارتكابِ المعاقَب خلافَ الأَولى، بل لأنَّ المماثلةَ مِن كلِّ الوجوه متعسِّرة، فيحتاج للعفو عمَّا وقع فيها، وليس بذاك. ونقل الطيبيُّ عن الإمام[2] أنَّ الآيةَ نزلت في قومِ مشركين لَقُوا قوماً مِن المسلمين لليلتَيْن بقيتا مِن المُحرَّم، فقالوا: إنَّ أصحابَ محمَّد ﷺ يكرهونَ القتالَ في الشهرِ الحرام، فاحْمِلُوا عليهم، فناشدهم المسلمونَ بأنْ يكفُّوا عن القتالِ، فأَبَوْا، فقاتلوهم فنُصِرَ المسلمون ووقع في أنفسهم شيءٌ مِن القتال في الشهر الحرام، فأنزل اللهُ تعالى الآيةَ، ثم قال: فعلى هذا أَمْرُ المطابقة ظاهرٌ، ويكون أوفقَ؛ لتأليف النظم، وذلك أنَّ لفظَة «ذلك» فصل للخطاب، وقوله تعالى: «ومن عاقب» شروعٌ في قصَّة أُخرى لأولئك السادة بَعْدَ قوله سبحانه: «والذين هاجروا» الآيتين. اهـ.

وتعقَّب بأنَّ الآيةَ تقتضي ابتداءً ثُمَّ جزاءً ثم بغياً ثم جزاءً، والقصَّة لم تدلَّ عليه إلا أن يُجعَل ما بينهم من التعادي معاقبة بالمِثْل، ويُجعَل البغي مناوأتهم لقتالِ

(١) الكشاف ٣/ ٢٠.
(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٥٩.

المسلمين في الشهر الحرام، وهو خلافُ الظاهر، وأمَّا الموافقةُ لتأليفِ النظم، فعلى ما ذكره غيرُه أبين؛ لأنَّه لما ذَكَرَ حالَ المقتولين منهم والميِّتين منهم، قيل الأَمْرُ ذلك فيما يرجعُ إلى حالِ الآخرة، وفيما يَرجعُ إلى حال الدنيا إنَّهم لهم المنصورونَ؛ لأنَّهم بين معاقِب وعافٍ، وكلاهما منصوران؛ أمَّا الأوَّل فنصًّا، وأما الثاني فمِن فحوى الخطاب، أعني مفهومَ الموافقة، وفيه وَعيدٌ شديد للباغي، وأنَّه مخذولٌ في الدارين، مسلوكٌ في قرنِ مَن كان في مِرْية حتى أتته الساعةُ أو العذاب. اهـ. وهو كلام رصينٌ، ولا يُعكِّر عليه قولهم: إنَّه أتى بذلك للاقتضاب، فتأمَّل.

وعن الضَّحَّاك أنَّ الآيَةَ مدنيَّةٌ وهي في القصاص والجراحات.

واستدلَّ بها الشافعيُّ على وجوب رعايةِ المماثلة في القصاص، وعندنا لا قودَ إلا بالسيف، كما جاء في الخبر(١)، والمراد به السلاح، وخبر: «مَن غرَّق غرَّقناه، ومَن حرَّق حرَّقناه»(٢): لم يصحَّ، وبتسليم صحَّته محمولٌ على السياسة، وينبغي أن يُعلمَ أنَّ المعاقَبة بالمِثْل على الإطلاق غيرُ مشروعة، فإنَّ الرجلَ قد يُعاقَب بنحو: يازاني، وقد قالوا: إنَّه إذا قيل له ذلك، فقال: لا بل أنتَ زانٍ، حُدَّ هو والقائل الأوَّل، فليحفظ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى النصر المدلولِ عليه بقوله تعالى: «لينصرنَّه» وما فيه مِن معنى البُعد؛ للإيذان بعلوِّ رتبته، وقيل: لعدم ذِكْر المشار إليه صريحاً، ومحلُّه الرفع على الابتداء، وخبرُه قولُه سبحانه: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ والباء فيه سببيَّة، والسبب ما دلَّ عليه ما بَعْدُ بطريقِ اللزوم، أي: ذلك النصرُ كائنٌ بسبب أنَّ الله ـ تعالى شأنه ـ قادرٌ على تغليبِ بعض مخلوقاتِه على بعض والمداولةِ بين الأشياء المتضادَّة، ومِن شأنِه ذلك.

---

(١) أخرج ابن ماجه (٢٦٦٧) عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: «لا قَوَدَ إلَّا بالسيف». قال البوصيري في الزوائد: في إسناده: جابر الجعفي، وهو ضعيف.
وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٢٦٦٨) من حديث أبي بكرة ﷺ. قال البوصيري في الزوائد: في إسناده: مبارك بن فضالة، وهو يدلِّس، وقد عنعنه، وكذا الحسن. اهـ. وقال عبد الحق: طرقه كلها ضعيفة. وقال البيهقي: لم يثبت له إسناد. التلخيص الحبير ١٩/٤.

(٢) أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (١٧١٨٥) من حديث عمران بن نوفل بن يزيد بن البراء، عن أبيه، عن جدِّه. وقال: في الإسناد بعض من يجهل.

وعبَّر عن ذلك بإدخال أَحَدِ المَلَوين[1] في الآخَر، بأن يزيدَ فيه ما ينقص مِن الآخَر، كما هو الأوفقُ بالإيلاج، أو بتحصيلِ أحدهما في مكانِ الآخَر كما قيل، لا بأَنْ يجعلَ بينَ كلِّ نهارين ليلاً، وبين كلِّ ليلَيْن نهاراً، كما قد توهم، لكونه أظهرَ المواد وأوضحها، أو كائنٌ بسببِ أنَّه تعالى خَالقُ الليل والنهار ومصرِّفهما، فلا يَخفى ما يجري فيهما على أيدي عبادِه مِن الخير والشَّرِّ، والبغي والانتصار، كما قيل، وعلى الأوَّل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ بكلِّ المسموعات التي مِن جملتها ما يقول المعاقَب ﴿بَصِيرٌ ۝٦١﴾ بكلِّ المبصرات التي مِن جملتها ما يقع منه مِن الأفعال من تتمَّة الحكم لابدَّ منه، إذ لا بُدَّ للناصر مِن القُدرة على نَصْرِ المظلوم، ومِن العِلْم بأنَّه كذلك، وعلى الثاني هو تتميمٌ وتأكيد، والأوَّل أولى، وقيل: لا يَبعُد أن يكون المعنى: ذلك النصرُ بسببِ تعاقب الليل والنهار وتناوبِ الأزمان والأدوار إلى أن يَجِيْءَ الوقتُ الذي قدَّره المَلِكُ الجبار لانتصارِ المظلوم وغلبته، وفيه أنَّه لا محصَّل له مالم يُلاحِظ قدرةَ الفاعل لذلك، وقيل: يجوز أن تكون الإشارة إلى الاتِّصاف بالعفو والغفرانِ، أي: ذلك الاتِّصاف بسبب أنَّه تعالى لم يُؤاخِذ الناسَ بذنوبهم، فيجعل الليلَ والنهار سرمداً فتتعطَّل المصالح، وفيه أنَّه مع كونه لا يُناسب السياقَ غير ظاهر، لاسيَّما إذا لوحظ عطفُ قولِه تعالى: «وأنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ» على مدخول الباءِ فيما قبل، نَعَم الإشارةُ إلى الاتِّصاف في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فالمعنى ذلك الاتصافُ بكمال القدرة الدَّال عليه قوله تعالى: «يولج الليلَ في النهار» إلخ، وكمال العلم الدالِّ عليه: «سميع بصير» بسببِ أنَّ الله تعالى الواجب لذاتِه الثابت في نفسه وحدَه، فإنَّ وجوبَ وجودِه ووحدتِه يستلزمان أن يكون سبحانه هو الموجدَ لسائرِ المصنوعات، ولابدَّ في إيجاده لذلك حيث كان على أبدعِ وجهٍ وأحكمه مِن كمال العلم على ما بُيِّنَ في موضعه. وقيل: إنَّ وجوبَ الوجودِ وحدَه متكفل بكلِّ كمال حتى الوحدة، أو المعنى: ذلك الاتِّصاف بسبب أنَّ اللهَ تعالى الثابت الإلهية وحدَه، ولا يصلح لها إلا مَن كان كاملَ القدرة كاملَ العلم.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ إلهاً ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: المعدوم في حدِّ ذاته، أو الباطل الإلهيَّة، والحصر يحتمل أن يكون غيرَ مرادٍ، وإنَّما جيْءَ به للمشاكلة،

---

(١) المَلَوان: الليل والنهار. مختار الصحاح (ملا).

ويحتمل أن يكون مراداً على معنى أنَّ جميعَ ما يدعون مِن دونه هو الباطل لا بعضه دون بعض، وقيل هو باعتبارِ كمال بطلانه وزيادة «هو» هنا، دون ما في سورة لقمان مِن نظير هذه الآية[١]؛ لأنَّ ما هنا وَقَعَ بين عشر آياتٍ، كلّ آيةٍ مؤكّدة مرَّة أو مرَّتين، ولهذا أيضاً زيدت اللامُ في قوله تعالى الآتي: «وإنَّ اللهَ لهو الغنيُّ الحميدُ» دونَ نظيره في تلك السورة، ويمكن أن يقال: تقدَّم في هذه السورة ذِكْرُ الشيطان، فلهذا ذُكرت هذه المؤكّدات، بخلافِ سورة لقمان، فإنَّه لم يتقدَّم ذِكْر الشيطان هناك بنحوِ ما ذكر هاهنا. قاله النيسابوريُّ[٢]، ويجوز أن يكون زيادة «هو» في هذا الموضع؛ لأنَّ المعلَّل فيه أزيد منه في ذلك الموضع، فتأمَّل.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على جميعِ الأشياء ﴿الْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ عن أن يكون له سبحانه شريكٌ. لا شيءَ أعلى منه تعالى شأناً وأكبر سلطاناً.

وقرأ الحسن: «وإنَّ ما» بكسرِ الهمزة[٣]. وقرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو بكر: «تَدْعُون» بالتاء[٤] على خطابِ المشركين. وقرأ مجاهد، واليمانيُّ، وموسى الأسواري: «يُدْعَون» بالياء التحتية مبنيًّا للمفعول[٥]، على أنَّ الواو لـ «ما»، فإنَّه عبارةٌ عن الآلهة، وأمر التعبير عنها بـ «ما» ثم إرجاع ضميرِ العقلاء إليها ظاهرٌ، فلا تغفل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: مِن جهة العلوِّ ﴿مَاءً﴾ أي: أَلَم تَعلَم ذلك، وجوّز كون الرؤيةِ بصريَّة نظراً للماء المنزل، والاستفهام للتقرير، وقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي: فتصير، وقيل: تصبح على حقيقتها، والحكم بالنظرِ إلى بعض الأماكن تمطر السماء فيها ليلاً، فتصبح الأرضُ مخضرَّة، والأوَّل أَولى، عطف على «أنزل»، والفاء مغنية عن الرابط، فلا حاجةَ إلى تقدير

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].

(٢) في كتابه: غرائب القرآن ١٧/ ١١٥.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٨٤.

(٤) التيسير ص١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٧.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٤.

بإنزاله، والتعقيب عرفيٌّ أو حقيقيٌّ، وهو إمَّا باعتبار الاستعداد التامِّ للاخضرار أو باعتباره نفسِه، وهو كما ترى، وجوّز أن تكون الفاءُ لمحضِ السبب، فلا تعقيبَ فيها، والعدول عن الماضي إلى المضارع؛ لإفادة بقاء أَثَرِ المطر زماناً بعد زمانٍ، كما تقول: أَنْعَمَ عليَّ فلانٌ عامَ كذا فأروح وأغدو شاكراً له. ولو قلتَ: فرحتُ وغدوتُ. لم يقع ذلك الموقعَ، أو لاستحضار الصورة البديعة، ولم ينصب الفعل في جوابِ الاستفهام هنا في شيءٍ مِن القراءات فيما نَعلم، وصرَّح غيرُ واحد بامتناعِه، ففي «البحر»[(١)]: إنَّه يمتنعُ النصبُ هنا؛ لأنَّ النفيَ إذا دخلَ عليه الاستفهامُ وإن كان يقتضي تقريراً في بعضِ الكلام هو مُعامَل معاملةَ النفي المحضِ في الجواب، ألا ترى قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وكذلك في الجواب بالفاء إذا أَجبتَ النفيَ كان على معنيين في كلٍّ منهما ينتفي الجوابُ، فإذا قلتَ: ما تأتينا فتحدِّثَنا بالنصب، فالمعنى: ما تأتينا محدِّثاً إنَّما تأتينا ولا تحدِّث، ويجوز أن يكون المعنى: إنَّك لا تأتينا، فكيف تحدِّثنا؟ فالحديثُ منتفٍ في الحالتَيْن، والتقرير بأداةِ الاستفهام كالنفي المحض في الجواب يثبت ما دخلته همزةُ الاستفهام، وينفي الجواب فيلزم مِن ذلك هنا إثباتُ الرؤية وانتفاءُ الاخضرارِ، وهو خلافُ المراد، وأيضا جوابُ الاستفهام ينعقد منه مع الاستفهام شَرْطٌ وجزاءٌ، ولا يصحُّ أن يقال هنا: إنْ تَرَ إنزالَ الماء تصبح الأرضُ مخضرَّةً؛ لأنَّ اخضرارها ليس مترتِّباً على عِلْمك أو رؤيتك، إنَّما هو مترتِّب على الإنزال. اهـ.

وإلى انعكاسِ المعنى على تقدير النصبِ ذهب الزمخشريُّ[(٢)]، حيث قال: لو نُصِبَ الفعلُ جواباً للاستفهام، لأَعطى ما هو عكسُ الغَرَض؛ لأنَّ معناه إثباتُ الاخضرار فيَنقلبُ بالنصبِ إلى نفي الاخضرارِ، لكن تعقَّبه صاحبُ «الفرائد» حيث قال: لا وجهَ لما ذكره صاحبُ «الكشَّاف» ولا يلزم المعنى الذي ذكر، بل يَلزم مِن نصبه أن يكون مشاركاً لقوله تعالى: «أَلَم تَرَ» تابعاً له، ولم يكن تابعاً لـ «أنزل»، ويكون مع ناصبه مصدراً معطوفاً على المصدر التي تضمنه «ألم تر»، والتقدير: أَلَم تكن لك رؤية إنزال الماء من السماء وإصباح الأرض مخضرَّة، وهذا غير مراد من

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٨٦.

(٢) الكشاف ٣/ ٢١.

الآية، بل المراد أن يكون إصباح الأرض مخضرة بإنزال الماء، فيكون حصولُ اخضرارِ الأرض تابعاً للإنزال معطوفاً عليه. اهـ. وفيه بحثٌ.

وقال صاحب «التقريب» في ذلك: إنَّ النصبَ بتقدير «أن»، وهو عَلَم للاستقبال فيجعل الفعل مترقباً والرفع جزم بإخباره، وتلخيصه أنَّ الرفعَ جزمٌ بإثباته، والنصب ليس جزماً بإثباته، لا أنَّه جزمٌ بنفيه، ولا يَخفى أنَّه إن صحَّ في نفسِه لا يطابق مغزى الزمخشريِّ، وعلَّل أبو البقاءِ[1] امتناعَ النصبِ بأمْرَين: أحدهما: انتفاءُ سببيَّة المستفهم عنه لما بَعْدَ الفاء، كما تقدَّم عن «البحر»[2]. والثاني: أنَّ الاستفهامَ المذكور بمعنى الخبر، فلا يكون له جوابٌ، وإلى هذا ذهب الفرَّاء[3]، فقال: «أَلَم تَرَ» خبر، كما تقول في الكلام: اعْلَم أنَّ اللهَ تعالى يفعل كذا فيكون كذا. وقال سيبويه[4]: وسألته ـ يعني الخليل ـ عن قولِه تعالى: «أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِن السماءِ ماءً فتُصبِح الأرضُ مخضرَّةً» فقال: هذا واجبٌ، وهو تنبيه، كأنَّك قلت: أتسمَعُ ـ وفي النسخة الشرقيَّة مِن «الكتاب»: انتبه ـ أَنْزَلَ اللهُ مِن السماء ماءً، فكان كذا وكذا[5].

وقال بعض المتأخِّرين: يجوز أن يعتبر تسبُّب الفعل عن النفي، ثم يعتبر دخول الاستفهام التقريريِّ، فيكون المعنى: حصل منكَ رؤيةُ إنزالِ اللهِ تعالى الماءَ فإصباح الأرض مخضرَّة؛ لأنَّ الاستفهامُ المذكورَ الداخل على النفي يكون في معنى نفي النفي وهو إثبات. فإن قلت: الرؤيةُ لا تكونُ سبباً لا نفياً ولا إثباتاً للاخضرار؟ قلت: الرؤية مُقحَمة، والمقصود هو الإنزال، أو هي كنايةٌ عنه؛ لأنَّها تَلزمه مع أنَّه يكفي التشبيهُ بالسبب، كما نصَّ عليه الرضيُّ في: ما تَأْتِيْنا فتحدِّثَنا، في أَحَدِ اعتباريه، واختار هذا في الاستدلال على عدمِ جواز النصب أنَّ النصبَ مخلصُ المضارع للاستقبال اللائقِ بالجزائيَّة على ما قرِّر في علم النَّحْو، ولا يمكن ذلك في الآية الكريمة كما ترى.

---

(١) الإملاء ٤/ ٤٦.
(٢) ٦/ ٣٨٦.
(٣) معاني القرآن له ٢/ ٢٢٩.
(٤) الكتاب ٣/ ٤٠.
(٥) عبارة الكتاب: أتسمع أن الله أنزل من السماء ماء . . .، والكلام أعلاه منقول من البحر المحيط ٦/ ٣٨٦.

وبالجملة إنَّ الذي عليه المحقِّقون أنَّ مَن جوَّز النصبَ هنا، لم يُصِبْ، وأنَّ المعنى المراد عليه ينقلب.

وقرئ: «مَخْضَرة» بفتح الميم وتخفيف الضاد[١] مثل مَبْقَلة ومَجْزَرة، أي: ذات خُضْرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي: متفضِّل على العباد بإيصالِ منافعهم إليهم برِفْق، ومِن ذلك إنزالُ الماءِ من السماء واخضرارُ الأرضِ بسببه ﴿خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ أي: عليم بدقائقِ الأمور، ومنها مقاديرُ مصالحِ عباده.

وقال ابنُ عباس: «لطيفٌ» بأرزاق عبادِه، «خبيرٌ» بما في قلوبهم مِن القُنُوط. وقال مقاتل: «لطيفٌ» باستخراجِ النبات، «خبيرٌ» بكيفيَّة خَلْقه. وقال الكلبيُّ: «لطيفٌ» بأفعالِه، «خبيرٌ» بأعمال عباده. وقال ابنُ عطيَّة[٢]: اللطيفُ هو المُحكِم للأمور برِفْق. ونقل الآمديُّ: أنَّه العالِمُ بالخفيَّات. وأنتَ تَعلم أنَّه المعنى المشهور للخبيرِ، وفسَّره بعضُهم بالمُخبِر، ولا يناسبُ المقامَ كتفسير اللطيفِ بما لا تُدْركه الحاسَّة.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلْقاً ومِلْكاً وتصرُّفاً، فاللام للاختصاصِ التامِّ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ الذي لا يفتقر إلى شيءٍ أصلاً ﴿ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ الذي حَمِدَهُ بصفاته وأفعالِه جميعُ خَلْقه قالاً أو حالاً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جَعَلَ ما فيها مِن الأشياء مذلَّلة لكم معدَّةً لمنافعِكم، تتصرَّفون فيها كيف شئتم، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصريح لما مرَّ غير مرَّةٍ؛ من الاهتمام بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ بالنصب وإسكانِ اللام. وقرأ ابنُ مقسم، والكسائيُّ عن الحسن بضمِّها[٣]، وهو معطوف على «ما» عطف الخاصِّ على العامِّ؛ تنبيهاً على غرابة تسخيرِها وكثرة منافعِها. وجوّز أن يكونَ عطفاً على الاسم الجليل.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ على الأوَّل حالٌ منه، وعلى الثاني خَبَرٌ

---

(١) الكشاف ٣/ ٢١، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣١.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.

لـ «أنَّ»، وتكون الواو قد عطفت الاسمَ على الاسم والخبرَ على الخبر، وهو خلافُ الظاهر. وفي «البحر»[1]: هو إعرابٌ بعيدٌ عن الفصاحة.

وقرأ السلميُّ، والأعرجُ، وطلحةُ، وأبو حَيوة، والزعفرانيُّ: «والفُلْكُ» بالرفع[2] على الابتداء، وما بعدَه خبرُه، والجملةُ مستأنفة. وجوّز أن تكونَ حاليّةً، وقيل: يجوز أن يكون الرفعُ بالعطف على محلِّ «أنَّ» مع اسمِها، وهو على طرزِ العطف على الاسم.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عن أن تقعَ عليها، فالكلامُ على حذفِ حرف الجرِّ، و«أنْ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ منصوب أو مجرور، على القولين المشهورين في ذلك، وجعل بعضُهم ذلك في موضع المفعول لأجله بتقدير: كراهة أن تقعَ، عن البصريين، والكوفيون يقدِّرون: لئلا تقع.

وقال أبو حيَّانَ[3]: الظاهر أنَّ «أنْ» تقعُ في موضع نصب بدل اشتمالٍ مِن «السماء»، أي: ويمنعُ وقوعَ السماء على الأرض. وردَّ بأنَّ الإمساك بمعنى اللزوم يتعدَّى بالباء، وبمعنى الكفِّ بـ «عن»، وكذا بمعنى الحفظ والبُخل كما في «تاج المصادر»[4]، وأمَّا بمعنى المَنْع فهو غيرُ مشهور. وتُعقِّب بأنَّه ليس بشيءٍ؛ لأنَّه مشهور مصرَّح به في كتب اللغة، قال الراغب[5]: يقال: أمسكتُ عنه كذا، أي: مَنَعْتُه، قال تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨] وكُنِّي عن البُخل بالإمساك. اهـ. وصرَّح به الزمخشريُّ[6] والبيضاويُّ[7] في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] نَعَم الأظهرُ هو الإعرابُ الأوَّل،

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.

(٢) تفسير الطبري ١٦/ ٦٢٤، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٧، ووردت القراءة في مطبوع القراءات الشاذة لابن خالويه ص٩٦ هكذا: الفُلُكُ. وعزاها للأعرج والسلمي.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.

(٤) وهو لأبي جعفر أحمد بن علي البيهقي، المعروف بجعفرك المقرئ، المتوفى سنة أربع وأربعين وخمس مئة. كشف الظنون ١/ ٢٦٩.

(٥) المفردات (مسك).

(٦) الكشاف ٣/ ٣١٢.

(٧) تفسير البيضاوي ٧/ ٢٣٠ (بهامش حاشية الشهاب).

والمراد بإمساكها عن الوقوع على الأرض حِفْظُ تماسكها بقدرته تعالى بعد أن خَلَقها متماسكةً آناً فآناً، وعدم تعلُّق إرادتِه سبحانه بوقوعها قطعاً قطعاً، وقيل: إمساكه تعالى إيَّاها عن ذلك يَجْعلها محيطةً لا ثقيلة ولا خفيفةً، وهذا مبنيٌّ على اتِّحاد السماء والفَلَك، وعلى قول الفلاسفةِ المشهور بأنَّ الفَلَكَ لا ثقيل ولا خفيفٌ، وبَنَوا ذلك على زعمهم استحالةَ قَبوله الحركةَ المستقيمة، وفرَّعوا عليه أنَّه لا حارٌّ ولا بارد، ولا رَطْبٌ ولا يابس، واستدلُّوا على استحالة قَبوله الحركةَ المستقيمة بما أَبطله المتكلِّمون في كتبهم.

والمعروف مِن مذهب سلفِ المسلمين أنَّ السماءَ غيرُ الفَلَك، وأنَّ لها أَطيطاً؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أَطَّتِ السماءُ وحقّ لها أن تئِطَّ، ما فيها موضعُ قَدَمٍ إلا وفيه مَلَك قائمٌ أو ساجد»(١) وأنَّها ثقيلةٌ محفوظة عن الوقوعِ بمحضِ إرادته سبحانه وقدرته التي لا يتعاصاها شيءٍ، لا لاستمساكها بذاتِها.

وذكر بعض المتكلِّمين لنفي ذلك أنَّها مشاركة في الجسميَّة لسائر الأجسام القابلة للميلِ الهابط فتَقبله كقَبول غيرها، وللبحث فيه على زعم الفلاسفة مجال، والتعبيرُ بالمضارع لإفادة الاستمرار التجدديِّ، أي: يمسكها آناً فآناً مِن الوقوع ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾أي: بمشيئتِه، والاستثناء مفرَّغ من أعمِّ الأسباب، وصحَّ ذلك في الموجب؛ قيل: لصحَّة إرادةِ العموم، أو لكون «يمسك» فيه معنى النفي، أي: لا يتركها تقع بسببٍ من الأسباب، كمزيد مرور الدهور عليها وكثِقَلها بما فيها إلا بسبب مشيئتِه وقوعَها، وقيل: استثناء مِن أعمِّ الأحوال، أي: لا يتركها تقع في حال من الأحوال إلا في كونها ملتبِّسةً بمشيئتِهِ تعالى، ولعلَّ ما ذكرناه أظهر.

وفي «البحر»(٢): إنَّ الجارَّ والمجرورَ متعلِّق بـ «تقع». وقال ابنُ عطيَّة(٣): يحتمل أن يتعلَّق بـ «يمسك»؛ لأنَّ الكلامَ يقتضي بغير عَمَدٍ ونحوه، فكأنَّه أرادَ إلا بإذنه: فَبِهِ يمسكها. ولو كان كما قال لكان التركيبُ بدون «إلَّا». انتهى.

---

(١) سلف عند تفسير الآية (١٢) من سورة الإسراء.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٢.

ولعمري إنَّ ما قاله ابنُ عطيَّة لا يقوله مَن له أدنى روية كما لا يَخفى، ثم إنَّه لا دلالةَ في الآية على وقوع الإذن بالوقوع، وقيل: فيها إشارةٌ إلى الوقوع، وذلك يوم القيامة، فإنَّ السماءَ فيه تتشقّق وتقع على الأرض وأنا ليس في ذهني من الآيات أو الأخبار ما هو صريح في وقوع السماء على الأرض في ذلك اليوم، وإنَّما هي صريحةٌ في المَوْرِ والانشقاق والطَّيِّ والتبدُّل، وكلُّ ذلك لا يدلُّ على الوقوع على الأرض فضلاً عن أن يكون صريحاً فيه، والظاهر أنَّ المرادَ بالسماء جنسُها الشاملُ للسماوات السبع، ويؤيِّده ما أخرجه الطبرانيُّ عن ابنِ عباس(١) قال: إذا أتيتَ سلطاناً مهيباً تخاف أن يَسْطُو بك فقل: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ مِن خَلْقه جميعاً، اللهُ أكبرُ ممَّا أَخافُ وأَحذر، أعوذُ بالله الذي لا إله إلا هو الممسِك السماواتِ السبعَ أن يقعنَ على الأرض إلا بإذنه مِن شرِّ عبدِك فلانٍ وجنودِه وأتباعه وأشياعِه مِن الجنِّ والإنس، إلهي كُنْ لي جاراً مِن شرِّهم، جلَّ ثناؤك، وعزَّ جارك، وتباركَ اسمُك لا إلهَ غيرُك. ثلاث مرَّات.

والظاهر أيضاً أنَّ مساق الآية للامتنانِ لا للوعيد، كما جوَّزه بعضُهم، ويؤيِّد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ حيث سخَّر لهم ما سخَّر، ومَنَّ عليهم بالأمن مما يحولُ بينهم وبين الانتفاعِ به مِن وقوعِ السماء على الأرض. وقيل: حيث هيَّأ لهم أسبابَ معايشِهم، وفَتَحَ عليهم أبوابَ المنافع، وأوضحَ لهم مناهجَ الاستدلال بالآيات الكونيَّة والتنزيليَّة، وجَعْلُ الجملةِ تعليليَّة لما في ضمن: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ» إلخ، أَظهر فيما قلنا.

والرأفةُ قيل: ما تقتضي دَرْءَ المضارِّ. والرحمةُ قيل: ما تقتضي جَلْبَ المصالح، ولكون درءِ المضرَّة أهمّ مِن جَلْب المصلحة، قدَّم رؤوف على رحيم، وفي كلٍّ ممَّا امتنَّ به سبحانه دَرْءٌ وجَلْبٌ، نعم قيل: إمساكُ السماءِ عن الوقوع أظهر في الدَّرْءِ، ولتأخيره وجهٌ لا يَخفى. وقال بعضُهم: الرأفةُ أبلغُ مِن الرحمة، وتقديمُ رؤوف؛ للفاصلة. وذهب جمعٌ إلى أنَّ الرحمَة أعمُّ، ولعلَّه الظاهر. وتقديم

(١) الطبراني في الكبير (١٠٥٩٩)، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٢٢. وورد فيهما: الله أعز مما أخاف وأحذر، بدل: الله أكبر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

«بالناس»؛ للاهتمام، وقيل: للفاصلة، والفَصْل بين الموضعين ممَّا لا يستحسن.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ بعد أن كنتم جماداً عناصرَ ونُطَفاً حسبما فصَّل في مطلعِ السورة الكريمة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عند مَجِيْءِ آجالِكم ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ عند البعث ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ أي: جَحُودٌ بالنِّعم مع ظهورِها، وهذا وصفٌ للجنس بوَصْف بعض أفرادِه. وقيل: المراد بالإنسان الكافر، وروي ذلك عن ابنِ عباس، ومجاهد. وعن ابنِ عباس أيضاً أنَّه قال: هو الأسودُ بنُ عبدِ الأسد، وأبو جهل، وأُبَيُّ بنُ خَلَف، ولعلَّ ذلك على طريق التمثيل.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ﴾ كلامٌ مستأنفِ جيْءَ به لزَجْر مُعاصريه عليه الصلاة والسلام مِن أهل الأديان السماويَّة عن منازعتِه عليه الصلاة والسلام ببيان حالِ ما تمسَّكوا به مِن الشرائع، وإظهار خَطَئِهم في النظر، أي: لكلِّ أمَّة معيَّنة مِن الأُمم الخالية والباقية ﴿جَعَلۡنَا﴾ وَضَعْنا وَعَيَّنَّا ﴿مَنسَكًا﴾ أي: شريعةً خاصَّة، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على الفعل؛ للقَصْر لا لأمَّةٍ أُخرى منهم، والكلام نظيرُ قولك: لكلٍّ مِن فاطمةَ وزينبَ وهندٍ وحفصة أعطيتُ ثوباً خاصًّا. إذا كنتَ أعطيتَ فاطمةَ ثوباً أحمر، وزينبَ ثوباً أصفرَ وهنداً ثوباً أسودَ، وحفصةَ ثوباً أبيضَ، فإنَّه بمعنى: لفاطمةَ أعطيتُ ثوباً أحمر، لا لأُخرى مِن أخواتها، ولزينبَ أعطيتُ ثوباً أصفر لا لأخرى منهنَّ، وهكذا، وحاصل المعنى هنا عَيَّنَّا كلَّ شريعةٍ لأمَّة معيَّنة مِن الأمم بحيث لاتتخطَّى أمَّة منهم شريعتَها المعيَّنة لها إلى شريعةٍ أخرى، لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

وقوله تعالى: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ صفة لـ «منسكاً» مؤكِّدة للقَصْر، والضمير «لكلِّ أمَّة» باعتبار خصوصِها، أي: تلك الأمَّة المعيَّنة ناسكون به وعاملونَ لا أمَّة أخرى؛ فالأمَّة التي كانت مِن مبعث موسى إلى مبعثِ عيسى عليهما السلام مَنْسَكهم ما في التوراة هم عاملونَ به لا غيرهم، والتي كانت مِن مَبَعث عيسى عليه السلام إلى مَبْعث نبيِّنا ﷺ مَنْسَكهم ما في الإنجيل هم عاملونَ به لا غيرهم، وأمَّا الأمَّة الموجودة عند مبعث النبيِّ ﷺ ومَن بعدهم مِن الموجودين إلى يومِ القيامة، فهم أمَّة واحدة منْسكهم ما في القرآن ليس إلَّا.

والفاء في قوله سبحانه: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ أي: أمْرِ الدين؛ لترتيب النَّهي على ما قبلها، فإنَّ تعيينه تعالى لكلٍّ أمَّة مِن الأُمم ـ التي مِن جملتها أمَّته عليه

الصلاة والسلام ـ شريعة مستقلَّة بحيث لا تتخطَّى أمَّة منهم ما عُيِّنَ لها، موجبٌ لطاعة هؤلاء له ﷺ وعدمِ منازعتهم إيَّاه في أَمْرِ الدين زعماً منهم أنَّ شريعتهم ما عُيِّنَ لآبائهم ممَّا في التوراة والإنجيل، فإنَّ ذلك شريعةٌ لمن مضى قبل انتساخِه، وهؤلاء أمَّة مستقلَّة شريعتهم ما في القرآن فحسَب، والظاهر أنَّ المرادَ نهيُهم حقيقةً عن النزاع في ذلك.

واختار بعضُهم كونَه كناية عن نهيه ﷺ عن الالتفات إلى نزاعِهم المبنيِّ على زعمهم المذكور؛ لأنَّه أنسبُ بقوله تعالى الآتي: «وادع» إلخ، وأَمْرُ الأنسبيَّة عليه ظاهرٌ إلا أنَّه في نفسه خلافُ الظاهر. وقال الزجَّاج[1]: هو نهيٌ له عليه الصلاة والسلام عن منازعتِهم، كما تقول: لا يُضَارِبَنَّكَ زيدٌ، أي: لا تضارِبَنَّه، وذلك بطريقِ الكناية، وهذا إنَّما يجوز على ما قيل وبحث فيه في باب المفاعلة؛ للتلازمِ، فلا يجوز في مِثْلِ: لا يَضْرِبَنَّك زيدٌ، أن تريدَ: لا تَضرِبَنَّه. وتعقّب بأنَّه لا يُساعده المقام.

وقرئ: «فلا يُنَازِعُنْكَ» بالنون الخفيفة[2]. وقرأ أبو مجلز لاحقُ[3] بنُ حميد: «فلا يَنْزِعُنَّك» بكسر الزاي[4]، على أنَّه مِن النَّزْعِ بمعنى الجَذْب كما في «البحر»[5]، والمعنى، كما قال ابنُ جني[6]: فلا يَستخِفُّنَّكَ عن دينِك إلى أديانهم، فتكونَ بصورةِ المنزوع عن شيء إلى غيرِه.

وفي «الكشاف»[7]: إنَّ المعنى: اثبُتْ في دِينك ثباتاً لا يطمعونَ أن يجذبوكَ ليزيلوكَ عنه، والمراد زيادةُ التثبيت له عليه الصلاة والسلام بما يُهيِّج حميَّته ويُلهِبُ غضبَه لله تعالى ولدينِه. ومِثْله كثيرٌ في القرآن.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٣٧.
(٢) الإملاء للعكبري ٤/ ٤٨، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٧.
(٣) في الأصل و(م): ولاحق. وهو خطأ.
(٤) المحتسب ٢/ ٨٥، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٨.
(٥) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.
(٦) المحتسب ٢/ ٨٥.
(٧) ٣/ ٢١.

وقال الزجَّاج[(١)]: هو مِن نَازَعْتُه فنزَعْتُه أَنْزَعُه، أي: غلبتُه، فالمعنى: لا يَغْلِبُنَّكَ في المنازعة، والمراد بها منازعة الجدال، يعني أنَّ ذلك من باب المغالبة، لكن أنتَ تَعلمُ أنَّها عند الجمهور تقال في كلِّ فِعْل فاعَلْته ففَعَلْته أَفْعله بضمِّ العين، ولا تُكسَر إلا شذوذاً.

وزعم الكسائيُّ ـ وردَّه العلماءُ ـ أنَّ ما كان عينُه أو لامُه حرفَ حَلْقٍ لا يضمُّ بل يُترَك على ما كان عليه، فيكون ما هنا على توجيه الزجَّاج شاذًّا عند الجمهور.

وقال سيبويه كما في «المفصَّل»: وليس في كلِّ شيءٍ يكون هذا ـ أي: باب المغالبة ـ أَلَا ترى أنَّك لا[(٢)] تقول: نازَعَني فنزَعْته، استُغنيَ عنه بغلبتِه[(٣)]. ثم إنَّ المرادَ مِن لا يغلبنَّكَ في المنازعة: لا تَقْصُر في منازعتِهم حتى يغلبوكَ فيها، وفيه مبالغةٌ في التثبيت، فليس هناك نهي له ﷺ عن فِعْلٍ غيره، هذا وما ذكرنا مِن تفسير المَنْسَك بالشريعة هو رواية عطاءٍ عن ابنِ عباس، واختاره القفَّال، وقال الإمام: هو الأقربُ[(٤)]. وقيل: هو مصدرٌ بمعنى النسك، أي: العبادة، قال ابنُ عطيَّة: يعطي ذلك: «هم ناسكوه»، وقيل: هو اسمُ زمان، وقيل: اسمُ مكان، وكأنَّ الظاهرَ ناسكون فيه إلَّا أنَّه اتسعَ في ذلك.

وقال مجاهد: هو الذَّبح. وأخرج ذلك الحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ في «الشعب» عن عليِّ بنِ الحسين رضي الله عنهما[(٥)]؛ وابنُ أبي حاتم عن ابنِ عباس رضي الله عنهما[(٦)]، وعبد بن حميد عن عكرمة[(٧)].

وجعل ضمير: «يُنازعنَّكَ» للمشركين، والأمر المتنازَع فيه أَمْرُ الذبائحِ، لما ذكر مِن أنَّ الآيَةَ نزلت بسببِ قول الخزاعيين بُديلِ بنِ ورقاء، وبشرِ بنِ سفيان، ويزيد بن

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٤٣٧.
(٢) ليست في (م).
(٣) شرح المفصل لابن يعيش ٧/ ١٥٦، وكلام سيبويه في الكتاب ٤/ ٦٨.
(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ٦٤.
(٥) مستدرك الحاكم ٢/ ٣٩١، وشعب الإيمان للبيهقي (٧٣٢٣)، وفي السنن الكبرى له ٩/ ٢٥٩-٢٦٠. قال الذهبي في تلخيص المستدرك: زهير ذو مناكير، وابن عقيل ليس بالقوي.
(٦) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٤ (١٤٠١٨).
(٧) الدر المنثور ٤/ ٣٦٩.

خنيس للمؤمنين: مالكم تأكلونَ ما قَتَلْتم ولا تَأكلون ما قَتَلَ اللهُ تعالى[١]؟! ومنهم مِن اقتصر على جعل محلِّ النزاع أمر النسائكِ، وجعله عبارة عن قولِ الخزاعيين المذكور. وتعقَّبه شيخُ الإسلام بأنَّه ممَّا لا سبيلَ إليه أصلاً، كيف لا وأنَّه يَستدعي أن يكون أكلُ الميتةِ وسائر ما يَدينُ به المشركون مِن الأباطيل مِن المناسك التي جعلها اللهُ تعالى لبعض الأمم، ولا يرتاب في بطلانه عاقل[٢].

وأجيب بأنَّ المعنى عليه: لا ينازعنَّك المشركون في أَمْرِ النسائك، فإنَّه لكلِّ أَمَّة شريعةٌ شرعناها وأَعلمناك بها، فكيف يُنازِعون بما ليس له عينٌ ولا أَثَر فيها. وقيل: المعنى عليه: لا تَلتفت إلى نزاع المشركين في أَمْرِ الذبائح، فإنَّا جعلنا لكلِّ أمةٍ من أهل الأديانِ ذِبْحاً هم ذابحوه.

وحاصله: لا تلتفت إلى ذلك، فإنَّ الذبحَ شَرْعٌ قديم للأُمم غير مختصٍّ بأمَّتك، وهذا ممَّا لا شَكَّ في صحَّته، ومن قال بصحّة الآثار وعضّ عليها بالنواجذ لا يكاد يجد أولى منه في بيان حاصل الآية على ما تقتضيه، ومَن لم يكن كذلك ورَأى أنَّ الآيةَ متى احتملت معنى جَزْلاً لا محذورَ فيه، قيل به وإن لم يَذْكُره أحدٌ مِن السلف، فعليه بما ذكرناه أوَّلاً في تفسير الآية، وأيًّا ما كان، فالظاهر أنَّه إنَّما لم تعطف هذه الجملة كما عطف قوله تعالى: «ولكلِّ أَمَّة جعلنا منسكاً ليذكروا» إلخ؛ لضَعْفِ الجامع بينها وبين ما تقدَّمها مِن الآيات، بخلاف ذلك. وفي «الكشف» - بياناً لكلام «الكشاف» - في توجيه العطفِ هناك وتَرْكِه هنا، أنَّ الجامعَ هناك قويٌّ مقتضٍ للعطفِ، فإنَّ قولَه تعالى: «لكم فيها» أي: في الشعائر منافعُ دينيَّة ودنيويَّة كوجوب نَحْرِها منتهيةً إلى البيت العتيق كالإعادة؛ لما في قوله تعالى: «ليشهدوا منافعَ لهم ويَذْكروا اسمَ الله في أيَّام معلوماتٍ» إلا أنَّ فيه تخصيصاً بالمخاطبين، فعطف عليه: «ولكلِّ أمَّةٍ جعلنا مَنْسكاً» للذِّكْر؛ لتتمَّ الإعادة، والغَرَضُ من هذا الأسلوب أن يبيِّن أنَّه شَرْعٌ قديم، وأنَّه لم يزل متضمِّناً لمنافع جليلة في الدارين، وأمَّا فيما نحن فيه فأين حديثُ النسائك مِن حديث تعدادِ الآيات والنِّعَم الدالَّة على كمال العِلْم والقدرة والحكمةِ والرحمة، ولَعَمْري إنَّ شرعيَّةَ النسائكِ لكلِّ أمَّةٍ وإن كانت مِن

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٨٧.
(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١١٩.

الرحمة والنعمة، لكن النظر إلى المجانسة بين النِّعَم وما سيق له الكلامُ، فالحالة مقتضية للقَطْع، وذكره هاهنا لهذه المناسبة على نحو خفيٍّ ضيق. اهـ. وهو حَسَن، وظاهره تفسيرُ النُّسُك بالذبح.

وذكر الطيبيُّ أنَّ ما تقدَّم عُطِفَ على قوله تعالى: «ومن يعظم شعائر الله» إلخ، وهو مِن تتمَّة الكلام مع المؤمنين، أي: الأَمْر ذلك، والمطلوب تعظيم شعائرِ الله تعالى، وليس هذا ممَّا يختصُّ بكم، إذ كلُّ أمةٍ مخصوصة بنسكٍ وعبادة.

وهذه الآية مقدِّمة نَهْي النبيِّ ﷺ عمَّا يُوجِبُ نزاعَ القوم تسلية له، وتعظيمٌ لأَمْره حيث جعلَ أمره منسكاً وديناً، يعني شأنُك وشأنُ أمثالِك مِن الأنبياء والمرسلينَ عليهم السلام تَرْكُ المنازعة مع الجُهَّال، وتمكينُهم مِن المناظرة المؤدِّيَة إلى النزاع، وملازمةُ الدعوة إلى التوحيد، أو لكلِّ أمَّة مِن الأُمم الخاليةِ المعاندة جعلنا طريقاً وديناً هم ناسكوه، فلا ينازعنَّك هؤلاء المجادلة.

سمَّى دأبَهم نُسُكاً؛ لإيجابهم ذلك على أنفسِهم واستمرارِهم عليه؛ تهكُّماً بهم ومسلاةً لرسوله ﷺ ممَّا كان يَلقى منهم، وأمَّا اتِّصاله بما سبق مِن الآيات، فإنَّ قولَه تعالى: «ولا يَزالُ الذين كفروا في مِرْيةٍ منه» يُوجب القلعَ عن إنذار القوم والإياسَ منهم ومتاركتهم، والآيات المتخلِّلة كالتأكيد لمعنى التسلية، فجِيْءَ بقوله تعالى: «لكلِّ أمَّةٍ جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا يُنازعنَّكَ» تحريضاً له عليه الصلاة والسلام على التأسِّي بالأنبياء السالفة في متاركةِ القوم، والإمساكِ عن مجادلتهم بعد الإياسِ مِن إيمانهم، وينصره قولُه تعالى: «الله يحكم بينهم يوم القيامة» فالربطُ على طريقة الاستئنافِ ـ وهو أقوى مِن الربط اللفظي ـ والذي يدور عليه قطبُ هذه السورةِ الكريمة الكلامُ في مجادلةِ القوم ومعانديهم والنعيُ عليهم بشدَّة شَكِيمتهم، ألا ترى كيف افتَتَحها بقوله سبحانه: «ومِن الناسِ مَن يجادلُ في الله» وكرَّرها وجعلها أصلاً للمعنى المهتمِّ به، وكلَّما شَرَعَ في أَمْرٍ كرَّ إليه؛ تثبيتاً لقَلْبِ الرسول ﷺ ومسلاةً لصدره الشريف عليه الصلاة والسلام فلا يُقال: إنَّ هذه الآيةَ واقعةٌ مع أباعدَ عن معناها. انتهى. ولعمري، إنَّه أبْعَدَ عن ربوع التحقيق وفسَّر الآيةَ الكريمةَ بما لا يَليق. وقد تعقَّب في «الكشف» اتِّصاله بما ذكر بأنَّه لا وجَه له فقد تخلَّل مالا يَصلُح لتأكيد معنى التسلية المذكورة، أعني قوله تعالى: «ومن عاقب» الآيات، لاسيَّما على

ما آثره مِن جعلها في المقاتِلين في الشهر الحرام، ولو سُلِّم فلا مَدخلَ للاستئنافِ، وهو تمهيدٌ لما بعده، أعني قولَه تعالى: «فلا يُنازعنَّك» إلخ، وأما قوله: والذي يدور عليه... إلخ، فهو مُسلَّم، وهو عليه لا له، فتأمَّل، واللهُ تعالى الموفِّق للصواب.

﴿وَٱدْعُ﴾ أي: وادْعُ هؤلاء المنازِعينَ أو الناسَ كافَّةً على أنَّهم داخلونَ فيهم دخولاً أولياً ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادتِه حسبما بيّن في منسكِهم وشريعتهم ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أي: طريق موصِل إلى الحقِّ، ففيه استعارةٌ مكنيَّة وتَخْييليتُها «على»، وقوله تعالى: ﴿مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧﴾ أي: سَوِيٍّ، أو أحدهما تخييلٌ والآخَر ترشيحٌ، ثم المراد بهذا الطريق إمَّا الدينُ والشريعةُ أو أدلتُها، والجملة استئنافٌ في موضوع التعليل.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ في أَمْرِ الدين، وقد ظهر الحقُّ ولزمت الحجة ﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيدِ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨﴾ من الأباطيل التي مِن جملتها المجادلةُ، فمجازيكم عليها، وهذا إن أُريدَ به الموادعةُ، كما جزم به أبو حيَّان[1]، فهو منسوخٌ بآية القتال، ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ تسليةٌ له ﷺ؛ والخطاب عامٌّ للفريقين المؤمِنين والكافرين، وليس مخصوصاً بالكافرين كالذي قبله، ولا داخلاً في حيِّز القول، وجوّز أن يكون داخلاً فيه؛ على التغليب، أي: واللهُ يَفصِل بين المؤمنينَ منكم والكافرين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالثواب والعقاب كما فَصَلَ في الدنيا بثبوتِ حُجَجِ المحقِّ دون المُبطِل ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩﴾ أي: مِن أَمْرِ الدين، وقيل: الجدال والاختلاف في أَمْرِ الذبائح، ومعنى الاختلاف ذهابُ كلٍّ إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، والاستفهام للتقرير، أي: قد علمتَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يَخفى عليه شيءٌ مِن الأشياء التي مِن جملتها أقوالُ الكفرة وأعمالُهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما في السماء والأرض ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ هو كما روي عن ابنِ عباس: اللوح المحفوظ، وذَكَر رضي الله عنه أنَّ طولَه مسيرةُ مئة عامٍ، وأنَّه كُتبَ فيه ما هو كائنٌ في عِلْمِ الله تعالى إلى يومِ القيامة[2]. وأنكر

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٨٨.

(٢) الوسيط ٣/ ٢٧٩.

ذلك أبو مسلم وقال: المراد مِن الكتاب الحِفْظُ والضبط[1]، أي: إنَّ ذلك محفوظٌ عنده تعالى، والجمهور على خلافه، والمراد مِن الآية أيضاً تسليتُه عليه الصلاة والسلام كأنَّه قيل: إنَّ اللهَ يعلم. . .إلخ، فلا يَهمنَّك أَمْرُهم مع عِلْمنا به وحِفْظنا له.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن العِلْم والإحاطة بما في السماء والأرض، وكَتْبِه في اللوح والحُكْم بينكم، وقيل: «ذلك» إشارةٌ إلى الحُكْم فقط، وقيل: إلى العلْم فقط، وقيل: إلى كَتْب ذلك في اللوح، ولعلَّ كونه إشارةً إلى الثلاثة بتأويل ما ذكر أَوْلَى ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ فإنَّ عِلْمه وقدرتَه جلَّ جلاله مقتضى ذاتِه، فلا يخفى عليه شيءٌ ولا يَعسُر عليه مقدورٌ، وتقديمُ الجارِّ والمجرور؛ لمناسبة رؤوس الآي، أو للقَصْر، أي: يَسيرٌ عليه جلَّ وعلا، لا على غيرِه.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حكايةٌ لبعض أباطيل المشركين وأحوالِهم الدالَّة على كمال سخافةِ عقولهم وركاكةِ آرائهم، وهي بناءُ أَمْرِهم على غيرِ مبنيٍّ من[2] دليلٍ سمعيٍّ أو عقليٍّ، وإعراضهم عمَّا أُلقيَ إليهم مِن سلطانٍ بيِّنٍ هو أساسُ الدين، أي: يعبدون متجاوزينَ عبادةَ الله تعالى ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾ أي: بجواز عبادته ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجَّة، والتنكيرُ للتقليل، وهذا إشارةٌ إلى الدليل السمعيِّ الحاصل مِن جهة الوحي.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ إشارةٌ إلى الدليل العقليِّ، أي: ما ليس لهم بجواز عبادته عِلْم مِن ضرورة العقلِ أو استدلالِه، والحاصل: يعبدونَ مِن دون اللهِ مالا دليلَ مِن جهة السمع ولا مِن جهةِ العقل على جواز عبادتِه، وتقديمُ الدليل السمعيِّ؛ لأنَّ الاستنادَ في أكثر العبادات إليه، مع أنَّ التمسُّكَ به في هذا المقام أرجى في الخلاص إنْ حصل لومٌ من التمسُّك بالدليل العقليِّ، وإن شككتَ فارجع إلى نفسِك فيما إذا لامَكَ شخصٌ على فِعْلٍ فإنَّكَ تَجِدها مائلةً إلى الجواب بأنِّي فعلتُ كذا؛ لأنَّك أخبرتني برضاكَ بأَنْ أفعله، أكثر مِن ميلها إلى الجواب بأنِّي فعلتُه، لقيام الدليل العقليِّ وهو كذا على رضاكَ به، وإنكارُ ذلك مكابرةٌ، وقد يقال: إنَّما قدّم هنا ما يشير إلى الدليل السمعيِّ؛ لأنَّه إشارةٌ إلى دليلٍ

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/٦٦.

(٢) ليست في الأصل و(م)، واستدركناه من تفسير أبي السعود ٦/١١٩.

سمعيٌّ يدلُّ على جواز تلك العبادة، منزَّلٍ مِن جهته تعالى، غير مقيَّدٍ بقيد، بخلاف ما يشير إلى الدليل العقليِّ، فإن فيه إشارةً إلى دليل عقليٍّ خاصٍّ بهم، وحاصله أنَّ التقديمَ والتأخيرَ للإطلاق والتقييد وإن لم يكونا لشيءٍ واحدٍ، فافهم، وقال العلامة الطيبيُّ: في اختصاص الدليل السمعيِّ بالسلطان والتنزيل ومقابله بالعِلْم دليلٌ واضح على أنَّ الدليلَ السمعيَّ هو الحجَّة القاطعةُ، وله القهر والغلبةُ، وعند ظهورِه تضمحلُ الآراء وتتلاشى الأقيسة، ومَن عَكَسَ ضلَّ الطريقَ وحُرِمَ التوفيق وبقي متزلزلاً في ورطات الشُّبَه؛ وإن شئت فانظر إلى التنكير في: «سلطاناً» و«علم»، وقسمها على قول الشاعر:

لـه حـاجـبٌ فـي كـلِّ أَمْـرٍ يـشـيـنـه وليس له عن طالِب العُرف حاجبُ(١)

لتعلَم الفَرْق إلى آخِر ما قال، ومنه يُعلَم وجهٌ للتقديم واحتمالٌ آخَر في تنوين «سلطاناً» غير ما قدَّمنا، وظاهره أنَّ الدليلَ السمعيَّ يفيد اليقينَ مطلقاً، وأنَّه مقدَّم على الدليل العقليِّ، ومذهب المعتزلة وجمهورُ الأشاعرة أنَّه لا يفيدُ اليقينَ مطلقاً؛ لتوقُّف ذلك على أمور كلِّها ظنِّيَّة، فتكون دلالته أيضاً ظنِّيَّةً؛ لأنَّ الفَرْعَ لا يزيد على الأصلِ في القوَّة، والحقُّ أنَّه قد يفيدُ اليقينَ في الشرعيَّات دون العقليَّات بقرائنَ مشاهَدَة أو متواترة تدلُّ على انتفاءِ الاحتمالات.

وذكر الفاضل الروميُّ في حواشيه على «شرح المواقف» بعد بحث أنَّ الحقَّ أنَّه قد يفيدُ اليقينَ في العقليَّات أيضاً: وأمَّا أنَّه مقدَّم على الدليل العقليِّ، فالذي عليه علماؤنا خلافُه، وأنَّه متى عارضَ الدليلُ العقليُّ الدليلَ السمعيَ، وجب تأويلُ الدليل السمعيِّ إلى ما لا يعارضه الدليلُ العقليُّ، إذ لا يمكن العملُ بهما ولا بنقيضهما، وتقديمُ السمع على العقل إبطالٌ للأصل بالفَرْع، وفيه إبطالُ الفرع، وإذا أدَّى إثباتُ الشيءِ إلى إبطاله، كان مناقضاً لنفسه وكان باطلاً، لكن ظاهر كلامِ محيي الدين ابنِ العربيِّ قُدِّسَ سِرُّه ـ في مواضعَ مِن فتوحاته القولُ بأنَّه مقدَّم. ومن ذلك قوله في الباب الثلاث مئة والثمانية والخمسين مِن أبيات:

كـلُّ عِـلْـم يَـشـهـدُ الـشـرعُ لـه هـو عِـلْـم فَـبِـهِ فـلْـتَـعـتـصِـمْ(٢)

---

(١) سلف ٣/ ٣٧٢، برواية: له حاجب عن كل أمر. . . .

(٢) سلف ١/ ٤١٢.

وإذا خالفه العقلُ فقلْ طورَكَ الزَمْ مالكم فيه قَدَمْ[1]

وقوله في الباب الأربع مئة والاثنين والسبعين:

على السَّمْعِ عوَّلنا فكنَّا أُولي النُّهَى ولا عِلْم فيما لا يكون عنِ السَّمْعِ[2]

إلى غيرِ ذلك، وهو كأكثر كلامه مِن وراءِ طورِ العقل ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: وما لهم، إلا أنَّه عَدَل إلى الظاهر؛ تسجيلاً عليهم بالظُّلم مع تعليلِ الحكم به، وجوّز أن لا يكونَ هناك عدولٌ، والمراد ما يعمُّهم وغيرَهم ودخولُهم أولى، و«من» في قوله تعالى: ﴿مِن نَّصِيرٍ ۝٧١﴾ سيفُ خطيب، والمرادُ نفي أن يكون لهم بسببِ ظُلمهم مَن يساعدهم في الدنيا بنصرة مذهبِهم وتقريرِ رأيهم ودَفْعِ ما يخالفه، وفي الآخرة بدَفْع العذابِ عنهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ عطف على «يعبدون» وما بينهما اعتراضٌ، وصيغةُ المضارع؛ للدلالة على الاستمرارِ التجدُّدِيِّ، وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حالٌ من الآيات، أي: واضحاتِ الدلالة على العقائِد الحقَّة والأحكام الصادقة، أو على بطلان ما هم عليه مِن عبادةِ غير الله تعالى ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في وجوهم، والعدول على نحو ما تقدَّم، والخطاب إمَّا لسيِّدِ المخاطَبين ﷺ، أو لمَنْ يصحُّ أن يعرف كائناً مَن كان ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: الإنكار، على أنَّه مصدر ميميٌّ، والمراد علامةُ الإنكار أو الأمْرُ المستقبَحُ من التجهُّم والبسور والهيئاتِ الدالَّة على ما يقصدونه، وهو الأنسبُ بقوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يَثِبونَ ويَبطشونَ بهم مِن فَرْطِ الغيظ والغَضَب لأباطيل أخذوها تقليداً، ولا يَخفى ما في ذلكِ من الجهالة العظيمة، وكان المراد أنَّهم طُول دَهْرِهم يقاربونَ ذلك، وإلا فقد سَطَوا في بعض الأوقاتِ ببعض الصحابة التالين، كما في «البحر»[3]، والجملة في موقع الحال مِن المضاف إليه، وجوّز أن يكون مِن الوجوه على أنَّ المرادَ بها أصحابُها، وليس بالوجه.

وقرأ عيسى بن عمر: «يُعْرَف» بالبناء للمفعول، «المنكرُ» بالرفع[4].

---

(١) سلفت ١/ ٤١٢.

(٢) سلف ١/ ٤١٢.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٨٨.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٨.

﴿قُلْ﴾ على وجهِ الوعيد والتقريعِ ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أي: أأُخاطبكم، أو: أتسمعون فأُخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فيكم مِن غيظِكم على التالين وسَطْوكم عليهم، أو ممَّا أَصابكم من الضَّجَر بسبب ما تُليَ عليكم ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: هو أو هي النارُ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والجملةُ جوابٌ لسؤال مقدَّر كأنَّه قيل: ما هو؟ وقيل: هو مبتدأ، خبرُه قولُه تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۖ﴾ وهو على الوجه الأوَّل جملةٌ مستأنَفة، وجوّز أن يكون خبراً بعد خبر.

وقرأ ابنُ أبي عبلة، وإبراهيمُ بنُ يوسف عن الأعشى، وزيدُ بنُ عليٍّ ﵄: «النَّارَ» بالنصب[1] على الاختصاص، وجملة: «وَعَدَها» إلخ مستأنَفة، أو حالٌ مِن «النار»، بتقدير «قد» أو بدونه، على الخلاف، ولم يجوِّزوا في قراءةِ الرفع الحاليَّة على الإعراب الأوَّل، إذ ليس في الجملة ما يصحُّ عملُه في الحال. وجوّز في النصب أن يكون من باب الاشتغالِ، وتكون الجملةُ حينئذٍ مفسّرةً.

وقرأ ابنُ أبي إسحاق، وإبراهيمُ بنُ نوح عن قتيبةَ: «النَّارِ» بالجرِّ[2] على الإبدال مِن شرّ، وفي الجملة احتمالا الاستئناف والحاليَّة، والظاهر معنى أن يكون الضمير في «وَعَدَها» هو المفعولَ الثاني، والأوَّل الموصول، أي: وَعَد الذين كفروا إيَّاها، والظاهر لفظاً أن يكون المفعولُ الأوَّلَ والثاني الموصولَ، كأنَّ النارَ وُعدَتْ بالكفَّار لتأكلَهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ النارُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أي: بُيِّنَ لكم حالٌ مستغربة أو قصَّة بديعةٌ رائقة، حقيقة بأن تُسمَّى مَثَلاً وتسير في الأمصارِ والأعصار، وعبّر عن بيانِ ذلك بلفظ الماضي؛ لتحقُّق الوقوع، ومعنى المَثَل في الأصل المِثْل، ثم خُصَّ بماشُبِّهَ بموردِه مِن الكلام، فصار حقيقةً، ثم استُعير لما ذُكرَ. وقيل: المَثَل على حقيقته.

و«ضُرِبَ» بمعنى جُعِلَ، أي: جُعِلَ لله سبحانه شَبَه في استحقاقِ العبادة، وحكي ذلك عن الأخفشِ[3]، والكلام متَّصل بقوله تعالى: «ويعبدونَ مِن دونِ الله مالم يُنزِّل به سلطاناً». ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓۚ﴾ أي: للمَثَل نفسِه استماعَ تدبر وتفكر، أو

(١) الكشاف ٣/ ٢٢، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٩.
(٢) الإملاء للعكبري ٤/ ٤٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٨٩.
(٣) معاني القرآن له ٢/ ١٣٧.

لأجله ما أقول، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخِره بيانٌ للمَثَل وتفسيرٌ له على الأوَّل، وتعليلٌ لبطلان جَعْلِهم معبوداتِهم الباطلةَ مَثَلاً لله تعالى شأنُه في استحقاق العبادة على الثاني، ومنهم مَن جَعَلَه على ما ذكرنا وعلى ما حُكي عن الأخفش تفسيراً، أمَّا على الأوَّل فللمَثَل نفسِه بمعناه المجازيِّ، وأمَّا على الثاني فلحالِ المَثَل بمعناه الحقيقيِّ، فإنَّ المعنى: جَعَلَ الكفَّارُ لله مَثَلاً فاستمعوا لحالِه وما يُقال فيه، والحقُّ الذي لا يُنكِره إلا مكابِرٌ أنَّ تفسيرَ الآية بما حُكيَ فيه عدولٌ عن المتبادر.

والظاهر أنَّ الخطابَ في «يا أيُّها الناسُ» لجميع المكلَّفين، لكن الخطاب في «تَدْعُونَ» للكفَّار. واستظهر بعضُهم كونَ الخطاب في الموضعين للكفَّار، والدليل على خصوص الأوَّلِ الثاني، وقيل: هو في الأوَّل للمؤمنين ناداهم سبحانه ليبيِّن لهم خَطَأَ الكافرين، وقيل: هو في الموضعين عامٌّ، وأنَّه في الثاني كما في قولك: أنتم يا بني تَميم قَتلتُم فلاناً، وفيه بحثٌ.

وقرأ الحسنُ، ويعقوبُ، وهارون، والخفَّاف، ومحبوب عن أبي عمرو: «يَدْعُونَ» بالياء التحتيَّة مبنيًّا للفاعل[1] كما في قراءة الجمهور. وقرأ اليمانيُّ، وموسى الأسواريُّ: «يُدْعَونَ» بالياء من تحت أيضاً مبنيًّا للمفعول[2]، والراجعُ للموصول على القراءتين محذوفٌ ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾ أي: لا يقدرونَ على خَلْقه مع صِغَره وحقارته، ويدلُّ على أنَّ المرادَ نفيُ القدرةِ السباقُ مع قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي: لخَلْقه، فإنَّ العُرفَ قاضٍ بأنَّه لا يُقال: لن يَحمِلَ الزيدونَ كذا ولو اجتمعوا لِحَمْله، إلَّا إذا أُريد نَفْي القدرة على الحَمْل، وقيل: جاء ذلك مِن النفي بـ «لن»، فإنَّها مفيدةٌ لنفي مؤكَّد فتدلُّ على منافاة بين المَنْفيِّ وهو الخَلْق، والمنفيِّ عنه وهو المعبودات الباطلة، فتفيد عدمَ قدرتها عليه، والظاهر أنَّ هذا لا يستغني عن معونة المقام أيضاً، وأنتَ تَعلمُ أنَّ في إفادة «لن» النفيَ المؤكَّد خلافاً، فذهب الزمخشريُّ[3] إلى إفادتِها ذلك وأنَّ تأكيدَ النفي هنا

(١) النشر ٢/ ٣٢٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٩٠.
(٢) القراءات الشاذة ص٩٦، والبحر المحيط ٦/ ٣٩٠.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٢.

للدلالة على أنَّ خَلْق الذبابِ منهم مستحيلٌ، وقال في «أنموذجه»[١] بإفادتها التأبيدَ.

وذهب الجمهور - وقال أبو حيَّان[٢]: هو الصحيحُ - إلى عدم إفادتها ذلك، وهي عندهم أختُ «لا» لنفي المستقبل عند الإطلاق بدون دلالةٍ على تأكيد أو تأبيدٍ، وأنَّه إذا فُهِمَ فهو مِن خارج وبواسطةِ القرائن، وقد يُفهَم كذلك مع كون النفي بـ «لا»، فلو قيل هنا: لا يَخلُقون ذباباً ولو اجتمعوا له، لفُهِمَ ذلك، ويقولون في كلِّ ما يستدلُّ به الزمخشريُّ لمدَّعاه: إنَّ الإفادةَ فيه مِن خارجٍ، ولا يُسلِّمون أنَّها منها، ولن يستطيعَ إثباتَه أبداً، والانتصار له بأن سيفعل في قوَّة مطلقة عامَّة، ولن يفعلَ نقيضه، فيكون في قوَّة الدائمة المطلقة، ولا يتأتَّى ذلك إلا بإفادة «لن» التأبيدَ، ليس بشيءٍ أصلاً كما لا يَخفى، وكأنَّ الذي أوقع الزمخشريَّ في الغَفْلة فقالَ ما قال، اعتماداً على مالا يَنتهضُ دليلاً؛ شدَّة التعصُّب لمذهبه الباطل واعتقادِه العاطل، نسأل الله تعالى أن يَحفظنا من الخِذلان.

والذباب: اسم جنس، ويُجمَع على أَذبَّة وذِبَّان بكسر الذال فيهما، وحكى في «البحر» ضمَّها في ذبَّان أيضاً[٣]، وهو مأخوذٌ من الذَّبِّ، أي: الطَّرْد والدَّفْع، أو مِن الذَّبِّ بمعنى الاختلافِ، أي: الذهاب والعَوْد، وهو أنسبُ بحالِ الذباب؛ لما فيه مِن الاختلاف حتى قيل: إنَّه منحوتٌ مِن ذُبَّ آبَ، أي: طُردَ فرَجعَ.

وجواب «لو» محذوفٌ؛ لدلالة ما قَبله عليه، والجملة معطوفةٌ على شرطيَّة أُخرى محذوفة؛ ثقةً بدلالةِ هذه عليها، أي: لو لم يجتمعوا له ويتعاونوا عليه لن يَخلُقوه، ولو اجتمعوا له وتَعاونوا عليه لن يَخلقوا، وهما في موضع الحالِ، كأنَّه قيل: لن يَخلقوا ذباباً على كلِّ حال.

وقال بعضهم: الواو للحال، و«لو اجتمعوا له» بجوابِه حال، وقال آخرون: إن «لو» هنا لا تَحتاج إلى جواب؛ لأنَّها انسلخت عن معنى الشرطيَّة، وتمحَّضت للدلالة

---

(١) الأنموذج في النحو للزمخشري ص٣٢.
(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٩٠.
(٣) البحر المحيط ٦/ ٣٧٢، ووقع في مطبوعه: ذباب، بدل: ذبَّان. وينظر الدر المصون ٨/ ٣٠٨.

على الفَرْض والتقدير، والمعنى: لن يَخلقوا ذباباً مفروضاً اجتماعهم ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ بيانٌ لعَجْزهم عن أَمْرٍ آخَر دون الخَلْق، أي: وإن يأخذ الذبابُ منها شيئاً ﴿لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: لا يَقدروا على استنقاذِه منه مع غايةِ ضعفه.

والظاهر أنَّ استنقذَ بمعنى نقذَ، وفي الآية مِن تجهيلهم في إشراكهم بالله تعالى - القادرِ على جميع الممكنات المتفرِّد بإيجاد كافَّة الموجودات - عجزةً لا تَقدِر على خَلْق أقلِّ الأحياء وأذلِّها ولو اجتمعوا له، ولا على استنقاذِ ما يَختطفه منهم = مالا يَخفى. والآية وإن كانت نازلةً في الأصنام فقد كانوا كما روي عن ابنِ عباس رضي الله عنهما يَطلُونها بالزعفران ورؤوسها بالعسل، ويُغلِقون عليها، فيدخل الذبابُ مِن الكوى فيأكله. وقيل: كانوا يضمِّخونها بأنواع الطِّيْبِ، فكان الذبابُ يذهب بذلك، إلا أنَّ الحُكْم عامٌّ لسائر المعبوداتِ الباطلة.

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ تذييلٌ لما قبل، إخبار أو تعجُّب، والطالب عابدٌ غيرَ الله تعالى، والمطلوبُ الآلهةُ كما روي عن السُّدِّيِّ، والضحَّاك، وكون عابدِ ذلك طالباً لدعائه إيَّاه واعتقادِه نفعَه، وضَعْفه لطلبه النفعَ من غيرِ جهته، وكون الآخَر مطلوباً ظاهراً كضعفه. وقيل: الطالبُ: الذبابُ يَطلبُ ما يسلبه عن الآلهةِ، والمطلوب: الآلهة على معنى المطلوبِ منه ما يُسلَب.

وروى ابنُ مردويه، وابنُ جرير، وابنُ المنذر عن ابنِ عباس رضي الله عنهما - واختاره الزمخشريُّ - أنَّ الطالبَ الأصنامُ، والمطلوبَ الذبابُ[1]. وفي هذا التذييلِ حينئذٍ إيهامُ التسويةِ وتحقيق أنَّ الطالبَ أضعفُ؛ لأنَّه قدّم عليه أنَّ هذا الخَلْق الأقلَّ هو السالبُ، وذلك طالبٌ خابَ عن طَلِبَته، ولما جعلَ السلب المسلوبَ لهم وأجراهم مجرى العقلاء، أثبت لهم طلباً، ولما بيَّن أنَّهم أضعفُ مِن أذلِّ الحيوانات، نبَّه به على مكان التَّهكُّم بذلك. ومِن الناس مَن اختار الأوَّلَ؛ لأنَّه أنسبُ بالسياق، إذ هو لتجهيلِهم وتحقيرِ آلهتهم، فناسبَ إرادتهم وآلهتهم مِن هذا التذييل.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ قال الحسن، والفرَّاء[2]: أي: ما عظَّموه سبحانه

---

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٧٠، وتفسير الطبري ١٦/ ٦٣٦.

(٢) معاني القرآن له ٢/ ٢٣٠.

حقَّ تعظيمه، فإنَّ تعظيمَه تعالى حقَّ تعظيمِه أن يُوصَف بما وَصَفَ به نفسَه ويُعبَد كما أُمِرَ أن يُعبَد، وهؤلاء لم يَفعلوا ذلك، فإنَّهم عبدوا مِن دونه مَن لا يصلح للعبادة أصلاً، وفي ذلك وصفُه سبحانه بما نزّه عنه سبحانه مِن ثبوت شريكٍ له عزَّ وجلَّ.

وقال الأخفش: أي: ما عرفوهُ حقَّ معرفتِه، فإنَّ معرفتَه تعالى حقَّ معرفتِه التصديقُ به سبحانه موصوفاً بما وَصَفَ به نفسَه، وهؤلاء لم يُصدِّقوا به كذلك؛ لشِرْكهم به وعبادتهم مِن دونه مَن سمعتَ حالَه. وقيل: حقُّ المعرفة أن يُعرَف سبحانه بكُنْهِه، وهذا هو المراد في قوله عليه الصلاة والسلام: «سبحانَكَ ما عرفناكَ حقَّ معرفتك»[(١)].

وأنتَ تَعلم أنَّ الظاهرَ أنَّ قولَه تعالى: «ما قدروا» إلخ، إخبارٌ عن المشركين وذمٌّ لهم، ومتى كان المرادُ منه نفيَ المعرفة بالكُنْه، كان الأمرُ مشتركاً بينهم وبين الموحِّدين، فإنَّ المعرفةَ بالكُنْه لم تقع لأحدٍ من الموحِّدين أيضاً عند المحقِّقين، ويشير إلى ذلك الخبرُ المذكور؛ لدلالته على عدم حصولِها لأكملِ الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، وإذا لم تَحصُل له ﷺ، فعدمُ حصولها لغيرِه بالطريق الأَولى، واحتمالُ حَمْلِ المعرفة المنفيَّة فيه على اكتناهِ الصفات لا يَخفى حالُه، وكذا احتمالُ حصولِ المعرفة بالكُنْه له عليه الصلاة والسلام بعد الإخبار المذكور، وقوله ﷺ: «تفكَّروا في آلاءِ الله تعالى، ولا تفكَّروا في ذاته، فإنَّكم لن تَقْدروا قَدْرَه»[(٢)].

والظاهرُ عمومُ الحكم دونَ اختصاصه بالمخاطَبين إذ ذاكَ، وقولُ الصِّدِّيق الأكبر رضي الله عنه:

العَجْزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراك

وقولُ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه متمًّا له بيتاً:

والبحثُ عن سرِّ ذاتِ الله إشراك[(٣)]

---

(١) لم نقف عليه، وسلف ٥/ ٣٦.

(٢) سلف ٥/ ٢٠٨.

(٣) أورده ملا علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/ ٢١٧ دون عزوٍ.

بل قال حجَّةُ الإسلام الغزالي، وشيخُه إمامُ الحرمين، والصوفيَّةُ، والفلاسفة، بامتناعِ معرفته سبحانَه بالكُنْه[1].

ونقل عن أرسطو أنَّه قال في ذلك: كما تعتري العينَ عند التحديقِ في جِرْمِ الشمس ظلمةٌ وكُدورة تمنعها عن تمامِ الإبصار، كذلك تعتري العَقْلَ عن إرادةِ اكتناهِ ذاتِه تعالى حيرةٌ ودهشةٌ تمنَعه عن اكتناهِه سبحانه.

ولا يَخفى أنَّه لا يَصلُح برهاناً للامتناع، وغاية ما يقال: إنَّه خطابي لا يَحصل به إلا الظَّنُّ الغير الكافي في مِثْل هذا المطلب، ومثلُه الاستدلالُ بأنَّ جميعَ النفوس المجرَّدة البشرية وغيرها مهذَّبة كانت أو لا، أنقصُ تجرُّداً وتنزُّهاً مِن الواجب تعالى، والأنقص يمتنع له اكتناه من هو أشدُّ تجرُّداً وتنزُّهاً منه، كامتناع اكتناهِ الماديَّات للمجرَّدات، وكذا الاستدلالُ بكونه تعالى أَقرب إلينا مِن حبلِ الوَرِيد، فيمتنع إدراكُه كما يمتنعُ إدراكُ البصرِ ما اتَّصل به، وأحسن مِن ذلك كلِّه ما قيل: إنَّ معرفةَ كُنْهه تعالى ليست بديهيَّة بالضرورة بالنسبة إلى شخصٍ وإلى وقت، فلا تَحصُل لأحدٍ في وقت بالضرورة، فتكون كَسْبيَّةً، والكسب إمَّا بحدٍّ تامٍّ أو ناقص، وهو محال مستلزم لتركُّب الواجب؛ لوجوب تركُّب الحدِّ مِن الجنس القريب أو البعيد ومِن الفَصْل، مع أنَّ الحدَّ الناقصَ لا يفيد الكُنْهَ، وأمَّا الحدّ البسيط بمفردٍ فمحالٌ بداهةً، فإنَّ ذلك المفرد إن كان عينَ ذاته، يلزم توقُّف معرفةِ الشيء على معرفةِ نفسه مِن غير مغايرةٍ بينهما، ولو بالإجمال والتفصيل، كما في الحدِّ المركَّب مع حدِّه التامِّ، وإن كان غيرَه فلا يكون حدًّا، بل هو رَسْمٌ أو مفهومٌ آخر غيرُ محمولٍ عليه، وإمَّا برَسْمٍ تامٍّ أو ناقص، ولا شيءَ منهما ممَّا يفيد الكُنْهَ بالضرورة.

واعتُرض بأنَّ عدمَ إمكان البداهةِ بالنسبة إلى جميع الأشخاصِ وإلى جميع الأوقات يحتاجُ إلى دليلٍ، فربَّما تَحصُل بعد تهذيب النفسِ بالشرائع الحقَّة وتجريدِها عن الكُدورات البشرية والعوائقِ الجسمانيَّة، ولو سَلَّمنا عدمَ إمكان البداهة كذلك، فلنا أن نختارَ كونَ المعرفة مما تُكتَسب بالحدِّ التامِّ المركَّب مِن الجنسِ والفَصْل، وغاية ما يَلزم منه التركُّب العقليُّ، وليس بمحال، إلا إن قلنا بأنَّه

(١) ينظر شرح المواقف للجرجاني ٨/ ١٤٥.

يستلزم التركُّب الخارجيَّ المستلزم للاحتياج إلى الأجزاء المنافي لوجوب الوجود، ونحن لا نقولُ بذلك؛ لأنَّ المختارَ عند جَمْعٍ أنَّ أجزاءَ الماهيَّة مأخوذةٌ مِن أمرٍ واحدٍ بسيط وهي متَّحدة ماهيَّةً ووجوداً، فتكون أموراً انتزاعيَّة لا حقيقيَّةً، فلا استلزام، نعم يكون ذلك إن قلنا: إنَّ الأجزاءَ مأخوذةٌ مِن أمور متغايرة بحسَب الخارج، لكن لا نقول به؛ لأنَّه إن قيل حينئذٍ بتغاير الأجزاء أنفسِها ماهيَّة ووجوداً، كما ذهب إليه طائفة، يَرِدُ لزومُ عدم صحَّة الحَمْل بينها ضرورة أنَّ الموجودَيْن بوجودَيْن متغايرَيْن لا يُحمَل أحدُهما على الآخَر كزيدٍ وعمرٍو، وإن قيل بتغايرهما ماهيَّة لا وجوداً ليصحَّ الحَمْل كما ذهب إليه طائفةٌ أخرى، يَرِدُ لزومُ قيامِ الوجود الواحدِ بالشخص بموجوداتٍ متعدِّدة متغايرة بالماهيَّة، ولو سلَّمنا الاستلزامَ بين التركُّب العقليِّ والتركُّب الخارجيِّ، فلنا أن نقولَ: لا نُسلِّم أنَّه لا شيءَ مِن الرَّسْم مما يفيد الكُنْهَ بالضرورة، كيف وهو مفيدٌ فيما إذا كانت الكُنْهُ لازماً للرَّسْم لزوماً بيِّناً بالمعنى الأخصّ، بل يمكن إفادةُ كلِّ رَسْم إيَّاه على قاعدة الأشعريِّ مِن استناد جميعِ الممكنات إليه تعالى بلا شَرْط، وإن لم تقع تلك الإفادةُ أصلاً، إذ الكلامُ في امتناع حصول الكُنْهِ بالكسب، كذا قالوا.

واستدلَّ الملَّا صدرا[1] على نفي الأجزاء العقليَّة له تعالى بأنَّ حقيقتَه سبحانه آنيَّةٌ محضة، ووجودٌ بَحْتٌ، فلو كان له عزَّ وجلَّ جنسٌ وفصلٌ، لكان جنسُه مفتقراً إلى الفَصْل لا في مفهومه ومعناه، بل في أن يوجدَ ويحصلَ بالفعل، فحينئذٍ يقال: ذلك الجنسُ لا يخلو إمَّا أن يكون وجوداً محضاً أو ماهيَّةً غير الوجود، فعلى الأوَّل يَلزم أن يكون ما فرضنا فَصْلاً ليس بفَصْل، إذ الفَصْل ما به يُوجَد الجنسُ، وهذا إنَّما يُتصوَّر إذا لم يكن حقيقة الجنسِ حقيقة الوجودِ، وعلى الثاني يَلزم أن يكون الواجبُ تعالى ذا ماهيَّة، وقد حقِّق أنَّ نفْسَ الوجودِ حقيقتُه بلا شَوْب، وأيضاً لو كان له تعالى جنسٌ، لكان مندرجاً تحت مقولةِ الجَوهر، وكان أحدَ الأنواع الجوهريَّة، فيكون مشاركاً لسائرها في الجنس، وقد بُرهنَ على إمكانِها وحقِّق أنَّ

(١) لعلَّه: محمد بن إبراهيم بن يحيى القوامي الشيرازي، من القائلين بوحدة الوجود، كان يعرف بـ : الأخوند (الأستاذ)، له: أسرار الآيات، والأسفار الأربعة، والشواهد الربوبية، وغيرها. (ت١٠٥٩، وقيل: ١٠٥٠هـ). معجم المطبوعات لسركيس عواد ص١١٧٣، والأعلام ٥/ ٣٠٣.

إمكانَ النوع يَستلزم إمكانَ الجنس المستلزم لإمكان كلٍّ واحد مِن أفراد ذلك الجنِس مِن حيث كونُه مصداقاً له، إذ لو امتنع الوجودُ على الجنس مِن حيث هو جنسٌ، أي: مطلقاً، لكان ممتنعاً على كلِّ فرد، فإذاً يَلزمُ مِن ذلك إمكانُ الواجب، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، ومبنى هذا أنَّ الواجبَ تعالى هو الوجود البَحْتُ، وهو ممَّا ذهب الحكماءُ وأجلَّة مِن المحقِّقين، وليس المراد مِن هذا الوجود المعنى المصدري الذي لا يَجهله أحدٌ، فإنَّه ممَّا لا شَكَّ في استحالة كونه حقيقةَ الواجب سبحانه، بل هو بمعنى مبدأ الآثارِ على ما حقَّقه الجلالُ الدَّوَاني، وأطال الكلام فيه في حواشيه على «شرح التجريد» وفي شرحه «للهياكل النوريَّة» وفي غيرهما مِن رسائله، وللملا صدرا[1] في هذا المقام والبحث في كلامِ الجلال كلامٌ طويلٍ عريض، وقد حقق الكلام بطرزٍ آخَر يُطلَب من كتابه «الأسفار» بيد أنَّا نَذكُر هنا مِن كلامه سؤالاً وجواباً يتعلَّقان فيما نحن فيه، فنقول:

قال: فإن قلت: كيف يكون ذاتُ الباري سبحانه عينَ حقيقة الوجود، والوجود بديهيُّ التصوُّر، وذات الباري مجهولُ الكُنْه؟

قلت: قد مرَّ أنَّ شدَّة الظهور وتأكُّد الوجود هناك مع ضَعْفِ قوَّة الإدراك وضَعْفِ الوجود هاهنا صارا منشأين لاحتجابِه تعالى عنَّا، وإلَّا فذاته تعالى في غاية الإشراق والإنارة.

فإن رجعت وقلتَ: إن كان ذاتُ الباري نفسَ الوجود، فلا يخلو إمَّا أن يكون الوجودُ حقيقةَ الذات كما هو المتبادَر، أو يكون صادقاً عليها صِدْقاً عَرَضياً، كما يصدقُ عليه تعالى مفهوم الشيء، وعلى الأوَّل إمَّا أن يكون المرادُ به هذا المعنى العام البديهي التصوُّر المنتزَع مِن الموجودات، أو معنىً آخر، والأوَّل ظاهرُ الفساد، والثاني يقتضي أن يكون حقيقته تعالى غيرَ ما يفهم مِن لفظ الوجود، كسائر الماهيَّات، غيرَ أنَّك سمَّيت تلك الحقيقة بالوجود كما إذا سُمِّي إنسان بالوجود، ومِن البين أنَّه لا أثَر لهذه التسمية في الأحكام، وأنَّ هذا القِسْم راجعٌ إلى الواجب ليس الوجود الذي الكلام فيه، ويلزم أن يكون الواجبُ تعالى ذا ماهيَّة، وقد برهن

---

(١) جاء في هامش (م) ما نصه: ويسمى صدر الدين الشيرازي، وهو غير صدر الدين الشيرازي معاصر الملا جلال. اهـ. منه. ولعلَّه المترجم آنفاً.

أنَّ كلَّ ذي ماهيَّة معلولٌ، وعلى الثاني وهو أنْ يَصدُق عليه تعالى صِدْقاً عَرَضيًّا، فلا يخفى أنَّ ذلك لا يغنيه عن السبب، بل يستدعي أن يكون موجوداً، ولذلك ذهب جمهور المتأخِّرين مِن الحكماء إلى أنَّ الوجود معدومٌ.

فأقول: منشأ هذا الإشكال حسبان أنَّ معنى كون هذا العامِّ المشتَرك عَرَضيًّا، أنَّ للمعروض موجوديَّة، وللعارض موجوديَّة أخرى، كالماشي بالنسبة إلى الحيوان، والضاحكِ بالقياس إلى الإنسان، وليس كذلك، بل هذا المفهوم عنوان وحكاية للوجوداتِ العينيَّة، ونسبته إليها نسبة الإنسانيَّة إلى الإنسان، والحيوانيَّة إلى الحيوان، فكما أنَّ مفهومَ الإنسانيَّة صحَّ أن يقال: إنَّها عينُ الإنسان؛ لأنَّها مرآةٌ لملاحظته وحكايةٌ عن جهته، صحَّ أن يقال: إنَّها غيرُه؛ لأنَّها أمرٌ نسبيٌّ، والإنسان ماهيَّة جوهريَّة، وبالجملة: الوجود ليس كالإمكان حتى لا يكون بإزائه شيء يكون المعنى المصدريُّ حكايةً عنه، بل كالسواد الذي قد يُراد به نفس المعنى النسبيِّ، أعني الأسوديَّة، وقد يراد به ما يكون به الشيء أسود، أعني الكيفيَّة المخصوصة، فكما أنَّ السوادَ إذا فُرض قيامُه بذاته صحَّ أن يقال ذاتُه عين الأسوديَّة، وإذا فرض جسم متَّصف به، لم يَجز أن يقال: إنَّ ذاته عينُ الأسوديَّة، مع أنَّ هذا الأمر لكونه اعتباراً ذهنيًّا زائدٌ على الجميع، إذا تقرَّر هذا قلنا في الجواب في الترديد الأوَّل: نختار الشقَّ الأوَّل، وهو أنَّ الوجودَ حقيقة الذاتِ قولك في الترديدِ الثاني إمَّا أن يكون ذلك الوجود ما يُفهَم من لفظ الوجود إلخ، نختار منه ما بإزاء ما يفهم مِن هذا اللفظ أعني حقيقةَ الوجود الخارجي الذي هذا المفهوم حكاية عنه، فإنَّ للوجود عندنا حقيقةً في كلِّ موجود، كما أنَّ للسواد حقيقة في كلِّ أسود، لكن في بعض الموجودات مخلوط بالنقائصِ والإعدام، وفي بعضها ليس كذلك، وكما أنَّ السوادات متفاوتةٌ في السواديَّة، بعضها أقوى وأشدّ، وبعضها أضعفُ وأنقص، كذلك الموجودات، بل الوجودات متفاوتة في الموجوديَّة كمالاً ونقصاناً، ولنا أيضاً أن نختار الشِّقَّ الثاني من شِقَّي الترديد الأوَّل، إلا أنَّ هذا المفهومَ الكلِّيَّ وإن كان عَرَضيًّا بمعنى أنَّه ليس له بحسَب كونه مفهوماً عنوانياً وجود في الخارج حتى يكون عيناً لشيء، لكنَّه حكاية عن نفس حقيقة الوجودِ القائم بذاته، وصادق عليه بحيث يكون منشأ صدقه ومصداق حَمْله عليها نفس تلك الحقيقة لا شيئاً آخر يقوم به

كسائر العَرَضيَّات في صدقها على الأشياء، فصدق هذا المفهوم على الوجود الخاصِّ يشبه صدقَ الذاتيَّات مِن هذه الجهة، فعلى هذا لا يردُ علينا قولك: صِدْقُ الوجود عليه لا يغنيه عن السبب؛ لأنَّه لم يكن يغنيه عن السبب لو كان موجوديَّته بسبب عُروض هذا المعنى أو قيام حصَّة من الوجود، وليس كذلك، بل ذلك الوجود الخاصُّ بذاته موجود كما أنَّه بذاته وجود، سواء حُمل عليه مفهومُ الوجود أو لم يُحمَل، والذي ذهب الحكماء إلى أنَّه معدومٌ ليس هو الوجودات الخاصَّة، بل هذا الأمرُ العامُّ الذهنيُّ الذي يَصدُق على الأينات والخصوصيَّات الوجوديَّة. انتهى.

وما أشار إليه من تعدُّد الوجودات، قال به المشَّاؤون وهي عند الأكثرين حقائق متخالفة متكثِّرة بأنفسها لا بمجرَّد عارض الإضافة إلى الماهيَّات لتكون متماثلةَ الحقيقة، ولا بالفصول ليكون الوجودُ المطلَق جنساً لها. وقال بعضهم بالاختلافِ بالحقيقة حيث يكون بينها مِن الاختلاف ما بالتشكيك كوجودِ الواجب ووجود الممكن، وكذا وجود المجرَّدات ووجود الأجسام.

وقالت طائفة مِن الحكماء المتألِّهين: إنَّه ليس في الخارج إلا وجود واحد شخصيٌّ مجهولُ الكُنْه وهو ذات الواجب تَعالى شأنه، وأمَّا الممكنات المشاهَدة فليس لها وجودٌ بل ارتباط بالوجود الحقيقيِّ الذي هو الواجبُ بالذات ونسبة إليه، نعم يُطلَق عليها إنَّها موجودةٌ بمعنى أنَّ لها نسبةً إلى الواجب تعالى، فمفهوم الموجود أعمُّ من الوجود القائم بذاتِه، ومن الأمور المنتسبة إليه نحواً مِن الانتساب، وصِدْق المشتقِّ لا ينافي قيام مبدأِ الاشتقاق بذاته الذي مرجعه إلى عدم قيامِه بالغير، ولا كون ما صدق عليه أمراً منتسباً إلى المبدأ لا معروضاً له بوجهٍ من الوجوه كما في الحداد والمشمس، على أنَّ أمرَ إطلاق أهل اللغة وأرباب اللسان لا عبرةَ به في تصحيح الحقائق، وقالوا: كون المشتقِّ مِن المعقولات الثانية والبديهيَّات الأوليَّة لا يصادم كون المبدأِ حقيقة متأصِّلة متشخِّصة مجهولة الكُنْه وثانوية المعقول، وتأصُّله قد يختلف بالقياس إلى الأمور، ولا يَخفى ما فيه من الإنظار، ومثله ما دار على ألسنة طائفة من المتصوِّفة مِن أنَّ حقيقةَ الواجب هو الوجودُ المُطلَق تمسُّكاً بأنَّه لا يجوز أن يكون عدماً أو معدوماً، وهو ظاهرٌ،

ولا ماهيَّة موجودة أو مع الوجود تعليلاً أو تقييداً؛ لما في ذلك مِن الاحتياج والتركيب، فتعَّين أن يكون وجوداً وليس هو الوجود الخاصّ؛ لأنَّه إن أخذَ مع المطلق فمركَّب، أو مجرَّد المعروض فمحتاجٌ؛ ضرورة احتياج المقيّد إلى المطلَق، ومتمسَّكهم هذا أوهن مِن بيت العنكبوت، والذي حقَّقته مِن كتب الشيخ الأكبر ـ قُدِّسَ سرُّه ـ وكُتُبِ أصحابِه أنَّ الله سبحانه ليس عبارة عن الوجودِ المطلَق بمعنى الكليِّ الطبيعيِّ الموجود في الخارج في ضمن أفرادِه، ولا بمعنى أنَّه معقولٌ في النفس مطابقٌ لكلِّ واحد مِن جزئياته في الخارج على معنى أنَّ ما في النفس لو وجد في أيِّ شخص مِن الأشخاص الخارجيَّة، لكان ذلك الشخص بعينه مِن غير تفاوت أصلاً، بل بمعنى عدم التقيُّد بغير، مع كونه موجوداً بذاته، ففي الباب الثاني مِن «الفتوحات»[1]: إنَّ الحقَّ تعالى موجودٌ بذاته لذاته مُطلَق الوجود غير مقيَّد بغيرِه، ولا معلول مِن شيءٍ، ولا علَّة لشيءٍ، بل هو خالقُ المعلولاتِ والعِلَلَ، والملك القدوس الذي لم يزل.

وفي «النصوص» للصدر القونويِّ: تصوُّر إطلاق الحقِّ يشترط فيه أن يتعقَّل بمعنى أنَّه وصف سلبيٌّ لا بمعنى أنَّه إطلاق ضدّه التقييد، بل هو إطلاق عن الوحدة والكثرة المعلومتين، وعن الحَصْر أيضاً في الإطلاق والتقييد، وفي الجَمْع بين كلِّ ذلك والتنزيه عنه، فيصحُّ في حقِّه كلُّ ذلك حالَ تنزُّهه عن الجميع.

وذكر بعض الأَجلَّة أنَّ اللهَ تعالى عند السادة الصوفيَّة هو الوجود الخاصُّ الواجب الوجود لذاتِه القائمُ بذاتِه المتعيّن بذاته، الجامع لكلِّ كمال، المنزَّه عن كلِّ نقص، المتجلِّي فيما يشاء مِن المظاهر مع بقاء التنزيه، ثم قال: وهذا ما يقتضيه أيضاً قولُ الأشعريِّ بأنَّ الوجودَ عينُ الذات مع قولِه الأخير في كتابه «الإبانة» بإجراء المتشابهات على ظواهرِها مع التنزيه بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وتحقيق ذلك أنَّه قد ثبت بالبرهان أنَّ الواجب الوجود لذاتِه موجودٌ، فهو إمَّا الوجود المجرَّد عن الماهيَّة المتعيّن بذاته، أو الوجود المقترن بالماهيَّة المتعيَّن بحسبها، أو الماهيَّة المعروضة للوجود المتعيَّن بحسبِها، أو المجموع المركَّب مِن

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ٩٠.

الماهية والوجود المتعيَّن بحسَبها، لا سبيلَ إلى الرابع؛ لأنَّ التركيبَ مِن لوازمه الاحتياج، ولا إلى الثالث؛ لاحتياج الماهية في تحقّقها الخارجي إلى الوجود، ولا إلى الثاني لاحتياج الوجود إلى الماهية في تشخصه بحسبها، والاحتياج في الجميع ينافي الوجوب الذاتيَّ، فتعيَّن الأوَّل، فالواجب سبحانه الموجود لذاته هو الوجود المجرَّد عن الماهيَّة المتعيّن بذاته، ثم هو إمَّا أن يكون مطلقاً بالإطلاق الحقيقيِّ وهو الذي لا يقابله تقييدُ القابلِ لكلِّ إطلاق وتقييد، وإمَّا أن يكون مقيَّداً بقيد مخصوصٍ لا سبيل إلى الثاني؛ لأنَّ المركَّب من القيد ومعروضه مِن لوازمه الاحتياج المنافي للوجوب الذاتيِّ، فتعيَّن الأوَّل، فواجب الوجود لذاتِه هو الوجود المجرَّد عن الماهيَّة القائم بذاته المتعيّن بذاتِه المطلَق بالإطلاق الحقيقيِّ، وأهل هذا القولِ ذهبوا إلى أنَّه ليس في الخارج إلا وجود واحد وهو الوجود الحقيقيُّ، وأنَّه لا موجودَ سواه، وماهيَّات الممكنات أمورٌ معدومة متميِّزة في أنفسها تميُّزاً ذاتيًّا وهي ثابتة في العِلْم لم تشمَّ رائحةَ الوجود ولا تشمّه أبداً، لكن تظهر أحكامها في الوجود المفاض وهو النورُ المضافُ ويسمَّى العماء والحقُّ المخلوق به، وهؤلاء هم المشهورون بأهل الوحدةِ، ولعلَّ القولَ الذي قلناه عن بعضِ الحكماء المتألِّهين يرجع إلى قولهم، وهو طور ما وراءَ طورِ العقل، وقد ضلَّ بسببه أقوامٌ وخرجوا من رِبْقة الإسلام.

وبالجملة: إنَّ القولَ بأنَّ حقيقةَ الواجب تعالى غيرُ معلومة لأحدٍ عِلْماً اكتناهيًّا إحاطيًّا عقليًّا أو حسيًّا ممَّا لا شبهةَ عندي في صحته، وإليه ذهب المحقِّقون حتى أهل الوحدةِ، والقول بخلاف ذلك المحكيِّ عن بعض المتكلِّمين لا ينبغي أن يُلتَفت إليه أصلاً، ولا أدري هل تمكن معرفةُ الحقيقة أو لا تُمكِن، ولعلَّ القولَ بعدم إمكانها أوفقُ بعظمته، تعالى شأنه وجلَّ عن إحاطة العقولِ سلطانه، وأمَّا شهودُ الواجب بالبصر ففي وقوعه في هذه النشأة خلافٌ بين أهل السنة، وأمَّا في النشأة الآخِرة، فلا خلافَ فيه سوى أنَّ بعضَ الصوفيَّة قالوا: إنَّه لا يقعُ إلا باعتبار مظهرٍ ما، وأمَّا باعتبار الإطلاق الحقيقيِّ فلا، وأمَّا شهوده سبحانه بالقلب فقد قيل بوقوعِه في هذه النشأة لكن على معنى شهودِ نوره القدسيِّ، ويختلف ذلك باختلافِ الاستعداد لا على معنى شهودِ نفس الذات والحقيقة، ومَن ادَّعى ذلك، فقد اشتبهَ عليه الأمُر، فادَّعى ما ادَّعى!

هذا، ومِن الناس مَن قال: لا مانعَ مِن أن يراد مِن «حقَّ قَدْره» حقُّ معرفته، ويُراد مِن حقِّ معرفته المعرفةُ بالكُنْه، وكونها غيرَ حاصلة لأحدٍ مؤمناً كان أو غيرَه، لا يضرُّ فيما نحن فيه؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ عظمته تعالى المنافية لما عليه المشركونَ، وكونه سبحانه لا يَعرِفُ أحدٌ كُنْهَ حقيقته يَستدعي العظمةَ على أتمِّ وجه، فتأمَّل جميعَ ذلك، والله تعالى الموفِّق للصواب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على جميعِ الممكنات ﴿عَزِيزٌ ۝٧٤﴾ غالب على جميع الأشياء، وقد علمتَ حالَ آلهتهم المقهورة لأذلِ العجزة، والجملة في موضع التعليل لما قَبْلها.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي﴾ أي: يختار ﴿مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ يتوسَّطون بينه تعالى وبين الأنبياء عليهم السلام بالوحي ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ويَصطفي مِن الناس رسلاً يَدعُون مَن شاء إليه تعالى ويبلِّغونهم ما نزلَ عليهم، والله تعالى أعلم حيث يَجعلُ رسالتَه، وتقديمُ رسلِ الملائكة عليهم السلام؛ لأنَّهم وسائط بينه تعالى وبين رُسُلِ الناس، وعطف «ومن الناس» على «من الملائكة» وهو مقدَّم تقديراً على «رسلاً» فلا حاجةَ إلى التقدير، وإن كان رسلُ كلٍّ موصوفة بغيرِ صفة الآخَرين كما أَشرنا إليه، وقيل: إنَّ المرادَ: الله يصطفي من الملائكة رسلاً إلى سائرهم في تبليغ ما كلَّفهم به مِن الطاعات، ومِن الناس رسلاً إلى سائرهم في تبليغ ما كلَّفهم به أيضاً، وهذا شروعٌ في إثبات الرسالة بعد هَدْمِ قاعدة الشرك ورَدْمِ دعائم التوحيد.

وفي بعض الأخبار أنَّ الآية نزلت بسبب قولِ الوليد بنِ المغيرة: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ الآية[1] [ص:٨]، وفيها ردٌّ لقول المشركينَ: الملائكةُ بناتُ الله، ونحوه مِن أباطيلهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ بجميع المسموعاتِ، ويدخل في ذلك أقوالُ الرسل ﴿بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ بجميع المبصراتِ، ويدخل في ذلك أحوالُ المرسَل إليهم، وقيل: إنَّ السمعَ والبصر كناية عن عِلْمه تعالى بالأشياء كلِّها بقرينة قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لأنَّه كالتفسير لذلك، ولعلَّ الأوَّل أَولى، وهذا تعميمٌ بعد تخصيص، وضمير الجمع للمكلَّفين على ما قيل: أي: يَعلمُ مستقبلَ أحوالِهم وماضيها. وعن الحسن: أَوَّلَ أعمالِهم وآخِرَها. وعن عليِّ بنِ

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٨٦-٣٨٧.

عيسى: إنَّ الضميرَ لرسلِ الملائكة والناس، والمعنى عنده: يَعلمُ ما كان قَبْلَ خَلْقِ الرسل وما يكون بَعْدَ خَلْقهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٧٦﴾ كلُّها لا إلى غيرِه سبحانه، لا اشتراكاً ولا استقلالاً؛ لأنَّه المالكُ لها بالذات، فلا يُسْأَلُ - جلَّ وعلا - عمَّا يَفعل من الاصطفاءِ وغيره، كذا قيل. ويُعلَم منه أنَّه مرتبطٌ بقوله تعالى: «الله يصطفى» إلخ، وكذا وجهُ الارتباط، ويجوز أن يكون مرتبطاً بقوله سبحانه: «يعلم» إلخ، على معنى: وإليه تعالى تُرجَع الأمور يومَ القيامة، فلا أَمْرَ ولا نهيَ لأحدٍ سواه جلَّ شأنه هناك، فيجازي كلًّا حسبما عَلِمَ من أعماله، ولعلَّه أَولى ممَّا تقدَّم، ويمكن أن يقال: هو مرتبطٌ بما ذُكرَ لكن على طرزٍ آخَر، وهو أن يكون إشارةً إلى تعميم آخَر للعِلْم، أي: إليه تعالى تُرجَع الأمورُ كلُّها؛ لأنَّه سبحانه هو الفاعل لها جميعاً بواسطة وبلا واسطة، أو بلا واسطة في الجميع على ما يقوله الأشعريُّ، فيكون سبحانه عالماً بها.

ووجه ذلك على ما قرَّره بعضهم أنَّه تعالى عالمٌ بذاته على أتمِّ وجه، وذاته تعالى علَّة مقتضية لما سواه، والعِلْم التامُّ بالعلَّة أو بجهة كونها علَّة يقتضي العِلْمَ التامَّ بمعلولها، فيكون عِلْمه تعالى بجميع ما عدَاه لازماً لعِلْمه بذاته، كما أنَّ وجودَ ما عداه تابعٌ لوجود ذاتِه سبحانه، وفي ذلك بحث طويلٌ عريض.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ أي: صلُّوا، وعبَّر عن الصلاة بهما؛ لأنَّهما أعظمُ أركانها وأفضلُها، والمراد أنَّ مجموعَهما كذلك، وهو لا ينافي تفضيلَ أحدِهما على الآخَر، ولا تفضيلَ القيام أو السجود على كلِّ واحدٍ واحد مِن الأركان، وقيل: المعنى: اخضعوا للهِ تعالى وخرُّوا له سُجَّداً. وقيل: المراد الأَمْرُ بالركوع والسجود بمعناهما الشرعيِّ في الصلاة، فإنَّهم كانوا في أوَّل إسلامهم يركعونَ في صلاتهم بلا سجودٍ تارةً ويسجدون بلا ركوعٍ أُخرى، فأُمِروا بفعل الأَمْرين جميعاً فيها، حكاه في «البحر»[1]، ولم نَرهُ في أَثَرٍ يُعتَمدُ عليه، وتوقَّف فيه صاحب «المواهب»[2]،

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٩١.
(٢) المواهب اللدنية للقسطلاني ٥/ ٣٧٢، والأثر روي عن علي ﷺ أنَّه قال: أولُ صلاة ركعنا فيها العصرُ، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: «بهذا أُمرتُ». وهو عند البزار في مسنده (٨١٤)، والطبراني في الأوسط (٧٢٥٣)، وقال: لم يروِ هذا الحديث عن أبي الجحَّاف إلا سليمانُ بن قَرْم، تفرَّد به حسين بن محمد.
=

وذكره الفرَّاء[(١)] بلاسنِدٍ ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بسائر ما تعبَّدكم سبحانه به كما يُؤذِن به تَرْكُ المتعلّق، وقيل: المراد أمرهم بأداءِ الفرائض.

وقوله تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ تعميمٌ بعد تخصيص، أو مخصوص بالنوافل، وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّه أمْرٌ بصلة الأرحام ومكارمِ الأخلاق ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾ في موضع الحال مِن ضميرِ المخاطبين، أي: افعلوا كلَّ ذلك وأنتم راجونَ به الفلاحَ غير متيقِّنين به واثقين بأعمالكم.

والآية آيةُ سجدةٍ عند الشافعيِّ، وأحمد، وابنِ المبارك، وإسحاق رضي الله عنهم؛ لظاهر ما فيها من الأمْرِ بالسجود، ولما تقدَّم عن عقبة بنِ عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسولَ الله، أُفضِّلَت سورةُ الحجِّ على سائر القرآنِ بسجدتين؟ قال: «نعم، فمن لم يَسجدهما فلا يقرأهما»[(٢)]. وبذلك قال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وعمر، وابنه عبد الله، وعثمان، وأبو الدرداء، وأبو موسى، وابن عباس في إحدى الروايتين عنه رضي الله عنهم. وذهب أبو حنيفة، ومالك، والحسن، وابن المسيب، وابنُ جبير، وسفيان الثوري رضي الله عنهم إلى أنَّها ليست آيةَ سجدة، قال ابنُ الهمام[(٣)]: لأنَّها مقرونةٌ بالأمر بالركوع، والمعهود في مِثْله مِن القرآن كونه أمراً بما هو ركنٌ للصلاة بالاستقراء نحو ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣] وإذا جاء الاحتمالُ سقطَ الاستدلال، وما روي مِن حديث عقبةَ، قال الترمذيُّ: إسنادُه ليس بالقويِّ[(٤)]، وكذا قال أبو داود[(٥)] وغيره. انتهى.

= وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٢٩٣: رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفيه: أبو عبد الرحيم؛ فإن كان هو خالد بن يزيد، فهو ثقة من رجال الصحيح، ولم أجد: أبو عبد الرحيم في رجال الكتب غيره، ولم أجد: أبو عبد الرحمن في الميزان، وهو مجهول.

(١) معاني القرآن له ٢/ ٢٣١.

(٢) سلف ص٢٣٠ من هذا الجزء.

(٣) شرح فتح القدير ١/ ٣٨١.

(٤) عقب حديث عقبة (٥٧٨).

(٥) في المراسيل عقب حديث خالد بن معدان رضي الله عنه (٧٨)، وهو أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلت سورة الحجِّ على القرآن بسجدتين» قال أبو داود: وقد أُسندَ هذا، ولا يصحُّ.

وانتصر الطيبيُّ لإمامه الشافعيِّ ﷺ فقال: الركوعُ مجازٌ عن الصلاة؛ لاختصاصِه بها، وأمَّا السجود فلمَّا لم يختصَّ حُملَ على الحقيقة، لعموم الفائدة، ولأنَّ العدولَ إلى المجاز من غيرِ صارف أو نُكْتة غيرُ جائز، والمقارنة لا تُوجِبُ ذلك. وتعقَّبه صاحبُ «الكشف» بأنَّ للقائلِ أن يقول: المقارنة تحسن ذلك، وتوافق الأمرين في الفَرْضية أو الإيجاب على المذهبين مِن المقتضيات أيضاً، ثم رجع إلى الانتصار فقال: الحقُّ إنَّ السجود حيث ثَبَتَ ليس مِن مقتضى خصوص تلكَ الآية؛ لأنَّ دلالةَ الآية غيرُ مقيَّدة بحال التلاوة، بل إنَّما ذلك بفعل الرسولِ ﷺ أو قولِه، فلا مانعَ من كون الآية دالَّة على فرضيَّة سجودِ الصلاة، ومع ذلك تُشرَع السجدةُ عند تلاوتها؛ لما ثبتَ مِن الرواية الصحيحة، وفيه أنَّه إن أراد أن ما ثبت دليلٌ مستقلٌّ على مشروعيتها مِن غير مدخلٍ للآية، فذلك على ما فيه ممَّا لم يقله الشافعيُّ ولا غيرُه، وإن أراد أنَّ الآيةَ تدلُّ على ذلك كما تدلُّ على فرضيَّة سجودِ الصلاة، وما ثبت كاشف عن تلك الدلالةِ، فذلك قولٌ بخَفاء تلك الدلالة والتزام أنَّ الأمرَ بالسجود لمطلَق الطلب الشامل لما كان على سبيلِ الإيجاب كما في طلب سجودِ الصلاة، ولما كان على سبيلِ الندب كما في طلب سجود التلاوة، فإنَّه سُنَّةٌ عند الشافعيِّ ﷺ، ولعلَّه يتعيَّن عنده ذلك ولا محذورَ فيه، بل لا معدلَ عنه إن صحَّ الحديث، لكن قد سمعت آنفاً ما قيل فيه، ولك أن تقول: إنَّه قد قويَ بما أخرجه أبو داود، وابن ماجه، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ عن عمرِو بنِ العاص: أنَّ رسولَ الله ﷺ أقرأه خمسَ عشرةَ سجدةً في القرآن، منها ثلاث في المفصَّل، وفي سورةِ الحجِّ سجدتان(١). وبعمل كثيرٍ مِن الصحابة ﷺ الظاهر في كونه عن سماعٍ منه ﷺ أو رؤيةٍ لفعله ذلك.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: لله تعالى، أو في سبيله سبحانه، والجهاد كما قال الراغبُ(٢): استفراغُ الوُسْع في مدافعةِ العدوِّ، وهو ثلاثة أضرب: مجاهدةُ العدوِّ

---

(١) أبو داود (١٤٠١)، وابن ماجه (١٠٥٧)، والبيهقي ٢/ ٣١٤.
قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ٩: حسَّنه المنذري والنووي، وضعفه عبد الحقِّ وابن القطان، وفيه: عبد الله بن منين، وهو مجهول، والراوي عنه الحارث بن سعيد العتقي، وهو لا يُعرف أيضاً.

(٢) المفردات (جهد).

الظاهر كالكفَّار، ومجاهدةُ الشيطان، ومجاهدة النَّفْس، وهي أكبر مِن مجاهدة العدوِّ الظاهر؛ كما يُشعِر به ما أخرج البيهقيُّ وغيره عن جابرٍ قال: قَدِمَ على رسول الله ﷺ قومٌ غزاة فقال: «قدمتم خيرَ مقدمٍ مِن الجهادِ الأصغر إلى الجهاد الأكبرِ» قيل: وما الجهادُ الأكبر؟ قال: «مجاهدةُ العبدِ هواه»(١) وفي إسناده ضعفٌ مُغتَفر في مِثْله.

والمراد هنا عند الضحَّاك جهادُ الكفَّار حتى يدخلوا في الإسلام، ويقتضي ذلك أن تكون الآيةُ مدنيَّةً؛ لأنَّ الجهاد إنَّما أُمر به بعد الهجرة. وعند عبد اللهِ بنِ المبارك جهادُ الهوى والنفس، والأَولى أن يكون المرادُ به ضروبَه الثلاثةَ، وليس ذلك مِن الجمع بين الحقيقة والمجاز في شيء، وإلى هذا يشير ما روى جماعةٌ عن الحسن أنَّه قرأ الآية وقال: إنَّ الرجلَ ليجاهد في الله تعالى وما ضُربَ بسيف. ويشمل ذلك جهادَ المبتدِعة والفَسَقة؛ فإنَّهم أعداءٌ أيضاً ويكون بزجرهم عن الابتداعِ والفِسْق.

﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ أي: جهاداً فيه حقًّا، فقُدِّم حقاً وأضيف، على حدِّ: جَرْدُ قَطيفَة، وحذف حرفِ الجرِّ وأضيف جهاد إلى ضميرِه تعالى على حدِّ قوله:

ويوم شهدناه سليماً وعامراً(٢)

وفي «الكشاف»(٣): الإضافة تكون لأدنَى ملابسة واختصاص، فلمَّا كان الجهادُ مختصًّا بالله تعالى مِن حيث إنَّه مفعول لوجهِه سبحانه ومِن أجله، صحَّت إضافتُه إليه. وأيًّا ما كان فنصب «حقَّ» على المصدريَّة. وقال أبو البقاء(٤): إنَّه نعتٌ لمصدر محذوف، أي: جهاداً حقَّ جهاده. وفيه أنَّه معرفةٌ، فكيف يُوصَف به النكرةُ؟! ولا أظنُّ أنَّ أحداً يزعم أنَّ الإضافةَ إذا كانت على الاتساع لا تفيدُ تعريفاً، فلا يتعرَّف بها المضافُ ولا المضاف إليه، والآية تدلُّ على الأَمْرِ بالجهاد على أتمِّ وجه، بأن يكون خالصاً لله تعالى لا يَخشى فيه لومةَ لائمٍ، وهي مُحكَمة.

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي (٣٧٣)، وأخرجه أيضاً الخطيب في تاريخ بغداد ١٣/ ٤٩٣.
(٢) سلف ١/ ٢٨٤.
(٣) ٣/ ٢٣-٢٤.
(٤) الإملاء ٤/ ٤٩.

ومن قال كمجاهد، والكلبيِّ: إنَّها منسوخةٌ بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فقد أراد بها أن يُطاعَ سبحانه فلا يُعصَى أصلاً، وفيه بحثٌ لا يَخفى، وأخرج ابنُ مردويه عن عبدِ الرحمنِ بنِ عوف ﷺ قال: قال لي عمرُ ﷺ: ألسنا كنا نَقرأ: «وجاهدوا في الله حقَّ جهاده» في آخِرِ الزمان كما جاهدتم في أوَّله؟! قلت: بلى، فمتى هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كانت بنو أميَّة الأمراء، وبنو المغيرةَ الوزراءَ. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ﷺ قال: قال عمرُ لعبدِ الرحمن بنِ عوف، فذكره[١]. ولا يَخفى عليكَ حُكمُ هذه القراءة، وقال النيسابوريُّ[٢]: قال العلماء: لو صحَّت هذه الروايةُ، فلعلَّ هذه الزيادةَ مِن تفسيره ﷺ، وليست مِن نفس القرآن وإلا لتواترت وهو كما ترى ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: هو جلَّ شأنه اختاركم لا غيره سبحانه، والجملة مستأنفة لبيان علّة الأمر بالجهاد، فإن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته، ومن قرّبه العظيم يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نَفْسِه بترك ما لا يَرضاه، ففيها تنبيهٌ على المقتضي للجهاد، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: في جميع أمورِه، ويدخل فيه الجهاد دخولاً أوليًّا ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: ضيقٍ بتكليفِ ما يشتدُّ القيام به عليكم إشارةً إلى أنَّه لا مانعَ لهم عنه، والحاصل أنَّه تعالى أَمَرهم بالجهاد، وبيَّن أنَّه لا عذر لهم في تركه حيث وجد المقتضي وارتفع المانعُ.

ويجوز أن يكون هذا إشارةً إلى الرخصة في تَرْكِ بعضِ ما أمرهم سبحانه به حيث شقَّ عليهم لقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بشيءٍ فَأْتُوا منه ما استطعتم»[٣] فانتفاءُ الحَرَج على هذا بعد ثبوتِه بالترخيص في الترك بمقتضى الشرع، وعلى الأوَّل انتفاء الحَرَج ابتداء، وقيل: عدمُ الحَرَج بأن جعلَ لهم مِن كلِّ ذَنْبٍ مخرجاً بأن رخَّص لهم في المضايق وفتح عليهم باب التوبة وشرعَ لهم الكفَّارات في حقوقه، والأروشَ والدِّيَاتِ في حقوق العباد، ولا يَخفى أنَّ تعميمَه للتوبة ونحوها خلافُ الظاهر، وإن روي ذلك مِن طريق ابنِ شهاب عن ابنِ عباس ﷺ.

(١) الدر المنثور ٤/ ٣٧١، وخبر المسوَر عند البيهقي في الدلائل ٦/ ٤٢٢.
(٢) غرائب القرآن ١٧/ ١٢٤.
(٣) سلف ٧/ ٤٤٠.

وفي «الحواشي الشهابيَّة»: إنَّ الظاهرَ أنَّ «حقَّ جهادِه» تعالى لما كان متعسِّراً ذيَّله بهذا؛ ليبيِّن أنَّ المرادَ ما هو بحسَب قدرتِهم، لا ما يليقُ به جلَّ وعلا مِن كلِّ الوجوه[١].

وذكر الجلال السيوطيُّ أنَّ هذه الآية أصلُ قاعدة: المشقَّة تَجلِبُ التيسيرَ، وهو أوفقُ بالوجه الثاني فيها.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ نصب على المصدريَّة بفعل دلَّ عليه ما قبله مِن نَفْي الحَرَج بعد حذفِ مضاف، أي: وسَّع دينكم توسعةَ ملَّة أبيكم، أو على الاختصاص بتقدير: أعني بالدين ونحوه، وإليهما ذهب الزمخشريُّ[٢] وقال الحوفيُّ وأبو البقاء[٣]: نصب على الإغراء، بتقدير: اتَّبعوا أو الزموا أو نحوه. وقال الفرَّاء[٤]: نصبَ بنزعِ الخافض، أي: كملَّة أبيكم، والمراد بالملَّة إمَّا ما يعمُّ الأصولَ والفروعَ، أو ما يخصُّ الأصولَ، فتأمَّل ولا تَغفل.

و«إبراهيم» منصوب بمقدَّر أيضاً، أو مجرورٌ بالفتح على أنَّه بدل أو عطف بيان، وجَعْلُه عليه السلام أباهم؛ لأنَّه أبو رسولِ الله ﷺ وهو كالأبِ لأمَّته مِن حيث إنَّه سببٌ لحياتهم الأبديَّة ووجودِهم على الوجه المعتدِّ به في الآخرة، أو لأنَّ أكثرَ العرب كانوا مِن ذريته عليه السلام فغلبوا على جميع أهل مِلَّته ﷺ.

﴿هُوَ﴾ أي: الله تعالى، كما روي عن ابنِ عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وسفيان، ويدلُّ عليه ما سيأتي بعد في الآية، وقراءةُ أبيٍّ رضي الله عنه: «الله»[٥] ﴿سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قِبْلِ نزولِ القرآن، وذلك في الكتب السماويَّة كالتوراة والإنجيل ﴿وَفِى هَٰذَا﴾ أي: في القرآن، والجملة مستأنفة، وقيل: إنَّها كالبدلِ من قوله تعالى: «هو اجتباكم» ولذا لم تُعطف، وعن ابنِ زيد، والحسن أنَّ

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣١٧.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٤.

(٣) الإملاء ٤/ ٤٩ لكن فيه: اتَّبعوا ملة إبراهيم. وكذا نقله عنه أبو حيَّان في البحر المحيط ٦/ ٣٩١.

(٤) معاني القرآن له ٢/ ٢٣١.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٧، والبحر المحيط ٦/ ٣٩١.

الضميرَ لإبراهيم عليه السلام، واستظهره أبو حيَّان[(١)]؛ للقُرب، وتسميته إيَّاهم بذلك مِن قَبْلُ في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقوله هذا سببٌ لتسميتهم بذلك في هذا؛ لدخول أكثرِهم في الذُّرِّيَّة، فجعل مسمَّياً لهم فيه مجازاً، ويَلزم عليه الجمع بين الحقيقة والمجاز، وفي جوازه خلافٌ مشهور، وقال أبو البقاء[(٢)]: المعنى على هذا: وفي هذا بيان تسميتِه إيَّاكم بهذا الاسم، حيث حكى في القرآن مقالته. وقال ابنُ عطيَّة: يقدَّر عليه: وسمَّيتكم في هذا المسلمين[(٣)]. ولا يَخفى ما في كلِّ ذلك مِن التكلُّف.

واستدلَّ بالآية مَن قال: إنَّ التسميةَ بالمسلمين مخصوصٌ بهذه الأمَّة، وفيه نظر.

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يومَ القيامة ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أنَّه قد بلَّغكم، ويدلُّ هذا القولُ منه تعالى على قَبول شهادتِه عليه الصلاة والسلام لنفسه اعتماداً على عصمتِه، ولعلَّ هذا مِن خواصِّه ﷺ في ذلك اليوم، وإلا فالمعصومُ يُطالَب في الدنيا بشاهدين إذا ادَّعى شيئاً لنفسِه، كما يدلُّ على ذلك قصَّة الفرس وشهادة خزيمة ﷺ[(٤)]، وأيضاً لو كان كلُّ معصومٍ تُقبَل شهادته لنفسِه في ذلك اليوم؛ لما احتيج إلى شهادةِ هذه الأمَّة على الأُمَم حين يَشهدُ عليهم أنبياؤهم فينكرونَ كما ذكر ذلك كثيرٌ من المفسِّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. وردَ أنَّه يؤتى بالأمم وأنبيائهم فيقال لأنبيائهم: هل بلَّغتم أمَمَكم؟ فيقولون: نعم بلَّغناهم. فيُنكرون، فيُؤتى بهذه الأمَّة فيَشهدونَ أنَّهم قد بلَّغوا، فتقول الأُممُ لهم: مَن أينَ عرفتم؟ فيقولون: عرفنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطقِ على لسان نبيِّه الصادق، أو «شهيداً عليكم» بإطاعة مَن أطاع وعصيان مَن عصى، ولعلَّ عِلْمه ﷺ بذلك بتعريف اللهِ تعالى بعلامات تَظهر له في ذلك الوقت تُسوِّغ له عليه الصلاة والسلام الشهادةَ، وكون أعمال أُمَّته تُعرَض عليه عليه الصلاة والسلام وهو في البرزخ كلَّ

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٣٩١.

(٢) الإملاء ٤/ ٥٠.

(٣) هذا الكلام لأبي حيَّان في البحر المحيط ٦/ ٣٩١ وليس لابن عطية، قاله عقب قول ابن عطية [في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٥]: وهذه اللفظة ـ يعني قوله: وفي هذا ـ تُضعِف قولَ من قال: الضمير لإبراهيم، ولا يتوجه إلا على تقدير محذوف من الكلام مستأنف. انتهى.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٣٠١-٣٠٢، وأحمد (٢١٨٨٣).

أسبوع أو أكثر أو أقلّ[١] ـ إذا صحّ ـ لا يُفيد العِلْم بأعيان ذوي الأعمال المشهود عليهم، وإلا أشكل ما رواه أحمد في «مسنده» والشيخان عن أنسٍ وحذيفة قالا: قال رسولُ الله ﷺ: «ليَرِدَنَّ عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوضَ حتى إذا رأيتُهم وعرفتُهم، اخْتُلِجوا دُوني، فأقول: يا ربِّ أُصَيْحابي أُصَيْحابي، فيقال لي: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدكَ»[٢]، وربَّما أَشكل هذا على تقدير صحَّة حديث العَرْض سواء أفادَ العِلْم بالأعيان أم لا، وإذا التزم صحَّة ذلك الحديث وأنَّه ﷺ لم يَستحضر أعمالَ أولئك الأقوام حين عرفهم، فقال ما قال، وأنَّ المرادَ مِن: «إنَّكَ لا تدري» إلخ، مجرَّد تعظيم أمرِ ما أحدثوه بعد وفاتِه عليه الصلاة والسلام لا نفي العِلْم به، يبقى مَن مات مِن أمَّته طائعاً أو عاصياً في زمان حياته ﷺ ولم يكن عَلِمَ بحاله أصلاً كمَن آمن ومات ولم يَسمع ﷺ به، فإنَّ عَرْضَ الأعمال في حقِّه لم يَجِئْ في خبر أصلاً، والقول بعدم وجودِ شخص كذلك بعيدٌ، ومَن زعم أنَّه ﷺ يَعلمُ أعمالَ أمَّته ويعرفهم واحداً واحداً حيًّا وميتاً، ولذا ساغت شهادتُه عليهم بالطاعة والمعصية يومَ القيامة = لم يأتِ بدليلٍ، والآية لا تَصلُح دليلاً له إلا بهذا التفسير وهو محلُّ البحث، على أنَّ في حديث الإفك ما يدلُّ على خلافه.

وزعم بعضُهم أنَّ معرفته ﷺ للطائع والعاصي مِن أمَّته؛ لما أنه يَحضُر سؤالَهم في القبر عنه عليه الصلاة والسلام كما يُؤذِن بذلك ما ورد أنَّه يقال للمقبور: ما تقول في هذا الذي بُعِثَ إليكم؟ واسمُ الإشارة يستدعي مشاراً إليه محسوساً مشاهداً، وهو كما ترى. واختار بعضٌ أنَّ الشهادةَ بذلك على بعضِ الأمَّة وهم الذين كانوا موجودينَ في وقته ﷺ وعَلِمَ حالَهم مِن طاعة وعصيان.

---

(١) أخرج البزار في البحر الزخاز (١٩٢٥) من طريق زاذان، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام» قال: وقال رسول الله ﷺ: «حياتي خير لكم تحدثون ونحدث لكم، ووفاتي خير لكم، تُعرَض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدتُ الله عليه، وما رأيت من شرٍّ استغفرت الله لكم».
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.
وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٢/ ١٩٤ عن بكر بن عبد الله بنحوه، وهو مرسل، وينظر السلسلة الضعيفة للألباني (٩٧٥).

(٢) مسند أحمد (١٣٩٩١)، والبخاري (٦٥٨٢)، ومسلم (٢٣٠٤) عن أنس رضي الله عنه.
ومسند أحمد (٢٣٢٩٠)، ومسلم (٢٢٩٧) عن حذيفة رضي الله عنه.

والخطاب في «عليكم» إمَّا خاصٌّ بهم، أو عامٌّ على سبيلِ التغليب، وفيه ما فيه، فتدبَّر، وقيل: «على» في «عليكم» بمعنى اللام كما في قوله تعالى ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة:٣] فالمعنى: شهيداً لكم، والمراد بشهادته لهم تزكيتُه إيَّاهم إذا شَهدوا على الأمم، ولا يَخفى بعدُه، واللام متعلِّقة بـ «سمَّاكم» على الوجهين في الضمير، وهي للعاقبة على ما قيل، وقال الخفاجيُّ[1]: لا مانعَ مِن كونها للتعليل؛ فإنَّ تسمية اللهِ تعالى أو إبراهيمَ عليه السلام لهم بالمسلمين حُكْمٌ بإسلامهم وعدالتهم، وهو سبب لقَبول شهادةِ الرسول عليه الصلاة والسلام الداخل فيهم دخولاً أوليًّا وقَبول شهادتهم على الأُمم. وفيه نوعُ خفاء.

﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: فتقرَّبوا إليه تعالى لِمَا خصَّكم بهذا الفَضْل والشرف بأنواع الطاعات، وتخصيص هذين الأمرين بالذِّكْر؛ لإنافتهما وفَضْلهما ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: ثِقُوا به تعالى في جميع أموركم ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومتولِّي أموركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ هو، إذ لا مِثْلَ له تعالى في الولاية والنصرةِ، فإنَّ مَن تولَّاه لم يَضعْ، ومَن نصره لم يُخذَل، بل لا وليَّ ولا ناصرَ في الحقيقة سواه عزَّ وجلَّ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ قصارى الكمال الاعتصامُ بالله تعالى وتحقيق مقام العبوديَّة وهو وراء التسميةِ والاجتباء، وجوّز أن يكون «هو مولاكم» تتميماً للاجتباء، وليس بذاكَ.

❁ ❁ ❁

هذا. ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ كَيْدَ عدوِّهم مِن الشيطان والنَّفْس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ويَدخل في ذلك الشيطانُ والنَّفْس، وصِدْقُ الوصفَيْن عليهما ظاهرٌ جدًّا، بل لا خوان ولا كفور مِثْلهما ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلخ، فيه إشارةٌ إلى حالِ أهل التمكين وأنَّهم مهديُّون هادون، فلا شطحَ عندهم ولا يضلُّ أحدٌ بكلماتهم. ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ قيل: في القرية الظالمة إشارةٌ إلى القَلْب الغافل عن اللهِ تعالى، وفي البئر المعطَّلة

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣١٨.

إشارةٌ إلى الذهن الذي لم يستخرج منه الأفكار الصافية، وفي القَصْر المشيد إشارةٌ إلى البَدَن المشتمل على حُجُرات القوى.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ فيه إشارةٌ إلى سوء حالِ المحجوبينَ المنكِرين، فإنَّ قلوبَهم عُمْيٌ عن رؤية أنوارِ أهل الله تعالى، فإنَّ لهم أنواراً لا تُرى إلا بعينِ القلب، وبهذه العينِ تُدرَك حقائقُ الملك ودقائقُ الملكوت، وفي الحديث: «اتَّقوا فراسةَ المؤمن؛ فانَّه يَنظرُ بنورِ الله تعالى»(١).

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قد تقدَّم الكلامُ في اليوم وانقسامه، فتذكَّر. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: سترٌ عن الأغيارِ مَن أن يقفوا على حقيقتهم، كما يشير ما يَروونه مِن الحديث القدسيِّ: «أوليائي تحت قبابي لا يَعرفُهم أحدٌ غيري»(٢).

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: وهو العِلْمُ اللَّدُنيُّ الذي به غذاءُ الأرواح. وقال بعضهم: رزقُ القلوبِ حلاوةُ العرفان، ورزقُ الأسرار مشاهدةُ الجمال، ورزقُ الأرواح مكاشفةُ الجلال. وإلى هذا الرزقِ يشير عليه الصلاة والسلام بقوله: «أَبِيْتُ عند ربِّي يُطعمني ويَسقيني»(٣).

والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الآيات، على قول مَن زعم صحَّة حديثِ الغرانيق إلى أنَّه ينبغي أن يكون العبدُ فناء في إرادة مولاه عزَّ وجلَّ، وإلا ابتُلي بتلبيسِ الشيطان؛ ليتأدَّب، ولا يبقى ذلك التلبيسُ، لمنافاته الحكمة. ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن أوطانِ الطبيعة في طلب الحقيقة ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓا۟﴾ بسيف الصِّدْق والرياضة «أو مَاتُوا» بالجذبة عن أوصافِ البشريَّة ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو رزقُ

(١) سلف ١٠/ ١١٦.

(٢) هكذا ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين ٤/ ٣٥٧، ولم نقف عليه مسنداً.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ إسحاق بن راهويه في مسنده (١٠٣٥)، وهو عند البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه البخاري (١٩٦١)، ومسلم (١١٠٤)(٦٠) من حديث أنس، والبخاري (١٩٦٢)، ومسلم (١١٠٢) عن ابن عمر، والبخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣) عن أبي هريرة بنحوه رضي الله عنهم أجمعين.

دوام الوصلة كما قيل: أو هو كالرزقِ الكريم ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ فيه إشارةٌ إلى نَصْرِ السالك الذي عاقب نفسَه بالمجاهدة بعد أن عاقبته بالمخالفة، ثم ظلمته باستيلاءِ صفاتها.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أخذَ الصوفيَّة منه تَرْكَ الجدال مع المنكرين. وذكر بعضُهم أنَّ الجدالَ معهم عَبَثٌ كالجدال مع العنِّين في لذَّة الجماع. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ الآيةُ، فيه إشارةٌ إلى ذمِّ المتصوِّفة الذين إذا سمعوا الآياتِ الرادَّةَ عليهم، ظهر عليهم التجهُّم والبسور، وهم في زماننا كثيرونَ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ إلخ، إشارة إلى ذمِّ الغالين في أولياء الله تعالى حيث يستغيثونَ بهم في الشدَّة، غافلينَ عن الله تعالى، وينذرونَ لهم النذورَ، والعُقلاء منهم يقولون: إنَّهم وسائلُنا إلى الله تعالى وإنَّما نَنذُر لله عزَّ وجلَّ ونجعلُ ثوابه للوليِّ، ولا يَخفى أنَّهم في دعواهم الأُولى أشبهُ الناس بعبدةِ الأصنام القائلينَ: إنَّما نعبدهم؛ ليقرِّبونا إلى الله زُلفى. ودعواهم الثانية لا بأسَ بها لو لم يَطلبوا منهم بذلك شفاءَ مريضهم أو ردَّ غائبهم أو نحو ذلك، والظاهر مِن حالهم الطَّلَبُ، ويُرشِد إلى ذلك أنَّه لو قيل: انْذُروا للهِ تعالى واجعلوا ثوابَه لوالديكم؛ فإنَّهم أحوجُ مِن أولئك الأولياء، لم يَفعلوا، ورأيتَ كثيراً منهم يَسجدُ على أعتابِ حَجَرِ قبور الأولياء، ومنهم مَن يُثبت التصرُّفَ لهم جميعاً في قبورهم، لكنَّهم متفاوتونَ فيه حسَب تفاوت مراتِبهم، والعلماء منهم يَحصرون التصرُّف في القبور في أربعة أو خمسة، وإذا طُولبوا بالدليل، قالوا: ثبتَ ذلك بالكشف، قَاتَلَهم اللهُ تعالى ما أجهلهم وأَكْثَرَ افترائهم، ومنهم مَن يزعم أنَّهم يَخرجونَ مِن القبور ويتشكَّلون بأشكالٍ مختلفة، وعلماؤهم يقولون: إنَّما تَظهر أرواحُهم متشكِّلة وتطوفُ حيث شاءت، وربَّما تشكَّلت بصورة أسدٍ أو غزال أو نحوه، وكلُّ ذلك باطلٌ لا أصلَ له في الكتاب والسُّنَّة وكلامِ سَلَفِ الأمَّة، وقد أفسد هؤلاء على الناس دينَهم، وصاروا ضُحَكَةً لأهل الأديان المنسوخةِ من اليهود والنصارى، وكذا لأهل النِّحَل والدهريَّة، نسأل اللهَ تعالى العفوَ والعافية.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ شاملٌ لجميع أنواع المجاهدة، ومنها جهادُ النَّفْس وهو بتزكيتها بأداءِ الحقوق وتَرْك الحظوظ، وجهادُ القلب بتصفيته وقَطْع تعلُّقه عن الكونَيْن، وجهادُ الروح بإفناء الوجود، وقد قيل:

وجـــودُك ذنـــبٌ لا يُـــقـــاسُ بـــه ذنـــبُ(١)

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ تمسَّكوا به جلَّ وعلا في جميع أحوالكم «هو مولاكم» على الحقيقة ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ في إفناء وجودِكم ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ في إبقائكم، وما أَعظم هذه الخاتمةَ لقوم يعقلون، وسبحانَ ربِّك ربِّ العزةِ عمَّا يصفونَ، وسلامٌ على المرسَلِين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

تمَّ والحمد لله الجزء السابع عشر، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثامن عشر، وأوله: سورة «المؤمنون»

---

(١) هذا عجز بيت سمعه الجُنيد من جارية بدرب القراطيس، وصدره:

وإن قـلـتُ مـا أذنـبـتُ قـالـت مـجـيـبـةً

والبيت مذكور في ترجمة الجنيد في وفيات الأعيان ١/ ٣٧٤، والوافي بالوفيات ١١/ ٢٠٢، وشذرات الذهب ٣/ ٤١٨، وذكره أيضاً ابن حجة الحموي في ثمرات الأوراق ص٦٨ نقلاً عن وفيات الأعيان. مع العلم بأنه ورد في المصادر عدا الشذرات: حياتك، بدل: وجودك.

(٢٣) سُورَةُ المؤمنون مكية
وآياتها ثماني عشرة ومائة

سورةُ « المؤمنون » من السور المكية التي عالجت أصول الدين من التوحيدِ ، والرسالةِ ، والبعث ، وجاءت لتوطيد الدعائم التي قام عليها صرح الإسلام المجيد ، في إقامة الدلائل والبراهين على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وأسرار قدرته الفائقة في خلق الكائنات بما فيها من عجائب وغرائب ، وما احتوت عليه من آيات باهرة تنطق بعظمة الله وجلاله ، وكبريائه وبهائه ، وما يئول إليه حال البشرية بعد انتهاء الحياة على ظهر هذا الكوكب الأرضي ، حين يرجع الناس لله رب العالمين ، وينقسمون فريقين : فريقٌ في الجنة ، وفريقٌ في السعير .

سميت السورة الكريمة سورة المؤمنون لأن الله تعالى ذكر فيها جلائل أوصافهم ، وكرائمَ صفاتهم ، وعَرَض فيها للفضائل الإنسانية التي تحلّى بها أولئك الصفوةُ المؤمنون من عباد الله المخلصين ولذلك سميت « سورةُ المؤمنون » تخليداً لهم وإشادةً بمآثرهم وفضائلهم ، روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « كان إذا نزل الوحيُ على رسول الله ﷺ يُسمع عند وجهه كدويِّ النحل ، فبينا نحن عنده ذات يوم إذْ أخذه ما يأخذه عند نزول الوحي فلبثنا ساعة ثم رفع رأسه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهمَّ زدْنا ولا تَنْقُصنا ، وأكرمْنا ولا تُهِنَّا ، وأَعْطنا ولا تَحْرِمْنا ، وآثرنا ولا تُؤثِرْ علينا ، وأَرضِنَا وارْضَ عنا ، ثم قال : لقد أُنزل علي عشر آيات من أقامهنَّ

دخل الجنة ثم قرأ « قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ حتى ختم العشر .

تبتدىء السورة الكريمة بأوصاف المؤمنين العظيمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات الخُلد مع النبيين والصدّيقين ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاةِ فاعلونَ . والذين هم لفروجهم حافظون . إلاّ على أزواجِهم أو ما ملكَتْ أَيْمانُهم فانهم غيرُ ملومين . فمنْ ابتغَى وراءَ ذلكَ فأولئكَ همُ العادُون . والذينَ همْ لأماناتِهم وعَهْدِهم رَاعُون . والذين هم على صَلَواتِهم يُحَافظون . أولئكَ هم الوارثون . الذين يَرثونَ الفِرْدوسَ هم فيها خالدون﴾ . ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى بيان أدلة الوحدانية في خلق الإنسان والنبات والحيوان ، وتذكرُ بإِيضاحِ الأطوارَ التي مرَّبها خَلْقُ الإنسان حين كان جنيناً في بطن أمه ، وتقلُّبه في صُور وأشكال وهو داخل تلك الغرفة المظلمة من جرثومة صغيرة ، إلى نطفة ، إلى علقة ، إلى مضغة ثم إلى بشر سويٍّ وإنسانٍ سليم ، هو أثر قدرة الله العلي القدير ، وهذه الأطوار التي أشار إليها القرآنِ هي أحدثُ ما توصلت إليه النظريات العلمية الحديثة بعد أن تقدَّم علم الطب والتشريح ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طين . ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين . ثم خلقنا النُّطفةَ عَلَقةً ، فخلقنا العَلَقةَ مُضْغةً ، فخلقنا المُضْغةَ عظاماً ، فكسونا العظامَ لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك المَيّتُون . ثم إنكم يومَ القيامةِ تُبْعثون﴾ ومن خَلْقِ الإنسانِ إلى خلق السمواتِ البديعة ذاتِ الطرائق ، وإنزال المطر مدراراً الذي فيه حياةُ النفوس ثم حفظه في الأرض بقدرةِ المولى جل وعلا ، وإخراج أنواع النبات والنخيل والأعناب ، وكلُّ ذلك آياتٌ وشواهدُ على وحدانية الله وبديع خلقه

﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماءً بِقَدَرٍ فأسكنّاه في الأرض وإنّا على ذهابٍ به لقادرون . فأنشأنا لكم به جناتٍ من نخيلٍ وأعناب ، لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون﴾ . وبعد أن تذكر السورةُ الكريمة قَصَص بعض الأنبياء تسليةً لرسول الله عليه الصلاة والسلام لما ناله من تكذيبٍ واستهزاء من المشركين المعاندين ، تُعَقّب بهذا البيان الواضح في سنة الله في إهلاك المكذبين ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تَترا - أي يَتْبَع بعضُهم بعضاً - كلَّما جاء أمةً رسولُها كذَّبوه فأتبعْنا بعضَهم بعضاً وجعلناهم أحاديثَ فبعداً لقومٍ لا يؤمنون﴾ . ثم تحدثت السورة عن كفار مكة واغترارهم بما آتاهم الله من متاع الدنيا وما رزقهم من المال والبنين ظناً منهم أن الله أكرمهم بهذا المال حباً لهم ﴿ فَذَرْهُم في غَمْرتهم حتَّى حين . أيحسبونَ أنَّما نُمِدُّهم بهِ مالٍ وبنينَ . نُسَارعُ لهم في الخيراتِ ؟ بل لا يشعرون﴾ ولقد عرضتْ السورةُ لعناد المشركين ومكابرتهم بعد أن وضَحَ لهم الحقُّ وبانَ وضوحَ الشمسِ في رابعة النهار ، ومع ذلك كذَّبوا وعاندوا واتهموا رسول الله بالجنون ﴿ أفلم يدَّبَّروا القول أم جاءهم ما لم يأتِ آباءَهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جِنَّةٌ بل جاءهم بالحقّ وأكثرهم للحق كارهون﴾ ثم تنتقل السورة لإقامة الأدلة والبراهين على البعث وعلى وجود الله تعالى ووحدانيته وهما أهم ما يجادل فيه المبطلون من كفار قريش ﴿ وهو الذي أنشأَ لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تشكرون . وهو الذي ذَرَأكم في الأرضِ وإليه تُحشرون . وهو الذي يُحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ؟ بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا كنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ؟ لقد وُعدنا نحنُ وآباؤنا هذا من قبلُ إنْ هذا إلاّ أساطير الأولين﴾ . وتتحدث السورة عن الأهوال والشدائد التي يلقاها الكفار

عند الاحتضار وهم في سكرات الموت وقد عاينوا ما كانوا ينكرونه من مقدمات العذاب وتمنَّوا الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم ولكنْ هيهات ﴿حتى إذا جاءَ أحدَهُم الموتُ قال ربِّ ارجعونِ . لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ ، كلا إنها كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ الى يوم يُبعثون﴾ وبعد العالَمِ المشهود يأتي العَالَمُ الموعود وهو يوم الحشر والنشر ، ويوم الجمع الأكبر حيث ينقسم الناس فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وينقطع الحسبُ والنسبُ فلا ينفع إلا العمل الصالح ﴿فإذا نُفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون . فمن ثَقُلَتْ موازينُه فأولئك هم المفلحون . ومن خفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ وتختم السورة الكريمة ببيان ذلك الموقف المخزي الرهيب لأهل النار وهم يصطرخون فيها فلا يُجابون إلا بكلمات التوبيخ والتقريع لأنهم كانوا في الدنيا مجرمين ، يسخرون من المؤمنين المتقين ويهزءون ﴿تَلْفَح وجوهَهم النار وهم فيها كالحون . ألم تكنْ آياتي تُتلى عليكم فكنتم بها تكذبون . قالوا ربنا غلبت علينا شِقْوَتُنا وكنَّا قوماً ضالّين . ربنا أخرجنا منها فإن عُدنا فإنا ظالمون . قالوا اخسئوا فيها ولا تُكلمون . إنه كان فريقٌ من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سِخْرِيّاً حتى أنْسَوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون . إني جزيتُهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ إلى قوله سبحانه ﴿قال ربِّ اغفرْ وارحم وأنتَ خير الراحمين﴾ .

سورة المؤمنون

[٦٢١] أخرج الحاكم(١) عن أبي هريرة أن رسول الله [ﷺ] كان إذا صلّى رفع بصره إلى السماء فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾(٢) فطأطأ رأسه وأخرجه ابن مردويه بلفظ كان يلتفت في الصلاة.

[٦٢٢] وأخرجه سعيد بن منصور عن ابن سيرين مرسلاً بلفظ كان يقلب بصره فنزلت.

[٦٢٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن سيرين مرسلاً كان الصحابة يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فنزلت.

[٦٢٤] وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال وافقت ربي في أربع نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝﴾(٣) الآية. فلما نزلت قلت أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين.

[٦٢٥] وأخرج النسائي والحاكم عن ابن عباس قال جاء أبو سفيان إلى النبي [ﷺ] فقال يا محمد أنشدك بالله والرحم قد أكلنا العلهن يعني الوبر والدم فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝﴾(٤).

[٦٢٦] وأخرج البيهقي في الدلائل بلفظ أن ابن إياز الحنفي لما أتى به النبي [ﷺ] وهو أسير خلى سبيله وأسلم فلحق بمكة ثم رجع فحال بين أهل مكة وبين الميرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهن فجاء أبو سفيان إلى النبي [ﷺ]

---

[٦٢١] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٧٨) من حديث عمر بن الخطاب من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري به بنحو ما ذكر وروى الحديث المذكور بأبسط منه ص (١٧٨).

(٢) سورة المؤمنون: الآية (١).

[٦٢٤] (٣) سورة المؤمنون: الآية (١٢).

[٦٢٥] (٤) سورة المؤمنون: الآية (٧٦) ـ والحديث رواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٧٩) من طريق يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس بنحوه.

فقال ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين قال: «بلى» قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت.

[٦٢٧] وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تسمر حول البيت ولا تطوف به ويفتخرون به فأنزل الله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾(١).

* * *

[٦٢٧] (١) سورة المؤمنون: الآية (٦٧).

سورة المؤمنون

مائة وثمان عشرة آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ
اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ
ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ
عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ۝١١﴾

اعلم أنه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعًا لصفات سبع، وقبل الخوض في شرح تلك الصفات لا بد من بحثين:

البحث الأول: أن ﴿قَدْ﴾ نقيضة لما فقد تثبت المتوقع ولما تنفيه[1] ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه.

البحث الثاني: الفلاح: الظفر بالمراد وقيل: البقاء في الخير، وأفلح دخل في الفلاح كأبشر دخل في البشارة، ويقال: أفلحه صيره إلى الفلاح، وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول، وعنه أفلحوا على لغة أكلوني البراغيث أو على الإبهام والتفسير.

الصفة الأولى: قوله: ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ وقد تقدم القول في الإيمان في سورة البقرة.

الصفة الثانية: قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ واختلفوا في الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات، ومنهم من جمع بين الأمرين وهو الأولى. فالخاشع في صلاته لا بد وأن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود، ومن التروك أن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سوى التعظيم، ومما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكنًا مطرقًا ناظرًا إلى موضع سجوده، ومن التروك أن لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً، ولكن الخشوع الذي يرى على الإنسان ليس إلا ما

(١) كذا الصواب وما تنفيه يريد حرف النفي كقول المطيع: قد أطعت، وقول العاصي: ما أطعت (هامش).

يتعلق بالجوارح فإن ما يتعلق بالقلب لا يرى، قال: الحسن وابن سيرين كان المسلمون يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم، وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك فلما نزلت هذه الآية طأطأ وكان لا يجاوز بصره مصلاه، فإن قيل: فهل تقولون إن ذلك واجب في الصلاة؟ قلنا: إنه عندنا واجب ويدل عليه أمور:

أحدها: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى، وكذا قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] معناه قف على عجائبه ومعانيه.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤] وظاهر الأمر للوجوب والغفلة تضاد الذكر فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيمًا للصلاة لذكره.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وظاهر النهي للتحريم.

ورابعها: قوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق المهتم بالدنيا.

وخامسها: قوله عليه السلام: «إِنَّمَا الْخُشُوعُ لِمَنْ تَمَسْكَنَ وَتَوَاضَعَ»(١) وكلمة إنما للحصر، وقوله عليه السلام: «مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ بُعْدًا»(٢) وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء، وقال عليه السلام: «كَمْ مِنْ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ التَّعَبُ وَالنَّصَبُ»(٣) وما أراد به إلا الغافل، وقال أيضًا: «لَيسَ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ إِلاَّ مَا عَقَلَ»(٤).

وسادسها: قال الغزالي رحمه الله: المصلي يناجي ربه كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة

---

(١) لم أجده.

(٢) ضعيف: أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٣٠٥)، حديث رقم (٥٠٨) من طريق مقدام بن داود حدثنا علي بن معبد حدثنا هشيم عن يونس عن الحسن... فذكره ورواه الطبراني في (الكبير) (١١/ ٥٤)، حديث رقم (١١٠٢٥)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (١١/ ٤٤٤)، حديث رقم (١٨١٨٧)، كلاهما من طريق أبي معاوية عن ليث عن طاوس عن ابن عباس... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٢/ ٢٥٨)، وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه ليث بن أبي سليم وهو ثقة ولكنه مدلس، وقال الذهبي: قال ابن الجنيد: كذب وزور. قال الحافظ العراقي: حديث إسناده لين، قال الألباني: باطل لا يصح من قبل إسناده ولا من جهة متنه. (ميزان الاعتدال) (٣/ ٢٩٣). (تخريج الإحياء) (١/ ١٤٣). (السلسلة الضعيفة) (٢/ ٩٨٥).

(٣) حسن صحيح: أخرجه ابن ماجه في كتاب (الصيام)، باب: (في الغيبة والرفث للصائم) (١/ ٥٣٩)، حديث رقم (١٦٩٠) من طريق أسامة بن زيد... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٤٤١) من طريق أسامة... به، والدارمي في كتاب (الرقاق)، باب: (في المحافظة على الصوم) (٢/ ١٨٤)، حديث رقم (٢٧٢٠) من طريق عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عمرو بن أبي عمرو عن سعيد المقبري... به، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٤٣١) من طريق عمرو بن أبي عمرو... به، قال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والديلمي في (فردوس الأخبار) (٢/ ٣٩٥)، حديث رقم (٣٠٦٨)، كلاهما عن سعيد المقبري... به، جميعًا من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة بلفظ وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر.

(٤) لم أجده.

ليس بمناجاة ألبتة، وبيانه أن الإنسان إذا أدى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها على بعض الوجوه، وهو كسر الحرص وإغناء الفقير، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى التي هي عدوة الله تعالى. فلا يبعد أن يحصل منه مقصوده مع الغفلة، وكذا الحج أفعال شاقة، وفيه من المجاهدة ما يحصل به الابتلاء سواء كان القلب حاضرًا أو لم يكن. أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود، أما الذكر فإنه مناجاة مع الله تعالى. فإما أن يكون المقصود منه كونه مناجاة، أو المقصود مجرد الحروف والأصوات، ولا شك في فساد هذا القسم فإن تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح. فثبت أن المقصود منه المناجاة وذلك لا يتحقق إلا إذا كان اللسان معبرًا عما في القلب من التضرعات فأي سؤال في قوله ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وكان القلب غافلاً عنه؟ بل أقول: لو حلف إنسان، وقال: والله لأشكرن فلانًا وأثني عليه وأسأله حاجة. ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في اليوم لم يبر في يمينه ولو جرى على لسانه في ظلمة الليل وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارًا في يمينه، ولا يكون كلامه خطابًا معه ما لم يكن حاضرًا بقلبه، ولو جرت هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر في بياض النهار إلا أن المتكلم غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب عليه عند نطقه لم يصر بارًا في يمينه، ولا شك أن المقصود من القراءة الأذكار والحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله تعالى، فإذا كان القلب محجوبًا بحجاب الغفلة وكان غافلاً عن جلال الله وكبريائه، ثم إن لسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد ذلك عن القبول. وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم، ولو جاز أن يكون تعظيمًا لله تعالى مع أنه غافل عنه؛ لجاز أن يكون تعظيمًا للصنم الموضوع بين يديه وهو غافل عنه، ولأنه إذا لم يحصل التعظيم لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس، وليس فيها من المشقة ما يصير لأجله عمادًا للدين، وفاصلاً بين الكفر والإيمان، ويقدم على الحج والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقة، ويجب القتل بسببه على الخصوص، وبالجملة فكل عاقل يقطع بأن مشاهدة الخواص العظيمة ليس أعمالها الظاهرة إلا أن ينضاف إليها مقصود هذه المناجاة، فدلت هذه الاعتبارات على أن الصلاة لا بد فيها من الحضور.

وسابعها: أن الفقهاء اختلفوا فيما ينويه بالسلام عند الجماعة والانفراد، هل ينوي الحضور أو الغيبة والحضور معًا. فإذا احتيج إلى التدبر في معنى السلام الذي هو آخر الصلاة فلأن يحتاج إلى التدبر في معنى التكبير والتسبيح التي هي الأشياء المقصودة من الصلاة بالطريق الأولى، واحتج المخالف بأن اشتراط الخضوع والخشوع على خلاف اجتماع الفقهاء فلا يلتفت إليه والجواب: من وجوه: أحدها: أن الحضور عندنا ليس شرطًا للإجزاء، بل شرط للقبول، والمراد من الإجزاء أن لا يجب القضاء، والمراد من القبول حكم الثواب. والفقهاء إنما يبحثون

عن حكم الإجزاء لا عن حكم الثواب، وغرضنا في هذا المقام هذا، ومثاله في الشاهد من استعار منك ثوبًا ثم رده على الوجه الأحسن، فقد خرج عن العهدة واستحق المدح، ومن رماه إليك على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة، ولكنه استحق الذم، كذا من عظم الله تعالى حال أدائه العبادة صار مقيمًا للفرض مستحقًا للثواب، ومن استهان بها صار مقيمًا للفرض ظاهرًا لكنه استحق الذم. وثانيها: أنا نمنع هذا الإجماع، أما المتكلمون فقد اتفقوا على أنه لا بد من الحضور والخشوع، واحتجوا عليه بأن السجود لله تعالى طاعة وللصنم كفر، وكل واحد منهما يماثل الآخر في ذاته ولوازمه، فلا بد من أمر لأجله صار السجود في إحدى الصورتين طاعة، وفي الأخرى معصية، قالوا: وما ذاك إلا القصد والإرادة، والمراد من القصد: إيقاع تلك الأفعال لداعية الامتثال، وهذه الداعية لا يمكن حصولها إلا عند الحضور، فلهذا اتفقوا على أنه لا بد من الحضور، أما الفقهاء فقد ذكر الفقيه أبو الليث رحمه الله في تنبيه الغافلين: أن تمام القراءة أن يقرأ بغير لحن وأن يقرأ بالتفكر. وأما الغزالي رحمه الله فإنه نقل عن أبي طالب المكي عن بشر الحافي أنه قال: من لم يخشع فسدت صلاته. وعن الحسن رحمه الله: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع. وعن معاذ بن جبل: من عرف من على يمينه وشماله متعمدًا وهو في الصلاة فلا صلاة له. وروي أيضًا مسندًا قال عليه السلام: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ لاَ يُكْتَبُ لَهُ سُدُسُهَا وَلاَ عُشْرُهَا، وَإِنَّمَا يُكْتَبُ لِلْعَبْدِ مِنْ صَلَاتِهِ مَا عَقَلَ مِنْهَا» وقال عبد الواحد بن زيد: أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل، وادعى فيه الإجماع إذا ثبت هذا فنقول هب أن الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز، أليس الأصوليون وأهل الورع ضيقوا الأمر فيها، فهلا أخذت بالاحتياط فإن بعض العلماء اختار الإمامة، فقيل له في ذلك فقال: أخاف إن تركت الفاتحة أن يعاتبني الشافعي، وإن قرأتها مع الإمام أن يعاتبني أبو حنيفة، فاخترت الإمامة طلبًا للخلاص عن هذا الاختلاف، والله أعلم.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ وفي اللغو أقوال: أحدها: أنه يدخل فيه كل ما كان حرامًا أو مكروهًا أو كان مباحًا، ولكن لا يكون بالمرء إليه ضرورة وحاجة. وثانيها: أنه عبارة عن كل ما كان حرامًا فقط، وهذا التفسير أخص من الأول. وثالثها: أنه عبارة عن المعصية في القول والكلام خاصة، وهذا أخص من الثاني. ورابعها: أنه المباح الذي لا حاجة إليه، واحتج هذا القائل بقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] فكيف يحمل ذلك على المعاصي التي لا بد فيها من المؤاخذة، واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمي لغوًا بما أنه يلغي وكل ما يقتضي الدين إلغاءه كان أولى باسم اللغو، فوجب أن يكون كل حرام لغوًا، ثم اللغو قد يكون كفرًا لقوله: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] وقد يكون كذبًا لقوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١] وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥] ثم إنه سبحانه وتعالى مدحهم بأنهم يعرضون عن هذا اللغو والإعراض عنه، هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا

يخالط من يأتيه، وعلى هذا الوجه قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] واعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو؛ ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الأنفس الذين هما قاعدتا بناء التكليف وهو أعلم.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ﴾ وفي الزكاة قولان: أحدهما: قول أبي مسلم: أن فعل الزكاة يقع على كل فعل محمود مرضي، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] ومن جملته ما يخرج من حق المال، وإنما سمى بذلك لأنها تطهر من الذنوب لقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. والثاني: وهو قول الأكثرين أنه الحق الواجب في الأموال خاصة وهذا هو الأقرب؛ لأن هذه اللفظة قد اختصت في الشرع بهذا المعنى، فإن قيل: إنه لا يقال في الكلام الفصيح إنه فعل الزكاة، قلنا: قال صاحب (الكشاف): الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير، والمعنى فعل المزكى الذي هو التزكية وهو الذي أراده الله تعالى فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل. ويقال لمحدثه: فاعل، يقال للضارب فاعل الضرب، وللقاتل: فاعل القتل، وللمزكى: فاعل الزكاة، وعلى هذا الكلام كله يجوز أن يراد بالزكاة العين، ويقدر مضاف محذوف وهو الأداء فإن قيل: إن الله تعالى هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة، فلم فصل هاهنا بينهما بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾؟ قلنا: لأن الإعراض عن اللغو من متممات الصلاة.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ **وفيه سؤالات:**

السؤال الأول: لِمَ لمْ يقل إلا عن أزواجهم؟ الجواب: قال الفراء: معناه إلا من أزواجهم وذكر صاحب (الكشاف) فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه في موضع الحال أي إلا والين على أزواجهم أو قوّامين عليهن منَ قولك كان فلان على فلانة، ونظيره كان زياد على البصرة أي: واليًا عليها، ومنه قولهم: فلانة تحت فلان ومن ثَمَّ سميت المرأة فراشًا. والمعنى أنهم: لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم. وثانيها: أنه متعلق بمحذوف يدل عليه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ كأنه قيل: يلامون إلا على أزواجهم أي: يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه وهو قول الزجاج: وثالثها: أن تجعله صلة لحافظين.

السؤال الثاني: هلا قيل: من ملكت؟ الجواب: لأنه اجتمع في السرية وصفان: أحدهما: الأنوثة وهي مظنة نقصان العقل والآخر كونها بحيث تباع وتشتري كسائر السلع، فلاجتماع هذين الوصفين فيها جعلت كأنها ليست من العقلاء.

السؤال الثالث: هذه الآية تدل على تحريم المتعة على ما يروى عن القاسم بن محمد. الجواب: نعم، وتقريره أنها ليست زوجة له فوجب أن لا تحل له، وإنما قلنا: إنها ليست زوجة

له؛ لأنهما لا يتوارثان بالإجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢] وإذا ثبت أنها ليست بزوجة له وجب أن لا تحل له لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وهو أعلم.

السؤال الرابع: أليس لا يحل له في الزوجة وملك اليمين الاستمتاع في أحوال كحال الحيض وحال العدة وفي الأمة حال تزويجها من الغير وحال عدتها، وكذا الغلام داخل في ظاهر قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ والجواب: من وجهين: أحدهما: أن مذهب أبي حنيفة رحمه الله أن الاستثناء من النفي لا يكون إثباتًا واحتج عليه بقوله عليه السلام: «لاَ صَلاَةَ إِلاَّ بِطَهُورٍ وَلاَ نِكَاحَ إِلاَّ بِوَلِيٍّ» فإن ذلك لا يقتضي حصول الصلاة بمجرد حصول الطهور وحصول النكاح بمجرد حصول الولي. وفائدة الاستثناء صرف الحكم لا صرف المحكوم به فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ معناه: أنه يجب حفظ الفروج عن الكل إلا في هاتين الصورتين فإني ما ذكرت حكمهما لا بالنفي ولا بالإثبات. الثاني: أنا إن سلمنا أن الاستثناء من النفي إثبات، فغايته أنه عام دخله التخصيص بالدليل فيبقى فيما وراءه حجة.

أما قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ يعني الكاملون في العدوان المتناهون فيه.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ قرأ نافع وابن كثير (لأمانتهم) واعلم أنه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدًا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقال: ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧] وإنما تؤدي العيون دون المعاني فكان المؤتمن عليه الأمانة في نفسه، والعهد ما عقده على نفسه فيما يقربه إلى ربه ويقع أيضًا على ما أمر الله تعالى به كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ [آل عمران: ١٨٣] والراعي القائم على الشيء لحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية، ويقال: من راعى هذا الشيء؟ أي متوليه. واعلم أن الأمانة تتناول كل ما تركه يكون داخلاً في الخيانة وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٧] فمن ذلك العبادات التي المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل في ذلك؛ لأنها إما أن تخفى أصلاً كالصوم وغسل الجنابة وإسباغ الوضوء أو تخفى كيفية إتيانه بها وقال عليه السلام: «أَعْظَمُ النَّاسِ خِيَانَةً مَنْ لَمْ يُتِمَّ صَلاَتَهُ» (١) وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الأَمَانَةُ وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ الصَّلاَةُ» (٢) ومن جملة ذلك ما يلتزمه بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل

---

(١) لم أجده.

(٢) صحيح موقوف: أخرجه سعيد بن منصور في (تفسيره) (١/ ٩٨)، حديث رقم (٩٦)، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٦/ ٢٨٩)، كلاهما من طريق عبد العزيز بن رفيع سمع شداد بن معقل سمع عبد الله بن مسعود... فذكره، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (٧/ ٢٦٠)، حديث رقم (٣٥٨٧٨) من طريق مالك بن مغول عن سلمة بن كهيل عن أبي الزعراء قال: قال عبد الله... به، ورواه الخرائطي في (مكارم الأخلاق) (١/ ١٧١)، حديث رقم (١٦٤) من طريق عبد العزيز بن رفيع عن شداد بن معقل عن عبد الله بن مسعود... فذكره.

بهما. ومن ذلك الأقوال التي يحرم بها العبيد والنساء؛ لأنه مؤتمن في ذلك، ومن ذلك أن يراعى أمانته فلا يفسدها بغصب أو غيره، وأما العهد فإنه دخل فيه العقود والأيمان والنذور، فبيَّن سبحانه أن مراعاة هذه الأمور والقيام بها معتبر في حصول الفلاح.

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وإنما أعاد تعالى ذكرها؛ لأن الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين، فإن الخشوع صفة للمصلي في حال الأداء لصلاته والمحافظة إنما تصح حال ما لم يؤدها بكمالها. بل المراد بالمحافظة التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما والقيام على أركانها وإتمامها حتى يكون ذلك دأبه في كل وقت، ثم لما ذكر الله تعالى مجموع هذه الأمور قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: لِمَ سمى ما يجدونه من الثواب والجنة بالميراث؟ مع أنه سبحانه حكم بأن الجنة حقهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] الجواب: من وجوه: الأول: ما روي عن الرسول ﷺ وهو أَبْيَنُ على ما يقال فيه وهو: أنه لا مكلف إلا أعد الله له في النار ما يستحقه إن عصى وفي الجنة ما يستحقه إن أطاع وجعل لذلك علامة. فإذا آمن منهم البعض ولم يؤمن البعض صار منزل من لم يؤمن كالمنقول إلى المؤمنين وصار مصيرهم إلى النار الذي لا بد معه من حرمان الثواب كموتهم، فسمى ذلك ميراثًا لهذا الوجه، وقد قال الفقهاء: إنه لا فرق بين ما ملكه الميت وبين ما يقدر فيه الملك في أنه يورث عنه كذلك قالوا في الدية التي تجب بالقتل: إنها تورث مع أنه ما ملكها على التحقيق وذلك يشهد بما ذكرنا، فإن قيل: إنه تعالى وصف كل الذي يستحقونه إرثًا وعلى ما قلتم يدخل في الإرث ما كان يستحقه غيرهم لو أطاع. قلنا: لا يمتنع أنه تعالى جعل ما هو منزلة لهذا المؤمن بعينه منزلة لذلك الكافر لو أطاع؛ لأنه عند ذلك كان يزيد في المنازل فإذا آمن هذا عدل بذلك إليه. وثانيها: أن انتقال الجنة إليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره يشبه انتقال المال إلى الوارث. وثالثها: أن الجنة كانت مسكن أبينا آدم عليه السلام فإذا انتقلت إلى أولاده صار ذلك شبيهًا بالميراث.

السؤال الثاني: كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبع بالفلاح مع أنه تعالى ما تمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة؟ والجواب: أن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ يأتي على جميع الواجبات من الأفعال والتروك كما قدمنا والطهارات دخلت في جملة المحافظة على الصلوات الخمس لكونها من شرائطها.

السؤال الثالث: أفيدل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ على أنه لا يدخلها غيرهم؟ الجواب: أن قوله: ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ يفيد الحصر لكنه يجب ترك العمل به؛ لأنه ثبت أن الجنة يدخلها الأطفال والمجانين والولدان والحور العين ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو، لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]

السؤال الرابع: أفكل الجنة هو الفردوس؟ الجواب: الفردوس هو الجنة بلسان الحبشة وقيل: بلسان الروم، وروى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْفِرْدَوْسُ مَقْصُورَةُ الرَّحْمَنِ فِيهَا الْأَنْهَارُ وَالْأَشْجَارُ**»(١) وروى أبو أمامة عنه عليه السلام أنه قال: «**سَلُوا اللَّهَ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهَا أَعْلَى الْجِنَانِ، وَإِنَّ أَهْلَ الْفِرْدَوْسِ يَسْمَعُونَ أَطِيطَ الْعَرْشِ**»(٢).

السؤال الخامس: هل تدل الآية على أن هذه الصفات هي التي لها ولأجلها يكونون مؤمنين أم لا؟ الجواب: ادعى القاضي أن الأمر كذلك بناء على مذهبه أن الإيمان اسم شرعي موضوع لأداء كل الواجبات، وعندنا أن الآية لا تدل على ذلك؛ لأن قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ مثل قد أفلح الناس الأذكياء العدول، فإن هذا لا يدل على أن الزكاة والعدالة داخلان في مسمى الناس فكذا هاهنا.

السؤال السادس: روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى جَنَّةَ عَدْنٍ قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**»(٣) وقال كعب: «**خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ بِيَدِهِ وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ وَغَرَسَ شَجَرَةَ طُوبَى بِيَدِهِ، ثم قال لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**»(٤) وروي أنه عليه السلام قال: «**إِذَا أَحْسَنَ الْعَبْدُ الْوُضُوءَ وَصَلَّى الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا وَحَافَظَ عَلَى رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَمَوَاقِيتِهَا قَالَتْ: حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَافَظْتَ عَلَيَّ، وَشَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا. وَإِذَا أَضَاعَهَا قَالَتْ: أَضَاعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي وَتُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوْبُ الْخَلِقُ فَيُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا**»(٥) الجواب: أما كلام الجنة فالمراد به أنها

---

(١) أورده ابن أبي حاتم في (التفسير) (٩/ ٢٤٤)، وقال عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره.

(٢) **إسناده ضعيف جدًا:** أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٠٢)، حديث رقم (٢٤٠٢) من طريق إسرائيل بن يونس عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة... بنحوه، وقال: هذا حديث لم نكتبه إلا من هذا الإسناد ولم نجد من أخرجه، وقال الذهبي معلقًا: جعفر هالك، والطبراني في (الكبير) (٨/ ٢٤٦)، حديث رقم (٧٩٨٢)، وأبو نعيم في (صفة الجنة) (٢/ ٦٠)، حديث رقم (٤٦٩)، كلاهما من طريق إبراهيم بن طهمان عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة... به، والروياني في (مسنده) (٢/ ٤٥٩)، حديث رقم (١٢٦٥) من طريق إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة... به، والحديث مداره على جعفر بن الزبير، قال الحافظ في التقريب: متروك الحديث.

(٣) **ضعيف:** أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٢٦)، حديث رقم (٣٤٨٠) من طريق العباس بن محمد الدوري حدثنا علي بن عاصم أنبأنا حميد الطويل عن أنس بن مالك... به، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في تعليقه: بل ضعيف، والطبراني في (الأوسط) (١/ ٢٢٤)، حديث رقم (٧٣٨)، وفي (الكبير) (١١/ ١٨٤)، حديث رقم (١١٤٣٩)، كلاهما من طريق عطاء عن ابن عباس... به.

(٤) **صحيح موقوف:** أخرجه أبو سعيد في (نقض الدارمي) (١/ ٢٦٥)، والآجري في (الشريعة) (٢/ ٣٣٦)، حديث رقم (٧٥٣)، وابن المبارك في (الزهد) (١/ ٥١٢)، حديث رقم (١٤٥٨)، جميعًا من طريق قتادة عن أنس عن أبيه... به.

(٥) **إسناده ضعيف:** أخرجه أبو داود الطيالسي في (مسنده) (١/ ٨٠)، حديث رقم (٥٨٥) من طريق محمد بن مسلم عن أبي الوضاح عن الأحوص بن حكيم... به، والطبراني في (مسند الشاميين) (١/ ٢٣٩)، حديث رقم (٤٢٧)=

أعدت للمؤمنين فصار ذلك كالقول منها، وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وأما أنه تعالى خلق الجنة بيده فالمراد تولى خلقها لا أنه وكله إلى غيره، وأما أن الصلاة تثنى على من قام بحقها فهو في الجواز أبعد من كلام الجنة؛ لأن الصلاة حركات وسكنات ولا يصح عليها أن تتصور وتتكلم فالمراد منه ضرب المثل كما يقول القائل للمنعم: إن إحسانك إليَّ ينطق بالشكر.

السؤال السابع: هل تدل الآية على أن الفردوس مخلوقة؟ الجواب: قال القاضي: دل قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] على أنها غير مخلوقة فوجب تأويل هذه الآية، كأنه تعالى قال: إذا كان يوم القيامة يخلق الله الجنة ميراثًا للمؤمنين أو وإذا خلقها تقول على مثال ما تأولنا عليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] وهذا ضعيف؛ لأنه ليس إضمار ما ذكره في هذه الآية أولى من أن يضمر في قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ ثم إن أكلها دائم، يوم القيامة، وإذا تعارض هذان الظاهران فنحن نتمسك في أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما أمر بالعبادات في الآية المتقدمة، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق، لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعًا:

النوع الأول: الاستدلال بتقلب الإنسان في أدوار الخلقة وأكوان الفطرة وهي تسعة:

المرتبة الأولى: قوله سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ والسلالة: الخلاصة؛ لأنها تسل من بين الكدر، فُعالة وهو بناء يدل على القلة كالقُلامة والقُمامة، واختلف

=من طريق ثور بن يزيد عن خالد بن معدان... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ١٤٣)، حديث رقم (٣١٤٠).

وقال: حدثنا أبو بكر بن فورك، أنا عبد الله بن جعفر، ثنا يونس بن حبيب، ثنا أبو داود، ثنا محمد بن مسلم بن أبي الوضاح، عن الأحوص بن حكيم ح وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأ أبو إسحاق إبراهيم بن عصمة بن إبراهيم ثنا المسيب بن زهير، ثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد الدشتكي، ثنا زهير بن معاوية، ثنا أبو خيثمة، ثنا الأحوص بن حكيم قال: حدثني خالد بن معدان، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ... الحديث، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٢/ ١٢٢).

وقال: رواه الطبراني في (الكبير) والبزار بنحوه وفيه الأحوص بن حكيم وثَّقه ابن المديني والعجلي وضعفه جماعة وبقية رجاله موثَّقون، وأورده الألباني في (ضعيف الجامع) (١٣١٤) وقال ضعيف.

أهل التفسير في الإنسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل: المراد منه آدم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين، ثم جعلنا الكناية راجعة إلى الإنسان الذي هو ولد آدم، والإنسان شامل لآدم عليه السلام ولولده، وقال آخرون: الإنسان هاهنا ولد آدم والطين هاهنا اسم آدم عليه السلام، والسلالة هي الأجزاء الطينية المبثوثة في أعضائه التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المني صارت منيًّا، وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨] وفيه وجه آخر، وهو أن الإنسان إنما يتولد من النطفة وهي إنما تتولد من فضل الهضم الرابع وذلك إنما يتولد من الأغذية، وهي إما حيوانية وإما نباتية، والحيوانية تنتهي إلى النباتية، والنبات إنما يتولد من صفو الأرض والماء فالإنسان بالحقيقة يكون متولدًا من سلالة من طين، ثم إن تلك السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منيًّا، وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه إلى التكلفات.

المرتبة الثانية: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ومعنى جعل الإنسان نطفة أنه خلق جوهر الإنسان أولاً طينًا، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة في أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع إلى رحم المرأة فصار الرحم قرارًا مكينًا لهذه النطفة والمراد بالقرار: موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها كقولك: طريق سائر أو لمكانتها في نفسها؛ لأنها تمكنت من حيث هي وأحرزت.

المرتبة الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: حولنا النطفة عن صفاتها إلى صفات العلقة وهي الدم الجامد.

المرتبة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي: قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ كالغرفة وهي مقدار ما يغترف، وسمى التحويل خلقًا؛ لأنه سبحانه يفني بعض أعراضها ويخلق أعراضًا غيرها فسمى خلق الأعراض خلقًا لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.

المرتبة الخامسة: قوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ أي: صيرناها كذلك وقرأ ابن عامر (عظمًا) والمراد منه الجمع كقوله: (والملك صفًّا صفًّا).

المرتبة السادسة: قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ وذلك لأن اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة لها.

المرتبة السابعة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: خلقًا مباينًا للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانًا وكان جمادًا، وناطقًا وكان أبكم، وسميعًا وكان أصم، وبصيرًا وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين، ولا شرح الشارحين، وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هو تصريف الله إياه بعد الولادة في أطواره في زمن الطفولية وما بعدها

إلى استواء الشباب، وخلق الفهم والعقل وما بعده إلى أن يموت، ودليل هذا القول أنه عقَّبه بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ وهذا المعنى مروي أيضًا عن ابن عباس وابن عمر، وإنما قال: ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾ لأنه جعل إنشاء الروح فيه، وإتمام خلقه إنشاء له قالوا: في الآية دلالة على بطلان قول النظام في أن الإنسان هو الروح لا البدن فإنه سبحانه بيَّن أن الإنسان هو المركب من هذه الصفات، وفيها دلالة أيضًا على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون: إن الإنسان شيء لا ينقسم، وإنه ليس بجسم.

أما قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: فتعالى الله فإن البركة يرجع معناها إلى الامتداد والزيادة، وكل ما زاد على الشيء فقد علاه، ويجوز أن يكون المعنى، والبركات والخيرات كلها من الله تعالى، وقيل: أصله من البروك وهو الثبات، فكأنه قال: والبقاء والدوام. والبركات كلها منه فهو المستحق للتعظيم والثناء، وقوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي: أحسن المقدرين تقديرًا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: قالت المعتزلة: لولا أن الله تعالى قد يكون خالقًا لفعله إذا قدره لما جاز القول بأنه أحسن الخالقين، كما لو لم يكن في عباده من يحكم ويرحم لم يجز أن يقال فيه: أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، والخلق في اللغة هو كل فعل وجد من فاعله مقدرًا لا على سهو وغفلة، والعباد قد يفعلون ذلك على هذا الوجه، قال الكعبي: هذه الآية، وإن دلت على أن العبد خالق إلا أن اسم الخالق لا يطلق على العبد إلا مع القيد كما أنه يجوز أن يقال: رب الدار، ولا يجوز أن يقال: رب بلا إضافة، ولا يقول العبد لسيده هو ربي، ولا يقال: إنما قال الله تعالى ذلك؛ لأنه سبحانه وصف عيسى عليه السلام بأنه يخلق من الطين كهيئة الطير؛ لأنا نجيب عنه من وجهين: أحدهما: إن ظاهر الآية يقتضي أنه سبحانه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ الذين هم جمع فحمله على عيسى خاصة لا يصح. الثاني: أنه إذا صح وصف عيسى بأنه يخلق صح وصف غيره من المصورين أيضًا بأنه يخلق؟ وأجاب أصحابنا: بأن هذه الآية معارضة بقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] فوجب حمل هذه الآية على أنه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ في اعتقادكم وظنكم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي: هو أهون عليه في اعتقادكم وظنكم. والجواب الثاني: هو أن الخالق هو المقدر؛ لأن الخلق هو التقدير والآية تدل على أنه سبحانه أحسن المقدرين، والتقدير يرجع معناه إلى الظن والحسبان، وذلك في حق الله سبحانه محال؛ فتكون الآية من المتشابهات. والجواب الثالث: أن الآية تقتضي كون العبد خالقًا بمعنى كونه مقدرًا، لكن لم قلت. بأنه خالق بمعنى كونه موجدًا!.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن كل ما خلقه حسن وحكمة وصواب وإلا لما جاز وصفه بأنه أحسن الخالقين، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقًا للكفر والمعصية فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما؟ والجواب: من الناس من حمل الحسن على الإحكام

والاتقان في التركيب والتأليف، ثم لو حملناه على ما قالوه فعندنا أنه يحسن من الله تعالى كل الأشياء؛ لأنه ليس فوقه أمر ونهي حتى يكون ذلك مانعًا له عن فعل شيء.

المسألة الثالثة: روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله ﷺ فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ عجب من ذلك فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «اكْتُبْ فَهَكَذَا نَزَلَتْ» فشك عبد الله وقال: إن كان محمد صادقًا فيما يقول فإنه يوحى إليَّ كما يوحى إليه، وإن كان كاذبًا فلا خير في دينه فهرب إلى مكة فقيل: إنه مات على الكفر، وقيل: إنه أسلم يوم الفتح(١)، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «هَكَذَا نَزَلَتْ يَا عُمَرُ»(٢) وكان عمر يقول: وافقني ربي في أربع، في الصلاة خلف المقام، وفي ضرب الحجاب على النسوة، وقولي لهن: لتنتهن أو ليبدلنه الله خيرًا منكن، فنزل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] والرابع قلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فقال «هَكَذَا نَزَلَتْ»(٣). قال العارفون: هذه الواقعة كانت سبب السعادة لعمر، وسبب الشقاوة لعبد الله كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] فإن قيل: فعلى كل الروايات قد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن، وذلك يقدح في كونه معجزًا كما ظنه عبد الله. والجواب: هذا غير مستبعد إذا كان قدره القدر الذي لا يظهر فيه الإعجاز فسقطت شبهة عبد الله.

المرتبة الثامنة: قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ قرأ ابن أبي عبلة وابن محيصن (لمائتون) والفرق بين الميت والمائت، أن الميت كالحي صفة ثابتة، وأما المائت فيدل على الحدوث تقول. زيد ميت الآن ومائت غدًا، وكقولك يموت ونحوهما: ضيق: وضائق في قوله: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢].

المرتبة التاسعة: قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فالله سبحانه جعل الإماتة التي هي إعدام الحياة والبعث الذي هو إعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين أيضًا على اقتدار عظيم بعد الإنشاء والاختراع **وهاهنا سؤالات**:

السؤال الأول: ما الحكمة في الموت، وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم الدنيا فيكون ذلك

---

(١) **إسناده ضعيف**: أورده ابن عادل في (اللباب) (١١/ ٤٧٧)، قال: روى الكلبي عن ابن عباس أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح... فذكره، والكلبي: هو محمد بن السائب الكلبي متهم بالكذب.

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) (١١/ ٤٣٨)، حديث رقم (١٢٢٤٤)، وفي (الأوسط) (٦/ ١٦)، حديث رقم (٥٦٦٢)، كلاهما من طريق عبيدة عن فضيل بن عياض عن بشر بن السري حدثنا رباح بن معوض المكي عن سالم بن عجلان الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٩/ ٦٨)، وقال: رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط) وفيه أبو عبيدة بن الفضيل بن عياض وهو لين وبقية رجاله ثقات.

(٣) انظر سابقه.

في الأنعام أبلغ؟ والجواب: هذا كالمفسدة في حق المكلفين؛ لأنه متى عجّل للمرء الثواب فيما يتحمله من المشقة في الطاعات صار إتيانه بالطاعات لأجل تلك المنافع لا لأجل طاعة الله، يبين ذلك أنه لو قيل لمن يصلي ويصوم: إذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة في الحال، فإنه لا يأتي بذلك الفعل إلا لطلب الجنة، فلاجرم أخره الله تعالى وبعَّده بالإماتة ثم الإعادة؛ ليكون العبد عابدًا لربه بطاعته لا لطلب الانتفاع.

السؤال الثاني: هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ ولم يذكر بين الأمرين الإحياء في القبر والإماتة. والجواب من وجهين: الأول: أنه ليس في ذكر الحياتين نفي الثالثة. والثاني: أن الغرض من ذكر هذه الأجناس الثلاثة الإنشاء والإماتة والإعادة، والذي ترك ذكره فهو من جنس الإعادة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝١٧﴾

النوع الثاني: من الدلائل الاستدلال بخلقة السموات وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

فقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سموات وإنما قيل لها: طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض يقال: طارق الرجل نعليه إذا أطبق نعلاً على نعل وطارق بين ثوبين إذا لبس ثوبًا فوق ثوب. هذا قول الخليل، والزجاج، والفراء، قال الزجاج: هو كقوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥] وقال علي بن عيسى: سميت بذلك؛ لأنها طرائق للملائكة في العروج والهبوط والطيران، وقال آخرون: لأنها طرائق الكواكب فيها مسيرها والوجه في إنعامه علينا بذلك أنه تعالى جعلها موضعًا لأرزاقنا بإنزال الماء منها، وجعلها مقرًا للملائكة؛ ولأنها موضع الثواب؛ ولأنها مكان إرسال الأنبياء ونزول الوحي.

أما قوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ففيه وجوه: أحدها: ما كنا غافلين بل كنا للخلق حافظين من أن تسقط عليهم الطرائق السبع فتهلكهم وهذا قول سفيان بن عيينة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]. وثانيها: إنما خلقناها فوقهم لننزل عليهم الأرزاق والبركات منها، عن الحسن. وثالثها: أنا خلقنا هذه الأشياء فدل خلقنا لها على كمال قدرتنا ثم بيَّن كمال العلم بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ يعني عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم وذلك يفيد نهاية الزجر. ورابعها: وما كنا عن خلق السموات غافلين بل نحن لها حافظون لئلا تخرج عن التقدير الذي أردنا كونها عليه كقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

واعلم أن هذه الآية دالة على كثير من المسائل: إحداها: أنها دالة على وجود الصانع فإن انقلاب هذه الأجسام من صفة إلى صفة أخرى تضاد الأولى مع إمكان بقائها على تلك الصفة يدل

على أنه لابد من محول ومغير. وثانيتها: أنها تدل على فساد القول بالطبيعة فإن شيئًا من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة لوجب بقاؤها وعدم تغيرها ولو قلت: إنما تغيرت تلك الصفات لتغير تلك الطبيعة افتقرت تلك الطبيعة إلى خالق وموجد. وثالثتها: تدل على أن المدبر قادر عالم لأن الموجب والجاهل لا يصدر عنه هذه الأفعال العجيبة. ورابعتها: تدل على أنه عالم بكل المعلومات قادر على كل الممكنات. وخامستها: تدل على جواز الحشر والنشر نظرًا إلى صريح الآية ونظرًا إلى أن الفاعل لما كان قادرًا على كل الممكنات وعالمًا بكل المعلومات وجب أن يكون قادرًا على إعادة التركيب إلى تلك الأجزاء كما كانت. وسادستها: أن معرفة الله تعالى يجب أن تكون استدلالية لا تقليدية وإلا لكان ذكر هذه الدلائل عبثًا.

النوع الثالث: الاستدلال بنزول الأمطار وكيفية تأثيراتها في النبات:

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أن الماء في نفسه نعمة، وأنه مع ذلك سبب لحصول النعم فلا جرم ذكره الله تعالى أولاً ثم ذكر ما يحصل به من النعم ثانيًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ فقد اختلفوا في السماء فقال الأكثرون من المفسرين: إنه تعالى ينزل الماء في الحقيقة من السماء وهو الظاهر من اللفظ ويؤكده قوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] وقال بعضهم: المراد السحاب وسماه سماء لعلوه، والمعنى أن الله تعالى أصعد الأجزاء المائية من قعر الأرض إلى البحار ومن البحار إلى السماء حتى صارت عذبة صافية بسبب ذلك التصعيد، ثم إن تلك الذرّات تأتلف وتتكون ثم ينزله الله تعالى على قدر الحاجة إليه، ولولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقها في قعر الأرض ولا بماء البحار لملوحته ولأنه لا حيلة في إجراء مياه البحار على وجه الأرض؛ لأن البحار هي الغاية في العمق، واعلم أن هذه الوجوه إنما يتمحلها من ينكر الفاعل المختار فأما من أقر به فلا حاجة به إلى شيء منها.

أما قوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ فمعناه: بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون إلى المنفعة في الزرع والغرس والشرب، أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم.

أما قوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: معناه جعلناه ثابتًا في الأرض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنزل الله تعالى من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل، ثم يرفعها عند خروج يأجوج ومأجوج ويرفع أيضًا القرآن.

أما قوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: كما قدرنا على إنزاله فكذلك نقدر على رفعه وإزالته،

قال صاحب (الكشاف): وقوله: ﴿عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ﴾ من أوقع النكرات وأخّرها للفصل. والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه. وفيه إيذان بكمال اقتدار المذهب وأنه لا يعسر عليه شيء، وهو أبلغ في الإيعاد من قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠] ثم إنه سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده النعم الحاصلة من الماء فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ وإنما ذكر تعالى النخيل والأعناب؛ لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام ومقام الأدام ومقام الفواكه رطبًا ويابسًا وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: في الجنات، فكما أن فيها النخيل والأعناب ففيها الفواكه الكثيرة. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): يجوز أن يكون هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يعملها يعنون أنها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه، كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها تتعيشون.

أما قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ فهو عطف على جنات وقرئت مرفوعة على الابتداء أي: ومما أنشأنا لكم شجرة، قال صاحب (الكشاف): طور سيناء وطور سينين لا يخلو إما أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإما أن يكون اسمًا للجبل مركبًا من مضاف ومضاف إليه كامرىء القيس وبعلبك فيمن أضاف، فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث؛ لأنها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء، ومن فتح لم يصرفه؛ لأن ألفه للتأنيث كصحراء، وقيل: هو جبل فلسطين وقيل: بين مصر وأيلة، ومنه نودي موسى عليه السلام وقرأ الأعمش (سينا) على القصر.

أما قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ فهو في موضع الحل أي: تنبت وفيها الدهن، كما يقال: ركب الأمير بجنده، أي: ومعه الجند وقرىء (تنبت) وفيه وجهان: أحدهما: أن أنبت بمعنى نبت قال زهير:

رَأَيتُ ذَوِي الحَاجَاتِ حَولَ بُيُوتِهِمْ قطينا لهم حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ[1]

والثاني: أن مفعوله محذوف، أي: تنبت زيتونها وفيه الزيت، قال المفسرون: وإنما أضافها الله تعالى إلى هذا الجبل؛ لأن منها تشعبت في البلاد وانتشرت ولأن معظمها هناك. أما قوله: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ فعطف على الدهن، أي: إدام للآكلين، والصبغ والصباغ ما يصطبغ به، أي: يصبغ به الخبز، وجملة القول أنه سبحانه وتعالى نبه على إحسانه بهذه الشجرة؛ لأنها تخرج هذه الثمرة التي يكثر بها الانتفاع وهي طرية ومدخرة، وبأن تعصر فيظهر الزيت منها ويعظم وجوه الانتفاع به.

النوع الرابع: الاستدلال بأحوال الحيوانات:

---

(١) تقدمت ترجمة زهير.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر أن فيها عبرة مجملاً ثم أردفه بالتفصيل من أربعة أوجه: أحدها: قوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ والمراد منه جميع وجوه الانتفاع بألبانها، ووجه الاعتبار فيه أنها تجتمع في الضروع وتتخلص من بين الفرث والدم بإذن الله تعالى، فتستحيل إلى طهارة وإلى لون وطعم موافق للشهوة وتصير غذاء، فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته؛ كان ذلك معدودًا في النعم الدينية ومن انتفع به فهو في نعمة الدنيا، وأيضًا فهذه الألبان التي تخرج من بطونها إلى ضروعها تجدها شرابًا طيبًا، وإذا ذبحتها لم تجد لها أثرًا، وذلك يدل على عظيم قدرة الله تعالى. قال صاحب (الكشاف): وقرىء (تَسقيكم) بتاء مفتوحة، أي: تسقيكم الأنعام. وثانيها: قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ وذلك بيعها والانتفاع بأثمانها وما يجري مجرى ذلك. وثالثها: قوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني كما تنتفعون بها وهي حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضًا بالأكل. ورابعها: قوله: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ لأن وجه الانتفاع بالإبل في المحمولات على البر بمنزلة الانتفاع بالفلك في البحر، ولذلك جمع بين الوجهين في إنعامه لكي يشكر على ذلك ويستدل به، واعلم أنه سبحانه وتعالى لما بيَّن دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة في سائر السور وهي هاهنا.

القصة الأولى نوح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

قال قوم: إن نوحًا كان اسمه يشكر، ثم سمي نوحًا لوجوه: أحدها: لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك، فأهلكهم بالطوفان فندم على ذلك. وثانيها: لمراجعة ربه في شأن ابنه. وثالثها: أنه مر بكلب مجذوم، فقال له: إخسًا يا قبيح، فعوتب على ذلك، فقال الله له: أعبتني إذ خلقته، أم عبت الكلب. وهذه الوجوه مشكلة لما ثبت أن الأعلام لا تفيد صفة في المسمى.

أما قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فالمعنى أنه سبحانه أرسله بالدعاء إلى عبادة الله تعالى وحده، ولا يجوز أن يدعوهم إلى ذلك إلا وقد دعاهم إلى معرفته أولاً؛ لأن عبادة من لا يكون معلومًا غير جائزة وإنما يجوز ويجب بعد المعرفة.

أما قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فالمراد أن عبادة غير الله لا تجوز إذ لا إله سواه . ومن حق العبادة أن تحسن لمن أنعم بالخلق والإحياء وما بعدهما ، فإذا لم يصح ذلك إلا منه تعالى فكيف يعبد ما لا يضر ولا ينفع؟ وقرىء (غيرِهِ) بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ ، ثم إنه لما لم ينفع فيهم هذا الدعاء واستمروا على عبادة غير الله تعالى حذرهم بقوله : ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ لأن ذلك زجر ووعيد باتقاء العقوبة لينصرفوا عما هم عليه ، ثم إنه سبحانه حكى عنهم شبههم في إنكار نبوة نوح عليه السلام .

الشبهة الأولى: قولهم : ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ وهذه الشبهة تحتمل وجهين : أحدهما : أن يقال : إنه لما كان مساويًا لسائر الناس في القوة والفهم والعلم والغنى والفقر والصحة والمرض امتنع كونه رسولاً لله ؛ لأن الرسول لا بد وأن يكون عظيمًا عند الله تعالى وحبيبًا له ، والحبيب لا بد وأن يختص عن غير الحبيب بمزيد الدرجة والمعزة ، فلما فقدت هذه الأشياء علمنا انتفاء الرسالة . والثاني : أن يقال : هذا الإنسان مشارك لكم في جميع الأمور ، ولكنه أحب الرياسة والمتبوعية فلم يجد إليهما سبيلاً إلا بادعاء النبوة ، فصار ذلك شبهة لهم في القدح في نبوته ، فهذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى خبرًا عنهم : ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي : يريد أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى : ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس : ٧٨].

الشبهة الثانية: قولهم : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ وشرحه أن الله تعالى لو شاء إرشاد البشر لوجب أن يسلك الطريق الذي يكون أشد إفضاء إلى المقصود ، ومعلوم أن بعثة الملائكة أشد إفضاء إلى هذا المقصود من بعثة البشر ؛ لأن الملائكة لعلو شأنهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم ، فالخلق ينقادون إليهم ، ولا يشكون في رسالتهم ، فلما لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أُرْسل رسولاً ألبتة .

الشبهة الثالثة: قولهم : ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقوله : (بهذا) إشارة إلى نوح عليه السلام ، أو إلى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله تعالى ، أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام ، أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله ، وشرح هذه الشبهة أنهم كانوا أقوامًا لا يعولون في شيء من مذاهبهم إلا على التقليد والرجوع إلى قول الآباء ، فلما لم يجدوا في نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها . قال القاضي : يحتمل أن يريدوا بذلك كونه رسولاً مبعوثًا ؛ لأنه لا يمتنع فيما تقدم من زمان آبائهم أنه كان زمان فترة ، ويحتمل أن يريدوا بذلك دعاءهم إلى عبادة الله تعالى وحده ؛ لأن آباءهم كانوا على عبادة الأوثان .

الشبهة الرابعة: قولهم : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ والجنة : الجنون أو الجن ، فإن جهال العوام يقولون في المجنون : زال عقله بعمل الجن ، وهذه الشبهة من باب الترويج على العوام ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يفعل أفعالاً على خلاف عاداتهم ، فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام إنه مجنون ، ومن كان مجنونًا فكيف يجوز أن يكون رسولاً .

الشبهة الخامسة: قولهم: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهذا يحتمل أن يكون متعلقًا بما قبله أي: أنه مجنون فاصبروا إلى زمان حتى يظهر عاقبة أمره فإن أفاق وإلا قتلتموه ويحتمل أن يكون كلامًا مستأنفًا وهو أن يقولوا لقومهم: اصبروا فإنه إن كان نبيًّا حقًّا فالله ينصره ويقوي أمره فنحن حينئذ نتبعه وإن كان كاذبًا فالله يخذله ويبطل أمره، فحينئذ نستريح منه، فهذه مجموع الشبه التي حكاها الله تعالى عنهم، واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عنها لركاكتها ووضوح فسادها، وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولاً إلا لأنه من جنس الملك وإنما يصير كذلك بأن يتميز عن غيره بالمعجزات فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولاً، بل جعل الرسول من جملة البشر أولى لما مر بيانه في السور المتقدمة وهو أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة، وأما قولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ فإن أرادوا به إرادته لإظهار فضله حتى يلزمهم الانقياد لطاعته فهذا واجب على الرسول، وإن أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد فالأنبياء منزهون عن ذلك، وأما قولهم: (ما سمعنا بهذا) فهو استدلال بعدم التقليد على عدم وجود الشيء وهو في غاية السقوط؛ لأن وجود التقليد لا يدل على وجود الشيء فعدمه من أين يدل على عدمه، وأما قولهم: (به جنة)، فقد كذبوا لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله، وأما قولهم: (فتربصوا به)، فضعيف لأنه إن ظهرت الدلالة على نبوته وهي المعجزة وجب عليهم قبول قوله في الحال، ولا يجوز توقيف ذلك إلى ظهور دولته؛ لأن الدولة لا تدل على الحقية، وإن لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر، ولما كانت هذه الأجوبة في نهاية الظهور لا جرم تركها الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

أما قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ففيه وجوه: أحدها: أن في نصره إهلاكهم فكأنه قال: أهلكهم بسبب تكذيبهم إياي. وثانيها: انصرني بدل ما كذبوني كما تقول: هذا بذاك أي: بدل ذلك ومكانه، والمعنى أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم: وثالثها: انصرني بإنجاز ما وعدتهم من العذاب وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

[الأعراف: ٥٩] ولما أجاب الله دعاءه قال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظنا وكلئنا كأن معه من الله حافظًا يكلؤه بعينه لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله، ومنه قولهم: عليه من الله عين كالئة، وهذه الآية دالة على فساد قول المشبهة في تمسكهم بقوله عليه السلام: «إِنَّ اللَّه خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» لأن ثبوت الأعين يمنع من ذلك، واختلفوا في أنه عليه السلام كيف صنع الفلك فقيل: إنه كان نجارًا وكان عالمًا بكيفية اتخاذها، وقيل: إن جبريل عليه السلام علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها، وهذا هو الأقرب لقوله ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

اما قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ فاعلم أن لفظ الأمر كما هو حقيقة في طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء، فكذا هو حقيقة في الشأن العظيم، والدليل عليه أنك إذا قلت: هذا أمر بقي الذهن يتردد بين المفهومين وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما وتمام تقريره مذكور في كتاب المحصول في الأصول، ومن الناس من قال: إنما سماه أمرًا على سبيل التعظيم والتفخيم، مثل قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١].

اما قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فاختلفوا في التنور، فالأكثرون على أنه هو التنور المعروف. روي أنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب، وقيل: كان تنور آدم وكان من حجارة فصار إلى نوح، واختلف في مكانه، فعن الشعبي في مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان نوح عليه السلام عمل السفينة في وسط المسجد، وقيل: بالشام بموضع يقال له: عين وردة وقيل: بالهند. القول الثاني: أن التنور وجه الأرض، عن ابن عباس رضي الله عنهما. الثالث: أنه أشرف موضع في الأرض أي: أعلاه، عن قتادة. والرابع: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: طلع للفجر، عن عليّ عليه السلام، وقيل: إن فوران التنور كان عند طلوع الفجر. والخامس: هو مثل قولهم حمى الوطيس. والسادس: أنه الموضع المنخفض من السفينة الذي يسيل الماء إليه، عن الحسن رحمه الله والقول الأول هو الصواب؛ لأن العدول عن الحقيقة إلى المجاز من غير دليل لا يجوز، واعلم أن الله تعالى جعل فوران التنور علامة لنوح عليه السلام حتى يركب عنده السفينة طلبًا لنجاته ونجاة من آمن به من قومه.

اما قوله: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أدخل فيها يقال: سلك فيه أي: دخل فيه وسلك غيره وأسلكه ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: من كل زوجين من الحيوان الذي يحضره في الوقت اثنين، الذكر والأنثى؛ لكي لا ينقطع نسل ذلك الحيوان، وكل واحد منهما زوج لا كما تقوله العامة من أن الزوج هو الاثنان، روي أنه لم يحمل إلا ما يلد ويبيض، وقرىء (من كلٍ) بالتنوين، أي: من كل أمة زوجين، واثنين تأكيد وزيادة بيان.

اما قوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: وأدخل أهلك ولفظ على إنما يستعمل في المضار. قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] واعلم أن هذه الآية تدل

على أمرين: أحدهما: أنه سبحانه أمره بإدخال سائر من آمن به وإن لم يكن من أهله، وقيل: المراد بأهله من آمن دون من يتصل به نسبًا أو سببًا وهذا ضعيف. وإلا لما جاز استثناء قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ والثاني: أنه قال: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ يعني: كنعان، فإنه سبحانه لما أخبر بإهلاكهم وجب أن ينهاه عن أن يسأله في بعضهم؛ لأنه إن أجابه إليه فقد صير خبره الصدق كذبًا، وإن لم يجبه إليه كان ذلك تحقيرًا لشأن نوح عليه السلام فلذلك قال: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: الغرق نازل بهم لا محالة.

اما قوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان في السفينة ثمانون إنسانًا، نوح وامرأته سوى التي غرقت، وثلاثة بنين: سام وحام ويافث، وثلاث نسوة لهم، واثنان وسبعون إنسانًا فكل الخلائق نسل من كان في السفينة.

اما قوله: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: إنما قال: ﴿فَقُلْ﴾ ولم يقل: فقولوا؛ لأن نوحًا كان نبيًّا لهم وإمامًا لهم، فكان قوله قولاً لهم مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة وإظهار كبرياء الربوبية، وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى إليها إلا ملك أو نبي.

المسألة الثانية: قال قتادة: علمكم الله أن تقولوا عند ركوب السفينة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] وعند ركوب الدابة ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] وعند النزول ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] قال الأنصاري: وقال لنبينا: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النحل: ٩٨] كأنه سبحانه أمرهم أن لا يكونوا عن ذكره وعن الاستعاذة به في جميع أحوالهم غافلين.

المسألة الثالثة: هذه مبالغة عظيمة في تقبيح صورتهم حيث أتبع النهي عن الدعاء لهم الأمر بالحمد على إهلاكهم والنجاة منهم كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥] وإنما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق؛ لأنه سبحانه كان عرفه أنه بذلك ينجيه ومن تبعه، فيصح أن يقول: ﴿نَجَّىٰنَا﴾ من حيث جعله آمنًا بهذا الفعل ووصف قومه بأنهم الظالمون؛ لأن الكفر منهم ظلم لأنفسهم لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] ثم إنه سبحانه بعد أن أمره بالحمد على إهلاكهم أمره بأن يدعو لنفسه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ وقرىء (منزلاً) بمعنى: إنزالاً أو موضع إنزال كقوله: ليدخلنهم مدخلاً يرضونه. واختلفوا في المنزل على قولين: أحدهما: أن المراد هو نفس السفينة فمن ركبها خلصته مما جرى على قومه من الهلاك. والثاني: أن المراد أن ينزله الله بعد خروجه من السفينة من الأرض منزلاً مباركًا، والأول أقرب؛ لأنه أمر بهذا الدعاء في حال استقراره في السفينة، فيجب أن يكون المنزل ذلك دون غيره. ثم بيّن سبحانه بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أن

الإنزال في الأمكنة قد يقع من غير الله كما يقع من الله تعالى وإن كان هو سبحانه خير من أنزل؛ لأنه يحفظ من أنزله في سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بحسب ما يقتضيه الحكم والحكمة، ثم بيَّن سبحانه أن فيما ذكره من قصة نوح وقومه لآيات ودلالات وعبرًا في الدعاء إلى الإيمان والزجر عن الكفر فإن إظهار تلك المياه العظيمة ثم الإذهاب بها لا يقدر عليه إلا القادر على كل المقدورات، وظهور تلك الواقعة على وفق قول نوح عليه السلام يدل على المعجز العظيم وإفناء الكفار وبقاء الأرض لأهل الدين والطاعة من أعظم أنواع العبر.

أما قوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ فيمكن أن يكون المراد، وإن كنا لمبتلين فيما قبل، ويحتمل أن يكون وإن كنا لمبتلين فيما بعد، وهذا هو الأقرب لأنه كالحقيقة في الاستقبال، وإذا حمل على ذلك احتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون المراد المكلفين في المستقبل أي فيجب فيمن كلفناه أن يعتبر بهذا الذي ذكرناه. وثانيها: أن يكون المراد لمعاقبين لمن سلك في تكذيب الأنبياء مثل طريقة قوم نوح. وثالثها: أن يكون المراد كما نعاقب من كذَّب بالغرق وغيره فقد نمتحن بالغرق من لم يكذب على وجه المصلحة لا على وجه التعذيب؛ لكي لا يقدر أن كل الغرق يجري على وجه واحد.

القصة الثانية قصة هود أو صالح عليهما السلام

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ
ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ
وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ
إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ
إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ
لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً
فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

اعلم أن هذه القصة هي قصة هود عليه السلام في قول ابن عباس رضي الله عنهما وأكثر المفسرين واحتجوا عليه بحكاية الله تعالى قول هود عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] ومجيء قصة هود عقيب قصة نوح في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء. وقال بعضهم المراد بهم صالح وثمود؛ لأن قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا

بالصيحة، أما كيفية الدعوى فكما تقدم في قصة نوح عليه السلام وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: حق (أرسل) أن يتعدى بإلى كأخواته التي هي وجه وأنفذ وبعث فلمَ عدًّى في القرآن بإلى تارة وبفي أخرى كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾[الرعد: ٣٠] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾[الأعراف: ٩٤] ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾[المؤمنون: ٣٢] أي: في عاد، وفي موضع آخر ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[هود: ٥٠] ؟ الجواب: لم يعدِ بفي كما عدًّى بإلى ولكن الأمة أو القرية جعلت موضعًا للإرسال وعلى هذا المعنى جاء بعث في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾[الفرقان: ٥١] .

السؤال الثاني: هل يصح ما قاله بعضهم: أن قوله: ﴿فَلَا تَتَّقُونَ﴾ غير موصول بالأول، وإنما قاله لهم بعد أن كذبوه، وردوا عليه بعد إقامة الحجة عليهم فعند ذلك قال لهم مخوفًا مما هم عليه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ هذه الطريقة مخافة العذاب الذي أنذرتكم به؟ الجواب: يجوز أن يكون موصولاً بالكلام الأول بأن رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الأوثان، فدعاهم إلى عبادة الله وحذرهم من العقاب بسبب إقبالهم على عبادة الأوثان. ثم اعلم أن الله تعالى حكى صفات أولئك القوم وحكى كلامهم، أما الصفات فثلاث هي شر الصفات: أولها: الكفر بالخالق سبحانه وهو المراد من قوله: ﴿كَفَرُوا﴾. وثانيها: الكفر بيوم القيامة وهو المراد من قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾. وثالثها: الانغماس في حب الدنيا وشهواتها وهو المراد من قوله: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: نعمناهم فإن قيل: ذكر الله مقالة قوم هود في جوابه في سورة الأعراف، وسورة هود بغير واو ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾[الأعراف: ٦٦] ، قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[هود: ٢٧] وهاهنا مع الواو فأي فرق بينهما؟ قلنا: الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه؟ فقيل له: كيت وكيت، وأما الذي مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله ومعناه أنه اجتمع في هذه الواقعة هذا الكلام الحق وهذا الكلام الباطل. وأما شبهات القوم فشيئان: أولهما: قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾، وقد مر شرح هذه الشبهة في القصة الأولى وقوله: ﴿مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي: من مشروبكم أو حذف منه لدلالة ما قبله عليه وهو قوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فجعلوا اتباع الرسول خسرانًا، ولم يجعلوا عبادة الأصنام خسرانًا، أي: لئن كنتم أعطيتموه الطاعة من غير أن يكون لكم بإزائها منفعة فذلك هو الخسران. وثانيهما: أنهم طعنوا في صحة الحشر والنشر، ثم طعنوا في نبوته بسبب إتيانه بذلك. أما الطعن في صحة الحشر فهو قولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ معادون أحياء للمجازاة، ثم لم يقتصروا على هذا القدر حتى قرنوا به الاستبعاد العظيم وهو قولهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ثم أكدوا الشبهة بقولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ولم يريدوا بقولهم نموت ونحيا الشخص الواحد، بل أرادوا أن البعض يموت والبعض يحيا، وأنه لا إعادة ولا حشر. فلذلك قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ولما فرغوا من الطعن في صحة الحشر بنوا عليه الطعن

في نبوته، فقالوا لما أتى بهذا الباطل فقد ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ثم لما قرروا الشبهة الطاعنة في نبوته قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن القوم كالتبع لهم، واعلم أن الله تعالى ما أجاب عن هاتين الشبهتين لظهور فسادهما أما الشبهة الأولى: فقد تقدم بيان ضعفها، وأما الثانية: فلأنهم استبعدوا الحشر، ولا يستبعد الحشر لوجهين: الأول: أنه سبحانه لما كان قادرًا على كل الممكنات عالمًا بكل المعلومات وجب أن يكون قادرًا على الحشر والنشر. والثاني: وهو أنه لولا الإعادة لكن تسليط القوى على الضعيف في الدنيا ظلمًا. وهو غير لائق بالحكيم على ما قرره سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥] **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: ثنى إنكم للتوكيد وحسن ذلك الفصل ما بين الأول والثاني بالظرف، ومخرجون خبر عن الأول. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥].

المسألة الثانية: قرىء (هيهات) بالفتح والكسر، كلها بتنوين وبلا تنوين، وبالسكون على لفظ الوقف.

المسألة الثالثة: هي في قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ ضمير لا يعلم ما يعني به إلا بما يتلوه من بيانه، وأصله: إن الحياة إلا حياتنا الدنيا، ثم وضع هي موضع الحياة؛ لأن الخبر يدل عليه ومنه (قول الشاعر):

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ

والمعنى لا حياة إلا هذه الحياة، ولأن إن النافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها، فوازنت لا التي نفت ما بعدها نفي الجنس. واعلم أن ذلك الرسول لما يئس من قبول الأكابر والأصاغر فزع إلى ربه وقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ وقد تقدم تفسيره فأجابه الله تعالى فيما سأل وقال: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠] والأقرب أن يكون المراد بأن يظهر لهم علامات الهلاك، فعند ذلك يحصل منهم الحسرة والندامة على ترك القبول، ويكون الوقت وقت إيمان اليأس فلا ينتفعون بالندامة، وبيَّن تعالى الهلاك الذي أنزله عليهم بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ وذكروا في الصيحة وجوهًا: أحدها: أن جبريل عليه السلام صاح بهم، وكانت الصيحة عظيمة فماتوا عندها. وثانيها: الصيحة هي الرجفة، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وثالثها: الصيحة هي نفس العذاب والموت كما يقال فيمن يموت: دُعِي فأجاب، عن الحسن. ورابعها: أنه العذاب المصطلم، قال الشاعر:

صَاحَ الزَّمَانُ بِآلِ بَرْمَكٍ صَيْحَةً خَرُّوا لِشِدَّتِهَا عَلَى الأَذْقَانِ[1]

---

(١) هذا الشطر الأول من بيت ضمن قصيدة من البحر الطويل لعلي بن الجهم والبيت هكذا:

هي النَفسُ ما حَمَّلتَها تَتَحَمَّلُ وَلِلدَّهرِ أَيّامٌ تَجورُ وَتَعدِلُ

وعلي بن الجهم تقدم ترجمته.

والأول أولى؛ لأنه هو الحقيقة.

وأما قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فمعناه: أنه دمرهم بالعدل من قولك: فلان يقضي بالحق إذا كان عادلاً في قضاياه. وقال المفضل: بالحق أي: بما لا يدفع، كقوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾[ق: ١٩].

أما قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗ﴾ فالغثاء حميل السيل مما بلي واسْوَد من الورق والعيدان، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾[الأعلى: ٥].

وأما قوله تعالى: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿فَبُعۡدٗا﴾ وسحقًا، ودمرًا، ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها، وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه: نصبت بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى بعدًا بعدوا، أي: هلكوا يقال: بعد بُعْدًا وبَعَدًا بفتح العين نحو رشد رُشْدًا ورَشَدًا بفتح الشين، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَبُعۡدٗا﴾ بمنزلة اللعن الذي هو التبعيد من الخير، والله تعالى ذكر ذلك على وجه الاستخفاف والإهانة لهم، وقد نزل بهم العذاب دالاً بذلك على أن الذي ينزل بهم في الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم حالاً؛ ليكون ذلك عبرة لمن يجيء بعدهم.

القصة الثالثة

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٤٣ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٤٤﴾

اعلم أنه سبحانه يقص القصص في القرآن تارة على سبيل التفصيل كما تقدم وأخرى على سبيل الإجمال كهاهنا، وقيل: المراد قصة لوط، وشعيب، وأيوب، ويوسف عليهم السلام.

فأما قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ فالمعنى أنه ما أخلى الديار من مكلفين أنشأهم وبلغهم حد التكليف حتى قاموا مقام من كان قبلهم في عمارة الدنيا.

أما قوله: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ فيحتمل في هذا الأجل أن يكون المراد آجال حياتها وتكليفها، ويحتمل آجال موتها وهلاكها، وإن كان الأظهر في الأجل إذا أطلق أن يراد به وقت الموت، فبيَّن أن كل أمة لها آجال مكتوبة في الحياة والموت، لا يتقدم ولا يتأخر، منبهًا بذلك على أنه عالم بالأشياء قبل كونها، فلا توجد إلا على وفق العلم، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[نوح: ٤]. **وهاهنا مسألتان:**

المسألة الأولى: قال أصحابنا: هذه الآية تدل على أن المقتول ميت بأجله إذ لو قتل قبل أجله

لكان قد تقدم الأجل أو تأخر، وذلك ينافيه هذا النص.

المسألة الثانية: قال الكعبي: المراد من قوله: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ أي: لا يتقدمون الوقت المؤقت لعذابهم إن لم يؤمنوا ولا يتأخرون عنه، ولا يستأصلهم إلا إذا علم منهم أنهم لا يزدادون إلا عنادًا وأنهم لا يلدون مؤمنًا، وأنه لا نفع في بقائهم لغيرهم، ولا ضرر على أحد في هلاكهم، وهو كقول نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ [نوح: ٢٧].

اما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَا﴾ فالمعنى أنه كما أنشأنا بعضهم بعد بعض أرسل إليهم الرسل على هذا الحد قرأ ابن كثير (تترًا) منونة والباقون بغير تنوين وهو اختيار أكثر أهل اللغة؛ لأنها فعلى من المواترة وهي المتابعة وفعلى لا ينون كالدعوى والتقوى والتاء بدل من الواو فإنه مأخوذ من الوتر وهو الفرد، قال الواحدي: تترى على القراءتين مصدر أو اسم أقيم مقام الحال؛ لأن المعنى متواترة.

اما قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾ [المؤمنون: ٤٤] يعني: أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدم ذكره ممن أهلكه الله بالغرق والصيحة فلذلك قال: ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ أي: بالهلاك.

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ﴾ يمكن أن يكون المراد جمع الحديث ومنه أحاديث رسول الله ﷺ والمعنى أنه سبحانه بَلَغَ في إهلاكهم مبلغًا صاروا معه أحاديث فلا يرى منهم عين ولا أثر ولم يبق منهم إلا الحديث الذي يذكر ويعتبر به.

ويمكن أيضًا أن يكون جمع أحدوثة مثل الأضحوكة والأعجوبة، وهي ما يتحدث به الناس تلهيًا وتعجبًا.

ثم قال: ﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ على وجه الدعاء والذم والتوبيخ، ودل بذلك على أنهم كما أهلكوا عاجلاً فهلاكهم بالتعذيب آجلاً على التأبيد مترقب وذلك وعيد شديد.

القصة الرابعة قصة موسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٤٥ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ٤٦ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٤٩﴾

اختلفوا في الايات فقال ابن عباس رضي الله عنهما هي الآيات التسع وهي العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وانفلاق البحر، والسنون، والنقص من الثمرات، وقال الحسن: قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بديننا، واحتج بأن المراد بالآيات لو كانت هي المعجزات والسلطان المبين أيضًا هو المعجز فحينئذ يلزم عطف الشيء على نفسه والأقرب هو الأول: لأن

لفظ الآيات إذا ذكر في الرسل فالمراد منها المعجزات، وأما الذي احتجوا به فالجواب عنه من وجوه: أحدها: أن المراد بالسلطان المبين: يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا؛ لأنه قد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها وكونها حارسًا وشمعة وشجرة مثمرة ودلوًا ورشاء، فلأجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله: جبريل وميكال. وثانيها: يجوز أن يكون المراد بالآيات: نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين: كيفية دلالتها على الصدق، وذلك لأنها وإن شاركت سائر آيات الأنبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام. وثالثها: أن يكون المراد بالسلطان المبين: استيلاء موسى عليه السلام عليهم في الاستدلال على وجود الصانع وإثبات النبوة وأنه ما كان يقيم لهم قدرًا ولا وزنًا.

واعلم أن الآية تدل على أن معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هرون عليه السلام أيضًا، وأن النبوة كما أنها مشتركة بينهما فكذلك المعجزات، ثم إنه سبحانه حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم، أما صفتهم فأمران. أحدهما: الاستكبار والأنفة. والثاني: أنهم كانوا قومًا عالين أي: رفيعي الحال في أمور الدنيا، ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة وأما شبهتهم فهي قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): لم يقل: مثلينا كما قال: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[النساء: ١٤٠] ولم يقل: أمثالهم وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾[آل عمران: ١١٠] ولم يقل: أخيار أمة كل ذلك؛ لأن الإيجاز أحب إلى العرب من الإكثار. والشبهة مبنية على أمرين: أحدهما: كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه. والثاني: أن قوم موسى وهرون كانوا كالخدم والعبيد لهم قال أبو عبيدة: العرب تسمى كل من دان لملك عابدًا له ويحتمل أن يقال: إنه كان يدعي الإلهية فادعى أن الناس عباده وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة ثم بين سبحانه أنه لما خطرت هذه الشبهة ببالهم صرحوا بالتكذيب وهو المراد من قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾.

ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لا جرم رتبه عليه بفاء التعقيب فقال: وكانوا ممن حكم الله عليهم بالغرق فإن حصول الغرق لم يكن حاصلاً عقيب التكذيب، إنما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك في الوقت اللائق به.

أما قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فقال القاضي: معناه أنه سبحانه خص موسى عليه السلام بالكتاب الذي هو التوراة لا لذلك التكذيب لكن لكي يهتدوا به فلما أصروا على الكفر مع البيان العظيم استحقوا أن يهلكوا، واعترض صاحب (الكشاف) عليه فقال: لا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم إلى فرعون وملئه؛ لأن التوراة إنما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣] بل المعنى الصحيح: ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها

فذكر موسى والمراد آل موسي كما يقال: هاشم وثقيف والمراد قومهما.

القصة الخامسة قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝﴾

اعلم أن ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بأن خلقه من غير ذكر وأنطقه في المهد في الصغر وأجرى على يديه إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وأما مريم فقد جعلها الله تعالى آية؛ لأنها حملته من غير ذكر. وقال الحسن: تكلمت مريم في صغرها كما تكلم عيسى عليه السلام وهو قولها: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] ولم تلقم ثديًا قط، قال القاضي: إن ثبت ذلك فهو معجزة لزكريا عليه السلام؛ لأنها لم تكن نبية، قلنا: القاضي إنما قال ذلك؛ لأن عنده الإرهاص غير جائز وكرامات الأولياء غير جائزة وعندنا هما جائزان فلا حاجة إلى ما قال، والأقرب أنه جعلهما آية بنفس الولادة؛ لأنه ولد من غير ذكر وولدته من دون ذكر فاشتركا جميعًا في هذا الأمر العجيب الخارق للعادة والذي يدل على أن هذا التفسير أَوْلَى وجهان: أحدهما: أنه تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ لأن نفس الإعجاز ظهر فيهما لا أنه ظهر على يدهما وهذا أولى من أن يحمل على الآيات التي ظهرت على يده نحو إحياء الموتى وذلك لأن الولادة فيه وفيها آية فيهما وكذلك أن نطقا في المهد وما عدا ذلك من الآيات ظهر على يده لا أنه آية فيه. الثاني: أنه تعالى قال: آية ولم يقل: آيتين، وحمل هذا اللفظ على الأمر الذي لا يتم إلا بمجموعهما أولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التي كان عيسى عليه السلام مستقلاً بها.

أما قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: جعلنا مأواهما الربوة، والربوة والرباوة في راءيهما الحركات الثلاث وهي الأرض المرتفعة، ثم قال قتادة وأبو العالية: هي إيلياء أرض بيت المقدس، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إنها الرملة. وقال الكلبي وابن زيد: هي بمصر وقال الأكثرون: إنها دمشق وقال مقاتل والضحاك: هي غوطة دمشق، والقرار المستقر من (كُلِّ) أرض مستوية مبسوطة، وعن قتادة ذات ثمار وماء، يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها، والمعين الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض. فنبه سبحانه على كمال نعمه عليها بهذا اللفظ على اختصاره. ثم في المعين قولان: أحدهما: أنه مفعول لأنه لظهوره يدرك بالعين من عانه إذا أدركه بعينه وقال الفراء والزجاج: إن شئت جعلته فعيلاً من الماعون ويكون أصله من المعن والماعون فاعول منه قال أبو علي: والمعين: السهل الذي ينقاد ولا يتعاصى والماعون ما سهل على معطيه، ثم قالوا: وسبب الإيواء أنها فرت بابنها عيسى إلى الربوة وبقيت بها اثنتي عشرة سنة، وإنما ذهب بهما ابن عمها يوسف ثم رجعت إلى أهلها بعد أن مات ملكهم، وهاهنا آخر

القصص، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

اعلم أن ظاهر قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن؛ لأن الرسل إنما أرسلوا متفرقين في أزمنة متفرقة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب إليهم، فلهذا الإشكال اختلفوا في تأويله على وجوه: أحدها: أن المعنى الإعلام بأن كل رسول فهو في زمانه نودي بهذا المعنى ووصى به ليعتقد السامع أن أمرًا نودي له جميع الرسل ووصوا به حقيق بأن يؤخذ به ويعمل عليه. وثانيها: أن المراد نبينا عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرسل، وإنما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد: أيها القوم كفوا عني أذاكم ومثله ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وهو نعيم بن مسعود كأنه سبحانه لما خاطب محمدًا ﷺ بذلك بيَّن أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين مجتمعين لما خوطبوا إلا بذلك ليعلم رسولنا أن هذا التثقيل ليس عليه فقط، بل لازم على جميع الأنبياء عليهم السلام. وثالثها: وهو قول محمد بن جرير أن المراد به عيسى عليه السلام؛ لأنه إنما ذكر ذلك بعدما ذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولأنه روى أن عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه، والقول الأول أقرب؛ لأنه أوفق للفظ الآية؛ ولأنه روي عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس أنها بعثت إلى رسول الله ﷺ بقدح من لبن في شدة الحر عند فطره وهو صائم «**فَرَدَّهُ الرَّسُولُ إِلَيْهَا وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا؟ فَقَالَتْ: مِنْ شَاةٍ لِي، ثُمَّ رَدَّهُ وَقَالَ: مِنْ أَيْنَ هَذِهِ الشَّاةُ؟ فَقَالَتْ: اشْتَرَيْتُهَا بِمَالِي فَأَخَذَهُ. ثُمَّ إِنَّهَا جَاءَتْهُ وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّه، لِمَ رَدَدْتَهُ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بِذَلِكَ أُمِرَتِ الرُّسُلُ أَنْ لاَ يَأْكُلُوا إِلاَّ طَيِّبًا وَلاَ يَعْمَلُوا إِلاَّ صَالِحًا**»(١).

اما قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ففيه وجهان: الأول: أنه الحلال وقيل: طيبات الرزق حلال وصافٍ وقوام، فالحلال: الذي لا يعصى الله فيه، والصافي: الذي لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل. والثاني: أنه المستطاب المستلذ من المأكل والفواكه فبيَّن تعالى أنه وإن ثقل عليهم بالنبوة وبما ألزمهم القيام بحقها، فقد أباح لهم أكل الطيبات كما أباح

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبراني في (مسند الشاميين) (٢/ ٣٥٥)، حديث رقم (١٤٨٨)، وأبو نعيم في (حلية الأولياء) (٦/ ١٠٥)، كلاهما من طريق أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس... به، وفي إسناده ابن أبي مريم وهو ضعيف.

لغيرهم. واعلم أنه سبحانه كما قال المرسلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فقال للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، واعلم أن تقديم قوله: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ على قوله: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ كالدلالة على أن العمل الصالح لا بد وأن يكون مسبوقًا بأكل الحلال، فأما قوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به وإذا كان ذلك تحذيرًا للرسل مع علو شأنهم فبأن يكون تحذيرًا لغيرهم أولى.

أما قوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ فقد فسرناه في سورة الأنبياء **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: المعنى أنه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والأعمال الصالحة فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الإتقاء من معصية الله تعالى. فإن قيل: لمَّا كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحدًا؟ قلنا: المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته، وأما الشرائع فإن الاختلاف فيها لا يسمى اختلافًا في الدين، فكما يقال في الحائض والطاهر من النساء: إن دينهن واحد وإن افترق تكليفهما فكذا هاهنا، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ فكأنه نبه بذلك على أن دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه فلا مدخل للشرائع، وإن اختلفت في ذلك.

المسألة الثانية: قرىء وإن بالكسر على الاستئناف، وإن بمعنى ولأن، وإن مخففة من الثقيلة وأمتكم مرفوعة معها.

أما قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ فالمعنى فإن أمم الأنبياء عليهم السلام تقطعوا أمرهم بينهم وفي قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ معنى المبالغة في شدة اختلافهم والمراد بأمرهم ما يتصل بالدين.

أما قوله ﴿زُبُرًا﴾ فقرىء (زبرًا) جمع زبور أي: كتبًا مختلفة يعني جعلوا دينهم أديانًا، وزبرًا: قطعًا استعيرت من زبر الفضة والحديد، وزبرًا مخففة الباء كرسل في رسل قال الكلبي ومقاتل والضحاك: يعني مشركي مكة والمجوس واليهود والنصارى.

أما قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فمعناه: أن كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه دينًا لنفسه معجب به يرى المحق أنه الرابح، وأن غيره المبطل الخاسر، ولما ذكر الله تعالى تفرق هؤلاء في دينهم أتبعه بالوعيد، وقال: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ الخطاب لنبينا ﷺ يقول: فدع هؤلاء الكفار في جهلهم، والغمرة: الماء الذي يغمر القامة فكأن ما هم فيه من الجهل والحيرة صار غامرًا ساترًا لعقولهم، وعن علي عليه السلام: ﴿فِى غَمَرَٰتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وذكروا في الحين وجوهًا: أحدها: إلى حين الموت. وثانيها: إلى حين المعاينة. وثالثها: إلى حين العذاب، والعادة في ذلك أن يذكر في الكلام، والمراد به الحالة التي تقترن بها الحسرة والندامة، وذلك يحصل إذا عرفهم الله بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء منقلبهم، ويحصل أيضًا عند المحاسبة في الآخرة، ويحصل عند عذاب القبر والمساءلة فيجب أن يحمل على كل ذلك.

ولما كان القوم في نعم عظيمة في الدنيا جاز أن يظنوا أن تلك النعم كالثواب المعجل لهم على أديانهم، فبيَّن سبحانه أن الأمر بخلاف ذلك، فقال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قرئ (يمدهم، ويسارع) بالياء والفاعل هو الله سبحانه وفي المعنى وجهان: أحدهما: أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجًا لهم في المعاصي، واستجرارًا لهم في زيادة الإثم وهم يحسبونه مسارعة في الخيرات وبل للاستدراك لقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ يعني بل هم أشباه البهائم لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في ذلك، أهو استدراج أم مسارعة في الخير، وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: ٨٥] روي عن يزيد بن ميسرة: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء «**أَيَفْرَحُ عَبْدِي أَنْ أَبْسُطَ لَهُ الدُّنْيَا وَهُوَ أَبْعَدُ لَهُ مِنِّي، وَيَجْزَعُ أَنْ أَقْبِضَ عَنْهُ الدُّنْيَا وَهُوَ أَقْرَبُ لَهُ مِنِّي**»(١) ثم تلا: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ وعن الحسن: لما أُتي عمر بسوار كسرى فأخذه ووضعه في يد سراقة فبلغ منكبه. فقال عمر: اللهم إني قد علمت أن نبيك عليه الصلاة والسلام، كان يحب أن يصيب مالاً لينفقه في سبيلك، فزويت ذلك عنه نظرًا، ثم إن أبا بكر كان يحب ذلك، اللهم لا يكن ذلك مكرًا منك بعمر. ثم تلا: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ الوجه الثاني: وهو أنه سبحانه إنما أعطاهم هذه النعم ليكونوا فارغي البال، متمكنين من الاشتغال بكلف الحق، فإذا أعرضوا عن الحق والحالة هذه، كان لزوم الحجة عليهم أقوى، فلذلك قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾

اعلم أنه تعالى لما ذم من تقدم ذكره بقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ثم قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بيَّن بعده صفات من يسارع في الخيرات ويشعر بذلك وهي أربعة:

الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ والإشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف، فمنهم من قال: جمع بينهما للتأكيد، ومنهم من حمل الخشية على العذاب، والمعنى الذين هم من عذاب ربهم مشفقون، وهو قول الكلبي ومقاتل، ومنهم من حمل الإشفاق على أثره وهو الدوام في الطاعة، والمعنى الذين هم من خشية ربهم دائمون في طاعته، جادون في طلب مرضاته. والتحقيق أن من بلغ في الخشية إلى حد الإشفاق وهو كمال الخشية، كان في نهاية الخوف من سخط الله عاجلاً، ومن عقابه آجلاً، فكان في نهاية الاحتراز عن

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا في (الزهد) (١/ ٢١٧)، حديث رقم (٢١٦) من طريق الحسين بن علي الجعفي عن شيخ من أهل البصرة عن يزيد بن ميسرة الحمصي. . . به، في إسناده من لم يسم.

المعاصي.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ واعلم أن آيات الله تعالى هي المخلوقات الدالة على وجوده، والإيمان بها هو التصديق بها، والتصديق بها إن كان بوجودها فذلك معلوم بالضرورة، وصاحب هذا التصديق لا يستحق المدح، وإن كان بكونها آيات ودلائل على وجود الصانع فذلك مما لا يتوصل إليه إلا بالنظر والفكر، وصاحبه لا بد وأن يصير عارفًا بوجود الصانع وصفاته، وإذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الإقرار باللسان ظاهرًا وذلك هو الإيمان.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله تعالى؛ لأن ذلك داخل في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ بل المراد منه نفي الشرك الخفي، وهو أن يكون مخلصًا في العبادة لا يقدم عليها إلا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله أعلم.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ معناه: يعطون ما أعطوا، فدخل فيه كل حق يلزم إيتاؤه سواء كان ذلك من حق الله تعالى: كالزكاة والكفارة وغيرهما، أو من حقوق الآدميين: كالودائع والديون وأصناف الإنصاف والعدل، وبيَّن أن ذلك إنما ينفع إذا فعلوه وقلوبهم وجلة؛ لأن من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره وإخلاله بنقصان أو غيره، فإنه يكون لأجل ذلك الوجل مجتهدًا في أن يوفيها حقها في الأداء. وسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقالت: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنْ هُوَ الرَّجُلُ يُصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ يَخَافُ اللَّهَ تَعَالَى**»(١).

واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن؛ لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغي.

والصفة الثانية: دلت على ترك الرياء في الطاعات.

والصفة الثالثة: دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله سبحانه الوصول إليها، فإن قيل: أفتقولون: إن قوله: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يرجع إلى يؤتون، أو يرجع إلى كل ما تقدم من الخصال؟ قلنا: بل الأَوْلَى أن يرجع إلى الكل؛ لأن العطية ليست بذلك أولى من سائر الأعمال، إذ المراد أن يؤدي ذلك على وجل من تقصيره، فيكون مبالغًا في توفيته حقه، فأما إذا قرئ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٢٧)، حديث رقم (٣١٧٥)، وأحمد في (مسنده) (٦/ ١٥٩)، حديث رقم (٢٥٣٠٢)، وابن ماجه في (سننه) (٩/ ١٩٨)، حديث رقم (٤١٩٨)، الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٤٢٧)، حديث رقم (٣٤٨٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، الحميدي في (مسنده) (١/ ١٣٢) حديث رقم (٢٧٥)، والطبري في (تفسيره) (١٩/ ٤٧)، جميعًا من طريق مالك بن مغول عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة... به.

فالقول فيه أظهر، إذ المراد بذلك أي شيء أتوه وفعلوه من تحرز عن معصية وإقدام على إيمان وعمل، فإنهم يقدمون عليه مع الوجل، ثم إنه سبحانه بين علة ذلك الوجل وهي علمهم بأنهم إلى ربهم راجعون، أي: للمجازاة والمساءلة ونشر الصحف وتتبع الأعمال، وأن هناك لا تنفع الندامة، فليس إلا الحكم القاطع من جهة مالك الملك. ثم إنه سبحانه لما ذكر هذه الصفات للمؤمنين المخلصين قال بعده: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أن المراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاحترام. والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا أنواع النفع ووجوه الإكرام، كما قال: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ [آل عمران: ١٤٨]. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] لأنهم إذا سورع لهم بها فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها، وهذا الوجه أحسن طباقًا للآية المتقدمة؛ لأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين وقرئ (يسرعون في الخيرات).

اما قوله: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ فالمعنى فاعلون السبق لأجلها، أو سابقون الناس لأجلها، أو وهم لها سابقون أي: ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون خبرًا بعد خبر. والمعنى: وهم لها كما يقال: أنت لها وهي لك، ثم قال: سابقون أي: وهم سابقون.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ٦٣ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر حكمين من أحكام أعمال العباد: فالأول: قوله: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ وفي الوسع قولان: أحدهما: أنه الطاقة عن المفضل. والثاني: أنه دون الطاقة وهو قول المعتزلة ومقاتل والضحاك والكلبي واحتجوا عليه بأن الوسع إنما سمي وسعًا؛ لأنه يتسع عليه فعله ولا يصعب ولا يضيق، فبيَّن أن أولئك المخلصين لم يكلفوا أكثر مما عملوا. قال مقاتل: من لم يستطع أن يصلي قائمًا فليصل جالسًا ومن لم يستطع جالسًا فليوم إيماء لأنا لا نكلف نفسًا إلا وسعها، واستدلت المعتزلة به في نفي تكليف ما لا يطاق وقد تقدم القول فيه. الثاني: قوله: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ ونظيره قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الجاثية: ٢٩] وقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩].

واعلم أنه تعالى شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان فإن الكتاب لا ينطق لكنه يعرب بما فيه كما يعرب وينطق الناطق إذا كان محقًا، فإن قيل: هؤلاء الذين يُعْرَض عليهم ذلك الكتاب إما أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو مجوزين ذلك عليه، فإن أحالوه عليه فإنهم يصدقونه في كل ما يقول سواء وجد الكتاب أو لم يوجد، وإن جوزوه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب

لتجويزهم أنه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل. فعلى التقديرين لا فائدة في ذلك الكتاب؟ قلنا: يفعل الله ما يشاء وعلى أنه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة.

وأما قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فنظيره قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] فقالت المعتزلة: الظلم إما أن يكون بالزيادة في العقاب، أو بالنقصان من الثواب، أو بأن يعذب على ما لم يعلم، أو بأن يكلفهم ما لا يطيقون، فتكون الآية دالة على كون العبد موجدًا لفعله وإلا لكان تعذيبه عليه ظلمًا ودالة على أنه سبحانه لا يكلف ما لا يطاق. الجواب: أنه لما كلف أبا لهب أن يؤمن، والإيمان يقتضي تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه ومما أخبر عنه أن أبا لهب لا يؤمن فقد كلفه بأن يؤمن بأنه لا يؤمن فيلزمكم كل ما ذكرتموه.

وأما قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه راجع إلى الكفار وهم الذين يليق بهم قوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ ولا يليق ذلك بالمؤمنين إذ المراد في غمرة من هذا الذي بيناه في القرآن، أو من هذا الكتاب الذي ينطق بالحق، أو من هذا الذي هو وصف المشفقين ولهم أي: لهؤلاء الكفار أعمال من دون ذلك أي: أعمال سوى ذلك أي: سوى جهلهم وكفرهم ثم قال بعضهم: أراد أعمالهم في الحال، وقال بعضهم: بل أراد المستقبل وهذا أقرب؛ لأن قوله: ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ إلى الاستقبال أقرب وإنما قال: ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ لأنها مثبتة في علم الله تعالى وفي حكم الله وفي اللوح المحفوظ، فوجب أن يعملوها ليدخلوا بها النار لما سبق لهم من الله من الشقاوة. القول الثاني: وهو اختيار أبي مسلم أن هذه الآيات من صفات المشفقين كأنه سبحانه قال بعد وصفهم: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ يحفظ أعمالهم ﴿يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ هو أيضًا وصف لهم بالحيرة كأنه قال: وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين في جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ولهم أعمال من دون ذلك أي: لهم أيضًا من النوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه إما أعمالاً قد عملوها في الماضي، أو سيعملونها في المستقبل، ثم إنه سبحانه رجع بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ إلى وصف الكفار.

واعلم أن قول أبي مسلم أولى؛ لأنه إذا أمكن رد الكلام إلى ما يتصل به من ذكر المشفقين كان أَوْلى من رده إلى ما بعد منه خصوصًا، وقد يرغب المرء في فعل الخير بأن يذكر أن أعماله محفوظة كما قد يحذر بذلك من الشر، وقد يوصف المرء لشدة فكره في أمر آخرته بأن قلبه في غمرة ويراد أنه قد استولى عليه الفكر في قبول عمله، أو رده وفي أنه هل أدّاه كما يجب، أو قصر. فإن قيل: فما المراد بقوله من هذا، وهو إشارة إلى ماذا؟ قلنا: هو إشارة إلى إشفاقهم ووجلهم مع أنهما مستوليان على قلوبهم.

أما قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ فقال صاحب (الكشاف): حتى هذه هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام الجملة الشرطية.

واعلم أنه لا شبهة (في) أن الضمير في مترفيهم راجع إلى من تقدم ذكره من الكفار؛ لأن العذاب لا يليق إلا بهم وفي هذا العذاب وجهان: أحدهما: أراد بالعذاب ما نزل بهم يوم بدر. والثاني: أنه عذاب الآخرة ثم بيَّن سبحانه أن المنعمين منهم إذا نزل بهم العذاب يجأرون أي: يرتفع صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه ويقال لهم على وجه التبكيت: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ فلا يدفع عنكم ما يريد إنزاله بكم، دل بذلك سبحانه على أنهم سينتهون يوم القيامة إلى هذه الدرجة من الحسرة والندامة وهو كالباعث لهم في الدنيا على ترك الكفر والإقدام على الإيمان والطاعة فإنهم الآن ينتفعون بذلك.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بيَّن فيما قبل أنه لا ينصر أولئك الكفار أتبعه بعلة ذلك وهي أنه متى تليت آيات الله عليهم أتوا بأمور ثلاثة: أحدها: أنهم كانوا على أعقابهم ينكصون وهذا مثل يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد وهو قوله: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: تنفرون عن تلك الآيات وعمن يتلوها كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه. وثانيها: قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ والهاء في (به) إلى ماذا تعود؟ فيه وجوه: أولها: إلى البيت العتيق أو الحرم كانوا يقولون: لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم والذي يسوغ هذا الإضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وإن لم يكن لهم مفخرة إلا أنهم ولاته والقائمون به. وثانيها: المراد مستكبرين بهذا التراجع والتباعد. وثالثها: أن تتعلق الباء بسامرًا أي: يسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه، وهذا هو الأمر الثالث الذي يأتون به عند تلاوة القرآن عليهم، وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سِحرًا وشعرًا وسب رسول الله ﷺ ويهجرون، والسامر نحو الحاضر في الإطلاق على الجمع وقرئ سمرًا وسامرًا، يهجرون من أهجر في منطقه إذا أفحش والهجر بالفتح: الهذيان والهجر بالضم: الفحش أو من هجر الذي هو مبالغة في هجر إذا هذي. ثم إنه سبحانه لما وصف حالهم رد عليهم بأن بيَّن أن إقدامهم على هذه الأمور لا بد وأن يكون لأحد أمور أربعة: أحدها: أن لا يتأملوا في دليل ثبوته وهو المراد من قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[محمد: ٢٤] فبيَّن أن القول الذي هو القرآن كان معروفًا لهم وقد

مكنوا من التأمل فيه من حيث كان مباينًا لكلام العرب في الفصاحة، ومبرأ عن التناقض في طول عمره، ومن حيث ينبه على ما يلزمهم من معرفة الصانع ومعرفة الوحدانية فلم لا يتدبرون فيه ليتركوا الباطل ويرجعوا إلى الحق. وثانيها: أن يعتقدوا أن مجيء الرسل أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وذلك لأنهم عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تتواتر على الأمم وتظهر المعجزات عليها وكانت الأمم بين مصدق ناج، وبين مكذب هالك بعذاب الاستئصال أفما دعاهم ذلك إلى تصديق الرسول. وثالثها: أن لا يكونوا عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ نبه سبحانه بذلك على أنهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه في نهاية الأمانة والصدق وغاية الفرار من الكذب والأخلاق الذميمة فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالأمين. ورابعها: أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولون: إنما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ وهذا أيضًا ظاهر الفساد؛ لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنه أعقل الناس، والمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة، ولقد كان من المبغضين له عليه السلام من سماه بذلك وفيه وجهان: **أحدهما:** أنهم نسبوه إلى ذلك من حيث كان يطمع في انقيادهم له وكان ذلك من أبعد الأمور عندهم فنسبوه إلى الجنون لذلك. والثاني: أنهم قالوا ذلك إيهامًا لعوامهم لكي لا ينقادوا له فأوردوا ذلك مورد الاستحقار له. ثم إنه سبحانه بعد أن عد هذه الوجوه، ونبه على فسادها قال: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ من حيث تمسكوا بالتقليد ومن حيث علموا أنهم لو أقروا بمحمد ﷺ لزالت مناصبهم ولاختلت رياساتهم فلذلك كرهوه فإن قيل: قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ فيه دليل على أن أقلهم لا يكرهون الحق، قلنا: كان فيهم من يترك الإيمان أنفة من توبيخ قومه وأن يقولوا: ترك دين آبائه لا كراهة للحق كما حكي عن أبي طالب ثم بيَّن سبحانه أن الحق لا يتبع الهوى، بل الواجب على المكلف أن يطرح الهوى ويتبع الحق فبيَّن سبحانه أن اتباع الهوى يؤدي إلى الفساد العظيم فقال: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وفي تفسيره وجوه: الأول: أن القوم كانوا يرون أن الحق في اتخاذ آلهة مع الله تعالى، لكن لو صح ذلك لوقع الفساد في السموات والأرض على ما قررناه في دليل التمانع في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. والثاني: أن أهواءهم في عبادة الأوثان وتكذيب محمد ﷺ وهما منشأ المفسدة، والحق هو الإسلام، فلو اتبع الإسلام قولهم لعلم الله حصول المفاسد عند بقاء هذا العالم، وذلك يقتضي تخريب العالم وإفناءه. والثالث: أن آراءهم كانت متناقضة فلو اتبع الحق أهواءهم لوقع التناقض ولاختل نظام العالم، عن القفال.

أما قوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ فقيل: إنه القرآن والأدلة وقيل: بل شرفهم وفخرهم بالرسول وكلا القولين متقارب؛ لأن في مجيء الرسول بيان الأدلة وفي مجيء الأدلة بيان الرسول فأحدهما

مقرون بالآخر، وقيل: الذكر هو الوعظ والتحذير، وقيل: هو الذي كانوا يتمنونه ويقولون: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٨، ١٦٩] وقرئ (بذكراهم). ثم بيَّن سبحانه أنه عليه الصلاة والسلام لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببًا للنفرة فقال: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ وقرىء (خراجًا)، قال أبو عمرو بن العلاء: الخرج: ما تبرعت به والخراج: ما لزمك أداؤه والوجه أن الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ ﴿خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ يعني: أم تسألهم على هدايتهم قليلاً من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخلق خير. فنبه سبحانه بذلك على أن هذه التهمة بعيدة عنه، فلا يجوز أن ينفروا عن قبول قوله لأجلها. فنبه سبحانه بهذه الآيات على أنهم غير معذورين ألبتة وأنهم محجوجون من جميع الوجوه، قال الجبائي: دل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ على أن أحدًا من العباد لا يقدر على مثل نعمه ورزقه ولا يساويه في الإفضال على عباده ودل أيضًا على أن العباد قد يرزق بعضهم بعضًا ولولا ذلك لما جاز أن يقول: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما زيف طريقة القوم أتبعه ببيان صحة ما جاء به الرسول ﷺ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأن ما دل الدليل على صحته فهو في باب الاستقامة أبلغ من الطريق المستقيم ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي: لعادلون عن هذا الطريق؛ لأن طريق الاستقامة واحدة وما يخالفه فكثير.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ ففيه وجوه: أحدها: المراد ضرر الجوع وسائر مضار الدنيا. وثانيها: المراد ضرر القتل والسبي. وثالثها: أنه ضرر الآخرة وعذابها فبيَّن أنهم قد بلغوا في التمرد والعناد المبلغ الذي لا مرجع فيه إلى دار الدنيا، وأنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] لشدة لجاجهم فيما هم عليه من الكفر.

أما قوله تعالى: ﴿لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فالمعنى: لتمادوا في ضلالهم وهم متحيرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠﴾

اختلفوا في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ على وجوه:

أحدها: أنه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة منع الميرة عن أهل مكة فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا الجلود والجيف، فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وقال: ألست تزعم أنك بعثت رحمة العالمين، ثم قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فادع الله يكشف عنا هذا القحط. فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية [(١)]، والمعنى: أخذناهم بالجوع فما أطاعوا.

وثانيها: هو الذي نالهم يوم بدر من القتل والأسر، يعني: أن ذلك مع شدته ما دعاهم إلى الإيمان، عن الأصم.

وثالثها: المراد من عُذب من الأمم الخوالي ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي: مشركي العرب لربهم، عن الحسن.

ورابعها: أن شدة الدنيا أقرب إلى المكلف من شدة الآخرة، فإذا لم تؤثر فيهم شدة الدنيا فشدة الآخرة كذلك، وهذا يدل على أنهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

أما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

ففيه وجهان:

أحدهما: حتى إذا فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من القتل والأسر.

والثاني: إذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥] والإبلاس: اليأس من كل خير، وقيل: السكون مع التحسير. **هاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: ما وزن استكان؟ الجواب: استفعل من السكون أي: انتقل من كون إلى كون، كما قيل: استحال إذا انتقل من حال إلى حال، ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه.

السؤال الثاني: لَمَ جاء ﴿ٱسْتَكَانُوا۟﴾ بلفظ الماضي و﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ بلفظ المستقبل؟ الجواب: لأن المعنى امتحناهم فما وجدنا منهم عقيب المحنة استكانة، وما من عادة هؤلاء أن يتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد وقرىء (فتحنا).

السؤال الثالث: العطف لا يحسن إلا مع المجانسة فأي مناسبة بين قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وبين ما قبله؟ الجواب: كأنه سبحانه لما بين مبالغة أولئك الكفار في الأعراض عن سماع الأدلة ورؤية العبر والتأمل في الحقائق قال للمؤمنين: وهو الذي أعطاكم هذه الأشياء ووقفكم عليها، تنبيهًا على أن من لم يستعمل هذه الأعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٨/ ٤٥)، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٤/ ٣٣٢)، حديث رقم (١٣٢٧)، والبيهقي في (دلائل النبوة) (٤/ ١٣٣)، حديث رقم (١٤٢١)، جميعًا من طريق يحيى بن واضح قال: حدثنا عبد المؤمن، عن علباء بن أحمد، عن عكرمة، عن ابن عباس. . . به.

قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] تنبيهًا على أن حرمان أولئك الكفار ووجدان هؤلاء المؤمنين ليس إلا من الله. واعلم أنه سبحانه بيَّن عظيم نعمه من وجوه: أحدها: بإعطاء السمع والأبصار والأفئدة وخص هذه الثلاثة بالذكر؛ لأن الاستدلال موقوف عليها، ثم بيَّن أنه يَقِل منهم الشاكرون، قال أبو مسلم: وليس المراد أن لهم شكرًا وإن قلَّ، لكنه كما يقال للكفور الجاحد للنعمة: ما أقل شكر فلان. وثانيها: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قيل في التفسير: (خلقكم) قال أبو مسلم: ويحتمل بسطكم فيها ذرية بعضكم من بعض حتى كثرتم كقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣] فنقول: هو الذي جعلكم في الأرض متناسلين، ويحشركم يوم القيامة إلى دار لا حاكم فيها سواه، فجعل حشرهم إلى ذلك الموضع حشرًا إليه لا بمعنى المكان. وثالثها: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: نعمة الحياة وإن كانت من أعظم النعم فهي منقطعة وأنه سبحانه وإن أنعم بها فالمقصود منها الانتقال إلى دار الثواب: ورابعها: قوله: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ووجه النعمة بذلك معلوم، ثم إنه سبحانه حذر من ترك النظر في هذه الأمور فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لأن ذلك دلالة الزجر والتهديد وقرىء (أفلا يعقلون).

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ
وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ
أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما أوضح القول في دلائل التوحيد عقَّبه بذكر المعاد فقال: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في إنكار البعث مع وضوح الدلائل ونبه بذلك على أنهم إنما أنكروا ذلك تقليدًا للأولين وذلك يدل على فساد القول بالتقليد، ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين: أحدهما: قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهو مشهور. وثانيهما: قولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ كأنهم قالوا: إن هذا الوعد كما وقع منه عليه الصلاة والسلام فقد وقع قديمًا من الأنبياء، ثم لم يوجد مع طول العهد، فظنوا أن الإعادة تكون في دار الدنيا، ثم قالوا: لما كان كذلك فهو من أساطير الأولين، والأساطير: جمع أسطار والأسطار جمع سطر أي ما كتبه الأولون مما لا حقيقة له، وجمع أسطورة أوفق.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾

اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكري الإعادة وأن يكون المقصود الرد على عبدة الأوثان، وذلك لأن القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا: نعبد الأصنام لتقربنا إلى الله زلفى، ثم إنه سبحانه احتج عليهم بأمور ثلاثة:

أحدها: قوله: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ ووجه الاستدلال به على الإعادة أنه تعالى لما كان خالقًا للأرض ولمن فيها من الأحياء، وخالقًا لحياتهم وقدرتهم وغيرها، فوجب أن يكون قادرًا على أن يعيدهم بعد أن أفناهم. ووجه الاستدلال به على نفي عبادة الأوثان، من حيث إن عبادة من خلقكم وخلق الأرض وكل ما فيها من النعم هي الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع، وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ معناه الترغيب في التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه.

وثانيها: قوله: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ووجه الاستدلال على الأمرين كما تقدم، وإنما قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تنبيهًا على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل إلا بترك عبادة الأوثان والاعتراف بجواز الإعادة.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

اعلم أنه سبحانه لما ذكر الأرض أولاً والسماء ثانيًا عمم الحكم هاهنا، فقال: من بيده ملكوت كل شيء، ويدخل في الملكوت المُلك والمِلك على سبيل المبالغة، وقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ يقال: أجرت فلانًا على فلان إذا أغثته منه ومنعته. يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء، ولا يغيث أحد منه أحدًا.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ فالمعنى: أنى تخدعون عن توحيده وطاعته، والخادع هو الشيطان والهوى. ثم بيَّن تعالى بقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أنه قد بالغ في الحجاج عليهم بهذه الآيات وغيرها وهم مع ذلك كاذبون، وذلك كالتوعد والتهديد، وقرىء (أتيتهم)، وأتيتهم بالضم والفتح. **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: قرىء (قل لله) في الجواب الأول باللام لا غير، وقرىء (الله) في الأخيرين بغير اللام في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام وباللام في مصاحف أهل البصرة فما الفرق؟ الجواب: لا فرق في المعنى؛ لأن قولك: من ربه، ولمن هو؟ في معنى واحد.

السؤال الثاني: كيف قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم حكى عنهم سيقولون: الله، وفيه تناقض؟ الجواب: لا تناقض لأن قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لا ينفي عملهم بذلك. وقد يقال مثل ذلك في الحجاج على وجه التأكيد لعلمهم والبعث على اعترافهم بما يورد من ذلك.

قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه ادعى أمرين: أحدهما: قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ وهو كالتنبيه على أن ذلك من قول هؤلاء الكفار، فإن جمعًا منهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله. والثاني: قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ وهو قولهم باتخاذ الأصنام آلهة، ويحتمل أن يريد به إبطال قول النصارى والثنوية، ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ والمعنى: لانفرد على (ذلك) كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزًا عن ملك الآخر، ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون، وحيث لم تروا أثر التمايز في الممالك والتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء. فإن قيل: ﴿إِذًا﴾ لا يدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجوابًا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل؟ قلنا: الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ عليه، ثم إنه سبحانه نزَّه نفسه عن قولهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من إثبات الولد والشريك.

أما قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ فقرىء بالجر صفة لله، وبالرفع خبر مبتدأ محذوف، والمعنى: أنه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة، فغيره وإن علم الشهادة فلن يعلم معها الغيب، والشهادة التي يعلمها لا يتكامل بها النفع إلا مع العلم بالغيب وذلك كالوعيد لهم، فلذلك قال: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم أمره سبحانه بالانقطاع إليه وأن يدعوه بقوله: ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): ما والنون مؤكدتان، أي: إن كان ولا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة، فلا تجعلني قرينًا لهم ولا تعذبني بعذابهم، فإن قيل: كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم؟ قلنا: يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهارًا للعبودية وتواضعًا لربه. وما أحسن قول الحسن في قول الصديق: وليتكم ولست بخيركم[1]،

---

(١) **صحيح موقوف**: أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) (١١/ ٣٣٦)، حديث رقم (٢٠٧٠٢) من طريق معمر قال: وحدثني بعض أهل المدينة قال: خطبنا أبو بكر... فذكره، والقاسم بن سلام في (الأموال) (١/ ٨/ ٦) من طريق=

مع أنه كان يعلم أنه خيرهم، ولكن المؤمن يهضم نفسه، وإنما ذكر رب مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة في التضرع.

أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ **ففيه قولان:**

أحدهما: أنهم كانوا ينكرون الوعد بالعذاب ويضحكون منه، فقيل لهم: إن الله قادر على إنجاز ما وعد ويحتمل عذابًا في الدنيا مؤخرًا عن أيامه عليه السلام، فلذلك قال بعضهم: هو في أهل البغي، وبعضهم: في الكفار الذين قوتلوا بعد الرسول ﷺ. والثاني: أن المراد عذاب الآخرة.

أما قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ فالمراد منه أن الأولى به عليه السلام أن يعامل به الكفار فأمر باحتمال ما يكون منهم من التكذيب وضروب الأذى، وأن يدفعه بالكلام الجميل كالسلام وبيان الأدلة على أحسن الوجوه، وبيَّن له أنه أعلم بحالهم منه عليه السلام وأنه سبحانه لما لم يقطع نعمه عنهم، فينبغي أن يكون هو عليه السلام مواظبًا على هذه الطريقة، قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] أبلغ من أن يقال: بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل، والمعنى الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الطاقة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء السيئة. وقيل: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقيل: محكمة؛ لأن المداراة محثوث عليها ما لم تؤد إلى نقصان دين أو مروءة.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما أدب رسوله بقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] أتبعه بما به يقوى على ذلك وهو الاستعاذة بالله من أمرين: أحدهما: من همزات الشياطين، والهمزات جمع الهمزة، وهو الدفع والتحريك الشديد، وهو كالهز والأز، ومنه مهماز الرائض، وهمزاته هو كيده بالوسوسة، ويكون ذلك منه في الرسول بوجهين:

أحدهما: بالوسوسة والآخر بأن يبعث أعداءه على إيذائه، وكذلك القول في المؤمنين؛ لأن الشيطان يكيدهم بهذين الوجهين، ومعلوم أن من ينقطع إلى الله تعالى ويسأله أن يعيذه من الشيطان، فإنه يجب أن يكون متذكرًا متيقظًا فيما يأتي ويذر، فيكون نفس هذا الانقطاع إلى الله

=هشام بن عروة عن أبيه قال: خطب أبو بكر رضي الله عنه... فذكره، وأبو داود في (الزهد) (١/ ٣٤) حديث رقم (٣١) من طريق علي بن هاشم عن إسماعيل عن قيس قال: خطبنا أبو بكر... به؛ وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٣٠/ ٣٠٤) من طريق يحيى بن سلمة بن كهيل عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن أبي بكر... به.

تعالى داعية إلى التمسك بالطاعة وزاجرًا عن المعصية، قال الحسن: كان عليه السلام يقول بعد استفتاح الصلاة: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه ثَلاَثًا، اللَّه أَكْبَرُ ثَلاَثًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ هَمْزِهِ وَنَفْثِهِ وَنَفْخِهِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه، وَمَا هَمْزُهُ؟ قَالَ: الْمَوْتَةُ الَّتِي تَأْخُذُ ابْنَ آدَمَ- أَيِ الْجُنُونُ الَّذِي يَأْخُذُ ابْنَ آدَمَ- قِيلَ: فَمَا نَفْثُهُ؟ قَالَ: الشِّعْرُ قِيلَ: فَمَا نَفْخُهُ؟ قَالَ الْكِبْرُ»(١).

وثانيها: قوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

وفيه وجهان:

أحدهما: أن يحضرون عند قراءة القرآن لكي يكون متذكرًا فيَقِل سهوه، وقال آخرون: بل استعاذ بالله من نفس حضورهم؛ لأنه الداعي إلى وسوستهم كما يقول المرء: أعوذ بالله من خصومتك بل أعوذ بالله من لقائك، وروي عن رسول الله ﷺ وقد اشتكى إليه رجل أَرَقًا يجده فقال: «إِذَا أَرَدْتَ النَّوْمَ فَقُلْ: أَعُوذُ باللَّه وَبِكَلِمَاتِ اللَّه التَّامَّاتِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ»(٢).

أما قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): حتى متعلق بيصفون أي: لا يزالون على سوء الذكر إلى هذا الوقت والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للإغضاء عنهم مستعينًا بالله على الشيطان أنه يستزله عن الحلم والله أعلم.

المسألة الثانية: اختلفوا في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فالأكثرون على أنه راجع إلى الكفار وقال الضحاك: كنت جالسًا عند ابن عباس، فقال: من لم يزكِ ولم يحج سَأَلَ الرجعة عند الموت، فقال واحد: إنما يَسْأَل ذلك الكفار فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا أقرأ

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك) (١/ ٢٠٤)، حديث رقم (٧٧٥)، قال: حدثنا عبد السلام بن مظهر، والترمذي في كتاب (الصلاة)، باب: (ما يقول عند افتتاح الصلاة) (٢/ ٩)، حديث رقم (٢٤٢)، وابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة)، باب: (افتتاح الصلاة) (١/ ٢٦٤)، حديث رقم (٨٠٤)، والنسائي في كتاب (الافتتاح)، باب: (نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة والقراءة) (١/ ٤٦٩)، حديث رقم (٨٩٨) من طريق عبد الرزاق... به، والدارمي في كتاب (الصلاة)، باب: (ما يقال بعد افتتاح الصلاة) (١/ ٢٨٧)، حديث رقم (١٢٣٩)، وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٢٣٨) حديث رقم (٤٦٧)، قال: حدثنا محمد بن موسى الحرشي، جميعًا (ابن مطهر، ابن موسى، زيد، عبد الرزاق، محمد بن الحسن، حسن بن الربيع) عن جعفر بن سليمان... به.

(٢) والحديث أصله في سنن أبي داود والترمذي، أخرجه أبو داود في كتاب (الطب)، باب: (كيف الرقي) (٤/ ١٦٧٦)، حديث رقم (٣٨٩٣)، والترمذي في كتاب (الدعوات)، باب: (٩٤)، (٥/ ٥٠٦)، حديث رقم (٣٥٢٨)، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٥٤٨)، جميعًا من طريق محمد بن إسحاق... به وإسناده حسن.

عليك به قرآنًا ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠] قال رسول الله ﷺ: «إذا حَضَرَ الإِنْسَانَ الْمَوْتُ جُمِعَ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْ حَقِّهِ بَيْنَ يَدَيْهِ فَعِنْدَهُ يَقُولُ: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ»(١).

والأقرب هو الأول إذا عرف المؤمن منزلته في الجنة فإذا شاهدها لا يتمنى أكثر منها، ولولا ذلك لكان أدونهم ثوابًا يغتم بفقد ما يفقد من منزلة غيره وأما ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون: ١٠] فهو إخبار عن حال الحياة في الدنيا لا عن حال الثواب فلا يلزم على ما ذكرنا.

المسألة الثالثة: اختلفوا في وقت مسألة الرجعة فالأكثرون على أنه يسأل في حال المعاينة؛ لأنه عندها يضطر إلى معرفة الله تعالى وإلى أنه كان عاصيًا ويصير ملجأ إلى أنه لا يفعل القبيح بأن يعلمه الله تعالى أنه لو رامه لمنع منه، ومن هذا حاله يصير كالممنوع من القبائح بهذا الإلجاء فعند ذلك يسأل الرجعة، ويقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وقال آخرون: بل يقول ذلك عند معاينة النار في الآخرة، ولعل هذا القائل إنما ترك ظاهر هذه الآية لما أخبر الله تعالى في كتابه عن أهل النار في الآخرة أنهم يسألون الرجعة لكن ذلك مما لا يمنع أن يكونوا سائلين الرجعة في حال المعاينة، والله تعالى يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ فعلق قولهم هذا بحال حضور الموت وهو حال المعاينة فلا وجه لترك هذا الظاهر.

المسألة الرابعة: اختلفوا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ مَنْ المراد به؟ فقال بعضهم: الملائكة الذين يقبضون الأرواح وهم جماعة فلذلك ذكره بلفظ الجمع، وقال آخرون: بل المراد هو الله تعالى؛ لأن قوله: (رب) بمنزلة أن يقول: يا رب وإنما ذكر بلفظ الجمع للتعظيم كما يخاطب العظيم بلفظه فيقول: فعلنا وصنعنا وقال الشاعر:

فَإِنْ شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ(٢)

ومن يقول بالأول يجعل ذكر الرب للقسم، فكأنه عند المعاينة قال: بحق الرب ارجعون،

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: كيف يسألون الرجعة وقد علموا صحة الدين بالضرورة، ومن الدين أن لا رجعة؟

الجواب: أنه وإن كان كذلك فلا يمتنع أن يسألوه؛ لأن الاستعانة بهذا الجنس من المسألة تحسن وإن علم أنه لا يقع فأما إرادته للرجعة فلا يمتنع أيضًا على سبيل ما يفعله المتمني.

(١) لم أجده.

(٢) هذا الشطر الأول من بيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر الحارث المخزومي والبيت هكذا:

فَإِن شِئتِ حَرَّمتُ النِساءَ سِواكُمُ وَإِن شِئتِ لَم أُطعَم نُقاخا وَلا بَردا

والحارث المخزومي هو الحارث المخزومي وهو: الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي، من قريش. ؟- ٨٠ هـ/ ؟- ٦٩٩م. شاعر غزل، من أهل مكة نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة وكان يذهب مذهبه، لا يتجاوز الغزل إلى المديح ولا الهجاء.

السؤال الثاني: ما معنى قوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ أفيجوز أن يسأل الرجعة مع الشك؟ **الجواب:** ليس المراد بلعل الشك فإنه في هذا الوقت باذل للجهد في العزم على الطاعة إن أعطى ما سأل، بل هو مثل من قصر في حق نفسه وعرف سوء عاقبة ذلك التقصير فيقول: مكنوني من التدارك لعلي أتدارك فيقول هذه الكلمة مع كونه جازمًا بأنه سيتدارك، ويحتمل أيضًا أن الأمر المستقبل إذا لم يعرفوه أوردوا الكلام الموضوع للترجي والظن دون اليقين، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

السؤال الثالث: ما المراد بقوله فيما تركت؟ الجواب: قال بعضهم: فيما خلفت من المال ليصير عند الرجعة مؤديًا لحق الله تعالى منه، والمعقول من قوله: ﴿تَرَكۡتُۚ﴾ التركة وقال آخرون: بل المراد أعمل صالحًا فيما قصرت فيدخل فيه العبادات البدنية والمالية والحقوق، وهذا أقرب كأنهم تمنوا الرجعة ليصلحوا ما أفسدوه ويطيعوا في كل ما عصوا.

السؤال الرابع: ما المراد بقوله كلا؟ الجواب: فيه قولان: أحدهما: أنه كالجواب لهم في المنع مما طلبوا، كما يقال لطالب الأمر المستبعد: هيهات، روي أنه عليه السلام قال لعائشة رضي الله عنها: «**إِذَا عَايَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَلَائِكَةَ قَالُوا: نُرْجِعُكَ إِلَى دَارِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: إِلَى دَارِ الْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ لاَ، بَلْ قُدُومًا عَلَى اللَّهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: نُرْجِعُكَ فَيَقُولُ: ارْجِعُونِ فَيُقَالُ لَهُ: إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَرْغَبُ إِلَى جَمْعِ الْمَالِ أَوْ غَرْسِ الْغِرَاسِ أَوْ بِنَاءِ الْبُنْيَانِ أَوْ شَقِّ الْأَنْهَارِ؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ فَيَقُولُ: الْجَبَّارُ: كَلَّا**». الثاني: يحتمل أن يكون على وجه الإخبار بأنهم يقولون ذلك وأن هذا الخبر حق فكأنه قال: حقًا إنها كلمة هو قائلها، والأقرب الأول.

أما قوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ففيه وجهان: الأول: أنه لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه. الثاني: أنه قائلها وحده ولا يجاب إليها ولا يسمع منه.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ فالبرزخ: هو الحاجز والمانع كقوله في البحرين: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] أي: فهؤلاء صائرون إلى حالة مانعة من التلاقي حاجزة عن الاجتماع وذلك هو الموت، وليس المعنى أنهم يرجعون يوم البعث، إنما هو إقناط كلي لما علم أنه لا رجعة يوم البعث إلا إلى الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾

اعلم أنه سبحانه لما قال: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] ذكر أحوال ذلك

اليوم فقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الصور آلة إذا نفخ فيها يظهر صوت عظيم، جعله الله تعالى علامة لخراب الدنيا ولإعادة الأموات، روي عن رسول الله ﷺ أنه قرن ينفخ فيه(١).

وثانيها: أن المراد من الصور مجموع الصور، والمعنى: فإذا نفخ في الصور أرواحها وهو قول الحسن فكان يقرأ بفتح الواو والفتح والكسر عن أبي رزين وهو حجة لمن فسر الصور بجمع صورة.

وثالثها: أن النفخ في الصور استعارة والمراد منه البعث والحشر، والأول أولى للخبر وفي قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٦٨] دلالة على أنه ليس المراد نفخ الروح والإحياء؛ لأن ذلك لا يتكرر.

أما قوله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فمن المعلوم أنه سبحانه إذا أعادهم فالأنساب ثابتة؛ لأن المعاد هو الولد والوالد، فلا يجوز أن يكون المراد نفي النسب في الحقيقة بل المراد نفي حكمه. وذلك من وجوه: أحدها: أن من حق النسب أن يقع به التعاطف والتراحم كما يقال في الدنيا: أسألك بالله والرحم أن تفعل كذا. فنفى سبحانه ذلك من حيث إن كل أحد من أهل النار يكون مشغولاً بنفسه وذلك يمنعه من الالتفات إلى النسب، وهكذا الحال في الدنيا؛ لأن الرجل متى وقع في الأمر العظيم من الآلام ينسى ولده ووالده. وثانيها: أن من حق النسب أن يحصل به التفاخر في الدنيا، وأن يسأل بعضهم عن كيفية نسب البعض، وفي الآخرة لا يتفرغون لذلك. وثالثها: أن يجعل ذلك استعارة عن الخوف الشديد فكل امرىء مشغول بنفسه عن بنيه وأخيه وفصيلته التي تؤويه فكيف بسائر الأمور، قال ابن مسعود رضي الله عنه: يؤخذ العبد والأمة يوم القيامة على رءوس الأشهاد وينادي منادٍ ألا إن هذا فلان فمن له عليه حق فليأت إلى حقه فتفرح المرأة حينئذ أن يثبت لها حق على أمها أو أختها أو أبيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها(٢) ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ وعن قتادة لا شيء أبغض إلى الإنسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يثبت له عليه شيء ثم تلا ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤، ٣٥] وعن الشعبي قال: قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أما نتعارف يوم القيامة، أسمع الله تعالى يقول: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «ثَلَاثُ مَوَاطِنَ تَذْهَلُ فِيهَا كُلُّ نَفْسٍ: حِينَ يُرْمَى إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ كِتَابُهُ، وَعِنْدَ الْمَوَازِينِ، وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ» وطعن بعض الملحدة فقال: قوله: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] يناقض قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] الجواب: عنه من وجوه: أحدها: أن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ففيه أزمنة وأحوال مختلفة فيتعارفون ويتساءلون في بعضها، ويتحيرون في بعضها لشدة الفزع.

---

(١) تقدم.

(٢) الطبري في (تفسيره) (١٨/ ٥٤). من طريق الحسين قال: حدثنا عيسى بن يونس عن هارون بن عنترة عن زاذان قال: سمعت ابن مسعود... به.

وثانيها: أنه إذا نفخ في الصور نفخة واحدة شغلوا بأنفسهم عن التساؤل، فإذا نفخ فيه أخرى أقبل بعضهم على بعض وقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢] وثالثها: المراد لا يتساءلون بحقوق النسب. ورابعها: أن قوله: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ صفة للكفار وذلك لشدة خوفهم.

أما قوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠] فهو صفة أهل الجنة إذا دخلوها، واعلم أنه سبحانه قد بيَّن أن بعد النفخ في الصور تكون المحاسبة، وشرح أحوال السعداء والأشقياء، وقيل: لما بيَّن سبحانه أنه ليس في الآخرة إلا ثقل الموازين وخفتها، وجب أن يكون كل مكلف لا بد وأن يكون من أهل الجنة وأهل الفلاح، أو من أهل النار فيبطل بذلك القول بأن فيهم من لا يستحق الثواب والعقاب أو من يتساوى له الثواب والعقاب، ثم إنه سبحانه شرح حال السعداء بقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وفي الموازين أقوال: أحدها: أنه استعارة من العدل. وثانيها: أن الموازين هي الأعمال الحسنة فمن أتى بما له قدر وخطر فهو الفائز الظافر، ومن أتى بما لا وزن له كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] فهو خالد في جهنم. قال ابن عباس رضي الله عنهما الموازين: جمع موزون وهي الموزونات من الأعمال أي: الصالحات التي لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] أي: قدرًا. وثالثها: أنه ميزان له لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات في أحسن صورة، والسيئات في أقبح صورة فمن ثقلت حسناته سيق إلى الجنة ومن ثقلت سيئاته فإلى النار، وتمام الكلام في هذا الباب قد تقدم في سورة الأنبياء عليهم السلام. وأما الأشقياء فقد وصفهم الله تعالى بأمور أربعة:

أحدها: أنهم خسروا أنفسهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: غبنوها بأن صارت منازلهم للمؤمنين، وقيل: امتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم في العذاب.

وثانيها: قوله: ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ ودلالته على خلود الكفار في النار بينة. قال صاحب (الكشاف): ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بدل من خسروا أنفسهم، أو خبر بعد خبر لأولئك، أو خبر مبتدأ محذوف.

وثالثها: قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما أي: تضرب وتأكل لحومهم وجلودهم، قال الزجاج: اللفح والنفخ واحد إلا أن اللفح أشد تأثيرًا.

ورابعها: قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ والكلوح أن تتقلص الشفتان ويتباعدا عن الأسنان، كما ترى الرءوس المشوية، وعن النبي ﷺ أنه قال: «**تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَبْلُغَ سُرَّتَهُ**»، وقرئ (كَلِحُونَ)، ثم إنه سبحانه لما شرح عذابهم، حكى ما يقال لهم عند ذلك تقريعًا وتوبيخًا، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ثم إنكم كنتم تكذبون بها مع وضوحها، فلا جرم صرتم مستحقين لما أنتم فيه من

العذاب الأليم. قالت المعتزلة: الآية تدل على أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب لسوء أفعالهم، ولو كان فعل العباد بخلق الله تعالى لما صح ذلك والجواب: أن القادر على الطاعة والمعصية إن صدرت المعصية عنه لا لمرجح ألبتة كان صدورها عنه اتفاقيًّا لا اختياريًّا، فوجب أن لا يستحق العقاب، وإن كان لمرجح، فذاك المرجح ليس من فعله وإلا لزم التسلسل، فحينئذ يكون صدور تلك الطاعة عنه اضطراريًّا لا اختياريًّا، فوجب أن لا يستحق الثواب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ
عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا
أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما قال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥] ذكروا ما يجري مجرى الجواب عنه وهو من وجهين: الأول: قولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): غلبت علينا ملكتنا من قولك غلبني فلان على كذا إذا أخذه منك، والشقاوة سوء العاقبة، قرىء: (شقوتنا) بفتح الشين وكسرها فيهما، قال أبو مسلم: الشقوة: من الشقاء كجرية الماء، والمصدر الجري، وقد يجيء لفظ فعله، والمراد به الهيئة والحال، فيقول جلسة حسنة وركبة وقعدة وذلك من الهيئة، وتقول عاش فلان عيشة طيبة ومات ميتة كريمة، وهذا هو الحال والهيئة، فعلى هذا المراد من الشقوة حال الشقاء.

المسألة الثانية: قال الجبائي: المراد أن طلبنا اللذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ساقنا إلى هذه الشقاوة، فأطلق اسم المسبب على السبب. وليس هذا باعتذار منهم لعلمهم بأن لا عذر لهم فيه، ولكنه اعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم في سوء صنيعهم، قلنا: إنك حملت الشقاوة على طلب تلك اللذات المحرمة، وطلب تلك اللذات حصل باختيارهم أو لا باختيارهم فإن حصل باختيارهم فذلك الاختيار محدث، فإن استغنى عن المؤثر فلم لا يجوز في كل الحوادث ذلك، وحينئذ ينسد عليك باب إثبات الصانع، وإن افتقر إلى محدث فمحدثه إما العبد أو الله تعالى، فإن كان هو العبد فذلك باطل لوجوه: أحدها: أن قدرة العبد صالحة للفعل والترك، فإن توقف صدور تلك الإرادة عنها إلى مرجح آخر، عاد الكلام فيه ولزم التسلسل، وإن لم يتوقف على المرجح فقد جوزت رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح، وذلك يسد باب إثبات الصانع. وثانيها: أن العبد لا يعلم كمية تلك الأفعال ولا كيفيتها، والجاهل

بالشيء لا يكون محدثًا له، وإلا لبطلت دلالة الإحكام والإتقان على العلم. والثاني: أن أحدًا في الدنيا لا يرضى بأن يختار الجهل، بل لا يقصد إلا تحصيل العلم، فالكافر ما قصد إلا تحصيل العلم، فإن كان الموجد لفعله هو فوجب أن لا يحصل إلا ما قصد إيقاعه، لكنه لم يقصد إلا العلم فكيف حصل الجهل؟ فثبت أن الموجد للدواعي والبواعث هو الله تعالى، ثم إن الداعية إن كانت سائقة إلى الخير كانت سعادة، وإن كانت سائقة إلى الشر كانت شقاوة. الوجه الثاني لهم في الجواب: قولهم: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ وهذا الضلال الذي جعلوه كالعلة في إقدامهم على التكذيب إن كان هو نفس ذلك التكذيب لزم تعليل الشيء بنفسه، ولما بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون ذلك الضلال عبارة عن شيء آخر ترتب عليه فعلهم وما ذاك إلا خلق الداعي إلى الضلال، ثم إن القوم لما أوردوا هذين العذرين، قال لهم سبحانه: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ وهذا هو صريح قولنا: في أن المناظرة مع الله تعالى غير جائزة، بل لا يسأل عما يفعل. قال القاضي: في قوله: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ دلالة على أنه لا عذر لهم إلا الاعتراف، فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وبإرادته وعلموا ذلك لكانوا بأن يذكروا ذلك أجدر وإلى العذر أقرب، فنقول: قد بيّنا أن الذي ذكروه ليس إلا ذلك ولكنهم مقرون أن لا عذر لهم فلا جرم، قال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

أما قوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾ فالمعنى: أخرجنا من هذه الدار إلى دار الدنيا، فإن عدنا إلى الأعمال السيئة فإنا ظالمون، فإن قيل: كيف يجوز أن يطلبوا ذلك وقد علموا أن عقابهم دائم؟ قلنا: يجوز أن يلحقهم السهو عن ذلك في أحوال شدة العذاب فيسألون الرجعة. ويحتمل أن يكون مع علمهم بذلك يسألون ذلك على وجه الغوث والاسترواح.

أما قوله: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ فالمعنى: ذلوا فيها وانزجروا كما يزجر الكلاب إذا زجرت، يقال: خسأ الكلب وخسأ بنفسه.

أما قوله: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فليس هذا نهيًا لأنه لا تكليف في الآخرة، بل المراد لا تكلمون في رفع العذاب فإنه لا يرفع ولا يخفف، قيل: هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك إلا الشهيق والزفير، والعواء كعواء الكلاب، لا يفهمون ولا يفهمون. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن لهم ست دعوات، إذا دخلوا النار قالوا ألف سنة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] فيجابون: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] فينادون ألف سنة ثانية: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] فيجابون: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ [غافر: ١٢] فينادون ألف ثالثة: ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فيجابون: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] فينادون ألفًا رابعة: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فينادون ألفًا خامسة: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧] فيجابون: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ [فاطر: ٣٧] فينادون ألفًا سادسة ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] فيجابون: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾ ثم بيّن سبحانه وتعالى،

أن فزعهم بأمر يتصل بالمؤمنين، وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ فوصف تعالى أحد ما لأجله عذبوا وبعدوا من الخير، وهو ما عاملوا به المؤمنين. وفي حرف أبي (أنه كان فريق) بالفتح بمعنى لأنه. وقرأ نافع، وأهل المدينة، وأهل الكوفة، عن عاصم بضم السين في جميع القرآن، وقرأ الباقون بالكسر هاهنا وفي (ص) قال الخليل وسيبويه: هما لغتان كدُرّي ودِرّيّ. وقال الكسائي والفراء: الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول، والضم بمعنى السخرية. قال مقاتل: إن رؤساء قريش مثل أبي جهل، وعتبة، وأبيّ بن خلف كانوا يستهزئون بأصحاب رسول الله ﷺ ويضحكون بالفقراء منهم مثل بلال، وخباب، وعمار، وصهيب، والمعنى: اتخذتموهم هزوًا حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ذكرى وأكد ذلك بقوله: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ثم بيَّن سبحانه ما يقتضي فيهم الأسف والحسرة بأن وصف ما جازى به أولئك المؤمنين فقال: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي (أنهم) بالكسر، والباقون بالفتح فالكسر استئناف أي: قد فازوا حيث صبروا؛ فجوزوا بصبرهم أحسن الجزاء، والفتح على أنه في موضع المفعول الثاني من جزيت، ويجوز أن يكون نصبًا بإضمار الخافض أي: جزيتهم الجزاء الوافر؛ لأنهم هم الفائزون.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

اعلم أن في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): في مصاحف أهل الكوفة (قال) وهو ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة، و(قل) في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام وهو ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار.

المسألة الثانية: الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ، فقد كانوا ينكرون اللبث في الآخرة أصلًا ولا يعدون اللبث إلا في دار الدنيا ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ولا إعادة فلما حصلوا في النار وأيقنوا أنها دائمة وهم فيها مخلدون سألهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تنبيهًا لهم على أن ما ظنوه دائمًا طويلًا فهو يسير بالإضافة إلى ما أنكروه، فحينئذ تحصل لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا من حيث أيقنوا خلافه، فليس الغرض السؤال بل الغرض ما ذكرنا.

فإن قيل: فكيف يصح في جوابهم أن يقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولا يقع من أهل النار الكذب. قلنا: لعلهم نسوا ذلك لكثرة ما هم فيه من الأهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث

قالوا: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل: مرادهم بقولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ تصغير لبثهم وتحقيره بالإضافة إلى ما وقعوا فيه وعرفوه من أليم العذاب والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن السؤال عن أي لبث وقع، فقال بعضهم: لبثهم إحياؤهم في الدنيا ويكون المراد أنهم أمهلوا حتى تمكنوا من العلم والعمل فأجابوا بأن قدر لبثهم كان يسيرًا بناء على أن الله تعالى أعلمهم أن الدنيا متاع قليل وأن الآخرة هي دار القرار، وهذا القائل احتج على قوله: بأنهم كانوا يزعمون أن لا حياة سواها، فلما أحياهم الله تعالى في النار وعذبوا سألوا عن ذلك توبيخًا لأنه إلى التوبيخ أقرب، وقال آخرون: بل المراد اللبث في حال الموت، واحتجوا على قولهم بأمرين: الأول: أن قوله: في الأرض يفيد الكون في القبر ومن كان حيًّا فالأقرب أن يقال: إنه على الأرض وهذا ضعيف لقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٥٦]، الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] ثم بيَّن سبحانه أنهم كذبوا في ذلك وأخبر عن المؤمنين قولهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦].

المسألة الرابعة: احتج من أنكر عذاب القبر بهذه الآية فقال: قوله: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يتناول زمان كونهم أحياء فوق الأرض وزمان كونهم أمواتًا في بطن الأرض فلو كانوا معذبين في القبر لعلموا أن مدة مكثهم في الأرض طويلة فما كانوا يقولون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ والجواب من وجهين: أحدهما: أن الجواب لا بد وأن يكون بحسب السؤال، وإنما سألوا عن موت لا حياة بعده إلا في الآخرة، وذلك لا يكون إلا بعد عذاب القبر. والثاني: يحتمل أن يكونوا سألوا عن قدر اللبث الذي اجتمعوا فيه، فلا يدخل في ذلك تقدم موت بعضهم على البعض، فيصح أن يكون جوابهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ عند أنفسنا. **أما قوله:** ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ ففيه وجوه: أحدها: المراد بهم الحفظة وأنهم كانوا يحصون الأعمال وأوقات الحياة ويحسبون أوقات موتهم وتقدم من تقدم وتأخر من تأخر، وهو معنى قول عكرمة: فاسأل العادين أي: الذين يحسبون. وثانيها: فاسأل الملائكة الذين يعدون أيام الدنيا وساعاتها. وثالثها: أن يكون المعنى سل من يعرف عدد ذلك فإنا قد نسيناه. ورابعها: قرىء العادين بالتخفيف أي: الظلمة فإنهم يقولون مثل ما قلنا. وخامسها: قرئ (العاديين) أي: القدماء المعمرين، فإنهم يستقصرونها فكيف بمن دونهم؟ **أما قوله:** ﴿لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فالمعنى أنهم قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ على معنى أنا لبثنا في الدنيا قليلاً، فكأنه قيل لهم: صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلاً إلا أنها انقضت ومضت، فظهر أن الغرض من هذا السؤال تعريف قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة. **فأما قوله تعالى:** ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فبيَّن في هذا الوجه أنه أراد أنه قليل لو علمتم البعث والحشر، لكنكم لما أنكرتم ذلك كنتم تعدونه طويلاً. ثم بيَّن تعالى ما هو في التوبيخ أعظم بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف) ﴿عَبَثًا﴾ حال أي: عابثين كقوله: ﴿لَٰعِبِينَ﴾ أو مفعول به أي: ما خلقناكم للعبث.

المسألة الثانية: أنه سبحانه لما شرح صفات القيامة ختم الكلام فيها بإقامة الدلالة على وجودها وهي أنه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي والصديق من الزنديق، وحينئذ يكون خلق هذا العالم عبثًا، وأما الرجوع إلى الله تعالى فالمراد إلى حيث لا مالك ولا حاكم سواه لا أنه رجوع من مكان إلى مكان لاستحالة ذلك على الله تعالى ثم إنه تعالى نزَّه نفسه عن العبث بقوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ والملك هو المالك للأشياء الذي لا يبيد ولا يزول ملكه وقدرته، وأما الحق فهو الذي يحق له الملك؛ لأن كل شيء منه وإليه، وهو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه، وبيَّن أنه لا إله سواه وأن ما عداه فمصيره إلى الفناء وما يفنى لا يكون إلهًا وبيَّن أنه تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾. قال أبو مسلم: والعرش هاهنا السموات بما فيها من العرش الذي تطوف به الملائكة ويجوز أن يعني به الملك العظيم، وقال الأكثرون: المراد هو العرش حقيقة وإنما وصفه بالكريم؛ لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة ولنسبته إلى أكرم الأكرمين كما يقال: بيت كريم إذا كان ساكنوه كرامًا، وقرئ (الكريم) بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

اعلم أنه سبحانه لما بيَّن أنه هو الملك الحق لا إله إلا هو أتبعه بأن من ادعى إلهًا آخر فقد ادعى باطلاً من حيث لا برهان لهم فيه، ونبه بذلك على أن كل ما لا برهان فيه لا يجوز إثباته، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد ثم ذكر أن من قال بذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ كأنه قال: إن عقابه بلغ إلى حيث لا يقدر أحد على حسابه إلا الله تعالى وقرىء أنه لا يفلح بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح جعل فاتحة السورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وخاتمتها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة. ثم أمر الرسول ﷺ بأن يقول رب اغفر وارحم ويثني عليه بأنه خير الراحمين، وقد تقدم بيان أنه سبحانه خير الراحمين فإن قيل: كيف تتصل هذه الخاتمة بما قبلها؟ قلنا: لأنه سبحانه لما شرح أحوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة أمر بالانقطاع إلى الله تعالى والالتجاء إلى دلائل غفرانه ورحمته، فإنهما هما العاصمان عن كل الآفات والمخافات، وروي أن أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون: ١] وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها، واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح.

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه وعترته وأهل بيته.

سورة المؤمنون

مكيَّة كلُّها في قول الجميع(1)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ② وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ③ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ④ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ⑦ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ⑧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ⑨ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ⑪﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ روى البيهقيُّ من حديث أنس عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ جنةَ عَدْن، وغَرَسَ أشجارَها بيده، قال لها: تكلَّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون»(2).

وروى النَّسائيُّ عن عبد الله بن السائب قال: حضرتُ رسولَ الله ﷺ يومَ الفتح، فصلَّى في قُبُل الكعبة، فخلَعَ نعلَيْه، فوضعَهُما عن يساره، فافتتحَ سورة المؤمنين، فلمَّا جاء ذِكْرُ موسى - أو عيسى عليهما السلام - أخذته سَعْلةٌ، فركع. خرَّجه مسلم

---

(1) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٠٧، والوسيط ٣/ ٢٨٣، وزاد المسير ٥/ ٤٥٨.

(2) الأسماء والصفات للبيهقي (٦٩١)، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٩٢، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٨٣٧. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. فتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: بل ضعيف. اهـ. قلنا: وقد رُوي عن كعب الأحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم من قولهم، كما في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٣، وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٧.

بمعناه[١].

وفي الترمذيِّ عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أُنزِل عليه الوحيُ، سُمِع عند وجهه كدَوِيِّ النَّحْل؛ وأُنزِل عليه يوماً، فمكثنا ساعةً، فسُرِّيَ عنه[٢]، فاستقبل القبلة، ورفع[٣] يديه، وقال: «اللَّهُمَّ زِدْنا ولا تَنْقُصْنا [وأكْرِمْنا ولا تُهِنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا]، وأرضِنا وارْضَ عنَّا». ثم قال: «أُنزِل عَلَيَّ عَشْرُ آيات، مَنْ أقامَهُنَّ دخلَ الجنةَ»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم عَشْر آيات[٤]. صحَّحه ابنُ العربي[٥].

قال النحاس[٦]: معنى: «مَن أقامهنَّ»: مَن[٧] أقام عليهنَّ، ولم يخالف ما فيهنَّ؛ كما تقول: فلانٌ يقوم بعمله. ثم نزل بعد هذه الآيات فرضُ الوضوء والحجِّ، فدخل معهنَّ.

---

(١) صحيح مسلم (٤٥٥)، وسنن النسائي الصغرى ٢/ ١٧٦ ، وهو في مسند أحمد (١٥٣٩٤)، وعلقه البخاري إثر حديث (٧٧٤).

(٢) في (ظ): ثم سري عنه.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): فرفع، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في سنن الترمذي.

(٤) سنن الترمذي (٣١٧٣) وما بين حاصرتين منه. وهو من طريق عبد الرزاق، عن يونس بن سُليم، عن الزُّهري، عن عروة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عبدٍ القاري، عن عمر ﷺ. ثم أخرجه الترمذي بإثره وزاد في الإسناد يونس بن يزيد بعد يونس بن سليم، وقال: هذا أصح.

وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٠٣٨)، وأحمد (٢٢٣)، والنسائي في الكبرى (١٤٤٣)، والحاكم ٢/ ٣٩٢ ، قال النسائي: هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه، والله أعلم. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، فتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا ـ يعني يونس بن سليم ـ فقال: أظنه لا شيء.

وأورده ابن أبي حاتم في العلل ٣/ ٧٥ - ٧٦ وقال: ويونس بن سليم لا أعرفه، ولا يعرف هذا الحديث من حديث الزهري.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٥ ، قال: وهو صحيح وإن كان قد تكلم فيه أبو عيسى وقطعه!

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ١١١ .

(٧) في (ظ): أي، بدل: من.

وقرأ طلحة بنُ مُصَرِّف: «قد أُفْلِح المؤمنون» بضم الألف على الفعل المجهول[١]، أي: أُبْقُوا في الثواب والخير[٢]. وقد مضى في أوَّل «البقرة» معنى الفلاح لغةً ومعنًى[٣]، والحمد لله وحدَه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿خَٰشِعُونَ﴾ روى المُعْتَمِر، عن خالد، عن محمد بن سيرين قال: كان النبيُّ ﷺ ينظر إلى السماء في الصلاة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾. فجعل رسولُ الله ﷺ ينظرُ حيثُ يَسجدُ[٤]. وفي رواية هُشيم[٥]: كان المسلمون يلتفتون في الصلاة وينظرون، حتى أنزل الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ فأقبلوا على صلاتهم، ونظروا أمامهم[٦].

وقد تقدَّم ما للعلماء في حكم المصلِّي إلى حيث ينظر في «البقرة»[٧] عند قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الآية: ١٤٤].

وقد تقدَّم أيضاً معنى الخشوع لغةً ومعنًى في «البقرة»[٨] أيضاً عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [الآية: ٤٥].

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٧، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٣٦.

(٢) في (ظ): والخيرات.

(٣) ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٧، ومعتمر: هو ابن سليمان التَّيمي، وخالد: هو ابن مهران الحذاء.
وأخرجه عبد الرزاق (٣٢٦١) (٣٢٦٢)، وأبو داود في المراسيل (٤٥)، والطبري ١٧/ ٧، والبيهقي ٢/ ٢٨٣ من طريق أيوب عن ابن سيرين، بنحوه. وقال البيهقي: هذا هو المحفوظ مرسل. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٢٩٥ : هذا الحديث مقطوع مظنون.

(٥) في (ظ): إبراهيم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٣٥.

(٦) في (د) و(م): وجعلوا ينظرون أمامهم، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في الناسخ والمنسوخ للنحاس، ورواية هُشيم أخرجها الطبري ١٧/ ٧، وابنُ أبي شيبة ٢/ ٢٤٠، من طريقه، عن ابن عَوْن، عن ابن سيرين (واللفظ لابن أبي شيبة): كان رسول الله ﷺ مما ينظر إلى الشيء في الصلاة، فيرفع بصره حتى نزلت آية؛ إن لم تكن هذه، فلا أدري ما هي: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ قال: فوضع النبي ﷺ رأسَه.

(٧) ٢/ ٤٤٤.

(٨) ٢/ ٧٠.

والخشوع محلُّه القلب، فإذا خَشَع خشعتِ الجوارحُ كلُّها لخشوعه؛ إذ هو مَلِكُها، حسبما بيَّنَّاه أوَّل «البقرة».

وكان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة[(١)]، وقام إليها، يَهاب الرحمنَ أن يَمُدَّ بصره إلى شيء، وأن يُحدِّث نفسَه بشيء من الدنيا[(٢)].

وقال عطاء: هو ألَّا يعبثَ بشيءٍ من جسده في الصلاة[(٣)].

وأبصرَ النبيُّ ﷺ رجلاً يعبثُ بلحيته في الصلاة، فقال: «لو خَشَع قلبُ هذا، لخشعت جوارحُه»[(٤)]. وقال أبو ذَرٍّ: قال النبيُّ ﷺ: «إذا قامَ أحدُكم إلى الصلاة، فإن الرَّحمة تُواجهه، فلا يُحرِّكنَّ الحصى». رواه الترمذي[(٥)].

وقال الشاعر:

ألَا في الصلاة الخيرُ[(٦)] والفضل أجمعُ ... لأنَّ بها الآرابَ[(٧)] للّه تخضعُ

---

(١) في (ظ) و(د): إذا قام إلى الصلاة، وفي (ز): إذا أقام إلى الصلاة، والمثبت من (خ) و(م).

(٢) الكشاف ٣/ ٢٥ .

(٣) أورده البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٢ .

(٤) هو عند الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» ٣١٧ من حديث أبي هريرة. وأورده العراقي كما في الفتح السماوي ٢/ ٨٥٤ ، وطرح التثريب ٢/ ٣٧٢ ، والمغني عن حمل الأسفار ١/ ١٥١ (بهامش الإحياء)، والسيوطي في الجامع الصغير ٥/ ٣١٩ (مع شرحه فيض القدير) ونسباه للحكيم الترمذي هكذا مرفوعاً، وضعفاه، وقال العراقي كما في الفتح السماوي: فيه سليمان بن عمرو أبو داود النخعي أحد من اتهم بوضع الحديث. اهـ وقال في المغني: سنده ضعيف، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب، رواه ابن أبي شيبة في المصنف، وفيه رجل لم يسم. اهـ

وهو في مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٨٩ ، والزهد لابن المبارك (١١٨٩) من طريق معمر، وفي مصنف عبد الرزاق (٣٣٠٩) من طريق الثوري، كلاهما عن رجل عن ابن المسيب.

وأخرجه عبد الرزاق أيضاً (٣٣٠٨) عن معمر، عن أبان، عن ابن المسيب، وأبان ـ هو ابن أبي عياش ـ متروك.

(٥) في سننه برقم (٣٧٩)، ولفظه: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يمسح الحصى، فإن الرحمة تواجهه». وقال: حديث حسن. اهـ. وهو في مسند أحمد (٢١٣٣٠).

(٦) في (د) و(ظ) و(ز): الحمد.

(٧) في (ظ): الأرباب، والمثبت من باقي النسخ، والآراب: جمع الإرْب، وهو العضو، القاموس المحيط (أرب).

وأوّلُ فرضٍ من شريعة ديننا وآخِرُ ما يبقى إذا[1] الدِّينُ يُرفعُ
فمن قام للتكبير لاقته رحمةٌ وكان كعبدٍ بابَ مولاه يَقْرَعُ
وصار لربِّ العرش حين صَلاته نَجِيًّا فيَا طُوباه لو كان يخشعُ

وروى أبو عِمْران الجَوْنيُّ قال: قيل لعائشة: ما كان خُلُق رسولِ الله ﷺ؟ قالت: أتقرؤون سورةَ المؤمنين؟ قيل: نعم. قالت: اقرؤوا، فقرئ عليها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى بلغ: ﴿يُحَافِظُونَ﴾[2].

وروى النَّسائيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يلحظُ في صلاته يميناً وشِمالاً، ولا يَلوي عُنُقه خلف ظهره[3].

وقال كعب بن مالك في حديثه الطويل: ثم أصلِّي قريباً منه ـ يعني من النبيِّ ﷺ ـ وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي، نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه، أعرض عني... الحديث[4]؛ ولم يأمره بإعادة.

الثالثة: اختلف الناس في الخشوع، هل هو من فرائض الصلاة، أو من فضائلها ومكمِّلاتها؟ على قولين: والصحيح الأوّل. ومحلُّه القلب.

---

(١) في (ظ): إذ.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٥ ، والحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٨٧)، والحاكم ٢/ ٣٩٢ من طريق أبي عمران الجَوْني، عن يزيد بن بابنوس قال: قلت لعائشة... ويزيد بن بابنوس؛ قال فيه الحافظ في التقريب: مقبول. اهـ. يعني حيث يُتابع، لكنه تفرد به، ولم يتابع عليه.

(٣) سنن النسائي ٣/ ٩ ، وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (٢٤٨٥)، وأبو داود ـ كما في تحفة الأشراف ٥/ ١١٧ ـ والترمذي (٥٨٧)، والدارقطني (١٨٦٤)، والحاكم ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧ ، والبيهقي ٢/ ١٣ . وقال الترمذي: هذا حديث غريب. اهـ. وصحح إسناده الحاكم. وقال الدارقطني: تفرد به الفضل بن موسى عن عبد الله بن سعيد بن أبي هند متصلاً، وأرسله غيره. وكذا قال البيهقي، وصحح أبو داود المرسل منه. قال ابن حجر في التقريب: الفضل بن موسى ثقة ثبت وربما أغرب.

وقوله: يلحظ: من اللحظ، وهو النظر بشقِّ العين الذي يلي الصُّدْغ. النهاية (لحظ).

(٤) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، وهو عند أحمد (١٥٧٨٩) وسلف ١٠/ ٤١٢ وما بعدها.

وهو أوّل علم يُرفع من الناس؛ قاله عُبادة بنُ الصامت، رواه الترمذيُّ من حديث جُبير بنِ نُفير عن أبي الدَّرداء، وقال: هذا حديث حسن غريب[١]. وقد خرَّجه النَّسائي من حديث جُبير بن نفير أيضاً، عن عوف بن مالك الأشجعيِّ من طريق صحيحة[٢]. قال أبو عيسى[٣]: ومعاوية بنُ صالح ثقة عند أهل الحديث، ولا نعلم أحداً تكلَّم فيه غيرَ يحيى بنِ سعيدٍ القَطَّان.

قلت: معاوية بن صالح أبو عمرو ـ ويقال: أبو عمر[٤] ـ الحضرميُّ الحمصيُّ قاضي الأندلس، سُئل عنه أبو حاتم الرازي فقال: صالح الحديث، يُكتب حديثه ولا يحتجُّ به. واختلَف فيه قولُ يحيى بن معين، ووثَّقه عبد الرحمن بنُ مهدي وأحمد بنُ حنبل وأبو زُرْعة الرازي[٥]. واحتجَّ به مسلم في «صحيحه».

وتقدَّم في «البقرة» معنى اللغو والزكاة[٦]، فلا معنى للإعادة.

وقال الضَّحَّاك: إن اللغو هنا الشِّرك. وقال الحسن: إنه المعاصي كلُّها. فهذا قول جامع يدخل فيه قول من قال: هو الشرك، وقولُ مَن قال: هو الغناء؛ كما روى مالك ابنُ أنس عن محمد بن المُنْكَدِر[٧]، على ما يأتي في «لُقمان» بيانُه[٨].

---

(١) سنن الترمذي برقم (٢٦٥٣)، وهو من طريق معاوية بن صالح، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه، به.

(٢) السنن الكبرى للنسائي (٥٨٧٨)، وأخرجه أحمد (٢٣٩٩٠)، والبخاري في خلق أفعال العباد (٣٣٧) و(٣٣٨) و(٣٣٩).

(٣) هو الترمذي ، وقوله هذا بإثر الحديث السالف.

(٤) كذا قال، والمعروف له كنيتان: أبو عمرو، وأبو عبد الرحمن، ولعله: أبو عمر، تحريف أبي عمرو. ينظر تهذيب الكمال.

(٥) في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨/ ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٦) ٢/ ٢٣ - ٢٤ ، ٤/ ١٧ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٠٩ - ١١٠ ، وأخرج قول الحسن عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٣ ، والطبري ١٧/ ١١ .

(٨) عند تفسير الآية السادسة منها.

ومعنى «فاعلون» أي: مؤدُّون، وهي فصيحة، وقد جاءت في كلام العرب، قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت[١]:

المُطْعِمون الطعامَ في السَّنة الأ زمة والفاعلون للزَّكَواتِ

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ قال ابن العربي[٢]: مِن غريب القرآن أنَّ هذه الآياتِ العَشْرَ عامّةٌ في الرجال والنساء، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتمِلة لهم، فإنها عامَّة فيهم، إلا قولَه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، فإنما خاطب بها الرجال خاصَّةً دون الزوجات، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [ولا إباحة بين النساء وبين مِلْك اليمين في الفرج]، وإنما عُرف حفظ المرأة فرجَها من أدلة أُخَر، كآيات الإحصان عموماً وخصوصاً، وغيرِ ذلك من الأدلّة.

قلت: وعلى هذا التأويل في الآية، فلا يحلُّ لامرأة أن يطأَها مَن تملكه إجماعاً من العلماء؛ لأنها غيرُ داخلة في الآية، ولكنها لو أعتقته بعد مِلْكها له، جاز له أن يتزوَّجها، كما يجوز لغيره عند الجمهور. ورُوي عن عبيد بن عبد الله بن عُتبة، والشَّعْبيِّ، والنَّخعيِّ: أنها لو أعتقته حين مَلَكته، كانا على نكاحهما. قال أبو عمر[٣]: ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار؛ لأن بملكها[٤] عندهم يبطل النكاح بينهما، وليس ذلك بطلاق، وإنما هو فسخ للنكاح؛ وأنها لو أعتقته بعد مِلْكها له، لم يراجعها إلا بنكاح جديد، ولو كانت في عِدَّة منه.

الخامسة: قال محمد بنُ عبد الحكم: سمعت حَرْملةَ بنَ عبد العزيز قال: سألتُ مالكاً عن الرجل يَجْلِد عُميرةَ، فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلى

---

(١) ديوانه ص٣٠.

(٢) في أحكام القرآن ٣/١٢٩٨ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في الاستذكار ١٦/٣١٧ وما قبله منه.

(٤) في (م) و(د): تملكها.

قوله: ﴿ٱلْعَادُونَ﴾. وهذا لأنهم يَكْنُون عن الذَّكَر بعُمَيْرة؛ وفيه يقول الشاعر:

إذا حَلَلْتَ بوادٍ لا أنيس به فاجْلِدْ عُمَيرةَ لا داءٌ ولا حَرَجُ[1]

ويسمِّيه أهل العراق: الاستمناء، وهو استفعال من المَنيّ[2].

وأحمد بن حنبل على ورعه يجوِّزه[3]، ويحتجُّ بأنه إخراج فَضْلة من البدن، فجاز عند الحاجة؛ أصله الفَصْد[4] والحجامة.

وعامة العلماء على تحريمه.

وقال بعض العلماء: إنه كالفاعل بنفسه، وهي معصية أحدثها الشيطان، وأَجْراها بين الناس، حتى صارت مسألة[5]، ويا ليتها لم تُقَل، ولو قام الدليل على جوازها؛ لكان ذو المروءة يُعْرِض عنها لدناءتها. فإن قيل: إنها خير من نكاح الأَمَة، قلنا: نكاح الأمة ـ ولو كانت كافرةً على مذهب بعض العلماء ـ خير من هذا، وإن كان قد قال به قائل أيضاً، ولكن الاستمناء ضعيف في الدليل، عارٌ بالرجل الدنيء، فكيف بالرجل الكبير؟![6].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ قال الفرّاء: أي: [إلا] من أزواجهم اللاتي أحل الله لهم لا يُجاوَزْنَ[7]. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ في موضع خفض معطوفة

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ٥/١٧٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٩٨ ، وما بعده منه.

(٣) كذا نقل المصنف عن أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٩٨ منسوباً للإمام أحمد، والمنقول عن أحمد قولان، أصحهما أن الاستمناء حرام، والآخر مكروه عند الضرورة، ينظر القواعد لابن رجب ٢٤٦ ، وفتاوى ابن تيمية ٣٤/٢٢٩ و ٢٣١ ، وكشاف القناع ٦/ ١٢٤ ، والإنصاف ٢٦/ ٤٦٦ .

(٤) في (خ) و(ظ): فجاز عند الحاجة كالفصد.

(٥) في (م): قيلة. وكذا في أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٩٩ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٩٨- ١٢٩٩ .

(٧) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): يجاوزون، والمثبت من (خ). وجاء في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١ : اللاتي أحل الله لهم من الأربع لا تجاوز.

على «أزواجهم» و«ما» مصدرية[١].

وهذا يقتضي تحريم الزنى وما قلناه من الاستمناء، ونكاحِ المُتْعة؛ لأن المتمتَّع بها لا تجري مَجرى الزوجات، لا تَرِث ولا تورث، ولا يلحق به ولدها، ولا يخرج من نكاحها بطلاق يستأنف لها، وإنما يخرج[٢] بانقضاء المدّة التي عُقدت عليها وصارت كالمستأجَرَة[٣]. ابن العربي[٤]: إن قلنا: إن نكاح المتعة جائز، فهي زوجة إلى أجلٍ، ينطلق عليها اسم الزوجية[٥]، وإن قلنا بالحق الذي أجمعت عليه الأمةُ من تحريم نكاح المتعة، لَمَا كانت زوجةً، فلم تدخل في الآية.

قلت: وفائدة هذا الخلاف: هل يجب الحدُّ، ولا يُلحق الولد كالزنى الصريح، أو يُدفع الحدُّ للشبهة ويُلحق الولد؟ قولان لأصحابنا[٦].

وقد كان للمتعة في التحليل والتحريم أحوال؛ فمن ذلك أنها كانت مباحة، ثم حرَّمها رسولُ الله ﷺ زَمَنَ خَيْبَر، ثم حلَّلها في غَزاة الفتح، ثم حرمها بعدُ؛ قاله ابن خُويْزمَنْدَاد من أصحابنا وغيرُه، وإليه أشار ابن العربي[٧]. وقد مضى في «النساء»[٨] القولُ فيها مستوفًى.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فسمَّى مَن نَكَح ما لا يَحِلُّ عادِياً، وأوجب عليه الحدَّ بعدوانه[٩]، واللائطُ عادٍ، قرآناً ولغة، بدليل

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٠، ومعاني القرآن له أيضاً ٤/٤٤٣ - ٤٤٤، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) في (ظ): يخرج منه.

(٣) ينظر الاستذكار ١٦/٢٩٦ - ٢٩٧، والتمهيد ١٠/١١٦. وسلف الكلام في هذا ٦/ ٢١٩.

(٤) في أحكام القرآن ٣/١٢٩٩.

(٥) في (ظ): الزوجة، وكذا هي في أحكام القرآن لابن العربي.

(٦) المفهم ٤/٩٣.

(٧) في أحكام القرآن ١/٣٨٩، والقبس ٢/ ٧١٣ - ٧١٤.

(٨) ٦/٢١٨ - ٢١٩.

(٩) في (م): لعدوانه.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٦] - كما تقدم في «الأعراف»(١) - فوجب أن يقام الحدُّ عليهم، وهذا ظاهر لا غبارَ(٢) عليه(٣).

قلت: فيه نظر، ما لم يكن جاهلاً أو متأوِّلاً، وإن كان الإجماع منعقِداً على أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ خُصَّ به الرجال دون النساء؛ فقد روى مَعْمَر عن قتادة قال: تسرَّرَت امرأةٌ غلامَها؛ فذُكر ذلك لعمر، فسألها: ما حملكِ على ذلك؟ فقالت: كنتُ أُراه يحلّ لي بِمِلْك يمين، كما يحلُّ للرجل المرأة بمِلك اليمين. فاستشار عمرُ في رَجْمها أصحابَ رسول الله ﷺ، فقالوا: تأوّلَتْ كتابَ الله عزَّ وجلَّ على غير تأويله، لا رجمَ عليها. فقال عمر: لا جَرَم واللهِ لا أُحِلُّكِ لحرٍّ بعده أبداً. عاقبها بذلك ودرأ الحدَّ عنها، وأمر العبدَ ألّا يَقْرَبها(٤).

وعن أبي بكر بن عبد الله، أنه سمع أباه يقول: أنا حضرتُ عمر بنَ عبد العزيز، جاءته امرأةٌ بغلام لها وَضيء، فقالت: إني اسْتَسْررتُه، فمنعني بنو عمي عن ذلك، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها؛ فانْهَ عني بني عمي؛ فقال عمر: أتزوَّجتِ قبله؟ قالت: نعم؛ قال: أمَا والله، لولا منزلتُكِ من الجهالة، لرجمتُكِ بالحجارة، ولكنِ اذهبوا به، فبيعوه إلى مَن يَخرج به إلى غير بلدها(٥).

و«وَرَاءَ» بمعنى: سِوى، وهو مفعول بـ «ابتغى»، أي: مَن طلب سِوى الأزواج والولائد المملوكةِ له(٦). وقال الزجاج: أي: فمن ابتغى ما بعد ذلك(٧). فمفعول

---

(١) ٩/ ٢٧٩.

(٢) في (د) و(ز): لا عناد عليهم.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٩.

(٤) الاستذكار ١٦/ ٣١٨، وأخرجه عبد الرزق (١٢٨١٨).

(٥) في الاستذكار ١٦/ ٣١٨، وأخرجه عبد الرزاق (١٢٨٢١) وفيهما، وفي الدر المنثور ٥/ ٥: بغلام لها رومي، بدل: بغلام لها وضيء.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٣.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧.

الابتغاء محذوف، و«وَرَاءَ» ظرف، و«ذَلِكَ» يُشار به إلى كلِّ مذكور، مؤنَّثاً كان أو مذكَّراً.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: المجاوزون الحدَّ؛ مِن عدا، أي: جاوزَ الحدَّ، وجازَه.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قرأ الجمهور: «لأماناتهم» بالجمع، وابنُ كثير بالإفراد[1].

والأمانةُ والعهد يجمع كلَّ ما يحملُه الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يَعمُّ معاشرةَ الناس والمواعيدَ وغيرَ ذلك. ورعايةُ[2] ذلك: حفظُه والقيامُ به، والأمانة أعمُّ من العهد، وكلُّ عهد فهو أمانة فيما تقدَّم فيه قول أو فعل أو معتقَد.

التاسعة: قرأ الجمهور: «صَلَوَاتِهِمْ»، وحمزةُ والكسائيُّ: «صلاتِهم» بالإفراد[3]، وهذا الإفراد اسم جنس، فهو في معنى الجمع[4]، والمحافظةُ على الصلاة: إقامتُها والمبادرةُ إليها أوائلَ أوقاتها، وإتمامُ ركوعها وسجودها. وقد تقدَّم في «البقرة»[5] مستوفًى.

ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ أي: مَن عمِلَ بما ذُكر في هذه الآيات فهم الوارثون، أي: يرثون منازل أهل النار من الجنة[6]. وفي الخبر عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله تعالى جعلَ لكلِّ إنسان مسكناً في الجنة، ومسكناً في النار، فأمَّا المؤمنون فيأخذون منازلَهم، ويرثون منازلَ الكفار، ويَحصُل[7] الكفار في منازلهم

(١) السبعة ص٤٤٤، والتيسير ص١٥٨.

(٢) في النسخ: وغاية. والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧، والكلام منه.

(٣) السبعة ص٤٤٤، والتيسير ص١٥٨.

(٤) في (د) و(م): الجميع، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧ والكلام منه.

(٥) ١/ ٢٥٣ وما بعدها.

(٦) الوسيط ٣/ ٢٨٥.

(٧) في (م) و(د): ويجعل. والمثبت من بقية النسخ، والمحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ١٣٧، والكلام منه.

في النار»[١]. خرَّجه ابنُ ماجه[٢] بمعناه عن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا له[٣] منزلان، منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا مات، فدخل النار، وَرِث أهلُ الجنة منزِلَه، فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾. إسناده صحيح.

ويحتمل أن يُسمَّى الحصول على الجنة وراثةً من حيث حَصَّلوها[٤] دون غيرهم، فهو اسمٌ مستعار على الوجهين[٥].

والفِرْدوس: رَبْوَةُ الجنة وأوسطُها وأفضلُها. خرَّجه الترمذيُّ من حديث الرُّبَيِّع بنتِ النَّضر أمِّ حارثة، وقال: حديث حسن صحيح[٦].

وفي حديث مسلم[٧]: «فإذا سألتم اللهَ، فسَلُوه الفردوسَ، فإنه أوسطُ الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهارُ الجنة». قال أبو حاتم محمد بن حِبَّان: قوله ﷺ: «فإنه أوسط الجنة» يريد أن الفردوسَ في وَسَط الجِنان في العرض. «وهو أعلى الجنة» يريد في الارتفاع[٨].

---

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٤، والطبري ١٧/ ١٥، والحاكم ٢/ ٣٩٣، والبيهقي في البعث (٢٦٨). قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) في سننه (٤٣٤١)، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٢.

(٣) في (م): إلا وله.

(٤) في (ظ): «حصولها لهم»، وفي بقية النسخ: «حصولها» والمثبت من المحرر الوجيز.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧.

(٦) سنن الترمذي (٣١٧٤). لكن قوله: «الفردوس: ربوة الجنة وأوسطُها وأفضلُها» مُدْرَج من قول قتادة آخر الحديث، وليس من كلامه ﷺ، فقد جاء مصرحاً به عند البيهقي في السنن ٩/ ١٦٧، وفيه: قال رسول الله ﷺ لأمِّ حارثة: «إن ابنكِ أصاب الفردوس الأعلى». قال قتادة: الفردوس ربوة الجنة... الخ. وسلف قول قتادة هذا آخر سورة الكهف عند تفسير قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفروس نزلاً﴾. ويُشار إلى أن حديث أمِّ حارثة عند أحمد (١٣٢٠٠)، والبخاري (٢٨٠٩). يعني دون قول قتادة.

(٧) لم يخرجه مسلم، وقد عزاه المزي في تحفة الأشراف ١٠/ ٢٧٨ للبخاري فقط، وهو عند البخاري برقم (٢٧٩٠) وأحمد (٨٤١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، ونسبه المصنف آخر الكهف للبخاري.

(٨) صحيح ابن حبان إثر حديث (٤٦١١).

وهذا كلُّه يصحِّح قول أبي هريرة: إنَّ الفردوسَ جبلُ الجنة الذي يتفجَّر[١] منه أنهار الجنة.

واللفظة فيما قال مجاهد: رُومية عُرِّبت[٢]. وقيل: هي فارسية عُرِّبت. وقيل: حبشية[٣]. وإن ثبت ذلك فهو وِفاقٌ بين اللغات. وقال الضحاك: هو عربيٌّ، وهو الكَرْم[٤]، والعرب تقول للكروم: فراديس[٥].

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فأُنِّث على معنى الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الإنسان هنا: آدمُ عليه الصلاة والسلام؛ قاله قتادة وغيره[٦]، لأنه استُلَّ من الطِّين[٧].

ويَجيء الضمير في قوله: «ثم جعلناه» عائداً على ابن آدم، وإن كان لم يُذكر لشهرة الأمر، فإن المعنى لا يصلُح إلا له، نظير ذلك: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢].

---

(١) في النسخ عدا (ظ): التي تتفجر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ٤٧ والكلام منه.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ١٦ ، وينظر المعرب للجواليقي ص٢٨٨ .

(٣) تفسير الرازي ٢٣/ ٨٢ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ٤٧ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٣٧ .

(٦) لفظ: وغيره. ليس في (ظ) ولم نقف عليه في المصادر لغير قتادة.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٤ ، والطبري في تفسيره ١٧/ ١٨ ، وينظر الدر المنثور ٥/ ٦ .

وقيل: المراد بالسُّلالة: ابنُ آدم؛ قاله ابن عباس وغيره. والسُّلالة على هذا: صفوة الماء، يعني المَنيَّ[١].

والسُّلالة فُعالة[٢] من السَّلّ، وهو استخراج الشيء من الشيء، يقال: سَلَلت الشعر من العجين، والسيفَ من الغِمد، فانسلّ[٣]، ومنه قوله:

فسُلِّي ثيابي من ثيابكِ تَنْسُلِ[٤]

فالنطفة سُلالة، والولد سَليل وسُلَالة؛ عَنَى به الماء يُسَلُّ من الظهر سَلًّا[٥]. قال الشاعر:

فجاءتْ به عَضْبَ الأدِيم غَضنْفَراً ... سُلالةَ فَرْجٍ كان غيرَ حصِينِ[٦]

وقال آخر:

وهل هِنْدُ[٧] إلَّا مُهْرَةٌ عربيَّةٌ ... سَليلةُ أفراسٍ تجلَّلها بَغْلُ[٨]

وقوله ﴿مِّن طِينٍ﴾ أي: إن الأصل آدمُ، وهو من طين[٩]. قلت: أي: من طين

---

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٧ والكلام قبله منه، وأخرج قول ابن عباس وغيره الطبري ١٧/ ١٩ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٨ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٤٦ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٩٢ وما بعدها.

(٤) هو عجز بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٣ ، وصدره: وإن كنتِ قد ساءتك مني خليقة. والمعنى: إن كان في خلقي ما لا ترضينه، فاقطعي أمري من أمرك.

(٥) ينظر الوسيط ٣/ ٢٨٥ .

(٦) قائله حسان بن ثابت، وهو في ديوانه ص٤٨٢ .

(٧) في (م) والنكت والعيون ٤/ ٤٧ : وما هند، والمثبت من النسخ.

(٨) نُسب البيت في أدب الكاتب ص٤١ لهند بنت النعمان بن بشير، ونسب في الأغاني ١٦/ ٥٤ ، والاقتضاب ص١١٧ ، ٣٠٦ لحميدة بنت النعمان بن بشير. وجاء في الأغاني: وما أنا، بدل: وهل هند. وجاء في الاقتضاب: نَغْل ـ بالنون ـ، بدل: بغل. قال ابن السِّيد البطليوسي: وروى أبو علي: تجللها بغل، وأنكر كثير من أصحاب المعاني هذه الرواية، وقالوا: هي تصحيف؛ لأن البغل لا يَنْسُل، والصواب: نَغْل ـ بالنون ـ وهو الخسيس من الناس والدوابّ. وأصله: نَغِل ـ بكسر الغين ـ ثم تخفف الكسرة، فيقال: نَغْل.

(٩) بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٤ .

خالص، فأمَّا ولده، فهو من طين ومنيٍّ، حسبما بيناه في أول سورة الأنعام[١].

وقال الكلبيُّ: السلالة: الطين؛ إذا عصرتَه انسلَّ من بين أصابعك، فالذي يخرج هو السُّلالة[٢].

الثانية: قوله تعالى: ﴿نُطْفَةً﴾ قد مضى القول في النُّطْفة والعَلَقة والمُضْغة وما في ذلك من الأحكام في أول الحج، والحمد لله على ذلك.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ اختلف الناس في الخَلْق الآخَر؛ فقال ابن عباس والشَّعْبيُّ وأبو العالية والضحاك وابن زيد: هو نفخ الروح فيه[٣]، بعد أن كان جماداً. وعن ابن عباس: خروجُه إلى الدنيا[٤]. وقال قتادة عن فِرقة: نباتُ شَعره. الضحاك: خروج الأسنان ونباتُ الشَّعر. مجاهد: كمال شبابه؛ ورُوي عن ابن عمر[٥]. والصحيح أنه عامٌّ في هذا وفي غيره من النُّطق والإدراك وحُسْن المحاولة وتحصيلِ المعقولات إلى أن يموت[٦].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يروى أن عمر بنَ الخطاب ﷺ لَمَّا سمع صَدْرَ الآية إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ قال: فتبارك الله أحسن الخالقين؛ فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت»[٧].

---

(١) ٨/ ٣١٨.

(٢) أورده أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٠٩ والماوردي في النكت والعيون ٤/ ٤٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨ والوسيط ٣/ ٢٨٦، وأخرجه الطبري ١٧/ ٢٢ - ٢٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨.

(٥) أخرج قول قتادة والضحاك ومجاهد الطبري ١٧/ ٢٤، وأورده ـ عن ابن عمر ـ ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٦٣.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨.

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٤٤)، وفي الأوسط (٥٦٥٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً، دون قوله: هكذا أنزلت. وأورده الهيثمي في «المجمع» ٩/ ٦٨، وقال: فيه أبو عبيدة بن فضيل ابن عياض، وهو لين، وبقية رجاله ثقات.

وفي «مسند الطَّيالِسيّ»: ونزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية؛ فلما نزلت قلت أنا: تبارك الله أحسن الخالقين؛ فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[(١)].

ويُروى أنَّ قائل ذلك معاذُ بنُ جَبَل[(٢)]. ويُروى أن قائل ذلك عبدُ الله بنُ أبي سَرْح، وبهذا السبب ارتدَّ وقال: آتي[(٣)] بمثل ما يأتي محمد، وفيه نزلت: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٣] على ما تقدم بيانه في «الأنعام»[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾: أتقن الصانعين، يقال لمن صنع شيئاً: خَلَقه؛ ومنه قول الشاعر:

ولأنـت تَـفْـري مـا خـلـقـتَ وبـعـ ... ـضُ الـقـوم يَـخْـلُـقُ ثـم لا يَـفْـري[(٥)]

وذهب بعض الناس إلى نَفْي هذه اللفظة عن الناس، وإنما يُضاف الخَلْق إلى

---

(١) مسند الطيالسي ص٩ - ١٠ ومن طريقه أخرجه ابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير ٥/ ٤٦٩ ـ وابن أبي داود في المصاحف (٣٠٥) والواحدي في أسباب النزول ٣٢٣ عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد ابن جدعان، عن أنس ﷺ، قال عمر ﷺ: وافقت ربي في أربع... وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان، ولتفرده بذكر الموافقة في قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ فالحديث مشهور من رواية حميد، عن أنس، عن عمر، كما في «صحيح البخاري» (٤٤٨٣)، و«مسند أحمد» (١٦٠) (٢٥٠)، وليس فيه ذكر الموافقة في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾. وأخرجه مسلم (٢٣٩٩) من طريق ابن عمر، عن عمر أيضاً، وليس فيه ذكر هذه الموافقة.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨ ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٥٦٥٤)، وابن أبي حاتم ـ كما في تفسير ابن كثير ٥/ ٤٦٩ ـ من حديث زيد بن ثابت ﷺ. وقال الهيثمي في «المجمع» ٧/ ٧٢ : فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ وقال ابن كثير في تفسيره ٥/ ٤٦٩ : في إسناده جابر بن يزيد الجعفي، ضعيف جداً، وفي خبره هذا نكارة شديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد ابن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة، وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم.

(٣) في (ظ): إني آتي، وفي المحرر الوجيز ٤/ ١٣٨ : أنا آتي.

(٤) ٨/ ٤٥٩ .

(٥) البيت لزهير بن أبي سلمى، يمدح به هَرِم بن سنان، وهو في ديوانه ص٩٤ . وأورده البغدادي في خزانة الأدب ٦/ ٣٢٣ ، والفري: القطع. لسان العرب (فري).

الله تعالى، وقال ابن جُريج: إنما قال: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾؛ لأنه تعالى قد أذِن لعيسى عليه السلام أن يَخلُق. واضطرب بعضُهم في ذلك، ولا تُنْفَى اللفظة عن البشر في معنى الصُّنع، وإنما هي منفية بمعنى الاختراع والإيجاد من العدم(١).

مسألة: من هذه الآية قال ابن عباس لعمرَ حين سأل مَشْيَخة الصحابة عن ليلة القدر، فقالوا: الله أعلم، فقال عمر: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى خلق السماواتِ سبعاً، والأرضِينَ سبعاً، وخلق ابنَ آدم مِن سبعٍ، وجعل رزقه في سبعٍ، فأُراها في ليلة سبع وعشرين. فقال عمر ﷺ: أعجزتُم(٢) أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه، وهذا الحديث بطوله في «مسند ابن أبي شيبة»(٣)، فأراد ابنُ عباس بقوله(٤): «خلق ابن آدم من سبعٍ» هذه(٥) الآيةَ، وبقوله: «وجعل رزقَه في سبع» قولَه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ الآية [عبس:٢٧-٣١]، السبع منها لابن آدم، والأَبُّ للأنعام. والقَضْبُ يأكله ابنُ آدم، ويَسْمَن منه النِّساء؛ هذا قول. وقيل: القَضْب: البقول لأنها تُقْضَبُ، فهي رزق ابن آدم. وقيل: القَضْب والأبُّ للأنعام، والسِّتُّ الباقية لابن آدم،

(١) المحرر الوجيز ١٣٨/٤ ، وأثر ابن جريج أخرجه الطبري ٢٥/١٧ بنحوه، وينظر الأسنى للمصنف ٣٣٤ .

(٢) في النسخ: أعجزكم، والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) كذا نسبه البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ١٣٢/٣ ، وابن حجر في المطالب العالية ٢٢٧/٦ لابن أبي شيبة في مسنده، وليس هو في مصنفه. وعند البوصيري: وما أراه إلا ليلة ثلاث وعشرين لسبع بقين.

وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢١٠/٢ من طريق ابن أبي شيبة، عن عبد الله بن إدريس، عن عاصم ابن كليب، عن أبيه، عن ابن عباس، فذكره.

وأخرجه ابن خزيمة (٢١٧٢)، والحاكم ٥٣٩/٣، ومن طريقه البيهقي في السنن ٣١٣/٤ ، وفي الشعب (٣٥٨٦)، من طريق أحمد بن عبد الجبار، عن ابن إدريس، بالإسناد السابق بنحوه.

وأخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢١١/٢ - ٢١٢ من طريق آخر بنحوه، وفيه قال ابن عباس: سابعة تمضي أو سابعة تبقى من العشر الأواخر.

(٤) لفظ: بقوله. من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ١٣٨/٤ والكلام منه.

(٥) في (م) و(خ) و(ز): بهذه، وفي (د): فهذه. والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز.

والسابعةُ هي للأنعام؛ إذ هي من أعظم رزق ابن آدم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ أي: بعد الخلق والحياة. النحاس: ويقال في هذا المعنى: لمائتون[1].

ثم أخبر بالبعث بعد الموت فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ قال أبو عبيدة: أي: سبعَ سماوات[2]. وحكى غيره[3] أنه يقال: طارقتُ الشيء، أي: جعَلت بعضه فوق بعض. فقيل للسماوات: طرائق؛ لأن بعضها فوق بعض، والعرب تُسمِّي كلَّ شيء فوق شيء طَرِيقة[4]. وقيل: لأنها طرائق الملائكة[5].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ قال بعض العلماء: أي: عن خلق السماوات[6]. وقال أكثر المفسرين: أي: عن الخَلْق كلِّهم مِن أن تسقُط عليهم، فتُهلكَهم[7].

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي: في القيام

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٤٩ ، واللفظة الواردة ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ ، وأبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٣٩٩ ، وقيل: هي قراءة ابن أبي عبلة وزيد بن علي وابن محيصن، وقيل: قراءة عيسى بن عمر. والله أعلم.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٥٦ وقد نقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٤٩ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٩ ، وزاد المسير ٥/ ٤٦٥ .

(٣) في النسخ: وحكي عنه. والمثبت من معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٤٩ ، فالكلام منه، وليس من مجاز القرآن لأبي عبيدة، وهو منقول في زاد المسير ٥/ ٤٦٥ عن ابن قتيبة، وينظر تفسير غريب القرآن له ٢٩٦ .

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٦ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٤٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠٥ .

(٦) في النسخ: السماء، والمثبت من (ظ) وتفسير الرازي ٢٣/ ٨٧ .

(٧) المصادر السابقة.

بمصالحه وحفظه، وهو معنى ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ على ما تقدم(١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: هذه الآية من نِعَم الله تعالى على خلقه، ومما امتنَّ به عليهم؛ ومن أعظم المِنَن الماءُ الذي هو حياة الأبدان ونَماءُ الحيوان.

والماءُ المُنزَّل من السماء على قسمين: هذا الذي ذكر الله سبحانه وتعالى، وأخبر عنه بأنه استودعه في الأرض، وجعله فيها مُخْتَزناً لسقْي الناس، يجدونه عند الحاجة إليه، وهو ماء الأنهار والعيون، وما يُستخرج من الآبار(٢).

ورُوي عن ابن عباس وغيرِه، أنه إنما أراد الأنهارَ الأربعة: سَيْحان، وجَيْحان، ونيل مصر، والفُرات(٣).

وقال مجاهد: ليس في الأرض ماءٌ إلا وهو من السماء. وهذا ليس على إطلاقه، وإلا فالأُجَاج ثابت في الأرض، فيمكن أن يُقيَّد قولُه بالماء العذب، ولا مَحالة أن الله تعالى قد جعل في الأرض ماءً، وأنزل من السماء ماءً(٤).

وقد قيل: إن قوله ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ﴾ إشارةٌ إلى الماء العذب، وأن أصله من

---

(١) ٤/ ٢٦٧ - ٢٦٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٠، وقد نقل المصنف عنه القسم الأول. أما القسم الثاني فقال ابن العربي: هو الذي ينزل من السماء على الأرض في كل وقت.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ ولم ينسبه، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٨ لابن أبي الدنيا.

وأخرج أحمد (٧٨٨٦)، ومسلم (٢٨٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً قال: سيحان، وجيحان، والنيل، والفرات، وكلٌّ من أنهار الجنة.

وسَيْحان و جَيْحان: نهران بالعواصم عند المَصِّيصَة وطَرَسُوس، كما في النهاية (جيح)، يعني يقعان جنوب تركيا، ينظر أطلس تاريخ الإسلام (خريطة رقم: ٦٠ ، ٧٢).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ .

البحر، رفعه الله تعالى بلطفه وحُسْن تقديره من البحر إلى السماء، حتى طاب بذلك الرَّفْع والتصعيد، ثم أنزله إلى الأرض ليُنتفع به، ولو كان الأمر إلى ماء البحر، لَمَا انْتُفع به من ملوحته[(١)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: على مقدارٍ مُصْلِح، لأنه لو كَثُر؛ أَهْلَك[(٢)]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ يعني: الماءَ المُخْتَزَن. وهذا تهديد ووعيد، أي: في قدرتنا إذهابُه وتغويره، ويَهْلِك الناس بالعطش، وتَهْلِك مواشيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾[(٣)] [الملك: ٣٠].

الثالثة: ذكر النحاس: قُرِئ على أبي يعقوب إسحاق بنِ إبراهيم بن يونس، عن جامع بن سَوَادة قال: حدَّثنا سعيد بنُ سابق، قال: حدَّثنا مَسْلمة بنُ عُلَيٍّ، عن مقاتل ابن حَيَّان، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «أنزل الله عزَّ وجلَّ من الجنة إلى الأرض خمسةَ أنهار: سَيْحون وهو نهر الهند، وجَيْحون وهو نهر بَلْخ، ودِجْلة والفُرات، وهما نهرا العراق، والنيل، وهو نهر مصرَ، أنزلها الله تعالى من عينٍ واحدة من عيون الجنة، في أسفلِ درجة من درجاتها، على جناحَي جبريلَ عليه السلام، فاستودعها الجبالَ، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معايشهم، وذلك قولُه جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فإذا كان عند خروج يأجوجَ ومأجوجَ، أرسل الله عزَّ وجلَّ جبريل، فرفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة، فيرفع ذلك إلى السماء، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، فإذا رُفِعت هذه الأشياء من الأرض، فَقَدَ

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٣/ ٨٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٠ .

أهلُها خيرَ الدين والدنيا»[١].

الرابعة: كلُّ ما نزل من السماء ـ مُخْتَزَناً كان أو غيرَ مختزن ـ فهو طاهر مُطَهِّر، يُغتسل به ويُتوضأ منه؛ على ما يأتي في «الفرقان» بيانه[٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا﴾ أي: جعلنا ذلك سببَ النبات، وأوجدناه به وخلَقناه.

وذكر تعالى النخيل والأعناب؛ لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما؛ قاله الطبري[٣]. ولأنها أيضاً أشرف الثمار، فذكرها تشريفاً لها وتنبيهاً عليها.

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ﴾ من غير الرُّطَب والعنب. ويحتمل أن يعود على النخيل والأعناب خاصَّةً، إذ فيها مراتبُ وأنواع، والأوّل أعمُّ لسائر الثمرات.

الثانية: مَن حلَف ألّا يأكل فاكهةً؛ ففي الرواية عندنا: يحنث بالباقِلّاء الخضراء وما أشبهها[٤].

---

(١) معاني القرآن ٤/ ٤٥٠ - ٤٥١ ، وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٦ ، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٣٤ - ٣٥ ، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١/ ٥٧ - ٥٨ من طريق مسلمة بن علي، به، قال ابن عدي: وهذا حديث غير محفوظ، بل منكر المتن وكل أحاديثه، ما ذكرته، وما لم أذكره، كلها أو عامتها غير محفوظة. وقال فيه ابن حجر في التقريب: متروك.

ونهر سَيْحون وجَيْحون غير سَيْحان وجَيْحان ـ المتقدمين في قول ابن عباس ـ كما ذكر النووي في شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٦ .

(٢) عند تفسير الآية (٤٨)، منها في المسألة الأولى والثانية.

(٣) في تفسيره ١٧/ ٢٨ ، ونقله المصنف بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ ، وما سيأتي منه.

(٤) بنحوه في النوادر والزيادات ٤/ ١٠٦ .

وقال أبو حنيفة: لا يحنث بأكل القِثَّاء والخيار والجزر؛ لأنها من البقول، لا من الفاكهة[١].

وكذلك الجوز واللَّوز والفستق؛ لأن هذه الأشياءَ لا تُعدُّ من الفاكهة[٢].

وإن أكل تفاحاً أو خَوخاً أو مِشْمِشاً أو تِيناً أو إجَّاصاً، يحنث. وكذلك البِطِّيخ؛ لأن هذه الأشياء كلَّها تؤكل على جهة التفكُّه قبل الطعام وبعده، فكانت فاكهة. وكذلك يابس هذه الأشياء إلا البِطِّيخ اليابس؛ لأن ذلك لا يؤكل إلا في بعض البلدان[٣].

ولا يحنث بأكل البِطِّيخ الهندي؛ لأنه لا يُعدُّ من الفواكه.

وإن أكل عِنَباً أو رُمَّاناً أو رُطَباً لا يحنث، وخالفه صاحباه فقالا: يحنث؛ لأن هذه الأشياءَ من أعزِّ الفواكه، وتُؤكل على وجه التَّنعُّم، والإفرادُ لها بالذِّكر في كتاب الله عزَّ وجلَّ لكمال معانيها، كتخصيص جبريلَ وميكائيلَ من بين[٤] الملائكة. واحتجَّ أبو حنيفة بأن قال: عَطَفَ هذه الأشياء على الفاكهة مرَّة فقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]، ومرَّةً عَطفَ الفاكهة على هذه الأشياء فقال: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١]، والمعطوف غيرُ المعطوف عليه، ولا يَليق بالحكمة ذكرُ الشيء الواحد بلفظين مختلفين في موضع المنَّة، والعنب والرُّمَّان يُكتفى بهما في بعض البلدان، فلا يكون فاكهة، ولأن ما كان فاكهة لا فرق بين رَطْبه ويابسه، ويابسُ هذه الأشياء لا يُعدُّ فاكهة، فكذلك رَطْبُها[٥].

---

(١) المبسوط للسرخسي ٨/ ١٧٩، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٨.

(٢) المبسوط للسرخسي ٨/ ١٧٧، وبدائع الصنائع ٤/ ١٣٠، وقد فرَّق أبو يوسف صاحب أبي حنيفة بين رطب الجوز ويابسه، فقال: رطبه فاكهة، ويابسه إدام.

(٣) ينظر المبسوط ٨/ ١٧٩، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) لفظ: بين من (ظ).

(٥) ينظر المبسوط ٨/ ١٧٩، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٩.

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً﴾ شجرة عطفٌ على «جنات»، وأجاز الفراء الرفع؛ لأنه لم يظهر الفعل، بمعنى: وثَمَّ شجرةٌ[١]؛ ويريد بها شجرةَ الزيتون.

وأفردها بالذِّكر لعظيم منافعها في أرض الشام والحجاز وغيرهما من البلاد، وقلَّةِ تعاهُدها بالسَّقْي والحفر، وغير ذلك من المراعاة في سائر الأشجار[٢].

﴿تَخْرُجُ﴾ في موضع الصِّفة.

﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي: أنبتها الله في الأصل من هذا الجبل الذي بارك الله فيه. وطورُ سَيْناء من أرض الشام، وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام؛ قاله ابن عباس وغيره[٣]، وقد تقدَّم في البقرة[٤] والأعراف.

والطُّور: الجبل في كلام العرب، وقيل: هو مما عُرِّب من كلام العجم[٥]. وقال ابن زيد: هو جبل بيت المقدس ممدود من مصرَ إلى أيْلة[٦].

واختُلف في سَيْناء؛ فقال قتادة: معناه الحسَن، ويلزم على هذا التأويل أن يُنَوَّن الطُّور على النعت. وقال مجاهد: معناه: مبارَك. وقال مَعْمَر عن فرقة: معناه ذو شجر[٧]، ويلزمهم أن يُنوِّنوا الطُّور. وقال الجمهور: هو اسم الجبل، كما تقول: جبل

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٣، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٢.

(٢) ينظر النكت والعيون ٤/ ٥٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩، وأخرجه الطبري ١٧/ ٣٠.

(٤) ٢/ ١٦٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩.

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٠، وأيلة مدينة في خليج العقبة على البحر الأحمر. ينظر أطلس تاريخ الإسلام ص١١٢.

(٧) في (خ) و(م): معناه شجر، وفي (د) و(ز): معناه وشجر، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ - ١٤٠ والكلام منه، وأخرج الأقوال السالفة الطبري ١٧/ ٢٩ - ٣١، وقول مجاهد في تفسيره ص٤٣٠.

أُحُد. وعن مجاهد أيضاً: سَيْناء حجرٌ بعينه، أُضيف الجبل إليه لوجوده عنده. وقال مقاتل: كلُّ جبل يَحْمل الثمار فهو سَيْناء، أي: حَسَن[١].

وقرأ الكوفيون بفتح السين على وزن فَعْلاء[٢]، وفَعلاء في كلام العرب كثير، يُمنع من الصَّرف في المعرفة والنكرة؛ لأن في آخرها ألف التأنيث، وألفُ التأنيث ملازِمةٌ لِمَا هي فيه، وليس في الكلام فِعلاء، ولكنْ مَن قرأ: «سِيناء» بكسر السين جعله فِعلالاً، فالهمزة فيه كهمزة: حِرباء، ولم يُصرف في هذه الآية؛ لأنه جُعِل اسم بقعة، وزعم الأخفش أنه اسم أعجمي[٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ قرأ الجمهور «تَنبُت» بفتح التاء وضم الباء، والتقدير: تَنْبُت ومعها الدُّهن، كما تقول: خرج زيد بسلاحه[٤].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء[٥]. واختُلف في التقدير على هذه القراءة، فقال أبو عليٍّ الفارسي: التقدير: تُنبِت جَناها ومعها[٦] الدُّهن، فالمفعول محذوف. وقيل: الباء زائدة، مثلُ ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٧] [البقرة: ١٩٥]. وهذا مذهب أبي عبيدة[٨]. وقال الشاعر:

نضرب بالسيف ونرجو بالفَرَج[٩]

---

(١) أورد قول مجاهد ومقاتل البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٦ .

(٢) هي قراءة: عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر الشامي. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بكسر السين. السبعة ص٤٤٥ ، والتيسير ص١٥٩ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤ .

(٥) السبعة ص٤٤٥ ، والتيسير ص١٥٩ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): ومعه.

(٧) الحجة ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٥٦ .

(٩) الرَّجز للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص٢١٦ ، وفيه: نضرب بالبيض... وسلف في المسألة السابعة من تفسير الآية (٢٥) من الحج.

وقال آخر:

هُنَّ الحرائرُ لا رَبَّاتُ أَخمرةٍ[(١)] سودُ المحاجر لا يَقرأنَ بالسُّوَرِ[(٢)]

ونحو هذا قاله أبو عليٍّ أيضاً؛ وقد تقدَّم.

وقيل: نَبَت وأنبت بمعنًى، فيكون المعنى كما مضى في قراءة الجمهور[(٣)]، وهو مذهب الفراء وأبي إسحاق[(٤)]، ومنه قول زُهير:

.... حتى إذا أَنبت البَقْلُ[(٥)]

والأصمعي ينكر أنبت، ويتَّهِم قصيدةَ زهير التي فيها:

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حَوْلَ بيوتِهم قَطِيناً بها حتى إذا أَنبت البقلُ[(٦)]

أي: نبت.

وقرأ الزُّهْري والحسن والأعرج: «تُنْبَت بالدُّهن» برفع التاء ونصب الباء[(٧)]. قال ابن جِنِّي والزجَّاج[(٨)]: هي باء الحال، أي: تُنْبَت ومعها دهنُها. وفي قراءة ابن مسعود: «تَخْرُج بالدهن»، وهي باء الحال[(٩)].

---

(١) في النسخ الخطية: أخمرة، والمثبت من المصادر؛ وقال الجواليقي في شرح أدب الكاتب: الأحمرة: جمع حِمار - بالحاء المهملة، جمع قلة، وخصَّ الحمير، لأنها رُذال المال وشره، وقال البغدادي: وقد صحَّف الدماميني (في الحاشية الهندية): هذه الكلمة بالخاء المعجمة، وقال: والأخمرة جمع خمار، وهو ما تستتر به المرأة رأسها. اهـ. تنظر خزانة الأدب ٩/ ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) البيت للراعي النميري، والبيت في ديوانه ص١٢٢ ، أو القتَّال الكلابي، وهو في ديوانه ص٥٣ . وينظر: أدب الكاتب ٥٢١ ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي ٣٧٨ ، وخزانة الأدب ٩/ ١٠٩ وسلف عجز هذا البيت في مقدمة المصنف ١/ ١٠٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ .

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٢ - ٢٣٣ ، ومعاني القرآن للزجَّاج (وهو أبو إسحاق) ٤/ ١٠ .

(٥) سلف ١٢/ ٢٩٢ ، وسيذكره المصنف بتمامه.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، وينظر الحجة ٥/ ٢٩٢ .

(٧) وهي قراءة شاذة المحتسب ٢/ ٨٨ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ .

(٨) المحتسب لابن جني ٢/ ٨٨ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٠ .

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، وقراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٨٨ أيضاً، وذكرها ابن خالويه =

ابنُ دَرَسْتَوَيْه: الدُّهن: الماء اللَّيِّن[١]، تُنبت من الإنبات.

وقرأ زِرُّ بن حُبَيش: «تُنْبِت» بضم التاء وكسر الباء «الدُّهنَ» بحذف الباء ونصبه. وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب: «بالدِّهان»[٢].

والمراد من الآية تعديدُ نعمة الزيت على الإنسان، وهي من أركان النِّعَم التي لا غنًى بالصحة عنها، ويدخل في معنى الزيتون شجرُ الزيت كلُّه على اختلافه بحسب الأقطار[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ قراءة الجمهور. وقرأت فرقة: «وأصباغٍ» بالجمع. وقرأ عامر بنُ عبد قيس: «ومتاعاً»[٤].

والمراد به الزيت الذي يَصْطَبِغ به الآكِل؛ يقال: صِبغ وصِباغ، مثلُ: دِبْغ ودِباغ، ولِبْس ولِباس[٥]. وكلُّ إدام يُؤتدم به فهو صِبْغ؛ حكاه الهَرَوِيُّ[٦] وغيره. وأصل الصِّبغ ما يُلوَّن به الثوب، وشُبِّه الإدام به؛ لأن الخبز يُلوَّن بالصِّبغ إذا غُمس فيه[٧]. وقال مقاتل: الأُدْم الزيتون، والدُّهن الزيت. وقد جعل الله تعالى في هذه الشجرة أُدْماً ودُهْناً[٨]؛ فالصِّبغ على هذا الزيتونُ.

= في القراءات الشاذة ص٩٧ بلفظ: يُخرِج الدهن.

(١) النكت والعيون ٤/ ٥٠ .

(٢) أورد قراءة سليمان بن عبد الملك، ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٧ ، وقراءة زرٍّ بن حبيش وسليمان بن عبد الملك والأشهب في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، والبحر المحيط ٦/ ٤٠١ والدِّهان، جمع دُهن، كرمح، ورماح. الدر المصون ٨/ ٣٢٩ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠ ، وعامر بن عبد قيس، أبو عبد الله، ويقال: أبو عمرو التميمي، العنبري، من عباد التابعين، كان يقرئ الناس، توفي في زمن عثمان، وقيل: في زمن معاوية. السير ٤/ ١٥ ، وطبقات القراء ١/ ٣٥٠ .

(٥) تفسير غريب القرآن ص٢٩٦ .

(٦) في غريب الحديث ٢/ ١٥٢ .

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٨/ ٢٧ ، والوسيط ٣/ ٢٨٨ ، وزاد المسير ٥/ ٤٦٨ .

(٨) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٨٨ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٦ .

الرابعة: لا خلاف أن كلَّ ما يُصطبَغ فيه من المائعات، كالزيت والسَّمْن والعسل والرُّبِّ والخلِّ، وغير ذلك من الأمراق، أنه إدام[١]. وقد نصَّ رسول الله ﷺ على الخلّ، فقال: «نِعْمَ الإدامُ الخلُّ». رواه تسعةٌ من الصحابة، سبعةُ رجال وامرأتان، وممن رواه في الصحيح: جابرٌ، وعائشة، وخارجةُ، وعمرُ، وابنُه عبدُ الله[٢]، وابنُ عباس، وأبو هريرةَ، وسَمُرةُ بنُ جُنْدب، وأنسٌ، وأمُّ هانئ[٣].

الخامسة: واختُلف فيما كان جامداً، كاللَّحم والتمر والزيتون، وغيرِ ذلك من الجوامد؛ فالجمهور أنَّ ذلك كلَّه إدام، فمن حلف ألَّا يأكل إداماً، فأكل لحماً أو جُبْناً، حنِث. وقال أبو حنيفة: لا يحنث، وخالفه صاحباه، وقد رُوِي عن أبي يوسُفَ مثلُ قول أبي حنيفة[٤].

والبَقْل ليس بإدام في قولهم جميعاً[٥].

وعن الشافعي في التمر وجهان؛ والمشهور أنه ليس بإدام، لقوله في «التنبيه»[٦]:

---

(١) بنحوه في المفهم ٥/ ٣٢٦.

(٢) قوله: عبد الله، ليس في (ظ)، وفي (خ) و(م): عبيد الله، والمثبت من (د) و(ز).

(٣) حديث جابر وعائشة في الصحيح، وقد سلفا ٨/ ١٤٤، وأما حديث عمر فأخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان (٨٦٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٢/ ٩٩، ٧٠/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

وحديث عبد الله بن عمر أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨، وابن عدي في الكامل ١/ ٢٦٣.

وحديث ابن عباس أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨، والطبراني في الكبير (١١٣٣٨)، والبيهقي في الشعب (٥٩٤٥).

وحديث أبي هريرة أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨ - ٤٠٩، وابن عدي في الكامل ٣/ ٨٩٠.

وحديث أنس أخرجه أبو عوانة ٥/ ٤٠٨، والطبراني في الأوسط (٢٢٤٨)، وابن عدي في الكامل ٣/ ١١٥٤.

وحديث أم هانئ أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٤. وينظر المقاصد الحسنة ص٦٩٨.

(٤) بنحوه في المفهم ٥/ ٣٢٦، وينظر قول أبي حنيفة وصاحبيه أيضاً في المبسوط ٨/ ١٧٧، وبدائع الصنائع ٤/ ١٢٢.

(٥) بدائع الصنائع ٤/ ١٢٣.

(٦) التنبيه للشيرازي ص١٩٦، والعبارة فيه: إن أكل التمر لم يحنث وقيل: يحتمل أن يحنث.

والصحيح أنه لا يحنث[١] وقيل: يحنث. والصحيح أن هذا كلَّه إدام.

وقد روى أبو داود عن يوسُفَ بنِ عبد الله بن سلَام قال: رأيت النبيَّ ﷺ أخذَ كِسْرة من خبز شعير، فوضع عليها تمرة، فقال: «هذه إدامُ هذه»[٢].

وقال ﷺ: «سيِّدُ إدام الدنيا والآخرة اللَّحمُ». ذكره أبو عمر[٣].

وترجم البخاري: باب الإدام، وساق حديث عائشة[٤].

ولأن الإدام مأخوذ من المؤادمة، وهي الموافقة، وهذه الأشياء توافق الخبز فكان إداماً، وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام: «ائتدموا ولو بالماء»[٥].

ولأبي حنيفةَ أن حقيقة الإدام الموافقةُ في الاجتماع على وجه لا يَقبل الفصل؛ كالخلِّ والزيت ونحوهما، وأمَّا اللحم والبيض وغيرُهما فلا يوافق الخبز، بل يجاوره، كالبِطِّيخ والتمر والعنب[٦]. والحاصل: أن كل ما يحتاج في الأكل إلى موافقة الخبز كان إداماً، وكلَّ ما لا يحتاج ويؤكل على حِدَة لا يكون إداماً، والله أعلم.

---

(١) عبارة: والصحيح أنه لا يحنث. من (ظ).

(٢) سنن أبي داود (٣٢٥٩) وفيه: يحيى بن العلاء؛ قال ابن حجر في تهذيب التهذيب. قال أحمد: كذاب يضع الحديث. وعن ابن معين: ليس بثقة. وقال في التقريب: رُمي بالوضع.
وأخرجه أيضاً (٣٢٦٠)، والترمذي في الشمائل (١٨٤) وفيه يزيد بن أبي أمية الأعور، وهو مجهول كما قال ابن حجر في التقريب.

(٣) في التمهيد ٨٦/٣ ، والاستذكار ٣٤٦/٢٦ ، والحديث سلف ٢٠٨/٩ وهو ضعيف جداً.

(٤) برقم (٥٤٣٠)، وفيه: دخل رسول الله ﷺ يوماً بيت عائشة وعلى النار برمة تفور، فدعا بالغداء، فأتي بخبز وأُدْم من أُدْم البيت، فقال: «لم أر لحماً؟». قالوا: بلى يا رسول الله، ولكنه لحم تُصُدِّقَ به على بَرِيرة، فأهدته لنا، فقال: «هو صدقةٌ عليها، وهديةٌ لنا».

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٩٥)، والخطيب في تاريخ بغداد ٤٣٠/٧ ، وابن الجوزي في العلل المتناهية ٦٥٣/٢ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. قال الهيثمي في المجمع ٣٥/٥ : وفيه غزيل بن سنان، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وقال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح، أما غزيل فرجل مجهول.

(٦) ينظر المبسوط ١٧٧/٨ ، وتحفة الفقهاء للسمرقندي ٣٢٢/٢ - ٣٢٣ ، وبدائع الصنائع ١٢٢/٤-١٢٣ .

السادسة: روى الترمذيُّ من حديث عمرَ بنِ الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا الزَّيتَ وادَّهِنُوا به، فإنه من شجرةٍ مباركة» [قال:] هذا حديث لا يُعرف إلا من حديث عبد الرزاق، وكان يَضطرب فيه، فربَّما يذكر فيه: عن عمرَ عن النبيِّ ﷺ، وربما رواه على الشكِّ فقال: أحسِبه عن عمرَ عن النبيِّ ﷺ، وربما قال: عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ [مرسلاً][(١)].

وقال مقاتل: خُصَّ الطُّور بالزيتون؛ لأن أوَّل الزيتون نَبَت منها. وقيل: إن الزيتون أوَّلُ شجرة نبتت في الدنيا بعد الطوفان[(٢)]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٢٣ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝٢٤ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٢٥ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ۝٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ تقدَّم القول فيهما في «النحل»[(٣)] والحمد لله.

---

(١) سنن الترمذي (١٨٥١). وما بين حاصرتين منه وأخرجه عبد الرزاق (١٩٥٦١) من حديث زيد بن أسلم عن النبي ﷺ. وصوب ابن معين في تاريخه (٥٩٥) أن يكون عن زيد مرسلاً.
وله شاهد من حديث أبي أسيد في مسند أحمد (١٦٠٥٤) وفي إسناده جهالة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٦ .

(٣) ١٢/ ٢٧١ - ٢٧٣ .

وفي هود قصةُ السفينة ونوحٍ[١]، وركوبُ البحر في غير موضع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: وعلى الأنعام في البرِّ ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما يُحمل في البرِّ على الإبل، فيجوز أن تَرجع الكناية إلى بعض الأنعام. ورُوي أن رجلاً ركب بقرة في الزمان الأوّل، فأنطقها الله تعالى معه فقالت: إنَّا لم نخلق لهذا، وإنما خُلِقنا[٣] للحَرْث.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قُرِئ بالخفض ردًّا على اللفظ، وبالرفع ردًّا على المعنى. وقد مضى في «الأعراف»[٤].

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يَسُودُكم ويَشرُف عليكم؛ بأن يكون متبوعاً ونحن له تبَع.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لو شاء الله ألَّا يُعبد شيءٌ سواه؛ لجعل رسولَه مَلَكاً[٥].

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بمثل دعوته. وقيل: ما سمعنا بمثله بشراً أتى[٦] برسالة ربه ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: في الأمم الماضية[٧]؛ قاله ابن عباس. والباء في «بهذا» زائدة، أي: ما سمعنا هذا كائناً في آبائنا الأولين.

ثم عطف بعضهم على بعض، فقالوا[٨]: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعنون نوحاً ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ

---

(١) ١١/١٠٨ وما بعدها.

(٢) ٢/ ٤٩٥ .

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): خلقت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمصادر. والحديث أخرجه أحمد (٧٣٥١)، والبخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨) عن أبي هريرة ﷺ مطولاً.

(٤) قرأ بالخفض الكسائي من السبعة، وأبو جعفر من العشرة، وسلف ٩/ ٢٦٠ .

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٣٤ ، والوسيط ٣/ ٢٨٨ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠٧ .

(٦) في (خ) و(م): أي، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ٥٢ والكلام منه.

(٧) الوسيط ٣/ ٢٨٨ .

(٨) في (ظ): فقال.

جِنَّةٌ﴾ أي: جنون لا يَدري ما يقول ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: انتظِروا موته. وقيل: حتى يستبينَ جنونُه[١]. وقال الفرَّاء: ليس يُراد بالحين هاهنا وقت بعينه، إنما هو كقوله: دَعْه إلى يومٍ ما[٢].

فقال حين تمادَوا على كفرهم: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: انتقم ممن لم يُطعني ولم يسمع رسالتي. ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي: أرسلنا إليه رُسُلاً من السماء ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ على ما تقدَّم بيانه[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أدخِل فيها واجعل فيها، يقال: سَلَكتُه في كذا وأسلكته فيه، إذا أدخلته[٤]، قال عبد منافِ بنُ رِبْعٍ الهُذَليُّ[٥]:

حتى إذا أسلكوهم في قُتائِدةٍ ... شَلًّا كما تَطْرُدُ الجَمَّالةُ الشُّرُدَا[٦]

﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قرأ حفص: «مِن كلٍّ» بالتنوين، الباقون بالإضافة؛ وقد ذُكِر[٧]. وقال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلَّا ما يَلِد ويَبيض، فأما البَقُّ والذُّباب والدُّود، فلم يحمل شيئاً منها، وإنما خرج من الطِّين[٨]. وقد مضى القول في السفينة والكلامُ فيها مستوفًى[٩]، والحمد لله.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٥٢ ، وينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٢ .

(٢) معاني القرآن ٢/ ٢٣٤ للفراء، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٠٤ .

(٣) ١١/ ١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٣٦ .

(٥) هو شاعر جاهلي من شعراء هذيل. خزانة الأدب ٣/ ١٧٤ (دار صادر).

(٦) ديوان الهذليين ٢/ ٤٢ ، وأدب الكاتب ص٤٣٤ ، والاقتضاب ص٤٠٢ ، وخزانة الأدب ٣/ ١٧٠ (دار صادر). ومعناه كما قاله البطليوسي أن الشاعر وصف قوماً هُزِموا حتى ألجئوا إلى الدخول في قتائدة، وهي ثنية ضيقة. والشَّل: الطرد. والجَمَّالة: أصحاب الجمال. والشُّرُد من الإبل: التي تفرُّ من الشيء إذا رأته، فإذا طُرِدت كان أشد لفرارها، فلذلك خصصها بالذكر.

(٧) ١١/ ١١٦ .

(٨) أورده البغوي في تفسيره ٢/ ٣٨٤ .

(٩) ١١/ ١٠٩ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ أي: عَلَوْتَ ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ راكبين ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: احمدوا الله على تخليصه إياكم ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومِن الغرق. و«الحمد لله» كلمةُ كلِّ شاكرٍ لله. وقد مضى في الفاتحة بيانه(١).

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ قراءة العامة: «مُنْزَلاً» بضم الميم وفتح الزاي(٢)، على المصدر الذي هو الإنزال، أي: أنزلني إنزالاً مباركاً. وقرأ زِرُّ بنُ حُبيش، وأبو بكر عن عاصم، والمفضَّل: «مَنزِلاً» بفتح الميم وكسر الزاي على الموضع، أي: أنزلني موضعاً مباركاً(٣). الجوهري(٤): المَنْزَل ـ بفتح الميم والزاي ـ: النزول، وهو الحُلول، تقول: نزلت نزولاً ومَنْزَلاً. وقال:

أَإِنْ ذَكَّرتْكَ الدارُ مَنْزَلَها جُمْلُ   بَكَيْتَ فدمعُ العين مُنْحَدِرٌ سَجْلُ(٥)

نُصِب «المَنْزَل» لأنه مصدر(٦)، وأنزله غيره واستنزله بمعنًى، ونَزَّله تنزيلاً، والتنزيل أيضاً: الترتيب.

---

(١) ١/ ٢٠٢ وما بعدها.

(٢) السبعة ص٤٤٥، والتيسير ص١٥٩.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٨، والوسيط ٣/ ٢٨٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣٠٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٢، وقراءة أبي بكر عن عاصم في السبعة ص٤٤٥، والتيسير ص١٥٩، وقراءة المفضل في البحر المحيط ٦/ ٤٠٢.

(٤) في الصحاح (نزل).

(٥) أنشده ثعلب في مجالسه ص٢٢٤، وفيه: فماء العين منهمل، بدل: فدمع العين منحدر. والسَّجْل: الدّلْو الضخمة المملوءة ماءً، ولا يقال لها فارغة سَجْلٌ، ولكن دَلْو. ويقال: سجلت الماء فانسجل، أي: صببته فانصبّ. لسان العرب (سجل).

(٦) نقل ابن منظور في اللسان (نزل) عن ابن بَرِّي قوله: تقديرُه: أإنْ ذَكَّرَتْكَ الدارُ نُزولَها جُمْلُ، فَجُمْلُ فاعل بالنزول، والنزولُ مفعولٌ ثانٍ بذكَّرَتْكَ. اهـ. وذكر ابن منظور أيضاً أن الرفع في قوله: مَنْزَلُها، صحيح، أراد: أإنْ ذكَّرتْكَ نزولُ جُمْلٍ إيَّاها، وأنَّث النزولَ حين أضافه إلى مؤنث.

قال ابن عباس ومجاهد: هذا حين خرج من السفينة[١]؛ مثلُ قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود:٤٨]. وقيل: حين دخلها. فعلى هذا يكون قوله: «مباركاً»، يعني بالسلامة والنجاة[٢].

قلت: وبالجملة فالآية تعليمٌ من الله عزَّ وجلَّ لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا هذا، بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلَّموا قالوها[٣]. وروي عن عليٍّ ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال: اللهم أنزلني مُنزَلاً مباركاً وأنت خير المُنزِلين[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أي: في أمر نوح والسفينة وإهلاك الكافرين. «لآيَاتٍ» أي: دَلالاتٍ على كمال قدرة الله تعالى، وأنه يَنْصرُ أنبياءه ويُهلكُ أعداءهم. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: ما كنا إلا مبتلين الأُممَ قبلكم، أي: مختبِرين لهم بإرسال الرسل إليهم؛ ليَظْهر المطيع والعاصي[٥]، فيتبيَّن للملائكة حالُهم، لا أن يَستجِدَّ الربُّ علماً. وقيل: أي: نعاملهم معاملة المختبرين. وقد تقدم هذا المعنى في «البقرة» وغيرها[٦]. وقيل: «وإن كُنَّا» أي: وقد كنا[٧].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هلاك قوم نوح ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ قيل: هم قوم عاد.

---

(١) قول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣٠ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٣٨ ، ولم نقف على من نسبه لابن عباس.

(٢) بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٧ ، وزاد المسير ٥/ ٤٧١ .

(٣) في النسخ عدا (ظ): قالوا.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨ .

(٦) ٢/ ٤٦٢ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٣ .

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني هوداً[١]؛ لأنه ما كانت أمة أُنشِئت في إِثر قوم نوح إلا عاد. وقيل: هم قوم ثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ يعني صالحاً، قالوا: والدليل عليه قولُه تعالى آخرَ الآية: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [الآية:٤١][٢] نظيرها: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود:٦٧].

قلت: وممن أُخذ بالصيحة أيضاً أصحابُ مدينَ قومُ شعيب، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم.

﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من عشيرتهم، يَعرفون مولده ومَنْشأه، ليكون سكونُهم إلى قوله أكثر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف والقادة والرؤساء ﴿مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يريد بالبعث والحساب ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وسَّعْنا عليهم نِعَم الدنيا حتى بَطِروا وصاروا يُؤْتَوْن[٣] بالتُّرْفة، وهي مثلُ التُّحْفة[٤] ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فلا فضلَ له عليكم؛ لأنه محتاج إلى الطعام والشراب كأنتم. وزعم الفرَّاء أن معنى ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ على

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٣، والوسيط ٣/ ٢٨٩، وتفسير البغوي ٣/ ١٠٨.

(٢) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٧١ لأبي سليمان الدمشقي، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨، وتفسير الرازي ٢٣/ ٩٧.

(٣) في (ظ): يأتون.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤١٣. والتُّرْفة: الطعام الطيب، وكل طرفة تُرْفة. والتُّحفة: الطُّرْفة من الفاكهة وغيرها من الرياحين. والتحفة: ما أتحفت به الرجل من البر واللطف. ينظر لسان العرب (ترف) و(تحف).

حذف «منه»[(١)]، أي: مما تشربون منه، وهذا لا يجوز عند البصريين ولا يَحتاج إلى حذفِ ألبتة؛ لأن «ما» إذا كانت[(٢)] مصدراً لم تَحتج إلى عائد، فإن جعلتها بمعنى الذي، حَذفت المفعول، ولم يحتج إلى إضمار «مِن».

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ يريد: لمغبونون بترككم آلهتكم، واتّباعِكم إياه من غير فضيلة له عليكم.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ أي: مبعوثون من قبوركم. و«أنّ» الأولى في موضع نصب بوقوع «يعدِكم» عليها، والثانية بدل منها. هذا مذهب سيبويه[(٣)]، والمعنى: أيعدكم أنكم مُخرَجون إذا مِتُّم[(٤)].

قال الفرّاء: وفي قراءة عبد الله: «أيعدكم إذا مِتُّم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مُخرَجون»[(٥)]؛ وهو كقولك: أظن إنْ خرجت أنك نادم[(٦)].

وذهب الفرّاء والجَرْميُّ وأبو العباس المبرِّد إلى أنَّ «أنَّ»[(٧)] الثانية مكَرَّرةٌ للتوكيد، لَمَّا طال الكلام كان تكريرها حسناً[(٨)].

---

(١) في النسخ: من، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٣ وعنه نقل المصنف.

(٢) في (م) والنسخ عدا (ظ): كان، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٣.

(٣) في الكتاب ٣/ ١٣٢ - ١٣٣.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١١، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤، والمعاني للنحاس ٤/ ٤٥٥ والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٣.

(٦) في (ظ): أظن أنك إن خرجت أنك نادم. بزيادة «أنك»، وهو موافق لما في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥، فإن الفراء ذكر أن كل اسمٍ أوقعت عليه «أن» بالظن وأخوات الظن ثم اعترض عليه الجزاء دون خبره، فإن شئت كررت اسمه، وإن شئت حذفته أولاً وآخراً، فتقول: أظن أنك إن خرجت أنك نادم، فإن حذفت «أنك» الأولى أو الثانية صلح، وإن ثبتتا صلح.

(٧) لفظ «أن» الثانية من (ظ)، وهو الموافق لمعاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥.

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤، والمقتضب للمبرد ٢/ ٣٥٦، والكلام من معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٥. والجرمي هو صالح بن إسحاق.

وقال الأخفش: المعنى: أيعدكم أنكم إذا مِتُّم وكنتم تراباً وعظاماً يَحدُث إخراجُكم؛ فـ «أنّ» الثانية في موضع رفع بفعل مضمر، كما تقول: اليوم القتال، فالمعنى: اليوم يَحدُث القتال[١].

وقال أبو إسحاق: ويجوز «أيعدكم إنكم إذا مِتُّم وكنتم تراباً وعظاماً إِنكم مخرَجون»؛ لأن معنى «أيعدكم»: أيقول إنكم[٢].

قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قال ابن عباس: هي كلمةٌ للبعد، كأنهم قالوا: بَعيدٌ ما توعدون[٣]، أي: إنَّ هذا لا يكون ما يُذكر من البعث. وقال أبو عليٍّ: هي بمنزلة الفعل، أي: بَعُد ما تُوعدون[٤].

وقال ابن الأنباري[٥]: وفي «هيهات» عَشْرُ لغات:

هيهاتَ لك، بفتح التاء، وهي قراءة الجماعة.

وهيهاتِ لك، بخفض التاء، ويُروى عن أبي جعفر بنِ القَعْقاع[٦].

وهيهاتٍ لك، بالخفض والتنوين، يُروى عن عيسى بنِ عمر[٧].

وهيهاتُ لك، برفع التاء، الثعلبي: وبها قرأ نصر بنُ عاصم وأبو العالية[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٦ .

(٢) معاني القرآن للزجاج (وهو أبو إسحاق)، ٤/ ١٢ . ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٥٦ ، والجواز المذكور يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ١٧/ ٤٢ .

(٤) المسائل العضديات لأبي علي الفارسي ١٧١ .

(٥) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٩٩ .

(٦) النشر ٢/ ٣٢٨ .

(٧) القراءات الشاذة ص٩٧ ، والمحتسب ٢/ ٩٠ .

(٨) نسبها البغوي في التفسير ٣/ ٣٠٠٨ لنصر بن عاصم، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٣ وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٤ لأبي حيوة، وهي في القراءات الشاذة ص٩٧ دون نسبة.

وهيهاتٌ لك، بالرفع والتنوين، وبها قرأ أبو حَيْوَة الشامي؛ ذكره الثعلبي أيضاً[١].

وهيهاتاً لك، بالنصب والتنوين[٢]، قال الأحوص[٣]:

تـذكَّـرت أيـامـاً مَـضَـيْـن مـن الـصِّـبـا وهـيـهـاتَ هـيـهـاتـاً إلـيـكَ رُجُـوعُـهـا

واللغة السابعة: أَيْهات أَيْهات[٤]، وأنشد الفرّاء:

فـأيْـهـاتَ أيْـهـاتَ الـعـقِـيـقُ ومَـن بـه وأيـهـاتَ خِـلٌّ بـالـعـقـيـق نُـواصِـلُـه[٥]

قال المهدويُّ: وقرأ عيسى الهَمْداني: هيهاتْ هيهاتْ، بالإسكان[٦].

قال ابن الأنباري: ومِن العرب مَن يقول: أَيْهان، بالنون، ومنهم مَن يقول: أَيْها، بلا نون. وأنشد الفرّاء:

ومِـن دُونـيَ الأعـيـان والـقِـنْـع كـلُّـه وكُـتْـمـانُ أيْـهَـا مـا أَشـتَّ وأَبْـعَـدَا[٧]

فهذه عَشْر لغات.

فمن قال: هيهاتَ، بفتح التاء، جعله مثلَ: أين وكيف[٨]. وقيل: لأنهما أداتان

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٧، والمحتسب ٢/ ٩٠.

(٢) نسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٣ لخالد بن إياس، وأبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٤٠٤ لهارون عن أبي جعفر.

(٣) في ديوانه ص١٣١.

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٨ نقلاً عن ابن الأنباري.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ص٩٦٥، وجاء فيهما: وصلٌ، بدل: خِلّ. وجاء في الديوان: تواصله، بدل: نواصله.

(٦) المحتسب ٢/ ٩٠، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٧ لخارجة بن مصعب.

(٧) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٣٠٠ - ٣٠١، والصحاح (أيه)، والأمكنة والمياه والجبال للزَّمخشري ص١٨٧، وفيها: الأعيار، بدل: الأعيان. وفي تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٥: الأعراض، بدل: الأعيان. والأعيان والقِنْع وكُتْمان: أسماء مواضع، ينظر معجم البلدان ١/ ٢٢٣، ٤/ ٤٠٨، ٤٣٦.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨.

مركَّبتان مثلُ: خمسةَ عشَر، وبَعْلَبَكّ، ورامَ هُرْمُز[١]، وتقف على الثاني بالهاء، كما تقول: خمس عَشْره، وسبع عَشْره. وقال الفرّاء: نصبُها كنصب ثُمَّتَ ورُبَّتَ[٢]. ويجوز أن يكون الفتح إتباعاً للألف والفتحةِ التي قبلها[٣].

ومَن كسره جعله مثلَ أمسِ وهؤلاءِ[٤]، قال:

وهيهاتِ هيهاتِ إليكَ رجوعُها[٥]

قال الكسائي: ومَن كسر التاء وقف عليها بالهاء[٦]، فيقول: هيهاه. ومَن نصبها وقف بالتاء، وإن شاء بالهاء. ومَن ضمَّها فعلى مثلِ منذُ وقطُّ وحيثُ[٧]. ومَن قرأ «هيهات» بالتنوين، فهو جمعٌ ذهب به إلى التنكير[٨]، كأنه قال: بُعْداً بُعْداً. وقيل: خُفِض ونُوِّن تشبيهاً بالأصوات بقولهم: غاقٍ وطاقٍ[٩].

وقال الأخفش: يجوز في «هيهات» أن تكون جماعةً، فتكون التاء التي فيها تاءَ الجميع[١٠] التي للتأنيث. ومَن قرأ «هيهاتٍ» جاز أن يكون أَخلصها اسماً مُعرَباً فيه معنى البُعْد، ولم يجعله اسماً للفعل فيبنيَه[١١]. وقيل: شُبِّه التاء بتاء الجمع،

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٣.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٦.

(٣) ينظر الدر المصون ٨/ ٣٤٠.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨.

(٥) سلف قريباً من قول الأحوص بلفظ: وهيهات هيهاتاً..

(٦) في تفسير البغوي ٣/ ٣٠٨: ويروى عن الكسائي الوقف عليها بالهاء. وينظر جامع البيان لأبي عمرو الداني ١/ ٤١٧ - ٤١٨.

(٧) ذكر توجيه قراءة الضم البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٨.

(٨) في (د): الكثير، وفي (خ) و(ز) و(ظ): التكثير، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في المحتسب ٢/ ٩١ والكلام منه.

(٩) أورد هذا القول الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٤٨٥.

(١٠) في (ز) و(ظ): الجمع.

(١١) ذكر هذا الوجه ابن جني في المحتسب ٢/ ٩١.

كقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ [البقرة:١٩٨].

قال الفرّاء: وكأني أستحب الوقف على التاء؛ لأن من العرب مَن يخفض التاء على كل حال، فكأنها مثلُ: عرفاتٍ وَمَلكُوت وما أشبه ذلك[١]. وكان مجاهد وعيسى ابنُ عمر وأبو عمرو بنُ العلاء والكسائي وابن كثير يقفون عليها «هيهاه» بالهاء[٢]. وقد رُوي عن أبي عمرٍو أيضاً أنه كان يقف على «هيهات» بالتاء[٣]، وعليه بقيةُ القُرَّاء لأنها حرف[٤].

قال ابن الأنباري[٥]: مَن جعلهما حرفاً واحداً لا يُفرِد أحدَهما من الآخر؛ وقف على الثاني بالهاء ولم يقف على الأوَّل؛ فيقول: هيهات هيهاه، كما يقول: خمس عَشْره، على ما تقدم. ومَن نوى إفراد أحدهما من الآخر، وقف فيهما جميعاً بالهاء والتاء؛ لأن أصل الهاء تاء.

قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ «هي» كناية عن الدنيا، أي: ما الحياة الدنيا[٦] إلا ما نحن فيه، لا الحياةُ الآخرة التي تَعِدُنا بعد البعث.

﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ يقال: كيف قالوا: نموت ونحيا، وهم لا يُقِرُّون بالبعث؟ ففي هذا أجوبة؛ منها: أن يكون المعنى: نكون مَوَاتاً، أي: نُطَفاً، ثم نحيا في الدنيا. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت؛ كما قال: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ [آل عمران:٤٣]. وقيل: «نموت» يعني الآباء، «ونحيا» يعني الأولاد[٧]. ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦ .
(٢) التيسير ص٦٠ .
(٣) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٩٨ .
(٤) ينظر التيسير ص٦٠ .
(٥) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٩٨ .
(٦) لفظ: الدنيا، من (ظ)، والكلام في الوسيط ٣/ ٢٩٠ .
(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٧ - ٤٥٨ .

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ يعنون: الرسول[1] ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ أي: اختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ . قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ تقدَّم[2].

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن قليل، و«ما» زائدة مؤكِّدة[3]. ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ على كفرهم، واللام لامُ القسم، أي: واللهِ لَيُصْبِحُن.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ في التفاسير: صاح بهم جبريلُ عليه السلام صيحةً واحدةً مع الريح التي أهلكهم الله تعالى بها[4]، فماتوا عن آخرهم[5]. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي: هَلْكَى هامدين، كغُثَاء السَّيل، وهو ما يحمله مِن بالي الشجر من الحشيش والقصب مما يبِس وتفتَّت[6]. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكاً لهم. وقيل: بُعْداً لهم من رحمة الله[7]، وهو منصوب على المصدر، ومِثْلُه: سَقْياً له ورَعْياً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: مِن بعد هلاك هؤلاء ﴿قُرُونًا﴾ أي: أُمَماً

---

(١) زاد المسير ٥/ ٤٧٣ .

(٢) ص٣٥ من هذا الجزء.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣ ، ومعاني النحاس ٤/ ٤٥٨ .

(٤) في (ظ): مع الريح التي أهلكتهم.

(٥) بنحوه في تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٤ ، والوسيط ٣/ ٢٩٠ ، وزاد المسير ٥/ ٤٧٣ .

(٦) المراجع السابقة، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٣ .

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٤ .

﴿ءَاخَرِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد بني إسرائيل[(١)]. وفي الكلام حذف: فكذَّبوا أنبياءهم فأهلكناهم[(٢)].

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ «مِن» صلة، أي: ما تَسبِق أُمَّةٌ الوقتَ المؤقَّتَ لها ولا تتأخره، مثلُ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ومعنى ﴿تَتْرَا﴾: تتواتر، ويَتْبَع بعضُهم بعضاً، ترغيباً وترهيباً. قال الأصمعي: وَاترتُ كتبي عليه: أتبعتُ بعضَها بعضاً، إلا أنَّ بين كل واحد منها وبين الآخَر مُهلة. وقال غيره: المواتَرة: التتابعُ بغير مُهلة[(٣)].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «تترًى» بالتنوين[(٤)] على أنه مصدر، أدخل فيه التنوين على فتح الراء، كقولك: حَمْداً وشكراً، فالوقف على هذا على الألف المعوَّضةِ من التنوين. ويجوز أن يكون مُلحقاً بجعفر، فيكون مثلَ أرْطَى وعَلْقَى؛ كما قال:

يَسْتَنُّ في عَلْقَى وفي مُكُورِ[(٥)]

فإذا وُقِف على هذا الوجه جازت الإمالة، على أن ينويَ الوقفَ على الألف الملحقة[(٦)].

---

(١) أورده الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٢.

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٤.

(٤) يعني حالة الوصل، ويقفان عليها بالألف، ولأبي عمرو عند الوقف وجهان: الفتح والإمالة. السبعة ص٤٤٦، والتيسير ١٥٩.

(٥) قائله العجاج، وهو في ديوانه ص٢٣٦، وفيه: فَحَطًّ، بدل: يستن. والعَلْقَى: نبت قضبانه دقاق، عَسِير رضُّها، يتخذ منه المكانس. والمُكور: جمع مَكْرَة، وهي نبتة، أو الرُّطْبَة الفاسدة. القاموس المحيط (علق) و(مكر).

(٦) قرأ حمزة والكسائي بالإمالة وصلاً ووقفاً، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٠٢، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٨.

وقرأ ورْشٌ بين اللفظتين[١]؛ مثل: سَكْرَى وغَضْبَى، وهو اسم جمع؛ مثلُ: شَتَّى وأَسْرى[٢].

وأصله: وَتْرى، من المواترة والتواتر، فقلبت الواو تاء، مثلَ: التقوى والتُّكلان وتُجاه، ونحوِها[٣]. وقيل: هو الوِتر، وهو الفرد[٤]، فالمعنى: أرسلناهم فَرْداً فرداً. النحاس[٥]: وعلى هذا يجوز: «تِتْرا»؛ بكسر التاء الأولى، وموضعُها نَصْب على المصدر؛ لأن معنى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾: [ثم] واتَرنا. ويجوز أن يكون في موضع الحال، أي: متواتِرين.

ومعنى ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي: بالهلاك ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمعُ أُحْدوثة، وهي ما يُتحدَّث به، كأعاجيب جمع أُعجوبة، وهي ما يُتعجَّب منه[٦]. قال الأخفش: إنما يقال هذا في الشَّرّ: «جعلناهم أحاديث»، ولا يقال في الخير، كما يقال: صار فلان حديثاً[٧]، أي: عِبرة ومَثَلاً، كما قال في آية أخرى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩].

قلت: وقد يقال: فلانٌ حديثٌ حَسَن، إذا كان مقيَّداً بذكر ذلك؛ ومنه قول ابن دُريد:

وإنما المرءُ حديثٌ بعده ... فكن حديثاً حسناً لمن وَعَى[٨]

(١) جامع البيان لأبي عمرو الداني ٢/ ٣٠٣، والكشف لمكي ٢/ ١٢٩.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٠٩. قال السمين الحلبي في الدر المصون ٨/ ٣٤٥ ـ بعد أن ذكر هذا الكلام ـ: وفيه نظر، إذ المشهور أن أسرى وشتَّى جمعا تكسير، لا اسما جمع.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٠٩، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٠٣، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٢٩.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٩.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١١٤ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٣، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٠٠.

(٧) أورد قول الأخفش البغوي في تفسيره ٣/ ٣٠٩.

(٨) أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد ١/ ٢٣٢، وابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٧٩٤.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ تقدَّم[1]. ومعنى ﴿عَالِينَ﴾: متكبِّرين قاهرين لغيرهم بالظلم[2]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ الآية، تقدَّم أيضاً[3]. ومعنى ﴿مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ أي: بالغرق في البحر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني التوراة[4]، وخصَّ موسى بالذكر؛ لأن التوراة أُنزلت عليه في الطُّور وهارونُ خليفةٌ في قومه. ولو قال: «آتيناهما»[5] جاز، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ تقدَّم في «الأنبياء» القولُ فيه[6].

﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ الرَّبوة: المكانُ المرتفِع من الأرض، وقد تقدَّم في «البقرة»[7]. والمراد بها هاهنا في قول أبي هريرة: فلسطينُ. وعنه أيضاً:

---

(١) ١١/ ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣١٠.

(٣) ١٢/ ١١٤.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٥، والوسيط ٣/ ٢٩١، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٥.

(٥) قبلها في (م): ولقد.

(٦) ١٤/ ٣٨١ - ٣٨٣.

(٧) ٤/ ٣٣٥ - ٣٣٦.

الرَّملة[(١)]، ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ[(٢)]. وقال ابن عباس وابن المسيِّب وابنُ سَلَام: دمشق[(٣)]. وقال كعب وقتادة: بيت المقدس. قال كعب: وهي أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عَشَر مِيلاً[(٤)]. قال:

فكنتُ هَمِيداً تحت رَمْسٍ بِرَبْوَةٍ   تَعاوَرُني ريحٌ جنوبٌ وَشَمْألُ[(٥)]

وقال ابن زيد: مصر[(٦)]. وروى سالمٌ الأفطسُ عن سعيد بن جُبير ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ قال: النَّشز من الأرض[(٧)].

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مُستويةٍ يُستقرُّ عليها[(٨)]. وقيل: ذات ثمار، ولأجل الثمار يَستقِرُّ فيها الساكنون[(٩)].

---

(١) أورد قوله الأول الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٩١ ، والثاني أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٥ وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٦ ، والطبري ١٧/ ٥٣ .

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٣ - ٥٤ ، والطبراني في الأوسط (٦٦٩١) من حديث مُرَّة البهزي ﷺ. وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٧٢ : فيه من لم أعرفهم.

(٣) أورد قول ابن عباس النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٦١ ، والواحدي في الوسيط ٣/ ٢٩١ ، وأخرج قول سعيد بن المسيب عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٥ ، والطبري ١٧/ ٤٥ . وأورد قول ابن سلام البغوي في تفسيره ٣/ ٣١٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٧٦ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٥ ، والوسيط ٣/ ٢٩١ ، وأخرج قول كعب وقتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٥ - ٤٦ ، والطبري ١٧/ ٥٥ .

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥٦ ، وابن ميمون في منتهى الطلب ٨/ ٣٥٠ ونسباه لامرئ القيس السكوني، ووقع في منتهى الطلب: وإضتُ هميداً، بدل: فكنت هميداً. وقوله: هميداً، الهميد هو الموت. والرَّمس: القبر. وتعاورني، من قولهم: تعاورت الرياح رسمَ الدار حتى عفته، أي: تواظبت عليه، وقيل: أي: تداولته، فمرة تهب جنوباً ومرة شَمالاً. لسان العرب (همد) و(رمس) و(عور).

(٦) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٥٦ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣١٠ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٧٦ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٢ ، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١/ ٢٠٩ ، وبنحوه الطبري ١٧/ ٥٧ .

(٨) الوسيط ٣/ ٢٩١ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٠ ، وزاد المسير ٥/ ٤٧٥ .

(٩) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٥٨ عن قتادة.

﴿وَمَعِينٍ﴾: ماء جارٍ ظاهر للعيون. يقال: مَعِين ومُعُن، كما يقال: رغيف ورُغُف؛ قاله علي بن سليمان[١]. وقال الزجَّاج: هو الماء الجاري في العيون[٢]. فالميم على هذا زائدةٌ كزيادتها في مَبِيْع، وكذلك الميم زائدةٌ في قول مَن قال: إنه الماء الذي يُرى بالعين. وقيل: إنه فعيل بمعنى مفعول. قال عليُّ بنُ سليمان: يقال: مَعَن الماء: إذا جرى [وكثر]، فهو مَعين ومَمْعون[٣]. ابن الأعرابي: مَعَن الماء يَمْعَن مُعوناً: إذا جرى وسَهُل، وأَمعَن أيضاً وأمعنته، ومياه مُعْنان[٤].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: في[٥] الصحيح عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّها الناس، إنَّ الله طيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طيباً، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجلَ يُطيلُ السَّفر، أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يديه إلى السماء يا ربِّ يا ربِّ، ومَطْعَمُه حرام، ومَشْربُه حرام، ومَلْبسُه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك!»[٦].

الثانية: قال بعض العلماء: والخطاب في هذه الآية للنبيِّ ﷺ، وأنه أقامه مقام

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥ ، ونقله المصنف بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٦٤ .

(٣) في (م): معيون، ولم تجوَّد اللفظة في (د)، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٤ والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٥ ، وتهذيب اللغة ٣/ ١٦ ، وفي القاموس: المُعْنان» بالضم: مجاري الماء في الوادي.

(٥) في (م) و(د) و(خ): روى، وسقط من (ز)، والمثبت من (ظ).

(٦) صحيح مسلم (١٠١٥)، وسلف ٣/ ٢١ .

الرسل، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، يعني: نُعيمَ بنَ مسعود(١).

وقال الزجَّاج: هذه مخاطبة للنبيِّ ﷺ، ودلَّ الجمع على أن الرسل كلَّهم كذا أُمِروا، أي: كُلوا من الحلال(٢).

وقال الطبريُّ: الخطاب لعيسى عليه السلام، رُويَ أنه كان يأكل من غَزْل أُمِّه(٣). والمشهور عنه أنه كان يأكل من بَقْل البَرِّيَّة(٤). ووَجْهُ خطابه لعيسى ما ذكرناه من تقديره لمحمد ﷺ تشريفاً له.

وقيل: إن هذه المَقالةَ خُوطِب بها كلُّ نبيٍّ؛ لأن هذه طريقتُهم التي ينبغي لهم الكونُ عليها، فيكون المعنى: وقلنا: يا أيُّها الرسل كُلوا من الطيبات؛ كما تقول لتاجر: يا تجارُ، ينبغي أن تَجتنبوا الرِّبا، فأنت تخاطبه بالمعنى. وقد اقترن بذلك أنَّ هذه المقالةَ تصلُح لجميع صنفه، فلم يُخاطَبوا قطُّ مجتمعين صلوات الله عليهم أجمعين، وإنما خُوطِب كلُّ واحد في عصره(٥). قال الفرَّاء: هو كما تقول للرجل الواحد: كُفُّوا عنا أذاكم(٦).

الثالثة: سوَّى الله تعالى بين النبيِّين والمؤمنين في الخطاب بوجوب أكل الحلال وتجنُّب الحرام، ثم شَمَلَ الكلَّ في الوعيد الذي تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٦٥ .

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٥٩ ، ونسبه لعمرو بن شرحبيل، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ ، وسلف ١٠/ ١٦١ .

(٤) أخرج ابن المبارك في الزهد (٥٦٢) من رواية أبي صالح عن أبي هريرة، قال: كان عيسى ابن مريم يقول لأصحابه: ...كلوا من بقل البرّية.

وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٣/ ١٩٣ عن أبي صالح يرفعه إلى عيسى بن مريم، بمثله.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٧ .

عَلِيمٌ﴾. صلَّى الله على رسله وأنبيائه. وإذا كان هذا معهم؛ فما ظنُّ كلِّ الناس بأنفسهم؟![١].

وقد مضى القول في الطيبات والرِّزق في غير موضع[٢]، والحمد لله.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «يمد يديه» دليلٌ على مشروعية مدِّ اليدين عند الدعاء إلى السماء، وقد مضى الخلاف في هذا والكلام فيه، والحمد لله[٣].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «فأنَّى يستجاب لذلك!» على جهة الاستبعاد، أي: إنه ليس أهلاً لإجابة دعائه، لكنْ يجوز أن يَستجيب الله له تفضُّلاً ولُطفاً وكَرماً[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ المعنى: هذا الذي تقدَّم ذكره هو دينُكم ومِلَّتُكم، فالتزموه[٥]. والأُمَّة هنا: الدِّين؛ وقد تقدَّم مَحامله[٦]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزخرف:٢٢]، أي: على دين. وقال النابغة:

حلفتُ فلم أترك لنفسكَ رِيبةً ... وهل يأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائعُ[٧]

الثانية: قُرِئ: «وإنَّ هذه» بكسر «إنَّ» على القطع، وبفتحها وتشديد النون[٨]. قال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ .

(٢) ١/ ٢٧٢ ، ٩/ ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٣) ٩/ ٢٤٥ - ٢٤٧ .

(٤) المفهم ٣/ ٦٠ .

(٥) في (خ) و(ظ): فالزموه.

(٦) ٢/ ٣٩٧ ، والأنبياء، الآية (٩٢).

(٧) سلف ٥/ ٢٦٠ .

(٨) قرأ بكسر همزة «إن» وتشديدها عاصم وحمزة والكسائي، وبفتحها وتشديدها نافع وأبو عمرو، وقرأ ابن عامر بفتح الهمزة وتخفيف النون. السبعة ص٤٤٦ ، والتيسير ص١٥٩ .

الخليل: هي في موضع نصب لمَّا زال الخافض[١]، أي: أنا عالم بأنَّ هذا دينُكم الذي أمرتكم أن تؤمنوا به.

وقال الفرّاء[٢]: «أنّ» متعلّقة بفعل مضمر، تقديره: واعلموا أنَّ هذه أمتُكم.

وهي عند سيبويه متعلّقة بقوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾، والتقدير: فاتقونِ؛ لأنَّ أمتَكم واحدة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، أي: لأن المساجد لله، فلا تدعوا معه غيرَه، وكقوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، أي: فليعبدوا ربَّ هذا البيت لإيلاف قريش[٣].

الثالثة: وهذه الآية تقوّي أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] إنما هو مخاطبةٌ لجميعهم، وأنه بتقدير حضورهم، وإذا قَدَّرت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ مخاطبةً لمحمد ﷺ قَلَق اتصال هذه الآية واتصال قوله: «فتقطَّعوا». أمَّا أنّ قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ وإن كان قيل للأنبياء، فأممُهم داخلون فيه بالمعنى[٤]؛ فيحسُن بعد ذلك اتصال ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟﴾. أي: افترقوا، يعني الأمم، أي: جَعلوا دينهم أدياناً بعد ما أُمِروا بالاجتماع[٥]. ثم ذكر تعالى أنَّ كلًّا منهم مُعجَب برأيه وضلالته، وهذا غاية الضَّلال[٦].

الرابعة: هذه الآية تنظر إلى قوله ﷺ: «ألَا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملَّة، وإن هذه الأمةَ سَتفترِق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدةٌ في الجنة، وهي الجماعة» الحديث. خرَّجه أبو داود[٧]، ورواه

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦، وينظر الكتاب ٣/ ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٣٧، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦.

(٣) الكتاب ٣/ ١٢٧، وينظر الحجة ٥/ ٢٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٦.

(٤) في (ظ): وإن لم يقل للأنبياء، فإنهم داخلون فيه بالمعنى، والمثبت من (خ) و(م) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ والكلام منه.

(٥) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٥.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٦ - ١٤٧.

(٧) في سننه (٤٥٩٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وسلف ٢/ ٢٢٣.

الترمذي[١]، وزاد: قالوا: ومَن هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» خرَّجه مِن حديث عبد الله بن عمرو.

وهذا يبيِّن أن الافتراق المُحذَّرَ منه في الآية والحديث، إنما هو في أصول الدين وقواعده؛ لأنه قد أطلق عليها مِلَلاً، وأخبر أن التمسُّك بشيء من تلك الملل مُوجِبٌ لدخول النار، ومِثلُ هذا لا يقال في الفروع، فإنه لا يُوجِب تعديد المِلل ولا عذابَ النار؛ قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿زُبُرًا﴾ يعني كُتُباً وضعوها، وضلالاتٍ ألَّفوها؛ قاله ابن زيد. وقيل: إنهم فرَّقوا الكتب، فاتَّبعت فرقةٌ الصُّحُفَ، وفرقةٌ التوراةَ، وفرقةٌ الزبورَ، وفرقة الإنجيلَ، ثم حَرَّف الكلُّ وبدَّل؛ قاله قتادة[٢]. وقيل: أَخَذ كلُّ فريق منهم كتاباً آمنَ به وكَفَر بما سواه.

و«زُبُراً» بضم الباء، قراءةُ نافع، جمع زبور[٣]. والأعمشُ وأبو عمرو بخلافٍ عنه: «زُبَراً» بفتح الباء[٤]، أي: قِطَعاً كقطع الحديد؛ كقوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦].

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ أي: فريق ومِلَّة ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: بما[٥] عندهم من الدِّين ﴿فَرِحُونَ﴾ أي: مُعجَبون به. وهذه الآية مثالٌ لقريش، خاطَبَ محمداً ﷺ في شأنهم، متصلاً بقوله ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أي: فَذَرْ هؤلاء الذين هم بمنزلة مَن

---

(١) برقم (٢٦٤١) وسلف ٥/ ٢٤٢، وقد أكد العلماء على صحة حديث الافتراق بمجموع رواياته وطرقه وشواهده.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٧، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣١، وأخرجه الطبري ١٧/ ٦٢ مختصراً.

(٣) وهي قراءة بقية السبعة أيضاً.

(٤) كذا نسب المصنف هذه القراءة لأبي عمرو، تبعاً لابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٧، ونسبها الطبري ١٧/ ٦٣ إلى عامة قرأة الشام، ونسبها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٣٠٣ إلى ابن عامر الشامي، لكن بخلاف بين أصحاب هشام راوي ابن عامر. فلعل النسبة إلى أبي عمرو وهم، وصوابه: ابن عامر، والله أعلم.

(٥) لفظ: بما، من (ظ).

تقدَّم[١]، ولا يَضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم، فلكلٍّ شيء وقت.

والغَمْرة في اللغة: ما يَغْمُرك ويَعلُوك؛ وأصله السَّتر[٢]، ومنه الغَمْر: الحِقْد؛ لأنه يغطِّي القلب، والغَمْر: الماء الكثير؛ لأنه يغطِّي الأرض، وغَمْرُ الرِّداء: الذي يشمل الناس بالعطاء، قال:

غَمْرُ الرِّداء إذا تبسَّم ضاحكاً ... غَلِقتْ لضَحْكته رِقابُ المالِ[٣]

المراد هنا: الحَيْرة والغَفْلة والضلالة. ودخل فلانٌ في غِمار الناس، أي: في زَحْمتهم[٤].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال مجاهد: حتى الموت[٥]، فهو تهديد لا توقيت؛ كما يقال: سيأتي لك يوم[٦].

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ «ما» بمعنى الذي[٧]، أي: أيحسبون يا محمدُ أنَّ الذي نعطيهم في الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم؟ إنما هو استدراجٌ وإملاء، وليس إسراعاً في الخيرات[٨].

وفي خبر «أنّ» ثلاثةُ أقوال:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/١٤٧ .

(٢) قبلها في (ظ): من.

(٣) سلف ١٢/ ٢٨٧ .

(٤) الصحاح (غمر).

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/٥٨ ولم ينسبه.

(٦) النكت والعيون ٤/٥٨ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ١١٧ .

(٨) معاني القرآن للفراء ٢/٢٣٨ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ١٦ ، والوسيط ٣/ ٢٩٢ .

منها أنه محذوف.

وقال الزجَّاج[١]: المعنى نسارع لهم به في الخيرات، وحُذِفت «به». وقال هشامٌ الضريرُ[٢] قولاً دقيقاً، قال: إن «ما» هي الخيرات، فصار المعنى: نسارع لهم فيه، ثم أَظهر فقال: «في الخيرات». ولا حذفَ فيه على هذا التقدير[٣].

ومذهبُ الكسائي أنَّ «أنَّما» حرفٌ واحد، فلا يحتاج إلى تقدير حذف[٤]، ويجوز الوقف على قوله: «وبنين»، ومَن قال: «أنما» حرفان، فلابدَّ من ضمير يَرجع من الخبر إلى اسم «أنّ»: ولم يَتِمَّ الوقف على «وبنين»[٥].

وقال السِّجستاني[٦]: لا يَحْسُن الوقف على «وبنين»؛ لأن «يحسبون» يحتاج إلى مفعولين، فتمامُ المفعولين: «في الخيرات». قال ابن الأنباري: وهذا خطأ؛ لأن «أنّ» كافيةٌ من اسم «أنَّ» وخبرِها، ولا يجوز أن يُؤتى بعد «أنَّ» بمفعول ثان[٧].

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ وعبد الرحمن بن أبي بَكرة: «يُسارِع» بالياء[٨]،

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ١٦، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٧ وما قبله منه.

(٢) هو أبو عبد الله هشام بن معاوية الضرير، النحوي الكوفي، صاحب الكسائي، المتوفى سنة ٢٠٩ هـ. إنباه الرواة ٣/ ٣٦٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٧، وتعقب هشاماً بقوله: وهذا قول بعيد. اهـ وينظر مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٥٠٤ وعبارته: وقال هشام تقديره: نسارع لهم فيه، ثم أظهر الضمير، وهو «الخيرات» و«ما» التي هي اسم «أن» هي للخيرات.

(٤) في (ظ): حرف.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧٩١ - ٧٩٢.

(٦) هو أبو حاتم سهل بن محمد، وتحرف في (م) إلى السختياني.

(٧) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٧٩٢، وفيه: كافية من اسم «يحسبون» وخبرها. (وقد جاء في النسخة (ظ): كافية باسمها).

(٨) القراءات الشاذة ص٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٤، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٧، وأخرج القراءة عن عبد الرحمن بن أبي بكرة الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٦٥ - ٦٦، وعبد الرحمن بن أبي بكرة ـ نفيع بن الحارث ـ البصري تابعي، كان أول مولود في الإسلام بالبصرة، توفي سنة ٩٦هـ. تهذيب التهذيب.

على أن يكون فاعله «إمدادُنا». وهذا يجوز أن[١] يكون على غير حذفٍ، أي[٢]: يُسارِع لهم الإمدادُ، ويجوز أن يكون فيه حذف، ويكون المعنى: يُسارِع اللهُ لهم.

وقُرِئ: «يُسارَع لهم في الخيرات»، وفيه ثلاثة أوجه: أحدُها على حذف «به»، ويجوز أن يكون: يُسارَع الإمدادُ. ويجوز أن يكون «لهم» اسمُ ما لم يُسَمَّ فاعلُه. ذكره النحاس[٣].

قال المهدويُّ: وقرأ الحُرُّ النَّحْوي: «نُسرِع لهم في الخيرات»[٤]، وهو معنى قراءة الجماعة.

قال الثعلبي: والصواب قراءة العامة؛ لقوله: «نمدهم».

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ ذلك فتنةٌ لهم واستدراج[٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ لمَّا فرَغ من ذِكر الكفرة وتوعُّدهم، عقَّب ذلك بذكر المؤمنين المسارِعين في الخيرات، ووعدَهم، وذَكَرهم[٦]

---

(١) قبلها في (خ) و(ز) و(ظ): على.

(٢) في (خ) و(ز) و(ظ): ويكون المعنى، بدل: أي، والمثبت من (د) و(م) وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/٤٦٨ ومعاني القرآن للزجاج ٤/١٦ ، والكلام منهما.

(٣) في إعراب القرآن ٣/١١٧ ، وهذه القراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٩٤ ونسبها لعبد الرحمن ابن أبي بكرة.

(٤) قراءة الحُرِّ في المحتسب ٢/ ٩٤ ، والمحرر الوجيز ٤/١٤٧ ، وذكرها ابن خالويه في الشواذ ص٩٨ بالياء (يسرع لهم) ونسبها لبعضهم. والحُرُّ النحوي: هو ابن عبد الرحمن، سمع أبا الأسود الدؤلي، وعنه طلب القرآن. بغية الوعاة ١/٤٩٣ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/٤١٦ .

(٦) في النسخ عدا (ظ): وذكر ذلك، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/١٤٧ والكلام منه.

بأبلغِ صفاتهم. و«مُشْفِقُونَ»: خائفون وَجلون مما خوَّفهم الله تعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قال الحسن: يُؤتُون الإخلاص ويخافون ألّا يُقبلَ منهم[(١)]. وروى الترمذيُّ عن عائشةَ رضي الله عنها زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالت عائشة: أَهُم الذين يشربون الخمرَ ويسرقون؟! قال: «لا يا بنتَ الصدِّيق، ولكنَّهم الذين يصومون ويُصلُّون ويتصدَّقون وهم يخافون ألَّا يُقبَلَ منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[(٢)].

وقال الحسن: لقد أدركت[(٣)] أقواماً كانوا من حسناتهم أنْ تُرَدَّ عليهم، أشفقَ منكم على سيئاتكم أن تُعذَّبوا عليها[(٤)].

وقرأت عائشةُ رضي الله عنها وابنُ عباس والنَّخَعيُّ: «والذين يأتون ما أَتَوا» مقصوراً من الإتيان[(٥)].

قال الفرَّاء: ولو صحَّت هذه القراءةُ عن عائشةَ، لم تُخالِف قراءةَ الجماعة؛ لأن الهمز؛ من العرب مَن يَلْزَم فيه الألفَ في كلِّ الحالات إذا كَتَب، فيكتب: سُئل الرجل، بألف بعد السِّين، ويستهزئون، بألف بين الزاي والواو، وشيءٌ، بألف بعد الياء، فغيرُ مستنكَر في مذهب هؤلاء أن يُكتب «يؤتُون» بألف بعد الياء، فيَحتمِل هذا

---

(١) أخرجه بمعناه ابن المبارك في الزهد (١٥)، والطبري ١٧/ ٦٧ ، والبيهقي في الشعب (٧٦٣).

(٢) الترمذي برقم (٣١٧٥)، وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٤١٩٨) وأحمد (٢٥٧٠٥) من طريق سعيد بن عبد الرحمن الخيواني عن عائشة، به. وعبد الرحمن لم يدرك عائشة كما قاله أبو حاتم ونقله عنه ابنه في المراسيل ص١٠٩ ، وابن حجر في تهذيب التهذيب (في ترجمة عبد الرحمن).

(٣) في (م): أدركنا.

(٤) أورده الكيا الطبري في أحكام القرآن ٣/ ٢٨٦ .

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٨ لعائشة، وابن جني في المحتسب ٢/ ٩٥ لعائشة وابن عباس وقتادة والأعمش.

اللفظُ بالبناء على هذا الخطّ قراءتين: «يؤتون ما آتوا» و«يأتُون ما أَتَوا».

ويَنفرد ما عليه الجماعة باحتمال تأويلين:

أحدُهما: والذين يُعطُون ما أَعطَوا من الزكاة والصدقة وقلوبُهم خائفة.

والآخر: والذين يؤتون الملائكة الذين يكتبون الأعمال على العباد[١] ما آتوا وقلوبُهم وجِلة، فيحذف[٢] المفعول[٣] في هذا الباب لوضوح معناه، كما حُذِف في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩]، والمعنى: يَعصِرون السِّمسِم والعنب؛ فاختُزل المفعول لوضوح تأويله.

ويكونُ الأصل في الحرف[٤] على هجائه الموجود في الإمام: «يأتون» بألف مبدَلة من الهمزة، فكُتِبت الألف واواً لتآخي حروف المدِّ واللِّين في الخفاء. حكاه ابن الأنباري.

قال النحاس: المعروف من قراءة ابن عباس: «والذين يأتون ما أَتَوا»، وهي القراءة المرويَّةُ عن النبيِّ ﷺ وعن عائشةَ رضي الله عنها، ومعناها: يعملون ما عملوا؛ كما رُويَ في الحديث[٥].

والوجَلُ: نحوُ الإشفاق والخوف، فالتقيُّ والتائب خَوْفُه أَمْرَ العاقبة وما يطَّلع عليه بعد الموت. وفي قوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ تنبيه على الخاتمة[٦]. وفي «صحيح البخاري»: «وإنما الأعمال بالخواتيم»[٧]. وأما المخلِّط، فينبغي له أن يكون

(١) في (ظ): الذين يكتبون أعمال العباد.

(٢) في (م): فحذف.

(٣) في النسخ عدا (ظ): مفعول. والمثبت من (ظ).

(٤) في (ظ): ويكون الحرف.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/٤٦٩ ، وسلفت القراءة قريباً.

(٦) المحرر الوجيز ٤/١٤٨ .

(٧) صحيح البخاري (٦٤٩٣)، وسلف ١/٢٩٦ .

تحت خوفٍ من أن يُنفَّذ عليه الوعيد بتخليطه[١].

وقال بعض[٢] أصحاب الخواطر: وَجَلُ العارف مِن طاعته أكثرُ وجلاً[٣] من وَجَلِه من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تُطلَب بتصحيح الغرض[٤].

﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: لأنهم ـ أو من أجل أنهم[٥] ـ إلى ربهم راجعون.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: في عمل الخيرات[٦]، أي: في الطَّاعات؛ كي ينالوا بذلك أعلى الدَّرجات والغُرُفات.

وقُرِئ: «يُسْرِعون في الخيرات» أي: يكونون سِراعاً إليها. و«يُسارِعون» على معنى يسابقون مَن سابقهم إليها، فالمفعول محذوف[٧]. قال الزَّجَّاج[٨]: «يُسارِعون» أبلغُ مِن «يُسرِعون».

﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أحسنُ ما قيل فيه: أنهم يَسبِقون إلى أوقاتها، ودلَّ بهذا أن الصلاة في أوَّل الوقت أفضل ـ كما تقدَّم في «البقرة»[٩] ـ وكلُّ مَن تقدَّم في شيء فقد[١٠] سابق إليه، وكلُّ مَن تأخَّر عنه فقد سَبقَه وفاتَه، فاللام في «لها» على هذا القول بمعنى «إلى»، كما قال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، أي: أوحى إليها.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/١٤٨ .

(٢) لفظة: بعض، ليست في (م).

(٣) في (ظ): وجل العارف من طاعته كوجله من مخالفته.

(٤) النكت والعيون ٤/٥٩ .

(٥) ما بين معترضتين ليس في (ظ)، والكلام في المحرر الوجيز ٤/١٤٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس، وقوله: أي في عمل الخيرات، ليس في (م).

(٧) المحتسب ٢/٩٦ ، ونسب ابن جني هذه القراءة للحرِّ النحوي.

(٨) في معاني القرآن ٤/١٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/١١٧ .

(٩) ٢/ ٤٥٠ وما بعدها.

(١٠) في (م) و(د) و(ز): فهو، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/١١٧ والكلام منه.

وأنشد سيبويه:

تَجانَفُ عن جَوِّ اليمامة ناقتي وما قصدَتْ من أهلها لِسِوائكا[(١)]

وعن ابن عباس في معنى ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾: سبقت لهم من الله السعادةُ[(٢)]، فلذلك سارعوا في الخيرات. وقيل: المعنى: وهم من أجل الخيرات سابقون[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ قد مضى في «البقرة»[(٤)]، وأنه ناسخ لجميع ما ورد في الشَّرع من تكليفِ ما لا يطاق.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ﴾ أظهرُ ما قيل فيه: أنه أراد كتابَ إحصاء الأعمال الذي تَرفعه الملائكة[(٥)]، وأضافه إلى نفسه لأن الملائكة كتبت فيه أعمالَ العباد بأمره، فهو يَنطِق بالحق. وفي هذا تهديدٌ وتأنيس[(٦)] من الحَيْف والظلم.

ولفظ النُّطق يجوز في الكتاب، والمراد أن النبيين تَنطِق بما فيه، والله أعلم، وقيل: عنى اللوحَ المحفوظ، وقد أُثبِتَ فيه كلُّ شيء، فهم لا يُجاوِزون ذلك. وقيل: الإشارة بقوله: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ إلى[(٧)] القرآن، فالله أعلم، وكلٌّ محتمِل، والأوَّل أظهر[(٨)].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٠، والبيت في الكتاب ١/ ٣٢، ٤٠٨، منسوب للأعشى، وسلف ٣/ ١١٦ وفيه: حجر، بدل: جوّ.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٧٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٠، والوسيط ٢/ ٤١٧، وزاد المسير ٥/ ٤٨٠.

(٤) ٤/ ٤٩٨ وما بعدها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٨.

(٦) في (ظ) و(م): وتأييس، والمثبت من (خ) و(د) و(ز) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ والكلام منه.

(٧) لفظة: إلى، من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ - ١٤٩ والكلام منه.

(٨) ينظر تفسير أبي الليث السمرقندي ٢/ ٤١٧، والوسيط ٣/ ٢٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٨ وزاد المسير ٥/ ٤٨١.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ قال مجاهد: أي: في غِطاء وغَفْلة وعَماية عن القرآن. ويقال: غَمَره الماء: إذا غطّاه، ونهرٌ غَمْرٌ يُغطّي مَن دَخله[١]. ورجلٌ غَمْر يَغْمُره آراء الناس. وقيل: «غُمْرة»؛ لأنها تُغطّي الوجه، ومنه: دَخَل في غُمار الناس وخُمارهم، أي: فيما يغطّيه من الجمع[٢].

وقيل: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: في حَيْرة وعَمًى، أي: ممّا وَصَف من أعمال البِرّ في الآيات المتقدّمة؛ قاله قتادة. أو: مِن الكتاب الذي يَنْطِق بالحقّ[٣].

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال قتادة ومجاهد: أي: لهم خطايا لابُدَّ أن يعملوها من دون الحقّ[٤]. وقال الحسن وابن زيد: المعنى: ولهم أعمال رديّةٌ[٥] لم يعملوها من دون ما هم عليه؛ لابُدَّ أن يعملوها دون أعمال المؤمنين، فيدخلون بها النار، لِمَا سبق لهم من الشِّقوة[٦]. ويَحتمِل ثالثاً: أنه ظُلْم الخَلْق مع الكفر بالخالق؛ ذكره الماوردي[٧]. والمعنى متقارب.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ يعني: بالسيف يوم بدر، قاله ابن عباس[٨]. وقال

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٢، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٧٤.

(٢) الصحاح (غمر)، وفيه: رجل غُمْر: لم يجرب الأمور. وينظر تهذيب اللغة ٨/ ١٢٨، وما بعدها.

(٣) أورد هذا القول النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١١٨.

(٤) قول قتادة في النكت والعيون ٤/ ٦٠، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣٣، وأخرج قولهما الطبري ١٧/ ٧٥ - ٧٦.

(٥) في (م): رديئة.

(٦) أخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٧٦ بنحوه.

(٧) في النكت والعيون ٤/ ٦٠.

(٨) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٩٠).

الضحَّاك: يعني: بالجوع حين قال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشدد وطأتك على مُضَرَ، اللَّهُمَّ اجعلها عليهم سنينَ كسِنِي يوسف»[(١)]. فابتلاهم الله بالقَحْط والجوع، حتى أكلوا العظام والميتة والكلاب والجِيَف، وهلك الأموال والأولاد[(٢)].

﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ أي: يَضِجُّون ويستغيثون، وأصلُ الجُؤَار رفعُ الصوت بالتضرُّع[(٣)]، كما يفعل الثور. وقال الأعشى يصِف بقرة:

فطافت ثلاثاً بين يومٍ وليلةٍ ... وكان النكير أن تُضِيف[(٤)] وتجأرا

قال الجوهري[(٥)]: الجُؤَار مثلُ الخُوار؛ يقال: جأر الثورُ يَجْأر، أي: صاح، وقرأ بعضهم: «عِجْلاً جسَداً لَهُ جُؤَار» [الأعراف:١٤٨]، حكاه الأخفش[(٦)]، وجَأَر الرجلُ إلى الله عزَّ وجلَّ: تضرَّع بالدعاء.

قتادة: يَصْرُخون بالتوبة فلا تُقبل منهم[(٧)]. قال:

يُراوِح من صلواتِ المَليك ... فطَوْراً سُجوداً وطَوْراً جُؤارا[(٨)]

وقال ابن جُريج: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ هم الذي قُتِلوا ببدر ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ هم الذين بمكة[(٩)]، فجمع بين القولَين المتقدِّمَين، وهو حسَن.

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا﴾ أي: من عذابنا ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾: لا تُمنعون ولا

---

(١) سلف ٤/ ٣٠٤.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣١٢.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣١٢.

(٤) في النسخ الخطية: وتطيف، والمثبت من (م) والمصادر، وقد سلف ١٢/ ٣٣٨.

(٥) في الصحاح (جأر).

(٦) معاني القرآن له ٢/ ٥٣٢، والقراءة أوردها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤٦ ونسبها لأبي السمال.

(٧) نسبه الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦١ للحسن.

(٨) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٠٣.

(٩) أخرجه الطبري ١٧/ ٧٨.

يَنفعكم جَزَعُكم[١]. وقال الحسن: لا تُنصَرون بقَبول التوبة[٢].

وقيل: معنى هذا النهي الإخبارُ، أي: إنكم إن تضرَّعتم لم ينفعكم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ الآيات يريد بها القرآن[٣]. «تُتْلَى عَلَيْكُمْ» أي: تُقرَأ. قال الضحاك: قبل أن تُعذَّبوا بالقتل[٤]، و«تَنْكِصُونَ»: تَرجِعون وراءكم[٥]. مجاهد: تستأخِرون[٦]، وأصله أن تَرجع القَهْقَرَى[٧]. قال الشاعر:

زعموا أنهمْ على سُبُلِ الحقِّ ... وأنَّا[٨] نُكُصٌ على الأعقابِ

وهو هنا استعارة للإعراض والإدبار[٩] عن الحقّ.

وقرأ عليُّ بن أبي طالب ﷺ: «على أدباركم» بدل: «على أعقابكم»، «تنكُصون» بضم الكاف[١٠].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣١٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٦٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩.

(٤) أورده النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٧٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩.

(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٣، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٨٠.

(٧) تفسير غريب القرآن ص٢٩٨، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٣.

(٨) في (م): على سبل النجاة... وإنما، وفي (خ): على سبل الحق وإنما...، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ٦١ والكلام منه.

(٩) لفظ: والإدبار، ليس في (م)، وفي (خ) و(د) و(ز): عن الإدبار، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩، والكلام منه.

(١٠) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٩ لابن مسعود ﷺ.

و«مُسْتَكْبِرِينَ» حال.

والضمير في «به» قال الجمهور: هو عائدٌ على الحَرَم، أو المسجد الحرام[١]، أو البلد الذي هو مكة، وإن لم يتقدَّم له ذِكْر لشهرته في الأمر[٢]، أي: يقولون: نحن أهل الحرم فلا نَخاف[٣].

وقيل: المعنى: أنهم يعتقدون في نفوسهم أنَّ لهم بالمسجد والحَرَم أعظَمَ الحقوق على الناس والمنازل [عند الله]، فيستكبرون لذلك، وليس الاستكبارُ من الحقّ. وقالت فرقة: الضمير عائدٌ على القرآن من حيث ذُكِرتِ الآيات، والمعنى: يُحدِث لكم سماعُ آياتي كِبْراً وطُغياناً، فلا تؤمنوا به. قال ابن عطية[٤]: وهذا قول جيِّد.

النحاس[٥]: والقول الأوَّل أَوْلى، والمعنى: أنهم يفتخرون بالحرم، ويقولون: نحن أهل حرم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ **فيه أربعُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ «سامِراً» نصب على الحال، ومعناه: سُمَّاراً، وهو الجماعة يتحدَّثون بالليل، مأخوذٌ من السَّمَر، وهو ظِلُّ القمر، ومنه سُمْرة اللون. وكانوا يتحدَّثون حول الكعبة في سَمَر القمر، فسُمِّي التحدُّثُ به[٦].

قال الثوري: يقال لظِلِّ القمر: السَّمَر ـ ومنه السُّمْرة في اللَّون ـ ويقال له: الفَخْت، ومنه قيل: فاخِتة[٧].

---

(١) لفظ: الحرام، من (ظ).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩ .

(٣) الوسيط ٣/ ٢٩٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٣ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩ - ١٥٠ ، والكلام قبله وما بين حاصرتين منه.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٤٧٤ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٨ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٥ . والفاختة: واحدة الفواخت، وهي ضرب من الحمام المُطوَّق. قال ابن بري: ذكر الجواليقي أن الفاختة مشتقة من الفَخْت الذي هو ظل القمر. اللسان (فخت).

وقرأ أبو رجاء: «سُمَّاراً»، وهو جمع سامر[١]، كما قال:

ألستَ ترى السُّمَّارَ والنَّاسَ أحوالي[٢]

وفي حديث قَيْلة: إذ[٣] جاء زوجها[٤] من السامر[٥]. يعني: من القوم الذين يَسْمُرون بالليل[٦]؛ فهو اسمٌ مفردٌ بمعنى الجمع[٧]، كالحاضر، وهم القوم النازلون على الماء، والباقِر جمع البَقَر، والجامِل جمع الإبل[٨]، ذكورتِها وإناثِها؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾، أي: أطفالاً. يقال: قوم سَمْر وسُمَّر وسامِر، ومعناه سهر الليل؛ مأخوذ من السَّمَر، وهو ما يقع على الأشجار من ضوء القمر[٩].

قال الجوهري: السامر أيضاً السُّمَّار، وهم القوم الذين يَسْمُرون؛ كما يقال للحاجِّ: حُجَّاج[١٠]، وقول الشاعر:

وسامرٍ طال فيه اللَّهْوُ والسَّمَرُ

كأنه سَمَّى المكان الذي يُجتمَع فيه للسَّمر بذلك.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٨ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٧ ، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٣١ ، وصدره:

فقالت سباك الله إنك فاضحي

(٣) في النسخ: إذا، والمثبت من المصادر الآتية.

(٤) في (ظ): زوجي، وفي (خ) و(ز): زوجنا.

(٥) هو قطعة من حديث طويل أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٣١٧ - ٣٢٠ ، والطبراني في الكبير ٢٥/ ٧-١٠ وقيلة: هي بنت مخرمة العنبرية، صحابية هاجرت إلى النبي ﷺ. الإصابة ١٣/ ٩٨ ، والتقريب.

(٦) النهاية لابن الأثير (سمر).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٠ ، والنهاية (سمر).

(٨) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٥ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٧ ، والنهاية لابن الأثير ٢/ ٤٠٠ ، والذي في المعاني: باقر لجماعة البقر، وجامل لجماعة الجمال.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٠ .

(١٠) في الصحاح (سمر): كما يقال: للحجاج: الحاجّ.

وقيل: وحَّد سامراً، وهو بمعنى السُّمَّار؛ لأنه وُضِع مَوضِع الوقت، كقول الشاعر:

مِن دونهم إن جئتَهم سَمَراً عَزْفُ القِيَانِ ومَجْلِسٌ غَمْرُ[(١)]

فقال: سَمَراً؛ لأن معناه: إن جئتَهم ليلاً وجدتَهم وهم يَسْمُرون[(٢)].

وابنا سَمِير: الليل والنهار؛ لأنه يُسْمَر فيهما، يقال: لا أفعلُه ما سَمَر ابنا سَمِير[(٣)]، [أي:] أبداً. ويقال: السَّمير: الدَّهر، وابناه: الليلُ والنهار. ولا أفعلُه السَّمَرَ والقمرَ؛ أي: ما دام الناس يَسْمُرون في ليلة قمراء. ولا أفعلُه سَمِيرَ الليالي. قال الشَّنْفَرَى:

هنالك لا أرجو حياةً تَسُرُّني سَمِيرَ الليالي مُبْسَلاً بالجَرَائِرِ[(٤)]

والسَّمَارُ ـ بالفتح ـ اللَّبَنُ الرقيق[(٥)]. وكانت العرب تجلس للسَّمَر تتحدَّث، وهذا الذي[(٦)] أَوجبَ معرفتَها بالنجوم؛ لأنها تجلس في الصحراء، فترى الطَّوالع من الغوارب. وكانت قريشٌ تَسْمُر حول الكعبة مجالسَ السمر[(٧)] في أباطيلها وكفرها[(٨)]،

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٦٠ وغريب الحديث للحربي ٣/ ١٠٦٩ ، وتفسير الطبري ١٧/ ٨٢ ونسبه في مجاز القرآن لابن أحمر، وهو عمرو بن أحمر الباهلي والمعنى ـ كما في غريب الحديث ـ: هم أهل مجلسٍ غَمْرٍ يغمرون بالمعروف غيرهم لأنهم كرام.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٨٢ ، وما قبله منه.

(٣) الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص٣٨١ ، وجمهرة الأمثال ٢/ ٢٨٢ .

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٨٠ ، والأغاني ٢١/ ١٨٢ ، والطرائف الأدبية ص٣٦ منسوباً للشنفرى، وفيه: سجيس، بدل: سمير، يقال أيضاً: لا أفعله سجيس الليالي، أي: أبداً.

وقال الجرجاني: ويقال: لتأبط شرًّا. اهـ وهو في ديوانه ص٢٤٣ . وقوله: مُبْسلاً، أي: مُسْلَماً. لسان العرب (بسل).

(٥) الصحاح (سمر)، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) لفظ: الذي، من (ظ).

(٧) لفظ: السمر. من (ظ).

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٠ .

فعابهم الله بذلك[١].

و«تهجرون» قُرِئ بضم التاء وكسر الجيم، مِن أَهْجر: إذا نَطَق بالفُحش، وبنصب التاء وضم الجيم[٢]، مِن هَجَر المريضُ: إذا هَذَى. ومعناه: يتكلَّمون بهَوَسٍ وسَيِّئٍ من القول في النبيِّ ﷺ وفي القرآن. عن ابن عباس وغيره[٣].

الثانية: روى سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال: إنما كُرِه السَّمَر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾، يعني أن الله تعالى ذمَّ أقواماً يَسْمُرون في غير طاعة الله تعالى، إمَّا في هَذَيان، وإمَّا في إذاية[٤].

وكان الأعمش يقول: إذا رأيتَ الشيخَ ولم يكتب الحديث، فاصْفَعه، فإنه من شيوخ القمر. يعني يجتمعون في ليالي القمر، فيتحدَّثون بأيام الخلفاء والأمراء، ولا يُحسِن أحدهم يتوضَّأ للصلاة[٥].

الثالثة: روى مسلمٌ عن أبي بَرْزَةَ قال: كان النبيُّ ﷺ يؤخِّر العِشاء إلى ثُلُث الليل، ويكره النومَ قبلها والحديثَ بعدها[٦].

قال العلماء: أما الكراهية للنوم قبلها، فلئلا يُعَرِّضها للفوات عن كل وقتها أو أفضلِ وقتها؛ ولهذا قال عمر: فَمَن نام فلا نامت عينه؛ ثلاثاً[٧].

---

(١) في (د): فعابهم الله بذلك، وفي (ز) و(ظ): فعاتبهم الله على ذلك، والمثبت من (خ) و(م).

(٢) قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم، والباقون بنصب التاء وضم الجيم. السبعة ص٤٤٦، والتيسير ص١٥٩.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٢٩٩، والوسيط ٣/ ٢٩٤، والبغوي ٣/ ٣١٣، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٠٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٠٧ - ١٣٠٨، وأخرجه الطبري ١٧/ ٨٤ - ٨٥ بنحوه مختصراً.

(٥) أخرجه الرامهرمزي في المحدث الفاصل (٢٠٤)، والخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (١٤٢).

(٦) صحيح مسلم (٦٤٧): (٢٣٧)، وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (١٩٨٠٠)، والبخاري (٥٩٩) وفيه: وكان يستحب أن يؤخِّر العشاء.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٠٨، وقول عمر أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٦، وعبد الرزاق (٢١٤٢)، وابن المنذر في الأوسط (١٠٤١).

وممن كرِه النوم قبلها عمرُ وابنُه عبدُ الله وابنُ عباس وغيرُهم، وهو مذهب مالك. ورخَّص فيه بعضُهم، منهم عليٌّ وأبو موسى وغيرُهم، وهو مذهب الكوفيين. وشرطَ بعضهم أن يجعل معه مَن يُوقِظُه للصلاة. ورُوِي عن ابن عمَر مثلُه، وإليه ذهب الطَّحاوي[١].

وأمَّا كراهيةُ الحديث بعدَها، فلأن الصلاة قد كفَّرت خطاياه، فينامُ على سلامة، وقد خَتَم الكُتَّابُ صحيفته بالعبادة، فإنْ هو سَمَر وتحدَّث فيملؤها بالهَوَس، ويجعلُ خاتمتَها اللغوَ والباطل، وليس هذا مِن فعل المؤمنين[٢]. وأيضاً فإنَّ السَّمَر في الحديث مَظِنة غلبة النوم آخِرَ الليل، فينام عن قيام آخِرِ الليل، وربَّما ينام عن صلاة الصبح[٣].

وقد قيل: إنما يُكره السَّمَر بعدَها لِمَا روى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والسَّمَرَ بعد هَدْأة الرِّجل، فإنَّ أحدكم لا يَدري ما يَبُثُّ الله تعالى مِن خَلْقه، أَغلِقوا الأبواب، وأَوْكُوا السِّقاء، وخَمِّروا الإناء، وأَطفِئوا المصابيح»[٤].

ورُوِي عن عمرَ أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العِشاء، ويقول: أَسَمَراً أوَّلَ الليل ونوماً آخِره؟! أَريحوا كُتَّابكم[٥]. حتى إنه رُوِي عن ابن عَمْرو[٦] أنه قال: مَن قَرَض بيتَ شِعر بعد العِشاء، لم تُقبَل له صلاةٌ حتى يُصبِح[٧]. وأسنده شدَّاد بنُ

---

(١) في مختصر اختلاف العلماء ١/ ٣١٨ ، ونقله المصنف بواسطة أبي العباس القرطبي في المفهم ٢/ ٢٧١ .
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨ .
(٣) المفهم ٢/ ٢٧١ .
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨ ، والحديث أخرجه الحميدي في مسنده (١٣١٠)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٣٠)، والحاكم مختصراً ٤/ ٢٨٤ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.
وأخرجه أحمد (١٤٢٨٣)، وأبو داود (٥١٠٣)، وابن حبان (٥٥١٧) من حديث جابر أيضاً، بلفظ: أقلوا الخروجَ إذا هدأت الرِّجل فإن الله يبث في ليله من خلقه ما شاء...
(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٠٨ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٢٧٩ .
(٦) في النسخ: ابن عمر، والتصويب من مصادر التخريج الآتية.
(٧) أورده ابن أبي حاتم في العلل ٢/ ٢٦٣ عن عبد الله بن عمرو موقوفاً وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٢٣٨) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً قال أبو حاتم كما في العلل لابنه: هذا خطأ، الناس يروون هذا الحديث لا يرفعونه يقولون: عن عبد الله بن عمرو فقط.

أَوْس إلى النبيِّ ﷺ(١).

وقد قيل: إن الحكمة في كراهية الحديث بعدها إنما هو لمَّا أنَّ الله تعالى جعل الليل سَكَناً ـ أي: يُسكَن فيه ـ فإذا تحدَّث الإنسان فيه، فقد جعله كالنهار(٢) الذي هو متصرَّف المعاش؛ فكأنه قصد إلى مخالفة حِكْمة الله تعالى التي أجرى عليها وجوده، فقال ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٤٧].

الرابعة: هذه الكراهة إنما تختصُّ بما لا يكون من قَبِيل القُرَب والأذكار وتعليم العلم، ومُسامرةِ أهل العلم وتعليم المصالح(٣)، وما شابه ذلك، فقد ورد عن النبيِّ ﷺ وعن السَّلف ما يدلُّ على جواز ذلك، بل على نَدْبيَّته. وقد قال البخاريُّ: بابُ السَّمَر في الفقه والخير بعد العِشاء، وذكر أن قُرَّة بنَ خالد قال: انتَظَرْنا الحسن، ورَاثَ(٤) علينا، حتى جاء قريباً(٥) من وقت قيامه، فجاء فقال: دعانا جيرانُنا هؤلاء. ثم قال: [قال] أنس: انتَظَرْنا رسولَ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، حتى كان شطرُ الليل، فجاء فصلَّى، ثم خطبنا فقال: «إن الناس قد صَلَّوا [ثم رقدوا]، وإنكم لم تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتم

---

(١) أحكام القرآن ٣/ ١٣٠٨ ، وأخرجه أحمد (١٧١٣٤)، والبزار (٢٠٩٤ - كشف)، والعقيلي في الضعفاء، والطبراني في الكبير (٧١٣٣)، والبيهقي في الشعب (٥٠٨٩)، وابن الجوزي في الموضوعات (٥٠٦) من طريق قزعة بن سويد، عن عاصم بن مخلد، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن شداد بن أوس مرفوعاً.

قال العقيلي: عاصم بن مخلد عن أبي الأشعث لا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به. وقال ابن الجوزي: هذا حديث موضوع. وعاصم في عداد المجهولين. قال أحمد بن حنبل: قزعة بن سويد مضطرب الحديث، وقال ابن حبان: كان كثير الخطأ، فاحش الوهم، فلما كثر ذلك في رواياته سقط الاحتجاج بأخباره. اهـ. وينظر القول المسدد في الذب عن مسند أحمد ص٧٥ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): في النهار، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في المفهم ٢/ ٢٧١ والكلام منه.

(٣) في (خ) و(د) و(ز) و(م): ومسامرة الأهل بالعلم وبتعليم المصالح، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في المفهم ٢/ ٢٧١ ، والكلام منه، غير أن في المفهم: تعلُّم، بدل: تعليم.

(٤) أي: أبطأ. ينظر النهاية (ريث).

(٥) في صحيح البخاري: حتى قربنا.

الصلاةَ». قال الحسن: فإن القوم لا يزالون في خير ما انتظروا الخير(١).

وقال: بابُ السَّمَر مع الضيف والأهل، وذكر حديثَ عبدِ الرحمن بنِ أبي بكر(٢) أنَّ أصحابَ الصُّفَّة كانوا [أناساً] فقراء... الحديث(٣). أخرجه مسلمٌ أيضاً(٤).

وقد جاء في حراسة الثُّغُور وحفظِ العساكر بالليل من الثَّواب الجزيل والأجر العظيم ما هو مشهور في الأخبار، وقد مضى من ذلك جملةٌ في آخِر «آل عمران»(٥) والحمدُ لله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني القرآن(٦)؛ وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وسُمِّيَ القرآن قولاً لأنهم خُوطِبوا به.

﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فأنكروه وأعرضوا عنه. وقيل: «أم» بمعنى بل، أي: بل جاءهم ما لا عَهْدَ لآبائهم به، فلذلك أنكروه وتركوا التَّدبُّر له، قاله ابن عباس(٧). وقيل: المعنى: أم جاءهم أمان من العذاب، وهو شيءٌ لم يأتِ آباءهم الأوَّلين، فتركوا الأجر(٨).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٠٨ - ١٣٠٩، وصحيح البخاري (٦٠٠) وما سلف بين حاصرتين منهما، وأخرج حديث أنس ﷺ أحمد (١٣٠٦٩)، ومسلم (٦٤٠): (٢٢٢) دون قول قرة بن خالد.

(٢) في النسخ: أبي بكر بن عبد الرحمن، والتصويب من أحكام القرآن وصحيح البخاري.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٠٨ - ١٣٠٩، وصحيح البخاري (٦٠٢) وما بين حاصرتين منهما، وموضع الشاهد في تمامه، وهو أن أبا بكر تعشّى عند النبي ﷺ ثم لبث حيث صُلِّيت العشاء، ثم رجع فلبث حتى تعشى النبي ﷺ فجاء بعدما مضى من الليل ما شاء الله تعالى.

(٤) صحيح مسلم (٢٠٥٧): (١٧٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧١٢).

(٥) ٥/ ٤٨٨ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٧ .

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٨٧ بنحوه.

(٨) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: الأعز، وينظر الكشاف ٣/ ٣٦ .

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

هذا تستعمله العرب على معنى التوقيف والتقبيح، فيقولون: الخيرُ أحبُّ إليك أم الشَّر؟ أي: قد أُخبِرتَ الشَّرَّ[١] فتجنَّبه، وقد عرفوا رسولهم وأنه من أهل الصِّدق والأمانة، ففي اتِّباعه النجاةُ والخير لولا العَنَت. قال سفيان: بلى، قد عرفوه ولكنَّهم حسَدوه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: أم يحتجُّون في ترك الإيمان به بأنه مجنون؟! فليس هو هكذا؛ لزوال أمارات الجنون عنه ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: القرآنَ والتوحيد الحقَّ والدِّينَ الحق ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أي: كلُّهم ﴿لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ حسداً وبَغْياً وتقليداً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ «الحقُّ» هنا: هو الله سبحانه وتعالى؛ قاله الأكثرون، منهم مجاهدٌ وابن جُريج وأبو صالح وغيرُهم. وتقديره في العربية: ولو اتَّبع صاحبُ الحق؛ قاله النحاس[٣].

وقد قيل: هو مجاز، أي: لو وافق الحقُّ أهواءهم. فجعل موافقته اتِّباعاً مجازاً، أي: لو كانوا يكفرون بالرسل ويعصُون الله عزَّ وجلَّ، ثم لا يُعاقَبون ولا يُجازَون على ذلك، إمَّا عجزاً، وإمَّا جهلاً؛ لفسدت السماواتُ والأرضُ. وقيل: المعنى: ولو

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/١١٨ وفيه: قد اخترت الشر، بدل: قد أخبرت الشر.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٧/٨٨.

(٣) في إعراب القرآن ٣/١١٩، وأورد قول مجاهد ابن الجوزي في زاد المسير ٥/٤٨٤، وأخرج قول ابن جريج وأبي صالح الطبري ١٧/٨٩.

كان الحقُّ ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى؛ لتنافست[1] الآلهة، وأراد بعضهم ما لا يريده بعض، فاضطرب التدبير وفسدتِ السماواتُ والأرض، وإذا فسدتا فسد مَن فيهما.

وقيل: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: بما يهواه الناس ويَشْتهونه، لَبَطل نظام العالَم؛ لأنَّ شهواتِ الناس تختلف وتتضادُّ، وسبيلُ الحقِّ أن يكون متبوعاً، وسبيلُ الناس الانقيادُ للحق[2].

وقيل: «الحق»: القرآن؛ أي: لو نزل القرآن بما يُحبُّون، لفسدتِ السماوات والأرض [ومن فيهن][3].

﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ إشارةٌ إلى مَن يعقل مِن ملائكة السماوات، وإنسِ الأرض وجِنِّها. الماوردي[4]: وقال الكلبي: يعني: وما بينهما مِن خَلْق، وهي قراءةُ ابنِ مسعود: «لفسدت السماواتُ والأرضُ وما بينهما»[5]. فيكون على تأويل الكلبيِّ وقراءةِ ابن مسعود محمولاً على فساد من يعقل[6] وما لا يعقل من حيوان وجماد. و[على] ظاهرِ التنزيل في قراءة الجمهور يكونُ محمولاً على فساد مَا يعقل[7] من الحيوان[8]؛ لأن ما لا يعقل تابعٌ لِمَا يَعقِل في الصَّلاح والفساد، فعلى هذا؛ ما يكون من الفساد يعود على مَن في السماوات من الملائكة بأن جُعلت أرباباً وهي مربوبة، وعُبِدت وهي

(١) في (م) و(خ) و(د) و(ز): لتنافت، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩ والكلام منه.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤١٨ ، والنكت والعيون ٤/ ٦٢ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١١٢ ونسبه للقفال.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٨ ، وزاد المسير ٥/ ٤٨٤ وما بين حاصرتين منهما.

(٤) في النكت والعيون ٤/ ٦٢ وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه دون قوله: وجِنها.

(٥) القراءات الشاذة ص٩٩ .

(٦) قوله: من يعقل، ليس في النكت والعيون.

(٧) في (ظ): من يعقل.

(٨) جاء في النكت والعيون: . . .ما يعقل ولا يعقل من الحيوان.

مُستعبَدة. وفسادُ الإنس يكون على وجهين: أحدُهما: باتِّباع الهوى، وذلك مُهْلِك. الثاني: بعبادة غير الله، وذلك كفر. [وأمَّا فسادُ الجن، فيكون بأن يُطاعوا فيطغوا] وأمَّا فسادُ ما عدا ذلك فيكون على وجه التَّبَع؛ لأنهم مدبَّرون بذوِي العقول، فعاد فساد المدبِّرين عليهم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بما فيه شرفُهم وعِزُّهم، قاله السُّدِّيُّ وسفيان[1]. وقال قتادة: أي: بما لهم فيه ذِكْرُ ثوابِهم وعقابهم. ابن عباس: أي: ببيان الحقِّ، وذِكْرِ ما لهم به حاجةٌ من أمر الدين[2]. ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: أجراً على ما جئتَهم به. قاله الحسن[3] وغيرُه. ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾.

وقرأ حمزة والكسائي والأعمش ويحيى بنُ وَثَّاب: «خراجاً» بألف، الباقون بغير ألف، وكلُّهم قد قرؤوا: «فخراج» بالألف، إلَّا ابنَ عامر وأبا حَيْوة، فإنهما قرأا بغير الألف[4]. والمعنى: أم تسألُهم رزقاً؟ فرزقُ ربك خير[5].

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: ليس يَقْدِر أحد أن يَرْزُق مثل رزقه، ولا يُنعِم مثلَ إنعامه[6]. وقيل: أي: ما يؤتيك الله من الأجر على طاعتك له والدعاءِ إليه خيرٌ من

(١) أورد قولهما الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦٣، والقول دون نسبة في معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٩، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤١٨، والوسيط ٣/ ٢٩٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥١، وزاد المسير ٥/ ٤٨٤، وتفسير الرازي ٢٣/ ١١٢.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٨٩ مختصراً وبنحوه.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٩٠.

(٤) السبعة ص٤٤٧، والتيسير ص١٤٦ و ١٥٩.

(٥) النكت والعيون ٤/ ٦٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩.

عَرَض الدنيا، وقد عَرَضوا عليك أموالهم حتى تكون كأغنى[١] رجل من قريش، فلم تُجبهم إلى ذلك. قال معناه الحسن[٢].

والخَرْج والخَراج واحد، إلا أن اختلاف الكلام أحسن. قاله الأخفش. وقال أبو حاتم: الخَرْج: الجُعْل، والخراج العطاء. المبرِّد: الخَرْج المصدر، والخَراج الاسم[٣]. وقال النضر بنُ شُميل: سألت أبا عمرو بنَ العلاء عن الفرق بين الخَرْج والخَراج، فقال: الخَراج ما لَزِمَك، والخَرْج ما تبرَّعت به[٤]. وعنه: أن الخَرْج من الرِّقاب، والخَراج من الأرض[٥]. ذكر الأوَّل الثعلبيُّ والثاني الماوردي[٦].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى دين قويم. والصِّراط في اللغة: الطريقُ، فسُمِّيَ الدِّينُ طريقاً؛ لأنه يؤدِّي إلى الجنة، فهو طريقٌ إليها.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: بالبعث ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ قيل: هو مِثْل الأوَّل. وقيل: إنهم عن طريق الجنة لعادلون[٧]، حتى يصيروا إلى النار[٨]. نَكَب

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: كأعين.

(٢) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦٣ ، وينظر الوسيط ٣/ ٢٩٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩ . وعنه نقل المصنف كلام أبي حاتم والأخفش. وينظر نزهة القلوب ص٢٢٠ .

(٤) أورد قول أبي عمرو بن العلاء الرازيُّ في تفسيره ٢٣/ ١١٢ ، والزمخشري أيضاً ٣/ ٣٨ لكن دون أن ينسبه.

(٥) في (ظ): «وعنه أن الخَراج من الرقاب، والخرج من الأرض». وفي تهذيب اللغة ٧/ ٤٨ ، ومفردات ألفاظ القرآن (خرج)، ولسان العرب (خرج). ما يفيد أنه قد يطلق أحدهما على الآخر.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ٦٣ .

(٧) في (م): لناكبون.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٩ - ١٢٠ .

عن الطريق يَنْكُب نُكوباً: إذا عدلَ عنه ومال إلى غيره، ومنه: نَكَبت الريح: إذا لم تَسْتقم على مَجْرًى، وشَرُّ الرِّيح النَّكْباء(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي: لو رددناهم إلى الدنيا ولم نُدْخِلهم النارَ وامتحنَّاهم ﴿لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ قال السُّدِّيّ: في معصيتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال الأعمش: يتردَّدون(٢).

وقال ابن جُريج: «ولو رحمناهم» يعني: في الدنيا، «وَكَشَفْنَا ما بِهِم منْ ضُرٍّ» أي: من قَحْط وجوع، «لَلَجُّوا» أي: لَتَمادَوْا «في طُغْيَانِهِمْ» وضلالتهم وتجاوزِهم الحدَّ، «يَعْمَهُونَ»: يتذبذبون ويَخبِطُون(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ قال الضحَّاك: بالجوع(٤). وقيل: بالأمراض والحاجة والجوع. وقيل: بالقتل والجوع. ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أي: ما خضعوا(٥). ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي: ما يخشعون لله عزَّ وجلَّ في الشدائد تُصيبهم.

قال ابن عباس: نزلت في قصة ثُمامَة بنِ أُثال؛ لمَّا أَسَرته السَّريَّة وأسلم، وخَلَّى رسولُ الله ﷺ سبيلَه، حالَ بين مكة وبين المِيرة(٦)، وقال: والله لا يأتيكم من اليمامة حَبَّةُ حِنْطة حتى يأذن فيها رسولُ الله ﷺ. وأخذ الله قريشاً بالقَحْط والجوع حتى أكلوا

---

(١) الصحاح (نكب).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠ وفيه: الأخفش، بدل: الأعمش. وأخرج قول الأعمش الطبري ١٤/ ٩٢ .

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٩٢ ، ومجمع البيان ١٨/ ١٦٧ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠ .

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٩٩ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٠ .

(٦) الميرة: هي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع. النهاية (مير).

الميتة والكلاب والعِلْهِز، قيل: وما العِلْهِز؟[(١)] قال: كانوا يأخذون الصُّوف والوَبَر، فيبُلُّونه بالدم، ثم يَشْوونه ويأكلونه، فقال له أبو سفيان: أَنْشُدُكَ اللهَ والرَّحِم، أليس تزعم أنَّ الله بعثك رحمةً للعالمين؟ قال: «بلى»، قال: فوالله ما أراكَ إلا قتلتَ الآباءَ بالسيف، وقتلتَ الأبناءَ بالجوع؛ فنزل قوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[(٢)].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قال عكرمة: هو بابٌ من أبواب جهنم، عليه من الخَزَنة أربعُ مئة ألفٍ، سودٌ وجوهُهم، كالِحةٌ أنيابُهم، قد قُلِعت الرحمةُ من قلوبهم، إذا بلغوه فتحه الله عزَّ وجلَّ عليهم[(٣)].

وقال ابن عباس: هو قتلُهم بالسيف يوم بدر[(٤)].

مجاهد: هو القَحْط الذي أصابهم حتى أكلوا العِلْهِز من الجوع[(٥)]؛ على ما تقدَّم.

وقيل: فتح مكة[(٦)].

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: يائسون متحيِّرون، لا يدرون ما يصنعون، كالآيس من

---

(١) في (د) و(ز): والعهن، وقيل: وما العهن؟

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٨٩) والطبري ١٧/ ٩٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٤/ ٨١، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١٣٩٢)، دون قوله: والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، فقد أخرجه أحمد (٩٨٣٤)، والبخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤): (٥٩) في حديث طويل.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠، وأورده ابن رجب في التخويف من النار ص١٥٩ عن عكرمة وعزاه لابن أبي حاتم.

وأخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٢/ ٥٥٢، والدر المنثور ٤/ ١٠٠، من حديث سمرة بن جندب مرفوعاً مطولاً.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٦٤ وسلف ص٦١ من هذا الجزء.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٣ - ٤٣٤ بنحوه، وأخرجه الطبري ١٧/ ٩٥ بنحوه أيضاً.

(٦) نسبه أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤١٩ وللسدي.

الفَرَج ومن كلِّ خير. وقد تقدَّم في «الأنعام»[١].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ عرَّفهم كثرةَ نِعَمه وكمالَ قدرته. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما تشكرون إلا شكراً قليلاً[٢]. وقيل: أي: لا تشكرون ألبتة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: نشركم[٤] وبثَّكم وخلقكم. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تُجْمعون للجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٨٠ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ٨١ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٨٣ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: جعلهما مختلفَين، كقولك: لك الأجر والصِّلة، أي: إنك تُؤجَر وتَصِل[٥]؛ قاله الفرّاء. وقيل:

---

(١) ٨/ ٣٨١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٣.

(٣) زاد المسير ٥/ ٤٨٩.

(٤) في (م): أنشأكم.

(٥) في النسخ: وتوصل، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٠ والكلام منه.

اختلافُهما: نُقصانُ أحدِهما وزيادةُ الآخَر[١]. وقيل: اختلافُهما في[٢] النُّور والظُّلمة. وقيل: تكرُّرُهما يوماً بعد ليلة، وليلةً بعد يوم. ويحتمل خامساً: اختلاف ما مضى فيهما من سعادة وشَقاء وضلال وهُدى[٣].

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ كُنْهَ قدرتِه ورُبوبيَّته ووحدانيَّته، وأنه لا يجوز أن يكون له شريكٌ من خلقه، وأنه قادر على البعث.

ثم عيَّرهم بقولهم، وأخبر عنهم أنهم ﴿قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ . قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ هذا لا يكون ولا يُتَصوَّر ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ﴾ أي: مِن قَبْل مجيء محمدٍ ﷺ، فلم نَرَ له حقيقة ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: أباطيلُهم وتُرَّهَاتُهم؛ وقد تقدَّم هذا كلُّه[٤].

قال الله تعالى: ﴿قُل﴾ يا محمد، جواباً لهم عمَّا قالوه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ﴾ يُخبِر بربوبيَّته ووحدانيَّته ومُلْكِه الذي لا يزول، وقدرتِه التي لا تحول؛ فـ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ ولا بُدَّ لهم من ذلك. فـ ﴿قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتَّعِظون وتعلمون أنَّ مَنْ قَدَر على خلق ذلك ابتداءً، فهو على إحياء الموتى بعد موتهم قادر[٥].

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يريدُ: أفلا تخافون حيث تَجعلون لي ما تكرهون، زعمتم أنَّ الملائكةَ بناتي، وكَرِهتم لأنفسكم البنات؟

﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يريدُ السماواتِ وما فوقَها وما بينَهنّ، والأرضينَ وما تحتَهنَّ وما بينَهنَّ، وما لا يعلمه أحدٌ إلا هو. وقال مجاهد: «ملكوت

(١) تفسير أبي الليث ١/ ١٧٣ ، والنكت والعيون ٤/ ٦٤ .

(٢) لفظة: في، من (م) وتفسير البغوي ١/ ١٣٥ ، ونسب البغوي هذا القول لعطاء.

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦٤ .

(٤) في تفسير الآية (٣٣) وما بعدها من هذه السورة.

(٥) الوسيط ٣/ ٢٩٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٥ ، وزاد المسير ٥/ ٤٨٧ .

كلِّ شيء»: خزائنُ كلِّ شيء. الضحَّاك: مُلْكُ كلِّ شيء. والملكوتُ من صفات المبالغة كالجَبَرُوت والرَّهَبُوت[١]؛ وقد مضى في «الأنعام»[٢].

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: يَمنع ولا يُمنع منه[٣]. وقيل: «يُجير»: يُؤمِّن مَن شاء. «ولا يُجَار عَلَيْه»، أي: لا يُؤمَّن مَن أخافه[٤]. ثم قيل: هذا في الدنيا، أي: مَن أراد الله إهلاكَه وخوفَه؛ لم يمنعه منه مانع، ومَن أراد نَصْره وأَمْنَه؛ لم يدفعه مِن نصره وأمنه دافع. وقيل: هذا في الآخرة، أي: لا يمنعه مِن مستحِقِّ الثواب مانعٌ، ولا يدفعه عن مستوجِب العذاب دافع[٥].

﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: كيف تُخدعون وتُصرَفون عن طاعته وتوحيده؟[٦]. أو: كيف يُخيَّل إليكم[٧] أن تُشرِكوا به ما[٨] لا يَضرُّ ولا ينفع؟! والسِّحر: هو التخييل. وكلُّ هذا احتجاجٌ على العرب المُقِرِّين بالصانع.

وقرأ أبو عمرو: «سيقولون الله» في الموضعين الأخيرين، وهي قراءةُ أهل العراق، والباقون: «لله»[٩].

ولا خلاف في الأوَّل أنه «لله»؛ لأنه جواب لـ «قل لمن الأرض ومن فيها»، فلمَّا تقدَّمت اللام في «لمن» رجعت في الجواب، ولا خلافَ أنه مكتوبٌ في جميع المصاحف بغير ألف.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٦٥ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٣٤ ، وأخرج عنه الطبري ١٧/ ١٠٠ .

(٢) ٨/ ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦٥ .

(٤) مراح لبيد ٢/ ٧٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٥ .

(٥) النكت والعيون ٤/ ٦٥ .

(٦) مراح لبيد ٢/ ٧٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٦ .

(٧) في (ظ): لكم.

(٨) في النسخ الخطية: من، والمثبت من (م).

(٩) السبعة ص٤٤٧ ، والتيسير ص١٦٠ .

وأمَّا مَن قرأ: «سيقولون الله»؛ فلأن السؤال بغير لام، فجاء الجواب على لفظه، وجاء في الأوَّل: (لله)؛ لمَّا كان السؤال باللام.

وأمَّا مَن قرأ: «لله» باللام في الأخيرين وليس في السؤال لامٌ، فلأن معنى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾: قل: لمن السماواتُ السبعُ ولمن[1] العرش العظيم، فكان الجواب: «لله»؛ حين قَدَّرت اللام في السؤال. وعلَّةُ الثالثةِ كعلة الثانية[2]. وقال الشاعر:

إذا قيل مَن ربُّ المزالفِ والقُرَى ... وربُّ الجيادِ الجُرْدِ قيل[3] لخالد

أي: لمن المزالف، والمزالف: البراغيل، وهي البلاد التي بين الريف والبرّ، الواحدة مَزْلَفة[4].

ودلَّت هذه الآياتُ على جواز جِدال الكفار وإقامةِ الحجَّة عليهم، وقد تقدَّم في «البقرة»[5]. ونبَّهتْ على أنَّ مَنِ ابتدأ بالخلق والاختراع والإيجاد والإبداع، هو المستحِقُّ للألوهية والعبادة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالقول الصِّدق، لا ما تقوله الكفار من إثبات الشريك[6] ونَفْي البعث. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في قولهم[7] إنَّ الملائكة بناتُ

---

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(م): ورب. والمثبت من (ظ).

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٧/٩٨ - ٩٩، ومعاني القرآن للنحاس ٤/٤٨١، والحجة ٥/٣٠١، والكشف عن وجوه القراءات ٢/١٣٠.

(٣) في (م): قلت، وأورد البيت النسفي في تفسيره ٣/١٢٦، والشوكاني في فتح القدير ٣/٤٩٦.

(٤) قوله: والمزالف البراغيل، إلخ...، ليس في (ز) و(د)، وجاء في (ظ): والمزاليف، بدل: والمزالف.

(٥) ٤/٢٩٠ - ٢٩١.

(٦) ينظر تفسير البغوي ٣/٣١٦.

(٧) قوله: في قولهم، من (ظ).

الله[١]. فقال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ «مِن» صِلة ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ «مِن» زائدة؛ والتقدير: ما اتَّخذ الله ولداً كما زعمتم، ولا كان معه إله فيما خلَق. وفي الكلام حذف، والمعنى: لو كانت معه آلهةٌ[٢]، لانفرَدَ كلُّ إلهٍ بخلقه[٣] ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: ولَغَالبَ، وطلب القويُّ الضعيفَ[٤]، كالعادة بين الملوك، وكان الضعيفُ المغلوبُ لا يستحِقُّ الإلهية. وهذا الذي يدلُّ على نفي الشريك يدلُّ على نَفْي الولد أيضاً؛ لأن الولد يُنازِع الأبَ في المُلْك منازعةَ الشريك.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيهاً له عن الولد والشريك. ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهٌ وتقديس.

وقرأ نافع وأبو بكر وحمزةُ والكسائيُّ: «عالمُ» بالرفع على الاستئناف، أي: هو عالمُ الغيب، الباقون: بالجرِّ؛ على الصِّفة لله[٥]، ورَوى رُوَيس عن يعقوب: «عالِمِ» إذا وَصَل خفضاً، و«عالمُ» إذا ابتَدَأ رفعاً[٦].

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٤﴾

علَّمه ما يدعو به، أي: قل ربِّ، أي: يا ربِّ، إنْ أَرَيْتَني ما يُوعدون من العذاب ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: في نزول العذاب بهم، بل أخرجني منهم[٧].

---

(١) مراح لبيد ٢/ ٧٠.

(٢) من قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ إلى هذا الموضع جاء بدلاً منه في (ظ): ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ كما زعمتم ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

(٣) قوله: وفي الكلام حذف... إلى هذا الموضع، هو تفسير لقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ وينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٥٤.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٢ - ٤٨٣، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٣١٦، والوسيط ٣/ ٢٩٧.

(٥) السبعة ص٤٤٧، والتيسير ص١٦٠، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٠، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣١.

(٦) النشر ٢/ ٣٢٩. والرواية المشهورة عن يعقوب (وهو من العشرة) الخفض في الحالين؛ وصلاً ووقفاً.

(٧) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٠، وزاد المسير ٥/ ٤٨٨.

وقيل: النداء معترِض[١]، و«ما» في «إمَّا» زائدة[٢]. وقيل: إنَّ أصل «إمَّا»: إنْ ما؛ فـ«إن» شرط، و«ما» شرط، فَجمع بين الشرطين توكيداً[٣]، والجواب: «فلا تجعلني في القوم الظالمين»، أي: إذا أردتَ بهم عقوبةً، فأخرجني منهم[٤].

وكان عليه الصلاة والسلام يعلم أنَّ الله تعالى لا يجعله في القوم الظالمين إذا نَزَل بهم العذاب، ومع هذا أمره الربُّ بهذا الدعاء والسؤال ليَعْظُم أجرُه، وليكون في كلِّ الأوقات ذاكراً لربِّه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ۝٩٥﴾

نبَّه على أن خلافَ المعلوم مقدور، وقد أراه الله تعالى ذلك فيهم بالجوع والسيف، ونجَّاه الله ومَن آمن به مِن ذلك.

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾

قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أمر بالصَّفح ومكارم الأخلاق، فما كان منها لهذه الأمة فيما بينهم[٥]؛ فهو مُحْكَم باقٍ في الأمة أبداً[٦]، وما كان[٧] فيها من معنى موادعة الكفار وتركِ التعرُّض لهم والصَّفحِ عن أمورهم؛ فمنسوخٌ بالقتال.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: مِن الشِّرك والتكذيب. وهذا يقتضي أنها آيةُ مُوادَعة[٨]، والله تعالى أعلم.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ .

(٣) لم نقف على هذا الوجه في (إما)، وذكر الهروي في الأُزْهيَّة ص١٤٢ أن «إما» تكون جزاءً بمعنى «إنْ»، وتكون «ما» زائدة للتوكيد.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢١ .

(٥) قوله: الأمة فيما بينهم، من (م).

(٦) جاء في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ ـ والكلام منه ـ: وما كان منها لهذا فهو حكم باق في الأمة أبداً.

(٧) لفظ: كان، من (م).

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ .

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الهَمَزاتُ: هي جمعُ هَمْزة، والهَمْزُ في اللغة: النَّخْس والدَّفع[١]، يقال: هَمزَه ولَمَزه ونَخَسه: دفعه.

قال الليث: الهَمْز كلامٌ مِن وراء القَفَا، واللَّمْزُ مواجهة. والشيطان يُوسوس فيَهْمِسُ في وَسواسه في صَدر ابن آدم[٢]، وهو قولُه: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾، أي: نَزَغاتِ الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى[٣].

وفي الحديث: كان يتعوَّذ من هَمْز[٤] الشيطان ولَمْزه وهَمْسه[٥].

قال أبو الهَيْثَم: إذا أَسرَّ الكلام وأخفاه، فذلك الهَمْس من الكلام. وسُمِّي الأسد هَمُوساً[٦]؛ لأنه يمشي بخِفَّة؛ فلا يُسمع صوت وطئه. وقد تقدم في «طه»[٧].

الثانية: أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين بالتعوُّذ من الشيطان في هَمَزاته، وهي سَوْراتُ الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسَه، وكأنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار فتقع المُحَادَّة، فلذلك اتصلت بهذه الآية، فالنَّزَغات وسَوْراتُ

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٤ .

(٢) تهذيب اللغة ٦/ ١٤٢ وفيه: بوسواسه، بدل: في وسواسه. والليث هو ابن المظفر، وقيل: ابن نصر، صاحب الخليل بن أحمد الفراهيدي. إنباه الرواة ٣/ ٤٢ .

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢١ .

(٤) في (د) و(ظ): همزات.

(٥) الأثر أورده الخليل في العين ٤/ ١١ والأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ١٤٣ ، وابن الأثير في النهاية (لمز) و(همس)، وقد أخرجه أحمد (٣٨٢٨) من حديث ابن مسعود ﷺ، بلفظ: كان يتعوذ من الشيطان، من همزه ونفثه ونفخه.

(٦) تهذيب اللغة ٦/ ١٤٣ ، وأبو الهيثم: هو الرازي.

(٧) ١٤/ ١٣٩ .

الغضب الواردةُ من الشيطان هي المتعوَّذُ منها في الآية[(١)]، وقد تقدم في آخر «الأعراف»[(٢)] بيانُه مستوفًى، وفي أوّل الكتاب أيضاً[(٣)].

ورُوِي عن عليِّ بن حرب بن محمدٍ الطائيّ، حدَّثنا سفيان، عن أيوب، عن محمد ابن حَبَّان: أن خالداً كان يؤرَّق من الليل؛ فذكر ذلك للنبيِّ ﷺ، فأمره أن يتعوَّذ بكلماتِ الله التَّامَّة، من غضب الله وعقابه، ومن شرِّ عباده، ومن هَمَزات الشياطين وأنْ يَحْضُرون[(٤)].

وفي كتاب أبي داود[(٥)]: قال عمرو[(٦)]: وهَمْزُه المُوتَةُ. قال ابنُ ماجه: المُوتةُ: يعني الجنون[(٧)]. والتعوُّذُ أيضاً من الجنون وَكَيد[(٨)].

وفي قراءة أُبَيّ: «رَبِّ عائذاً بك من هَمَزات الشياطين، وعائذاً بك ربِّ[(٩)] أن

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ .

(٢) ٩/ ٤٢٢ وما بعدها.

(٣) ١/ ١٣٥ وما بعدها.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/ ١٠٩ ، وفي الاستذكار ٢٧/ ٩٢ وابن حجر في نتائج الأفكار ٣/ ١١١ ، بهذا الإسناد قال ابن حجر: هذا مرسل صحيح الإسناد. اهـ، يعني أن محمد ابن حَبَّان (وهو محمد بن يحيى ابن حبان) تابعي صغير، لم يدرك خالد بن الوليد.
وأخرجه أحمد (١٦٥٧٣) وابن أبي شيبة٨/ ٦٠ ، وابن السني (٦٣٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٠٦) وابن حجر في نتائج الأفكار ٣/ ١١٢ من طريق يحيى بن سعيد، عن محمد بن حبان، أن الوليد ابن الوليد شكا إلى رسول الله ﷺ الأرق فذكره. قال البيهقي: هذا مرسل. قال ابن حجر: هذا مرسل صحيح الإسناد... ولم يخرج السند بذلك من الانقطاع فإن محمد بن يحيى من صغار التابعين، وجل روايته عن التابعين، والوليد بن الوليد مات في حياة النبي ﷺ.

(٥) برقم (٧٦٤) وسلف ١/ ١٣٦ .

(٦) في (خ) و(ظ) و(م): عمر، والمثبت من (د) و(ز)، وعمرو هذا: هو ابن مرة أحد رجال الإسناد.

(٧) لم نقف عليه في مطبوع سنن ابن ماجه، وسلف هذا الكلام ١/ ١٣٦ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ .

(٩) لفظة: رب، من (د) والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ والكلام منه.

يَحْضُرونِ»، أي: يكونوا معي في أموري، فإنهم إذا حضروا الإنسانَ كانوا مُعَدِّين للهَمْز، وإذا لم يكن حضورٌ، فلا هَمْز.

وفي «صحيح مسلم» عن جابر قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الشيطانَ يحضر أحدَكم عند كلِّ شيءٍ من شأنه، حتى يحضرَه عند طعامه، فإذا سقطت من أحدكم اللُّقمةُ، فلْيُمِط ما كان بها من أذًى، ثم ليأكلْها، ولا يَدَعْها للشيطان، فإذا فرغ فلْيَلْعَق أصابعَه، فإنه لا يدري في أيِّ طعامه البَرَكة»[(١)].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ عاد الكلام إلى ذِكْر المشركين، أي: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا﴾ إلى قوله ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الآية: ٨٢-٨٣]، ثم احتجَّ عليهم وذكَّرهم قدرتَه على كلِّ شيء [في الآية: ٨٤-٨٩]، ثم قال: هم مُصِرُّون على ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ تيقَّن ضلالتَه، وعايَنَ الملائكة التي تَقْبِض روحه ـ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠] ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ تمنَّى الرجعة كي يعملَ صالحاً فيما ترك[(٢)].

وقد يكون القول في النفس، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[(٣)] [المجادلة: ٨].

فأمَّا قولُه: «ارْجِعُونِ» وهو يخاطِبُ[(٤)] ربَّه عزَّ وجلَّ، ولم يقل: «ارجعني»، فقيل[(٥)]: جاء على تعظيم الذِّكْر للمخاطَب. وقيل: استغاثوا بالله عزَّ وجلَّ أوَّلاً، فقال

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٣٣): (١٣٥)، وأخرج أحمد (١٤٥٥٢) مختصراً.

(٢) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ١٠٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢١ - ١٢٢ .

(٤) في (م): مخاطب.

(٥) قوله: فقيل، ليست في (د) و(م).

قائلهم: ربِّ، ثم رجع إلى مخاطبة الملائكة فقال: ارجعون، أي: ارجعون[١] إلى الدنيا؛ قاله ابن جُريج[٢]. وقيل: إن معنى «ارجعون» على جهة التكرير، أي: ارجعني ارجعني[٣]. وهكذا قال المازنيُّ[٤] في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤]، قال: معناه: أَلْقِ أَلْقِ. قال الضحَّاك: المراد به أَهلُ الشرك[٥].

قلت: ليس سؤالُ الرجعة مختصًا بالكافر، فقد يسألُها المؤمنُ، كما في آخر سورة المنافقين على ما يأتي[٦].

ودلَّت الآيةُ على أنَّ أحداً لا يموتُ حتى يعرفَ اضطراراً، أهو من أولياء الله، أم من أعداء الله[٧]، ولولا ذلك لَمَا سأل الرجعةَ، فيعلموا ذلك قبل نزول الموت وذَواقه.

﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس: يريد «أشهد أن لا إله إلا الله»[٨]. ﴿فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ أي: فيما ضيَّعتُ وتركتُ العمل به من الطاعات[٩]. وقيل: «فيما تركت» من مالي[١٠] فأتصدَّق. و«لعلَّ» تتضمن تردُّداً، وهذا الذي يسأل الرجعة قد استيقن العذابَ، وهو يوطِّن نفسَه على العمل الصالح[١١] قطعاً من غير تردُّد، فالتردُّد يرجع

(١) قوله: أي ارجعون، ليست في (د) و(م).

(٢) أورده عن ابن جريج الطبري ١٧/ ١٠٨ ، وذكره دون نسبة ـ مع القول الذي قبله ـ البغوي في تفسيره ٣/ ٣١٧ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥ - ١٥٦ ، والرازي في تفسيره ٢٣/ ١٢٠ .

(٣) في (م): ارجعني ارجعني ارجعني.

(٤) في (د) و(م): المزني، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٢ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٠٥ والكلام منهما.

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ١٠٨ .

(٦) عند تفسير الآية العاشرة منها.

(٧) مجمع البيان ١٨/ ١٧٦ .

(٨) الوسيط للواحدي ٣/ ٢٩٨ .

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣١٧ ، وزاد المسير ٥/ ٤٩ ـ ونسبه لمقاتل ـ وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٠ .

(١٠) في (م): المال، وينظر هذا القول في تفسير الرازي ٢٣/ ١٢٠ .

(١١) لفظ: الصالح. من (م).

إمَّا إلى ردِّه إلى الدنيا، وإمَّا إلى التوفيق، أي: أعمل صالحاً إن وفقتني، إذ ليس على قطعٍ من وجود القدرة والتوفيق لو رُدَّ إلى الدنيا.

﴿كَلَّآ﴾ هذه كلمةُ رَدٍّ[١]، أي: ليس الأمر على ما يظنُّه؛ من أنه يُجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، بل هو كلام يَطيح في أدراج الريح[٢]. وقيل: لو أُجيب إلى ما يطلب لَمَا وَفَّى بما يقول، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[٣] [الأنعام:٢٨]. وقيل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ترجع إلى الله تعالى، أي[٤]: لا خُلْفَ في خبره، وقد أخبر أنه لن يؤخِّر نفساً إذا جاء أجلُها، وأخبر بأن هذا الكافر لا يؤمن. وقيل: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ عند الموت، ولكن لا تنفع[٥].

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ أي: ومن أمامهم وبين أيديهم[٦]. وقيل: مِن خلفهم. «بَرْزَخٌ» أي: حاجزٌ بين الموت والبعث؛ قاله الضحاك ومجاهد وابن زيد[٧]. وعن مجاهد أيضاً: أنَّ البرزخ هو الحاجز بين الميت[٨] والرجوع إلى الدنيا. وعن الضحَّاك: هو ما بين الدنيا والآخرة[٩]. ابن عباس: حجاب. السُّدِّي: أَجَل. قتادة: بقيَّةُ الدنيا[١٠]. وقيل: الإمهالُ إلى يوم القيامة؛ حكاه ابن عيسى. الكلبي: هو الأَجَل ما بين النفختين، وبينهما أربعون سنة[١١]. وهذه الأقوال متقاربة.

---

(١) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: ردّ.

(٢) تفسير الطبري ١٧/١٠٨، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٢١، والوسيط ٣/٢٩٨، وزاد المسير ٥/ ٤٩٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/١٥٦.

(٤) قوله: أي، ليست في (د)، وفي (ظ): لأنه.

(٥) تفسير الرازي ٢٣/ ١٢٠.

(٦) الوسيط ٣/٢٩٨، وزاد المسير ٥/ ٤٩٠.

(٧) أخرج قول مجاهد وابن زيد الطبري ١٧/ ١١٠.

(٨) في (م) وتفسير مجاهد ٢/ ٤٣٤ : الموت، والمثبت من النسخ الخطية، وهو موافق لما أخرجه الطبري عنه ١٧/ ١١٠.

(٩) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٨٥، والنكت والعيون ٤/ ٦٧.

(١٠) أخرج قول قتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٨، والطبري ١٧/ ١١٠.

(١١) أورد قول ابن عيسى والكلبي الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٦٧.

وكلُّ حاجزٍ بين شيئين فهو بَرْزَخ، قال الجوهري[١]: البرزخُ: الحاجزُ بين الشيئين. والبرزخ: ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل في البرزخ.

وقال رجل بحضرة الشَّعْبيّ: رحم الله فلاناً؛ فقد صار من أهل الآخرة، فقال: لم يَصِر من أهل الآخرة، ولكنه صار من أهل البرزخ، وليس من الدنيا ولا من الآخرة[٢].

وأُضِيف «يوم» إلى «يُبْعثون» لأنه ظرفُ زمان، والمراد بالإضافة المصدر[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ المرادُ بهذا النفخِ النفخةُ الثانية[٤] ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال ابن عباس: لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدنيا: مِن أيِّ قبيلة أنت، ولا مِن أيِّ نسب، ولا يتعارفون لهَوْل ما أذهلهم[٥].

وعن ابن عباس: أن ذلك في النفخة الأولى، حين يَصْعَق مَن في السماوات ومَن في الأرض إلَّا مَن شاء الله، فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون، ثم نُفِخ فيه أُخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون[٦].

وسأل رجلٌ ابنَ عباس عن هذه الآية وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾

---

(١) في الصحاح (برزخ).

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٢، وأخرج قول الشعبي هناد في الزهد (٣١٥) بنحوه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٢.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٢، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٢١، والوسيط ٣/ ٢٩٨، وزاد المسير ٥/ ٤٩٠.

(٥) الوسيط ٣/ ٢٩٨.

(٦) سلف ٥/ ٢٠ مطولاً، وهذا الكلام مقتبس من هذه الآية، والآية (٦٨) من سورة الزمر، والآية (٢٧) من سورة الصافات.

[الصافات: ٢٧]، فقال: لا يتساءلون في النفخة الأولى؛ لأنه لا يبقى على الأرض حيٌّ، فلا أنسابَ ولا تساؤل، وأمَّا قولُه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فإنهم إذا دخلوا الجنة تساءلوا[(١)].

وقال ابن مسعود: إنما عَنَى في هذه الآية النفخةَ الثانية[(٢)].

وقال أبو عمر زاذان: دخلت على ابن مسعود، فوجدتُ أصحاب الخير واليُمْنة قد سبقوني إليه، فناديت بأعلى صوتي: يا عبدَ الله بنَ مسعود، مِن أجل أني رجلٌ أعجميٌّ أدْنيتَ هؤلاء وأقصيتني؟! فقال: ادْنُهْ. فدنوتُ، حتى ما كان بيني وبينه جليسٌ، فسمعته يقول: يُؤخَذ بيد العبد أو الأَمَة يوم القيامة، فيُنْصَبُ على رؤوس الأوَّلين والآخِرين، ثم يُنادي منادٍ: هذا فلانُ بنُ فلان، مَن كان له حقٌّ فليأتِ إلى حقِّه، فتفرحُ المرأة أن يدور لها الحقُّ على أبيها، أو على زوجها، أو على أخيها[(٣)]، أو على ابنها. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾. فيقول الربُّ سبحانه وتعالى: آتِ هؤلاء حقوقَهم، فيقول: يا ربِّ قد فنِيتِ الدنيا فمن أين أُوْتيهم؟ فيقول الربُّ للملائكة: خُذُوا من حسناته فأعطُوا كلَّ إنسان بقَدْر طَلِبَتِه. فإن كان وليًّا لله، فَضَلَت[(٤)] من حسناته مثقالُ حبَّة مِن خَرْدل، فيضاعفُها[(٥)] الله تعالى حتى يُدْخِلَه بها الجنة، ثم قرأ ابن مسعود ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وإن كان شقيًّا، قالت الملائكة: ربِّ، فنِيتْ حسناتُه وبقي طالبون، فيقول الله تعالى: خُذُوا من أعمالهم فأضيفوها إلى سيئاته، وصُكُّوا له صَكًّا إلى جَهَنَّم[(٦)].

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ١١١، والحاكم ٢/ ٣٩٤ - ٣٩٥ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ١١٧.

(٣) في (ز) و(ظ): وأختها.

(٤) في (ظ): وفضل.

(٥) في (خ): يضاعفها، وفي (ظ): ضاعفها، والمثبت من (د) و(ز) و(م).

(٦) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤١٦)، والطبري مقطعاً ١٧/ ١١٢، ١١٣، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٠١ - ٢٠٢. وجاء في الزهد: من أجل أني رجل أعمى، بدل: من أجل أني رجل أعجمي.

قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

تقدم الكلام فيهما[١].

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ويقال: «تَنْفح»، وهو[٢] بمعناه، ومنه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء:٤٦]، إلَّا أنَّ «تَلْفَح» أبلغُ بأساً[٣]؛ يقال: لَفَحتْه النارُ والسَّمُومُ بحرِّها: أحرقَتْه، ولَفَحْتُه بالسيف لَفْحةً: إذا ضربتَه به ضربة[٤] خفيفة.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ قال ابن عباس: عابسون[٥]. وقال أهل اللغة: الكُلُوح تكشُّرٌ في عُبوس[٦]. والكالح: الذي قد تشمَّرت شفتاه وبَدَت أسنانه[٧]، قال الأعشى:

ولـه الـمُـقْـدَمُ لا مِـثْـلَ لـهُ ساعةَ الشِّدْقِ عن النَّاب كَلَحْ[٨]

وقد كَلَح الرجل كُلوحاً وكُلَاحاً، وما أقبح كَلْحَتَه: يُرادُ به الفَمُ وما حواليه، ودهرٌ كالحٌ، أي: شديد[٩].

---

(١) ٩/ ١٥٨ وما بعدها.

(٢) لفظة: وهو، من (ظ).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٣.

(٤) لفظة: ضربة، من (م) والصحاح (لفح) والكلام منه.

(٥) أخرجه البخاري إثر حديث (٤٧٤٤) تعليقاً، ووصله الطبري ١٧/ ١١٥ - ١١٦، وابن أبي حاتم كما في تغليق التعليق ٤/ ٢٦٣.

(٦) الصحاح (كلح).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٣.

(٨) ديوان الأعشى ص٢٩١، وفيه: في الحرب إذا، بدل: لا مثل له. وهو بمثل رواية المصنف عند الطبري ١٧/ ١١٥.

(٩) الصحاح (كلح).

وعن ابن عباس أيضاً: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾: يريد كالذي كَلَح وتقلَّصت شفتاه، وسال صديدُه.

وقال ابن مسعود: ألم ترَ إلى الرأس المُشَيَّط بالنار، وقد بدت أسنانه وقَلَصت شفتاه[١]؟

وفي الترمذيِّ عن أبي سعيد الخُدْريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: تشويه النار، فتَقْلِصُ شَفَتُه العليا، حتى تَبْلُغ وَسَطَ رأسه، وتسترخي شَفَتُه السُّفْلى حتى تضرب سُرَّته». قال: هذا حديث حسن صحيح غريب[٢].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قراءةُ أهل المدينة وأبي عمرو وعاصمٍ: «شِقْوَتُنا»[٣]، وقرأ الكوفيون إلَّا عاصماً: «شَقاوتنا»، وهذه القراءةُ مرويةٌ عن ابن مسعود والحسن[٤]. ويقال: شقاءً وشَقاً، بالمد والقصر.

وأحسنُ ما قيل في معناه: غلبت علينا لذَّاتُنا وأهواؤنا، فسَمَّى اللَّذاتِ والأهواءَ شِقوةً؛ لأنهما يُؤدِّيان إليها، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]، لأن ذلك يؤدِّيهم إلى النار[٥]. وقيل: ما سبق في علمك، وكُتِب علينا في أمِّ الكتاب من الشَّقاوة[٦]. وقيل: حُسْنُ الظَّن

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٨ - ٤٩ ، وهناد في الزهد (٣٠٤)، والطبري ١٧/ ١١٦ . والمشيَّط هو من قولهم: شيَّط اللحمَ أو الشَّعَر أو الصوفَ: إذا أحرق بعضه. النهاية (شيط).

(٢) سنن الترمذي (٢٥٨٧) و(٣١٧٦) من طريق أبي السَّمح، عن أبي الهيثم، وأخرجه بهذا السند أيضاً أحمد (١١٨٣٦). وأبو السَّمح هو درّاج بن سَمعان، وهو صدوق، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف كما قال ابن حجر في التقريب.

(٣) السبعة ص٤٤٨ ، والتيسير ص١٦٠ ، والنشر ٢/ ٣٢٩ ، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر أيضاً.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣ .

(٦) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ١١٧ .

بالنفس وسوءُ الظَّن بالخَلْق[١].

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ أي: كنا في فِعْلنا ضالِّين عن الهدى. وليس هذا اعتذاراً منهم، إنما هو إقرار، ويدلُّ على ذلك قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾[٢]. طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر[٣] ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا بالعَوْد إليه. فيُجابون بعد ألف سنة: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ابعُدُوا في جهنم، كما يقال للكلب: اخْسَأ، أي: ابعُدْ[٤]. خسأتُ الكلبَ خَسْأً: طردتُه. وخَسَأ الكلبُ بنفسه خُسُوءاً[٥]، يتعدَّى ولا يتعدَّى، وانخسأ الكلب أيضاً[٦].

وذكر ابن المبارك[٧] قال: حدَّثنا سعيد بنُ أبي عَرُوبة، عن قتادة يذكره عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: إنَّ أهلَ جهنمَ يَدْعون مالكاً، فلا يُجيبهم أربعين عاماً، ثم يردُّ عليهم: إنكم ماكثون، قال: هانت ـ واللهِ ـ دعوتُهم على مالك وربِّ مالك، قال: ثم يدعُون ربَّهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾، قال: فيسكت عنهم قَدْر الدنيا

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٦٨.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣.

(٣) زاد المسير ٥/ ٤٩٢.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣١٨.

(٥) لفظ: خُسُوءاً، ليس في (ز) و(د)، ولا في الصحاح (خسأ) والكلام منه.

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ١٢٢.

(٧) في الزهد (٣١٩) (زوائد)، وقد سقط في المطبوع بعضه لسقط في المخطوط كما أشار إلى ذلك محققه.

وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٩ (١٤٠٤٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٤٨٠)، وقال: هذا موقوف، وظاهره أن الله تعالى يجيبهم بقوله: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، وظاهر الكتاب أيضاً يدل على أن الله تعالى يجيبهم بذلك وإن كان يحتمل غير ذلك.

مرتين، قال: ثم يَردُّ عليهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون. قال: فواللهِ ما نَبَس القومُ بعدها بكلمة، وما هو إلا الزَّفِيرُ والشَّهيق في نار جهنم. فشبَّه أصواتَهم بصوت[١] الحمير، أوَّلُها زفيرٌ وآخرُها شهيق. خرجه الترمذيُّ مرفوعاً بمعناه من حديث أبي الدَّرداء[٢].

وقال قتادة: صوت الكفار في النار كصوت الحمار، أوَّله زفيرٌ وآخرُه شهيق[٣].
وقال ابن عباس: يصير لهم نُباح كنُباح الكلاب[٤].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: بلغني ـ أو ذُكِر لي ـ أنَّ أهل النار استغاثوا بالخَزَنةِ. الخبر بطوله؛ ذكره ابن المبارك[٥]، وقد ذكرناه بكماله في «التَّذكرة»[٦]، وفي آخره: ثم مكث عنهم ما شاء الله، ثم ناداهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ قال: فلمَّا سمعوا صوته، قالوا: الآن يرحمنا ربُّنا، فقالوا عند ذلك: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، أي: الكتابُ الذي كُتِب علينا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ . رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فقال عند ذلك: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. فانقطع عند ذلك الدعاءُ والرجاء، وأقبل بعضُهم على بعض، ينبَحُ بعضُهم في وجوه بعض، وأُطْبِقت عليهم.

---

(١) في (ظ): بأصوات.

(٢) برقم (٢٥٨٦) وقال: إنما نعرف هذا الحديث عن الأعمش، عن شِمر بن عطية، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قولَه، وليس بمرفوع.
وأخرجه ـ موقوفاً ـ ابن أبي شيبة ١٣/ ١٥٥ - ١٥٦ ، والطبري ١٧/ ١٢٣ - ١٢٤ ، والبيهقي في البعث والنشور (٦٠٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٩ ، والطبري ١٧/ ١٢٤ - ١٢٥ .

(٤) أورده أبو الليث في تفسيره ٢/ ٤٢٢ بنحوه.

(٥) الزهد بزوائد نعيم بن حماد ص٩١ - ٩٢ وسقط بعضه أيضاً وقد أشار المحقق هناك إلى سقط في المخطوط، وقد سلف ١٢/ ١٦٢ - ١٦٣ ، ونسبه ثمة للبيهقي أيضاً.

(٦) ص٤١٧ - ٤١٩ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية.

قال مجاهد: هم بلالٌ وخبَّاب وصُهَيب، وفلانٌ وفلانٌ من ضعفاء المسلمين، كان أبو جهل وأصحابُه يهزؤون بهم(١).

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ بالضم قراءةُ نافع وحمزةَ والكسائي هاهنا وفي «ص» [الآية: ٦٣]. وكَسَرَ الباقون(٢).

قال النحاس: وفرَّق أبو عمرو بينهما، فجعل المكسورة من جهة التهزُّؤ، والمضمومةَ من جهة السُّخْرة، ولا يَعرف هذا التفريقَ الخليلُ ولا سيبويه ولا الكسائيُّ ولا الفراء. قال الكسائي: هما لغتان بمعنًى واحد، كما يقال: عُصِيٌّ وعِصِيٌّ(٣)، ولُجِّيٌّ ولِجِّيٌّ(٤).

وحكى الثعلبيُّ عن الكسائيِّ والفرَّاء(٥) الفرقَ الذي ذكره أبو عمرو، وأن الكسر بمعنى الاستهزاءِ والسُّخريةِ بالقول، والضَّمَّ بمعنى التسخير والاستعباد بالفعل(٦).

وقال المبرِّد: إنما يُؤخذ التفريقُ بين المعاني عن العرب، وأمَّا التأويل فلا يكون. والكَسرُ في سِخْريٍّ في المعنيين جميعاً؛ لأن الضمة تُستثقَل في مثل هذا(٧).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) السبعة ص٤٤٨ ، والتيسير ص١٦٠ .

(٣) إعراب القرآن ٣/ ١٢٣ .

(٤) في (د) و(ز): ويجي وتجي، وفي (خ) و(ظ): وبِختي وبُختي، والمثبت من (م).

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٢٤٣ .

(٦) قول الكسائي والفراء في تفسير البغوي ٣/ ٣١٩ ، والكشاف ٣/ ٤٤ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٥ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٤ .

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ أي: حتى اشتغلتم بالاستهزاء بهم عن ذكري ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ استهزاءً بهم. وأضاف الإنساء إلى المؤمنين؛ لأنهم كانوا سبباً لاشتغالهم عن ذكره[١]، وتعدَّى شُؤمُ استهزائهم بالمؤمنين إلى استيلاء الكفر على قلوبهم.

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على أذاكم[٢]، وصبروا على طاعتي ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ بكسر الهمزة، على ابتداء المدح من الله تعالى لهم، وفَتَح الباقون، أي: لأنهم هم الفائزون. ويجوز نصبُه بوقوع الجزاء عليه، تقديره: إني جزيتهم اليوم الفوزَ بالجنة[٣].

قلت: ويُنْظَر إلى معنى هذا قولُه تعالى في آخر المُطَفِّفِين: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [الآية: ٣٤] إلى آخر السورة، على ما يأتي بيانُه هناك إن شاء الله تعالى.

ويُستفاد من هذا: التحذيرُ من السُّخريَة والاستهزاء بالضعفاء والمساكين، والاحتقارِ لهم، والإزراءِ[٤] عليهم، والاشتغالِ بهم فيما لا يعني، وأنَّ ذلك مُبْعِدٌ من الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قيل: يعني في القبور. وقيل: هو سؤالٌ لهم عن مدَّة حياتهم في الدنيا[٥]. وهذا السؤالُ للمشركين في عَرَصات القيامة،

(١) الوسيط ٣/ ٣٠٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٨ .

(٢) الوسيط ٣/ ٣٠٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩ .

(٣) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٤٤٨ - ٤٤٩ ، والتيسير ص١٦٠ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٣ ، وتفسير الطبري ١٧/ ١٢٨ - ١٢٩ ، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٢ ، والحجة ٥/ ٣٠٦ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩ ، وزاد المسير ٥/ ٤٩٥ .

(٤) الإزراء: التهاون بالشيء، يقال: زرى عليه فعله: عابه. الصحاح (زري).

(٥) النكت والعيون ٤/ ٦٩ ، وينظر الوسيط ٣/ ٣٠٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩ .

أو في النار[١].

﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ بفتح النون، على أنه جمع مسلَّم، ومن العرب مَن يخفضُها وينوِّنها[٢].

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أنساهم شدَّةُ العذاب مدَّةَ مُكثهم في القبور[٣]. وقيل: لأن العذاب رُفِع عنهم بين النفختين، فنسُوا ما كانوا فيه من العذاب في قبورهم. قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب من النفخة الأولى إلى الثانية[٤]، وذلك أنه ليس من أحد قَتَلَه نبيٌّ، أو قتل نبيًّا، أو مات بحضرة نبيٍّ إلَّا عُذِّب من ساعة يموت إلى النفخة الأولى، ثم يُمْسَك عنه العذابُ، فيكون كالنائم حتى تُنفخ الثانية[٥]. وقيل: استقصروا مدَّة لبثهم في الدنيا وفي القبور، ورأوه يسيراً بالنسبة إلى ما هم بصدده[٦].

﴿فَسْـَٔلِ الْعَادِّينَ﴾ أي: سَلِ الحُسَّاب الذين يعرفون ذلك، فإنا قد نسيناه. أو: فاسألِ الملائكةَ الذين كانوا معنا في الدنيا. الأوَّل قولُ قتادة، والثاني قولُ مجاهد[٧].

وقرأ ابن كَثير وحمزةُ والكسائي: ﴿قُلْ كم لبثتم في الأرض﴾ على الأمر[٨]، ويحتمل ثلاثةَ معانٍ:

أحدُها: قولوا: كم لبثتم، فأُخرِج الكلامُ مخرجَ الأمر للواحد، والمرادُ

---

(١) زاد المسير ٥/ ٤٩٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٤ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٦٩ .

(٤) الكشاف ٣/ ٤٥ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٦ .

(٥) في النسخ عدا (ظ): كالماء حتى تنفخ الثانية.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٣١٩ ، والكشاف ٣/ ٤٤ .

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٤٣٥ ، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٤٩ ، وأخرج قوليهما الطبري ١٧/ ١٣١ - ١٣٢ .

(٨) السبعة ص٤٤٩ ، والتيسير ص١٦٠ .

الجماعة، إذ كان المعنى مفهوماً[١].

الثاني: أن يكون أمراً للمَلَك[٢]، ليسألهم يوم البعث عن قَدْر مُكثهم في الدنيا.

أو أراد قل ـ أيها الكافر ـ: كم لبثتم، وهو الثالث[٣].

الباقون: ﴿قَالَ كَمْ﴾ على الخبر[٤]، أي: قال الله تعالى لهم، أو قالت الملائكة لهم: كم لبثتم[٥].

وقرأ حمزة والكسائيُّ أيضاً: ﴿قُلْ إِن لبِثْتم إلا قلِيلاً﴾ الباقون: «قال» على الخبر[٦]، على ما ذُكِر من التأويل في الأوَّل، أي: ما لبثتم في الأرض إلَّا قليلاً، وذلك أنَّ مُكثَهم في القبور ـ وإن طال ـ كان متناهياً. وقيل: هو قليلٌ بالنسبة إلى مُكثهم في النار؛ لأنه لا نهاية له[٧].

﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: مُهمَلين كما خُلِقت البهائم، لا ثوابَ لها، ولا عقابَ عليها، مثلُ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] يريد كالبهائم مُهمَلين[٨] لغير فائدة.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ١٣٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٤.

(٣) الوسيط ٣/ ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٤.

(٤) السبعة ص٤٤٩، والتيسير ص١٦٠.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٤، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٦.

(٦) السبعة ص٤٤٩، والتيسير ١٦٠.

(٧) الوسيط ٣/ ٣٠٠، وتفسير البغوي ٣/ ٣١٩، وزاد المسير ٥/ ٤٩٥.

(٨) في النسخ عدا (ظ): مهملاً. والكلام في الوسيط ٣/ ٣٠٠ وقد نسبه الواحدي لابن عباس، وتفسير البغوي ٣/ ٣٢٠.

قال الترمذيُّ الحكيمُ أبو عبد الله محمدُ بنُ علي: إنَّ الله تعالى خلق الخلقَ عبيداً ليعبدوه، فيُثيبُهم على العبادة ويعاقبُهم على تركها، فإنْ عبدوه؛ فهم اليومَ له عبيدٌ أحرارٌ كرامٌ من رقِّ الدنيا، ملوكٌ في دار السلام[١]، وإن رفضوا العبوديَّة[٢]، فهم اليوم عبيدٌ أُبَّاق سُقَّاط لِئام، وغداً أعداءٌ في السجون بين أطباق النيران[٣].

و«عَبَثاً» نصب على الحال عند سيبويه وقُطْرُب. وقال أبو عبيدة: هو نصب على المصدر، أو لأنه مفعول له[٤].

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فتُجازَون بأعمالكم.

قرأ حمزة والكسائيُّ: «تَرْجِعون»، بفتح التاء وكسر الجيم[٥]، من الرجوع.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تنزَّه وتقدَّس الله الملِكُ الحقُّ، عن الأولاد والشركاء والأنداد[٦]، وعن أن يخلق شيئاً عبثاً أو سَفَهاً؛ لأنه الحكيم.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ليس في القرآن غيرُها. وقرأ ابن مُحَيْصِن ورُويَ عن ابن كثير: «الكريمُ» بالرفع نعتاً لله[٧].

(١) في (د) و(م): الإسلام.

(٢) في (ظ): وإن رضوا عبودية دنياهم.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) ذكر هذه الأوجه البغوي في تفسيره ٣/ ٣٢٠، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥، والسمين في الدر المصون ٨/ ٣٧٤ دون نسبة.

(٥) السبعة ص٤٥٠، والتيسير ص١٦٠.

(٦) ينظر الوسيط ٣/ ٣٠٠، والمحرر الوجيز ٤/ ١٥٩.

(٧) القراءات الشاذة ص٩٩، وقوله: نعتاً لله، أي: لـ «ربُّ» كما جاء مصرحاً به في زاد المسير ٥/ ٤٩٦ وفي المحرر الوجيز ٤/ ١٥٩. وجوز أبو حيان في البحر ٦/ ٤٢٤ أن يكون نعتاً للعرش أيضاً، ولكنه قطع عن إعرابه لأجل المدح، على خبر مبتدأ مضمر. وأما قراءة ابن كثير المتواترة عنه، فهي بالجر، كقراءة الجماعة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: لا حُجَّةَ له عليه ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: هو يعاقبُه ويحاسبه ﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاء ضميرُ الأمر والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ـ وقرأ الحسن وقتادة: «لا يَفْلَح» بالفتح[1] ـ: مَنْ كذَب وجحدَ ما جئتَ به، وكفر نعمتي.

ثم أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بالاستغفار لتَقْتديَ به الأمة. وقيل: أَمَره بالاستغفار لأمته[2].

وأسند الثعلبيُّ من حديث ابن لَهِيعةَ عن عبد الله بنِ هُبيرة، عن حَنَش بن عبد الله الصنعانيِّ، عن عبد الله بن مسعود: أنه مرَّ بمصابٍ مُبتلًى، فقرأ في أُذُنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورةَ، فبَرأ، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا قرأت في أُذُنه»؟ فأخبره، فقال: «والذي نفسي بيده، لو أنَّ رجلاً مُوقِناً قرأها على جبل لزال»[3].

تمَّ تفسير سورة المؤمنون، والحمد لله.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٩ ، ولم ترد عبارة: وقرأ الحسن. . .الخ في (ظ)، وهو الأشبه بسياق التفسير.

(٢) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٣ ، والوسيط ٣/ ٣٠١ .

(٣) أخرجه بهذا الإسناد أبو يعلى الموصلي (٥٠٤٥)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٥١٣ (١٤٠٧٠)، والطبراني في الدعاء (١٠٨١)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٣١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٧ ، والخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ٣١٢ .

وأخرجه أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٥٩٧٩)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ١٦٣ ، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٧٠) من طريق سلام بن رزين، عن الأعمش، عن شقيق، عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد: هذا الحديث موضوع، هذا حديث الكذابين، منكر الإسناد.

سُورَةُ المؤْمِنُونَ

مَكِّيَّةٌ، وهي مئةٌ وتسعَ عشرةَ آيةً عندَ البَصريِّينَ، وثماني عشرَةَ عندَ الكوفيِّينَ[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾: قد فازوا بأَمانيهِم، و«قـد» تُثبِتُ المُتوقَّعَ كما أنَّ «لَمَّا» تَنفيهِ[2]، وتدلُّ على ثباتِه إذا دخلَت على[3] الماضي، ولذلك تقرِّبُه من الحالِ، ولَمَّا كانَ المؤمنونَ مُتوقِّعينَ ذلك مِن فضلِ اللهِ صُدِّرَت بها بِشارَتُهم.

وقرأَ وَرشٌ عَن نافعٍ: ﴿قَدَ افْلَحَ﴾ بإلقاءِ حركةِ الهمزَةِ على الدَّالِ وحَذفِها[4].

وقُـرِئَ: «أَفْلَحُـوا» علـى: «أَكَلُونـي البَراغِيـثُ»، أو على الإبهامِ والتَّفسـيرِ، و: «أفلَـحُ» اجتـزاءً بالضمَّةِ عَـن الـواوِ، و: «أُفْلِحَ» علـى البنـاءِ للمَفعولِ[5].

---

(١) انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ١٩١)، وفيه: هي مئة وثماني عشرة آية في الكوفي، وتسع عشرة آية في عدد الباقين، اختلافُها آية ﴿وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥] لم يعدَّها الكوفي وعدَّها الباقون.

(٢) انظر: «الكشاف» (٥/ ٥٩٧).

(٣) «على»: ليس في نسخة الفاروقي والتفتازاني والطبلاوي.

(٤) هذا من أصول رواية ورش ينقل حركة الهمزة إلى الساكن الذي قبلها، فيحركه بحركتها ويسقط الهمزة وصلًا إلَّا أن يكون الساكن الذي قبل الهمزة أحد حروف المد واللين أو هاء السكت فإنه لا ينقل إليها حركة الهمزة. انظر: «العنوان في القراءات السبع» للسرقسطي (ص: ١٤٨).

(٥) القراءات الثلاث عن طلحة بن مصرف في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩).

(٢) ـ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾: خائفونَ مِن اللهِ، مُتذلِّلونَ له، مُلزِمُون أبصارَهُم مَساجِدَهُم، رُوِيَ: أنَّه عليه السَّلامُ كانَ يُصلِّي رافعًا بصرَهُ إلى السَّماءِ، فلَمَّا نَزَلَتْ رمَى ببصرِهِ نحوَ مَسجِدِهِ[١].

وأنَّه رأى رَجُلًا يعبثُ بلحيتِه فقالَ: «لو خَشَعَ قلبُ هذا لخشَعَتْ جوارِحُه»[٢].

(٣) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾: عمَّا لا يَعنيهِمْ مِن قَوْلٍ وفِعْلٍ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لِمَا بهم مِن الجِدِّ ما شَغَلَهُم عنه.

وهو أبلَغُ من: «الَّذينَ لا يلهونَ» مِن وجوهٍ: جَعلُ الجملةِ اسميَّةً، وبناءُ الحكمِ على الضَّميرِ، والتَّعبيرُ عنه بالاسمِ، وتَقديمُ الصِّلَةِ عليه[٣]، وإقامَةُ الإعراضِ مُقامَ التَّركِ ليَدُلَّ على بُعدِهِم عنه رأسًا؛ مُباشَرَةً وتَسبُّبًا، وميلًا وحُضورًا، فإنَّ أصلَهُ أن يكونَ في عُرْضٍ غيرِ عُرْضِه، وكذلك قولُه:

(٤) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وَصَفَهُم بذلك بعدَ وَصفِهِم بالخُشوعِ في الصَّلاةِ ليَدُلَّ على أنَّهُم بلَغُوا الغايَةَ في القيامِ على الطَّاعاتِ البَدنيَّةِ والماليَّةِ، والتَّجنُّبِ عَنِ المُحرَّماتِ وسائرِ ما تُوجِبُ المُروءةُ اجتنابَه.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٤٨٣)، من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين لولا خلاف فيه على محمد فقد قيل عنه مرسلاً ولم يخرجاه، وقال الذهبي في «التلخيص»: الصحيح مرسل.

(٢) ذكره الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ٢٤)، وضعفه العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ١٧٨)، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» من كلام سعيد بن المسيب (٦٧٨٧).

(٣) قوله: «والتعبير عنه»؛ أي: عن الحكم «بالاسم» وهو ﴿مُعْرِضُونَ﴾، «وتقديم الصلة»؛ أي: وهو ﴿عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ (عليه)؛ أي: على الاسم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٤٦).

والـزَّكاةُ تقَـعُ علـى المعنـى[١] والعيـنِ[٢]، والمـرادُ الأوَّلُ؛ لأنَّ الفاعـلَ فاعلُ الحَـدثِ، لا المحـلِّ الَّـذي هـو موقِعُـه، أو الثَّانـي علـى تقديرِ مُضـافٍ[٣].

(٥ ـ ٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ لا يَبـذُلُـونَها[٤] ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: زَوجاتِهم أو سُرِّيَّاتِهم[٥].

و﴿عَلَىٰٓ﴾ صِلَةٌ لـ﴿حَٰفِظُونَ﴾[٦]، مِن قَولِك: «احفَظْ عليَّ عِنَانَ فَرَسِي»[٧]، أو حالٌ؛ أي: حَفِظُوها في كافَّةِ الأحوالِ إلَّا في حال التَّزوُّجِ أو التَّسرِّي.

وإنَّما قالَ: ﴿مَا﴾ إجراءً للمَماليكِ مُجرى غيرِ العُقَلاءِ، إذ المِلْكُ أصلٌ شائعٌ فيه[٨].

وإفرادُ ذلك بعدَ تَعميمِ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ لأنَّ المُباشرةَ أشهى الملاهِي إلى النَّفسِ وأعظَمُها خطَرًا.

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ الضَّميرُ لـ﴿حَٰفِظُونَ﴾، أو لِمَن دلَّ عليه الاستثناءُ؛ أي: فَإِنْ بَذَلُوها لأزواجِهِم أو إمائِهِم فإنَّهُم غيرُ مَلُومينَ على ذلك.

---

(١) وهو فعلُ المُزَكِّي الذي هو التَّزكِيَةُ. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٥/ ٦٠١).

(٢) وهو القَدرُ المخرجُ. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٥/ ٦٠٠).

(٣) والتقدير عليه: والذين هم لأداء الزكاة فاعلون. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٥/ ٦٠١).

(٤) قال المطرزي: الحفظُ خِلافُ النِّسيانِ، وقَد يُجعَلُ عِبارةً عَن الصَّونِ وتَركِ الابتذالِ، يقال: فلانٌ يحفَظُ نفسَه ولِسانَه؛ أي: لا يَبتذِلُ له فيمَا لا يعنيه. انظر: «المغرب» (١/ ١٢٢).

(٥) جمع سُرِّيَة، وهي جارية يطؤها المولى للتناسل. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ١٤٧).

(٦) في نسخة التفتازاني: «لحافظين».

(٧) وهذا ـ كما قال الزمخشري ـ على تضمينه معنى النَّفي؛ كأنه قال: والذين هم لفروجهم غيرُ حافظين إلا على أزواجهم. انظر: «الكشاف» (٥/ ٦٠٢).

(٨) وافق في هذا الرازي، وخالف الزمخشري الذي حمله على الإناث. انظر: «الكشاف» (٥/ ٦٠٢)، و«تفسير الرازي» (٩/ ٤٨٦) و(٢٣/ ٢٦٢).

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ المستثنى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾: الكاملونَ في العُدوانِ.

(٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾: لِمَا يُؤتَمنونَ عليه ويُعاهَدونَ مِن جهَةِ الحَقِّ أو الخلقِ ﴿رَٰعُونَ﴾: قائمونَ بحِفْظِها وإصلاحِها.

وقرأ ابنُ كَثيرٍ هنا وفي المعارجِ: ﴿لأمانَتِهم﴾ على الإفرادِ[1] لأمنِ الإلباسِ، أو لأنَّها في الأصلِ مَصدَرٌ.

(٩) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾: يُواظِبُونَ عليها ويُؤدُّونَها في أوقاتِها، ولفظُ الفعلِ فيه لِمَا للصَّلاةِ مِن التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ[2]، ولذلك جمعَهُ غيرُ حمزةَ والكِسائيِّ[3].

وليس ذلك تكريرًا لِمَا وَصَفَهُم به أوَّلًا، فإنَّ الخشوعَ في الصَّلاةِ غيرُ المُحافظةِ عليها.

وفي تَصديرِ الأوصافِ وختمِها بأمرِ الصَّلاةِ تعظيمٌ لشَأنِها[4].

(١٠ ـ ١١) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الجامعونَ لهذه الصِّفاتِ[5] ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: الأحقَّاءُ بأَنْ يُسَمَّوْا وُرَّاثًا دونَ غيرِهم ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيانٌ لِمَا يَرثونَهُ، وتقييدٌ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٢) يعني: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ جاء بصيغة الفعل المضارع الدال على الاستمرار التجدُّدي خلافًا لفواصل الآيات السابقة التي جاءت بصيغة الاسم ﴿خَٰشِعُونَ﴾ و﴿مُعْرِضُونَ﴾ و﴿فَٰعِلُونَ﴾... انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ١٤٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٤) فأول صفة المؤمنين في هذه السورة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾، وآخرها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

(٥) يعني: أن ذكر اسم الإشارة كإعادة الموصوفين بصفاتهم المذكورة أوَّلاً، ولا يخفى أن ترتيب الحكم على وصف مؤذِن بأن الوصف هو موجب الحكم. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ١٤٣).

للوِراثةِ بعد إطلاقِها؛ تفخيمًا لها وتأكيدًا، وهي مستعارةٌ لاستِحقاقِهم الفردوسَ مِن أَعمالِهم وإن كانَ بمُقتَضَى وَعدِه مبالغةً فيه[1].

وقيلَ: إنَّهُم يَرثونَ من الكفَّارِ مَنازِلَهُم فيها حيثُ فوَّتُوهَا على أنفُسِهِم؛ لأنَّه تعالى خلقَ لكُلِّ إنسانٍ مَنزِلًا في الجنَّةِ ومَنزِلًا في النَّارِ[2].

﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ أَنَّثَ الضَّميرَ[3] لأنَّه اسمٌ للجنَّةِ أو لطَبَقتِها الأعلى.

(١٢) ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ﴾: مِـن خُـلاصَةٍ سُلَّتْ مِن بينِ الكَدَرِ ﴿مِّن طِينٍ﴾ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ؛ لأنَّه صِفَةٌ لـ﴿سُلَـٰلَةٍ﴾، أو ﴿مِن﴾ بيانيةٌ[4]، أو: بمَعنى ﴿سُلَـٰلَةٍ﴾[5] لأنَّها في مَعنى: مَسلولةٍ، فتكونُ ابتدائيَّةً كالأولى.

---

(١) الضمير يعود على الاستحقاق، ووجه المبالغة أنَّ الوراثة أقوى أسباب الملك. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ١٤٤).

(٢) وقد روي هذا مرفوعًا، روى ابن ماجه (٤٣٤١) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلاَّ له مَنزلانِ: منزلٌ في الجنَّةِ، ومنزلٌ في النَّارِ، فإذا ماتَ فدخلَ النَّارَ ورثَ أهلُ الجنَّةِ منزلَه، فذلك قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾». وصحح إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٤٤٢).

(٣) مع أنه يعود على ﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ ولفظه مذكَّر. وقيل: التأنيث في «الفردوس» أجودُ، والتذكير يُذهب به إلى البستان. انظر: «النوادر في اللغة» لأبي زيد الأنصاري (ص: ٢٢٠).

(٤) قوله: «متعلق بمحذوف...» فـ﴿مِن﴾ تبعيضية ـ لأن ما أخرج من الشيء يكون بعضًا منه لا محالة ـ أو ابتدائية، ولم يصرّح به لظهوره ولمقابلته بقوله: «أو ﴿مِّن﴾ بيانية»، وكونها بيانية يعني: أن المراد بالطين هو نفس السلالة، لا ما أخرجت عنه السلالة. انظر: «البحر المحيط» (١٥/ ٤٢٧)، و«حاشية الشهاب»، و«حاشية القونوي» (١٣/ ١٤٥).

(٥) قوله: «أو بمعنى سلالة» معطوف على قوله: «بمحذوف» أي: أو متعلقٌ بمعنى ﴿سُلَـٰلَةٍ﴾، وهـو ما بيَّنه بقوله: «لأنها في معنى: مسلولة» فهو متعلق به بلا تقدير، «فتكون»؛ أي: ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن طِينٍ﴾ «ابتدائيةً كالأولى»؛ أي: كـ﴿مِّن﴾ الأولى في قوله: ﴿مِن سُلَـٰلَةٍ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/١٤٨).

والإنسانُ: آدَمُ، خُلِقَ مِن صفوَةٍ سُلَّتْ مِـن الطِّينِ، أو الجنسُ فإنَّهُم خُلِقُوا مِن سُلالاتٍ جُعِلَت نُطفًا بعدَ أدوارٍ.

وقيلَ: المرادُ بالطِّينِ: آدمُ؛ لأنَّه خُلِقَ مِنْه، والسُّلالةُ: نُطفَتُه[١].

(١٣) ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَهُ﴾: ثمَّ جَعَلنا نسلَهُ ـ فحُذِفَ المُضافُ ـ ﴿نُطْفَةً﴾ بأَنْ خَلَقْناه منها، أو: ثمَّ جَعَلْنَا السُّلالةَ نُطفَةً، وتذكيرُ الضَّميرِ على تأويلِ الجَوْهَرِ أو المسلولِ أو الماءِ.

﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ مُستَقِرٍّ حَصِينٍ؛ يعـني: الرَّحِمَ، وهو في الأصلِ صِفَةٌ للمستقِرِّ وُصِفَ به المحلُّ مُبالغَةً[٢]؛ كما عبَّر عنه بالقرارِ[٣].

(١٤) ـ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ بأَنْ أَحَلْنَا[٤] النُّطفةَ البَيضاءَ علَقَةً حمراءَ.

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: فصَيَّرْناها قِطعةَ لَحْمٍ.

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ بأَنْ صلَّبْناهَا.

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ ممَّا بَقِيَ مِن المُضغَةِ، أو ممَّا أَنْبَتْنا عليها ممَّا يَصِلُ إليها[٥].

---

(١) ذكره الكرماني في «لباب التفاسير»، وهو معدود عنده في الغرائب، انظر: «غرائب التفسير» (٢/ ٧٧٢).

(٢) قال الطِّيبيُّ: يريدُ أنَّ قولَه: ﴿مَّكِينٍ﴾ صِفَةٌ للنُّطفةِ في الأصلِ، وقد أُجرِيَ على مَكانِها ومُستَقرِّها ـ وهو الرَّحِمُ ـ على الإسنادِ المجازيِّ نحو: «طريقٌ سائرٌ» للمُبالغَةِ. انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٥٥٧).

(٣) أصل «القرار»: مصدر قرَّ يقرُّ؛ بمعنى: ثبت يثبت، ثمَّ أُطلق على المستقَرِّ، وهو محلُّه مبالغة. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ١٤٧).

(٤) في نسخة التفتازاني: «بأن خلقنا».

(٥) استظهر القونوي أن يكون لحم المضغة كلُّه استحال عظامًا، وأن يكون اللحم من الأغذية التي تصل إليها. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ١٤٧).

واختلافُ العواطفِ لتَفاوُتِ الاستحالاتِ[١]، والجمعُ لاختلافِها في الهيئةِ والصَّلابةِ[٢].

وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ على التَّوحيدِ[٣] فيهما اكتفاءً باسمِ الجنسِ عن الجَمعِ، وقُرِئَ بإفرادِ أحدِهما وجَمعِ الآخرِ[٤].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ هو صُورَةُ البَدَنِ، أو الرُّوحُ، أو القُوَى بنَفخِه فيه، أو المَجموعُ، و﴿ثُمَّ﴾ لِمَا بينَ الخَلقَيْنِ مِن التَّفاوُتِ، واحتجَّ به أبو حنيفةَ على أنَّ مَن غصبَ بيضَةً فأفرخَتْ عِندَهُ لَزِمَه ضمانُ البيضَةِ لا الفرخِ؛ لأنَّه خلقٌ آخرُ[٥].

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: فتعالى شأنُهُ في قُدرَتِه وحِكمَتِه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾: المُقدِّرينَ تقديرًا[٦]، فحُذِفَ المميِّزُ لدلالةِ ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ عليه.

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: يعني: عُطف بعضُها بـ«ثمَّ» الدَّالَّة على التراخي، وبعضها بالفاء الدَّالّة على التعقيب، مع أنَّ الوارد في الحديث من أن مدة كل استحالة أربعين. ثم قال: «لتفاوت الاستحالات» يعني: أنَّ بعضها مستبعد حصوله ممَّا قبله وهو المعطوف بـ«ثم»، فجعل الاستبعاد عقلاً أو رتبة بمنزلة التراخي والبعد الحسيّ.

(٢) أي: جمع العظام دون غيرها من العلقة والمضغة؛ لأن العظام متغايرة هيئة وصلابة بخلاف غيرها. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ١٤٨).

(٣) أي: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عَظْمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعَظْمَ لَحْمًا﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٤)، و«التيسير» (ص: ١٥٨).

(٤) انظر: «المحتسب» (٢/ ٨٧) عن مجاهد بجمع الأول وإفراد الثاني، وعن السلمي وقتادة والأعرج والأعمش بعكسها.

(٥) انظر: «الأصل» للشيباني (٨/ ١٧). وهذه مسألة تغيير العين المغصوبة بفعل الغاصب، وقد أفرد الإمام القدوري في كتابه «التجريد» (٧/ ٣٣٦٦) فصلاً مطولاً في مناقشتها فراجعه هناك.

(٦) قولُه: «المقدرينَ» تفسير لـ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وقولـه: «تَقديرًا» تمييز؛ لأنه جاء بعد اسم التفضيل ﴿أَحْسَنُ﴾. انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٥٥٩).

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾: لَصائِرونَ إلى الموتِ لا محالةَ، ولذلك ذُكِرَ النَّعتُ الَّذي للثُّبوتِ دونَ اسمِ الفاعلِ[١]، وقد قُرِئَ به[٢].

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ للمُحاسبَةِ والمجازاةِ.

(١٧) ـ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ﴾: سماواتٍ؛ لأنَّها طُورِقَ بَعضُها فوقَ بعضٍ مُطارقَةَ النَّعلِ[٣]، وكلُّ ما فوقَهُ مثلُه فهو طريقةٌ[٤]، أو لأنَّها طرقُ الملائكةِ أو الكواكبِ فيها مَسيرُها.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾: عن ذلك المَخلوقِ الَّذي هو السَّماواتُ، أو عن جميعِ المَخلوقاتِ.

﴿غَافِلِينَ﴾: مُهمِلينَ أَمْرَها، بل نحفَظُها عن الزَّوالِ والاختلالِ، ونُدبِّرُ أمرِها حتَّى تَبلُغَ مُنتهَى ما قُدِّرَ لها من الكمالِ حَسْبَما اقتضَتْهُ الحِكمَةُ وتعلَّقَتْ به المَشيئَةُ.

(١٨) ـ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾: بتقديرٍ يكثُرُ نفعُهُ ويُقِلُّ ضرَّهُ، أو: بمقدارِ ما عَلِمْنا مِن صَلاحِهِم.

---

(١) قوله: «ولذلك»؛ أي: لكون المصير إلى الموت أمراً ثابتًا لا محالة «ذُكِرَ النَّعتُ الَّذي للثُّبوتِ» وهو الصفة المشبهة «ميِّت»، ولم يذكر اسم الفاعل «مائت» الذي يفيد الحدوث. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ١٥٢).

(٢) أي: «لَمَائِتُون»، عن عيسى بن عمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩)، ونسب لابن أبي عبلة وابن محيصن في «الكامل في القراءات» (ص: ٦٠٥)، و«الكشاف» (٥/ ٦٠٨).

(٣) هذا لبيان سبب تسمية السماوات سبع طرائق؛ أي: سبع طبقات متطارق بعضها فوق بعض، يقال: طارَقَ النَّعلَ: صيَّرها طاقًا فوقَ طاقٍ، ورَكَّبَ بعضَها فوقَ بعضٍ. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ١٢٢)، و«حاشية شيخ زاده» (٦/ ١٥٢).

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: لبيان أنّ مدار إطلاق «الطريقة» على السماء فوقيَّةُ مثلها عليها، لا فوقيتها على مثلها، فهو لتعيين أحد محتملي ما قبله، وهو قوله: «طورق بعضها».

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ﴾: فجعلناه ثابتًا مُستقِرًّا ﴿فِي ٱلْأَرْضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ﴾: على إزالَتِه بالإفسادِ، أو التَّصعيدِ، أو التَّعميقِ بحيثُ يتعذَّرُ استِنباطُه ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ كما كُنَّا قادرينَ على إنزالِه.

وفي تنكيرِ ﴿ذَهَابِۭ﴾ إيماءٌ إلى كثرةِ طُرقِه، ومُبالغةٌ في الإيعادِ به[1]، فلذلك جُعِلَ أبلغَ مِن قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

(١٩) ـ ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾: بالماءِ ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾: في الجنَّاتِ ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكَّهُون بها ﴿وَمِنْهَا﴾: مِن الجَنَّاتِ ثمارَها وزُروعَها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تَغذِّيًا، أو تَرتزِقونَ فتحصِّلُونَ[2] مَعايِشَكُم، مِن قَولِهم: فلانٌ يأكلُ مِن حِرفَتِه.

ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرانِ للنَّخيلِ والأعنابِ؛ أي: لَكُم في ثَمرتِهمَا أنواعٌ مِن الفَواكِه: الرُّطَبُ والعنبُ والتَّمرُ والزَّبيبُ والعصيرُ والدِّبسُ[3] وغيرُ ذلك، وطعامٌ[4] تأكلونَه.

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والطبلاوي: «في الإيعاد به» وفي هامش نسخة الفاروقي كالمثبت نسخة. ومثله في «تفسير البيضاوي» مع حواشي كل من شيخ زاده والشهاب الخفاجي والقونوي: (في الإبعاد به) بالباء، وعليه شرحوا، وكذا جاء في «تفسير أبي السعود» (٦/ ١٢٨)، و«محاسن التأويل» للقاسمي (٧/ ٢٨٥). والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «الكشاف»، و«البحر» (١٥/ ٤٣٣). قلت: وكلا اللفظين يحتملهما السياق، ولعلنا لو جمعنا بينهما لم نُبعد، لأن في المبالغة بالإبعاد إيعاد لهم شديد، وقد يكون الآلوسي في «روح المعاني» (١٨/ ٤٧) أشار لهذا في درج كلامه معددًا وجوه أبلغية هذه الآية على آية الملك، فذكر من هذه الوجوه: تضمين الإيعاد هنا إيعادَهم بالإبعاد عن رحمة الله تعالى؛ لأن «ذهب به» يستلزم مصاحبة الفاعل المفعولَ، وذهاب الله تعالى عنهم مع الماء بمعنى ذهاب رحمته سبحانه عنهم ولعنهم وطردهم عنها.

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي: «ترزقون وتحصلون»، وفي نسخة الطبلاوي: «ترتزقون وتحصلون».

(٣) هو عسل التَّمر وعُصارته. انظر: «تاج العروس» (١٦/ ٤٧).

(٤) معطوف على «أنواعٌ».

(٢٠) ـ ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطفٌ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾، وقُرِئَ بالرَّفعِ[١] على الابتداءِ؛ أي: وممَّا أنشأَ لكُم به شجرةٌ.

﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ جبلِ مُوسى بينَ مِصرَ وأَيْلةَ، وقيلَ: بِفِلَسْطينَ، وقد يُقالُ لهُ: طُورُ سِيْنِينَ، ولا يخلو من أن يكونَ الطُّورُ للجَبلِ و﴿سِيْنَاءَ﴾ اسمُ بُقعَةٍ أُضيفَ إليها، أو المركَّبُ منهما عَلَمٌ له كـ«امرئِ القيسِ»، ومُنِعَ صرفُه للتَّعريفِ والعُجمَةِ، أو التَّأنيثِ على تأويلِ البُقعَةِ، لا للألفِ لأنَّه فِيعَالٌ كـ«دِيمَاسٍ»، مِن «السَّناءِ» بالمدِّ وهو الرِّفعَةِ، أو بالقَصرِ وهو النُّورُ، أو ملحَقٌ بفِعْلَالٍ كـ«عِلْبَاءَ» مِن السِّينِ؛ إذ لا فِعْلاءَ بألفِ التَّأنيثِ، بخلافِ ﴿سَيْنَاءَ﴾ على قراءةِ الكوفِيِّينَ والشَّاميِّ ويعقوبَ[٢] فإنَّه فَيْعَالٌ كـ«كَيْسَانَ»، أو فَعلاءُ كـ«صَحراء»، لا فَعْلالٌ؛ إذ ليس في كلامِهم، وقُرِئَ بالكسرِ والقَصرِ[٣].

﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾؛ أي: تنبتُ ملتبِسًا[٤] بالدُّهنِ ومُستصحِبًا له، ويجوزُ أن تكونَ الباءُ صِلةً مُعدِّيَةً[٥] لـ﴿تَنْبُتُ﴾؛ كما في قولِك: ذهبتُ بزَيْدٍ.

---

(١) نسبت لعاصم ونافع في رواية، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩). والمشهور عنهما النصب كالجماعة.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٤، ٤٤٥)، و«النشر» (٢/ ٣٢٨).

(٣) أي: «سينا». انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩)، وقد نسبه الكرماني لإسماعيل عن أهل المدينة. انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٣٣). وانظر الكلام في الاختلاف في وزن «سيناء» في «مشكل إعراب القرآن» لمكي (٢/ ٤٩٨)، و«الدر المصون» للحلبي (٨/ ٣٢٦ ـ ٣٢٨).

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: الظاهر أن يقدره: ملتبسة، لكنه في النسخة التي عندنا «ملتبساً» فكأنه أوَّل بـ: ملتبسًا ثمرها؛ لأنه الملابس للدهن في الحقيقة.

(٥) قوله: «معدِّية» تفسير لقوله: «صلة»؛ لأنَّ الصلة تكون بمعنى: الزائدة، وليس هذا مرادًا هنا، وتكون بمعنى المعين على وصول الفعل إلى ما حقه أن يكون مفعوله لو كان متعديًا، وقيل: الأولى الاكتفاء بكونها معدِّية. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ١٥٥).

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ويعقوبُ في روايةٍ: ﴿تُنْبِتُ﴾[1]، وهو إمَّا مِن «أنبتَ» بمعنى: نَبَتَ؛ كقولِ زهيرٍ:

رأيـتُ ذَوِي الحاجـاتِ عنـدَ بُيوتِهِم قَطِينًـا لَهُـم حَتَّـى إذا أَنْبَـتَ البَقْـلُ[2]

أو على تقدير: تُنْبِتُ زَيتونَها مُلتبِسًا بالدُّهنِ.

وقُرِئَ على البناءِ للمَفعولِ[3] وهو كالأوَّلِ، و: «تُثْمِرُ بالدُّهْنِ»[4]، و: «تَخْرُجُ بالدُّهْنِ»[5]، و: «تُخرِجُ الدُّهنَ»[6]، و«تَنبُتُ بالدِّهَانِ»[7].

﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ معطوفٌ على «الدُّهنِ» جارٍ على إعرابِه، عَطْفَ أحدِ وَصفَي

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٩)، و«النشر» (٢/ ٣٢٨).

(٢) انظر: «ديوان زهير بن أبي سلمى» تحقيق: حمدو طماس (ص: ٥٠)، و«المعاني الكبير» لابن قتيبة (١/ ٥٣٩)، و«أشعار الشعراء الستة الجاهليين» للأعلم الشنتمري (ص: ٤٨ ـ ٤٩). وقبله:

إِذَا السَّـنَةُ الشَّـهْبَاءُ بِالنَّـاسِ أَجْحَـفَتْ وَنَالَ كِـرَامَ المَـالِ فـي الجَحـرَةِ الأَكْلُ

و«رأيت» بتاء المتكلم أو المخاطب، وهو جواب «إذا» في البيت الذي قبله، والمعنى: إذا الناس لزموا بيوتهم لشدة البرد، وأكلوا ما فيها من طعام، رأيت الناس المحتاجين مقيمين حول بيوتهم يخدمونهم لينالوا من فضلهم، ولا ينصروفون حتى يأتي الربيع ويعمَّ الخير.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩) عن عامر بن قيس، و«المحتسب» (٢/ ٨٨) عن الزهري والحسن والأعرج.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩) عن أبي بن كعب.

(٥) انظر: «المحتسب» (٢/ ٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٤٠)، عن ابن مسعود.

(٦) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٣٣)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٣٣)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩). وفي المصدر الأخير: (يخرج بالدهن) بالياء.

(٧) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٤٠)، عن سليمان بن عبد الملك والأشهب.

الشَّيءِ على الآخرِ؛ أي: تَنْبُتُ بالشَّيءِ الجامعِ بينَ كونِه دُهنًا يُدهَنُ به ويُسرَجُ منه، وكونِه إدامًا يُصبغُ فيه الخبزُ؛ أي: يُغمَسُ فيه للائتدامِ.

وقُرِئَ: «وصِبَاغٍ»(١)؛ كـ«دِبَاغٍ» في «دِبْغَ»(٢).

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ تَعْتَبرونَ بحالِها وتَستَدِلُّون بها ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ مِن الألبانِ، أو مِن العلفِ فإنَّ اللَّبنَ يَتكوَّنُ منه، فـ«مِن» للتَّبعيضِ أو الابتداءِ.

وقرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ ويعقوبُ: ﴿نَسْقِيكُم﴾ بفتحِ النُّونِ(٣).

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾: في ظُهورِها وأصوافِها وشُعورِها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فتَنْتَفِعُونَ بأَعيانِها.

﴿وَعَلَيْهَا﴾: وعلى الأنعامِ، فإنَّ مِنْها ما يُحمَلُ عليه كالإبلِ والبَقرِ.

وقيلَ: المرادُ الإبلُ؛ لأنَّها هي المحمولُ عليها عِندَهُم، والمناسبُ للفُلْكِ؛ فإنَّها سَفائِنُ البرِّ، قالَ ذو الرُّمَّةِ:

سَفِينَةُ بَرٍّ تَحْتَ خَدِّي زِمَامُهَا(٤)

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩) عن عامر بن عبد الله.

(٢) في نسخة التفتازاني: «كالدباغ في الدبغ».

(٣) بفتح النون من السَّقي، والباقون بضم النون من الإسقاء، وقرأ أبو جعفر: ﴿تَسْقِيكُم﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٣٨)، و«النشر» (٢/ ٣٠٤).

(٤) انظر: «ديوان ذي الرمة» (٢/ ١٠٠٤)، و«خزانة الأدب» (٣/ ٤٢٠). وصدره:

طُروقًا وجِلْبُ الرَّحْلِ مشدودةٌ به

قال البغدادي: الطروق: مصدر طرق؛ أي: أَتَى لَيْلًا. «وجلب الرحل»: بكسر الجيم وضمِّها: عيدانه وخشبه، وهو مبتدأ و«مشدودةٌ» خبرُه، و«سفينة» نائب فاعل الخبر، و«به»؛ أي: بالجلب. وأراد =

فيكونُ الضَّميرُ فيه كالضَّميرِ في ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨][١].

﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ في البرِّ والبَحرِ.

(٢٣) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى آخرِ القصصِ، مَسوقٌ لبيانِ كُفرانِ النَّاسِ ما[٢] عدَّدَ عليهِمْ مِن النِّعَمِ المتلاحقةِ، وما حاقَهُم[٣] مِن زَوالِها.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استئنافٌ لتعليلِ الأمرِ بالعبادةِ[٤]، وقُرِئَ: ﴿غَيرِهِ﴾ بالجرِّ على اللَّفظِ[٥].

= بسفينة البرّ: النَّاقة، و«زمامها» مبتدأ، و«تحت خدّي» خبره. والجملة: صفة «سفينة»، يُرِيد: أنه كان نزل عن ناقته آخِرَ اللَّيلِ، وجعلَ زمامَها تحت خدِّه ونام.

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: أي هو مما رجع الضمير فيه إلى بعض أفراد عام مذكور قبله باعتبار بعضه؛ فانَّ المذكور في هذه الآية أوَّلاً مطلق المطلقات، والضمير من ﴿بُعُولَتِهِنَّ﴾ راجع إلى بعضهن وهي المطلقات الرجعية، لكنه هنا أظهر؛ لأنَّ الأنعام بحسب الأصل مخصوص بالإبل، فالاستخدام فيه ظاهر.

قلت: الاستخدام معدود في المحسنات البديعية، وهو: أن يذكر لفظٌ بمعنى، ويعاد عليه ضمير بمعنى آخر سواء كان حقيقيًّا أو مجازيًّا. وانظر: «عروس الأفراح» للسبكي (٢/ ٢٤٥)، و«الأطول» لابن عربشاه (١/ ١٠١).

(٢) «ما» اسم موصول في محل نصب مفعول به للمصدر «كفران».

(٣) أي: أصابهم، ولذلك عدَّه بنفسه مع أن الأصل فيه أن يُعدَّى بالباء. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ١٥٩).

(٤) قال الطِّيبيُّ: وذلك أنَّه لَمَّا قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خُصُّوه بالعبادةِ، قالوا: لمَ يأمُرُ بعبادَتِه وحدَه؟ قال: لأنَّه قال: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فدَلَّ اختصاصُ الجَوابِ على اختصاصِ ما بُنِيَ له الكَلامُ، وأنَّ مقامَ الخِطابِ مع المُشركينَ استَدْعَى الاختِصاصَ. انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٥٧٠).

(٥) قرأ بها الكسائي، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «التيسير» (ص: ١١٠).

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: أفلا تخافونَ أن يزيلَ عَنكُم نِعمَهُ فيُهلِكَكُم ويُعذِّبَكُم برَفضِكُم عِبادَتَهُ إلى عبادةِ غيرِه، وكفرانِكُم نِعمَهُ الَّتي لا تُحصونَها.

(٢٤) ـ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾: الأشرافُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ لعوامِّهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾: أن يطلبَ الفضلَ عَلَيكُم ويَسُودَكُم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يُرسِلَ رَسولًا ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ رُسُلًا ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنون[١]: نوحًا؛ أي: ما سَمِعْنا به أنَّه نَبِيٌّ، أو ما كلَّمَهُم بهِ مِن الحثِّ على عبادةِ اللهِ ونفيِ إلهٍ غيرِه، أو مِن دَعوَى النُّبوَّةِ، وذلك إمَّا مِن فَرطِ عِنادِهِم، أو لأنَّهُم كانُوا في فترةٍ مُتطاوِلَةٍ.

(٢٥) ـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾؛ أي: جنونٌ؛ ولأجلِه يقولُ ذلك، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾: فاحتَمِلُوه وانتَظِروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعلَّه يُفيقُ مِن جُنونِه.

(٢٦) ـ ﴿قَالَ﴾ بعدَما أَيِسَ مِن إيمانِهِم: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإهلاكِهِم، أو بإنجازِ ما وعدتُهُم من العَذابِ[٢] ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾: بدلَ تكذيبِهِم إيَّايَ، أو: بسببِه.

(٢٧) ـ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: بحفظِنا، نحفظُه أن تُخطِئَ فيه، أو يُفسِدَ عليك مفسِدٌ ﴿وَوَحْيِنَا﴾: وأمرِنا وتعليمِنا كيفَ تُصنَعُ.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالرُّكوبِ، أو نزولِ العَذابِ ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ رُوِيَ: أنَّه قيلَ لنُوحٍ عليهِ السَّلامُ: إذا فارَ الماءُ مِن التَّنُّورِ اركَبْ أنتَ ومَن معكَ، فلَمَّا نبعَ الماءُ منه أخبرَتْه امرأتُه فرَكِبَ[٣].

---

(١) أي: يعنون بكلمة ﴿هَٰذَآ﴾.

(٢) فمتعلق ﴿ٱنصُرْنِى﴾ محذوف، وقد قدره بأحد هذين الأمرين. انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٥٧٢).

(٣) روى الطبري نحوه في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد.

ومحلُّهُ في مَسجدِ الكُوفَةِ عَن يمينِ الدَّاخلِ ممَّا يَلِي بابَ كِنْدَةَ[١].

وقيلَ: عَيْنُ وردَةَ مِن الشَّامِ[٢].

وفيه وجوهٌ أُخَرُ ذكرتُها في «هود».

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾: فأدخِلْ فيها، يُقالُ: «سلكَ فيه» و«سلكَ غيرَهُ»[٣]، قالَ تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢].

﴿مِن كُلٍّ زَوْجَينِ اثنَينِ﴾ مِن كلِّ أُمَّتَي الذَّكرِ والأُنثى واحدَينِ مُزدوجَينِ.

وقرأَ حَفصٌ: ﴿مِن كُلٍّ﴾ بالتَّنوينِ[٤]؛ أي: مِن كلِّ نَوعٍ زَوْجَينِ، و﴿اثْنَيْنِ﴾ تأكيدٌ.

﴿وَأَهْلَكَ﴾: وأهلَ بيتِكَ، أو: مَن آمنَ مَعَكَ.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: القولُ مِن اللهِ بإهلاكِه لكفرِه[٥]، وإنَّما

---

(١) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٠) عن الشعبي.
ورواه عنه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٤٠٥): أنه كان يحلف بالله ما فار التَّنُّور إلَّا من ناحية الكوفة.
ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٨) عن محمد بن علي بلفظ: فار التَّنُّورُ مِن مسجدِ الكوفة مِن قِبَلِ أبوابِ كِنْدَةَ. وقال: وروي عن حذيفة والشعبي ومجاهد نحو ذلك، وقد روي عن علي.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٢٩) من طريق عكرمة عن ابن عباس: أنه العين التي بالجزيرة عين الوردة. ورواه أيضًا عن قتادة. قلت: وعين الوردة هو رأس العين المدينة المشهورة بالجزيرة من أرض الشام. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٤٧ و١٨٠).

(٣) «سلك فيه»؛ أي: دخله بنفسه، وهو لازم، ومصدره: سُلُوك، و«سلكَ غيرَه» متعدٍّ، ومصدره: سَلْك، وهو الذي في الآية. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ١٥٨).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٢٤).

(٥) في نسخة الفاروقي: «بهلاكه لكفره».

جِيءَ بـ«عَلى» لأنَّ السَّابِقَ ضارٌّ؛ كما جيءَ باللَّامِ حيثُ كانَ نافعًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١][1].

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالدُّعاءِ لهم بالإنجاءِ ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ لا محالةَ؛ لظُلمِهِم بالإشراكِ والمَعاصي، ومَن هذا شَأنُه لا يُشفَعُ له ولا يُشفَّعُ فيه، كيفَ وقَدْ أمرَهُ بالحمدِ على النَّجاةِ مِنْهُم بهلاكِهِمْ بقولِه:

(٢٨) ـ ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ كقولِه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥][2].

(٢٩) ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السَّفينةِ أو في الأرضِ ﴿مَنْزِلًا مُبارَكًا﴾ يتسبَّبُ لِمَزيدِ الخيرِ في الدَّارينِ.

وقرأَ غيرُ أبي بكرٍ: ﴿مُنزَلًا﴾[3] بمعنى: إنزالًا، أو: موضعَ إنزالٍ.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ثناءٌ مُطابِقٌ لدُعائِه أمرَهُ بأَنْ يَشفَعَهُ به مبالغةً فيه وتَوسُّلًا به إلى الإجابةِ.

---

(١) يستعمل «على» في المضار في بعض مواضع استعمالاته؛ كما يقال: دعا عليه، وشهد عليه، وادَّعى عليه، وكقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾، كما يجيء اللام في المنافع مثل: دعا له، وشهد له. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ١٦٤).

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وههنا نكتة، وهي: أنَّ في هذه الآية إشارةً إلى أنه لا ينبغي المسرّة بمصيبة أحد ـ ولو عدواً ـ من حيث كونُها مصيبة له، بل لما تضمَّنته من السلامة من ضرره، أو تطهير الأرض من وسخ شركه وإضلاله، ولذا قال: «نجانا» دون «أهلكهم»؛ لأمره بالحمد هنا، وصرَّح بقطع دابرهم ثمة، فافهم.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٥)، و«التيسير» (ص: ١٥٩).

وإنَّما أفردَه بالأمرِ[١] ـ والمعلَّق به أن يستويَ هو ومَن معَهُ ـ إظهارًا لفَضلِه، وإشعارًا بأنَّ في دُعائِه مندوحةً عَن دُعائِهم؛ فإنَّه يُحيطُ بِهِم.

(٣٠) ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: فيما فُعلَ بنُوحٍ وقومِه ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ يَستدِلُّ بها ويَعتبِرُ أولو الاستبصارِ[٢] والاعتبارِ ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾: لمصيبينَ قومَ نُوحٍ ببلاءٍ عَظيمٍ، أو: ممتحنينَ عبادَنا بهذه الآياتِ.

و«إنْ» هي المُخفَّفَةُ، واللَّامُ هي الفارقَةُ[٣].

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم عادٌ أو ثَمودُ[٤] ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو هودٌ أو صالحٌ[٥].

وإنَّما جعلَ القَرنَ مَوضِعَ الإرسالِ[٦] ليَدُلَّ على أنَّه[٧] لم يَأتِهم مِن مَكانٍ غيرِ مَكانِهم، وإنَّما أُوحِيَ إليه وهو بينَ أَظهُرِهم.

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تفسيرٌ لـ﴿أرسلْنا﴾؛ أي: قُلْنا لهم على لسانِ الرَّسولِ: اعبدوا اللهَ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَ اللهِ؟!

---

(١) في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «الأبصار».

(٣) هذا على قول أهل البصرة، وعند أهل الكوفة «إنْ» نافية بمعنى «ما»، واللام بمعنى «إلا»؛ أي: ما كنا إلا مبتلين. انظر: «الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد» للهمذاني (٤/ ٥٩٤).

(٤) في نسخة الطبلاوي والخيالي والتفتازاني: «وثمود».

(٥) في نسخة التفتازاني: «وصالح».

(٦) حيث قيل: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ﴾، و«في» تدلُّ على الظرفية، وكان الظاهر أن يقال: أرسلنا إليهم، ولكنه يكون بمعنى: أرسل إليهم من مكان آخر، فعُدل عنه ليُعلم أن الرسول بُعث من بينهم. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ١٦٨).

(٧) في نسخة الخيالي: «أنهم».

(٣٣) - ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لعلَّهُ ذُكرَ بالواوِ لأنَّ كلامَهُم لم يَتَّصِل بكَلامِ الرَّسولِ، بخلافِ كلامِ[1] قومِ نوحٍ، وحيثُ استُؤنِفَ به فعلى تَقديرِ سُؤالٍ[2].

﴿وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: بلقاءِ ما فيها مِن الثَّوابِ والعقابِ، أو بمَعادِهم إلى الحياةِ الثَّانيةِ بالبعثِ ﴿وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ﴾: ونعَّمْنَاهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرةِ الأموالِ والأَولادِ.

﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصِّفَةِ والحالِ ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقريرٌ للمُماثلَةِ، و«ما» خبريَّةٌ، والعائدُ إلى الثَّاني مَنصوبٌ مَحذوفٌ، أو مَجرورٌ حُذِفَ مع الجارِّ لدَلالةِ ما قبلَهُ عليه[3].

(٣٤) - ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما يَـأمُرُكُم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ﴾ حيـثُ أَذْلَلْتُم أَنفُسَكُم، و﴿إِذًا﴾ جزاءٌ للشَّرطِ[4] وجَوابٌ للَّذينَ قاوَلُوهُم مِن قَومِهم[5].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «قول».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «سؤالهم». وفي كلام المصنف إشارة إلى نكتة ذكر الفاء في قصة نوح عليه الصلاة والسلام والواو في قصة هود عليه الصلاة والسلام هنا، وترك الفاء والواو في محل آخر؛ فقوله: «لعلَّهُ ذُكرَ بالواوِ لأنَّ كلامَهُم لم يَتَّصِل بكَلامِ الرَّسولِ» والواو لا تفيد التعقيب مثل الفاء، «بخلافِ كلامِ قومِ نوحٍ» فقد اتَّصل كلامهم بكلامه فعطف بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، «وحيثُ استُؤنِفَ به فعلى تَقديرِ سُؤالٍ» يعني: لم يُعطف بواو ولا فاء؛ كما في قوله في قصة نوح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقوله في قصة هود: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦].

(٣) والتقدير على الأوَّل: مما تشربونه، وعلى الثاني: مما تشربون منه.

(٤) لم يرتضِ هذا أبو حيَّان، وقال: ليسَ ﴿إِذًا﴾ واقِعًا في جزاءِ الشَّرطِ، بل واقعًا بين ﴿إِنَّكُمْ﴾ والخبرِ، و﴿إِنَّكُمْ﴾ والخبرُ ليسَ جزاءً للشَّرطِ، بل هو جوابٌ للقَسَمِ المَحذوفِ قبلَ «إنْ» الشَّرطيَّةِ، ولو كانَت ﴿إِنَّكُمْ﴾ والخبرُ جوابًا لَزِمَت الفاءُ في ﴿إِنَّكُمْ﴾. انظر: «البحر المحيط» (١٥/ ٤٤٣). وذلك لأنَّ القسمَ سبق الشرطَ، فحقُّ الجواب أن يكون له. انظر: «الدر المصون» للسمين الحلبي (٨/ ٣٣٣).

(٥) في نسخة الخيالي والفاروقي: «قومه».

(٣٥) - ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ مجردةً عَن اللُّحومِ والأَعصابِ ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مِن الأَجداثِ، أو مِن العَدمِ تارةً أخرى إلى الوُجودِ، و﴿أَنَّكُمْ﴾ تكريرٌ للأَوَّلِ أُكِّدَ به لَمَّا طالَ الفَصلُ بينَهُ وبينَ خبرِهِ.

أو: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مُبتدأٌ خبرُه الظَّرفُ المُقدَّمُ، أو فاعلٌ للفعلِ المقدَّرِ جَوابًا للشَّرطِ، والجملةُ خبرُ الأوَّلِ؛ أي: أَنَّكُم إخراجُكُم إذا مُتُّم، أو: أَنَّكُم إذا مُتُّم وقعَ إِخراجُكُم.

ويجوزَ أن يكونَ خبرُ الأَوَّلِ مَحذوفًا لدلالةِ خبرِ الثَّاني عليه، لا أَنْ يكونَ الظَّرفَ لأنَّ اسمَهُ جثَّةٌ[1].

(٣٦) - ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾: بَعُدَ التَّصديقُ، أو الصِّحَّةُ ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أو: بَعُدَ ما توعدونَ، واللَّامُ للبيانِ؛ كما في: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، كأَنَّهم لَمَّا صوَّتُوا بكَلِمَةِ الاستبعادِ قيلَ: فمَا له هذا الاستبعادُ؟ قالُوا: لِمَا توعدونَ.

وقيلَ: ﴿هَيْهَاتَ﴾ بمَعنى: البعدُ، وهو مُبتدأٌ خبرُهُ: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

وقُرِئَ بالفَتحِ مُنوَّنًا للتَّنكيرِ[2]، وبالضَّمِّ مُنوَّنًا على أَنَّه جمعُ هَيْهَةٍ، وغيرَ مُنوَّنٍ تَشبيهًا بـ«قَبْلُ»، وبالكسرِ على الوجهينِ، وبالسُّكونِ على لفظِ الوقفِ، وبإبدالِ التَّاءِ هاءً[3].

---

(١) والتقدير على الوجه المجوَّز: أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم وكنتم ترابًا وعظامًا أنكم مخرجون، فالظرف «إذا» متعلق بالخبر المقدر، و«أنَّ» الثانية وما في حيِّزها بدل من الأولى، ولا يجوز أن يكون الظرف «إذا» خبرًا لـ«أنَّ» الأولى؛ لأن اسمها - وهو الضمير - يدلُّ على جثة، والظرف يصلح خبرًا عن الحدث؛ لذلك أُجيز أن يكون خبرًا مقدمًا في الوجه الثاني لأن المبتدأ مؤول بـ: إخراجُكم، وهو مصدر. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ١٦١).

(٢) أنكر الزجاج هذه القراءة في «معاني القرآن» (٤/ ١٢)، ونقلها غيره في الشواذ.

(٣) قرأ بالفتح بلا تنوين جمهور العشرة، وبالكسر بلا تنوين أبو جعفر المدني. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٨). ووقف الكسائي والبزي عليها بالهاء. انظر: «التيسير» (ص: ٦٠). =

(٣٧) - ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أصلُه: إنِ الحَياةُ إلَّا حَياتُنا الدُّنـيـا، فأُقيمَ الضَّميرُ مُقامَ الأولى لدَلالةِ الثَّانيَةِ عليها؛ حذرًا عن التَّكريرِ، وإشعارًا بأنَّ تعيُّنَها مُغنٍ عَن التَّصريحِ بها[1]؛ كقولِه:

هـي النَّفسُ مـا حَمَّلْتَهـا تَتَحَمَّلُ وللـدَّهْرِ أيَّامٌ تجـورُ وتعدِلُ[2]

ومعنـاه: لا حيـاةَ إلَّا هـذه الحَيـاةُ؛ لأنَّ ﴿إِنْ﴾ نافيـةٌ دخلَتْ علـى ﴿هِيَ﴾ الَّتي فـي مَعنـى الحيـاةِ الدَّالَّـةِ على الجنـسِ، فكانَتْ مثـلَ «لا» الَّتـي تَنْفِي مـا بعدَهَا نفيَ الجنسِ[3].

= وقرأ بالضم بلا تنوين أبو حيوة، وأبو المتوكل الناجي، وسعيد بن جبير، وعكرمة.
وقرأ أبيّ بن كعب، وأبو مجلز، وهارون عن أبي عمرو، والأعرج: «هيهاتًا هيهاتًا» بالنصب والتنوين.
وقرأ ابن مسعود، وعاصمٌ الجحدري، وأبو حيوة الحضرمي، وابن السميفع: «هيهاتٌ هيهاتٌ» بالرفع والتنوين.
وقرأ أبو العالية وقتادة وعيسى بن عمر وخالد بن إلياس: «هيهاتٍ هيهاتٍ» بالخفض والتنوين.
وبالسكون قرأ معاذ القارئ وابن يعمر وأبو رجاء، وخارجة عن أبي عمرو، وأبو حيوة والأحمر.
انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٩)، و«المحتسب» (٢/ ٩٠)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٣٤)، و«المحرر الوجيز» لابن عطية (٤/ ١٤٣)، و«زاد المسير» لابن الجوزي (٣/ ٢٦١)، و«البحر» لأبي حيان (١٥/ ٤٤٥).

(١) قيل: مراد المصنف أنَّ الضمير في البيت والآية ضمير الشأن والقصة، ونوقش في ذلك. انظر: «حاشية السيوطي» (٩/ ٢٨٠). ولعلَّه أراد ما يسميه بعض النحويين الإضمار على شريطة التفسير، وعبر عنه في «الكشاف» (٥/ ٦٢٦) بقوله: هذا ضَميرٌ لا يُعلم ما يُعنَى بهِ إلَّا بما يَتلُوه من بيَانه. انظر: «شرح ديوان المتنبي» للعكبري (٢/ ٣٤١).

(٢) البيت لعلي بن الجهم في «طبقات الشعراء» لابن المعتز (ص: ٣٢١)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه (١/ ٢٧٢)، و«روضة العقلاء» ابن حبان (ص: ١٤٥).

(٣) قوله: «فكانت مثل (لا)...» جاء بدلاً منه في نسخة التفتازاني: «فهي مثل (لا) التي لنفي الجنس».

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: يموتُ بَعضُنا ويولدُ بعضٌ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعدَ المَوتِ.

(٣٨) - ﴿إِنْ هُوَ﴾: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدَّعيهِ مِن إرسالِه لـه[١]، وفيما يَعِدُنا من البعثِ ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾: بمُصَدِّقينَ.

(٣٩) - ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهِم وانتَقِمْ لي مِنْهُم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾: بسببِ تكذيبِهم إيَّاي.

(٤٠) - ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾: عَن زَمانٍ قليلٍ، و«ما» صِلَةٌ لتوكيدِ معنى القِلَّةِ، أو نَكِرَةٌ مَوصوفَةٌ.

﴿لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على التَّكذيبِ إذا عاينوا العَذابَ.

(٤١) - ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾: صَيحَةُ جِبريلَ، صاحَ عَلَيهِم صيحةً هائلةً تَصدَّعَتْ مِنها قُلوبُهُم فمَاتُوا، واستُدِلَّ بهِ على أنَّ القرنَ قومُ صالحٍ[٢].

﴿بِالْحَقِّ﴾: بالوجهِ الثَّابتِ الَّذي لا دافِعَ له، أو: بالعدلِ مِن اللهِ؛ كقولِك: فلانٌ يَقْضِي بالحقِّ، أو: بالوعدِ الصِّدقِ.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ شبَّهَهُم في دَمارِهِم بغثاءِ السَّيلِ، وهو حَميلُه؛ كقولِ العربِ: «سالَ به الوادِي» لِمَن هلَكَ.

﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يحتمِلُ الإخبارَ والدُّعاءَ.

و«بُعْدًا» مصدَرُ «بَعِدَ»: إذا هلكَ، وهو مِن المصادرِ الَّتي تُنصَبُ بأَفعالٍ لا يُستعمَلُ إظهارُهَا، واللَّامُ لبَيانِ مَن دُعِيَ عليه بالبُعدِ[٣].

---

(١) «له»: ليس في نسخة الخيالي والتفتازاني.

(٢) ولم يلتفت إليه المصنف، فقد تقدم أنه ذكر أنهم قوم هود أو صالح؛ لاحتمال أن يكون من باب الاكتفاء بذكر عقوبة قوم صالح عن عقوبة قوم هود، وغيره من الاحتمالات. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ١٧٥).

(٣) انظر: «الكتاب» (١/ ٣١١ - ٣١٢). وأفاد سيبويه: أنَّهم ربَّما تركوا اللام استغناءً، إذا عَرَفَ الدَّاعِي =

ووُضِعَ الظَّاهِرُ موضِعَ ضَميرِهِم للتَّعليلِ(١).

(٤٢) ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني: قومَ صَالحٍ ولوطٍ وشُعَيبٍ وغيرِهِم.

(٤٣) ـ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾: الوقتَ الَّذي حُدَّ لهَلاكِها، و﴿مِنْ﴾ مزيدةٌ للاستغراقِ.

﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ الأجلَ.

(٤٤) ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾: مُتواترينَ واحدًا بعد واحدٍ، من «الوِترِ» وهو الفردُ، والتَّاءُ بدلٌ مِن الواوِ كـ«تَوْلَجٍ» و«تَيْقُورٍ»(٢)، والألفُ للتَّأنيثِ لأنَّ الرُّسُلَ جَماعَةٌ.

وقرأَ أبو عَمرٍو وابنُ كثيرٍ بالتَّنوينِ(٣) على أنَّه مَصدَرٌ بمعنى «المواتَرَةِ» وقعَ حالًا.

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ أضافَ الرَّسولَ مع الإرسالِ إلى المرسِلِ ومعَ المجيءِ إلى المرسَلِ إليهم؛ لأنَّ الإرسالَ الَّذي هو مبدأُ الأمرِ منه والمجيءَ هو الَّذي هو منتهاهُ إليهم(٤).

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الإهلاكِ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾: لم نُبْقِ مِنْهُم إلَّا

= أنَّه قد عُلم مَنْ يَعني؛ كما تقول: «مرحبًا» إذل عُرف أنَّك تريد: مرحبًا بك.

(١) أي: لم يقل: فبعدًا لهم؛ لإظهار سبب استحقاقهم للإبعاد، وهو كونهم قومًا ظالمين.

(٢) التَوْلَجُ: كِناسُ الوحِش الذي يَلِجُ فيه. قال سيبويه: التاء مبدلة من الواو، وهو فوعل؛ لأنَّك لا تكاد تجد في الكلام «تفعل» اسمًا، و«فوعل» كثير. والتَّيقور: هو الوقارُ، وأصلُه: وَيْقُور، قُلِبَت الواوُ تاءً. انظر: «الصحاح» مادة: (ولج) (١/ ٣٤٨)، ومادة (وقر) (٢/ ٨٤٩)، وانظر: «الكتاب» لسيبويه (٤/ ٣٣٣).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٩).

(٤) وقال الزمخشري: أضاف الرسل إليه تعالى وإلى أممهم؛ لأنّ الإضافة تكون بالملابسة، والرسول ملابس المرسِل والمرسَل إليه جميعًا. انظر: «الكشاف» (٥/ ٦٢٨).

حِكايـاتٍ يُسـمَرُ بها، وهو اسـمُ جمـعٍ لـ«الحَديـثِ»[١]، أو جمعُ «أُحدوثَـةٍ»، وهي مـا يُتحدَّثُ بـه تَلَهِّيـا ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

(٤٥) ـ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بـالآيـاتِ التِّسعِ ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: وحُجَّةٍ واضِحَةٍ ملزمَةٍ للخَصمِ، ويجوزُ أَنْ يرادَ به العصا، وإفرادُها لأَنَّها أوَّلُ المعجزاتِ وأمُّها؛ تَعلَّقَت بها مُعجزاتٌ شتَّى؛ كانقلابِها حيَّةً، وتلقُّفِها ما أفكَتْه السَّحرَةُ[٢]، وانفلاقِ البَحرِ، وانفجارِ العُيونِ من الحجرِ بضربِهما بها، وحراسَتِها، ومَصيرِها شمعَةً وشجرةً خَضراءَ مُثمِرَةً ورشاءً ودلوًا[٣].

وأن يُرادَ به المعجزاتُ وبالآياتِ الحُجَجُ، وأن يُرادَ بهما المُعجِزَاتُ فإنَّها آياتٌ للنُّبوَّةِ وحُجَّةٌ بيِّنَةٌ على ما يدَّعيهِ النَّبيُّ.

(٤٦) ـ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عـن الإيمـانِ والمتابعَـةِ ﴿وكانـوا قومًـا عالِيـنَ﴾: مُتكبِّرينَ.

(٤٧) ـ ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثـنَّى البشرَ لأَنَّه يُطلَقُ للواحدِ كقولِه: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] كما يُطلَقُ للجمعِ كقولِه: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦]، ولم يثنِّ المِثْلَ لأَنَّه في حكمِ المَصدَرِ[٤].

---

(١) تبع فيه الزمخشريَّ، وقال أبو حيان: «أفاعيل» ليس من أبنية اسم الجمع، وإنما ذكره أصحابنا فيما شذَّ من الجموع كـ«قطيع» و«أقاطيع»... فالصحيح أنه جمع تكسير، لا اسم جمع لما ذكرناه. انظر: «البحر المحيط» (٦/ ٣٧٦). وقال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وقد مرّ أنّ اصطلاحه ـ أي: الزمخشري ـ أن يُطلق اسم الجمع على الجمع الذي ليس بقياسيّ كاسم المصدر للمصدر غير القياسي، لا على ما اصطلح عليه النحاة، فلا يرد عليه ما قاله أبو حيان.

(٢) أي: صَرَفَتْهُ عن وجهه وقلبَتْه. انظر: «النهاية» لابن الأثير (أفك).

(٣) الأربعة الأولى ثابتة، وما بعدها مستند لروايات من الإسرائيليات، وقد تقدم الكلام عليها.

(٤) ذكر الآلوسي كلام المصنف هذا ثم قال: ولو أفرد البشر لصح؛ لأنه اسم جنس يطلق على =

وهذه القصصُ كما ترى تشهدُ بأنَّ قُصارَى شبهةِ[1] المنكِرينَ للنُّبوَّةِ: قياسُ حالِ الأنبياءِ على أَحْوالِهِم لِمَا بينَهُم مِن المماثلَةِ في الحقيقَةِ، وفسادُهُ يظهَرُ للمُستَبْصِرِ بأَدْنَى تَأَمُّلٍ؛ فإنَّ النُّفوسَ البَشريَّةَ وإن تشارَكَت في أصلِ القُوَى والإدراكِ لكنَّها مُتباينَةُ الأقدامِ فيهما، وكما ترى في جانبِ النُّقصانِ أغبياءَ لا يعودُ عليهم التَّفكُّرُ براذَّةٍ، يمكنُ أن يكونَ في طرفِ الزِّيادَةِ أغنياءُ عن التَّعلُّمِ والتَّفكُّرِ في أكثرِ الأشياءِ وأغلبِ الأحوالِ، فيُدركونَ ما لا يدرِكُ غيرُهُم، ويعلمونَ ما لا يَنتَهِي إليه عِلْمُهُم، وإليه أشارَ بقولِهِ تَعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعني: بني إسرائيلَ ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ خادمونَ مُنقادونَ كالعبادِ.

(٤٨) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرقِ في بحرِ قُلْزُم.

(٤٩) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوراةَ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: لعلَّ بَنِي إسرائيلَ، ولا يجوزُ عودُ الضَّميرِ إلى فرعونَ وقومِهِ؛ لأنَّ التَّوراةَ نَزَلَتْ بعدَ إغراقِهِم.

﴿يَهْتَدُونَ﴾ إلى المعارفِ والأحكامِ.

(٥٠) ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ بولادَتِها[2] إيَّاه مِن غيرِ مَسيسٍ، فالآيةُ أمرٌ واحِدٌ مُضافٌ إليهما، أو جعَلْنَا ابنَ مريمَ آيةً بأن تكلَّمَ في المهدِ وظهرَ منه مُعجِزاتٌ أُخَرُ، وأمَّهُ آيةً بأَنْ وَلدَتْ مِن غيرِ مسيسٍ، فحُذِفَت الأُولى لدَلالَةِ الثَّانيةِ علَيْها.

= الواحد وغيره، وكذا لو ثنَّى المثل؛ فإنه جاء مثنى في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ ومجموعا في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ نظرًا إلى أنه في تأويل الوصف، إلا أن المرجح لتثنيته الأول وإفراده الثاني الإشارة بالأول إلى قلتهما وانفرادهما عن قومهما مع كثرة الملأ واجتماعهم، وبالثاني إلى شدة تماثلهم حتى كأنهم مع البشرين شيء واحد، وهو أدلُّ على ما عنوه. انظر: «تفسير الآلوسي» (٩/ ٢٣٧).

(١) في نسخة التفتازاني: «شبه».

(٢) في نسخة الفاروقي: «لولادتها».

﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رُبْوَةٍ﴾: أرضِ بيتِ المقدسِ[١] فإنَّها مُرتَفِعَةٌ، أو: دمشقَ[٢]، أو: رملةِ فِلَسْطينَ[٣]، أو: مِصرَ؛ فإنَّ قُراها على الرُّبى[٤].

وقرأَ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ بفَتحِ الرَّاءِ[٥]، وقُرِئَ: «رباوَةٍ» بالضَّمِّ والكسرِ[٦].

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾: مُستَقَرٍّ مِن أرضٍ مُنبسطَةٍ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٩٦٨)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٥)، من طريق معمر عن قتادة. ورواه ابن حبان في «الثقات» (٩/ ١٦٦) من طريق عطاء بن معبد عن قتادة عن الحسن.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٩٦٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٤٦٣)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٤)، عن سعيد بن المسيب.

وروى ابن عساكر في «تاريخه» (١/ ٢٠٨) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عنه قال: هي أرض ذات أشجار وأنهار، يعني: أرض دمشق.

ومن طريق سعيد بن بشير عن قتادة عنه قال: ذات ثمار وكثرة ماء، هي دمشق

ومن طريق شيبان بن عبد الرحمن التميمي عَن قتادة عنه قال: ذات عيشة تقوتهم وتحملهم وماء جار، قال: هي الربوة، هي دمشق.

ومن طريق عبد الملك بن أبي سليمان عن عمرو عنه: أنها دمشق.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: الزمُوا هذه الرَّملةَ التي بفِلَسطينَ فإنها الرَّبوةُ التي قال اللهُ: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٩٧٢)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٤)، مختصرًا بلفظ: هي الرَّملة من فلسطين.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٥) عن ابن زيد قال: إلى ربوة من رُبا مصر، قال: وليس الرُّبَا إلاَّ في مصر، والماء حين يُرسَل تكون الربا عليها القرى، لولا الربَا لغرقت تلك القرى.

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٦)، و«التيسير» (ص: ٨٣).

(٦) بالضم عن القورسي، وميمونة عن أبي جعفر انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٠٩). وبالكسر عن ابن أبي إسحاق انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠).

وقيلَ: ذاتِ ثمارٍ وزروعٍ، فإنَّ ساكنيها يَستَقِرُّونَ فيها لأجلِها.

﴿وَمَعِينٍ﴾: وماءٍ مَعينٍ ظاهرٍ جارٍ، فَعيلٌ مِن «مَعَنَ الماءُ»: إذا جرى، وأصلُه: الإبعادُ في الشَّيءِ، أو من «الماعونِ» ـ وهو المَنفعَةُ ـ لأنَّه نفَّاعٌ، أو مفعولٌ مِن «عانَهُ»: إذا أدركَهُ بعينِه؛ لأنَّه لظُهورِهِ مُدرَكٌ بالعُيونِ.

وُصِفَ ماؤُهما بذلك لأنَّه الجامِعُ لأَسبابِ التَّنزُّهِ(١) وطيبِ المكانِ.

(٥١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ نداءٌ وخِطابٌ لجَميعِ الأَنبيَاءِ، لا على أنَّهُم خوطِبُوا بذلك دفعَةً؛ لأنَّهُم أُرسِلُوا في أَزمِنَةٍ مُختَلِفَةٍ، بل على معنى أنَّ كُلًّا مِنْهُم خوطِبَ به في زمانِه(٢)، فيدخلُ تحتَه عيسى دخولًا أوَّليًّا.

أو: يكونُ(٣) ابتداءَ كَلامٍ ذُكِرَ تنبيهًا على أنَّ تَهيِئَةَ أسبابِ التَّنعُّمِ لَمْ تَكُن له

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: التنزه: المسرّة وانشراح الصدر، من النزهة، وأصل معناه: التباعد، ثم استُعمل في العرف للخروج للبساتين ونحوها.

(٢) تبع في ذلك الزمخشري، وقيل: إنها نزغة اعتزالية؛ لأنَّه تعالى في الأزل متكلم آمرٌ وناهٍ، ولا يُشترط في الأمر وجود المأمورين، بل الخطاب أزلًا على تقدير وجود المخاطبين، والمعتزلة أنكروا قدم الكلام فحملوا الآية على خلاف ظاهرها. انظر: «الكشاف» للزمخشري (٥/ ٦٣٣)، و«الانتصاف» لابن المنير بهامش «الكشاف» للزمخشري (٣/ ١٩٠)، و«فتوح الغيب» للطيبي (١٠/ ٥٩١).
وقال الخطيب الشربيني: وأنت خبير بأن عدم اشتراط ذلك إنما هو في التعلق المعنوي لا التنجيزي الذي الكلام فيه، فإنه مشروط فيه ذلك. انظر: «السراج المنير» (٢/ ٥٨٢).

(٣) في نسخة التفتازاني والفاروقي: «وحكاية»، والمثبت من نسخة الخيالي والفاروقي، وهو الذي بدأ به الشهاب في «الحاشية»، فقال: قوله: «أو يكون ابتداء كلام...» بالعطف بـ«أو» الفاصلة؛ أي: من غير تقدير، فهو استئناف نحويٌّ أو بيانيٌّ بتقدير: هل هذه التهيئة مخصوصةٌ بعيسى عليه الصلاة والسلام أو لا؟... وفي نسخة: «ويكون» بالواو على أنه ابتداء كلام مع النبي ﷺ؛ أي: وقلنا: يا محمد إنا قلنا للرسل... إلخ، فهو معطوف على ما قبله، وهو مع ما قبله كلام واحد، أو هو جواب سؤال مقدر كما مرَّ، قيل: وهو الوجه.

خاصَّـةً، وأنَّ إباحـةَ الطَّيِّبـاتِ للأنبيـاءِ شَـرعٌ قَديـمٌ، واحتجاجًـا علـى الرَّهابِنَـةِ في رفـضِ الطَّيِّباتِ.

أو: حكايةً[١] لِمَا ذُكرَ لعيسى وأمِّهِ عندَ إيوائِهِما إلى الرَّبوةِ ليَقتَدِيَا[٢] بالرُّسُلِ في تناوُلِ ما رُزِقا.

وقيلَ: النِّداءُ لَه[٣]، ولفظُ الجمعِ للتَّعظيمِ[٤].

و«الطَّيِّباتُ»: ما يُستلَذُّ من المباحاتِ.

وقيلَ: الحلالُ الصَّافِي القِوامِ؛ فالحلالُ: ما لا يُعصَى اللهُ فيه، والصَّافِي: ما لا يُنسَى اللهُ فيه، والقِوامُ: ما يُمسكُ النَّفسَ ويحفظُ العقلَ.

﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ فإنَّه المَقصودُ مِنْكُم والنَّافعُ عندَ رَبِّكُم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأُجازِيكُم عليه.

(٥٢) ـ ﴿وَأَنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾؛ أي: ولأنَّ هـذه، والمُعلَّـلُ به ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، أو: واعلَمُوا أنَّ هذه.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «حكاية» دون «أو». والمثبت من نسخة الخيالي والفاروقي والطبلاوي، وهو الذي رجحه الشهاب فقال في «الحاشية»: قوله: «أو حكاية...» معطوف على قوله: «ابتداء كلام»، وقيل: على قوله: «نداء»، وفي نسخة بدون «أو» فهو تتميم لقوله: «احتجاجًا على الرهبانية» التي ابتدعتها النصارى، والصحيح في النسخ الأولى، وهو متصل حينئذ بما قبله لا ابتداءُ كلام، والتقدير: آويناهما وقلنا لهما هذا؛ أي: أعلمناهما أنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام كلَّهم خوطبوا بهذا فكلا واعملا اقتداء بهم، هذا على تقدير وجود العاطف، ويحتمل أن يكون حالًا؛ أي: نوحي إليهما أو قائلين لهما.

(٢) في نسخة الفاروقي: «ليقيد»، وفي الهامش: في نسخة: «ليقتديا».

(٣) أي: لعيسى خاصة. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ١٨٧).

(٤) أورد عليه ابن التمجيد في «حاشيته» (١٣/ ١٨٧) أنَّ الجمع للتعظيم في الخطاب والغيبة لا يعدُّ من البلاغة، فلا يليق أن يُحمل عليه ما وقع في كلامٍ أعجز البلغاء ببلاغته. وقد عدَّ الخفاجي والقونوي حصر قصد التعظيم بصيغة المتكلم خطأ.

وقيلَ: إنَّه معطوف على «ما تعملونَ».

وقرأَ ابنُ عامرٍ بالتَّخفيفِ، والكوفيُّونَ بالكسرِ على الاستئنافِ[١].

﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: مِلَّتُكُم مِلَّةً واحِدَةً؛ أي: مُتَّحِدَةً في العقائدِ وأُصولِ الشَّرائعِ، أو: جماعتُكُم جماعةً واحِدَةً مُتَّفِقَةً على الإيمانِ والتَّوحيدِ في العبادةِ، ونصبُ ﴿أُمَّةً﴾ على الحالِ.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ في شَقِّ العَصا ومخالفَةِ الكلمةِ.

(٥٣) ـ ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾: فتَقطَّعُوا أمرَ دينِهم وجَعلوهُ أَديانًا مُختَلِفةً، أو: فتَفرَّقُوا وتحزَّبُوا. و﴿أَمْرَهُم﴾ منصوبٌ بنَزعِ الخافضِ أو التَّمييزِ[٢]، والضَّميرُ لِمَا دَلَّ عليه الأمَّةُ مِن أَربابِها أو لها.

﴿زُبُرًا﴾: قِطَعًا، جمعُ زَبورٍ الَّذي بمَعنى الفِرقَةِ، ويؤيِّدُه القراءةُ بفَتحِ الباءِ[٣] فإنَّه جمعُ زُبْرةٍ، وهو حالٌ مِن ﴿أَمْرَهُم﴾ أو مِن الواوِ، أو مَفعولٌ ثانٍ لـ﴿تَقَطَّعُوا﴾، فإنَّه يَتضمَّنُ[٤] مَعنى «جَعَلَ».

---

(١) قرأ الكوفيُّونَ حمزة والكسائي وعاصم بكسر الألف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافعٌ بفتحها، وخفف ابن عامر النُّون مع فتح الهمزة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٩).

(٢) فهو تمييز محول عن فاعل؛ أي: تقطع أمرُهم، وهذا على مذهب الكوفيين لا على مذهب البصريين؛ لأنهم يشترطون تنكيره، و﴿أَمْرَهُم﴾ معرفة، وجوِّز فيه وجه ثالث: أن يكون مفعولًا به بجَعْلِ «تقطعوا» بمعنى: قطعوا. انظر: «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢/ ٩٢٦)، و«الدر المصون» للحلبي (٨/ ١٩٦).

(٣) نسبها الداني في «جامع البيان» لابن عامر (٢/ ٣٠٣) لكن بخلاف بين أصحاب هشام راوية ابن عامر، ونسبت لأبي عمرو في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١).

(٤) في نسخة التفتازاني: «مضمن».

وقيلَ: كُتُبًا، مِن «زَبَرْتُ الكتابَ»[١]، فيكونُ مَفعولًا ثانيًا، أو حالٌ مِن ﴿أَمْرَهُم﴾ على تقديرِ: مِثْلَ كتبٍ[٢].

وقُرِئَ بتَخفيفِ البَاءِ[٣] كـ«رُسْلٍ» و«رُسُلٍ»[٤].

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ مِن المتحزِّبينَ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ مِن الدِّينِ ﴿فَرِحُونَ﴾: مُعجَبونَ مُعتقِدونَ أنَّهم على الحَقِّ.

(٥٤) ـ ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ في جهالَتِهِم، شَبَّهَها بالماءِ الَّذي يغمُرُ القامةَ لأنَّهُم مَغمورونَ فيها أو لاعبونَ بها[٥]. وقُرِئَ: «في غَمَراتِهِم»[٦] ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يُقتَلُوا أو يَموتُوا.

---

(١) يقال: «زبرت الكتاب»: إذا كتبته. انظر: «الكنز اللغوي» لابن السكيت (ص: ٥٨).

(٢) قوله: «وقيل: كتبًا» جمع زَبور بمعنى الكتاب، و«زبرت» بمعنى: كتبت، وزَبورٌ فعولٌ بمعنى مفعولٍ كرسولٍ، وقوله: «مفعولًا ثانيًا»؛ أي: لـ(تَقَطَّعوا) المتعدِّي بمعنى الجعل؛ «أو حال» على لزومه، والمعنى على الأول: جعلوا أمر دينهم كتبا مختلفة، والمراد بالكتب: ما كتبوه بأيديهم، فمآله: جعلوه أديانًا مختلفة، وكونه على تقدير مضاف؛ أي: جعلوا أمر دينهم مثلَ كتب سماوية، فيه تكلف. انظر: «حاشية الشهاب»، و«حاشية القونوي» (١٣/ ١٩٠).

(٣) نسبت لأبي عمرو أيضًا. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١).

(٤) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «في رسل».

(٥) أي: شبَّهَ جَهلَهُم بغَمرَةِ الماءِ إذا وقعَ فيها الشَّخصِ فلا يَدري كيفَ يَتخلَّص منها، والجامعُ: الوُقوعُ في ورطَةِ الهَلاكِ، ثمَّ كثُرَ استِعمَالُها في هذا المعنى حتَّى صارَ كالمَثَلِ السَّائرِ في الشُّهرَةِ أو قوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ تمثيلٌ، شبَّه حالَ هؤلاءِ مع ما هُم عليه مِن مَحاولَةِ الباطلِ والانغماسِ فيه بحالِ مَن يَدخلُ الماءَ الغامرَ للَّعبِ، والجامعُ: تَضييعُ السَّعيِ بعدَ الكَدحِ في العَمَلِ، وهذا الوجهُ مُوافِقٌ لِمَا قبلَهُ، وهو قولُهُ: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٥٩٣ ـ ٥٩٤).

(٦) نسبت لأبي حيوة في «الكامل في القراءات» (ص: ٦٠٦)، ونسبت للسلمي وأبي البرهسم في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٣٥).

(٥٥ ـ ٥٦) ـ ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ ﴾: أنَّ ما نعطيهم ونجعَلُه مددًا لهم ﴿مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ﴾ بيانٌ لِـ«ما»، وليسَ خبرًا له، فإنَّه غيرُ مُعابٍ عليه، وإنَّما المُعابُ عليه اعتقادُهُم أنَّ ذلك خيرٌ لَهُم، فخبرُه: ﴿ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾، والرَّاجعُ مَحذوفٌ، والمعنى: أيَحْسَبونَ أنَّ الَّذي نَمُدُّهُم به نُسارِعُ بِهِ لهم فيما فيه خَيرُهُم وإكرامُهُم.

﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾: بَلْ هُم كالبَهائمِ لا فطنةَ لَهُم [١] ولا شعورَ ليَتَأمَّلُوا فيَعْلَمُوا أنَّ ذلك الإمدادَ استِدراجٌ لا مُسارعةٌ في الخيرِ.

وقُرِئَ: «يُمِدُّهُم» على الغيبةِ [٢].

وكذلك: «يُسارِعُ» و: «يُسرِعُ» [٣]، ويحتمِلُ أَنْ يكونَ فيهِمَا ضَميرُ المُمَدِّ به، و: «يُسارَعُ» مبنيًا للمفعولِ [٤].

(٥٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم ﴾: مِن خَوفِ عَذابه ﴿مُّشۡفِقُونَ ﴾: حَذِرُونَ.

(٥٨) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ المنصوبـةِ والمنزلـةِ [٥] ﴿يُؤۡمِنُونَ ﴾ بتَصديـقِ مَدلُولِها.

(٥٩) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾ شركًا جَليًّا ولا خَفيًّا.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «بهم».

(٢) هي رواية عن ابن كثير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠).

(٣) انظر: في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ٩٤)، الأولى عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، والثانية عن الحر النحوي.

(٤) انظر: «المحتسب» (٢/ ٩٤) عن عبد الرحمن بن أبي بكرة أيضًا.

(٥) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: أي: بعلامات ربوبيته، وإليه أشار بقوله: «المنصوبة»، أو بكلامه، وإليه أشار بقوله: «المنزلة».

(٦٠) ـ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾: يُعْطُونَ ما أعطَوه[١] مِن الصَّدقاتِ، وقُرِئَ: «يَأْتُونَ ما أَتَوْا»[٢]؛ أي: يفعلونَ ما فَعَلُوا مِن الطَّاعاتِ.

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾: خائفةٌ أَنْ لا يُقبلَ مِنْهُم، ولا[٣] يقعَ على الوجهِ اللَّائقِ فيُؤاخَذَ[٤] بهِ.

﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾: لأنَّ مَرجِعَهُم إليه، أو: مِن أنَّ مَرجِعَهُم إليه، وهو يَعلمُ ما يَخْفى عليهم.

(٦١) ـ ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: يرغبونَ في الطَّاعاتِ أَشَدَّ الرَّغبةِ فيُبادِرُونَها، أو: يُسارِعُونَ في نيلِ الخَيراتِ الدُّنيَوِيَّةِ الموعودةِ على صالحِ الأعمالِ بالمُبادرَةِ إليها؛ لقولِه: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤٨]، فيكونُ إثباتًا لهم ما نُفِيَ عن أضدادِهم[٥].

﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾: لأجلِها فاعلونَ السَّبقَ، أو: سابقونَ النَّاسَ إلى الطَّاعَةِ أو

---

(١) في نسخة التفتازاني: «أعطوا».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ٩٥) عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم وقتادة والأعمش. وروى الإمام أحمد في «مسنده» (٢٤٦٤١) عنها: أنها قراءة النبي ﷺ.

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «وأن لا».

(٤) في نسخة الطبلاوي: «فيؤاخذوا». وقال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «فيؤاخذ به» بصيغة المجهول، و«به» قائم مقام الفاعل، أو المعلوم والضميرُ لله، فليس الأظهر أن يقال: «فيؤاخذوا» بالجمع كما قيل.

(٥) قال في «الكشاف» (٥/ ٦٣٧): وهذا الوجهُ أَحسنُ طِبَاقاً للآية المتقدِّمة؛ لأن فيه إثباتَ ما نُفِيَ عن الكفَّار للمؤمِنينَ.

الثَّوابِ أو الجَنَّةِ[١]، أو: سابِقُونَها[٢]؛ أي: يَنالُونَها قبلَ الآخرةِ حيثُ عُجِّلَت لهم في الدُّنيَا؛ كقولِه تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾.

(٦٢) ـ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: قَدْرَ طاقَتِها، يريدُ به التَّحريضَ على ما وصفَ به الصَّالحينَ وتسهيلَهُ على النُّفوسِ.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ يعني: اللَّوحَ أو صحيفةَ الأعمالِ ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾: بالصِّدقِ، لا يوجَدُ فيه ما يخالِفُ الواقِعَ.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادةِ عِقابٍ أو نقصانِ ثَوابٍ.

(٦٣) ـ ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾: قلوبُ الكَفَرةِ ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾: في غَفلَةٍ غامرَةٍ لها ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ مِن الَّذي وُصِفَ به هؤلاءِ، أو مِن كتابِ الحَفظَةِ.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ خبيثَةٌ ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾: مُتجاوِزَةٌ لِمَا وُصِفُوا به[٣]، أو مُتخطِّيَةٌ عمَّا هم عليهِ من الشِّركِ ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾: مُعتادونَ فِعلَها[٤].

(٦٤ ـ ٦٥) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾: مُتنعِّميهِم ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني: القتلَ يومَ

---

(١) مرادُه بالتَّقديرِ الأوَّلِ: أن لا يقدر للسَّبقِ مفعولٌ ألبتَّةَ، وإنَّما الغرضُ الإعلامُ بوقوعِ السَّبقِ مِنهم مِن غَيرِ نَظرٍ إلى مَن سَبقوهُ؛ كقولِه: يحيي ويُميتُ ويُعطي ويَمنَعُ. وغرضُه في الثَّاني تَقديرُ مَفعولٍ حُذِفَ للدَّلالةِ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (١٠/ ٥٩٨ ـ ٥٩٩)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي (٨/ ٣٥٤).

(٢) أنكر صحة هذا الوجه أبو حيان، وقيل: بل هو صحيح، فالفعل ضُمِّن معنى المبادرة، واللام في ﴿لَهَا﴾ للتقوية، والضمير مفعول مقدَّم. انظر: «البحر المحيط» (١٥/ ٣٦٣)، و«حاشية السيوطي» (٩/ ٢٩٤).

(٣) أي: وصف به المؤمنون. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ١٩٧).

(٤) الاعتياد مستفاد من الجملة الاسمية. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ١٩٧).

بَـدرٍ، أو الجـوعَ حيـنَ دَعـا عليهِم الرَّسـولُ ﷺ فقـالَ: «اللَّهـمَّ اشـدُدْ وَطْأَتَكَ على مُضَـرَ، واجعَلْهـا عليهـم سِـنينَ كسِـنِي يوسُـفَ»[١]، فقُحِطُوا حتَّـى أكَلُـوا الكلابَ والجِيَـفَ والعِظـامَ المُحترِقَةَ[٢].

﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾: فاجؤوا الصُّراخَ بالاستغاثةِ، وهو جوابُ الشَّرطِ، والجملَةُ مُبتدأَةٌ بعدَ «حتَّى»، ويجوزُ أنْ يكونَ الجَوابُ: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا الْيَوْمَ﴾ فإنَّه مُقدَّرٌ بالقولِ[٣]؛ أي: قيلَ لَهُم: لا تَجْأَرُوا ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ؛ أي: لا تجأَرُوا فإنَّه لا يَنفَعُكُم؛ إذ لا تُمْنَعُونَ مِنَّا، أو لا يلحَقُكُم نَصرٌ ومَعونَةٌ مِن جِهَتِنا[٤].

(٦٦) ـ ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ يـعـنــي: القـرآنَ ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾: تُعرِضـونَ مُدْبِرينَ عَن سَـماعِها وتَصديقِها والعمـلِ[٥] بها، و«النُّكوصُ»: الرُّجوعُ قَهْقَـرَى[٦].

---

(١) رواه البخـاري فـي «صحيحـه» (٢٩٣٢)، ومسـلم فـي «صحيحـه» (٦٧٥) من حديـث أبي هريرة رضـي الله عنه.

(٢) روى البخاري (١٠٠٧) من حديث ابن مسعود: «اللَّهُمَّ سَبْعٌ كسَبعِ يوسفَ»، فأَخذتْهم سَنةٌ حَصَّتْ كلَّ شيءٍ، حتى أكلوا الجلودَ والمَيْتَةَ والجِيَفَ... الحديث. وانظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٣).

(٣) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قدره بالقول لأن النهي لا يكون جوابًا بدون الفاء، وحينئذ يكون ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ قيداً للشرط أو بدلاً من ﴿إِذَا﴾ الأولى.

(٤) فالمعنى على الأول: لا يستطيع أحد أن ينصركم علينا، وعلى الثاني: نحن لا ننصركم. انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٦٠٢).

(٥) في نسخة الخيالي: «أو العمل».

(٦) أي: الرجـوع إلـى الـوراء، وهـذا منقول عن ابن أبـي الحديد، وقـال ابن دريد: النكـوص: الرجوع عـن الخيـر، والمعروف عـن الجمهور أن النكـوص كالرجوع وزنـًا ومعنى. انظر: «تـاج العروس» (١٨/ ١٩٠ ـ ١٩١).

(٦٧) ـ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ الضَّميرُ للبيتِ، وشُهرَةُ استكبارِهِم وافتخارِهِم بأنَّهُم قُوَّامُه[1] أغنَتْ عَن سبقِ ذكرِه، أو لـ﴿ءَايَٰتِي﴾ فإنَّها بمعنى: كتابي، والباءُ مُتعلِّقَةٌ بـ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ لأنَّه بمَعنى: مُكَذِّبينَ، أو لأنَّ استكبارَهُم على المسلمينَ حدثَ بسببِ استِماعِهِ، أو بقولِه: ﴿سَٰمِرًا﴾؛ أي: يسمُرونَ بذكرِ القُرآنِ والطَّعنِ فيه، وهو[2] في الأصلِ مَصدرٌ جارٍ[3] على لفظِ الفاعلِ كـ«العافِيَةِ».

وقُرِئَ: «سُمَّرًا»[4] جمعُ سامِرٍ.

﴿تَهْجُرُونَ﴾ من «الهَجْرِ» بالفتح: إمَّا بمعنى القَطيعَةِ، أو الهذيانِ؛ أي: تُعرضونَ عَن القُرآنِ، أو تَهذونَ فـي شَأنِه، أو: «الهُجْرِ» بالضَّمِّ: الفُحْشُ، ويُؤيِّدُ الثَّانيَ قراءةُ نافعٍ: ﴿تُهْجِرُون﴾[5] مِن «أَهْجَرَ».

وقُرِئَ: «تُهَجِّرُون»[6] على المبالغةِ.

(٦٨) ـ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: القرآنَ ليَعلَمُوا أنَّـه الحَقُّ مِـن رَبِّهم بإعجازِ لَفظِه ووُضوحِ مَدلولِه[7] ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن الرَّسولِ والكِتابِ،

---

(١) أي: معتنون بخدمته وسدانته.

(٢) أي: لفظ ﴿سَٰمِرًا﴾.

(٣) في نسخة التفتازاني: «جاء».

(٤) نسبت لابن مسعود وابن عباس وعكرمة وابن محيصن وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠)، و«المحتسب» (٢/ ٩٦).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٦)، و«التيسير» (ص: ١٥٩).

(٦) نسبت لابن مسعود وابن عباس وعكرمة وزيد بن علي وأبي نهيك وابن محيصن وأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠)، وجاءت في «المحتسب» (٢/ ٩٦): (يُهَجِّرون) بالياء.

(٧) والاستفهام خرج هنا إلى معنى الإنكار. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ١٧٥). و«أم» التي بعدها =

أو مِن الأمنِ مِن عَذابِ الله، فلَمْ يَخافُوا كما خافَ آباؤُهُم الأقدمونَ ـ كإسماعيلَ وأعقابِه ـ فآمَنُوا به وبكُتبِهِ ورُسلِهِ وأطاعوه.

(٦٩) ـ ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ﴾ بالأمانةِ والصِّدقِ وحُسنِ الخُلقِ وكمالِ العِلْمِ مع عدمِ التَّعلُّمِ إلى غيرِ ذلك ممَّا هو صِفَةُ الأَنبياءِ ﴿فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دَعواه لأَحدِ هذه الوُجوهِ؛ إذ لا وجهَ لهُ غيرُها، فإنَّ إنكارَ الشَّيءِ قطعًا أو ظنًّا إنَّما يَتَّجِهُ إذا ظهرَ امتِنَاعُهُ بحسبِ النَّوعِ أو الشَّخصِ، أو بُحِثَ عمَّا يَدُلُّ عليه أقصَى ما يُمكنُ فلَمْ يوجَد.

(٧٠) ـ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ فلا يُبالونَ بقولِه، وكانُوا يعلمونَ بأَنَّه أرجَحُهُم عقلًا وأثقبُهم نَظرًا.

﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لأَنَّـه يُخـالِـفُ شَـهواتِهِم وأهواءَهُم فلذلك أَنكرُوهُ، وإنَّما قيَّدَ الحُكمَ بالأكثرِ لأَنَّه كانَ مِنْهُم مَن تركَ الإيمانَ استنكافًا مِن تَوبيخِ قَومِه، أو لِقِلَّةِ فِطنَتِه وعَدمِ فكرَتِه، لا كراهةً للحَقِّ[1].

(٧١) ـ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ بأَنْ كانَ في الواقعِ آلهةٌ شَتَّى ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾؛ كما سبقَ تقريرُهُ في قولِه: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١][2].

= أفادت الإضراب عن هذا الإنكار إلى إنكار آخر، فهي منقطعة بمعنى: بل أجاءهم. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٢٠٢).

(١) في نسخة التفتازاني والفاروقي: «لا لكراهة الحق». قال صاحبُ «الانتصاف»: أحسَنُ من هذا أن يعودَ ضَميرُ ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾ على الجنسِ بجُملَتِه؛ كقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم﴾، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، ويحتملُ أن يرادَ بالأكثر الكلُّ كما حُمِلَ القَليلُ على النَّفي. انظر: «الانتصاف» لابن المنير بهامش «الكشاف» للزمخشري (٣/ ١٩٥). قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وحملُ الأكثرِ على الكلِّ بعيدٌ.

(٢) وهو قوله: لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه الآخر؛ فإن توافقت إرادتهما فالفعل إن كان لهما، =

وقيلَ: لو اتَّبَعَ الحقُّ أهواءَهُم وانقلبَ باطِلًا، لذهبَ ما قامَ به العالمُ فلا يبقى.

أو: لو اتَّبعَ الحقُّ الَّذي جاءَ به مُحمَّدٌ أهواءَهُم وانقلبَ شِركًا، لجاءَ اللهُ بالقيامَةِ وأهلكَ العالمَ مِن فَرْطِ غَضبِه[1].

أو: لو اتَّبعَ اللهُ أهواءَهُم بأَنْ أنزلَ ما يشتهونَه مِن الشِّركِ والمعاصي، لخرجَ عَن الألوهيَّةِ ولم يقدر أن يمسِكَ السَّماواتِ والأرضِ، وهو على أصلِ المُعتزِلَةِ[2].

﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾: بالكتابِ الَّذي هو ذِكْرُهُم؛ أي: وَعظُهُم أو صِيتُهم[3].

أو: الذِّكرِ الَّذي تَمنَّوْهُ بقَوْلِهم: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٦٨].

وقُرِئَ: «بذِكراهُم»[4].

﴿فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾[5] لا يلتفتونَ إليه.

(٧٢) ـ ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ قيلَ: إنَّه قَسيمُ قولِه: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [سبأ: ٨].

﴿خَرۡجٗا﴾: أجرًا على أداءِ الرِّسالَةِ ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾: رزقُه في الدُّنيا، أو ثوابُهُ في العُقْبَى ﴿خَيۡرٞ﴾ لسَعَتِه ودَوامِه، ففيهِ مَندوحَةٌ لك عَن عَطائِهم.

= لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وإن كان لأحدهما، لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح، وإن اختلفت: لزم التمانع والتطارد.

(١) و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ على الأقوال الثلاثة السابقة يراد به خلاف الباطل، لكن أُريد به على القولين الأولين جنس الحق، وعلى الثالث الحق المعهود الذي دعا إليه النبي ﷺ، وعلى القول الذي سيأتي يراد به الربُّ سبحانه وتعالى. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٢٠٣)، و«حاشية الشهاب».

(٢) لأن المتابعة لما يشتهيه الكفرة تنافي الألوهية على زعمهم. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ١٧٥).

(٣) في نسخة الطبلاوي: «أو وصيتهم». قال الشهاب في «الحاشية»: والصِّيت: هو الذِّكر الجميل والفخر، وفي نسخة: «ووصيتهم»، والأُولى أَولى وأصحُّ.

(٤) نسبت لعيسى بن عمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠)، و«البحر» (١٥/ ٤٧٢).

(٥) في نسخة الخيالي: «فهم عن ذكر ربهم معرضون».

و«الخَرْجُ» بإزاءِ الدَّخْلِ، يقالُ لكلِّ ما تُخرِجُه إلى غيرِكَ، و«الخَراجُ» غالبٌ في الضَّريبَةِ على الأرضِ، ففيه إشعارٌ بالكَثرةِ واللُّزومِ، فيكونُ أبلغَ، ولذلكَ عبَّرَ به عَن عطاءِ اللهِ إيَّاه(١).

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿خَرْجًا فخَرْجُ﴾، وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿خَرَاجًا فخَرَاجُ﴾(٢) للمزاوجَةِ(٣).

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تقريرٌ لخيريَّةِ خراجِه.

(٧٣) ـ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهدُ العقولُ السَّليمةُ على استقامتِه، لا عِوَجَ فيه يُوجبُ اتِّهامَهم له.

واعلَمْ أنَّه سُبحانَه ألزمهم الحجَّةَ وأزاحَ العلَّةَ(٤) في هذه الآياتِ بأنْ حصَرَ أقسامَ ما يُؤدِّي إلى الإنكارِ والاتِّهامِ وبيَّنَ انتفاءَها، ما عدا كراهةَ الحقِّ وقلَّةَ الفِطْنةِ.

(٧٤) ـ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: عَنِ الصِّراطِ السَّويِّ ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾: لَعادِلونَ عنه، فإنَّ خوفَ الآخرةِ أقوى البَواعثِ على طلبِ الحقِّ وسُلوكِ طريقِه.

---

(١) قال الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٦٤٦): يعني: أمْ تَسألُهم على هِدَايتِكَ لهم قليلًا من عَطاء الخَلْق، فالكثيرُ من عطاء الخالقِ خَيرٌ.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٤٦).

(٣) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «المزاوجة» بمعنى: المشاكلة، لا ما ذُكر في البديع.

قلت: هي متحققة في القراءتين الأخيرتين؛ قراءة ابن عامر، وقراءة حمزة والكسائي، والمزاوجة في البديع هي: أن يُزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء؛ كقول الشاعر:

إذا ما نَهى النّاهي فلَجَّ بيَ الهوى ... أصاخَت إلى الواشي فلجَّ بها الهجرُ

انظر: «عروس الأفراح» للسبكي (٢/ ٢٤٠).

(٤) أي: أزال ما يتعللون به في عدم القبول له.

(٧٥) ـ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ يعني: القحطَ ﴿لَّلَجُّوا۟﴾: لثَبَتُوا، و«اللَّجاجُ»: التَّمادِي في الشَّيءِ[١] ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: إفراطِهِم في الكُفرِ والاستكبارِ عن الحقِّ وعَداوَةِ الرَّسولِ والمؤمنينَ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ عَن الهُدَى[٢].

رُوِيَ: أنَّهم قُحِطُوا حتَّى أكَلُوا العِلْهِزَ[٣]، فجاءَ أبو سفيانَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: أَنْشُدُكَ اللهَ والرَّحِمَ، ألستَ تَزعُمُ أنَّكَ بُعِثْتَ رحمَةً للعالمينَ؟ قتلْتَ الآباءَ بالسَّيفِ والأبناءَ بالجُوعِ، فنزَلَتْ[٤].

(٧٦) ـ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني: القتلَ يومَ بَدرٍ ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ بَلْ أَقامُوا على عُتُوِّهِم واستِكبارِهِم ـ و«استكانَ»: استَفْعَلَ مِن الكَونِ؛ لأنَّ المفتقِرَ انتقَلَ مِن كَونٍ إلى كَوْنٍ، أو: افتَعَلَ مِن السُّكونِ، أُشبِعَتْ فَتحَتُه[٥] ـ وليسَ مِن عادَتِهِم التَّضرُّعُ، وهو استشهادٌ على ما قبلَهُ[٦].

(٧٧) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني: الجوعَ؛ فإنَّه أَشدُّ مِن

---

(١) في نسخة الفاروقي: «في الغي».

(٢) في هامش نسخة الطبلاوي: «﴿يَعْمَهُونَ﴾؛ أي: يتحيَّرون ويتردَّدون في الطغيان».

(٣) العِلْهِزُ: شَيْءٌ يَتَّخِذُونَه في المَجاعةِ، يَخلِطونَ الدَّمَ بأَوبارِ الإبلِ ثُمَّ يَشوُونَه بالنَّارِ ويَأكُلونَه، وقيل: هو شَيءٌ يَنبُتُ ببلادِ بني سُلَيم. انظر: «النهاية» لابن الأثير مادة: (علهز) (٣/ ٢٩٣).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٩٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه عنه بنحوه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٦٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٢٩)، وانظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩).

(٥) رجَّح الأول ابن المنيِّر، ونقل عن ابن فارس أنه من قول العرب: «كِنتُ لك» إذا خضعت، وعدَّ العلم العراقي الثاني غير فصيح أو ضرورة شعر. انظر: «الإنصاف» لعلم الدين العراقي (١/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٦) وهو قوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾.

الأسرِ والقَتلِ ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: مُتَحَيِّرُونَ آيِسُونَ مِن كُلِّ خيرٍ، حتَّى جاءَكَ أَعْتَاهُم يَستَعْطِفُك.

(٧٨) ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ لتحسُّوا بها ما نُصبَ مِن الآياتِ ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لتَتفكَّرُوا فيها وتَستدلُّوا بها[1]، إلى غيرِ ذلك مِن المَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيَوِيَّةِ.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: تَشكُرونَها شُكرًا قَليلًا؛ لأنَّ العُمدَةَ في شُكرِهَا استِعْمَالُها فيما خُلِقَت لأجلِه، والإذعانُ لِمَانِحها[2] مِن غَيرِ إشراكٍ، و﴿ما﴾ صِلَةٌ للتَّأكيدِ.

(٧٩) ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: خلقَكُم وبثَّكُم فيها بالتَّناسُلِ ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: تُجمَعُونَ يومَ القِيامَةِ بعدَ تَفرُّقِكُم.

(٨٠) ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: ومُختَصٌّ[3] به تَعاقُبُهما لا يقدرُ عليه غيرُه، فيكونُ رَدًّا لنِسبَتِه إلى الشَّمسِ حقيقةً.

أو[4]: ولأمرِه وقضائِهِ تَعاقُبُهُما، أو انتقاصُ أحدِهما وازديادُ الآخرِ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ أنَّ الكُلَّ مِنَّا، وأنَّ قُدرَتَنا تعمُّ المُمكِنَاتِ كلَّها، وأنَّ البعثَ مِن جُملَتِها. وقُرِئَ بالياءِ[5] على أنَّ الخِطابَ السَّابقَ لتَغليبِ المُؤمِنينَ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «لِيُتفكر فيها ويُستدل بها»، وفي نسخة الفاروقي: «لتتفكر فيها وتستدل بها».

(٢) أي: الانقياد لمُعطيها سبحانه وتعالى.

(٣) في نسخة الطبلاوي: «ويختصُّ».

(٤) وُضعت هنا إشارة إلحاق، وأُلحقت في الهامش كلمة: «مجازًا»، وأُسقطت الواو من «ولأمره». وكلمة «مجازًا» أثبتت في المطبوع من البيضاوي على هامش حاشيتي شيخ زاده والقونوي، والظاهر أن الصواب حذفها، لا سيما وقد قال القونوي: وإنما قال: «حقيقة» إذ النسبة إليها مجازًا صحيحة. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٢١٢).

(٥) رواية غير المشهورة عن أبي عمرو. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨).

(٨١) ـ ﴿ بَلْ قَالُوا ﴾؛ أي: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾: آباؤهُم ومَن دانَ بدِينِهم.

(٨٢) ـ ﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ استبعادًا، ولم يتأمَّلُوا أنَّهم كانُوا قبلَ ذلكَ أيضًا ترابًا فخُلِقُوا.

(٨٣) ـ ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾: إلَّا أكاذيبَهُم الَّتي كَتَبُوها، جمعُ أُسطورَةٍ؛ لأنَّه يُستعمَلُ فيما يُتلهَّى به؛ كـ«الأعاجيبِ» و«الأضاحيكِ»[١].

وقيلَ: جمعُ «أَسْطَارٍ» جمعِ «سَطْرٍ».

(٨٤) ـ ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾: إنْ كُنتُم مِن أهلِ العلمِ، أو مِن العالِمينَ بذلك، فيكونُ استهانَةً بهم وتقريرًا لفَرْطِ جهالَتِهم حتَّى جَهِلُوا مثلَ هذا الجليِّ الواضحِ، وإلزامًا بما لا يُمكِنُ لِمَن له مُسْكَةٌ[٢] مِن العلمِ إنكارُه، ولذلك أخبرَ عَن جوابِهم قبلَ أَنْ يُجيبُوا فقالَ:

(٨٥) ـ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأنَّ العقلَ الصَّريحَ قَد اضطرَّهُم بأدنى نظرٍ إلى الإقرارِ بأنَّه خالِقُها.

﴿قُلْ﴾؛ أي: بعدَما قالوه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلَمُوا أنَّ مَن فطرَ الأرضَ ومَن فيها ابتداءً قَدَرَ على إيجادِها ثانيًا، فإنَّ بدءَ الخلقِ ليسَ أهوَنَ مِن إعادَتِه.

وقُرِئَ: «تَتَذكرونَ» على الأصلِ[٣].

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وزن أُفْعُولة ـ لا جمعُه ـ يختصُّ بما يُتلهَّى ويلعب به قولًا كان أو فعلاً، ولذا لم يُجوِّز في أحاديث النبيِّ ﷺ أن يكون جمع «أُحدوثة».

(٢) يقال: «فيه مُسكة من خير» بالضمِّ؛ أي: بقيَّة. انظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٦٠٨).

(٣) لم أجدها، وقرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، والباقون: ﴿تَذَّكَّرون﴾. انظر: «التيسير» (ص: ١٠٨).

(٨٦ ـ ٨٧) ـ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فإنَّها أعظَمُ مِن ذلك ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرٍو ويَعقوبُ بغيرِ لامٍ فيه وفيما بعدَهُ[1] على ما يقتضيهِ لَفظُ السُّؤالِ.

﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ عقابَهُ؛ فلا تُشرِكُوا به بعضَ مَخلوقَاتِه، ولا تُنكِرُوا قُدرَتَهُ على بعضِ مَقدورَاتِه.

(٨٨) ـ ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾: مُلكُه غايةُ ما يُمكِنُ، وقيلَ: خَزائِنُه[2] ﴿وَهُوَ يُجِيرُ ﴾: يغيثُ مَن يَشاءُ ويَحرُسُه ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾: ولا يُغاثُ أَحَدٌ ولا يُمنَعُ منه، وتَعدِيَتُه بـ«على» لتَضمينِ مَعنى النُّصرَةِ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

(٨٩) ـ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾: فمِنْ أينَ تُخْدَعونَ فتُصرفونَ عَن الرُّشدِ مع ظُهورِ الأَمرِ وتَظاهُرِ الأَدلَّةِ؟

(٩٠) ـ ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ مِن التَّوحيدِ والوَعدِ بالنُّشورِ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ حيثُ أَنكَرُوا ذلك.

(٩١) ـ ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ لتَقدُّسِه عَن مُماثلَةِ أَحدٍ ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ يُساهِمُه في الأُلوهيَّةِ.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ جوابُ محاجَّتِهم وجزاءُ شرطٍ حُذِفَ لدلالةِ ما قبلَه عليه؛ أي: لو كانَ معَهُ آلهةٌ كما تقولونَ لَذَهَبَ كلُّ واحدٍ مِنْهُم بما خلقَهُ واستبَدَّ بهِ وامتازَ ملكُهُ عَن ملكِ الآخرينَ، ولَظهرَ ووقعَ[3] بينَهُم التَّحاربُ[4]

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٠)، و«النشر» (٢/ ٣٢٩).

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: يعني: أنَّ صيغة «الملكوت» للمبالغة في الملك، فهي ملك أقصى ما يمكن ملكه، أو «الملكوت» بمعنى: الخزينة.

(٣) «ووقع» ليس في نسخة الخيالي.

(٤) في نسخة التفتازاني والخيالي: «التحازب».

والتَّغالُبُ كما هو حالُ مُلوكِ الدُّنْيا، فلَمْ يَكُن بيدِهِ وحدَهُ مَلَكوتُ كلِّ شَيءٍ، واللَّازمُ باطِلٌ بالإجماعِ[1] والاستقراءِ، وقيامِ البُرهانِ على استنادِ جميعِ المُمكِنَاتِ إلى واجبٍ واحدٍ[2].

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مِن الوَلدِ والشَّريكِ؛ لِمَا سبقَ مِن الدَّليلِ على فَسادِه.

(٩٢) - ﴿عالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، وقد جرَّهُ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو عمرٍو ويعقوبُ وحَفصٌ على الصِّفَةِ[3]، وهو دليلٌ آخرُ على نفيِ الشَّريكِ بناءً على تَوافُقِهِم في أنَّه المُتفرِّدُ بذلك، ولهذا رتَّبَ عليه: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفاءِ[4].

(٩٣) - ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ إنْ كانَ لا بُدَّ مِن أَنْ تُرِيَني؛ لأنَّ «ما» والنُّونَ للتَّأكيدِ، ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ مِن العَذابِ في الدُّنيا والآخرةِ.

(٩٤) - ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قرينًا لَهُم في العَذابِ، وهو: إمَّا لهَضمِ النَّفسِ، أو لأنَّ شؤمَ الظَّلَمَةِ قد يَحيقُ بمَنْ وراءَهُم؛ كقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: المراد بالإجماع إجماع المسلمين ومشركي العرب؛ لأنَّ المراد إلزامهم.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «إلى واجب الوجود».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٠)، و«النشر» (٢/ ٣٢٩).

(٤) وهذه الفاء هي التي يسميها علماء المعاني فاء فصيحة؛ لإفصاحها عن المحذوف الذي هو الشرط؛ أي: فإذا كان الله تعالى عالمًا بالغيب والشهادة تعالى عمَّا يشركون. انظر: «حاشية ابن تمجيد» (١٣/ ٢٢٠).

عن الحَسَنِ: أنَّه تعالى أخبرَ نَبِيَّهُ: أنَّ له في أُمَّتِه نقمَةً، ولم يُطلِعْه على وقتِهَا، فأمرَهُ بهذا الدُّعاءِ[١].

وتكريرُ النِّداءِ وتَصديرُ كُلِّ واحدٍ مِن الشَّرطِ والجزاءِ بِهِ فَضْلُ تَضرُّعٍ وجُؤارٍ[٢].

(٩٥) ـ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ لكنَّا نُؤَخِّرُه عِلمًا بأَنَّ بَعضَهُم أو بعضَ أعْقابِهِم يُؤمنونَ، أو لأنَّا لا نُعَذِّبُهم وأنتَ فيهم، ولعلَّه رَدٌّ لإنكارِهِم الموعودَ واستِعجالِهِم له استهزاءً به.

وقيلَ: قد أراهُ، وهو قتلُ بدرٍ، أو فَتحُ مَكَّةَ.

(٩٦) ـ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهو الصَّفحُ عنها والإحسانُ في مُقابَلَتِها، لكنْ بحيثُ لم يُؤدِّ إلى وهنٍ في الدِّينِ.

وقيلَ: هيَ كَلِمةُ التَّوحيدِ، والسَّيِّئَةُ: الشِّركُ.

وقيلَ: هو الأمرُ بالمعروفِ، والسَّيِّئَةُ: المُنكَرُ.

وهو أبلَغُ مِن: ادفَعْ بالحُسنةِ[٣] السَّيِّئَةَ؛ لِمَا فيه مِن التَّنصيصِ على التَّفضيلِ[٤].

---

(١) ذكره ابن أبي زمنين في «تفسيره» (٢/ ٣٥٩)، وتاج القراء الكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ٧٨٢)، والزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٦٥٣).

(٢) قوله: «وتكرير النداء...» لعل في العبارة نقصًا، ففي «الكشاف» (٥/ ٦٤٥): (وقولهُ: ﴿رَّبِّ﴾ مَرَّتَيْن قَبْل الشرط وقَبْل الجزاء حَثٌّ على فَضلِ تَضرُّعٍ وجُؤارٍ). فسقط عند المصنف ذكر الحث، ولم أجد من نبَّه عليه من أصحاب الحواشي.

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «بالحسنى».

(٤) فالمرادُ أنَّ السيِّئةَ قد تُدفَعُ بصفحٍ وإغضاءٍ، وقد تُدفَعُ بإحسانٍ، وهذه أنواعٌ كلُّها يدفَعُ السيِّئة، وبعضُها أَحسَنُ من بعض، فأُمِرْنَا بالأخذِ بالأحسنِ منها في دَفعِ السَّيِّئةِ، فالمفاضلَةُ بينَ هذه الحَسَناتِ تَجري على حَقيقَتِها. انظر: «الانتصاف» لابن المنير بهامش «الكشاف» (٣/ ٢٠١).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾: بما يَصِفونكَ به، أو بوَصْفِهِم إيَّاكَ على خلافِ حالِكَ، وأقدَرُ على جَزائِهِم فكِلْ إلينا أمْرَهُم.

(٩٧) ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾: وَسَاوِسِهم، وأَصلُ «الهَمزِ»: النَّخسُ، ومنهُ: مِهْمَازُ الرَّائضِ[١]، شبَّهَ حثَّهُم النَّاسَ على المعاصي بهَمْزِ الرَّاضَةِ الدَّوابَّ على المشيِ، والجمعُ[٢] للمرَّاتِ، أو لتَنوُّعِ الوَساوِسِ، أو لتَعدُّدِ المُضافِ إليه.

(٩٨) ـ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ فيَحومُوا حَوْلِي في شَيءٍ مِن الأَحوالِ، وتَخصيصُ حالِ الصَّلاةِ وقراءةِ القرآنِ وحُلولِ الأَجَلِ لأنَّها أَحْرَى الأحوالِ بأَنْ يُخافَ عليه[٣].

(٩٩) ـ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ مُتَعلِّقٌ بـ﴿يَصِفُونَ﴾، وما بينَهُما اعتراضٌ لتَأكيدِ الإغضاءِ بالاستعاذةِ باللهِ مِن الشَّيطانِ أن يزلَّهُ عَن الحلمِ ويُغرِيَه على الانتقامِ، أو بقولِه: ﴿إِنَّهم لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠].

﴿قَالَ﴾ تَحسُّرًا على ما فرَّطَ فيه مِن الإيمانِ والطَّاعةِ لَمَّا اطَّلعَ على الأمرِ: ﴿رَبِّ

---

(١) هو حَدِيدَةٌ تكونُ في مُؤخَّرِ خُفِّ الرائض، ويقال له: مِهْمَز. انظر: «الصحاح» مادة: (همز) (٣/ ٩٠٢).

(٢) أي: جمع ﴿هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾.

(٣) هذا توجيه لما روي من تخصيص الآية؛ فعن ابن عباس والكلبي: عندَ تِلاوة القرآن، وعن عكرمة: عِند النَّزع، وروى الإمام أحمد (٢٢١٧٩) عن أبي أمامة الباهلي قال: كان نبيُّ الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبَّر ثلاث مرَّات، ثم قال: «لا إله إلا الله» ثلاث مرات، و«سبحان الله وبحمده» ثلاث مرات، ثم قال: «أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيمِ من همزِه ونفخِه ونفثِه»، وغيره أحاديث بمعناه. انظر: «النكت والعيون» للماوردي (٤/ ٦٦) عن الكلبي، و«البسيط» للواحدي (١٦/ ٥٨) عكرمة، و«الكشاف» للزمخشري (٥/ ٦٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ٱرۡجِعُونِ﴾: رُدُّونِي إلى الدُّنيَا، والواوُ لتَعظيمِ المُخاطَبِ، وقيلَ: لتكريرِ قولِه: «ارجعنِي»؛ كمَا قيل في: قِفَا وأَطرِقَا[١].

(١٠٠) ـ ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ فـي الإيمانِ الَّذي تَرَكْتُه؛ أي: لعلِّي آتي الإيمانَ وأعمَلُ فيه، وقيلَ: في المالِ أو في الدُّنْيَا. وعنه عليه السَّلامُ: «إذا عاينَ المُؤمِنُ المَلائكَةَ قالُوا: أَنُرْجِعكَ إلى الدُّنيا؟ فيقول: إلى دارِ الهمومِ والأَحزانِ؟ بل قدومًا إلى اللهِ تعالى، وأمَّا الكافِرُ فيقولُ: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾»[٢].

﴿كَلَّآۚ﴾ ردعٌ عَن طلبِ الرَّجعَةِ واستبعادٌ لها.

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ يعني: قـولَه: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ إلى آخرِه، والكَلِمَةُ: الطَّائفَةُ مِن الكلامِ المُنتظِمِ بعضُها مَع بعضٍ.

﴿هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ لا محالةَ لتَسلُّطِ الحسرةِ عليه.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾: أمامَهُـم[٣]، والضَّميـرُ للجَماعـةِ ﴿بَرۡزَخٌ﴾: حائـلٌ بينَهُـم وبينَ الرَّجعَـةِ ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾: يـومِ القِيامَةِ.

وهو إقناطٌ كُلِّيٌّ عَن الرُّجوعِ إلى الدُّنيا لِمَا عُلِمَ أنَّه لا رجعةَ يومَ البَعثِ إلى الدُّنيا، وإنَّما الرُّجوعُ فيه[٤] إلى حياةٍ تَكونُ في الآخرةِ.

---

(١) فقد قيل أصله: قف قف، و: أطرق أطرق. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٠٧).

(٣) «وَراءٌ» من الأَضْداد. يقال للرَّجل: وَراءَك؛ أي: خلْفَكَ، ووَراءَك؛ أي: أَمامك، قال الله عزَ وجلّ: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ فمعناه: من أَمامهم... انظر: «الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٦٨).

(٤) «فيه»: ليس في نسخة الخيالي.

(١٠١) ـ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ لقِيامِ السَّاعةِ، والقراءةُ بفتحِ الواوِ ـ وبه وبكسرِ الصَّادِ[١] ـ تُؤيِّدُ أنَّ ﴿ٱلصُّورِ﴾ أيضًا جمعُ الصُّورَةِ[٢].

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾ تنفعُهُم؛ لزَوالِ التَّعاطُفِ والتَّراحُمِ مِن فرطِ الحيرَةِ واستيلاءِ الدَّهشَةِ بحيثُ يَفِرُّ المَرءُ مِن أَخيهِ وأُمِّه وأَبيهِ وصاحِبَتِه وبنيه، أو: يَفتَخِرُونَ بها.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ كما يفعلونَ اليومَ ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: ولا يَسأَلُ بَعضُهُم بَعضًا لاشتغالِهِ بنَفسِهِ.

وهو لا يُناقِضُ قولَه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧] لأنَّه عندَ النَّفخَةِ، وذلك بعدَ المُحاسبَةِ أو دخولِ أهلِ الجنَّةِ الجنَّةَ والنَّارِ النَّارَ.

(١٠٢) ـ ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: مَوزوناتُ عَقائدِهِ وأَعمالِه[٣]؛ أي: ومَن كانَتْ لَهُ عَقائِدُ وأَعمالٌ صالحةٌ يكونُ لها وزنٌ عندَ اللهِ وقَدْرٌ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: الفائزونَ بالنَّجاةِ والدَّرجاتِ.

---

(١) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٠) الأولى عن ابن عياض والحسن، والثانية عن أبي رزين.

(٢) أي: مثل: الصُّوَر، وقد تبع في هذا التأييد الزمخشري في «الكشاف» (٥/ ٦٥٨)، وسكت عن القول الأشهر أنَّه القَرْنُ، ويشهد له ما روى الترمذي (٢٤٣١) وابن حبان (٨٢٣) وغيرهما عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنى جبهته ينتظر متى يُؤمر أن ينفخ؟» قال: قلنا: يا رسول الله، فما نقول يومئذ؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل».

(٣) ذكر معناه الثعلبي في «تفسيره» (١٢/ ٣٠١)، والواحدي في «البسيط» (٩/ ٢٣ و٢٧)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٢١٥)، جميعهم عن ابن عباس عند تفسير قوله: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ من سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عنه ثمَّة. وجزم الطيبي هنا بأنَّ المَوازينَ: ما تُوزنُ بِهِ حسناتهم، وقال: هذا هو الحَقُّ الذي لا محيدَ لأهلِ الحَقِّ عنهُ. انظر: «فتوح الغيب» (١٠/ ٦٢٩).

(١٠٣) ـ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: ومَن لَمْ يَكُن له ما يكونُ له وزنٌ ـ وهُم الكُفَّارُ لقولِه: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] ـ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: غَبَنوهَا حيثُ ضَيَّعُوا زمانَ استِكْمَالِها وأبطَلُوا استعدادَها لنيلِ كَمالِها.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ بَدَلٌ مِن الصِّلَةِ[١]، أو خبرٌ ثانٍ لـ﴿أولئك﴾.

(١٠٤) ـ ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: تحرقُها، و«اللَّفحُ» كـ«النَّفحِ» إلَّا أنَّه أشَدُّ تأثيرًا[٢].

﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ مِن شِدَّةِ الاحتراقِ. والكُلُوحُ: تَقلُّصُ الشَّفتينِ عَن الأسنانِ[٣].

وقُرِئَ: «كَلِحُون»[٤].

(١٠٥) ـ ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمارِ القَولِ؛ أي: يقالُ لَهُم: ألم تَكُن ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ تأنيبٌ وتَذكيرٌ لهم بما استَحقُّوا هذا العذابَ لأَجْلِه.

(١٠٦) ـ ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾: مَلَكَتْنَا بحيثُ صَارَتْ أحوالُنا مُؤدِّيَةً إلى سوءِ العاقِبَةِ.

---

(١) قال أبو حيَّان: هذا بَدلٌ غَريبٌ، وحَقيقَتُه أن يكونَ البَدلُ الفعلَ الذي يتعلَّقُ به ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾؛ أي: استقرُّوا في جهنَّمَ، وكأنَّه مِن بَدلِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وهما لِمُسَمًّى واحدٍ عَلى سَبيلِ المَجازِ؛ لأنَّ مَن خَسِرَ نفسَهُ استقرَّ في جَهنَّمَ. انظر: «البحر المحيط» (١٥/ ٤٨٨).

(٢) هـذا قـول الزجـاج، وقال ابن الأعرابي: اللفح لكل حـار، والنفح لكل بـارد. انظـر: «تهذيب اللغة» (٥/ ٤٨).

(٣) روى الإمام أحمد (١١٨٣٦) عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، قال: «تَشْوِيهِ النَّارُ، فَتَقَلَّصُ شَفَتُهُ الْعُلْيَا حَتَّى تَبْلُغَ وَسَطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتُهُ السُّفْلَى حَتَّى تَضْرِبَ سُرَّتَهُ»، ورواه الترمذي (٢٥٨٧) والحاكم (٢٩٧١). قال الترمذي: «حديث حسن غريب». وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١) عن أبي حيوة.

وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿شَقاوَتُنا﴾ بالفتحِ كالسَّعادَةِ[1]، وقُرِئَ بالكسرِ كالكِتابَةِ[2].

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحقِّ.

(١٠٧) ـ ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾: مِن النَّارِ ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التَّكذيبِ ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأَنفُسِنا.

(١٠٨) ـ ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾: اسكُتوا سُكوتَ هَوانٍ، فإنَّها ليسَتْ مقامَ سُؤالٍ، مِن «خَسَأْتُ الكلبَ ـ إذا زَجَرْتُه ـ فخَسَأَ».

﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفعِ العَذابِ، أو: لا تُكلِّمونِ رأسًا.

قيلَ: إنَّ أَهلَ النَّارِ يقولونَ ألفَ سنَةٍ: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]، فيُجابونَ: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]، فيقولونَ ألفًا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، فيُجابونَ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ ...﴾ [غافر: ١٢]، فيقولونَ ألفًا: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فيجابونَ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فيقولونَ ألفًا: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ [إبراهيم: ٤٤] فيُجابونَ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، فيقولونَ ألفًا: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧]، فيُجابونَ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ [فاطر: ٣٧]، فيقولونَ ألفًا: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، فيُجابونَ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾، ثمَّ لا يكونُ لهم فيها إلَّا زَفيرٌ وشَهيقٌ وعواءٌ[3].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(٢) نسبت لقتادة ورواية عن الحسن. انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٧)، و«البحر» (١٥/ ٤٨٩).

(٣) رواه بنحوه سعيد بن منصور كما في «الدر المنثور» (٦/ ١١٩)، ومن طريقه البيهقي في «البعث» (٦٠١)، عن محمد بن كعب القرظي.

ورواه عنه أيضًا ابن المبارك في الزهد (٣١٩ ـ زوائد نعيم)، ومن طريقه ابن أبي الدُّنيا في «صفة النار» (٢٥١)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ١١٩)، وقد سقط من مطبوع «الزهد» بعضه لسقط في المخطوط نبه إليه المحقق. وجاء في آخره: «فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء منهم، وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض، فأطبقت عليهم».

(١٠٩ ـ ١١٠) ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾: إنَّ الشَّأنَ، وقُرِئَ بالفَتحِ[١]؛ أي: لأنَّـه ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ يعني: المؤمنينَ، وقيلَ: الصَّحابةَ، وقيلَ: أهلَ الصُّفَّةِ.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ هزؤًا، وقرأ نافِعٌ وحمزَةُ والكِسائيُّ هاهنا وفـي ﴿ص﴾ بالضَّمِّ[٢]، وهـمـا مَصدرًا: سَخِرَ، زِيدَت فيهِمَا ياءُ النَّسَبِ للمُبالغَةِ، وعندَ الكوفيِّينَ المَكسورُ بمعـنى: الهُزْءِ، والمضمومُ مِن «السُّخرَةِ» بمعنى: الانقيادِ والعُبودِيَّةِ[٣].

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ من فرطِ تَشاغُلِكُم بالاستهزاءِ بـه، فلَمْ تَخافـونـي فـي أَوْلِيَائِي ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً بهم.

(١١١) ـ ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على أذاكُم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾: فوزَهُم بمَجامِعِ مُراداتِهِم مَخصوصينَ بهِ، وهو[٤] ثاني مَفعولَيْ ﴿جَزَيْتُهُمُ﴾.

---

(١) نسبت لأبي بن كعب رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١)، و«المحتسب» (٢/ ٩٨).

(٢) أي: بضم السين، والباقون بكسرها. انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(٣) نقل هذا التفريق الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ٢٤٣)، لكن لا يفهم من كلامه أنه مذهبه أو مذهب الكسائي، وهما رأس الكوفيين، وقال النحاس في «إعراب القرآن» (٣/ ٨٧): فرَّق أبو عمرو بينهما؛ فجعل المكسورة من جهة التهزؤ والمضمومة من جهة السخرة، ولا يَعرف هذا التفريقَ الخليلُ وسيبويه رحمهما الله، ولا الكسائي ولا الفراء. ووقع هذا التفريق منسوبًا إلى أبي زيد ويونس في «تهذيب اللغة» للأزهري (٧/ ٧٨)، وأبو عمرو وأبو زيد ويونس من أئمة البصريين، لكن نقله عن الكسائي والفراء الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٥٦٨) والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٩٤) وغيرهما، فنُسب للكوفيين بعد ذلك.

(٤) في نسخة الفاروقي: «وهذا». والمراد: المصدر المؤول من «أنَّ» واسمها وخبرها، فاختار المصنف أنه مفعول ثان، واستظهر أبو حيان أن المراد: جزيتهم لأنَّهم هم الفائزون، فهو منصوب بنزع الخافض، وسبق إلى ذكر الوجهين مكي. انظر: «مشكل إعراب القرآن» لمكي (٢/ ٥٠٦)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٥/ ٤٩٢).

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ بالكَسرِ استِئنافًا[١].

(١١٢) ـ ﴿قَٰلَ﴾؛ أي: اللهُ، أو المَلَكُ المأمورُ بسُؤالِهم.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ على الأمرِ[٢] للمَلَكِ، أو لبعضِ رُؤساءِ أهلِ النَّارِ.

﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أحياءً، أو أمواتًا في القُبورِ ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييزٌ لـ﴿كَمۡ﴾.

(١١٣) ـ ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ استِقصَارًا لِمُدة لبثِهم فيها بالنِّسبَةِ إلى خُلودِهِم في النَّارِ، أو لأنَّها كانَتْ أيَّامَ سُرورِهِم وأيَّامُ السُّرورِ قِصَارٌ، أو لأنَّها مُنقَضِيَةٌ والمُنقَضِي في حُكمِ المَعدُومِ.

﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ الَّذينَ يَتمكَّنُونَ مِن عَدِّ أيَّامِها إن أردتَ تَحقيقَها، فإنَّا لِمَا نحنُ فيه من العَذابِ مَشغولونَ عَن تَذكُّرِها وإحصائِها، أو: الملائكةَ الَّذينَ يعدُّونَ أعمارَ النَّاسِ ويحصونَ أعمالَهُم.

وقُرِئَ: «العَادِينَ» بالتَّخفيفِ[٣]؛ أي: الظَّلَمَةَ فإنَّهُم يقولونَ ما نقولُ، و: «العَادِيِّينَ»[٤]؛ أي: القُدَماءَ المُعَمَّرينَ فإنَّهُم أيضًا يَسْتقصِرُونَ.

(١١٤) ـ ﴿قَٰلَ﴾ وفي قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ: ﴿قل﴾[٥]: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تَصديقٌ لهم في مَقالِهم[٦].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٨ ـ ٤٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(٣) نسبت للحسن ورواية عن الكسائي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١).

(٤) انظر: «الكشاف» (٥/ ٦٦٦) دون نسبة، وذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١)، عقب القراءة السابقة على أنها لغة فقال: (ولغةٌ أخرى: العاديِّين؛ أي: القدماء).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٤٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٠).

(٦) في نسخة الفاروقي: «تقالّهم».

(١١٥) ـ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ توبيخٌ علـى تَغافُلِهِم، و﴿عَبَثًا﴾ حالٌ بمعنى: عابثينَ، أو مَفعولٌ لَـهُ؛ أي: لـم نَخْلُقكُم تَلَهِّيًا بكم، وإنَّما خلقناكُم لنَتعبَّدَكُم ونُجازِيَكُم على أعمالِكُم، وهو كالدَّليلِ على البَعثِ.

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ مَعطوفٌ على ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أو ﴿عَبَثًا﴾.

وقرأ حمزَةُ والكِسائيُّ ويَعقوبُ بفَتحِ التَّاءِ وكسرِ الجِيمِ[1].

(١١٦ ـ ١١٨) ـ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ الَّذي يحقُّ له الملكُ مُطلقًا، فإنَّ مَن عَداهُ مَملوكٌ بالذَّاتِ مالكٌ بالعَرَضِ، مِن وجهٍ دونَ وَجهٍ، وفي حالٍ دونَ حالٍ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنَّ ما عَداهُ عَبيدٌ.

﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ الَّذي يُحيطُ بالأجرامِ، وينزلُ منه محكَماتُ الأقضِيَةِ والأحكامِ، ولذلك وصفَهُ بالكرمِ، أو لِنسبَتِه إلى أكرَمِ الأكرَمِينَ.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[2] على أنَّه صِفَةُ الرَّبِّ.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: يعبدْهُ إفرادًا أو إشـراكًا ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صِـفَةٌ أُخرَى لـ﴿إِلَٰهًا﴾ لازمةٌ لَهُ؛ فإنَّ الباطِلَ لا بُرهانَ به، جيءَ بها للتَّأكيدِ وبناءِ الحُكمِ عليه؛ تنبيهًا على أنَّ التَّديُّنَ بما لا دليلَ عليه ممنوعٌ فضلًا عمَّا دلَّ الدَّليلُ على خلافِه، أو اعتراضٌ بينَ الشَّرطِ والجَزاءِ لذلك[3].

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ فهو مُجازٍ له مقدارَ ما يَستَحِقُّه.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٠)، و«التيسير» (ص: ١٦٠)، و«النشر» (٢/ ٣٠٩).

(٢) نسبت لأبان بن تغلب وابن محيصن وأبي جعفر المدني وإسماعيل عن ابن كثير. انظر: «المختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٠١).

(٣) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «اعتراضٌ» معطوف على قوله: «صفة»، وقوله: «لذلك»؛ أي: للتأكيد؛ لأن الاعتراض لا يفيد غير التأكيد.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾: إنَّ الشَّأنَ. وقُرِئَ بالفَتحِ[١] على التَّعليلِ، أو الخبرِ؛ أي: حسابُهُ عدمُ الفلاحِ.

بدأَ السُّورَةَ بتقريرِ فَلاحِ المؤمنينَ وختَمَها بنَفيِ الفَلاحِ عَن الكافِرينَ، ثمَّ أمرَ رَسُولَهُ بأَنْ يَستَغفِرَهُ ويَستَرْحِمَه فقالَ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ المؤمنينَ بشَّرتْهُ الملائكةُ بالرَّوْحِ والرَّيحانِ وما تَقَرُّ به عينُهُ عندَ نُزولِ ملكِ المَوتِ»[٢].

وعنه عليه السَّلامُ أنَّه قالَ: «لقد أُنزِلَتْ عليَّ عَشرُ آياتٍ مَن أَقامَهُنَّ دخلَ الجنَّةَ»، ثمَّ قرأَ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ حتَّى ختمَ العشرَ[٣].

ورُوِيَ: أنَّ أوَّلَها وآخرَهَا مِن كُنوزِ الجنَّةِ، مَن عَمِلَ بثلاثِ آياتٍ مِن أوَّلِها، واتَّعَظَ بأربعٍ مِن آخرِهَا، فقَدْ نَجا وأَفْلَحَ[٤].

***

---

(١) نسبت لقتادة وعيسى والحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٨)، و«المحتسب» (٢/ ٩٨).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٨/ ٤٢٢ ـ ٤٢٤) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. وانظر: «الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٣) رواه الترمذي في «سننه» (٣١٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٤٤٣)، وقال: حديث منكر، وصححه الحاكم في «المستدرك» (١٩٦١) و(٣٤٧٩) وتعقبه الذهبي بأن عبد الرزاق قدح في شيخه يونس بن سليم وقال: لا أظنه شيئًا.

(٤) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٠٩): غريب جداً.

(٢٣) سورة المؤمنون مكية
وآياتها ثماني عشرة ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣
وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١ ﴾

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أنزل عليَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر[1]. وقال النسائي في تفسيره عن يزيد بن بابنوس، قال، قلنا لعائشة أم المؤمنين: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قد أفلح المؤمنون - حتى انتهت إلى - والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.
وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، ملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقي، قالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، فقال الله: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال ابن عباس: ﴿خاشعون﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي (٢) أخرجه ابن أبي الدنيا ورواه الحافظ البزار والطبراني بنحوه.

خائفون ساكنون، وعن علي: الخشوع خشوع القلب، وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح. وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزلت هذه الآية: ﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين؛ كما قال النبي ﷺ: «حبّب إليَّ الطيب، والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة»(١). وكان رسول الله ﷺ يقول: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»(٢).

وقوله تعالى: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ أي عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك، وقوله: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾، وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا والله أعلم. وقوله: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، أو ما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي غير الأزواج والإماء ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي المعتدون. وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾.

وقوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ إي إذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»، وقوله: ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»(٣)، وفي مستدرك الحاكم قال: «الصلاة في أول وقتها»، وقال ابن مسعود ومسروق في قوله: ﴿والذين هم على صلواتهم

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد والنسائي عن أنس بن مالك مرفوعاً

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

يحافظون﴾ يعني مواقيت الصلاة، وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن». ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾، وثبت في الصحيحين: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن». وقال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهـل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أولئك هم الوارثون﴾[1]». وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبني بيته الذي في النار، فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم أطاعوا ربهم عزّ وجلّ بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقال هذا فكاكك من النار»، فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك، قال: فحلف له[2]. **قلت**: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾، وكقوله: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ وقد قال مجاهد: الجنة هي الفردوس، وقال بعض السلف: لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون، وقال ابن عباس ﴿من سلالة من طين﴾ قال: من صفوة الماء، وقال مجاهد: من سلالة أي من مني بني آدم، وقال ابن جرير: إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه، وقال قتادة: استل آدم من الطين، وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمإ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾، وقال النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»[3]. ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ هذا الضمير عائد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم عن أبي بردة عن أبيه مرفوعاً.

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ أي ضعيف كما قال: ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين﴾ يعني الرحم معد لذلك مهيأ له، ﴿إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون﴾ أي مدة معلومة وأجل معين، حتى استحكم ونقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة، ولهذا قال ههنا ﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أي ثم صيّرنا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة، قال عكرمة، وهي دم ﴿فخلقنا العلقة مضغة﴾ وهي قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فخلقنا المضغة عظاماً﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها. وفي الصحيح: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجْب[1] الذَّنب، منه خلق وفيه يركب». ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. عن ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: إذ أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث، فذلك قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني نفخنا فيه الروح، وقال ابن عباس: يعني فنفخنا فيه الروح[2]؛ واختاره ابن جرير، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾: يعني ننقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلا، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرماً، وفي الصحيح: «إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها»[3]

وقال عبد الله بن مسعود: إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوماً، ثم تنحدر في الرحم فتكون علقة[4]، وفي الصحيح: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول يا رب ماذا؟ شقي أم سعيد، أذكر أم أنثى؟ فيقول الله فيكتبان، ويكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه، ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص»[5] وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله خلقها قال: أي رب ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ قال: فذلك يكتب في بطن أمه»[6]. وقوله: ﴿فتبارك

(١) ما استدق في مؤخره.
(٢) وكذا روي عن أبي سعيد الخدري، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والضحاك، والحسن البصري.
(٣) أخرجاه في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ورواه الإمام أحمد.
(٤) رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً
(٥) الحديث رواه مسلم والإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري مرفوعاً
(٦) الحديث أخرجاه في الصحيحين ورواه الحافظ البزار واللفظ له.

الله أحسن الخالقين﴾: يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾، وقوله: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ يعني النشأة الآخرة، ﴿ثم الله ينشيء النشأة الآخرة﴾ يعني يوم المعاد، وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفي كل عامل عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ۝١٧﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السماوات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السماوات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقوله: ﴿سبع طرائق﴾ قال مجاهد: يعني السموات السبع وهذه كقوله تعالى: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن﴾، ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾، ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾، وهكذا قال ههنا ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾ أي أنه سبحانه لا يحجب عنه سماء ولا أرض، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار، ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ۝١٨ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝١٩ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ۝٢٠ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر، أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها الأرض الجرز يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور، وقوله: ﴿فأسكناه في الأرض﴾ أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية إليه، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى، وقوله: ﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا، ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا،

ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، ويسقي به الزروع والثمار، تشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ﴿ذات بهجة﴾ أي ذات منظر حسن، وقوله: ﴿من نخيل وأعناب﴾ أي فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره، وقوله: ﴿لكم فيها فواكه كثيرة﴾ أي من جميع الثمار، كما قال: ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات﴾، وقوله: ﴿ومنها تأكلون﴾ معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون، وقوله: ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ يعني الزيتونة، والطور هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري عنها سمي جبلاً لا طوراً والله أعلم. ﴿وطور سيناء﴾ هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون، وقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾ أي تنبت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان بيده أي يده، ولهذا قال: ﴿وصبغ﴾ أي أدم قاله قتادة ﴿للآكلين﴾ أي فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة»[1]. وروى عبد ابن حميد في مسنده عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة».

وقوله: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم﴾، وقال تعالى: ﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ۝ ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ أي ألا تخافون من الله في إشراككم به؟ فقال الملأ – وهم السادة والأكابر منهم – ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدي مرفوعاً.

يعنون يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحي إليه دونكم ؟! ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ أي لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملَكاً من عنده ولم يكن بشراً ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي ببعثة البشر ﴿في آبائنا الأولين﴾ يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية، وقوله: ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي ﴿فتربصوا به حتى حين﴾ أي انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه .

* قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾، وقال ههنا: ﴿رب انصرني بما كذبون﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي من سبق عليه القول بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم، وقوله: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ أي عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذنك رأفة بقومك وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد تقدمت القصة مبسوطة في سورة هود بما يغني عن إعادة ذلك ههنا، وقوله: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾، كما قال: ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾، وقد امتثل نوح عليه السلام هذا، كما قال تعالى: ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها﴾، فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه. ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي إن في هذا الصنيع – وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين – لآيات، أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء، وقوله: ﴿وإن كنا لمبتلين﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾
إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ
لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ
فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود، لقوله: ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق﴾، وأنه تعالى أرسل فيهم رسولاً منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبوه وخالفوه وأبوا اتباعه لكونه بشراً مثلهم، وكذبوا بلقاء الله، وقالوا: ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون﴾ أي بعيد ذلك، ﴿إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً﴾ أي فيما جاءكم به من الرسالة والإخبار بالمعاد، ﴿وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرني بما كذبون﴾ أي استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه، ﴿قال عما قليل ليصبحن نادمين﴾ أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به، ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق﴾ أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة تدمر كل شيء بأمر ربها، ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾، وقوله: ﴿فجعلناهم غثاء﴾ أي صرعى هلكى كغثاء السيل وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه، ﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾، كقوله: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ
مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين﴾ أي أمماً وخلائق ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ يعني بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه، قبل كونهم أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ قال ابن عباس: يعني يتبع بعضهم بعضاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾، وقوله: ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾ يعني جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾، وقوله: ﴿فأتبعنا بعضهم بعضاً﴾ أي أهلكناهم، كقوله: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾، وقوله: ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ أي أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٤٩﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم. فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾.

۞ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ قال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات، ﴿ذات قرار﴾ يقول ذات خصب ﴿ومعين﴾ يعني ماء ظاهراً[1]، وقال مجاهد: ربوة مستوية. وقال سعيد بن جبير ﴿ذات قرار ومعين﴾: استوى الماء فيها، وقال مجاهد وقتادة: ﴿ومعين﴾ الماء الجاري، ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة؟ فقال سعيد بن المسيب: هي دمشق، وعن ابن عباس ﴿ذات قرار ومعين﴾ قال: أنهار دمشق، وقال مجاهد ﴿وآويناهما إلى ربوة﴾ قال: عيسى بن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها، وقال عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: هي الرملة من فلسطين، وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس قال: المعين الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قد جعل ربك تحتك سريا﴾، وكذا قال الضحاك وقتادة: إلى ربوة ذات قرار ومعين، هو بيت المقدس، فهذا والله أعلم هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣ فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال،

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة.

فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً، قال الحسن البصري في قوله ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ قال: أمَا والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير والضحاك ﴿كلوا من الطيبات﴾: يعني الحلال، وكان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه، وفي الصحيح: «وما من نبي إلا رعى الغنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»، وفي الصحيح: «إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده»، وقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيِّب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»[1]؟! وقوله: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾، وقوله: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ أي الأمم التي بعثت إليهم الأنبياء ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي في غيهم وضلالهم ﴿حتى حين﴾ أي إلى حين هلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾، وقال تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد، لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء، ولهذا قال: ﴿بل لا يشعرون﴾، كما قال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾، وقال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة. قال قتادة: مكرٌ والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: «غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[2]

---

(١) رواه مسلم والترمذي والإمام أحمد واللفظ له. (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن ابن مسعود مرفوعاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً، ﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ أي أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله، وأنه لا نظير له ولا كفء. وقوله: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «لا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عزَّ وجلَّ»[1]. ﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾»، وقد قرأ آخرون هذه الآية ﴿والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة﴾: أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قرأها كذلك، والمعنى على القراءة الأولى وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر؛ لأنه قال: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين، والله أعلم.

وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٍ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا، أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها: أي إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم، التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا

---

(١) ورواه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه وقال: لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم.

قال: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ يعني كتاب الأعمال، ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكراً على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بل قلوبهم في غمرة﴾ أي في غفلة وضلالة من هذا، أي القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ، وقوله: ﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾، قال ابن عباس: ﴿ولهم أعمال﴾ أي سيئة من دون ذلك يعني الشرك ﴿هم لها عاملون﴾، قال: لا بد أن يعملوها، وقال آخرون ﴿ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾: أي قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة العذاب[1]؛ وهو ظاهر قوي حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»، وقوله: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾ يعني حتى إذا جاء مترفيهم - وهم المنعمون في الدنيا - عذابُ الله وبأسُه ونقمتُه بهم ﴿إذا هم يجأرون﴾ أي يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿ذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً﴾، وقال تعالى: ﴿وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾، وقوله: ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ أي لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾: أي إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم، ﴿ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾، وقوله: ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. وقيل: إنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وقيل المراد بقوله: ﴿مستكبرين به﴾ أي بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، كما قال ابن عباس: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله ﴿سامراً﴾ قال: كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه[2]

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾
أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا
فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ
عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾

---

(١) وروي نحو هذا عن مقاتل والسدي وابن أسلم.

(٢) أخرجه النسائي في التفسير عن ابن عباس.

يقول تعالى منكراً على المشركين، في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، ثم قال منكراً على الكافرين من قريش: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ أي أنهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم، ولهذا قال (جعفر بن أبي طالب) رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وهكذا قال (المغيرة بن شعبة) لنائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال (أبو سفيان) لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ، ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك. وقوله: ﴿أم يقولون به جنة﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ، أنه تقوّل القرآن أي افتراه من عنده، أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولون في القرآن، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين، ولهذا قال: ﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾، قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره، فقال نبي الله ﷺ: «وإن كنت كارهاً». وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعده ذلك وكبر عليه، فقال له نبي الله ﷺ: «أرأيت لو كنت في طريق وعر وعث، فلقيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه»؟ قال: نعم، قال: «فوالذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإني لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه». وقوله: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ قال مجاهد والسدي: الحق هو الله عزَّ وجلَّ، والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافهم، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، وقال تعالى: ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق﴾ الآية.

ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وتدبيره لخلقه تعالى وتقدس، ولهذا قال: ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ أي القرآن ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾، وقوله: ﴿أم تسألهم خرجا﴾ قال الحسن: أجراً، وقال قتادة: جُعْلا ﴿فخراج ربك خير﴾ أي أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾، وقال: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾، وقال: ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾، وقوله: ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ۝ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾. عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مَثَل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن أوردتكم رياضاً معشبة وحياضاً

رواء تتبعوني ؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم وأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني ؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لنتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه[1]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إني ممسك بحجزكم هلمَّ عن النار، هلمَّ عن النار وتغلبوني، تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض، فتردون عليّ معاً وأشتاتاً، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين أي رب قومي، أي رب أمتي، فيقال: يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم»[2].

وقوله: ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ أي لعادلون جائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها، وقوله: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم، بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون، قال ابن عباس: كل ما فيه (لو) فهو مما لا يكون أبداً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم، ما استكانوا أي ما خشعوا ﴿وما يتضرعون﴾ أي ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم﴾ الآية. عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز يعني الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا﴾[3]، وأصله في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف». وقوله: ﴿حتى إذا

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) أخرجه الحافظ الموصلي وقال علي بن المديني: هذا حديث حسن الإسناد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والنسائي، وأصله في الصحيحين.

فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾، أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم، ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهي العقول التي يذكرون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في برئه الخليقة وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، ولهذا قال: ﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾ أي يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما كقوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار﴾ الآية، وقوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء وخضع له كل شيء؟ ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل، إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ يعنون الإعادة محال إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم، وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم ﴿أئذا كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذاً كرة خاسرة﴾، ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ الآيات

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ﴿قل لمن الأرض ومن فيها؟﴾ أي من مالكها الذي خلقها، ومن فيها من الحيوانات والنباتات، والثمرات وسائر صنوف المخلوقات؟ ﴿إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله﴾ أي فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قل أفلا تذكرون﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره، ﴿قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟﴾ أي من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات؟ ومن هو رب العرش العظيم يعني الذي هو سقف المخلوقات؟ كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سماواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة[1]. وفي الحديث الآخر: «ما السماوات السبع والأرضون

(١) أخرجه أبو داود في سننه.

السبع وما بينهنّ وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة »، عن ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه، وقال مجاهد: ما السماوات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر قدره أحد إلا الله عزّ وجلّ. ولهذا قال ههنا: ﴿ورب العرش العظيم﴾ أي الكبير، وقال آخر السورة ﴿رب العرش الكريم﴾ أي الحسن البهي فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع، والعلو والحسن الباهر؛ قال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه، وقوله: ﴿سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾ أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

قوله: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ أي بيده الملك ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ أي متصرف فيها، وكان رسول الله ﷺ يقول: « لا والذي نفسي بيده »، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: « لا ومقلب القلوب »، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم أجار أحداً لا يخفر في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وهو يجير ولا يجار عليه﴾ أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾، ﴿سيقولون لله﴾ أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿قل فأنّى تسحرون﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟ ثم قال تعالى: ﴿بل أتيناهم بالحق﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه﴾ فالمشركون إنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾.

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ أي لو قدّر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، غاية الكمال ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، والمتكلمون عبروا عنه بدليل (التمانع) وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً؛ فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً، ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يعلم ما يغيب

عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فتعالى عما يشركون﴾ أي تقدس وتنزه وتعالى وعزَّ وجلَّ عما يقول الظالمون والجاحدون .

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿رب إما تريَنِّي ما يوعدون﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم؛ كما جاء في الحديث: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون»[1]. وقوله تعالى: ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ أي لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن، ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال تعالى: ﴿إدفع بالتي هي أحسن السيئة﴾، وهذا كما قال: ﴿ادفع بالتي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، وقوله تعالى: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل، ولا ينقادون بالمعروف، وفي الصحيح: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه». وقوله تعالى: ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، ولهذا روي أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم، ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»[2]. وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ كقوله ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾، وقال تعالى: ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وصححه .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه .

(٣) ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن غريب .

يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾، وقال تعالى: ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ الآية، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وهم في غمرات عذاب الجحيم، وقوله ههنا: ﴿كلا إنها كلمة هو قائلها﴾ كلا حرف ردع وزجر أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه. وقوله تعالى: ﴿إنها كلمة هو قائلها﴾ قال ابن أسلم: أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله ﴿كلا﴾ أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحاً ولكان يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾. قال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ، فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار. وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة: إذا قال الكافر رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً يقول الله تعالى: كلا كذبت، وكان العلاء بن زياد يقول: لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى. وقال قتادة: والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط، فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله. وعن أبي هريرة قال: إذا وضع - يعني الكافر - في قبره فيرى مقعده من النار، قال: فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً، قال: فيقال: قد عمرت ما كنت معمراً، قال: فيضيّق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع تهوي إليه هوام الأرض وحيَّاتها وعقاربها[1]. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود، أو دُهْم. حية عند رأسه، وحية عند رجليه، يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾[2]. قال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم، وقال أبو صخر: البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة فهم مقيمون إلى يوم يبعثون، وفي قوله تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال تعالى: ﴿من ورائهم جهنم﴾، وقال تعالى: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾، وقوله تعالى: ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث: «فلا يزال معذباً فيها» أي في الأرض.

* فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موقوفاً.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عائشة موقوفاً

أي لا تنفع الإنسان يومئذ قرابة ولا يرثي والد لولده ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميما يبصّرونهم﴾ أي لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، ولو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾ الآية. وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾(١). وروى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني يغيظني ما يغيظها وينشطني ما ينشطها، وإن الانساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي وصهري»؛ وهذا الحديث له أصل في الصحيحين: «فاطمة بضعة مني يريبني ما يريبها ويؤذيني ما آذاها». وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه أنه لما تزوج (أم كلثوم) بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: أما والله ما بي إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»(٢)، وروى الحافظ ابن عساكر عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري».

وقوله تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قال ابن عباس ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة، ﴿ومن خفت موازينه﴾: أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خابوا وهلكوا وباعوا بالصفقة الخاسرة. عن أنس بن مالك يرفعه قال: إن لله ملكاً موكلاً بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خفّ ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً(٣). قال تعالى: ﴿في جهنم خالدون﴾ أي ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون ﴿تلفح وجوههم النار﴾، كما قال تعالى: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾، وقال تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ الآية. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن جهنم لما سيق لها أهلها، تلقّاهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب»(٤). وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى ﴿تلفح وجوههم النار﴾ قال: تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم(٥) وقوله تعالى: ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال ابن عباس: يعني عابسون، وقال ابن مسعود ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال: ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه، وعن أبي سعيد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود.

(٢) رواه الطبراني والبزار والبيهقي والحافظ الضياء في المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفاً إعظاماً وإكراماً.

(٣) رواه الحافظ البزار وفي إسناده ضعف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة.

(٥) أخرجه ابن مردويه عن أبي الدرداء.

الخدري عن النبي ﷺ قال: «﴿وهم فيها كالحون﴾ قال تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه. وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته»[1]

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾
رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم، والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك فقال تعالى: ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون﴾ أي قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾، وقال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، ولهذا قال: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين﴾ أي قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها، ثم قالوا: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ أي أرددنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال: ﴿فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾؟ أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار، والرجعة إلى هذه الدار. يقول: ﴿اخسأوا فيها﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿ولا تكلمون﴾ أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي، قال ابن عباس ﴿اخسأوا فيها ولا تكلمون﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه. وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم إنكم ماكثون، قال: هانت دعوتهم والله على (مالك) ورب مالك؛ ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ قال: فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم، قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق، وقال عبد الله بن مسعود: إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحداً يعني من جهنم غيّر وجوههم وألوانهم، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع، فيقول: يا رب، فيقول الله من عرف أحداً فليخرجه، فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر، فلا يعرف أحداً فيناديه الرجل: يا فلان أنا فلان، فيقول: ما أعرفك، قال: فعند ذلك يقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ فعند ذلك يقول الله الله تعالى: ﴿اخسأوا فيها ولا تكلمون﴾ فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد[2]؛ ثم قال تعالى

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حسن غريب. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً.

مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال تعالى: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ۞ فاتخذتموهم سخريا﴾ أي فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي ﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ أي حملكم بغضهم على أن أنسيتم معاملتي ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ أي من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون﴾ أي يلمزونهم استهزاء، ثم أخبر تعالى عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ أي على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿أنهم هم الفائزون﴾ أي جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار.

قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين﴾ أي الحاسبين، ﴿قال إن لبثتم إلا قليلاً﴾ أي مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ أي لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا، وفي الحديث: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال: يا أهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، قال: لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم، رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين مخلدين. ثم قال: يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم، فيقول بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم، ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلدين»[1].

وقوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا؟ وقيل: للعبث لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عزَّ وجلَّ ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ يعني هملاً، وقوله: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ أي تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾.

وكان آخر خطبة خطبها (عمر بن عبد العزيز) أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر وشقي

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي مرفوعاً.

عبد أخرجه الله من رحمته، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يؤمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافداً بباق، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين وسيكون من بعدكم الباقين، حتى تردون إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عزَّ وجلَّ قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مرتهن بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم، فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم، ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله(1). وروى أبو نعيم عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾؟ قال: فقرأناها فغنمنا وسلمنا، وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة: باسم الله الملك الحق، وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون، بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم».

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له، أي لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلٰهاً آخر لا برهان له به﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ أي الله يحاسبه على ذلك، ثم أخبر ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾: أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة. قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله وكذا وكذا حتى عدَّ أصناماً، فقال رسول الله ﷺ: «فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك؟» قال: الله عزَّ وجلَّ، قال: «فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها؟» قال: الله عزَّ وجلَّ، قال: «فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه، فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا يعلمون»، فقال الرجل بعدما أسلم: لقيت رجلاً خصمني(2). وقوله تعالى: ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق، معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال.

[آخر تفسير سورة المؤمنون، ولله الحمد والمنة]

❊ ❊ ❊

(1) أخرجه ابن أبي حاتم عن رجل من آل سعيد بن العاص.

(2) قال ابن كثير: هذا مرسل من هذا الوجه وقد رواه الترمذي مسنداً.

تفسير سورة المؤمنون[١]

مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنى يونس بن سُلَيْم قال: أملى عليّ يونس بن يزيد[٢] الأيْلِيّ، عن ابن شهاب، عن عُرْوَة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عَبْد القاريّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحيُ، يسمع عند وجهه كدَوِيٍّ النحل فَمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «اللهم، زدنا ولا تَنْقُصْنا، وأكرمنا ولا تُهنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثِرْنا ولا تؤثر [علينا، وارض عنا][٣] وأرضِنا»، ثم قال: «لقد أنزلت عليَّ عشر آيات، مَنْ أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العَشْر.

وكذا روى[٤] الترمذى فى تفسيره، والنسائى فى الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به[٥]. وقال الترمذى: منكر، لا نعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه.

وقال النسائى فى تفسيره: أنبأنا قُتَيْبَةَ بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبى عمران عن يزيد بن بابَنُوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان[٦] خُلُق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلُق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، قالت: هكذا كان خُلُق رسول الله ﷺ[٧].

وقد رُوِى عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبى العالية، وغيرهم: لَمَّا خلقَ الله جنةَ عَدْن،

---

(١) فى ف: «المؤمنين». (٢) فى أ: «زيد». (٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) فى أ: «رواه».
(٥) المسند (١/ ٣٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٤٣٩).
(٦) فى أ: «حال».
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥٠).

وغرسها بيده، نظر إليها وقال لها. تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال كعب الأحبار: لِمَا أعدّ لهم فيها من الكرامة. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك فى كتابه.

وقد رُوى ذلك عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا، فقال أبو بكر البزار:

حدثنا محمد بن المُثَنَّى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وُهَيْب، عن الجُرَيرى، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد قال: خلق الله الجنة، لَبنةً من ذهب ولبنة من فضة، وغرسها، وقال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، منزلَ الملوك![١].

ثم قال[٢]: وحدثنا بِشْر بن آدم، وحدثنا يونس بن عبيد الله العُمَرى، حدثنا عَدِىَ بن الفضل، حدثنا الجُرَيْرِى، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الجنة، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاَطها[٣] المِسْك». قال أبو بكر: ورأيت فى موضع آخر فى[٤] هذا الحديث: «حائط الجنة، لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك. فقال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فقالت الملائكة: طوبى لك، منزل الملوك!».

ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عَدىّ بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ متقدم الموت[٥].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن على، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بَقِيَّة، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «لما خلق الله جنة عَدْن، خلق فيها ما لا عين رأت، [ولا أذن سمعت][٦]، ولا خطر على قلب بشر. ثم قال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾»[٧].

بَقِيَّة: عن الحجازيين ضعيف.

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنا مِنْجَابُ بن الحارث، حدثنا حماد ابن عيسى العَبْسى، عن إسماعيل السُّدِّى، عن أبى صالح، عن ابن عباس ـ يرفعه ـ : «لما خلق الله جنة عدن بيده، ودَلَّى فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال: وعزتى [٨] لا يجاورنى فيك بخيل»[٩].

---

(١) مسند البزار برقم (٣٥٠٧) «كشف الأستار».

تنبيه:

وقع فى مسند البزار سنده هكذا: «حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن المنهال، حدثنا حماد بن سلمة عن الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد.

(٢) فى أ: «وقال». (٣) فى أ: «بلاطها». (٤) فى أ: «من».

(٥) مسند البزار برقم (٣٥٠٨) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٧): «رجال الموقوف رجال الصحيح».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) المعجم الكبير (١١/١٨٤). (٨) فى أ: «وعزتى وجلالى».

(٩) المعجم الأوسط برقم (٤٨٦١) «مجمع البحرين»، وأبى صالح ضعيف.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البَزَّار، حدثنا محمد بن زياد الكلبى، حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده، لبنة من دُرّة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زَبَرجَدَة خضراء، ملاَطُها المسك، وحَصْباؤها اللؤلؤ، وحَشيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقى. قالت[(١)]: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فقال الله: وعزتى، وجلالى لا يجاورنى فيك بَخيلٌ». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩][(٢)]. فقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: قد فازوا وسُعدوا وحَصَلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَاشِعُونَ﴾: خائفون ساكنون. وكذا رُوى عن مجاهد، والحسن، وقتادة، والزهرى[(٣)].

وعن على بن أبى طالب، رَضِى الله عنه: الخشوعُ: خشوعُ القلب. وكذا قال إبراهيم النَّخعىّ.

وقال الحسن البصرى: كان خشوعهم فى قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضوا الجناح.

وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم.

[و][(٤)] قال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُصَلاَّه، فإن كان قد اعتاد النظر فَلْيُغمِضْ. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

ثم رَوَى[(٥)] ابنُ جرير عنه، وعن عطاء بن أبى رَبَاح أيضاً مرسلا: أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية.

والخشوع فى الصلاة إنما يحصل بمن فَرّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقُرَّة عين، كما قال النبى ﷺ، فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إلىّ الطِّيب والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[(٦)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا مِسْعَر، عن عمرو بن مُرَّة، عن سالم بن أبى الجَعْد،

---

(١) فى أ: «فقالت».

(٢) صفة الجنة لابن أبى الدنيا برقم (٢٠) وفى إسناده محمد بن زياد الكلبى، قال ابن معين: لا شىء.

تنبيه:

وقع فى صفة الجنة: «حدثنا محمد بن زياد الكلبى حدثنا بشر بن الحسين» وفى النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير (٢/ ٢٧٩) «نفيس بن ضين».

(٣) فى ف، أ: «والزهرى وقتادة». (٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «ورواه».

(٦) المسند (٣/ ١٢٨) وسنن النسائى (٦١١٧).

عن رجل من أسلَم، أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»[١].

وقال الإمام أحمد أيضاً؛ حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، حدثنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبى الجعد، أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبى على صهر لنا من الأنصار، فحَضَرت الصلاة، فقال: يا جارية، ائتنى بوَضُوء لعلى أصلى فأستريح. فرآنا[٢] أنكرنا عليه ذلك[٣]، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة»[٤].

وقال[٥]: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أى: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك ـ كما قاله بعضهم ـ والمعاصى ـ كما قاله آخرون ـ وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقَذَهم عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾: الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه [الآية][٦] مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التى فرضت بالمدينة إنما هى ذات النّصُب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى فى سورة الأنعام، وهى مكية: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، على أحد القولين فى تفسيرها.

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السرارى، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا[٧] قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أى: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: المعتدون.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن امرأة

---

(١) المسند (٥/ ٣٦٤).
(٢) فى ف، أ: «فرأى أنا».
(٣) فى ف: «ذلك عليه».
(٤) المسند (٥/ ٣٧١).
(٥) فى أ: «وقوله».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ف: «فلهذا».

اتخذت مملوكها، وقالت: تأولت آية من كتاب الله: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾، [قال][١]: فأتى بها عمر ابن الخطاب، فقال له ناس من أصحاب النبى[٢] ﷺ: تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها. قال: فَغرب[٣] العبدَ وجزّ رأسه: وقال: أنت بعده حرام على كل مسلم.

هذا أثر غريب منقطع، ذكره[٤] ابن جرير فى أول تفسير سورة المائدة[٥]، وهو هاهنا أليق، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها، والله أعلم.

وقد استدل الإمام الشافعى، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾. وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عَرَفَةَ فى جزئه المشهور حيث قال:

حدثنى على بن ثابت الجَزَرىّ، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد[٦]، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده[٧]، والفاعل، والمفعول به، ومدمن[٨] الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»[٩].

هذا حديث غريب، وإسنادُه فيه مَنْ لا يُعرَف؛ لجهالته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أى: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أى: يواظبون عليها فى مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله، أىّ العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «برُّ الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله».

أخرجاه فى الصحيحين[١٠]. وفى مستدرك الحاكم قال: «الصلاة فى أول وقتها»[١١].

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى ف،أ: «فضرب» وهو الصحيح.
(٤) فى أ :«ذكرها».
(٥) تفسير الطبرى (٩/٥٨٦) ط ـ المعارف.
(٦) فى ف، أ: «أحمد». (٧) فى ف، أ: «الناكح يده». (٨) فى ف، أ: «المدمن».
(٩) جزء الحسن بن عرفة برقم (٤١).
(١٠) صحيح البخارى برقم (٥٩٧٠) وصحيح مسلم برقم (٨٥).
(١١) المستدرك (١/١٨٨) وقال الحاكم: «فقد صحت هذه اللفظة باتفاق الثقتين بندار بن بشار، والحسن بن مكرم على روايتهما عن عثمان بن عمرو، وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

وقال ابن مسعود، ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعني: مواقيت الصلاة. وكذا قال أبو الضّحَى، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبير، وعكرمة.

وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها.

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»(١).

ولَمَا وَصَفَهم [الله](٢) تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ .الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات فدخل النار وَرِثَ أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾»(٤).

وقال ابن جُرَيج، عن لَيْث، عن مجاهد: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما المؤمن فيُبْنَى بيته الذي في الجنة، ويُهدّم بيته الذي في النار(٥)، وأما الكافر فيُهدَم بيته الذي في الجنة، ويُبنى بيته الذي في النار. وروى عن سعيد بن جُبَير نحو ذلك.

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم [كلهم](٦) خلقوا لعبادة الله تعالى(٧)، فلما قام هؤلاء المؤمنين بما وجب عليهم من العبادة، وتركَ أولئك ما أمرُوا به مما خُلقوا له ـ أحرزَ هؤلاء نصيب

---

(١) جاء من حديث ثوبان: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٧) من طريق سفيان عن منصور عن ابن أبي الجعد عنه به وفيه انقطاع.
ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٨) من طريق المعتمر عن ليث عن مجاهد عنه به، وليث بن أبي سليم ضعيف.
ومن حديث أبي أمامة: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٩) من طريق إسحاق بن أسيد عن أبي حفص الدمشقي عنه به، وضعفه البوصيري في الزوائد.

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) البخاري في صحيحه برقم (٢٧٩٠)، (٧٤٢٣) عن أبي هريرة، ولم يعزه صاحب التحفة إلى غير البخاري.

(٤) ورواه ابن ماجه في السنن برقم (٤٣٤١) عن أبي بكر بن أبي شيبة وأحمد بن سنان، كلاهما عن أبي معاوية به. وقال البوصيري في الزوائد (٣/٣٢٧): «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».

(٥) في ف، أ: «فيهدم بيته الذي في النار، ويبني بيته الذي في الجنة». (٦) زيادة من أ. (٧) في ف، أ: «وحده لا شريك له».

أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي بُردَة[١]، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعُها على اليهود والنصارى»[٢].

وفي لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دَفَع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال[٣]: هذا فكَاكُكَ من النار». فاستحلف عُمر بن عبد العزيز أبا بُردةَ بالله الذي لا إله إلا هو، ثلاث مرات، أن أباه حَدَّثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلف له[٤]. قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف: ٧٣]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جُبير: الجنة بالرومية هي الفردوس.

وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم[٥].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم، عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون.

وقال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس: ﴿مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قال: صَفوةُ الماء.

وقال مجاهد: ﴿مِن سُلالَةٍ﴾ أي: من منيّ آدم.

قال ابن جرير: وإنما سمى آدم طيناً لأنه مخلوق منه.

وقال قتادة: استُلّ آدمُ من الطين. وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإنه آدم، عليه السلام، خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

---

(١) في ف، أ: «بردة بن أبي موسى».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٦٧).
(٣) في ف، أ: «فيقول».
(٤) صحيح مسلم برقم (٢٧٦٧).
(٥) في ف، أ: «والله أعلم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عَوْفَ، حدثنا قَسَامَة بن زُهَيْر، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبيث والطيب، وبين ذلك».

وقد رواه أبو داود والترمذى، من طرق، عن عوف الأعرابى، به نحوه[١]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة ٧، ٨] أى: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ [٢]فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، يعنى: الرحمُ مُعَد لذلك مهيأ له، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٢، ٢٣]، أى: [إلى][٣] مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنَقَّل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أى: ثم صَيّرنا النطفة، وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل ـ وهو ظهره ـ وترائب المرأة ـ وهى عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الثندوة ـ فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة. قال عكرمة: وهى دم.

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: وهى قطعة كالبَضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ يعنى: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

وقرأ آخرون: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا[٤]﴾.

قال ابن عباس: وهو عظم الصلب.

وفى الصحيح، من حديث أبى الزِّنَاد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خلق ومنه[٥] يركب»[٦].

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أى: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أى: ثم نفخنا فيه الروح،فتحرك وصار ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا جعفر بن مُسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر ـ يعنى: ابن كثير، مولى بنى هاشم ـ حدثنا زيد بن على، عن أبيه، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: إذا أتمت النطفة أربعة أشهر، بُعِث إليها مَلَك فنفخ فيها الروح فى

---

(١) المسند (٤/ ٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٦٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٥).

(٢) فى أ: «فجعلناه نطفة» وهو خطأ. (٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ف، أ: «النطفة عظاماً».

(٥) فى أ: «وفيه».

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الظلمات الثلاث، فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى: نفخنا فيه الروح[١].

ورُوى عن أبى سعيد الخدرى أنه نَفْخُ الروح.

قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى به: الروح[٢]. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والحسن، وأبو العالية، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدى، وابنُ زيد، واختاره ابنُ جرير[٣].

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى: ننقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلا، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلا، ثم شيخاً، ثم هرما.

وعن قتادة، والضحاك نحو ذلك. ولا منافاة، فإنه من ابتداء[٤] نفخ الروح [فيه][٥] شَرَعَ فى هذه التنقلات والأحوال. والله أعلم.

قال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليُجمع خَلْقُه فى بطن أمه فى أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل[٦] ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها».

أخرجاه من حديث سليمانَ بن مِهْرَان الأعمش[٧].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله[٨] ـ يعنى: ابن مسعود ـ إن النطفة إذا وقعت فى الرحم، طارت فى كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوما، ثم تتحدّر[٩] فى الرحم فتكون علقة.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا أبو كُدَيْنَة، عن عطاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: مَرّ يهودىّ برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودى، إن هذا يَزعُم أنه نبى. فقال: لأسألنه عن شىء لا يعلمه إلا نبى. قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد، مِمَّ يخلق الإنسان؟ فقال: «يا يهودى، من كلٍّ

---

(١) فى ف: «يعنى به الروح». (٢) فى ف: «يعنى نفخنا فيه الروح».
(٣) تفسير الطبرى (٨/ ٨١).
(٤) فى ف: «ابتدأ». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ف: «أحدكم».
(٧) المسند (١/ ٣٨٢) وصحيح البخارى برقم (٦٥٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).
(٨) فى ف: «عن خيثمة عن عبد الله قال: قال». (٩) فى ف، أ: «تنحدر».

يُخلَقُ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعَصَب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم» فقام اليهودى فقال: هكذا كان يقول من قبلك[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو، عن أبى الطُّفَيْل، حُذَيْفَة بن أسَيْد الغفارى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخل الملَك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا؟ أشقى أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، فيكتبان[٢]. فيقولان: ماذا؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله عز وجل، فيكتبان ويُكتَبُ عمله، وأثره، ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يُزاد على ما فيها ولا ينقص».

وقد رواه مسلم فى صحيحه، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو ـ وهو ابن دينار ـ به[٣] نحوه. ومن طُرُق أخرَى، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفة بن أسيد أبى سريحة[٤] الغفارى بنحوه، والله أعلم[٥].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن عَبْدَةَ، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن أبى بكر، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكّل بالرحم ملكاً فيقول: أى رب، نطفة. أىْ رب، علقة[٦] أى رب، مضغة. فإذا أراد الله خلقها قال: يا رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟» قال: «فذلك يكتب فى بطن أمه».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث حماد بن زيد به[٧].

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعنى: حين ذكر قدرته ولطفه فى خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السَّوِىّ الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا على ابن زيد، عن أنس، قال: قال عمر ـ يعنى: ابن الخطاب رضى الله عنه ـ: وافقت ربى ووافقنى فى أربع: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية، قلت[٨] أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين. فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

---

(١) المسند (١/ ٤٦٥).
(٢) فى ف: «ويكتبان».
(٣) المسند (٤/ ٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٤).
(٤) فى أ: «سريح».
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٥).
(٦) فى ف: «فحلقه».
(٧) صحيح البخارى برقم (٣١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٦).
(٨) فى ف، أ: «الآية، فلما نزلت قلت».

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا آدم بن أبى إياس، حدثنا شَيْبان، عن جابر الجُعْفى، عن عامر الشعبى، عن زيد بن ثابت الأنصارى قال: أملى علىّ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فضحك رسول الله ﷺ. فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾»[(١)].

جابر بن يزيد الجُعْفى ضعيف جداً، وفى خبره هذا نَكَارة شَديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحى بالمدينة، وكذلك[(٢)] إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم[(٣)].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعنى: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تَصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يعنى: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] يعنى: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كلّ عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾.

لما ذكر تعالى خَلْق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خَلْق السموات والأرض[(٤)] مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا فى أول ﴿الم﴾ السجدة، التى كان رسول الله ﷺ يقرأ بها [فى][(٥)] صبيحة يوم الجمعة، فى أولها خَلْقُ السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

فقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾: قال مجاهد: يعنى السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أى: ويعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها،

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٣٦٧) «مجمع البحرين» عن أبى زرعة عن آدم بن إياس به وجابر الجعفى ضعيف.
(٢) فى ف، أ: «وكذا».
(٣) فى ف، أ: «والله أعلم».
(٤) فى أ: «السبع».
(٥) زيادة من ف، أ.

وما ينزل من السماء وما يعرُج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو ـ سبحانه ـ لا يَحجبُ عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما فى وَعْره، ولا بحر إلا يعلم ما فى قَعْره، يعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) ﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده[١] التى لا تعدّ ولا تحصى، فى إنزاله القَطْر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أى: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلا فلا يكفى الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضى التى تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دِمْنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما فى أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجرُز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها، فيأتى الماء يحمل طيناً[٢] أحمر، فيسقى أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ أى: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض، وجعلنا[٣] فى الأرض قابليَّة له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبرارى [والبحار][٤] والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشُرب ولا لسقى لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الأرض، بل ينجرّ على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مَدَى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالا، فيسكنه فى الأرض ويَسْلُكُه ينابيع فى الأرض، فيفتح[٥] العيون والأنهار، فيسقى[٦] به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون[٧] منه وتتطهرون

---

(١) فى ف، أ: «عبده». (٢) فى ف: «الطين». (٣) فى ف، أ: «وجعل».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف: «فيفجر».
(٦) فى ف، أ: «ويسقى». (٧) فى ف: «ويغتسلون وتغتسلون».

وتتنظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعنى: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتين وحدائق ذات بهجة، أى: ذات منظر حسن.

وقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أى: فيها نخيل وأعناب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشىء وبين نظيره، وكذلك فى حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يَعجزُون عن القيام بشكره.

وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أى: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١].

وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شىء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعنى: الزيتونة. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عَرِى عنها سمى جَبَلا لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذى كَلّم [الله][(١)] عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون.

وقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾: قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره: تنبت الدهن، كما فى قول العرب: ألقى فلان بيده، أى: يده. وأما على قول من يُضَمِّن الفعل فتقديره: تخرج بالدهن، أو[(٢)] تأتى بالدهن؛ ولهذا قال: ﴿وَصِبْغٍ﴾ أى: أدْم، قاله قتادة. ﴿لِّلآكِلِينَ﴾ أى: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامى، عن أبى أسَيْد ـ واسمه مالك بن ربيعة الساعدى الأنصارى ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به[(٣)]؛ فإنه من شجرة مباركة»[(٤)].

وقال عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة».

ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه، عن عبد الرزاق[(٥)]. قال الترمذى: ولا يعرف إلا من

---

(١) زيادة من ف، وفى أ: «والله تعالى».

(٢) فى ف، أ: «أى».

(٣) فى أ: «بالزيت».

(٤) المسند (٣/٤٩٧).

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣) وسنن الترمذى برقم (١٨٥١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٣١٩).

حديثه، وكان يضطرب فيه، فربما ذكر فيه عمر[١]، وربما لم يذكره.

قال[٢] أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثني الصَّعْب بن حكيم بن شريك بن نملة، عن أبيه عن جده، قال: ضِفْتُ عمرَ بن الخطاب ليلة عاشوراء[٣]، فأطعمني[٤] من رأس بعير بارد، وأطعمنا زيتاً، وقال: هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه ﷺ[٥].

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾: يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فَرْث ودم، ويأكلون من حُمْلانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويحملونها[٦] الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥) ﴾.

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، حين بعثه[٧] إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أي: ألا تخافون من الله في إشراككم به؟! فقال الملأ ـ وهم السادة والأكابر منهم ـ: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون: يترفّع عليكم ويتعاظم بدعوى[٨] النبوة، وهو بشر مثلكم. فكيف أوحى إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أي: لو أراد أن يبعث نبياً، لبعث مَلَكاً من عنده ولم يكن بشراً! ﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي: ببعثة البشر في آبائنا الأولين. يعنون[٩] بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم[١٠] الماضية.

---

(١) في أ: «عمرو». (٢) في ف، أ: «وقال». (٣) في ف: «ضفت ليلة عمر بن الخطاب».
(٤) في ف: فأطعمني« عودا». وفي أ: «عسورا».
(٥) المعجم الكبير (١/ ٧٤) والصعب بن حكيم لا يعرف كما قال الذهبي.
(٦) في ف: «ويحملون». (٧) في ف، أ: «بعثه الله ». (٨) في ف، أ: «بدعوة».
(٩) في ف: «يعني». (١٠) في ف، أ: «الدهور».

وقوله: ﴿ إنْ هوَ إلاَّ رَجُلٌ به جنَّةٌ ﴾ أي: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحى ﴿فتربَّصُوا به حتَّىٰ حينٍ﴾ أي: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح، عليه السلام، أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبرا [عنه][1] فى الآية الأخرى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال هاهنا: ﴿[قَالَ][2] رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أى: ذكرا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أى: سبق فيه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أى: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رأفة بقومك، وشفقة عليهم، وطَمَع فى تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإنى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تقدمت القصة مبسوطة فى سورة «هود»[3] بما يغنى عن إعادة ذلك هاهنا.

وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كما قال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]. وقد امتثل نوح، عليه السلام، هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. فذكَر اللهَ تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ أى: إن فى هذا الصنيع ـ وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ـ

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) زيادة من أ.

(٣) انظر تفسير الآيات: ٢٥ ـ ٤٨.

﴿لآيَاتٍ﴾ أي: لحججاً[1] ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شيء، عليم بكل شيء.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾.

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين[2] ـ قيل: المراد بهم عاد، فإنهم مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ ـ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فكذبوه وخالفوه، وأبوا من اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشرى، فكذبوا بلقاء الله فى القيامة، وأنكروا المعاد الجثمانى، وقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ .هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أى: بعيد بعيد ذلك. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: فيما جاءكم[3] به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد. ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ .قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أى: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربَّه عليهم، فأجاب دعاءه، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أى: بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أى: وكانوا يستحقون ذلك من الله لكفرهم وطغيانهم.

والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصَّرْصر العاصف القوىّ الباردة، ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ[4] إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أى: صرعى هَلْكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذى

---

(١) فى ف، أ: «الحجج». (٢) فى ف، أ: «آخر». (٣) فى ف، أ «جاء».
(٤) فى ف، أ: «ترى».

لا ينتفع بشيء منه. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله[١]: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] أي: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٤٤) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أي: أمما وخلائق، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يعني[٢]: بل يُؤخَذون[٣] حَسَب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم، أمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، وخلفاً بعد سلف.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾: قال ابن عباس: يعني يتبع بعضهم بعضاً. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعني: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقوله: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي: أهلكناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [الآية][٤] [سبأ: ١٩] [﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾][٥].

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والانقياد لأمرهما، لكونهما بَشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد ما قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن

---

(١) في ف: «كقولهم». (٢) في ف، أ: «بل». (٣) في ف، أ: «يوجدون».
(٤) زيادة من ف. وفي هـ: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾. (٥) زيادة من ف.

أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

ثم قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس: أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: قال الضحاك، عن ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة.

قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعنى: ماء ظاهراً[(١)].

وقال مجاهد: ربوة مستوية.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: استوى الماء فيها.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الماء الجارى.

ثم اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة فى أىّ أرض [الله][(٢)] هى؟ فقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: ليس الربى إلا بمصر. والماء حين يرسل[(٣)] يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى.

وروى عن وهب بن مُنَبِّه نحو هذا، وهو بعيد جداً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: هى دمشق[(٤)].

قال: ورُوى عن عبد الله بن سلام، والحسن، وزيد بن أسلم، وخالد بن مَعْدان نحو ذلك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكِيع، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق.

---

(١) فى ف: «طاهراً». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ف: «يسيل».
(٤) فى أ: «الدمشق».

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ [ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ][١]﴾، قال: عيسى ابن مريم وأمه، حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها.

وقال عبد الرزاق، عن بشر بن رافع، عن أبى عبد الله ابن عم أبى هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: فى قوله[٢]: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هى الرملة من فلسطين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابى، حدثنا رَوّاد[٣] بن الجراح، حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة، حدثنا السيبانى[٤]، عن ابن[٥] وَعْلَة، عن كُرَيْب السَّحولى، عن مُرَّة البَهْزِى قال: سمعت النبى ﷺ يقول لرجل: «إنك ميت[٦] بالربوة» فمات بالرملة.[٧] وهذا حديث غريب جداً.

وأقرب الأقوال فى ذلك ما رواه العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجارى، وهو النهر الذى قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

وكذا قال الضحاك، وقتادة: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾.

يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عَون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولا وعملا ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً.

قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أُمِروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه.

وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعنى: الحلال.

---

(١) زيادة من ف.
(٢) فى ف: «فى قول الله».
(٣) فى ف: «داود».
(٤) فى ف، أ: «الشيبانى» وهو الصحيح.
(٥) فى ف، أ: «أبى» وهو الصحيح.
(٦) فى ف، أ: «تموت».
(٧) فيه عباد بن عباد له مناكير.

وقال أبو إسحاق السَّبيعى، عن أبى مَيْسَرَةَ بن شُرَحْبِيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه.

وفى الصحيح: «ما من نبى إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[١].

وفى الصحيح: أن داود، عليه السلام، كان يأكل من كسب يده[٢].

وفى الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان[٣] ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سُدسَه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يَفر إذا لاقى»[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبى مريم، عن ضَمْرة بن حبيب، أن أم عبد الله، أخت[٥] شداد بن[٦] أوس بعثت إلى النبى ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم، وذلك فى أول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها: أنَّى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالى، فشرب منه، فلما كان الغد أتته أم عبد الله أخت[٧] شداد فقالت: يا رسول الله[٨]، بعثتُ إليك بلبن مَرثيةٍ[٩] لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت إلىّ الرسول فيه؟. فقال لها: «بذلك أمرت الرسل، ألا تأكل إلا طيبا، ولا تعمل إلا صالحا»[١٠].

وقد ثبت فى صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومسند الإمام أحمد ـ واللفظ له ـ من حديث فُضَيْل بن مرزوق، عن عَدِىّ بن ثابت، عن أبى حازم، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يأيها الناس، إنّ الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشْعَثَ أغْبَرَ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّى بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأنَّى يستجاب لذلك»[١١].

وقال الترمذى: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث فُضيل بن مرزوق.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) صحيح البخارى برقم (٢٠٧٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) فى ف: «وكان».
(٤) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.
(٥) فى أ: «بنت». (٦) فى ف: «بنت».
(٧) فى ف، أ: «بنت».
(٨) فى ف: «يا رسول الله صلى الله عليك»، وفى أ: « يارسول الله ﷺ». (٩) فى ف: «مرنته».
(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٢٥) من طريق المعافى بن عمران عن أبى بكر بن أبى مريم به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى: «قلت: وابن أبى مريم واه».
(١١) صحيح مسلم برقم (١٠١٥) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٩) والمسند (٦/ ١٥٩).

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى[1]: دينكم ـ يامعشر الأنبياء ـ دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «الأنبياء»، وأن قوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أى: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أى: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أى: فى غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق:١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ !كلا، ليس الأمر كما يزعمون فى قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥]، لقد أخطؤوا فى ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجا وإنظارا وإملاء؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر:١١ـ ١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[سبأ: ٣٧] والآيات فى هذا كثيرة.

قال[2] قتادة فى قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ قال: مُكِرَ والله بالقوم فى أموالهم وأولادهم، ياابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد [بن عُبَيْد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مرة الهمدانى، حدثنا عبد الله][3] بن مسعود رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:«إن الله قَسَم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يُعطى الدنيا من يُحبّ ومن لا يحب، ولا يعطى الدِّين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نَفْسِى بيده، لا يسلم [4] عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ـ قالوا: وما بوائقه يا نبى الله؟ قال: غشمه وظلمه ـ

---

(١) فى ف، أ: «وإن».
(٢) فى أ: «وقال».
(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) فى ف:«يؤمن».

ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل [١] منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝٦١﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أى: هم مع [٣] إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصرى: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحريم: ١٢]، أى: أيقنت أن ما كان فإنما هو عن قدر الله وقضائه، وماشرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهيا[٤] فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أى: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أى: يعطون العطاء[٥] وهم خائفون [٦] ألا يتقبل منهم، لخوفهم [٧] أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغوَل، حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة؛ أنها قالت: يارسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يابنت أبى بكر، يابنت الصديق، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل».

وهكذا رواه الترمذى وابن أبى حاتم، من حديث مالك بن مغْول، به بنحوه[٨]. وقال: «لا يابنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، ﴿أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾». قال الترمذى: ورُوى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن

---

(١) فى ف: «منه ليتقبل »وفى أ: «فيتقبل».
(٢) المسند (١/ ٣٨٧).
(٣) فى ف: «قى» وفى أ: «من».
(٤) فى ف: «منهيا». (٥) فى ف: «العطاء فيه». (٦) فى أ: «خائفون وجلون».
(٧) فى ف: «تخوفهم».
(٨) المسند (٦/ ١٥٩) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٥).

أبى حازم، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ نحو هذا[١].

وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى، والحسن البصرى فى تفسير هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية: «والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة» أى: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروى هذا مرفوعاً إلى النبى ﷺ أنه قرأ كذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا صخر بن جُوَيْرية، حدثنا إسماعيل المكى، حدثنى أبوخلف مولى بنى جُمَح: أنه دخل مع عُبَيد بن عُمَيْر على[٢] عائشة، رضى الله عنها، فقالت: مرحباً بأبى عاصم، ما يمنعك أن تزورنا ـ أو: تُلمّ بنا؟ ـ فقال: أخشى أن أُملّك. فقالت: ماكنت لتفعل؟ قال: جئت لأسأل[٣] عن آية فى كتاب الله عز وجل، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قالت: أيّة آية؟ فقال: ﴿الَّذين يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أو ﴿الَّذين يؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾؟ فقالت: أيتهما[٤] أحب إليك؟ فقلت: والذى نفسى بيده، لإحداهما أحب إلى من الدنيا جميعاً[٥]ـ أو: الدنيا وما فيها ـ قالت: وماهى؟ فقلت: ﴿الَّذينَ يأْتُونَ مَا أتَوْا﴾ فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف[٦].

إسماعيل بن مسلم المكى، وهو ضعيف.

والمعنى على القراءة الأولى ـ وهى قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم ـ أظهر؛ لأنه قال: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المقصرين، والله تعالى أعلم.

﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عَدْله فى شرعه على عباده فى الدنيا: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أى: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التى كتبها عليهم فى كتاب مسطور لا يضيع منه شىء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يبخسون من الخير شيئا، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٧٥).

(٢) فى أ: «إلى». (٣) فى ف: «لأسألك». (٤) فى أ: «أيتها».

(٥) فى ف: «جميعها».

(٦) المسند (٦/ ٩٥).

ثم قال منكرا على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أى: غفلة وضلالة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ أى: القرآن الذى أنزله [الله تعالى] [١] على رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾: قال الحكم [٢] بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ أى: سيئة من دون ذلك، يعنى: الشرك، ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال: لابد أن يعملوها. وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغير واحد.

وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾أى: قد كتب عليهم أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب. ورُوِى نَحو هذا عن مقاتل بن حَيَّان والسُّدِّىّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوى حسن. وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود: «فوالذى لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها».

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يعنى: حتى إذا جاء مترفيهم ـ وهم السعداء المنعمون فى الدنيا ـ عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أى: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً . إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً . وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١١ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وقوله: ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ أى: لا نجيركم [٣] مما حل بكم، سواء جأرتم أو سكتُّم، لا محيد ولا مناص ولا وَزَرَ لزم الأمر ووجب العذاب.

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أى: إذا دعيتم أبيتم، وإن [٤] طُلبتم امتنعتم؛ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾: فى تفسيره قولان، أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير فى ﴿به﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدهما [٥]: أنه الحرم بمكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون بالهُجْر [٦] من الكلام.

والثانى: أنه [٧] ضمير القرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «الحكيم».
(٣) فى أ: «يجيركم».
(٤) فى ف، أ: «وإذا».
(٥) فى أ: «أحدها».
(٦) فى أ: «الهجر».
(٧) فى أ: «هو».

والثالث: أنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذى أظهره الله عليهم، وأخرجهم من [(١)] الحرم صاغرين أذلاء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أى: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم [(٢)] أولياؤه، وليسوا[(٣)] بهم، كما قال النسائى فى التفسير [(٤)] من سننه:

أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى، أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾، فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، ﴿سَامِرًا﴾ قال: يتكبرون [ويسمرون فيه، ولا] [(٥)] يعمرونه، ويهجرونه[(٦)].

وقد أطنب ابن أبى حاتم هاهنا بما ذا [(٧)] حاصله.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما وآباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التى أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضى عنهم.

وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾: إذًا والله يجدون [(٨)] فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك.

---

(١) فى أ: «إلى». (٢) فى أ: «وتعتقدون أنكم». (٣) فى ف: «وليسم» وفى أ: «ولستم».
(٤) فى ف، أ: «تفسيره». (٥) زيادة من ف.
(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥١).
(٧) فى أ: «هذا». (٨) فى ف، أ: «تجدون».

ثم قال منكرا على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أى: أفهم [١] لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التى نشأ بها فيهم، أفيقدرون [٢] على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، للنجاشى ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبى ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾: يحكى قول المشركين عن النبى ﷺ أنه تقوَّل [٣] القرآن، أى: افتراه من عنده، أو أن به جنونا لا يدرى ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه فى القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يَدافع، وقد تحدّاهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾: يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أى: فى حال كراهة [٤] أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

وقال قتادة: ذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعونى إلى أمر أنا له كاره. فقال نبى الله ﷺ: «وإن كنت كارها». وذُكر لنا أنه لقى رجلا فقال له: «أسلم» فَتَصَعَّده [٥] ذلك وكبر عليه، فقال له نبى الله: «أرأيت لو كنتَ فى طريق وَعْر وَعْث، فلقيت رجلا تعرف وجهه، وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل، أكنت متبعه[٦]؟» قال: نعم. فقال: «فوالذى [٧] نفس محمد بيده، إنك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإنى لأدعوك إلى أسهل من ذلك لو دعيت إليه». وذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا، فقال له: «أسلم» فَتَصَعَّده ذلك، فقال له نبى الله ﷺ: «أرأيت فَتَيَيْكَ، أحدهما إذا حَدَّثك صدقك، وإذا [٨] ائتمنته أدى إليك أهو أحب إليك، أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك وإذا [٩] ائتمنته خانك؟». قال: بل فتاى الذى إذا حدثنى صدقنى، وإذا ائتمنته أدى إلى. فقال النبى [١٠] ﷺ: «كذاكم أنتم عند ربكم».

وقوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾: قال مجاهد، وأبوصالح والسدى: الحق هو الله عز وجل، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ[١١] وَمَن فِيهِنَّ﴾ أى: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم فى قولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ

---

(١) فى ف: «هم» وفى أ: «أهم». (٢) فى ف، أ: «أفتقدرون». (٣) فى أ: «يقول».
(٤) فى ف: «كراهته». (٥) فى ف، أ: « فصعد». (٦) فى ف: «تتبعه».
(٧) فى ف: «والذى». (٨، ٩) فى ف: «وإن». (١٠) فى ف: «نبى الله».
(١١) فى ف: «الأرض والسموات».

﴿نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، ففى هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدبيره لخلقه[١]، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه.

ثم قال: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ يعنى: القرآن، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾: قال الحسن: أجرا. وقال قتادة: جعلا ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أى: أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقال: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جُدْعَان، عن يوسف بن مِهْرَان، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أتاه ـ فيما يرى النائم ـ ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: اضرب مَثَل هذا ومثل أمته. فقال: إن مَثَلَه ومثل أمته، كمثل قوم سُفْر انتهوا إلى رأس مَفَازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينا[٢] هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء تتبعونى؟ فقالوا: نعم: قال. فانطلق، فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لى إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى؟ قالوا[٣]: بلى قال: فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه، وحياضا هى أروى من هذه، فاتبعونى. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لنتبعنه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه[٤].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعرى، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى ممسك بحجزكم: هَلُمَّ عن النار، هلم عن النار، وتغلبونى وتقاحمون فيها تَقَاحُم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فَرَطكم على الحوض، فتردون على معا وأشتاتا، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل فى إبله، فيُذْهَب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أى رب، قومى، أى رب أمتى.

(١) فى ف: «بخلقه». (٢) فى أ: «فبينما». (٣) فى أ: «فقالوا».
(٤) المسند (١/ ٢٦٧).

فيقال: يامحمد، إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئا. قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيرا له رُغَاء، ينادى: يامحمد، يامحمد. فأقول: لا أملك [1] شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة، فينادى: يامحمد،يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من أدم، ينادى: يامحمد، يامحمد: فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغت»[2].

وقال على بن المدينى: هذا حديث حسن الإسناد، إلا أن حفص بن حميد مجهول، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعرى القمى.

قلت: بل قد روى عنه أيضا أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح. ووثقه النسائى وابن حبان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أى: لعادلون جائرون منحرفون. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: يخبر تعالى عن غلظهم[3] فى كفرهم بأنه لو أراح عَلَلَهُم وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون[4].

[و] [5] قال الضحاك، عن ابن عباس: كل ما فيه «لو»، فهو مما لا يكون أبدا

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا

---

(١) فى ف، أ: «لا أملك لك».

(٢) ورواه البزار فى مسنده برقم (٩٠٠) وابن عبد البر فى التمهيد (٢/ ٣٠٠) من طريق مالك بن إسماعيل عن يعقوب بن عبد الله الأشعرى به نحوه.

وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٨٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير والبزار إلا أنه قال: يحمل قشعاً مكان سقاء. ورجال الجميع ثقات».

(٣) فى أ: «غلظهم». (٤) فى ف، أ: «ولو كان كيف كان يكون». (٥) زيادة فى ف، أ.

أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أى: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أى: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيهم. ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أى: ما خشعوا، ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أى: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن حمزة المروزى، حدثنا على ابن الحسين، حدثنا أبى، عن يزيد ـ يعنى: النحوى ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز ـ يعنى: الوبر والدم ـ فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

وهكذا رواه النسائى عن محمد بن عقيل، عن على بن الحسين، عن أبيه، به [١]. وأصل هذا الحديث فى الصحيحين: أن [٢] رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف» [٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سلمة بن شَبِيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم ابن عمر بن كَيْسَان، عن [٤] وهب بن عمر بن كيسان قال: حُبِس وهب بن منبه، فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن فى طرف من عذاب الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾قال: وصام وهب ثلاثا متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أَحدَث لنا فأحدثنا. يعنى: أحدث لنا الحبس، فأحدثنا زيادة عبادة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أى: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبْلَسُوا [٥] من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

ثم ذكر تعالى نعمته على عباده فى أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهى العقول والفهوم، التى يدركون [٦] بها الأشياء، ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥٢).
(٢) فى ف، أ: «عن».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.
(٤) فى ف، أ: «حدثنى». (٥) فى أ: «أيسوا». (٦) فى ف: «تدركون».

وقوله: ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أى: وما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، فى بَرْئة الخليقة وذرئه لهم فى سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا، ولا ذكرا ولا أنثى، ولا جليلا ولا حقيرا، إلا أعاده كما أبدأه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: يحيى الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، ولايفترقان بزمان غيرهما، كقوله تعالى: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم، الذى قد قهر كل شىء، وعز كل شىء، وخضع له كل شىء.

ثم قال مخبرا عن منكرى البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ . قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعنى يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعنون: [أن][1] الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١١ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)﴾.

يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الذى لا إله إلا هو، ولا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه فى

(١) زيادة من أ.

الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئا، ولا يستبدّون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا [(١)] نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ أي: من مالكها الذى خلقها ومن [(٢)] فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات، وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك[(٣)] ﴿قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [أي: لا تذكرون] [(٤)] أنه لا تنبغي [(٥)] العبادة إلا للخالق الرازق [(٦)] لا لغيره.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي: من هو خالق العالم العُلْوى بما فيه من الكواكب النيّرات، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعنى: الذى هو سقف المخلوقات، كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك، إن [(٧)] عرشه على سمواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة[(٨)].

وفى الحديث الآخر: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة» [(٩)]. ولهذا قال بعض السلف: إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة، [وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة][(١٠)].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: إنما سمى عرشاً لارتفاعه.

وقال الأعمش عن كعب الأحبار: إن السموات والأرض فى العرش، كالقنديل المعلق بين السماء والأرض.

وقال مجاهد: ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فَلاَة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا وَكيع، حدثنا [(١١)] سفيان الثورى، عن عمار الدُّهنى[(١٢)]، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر أحد قدره. وفى رواية: إلا الله عز وجل[(١٣)].

وقال بعض السلف: العرش من ياقوتة حمراء.

ولهذا قال هاهنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعنى: الكبير: وقال فى آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ

(١) فى أ: «إنما» وهو خطأ. (٢) فى ف، أ: «وما». (٣) فى ف، أ: «كذلك».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى أ: «يليق». (٦) فى ف: «الرزاق».
(٧) فى ف: «لأن».
(٨) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٦) عن حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه.
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (٥/٣٩٩) من طريق ابن وهب عن ابن زيد عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه، وقد سبق من رواية ابن مردويه عند تفسير الآية: ٢ من سورة الرعد.
(١٠) زيادة من أ. (١١) فى أ: «عن». (١٢) فى أ: «الذهبى».
(١٣) ورواه ابن أبى شيبة فى صفة العرش (ق ١١٤) والحاكم فى المستدرك (٢/٢٨٢) من طريق الضحاك بن مخلد عن سفيان عن عمار الذهنى به، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وأقره الذهبى.

﴿الْكَرِيمِ﴾ أى: الحسن البهى. فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو، والحسن الباهر؛ ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء.

وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور [١] العرش من نور وجهه.

وقوله: **﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾** أى: إذا كنتم تعترفون [٢] بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه، فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا إسحاق ابن إبراهيم، أخبرنا عبد الله [٣] بن جعفر، أخبرنى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل، معها ابن لها يرعى غنما، فقال لها ابنها: يا أماه، من خلقك؟ قالت: الله. قال: فمن خلق أبى؟ قالت: الله. قال: فمن خلقنى؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: فإنى أسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع.

قال ابن عمر: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث.

قال عبد الله بن دينار: كان [٤] ابن عمر كثيرا ما يحدثنا بهذا الحديث.

قلت: فى إسناده عبد الله [٥] بن جعفر المدينى، والد الإمام على بن المدينى، وقد تكلموا فيه، فالله أعلم[٦].

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: بيده الملك، **﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾** [هود: ٥٦]، أى: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا، والذى نفسى بيده»، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال[٧]: «لا، ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، **﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخْفَر فى جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: **﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾** أى: وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه، الذى له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذى لا يمانع ولا يخالف، وما شاء[٨] كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: **﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾** [الأنبياء: ٢٣]، أى: لا يسئل عما يفعل؛ لعظمته وكبريائه، وقهره وغلبته، وعزته وحكمته [٩]، والخلق كلهم يُسألون عن

(١) فى أ: «فوق». (٢) فى أ: «تعرفون». (٣) فى ف، أ: «عبيد الله».
(٤) فى ف: «وكان». (٥) فى أ: «عبيد الله».
(٦) ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/١٧٨) من طريق إسحاق بن أبى إسرائيل عن عبد الله بن جعفر به، وقال: «غير محفوظ لا يحدث به عن ابن دينار غير عبد الله بن جعفر» وعبد الله بن جعفر المدينى ضعيف عند الأئمة.
(٧) فى أ: «يقول». (٨) فى ف، أ: «وما شاء الله». (٩) فى ف، أ: «وحكمته وعدله».

أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أى: فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فى عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك،/ كما قال فى آخر السورة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، فالمشركون لا يفعلون ذلك [عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك] [(١)] اتباعا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾.

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك، فقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: لو قُدّر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض، فى غاية الكمال، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالا، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علوا كبيرا.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل[عما يقول الظالمون والجاحدون][(٢)].

(١، ٢) زيادة من ف، أ.

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾.

يقول تعالى آمرا [نبيه محمداً ﷺ] (١) أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿ رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أى: إن عاقبتهم ـ وإنى شاهدُ ذلك ـ فلا تجعلنى فيهم، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى ـ وصححه ـ: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون»(٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا لأريناك ما نحل (٣) بهم من النقم والبلاء والمحن.

ثم قال مرشداً له إلى التِّرْياق النافع فى مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسىء، ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، وهذا كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]: أى ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة(٤) أو الصفة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ : أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا تنفع(٥) معهم الحيل، ولا ينقادون بالمعروف.

وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه»(٦).

وقوله: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أى: فى شىء من أمرى؛ ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور ـ وذلك مطردة للشياطين (٧) ـ عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الهَرَم، وأعوذ بك من الهَدْم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخطبنى الشيطان عند الموت»(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه،

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) المسند (٥/٢٤٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(٣) فى ف، أ: «ما يحل». (٤) فى ف: «الخصلة أو الوصية». (٥) فى ف، أ: «لا ينفع».

(٦) انظر الاستعاذة عند تفسير سورة الفاتحة.

(٧) فى ف: «للشيطان».

(٨) سنن أبى داود برقم (١٥٥٢).

عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها فى عنقه.

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث محمد بن إسحاق[1] ،قال الترمذى: حسن غريب.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾.

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين فى أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده فى مدة حياته؛ ولهذا قال: **﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾** كما قال تعالى: **﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾** [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: **﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾**[إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: **﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾** [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾** [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾** [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: **﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾** [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: **﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ . ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾** [غافر: ١١، ١٢]، وقال تعالى: **﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾** [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم فى غمرات عذاب الجحيم.

وقوله : هاهنا: **﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾**: كلا: حرف ردع وزجر، أى: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

---

(١) المسند (٢/ ١٨١) وسنن أبى داود برقم (٣٨٩٣) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٦٠١).

وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أى لابد أن يقولها لا محالة كل مختصر ظالم.

ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: «كلا»، أى: لأنها كلمة، أى: سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحا، ولكان يكذب فى مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾قال: فيقول الجبار: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾.

وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرَة: إذا سمعت الله يقول: ﴿كَلا﴾، فإنما يقول: كذب[(١)].

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾: قال: كان العلاء بن زياد يقول: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله عز وجل.

وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرَجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله. وعن محمد بن كعب القرظى نحوه.

وقال محمد بن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فضيل ـ يعنى: ابن عياض ـ عن لَيْث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: إذا وضع ـ يعنى: الكافر ـ فى قبره، فيرى مقعده من النار . قال: فيقول: رب، ارجعون أتوب وأعمل صالحا. قال: فيقال: قد عُمّرت ما كنت مُعَمَّرا. قال : فيضيق عليه قبره، قال: فهو كالمنهوش، ينام ويفزع، تهوى[(٢)] إليه هَوَامّ الأرض وحياتها وعقاربها.

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن على، حدثنى سلمة بن تمام، حدثنا على بن زيد[(٣)]، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، أنها قالت: ويل لأهل المعاصى من أهل القبور!! تدخل[(٤)] عليهم فى قبورهم حيات سود ـ أو: دُهْم ـ حية عند رأسه، وحية عند رجليه، يقرصانه حتى يلتقيا[(٥)] فى وسطه، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم﴾ : يعنى: أمامهم.

وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة.

وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا[(٦)] مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم.

وقال أبو صخر: البرزخ: المقابر، لا هم فى الدنيا، ولا هم فى الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم

---

(١) فى ف: «كذبت». (٢) فى ف، أ: «ويهوى». (٣) فى أ: «يزيد».
(٤) فى ف، أ: «يدخل». (٥) فى ف: «تقرصانه حتى تلتقيا». (٦) فى ف، أ: «ليس».

يبعثون.

وفي قوله: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال: ﴿ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] وقال: ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء في الحديث: «فلا يزال معذبا فيها»[١]، أي: في الأرض.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) ﴾.

يخبر تعالى أنه نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور، ﴿ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثي والد لولده، ولا يَلْوي عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أي: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو أعز الناس عليه ـ كان ـ في الدنيا، ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعرضة، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه: قال: فيفرح[٢] المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا، ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد ـ مولى بني هاشم ـ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثتنا أم بكر بنت المِسْوَر بن مَخْرَمَة، عن عُبَيد الله بن أبي رافع، عن المِسْوَر ـ هو ابن مَخْرَمَة ـ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة بَضْعَةٌ مني، يَقْبضُني ما يقبضها، ويَبْسُطني ما يبسطها[٣]، وإن الأنساب تنقطع[٤] يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري»[٥].

هذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور أن[٦] رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني،

---

(١) رواه الترمذي في السنن برقم (١٠٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».
(٢) في أ: «فيفرح والله». (٣) في أ: «يفيضني ما يفيضها وينشطني ما ينشطها». (٤) في أ: «منقطع».
(٥) المسند (٤/٣٢٣).
(٦) في ف، أ: «عن».

يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبى سعيد الخدرى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه؟ بلى، والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة، وإنى ـ أيها الناس ـ فرط لكم، إذا [٢] جئتم» قال رجل: يارسول الله، أنا فلان بن فلان، [وقال أخوه: أنا فلان ابن فلان] [٣] فأقول لهم: «أما النسب فقد عرفت، ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى»[٤].

وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[٥]، من طرق متعددة عنه، رضى الله عنه: أنه لما تزوج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، قال: أما ـ والله ـ مابى إلا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبَبٍ ونَسب فإنه منقطع يوم القيامة، إلا سببى ونسبى».

رواه [٦] الطبرانى، والبزار والهيثم بن كليب، والبيهقى، والحافظ الضياء فى « المختارة» [٧] وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفا؛ إعظاماً وإكراما، رضى الله عنه؛ فقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى العاص بن الربيع ـ زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ـ من طريق أبى القاسم البغوى: حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد ابن عباد بن جعفر، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى»[٨] . وروى فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: «سألت ربى عز وجل ألا أتزوج إلى أحد من أمتى، ولا يتزوج إلى أحد منهم، إلا كان معى فى الجنة، فأعطانى ذلك»[٩]، ومن حديث عمار بن سيف، عن إسماعيل، عن عبد الله ابن عمرو.

وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس.

﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة.

وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٧١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤٩).

(٢) فى ف، أ: «فإذا».

(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٤) المسند (٣/ ١٨).

(٥) مسند عمر بن الخطاب لابن كثير (١/ ٣٨٩).

(٦) فى أ: «ورواه الحافظ».

(٧) المعجم الكبير(٣/ ٤٥) ومسند البزار برقم (٢٤٤٥) «كشف الأستار» وسنن البيهقى الكبرى (٧/ ٦٤) والمختارة للمقدسى برقم (٢٨١).

(٨) تاريخ دمشق (١٩/ ١١٩ «المخطوط») ورواه على بن سعيد عن سليمان بن عمر الرقى عن إبراهيم بن عبد السلام عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً، وأخرجه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٩٦٣).

(٩) تاريخ دمشق (١٩/ ١١٩ «المخطوط») ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٩٦١) «مجمع البحرين» من طريق يزيد بن الكميت عن عمار بن سيف به. قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ٨٥): «إسناده واهٍ» وفى الباب عن ابن أبى أوفى رضى الله عنه.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أى: ثقلت سيئاته على حسنات، ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أى: خابوا وهلكوا، وباؤوا بالصفقة (١) الخاسرة.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث، حدثنا داود بن المُحَبَّر، حدثنا صالح المُرِّىّ، عن ثابت البُنانى وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: «إن لله ملكا موكلا بالميزان، فيؤتى بابن آدم، فيوقف بين كفتى الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقى فلان شقاوة لا (٢) يسعد بعدها أبداً»(٣).

إسناده ضعيف، فإن داود بن المُحَبَّر متروك.

ولهذا قال: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أى: ماكثون، دائمون مقيمون لا يظعنون.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء(٤)، حدثنا محمد بن سلمان بن الأصبهانى، عن أبى سِنَان ضِرَار بن مُرَّة، عن عبد الله بن أبى الهذيل، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «إن جهنم لما سيق [إليها] (٥) أهلها يلقاهم (٦) لهبها، ثم تلفحهم لفحة، فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب»(٧).

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى الفَزَّاز، حدثنا الخضر بن على بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبى الحارث بن الخضر القَطَّان، حدثنا سعد بن سعيد (٨) المقبرى، عن أخيه، عن أبيه، عن أبى الدرداء، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله الله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، قال: «تلفحهم لفحة، فتسيل لحومهم على أعقابهم»(٩).

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى عابسون.

وقال الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس والمُشَيَّط الذى قد بدا أسنانه وقَلَصت شفتاه.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: أخبرنا على بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ هو ابن المبارك، رحمه

---

(١) فى أ: «وفازوا بالصفقة». (٢) فى ف: «فلا».

(٣) ورواه أبو نعيم فى الحلية كما فى تخريج الإحياء (٤٠٩٨) وقال: «تفرد به داود بن المحبر».

(٤) فى أ: «أبى الفراء». (٥) زيادة من ف. (٦) فى ف: «تلقيهم».

(٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٤/٣٦٣) وقال: «لم يروه مرفوعًا متصلاً عن أبى سنان عن عبد الله إلا محمد بن سليمان الأصبهانى، ورواه ابن عيينة وابن فضيل وجرير عن أبى سنان فأوقفه ابن فضيل على أبى هريرة».

(٨) فى ف، أ: «سعيد بن أبى سعيد».

(٩) ورواه الضياء المقدسى فى صفة النار كما فى الدر المنثور (٦/١١٧) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

الله ـ أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبى السَّمْح، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخُدْرى، عن النبى ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: «تَشْويه النار فَتَقَلَّصُ شفته العليا حتى تبلغ وَسَطَ رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تَضْرب سُرَّته».

ورواه الترمذى، عن سُوَيْد بن نصر(١)، عن عبد الله بن المبارك، به(٢). وقال: حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧)﴾.

هذا تقريع من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التى أوبقتهم فى ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت(٣) شُبَهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ .فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: ٨ ـ ١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أى: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فَضَلَلْنَا عنها ولم نُرْزَقها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أى: رُدَّنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ. ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢] أى: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحَّده المؤمنون.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾.

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار(٤)، يقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أى: امكثوا فيها صاغرين مُهَانين أذلاء. ﴿وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ أى: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندى.

---

(١) فى أ: «نصير».
(٢) المسند (٣/٨٨) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٦).
(٣) فى أ: «وأرخت». (٤) فى أ: «الدنيا».

قال العَوفى، عن ابن عباس: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عَبْدَة بن سليمان المروزى، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أبى أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا، فلا يجيبهم أربعين عاما، ثم يردّ عليهم: إنكم ماكثون. قال: هانت دعوتهم ـ والله[1] ـ على مالك وربّ مالك. ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ قال: فيسكت عنهم قَدْرَ الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾. قال: والله ما نَبَس[2] القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق.

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، حدثنا سفيان، عن سَلَمة بن كُهَيْل، حدثنا أبو الزَّعْرَاء قال: قال عبد الله بن مسعود: إذا أرادَ الله ألا يخرج منهم أحداً ـ يعنى: من جهنم ـ غَير وجوههم وألوانهم، فيجىء الرجل من المؤمنين، فيشفع فيقول: يا رب[3]. فيقول: من عرف أحداً فليخرجه. فيجىء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً فيقول: أنا فلان. فيقول: ما أعرفك. قال: فعند ذلك يقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فعند ذلك يقول: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾. وإذا[4] قال ذلك، أطبقت عليهم فلا[5] يخرج منهم بَشَر.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم فى الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى: فسخرتم منهم فى دعائهم إياى وتضرعهم إلىّ، ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أى: حملكم بغضهم على أن نَسِيتم معاملتى ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ أى: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ .وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] أى: يلمزونهم استهزاء.

ثم أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أى: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أى: جعلتهم هم الفائزين[6] بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين[7] من النار.

---

(١) فى ف، أ: «والله دعوتهم».
(٢) فى ف: «فوالله ما يبس».
(٣) فى ف، أ: «يارب يارب».
(٤) فى ف، أ: «فإذا».
(٥) فى ف، أ: «فلم».
(٦) فى ف: «الفائزون».
(٧) فى ف: «الناجون».

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾.

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صَبَروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أى: كم كانت إقامتكم فى الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أى: الحاسبين ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لما آثرتم الفانى على الباقى، ولما تَصَرّفتم لأنفسكم هذا التصرف السيّئ، ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته[١] ـ كما فعل المؤمنون ـ لفزتم كما فازوا.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن الوَزير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن أيْفَع ابن عبد الكَلاَعى؛ أنه سمعه يخطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم. قال: لنعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم: رحمتى ورضوانى وجنتى، امكثوا فيها خالدين مخلدين؟ ثم يقول: يا أهل النار، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. فيقول: بئس ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم: نارى وسَخَطى، امكثوا فيها خالدين مخلدين»[٢].

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أى: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ أى: لا تعودون فى الدار الآخرة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، يعنى هملا[٣].

وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تقدّس أن يخلق شيئا عبثا، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أى: حسن المنظر بهى الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا إسحاق بن سليمان ـ شيخ من أهل العراق ـ أنبأنا شعيب بن صفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال:

---

(١) فى ف: «على عبادته وطاعته».

(٢) ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (١/ ١٨٧) بإسناده إلى الحكم بن موسى عن الوليد عن صفوان به.

(٣) فى أ: «مهملاً».

كان آخر خطبة خطب عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم لم تخلقوا عبثا، ولن[(١)] تتركوا سدى، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر مَن خرج من رحمة الله، وحرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافدا بباق، وقليلا بكثير، وخوفا بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون مَن بعدكم الباقين، حتى تردون[(٢)] إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم فى كل يوم تُشَيّعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه فى صَدْع من الأرض، فى بطن صَدْع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مُرتَهَن بعمله، غنى عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه، ونزول الموت بكم ثم جعل طرف ردائه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يحيى بن نصر[(٣)] الخَوْلاَنى، حدثنا ابن وَهْب، أخبرنى ابن لَهيعة، عن أبى هُبَيْرَةَ عن حَنَش[(٤)] بن عبد الله؛ أن رجلا مصاباً مرَّ به عبد الله بن مسعود، فقرأ فى أذنه هذه الآية: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَق﴾، حتى ختم السورة فَبرأ، [فذكر ذلك لرسول الله ﷺ][(٥)]، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا قرأت فى أذنه؟» فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لو أن رجلا مُوقنا قرأها على جَبَل لزال».

وروى أبو[(٦)] نُعَيم من طريق خالد بن نِزَار، عن سفيان بن عيينة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سَرِيّة، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾، قال: فقرأناها فغنمنا وسلمنا[(٧)].

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب العَلاَّف الواسطى، حدثنا أبو المسَيَّب سلمة بن سلام، حدثنا بكر بن خُنَيْس[(٨)]، عن نَهْشَل بن سعيد، عن الضحاك بن مُزَاحِم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن: باسم الله الملك الحق، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]»[(٩)].

---

(١) فى ف: «ولم».
(٢) فى ف: «حين تردوا».
(٣) فى أ: «نصير».
(٤) فى ف: «حسن».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ف: «ابن».
(٧) معرفة الصحابة لأبى نعيم برقم (٧٢٦).
(٨) فى ف: «حبيش».
(٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ١٢٤) وفى كتاب الدعاء برقم (٨٠٤) من طرق عن عبد الحميد الهلالى، عن نهشل به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣٢): «نهشل بن سعيد متروك».

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾.

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره، وعَبَد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أى: لا دليل له على قوله ـ فقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط فى قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أى: الله يحاسبه على ذلك.

ثم أخبر: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.

قال قتادة: ذُكر لنا أن نبى الله ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله، وكذا وكذا ـ حتى عد أصناما، فقال رسول الله ﷺ: «فأيّهم إذا أصابك ضُرٌّ فدعوتَه، كشفه عنك؟». قال: الله عز وجل. قال: [«فأيّهم إذا كانت لك حاجة فدعوتَه أعطاكها؟» قال: الله عز وجل. قال][1]: «فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه أم حسبت أن يغلب عليه. فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا يعلمون» قال[2] الرجل بعد ما أسلم: لقيت رجلا خصمنى.

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذى فى جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ نحو ذلك[3].

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء، فالغَفْر ـ إذا أطلِق ـ معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنون

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى أ: «فقال».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣٤٨٣) وقال: «هذا حديث غريب».

/ سورة المؤمنين [١٣٠و]

مكّيّة، وهي مائة وتسع عشرة آية، وثماني عشرة آية[١] عند الكوفيّين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ "الفلاح": الفوز بالمرام، والنجاةُ عن المكروه. وقيل: البقاء في الخير. و"الإفلاح": الدخول في ذلك، كـ"الإبشار" الذي[٢] هو الدخول في البِشارة. وقد يجيء متعدّيًا بمعنى "الإدخال فيه"، وعليه قراءة مَن قرأ على البناء للمفعول.[٣]

وكلمة ﴿قَدْ﴾ ههنا لإفادة ثبوت ما كان متوقَّعَ الثبوت مِن قبلُ، لا متوقَّعَ الإخبار به ضرورةَ أنّ المتوقَّع مِن حال المؤمنين ثبوتُ الفلاح لهم، لا الإخبار بذلك، فالمعنى: قد فازوا بكلّ خير، ونجَوا مِن كلّ ضَير، حسبما كان ذلك متوقَّعًا مِن حالهم، فإنّ إيمانهم وما تفرّع عليه مِن أعمالهم الصالحة مِن دواعي الفلاح بموجَب الوعد الكريم، خلا أنّه إن أريدَ بالإفلاح حقيقةُ الدخول في الفلاح الذي لا يتحقّق إلّا في الآخرة فالإخبارُ به على صيغة الماضي للدلالة على تحقّقه لا محالةَ بتنزيله منزلةَ الثابت، وإن أريدَ كونهم بحالٍ تستتبعه البتّة فصيغة الماضي في محلّها.

وقُرئ: "أَفْلَحُوا"[٤] على الإبهام والتفسير، أو على "أكَلوني البَراغيثُ". وقُرئ: "أَفْلَحُ" بضمّةٍ اكتُفِي بها عن الواو،[٥] كما في قولِ مَن قال:

---

[١] ط – آية؛ س – وثماني عشرة آية.

[٢] س – الذي.

[٣] أي: "أُفْلِحَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

[٥] هي عين القراءة السابقة، والواو محذوفة في اللفظ للضرورة، قال أبو حيّان: «وفي كتاب

ولـــو أنّ الأطِـــبّـــا[1] كــــانُ حَـــولِــي[2]

والمراد بـ"المؤمنين" إمّا المصدِّقون بما عُلم ضرورةً أنّه مِن دين نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم مِن التوحيد والنبوّة والبعث والجزاء ونظائرها، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ وما عُطف عليه صفاتٌ مخصِّصة لهم، وإمّا الآتون بفروعه أيضًا، كما يُنبئ عنه إضافةُ الصلاة إليهم، فهي صفات موضّحة أو مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر في حيّز الصلة مِن المعاني مع الإيمان إجمالًا أو تفصيلًا، كما مرّ في أوائل سورة البقرة.

[١٣٠ظ] و"الخشوع": الخوف والتذلّل، أي: خائفون مِن الله عزّ وجلّ، / متذلّلون له، ملزِمون أبصارَهم مساجدَهم. رُوي أنّه عليه السلام كان إذا صلّى رفع بصره إلى السماء، فلمّا نزلت رمى ببصره نحو مسجده.[3] وأنّه رأى مصلّيًا يعبث بلحيته فقال: «لو خَشع قلب هذا لَخَشعت جوارحه».[4]

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ أي: عمّا لا يَعنيهم مِن الأقوال والأفعال ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ أي: في عامّة أوقاتهم، كما يُنبئ عنه الاسم الدالّ على الاستمرار، فيدخل في ذلك إعراضُهم عنه حالَ اشتغالهم بالصلاة دخولًا أوّليًا، ومدارُ إعراضِهم عنه ما فيه مِن الحالة الداعية إلى الإعراض عنه، لا مجرّدُ الاشتغال بالجِدّ في أمور الدين

ابن خالوَيه مكتوبًا بواو بعد الحاء، وفي اللوامح: "وحذفت واو الجمع بعد الحاء لالتقائهما في الدرج، وكانت الكتابة عليها محمولة على الوصل، نحو: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الشورى، ٢٤/٤٢]"». البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٦/٧.

[1] س: الأطبّاء.

[2] الكشّاف للزمخشري، ١٧٤/٣. قال أبو حيّان بعد نقله عن الزمخشري استشهادَه بهذا البيت: «وليس بجيّد؛ لأنّ الواو في "أَفۡلَحُ" حذفت لالتقاء الساكنين، وهنا حذفت للضرورة، فليست مثلَها». البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤٦/٧. | وتمام البيت:

وكــــان مــع الأطــبّـــاء الـشـفـاءُ

وهو بغير نسبة في الجمل في النحو للخليل، ص ٢٣٢؛ والحيوان للجاحظ، ١٦٠/٥.

[3] الكشّاف للزمخشري، ١٧٥/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٢/٤. وأخرجه الحاكم في المستدرك، ٤٢٦/٢ (٣٤٨٣)، بلفظ: «فَطأطأ رأسَه».

[4] نوادر الأصول للحكيم الترمذي، ١٧٢/٢. وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنّف، ٨٦/٢ (٦٧٨٧)، موقوفًا على سعيد بن المسيّب.

كما قيل،[١] فإنّ ذلك ربّما يوهم أن لا يكون في اللغوِ نفسِه ما يزجرهم عن تعاطيه، وهو أبلغُ مِن أن يقال: "لا يلهون" مِن وجوه؛ جعلِ الجملة اسميَّةً، وبناءِ الحكم على الضمير، والتعبيرِ عنه بالاسم، وتقديمِ الصلة عليه، وإقامةِ الإعراض مُقام الترك؛ ليدلّ على تباعدهم عنه رأسًا مباشرةً وتسبّبًا، وميلًا وحضورًا، فإنّ أصله: أن يكون في عُرضٍ غير عُرضه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وصفُهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على أنّهم بلغوا الغاية القاصية مِن القيام بالطاعات البدنيّة والماليّة، والتجنّبِ عن المحرّمات وسائرِ ما يوجب المروءةُ اجتنابَه. وتوسيط حديث الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة.

و"الزكاة" مصدر؛ لأنّه الأمر الصادر عن الفاعل، لا المحلّ الذي هو موقعه. ومعنى الفعل قد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة، ٢/٢٤]، ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ممسكون لها، فالاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ مِن نفي الإرسال الذي يُنبئ عنه الحِفظ، أي: لا يرسلونها على أحد / إلّا على أزواجهم. وفيه إيذان بأنّ قوّتهم الشهويّة داعية لهم إلى ما [١٣١و]
لا يخفى، وأنّهم حافظون لها مِن استيفاء مقتضاها، وبذلك يتحقّق كمال العفّة.

ويجوز أن يكون ﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى "مِن"، وإليه ذهب الفرّاء،[٢] كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين، ٨٣/٢]، أي: حافظون لها مِن كلّ أحد إلّا مِن أزواجهم. وقيل: هي متعلّقة بمحذوف وقَع حالًا مِن ضمير ﴿حَٰفِظُونَ﴾،

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/١٧٥.

٢ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢/٢٣١.

أي: حافظون لها في جميع الأحوال إلّا حالَ كونهم والِين أو قوّامين على أزواجهم. وقيل: بمحذوف يدلّ عليه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، كأنّه قيل: يلامون على كلّ مباشَر إلّا على ما أُطلق لهم، فإنّهم غير ملومين.

وحملُ الحفظِ على القَصر عليهنّ ليكون المعنى: حافظون فُروجهم على الأزواج لا يتعدّاهنّ، ثمّ يقال: غير حافظين إلّا عليهنّ، تأكيدًا على تأكيد؛[١] تكلّفٌ[٢] على تكلّف.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: سراريّهم، عُبّر عنهنّ بـ﴿مَا﴾ إجراءً لهنّ لمملوكيّتهنّ مُجرى غيرِ العقلاء، أو لأنوثتهنّ المُنبئة عن القصور.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليل لِمَا يفيده الاستثناء مِن عدم حفظ فروجهم منهنّ، أي: فإنّهم غير مَلومين على عدم حفظها منهنّ.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن الحدّ المتّسع، وهو أربع مِن الحرائر، وما شاء مِن الإماء، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان، المتناهون فيه. وليس فيه ما يدلّ حتمًا على تحريم المتعة، حسبما نقل عن القاسم بن محمّد،[٣] فإنّه قال: «إنّها ليست زوجةً له، فوجب ألّا تحلّ له، أمّا أنّها ليست زوجةً له فلأنّهما لا يتوارثان بالإجماع،[٤] ولو كانت زوجةً له لَحَصل التوارث لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء، ١٢/٤]، فوجب أن لا تحِلّ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾»؛[٥] لأنّ لهم أن يقولوا: إنّها زوجة له في الجملة. وأمّا أنّ كلّ زوجة ترِث فهم لا يسلّمونها، وأمّا ما قيل مِن أنّه إن أريدَ لو كانت زوجةً

---

١ انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣١٩/٦.

٢ خبر "حَملُ".

٣ هو القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، القرشي، التيمي، البكري، المدني، أبو محمّد (ت. ١٠٧هـ/٧٢٥م)، الإمام، القدوة، الحافظ، الحجّة، عالم وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة، ولد في خلافة عليّ رضي الله عنه، ورُبّي في حِجر عمّته أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وتفقّه منها، وأكثرَ عنها. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٥٣/٥؛ والأعلام للزركلي، ١٨١/٥.

٤ م ط س - بالإجماع ["صح" في هامش م س].

٥ في الآية السابقة. | تفسير الرازي، ٧١/٢٣.

حالَ الحياة لم يُفد، وإن أريدَ بعد الموت فالملازمة ممنوعة، فليس له معنى محصّل. نعم لو عُكِس لكان له وجه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾

/ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ لِما يُؤتَمَنون عليه ويُعاهَدون مِن جهة الحقّ أو الخلقِ ﴿رَٰعُونَ﴾ أي: قائمون عليها حافظون لها على وجه الإصلاحِ. وقُرئ: "لِأَمَانَتِهِمْ".[١] [١٣١ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ المفروضة عليهم ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها، ويؤدّونها في أوقاتها. ولفظ الفعل فيه لِما في الصلاة مِن التجدّد والتكرّر، وهو السرّ في جمعها. وليس فيه تكرير، لِما أنّ الخشوع في الصلاة غيرُ المحافظة عليها. وفصلُهما للإيذان بأنّ كلًّا منهما فضيلة مستقلّة على حيالها، ولو قُرِنا في الذِّكر لربّما توهّم أنّ مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن الصفات. وإيثارها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلةَ المشار إليهم حِسًّا. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بعلوّ طبقتهم وبُعد درجتهم في الفضل والشرَف، أي: أولئك المَنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي: الأحِقّاء بأن يُسمَّوا وُرّاثًا، دون مَن عداهم ممّن وَرِث رغائب الأموال والذخائر وكرائمَها.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ بيان لِما يَرثونه، وتقييدٌ للوِراثة بعد إطلاقها، وتفسيرٌ لها بعد إبهامها، تفخيمًا لشأنها، ورفعًا لمحلِّها. وهي استعارة لاستحقاقهم "الفردوس" بأعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه.

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

وقيل: إنّهم يرثون مِن الكفّار منازلَهم فيها حيث فوّتوها على أنفسهم؛ لأنّه تعالى خلق لكلّ إنسان منزلًا في الجنّة ومنزلًا في النّار.

﴿هُمْ فِيهَا﴾ أي: في الفردوس. والتأنيث لأنّه اسم للجنّة، أو لطبقتها العليا، وهو البستان الجامع لأصناف الثمر. رُوي أنّه تعالى بنى جنّة الفردوس لَبِنةً مِن ذهب، ولَبِنةً مِن فضّة، وجعل خِلالها المِسكَ الأذفَر. وفي رواية: ولَبِنةً مِن
[١٣٢و] مِسك مُذرًّى، / وغرس فيها مِن جيّد الفاكهة وجيّد الريحان.[١]

﴿خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدًا. والجملة إمّا مستأنفة مقرِّرة لِما قبلها، وإمّا حال مقدّرة مِن فاعل ﴿يَرِثُونَ﴾، أو مفعوله، إذ فيها ذِكر كلّ منهما. ومعنى الكلام: لا يموتون ولا يخرجون منها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ شروع في بيان مَبدأ خلق الإنسان وتقلّبه في أطوار الخِلقة وأدوارِ الفطرة بيانًا إجماليًّا إثرَ بيان حال بعض أفراده السعداء. و"اللام" جواب قسم، و"الواو" ابتدائيّة. وقيل: عاطفة على ما قَبلها. والمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجنس، أي: وباللهِ لقد خلقنا جنس الإنسان في ضمن خلق آدم عليه السلام خَلقًا إجماليًّا حسبما تحقّقتَه في سورة الحجّ وغيرها.[٢] وأمّا كونه مخلوقًا مِن سلالات جُعلت نُطَفًا بعد أدوار وأطوار[٣] فبعيدٌ.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ "السُّلالة": ما سُلَّ مِن الشيء واستُخرجَ منه. فإنّ "فُعَالة" اسم لِما يحصل مِن الفعل، فتارة تكون مقصودًا منه، كـ"الخُلاصة"، وأخرى غير مقصود منه، كـ"القُلامة" و"الكُناسةِ"، و"السُّلالةُ" مِن قَبيل الأوّل، فإنّها مقصودة بالسَّلّ.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١٧٨/٣. وفي سنن الترمذي، ٦٧٢/٤ (٢٥٢٦)، عن أبي هريرة، قال: قلت: «الجنّة ما بناؤها؟» قال: «لَبِنة مِن فضّة ولَبِنة مِن ذهب، ومِلاطها المِسك الأذفَر، وحَصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران»...

٢ وفي هامش م: مِن سورة طه وسورة مريم وغيرهما. «منه». | مريم، ٩/١٩؛ طه، ٥٥/٢٠؛ الحجّ، ٥/٢٢.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٣/٤.

و﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلّقة بالخَلق. وما في قوله تعالى: ﴿مِن طِينٍ﴾ بيانيّة متعلّقة بمحذوف وقعَ صفة لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾، أي: خلقناه مِن سُلالة كائنة مِن طين. ويجوز أن تتعلّق بـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ على أنّها بمعنى "مسلولة"، فهي ابتدائيّة كالأولى.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ آدم عليه السلام، فإنّه الذي خُلق مِن صفوةٍ سُلَّت مِن الطين. وقد وقفتَ على التحقيق.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: الجنس باعتبار أفراده المغايِرة لآدم عليه السلام، أو جعلنا نسله، على حذف المضاف إن أريدَ بـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾[1] آدم عليه السلام ﴿نُطۡفَةٗ﴾ بأن خلقناه منها. أو ثمّ جعلنا السّلالة نطفة، والتذكيرُ بتأويل الجوهر، أو المَسلول، أو الماء.

﴿فِي قَرَارٖ﴾ أي: مستقَرّ، وهو الرحِم، عُبّر عنها بالقرار الذي هو مصدر مبالغةً. وقوله تعالى: ﴿مَّكِينٖ﴾ وصفٌ لها بصفة ما استقرّ فيها، مثل: / "طريق سائر"، أو بمكانتها في نفسها، فإنّها مُكّنت بحيث هي وأُحرِزت. [١٣٢ظ]

﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾

﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ﴾ أي: دمًا جامدًا بأن أحَلْنا النطفةَ البيضاء علقةً حمراء. ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾ أي: قطعةَ لحم لا استبانةَ ولا تَمايزَ فيها، ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ﴾ أي: غالبَها ومعظمَها أو كلَّها ﴿عِظَٰمٗا﴾ بأن صلّبناها وجعلناها عَمودًا للبدن على هيئاتٍ وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة، ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ﴾ المعهودةَ ﴿لَحۡمٗا﴾ مِن بقيّة المضغة، أو ممّا أنبتنا عليها بقدرتنا ممّا يصل إليها، أي: كسونا كلّ عظم مِن تلك العظام ما يليق به مِن اللحم على مقدار لائقٍ به وهيئة مناسبة له. واختلاف العواطف للتنبيه على تفاوت الاستحالات،

[1] في الآية السابقة.

وجمع العظام لاختلافها. وقُرئ على التوحيد فيهما[١] اكتفاءً بالجنس، وبتوحيد الأوّل فقط،[٢] وبتوحيد الثاني فحسب.[٣]

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ هي صورة البدن، أو الروح، أو القوى بنفخه فيه، أو المجموع. و﴿ثُمَّ﴾ لكمال التفاوت بين الخَلقَين. واحتجّ به أبو حنيفة رحمه الله على أنّ مَن غَصَب بَيضةً فأفرَخت عنده لزِمه ضمان البَيضة، لا الفَرخ؛ لأنّه خَلق آخر.[٤]

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى شأنه في علمه الشامل وقدرته الباهرة. والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعارِ بأنّ ما ذكر مِن الأفاعيل العجيبة مِن أحكام الألوهيّة، وللإيذان بأنّ حَقَّ كلِّ مَن سَمِع ما فُصِّل مِن آثار قدرته عزّ وعلا أو لاحظه أن يسارع إلى التكلّم به إجلالًا وإعظامًا لشئونه تعالى.

﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ بدَل مِن الجلالة. وقيل: نعت له بناءً على أنّ الإضافة ليست لفظيّة.[٥] وقيل: خبر مبتدإ محذوف، أي: هو أحسن الخالقين خَلقًا، أي: المقدِّرين تقديرًا، حُذف المميَّز لدلالة ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ عليه، كما حُذف المأذون فيه / في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [الحج، ٣٩/٢٢] لدلالة الصلة عليه، أي: أحسن الخالقين خَلقًا، فالحُسن للخلق. [١٣٣و]

قيل: نظيره قوله عليه السلام: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال»،[٦] أي: جميلٌ فعلُه، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه، فانقلب مرفوعًا، فاستكنّ.

رُوي أنّ عبد الله بن أبي سَرْح كان يكتب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم الوحيَ، فلمّا انتهى عليه السلام إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ سارع عبد الله إلى النطق به قبل إملائه عليه السلام، فقال عليه السلام: «اكتب، هكذا نزلت»،

---

١ أي: "عَظْمًا فَكَسَوْنَا الْعَظْمَ". قرأ بها ابن عامر وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وقتادة والأعرج والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٢.

٤ انظر: البحر الرائق لابن نجيم، ٢٤٥/٧.

٥ ط س: محضة. | يظهر أثر الكشط والتصحيح في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٦ صحيح مسلم، ٩٣/١ (٩١)؛ سنن الترمذي، ٣٦١/٤ (١٩٩٩).

فشكّ عبد الله، فقال: «إن كان محمّد يوحَى إليه فأنا كذلك»، فلحِق بمكّة كافرًا، ثمّ أسلَم يومَ الفتح. وقيل: مات على كفره.[١]

ورَوى سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية قال عمر رضي الله عنه: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هكذا نزل يا عمر».[٢]

وكان رضي الله عنه يفتخر بذلك ويقول: «وافقتُ ربّي في أربع؛ الصلاةِ خلفَ المقام، وضَربِ الحجاب على النسوة، وقَولي لهنّ: "أو ليُبْدله الله خيرًا منكنّ" فنزل قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآيةَ [التحريم، ٦٦/٥]، والرابعُ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾».[٣]

انظر كيف وقعت هذه الواقعة سببًا لسعادة عمر رضي الله عنه وشقاوة ابن أبي سَرح حسبما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة، ٢/٢٦]. لا يُقال: فقد تكلّم البشر ابتداءً بمِثل نظم القرآن، وذلك قادح في إعجازه؛ لِمَا أنّ الخارج عن قدرة البشر ما كان مقدار أقصر السور، على أنّ إعجاز هذه الآية الكريمة مَنوط بما قبلها، كما يُعرب عنه "الفاء"، فإنّها اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما ذكر مِن الأمور العجيبة، حسبما يُنبئ عنه ما في اسم الإشارة مِن معنى البعد المشعِر بعلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الفضل والكمال، وكونِه بذلك ممتازًا منزّلًا منزلةَ الأمور الحسّيّة.

/ ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ لَصائرون إلى الموت لا محالةَ، كما يؤذن به صيغة النعت الدالّة على الثبوت، دون الحدوث الذي يفيده صيغة الفاعل. وقد قُرئ: "لَمَائِتُونَ".[٤] [١٣٣ظ]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٤٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٧٩.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٤٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٧٩. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١١/٤٣٨ (١٢٢٤٤)، في حديث طويل.

٣ تفسير يحيى بن سلّام، ١/٣٩٥؛ مسند أبي داود الطيالسي، ١/٤٦ (٤١).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٣.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ١٦﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: عند النفخة الثانية ﴿تُبْعَثُونَ﴾ مِن قبوركم للحساب والمُجازاة بالثواب والعقاب.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ١٧ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ١٨﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ بيان لخلق ما يَحتاج إليه بقاؤهم إثر بيان خلقهم، أي: خلقنا في جهة العلوّ مِن غير اعتبار فوقيّتها لهم؛ لأنّ تلك النسبة إنّما تعرّض لها بعد خلقهم.

﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ هي السماوات السبع، سمّيت بها لأنّها طُورق بعضها فوق بعض مطارقةَ النعل،[١] فإنّ كلّ ما فوقَه مثلُه فهو طريقه، أو لأنّها طرائق الملائكة، أو الكواكب فيها مسيرها.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ عن ذلك المخلوق الذي هي السماوات، أو عن جميع المخلوقات التي هي مِن جملتها، أو عن الناس ﴿غَـٰفِلِينَ﴾ مهمِلين أمرها؛ بل نحفظها عن الزوال والاختلال، وندبّر أمرها حتّى تبلغ منتهى ما قُدّر لها مِن الكمال حسبما اقتضته الحكمة وتعلّقت به المشيئة، ويصل إلى ما في الأرض منافعها، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر، أو الأنهار النازلة مِن الجنّة. قيل: هي خمسة أنهار؛ سِيحون نهر الهند، وجيحون نهر بَلْخ، ودِجلة والفرات نهرا العراق، والنيل نهر مِصر، أنزلها الله تعالى مِن عينٍ واحدة مِن عيون الجنّة، فاستودعها الجبالَ، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في فنون معايشهم.[٢]

و﴿مِن﴾ ابتدائيّة متعلّقة بـ﴿أَنزَلْنَا﴾، وتقديمُها على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم، والتشويق إلى المؤخَّر. والعدول عن الإضمار لأنّ الإنزال لا يُعتبر فيه عنوان كونها طرائقَ؛ بل مجرّدُ كونها جهةَ العلوّ.

---

[١] طارَق النعلَ، إذا صيّرها طاقًا فوق طاق، وركّب بعضها فوق بعض. **النهاية** لابن الأثير، «طرق».

[٢] **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٨٧/٣، **الكشّاف** للزمخشري، ١٧٩/٣.

﴿بِقَدَرٍ﴾ بتقديرٍ لائقٍ لاستجلاب منافعهم ودفعِ مضارّهم، / أو بمقدار [١٣٤و]
ما علمنا مِن حاجاتهم ومصالحهم، ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلناه ثابتًا قارًّا فيها.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ أي: إزالته بالإفساد، أو التصعيد، أو التغوير بحيث يتعذّر استنباطه ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ كما كنّا قادرين على إنزاله. وفي تنكير ﴿ذَهَابٍ﴾ إيماء إلى كثرة طُرقه، ومبالغةٌ في الإيعاد[1] به، ولذلك جُعل أبلغَ مِن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك، ٦٧/٣٠].

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ١٩﴾

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ في الجنّات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكّهون بها، ﴿وَمِنْهَا﴾ مِن الجنّات ﴿تَأْكُلُونَ﴾ تغذّيًا، أو تُرزقون وتحصّلون معايشكم، مِن قولهم: "فلان يأكل مِن حِرفته". ويجوز أن يعود الضميران للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمراتها أنواع مِن الفواكه، الرُّطَب والعِنب، والتمر والزبيب، والعصير والدبس، وغير ذلك، وطعامٌ تأكلونه.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ٢٠﴾

﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطفٌ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾.[2] وقُرئ بالرفع على أنّه مبتدأ خبره محذوف دلّ عليه ما قبله، أي: وممّا أُنشِئَ لكم به شجرة، وتخصيصُها بالذكر مِن بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافعَ معروفة، قيل: هي أوّلُ شجرة نبتَتْ بعد الطوفان.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة، وقيل: بفلسطين، ويقال له: "طور سينين". فإمّا أن يكون "الطور" اسم الجبل، و﴿سَيْنَآءَ﴾ اسم البقعة أضيفَ إليها، أو المركّب منهما علَم له،

---

١ ط س: الإبعاد.

٢ في الآية السابقة.

كـ"امرئ القيس". ومنعُ صرفه[١] على قراءة مَن كسر السين[٢] للتعريف[٣] والعجمة، أو التأنيثِ على تأويل البُقعة، لا للألف؛ لأنّه "فِيعال" -كـ"دِيماس"- مِن "السَّناء" بالمدّ، وهو الرفعة، أو بالقصر، وهو النور، أو ملحق بـ"فِعْلَال" -كَـ"عِلْبَاء"-[٤] مِن "السِّين"، / إذ لا فِعلاءَ بألف التأنيث، بخلاف "سَيناء"، فإنّه "فَيعال" كـ"كَيسان"، [١٣٤ظ]
أو "فَعلاء" كـ"صَحراء"، إذ لا "فَعْلَال" في كلامهم. وقُرئ بالكسر والقصر.

والجملة صفة لـ﴿شَجَرَةً﴾، وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها مِن سائر البقاع أيضًا لتعظيمها، ولأنّه المنشأ الأصلي لها.

وقوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ صفة أخرى لـ﴿شَجَرَةً﴾، و"الباء" متعلّقة بمحذوف وقع حالًا منها، أي: تنبت ملتبسة به. ويجوز كونها صلة معدِّية، أي: تُنبِتُه بمعنى تتضمّنه وتحصّله، فإنّ النبات حقيقةً صفةٌ للشجرة لا للدهن. وقُرئ: "تُنْبِتُ"[٥] مِن الإفعال، وهو إمّا مِن "الإنبات" بمعنى "النبات"، كما في قول زهير:

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتهم قَطينًا لهم حتّى إذا أنبتَ البقلُ[٦]

أو على تقدير: تُنبتُ زيتونَها ملتبسًا بالدهن. وقُرئ على البناء للمفعول،[٧] وهو كالأوّل، و"تُثْمِرُ بِالدُّهْنِ"،[٨] و"تَخْرُجُ بِالدُّهْنِ"،[٩] و"تَنْبُتُ بِالدِّهَانِ".[١٠]

---

١ س + للتعريف.

٢ ط - على قراءة مَن كسر السين. | قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٣ س - للتعريف.

٤ ط س: كعليا.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورويس. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٦ القطين: الساكن النازل في الدار. يقول: يلزمونهم فيسكنون عندهم. وقوله: "أنبتَ البقلُ" أي: أخصب الناس. شرح شعر زهير لثعلب، ص ٩٣.

٧ أي: "تُنْبَتُ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري والحسن والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٣.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٨١/٣؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٥٥/٧.

٩ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها، ورُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه: "تُخْرِجُ الدُّهْنَ". انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٨١/٣؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٥٥/٧. قال أبو حيّان: «وما رَووا مِن قراءة عبد الله "تُخْرِجُ الدُّهْنَ" وقراءة أبيّ "تُثْمِرُ بِالدُّهْنِ" محمول على التفسير لمخالفته سَواد المصحف المجمع عليه».

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن سليمان بن عبد الملك والأشهب. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥٥٥/٧.

﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ معطوف على ﴿ٱلدُّهْنِ﴾ جارٍ على إعرابه عطفَ أحدِ وصفَي الشيء على الآخر، أي: تَنبُت بالشيء الجامع بين كونه دُهنًا يُدهَن به ويُسرَج منه، وكونِه إدامًا يُصبغ فيه الخبز، أي: يُغمَس للِائتدام. وقُرئ: "وَصِبَاغٍ"، كـ"دِبَاغٍ" في دَبْغ.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ بيان للنعم الفائضة عليهم مِن جهة الحيوان إثرَ بيان النعم الواصلة إليهم مِن جهة الماء والنبات، وقد بُيّن أنّها مع كونها في نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتّى عبرةٌ لا بدّ مِن أن يعتبروا بها، ويستدلّوا بأحوالها على عظيم قدرة الله عزّ وجلّ، وسابغ رحمته، ويشكروه، ولا يكفروه، وخُصّ هذا بالحيوان لِما أنّ محلّ العبرة فيه أظهر ممّا في النبات.

وقوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ / تفصيل لِما فيها مِن مواقع العِبرة. [١٣٥و]
وما في بطونها عبارة إمّا عن الألبان، فـ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، والمراد بـ"البطون" الجَوف، أو عن العَلَف الذي يتكوّن منه اللبن، فـ﴿مِن﴾ ابتدائيّة، و"البطون" على حقيقتها. وقُرئ بفتح النون،[١] وبالتاء،[٢] أي: تَسقِيكم الأنعام.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ما ذُكر مِن أصوافها وأشعارها، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فتنتفعون بأعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي: على الأنعام، فإنّ الحَمل عليها لا يقتضي الحَمل على جميع أنواعها؛ بل يتحقّق بالحَمل على البعض، كالإبل ونحوها. وقيل: المراد هي الإبل خاصّةً؛ لأنّها هي المحمول عليها عندهم، والمناسبُ لـ﴿ٱلْفُلْكِ﴾،

---

[١] قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٠٤/٢.

[٢] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٠٤/٢.

فإنّها سفائن البَرّ، قال ذو الرمّة:[١]

سفينةُ بَـرٍّ تحتَ خَـدّي زِمامُها[٢]

فالضمير فيهِ كما في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾[٣] [البقرة، ٢/٢٢٨].

﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: في البرّ والبحر. وفي الجمع بينها وبين ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ في إيقاع الحَمل عليها مبالغة في تحمّلها للحَمل، وهو الداعي إلى تأخير ذكر هذه المنفعة مع كونها مِن المنافع الحاصلة منها مِن[٤] ذكر مَنفعة الأكل المتعلّقة بعينها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروع في بيان إهمال الأمم السابقة، وتركِهم النظرَ والاعتبارَ فيما عُدِّد مِن النِّعم الفائتة للحصر، وعدمِ تذكّرهم بتذكير رسلهم، وما حاق بهم لذلك مِن فنون العذاب؛ تحذيرًا للمخاطَبين. وتقديمُ قصّةِ نوح عليه السلام على سائر القِصص ممّا لا يخفى وجهه، وفي إيرادها إثْرَ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[٥] مِن حُسن الموقع ما لا يوصف.

و"الواو" ابتدائيّة، و"اللام" جواب قسم محذوف. وتصدير القصّة به لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها، أي: وبالله / لقد أرسلنا نوحًا... إلخ. ونسَبه الكريم [١٣٥ظ]
وكيفيّةُ بَعثه وكمّيّةُ لَبثه فيما بينهم قد مرّ تفصيله في سورة الأعراف[٦] وسورة هود.[٧]

---

[١] هو غيلان بن عقبة بن بهيس، ذو الرُّمّة (ت. ١١٧هـ/٧٣٥م)، مِن فحول الشعراء، مُضريّ النسب. والرُّمّة: هي الحبل. شبَّبَ بمَيّة بنت مقاتل المنقريّة، وبالخرقاء. وله مدائح في الأمير بلال بن أبي بردة. قال أبو عمرو بن العلاء: «افتُتح الشعراء بامرئ القيس، وخُتموا بذي الرُّمّة». وقيل: إن الوليد قال للفرزدق: «أتعلم أحدًا أشعرَ منك؟» قال: «غلام مِن بني عديّ، يركب أعجاز الإبل» يريد: ذا الرُّمّة. انظر: **سير أعلام النبلاء للذهبي**، ٥/٢٦٧؛ **والأعلام للزركلي**، ٥/١٢٤.

[٢] صدره:

طُروقًا وجِلبُ الرَّحلِ مشدودةٌ به

ديوان ذي الرمّة، ٢/١٠٠٤. وفيه: "وجِلْبُ الرَّحل": خشبة بغير أداة.

[٣] وفي هامش م: مِن حيث إنّ كلًّا منها أخصّ مِن المرجع فـ﴿ٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ تعمّ المطلّقة الرجعيّة والمَبتوتة، وكذا ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تعمّ الإبل وغيرها. «منه».

[٤] س: عن.

[٥] في الآية السابقة.

[٦] الأعراف، ٧/٥٩.

[٧] هود، ١١/٢٥.

﴿فَقَالَ﴾ متعطّفًا عليهم ومستميلًا لَهم إلى الحقّ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه وحده كما يُفصح عنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود، ٢٦/١١]. وتركُ التقييد به للإيذان بأنّها هي العبادة فقط، وأمّا العبادة بالإشراك فليس مِن العبادة في شيء رأسًا.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ استئناف مَسوق لتعليل العبادة المأمور بها، أو تعليلِ الأمر بها. و﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ بالرفع صفة لـ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبار محلِّه الذي هو الرفعُ على أنّه فاعل، أو مبتدأ خبره ﴿لَكُم﴾، أو محذوف و﴿لَكُم﴾ للتخصيص والتبيين، أي: ما لكم في الوجود أو في العالَم إلهٌ غيرُه تعالى. وقُرئ بالجرّ[١] باعتبار لفظه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تَقُون أنفسَكم عذابَهُ الذي يستوجبه ما أنتم عليه مِن ترك عبادته تعالى، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف، ٥٩/٧]، وقولُه تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود، ٢٦/١١]. وقيل: أفلا تخافون أن ترفضوا عبادةَ الله الذي هو ربّكم... إلخ، وليس بذاك. وقيل: أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعَمه... إلخ، وفيه ما فيه. و"الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه. و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أتعرفون ذلك -أي: مضمون قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾- فلا تتّقون عذابه بسبب إشراككم به في العبادة ما لا يستحقّ الوجودَ لولا إيجاد الله تعالى إيّاه، فضلًا عن استحقاق العبادة؟ فالمنكَرُ عدمُ الاتّقاء مع تحقّق ما يوجبه، أو أَلَا تُلاحظون ذلك فلا تتّقونه؟ فالمنكَر كِلا الأمرين، فالمبالغة حينئذ في الكمّيّة، وفي الأوّل في الكيفيّة.

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ أي: الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ وُصِف الملأ بما ذُكر مع اشتراك الكلّ فيه للإيذان بكمال عَراقتهم في الكفر، وشدّةِ شَكيمتهم فيه،

---

[١] قرأ بها أبو جعفر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

أي: قالوا لعوامّهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الجنس والوصف مِن غير فَرق / بينكم وبينه، وصفوه عليه السلام بذلك مبالغةً في وضع رتبته العالية وحطّها عن منصب النبوّة. [١٣٦و]

﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدّمكم بادّعاء الرسالة مع كونه مثلَكم، وصفوه بذلك إغضابًا للمخاطَبين عليه عليه الصلاة والسلام[١] وإغراءً لَهم على معاداته عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريّته عليه السلام، أي: لو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلًا مِن الملائكة. وإنّما قيل: ﴿لَأَنزَلَ﴾ لأنّ إرسال الملائكة لا يكون إلّا بطريق الإنزال، فمفعول المشيئة مطلقُ الإرسال المفهومُ مِن الجواب، لا نفسُ مضمونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾ [النحل، ٩/١٦] ونظائره.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أي: بمثل هذا الكلام الذي هو الأمر بعبادة الله تعالى خاصّةً وتركِ عبادة ما سواه. وقيل: بمثل نوح عليه السلام في دعوى[٢] النبوّة. ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: الماضِين قبل بعثته عليه السلام، قالوه إمّا لكونهم وآبائهم في فترة متطاولة، وإمّا لفَرط غلوّهم في التّكذُّبِ والعناد، وانهماكهم في الغيّ والفساد. وأيًّا ما كان فقولُهم هذا ينبغي أن يكون هو الصادر عنهم في مبادي دعوته عليه السلام، كما ينبئ عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾... إلخ.

وقيل: معناه: ما سمعنا به عليه السلام أنّه نبيّ. فالمراد بآبائهم الأوّلين الذين مضَوا قبلهم في زمن نوح عليه السلام. وقولهم المذكور هو الذي صدر عنهم في أواخر أمره عليه السلام، وهو المناسب لِما بعده مِن حكاية دعائه عليه السلام، وقولِهم: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، أو جِنّ يخبلونه، ولذلك يقول ما يقول، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: احتملوه واصبروا عليه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ لعلّه يُفيق ممّا فيه؛ محمولٌ حينئذ على ترامي أحوالهم في المكابرة والعناد، وإضرابِهم عمّا وصفوه عليه السلام به مِن البشريّة وإرادةِ التفضّل إلى وصفه عليه السلام

---

[١] س: عليه السلام.

[٢] س: ذعوى.

بما ترى، وهم يعرفون أنّه عليه السلام أرجح الناس عقلًا وأرزَنُهم قولًا. وعلى الأوّل على تناقض مقالاتهم الفاسدة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية كلام الكفرة، كأنّه قيل: فماذا قال عليه السلام بعدما سمع منهم هذه الأباطيل؟ فقيل: قال لمّا رآهم قد أصرّوا على الكفر والتكذيب، وتمادَوا في الغواية والضلال حتّى يَئِس مِن إيمانهم بالكلّيّة، وقد أُوحِي إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود، ٣٦/١١]: / ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ بإهلاكهم بالمرّة، فإنّه حكاية إجماليّة لقوله عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا [١٣٦ظ]
تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾... إلخ [نوح، ٢٦/٧١].

﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إيّاي، أو بدلَ تكذيبهم.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ عند ذلك ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ ﴿أَن﴾ مفسِّرة لِما في الوحي مِن معنى القول. ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ ملتبسًا بحفظنا وكلاءتنا، كأنّ معه عليه السلام منه عزّ وعلا حُفّاظًا وحرّاسًا يكلئونه بأعينهم مِن التعدّي، أو مِن الزيغ في الصنعة. ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ وأمرِنا وتعليمِنا لكيفيّة صنعها.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على تمام صنع الفُلك. والمراد بـ"الأمر" العذابُ كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [هود، ٤٣/١١]، لا الأمرُ بالركوب كما قيل،[١] وبمجيئه كمالُ اقترابه أو ابتداءُ ظهوره. أي: إذا جاء إثرَ تمام الفُلك عذابُنا.

---

[١] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨٦/٤.

وقوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ عطف بيان لمجيء الأمر. رُوي أنّه قيل له عليه السلام: «إذا فار الماء مِن التنّور اركب أنت ومَن معك»، وكان تنّورَ آدمَ عليه السلام، فصار إلى نوح عليه السلام، فلمّا نبع منه الماءُ أخبرَته امرأته فركبوا.[١] واختُلِف في مكانه، فقيل: كان في مسجد الكوفةِ، أي: في موضعه عن يمين الداخل مِن باب كِندةَ اليومَ. وقيل: كان في عين وردة مِن الشام. وقد مرّ تفصيله في تفسير سورة هود عليه السلام.[٢]

﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أَدْخِل فيها، يقال: "سَلَكَ فيه"، أي: دَخَل فيه، و"سَلَكَه فيه"، أي: أَدخَله[٣] فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر، ٧٤/٤٢].

﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: مِن كلّ أمّة ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي: فَردين مزدَوجين، كما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ فإنّه نصّ في الفردين دون الجمعَين أو الفريقَين. وقُرِئ بالإضافة[٤] على / أنّ المفعول ﴿ٱثْنَيْنِ﴾، أي: مِن كلِّ أُمَّتَيْ زوجين، وهما أمّة الذكر وأمّة الأنثى، [١٣٧و]
كالجِمال والنُّوق والحُصُن والرِّماك. وهذا صريح في أنّ الأمر كان قبل صنعة الفُلك، وفي سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ [هود، ١١/٤٠]، فالوجه أن يُحمل إمّا على أنّه حكاية لأمرٍ آخر تنجيزيّ ورَد عند فوران التنّور الذي نِيط به الأمر التعليقي اعتناءً بشأن المأمور به، أو على أنّ ذلك هو الأمر السابق بعينه، لكن لمّا كان الأمر التعليقي قبل تحقّق المعلّق به في حقّ إيجاب المأمور به بمنزلة العدم جُعِل كأنّه إنّما حدث عند تحقّقه، فحُكِي على صورة التنجيز، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة، ٢/٣٤].

﴿وَأَهْلَكَ﴾ منصوب بفعل معطوف على ﴿فَٱسْلُكْ﴾، لا بالعطف على ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أو ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ على القراءتين؛ لأدائه إلى اختلال المعنى، أي: واسلك أهلَك، والمراد به امرأته وبنوه. وتأخير الأمر بإدخالهم عمّا ذُكر مِن إدخال الأزواج فيها لكونه عريقًا فيما أُمِر به مِن الإدخال، فإنّه محتاج إلى مُزاولة الأعمال منه عليه السلام؛

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣/١٨٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٨٦. وانظر: جامع البيان للطبري، ١٢/٤٠٤ (هود، ١١/٤٠).

٢ هود، ١١/٤٠.

٣ س: أدخلته.

٤ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٨.

بل إلى معاونةِ مِن أهله وأتباعه. وأمّا هم فإنّما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك، ولأنّ في المؤخَّر ضرب تفصيل بذِكر الاستثناء وغيره، فتقديمه يؤدّي إلى الإخلال بتجاوب أطراف النظم الكريم.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: القولُ بإهلاك الكفرة، وإنّما جيء بـ"على" لكون السابق ضارًّا، كما جيء باللام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء، ١٠١/٢١] لكونه نافعًا.

﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بالدعاء لإنجائهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ تعليلٌ للنهي، أو لِما يُنبئ عنه مِن عدم قبول الدعاء، أي: إنّهم مَقضيّ عليهم بالإغراق لا محالةَ لظلمهم بالإشراك وسائر المعاصي. ومَن هذا شأنه لا يُشفع له / ولا يُشفَّع فيه، [١٣٧ظ] كيف لا، وقد أُمر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ أي: مِن أهلك وأشياعك ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ على طريقة قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام، ٤٥/٦].

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ في السفينة أو منها ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي: إنزالًا، أو موضعَ إنزالٍ يستتبع خيرًا كثيرًا. وقُرئ: "مَنْزِلًا"،[1] أي: موضعَ نزولٍ. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أُمر عليه السلام بأن يُشفع دعاءه ما يطابقه مِن ثنائه عزّ وجلّ توسّلًا به إلى الإجابة. وإفرادُه عليه السلام بالأمر مع شركة الكلّ في الاستواء والنجاة لإظهار فضله عليه السلام والإشعار بأنّ في دعائه وثنائه مندوحة عمّا عداه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ممّا فُعِل به عليه السلام وبقومه ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ جليلةً يستدِلّ بها أولو[2] الأبصار، ويعتبر بها ذَوُو الاعتبار. ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿إن﴾ مخفّفة

---

[1] قرأ بها أبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢. [2] م: أولوا.

مِن "إنّ"، و"اللام" فارقة بينها وبين النافية. وضمير الشأن محذوف، أي: وإنّ الشأن كنّا مصيبين قومَ نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد، أو مختبرين بهذه الآيات عبادَنا لننظر مَن يعتبر ويتذكّر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر، ١٥/٥٤].

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١﴾

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بعد إهلاكهم ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ هم عاد حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما،[٢] وعليه أكثر المفسّرين، وهو الأوفق لِما هو المعهود في سائر السور الكريمة مِن إيراد قصّتهم إثرَ قصّة قوم نوح. وقيل: هم ثمود.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢﴾

﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ﴾ جُعِلوا موضعًا للإرسال كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ﴾ [الرعد، ٣٠/١٣] ونحوِه، لا غايةً له كما في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ
[١٣٨و] أَرۡسَلۡنَا نُوحًا/ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف، ٥٩/٧]؛ للإيذانِ مِن أوّل الأمر بأنّ مَن أُرسل إليهم لم يأتهم مِن غير مكانهم؛ بل إنّما نشأ فيما بين أظهرهم، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنۡهُمۡ﴾، أي: مِن جملتهم نسبًا، فإنّهما عليهما السلام كانا منهم.

و﴿أَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مفسِّرة لـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ لتضمّنه معنى القول، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ تعليل للعبادة المأمور بها، أو لِلأمرِ بها، أو لوجوب الامتثال به. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: عذابَه الذي يستدعيه ما أنتم عليه مِن الشرك والمعاصي. والكلام في العطف كالذي مرّ في قصّة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣﴾

---

١ س - تعالى.

٢ المؤمنون، ٢٣/٢٣.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾ حكاية لقولهم الباطل إثرَ حكاية القول الحقّ الذي ينطق به حكايةُ إرسال الرسول بطريق العطف، على أنّ المراد حكايةُ مطلق تكذيبهم له عليه السلام إجمالًا، لا حكايةُ ما جرى بينه عليه السلام وبينهم مِن المحاورة والمقاولة تفصيلًا حتّى يُحكى بطريق الاستئناف المبنيّ على السؤال، كما يُنبئ عنه ما سيأتي مِن حكاية سائر الأمم، أي: وقال الأشراف مِن قومه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في محلّ الرفع على أنه صفة لـ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، وُصِفوا بذلك ذمًّا لهم، وتنبيهًا على غلوّهم في الكفر. وتأخيره مِن ﴿قَوْمِهِۦ﴾ لعطف قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وما عُطف عليه على الصلة الأولى، أي: كذّبوا بلقاء ما فيها مِن الحساب والثواب والعقاب، أو بمَعادهم إلى الحياة الثانية بالبعث.

﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ ونعّمناهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بكثرة الأموال والأولاد، أي: قالوا لأعقابهم مُضِلّين لهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الصفات والأحوال. وإيثارُ ﴿مِثْلُكُمْ﴾ على "مِثلنا" للمبالغة في تهوين أمره عليه السلام وتوهينه.

﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ تقرير للمماثلة. و﴿مَا﴾ خبريّة. / والعائد إلى الثاني منصوب محذوف، أو مجرور قد حُذف مع الجارّ لدلالة ما قبله عليه. [١٣٨ظ]

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ أي: فيما ذُكر مِن الأحوال والصفات، أي: إن امتثلتم بأوامره ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ أي: على تقدير الاتّباع ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ عقولَكم، ومغبونون في آرائكم، حيث أذللتم أنفسكم. انظر كيف جعلوا اتّباعَ الرسول الحقّ الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خُسرانًا دون عبادة الأصنام التي لا خسرانَ وراءها، قاتلهم الله أنّى يُؤفكون.

و﴿إِذًا﴾ واقع بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرها لتأكيد مضمون الشرط. والجملة جواب لقسَم محذوف قبل ﴿إن﴾ الشرطيّة المصدّرة باللام الموطّئة. أي: وبالله لئن أطعتم بشرًا مثلكم إنكم إذًا لخاسرون.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله مِن زجرهم عن اتّباعه عليه السلام بإنكار وقوع ما يدعوهم إلى الإيمان به واستبعاده. ﴿أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ﴾ بكسر الميم، مِن "مات يَمات". وقُرئ بضمّها،[١] مِن "مات يَموت". ﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ نخِرةً مجرّدةً عن اللحوم والأعصاب، أي: كان بعض أجزائكم مِن اللحم ونظائره ترابًا، وبعضُها عظامًا. وتقديم التراب لعَراقته في الاستبعاد، وانقلابه مِن الأجزاء البادية. أو كان متقدِّموكم ترابًا صِرفًا، ومتأخِّروكم عظامًا.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُم﴾ تأكيد للأوّل لطول الفصل بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: ﴿مُّخْرَجُونَ﴾ أي: مِن القبور أحياءً كما كنتم. وقيل: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ مبتدأ، و﴿إِذَا مِتُّمْ﴾ خبره، على معنى إخراجُكم إذا مِتّم، ثمّ أخبر بالجملة عن ﴿أَنَّكُم﴾. وقيل: رُفع ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ بفعل هو جزاء الشرط، كأنّه قيل: إذا متّم وقع إخراجكم، ثمّ أُوقِعت الجملة الشرطيّة خبرًا عن ﴿أَنَّكُم﴾. والذي يقتضيه جزالة النظم الكريم هو الأوّل. وقُرئ: "أَيَعِدُكُمْ إِذَا مِتُّمْ"... إلخ.

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

[١٣٩و] / ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ تكرير لتأكيد البعد، أي: بَعُد الوقوعُ أو الصحّة ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾. وقيل: "اللام" لبيان المستبعَد ما هو، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢]، كأنّهم لمّا صوّتوا بكلمة الاستبعاد قيل: لماذا هذا الاستبعاد؟ فقيل: لِمَا توعدون. وقيل: ﴿هَيْهَاتَ﴾ بمعنى البعد، وهو مبتدأ خبره ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾. وقُرئ بالفتح منوّنًا[٢] للتنكير، وبالضمّ منوّنًا[٣] على أنّه جمع "هَيهة"، وغيرَ منوّن[٤]

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٤٣/٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٤. وعن هارون عن أبي عمرو في البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٠/٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيوة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

تشبيهًا بـ"قَبلُ"، وبالكسر على الوجهين،[١] وبالسكون[٢] على لفظ الوقف، وإبدالِ التاء هاءً.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أصله: إنِ الحياة إلّا حياتنا. فأقيمَ الضمير مُقام الأولى لدلالة الثانية عليها حذرًا مِن التكرار، وإشعارًا بإغنائها عن التصريح، كما في "هي النفس تتحمّل ما حُمّلت"، و"هي العربُ تقول ما شاءت". وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالّة على الجنس كانت ﴿إِنْ﴾ النافية بمنزلة "لا" النافية للجنس.

وقوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ جملة مفسّرة لِما ادّعَوه مِن أنّ الحياة هي الحياة الدنيا، أي: يموت بعضنا ويولد بعض إلى انقراض العصر، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ۝٣٨﴾

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدّعيه مِن إرساله، وفيما يَعِدنا مِن أنّ الله تعالى يبعثنا، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمُصدّقين فيما يقوله.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩﴾

﴿قَالَ﴾ أي: هود عليه السلام عند يأسه مِن إيمانهم بعد ما سلك في دعوتهم كلّ مَسلك متضرّعًا إلى الله عزّ وجلّ: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ عليهم، وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إيّاي وإصرارِهم عليه.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾

﴿قَالَ﴾ تعالى إجابةً لدعائه وعِدَةً بالقبول: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن زمانٍ قليلٍ، و﴿مَا﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور لتأكيد معنى القِلّة، كما زيدت في قوله تعالى:

---

[١] بالكسر مِن غير تنوين قرأ أبو جعفر المدني. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢. وبالكسر مع التنوين قراءة شاذّة، مرويّة عن خالد بن إياس. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن خارجة بن مصعب عن أبي عمرو والأعرج وعيسى. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦١/٧.

[١٣٩ظ] ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران، ١٥٩/٣]، / أو نكرة موصوفة أي: عن شيء قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ على ما فعلوا مِن التكذيب، وذلك عند معاينتهم للعذاب.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ لعلّهم حين أصابتهم الريح العقيم أُصِيبوا في تضاعيفها بصيحة هائلة أيضًا. وقد رُوي أنّ شدّاد بن عاد[١] حين أتمّ بناءَ إرَمَ سار إليها بأهله، فلمّا دنا منها بعث الله تعالى[٢] عليهم صيحة مِن السماء، فهلكوا.[٣] وقيل: الصيحة نفس العذاب والموت. وقيل: هي العذاب المصطَلم، قال قائلهم:

صاح الزمانُ بآل بَرْمَكَ صيحةً   خرّوا لشدّتها على الأذقانِ[٤]

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بـ"الأخذ"، أي: بالأمر الثابت الذي لا دفاع له، أو بالعدل مِن الله تعالى، أو بالوعد الصِدق. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي: كغُثاء السيل، وهو حَميله. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إخبار أو دعاء. و﴿بُعْدًا﴾ مِن المصادر التي لا يكاد يُستعمل ناصبُها. والمعنى: بَعُدوا بُعدًا، أي: هلكوا. و"اللام" لبيان مَن قيل له: ﴿بُعْدًا﴾. ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعدِ هلاكهم ﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرِهم.

---

١ هو شدّاد بن عاد بن ملطاط بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن حِمير، مِن قحطان، مِلك يَماني جاهلي قديم مِن ملوك الدولة الحِميريّة. اتّفقت عليه كلمة أولي الرأي مِن حِمير وقحطان بعد وفاة النعمان بن يعفر، فولّوه المُلك في صنعاء، فكان حازمًا مِغوارًا، غزا البلاد إلى أن بلغ أرمينيّة، وعاد إلى الشام فزحف إلى المغرب، يبني المدن، ويتّخذ المصانع. ولمّا رجع إلى اليمن مضى إلى مأرب فبنى فيه قَصر "إرَم" بجانب السدّ. انظر: التيجان في ملوك حِمير للمعافري، ص ٧٤؛ والأعلام للزركلي، ١٥٨/٣.

٢ س - تعالى.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٧٤٨/٤ (الفجر، ٧/٨٩)؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠٩/٥ (الفجر، ٧/٨٩).

٤ بغير نسبة في الدرّ الفريد للمستعصمي، ٥٤/٧؛ واللباب لابن عادل، ٢١٥/١٤.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تتقدّم أمّةٌ مِن الأمم المهلَكة الوقتَ الذي عُيّن لهلاكهم، أي: ما تهلِك أمّة قبل مجيء أجلها، ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ ذلك الأجل ساعةً.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ عطفٌ على ﴿أَنشَأْنَا﴾،[١] لكن لا على معنى أنّ إرسالهم متراخٍ مِن إنشاء القرون المذكورة جميعًا؛ بل على معنى أنّ إرسال كلّ رسول متأخّر عن إنشاء قَرن مخصوص بذلك الرسول، كأنّه قيل: ثمّ أنشأنا مِن بعدهم قرونًا آخرين قد أرسلنا إلى كلّ قرن منهم رسولًا خاصًّا به. والفَصل بين المعطوفين بالجملة المعترِضة الناطقة بعدم تقدّم الأمم أجلَها المضروبَ لهلاكهم للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجهٍ إجمالي.

/ ﴿تَتْرَا﴾ أي: متواترين واحدًا بعد واحد، مِن "الوتر"، وهو الفرد. و"التاء" بدل مِن الواو، كما في "تَوْلَج"[٢] و"تَيْقُور".[٣] والألف للتأنيث باعتبار أنّ الرسل جماعة. وقُرئ بالتنوين[٤] على أنّه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالًا. [١٤٠و]

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ استئناف مبيّن لمجيء كلّ رسول لأمّته، ولِما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة. والمراد بالمجيء إمّا التبليغ وإمّا حقيقة المجيء للإيذان بأنّهم كذّبوه في أوّل الملاقاة. وإضافة "الرسول" إلى "الأمّة" مع إضافة كلّهم فيما سبق إلى نون العظمة لتحقيق أنّ كلّ رسول جاءَ أمّته الخاصّة به، لا أنّ كُلّهم جاءوا كلّ الأمم، وللإشعار بكمال شناعتهم وضلالهم

---

[١] المؤمنون، ٤٢/٢٣.

[٢] التَوْلج: الكِناس الذي يتّخذه الوحش في أصول الشجر، الأصل: "وَوْلَج"، فقُلبت الواو تاءً. لسان العرب لابن منظور، «دلج».

[٣] التَيقور: الوَقار، وأصله "وَيقور،" قلبت الواو تاء. الصحاح للجوهري، «وقر».

[٤] قرأ بها أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

حيث كذّبت كلّ واحدة منهم رسولَها المعيّن لها. وقيل: لأنّ الإرسال لائِق بالمرسِل، والمجيءَ بالمرسَل إليهم.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك حسبما تبع بعضُهم بعضًا في مباشرة أسبابه التي هي الكفر والتكذيب وسائر المعاصي. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لم يبقَ منهم إلّا حكايات يَعتبر بها المعتبِرون. وهو اسم جمع للحديث، أو جمعُ "أُحدُوثة"، وهي ما يُتحدّث به تَلهّيًا، كـ"أعاجيب" جمع "أُعجُوبة"، وهي ما يُتعجّب منه، أي: جعلناهم أحاديثَ يُتحدّث بها تلهّيًا وتعجّبًا.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ اقتُصِر ههنا على وصفهم بعدم الإيمان حسبما اقتُصِر على حكاية تكذيبهم إجمالًا. وأمّا القَرن الأوّلون فحيث نُقل عنهم ما مرّ مِن الغلوّ وتجاوز الحدّ في الكفر والعدوان وُصِفوا بالظلم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هي الآيات التسع مِن اليد والعصا[١] والجراد والقمّل والضفادع والدم والسنين[٢] ونقص الثمرات والطاعون. ولا مساغ لِعَدِّ "فَلْق البحر" منها، إذ المراد هي الآيات التي كذّبوها واستكبروا عنها.

﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجّة واضحة ملزِمةٍ للخصم، وهي إمّا العصا، وإفرادُها بالذكر مع اندراجها في الآياتِ لِما أنّها أمّ آياته عليه السلام وأولاها، وقد تعلّقت بها معجزات شتّى مِن انقلابها ثعبانًا وتلقّفِها لِما أفِكته السحرة، حسبما فُصّل في تفسير سورة طه.[٣] وأمّا التعرّض لانفلاق البحر وانفجار العيون مِن الحَجر بضربها وحِراستها وصيرورتها شمعة وشجرة خضراء مثمرة / ودلوًا ورِشاءً وغير ذلك ممّا ظهر منها مِن قبلُ ومِن بعدُ في غير مَشهد فرعونَ وقومه[٤] فغير ملائم لمقتضى المقام. [١٤٠ظ]

---

١ س + والطوفان [زيد في الهامش بعلامة "صح"].
٢ م ط س - والسنين ["صح" في هامش م].
٣ طه، ٢٠/٢٠؛ طه، ٦٩/٢٠.
٤ الكشّاف للزمخشري، ١٨٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٨/٤.

وإمّا نفس الآيات كقوله:

إلى المَلِك القَرم وابنِ الهُمام... إلخ[١]

عُبّر عنها بذلك على طريقة العطف تنبيهًا على جمعها لعنوانين جليلين وتنزيلًا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتي.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه، خُصّوا بالذكر لأنّ إرسال بني إسرائيل مَنوط بآرائهم، لا بآراء أعقابهم، ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الانقياد، وتمرّدوا، ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متكبّرين متمرّدين.

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ عطفٌ على ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾،[٢] وما بينهما اعتراض مقرِّر للاستكبار، أي: كانوا قومًا عادتهم الاستكبار والتمرّد، أي: قالوا فيما بينهم بطريق المناصَحة: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثُنّي "البشَرُ" لأنّه يُطلَق على الواحد، كقوله تعالى: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم، ١٧/١٩]، كما يُطلَق على الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم، ٢٦/١٩]، ولم يُثَنَّ "المِثْلُ" نظَرًا إلى كونه في حكم المصدر.

وهذه القَصص كما ترى تدلّ على أنّ مدار شُبَه المنكرين للنبوّة قياس حال الأنبياء على أحوالهم بناءً على جهلهم بتفاصيل شئون الحقيقة البشريّة، وتباين طبقات أفرادها في مراقي الكمال ومَهاوي النقصان، بحيث يكون بعضها في أعلى علّيين، وهم المختصّون بالنفوس الزكيّة، المؤيَّدون بالقوّة القدسيّة، المتعلّقون لِصفاءِ جواهرهم بكِلا العالَمين الروحاني والجسماني، يَتلقَّون مِن جانب ويُلْقُون إلى جانب، ولا يَعوقهم التعلّق بمصالح الخلق عن التبتّل إلى جناب الحقّ، وبعضُها في أسفل سافلين، كأولئك الجهلة الذين هم كالأنعام؛ بل هم أضلّ سبيلًا.

---

[١] وفي هامش م: تمامه:
وليثُ الكتائب في المزدحَم
وهو بغير نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٠٥/١؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٤٥١/١.

[٢] في الآية السابقة.

﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعنون بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي: خادمون منقادون لنا كالعبيد، وكأنّهم قصدوا بذلك التعريضَ بشأنهما عليهما السلام وحطَّ رتبتهما العليّة عن منصب الرسالة مِن وجه آخر غيرِ البشريّة. و"اللام" في ﴿لَنَا﴾ متعلّقة بـ﴿عَٰبِدُونَ﴾، قُدّمت عليه رعايةً للفواصل، والجملةُ حال مِن فاعل ﴿نُؤْمِنُ﴾ مؤكِّدة لإنكار الإيمان لهما بناءً على زعمهم الفاسد المؤسَّس على قياس الرياسة الدينيّة على الرياسات الدنيويّة الدائرة على التقدّم في نيل الحظوظ الدنيّة مِن المال والجاه، كدأب قريش حيث قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦]، وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ[١] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، وجهلِهم بأنّ مناط الاصطفاء للرسالة هو السَّبق في حيازة ما ذكر مِن النعوت العليّة، وإحرازِ الملَكات السنيّة جِبِلّةً واكتسابًا.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: فتَمُّوا[٢] على تكذيبهما، وأصرّوا واستكبروا استكبارًا، ﴿فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرَق في بحر قلزم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أي: بعد إهلاكِهم وإنجاءِ بني إسرائيل مِن مَلَكتهم ﴿مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراةَ. / وحيث كان إيتاؤه عليه السلام إيّاها لإرشاد قومه إلى [١٤١و]
الحقّ كما هو شأن الكتب الإلهيّة جُعِلوا كأنّهم أُوتُوها، فقيل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى طريق الحقّ بالعمل بما فيها مِن الشرائع والأحكام، وقيل: أُريدَ: آتينا قومَ موسى، فحُذف المضاف وأُقيمَ المضاف إليه مُقامه، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ [يونس، ٨٣/١٠]، أي: مِن آل فرعونَ وملَئِهم. ولا سبيل إلى عود الضمير إلى "فرعونَ وقومِه"؛ لظهور أنّ التوراة إنّما نزلت بعد إغراقهم لبني إسرائيل.

---

[١] م ط س: أنزل.

[٢] تَمّ على الأمر، وتَمَمَ عليه بإظهار الإدغام، أي: استمرّ عليه. لسان العرب لابن منظور، «تمم».

وأمّا الاستشهاد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص، ٤٣/٢٨]،[١] ممّا لا سبيل إليه ضرورةَ أن ليس المراد بـ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما يتناول "قومَ فرعون"؛ بل مَن قبلَهم مِن الأمم المهلَكة خاصّةً، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما سيأتي في سورة القصص.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ -وأيّةَ آيةٍ- دالّةً على عظيم قدرتنا بولادته منها مِن غير مَسيس بَشَر، فـ"الآية" أمرٌ واحد نُسِب إليهما، أو جعَلنا ابنَ مريم آيةً بأن تكلّم في المهد، فظهرت منه معجزات جمّة، وأمّه آيةً بأنّها ولَدته مِن غير مَسيسٍ، فحُذفت الأولى لدلالة الثانية عليها.

والتعبير عنهما بما ذُكر مِن العنوانَين -وهما كونه عليه السلام ابنَها وكونُها أمّه عليه السلام- للإيذان مِن أوّل الأمر بحيثيّة كونهما آيةً، فإنّ نسبته عليه السلام إليها -مع أنّ النسَب إلى الآباء- دالّةٌ على أن لا أب له، أي: جعلنا ابن مريم وحدها مِن غير أن يكون له أب، وأمّه التي وَلَدَتْه خاصّة مِن غير مشاركة الأب آيةً. وتقديمه عليه السلام لأصالته فيما ذُكر مِن كونه آية، كما أنّ تقديم أمّه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ٩١/٢١] لأصالتها فيما[٢] نُسب إليها مِن الإحصان والنفخ.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي: أرضٍ مرتفعة. قيل: هي إيليا أرضُ بيت المقدس، فإنّها مرتفعة، وإنّها كَبِدُ الأرض وأقرب الأرض إلى السماءِ بثمانية عشر مِيلًا على ما يُروى عن كعب.[٣] وقيل: دمشق وغوطَتها. وقيل: فِلسطين والرَّملة. وقيل: مصر، فإنّ قُراها على الرُّبَى. وقُرئ بكسر الراء[٤] وضمّها،[٥]

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٨٩/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٥/٧.

٢ س: في ما.

٣ جامع البيان للطبري، ٥٥/١٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٩/٧.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيّب ونصر بن عاصم والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٣٢/٢.

و"رُبَاوَةٍ" بالكسر[1] والضمّ.[2]

[١٤١ظ] ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ مستقَرٍّ مِن أرض منبسطة / سهلة يستقرّ عليها ساكنوها. وقيل: ذاتِ ثمار وزروع لأجلها يستقرّ فيها ساكنوها. ﴿وَمَعِينٍ﴾ أي: وماءٍ معين؛ ظاهرٍ جارٍ، "فَعيل" مِن "مَعَنَ الماءُ" إذا جَرى، وأصله الإبعاد في المشي، أو مِن "الماعون"، وهو النفع؛ لأنّه نفّاع. أو "مفعول" مِن "عانَه" إذا أدركه بالعين، فإنّه لظهوره يدرَك بالعيون. وُصِفَ ماؤها بذلك للإيذان بكونه جامعًا لفنون المنافع مِن الشرب وسَقي ما يُسقَى مِن الحيوان والنبات بغير كُلفة، والتنزّهِ بمنظره المونِق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ حكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم على وجه الإجمال لِما خوطب به كلُّ رسول في عصره، جيء بها إثرَ حكاية إيواء عيسى عليه السلام وأمِّه إلى الربوة إيذانًا بأنّ ترتيب مبادي التنعّم لم يكن مِن خصائصه عليه السلام؛ بل إباحة الطيّبات شرع قديم جرى[3] عليه جميع الرسل عليهم السلام ووُصُّوا به، أي: وقلنا لكلّ رسول: كُلْ مِن الطيّبات واعمل صالحًا، فعُبِّر عن تلك الأوامر المتعدّدة المتعلّقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالًا للإيجاز. وفيه مِن الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة مِن رفض الطيّبات ما لا يخفى.

وقيل: حكاية لِما ذُكر لعيسى عليه السلام وأمِّه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل في تناوُل ما رُزِقا. وقيل: نداء وخطاب له، والجمع للتعظيم. وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدّي والكلبي رحمهم الله تعالى أنّه خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحدَه على دأب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع.[4] وفيه إبانة لفضله وقيامِه مقام الكلّ في حيازة كمالاتهم.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأشهب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

[3] س: حرى.

[4] التفسير الوسيط للواحدي، ٢٩١/٣؛ اللباب لابن عادل، ٢٢٥/١٤.

و"الطيّبات" ما يُستطاب ويُستلذّ مِن مباحات المَأكل والفواكه حسبما ينبئ عنه سياق النظم الكريم، فالأمر للترفيه.

﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي: عملًا صالحًا، فإنّه المقصود منكم والنافع عند ربّكم. ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عَلِيمٞ﴾ فأجازيكم عليه.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور، مَسوق لبيانِ أنّ ملّة الإسلام والتوحيد ممّا أُمِر به كافّة الرسل والأمم. وإنّما أشيرَ إليها بـ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ للتنبيه على كمال ظهور أمرها في الصحّة والسداد، وانتظامِها بسبب ذلك في سِلك الأمور المشاهَدة.

﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ أي: ملّتكم وشريعتكم أيّها الرسل ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: / ملّةً [١٤٢و]
وشريعةً متّحدة في أصول الشرائع التي لا تتبدّل بتبدّل الأعصار. وقيل: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ إشارة إلى الأمم المؤمنة للرسل، والمعنى: إنّ هذه جماعتكم جماعةً واحدةً متّفقةً على الإيمان والتوحيد في العبادة.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ مِن غير أن يكون لي شريك في الربوبيّة. وضمير المخاطَب فيه وفي قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ -أي: في شَقّ العصا والمخالفة بالإخلال بمَواجب ما ذكر مِن اختصاص الربوبيّة بي- للرسل والأمم جميعًا على أنّ الأمر في حقّ الرسل للتهييج والإلهاب، وفي حقّ الأمم للتحذير والإيجاب. و"الفاء" لترتيب الأمر أو وجوبِ الامتثال به على ما قبله مِن اختصاص الربوبيّة به تعالى واتّحاد الأمّة، فإنّ كلًّا منهما موجِب للاتّقاء حتمًا.

وقُرئ: "وَأَنَّ هَذِهِ" بفتح "الهمزة"[١] على حذف "اللام"، أي: ولِأنّ هذه أمّتكم أمّةً... وأنا ربّكم فاتّقون، أي: اتّقوا، فـ﴿ٱتَّقُونِ﴾ كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة، ٢/٤٠]. وقيل: على العطف على ﴿مَا﴾، أي:

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

إنّي عليم بأنّ أمّتكم أمّة... إلخ. وقيل: على حذف فِعلٍ عاملٍ فيه، أي: واعلموا أنّ هذه أمّتكم... إلخ. وقُرئ: "وَأَنْ هَذِهِ"[١] على أنّها مخفّفة مِن "أنّ".

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾ حكاية لِما ظهر مِن أمم الرسل بعدهم مِن مخالفة الأمر وشقّ العصا. والضمير لِما دلّ عليه الأمّة مِن أربابها، أو لها على التفسيرين. و"الفاء" لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم، أي: تقطّعوا أمر دينهم مع اتّحاده، وجعلوه قِطعًا متفرّقة وأديانًا مختلفة.

﴿بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗا﴾ أي: قِطعًا، جمع "زَبور" بمعنى الفِرقة، ويؤيّده قراءة "زُبَرًا" بفتح "الباء"[٢] جمع "زُبَرة"، وهو حال مِن ﴿أَمۡرَهُم﴾، أو مِن واو ﴿تَقَطَّعُوٓاْ﴾، أو مفعول ثان له، فإنّه متضمِّن لمعنى "جَعلوا". وقيل: كُتُبًا، فيكون مفعولًا ثانيًا، أو حالًا مِن ﴿أَمۡرَهُم﴾ على تقدير المضاف، أي: مثلَ زُبُرٍ. وقُرئ بتخفيف الباء،[٣] كـ"رُسْلٍ" في "رُسُل".

﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾ مِن أولئك المتحزِّبين ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ مِن الدين الذي اختاروه ﴿فَرِحُونَ﴾ مُعْجَبون معتقِدون / أنّه الحقّ. [١٤٢ظ]

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ شُبِّه ما هم فيه مِن الجهالة بالماء الذي يغمُر القامةَ؛ لأنّهم مَغمورون فيها لاعبون بها. وقُرئ: "غَمَرَاتِهِمْ".[٤] والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. و"الفاء" لترتيب الأمر بالترك على ما قبله مِن كونهم فرحين بما لديهم، فإنّ انهماكهم فيما هم فيه وإصرارَهم عليه مِن مَخائل كونهم مطبوعًا على قلوبهم، أي: اتركهم على حالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو حينُ قتلِهم،

---

١ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٢٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وأبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٥.

أو موتِهم على الكفر، أو عذابِهم، فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ونهيٌ له عن الاستعجال بعذابهم، والجزعِ مِن تأخيره. وفي التنكير والإبهام ما لا يخفى مِن التهويل.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ٥٦﴾

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أي: نعطيهم إيّاه ونجعله مددًا لهم. فـ﴿مَا﴾ موصولة، وقولُه تعالى: ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ بيان لها، وتقديم "المال" على "البنين" مع كونهم أعزّ منه قد مرّ وجهه في سورة الكهف،[1] لا خبرٌ لـ﴿أَنَّ﴾، وإنّما الخبر قوله تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ على حذف الراجع إلى الاسم، أي: أيحسبون أنّ الذي نمدّهم به مِن المال والبنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم؟ على أنّ "الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ عطفٌ على مقدّر ينسحب عليه الكلام، أي: كلّا لا نفعل ذلك؛ بل هم لا يشعرون بشيء أصلًا، كالبهائم لا فطنةَ لهم ولا شعور؛ ليتأمّلوا ويعرفوا أنّ ذلك الإمداد استدراج واستِجرار إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات. وقُرئ: "يُمِدُّهُمْ"[2] على الغيبة، وكذلك "يُسَارِعُ"،[3] و"يُسْرِعُ"،[4] ويحتمل أن يكون فيهما ضمير المُمَدِّ به. وقُرئ: "يُسَارَعُ" مبنيًّا للمفعول.[5]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ٥٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ استئناف مَسوق لبيان مَن له المسارعة

---

[1] الكهف، ٤٦/١٨.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٧/٧.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وعبد الرحمن بن أبي بكرة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٨/٧.

[4] قراءة شاذّة، ذكرها ابن خالَويه عن بعضهم. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٠٠. وقال ابن الجوزي: «وقرأ أبو عمران الجوني وعاصم الجحدَري وابن السميفع: "يُسْرِعُ" بياء مرفوعة وسكون السين ونصب الراء مِن غير ألف». زاد المسير لابن الجوزي، ٢٦٥/٣. ورُوي كذلك في الشاذّ: "نُسْرِعُ" بالنون عن الحرّ النحوي. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي بكرة. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٨/٧.

في الخيرات إثرَ إقناط الكفّار عنها، وإبطالِ حسبانهم الكاذب، أي: مِن خوف عذابه حَذِرون.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ المنصوبةِ والمُنزَلةِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بتصديق مدلولها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ شِركًا جليًا ولا خفيًا، ولذلك أُخِر عن الإيمان بالآيات. والتعرّض لعنوان الربوبيّة في المواقع الثلاثة للإشعار بعلّيّتها للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ أي: يُعطون ما أعطَوه مِن الصدقات. وقُرئ: "يَأْتُونَ مَا أَتَوْا"،[١] أي: يفعلون ما فعلوه مِن الطاعات. وأيًا ما كان فصيغة الماضي في الصلة الثانية للدلالة على التحقّق، / كما أنّ صيغة المضارع في الأولى للدلالة على الاستمرار. [١٤٣و]

﴿وَقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُؤۡتُونَ﴾ أو "يَأْتُونَ"، أي: يؤتون ما آتوه، أو يفعلون مِن العبادات ما فعلوه، والحالُ أنّ قلوبهم خائفة أشدّ الخوف ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ أي: مِن أنّ رجوعهم إليه[٢] عزّ وجلّ، على أنّ مناط الوجَل أن لا يُقبَل منهم ذلك، وأن لا يقع على الوجه اللائق، فيؤاخَذُوا به حينئذ، لا مجرّدَ رجوعهم إليه تعالى. وقيل: لأنّ مرجعهم إليه تعالى.

والموصولات الأربعة عبارةٌ عن طائفةٍ واحدةٍ مُتّصفةٍ بما ذُكِر في حيّز صِلاتها مِن الأوصاف الأربعة، لا عن طوائفَ، كلُّ واحدةٍ منها متّصفةٌ بواحدِ

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عائشة وابن عبّاس رضي الله عنهم وقتادة والأعمش والحسن والنخعي. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٦٩/٧.

[٢] وفي هامش م: خبر لـ"أنّ". «منه».

مِن الأوصاف المذكورة، كأنّه قيل: إنّ الذين هم مِن خشية ربّهم مشفِقون، وبآيات ربّهم يؤمنون... إلخ. وإنّما كُرّر الموصول إيذانًا باستقلال كلّ واحدة مِن تلك الصفات بفضيلة باهرة على حِيالها، وتنزيلًا لِاستقلالها منزلةَ استقلال الموصوف بها.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتّصافهم بها. وما فيه مِن معنى البعد للإشعار ببُعد رتبتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بما فُصِّل مِن النعوت الجليلة خاصّةً دون غيرهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: في نَيل الخيرات التي مِن جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الأعمال الصالحة، كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران، ١٤٨/٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت، ٢٧/٢٩]، فقد أثبت لهم ما نُفي عن أضدادهم، خلا أنّه غُيّر الأسلوبُ حيث لم يُقَل: أولئك نسارع لهم في الخيرات؛ بل أُسنِد المسارعة إليهم إيماءً إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم.

وإيثار كلمةِ ﴿فِي﴾ على كلمة "إلى" للإيذان بأنّهم متقلّبون في فنون الخيرات، لا أنّهم خارجون عنها متوجِّهون إليها بطريق المسارعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ الآية [آل عمران، ١٣٣/٣].

﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ / أي: إيّاها سابقون، و"اللام" لتقوية العمل كما في قوله [١٤٣ظ]
تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٣/٢٣]، أي: ينالونها قَبل الآخرة، حيث عُجّلت لهم في الدنيا. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الطاعات. والمعنى: يَرغبون في الطاعات والعبادات أشدَّ الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السبقَ، أو لأجلها سابقون الناسَ، والأوّل هو الأولى.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٢﴾

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملة مستأنَفة سيقت للتحريض على ما وصف به "السابقون" مِن فعل الطاعات المؤدّي إلى نيل الخيرات ببيان سهولته،

وكونِه غيرَ خارج عن حدّ الوسع والطاقة، أي: عادتنا جارية على أن لا نكلّف نفسًا مِن النفوس إلّا ما في وسعها، على أنّ المراد استمرار النفي بمعونة المقام، لا نفيُ الاستمرار كما مرّ مرارًا.

أو للترخيص[١] فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنّه تعالى لا يكلّف عباده إلّا ما في وُسعهم، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وُسعَهم. قال مقاتل: «مَن لم يستطع القيام فليصلّ قاعدًا، ومَن لم يستطع القعود فلْيُومِ إيماءً».[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٌ﴾... إلخ تتمّة لِما قبله ببيان أحوال ما كُلِّفوه مِن الأعمال وأحكامها المترتّبة عليها مِن الحساب والثواب والعقاب، والمراد بـ"الكتاب" صحائف الأعمال التي يقرءونها عند الحساب حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ﴾، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية، ٢٩/٤٥]، أي: عندنا كتاب قد أُثبِت فيه أعمال كلّ أحد على ما هي عليه، أو أعمالُ السابقين والمقتصِدين جميعًا، لا أنّه أُثبت فيه أعمال الأوّلين، وأُهمل أعمال الآخرين، ففيه قَطع معذرتهم أيضًا.

وقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ متعلّق بـ﴿يَنطِقُ﴾، أي: يُظهِر الحقّ المطابقَ للواقع على ما هو عليه ذاتًا ووصفًا، ويبيّنه للناظر كما يبيّنه النطق، ويُظهِره / للسامع، فيُظهِر هنالك جلائل أعمالهم ودقائقها، ويُرتِّبُ عليها أجزيتَها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ. [١٤٤و]

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء إثرَ بيان لطفه في التكليف وكتب الأعمال، أي: لا يُظلَمون في الجزاء بنَقص ثواب أو بزيادة عذاب؛ بل يُجزَون بقدر أعمالِهم التي كُلِّفوها، ونطقت بها صحائفها بالحقّ. وقد جُوّز أن يكون تقريرًا لِما قبله مِن التكليف وكتبِ الأعمال، أي: لا يُظلَمون بتكليف ما ليس في وُسعهم، ولا بعدم كَتب بعض أعمالهم التي مِن جملتها

---

١ السياق: سيقت للتحريض... أو للترخيص...

٢ اللباب لابن عادل، ٢٣٥/١٤. وفي تفسير مقاتل، ١٦٠/٣: «﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ يقول: لا نكلّف نفسًا مِن العمل إلّا ما أطاقت».

أعمال المقتصِدين بناءً على قصورها عن درجة أعمال السابقين؛ بل يُكتَب كلّ منها على مقاديرها وطبقاتها.

والتعبير عمّا ذُكر مِن الأمور بـ"الظلم" مع أنّ شيئًا منها ليس بظلمٍ على ما تقرّر مِن أنّ الأعمال الصالحة لا تُوجب أصل الثواب فضلًا عن إيجابِ مرتبةٍ معيّنةٍ منه حتّى يُعَدّ الإثابةُ بما دونها نقصًا، وكذلك الأعمال السيّئة لا تُوجب درجةً معيّنةً مِن العذاب حتّى يُعَدّ التعذيب بما فوقها زيادة، وكذا تكليفُ ما في الوُسع وكَتبُ الأعمال ليسا ممّا يجب عليه سبحانه حتّى يُعَدّ تركُهما ظلمًا لكمال تنزيه ساحة السبحان عنها بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وتسميتِها باسمه.

﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ٦٣﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ إضراب عمّا قبله. والضمير للكفرة، لا للكلّ كما قبله، أي: بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها مِن هذا الذي بيّن في القرآن مِن أنّ لديه تعالى[١] كتابًا ينطق بالحقّ، ويُظهِر لهم أعمالهم السيّئةَ على رءوس الأشهاد فيُجزَون بها، كما يُنبئ عنه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾... إلخ [المؤمنون، ٦٦/٢٣]. وقيل: ممّا عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة.

﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ﴾ سيّئة كثيرة ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مِن كون قلوبهم في غفلة عظيمة ممّا ذُكر، / وهي فنونُ كفرهم ومعاصيهم التي مِن جملتها [١٤٤ظ] ما سيأتي مِن طعنهم في القرآن، حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٧/٢٣]. وقيل: متخطّية لِما وُصف به المؤمنون مِن الأعمال الصالحة المذكورة، وفيه أنّه لا مزيّة في وصف أعمالهم الخبيثة بالتخطّي للأعمال الحسنة للمؤمنين. وقيل: متخطّية عمّا هم عليه مِن الشرك،[٢] ولا يخفى بُعده لعدم جريان ذكره.

---

[١] س – تعالى.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٤.

﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ مستمرّون عليها، معتادون فعلها، ضارُّون بها، لا يكادون يَبرحونها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم﴾ أي: متنعّميهم، وهم الذين أمدّهم الله تعالى بما ذُكر مِن المال والبنين، وحتّى مع كونها غايةً لأعمالهم المذكورة، مبدأً لِما بعدها مِن مضمون الشرطيّة، أي: لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا رؤساءهم ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ قيل: هو القتل والأسر يومَ بدرٍ، وقيل: هو الجوع الذي أصابهم حين دعا عليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «اللّهمّ اشْدُدْ وَطأتَك على مُضَر، واجعلها عليهم سنين كسِنِي يوسف». فَقُحِطُوا حتّى أكلوا الكلابَ والجِيَفَ والعظامَ المحرَقة والأولاد.[١]

والحقّ أنّه العذاب الأخروي، إذ هو الذي يفاجِئون عنده الجُؤارَ، فيجابون بالردّ والإقناط عن النصر. وأمّا عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جُؤار حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون، ٧٦/٢٣]، فإنّ المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر مِن القتل والأسر حتمًا.

وأمّا عذاب الجوع فإنّ أبا سفيان وإن تضرّع فيه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لكن لم يَرُدَّ عليه بالإقناط، حيث رُوي أنّه عليه السلام قد دعا بكشفه فكُشِف عنهم ذلك.[٢]

﴿إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ﴾ أي: فاجَئُوا الصراخ بالاستغاثة مِن الله عزّ وجلّ كقوله تعالى: ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل، ٥٣/١٦]، وهو جواب الشرط.

وتخصيص مترفيهم بما ذكر مِن الأخذ بالعذاب ومفاجأةِ الجُؤار مع عمومه لغيرهم أيضًا لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتِكاس أمرهم، وكونِ ذلك

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٥١/٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٣٧/١٤. وهو في صحيح البخاري، ١٦٠/١ (٨٠٤)؛ ١٣١/٦ (٤٨٢١)؛ وصحيح مسلم، ٤٦٦/١ (٦٧٥)؛ ٢١٥٦/٤ (٢٧٩٨).

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٩/١٧؛ والمستدرك للحاكم، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

أشقُّ عليهم، ولأنّهم مع كونهم متمنِّعين مَحميّين بحماية غيرهم مِن المنَعة والحشَم حينَ لَقُوا ما لَقُوا مِن الحالة الفظيعة، فلَأن يلقاها مَن عداهم مِن الحُماة والخدَم أولى وأقدم.

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦﴾

﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ على إضمار القول مسوقًا لردّهم وتبكيتهم وإقناطِهم عمّا علَّقوا به أطماعَهم الفارغة مِن الإغاثة والإعانة مِن جهته تعالى. وتخصيص **﴿ٱلْيَوْمَ﴾** بالذكر لتهويله والإيذانِ بتَفويتِهم وقتَ الجُؤار. وقد جُوّز كونُه جواب الشرط، وأنت خبير بأنّ المقصود الأصلي في الجملة الشرطيّة هو الجواب، فيؤدّي ذلك إلى أن يكون مفاجأتُهم إلى الجؤار غيرَ مقصود أصلي.

/ وقوله تعالى: **﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾** تعليل للنهي عن الجؤار ببيان عدم إفادته ونفعه، أي: لا يلحقكم مِن جهتنا نصرة تُنجّيكم ممّا دَهِمكم. [١٤٥و]

وقيل: لا تُغاثون ولا تُمنَعون منّا،[١] ولا يساعده سباق النظم الكريم؛ لأنّ جُؤارهم ليس إلى غيره تعالى حتّى يُرَدَّ عليهم بعدم منصوريّتهم مِن قِبَله، ولا سياقُه، فإنّ قوله تعالى: **﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾**... إلخ صريح في أنّه تعليل لِما ذكرنا مِن عدم لُحوق النصر مِن جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات، ولو كان النصر المنفيّ متوَهَّمًا مِن الغير لَعُلِّل بعجزه وذُلّه، أو بعزّة الله تعالى وقوّته، أي: قد كانت آياتي تتلى عليكم في الدنيا **﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾** أي: تُعرِضون عن سماعها أشدَّ الإعراض، فضلًا عن تصديقها والعمل بها. و"النكوص": الرجوعُ قَهقَرى.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ۝٦٧﴾

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت الحرام، أو بالحرَم، والإضمارُ قبل الذكر لاشتهار استكبارهم وافتخارهم بأنّهم خُدّامه وقُوّامه، أو بكتابي الذي عُبّر عنه بـ﴿آياتي﴾،

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ١٩٤/٣.

على تضمين "الاستكبار" معنى التكذيب، أو لأنّ استكبارهم على المسلمين قد حدث بسبب استماعه.

ويجوز أن يتعلّق "الباء" بقوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا﴾ أي: تسمُرون[١] بذكر القرآن وبالطعن فيه، حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يَسمُرون، وكانت عامّة سَمَرهم ذكر القرآن وتسميتَه سحرًا وشِعرًا. و"السامِر" كالحاضر في الإطلاق على الجمع. وقيل: هو مصدر جاء على لفظ الفاعل. وقُرئ: "سُمَّرًا"،[٢] و"سُمَّارًا".[٣]

وأن تتعلّق بقوله تعالى: ﴿تَهۡجُرُونَ﴾ مِن "الهَجْر" بالفتح، بمعنى الهذيان أو الترك، أي: تَهذون في شأن القرآن، أو تتركونه، أو مِن "الهُجْر" بالضمّ، وهو الفُحش، ويؤيّده قراءةُ "تُهْجِرُونَ" مِن "أهجَر في مَنطِقه" إذا أَفحش فيه. وقُرئ: "تُهَجِّرُونَ"[٤] مِن "هَجّر" الذي هو مبالغة في "هَجَرَ" إذا هذَى.

﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞﴾ ٦٨

[١٤٥ظ] ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ / ٱلۡقَوۡلَ﴾ "الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه، و"الفاء" للعطف على مقدّر ينسحب عليه الكلام، أي: أَفعلوا ما فعلوا مِن النكُوص والاستكبار والهَجر، فلم يتدبّروا القرآن ليعرفوا بما فيه مِن إعجاز النظم، وصحّةِ المدلول، والإخبارِ عن الغيب، أنّه الحقّ مِن ربّهم، فيؤمنوا به فضلًا عمّا فعلوا في شأنه مِن القبائح؟

و﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للإضراب والانتقال عن التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بآخر، و"الهمزةِ" لإنكار الوقوع، لا لإنكار الواقع، أي: بل أجاءهم مِن الكتاب ما لم يأتِ آباءهم الأوّلين حتّى استبدَعوه واستبعَدوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه

---

١ ط س: يسمرون.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وأبي حَيوة وابن مُحَيصن وعِكرمة والزعفراني ومحبوب عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٧٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وزيد بن علي وأبي رجاء وأبي نهيك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٦؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٧/٥٧٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٧.

مِن الكفر والضلال. يعني: أنّ مَجيء الكتب مِن جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام سنّة قديمة له تعالى لا يكاد يتسنّى إنكاره، وأنّ مَجيء القرآن على طريقته، فمِن أين ينكرونه؟

وقيل: أم جاءهم مِن الأمن مِن عذابه تعالى ما لم يأتِ آباءَهم الأوّلين، كإسماعيل عليه السلام وأعقابِه مِن عدنان وقحطان ومُضَر وربيعة وقُسّ والحارث بن كعب[1] وأسد بن خزيمة وتميم بن مرّة وتبّع وضبّة بن أُدّ، فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله وأطاعوه.

﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩﴾

﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ﴾ إضراب وانتقال مِن التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بوجه آخر. و"الهمزة" لإنكار الوقوع أيضًا، أي: بل أَلَم يعرفوه عليه السلام بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق وكمال العلم مع عدم التعلّم مِن أحد وغيرِ ذلك ممّا حازه مِن الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام.

﴿فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أي: جاحدون بنبوّته، فجحودهم بها مترتّب على عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام، ومِن ضرورة انتفاء المبنَى بطلانُ ما بُني عليه، أو فهم غير عارفين له عليه السلام، فهو تأكيد لِما قبله.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾

﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ﴾ انتقال إلى توبيخ آخر. و"الهمزة" لإنكار الواقع كالأُولى، أي: بل أيقولون: به جنّة، أي: جنون، مع أنّه أرجح الناس عقلًا، وأثقبُهم ذهنًا، وأتقنُهم رأيًا، وأوفرُهم رَزانةً؟

ولقد رُوعي في هذه التوبيخات الأربعة -التي اثنان منها متعلّقان بالقرآن، والباقيان به عليه السلام- الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى، حيث وُبّخوا أوّلًا

[1] بنو الحارث بن كعب بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم، وهم بطن مِن تميم مِن العدنانيّة، قيل: هم أشدُّ العرب بأسًا، كانوا لا يَغزون ولا يُغزون. انظر: أنساب الأشراف للبلاذُري، ٥/٣٢؛ ونهاية الأرب للقلقشندي، ١/ ٤٧.

بعدم التدبّر، وذلك يتحقّق مع كون القول غيرَ مُتَعَرَّضٍ له بوجه مِن الوجوه،
[١٤٦و] / ثمّ وُبّخوا بشيء لو اتّصف به القول لكان سببًا لعدم تصديقهم به، ثمّ وُبّخوا بما يتعلّق بالرسول صلّى الله عليه وسلّم مِن عدم معرفتهم به عليه السلام، وذلك يتحقّق بعدم المعرفة بخير ولا شرّ، ثمّ بما لو كان فيه عليه السلام ذلك لقدَح في رسالته عليه السلام.

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إضراب عمّا يدلّ عليه ما سبق، أي: ليس الأمر كما زعموا في حقّ القرآن والرسول عليه السلام؛ بل جاءهم عليه السلام بالحقّ، أي: الصدقِ الثابتِ الذي لا مَحيد عنه أصلًا، ولا مدخل فيه للباطل بوجه مِن الوجوه.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ﴾ مِن حيث هو حقّ، أيّ حقّ كان، لا لهذا الحقّ فقط، كما يُنبئ عنه الإظهار في موقع الإضمار.

﴿كَٰرِهُونَ﴾ لِما في جِبِلّتهم مِن الزيغ والانحراف المناسب للباطل، ولذلك كرِهوا هذا الحقّ الأبلَج، وزاغوا عن الطريق الأنهَج. وتخصيص أكثرِهم بهذا الوصف لا يقتضي إلّا عدمَ كراهة الباقين لكلّ حقّ مِن الحقوق، وذلك لا ينافي كراهتهم لهذا الحقّ المبين، فتأمّل.

وقيل: تقييد الحكم بالأكثر لأنّ منهم مَن ترك الإيمان استِنكافًا مِن توبيخ قومه، أو لِقِلّة فِطنته، وعدمِ تفكّره، لا لكراهته الحقَّ. وأنت خبير بأنّ التعرّض لعدم كراهة بعضهم للحقّ مع اتّفاق الكلّ على الكفر به ممّا لا يساعده المقام أصلًا.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ استئناف مَسوق لبيان أنّ أهواءهم الزائغة التي ما كرهوا الحقَّ إلّا لعدم موافقته إيّاها مقتضيةٌ للطامّة، أي: لو كان ما كرهوه مِن الحقّ الذي مِن جملته ما جاء به عليه السلام موافقًا لأهوائهم الباطلة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلّيّة؛ لأنّ مناط النظام ليس إلّا ذلك. وفيه مِن تنويه شأن الحقّ والتنبيه على سموّ مكانه ما لا يخفى.

وأمّا ما قيل: لو اتّبع الحقّ الذي جاء به عليه السلام أهواءَهم وانقلب شِركًا لَجاء الله تعالى بالقيامة، ولَأهلَك العالَم ولم يؤخِّر،[١] ففيه أنّه لا يلائم فرضَ مَجيئه عليه السلام به، وكذا ما قيل: لو كان في الواقع إلهان؛[٢] لا يناسب المقام. وأمّا ما قيل: لو اتّبع الحقّ أهواءهم لَخرَج / عن الإلهيّة،[٣] ممّا لا احتمال له أصلًا. [١٤٦ظ]

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقال مِن تشنيعهم بكراهة الحقّ الذي به يقوم العالَم إلى تشنيعهم بالإعراض عمّا جُبِل عليه كلّ نفس مِن الرغبة فيما فيه خيرها. والمراد بـ"الذِّكر" القرآن الذي هو فخرهم وشرفهم، حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]، أي: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يُقبِلوا عليه أكملَ إقبال.

﴿فَهُمْ﴾ بما فعلوا مِن النكوص ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ أي: فخرهم وشرفهم خاصّةً ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ لا عن غير ذلك ممّا لا يوجِب الإقبال عليه والاعتناءَ به. وفي وضع الظاهر مَوضع الضمير مزيد تشنيع لهم وتقريعٍ. و"الفاء" لترتيب ما بعدها مِن إعراضهم عن ذكرهم على ما قبلها مِن إيتاء ذكرهم، لا لترتيب الإعراض على الإيتاء مطلقًا، فإنّ المستتبع لكون إعراضهم إعراضًا[٤] عن ذكرهم هو إيتاء ذكرهم، لا الإيتاءُ مطلقًا.

وفي إسناد "الإتيان بالذكر" إلى "نون" العظَمة بعد إسناده إلى ضميره عليه السلام تنويةٌ لشأن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، وتنبيهٌ على كونه بمثابة عظيمة منه عزّ وجلّ.

وفي إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه عليه السلام بعنوان "الحقّيّة" وعند نسبته إليه تعالى بعنوان "الذِّكر" مِن النكتة السرّيّة والحكمة العبقريّة ما لا يخفى؛ فإنّ التصريح بحقّيّته المستلزمةِ لحقّيّة مَن جاء به هو الذي يقتضيه مقام حكاية ما قاله المبطِلون في شأنه. وأمّا التشريف فإنّما يليق به تعالى، لا سيّما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحدُ المشرَّفين.

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/١٩٦.

٢ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٩٢.

٣ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/٩٢.

٤ م ط س - إعراضًا. ["صح" في هامش م]

وقيل: المراد بـ"الذِكر" ما تمنَّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات، ١٦٨/٣٧]. وقيل: وَعظُهم، وأُيِّد ذلك بأنّه قُرئ: "بِذِكْرَاهُمْ".[١] والتشنيع على الأوّلَين أشدّ، فإنّ الإعراض عن وعظهم ليس في مثابة إعراضهم عن شرفهم، أو عن ذكرهم الذي يتمنَّونه في الشناعة والقباحة.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ انتقال مِن توبيخهم بما ذُكر مِن قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾[٢] إلى التوبيخ بوجه آخر، كأنّه قيل: أم يزعمون أنّك تسألهم على أداء الرسالة ﴿خَرْجًا﴾ أي: جُعلًا، فلأجل ذلك لا يؤمنون بك.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: رزقُه في الدنيا وثوابُه في الآخرة، تعليل لنفي السؤال المستفاد مِن الإنكار، أي: لا تسألهم ذلك، فإنّ ما رزَقك الله تعالى في الدنيا والعُقبى خير لك مِن ذلك. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن تعليل الحكم وتشريفه عليه السلام ما لا يخفى.

و"الخَرْج" بإزاء "الدَّخْل"، يقال لكلّ ما تُخرجه إلى غيرك. و"الخَراج" غالب في الضريبة على الأرض. وقيل: "الخَرْج": ما تبرّعتَ به، و"الخَراج": ما لَزِمك. وقيل: "الخَرْج" أخصّ مِن "الخَراج"، ففي النظم الكريم إشعار بالكثرة واللزوم. وقُرئ: "خَرْجًا فَخَرْجُ"،[٣] و"خَرَاجًا فَخَرَاجُ".[٤] ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تقرير لخيريّة خَراجه تعالى.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تشهد العقول السليمة باستقامته، ليس فيه شائبة اعوجاج تُوهم اتّهامَهم لك بوجهٍ مِن الوجوه، ولقد ألزَمهم الله عزّ وعلا[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٧٥/٧.
٢ المؤمنون، ٧٠/٢٣.
٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.
٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٥/٢.
٥ س: تعالى.

وأزاحَ عِللهم في هذه الآيات، حيث حصر أقسام ما يؤدّي إلى / الإنكار والاتّهام، [١٤٧و]
وبيّن انتفاء ما عدا كراهتهم للحقّ وقلّة فطنتهم.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ۝٧٤﴾

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ وُصِفوا بذلك تشنيعًا لهم بما هم عليه مِن الانهماك في الدنيا، وزعمِهم أن لا حياة إلّا الحياة الدنيا، وإشعارًا بعلّة الحكم، فإنّ الإيمان بالآخرة وخوفَ ما فيها مِن الدواهي مِن أقوى الدواعي إلى طلب الحقّ وسلوك سبيله.

﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: عن جنس الصراط ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ لعادلون، فضلًا عن الصراط المستقيم، أو عن الصراط المستقيم الذي تدعوهم إليه. والأوّل أدلّ على كمال ضلالهم وغاية غوايتهم، لِما أنّه يُنبئ عن كون ما ذهبوا إليه ممّا لا يطلق عليه اسم الصراط ولو كان مُعوجًّا.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي: قَحط وجَدب. ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ لتمادَوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطِهم في الكفر والاستكبار وعداوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: عامِهين عن الهدى.

رُوي أنّه لمّا أسلم ثُمامة بن أثال الحنفي[١] ولحِق باليمامة، ومنع المِيرة[٢] مِن أهل مكّة، وأخذَهم الله تعالى بالسنين حتّى أكلوا العِلهزَ،[٣] جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال له: «أنشُدك اللهَ والرحِم، ألستَ تزعم

---

١ هو ثُمامة بن أثال بن النعمان اليمامي، مِن بني حنيفة، أبو أمامة (ت. ١٢هـ/٦٣٣م). الصحابي، كان سيّدَ أهل اليمامة. ولمّا ارتدّ أهل اليمامة في فتنة مسيلِمة ثبت هو على إسلامه، ولحِق بالعلاء بن الحضرمي في جمع مِمّن ثبت معه، فقاتل معه المرتدّين مِن أهل البحرين، فلمّا ظفِروا اشترى ثُمامة حلّة كانت لكبيرهم، فرآها عليه ناس مِن بني قيس بن ثعلبة، فظنّوا أنّه هو الذي قتله وسلبه، فقتلوه. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥٢٥/١؛ و**الأعلام** للزركلي، ١٠٠/٢.

٢ المِيرة، بالكسر: جَلب الطعام. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «مير».

٣ العَلهَز: الوبَر والدَّم. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٣٩/١٧؛ و**المستدرك** للحاكم، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

أنّك بُعِثت رحمةً للعالمين؟» قال: «بلى»، فقال: «قتلتَ الآباء بالسيف، والأبناءَ بالجوع»، فنزلت.[١]

والمعنى: لو كشفنا عنهم ما أصابهم مِن القَحط والهُزال برحمتنا إيّاهم ووجَدوا الخِصب لَارتدّوا إلى ما كانوا عليه مِن الإفراط في الكفر والاستكبار، ولَذهب عنهم هذا التملّق والإبلاس، وقد كان كذلك.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ استئناف مسوق للاستشهاد على مضمون الشرطيّة. والمراد بـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ ما نالَهم يوم بدر مِن القتل والأسر، وما أصابهم مِن فنون العذاب التي مِن جملتها القَحط المذكور. و"اللام" جواب قَسَم محذوف، أي: وباللهِ[٢] لقد أخذناهم بالعذاب، ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ بذلك، أي: لم يخضعوا ولم يتذلّلوا -على أنّه إمّا "استِفعال" مِن "الكَون"؛ لأنّ الخاضع ينتقل مِن كَون إلى كَون، أو "افتِعالٌ" مِن "السكون" قد أُشبِعت فتحتُه، كـ"مُنتَزاح" في "مُنتَزح"- بل أقاموا على ما كانوا عليه مِن العتوّ والاستكبار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ اعتراض مقرّر لمضمون ما قبله، أي: وليس مِن عادتهم التضرّع إليه تعالى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هو عذاب الآخرة، كما ينبئ عنه التهويل بفتح الباب، والوصفُ بالشدّة. وقُرِئ: "فَتَّحْنَا" بالتشديد. ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: متحيّرون آيِسون مِن كلّ خير، أي: مَحنّاهم بكلّ مِحنة مِن القتل والأسر والجوع وغير ذلك، فما رُئي منهم لينُ مَقادةٍ[٣] وتوجّهٍ إلى الإسلام قطّ.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٣/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ١٩٧/٣. وأخرجه بنحوه الطبري في جامع البيان، ٣٩/١٧؛ والحاكم في المستدرك، ٤٢٨/٢ (٣٤٨٨).

٢ ط س: وتاللهِ.

٣ "لينُ مَقادة": مستعارٌ لسهولة تأتّي الحقّ، مِن قولهم: "هو يقود الخيلَ ويقتادها". الأساس: "قاد الفرس بمَقاودها"، وهو حبلٌ يُشدّ في العنق للقياد. فتوح الغيب للطيبي، ٦١٤/١٠.

وأمّا ما أظهره أبو سفيان فليس مِن الاستكانة له تعالى والتضرّع إليه تعالى في شيء، وإنّما هو نوع خُنوع إلى أن يتمّ غرَضه، فحاله كما قيل: «إذا جاع ضَغا،[١] وإذا شبع طغا».[٢] وأكثرهم مستمرّون على ذلك إلى أن يرَوا عذاب الآخرة، فحينئذ يُبلِسون.

وقيل: المراد بـ"الباب" الجوع، فإنّه أشدّ وأعمّ مِن القتل والأسر. والمعنى: أخذناهم أوّلًا بما جرى عليهم يوم بدر مِن قتل صناديدهم وأسرِهم، فما وُجد منهم تضرّع واستكانة حتّى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أطمّ وأتمّ، فأُبلِسوا الساعة، وخضعت رقابهم، وجاءك أعتاهم وأشدّهم شكيمةً في العِناد يستعطفك. والوجه هو الأوّل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ لتشاهدوا بها الآيات التنزيليّة والتكوينيّة ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ لتتفكّروا بها ما تشاهدونها، وتعتبروا اعتبارًا لائقًا، ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ أي: شكرًا قليلًا غيرَ معتَدّ به، تشكرون تلك النعم الجليلة لِما أنّ العمدة في الشكر صَرف تلك القوى التي هي في أنفسها نِعم باهِرة إلى ما خُلِقت هي له، وأنتم تُخِلّون بذلك إخلالًا عظيمًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٧٩﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ / أي: خلقكم وبثّكم فيها بالتناسل، ﴿وَإِلَيۡهِ [١٤٧ظ]
تُحۡشَرُونَ﴾ أي: تُجمَعون يوم القيامة بعد تفرّقكم، لا إلى غيره، فما لكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٨٠﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مِن غير أن يشاركه في ذلك شيء مِن الأشياء،

---

١ ضَغا الثعلب والسنّور يَضغُو ضَغوًا وضُغاءً، أي: صاح. وكذلك صوت كلّ ذليل مَقهور. الصحاح للجوهري، «ضغا».

٢ في البيان والتبيين للجاحظ، ١١٦/٣: «قيل لعامر بن عبد قيس: ما تقول في الإنسان؟ قال: ما عسى أن أقول فيمَن إذا جاع ضرَع، وإذا شبع طغى».

﴿وَلَهُ﴾ خاصّةً ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو المؤثّر في اختلافهما، أي: تعاقبهما، أو اختلافِهما ازديادًا وانتقاصًا، أو لأمره وقضائه اختلافُهما.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تتفكّرون فلا تعقلون؟ أو أتتفكّرون فلا تعقلون بالنظر والتأمّل أنّ الكلّ منّا، وأنّ قدرتنا تعمّ جميع الممكنات التي مِن جملتها البعث؟ وقُرئ: "يَعْقِلُونَ"[١] على أنّ الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوء حال المخاطَبين لغيرهم، وقيل: على أنّ الخطاب الأوّل لتغليب المؤمنين،[٢] وليس بذاك.

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿بَلْ قَالُوا۟﴾ عطف على مُضمَر يقتضيه المقام، أي: فلم يعقِلوا؛ بل قالوا ﴿مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: آباؤهم ومَن دانَ بدِينهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ تفسير لِما قبله مِن المُبهم، وتفصيلٌ لِما فيه مِن الإجمال، وقد مرّ الكلام فيه.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ أي: البعث ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بالفعل مِن حيث إسنادُه إلى آبائهم، لا إليهم، أي: ووُعِد آباؤنا مِن قَبلُ، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَابَآؤُنَا﴾، أي: كائنين مِن قبلُ.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أكاذيبهم التي سطّروها، جمع "أُسطورة"، كـ"أُحدوثة" و"أُعجوبة". وقيل: جمع "أسطار" جمعِ "سَطَر".

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ مِن المخلوقات تغليبًا للعقلاء على غيرهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابُه محذوف ثقةً بدلالة الاستفهام عليه، أي: إن كنتم تعلمون

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٨٠/٧.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٤.

شيئًا ما فأخبِروني به، فإنّ ذلك كافٍ في الجواب. وفيه مِن المبالغة في وضوح الأمر وفي تجهيلهم ما لا يخفى، أو إن كنتم تعلمون ذلك فأخبِروني، وفيه استهانة بهم، وتقريرٌ لجَهلهم، ولذلك أُخبِر بجوابهم قبل أن يجيبوا حيث قيل: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ لأنَّ بديهةَ العقلِ تضطرُّهم إلى الاعترافِ بأنّه تعالى خالقُها.

﴿قُلْ﴾ أي: عند اعترافهم بذلك تبكيتًا لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أتعلمون ذلك، أو أتقولون ذلك / فلا تتذكّرون أنّ مَن فطَر الأرض وما فيها ابتداءً قادرٌ [١٤٨و]
على إعادتها ثانيًا؟ فإنّ البَدء ليس بأهون مِن الإعادة؛ بل الأمر بالعكس في قياس العقول. وقُرِئ: "تَتَذَكَّرُونَ"[١] على الأصل.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦﴾

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أُعيدَ "الربّ" تنويهًا لشأن العرش، ورفعًا لمحلّه مِن أن يكون تبعًا لـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجودًا وذِكرًا. ولقد روعي في الأمر بالسؤال الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧﴾

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ بـ"اللام" نظرًا إلى معنى السؤال، فإنّ قولك: "مَن رَبُّه؟" و"لِمَن هو؟" في معنى واحد. وقُرِئ هو وما بعده بغير لام[٢] نظرًا إلى لفظ السؤال.

﴿قُلْ﴾ إفحامًا لهم وتوبيخًا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أتعلمون ذلك ولا تَقُون أنفسَكم عقابَه بعدم العمل بموجَب العلم، حيث تكفرون به، وتُنكرون البعث، وتُثبتون له شريكًا في الربوبيّة؟

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بغير نسبة. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٤. وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة: "تَذَّكَّرُونَ" بتشديد الذال. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

[٢] أي: "سَيَقُولُونَ اللهُ". قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨﴾

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ممّا ذُكر وما لم يُذكر، أي: ملكه التامّ القاهر، وقيل: خزائنه. ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي: يُغيث غيره إذا شاء، ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: ولا يُغيث أحد عليه، أي: لا يمنع أحد منه بالنصر عليه. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: شيئًا ما، أو ذلك، فأجيبوني على ما سبق.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: لله ملكوت كلّ شيء، وهو الذي يُجير ولا يُجار عليه، ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: فمِن أين تُخدعون وتُصرَفون عن الرشد مع علمكم به إلى ما أنتم عليه مِن الغَيّ؟ فإنّ مَن لا يكون مسحورًا مختلّ العقل لا يكون كذلك.

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٩٠﴾

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا مَحيد عنه مِن التوحيد والوعدِ بالبعث، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما قالوا مِن الشرك وإنكار البعث.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ كما يقوله النصارى والقائلون: إنّ الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يشاركه في الألوهيّة كما يقوله عبَدة الأوثان وغيرهم. ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ جوابٌ لمُحاجّتهم، وجزاءٌ
[١٤٨ظ] لشرطٍ قد حُذف لدلالة ما قبله عليه، أي: لو كان معه / آلهة كما يزعمون لَذهب كلّ واحد منهم بما خلقه، واستبدّ به،[١] وامتاز مُلكه عن مُلك الآخرين، ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجاري فيما بين الملوك. ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

---

[١] ط س - به.

فلم يكن بيده وحده ملكوت كلّ شيء، وهو باطلٌ لا يقول به عاقل قطّ مع قيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب الوجود واحدٍ بالذات.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يصفونه مِن أن يكون له أنداد وأولاد.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٩٢﴾

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بالجرّ على أنّه بدَل مِن الجلالة. وقيل: صفة لها. وقُرئ بالرفع[1] على أنّه خبر مبتدأ محذوف. وأيًّا ما كان فهو دليل آخر على انتفاء الشريك بناءً على توافقهم في تفرّده تعالى بذلك، ولذلك رُتّب عليه بالفاء قولُه تعالى: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإنّ تفرّده تعالى بذلك موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ۝٩٣ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٤﴾

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى﴾ أي: إن كان لا بدّ مِن أن تُريَنّي ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ مِن العذاب الدنيوي المستأصِل، وأمّا العذاب الأخروي فلا يناسبه المقام. ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قرينًا لهم فيما هم فيه مِن العذاب.

وفيه إيذان بكمال فظاعة ما وُعِدوه مِن العذاب، وكونِه بحيث يجب أن يستعيذ منه مَن لا يكاد يمكن أن يَحيق به، وردٌّ لإنكارهم إيّاه واستعجالِهم به على طريقة الاستهزاء به.

وقيل: أُمِر به عليه السلام هضمًا لنفسه. وقيل: لأنّ شُؤم الكفرة قد يَحيق بمَن وراءهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال، ٨/٢٥].

ورُوي أنّه تعالى أخبر نبيّه عليه السلام بأنّ له في أمّته نقمةً، ولم يطلعه على وقتها، فأمره بهذا الدعاء، وتكريرِ النداء.[2] وتصدير كلّ مِن الشرط والجزاء به لإبراز كمال الضراعة والابتهال.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٩.

[2] عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/٩٤.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ۝٩٥﴾

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ مِن العذاب ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ ولكنّا نؤخّره لِعِلمنا بأنّ بعضهم أو بعضَ أعقابهم سيؤمنون، أو لأنّا لا نعذّبهم وأنت فيهم. وقيل: قد أراه ذلك، / وهو ما أصابهم يوم بدر، أو فتح مكّة،[1] ولا يخفى بعده، فإنّ [١٤٩و] المتبادَر أن يكون ما يستحقّونه مِن العذاب الموعود عذابًا هائلًا مستأصِلًا لا يظهر على يديه عليه السلام للحكمة الداعية إليه.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وهو الصفح عنها، والإحسان في مقابَلتها، لكن لا بحيث يؤدّي إلى وَهَن في الدين. وقيل: هي كلمة التوحيد، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ الشرك. وقيل: هو الأمر بالمعروف، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ المنكر، وهو أبلغ مِن: "ادفع بالحسنة السيّئة"، لِما فيه مِن التنصيص على التفضيل. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول في الموضعين للاهتمام.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يصفونك به، أو بوصفهم إيّاك على خلاف ما أنت عليه. وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإرشادٌ له عليه السلام إلى تفويض أمره إليه تعالى.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧﴾

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وَساوسهم المغرية على خلاف ما أَمرت به مِن المحاسن التي مِن جملتها دفع السيّئة بالحسنة. وأصل "الهمز" النَّخس، ومنه "مِهْماز الرائِض". شُبّه حثّهم للناس على المعاصي بهَمزِ الرائض الدوابَّ على الإسراع أو الوثب. والجمع للمرّات، أو لتنوّع الوساوس، أو لتعدّد المضاف إليه.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ۝٩٨﴾

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أُمر عليه السلام بأن يَعوذ به تعالى مِن حضورهم

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٤/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٨٢/٧.

بعد ما أُمر بالعوذ به مِن همزاتهم للمبالغة في التحذير عن ملابستهم. وإعادة الفعل[١] مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به، وعرضِ نهاية الابتهال في الاستدعاء، أي: أعوذ بك مِن أن يحضروني، ويَحوموا حولي في حال مِن الأحوال.

وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن -كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما-[٢] وحالِ حلول الأجل -كما رُوي عن عِكرمة رحمه الله-[٣] لأنّها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها.[٤]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يُبتدأ بها الكلام، دخلت على الجملة الشرطيّة، وهي مع ذلك غاية لِما قبلها، متعلّقة بـ﴿يَصِفُونَ﴾،[٥] وما بينهما اعتراض مؤكِّد للإغضاء بالاستعاذة به تعالى مِن الشياطين أن يُزِلُّوهُ عليه السلام عن الحِلم، ويُغْرُوه على الانتقام، لكن لا بمعنى أنّه العامل فيه لفساد المعنى؛ بل بمعنى أنّه معمول لمحذوف يدلّ عليه ذلك. وتعلّقها بـ﴿كَٰذِبُونَ﴾[٦] في غاية البعدِ لفظًا ومعنى.

أي: يستمرّون على الوصف المذكور حتّى إذا جاء أحدَهم -أيّ أحدٍ كان- الموتُ الذي لا مردّ له وظهرت له أحوال الآخرة ﴿قَالَ﴾ تحسّرًا على ما فرّط فيه مِن الإيمان والطاعة: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ أي: رُدَّني إلى الدنيا. و"الواو" لتعظيم المخاطَب، وقيل: لتكرير قوله: "ارجِعني"، كما قيل في:

قِفَا نَبْكِ...[٧]

ونظائرِه.

---

١ م س - بأن يعوذ به تعالى مِن حضورهم بعد ما أُمر بالعَوذ به مِن همزاتهم للمبالغة في التحذير عن ملابستهم. وإعادة الفعل ["صح" في هامش م س].

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٤.

٥ المؤمنون، ٩٦/٢٣.

٦ المؤمنون، ٩٠/٢٣. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٤.

٧ مِن قول امرئ القيس في معلّقته:

قِفا نَبْكِ مِن ذِكرى حبيبٍ ومَنزِلِ
بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحَومَلِ

ديوان امرئ القيس، ص ٨. قال الزوزني: «يجوز أن يكون المراد به: قف قف، فإلحاق الألف أمارة دالّة على أن المراد تكرير اللفظ». شرح المعلّقات السبع للزوزني، ص ٣٥.

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ أي: في الإيمان الذي تركته. لم يَنظمه في سِلك الرجاء كسائر الأعمال الصالحة بأن يقول: لعلّي أُومِن فأعمل... إلخ للإشعارِ بأنّه أمر مقرَّر الوقوع، غنيٌّ عن الإخبار بوقوعه / قطعًا، فضلًا عن كونه [١٤٩ظ] مرجوّ الوقوع، أي: لعلّي أعمل في الإيمان الذي آتي به البتّة عملًا صالحًا.

وقيل: فيما تركته مِن المال، أو مِن الدنيا. وعنه عليه السلام: «إذا عاين المؤمِن الملائكة قالوا: "أنُرجعك إلى الدنيا؟" فيقول: "إلى دار الهموم والأحزان؛ بل قُدُومًا إلى الله تبارك وتعالى"، وأمّا الكافر فيقول: "ارجعوني"».[١]

﴿كَلَّآۚ﴾ ردعٌ عن طلب الرجعة واستبعاد لها. ﴿إِنَّهَا﴾ أي: قوله: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾...[٢] إلخ ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ لا محالةَ لِتسلّط الحسرة عليه. ﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي: أمامهم، والضميرُ لـ﴿أَحَدَهُمُ﴾، والجمع باعتبار المعنى؛ لأنّه في حكم "كلّهم"، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُوَل باعتبار اللفظ.

﴿بَرۡزَخٌ﴾ حائل بينهم وبين الرجعة ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ يوم القيامة، وهو إقناط كلّي عن الرجعة إلى الدنيا، لِما عُلم أنّه لا رجعةَ يوم البعث إلى الدنيا، وإنّما الرجعة يومئذ إلى الحياة الأخرويّة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، وهي النفخة الثانية التي يقع عندها البعث والنشور. وقيل: المعنى: فإذا نُفخ في الأجساد أرواحها، على أنّ ﴿ٱلصُّورِ﴾ جمع "الصورة"، لا القَرن، ويؤيّده القراءةُ بفتح الواو،[٣] وبه مع كسر الصاد.[٤]

---

١ جامع البيان للطبري، ١٧/١٠٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/٥٦.

٢ س: ارجعوني.

٣ أي: "الصُّوَرِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠٣.

٤ أي: "الصِّوَرِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رزين. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٠٣.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف مِن فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفرّ المرء مِن أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، أو لا أنساب يفتخرون بها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما هي بينهم اليوم ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: لا يسأل بعضهم بعضًا لاشتغال كلٍّ منهم بنفسه. ولا يناقضه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات، ٥٠/٣٧]؛ لأنّ هذا عند ابتداء النفخة الثانية، وذاك بعد ذلك.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ موزونات حسناتِه مِن العقائد والأعمال، أي: فمَن كانت له عقائد صحيحة وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب، الناجون عن كلّ مَهروب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ ومَن لم يكن له مِن العقائد والأعمال ما له وزن وقدر عنده تعالى، وهم الكفّار لقوله تعالى: ﴿فَلَا[١] نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف، ١٠٥/١٨]، وقد مرّ تفصيل ما في هذا المقام مِن الكلام في تفسير سورة الأعراف.[٢] ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ضَيَّعوها بتضييع زمان استكمالها، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها. واسم الإشارة في الموضعين عبارة عن الموصول، وجمعُه باعتبار معناه، كما أنّ إفراد الضميرين في الصِّلتين باعتبار لفظه. ﴿فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾ بدل مِن الصلة، أو خبر ثانٍ لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

[١٥٠و] ﴿تَلْفَحُ / وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ تحرقها. و"اللَّفح" كـ"النفخ"، إلّا أنّه أشدّ تأثيرًا منه. وتخصيص الوجوه بذلك لأنّها أشرف الأعضاء، فبيان حالها أزجر عن المعاصي

---

١ م ط س: ولا.

٢ الأعراف، ٨/٧.

المؤدّية إلى النار، وهو السرّ في تقديمها على الفاعل. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ مِن شدّة الاحتراق. و"الكُلُوح": تقلّص الشفتين مِن الأسنان. وقُرئ: "كَلِحُونَ".[١]

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول، أي: يقال لهم تعنيفًا وتوبيخًا وتذكيرًا لِما به استحقّوا ما ابتُلوا به مِن العذاب: ألم تكن آياتي تُتلى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ حينئذ.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا﴾ أي: مَلَكتنا ﴿شِقْوَتُنَا﴾ التي اقترفناها بسوء اختيارنا، كما ينبئ عنه إضافتها إلى أنفسهم. وقُرئ: "شَقْوَتُنَا" بالفتح،[٢] و"شِقَاوَتُنَا" أيضًا بالفتح[٣] والكسر.[٤] ﴿وَكُنَّا﴾ بسبب ذلك ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ عن الحقّ، ولذلك فعلنا ما فعلنا مِن التكذيب.

وهذا كما ترى اعتراف منهم بأنّ ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم، وأمّا ما قيل مِن أنّه اعتذار منهم بغلبة ما كُتب عليهم مِن الشقاوة الأزليّة،[٥] فمَع أنّه باطل في نفسه -لِما أنّه لا يكتب عليهم مِن السعادة والشقاوة إلّا ما علم الله تعالى أنّهم يفعلونه باختيارهم ضرورةَ أنّ العلم تابع للمعلوم- يردّه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: أَخرِجنا مِن النار وأرجعنا إلى الدنيا، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنّا عليه مِن الكفر والمعاصي فإنّا متجاوِزون الحدَّ في الظلم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

[٥] انظر: تفسير الرازي، ٢٩٦/٢٣.

ولو كان اعتقادهم أنّهم مجبورون على ما صدَر عنهم لَما سألوا الرجعةَ إلى الدنيا، ولَما وعَدوا الإيمان والطاعة؛ بل قولهم: ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ صريح في أنّهم حينئذ على الإيمان والطاعة، وإنّما الموعود على تقدير الرجعة إلى الدنيا الثباتُ عليهما، لا إحداثُهما.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي: اسكتوا في النار سكوتَ هوانٍ، وذِلّوا وانزجِروا انزجارَ الكلاب إذا زُجرَتْ. مِن "خَسأتُ الكلب" إذا زجرتَه "فخَسَأ"، أي: انزَجر. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: باستدعاء الإخراج مِن النار، والرجعِ إلى الدنيا.

وقيل: لا تُكلِّمونِ في رفع العذاب،[1] ويردّه التعليل الآتي. وقيل: لا تُكلّمونِ رأسًا،[2] وهو آخر كلام يتكلّمون به، ثمّ لا كلام بعد ذلك إلّا الشهيق والزفير والعِواء كعِواء الكلب، لا يَفْهَمون ولا يُفهِمون،[3] ويردّه الخطابات الآتية قطعًا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعليل لِما قبله مِن الزجر عن الدعاء، أي: إنّ الشأن. وقُرئ بالفتح،[4] أي: لِأنَّ الشأن ﴿كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ وهم المؤمنون. وقيل: هم الصحابة. وقيل: أهل الصُّفّة، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. ﴿يَقُولُونَ﴾ في الدنيا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ١١٠﴾

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: اسكتوا عن الدعاء بقولكم: ربّنا... إلخ؛ لأنّكم كنتم تستهزئون بالداعين بقولهم: ربنا آمنّا... إلخ، وتتشاغلون باستهزائهم ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٨/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٩٩/٣.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٦/٤.

٣ عن الحسن في الكشف والبيان للثعلبي، ٥٨/٧، واللباب لابن عادل، ٢٦٤/١٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

أي: الاستهزاءُ بهم ﴿ذِكۡرِي﴾ مِن فَرط اشتغالكم باستهزائهم، ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ وذلك غاية الاستهزاء.

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ استئناف لبيان حُسن حالهم، وأنّهم انتفعوا بما آذَوهم، ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ بسبب صبرهم على أذيّتكم. وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ ثاني مفعولَي الجزاء، أي: جزيتُهُم فوزَهم بمجامع مراداتهم مخصوصين به. وقُرئ بكسر الهمزة[١] على أنّه تعليل للجزاء، وبيانٌ لكونه في غاية ما يكون مِن الحُسن.

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾

﴿قَٰلَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، أو الملَكُ المأمور بذلك تذكيرًا لِما لبثوا فيما سألوا الرجوع إليه مِن الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾... إلخ. وقُرئ: "قُلْ"[٢] على الأمر للملَك: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي تدعون أن ترجعوا إليها ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ تمييز لِـ﴿كَمۡ﴾.

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣﴾

﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ استقصارًا لِمدّة لبثهم فيها ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾ أي: المتمكّنين مِن العدّ، فإنّا بما دَهِمَنا مِن العذاب بمَعزِل مِن ذلك، أو الملائكة
[١٥٠ظ] العادّين لأعمار العباد وأعمالهم. وقُرئ: "العَادِينَ" / بالتخفيف،[٣] أي: المتعدّين، فإنّهم أيضًا يقولون ما نقول، كأنّهم الأتباعُ يسمّون الرؤساءَ بذلك لظلمهم إيّاهم بإضلالهم. وقُرئ: "العَادِيّينَ"،[٤] أي: القدماء المعمّرين، فإنّهم أيضًا يستقصِرون مدّة لبثهم.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٢٩/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضّل وعن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٨.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٦/٣.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

﴿قَٰلَ﴾ أي: الله تعالى، أو الملَك. وقُرِئ: "قُلْ"،[١] كما سبق: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ﴾ تصديقًا لهم في ذلك ﴿لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: تعلمون شيئًا، أو لو كنتم مِن أهل العلم. والجواب محذوف ثقةً بدلالة ما سبق عليه، أي: لَعلِمتم يومئذ قِلّة لبثكم فيها كما علمتم اليومَ، ولَعمِلتم بموجَبه ولم تُخلِدوا إليها.

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ أي: ألم تعلموا شيئًا فحسبتم أنّما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتّى أنكرتم البعث؟ فـ﴿عَبَثٗا﴾ حال مِن نون العظمة، أي: عابثين، أو مفعول له، أي: إنّما خلقناكم للعبَث، ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّمَا﴾، فإنّ خَلقكم بغير بَعث مِن قَبيل العبَث، وإنّما خلقناكم لِنتعبَّدكم ونجازيكم على أعمالكم. وقُرِئ: "تَرْجِعُونَ"[٢] بفتح التاء مِن الرجوع.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظامٌ له تعالى ولشئونه التي تصرّف عليها عبادُه مِن البَدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجَب الحكمة البالغة، أي: ارتفع بذاته وتنزّه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأحواله وأفعاله، وعن خلوّ أفعاله عن الحِكم والمصالح والغايات الحميدة ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي يحِقّ له المُلك على الإطلاق إيجادًا وإعدامًا، بَدءًا وإعادةً، إحياءً وإماتةً، عقابًا وإثابةً، وكلُّ ما سواه مَملوك له مَقهور تحت ملكوته.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنّ كلّ ما عداه عبيدُه، ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ فكيف بما تحته ومحاط به مِن الموجودات كائنًا ما كان. ووصفُه بالكرَم إمّا لأنّه منه ينزل الوحي الذي منه القرآن الكريم، أو الخير والبركة والرحمة، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

وقُرئ: "الكَرِيمُ" بالرفع[١] على أنّه صفة "الربّ"، كما في قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج، ١٥/٨٥].

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ يعبُدْه إفرادًا أو إشراكًا ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة لازمة لـ﴿إِلَٰهًا﴾، كقوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام، ٣٨/٦]، جيء بها للتأكيد وبناء الحُكم عليه تنبيهًا على أنّ التديّن بما لا دليلَ عليه باطل، فكيف بما شهدَت بديهةُ العقول بخلافه. أو اعتراض بين الشرط والجزاء، كقولك: "مَن أحسنَ إلى زيد لا أحقّ منه بالإحسان فالله مُثيبه".

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ فهو مُجَازٍ له على قدر ما يستحقّه. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: إنّ الشأن... إلخ. وقُرئ بالفتح[٢] على أنّه تعليل، أو خبر، ومعناه: حسابُه عدم الفلاح. والأصل: حسابُه أنّه لا يُفلح هو، فوُضع ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ موضع الضمير؛ لأنّ ﴿مَن يَدْعُ﴾ في معنى الجمع، وكذلك "حِسَابُهُ أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ" في معنى: حسابُهم أنّهم لا يفلحون.

بُدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين، وخُتِمت بنفي الفلاح عن الكافرين، ثمّ أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالاستغفار والاسترحام فقيل: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ إيذانًا بأنّهما مِن أهمّ الأمور الدينيّة، حيث أُمِر به مَن قد غُفِر له ما تقدّم مِن ذنبه وما تأخّر، فكيف بمَن عَداه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المؤمنين بشّرته الملائكة بالرَّوح والرَّيحان، وما تَقَرُّ به عينُه عند نزول ملك الموت».[٣] وعنه عليه السلام

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير وابن مُحيصن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٨.

٣ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٧/٧؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٨٣/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

أنّه قال: «لقد أُنزلت عليّ عشر آيات مَن أقامهنّ دخل الجنّة، ثمّ قرأ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون، ١/٢٣] حتّى ختم العشر».[١] ورُوي «أنّ أوّلها وآخرها مِن كنوز الجنّة، مَن عمل بثلاث آيات مِن أوّلها، واتّعظ بأربع مِن آخرها نجا وأفلح».[٢]

---

١ سنن الترمذي، ٣٢٦/٥ (٣١٧٣)؛ المستدرك للحاكم، ٧١٧/١ (١٩٦١).

٢ س + الحمد لله ربّ العالمين. | الكشّاف للزمخشري، ٢٠٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٧/٤. قال الزيلعي: «غريب جدًّا». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٠٩/٢.

٢٣

سُورَةُ المؤمِنُونَ

مكية، وهي مِائَةٌ وثمانيَ أو تسعَ عشْرةَ آيةً.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿قَدْ﴾: للتحقيق ﴿أفلَحَ﴾: فازَ ﴿المُؤمِنُونَ الَّذِينَ هُم في صَلاتِهِم خاشِعُونَ﴾: متواضعون، ٣ ـ ٤ ـ ﴿والَّذِينَ هُم عَنِ اللَّغْوِ﴾ من الكلام وغيره ﴿مُعرِضُونَ، والَّذِينَ هُم لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ﴾:.........

سُورَةُ المؤمِنُونَ

قولُه: (فَازَ) بالأمَاني.

قوله: (مُتَوَاضِعُونَ) أي: مُتَذلِّلونَ له خائفونَ منه، وفي حَديثٍ: أنَّه عَليهِ السَّلامُ رأى رجلاً يَعبَثُ بِلحيَتِهِ فقالَ: «لو خَشَعَ قَلبُ هذا لخشَعتْ جَوارِحُه»[1].

قوله: (وغَيرِهِ) وفي الحديثِ: «مِن حُسنِ إسلامِ المَرءِ تَركُهُ ما لا يَعنِيهِ»[2]، وقولُه تعالى: ﴿معرضونَ﴾ يعني: لما بهم من الجِدِّ ما شغَلَهُم[3] عنه.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١٣٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعف إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (ص: ١٧٨). قال المناوي في «الفتح السماوي» (٢/ ٨٥٤): فيه: سليمان بن عمرو أبو داود النخعي أحد من اتهم بوضع الحديث.

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٢٩)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٥٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه.

ورواه الترمذي (٢٣١٨)، ومالك في «الموطأ» (ص: ٩٠٣) (٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٣٢) عن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب مرسلاً، وقال الترمذي: هذا عندنا أصح من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة. وقال البيهقي: إسناد هذا أصح.

(٣) في (م): «أشغلهم».

مُؤدّون، ٥ ـ ﴿والَّذِينَ هُم لِفُرُوجِهِم حافِظُونَ﴾ عن الحرام، ٦ ـ ﴿إلاّ علَى أزواجِهِم﴾ أي: من زوجاتهم ﴿أو ما مَلَكَت أَيمانُهُم﴾ أي: السَّراريّ ـ ﴿فإنَّهُم غَيرُ مَلُومِينَ﴾ في إتيانهنّ. ٧ ـ ﴿فمَنِ ابتَغَى وَراءَ ذلِكَ﴾ من الزوجات والسراريّ كالاستمناء بيده ﴿فأُولئِكَ هُمُ العادُونَ﴾: المُتجاوزون إلى ما لا يحلّ لهم ـ ٨ ـ ﴿والَّذِينَ هُم لِأماناتِهِم﴾، جمعًا ومفردًا، ﴿وعَهدِهِم﴾ فيما بينهم أو فيما بينهم وبين الله من صلاة وغيرها ﴿راعُونَ﴾: حافظون، ٩ ـ ﴿والَّذِينَ هُم علَى صَلَواتِهِم﴾، جمعًا ومفردًا، ﴿يُحافِظُونَ﴾: يُقيمونها في أوقاتها. ١٠ ـ ﴿أُولئِكَ هُمُ الوارِثُونَ﴾ لا غيرُهم ١١ ـ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِردَوسَ﴾ هو جنّةٌ أعلى الجِنان، ﴿هُم فِيها خالِدُونَ﴾. في ذلك إشارة إلى المَعاد، ويُناسبه ذِكر المبدأِ بعده.

قوله: (مُؤَدُّونَ) وتحقيقهُ ما قالَ القاضي: والزَّكاةُ تقعُ على المعنى والعَينِ، والمرادُ الأوَّلُ؛ لأنَّ الفاعِلَ فاعلُ الحدَثِ لا المحلِّ الذي هو موقعُهُ، أو الثَّاني على تقديرِ مُضافٍ[١]؛ يعني: لأداءِ الزَّكاةِ فاعِلونَ.

قوله: (مِن زَوْجَاتِهِم) فـ﴿على﴾ بمعنى: «مِن»؛ لأنَّ الحفظَ لا يتعدَّى بـ«على» بخِلافِ المحافظَةِ، قال تعالى: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ []، أو المعنى: لا يبذلونَها فـ﴿على﴾ على حقيقَتِها.

قولُه: (أي: السَّرَارِي) الأظهَرُ: سُرِّيَّاتُهم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ قوله: ﴿أو ما ملكت أيمانهم﴾ يعمُّ الرِّجالَ أيضاً، لكنَّه مختصٌّ بالإناثِ بالإجماعِ.

قولُه: (مِنَ الزَّوْجَاتِ) أي: المستَثنى.

قولُه: (كالاستِمْنَاءِ) جوَّزَ عندنَا إذا خافَ الوقوعَ في الزِّنا[٢].

قولُه: (ومُفْرَداً) مكِّيٌّ[٣].

قولُه: (حَافِظُونَ) قائمونَ بحفظِها وإصلاحِها.

قولُه: (ومُفْرَداً) حمزةُ والكسائيُّ[٤].

قولُه: (يُقِيمُونَهَا) أي: يُؤدُّونها ويُواظبونَ عليها.

قولُه: (لا غَيْرُ) أو الجامِعونَ لهذهِ الصِّفاتِ هم الأحِقَّاءُ بأن يُسمَّوا وُرَّاثاً دونَ غيرِهِم.

قولُه: (هُوَ جَنَّةٌ) أو هو الجنَّةُ، ولذا أنَّثَ ضميرَ ﴿فيها﴾.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٨٢).

(٢) انظر: «رد المحتار» (٤/ ٢٧).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٢).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٣).

١٢ ـ ﴿و﴾ الله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ﴾ آدمَ.........................

قولُه: (﴿و﴾الله ﴿لَقَدْ﴾) الواو عاطِفةٌ من القُرآنِ، و(الله) مجرورٌ بحذفِ حَرفِ القَسَمِ؛ لأنَّه يقالُ في القسَمِ: اللهِ لأفعلَنَّ، بحذفِ الجارِّ مع بقاءِ الجرِّ على ما في «المغني»(١)، ولا يُتوهَّمْ أنَّ الواوَ القُرآنيةَ هي للقسَمِ؛ لأنَّه يلزمُ منه حذفُ المجرورِ وبقاءُ الجارِّ، وهو لا يجوزُ اتِّفاقاً، فكانَ الأَولى أن يقولَ: وواللهِ، إذ واو العَطفِ تدخلُ على واوِ القَسمِ، كقولِه:

وواللهِ لـولا تَمْـرُهُ مـا حَبَبْتُـهُ(٢)

ومِـن الغَريـبِ أنَّ الطِّيبـيَّ مـع جلالتِهِ قـال في حديثِ سـعْدٍ: «ولقَـدْ رأيتُنِي معَ رسـولِ اللهِ ﷺ مـا أملِكُ درهمـاً..»(٣): إنَّ الواوَ قسَـميةٌ، واللامَ جوابُ القسَـمِ(٤).

وقالَ البيضاويُّ في قولِه تعالى: ﴿ولقد علمتم﴾ [البقرة: ٦٥] اللامُ موطِّئةٌ للقسَمِ(٥)، وقال الشَّيخُ زكريَّا: وقال غيرُه: للابتِداءِ(٦)، قال العِصامُ(٧): لعلَّ قولَ البَيضاويِّ سهوٌ منَ النَّاسخِ، والصَّوابُ: واللَّامُ بتقديرِ القسَمِ؛ أي: واللهِ لقد علِمْتُم؛ إذِ اللَّامُ الموطِّئةُ ما تدخلُ شرطاً نازعَهُ القسَمُ في جزائهِ ليُجعلَ جواباً(٨)، انتهى.

وقال صاحبُ «المغنِي» في قولِهِ تعالى: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله﴾ [الأحزاب: ١٥]: يقدَّر لذلكَ وما أشبهَهُ القسَمُ، ثمَّ قالَ: وممَّا يحتملُ جوابَ القسَم: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم: ٧١] وذلك بأن تُقدَّرَ الواو عاطفةً على ﴿ثم لنحن أعلم﴾ [مريم: ٧٠] فإنَّه وما قبلَه أجوبَةٌ لقولِه تعالى: ﴿فوربك لنحشرنهم﴾ [مريم: ٦٨] وهذا

---

(١) انظر: «مغني اللبيب» (ص: ٨٣٩).

(٢) صدر بيت ورد مون نسبة في «الألفاظ» لابن السكيت (ص: ٣٣٨)، و«الزاهر» لابن الأنباري (١/ ٣٣١) ونسبه في «لسان العرب» (١/ ٢٨٩) لغَيلانَ بن شُجاع النَّهشلي، وصدره عنده: فأقسم لولا... وعجزه في المصادر:

وَلَا كانَ أَدْنَـى مِـن عُبَيدٍ ومُشْـرِقِ

(٣) رواه هكذا أحمد في «مسنده» (٢١٠٧٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٦٧٤)، والشاشي في «مسنده» (١٠١٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٤٥)، من حديث خباب رضي الله عنه.

أما حديث سعد: فرواه الحميدي في «مسنده» (١/ ١٩٣) بلفظ: «أنا أوَّلُ مَن رمى بسهمٍ في سبيلِ اللهِ، ولقد رأيتُني مع رسولِ اللهِ ﷺ سابعَ سبعةٍ وما لنا طعامٌ إلَّا الحُبْلَة وورقَ السَّمُرَ حتى لقد قرِحَتْ أشداقُنا..» الحديث.

(٤) انظر: «شرح المشكاة» للطيبي (٤/ ١٣٧١).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (١/ ٨٥).

(٦) انظر: «حاشية الأنصاري على البيضاوي» (١/ ٣٣٥)، وممن قال بابتدائيتها أبو حيان في «البحر المحيط» (١/ ٣٩٦).

(٧) هو: إبراهيم بن محمد بن عرب شاه الأسفراييني عصاد الدين، له حاشية على البيضاوي، ت: ٩٤٥هـ.

(٨) انظر: «حاشية عصام الدين على البيضاوي» (و٨٧أ).

﴿مِن سُلَالَةٍ﴾، هي من: سَلَلتُ الشيء من الشيء، أي: استخرجتُه منه ـ وهو خُلاصتُه ـ ﴿مِن طِينٍ﴾: مُتعلّقٌ بـ «سلالة»، ١٣ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: الإنسانَ نسلَ آدمَ ﴿نُطْفَةً﴾: مَنِيًّا ﴿فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ هو الرَّحِم، ١٤ ـ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾: دمًا جامدًا، ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: لحمةً قدرَ ما يُمضغ، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾، وفي قراءة: «عَظْمًا» و«العَظْمَ» في الموضعين، و«خلقْنا» في المواضع الثلاثة بمعنى: صيّرنا، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ بنفخ الروح فيه ـ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: المُقدِّرين! ومميِّز «أحسَنُ» محذوف للعِلم به، ....

مرادُ ابنِ عطيَّةَ من قولِه: هو قسَمٌ، والواوُ تقتضيهِ[1]؛ أي: هو جوابُ قسَمٍ، والواوُ هي المحصِّلةُ لذلك؛ لأنَّها عطفت، وتوهَّمَ أبو حيَّانَ عليه ما لا يُتَوهَّمُ على صغارِ الطَّلَبةِ، وهو أنَّ الواوَ حرفُ قسَمٍ، فرَدَّ عليه بأنَّه: يلزمُ منه حذفُ المجرورِ وبقاءُ الجارِّ، وحذفُ القسَم مع كونِ الجوابِ منفيًّا بـ(إن)[2].

قولُه: (بـ﴿سُلَالَةٍ﴾)؛ أي: من صَفوةٍ سُلَّت من الطِّينِ.

قولُه: (أي: الإنسَان... إلخ) الأخصَرُ؛ أي: نسلُه، فحُذفَ المضافَ.

قولُه: (مَنِيًّا) بأنْ خَلقناهُ منها.

قولُه: (هُوَ الرَّحِمُ) وهو مستقَرٌّ حَصِينٌ.

قولُه: (دَماً جَامِداً) أي: أَحلنا النُّطفةَ البَيضاءَ علقَةً حمراءَ.

قولُه: (لَحْمَةً) أي: فصيَّرناها قطعَةَ لحمٍ.

وقولُهُ تعالى: (﴿فخلقنا المضغة عظاماً﴾) بأنْ صلَّبناها.

وقولُه: (﴿فكسونا﴾) يعني: ممَّا بقيَ من المضغَةِ، أو ممَّا أنبتْنا عليها.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لشَّاميٍّ وشُعبةَ[3].

قولُه: (بِمَعنَى: صَيَّرْنَا) كما أشَرنا.

قولُه: (بِنَفْخِ الرُّوحِ) و﴿خلقاً آخر﴾ هو صورةُ البدنِ، أو الرُّوحُ، أو القُوى بنفخِهِ فيه، أو المجموعُ، و﴿ثُمَّ﴾ لما بينَ الخَلقَينِ منَ التفاوتِ رتبةً أو زَماناً.

قولُه: (للعِلْمِ بِهِ) الأظهَرُ: لدلالَةِ ﴿الخالقينَ﴾ عليه.

---

(١) انظر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٢٧).

(٢) انظر: «البحر المحيط في التفسير» (٧/ ٢٨٨). وانظر: «مغني اللبيب» (ص: ٥٢٧).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٤).

أي: خَلقًا ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُم يَومَ القِيامةِ تُبعَثُونَ﴾ للحِساب والجزاء.

١٧ ـ ﴿ولَقَد خَلَقْنا فَوقَكُم سَبعَ طَرائِقَ﴾ أي: سماواتٍ: جمع طريقةٍ لأنها طُرُق الملائكة، ﴿وما كُنّا عَنِ الخَلقِ﴾ تحتها ﴿غافِلِينَ﴾ أن تسقط عليهم فتُهلكهم ـ بل نُمسكها كآيةِ: «ويُمسِكُ السَّماءَ أن تَقَعَ علَى الأرضِ» ـ ١٨ ـ ﴿وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ﴾ من كِفايتهم، ﴿فأسكَنّاهُ في الأرضِ، وإنّا علَى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ﴾ فيموتون مع دوابهم عطشًا، ١٩ ـ ﴿فأنشأْنا لَكُم بِهِ جَنّاتٍ مِن نَخِيلٍ وأعنابٍ﴾، هما أكثر فواكه العرب، ﴿لَكُم فِيها فَواكِهُ كَثِيرةٌ، ومِنها تأكُلُونَ﴾ صيفًا وشتاء، ٢٠ ـ ﴿و﴾ أنشأنا ﴿شَجَرةً، تَخرُجُ مِن طُورِ سِيناءَ﴾ جبلٍ، بكسر السين وفتحها ومنعُ الصرفِ للعلميّةِ والتأنيثِ للبقعة، ﴿تُنبِتُ﴾ ـ

قولُه: (تَحْتَهَا) أو عن[1] ذلك المخلُوقِ الذي هو السَّماواتُ، أو عن جميعِ المخلوقاتِ، وهو الظَّاهرُ.

قولُه: (مِن كِفَايَتِهِم) أي: بمقدارِ ما علِمْنا مِن صلاحِهِم، أو بتقديرٍ: يكثُرُ نفعُه ويقِلُّ ضُرُّه.

قولُه تعالى: (﴿فأسكناه﴾) أي: جعَلناهُ ثابتاً مُستقرًّا.

وقولُه تعالى: (﴿لقادِرونَ﴾) أي: كما كنَّا قادِرينَ على إنزالِهِ.

قولُه: (فَيَمُوتُونَ) والذَّهابُ به: إزالتُه بالإفسادِ، أو التَّصعيدِ[2]، أو التَّعميقِ بحيثُ يتعذَّرُ استنباطُهُ، قلتُ: أو بالإعدامِ.

قولُه: (هُمَا أكثَرُ) يعني: ولذا اقتصَرَ عليهما، وأيضاً هما أفيدُ أشجارِ الفواكِهِ، وأعمُّها نفعاً، وأكثرُها بقاءً.

قولُه: (صَيفاً وشِتاءً) أي: لكم في ثمرتِهِما أنواعٌ من الفواكِهِ؛ الرُّطبُ والعنبُ والتَّمرُ والزبيبُ والعصيرُ والدِّبسُ، وغيرُ ذلك.

قولُه: (وأَنشَأْنَا) يعني: عطفٌ على ﴿جنَّاتٍ﴾.

قولُه: (جَبَلٌ) جبل موسى بينَ مصرَ وأَيْلةَ[3]، وقيلَ: بفلسطينَ، وقد يقالُ له: طورُ سينين.

قولُهُ: (بكَسْرِ السِّيْنِ) الحِرْميَّانِ والبَصريُّ[4].

---

(١) في النسخ: «أو غير»، والتصويب من «تفسير البيضاوي» و«حاشية الشهاب» (٦/ ٣٢٣).

(٢) في النسخ عدا (ص): «التبعيد»، والمثبت منها وهو الموافق لما في «أنوار التنزيل».

(٣) وهي مدينة على ساحل بحر القلزم (الأحمر) مما يلي الشام، قيل: هي آخر الحجاز وأول الشام. «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» (١/ ١٣٨).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٤).

من الرباعيّ والثلاثيّ ـ ﴿بِالدُّهْنِ﴾ الباء: زائدةٌ على الأوّل، ومُعدّيةٌ على الثاني، وهي شجرة الزيتون، ﴿وصِبغٍ لِلآكِلِينَ﴾: عطفٌ على «الدهن» أي: إدامٍ يَصبغ اللُّقمة بغمسها فيه، وهو الزّيت.

٢١ ـ ٢٢ ـ ﴿وإنَّ لكُم في الأنعامِ﴾: الإبلِ والبقرِ والغنمِ ﴿لَعِبْرَةً﴾: عِظةً بها، ﴿نَسقِيكُم﴾ ـ بفتح النون وضمّها ـ ﴿مِمّا في بُطُونِها﴾ أي: اللبنَ، ﴿ولكُم فِيها مَنافِعُ كَثِيرةٌ﴾ من الأصواف والأوبار والأشعار وغير ذلك، ﴿ومِنها تأكُلُونَ، وعلَيها﴾ أي: الإبلِ ﴿وعلَى الفُلْكِ﴾ أي: السُّفنِ ﴿تُحمَلُونَ﴾.

٢٣ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا نُوحًا إلَى قَومِهِ، فقالَ: يا قَومِ، اعبُدُوا اللهَ﴾: أطيعوه ووحّدوه. ﴿مالَكُم مِن إلـٰهٍ غَيرُهُ﴾، وهو اسم «ما» وما قبله: الخبر، ومِن: زائدةٌ.........................

قولُه: (مِنَ الرُّبَاعِيِّ) مكيٌّ وبَصريٌّ[١].

قولُه: (عَطفٌ على الدُّهْنِ) جارٍ على إعرابِه، عطفَ أحدِ وصفَي الشَّيءِ على الآخَرِ؛ أي: تنبتُ بالشيءِ الجامعِ بين كونِهِ دهناً يُدَّهَنُ به ويُسرَجُ منه وكونِهِ إداماً يُصبغُ فيه الخبزُ.

قولُه: (تَعتَبِرُون) يعني: في خلْقِها وتسخيرِها ما تعبُرونَ عنها إلى خالِقِها، وتستدلُّونَ على صنعِهِ وقدرَتِه، فقولُه: (عِظَةٌ) فيه مسامَحةٌ.

قولُه: (بفَتْحِ النُّونِ) نافعٌ وشاميٌّ وشعبَةُ[٢].

قولُه: (وغَيرِهَا) كالجُلودِ.

وقولُه تعالى: (﴿ومنها تأكلونَ﴾) أي: تنتفِعونَ بأعيانِها.

قولُه: (أي: الإِبِلِ) أي: وعلى الأنعامِ، فإنَّ منها ما يُحمَل عليه كالإبلِ والبقرِ، وقيل: المرادُ: الإبلُ؛ لأنَّها هي المحمولُ عليها عندَهُم، وهي المناسِبَةُ للفُلكِ فإنَّها سفائنُ البَرِّ، فيكونُ الضَّميرُ فيه كالضميرِ في: ﴿وبعولتهن أحق بردهن﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فإنَّ فيه أيضاً يرجعُ الضَّميرُ إلى شيءٍ مخصوصٍ من المذكورِ قبلُ، وهو المطلقاتُ الرجعيَّةُ.

قولُه: (وهُوَ) أي: ﴿إلهٍ﴾ خبرٌ[٣]، وقرأ الكِسائيُّ بجرِّ (غيرِ) صفةً لـ﴿إله﴾ لفظاً، والباقونَ بالرَّفعِ[٤] صفةً له معنًى؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ زائدةٌ.

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٥).

(٣) قوله: «خبر» كذا في النسخ، ولعل في الكلام سقطاً أو تحريفاً؛ لأن ﴿إلهٍ﴾ اسم ﴿ما﴾ كما أعربه الجلال، ولا يحتمل الخبرية.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٨٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٨٦).

﴿أفلا تَتَّقُونَ﴾: تخافون عُقوبته بعِبادتكم غيرَه؟ ٢٤ ـ ﴿فقالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَومِهِ﴾ لأتباعهم: ﴿ما هذا إلاّ بَشَرٌ مِثلُكُم، يُرِيدُ أن يَتَفَضَّلَ﴾: يتشرّف ﴿علَيكُم﴾ بأن يكون متبوعًا وأنتم أتباعه، ﴿ولَو شاءَ اللهُ﴾ ألاّ يُعبَدَ غيرُه ﴿لأنزَلَ مَلائكةً﴾ بذلك لا بشرًا. ﴿ما سَمِعْنا بِهذا﴾ الذي دعانا إليه نوح من التوحيد ﴿في آبائنا الأوَّلِينَ﴾ أي: الأُممِ الماضية. ٢٥ ـ ﴿إن هُوَ﴾: ما نوحٌ ﴿إلاّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾: حالةُ جُنون. ﴿فتَرَبَّصُوا بِهِ﴾: انتظروه ﴿حَتَّى حِينٍ﴾: إلى زمن موته.

٢٦ ـ ﴿قالَ﴾ نوح: ﴿رَبِّ، انصُرْنِي﴾ عليهم ﴿بِما كَذَّبُونِ﴾ أي: بسبب تكذيبهم إيّاي بأن تُهلكَهم. قال تعالى مُجيبًا دُعاءه: ٢٧ ـ ﴿فأَوحَينا إلَيهِ: أنِ اصنَعِ الفُلْكَ﴾ السفينة ﴿بِأعيُنِنا﴾: بمرأًى منّا وحِفظنا ﴿ووَحيِنا﴾: أمرِنا، ﴿فإذا جاءَ أمرُنا﴾ بإهلاكهم، ﴿وفارَ التَّنُّورُ﴾ للخبّازِ بالماء ـ وكان ذلك علامة لنوح ـ ﴿فاسلُكْ فِيها﴾ أي: أدخِلْ في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوجَينِ﴾ أي: ذكرٍ وأُنثى أي: من كُلّ أنواعهما ﴿اثنَينِ﴾: ذَكرٌ وأنثى ـ وهو مفعول، ومِن: متعلّقة بـ «اسلُكْ». وفي القِصّة أن الله ـ تعالى ـ حشر لنوح السِّباعَ والطَّير وغيرهما، فجعل يضرب بيديه في كُلّ نوع، فتقع يده اليُمنى على الذَّكر، واليُسرى على الأُنثى، فيحملهما في السفينة...

قولُه: (يَتَشَرَّفُ) ويطلُبُ الفضلَ.

قولُه: (أَنْ لا يُعْبَدَ.. إلخ) أو: ولو شاءَ اللهُ أن يرسلَ رسولاً لأَنزلَ ملائكةً رسلاً.

قولُه: (أي: الأُمَمِ) وذلك إمَّا من فرطِ عِنادِهم، أو لأَنَّهم كانوا في فترَةٍ متَطاولَةٍ.

قولُه: (جُنُونٍ) ولأجلِهِ يقولُ ذلك.

قولُه: (انْتَظِرُوْهُ) أي: فاحتَمِلوه وانتَظِروا.

قولُه: (إِلَى زَمَانِ مَوْتِهِ) أو لعلَّه يُفيقُ من جُنونِه.

قولُه: (نُوْحٌ) بعد ما أَيسَ من إيمانِهم.

قولُه: (بِسَبَبِ) أو بدَلَ(١).

قولُه: (وحِفْظِنَا) نحفظُه أن تخطئَ فيه، أو يُفسِدَ عليك مُفسِدٌ.

قولُه: (أَمْرِنَا) وتَعليمِنا كيفَ تُصنعُ.

قولُه: (بإهْلاكِهِم) أي: بنُزولِ العَذابِ، أو أَمْرِنا بالرُّكوبِ.

قولُه: (أي: أَدْخِلْ) يقالُ: سلكَ فيه، وسلكَ غيرَه، قال تعالى: ﴿ما سلككم في سقر﴾ [المدثر: ٤٢].

---

(١) أي: بدل تكذيبهم إياي، كما في «أنوار التنزيل».

وفي قراءةٍ: «كُلٍّ» بالتنوين، فزوجين: مفعول، واثنين: تأكيد له ـ ﴿وأهلَكَ﴾ أي: زوجتَه وأولاده، ﴿إلاّ مَن سَبَقَ علَيهِ القَولُ مِنهُم﴾ بالإهلاك ـ وهو زوجته وولده كنعان، بخلاف سامٍ وحامٍ ويافثَ فحملهم وزوجاتِهم ثلاثةً. وفي سورة هود: «ومَن آمَنَ. وما آمَنَ مَعَهُ إلاّ قَلِيلٌ». قيل: كانوا سِتّةَ رِجال ونِساءَهم. وقيل: جميع من كان في السفينة ثمانية وسبعون، نِصفهم رِجال ونِصفهم نِساء ـ ﴿ولا تُخاطِبْني في الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: كفروا: بترك إهلاكهم. ﴿إنَّهُم مُغرَقُونَ﴾.

٢٨ ـ ﴿فإذا استَوَيتَ﴾: اعتدَلتَ ﴿أنتَ ومَن مَعَكَ علَى الفُلكِ فقُلِ: الحَمدُ لِلهِ الَّذِي نَجّانا مِنَ القَومِ الظّالِمِينَ﴾: الكافرين وإهلاكهم. ٢٩ ـ ﴿وقُلْ﴾ عِند نزولك من الفُلك: ﴿رَبِّ، أنزِلْني مُنزَلاً﴾، بضمّ الميم وفتح الزاي: مصدرٌ أو اسم مكان، وبفتح الميم وكسر الزاي: مكانُ النزول ﴿مُبارَكًا﴾ ذلك الإنزالُ أو المكانُ، ﴿وأنتَ خَيرُ المُنزِلِينَ﴾ ما ذُكر.

٣٠ ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ من أمر نوح والسفينة وإهلاك الكُفّار ﴿لآياتٍ﴾: دلالاتٍ على قُدرة الله ـ تعالى ـ ﴿وإنْ﴾: ....

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحفصٍ[1].

قولُه: (بالإهْلاكِ) أي: القولُ من اللهِ بإهلاكِه لكُفْره، وإنَّما جيءَ بـ﴿على﴾ لأنَّ السابقَ ضارٌّ كما جيءَ باللامِ حيثُ كانَ نافعاً في قولِه: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ [الأنبياء: ١٠١].

قولُه: (﴿ومن آمن﴾) عطفٌ على ﴿أهلَكَ﴾ فحذفه هنا اكتفاءً، أو المرادُ بالأهلِ: مَن آمنَ، أعمُّ من أهلِ البيتِ، والاستثناءُ منفصلٌ.

قوله: (بتَرْكِ إهْلَاكِهِم) أي: بالدُّعاءِ لهم بالإنجاءِ.

قوله: (وإهلَاكهم) عطفٌ عَلى ﴿نجانا﴾.

قوله: (أَو اسْمُ مَكَانٍ) أي: الإنزَالَ[2].

قوله: (وبفَتْحِ المِيْمِ) شعبةُ[3].

قوله: (أَو المَكَانُ) يتسبَّبُ لمزيدِ الخيرِ في الدَّارينِ، في السفينةِ، وفي الأرضِ بعد النُّزولِ.

قولُه: (مَا ذُكِرَ) أي: ذلك الإنزالُ أو المكانُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٦).

(٢) الأولى: موضعَ إنزال، كما في «الكشاف» و«تفسير الرازي» و«أنوار التنزيل، و«البحر» و«روح المعاني».

(٣) انظر: «البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة» (ص: ٢١٨).

مُخففةٌ من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ﴿كُنَّا لَمُبتَلِينَ﴾: مُختبرين قومَ نُوح بإرساله إليهم ووعظه.

٣١ ـ ﴿ثُمَّ أنشَأْنا مِن بَعدِهِم قَرنًا﴾: قومًا ﴿آخَرِينَ﴾ هم عادٌ، ٣٢ ـ ﴿فأرسَلْنا فِيهِم رَسُولاً مِنهُم﴾ هُودًا: ﴿أنِ﴾ أي: بأنِ ﴿اعبُدُوا اللهَ. مالَكُم مِن إلـٰـهٍ غَيرُهُ. أفلا تَتَّقُونَ﴾ عِقابه فتُؤمنون؟

٣٣ ـ ٣٤ ـ ﴿وقالَ المَلأُ مِن قَومِهِ، الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقاءِ الآخِرةِ﴾ أي: بالمصير إليها، ﴿وأتْرَفناهُم﴾: نعَّمْناهم ﴿في الحَياةِ الدُّنيا: ما هذا إلاّ بَشَرٌ مِثلُكُم، يأكُلُ مِمّا تأكُلُونَ مِنهُ، ويَشرَبُ مِمّا تَشرَبُونَ، وَ﴾ اللهِ ﴿لَئِنْ أطَعتُم بَشَرًا مِثلَكُم﴾ ـ فيه قسَمٌ وشرط، والجواب لِأوّلهما وهو مُغنٍ عن جواب الثاني ـ ﴿إنَّكُم إذًا﴾ أي: إذا أطعتموه ﴿لَخاسِرُونَ﴾ أي: مَغبونون. ٣٥ ـ ﴿أيَعِدُكُم أنَّكُم إذا مُتُّم، وكُنتُم تُرابًا وعِظامًا، أنَّكُم مُخرَجُونَ﴾؟ هو خبر «أنكم» الأُولى، و«أنكم» الثانية تأكيد لها لمّا طال الفصل.

٣٦ ـ ﴿هَيهاتَ هَيهاتَ﴾: اسمُ فعلٍ ماضٍ بمعنى مصدر، أي: بَعُدَ بَعُدَ ﴿لِما تُوعَدُونَ﴾ من الإخراج من القُبور! واللام: زائدة للبيان.

قولُه: (مُخَفَّفَةٌ) واللامُ فارقَةٌ.

قولُه: (مُخْتَبِرِينَ) أو: لمصيبينَ[1] قومَ نوحٍ ببلاءٍ عظيمٍ، أو: ممتحِنينَ عِبادَنا بهذِهِ الآياتِ.

قولُه: (عَادٌ) أو ثمودُ.

قولُه: (هُوْداً) أو صالحاً.

قولُه: (أي: بِأَنْ) والأظهرُ: أنَّها مُفسِّرةٌ لـ(أرْسَلْنا)؛ أي: قُلنا لهم على لسانِ الرَّسولِ.

قولُه: (نَعَّمْنَاهُم) بكثرَةِ الأموالِ والأولادِ.

وقولُه: (﴿مثلَكم﴾) أي: في الصِّفةِ والحالِ، وما بعدَه تقريرٌ للمماثَلَةِ.

قولُه: (إنْ أَطَعْتُمُوهُ) فيما يأمرُكُم.

قولُه: (أي: مَغْبُونُونَ) حيثُ أذللتُم أنفسَكُم.

قولُه: (مَاضٍ بِمَعْنَى مَصْدَرٍ) هذا تلفيقٌ، فإنَّ الجمهورَ على أنَّه اسمُ فعلٍ بمَعنى الماضي؛ أي: بَعُدَ التَّصديقُ أو الصِّحَّةُ أو الوقوعُ، أو بعُدَ ما توعَدونَ، واللامُ زائدةٌ أو للبيان كما في ﴿هَيتَ لكَ﴾ [يوسف: ٢٣] كأنَّهم لمَّا صَوَّتوا بكَلِمةِ الاستبعادِ قيل: فما هذا الاستبعادُ؟ قالوا: لِمَا توعدونَ.

وقيل: ﴿هيهاتَ﴾ بمعنى البُعدِ على أنَّه مصدرٌ، وهو مبتدأٌ خبرُه: ﴿لما توعدون﴾، قال أبو البَقاءِ: وهو ضعيفٌ[2]. فقولُه: (واللامُ زَائِدَةٌ لِلبَيَانِ) تلفيقٌ آخَرُ كما عرفتَ.

---

(١) في (م): «مصيبين».

(٢) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ٩٥٤).

٣٧ ـ ٣٨ ـ ﴿إِن هِيَ﴾ أي: ما الحياة ﴿إِلاّ حَياتُنا الدُّنيا، نَمُوتُ ونَحيا﴾ بحياة أبنائنا، ﴿وما نَحنُ بِمَبعُوثِينَ. إن هُوَ﴾ أي: ما الرسول ﴿إِلاّ رَجُلٌ، افترَى علَى اللهِ كَذِبًا، وما نَحنُ لَهُ بِمُؤمِنِينَ﴾: مُصدّقين في البعث بعد الموت.

٣٩ ـ ٤٠ ـ ﴿قالَ: رَبِّ، انصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ. قالَ: عَمّا قَلِيلٍ﴾ من الزمان ـ وما: زائدة ـ ﴿لَيُصبِحُنَّ﴾: ليَصِيرُنّ ﴿نادِمِينَ﴾ على كُفرهم وتكذيبهم. ٤١ ـ ﴿فأَخَذَتْهُمُ الصَّيحةُ﴾: صيحة العذاب والإهلاك كائنةً ﴿بِالحَقِّ﴾ فماتوا، ﴿فجَعَلْناهُم غُثاءً﴾، وهو نبتٌ يَبِس، أي: صيّرناهم مِثله في اليُبس. ﴿فبُعدًا﴾ من الرحمة ﴿لِلقَومِ الظّالِمِينَ﴾: المُكذبين!

قولُه: (بِحَيَاةِ أَبْنَائِنَا) والأظهرُ: يموتُ بعضُنا، ويولدُ بعضٌ.

قولُه: (فِي البَعْثِ) أو: ادِّعاءِ النبوَّةِ، فالمرادُ: بكذبِ[1] ما يعدُهم منَ البعثِ، أو ما يدَّعيه منَ الرِّسالَةِ.

قولُه: (زَائِدَةٌ) لتَوكيدِ معنى القلَّةِ، أو نكِرةٌ موصوفةٌ؛ أي: عن زمانٍ قليلٍ.

قولُه: (يَصِيرُنَّ) جوابُ قسمٍ محذوفٍ، و﴿عن﴾ يتعلَّقُ بـ﴿يُصْبِحُنَّ﴾.

قولُه: (عَلَى كُفْرِهِم) إذا عايَنوا العَذابَ.

قوله: (صَيْحَةُ العَذَابِ) صاحَ عليهم جبريلُ صيحةً هائلةً تَصدَّعت منها قلوبُهُم فماتوا، واستُدلَّ به على أنَّ القَرنَ قومُ صالحٍ لا هودٍ؛ فإنَّهم أُهلِكوا بريحٍ صرْصرٍ عاتيةٍ لا بالصَّيحةِ، ويُجابُ بما وقعَ من التَّفاسيرِ؛ أنَّهم أيضاً صاحَ بهم جبريلُ صيحةً واحدةً مع الرِّيحِ أهلَكَهم اللهُ بهما. ذكرَه القُرطُبيُّ[2].

قولُه: (كَائِنَةً) إشارَةٌ إلى الحاليَّةِ؛ أي: بالوَجهِ الثابتِ الذي لا دافِعَ له، أو بالعَدلِ من اللهِ كقولِك: فلانٌ يقضي بالحقِّ، أو بالوَعدِ الصِّدقِ.

قولُه: (وَهُوَ نَبْتٌ) أو شَبَّهَهُم في دمارِهِم بغُثاءِ السَّيلِ؛ وهو مَحمولُهُ، فإنَّ حَميلَ السَّيلِ هالكٌ ذاهِبٌ لا يُظفَرُ به أبداً.

قولُه: (مِنَ الرَّحْمَةِ) أو: عن كُلِّ خيرٍ، يحتمِلُ الإخبارَ والدُّعاءَ، و﴿بُعداً﴾ مصدرُ بَعُدَ بالكسرِ أو الضَّمِّ: إذا هلَكَ، وهو مِن المصادرِ التي تُنصَبُ بأفعالٍ لا يُستعمَلُ إظهارُها، واللامُ لبيانِ من دُعيَ عليه بالبُعدِ، ووُضِعَ الظَّاهرُ موضعَ ضميرِ (هم) للتَّعليلِ؛ أي: بُعدًا لهم لظُلْمِهم.

---

(١) كذا في النسخ، ولعل الصواب: «تكذيب».

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٢/ ١٢٤).

٤٢ ـ ٤٣ ـ ﴿ثُمَّ أنشأنا مِن بَعدِهِم قُرونًا﴾ أي: أُممًا ﴿آخَرينَ، ما تَسبِقُ مِن أُمّةٍ أجَلَها﴾ بأن تموت قبله، ﴿وما يَستأخِرُونَ﴾ عنه ـ ذُكِّر الضمير بعد تأنيثه رِعاية للمعنى ـ ٤٤ ـ ﴿ثُمَّ أرسَلْنا رُسُلَنا تَتْرَى﴾، بالتنوين وعدمِه أي: مُتتابعِين، بين كُلِّ اثنين زمان طويل، ﴿كُلَّما جاءَ أُمّةً﴾ ـ بتحقيقِ الهمزتين، وتسهيلِ الثانية بينها وبين الواو ـ ﴿رَسُولُها كَذَّبُوهُ، فأتبَعْنا بَعضَهُم بَعضًا﴾ في الهلاك، ﴿وجَعَلْناهُم أحادِيثَ. فبُعدًا لِقَومٍ لا يُؤمِنُونَ﴾!

٤٥ ـ ﴿ثُمَّ أرسَلْنا مُوسَى وأخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وسُلطانٍ مُبِينٍ﴾: حُجّةٍ بيّنة ـ وهي اليد والعصا وغيرُهما من الآيات ـ ٤٦ ـ ﴿إلَى فِرعَونَ ومَلَئِهِ، فاستكبَرُوا﴾ عن الإيمان بها وبالله ـ ﴿وكانُوا قَومًا عالِينَ﴾: قاهرين بني إسرائيل بالظلم ـ.........

قولُه: (أَقوَاماً)[١] يعني: قومَ صالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وغيرِهم.

قولُه: (بِأَنْ تَمُوتَ قَبْلَهُ) والمرادُ بالأجَلِ: الوقتُ الذي عُيِّنَ لهَلاكِها.

قولُه: (ذَكَّرَ الضَّمِيرَ) وجمَعَهُ.

قولُه: (بَعْدَ تَأْنِيثِهِ) وإفرادِهِ رعايةً للَّفظِ.

قولُه: (رِعَايَةً للمَعْنَى) وللفاصِلةِ.

قولُه: (بالتَّنْوِينِ) مَكيٌّ وبَصريٌّ[٢] على أنَّه مَصدرٌ بمعنى: المتَواتِرةِ، وقعَ حالاً.

قولُه: (أي: مُتَتَابِعِينَ) أي: متواترينَ واحداً بعدَ واحِدٍ، من الوِترِ وهو الفَردُ، والتاءُ بدلٌ من الواوِ، والألفُ للتَّأنيثِ لأنَّ الرُّسلَ جماعَةٌ.

قولُه: (بِتَحْقِيقِ الهَمْزَتَيْنِ) شاميٌّ وكوفيٌّ[٣].

قولُه تعالى: (﴿أحاديث﴾) أي: أخباراً يُسمَرُ بها ويُتعجَّبُ منها، جمعُ: أُحدوثةٍ.

قولُه: (حُجَّةٍ بيِّنَةٍ) أي: واضِحَةٍ ملزِمةٍ للخَصمِ، أو مُوَضِّحةٌ لنُبوَّته.

فقولُه: (وهِيَ) أي: الآياتُ، ويجوزُ أن يُرادَ بالسُّلطانِ العَصا، وإفرادُها لأنَّها أَوَّلُ المعجزاتِ وأُمُّها تعلَّقَت بها معجزاتٌ شَتَّى؛ كانقِلابِها حيَّةً، وتلقُّفِها ما أَفكتْهُ السَّحرةُ، وانقلابِ البحرِ، وانفجارِ العيونِ من الحجرِ بضربِهما بها، وحِراستها وصَيرورتِها شَمعةً، وشجرةً خضراءَ مثمرةً، ورشاءً ودلوًا.

قولُه: (مِنَ الآيَاتِ) أي: المعجِزاتِ.

---

(١) في المتن: «أمماً».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٧).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٤٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٩١).

٤٧ ـ ﴿فقالُوا: أَنُؤمِنُ لِبَشَرَينِ مِثلِنا، وقَومُهُما لَنا عابِدُونَ﴾: مُطيعونَ خاضعون؟ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ﴿فكَذَّبُوهُما فكانُوا مِنَ المُهلَكِينَ. ولَقَد آتَينا مُوسَى الكِتابَ﴾: التوراة، ﴿لَعَلَّهُم﴾ أي: قومَه بني إسرائيل ﴿يَهتَدُونَ﴾ به من الضلالة. وأُوتيها بعد هلاك فِرعونَ وقومِه جُملةً واحدة.

٥٠ ـ ﴿وجَعَلْنا ابنَ مَريَمَ﴾ عِيسى ﴿وأُمَّهُ آيَةً﴾ ـ لم يقل «آيتين» لأنّ الآية فيهما واحدة: وِلادتُه من غير فحل ـ ﴿وآوَيناهُما إلَى رُبْوةٍ﴾: مكان مرتفع وهو [في] بيت المَقدس أو دِمشق أو فِلسطين، أقوال، ﴿ذاتِ قَرارٍ﴾ أي: مُستويةٍ يستقرّ عليها ساكنوها، ﴿ومَعِينٍ﴾ أي: ماء جار ظاهر تراه العُيون.

قولُه: (خَاضِعُونَ): خادِمونَ مُنقادونَ كالعِبادِ، وثُنِّي البشرُ لأنَّه يُطلَقُ للواحدِ كقوله: ﴿بشرًا سويًا﴾ [مريم: ١٧] كما يُطلَقُ للجمعِ كقولِه: ﴿فإما تَرَيِنَّ من البشر أحداً﴾ [مريم: ٢٦] ولم يُثَنَّ المثلُ؛ لأنَّه في حكمِ المصدَرِ في تَناولِه الاثنينِ والجَمعِ.

قولُه: (أي: قَوْمَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) قالَ القَاضي: ولا يجوزُ عَودُ الضَّميرِ إلى فرعَونَ وقومِهِ؛ لأنَّ التَّوراةَ نزلت بعدَ إغراقِهِم[1]. وغَفَلَ عن هذا المعنى في سورةِ هودٍ ففسَّر قولَه تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون﴾ [هود: ٩٦] بالتَّوراة[2]، ونبَّهْنا هناكَ أيضاً.

قولُه: (جُمْلَةً واحِدَةً) لا كالقُرآنِ منجَّماً.

قولُه: (واحِدَةٌ) مُضافةٌ إليهما.

قولُه: (وِلادَتُهُ) أي: وِلادتُها إيَّاه، أو: جَعَلْنا ابنَ مريمَ آيةً بأن تكلَّمَ في المهْدِ وظهرَت منه معجِزاتٌ، وأمَّه آيةً بأن ولدَت مِن غيرِ مَسيسٍ، فحُذِفَت الأُولى لدِلالةِ الثَّانيةِ عليهما.

قولُه: (مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ) وشاميٌّ وعاصِمٌ بفتحِ الرَّاءِ[3].

قولُه: (بَيْتُ المَقْدِسِ) فإنَّه مُرتفِعٌ.

قولُه: (أَقْوَالٌ) وقيلَ: مصرُ، أو الرَّملةُ من فلسطينَ.

قولُه: (مُسْتَوِيَةٍ) أي: منبَسِطةٍ، وقيلَ: ذاتِ ثِمارٍ وزُروعٍ، فإنَّ ساكِنيها يستقرُّونَ فيها لأَجلِها.

قولُه: (جَارٍ ظَاهِرٍ) فعيلٌ من مَعَنَ الماءُ: إذا جرى، أو مفعولٌ من عانه: إذا أدركَهُ بعينِهِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٨٩).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٤٧).

(٣) من ﴿ربوة﴾ والبقية بضمها. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٨).

٥١ ـ ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ، كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ﴾: الحلالات، ﴿واعمَلُوا صالِحًا﴾ مِن فرض ونفل ـ ﴿إنِّي بِما تَعمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فأُجازيكم عليه ـ ٥٢ ـ ﴿و﴾ اعلموا ﴿أنَّ هذِهِ﴾ أي: مِلَّةَ الإسلام ﴿أُمَّتُكُم﴾: دِينُكم، أيها المُخاطبون، أي: يجب أن تكونوا عليها ﴿أُمَّةً واحِدَةً﴾: حالٌ لازمة ـ وفي قراءة بتخفيف النون، وفي أُخرى بكسر همزة «إنَّ» مُشدّدة استئنافًا ـ ﴿وأنا رَبُّكُم. فاتَّقُونِ﴾: فاحذرونِ.

٥٣ ـ ﴿فتَقَطَّعُوا﴾، أي: الأتباعُ ﴿أمرَهُم﴾:......................................

قولُه: (الحَلَالاتِ) أو: ما يُستلَذُّ من المباحاتِ، وقيلَ: الحلالُ الصَّافي القِوامُ، فالحلالُ: ما لا يُعصى اللهُ فيه، والصَّافي: ما لا يُنسى اللهُ فيه، والقِوامُ: ما يُمسكُ النفسَ ويحفظُ العقلَ.

والنِّداءُ والخطابُ لجميعِ الأنبياءِ لا على أنَّهم خوطِبوا بذلك دفعةً واحدةً؛ لأنَّهم أرسِلوا في أزمنةٍ مختلفةٍ، بل على معنى أنَّ كُلًّا منهم خوطِبَ به في زمانِهِ.

وقيل: النِّداءُ لعيسى ولفظُ الجمعِ للتعظيمِ.

وفي «المداركِ»: الخطابُ لمحمَّدٍ ﷺ لفضلِهِ وقيامِهِ مقامَ الكلِّ[(١)].

قولُه: (مِن فَرْضٍ ونَفْلٍ) فإنَّ العملَ الصالحَ هو المقصودُ منكُم، والنَّافعُ عندَ ربِّكم.

قولُه: (اعْلَمُوا) إشارَةٌ إلى أنَّ ﴿أنَّ﴾ ومدخولَها مفعولٌ لفعلٍ مقدَّرٍ.

قولُه: (أيُّهَا المُخَاطَبُونَ) إيماءٌ إلى الالتِفاتِ من الرُّسلِ إلى المكلَّفينَ زمنَ النُّزولِ وما بعدَه، والأظهرُ: أنَّ المرادَ بالمخاطَبينَ: المكلَّفينَ أعمُّ من الرُّسُل وأممِهِم؛ للسِّباقِ واللِّحاقِ.

ومعنى الآيةِ كما قال القاضي: مِلَّتُكم ملةً واحدةً؛ أي: مُتَّحِدةً في العَقائدِ وأصولِ الشَّرائعِ، أو: جماعتُكم جماعَةً واحدةً متَّفقةً على الإيمانِ والتوحيدِ في العبادةِ[(٢)].

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للشاميِّ[(٣)].

قولُه: (وَفِي أُخرَى) للكوفيِّ[(٤)].

وقولُه: (﴿فاتَّقون﴾) في شقِّ العصا، ومخالفَةِ الكلِمَةِ.

قولُه: (أي: الأَتبَاعُ) أي: أتباعُ الرُّسلِ.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٤٧١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٨٩).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٨).

(٤) انظر المصادر السابقة.

دِينَهم ﴿بَيْنَهُم زُبُرًا﴾: حالٌ من فاعل «تقطّعوا»، أي: أحزابًا مُتخالفين كاليهود والنصارى وغيرهما، ﴿كُلُّ حِزبٍ بِما لَدَيهِم﴾ أي: عِندَهم من الدِّين، ﴿فَرِحُونَ﴾: مسرورون.

٥٤ ـ ﴿فَذَرْهُم﴾: اتركْ كُفّار مكّة ﴿في غَمْرَتِهِم﴾: ضلالتهم ﴿حَتَّى حِينٍ﴾، أي: حينِ موتهم.
٥٥ ـ ﴿أيَحسِبُونَ أنَّ ما نُمِدُّهُم بِهِ﴾: نُعطيهم ﴿مِن مالٍ وبَنِينَ﴾ في الدنيا ٥٦ ـ ﴿نُسارِعُ﴾: نُعجّل ﴿لَهُم في الخَيراتِ﴾؟ لا، ﴿بَل لا يَشعُرُونَ﴾ أنّ ذلك استدراجٌ لهم.

٥٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ هُم مِن خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾: خوفهم منه ﴿مُشفِقُونَ﴾: خائفون من عذابه، ٥٨ ـ ﴿والَّذِينَ هُم بِآياتِ رَبِّهِم﴾: القُرآنِ ﴿يُؤمِنُونَ﴾: يُصدّقون، ٥٩ ـ ﴿والَّذِينَ هُم بِرَبِّهِم لا يُشرِكُونَ﴾ معه غيرَه، .....

قولُه: (دِيْنَهُم) أي: أمرَ دينِهم، وجعلوهُ أدياناً مختلفةً، أو: فتفرَّقوا وتحزَّبوا أمرَهُم، منصوبٌ بنَزعِ الخافِضِ.

قولُه: (أي: أَحزَابًا) فـ﴿زبرًا﴾ بمعنى: قِطَعاً، جمعُ: زبورٍ، الذي بمَعنى الفِرقةِ لا الكِتابِ[1].

قولُه: (مَسْرُورُونَ) معجَبونَ معتقِدونَ أنَّهم على الحقِّ.

قولُه: (ضَلالَتِهِم) وجَهالَتِهم.

قولُه: (مَوتِهِم) أو قتلِهم.

قولُه: (نُعطِيْهِم) ونجعلُهُ مَدداً لهم.

قولُه: (في الدُّنيَا) بيانٌ لـ﴿مَا﴾، وليسَ خبراً، فإنَّ الحُسبانَ المتعلِّقَ به غيرُ مُعابٍ عليه، وإنَّما المعابُ عليه اعتقادُهم أنَّ ذلك خيرٌ لهم، فخبرُهُ ما بعدَه، والرَّاجِعُ محذوفٌ، والمعنى: أيحسَبونَ أنَّ الذي نُمِدُّهُم به نُسارِعُ به لهم فيما فيه خَيرُهُم وإكرامُهُم؟

قولُه: (اسْتِدْرَاجٌ) لا مسارَعةٌ في الخيرِ؛ لأنَّهم كالبَهائمِ لا شعُورَ لهم.

قولُه: (خَوْفِهِم مِنْهُ) إشارَةٌ إلى أنَّ الإضافَةَ إلى المفعولِ، أو: خوفِهم الحاصلِ مِن عِندِه.

قولُه: (خَائِفُونَ) أو: من خوفِ عذابِهِ حَذِرونَ، أو: حذِرونَ من معاصِيهِ من أجلِ خشيَةِ ربِّهم.

قولُه: (بالقُرْآنِ) أو بالآياتِ المنصوبَةِ والمنزَّلَةِ.

قولُه: (يُصَدِّقُونَ) بَمدلولِها.

قولُه: (مَعَهُ غَيرَهُ) شِركاً جَليًّا، ولا خَفيًّا.

---

(١) انظر: «تاج العروس» (١١/ ٤٠٠).

٦٠ ـ ٦١ ـ ﴿والَّذِينَ يُؤتُونَ﴾: يُعطُون ﴿ما آتوا﴾: أعطَوا من الصدقة والأعمال الصالحة ﴿وقُلُوبُهُم وَجِلةٌ﴾: خائفةٌ ألاّ تُقبل منهم، ﴿أنَّهُم﴾ ـ يُقدّر قبله لام الجرّ ـ ﴿إلَى رَبِّهِم راجِعُونَ، أُولئِكَ يُسارِعُونَ في الخَيراتِ، وهُم لَها سابِقُونَ﴾ في عِلم الله.

٦٢ ـ ﴿ولا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلاّ وُسعَها﴾ أي: طاقتَها ـ فمَن لم يستطع أن يُصلّي قائمًا فليصلّ جالسًا، ومن لم يستطع أن يصوم فليأكل ـ ﴿ولَدَينا﴾: عِندنا ﴿كِتابٌ، يَنطِقُ بِالحَقِّ﴾: بما عملتْه ـ وهو اللوح المحفوظ تُسطّر فيه الأعمال ـ ﴿وهُم﴾ أي: النُّفوس العاملة ﴿لا يُظلَمُونَ﴾ شيئًا منها، فلا يُنقص من ثواب أعمال الخيرات ولا يُزاد في السيّئات.

٦٣ ـ ﴿بَل قُلُوبُهُم﴾ أي: الكُفّارِ ﴿في غَمْرةٍ﴾: جهالةٍ ﴿مِن هذا﴾ القُرآن، ﴿ولَهُم أعمالٌ مِن دُونِ ذلِكَ﴾ المذكور للمُؤمنين، ﴿هُم لَها عامِلُونَ﴾، فيُعذَّبون عليها. ٦٤ ـ ﴿حَتَّى﴾: ابتدائيّةٌ ﴿إذا أخَذْنا مُترَفِيهِم﴾: أغنياءهم ورُؤساءهم ﴿بِالعَذابِ﴾..........................

قولُه: (والأَعمَالِ الصَّالِحَةِ) فيه: أنَّ العملَ الصَّالحَ لا يُعطى، نَعم قُرِئَ: (يأتون ما أتوا[1]) أي: يَفعلونَ ما فعلوه من الأعمالِ الصَّالحةِ.

هذا والمرادُ: الَّذينَ يُعطُونَ في مُستقبَلِ الزَّمانِ نوعَ ما أعطَوهُ في الماضي، فإنَّه لا يمكنُ أن يُعطَى ما أُعطيَ مرةً ثانيةً، ففيه إشارَةٌ إلى دوامِ خوفِهِم، أو المقصودُ: الَّذينَ أَعْطَوا ما أَعْطَوا، لكن ذُكِر بصيغةِ المضارعِ استِحضاراً لتلك الصِّفةِ الجميلةِ.

قولُه: (يُقَدَّرُ) عليهِ الجمهورُ، وخبرُ ﴿إنَّ﴾ ﴿أُولئِك﴾.

قولُه: (فِي عِلْمِ اللهِ) أو: لأَجلِ الخيراتِ سابِقونَ إلى الجنَّةِ، أو لأجلِها سَبَقوا النَّاسَ.

قولُه: (بِمَا عَمِلَتْهُ) أي: لا يوجَدُ فيه ما يُخالِفُ الواقِعَ، فـ(الحقُّ) بمعنى: الصِّدقِ.

قولُه: (اللَّوْحُ) أو صَحيفةُ الأعمالِ.

قولُه: (جَهَالَةٍ) أو: غفلَةٍ غامِرةٍ لها.

قولُه: (القُرآنِ) أو: ممَّا وُصِفَ به المؤمنونَ، أو: من كتابِ الحفَظَةِ.

قولُه: (المَذْكُورِ) أي: أعمالٌ خبيثَةٌ، و﴿دونَ﴾ بمعنى: غَير، و﴿هُم لَها عامِلونَ﴾ لا بُدَّ مُعتادونَ فِعلَها.

قولُه: (أَغْنِيَاءَهُم) أي: مُتنعِّميهِم.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٠٠)، ونسبت لعائشة رضي الله عنها وغيرها.

أي: السيف يوم بدر ﴿إِذا هُم يَجأَرُونَ﴾: يضِجّون، ٦٥ ـ ويقال لهم: ﴿لا تَجأَرُوا اليَومَ. إِنَّكُم مِنّا لا تُنصَرُونَ﴾: لا تُمنعون. ٦٦ ـ ﴿قَد كانَت آياتِي﴾ من القُرآن ﴿تُتلَى عليكُم، فكُنتُم على أعقابِكُم تَنكِصُونَ﴾: ترجِعون القَهقَرى، ٦٧ ـ ﴿مُستكبِرِينَ﴾ عن الإيمان، ﴿بِهِ﴾ أي: بالبيت أو الحَرَم، بأنهم أهله في أمن بخلاف سائر الناس في مواطنهم، ﴿سامِرًا﴾: حالٌ أي: جماعةً، تتحدثون في الليل حول البيت ﴿تَهجُرُونَ﴾، من الثلاثيّ: تتركون القرآن، ومن الرباعيّ أي: تقولون غيرَ الحقّ في النبيّ والقُرآن.

٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ قال تعالى: ﴿أفلَم يَدَّبَّرُوا﴾ ـ أصله «يَتَدَبّروا» فأُدغمت التاء في الدال ـ ﴿القَولَ﴾ أي: القُرآنَ الدالّ على صِدق النبيّ؟ ﴿أم جاءَهُم ما لَم يأتِ آباءَهُمُ الأوَّلِينَ؟ أم لَم يَعرِفُوا رَسُولَهُم، فهُم لَهُ مُنكِرُونَ؟ أم يَقُولُونَ: بِهِ جِنَّةٌ﴾؟ الاستفهام فيه للتقرير بالحقّ من صِدق النبيّ ومجيء الرسل للأُمم الماضية ومعرفة رسولهم بالصِّدق والأمانة، وأنْ لا جنون به..............

قولُه: (يَضِجُّونَ) أي: يصيحونَ، كما في نُسخةٍ، والجُؤارُ: الصُّراخُ باستغاثَةٍ[1]، وهو جوابُ الشَّرطِ، والجملَةُ مُبتدأةٌ بعدَ ﴿حتَّى﴾.

قولُه: (تَرْجِعُونَ) الصَّوابُ: تُعرِضونَ مُدبرينَ عن سماعِها وتصديقِها والعَملِ بها، إذ النُّكوصُ: الرجوعُ قَهقرى، لكن ليسَ المرادُ من الآيةِ المعنى اللُّغويَّ.

قوله: (عَنِ الإِيمَانِ) أو: مُتكبِّرينَ على المسلِمينَ، حالٌ من فاعلِ ﴿تَنْكِصُون﴾.

قولُه: (أي: بالبَيْتِ) وشهرَةُ استكبارِهِم وافتخارِهِم بأنَّهم قوَّامُه أغنَتْ عن سَبقِ ذكرِهِم، وقال شَيخُنا العلّامةُ الشَّيخُ عَطيَّةُ: الضميرُ لـ﴿ما نُمِدُّهم به مِن مالٍ وبنينَ﴾.

قولُه: (أي: جَمَاعَةً) هو في الأصلِ مصدرٌ بمعنى المُسامَرةِ: الحكايَةِ بالليلِ، وجاءَ على الفاعلِ كعائِد، فيجوزُ إطلاقُهُ على الجَمْع.

قولُه: (مِنَ الثُّلاثِيِّ) غيرُ نافِعٍ[2].

قولُه: (تَتْرُكُونَ القُرآنَ) أو تهزؤون في شَأنِه.

قولُه: (فأُدْغِمَتِ التَّاءُ) بعدَ إبدالِها دالاً.

قولُه: (الدَّالّ) بإعجازِ لفظِهِ، ووضُوحِ مدلولِهِ.

قولُه: (وَمَجِيْءِ الإسلامِ) وفي نسخَةٍ: «ومَجيءِ الرُّسلِ»[3].

---

(١) انظر: «الجراثيم» لابن قتيبة (١/ ٢٣٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٩).

(٣) وهكذا جاءت في نسخ المتن المعتمدة.

﴿بَل﴾: للانتقال ﴿جاءَهُم بِالحَقِّ﴾ أي: القُرآنِ المُشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام، ﴿وأكثَرُهُم لِلحَقِّ كارِهُونَ ـ ولَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ﴾ أي: القُرآنُ ﴿أهْواءَهُم﴾، بأن جاء بما يهوَونه من الشريك والولد لله ـ تعالى الله عن ذلك ـ ﴿لَفَسَدَتِ السَّماواتُ والأرضُ ومَن فِيهِنَّ﴾ أي: خرجتْ عن نِظامها المُشاهَد لوجود التمانع في الشيء عادة عند تعدّد الحاكم ـ ﴿بَل أتَيناهُم بِذِكرِهِم﴾ أي: بالقُرآن الذي فيه ذِكرُهم وشرفهم، ﴿فهُم عَن ذِكرِهِم مُعرِضُونَ﴾.

٧٢ ـ ﴿أم تَسألُهُم خَرْجًا﴾: أجرًا على ما جئتَهم به من الإيمان؟ ﴿فخَراجُ رَبِّكَ﴾: أجرُه وثوابه ورزقه ﴿خَيرٌ﴾ ـ وفي قراءة: «خَرْجًا» في الموضعين، وفي قراءة أُخرى «خَراجًا» فيهما ـ ﴿وهُوَ خَيرُ الرّازِقِينَ﴾: أفضل مَن أعطى وآجَرَ، ٧٣ ـ ﴿وإنَّكَ لَتَدعُوهُم إلَى صِراطٍ﴾: طريق ﴿مُستَقِيم﴾ أي: دِين الإسلام، ٧٤ ـ ﴿وإنَّ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بِالآخِرةِ﴾: بالبعث والثواب والعقاب ﴿عَنِ الصِّراطِ﴾ أي: الطريق ﴿لَناكِبُونَ﴾: عادلون.

٧٥ ـ ﴿ولَو رَحِمْناهُم، وكَشَفْنا ما بِهِم مِن ضُرٍّ﴾ أي: جُوع أصابهم بمكّة سبعَ سنين،..........

قولُه: (للانْتِقَالِ) لا للإبطالِ.

قولُه: (بِمَا يَهْوَوْنَهُ) بفتحِ الواوِ الأولى؛ أي: يُحبُّونَه ويَرضونَه.

قولُه: (مِن الشَّرِيْكِ والوَلَدِ) الصَّحيحُ ما قال البَيضاويُّ: بأن كان في الواقعِ آلهةٌ شَتَّى(١).

قولُه: (لوُجُوْدِ التَّمَانُعِ) سبقَ تقريرُهُ في قولِهِ تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قولُه: (ذِكْرُهُم) أي: وَعْظُهُم، أو: صيتُهُم فقوله: (وشَرفُهُم) عطفُ(٢) تفسيرٍ.

قولُه: (منَ الإيمَانِ) الظَّاهرُ: من القُرآنِ، أو الرِّسالةِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) للشَّاميِّ(٣).

قولُه: (أُخرَى) حَمزةُ والكِسائيُّ(٤).

قولُه: (أي: الطَّرِيْقِ) السَّويِّ.

قولُه: (جُوْعٍ) قَحطٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٩٢).

(٢) «عطف»: ليست في (م) و(د).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٨٩).

(٤) انظر المصدرين السابقين.

﴿لَلَجُّوا﴾: تمادَوا ﴿في طُغيانِهِم﴾: ضلالتهم ﴿يَعمَهُونَ﴾: يتردّدون. ٧٦ ـ ﴿ولَقَد أخَذْناهُم بِالعَذابِ﴾: الجُوع، ﴿فَما استَكانُوا﴾: تواضعوا ﴿لِرَبِّهِم، وما يَتَضَرَّعُونَ﴾: يرغبون إلى الله بالدعاء. ٧٧ ـ ﴿حَتَّى﴾: ابتدائيّةٌ ﴿إذا فَتَحْنا علَيهِم بابًا ذا﴾: صاحبَ ﴿عَذابٍ شَدِيدٍ﴾، هو يوم بدر بالقتل، ﴿إذا هُم فِيهِ مُبلِسُونَ﴾: آيِسون من كُلّ خير.

٧٨ ـ ٧٩ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي أنشَأَ﴾: خلَق ﴿لَكُمُ السَّمعَ﴾ بمعنى الأسماع، ﴿والأبصارَ والأفئِدَةَ﴾: القُلوب ـ ﴿قَلِيلاً ما﴾: تأكيد للقِلّة ﴿تَشكُرُونَ ـ وهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُم﴾: خلقَكم ﴿في الأرضِ، وإلَيهِ تُحشَرُونَ﴾: تُبعثون، ٨٠ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي يُحيِي﴾ بنفخ الروح في المُضغة ﴿ويُمِيتُ، ولَهُ اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ﴾ بالسوادِ والبياض والزيادةِ والنُّقصان. ﴿أفلا تَعقِلُونَ﴾ صُنعه ـ تعالى ـ فتعتبرون؟

٨١ ـ ٨٢ ـ ﴿بَل قالُوا مِثلَما قالَ الأوَّلُونَ، قالُوا﴾ أي: الأوّلون: ﴿أإذا مُتْنا، وكُنّا تُرابًا وعِظامًا، أإنّا لَمَبعُوثُونَ﴾؟ لا. وفي الهمزتين التحقيقُ في الموضعين،........................

قولُه: (تَمَادَوا) بتخفيفِ الدَّالِ؛ أي: ثَبَتوا.

قولُه: (يَتَرَدَّدُونَ) تَحيُّراً.

قولُه: (الجُوْعِ) هذا المنقولُ عن السَّلفِ[1]، وقال البَيضاويُّ: يعني: القَتْلَ يومَ بدرٍ[2].

قولُه: (يَرْغَبُونَ) أو: ليس من عادتِهِم التَّضرُّع.

قولُه: (هُوَ يَوْمُ بَدرٍ) عليهِ السَّلفُ، وقال القاضِي: يعني: الجوعَ، فإنَّه أشدُّ من الأَسرِ والقَتْلِ[3].

قولُه: (تَأكِيدٌ لِلقِلَّةِ) لا نافيةٌ؛ لأنَّ لها صدرَ الكلامِ؛ أي: تشكُرونَها شُكراً قليلاً.

قولُه: (تُبْعَثُوْنَ) الأولى: تُجمَعونَ.

قولُه: (بالسَّوَادِ والبَيَاضِ) الأظهَرُ: بالظُّلمةِ والنُّورِ.

قولُه: (أي: الأَوَّلُونَ) الظَّاهرُ: الآخِرونَ.

قولُه: (التَّحقِيْقُ) تقدَّمَ مِراراً[4]، وما كانَ الاحتياجُ إلى ذِكرِهِ ولا مَرَّةً؛ لعدَمِ توَقُّفِ التَّفسِيرِ عليهِ، ومع هذا ما استوفى وُجوهَ القِراءَةِ.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٠)، و«الدر المنثور» (٦/ ١١١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٩٢).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٩٣).

(٤) انظر: (الرعد: ٥) عند قوله: وفي الهمزتين... إلخ.

وتسهيلُ الثانية، وإدخالُ ألف بينهما على الوجهين. ٨٣ ـ ﴿لَقَد وُعِدْنا نَحنُ وآباؤُنا هذا﴾ أي: البعثَ بعد الموت ﴿مِن قَبلُ. إن﴾: ما ﴿هذا إلاّ أساطِيرُ﴾: أكاذيبُ ﴿الأوَّلِينَ﴾ كالأضاحيك والأعاجيب، جمع أُسطورة بالضمّ.

٨٤ ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لِمَنِ الأرضُ ومَن فِيها﴾ من الخلق، ﴿إن كُنتُم تعلَمُونَ﴾ خالقها ومالكها؟ ٨٥ ـ ﴿سَيَقُولُونَ: للهِ. قُلْ﴾ لهم: ﴿أفلا تَذَّكَّرُونَ﴾، بإدغام التاء في الذال: تتّعظون، فتعلمون أنّ القادر على الخلق ابتداءً قادرٌ على الإحياء بعد الموت؟ ٨٦ ـ ﴿قُلْ: مَن رَبُّ السَّماواتِ السَّبعِ، ورَبُّ العَرشِ العَظِيمِ﴾: الكرسيّ؟ ٨٧ ـ ﴿سَيَقُولُونَ: اللهُ. قُلْ: أفلا تَتَّقُونَ﴾: تحذرون عِبادةَ غيره؟

٨٨ ـ ٨٩ ـ ﴿قُلْ: مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ﴾: مُلكُ ﴿كُلِّ شَيءٍ﴾ ـ والتاء للمُبالغة ـ ﴿وهُوَ يُجِيرُ ولا يُجارُ علَيهِ﴾: يَحمي ولا يُحمَى عليه، ﴿إن كُنتُم تَعلَمُونَ؟ سَيَقُولُونَ: اللهُ﴾. وفي قراءة: «لِلهِ» بلام الجرّ في الموضعين، نظرًا إلى أنّ المعنى: مَن له ما ذُكر؟ ﴿قُلْ: فأنَّى تُسحَرُونَ﴾:........................

قولُه: (بِإِدْغَامِ التَّاءِ) بعدَ قلبِ الذال، وحفصٌ وحمزةُ والكِسائيُّ بالتَّخفيفِ[1].

قولُه: (الكُرْسِيِّ) الصَّحيحُ: أنَّ العرشَ أعظمُ من الكُرسيِّ، كما وَرد في «الصَّحيحِ»: أنَّه بجنبِهِ كحَلْقةٍ في فَلاةٍ[2].

قولُه: (عِبَادَةَ غَيرِهِ) أو: عَذابَهُ تَعالى.

قولُه: (للمُبَالَغَةِ) أي: مُلكُهُ غايةُ ما يُمكنُ، وقيلَ: خَزائِنُه.

قولُه: (يَحْمِي) ويُغيثُ ويَحرسُ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ البَصريِّ[3].

قولُه: (فِي المَوضِعَينِ) الآخرينِ.

قولُه: (مَنْ لَهُ مَا ذُكِرَ) لأنَّ قَولَكَ: من رَبُّ هذا؟ في معنى: لمن هذا؟ وأمَّا قِراءةُ البَصريِّ فعلى ما يَقتَضيهِ لَفظُ السُّؤالِ، فلذا جَعلهُ أصلاً، وعدَلَ عن قِراءةِ الجمهورِ التي كانت أولى بالأصالَةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٧٩).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٣٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، واللفظ لأبي الشيخ.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٠).

تُخدَعون وتُصرَفُون عن الحقّ عِبادةِ الله وحده؟ أي: كيف يُخيَّل لكم أنه باطل؟

٩٠ ـ ﴿بَلْ أَتيناهُم بِالحَقِّ﴾: بالصِّدق، ﴿وإِنَّهُم لَكاذِبُونَ﴾ في نفيه، وهو: ٩١ ـ ﴿ما اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ، وما كانَ مَعَهُ مِن إلـٰـهٍ. إذًا﴾ أي: لو كان معه إلـٰـهٌ ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إلـٰـهٍ بِما خَلَقَ﴾: انفرد به، ومنعَ الآخَرَ من الاستيلاء عليه، ﴿ولَعَلا بَعضُهُم علَى بَعضٍ﴾ مُغالبةً كفعل مُلوك الدنيا. ﴿سُبحانَ اللهِ﴾: تنزيهًا له ﴿عَمّا يَصِفُونَـ﴾ ـهُ به ممّا ذُكر! ٩٢ ـ ﴿عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ﴾: ما غاب وما شُوهد ـ بالجرِّ: صفةٌ، والرفعِ: خبرُ «هو» مُقدّرًا ـ ﴿فتَعالَى﴾: تعظَّم ﴿عَمّا يُشرِكُونَـ﴾ ـهُ معه.

٩٣ ـ ﴿قُلْ: رَبِّ، إمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطيّة في «ما» الزائدة ـ ﴿تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَـ﴾ ـهُ من العذاب ـ هو صادقٌ بالقتل ببدر ـ..

قولُه: (عِبَادَةِ اللهِ) بدَلٌ عن (الحقِّ).

قولُه: (بَاطِلٌ) مع ظُهورِ الحقِّ.

قولُه: (بالصِّدْقِ) أي: لا بأَساطيرِ الأوَّلينَ، والقَاضي راعى السِّباقَ واللِّحاقَ، وقال: من التَّوحيدِ والوَعدِ بالنُّشورِ[١].

قولُهُ تعالى: (﴿من ولد﴾) لتقَدُّسِهِ عن مُماثَلةِ أحدٍ.

قوله: (مَعَهُ إِلَهٌ) يُساهِمُه في الأُلوهِيةِ.

قولُه: (انْفَرَدَ به) أي: بما خَلقَه.

قولُه: (مُغَالَبَةً) بالتَّحارُبِ، واللازِمُ باطلٌ بالإجماعِ والاستِقراءِ وقيامِ البُرهانِ على استنادِ جميعِ المُمكِناتِ إلى واجبٍ واحدٍ.

قولُه: (مِمَّا ذُكِرَ) من الولدِ، أو الشَّريكِ.

قولُه: (مَا غَابَ) وما نُسِب إلى القُطبِ الرَّبانيِّ الشَّيخِ عَبدِ الكَبيرِ اليَمانيِّ أنَّه قالَ: هو تعالى ليسَ عالمَ الغيبِ؛ ويعني: أنَّ الغيبَ إنَّما هو بالنِّسبةِ إلى غيرِه تعالى غيرُ مُناسبٍ ذِكرُه؛ لأنَّه مُوهِمٌ.

قولُه: (بِالجَرِّ) مَكيٌّ وبَصريٌّ وشاميٌّ وحَفصٌ[٢].

قولُه: (صِفَةٌ) للهِ.

قولُه: (مِنَ العَذَابِ) في الدُّنيا والآخِرةِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٩٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩١).

٩٤ ـ ﴿رَبِّ، فلا تَجعَلْني في القَومِ الظّالِمِينَ﴾ فأهلِكَ بهلاكهم. ٩٥ ـ ﴿وإنّا على أن نُرِيَكَ ما نَعِدُهُم لَقادِرُونَ﴾.

٩٦ ـ ﴿ادفَعْ بِالَّتي هِيَ أحسَنُ﴾ أي: الخَلّةِ من الصفح والإعراض عنهم ﴿السَّيِّئةَ﴾ أذاهم إيّاك. وهذا قبل الأمر بالقتال ـ ﴿نَحنُ أعلَمُ بِما يَصِفُونَ﴾ أي: يكذبون ويقولون، فنُجازيهم عليه ـ ٩٧ ـ ﴿وقُلْ: رَبِّ، أعُوذُ﴾: أعتصم ﴿بِكَ مِن هَمَزاتِ الشَّياطِينِ﴾: نزَغاتهم ممّا يُوَسْوِسون به، ٩٨ ـ ﴿وأعُوذُ بِكَ ـ رَبِّ ـ أن يَحضُرُونِ﴾ في أُموري لأنهم إنما يحضرون بسوء.

٩٩ ـ ﴿حَتّى﴾: ابتدائيّةٌ ﴿إذا جاءَ أحَدَهُمُ المَوتُ﴾، ورأى مقعدَه من النار ومقعدَه من الجنّة لو آمنَ، ﴿قالَ: رَبِّ، ارجِعُونِ﴾ ـ الجمعُ للتعظيم ـ ١٠٠ ـ ﴿لَعَلِّي أعمَلُ صالِحًا﴾ بأن أشهد أن لا إلٰـهَ إلاّ اللهُ، يكونُ ﴿فِيما تَرَكْتُ﴾: ضيّعتُ من عُمري، أي: في مُقابلته. قال تعالى: ﴿كَلاَّ﴾ أي:..........

قولُه: (فأَهْلِكَ) قالَهُ هَضماً للنَّفسِ وإظهاراً لكمالِ العُبوديةِ، واستِغناءِ الأُلوهيَّةِ.

قولُه تعالى: (﴿لقَادِرونَ﴾) لكنَّا نؤخِرُه عِلماً بأنَّ بَعضَهم ـ أو بعضَ أعقابِهِم ـ يؤمِنونَ، وقيلَ: قد رآهُ وهو قَتلُ يومِ بدرٍ، أو فَتحِ مَكةَ.

قولُه: (والإِعرَاضِ عَنْهُم) الأَظهرُ: عنها، والإحسانُ في مُقابلتِها، لكن بحيثُ لا يُؤدِّي إلى وَهنٍ في الدِّينِ، وقيلَ: هي كلمةُ التوحيدِ، والسَّيئةُ الشِّركُ، وقيل: هي الأَمرُ بالمعروفِ، والسَّيئةُ المُنكرُ. وهذه المعاني كلُّها غيرُ قابلةٍ للنَّسخِ.

قولُه: (يُكَذِّبُوْنَ) بالتَّشديدِ أو[1] التَّخفيفِ.

قولُه: (ويَقُولُونَ) فينا وفيكَ، وفي القُرآنِ.

قولُه: (لَو آمَنَ) مُتعلِّقٌ بالأَخيرِ.

قولُه: (للتَّعْظِيمِ) لتعظيمِ[2] المُخاطَبِ، وقيلَ: لتكريرِ قولِه: أرجِعْني، كما قيلَ في: قِفَا نَبْكِ[3]، وقيلَ: الخِطابُ للمَلائكةِ على الالتِفاتِ.

قولُه: (في مُقَابَلَتِهِ) أي: في مُقابلةِ ما تركتُهُ من الإيمانِ؛ أي: لعلِّي آتي بالإيمانِ وأَعملُ فيه.

---

(١) في (م): «و».

(٢) «للتعظيم» ليس في (م)، و«لتعظيم» ليس في باقي النسخ.

(٣) هذا مطلع معلقة امرئ القيس. انظر: «شرح المعلقات التسع» (ص: ١٢٠).

لا رُجوعَ، ﴿إِنَّهَا﴾ أي «رَبِّ ارجِعُونِ» ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾، ولا فائدة له فيها، ﴿وَمِن وَرَائِهِم﴾: أمامِهم ﴿بَرْزَخٌ﴾: حاجز يصدّهم عن الرجوع ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ولا رُجوع بعده.

١٠١ ـ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: القرنِ النفخةَ الأُولى أو الثانيةَ ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يَتفاخرون بها، ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ عنها خِلافَ حالهم في الدنيا لِما يَشغلهم من عِظَم الأمر عن ذلك في بعض مواطن القيامة، وفي بعضها يُفيقون وفي آية: «وأقبَلَ بَعضُهُم علَى بَعضٍ يَتَساءَلُونَ».

١٠٢ ـ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالحسنات ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون، ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالسيّئات ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾، فهم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾: تُحرقها، ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾: شُمّرتْ شِفاههم العُليا والسُّفلى عن أسنانهم، ويقال لهم: ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ من القُرآن ﴿تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ تُخوَّفُون بها، ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ؟ قَالُوا: رَبَّنَا، غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ ـ وفي قراءةٍ: «شَقاوتُنا» بفتحِ أوله وألفٍ، وهما مصدران بمعنًى ـ ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ عن الهِداية..

قولُه: (لا رُجُوْعَ) رَدعٌ عن طَلَبِ الرَّجعةِ واستِبعادٌ لها.

قولُه: (أَمَامِهم) الضَّميرُ للجَماعةِ.

قولُه: (أو الثَّانِيَةَ) وهو الظَّاهرُ.

قولُه: (يَتَفَاخَرُونَ) أو: يَنفعُهم لزوالِ التَّراحُمِ من فرطِ الحَيرةِ يومَ يَفرُّ المرءُ.

قولُه: (عَنْهَا) أي: عن الأنسابِ، أو: لا يَسألُ بعضُهم بَعضاً لاشتِغالِهِ بنفسِهِ يومَ تأتي كُلُّ نفسٍ.

قولُه: (بالحَسَنَاتِ) فمَن كانت له عَقائدُ وأعمالٌ صالحةٌ يكونُ لها وزنٌ عندَ اللهِ وقَدْرٌ.

قولُه: (الفَائِزُونَ) بالنَّجاةِ والدَّرجاتِ، وهو شاملٌ للفاسِقِ والصَّالحِ لَفًّا ونَشراً، والمرادُ بِهِ: المؤمِنُ الكاملُ، وإنَّما لم يُذكَرِ المؤمنُ العاصِي ستراً من اللهِ لحالِهِ، وليَكونَ بينَ الرَّجاءِ والخوفِ، وكذا في غالبِ آياتِ الوَعدِ والوَعيدِ.

قولُه: (بالسَّيِّئَاتِ) أي: من لم يَكنْ له ما يكونُ له وزنٌ وهُم الكفَّارُ.

قولُه: (فَهُم) أي: الكفَّارُ، وأمَّا مَن استوَتْ حسناتُهُ وسيئاتُهُ فتقدَّمَ أنَّهم من أَهلِ الأعرافِ ومآلُهُم الجنَّةُ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحَمزةَ والكِسائيِّ[1].

قولُه: (بِمَعنًى) ضِدُّ: السَّعادةِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩١).

١٠٧ ـ ﴿رَبَّنا، أخرِجْنا مِنها. فإن عُدْنا﴾ إلى المُخالفة ﴿فإنّا ظالِمُونَ﴾.

١٠٨ ـ ﴿قالَ﴾ لهم بلسان مالِكٍ بعد قَدْر الدنيا مرّتين: ﴿اخسَؤُوا فِيها﴾: ابعُدوا في النار أذلآءَ، ﴿ولا تُكلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب عنكم. فينقطعُ رجاؤهم. ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١١١ ـ ﴿إنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِن عِبادِي﴾ ـ هم المهاجرون ـ ﴿يَقُولُونَ: رَبَّنا، آمَنّا. فاغفِرْ لَنا وارحَمْنا. وأنتَ خَيرُ الرّاحِمِينَ. فاتَّخَذْتُمُوهُم سُخرِيًّا﴾، بضمّ السين وكسرها: مصدرٌ بمعنى الهُزء، منهم: بلال وصُهيب وعمّار وسلمان، ﴿حَتَّى أنسَوكُم ذِكرِي﴾، فتركتموه لاشتغالكم بالاستهزاء بهم ـ فهم سبب الإنساء فنُسب إليهم ـ ﴿وكُنتُم مِنهُم تَضحَكُونَ. إنِّي جَزَيتُهُمُ اليَومَ﴾ النعيمَ المُقيم ﴿بِما صَبَرُوا﴾ على استهزائكم بهم وأذاكم إيّاهم. ﴿إنَّهُم﴾ ـ بكسرِ الهمزة ـ ﴿هُمُ الفائِزُونَ﴾ بمطلوبهم استئنافٌ، وبفتحِها: مفعولٌ ثان لـ «جزيتهم».

١١٢ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى لهم بلسان مالكٍ، وفي قراءةٍ «قُلْ»: ﴿كَم لَبِثتُم في الأرضِ﴾:............

قولُه: (ابْعُدُوا) أو: اسكُتوا سُكوتَ هوانٍ، فإنَّ النّارَ ليسَت مَقامَ سؤالٍ.

قولُه: (فِي رَفْعِ[1] العَذَابِ) أو: [لا تكلمونِ] رَأساً[2].

قولُه: (هُمُ المُهَاجِرُونَ) أو المؤمنونَ.

قولُه: (بِضَمِّ السِّينِ) نَافعٌ وحَمزةُ والكِسائيُّ[3].

قولُه: (وسَلْمَانُ) هو ليسَ من المُهاجِرين.

قولُه: (بالنَّعِيمِ المُقِيْمِ) ﴿من الكُفَّارِ يضحَكُون * على الأرائكِ ينظُرون﴾ [المطففين: ٣٤، ٣٥].

قولُه: (بِكَسْرِ الهَمْزَةِ) حَمزةُ والكِسائيُّ[4].

قولُه: (استِئْنَافٌ) فالمفعولُ محذوفٌ.

قولُه: (بِلِسَانِ مَالِكٍ) أو بذاتِهِ، أو المَلَكُ المأمورُ بسُؤالِهِم.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للمَكيِّ وحَمزةَ والكِسائيِّ[5]، على الأَمرِ للمَلَكِ، أو لبعضِ رُؤساءِ أهلِ النّارِ.

---

(١) في (م): «دفع».

(٢) من «أنوار التنزيل».

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩١).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٢).

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٤٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٣).

فـي الدنيـا وفـي قُبوركـم ﴿عَـدَدَ سِنِينَ﴾؟ تمييـز. ١١٣ ـ ﴿قالُـوا: لَبِثْنـا يَومًـا أو بَعضَ يَومٍ﴾. شَـكّوا فـي ذلـك واسـتقصَروه لعِظَم مـا هم فيه مـن العـذاب. ﴿فاسـألِ العادِّيـنَ﴾ أي: الملائكـةَ المُحصِينَ أعمـالَ الخلق.

١١٤ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى بلسان مالك، وفي قراءة «قُلْ»: ﴿إنْ﴾ أي: ما ﴿لَبِثْتُم إلاّ قَلِيلاً. لَو أنَّكُم كُنتُم تَعلَمُونَ﴾ مِقدار لَبثكم من الطول كان قليلاً بالنسبة إلى لَبثكم في النار. ١١٥ ـ ﴿أفحَسِبتُم أنَّما خَلَقْناكُم عَبَثًا﴾ لا لحِكمة، ﴿وأنَّكُم إلَينا لا تَرجِعُونَ﴾ بالبناء للفاعل وللمفعول؟ لا بل لِنَتعَبَّدَكم بالأمر والنهي وتَرجِعوا إلينا، ونُجازيَ على ذلك: «وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعبُدُونِ».

١١٦ ـ ﴿فتَعالَى اللهُ﴾ عن العبث وغيره ممّا لا يليق به، ﴿المَلِكُ الحَقُّ، لا إلٰـهَ إلاّ هُوَ رَبُّ العَرشِ الكَرِيمِ﴾: الكرسيّ هو السرير الحَسَن، ....

قولُه: (وَفِي قُبُورِكُم) أو: أحياءً فيها وأمواتاً في القُبورِ.

قولُه: (تَمييزٌ) لـ﴿كَم﴾.

قولُه: (شَكُّوا) والأظهرُ: أن ﴿أو﴾ بمَعنى: بَل، وسَيأتي أنَّهم يُقسِمونَ ما لَبثوا غيرَ ساعةٍ[1].

قولُه: (اسْتَقْصَرُوهُ... إلخ) أي: لُبثُهم فيها بالنِّسبةِ إلى خُلودِهم في النَّارِ، أو لأنَّها كانت أيّامَ سُرورِهم وهي قِصارٌ، أو لأنَّها مُنقَضيةٌ والمُنقضي في حُكمِ المعدومِ.

قولُه: (أَعْمَالَ الخَلْقِ) وأعمارَهُم.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ[2].

قولُه: (مِقْدَارَ لُبْثِكُم) حاصِلُه: تَصديقٌ لهم في مَقالِهم، ولذا قيلَ: الدُّنيا ساعَة فاجعَلْها طاعة.

قولُه: (لا لِحِكْمَةٍ) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿عَبثاً﴾ مفعولٌ له.

قولُه: (للفَاعِلِ) حمزةُ والكِسائيُّ[3].

قولُه: (لنَتَعَبَّدَكُم) أي: لنَطلُبَ العِبادةَ منكُم.

قولُه: (الكُرْسِيِّ) تَقدَّم[4].

---

(١) وذلك في سورة الروم في الآية: (٥٥).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٤).

(٣) انظر المصدرين السابقين.

(٤) في الآية (٨٦) من هذه السورة.

١١٧ ـ ﴿وَمَن يَدعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهًا آخَرَ، لا بُرهانَ لَهُ بِهِ﴾: صفةٌ كاشفة لا مفهوم لها، ﴿فإنَّما حِسابُهُ﴾: جزاؤه ﴿عِندَ رَبِّهِ. إِنَّهُ لا يُفلِحُ الكافِرُونَ﴾: لا يَسعدون.

١١٨ ـ ﴿وقُلْ: رَبِّ، اغفِرْ وارحَمْ﴾ المؤمنين ـ في الرحمة زِيادة على المغفرة ـ ﴿وأنتَ خَيرُ الرّاحِمِينَ﴾: أفضلُ رحمةَ راحمٍ.

قولُه: (لا يَسْعَدُونَ) بدأَ السُّورةَ بَتقريرِ فَلاحِ المؤمنينَ، وخَتمَ بنَفي الفَلاحِ عن الكافرينَ.

قولُه: (المُؤمِنِيْنَ) وهو رئيسُهُم[1].

قولُه: (أَفْضَلَ رَحْمَةٍ) مفعولٌ مُطلقٌ، أو مُميزٌ لـ﴿الرَّاحمينَ﴾، ولا يَبعدُ أن يَتعلقَ بـ﴿ارحَم﴾ على نزعِ الخافِضِ، أو على المفعوليَّةِ، واللهُ تعالى أعلَمُ.

* * *

(١) في (م): «المؤمنين وهم رؤساؤهم».

سورة المؤمنون

مكيةٌ كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]. وفي «البحر»: هي مكيةٌ بلا خلافٍ[2]. واستُثْني منها كما في «الإتقان» قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿مُبْلِسُونَ﴾ [الآيات: ٦٤-٧٧][3] واستشكل الحكمُ على ما عَدَاه بكونه مكيًّا لِمَا فيه من ذكر الزكاة، وهي إنما فُرِضَتْ بالمدينة.

وأُجيبَ: بأنه بعد تسليم أنَّ ما ذكر فيه يدلُّ على فرضيتها يقال: إنَّ الزكاة كانت واجبةً بمكة والمفروضُ بالمدينة ذاتُ النصب، وستسمع تمام الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى.

وهي كما في كتاب «العَدَد» للداني و«مجمع البيان» للطبرسيِّ مئةٌ وثمان عشرة آيةً في الكوفي، ومئةٌ وسبع عشرة آيةً[4] في الباقي.

وقد مدح النبيُّ ﷺ العَشْرَ الأُوَلَ منها؛ فقد أخرج أحمد والترمذيُّ والنسائيُّ، والحاكمُ وصحَّحه، والضياءُ في «المختارة»، وغيرُهم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نَزَلَ على رسول الله ﷺ الوحيُ نسمع عند وجهه كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فأُنزِلَ عليه يوماً، فمَكَثْنا ساعةً، فسرِّي عنه، فاستقبل القبلةَ فرفع يديه فقال: «اللهمَّ زِدْنا ولا تَنْقُصْنا، وأَكْرِمْنا ولا تُهِنَّا، وأَعْطِنا ولا تَحْرِمْنا، وآثِرْنا ولا تُؤْثِرْ علينا، وارْضَ

(١) الدر المنثور ٥/٢.

(٢) البحر ٦/٣٩٥.

(٣) الإتقان ١/٤٧.

(٤) كذا في الأصل و(م) وحاشية الشهاب ٦/٣١٨، والصواب: وتسع عشرة، كما في مجمع البيان ١٨/١٣٣، والبيان في عدِّ آي القرآن للداني ص١٩١، ومثله في الإتقان ١/٢١٤، والكشاف ٣/٢٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/٣١٨، وتفسير أبي السعود ٦/١٢٣، وغيرها من كتب التفسير.

عَنَّا وأَرْضِنا» ثم قال: «لقد أُنزِلَتْ عليَّ عَشْرُ آياتٍ مَن أقامهنَّ دَخَلَ الجنة» ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ حتى ختم العشر(١).

ومناسَبتُها لآخِرِ السورة(٢) قبلها ظاهرةٌ؛ لأنه تعالى خاطب المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟﴾ الآيةَ، وفيها: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] فناسَبَ أن يحقِّق ذلك فقال عزَّ قائلاً:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ والفلاحُ: الفوزُ بالمَرَام. وقيل: البقاءُ في الخير. والإفلاحُ: الدخولُ في ذلك، كالإبشار الذي هو الدخولُ بالبشارة، وقد يجيءُ متعدِّياً وعليه قراءةُ طلحةَ بنِ مصرِّفٍ وعمرو بن عبيد: «أُفلِحَ» بالبناء للمفعول(٣).

و«قد» لثبوتِ أمرٍ متوقَّعٍ وتحقُّقهِ، والظاهرُ أنه هنا الفلاحُ؛ لأنَّ «قد» دخلت على فِعْلِه وهو متوقَّعُ الثبوتِ من حال المؤمنين، وجَعَله الزمخشريُّ الإخبارَ بثباته(٤)، وذلك لأنَّ الفلاح مستقبلٌ أُبرِزَ في مَعْرِضِ الماضي مؤكَّداً بـ «قد» دلالةً على تحقُّقه، فيفيدُ تحقُّقَ البشارةِ وثباتَها، كأنه قيل: قد تَحقَّقَ أنَّ المؤمنين من أهل الفلاح في الآخرة.

وجوِّز أن يكون جملةُ «قد أفلح» جوابَ قسمٍ محذوفٍ، وقد ذكر الزجَّاج في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] أنه جوابُ القسم المذكورِ قبلَه بتقديرِ اللَّام(٥).

وقرأ ورش عن نافع: «قَدَ افْلَحَ»(٦) بإلقاءِ حركةِ الهمزة على الدال، وحَذْفِها

---

(١) مسند أحمد (٢٢٣)، وسنن الترمذي (٣١٧٣)، وسنن النسائي الكبرى (١٤٤٣)، والمستدرك ٢/ ٣٩٢، والأحاديث المختارة (٢٣٤)، وأخرجه أيضاً العقيلي في الضعفاء ٤/ ٤٦٠. قال النسائي: هذا حديث منكر، لا نعلم أحداً رواه غير يونس بن سليم، ويونس بن سليم لا نعرفه. اهـ. وقال العقيلي: يونس بن سليم الصنعاني لا يتابع على حديثه ولا يعرف إلا به.

(٢) في (م): السور، وهو تصحيف.

(٣) القراءات الشاذة ص ٩٧، والبحر ٦/ ٣٩٥.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٣١.

(٦) التيسير ص ٣٥.

لفظاً لالتقاء الساكنين ـ كما قال أبو البقاء ـ وهما: الهمزة الساكنةُ بعد نَقْلِ حركتها، والدالُ الساكنةُ بحسب الأصل لأنه لا يعتدُّ بحركتها العارِضة[(١)].

وقرأ طلحة أيضاً: «قد أُفْلَحُ» بضم الهمزة والحاء[(٢)]، وإلقاءِ واوِ الجمع، وهي مخرَّجةٌ على لغةِ: أكلوني البراغيثُ. وقولُ ابن عطية: هي قراءةٌ مردودة[(٣)]، مردودٌ.

وعن عيسى بن عمر قال: سمعتُ طلحة يقرأ: «قد أفلحوا المؤمنون» فقلت له: أَتَلْحَنُ؟ قال: نعم، كما لحنَ أصحابي. ولعل مراده: إنَّ مَرْجِعَ قراءتي الروايةُ، ومتى صَحَّتْ في شيءٍ، لا يكون لحناً في نفس الأمر وإن كان كذلك ظاهراً.

وإثباتُ الواوِ في الرسم مرويٌّ عن كتاب ابن خالويه[(٤)]، وفي «اللوامح» أنها حُذفتْ في الدَّرْج لالتقاء الساكنين وحُملت الكتابةُ على ذلك، فهي محذوفةٌ فيها أيضاً، ونظير ذلك: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]. وقد جاء حذفُ الواو لفظاً وكتابةً والاكتفاءُ بالضمة الدالَّة عليها، كما في قوله:

ولو أنَّ الأَطِبَّا كانُ حولي ... وكان مع الأطباء الأُسَاةُ[(٥)]

وهو ضرورةٌ عند بعض النحاة.

والمراد بالمؤمنين، قيل: إمَّا المصدِّقون بما عُلِمَ ضرورةً أنه من دين نبيِّنا ﷺ، من التوحيد والنبوَّةِ والحَشْرِ الجسماني والجزاءِ ونظائرها، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ وما عطف عليه صفاتٌ مخصِّصةٌ لهم.

---

(١) الإملاء ٤/ ٥٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣١٩.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: بفتح الهمزة وضم الحاء. ينظر الدر المصون ٨/ ٣١٤، والقراءات الشاذة ص ٩٧، والكشاف ٣/ ٢٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٣٦، والبحر ٦/ ٣٩٥. ووقع في (م): أفلحوا.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٦.

(٤) القراءات الشاذة ص ٩٧، وفيه ذكر الوجهين: ضم الحاء، وإثبات الواو، وينظر البحر ٦/ ٣٩٥.

(٥) مجالس ثعلب ص ٨٨، والإنصاف ١/ ٣٨٥، والكشاف ٣/ ٢٥، وشرح المفصل لابن يعيش ٧/ ٥ و٩/ ٨، والخزانة ٥/ ٢٢٩.

وإما الآتونَ بفروعه أيضاً، كما يُنْبِئُ عنه إضافةُ الصلاة إليهم، فهي صفاتٌ موضِّحة أو مادِحةٌ لهم. وفي بعض الآثار ما يؤيِّد كونَها مخصِّصةً.

وجَعَلَ الزمخشريُّ[1] الإضافةَ للإشارة إلى أنهم هم المنتفعون بالصلاة دون المصلَّى له عز وجل.

والخشوعُ: التذلُّلُ مع خوفٍ وسكونٍ للجوارح، ولذا قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير وغيرُه: «خاشعون»: خائفون ساكنون[2].

وعن مجاهد: أنه هنا غضُّ البصر وخَفْضُ الجَناح.

وقال مسلم بن يسار وقتادة: تنكيس الرأس.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: تَرْكُ الالتفات.

وقال الضحاك: وَضْعُ اليمين على الشمال.

وعن أبي الدرداء: إعظامُ المقام، وإخلاصُ المقال، واليقينُ التامُّ، وجَمْعُ الاهتمام.

ويَتْبعُ ذلك تَرْكُ الالتفاتِ وهو من الشيطان، فقد روى البخاريُّ وأبو داود والنسائيُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختِلاسٌ يَختَلِسُه الشيطانُ مِنْ صلاةِ العَبْدِ»[3].

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة أنه قال في مرضه: أَقْعِدوني أَقْعِدوني فإنَّ عندي وديعةً أَوْدَعَنيها رسولُ الله ﷺ قال: «لا يَلْتفِتْ أحدُكم في صلاته، فإن كان لا بدَّ فاعلاً ففي غيرِ ما افْتَرضَ الله تعالى عليه»[4].

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٥.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ١٠.

(٣) صحيح البخاري (٧٥١)، وسنن أبي داود (٩١٠)، وسنن النسائي ٣/ ٨، وهو عند أحمد (٢٤٧٤٦).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤١-٤٢، وهو من طريق الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه، والحسن لم يسمع من أبي هريرة. ينظر المراسيل لابن أبي حاتم ص ٣٨.

وتَرْكُ العبث بثيابه أو شيءٍ من جسده، وإنكارُ منافاته للخشوع مكابَرةٌ، وقد أخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» لكنْ بسندٍ ضعيفٍ، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه رأى رجلاً يعبثُ بلحيته في صلاته فقال: «لو خَشَعَ قلبُ هذا خَشَعَتْ جَوَارِحُه»(١).

وتَرْكُ رَفْعِ البصر إلى السماء وإنْ كان المصلِّي أعمى، وقد جاء النهيُ عنه، فقد أخرج مسلم وأبو داود وابن ماجه عن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال النبيُّ ﷺ: «لينتهينَّ أقوامٌ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا تَرْجِعُ إليهم»(٢).

وكان قبل نزول الآية غيرَ منهيٍّ عنه، فقد أخرج الحاكم وصحَّحه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في «سننه»، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا صلَّى رفع بصره إلى السماء، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ فطأطأ رأسه(٣).

وتَرْكُ الاختصار: وهو وضعُ اليد على الخاصرة، وقد ذكروا أنه مكروه، وجاء عنه ﷺ: «الاختصارُ في الصلاة راحةُ أهلِ النار»(٤) أي: أنَّ ذلك فِعْلُ اليهود في

---

(١) نوادر الأصول ص ٣١٧، وأورده العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ١٥١ بهامش الإحياء)، والسيوطي في الجامع الصغير مع فيض القدير ٥/ ٣١٩، وضعفاه، وقال العراقي: والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب، رواه ابن أبي شيبة في المصنف، وفيه رجل لم يسمَّ. اهـ. وهو في مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٢٨٩ من طريق معمر، وفي مصنف عبد الرزاق (٣٣٠٩) من طريق الثوري، كلاهما عن رجل عن ابن المسيب.

(٢) صحيح مسلم (٤٢٨)، وسنن أبي داود (٩١٣)، وسنن ابن ماجه (١٠٤٥).

(٣) المستدرك ٢/ ٣٩٣، وسنن البيهقي ٢/ ٢٨٣، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لولا خلافٌ فيه على محمد، فقد قيل عنه مرسلاً ولم يخرجاه. اهـ. وقال الذهبي: الصحيح مرسل. وأخرج المرسل عبد الرزاق (٣٢٦١) و(٣٢٦٢)، وأبو داود في المراسيل (٤٥)، والبيهقي ٢/ ٢٨٣، وقال: هذا هو المحفوظ مرسل.

(٤) أخرجه ابن حبان (٢٢٨٦) من طريق عيسى بن يونس، عن هشام، عن محمد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. قال ابن رجب في فتح الباري ٩/ ٣٧٠: كذا خرجه، وإنما رواه عيسى بن يونس عن عبيد الله بن الأزور عن هشام بهذا اللفظ، كذا رواه الطبراني [الأوسط (٦٩٢٥)]، والعقيلي [الضعفاء ٣/ ١١٨] من رواية عيسى بن يونس عنه، وقال العقيلي:
=

صلاتهم استراحةً، وهم أهلُ النار، لا أنَّ لهم فيها راحةً، كيف وقد قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

ومن أفعالهم أيضاً فيها التميُّل، وقد جاء النهي عنه؛ أخرج الحكيم الترمذيُّ من طريق القاسم بن محمد، عن أسماء بنت أبي بكر، عن أمِّ رومان والدةِ عائشةَ رضي الله عنها قالت: رآني أبو بكر رضي الله عنه أتميَّلُ في صلاتي، فزجرني زجرةً كدتُ أنصرفُ عن صلاتي، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم في الصلاة فليُسْكِنْ أطرافَه لا يتميَّل تميُّلَ اليهود، فإنَّ سكون الأطراف في الصلاة من تمام الصلاة»(١).

وقال في «الكشاف»: من الخشوع أن يستعمل الآداب، وذَكَر من ذلك تَوقِّيَ كفِّ الثوب، والتمطِّيَ، والتثاؤبَ، والتغميضَ(٢)، وتغطيةَ الفم، والسدلَ، والفرقعةَ، والتشبيكَ، وتقليبَ الحصى(٣).

وفي «البحر» نقلاً عن «التحرير» أنه اختلف في الخشوع: هل هو من فرائض الصلاة، أو من فضائلها ومكمِّلاتها؟ على قولين، والصحيح الأولُ ومحلُّه القلب(٤). اهـ، والصحيح عندنا خلافه، نعم الحق أنه شرط القبول لا الإجزاء.

= لا يتابع عبيد الله بن الأزور على لفظه. اهـ.قلنا: ولم يرد في مطبوع العقيلي سوى التعليق دون الحديث، وجاء عند الطبراني: عبد الله بن الأزور، وينظر الميزان ٢/ ٣٩١ و٣/ ٣.
وأخرج البخاري (١٢٢٠) من طريق يحيى عن هشام عن محمد عن أبي هريرة قال: نُهي أن يصلي الرجل مختصِراً.

(١) نوادر الأصول ص ١٨٤، وأخرجه أيضاً ابن عدي ٢/ ٦٢٠. وفي إسناده الحكم بن عبد الله بن سعد الأيلي، قال أحمد: أحاديثه كلها موضوعة، وقال ابن معين: ليس بثقة، وقال السعدي وأبو حاتم: كذاب. الميزان ١/ ٥٧٢.

(٢) جاء في هامش(م): قيل هو فعل اليهود، وجاء النهي عنه لكن من طريق ضعيف، وقال النووي: عندي أنه لا يُكره ما لم يخف ضرراً. انتهى. وربما يقال: إن فيه منعاً لتفريق الذهن، فيكون سبباً لحضور القلب والخشوع، ولذا أفتى ابن عبد السلام بأنه أولى إذا شَوَّشَ عدمُه خشوعَه أو حضورَ قلبه مع ربِّه عزَّ وجلَّ. اهـ منه.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٥.

(٤) البحر ٦/ ٣٩٥.

وفي «المنهاج» وشَرْحِهِ لابن حجر(١): ويُسنُّ الخشوعُ في كلِّ صلاته؛ بقلبه بأنْ لا يُحْضِرَ فيه غيرَ ما هو فيه، وإنْ تَعَلَّقَ بالآخرة، وبجوارحه بأنْ لا يعبث بأحدها. وظاهرٌ أنَّ هذا(٢) مرادُ النوويِّ من الخشوع؛ لأنه سيذكر الأول بقوله: ويسنُّ دخولُ الصلاة بنشاطٍ وفراغِ قلبٍ، إلا أن يجعل ذلك سبباً له، ولذا خصَّه بحالة الدخول.

وفي الآية المرادُ كلٌّ منهما كما هو ظاهرٌ أيضاً، وكان سنَّةً لثناء الله تعالى في كتابه العزيز على فاعِلِيه، ولانتفاء ثواب الصلاة بانتفائه كما دلَّت عليه الأحاديثُ الصحيحة(٣)، ولأنَّ لنا وجهاً اختاره جمعٌ، أنه شرطٌ للصحة لكنْ في البعض، فيكره الاسترسالُ مع حديث النفس، والعبثُ كتسوية ردائه أو عمامته لغير ضرورةٍ من تحصيلِ سنَّةٍ أو دفعِ مَضرَّةٍ، وقيل: يَحْرُمُ. اهـ.

وللإمام في هذا المقام كلامٌ طويلٌ مَن أراده فليَرْجع إليه(٤).

وتقديم الظرف، قيل: لرعاية الفواصل. وقيل: ليقرِّبَ ذِكْرَ الصلاة مِن ذِكْرِ الإيمان؛ فإنهما أخوان، وقد جاء إطلاقُ الإيمان عليها في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقيل: للحصر، على معنى: الذين هم في جميع صلاتهم دون بعضها خاشعون.

وفي تقديم وَصْفِهم بالخشوع في الصلاة على سائر ما يُذْكَرُ بعدُ ما لا يخفى من التنويه بشأن الخشوع. وجاء أنَّ الخشوعَ أولُ ما يُرْفَعُ من الناس، ففي خبرٍ رواه الحاكم وصحَّحه: أنَّ عبادة بن الصامت قال: يوشكُ أن تدخل المسجدَ فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً(٥).

---

(١) تحفة المحتاج بشرح المنهاج على هامش حواشي الشرواني وابن قاسم العبادي ٢/ ١٠١.
(٢) أي: خشوع الجوارح، كما في حواشي الشرواني.
(٣) أخرج مسلم (٤٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً، ثم انصرف فقال: «يا فلان، ألا تُحسِنُ صلاتك؟ ألا ينظر المصلِّي إذا صلى كيف يصلي؟ فإنما يصلِّي لنفسه...». وأخرج البخاري (٧٤٢)، ومسلم(٤٢٤) من حديث أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «أقيموا الركوع والسجود...»
(٤) ينظر تفسير الرازي ٢٣/ ٧٧-٧٩.
(٥) المستدرك ١/ ٩٩، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء، وأخرجه أيضاً الترمذي (٢٦٥٣) وقال: حديث حسن غريب.

وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمدُ في «الزهد»، والحاكمُ وصحَّحه، عن حذيفة قال: أولُ ما تفقدون من دينكم الخشوعُ، وآخِرُ ما تفقدون من دينكم الصلاةُ، وتنتقضُ عُرَى الإسلام عروة عروة. الخبر[١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ وهو ما لا يعتدُّ به من الأقوال والأفعال، وعن ابن عباس تفسيرُه بالباطل. وشاع في الكلام الذي يورَدُ لا عن رويةٍ وفكرٍ فيجري مجرى اللغاءِ، وهو صوتُ العصافير ونحوِها من الطير.

وقد يُسمَّى كلُّ كلامٍ قبيحٍ لغواً، ويقال فيه كما قال أبو عبيدة: لغوٌ ولَغاً، نحو عيب وعاب، وأنشد:

عن اللَّغا ورَفَثِ التكلُّم[٢]

﴿مُعْرِضُونَ﴾ في عامة أوقاتهم؛ لما فيه من الحالة الداعيةِ إلى الإعراض عنه، مع ما فيهم من الاشتغال بما يعنيهم، وهذا أبلغ من أن يقال: لا يَلْهُونَ، من وجوه: جَعْلُ الجملة اسميةً دالَّةً على الثبات والدوام، وتقديمُ الضميرِ المفيدُ لتقوِّي الحكم بتكريره، والتعبيرُ في المسند بالاسم الدالِّ كما شاع على الثبات، وتقديمُ الظرف عليه المفيدُ للحصر، وإقامةُ الإعراض مقامَ الترك ليدلَّ على تباعُدِهم عنه رأساً مباشرةً وتسبُّباً وميلاً وحضوراً، فإنَّ أصله أن يكون في عُرْضٍ[٣] ـ أي ناحيةٍ ـ غيرِ عُرْضِه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ الظاهرُ أنَّ المراد بالزكاة المعنى المصدريُّ ـ أعني التزكية ـ لأنه الذي يتعلَّق به فعلُهم، وأما المعنى الثاني وهو القَدْرُ الذي يُخْرِجُه المزكِّي، فلا يكون نفسُه مفعولاً لهم، فلا بد إذا أريد من تقديرِ مضافٍ، أي: لأداء

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٨١-٣٨٢، والزهد لأحمد ص ٢٢٤، والمستدرك ٤/ ٤٦٩.
وقوله: وتنتقض عرى الإسلام. . . .، لم يرد عند ابن أبي شيبة وأحمد.

(٢) في (م): التكليم، وهو تصحيف، والرجز للعجاج، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٧٠، وتهذيب اللغة ١٥/ ٧٧، والصحاح (رفث)، وتفسير الطبري ٣/ ٢٣٠ و٤/ ٣٤، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٢٦٩، والمحتسب ١/ ٢٤٧، والخصائص ١/ ٣٣، وقبله:
وربِّ أسرابِ حجيجٍ كظَّم.

(٣) بضم فسكون. حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٠.

الزكاة فاعلون، أو تضمينِ «فاعلون» معنى: مؤدُّون، وبذلك فسَّره التبريزيُّ[(١)].
إلا أنه تعقِّبَ بأنه لا يقال: فعلتُ الزكاة، أي: أدَّيتُها.

وإذا أُريدَ المعنى الأولُ أدَّى وَصْفُهم بفعل التزكية إلى أداء العين بطريقِ الكناية التي هي أبلغ، وهذا أحدُ الوجوه للعدول عن: والذين يزكُّون، إلى ما في النظم الكريم.

وجميع ما مرَّ آنفاً في بيان أبلغية «والذين هم عن اللغو معرضون» من: والذين لا يلهون، جارٍ هنا، سوى الوجهِ الخامس اتفاقاً، والرابعِ عند بعضٍ؛ لأنَّ المقدَّم متعلِّقٌ تعلُّق الجارِّ والمجرور بما بعده، كيف واللامُ زائدةٌ لتقوية العمل من وجهين: تقديمِ المعمول، وكونِ العامل اسماً.

وقال بعضٌ آخرُ[(٢)]: يمكن جَرَيانُ مِثْلِه، حيث قدِّم المعمول مع ضَعْفِ عامله لا للتخصيصِ بل لكونه مصبَّ الفائدة، ويجوز اعتبارُ التخصيص الإضافيِّ أيضاً بالنسبة إلى الإنفاق فيما لا يليق.

ووَصْفُهم بذلك بعد وَصْفِهم بالخشوع في الصلاة؛ للدلالة على أنهم لم يَألُوا جهداً بالعبادة البدنية والمالية، وتوسيطُ حديث الإعراض بينهما لكمالِ ملابَستِهِ بالخشوع في الصلاة، وإلَّا فأكثرُ ما تُذْكَرُ هاتان العبادتان في القرآن معاً بلا فاصلٍ.

وعن أبي مسلم[(٣)] أنَّ الزكاة هنا بمعنى العملِ الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١].

واختار الراغب[(٤)] أنَّ الزكاة بمعنى الطهارة، واللامُ للتعليل، والمعنى: والذين يفعلون ما يفعلون من العبادة ليزكِّيهم الله تعالى، أو ليزكُّوا أنفسَهم.

ونقل نحوه الطيبيُّ عن صاحب «الكشف» فقال: قال صاحب «الكشف»: معنى الآية: الذين هم لأَجْلِ الطهارة وتزكيةِ النفس عاملون الخيرَ، ويُرشِدُ إلى ذلك قولُه

---

(١) كما في البحر ٦/ ٣٩٦.
(٢) هو الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٢٠.
(٣) كما في البحر ٦/ ٣٩٦.
(٤) في مفرداته (زكا)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٢٠.

تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤-١٥] و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، فإنَّ القرآن يفسِّر بعضُه بعضاً، ولا ينبغي أن يُعْدلَ عن تفسير بعضه ببعضٍ ما أَمْكَن.

وقال بعض الأجلَّة: إنَّ اقتران ذلك بالصلاة ينادي على أنَّ المراد وصفُهم بأداء الزكاة الذي هو عبادةٌ مالية. وتنظيرُ ما نحن فيه بالآيتين بعيدٌ لأنهما ليستا من هذا القبيل في شيء.

وربما يقال: الفصلُ بينهما يُشْعِرُ بما اختاره الراغب ومَن حذا حذوه، وأيضاً كونُ السورة مكيةً والزكاة فُرِضَتْ بالمدينة يؤيِّدُهُ؛ لئلَّا يحتاجَ إلى التأويل بما مرَّ. فتدبَّر.

وأيًّا ما كان فالآيةُ في أعلى مراتبِ الفصاحةِ والبلاغة، وقولُ بعضِ زنادقة الأعاجم الذين حُرِموا ذَوْقَ العربية: أَلَا قيل: مؤدُّون، بدل: «فاعلون»، مِن مَحْضِ الجهل والحماقةِ التي أَعْيَتْ مَن يداويها؛ فإنه لو فُرِضَ أنَّ القرآن ـ وحاشا لله سبحانه ـ كلامُ النبيِّ ﷺ فهو عليه الصلاة والسلام الذي مَخَضَتْ له الفصاحةُ زُبْدَها، وأعطتْه البلاغةُ مِقْودَها، وكان ﷺ بين مَصَاقعِ نقَّادٍ لم يألوا جهداً في طلبِ طَعْنٍ ليستريحوا به من طَعْنِ الصِّعاد[1]، وقد جاء نظيرُ ذلك في كلام أمية بن أبي الصَّلْتِ قال:

المُطْعِمونَ الطعامَ في السَّنَةِ الـ ... أزمة والفاعلون للزَّكَواتِ[2]

ولم يَردَّ عليه أحدٌ من فُصحاءِ العرب ولا أَعابوه، واختار الزمخشريُّ في هذا حَمْلَ الزكاة على العين[3] وتقديرَ المضاف، دون الآية، وعلَّلَ بجَمْعِها وهو إنما يكون للعين دون المصدر.

وتُعقِّبَ بأنه قد جاء كثيرٌ من المصادر مجموعةً كالظنون والعلوم والحلوم

---

(١) جمع صَعْدة، وهي القناة، وقيل: القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج إلى التثقيف. اللسان (صعد).

(٢) ديوان أمية ص ٣٠.

(٣) يعني في بيت أمية، أما في الآية فقد اختار فيها الحمل على المعنى. الكشاف ٣/ ٢٦، والفائق ٢/ ١١٩.

والأشغال وغير ذلك. وهي إذا اختلفت[١] فالأكثرون على جوازِ جَمْعِها، وقد اختلفت هاهنا بحسب متعلقاتها؛ فإنَّ إخراجَ النقد غيرُ إخراج الحيوان، وإخراج الحيوان غير إخراج النبات. فليحفظ.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ وَصْفٌ لهم بالعفَّة، وهو وإن استدعاه وَصْفُهم بالإعراض عن اللغو، إلَّا أنه جيءَ به اعتناءً بشأنه. ويجوز أن يقال: إنَّ ما تقدَّم وإن استَدْعَى وَصْفَهم بأصل العفة لكنْ جيءَ بهذا لِمَا فيه من الإيذان بأنَّ قوتهم الشهويةَ داعيةٌ لهم إلى ما لا يخفى، وأنهم حافظون لها عن استيفاءِ مقتضاها، وبذلك يتحقَّقُ كمالُ العفَّةِ.

واللامُ للتقوية كما مرَّ في نظيره، و«على» متعلِّقٌ بـ «حافظون» لتضمينه معنى مُمْسكون، على ما اختاره أبو حيان، والإمساكُ يتعدَّى بعلى كما في قوله تعالى ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧][٢].

وذهب جمعٌ إلى اعتبار معنى النفي المفهومِ من الإمساك ليصحَّ التفريغ، فكأنه قيل: حافظون فروجَهُم لا يُرْسلونها على أحدٍ إلَّا على أزواجهم.

وقال بعضهم: لايَلزمُ ذلك لصحةِ العموم هنا، فيصحُّ التفريغ في الإيجاب.

وفي «الكشف»: الوجهُ أن يقال: ما في الآية من قبيل: حَفِظْتُ على الصبيِّ مالَه، إذا ضبطته[٣] مقصوراً عليه لا يتعدَّاه، والأصلُ: حافظون فروجَهم على الأزواج لا تتعدَّاهن، ثم قيل: غير حافظين إلَّا على الأزواج، تأكيداً على تأكيدٍ، وعلى هذا تضمينُ معنى النفي الذي ذكره الزمخشريُّ[٤] من السياق واستدعاءِ الاستثناءِ المفرَّغِ ذلك، ولم يؤخذ مما في الحفظ من معنى المنع والإمساك؛ لأنَّ حرفَ الاستعلاءِ يمنعه. انتهى، وفيه ما فيه.

---

(١) في (م): اختلف، والمثبت من الأصل والبحر ٦/ ٣٩٦، وهو الصواب.
(٢) البحر ٦/ ٣٩٦.
(٣) في (م): ضبطه، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٦/ ٣٢٠.
(٤) في الكشاف ٣/ ٢٦.

ويا ليت شعري كيف عَدَّ حَرْفَ الاستعلاء مانعاً عن ذلك، مع أنَّ كونَ الإمساكِ ممَّا يتعدَّى به أمرٌ شائع؟!

وقال الفرَّاء وتبعه ابنُ مالك وغيرُه: إنَّ «على» هنا بمعنى «مِن»، أي: إلَّا مِن أزواجهم، كما أنَّ «مِن» بمعنى «على» في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٧] أي: على القوم[(١)].

وقيل: هي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من ضميرِ «حافظون»، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، أي: حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلَّا حال كونهم والينَ وقوَّامين على أزواجهم، من قولك: كان فلانٌ على فلانةٍ فمات عنها، ومنه قولُهم: فلانة تحت فلانٍ، ولذا سمِّيت المرأة فراشاً.

أو متعلِّقةٌ بمحذوفٍ يدلُّ عليه «غيرُ مَلُومِينَ» كأنه قيل: يُلامون إلَّا على أزواجهم، أي: يلامون على كلِّ مباشر إلا على ما أُطلقَ لهم فإنَّهم غيرُ ملومين عليه. وكلا الوجهين ذكرهما الزمخشريُّ[(٢)].

واعتُرض بأنهما متكلَّفان ظاهرٌ[(٣)] فيهما العجمة. وأُوْرِدَ على الأخير أنَّ إثباتَ اللَّومِ لهم في أثناء المدح غيرُ مناسبٍ، مع أنه لا يختصُّ بهم. وكونُ ذلك على فرض عصيانهم وهو مثلُ قوله تعالى: (فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ) إلخ، لا يدفعُه كما تُوهِّم.

ولا يجوز أن تتعلَّق بـ «ملومين» المذكورِ بعدُ؛ لما قال أبو البقاء[(٤)] من أنَّ ما بعد «إنَّ» لا يعمل فيما قبلها، وأنَّ المضاف إليه لا يعمل فيما قبله.

والمرادُ ممَّا ملكت أيمانُهم: السريَّات، والتخصيصُ بذلك للإجماع على عدم حِلِّ وَطْءِ المملوك الذكر. والتعبيرُ عنهنَّ بـ «ما» على القول باختصاصها بغير العقلاء؛ لأنهنَّ يُشْبِهْنَ السلع بيعاً وشراءً، أو لأنهنَّ لأُنوثتهنَّ المنبئةِ عن قلَّةِ عقولِهنَّ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣١، ونقله المصنف عنه وعن ابن مالك بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٣٩٦.

(٢) في الكشاف ٣/ ٢٦.

(٣) في(م): ظاهراً. والمعترض هو أبو حيان، ينظر البحر ٦/ ٣٩٦، والدر المصون ٨/ ٣١٨.

(٤) في الإملاء ٤/ ٥١.

جارياتٌ مجرى غيرِ العقلاء، وهذا ظاهرٌ فيما إذا كنَّ مِن الجركس أو الروم أو نحوهم، فكيف إذا كن من الزنج والحبش وسائر السودان، فلَعَمْري إنهنَّ حينئذٍ إن لم يكنَّ مِن نوع البهائم فما نوعُ البهائم منهن ببعيد.

والآيةُ خاصَّةٌ بالرجال، فإن التَّسرِّيَ للنساء لا يجوزُ بالإجماع، وعن قتادة[١] قال: تَسرَّتِ امرأةٌ غلاماً، فذُكرتْ لعمر رضي الله عنه، فسألها: ما حَملكِ على هذا؟ فقالت: كنتُ أرى أنه يَحِلُّ لي ما يَحِلُّ للرجال من ملك اليمين. فاستشار عمر فيها أصحاب النبيِّ ﷺ، فقالوا: تأوَّلَتْ كتاب الله تعالى على غير تأويله. فقال رضي الله عنه: لا جَرَمَ لا أُحِلُّكِ لحرٍّ بعده أبداً. كأنه عاقبها بذلك، ودرأ الحدَّ عنها، وأمر العبدَ أنْ لا يَقْرَبَها.

ولو كانت المرأة متزوِّجةً بعبدٍ فملكته فأعتقته حالةَ الملكِ انفسخ النكاحُ عند فقهاء الأمصار، وقال النخعيُّ والشعبيُّ وعبيد الله بنُ عبد الله بن عتبة: يبقيان على نكاحهما[٢].

﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تعليلٌ لِمَا يفيدُه الاستثناء من عدم حِفْظِ فروجهم من المذكورات، أي: فإنهم غيرُ ملومين على تَرْكِ حِفْظِها منهنَّ.

وقيل: الفاء في جواب شرطٍ مقدَّرٍ، أي: فإنْ بذلوا فروجهم لأزواجهم أو إمائهم فإنَّهم غيرُ ملومين على ذلك.

والمراد بيانُ جنسِ ما يَحِلُّ وطؤه في الجملة، وإلَّا فقد قالوا: يَحْرُمُ وَطْءُ الحائضِ، والأَمَةِ إذا زوِّجَتْ، والمُظاهِرِ منها حتى يكفِّر، وهذا مُجْمَعٌ عليه.

وفي الجمع بين الأختين من ملك اليمين، وبين المملوكة وعمَّتها أو خالتها، خلافٌ على ما في «البحر»[٣]، وذكر الآمديُّ في «الأحكام» أنَّ عليًّا كرم الله وجهه

---

(١) جاء في حاشية (م): أخرجه عبد الرزاق. اهـ منه. وهو في مصنف عبد الرزاق (١٢٨١٨).

(٢) ذكر قولهم ابن عبد البر في الاستذكار ١٦/ ٣١٧ ثم قال: ولا يقول هذا أحد من فقهاء الأمصار؛ لأنها بملكها عندهم يبطل النكاح بينهما، وليس ذلك بطلاق، وإنما هو فسخ للنكاح، وأنها لو أعتقته بعد ملكها له لم يراجعها إلا بنكاح جديد، ولو كانت في عدَّةٍ منه.

(٣) ٦/ ٣٩٧.

احتجَّ على جواز الجمع بين الأختين في الملك بقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُمْ﴾[١].

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكورِ من الحدِّ المتَّسع، وهو أربعٌ من الحرائر وما شاء من الإماء. وانتصابُ «وراء» على أنه مفعولُ «ابتغى»، أي: خلافَ ذلك، وهو الذي ذهب إليه أبو حيان[٢].

وقال بعض المحققين: إنَّ «وراء» ظرفٌ لا يصلُحُ أن يكون مفعولاً به، وإنما هو سادٌّ مسدَّ المفعول به، ولذا قال الزمخشري: أي: فَمَنْ أَحْدَثَ ابتغاء وراء ذلك[٣].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الكاملون في العدوان المتناهون فيه، كما يشير إليه الإشارةُ والتعريفُ وتوسيطُ الضمير المفيدُ لجَعْلِهم جنسَ العادين أو جميعَهم. وفي الآية رعايةُ لَفْظِ «مَن» ومعناها.

ويدخل فيما «وراء ذلك»: الزنا، واللواطُ، ومواقعةُ البهائم، وهذا مما لا خلافَ فيه.

واختلف في وَطْءِ جارية أبيحَ له وَطْؤُها، فقال الجمهور: هو داخلٌ فيما وراء ذلك أيضاً فيَحْرُمُ، وهو قول الحسن وابن سيرين، وروي ذلك عن ابن عمر رضي الله عنهما، فقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد الرزاق عنه أنه سئل عن امرأةٍ أَحلَّتْ جاريتها لزوجها، فقال: لا يَحِلُّ لك أن تطأ فرجاً - أي: غيرَ فَرْجِ زوجتك - إلا فرجاً إن شئتَ بعتَ، وإن شئتَ وَهَبْتَ، وإنْ شِئْتَ أعتقت[٤].

وعن ابن عباس أنه غير داخلٍ فلا يحرم، فقد أخرج عبد الرزاق عنه رضي الله عنه قال: إذا أَحَلَّت امرأةُ الرجل أو ابنته أو أخته له جاريتها فَلْيُصِبْها وهي لها[٥].

---

(١) الأحكام ٢/ ٢٥٤، وفيه: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣]. قال القرطبي ٦/ ١٩٤: ولم يلتفت أحد من أئمة الفتوى إلى هذا القول. . .، وينظر بقية كلامه ثمة.

(٢) في البحر ٦/ ٣٩٧.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٦.

(٤) مصنف عبد الرزاق (١٢٨٤٧)، وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر ٥/ ٥، وعنه نقل المصنف.

(٥) مصنف عبد الرزاق (١٢٨٥٢).

وهو قول طاووس؛ أخرج عنه عبد الرزاق أيضاً أنه قال: هو أَحَلُّ من الطعام، فإن وَلَدتْ فولدُها للذي أُحِلَّت له، وهي لسيدها الأول(١).

وأخرج عن عطاء أنه قال: كان يُفْعَلُ ذلك، يُحِلُّ الرجلُ وليدتَه لغلامه وابنه وأخيه وأبيه، والمرأةُ لزوجها، وقد بلغني أنَّ الرجل يرسل وَليدتَه لصديقه(٢).

وإلى هذا ذهبت الشيعةُ، والآيةُ ظاهرةٌ في ردِّه؛ لظهور أنَّ المُعَارةَ للجماع ليست بزوجةٍ ولا مملوكةٍ، وكذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣] فإنَّ السكوت في معرض البيان يفيد الحصر، خصوصاً إذا كان المقام مقتضياً لذكر جميع ما لا يجبُ العدلُ فيه، وفي عدم وجوب العدل تكون العاريَّةُ أقدمَ من الكلِّ؛ إذ لا يجب فيها إلَّا تحمُّلُ منَّةِ مالكِ الفرج فقط، وكذا قولُه سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] فإنه لو جازت العاريَّة لما كان خوف العنت والحاجة إلى نكاح الإماء وإلى الصبر على ترك نكاحهن متحقِّقاً، ونحوه قولُه سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] فإنه لو كانت العاريَّة جائزةً لم يؤمر الذين لا يجدون نكاحاً بالاستعفاف، ولعل الرواية السابقة عن ابن عباس غيرُ صحيحة.

وكذا اختلف في المتعة فذهبت الشيعة أيضاً إلى جوازها، ويُرَدُّ عليهم بما ذكرنا من الآيات الظاهرة في تحريم العاريَّة، وأخرج عبد الرزاق وأبو داود في «ناسخه» عن القاسم بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال: هي محرَّمةٌ في كتاب الله تعالى، وتلا: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ الآية(٣).

وقرِّر وجهُ دلالة الآية على ذلك أنَّ المستمتَعَ بها ليست ملكَ اليمين ولا زوجةً، فوجب أن لا تحلَّ له، أمَّا أنها ليست ملك اليمين فظاهرٌ، وأمَّا أنها ليست زوجةً له

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٢٨٥١).

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٢٨٥٠)، وفيه ـ بعد قوله: والمرأة لزوجها ـ زيادة: وما أحب أن يفعل ذلك، وما بلغني عن ثَبْتٍ.

(٣) مصنف عبد الرزاق(١٤٠٣٦)، وعزاه لأبي داود السيوطي في الدر المنثور ٥/٥.

فلأنهما لا يتوارثان بالإجماع، ولو كانت زوجةً لحصل التوارُثُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢].

وتعقَّبه في «الكشف» بأنَّ لهم أن يقولوا: إنها زوجةٌ يكشفُ الموت عن بينونتها قبيله، كما أنها تَبِينُ بانقضاء الأجل قضاءً لحقِّ التعليق والتأجيل، وحاصلُه منع استفسار في الملازمة، إن أُريدَ: لو كانت زوجةً حالَ الحياة، لم يُفِدْ، وإن أريد بعد الموت فالملازمةُ ممنوعةٌ. فإن قيل: لا تَبينُ بالموت كالنكاح المؤبَّد. أجيب بأنه قياسٌ في عينِ ما افترق النكاحان به، وهو فاسدٌ بالإجماع.

وتعقَّب هذا شيخُ الإسلام لخفاءِ معناه عليه، بأنه ليس للترديد معنىً محصّلٌ، ولو قيل: إن أريد: لو كانت زوجةً حالَ الحياة فالملازمةُ ممنوعةٌ، وإن أريد بعد الموت لم يُفِدْ، لكان له وجه. وقال هو في ردِّ الاستدلال: لهم أن يقولوا: إنها زوجةٌ له في الجملة، وأمَّا أنَّ كلَّ زوجةٍ تَرِثُ فهم لا يسلِّمونه[1].

وقال بعضهم: الحقُّ أنَّ الآية دليلٌ على الشيعة؛ فإنَّ ظاهر كلامهم أنها ليست بزوجة أصلاً حيث ينفون عنها لوازمَ الزوجية بالكلِّية، من العِدَّة، والطلاقِ، والإيلاء، والظهار، وحصولِ الإحصان، وإمكان اللِّعان، والنفقةِ، والكسوةِ، والتوارُثِ، ويقولون بجواز جَمْعِ ما شاء بالمتعة، ولا شكَّ أنَّ نفي اللازم دليلُ نَفْيِ الملزوم.

وتعقِّب: بأنَّ هذا حقٌّ لو سلِّم أنهم ينفُون اللوازمَ كلَّها، لكنه لا يسلَّم، ونفيُ بعضِ اللوازم لا يكفي في الردِّ عليهم إذا قالوا: إنَّ الزوجية قسمان: كاملةٌ وغيرُ كاملة، إذ بنفي ذلك البعض إنما ينتفي القسم الأول وهو لا يضرُّهم.

وقيل: الذي يقتضيه الإنصافُ أنَّ الآية ظاهرةٌ في تحريم المتعة، فإنَّ المستَمْتَعَ بها لا يقال لها زوجة في العرف، ولا يقصَدُ منها ما هو السرُّ في مشروعية النكاح من التوالُد والتناسُل لبقاء النوع، بل مجرَّدُ قضاءِ الوطر وتسكينِ دغدغة المنيِّ، ونحو ذلك، وزُعِمَ أنه يتمُّ الاستدلال بالآية بهذا الطرزِ على التحريم، سواءٌ نُفيتِ اللوازمُ أم لم تُنْفَ كما هو مذهبُ بعضِ القائلين بالحِلِّ، كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٢٥.

ولعل الأقرب إلى الإنصاف أن يقال: متى قيل بنفي اللوازم من حصول الإحصان، وحرمةِ الزيادة على الأربع، ونحو ذلك، كانت الآيةُ دليلاً على الحرمة؛ لأن المتبادر من الزوجية فيها الزوجيةُ التي يلزمها مثلُ ذلك، وهو كافٍ في الاستدلال على مثل هذا المطلب الفرعي، ومتى لم يُقَلْ بنفي اللوازم، ولم يفرَّقْ بينها وبين النكاح المؤبَّد إلا بالتوقيت وعَدَمِه، لم تكن الآيةُ دليلاً على التحريم.

هذا ولي هاهنا بحثٌ لم أرَ مَن تعرَّضَ له، وهو أنه قد ذُكر في الصحيحين أنَّ النبيَّ ﷺ حرَّم المتعة يوم خيبر[١]، وفي صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام حرَّمها يوم الفتح[٢]، ووفَّق ابن الهمام بأنها حرِّمت مرتين[٣]، مرةً يومَ خيبر ومرةً يومَ الفتح، وذلك يقتضي أنها كانت حلالاً قبل هذين اليومين، وقد سمعت آنفاً ما يدلُّ على أنَّ هذه الآيةَ مكيةٌ بالاتفاق، فإذا كانت دالَّةً على التحريم كما سمعتَ عن القاسم بن محمد، ورَوَى مثلَه ابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم والحاكمُ وصحَّحه عن عائشة رضي الله عنها[٤]، لزم أن تكون محرّمةً بمكة يوم نزلت الآية، وهو قبل هذين اليومين، فتكون قد حرِّمَتْ ثلاثَ مرَّاتٍ، ولم أرَ أحداً صرَّح بذلك[٥].

وإذا التزمناه يبقى شيءٌ آخَرُ، وهو عدمُ تماميةِ الاستدلال بها وحدها على تحريم المتعة لمن يعلم أنها أُحلَّت بعد نزولها كما لا يخفى. لا يقال: إنَّ للناس في المكيِّ والمدنيِّ اصطلاحاتٌ ثلاثةٌ: الأول أنَّ المكيَّ ما نزل قبل الهجرة والمدنيَّ ما نزل بعدها، سواءٌ نزل بالمدينة أم بمكةَ، عامَ الفتح أم عامَ حجةِ الوداع، أم بسَفَرٍ من الأسفار. الثاني: أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة،

---

(١) صحيح البخاري (٤٢١٦)، وصحيح مسلم (١٤٠٧)، وأخرجه أحمد (٥٩٢)، وهو من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) صحيح مسلم (١٤٠٦)، وأخرجه أحمد (١٥٣٣٧)، وهو من حديث سبرة بن معبد رضي الله عنه.

(٣) فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٣٨٥.

(٤) المستدرك ٢/ ٣٠٥ و٣٩٣، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم السيوطي في الدر ٥/ ٥، وأخرجه أيضاً الحارث في مسنده (٤٧٩- زوائد).

(٥) ومن العلماء مَن ذكر أن الأحاديث الواردة تقتضي التحليل والتحريم سبع مرات، وذكر لها أربع طرق في الصحيح وثلاثة في غيره. ينظر المفهم لأبي العباس القرطبي ٤/ ٩٢، وتفسير القرطبي ٦/ ٢١٦-٢١٧.

والمدنيَّ ما نزل بالمدينة، وعلى هذا تَثْبتُ الواسطة، فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكيٌّ ولا مدنيٌّ. الثالث: أن المكيَّ ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدنيَّ ما وقع خطاباً لأهل المدينة. وحينئذٍ يمكن أن تكون هذه الآية مكيةً بالاصطلاح الثاني وتكون نازلةً يوم الفتح يومَ حرِّمت المتعة في المرة الثانية، ولا يكونُ التحريم إلا مرتين، ويكون استدلالُ مَن استدلُّوا بها من الصحابة والتابعين وغيرِهم على التحريم ـ وإنْ علموا أنَّ المتعة أحلَّتْ بعد الهجرة في بعض الغزوات ـ مما لا غبار عليه. وإذا التُزمَ هذا الاصطلاحُ في مكية جميع السورة المجمَع عليها حَسْبَما سمعتَ عن «البحر»[1] ينحلُّ إشكالُ حَمْلِ الزكاةِ على الزكاة الشرعية مع فرضيتها بالمدينة بأنْ يقال: إنَّ أوائل السورة نزلت بعد فَرضِيَّةِ الزكاة في المدينة عامَ الفتح في مكة = لأنَّا نقول: لا شبهةَ في أنه يمكنُ كونُ الآية مكيةً بالاصطلاح الثاني، وكونُها نازلةً يومَ الفتح، وكذلك يمكنُ كونُ كلِّ السورة أو أغلبِها مكيًّا بذلك الاصطلاح، وكلُّ ما بني على ذلك صحيحٌ بناءً عليه، إلا أنَّ المتبادِر من المكيِّ والمدنيِّ المعنى المصطلحُ عليه أوَّلاً؛ لأن الاصطلاح الأول أشهرُ الاصطلاحات الثلاثة، كما قاله الجلال السيوطيُّ في «الإتقان»[2].

فالظاهر من قولهم: إنَّ هذه السورة مكيةٌ، أنها نزلت قبل الهجرة، بل قد صرَّح الجلالُ المذكورُ بأنها ـ إلَّا ما استُثني منها ممَّا سَمِعْتَه[3] ـ مكيةٌ على الاصطلاح الأول دون الثاني[4]، ولا يجزمُ مثلُه بذلك إلا عن وقوفٍ، فما ذُكِرَ مجرَّدُ تجويزِ أمرٍ لا يساعدُ على ثبوته صريحُ نقلٍ، بل النقلُ الصريحُ مساعدٌ على خلافه، وهو المرجعُ فيما نحن فيه.

فقد قال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: إنما يُرْجَعُ في معرفة المكيِّ والمدنيِّ لِحفْظِ الصحابة والتابعين[5]. وكونُهما قد يُعرفان بالقياس على ما ذكره الجعبريُّ

---

(١) سلف في بداية تفسير هذه السورة.
(٢) ١/ ٢٦.
(٣) في بداية تفسير السورة.
(٤) الإتقان ١/ ٤٣.
(٥) الإتقان ١/ ٢٧، وينظر الانتصار ١/ ٢٤٧.

وغيره ـ مع عدم جدواه ـ ليس بشيء، نعم إذا جُعل استدلالُ الصحابيِّ أو التابعيِّ المطَّلعِ على إباحة المتعة بعد الهجرة بها قولاً باستثنائها عن أخواتها من آيات السورة، وحُكْماً عليها بنزولها بعد الهجرة دونهنَّ، فالأمرُ واضحٌ، وسَتَطَّلعُ أيضاً إن شاء الله تعالى على ما يوجب استثناء غير ذلك.

وبالجملة: متى قيل: المدارُ في أمثال هذه المقامات صريحُ النقل تعيَّن القولُ بأنَّ الآية مكيةٌ بمعنى أنها نزلت قبل الهجرة، وأشكل الاستدلال بها على تحريم المتعة بعد تحليلها بعد الهجرة؛ لكون دليلِ التحليل مخصِّصاً لعمومها، ومذهبُ الأئمة الأربعة جوازُ تخصيص عموم القرآن بالسنَّة مطلقاً، وهو المختارُ، ويُحتاجُ حينئذٍ إلى دليلٍ غيرِها على التحريم، وبعد ثبوت الدليل تكونُ هي دليلاً آخر بمعونته، وهذا الدليلُ الأخبارُ الصحيحةُ من تحريم رسول الله ﷺ إياها وقد تقدَّم بعضها، وفي صحيح مسلم عنه عليه الصلاة والسلام: «كَنْتُ أَذِنْتُ لَكُم في الاستِمْتاعِ من النساء، وقد حَرَّمَ الله تعالى ذلك إلى يوم القيامة»(١).

وأخرج الحازميُّ(٢) بسنده إلى جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك، حتى إذا كنَّا عند العقبة مما يلي الشام جاءت نسوةٌ، فذكرنا تمتُّعنا وهنَّ يَطُفْنَ في رحالنا، فجاء رسول الله ﷺ فنظر إليهنَّ وقال: مَن هؤلاء النسوة؟ فقلنا: يا رسول الله، نسوة تمتَّعنا منهنَّ. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرَّتْ وجنتاه وتمعَّر وجهُه، وقام فينا خطيباً فَحمِدَ الله تعالى وأَثْنَى عليه، ثم نَهَى عن المتعة، فتَوَادَعْنا يومئذٍ الرجالُ والنساءُ، ولم نَعُدْ ولا نعودُ إليها أبداً.

وقد رَوَى تحريمَها عنه عليه الصلاة والسلام أيضاً عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، وجاء ذلك في صحيح مسلم(٣). ووقع ـ على ما قيل ـ إجماعُ الصحابة على أنها حرام، وصحَّ عند بعضٍ رجوعُ ابن عباس رضي الله عنهما إلى القول بالحرمة بعد قوله بحلِّها

---

(١) صحيح مسلم (١٤٠٦) من حديث سبرة بن معبد رضي الله عنه، وهو عند أحمد (١٥٣٣٧)، وسلف تخريجه قريباً.

(٢) في الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار ص٤٣٠.

(٣) صحيح مسلم (١٤٠٧)، وأخرجه أيضاً البخاري (٤٢١٦)، وأحمد (٥٩٢)، وسلف تخريجه قريباً.

مطلقاً[١]، أو وقتَ الاضطرار إليها[٢]. واستدلَّ ابن الهمام على رجوعه بما رواه الترمذيُّ عنه أنه قال: إنما كانت المتعة في أول الإسلام، كان الرجل يقدمُ البلدَ ليس له بها معرفةٌ، فيتزوَّجُ بقَدْرِ ما يرى أنه مقيمٌ، فتحفظُ له متاعَه وتُصلِحُ له شأنه، حتى إذا نزلت الآية: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ قال ابن عباس: فكلُّ فَرْجٍ سواهما فهو حرامٌ[٣].

ولا أدري ما عنَى بأول الإسلام، فإنْ عنى ما كان في مكة قبل الهجرة أفاد الخبر أنها كانت تُفعل قبلُ إلى أنْ نزلت الآية، فإنْ كان نزولُها قبل الهجرة، فلا إشكالَ في الاستدلال بها على الحرمة لو لم يكن بعدَ نزولِها إباحةٌ، لكنَّه قد كان ذلك، وإنْ عَنَى ما كان بعد الهجرة أوائلَها، وأنَّها كانت مُباحةً إذ ذاك إلى أنْ نزلت الآيةُ كان ذلك قولاً بنزول الآية بعد الهجرة، وهو خلافُ ما روي عنه من أنَّ السورة مكيةٌ، المتبادر منه الاصطلاح الأول، ولعله يُلتزم ذلك ويقال: إنَّ استدلاله بالآية قولٌ باستثنائها كما مرَّ آنفاً، أو يقال: إن هذا الخبر لم يصحَّ، ويؤيِّد هذا قولُ العلَّامة ابن حجر: إنَّ حكاية الرجوع عن ابن عباس لم تصحَّ، بل صحَّ كما قال بعضهم عن جمعٍ أنهم وافقوه في الحلِّ، لكن خالفوه فقالوا: لا يترتَّب على ذلك أحكامُ النكاح، وبهذا نازَعَ الزركشيُّ في حكاية الإجماع فقال: الخلافُ محقَّقٌ وإن ادَّعى جمعٌ نَفْيَه. انتهى. ويُفْهَمُ منه أنَّ ابن عباس يُدْخِلُ المستمتَعَ بها في الأزواج، وحينئذٍ لا تقوم الآيةُ دليلاً عليه[٤]. فتدبر.

---

(١) قال ابن العربي في القبس ٢/ ٧١٤: كان ابن عباس يقول بجوازها، ثم ثبت رجوعه عنها، فانعقد الإجماع على تحريمها.

(٢) أخرج الفاكهي في أخبار مكة (١٧١٢)، والخطابي في معالم السنن ٣/ ١٩١، والطبراني في الكبير (١٠٦٠١)، والحازمي في الاعتبار ص٤٣١، عن سعيد بن جبير أنه ذكر لابن عباس قول الشاعر:

أقول للركب إذ طال الثواء بنا ... يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس

في بضَّةٍ رَخْصةِ الأطراف ناعمة ... تكون مثواك حتى مَرْجِعِ الناس

فقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لا والله ما بهذا أفتيت ولا هذا أردت، وما أحللت منها إلا ما أحل الله من الميتة والدم ولحم الخنزير.

(٣) فتح القدير لابن الهمام ٢/ ٣٨٦، والحديث في سنن الترمذي (١١٢٢).

(٤) تحفة المحتاج بهامش حواشي الشرواني وابن قاسم ٧/ ٢٢٤.

ونُسب القول بجواز المتعة إلى مالك رضي الله عنه، وهو افتراء عليه، بل هو كغيره من الأئمة قائلٌ بحرمتها، بل قيل: إنه زيادة على القول بالحرمة يوجبُ الحدَّ على المستمتِع(١)، ولم يُوجِبْه غيرُه من القائلين بالحرمة لمكان الشُّبهة.

وكذا اختلف في استمناء الرجل بيده، ويسمَّى الخضخضةَ، وجَلْدَ عُمَيْرةَ(٢)، فجمهورُ الأئمة على تحريمه، وهو عندهم داخلٌ فيما «وراء ذلك». وكان أحمد بن حنبل يجيزُه لأنَّ المنيَّ فَضْلةٌ في البدن فجاز إخراجها عند الحاجة، كالفَصْد والحجامة(٣).

وقال ابن الهمام: يَحْرُمُ، فإنْ غلبته الشهوةُ ففعل إرادةَ تسكينِها به فالرجاءُ أنْ لا يعاقَبَ(٤).

ومن الناس مَن مَنَعَ دخوله فيما ذُكر، ففي «البحر»: كان قد جَرَى لي في ذلك كلامٌ مع قاضي القضاة أبي الفتح محمد بن علي بن مطيع القشيريِّ بن دقيق العيد، فاستَدلَّ على منع ذلك بهذه الآية، فقلت: إنَّ ذلك خرج مخرجَ ما كانت العرب تفعله من الزنى والتفاخُر به في أشعارها، وكان ذلك كثيراً فيهم بحيث كان في بغاياهم صاحباتُ راياتٍ، ولم يكونوا ينكرون ذلك، وأمَّا جَلْدُ عُميرةَ فلم يكن معهوداً فيهم، ولا ذَكَره أحدٌ منهم في شعرٍ فيما عَلِمْناه، فليس بمنْدَرِج فيما «وراء ذلك»(٥). انتهى.

---

(١) قال أبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ٩٣: اختلف أصحابنا إذا دخل في نكاح المتعة، هل يُحدُّ ولا يلحق به الولد، أو يدفع الحد بالشبهة ويلحق به الولد؟ على قولين، ولكن يعزَّر ويعاقب.

(٢) قال القرطبي في التفسير ١٥/ ١٢: وهذا لأنهم يكنون عن الذَّكَر بـ: عُميرَة، وفيه يقول الشاعر:

إذا حللتَ بوادٍ لا أنيسَ به ... فاجْلِدْ عُميرةَ لا داءٌ ولا حَرَجُ

(٣) كذا نقل المصنف عن أبي حيان في البحر ٦/ ٣٩٧، ومثله في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٩٨، وتفسير القرطبي ١٥/ ١٢، والمنقول عن أحمد قولان، أصحهما أن الاستمناء حرام، والآخر مكروه عند الضرورة. ينظر القواعد لابن رجب ص٢٤٦، وفتاوى ابن تيمية ٣٤/ ٢٢٩ و٢٣١، والإنصاف للمرداوي ٢٦/ ٤٣٦، وكشاف القناع ٦/ ١٢٤.

(٤) فتح القدير ٢/ ٦٤.

(٥) البحر ٧/ ٣٩٧.

وأنت تعلم أنه إذا ثبت أنَّ جَلْدَ عُميرَةَ كنايةٌ عن الاستمناء باليد عند العرب كما هو ظاهرُ عبارة «القاموس»(١) فالظاهرُ أنَّ هذا الفعل كان موجوداً فيما بينهم وإن لم يكن كثيراً شائعاً كالزنى، فمتى كان ذلك من أفراد العامِّ لم يتوقَّفْ اندراجُه تحته على شيوعه كسائر أفراده.

وفي «الأحكام»(٢): إذا كان من عادة المخاطَبين تناولُ طعام خاصٍّ مثلاً، فوَرَدَ خطابٌ عامٌّ بتحريم الطعام، نحو: حرَّمتُ عليكم الطعامَ، فقد اتفق الجمهور من العلماء على إجراء اللفظ على عمومه في تحريم كلِّ طعام على وجهٍ يدخل فيه المعتادُ وغيرُه، وأنَّ العادة لا تكونُ مُنْزِلةً للعموم على تحريم المعتاد دون غيرِه، خلافاً لأبي حنيفة عليه الرحمة، وذلك لأنَّ الحجة إنما هي في اللفظ الوارد، وهو مستغرقٌ لكلِّ مطعومٍ بِلفْظِه ولا ارتباطَ له بالعوائد، وهو حاكمٌ على العوائد فلا تكون العوائدُ حاكمةً عليه. نعم لوكانت العادة في الطعام المعتادِ أكلُه قد خصَّصتْ بعُرْفِ الاستعمالِ اسمَ الطعام بذلك الطعام كما خصَّصتِ الدابةُ بذوات القوائم الأربع، لكان لفظُ الطعام منزلاً عليه دون غيره، ضرورةَ تنزيلِ مخاطَبةِ الشارع للعرب على ما هو المفهومُ لهم من لغتهم. والفرقُ أنَّ العادة أوَّلاً إنما هي مطَّردةٌ في اعتياد أكل ذلك الطعام المخصوص، فلا تكون قاضيةً على ما اقتضاه عمومُ لفظ الطعام، وثانياً هي مطَّردةٌ في تخصيص اسم الطعام بذلك الطعام الخاصِّ، فتكون قاضيةً على الاستعمال الأصلي. اهـ.

ومنه يعلم أنَّ الاستمناء باليد إنْ كانت(٣) قد جَرَتْ عادةُ العرب على إطلاق ما «وراء ذلك» عليه، دخل عند الجمهور وإن لم تَجْرِ عادتُهم على فعله، وإن كان لم تَجْرِ عادتُهم على إطلاق ذلك عليه وجرت على إطلاقه على ما عَدَاه من الزنا ونحوه، لم يدخل ذلك الفعلُ في العموم عند الجمهور.

ومن الناس مَن استدلَّ على تحريمه بشيءٍ آخر، نحو ما ذكره المشايخ من قوله ﷺ: «ناكحُ اليدِ ملعونٌ»(٤).

---

(١) مادة (عمر).

(٢) للآمدي ٢/ ٣٥٨.

(٣) في(م): كان.

(٤) لا أصل له، كما في المصنوع ص ١٩٩، وكشف الخفاء ٢/ ٤٣١.

وعن سعيد بن جبير: عذَّب الله تعالى أمةً كانوا يعبثون بمذاكيرهم.

وعن عطاء: سمعتُ قوماً يُحشَرون وأيديهم حبالَى، وأظنُّ أنهم الذين يَسْتَمْنونَ بأيديهم. والله تعالى أعلم.

وتمامُ الكلام في هذا المقام يُطْلَبُ من محلِّه، ولا يخفى أنَّ كلَّ ما يدخل في العموم تفيد الآية حرمةَ فِعْلِه على أبلغ وجه، ونظيرُ ذلك إفادةُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]حرمةَ فعل الزنا. فافهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ قائمون بِحِفْظِها وإصلاحها، وأصلُ الرعي: حفظُ الحيوان؛ إمَّا بغذائه الحافِظِ لحياته، أو بذَبِّ العدو عنه، ثم استُعمل في الحفظ مطلقاً.

والأماناتُ جمعُ أمانة، وهي في الأصل مصدرٌ، لكنْ أُريدَ بها هنا ما اؤْتُمِنوا[1] عليه؛ إذ الحفظُ للعين لا للمعنى، وأمَّا جَمْعُها فلا يُعيِّنُ ذلك؛ إذ المصادرُ قد تُجمَعُ كما قدَّمنا غيرَ بعيدٍ.[2]

وكذا العهدُ مصدرٌ أُريدَ به ما عُوهِدَ عليه لذلك.

والآيةُ عند أكثر المفسرين عامَّةٌ في كلِّ ما اؤْتُمِنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الناس، كالتكاليف الشرعية، والأموالِ المودَعةِ، والأيمان والنذور والعقود ونحوها. وجُمِعَتِ الأمانةُ دون العهد، قيل: لأنها متنوِّعةٌ متعدِّدةٌ جداً بالنسبة إلى كلِّ مكلَّفٍ من جهته تعالى، ولا يكاد يخلو مكلَّفٌ من[3] ذلك، ولا كذلك العهد.

وجوَّز بعضُ المفسِّرين كونَها خاصةً فيما اؤتمنوا عليه وعُوهدوا من جهة الناس، وليس بذاك.

ويجوز عندي أن يراد بالأمانات ما ائتَمنهم الله تعالى عليه من الأعضاء والقوى، والمرادُ برَعْيِها حِفْظُها عن التصرُّف بها على خلافِ أَمْرِه عز وجل. وأن

---

(١) في (م): ائتمن.

(٢) ينظر ما سلف ص١٤-١٥ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل: عن.

يراد بالعهد ما عاهدهم الله تعالى عليه[١] مما أمرهم به سبحانه بكتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، والمرادُ برَعْيِه حفظُهُ عن الإخلال به، وذلك بفِعْلِه على أكمل وجه. فحِفْظُ الأمانات كالتخلية، وحفظُ العهد كالتحلية. وكأنه جلَّ وعلا بعد أن ذَكَر حِفْظَهم لفروجهم ذَكَر حِفْظَهم لِمَا يشملُها وغيرَها.

ويجوز أن تعمَّم الأماناتُ بحيث تَشْمَلُ الأموال ونحوَها، وجمعها لِمَا فيها من[٢] التعدُّد المحسوس المشاهَدِ. فتأمَّلْ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرٍو في رواية: «لأمانتهم» بالإفراد[٣].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ المكتوبةِ عليهم، كما أخرج ابن المنذر عن أبي صالح، وعبد بن حميد عن عكرمة[٤].

﴿يُحَافِظُونَ﴾ بتأديتها في أوقاتها بشروطها وإتمامِ ركوعها وسجودها وسائرِ أركانها، كما روي عن قتادة.

وأخرج جماعةٌ عن ابن مسعودٍ أنه قيل له: إنَّ الله تعالى يُكْثِرُ ذِكْرَ الصلاة في القرآن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣] ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ قال: ذاك على مواقيتها. قالوا: ما كنَّا نرى ذلك إلَّا على فِعْلِها وعدمِ تركها؟ قال: تَرْكُها الكفر[٥].

وقيل المحافظةُ عليها: المواظبةُ على فِعْلِها على أكمل وجهٍ. وجيءَ بالفعل دون الاسم كما في سائر رؤوسِ الآي السابقة لِمَا في الصلاة من التجدُّد والتكرُّر، ولذلك جُمِعَتْ في قراءةِ السبعة ما عدا الأخوين[٦]. وليس ذلك تكريراً لِمَا وَصَفَهم به أولاً من الخشوع في جنس الصلاة؛ للمغايرة التامة بين ما هنا وما هناك كما لا يخفى.

---

(١) قوله: عليه، ليس في الأصل.

(٢) في (م): لمن.

(٣) التيسير ص ١٥٨ عن ابن كثير، والمشهور عن أبي عمرو الجمع.

(٤) ذكرهما السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٥.

(٥) أخرجه ابن المنذر في الأوسط ٢/ ٣٨٦، والطبراني في الكبير(٨٩٣٨).

(٦) التيسير ص ١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٨. والأخوان هما حمزة والكسائي.

وفي تصدير الأوصافِ وخَتْمِها بأمر الصلاة تعظيمٌ لشأنها، وتقديمُ الخشوع للاهتمام به؛ فإنَّ الصلاة بدونه كَلَا صلاةٍ بالإجماع، وقد قالوا: صلاةٌ بلا خشوعٍ جَسَدٌ بلا روحٍ.

وقيل: تقديمه لعموم ما هنا له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنين باعتبار اتِّصافهم بما ذُكر من الصفات، وإيثارُها على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم، ونُزولِهم منزلةَ المشارِ إليهم حسًّا، وما فيه من معنى البُعْدِ للإيذان بعلوِّ طبقتهم، وبُعْدِ درجتهم في الفضل والشرف.

أي: أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠﴾ أي: الأحِقَّاءُ أنْ يُسَمَّوا ورَّاثاً[1] دون مَن عَدَاهم ممن لم يتَّصِفْ بتلك الصفات من المؤمنين. وقيل: ممن وَرِثَ رغائب الأموالِ والذخائرِ وكرائمَها.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، أو عطفُ بيانٍ، أو بدلٌ، وأيًّا ما كان ففيه بيانٌ لِمَا يرثونه، وتقييدٌ للوراثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً.

والفردوسُ أعلى الجنان، أخرج عبد بن حميد، والترمذيُّ - وقال: حسن صحيح غريب - عن أنس ﷺ، أنَّ الرُّبيِّع بنت النَّضر[2] أتت رسولَ الله ﷺ وكان ابنُها الحارث بن سراقة أصيب يومَ بدرٍ، أصابه سهمٌ غَرْبٌ، فقالت: أخبرني عن حارثةَ، فإنْ كان أصاب الجنة احْتَسَبْتُ وصَبَرْتُ، وإن كان لم يُصِبِ الجنة اجتهدتُ في الدعاء. فقال النبيُّ ﷺ: «إنها جنانٌ في جنة، وإنَّ ابنَكِ أصابَ الفِرْدَوسَ الأعلى، والفردوسُ ربوةُ الجنةِ وأَوْسَطُها وأَفْضَلُها»[3]. وعلى هذا لا إشكالَ في

---

(١) في الأصل: وارثاً.

(٢) في الأصل و(م): نضير، والصواب ما أثبتناه، وهي أخت أنس بن النضر وعمة أنس بن مالك ﷺ. ينظر فتح الباري ٦/ ٢٦.

(٣) سنن الترمذي (٣١٧٤) وسقط من مطبوعه كلمة: غريب، وهي مثبتة في تحفة الأشراف ١/ ٣١٨، وتحفة الأحوذي ٩/ ١٨، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٦، لكن قوله: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، ليس من كلام النبي ﷺ وإنما هو مدرج من قول قتادة كما جاء مصرحاً به عند البيهقي ٩/ ١٦٧. والحديث في مسند أحمد (١٣٢٠٠)، وصحيح البخاري(٢٨٠٩) دون قول قتادة.

الحصر على ما أشرنا إليه أولاً؛ فإنَّ غيرَ المتَّصِفِ بما ذُكر من الصفات وإنْ دخل الجنة لا يَرِثُ الفردوسَ التي هي أفضلُها، وبتقديرِ إرثه إياها فهو ليس حقيقاً بأن يسمَّى وارثاً؛ لما أنَّ ذلك إنما يكون في الأغلب بعد كدٍّ ونَصَبٍ.

وإرثُهم إياها من الكفار، حيث فوَّتوها على أنفسهم؛ لأنه تعالى خَلَق لكلٍّ منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار؛ أخرج سعيد بن منصور وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلَّا وله منزلان: منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فإذا مات فدخل النار وَرِثَ أهلُ الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ)[1].

وقيل: الإرثُ استعارةٌ للاستحقاق، وفي ذلك من المبالغة ما فيه؛ لأنَّ الإرثَ أقوى أسبابِ الملك. واختيرَ الأولُ لأنه تفسيرُ رسول الله عليه الصلاة والسلام على ما صحَّحه القرطبي[2].

﴿هُمْ فِيهَا﴾ أي: في الفردوس، وهو ـ على ما ذكره ابن الشحنة ـ مما يؤنَّثُ ويذكَّر، وذكر بعضُهم أن التأنيث باعتبارِ أنه اسمٌ للجنة أو لطبقتها العليا، وقد تقدَّم لك تمامُ الكلام في الفردوس[3]. ﴿خَٰلِدُونَ﴾ لا يُخْرَجون منها أبداً.

والجملةُ إمَّا مستأنَفةٌ مقرِّرةٌ لِمَا قبلَها، وإما حالٌ مقدَّرةٌ من فاعلِ «يرثون» أو مفعولِه، كما قال أبو البقاء[4]؛ إذ فيها ذِكْرُ كلٍّ منهما، ومعنى الكلام: لا يموتون ولا يُخْرَجون منها.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ لـمَّـا ذكـر سبحـانـه أولاً أحـوالَ السُّعداءِ عقَّبه بذكر مبدئهم ومآلِ أمرهم في ضِمْنِ ما يعمُّهم وغيرَهم، وفي ذلك إعظامٌ للمنَّة عليهم، وحثٌّ على الاتِّصاف بالصفات الحميدة، وتحمُّلِ مُؤَنِ التكليفات الشديدة. أوْ لمَّا ذَكَر إرْثَ الفردوس عقَّبه بذِكْرِ البعثِ لتَوقُّفِه عليه. أو

---

(١) سنن ابن ماجه(٤٣٤١)، وتفسير الطبري ١٧/ ١٥، وعزاه لسعيد بن منصور وابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٦. وصحح إسناده ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٢.

(٢) يعني: تصحيح القرطبي لحديث أبي هريرة عند تفسير هذه الآية. تفسير القرطبي ١٥/ ١٦.

(٣) ١٦/ ٥٠.

(٤) في الإملاء ٤/ ٥١.

لمَّا حثَّ على عبادته سبحانه وامتثالِ أمره عقَّبه بما يدلُّ على ألوهيته؛ لتوقُّفِ العبادة على ذلك. ولعل الأولَ أولى في وجهِ مناسبةِ الآية لِمَا قبلها، ويجوز أن يكون مجموعَ الأمور المذكورة.

واللامُ واقعةٌ في جواب القسم، والواوُ للاستئناف، وقال ابن عطية: هي عاطفةٌ جملةَ كلامٍ على جملةٍ، وإن تَبايَنَتا في المعاني[1]. وفيه نظر.

والمراد بالإنسان الجنسُ، والسلالةُ من سَلَلْتُ الشيءَ من الشيء: إذا استخرجته منه، فهي ما سُلَّ من الشيء واستُخْرِجَ منه، فإنَّ فُعالة اسمٌ لِمَا يَحصُلُ من الفعل، فتارةً تكون مقصودةً منه - كالخلاصة - وأخرى غيرَ مقصودةٍ منه كالقُلامة والكُناسة، والسُّلالةُ من قبيل الأول فإنها مقصودةٌ بالسَّلّ. وذكر الزمخشريُّ أنَّ هذا البناء يدلُّ على القلَّة[2].

و«من» الأولى ابتدائيةٌ متعلِّقةٌ بالخَلْقِ، و«من» الثانية يحتمل أن تكون كذلك، إلا أنها متعلِّقةٌ بـ «سُلالة» على أنها بمعنى مسلولة، أو متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفة لـ «سلالة»، ويحتمل أن تكون على هذا تبعيضيةً، وأن تكون بيانيةً. وجوَّز أن يكون «من طين» بدلاً أوعَطْفَ بيانٍ بإعادةِ الجارِّ. وخَلْقُ جنس الإنسان مما ذكر باعتبارِ خَلْقِ أولِ الأفراد وأصلِ النوع - وهو آدم عليه السلام - منه، فيكون الكلُّ مخلوقاً من ذلك خَلْقاً إجماليًّا في ضِمْنِ خَلْقِه كما مرَّ تحقيقُهُ.

وقيل: خَلْقُ الجنس من ذلك باعتبارِ أنه مبدأٌ بعيد لأفراد الجنس؛ فإنهم من النطف الحاصلةِ من الغذاء الذي هو سلالةُ الطين وصفوته، وفيه وصفُ الجنس بوصفِ أكثر أفراده، لأنَّ خَلْقَ آدم عليه السلام لم يكن كذلك، أو يقال: تُرِكَ بيانُ حاله عليه السلام لأنه معلوم، واقتُصِرَ على بيان حال أولاده، وجاء ذلك في بعض الروايات عن ابن عباس.

وقيل: المراد بالطين آدم عليه السلام، على أنه من مجاز الكون، والمرادُ بالسلالة النطفةُ، وبالإنسان الجنسُ، ووَصْفُه بما ذكر باعتبار أكثر أفراده، أو يقال

---

(١) المحرر الوجيز ٤/١٣٧.
(٢) الكشاف ٣/٢٧.

كما قيل آنفاً. ولا يخفى خفاءُ قرينةِ المَجَازِ، وعدمُ تبادُرِ النطفة من السلالة.

وقيل: المراد بالإنسان آدم عليه السلام، وروي ذلك عن جماعة. وما ذهبنا إليه أولاً أولى.

والضميرُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ عائدٌ على الجنس باعتبار أفراده المغايِرَةِ لآدم عليه السلام، وإذا أريد بالإنسان أولاً آدمُ عليه السلام فالضميرُ على ما في «البحر» عائدٌ على غير مذكورٍ، وهو ابنُ آدم، وجاز لوضوح الأمر وشهرته، وهو كما ترى، أو على الإنسان والكلامُ على حذفِ مضافٍ، أي: ثم جَعَلْنا نَسْلَه.

وقيل: يراد بالإنسان أوَّلاً آدمُ عليه السلام، وعند عَوْدِ الضمير عليه: ما تناسل منه على سبيل الاستخدام.

ومن البعيد جدّاً أن يراد بالإنسان أفرادُ بني آدم والضمير عائدٌ عليه، ويقدَّر مضافٌ في أول الكلام، أي: ولقد خلقنا أصل الإنسان.. إلخ. ومثلُه أن يراد بالإنسان الجنسُ أو آدمُ عليه السلام والضمير عائدٌ على «سلالة»، والتذكير بتأويل: المسلول، أو الماء، أي: ثم صيَّرنا السلالة نطفة[(١)].

والظاهرُ أنَّ «نطفة» في سائر الوجوه مفعولاً ثانياً[(٢)] للجعل على أنه بمعنى التصيير، وهو على الوجه الأخير ظاهرٌ، وأمَّا على وجه عودِ الضمير على الإنسان، فلا بدَّ من ارتكاب مجاز الأوْل بأنْ يراد بالإنسان ما سيصير إنساناً.

ويجوز أن يكون الجعلُ بمعنى الخلق المتعدِّي إلى مفعول واحد، ويكون «نطفة» منصوباً بنزع الخافض، واختاره بعض المحققين، أي: ثم خلقنا الإنسان من نطفةٍ كائنةٍ ﴿فِى قَرَارٍ﴾ أي: مستقَرٌ، وهو في الأصل مصدرٌ من قرَّ يقرُّ قراراً، بمعنى ثَبَتَ ثبوتاً، وأطلق على ذلك مبالغةً، والمرادُ به الرَّحِمُ، ووَصْفُه بقوله تعالى: ﴿مَّكِينٍ ۝١٣﴾ أي: متمكِّنٍ ـ مع أنَّ المتمكِّن وصفُ ذي المكان، وهو النطفة هنا ـ على سبيل المجاز كما يقال: طريقٌ سائر.

---

(١) البحر ٦/٣٩٨.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والصواب: مفعولٌ ثانٍ.

وجوِّز أن يقال: إنَّ الرَّحِمَ نفسَها متمكِّنةٌ، ومعنى تمكُّنِها أنها لا تنفصلُ لثقل حملها، أو لا تَمجُّ ما فيها، فهو كنايةٌ عن جَعْلِ النطفة مُحْرَزَةً مصونةً، وهو وجهٌ وجيهٌ.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: دماً جامداً، وذلك بإفاضة أعراض الدم عليها، فتصيِّرها دماً بحسب الوصف، وهذا من باب الحركة في الكيف.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: قطعةَ لحم بقَدْرِ ما يُمضَغُ، لا استبانةَ ولا تَمايُزَ فيها، وهذا التصييرُ ـ على ما قيل ـ بحسب الذات، كتصيير الماء حجراً وبالعكس، وحقيقتُه إزالة الصورة الأولى عن المادة وإفاضةُ صورةٍ أخرى عليها، وهو من باب الكون والفساد، ولا يخلو ذلك من الحركة في الكيفية الاستعدادية، فإن استعداد الماء مثلاً للصورة الأولى الفاسدة يأخذ في الانتقاص، واستعداده للصورة الثانية الكائنة يأخذ في الاشتداد، ولا يزال الأول ينقصُ والثاني يشتدُّ إلى أنْ تنتهي المادةُ إلى حيث تزول عنها الصورة الأولى، فتحدثُ فيها الثانية دفعةً، فتتوارد هذه الاستعداداتُ التي هي من مقولة الكيف على موضوع واحد.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ﴾ غالبَها ومعظمَها، أو كلَّها ﴿عِظَٰمًا﴾ صغاراً وعظاماً، حَسْبَما تقتضيه الحكمة، وذلك التصيير بالتصليب لما يراد جَعْلُه عظاماً من المضغة، وهذا أيضاً تصييرٌ بحَسَبِ الوَصْفِ، فيكون من الباب الأول.

وفي كلام العلَّامةِ البيضاويِّ إشارةٌ ما إلى مجموعِ ما ذكرنا، وهو يستلزمُ القول بأنَّ النطفة والعلقة متَّحدان في الحقيقة، وإنما الاختلافُ بالأعراض كالحمرة والبياض مثلاً. وكذا المضغةُ والعظامُ متَّحدان في الحقيقة وإنما الاختلاف بنحو الرخاوة والصلابة. وأنَّ العلقة والمضغة مختلفان في الحقيقة كما أنهما مختلفان بالأعراض(١).

والظاهرُ أنه تتعاقَبُ في جميع هذه الأطوار على مادَّةٍ واحدةٍ صورٌ حَسبَ تعاقُبِ الاستعدادات، إلى أن تنتهي إلى الصورة الإنسانية، ونحن نقول به إلى أن يقوم الدليل على خلافه، فتدبر.

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٣، وفيه: «ثم خلقنا النطفة علقة» بأن أَحَلْنا النطفة البيضاء علقة حمراء، «فخلقنا العلقة مضغة» فصيرناها قطعة لحم، «فخلقنا المضغة عظاماً» بأن صلَّبناها.

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ﴾ المعهودةَ ﴿لَحْمًا﴾ أي: جَعَلْناه ساتراً لكلٍّ منها كاللباس، وذلك اللحمُ يحتملُ أن يكون من لحم المُضغةِ بأنْ لم تُجْعَلْ كلُّها عظاماً بل بعضُها، ويبقى البعضُ فيمدُّ على العظام حتى يسترها، ويحتملُ أن يكون لحماً آخر خَلَقه الله تعالى على العظام من دمٍ في الرَّحِم.

وجَمْعُ «العظام» دون غيرها مما في الأطوار لأنها متغايرةٌ هيئةً وصلابةً بخلاف غيرها، ألا ترى عظم الساق، وعظمَ الأصابع، وأطرافَ الأضلاع؟ وعِدَّةُ العظام مطلقاً ـ على ما قيل ـ مئتان وثمانيةٌ وأربعون عظماً، وهي عِدَّةُ: رحم، بالجُمَّل الكبير[(١)]، وجَعَلَ بعضُهم هذه عدَّةَ أجزاءِ الإنسان، والله تعالى أعلم.

وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبان والمفضَّل والحسن وقتادة وهارون والجعفيُّ، ويونس عن أبي عمرو، وزيد بنُ علي ﵄ بإفراد «العظام» في الموضعين[(٢)]؛ اكتفاءً باسم الجنس الصادق على القليل والكثير مع عدم اللبس، كما في قوله:

كلوا في بعض بَطْنِكم تَعِفُّوا[(٣)]

واختصاصُ مثلِ ذلك بالضرورة ـ على ما نُقِلَ عن سيبويه[(٤)] ـ لا يخلو عن نظر. وفي الإفراد هنا مشاكلةٌ لِمَا ذكر قبلُ في الأطوار كما ذكره ابن جنِّي[(٥)].

وقرأ السلميُّ، وقتادة أيضاً، والأعرج والأعمش ومجاهدٌ وابن محيصن بإفراد الأول وجمع الثاني[(٦)].

---

(١) لأن الراء بحساب الجمّل مئتان، والحاء ثمانية، والميم أربعون، فيكون المجموع مئتين وثمانية وأربعين بحساب الجمَّل، وينظر لمعنى الجمَّل الكبير كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي ١/ ٥٨٢.

(٢) التيسير ص ١٥٨، والنشر ٢/ ٣٢٨ عن ابن عامر وأبي بكر، وذكرها عنهم جميعاً أبو حيان في البحر ٦/ ٣٩٨.

(٣) وعجزه: فإن زمانكم زمن خميص. والبيت في الكتاب ١/ ٢١٠، والخزانة ٧/ ٥٣٧، قال البغدادي: الخميص: الجائع، والبيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف قائلها.

(٤) نقله عنه أبو حيان في البحر ٦/ ٣٩٨، وينظر الكتاب ١/ ٢١٠.

(٥) في المحتسب ٢/ ٨٧.

(٦) المحتسب ٢/ ٨٧، والبحر ٦/ ٣٩٨.

وقرأ أبو رجاء، وإبراهيم بن أبي بكر، ومجاهدٌ أيضاً بجَمْعِ الأول وإفراد الثاني(١).

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ مُبايناً للخَلْقِ الأوَّلِ مباينةً ما أبْعَدَها، حيث جُعِلَ حيواناً ناطقاً سميعاً بصيراً، وأُودِعَ كلَّ عضوٍ منه وكلَّ جزءٍ عجائبَ وغرائبَ لا تُدْرَكُ بوصفٍ، ولا تُبْلَغ بشرحٍ، ومن هنا قيل:

وتَـزْعُـمُ أنـك جِـرمٌ صـغـيـر وفـيـك انْـطَـوى الـعـالـمُ الأكـبـرُ(٢)

وقيل: الخلقُ الآخرُ الروحُ، والمرادُ بها: النفسُ الناطقة، والمعنى: أنشأنا له - أو فيه - خَلْقاً آخر، والمتبادرُ من إنشاء الروح خَلْقُها، وظاهرُ العطف بـ «ثم» يقتضي حدوثَها بعد حدوث البدن، وهو قولُ أكثر الإسلاميين، وإليه ذهب أرسطو.

وقيل: إنشاؤها نَفْخُها في البدن، وهو عند بعضٍ عبارةٌ عن جَعْلِها متعلِّقةً به، وعند أكثر المسلمين جعلها ساريةً فيه. وإذا أُريدَ بالروح الروحُ الحيوانيةُ، فلا كلامَ في حدوثها بعد البدن وسريانها فيه.

وقيل: الخَلْقُ الآخَرُ القوى الحسَّاسة.

وقال الضحاك - ويكاد يُضْحَكُ منه - فيما أخرجه عنه عبد بن حميد(٣): الخلق الآخر الأسنانُ والشعر، فقيل له: أليس يُولَدُ وعلى رأسه الشعر؟ فقال: فأين العانةُ والإبط.

وما أشرنا إليه من كون «ثم» للترتيب الزمانيِّ هو ما يقتضيه أكثر استعمالاتها، ويجوزُ أن تكون للترتيب الرُّتْبي؛ فإنَّ الخَلْقَ الثاني أعظمُ من الأول ورتبتُه أعلى.

وجاءت المعطوفاتُ الأُوَلُ بعضُها بـ «ثم» وبعضها بالفاء، ولم يَجِئْ جميعُها بـ «ثم» أو بالفاء مع صحة ذلك في مثلها؛ للإشارة إلى تفاوُتِ الاستحالات، فالمعطوفُ بـ «ثم» مُسْتَبعدٌ حصولُه مما قبله، فجُعِلَ الاستبعادُ عقلاً أو رتبةً بمنزلة التراخي والبعدِ الحسيِّ؛ لأنَّ حصول النطفة من أجزاءٍ ترابيةٍ غريبٌ جدًّا، وكذا

---

(١) البحر ٦/ ٣٩٨، وهي في المحتسب ٢/ ٨٧ عن مجاهد وحده.
(٢) البيت في الديوان المنسوب لعلي ﷺ ص ٥٧ برواية: وتحسب...
(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ٦.

جَعْلُ النطفة البيضاء السيالة دماً أحمرَ جامداً بخلاف جَعْلِ الدم لحماً مشابهاً له في اللون والصورة، وكذا تصليب المضغة حتى تصير عظماً، وكذا مدُّ لحمها عليه ليستره، كذا قيل، ولا يخلو عن قيل وقال.

واستدلَّ الإمام أبو حنيفة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَهُ﴾ إلخ على أنَّ مَن غَصَبَ بيضةً فأفْرَخَتْ عنده، لَزِمه ضمانُ البيضة لا الفرخِ؛ لأنه خَلْقٌ آخر.

قال في «الكشف»: وفي هذا الاستدلال نظرٌ على أصل مُخالِفيهِ؛ لأنَّ مُباينتَه للأول لا تُخْرِجُه عن ملكه عندهم.

وقال صاحب «التقريب»: إنَّ تضمينه للفرخ لكونه جزءاً من المغصوب لا لكونه عينَه أو مسمًّى باسمه.

وفي هذا بحثٌ، وفي المسألة خلافٌ كثيرٌ وكلامٌ طويل يُطلب من كتب الفروع المبسوطة.

وقال الإمام: قالوا: في الآية دلالةٌ على بطلان قول النظَّام: إنَّ الإنسان هو الروحُ لا البدن، فإنه تعالى بيَّن فيها أنَّ الإنسان مركَّبٌ من هذه الأشياء. وعلى بطلان قول الفلاسفة: إنَّ الإنسان لا ينقسم، وإنه ليس بجسم(١).

وكأنهم أرادوا أنَّ الإنسان هو النفسُ الناطقةُ، والروحُ الأمرية المجرَّدةُ، فإنها التي ليست بجسم عندهم ولا تقبل الانقسام بوجهٍ، وليست داخل البدن ولا خارجه.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فتعالى وتقدَّس شأنُه سبحانه في علمه الشامل وقدرته الباهرة، و«تبارك» فعلٌ ماضٍ لا يتصرَّفُ، والأكثرُ إسنادهُ إلى غير مؤنَّثٍ.

والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخالِ الروعة، والإشعارِ بأنَّ ما ذُكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية، وللإيذان بأنَّ حقَّ كلِّ مَن سَمِعَ ما فصِّل من آثار قدرته عزَّ وجلَّ، أو لاحَظَه، أن يُسارِعَ إلى التكلُّم به إجلالاً وإعظاماً لشؤونه جل وعلا.

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٨٥.

﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝﴾ نعتٌ للاسم الجليل، وإضافةُ أفعل التفضيل محضةٌ، فتفيدُه تعريفاً إذا أضيف إلى معرفةٍ على الأصح.

وقال أبو البقاء(١): لا يجوزُ أن يكون نعتاً لأنه نكرةٌ وإنْ أضيفَ؛ لأنَّ المضاف إليه عوضٌ عن «مِن»، وهكذا جميع بابِ أفعل منك، وجَعَلَه بدلاً، وهو يقلُّ في المشتقَّات، أو خبرَ مبتدأ مقدَّرٍ، أي: هو أحسنُ الخالقين، والأصلُ عدمُ التقدير.

وتمييز(٢) أفعل محذوفٌ لدلالةِ «الخالقين» عليه، أي: أحسنُ الخالقين خَلْقاً، فالحُسْنُ للخَلْقِ، قيل: نظيرُه قوله ﷺ: «إنَّ الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال»(٣) أي: جميلٌ فِعْلُه، فحُذفَ المضافُ وأقيم المضافُ إليه مقامه، فانقلب مرفوعاً فاستتر.

والخَلْقُ بمعنى التقدير، وهو وصفٌ يطلَقُ على غيره تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقول زهير:

ولأنْـتَ تَـفْـري مـا خَـلَـقْـتَ وبـعـ ... ـضُ الـقـومِ يَـخْـلـقُ ثـم لا يَـفْـري(٤)

وفي معنى ذلك تفسيرُه بالصنع كما فعل ابنُ عطية(٥). ولا يصحُّ تفسيره بالإيجاد عندنا؛ إذ لا خالقَ بذلك المعنى غيرُه تعالى إلا أن يكون على الفرض والتقدير، والمعتزلة يفسِّرونه بذلك لقولهم بأن العبد خالقٌ لأفعاله وموجِدٌ لها استقلالاً، فالخالقُ الموجِدُ متعدِّدٌ عندهم، وقد تكفَّلت الكتب الكلامية بردِّهم.

ومعنى حُسْنِ خَلْقِه تعالى: إتقانُه وإحكامُه، ويجوز أن يراد بالحُسْنِ مقابلة القبح، وكلُّ شيءٍ منه عز شأنه حسنٌ لا يتَّصِفُ بالقبح أصلاً من حيث إنه منه، فلا دليل فيه للمعتزلة بأنه تعالى لا يخلق الكفر والمعاصي كما لا يخفى.

روي أنَّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ، فأَمْلَى عليه ﷺ قولَه تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ) حتى إذا بلغ عليه الصلاة والسلام: (ثُمَّ

---

(١) في الإملاء ٤/ ٥١.
(٢) في (م): وتميز، وهو تصحيف.
(٣) سلف ٦/ ٤٤١.
(٤) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص ٩٤، والخزانة ٦/ ٣٢٣. والفري: القطع. اللسان (فري)، وسلف ٢/ ١٢.
(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٣٨.

﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ نطق عبدُ الله بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ إلخ قبل إملائه، فقال له عليه الصلاة والسلام: «هكذا نزلت» فقال عبد الله: إن كان محمدٌ نبيًّا يوحَى إليه فأنا نبيٌّ يوحَى إليَّ. فارتدَّ ولَحِقَ بمكة كافراً، ثم أسلم قبل وفاته عليه الصلاة والسلام وحَسُنَ اسلامه[1]. وقيل: مات كافراً[2].

وطعن بعضُهم في صحَّةِ هذه الرواية، بأنَّ السورة مكيةٌ وارتدادُه بالمدينة كما تقتضيه الرواية.

وأجيب بأنه يمكن الجمعُ بأن تكون الآيةُ نازلةً بمكة واستَكْتَبها ﷺ إياه بالمدينة، فكان ما كان، أو يُلتزمُ كونُ الآية مدنيةً لهذا الخبر. وقوله: إنَّ السورة مكيةٌ، باعتبار الأكثر، وعلى هذا يكون اقتصارُ الجلال السيوطيِّ على استثناء قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿مُبْلِسُونَ﴾ قصوراً، فتذكَّر.

وتُروَى هذه الموافقةُ عن معاذ بن جبل؛ أخرج ابن راهويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبرانيُّ في «الأوسط»، وابنُ مردويه عن زيد بن ثابت ﷺ قال: أَمْلَى عليَّ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فقال معاذ بن جبل ﷺ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: مِمَّ ضحكتَ يا رسول الله؟ قال: «بها خُتِمَتْ»[3].

ورويتْ أيضاً عن عمر ﷺ؛ أخرج الطبرانيُّ، وأبو نعيم في «فضائل الصحابة»، وابنُ مردويه عن ابن عباس ﷺ قال: لمَّا نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٨. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١١٥: كذا ذكره الثعلبي عن ابن عباس، وعزاه الواحدي إلى الكلبي عن ابن عباس ﷺ.

(٢) وفي الإصابة ٦/ ١٠١ أنه أسلم وشهد فتح مصر مع عمرو بن العاص، ثم ولاه عثمان على مصر، وكان محموداً في ولايته، وغزا ثلاث غزوات: إفريقية وذات الصواري والأساود، وقُبض وهو يصلي الصبح.

(٣) المعجم الأوسط (٤٦٥٧) وعزاه لابن راهويه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٧، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: في إسناده جابر الجعفي وهو ضعيف جدًّا.

سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ) إلى آخر الآية، قال عمر رضي الله عنه: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ) فنزلت كما قال[١].

وأخرج ابن عساكر وجماعةٌ عن أنس: أنَّ عمر رضي الله عنه كان يفتخر بذلك، ويذكُر أنها إحدى موافقاته الأربع لربِّه عز وجل[٢].

ثم إنَّ ذلك من حُسْنِ نَظْمِ القرآن الكريم، حيث تدلُّ صدورُ كثيرٍ من آياته على أعجازها، وقد مُدِحَتْ بعضُ الأشعار بذلك فقيل:

قصائدُ إنْ تكن تُتْلَى على ملأٍ صدورُها عُلِمَتْ منها قوافيها[٣]

لا يقال: فقد تكلَّم البشر ابتداءً بمثل نَظْمِ القرآن الكريم وذلك قادحٌ في إعجازه؛ لِمَا أنَّ الخارج عن قدرة البشر ـ على الصحيح ـ ما كان مقدارَ أقصرِ سورةٍ منه، على أن إعجاز هذه الآية الكريمة منوطٌ بما قبلها كما تُعْرِبُ عنه الفاء فإنها اعتراضٌ تذييليٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما ذُكِرَ من الأمور العجيبة، حَسْبَما يُنْبِئُ عنه ما في اسم الإشارة من معنى البُعْدِ المُشْعِرِ بعلوِّ رتبةِ المشارِ إليه، وبُعْدِ منزلته في الفضل والكمال، وكونه بذلك ممتازاً منزَّلاً منزلةَ الأمور الحسية.

﴿لَمَيِّتُونَ ١٥﴾ أي: لصائرون إلى الموت لا محالة، كما يُؤْذِنُ به اسميةُ الجملة، و«إنَّ»، واللامُ، وصيغةُ النعت الذي هو للثبوت.

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما، وابن أبي عبلة، وابن محيصن: «المائتون»[٤] وهو اسمُ فاعلٍ يرادُ به الحدوث، قال الفراء وابن مالك: إنما يقال: مائتٌ، في الاستقبال فقط[٥].

---

(١) المعجم الأوسط (٥٦٦٢)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/٧.

(٢) تاريخ ابن عساكر ٤٤/١١٣-١١٤، وأخرجه أيضاً الطيالسي ص ٩-١٠. وأصله عند أحمد (١٥٧)، والبخاري (٤٠٢) بلفظ: وافقت ربي في ثلاث، فذكرها ولم يذكر هذه فيها.

(٣) البيت لابن نباتة السعدي كما في المثل السائر ٢/٣٢٩، ويتيمة الدهر ٢/٤٤٨، وصدره عندهم: خذها إذا أنشدت في القوم من طرب...

(٤) القراءات الشاذة ص ٩٧، والكشاف ٣/٢٨، والبحر ٦/٣٩٩.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/٢٣٢، ونقله المصنف عنه وعن ابن مالك بواسطة أبي حيان في البحر ٦/٣٩٩.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ عند النفخة الثانية ﴿تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ من قبوركم للحساب، والمجازاةِ بالثواب والعقاب، ولم يؤكِّد سبحانه أمر البعث تأكيدَه لأمر الموت مع كثرة المتردِّدين فيه والمُنْكِرين له، اكتفاءً بتقديم ما يُغني عن كثرة التأكيد، ويشيدُ أركان الدعوى أتمَّ تشييد، من خَلْقِه تعالى الإنسانَ من سلالةٍ من طين، ثم نَقْلِه من طورٍ إلى طورٍ، حتى أنشأه خَلْقاً آخر يستغرقُ العجائب ويستجمع الغرائب، فإنَّ في ذلك أدلَّ دليلٍ على حكمته، وعظيم قدرته عز وجل على بَعْثِه وإعادته، وأنه جل وعلا لا يُهْمِلُ أمره ويتركهُ بعد موته نَسْياً منسيًّا مستقرًّا في رَحِمِ العدم كأن لم يكن شيئاً.

ولمَّا تضمَّنت الجملةُ السابقةُ المبالغةَ في أنه تعالى شأنُه أَحْكَم خَلْقَ الإنسان وأَتْقَنه، بالغَ سبحانه عز وجل في تأكيد الجملة الدالَّة على موته ـ مع أنه غير مُنْكرٍ ـ لِمَا أنَّ ذلك سببٌ لاستبعاد العقل إياه أشدَّ استبعاد، حتى يوشك أن ينكرَ وقوعَه مَن لم يُشاهِدْه وسَمِع أنَّ الله جلَّ جلالُه أَحْكَم خَلْقَ الإنسان وأَتْقَنه غايةَ الإتقان.

وهذا وجهٌ دقيقٌ لزيادة التأكيد في الجملة الدالة على الموت وعدمِ زيادته في الجملة الدالَّة على البعث لم أرَ أني سُبِقْتُ إليه.

وقيل في ذلك: إنه تعالى شأنُه لمَّا ذكر في الآيات السابقة من التكليفات ما ذَكَر، نبَّه على أنه سبحانه أَبْدعَ خَلْقَ الإنسان وقلَّبه في الأطوار حتى أَوْصَلَه إلى طورٍ هو غايةُ كماله، وبه يصحُّ تكليفُه بنحو تلك التكليفات، وهو كونُه حيًّا عاقلاً سميعاً بصيراً، وكان ذلك مستدعياً لذكر طورٍ يقع فيه الجزاءُ على ما كلَّفه تعالى به، وهو أنْ يُبعثَ يوم القيامة، فنبَّه سبحانه عليه بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فالمقصودُ الأهمُّ بعد بيان خَلْقِه وتأهُّله للتكليف بيانُ بَعْثِه، لكنْ وسَّط حديث الموت لأنه برزخٌ بين طوره الذي تأهَّل به للأعمال التي تستدعي الجزاء وبين بَعْثِه، فلا بدَّ من قَطْعِه للوصول إلى ذلك، فكأنه قيل: أيها المخلوق العجيبُ الشأنِ، إنَّ ماهيتك وحقيقَتك تَفْنَى وتَعْدَمُ، ثم إنَّها بعينها من الأجزاء المتفرِّقة، والعظام البالية، والجلودِ المتمزِّقة المتلاشية في أقطار الشرق والغرب تُبعثُ وتُنْشَرُ ليوم الجزاء؛ لإثابةِ مَن أَحْسَنَ فيما كلَّفناه به، وعقابِ مَن أساء فيه، فالقرينة الثانية ـ وهي الجملة الدالَّةُ على البعث ـ لم تفتقر إلى التوكيد افتقارَ الأولى وهي الجملةُ الدالَّة على الموت؛ لأنها كالمقدِّمة لها، وتوكيدُها راجعٌ إليها، ومنه يُعْلَمُ

سرُّ نَقْلِ الكلام من الغيبة إلى الخطاب. انتهى، وفيه من البعد ما فيه.

وقيل: إنَّما بُولِغَ في القرينة الأولى لتَمادي المخاطبين في الغفلة، فكأنَّهم نزلوا منزلةَ المنكِرينَ لذلك، وأُخْلِيتِ الثانيةُ لوضوح أدلتها وسُطوع براهينها، قال الطيبيُّ: هذا كلامٌ حسن لو ساعد عليه النظمُ الفائق.

وربما يقال: إنَّ شدةَ كراهةِ الموت طبعاً، التي لا يكاد يَسْلَمُ منها أحدٌ، نزلت منزلةَ شدةِ الإنكار، فبولغَ في تأكيد الجملة الدالَّة عليه، وأما البعثُ فمن حيث إنه حياةٌ بعد الموت لا تكرهُه النفوس، ومن حيث إنه مظنةٌ للشدائد تكرهُه، فلمَّا لم يكن حالُه كحال الموت ولا كحال الحياة، بل بينَ بينَ، أُكِّدت الجملةُ الدالَّة عليه تأكيداً واحداً. وهذا وجهٌ للتأكيد لم يذكره أحدٌ من علماء المعاني، ولا يضرُّ فيه ذلك إذا كان وجيهاً في نفسه.

وتكريرُ حرف التراخي للإيذان بتفاوُتِ المراتب. وقد تضمَّنت الآيةُ ذكرَ تسعة أطوارٍ، ووقع الموتُ فيها الطورَ الثامن، ووافق ذلك أن مَن يولدُ لثمانية أشهر مِن حَمْلِه قلَّما يعيش، ولم يذكر سبحانه طورَ الحياةِ في القبر؛ لأنه من جنس الإعادة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ بيانٌ لخَلْقِ ما يحتاجُ إليه بقاؤهم إثْرَ بيانِ خَلْقِهم. وقيل: استدلالٌ على البعث. أي: خَلَقْنا في جهة العلوِّ من غير اعتبارِ فوقيَّتِها لهم؛ لأنَّ تلك النسبةَ إنَّما تَعْرِضُ بعد خَلْقِهم.

﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ هي السماوات السبع، و«طرائق» جمع طريقة بمعنى مطروقة، من طرقَ النعلَ والخوافي: إذا وضع طاقاتها بعضَها فوق بعضٍ، قاله الخليل والفرَّاء والزجَّاج[1]، فهذا كقوله تعالى: ﴿طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣] ولكلٍّ من السبع نسبةٌ وتعلُّقٌ بالمطارقة فلا تغليب[2].

---

(١) ذكره عنهم الرازي في تفسيره ٢٣/ ٨٧ بلفظ: وإنما قيل لها - يعني السماوات - طرائق لتَطارُقِها، بمعنى كون بعضها فوق بعض؛ يقال: طارَقَ الرجل بين نعليه: إذا أطبق نعلاً على نعلٍ، وطارَقَ بين ثوبين: إذا لبس ثوباً فوق ثوب. وينظر العين ٥/ ٩٧، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٢، وللزجاج ٤/ ٩، ومفردات الراغب (طرق).

(٢) هذا رد على من قال: إن السماء الدنيا ليست من الطرائق إذ لا سماء تحتها، فجَعْلُها منها من باب التغليب. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٤.

وقيل: جمع طريقة بمعناها المعروف، وسمِّيت السماوات بذلك لأنها طرائقُ الملائكة عليهم السلام في هبوطهم وعُروجِهم لمصالح العباد، أو لأنها طرائقُ الكواكب في مسيرها.

وقال ابن عطية: يجوز أن يكون الطرائق بمعنى المبسوطات، من طرقتُ الحديد مثلاً: إذا بسطته[1]. وهذا لا ينافي القول بكُرَيَّتِها.

وقيل: سمِّيتْ طرائقَ لأنَّ كلَّ سماءٍ طريقةٌ وهيئةٌ غير هيئةِ الأخرى. وأنت تعلم أن الظاهر أنَّ الهيئة واحدةٌ، نعم أَوْدَعَ الله تعالى في كلِّ سماءٍ ما لم يُوْدِعْه سبحانه في الأخرى، فيجوزُ أن تكون تسميتها طرائق لذلك.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ أي: عن جميع المخلوقات التي من جُمْلَتِها السماواتُ السبعُ ﴿غَٰفِلِينَ ⑰﴾ مُهْمِلين أمرَه، بل نُفيضُ على كلٍّ ما تقتضيه الحكمةُ.

ويجوز أن يراد بالخلق الناس، والمعنى: أنَّ خَلْقَنا السماوات لأجل منافعهم، ولسنا غافلين عن مصالحهم.

و«أل» على الوجهين للاستغراق. وجوِّز أن تكون للعهد على أنَّ المراد بالخَلْقِ المخلوقُ المذكور، وهو السماوات السبع، أي: وما كنَّا عنها غافلين، بل نحفظُها عن الزوال والاختلال وندبِّر أمرها، والإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بشأنها. وإفرادُ الخَلْقِ على سائر الأوجه لأنه مصدرٌ في الأصل، أو لأنَّ المتعدِّد عنده تعالى في حُكْمِ شيءٍ واحد.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر عند كثير من المفسرين، والمراد بالسماء جهةُ العلوِّ، أو السحابُ. أو معناها المعروف، ولا يُعجز الله تعالى شيء، وكان الظاهرُ على هذا: منها، بدل: «السماء»؛ ليعود الضميرُ على الطرائق، إلا أنه عدل عن الإضمار[2] لأنَّ الإنزال منها لا يُعتبر فيه كونُها طرائقَ، بل مجرَّد كونها جهةَ العلوِّ.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٣٩ بنحوه.

(٢) في الأصل و(م): إلا أنه عدل عنه إلى الإضمار، والصواب ما أثبتناه، وجاء في تفسير أبي السعود ٦/ ١٢٨ (والكلام فيه بنحوه): والعدول عن الإضمار.

وتقديم الجارِّ والمجرور على المفعول الصريح للاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر.

وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ صفةُ «ماء»، أي: أنزلنا ماءً متلبِّساً بمقدارٍ ما يكفيهم في حاجِهم[١] ومصالحهم، أو بتقديرٍ لائقٍ لاستجلاب منافعهم ودفعِ مضارِّهم، وجوِّز على هذا أن يكون في موضع الحال من الضمير، وقيل: هو صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إنزالاً متلبِّساً بذلك، وقيل في الجارِّ والمجرور غير ذلك.

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلناه ثابتاً قارًّا فيها، ومن ذلك ماءُ العيون ونحوِها، ومعظمُ الفلاسفة يزعمون أنَّ ذلك الماء من انقلاب البخار المحتبِس في الأرض ماءً إذا مال إلى جهةٍ منها وبرد، وليس لماءِ المطر دخلٌ فيه، وكونُه من السماء باعتبارِ أنَّ لأشعةِ الكواكب التي فيها مدخلاً فيه من حيث الفاعلية.

وقال ابن سينا في «نجاته»[٢]: هذه الأبخرةُ المحتبِسةُ في الأرض إذا انبعثت عيوناً أمدَّتِ البحار بصَبِّ الأنهار إليها، ثم ارتفع من البحار والبطائح وبطون الجبال خاصةً أبخرةٌ أخرى، ثم قطرت ثانياً إليها، فقامت بدل ما يتحلَّلُ منها على الدور دائماً.

وما في الآية يؤيِّد ما ذهب إليه أبو البركات البغداديُّ منهم فقد قال في «المعتبر»[٣]: إنَّ السبب في العيون والقنوات وما يجري مجراها هو ما يسيلُ من الثلوج ومياه الأمطار؛ لأنَّا نجدها تزيدُ بزيادتها وتنقصُ بنقصانها، وإن استحالةَ الأهوية والأبخرة المنحصرة في الأرض لا مدخل لها في ذلك، فإنَّ باطن الأرض في الصيف أشدُّ برداً منه في الشتاء، فلو كان ذلك سببَ استحالتها لوجَبَ أن تكون العيون والقنوات ومياهُ الآبار في الصيف أزيدَ، وفي الشتاء أنْقصَ، مع أنَّ الأمر بخلاف ذلك على ما دلَّت عليه التجربةُ. انتهى.

---

(١) جمع حاجة، وكذا حاجات وحِوَج وحوائج. القاموس (حوج).

(٢) كتاب النجاة، لخَّص فيه ابن سينا كتابه الشفاء. ينظر كشف الظنون ٢/ ١٩٢٩، وأبجد العلوم ٢/ ٣٦٦.

(٣) المعتبر في المنطق لأبي البركات هبة الله بن علي بن ملكا، العلَّامة الفيلسوف، شيخ الطب، اليهودي كان، ثم أسلم في أواخر عمره، توفي سنة نيف وخمسين وخمس مئة. السير ٢٠/ ٤١٩.

واختار القاضي حسين المَيْبُذي[١] أنَّ لكلٍّ من الأمرين مدخلاً، واعتَرَضَ على دليل أبي البركات بأنه لا يدلُّ إلا على نفي كون تلك الاستحالة سبباً تاماً، وأمَّا على أنها لا مدخل لها أصلاً فلا.

والحقُّ ما يشهد له كتابُ الله تعالى، فهو سبحانه أعلم بخَلْقِه، وكلُّ ما يذكره الفلاسفة في أمثال هذه المقامات لا دليلَ لهم عليه يفيدُ اليقينَ كما أشار إليه شارح «حكمة العين».

وقيل: المراد بهذا الماء: ماءُ أنهارٍ خمسة؛ فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: «أَنْزَلَ الله تعالى من الجنَّة إلى الأرض خمسةَ أنهارٍ: سَيْحون وهو نهرُ الهند، وجَيْحون وهو نهر بَلْخ، ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر، أنزلها الله تعالى من عينٍ واحدةٍ من عيون الجنة، من أسفل درجةٍ من درجاتها، على جناحَيْ جبريلَ عليه السلام، فاستَوْدَعها الجبالَ، وأجْراها في الأرض، وجَعَلَها منافعَ للناس في أصناف معايشهم، وذلك قولهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإذا كان عند خروج يأجوجَ ومأجوجَ أرسل الله تعالى جبريلَ عليه السلام، فرفع من الأرض القرآن والعِلْمَ كلَّه، والحَجَرَ من ركن البيت، ومقامَ إبراهيم عليه السلام، وتابوتَ موسى عليه السلام بما فيه، وهذه الأنهارَ الخمسة، فيرفع كلَّ ذلك إلى السماء، فذلك قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ فإذا رُفعت هذه الأشياء من الأرض فَقَدَ أهلُها خيرَ الدنيا والآخرة» ولا يخفى على المتتبِّع أنَّ هذا الخبر أخرجه ابن مردويه والخطيب بسندٍ ضعيف[٢].

---

(١) في الأصل و(م): المبيدي، والصواب ما أثبتناه، وهو حسين بن معين الدين المعروف بقاضي مير، عالم بالحكمة والطبيعيات، أصله من مَيْبُذ قرب مدينة يزد (من أعمال فارس)، من تلاميذ الجلال الدواني، له تصانيف عربية وفارسية، توفي سنة (٩١٠هـ). هدية العارفين ٣١٦/١، والأعلام ٢/ ٢٦٠.

(٢) تاريخ بغداد ١/ ٥٧-٥٨، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٨، وعنه نقل المصنف، وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ٣/ ٣٤-٣٥، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٦. قال ابن عدي: هذا حديث غير محفوظ، بل منكر المتن.

نعم حديثُ: «أربعة أنهارٍ من الجنة: سَيْحانُ وجَيْحانُ ـ وهما غيرُ سَيْحون وجَيْحون؛ لأنهما نهران بالعواصم عند المَصِّيصةِ وطَرَسوس[(١)]، وسَيْحون وجَيْحون نهرا الهند وبَلْخ كما سمعت، على ما قاله عبد البر[(٢)] ـ والفراتُ والنيل»[(٣)]، صحيحٌ لكنَّ الكلام في تفسير الآية بذلك.

وعن مجاهد أنه حمل الماء على ما يعمُّ ماءَ المطرِ وماءَ البحر، وقال: ليس في الأرض ماءٌ إلا وهو من السماء. وأنت تعلم أنَّ الأوفق بالأخبار وبما يذكر بعدُ في الآية الكريمة كونُ المرادِ به ما عدا ماءَ البحر.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ﴾ أي: على إزالته بإخراجه عن المائية، أو بتغويره بحيث يَتعذَّرُ استخراجهُ، أو بنحو ذلك ﴿لَقَٰدِرُونَ ⑱﴾ كما كنَّا قادرين على إنزاله، فالجملةُ في موضع الحال. وفي تنكير «ذهابٍ» إيماءٌ إلى كثرة طرقه؛ لعموم النكرة وإن كانت في الإثبات، وبواسطة ذلك تُفْهَم المبالغة في الإثبات.

وهذه الآيةُ أكثرُ مبالغةً من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

وذكر صاحبُ «التقريب» ثمانية عشر وجهاً للأبلغية:

الأول: أن ذلك على الفرض والتقدير، وهذا على[(٤)] الجزم، على معنى أنه أدلُّ على تحقيق ما أوعد به وإن لم يقع.

الثاني: التوكيد بـ «إنَّ».

الثالث: اللام في الخبر.

الرابع: أنَّ هذه في مطلق الماء المنزل من السماء، وتلك في ماءٍ مضافٍ إليهم.

---

(١) كما في النهاية (جيح)، يعني أنهما يقعان جنوب تركيا. ينظر أطلس تاريخ الإسلام (خريطة رقم: ٦٠ و ٧٢).

(٢) وقاله النووي في شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٦.

(٣) أخرجه أحمد (٧٨٨٦)، ومسلم(٢٨٣٩) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كلٌّ من أنهار الجنة».

(٤) قوله: على، ليس في (م).

الخامس: أنَّ الغائر قد يكون باقياً بخلاف الذاهب.

السادس: ما في تنكير «ذهاب» من المبالغة.

السابع: إسناده هاهنا إلى مُذْهِبٍ بخلافه ثمَّة، حيث قيل: «غوراً».

الثامن: ما في ضمير المعظّم نفسه من الروعة.

التاسع: ما في «قادرون» من الدلالة على القدرة عليه، والفعلُ الواقع من القادر أبلغ.

العاشر: ما في جَمْعِه.

الحادي عشر: ما في لفظ «به» من الدلالة على أنَّ ما يمسكه فلا مرسلَ له.

الثاني عشر: إخلاؤه من التعقيب بإطماعٍ، وهنالك ذَكَرَ الإتيانَ المُطْمِع.

الثالث عشر: تقديم ما فيه الإيعاد وهو الذهاب على ما هو كالمتعلَّق له أو متعلَّقه على المذهبين البصري والكوفي.

الرابع عشر: ما بين الجملتين الاسمية والفعلية من التفاوت ثباتاً وغيره.

الخامس عشر: ما في لفظ «أصبح» من الدلالة على الانتقال والصيرورة.

السادس عشر: أن الإذهاب هاهنا مصرح به. وهنالك مفهومٌ من سياق الاستفهام.

السابع عشر: أنَّ هنالك نفيُ ماءٍ خاصٍّ، أعني: المعين، بخلافه هاهنا.

الثامن عشر: اعتبارُ مجموع هذه الأمور التي يكفي كلٌّ منها مؤكِّداً.

ثم قال: هذا ما يَحضُرنا الآن والله تعالى أعلم. اهـ، وفي النفس من عدِّ الأخير وجهاً شيءٌ.

وقد يزاد على ذلك فيقال:

التاسع عشر: إخبارُه تعالى نفسه به من دون أمرٍ للغير هاهنا، بخلافه هنالك فإنَّه سبحانه أَمَرَ نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول ذلك.

العشرون: عدمُ تخصيص مخاطَبٍ هاهنا، وتخصيصُ الكفار بالخطاب هنالك.

الحادي والعشرون: التشبيهُ المستفادُ من جَعْلِ الجملة حالاً كما أشرنا إليه فإنه يفيدُ تحقيقَ القدرة، ولا تشبيهَ ثَمة.

الثاني والعشرون: إسنادُ القدرة إليه تعالى مرَّتين.

وقد زاد بعض أجِلَّة أهل العَصْرِ العاصِرِينَ سُلَافَ[1] التحقيق من كرم أذهانهم الكريمة أكْرمَ عصرٍ، أعني به ثالثَ الرافعيِّ والنواوي، أخي الملّا محمد أفندي الزَّهاوي فقال:

الثالث والعشرون: تضمينُ الإيعاد هنا إيعادَهم بالإبعاد عن رحمة الله تعالى؛ لأنَّ «ذَهَبَ به» يستلزمُ مصاحبةَ الفاعلِ المفعولَ، وذهابُ الله تعالى عنهم مع الماء بمعنى ذهابِ رحمته سبحانه عنهم، ولَعْنِهم وطَرْدِهم عنها، ولا كذلك ما هناك.

الرابع والعشرون: أنه ليس الوقتُ للذهاب معيَّناً هنا، بخلافه في «إن أصبح» فإنه يُفْهَمُ منه أنَّ الصيرورة في الصبح على أحد استعمالي أصبح ناقصاً.

الخامس والعشرون: أنَّ جهة الذهاب به ليست معيَّنةً بأنها السفل.

السادس والعشرون: أنَّ الإيعاد هنا بما لم يُبْتَلوا به قطُّ، بخلافه بما هنالك.

السابع والعشرون: أنَّ المُوْعَدَ به هنا إنْ وقع فهم هالكون ألبتة.

الثامن والعشرون: أنه لم يبق هنا لهم متشبَّثٌ ولو ضعيفاً في تأميل امتناعِ المُوْعَدِ به، وهناك حيث أسند الإصباح غوراً إلى الماء، ومعلومٌ أنَّ الماء لا يصبح غوراً بنفسه كما هو تحقيقُ مذهب الحكيم أيضاً، احتمل أن يتوهَّموا[2] الشرطيةَ مع صِدْقِها ممتنعةَ المَقْدَمِ، فيأمنوا وقوعه.

التاسع والعشرون: أنَّ المُوْعَدَ به هنا يحتملُ في بادي النظر وقوعه حالاً، بخلافه هناك فإنَّ المستقبل متعيِّنٌ لوقوعه لمكان «إنْ»، وظاهرٌ أنَّ التهديد بمحتمل الوقوع في الحال أهولُ، وبمتعيِّن[3] الوقوع في الاستقبال أهون.

---

(١) السُّلاف: الخمر. القاموس (سلف).

(٢) في (م): يتوهم.

(٣) في (م): ومتعين.

الثلاثون: أنَّ ما هنا لا يحتمل غير الإيعاد، بخلافِ ما هناك فإنه يحتمل - ولو على بُعْدٍ[١] - أن يكون المراد به الامتنان بأنه: إنْ أصبح ماؤكم غوراً فلا يأتيكم بماءٍ مَعينٍ سوى اللهِ تعالى، ويؤيِّده ما سُنَّ بعدَه من قولِ: اللهُ ربُّنا وربُّ العالمين[٢]. انتهى، فتأمَّلْ ولا تَغْفَلْ، واللهُ تعالى الهادي لأسرار كتابه.

واختيرت المبالغةُ هاهنا - على ما قاله بعضُ المحقِّقين[٣] - لأنَّ المقام يقتضيها؛ إذ هو لتَعْدادِ آيات الآفاق والأنفس على وجهٍ يتضمَّن الدلالةَ على القدرة والرحمة مع كمال عظمةِ المتَّصفِ بهما، ولذا ابتُدئ بضمير العظمة مع التأكيد، بخلافِ ما ثَمة فإنه تتميمٌ للحثِّ على العبادة والترغيبِ فيها، وهو كافٍ في ذلك.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء، وهو ظاهرٌ فيما عليه السلف، وقال الخَلَف: المرادُ: أنشأنا عنده.

﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ قدَّمهما لكثرتهما وكثرةِ الانتفاع بهما، لاسيما في الحجاز والطائف والمدينة.

﴿لَّكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ تتفكَّهون بها وتتنعَّمون زيادةً على المعتاد من الغذاء الأصلي. والمرادُ بها: ما عدا ثمراتِ النخيل والأعناب.

﴿وَمِنْهَا﴾ أي: من الجنات، والمرادُ: من زروعها وثمارها، و«من» ابتدائية، وقيل: إنها تبعيضية ومضمونُها مفعولُ ﴿تَأْكُلُونَ ١٩﴾ والمرادُ بالأكل معناه الحقيقيُّ. وجوِّز أن يكون مجازاً أو كنايةً عن التعيُّش مطلقاً، أي: ومنها تُرزقون وتُحَصِّلون معايشكم، من قولهم: فلانٌ يأكل من حرفته.

وجوِّز أن يعود الضميران للنخيل والأعناب، أي: لكم في ثمراتها أنواعٌ من الفواكه - الرُّطَب، والعِنَب، والتمر، والزبيب، والدِّبس من كلٍّ منهما، وغير

(١) في (م): علم، وهو تصحيف.

(٢) لم نقف على هذه السنة، وفي تفسير الجلالين أنه يستحب أن يقال عقب «معين»: الله ربُّ العالمين.

(٣) هو الشهاب في الحاشية ٦/٣٢٨.

ذلك ـ وطعامٌ تأكلونه، فثمرتهما جامعةٌ للتفكُّه والغذاء، بخلافِ ثمرةِ ماعَدَاهما، وعلى هذا تكون الفاكهة مطلقةً على ثمرتهما.

وذكر الراغب في الفاكهة قولين: الأول: أنها الثمار كلُّها. والثاني: أنها ما عدا العنب والرمَّان[١]. وصاحبُ «القاموس»[٢] اختار الأول، وقال: قولُ مُخْرِجِ التمرِ والرمانِ منها مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] باطلٌ مردود، وقد بيَّنتُ ذلك مبسوطاً في «اللَّامِعِ المُعْلَمِ العُجَاب»[٣]. اهـ.

وأنت تعلم أنَّ للفقهاء خلافاً في الفاكهة، فذهب الإمامُ أبو حنيفة إلى أنها التفاحُ والبطيخُ والمشمشُ والكمثرى ونحوُها، لا العنبُ والرمانُ والرُّطَبُ، وقال صاحباه: هذه[٤] المستثنياتُ أيضاً فاكهةٌ. وعليه الفتوى. ولا خلافَ ـ كما في القهستانيِّ نقلاً عن الكرمانيِّ ـ في أنَّ اليابسَ منها، كالزبيب والتمر وحبِّ الرمان، ليس بفاكهةٍ[٥].

وفي «الدر المختار»: أنَّ الخلافَ بين الإمام وصاحبيه خلافُ عصرٍ، فالعبرةُ فيمَن حلف لا يأكلُ الفاكهةَ العرفُ، فيحنث بأكل ما يعدُّ فاكهةً عُرفاً، ذَكرَ ذلك الشُّمُنِّي وأقرَّه الغزيُّ[٦].

ولا يخفى أن شيئاً واحداً يقال له فاكهة في عرفِ قوم ولا يقال له ذلك في عرفِ آخرين، ففي «النهر» عن «المحيط»: ما رُوي من أنَّ الجوزَ واللَّوزَ فاكهةٌ فهو في عُرْفِهم، أمَّا في عُرْفِنا فإنه لا يؤكَلُ للتفكُّه[٧]. اهـ.

---

(١) مفردات الراغب (فكه).
(٢) مادة (فكه).
(٣) اللامع المعلم العجاب الجامع بين المُحْكَم والعُباب، ثم لخَّصه وسماه: القاموس المحيط. مفتاح السعادة لطاشْكُبْرِي زاده ١/ ١١٩.
(٤) قوله: هذه، ليس في (م).
(٥) حاشية ابن عابدين ٣/ ٧٧٧.
(٦) الدر المختار ١/ ٤٠٤، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٧٧٧، والغزي هو شمس الدين محمد بن عبد الله بن أحمد بن تمرتاش الغزي الحنفي المتوفى سنة (١٠٠٤هـ) صاحب كتاب: تنوير الأبصار وجامع البحار، والذي شرحه الحصكفي في: الدر المختار. ينظر كشف الظنون ١/ ٥٠١.
(٧) حاشية ابن عابدين ٣/ ٧٧٧.

ثم إنِّي لم أرَ أحداً من اللغويين ولا من الفقهاء عدَّ الدبس فاكهةً، فتدبَّر ولا تغفل.

﴿وَشَجَرَةً﴾ بالنصب عطفٌ على «جنات»، وقرىء بالرفع[1] على أنه مبتدأ خبرُه محذوف، والأَوْلَى تقديره مقدَّماً، أي: [ومما][2] أنشأنا لكم شجرةٌ.

﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ وهو جبلُ موسى عليه السلام الذي ناجى ربَّه سبحانه عنده، وهو بين مصر وأَيْلَة، ويقالُ لها اليوم: العَقَبة. وقيل: بفلسطين من أرض الشام، ويقال له: طور سينين.

وجمهورُ العرب على فتح سين سَيناء والمدّ، وبذلك قرأ عمر بن الخطاب ﷺ، ويعقوب، وأكثرُ السبعة[3]، وهو اسم للبقعة.

والطورُ اسمٌ للجبل المخصوص أو لكلِّ جبلٍ، وهو مضافٌ إلى «سيناء» كما أجمعوا عليه، ويقصد تنكيرُه على الأول كما في سائر الأعلام إذا أضيفت، وعلى الثاني يكون طورُ سيناء كمنارة المسجد.

وجوِّز أن يكون كامرئ القيس، بمعنى أنه جُعِلَ مجموعُ المضاف والمضافِ إليه عَلَماً على ذلك العَلَم.

وقيل: سيناء اسمٌ لحجارة بعينها أضيفَ الجبلُ إليها لوجودها عنده، وروي هذا عن مجاهد[4].

وفي «الصحاح»: طور سيناء جبلٌ بالشام، وهو طورٌ أضيفَ إلى سيناء وهو شجر[5]. وقيل: هو اسم الجبل، والإضافة من إضافة العامِّ إلى الخاصِّ كما في

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٧، والكشاف ٣/ ٢٩.

(٢) ما بين حاصرتين من الكشاف ٣/ ٢٩، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٥، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٢٨.

(٣) هي قراءة عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر من السبعة. التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨. وذكرها عن عمر ﷺ أبو حيان في البحر ٦/ ٤٠١.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٣٠٦، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٠، وعنه نقل المصنف.

(٥) الصحاح (سنن).

جبل أحد. وحَكَى هذا القول في «البحر» عن الجمهور[١]، لكنْ صحَّح القولُ بأنه اسم البقعة.

وهو ممنوعٌ من الصرف للألف الممدودة فوزنه فعلاء كصحراء. وقيل: مُنع من الصرف للعَلَمية والعُجْمة. وقيل: للعَلَمية والتأنيث بتأويل البقعة، ووزنُه فَيْعَال لا فَعْلال؛ إذ لا يوجد هذا الوزنُ في غير المضاعف في كلام العرب إلا نادراً كخَزْعَال لظَلْعِ الإبل؛ حكاه الفرَّاء[٢]، ولم يُثْبِتْه أبو البقاء[٣].

والأكثرون على أنه ليس بعربيٍّ بل هو إمَّا نبطيٌّ أو حَبَشي، وأصل معناه: الحَسَن أو المبارك.

وجوَّز بعضٌ أن يكون عربيًّا من السَّناء بالمدِّ وهو الرفعة، أو السَّنَا بالقصر وهو النور.

وتعقَّبه أبو حيان بأنَّ المادتين مختلفتان؛ لأنَّ عين السَّناء أو السَّنا نونٌ، وعين سيناء ياء[٤].

ورُدَّ بأن القائل بذلك يقول: إنه فَيْعال، ويَجْعَلُ عينَه النونَ وياءَه مزيدةً وهمزتَه منقلبةً عن واو.

وقرأ الحِرْمِيَّان وأبو عمرو والحسن: «سِيناء» بكسر السين والمدِّ[٥]، وهي لغةٌ لبني كنانة، وهو أيضاً ممنوعٌ من الصرف للألف الممدودةِ عند الكوفيين؛ لأنهم يُثْبِتون أنَّ همزة فعلاء تكون للتأنيث. وعند البصريين ممنوعٌ من الصرف للعَلَمية والعُجْمة، أو العَلَميةِ والتأنيث؛ لأن ألف فعلاء عندهم لا تكون للتأنيث بل

---

(١) البحر ٦/ ٤٠٠.

(٢) كما في تهذيب اللغة ٣/ ٢٧٥، والإملاء ٢/ ٥٢. قال الأزهري: سلمة عن الفراء: ناقةٌ بها خَزْعال، أي: ظَلْع، وليس في الكلام مثله. اهـ. وفي التاج (خزعل): زاد غيره قَسْطال للغبار، وخَزْطال للحَبّ. اهـ. والظَّلع، قال صاحب القاموس(ظلع): ظَلَعَ البعيرُ: غَمَزَ في مشيه.

(٣) في الإملاء ٢/ ٥٢.

(٤) البحر ٦/ ٤٠١.

(٥) التيسير ص١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨.

للإلحاق بفِعْلال، كعِلْباء[1] وحِرْباء، وهو ملحقٌ بقِرْطاس وسِرْداح[2]، وهَمْزتُه منقلبةٌ عن واوٍ أو ياء؛ لأنَّ الإلحاق يكون بهما.

وقال أبو البقاء: همزةُ سِيناء بالكسر أصلٌ، مثل: حِمْلاق، وليست للتأنيث إذ ليس في الكلام مثلُ حِمراء، والياءُ أصلٌ إذ ليس في الكلام سناً[3].

وجوَّز بعضُهم أن يكون فِيعالًا كديماس.

وقرأ الأعمش: «سَيْنا» بالفتح والقصر[4]. وقرئ: «سِينا» بالكسر والقصر[5]، فألفُه للتأنيث إن لم يكن أعجميًا.

والمراد بهذه الشجرة: شجرةُ الزيتون، وتخصيصُها بالذكر من بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافعَ معروفةٍ.

وقد قيل: هي أول شجرة نَبَتَتْ بعد الطوفان، وتعمَّر كثيراً، ففي «التذكرة»[6] أنها تدومُ ألفَ عام، ولا تَبعُدُ صحَّته لكن علَّله بقوله: لتعلُّقها بالكوكب العالي، وهو بعيدُ الصحة.

وفي «تفسير الخازن»: قيل: تبقى ثلاثة آلافِ سنةٍ[7].

وتخصيصُها بالوصف بالخروج من الطور مع خروجها من سائر البقاع أيضاً ـ وأكثرُ ما تكون في المواضع التي زاد عرضُها على ميلها، واشتدَّ بَرْدُها،

---

(١) العلباء: عصب عنق البعير. القاموس (علب).

(٢) السِّرْداح: الناقة الطويلة، أو الكريمة، أو العظيمة، أو السمينة، أو القوية الشديدة التامة. القاموس (سردح).

(٣) الإملاء ٢/٥٢، وسقط من مطبوعه: إذ ليس في الكلام مثل حمراء والياء أصل، ولفظ المصنف موافق لما نقله السمين في الدر ٨/٣٢٦ عن أبي البقاء، ووقع بدل سناً في الأصل ومطبوع الإملاء: سيناء، وفي (م): سناء، والمثبت من الدر المصون، وقال السمين: يعني مادة سين ونون وهمزة.

(٤) القراءات الشاذة ص ٩٧، والدر المصون ٨/٣٢٦.

(٥) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/٣٢٦، وتفسير أبي السعود ٦/١٢٨.

(٦) التذكرة النصيرية في الهيئة لنصير الدين محمد بن محمد الطوسي، وشرحها الشريف علي بن محمد الجرجاني. كشف الظنون ١/٣٩١.

(٧) تفسير الخازن ٣/٣٥-٣٦.

وكانت جبليةً ذا تربة بيضاءَ أو حمراء ـ لتعظيمها، أو لأنه المنشأ الأصليُّ لها. ولعل جَعْلَه للتعظيم أولى، فيكون هذا مدحاً لها باعتبار مكانها.

وقوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ مدحاً لها باعتبارِ ما هي عليه في نَفْسِها، والباءُ للمُلابسة والمصاحبة، مثلُها في قولك: جاء بثيابِ السَّفر، وهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالًا من ضمير الشجرة، أي: تَنْبتُ مُلْتبِسةً بالدُّهن، وهو عصارةُ كلِّ ما فيه دسم، والمرادُ به هنا الزيتُ، وملابَسَتُها به[١] باعتبار ملابسةِ ثمرها؛ فإنه المُلابِسُ له في الحقيقة.

وجوَّز أن تكون الباءُ متعلِّقةً بالفعل معدِّيةً له، كما في قولك: ذهبتُ بزيد، كأنه قيل: تُنبتُ الدُّهنَ، بمعنى: تتضمَّنهُ وتحصِّلُه. ولا يخفى أنَّ هذا وإنْ صحَّ إلَّا أنَّ إنباتَ الدُّهن غيرُ معروفٍ في الاستعمال.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وسلامٌ وسهلٌ ورُوَيسٌ والجحدريُّ: «تُنْبِتُ» بضمِّ التاء المثنَّاة من فوق وكَسْرِ الباء[٢] على أنه من باب الإفعال، وخرِّج ذلك على أنه مِن أَنْبتَ بمعنى نَبتَ، فالهمزةُ فيه ليستْ للتعدية، وقد جاء كذلك[٣] في قول زهير:

رأيتُ ذوي الحاجات حولَ بيوتهم ... قطيناً لهم حتى إذا أَنْبتَ البقلُ[٤]

وأنكر ذلك الأصمعيُّ وقال: إنَّ الرواية في البيت: نَبتَ، بدون همزةٍ، مع أنه يحتمل أن تكون همزةُ أَنْبتَ فيه إن كانت للتعدية بتقديرِ مفعولٍ، أي: أَنْبتَ البقلُ ثَمَره، أو: ما يأكلون، ومنهم مَن خرَّج ما في الآية على ذلك، وقال: التقدير: تُنْبِتُ زيتونَها بالدهن، والجارُّ والمجرورُ على هذا في موضع الحال من المفعول أو من الضمير المستتر في الفعل.

وقيل: الباءُ زائدةٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

---

(١) قوله: به، ليس في الأصل.

(٢) التيسير ص ١٥٩ عن ابن كثير وأبي عمرو، وقراءة رويس في النشر ٢/ ٣٢٨.

(٣) في الأصل: ذلك.

(٤) شرح ديوان زهير ص١١١، وفيه: القطين: أهل الرجل وحَشَمه، أو الساكن النازل في الدار. وسلف البيت ١٤/ ٤٢.

ونسبةُ الإنبات إلى الشجرة بل وإلى الدهن مجازيةٌ. قال الخفاجيُّ[1]: ويحتملُ تعديةُ أَنْبَتَ بالباء لمفعولٍ ثانٍ.

وقرأ الحسن والزهريُّ وابن هرمز: «تُنْبَتُ» بضمِّ أوله وفَتْحِ ما قبلَ آخرِه مبنيًّا للمفعول[2]، والجارُّ والمجرور في موضع الحال.

وقرأ زرّ بنُ حبيش: «تُنْبِتُ» من الإفعال «الدُّهنَ» بالنصب[3].

وقرأ سليمان بن عبد الملك والأشهب: «بالدِّهان» جمع دهنٍ[4]، كرِماح جمع رمح.

وما رَوَوْا من قراءة عبد الله: «تُخْرِجُ الدُّهْنَ»[5]. وقراءةِ أبيٍّ: «تُثْمِرُ بالدُّهن»[6] محمولٌ على التفسير على ما في «البحر»؛ لمخالفته سوادَ المصحف المجمَعِ عليه، ولأن الرواية الثابتة عنهما كقراءة الجمهور[7].

﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾ معطوفٌ على الدهن، ومغايرتُه له التي يقتضيها العطفُ باعتبار المفهوم، وإلا فذاتُهما واحدةٌ عند كثيرٍ من المفسرين، وقد جاء كثيراً تنزيلُ تغايُرِ المفهومين منزلةَ تغايُرِ الذاتين، ومنه قولُه:

إلى الملكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَام وليثِ الكتيبة في المُزْدَحَمْ[8]

والمعنى: تنبتُ بالشيءِ الجامع بين كونه دهناً يُدْهَنُ به ويُسْرَجُ منه، وكونِه إداماً يُصْبَغُ فيه الخبز، أي: يُغْمَسُ للائتدام، قال في «المُغرِب»: يقال: صَبَغَ الثوبَ

---

(١) في الحاشية ٦/ ٣٢٦، وما قبله منه.

(٢) القراءات الشاذة ص٩٧، والمحتسب ٢/ ٨٨، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٠، والكشاف ٣/ ٢٩، والبحر ٦/ ٤٠١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠، والبحر ٦/ ٤٠١.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٠، والبحر ٦/ ٤٠١.

(٥) البحر ٦/ ٤٠١، وهي في الكشاف ٣/ ٢٩ برواية: «تُخرِجُ الدهنَ وصبغَ الآكلين». وفي المحتسب ٢/ ٨٨ بلفظ: «تَخرجُ بالدُّهن».

(٦) القراءات الشاذة ص ٩٧، والكشاف ٣/ ٢٩، والبحر ٦/ ٤٠١.

(٧) البحر ٦/ ٤٠١.

(٨) معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٥، والخزانة ١/ ٤٥١، وسلف ٢/ ٣٥٠.

بصِبْغٍ حَسَنٍ وصِباغٍ، ومنه الصِّبغُ والصِّباغُ من الإدام، لأن الخبز يُغْمَسُ فيه ويلوَّنُ به كالخلِّ والزيت[١]. وظاهرُ هذا اختصاصُه بكلِّ إدامٍ مائعٍ، وبه صرَّح في «المصباح»[٢].

وصرَّح بعضهم بأن إطلاق الصبغ على ذلك مجازٌ، ولعل في كلام «المغرب» نوعُ إشارةٍ إليه.

وروي عن مقاتل أنه قال: الدهن الزيتُ، والصبغُ الزيتون. وعلى هذا يكون العطف من عَطْفِ المتغايرين ذاتاً، وهو الأكثر في العطف. ولا بد أن يقال عليه: إنَّ الصبغ الإدامُ مطلقاً وهو ما يؤكلُ تبعاً للخبز في الغالب مائعاً كان أم جامداً، والزيتونُ أكثر ما يأكله الفقراء في بلادنا تبعاً للخبز، والأغنياء يأكلونه تبعاً لنحو الأرز، وقلَّما يأكلونه تبعاً للخبز.

وأنا مشغوفٌ به مُذْ أنا يافعٌ، فكثيراً ما آكلُه تبعاً واستقلالاً، وأمَّا الزيتُ فلم أر في أهل بغداد مَن اصْطَبغَ منه، وشذَّ مَن أكل منهم طعاماً هو فيه، وأكثرهم يعْجَبُ ممن يأكلُه، ومنشأُ ذلك قلَّةُ وجوده عندهم، وعدمُ إلفهم له، فتَعافُه نفوسُهم. وقد كنتُ قديماً تعافُه نفسي وتدريجاً أَلِفْتُه والحمد لله تعالى، فقد كان ﷺ يأكله، وصحَّ أنه ﷺ طُبخ له لسانُ شاةٍ بزيتٍ فأكَل منه[٣].

وأخرج أبو نعيم في «الطب» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيتَ وادَّهِنوا به، فإنه شفاءٌ من سبعين داءً منها الجذام»[٤].

وأخرج الترمذيُّ في الأطعمة عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «كلوا الزيتَ وادَّهنوا به، فإنه يخرجُ من شجرةٍ مباركة»[٥].

---

(١) المغرب للمطرزي ص٤٦٦.
(٢) مادة (صبغ).
(٣) لم نقف عليه.
(٤) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ٢/ ٢٤٧، ورمز لضعفه.
(٥) سنن الترمذي (١٨٥١)، قال الترمذي: هذا حديث لا يعرف إلا من حديث عبد الرزاق، وكان يضطرب فيه، فربما يذكر فيه: عن عمر عن النبي ﷺ، وربما رواه على الشك فقال: أحسبه عن عمر عن النبي ﷺ، وربما قال: عن زيد بن أسلم عن أبيه عن النبي ﷺ مرسلاً. =

لكن قال بعضُهم: هذا الأمرُ لمن قدرَ على استعماله ووافق مزاجَه، وهو كذلك، فلا اعتراضَ على مَن لم يوافق مزاجه في عدم استعماله، بل الظاهرُ حرمةُ استعماله عليه إن أضرَّ به، كما قالوا بحرمة استعمال الصفراويِّ للعسل، ولا فرق في ذلك بين الأكل والادِّهان، فإنّ الادِّهان به[1] قد يضرُّ كالأكل.

قال ابن القيم: الدهنُ في البلاد الحارَّة كالحجاز من أسباب حِفْظِ الصحة وإصلاحِ البدن، وهو كالضروريِّ لأهلها، وأمَّا في البلاد الباردة فضارٌّ، وكثرةُ دهنِ الرأس بالزيت فيها فيه خطرٌ على البصر[2]. انتهى.

وقرأ عامر بن عبد الله: «وصباغاً»[3] وهو بمعنى «صِبْغ» كما مرَّت إليه الإشارة ومنه دِبْغ ودِباغ، ونَصْبُه بالعطف على موضعِ «بالدهن». وفي تفسير ابن عطية: وقرأ عامر بن عبد قيس: «ومتاعاً للآكلين»[4] وهو محمولٌ على التفسير.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ بيانٌ للنعم الواصلةِ إليهم من جهة الحيوان إثرَ بيانِ النعم الفائضة عليهم[5] من جهة الماء والنبات، وقد بيَّن أنها مع كونها في نفسها نعمةً ينتفعون بها على وجوهٍ شتَّى عبرةٌ لا بدَّ من أن يَعتبروا بها، ويستدلُّوا بأحوالها على عظيمِ قدرةِ الله عز وجل وسابغِ رحمته، ويَشْكُروه ولا يَكْفُروه، وخصَّ هذا بالحيوان لِمَا أنَّ محلَّ العبرة فيه أظهر.

وقوله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ تفصيلٌ لِمَا فيها من مواقع العبرة،

= وصوب ابن معين في تاريخه (٥٩٥ـ رواية الدوري) أن يكون عن زيد مرسلاً (ويعني بالمرسل المنقطع). وله شاهد لا يفرح به من حديث أبي أسيد في مسند أحمد (١٦٠٥٤)، وفي إسناده مجهول. وآخر لا يُفرح به أيضاً من حديث أبي هريرة عند ابن ماجه (٣٣٢٠) وفي إسناده عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، وهو متروك كما قال الحافظ في التقريب.

(١) قوله: به، ليس في الأصل.

(٢) زاد المعاد ٤/ ٢٨٢.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٩٧، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٠١ برواية: «وصباغٍ»، وكذا ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٩ لكن دون نسبة، ورواية النصب ذكرها ابن خالويه والزمخشري وأبو حيان عن الأعمش بلفظ: «وصبغاً».

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٠.

(٥) قوله: عليهم، ساقط من (م).

و«ما في بطونها» عبارةٌ إمَّا عن الألبان ف «من» تبعيضية، والمرادُ بالبطون الأجوافُ، فإنَّ اللبن في الضروع. أو عن العَلَفِ الذي يتكوَّن منه اللبنُ ف «مِن» ابتدائية والبطونُ على حقيقتها. وأيًّا ما كان فضمير «بطونها» للأنعام باعتبارِ نسبةِ ما للبعض إلى الكلِّ، لا للإناث منها على الاستخدام[(١)]؛ لأنَّ عموم ما بعدها يأباه.

وقرئ بفتح النون[(٢)]، وبالتاء أي: تَسْقيكم الأنعام[(٣)].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ غير ما ذُكر من أصوافها وأشعارها وأوبارها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٢١﴾ الظاهرُ أنَّ الأكل على معناه الحقيقيِّ، و«من» تبعيضيةٌ لأنَّ من أجزاء الأنعام ما لا يؤكل. وتقديمُ المعمول للفاصلة، أو للحصر الإضافيِّ بالنسبة إلى الحمير ونحوِها، أو الحصر باعتبارِ ما في «تأكلون» من الدلالة على العادة المستمرة. وكأن هذا بيانٌ لانتفاعهم بأعيانها، وما قبله بيانٌ لانتفاعهم بمرافقها وما يَحصُلُ منها.

ويجوز عندي ـ ولم أرَ مَن صرَّح به ـ أن يكون الأكل مجازاً أو كنايةً عن التعيُّش مطلقاً كما سمعتَ قبلُ، أي: ومنها تُرزقون وتحصِّلون مَعايِشَكم.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٢٢﴾ في البرِّ والبحر بأنفسكم وأثقالكم، وضمير «عليها» للأنعام باعتبار نسبة ما للبعض إلى الكلِّ أيضاً. ويجوز أن يكون لها باعتبارِ أنَّ المراد بها الإبلُ على سبيل الاستخدام؛ لأنها هي المحمولُ عليها عندهم، والمناسِبةُ للفلك فإنها سفائن البرِّ؛ قال ذو الرُّمَّة في صيدحه:

سفينةُ بَرٍّ تحت خدِّي زِمامُها[(٤)]

---

(١) الاستخدام: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٢) هي قراءة نافع وابن عامر وأبي بكر ويعقوب. التيسير ص ١٣٨، والنشر ٢/ ٣٠٤.

(٣) هي قراءة أبي جعفر. النشر ٢/ ٣٠٤.

(٤) وصدره: طُروقاً وجِلْبُ الرَّحْل مشدودةٌ به، وهو في الديوان ٢/ ١٠٠٤، والخزانة ٣/ ٤٢٠، وصيدح هي ناقة ذي الرمة. قال البغدادي: الطروق مصدر طرق، أي: أتى ليلاً. وجلب الرحل بكسر الجيم وضمها: عيدانه وخشبه، وقوله: به، أي: بالجلب، يريد أنه كان نزل عن ناقته آخر الليل، وجعل زمامها تحت خده ونام.

وهذا مما لا بأس به. وأمَّا حَمْلُ الأنعام من أول الأمر على الإبل فلا يناسبُ مقام الامتنان ولا سياقَ الكلام، وفي الجمع بينها[(١)] وبين الفُلْكِ في إيقاع الحمل عليها مبالغةٌ في تحمُّلها للحَمْلِ، قيل: وهذا هو الداعي إلى تأخير هذه المنفعة - مع كونها من المنافع الحاصلة منها - عن ذكر منفعة الأكل المتعلِّقة بعينها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ شروعٌ في بيان إهمال الناسِ وتَرْكِهم النظرَ والاعتبارَ فيما عدَّد سبحانه من النِّعم، وما حاقهم[(٢)] من زوالها، وفي ذلك تخويفٌ لقريش.

وتقديمُ قصة نوحٍ عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وجهُهُ، وفي إيرادها إثرَ قوله تعالى: (وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) من حُسْنِ الموقعِ ما لا يوصف، وتصديرُها بالقَسَم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونها.

والكلامُ في نسب نوح عليه السلام وكميةِ لبثه في قومه ونحوِ ذلك قد مرَّ[(٣)]، والأصحُّ أنه عليه السلام لم تكن رسالته عامةً، بل أُرسل إلى قوم مخصوصين.

﴿فَقَالَ﴾ متعطِّفاً عليهم ومُسْتَميلاً لهم إلى الحق: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبدوه وحده، كما يُفْصِحُ عنه قولهُ تعالى في سورة هود: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الآية: ٢٦] وتركُ التقييد به للإيذان بأنها هي العبادة فقط، وأما العبادة مع الإشراك فليست من العبادة في شيءٍ رأساً.

وقولُه تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لتعليل العبادة المأمور بها، أو تعليلِ الأمر بها، و«غيرُه» بالرفع صفةٌ لـ «إله» باعتبارِ محلِّه الذي هو الرفعُ على أنه فاعلٌ بـ «لكم»، أو مبتدأٌ خبره «لكم»، أو محذوفٌ و«لكم» للتخصيص والتبيين، أي: مالكم في الوجود إلهٌ غيرهُ تعالى.

---

(١) في (م): بينهما، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ١٢٩، والكلام منه.

(٢) قوله: حاقهم، ضمَّنه معنى أصابهم. فعدَّاه بنفسه، وأصله أن يتعدَّى بالباء. حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٧.

(٣) عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأعراف.

وقرئ: «غيرِه» بالجرِّ[1] اعتباراً لِلَفْظِ «إله».

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الهمزةُ لإنكارِ الواقع واستقباحه، والفاءُ للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، أي: أتعرفون ذلك ـ أي: مضمونَ قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ـ فلا تتقون عذابَه تعالى الذي يستوجبه ما أنتم عليه مِن تَرْكِ عبادته سبحانه وحده، وإشراكِكم به عز وجل في العبادة ما لا يستحقُّ الوجودَ لولا إيجادُ اللهِ تعالى إياه، فضلاً عن استحقاق العبادة، فالمنكَرُ عدمُ الاتِّقاء مع تحقُّق ما يُوجبه.

ويجوز أن يكون التقدير: ألا تلاحظون فلا تتَّقون، فالمنكَرُ كِلَا الأمرين، فالمبالغةُ حينئذٍ في الكمية، وفي الأول في الكيفية.

وتقديرُ مفعولِ: «تتقون» حَسْبما أَشَرْنا إليه أَوْلى من تقدير بعضِهم إياه: زوالَ النعم، ولا نسلِّم أنَّ المقام يقتضيه كما لا يخفى.

﴿فَقَالَ الْمَلَؤُا﴾ أي: الأشراف ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ﴾ وصف الملأ بالكفر مع اشتراك الكلِّ فيه؛ للإيذان بكمال عراقتهم وشدةِ شكيمتهم فيه، وليس المراد من ذلك إلَّا ذمَّهم دون التمييز عن أشرافٍ آخرين آمنوا به عليه السلام؛ إذ لم يؤمن به أحدٌ من أشرافهم كما يُفْصِحُ عنه قول: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧] وقال الخَفَاجيُّ: يصحُّ أن يكون الوصفُ بذلك للتمييز وإن لم يؤمن بعضُ أشرافهم وقتَ التكلُّم بهذا الكلام؛ لأنَّ من أهله عليه السلام المتَّبِعينَ له أشرافاً، وأمَّا قول: «ما نراك» إلخ فعَلَى زعمهم، أو لقلَّة المتَّبعين له من الأشراف[2].

وأيًّا ما كان فالمعنى: فقال الملأ لعوامِّهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: في الجنس والوصفِ من غير فرقٍ بينكم وبينه، وَصَفوه عليه السلام بذلك مبالغةً في وضع رتبته العالية، وحطِّها عن منصب النبوَّة.

ووَصَفوه بقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ إغضاباً للمخاطَبين عليه ـ عليه السلام ـ وإغراءً لهم على معاداته. والتفضُّلُ: طلبُ الفضل، وهو كنايةٌ عن السيادة، كأنه قيل: يريد أن يَسُودَكم ويتقدَّمكم بادِّعاء الرسالة مع كونه مثلَكم.

---

(١) هي قراءة الكسائي وأبي جعفر. التيسير ص ١١٠، والنشر ٢/ ٢٧٠.
(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٧.

وقيل: صيغةُ التفعُّل مستعارةٌ للكمال، فإن[1] ما يتكلَّف له يكون على أكمل وجهٍ، فكأنه قيل: يريد كمالَ الفضل عليكم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بيانٌ لعدم رسالة البشر على الإطلاق على زَعْمِهم الفاسد بعد تحقيق بشريَّته عليه السلام، أي: ولو شاء الله تعالى إرسالَ الرسول لأَرْسلَ رسلاً من الملائكة، وإنما قيل: «لأنزل» لأنَّ إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال، فمفعولُ المشيئة مطلقُ الإرسال المفهومِ من الجواب لا نفسُ مضمونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾ [النحل: ٩] ولا بأس في ذلك.

وأما القولُ بأنَّ مفعول المشيئة إنما يُحذف إذا لم يكن أمراً غريباً وكان مضمونَ الجزاء، فهو ضابطةٌ للحذف المطَّرد فيه لا مطلقاً، فإنه كسائر المفاعيل يحذف ويقدَّر بحسب القرائن، وعلى هذا يجوزُ أن يقال: التقدير: ولو شاء الله تعالى عبادتَه وحده لأنزل ملائكةً يبلِّغوننا ذلك عنه عز وجل، وكأنَّ هذا منهم طعنٌ في قوله عليه السلام لهم: «اعبدوا الله» وكذا قوله تعالى: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ بل هو طعنٌ فيما ذكر على التقدير الأول أيضاً، وذلك بناء على أنَّ «هذا» إشارةٌ إلى الكلام المتضمِّنِ الأمرَ بعبادة الله عز وجل خاصةً، والكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: ما سمعنا بمثلِ هذا الكلام في آبائنا الماضين قبل بعثته عليه السلام، وقدِّر المضافُ لأنَّ عدم السماع بكلام نوح المذكور لا يصلح للردِّ؛ فإنَّ السماع بمثله كافٍ للقبول.

وقيل: الإشارة إلى نفس هذا الكلام مع قطع النظر عن المشخِّصات، فلا حاجة إلى تقدير المضاف، وهو كلامٌ وجيه.

ثم إنَّ قولهم هذا إمَّا لكونهم وآبائهم في فترةٍ، وإمَّا لفَرْطِ غلوِّهم في التكذيب والعناد، وانهماكهم في الغيِّ والفساد. وأيًّا ما كان ينبغي أن يكون هو الصادر عنهم في مبادي دعوته عليه السلام كما تُنْبِئُ عنه الفاء الظاهرة في التعقيب في قوله تعالى: (فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟) إلخ.

---

(١) في (م): فإنه.

وقيل: «هذا» إشارةٌ إلى نوحٍ عليه السلام، على معنى: ما سمعنا بخبرِ نبوَّته. وقيل: إلى اسمه، وهو لفظُ «نوح»، والمعنى: لو كان نبيًّا لكان له ذكرٌ في آبائنا الأوَّلين.

وعلى هذين القولين يكون قولُهم المذكورُ من متأخِّري قومه المولودين بعد بعثته بمدةٍ طويلةٍ، فيكون المرادُ من آبائهم الأوَّلين مَن مضى قبلهم في زمنه عليه الصلاة والسلام، وصدورُ ذلك عنهم في أواخر أمره عليه السلام. وقيل: بعد مضيِّ آبائهم، ولا يلزم أن يكون في الأواخر.

وعليهما أيضاً يكون قولُهم: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: جنونٌ، أو جنٌّ يخبلونه، ولذلك يقول ما يقول ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾ فاحتَمِلوه واصبروا عليه وانتظروا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ لعله يفيقُ مما هو فيه = محمولاً على تَرَامي أحوالِهم في المكابرة والعناد، وإضرابهم عمَّا وَصَفُوه عليه السلام به من البشرية وإرادةِ التفضُّل إلى وَصْفِه بما ترى، وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقلاً وأرزنُهم قولاً.

وهو على ما تقدَّم محمولٌ على تناقُضِ مقالاتهم الفاسدةِ، قاتلهم الله تعالى أنَّى يؤفكون.

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنه قيل: فماذا قال عليه السلام بعد ما سمع منهم هذه الأباطيل؟ فقيل: قال لما رآهم قد أصرُّوا على ما هم فيه، وتمادَوا على الضلال حتى يئس من إيمانهم بالكلِّية وقد أوحي إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإهلاكهم بالمرَّة بناءً على أنه حكايةٌ إجماليةٌ لقوله عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ إلخ [نوح: ٢٦].

والباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ للسببية أو للبدل، و«ما» مصدرية، أي: بسببِ تكذيبهم إياي أو بَدَلَ تكذيبهم. وجوِّز أن تكون الباء آليةً و«ما» موصولة، أي: انصرني بالذي كذبوني به، وهو العذابُ الذي وعدتُهم إياه ضِمْنَ قولي: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] وحاصله: انصرني بإنجاز ذلك، ولا يخفَى ما في حَذْفِ مثلِ هذا العائد من الكلام.

وقرأ أبو جعفر وابن محيصن: «ربُّ» بضمِّ الباء[(١)]، ولا يخفى وجهه.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ عقيبَ ذلك، وقيل: بسبب ذلك ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ «أنْ» مفسِّرةٌ لِمَا في الوحي من معنى القول.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ مُلْتَبِساً بمزيدِ حِفْظِنا ورعايتِنا لك من التعدِّي، أو من الزيغ في الصنع ﴿وَوَحْيِنَا﴾ وأمرِنا وتعليمنا لكيفية صُنْعِها.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ لترتيب مضمون ما بعدها على إتمام صنع الفلك، والمرادُ بالأمر العذابُ كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣] فهو واحدُ الأمور، لا الأمرُ بالركوب فهو واحدُ الأوامر كما قيل، والمرادُ بمجيئه كمالُ اقترابِه أو ابتداءُ ظهوره، أي: إذا جاء إثر تمام الفلك عذابُنا.

وقوله سبحانه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ بيانٌ وتفسيرٌ لمجيء الأمر؛ روي أنه قيل له عليه السلام: إذا فار التنورُ اركبْ أنت ومَن معك. وكان تنورَ آدمَ عليه السلام فصار إلى نوح عليه السلام، فلما نبع منه الماء أخبرته امرأتُه فركبوا.

واختلفوا في مكانه؛ فقيل: كان في مسجد الكوفة، أي: في موضعه عن يمين الداخل من باب كندة اليوم.

وقيل: كان في عين وردة من الشام[(٢)]. وقيل: بالجزيرة قريباً من الموصل.

وقيل: التنورُ وجهُ الأرض.

وقيل: «فار التنور» مَثَلٌ كـ: حَمِيَ الوطيس.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه فسَّر «فار التنور» بـ: طَلَع الفجر، فقيل: معناه: إنَّ فَوَرانَ التنورِ كان عند طلوع الفجر، وفيه بُعْدٌ. وتمامُ الكلام في ذلك قد تقدَّم لك[(٣)].

---

(١) البحر ٦/ ٤٠٢، والمشهور عن أبي جعفر كسر الباء.
(٢) أخرج هذا القول ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٢٩ عن ابن عباس ﷺ. وعين وردة: هي رأس عين، المدينة المشهورة بالجزيرة، وبقربها يقع جبل طورزيتا عند قنطرة الخابور. ينظر معجم البلدان ٤/ ٤٧ و١٨٠.
(٣) ١٢/ ٥٢.

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أي: أَدْخِلْ فيها، يقال: سَلَكَ فيه، أي: دَخَلَ فيه، وسَلَكَه فيه، أي: أَدْخَلَه فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢].

﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: من كلِّ أمة ﴿زَوْجَيْنِ﴾ أي فردين مزدوجين، كما يُعْرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿اثْنَيْنِ﴾ فإنه ظاهرٌ في الفردين دون الجمعين.

وقرأ أكثر القرَّاء: «من كلِّ زوجين» بالإضافة[1] على أنَّ المفعول «اثنين»، أي: اسلُكْ من كلِّ أُمَّتَي الذكرِ والأنثى[2] واحدين مزدوجين، كجمل وناقة، وحصان ورَمَكَةٍ. وروي أنه عليه السلام لم يحمل في الفلك من ذلك إلَّا ما يلد ويبيضُ، وأمَّا ما يتولَّد من العفونات كالبقِّ والذباب والدود فلم يحمل شيئاً منه. ولعل نحوَ البغال ملحقةٌ في عدم الحمل بهذا الجنس؛ لأنه يحصل بالتوالُد من نوعين، فالحملُ منهما مُغْنٍ عن الحمل منه إذا كان الحملُ لئلَّا ينقطع النوع كما هو الظاهر فيحتاجَ إلى خَلْقٍ جديد كما خُلِقَ في ابتداء الأمر.

والآيةُ صريحةٌ في أنَّ الأمر بالإدخال كان قبل صُنْعِه الفلك، وفي سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ [الآية: ٤٠] فالوجهُ أن يُحْمَلَ على أنه حكايةٌ لأمرٍ آخَرَ تنجيزيٍّ وَرَدَ عند فوران التنور الذي نِيطَ به الأمرُ التعليقيُّ اعتناءً بشأن المأمور به، أو على أنَّ ذلك هو الأمرُ السابق بعينه، لكنْ لمَّا كان الأمرُ التعليقيُّ قبل تحقُّق المعلَّق به في حقِّ إيجاب المأمور به بمنزلة العدم، جُعِلَ كأنه إنما حَدَثَ عند تحقُّقِه، فحُكيَ على صورة التنجيز.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ قيل: عطفٌ على «اثنين» على قراءة الإضافة، وعلى «زوجين» على قراءة التنوين، ولا يخفى اختلالُ المعنى عليه، فهو منصوبٌ بفعلٍ معطوفٍ على «فاسلك» أي: واسْلُكْ أهلَكَ.

والمرادُ بهم أُمَّةُ الإجابة الذين آمنوا به عليه الصلاة والسلام سواءٌ كانوا من ذوي قرابته أم لا، وجاء إطلاق الأهل على ذلك. وإنما حُمِلَ عليه هنا دون المعنى المشهور ليَشْملَ من آمَنَ ممن ليس ذا قرابة، فإنهم قد ذُكروا في سورة هود، والقرآنُ

(١) لم يقرأ بالتنوين سوى حفص، والباقون بالإضافة. التيسير ص ١٢٤، والنشر ٢/٢٨٨.
(٢) أي: طائفتيهما. حاشية الشهاب ٦/٣٢٨.

يفسِّر بعضُه بعضاً، وعلى هذا يكون قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾ استثناءً منقطعاً.

واختار بعضُهم حَمْلَ الأهل على المشهور، وإرادةَ امرأته وبنيه منه كما في سورة هود، وحينئذ يكون الاستثناءُ متصلاً كما كان هناك، وعدمُ ذكرِ مَن آمَنَ للاكتفاء بالتصريح به ثمةَ، مع دلالة ما في الاستثناء وكذا ما بعده على أنه ينبغي إدخالُهُ.

وتأخيرُ الأمر بإدخال الأهل على التقديرين عمَّا ذُكر من إدخال الأزواج؛ لأنَّ إدخالَ الأزواج يحتاج إلى مُزاولةِ الأعمال منه عليه السلام، وإلى معاونة أهله إياه، وأمَّا هم فإنما يدخلون باختيارهم، ولأنَّ في المؤخَّر ضربُ تفصيلٍ بذكر الاستثناء وغيرِه، فتقديمهُ يُخِلُّ بتجاوُبِ النظم الكريم.

والمرادُ بالقولِ: القولُ بالإهلاك، والمرادُ بسَبْقِ ذلك تحقُّقهُ في الأزل، أو كتابةُ ما يدلُّ عليه في اللوح المحفوظ قبل أنْ تُخلقَ الدنيا. وجيءَ بـ «على» لكون السابق ضارًّا، كما جيءَ باللام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] لكون السابق نافعاً.

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ﴾ أي: لا تكلِّمني فيهم بشفاعةٍ وإنجاءٍ لهم من الغرق ونحوِه، وإذا كان المرادُ بهم مَن سَبَقَ عليه القولُ، فالإظهارُ في مقام الإضمار لا يَخْفَى وجهه.

﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧﴾ تعليلٌ للنهي، أو لِمَا يُنْبِيءُ عنه من عدم قبول الشفاعة لهم، أي: إنهم مَقْضيٌّ عليهم بالإغراق لا محالةَ؛ لظلمهم بالإشراك وسائرِ المعاصي، ومَن هذا شأنهُ لا ينبغي أن يُشْفَعَ له أو يُشَفَّعَ[1] فيه، وكيف ينبغي ذلك وهلاكُه من النعم التي يؤمرُ بالحمد عليها، كما يُؤْذِنُ به قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ من أهلك وأتباعك ﴿عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾ فإنَّ الحمد على الإنجاء منهم متضمِّنٌ للحمد على إهلاكهم.

وإنما قيل ما ذُكر ولم يُقَلْ: فقل الحمد لله الذي أهلك القوم الظالمين؛ لأنَّ نعمة الإنجاء أتمُّ.

---

(١) بالتشديد، والتشفيع: قبول الشفاعة. حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٩.

وقال الخفاجيُّ: إن في ذلك إشارةً إلى أنه لا ينبغي المَسرَّةُ بمصيبةِ أحدٍ ولو عدوًّا من حيث كونُها مصيبةً له؛ بل لِمَا تضمَّنته من السلامة من ضَرَرِهِ، أو تطهيرِ الأرض من وسخِ شِرْكِه وإضلاله[1].

وأنت تعلم أنَّ الحمد هنا رديفُ الشكر فإذا خُصَّ بالنعمة الواصلة إلى الشاكر لا يصحُّ أن يتعلَّق بالمصيبة من حيث إنها مصيبةٌ، وهو ظاهر. وفي أمرِه عليه السلام بالحمد على نجاة أتباعه إشارةٌ إلى أنه نعمةٌ عليه أيضاً.

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ في الفلك ﴿مُنزَلًا﴾ أي: إنزالاً، أو موضعَ إنزالٍ ﴿مُّبَارَكًا﴾ يتسبَّبُ لمزيدِ الخير في الدارين ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: مَن يُطْلَقُ عليه ذلك.

والدعاءُ بذلك إذا كان بعد الدخول فالمرادُ إدامةُ ذلك الإنزال، ولعل المقصود إدامةُ البركة، وجوِّز أن يكون دعاءً بالتوفيق للنزول في أبرك منازِلها لأنها واسعةٌ. وإن كان قبل الدخول فالأمرُ واضحٌ. وروى جماعةٌ عن مجاهد أنَّ هذا دعاءٌ أُمِرَ نوحٌ عليه السلام أن يقوله عند النزول من السفينة، فالمعنى: ربِّ أنزلني منها في الأرض منزلاً.. إلخ، وأخذ منه قتادةُ نَدْبَ أن يقول راكبُ السفينة عند النزول منها: «رب أنزلني» إلخ.

واستظهر بعضُهم الأولَ إذ العطفُ ظاهرٌ في أنَّ القولين وقتَ الاستواء.

وأعاد «قل» لتعدُّد الدعاء، والأولُ متضمِّنٌ دفعَ مضرَّةٍ ولذا قدِّم، وهذا لجَلْبِ منفعة.

وأَمَره عليه السلام أن يَشْفَعَ دعاءه ما يطابقه من ثنائه عز وجل توسُّلاً به إلى الإجابة، فإنَّ الثناء على المحسن يكون مستدعياً لإحسانه، وقد قالوا: الثناءُ على الكريم يغني عن سؤاله.

وإفرادُه عليه السلام بالأمر مع شركة الكلِّ في الاستواء لإظهار فَضْلِه عليه السلام، وأنه لا يليقُ غيره منهم للقرب من الله تعالى والفوزِ بعزِّ الحضور في مقام الإحسان، مع الإيماء إلى كبريائه عز وجل، وأنه سبحانه لا يخاطبُ كلَّ أحدٍ من

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٩.

عباده، والإشعارِ بأنَّ في دعائه عليه السلام وثنائه مندوحةً عمَّا عداه.

وقرأ أبو بكر والمفضَّل وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبان: «مَنْزلاً» بفتح الميم وفتح الزاي[1]، أي: مكانَ نزولٍ.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «مَنْزِلاً» بفتح الميم وكسر الزاي[2]؛ قال أبو عليٍّ[3]: يحتمل أن يكون المَنْزِل على هذه القراءة مصدراً، وأن يكون موضعَ نزول.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر مما فُعِلَ به عليه السلام وبقومه ﴿لَآيَٰتٍ﴾ جليلة يَستدِلُّ بها أولو الأبصار، ويَعتَبِرُ ذوو الاعتبار.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ «إنْ» مخفَّفةٌ من «إنّ»، واللام فارقةٌ بينها وبين «إن» النافية، وليست «إن» نافيةً واللامُ بمعنى «إلَّا». والجملةُ حاليةٌ، أي: وإن الشأنَ كنَّا مصيبين قومَ نوحٍ ببلاءٍ عظيم وعقابٍ شديد، أو مختبرين بهذه الآيات عبادَنا لننظُرَ مَن يَعتبِرُ ويتذكَّر، والمرادُ: معاملين معاملةَ المختبر، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد إهلاكِ قوم نوحٍ عليه السلام ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ هم عادٌ أو ثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو هودٌ أو صالحٌ عليهما السلام، والأولُ هو المأثورُ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإليه ذهب أكثر المفسرين، وأيِّد بقوله تعالى حكايةً عن هود: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وبمجيءِ قصةِ عادٍ بعد قصةِ قومِ نوحٍ في سورة الأعراف وسورةِ هود وغيرِهما.

واختار أبو سليمان الدمشقيُّ والطبريُّ الثاني[4]، واستدلَّا عليه بذكر الصيحة

---

(١) كذا في الأصل و(م): وفتح الزاي، وهو خطأ، والصواب: وكسر الزاي، كما في البحر ٦/ ٤٠٢، والكلام منه، وقراءة أبي بكر في التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨، وسيذكرها المصنف لاحقاً على الصواب.

(٢) وقرأ الباقون: «مُنْزَلاً» بضم الميم وفتح الزاي. التيسير ص١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨.

(٣) في الحجة ٥/ ٢٩٤.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٤٠ وما بعدها، وذكره عن أبي سليمان الدمشقي ابن الجوزي في زاد المسير ٥/ ٤٧١. وذكره عنه وعن الطبري أبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٣.

آخر القصة[١]، والمعروفُ أن قوم صالح هم المهلَكون بها دون قوم هود، وسيأتي الجوابُ عنه إن شاء الله تعالى.

وجعل القرن ظرفاً للإرسال كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ [الرعد: ٣٠] لا غايةً له كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩] للإيذان من أول الأمر أنَّ مَن أُرسل إليهم لم يأتهم من غير مكانهم، بل إنما نشأ فيما بين أَظْهُرِهم.

و«أنْ» في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مفسِّرةٌ؛ لتضمُّن الإرسال معنى القول، أي: قلنا لهم على لسان الرسول: اعبدوا الله، وجوِّز كونُها مصدريةً، ولا مانعَ من وَصْلِها بفعل الأمر وقبلها جارٌّ مقدَّر، أي: أرسلنا فيهم رسولاً بأن اعبدوا الله وحده.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ الكلام فيه كالكلام في نظيره المارِّ في قصة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الأشراف ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ بيانٌ لهم.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بلقاءِ ما فيها من الحساب والثواب والعقاب، أو بالمعاد، أو بالحياة الثانية، صفةٌ للملأ جيءَ بها ذمًّا لهم، وتنبيهاً على غلوِّهم في الكفر، ويجوزُ أن تكون للتمييز إنْ كان في ذلك القرن مَن آمن من الأشراف.

وتقديمُ «من قومه» هنا على الصفة مع تأخيره في القصة السابقة؛ لئلَّا يطولَ الفصلُ بين البيان والمبيَّن لو جيء به بعد الصفة وما في حيِّزها ممَّا تَعلَّقَ بالصلة، مع ما في ذلك من توهُّمِ تعلُّقه بالدنيا[٢]، أو يُفْصَلَ[٣] بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه لو جيء به بعد الوصف وقبل العطف، كذا قيل.

---

(١) لم نقف على هذا الاستدلال عن الطبري أو عن أبي سليمان الدمشقي، وذكره أبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٣، والشهاب في الحاشية ٦/ ٣٢٩ دون نسبة.

(٢) كذا في الأصل و(م)، والذي في حاشية الشهاب ٦/ ٣٢٩: توهُّم تعلُّقه بالذين كفروا، وهو الأنسب بالسياق.

(٣) قوله: يفصلَ، معطوف على قوله: يطولَ.

وتعقّب بأنه لا حاجةَ إلى ارتكاب جَعْلِ «الذين» صفةً للملأ وإبداءِ نكتةٍ للتقديم المذكور مع ظهورِ جوازِ جَعْلِه صفةً لـ «قومه».

ورُدَّ بأنَّ الداعي لارتكابه عطفُ قوله تعالى: ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ـ أي: نعَّمناهم ووسَّعنا عليهم فيها ـ على الصلة، فيكون صفة معنى للموصوف بالموصول، والمتعارَفُ إنما هو وصفُ الأشراف بالمترفين دون غيرهم، وكذا الحالُ إذا لم يعطف وجُعِلَ حالاً من ضمير «كذَّبوا».

وأنت تعلم أنَّا لا نسلِّم أنَّ المتعارَفَ إنما هو وصفُ الأشراف بالمترفين، ولئن سلَّمنا فوصْفُهم بذلك قد يبقى مع جَعْلِ الموصول صفةً لقومه بأن يُجعل جملة «أترفناهم» حالاً من «الملأ» بدون تقديرِ «قد» أو بتقديرها، أي: قال الملأ في حقِّ رسولنا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلخ في حال إحساننا عليهم.

نَعَم، الظاهرُ لفظاً عطفُ جملةِ «أترفناهم» على جملةِ الصلة، والأبلغُ معنًى جَعْلُها حالاً من الضمير؛ لإفادته الإساءة إلى مَن أَحْسَنَ وهو أقوى في الذمّ.

وجيءَ بالواو العاطفة في «وقال الملأ» هنا ولم يُجَأْ بها بل جيء بالجملة مستأنفةً استئنافاً بيانيًّا في موضعٍ آخر؛ لأنَّ ما نحن فيه حكايةٌ لتفاوُتِ ما بين المقالتين، أعني: مقالةَ المرسَلِ ومقالةَ المرسَلِ إليهم، لا حكايةُ المقاوَلةِ؛ لأنَّ المرسَلَ إليهم قالوا ما قالوا بعضهم لبعضٍ، وظاهرٌ إباءُ ذلك الاستئناف، وأما هنالك فيحقُّ الاستئنافُ؛ لأنه في حكاية المقاوَلةِ بين المرسَلِ والمرسَلِ إليهم، واستدعاءُ مقامِ المخاطبةِ ذلك بيِّنٌ. كذا في «الكشف»، ولا يحسمُ مادةَ السؤال؛ إذ يقال معه: لم حُكي هنالك المقاولةُ وهنا التفاوُتُ بين المقالتين، ولم يُعكس؟

ومثلُ هذا يَرِدُ على مَن علَّل الذكر هنا والتركَ هناك بالتفنُّن، بأن يقال: إنه لو عكس بأنْ تَرَكَ هنا وذَكَر هناك لحصل التفنُّن أيضاً. وأنا لم يظهر لي السرُّ في ذلك.

وأما الإتيانُ بالواو هنا والفاء في«فقال الملأ» في قصة نوح عليه السلام، فقد قيل: لعله لأنَّ كلام الملأ هنا لم يتَّصل بكلام رسولهم، بخلافِ كلام قومِ نوحٍ عليه السلام، والله تعالى أعلمُ بحقائق الأمور.

ولا يخفى ما في قولهم: «ما هذا» إلخ من المبالغة في توهين أمرِ الرسول عليه السلام وتهوينِه، قاتلهم الله ما أجهلهم!

وقولهُ تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ تقريرٌ للمماثلةِ، والظاهرُ أنَّ «ما» الثانية موصولةٌ، والعائدُ إليها ضميرٌ مجرورٌ حُذف مع الجارِّ لدلالة ما قبله عليه، والحذفُ هنا مثلُه في قولك: مررتُ بالذي مررتَ، في استيفاء الشرائط، وحسَّنه هنا كونُ «تشربون» فاصلةً.

وفي «التحرير»: زعم الفرَّاء[1] حذفَ العائد المجرور مع الجارِّ في هذه الآية، وهذا لا يجوزُ عند البصريين، والآيةُ إمَّا لا حَذْفَ فيها، أو فيها حذفُ المفعولِ فقط؛ لأنَّ «ما» إذا كانت مصدريةً لم تَحْتَجْ إلى عائد، وإن كانت موصولة فالعائدُ المحذوفُ ضميرٌ منصوبٌ على المفعولية متَّصلٌ بالفعل، والتقدير: مما تشربونه. اهـ.

وهذا تخريجٌ على قاعدة البصريين، ويفوتُ عليه فصاحةُ معادلة التركيب، على أنَّ الوجه الأول مُحوِجٌ إلى تأويل المصدر باسم المفعول، وبعد ذلك يحتاج إلى تكلُّفٍ لصحة المعنى، ويحتاج إلى ذلك التكلُّف على الوجه الثاني أيضاً؛ إذ لا يشربُ أحدٌ من مشروبهم، ولا من الذي يشربونه، وإنما يشرب من فردٍ آخَرَ من الجنس، فلا بد من إرادة الجنس على الوجهين.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فيما ذكر من الأحوال والصفات، أي: إن امْتَثَلْتُم بأوامره ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ عقولَكم، ومغبونون في آرائكم، حيث أذللتُم أنفسكم. واللامُ موطِّئةٌ للقسم، وجملةُ «إنكم لخاسرون» جوابُ القسم، و«إذاً» فيما أَميلُ إليه ظرفيةٌ متعلِّقةٌ بما تدلُّ عليه النسبة بين المبتدأ والخبر من الثبوت، أو بالخبر واللامُ لا تمنع عن العمل في مثل ذلك. وجوابُ الشرط محذوفٌ دلَّ عليه المذكور.

قال أبو حيان: ولو كان هذا هو الجواب للَزِمَتِ الفاءُ فيه بأن يقال: فإنكم.. إلخ، بل لو كان بالفاء في تركيبِ غيرِ القرآن الكريم لم يكن ذلك التركيبُ جائزاً إلَّا عند الفراء، والبَصْريون لا يجيزونه وهو عندهم خطأ[2]. اهـ.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٢٣٤، وكلام صاحب التحرير ذكره أيضاً أبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٤.
(٢) البحر ٦/ ٤٠٤.

وذكر بعضُهم أنَّ «إذاً» هنا للجزاء والجواب، وتَكلَّف لذلك، ولا يدعو إليه سوى ظنٍّ وجوبِ اتِّباع المشهور، وأنَّ الحقَّ في أمثال هذه المقامات منحصِرٌ فيما عليه الجمهور، وفي «همع الهوامع» وكذا في «الإتقان» للجلال السيوطيِّ في هذا البحث ما ينفعُك مراجعتُه فراجِعْه[1].

﴿أَيَعِدُكُمْ﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لتقريرِ ما قبلَه، مِن زَجْرِهم عن اتِّباعه عليه السلام بإنكار وقوعِ ما يدعوهم للإيمان به واستبعادِه.

وقولُه تعالى: ﴿أَنَّكُمْ﴾ على تقديرِ حرفِ الجرِّ، أي: بأنكم، ويجوزُ أن لا يقدَّر، نحو: وعدتُكَ الخير.

﴿إِذَا مِتُّمْ﴾ بكسر الميم، من مات يَمات، وقرئ بضمِّها[2] من مات يموت.

﴿وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي: وكان بعضُ أجزائكم من اللحم ونظائره تراباً، وبعضُها عظاماً نَخِرةً مجرَّدةً عن اللحوم والأعصاب، وتقديمُ التراب لعراقته في الاستبعاد، وانقلابِه من الأجزاء البادية. أو: وكان متقدِّموكم تراباً صرفاً ومتأخِّروكم عظاماً.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ﴾ تأكيد لـ «أنكم» الأولِ لطول الفَصْلِ بينه وبين خبره الذي هو قوله تعالى: ﴿مُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾، و«إذا» ظرفٌ متعلِّقٌ به، أي: أيعدُكم أنكم مُخْرَجون من قبوركم أحياءً كما كنتُم أولاً إذا متُّم وكنتم تراباً. واختار هذا الإعرابَ الفرَّاءُ والجَرْميُّ والمبرِّدُ[3]. ولا يلزمُ من ذلك كونُ الإخراج وقتَ الموت كما لا يَخفَى، خلافاً لِمَا توهَّمه أبو نزار الملقَّبُ بمَلِك النحاة[4]، وردَّه السَّخَاويُّ

(١) الإتقان ١/ ٤٧٥.

(٢) قرأ بكسر الميم نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف، والباقون بضمها. التيسير ص ٩١، والنشر ٢/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٤، والمقتضب ٢/ ٣٥٦، وذكره عنهم النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٥٥، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٤. والجرمي هو صالح بن إسحاق.

(٤) هو الحسن بن صافي بن عبد الله البغدادي الفقيه الأصولي، المصنف في الأصلين والنحو وفنون الأدب، توفي سنة (٥٦٨هـ). شذرات الذهب ٦/ ٣٧٦.

ونَقَلَه عنه الجلال السيوطيُّ في «الأشباه»[١].

والمنقولُ عن سيبويه[٢]: أنَّ«أنكم» بدلٌ من «أنكم» الأولِ، وفيه معنى التأكيد، وخبر «أنَّ» الأولى محذوفٌ لدلالة خبر الثانية عليه، أي: أيعدُكم أنكم تُبعثون إذا متم، وهذا الخبر المحذوفُ هو العامل في «إذا». ولا يجوز أن يكون هو الخبرُ لأنَّ ظرف الزمان لا يُخْبَر به عن الجثة، وإذا أوِّل بحذف المضاف ـ أي: أنَّ إخراجَكم إذا متُّم ـ جاز، وكان المبرِّد يأبى البدل لكونه من غيرِ مستقلٍّ؛ إذ لم يذكر خبر «أنَّ» الأولى.

وذهب الأخفش[٣] إلى أنَّ: «أنكم مخرجون» مقدَّرٌ بمصدرٍ مرفوعٍ بفعلٍ محذوفٍ، تقديره: يَحدثُ إخراجُكم، فعلى هذا التقدير يجوز أن تكون الجملة الشرطية خبرَ «أنكم» الأول، ويكونُ جواب «إذا» ذلك الفعلَ المحذوف، ويجوز أن يكون ذلك الفعلُ هو خبر «أن» ويكون عاملاً في «إذا».

وبعضُهم[٤] يَحْكي عن الأخفش أنه يجعل «أنكم مخرجون» فاعلاً بـ «إذا» كما يُجعَلُ الخروجُ في قولك: يومَ الجمعة الخروجُ، فاعلاً بـ: يومَ، على معنى: يستقرُّ الخروجُ يومَ الجمعة.

وجوَّز بعضهم أن يكون «أنكم مخرجون» مبتدأً، و«إذا متم» خبراً، على معنى: إخراجُكم إذا متُّم، وتُجعل الجملة خبرَ «أن» الأولى، قال في «البحر»: وهذا تخريجٌ سهلٌ لا تكلُّفَ فيه[٥]. ونَسَبه السخاويُّ في «سفر السعادة» إلى المبرِّد[٦]. والذي يقتضيه جزالةُ النظم الكريم ما ذكرناه عن الفرَّاء ومَن معه.

وفي قراءة عبد الله: «أيعدُكم إذا متُّم» بإسقاط «أنكم» الأولى[٧].

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطي ٦/ ٦٠، وسفر السعادة لعلم الدين السخاوي ٢/ ٧٧٩.
(٢) في الكتاب ٣/ ١٣٢-١٣٣.
(٣) كما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٥٦، والبحر ٢/ ٧٨١.
(٤) هو السخاوي في سفر السعادة وسفير الإفادة ٢/ ٧٨٣.
(٥) البحر ٦/ ٤٠٤.
(٦) سفر السعادة وسفير الإفادة لعلم الدين السخاوي ٢/ ٧٨١.
(٧) الكشاف٣/ ٣٢، والبحر ٦/ ٤٠٤.

﴿هَيْهَاتَ﴾ اسمٌ لبَعُدَ، وهو في الأصل اسمُ صوتٍ، وفاعلُه مستترٌ فيه يرجع للتصديق، أو الصحة، أو الوقوع، أو نحوِ ذلك مما يُفْهِمُه السياق، فكأنه قيل: بَعُدَ التصديقُ أو الصحةُ أو الوقوعُ، وقولُه تعالى: ﴿هَيْهَاتَ﴾ تكريرٌ لتأكيد البعد، والغالبُ في هذه الكلمة مجيئُها مكرَّرةً، وجاءت غيرَ مكرَّرةٍ في قول جرير:

وهيهاتَ خِلٌّ بالعقيق نُواصِلُهْ(١)

وقوله سبحانه: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦﴾ بيانٌ لمرجع ذلك الضمير، فاللام متعلِّقةٌ بمقدَّرٍ كما في سقياً له، أي: التصديق أو الوقوع المتَّصِفُ بالبُعْدِ كائنٌ لما توعدون، ولا ينبغي أن يقال: إنه متعلِّقٌ بالضمير الراجع إلى المصدر كما في قوله:

وما الحربُ إلَّا ما علمتُم وذُقْتمُ وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ(٢)

فإنَّ إعمال ضمير المصدر وإن ذهب إليه الكوفيون نادرٌ جدًّا لا ينبغي أن يُخرَّج عليه كلامُ الله تعالى، وقيل: لم يثبت والبيتُ قابلٌ للتأويل، وهذا كلُّه مع كون الضمير بارزاً، فما ظنُّك إذا كان مستتراً؟

والقولُ بأنَّ الفاعل محذوفٌ وليس بضميرٍ مستترٍ، وهو مصدرٌ كالوقوع والتصديق، والجارُّ متعلِّقٌ به، مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه أصلاً، لا سيما إذا كان ذلك المصدر المحذوفُ معرَّفاً كما لا يخفى.

ويجوز أن يكون الفاعل ضميرَ البُعْدِ واللام للبيان، كأنه قيل: فُعِلَ البُعْدُ ووَقَعَ، ثم قيل: لماذا؟ فقيل: لما توعدون.

وقيل: فاعلُ «هيهات»: «ما توعدون»، واللامُ سيفُ خطيب، وأُيِّد بقراءة ابن أبي عبلة: «هيهات هيهات ما توعدون» بغير لامٍ(٣). وردَّ بأنها لم تُعْهَدْ زيادتُها في الفاعل.

---

(١) وصدره: فهيهات هيهات العقيق ومَن به، وهو في الديوان ٢/ ٩٦٥، والخصائص ٣/ ٤٢، وشرح المفصل ٤/ ٣٥، والدر المصون ٨/ ٣٣٥، وجاءت الرواية في الديوان بإبدال الهاء الأولى في هيهات همزة.

(٢) البيت لزهير، وهو في ديوانه ص ١٨. وقال مَن استدل بالبيت: أي: وما الحديث عنها بالحديث المرجَّم، قالوا: فعنها متعلق بالضمير. شرح قطر الندى ص ٤٣٥.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٣، والبحر ٦/ ٤٠٥.

وقيل: هيهات بمعنى: البُعْدُ، وهو مبتدأ مبنيٌّ اعتباراً لأصله، خبرُه «لما توعدون»، أي: البعدُ كائنٌ لما توعدون، ونُسب هذا التفسير للزجّاج[(١)].

وتعقّبه في «البحر» بأنه ينبغي أن يكون تفسيرَ معنًى لا تفسيرَ إعرابٍ؛ لأنه لم تثبت مصدريةُ «هيهات»[(٢)].

وقرأ هارون عن أبي عمرو: «هيهاتاً هيهاتاً» بفتحهما منوَّنتين للتنكير[(٣)]، كما في سائر أسماء الأفعال إذا نوِّنت، فهو اسمُ فعلٍ نكرة. وقيل: هو على هذه القراءة اسمٌ متمكِّنٌ منصوبٌ على المصدرية.

وقرأ أبو حيوة والأحمر بالضم والتنوين[(٤)]، قال صاحب «اللوامح»[(٥)]: يحتمل على هذا أن تكون «هيهات» اسماً متمكِّناً مرتفعاً بالابتداء، و«لِمَا توعدون» خبره، والتكرارُ للتأكيد، ويحتمل أن يكون اسماً للفعل والضمُّ للبناء، مثل: حَوْبُ، في زجر الإبل، لكنه نوِّن لكونه نكرةً. اهـ.

وقيل: هو اسمٌ متمكِّنٌ مرفوعٌ على الفاعلية، أي: وقع بُعْدٌ.

وعن سيبويه: أنها جمعٌ كبيضات[(٦)]، وأخذ بعضُهم منه تَساويَ مفرديهما في الزِّنة، فقال: مفردُها هَيْهَة كبيضة.

وفي روايةٍ عن أبي حيوةَ أنه ضمَّهما من غير تنوين[(٧)]، تشبيهاً لهما بـ: قَبْلُ وبَعْدُ في ذلك.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ١٣.

(٢) البحر ٦/ ٤٠٥.

(٣) القراءات الشاذة ص ٩٧، والبحر ٦/ ٤٠٤.

(٤) القراءات الشاذة ص ٩٧، والمحتسب ٢/ ٩٠، والبحر ٦/ ٤٠٤. والأحمر هو عنبسة بن النضر أبو عبد الرحمن اليشكري، المقرئ النحوي، قرأ على أصحاب حمزة. طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٦٠٥.

(٥) كما في البحر ٦/ ٣٤١.

(٦) ينظر الكتاب ٣/ ٢٦١، والبحر ٦/ ٤٠٥.

(٧) القراءات الشاذة ص ٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٣، والبحر ٦/ ٤٠٤.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ بالكسر فيهما من غير تنوين[١]، وروي هذا عن عيسى، وهو لغةٌ في تميم وأسد. وعنه أيضاً وعن خالد بن إلياس أنهما قرأا بكسرهما والتنوين[٢].

وقرأ خارجة بن مصعب عن أبي عمرو والأعرج، وعيسى أيضاً، بالإسكان فيهما[٣]، فمنهم مَن يُبقي التاءَ ويقفُ عليها كما في مُسْلِمات، ومنهم مَن يُبَدِلُها هاءً تشبيهاً بتاء التأنيث ويقف على الهاء[٤].

وقيل: الوقفُ على الهاء لاتِّباع الرسم[٥]، والذي يُفْهَمُ من «مجمع البيان»[٦] أن «هيهاتَ» بالفتح تكتب بالهاء كأرطاة، وأصلُها هَيْهَيَة كزَلْزَلَة، قُلبت الياء الثانية ألفاً لتحرُّكها وانفتاحِ ما قبلها، وكذا «هيهاتٌ» بالرفع والتنوين، وهي على هذا اسمٌ معربٌ مفرد، ومتى اعتبرت جمعاً كُتبت بالتاء وذلك إذا كانت مكسورة، منوَّنةً أو غيرَ منوَّنةٍ، ونَقَلَ ذلك عن ابن جنِّي[٧].

وقرئ: «أَيْهاهْ» بإبدال الهمزة من الهاء الأولى والوقفِ بالسكون على الهاء[٨].

والذي أميلُ إليه أنَّ جميع هذه القراءات لغاتٌ والمعنى واحد. وفي هذه الكلمة ما يزيد عن أربعين لغةً، وقد ذُكر ذلك في «التكميل لشرح التسهيل»[٩] وغيرِه.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أصلُه: إنِ الحياةُ إلَّا حياتُنا الدنيا، ثم وُضع الضميرُ موضعَ الحياة؛ لأن الخبر يدلُّ عليها ويبيِّنها، فالضميرُ عائدٌ على متأخِّرٍ، وعَوْدُه

---

(١) النشر ٢/٣٢٨ عن أبي جعفر، وقرأ باقي العشرة بفتح التاء.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٧، والبحر ٦/ ٤٠٤-٤٠٥، والدر المصون ٨/ ٣٣٨.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٧، والمحتسب ٢/ ٩٠، والبحر ٦/ ٤٠٥.
(٤) وقف البزي والكسائي بالهاء والباقون بالتاء. التيسير ص ٦٠، والنشر ٢/ ١٣١.
(٥) الدر المصون ٨/ ٣٤٠، وذكر الداني في المقنع ص ٨١ أنهم رسموا «هيهات هيهات» بالتاء. وقال علم الدين السخاوي في كتاب الوسيلة إلى كشف العقيلة ص ٤٥٦: وهاؤه مشبَّهة بتاء التأنيث، ولذلك وقف عليها بالهاء مَن وقف، وهو في المصحف بالتاء.
(٦) ١٨/ ١٤٩.
(٧) ينظر المحتسب ٢/ ٩١-٩٢.
(٨) الإملاء ٤/ ٥٦، والدر المصون ٨/ ٣٣٨.
(٩) لأبي حيان، وقد أشار لذلك أبو حيان في البحر ٦/ ٤٠٥.

كذلك جائزٌ في صُوَرٍ، منها إذا فسِّر بالخبر كما هنا، كذا قالوا.

واعتُرض: بأنَّ الخبر موصوفٌ، فتلاحَظُ الصفة في ضميره كما هو المشهور في الضمير الراجع إلى موصوف، وحينئذٍ يصير التقدير: إنْ حياتُنا الدنيا إلا حياتُنا الدنيا.

وأجيب: بأن الضمير قد يعود إلى الموصوف بدون صفته، وهذا في الآخرة يعود إلى القول بأنَّ الضمير عائدٌ على ما يُفْهَمُ من جنس الحياة؛ ليفيدَ الحملُ ما قصدوه من نفي البعث، فكأنهم قالوا: لا حياةَ إلا حياتُنا الدنيا، ومن ذلك يُعلم خطأُ مَن قال: إنه كشعري شعري[1]، ومن هذا القبيل ـ على رأيٍ ـ قولُهم: هي العرب تقول ما شاءت، وقولُه:

هي النفسُ ما حمَّلْتَها تَتحمَّلُ ... وللدَّهر أيامٌ تجورُ وتَعْدِلُ[2]

وفي «الكشف»: ليس المعنى: النفسُ النفسُ؛ لأنه لا يَصْلُحُ الثاني حينئذٍ تفسيراً والجملةُ بعدها بياناً، بل الضمير راجعٌ إلى معهودٍ ذهنيٍّ أُشيرَ إليه ثم أُخبر بما بعده، كما في: هذا أخوك. انتهى، فتأمَّل ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ جملةٌ مفسِّرة لِمَا ادَّعَوْه من أنَّ الحياة هي الحياةُ الدنيا، وأرادوا بذلك: يموت بعضُنا ويُوْلَدُ بعضٌ وهكذا، وليس المرادُ بالحياة حياةً أخرى بعد الموت؛ إذ لا تَصْلُحُ الجملة حينئذٍ للتفسير، ولا يذمُّ قائلها، وناقضَتْ قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾.

وقيل: أرادوا بالموت العدمَ السابق على الوجود، أو أرادوا بالحياة بقاءَ أولادهم؛ فإنَّ بقاء الأولاد في حكم حياة الآباء، ولا يخفى بعدُه.

ومثلُه على ما قيل ـ وأنا لا أراه كذلك ـ أنَّ القوم كانوا قائلين بالتناسُخ، فحياتُهم بتعلُّق النفس التي فارقت أبدانَهم بأبدانٍ أُخَرَ عنصريةٍ تنقَّلتْ في الأطوار حتى استعدَّتْ لِأنْ تتعلَّق بها تلك النفسُ المفارِقةُ، فزيدٌ ـ مثلاً ـ إذا مات تتعلَّق

---

(١) قطعة من رجز لأبي النجم العجلي في ديوانه ص ٩٩، وتمامه: أنا أبو النجم وشعري شعري، وسلف ٢/ ٤١٧ و٧/ ٣١٠.

(٢) البيت لعلي بن الجهم، وهو في ديوانه ص ١٦٢.

نفسُه ببدنٍ آخَرَ قد استعدَّ في الرحم للتعلُّق، ثم يولد، فإذا مات أيضاً تتعلَّقُ نفسه ببدنٍ آخَرَ كذلك، وهكذا إلى ما لا يتناهى، وهذا مذهبٌ لبعض التناسخية، وهم مِلِّيون ونِحَليُّون.

ويمكن أن يقال: إنَّ هذا على حدِّ قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] على قولٍ، فإنَّ العطف فيه بالواو وهي لا تقتضي الترتيب، فيجوز أن تكون الحياة التي عَنَوْها الحياةَ التي قبل الموت، ويحتمل أنهم قالوا: نحيا ونموت، إلا أنه لمَّا حُكي عنهم قيل: «نموت ونحيا» ليكون أَوْفَقَ بقوله تعالى: (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا)، ثم المراد بقولهم: «وما نحن» إلخ استمرارُ النفي وتأكيده.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو ﴿إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما يدَّعيه من إرساله تعالى إياه، وفيما يَعِدُنا مِن أنَّ الله تعالى يبعثنا ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ بمصدِّقين فيما يقوله، والمرادُ أيضاً استمرارُ النفي وتأكيدُه.

﴿قَالَ﴾ أي: رسولُهم عند يأسه من إيمانهم، بعد ما سلك في دعوتهم كلَّ مسلكٍ متضرِّعاً إلى الله عز وجل: ﴿رَبِّ انصُرْنِي﴾ عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: بسبب تكذيبهم إياي وإصرارِهم عليه، أو بَدَلَ تكذيبهم. ويجوز أن تكون الباء آليةً وما موصولةً كما مرَّ في قصة نوحٍ عليه السلام.

﴿قَالَ﴾ تعالى إجابةً لدعائه، وعِدَةً بما طلب: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أي: عن زمانٍ قليل، فـ «ما» صلةٌ بين الجارِّ والمجرور جيءَ بها لتأكيد معنى القلَّة، و«قليلٍ» صفةٌ لزمانٍ حُذِفَ واستغني به عنه، ومجيئه كذلك كثيرٌ. وجوِّز أن تكون «ما» نكرةً تامةً، و«قليل» بدلاً منها، وأن تكون نكرةً موصوفةً بـ «قليل».

و«عن» بمعنى بَعْدَ هنا، وهي متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وتعلُّقها بكلٍّ من الفعل والوصف محتملٌ، وجاز ذلك مع توسُّط لامِ القسم؛ لأنَّ الجارَّ كالظَّرْفِ يُتوسَّعُ فيه ما لا يتوسَّع في غيره.

وقال أبو حيان: جمهورُ أصحابنا على أنَّ لام القسم لا يتقدَّمها معمولُ ما بعدَها سواءٌ كان ظرفاً أم جارًّا ومجروراً أم غيرَهما، وعليه يكون ذلك متعلِّقاً بمحذوفٍ

يدلُّ عليه ما قبلَه، والتقدير: عمَّا قليل تُنْصَرُ، أو ما بعده، أي: يُصْبِحون عمَّا قليلٍ لَيُصْبِحُنَّ. . إلخ، ومذهبُ الفرَّاء وأبي عبيدةَ أنه يجوز تقديمُ معمولِ ما في حيِّز هذه اللام عليها مطلقاً(١).

و«يصبح» بمعنى يصير، أي: بالله تعالى لَيَصيرُنَّ نادمين على ما فعلوا من التكذيب بعد زمانٍ قليل، وذلك وقتَ نزول العذاب في الدنيا ومُعاينتِهم له، وقيل: بعد الموت.

وفي «اللوامح»(٢) عن بعضهم: «لَتُصْبِحُنَّ» بتاءٍ على المخاطبة، فلو ذهب ذاهبٌ إلى أنَّ القول من الرسول إلى الكفار بعد ما أُجيب دعاؤه لكان جائزاً.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: صيحةُ جبريل عليه السلام، صاح عليه السلام بهم فدمَّرهم، وهذا على القول بأنَّ القرنَ قومُ صالحٍ عليه السلام ظاهرٌ، ومَن قال: إنهم قومُ هودٍ عليه السلام، أَشْكَلَ ظاهرُ هذا عليه، بناءً على أن المصرَّح به في غير هذه السورة أنهم أُهلكوا بريحٍ عاتيةٍ. وأجاب بأنَّ جبريل عليه السلام صاح بهم من الريح كما روي في بعض الأحاديث(٣)، وفي ذكر كلٍّ على حِدَةٍ إشارةٌ إلى أنَّ كلًّا لو انفرد لتدميرهم لكفى.

ويَجوزُ أن يُراد بالصيحة العقوبةُ الهائلةُ والعذابُ المُصْطَلِمُ، كما في قوله:

صاح الزمان بآل برمك صيحةً   خرُّوا لشدَّتها على الأذقان(٤)

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بالأخذ، أي: بالأمر الثابت الذي لا مَدْفعَ له، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]. أو بالعدل من الله عز وجل، من قولك: فلانٌ يقضي بالحقِّ، إذا كان عادلاً في قضاياه. أو بالوعد الصِّدق الذي وُعِدَه الرسولُ في ضِمْنِ قوله تعالى: (عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ).

---

(١) البحر ٦/ ٣٠٥ دون قوله: أو ما بعده أي يصبحون عما قليل ليصبحن. . إلخ.

(٢) كما في البحر ٦/ ٣٠٥.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٣١، وذكره القرطبي ١٥/ ٤٤ عن التفاسير.

(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ٩٩، والبحر ٦/ ٤٠٦، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٣٥، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٣١. وروى ابن عساكر في تاريخه ١٢/ ٣١ أن أبا تمام أنشده في أبيات يخاطب بها الأمير عبد الله بن طاهر برواية: صاح الزمان بآل قومك صيحة. . . .

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي: كغثاء السيل، وهو ما يَحمِلُه من الورق والعيدان البالية، ويُجمع على أغثاء شذوذاً، وقد تُشدَّد ثاؤه كما في قول امرئ القيس:

كأنَّ ذُرَى رأسِ المُجَيْمِرِ(١) غدوةً   من السيل والغثَّاء فَلْكةُ مِغْزَلِ(٢)

﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ يَحْتمِلُ الإخبارَ والدعاءَ، والبعدُ ضدُّ القُرْبِ، والهلاكُ، وفِعْلُهما ككَرُمَ وفَرِحَ، والمتعارَفُ الأولُ في الأول، والثاني في الثاني، وهو منصوبٌ بمقدَّرٍ، أي: بَعُدُوا بُعْداً من رحمة الله تعالى، أو من كلِّ خيرٍ، أو من النجاة، أو هلكوا هلاكاً. ويجب حذفُ ناصب هذا المصدر عند سيبويه فيما إذا كان دُعائيًّا، كما صرَّح به في «الدرِّ المَصُون»(٣).

واللامُ لبيانِ مَن دعي عليه، أو أُخْبِرَ ببُعْدِه، فهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ لا بـ «بُعْداً»، ووضع الظاهر موضعَ الضمير إيذاناً بأنَّ إبعادهم لظلمهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد هلاكهم ﴿قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ هم عند أكثر المفسرين قومُ صالحٍ وقومُ لوطٍ وقومُ شعيبٍ وغيرُ ذلك.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ أي: ما تتقدَّم أمةٌ من الأمم المهلَكةِ الوقتَ الذي عيِّن لهلاكهم، فـ «مِن» سيفُ خطيبٍ جيءَ بها لتأكيد الاستغراق المستفادِ من النكرة الواقعة في سياق النفي، وحاصلُ المعنى: ما تهلك أمةٌ من الأمم قبل مجيءِ أجلها ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ذلك الأَجَلَ ساعةً. وضمير الجمع عائدٌ على «أمة» باعتبار المعنى.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ عطفٌ على «أنشأنا»، لكنْ لا على معنًى أنَّ إرسالهم متراخٍ عن إنشاء القرون المذكورة جميعاً، بل على معنى أنَّ إرسالَ كلِّ رسولٍ متأخِّرٌ عن إرسالِ قرنٍ مخصوصٍ بذلك الرسول، كأنه قيل: ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين قد أرسلنا إلى كلِّ قرنٍ منهم رسولاً خاصًّا به.

---

(١) جاء في هامش(م): من جبال بني أسد. اهـ منه.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٢٥، وشرح المعلقات للنحاس ١/ ٤٨، وللتبريزي ص٧٠، ورواية الديوان: كأن طمية المجيمر غدوة. . .، وهي رواية الأصمعي كما ذكر ذلك التبريزي، والمجيمر: أرض لبني فزارة، وطمية: جبل في بلادهم، يقول: قد امتلأ المجيمر، فكأن الجبل في الماء فلكة مغزل؛ لما جمع السيل حوله من الغثاء.

(٣) ٨/ ٣٤٤، ونقله المصنف عنه وعن سيبويه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٣٢.

والفصلُ بين المعطوفَيْنِ بالجملة المعترضة للمسارعة إلى بيانِ هلاكِ أولئك القرون على وجهٍ إجماليٍّ. وتعليقُ الإرسال بالرسل نظيرُ تعليقِ القتل بالقتيل في: مَن قتل قتيلاً، وللعلماء فيه توجيهاتٌ.

﴿تَتْرَا﴾ من المُواتَرةِ، وهو التَّتابُعُ مع فصلٍ ومهلةٍ على ما قاله الأصمعيُّ، واختاره الحريريُّ في «الدرة»(١).

وفي «الصحاح»: المُواتَرةُ: المتابعةُ، ولا تكون المواترةُ بين الأشياء إلَّا إذا وقعت بينها فترةٌ، وإلَّا فهي مُدَارَكة [ومواصَلة](٢). ومثلُه في «القاموس»(٣).

وعن أبي عليٍّ أنه قال: المواترةُ أن يتبعَ الخبرَ الخبرُ والكتابَ الكتابُ، فلا يكون بينهما فصلٌ كثير(٤).

ونَقَلَ في «البحر» عن بعضٍ: أنَّ المواترةَ التابعُ بغير مُهْلةٍ(٥). وقيل: هو التتابعُ مطلقاً.

والتاء الأولى بدلٌ من الواو كما في تُرَاثٍ وتُجَاهٍ، ويدلُّ على ذلك الاشتقاق. وجمهورُ القرَّاء والعربِ على عدم تنوينه، فألِفُه للتأنيث كألفِ دَعْوَى وذِكْرَى.

وهو مصدرٌ في موضع الحال، والظاهرُ أنه حالٌ من المفعول، والمراد كما قال أبو حيان والراغب وغيرُهما: ثم أرسلنا رسلنا متواترين(٦).

وقيل: حالٌ من الفاعل، والمراد: أرسلنا متواترين(٧).

وقيل هو صفةٌ لمصدرٍ مقدَّرٍ، أي: إرسالاً متواتراً.

وقيل: مفعولٌ مطلقٌ لـ «أرسلنا»؛ لأنه بمعنى واتَرْنا.

---

(١) درة الغوَّاص ص ٧-٨.
(٢) الصحاح (وتر)، وما بين حاصرتين منه.
(٣) مادة (وتر).
(٤) الحجة ٥/ ٢٩٥.
(٥) البحر ٦/ ٣٩٣.
(٦) البحر ٦/ ٤٠٧، ومفردات الراغب (تترى).
(٧) كذا في الأصل و(م)، والصواب: مواترين. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٤، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٣٢.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وقتادةُ وأبو جعفر وشعبةُ[١] وابنُ محيصنٍ والإمام الشافعيُّ عليه الرحمة: «تترًى»: بالتنوين[٢]، وهو لغةُ كنانةَ، قال في «البحر»: وينبغي عند مَن ينوِّنُ أن تكون الألفُ فيه للإلحاق، كما في أَرْطى وعَلْقى، لكنَّ ألفَ الإلحاق في المصادر نادرة[٣]. وقيل: إنَّها لا توجَدُ فيها.

وقال الفرَّاء: يقال: تَتْرٌ في الرفع، وتَتْرٍ في الجرِّ، وتَتْراً في النصب، فهو مثلُ صَبْرٍ ونَصْرٍ، ووزنُه فَعْلٌ لا فَعْلَى، ومتى قيل: تَتْرى بالألف فألفُه بدلُ التنوين كما في: صَبَرْتُ صبراً، عند الوقف[٤].

ورُدَّ بأنه لم يُسمع فيه إجراءُ الحركات الثلاث على الراء، وعلى مدَّعيه الإثبات، وأيضاً كَتْبُه بالياء يأبى ذلك.

وما ذكرنا من مصدريةِ «تترى» هو المشهور، وقيل: هو جمعٌ، وقيل: اسمُ جمع. وعلى القولين هو حالٌ أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لمجيءِ كلِّ رسول لأمته، ولِمَا صَدَرَ عنهم عند تبليغِ الرسالة. والمرادُ بالمجيء: إما التبليغُ، وإما حقيقةُ المجيء؛ للإيذان بأنهم كذَّبوه في أول الملاقاة.

وإضافة الرسول إلى الأمة مع إضافة كلِّهم فيما سبق إلى نون العظمة؛ لتحقيق أنَّ كلَّ رسولٍ جاء أمته الخاصةَ به، لا أنَّ كلَّهم جاؤوا كلَّ الأمم، وللإشعار بكمال شناعةِ المكذِّبينَ وضلالِهم، حيث كذَّبوا الرسول المعيَّن لهم.

وقيل: أضاف سبحانه الرسول مع الإرسال إليه عز وجل، ومع المجيءِ إلى المرسَلِ إليهم، لأنَّ الإرسال الذي هو مبدأُ الأمر منه تعالى، والمجيءَ الذي هو منتهاهُ إليهم.

---

(١) في البحر ٦/ ٤٠٧ (والكلام منه): وشيبة.

(٢) التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨ عن ابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر.

(٣) البحر ٦/ ٣٩٤، والدر المصون ٨/ ٣٤٥. والأرطى: شجر ثمره مرٌّ وعروقه حمر، الواحدة أرطاة. والعلقى: نبتٌ يكون واحداً وجمعاً، يتخذ منه المكانس، ويشرب طبيخه للاستسقاء. القاموس (أرط) و(علق).

(٤) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٣٦.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ في الهلاك، حَسْبَما تَبِعَ بعضُهم بعضاً في مباشرة سببه، وهو تكذيبُ الرسول.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع أُحدوثة، وهو ما يُتَحدَّثُ به تعجُّباً وتَلهِّياً، كأعاجيبَ جمع أُعجوبة، وهو ما يُتَعجَّبُ منه، أي: جعلناهم أحاديثَ يُتحدَّثُ بها على سبيل التعجُّب والتلهِّي. ولا تقال الأحدوثة عند الأخفش[1] إلّا في الشر.

وجوِّز أن يكون جَمْعَ حديثٍ، وهو جمعٌ شاذٌّ مخالفٌ للقياس، كقطيع وأقاطيع، ويسمِّيه الزمخشريُّ اسمَ جمع[2]، والمراد: أنَّا أهلكناهم ولم يَبْقَ إلا خبرُهم.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ اقتصر هاهنا على وَصْفِهم بعَدَم الإيمان حَسْبَما اقتصر على حكاية تكذيبهم إجمالاً. وأما القرونُ الأوَّلون فحيث نُقِلَ عنهم ما مرَّ من الغلوِّ وتَجاوُزِ الحدِّ في الكفر والعدوان وُصفوا بالظلم.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بالآيات المعهودة، وهي الآياتُ التسعُ، وقد تقدَّم الكلام في تفصيلها وما قيل فيه[3]. و«هارون» بدلٌ أو عطفُ بيانٍ، وتعرَّضَ لأُخوَّتِه لموسى عليهما السلام للإشارة إلى تبعيَّتِه له في الإرسال.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: حجةٍ واضحةٍ، أو مُظْهِرةٍ للحق. والمرادُ بها عند جمعٍ العصا، وإفرادُها بالذكر مع انْدِراجها في الآيات لتفرُّدها بالمزايا حتى صارت كأنها شيءٌ آخَرُ.

وجوِّز أن يراد بها الآياتُ، والتعاطُفُ مِن تَعاطُفِ المتَّحدَيْنِ في الماصدق لتغايُرِ مدلوليهما، كعَطْفِ الصفة على الصفة مع اتِّحاد الذات، وقد مرَّ نظيره آنفاً[4]، أو هو من باب قولك: مررتُ بالرجل والنَّسَمةِ المباركة، حيث جرِّد من نفس الآيات سلطانٌ مبينٌ وعُطِفَ عليه مبالغةً، والإتيان به مفرداً لأنه مصدرٌ في الأصل، أو للاتحاد في المراد.

---

(١) كما في البحر ٦/٤٠٧.

(٢) الكشاف ٣/٣٣.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الإسراء.

(٤) ينظر ما سلف ص٥٤ من هذا الجزء.

وعن الحسن: أنَّ المراد بالآيات: التكاليفُ الدينيةُ، وبالسلطان المبين: المُعْجِز.

وقال أبو حيان: يجوزُ أن يراد بالآيات نفسُ المعجزاتِ، وبالسلطان المبين كيفيةُ دلالتها؛ لأنها وإن شاركت آيات الأنبياء عليهم السلام في أصل الدلالة على الصدق، فقد فارَقَتْها في قوة دلالتها على ذلك(١). وهو كما ترى.

ويمكن أن يقال: المراد بالسلطان تَسَلُّطُ موسى عليه السلام في المحاورة والاستدلالِ على الصانع عز وجل، وقوة الجأش والإقدام.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه، خُصُّوا بالذكر لأنَّ إرسال بني إسرائيل ـ وهو مما أُرْسِلا عليهما السلام لأَجْلِه ـ منوطٌ بآرائهم. ويمكنُ أن يراد بالملأ قومُه، فقد جاء استعمالُه بمعنى الجماعة مطلقاً.

﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الانقياد لِمَا أُمروا به ودُعوا إليه، من الإيمانِ وإرسالِ بني إسرائيل وتركِ تعذيبهم، وليست الدعوة مختصةً بإرسال بني إسرائيل وإطلاقهم من الأسر، ففي سورة «النازعات»: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [الآيات:١٧-١٩] وأيضاً فيما نحن فيه ما يدلُّ على عدم الاختصاص.

﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ متكبِّرين، أو: مُتَطاوِلين بالبغي والظلم، والمرادُ: كانوا قوماً عادتُهم العلوُّ.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ عطفٌ على «استكبروا» وما بينهما اعتراضٌ مقرِّرٌ للاستكبار، والمرادُ: فقالوا فيما بينهم بطريق المناصحة: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ ثنَّى البشر لأنه يطلَقُ على الواحد، كقوله تعالى: ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ويطلق على الجمع كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: ٢٦] ولم يثنِّ «مِثْل» نظراً إلى كونه في حكم المصدر. ولو أفرد البشر لصحَّ؛ لأنه اسمُ جنسٍ يطلق على الواحد وغيره، وكذا لو ثنَّى المِثْلَ فإنه جاء مُثنًّى في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣] ومجموعاً في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨] نظراً إلى أنه في

---

(١) البحر ٦/٤٠٧.

تأويل الوصف، إلَّا أن المرجِّح لتثنية الأول وإفرادِ الثاني الإشارةُ بالأول إلى قلَّتهما وانفرادِهما عن قومهما مع كثرة الملأ واجتماعِهم، وبالثاني إلى شدة تماثُلهم حتى كأنهم من البشرين شيءٌ واحد، وهو أدلُّ على ما عَنَوه.

وهذه القصص كما ترى تدلُّ على أنَّ مدار شُبهِ المنكرين للنبوَّة قياسُ حالِ الأنبياء عليهم السلام على أحوالهم، بناءً على جَهْلِهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية، وتبايُنِ طبقات أفرادها في مَرَاقي الكمال ومَهَاوي النقصان، بحيث يكون بعضُها في أعلى علِّيين وهم المختصُّون بالنفوس الزكية، المؤيَّدون بالقوة القدسية، المتعلِّقون لصفاء جواهرهم بكِلَا العالَمينِ: اللطيف والكثيف، فيتلقَّون من جانبٍ، ويلقون إلى جانب، ولا يعوقُهم التعلُّق بمصالح الخَلْقِ عن التبتُّل إلى حضرة الحقِّ. وبعضُها في أسفل سافلين، وهم كأولئك الجَهَلةِ الذين هم كالأنعام، بل هم أضلُّ سبيلاً.

ومن العجب[1] أنهم لم يرضَوْا للنبوَّة ببشرٍ، وقد رضي أكثرُهم للإلهية بحجرٍ، فقاتَلَهم الله تعالى ما أَجْهَلَهم!

والهمزةُ للإنكار، أي: لانؤمنُ لبشرين مثلنا ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يَعْنُونَ سائرَ بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ خادمون مُنقادون لنا كالعبيد، ففي «عابدون» استعارةٌ تبعيةٌ نظراً إلى مُتعارَفِ اللغة.

ونقل الخفاجيُّ عن الراغب أنه صرَّح بأنَّ العابد بمعنى الخادم حقيقةٌ[2]. وقال أبو عبيدة: العربُ تسمِّي كلَّ مَن دان للملك عابداً[3].

وجوَّز الزمخشريُّ الحملَ على حقيقة العبادة؛ فإنَّ فرعون كان يدَّعي الإلهية فادَّعى للناس العبادة على الحقيقة[4].

واعتُرِضَ بأنَّ الظاهر أنَّ هذا القولَ من الملأ، وهو يأبى ذلك، وكونُهم قالوه

---

(١) في الأصل: العجيب.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٣٣٣.

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٥٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٣٣.

على لسان فرعون كما يقول خواصُّ ملك: نحن ذوو رعيةٍ كثيرة ومُلْكٍ طويلٍ عريض، ومرادُهم: إنَّ ملكنا ذو رعية.. إلخ، خلافُ الظاهر.

وقيل عليه أيضاً: على تقدير أن يكون القائلُ فرعونَ، لا يلزمُ من ادِّعائه الإلهية عبادةُ بني إسرائيل له، أو كونُه يعتقد أو يدَّعي عبادتَهم على الحقيقة له.

وأنت تعلم أنه متى سلِّم أنَّ القائل فرعونُ، وأنه يدَّعي الإلهية، لا يقدح في إرادته حقيقةَ العبادة عدمُ اعتقادِه ذلك؛ لأنه على ما تدلُّ عليه بعضُ الآثار كثيراً ما يُظْهِرُ خلافَ ما يُبْطِنُ، حتى إنها تدلُّ على أنَّ دعواه الإلهية من ذلك. نعم الأَوْلَى تفسيرُ «عابدون» بخادمون، وهو مما يصحُّ إسنادُه إلى فرعون وملئه، وكأنهم قصدوا بذلك التعريضَ بشأن الرسولين عليهما السلام، وحطَّ رُتْبتِهما العَليَّةِ عن منصب الرسالة من وجهٍ آخرَ غيرِ البشرية.

واللام في «لنا» متعلِّقةٌ بـ «عابدون» قدِّمت عليه رعايةً للفواصل، وقيل: للحَصْرِ، أي: لنا عابدون لا لهما.

والجملةُ حالٌ من فاعلِ «نؤمن»، مؤكِّدةٌ لإنكار الإيمان لهما، بناءً على زَعْمِهم الفاسدِ المؤسَّسِ على قياس الرياسة الدينية على الرياسة الدنيوية، الدائرةِ على التقدُّم في نيلِ الحظوظ الدنيوية من المال والجاه، كدأب قريش حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وجَهْلِهم بأنَّ مناط الاصطفاء للرسالة هو السَّبْقُ في حيازة النعوتِ العَليَّةِ والمَلَكاتِ السَّنِيَّة التي يتفضَّلُ الله تعالى بها على مَن يشاءُ مِن خَلْقِه.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فاستمرُّوا على تكذيبهما، وأصرُّوا واستكبروا استكباراً ﴿فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ بالغرق في بحر القلزم، والتعقيبُ باعتبارِ آخِرِ زمانِ التكذيب الذي استمرُّوا عليه.

وقيل: تعقيبُ التكذيب بذلك بناءً على أنَّ المراد: محكوم عليهم بالإهلاك.

وقيل: الفاء لمحض السببية، أي: فكانوا بسبب تكذيب الرسولين من المهلكين.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أي[1]: بعد إهلاكهم وإنجاء بني إسرائيل من مملكتهم ﴿مُوسَى

---

(١) قوله: أي، ليس في (م).

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة. وحيث كان إيتاؤه عليه السلام إياها لإرشاد قومه إلى الحقِّ كما هو شأنُ الكتب الإلهية، جُعلوا كأنهم أُوتوها، فقيل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: إلى طريق الحقِّ عِلْماً وعملاً، لِمَا تضمَّنته من الاعتقاديات والعمليات.

وجوِّز أن يكون الكلام على تقدير مضافٍ، أي: آتينا قومَ موسى، وضمير «لعَلهم» عائدٌ عليه.

وقيل: أُريدَ بموسى عليه السلام قومُه، كما يقال تميم وثقيف للقبيلة.

وتعقِّب بأنَّ المعروف في مثله إطلاقُ أبي القبيلة عليهم، وإطلاقُ موسى عليه السلام على قومه ليس من هذا القبيل، وإن كان لا مانع منه.

ولم يجعل ضمير «لعلهم» لفرعون وملئه؛ لظهور أنَّ التوراة إنما أنزلت بعد إغراقهم لبني إسرائيل، وقد يُسْتَشْهَدُ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣] بناء على أنَّ المراد بالقرون الأولى ما يعمُّ فرعون وقومه ومَن قبلهم من المهلَكين، كقوم نوح وهود، لا ما يخصُّ مَن قبلهم من الأمم المهلكين؛ لأنَّ تقييد الإخبار بإتيانه عليه السلام الكتاب بأنه بعد إهلاك مَن تقدَّم من الأمم معلومٌ، فلو لم يدخل فرعونُ وقومُه لم يكن فيه فائدة، كما قيل.

ولم يذكر هارون مع موسى عليهما السلام اقتصاراً على مَن هو كالأصل في الإيتاء. وقيل: لأنَّ الكتاب نزل بالطور وهارون عليه السلام كان غائباً مع بني إسرائيل.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ أيَّة آيةٍ دالَّة على عظيم قدرتنا، بولادته منها من غيرِ مسيسِ بشرٍ، فالآيةُ أمرٌ واحدٌ مشتركٌ بينهما فلذا أُفرِدَتْ، وجوِّز أن يكون الكلامُ على تقدير مضاف، أي: جعلنا حالَ ابن مريم وأمه آيةً، أو جعلنا ابن مريم وأمَّه ذَوَيْ آيةٍ، وأن يكون على حذف آية من الأول لدلالة الثاني عليه أو بالعكس، أي: جعلنا ابنَ مريم آيةً لِمَا ظهر فيه عليه السلام من الخوارق، كتكلُّمه في المهد بما تكلَّم صغيراً، وإحيائه الموتى وإبرائه الأكمه والأبرص وغيرِ ذلك كبيراً، وجعلنا أمَّه آيةً بأن وَلَدتْ من غيرِ مسيسٍ، وقال الحسن: إنها عليها السلام تكلَّمت في

صغرها أيضاً، حيث قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] ولم تلتقم ثدياً قط.

وقال الخفاجيُّ: لك أن تقول: إنَّما يُحتاجُ إلى توجيه إفرادِ الآية بما ذُكر إذا أُريدَ أنها آيةٌ على قدرة الله تعالى، أما إذا كانت بمعنى المعجزة أو الإرهاص فلا؛ لأنها إنما هي لعيسى عليه السلام لنبوَّته دون مريم(١). اهـ.

ولا يخفى ما فيه، والوجهُ عندي ما تقدَّم. والتعبيرُ عن عيسى عليه السلام بابن مريم، وعن مريم بأمِّه؛ للإيذان من أول الأمر بحيثيةِ كونهما آيةً، فإنَّ نسبته عليه السلام إليها ـ مع أنَّ النسبَ إلى الآباء ـ دالَّةٌ على أنْ لا أب له، أي: جعلنا ابنَ مريم وحدها من غيرِ أن يكون له أبٌ، وأمَّه التي وَلَدتْه خاصةً من غير مشاركةِ الأبِ، آيةً.

وتقديمهُ عليه السلام لأصالته فيما ذكر من كونه آيةً، كما قيل: إنَّ تقديم أمِّه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] لأصالتها فيما نُسب إليها من الإحصان والنفخ.

ثم اعْلَمْ أنَّ الذي أجمع عليه الإسلاميون أنه ليس لمريم ابنٌ سوى عيسى عليه السلام، وزعم بعض النصارى قاتلهم الله تعالى أنها بعد أن وَلَدتْ عيسى تزوَّجت بيوسف النجار، وولدت منه ثلاثة أبناء.

والمعتمَدُ عليه عندهم أنها كانت في حالِ الصِّغَرِ خطيبةَ يوسف النجار، وعَقَدَ عليها ولم يَقْرَبْها، ولمَّا رأى حَمْلَها بعيسى عليه السلام همَّ بتَخْلِيتها، فرأى في المنام مَلَكاً أَوْقَفَه على حقيقة الحالِ، فلمَّا وَلَدتْ بقيتْ عنده مع عيسى عليه السلام، فجعل يربِّيه ويتعهَّدُه مع أولادٍ له من زوجةٍ غيرِها، فأما هي فلم يكن يَقْرَبُها أصلاً.

والمسلمون لا يسلِّمون أنها كانت معقوداً عليها ليوسف، ويسلِّمون أنها كانت خطيبتَه، وأنه تعهَّدها وتعهَّد عيسى عليه السلام، ويقولون: كان ذلك لقرابته منها.

﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ﴾ أي: جعلناهما يأويان ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ هي ما ارتفع من الأرض دون الجبل.

---

(١) بنحوه في حاشية الشهاب ٦/ ٣٣٤.

واختلف في المراد بها هنا، فأخرج وكيعٌ وابنُ أبي شيبة وابنُ المنذر وابنُ عساكر بسندٍ صحيح عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾: أُنبِئْنا أنها دمشق(١).

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن سلام، وعن يزيد بن شجرة الصحابيِّ، وعن سعيد بن المسيّب، وعن قتادة عن الحسن، أنهم قالوا: الربوة هي دمشق(٢).

وفي ذلك حديثٌ مرفوعٌ أخرجه ابن عساكر عن أبي أمامة بسندٍ ضعيف(٣).

وأخرج جماعةٌ عن أبي هريرة أنه قال: هي الرملة من فلسطين(٤). وأخرج ذلك ابن مردويه(٥) من حديثه مرفوعاً.

وأخرج الطبرانيُّ في «الأوسط» وجماعةٌ عن مرَّة البهزيّ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الرَّبوة الرملة»(٦).

وأخرج ابن جرير وغيرُه عن الضحاك أنه قال: هي بيتُ المقدس(٧).

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١/ ٢٠٣ و٢٠٤، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٠.

(٢) تاريخ ابن عساكر ١/ ٢٠٤-٢٠٨. وخبر عبد الله بن سلام أخرجه أيضاً الرامهرمزي في المحدِّث الفاصل ص ٤٧٥، وهو من طريق عبد الوهاب بن عبد المجيد، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن عبد الله بن سلام. قال أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ٦٦: لم يتابع عبد الوهاب على رواية هذا الحديث، رواه ليث بن أبي سليمان والثوري وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك والدراوردي وسليمان بن بلال، كلهم عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، ليس أحد منهم يقول: عن عبد الله بن سلام... ويحتمل أن يكون سمِّي لعبد الوهاب عبد الله بن سلام ولم يسمَّ لهم.

(٣) تاريخ ابن عساكر ١/ ٢٠٣. والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٠، وأخرجه أيضاً تمام في فوائده (١٥٥٢). وفي إسناده مسلمة بن علي، قال عنه الذهبي: شامي واهٍ، وقال دحيم: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: لا يشتغل به. الميزان ٤/ ١٥٩.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٤٦، والطبري ١٧/ ٥٣ و٥٤.

(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ١٠.

(٦) المعجم الأوسط (٦٦٩٥)، وأخرجه أيضاً الطبري ١٧/ ٥٣-٥٤. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٧٢: فيه من لم أعرفهم.

(٧) لم نقف عليه عند الطبري، وذكره عن الضحاك ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وذكر البغوي في تفسيره ٣/ ٣١٠ عنه أنه قال: هي غوطة دمشق.

وأخرج هو وغيره أيضاً عن قتادة أنه قال: كنَّا نحدَّث أنَّ الربوة بيت المقدس[(١)]. وذكروا عن كعب أنَّ أرضه كبدُ الأرض وأقربُها إلى السماء بثمانية عشر ميلاً، ولذا كان المعراج، ورُفع عيسى عليه السلام منه، وهذا القولُ أوفقُ بإطلاق الربوة على ما سمعتَ من معناها.

وأخرج ابنُ المنذر وغيره[(٢)] عن وهب، وابنُ جريرٍ وغيرُه عن ابن زيد: الربوةُ مصر[(٣)].

وروي عن زيد بن أسلم أنه قال: هي الإسكندرية.

وذكروا أن[(٤)] قرى مصر كلٌّ واحدةٍ منها على ربوةٍ مرتفعةٍ؛ لعموم النيل في زيادته جميعَ أرضها، فلو لم تكن القرى على الربى لغرقت.

وذُكر أنَّ سبب هذا الإيواء أنَّ ملك ذلك الزمان عزم على قتل عيسى عليه السلام، ففرَّتْ به أمُّه إلى أحد هذه الأماكن التي ذُكرت، كذا في «البحر»[(٥)].

ورأيت في إنجيل متّى أنَّ عيسى عليه السلام لمَّا وُلد في بيت لحم في أيام هيرودس الملك، وافى جماعةٌ من المجوس من المشرق إلى أورشليم يقولون: أين المولودُ ملكُ اليهود؟ فقد رأينا نجمه في المشرق وجئنا لنسجدَ له. فلما سمع هيرودس اضطرب، وجمع رؤساء الكهنةِ وكتبةَ الشعب فسألهم: أين يولد المسيح؟ فقالوا: في بيت لحم. فدعا المجوس سرًّا وتحقَّق منهم الزمان الذي ظهر لهم فيه النجم، وأرسلهم إلى بيت لحم وقال لهم: اجْهَدوا في البحث عن هذا المولود، فإذا وجدتُموه فأخْبِروني لأسجُدَ له معكم. فذهبوا فوجدوه مع مريم، فسجدوا وقرَّبوا القرابين، ورأوا في المنام أن لا يرجعوا إلى هيرودس، فذهبوا إلى كُورَتِهم، ورأى يوسفُ في المنام مَلَكاً يقول له: قم فخذ الطفل وأمَّه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك، فإنَّ هيرودس قد عزم على أن يطلب الطفل ليُهْلِكَه. فقام

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٥٥، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٤٥-٤٦.
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٩.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٩، وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٥.
(٤) في (م): أي. وهو تصحيف.
(٥) ٦/ ٤٠٨.

وأخذ الطفلَ وأمَّه ليلاً ومضى إلى مصر، وكان هناك إلى وفاة هيرودس، فلمَّا توفِّي رأى يوسفُ المَلَكَ في المنام يقول له: قُمْ فخُذِ الطفل وأمَّه واذهب إلى أرض إسرائيل، فقد مات مَن يطلب نَفْسَ الطفل. فقام وأخذهما وجاء إلى أرض إسرائيل، فلما سمع أن أرشلاوس قد ملك على اليهودية بعد أبيه هيرودس، خاف أن يذهب هناك، فأُخبِرَ في المنام وذهب إلى تخوم الجليل فسكن في مدينة تُدْعَى: ناصرة[1]. اهـ. فإن صحَّ هذا كان الظاهر أنَّ الربوة في أرض مصر، أو ناصرة من أرض الشام، والله تعالى أعلم.

وقرأ أكثر القراء: «رُبوة» بضم الراء[2]، وهي لغة قريش.

وقرأ أبو إسحاق السَّبيعيُّ: «رِبوةٍ» بكسرها[3]. وابن أبي إسحاق: «رُبَاوة» بضم الراء وبالألف[4]. وزيد بن علي رضي الله عنهما والأشهب العقيلي والفرزدق والسُّلميُّ في نَقْلِ صاحب «اللوامح» بفتحها وبالألف[5]. وقرئ بكسرها وبالألف[6].

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستقرٌّ من أرضٍ منبسطةٍ، والمرادُ أنها في وادٍ فسيحٍ تنبسطُ به نفسُ مَن يأوي إليه. وقال مجاهد: ذات ثمارٍ وزروع، والمراد أنها محلٌّ صالحٌ لقرار الناس فيه؛ لِمَا فيه من الزروع والثمار، وهو أنسبُ بقوله تعالى: ﴿وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ أي: وماءٍ معينٍ، أي جارٍ، ووزنُه فعيل على أنَّ الميم أصلية من مَعَنَ بمعنى جرى، وأصلُه الإبعاد في الشيءِ، ومنه أَمْعَنَ النظر. وفي «البحر»: مَعَنَ الشيءُ مَعانةً: كَثُرَ[7]. أو من الماعون، وإطلاقُهُ على الماء الجاري لنَفْعِه.

وجوِّز أن يكون وزنُه مفعول كمَخِيطٍ، على أنَّ الميم زائدة، من عانه: أدركه

---

(١) إنجيل متى ص ٣٨-٤٠.

(٢) هي قراءة العشرة عدا ابن عامر وعاصم، فقد قرأا بفتح الراء. التيسير ص ٨٣، والنشر ٢/ ٢٢٢.

(٣) البحر ٦/ ٤٠٨، وعزاها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٩٨ لابن عباس.

(٤) القراءات الشاذة ص٩٨، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٥، والكشاف ٣/ ٣٣، والبحر ٦/ ٤٠٨، والكلام منه، ووقع في الأصل و(م): رباة، والمثبت من المصادر.

(٥) البحر ٦/ ٤٠٨، وهي في القراءات الشاذة ص٩٨ عن الفرزدق.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٣، والبحر ٦/ ٤٠٨.

(٧) البحر ٦/ ٣٩٤.

بعينه، كركَبَه: إذا ضربه برُكْبتِه، وإطلاقُهُ على الماء الجاري لِمَا أنه في الأغلب يكون ظاهراً مشاهَداً بالعين، ووصف الماء بذلك لأنه الجامعُ لانشراح الصدر وطيبِ المكان وكثرةِ المنافع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ حكايةٌ لرسول الله ﷺ على وجهِ الإجمال لِمَا خوطِبَ به كلُّ رسولٍ في عصره، جيء بها إثر حكايةِ إيواءِ عيسى وأمِّه عليهما السلام إلى الربوة، إيذاناً بأنَّ ترتيب مبادي النعم لم تكن من خصائص عيسى عليه السلام، بل إباحةُ الطيبات شرعٌ قديمٌ جرى عليه جميع الرسل عليهم السلام ووُصُّوا به، أي: وقلنا لكلِّ رسولٍ: كُلْ من الطيبات واعْمَلْ صالحاً، فعبَّر عن تلك الأوامر المتعدِّدة المتعلِّقة بالرسل بصيغةِ الجمع عند الحكاية إجمالاً للإيجاز.

أو حكايةٌ لِمَا ذُكر لعيسى وأمِّه عليهما السلام عند إيوائهما إلى الربوة؛ ليقتديا بالرسل في تناوُل ما رُزقا، كأنه قيل: آويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعينٍ، وقلنا أو قائلينَ لهما هذا، أي: أعْلَمْناهما أو معلِّميهما أن الرسل كلَّهم خوطبوا بهذا فكُلا واعملا اقتداءً بهم.

وجوِّز أن يكون نداءً لعيسى عليه السلام، وأمراً له بأن يأكل من الطيبات، فقد جاء في حديثٍ مرسلٍ عن حفص بن أبي جبلة عن النبي ﷺ، أنه قال في قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ) إلخ: «ذاك عيسى ابنُ مريم كان يأكل من غَزْلِ أمه»[1].

وعن الحسن ومجاهدٍ وقتادةَ والسدِّيِّ والكلبيِّ أنه نداءٌ لرسول الله ﷺ، وخطابٌ له، والجمعُ للتعظيم. واستَظْهرَ ذلك النيسابوريُّ[2]. وما وقع في «شرح التلخيص» تبعاً للرضيِّ من أنَّ قَصْدَ التعظيم بصيغة الجمع في غير ضمير المتكلِّم لم

(١) أخرجه عبدان في كتاب الصحابة كما في الإصابة ٣/ ٤٠، والدر المنثور ٥/ ١٠. وجاء في هامش (م): والمشهور أنه كان يأكل من بطن البرية. اهـ منه. قلنا: أخرج ابن المبارك في الزهد (٥٦٣) عن أبي هريرة ﷺ موقوفاً أن عيسى عليه السلام كان يقول لأصحابه: كلوا من بقل البرية.

(٢) في تفسيره ١٨/ ٢٤.

يقع في الكلام القديم خطأً؛ لكثرته في كلام العرب مطلقاً، بل في جميع الألسنة، وقد صرَّح به الثعالبيُّ في «فقه اللغة»[1].

والمراد بالطيبات على ما اختاره شيخُ الإسلام[2] وغيرُه: ما يُسْتَطاب ويُستلذُّ من مباحات المأكل والفواكه، واستَدلَّ له بأنَّ السياق يقتضيه، والأمرُ عليه للإباحة والترفيه، وفيه إبطالٌ للرهبانية التي ابتَدَعَتْها النصارى.

وقيل: المراد بالطيبات ما حلَّ، والأمرُ تكليفيٌّ، وأيِّد بتعقيبه بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ أي: عملاً صالحاً، وقد يؤيَّد بما أخرجه أحمد في «الزهد»، وابنُ أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم وصحَّحه، عن أمِّ عبد الله أختِ شداد بن أوس ﵄، أنها بعثت إلى النبيِّ ﷺ بقدحِ لبنٍ عند فِطْرِه وهو صائمٌ فردَّ إليها رسولها: أنَّى لكِ هذا اللبن؟ قالت: من شاةٍ لي. فردَّ إليها رسولَها: أنَّى لكِ الشاة؟ فقالت: اشتريتُها من مالي. فشرب منه عليه الصلاة والسلام، فلما كان من الغد أتته أمُّ عبد الله فقالت: يا رسول الله، بعثت إليك بلبن فردَدْتَ إلي الرسول فيه؟ فقال ﷺ لها: «بذلك أُمِرَتِ الرسلُ قبلي، أنْ لا تأكلَ إلَّا طيِّباً، ولا تعملَ إلَّا صالحاً»[3].

وكذا بما أخرجه مسلم والترمذيُّ وغيرُهما عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إنَّ الله تعالى طيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلَّا طيِّباً، وإنَّ الله تعالى أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا) وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيلُ السفر أشعثَ أغبرَ، ومَطْعَمُه حرامٌ، ومَشْرَبُهُ حرامٌ، ومَلْبَسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرام، يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ يا ربِّ، فأنَّى يُستجاب لذلك»[4].

---

(١) ينظر فقه اللغة ص ٣٠٠، والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٣٣٥.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ١٣٨.

(٣) الزهد لأحمد ص ٤٧٦، والمستدرك ٤/ ١٢٥-١٢٦، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٠، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ٢٥/ (٤٢٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٩١: فيه أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف. وقال الذهبي في التلخيص: ابن أبي مريم واهٍ.

(٤) صحيح مسلم (١٠١٥)، وسنن الترمذي (٢٩٨٩)، وهو عند أحمد (٨٣٤٨).

وتقديمُ الأمرِ بأكلِ الحلال لأنَّ أكل الحلال مُعِيْنٌ على العمل الصالح، وجاء في بعض الأخبار: أنَّ الله تعالى لا يقبلُ عبادةَ مَن في جوفه لقمةٌ من حرام[1]. وصحَّ: «أيّما لحمٍ نَبَتَ من سُحْتٍ فالنارُ أولى به»[2].

ولعل تقديمَ الأمر الأول على تقدير حَمْلِ الطيب على ما يُسْتلَذُّ من المباحات؛ لأنه أَوْفقُ بقوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ وفي الأمر بعده بالعمل الصالح حثٌّ على الشكر.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة ﴿عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ فأجازيكم عليه. وفي «البحر»: أنَّ هذا تحذيرٌ للرسل عليهم السلام في الظاهر والمرادُ أتباعُهم[3].

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: الملَّةَ والشريعةَ، وأُشيرَ إليها بـ «هذه» للإشارة إلى كمال ظهور أمرها في الصِّحَّة والسَّدَادِ، وانتظامِها بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهَدة.

﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أي: ملَّتكم وشريعتُكم. والخطابُ للرسل عليهم السلام على نحو ما مرَّ. وقيل: عامٌّ لهم ولغيرهم، وروي ذلك عن مجاهد.

والجملةُ على ما قال الخفاجيُّ عطفٌ على جملة «إنِّي بما تعملون عليم»[4] فالواو من المَحْكيِّ.

وقيل: هي من الحكاية وقد عَطَفتْ قولاً على قول، والتقديرُ: قلنا: يا أيها الرسل كلوا.. إلخ وقلنا لهم: إن هذه أمتكم. ولا يخفى بعدُه.

وقيل: الواو ليست للعطف والجملةُ بعدها مستأنفةٌ غيرُ معطوفةٍ على ما قبلها. وهو كما ترى.

وقوله سبحانه: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حالٌ مُبيِّنةٌ من الخبر، والعاملُ فيها معنى الإشارة،

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٩٥) بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ١/ ٢٦٠: إسناده فيه نظر. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٩١: أخرجه الطبراني في الصغير، وفيه من لم أعرفهم.

(٢) سلف ٧/ ٢٠٦.

(٣) البحر ٦/ ٤٠٨.

(٤) حاشية الشهاب ٦/ ٣٣٦.

أي: أُشيرُ إليها في حال كونها شريعةً متَّحدةً في الأصول التي لا تتبدَّلُ بتبدُّلِ الأعصار.

وقيل: «هذه» إشارةٌ إلى الأمم الماضية[^1] للرسل، والمعنى: إنَّ هذه جماعتُكم جماعةً واحدةً متَّفقةً على الإيمان والتوحيد في العبادة.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ أي: مِن غير أن يكون لي شريكٌ في الربوبية، وهذه الجملةُ عطفٌ على جملةِ «إنَّ هذه» إلخ، المعطوفةِ على ما تقدَّم، وهما داخلان في حيِّزِ التعليل للعمل الصالح؛ لأنَّ الظاهر أنَّ قوله سبحانه: (إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) تعليلٌ لذلك. ولعل المراد بالعمل الصالح ما يشمل العقائد الحقَّةَ والأعمالَ الصحيحة، واقتضاءُ المجازاة والربوبية لذلك ظاهرٌ، وأمَّا اقتضاءُ اتِّحاد الشريعة في الأصول التي لا تتبدَّلُ لذلك فباعتبارِ أنه دليلُ حقِّيةِ العقائد، وحقِّيتُها تقتضي الإتيانَ بها، والإتيانُ بها يقتضي الإتيانَ بغيرها من الأعمال الصالحة، بل قيل: لا يصحُّ الاعتقادُ مع تَرْكِ العمل. وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ كالتصريح بالنتيجة، فيكون الكلامُ نظيرَ قولك: العالَمُ حادِثٌ لأنه متغيِّرٌ، وكلُّ متغيِّرٍ حادثٌ، فالعالَم حادثٌ.

وفي «إرشاد العقل السليم»[^2]: أنَّ ضمير المخاطَب[^3] في قوله تعالى: (رَبُّكُمْ) وفي قوله سبحانه: (فَاتَّقُونِ) للرسل والأمم جميعاً، على أنَّ الأمر في حقِّ الرسل للتهييج والإلهاب، وفي حقِّ الأمة للتحذير والإيجاب، والفاءُ لترتيب الأمر أو وجوبِ الامتثال به على ما قبله من اختصاص الربوبية به سبحانه واتحادِ الأمة، فإنَّ كلًّا منهما موجبٌ للاتقاء حتماً، والمعنى: فاتَّقونِ في شقِّ العصا والمخالفةِ بالإخلال بموجب ما ذُكر [من اختصاص الربوبية بي].

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو: «وأنَّ» بفتح الهمزة وتشديدِ النون[^4]، وخُرِّجَ على تقدير حرف الجرِّ، أي: ولِأنَّ هذه.. إلخ، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «اتقون».

---

[^1]: في تفسير أبي السعود ٦/ ١٣٨ (والكلام منه): المؤمنة، بدل: الماضية.
[^2]: هو تفسير أبي السعود ٦/ ١٣٨، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
[^3]: في (م): الخطاب.
[^4]: التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨، وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة.

قال الخفاجيُّ[1]: والكلامُ في الفاء الداخلة عليه كالكلام في فاء قوله تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وهي للسببية وللعطف[2] على ما قبله وهو «اعملوا»، والمعنى: اتَّقوني لأنَّ العقول متفقةٌ على ربوبيَّتي والعقائد الحقَّة الموجبة للتقوى. انتهى، ولا يخلو عن شيءٍ.

وجوَّز أن يكون «أنَّ هذه» إلخ على هذه القراءة معطوفاً على «ما تعملون»، والمعنى: إنِّي عليمٌ بما تعملون وبأنَّ هذه أمتُكم أمةً واحدة.. إلخ، فهو داخلٌ في حيِّز المعلوم. وضعِّف بأنه لا جزالةَ في المعنى عليه.

وقيل: هو معمولٌ لفعلٍ محذوفٍ، أي: واعلموا أنَّ هذه أمتُكم.. إلخ، وهذا المحذوف معطوفٌ على «اعملوا». ولا يخفى أنَّ هذا التقديرَ خلافُ الظاهر.

وقرأ ابن عامر: «وأنْ» بفتح الهمزة وتخفيفِ النون[3] على أنها المخفَّفةُ من الثقيلة، ويُعلم توجيهُ الفتح مما ذكرنا.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾ الضمير لِمَا دلَّ عليه الأمَّةُ من أربابها إن كانت بمعنى الملَّة، أو لها إن كانت بمعنى الجماعة، وجوِّز أن يراد بالأمَّة أوَّلاً الملَّةُ، وعند عَوْدِ الضمير عليها الجماعةُ، على أنَّ ذلك من باب الاستخدام، والمراد حكايةُ ما ظهر من أمم الرسل عليهم السلام من مخالفة الأمر. والفاءُ لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم.

وتقطَّع بمعنى قطَّع كتقدَّم بمعنى قدَّم؛ والمراد بأمرهم: أمرُ دينهم، إمَّا على تقدير مضافٍ، أو على جَعْلِ الإضافة عهديةً، أي: قطَّعوا أمرَ دِينهم وجعلوه أدياناً مختلفةً مع اتِّحادِه.

وجوِّز أن يراد بالتقطُّع التفرُّق، و«أمرَهم» منصوبٌ بنزع الخافض، أي: فتفرقوا وتحزبوا في أمرهم، ويجوز أن يكون «أمرَهم» على هذا نصباً على التمييز عند الكوفيين المجوِّزين تعريفَ التمييز.

---

(١) في الحاشية ٦/ ٣٣٦.
(٢) في الحاشية: أو للعطف.
(٣) التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٨.

﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: قِطَعاً، جمع زبورٍ بمعنى فِرْقة، ويؤيِّده أنه قرئ: «زُبَراً» بضمِّ الزاي وفتح الباء[1]، فإنه مشهورٌ ثابتٌ في جمع زُبْرةٍ بمعنى قطعة. وهو حالٌ من «أمرهم»، أو من واوِ «تقطَّعوا»، أو مفعولٌ ثَانٍ له، فإنه مضمَّنٌ معنى جَعَلوا.

وقيل: هو جمع زبور بمعنى كتاب، من زَبَرْتُ بمعنى: كتبتُ، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «تقطَّعوا» المضمَّنِ معنى الجَعْلِ، أي: قطَّعوا أمرَ دينهم جاعلينَ له كتباً.

وجوِّز أن يكون حالاً من «أمرهم» على اعتبار «تقطَّعوا» لازماً، أي: تفرَّقوا في أمرهم حالَ كونه مثلَ الكتبِ السماوية عندهم. وقيل: إنها حالٌ مقدَّرةٌ. أو منصوبٌ بنزع الخافض، أي: في كتبٍ. وتفسيرُ «زبراً» بكُتُب، رواه جماعةٌ عن قتادة كما في «الدر المنثور»[2]، ولا يَخْفَى خفاءُ المعنى عليه، ولا يكاد يستقيم إلَّا بتأويلٍ، فتدبَّر.

وقرىء: «زُبْراً» بإسكان الباء للتخفيف[3]، كرُسْلٍ في رُسُل.

وجاء «فتقطَّعوا» هنا بالفاء إيذاناً بأنَّ ذلك اعْتَقَبَ الأمرَ، وفيه مبالغةٌ في الذمِّ كما أشرنا إليه. وجاء في سورة الأنبياء بالواو فاحْتَمَلَ معنى الفاءِ واحْتَمَلَ تأخُّر تقطُّعهم عن الأمر.

وجاء هنا «وأنا ربُّكم فاتقون» وهو أبلغُ في التخويف والتحذير مما جاء هناك من قوله تعالى هناك: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] لأنَّ هذه جاءت عقيبَ إهلاك طوائفَ كثيرين، قومِ نوحٍ والأممِ الذين من بعدهم، وفي تلك السورة وإنْ تقدَّمت أيضاً قصةُ نوحٍ وما قبلها فإنه جاء بعدها ما يدلُّ على الإحسان واللُّطْفِ التَّامِّ في قصة أيوب وزكريا ومريم، فناسَبَ الأمر بالعبادة لمن هذه صفته عز وجل، قاله أبو حيان[4].

---

(١) نسبها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٣٠٣، لابن عامر، لكن بخلاف بين أصحاب هشام راوي ابن عامر. وهي في القراءات الشاذة ص ٩٩ عن أبي عمرو.

(٢) ٥/ ١٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ٩٩، والكشاف ٣/ ٣٤.

(٤) في البحر ٦/ ٤٠٩.

وما ذَكَره أوّلاً غيرُ وافٍ بالمقصود، وما ذكره ثانياً قيل عليه: إنَّه مبنيٌّ على أنَّ الآية تذييلٌ للقصص السابقة، أو لقصةِ عيسى عليه السلام، لا ابتداءُ كلامٍ، فإنه حينئذٍ لا يفيدُ ذلك إلَّا أنْ يُرادَ أنه وقع في الحكاية لهذه المناسبة، فتأمَّل.

﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ من أولئك المتحزِّبينَ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من الأمر الذي اختاروه ﴿فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ مسرورون مُنْشَرِحو الصدرِ، والمرادُ أنهم مُعْجَبون به، معتقدون أنه الحقُّ، وفي هذا من ذمِّ أولئك المتحزِّبين ما فيه.

﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ خطابٌ له ﷺ في شأن قريشٍ الذين تقطَّعوا في أمر الدِّين الحق. والغمرةُ: الماء الذي يَغْمُرُ القامةَ، وأصلُها من الستر، والمراد بها الجهالةُ بجامع الغَلبةِ والاستهلاك، وكأنه لمَّا ذكر سبحانه في ضِمْنِ ما كان من أمم الأنبياء عليهم السلام توزُّعَهم، واقتسامَهم ما كان يجب اجتماعُه واتفاقُ الكلمة عليه من الدِّين، وفرحَهم بفِعْلِهم الباطلِ ومُعْتَقَدِهم العاطل، قال لنبيِّه ﷺ: فإذ ذاك دَعْهم في جَهْلِهم هذا الذي لا جَهْلَ فوقه، تخليةً وخذلاناً ودلالةً على اليأس من أن يَنْجَعَ القولُ فيهم. وضمَّن التسليةَ في ذكر الغاية، أعني قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ۝٥٤﴾ فإنَّ المراد بذلك: حين قَتْلِهم، وهو يومُ بدرٍ على ما روي عن مقاتل، أو موتِهم على الكفر الموجِبِ للعذاب، أو عذابِهم. وفي التنكير والإبهام ما لا يخفى من التهويل.

وجوِّز أن يقال: شَبَّه حالَ هؤلاء، مع ما هم عليه من محاولة الباطل والانغماسِ فيه، بحالِ مَن يَدخُلُ في الماء الغامر للَّعبِ، والجامعُ تضييعُ الوقت بعد الكَدْحِ في العمل، والكلامُ حينئذٍ على منوال سابقِه، أعني قولَه تعالى: (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) لمَّا جُعِلوا فَرِحين غروراً جُعِلوا لاعبين أيضاً، والأولُ أَظْهرُ، وقد يُجعَلُ الكلامُ عليه أيضاً استعارةً تمثيليةً، بل هو أَوْلى عند البُلَغاء كما لا يخفى(١).

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وأبو حيوة والسُّلميُّ: «في غمراتهم» على الجمع؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ غمرةً(٢).

---

(١) ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٣٧.

(٢) البحر ٦/ ٤٠٩، وهي في القراءات الشاذة ص ٩٨ دون نسبة.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ أي: الذي نُعطيهم إياه ونجعلُه مدداً لهم، فـ «ما» موصولةٌ اسم «أنَّ»، ولا يَضُرُّ كونُها موصولةً؛ لأنَّها في الإمام كذلك[1] لسرٍّ لا نعرفهُ.

وقولُه تعالى: ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥﴾ بيانٌ لها، وتقديمُ المالِ على البنينَ مع كونهم أعزَّ منه قد مرَّ وجهُه[2].

وقولُه سبحانه: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ خبرُ «أنَّ»، والراجعُ إلى الاسم محذوفٌ، أي: أيحسبون أنَّ الذي نُمِدُّهم به من المال والبنين نسارعُ به لهم فيما فيه خيرُهم وإكرامُهم، على أنَّ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحِه، وحُذف هذا العائدُ لطول الكلام مع تقدُّمِ نظيره في الصلة، إلَّا أنَّ حذفَ مثله قليلٌ.

وقال هشام بن معاوية[3]: الرابطُ هو الاسمُ الظاهرُ، وهو «الخيرات»، وكأنَّ المعنى: نسارعُ لهم فيه، ثم أُظْهِرَ فقيل: في الخيرات، وهذا يتمشَّى على مذهب الأخفش في إجازته نحوَ: زيدٌ قام أبو عبد الله، إذا كان أبو عبد الله كنيةً لزيد.

قيل: ولا يجوزُ أن يكون الخبر «من مال وبنين»؛ لأنَّ الله تعالى أمدَّهم بذلك، فلا يُعاب ولا يُنْكَر عليهم اعتقادُ المددِ به كما يفيدُه الاستفهامُ الإنكاريُّ.

وتعقِّب بأنه لا يَبْعدُ أن يكون المراد: ما نجعلُه مدداً نافعاً لهم في الآخرة ليس المالَ والبنين بل الاعتقاد والعمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. وفيه ما فيه.

وما ذكرنا من كونِ «ما» موصولةً هو الظاهرُ، ومَن جوَّز كونَها مصدريةً وجَعَلَ المصدر الحاصلَ بعد السَّبْكِ اسمَ «أنَّ»، وخبَرها «نسارع» على تقدير: مسارَعةٌ، بناءً على أنَّ الأصل: أنْ نسارعَ، فحذفت «أنْ» وارْتَفعَ الفعلُ = لم يُوفِّ القرآنَ الكريم حقَّه.

---

(١) ينظر المقنع للداني ص ٧٣-٧٤.

(٢) ١٥/ ٢٨٦.

(٣) هو هشام بن معاوية الضرير النحوي الكوفي صاحب الكسائي، وكلامه في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٧، والبحر ٦/ ٤٠٩، والكلام منه.

وكذا مَن جَعَلَها كافّةً كالكسائيِّ، ونَقَلَ ذلك عنه أبو حيان، وجوَّز عليه الوقفَ على«بنين» معلِّلاً بأنَّ ما بعدَ «يحسب» قد انتظم مسنداً ومسنداً إليه من حيث المعنى، وإن كان في تأويل مفردٍ[١]، وهو كما ترى.

وقرأ ابن وثاب: «إنَّما نُمِدُّهم» بكسر همزة «إنَّ». وقرأ ابن كثير في روايةٍ: «يُمدُّهم» بالياء[٢].

وقرأ السُّلميُّ وعبدُ الرحمن بن أبي بَكْرَةَ: «يُسارِعُ» بالياء وكَسْرِ الراء[٣]، فإن كان فاعلُه ضميرَه تعالى فالكلامُ في الرابط على ما سمعت، وإن كان ضميرَ الموصول فهو الرابطُ.

وعن ابن أبي بكرة المذكورِ أنه قرأ: «يُسارَعُ» بالياء وفتح الراء مبنيًّا للمفعول[٤].

وقرأ الحُرُّ النحويُّ: «نُسْرِعُ» بالنون مضارعُ أسرعَ[٥].

وقرئ على ما في «الكشاف»: «يُسْرِعُ» بالياء مضارعُ أَسْرَعَ أيضاً[٦]، وفي فاعله الاحتمالان المشارُ إليهما آنفاً.

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلام، أي: كلّا، لا نفعلُ ذلك بل لا يشعرون، أي: ليس من شأنهم الشعورُ، إنْ هم إلَّا كالأنعام بل هم أضلُّ، حتى يتأمَّلوا ويتفكَّروا في ذلك، أهو[٧] استدراجٌ أم مسارعةٌ ومبادرةٌ في

---

(١) البحر ٦/ ٤٠٩.

(٢) القراءتان في البحر ٦/ ٤٠٩، والثانية في القراءات الشاذة ص ٩٨.

(٣) القراءات الشاذة ص ٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٤، والمحرر الوجيز ٤/ ١٤٧، والبحر ٦/ ٤١٠. وعبد الرحمن بن أبي بكرة البصري تابعي، وكان أول مولود في الإسلام بالبصرة، توفي سنة(٩٦هـ). من رجال التهذيب.

(٤) المحتسب ٢/ ٩٤، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١١٧، والبحر ٦/ ٤١٠.

(٥) المحتسب ٢/ ٩٤، والبحر ٦/ ٤١٠. والحُرُّ النحوي هو ابن عبد الرحمن، سمع أبا الأسود الدؤلي، وعنه طلب إعراب القرآن. بغية الوعاة ١/ ٤٩٣.

(٦) الكشاف ٣/ ٣٥، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٩٨.

(٧) في (م): هو.

الخيرات؟ ومن هنا قيل: مَن يَعْصِ الله تعالى ولَمْ يَرَ نقصاناً فيما أعطاه سبحانه من الدنيا، فليَعْلَم أنه مستدرَجٌ قد مُكِرَ به. وقال قتادةُ: لا تعتبروا الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبروهم بالإيمان والعمل الصالح.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الكلامُ فيه نظيرُ ما مرَّ في نظيره في سورة «الأنبياء»[1]، بَيْدَ أنَّ في استمرار الإشفاق هنا في الدنيا والآخرة للمؤمنين تردُّداً.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المُنزَلَةِ، والمنصوبةِ في الآفاق والأنْفس، والباءُ للمُلابسة وهي متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: يصدِّقون، والمرادُ التصديقُ بمدلولها؛ إذ لا مدحَ في التصديق بوجودها، والتعبيرُ بالمضارع دون الاسم للإشارة إلى أنه كلَّما وَقَفوا على آيةٍ آمنوا بها وصدَّقوا بمدلولها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فيُخْلِصون العبادةَ له عز وجل، فالمرادُ نفيُ الشرك الخفيِّ كالرياء بالعبادة، كذا قيل.

وقد اختار بعضُ المحقِّقين التعميم، أي: لا يشركون به تعالى شركاً جليًّا ولا خفيًّا ولعله الأَوْلَى، ولا يُغْني عن ذلك وصفُهم بالإيمان بآيات الله تعالى.

وجوِّز أن يراد مما سبق وصفُهم بتوحيد الربوبية، ومما هنا وصفُهم بتوحيد الألوهية، ولم يقتصر على الأول لأنَّ أكثر الكفار متَّصفون بتوحيد الربوبية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] ولا يأباه التعرُّضُ لعنوان الربوبية؛ فإنه في المواضع الثلاثة للإشعار بالعلِّية، وذلك العنوانُ يَصْلُحُ لِأَنْ يكونَ علَّةً لتوحيدِ الألوهية كما لا يخفى.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾ أي: يُعْطُون ما أَعْطَوا من الصدقات ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفةٌ من أنْ لا يُقبلَ منهم، وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخَذوا به.

وقرأت عائشةُ وابنُ عباسٍ وقتادةُ والأعمشُ والحسنُ والنخعيُّ: «يأتون ما أتوا»[2] من الإتيان لا الإيتاءِ فيهما. وأخرج ابن مردويه وسعيد بن منصور عن

(١) ١٧/ ٥٨.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٥، والبحر ٦/ ٤١٠.

عائشة أنه ﷺ قرأ كذلك[١]. وأطلقَ عليها المفسرون: قراءة رسول الله عليه الصلاة والسلام، يَعْنُونَ أنَّ المحدِّثين نقلوها عنه ﷺ ولم يَرْوِها القرَّاءُ من طُرُقهم. والمعنى عليها: يفعلون من العبادات ما فعلوه وقلوبُهم وَجِلةٌ.

وروي نحوُ هذا عن رسول الله ﷺ؛ فقد أخرج أحمد والترمذيُّ وابن ماجه، والحاكم وصحَّحه، وابن المنذر وابن جَريرٍ وجماعةٌ عن عائشةَ ﵂ قالت: قلتُ: يا رسول الله، قولُ الله: «والذين يأتون ما أتوا وقلوبُهم وجلةٌ» أهو الرجل يسرقُ ويزني ويشربُ الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى؟ قال: «لا، ولكنه الرجلُ يصومُ ويتصدَّقُ ويصلِّي، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى أنْ لا يتقبَّلَ منه»[٢].

وجملةُ: «قلوبُهم وَجِلةٌ» في القراءتين في موضع الحال من ضمير الجمع في الصلة الأولى، والتعبيرُ بالمضارع فيها للدلالة على الاستمرار، وفي الثانية للدلالة على التحقُّق.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ بتقدير اللام التعليلية، وهي متعلِّقةٌ بـ«وجلة» أي: خائفةٌ من عدم القبول، وعدمِ الوقوعِ على الوجه اللائق؛ لأنَّهم راجعون إليه تعالى ومبعوثون يوم القيامة، وحينئذٍ تنكشف الحقائق، ويحتاج العبد إلى عملٍ مقبولٍ لائقٍ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وجوِّز أن يكون بتقديرِ «من» الابتدائية التي يتعدَّى بها الوجل، أي: وجلةٌ من أنَّ رجوعهم إليه عز وجل، على أنَّ مَناطَ الوجل أنْ لا يُقبل ذلك منهم، وأن لا يقع على الوجه اللائق، فيؤاخَذوا به حينئذٍ، لا مجرَّدُ رجوعهم إليه عز وجل.

---

(١) الدر المنثور ٥/ ١٢، وأخرجه مطولاً أحمد (٢٤٦٤١)، والدوري في جزء قراءات النبي ﷺ (٨٥)، وإسناده ضعيف.

(٢) مسند أحمد (٢٥٧٠٥)، وسنن الترمذي (٣١٧٥)، وسنن ابن ماجه (٤١٩٨)، وتفسير الطبري ١٧/ ٧٠-٧١، والمستدرك ٢/ ٣٩٣-٣٩٤، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١١. وقد ورد هذا الحديث في المصادر المذكورة على القراءة المشهورة، أي: «والذين يؤتون ما آتوا». ولكن الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٥، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤١٠ قد ذكراه مثل المصنف في شرح قراءة: «والذي يأتون ما أتوا». وينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٨-٤٦٩، وغرائب القرآن للنيسابوري ١٨/ ٢٨.

وقد يؤيِّد الوجهُ الأول بقراءة الأعمش: «إنهم» بكسر الهمزة[١].

ولعل التعبير بالجملة الاسمية المخبَرِ فيها بالوصف دون الفعل المضارع للمبالغة في تحقُّق الرجوع، حتى كأنه من الأمور الثابتة المستمرَّة، كذا قيل.

وجوِّز على بُعْدٍ أن يكون المراد من الرجوع المذكور الرجوعَ إليه عز وجل بالعبودية، فوَجْهُ التعبير بالجملة الاسمية عليه أظهرُ من أن يخفى، ووجهُ تعليل الخوف من عدمِ القبول وعدمِ وقوع فِعْلِهم ـ كائناً ما كان ـ على الوجه اللائق بأنهم راجعون إليه تعالى بالعبودية، عدمُ وجوبِ قبولِ عملهم عليه تعالى حينئذٍ؛ لأنه سبحانه مالكٌ، وللمالك أن يفعل بملكه ما يشاء، وظهورُ نَقْصِهم ـ كيف كانوا ـ عن كماله جل جلاله، والناقصُ مظنةٌ أن لا يأتي بما يليق بالكامل، لا سيما إذا كان ذلك الكاملُ هو الله عز وجل، الذي لا يتناهى كمالُه. ولا أراكَ تَرَى في هذا الوجه كلفاً سوى كلفِ البُعْدِ فتأمَّل.

ثم إنَّ الموصولات الأربع ـ على ما قاله شيخ الإسلام وغيرُه ـ عبارةٌ عن طائفةٍ واحدةٍ متَّصفةٍ بما ذكر في حيِّز صِلَاتها من الأوصاف الأربعة، لا عن طوائفَ كلٌّ واحدةٍ منها متَّصفةٌ بواحدٍ من الأوصاف المذكورة، كأنه قيل: إنَّ الذين هم من خشية ربِّهم مشفقون، وبآيات ربِّهم يؤمنون.. إلخ. وإنما كرِّر الموصول إيذاناً باستقلال كلٍّ واحدةٍ من تلك الصفات بفضيلةٍ باهرةٍ على حيالها، وتنزيلاً لاستقلالها منزلةَ استقلال الموصوف بها[٢]، وهذا جارٍ على كلتا القراءتين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا﴾.

وللعلَّامة الطيبيّ في هذا المقامِ كلامٌ لا أظنك تستطيبهُ، كيف وفيه القولُ بأنَّ الذين هم بربِّهم لا يشركون، والذين يأتون ما أتوا وقلوبُهم وجلةٌ، هم العاصون من أمة محمدٍ ﷺ، وهو غاية البُعْدِ.

وقد ذكر الإمامُ أنَّ الصفة الرابعة نهايةُ مقاماتِ الصدِّيقين[٣].

---

(١) البحر ٦/٤١١.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/١٤٠.

(٣) تفسير الرازي ٢٣/١٠٧.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَن ذُكر باعتبار اتِّصافهم بتلك الصفات، وما فيه من معنى البُعَدِ للإشعار ببُعْدِ رُتْبتهم في الفضل، وهو مبتدأٌ خبرهُ قولُه تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ والجملةُ من المبتدأ وخبرِه خبرُ «إنَّ»، والكلامُ استئنافٌ مسوقٌ لبيان مَن له المسارعةُ في الخيرات إثرَ إقناطِ الكفار عنها، وإبطالِ حسبانهم الكاذب، أي: أولئك المنعوتون بما فصِّل من النعوت الجليلة خاصةً دون أولئك الكفرة يسارعون في نيل الخيرات، التي من جملتها الخيراتُ العاجلةُ الموعودةُ على الأعمال الصالحة، كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨] وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فقد أَثْبتَ لهم ما نَفَى عن أضدادهم، خلا أنه غيَّر الأسلوب حيث لم يقل: أولئك يُسارَعُ لهم في الخيرات، بل أَسْنَدَ المسارعةَ إليهم إيماءً إلى استحقاقهم لنيلِ الخيرات بمحاسن أعمالهم، وإيثارُ كلمة «في» على كلمة «إلى»؛ للإيذانِ بأنهم متقلِّبون في فنون الخيرات، لا أنهم خارجون عنها متوجِّهون إليها بطريق المسارعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ الآية [آل عمران: ١٣٣].

﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي: للخيرات التي مِن جملتها ما سمعت، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ وهو إمَّا منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أي: فاعلون السبقَ، أو مفعولُه محذوف، أي: سابقون الناسَ أو الكفارَ، وهو يتعدَّى باللام وبـ «إلى»، فيقال: سبقتُ إلى كذا ولكذا. والمرادُ بسَبْقِهم إلى الخيرات: ظفرُهم بها ونيلُهم إياها، وجعل أبو حيان هذه الجملةَ تأكيداً للجملة الأولى[1].

وقيل: «سابقون» متعدٍّ للضمير بنفسه واللامُ مَزيدةٌ، وحسَّن زيادتَها كونُ العامل فرعيًّا وتقدُّمُ المعمولِ المضمَرِ، أي: وهم سابقون إياها، والمراد بسَبْقِهم إياها لازمُ معناه أيضاً، وهو النَّيل، أي: وهم ينالونها قبل الآخرة حيث عجِّلت لهم في الدنيا، فلا يَردُ ما قيل: إنَّ سَبْقَ الشيءِ الشيءَ يدلُّ على تقدُّم السابق على المسبوق، فكيف يقال: هم يسبقون الخيرات؟ والاحتياجُ إلى إرادة اللازم على هذا الوجه أشدُّ منه على الوجه السابق، ولهذا مع التزام الزيادة فيه قيل: إنه وجهٌ متكلَّف.

---

(١) البحر ٦/٤١١.

وجوِّز أن يكون المراد بالخيرات الطاعاتِ، وضميرُ «لها» لها أيضاً، واللامُ للتعليل، وهو متعلِّقٌ بما بعده، والمعنى: يرغَبون في الطاعات والعبادات أشدَّ الرغبة، وهم لأجلها فاعلون السَّبْقَ، أو لأجلها سابقون الناس إلى الثواب أو إلى الجنة.

وجوِّز على تقديرِ أنْ يُراد بالخيرات الطاعات أن يكون «لها» خبرَ المبتدأ، و«سابقون» خبراً بعد خبر، ومعنى «هم لها»: أنهم مُعَدُّون لفعل مثلها من الأمور العظيمة، وهذا كقولك لمن يُطْلَبُ منه حاجةٌ لا تُرْجَى من غيره: أنت لها، وهو من بليغ كلامهم، وعلى ذلك قوله:

مشكلاتٌ أَعْضَلتْ ودَهَتْ يا رسول الله أنت لها[1]

ورجَّح هذا الوجهَ الطبريُّ بأنَّ اللام متمكِّنةٌ في هذا المعنى[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما هو ظاهرٌ في جَعْلِ «لها» خبراً، وإنْ لم يكن ظاهراً في جَعْلِ الضمير للخيرات بمعنى الطاعات، ففي «البحر» نقلاً عنه أنَّ المعنى: سَبَقَتْ لهم السعادةُ في الأزل فهم لها[3].

وأنت تعلمُ أنَّ أكثر هذه الأوجُهِ خلافُ الظاهر، وأنَّ التفسير الأول للخيرات أحسنُ طباقاً للآية المتقدِّمة.

ومن الناس مَن زعم أنَّ ضمير «لها» للجنة، ومنهم مَن زعم أنه للأمم، وهما[4] كما ترى.

---

(١) ذكره الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٣٨، ولم نقف عليه عند غيره. وقد استدل الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٥ لهذا القول بقول الشاعر: أنت لها أحمد من بين البشر، وأورده في أساس البلاغة (غبر) برواية:

أنت لها منذرُ من بين البَشَرْ داهيةُ الدهر صمَّاءُ الغَبَر

وهو بهذه الرواية في الصحاح (غبر)، وجمهرة الأمثال ١/ ٤٥٠، ومجمع الأمثال ١/ ٤٤ منسوب للحرمازي يمدح المنذر بن الجارود.

(٢) البحر ٦/ ٤١١، وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٧٢-٧٣.

(٣) البحر ٦/ ٤١١.

(٤) في (م): وهو.

وقرأ الحرُّ النحويُّ: «يُسْرعون» مضارعُ أسرع[1]، يقال: أسرعتُ إلى الشيءِ وسَرِعْتُ إليه بمعنىً واحد. و«يسارعون» كما قال الزجَّاج أبلغُ من «يُسْرِعون»[2]. ووجِّه بأنَّ المفاعَلَة تكون من اثنين فتقتضي حثَّ النفس على السَّبْقِ لأن مَن عارضك في شيءٍ تشتهي أنْ تَغْلِبه فيه.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقتْ للتحريض على ما وُصف به أولئك المشارُ إليهم من فعل الطاعات، ببيان سهولته وكونِه غير خارجٍ عن حدِّ الوُسْعِ والطاقة[3]، أي: عادتُنا جاريةٌ على أنْ لا نكلِّفَ نفساً من النفوس إلَّا ما في وُسْعِها وقَدْرِ طاقتها، على أنَّ المراد استمرارُ النفي بمعونة المقام لا نفيُ الاستمرار. أو للترخيص فيما هو قاصِرٌ عن درجة أعمال أولئك ببيان أنه تعالى لا يكلِّف عباده إلَّا ما في وسعهم، فإنْ لم يبلغوا في فِعْلِ الطاعات مراتبَ السابقينَ، فلا عليهم بعدُ أن يبذلوا طاقتهم ويَسْتَفْرِغوا وُسْعَهم.

قال مقاتل: مَن لم يستطع القيام فليصلِّ قاعداً، ومَن لم يستطع القعودَ فَلْيُوْمِ إيماءً.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ تتمةٌ لِمَا قبله ببيانِ أحوال ما كلِّفوه من الأعمال، وأحكامِها المترتِّبة عليها من الحساب والثواب والعقاب، والمراد بالكتاب صحائفُ الأعمال التي يقرؤونها عند الحساب، حَسْبَما يُؤْذِنُ به الوصفُ، فهو كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

و«الحقُّ»: المطابقُ للواقع، والنطقُ به مجازٌ عن إظهاره، أي: عندنا كتابٌ يُظْهِرُ الحقَّ المطابقَ للواقع على ما هو عليه ذاتاً ووَصْفاً، ويُبيِّنهُ للناظر كما يُبيِّنُه النطقُ ويُظْهِرُه للسامع، فيظهر هناك جلائل الأعمال ودقائقها، ويترتَّبُ عليها أَجْزِيتها إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٨، والبحر ٦/ ٤١١، والكلام منه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٧، والكلام من البحر ٦/ ٤١١.

(٣) في (م): والطاعة، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ١٤١، والكلام منه.

وقيل: المراد بالكتاب صحائفُ يقرؤونها، فيها ما ثبت لهم في اللوح المحفوظ من الجزاء، وهو دون القول الأول. وأَدْوَنُ منه ما قيل: إنَّ المراد به القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ لبيان فَضْلِه عز وجل وعَدْلِه في الجزاء على أتمِّ وجهٍ، إثْرَ بيانِ لُطفِه سبحانه في التكليف وكَتْبِ الأعمال على ما هي عليه، أي: لا يظلمون في الجزاء بنقصِ ثوابٍ أو زيادةِ عذابٍ، بل يُجزون بقَدْرِ أعمالهم التي كلِّفوها ونَطَقَتْ بها صحائفها بالحقِّ.

وجوِّز أن يكون تقريراً لِمَا قبلُ من التكليف وكَتْبِ الأعمال، أي: لا يظلمون بتكليفِ ما ليس في وُسْعِهم، ولا بكَتْبِ بعضِ أعمالهم التي من جملتها أعمالُ غيرِ السابقين بناءً على قصورها عن درجة أعمال السابقين، بل يكتب كلٌّ منها على مقاديرها وطبقاتها.

وقوله عز وجل: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إضرابٌ عمَّا قَبْلَه، ورجوعٌ إلى بيان حالِ الكَفَرةِ، فالضميرُ للكفرة، أي: بل قلوبُ الكَفَرةِ في غَفْلةٍ وجَهَالةٍ من هذا الذي بيِّن في القرآن، من أنَّ لديه تعالى كتاباً يَنْطِقُ بالحقِّ، ويُظْهِرُ لهم أعمالَهم السيئةَ على رؤوس الأشهاد، فيُجْزَوْنَ بها كما يُنْبِئُ عنه ما سيأتي إن شاء الله تعالى من قوله سبحانه: (قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) إلخ.

وقيل: الإشارةُ إلى القرآن الكريم وما بيِّن فيه مطلقاً، وروي ذلك عن مجاهد.

وقيل: إلى ما عليه أولئك الموصوفون بالأعمال الصالحة، وروي هذا عن قتادة. وقيل: إلى الدِّين بجملته. وقيل: إلى النبيِّ ﷺ. والأولُ أظهر.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ سيئةٌ كبيرةٌ ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر، من كَوْنِ قلوبهم في غمرةٍ مما ذكر، وهي فنونُ كُفْرِهم ومعاصيهم التي من جملتها طعنُهم في القرآن الكريم، المشارُ إليه في قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وأخرج ابنُ المنذر وغيرُه عن ابن عباس: أنَّ المراد بالغمرة الكفرُ والشكُّ، وأن «ذلك» إشارةٌ إلى هذا المذكور، والمعنى: لهم أعمالٌ [سيئة] دون الكفر[1].

---

(١) الدر المنثور ٥/١٢، وما بين حاصرتين منه.

وأخرج ابنُ جرير وغيرُه[١] عن قتادة: أنَّ «ذلك»ك «هذا» إشارةٌ إلى ما وُصف به المؤمنون من الأعمال الصالحة، أي: لهم أعمالٌ متخطِّيةٌ لِمَا وُصِفَ به المؤمنون، أي: أضداد ما وُصفوا به مما وقع في حيِّز الصِّلات، وهذا غايةُ الذمِّ لهم.

﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣﴾ أي: مستمرُّون عليها، معتادون فِعْلَها، ضارُّون بها، لا يُفْطَمون عنها. و«عاملون» عاملٌ في الضمير قبله واللامُ للتقوية.

هذا وقال أبو مسلم[٢]: إنَّ الضمير في قوله تعالى: «بل قلوبهم»[٣] إلخ عائد على المؤمنين الموصوفين بما تقدَّم من الصفات، كأنه سبحانه قال بعد وَصْفِهم: ولا نكلِّف نفساً إلا وُسْعَها، ونهايتُه ما أتى به هؤلاء المشفقون، ولدينا كتابٌ يحفظُ أعمالهم ينطقُ بالحقِّ فلا يُظْلَمون، بل يوفَّى عليهم ثوابُ أعمالهم، ثم وَصَفَهم سبحانه بالحيرة في قوله تعالى: (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ)، فكأنه عز وجل قال: وهم مع ذلك الوَجَلِ والخوفِ كالمتحيِّرينَ في أعمالهم، أهي مقبولةٌ أم مردودة؟ (وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ) أي: لهم أيضاً من النوافل ووجوهِ البرِّ سوى ما هم عليه. انتهى.

قال الإمام[٤]: وهو الأَوْلى؛ لأنه إذا أَمْكَنَ ردُّ الكلام إلى ما يتَّصِلُ به مِن ذِكْرِ المشفقين، كان أَوْلى مِن ردِّه إلى ما بَعُدَ منه، خصوصاً وقد يرغبُ المرء في فِعْلِ الخير بأنْ يذكر أنَّ أعماله محفوظةٌ، كما يحذرُ بذلك من الشرِّ، وقد يوصفُ المرء لشدَّةِ فِكْرِه في أمرِ آخرته بأنَّ قلبه في غمرةٍ، ويرادُ أنه قد استولى عليه الفِكْرُ في قبول عمله أو ردِّه، وفي أنه هل أدَّاه كما يجب أو قصَّر، و«هذا» على هذا إشارةٌ إلى إشفاقهم ووَجَلِهم. انتهى، ولا يخفَى ما فيه على مَن ليس قلبُه في غَمْرةٍ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ «حتى» على ما في «الكشاف» هي التي يُبْتَدأُ بعدَها الكلامُ، وهي مع ذلك غايةٌ لِما قبلها[٥]، كأنه قيل: لا يزالون يعملون أعمالهم إلى حيث إذا أخذنا... إلخ.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٧٥-٧٦، والدر المنثور ٥/ ١٢.
(٢) كما في تفسير الرازي ٢٣/ ١٠٩.
(٣) في الأصل و(م): بل هم، والصواب ما أثبتناه.
(٤) في تفسيره ٢٣/ ١٠٩.
(٥) الكشاف ٢/ ٢٦٩ و٣/ ٣٦، والبحر ٦/ ٤١٢.

وقال ابن عطية: هي ابتداءٌ لا غير، و«إذا» الأولى والثانيةُ يمنعان من أن تكون غايةً لـ «عاملون»(١). وفيه نظر.

و«إذا» شرطيةٌ شَرْطُها «أخذنا»، وهي مضافةٌ إليه، وجزاؤها قولُه تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وهي معمولةٌ له، و«إذا» فيه فُجائيةٌ نائبةٌ منَابَ الفاء.

وقال الحوفيُّ(٢): «حتى» غايةٌ، وهي عاطفةٌ، و«إذا» ظرفٌ يضاف إلى ما بعده فيه معنى الشرط، و«إذا» الثانيةُ في موضع جواب الأولى، ومعنى الكلام عاملٌ في «إذا» الأولى، والعاملُ في الثانية «أخذنا». انتهى.

وهو كلام مخبّط يَبْعدُ صدورُه من مثل هذا الفاضل.

والمترف: المتوسِّعُ في النعمة. والمرادُ بالعذاب: ما أصابهم يومَ بدرٍ من القتل والأسر، كما روي عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة، وقد قُتل وأُسر في ذلك اليوم كثيرٌ من صناديدهم ورؤسائهم.

والجُؤارُ مثلُ الخُوَار، يقال: جَأَرَ الثورُ يَجْأَرُ، إذا صاح. وجأر الرجل إلى الله تعالى: إذا تضرَّع بالدعاء، كما في «الصحاح»(٣). وفي «الأساس»: جَأَرَ الداعي إلى الله تعالى: ضجَّ ورَفَع صوتَه(٤).

والمراد به الصراخُ، إمَّا مطلقاً أو باستغاثة. وضميرا الجمع راجعان على ما رجع إليه(٥) الضمائر السابقة في «مترفيهم» و«لهم» و«قلوبهم» وغيرها، وهم كفارُ أهلِ مكةَ، لكنْ بإرادةِ مَن بقي منهم بعدَ أخذِ المترفين بالقتل.

قال ابن جريج: المعذَّبون قتلى بدرٍ، والذين يجأرون أهلُ مكةَ؛ لأنهم ناحوا واستغاثوا.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٩.
(٢) كما في البحر ٦/ ٤١٢.
(٣) مادة (جأر).
(٤) أساس البلاغة (جأر).
(٥) في الأصل: عليه.

وفي «إنسان العيون»(١): أنَّ(٢) قريشاً ناحوا على قتلاهم في بدرٍ شهراً، وجزَّ نساؤهم شعورَهُنَّ، وكنَّ يأتين بفرسِ الرجل أو راحلتهِ ويستُرْنها بالستور، ويَنُحْنَ حولها ويخرجن بها إلى الأزقَّة، إلى أن أُشير عليهم بترك ذلك خوفَ الشماتة.

وقال الربيع بن أنس: المرادُ بالجُؤار الجزعُ؛ إذ هو سببُ الصراخ. وفيه بعدٌ لخفاءِ قرينةِ المجاز.

وعن الضحاك: أنَّ المراد بالعذاب عذابُ الجوع. وذلك أنه ﷺ دعا عليهم فقال: «اللهمَّ اشدُدْ وَطْأتَكَ على مُضر، اللهمَّ اجْعَلْها عليهم سنينَ مثلَ سنيِّ يوسفَ» فاستُجيبَ له عليه الصلاة والسلام، فأصابتهم سنةٌ أكلوا فيها الجِيَفَ والجلودَ والعظامَ المحرقة والعِلْهِز(٣).

وفي الأخبار ما يدلُّ على أن ذلك كان قبل الهجرة، وفيها أيضاً ما يدلُّ على أنه كان بعدها(٤)، ووفَّق البيهقيُّ(٥) بأنه لعله كان مرَّتين. وسيأتي ذلك قريباً(٦) إن شاء الله تعالى.

وتخصيصُ المترفين بالذِّكر لأنه إذا جاع المترفُ جاع غيرُه من بابِ أَوْلَى.

وقيل: المراد بالعذاب عذابُ الآخرة، وتخصيصُ المترفين بما ذكر لغايةِ ظهور انعكاسِ حالهم وانتكاسِ أمرهم، وكونِ ذلك أشقَّ عليهم، ولأنهم مع كونهم متمنِّعين محميِّين بحمايةِ غيرهم من المَنَعَةِ والحَشَم لَقُوا ما لَقُوا من الحالة الفظيعة، فَلَأنْ يلقاها مَن عَدَاهم من الحُماة والخَدَم أَوْلَى وأَقْدَمُ.

وقال شيخ الإسلام: إنَّ هذا القولَ هو الحقُّ، لأنَّ العذاب الأُخرويَّ هو الذي

(١) إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، للشيخ علي الحلبي. كشف الظنون ١/ ١٨٠.
(٢) في (م): أو، وهو تصحيف.
(٣) العلهز: طعام من الدم والوبر، كان يتخذ في المجاعة. القاموس (علهز). وذكر هذا القول عن الضحاك البغوي في تفسيره ٣/ ٣١٢، والقرطبي ١٥/ ٦٢، وينظر ما سيأتي ص١٢٢ وما بعدها من هذا الجزء.
(٤) في الأصل و(م): قبلها، والصواب ما أثبتناه، وينظر ما سيأتي ص١٢٢ وما بعدها من هذا الجزء.
(٥) في دلائل النبوة ٢/ ٣٢٩.
(٦) ص١٢٢ وما بعدها من هذا الجزء.

يفاجئون عنده الجؤار، فيجابون بالردِّ والإقناطِ من النصر، وأمَّا عذابُ يوم بدرٍ فلم يوجد لهم عنده جؤارٌ حَسْبَما يُنْبئُ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦] فإنَّ المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يومَ بدرٍ من القتل والأسر حتماً، وأمَّا عذابُ الجوع فإنَّ قريشاً وإنْ تضرَّعوا فيه إلى رسول الله ﷺ، لكنْ لم يَرُدَّ عليهم بالإقناط، حيث روي أنه عليه الصلاة والسلام دعا بكَشفِه، فكُشِفَ عنهم ذلك[1]. انتهى، وستعلمُ إن شاء الله تعالى ما فيه، نَعَمْ حَمْلُ العذابِ على ذلك أوفقُ بجَعْلِ ما في حيِّز «حتى» غايةً لِمَا قبلها.

﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ على تقدير القول، أي: قلنا لهم ذلك، والكلام استئنافٌ مسوقٌ لبيان إقناطهم وعدمِ انتفاعِهم بجؤارهم، والمراد باليوم الوقتُ الحاضرُ الذي اعتراهم فيه ما اعتراهم، والتقييدُ بذلك لزيادة إقناطهم، والمبالغةِ في إفادة عَدِمَ نَفْعِ جُؤارِهم.

وقال شيخ الإسلام[2]: إنَّ ذلك لتهويل اليوم، والإيذانِ بتفويتهم وقت الجؤار.

والمراد بالقول ـ على ما قيل ـ ما كان بلسان الحال، كما في قوله:

امتلأ الحوضُ وقال قَطْني[3]

وجوِّز أن يراد به حقيقةُ القول، وصدورُه إمَّا من الله تعالى، وإمَّا من الملائكة عليهم السلام. والظاهرُ على هذا الوجه أن يكون القول في الآخرة، وكونُه في الدنيا مع عدم إسماعِهم إياه لا يخلو عن شيءٍ. وتقديره فعل الأمر مسنداً إلى ضميره ﷺ، أي: قل لهم مِن قِبَلِنا: لا تجأروا، بعيدٌ جداً.

ومن الناس مَن جوَّز كونَ القولِ المقدَّرِ جوابَ «إذا» الشرطية، وحينئذٍ يكون «إذا هم يجأرون» قيداً للشرط، أو بدلاً من «إذا» الأولى، وعلى الأول المعنى: أخذنا مترفيهم وقتَ جؤارِهم، أو حالَ مفاجأتهم، لجواز أن تكون «إذا» ظرفيةً أو

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٤٢.

(٢) في تفسيره ٦/ ١٤٢.

(٣) وعجزه: مهلاً رويداً قد ملأت بطني، وهو في الصحاح (قطط)، وتهذيب اللغة ٨/ ٢٦٤ وفيه: ملأ رويداً، وسلف عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

فجائيةً حينئذٍ. ولم يجوِّز جَعْلُ النهي المذكورِ جواباً لخلوِّه عن الفاء اللازمة فيه إذا وقع كذلك.

وتعقِّب هذا القولُ بأنه لا يخفى أنَّ المقصود الأصليَّ من الجملة الشرطية هو الجواب، فيؤدِّي ذلك إلى أن يكون مفاجأتُهم الجؤارَ غيرَ مقصودٍ أصليٍّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ تعليلٌ للنهي عن الجؤار ببيانِ عدمِ نَفْعِه. و«مِن» ابتدائيةٌ، أي: لا يلحقُكم منَّا نصرة تُنْجِيكم مما أنتم فيه. وجوِّز أن تكون «من» صلةَ النصر وضمِّن معنى المنع، أو تجوِّز به عنه، أي: لا تُمنعون منَّا.

وتعقِّب بأنه لا يساعدُه سياقُ النظم الكريم؛ لأنَّ جؤارهم ليس إلى غيره تعالى حتى يردَّ عليهم بعدم منصوريتهم مِن قِبَلِه تعالى، ولا سياقُه فإنَّ قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخره صريحٌ في أنه تعليلٌ لعدم لحوقِ النصر من جهته تعالى بسببِ كفرهم بالآيات، ولو كان النصر المنفيُّ متوهَّماً من الغير لعُلِّلَ بعَجْزِه، أو بعزَّةِ الله تعالى وقوَّته.

وأنت تعلم أنهم المشركون الذين شركاؤهم نُصْب أعينهم، ولم يقيَّد الجؤارُ بكونه إلى الله تعالى، وأمرُ التعليل سهلٌ. وقد يقال: المعنى على هذا الوجه: دَعُوا[1] الصُّراخَ فإنَّه لا يمنعكم منَّا، ولا ينفعكم عندنا، فقد ارتَكَبْتُم أمراً عظيماً وإثماً كبيراً لا يدفعُه ذلك. ثم لا يخفى ما في كلام المتعقِّب بعد.

والمراد: قد كانت آياتي تُتْلَى عليكم قبلَ أن يَأْخُذَ مترفيكم العذابُ ﴿فَكُنتُمْ﴾ عند تلاوتها ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: تُعْرِضون عن سماعها أشدَّ الإعراض، فضلاً عن تصديقها والعملِ بها.

والنكوص: الرجوع. والأعقابُ: جمع عقب، وهو مؤخَّرُ الرِّجْل، ورجوعُ الشخص على عقبه: رجوعُه في طريقه الأُولى، كما يقال: رجع عوده على بدئه[2].

---

(١) في (م): دعوى، وهو تصحيف.

(٢) يجوز في «عود» الرفع والنصب، أما الرفع فعلى قولك: رجع وعودُه على بدئه، أي: وهذه حالُه. والنصب إما على كونه مفعولاً كقولك: ردَّ عودَه على بدئه، أو حالاً لأن معناه: رجع ناقضاً مجيئه، ومثله: كلَّمتُه فاه إلى فيَّ، أي: مشافهةً، ويجوز أن تقول: فوه إلى فيَّ. الكامل للمبرد ١/ ٣٧٢.

وجَعَلَ بعضُهم التقييدَ بالأعقاب من باب التأكيد، كما في: بَصُرْتُه بعيني، بناءً على أنَّ النكوصَ: الرجوعُ قَهْقَرى وعلى الأعقاب. وأيًّاما كان فهو مستعارٌ للإعراض.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: «تنكُصون» بضمِّ الكاف[1].

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: بالبيت الحرام، والباءُ للسببية، وسوَّغ هذا الإضمارَ مع أنه لم يَجْرِ له ذكرٌ اشتهارُ استكبارِهم وافتخارِهم بأنهم خدَّامُ البيت وقوَّامه، وهذا ما عليه جمهورُ المفسرين. وقريبٌ منه كونُ الضمير للحَرَمِ.

وقال في «البحر»: الضميرُ عائدٌ على المصدر الدالِّ عليه «تنكصون»[2].

وتعقِّب بأنه لا يفيدُ كثيرَ معنًى، فإنَّ ذلك مفهومٌ مِن جَعْلِ «مستكبرين» حالاً. واعتُرض عليه بما فيه بحثٌ.

وذكر منذر بن سعيد[3]: أنَّ الضمير لرسول الله ﷺ، ويحسِّنُه أنَّ في قوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) دلالةً عليه عليه الصلاة والسلام، والباءُ إمَّا للتعدية على تضمين الاستكبار معنى التكذيب، أو جَعْلِه مجازاً عنه، وإمَّا للسببية لأنَّ استكبارهم ظهر ببعثته ﷺ.

وجوِّز أن يعود على القرآن المفهومِ من الآيات، أو عليها باعتبارِ تأويلها به، وأمرُ الباء كما سمعتَ آنفاً.

وجوِّز أن تكون متعلِّقةً بقوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا﴾ أي: تَسْمُرون بذكر القرآن والطعنِ به، وذلك أنهم كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يَسْمُرون، وكانت عامَّةُ سمرهم ذِكْرَ القرآن وتسميتَه سِحْراً وشعراً، والمعنى على ذلك وإن لم يعلَّق به «به».

ويجوز على تقديرِ تعلُّقه بـ «سامراً» عودُ الضمير على النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وكذا يجوزُ كونُ المعنى عليه وإن لم يعلَّق به.

---

(١) المحرر الوجيز ١٤٩/٤، والبحر ٦/ ٤١٢، وهي في القراءات الشاذة ص ٩٩ عن ابن مسعود.

(٢) أي: مستكبرين بالنكوص والتباعُد من سماع الآيات. البحر ٦/ ٤١٢.

(٣) كما في البحر ٦/ ٤١٣.

وقيل: هي متعلِّقةٌ بـ «تهجرون». وفيه من البعد ما فيه.

ونصب «سامراً» على الحال، وهو اسم جمعٍ كالحاجِّ والحاضر والجامل والباقر. وقيل: هو مصدرٌ وقع حالاً على التأويل المشهور، فهو يشملُ القليلَ والكثيرَ باعتبارِ أصله. ولا يخفى أنَّ مجيءَ المصدر على وزن فاعل نادرٌ، ومنه العافيةُ والعاقبة.

والسَّمَر في الأصل: ظلُّ القمر، وسمِّي بذلك على ما في «المُطْلِع» لسُمْرتِه. وفي «البحر»: هو ما يقع على الشجر من ضوء القمر(١). وقال الراغب(٢): هو سوادُ الليل، ثم أُطلق على الحديث بالليل.

وفسَّر بعضُهم السامر بالليل المظلم، وكونُه هنا بهذا المعنى، وجَعْلُه منصوباً بما بعده على نزع الخافض، ليس بشيءٍ.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس وأبو حيوة وابن محيصن وعكرمةُ والزعفرانيُّ، ومحبوبٌ عن أبي عمرو: «سُمَّراً» بضمِّ السين وشدِّ الميم مفتوحة(٣)، جمع سامر.

وابن عباس أيضاً وزيد بن علي، وأبو رجاء، وأبو نهيك: «سُمَّاراً» بزيادة ألفٍ بعد الميم(٤)، وهو جمع سامر أيضاً، وهما جمعان مَقيسان في مثل ذلك.

﴿تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ من الهَجْرِ بفتحٍ فسكون بمعنى القَطْعِ والتَّرْكِ، والجملةُ في موضع الحال، أي: تاركين الحقَّ، أو القرآنَ، أو النبيَّ ﷺ. وعن ابن عباس: تهجرون البيتَ ولا تَعْمُرونه بما يليقُ به من العبادة.

وجاء الهَجْرُ بمعنى الهَذَيان، كما في «الصحاح» يقال: هَجَرَ المريضُ يَهْجُر هَجْراً: إذا هَذَى(٥). وجوَّز أن يكون المعنى عليه، أي: تَهذون في شأن القرآن، أو

---

(١) البحر ٦/ ٣٩٤.
(٢) في مفرداته (سمر).
(٣) القراءات الشاذة ص٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٦، والبحر ٦/ ٤١٣، والكلام منه. والمشهور عن أبي عمرو: «سامراً» كقراءة الجمهور.
(٤) القراءات الشاذة ص٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٧، والبحر ٦/ ٤١٣، والكلام منه.
(٥) الصحاح (هجر).

النبيِّ عليه الصلاة والسلام، أو أصحابه ﷺ، أو ما يعمُّ جميعَ ذلك. وفي «الدر المصون»: أنَّ ما كان بمعنى الهَذَيان هو الهَجَر بفتحتين[١].

وجوِّز أن يكون من الهُجْرِ بضمٍّ فسكون، وهو الكلام القبيح، قال الراغب: الهُجْرُ: الكلام المهجورُ لقُبْحِه، وهَجَر فلانٌ: إذا أتى بهُجْرٍ من الكلام عن قَصْدٍ، وأَهْجَر المريض إذا أتى بذلك من غير قصدٍ[٢].

وفي «المصباح»: هَجَر المريضُ في كلامه: هَذَى، والهُجْر بالضم اسمٌ ومصدرٌ بمعنى الفُحش من هَجَر كقَتَلَ، وفيه لغةٌ أخرى: أَهْجَرَ بالألف[٣]. وعلى هذه اللغة قراءة ابن عباس وابن محيصن ونافع وحميد: «تُهْجِرون» بضم التاء وكَسْرِ الجيم[٤]، وهي تُبْعِدُ كونَ «تَهْجُرون» في قراءة الجمهور من الهَجْرِ بمعنى القَطْع.

وقرأ ابن أبي عاصم بالياء على سبيل الالتفات[٥]. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس أيضاً، وزيد بن علي ﷺ، وعكرمة، وأبو نهيك، وابن محيصن أيضاً، وأبو حيوة: «تهجِّرون» بضم التاء وفتح الهاء وكسر الجيم وشدِّها[٦]، على أنه من مُضاعَفِ هَجَر من الهَجْرِ بالفتح أو بالضَّم، فالمعنى: تَقْطَعون، أو تَهْذُون، أو تَفْحُشون كثيراً.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحِه، والفاءُ للعطف على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلام، أي: أفعَلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يتدبَّروا القرآنَ ليعلموا بما[٧] فيه من وجوه الإعجاز أنه الحقُّ من ربِّهم فيؤمنوا به.

و«أم» في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ منقطعةٌ، وما فيها من معنى «بل» للإضراب والانتقالِ من التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بآخَرَ.

---

(١) الدر المصون ٨/ ٣٥٩.
(٢) مفردات الرغب (هجر)، وفيه: وأهجر فلان إذا أتى بهُجر... وهجر المريض...
(٣) المصباح (هجر)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٣٩.
(٤) التيسير ص ١٥٩، والنشر ٢/ ٣٢٩ عن نافع، وذكرها عنهم أبو حيان في البحر ٦/ ٤١٣.
(٥) أي: «يَهْجُرون». البحر ٦/ ٤١٣، والدر المصون ٨/ ٣٥٩.
(٦) القراءات الشاذة ص ٩٨، والبحر ٦/ ٤١٣.
(٧) في الأصل: مما، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ١٤٣، والكلام منه.

والهمزةُ لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع، أي: بل أجَاءهُم من الكتاب ما لم يأتِ آباءَهم الأولين حتى استبعَدوه فوَقَعوا فيما وَقَعوا فيه من الكفر والضلال؟ بمعنى أنَّ مجيءَ الكتب من جهته تعالى إلى الرسل عليهم السلام لينذروا بها الناسَ سُنَّةٌ قديمةٌ له تعالى لا تكاد تُنكَرُ، وأنَّ مجيء القرآن على طريقته، فمِمَّ ينكرونه.

وقيل: المعنى: أفلم يتدبَّروا القرآن ليخافوا عند تدبُّر آياته وأقاصيصه مثلَ ما نزل بمن قبلهم من المكذبين، أم جاءهم من الأمن ما لم يأتِ آباءهم الأولين حين خافوا الله تعالى فآمنوا به وبكتبه ورسله وأطاعوه، فالمراد بآباءهم المؤمنون، كإسماعيل عليه السلام، وعدنان، وقحطان، وكأنَّ وَصْفَهم بالأوَّلينَ على هذا لإخراج الأقربين.

وفي الخبر: «لا تسبُّوا مُضَرَ وربيعة فإنهما كانا مُسْلِمينِ، ولا تسبُّوا قسّاً فإنه كان مسلماً، ولا تسبُّوا الحارث بن كعب ولا أسد بن خزيمة ولا تميم بن مرٍّ فإنهم كانوا على الإسلام، وما شَكَكْتُم في شيءٍ فلا تشكُّوا في أنَّ تبّعاً كان مسلماً»[١].

وروي أنَّ ضبَّةَ بن أد كان مسلماً، وكان على شرطة سليمان بن داود عليهما السلام[٢].

وفي «الكشف»: إنْ جُعِلَ فائدةُ التدبُّرِ استعقابَ العلم، فالهمزةُ في المنقطعة للتقرير وإثبات أنهم مُصِرُّون على التقليد، فلذلك لم يتدبَّروا ولم يعلموا، وإنْ جُعِلَتِ الاعتبارَ والخوفَ، فالهمزةُ فيها للإنكار أو التقرير تهكُّماً. اهـ فتدبر. ثم لا يخفى أن إسناد المجيء إلى الأمن غيرُ ظاهرٍ ظهورَ إسناده إلى الكتاب، وبهذا تنحطُّ درجةُ هذا الوجه عن الوجه الأول.

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٣٦، ولم نقف عليه بهذا السياق، وأخرج البلاذري في أنساب الأشراف ١/ ٣٥ عن الحسن عن النبي ﷺ: «لا تسبوا ربيعة ومضر فإنهما قد أسلما». وأخرج نحوه عن عبيد الله بن خالد أنه بلغه أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا...». وأخرج أبو جعفر بن حبيب في تاريخه «المحبر» كما في فتح الباري ٧/ ١٦٤ من حديث ابن عباس قال: كان عدنان ومعد وربيعة ومضر وخزيمة وأسد على ملة إبراهيم. وأخرج أحمد (٢٢٨٨٠)، والطبراني في الكبير (٦٠١٣) من حديث سهل بن سعد عن النبي ﷺ: «لا تسبوا تُبَّعاً فإنه كان مسلماً». وأخرجه الطبراني في الكبير(١١٧٩٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرج الطبري ٢١/ ٥٠ عن عائشة رضي الله عنها قالت: لا تسبوا تبعاً فإنه كان رجلاً صالحاً.

(٢) الكشاف٣/ ٣٦.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من التوبيخ بما ذُكر إلى التوبيخ بوجهٍ آخَرَ، والهمزةُ لإنكار الوقوع أيضاً، أي: بل ألَمْ يعرفوه[1] عليه الصلاة والسلام بالأمانة والصدق وحُسْنِ الأخلاق، إلى غير ذلك من الكمالات اللائقة بالأنبياء عليهم السلام.

وقد صحَّ أنَّ أبا طالب يومَ نكاح النبيِّ ﷺ خَطَبَ بمحضَرِ رؤساء مضر وقريش، فقال: الحمد لله الذي جَعَلَنا من ذريةِ إبراهيم وزَرْعِ إسماعيل وضِئْضِئ معد، وعُنْصُرِ مُضَرَ، وجَعَلَنا حَضَنَةَ بيتِهِ وسُوَّاسَ حَرَمِه، وجَعَل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكَّام على الناس. ثم إنَّ ابنَ أخي هذا محمد بنَ عبد الله لا يُوزَنُ برجلٍ إلَّا رَجَحَ به، فإنْ كان في المال قُلٌّ[2] فإنَّ المال ظلٌّ زائلٌ وأمرٌ حائلٌ، ومحمدٌ مَن قد عرفْتم قرابَته، وقد خطب خديجة بنتَ خويلد وبذل لها من الصَّداقِ ما آجِلُه وعاجِلُه من مالي كذا، وهو واللهِ بعد هذا له نبأٌ عظيمٌ وخطرٌ جليل[3].

وفي هذا دليلٌ واضحٌ على أنهم عرفوه ﷺ بغاية الكمال، وإلَّا لأنكروا قولَ أبي طالب فيه عليه الصلاة والسلام ما قال.

﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾ الفاءُ سببيةٌ؛ لتسبُّب الإنكار عن عدم المعرفة، فالجملةُ داخلةٌ في حيِّز الإنكار، ومآلُ المعنى: هم عرفوه بالكمال اللائق بالأنبياء عليهم السلام، فكيف ينكرونه. واللامُ للتقوية، وتقديمُ المعمول للتخصيص أو الفاصلة، والكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: منكرون لدَعْواه، أو لرسالته عليه الصلاة السلام.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ انتقالٌ إلى توبيخٍ آخَرَ، والهمزةُ لإنكار الواقع كالأولى، أي: بل أيقولون به جِنةٌ ـ أي: جنونٌ ـ مع أنه عليه الصلاة والسلام أرجحُ الناس عقلاً وأثْقَبُهم رأياً، وأوفرُهم رزانةً.

وقد رُوعيَ في هذه التوبيخات الأربع ـ التي اثنان منها متعلِّقان بالقرآن، والباقيان به عليه الصلاة والسلام ـ الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى كما بيَّنه شيخُ الإسلام[4].

---

(١) في الأصل: تعرفوه.
(٢) القُل: القِلَّة. القاموس (قلل).
(٣) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة ١/ ٧٤.
(٤) في تفسيره ٦/ ١٤٤.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إضرابٌ عمَّا يدلُّ عليه ما سبق، أي: ليس الأمرُ كما زعموا في حقِّ القرآن والرسول ﷺ، بل جاءهم بالحق، أي: بالصدق الثابت الذي لا مَحيدَ عنه، والمرادُ به التوحيد ودينُ الإسلام الذي تضمَّنه القرآن، ويجوز أن يراد به القرآن.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ لِمَا في جبلَّتهم من كمال الزيغ والانحراف، والظاهرُ أنَّ الضمائر لقريش، وتقييدُ الحكم بأكثرهم لأنَّ منهم مَن أبى الإسلام واتِّباع الحقِّ حذراً من تعيير قومه أو نحوِ ذلك، لا كراهةً للحقِّ من حيث هو حقٌّ، فلا يَرِدُ ما قيل: إنَّ مَن أحبَّ شيئاً كره ضدَّه، فمن أَحَبَّ البقاء على الكفر فقد كره الانتقال إلى الإيمان ضرورةً.

وقال ابن المنير: يحتملُ أن يُحمَلَ الأكثرُ على الكلِّ كما حُمِلَ القليلُ على النفي(١). وفيه بُعدٌ.

وكذا ما اختاره من كونِ ضميرِ «أكثرهم» للناس كافةً لا لقريشٍ فقط، فيكون الكلام نظيرَ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣](٢).

وقد يقال: حيث كان المراد إثباتَ الكراهية للحقِّ على سبيل الاستمرار، وعَلِمَ الله تعالى أنَّ فيهم مَن يؤمنُ ويتَّبعُ الحقَّ، لم يكن بدٌّ من تقييد الحكم بالأكثر.

والظاهرُ بناءً على القاعدة الأغلبية في إعادة المعرفة أنَّ الحقَّ الثاني عينُ الحقِّ الأول، وأظهرَ في مقام الإضمار لأنه أَظْهَرُ في الذمِّ، والضميرُ ربما يُتَوَهَّم عَوْدُه للرسول عليه الصلاة والسلام.

وقيل: اللَّامُ في الأول للعهد، وفي الثاني للاستغراق أو للجنس، أي: وأكثرُهم للحقِّ أيِّ حقٍّ كان لا لهذا الحقِّ فقط ـ كما يُنْبِئُ عنه الإظهارُ ـ كارهون، وتخصيصُ أكثرهم بهذا الوصفِ لا يقتضي إلَّا عدمَ كراهةِ بعضهم لكلِّ حقٍّ من الحقوق، وذلك لا ينافي كراهتَهم لهذا الحقِّ. وفيه بحثٌ؛ إذ لا يكادُ يَسْلَمُ أَنَّ أكثرهم كارهون لكلِّ حقٍّ.

---

(١) الانتصاف ٣/ ٣٧.

(٢) المصدر السابق.

وكذا الظاهرُ أنْ يُرادَ بالحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الحقُّ الذي جاء به النبيُّ ﷺ، وجَعْلُ الاتِّباعِ حقيقيًّا والإسنادِ مجازيًّا، وقيل: مآلُ المعنى: لو اتَّبع النبيُّ ﷺ أهواءهم فجاءهم بالشرك بدلَ ما أُرسل به ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: لخرَّب الله تعالى العالَم، وقامت القيامةُ لفَرْطِ غضبه سبحانه، وهو فرضٌ محالٌ من تبديله عليه الصلاة والسلام ما أُرسل به من عنده.

وجوِّز أن يكون المرادُ بالحقِّ الأمرَ المطابقَ للواقع في شأن الألوهية، والاتِّباعُ مجازاً عن الموافقة، أي: لو وافق الأمرُ المطابقُ للواقع أهواءهم بأنْ كان الشرك حقًّا، لفسدت السماواتُ والأرضُ حَسْبَما قرِّر في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولعل الكلام عليه اعتراضٌ للإشارة إلى أنهم كرهوا شيئاً لا يمكن خلافهُ أصلاً، فلا فائدة لهم في هذه الكراهة.

واعتُرِضَ بأنه لا يناسبُ المقام، وفيه بحث.

وكذا ما قيل: إنَّ ما يوافقُ أهواءهم هو الشركُ في الألوهية؛ لأنَّ قريشاً كانوا وثنيةً. وهو لا يستلزمُ الفساد، والذي يستلزمُه إنَّما هو الشركُ في الربوبية كما تزعمه الثَّنويةُ، وهم لم يكونوا كذلك كما ينبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وجوِّز أن يكون المعنى: لو وافَقَ الحقُّ مطلقاً أهواءهم، لخرجتِ السماواتُ والأرضُ عن الصلاح والانتظام بالكلِّية، والكلامُ استطرادٌ لتعظيم شأن الحقِّ مطلقاً، بأنَّ السماواتِ والأرضَ ما قامت ولا مَن فيهنَّ إلا به، ولا يخلو عن حُسْنٍ.

وقيل: المراد بالحقِّ هو الله تعالى. وقد أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بنُ حميد وابنُ جريرٍ وابنُ المنذرِ وابنُ أبي حاتمٍ عن أبي صالح[1]. وحكاه بعضهم عن ابن جُرَيجٍ، والزمخشريُّ[2] عن قتادة. والمعنى عليه: لو كان الله تعالى يتَّبعُ أهواءهم

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٨٩، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٣.

(٢) في الكشاف ٣/ ٣٧.

ويفعل ما يريدون، فيشرعُ لهم الشركَ ويأمرهم به، لم يكن سبحانه إلهاً، فتَفْسُدُ السماواتُ والأرض.

وهذا مبنيٌّ على أنَّ شَرْعَ الشركِ نقصٌ يجب تنزيهُ الله تعالى عنه، وقد ذكَرَ ذلك الخفاجيُّ، وذَكَرَ أنه قام الدليلُ العقليُّ عليه، وأنه لا خلافَ فيه(١).

ولعل الكلامَ عليه اعتراضٌ أيضاً للإشارة إلى عدم إمكان إرسالِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام إليهم بخلاف ما جاء به مما لا يكرهونه، فكراهتُهم لِمَا جاء به عليه الصلاة والسلام لا تُجْديهم نَفْعاً، فالقول بأنه بعيدٌ عن مقتضَى المقام ليس في محلِّه.

وقيل: المعنى عليه: لو فعل الله تعالى ما يوافق أهواءهم لاختلَّ نظامُ العالم؛ لِمَا أنَّ آراءهم متناقضةٌ. وفيه إشارةٌ إلى فسادِ عقولهم، وأنهم لذلك كرهوا ما كرهوه من الحقِّ الذي جاءهم(٢) به عليه الصلاة والسلام. وهو كما ترى.

وقرأ ابن وثاب: «ولوُ اتَّبع» بضم الواو(٣).

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ انتقالٌ من تشنيعهم بكراهةِ الحقِّ إلى تشنيعهم بالإعراض عمَّا جُبِلَ عليه كلُّ نفسٍ من الرغبة فيما فيه خيرُها، والمرادُ بالذكر: القرآن الذي هو فخرُهم وشرفُهم حَسْبَما ينطقُ به قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: بل أتيناهم بفَخْرِهم وشَرَفِهم الذي كان يجب عليهم أن يُقْبِلوا عليه أكْملَ إقبالٍ، ويَقْبَلوا ما فيه أكملَ قبولٍ.

﴿فَهُمْ﴾ بما فعلوا من النكوص ﴿عَن ذِكْرِهِم﴾ أي: فَخْرِهم وشرفهم خاصةً ﴿مُّعْرِضُونَ ۝٧١﴾ لا عن غير ذلك مما لا يوجب الإقبال عليه والاعتناء به. وفي وَضْعِ الظاهر موضعَ الضمير مزيدُ تشنيعٍ لهم وتقريعٍ. والفاء لترتيب ما بعدها من إعراضهم عن ذِكْرِهم على ما قبلها من الإتيان بذكرهم.

ومَن فسَّر «الحقَّ» في قوله تعالى: (بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ) بالقرآن الكريم، قال هنا:

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣٤١.
(٢) في (م): جاء.
(٣) القراءات الشاذة ص ٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٧، والبحر ٦/ ٤١٤.

في إسناد الإتيان بالذكر إلى نون العظمة بعد إسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تنويهٌ بشأن النبيِّ ﷺ، وتنبيهٌ على كونه عليه الصلاة والسلام بمثابةٍ عظيمةٍ منه عز وجل.

وفي إيراد القرآن الكريم عند نسبته إليه ﷺ بعنوان الحقِّيَّة، وعند نسبته إليه تعالى بعنوان الذكر، من النكتة السَّرِيةِ والحكمةِ العبقرية ما لا يخفى؛ فإنَّ التصريح بحقِّيته المستلزمةِ لحقِّيةِ مَن جاء به هو الذي يقتضيه مقامُ حكايةِ ما قاله المُبْطِلون في شأنه، وأما التشريفُ فإنما يليقُ به تعالى، لا سيما رسول الله ﷺ أحدُ المشرَّفين.

وقيل: المراد بذكرهم ما تمنَّوه بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٨-١٦٩] فكأنه قيل: بل آتيناهم الكتاب الذي تمنَّوه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ المراد بالذكر الوعظُ، وأيِّد بقراءة عيسى: «بذكراهم» بألف التأنيث[١].

ورجِّح القولان الأوَّلان بأنَّ التشنيع عليهما أشدُّ، فإنَّ الإعراض عن وَعْظِهم ليس بمثابة إعراضهم عن شرفهم وفخرهم، أو عن كتابهم الذي تمنَّوه، في الشناعة والقباحة.

وقيل: إنَّ الوعظ فيه بيانُ ما يَصْلُحُ به حالُ مَن يُوْعَظُ، فالتشنيعُ بالإعراض عنه لا يَقْصُرُ عن التشنيع بالإعراض عن أحد ذينك الأمرين، ولا يخفى ما فيه من المكابرة.

وقرأ ابن أبي اسحاق وعيسى بن عمر، ويونس عن أبي عمرو: «بل أتيتُهم» بتاء المتكلِّم. وابنُ أبي إسحاق وعيسى أيضاً وأبو حيوةَ والجحدريُّ وابن قطيبٍ وأبو رجاء: «بل أتيتَهم» بتاء الخطاب للرسول ﷺ[٢].

وأبو عمرو في روايةٍ: «آتيناهم» بالمدِّ[٣]، ولا حاجةَ على هذه القراءة الى ارتكابِ مجازٍ أو دعوى حذفِ مضافٍ كما في قراءة الجمهور على تقدير جَعْلِ الباء للمصاحَبة.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٨، والبحر ٦/ ٤١٤.
(٢) القراءتان في القراءات الشاذة ص ٩٨، والمحتسب ٢/ ٩٨، والبحر ٦/ ٤١٤.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٥١، والبحر ٦/ ٤١٤.

وقرأ قتادة: «نذكِّرُهم» بالنون مضارع ذكَّر[١].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ متعلّقٌ بقوله تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ) فهو انتقالٌ إلى توبيخ آخر، وغيّر للخطاب لمناسبته ما بعده، وكأن المراد: أم يزعمون أنك تسألُهم على أداء الرسالة ﴿خَرْجًا﴾ أي: جعلاً، فلأَجْلِ ذلك لا يؤمنون بك.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: رزقُه في الدنيا وثوابُه في الآخرة، تعليلٌ لنفي السؤال المستفادِ من الإنكار، أي: لا تسألهم ذلك فإنَّ ما رزقك الله تعالى في الدنيا والعُقْبَى خيرٌ من ذلك لسعته ودوامه، وعدمِ تحمُّل منَّة الرجال فيه.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من تعليل الحكم وتشريفه ﷺ مالا يخفى.

والخَرْجُ بإزاءِ الدَّخْلِ، يقال لكلِّ ما تُخْرِجُه إلى غيرك، والخراجُ غالبٌ في الضريبة على الأرض، ففيه إشعارٌ بالكثرة واللزوم فيكون أبلغ، ولذلك عبَّر به عن عطاء الله تعالى.

وكذا على ما قيل من أنَّ الخرج ما تبرَّعْتَ به، والخراجَ مالَزِمَك، واللزومُ بالنسبة إليه تعالى إنما هو لفضل وعده عز وجل. وقيل: الخرجُ أعمُّ من الخراج، وساوَى بينهما بعضُهم.

وقرأ ابن عامر: «خَرْجاً فخَرْجُ»، وحمزةُ والكسائيُّ: «خراجاً فخَراجُ»[٢] للمشاكلة.

وقرأ الحسن وعيسى: «خراجاً فخَرْجُ»[٣]، وكأنَّ اختيارَ «خراجاً» في جانبه عليه الصلاة والسلام للإشارة إلى قوة تمكُّنِهم في الكفر، واختيارَ «خَرْجاً» في جانبه تعالى للمبالغة في حطِّ قَدْرِ خَرَاجِهم، حيث كان المعنى: فالشيءُ القليل منه عز وجل خيرٌ من كثيرهم، فما الظنُّ بكثيره جل وعلا؟

---

(١) المحتسب ٢/ ٩٨، والبحر ٦/ ٤١٤، والدر المصون ٨/ ٣٦٠.
(٢) التيسير ص ١٤٦، والنشر ٢/ ٣١٥.
(٣) البحر ٦/ ٤١٥.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ تأكيدٌ لخيريَّةِ خَرَاجِه سبحانه وتعالى؛ فإنَّ مَن كان خيرَ الرازقين يكون رزقُه خيراً من رزق غيره.

واستدلَّ الجبائيُّ بذلك على أنه سبحانه لا يساويه أحدٌ في الإفضال على عباده، وعلى أنَّ العباد قد يَرْزُقُ بعضُهم بعضاً.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ تشهدُ العقولُ السليمةُ باستقامته، ليس فيه شائبةُ اعْوجاجٍ توجبُ الاتِّهام. قال الزمخشريُّ[1]: ولقد ألزمَهم عز وجل الحجةَ، وأزاح عِلَلَهم في هذه الآيات، بأنَّ الذي أرسل إليهم رجلٌ معروفٌ أمرُه وحالُه، مخبورٌ سرُّه وعَلَنُه، خليقٌ بأنْ يُجْتبَى مثلُه للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له حتى يدَّعي مثل هذه الدعوى العظيمةِ بباطل، ولم يَجْعَلْ ذلك سلَّماً إلى النيل من دنياهم واستعطاءِ أموالهم، ولم يَدْعُهم إلَّا إلى دين الإسلام الذي هو الصراطُ المستقيم، مع إبرازِ المكنونِ من أدْوَائهم، وهو إخلالُهم بالتدبُّر والتأمُّلِ، واستهتارُهم بدين الآباء الضُّلَّال من غير برهان، وتعلُّلهم بأنه مجنون بعد ظهور الحقِّ وثباتِ التصديق من الله تعالى بالمعجزات والآيات النيِّرةِ، وكراهتهم للحقِّ وإعراضُهم عمَّا فيه حظُّهم[2] من الذكر. اهـ. وهو من الحُسْنِ بمكان.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هم كَفَرةُ قريشٍ المحدَّثُ عنهم فيما مرَّ، وُصفوا بذلك تشنيعاً لهم مما هم عليه من الانهماك في الدنيا، وزَعْمِهم أنْ لا حياةَ بعدها، وإشعاراً بعلَّة الحكم، فإنَّ الإيمان بالآخرة وخوفَ ما فيها من الدَّواهي من أقوى الدَّواعي إلى طلب الحقِّ وسلوكِ سبيله.

وجوِّز أنْ يكون المرادُ بهم ما يعمُّهم وغيرَهم من الكفرة المنكِرين للحشر، ويدخلون في ذلك دخولاً أوَّلياً.

﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ المستقيم الذي تدعو اليه ﴿لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: لعادلون.

وقيل: المراد بالصِّراط جنسُه، أي: إنهم عن جنس الصراط، فضلاً عن الصراط المستقيم الذي تدعوهم إليه، لناكبون. ورجِّح بأنه أدلُّ على كمال ضلالهم

(١) في الكشاف ٣/ ٣٨.
(٢) في (م): حفظهم، والمثبت من الأصل والكشاف.

وغايةِ غوايتهم، لِمَا أنه ينبئُ عن كون ما ذهبوا إليه ممَّا لا يُطْلَقُ عليه اسم الصراط ولو كان معوجًّا.

وفيه أن التعليل بمضمون الصِّلة لا يساعد إلَّا على إرادة الصراط المستقيم.

وأظنُّ أنه قد نَكَبَ عن الصراط مَن زعم أنَّ المراد به هنا الصراطُ الممدود على متن جهنم، وهو طريق الجنة، أي: إنهم يوم القيامة عن طريق الجنة لمائلون يمنةً ويسرةً إلى النار.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي: من سوء حالٍ؛ قيل: هو ما عَرَاهم بسبب أَخْذِ مُتْرَفيهم بالعذاب يومَ بدر، أعني الجزعَ عليهم، وذلك بإحيائهم وإعادتهم إلى الدنيا بعد القتل، أي: ولو رحمناهم وكشفنا ضرَّهم بإرجاع مُتْرَفيهم إليهم ﴿لَّلَجُّوا۟﴾ لتمادوا ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ إفراطِهم في الكفر والاستكبار وعداوةِ الرسول ﷺ والمؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾ عامهين متردِّدين في الضلال، يقال: عَمَهَ كمَنَعَ وفَرِحَ عمهاً وعموهاً وعموهةً وعَمَهَاناً.

وقيل: هو ما هم فيه من شدَّةِ الخوف من القتل والسبي، ومزيد الاضطراب من ذلك، لمَّا رأوا ما حلَّ بمترفيهم يومَ بدر، وكَشْفُه بأمر النبيِّ ﷺ بالكفِّ عن قتالهم وسَبْيِهم بعدُ، أو بنحو ذلك. وهو وجهٌ ليس بالبعيد.

وقيل: المرادُ بالضرِّ عذابُ الآخرة، أي: أنهم في الرداءة والتمرُّد إلى أنهم لو رُحموا وكُشِفَ عنهم عذابُ النار وردُّوا إلى الدنيا، لعادوا لشدَّة لجاجهم فيما هم عليه. وفيه من البُعْدِ ما فيه.

واستَظْهرَ أبو حيان أنَّ المراد به القحطُ والجوع الذي أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ، وذَكَر أنه مرويٌّ عن ابن عباس وابن جريج(١).

وقد دعا عليهم ﷺ بذلك في مكةَ يومَ أَلْقَى عليه المشركون وهو قائمٌ يصلِّي عند البيت سَلَى جزورٍ، فقال: «اللهمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مُضَرَ، اللهمَّ اجْعَلْها عليهم سنينَ كَسِنيِّ يوسُفَ»(٢).

---

(١) البحر ٦/ ٤١٥.

(٢) حديث إلقاء سلى الجزور على النبي ﷺ أخرجه البخاري (٢٤٠) عن ابن مسعود ﷺ.

ودعا بذلك أيضاً بالمدينة، وقد رُوي أنه عليه الصلاة والسلام مَكَثَ شهراً إذا رفع رأسه من الركعة الثانية من صلاة الفجر بعد قوله: «سمع الله لمن حَمِدَه» يقول: «اللهمَّ أنْجِ الوليد بنَ الوليد، وسَلمةَ بنَ هشام، وعياش بنَ أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين بمكة، اللهمَّ اشْدُدْ وطأتَك»[1] إلخ. وربَّما فعل ذلك بعد رَفْعِه من الركعة الأخيرة من صلاة العشاء[2]. وكلتا الروايتين ذكرهما برهان الدين الحلبيُّ في «سيرته»[3].

والكثيرُ على أنَّه الجوعُ الذي أصابهم من مَنْعِ ثُمامةَ المِيْرةَ عنهم، وذلك أنَّ ثُمامةَ بنَ أُثَالٍ الحنفيَّ جاءت به إلى المدينة سريةُ محمد بنِ مَسْلَمةَ حين بعثها ﷺ إلى بني بكر بن كلاب، فأسلم بعد أن امتنع من الإسلام ثلاثةَ أيام، ثم خرج معتمراً، فلمَّا قدم بطنَ مكة لبَّى، وهو أول مَن دخلها ملبِّياً، ومِن هنا قال الحنفيُّ:

ومنَّا الذي لبَّى بمكةَ معلناً برَغْمِ أبي سفيانَ في الأشهُرِ الحرمِ[4]

فأخذته قريشٌ فقالوا: لقد اجْتَرأْتَ علينا، وقد صبوتَ يا ثمامة. قال: أسلمتُ واتَّبعتُ خيرَ دينٍ، دين محمدٍ ﷺ، واللهِ لا يَصِلُ إليكم حبَّةٌ من اليمامة ـ وكانت ريفاً لأهل مكة ـ حتى يأذنَ فيها رسولُ الله ﷺ. ثم خرج ثمامةُ إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، حتى أضرَّ بهم الجوعُ، وأكلت قريشٌ العِلْهِزَ[5]، فكتبت

= وأخرج البخاري (١٠٠٧) من حديث ابن مسعود ﷺ: أن النبي ﷺ لما رأى من الناس إدباراً قال: «اللهم سبعٌ كسبع يوسف» الحديث، قال الحافظ في الفتح ٢/ ٥١١: وأفاد الدمياطي أن ابتداء دعاء النبي ﷺ على قريش بذلك كان عقب طرحهم على ظهره سلى الجزور، وكان ذلك بمكة قبل الهجرة، وقد دعا عليهم بذلك بعدها بالمدينة. اهـ.

(١) أخرجه أحمد (٧٦٦٩)، والبخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥): (٢٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرج هذه الرواية من حديث أبي هريرة أحمد (١٠٠٧٢)، والبخاري (٦٣٩٣)، ومسلم (٦٧٥): (٢٩٥).

(٣) السيرة الحلبية ١/ ٤٧١.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٣٩.

(٥) بكسر العين والهاء وسكون اللام: دم كان يُخلط بوبرٍ ويُعالج بالنار، وقيل في معناه غير ذلك. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٢.

قريش إلى رسول الله ﷺ: ألسَت تزعُمُ أنك بُعِثْتَ رحمةً للعالمين؟ فقد قَتَلْتَ الآباء بالسيف والأبناءَ بالجوع، إنك تأمر بصلَةِ الرَّحم، وأنت قد قطعتَ أرحامنا. فكتب رسول الله ﷺ إلى ثُمامةَ رضي الله عنه: «خلِّ بين قومي وبين مِيْرَتِهم» ففعل(١).

وفي روايةٍ: أنَّ أبا سفيان جاءه ﷺ، فقال: ألستَ.. إلخ(٢). ووَجْهُ الجمع ظاهرٌ، وكان هذا قبل الفتح بقليل.

وعندي أنَّ «لو» تُبْعِدُ هذا القولَ كما لا يخفى، نعم أخرج ابن جرير وجماعةٌ عن ابن عباس ما هو نصٌّ في أنَّ قصة ثمامةَ سببٌ لنزول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ إلى آخره(٣)، فيكون الجوعُ مراداً من العذاب المذكور فيه على ذلك، ولا يَرِدُ على مَن قال به قولهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ فما خضعوا بذلك ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ لأنَّ له أن يقول: المرادُ بالخضوع له عزَّ وجلَّ الانقيادُ لأمره سبحانه، والإيمانُ به جلَّ وعلا، وما كان منهم مع رسول الله ﷺ ليس منه في شيءٍ.

والمشهورُ أن المراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل والأسر، ولا يَرِدُ على مَن فسَّر العذاب في قوله سبحانه: (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ) به أيضاً لزومُ المنافاةِ بين ما هناك من قوله تعالى: (إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ) وما هنا من نفي الاستكانة لربِّهم ونفي التضرُّعِ المستفادِ من قوله سبحانه ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾؛ إذ له أن يقول: الجؤار مطلقُ الصراخ، وهو غيرُ الاستكانة لله عزَّ وجل، وغيرُ التضرُّعِ إليه سبحانه. وهو ظاهر.

وكذا إذا أريد بالجؤار الصراخ باستغاثةٍ بناءً على أنَّ المراد بالاستكانة له تعالى ما علمتَ آنفاً من الانقياد لأمره عز وجل، وأنَّ التضرُّعَ ما كان عن صميم الفؤاد

---

(١) أخرجه أحمد (٩٨٣٣)، والبخاري (٤٣٣٢)، ومسلم (١٧٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه دون الشعر، ودون قوله: ثم خرج ثمامة إلى اليمامة فمنعهم.. إلخ. وأخرجه بتمامه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٥/٦٣٨-٦٣٩، ومن طريقه البيهقي في الدلائل ٤/ ٨٠، وبنحوه أحمد (٧٣٦١).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٢٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٩٣، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٢٨٩)، والبيهقي في الدلائل ٤/ ٨١.

والجؤارَ ما لم يكن كذلك، وكأنَّ التعبير هناك بالجؤار للإشارة إلى أنَّ استغاثتهم كانت أشبهَ شيءٍ بأصوات الحيوانات.

وقيل: ما تقدَّم لبيانِ حال المقتولين، وما هنا لبيان حال الباقين. وعبَّر في التضرُّع بالمضارع ليفيد الدوام، إلا أنَّ المراد دوامُ النفي لا نفيُ الدوام، أي: وليس من عادتهم التضرُّعُ إليه تعالى أصلاً. ولو حُمِلَ ذلك على نفي الدوام - كما هو ظاهر - لا يَرِدُ ما يتوهَّمُ من المنافاة بين قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أيضاً.

واستكان استفعل من الكون، وأصلُ معناه: انتقل من كون إلى كون، كاسْتَحْجَر، ثم غَلَبَ العرفُ على استعماله في الانتقال من كونِ الكِبْر إلى كون الخضوع، فلا إجمالَ فيه عرفاً.

وقال أبو العباس أحمد بن فارس[1]: سُئِلْتُ عن ذلك في بغداد لمَّا دخلتُها زمنَ الإمام الناصر، وجَمَعَ لي علماءَها، فقلتُ واستحسن منِّي: هو مشتقٌّ من قول العرب: كُنْتُ لك، إذا خضعت، وهي لغة هذيلية. وقد نقلها أبو عبيد في «الغريبين»[2]، وعليه يكون من باب قرَّ واستقرَّ. ولا يجعل من استفعل المبنيِّ للمبالغة، مثل استَعْصَمَ واستَحْسَرَ، إلا أنْ يراد في الآية حينئذٍ المبالغةُ في النفي لا نفيُ المبالغة.

وقيل: هو من الكين: اللَّحمةُ المستَبْطنة في الفرج؛ لذلَّةِ المستكين.

وجوَّز الزمخشريُّ[3] أن يكون افتعل من السكون والألفُ إشباعٌ، كما في قوله:

وأنتَ من الغَوائلِ حين تَرْمي ... ومن ذمِّ الرجال بمنتزاح[4]

---

(١) هو أحمد بن إسماعيل بن فارس جد ابن المنير، وكلامه في الانتصاف (مع الكشاف) ٣/ ٣٩، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٤٢ نقلاً عن الانتصاف.

(٢) كتاب الغريبين لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي المتوفى سنة (٤٠١هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢٠٩.

(٣) في الكشاف ٣/ ٣٩.

(٤) البيت لإبراهيم بن هرمة القرشي وهو في ديوانه ص٩٢، والحماسة البصرية ١/ ١٩٠، واللسان (نزح)، وسلف ١٠/ ٨٣ برواية: العواتك، بدل: الغوائل، و١٢/ ٣٠٤.

وقوله:

أعوذُ بالله من العَقْرابِ الشائلاتِ عُقَدَ الأذنابِ(١)

واعتُرض بأنَّ الإشباع المذكورَ مخصوصٌ بضرورة الشعر، وبأنه لم يُعهد كونُه في جميع تصاريف الكلمة، واستكان جميعُ تصاريفه كذلك، فهو يدل على أنه ليس مما فيه إشباع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ من عذاب الآخرة، كما يُنْبِئُ عنه التهويلُ بفتح الباب والوصفُ بالشدة، وإلى هذا ذهب الجبائيُّ. و«حتى» مع كونها غايةً للنفي السابق مبتدأٌ لِمَا بعدَها من مضمون الشرطية، كأنه قيل: هم مستمرُّون على هذه الحال، حتى إذا فتحنا عليهم يومَ القيامة باباً ذا عذابٍ شديدٍ ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: في ذلك الباب، أو: في ذلك العذاب، أو: بسبب الفتح. أقوال، ﴿مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾ متحيِّرون آيسونَ من كلِّ خيرٍ، أو ذَوو حُزْنٍ من شدة اليأس. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥].

وقيل: هذا البابُ استيلاءُ النبيِّ ﷺ والمؤمنين عليهم يوم الفتح، وقد أَيِسوا في ذلك اليومِ من كلِّ ما كانوا يتوهَّمونه من الخير.

وأخرج ابن جرير: أنه الجوعُ الذي أكلوا فيه العِلْهِز(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه القتلُ يومَ بدر(٣).

وروت الإمامية ـ وهم بيتُ الكذب ـ عن أبي جعفر رضي الله عنه: أنَّ ذلك عذابٌ يعذَّبون به في الرجعة(٤). ولعمري لقد افتَرَوْا على الله تعالى الكذبَ، وضلُّوا ضلالاً بعيداً. والوجه في الآية عندي ما تقدَّم.

(١) الجمل في النحو للخليل ص ٢٤٤، وضرائر الشعر لابن عصفور ص ٣٣، والبحر ٦/ ٤١٦، واللسان والتاج (سبسب)، وسلف ١٣/ ٣٢٧.

(٢) تفسيرالطبري ١٧/ ٩٥ عن مجاهد.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٩٥.

(٤) مجمع البيان ١٨/ ١٦٧، وسيأتي الكلام على مفهوم الرجعة عند الشيعة عند تفسير الآية (٨٣) من سورة النمل.

والظاهرُ أنَّ هذه الآيات مدنيَّةٌ، وبعضُ مَن قال بمكِّيَّتها ادَّعى أنَّ فيها إخباراً عن المستقبل بالماضي؛ للدلالة على تحقُّق الوقوع.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتُحِسُّوا بها الآياتِ التنزيلية والتكوينية ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكَّروا بها في الآيات وتَسْتَدلُّوا بها، إلى غير ذلك من المنافع. وقدِّم السمعُ لكثرة منافعه، وأُفْرِدَ لأنه مصدرٌ في الأصل، ولم يجمعه الفُصحاء في الأكثر.

وقيل: أُفْرِدَ لأنه يدرَكُ به نوعٌ واحدٌ من المُدْرَكاتِ وهو الأصوات، بخلاف البصر فإنه يدرَكُ به الأضواء والألوان والأكوان والأشكال، وبخلاف الفؤاد فإنه يُدرَكُ به أنواعٌ شتَّى من التصوُّرات والتصديقات. وفي الآية إشارةٌ إلى الدليل الحسيِّ والعقليِّ، وتقديمُ ما يشير إلى الأول قد تقدَّم[1]، فتذكَّرْ فما في العهد من قِدَم.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: شكراً قليلاً تشكرون تلك النعمَ الجليلة؛ لأنَّ العمدةَ في الشكر صَرْفُ تلك القوى التي هي في أنفُسِها نِعَمٌ باهرةٌ إلى ما خُلقَتْ هي له، فنصب «قليلاً» على أنه صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، والقِلَّةُ على ظاهرها بناءً على أنَّ الخطاب للناس بتغليب المؤمنين.

وجوِّز أن تكون بمعنى النفي بناءً على أنَّ الخطاب للمشركين على سبيل الالتفات. وقيل: هو للمؤمنين خاصةً. وليس بشيءٍ.

والأولى عندي كونُه للمشركين خاصةً مع جواز كون القلَّةِ على ظاهرها، كما لا يخفى على المتدبِّر. و«ما» على سائر الأقوال مزيدة للتأكيد.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم وبثَّكم فيها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: تُجمعون يومَ القيامة بعد تفرُّقِكم، لا إلى غيره تعالى، فما لكم لا تؤمنون به سبحانه وتشكرونه عز وجل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ من غير أن يشاركه في ذلك شيءٌ من الأشياء ﴿وَلَهُ﴾ تعالى شأنه خاصةً ﴿ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: هو سبحانه وتعالى المؤثِّر في

(١) ١٤/ ٢٠٢.

اختلافهما، أي: تعاقُبِهما، من قولهم: فلانٌ يختلفُ إلى فلانٍ، أي: يتردَّدُ عليه بالمجيءِ والذهاب. أو تخالُفهما زيادةً ونقصاً.

وقيل: المعنى: لأمره تعالى وقضائه سبحانه اختلافُهما، ففي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، واللامُ عليه يجوز أن تكون للتعليل.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٨٠﴾ أي: ألَا تتفكَّرون فلا تعقلون، أو: أتتفكَّرون فلا تعقلون بالنظر والتأمُّل أنَّ الكلَّ صار منَّا، وأنَّ قدرتنا تعمُّ جميعَ الممكنات التي من جملتها البعث.

وقرأ أبو عمرو في روايةٍ: «يعقلون»[1] على أنَّ الالتفات إلى الغيبة لحكاية سوءِ حال المخاطبين. وقيل: على أنَّ الخطاب الأولَ لتغليب المؤمنين، وليس بذاك.

﴿بَلۡ قَالُواْ﴾ عطفٌ على مُضْمَرٍ يقتضيه المقام، أي: فلم يعقلوا بل قالوا ﴿مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٨١﴾ أي: آباؤهم ومَن دان بدينهم من الكفرة المُنْكِرين للبعث.

﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝٨٢﴾ تفسيرٌ لِمَا قبله من المُبْهَمِ، وتفصيلٌ لِمَا فيه من الإجمال، وقد مرَّ الكلامُ فيه[2].

﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا﴾ البعثَ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ متعلِّقٌ بالفعل من حيث إسنادُه إلى المعطوفِ عليه والمعطوفِ على ما هو الظاهرُ، وصحَّ ذلك بالنسبة إليهم؛ لأنَّ الأنبياء المُخبِرين بالبعث كانوا يُخْبِرون به بالنسبة إلى جميع مَن يموت.

ويجوز أن يكون متعلِّقاً به من حيث إسنادُه إلى آبائهم لا إليهم، أي: ووُعد آباؤنا من قبل، أو بمحذوفٍ وقع حالاً من «آباؤنا» أي: كائنينَ من قبل.

﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨٣﴾ أي: أكاذيبُهم التي سطروها، جمع أسطورةٍ كأُحدوثةٍ وأُعجوبة، وإلى هذا ذهب المبرِّد[3] وجماعة.

وقيل: جمع أسطارٍ، جمع سَطَرٍ[4]، كفَرَسٍ وأَفْراسٍ.

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٨، والبحر ٦/ ٤١٨.
(٢) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٤٩) من سورة الإسراء، وص٧٠-٧١ من هذا الجزء.
(٣) سلف قوله ١٠/ ٩٤ و١٤/ ٧٦.
(٤) بفتح الطاء، وهو كالمسكَّن بمعنى الصف. حاشية الشهاب ٦/ ٣١٣.

والأول كما قال الزمخشريُّ أوفقُ[1]؛ لأنَّ جَمْعَ المفردِ أَوْلَى وأَقْيَسُ، ولأنَّ بنية أُفْعُولة تجيءُ لِمَا فيه التلهِّي، فيكون حينئذ كأنه قيل: مكتوبات لا طائل تحتها.

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ من المخلوقات، تغليباً للعقلاء على غيرهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ جوابُه محذوفٌ ثقةً بدلالة الاستفهام عليه، أي: إن كنتم من أهل العلم ومن العقلاء، أو عالمينَ بذلك، فأخبروني به.

وفي الآية من المبالغة في الاستهانة بهم وتقريرِ فَرْطِ جَهالتهم ما لا يخفى، ويقوِّي هذا أنه أخبر عن الجواب قبل أن يجيبوا، فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ فإنَّ بداهةَ العقل تَضْطَرُّهم إلى الاعتراف بأنه سبحانه خالقُها، فاللام للملك باعتبار الخلق.

﴿قُلْ﴾ أي: عند اعترافهم بذلك تبكيتاً لهم: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: أتعلمون، أو: أتقولون ذلك، فلا تتذكَّرون أنَّ[2] مَن فَطَر الأرضَ ومَن فيها ابتداءً قادرٌ على إعادتها ثانياً، فإنَّ البدء ليس بأهونَ من الإعادة، بل الأمرُ بالعكس في قياس المعقول.

وقرئ: «تتذكَّرون» على الأصل[3].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ أُعيدَ لفظُ الربِّ تنويهاً بشأن العرش، ورفعاً لمحلِّه من أن يكون تبعاً للسماوات وجوداً وذِكْراً.

وقرأ ابن محيصن: «العظيمُ» بالرفع[4] نعتاً للربِّ.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوبُ بغير لام فيه وفيما بعده[5]، ولم يُقْرَأ - على ما قيل - في السابق بترك اللام، والقراءةُ بغير لامٍ على الظاهر، وباللَّام على المعنى، وكِلَا الأمرين جائزان، فلو قيل: مَن صاحبُ هذه الدار؟ فقيل: زيدٌ، لكان[6] جواباً عن لفظ السؤال، ولو قيل: لزيد، لكان جواباً على المعنى؛ لأنَّ

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠.

(٢) في الأصل و(م): أي، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ١٤٧، والكلام منه.

(٣) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٤، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٤٨.

(٤) البحر ٦/ ٤١٨.

(٥) التيسير ص ١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩.

(٦) في (م): كان.

معنى مَن صاحبُ هذه الدار؟: لمن هذه الدار، وكلا الأمرين واردٌ في كلامهم، أنشد صاحب «المطلع»:

إذا قيل مَن ربُّ المزالفِ والقُرى ... وربُّ الجيادِ الجردِ قلتُ لخالدِ(١)

وأنشد الزجاج:

وقال السائلون لمن حفرتُم ... فقال المخبرون لهم وزيرُ(٢)

﴿قُلْ﴾ إفحاماً لهم وتوبيخاً: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: أتعلمون ذلك ولا تَقُون(٣) أنفسَكم عقابَه على ترك العمل بموجب العلم، حيث تكفرون به تعالى، وتُنكِرون ما أَخْبَرَ به من البعث، وتُثْبِتون له سبحانه شريكاً.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممَّا ذُكر ومما لم يُذْكَر؛ وصيغةُ الملكوت للمبالغة في الملك، فالمراد به: الملكُ الشاملُ الظاهر. وقيل: المالكيةُ والمدبِّرية. وقيل: الخزائن.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ أي: يمنع مَن يشاء ممن يشاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: ولا يَمنع أحدٌ منه جلَّ وعلا أحداً. وتعديةُ الفعل بـ «على» لتضمينه معنى النصرة أو الاستعلاء.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾﴾ تكريرٌ لاستهانتهم وتجهيلهم على ما مرَّ.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ملكوتُ كلِّ شيءٍ، والوصفُ بأنه الذي يُجيرُ ولا يُجارُ عليه.

﴿قُلْ﴾ تهجيناً لهم وتقريعاً: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ كيف، أو من أين تُخْدَعون وتُصْرَفون عن الرشد ـ مع عِلْمِكم به ـ إلى ما أنتم عليه من البغي، فإنَّ مَن لا يكون مسحوراً مختلَّ العقل لا يكون كذلك.

---

(١) البيت في تفسير القرطبي ١٥/ ٨٠، وتفسير النسفي ٣/ ١٢٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ١٧٠، وتفسير الطبري ١/ ١٤٠ و١٧/ ٩٩، ونسباه إلى بعض بني عامر، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٣/ ١٨٤ للوزيري، وهو دون نسبة في كتاب اللامات للزجاجي ص ٤٩.

(٣) في الأصل و(م): تتقون، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٨.

وهذه الآياتُ الثلاثُ، أعني «قل لمن» إلى هنا، على ما قرِّر في «الكشف» تقريرٌ للسابق وتمهيدٌ للّاحق، وقد روعي في السؤال فيها قضيةُ الترقِّي، فسُئلَ عمَّن له الأرضُ ومَن فيها، وقيل: «مَن» تغليباً للعقلاء، ولأنه يلزمُ أن يكون له غيرُهم من طريق الأَوْلى. ثم سئل عمَّن له السماواتُ والعرشُ العظيم، والأرضُ بالنسبة إليه كَلَا شيءٍ. ثم سُئل عمَّن بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ، فأتى بأعمِّ العامِّ وكلمةِ الإحاطة، وأُوْثِرَ الملكوتُ وهو الملكُ الواسع، وقيل: «بيده» تصويراً وتخييلاً.

وكذلك روعي هذه النكتةُ في الفواصل، فعيِّروا أوَّلاً بعدم التذكُّر، فإنَّ أيْسَرَ النظر يكفي في انحلال عَقْدِهم. ثم بعدم الاتِّقاء، وفيه وعيدٌ. ثم بالتعجُّب من خَدْعِ عقولهم فتخيِّلُ الباطلَ حقّاً والحقَّ باطلاً، وأنَّى لها التذكُّرُ والخوف.

﴿بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ إضرابٌ عن قولهم: «إنْ هذا إلَّا أساطيرُ الأوَّلين»، والمرادُ بالحقِّ: الوعدُ بالبعث. وقيل: ما يعمُّه والتوحيدَ، ويدلُّ على هذا السياق. وقرئ: «بل أتيتُهم» بتاء المتكلِّم. وقرأ ابن أبي إسحاق بتاء الخطاب[١].

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝٩٠﴾ في قولهم: «إنْ هذا إلَّا أساطيرُ الأوَّلين»، أو في ذلك وقولهم بما ينافي التوحيد.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لتنزُّهِه عزَّ وجلَّ عن الاحتياج، وتقدُّسِه تعالى عن مماثلة أحد.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ﴾ يشاركُه سبحانه في الألوهية ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: لاستبدَّ بالذي خَلَقه، واستقلَّ به تصرُّفاً، وامتاز ملكهُ عن الآخر.

﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولَوَقَعَ التحارُبُ والتغالُبُ بينهم كما هو الجاري فيما بين الملوك، والتالي باطلٌ لِمَا يلزمُ من ذلك نفيُ ألوهيةِ الجميع، أو ألوهيةِ ما عدا واحداً منهم، وهو خلافُ المفروض، أو لِمَا أنه يلزمُ أنْ لا يكون بيده تعالى وحدَه ملكوتُ كلِّ شيءٍ، وهو باطلٌ في نفسه لما برهن عليه في الكلام وعند الخصم؛ لأنه يقول باختصاص ملكوتِ كلِّ شيءٍ به تعالى، كما يدلُّ عليه السؤالُ والجواب السابقان آنفاً، وكذا قيل، ولا يخفى أنَّ اللزوم في الشرطية

---

(١) القراءتان في الكشاف ٣/ ٤٠، والبحر ٦/ ٤١٨.

المفهومة من الآية عاديٌّ لا عقليٌّ، ولذا قيل: إنَّ الآية إشارةٌ إلى دليلٍ إقناعيٍّ للتوحيد لا قطعيٍّ.

وفي «الكشف»: قد لاح لنا مِن لُطْفِ الله تعالى وتأييدِه أنَّ الآية برهانٌ نيِّرٌ على توحيده سبحانه، وتقريرُه: أنَّ مرجِّح الممكناتِ الواجبُ الوجودِ تعالى شأنُه جلَّ عن كلِّ كثرةٍ، أمَّا كثرةُ المقوِّمات أو الأجزاءِ الكميةِ فبيِّنةُ الانتفاءِ لإيذانها بالإمكان، وأمَّا التعدُّدُ مع الاتِّحاد في الماهية فكذلك؛ للافتقار إلى المميِّز، ولا يكونُ مقتضَى الماهيةِ لاتِّحادهما فيه، فيلزمُ الإمكانُ، ثم المميِّزان في الطرفين صفتا كمالٍ؛ لأنَّ الاتِّصاف بما لا كمالَ فيه نقصٌ، فهما ناقصان ممكنان مفتقران في الوجود إلى مكمِّلٍ خارجٍ هو الواجبُ بالحقيقة، وكذلك الافتقارُ في كمالِ ما للوجود يوجبُ الإمكان؛ لإيجابِه أنْ يكون فيه أمرٌ بالفعل وأمرٌ بالقوة، واقتضائه التركيبَ والإمكان.

ومن هنا قال العلماء: إنَّ واجب الوجود بذاته واجبٌ بجميع صفاته ليس له أمرٌ منتظر، ومع الاختلاف في الماهية يلزمُ أن لا يكون المرجِّحُ مرجِّحاً، أي: لا يكون الإله إلهاً؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ واحدٌ من الممكنات؛ إن استقلَّا بترجيحه لزم تواردُ العلَّتين التامتين على معلولٍ شخصيٍّ، وهو ظاهرُ الاستحالة، فكونُه مرجِّحاً إلهاً يوجبُ الافتقار إليه، وكونُ غيره مستقلًّا بالترجيح يوجبُ الاستغناءَ عنه، فيكون مرجِّحاً غيرَ مرجِّحٍ في حالةٍ واحدة.

وإنْ تَعاوَنَا فكمثلِ إذ ليس ولا واحد منهما بمرجِّحٍ وفُرِضا مرجحين، مع ما فيه من العجز عن الإيجادِ والافتقارِ إلى الآخر.

وإن اختصَّ كلٌّ منهما ببعضٍ مع أنَّ الافتقار إليهما على السواء، لزم اختصاصُ ذلك المرجِّح بمخصِّصٍ يخصِّصُه بذلك البعض بالضرورة وليس الذات؛ لأنَّ الافتقار إليهما على السواء، فلا أولويةَ للترجيح من حيث الذات ولا معلول الذات؛ لأنه يكون ممكناً والكلام فيه عائدٌ، فيلزم المحالُ من الوجهين الأوَّلين، أعني الافتقارَ إلى مميِّزٍ غيرِ الذات ومقتضاها، ولزومَ النقص لكلِّ واحدٍ؛ لأنَّ هذا المميِّز صفةُ كمالٍ، ثم مخصِّصُ كلٍّ بذلك التمييز هو الواجبُ الخارجُ لا هما.

وإلى المحال الأول الإشارةُ بقوله تعالى: (إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ) وهو لازمٌ على تقدير التخالُفِ في الماهية واختصاص كلٍّ ببعض، وخصَّ هذا القسم لأنَّ ما سواه أظهرُ استحالةً.

وإلى الثاني الإشارةُ بقوله سبحانه: (وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) أي: إمَّا مطلقاً وإمَّا من وجهٍ، فيكون العالي هو الإله، أو لا يكون ثَمَّ إلهٌ أصلاً، وهذا لازمٌ على تقديري التخالُفِ والاتِّحاد والاختصاص وغيره، فهو تكميلٌ للبرهان من وجهٍ، وبرهانٌ ثانٍ من آخر.

فقد تَبيَّن ولا كفَرَقِ[1] الفجر أنه تعالى هو الواحدُ الأحدُ، جعل وجوده زائداً على الماهية أوْ لا، فاعلاً بالاختيار أوْ لا، وليس برهانُ الوحدةِ مبنيًّا على أنه تعالى فاعلٌ بالاختيار كما ظنَّه الإمام الرازي قدِّس سرُّه. انتهى، وهو كلامٌ يلوح عليه مخايلُ التحقيق، وربما يورَدُ عليه بعضُ مناقشاتٍ تندفع بالتأمُّل الصادق.

وما أشرنا إليه من انفهام قضيةٍ شرطيةٍ من الآية ظاهرٌ جدًّا على ما ذهب إليه الفرَّاء[2]، فقد قال: إنَّ «إذاً» حيث جاءت بعدها اللامُ فقَبْلَها «لو» مقدَّرةٌ إنْ لم تكن ظاهرةً، نحو: (إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ) فكأنه قيل: لو كان معه آلهةٌ كما تزعمون لذهب كلٌّ.. إلخ.

وقال أبو حيان[3]: «إذاً» حرفُ جوابٍ وجزاء، ويقدَّر قسمٌ يكون «لَذَهَبَ» جواباً له، والتقديرُ: والله إذاً، أي: إن كان معه من إلهٍ لذَهَبَ، وهو في معنى: ليذهَبَنَّ، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا﴾ [الروم: ٥١] أي: ليَظَلُّنَّ، لأن «إذاً» تقتضي الاستقبال، وهو كما ترى.

وقد يقال: إنَّ «إذاً» هذه ليست الكلمةَ المعهودةَ، وإنَّما هي «إذا» الشرطيةُ حذفت جملتُها التي تضاف إليها وعوِّض عنها التنوين، كما في «يومئذٍ»، والأصلُ: إذا كان معه من إلهٍ لذهب إلخ، والتعبيرُ بـ «إذاً» من قبيل مجاراة الخصم.

---

(١) أي: كفلق. القاموس (فرق).

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٤١.

(٣) في البحر ٦/ ٦٥ و٤١٩.

وقيل: «كلُّ إلهٍ» لِمَا أنَّ النفي عامٌّ يفيد استغراقَ الجنس. و«ما» في «بما خلق» موصولةٌ حُذفَ عائدُها كما أشرنا إليه. وجوِّز أن تكون مصدريةً، ويحتاج إلى نوعِ تكلُّفٍ لا يخفى.

ولم يستدلَّ على انتفاءِ اتِّخاذِ الولد إمَّا لغايةِ ظهورِ فسادِهِ، أو للاكتفاء بالدليل الذي أُقيم على انتفاء أن يكون معه سبحانه إلهٌ، بناءً على ما قيل: إنَّ ابن الإلهِ يلزمُ أن يكون إلهاً؛ إذ الولدُ يكون من جنس الوالد وجوهرِه، وفيه بحثٌ.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ مبالغةٌ في تنزيهه تعالى عن الولد والشريك، و«ما» موصولةٌ، وجوِّز أن تكون مصدريةً. وقرئ: «تصفون» بتاء الخطاب[١].

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: كلِّ غيبٍ وشهادة، وجُرَّ «عالم» على أنه بدلٌ من الاسم الجليل، أو صفةٌ له؛ لأنه أُريدَ به الثبوتُ والاستمرار فيتعرَّفُ بالإضافة.

وقرأ جماعةٌ من السبعة وغيرِهم برَفْعِه[٢] على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو عالم، والجرُّ أجود عند الأخفش[٣]، والرفعُ أَبْرعُ عند ابن عطية[٤].

وأيًّا ما كان فهو ـ على ما قيل ـ إشارةٌ إلى دليلٍ آخرَ على انتفاء الشريك، بناءً على تَوَافُقِ المسلمين والمشركين في تفرُّده تعالى بذلك.

وفي «الكشف»: إنَّ في قوله سبحانه «عالم» إلخ إشارةً إلى برهانٍ آخَرَ راجعٍ إلى إثبات العلوِّ، أو لزومِ الجهل الذي هو نقصٌ وضدُّ العلوِّ؛ لأنَّ المتعدِّدَينِ لا سبيل لهما إلى أن يعلَم كلُّ واحدٍ حقيقة الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة، وهو نوعُ جهلٍ وقصور، ثم عِلْمُه به يكون انفعاليّاً تابعاً لوجود المعلوم، فيكون في إحدى صفات الكمال ـ أعني العلم ـ مفتقراً، وهو يؤذِنُ بالنقصان والإمكان.

(١) القراءات الشاذة ص ٩٨، والبحر ٦/ ٤١٩.

(٢) قرأ بالرفع من العشرة نافع وشعبة وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. التيسير ص١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩.

(٣) كما في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٤، والبحر ٦/ ٤١٩.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٤.

﴿فَتَعَـٰلَىٰ﴾ الله ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ تفريعٌ على كونه تعالى عالماً بذلك، فهو كالنتيجة لِمَا أشار إليه من الدليل.

وقال ابن عطية: الفاء عاطفةٌ، كأنه قيل: عَلِمَ الغيبَ والشهادةَ فتعالى، كما تقول: زيدٌ شجاعٌ فعَظُمَتْ منزلتُه، على معنى: شَجُعَ فعَظُمَتْ، ويحتمل أن يكون المعنى: فأقول تعالى.. إلخ، على أنه إخبارٌ مستأنف[١].

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ أي: إن كان لا بدَّ من أنْ تُرِيَني؛ لأنَّ «ما» والنون زيدتا للتأكيد ﴿مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: الذي يوعدونه من العذاب الدنيويِّ المستأصِلِ، وأمَّا العذابُ الأُخرويُّ فلا يناسبُ المقام.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: قريناً لهم فيما هم فيه من العذاب، ووضعَ الظاهر موضعَ الضمير للإشارة إلى استحقاقهم للعذاب.

وجاء الدعاء قبل الشرط وقبل الجزاء مبالغةً في الابتهال والتضرُّع، واختير لفظُ الربِّ لِمَا فيه من الإيذان بأنه سبحانه المالكُ الناظر في مصالح العبد.

وفي أمره ﷺ أن يدعوَ بذلك مع أنه عليه الصلاة والسلام في حرزٍ عظيم من أن يُجعل قريناً لهم، إيذانٌ بكمال فظاعة العذاب الموعود، وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه مَن لا يكاد يمكِنُ أن يحيق به. وهو متضمِّنٌ ردَّ إنكارهم العذابَ واستعجالِهم به على طريقة الاستهزاء.

وقيل: أُمِرَ ﷺ بذلك هضماً لنفسه وإظهاراً لكمال العبودية.

وقيل: لأنَّ شؤم الكفرةِ قد يحيقُ بمن سواهم، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وروي عن الحسن أنه جل شأنه أخبر نبيَّه ﷺ بأنَّ له في أمته[٢] نقمةً، ولم يُطْلِعْه على وقتها، أهو في حياته أم بعدها، فأمره بهذا الدعاء.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٤، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤١٩.
(٢) جاء في هامش (م): أي: أمة الدعوة. اهـ منه.

وقرأ الضحاك وأبو عمران الجونيُّ: «تُرِئَنِّي» بالهمزة بدل الياء، وهو كما في «البحر» إبدالٌ ضعيف[١].

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿لَقَٰدِرُونَ ۝٩٥﴾ ولكنَّا لا نفعلُ، بل نؤخِّره عنهم لعِلْمِنا بأنَّ بعضهم أو بعضَ أعقابهم سيؤمنون، أو لأنَّا لا نعذِّبهم وأنت فيهم.

وقيل: قد أَراه سبحانه ذلك، وهو ما أصابهم يوم بدر أو فتح مكة؛ قال شيخ الإسلام: ولا يَخْفَى بُعْدُه؛ فإنَّ المتبادِرَ أن يكون ما يستحقُّونه من العذاب الموعودِ عذاباً هائلاً مستأصِلاً، لا يظهر على يديه ﷺ للحكمة الداعية إليه[٢].

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: ادفع بالحسنة التي هي أحسنُ الحسنات التي يُدْفَعُ بها ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بأنْ تُحْسِنَ إلى المسيء في مقابلتها ما استطعتَ، ودون هذا في الحُسْنِ أن يُحسن إليه في الجملة، ودونه أن يصفح عن إساءته فقط.

وفي ذلك من الحثِّ له ﷺ إلى ما يليق بشأنه الكريم من حُسْنِ الأخلاق ما لا يخفى، وهو أبلغُ من: ادفع بالحسنة السيئةَ؛ لمكان «أحسن»، والمفاضلةُ فيه على حقيقتها على ما ذكرنا، وهو وجهٌ حسنٌ في الآية.

وجوِّز أن تعتبر المفاضلة بين الحسنة والسيئة على معنى أنَّ الحسنة في باب الحسنات أَزْيَدُ من السيئة في باب السيئات، ويطَّردُ هذا في كلِّ مفاضلةٍ بين ضدَّين، كقولهم: العسلُ أحلى من الخلِّ، فإنهم يعنون أنه في الأصنافِ الحلوةِ أَمْيَزُ من الخلِّ في الأصناف الحامضة. ومن هذا القبيل ما يُحكى عن أشعب الماجن أنه قال: نشأتُ أنا والأعمشُ في حجر فلان، فما زال يعلو وأَسْفُلُ حتى استوينا. فإنه عَنَى استواءهما في بلوغ كلٍّ منهما الغايةَ، حيث بلغ هو الغايةَ في التدلِّي[٣]، والأعمشُ الغايةَ في التعلِّي.

وعلى الوجهين لا يتعيَّنُ هذا الأحسن وكذا السيئة.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس أنه قال في الآية: يقولُ

---

(١) البحر ٦/ ٤٢٠، والقراءة ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٩٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ١٤٩.

(٣) في حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٥ (والكلام منه): التدني.

الرجل لأخيه ماليس فيه، فيقول: إن كنتَ كاذباً فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لك، وإن كنتَ صادقاً فأنا أسأل الله تعالى أن يغفر لي[١].

وقيل: التي هي أحسنُ: شهادةُ أن لا إله إلا الله، والسيئةُ: الشرك.

وقال عطاء والضحاك: التي هي أحسن: السلام، والسيئةُ: الفحش.

وقيل: الأول الموعظة، والثاني المنكر.

واختار بعضهم العمومَ وأنَّ ما ذكر من قبيل التمثيل.

والآية قيل: منسوخةٌ بآية السيف. وقيل: هي محكمةٌ لأنَّ الدفع المذكور مطلوبٌ مالم يؤدِّ إلى ثَلْمِ الدِّين والازدراء بالمروءة.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: بوصفهم إياك، أو بالذي يصفونك به مما أنت بخلافه، وفيه وعيدٌ لهم بالجزاء والعقوبة، وتسليةٌ لرسول الله ﷺ، وإرشادٌ له عليه الصلاة والسلام إلى تفويض أمره إليه عز وجل، والظاهرُ من هذا أنَّ الآية آيةُ موادَعةٍ، فافهم.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ أي: وساوسِهم المغريةِ على خلافِ ما أُمِرْتُ به، وهي جمع هَمْزَة، والهَمْز: النَّخْسُ والدَّفعُ بيدٍ أو غيرها، ومنه مهمازُ الرائض: لحديدةٍ تُرْبَطُ على مؤخَّر رِجْلِه ينخسُ به الدابة لتُسْرِعَ أو لتَثِبَ. وإطلاقُ ذلك على الوسوسة والحثِّ على المعاصي؛ لما بينهما من الشَّبَهِ الظاهر، والجمعُ للمرَّات، أو لتنوُّعِ الوساوس، أو لتعدُّدِ الشياطين.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ أي: من حضورِهم حولي في حالٍ [من][٢] الأحوال. وتخصيصُ حالِ الصلاة وقراءةِ القرآن، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحالِ حلولِ الأجل كما روي عن عكرمة؛ لأنها أحرى الأحوال بالاستعاذة منها، لاسيما الحال الأخيرة، ولذا قيل: اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من النَّزْعِ عند النَّزْعِ. وإلى العموم ذهب ابن زيد.

---

(١) الحلية ٨/ ٢٥٢-٢٥٣، وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٤.
(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ١٥٠، والكلام منه.

وفي الأمر بالتعوُّذ من الحضور بعد الأمر بالتعوُّذ من همزاتهم مبالغةٌ في التحذير من مُلابَسَتِهم. وإعادةُ الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمالِ الاعتناء بالمأمور به؛ وعَرْضِ نهايةِ الابتهال في الاستدعاء.

ويُسَنُّ التعوُّذ من همزاتِ الشياطين وحضورِهم عند إرادة النوم، فقد أخرج أحمد وأبو داود والنسائيُّ والترمذيُّ وحسَّنه، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: كان رسول الله ﷺ يعلِّمنا كلماتٍ نقولُهنَّ عند النوم من الفزع: «بسم الله، أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّةِ من غَضَبِه وعقابه وشرِّ عباده، ومن هَمَزاتِ الشياطين وأنْ يَحْضُرون»[1].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ «حتى» ابتدائيةٌ وغايةٌ لمقدَّرٍ يدلُّ عليه ما قبلها، والتقدير: فلا أكون كالكفار الذين تهمزُهم الشياطينُ وتَحْضُرهم حتى إذا جاء.. إلخ، ونظيرُ ذلك قوله:

فيا عجباً حتى كليبٌ تسبُّني[2]

فإنَّ التقدير: يسبُّني كلُّ الناسِ حتى كليبٌ، إلَّا أنه حذفت الجملةُ هنا لدلالة ما بعدَ «حتى».

وقيل: إنَّ هذا الكلام مردودٌ على «يَصِفُون» الثاني، على معنى أنَّ «حتى» متعلِّقةٌ بمحذوفٍ يدلُّ عليه، كأنه قيل: لا يزالون على سوء المقالة والطعنِ في حضرة الرسالة حتى إذا.. إلخ، وقولُه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾ إلخ اعتراضٌ مؤكِّدٌ للإغضاء المدلول عليه بقوله سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلخ، بالاستعاذة به تعالى من الشياطين أن يُزِلُّوه عليه الصلاة والسلام عمَّا أُمِرَ به.

وقيل: على «يصفون» الأول، أو على «يشركون». وليس بشيءٍ.

وجوَّز الزمخشريُّ أن يكون مردوداً[3] على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾[4]،

---

(١) مسند أحمد ٢/ ١٨١، وسنن أبي داود (٣٨٩٣)، وسنن الترمذي (٣٥٢٨)، وعمل اليوم والليلة للنسائي (٧٦٦).

(٢) وعجزه: كأن أباها نهشل أو مجاشع، والبيت للفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤١٩.

(٣) في(م): مروراً.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٢.

ويكون من قوله سبحانه: (مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ) إلى هذا المقام كالاعتراض تحقيقاً لكذبهم ولاستحقاقهم جزاءه. وليس بالوجه.

ويُفْهَمُ من كلام ابن عطية[1] أنه يجوزُ أن تكون «حتى» هنا ابتدائيةً لا غايةً لِمَا قبلها. وتعقَّبه أبو حيان بأنَّها إذا كانت ابتدائيةً لا تفارقُها الغاية[2].

والظاهرُ الذي لا ينبغي العدولُ عنه أنَّ ضمير «أحدهم» راجعٌ إلى الكفار، والمراد من مجيءِ الموت ظهورُ أماراته، أي: إذا ظهر لأحدهم أيّ أحدٍ كان منهم أماراتُ الموت، وبَدَتْ له أحوالُ الآخرة ﴿قَالَ﴾ تحسُّراً على ما فرَّط في جَنْبِ الله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ أي: رُدَّني إلى الدنيا، والواو لتعظيم المخاطَب وهو اللهُ تعالى، كما في قوله:

أَلَا فـارْحَـمـونـي يـا إلـهَ مـحـمـدٍ فـإنْ لـم أَكُـنْ أهـلاً فـأنـتَ لـه أهـلُ[3]

وقول الآخر:

وإنْ شئـتُ حـرَّمْـتُ الـنـسـاءَ سـواكـم وإن شئتُ لم أَطْعَمْ نُقَاخاً ولابَرْدا[4]

والحقُّ أنَّ التعظيم يكون في ضمير المتكلِّم والمخاطَب، بل والغائبِ والاسمِ الظاهر، وإنكارُ ذلك غيرُ رضيٍّ، والإيهامُ الذي يدَّعيه ابن مالك[5] هنا لا يُلتفتُ إليه.

وقيل: الواو لكون الخطاب للملائكة عليهم السلام، والكلامُ على تقديرِ مضافٍ، أي: يا ملائكةَ ربِّي ارْجِعوني.

وجوَّز أن يكون «ربِّ» استغاثةً به تعالى، و«ارجعوني» خطاباً[6] للملائكة عليهم

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ١٥٥.
(٢) البحر ٦/ ٤٢٠.
(٣) ذكر صدره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٢، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٢١.
(٤) البيت للعَرْجي، كما في الأضداد لابن الأنباري ص ٦٤، والصحاح (نقخ). وهو بلا نسبة في تفسير الغريب لابن قتيبة ص ١٤٦ و٥٠٩، والبحر ٦/ ٤٢١. وجاء في هامش الأصل و(م): النقاخ: الماء البارد، والبرد: النوم.
(٥) كما في الدر المصون ٨/ ٣٦٦ حيث نقل السمين عن ابن مالك قوله: إنه لم يَعْلَم أحداً أجاز للداعي يقول: يا رحيمون؛ لئلا يوهم خلاف التوحيد.
(٦) في (م): خطاب.

السلام، وربما يُستأنسُ لذلك بما أخرجه ابن جَريرٍ وابنُ المنذر عن ابن جُرَيْجٍ قال: زعموا أنَّ النبيَّ ﷺ قال لعائشة ﵂: «إنَّ المؤمنَ إذا عايَنَ الملائكةَ قالوا: نَرْجِعُكَ إلى دار الدنيا؟ قال: إلى دارِ الهموم والأحزان؟ بل قدوماً إلى الله تعالى. وأمَّا الكافر فيقولون له: نَرْجِعُكَ؟ فيقول: ربِّ ارْجِعوني»[١].

وقال المازنيُّ: جمع الضمير ليدلَّ على التكرار، فكأنه قال: ربِّ ارجعني ارجعني ارجعني، ومثلُ ذلك تثنيةُ الضمير في: قفا نَبْكِ[٢]، ونحوِه.

واستشكل ذلك الخفاجيُّ بأنه إذا كان أصلُ ارجعوا مثلاً: ارجع ارجع ارجع، لم يكن ضميرُ الجمع بل تركيبه الذي فيه حقيقةً، فإذا كان مجازاً فمِن أيِّ أنواعه؟ وكيف دلالتُه على المراد؟ وما علاقتُه؟ وإلَّا فهو ممَّا لا وجهَ له. ومن غريبه أنَّ ضميره كان مفرداً واجبَ الاستتار، فصار غيرَ مفردٍ واجبَ الإظهار.

ثم قال: لم تَزَلْ هذه الشبهةُ قديماً في خاطري، والذي خَطَرَ لي أنَّ لنا استعارةً أخرى غيرَ ما ذُكر في المعاني، ولكونها لا علاقة لها بالمعنى لم تُذْكَر، وهي استعارةُ لفظٍ مكانَ لفظٍ آخَرَ لنكتة، بقَطْعِ النظر عن معناه، وهو كثيرٌ في الضمائر، كاستعمال الضمير المجرور الظاهرِ مكانَ المرفوع المستتر في: كفى به، حتى لزم انتقالُه عن صفةٍ إلى صفةٍ أخرى، ومن لَفْظٍ إلى آخر، وما نحن فيه من هذا القبيل، فإنه غيَّر الضمائر المستترة إلى ضمير جمعٍ ظاهرٍ، فلزم الاكتفاءُ بأحد ألفاظِ الفعل، وجعل دلالة ضمير الجمع على تكرُّر الفعل قائماً مقامه في التأكيد من غير تجوُّزٍ فيه. ولابن جنِّي في «الخصائص» كلامٌ يدلُّ على ما ذكرناه، فتأمَّلْ[٣]. انتهى كلامُه.

ولعَمْري لقد أَبْعَدَ جدّاً، ولعل الأقربَ أن يقال: أراد المازنيُّ أنه جمع الضمير للتعظيم بتنزيل المخاطَب الواحد منزلةَ الجماعة المخاطبين، ويَتْبعُ ذلك كونُ الفعل

---

(١) تفسيرالطبري ١٧/ ١٠٧، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٤.

(٢) قطعة من بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٨، وتمامه:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخول وحَوْمَلِ

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٦، وينظر الخصائص ٢/ ٤٦٦، باب في إيراد المعنى المراد بغير اللفظ المعتاد.

الصادر منه بمنزلة الفعل الصادر من الجماعة، ويتبعُهما كون «ارجعوني» مثلاً بمنزلة: ارجعني ارجعني ارجعني، ولكن إجراء نحو هذا في نحو: قفا نَبْكِ، لا يتسنَّى إلا إذا قيل بأنه قد يُقْصَدُ بضمير التثنية التعظيمُ، كما قد يُقْصَدُ ذلك بضمير الجمع، ولم يخطر لي أنّي رأيته، فلْيُتتبَّعْ ولْيُتَدبَّر.

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ أي: في الإيمان الذي تركتُه، و«لعل» للترجِّي، وهو إما راجعٌ للعمل والإيمان لعِلْمِه بعدم الرجوع، أو للعمل فقط لتحقيق إيمانه إن رجع، فهو كما في قولك: لعلي أربح في هذا المال، أو كقولك: لعلي أبني على أُسٍّ، أي: أُؤسِّسُ ثم أبني.

وقيل: فيما تركتُ من المال أو من الدنيا، جَعَلَ مفارقة ذلك تركاً له.

ويجوز أن تكون «لعل» للتعليل؛ وفي «البرهان»: حَكَى البغويُّ عن الواقديِّ أنَّ جميع ما في القرآن من «لعل» فإنها للتعليل، إلَّا قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] فإنها للتشبيه[١]. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدِّيِّ عن أبي مالكٍ نحوه[٢].

ثم إنَّ طَلَبَ الرَّجْعةِ ليس من خواصِّ الكفار، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ مانع الزكاة وتارِكَ الحجِّ المستطيعَ يَسْألان الرجعة عند الموت.

وأخرج الدَّيلميُّ[٣] عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضر الإنسانَ الوفاةُ يُجْمَعُ له كلُّ شيءٍ يمنعه عن الحقِّ فيُجْعَلُ بين عينيه، فعند ذلك يقول: ربِّ ارْجعوني لعلِّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ». وهذا الخبرُ يؤيِّد أنَّ المراد من «ما تركتُ»: المالُ ونحوُه.

﴿كَلَّآۚ﴾ رَدْعٌ عن طَلَبِ الرجعةِ واستبعادٌ لها ﴿إِنَّهَا﴾ أي: قولَه: «ربِّ ارجعوني» إلخ ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ لا محالةَ، لا يخلِّيها ولا يسكتُ عنها؛ لاستيلاء الحسرة وتسلُّطِ الندم عليه، فتقديمُ المسندِ إليه للتقوِّي، أو: هو قائلُها وحدَه،

---

(١) البرهان ٤/ ٣٩٤.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٦٠، والدر المنثور ١/ ٣٣.

(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ١٥.

فالتقديمُ للاختصاص، ومعنى ذلك: أنه لا يُجاب إليها ولا تُسْمَعُ منه، بتنزيل الإجابة والاعتداد منزلةَ قولِها، حتى كأنَّ المعتدَّ بها شريكٌ لقائلها. ومثلُ هذا متداوَلٌ، فيقول مَن كلَّمه صاحبُه بما لا جدوى تحته: اشْتَغِلْ أنت وحدك بهذه الكلمة فتكلَّمْ واستَمِعْ، يعني أنها مما لا تُسْمَعُ منك ولا تستحقُّ الجواب.

والكلمة هنا بمعنى الكلام، كما في قولهم: كلمة الشهادة، وهي في هذا المعنى مجازٌ عند النحاة. وأمَّا عند اللغويين؛ فقيل: حقيقة، وقيل: مجازٌ مشهور.

والظاهر أنَّ «كلَّا» وما بعدها من كلامه تعالى، وأَبْعَدَ جدّاً مَن زَعَم أنَّ «كلَّا» مِن قولِ مَن عايَنَ الموتَ، وأنه يقولُ ذلك لنفسه على سبيل التحسُّرِ والندم.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم﴾ أي: أمامهم، وقد مرَّ تحقيقُه[1]، والضميرُ لـ «أحدهم»، والجمعُ باعتبار المعنى لأنه في حُكْمِ كلّهم، كما أنَّ الإفراد في الضمائر الأُوَلِ باعتبار اللَّفْظِ.

﴿بَرْزَخٌ﴾ حاجزٌ بينهم وبين الرجعة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ من قبورهم، وهو يوم القيامة، وهذا تعليقٌ لرجعتهم إلى الدنيا بالمُحالِ، كتعليق دخولهم الجنةَ بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وعن ابن زيد أنَّ المراد: من ورائهم حاجزٌ بين الموت والبعثِ في القيامة من القبور، باقٍ إلى يوم يبعثون.

وقيل: حاجزٌ بينهم وبين الجزاء التامِّ باقٍ إلى يوم القيامة، فإذا جاء ذلك اليومُ جُوزوا على أتمِّ وَجْهٍ.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ لقيام الساعة، وهي النفخةُ الثانية التي يقع عندها البعثُ والنشور.

وقيل: المعنى: فإذا نفخ في الأجساد أرواحُها، على أنَّ «الصُّوْرَ» جمعُ صورة ـ على نحو بُسْرٍ وبُسْرَةٍ ـ لا القَرْنُ، وأيِّد بقراءةِ ابن عباس والحسن وابن عياض: «في الصُّوَر» بضمِّ الصاد وفتح الواو، وقراءةِ ابن رزين: «في الصِّوَر» بكسر

---

(١) ٩/١٦.

الصاد وفتح الواو[1]، فإنَّ المذكور في هاتين القراءتين جمعُ صورةٍ لا بمعنى القرن قطعاً، والأصلُ توافُقُ معاني القراءات، ولا تَنافيَ بين النفخ في الصُّور بمعنى القرن الذي جاء في الخبر[2] ودلَّت عليه آياتٌ أُخَرُ، وبين النفخِ في الصُّور جمع صورةٍ، فقد جاء أنَّ هذا النفخَ عند ذاك.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ نُفِخَ في الصُّور، كما هي بينهم اليوم، والمراد أنها لا تنفعهم شيئاً، فهي منزَّلةٌ منزلةَ العدم لعِظَم الهولِ واشتغالِ كلٍّ بنفسه، بحيث يفرُّ المرء من أخيه، وأمِّه وأبيه، وصاحبته وبنيه.

وقد أخرج ابن المبارك في «الزهد»، وابنُ جريرٍ، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو نعيم في «الحلية»، وابن عساكر، عن ابن مسعود ﷺ قال: إذا كان يومُ القيامة جَمَع الله تعالى الأوَّلين والآخِرينَ - وفي لفظ: يؤخذُ بيد العبد أو الأمة يومَ القيامة على رؤوس الأوَّلين والآخِرين - ثم ينادي منادٍ: ألا إنَّ هذا فلان بن فلان، فمن كان له حقٌّ قِبَلَه فليأت إلى حقِّه - وفي لفظٍ: مَن كان له مظلمةٌ فلْيَجِئْ ليأخذ حقَّه - فيفرحُ والله المرءُ أن يكون له الحقُّ على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصداقُ ذلك في كتاب الله تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ)[3]. وهذا الأثرُ يدلُّ على أنَّ هذا الحكم غيرُ خاصٍّ بالكفرة بل يعمُّهم وغيرَهم.

وقيل: هو خاصٌّ بهم كما يقتضيه سياق الآية.

وقيل: لا ينفع نسبٌ يومئذٍ إلَّا نسبُه ﷺ، فقد أخرج البزَّار والطبرانيُّ والبيهقيُّ وأبو نعيم والحاكم والضياء في «المختارة» عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعتُ

---

(١) القراءتان في القراءات الشاذة ص ٩٨، والبحر ٦/ ٤٢١. وابن عياض هو سعد - وقيل: سعيد - بن عياض الثمالي الكوفي، روى عن النبي ﷺ مرسلاً وعن ابن مسعود، قال ابن عبد البر: لا تصح له صحبة. التهذيب ١/ ٦٩٦.

(٢) أخرجه أحمد (١١٠٣٩) و(١١٦٩٦)، والترمذي (٢٤٣١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظه: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور، وحَنَى جبهته وأصغى سمعه، ينتظر متى يؤمر» وجاء في بعض رواياته: القرن، بدل: الصور.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٤١٦)، وتفسير الطبري١٧/ ١١٢-١١٣، والحلية ٤/ ٢٠١-٢٠٢، وتاريخ ابن عساكر١٨/ ٢٨٥، والكلام من الدر المنثور ٥/ ١٥.

رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ سَبَبٍ ونَسَبٍ منقطعٌ يومَ القيامة إلَّا سببَي ونَسَبي»(١). وقد أخرج جماعةٌ نحوَه عن مِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه مرفوعاً(٢)، وأخرج ابن عساكر نحوَه مرفوعاً أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنهما(٣).

وهو خبرٌ مقبولٌ لا يكاد يردُّه إلَّا مَن في قلبه شائبةُ نَصْبٍ(٤)، نعم ينبغي القولُ بأنَّ نَفْعَ نسبِه ﷺ إنما هو بالنسبة للمؤمنين الذين تشرَّفوا به، وأمَّا الكافرُ والعياذُ بالله تعالى فلا نَفْعَ له بذلك أصلاً.

وقد يقال: إنَّ هذا الخبر لا ينافي إرادة العموم في الآية، بأن يكون المرادُ نفيَ الالتفات إلى الأنساب عقيب النفخة الثانية من غير فَصْلٍ حَسْبَما يُؤْذِنُ به الفاءُ الجزائية، فإنَّها على المختار تدلُّ على التعقيب، ويكون المراد تهويلَ شأن ذلك الوقت ببيان أنه يَذْهَلُ فيه كلُّ أحدٍ عمَّن بَيْنَه وبَيْنَه نسبٌ، ولا يلتفتُ إليه ولا يخطر هو بباله، فضلاً عن أنه ينفعُه أو لا ينفعه، وهذا لا يدل على عدم نفع كلِّ نسبٍ فضلاً عن عدم نفع نسبه ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، وحكي عن الجبائيِّ: أنَّ المراد أنه لا يُفتخَرُ يومئذٍ بالأنساب كما يُفتخَرُ بها في الدنيا، وإنما يُفْتَخَرُ هناك بالأعمال والنجاةِ من الأهوال، فحيث لم يُفتخَرْ بها ثَمةَ كانت كأنها لم تكن. فعلى هذا وكذا على ما تقدَّم يكون قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ﴾ من باب المجاز.

وجوِّز أن يكون فيه صفةٌ مقدَّرةٌ، أي: فلا أنسابَ نافعةً أو مُلتفَتاً إليها أو مفتخَراً بها، وليس بذاك. والظاهر أنَّ العامل في «يومئذٍ» هو العملُ في «بينهم»، لا «أنساب»؛ لِمَا لا يخفى.

---

(١) كشف الأستار (٢٤٥٥)، والمعجم الكبير (٢٦٣٣) و(٢٦٣٥)، وسنن البيهقي ٧/ ٦٣-٦٤، والحلية ٢/ ٣٤ و٧/ ٣١٤، والمستدرك ٣/ ١٤٢، والأحاديث المختارة (١٠١) و(١٠٢)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢٧٢: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩٠٧)، والطبراني ٢٠/(٣٠)، وصححه الحاكم ٣/ ١٥٨، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٠٣: وفيه أم بكر بنت المسور، ولم يجرحها أحد ولم يوثقها أحد، وبقية رجاله ثقوا.

(٣) تاريخ ابن عساكر ٦٧/ ٢١.

(٤) أهل النَّصْب: المتدينون ببغضة عليٍّ رضي الله عنه. القاموس (نصب).

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: ولا يسألُ بعضُهم بعضاً عن حاله وممن هو، ونحوِ ذلك؛ لاشتغال كلٍّ منهم بنفسه عن الالتفات إلى أبناء جنسه، وذلك عقيب النفخة الثانية من غير فَصْلٍ أيضاً، فهو مقيَّدٌ بـ «يومئذٍ» وإن لم يذكر بعده، اكتفاءً بما تقدَّم، وكأنَّ كِلَا الحُكْمينِ بعدَ تحقُّق أمر تلك النفخة لديهم، ومعرفةِ أنها لماذا كانت، وحينئذٍ يجوزُ أن يقال: إنَّ قولهم: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢] قبل تحقُّق أمرِ تلك النفخة لديهم، فلا إشكالَ.

ويحتمل أنَّ كِلَا الحُكْمين في مبدأ الأمر قبل القول المذكور، كأنهم حين يسمعون الصيحة يذهَلُون عن كلِّ شيءٍ، الأنسابِ وغيرها، كالنائم إذا صيحَ به صيحةً مُفْزِعةً، فهبَّ من منامه فَزِعاً ذاهلاً عمَّن عنده مثلاً، فإذا سَكَنَ روعُهم في الجملة قال قائلهم: «مَن بَعَثَنا من مرقدنا».

وقيل: لا نسلِّم أن قولهم: «مَن بعثنا من مرقدنا» أنه كان بطريق التساؤل. وعلى الاحتمالين لا يُشْكِلُ هذا مع قوله تعالى في شأن الكفرة يومَ القيامة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، وفي شأن المؤمنين: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠] فإنَّ تساؤل الكفرة المنفيَّ في موطنٍ، وتساؤلَهم المثبتَ في موطنٍ آخَرَ، لعله عند جهنم، وهو بعد النفخة الثانية بكثير، وكذا تساؤلُ المؤمنين بعدها بكثيرٍ أيضاً؛ فإنه في الجنة كما يرشدُ إليه الرجوع إلى ما قبل الآية.

وقد يقال: إنَّ التساؤل المنفيَّ هنا تساؤلُ التعارُفِ ونحوه مما يترتَّبُ عليه دفعُ مضرَّةٍ أو جلبُ منفعةٍ، والتساؤلُ المثبتُ لأهل النارِ تساؤلٌ وراءَ ذلك، وقد بيَّنه سبحانه بقوله عزَّ مِن قائل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ الآية [الصافات: ٢٨]، وقد بيَّن جلَّ وعلا تساؤلَ أهلِ الجنة بقوله سبحانه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ الآية [الصافات: ٥١]، وهو أيضاً نوعٌ آخَرُ من التساؤل ليس فيه أكثرُ من الاستئناس، دون دَفْعِ مضرَّةٍ عمَّن يتكلَّم معه أو جَلْبِ منفعةٍ له.

وقيل: المنفيُّ التساؤلُ بالأنساب، فكأنه قيل: لا أنساب بينهم ولا يسألُ بعضهم بعضاً بها، والمراد أنها لا تنفع في نفسها وعندهم، والآيةُ في شأن الكفرة، وتساؤلُهم المثبتُ في آيةٍ أخرى ليس تساؤلاً بالأنساب، وهو ظاهرٌ فلا إشكال.

ورَوَى جماعةٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سُئل عن وجه الجمع بين النفي هنا والإثباتِ في قوله سبحانه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فقال: إنَّ نفي التساؤل في النفخة الأولى حين لا يبقى على وجهِ الأرض شيءٌ، وإثباتُه في النفخة الثانية[1].

وعلى هذا فالمرادُ عنده بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾: فإذا نُفِخَ النفخةُ الأولى، وهذه إحدى روايتين عنه رضي الله عنه، والروايةُ الثانيةُ حَمْلُه على النفخة الثانية، وحينئذٍ يُختارُ في وجه الجمع أحدُ الأوجُهِ التي أشرنا إليها.

وقرأ ابن مسعود: «ولا يسَّاءلون» بتشديد السين[2].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: موزوناتُ حسناته من العقائد والأعمال، ويجوز أن تكون الموازينُ جمعَ ميزان ووجهُ جَمْعِهِ قد مرَّ[3]، والمعنى عليه: مَن ثَقُلَتْ موازينُه بالحسنات.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ الفائزون بكلِّ مطلوبٍ، الناجُون عن كلِّ مهروب.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: موازينُ أعماله الحسنةِ، أو أعمالِه التي لا وَزْنَ لها ولا اعتدادَ بها، وهي أعمالُه السيئة، كذا قيل؛ وهو مبنيٌّ على اختلافهم في وَزْنِ أعمال الكفرة، فَمَنْ قال به قال بالأول ومَن لم يقل به قال بالثاني، وقد تقدم الكلامُ في نظير هذه الآية في سورة الأعراف[4]، فتذكَّر.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ضيَّعوها بتضييع زمانِ استكمالها، وأبطلوا استعدادَها لنيل كمالها.

واسمُ الإشارة في الموضعين عبارةٌ عن الموصول، وجمعُه باعتبارِ معناه، كما أن إفراد الضميرين في الصلتين باعتبار لَفْظِه.

﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ خبرٌ ثانٍ لـ «أولئك»، وجوِّز أن يكون خبرَ مبتدأ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قبل الحديث (٤٨١٦) بنحوه.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٩، والكشاف ٣/ ٤٣، والبحر ٦/ ٤٢١.
(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف و١٧/ ١١٢، وما بعدها.
(٤) ٨/ ٨٤.

محذوفٍ، أي: هم خالدون في جهنم، والجملةُ إما استئنافية جيء بها لبيان خسرانهم أنفسَهم، وإما خبرٌ ثانٍ لـ «أولئك» أيضاً.

وجوِّز أن يكون «الذين» نعتاً لاسم الإشارة، و«خالدون» هو الخبر.

وقيل: «خالدون» مع معموله بدلٌ من الصِّلةِ، قال الخفاجيُّ: أي: بدلُ اشتمالٍ؛ لأنَّ خلودهم في جهنم يشتملُ على خسرانهم، وجُعِلَ كذلك نظراً لأنه بمعنى: يخلدون في جهنم، وبذلك يصلح لأن يكون صلةً كما يقتضيه الإبدال من الصلة(١). وظاهرُ صنيع الزمخشريِّ يقتضي ترجيحَ هذا الوجه(٢)، وليس عندي بالوجه كما لا يخفى وجهُه.

وتعقَّب أبو حيان القولَ بأنَّ «في جهنم خالدون» بدلٌ، فقال: هذا بدلٌ غريب، وحقيقتُه أن يكون البدل ما يتعلَّق به «في جهنم»، أي: استقروا، وكأنه من بدل الشيءِ من الشيء وهما لمسمًّى واحد على سبيل المجاز؛ لأنَّ مَن خَسِر نفسه استقرَّ في جهنم(٣).

وأنت تعلم أنَّ الظاهر تعلُّقُ «في جهنم» بـ «خالدون»، وأنَّ تعليقه بمحذوفٍ وجَعْلَ ذلك المحذوف بدلاً وإبقاء «خالدون» مفلتاً، مما لا ينبغي أن يُلتفت إليه مع ظهور الوجه الذي لا تكلُّف فيه.

وقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ جملةٌ حاليةٌ أو مستأنفةٌ، واللَّفْحُ: مسُّ لَهَبِ النارِ الشيءَ، وهو كما قال الزجَّاجُ أشدُّ من النفح تأثيراً. والمراد: تُحرقُ وجوهَهم النارُ، وتخصيصُ الوجوه بذلك لأنها أشرفُ الأعضاء، فبيانُ حالِها أَزْجَرُ عن المعاصي المؤدِّية إلى النار، وهو السرُّ في تقديمها على الفاعل. ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ متقلِّصو الشفاه عن الأسنان من أثر ذلك اللَّفْح. وقد صحَّ من رواية الترمذيِّ وجماعةٍ عن أبي سعيد الخدريِّ ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال

---

(١) بنحوه في حاشية الشهاب ٦/٣٤٨.

(٢) الكشاف ٣/٤٣، ويعني بظاهر صنيع الزمخشري تقديمَه لهذا القول على ما عداه من الأقوال.

(٣) البحر ٦/٤٢٢.

في الآية: «تَشْويهِ النارُ فتَقْلِصُ شفتهُ العُلْيا حتى تَبْلُغَ وسطَ رأسِه، وتَسْتَرْخي شفتُه السُّفْلَى حتى تَضْرِبَ سُرَّتَه»(١).

وأخرج ابن مردويه والضياء في «صفة النار» عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: (تَلْفَحُ) إلخ: «تلفحُهم لفحةً فتسيلُ لحومُهم على أعقابهم»(٢).

وعن ابن عباس ﵄: أنَّ الكلوحَ بُسُورُ الوجه وتقطيبُه.

وقرأ أبو حيوة وأبو بحرية وابنُ أبي عبلة: «كَلِحُون» بغير ألفٍ جمع كَلِحٍ كحَذِرٍ(٣).

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على إضمار القول، أي: يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً وتذكيراً لِمَا به استحقُّوا ما ابتُلوا به من العذاب: أَلَمْ تَكُنْ آياتي تُتْلَى عليكم في الدنيا ﴿فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ حينئذٍ.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: استَوْلَتْ علينا ومَلَكَتْنا شقاوَتُنا التي اقتضاها سوءُ استعدادِنا، كما يومئُ إلى ذلك إضافتُها إلى أنفسهم. وقرأ شبل في اختياره: «شَقْوَتُنا» بفتح الشين(٤).

وقرأ عبد الله والحسن وقتادة وحمزة والكسائيُّ، والمفضَّل عن عاصم، وأبان، والزعفرانيُّ وابن مقسم: «شَقاوتنا» بفتح الشين وألف بعد القاف(٥).

وقرأ قتادة أيضاً، والحسنُ في رواية خالد بن حوشب عنه: «شِقاوتُنا» بالألف وكَسْرِ الشين(٦).

---

(١) سنن الترمذي (٢٥٨٧) و(٣١٧٦)، ومسند أحمد (١١٨٣٦). قال الترمذي: حسن صحيح غريب. اهـ. وهو من طريق أبي السَّمْح عن أبي الهيثم، وأبو السمح هو دراج بن سمعان، وهو صدوق، وفي حديثه عن أبي الهيثم ضعف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٦، وعزاه لابن مردويه أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٣) القراءات الشاذة ص ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٢. وأبو بحرية هو عبد الله بن قيس الكندي السَّكوني التَّراغِمي، مشهور بكنيته، من رجال التهذيب.

(٤) البحر ٦/ ٤٢٣.

(٥) التيسير ص ١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩ عن حمزة والكسائي وخلف، والكلام من البحر ٦/ ٤٢٢.

(٦) البحر ٦/ ٤٢٢-٤٢٣.

وهي في جميع ذلك مصدرٌ، ومعناها ضدُّ السعادة، وفسَّرها جماعةٌ بسوء العاقبة التي عَلِمَ الله تعالى أنهم يستحقُّونها بسوء أعمالهم، ونُسب ذلك لجمهور المعتزلة.

وعن الأشاعرة أنَّ المراد بها ما كتبه الله تعالى عليهم في الأزل من الكفر والمعاصي.

وقال الجبائيُّ: المراد بها الهوى وقضاءُ اللذَّات مجازاً من باب إطلاق المسبَّب على السبب.

وأيًّا ما كان فنسبةُ الغَلْبِ إليها لاعتبارِ تشبيهها بمن يتحقَّق منه ذلك، ففي الكلام استعارةٌ مكنيةٌ تخييليةٌ، ولعل الأولى أن يخرج الكلام مخرجَ التمثيل، ومرادُهم بذلك على جميع الأقوال في الشقوة: الاعترافُ بقيام حجة الله تعالى عليهم؛ لأنَّ منشأها على جميع الأقوال عند التحقيق ما هم عليه في أنفسهم، فكأنهم قالوا: ربَّنا غلب علينا أمرٌ منشؤُه ذواتُنا ﴿وَكُنَّا﴾ بسبب ذلك ﴿قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾ عن الحقِّ، مكذِّبين بما يُتْلَى من الآيات، فما تُنْسَبُ إلى حيفٍ في تعذيبنا.

ولا يجوز أن يكون اعتذاراً بما عَلِمَه الله تعالى فيهم وكَتَبَه عليهم من الكفر، أي: غَلَبَ علينا ما كَتَبْتَه علينا من الشقاوة، وكنَّا في علمك قوماً ضالِّين، أو غلب علينا ما عَلِمْتَه وكتبتَه، وكنَّا بسبب ذلك قوماً ضالِّين، فما وقع منَّا من التكذيب بآياتك لا قدرةَ لنا على رَفْعِه[1] = وإلَّا لزم انقلابُ العلم جهلاً وهو محالٌ؛ لأنَّ ذلك باطلٌ في نفسه لا يَصْلُح للاعتذار، فإنه سبحانه ما كتب إلا ما عَلِمَ، وما عَلِمَ إلَّا ما هم عليه في نفس الأمر، من سوء الاستعداد المؤدِّي إلى سوء الاختيار، فإنَّ العلم على ما حقِّق في موضعه تابعٌ للمعلوم.

ويؤيِّد دعوى الاعتراف قولُه تعالى حكايةً عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: ربَّنا أخرجنا من النار وأَرْجِعنا إلى الدنيا، فإنْ عُدْنا بعد ذلك إلى ما كنَّا عليه فيها من الكفر والمعاصي فإنَّا متجاوزون الحدَّ في الظلم = لأنَّ

---

(١) في الأصل: دفعه.

اجتراءهم على هذا الطلب أَوْفَقُ بكون ما قبله اعترافاً، فإنه كثيراً ما يهوِّنُ به المُذْنِبُ غضبَ من أَذْنبَ إليه. والاعتذارُ وإن كان كذلك بل أعظم، إلَّا أنَّ هذا الاعتذارَ أشبهُ شيءٍ بالاعتراض الموجبِ لشدة الغضب الذي لا يَحْسُنُ معه الإقدامُ على مثل هذا الطلب.

هذا مع أنهم لو لم يعتقدوا أنَّ ذلك عذرٌ مقبولٌ والاعتذارُ به نافعٌ لم يُقْدِموا عليه، ومع هذا الاعتقاد لا حاجةَ بهم إلى طلب الإخراج والإرجاع، ولا يقال مثلُ هذا على تقدير كونه اعترافاً؛ لأنهم إنما قالوه تمهيداً للطلب المذكور؛ لما أنه مظنةُ تسكينِ لَهَبِ نار الغضب على ما سمعتَ.

ثم إنَّ القوم لعلهم ظنُّوا تغيُّرَ ما هم عليه من سوء الاستعداد لو عادوا؛ لِمَا شاهدوا من حالهم في ذلك اليوم، ولذلك طلبوا ما طلبوا.

وفي قولهم: «عدنا» إشارةٌ إلى أنهم حين الطلب على الإيمان والطاعة، فيكون الموعودُ على تقدير الرجعة إلى الدنيا الثباتَ عليهما؛ لينتفعوا بهما بعد أن يَموتوا ويُحشروا، فتأمَّل.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه إقناطاً لهم أشدَّ إقناطٍ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أي: ذِلُّوا وانْزَجِروا انزجارَ الكلاب إذا زُجِرَتْ، من خَسَأْتُ الكلبَ: إذا زجرته فخَسَأَ، أي: انْزَجَر. أو: اسكتوا سكوت هوانٍ، ففيه استعارةٌ مكنيةٌ قرينتُها تصريحية.

﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ باستدعاء الإخراج من النار والرجع إلى الدنيا. وقيل: لا تكلِّمون في رفع العذاب. ولعل الأولَ أوفقُ بما قبله وبالتعليل الآتي.

وقيل: لا تكلِّمون أبداً، وهو آخرُ كلام يتكلَّمون به.

أخرج ابن أبي الدنيا في «صفة النار»(١) عن حذيفة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى إذا قال لأهل النار: «اخسؤوا فيها ولا تكلِّمون» عادت وجوههم قطعةَ لحم ليس فيها أفواهٌ ولا مناخرُ، يتردَّد النَّفَسُ في أجوافهم».

وأخرج الطبرانيُّ، والبيهقي في «البعث»، وعبد الله بن أحمد في زوائد

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ١٧.

«الزهد»، والحاكم وصحَّحه، وجماعةٌ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إنَّ أهل جهنم ينادون مالكاً: ليَقْضِ علينا ربُّك. فيذَرُهم أربعين عاماً لا يجيبهم، ثم يجيبهم: «إنكم ماكثون» ثم ينادون ربَّهم: ربَّنا أخرجنا منها فإنْ عدنا فإنَّا ظالمون. فيذرُهم مثلي الدنيا لا يجيبهم، ثم يجيبهم: «اخسؤوا فيها ولا تكلِّمون» قال: فما نَبَس القوم بعدها بكلمةٍ، وما هو إلَّا الزفيرُ والشهيق(١).

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وغيرُهما عن محمد بن كعب قال: لأهل النار خمسُ دعواتٍ، يجيبُهم الله تعالى في أربعةٍ، فإذا كانت الخامسةُ لم يتكلَّموا بعدها أبداً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١] فيجيبُهم الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢] فيجيبهم الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٤] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:٤٤] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧] ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۞ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ فيجيبهم الله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فلا يتكلَّمون بعدها أبداً(٢).

وفي بعض الآثار أنهم يَلْهَجون بكلِّ دعاءٍ ألفَ سنةٍ.

ويُشْكِلُ على هذه الأخبار ظواهرُ الخطابات الآتية كما لا يخفى، ولعلها

---

(١) البعث والنشور(٦٤٨)، والمستدرك ٤/ ٥٩٨، وعزاه للطبراني الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٦، والمنذري في الترغيب والترهيب٤/ ٣٩٢. وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٣١٩-زوائد نعيم)، وهناد في الزهد (٢١٤)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٠٩.

(٢) الدر المنثور ٥/ ١٦، وأخرجه أيضاً البيهقي في البعث والنشور (٦٦٠). وفي إسناده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندي، وهو متروك.

لا يصحُّ منها شيءٌ، وتصحيحُ الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار[١]، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ تعليلٌ لِمَا قبله من الزَّجر عن الدعاء، أي: إنَّ الشأن. وقرأ أبيٌّ وهارون العتكي: «أنه» بفتح الهمزة[٢]، أي: لأنَّ الشأن.

﴿كَانَ﴾ في الدنيا التي تريدون الرجعة إليها ﴿فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى﴾ وهم المؤمنون. وقيل: هم الصحابة. وقيل: أهل الصفَّة رضي الله عنهم أجمعين.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: هزؤاً.

أي: اسكتوا عن الدعاء بقولكم: «ربنا» إلخ؛ لأنكم كنتم تستهزئون بالداعينَ خوفاً من هذا اليوم بقولهم: «ربَّنا آمنا» إلخ ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ﴾ بتشاغُلِكم بالاستهزاء بهم ﴿ذِكْرِى﴾ أي: خوفَ عقابي في هذا اليوم ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وذلك غايةُ الاستهزاء.

وقيل: التعليلُ على معنى: إنما خَسَأناكم كالكلب ولم نَحْتَفِلْكم إذ دعوتُم؛ لأنكم استهزأتُم غايةَ الاستهزاء بأوليائي حين دَعَوا، واستمرَّ ذلك منكم حتى نسيتُم ذكري بالكلِّية ولم تخافوا عقابي، فهذا جزاؤكم.

وقيل: خلاصةُ معنى الآية: إنه كان فريقٌ من عبادي يَدْعونَ فتشاغلتُم بهم ساخرين، واستمرَّ تشاغُلُكم باستهزائهم إلى أنْ جرَّكم ذلك إلى تَرْكِ ذكري في أوليائي، فَلَمْ تخافوني في الاستهزاء بهم، ثم قيل: وهذا التذنيبُ لازمٌ ليصحَّ قوله تعالى: (إِنَّهُۥ كَانَ) إلخ تعليلاً، ويرتبطَ الكلام ويتلاءمَ مع قوله سبحانه: (وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ) ولو لم يُردْ به ذلك يكون إنساءُ الذكر كالأجنبيِّ في هذا المقام، وفيه تَسَخُّطٌ عظيمٌ لفِعْلِهم ذلك، ودلالةٌ على اختصاصٍ بالغٍ لأولئك العباد المسخورِ

---

(١) كذا قال، وفي كلامه نظر، فقد قال فيه المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٣٩٣: رواته محتجٌّ بهم في الصحيح. اهـ. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٩٦: رجاله رجال الصحيح.

(٢) القراءات الشاذة ص ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٣.

منهم، كما نبَّه عليه أولاً في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِبَادِى﴾ وخَتَمه بقوله سبحانه: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ وزاد في خَسْئِهم بإعزازِ أضدادهم. انتهى ولا يخلو عن بحث.

وقرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ: «سُخْرِيًّا» بضم السين[١]، وباقي السبعة بكَسْرِها، والمعنى عليها واحد ـ وهو الهزؤ ـ عند الخليل وأبي زيد الأنصاريِّ وسيبويه[٢].

وقال أبو عبيدة والكسائيُّ والفرَّاء: مضمومُ السين بمعنى الاستخدام من غير أجرة، ومكسورُها بمعنى الاستهزاء[٣].

وقال يونس: إذا أريد الاستخدامُ ضُمَّ السينُ لا غير، وإذا أريد الهزؤُ جاز الضمُّ والكسر.

وهو في الحالين مصدرٌ زيدَتْ فيه ياء النسبة للمبالغة كما في أحمريّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ أي: بسبب صبرهم على أذيَّتِكم، استئنافٌ لبيان حُسْنِ حالِهم، وأنهم انتفعوا بما آذَوْهم، وفيه إغاظةٌ لهم.

وقوله سبحانه: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ إما في موضع المفعول الثاني للجزاء، وهو يتعدَّى له بنفسه وبالباء كما قال الرَّاغب[٤]، أي: جزيتُهم فوزَهم بمجامع مُراداتهم ـ كما يُؤْذِنُ به معمولُ الوصف[٥] ـ حالَ كونهم مخصوصين بذلك، كما يؤذن به توسيطُ ضمير الفصل. وإما في موضع جرٍّ بلام تعليلٍ مقدَّرة، أي: لفوزهم بالتوحيد المؤدِّي إلى كلِّ سعادة، ولا يمنع من ذلك تعليلُ الجزاء بالصبر؛ لأنَّ الأسباب لكونها ليست عللاً تامَّةً يجوزُ تعدُّدُها.

---

(١) التيسير ص١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩، وهي قراءة أبي جعفر وخلف من العشرة.

(٢) ذكره عن الخليل وسيبويه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٢٣-١٢٤، وذكره الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٤٣ عن الكسائي.

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٣، ومجاز القرآن ٢/ ٦٢.

(٤) في مفرداته (جزى).

(٥) أي: مفعول «فائزين» وقد حذف للعموم. حاشية الشهاب ٦/ ٣٤٩.

وقرأ زيد بن عليٍّ وحمزةُ والكسائيُّ وخارجةُ عن نافع: «إنهم» بالكسر[(١)] على أنَّ الجملة استئنافٌ معلِّلٌ للجزاء. وقيل: مبيِّنٌ لكيفيته، فتدبر.

﴿قَلَ﴾ الله تعالى شأنُه، أو المَلَكُ المأمورُ بذلك، لا بعضُ رؤساء أهل النار كما قيل، تذكيراً لِمَا لبثوا فيما سألوا الرجعة إليه من الدنيا، بعد التنبيه على استحالته، وفيه توبيخٌ على إنكارهم الآخرة.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابن كثير: «قل»[(٢)] على الأمر للمَلَكِ لا لبعض الرؤساء كما قيل، ولا لجميع الكفار على إقامةِ الواحدِ مقامَ الجماعة كما زَعَمه الثعالبيُّ.

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التي تَدْعُون أنْ ترجعوا إليها، أي: كم أقمتُم فيها أحياءً ﴿عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ تمييزٌ لـ «كم»، وهي ظرفُ زمانٍ لـ «لبثتم»، وقال أبو البقاء: «عددَ» بدلٌ من «كم»[(٣)].

وقرأ الأعمش والمفضَّل عن عاصم «عدداً» بالتنوين[(٤)]، فقال أبو الفضل الرازي[(٥)]: «سنين» نصبٌ على الظرف، و«عدداً» مصدرٌ أُقيم مقام الاسم، فهو نعتٌ مقدَّمٌ على المنعوت. وتجويزُ أن يكون معنى «لبثتم»: عدَدْتُم، بعيد.

وقال أبو البقاء: «سنين» ـ على هذه القراءة ـ بدلٌ من «عدداً»[(٦)].

﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصاراً لمدَّةِ لُبثهم بالنسبة إلى ما تحقَّقوه من طولِ زمانِ خلودهم في النار. وقيل: استَقْصَروها لأنها كانت أيامَ سرورهم بالنسبة إلى ما هم فيه، وأيامُ السرور قِصَارٌ.

وقيل: لأنها كانت منقضيةً، والمنقضي لا يُعتَنَى بشأنه، فلا يُدْرَى مقدارُه طولاً وقِصَراً، فيُظَنُّ أنه كان قصيراً.

---

(١) التيسير ص ١٦٠، والنشر ٢/ ٣٢٩-٣٣٠ عن حمزة والكسائي.
(٢) التيسير ص ١٦٠، والنشر ٢/ ٣٣٠.
(٣) الإملاء ٤/ ٦٥.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٩، والبحر ٦/ ٤٢٤.
(٥) صاحب اللوامح، وكلامه في البحر ٦/ ٤٢٤، وعنه نقل المصنف.
(٦) الإملاء ٤/ ٦٥.

﴿فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: المتمكِّنين من العدِّ؛ فإنَّا بما دُهِمْنا من العذاب بمعزلٍ من ذلك. أو الملائكةَ العادِّين لأعمار العباد وأعمالِهم، على ما رواه جماعةٌ عن مجاهد.

وقرأ الحسن والكسائيُّ في رواية: «العادِينَ» بتخفيف الدَّال[1]، أي: الظَّلمةَ فإنهم يقولون كما نقول، كأنَّ الأتباع يسمُّون الرؤساء بذلك لظُلْمِهم إياهم بإضلالهم.

وقرئ: «العاديِّينَ» بتشديد الياء[2] جمع عاديٍّ نسبةً إلى قوم عادٍ، والمراد بهم المعمَّرون؛ لأنَّ قوم عادٍ كانوا يعمَّرون كثيراً، أي: فاسأل القدماء المعمَّرين، فإنهم أيضاً يستقصرون مدة لبثهم.

﴿قَـٰلَ﴾ أي: اللهُ تعالى، أو المَلَكُ. وقرأ الأخوان: «قل» على الأمر[3]، كما قرأا فيما مرَّ كذلك.

وفي «الدرِّ المصون»: الفعلان في مصاحف الكوفة بغير ألفٍ، وبألفٍ في مصاحف مكة والمدينة والشام والبصرة[4]. ونُقِلَ مثلُه عن ابن عطية[5]. وفي «الكشاف» عكسُ ذلك[6]. وكأنَّ الرسم بدون ألفٍ يَحْتَمِلُ حَذْفَهَا من الماضي على خلاف القياس، وفي رَسْم المصحف من الغرائب ما لا يخفى، فلا تغفل.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أي: ما لبثتم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ تصديقٌ لهم في مقالتهم. ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: تعلمون شيئاً، أو: لو كنتم من أهل العلم.

و«لو» شرطيةٌ، وجوابُها محذوفٌ ثقةً بدلالة الكلام عليه، أي: لو كنتم تعلمون لعلمتم يومئذٍ قِصَرَ أيام الدنيا كما علمتم اليومَ، ولعملتُم بموجب ذلك، ولم يَصْدُرْ منكم ما أوجب خلودَكم في النار، وقولنا لكم: «اخسؤا فيها ولا تكلِّمون».

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٤.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٤.
(٣) التيسير ص ١٦٠، والنشر ٢/ ٣٣٠.
(٤) الدر المصون ٨/ ٣٧٢.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٥٨، والبحر ٦/ ٤٢٤.
(٦) الكشاف ٣/ ٤٤. وفي المقنع للداني ص ٩٥ أن في بعض المصاحف «قال»، وفي بعضها «قل»، ولم يعيّن.

وقيل: المعنى: لو كنتم تعلمون قلَّةَ لبثكم في الدنيا بالنسبة للآخرة ما اغْتَرَرْتُم بها وعصيتُم. وكأن نفي العلم بذلك عنهم على هذا لعدم عملهم بموجبه، ومَن لم يعمل بعِلْمِه فهو والجاهلُ سواء.

وقدَّر أبو البقاء الجواب: لما أجبتُم بهذه المدة[١]. ولعله يجعل الكلامَ السابق ردّاً عليهم لا تصديقاً، وإلا لا يصحُّ هذا التقدير.

وجوَّز أن تكون «لو» للتمنِّي فلا تحتاج لجواب. ولا ينبغي أن تُجعل وَصْلية لأنها بدون الواو نادرةٌ أو غيرُ موجودة.

هذا، وقال غيرُ واحدٍ من المفسِّرين: المرادُ سؤالُهم عن مدَّةِ لبثهم في القبور، حيث إنهم كانوا يزعمون أنهم بعد الموت يصيرون تراباً، ولا يقومون من قبورهم أبداً. وزعم ابن عطية أنَّ هذا هو الأصوبُ، وأنَّ قوله سبحانه فيما بعد: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ يقتضيه[٢]. وفيه منعٌ ظاهر. ويؤيِّد ما ذهبنا إليه ما روي مرفوعاً: «إنَّ الله تعالى إذا أدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهلَ النارِ النارَ، قال: يا أهل الجنة، كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا: لبثنا يوماً أو بعضَ يومٍ. قال: لنِعْمَ ما أنجزتُم في يومٍ أو بعضِ يوم، رحمتي ورضواني وجنَّتي، امكثوا فيها خالدين مخلَّدين. ثم يقولُ: يا أهل النار، كم لبثتم في الأرض عددَ سنين. قالوا: لبثنا يوماً أو بعضَ يوم. فيقول: بئسما أنجزتُم في يومٍ أو بعضِ يومٍ، ناري وسَخَطي، امكثوا فيها خالدين مخلَّدين»[٣].

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أي: ألم تعلموا شيئاً فحسبتُم أنَّما خلقناكم بغير حكمةٍ حتى أنكرتُم البعثَ، فـ«عبثاً» حالٌ من نون العظمة، أي: عابثين. أو مفعولٌ به، أي: أفحسبتم أنما خلقناكم للعَبَثِ. وهو ماخلا عن الفائدة مطلقاً، أو عند الفائدة المعتدِّ بها، أو عمَّا يقاوِمُ الفعل كما ذكره الأصوليون.

---

(١) الإملاء ٤/٦٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/١٥٨-١٥٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/٢٥١١، وأبو نعيم في الحلية من طريق أيفع بن عبد الكلاعي عن النبي ﷺ. قال أبو نعيم: كذا رواه أيفع مرسلاً، وأسند أيفع عن معاوية بن أبي سفيان وغيره.

واستَظْهَرَ الخفاجيُّ إرادةَ المعنى الأول هنا[(١)]، واختار بعضُ المحقِّقين الثاني.

﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ عطفٌ على «أنما خلقناكم» أي: أفحسبتُم ذلك وحسبتُم أنكم لا تبعثون.

وجوَّز أن يكون عطفاً على «عبثاً» والمعنى: أفحسبتُم أنَّما خلقناكم للعبث ولتركِكم غيرَ مرجوعين، أو عابثين ومقدِّرين أنكم إلينا لا ترجعون.

وفي الآية توبيخٌ لهم على تغافُلهم، وإشارةٌ إلى أنَّ الحكمة تقتضي تكليفهم وبعثَهم للجزاء.

وقرأ الأخوان: «تَرْجِعون» بفتح التاء[(٢)] من الرجوع.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ﴾ استعظامٌ له تعالى ولشؤونه سبحانه التي يصرِّفُ عليها عبادَه جلَّ وعلا من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة، أي: ارتفع سبحانه بذاته وتنزَّه عن مماثلةِ المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعالِه، وعن خلوِّ أفعاله عن الحِكَمِ والمصالح الحميدة.

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الحقيقُ بالمالكية على الإطلاق إيجاداً وإعداماً، بَدْءاً وإعادةً، إحياءً وإماتةً، عقاباً وإثابةً، وكلُّ ما سواه مملوكٌ له مقهورٌ تحت مَلَكوتيَّته.

وقيل: «الحق» أي: الثابتُ الذي لا يزول ولا يزول ملكُه، وهذا وإن كان أشهرَ إلَّا أنَّ الأول أوفقُ بالمقام.

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فإنَّ كلَّ ما عداه عبيدُه تعالى ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ وهو جرمٌ عظيمٌ وراء عالم الأجسام والأجرام، وهو أعظمُها، وقد جاء في وصف عِظَمِه ما يبهرُ العقول، فيلزمُ من كونه تعالى ربَّه كونُه سبحانه ربَّ كلِّ الأجسام والأجرام، ووُصِفَ بالكريم لشرفه، وكلُّ ما شرف في بابه وُصِفَ بالكرم، كما في قوله تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٦] وقوله سبحانه: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى غير ذلك.

---

(١) حاشية الشهاب ٦/٣٤٩.

(٢) التيسير ص١٦٠، والنشر ٢/٢٠٨-٢٠٩ عن حمزة والكسائي ويعقوب وخلف.

وقد شرف بما أَوْدَعَ الله تعالى فيه من الأسرار، وأعظمُ شرفٍ له تخصيصُه باستوائه سبحانه عليه.

وقيل: إسنادُ الكرم إليه مجازيٌّ، والمراد: الكريم ربُّه، أو المراد ذلك على سبيل الكناية.

وقيل: هو على تشبيه العرش لنزول الرحمة والبركة منه بشخصٍ كريم. ولعل ما ذكرناه هو الأظهر.

وقرأ أبان بن تغلب، وابن محيصن، وأبو جعفر، وإسماعيل عن ابن كثير: «الكريمُ» بالرفع[1] على أنه صفة الربِّ، وجوِّز أن يكون صفةً للعرش على القَطْعِ، وقد يرجَّحُ بأنه أوفقُ بقراءة الجمهور.

﴿وَمَن يَدْعُ﴾ أي: يعبدْ ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ أي: مع وجوده تعالى وتحقُّقه سبحانه ﴿إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ إفراداً أو إشراكاً، أو: مَن يعبد مع عبادة الله تعالى إلهاً آخر كذلك، ويتحقَّقُ هذا في الكافر إذا أفرد معبوده الباطل بالعبادة تارةً وأَشْرَكَه مع الله تعالى أخرى، وقد يُقْتَصَر على إرادة الإشراك في الوجهين، ويُعلم حال مَن عَبَدَ غيرَ الله سبحانه إفراداً بالأولى.

وذِكْرُ «آخر»، قيل: إنه للتصريح بألوهيته تعالى، وللدلالة على الشريك فيها، وهو المقصودُ، فليس ذكرُه تأكيداً لِمَا تدلُّ عليه المعيةُ وإنْ جوِّز ذلك، فتأمَّل.

نعم قوله تعالى: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ لازمةٌ لـ «إلهاً» لا مقيِّدةٌ، جيء بها للتأكيد وبناءِ الحكم المستفاد من جزاء الشرط ـ من الوعيد بالجزاء على قَدْرِ ما يستحق ـ [عليه][2] تنبيهاً على أنَّ التديُّن بما لا دليل عليه ممنوعٌ فضلاً عما دلَّ الدليل على خلافه. ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء جيء به للتأكيد، كما في قولك: مَن أَحْسَنَ إلى زيد لا أَحَقَّ منه بالإحسان، فاللهُ تعالى مُثيبه.

---

(١) القراءات الشاذة ص ٩٩.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٦/ ٣٥٠، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٥٣.

ومِن الناس مَن زَعَمَ أنه جوابُ الشرط دون قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ وجَعَلَه تفريعاً على الجملة، وليس بصحيح لأنه يلزمُ عليه حَذْفُ الفاء في جواب الشرط، ولا يجوز ذلك كما قال أبو حيان إلَّا في الشعر[1].

والحسابُ كنايةٌ عن المجازاة، كأنه قيل: مَن يعبدْ إلهاً مع الله تعالى فالله سبحانه مُجازٍ له على قَدْرِ ما يستحقُّه.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ١١٧﴾ أي: إنَّ الشأنَ لا يفلح.. إلخ. وقرأ الحسن وقتادة: «أنه» بالفتح[2] على التعليل، أو جَعْلِ الحاصل من السَّبكِ خبرَ «حسابه» أي: حسابهُ عدمُ الفلاح، وهذا على ما قال الخفاجيُّ[3] من باب:

تحيةُ بينِهم ضربٌ وجيعُ[4]

وبهذا مع عدم الاحتياج إلى التقدير رجِّح هذا الوجهُ على سابقه، وتَوَافُق القراءتين عليه في حاصل المعنى، ورجِّح الأولُ بأنَّ التوافُقَ عليه أتمّ. وأصلُ الكلام على الإخبار: فإنما حسابُه عند ربِّه أنه لا يفلح هو، فوُضع «الكافرون» موضعَ الضمير؛ لأنَّ «مَن يَدْعُ» في معنى الجمع، وكذلك: حسابُه أنه لا يفلح، في معنى: حسابُهم أنهم لا يفلحون.

وقرأ الحسن: «يَفْلَحُ» بفتح الياء واللام[5].

وما ألطفَ افتتاحَ هذه السورة بتقدير فلاح المؤمنين، وإيرادَ عدمِ فلاح الكافرين في اختتامها، ولا يخفى ما في هذه الجمل من تسلية رسول الله ﷺ.

وكأنه سبحانه بعد ما سلَّاه بذكر مآلِ مَن لا ينجعُ دعاؤه فيه، أمره بما يرمز إلى مُتارَكةِ مُخالِفيهِ، فقال جل وعلا: ﴿وَقُل رَّبِّ﴾ وقرأ ابن محيصن: «ربُّ» بالضم[6]

(١) البحر ٦/ ٤٢٥.
(٢) القراءات الشاذة ص ٩٩، والمحتسب ٢/ ٩٨، والبحر ٦/ ٤٢٥.
(٣) في الحاشية ٦/ ٣٥٠.
(٤) وصدره: وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيل، والبيت لعمرو بن معدي كرب كما في الكتاب ٣/ ٥٠، وسلف ٥/ ٦٤.
(٥) القراءات الشاذة ص ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٥.
(٦) البحر ٦/ ٤٢٥.

﴿ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ والظاهرُ أنَّ طَلَبَ كلٍّ من المغفرة والرحمة على وجه العموم له عليه الصلاة والسلام ولمتَّبعيهِ، وهو أيضاً أعمُّ من طلب أصل الفعل والمداومة عليه، فلا إشكال، وقد يقال في دفعه غيرُ ذلك.

وفي تخصيص هذا الدعاء بالذكر ما يدلُّ على أهميةِ ما فيه، وقد علَّم ﷺ أبا بكر الصدِّيقَ رضي الله عنه أن يقول نحوَه في صلاته، فقد أخرج البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ وابن ماجه وابن حِبَّان وجماعةٌ عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال: «قل: اللهمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نفسي ظُلْماً كثيراً، وإنَّه لا يَغْفِرُ الذنوبَ إلَّا أنتَ، فاغْفِرْ لي مغفرةً مِن عندِكَ، وارحمني إنَّك أنتَ الغفورُ الرحيم»(١).

ولقراءة هذه الآيات ـ أعني قولَه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ إلى آخر السورة ـ على المصاب نفعٌ عظيم، وكذا المداومةُ على قراءة بعضها في السفر.

أخرج الحكيم الترمذيُّ وابن المنذر وأبو نعيم في «الحلية» وآخرون، عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قرأ في أذن مصاب: «أفحسبتُم» حتى ختم السورة، فبرأ، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو أنَّ رجلاً موقناً قرأ بها على جبلٍ لزال»(٢).

وأخرج ابن السنيِّ وابن منده، وأبو نعيم في «المعرفة» بسندٍ حسنٍ من طريق محمد بن إبراهيم بن الحارث التميميِّ عن أبيه قال: بَعَثَنا رسول الله ﷺ في سريةٍ وأَمَرَنا أن نقول إذا أمسينا وأصبحنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ فقرأناها فغنمنا وسَلِمْنا(٣). هذا والله تعالى المسؤول لكلِّ خير.

❁ ❁ ❁

(١) صحيح البخاري (٨٣٤)، وصحيح مسلم (٢٧٠٥)، وسنن الترمذي (٣٥٣١)، والمجتبى ٣/ ٥٣، وسنن ابن ماجه (٣٨٣٥)، وصحيح ابن حبان (١٩٧٦).

(٢) الحلية ١/ ٧، وعزاه للحكيم الترمذي السيوطي في الدر المنثور ٥/ ١٧، ولم نقف عليه عن ابن المنذر. وأخرجه أيضاً أحمد في العلل (٥٩٧٩)، والعقيلي في الضعفاء ٢/ ١٦٣، وابن الجوزي في الموضوعات (٢٧٠). قال أحمد: هذا الحديث موضوع.

(٣) عمل اليوم والليلة لابن السني (٧٧)، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (٧٢٦)، وعزاه لابن منده السيوطي في الدر ٥/ ١٧، وعنه نقل المصنف.

ومن باب الإشارة في الآيات: قيل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وصلوا إلى المحلِّ الأعلى والقُربةِ والسعادة، ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ ظاهراً وباطناً.

والخشوعُ في الظاهر: انتكاسُ الرأس، والنظرُ إلى موضع السجود وإلى ما بين يديه، وتركُ الالتفات، والطمأنينةُ في الأركان[1]، ونحو ذلك.

والخشوعُ في الباطن: سكونُ النفس عن الخواطر والهواجس الدنيوية بالكلِّية، أو تركُ الاسترسال معها، وحضورُ القلب لمعاني القراءة والأذكار، ومراقبةُ السرِّ بتَرْكِ الالتفات إلى المكونات، واستغراقُ الروح في بحر المحبة.

والخشوعُ شرطٌ لصحة الصلاة عند بعض الخواصِّ، نقل الغزاليُّ عن أبي طالب المكيِّ عن بشرِ الحافي: مَن لم يَخْشَعْ فَسَدَتْ صلاتُه[2]. وهو قولٌ لبعض الفقهاء، وتفصيلُه في كتبهم.

ولا خلافَ في أنه لا ثوابَ في قولٍ أو فعلٍ من أقوالِ أو أفعالِ الصلاة أُدِّيَ مع الغفلة، وما أقبح مُصَلٍّ يقول: «الحمد لله رب العالمين» وهو غافلٌ عن الربِّ جلَّ شأنُه، متوجِّهٌ بشراشرِهِ إلى الدرهم والدينار[3]، ثم يقول: «إياك نعبد وإياك نستعين» وليس في قلبه وفِكْرِه غيرُهما. ونحوُ هذا كثيرٌ، ومن هنا قال الحسن: كلُّ صلاةٍ لا يَحْضُرُ فيها القلبُ فهي إلى العقوبة أسرع.

وقد ذكروا أنَّ الصلاة معراجُ المؤمن، أفَتَرى مثلَ صلاةٍ هذا تَصْلُحُ لذلك؟! حاشَ للهِ تعالى، مَن زَعَمَ ذلك فقد افترى.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ قال بعضهم: اللغوُ كلُّ ما يَشْغَلُ عن الحقِّ عزَّ وجلَّ.

وقال أبو عثمان: كلُّ شيءٍ فيه للنفس حظٌّ فهو لغو.

وقال أبو بكر بن طاهر: كلُّ ما سوى اللهِ تعالى فهو لغوٌ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ هي تزكيةُ النفس عن الأخلاق الذميمة.

---

(١) إلى هذا الموضع نهاية السقط من الأصل.
(٢) إحياء علوم الدين ١/ ١٦٠.
(٣) في الأصل: والدنيا.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ إشارةٌ إلى استيلائهم على القوة الشَّهْوية فلا يتجاوزون فيها ما حُدَّ لهم.

وقيل: الإشارةُ فيه إلى حِفْظِ الأسرار، أي: والذين هم ساترون لِمَا يَقْبُحُ كَشْفُه من الأسرار عن الأغيار، إلا على أقرانهم ومَن ازْدَوَجَ معهم، أو على مُريديهم الذين هم كالعبيد لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ قال محمد بن الفضل: سائر جوارحهم ﴿وَعَهۡدِهِمۡ﴾ الميثاق الأزليّ ﴿رَٰعُونَ﴾ فهم حَسنو الأفعال والأقوال والاعتقادات.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ فيؤدُّونها بشرائطها، ولا يفعلون فيها وبعدها ما يضيِّعها كالرياء والعُجْب.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ قيل: المخلوقُ من ذلك هو الهيكلُ المحسوسُ، وأمَّا الروحُ فهي مخلوقةٌ من نورٍ إلهيٍّ يَعِزُّ على العقول إدراكُ حقيقته.

وفي قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ إشارةٌ إلى نفخ تلك الروح المخلوقة من ذلك النور، وهي الحقيقةُ الآدميةُ المرادة في قوله ﷺ: «خَلَقَ الله تعالى آدم على صورته»(١) أي: على صفته سبحانه من كونه حيّاً عالماً مريداً قادراً، إلى غير ذلك من الصفات.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ إشارةٌ إلى مراتب النفس التي بعضُها فوق بعضٍ، وكلُّ مرتبةٍ سُفْلَى منها تحجُبُ العليا، أو إشارةٌ إلى حُجُبِ الحواسِّ الخمس الظاهرة وحاسَّتي الوهم والخيال، وقيل غيرُ ذلك.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل: أي: سماء العناية ﴿مَآءَۢ﴾ أي: ماءَ الرحمة، ﴿بِقَدَرٖ﴾ أي: بمقدارِ استعدادِ السالك ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: أرضِ وجوده ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ﴾ أي: نخيل المعارف ﴿وَأَعۡنَٰبٖ﴾ أي: أعناب الكشوف.

---

(١) أخرجه أحمد (٨١٧١)، والبخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقيل: النخيل إشارةٌ إلى علوم الشريعة، والأعنابُ إشارةٌ إلى علوم الطريقة.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ هي ما كان منها زائداً على الواجب، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ إشارةٌ إلى ما كان واجباً لا يتمّ قوامُ الشريعة والطريقة بدونه.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ إشارةٌ إلى النور الذي يُشْرِقُ من طور القلب بواسطة ما حصل له من التجلِّي الإلهيِّ. ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ أي: تَنْبتُ بالجامع لهذين الوصفين، وهو الاستعداد، والآكلين إشارةٌ إلى المتغذِّين بأطعمة المعارف.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ فيه من الأمر بمكارم الأخلاق ما فيه.

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي الاغترارُ بالأعمال، وإرشادٌ إلى التشبُّث برحمة الملك المتعال.

نسال الله تعالى أن يوفِّقنا لطاعته، ويغفرَ لنا ما ارتكبناه من مخالفته، ويتفضَّلَ علينا بأعظم مما نؤمِّلُه من رحمته، كرامةً لنبيِّه الكريم، وحبيبه الذي هو بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم وشَرَّفَ وعظَّم وكرَّم.

(٢٤) سورة النور مدنية وآياتها أربع وستون

سورةُ النور من السور المدنية التي تتناول الأحكام التشريعية وتهتم بشئون التشريع ، والتوجيه ، والأخلاق ، وتُعْنَى بالقضايا العامة والخاصة التي ينبغي أن يُربّى عليها الأفراد والجماعات . اشتملت هذه السورة الكريمة على أحكام عامة تتعلق بالأسرة التي هي النواة الأولى للمجتمع الأكبر ، ووضَّحت الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم العامة كالاستئذان عند دخول البيوت ، وغض البصر ، وحفظ الفروج ، وحرمة الاختلاط ، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة و « البيتُ المسلم » من العَفاف والستر ، والطهارة والنزاهة ، صيانةً للأسرة ، وحفاظاً عليها من عوامل التفكك الداخلي ، والانهيار الخلقي .. وقد ذُكرت في هذه السورة الكريمة بعضُ الحدودِ الشرعية كحدِّ الزنى ، وحدِّ القذف ، وأحكام اللعان ، وكلُّ هذه الحدود إنما شُرعت تطهيراً للمجتمع من الفساد والفوضى واختلاط الإنساب ، والتحلل الخُلقي ، وحفظاً للأمة من عوامل التردي في بؤرة الفجور والدعارة ، والإباحية والمجون ، التي تسبِّب ضياع الأنساب وذهاب العِرض والشرف .. وباختصار فإن هذه السورة قد عالجت ناحيةً من أخطر النواحي هي « ناحيةُ الأسرة » وما يحفُّها من مخاطرَ وأمراضٍ اجتماعية ، وما يعترضُ طريقها من عقبات ومشاكل قد تودي بها إلى الدمار ، هذا عدا عمّا فيها من آداب سامية ، وحِكَمٍ

عالية ، وإشارات دقيقة إلى أسس الحياة الفاضلة وآدابها السامية . ولهذا كتب عمر رضي الله عنه إلى أهل الكوفة : علّموا نساءكم سورة النور .

سميت السورة الكريمة «سورةَ النور» لما فيها من إشعاعات النور الرباني ، بتشريع الأحكام والآداب الإسلامية العامة ، التي هي قبسٌ من نور الله على عباده ، وفيضٌ من فيوضات رحمته وجوده ، ولهذا قال تعالى في هذه السورة ﴿ الله نورُ السمواتِ والأرض ، مثلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباح .. ﴾ اللهم نوّر قلوبنا بنور كتابك العظيم .

تبتدىء السورة الكريمة ببيان الحكمة الإلهية في تشريع الحدود ، وتتناول حدَّ الزنى فتأمر بجلد كلٍ من الزاني والزانية مائة جلدة إذا كانا غير محصنين ، وتحذّر من التهاون أو التساهل في تطبيق الحد الشرعي فإن «جريمة الزنى» أخطر وأعظم من أن تستدرَّ العطف ، أو تدفع إلى العفو عن مرتكب هذه الجريمة المنكرة ، فإنَّ من عَرَف آثارها وأضرارها من تدنيسٍ للعرض ، وضياعٍ للأنساب ، وتعريضٍ للأسرة إلى التحلل والدمار ، وتلطيخ لأفرادها بالعار والشنار ، عرف حكمة الله في تشريع هذا العقاب الزاجر الصارم ، ولهذا جاء البدء العجيب في هذه السورة بقوله تعالى ﴿سورةٌ أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آياتٍ بينات لعلّكم تذكرون﴾ ثم تلاها بيان حكم الله في الزانيين ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ ، ولا تأخذْكم بهما رأفةٌ في دينِ اللهِ ، إن كنتم تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وليَشْهدْ عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين﴾ ثم تنتقل إلى حدّ القذف وتبيِّن عقوبته الزاجرة ﴿ والذين يرمونَ المُحْصَناتِ ثم لم يأتوا بأربعةِ شهداءَ فاجلدُوهُمْ ثمانينَ جلدةً ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ . وتتحدث الآيات الكريمة عن «حادثةِ الإفك» وهي من أشنع وأقبح ما استهدف به المنافقون صاحبَ الرسالة العظمى ، حيث رَمَوه

في أقدس شيء وأعزه ، في عِرْضه المصون ، وأهلهِ الطاهرة البريئة ، السيدة عائشة بنتِ الصدّيق الأكبر رضي الله عنها ، وقصدوا بذلك أن يوجّهوا ضربةً في الصميم للنبي الكريم ، عن طريق اتهام أم المؤمنين السيدة عائشة بارتكابها فاحشة الزنى التي هي من أقبح الجرائم على الإطلاق وكان الذي تولّى كِبْر التهمة النكراء « عبدُ الله بن أُبَيّ ابن سَلُول » رأسُ النفاق ، ولكنَّ الله جلَّ ثناؤه كشف خبث المنافقين ، وبرّأ أم المؤمنين من ذلك البهتان المبين ، وجعل ذلك درساً للأجيال وعبرةً للخلق ﴿ إنَّ الذين جاءوا بالإفك عُصْبةٌ منكم لا تَحْسبوهُ شراً لكم بل هو خيرٌ لكم لكل امرىءٍ منهم ما اكتسبَ من الإثم ، والذي تولّى كِبْره منهم له عذاب عظيم﴾ وتمضي الآيات تبيّن عقوبة من يحب إشاعة السوء بين المؤمنين ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشةُ في الذين آمنوا لهم عذابٌ أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ ثم تتوالى الآيات في الحديث عن هذه التهمة الشنيعة ، وتقرر مبدأً عاماً هو مبدأ المنطق السليم والعقل الحصيف وهو أن الجنسَ يألفه الجنسُ ، وأن الطيبَ لا يناسبه إلا الطيبُ ، والخبيثَ لا يناسبه إلا الخبيثُ ، ثم يعقبها بالبراءة لبيت النبوة ممّا رماه به المنافقون ، وتبقى براءة أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها وحياً يُتلى وقرآناً يتعبد الناس بتلاوته ﴿ الخبيثاتُ للخبيثينَ والخبيثونَ للخبيثاتِ ، والطيباتُ للطيبين والطّيّبون للطيبات ، أولئك مبرءون ممّا يقولون ، لهم مغفرةٌ ورزق كريم﴾ وكفى بذلك شرفاً وفخاراً لأمهات المؤمنين الطاهرات . ثم تتحدث السورة الكريمة عن آداب دخول البيوت بالاستئذان والسلام على أهلها وعدم اقتحام البيوت قبل الإذن بالدخول ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا لا تَدْخلوا بيوتاً غيرَ بيوتِكم حتَّى تَسْتأنسوا وتُسَلّموا على أهلِها ، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يُؤْذن لكم ،

وإن قيل لكم ارجعوا فارْجِعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم﴾
ولما كان الزنى طريقُه الخلوةُ ، والنظر إلى الأجنبيات ، والاطلاع على العورات ، أمر تعالى بغض النظر لكل من الرجل والمرأة ، وذلك مما يصون الكرامة ، ويحفظ العرض والشرف ﴿قلْ للمؤمنينَ يَغُضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقلْ للمؤمناتِ يَغْضُضْنَ من أبصارهن ويَحْفظْنَ فروجهن ولا يُبدينَ زينتهنَّ إلا ما ظهر منها ..﴾ ولقد عالجت السورة الكريمة « موضوع الزواج » فأمرتْ بتيسير أسبابه لأنه هو الطريق السليم للتناسل ، وعمران الأرض بالذرية الصالحة ، ولا يصح أن يكون الفقر مانعاً من تزويج الأكفاء ، ولا أن يكون غلاء المهور عقبةً في طريق الزواج ، فإن الغريزة الجنسية إذا لم تجد لها متنفساً عن طريقٍ نظيف شريف طغت وتمردت وسلكت طريق الفاحشة ، فلا عجب إذاً أن نرى القرآن يحضُّ على إنكاح الشبّان والشابات وتيسير أسباب الزواج لكل راغب في التعفف ﴿وأنْكحوا الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يُغْنِهم اللهُ من فضله ، والله واسعٌ عليم﴾ . وتختم السورة الكريمة – بعد ذكر طائفةٍ من الأحكام التشريعية – بوجوب احترام أمر الرسول ﷺ وتعظيمه وإجلاله لأنه رسول الله فأمره جليل وحقه عظيم على المؤمنين ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضِكم بعضاً ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوَاذاً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذابٌ أليم﴾

سورة النور

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣] الآية.

[٦٢٨] أخرج النسائي(١) عن عبدالله بن عمر قال كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح فأراد رجل من أصحاب النبي [ﷺ] أن يتزوجها فأنزل الله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

[٦٢٩] وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مزيد يحمل من الأنبار إلى مكة حتى يأتيهم وكانت امرأة بمكة صديقة له يقال لها عناق فاستأذن النبي [ﷺ] أن ينكحها فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾(٣) الآية فقال رسول الله [ﷺ]: **يا مزيد** ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية **«فلا تنكحها»**.

[٦٣٠] وأخرج سعيد بن منصور عن مجاهد قال لما حرم الله الزنا فكان زوان عندهن جمال فقال الناس ألا ينطلقن فليتزوجن فنزلت.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [النور: ٦] الآية.

[٦٣١] أخرج البخاري(٤) من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أُمية قذف امرأته عند النبي [ﷺ] فقال له النبي [ﷺ]: **«البينة أو حد في ظهرك»** فقال يا رسول الله إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي [ﷺ] يقول: **«البينة أو حد في ظهرك»** فقال هلال والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن

---

[٦٢٨] (١) ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٨٠) من طريق الحضرمي عن القاسم بن محمد به نحوه.

(٢) سورة النور: الآية (٣).

[٦٢٩] (٣) سورة النور: الآية (٣).

[٦٣١] (٤) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٢٣٣)، وأبو داود في سننه (٢٢٥٤)، وابن ماجة (٢٠٦٧)، والترمذي (٣١٧٩) في سننهم والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٧١) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه ووافقه الذهبي.

الله ما يبرىء ظهري من الحد فنزل جبريل فأنزل الله عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾(١) فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٢).. وأخرجه أحمد بلفظ: لما نزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾(٣) قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار: أهكذا نزلت يارسول الله فقال رسول الله [ﷺ]: **«يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟»** قالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط فاجترأ رجلاً منا أن يتزوجها من شدة غيرته فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من الله ولكني تعجبت إني لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أنحيه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء فوالله لا آتي بهن حتى يقضي حاجته قال فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم فجاء من أرضه عشاءً فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا إلى رسول الله [ﷺ] وقال له إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني فكره رسول الله [ﷺ] ما جاء به واشتد عليه واجتمعت الأنصار فقالوا قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله [ﷺ] هلال فوالله إن رسول الله [ﷺ] يريد أن يأمر بضربه أنزل الله عليه الوحي فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾(٤) الحديث.. وأخرج أبو يعلى مثله من حديث أنس.

[٦٣٢] وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال: اسأل لي رسول الله [ﷺ] أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله [ﷺ] فعاب رسول الله [ﷺ] السائل فلقيه عويمر فقال: ما صنعت؟ قال: ما صنعت إنك لم تأتني بخبر سألت رسول الله [ﷺ] فعاب السائل فقال عويمر فوالله لآتين رسول الله [ﷺ] فلأسألنه فسأله فقال: **«أنه أنزل فيك وفي صاحبتك»** الحديث قال الحافظ ابن حجر: اختلف الأئمة في هذه المواضع فمنهم من رجح أنها نزلت في شأن عويمر ومنهم من رجح أنها نزلت في شأن هلال ومنهم من جمع بينهما بأن أول

---

(١) سورة النور: الآية (٦).
(٢) سورة النور: الآية (٩).
(٣) سورة النور: الآية (٤).
(٤) سورة النور: الآية (٦).

من وقع له ذلك هلال وصادف مجيء عويمر أيضاً فنزلت في شأنهما معاً وإلى هذا جنح النووي وتبعه الخطيب فقال لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد. قال الحافظ ابن حجر ويحتمل أن النزول بسبب هلال فلما جاء عويمر ولم يكن له علم بما وقع لهلال أعلمه النبي [ﷺ] بالحكم ولهذا قال في قصة هلال فنزل جبريل وفي قصة عويمر قد أنزل الله فيك فيؤول قوله قد أنزل الله فيك أي فيمن وقع له مثل ما وقع لك وبهذا أجاب ابن الصباغ في الشامل وجنح القرطبي إلى تجويز نزول الآية مرتين.

[٦٣٣] وأخرج البزار من طريق زيد بن مطيع عن حذيفة قال: قال رسول الله [ﷺ] لأبي بكر «**لو رأيت مع أم رومان رجلاً ما كنت فاعلاً به**» قال: كنت فاعلاً به شراً قال: «**وأنت يا عمر**» قال كنت أقول لعن الله الأعجز وإنه لخبيث فنزلت قال الحافظ ابن حجر لا مانع من تعدد الأسباب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ [النور: ١١] الآيات.

[٦٣٤] أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت: كان رسول الله [ﷺ] إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت وذلك بعدما أنزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله [ﷺ] من غزوه وقفل ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل فقمت فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فحملوا هودجي على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين زحلوه ورفعوه فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي عندما سار الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت فيه فظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت وكان صفوان بن المعطل قد عرس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فعرفني حين رآني وكان يراني قبل أن يضرب عليّ الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي فوالله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطىء على يدها فركبتها

فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحو الظهيرة فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبدالله بن أُبي بن سلول فقدمت المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك حتى خرجت بعدما نُقهت وخرجت مع أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ما قلت تسبين رجلاً شهد بدراً قالت أي هنتاه ألم تسمعي ما قال: قلت وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي فلما دخل عليَّ رسول الله [ﷺ] قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي وأنا أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لي فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أماه ما يتحدث الناس؟ قالت: أي بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها قلت: سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي ودعا رسول الله [ﷺ] علي بن أبي طالب وأُسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله فأما أسامة فأشار إليه بالذي يعلم من براءة أهله فقال: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً وأما علي فقال: لن يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك فدعا بريرة فقال: **«أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة»** قالت: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله فقام رسول الله [ﷺ] على المنبر فاستعذر من عبدالله بن أُبي فقال: **«يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً»**. قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ثم بكيت تلك الليلة لا يرقا لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت عليَّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي ثم دخل رسول الله [ﷺ] فسلم ثم جلس وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء فتشهد ثم قال: **«أما بعد يا عائشة فأنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه»** فلما قضى مقالته قلت لأبي أجب عني رسول الله [ﷺ] فقال والله ما أدري ما أقول فقلت لأمي: أجيبي رسول الله [ﷺ] فقالت: والله ما أدري ما أقول فقلت وأنا جارية حديثة السن والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في

أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم أني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني وفي رواية ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني والله لا أجد لي ولكم مثلاً.. إلا كما قال أبو يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ثم تحولت فاضطجعت على فراشي فوالله ما رام رسول الله [ﷺ] مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء فلما سرى عنه كان أول كلمة تكلم بها أن قال: **«أبشري يا عائشة أما الله فقد برأك»** فقالت لي أمي: قومي إليه فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي وأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ عشر آيات فقال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيئاً بعد الذي قال لعائشة فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(١) قال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح ما كان ينفق عليه وفي الباب عن ابن عباس وابن عمر عند الطبراني وأبي هريرة عند البزار وأبي اليسر عند ابن مردويه.

[٦٣٥] ك.. وأخرج الطبراني عن خصيف قلت لسعيد بن جبير: أيما أشد الزنا أو القذف؟ قال: الزنا قلت: إن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(٢) قال إنما أنزل هذا في شأن عائشة خاصة وفي إسناده يحيى الحماني ضعيف.

[٦٣٦] ك.. وأخرج أيضاً عن الضحاك بن مزاحم قال: نزلت هذه الآية في نساء النبي [ﷺ] خاصة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(٣) الآية.

[٦٣٧] ك.. أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عائشة خاصة.

[٦٣٨] ك.. وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت: رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك فبينا رسول الله [ﷺ] عندي إذ أوحى إليه ثم استوى جالساً فمسح وجهه وقال: **«يا عائشة أبشري»** فقلت بحمد الله لا بحمدك فقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

[٦٣٤] (١) سورة النور: الآية (٢٢).
[٦٣٥] (٢) سورة النور: الآية (٢٣).
[٦٣٦] (٣) سورة النور: الآية (٢٣).

﴿يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ حتى بلغ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ (١).

[٦٣٩] ك.. وأخرج الطبراني بسند رجاله ثقات عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾(٢) الآية قال: نزلت في عائشة حين رماها المنافق بالبهتان والفرية فبرأها الله من ذلك.

[٦٤٠] ك.. وأخرج الطبراني بسندين فيهما ضعف عن ابن عباس قال نزلت ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾(٣) الآية في الذين قالوا في زوج النبي [ﷺ] ما قالوا من البهتان.

[٦٤١] ك.. وأخرج الطبراني عن الحكم بن عتيبة قال: لما خاض الناس في أمر عائشة أرسل رسول الله [ﷺ] إلى عائشة فقال: «**يا عائشة ما يقول الناس**» فقالت: لا أعتذر بشيء حتى ينزل عذري من السماء فأنزل الله فيها خمس عشرة آية من سورة النور ثم قرأ حتى بلغ ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾(٤) الآية. مرسل صحيح الإسناد.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا﴾ [النور: ٢٧] الآية.

[٦٤٢] أخرج الفريابي وابن جرير(٥) عن عدي بن ثابت قال جاءت امرأة من الأنصار فقالت: يا رسول الله إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد وأنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف أصنع؟ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾(٦) الآية.

[٦٤٣] وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان قال لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال أبو بكر يا رسول الله فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ولهم بيوت معلومة على الطريق فكيف يستأذنون ويسلمون وليس

---

[٦٣٨] (١) سورة النور: الآية (٢٣و ٢٦).

[٦٣٩] (٢) سورة النور: الآية (٢٦).

[٦٤٠] (٣) سورة النور: الآية (٢٦).

[٦٤١] (٤) سورة النور: الآية (٢٦) ـ انظر مجمع الزوائد (٧/ ٨١).

[٦٤٢] (٥) ورواه الواحدي في أسباب النزول من طريق محمد بن يوسف الفريابي حدثنا قيس عن أشعث بن سوار به مثله ص (١٨٦).

(٦) سورة النور: الآية (٢٧).

فيها سكان؟ فنزل: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾(1) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: ٣١] الآية.

[٦٤٤] أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال بلغنا أن جابر بن عبدالله حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما في أرجلهن يعني الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء: ما أقبح هذا! فأنزل الله في ذلك: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(2) الآية.

[٦٤٥] وأخرج ابن جرير عن حضرمي أن امرأة اتخذت صرتين من فضة واتخذت جزعاً فمرت على قوم فضربت برجلها فوقع الخلخال على الجزع فصوت فأنزل الله: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾(3).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَٰبَ﴾ [النور: ٣٤] الآية.

[٦٤٦] أخرج ابن السكن في معرفة الصحابة عن عبدالله بن صبيح عن أبيه قال كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتابة فأبى. فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَٰبَ﴾(4) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ﴾ [النور: ٣٤] الآية.

[٦٤٧] وأخرج مسلم من طريق أبي سفيان(5) عن جابر بن عبدالله قال كان عبدالله بن أبي يقول لجارية له اذهبي فابغينا شيئاً فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾(6) الآية.

[٦٤٨] وأخرج أيضاً من هذا الطريق أن جارية لعبدالله بن أُبي يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أُميمة فكان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى النبي [ﷺ] فأنزل الله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾(7) الآية.

---

[٦٤٣] (1) سورة النور: الآية (٢٩).
[٦٤٤] (2) سورة النور: الآية (٣١).
[٦٤٥] (3) سورة النور: الآية (٣١).
[٦٤٦] (4) سورة النور: الآية (٣٤).
[٦٤٧] (5) بل رواه مسلم عن أبي كريب عن أبي معاوية ورواه الواحدي في أسباب النزول ص (١٨٧) من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر.
(6) سورة النور: الآية (٣٤).
[٦٤٨] (7) سورة النور: الآية (٣٤).

[٦٤٩] وأخرج الحاكم من طريق أبي الزبير عن جابر قال كانت مسيكة لبعض الأنصار فقالت: إن سيدي يكرهني على البغاء فنزلت: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾(١) الآية.

[٦٥٠] وأخرج البزار والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كانت لعبدالله بن أُبي جارية تزني في الجاهلية فلما حرم الزنا قالت: لا والله لا أزني أبداً فنزلت: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾(٢) وأخرج البزار بسند ضعيف عن أنس نحوه وسمى الجارية معاذة.

[٦٥١] وأخرج سعيد بن منصور عن عمرو بن دينار عن عكرمة أن عبدالله بن أُبي كانت له أمتان مسيكة ومعاذة فكان يكرههما على الزنا فقالت إحداهما إن كان خيراً فقد استكثرت منه وإن كان غير ذلك فإنه ينبغي أن أدعه فأنزل الله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟﴾ [النور: ٤٨] الآية.

[٦٥٢] أخرج ابن أبي حاتم من مرسل الحسن قال كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى إلى النبي [ﷺ] وهو محق أذعن وعلم أن النبي [ﷺ] سيقضى له بالحق وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي [ﷺ] أعرض فقال: «انطلق إلى فلان» فأنزل الله: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٤) الآية.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النور: ٥٥] الآية.

[٦٥٣] أخرج الحاكم وصححه الطبراني(٥) عن أُبي بن كعب قال لما قدم رسول الله [ﷺ] وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصحبون إلا فيه فقالوا ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾(٦) الآية.

---

[٦٤٩] (١) سورة النور: الآية (٣٤).
[٦٥٠] (٢) سورة النور: الآية (٣٤).
[٦٥١] (٣) سورة النور: الآية (٣٤).
[٦٥٢] (٤) سورة النور: الآية (٤٨).
[٦٥٣] (٥) رواه الحاكم في صحيحه عن محمد بن صالح بن هانىء عن أبي سعيد بن شاذان عن الدارمي ورواه الواحدي في أسباب النزول عن الحسين بن واقد عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبي بن كعب ص (١٨٩).
(٦) سورة النور: الآية (٥٥)، (١و٥).

[٦٥٤] وأخرج ابن أبي حاتم عن البراء قال: فينا نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [النور: ٦١] الآية.

[٦٥٥] قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال كان الرجل يذهب بالأعمى والأعرج والمريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته فكانت الزمني يتحرجون من ذلك يقولون إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم فنزلت هذه الآية رخصة لهم: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾(١) الآية.

[٦٥٦] وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال لما أنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾(٢) تحرج المسلمون وقالوا الطعام من أفضل الأموال فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك فنزل: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلى قوله ﴿مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾(٣).

[٦٥٧] وأخرج عن الضحاك قال: كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي [ﷺ] لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج لأن الأعمى لا يبصر طيب الطعام والمريض لا يستوفى الطعام كما يستوفى الصحيح والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام فنزلت رخصة في مؤاكلتهم.

[٦٥٨] وأخرج عن مقسم قال: كانوا يتقون أن يأكلوا مع الأعمى والأعرج فنزلت.

[٦٥٩] وأخرج الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس قال: خرج الحارث غازياً مع رسول الله [ﷺ] فخلف على أهله خالد بن زيد فحرج أن يأكل من طعامه وكان مجهوداً فنزلت.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [النور: ٦١] الآية.

[٦٦٠] أخرج البزار بسند صحيح عن عائشة قالت: كان المسلمون يرغبون في النفر مع رسول الله [ﷺ] فيدفعون مفاتحهم إلى زمناهم ويقولون لهم قد

---

[٦٥٥] (١) سورة النور: الآية (٦١).
[٦٥٦] (٢) سورة النساء: الآية (٢٩).
(٣) سورة النور: الآية (٦١).

أحللنا لكم أن تأكلوا مما أحببتم وكانوا يقولون أنه لا يحل لنا أنهم أذنوا عن غير طيب نفس فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾[1] الآية.

[٦٦١] وأخرج ابن جرير عن الزهري أنه سئل عن قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾[2] الآية ما بال الأعمى والأعرج والمريض ذكروا هنا فقال أخبرني عبدالله بن عبدالله قال أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يدفعون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا وكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وهم غيب فأنزلت هذه الآية رخصة لهم.

[٦٦٢] وأخرج عن قتادة قال: نزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[3] في حي من العرب كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده وكان يحمله بعض يوم حتى يجد من يأكله معه.

[٦٦٣] وأخرج عن عكرمة وأبي صالح قالا: كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم فنزلت رخصة لهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٦٢] الآية.

[٦٦٤] أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما قالوا لما أقبلت قريش عام الأحزاب نزلوا بمجمع الأسيال من رومة يثرب بالمدينة قائدها أبو سفيان وأقبلت غطفان حتى نزلوا بنعمى إلى جانب أحد وجاء رسول الله [ﷺ] الخبر فضرب الخندق على المدينة وعمل فيه وعمل المسلمون فيه وأبطأ رجال من المنافقين وجعلوا يأتون بالضعيف من العمل فيتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله [ﷺ] ولا إذن وجعل الرجل من المسلمن إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله [ﷺ] ويستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له وإذا قضى حاجته رجع فأنزل الله في أولئك المؤمنون: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

---

[٦٦٠] (١) سورة النور: الآية (٦١).
[٦٦١] (٢) سورة النور: الآية (٦١).
[٦٦٢] (٣) سورة النور: الآية (٦١).
[٦٦٤] (٤) سورة النور: الآية (٦٢- ٦٤).

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا﴾ [النور: ٦٣] الآية.

[٦٦٥] أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق الضحاك عن ابن عباس قال كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فأنزل الله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[1] فقالوا يا نبي الله يا رسول الله.

* * *

---

[٦٦٥] (١) سورة النور: الآية (٦٣).

سورة النور

مدنية كلها وهي اثنتان وقيل اربع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾

قرأ العامة (سُورَةٌ) بالرفع، وقرأ طلحة بن مصرف بالنصب، أما الذين قرأوا بالرفع فالجمهور قالوا: الابتداء بالنكرة لا يجوز، والتقدير هذه سورة أنزلناها، أو نقول: سورة أنزلناها مبتدأ موصوف، والخبر محذوف أي: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها، وقال الأخفش: لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلنا خبره، ومن نصب فعلى معنى الفعل، يعني اتبعوا سورة أو أتل سورة أو أنزلنا سورة، وأما معنى السورة ومعنى الإنزال فقد تقدم، فإن قيل: الإنزال إنما يكون من صعود إلى نزول، فهذا يدل على أنه تعالى في جهة، قلنا: الجواب من وجوه: أحدها: أن جبريل عليه السلام كان يحفظها من اللوح المحفوظ ثم ينزلها عليه ﷺ، فلهذا جاز أن يقال: أنزلناها توسعًا. وثانيها: أن الله تعالى أنزلها من أم الكتاب في السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزلها بعد ذلك نجومًا على لسان جبريل عليه السلام. وثالثها: معنى ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ أي: أعطيناها الرسول، كما يقول العبد إذا كلم سيده: رفعتُ إليه حاجتي، كذلك يكون من السيد إلى العبد الإنزال قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

أما قوله: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتشديد.

أما قراءة التخفيف فالفرض هو القطع والتقدير قال الله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي: قدرتم ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [القصص: ٨٥] أي: قدر، ثم إن السورة لا يمكن فرضها؛ لأنها قد دخلت في الوجود وتحصيل الحاصل محال، فوجب أن يكون المراد وفرضنا ما بُيِّن فيها، وإنما قال ذلك؛ لأن أكثر ما في هذه السورة من باب الأحكام والحدود فلذلك عقبها بهذا الكلام. وأما قراءة التشديد فقال الفراء: التشديد للمبالغة والتكثير، أما المبالغة فمن حيث إنها حدود وأحكام فلا بد من المبالغة في إيجابها ليحصل الانقياد لقبولها، وأما التكثير فلوجهين: أحدهما: أن الله تعالى بيَّن فيها أحكامًا مختلفة. والثاني: أنه سبحانه وتعالى أوجبها على كل المكلفين إلى آخر الدهر، أما قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ففيه وجوه: أحدها: أنه سبحانه ذكر في أول السورة أنواعًا من الأحكام والحدود وفي آخرها دلائل التوحيد فقوله: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ إشارة إلى الأحكام التي بينها أولاً ثم قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ إشارة إلى ما بُيِّن

من دلائل التوحيد، والذي يؤكد هذا التأويل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فإن الأحكام والشرائع ما كانت معلومة لهم ليؤمروا بتذكيرها. أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها فأمروا بتذكيرها. وثانيها: قال أبو مسلم يجوز أن تكون الآيات البينات ما ذكر فيها من الحدود والشرائع كقوله: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[مريم: ١٠] سأل ربه أن يفرض عليه عملاً. وثالثها: قال القاضي: إن السورة كما اشتملت على عمل الواجبات فقد اشتملت على كثير من المباحثات بأن بينها الله تعالى، ولما كان بيانه سبحانه لها مفصلاً وصف الآيات بأنها بينات.

أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فقرئ بتشديد الذال وتخفيفها، ومعنى لعل قد تقدم في سورة البقرة، قال القاضي: لعل بمعنى كي، وهذا يدل على أنه سبحانه أراد من جميعهم أن يتذكروا. والجواب: أنه سبحانه لو أراد ذلك من الكل لما قوى دواعيهم إلى جانب المعصية، ولو لم توجد تلك التقوية لزم وقوع الفعل لا لمرجح، ولو جاز ذلك لما جاز الاستدلال بالإمكان والحدوث على وجود المرجح ويلزم نفي الصانع، وإذا كان كذلك وجب حمل لعل على سائر الوجوه المذكورة في سورة البقرة واعلم أنه سبحانه ذكر في هذه السورة أحكامًا كثيرة:

قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه على معنى: فيما فرض الله عليكم الزانية والزاني أي: فاجلدوهما، ويجوز أن يكون الخبر فاجلدوا وإنما دخلت الفاء لكون الألف واللام بمعنى الذي وتضمنه معنى الشرط تقديره التي زنت والذي زنى فاجلدوهما كما تقول من زنا فاجلدوه، وقرىء بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر، وقرئ (والزان) بلا ياء، واعلم أن الكلام في هذه الآية على نوعين: أحدهما: ما يتعلق بالشرعيات. والثاني: ما يتعلق بالعقليات ونحن نأتي على البابين بقدر الطاقة إن شاء الله تعالى.

النوع الأول: الشرعيات، واعلم أن الزنا حرام وهو من الكبائر ويدل عليه أمور: أحدها: أن الله تعالى قرنه بالشرك وقتل النفس في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[الفرقان: ٦٨] وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٣٢]، وثانيها: أنه تعالى أوجب المائة فيها بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر، وشرع فيه الرجم، ونهى المؤمنين عن الرأفة وأمر بشهود الطائفة للتشهير وأوجب كون تلك الطائفة من المؤمنين؛ لأن الفاسق من صلحاء قومه أخجل. وثالثها: ما روى حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «يَا مَعْشَرَ النَّاسِ اتَّقُوا الزِّنَا فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلَاثٌ فِي الْآخِرَةِ، أَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا فَيُذْهِبُ الْبَهَاءَ وَيُورِثُ الْفَقْرَ وَيُنْقِصُ

العمر، وَأَمَّا الَّتِي فِي الْآخِرَةِ فَسُخْطُ اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسُوءُ الْحِسَابِ وَعَذَابُ النَّارِ»(١) وعن عبد الله قال: قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للَّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: وَأَنْ تزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ»(٢) فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] واعلم أنه يجب البحث في هذه الآية عن أمور: أحدها: عن ماهية الزنا. وثانيها: عن أحكام الزنا. وثالثها: عن الشرائط المعتبرة في كون الزنا موجبًا لتلك الأحكام. ورابعها: عن الطريق الذي به يعرف حصول الزنا. وخامسها: أن المخاطبين بقوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ [النور: ٤] من هم؟ وسادسها: أن الرجم والجلد المأمور بهما في الزنا كيف يكون حالهما؟

البحث الأول: عن ماهية الزنا قال بعض أصحابنا: إنه عبارة عن إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعًا محرم قطعًا **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اختلفوا في أن اللواطة هل ينطلق عليها اسم الزنا أم لا؟ فقال قائلون: نعم. واحتج عليه بالنص والمعنى، أما النص فما روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ»(٣) وأما المعنى فهو أن اللواط مثل الزنا صورة ومعنى. أما الصورة فلأن الزنا عبارة عن إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعًا محرم قطعًا، والدبر أيضًا فرج؛ لأن القبل إنما سمى فرجًا لما فيه من الانفراج، وهذا المعنى حاصل في الدبر. أكثر ما في الباب أن في العرف لا تسمى اللواطة زنا ولكن هذا لا يقدح في أصل اللغة،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٤/ ١١١) وقال: غريب من حديث الأعمش تفرد به مسلمة وهو ضعيف الحديث. والبيهقي في (شعب الإيمان) (٤/ ٣٧٩، رقم ٥٤٧٥) وقال: هذا إسناد ضعيف مسلمة بن علي الخشني متروك وأبو عبد الرحمن الكوفي مجهول. والرافعي (٢/ ٤٤) وأورده العجلوني في كشف الخفا والألباس (١/ ١٤٤)، قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديثه: رواه البيهقي في (الشعب) وابن مردويه وابن أبي حاتم وأبي نعيم في الحلية عن حذيفة بلفظ يا معشر الناس وفي آخره ثم تلا: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة:٨٠]، انتهى، ثم قال في إسناده ضعيف أو متروك ومجهول.

(٢) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير)، باب: (قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]) (٨/ ١٣)، حديث رقم (٤٤٧٧)، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده) (١/ ٩٠/ ٨٦)، كلاهما من طريق عمرو بن شرحبيل عن عبد الله... به.

(٣) **إسناده ضعيف**: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (٤/ ٣٧٥) حديث رقم (٥٤٥٨) من طريق محمد بن عبد الرحمن عن خالد الحذاء عن ابن سيرين عن أبي موسى... به، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن القرشي، ذكره الذهبي في (ميزان الاعتدال) (٦/ ٢٣٤)، وذكر الحديث من طريق ثم قال: قال الأزدي: لا يصح حديثه، وأورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٤/ ٥٥)، حديث رقم (١٧٥٢)، وقال: أخرجه البيهقي من حديث أبي موسى وفيه محمد بن عبد الرحمن القشيري كذبه أبو حاتم ورواه أبو الفتح الأزدي في الضعفاء والطبراني في (الكبير) من وجه آخر عن أبي موسى وفيه بشر بن الفضل البجلي وهو مجهول وقد أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده عنه.

كما يقال: هذا طبيب وليس بعالم مع أن الطب علم، وأما المعنى فلأن الزنا قضاء للشهوة من محل مشتهى طبعًا على جهة الحرام المحض، وهذا موجود في اللواط؛ لأن القبل والدبر يشتهيان لأنهما يشتركان في المعاني التي هي متعلق الشهوة من الحرارة واللين وضيق المدخل، ولذلك فإن من يقول بالطبائع لا يفرق بين المحلين، وإنما المفرق هو الشرع في التحريم والتحليل، فهذا حجة من قال اللواط داخل تحت اسم الزنا، وأما الأكثرون من أصحابنا فقد سلموا أن اللواط غير داخل تحت اسم الزنا واحتجوا عليه بوجوه:

أحدها: العرف المشهور من أن هذا لواط وليس بزنا وبالعكس والأصل عدم التغيير. وثانيها: لو حلف لا يزني فلاط لا يحنث. وثالثها: أن الصحابة اختلفوا في حكم اللواط وكانوا عالمين باللغة فلو سمي اللواط زنًا لأغناهم نص الكتاب في حد الزنا عن الاختلاف والاجتهاد، وأما الحديث فهو محمول على الإثم بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «**إِذَا أَتَتِ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فَهُمَا زَانِيَتَانِ**»(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «**الْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ**»(٢) وأما القياس فبعيد؛ لأن الفرج وإن كان سمي فرجًا لما فيه من الانفراج فلا يجب أن يسمى كل ما فيه انفراج بالفرج وإلا لكان الفم والعين فرجًا، وأيضًا فهم سموا النجم نجمًا لظهوره، ثم ما سموا كل ظاهر نجمًا. وسموا الجنين جنينًا لاستتاره، وما سموا كل مستتر جنينًا، واعلم أن للشافعي رحمه الله في فعل اللواط قولان أصحهما عليه حد الزنا إن كان محصنًا يرجم، وإن لم يكن محصنًا يجلد مائة ويغرب عامًا. وثانيهما: يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنًا أو لم يكن محصنًا، لما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ**»(٣) ثم في كيفية قتله أوجه:

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ٢٣٢)، وفي (شعب الإيمان) (٤/ ٣٧٥)، حديث رقم (٥٤٥٨)، كلاهما من طريق محمد بن عبد الرحمن عن خالد الحذاء عن ابن سيرين عن أبي موسى . . . به، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن وتقدم في الحديث السابق.

(٢) **حسن**: أخرجه أبو داود في كتاب (النكاح)، باب: (ما يؤمر به من غض البصر) (٢/ ٩٢٢)، حديث رقم (٢١٥٣)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٤٣)، حديث رقم (٨٥٠٧) من طريق حماد بن سلمة . . . به، والحديث أصله في الصحيحين، أخرجه البخاري في (الاستئذان)، باب: (زنا الجوارح دون زنا الفرج) (١١/ ٢٨)، حديث رقم (٦٢٤٣)، ومسلم في (القدر)، باب: (قدّر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره) (٤/ ٢٠/ ٢٠٤٦) من طريق ابن طاوس . . . به.

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (فيمن عَمِل عَمَل قوم لوط) (٤/ ١٩٠٨/ ١٩٠٩)، حديث رقم (٤٤٦٢)، والترمذي في كتاب (الحدود)، باب: (ما جاء في حد اللوطي) (٤/ ٤٧)، حديث رقم (١٤٥٦).

قال أبو عيسى: وإنما يعرف هذا الحديث عن ابن عباس عن النبي ﷺ من هذا الوجه وقال أيضًا: هذا حديث في إسناده مقال ولا نعرف أحدًا رواه عن سهيل بن أبي صالح غير عاصم بن عمر العمري وعاصم بن عمر في الحديث من قبل حفظه، كما أخرجه ابن ماجه في كتاب (الحدود)، باب: (من عمل عمل قوم لوط) (٢/ ٨٥٦)، حديث=

أحدها: تحز رقبته كالمرتد. **وثانيها:** يرجم بالحجارة وهو قول مالك وأحمد وإسحق. **وثالثها:** يهدم عليه جدار، يروى ذلك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه. **ورابعها:** يرمى من شاهق جبل حتى يموت، يروى ذلك عن علي عليه السلام وإنما ذكروا هذه الوجوه؛ لأن الله تعالى عذب قوم لوط بكل ذلك فقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يحد اللوطي بل يعذر، أما المفعول به فإن كان عاقلاً بالغًا طائعًا فإن قلنا: على الفاعل القتل فيقتل المفعول به على صفة قتل الفاعل للخبر، وإن قلنا: على الفاعل حد الزنا فعلى المفعول به مائة جلدة وتغريب عام محصنًا كان أو غير محصن، وقيل: إن كانت امرأة محصنة فعليها الرجم، وليس بصحيح؛ لأنها لا تصير محصنة بالتمكين في الدبز فلا يلزمها حد المحصنات كما لو كان المفعول به، ذكر حجة الشافعي رحمه الله على وجوب الحد من وجوه:

الأول: أن اللواط، إما أن يساوي الزنا في الماهية أو يساويه في لوازم هذه الماهية وإذا كان كذلك وجب الحد، بيان الأول: قوله عليه الصلاة والسلام: «**إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ**»(١) فاللفظ دل على كون اللائط زانيًا، واللفظ الدال بالمطابقة على ماهيةٍ، دال بالالتزام على حصول جميع لوازمها، ودلالة المطابقة والالتزام مشتركان في أصل الدلالة، فاللفظ الدال على حصول الزنا، دال على حصول جميع اللوازم، ثم بعد هذا إن تحقق مسمى الزنا في اللواط دخل تحت قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ وإن لم يتحقق مسمى الزنا وجب أن يتحقق لوازم مسمى الزنا لما ثبت أن اللفظ الدال على تحقق ماهية دال على تحقق جميع تلك اللوازم ترك العمل به في حق الماهية فوجب أن يبقى معمولاً به في الدلالة على جميع تلك اللوازم، لكن من لوازم الزنا وجوب الحد فوجب أن يتحقق ذلك في اللواط. أكثر ما في الباب أنه ترك العمل بذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «**إِذَا أَتَتِ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ فَهُمَا زَانِيَتَانِ**»(٢) لكن لا يلزم من ترك العمل هناك تركه هاهنا.

الثاني: أن اللائط يجب قتله فوجب أن يقتل رجمًا بيان الأول: قوله عليه السلام: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ مِنْهُمَا وَالْمَفْعُولَ بِهِ**» وبيان الثاني: أنه لما وجب قتله وجب أن يكون زانيًا وإلاَّ لما جاز قتله لقوله عليه السلام: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ لإِحْدَى ثَلاَثٍ**»(٣) وهاهنا لم

=رقم (٢٥٦١)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٠٠)، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٣٥٥).

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وهو كما قالا، جميعًا من طريق عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس... به.

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الديات)، باب: (الإمام يأمر بالعفو في الدم) (٤/ ١٦٩)، حديث رقم (٤٥٠٢) مطولاً من طريق سليمان بن حرب... به، والترمذي في كتاب (الفتن)، باب: (ما جاء لا يحل دم=

يوجد كفر بعد إيمان ولا قتل نفس بغير حق فلو لم يوجد الزنا بعد الإحصان لوجب أن لا يقتل، وإذا ثبت أنه وجد الزنا بعد الإحصان وجب الرجم لهذا الحديث.

الثالث: نقيس اللواط على الزنا، والجامع أن الطبع داع إليه لما فيه من الالتذاذ وهو قبيح فيناسب الزجر، والحد يصلح زاجرًا عنه. قالوا: والفرق من وجهين: أحدهما: أنه وجد في الزنا داعيات، فكان وقوعه أكثر فسادًا فكانت الحاجة إلى الزاجر أتم. الثاني: أن الزنا يقتضي فساد الأنساب. والجواب: إلغاؤهما بوطء العجوز الشوهاء واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه: أحدها: اللواط ليس بزنا على ما تقدم فوجب أن لا يقتل لقوله عليه الصلاة والسلام: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ لإِحْدَى ثَلاَثٍ»[(١)] وثانيها: أن اللواط لا يساوي الزنا في الحاجة إلى شرع الزاجر، ولا في الجناية؛ فلا يساويه في الحد. بيان عدم المساواة في الحاجة أن اللواطة وإن كانت يرغب فيها الفاعل لكن لا يرغب فيها المفعول طبعًا بخلاف الزنا، فإن الداعي حاصل من الجانبين، وأما عدم المساواة في الجناية فلأن في الزنا إضاعة النسب ولا كذلك اللواط، إذا ثبت هذا فوجب أن لا يساويه في العقوبة؛ لأن الدليل ينفي شرع الحد لكونه ضررًا ترك العمل به في الزنا، فوجب أن يبقى في اللواط على الأصل. وثالثها: أن الحد كالبدل عن المهر فلما لم يتعلق باللواط المهر فكذا الحد. والجواب: عن الأول أن اللواط وإن لم يكن مساويًا للزنا في ماهيته لكنه يساويه في الأحكام. وعن الثاني: أن اللواط وإن كان لا يرغب فيه المفعول لكن ذلك بسبب اشتداد رغبة الفاعل؛ لأن الإنسان حريص على ما منع. وعن الثالث: أنه لا بد من الجامع، والله أعلم.

المسألة الثانية: أجمعت الأمة على حرمة إتيان البهائم. وللشافعي رحمه الله في عقوبته أقوال: أحدها: يجب به حد الزنا فيرجم المحصن ويجلد غير المحصن ويغرب. والثاني: أنه يقتل محصنًا كان أو غير محصن؛ لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتَى بَهِيمَةً فَاقْتُلُوهُ وَاقْتُلُوهَا مَعَهُ»[(٢)] فقيل لابن عباس: ما شأن البهيمة؟

=امرئ مسلم) (٤/ ٤٠٠)، حديث رقم (٢١٥٨) من طريق أحمد بن العتبي... به، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، والنسائي في كتاب (تحريم الدم)، باب: (ذكر ما يحل به دم المسلم) (٧/ ١٠٦)، حديث رقم (٤٠٣١) من طريق محمد بن عيسى... به، وابن ماجه في كتاب (الحدود)، باب: (لا يحل دم امرئ مسلم) (٢/ ٨٤٧)، حديث رقم (٢٥٣٣) من طريق أحمد بن عبيدة... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٦١/ ٦٢) من طريق سليمان بن حرب وعفان... به، والدارمي في كتاب (الحدود)، باب: (ما يحل به دم المسلم) (٢/ ١٩)، حديث رقم (٢٢٩٧)، جميعًا عن حماد بن زيد... به.

(١) انظر سابقه.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (فيمن أتى بهيمة) (٤/ ١٩٠٩)، حديث رقم (٤٤٦٤)، والترمذي في كتاب (الحدود)، باب: (ما جاء فيمن يقع على البهيمة) (٤/ ٤٦)، حديث رقم (١٤٥٥).

وقال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس عن=

فقال: ما أراه قال ذلك إلا أنه كره أن يؤكل لحمها، وقد عمل بها ذلك العمل. والقول الثالث: وهو الأصح وهو قول أبي حنيفة، ومالك، والثوري، وأحمد رحمهم الله: أن عليه التعزير؛ لأن الحد شرح للزجر عما تميل النفس إليه، وهذا الفعل لا تميل النفس إليه، وضعَّفوا حديث ابن عباس رضي الله عنهما لضعف إسناده وإن ثبت فهو معارض بما روي أنه عليه السلام نَهَى عَنْ ذَبْحِ الْحَيَوَانِ إِلاَّ لِأَكْلِهِ (١).

المسألة الثالثة: السحق من النسوان وإتيان الميتة والاستمناء باليد لا يشرع فيها إلا التعزير.

البحث الثاني: عن أحكام الزنا. واعلم أنه كان في أول الإسلام عقوبة الزاني الحبس إلى الممات في حق الثيب، والأذى بالكلام في حق البكر. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ۝١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ [النساء: ١٥، ١٦] ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنا على الثيب الرجم، وحد البكر الجلد والتغريب، ولنذكر هاتين المسألتين:

المسألة الأولى: الخوارج أنكروا الرجم واحتجوا فيه بوجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥] فلو وجب الرجم على المحصن لوجب نصف الرجم على الرقيق لكن الرجم لا نصف لها. وثانيها: أن الله سبحانه ذكر في القرآن أنواع المعاصي من الكفر والقتل والسرقة، ولم يستقص في أحكامها كما استقصى في بيان أحكام الزنا، ألا ترى أنه تعالى نهى عن الزنا بقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ [الإسراء: ٣٢] ثم توعد عليه ثانيًا بالنار كما في كل المعاصي، ثم ذكر الجلد ثالثًا، ثم خص الجلد بوجوب إحضار المؤمنين رابعًا، ثم خصه بالنهي عن الرأفة عليه بقوله: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ خامسًا، ثم أوجب على من رمى مسلمًا بالزنا ثمانين جلدة، سادسًا، ولم يجعل ذلك على من رماه بالقتل والكفر وهما أعظم منه، ثم قال سابعًا: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ [النور: ٤] ثم ذكر ثامنًا من رمى زوجته بما يوجب التلاعن واستحقاق غضب الله تعالى ثم ذكر تاسعًا أن ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ﴾ [النور: ٣]، ثم ذكر عاشرًا أن ثبوت الزنا مخصوص بالشهود الأربعة فمع المبالغة في استقصاء أحكام الزنا قليلاً وكثيرًا لا يجوز إهمال ما هو أجل أحكامها وأعظم آثارها، ومعلوم أن الرجم لو كان مشروعًا لكان أعظم الآثار فحيث لم يذكره الله تعالى في كتابه دل على أنه غير واجب. وثالثها: قوله

=النبي ﷺ، وابن ماجه في كتاب (الحدود)، باب: (من أتى ذات محرم ومن أتى بهيمة) (٢/ ٨٥٦)، حديث رقم (٢٥٦٤)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٠٠)، جميعًا من طريق عكرمة... به.

(١) أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٣/ ٥٥)، حديث رقم (١٢٧٢).

وقال: أبو داود في (المراسيل) عن القاسم بن عبد الرحمن الشامي في حديث قال فيه: ولا تقتل غنمة ليست لك بها حاجة وفي (الموطأ) عن أبي بكر في قوله كلفظ الأصل.

تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ يقتضي وجوب الجلد على كل الزناة، وإيجاب الرجم على البعض بخبر الواحد يقتضي تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد، وهو غير جائز؛ لأن الكتاب قاطع في متنه، وخبر الواحد غير قاطع في متنه، والمقطوع راجح على المظنون، واحتج الجمهور من المجتهدين على وجوب رجم المحصن لما ثبت بالتواتر أنه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك، قال أبو بكر الرازي: روى الرجم أبو بكر، وعمر، وعلي، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وبريدة الأسلمي، وزيد بن خالد، في آخرين من الصحابة وبعض هؤلاء الرواة روى خبر رجم ماعز وبعضهم خبر اللخمية والغامدية وقال عمر رضي الله عنه: لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لأثبته في المصحف.

والجواب: عما احتجوا به أولاً أنه مخصوص بالجلد. فإن قيل: فيلزم تخصيص القرآن بخبر الواحد قلنا: بل بالخبر المتواتر لما بينا أن الرجم منقول بالتواتر، وأيضًا فقد بينا في أصول الفقه أن تخصيص القرآن بخبر الواحد جائز. والجواب: عن الثاني أنه لا يستبعد تجدد الأحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح فلعل المصلحة التي تقضي وجوب الرجم حدثت بعد نزول تلك الآيات. والجواب: عن الثالث أنه نقل عن علي عليه السلام أنه كان يجمع بين الجلد والرجم وهو اختيار أحمد، وإسحق، وداود، واحتجوا عليه بوجوه: أحدها: أن عموم هذه الآية يقتضي وجوب الجلد والخبر المتواتر يقتضي وجوب الرجم ولا منافاة فوجب الجمع. وثانيها: قوله عليه السلام: «**الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَرَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ**» وثالثها: روى أبو بكر الرازي في أحكام القرآن عن ابن جريج عن ابن الزبير عن جابر أَنَّ رَجُلاً زَنَى بِامْرَأَةٍ فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ فَجُلِدَ ثُمَّ أُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ مُحْصَنًا فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ[1] ورابعها: رُوِيَ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ جَلَدَ شَرَاحَةَ الْهَمْدَانِيَّةَ ثُمَّ رَجَمَهَا وَقَالَ جَلَدْتُهَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَرَجَمْتُهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[2].

واعلم أن أكثر المجتهدين متفقون على أن المحصن يرجم ولا يجلد، واحتجوا عليه بأمور:

---

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (رجم ماعز بن مالك) (٤/ ١٨٩٨)، حديث رقم (٤٤٣٨)، والنسائي في (سننه الكبرى) (٤/ ٢٩٣)، حديث رقم (٧٢١١)، والبيهقي في (السنن الكبرى) (٨/ ٢١٧) من طريق عبد الله بن وهب... به.

(٢) **إسناده صحيح:** أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ١٠٧)، حديث رقم (٨٢٩) من طريق سعيد عن سلمة بن كهيل... به، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ٤٠٥)، حديث رقم (٨٠٨٧) من طريق جعفر بن عون حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت الشعبي... به، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، والمروزي في (السنة) (١/ ٩٨)، حديث رقم (٣٥٦) من طريق محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سلمة بن كهيل عن الشعبي أن عليا... به، والنسائي في (سننه الكبرى) (٤/ ٢٦٩)، حديث رقم (٧١٤٠) من طريق بهز قال: حدثنا شعبة عن سلمة بن كهيل عن الشعبي أن عليا... فذكره والبيهقي في (معرفة السنن والآثار) (١٣/ ٤٣٣)، حديث رقم (٥٢٩٣) من طريق شعبة عن سلمة... به.

أحدها: قصة العسيف فإنه عليه السلام قال: «**يَا أُنَيسُ اغْدُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا**»(١) ولم يذكر الجلد ولو وجب الجلد مع الرجم لذكره. **وثانيها:** أن قصة ماعز رويت من جهات مختلفة ولم يذكر في شيء منها مع الرجم جلد، ولو كان الجلد معتبرًا مع الرجم لجلده النبي عليه السلام ولو جلده لنقل كما نقل الرجم إذ ليس أحدهما بالنقل أولى من الآخر، وكذا في قصة الغامدية حين أقرت بالزنا فرجمها رسول الله ﷺ بعد أن وضعت ولو جلدها لنقل ذلك(٢). **وثالثها:** ما روى الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: قال عمر رضي الله عنه: قد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى، وقد قرأنا: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها ألبتة، رجم رسول الله ﷺ فرجمنا بعده، فأخبر أن الذي فرضه الله تعالى هو الرجم ولو كان الجلد واجبًا مع الرجم لذكره، أما الجواب: عن التمسك بالآية فهو أنها مخصوصة في حق المحصن وتخصيص عموم القرآن بالخبر المتواتر غير ممتنع، وأما قوله عليه السلام: «**الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَرَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ**»(٣) فلعل ذلك كان قبل قوله: «**يَا أُنَيسُ اغْدُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا**» وأما أنه عليه السلام جلد امرأة ثم رجمها، فلعله عليه السلام ما علم إحصانها فجلدها، ثم لما علم إحصانها رجمها، وهو الجواب عن فعل علي عليه السلام، فهذا ما يمكن من التكلف في هذه الأجوبة، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال الشافعي رحمه الله: يجمع بين الجلد والتغريب في حد البكر، وقال أبو حنيفة رحمه الله يجلد، وأما التغريب فمفوض إلى رأي الإمام، وقال مالك: يجلد الرجل ويغرب

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة)، باب: (الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ) (١٣/ ٢٦٣)، حديث رقم (٧٢٧٨/ ٧٢٧٩) من طريق مسدد... به، والترمذي في كتاب (الحدود)، باب: (ما جاء في الرجم) (٤/ ٣٠)، حديث رقم (١٤٣٣) من طريق نصر بن علي وغير واحد، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب (آداب القضاء)، باب: (صون النساء عن مجلس الحكم) (٨/ ٦٣٣)، حديث رقم (٥٤٢٦) من طريق قتيبة... به، وابن ماجه في كتاب (الحدود)، باب: (حد الزنا) (٢/ ٨٥٢)، حديث رقم (٢٥٤٩) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة وهشام بن عمار... به، والدارمي في كتاب (الحدود)، باب: (الاعتراف بالزنا) (٢/ ٢٦/ ٢٧)، حديث رقم (٢٣١٧)، جميعا عن ابن عيينة... به، وأخرجه مسلم في (صحيحه) (٣/ ١٣٢٤/ ١٦٩٧) من طريق ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني... فذكره.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (المحاربين)، باب: (الاعتراف بالزنا) (٦/ ٢٥٠٣)، حديث رقم (٦٤٤١)، والترمذي في (سننه) (٤/ ٣٨)، حديث رقم (١٤٣٢)، كلاهما من طريق الزهري... به.

(٣) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الحدود)، باب: (حد الزنى) (٣/ ١٢/ ١٣١٦)، وأبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (في الرجم) (٤/ ١٨٨٨)، حديث رقم (٤٤١٥)، والترمذي في كتاب (الحدود)، باب: (ما جاء في الرجم على الثيب) (٤/ ٣٢)، حديث رقم (١٤٣٤)، وابن ماجه في كتاب (الحدود)، باب: (حد الزنى) (٢/ ٨٥٢)، حديث رقم (٢٥٥٠)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٤٧٦)، والدارمي في كتاب (الحدود)، باب: (قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥]) (٢/ ٢٣٦)، حديث رقم (٢٣٢٧)، جميعا من طريق قتادة عن الحسن... به.

وتجلد المرأة ولا تغرب، حجة الشافعي رحمه الله حديث عبادة أنه عليه السلام قال: «خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللَّه لَهُنَّ سَبِيلاً الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَرَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ» (١) ويدل أيضًا عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه وزيد بن خالد: أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا وَزَنَى بِامْرَأَتِهِ فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِوَلِيدَةٍ وَمِائَةِ شَاةٍ، ثُمَّ أَخْبَرَنِي أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ عَلَى ابْنِي جَلْدَ مِائَةٍ وَتَغْرِيبَ عَامٍ وَأَنَّ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا الرَّجْمَ فَاقْضِ بَيْنَنَا، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّه أَمَّا الغنم والوليدة فَرَدٌّ عَلَيْكَ، وَأَمَّا ابْنُكَ فَإِنَّ عَلَيْهِ جَلْدَ مِائَةٍ وَتَغْرِيبَ عَامٍ، ثم قال لِرَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ: اغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا» (٢) واحتج أبو حنيفة رحمه الله على نفي التغريب بوجوه:

أحدها: أن إيجاب التغريب يقتضي نسخ الآية ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز وقرروا النسخ من ثلاثة أوجه: الأول: أنه سبحانه رتب الجلد على فعل الزنا بالفاء وحرف الفاء للجزاء إلا أن أئمة اللغة قالوا: اليمين بغير الله ذكر شرط وجزاء، وفسروا الشرط بالذي دخل عليه كلمة إن والجزاء بالذي دخل عليه حرف الفاء والجزاء اسم له يقع به الكفاية مأخوذ من قولهم: جازيناه أي: كافأناه، وقال عليه السلام: «تُجْزِيكَ وَلاَ تُجْزِي أَحَدًا بَعْدَكَ» (٣) أي: تكفيك، ومنه قول القائل: اجتزت الإبل بالعشب بالماء وإنما تقع الكفاية بالجلد إذا لم يجب معه شيء آخر فإيجاب شيء آخر يقتضي نسخ كونه كافيًا. الثاني: أن المذكور في الآية لما كان هو الجلد فقط كان ذلك كمال الحد فلو جعلنا النفي معتبرًا مع الجلد لكان الجلد بعض الحد لا كل الحد فيفضي إلى نسخ كونه كل الحد. الثالث: إن بتقدير كون الجلد كمال الحد فإنه يتعلق بذلك رد الشهادة ولو جعلناه بعض الحد لزال ذلك الحكم، فثبت أن إيجاب التغريب يقتضي نسخ الآية.

ثانيها: قال أبو بكر الرازي لو كان النفي مشروعًا مع الجلد لوجب على النبي ﷺ عند تلاوة الآية توقيف الصحابة عليه لئلا يعتقدوا عند سماع الآية أن الجلد هو كمال الحد ولو كان كذلك لكان اشتهاره مثل اشتهار الآية، فلما لم يكن خبر النفي بهذه المنزلة بل كان وروده من طريق الآحاد علم أنه غير معتبر. وثالثها: ما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في الأمة: «إِذَا زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا فَإِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا، فَإِنْ زَنَتْ فَاجْلِدُوهَا ثُمَّ بِيعُوهَا وَلَوْ بِطَفِيرٍ» (٤) وفي رواية أخرى:

---

(١) انظر سابقه.

(٢) تقدم تخريجه تقريبًا.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الأضاحي): باب: (قول النبي ﷺ: ضح بالجذع من المعز) (١٠/ ١٥)، حديث رقم (٥٥٥٦) من طريق مطرف... به، ومسلم في كتاب (الأضاحي): باب: (وقتها) (٣/ ٤/ ١٥٥٢) من طريق مطرف... به، ثلاثتهم (مطرف، منصور، زبيد) عن الشعبي... به.

(٤) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الصلح)، باب: (إذا اصطلحوا على صلح جور) (٣/ ٣٥٥)، حديث رقم (٢٦٩٥/ ٢٦٩٦) من طريق ابن أبي ذئب... به، ومسلم في كتاب (الحدود)، باب: (حد الزنا) (٣/ ٢٥/ ١٣٢٤) من طريق الليث... به، جميعًا عن الزهري... به.

«فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلاَ تَثْرِيبَ عَلَيْهِ»[(١)] ووجه الاستدلال به أنه لو كان النفي ثابتًا لذكره مع الجلد.

ورابعها: أنه إما أن يشرع التغريب في حق الأمة أو لا يشرع، ولا جائز أن يكون مشروعًا؛ لأنه يلزم منه الإضرار بالسيد من غير جناية صدرت منه وهو غير جائز، ولأنه قال ﷺ: «بِيعُوهَا وَلَوْ بِظَفِيرٍ» ولو وجب نفيها لما جاز بيعها؛ لأن المكنة من تسليمها إلى المشتري لا تبقى بالنفي ولا جائز أن لا يكون مشروعًا لقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

وخامسها: أن التغريب لو كان مشروعًا في حق الرجل لكان إما أن يكون مشروعًا في حق المرأة أو لا يكون، والثاني باطل؛ لأن التساوي في الجناية قد وجد في حقهما، وإن كان مشروعًا في حق المرأة فإما أن يكون مشروعًا في حقها وحدها أو مع ذي محرم والأول غير جائز للنص والمعقول، أما النص فقوله عليه السلام: «لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ أَنْ تُسَافِرَ مِنْ غَيْرِ ذِي مَحْرَمٍ» وأما المعقول فهو أن الشهوة غالبة في النساء، والانزجار بالدين إنما يكون في الخواص من الناس، فإن الغالب لعدم الزنا من النساء بوجود الحفاظ من الرجال، وحيائهن من الأقارب. وبالتغريب تخرج المرأة من أيدي القرباء والحفاظ، ثم يقل حياؤها لبعدها عن معارفها فينفتح عليها باب الزنا، فربما كانت فقيرة فيشتد فقرها في السفر، فيصير مجموع ذلك سببًا لفتح باب هذه الفاحشة العظيمة عليها. ولا جائز أن يقال: إنا نغربها مع الزوج أو المحرم؛ لأن عقوبة غير الجاني لا تجوز لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وسادسها: ما روي عن عمر أنه غرب ربيعة بن أمية بن خلف في الخمر إلى خيبر فلحق بهرقل، فقال عمر: لا أغرب بعدها أحدًا ولم يستثن الزنا. وروي عن علي عليه السلام أنه قال في البكرين إذا زنيا: يجلدان ولا ينفيان وإن نفيهما من الفتنة[(٢)]، وعن ابن عمر أن أمة له زنت فجلدها ولم ينفها، ولو كان النفي معتبرًا في حد الزنا لما خفي ذلك على أكابر الصحابة.

وسابعها: ما روي أن شيخًا وُجِدَ عَلَى بَطْنِ جَارِيَةٍ يَحْنَثُ بِهَا فِي خَرِبَةٍ فَأُتِيَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ «اجْلِدُوهُ مِائَةً»، فَقِيلَ: إِنَّهُ ضَعِيفٌ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «خُذُوا عِثْكَالاً فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ فَاضْرِبُوهُ بِهَا وخلوا سَبِيلَهُ»[(٣)]. ولو كان النفي واجبًا لنفاه، فإن قيل: إنما لم ينفه؛ لأنه كان ضعيفًا عاجزًا عن الحركة، قلنا: كان ينبغي أن يكتري له دابة من بيت المال ينفى عليها. فإن قيل: كان عسى يضعف عن الركوب، قلنا: من قدر على الزنا كيف لا يقدر على الاستمساك!

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (البيوع)، بابا: (بيع المدبر) (٢/ ٧٧٧)، حديث رقم (٢١١٩)، ومسلم في (صحيحه) (٣/ ١٣٢٨/ ١٧٠٣)، كلاهما من طريق سعيد عن أبيه عن أبي زهرة... به.

(٢) لم أجده.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (في إقامة الحد على المريض) (٤/ ١٩١٣)، حديث رقم (٤٤٧٢)، وابن ماجه في كتاب (الحدود)، باب: (الكبير والمريض يجب عليه الحد) (٢/ ٨٥٩)، حديث رقم (٥٥٧٤)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢٢٢) من طريق أبي أمامة... به.

وثامنها: أن التغريب نظير القتل لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ [النساء: ٦٦] فنزلهما منزلة واحدة، فإذا لم يشرع القتل في زنا البكر وجب أن لا يشرع أيضًا نظيره وهو التغريب. والجواب: عن الأول أنه ليس في كلام الله تعالى إلا إدخال حرف الفاء على الأمر بالجلد، فأما أن الذي دخل عليه هذا الحرف فإنه يسمى جزاء، فليس هذا من كلام الله ولا من كلام رسوله، بل هو قول بعض الأدباء فلا يكون حجة.

أما قوله ثانيا: لو كان النفي مشروعًا لما كان الجلد كل الحد، فنقول لا نزاع في أنه زال أمره؛ لأن إثبات كل شيء لا أقل من أن يقتضي زوال عدمه الذي كان، إلا أن الزائل هاهنا ليس حكمًا شرعيًا، بل الزائل محض البراءة الأصلية، ومثل هذه الإزالة لا يمتنع إثباتها بخبر الواحد، وإنما قلنا: إن الزائل محض العدم الأصلي، وذلك لأن إيجاب الجلد مفهوم مشترك بين إيجاب التغريب وبين إيجابه مع نفي التغريب. والقدر المشترك بين القسمين لا إشعار له بواحد من القسمين. فإذن إيجاب الجلد لا إشعار فيه ألبتة لا بإيجاب التغريب ولا بعدم إيجابه، إلا أن نفي التغريب كان معلومًا بالعقل نظرًا إلى البراءة الأصلية، فإذا جاء خبر الواحد ودل على وجوب التغريب، فما أزال ألبتة شيئًا من مدلولات اللفظ الدال على وجوب الجلد بل أزال البراءة الأصلية، فأما كون الجلد وحده مجزيًا، وكونه وحده كمال الحد. وتعلق رد الشهادة عليه، فكل ذلك تابع لنفي وجوب الزيادة. فلما كان ذلك النفي معلومًا بالعقل جاز قبول خبر الواحد فيه، كما أن الفروض لو كانت خمسًا لتوقف على أدائها الخروج عن عهدة التكليف، وقبول الشهادة ولو زيد فيها شيء آخر لتوقف الخروج عن العهدة وقبول الشهادة على أداء تلك الزيادة، مع أنه يجوز إثباته بخبر الواحد والقياس فكذا هاهنا. أما لو قال الله تعالى: الجلد كمال الحد وعلمنا أنها وحدها متعلق رد الشهادة، فلا يقبل هاهنا في إثبات الزيادة خبر الواحد؛ لأن نفي وجوب الزيادة ثبت بدليل شرعي متواتر والجواب: عن الثاني أنه لو صح ما ذكره لوجب في كل ما خصص آية عامة أن يبلغ في الاشتهار مبلغ تلك الآية، ومعلوم أنه ليس كذلك. والجواب: عن الثالث أن قوله: «ثُمَّ بِيعُوهَا» لا يفيد التعقيب فلعلها تنفى ثم بعد النفي تباع. والجواب: عن الرابع أنه معارض بما روى الترمذي في جامعه أنه عليه السلام جلد وغرب، وأن أبا بكر جلد وغرب والجواب: عن الخامس أن للشافعي رحمه الله في تغريب العبد قولين:

أحدهما: لا يغرب؛ لأنه عليه السلام قال: «إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ»[1] ولم يأمر بالتغريب، ولأن التغريب للمعرة ولا معرة على العبد فيه، لأنه ينقل من يد إلى يد، ولأن منافعه للسيد، ففي نفيه إضرار بالسيد. والثاني: وهو الأصح أنه يغرب لقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] ولا ينظر إلى ضرر المولى كما يقتل العبد بسبب الردة

(١) تقدم.

ويجلد العبد في الزنا والقذف، وإن تضرر به المولى فعلى هذا كم يغرب؟ فيه قولان:

أحدهما: يغرب نصف سنة؛ لأنه يقبل التنصيف كما يجلد نصف حد الأحرار. والثاني: يغرب سنة؛ لأن التغريب المقصود منه الإيحاش وذلك معنى يرجع إلى الطبع فيستوي فيه الحر والعبد كمدة الإيلاء أو العنة. والجواب: عن السادس أن المرأة لا تغرب وحدها بل مع محرم، فإن لم يتبرع المحرم بالخروج معها أعطى أجرته من بيت المال، وإن لم يكن لها محرم تغرب مع النساء الثقات، كما يجب عليها الخروج إلى الحج معهن. قوله: التغريب يفتح عليها باب الزنا، قلنا: لا نسلم فإن أكثر الزنا بالإلف والمؤانسة وفراغ القلب، وأكثر هذه الأشياء تبطل بالغربة، فإن الإنسان يقع في الوحشة والتعب والنصب فلا يتفرغ للزنا. والجواب: عن السابع، أي استبعاد في أن يكون الإنسان الذي يعجز عن ركوب الدابة يقدر على الزنا؟ والجواب: عن الثامن أنه ينتقض بالتغريب إذا وقع على سبيل التعزير، والله أعلم.

المسألة الثالثة: اتفقت الأمة على أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ يفيد الحكم في كل الزناة، لكنهم اختلفوا في كيفية تلك الدلالة فقال قائلون: لفظ الزاني يفيد العموم، والمختار أنه ليس كذلك ويدل عليه أمور: **أحدها:** أن الرجل إذا قال: لبست الثوب أو شربت الماء لا يفيد العموم. **وثانيها:** أنه لا يجوز توكيده بما يؤكد به الجمع، فلا يقال: جاءني الرجل أجمعون. **وثالثها:** لا ينعت بنعوت الجمع فلا يقال: جاءني الرجل الفقراء، وتكلم الفقيه الفضلاء، فأما قولهم: أهلك الناس الدرهم البيض والدينار الصفر، فمجاز بدليل أنه لا يطرد، وأيضًا فإن كان الدينار الصفر حقيقة وجب أن يكون الدينار الأصفر مجازًا، كما أن الدنانير الصفر لما كانت حقيقة كان الدنانير الأصفر مجازًا. **ورابعها:** أن الزاني جزئي من هذا الزاني، فإيجاب جلد هذا الزاني إيجاب جلد الزاني، فلو كان إيجاب جلد الزاني إيجابًا لجلد كل زانٍ لزم أن يكون إيجاب جلد هذا الزاني إيجاب جلد كل زانٍ، ولما لم يكن كذلك بطل ما قالوه. فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: اللفظ المطلق إنما يفيد العموم بشرط العراء عن لفظ التعيين، أو يقال: اللفظ المطلق وإن اقتضى العموم إلا أن لفظ التعيين يقتضي الخصوص، قلنا: أما الأول فباطل؛ لأن العدم لا دخل له في التأثير، أما الثاني فلأنه يقتضي التعارض وهو خلاف الأصل. وخامسها: أن يقال الإنسان هو الضحاك فلو كان المفهوم من قولنا: الإنسان هو كل الإنسان لنزل ذلك منزلة ما يقال: كل إنسان هو الضحاك، وذلك متناقض؛ لأنه يقتضي حصر الإنسانية في كل واحد من الناس ومعنى الحصر هو أن يثبت فيه لا في غيره فيلزم أن يصدق على كل واحد من أشخاص الناس أنه هو الضحاك لا غير واحتج المخالف بوجهين:

الأول: أنه يجوز الاستثناء منه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٢، ٣] والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل تحته. الثاني: أن الألف واللام للتعريف، وليس ذلك لتعريف الماهية، فإن ذلك قد حصل بأصل الإسم، ولا لتعريف

واحد بعينه، فإنه ليس في اللفظ دلالة عليه، ولا لتعريف بعض مراتب الخصوص فإنه ليس بعض المراتب أولى من بعض، فوجب حمله على تعريف الكل. والجواب: عن الأول أن ذلك الاستثناء مجاز بدليل أنه لا يصح أن يقال: رأيت الإنسان إلا المؤمنين، وعن الثاني أنه يشكل بدخول الألف واللام على صيغة الجمع، فإن جعلتها هناك للتأكيد فكذا هاهنا، ومن الناس من قال: إن قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ وإن كان لا يفيد العموم بحسب اللفظ، لكنه يفيده بحسب القرينة وذلك من وجهين: **الأول:** أن ترتيب الحكم على الوصف المشتق يفيد كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم، لا سيما إذا كان الوصف مناسبًا وهاهنا كذلك، فيدل ذلك على أن الزنا علة لوجوب الجد، فيلزم أن يقال: أينما تحقق الزنا يتحقق وجوب الجلد ضرورة أن العلة لا تنفك عن المعلول. الثاني: أن المراد من قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ إما أن يكون كل الزناة أو البعض، فإن كان الثاني صارت الآية مجملة وذلك يمنع من إمكان العمل به، لكن العمل به مأمور وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فوجب حمله على العموم حتى يمكن العمل به، والله أعلم.

البحث الثالث: في الشرائط المعتبرة في كون الزنا موجبًا للرجم تارة والجلد أخرى، فنقول: أجمعوا على أن كون الزنا موجبًا لهذين الحكمين مشروط بالعقل وبالبلوغ فلا يجب الرجم والحد على الصبي والمجنون وهذان الشرطان ليسا من خواص هذين الحكمين، بل هما معتبران في كل العقوبات، أما كونهما موجبين للرجم فلا بد مع العقل والبلوغ من أمور أخر: الشرط الأول: الحرية؛ وأجمعوا على أن الرقيق لا يجب عليه الرجم ألبتة الشرط. الثاني: التزوج بنكاح صحيح، فلا يحصل الإحصان بالإصابة بملك اليمين ولا بوطء الشبهة ولا بالنكاح الفاسد. الشرط الثالث: الدخول ولا بد منه لقوله عليه السلام: «الثَّيِّبِ بِالثَّيِّبِ» وإنما تصير ثيبًا بالوطء **وهاهنا مسألتان:**

المسألة الأولى: هل يشترط أن تكون الإصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل، فيه وجهان: أحدهما: لا يشترط حتى لو أصاب عبد أمة بنكاح صحيح أو في حال الجنون والصغر ثم كمل حاله فزنى يجب عليه الرجم؛ لأنه وطء يحصل به التحليل للزوج الأول فيحصل به الإحصان كالوطء في حال الكمال، ولأن عقد النكاح يجوز أن يكون قبل الكمال فكذلك الوطء. والثاني: وهو الأصح وهو ظاهر النص، وقول أبي حنيفة رحمه الله يشترط أن تكون الإصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل؛ لأنه لما شرط أكمل الإصابات وهو أن يكون بنكاح صحيح شرط أن يكون تلك الإصابة في حال الكمال.

المسألة الثانية: هل يعتبر الكمال في الطرفين أو يعتبر في كل واحد منهما كماله بنفسه دون صاحبه. فيه قولان: أحدهما: معتبر في الطرفين حتى لو وطىء الصبي بالغة حرة عاقلة فإنه لا يحصنها وهو قول أبي حنيفة، ومحمد. والثاني: يعتبر في كل واحد منهما كماله بنفسه وهو قول أبي يوسف رحمه الله.

حجة القول الأول: أنه وطء لا يفيد الإحصان لأحد الوطئين فلا يفيد في الآخر كوطء الأمة.

حجة القول الثاني: أنه لا يشترط كونهما على صفة الإحصان وقت النكاح وكذا عند الدخول.

الشرط الرابع: الإسلام ليس شرطًا في كون الزنا موجبًا للرجم عند الشافعي رحمه الله وأبي يوسف، وقال أبو حنيفة رحمه الله: شرط، احتج الشافعي بأمور: أحدها: قوله عليه السلام: «فَإِذَا قَبِلُوا الْجِزْيَةَ فَأَنْبِئُوهُمْ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ»(١) ومن جملة ما على المسلم كونه بحيث يجب عليه الرجم عند الإقدام على الزنا، فوجب أن يكون الذمي(٢) كذلك لتحصل التسوية. وثانيها: حديث مالك عن نافع عن ابن عمر أنه عليه السلام رجم يهوديًّا ويهودية زنيًا فإما أن يقال: إنه عليه السلام حكم بذلك بشريعته أو بشريعة من قبله، فإن كان الأول فالاستدلال به بين، وإن كان الثاني فكذلك؛ لأنه صار شرعًا له. وثالثها: أن زنا الكافر مثل زنا المسلم فيجب عليه مثل ما يجب على المسلم وذلك؛ لأن الزنا محرم قبيح فيناسب الزجر وإيجاب الرجم يصلح زاجرًا له ولا يبقى إلا التفاوت بالكفر والإيمان، والكفر وإن كان لا يوجب تغليظ الجناية فلا يوجب تخفيفها، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه: أحدها: التمسك بعموم قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ وجب العمل به في حق المسلم ولا يجب في الذمي لمعنى مفقود في الذمي، ووجه الفرق أن القتل بالأحجار عقوبة عظيمة فلا يجب إلا بجناية عظيمة، والجناية تعظم بكفران النعم في حق الجاني عقلاً وشرعًا، أما العقل فلأن المعصية كفران النعمة وكلما كانت النعم أكثر وأعظم كان كفرانها أعظم وأقبح، وأما الشرع فلأن الله تعالى قال في حق نساء النبي ﷺ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] فلما كانت نعم الله تعالى في حقهن أكثر كان العذاب في حقهن أكثر، وقال في حق الرسول: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥] وإنما عظمت معصيته؛ لأن النعمة في حقه أعظم وهي نعمة النبوة، ومن المعلوم أن نعم الله تعالى في حق المسلم المحصن أكثر منها في حق الذمي، فكانت معصية المسلم أعظم فوجب أن تكون عقوبته أشد. وثانيها: أن الذمي لم يزن بعد الإحصان فلا يجب عليه القتل بيان الأول: قوله عليه السلام: «مَنْ أَشْرَكَ باللَّه طَرْفَةَ عَيْنٍ فَلَيْسَ بِمُحْصَنٍ»(٣) بيان الثاني: أن المسلم الذي لا

---

(١) هذا الحديث لم أجده بهذا اللفظ ولكن أصله في السنن. صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الصلاة)، باب: (فضل استقبال القبلة) (١/ ٥٩٢)، حديث رقم (٣٩٢)، وأبو داود في كتاب (الجهاد)، باب: (على ما يقاتل المشركون) (٣/ ١١٤٢)، حديث رقم (٢٦٤١)، والنسائي في كتاب (الإيمان)، باب: (على ما يقاتل الناس) (٨/ ٤٨٣)، حديث رقم (٥٠١٨)، جميعًا من طريق عبد الله بن المبارك... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (الحدود)، باب: (أحكام أهل الذمة وإحصانهم) (١٢/ ١٧٢)، حديث رقم (٦٨٤١)، ومسلم في كتاب (الحدود)، باب: (رجم اليهود أهل الذمة في الزنى) (٣/ ٢٦/ ١٣٢٦)، وأبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (في رجم اليهوديين) (٤/ ١٩٠١)، حديث رقم (٤٤٤٦)، جميعًا من طريق نافع... به.

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ٢١٦)، والدارقطني في (سننه) (٣/ ١٤٧)، =

يكون محصنًا لا يجب عليه القتل لقوله عليه السلام: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِم إلاَّ لإِحْدَى ثلاث» (١) وإذا كان المسلم كذلك وجب أن يكون الذمي كذلك لقوله عليه السلام: «إِذَا قَبِلُوا عَقْدَ الْجِزْيَةِ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ» (٢) وثالثها: أجمعنا على أن إحصان القذف يعتبر فيه الإسلام، فكان إحصان الرجم والجامع ما ذكرنا من كمال النعمة. والجواب: عن الأول أنه خص عنه الثيب المسلم فكذا الثيب الذمي، وما ذكروه من حديث زيادة النعمة على المؤمنين فنقول: نعمة الإسلام حصلت بكسب العبد فيصير ذلك كالخدمة الزائدة، وزيادة الخدمة إن لم تكن سببًا للعذر فلا أقل من أن لا تكون سببًا لزيادة العقوبة، وعن الثاني لا نسلم أن الذمي مشرك سلمناه، لكن الإحصان قد يراد به التزوج لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤] وفي التفسير: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ [النساء: ٢٥] يعني فإذا تزوجن إذا ثبت هذا فنقول: الذمي الثيب محصن بهذا التفسير فوجب رجمه لقوله ﷺ أو زنا بعد إحصان رتب الحكم في حق المسلم على هذا الوصف فدل على كون الوصف علة والوصف قائم في حق الذمي فوجب كونه مستلزمًا للحكم بالرجم وعن الثالث أن حد القذف لدفع العار كرامة للمقذوف، والكافر لا يكون محلاً للكرامة وصيانة العرض بخلاف ما هاهنا، والله أعلم، أما ما يتعلق بالجلد **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: اتفقوا على أن الرقيق لا يرجم واتفقوا على أنه يجلد، وثبت بنص الكتاب أن على الإماء نصف ما على المحصنات من العذاب، فلا جرم اتفقوا على أن الأمة تجلد خمسين جلدة، أما العبد فقد اتفق الجمهور على أنه يجلد أيضًا خمسين إلا أهل الظاهر فإنهم قالوا: عموم قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ يقتضي وجوب المائة على العبد والأمة إلا أنه ورد النص بالتنصيف في حق الأمة، فلو قسنا العبد عليها كان ذلك تخصيصًا لعموم الكتاب بالقياس وأنه غير جائز، ومنهم من قال الأمة إذا تزوجت فعليها خمسون جلدة وإذا لم تتزوج فعليها المائة، لظاهر قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ وذكروا أن قوله: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ [النساء: ٢٥] أي: تزوجن ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

المسألة الثانية: قال الشافعي، وأبو حنيفة رحمهما الله: الذمي يجلد، وقال مالك

=حديث رقم (١٩٩)، كلاهما من طريق عبد العزيز بن محمد عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر... فذكره مرفوعًا.

وقال: ولم يرفعه غير إسحاق ويقال: أنه رفع عنه والصواب موقوف، ورواه ابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٢٨/ ٢٦٥) من طريق الهيثم بن حميد عن عبد الله بن زياد عن نافع عن ابن عمر... فذكره مرفوعًا، وأورده ابن حجر في (التلخيص) (٥/ ١٣٢).

وقال: روي عن ابن عمر مرفوعًا وموقوفًا ورجح الدارقطني وغيره الوقف، وأورده الألباني في (الضعيفة) (١٧١٧) وقال: ضعيف.

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

رحمه الله: لا يجلد. لنا وجوه: أحدها: عموم قوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾. وثانيها: قوله عليه السلام: «إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا» وقوله: «أَقِيمُوا الْحُدُودَ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» ولم يفرق بين الذمي والمسلم وثالثها: أنه عليه السلام رجم اليهوديين، فذاك الرجم إن من كان من شرع محمد ﷺ فقد حصل المقصود، وإن كان من شرعهم فلما فعله الرسول ﷺ صار ذلك من شرعه، وحقيقة هذه المسألة ترجع إلى أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع.

البحث الرابع: فيما يدل على صدور الزنا منه، اعلم أن ذلك لا يحصل إلا من أحد ثلاثة أوجه، إما بأن يراه الإمام بنفسه، أو بأن يقر، أو بأن يشهد عليه الشهود، أما الوجه الأول: وهو ما إذا رآه الإمام قال الإمام محيي السنة في كتاب (التهذيب): لا خلاف أن على القاضي أن يمتنع عن القضاء بعلم نفسه مثل ما إذا ادعى رجل على آخر حقًا وأقام عليه بينة، والقاضي يعلم أنه قد أبرأه، أو ادعى أنه قتل أباه وقت كذا، وقد رآه القاضي حيًا بعد ذلك، أو ادعى نكاح امرأة وقد سمعه القاضي طلقها، لا يجوز أن يقضي به وإن أقام عليه شهودًا، وهل يجوز للقاضي أن يقضي بعلم نفسه مثل أن ادعى عليه ألفًا وقد رآه القاضي أقرضه أو سمع المدعي عليه أقرّ به؟ فيه قولان: أصحهما وبه قال أبو يوسف ومحمد والمزني رحمهم الله: أنه يجوز له أن يقضي بعلمه؛ لأنه لما جاز له أن يحكم بشهادة الشهود وهو من قولهم على ظن فلأن يجوز بما رآه وسمعه وهو منه على علم أولى، قال الشافعي رحمه الله في كتاب (الرسالة): أقضي بعلمي وهو أقوى من شاهدين أو بشاهدين؛ وشاهد وامرأتين، وهو أقوى من شاهد ويمين أو بشاهد ويمين، وهو أقوى من النكول ورد اليمين.

والقول الثاني: لا يقضي بعلمه وهو قول ابن أبي ليلى؛ لأن انتفاء التهمة شرط في القضاء ولم يوجد هذا في المال، أما في العقوبات فينظر إن كان ذلك من حقوق العباد كالقصاص وحد القذف هل يحكم فيه بعلم نفسه؟ يرتب، على المال إن قلنا: هناك لا يقضي فهاهنا أولى وإلا فقولان، والفرق أن مبنى حقوق الله تعالى على المساهلة والمسامحة، ولا فرق على القولين أن يحصل العلم للقاضي في بلد ولايته وزمان ولايته أو في غيره، وقال أبو حنيفة رحمه الله: إن حصل له العلم في بلد ولايته أو في زمان ولايته له أن يقضي بعلمه وإلا فلا، فنقول: العلم لا يختلف باختلاف هذه الأحوال، فوجب أن لا يختلف الحكم باختلافها والله أعلم.

الطريق الثاني: الإقرار، قال الشافعي رحمه الله: الإقرار بالزنا مرة واحدة يوجب الحد، وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل لا بد من الإقرار أربع مرات في أربع مجالس، وقال أحمد: لا بد من الإقرار أربع مرات لكن لا فرق بين أن يكون في أربع مجالس أو في مجلس واحد، حجة الشافعي رحمه الله أمران: الأول: قصة العسيف فإنه قال عليه السلام: «**فَإِنِ اعترفت فارجمها**» وذلك دليل عل أن الاعتراف مرة واحدة كافٍ والثاني: أنه لما أقر بالزنا وجب الحد عليه؛ لقوله عليه السلام: «اقْضِ بِالظَّاهِرِ» والإقرار مرة واحدة يوجب الظهور لا سيما هاهنا، وذلك لأن

الصارف عن الإقرار بالزنا قوي، لما أنه سبب العار في الحال والألم الشديد في المآل، والصارف عن الكذب أيضًا قائم وعند اجتماع الصارفين يقوى الانصراف، فثبت أنه إنما أقدم على هذا الإقرار لكونه صادقًا. وإذا ظهر اندرج تحت الحديث وتحت الآية، أو نقيسه على الإقرار بالقتل والردة، واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه: أحدها: قصة ماعز والاستدلال بها من وجوه: الأول: أنه عليه السلام أعرض عنه في المرة الأولى، ولو وجب عليه الحد لم يعرض عنه؛ لأن الإعراض عن إقامة حد الله تعالى بعد كمال الحجة لا يجوز. الثاني: أنه عليه السلام قال: «إِنَّكَ شَهِدْتَ عَلَى نَفْسِكَ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ»(١) ولو كان الواحد مثل الأربع في إيجاب الحد كان هذا القول لغوًا. والثالث: روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لماعز بعدما أقر ثلاث مرات: «لَوْ أَقْرَرْتَ الرَّابِعَةَ لَرَجَمَكَ رَسُولُ اللَّه» والرابع: عن بريدة الأسلمي قال: كُنَّا مَعْشَرَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ نَقُولُ: لَوْ لَمْ يُقِرَّ مَاعِزٌ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ مَا رَجَمَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ. وثانيها: أنهم قاسوا الإقرار على الشهادة فكما أنه لا يقبل في الزنا إلا أربع شهادات فكذا في الإقرار به والجامع السعي في كتمان هذه الفاحشة. وثالثها: أن الزنا لا ينتفي إلا بأربع شهادات أو بأربع أيمان في اللعان فجاز أيضًا أن لا يثبت إلا بالإقرار أربع مرات، وبه يفارق سائر الحقوق فإنها تنتفي بيمين واحد، فجاز أيضًا أن يثبت بإقرار واحد. والجواب: عن الأول أنه ليس في الحديث إلا أنه عليه السلام حكم بالشهادات الأربع وذلك لا ينافي جواز الحكم بالشهادة الواحدة. وعن الثاني: أن الفرق بينهما أن المقذوف لو أقر بالزنا مرة لسقط الحد عن القاذف، ولولا أن الزنا ثبت لما سقط كما لو شهد اثنان بالزنا لا يسقط الحد عن القاذف حيث لم يثبت به الزنا والله أعلم.

والطريق الثالث: الشهادة وقد أجمعوا على أنه لا بد من أربع شهادات، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥] والكلام فيه سيأتي إن شاء الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ٤].

البحث الخامس: في أن المخاطب بقوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾ من هو؟ أجمعت الأمة على أن

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (رجم ماعز بن مالك) (٤/ ١٨٩٣)، حديث رقم (٤٤٢٦)، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣١٤)، حديث رقم (٢٨٧٦ / شاكر) من طريق إسرائيل... به، وإسناده صحيح. وأخرجه مسلم في كتاب (الحدود)، باب: (من اعترف على نفسه بالزنى) (٣/ ١٩/ ١٣٢٠)، وأبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (رجم ماعز بن مالك) (٤/ ١٨٩٢/ ١٨٩٣)، حديث رقم (٤٤٢٥)، والترمذي في كتاب (الحدود)، باب: (ما جاء في التلقين في الحد) (٤/ ٢٧)، حديث رقم (١٤٢٧) وقال: حسن صحيح، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٤٥)، حديث رقم (٢٢٠٢)، وأيضًا في (١/ ٣٢٨)، حديث رقم (٣٠٢٩/ شاكر). وقال: إسناده صحيح.

جميعًا من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ثم أن النبي ﷺ قال لماعز بن مالك: أحق ما بلغني عنك قال: وما بلغك عني قال: بلغني أنك وقعت بجارية آل فلان قال: نعم، قال: فشهد أربع شهادات ثم أمر به فرجم. اللفظ لمسلم.

المخاطب بذلك هو الإمام، ثم احتجوا بهذا على وجوب نصب الإمام، قالوا: لأنه سبحانه أمر بإقامة الحد، وأجمعوا على أنه لا يتولى إقامته إلا الإمام وما لا يتم الواجب المطلق إلا به، وكان مقدورًا للمكلف فهو واجب فكان نصب الإمام واجبًا، وقد مر بيان هذه الدلالة في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. **بقي هاهنا ثلاث مسائل:**

المسألة الأولى: قال الشافعي رحمه الله السيد يملك إقامة الحد على مملوكه. وهو قول ابن مسعود، وابن عمر، وفاطمة، وعائشة. وعند أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد، وزفر رحمهم الله لا يملك، وقال مالك: يحده المولى من الزنا، وشرب الخمر، والقذف، ولا يقطعه في السرقة وإنما يقطعه الإمام وهو قول الليث، واحتج الشافعي رحمه الله بوجوه: أحدها: قوله عليه السلام: «أَقِيمُوا الْحُدُودَ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال عليه السلام: «إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا»(٢) وفي رواية أخرى «فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ»(٣) قال أبو بكر الرازي: لا دلالة في هذه الأخبار؛ لأن قوله: «أَقِيمُوا الْحُدُودَ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» هو كقوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ ومعلوم أن المراد منه رفعه إلى الإمام لإقامة الحد والمخاطبون بإقامة الحد هم الأئمة، وسائر الناس مخاطبون برفع الأمر إليهم حتى يقيموا عليهم الحدود فكذلك قوله: «أَقِيمُوا الْحُدُودَ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» على هذا المعنى، وأما قوله: «إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا» فإنه ليس كل جلد حدًا؛ لأن الجلد قد يكون على وجه التعزير، فإذا عزرنا فقد وفينا بمقتضى الحديث. والجواب: أن قوله: «أَقِيمُوا الْحُدُودَ» أمر بإقامة الحد فحمل هذا اللفظ على رفع الواقعة إلى الإمام عدول عن الظاهر، أقصى ما في الباب أنه ترك الظاهر في قوله: فاجلدوا، لكن لا يلزم من ترك الظاهر هناك تركه هاهنا، أما قوله: «فَلْيَجْلِدْهَا» المراد هو التعزير فباطل؛ لأن الجلد المذكور عقيب الزنا لا يفهم منه إلا الحد. وثانيها: أن السلطان لما ملك إقامة الحد عليه فسيده به أولى؛ لأن تعلق السيد بالعبد أقوى من تعلق السلطان به؛ لأن المُلك أقوى من عقد البيعة، وولاية السادة على العبيد فوق ولاية السلطان على الرعية، حتى إذا كان للأمة سيد وأب فإن ولاية النكاح للسيد دون الأب، ثم إن الأب مقدم على السلطان في ولاية النكاح فيكون السيد مقدمًا على السلطان بدرجات فكان أولى، ولأن السيد يملك من التصرفات في هذا المحل ما لا يملكه الإمام فثبت أن المولى أولى. وثالثها: أجمعنا على أن السيد يملك التعزير فكذا الحد؛ لأن كل واحد نظير الآخر وإن كان أحدهما مقدرًا والآخر غير مقدر، واحتج أبو بكر الرازي على مذهب أبي حنيفة بوجوه: أحدها: قال: قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ لا شك أنه خطاب مع الأئمة دون عامة الناس، فالتقدير فاجلدوا أيها الأئمة والحكام كل واحد منهما مائة جلدة، ولم يفرق في هذه الآية بين المحدودين من الأحرار والعبيد، فوجب أن تكون الأئمة هم المخاطبون بإقامة الحدود على الأحرار والعبيد دون الموالي. **وثانيها**: أنه لو جاز

---

(١)، (٢)، (٣) تقدم.

للمولى أن يسمع شهادة الشهود على عبده بالسرقة فيقطعه، فلو رجعوا عن شهادتهم لوجب أن يتمكن من تضمين الشهود؛ لأن تضمين الشهود يتعلق بحكم الحاكم بالشهادة؛ لأنه لو لم يكن يحكم بشهادتهم لم يضمنوا شيئًا فكان يصير حاكمًا لنفسه بإيجاب الضمان عليهم وذلك باطل؛ لأنه ليس لأحد من الناس أن يحكم لنفسه. فعلمنا أن المولى لا يملك استماع البينة على عبده بذلك ولا قطعه. **وثالثها:** أن المالك ربما لا يستوفي الحد بكماله لشفقته على ملكه، وإذا كان متهمًا وجب أن لا يفوض إليه. والجواب: عن الأول أن قوله ﴿فَٱجْلِدُوا﴾ ليس بصريحه خطابًا مع الإمام، لكن بواسطة أنه لما انعقد الإجماع على أن غير الإمام لا يتولاه حملنا ذلك الخطاب على الإمام، وهاهنا لم ينعقد الإجماع على أن الإمام لا يتولاه لأنه عين النزاع. **والجواب:** عن الثاني قال محيي السنة في كتاب (التهذيب): هل يجوز للمولى قطع يد عبده بسبب السرقة أو قطع الطريق؟ فيه وجهان: أصحهما أنه يجوز، نص عليه في رواية البويطي لما روي عن ابن عمر أنه قطع عبدًا له سرق وكما يجلده في الزنا وشرب الخمر. والثاني: لا بل القطع إلى الإمام بخلاف الجلد؛ لأن المولى يملك جنس الجلد وهو التعزير ولا يملك جنس القطع، ثم قال: وكل حد يقيمه المولى على عبده إنما يقيمه إذا ثبت باعتراف العبد، فإن كانت عليه بينة فهل يسمع المولى الشهادة، فيه وجهان: **أحدهما:** يسمع؛ لأنه ملك الإقامة بالاعتراف فيملك بالبينة كالإمام. **والثاني:** لا يسمع بل ذاك إلى الحكام. والجواب: عن الثالث أنه منقوض بالتعزير.

المسألة الثانية: إذا فقد الإمام فليس لآحاد الناس إقامة هذه الحدود، بل الأولى أن يعينوا واحدًا من الصالحين ليقوم به.

المسألة الثالثة: الخارجي المتغلب هل له إقامة الحدود؟ قال بعضهم: له ذلك، وقال آخرون: ليس له ذلك؛ لأن إقامة الحد من جهة من لم يلزمنا أن نزيل ولايته أبعد من أن نفوض ذلك إلى رجل من الصالحين.

البحث السادس: في كيفية إقامة الحد، أما الجَلد، فاعلم أن المذكور في الآية هو الجَلد، وهذا مشترك بين الجَلد الشديد، والجَلد الخفيف، والجَلد على كل الأعضاء أو على بعض الأعضاء، فحينئذ لا يكون في الآية إشعار بشيء من هذه القيود، بل مقتضى الآية أن يكون الآتي بالجَلد كيف كان خارجًا عن العهدة؛ لأنه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج من العهدة، قال صاحب (الكشاف): وفي لفظ الجَلد إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الألم إلى اللحم، ولأن الجَلد ضرب الجلد، يقال: جَلَده كقولك: ظهَره بفتح الهاء وبطنَه ورأسَه، إلا أنا لما عرفنا أن المقصود منه الزجر والزجر لا يحصل إلا بالجَلد الخفيف لا جرم تكلم العلماء في صفة الجَلد على سبيل القياس **ثم هنا مسائل:**

المسألة الأولى: المحصن يجلد مع ثيابه ولا يجرد، ولكن ينبغي أن يكون بحيث يصل الألم إليه، وينزع من ثيابه الحشو والفرو. روي أن أبا عبيدة بن الجراح أتى برجل في حد فذهب

الرجل ينزع قميصه، وقال: ما ينبغي لجسدي هذا المذنب أن يضرب وعليه قميص، فقال أبو عبيدة: لا تدعوه ينزع قميصه فضربه عليه. أما المرأة فلا خلاف في أنه لا يجوز تجريدها، بل يربط عليها ثيابها حتى لا تنكشف، ويلي ذلك منها امرأة.

المسألة الثانية: لا يمد ولا يربط بل يترك حتى يتقي بيديه، ويضرب الرجل قائمًا والمرأة جالسة. قال أبو يوسف رحمه الله: ضرب ابن أبي ليلى المرأة القاذفة قائمة فخطأه أبو حنيفة.

المسألة الثالثة: يضرب بسوط وسط لا جديد يجرح ولا خلق لم يؤلم، ويضرب ضربًا بين ضربين لا شديد ولا واهٍ. روى أبو عثمان النهدي قال: أتى عمر برجل في حد ثم جيء بسوط فيه شدة، فقال: أريد ألين من هذا، فأتى بسوط فيه لين، فقال: أريد أشد من هذا، فأتى بسوط بين السوطين فرضي به.

المسألة الرابعة: تفرق السياط على أعضائه ولا يجمعها في موضع واحد، واتفقوا على أنه يتقي المهالك كالوجه والبطن والفرج، ويضرب على الرأس عند الشافعي رحمه الله. وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا يضرب على الرأس، وهو قول علي حجة الشافعي رحمه الله. قال أبو بكر اضرب على الرأس فإن الشيطان فيه. وعن عمر أنه ضرب صبيغ بن عسيل على رأسه حين سأل عن الذاريات على وجه التعنت، حجة أبي حنيفة رحمه الله، أجمعنا على أنه لا يضرب على الوجه فكذا الرأس والجامع الحكم والمعنى. أما الحكم فلأن الشين الذي يلحق الرأس بتأثير الضرب كالذي يلحق الوجه، بدليل أن الموضحة وسائر الشجاج حكمها في الرأس والوجه واحد، وفارقا سائر البدن؛ لأن الموضحة فيما سوى الرأس والوجه إنما يجب فيها حكومة ولا يجب فيها أرش الموضحة الواقعة في الرأس والوجه، فوجب استواء الرأس والوجه في وجوب صونهما عن الضرب. وأما المعنى فهو إنما منع من ضرب الوجه لما كان فيه من الجناية على البصر، وذلك موجود في الرأس؛ لأن ضرب الرأس يظلم منه البصر، وربما حدث منه الماء في العين، وربما حدث منه اختلاط العقل. أجاب أصحابنا عنه بأن الفرق بين الوجه والرأس ثابت؛ لأن الضربة إذا وقعت على الوجه، فعظم الجبهة رقيق فربما انكسر بخلاف عظم القفا، فإنه في نهاية الصلابة، وأيضًا فالعين في نهاية اللطافة، فالضرب عليها يورث العمى، وأيضًا فالضرب على الوجه يكسر الأنف؛ لأنه من غضروف لطيف، ويكسر الأسنان؛ لأنها عظام لطيفة، ويقع على الخدين وهما لحمان قريبان من الدماغ، والضربة عليهما في نهاية الخطر لسرعة وصول ذلك الأثر إلى جرم الدماغ، وكل ذلك لم يوجد في الضرب على الرأس.

المسألة الخامسة: لو فرق سياط الحد تفريقًا لا يحصل به التنكيل، مثل أن يضرب كل يوم سوطًا أو سوطين لا يحسب، وإن ضرب كل يوم عشرين أو أكثر يحسب، والأولى أن لا يفرق.

المسألة السادسة: إن وجب الحد على الحبلى لا يقام حتى تضع، روى عمران بن الحصين: أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا، فقالت: يا نبي الله، أصبت حدًا

فأقمه عليَّ، فدعا نبي الله وليها فقال: أحسن إليها، فإذا وضعت فائتني بها ففعل، فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها[١]، ولأن المقصود التأديب دون الإتلاف.

المسألة السابعة: إن وجب الجلد على المريض نظر، فإن كان به مرض يرجى زواله من صداع أو ضعف أو ولادة يؤخر حتى يبرأ، كما لو أقيم عليه حد أو قطع لا يقام عليه حد آخر حتى يبرأ من الأول، وإن كان به مرض لا يرجى زواله، كالسل والزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط فإنه يموت وليس المقصود موته، وذلك لا يختلف سواء كان زناه في حال الصحة ثم مرض أو في حال المرض، بل يضرب بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام مائة جلدة. كما قال تعالى في قصة أيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] وعند أبي حنيفة رحمه الله: يضرب بالسياط، دليلنا ما روي أن رجلاً مقعدًا أصاب امرأة فأمر النبي ﷺ فأخذوا مائة شمراخ فضربوه بها ضربة واحدة[٢]، ولأن الصلاة إذا كانت تختلف باختلاف حاله فالحد أولى بذلك.

المسألة الثامنة: يقام الحد في وقت اعتدال الهواء، فإن كان في حال شدة حر أو برد نظر إن كان الحد رجمًا يقام عليه كما يقام في المرض؛ لأن المقصود قتله، وقيل؛ إن كان الرجم ثبت عليه بإقراره فيؤخر إلى اعتدال الهواء وزوال المرض الذي يرجى زواله؛ لأنه ربما رجع عن إقراره في خلال الرجم وقد أثر الرجم في جسمه فتعين شدة الحر والبرد والمرض على أهلاكه بخلاف ما لو ثبت بالبينة لأنه لا يسقط، وإن كان الحد جلدًا لم يجز إقامته في شدة الحر والبرد كما لا يقام في المرض. أما الرجم.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الشافعي رحمه الله، ومالك رحمه الله: يجوز للإمام أن يحضر رجمه وأن لا يحضر، وكذا الشهود لا يلزمهم الحضور. وقال أبو حنيفة رحمه الله: إن ثبت الزنا بالبينة وجب على الشهود أن يبدأوا بالرجم ثم الإمام ثم الناس، وإن ثبت بإقرار بدأ الإمام ثم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحدود)، باب: (من اعترف على نفسه بالزنا) (٣/ ٢٤/ ١٣٢٤) من طريق أبان العطار... به. وأبو داود في كتاب (الحدود) باب: (المرأة التي أمر النبي ﷺ برجمها) (٤/ ١٤٩) حديث رقم (٤٤٤٠) من طريق هشام الدستوائي وأبان بن يزيد... به. والترمذي في كتاب (الحدود)، باب: (ترخيص الرجم بالحبلى) (٤/ ٣٣)، حديث رقم (١٤٣٥) من طريق معمر... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب (الجنائز)، باب: (الصلاة على المرجوم) (٤/ ٣٦٥)، حديث رقم (١٩٥٦) من طريق هشام... به، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٤٢٩/ ٤٣٧/ ٤٤٠) من طريق معمر وهشام... به، والدارمي في كتاب (الحدود)، باب: (الحامل إذا اعترفت بالزنا) (٢/ ٣٠)، حديث رقم (٢٣٢٥)، جميعًا عن يحيى بن أبي كثير... به.

(٢) تقدم.

الناس. حجة الشافعي رحمه الله: أن النبي ﷺ أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما.

المسألة الثانية: إن ثبت الزنا بإقراره فمتى رجع ترك، وقع به بعض الحد أو لم يقع. وبه قال أبو حنيفة رحمه الله، والثوري، وأحمد، وإسحق. وقال الحسن، وابن أبي ليلى، وداود لا يقبل رجوعه، وعن مالك رحمه الله روايتان.

حجة القول الأول: أن ماعزًا لما مسته الحجارة وهرب، فقال عليه السلام: **«هلا تركتموه»**

المسألة الثالثة: يحفر للمرأة إلى صدرها حتى لا تنكشف ويرمى إليها، ولا يحفر للرجل، لما روى أبو سعيد الخدري (أَنَّ مَاعِزًا أَتَى رَسُولَ اللَّه ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنِّي أَصَبْتُ فَاحِشَةً فَأَقِمْ عَلَيَّ الْحَدَّ، فَرَدَّهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِرَارًا، ثُمَّ سَأَلَ قَوْمَهُ، فَقَالُوا: لاَ نَعْلَمُ بِهِ بَأْسًا فَأَمَرَنَا أَنْ نَرْجُمَهُ، فَانْطَلَقْنَا بِهِ إِلَى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فَمَا أَوْثَقْنَاهُ وَلاَ حَفَرْنَا لَهُ، قَالَ: فَرَمَيْنَاهُ بِالْعِظَامِ وَالْمَدَرِ وَالْخَزَفِ، قَالَ فَاشْتَدَّ وَاشْتَدَدْنَا خَلْفَهُ حَتَّى أَتَى عُرْضَ الْحَرَّةِ وَانْتَصَبَ لَنَا فَرَمَيْنَاهُ بِجَلاَمِيدِ الْحَرَّةِ حَتَّى سَكَنَ) (١) وجه الاستدلال أنه قال: (فَمَا أَوْثَقْنَاهُ وَلاَ حَفَرْنَا لَهُ) ولأنه هرب، ولو كان في حفرة لما أمكنه ذلك.

المسألة الرابعة: إذا مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين، فهذا ما أردنا ذكره من بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه الآية.

أما المباحث العقلية: فاعلم أن من الناس من قال: لا شك أن البدن مركب من أجزاء كثيرة، فإما أن يقوم بكل جزء حياة وعلم وقدرة على حدة أو يقوم بكل الأجزاء حياة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة، والثاني: محال لاستحالة قيام العرض الواحد بالمحال الكثيرة فتعين الأول، وإذا كان كذلك كان كل جزء من أجزاء البدن حيًّا على حدة وعالمًا على حدة وقادرًا على حدة، وإذا ثبت هذا فنقول: الزاني هو الفرج لا الظهر، فكيف يحسن من الحكيم أن يأمر بجلد الظهر، ولأنه ربما كان الإنسان حال إقدامه على الزنا عجيفًا نحيفًا ثم يسمن بعد ذلك فكيف يجوز إيلام تلك الأجزاء الزائدة مع أنها كانت بريئة عن فعل الزنا، فإن قال قائل: هذا مدفوع من وجهين: **الأول**: وهو أنه ليس كل واحد من أجزاء البدن فاعلاً على حدة وحيًّا على حدة وذلك محال، بل الحياة والعلم والقدرة تقوم بالجزء الواحد ثم توجب حكم الحيية والعالمية والقادرية لمجموع الأجزاء، فيكون المجموع حيًا واحدًا عالمًا واحدًا قادرًا واحدًا، وعلى هذا التقدير يزول السؤال. **الثاني**: أن يقال: الذي هو الفاعل والمحرك والمدرك شيء ليس بجسم ولا جسماني. وإنما هو مدبر لهذا البدن، وعلى هذا التقدير أيضًا يزول السؤال **والجواب**: أما الأول فضعيف، وذلك؛ لأن العلم إذا قام بجزء واحد، فإما أن يحصل بمجموع الأجزاء عالمية واحدة فيلزم قيام

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحدود)، باب: (من اعترف على نفسه بالزنا) (٣/ ٢٠/ ١٣٢٠)، وأبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (رجم ماعز بن مالك) (٤/ ١٨٩٥)، حديث رقم (٤٤٣١)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢)، والدارمي في (سننه) (٢/ ٢٣٣)، حديث رقم (٢٣١٩) من طريق داود بن أبي هند... به.

الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وهو محال، أو يقوم بكل جزء عالمية على حدة فيعود المحذور المذكور، وأما الثاني ففي نهاية البعد؛ لأنه إذا كان الفاعل للقبيح هو ذلك المباين فلم يضرب هذا الجسد؟ واعلم أن المقصود من أحكام الشرع رعاية المصالح، ونحن نعلم أن شرع الحد يفيد الزجر، فكان المقصود حاصلاً والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: الرأفة الرقة والرحمة وقراءة العامة بسكون الهمزة وقرىء رأفة بفتح الهمزة ورآفة على فعالة.

المسألة الثانية: يحتمل أن يكون المراد أن لا تأخذكم رأفة بأن يعطل الحد أو ينقص منه، والمعنى لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا إقامتها للشفقة والرحمة، وهذا قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير واختيار الفراء والزجاج، ويحتمل أن لا تأخذكم رأفة بأن يخفف الجلد وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وقتادة، ويحتمل كلا الأمرين والأول أولى؛ لأن الذي تقدم ذكره الأمر بنفس الجلد، ولم يذكر صفته، فما يعقبه يجب أن يكون راجعًا إليه وكفى برسول الله أسوة في ذلك حيث قال: «لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»(١) ونبه بقوله: (في دين الله) على أن الدين إذا أوجب أمرًا لم يصح استعمال الرأفة في خلافه.

أما قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فهو من باب التهييج والنهاب الغضب لله تعالى ولدينه. قال الجبائي تقدير الآية: إن كنتم مؤمنين فلا تتركوا إقامة الحدود، وهذا يدل على أن الاشتغال بأداء الواجبات من الإيمان بخلاف ما تقوله المرجئة والجواب: أن الرأفة لا تحصل إلا إذا حكم الإنسان بطبعه أن الأولى أن لا تقام تلك الحدود، وحينئذ يكون منكرًا للدين فيخرج عن الإيمان في الحديث «يُؤْتَى بِوَالٍ نَقَصَ مِنَ الْحَدِّ سَوْطًا، فَيُقَالُ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَاكَ؟ فَيَقُولُ: رَحْمَةً لِعِبَادِكَ، فَيُقَالُ لَهُ: أَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنِّي! فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ، وَيُؤْتَى بِمَنْ زَادَ سَوْطًا فَيُقَالُ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لِيَنْتَهُوا عَنْ مَعَاصِيكَ، فَيَقُولُ: أَنْتَ أَحْكَمُ بِهِ مِنِّي! فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ».

أما قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ﴾ أمر وظاهره للوجوب، لكن الفقهاء قالوا: يستحب حضور الجمع والمقصود إعلان إقامة الحد، لما فيه من مزيد الردع، ولما فيه من رفع التهمة عمن يجلد، وقيل: أراد بالطائفة الشهود؛ لأنه يجب حضورهم ليعلم بقاؤهم على الشهادة.

المسألة الثانية: اختلفوا في أقل الطائفة على أقوال: أحدها: أنه رجل واحد وهو قول النخعي ومجاهد. واحتجا بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] وثانيها: أنه اثنان

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (فضائل الصحابة)، باب: (ذكر أسامة بن زيد) (٧/ ١١٠)، حديث رقم (٣٧٣٣) من طريق علي عن سفيان عن أيوب... به، ومسلم في كتاب (الحدود)، باب: (قطع السارق الشريف وغيره) (٣/ ٨/ ١٣١٥) من طريق محمد بن رمح عن ليث... به.

وهو قول عكرمة وعطاء، واحتجا بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] وكل ثلاثة فرقة والخارج من الثلاثة واحد أو اثنان، والاحتياط يوجب الأخذ بالأكثر. وثالثها: أنه ثلاثة وهو قول الزهري وقتادة، قالوا: الطائفة هي الفرقة التي يمكن أن تكون حلقة، كأنها الجماعة الحافة حول الشيء، وهذه الصورة أقل ما لا بد في حصولها هو الثلاثة. ورابعها: أنه أربعة بعدد شهود الزنا، وهو قول ابن عباس والشافعي رضي الله عنهم. وخامسها: أنه عشرة وهو قول الحسن البصري؛ لأن العشرة هي العدد الكامل.

المسألة الثالثة: تسميته عذابًا يدل على أنه عقوبة، ويجوز أن يسمى عذابًا لأنه يمنع المعاودة كما سمي نكالاً لذلك، ونبه تعالى بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على أن الذين يشهدون يجب أن يكونوا بهذا الوصف، لأنهم إذا كانوا كذلك عظم موقع حضورهم في الزجر وعظم موقع إخبارهم عما شاهدوا فيخاف المجلود من حضورهم الشهرة، فيكون ذلك أقوى في الانزجار. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

قرئ (لا ينكحْ) بالجزم على النهي، وقرئ (وحَرم) بفتح الحاء. **ثم إن في الآية سؤالات:**

السؤال الأول: قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ ظاهره خبر، ثم إنه ليس الأمر كما يُشعر به هذا الظاهر؛ لأنا نرى أن الزاني قد ينكح المؤمنة العفيفة والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف.

السؤال الثاني: أنه قال: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس كذلك، فإن المؤمن يحل له التزوج بالمرأة الزانية. والجواب: اعلم أن المفسرين لأجل هذين السؤالين ذكروا وجوهًا: أحدها: وهو أحسنها، ما قاله القفال: وهو أن اللفظ وإن كان عامًّا لكن المراد منه الأعم الأغلب، وذلك لأن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والفسق لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله أو في مشركة، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين، فهذا على الأعم الأغلب كما يقال (لا يفعل الخير إلا الرجل التقي)، وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقي فكذا هاهنا.

وأما قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالجواب من وجهين: **أحدهما**: أن نكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتسمين بالزنا - محرم عليه، لما فيه من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة، والتسبب لسوء المقالة فيه والغيبة. ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام، فكيف بمزاوجة الزواني والفجار. **الثاني**: وهو أن صرف الرغبة بالكلية إلى الزواني وترك الرغبة في الصالحات - محرم على المؤمنين؛ لأن قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ معناه أن الزاني لا يرغب إلا في الزانية، فهذا الحصر محرم على المؤمنين، ولا يلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوج بالزانية، فهذا هو المعتمد في تفسير

الآية: **الوجه الثاني:** أن الألف واللام في قوله: ﴿ٱلزَّانِي﴾ وفي قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن كان للعموم ظاهرًا، لكنه هاهنا مخصوص بالأقوام الذين نزلت هذه الآية فيهم، قال مجاهد وعطاء بن أبي رباح وقتادة: قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشائر، وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذٍ أخصب أهل المدينة، ولكل واحدة منهن علامة على بابها كعلامة البيطار؛ ليعرف أنها زانية، وكان لا يدخل عليها إلا زانٍ أو مشرك، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المسلمين، وقالوا: نتزوج بهن إلى أن يغنينا الله عنهن. فاستأذنوا رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، فتقدير الآية: أولئك الزواني لا ينكحون إلا تلك الزانيات، وتلك الزانيات لا ينكحهن إلا أولئك الزواني وحرم نكاحهن على المؤمنين. **الوجه الثالث في الجواب:** أن قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ وإن كان خبرًا في الظاهر، لكن المراد النهي، والمعنى أن كل من كان زانيًا فلا ينبغي أن ينكح إلا زانية وحرم ذلك على المؤمنين. وهكذا كان الحكم في ابتداء الإسلام، وعلى هذا الوجه ذكروا قولين: أحدهما: أن ذلك الحكم باقٍ إلى الآن حتى يحرم على الزاني والزانية التزوج بالعفيفة والعفيف وبالعكس. ويقال هذا مذهب أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وعائشة، ثم في هؤلاء من يسوي بين الابتداء والدوام فيقول: كما لا يحل للمؤمن أن يتزوج بالزانية فكذلك لا يحل له إذا زنت تحته أن يقيم عليها، ومنهم من يفصِّل لأن في جملة ما يمنع من التزويج ما لا يمنع من دوام النكاح كالإحرام والعدة.

والقول الثاني: أن هذا الحكم صار منسوخًا واختلفوا في ناسخه: فعن الجبائي أن ناسخه هو الإجماع. وعن سعيد بن المسيب أنه منسوخ بعموم قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ [النور: ٣٢] قال المحققون: هذان الوجهان ضعيفان: أما الأول فلأنه ثبت في أصول الفقه أن الإجماع لا ينسخ ولا يُنسخ به، وأيضًا فالإجماع الحاصل عقيب الخلاف لا يكون حجة، والإجماع في هذه المسألة مسبوق بمخالفة أبي بكر وعمر وعلي فكيف يصح؟

وأما قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣] فهو لا يصح أن يكون ناسخًا؛ لأنه لا بد من أن يشترط فيه أن لا يكون هناك مانع من النكاح من سبب أو نسب أو غيرهما، ولقائل أن يقول: لا يدخل فيه تزويج الزانية من المؤمن، كما لا يدخل فيه تزويجها من الأخ وابن الأخ، ونقول: إن للزنا تأثيرًا في الفرقة ما ليس لغيره، ألا ترى أنه إذا قذفها بالزنا يتبعها بالفرقة على بعض الوجوه، ولا يجب مثل ذلك في سائر ما يوجب الحد، ولأن من حق الزنا أن يورث العار ويؤثر في الفراش ففارق غيره. ثم احتج هؤلاء الذين يدعون هذا النسخ بأنه سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل زنى بامرأة فهل له أن يتزوجها؟ فأجازه ابن عباس وشَبَّهه بمن سرق ثمر شجرة ثم اشتراه، وعن النبي ﷺ أنه سئل عن ذلك فقال: «أَوَّلُهُ سِفَاحٌ، وَآخِرُهُ نِكَاحٌ»(١) والحرام لا يحرم

(١) أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ٣٣٨) من طريق يزيد بن زياد عن الزهري عن عروة عن عائشة... به، وأورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٥/ ١٣٧)، وقال: الترمذي والحاكم والبيهقي من طريق الزهري، عن=

الحلال. **الوجه الرابع:** أن يُحمل النكاح على الوطء، والمعنى أن الزاني لا يطأ حين يزني إلا زانية أو مشركة وكذا الزانية ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وحرم الزنا على المؤمنين، وعلى هذا تأويل أبي مسلم. قال الزجاج: هذا التأويل فاسد من وجهين: الأول: أنه ما ورد النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج، ولم يرد ألبتة بمعنى الوطء. الثاني: أن ذلك يُخرج الكلام عن الفائدة؛ لأنا لو قلنا المراد أن الزاني لا يطأ إلا الزانية فالإشكال عائد؛ لأنا نرى أن الزاني قد يطأ العفيفة حين يتزوج بها، ولو قلنا: المراد أن الزاني لا يطأ إلا الزانية حين يكون وطؤه زنا فهذا الكلام لا فائدة فيه. وهذا آخر الكلام في هذا المقام.

السؤال الثالث: أي فرق بين قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ وبين قوله: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ﴾؟ والجواب: الكلام الأول يدل على أن الزاني لا يرغب إلا في نكاح الزانية وهذا لا يمنع من أن يرغب في نكاح الزانية غير الزاني، فلا جرم بَيَّن ذلك بالكلام الثاني.

السؤال الرابع: لمَ قُدمت الزانية على الزاني في الآية المتقدمة وههنا بالعكس الجواب: سبقت تلك الآية لعقوبتها على جنايتها، والمرأة هي المادة في الزنا، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لأنه هو الراغب والطالب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

اعلم أن ظاهر الآية لا يدل على الشيء الذي به رموا المحصنات، وذكر الرمي لا يدل على الزنا، إذ قد يرميها بسرقة وشرب خمر وكفر، بل لا بد من قرينة دالة على التعيين، وقد أجمع

=عروة، عن عائشة بلفظ: «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة».

وفي إسناده يزيد بن زياد الدمشقي، وهو ضعيف، قال فيه البخاري: منكر الحديث. وقال النسائي: متروك. ورواه وكيع عنه موقوفًا، وهو أصح. قاله الترمذي، قال: وقد روي عن غير واحد من الصحابة أنهم قالوا ذلك، وقال البيهقي في السنن: رواية وكيع أقرب إلى الصواب، قال: ورواه رشدين، عن عُقيل، عن الزهري، ورشدين ضعيف أيضًا، ورويناه عن علي مرفوعًا: «ادرءوا الحدود، ولا ينبغي للإمام أن يعطل الحدود» وفيه المختار بن نافع، وهو منكر الحديث، قاله البخاري، قال: وأصح ما فيه حديث سفيان الثوري، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود قال: «ادرءوا الحدود بالشبهات، ادفعوا القتل عن المسلمين ما استطعتم».

وروي عن عقبة بن عامر ومعاذ أيضًا موقوفًا، وروي منقطعًا وموقوفًا على عمر. قلت: ورواه أبو محمد بن حزم في كتاب الإيصال من حديث عمر موقوفًا عليه بإسناد صحيح، وفي ابن أبي شيبة من طريق إبراهيم النخعي، عن عمر: (لأن أخطئ في الحدود بالشبهات، أحب إليَّ من أن أقيمها بالشبهات). وفي مسند أبي حنيفة للحارثي من طريق مقسم عن ابن عباس بلفظ الأصل مرفوعًا.

العلماء على أن المراد: الرمي بالزنا، وفي الآية أقوال تدل عليه: أحدها: تقدم ذكر الزنا. وثانيها: أنه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف، فدل ذلك على أن المراد بالرمي رميهن بضد العفاف. وثالثها: قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يعني على صحة ما رموهن به، ومعلوم أن هذا العدد من الشهود غير مشروط إلا في الزنا. ورابعها: انعقاد الإجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا، فوجب أن يكون المراد هو الرمي بالزنا. إذا عرفت هذا فالكلام في هذه الآية يتعلق بالرمي والرامي والمرمي:

البحث الأول: في الرمي، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ألفاظ القذف: تنقسم إلى صريح وكناية وتعريض: فالصريح أن يقول: يا زانية أو زنيت أو زنى قُبلك أو دُبرك، ولو قال: زنى بدنك فيه وجهان: أحدها: أنه كناية كقوله: زنى يدك، لأن حقيقة الزنا من الفرج فلا يكون من سائر البدن إلا المعونة. والثاني: وهو الأصح أنه صريح، لأن الفعل إنما يصدر من جملة البدن. والفرج آلة في الفعل. أما الكنايات فمثل أن يقول: يا فاسقة، يا فاجرة، يا خبيثة، يا مؤاجرة، يا بنة الحرام، أو امرأتي لا ترد يد لامس، وبالعكس. فهذا لا يكون قذفًا إلا أن يريده، وكذلك لو قال لعربي: يا نبطي، فهذا لا يكون قذفًا إلا أن يريده، فإن أراد به القذف فهو قذف لأم المقول له وإلا فلا، فإن قال: عنيت به نبطي الدار واللسان. وادعت أم المقول له أنه أراد القذف، فالقول قوله مع يمينه. أما التعريض فليس بقذف وإن أراده، وذلك مثل قوله: يا بن الحلال، أما أنا فما زنيت وليست أمي زانية. وهذا قول الشافعي وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وزفر وابن شبرمة والثوري والحسن بن صالح رحمهم الله. وقال مالك رحمه الله: يجب الحد فيه. وقال أحمد وإسحاق: هو قذف في حال الغضب دون حال الرضا. لنا: أن التعريض بالقذف محتمل للقذف ولغيره، فوجب أن لا يجب الحد؛ لأن الأصل براءة الذمة فلا يرجع عنه بالشك، وأيضًا فلقوله عليه السلام: «ادرءوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ»[1] ولأن الحدود شُرعت على خلاف النص النافي للضرر. والإيذاء الحاصل

---

(١) قلت: غريب بهذا اللفظ: وفي معجم الطبراني وسنن الدارقطني من حديث عثمان بن عبد الرحمن الزهري عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة وأراد أن يتزوجها أو ابنتها فقال: (الحرام لا يحرم الحلال). انتهى، زاد الطبراني (إنما يحرم ما كان بنكاح حلال) انتهى. ورواه ابن حبان في كتاب الضعفاء وأعله بعثمان هذا وقال: إنه كان يروى عن الثقات الموضوعات لا يجوز الاحتجاج به. انتهى. ورواه البيهقي في (سننه الكبرى) (٧/ ١٥٥)، حديث رقم (١٣٦٥٦) من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس... به موقوفًا، والدارقطني في (سننه) (٣/ ٢٦٨)، حديث رقم (٩١) من طريق أبي هاشم الرقاشي عن سعيد بن جبير قال: سئل ابن عباس... فذكره، وابن الجعد (١/ ٦٨)، حديث رقم (٣٦٥) من طريق حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به، وابن أبي شيبة في (المصنف) (٣/ ٥٢٧)، حديث رقم (١٦٧٧٩) من طريق أبي هاشم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به، ورواه أيضًا في (٣/ ٥٢٨)، حديث رقم (١٦٧٨٢) من طريق عبد الله بن بشير عن أبي الأشعب عن ابن عمر... به موقوفًا، ورواه البيهقي في (سننه الصغرى) (٥/ ٢٠٧)، =

بالتصريح فوق الحاصل بالتعريض. واحتج المخالف بما روى الأوزاعي عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال: كان عمر يضرب الحد في التعريض. وروي أيضًا أن رجلين استبا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال أحدهما للآخر: والله ما أنا بزانٍ ولا أمي بزانية. فاستشار عمر الناس في ذلك، فقال قائل: مدح أباه وأمه. وقال آخرون: قد كان لأبيه وأمه مدح غير هذا. فجلده عمر ثمانين جلدة. والجواب: أن في مشاورة عمر الصحابة في حكم التعريض دلالة على أنه لم يكن عندهم فيه توقيف، وأنهم قالوا رأيًا واجتهادًا.

المسألة الثانية: في تعدد القذف: اعلم أنه إما أن يقذف شخصًا واحدًا مرارًا أو يقذف جماعة: فإن قذف واحدًا مرارًا نُظر إن كان أراد بالكل زنية واحدة بأن قال: زنيتِ بعمرو. قاله مرارًا لا يجب إلا حد واحد، ولو أنشأ الثاني بعدما حُد للأول عُزر للثاني. وإن قذفها بزنيات مختلفة بأن قال: زنيتِ بزيد. ثم قال: زنيت بعمرو. فهل يتعدد الحد أم لا؟ فيه قولان: أحدهما: يتعدد اعتبارًا باللفظ ولأنه من حقوق العباد فلا يقع فيه التداخل كالديون. والثاني: وهو الأصح يتداخل فلا يجب فيه إلا حد واحد لأنهما حدان من جنس واحد لمستحق واحد، فوجب أن يتداخل كحدود الزنا. ولو قذف زوجته مرارًا، فالأصح أنه يكتفي بلعان واحد، سواء قلنا يتعدد الحد أو لا يتعدد. أما إذا قذف جماعة معدودين، نُظر، إن قذف كل واحد بكلمة يجب عليه لكل واحد حد كامل، وعند أبي حنيفة رحمه الله: لا يجب عليه إلا حد واحد. واحتج أبو بكر الرازي على قول أبي حنيفة بالقرآن والسنة والقياس:

أما القرآن فهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ والمعنى أن كل أحد يرمي المحصنات وجب عليه الجلد، وذلك يقتضي أن قاذف جماعة من المحصنات لا يُجلد أكثر من ثمانين، فمن أوجب على قاذف جماعة المحصنات أكثر من حد واحد فقد خالف الآية.

وأما السنة: فما روى عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي عليه السلام: «لاَ، الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»[(١)] فلم يوجب النبي ﷺ على هلال إلا حدًّا واحدًا مع قذفه لامرأته ولشريك بن سحماء، إلى أن نزلت آية اللعان فأقيم اللعان في الزوجات مقام الحد في الأجنبيات.

وأما القياس: فهو أن سائر ما يوجب الحد إذا وُجد منه مرارًا لم يجب إلا حد واحد، كمن زنى مرارًا أو شرب مرارًا أو سرق مرارًا، فكذا هاهنا، والمعنى الجامع دفع مزيد الضرر. والجواب

=حديث رقم (١٩٠٧) من طريق يزيد بن هارون أخبرنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس... فذكره. وروينا في معناه عن عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله وأبي هريرة. ا.هـ. والصواب موقوف.

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٢/ ٩٤٩)، حديث رقم (٢٥٢٦)، والترمذي في (سننه) (٥/ ٣٣١)، حديث رقم (٣١٧٩)، وابن ماجه في (سننه) (١/ ٦٦٨)، حديث رقم (٢٠٦٧)، جميعًا من طريق عكرمة عن ابن عباس... به.

عن الأول: أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ صيغة جمع، وقوله: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ صيغة جمع، والجمع إذا قوبل بالجمع يقابل الفرد بالفرد فيصير المعنى: كل من رمى محصنًا واحدًا وجب عليه الجد، وعند ذلك يظهر وجه تمسك الشافعي رحمه الله بالآية، ولأن قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ ... ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ يدل على ترتيب الجلد على رمي المحصنات، وترتيب الحكم على الوصف لا سيما إذا كان مناسبًا فإنه مُشعر بالعلية، فدلت الآية على أن رمي المحصن من حيث إنه هذا المسمى يوجب الجلد إذا ثبت هذا فنقول: إذا قذف واحدًا صار ذلك القذف موجبًا للحد، فإذا قذف الثاني وجب أن يكون القذف الثاني موجبًا للحد أيضًا، ثم موجب القذف الثاني لا يجوز أن يكون هو الحد الأول لأن ذلك قد وجب بالقذف الأول وإيجاب الواجب محال، فوجب أن يحد بالقذف الثاني حدًّا ثانيًا، أقصى ما في الباب أن يورد على هذه الدلالة حدود الزنا، لكنا نقول: ترك العمل هناك بهذا الدليل لأن حد الزنا أغلظ من حد القذف، وعند ظهور الفارق يتعذر الجمع.

وأما السنة فلا دلالة فيها على هذه المسألة؛ لأن قذفهما بلفظ واحد، ولنا في هذه المسألة تفصيل سيأتي إن شاء الله.

وأما القياس ففاسد لأن حد القذف حق الآدمي. بدليل أنه لا يحد إلا بمطالبة المقذوف وحقوق الآدمي لا تتداخل بخلاف حد الزنا، فإنه حق الله تعالى، هذا كله إذا قذف جماعة كل واحد منهم بكلمة على حدة. أما إذا قذفهم بكلمة واحدة فقال: أنتم زناة أو زنيتم، ففيه قولان أصحهما وهو قوله في (الجَديد): يجب لكل واحد حد كامل لأنه من حقوق العباد فلا يتداخل، ولأنه أدخل على كل واحد منهم معرة فصار كما لو قذفهم بكلمات. وفي (القَديم) لا يجب للكل إلا حد واحد اعتبارًا باللفظ، فإن اللفظ واحد. والأول أصح لأنه أوفق لمفهوم الآية. فعلى هذا لو قال لرجل: يا بن الزانيين يكون قذفًا لأبويه بكلمة واحدة فعليه حدان.

المسألة الثالثة: فيما يبيح القذف: القذف ينقسم إلى محظور ومباح وواجب: وجملة الكلام أنه إذا لم يكن ثَم ولد يريد نفيه فلا يجب، وهل يباح أم لا؟ ينظر إن رآها بعينه تزني أو أقرت هي على نفسها ووقع في قلبه صدقها أو سمع ممن يثق بقوله أو لم يسمع لكنه استفاض فيما بين الناس أن فلانًا يزني بفلانة، وقد رآه الزوج يخرج من بيتها أو رآه معها في بيت، فإنه يباح له القذف لتأكد التهمة، ويجوز أن يمسكها ويستر عليها، لما روي أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّ لِي امْرَأَةً لاَ تَرُدُّ يَدَ لاَمِسٍ. قَالَ: «طَلِّقْهَا». قَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا. قَالَ: «فَأَمْسِكْهَا» أما إذا سمعه ممن لا يوثق بقوله أو استفاض من بين الناس ولكن الزوج لم يره معها أو بالعكس، لم يحل له قذفها؛ لأنه قد يذكره من لا يكون ثقة فينتشر ويدخل بيتها خوفًا من قاصد أو لسرقة أو لطلب فجور فتأبى المرأة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١]. أما إذا كان ثَم ولد يريد نفيه، نُظر: فإن تيقن أنه ليس منه بأن لم يكن وطئها الزوج أو وطئها لكنها أتت به لأقل من ستة

أشهر من وقت الوطء أو لأكثر من أربع سنين، يجب عليه نفيه باللعان لأنه ممنوع من استلحاق نسب الغير كما هو ممنوع من نفي نسبه، لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلَتْ عَلَى قَوْمٍ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَلَيْسَتْ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ وَلَمْ يُدْخِلْهَا اللَّهُ جَنَّتَهُ»(١) فلما حرم على المرأة أن تُدخل على قوم من ليس منهم كان الرجل أيضًا كذلك. أما إن احتمل أن يكونَ منه بأن أتت به لأكثر من ستة أشهر من وقت الوطء ولدون أربع سنين، نُظر: إن لم يكن قد استبرأها بحيضة، أو استبرأها وأتت به لدون ستة أشهر من وقت الاستبراء، لا يحل له القذف والنفي وإن اتهمها بالزنا، قال النبي ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، احْتَجَبَ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»(٢) فإن استبرأها وأتت به لأكثر من ستة أشهر من وقت الاستبراء يباح له القذف والنفي، والأَوْلى أن لا يفعل لأنها قد ترى الدم على الحبل. وإن أتت امرأته بولد لا يشبهه بأن كانا أبيضين فأتت به أسود، نُظر: إن لم يكن يتهمها بالزنا فليس له نفيه؛ لما روى أبو هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ. فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قَالَ نَعَمْ. قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «فَهَلْ فِيهَا أَوْرَقُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَكَيْفَ ذَاكَ؟» قَالَ: نَزَعَهُ عِرْقٌ قَالَ: «فَلَعَلَّ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ»(٣) وإن كان يتهمها بزنا أو يتهمها

---

(١) إسناده جيد: أخرجه أبو داود في كتاب (الطلاق)، باب: (التغليظ في الانتفاء) (٢/ ٩٧٣)، حديث رقم (٢٢٦٣)، والنسائي في كتاب (الطلاق)، باب: (التغليظ في الانتفاء من الولد) (٦/ ٤٩٠)، حديث رقم (١٤٨١) من طريق ابن الهاد... به، وابن ماجه في كتاب (الفرائض)، باب: (من أنكر ولده) (٣/ ٩١٦)، حديث رقم (٢٧٤٣) من طريق يحيى بن حرب... به، والدارمي في كتاب (النكاح)، باب: (من جحد ولده وهو يعرفه) (٢/ ٢٠٤)، حديث رقم (٢٢٣٨)، وابن حبان في (صحيحه) (٤/ ٢٩٣)، حديث رقم (١٣٣٥) موارد، والبيهقي في (السنن) (٧/ ٤٠٣)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، جميعًا من طرق عن سعيد بن أبي سعيد العبدي عن أبي هريرة... به، وللحديث شاهد عند أحمد في (مسنده) (٢/ ٢٦) من طريق وكيع عن أبيه عن عبد الله بن أبي المجالد عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا، فضحه الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، قصاص بقصاص». انتهى. وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٢) إسناده جيد: أخرجه أبو داود في كتاب (الطلاق)، باب: (التغليظ في الانتفاء) (٢/ ٢٨٧)، حديث رقم (٢٢٦٣) من طريق عبد الله بن يونس... به، والنسائي في كتاب (الطلاق)، باب: (التغليظ في الانتفاء) (٦/ ٤٩٠)، حديث رقم (٣٤٨١) من طريق عبد الله بن يونس... به، وابن ماجه في كتاب (الفرائض)، باب: (من أنكر ولده) (٢/ ٩١٦)، حديث رقم (٢٧٤٣)، والدارمي في كتاب (النكاح)، باب: (من جحد ولده وهو يعرفه) (١/ ٦٤٠)، حديث رقم (٢٢٣٨).

وفي الزوائد: هذا إسناده ضعيف، فيه يحيى بن حرب وهو مجهول، قاله الذهبي في الكاشف، كلاهما (عبد الله، يحيى) عن سعيد بن أبي سعيد، وفي إسناده عبد الله بن يونس قال الذهبي: ما روى عن سوى يزيد بن الهاد. وقال الحافظ في التقريب: مجهول الحال مقبول. وأخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣) وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي وللحديث شاهد عن ابن عمر، وأخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ٢٦) وإسناده صحيح رجاله ثقات.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الطلاق)، باب: (إذا عرَّض بنفي الولد) (٩/ ٣٥١)، حديث رقم=

برجل فأتت بولد يشبهه هل يباح له نفيه فيه وجهان: أحدهما: لا لأن العرق ينزع. والثاني: له ذلك لأن التهمة قد تأكدت بالشبهة.

البحث الثاني: في الرامي، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذا قذف الصبي أو المجنون امرأته أو أجنبيًّا فلا حد عليهما ولا لعان، لا في الحال ولا بعد البلوغ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ» ولكن يعزران للتأديب إن كان لهما تمييز، فلو لم تتفق إقامة التعزير على الصبي حتى بلغ، قال القفال: يسقط التعزير لأنه كان للزجر عن إساءة الأدب، وقد حدث زاجر أقوى وهو البلوغ.

المسألة الثانية: الأخرس إذا كانت له إشارة مفهومة أو كتابة معلومة، وقذف بالإشارة أو بالكناية لزمه الحد، وكذلك يصح لعانه بالإشارة والكناية. وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه. وقول الشافعي رحمه الله أقرب إلى ظاهر الآية لأن من كتب أو أشار إلى القذف فقد رمى المحصنة وألحق العار بها، فوجب اندراجه تحت الظاهر، ولأنا نقيس قذفه ولعانه على سائر الأحكام.

المسألة الثالثة: اختلفوا فيما إذا قذف العبد حرًّا: فقال الشافعي وأبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر وعثمان: القن عليه أربعون جلدة، روى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عليًّا عليه السلام قال: «يُجْلَدُ الْعَبْدُ فِي الْقَذْفِ أَرْبَعِينَ» وعن عبد الله بن عمر أنه قال: «أَدْرَكْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَكُلُّهُمْ يَضْرِبُونَ الْمَمْلُوكَ فِي الْقَذْفِ أَرْبَعِينَ»[1] وقال الأوزاعي: يُجلد ثمانين. وهو مروي عن ابن مسعود، وروي أنه جلد عمر بن عبد العزيز العبد في الفرية ثمانين. ومدار المسألة على حرف واحد وهو أن هذه الآية صريحة في إيجاب الثمانين فمن رد هذا الحد إلى أربعين فطريقه أن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] فنص على أن حد الأمة في الزنا نصف حد الحرة، ثم قاسوا العبد على الأمة في تنصيف حد الزنا، ثم قاسوا تنصيف حد قذف العبد على تنصيف حد الزنا في حقه، فرجع حاصل الأمر إلى تخصيص عموم الكتاب بهذا القياس.

المسألة الرابعة: اتفقوا على دخول الكافر تحت عموم قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ لأن الاسم يتناوله ولا مانع، فاليهودي إذا قذف المسلم يُجلد ثمانين، والله أعلم.

البحث الثالث: في المَرمى وهي المحصنة: قال أبو مسلم: اسم الإحصان يقع على المتزوجة وعلى العفيفة وإن لم تتزوج؛ لقوله تعالى في مريم: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١] وهو

=(٥٣٠٥)، ومسلم في كتاب (اللعان) (٢/ ١٨/ ١١٣٧)، وأبو داود في كتاب (الطلاق)، باب: (إذا شك في الولد) (٢/ ٩٧١)، حديث رقم (٢٢٦٠)، جميعًا من طريق سفيان... به.

(١) موقوف: أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ٢٥١)، وعبد الرزاق في (مصنفه) (٧/ ٤٣٧)، حديث رقم (١٣٧٩٣)، كلاهما من طريق عبد الله بن ذكوان أبي الزناد حدثني عبد الله بن عامر بن ربيعة... فذكره.

مأخوذ من منع الفرج، فإذا تزوجت منعته إلا من زوجها، وغير المتزوجة تمنعه كل أحد.

ويتفرع عليه مسائل:

المسألة الأولى: ظاهر الآية يتناول جميع العفائف، سواء كانت مسلمة أو كافرة، وسواء كانت حرة أو رقيقة، إلا أن الفقهاء قالوا: شرائط الإحصان خمسة: الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا، وإنما اعتبرنا الإسلام لقوله عليه السلام: «مَنْ أَشْرَكَ باللَّه فَلَيْسَ بِمُحْصَنٍ»[١] وإنما اعتبرنا العقل والبلوغ لقوله عليه السلام: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ» وإنما اعتبرنا الحرية لأن العبد ناقص الدرجة فلا يعظم عليه التعيير بالزنا، وإنما اعتبرنا العفة عن الزنا لأن الحد مشروع لتكذيب القاذف، فإذا كان المقذوف زانيًا فالقاذف صادق في القذف. وكذلك إذا كان المقذوف وطئ امرأة بشبهة أو نكاح فاسد لأن فيه شبهة الزنا كما فيه شبهة الحل، فكما أن إحدى الشبهتين أسقطت الحد عن الواطئ، فكذا الأخرى تُسقطه عن قاذفه أيضًا، ثم نقول: من قذف كافرًا أو مجنونًا أو صبيًّا أو مملوكًا، أو من قد رمى امرأة، فلا حد عليه، بل يُعزر للأذى، حتى لو زنى في عنفوان شبابه مرة ثم تاب وحسن حاله وشاخ في الصلاح، لا يحد قاذفه، وكذلك لو زنى كافر أو رقيق ثم أسلم وعتق وصلح حاله، فقذفه قاذف لا حد عليه، بخلاف ما لو زنى في حال صغره أو جنونه ثم بلغ أو أفاق فقذفه قاذف يحد؛ لأن فعل الصبي والمجنون لا يكون زنًا، ولو قذف محصنًا فقبل أن يحد القاذف زنا المقذوف سقط الحد عن قاذفه؛ لأن صدور الزنا يورث ريبة في حاله فيما مضى لأن الله تعالى كريم لا يهتك ستر عبده في أول ما يرتكب المعصية، فبظهوره يعلم أنه كان متصفًا به من قبل، روي أن رجلاً زنى في عهد عمر، فقال: والله ما زنيت إلا هذه. فقال عمر: كذبت إن الله لا يفضح عبده في أول مرة[٢]، وقال المزني وأبو ثور: الزنا الطارئ لا يُسقط الحد عن القاذف.

المسألة الثانية: قال الحسن البصري: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ يقع على الرجال والنساء. وسائر العلماء أنكروا ذلك لأن لفظ المحصنات جمع لمؤنث فلا يتناول الرجال، بل الإجماع دل على أنه لا فرق في هذا الباب بين المحصنين والمحصنات.

المسألة الثالثة: رمي غير المحصنات لا يوجب الحد بل يوجب التعزير، إلا أن يكون المقذوف معروفًا بما قُذف به فلا حد هناك ولا تعزير. فهذا مجموع الكلام في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾.

أما قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ ففيه بحثان:

البحث الأول: اعلم أن الله تعالى حكم في القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء بثلاثة أحكام: أحدها: جلد ثمانين. وثانيها: بطلان الشهادة. وثالثها: الحكم بفسقه إلى أن يتوب. واختلف

(١) تقدم.

(٢) لم أجده.

أهل العلم في كيفية ثبوت هذه الأحكام، بعد اتفاقهم على وجوب الحد عليه بنفس القذف عند عجزه عن إقامة البينة على الزنا، فقال قائلون: قد بطلت شهادته ولزمه سمة الفسق قبل إقامة الحد عليه. وهو قول الشافعي والليث بن سعد. وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر: شهادته مقبولة ما لم يُحد. قال أبو بكر الرازي: وهذا مقتضى قولهم إنه غير موسوم بسمة الفسق ما لم يقع به الحد؛ لأنه لو لزمته سمة الفسق لما جازت شهادته إذ كانت سمة الفسق مبطلة لشهادة من وُسم بها. ثم احتج أبو بكر على صحة قول أبي حنيفة رحمه الله بأمور: أحدها: قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ ظاهر الآية يقتضي ترتب وجوب الحد على مجموع القذف والعجز عن إقامة الشهادة، فلو علقنا هذا الحكم على القذف وحده قدح ذلك في كونه معلقًا على الأمرين وذلك بخلاف الآية، وأيضًا فوجوب الجلد حكم مرتب على مجموع أمرين فوجب أن لا يحصل بمجرد حصول أحدهما، كما لو قال لامرأتهُ إن دخلتِ الدار وكلمت فلانًا فأنت طالق. فأتت بأحد الأمرين دون الآخر لم يوجد الجزاء، فكذا هاهنا. وثانيها: أن القاذف لا يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه، وإذا كان كذلك وجب أن لا ترد شهادته بمجرد القذف. بيان الأول من ثلاثة أوجه:

الأول: أن مجرد قذفه لو أوجب كونه كاذبًا لوجب أن لا تُقبل بعد ذلك بينته على الزنا إذ قد وقع الحكم بكذبه، والحكم بكذبه في قذفه حكم ببطلان شهادة من شهد بصدقه في كون المقذوف زانيًا، ولما أجمعوا على قبول بينته ثبت أنه لم يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه.

الثاني: أن قاذف امرأته بالزنا لا يُحكم بكذبه بنفس قذفه، وإلا لما جاز إيجاب اللعان بينه وبين امرأته، ولما أُمر بأن يشهد بالله أنه لصادق فيما رماها به من الزنا مع الحكم بكذبه. ولما قال النبي ﷺ بعدما لاعن بين الزوجين «اللَّه يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟»(١) فأخبر أن أحدهما بغير تعيين هو الكاذب ولم يحكم بكذب القاذف، وفي ذلك دليل على أن نفس القذف لا يوجب كونه كاذبًا. الثالث: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] فلم يحكم بكذبهم بنفس القذف فقط. فثبت بهذه الوجوه أن القاذف غير محكوم عليه بكونه كاذبًا بمجرد القذف، وإذا كان كذلك وجب أن لا تبطل شهادته بمجرد القذف لأنه كان عدلاً ثقة والصادر عنه غير معارض، ولما كان يجب أن يبقى على عدالته فوجب أن يكون مقبول الشهادة.

وثالثها: قوله عليه الصلاة والسلام: «**الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ مَحْدُودًا فِي قَذْفٍ**» أخبر النبي ﷺ ببقاء عدالة القاذف ما لم يحد.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الطلاق)، باب: (صداق الملاعنة) (٩/ ٣٦٦)، حديث رقم (٥٣١١)، ومسلم في كتاب (اللعان) (٢/ ٦/ ١١٣٢)، وأبو داود في كتاب (الطلاق)، باب: (في اللعان) (٢/ ٩٧١)، حديث رقم (٢٢٥٨)، جميعًا من طريق أيوب... به.

ورابعها: ما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هلال بن أمية لما قذف امرأته عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله: «يُجْلَدُ هِلَالٌ، وَتَبْطُلُ شَهَادَتُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ» فأخبر أن بطلان شهادته متعلق بوقوع الجلد به، وذلك يدل على أن مجرد القذف لا يُبطل الشهادة.

وخامسها: أن الشافعي رحمه الله زعم أن شهود القذف إذا جاءوا متفرقين قُبلت شهادتهم، فإن كان القذف قد أبطل شهادته فواجب أن لا يقبلها بعد ذلك، وإن شهد معه ثلاثة لأنه قد فسق بقذفه ووجب الحكم بكذبه، وفي قبول شهادتهم إذا جاءوا متفرقين ما يلزمه أن لا تبطل شهادتهم بنفس القذف. وأما وجه قول الشافعي رحمه الله فهو أن الله تعالى رتب على القذف مع عدم الإتيان بالشهداء الأربعة أمورًا ثلاثة معطوفًا بعضها على بعض بحرف الواو، وحرف الواو لا يقتضي الترتيب، فوجب أن لا يكون بعضها مرتبًا على البعض، فوجب أن لا يكون رد الشهادة مرتبًا على إقامة الحد، بل يجب أن يثبت رد الشهادة سواء أقيم الحد عليه أو ما أقيم، والله أعلم.

البحث الثاني: في كيفية الشهادة على الزنا: قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾[النساء: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ وقال سعد بن عبادة: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ وَجَدْتُ مَعَ امْرَأَتِي رَجُلًا أُمْهِلُهُ حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ؟ قَالَ: نَعَمْ»[1] **ثم ههنا مسائل:**

المسألة الأولى: الإقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين؟ فيه قولان: أحدهما: لا يثبت إلا بأربعة كفعل الزنا. والثاني: يثبت بخلاف فعل الزنا؛ لأن الفعل يغمض الاطلاع عليه فاحتيط فيه باشتراط الأربع، والإقرار أمر ظاهر فلا يغمض الإطلاع عليه.

المسألة الثانية: إذا شهدوا على فعل الزنا يجب أن يذكروا الزاني ومن زنى بها؛ لأنه قد يراه على جارية له فيظن أنها أجنبية، ويجب أن يشهدوا أنا رأينا ذكَره يدخل في فرجها دخول الميل في المكحلة، فلو شهدوا مطلقًا أنه زنى لا يثبت؛ لأنهم ربما يرون المفاخذة زنا، بخلاف ما لو قذف إنسانًا فقال (زنيت) يجب الحد ولا يستفسر، ولو أقر على نفسه بالزنا، هل يشترط أن يستفسر؟ فيه وجهان: أحدهما: نعم كالشهود. والثاني: لا يجب كما في القذف.

المسألة الثالثة: قال الشافعي رحمه الله: لا فرق بين أن يجيء الشهود متفرقين أو مجتمعين. وقال أبو حنيفة رحمه الله: إذا شهدوا متفرقين لا يثبت، وعليهم حد القذف. حجة الشافعي رحمه الله من وجوه: **الأول:** أن الإتيان بأربعة شهداء قدر مشترك بين الإتيان بهم مجتمعين أو

---

(١) **صحيح:** أخرجه مسلم في كتاب (اللعان)، باب: (اللعان) (٢/ ١٥/ ١١٣٥)، وأبو داود في كتاب (الديات)، باب: (فيمن وجد مع أهله رجلاً أيقتله) (٤/ ١٩٤٣)، حديث رقم (٤٥٣٣)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٤٦٥)، ومالك في (الموطأ)، كتاب (الأقضية)، باب: (القضاء فيمن وجد مع امرأته رجلًا) (٢/ ٧٣٧)، حديث رقم (١٧)، جميعًا من طريق مالك . . . به.

متفرقين، واللفظ الدال على ما به الاشتراك لا إشعار له بما به الامتياز، فالآتي بهم متفرقين يكون عاملا بالنص فوجب أن يخرج عن العهدة. **الثاني**: كل حكم يثبت بشهادة الشهود إذا جاءوا مجتمعين يثبت إذا جاءوا متفرقين كسائر الأحكام، بل هذا أَوْلى لأنهم إذا جاءوا متفرقين كان أبعد عن التهمة، وعن أن يتلقن بعضهم من بعض، فلذلك قلنا: إذا وقعت ريبة للقاضي في شهادة الشهود فَرَّقهم ليظهر على عورة إن كانت في شهادتهم. **الثالث**: أنه لا يشترط أن يشهدوا معًا في حالة واحدة، بل إذا اجتمعوا عند القاضي وكان يقدم واحد بعد آخر ويشهد فإنه تقبل شهادتهم، فكذا إذا اجتمعوا على بابه، ثم كان يدخل واحد بعد واحد. حجة أبي حنيفة رحمه الله من وجهين: الأول: أن الشاهد الواحد لما شهد فقد قذفه ولم يأت بأربعة من الشهداء، فوجب عليه الحد لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أقصى ما في الباب أنهم عبروا عن ذلك القذف بلفظ الشهادة، وذلك لا عبرة به لأنه يؤدي إلى إسقاط حد القذف رأسًا؛ لأن كل قاذف لا يعجزه لفظ الشهادة، فيجعل ذلك وسيلة إلى إسقاط الحد عن نفسه، ويحصل مقصوده من القذف. الثاني: ما روي «أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ شَهِدَ عَلَيْهِ بِالزِّنَا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَرْبَعَةٌ: أَبُو بَكْرَةَ وَنَافِعٌ وَنُفَيْعٌ وَقَالَ زِيَادٌ وَكَانَ رَابِعَهُمْ: رَأَيْتُ إِسْتًا تَنْبُو وَنَفَسًا يَعْلُو وَرِجْلاَهَا عَلَى عَاتِقِهِ كَأُذُنَيْ حِمَارٍ، وَلاَ أَدْرِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ. فَجَلَدَ عُمَرُ الثَّلاَثَةَ وَلَمْ يَسْأَلْ هَلْ مَعَهُمْ شَاهِدٌ آخَرُ»[1] فلو قبل بعد ذلك شهادة غيرهم لتوقف؛ لأن الحدود مما يُتوقف فيها ويحتاط.

المسألة الرابعة: لو شهد على الزنا أقل من أربعة لا يثبت الزنا، وهل يجب حد القذف على الشهود؟ فيه قولان: أحدهما: لا يجب لأنهم جاءوا مجيء الشهود، ولأنا لو حددنا لانسد باب الشهادة على الزنا، لأن كل واحد لا يأمن أن لا يوافقه صاحبه فيلزمه الحد. والقول الثاني: وهو الأصح، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله: يجب عليهم الحد، والدليل عليه الوجهان اللذان ذكرناهما في المسألة الثالثة.

المسألة الخامسة: إذا قذف رجل رجلاً فجاء بأربعة فساق فشهدوا على المقذوف بالزنا. قال أبو حنيفة رحمه الله: يسقط الحد عن القاذف ولا يجب الحد على الشهود. وقال الشافعي رحمه الله في أحد قوليه: يحدون. وجه قول أبي حنيفة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ وهذا قد أتى بأربعة شهداء فلا يلزمه الحد. ولأن الفاسق من أهل الشهادة وقد

---

(١) أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٥/ ١٦١)، حديث رقم (٢٠٦٨)، وقال الحاكم في المستدرك والبيهقي وأبو نعيم في المعرفة، وأبو موسى في الذيل من طرق وعلّق البخاري طرفًا منه وجميع الروايات متفقة على أنهم أبو بكرة، ونافع، وشبل بن معبد، وقول المصنف: (نفيع) بدل (شبل) وهم، فنفيع اسم أبي بكرة لم يختلف في ذلك أصحاب الحديث، وأفاد الواقدي أن ذلك كان سنة سبع عشرة، وكان المغيرة أميرًا يومئذٍ على البصرة، فعزله عمر وولى أبا موسى، وأفاد البلاذري: أن المرأة التي رُمي بها: أم جميل بنت محجن بن الأفقم الهلالية، وقيل: إن المغيرة كان تزوج بها سرًّا وكان عمر لا يجيز نكاح السر، ويوجب الحد على فاعله، فلهذا سكت المغيرة، وهذا لم أره منقولاً بإسناد، وإن صح كان عذرًا حسنا لهذا الصحابي.

وُجدت شرائط شهادة الزنا من اجتماعهم عند القاضي، إلا أنه لم تُقبل شهادتهم لأجل التهمة، فكما اعتبرنا التهمة في نفي الحد عن المشهود عليه فكذلك وجب اعتبارها في نفي الحد عنهم. ووجه قول الشافعي رحمه الله أنهم غير موصوفين بالشرائط المعتبرة في قبول الشهادة فخرجوا عن أن يكونوا شاهدين، فبقوا محض القاذفين. وهاهنا آخر الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المخاطب بقوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ هو الإمام، على ما بيناه في آية الزنا، أو المالك، على مذهب الشافعي، أو رجل صالح ينصبه الناس عند فقد الإمام.

المسألة الثانية: خُص من عموم هذه الآية صور: أحدها: الوالد يقذف ولده أو أحدًا من نوافله، فلا يجب عليه الحد، كما لا يجب عليه القصاص بقتله. الثانية: القاذف إذا كان عبدًا فالواجب جلد أربعين، وكذا المكاتب وأم الولد، ومَن بعضه حر وبعضه رقيق فحدهم حد العبيد. الثالثة: من قذف رقيقة عفيفة أو من زنت في قديم الأيام ثم تابت، فهي بموجب اللغة محصنة، ومع ذلك لا يجب الحد بقذفها.

المسألة الثالثة: قالوا: أشد الضرب في الحدود ضرب الزنا، ثم ضرب شرب الخمر، ثم ضرب القاذف؛ لأن سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب، إلا أنه عوقب صيانة للأعراض وزجرًا عن هتكها.

المسألة الرابعة: قال مالك والشافعي: حد القذف يورث، فإذا مات المقذوف قبل استيفاء الحد وقبل العفو، يثبت لوارثه حد القذف، وكذلك إذا كان الواجب بقذفه التعزير، فإنه يورث عنه، وكذا لو أنشأ القذف بعد موت المقذوف ثبت لوارثه طلب الحد. وعند أبي حنيفة رحمه الله: حد القذف لا يورث ويسقط بالموت. حجة الشافعي رحمه الله أن حد القذف هو حق الآدمي لأنه يسقط بعفوه ولا يستوفي إلا بطلبه ويحلف فيه المدعى عليه إذا أنكر، وإذا كان حق الآدمي وجب أن يورث لقوله عليه السلام: «وَمَنْ تَرَكَ حَقًّا فَلِوَرَثَتِهِ»(١) حجة أبي حنيفة رحمه الله أنه لو كان موروثًا لكان للزوج أو الزوجة فيه نصيب، ولأنه حق ليس فيه معنى المال والوثيقة فلا يورث كالوكالة والمضاربة. والجواب عن الأول أن الأصح عند الشافعية أنه يرثه جميع الورثة كالمال، وفيه وجه ثانٍ أنه يرثه كلهم إلا الزوج والزوجة؛ لأن الزوجية ترتفع بالموت، ولأن المقصود من الحد دفع العار عن النسب، وذلك لا يلحق الزوج والزوجة.

المسألة الخامسة: إذا قذف إنسان إنسانًا بين يدي الحاكم، أو قذف امرأته برجل بعينه

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في (الفرائض)، باب: (ميراث الأسير) (١٢/ ٥٠)، حديث رقم (٦٧٦٣)، ومسلم في (الفرائض)، باب: (من ترك مالاً فلورثته) (٣/ ١٧/ ١٢٣٨)، كلاهما من طريق شعبة... به، بلفظ (مالاً).

والرجل غائب، فعلى الحاكم أن يبعث إلى المقذوف ويخبره بأن فلانًا قذفك وثبت لك حد القذف عليه. كما لو ثبت له مال على آخر وهو لا يعلمه، يلزمه إعلامه، وعلى هذا المعنى (بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أُنَيْسًا لِيُخْبِرَهَا بِأَنَّ فُلاَنًا قَذَفَهَا بِابْنِهِ، وَلَمْ يَبْعَثْهُ لِيَتَفَحَّصَ عَنْ زِنَاهَا)(١) قال الشافعي رحمه الله: وليس للإمام إذا رمى رجل بزنا أن يبعث إليه فيسأله عن ذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] وأراد به إذا لم يكن القاذف معينًا، مثل إن قال رجل بين يدي الحاكم: الناس يقولون إن فلانًا زنى فلا يبعث الحاكم إليه فيسأله.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ فاختلف الفقهاء فيه: فقال أكثر الصحابة والتابعين: إنه إذا تاب قُبلت شهادته. وهو قول الشافعي رحمه الله. وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح رحمهم الله: لا تُقبل شهادة المحدود في القذف إذا تاب. وهذه المسألة مبنية على أن قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ هل عاد إلى جميع الأحكام المذكورة أو اختص بالجملة الأخيرة؟ فعند أبي حنيفة رحمه الله الاستثناء المذكور عقيب الجمل الكثيرة مختص بالجملة الأخيرة، وعند الشافعي رحمه الله يرجع إلى الكل، وهذه المسألة قد لخصناها في أصول الفقه، ونذكر هاهنا ما يليق بهذا الموضع إن شاء الله تعالى: احتج الشافعي رحمه الله على أن شهادته مقبولة بوجوه:

أحدها: قوله عليه السلام: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ»(٢) ومن لا ذنب له مقبول

---

(١) تقدم.

(٢) **حسن لغيره**: أخرجه ابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٤١٩)، حديث رقم (٤٢٥٠)، والقضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٩٧)، حديث رقم (١٠٨)، كلاهما من طريق محمد بن عبد الله الرقاشي حدثنا وهيب بن خالد عن معمر عن عبد الكريم عن أبي عبيدة عن عبد الله. . . به.

وقال: قال السندي: الحديث ذكره صاحب الزوائد في زوائده وقال: إسناده صحيح، رجاله ثقات. ثم ضرب على ما قال، وأبقى الحديث على الحال. وفي المقاصد الحسنة رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب من طريق عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عن أبيه. رفعه. ورجاله ثقات. بل حسنه شيخنا. يعني لشواهده. وإلا فأبو عبيدة جزم غير واحد بأنه لم يسمع من أبيه.

قال الشيخ الألباني: حسن. ورواه الطبراني في (الكبير) (١٠/ ١٥٠)، حديث رقم (١٠٢٨١) من طريق معلى بن أسد العمي حدثنا وهيب عن معمر عن عبد الكريم الجزري عن أبي عبيدة عن عبد الله. . . به، والبيهقي في (سننه الكبرى) (١٠/ ١٥٤) من طريق بقية بن الوليد حدثنا محمد بن زياد الألهاني قال: سمعت أبا عتبة الخولاني. . . به، وأورده السخاوي في (المقاصد الحسنة) (١/ ٢٤٩).

وقال: رواه ابن ماجه والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه رفعه بهذا ورجاله ثقات، بل حسنه شيخنا يعني لشواهده وإلا فأبو عبيدة جزم غير واحد بأنه لم يسمع من أبيه، ومن شواهده ما أخرجه البيهقي عن أبي عنبة الخولاني وابن أبي الدنيا عن ابن عباس وعنده فيه من الزيادة (والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه، ومن آذى مسلمًا كان عليه من الإثم مثل كذا وكذا) وسنده ضعيف، فيه من لا يُعرف وروي موقوفًا قال المنذري: ولعله أشبه بل هو الراجح.

ولأبي نعيم في الحلية والطبراني في الكبير من حديث ابن أبي سعيد الأنصاري عن أبيه مرفوعًا: (الندم توبة، =

الشهادة، فالتائب يجب أن يكون أيضًا مقبول الشهادة.

وثانيها: أن الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالإجماع، فالقاذف المسلم إذا تاب عن القذف وجب أن تُقبل شهادته؛ لأن القذف مع الإسلام أهون حالاً من القذف مع الكفر، فإن قيل: المسلمون لا يألمون بسب الكفار؛ لأنهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل، فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنآن ما يلحقه بقذف مسلم مثله، فشدد على القاذف من المسلمين زجرًا عن إلحاق العار والشنآن، وأيضًا فالتائب من الكفر لا يجب عليه الحد والتائب من القذف لا يسقط عنه الحد. قلنا: هذا الفرق ملغى بقوله عليه السلام: «أَنْبِئْهُمْ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ»(١).

وثالثها: أجمعنا على أن التائب عن الكفر والقتل والزنا مقبول الشهادة، فكذا التائب عن القذف؛ لأن هذه الكبيرة ليست أكبر من نفس الزنا.

ورابعها: أن أبا حنيفة رحمه الله يقبل شهادته إذا تاب قبل الحد مع أن الحد حق المقذوف فلا يزول بالتوبة، فلأن تُقبل شهادته إذا تاب بعد إقامة الحد وقد حسنت حالته وزال اسم الفسق عنه - كان أولى.

وخامسها: أن قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء مذكور عقيب جمل، فوجب عوده إليها بأسرها، ويدل عليه أمور:

احدها: أجمعنا على أنه لو قال عبده حر وامرأته طالق إن شاء الله، فإنه يرجع الاستثناء إلى الجميع، فكذا فيما نحن فيه، فإن قيل: الفرق أن قوله: (إن شاء الله) يدخل لرفع حكم الكلام حتى لا يثبت فيه شيء، والاستثناء المذكور بحرف الاستثناء لا يجوز دخوله لرفع حكم الكلام رأسًا. ألا ترى أنه يجوز أن يقول: (أنتِ طالق إن شاء الله فلا يقع شيء)، ولو قال: (أنتِ طالق إلا طلاقًا) كان الطلاق واقعًا والاستثناء باطلاً لاستحالة دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية، فثبت أنه لا يلزم من رجوع قوله: (إن شاء الله) إلى جميع ما تقدم صحة رجوع الاستثناء بحرفه إلى جميع ما تقدم، قلنا: هذا فرق في غير محل الجمع؛ لأن إن شاء الله جاز دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية، فلا جرم جاز رجوعه إلى جميع الجمل المذكورة، وإلا جاز دخوله لرفع بعض الكلام فوجب جواز رجوعه إلى جميع الجمل على هذا الوجه، حتى يقتضي أن يخرج من كل واحد من الجمل المذكورة بعضه. وثانيها: أن الواو للجمع المطلق فقوله: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ صار الجمع كأنه ذكر معًا لا تَقَدُّم للبعض على البعض،

=والتائب من الذنب كمن لا ذنب له (وسنده ضعيف)، وللديلمي عن أنس جملة الترجمة وزاد (وإذا أحب الله عبدًا لم يضره ذنب)، ولابن أبي الدنيا من طريق الشعبي من قوله جملة الترجمة ثم تلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. وحسنه لغيره الألباني في (صحيح الترغيب) (٣/ ١٣٢).

(١) تقدم تخريجه.

فلما دخل عليه الاستثناء لم يكن رجوع الاستثناء إلى بعضها أَوْلى من رجوعه إلى الباقي إذ لم يكن لبعضها على بعض تقدم في المعنى ألبتة، فوجب رجوعه إلى الكل، ونظيره على قول أبي حنيفة رحمه الله قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] فإن فاء التعقيب ما دخلت على غسل الوجه بل على مجموع هذه الأمور من حيث إن الواو لا تفيد الترتيب، فكذا هٰهنا كلمة (إلا) ما دخلت على واحد بعينه لأن حرف الواو لا يفيد الترتيب بل دخلت على المجموع، فإن قيل: الواو قد تكون للجمع على ما ذكرت وقد تكون للاستئناف وهي في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ لأنها إنما تكون للجمع فيما لا يختلف معناه ونظمه جملة واحدة، فيصير الكل كالمذكور معًا مثل آية الوضوء، فإن الكل أمر واحد، كأنه قال: فاغسلوا هذه الأعضاء. فإن الكل قد تضمنه لفظ الأمر. وأما آية القذف فإن ابتداءها أمر وآخرها خبر، فلا يجوز أن ينظمهما جملة واحدة، وكان الواو للاستئناف فيختص الاستثناء به. قلنا: لمَ لا يجوز أن نجعل الجمل الثلاث بمجموعهن جزاء الشرط، كأنه قيل: ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردوا شهادتهم وفسِّقوهم، أي فاجمعوا لهم الجلد والرد والفسق، إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فإن الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين. وثالثها: أن قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ عقيب قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ يدل على أن العلة في عدم قبول تلك الشهادة كونه فاسقًا؛ لأن ترتيب الحكم على الوصف مُشعر بالعلية، لا سيما إذا كان الوصف مناسبًا وكونه فاسقًا يناسب أن لا يكون مقبول الشهادة، إذا ثبت أن العلة لرد الشهادة ليست إلا كونه فاسقًا، ودل الاستثناء على زوال الفسق، فقد زالت العلة فوجب أن يزول الحكم لزوال العلة.

ورابعها: أن مثل هذا الاستثناء موجود في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [المائدة: ٣٤] ولا خلاف أن هذا الاستثناء راجع إلى ما تقدم من أول الآية، وأن التوبة حاصلة لهؤلاء جميعًا. وكذلك قوله: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾ [النساء: ٤٣] وصار التيمم لمن وجب عليه الاغتسال، كما أنه مشروع لمن وجب عليه الوضوء، وهذا الوجه ذكره أبو عبيد في إثبات مذهب الشافعي رحمه الله. واحتج أصحاب أبي حنيفة على أن حكم الاستثناء مختص بالجملة الأخيرة بوجوه: أحدها: أن الاستثناء من الاستثناء يختص بالجملة الأخيرة، فكذا في جميع الصور طردًا للباب. وثانيها: أن المقتضي لعموم الجمل المتقدمة قائم والمعارض وهو الاستثناء يكفي في تصحيحه تعليقه بجملة واحدة؛ لأن بهذا القدر يخرج الاستثناء عن أن يكون لغوًا فوجب تعليقه بالجملة الواحدة فقط. وثالثها: أن الاستثناء لو رجع إلى كل الجمل المتقدمة لوجب أنه إذا تاب أن لا يُجلد، وهذا باطل بالإجماع، فوجب أن يختص الاستثناء بالجملة الأخيرة. والجواب عن الأول أن الاستثناء من النفي إثبات ومن الإثبات نفي، فالاستثناء عقيب الاستثناء لو رجع إلى الاستثناء الأول وإلى المستثنى فبقدر ما نفي من أحدهما أثبت في الآخر، فينجبر الناقص بالزائد

ويصير الاستثناء الثاني عديم الفائدة؛ فلهذا السبب قلنا في الاستثناء من الاستثناء: إنه يختص بالجملة الأخيرة. والجواب عن الثاني أنا بينا أن واو العطف لا تقتضي الترتيب، فلم يكن بعض الجمل متأخرًا في التقدير عن البعض، فلم يكن تعليقه بالبعض أَوْلى من تعليقه بالباقي، فوجب تعليقه بالكل. والجواب عن الثالث أنه ترك العمل به في حق البعض فلم يترك العمل به في حق الباقي. واحتج أصحاب أبي حنيفة رحمه الله في المسألة بوجوه من الأخبار:

احدها: ما روى ابن عباس رضي الله عنهما في قصة هلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك بن سحماء فقال رسول الله ﷺ: «**يُجْلَدُ هِلَالٌ، وَتَبْطُلُ شَهَادَتُهُ فِي الْمُسْلِمِينَ**»(١) فأخبر رسول الله ﷺ أن وقوع الجلد به يبطل شهادته من غير شرط التوبة في قبولها.

وثانيها: أن قوله عليه السلام: «**الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ على بعض إلا مَحْدُودٌ فِي قَذْفٍ**» ولم يشترط فيه وجود التوبة منه.

وثالثها: ما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ تَجُوزُ شَهَادَةُ مَحْدُودٍ فِي الْإِسْلَامِ**»(٢). قالت الشافعية: هذا معارض بوجوه: **أحدها:** قوله عليه السلام: «**إِذَا عَلِمْتَ مِثْلَ الشَّمْسِ فَاشْهَدْ**»(٣) والأمر للوجوب، فإذا علم المحدود وجبت عليه الشهادة، ولو لم تكن مقبولة لما وجبت لأنها تكون عبثًا. **وثانيها:** قوله عليه السلام: «**نَحْنُ نَحْكُمُ بِالظَّاهِرِ**»(٤)

---

(١) تقدم.

(٢) حسن: أخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ٢٠٨)، حديث رقم (٦٩٤٠)، وابن ماجه في (سننه) (٥/ ٣٦٦)، حديث رقم (٢٣٩٦)، والطبري في (تفسيره) (١٩/ ١٠٧)، جميعًا من طريق معمر بن سليمان عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده... به. والبيهقي في (سننه الكبرى) (١٠/ ١٥٥)، والدارقطني في (سننه) (٤/ ٢٤٤)، حديث رقم (١٤٤)، كلاهما من طريق آدم بن فائد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده... به.

(٣) أورده العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٩٢)، حديث رقم (١٧٨١). وقال: رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس مرفوعًا بلفظ: «إذا علمت مثل الشمس فاشهد، وإلا فدع» ورواه الديلمي عنه بلفظ: «يابن عباس لا تشهد إلا على أمر يضيء لك كضياء الشمس» ورواه الطبراني والديلمي أيضًا عن ابن عمر وقال النجم بعد أن عزاه بلفظ الترجمة للسخاوي: لا يعرف بهذا اللفظ. وأقول: لا يظهر المراد منه فتأمل، وزاد النجم حديث «على مثلها فاشهد أو فدع» قال: أورده الرافعي بلفظ: أن النبي ﷺ سئل عن الشهادة فقال للسائل: «ترى الشمس؟» قال: نعم. قال: «على مثلها فاشهد أو فدع» قال ابن الملقن: وهو غريب بهذا اللفظ. انتهى.

(٤) أورده ابن حجر في (تلخيص الحبير) (٤/ ١٩٢)، حديث رقم (٢١٠٠). وقال: هذا الحديث استنكره المزني فيما حكاه ابن كثير عنه في أدلة التنبيه وقال النسائي في سننه: باب الحكم بالظاهر. ثم أورد حديث أم سلمة الذي قبله، وقد ثبت في تخريج أحاديث المنهاج للبيضاوي سبب وقوع الوهم من الفقهاء في جعلهم هذا حديثًا مرفوعًا وأن الشافعي قال في كلام له: وقد أمر الله نبيه أن يحكم بالظاهر والله متولي السرائر. وكذا قال ابن عبد البر في التمهيد: أجمعوا أن أحكام الدنيا على الظاهر وأن أمر السرائر إلى الله. وأغرب إسماعيل بن علي بن إبراهيم بن أبي القاسم الجنزوي في كتابه إدارة الأحكام فقال: إن هذا الحديث ورد في قصة سنان والحضرمي اللذين اختصما في الأرض فقال المقضي عليه: قضيت عليَّ والحق لي. فقال ﷺ: «إنما أقضي بالظاهر والله يتولى السرائر» وفي الباب حديث عمر: إنما كانوا يؤخذون بالوحي على عهد النبي ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من =

وهاهنا قد حصل الظهور لأن دينه وعقله وعفته الحاصلة بالتوبة تفيد ظن كونه صادقًا. **وثالثها:** ما روي عن عمر بن الخطاب «أَنَّهُ ضَرَبَ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ وَهُمْ أَبُو بَكْرَةَ وَنَافِعٌ وَنُفَيْعٌ، ثم قال لَهُمْ: مَنْ أَكْذَبَ نَفْسَهُ قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ لَمْ أُجِزْ شَهَادَتَهُ فَأَكْذَبَ نَافِعٌ وَنُفَيْعٌ أَنْفُسَهُمَا وَتَابَا وَكَانَ يَقْبَلُ شَهَادَتَهُمَا. وَأَمَّا أَبُو بَكْرَةَ فَكَانَ لاَ يَقْبَلُ شَهَادَتَهُ»(١) وما أنكر عليه أحد من الصحابة فيه. فهذا تمام الكلام في هذه المسألة.

اما قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فاعلم أنه يدل على أمرين: **الأول:** أن القذف من جملة الكبائر؛ لأن اسم الفسق لا يقع إلا على صاحب الكبيرة. **الثاني:** أنه اسم لمن يستحق العقاب لأنه لو كان مشتقًا من فعله لكانت التوبة لا تمنع من دوامه كما لا تمنع من وصفه بأنه ضارب وبأنه رام إلى غير ذلك.

واما قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ فاعلم أنهم اختلفوا في أن التوبة عن القذف كيف تكون: قال الشافعي رحمه الله: التوبة منه إكذابه نفسه. واختلف أصحابه في معناه فقال الإصطخري: يقول: كذبت فيما قلت فلا أعود لمثله. وقال أبو إسحاق: لا يقول كذبت لأنه ربما يكون صادقًا فيكون قوله كذبت كذبًا والكذب معصية، والإتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى، بل يقول القاذف باطلاً ندمت على ما قلت ورجعت عنه ولا أعود إليه.

اما قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ فقال أصحابنا: إنه بعد التوبة لا بد من مضي مدة عليه في حسن الحال حتى تُقبل شهادته وتعود ولايته. ثم قدروا تلك المدة بسنة حتى تمر عليه الفصول الأربع التي تتغير فيها الأحوال والطباع، كما يُضرب للعنين أجل سنة، وقد علق الشرع أحكامًا بالسنة من الزكاة والجزية وغيرهما.

واما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالمعنى أنه لكونه غفورًا رحيمًا يقبل التوبة، وهذا يدل على أن قبول التوبة غير واجب عقلاً؛ إذ لو كان واجبًا لما كان في قبوله غفورًا رحيمًا؛ لأنه إذا كان واجبًا فهو إنما يقبله خوفًا وقهرًا لعلمه بأنه لو لم يقبله لصار سفيهًا، ولخرج عن حد الإلهية. أما إذا لم يكن واجبًا فقبله فهناك تتحقق الرحمة والإحسان. وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۞ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ

أعمالكم. أخرجه البخاري وحديث أبي سعيد رفعه: «إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس» وهو في الصحيح في قصة الذهب الذي بعث به علي وحديث أم سلمة الذي قبله وحديث ابن عباس الذي بعده.

(١) الطبري في (تفسيره) (١٨/ ٧٦) من طريق ابن إسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب... فذكره.

﴿غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝﴾

إعلم أنه سبحانه لما ذكر أحكام قذف الأجنبيات عقَّبه بأحكام قذف الزوجات، ثم هذه الآية مشتملة على أبحاث:

البحث الأول: في سبب نزوله، وذكروا فيه وجوهًا: **احدها:** قال ابن عباس رحمها الله: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ٤] قال عاصم بن عدي الأنصاري: إن دخل منا رجل بيته فوجد رجلاً على بطن امرأته، فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك فقد قضى الرجل حاجته وخرج، وإن قتله قُتل به، وإن قال: وجدت فلانًا مع تلك المرأة ضُرب وإن سكت سكت على غيظ! اللهم افتح! وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس، فأتى عويمر عاصمًا فقال: لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتي خولة!! فاسترجع عاصم وأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بهذا في أهل بيتي!! فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟» فقال: أخبرني عويمر ابن عمي بأنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة!! وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم، فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعًا وقال لعويمر: «اتَّقِ اللَّه فِي زَوْجَتِكَ وَابْنَةِ عَمِّكَ وَلاَ تَقْذِفْهَا» فقال: يا رسول الله أقسم بالله أني رأيت شريكًا على بطنها، وأني ماقربتها منذ أربعة أشهر، وأنها حبلى من غيري!! فقال لها رسول الله ﷺ: «اتَّقِي اللَّه وَلاَ تُخْبِرِي إلاَّ بِمَا صَنَعْتِ» فقالت: يا رسول الله إن عويمرًا رجل غيور وإنه رأى شريكًا يطيل النظر إليَّ ويتحدث، فحملته الغيرة على ما قال!! فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله ﷺ حتى نودي (الصلاة جامعة) فصلى العصر ثم قال لِعُوَيْمِرٍ: «قُمْ وَقُلْ أَشْهَدُ باللَّه أَنَّ خَوْلَةَ لَزَانِيَةٌ وَإِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِينَ. ثم قال فِي الثَّانِيَةِ: قُلْ: أَشْهَدُ باللَّه أَنِّي رَأَيْتُ شَرِيكًا عَلَى بَطْنِهَا وَإِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِينَ. ثم قال فِي الثَّالِثَةِ: قُلْ أَشْهَدُ باللَّه أَنَّهَا حُبْلَى مِنْ غَيْرِي وَإِنِّي لَمِنَ الصَّادِقِينَ. ثم قال فِي الرَّابِعَةِ: قُلْ أَشْهَدُ باللَّه أَنَّهَا زَانِيَةٌ وَأَنِّي مَا قَرِبْتُهَا مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَإِنِّي لمن الصادقين. ثم قال في الخامسة: قُلْ لَعْنَةُ اللَّه عَلَى عُوَيْمِرٍ - يَعْنِي نَفْسَهُ - إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا قَالَ. ثم قال: اقْعُدْ، وَقَالَ لِخَوْلَةَ: قُومِي. فَقَامَتْ وَقَالَتْ: أَشْهَدُ باللَّه مَا أَنَا بِزَانِيَةٍ وَإِنَّ زَوْجِي عُوَيْمِرًا لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. وَقَالَتْ فِي الثَّانِيَةِ: أَشْهَدُ باللَّه مَا رَأَى شَرِيكًا عَلَى بَطْنِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. وَقَالَتْ فِي الثَّالِثَةِ: أَشْهَدُ باللَّه أَنِّي حُبْلَى مِنْهُ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. وَقَالَتْ فِي الرَّابِعَةِ: أَشْهَدُ باللَّه أَنَّهُ مَا رَآنِي عَلَى فَاحِشَةٍ قَطُّ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. وَقَالَتْ فِي الْخَامِسَةِ: غَضَبُ اللَّه عَلَى خَوْلَةَ إِنْ كَانَ عُوَيْمِرٌ مِنَ الصَّادِقِينَ فِي قَوْلِهِ. فَفَرَّقَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بَيْنَهُمَا»(١). **وثانيها:** قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي: «إِنَّ عَاصِمًا ذَاتَ يَوْمٍ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ، فَوَجَدَ شَرِيكَ بْنَ سَحْمَاءَ

(١) تقدم.

عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِهِ، فَأَتَى رَسُولَ اللَّه ﷺ . . . » وتمام الحديث كما تقدم. وثالثها: ما روى عكرمة عن ابن عباس لما نزل ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار: لو وجدت رجلاً على بطنها فإني إن جئت بأربعة من الشهداء يكون قد قضى حاجته وذهب. فقال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَمَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ؟» فقالوا: يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور. فقال سعد: يا رسول الله والله إني لأعرف أنها من الله وأنها حق، ولكني عجبت منه. فقال عليه السلام: «فَإِنَّ اللَّه يَأْبَى إِلاَّ ذَلِكَ» قال: فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم، فقال: يا رسول الله إني وجدت مع امرأتي رجلاً رأيت بعيني وسمعت بأذني!! فكره رسول الله ﷺ ما جاء به، فقال هلال: والله يا رسول الله إني لأرى الكراهة في وجهك مما أخبرتك به والله يعلم إني لصادق وما قلت إلا حقًّا!! فقال رسول الله ﷺ: «إِمَّا الْبَيِّنَةُ وَإِمَّا إِقَامَةُ الْحَدِّ عَلَيْكَ» فاجتمعت الأنصار فقالوا: ابتلينا بما قال سعد!! فبينا هم كذلك إذ نزل عليه الوحي وكان إذا نزل عليه الوحي اربد وجهه وعلا جسده حمرة، فلما سُري عنه قال عليه السلام: «أَبْشِرْ يَا هِلاَلُ فَقَدْ جَعَلَ اللَّه لَكَ فَرَجًا» قال: قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى!! فقرأ عليهم هذه الآيات فقال عليه السلام: «ادْعُوهَا فَدُعِيَتْ» فكذَّبت هلالاً، فقال عليه السلام: «اللَّه يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟» وأمر بالمُلاعَنَةِ، فشهد هلال أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فقال عليه السلام له عند الخامسة «اتَّقِ اللَّه يَا هِلاَلُ فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ» فقال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني رسول الله ﷺ. وشهد الخامسة، ثم قال رسول الله: «أَتَشْهَدِينَ؟» فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين فلما أخذت في الخامسة قال لها: «اتَّقِي اللَّه فَإِنَّ الْخَامِسَةَ هِيَ الْمُوجِبَةُ» فتفكرت ساعة وهَمَّت بالاعتراف ثم قالت: والله لا أفضح قومي!! وشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما، ثم قال: «انْظُرُوهَا إِنْ جَاءَتْ بِهِ أُثَيْبِجَ أَصْهَبَ أُحَمْشَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِهِلاَلٍ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ أَوْرَقَ جَعْدًا فَهُوَ لِصَاحِبِهِ»، فَجَاءَتْ بِهِ أَوْرَقَ خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: «لَوْلاَ الأَيْمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ»(١) قال عكرمة: لقد رأيته بعد ذلك أمير مصر من الأمصار ولا يدري من أبوه!

البحث الثاني: ما يتعلق بالقراءة: قرئ: (ولم تكن) بالتاء لأن الشهداء جماعة أو لأنهم في معنى الأنفس، ووجه من قرأ (أربع) أن ينصب لأنه في حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذي هو (فشهادة أحدهم) وهي مبتدأ محذوف الخبر فتقديره (فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات)، وقرئ: (أنْ لعنةُ الله وأنْ غَضَبَ الله) على تخفيف (أنْ) ورفع ما بعدها، وقرئ (أنْ غَضِبَ الله) على فعل الغضب، وقرئ بنصب الخامستين على معنى (ويشهد الخامسة).

---

(١) تقدم.

البحث الثالث: ما يتعلق بالأحكام، والنظر فيه يتعلق بأطراف:

الطرف الأول: في موجب اللعان، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه إذا رمى الرجل امرأته بالزنا يجب عليه الحد إن كانت محصنة والتعزير إن لم تكن محصنة، كما في رمي الأجنبية، لا يختلف موجبهما غير أنهما يختلفان في المخلص، ففي قذف الأجنبي لا يسقط الحد عن القاذف إلا بإقرار المقذوف أو ببينة تقوم على زناها، وفي قذف الزوجة يسقط عنه الحد بأحد هذين الأمرين أو باللعان، وإنما اعتبر الشرع اللعان في هذه الصورة دون الأجنبيات لوجهين: الأول: أنه لا معرة عليه في زنا الأجنبية والأَوْلى له ستره، أما إذا زُني بزوجته فيلحقه العار والنسب الفاسد، فلا يمكنه الصبر عليه وتوقيفه على البينة كالمعتذر، فلا جرم خص الشرع هذه الصورة باللعان. الثاني: أن الغالب في المتعارف من أحوال الرجل مع امرأته أنه لا يقصدها بالقذف إلا عن حقيقة، فإذا رماها فنفس الرمي يشهد بكونه صادقًا إلا أن شهادة الحال ليست بكاملة فضم إليها ما يقويها من الأيمان، كشهادة المرأة لما ضعفت قويت بزيادة العدد، والشاهد الواحد يتقوى باليمين على قول كثير من الفقهاء.

المسألة الثانية: قال أبو بكر الرازي: كان حد قاذف الأجنبيات والزوجات الجلد، والدليل عليه قول النبي ﷺ لهلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك بن سحماء: «ائْتِنِي بِأَرْبَعَةٍ يَشْهَدُونَ لَكَ وَإِلاَّ فَحَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»[1] فثبت بهذا أن حد قاذف الزوجات كان كحد قاذف الأجنبيات إلا أنه نُسخ عن الأزواج الجلد باللعان، وروي نحو ذلك في الرجل الذي قال: أرأيتم لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فإن تكلم جلدتموه، وإن قتل قتلتموه، وإن سكت سكت على غيظ؟! فدلت هذه الأخبار على أن حد قاذف الزوجة كان الجلد وأن الله نسخه باللعان.

المسألة الثالثة: قال الشافعي رحمه الله: إذا قذف الزوج زوجته فالواجب هو الحد، ولكن المخلص منه باللعان، كما أن الواجب بقذف الأجنبية الحد والمخلص منه بالشهود، فإذا نكل الزوج عن اللعان يلزمه الحد للقذف، فإذا لاعن ونكلت عن اللعان يلزمها حد الزنا. وقال أبو حنيفة رحمه الله: إذا نكل الزوج عن اللعان حُبس حتى يلاعن، وكذا المرأة إذا نكلت حُبست حتى لا تلاعن. حجة الشافعي وجوه: أحدها: أن الله تعالى قال في أول السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤] يعني غير الزوجات ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً﴾ [النور: ٤] ثم عطف عليه حكم الأزواج فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾ الآية فكما أن مقتضى قذف الأجنبيات الإتيان بالشهود أو الجلد، فكذا موجب قذف الزوجات الإتيان باللعان أو الحد. وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ﴾ والألف واللام الداخلان على العذاب لا يفيدان العموم؛ لأنه لم يجب عليها جميع أنواع العذاب، فوجب

(١) تقدم.

صرفهما إلى المعهود السابق، والمعهود السابق هو الحد لأنه تعالى ذكر في أول السورة ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] والمراد منه الحد، وإذا ثبت أن المراد من العذاب في قوله: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ هو الحد، ثبت أنها لو لم تلاعن لحُدت وأنها باللعان دفعت الحد. فإن قيل: المراد من العذاب هو الحبس. قلنا: قد بينا أن الألف واللام للمعهود المذكور، وأقرب المذكورات في هذه السورة العذاب بمعنى الحد، وأيضًا فلو حملناه على الحد لا تصير الآية مجملة. أما لو حملناه على الحبس تصير الآية مجملة لأن مقدار الحبس غير معلوم. وثالثها: قال الشافعي رحمه الله: ومما يدل على بطلان الحبس في حق المرأة أنها تقول: إن كان الرجل صادقًا فحدوني، وإن كان كاذبًا فخلوني، فما بالي والحبس، وليس حبسي في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا الإجماع ولا القياس؟؟ ورابعها: أن الزوج قذفها ولم يأت بالمخرج من شهادة غيره أو شهادة نفسه، فوجب عليه الحد لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ [النور: ٤] وإذا ثبت ذلك في حق الرجل ثبت في حق المرأة لأنه لا قائل بالفرق. وخامسها: قوله عليه السلام لخولة: «فَالرَّجْمُ أَهْوَنُ عَلَيْكِ مِنْ غَضَبِ اللَّه» وهو نص في الباب. حجة أبي حنيفة رحمه الله: أما في حق المرأة فلأنها ما فعلت سوى أنها تركت اللعان، وهذا الترك ليس بينة على الزنا ولا إقرارًا منها به، فوجب أن لا يجوز رجمها؛ لقوله عليه السلام: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ. . . » الحديث. وإذا لم يجب الرجم إذا كانت محصنة لم يجب الجلد في غير المحصن لأنه لا قائل بالفرق، وأيضًا فالنكول ليس بصريح في الإقرار، فلم يجز إثبات الحد به كاللفظ المحتمل للزنا ولغيره.

المسألة الرابعة: قال الجمهور: إذا قال لها (يا زانية) وجب اللعان. وقال مالك رحمه الله: لا يلاعن إلا أن يقول رأيتك تزني أو ينفي حملاً لها أو ولدًا منها. حجة الجمهور أن عموم قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ يتناول الكل، ولأنه لا تفاوت في قذف الأجنبية بين الكل، فكذا في حق قذف الزوجة.

الطرف الثاني: الملاعن: قال الشافعي رحمه الله: من صح يمينه صح لعانه، فيجري اللعان بين الرقيقين والذميين والمحدودين، وكذا إذا كان أحدهما رقيقًا أو كان الزوج مسلمًا والمرأة ذمية. وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا يصح في صورتين: إحداهما: أن تكون الزوجة ممن لا يجب على قاذفها الحد إذا كان أجنبيًا نحو أن تكون الزوجة مملوكة أو ذمية. والثاني: أن يكون أحدهما من غير أهل الشهادة بأن يكون محدودًا في قذف أو عبدًا أو كافرًا. ثم زعم أن الفاسق والأعمى مع أنهما ليسا من أهل الشهادة يصح لعانهما. وجه قول الشافعي رحمه الله أن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ يتناول الكل ولا معنى للتخصيص، والقياس أيضًا ظاهر من وجهين: الأول: أن المقصود دفع العار عن النفس، ودفع ولد الزنا عن النفس، وكما يحتاج غير المحدود إليه فكذا المحدود محتاج إليه. والثاني: أجمعنا على أنه يصح لعان الفاسق والأعمى،

وإن لم يكونا من أهل الشهادة، فكذا القول في غيرهما، والجامع هو الحاجة إلى دفع عار الزنا.

ووجه قول أبي حنيفة رحمه الله النص والمعنى: أما النص فما روى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه عليه السلام قال: «أَرْبَعٌ مِنَ النِّسَاءِ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ أَزْوَاجِهِنَّ مُلَاعَنَةٌ: الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ تَحْتَ الْمُسْلِمِ وَالْحُرَّةُ تَحْتَ الْمَمْلُوكِ وَالْمَمْلُوكَةُ تَحْتَ الْحُرِّ»(١) أما المعنى فنقول: أما في الصورة الأولى فلأنه كان الواجب على قاذف الزوجة والأجنبية الحد بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤] ثم نسخ ذلك عن الأزواج وأقيم اللعان مقامه، فلما كان اللعان مع الأزواج قائمًا مقام الحد في الأجنبيات لم يجب اللعان على من لا يجب عليه الحد لو قذفها أجنبي، وأما في الصورة الثانية فالوجه فيه أن اللعان شهادة فوجب أن لا يصح إلا من أهل الشهادة. وإنما قلنا: إن اللعان شهادة لوجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ فسمى الله تعالى لعانهما شهادة كما قال: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقال: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥] الثاني: أنه عليه السلام حين لاعن بين الزوجين أمَرهما باللعان بلفظ الشهادة، ولم يقتصر على لفظ اليمين. إذا ثبت أن اللعان شهادة وجب أن لا تُقبل من المحدود في القذف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ [النور: ٤] وإذا ثبت ذلك في المحدود ثبت في العبد والكافر، إما للإجماع على أنهما ليسا من أهل الشهادة أو لأنه لا قائل بالفرق. أجاب الشافعي رحمه الله بأن اللعان ليس شهادة في الحقيقة بل هو يمين؛ لأنه لا يجوز أن يشهد الإنسان لنفسه، ولأنه لو كان شهادة لكانت المرأة تأتي بثمان شهادات؛ لأنها على النصف من الرجل، ولأنه يصح من الأعمى والفاسق، ولا يجوز شهادتهما، فإن قيل: الفاسق والفاسقة قد يتوبان. قلنا: وكذلك العبد قد يعتق فتجوز شهادته. ثم أكد الشافعي رحمه الله ذلك بأن العبد إذا عتق تُقبل شهادته في الحال، والفاسق إذا تاب لا تقبل شهادته في الحال، ثم ألزم أبا حنيفة رحمه الله بأن شهادة أهل الذمة مقبولة بعضهم على بعض، فينبغي أن يجوز اللعان بين الذمي والذمية. وهذا كله كلام الشافعي رحمه الله، ثم قال بعد ذلك: وتختلف الحدود بمن وقعت له، ومعناه أن الزوج إن لم يلاعن تنصَّف حد القذف عليه لرقه، وإن لاعن ولم تلاعن اختلف حدها بإحصانها وعدم إحصانها وحريتها ورقها.

الطرف الثالث: الأحكام المرتبة على اللعان: قال الشافعي رحمه الله: يتعلق باللعان خمسة أحكام: درء الحد ونفي الولد والفُرقة والتحريم المؤبد ووجوب الحد عليها، وكلها تثبت بمجرد لعانه ولا يفتقر فيه إلى لعانها ولا إلى حكم الحاكم، فإنْ حَكَم الحاكم به كان تنفيذًا منه لا إيقاعًا للفرقة. فلنتكلم في هذه المسائل:

---

(١) ضعيف: أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (٧/ ٣٩٧) من طريق عبد الوهاب أخبرني يحيى بن أبي أنيسة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان عبد الله بن عمرو يقول... فذكره موقوفًا. وفي إسناده يحيى بن أبي أنيسة وهو متروك.

المسألة الأولى: اختلف المجتهدون في وقوع الفُرقة باللعان على أربعة أقوال: أحدها: قال عثمان البتي: لا أرى ملاعنة الزوج امرأته تقتضي شيئًا يوجب أن يطلقها. وثانيها: قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: لا تقع الفرقة بفراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما. وثالثها: قال مالك والليث وزفر رحمهم الله: إذا فرغا من اللعان وقعت الفرقة وإن لم يفرق الحاكم. ورابعها: قال الشافعي رحمه الله: إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته ولا تحل له أبدًا التعَنَتْ أو لم تلتعن. حجة عثمان البتي وجوه: أحدها: أن اللعان ليس بصريح ولا كناية عن الفرقة، فوجب أن لا يفيد الفرقة كسائر الأقوال التي لا إشعار لها بالفرقة لأن أكثر ما فيه أن يكون الزوج صادقًا في قوله وهو لا يوجب تحريمًا، ألا ترى أنه لو قامت البينة عليها لم يوجب ذلك تحريمًا، فإذا كان كاذبًا والمرأة صادقة يثبت أنه لا دلالة فيه على التحريم. وثانيها: لو تلاعنا فيما بينهما لم يوجب الفرقة، فكذا لو تلاعنا عند الحاكم. وثالثها: أن اللعان قائم مقام الشهود في قذف الأجنبيات، فكما أنه لا فائدة في إحضار الشهود هناك إلا إسقاط الحد، فكذا اللعان لا تأثير له إلا إسقاط الحد. ورابعها: إذا أكذب الزوج نفسه في قذفه إياها ثم حُد لم يوجب ذلك فرقة، فكذا إذا لاعن لأن اللعان قائم مقام درء الحد. قال وأما تفريق النبي ﷺ بين المتلاعنين فكان ذلك في قصة العجلاني وكان قد طلقها ثلاثًا بعد اللعان؛ فلذلك فَرَّق بينهما. وأما قول أبي حنيفة وهو أن الحاكم يفرق بينهما فلا بد من بيان أمرين:

أحدهما: أنه يجب على الحاكم أن يفرق بينهما، ودليله ما روى سهل بن سعد في قصة العجلاني مضت السُّنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ثم لا يجتمعان أبدًا. والثاني: أن الفرقة لا تحصل إلا بحكم الحاكم. واحتجوا عليه بوجوه: أحدها: روي في قصة عويمر أنهما لما فرغا (قَالَ عُوَيْمِرٌ: كَذَبْتُ عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَمْسَكْتُهَا، هِيَ طَالِقٌ ثَلَاثًا- فَطَلَّقَهَا ثَلَاثًا قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ)[1]، والاستدلال بهذا الخبر من وجوه: أحدها: أنه لو وقعت الفرقة باللعان لبطل قوله: «كَذَبْتُ عَلَيْهَا إِنْ أَمْسَكْتُهَا» لأن إمساكها غير ممكن. وثانيها: ما روي في هذا الخبر أنه طلقها ثلاث تطليقات فأنفذه رسول الله ﷺ، وتنفيذ الطلاق إنما يمكن لو لم تقع الفرقة بنفس اللعان. وثالثها: ما قال سهل بن سعد في هذا الخبر: مضت السُّنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ولا يجتمعان أبدًا، ولو كانت الفرقة واقعة باللعان استحال التفريق بعدها. وثانيها: قال أبو بكر الرازي: قول الشافعي رحمه الله خلاف الآية، لأنه لو وقعت الفرقة بلعان الزوج للاعنت المرأة وهي أجنبية، وذلك خلاف الآية لأن الله تعالى إنما أوجب اللعان بين الزوجين، وثالثها: أن اللعان شهادة لا يثبت حكمه إلا عند الحاكم، فوجب أن لا يوجب الفرقة إلا بحكم الحاكم، كما لا يثبت المشهود به إلا بحكم الحاكم. ورابعها: اللعان تستحق به المرأة نفسها كما يستحق المدعي بالبينة، فلما لم يجز أن يستحق المدعي مدعاه إلا بحكم الحاكم وجب مثله

---

(١) تقدم.

في استحقاق المرأة نفسها. وخامسها: أن اللعان لا إشعار فيه بالتحريم لأن أكثر ما فيه أنها زنت، ولو قامت البينة على زناها أو هي أقرت بذلك فذاك لا يوجب التحريم، فكذا اللعان، وإذا لم يوجد فيها دلالة على التحريم وجب أن لا تقع الفرقة به، فلا بد من إحداث التفريق إما من قبل الزوج أو من قبل الحاكم. أما قول مالك وزفر فحجته أنهما لو تراضيا على البقاء على النكاح لم يخليا، بل يفرق بينهما، فدل على أن اللعان قد أوجب الفرقة. أما قول الشافعي رحمه الله فله دليلان:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ﴾ الآية، فدل هذا على أنه لا تأثير للعان المرأة إلا في دفع العذاب عن نفسها، وأن كل ما يجب باللعان من الأحكام فقد وقع بلعان الزوج.

الثاني: أن لعان الزوج وحده مستقل بنفي الولد، فوجب أن يكون الاعتبار بقوله في الإلحاق لا بقولها، ألا ترى أنها في لعانها تلحق الولد به ونحن ننفيه عنه، فيعتبر نفي الزوج لا إلحاق المرأة، ولهذا إذا أكذب الزوج نفسه ألحق به الولد، وما دام يبقى مصرًّا على اللعان فالولد منفي عنه، إذا ثبت أن لعانه مستقل بنفي الولد وجب أن يكون مستقلاً بوقوع الفرقة؛ لأن الفُرقة لو لم تقع لم ينتف الولد لقوله عليه السلام: «**الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ**»[1] فما دام يبقى الفراش التحق به، فلما انتفى الولد عنه بمجرد لعانه وجب أنه يزول الفراش عنه بمجرد لعانه. وأما الأخبار التي استدل بها أبو حنيفة رحمه الله فالمراد به أن النبي عليه السلام أخبر عن وقوع الفرقة وحَكَم بها، وذلك لا ينافي أن يكون المؤثر في الفُرقة شيئًا آخر، وأما الأقيسة التي ذكرها فمدارها على أن اللعان شهادة، وليس الأمر كذلك بل هو يمين على ما بينا، وأما قوله: (اللعان لا إشعار فيه بوقوع الحرمة). قلنا: بينته على نفي الولد مقبولة ونفي الولد يتضمن نفي حلية النكاح، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال مالك والشافعي وأبو يوسف والثوري وإسحاق والحسن: المتلاعنان لا يجتمعان أبدًا. وهو قول علي وعمر وابن مسعود، وقال أبو حنيفة ومحمد: إذا أكذب نفسه وحُد زال تحريم العقد وحلت له بنكاح جديد. حجة الشافعي رحمه الله أمور: أحدها: قوله عليه السلام للملاعن بعد اللعان: «**لاَ سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهَا**»[2] ولم يقل: (حتى تُكذب نفسك) ولو كان الإكذاب غاية لهذه الحرمة لردها رسول الله ﷺ إلى هذه الغاية، كما قال في المطلقة بالثلاث: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]. وثانيها: ما روي عن علي وعمر وابن مسعود أنهم قالوا: لا يجتمع المتلاعنان أبدًا. وهذا قد روي أيضًا مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ. وثالثها: ما روى الزهري عن سهل بن سعد في قصة العجلاني: «**مضت السُّنة أنهما إذا تلاعنا فُرق بينهما ثم لا يجتمعان أبدًا**»[3] حجة أبي حنيفة رحمه الله قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الفرائض)، باب: (الولد للفراش) (١٢/ ٣٣)، حديث رقم (٦٧٥٠) من طريق محمد بن زيادة... به، ومسلم في كتاب (الرضاع)، باب: (الولد للفراش) (٢/ ٣٧/ ١٠٨١) من طريق ابن المسيب وأبي سلمة... به، جميعًا عن أبي هريرة... به.

(٢) تقدم. (٣) تقدم.

لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]وقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ [النساء: ٣]

المسألة الثالثة: اتفق أهل العلم على أن الولد قد يُنفى عن الزوج باللعان، وحكي عن بعض من شذ أنه للزوج ولا ينتفي نسبه باللعان، واحتج بقوله عليه السلام: «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ»[1]. وهذا ضعيف لأن الأخبار الدالة على أن النسب ينتفي باللعان كالمتواترة، فلا يعارضها هذا الواحد.

المسألة الرابعة: قال الشافعي رحمه الله: لو أتى أحدهما ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم. وقال أبو حنيفة رحمه الله: أكثر كلمات اللعان تعمل عمل الكل إذا حكم به الحاكم. والظاهر مع الشافعي لأنه يدل على أنها لا تدرأ العذاب عن نفسها إلا بتمام ما ذكره الله تعالى، ومن قال بخلاف ذلك فإنما يقوله بدليل منفصل.

الطرف الرابع:في كيفية اللعان، والآية دالة عليها صريحًا، فالرجل يشهد أربع شهادات بالله بأن يقول: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا. ثم يقول من بعد: وعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين. ويتعلق بلعان الزوج تلك الأحكام الخمسة على قول الشافعي رحمه الله، ثم المرأة إذا أرادت إسقاط حد الزنا عن نفسها عليها أن تلاعن ولا يتعلق بلعانها إلا هذا الحكم الواحد. ثم ههنا فروع الفرع: الأول: أجمعوا على أن اللعان كالشهادة، فلا يثبت إلا عند الحاكم. الثاني: قال الشافعي رحمه الله: يقام الرجل حتى يشهد والمرأة قاعدة، وتقام المرأة حتى تشهد والرجل قاعد، ويأمر الإمام من يضع يده على فيه عند الانتهاء إلى اللعنة والغضب ويقول له: إني أخاف إن لم تك صادقًا أن تبوء بلعنة الله. الثالث: اللعان بمكة بين المقام والركن، وبالمدينة عند المنبر، وبيت المقدس في مسجده، وفي غيرها في المواضع المعظمة، ولعان المشرك كغيره في الكيفية، وأما الزمان فيوم الجمعة بعد العصر، ولا بد من حضور جماعة من الأعيان أقلهم أربعة.

الطرف الخامس:في سائر الفوائد، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان قول الخوارج في أن الزنا والقذف كفر من وجهين: الأول: أن الرامي إن صدق فهي زانية، وإن كذب فهو قاذف، فلا بد على قولهم من وقوع الكفر من أحدهما، وذلك يكون ردة فيجب على هذا أن تقع الفرقة ولا لعان أصلاً، وأن تكون فرقة الردة حتى لا يتعلق بذلك توارث ألبتة. الثاني: أن الكفر إذا ثبت عليها بلعانه، فالواجب أن تُقتل لا أن تُجلد أو تُرجم؛ لأن عقوبة المرتد مباينة للحد في الزنا.

المسألة الثانية: الآية دالة على بطلان قول من يقول (إن وقوع الزنا يُفسد النكاح)، وذلك لأنه يجب إذا رماها بالزنا أن يكون قوله هذا كأنه معترف بفساد النكاح حتى يكون سبيله سبيل من يقر بأنها أخته من الرضاع أو بأنها كافرة، ولو كان كذلك لوجب أن تقع الفرقة بنفس الرمي من قبل اللعان، وقد ثبت بالإجماع فساد ذلك.

---

(١)تقدم.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: دلت الآية على أن القاذف مستحق للعن الله تعالى إذا كان كاذبًا وأنه قد فسق، وكذلك الزاني والزانية يستحقان غضب الله تعالى وعقابه وإلا لم يحسن منهما أن يلعنا أنفسهما، كما لا يجوز أن يدعو أحد ربه أن يلعن الأطفال والمجانين، وإذا صح ذلك فقد استحق العقاب، والعقاب يكون دائمًا كالثواب ولا يجتمعان فثوابهما أيضًا محبط، فلا يجوز إذا لم يتوبا أن يدخلا الجنة؛ لأن الأمة مجمعة على أن من دخل الجنة من المكلفين فهو مثاب على طاعاته، وذلك يدل على خلود الفساق في النار. قال أصحابنا: لا نُسلِّم أن كونه مغضوبًا عليه بفسقه ينافي كونه مرضيًّا عنه لجهة إيمانه، ثم لو سلَّمناه فلم نسلِّم أن الجنة لا يدخلها إلا مستحق الثواب والإجماع ممنوع.

المسألة الرابعة: إنما خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله تغليظًا عليها لأنها هي أصل الفجور ومنبعه بخيلائها وإطماعها، ولذلك كانت مقدمة في آية الجلد.

واعلم أنه سبحانه لما بَيَّن حكم الرامي للمحصنات والأزواج على ما ذكرنا، وكان في ذلك من الرحمة والنعمة ما لا خفاء فيه؛ لأنه تعالى جعل باللعان للمرء سبيلاً إلى مراده، ولها سبيلاً إلى دفع العذاب عن نفسها، ولهما السبيل إلى التوبة والإنابة، فلأجل هذا بَيَّن تعالى بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ عظم نعمه فيما بَيَّنه من هذه الأحكام وفيما أمهل وأبقى ومكَّن من التوبة، ولا شبهة في أن في الكلام حذفًا إذ لا بد من جواب إلا أن تركه يدل على أنه أمر عظيم لا يكتنه، ورُب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به.

الحكم الخامس: قصة الإفك

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

الكلام في هذه الآية من وجهين:

أحدهما: تفسيره.

والثاني: سبب نزوله.

أما التفسير فاعلم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية ثلاثة أشياء: أولها: أنه حكى الواقعة وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ والإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل: هو البهتان وهو الأمر الذي لا تشعر به حتى يفجأك، وأصله الإفك وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه، وأجمع المسلمون على أن المراد ما أفك به على عائشة، وإنما وصف الله تعالى ذلك الكذب بكونه إفكًا لأن المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوه: أحدها: أن كونها زوجة

للرسول ﷺ المعصوم يمنع من ذلك؛ لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم، فوجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم، وكون الإنسان بحيث تكون زوجته مسافحة من أعظم المنفرات، فإن قيل: كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة[١] وأيضًا: فلو لم يجز ذلك لكان الرسول أعرف الناس بامتناعه ولو عرف ذلك لما ضاق قلبه، ولمَا سأل عائشة عن كيفية الواقعة؟ قلنا: الجواب عن الأول أن الكفر ليس من المنفرات، أما كونها فاجرة فمن المنفرات. والجواب عن الثاني أنه عليه السلام كثيرًا ما كان يضيق قلبه من أقوال الكفار مع علمه بفساد تلك الأقوال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] فكان هذا من هذا الباب وثانيها: أن المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة إنما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور، ومن كان كذلك كان اللائق إحسان الظن به. وثالثها: أن القاذفين كانوا من المنافقين وأتباعهم، وقد عرف أن كلام العدو المفترى ضرب من الهذيان، فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحي. أما العصبة فقيل: إنها الجماعة من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة، واعصوصبوا اجتمعوا، وهم عبد الله بن أُبي بن سلول رأس النفاق، وزيد بن رفاعة، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم. أما قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ فالمعنى أن الذين أتوا بالكذب في أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون؛ لأن عبد الله كان من جملة مَن حُكم له بالإيمان ظاهرًا. ورابعها: أنه سبحانه شرح حال المقذوفة وما يتعلق بها بقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ والصحيح أن هذا الخطاب ليس مع القاذفين، بل مع من قذفوه وآذوه. فإن قيل: هذا مشكل لوجهين: أحدهما: أنه لم يتقدم ذكرهم. والثاني: أن المقذوفَين هما عائشة وصفوان فكيف تُحمل عليهما صيغة الجمع في قوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾؟ والجواب عن الأول: أنه تقدم ذكرهم في قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ وعن الثاني: أن المراد من لفظ الجمع كل من تأذى بذلك الكذب واغتم، ومعلوم أنه ﷺ تأذى بذلك وكذلك أبو بكر ومن يتصل به، فإن قيل: فمن أي جهة يصير خيرًا لهم مع أنه مضرة في العاجل؟ قلنا: لوجوه: أحدها: أنهم صبروا على ذلك الغم طلبًا لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب، وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم. وثانيها: أنه لولا إظهارهم للإفك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة في صدور البعض، وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر. وثالثها: أنه صار خيرًا لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة، وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم إلى

---

(١) لعل امرأتي نوح ولوط عليهما السلام كانتا كذلك، ومما يدل على وصف الله تعالى لهما بالخيانة ومن معاني الخيانة هذا المعنى، فلا يجوز العدول عن المعنى الظاهر إلى غيره بدون حاجة، ولا سيما إذا ضم هذا قول الله لنوح حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] والأهل هم آل الشخص وقرابته الأدنون، ولا يجوز صرف الأهل إلى غير ذلك بلا ضرورة والله أعلم (هامش).

الإفك وأوجب عليهم اللعن والذم، وهذا غاية الشرف والفضل. ورابعها: صيرورتها بحال تعلق الكفر والإيمان بقدحها ومدحها، فإن الله تعالى لما نص على كون تلك الواقعة إفكًا وبالغ في شرحه، فكل من يشك فيه كان كافرًا قطعًا وهذه درجة عالية. ومن الناس من قال: قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ خطاب مع القاذفين وجعله الله تعالى خيرًا لهم من وجوه: أحدها: أنه صار ما نزل من القرآن مانعًا لهم من الاستمرار عليه فصار مقطعة لهم عن إدامة هذا الإفك. وثانيها: صار خيرًا لهم من حيث كان هذا الذكر عقوبة معجلة كالكفارة. وثالثها: صار خيرًا لهم من حيث تاب بعضهم عنده. واعلم أن هذا القول ضعيف لأنه تعالى خاطبهم بالكاف، ولما وصف أهل الإفك جعل الخطاب بالهاء بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ ومعلوم أن نفس ما اكتسبوه لا يكون عقوبة، فالمراد: لهم جزاء ما اكتسبوه من العقاب في الآخرة والمذمة في الدنيا، والمعنى أن قدر العقاب يكون مثل قدر الخوض.

أما قوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (كُبره) بالضم والكسر وهو عظمه.

المسألة الثانية: قال الضحاك: الذي تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما ﷺ حين أنزل الله عذرها، وجلد معهما امرأة من قريش، وروي أن عائشة رضي الله عنها ذكرت حسانًا وقالت: «**أَرْجُو لَهُ الْجَنَّةَ. فَقِيلَ: أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ؟ فَقَالَتْ: إِذَا سَمِعْتُ شِعْرَهُ فِي مَدْحِ الرَّسُولِ رَجَوْتُ لَهُ الْجَنَّةَ**» (١) وقال عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانًا بِرُوحِ الْقُدُسِ فِي شِعْرِهِ**» (٢) وفي رواية أخرى «**وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى؟**» (٣) ولعل الله جعل ذلك العذاب العظيم ذهاب بصره، والأقرب في الرواية أن المراد به عبد الله بن أُبي بن سلول، فإنه كان منافقًا يطلب ما يكون قدحًا في الرسول عليه السلام، وغيره كان تابعًا له فيما كان يأتي، وكان فيهم من لا يتهم بالنفاق.

المسألة الثالثة: المراد من إضافة الكبر إليه أنه كان مبتدئًا بذلك القول، فلا جرم حصل له من العقاب مثل ما حصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» (٤) وقيل: سبب تلك الإضافة شدة الرغبة في إشاعة تلك الفاحشة. وهو قول أبي مسلم.

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٩/ ١١٧) من طريق داود عن عامر عن عائشة... به، وهذا إسناد منقطع عامر لم يسمع من عائشة.

(٢) **إسناده ضعيف**: رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٨٠٥)، حديث رقم (٢٦٥٤٢) من طريق مجالد عن الشعبي عن عائشة... به، في إسناده مجالد بن سعيد ضعيف، والشعبي لم يسمع من عائشة.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٤/ ١٥٢٣)، حديث رقم (٣٩١٥)، ومسلم في (صحيحه) (٧/ ١٦٢/ ٦٥٤٦)، كلاهما من طريق أبي الضحى عن مسروق عن عائشة... به.

(٤) تقدم.

المسألة الرابعة: قال الجبائي: قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ أي عقاب ما اكتسب، ولو كانوا لا يستحقون على ذلك عقابًا لما جاز أن يقول تعالى ذلك، وفيه دلالة على أن من لم يتب منهم صار إلى العذاب الدائم في الآخرة؛ لأن مع استحقاق العذاب لا يجوز استحقاق الثواب. والجواب: أن الكلام في المحابطة قد مر غير مرة فلا وجه للإعادة، والله أعلم.

أما سبب النزول: فقد روى الزهري عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن أبي وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عقبة بن مسعود، كلهم رووا عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها معه. قالت: فأقرع بيننا في غزوة غزاها - قبل غزوة بني المصطلق - فخرج فيها اسمي فخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعد نزول آية الحجاب فحُملت في هودج، فلما انصرف رسول الله ﷺ وقرب من المدينة، نزل منزلاً، ثم أذن بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني وأقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت والتمست عقدي وحبسني طلبه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه لخفتي، فإني كنت جارية حديث السن، فظنوا أني في الهودج وذهبوا بالبعير، فلما رجعت لم أجد في المكان أحدًا فجلست وقلت: لعلهم يعودون في طلبي. فنمت، وقد كان صفوان بن المعطل يمكث في العسكر يتتبع أمتعة الناس فيحمله إلى المنزل الآخر لئلا يذهب منهم شيء فلما رآني عرفني، وقال: ما خلفك عن الناس؟! فأخبرته الخبر فنزل وتنحى حتى ركبت، ثم قاد البعير، وافتقدني الناس حين نزلوا وماج الناس في ذكري، فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فتكلم الناس وخاضوا في حديثي. وقدم رسول الله ﷺ المدينة ولحقني وجع، ولم أر منه عليه السلام ما عهدته من اللطف الذي كنت أعرف منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ ثم يقول: «كيف تيكم؟» فذاك الذي يريبني، ولا أشعر بعد بما جرى حتى نقهت، فخرجت في بعض الليالي مع أم مسطح لمهم لنا، ثم أقبلت أنا وأم مسطح قِبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرَتْ أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح! فأنكرت ذلك وقلت: أتسبين رجلاً شهد بدرًا؟! فقالت: وما بلغك الخبر! فقلت: وما هو فقال (ت) أشهد أنك من المؤمنات الغافلات. ثم أخبرتني بقول أهل الإفك. فازددت مرضًا على مرضي، فرجعت أبكي. ثم دخل عليَّ رسول الله ﷺ وقال: «كَيفَ تِيكُمْ» فقلت: ائذن لي أن آتي أبوي. فأذن لي فجئت أبوي وقلت لأمي: يا أمه ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها. ثم قالت: ألم تكوني علمتِ ما قيل حتى الآن؟ فأقبلت أبكي فبكيت تلك الليلة ثم أصبحت أبكي، فدخل عليَّ أبي وأنا أبكي فقال لأمي: ما يبكيها؟ قالت: لم تكن علمت ما قيل فيها حتى الآن! فأقبل يبكي ثم قال: اسكتي يا بنية. ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام وأسامة بن زيد واستشارهما في

فراق أهله فقال أسامة: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرًا. وأما عليّ فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة وسألها عن أمري قالت بريرة: يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرًا قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها حتى تأتي الداجن فتأكله. قالت: فقام النبي ﷺ خطيبًا على المنبر، فقال: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي - يَعْنِي عبد الله بن أبي - فواللَّه مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ مَعِي» فقام سعد بن معاذ فقال: أعذرك يارسول الله منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج فما أمرتنا فعلناه!! فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحًا ولكن أخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله لا تقدر على قتله!! فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ وقال: كذبت لعمر الله لنقتلنه وإنك لمنافق تجادل عن المنافقين!! فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا. قالت: ومكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلَّم ثم جلس. قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل فيَّ ما قيل، ولقد لبث شهرًا لا يوحي الله إليه في شأني شيئًا، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّه تَعَالَى، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّه وَتُوبِي إليه، فَإِنَّ العَبْدَ إذا تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» قالت: فما قضى رسول الله ﷺ مقالته، فاض دمعي ثم قلت لأبي: أجب عني رسول الله. فقال: والله ما أدري ما أقول. فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله. فقالت: والله لا أدري ما أقول. فقلت وأنا جارية حديثة السن ما أقرأ من القرآن كثيرًا: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، فإن قلت لكم: (إني بريئة) لا تصدقوني وإن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقوني، والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم أذكر اسمه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: ثم تحولتُ واضطجعتُ على فراشي، وأنا والله أعلم أن الله تعالى يبرئني، ولكن والله ما كنت أظن أن يُنزل في شأني وحيًا يتلى فشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحي على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي حتى إنه ليتحدر عنه مثل الجُمَان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل الوحي، فسجى بثوب ووضعت وسادة تحت رأسه، فوالله ما فرغت ولا باليت لعلمي ببراءتي، وأما أبواي فوالله ما سُري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت أن نفسي أبوي ستخرجان فرقًا من أن يأتي الله بتحقيق ما قال الناس، فلما سُري عنه وهو يضحك فكان أول

كلمة تكلم بها أن قال: «أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ!! أَمَا واللَّه لَقَدْ بَرَّأَكِ اللَّه» فقلت: بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد أصحابك. فقالت أمي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد أحدًا إلا الله. أنزل براءتي!! فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر آيات، فقال أبو بكر: والله لا أنفق على مسطح بعد هذا. وكان ينفق عليه لقرابته منه وفقره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي. فرجع النفقة على مسطح. قالت: فلما نزل عذري قام رسول الله ﷺ على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل ضرب عبدَ الله بن أُبي ومسطحًا وحمنة وحسان الحد(١).

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢﴾

وهذا من جملة الآداب التي كان يلزمهم الإتيان بها، و﴿لَّوْلَآ﴾ معناه هلا، وذلك كثير في اللغة إذا كان يليه الفعل كقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾ [المنافقون: ١٠] وقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ [يونس: ٩٨] فأما إذا وليه الاسم فليس كذلك كقوله: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النور: ١٠] والمراد كان الواجب على المؤمنين إذ سمعوا قول القاذف أن يُكذبوه ويشتغلوا بإحسان الظن ولا يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيه الطهارة.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: هلا قيل: (لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرًا وقلتم) فلمَ عدل عن الخطاب إلى الغيبة وعن المضمر إلى الظاهر؟ الجواب: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وفي التصريح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يظن بالمسلمين إلا خيرًا؛ لأن دينه يحكم بكون المعصية منشأ للضرر وعقله يهديه إلى وجوب الاحتراز عن الضرر، وهذا يوجب حصول الظن باحترازه عن المعصية، فإذا وجد هذا المقتضى للاحتراز ولم يوجد في مقابلته راجح يساويه في القوة وجب إحسان الظن، وحرم الإقدام على الطعن.

السؤال الثاني: ما المراد من قوله (بأنفسهم)؟ الجواب: فيه وجهان: الأول: المراد أن يظن بعضهم ببعض خيرًا. ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] ومعناه: أي بأمثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم، روي أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال لأم أيوب: أما ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءًا؟ قال: لا. قالت ولو كنت بدل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ، فعائشة خير مني وصفوان خير منك(٢). وقال ابن

(١) لم أجده.
(٢) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

زيد: ذلك معاتبة للمؤمنين إذ المؤمن لا يفجر بأمه ولا الأم بابنها، وعائشة رضي الله عنها هي أم المؤمنين. والثاني: أنه جعل المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الأمور، فإذا جرى على أحدهم مكروه فكأنه جرى على جميعهم. عن النعمان بن بشير قال عليه السلام: «مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ فِي تَوَاصُلِهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ إذا وَجِعَ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى وَجِعَ كُلُّهُ»(١) وعن أبي بردة قال عليه السلام: «الْمُؤْمِنُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»(٢).

السؤال الثالث: ما معنى قوله: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ وهل يحل لمن يسمع ما لا يعرفه أن يقول ذلك؟ الجواب من وجهين:

الأول: كذلك يجب أن يقول، لكنه يخبر بذلك عن قول القاذف الذي لا يستند إلى أمارة ولا عن حقيقة الشيء الذي لا يعلمه.

الثاني: أن ذلك واجب في أمر عائشة لأن كونها زوجة الرسول ﷺ المعصوم عن جميع المنفرات - كالدليل القاطع في كون ذلك كذبًا، قال أبو بكر الرازي: هذا يدل على أن الواجب فيمن كان ظاهره العدالة أن يظن به خيرًا، ويوجب أن يكون عقود المسلمين وتصرفاتهم محمولة على الصحة والجواز، ولذلك قال أصحابنا فيمن وجد رجلًا مع امرأة أجنبية فاعترفا بالتزويج: إنه لا يجوز تكذيبهما بل يجب تصديقهما. وزعم مالك أنه يحدهما أن لم يقيما بينة على النكاح، ومن ذلك أيضًا ما قال أصحابنا رضي الله عنهم فيمن باع درهمًا ودينارًا بدرهمين ودينارين: إنه يخالف بينهما لأنا قد أُمرنا بحسن الظن بالمؤمنين فوجب حمله على ما يجوز وهو المخالفة بينهما، وكذلك إذا باع سيفًا محلى فيه مائة درهم بمائتي درهم: إنا نجعل المائة بالمائة والفضل بالسيف، وهو يدل أيضًا على قول أبي حنيفة رحمه الله في أن المسلمين عدول ما لم يظهر منهم ريبة لأنا مأمورون بحسن الظن، وذلك يوجب قبول الشهادة ما لم يظهر منه ريبة توجب التوقف عنها أو ردها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب)، باب: (رحمة الناس والبهائم) (٥/ ٢٢٣٨)، حديث رقم (٥٦٦٥)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٦٨)، كلاهما من طريق عامر عن النعمان بن بشير... به.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (المساجد)، باب: (تشبيك الأصابع في المسجد وغيره) (١/ ١٨٢)، حديث رقم / ٤٦٦، قال: حدثنا خلاد بن يحيى، قال: حدثنا سفيان عن أبي بردة بن عبد الله... به وفي كتاب المظالم، باب (نصر المظلوم) (٢/ ٨٦٣) حديث رقم (٢٣١٤)، قال: حدثنا محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة عن بريد... به، وفي كتاب (الأدب)، باب: (تعاون المؤمنين بعضهم بعضا) (٥/ ٢٢٤٢)، حديث رقم (٥٦٨٠)، قال: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن أبي بردة... به، ومسلم في كتاب (البر والصلة)، باب: (تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم) (٤/ ١٩٩٩/ ٢٥٨٥). قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو عامر الأشعري قالا: حدثنا عبد الله بن إدريس وأبو أسامة، وحدثنا محمد بن العلاء أبو كريب حدثنا بن المبارك وابن إدريس وأبو أسامة، كلهم عن بريد عن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ... الحديث.

قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

وهذا من باب الزواجر، والمعنى: هلا أتوا على ما ذكروه بأربعة شهداء يشهدون على معاينتهم فيما رموها به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ أي فحين لم يقيموا بينة على ما قالوا، فأولئك عند الله - أي في حكمه - هم الكاذبون، فإن قيل: أليس إذا لم يأتوا بالشهداء فإنه يجوز كونهم صادقين كما يجوز كونهم كاذبين، فلمَ جزم بكونهم كاذبين؟ والجواب من وجهين: الأول: أن المراد بذلك الذين رموا عائشة خاصة وهم كانوا عند الله كاذبين. الثاني: المراد فأولئك عند الله في حكم الكاذبين فإن الكاذب يجب زجره عن الكذب، والقاذف إن لم يأت بالشهود فإنه يجب زجره، فلما كان شأنه شأن الكاذب في الزجر لا جرم أطلق عليه لفظ الكاذب مجازًا. وهذا من باب الزواجر أيضًا.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

و(لولا) هاهنا لامتناع الشيء لوجود غيره، ويقال: أفاض في الحديث واندفع وخاض، وفي المعنى وجهان: الأول: ولولا أني قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة، وأن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة، لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الإفك. والثاني: ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم في الدنيا والآخرة معًا. فيكون فيه تقديم وتأخير، والخطاب للقذفة وهو قول مقاتل، وهذا الفضل هو حكم الله تعالى من تأخيره العذاب وحكمه بقبول التوبة لمن تاب.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

وهذا أيضًا من الزواجر قال صاحب (الكشاف): (إذ) ظرف لـ(مسَّكم) أو لأفضتم ومعنى (تَلَقَّونه) يأخذه بعضكم من بعض، يقال تلقى القول وتلقنه وتلقفه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] وقرئ على الأصل (تتلقونه) و(إتلقونه) بإدغام الذال في التاء و(تلقونه) من لقيه بمعنى لفقه و(تلقونه) من إلقائه بعضهم (على) بعض و(تلقونه)، و(تألقونه) من الولق والألف وهو الكذب، وتلقونه محكية عن عائشة، وعن سفيان: سمعت أمي تقرأ (إذ تثقفونه)، وكان أبوها يقرأ بحرف عبد الله بن مسعود. واعلم أن الله تعالى وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها. **أحدها**: تلقي الإفك بألسنتهم وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل

فيقول له: ما وراءك؟ فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع واشتهر، فلم يبق بيت ولا نادٍ إلا طار فيه، فكأنهم سعوا في إشاعة الفاحشة وذلك من العظائم. **وثانيها:** أنهم كانوا يتكلمون بما لا علم لهم به، وذلك يدل على أنه لا يجوز الإخبار إلا مع العلم، فأما الذي لا يعلم صدقه فالإخبار عنه كالإخبار عما علم كذبه في الحرمة، ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ والقول لا يكون إلا بالفم؟ قلنا: معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب فيترجم عنه باللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجري على ألسنتكم من غير أن يحصل في القلب علم به، كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] وثالثها: أنهم كانوا يستصغرون ذلك وهو عظيم من العظائم، ويدل على أمور ثلاثة: **الأول:** يدل على أن القذف من الكبائر لقوله: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ **الثاني:** نبه بقوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ على أن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها وحسبانه، بل ربما كان ذلك مؤكدًا لعظمها من حيث جهل كونها عظيمًا، **الثالث:** الواجب على المكلف في كل محرم أن يستعظم الإقدام عليه، إذ لا يأمن أنه من الكبائر، وقيل: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

وهذا من باب الآداب، أي هلا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا. وإنما وجب عليهم الامتناع منه لوجوه: **أحدها:** أن المقتضي لكونهم تاركين لهذا الفعل قائم وهو العقل والدين، ولم يوجد ما يعارضه، فوجب أن يكون ظن كونهم تاركين للمعصية أقوى من ظن كونهم فاعلين لها، فلو أنه أخبر عن صدور المعصية لكان قد رجح المرجوح على الراجح وهو غير جائز. **وثانيها:** وهو أنه يتضمن إيذاء الرسول وذلك سبب للعن لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧]. **وثالثها:** أنه سبب لإيذاء عائشة وإيذاء أبويها ومن يتصل بهم من غير سبب عُرف إقدامهم عليه، ولا جناية عُرف صدورها عنهم، وذلك حرام. **ورابعها:** أنه إقدام على ما يجوز أن يكون سببًا للضرر مع الاستغناء عنه، والعقل يقتضي التباعد عنه لأن القاذف بتقدير كونه صادقًا لا يستحق الثواب على صدقه بل يستحق العقاب لأنه أشاع الفاحشة، وبتقدير كونه كاذبًا فإنه يستحق العقاب العظيم، ومثل ذلك مما يقتضي صريح العقل الاحتراز عنه. **وخامسها:** أنه تضييع للوقت بما لا فائدة فيه، وقال عليه الصلاة والسلام: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ». **وسادسها:** أن في إظهار محاسن الناس وستر مقابحهم تخلقًا بأخلاق الله تعالى، وقال عليه السلام: «**تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ**» فهذه الوجوه توجب على العاقل أنه إذا سمع القذف أن يسكت عنه وأن يجتهد في الاحتراز عن الوقوع فيه، فإن قيل: كيف جاز الفصل بين (لولا) وبين (قلتم) بالظرف؟

قلنا: الفائدة فيه أنه كان الواجب عليهم أن يحترزوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به.

أما قوله: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ **ففيه سؤالان:**

السؤال الأول: كيف يليق سبحانك بهذا الموضع؟ الجواب من وجوه: الأول: المراد منه التعجب من عظم الأمر، وإنما استعمل في معنى التعجب لأنه يسبح الله عند رؤية العجيب من صانعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه. الثاني: المراد تنزيه الله تعالى عن أن تكون زوجة نبيه فاجرة. الثالث: أنه منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء الفرقة المفترين. الرابع: أنه منزه عن أن لا يعاقب هؤلاء القذفة الظلمة.

السؤال الثاني: لمَ أوجب عليهم أن يقولوا: (هذا بهتان عظيم) مع أنهم ما كانوا عالمين بكونه كذبًا قطعًا؟ والجواب من وجهين: الأول: أنهم كانوا متمكنين من العلم بكونه بهتانًا؛ لأن زوجة الرسول لا يجوز أن تكون فاجرة. الثاني: أنهم لما جزموا أنهم ما كانوا ظانين له بالقلب كان إخبارهم عن ذلك الجزم كذبًا، ونظيره قوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

وهذا من باب الزواجر، والمعنى يعظكم الله بهذه المواعظ التي بها تعرفون عظم هذا الذنب وأن فيه الحد والنكال في الدنيا والعذاب في الآخرة؛ لكيلا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبدًا وأبدُهم ما داموا أحياء مكلفين، وقد دخل تحت ذلك من قال ومن سمع فلم ينكر؛ لأن حالهما سواء في أن فعلا ما لا يجوز وإن كان من أقدم عليه أعظم ذنبًا، فبيَّن أن الغرض بما عرفهم من هذه الطريقة أن لا يعودوا إلى مثل ما تقدم منهم. **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: استدلت المعتزلة بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على أن ترك القذف من الإيمان وعلى أن فعل القذف لا يبقى معه الإيمان؛ لأن المعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط. والجواب: هذا معارض بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] أي منكم أيها المؤمنون، فدل ذلك على أن القذف لا يوجب الخروج عن الإيمان، وإذا ثبت التعارض حملنا هذه الآية على التهييج في الاتعاظ والانزجار.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: دلت هذه الآية على أنه تعالى أراد من جميع من وعظه مجانبة مثل ذلك في المستقبل وإن كان فيهم من لا يطيع، فمن هذا الوجه تدل على أنه تعالى يريد من كلهم الطاعة وإن عصوا؛ لأن قوله: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا﴾ معناه لكيلا تعودوا لمثله وذلك دلالة الإرادة. والجواب عنه قد تقدم مرارًا.

المسألة الثالثة: هل يجوز أن يسمى الله تعالى واعظًا لقوله: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا﴾؟ الأظهر أنه لا يجوز، كما لا يجوز أن يسمى معلمًا لقوله: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]

أما قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فالمراد من الآيات ما به يعرف المرء ما ينبغي أن يتمسك به، ثم بَيَّن أنه لكونه عليمًا حكيمًا يؤثر بما يجب أن يبينه ويجب أن يطاع لأجل ذلك؛ لأن من لا يكون عالمًا لا يجب قبول تكليفه؛ لأنه قد يأمر بما لا ينبغي، ولأن المكلف إذا أطاعه فقد لا يعلم أنه أطاعه، وحينئذٍ لا يبقى للطاعة فائدة، وأما من كان عالمًا لكنه لا يكون حكيمًا فقد يأمره بما لا ينبغي، فإذا أطاعه المكلف فقد يعذب المطيع وقد يثيب العاصي، وحينئذٍ لا يبقى للطاعة فائدة، وأما إذا كان عليمًا حكيمًا فإنه لا يأمر إلا بما ينبغي ولا يهمل جزاء المستحقين؛ فلهذا ذكر هاتين الصفتين وخصهما بالذكر. **وههنا سؤالات:**

الأول: الحكيم هو الذي لا يأتي بما لا ينبغي، وإنما يكون كذلك لو كان عالمًا بقبح القبيح وعالمًا بكونه غنيًّا عنه، فيكون العليم داخلاً في الحكيم، فكان ذكر الحكيم مغنيًا عنه. هذا على قول المعتزلة، وأما على قول أهل السنة والجماعة فالحكمة هي العلم فقط، فذكر العليم الحكيم يكون تكرارًا محضًا. الجواب: يُحمل ذلك على التأكيد.

السؤال الثاني: قالت المعتزلة: دلت الآية على أنه إنما يجب قبول بيان الله تعالى لمجرد كونه عالمًا حكيمًا، والحكيم هو الذي لا يفعل القبائح، فتدل الآية على أنه لو كان خالقًا للقبائح لما جاز الاعتماد على وعده ووعيده. والجواب: الحكيم عندنا هو العليم، وإنما يجوز الاعتماد على قوله لكونه عالمًا بكل المعلومات، فإن الجاهل لا اعتماد على قوله ألبتة.

السؤال الثالث: قالت المعتزلة: قوله: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾ أي لأجلكم، وهذا يدل على أن أفعاله معللة بالأغراض، ولأن قوله: ﴿لَكُمُ﴾ لا يجوز حمله على ظاهره لأنه ليس الغرض نفس ذواتهم بل الغرض حصول انتفاعهم وطاعتهم وإيمانهم، فدل هذا على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل. والجواب: المراد أنه سبحانه فعل بهم ما لو فعله غيره لكان ذلك غرضًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بَيَّن ما على أهل الإفك وما على من سمع منهم، وما ينبغي أن يتمسكوا به من آداب الدين، أتبعه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ ليعلم أن من أحب ذلك فقد شارك في هذا الذم كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره، وليعلم أن أهل الإفك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه، فكذلك يستحقون العقاب بما أَسَرُّوه من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين، وذلك يدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين كوجوب كف الجوارح والقول عما يضر بهم.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: معنى الإشاعة الانتشار، يقال: في هذا العقار سهم شائع، إذا كان في

الجميع ولم يكن منفصلاً. وشاع الحديث، إذا ظهر في العامة.

المسألة الثانية: لا شك أن ظاهر قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يفيد العموم وأنه يتناول كل من كان بهذه الصفة، ولا شك أن هذه الآية نزلت في قذف عائشة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فوجب إجراؤها على ظاهرها في العموم، ومما يدل على أنه لا يجوز تخصيصها بقذفة عائشة قوله تعالى في: ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنه صيغة جمع ولو أراد عائشة وحدها لم يجز ذلك، والذين خصصوه بقذفة عائشة منهم من حمله على عبد الله بن أُبي؛ لأنه هو الذي سعى في إشاعة الفاحشة. قالوا: معنى الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ والمراد عبد الله ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ﴾ أي الزنا ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي في عائشة وصفوان.

المسألة الثالثة: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنِّي لأَعْرِفُ قَوْمًا يَضْرِبُونَ صُدُورَهُمْ ضَرْبًا يَسْمَعُهُ أَهْلُ النَّارِ، وَهُمُ الْهَمَّازُونَ اللَّمَّازُونَ الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَهْتِكُونَ سُتُورَهُمْ، وَيُشِيعُونَ فِيهِمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ مَا لَيْسَ فِيهِمْ»(١) وعنه عليه الصلاة والسلام: «لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ عَوْرَةَ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلاَّ سَتَرَهُ اللَّه يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا صَفْقَتَهُ أَقَالَ اللَّه عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَوْرَتَهُ سَتَرَ اللَّه عَوْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢) وعنه عليه الصلاة والسلام: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّه عَنْهُ»(٣) وعن عبد الله بن عمرو عنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، وَيُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(٤) وعن أنس قال: قال عليه الصلاة والسلام: «لاَ يُؤْمِنُ الْعَبْدُ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ»(٥).

---

(١) **إسناده ضعيف جدًا**: أخرجه أبو الشيخ في (التوبيخ والتنبيه) (١/ ١٢٥)، حديث رقم (١١٧)، وابن الشجري في (أماليه) (١/ ٣٩٧)، كلاهما من طريق حفص بن عبد الله قاضي نيسابور، حدثنا أبو بكر الهذلي عن خالد - يعني الربعي - أن النبي ﷺ. . . فذكره، وفي إسناده أبو بكر الهذلي أخباري متروك الحديث.

(٢) أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٠٠٢/ ٢٥٩٠) من طريق سهيل عن أبيه عن أبي هريرة. . . فذكر الشطر الأول فقط.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) (١/ ٦٩)، حديث رقم (١٠) من طريق الشعبي. . . به، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (بيان تفاضل الإسلام) (١/ ٦٤، ٦٥) من طريق أبي الخير. . به، كلاهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص. . . به.

(٤) **حسن**: الطبراني في (الأوسط)، (٥/ ٨٤) حديث رقم (٤٧٤١)، الجصاص في (أحكام القرآن) (٢/ ٣٧٢)، كلاهما من طريق سهل بن عثمان قال: حدثنا زياد بن عبد الله عن ليث عن طلحة عن خثيمة عن عبد الله بن عمرو. . . به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ١٨٦)، وقال: فيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه مسلم في (صحيحه) (٦/ ١٨/ ٤٨٨٢) من طريق زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبد الله بن عمرو. . . بنحوه.

(٥) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الإيمان)، باب: (من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (١/ ٧٣)، حديث رقم (٢١٣) من طريق حسن المعلم. . . به، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (دليل الإيمان أن يحب لأخيه ما يحبه لنفسه) (١/ ٧١/ ٦٧) من طريق شعبة. . . به، كلاهما عن قتادة. . . به.

المسألة الرابعة: اختلفوا في عذاب الدنيا: فقال بعضهم: إقامة الحد عليهم. وقال بعضهم: هو الحد واللعن والعداوة من الله والمؤمنين، ضرب رسول الله ﷺ عبد الله بن أُبي وحسان ومسطح، وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف فكف بصره، وقال الحسن: عنى به المنافقين لأنهم قصدوا أن يغموا رسول الله ﷺ ومن أراد غم رسول الله ﷺ فهو كافر، وعذابهم في الدنيا هو ما كانوا يتعبون فيه وينفقون لمقاتلة أوليائهم مع أعدائهم. وقال أبو مسلم: الذين يحبون هم المنافقون يحبون ذلك، فأوعدهم الله تعالى العذاب في الدنيا على يد الرسول ﷺ بالمجاهدة لقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. والأقرب أن المراد بهذا العذاب ما استحقوه بإفكهم وهو الحد واللعن والذم. فأما عذاب الآخرة فلا شك أنه في القبر عذابه، وفي القيامة عذاب النار.

أما قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهو حسن الموقع بهذا الموضع؛ لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات، أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء، فصار هذا الذكر نهاية في الزجر لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه، وإنَّ علمه سبحانه بذلك الذي أخفاه كعلمه بالذي أظهره ويعلم قدر الجزاء عليه.

المسألة الخامسة: الآية تدل على أن العزم على الذنب العظيم عظيم، وأن إرادة الفسق فسق؛ لأنه تعالى علق الوعيد بمحبة إشاعة الفاحشة.

المسألة السادسة: قال الجبائي: دلت الآية على أن كل قاذف لم يتب من قذفه فلا ثواب له من حيث استحق هذا العذاب الدائم، وذلك يمنع من استحقاق ضده الذي هو الثواب، فمن هذا الوجه تدل على ما نقوله في الوعيد. واعلم أن حاصله يرجع إلى مسألة المحابطة وقد تقدم الكلام عليه.

المسألة السابعة: قالت المعتزلة: إن الله تعالى بالغ في ذم من أحب إشاعة الفاحشة، فلو كان تعالى هو الخالق لأفعال العباد لما كان مشيع الفاحشة إلا هو، فكان يجب أن لا يستحق الذم على إشاعة الفاحشة إلا هو؛ لأنه هو الذي فعل تلك الإشاعة وغيره لم يفعل شيئًا منها، والكلام عليه أيضًا قد تقدم.

المسألة الثامنة: قال أبو حنيفة رحمه الله: المصابة بالفجور لا تستنطق؛ لأن استنطاقها إشاعة للفاحشة، وذلك ممنوع منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

وفيه وجوه: أحدها: أن جوابه محذوف وكأنه قال لهلكتم أو لعذبكم الله واستأصلكم، لكنه رؤوف رحيم، قال ابن عباس: الخطاب لحسان ومسطح وحمنة، ويجوز أن يكون الخطاب

عامًا. **والثاني:** جوابه في قوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]. **والثالث:** جوابه: لكانت الفاحشة تشيع فتعظم المضرة. وهو قول أبي مسلم، والأقرب أن جوابه محذوف لأن قوله من بعد ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [النور: ٢١] كالمنفصل من الأول فلا يجب أن يكون جوابًا للأول، خصوصًا وقد وقع بين الكلامين كلام آخر، والمراد أنه لولا إنعامه بأن بقي وأمهل ومكَّن من التلافي لهلكوا، لكنه لرأفته لا يدع ما هو للعبد أصلح وإن جنى على نفسه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

قرئ (خُطْوات) بضم الطاء وسكونها، والخطوات جمع خطوة، وهو من خطا الرجل يخطو خطوًا، فإذا أردت الواحدة قلت (خَطْوَةٌ) مفتوحة الأول، والجمع يفتح أوله ويضم، والمراد بذلك السيرة والطريقة، والمعنى: لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه في الإصغاء إلى الإفك والتلقي له وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، والله تعالى وإن خص بذلك المؤمنين فهو نهي لكل المكلفين وهو قوله: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ ومعلوم أن كل المكلفين ممنوعون من ذلك، وإنما قلنا: (إنه تعالى خص المؤمنين بذلك) لأنه توعدهم على اتباع خطواته بقوله: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وظاهر ذلك أنهم لم يتبعوه، ولو كان المراد به الكفار لكانوا قد اتبعوه، فكأنه سبحانه لما بيَّن ما على أهل الإفك من الوعيد أدَّب المؤمنين أيضًا، بأن خصهم بالذكر ليتشددوا في ترك المعصية؛ لئلا يكون حالهم كحال أهل الإفك والفحشاء. والفاحشة ما أفرط قبحه، والمنكر ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه.

أما قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ فقرأ يعقوب وابن محيصن: (ما زكَّى) بالتشديد، واعلم أن الزكي من بلغ في طاعة الله مبلغ الرضا، ومنه يقال زكى الزرع، فإذا بلغ المؤمن من الصلاح في الدين إلى ما يرضاه الله تعالى سمي زكيًا، ولا يقال (زكى) إلا إذا وجد زكيًا، كما لا يقال لمن ترك الهدى هداه الله تعالى مطلقًا، بل يقال هداه الله فلم يهتد.

واحتج أصحابنا في مسألة المخلوق بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ فقالوا: التزكية كالتسويد والتحمير، فكما أن التسويد تحصيل السواد، فكذا التزكية تحصيل الزكاء في المحل، قالت المعتزلة: هاهنا تأويلان: **أحدهما:** حمل التزكية على فعل الألطاف. **والثاني:** حملها على الحكم بكون العبد زكيًا. قال أصحابنا: الوجهان على خلاف الظاهر، ثم نقيم الدلالة العقلية على بطلانهما أيضًا: **أما الوجه الأول:** فيدل على فساده وجوه: أحدها: أن فعل اللطف هل يرجح الداعي أو لا يرجحه؟ فإن لم يرجحه ألبتة لم يكن به تعلق فلا يكون لطفًا، وإن رجحه فنقول: المرجح لا بد وأن يكون منتهيًا إلى حد الوجوب، فإنه مع ذلك القدر من الترجيح إما أن يمتنع

وقوع الفعل عنده أو يمكن أو يجب: فإن امتنع كان مانعًا لا داعيًا، وإن أمكن أن يكون وأن لا يكون، فكل ما يمكن لا يلزم من فرض وقوعه محال، فليفرض تارة واقعًا وأخرى غير واقع، فامتياز وقت الوقوع عن وقت اللاوقوع إما أن يتوقف على انضمام قيد إليه أو لا يتوقف: فإن توقف كان المرجح هو المجموع الحاصل بعد انضمام هذا القيد، فلا يكون الحاصل أولاً مرجحًا، وإن لم يتوقف كان اختصاص أحد الوقتين بالوقوع والآخر باللاوقوع ترجيحًا للممكن من غير مرجح وهو محال، وأما ان اللطف مرجحًا موجبًا كان فاعل اللطف فاعلاً للملطوف فيه، فكان تعالى فاعلاً لفعل العبد. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ علق التزكية على المشيئة وفعل اللطف واجب، والواجب لا يتعلق بالمشيئة. الثالث: أنه علق التزكية على الفضل والرحمة وخَلْق الألطاف واجب فلا يكون معلقًا بالفضل والرحمة. **وأما الوجه الثاني:** وهو الحكم بكونه زكيًا فذلك واجب لأنه لو يحكم به لكان كذبًا والكذب على الله تعالى محال، فكيف يجوز تعليقه بالمشيئة؟ فثبت أن قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ نص في الباب.

أما قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فالمراد أنه يسمع أقوالكم في القذف وأقوالكم في إثبات البراءة، عليم بما في قلوبكم من محبة إشاعة الفاحشة أو من كراهيتها، وإذا كان كذلك وجب الاحتراز عن معصيته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى كما أدَّب أهل الإفك ومن سمع كلامهم كما قدمنا ذكره، فكذلك أدَّب أبا بكر لما حلف أن لا ينفق على مسطح أبدًا، قال المفسرون: نزلت الآية في أبي بكر حيث حلف أن لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبي بكر، وقد كان يتيمًا في حجره، وكان ينفق عليه وعلى قرابته، فلما نزلت الآية قال لهم أبو بكر: قوموا فلستم مني ولست منكم ولا يدخلن عليَّ أحد منكم!! فقال مسطح: أنشدك الله والإسلام وأنشدك القرابة والرحم أن لا تحوجنا إلى أحد، فما كان لنا في أول الأمر من ذنب: فقال لمسطح: إن لم تتكلم فقد ضحكت! فقال: قد كان ذلك تعجبًا من قول حسان! فلم يقبل عذره، وقال: انطلقوا أيها القوم فإن الله لم يجعل لكم عذرًا ولا فرجًا!! فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الأرض، فبعث رسول الله ﷺ يخبره بأن الله تعالى قد أنزل عليَّ كتابًا ينهاك فيه أن تخرجهم فكبَّر أبو بكر وسَرَّه، وقرأ رسول الله ﷺ الآية عليه، فلما وصل إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: بلى يا رب إني أحب أن يغفر لي، وقد تجاوزت عما كان. فذهب أبو بكر إلى بيته وأرسل إلى مسطح وأصحابه، وقال: قبلت ما أنزل الله على الرأس والعين، وإنما فعلت بكم ما فعلت إ

سخط الله عليكم، أما إذ عفا عنكم فمرحبًا بكم، وجعل له مثلي ما كان له قبل ذلك اليوم[١]

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ وجهين: الأول: وهو المشهور أنه مِن (ائتلى) إذا حلف، افتعل من الألية، والمعنى (لا يحلف)، قال أبو مسلم: هذا ضعيف لوجهين: أحدهما: أن ظاهر الآية على هذا التأويل يقتضي المنع من الحلف على الإعطاء وهم أرادوا المنع من الحلف على ترك الإعطاء، فهذا المتأول قد أقام النفي مكان الإيجاب وجعل المنهي عنه مأمورًا به. وثانيهما: أنه قلما يوجد في الكلام افتعلت مكان أفعلت، وإنما يوجد مكان فعلت، وهنا آليت من الألية افتعلت. فلا يقال أفعلت كما لا يقال من ألزمت التزمت ومن أعطيت اعتطيت. ثم قال في يأتل: إن أصله يأتلي ذهبت الياء للجزم لأنه نهى وهو من قولك ما آلوت فلانًا نصحًا، ولم آل في أمري جهدًا، أي ما قصرت. ولا يأل ولا يأتل واحدًا، فالمراد لا تقصروا في أن تحسنوا إليهم. ويوجد كثيرًا افتعلت مكان فعلت، تقول: كسبت واكتسبت وصنعت واصطنعت ورضيت وارتضيت، فهذا التأويل هو الصحيح دون الأول، ويروى هذا التأويل أيضًا عن أبي عبيدة. أجاب الزجاج عن السؤال الأول بأن (لا) تحذف في اليمين كثيرًا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟﴾ [البقرة: ٢٢٤] يعني أن لا تبروا، وقال امرؤ القيس[٢]:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللّه أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي إِلَيْكِ وَأَوْصَالِي

أي لا أبرح، وأجابوا عن السؤال الثاني أن جميع المفسرين الذين كانوا قبل أبي مسلم فسروا اللفظة باليمين، وقول كل واحد منهم حجة في اللغة فكيف الكل؟ ويعضده قراءة الحسن (ولا يتأل).

المسألة الثانية: أجمع المفسرون على أن المراد من قوله: ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ﴾ أبو بكر، وهذه الآية تدل على أنه رضي الله عنه كان أفضل الناس بعد الرسول ﷺ لأن الفضل المذكور في هذه الآية إما في الدنيا وإما في الدين، والأول باطل لأنه تعالى ذكره في معرض المدح له، والمدح من الله تعالى بالدنيا غير جائز، ولأنه لو كان كذلك لكان قوله: ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ تكريرًا، فتعين أن يكون المراد منه الفضل في الدين، فلو كان غيره مساويًا له في الدرجات في الدين لم يكن هو صاحب الفضل لأن المساوي لا يكون فاضلاً، فلما أثبت الله تعالى له الفضل مطلقًا غير مقيد بشخص دون شخص، وجب أن يكون أفضل الخلق ترك العمل به في حق الرسول ﷺ فيبقى معمولاً به في حق الغير، فإن قيل: نمنع إجماع المفسرين على اختصاص هذه الآية بأبي بكر،

(١) جاء ضمن حديث طويل عند البخاري في صحيحه من حادثة الإفك (٤/ ١٧٧٤)، حديث رقم (٤٤٧٣) من طريق ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة . . . به.

(٢) تقدم ترجمة امرئ القيس.

قلنا: كل من طالع كتب التفسير والأحاديث، علم أن اختصاص هذه الآية بأبي بكر بالغ إلى حد التواتر، فلو جاز منعه لجاز منع كل متواتر، وأيضًا فهذه الآية دالة على أن المراد منها أفضل الناس، وأجمعت الأمة على أن الأفضل إما أبو بكر أو علي، فإذا بينا أنه ليس المراد عليًّا تعينت الآية لأبي بكر، وإنما قلنا: (إنه ليس المراد منه عليًّا) لوجهين: الأول: أن ما قبل هذه الآية وما بعدها يتعلق بابنة أبي بكر، فيكون حديث علي في البين سمجًا. الثاني: أنه تعالى وصفه بأنه من أولي السعة، وإن عليًّا لم يكن من أولي السعة في الدنيا في ذلك الوقت، فثبت أن المراد منه أبو بكر قطعًا. واعلم أن الله تعالى وصف أبا بكر في هذه الآية بصفات عجيبة دالة على علو شأنه في الدين:

أحدها: أنه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع، والواحد إذا كُني عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فانظر إلى الشخص الذي كناه الله سبحانه مع جلاله بصيغة الجمع كيف يكون علو شأنه؟!

وثانيها: وصفه بأنه صاحب الفضل على الإطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص، والفضل يدخل فيه الإفضال، وذلك يدل على أنه رضي الله عنه كما كان فاضلاً على الإطلاق كان مفضلاً على الإطلاق.

وثالثها: أن الإفضال إفادة ما ينبغي لا لعوض، فمن يهب السكين لمن يقتل نفسه لا يسمى مفضلاً لأنه أعطى ما لا ينبغي، ومن أعطى ليستفيد منه عوضًا إما ماليًّا أو مدحًا أو ثناء فهو مستفيض، والله تعالى قد وصفه بذلك فقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٧- ٢٠] وقال في حق علي: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٩، ١٠] فعلي أعطى للخوف من العقاب، وأبو بكر ما أعطى إلا لوجه ربه الأعلى، فدرجة أبي بكر أعلى فكانت عطيته في الإفضال أتم وأكمل.

ورابعها: أنه قال: ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ فكلمة (مِن) للتمييز، فكأنه سبحانه ميزه عن كل المؤمنين بصفة كونه أُولي الفضل، والصفة التي بها يقع الامتياز يستحيل حصولها في الغير، وإلا لما كانت مميزة له بعينه، فدل ذلك على أن هذه الصفة خاصة فيه لا في غيره ألبتة.

وخامسها: أمكن حمل الفضل على طاعة الله تعالى وخدمته. وقوله: ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ على الإحسان إلى المسلمين، فكأنه كان مستجمعًا للتعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله، وهما من أعلى مراتب الصِّديقين، وكل من كان كذلك كان الله معه لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ولأجل اتصافه بهاتين الصفتين قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وسادسها: إنما يكون الإنسان موصوفًا بالسعة لو كان جوادًا بذولاً، ولقد قال عليه الصلاة

والسلام: «خَيْرُ النَّاسِ مَنْ يَنْفَعُ النَّاسَ»[١] فدل على أنه خير الناس من هذه الجهة، ولقد كان رضي الله عنه جوادًا بذولاً في كل شيء، ومن جوده أنه لما أسلم بكرة اليوم جاء بعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن مظعون إلى رسول الله ﷺ بعد أن أسلموا على يده، وكان جوده في التعليم والإرشاد إلى الدين والبذل بالدنيا كما هو مشهور، فيحق له أن يوصف بأنه من أهل السعة، وأيضًا فهب أن الناس اختلفوا في أنه هل كان إسلامه قبل إسلام علي أو بعده، ولكن اتفقوا على أن عليًّا حين أسلم لم يشتغل بدعوة الناس إلى دين محمد ﷺ وأن أبا بكر اشتغل بالدعوة، فكان أبو بكر أول الناس اشتغالاً بالدعوة إلى دين محمد ﷺ، ولا شك أن أجَلَّ المراتب في الدين هذه المرتبة، فوجب أن يكون أفضل الناس بعد الرسول ﷺ هو أبو بكر من هذه الجهة، ولأنه عليه السلام قال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[٢] فوجب أن يكون لأبي بكر مثل أجر كل من يدعو إلى الله، فيدل على الأفضلية من هذه الجهة أيضًا.

وسابعها: أن الظلم من ذوي القربى أشد، قال الشاعر:

وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ[٣]

وأيضًا فالإنسان إذا أحسن إلى غيره فإذا قابله ذلك الغير بالإساءة، كان ذلك أشد عليه مما إذا صدرت الإساءة من الأجنبي، والجهتان كانتا مجتمعتين في حق مسطح، ثم إنه آذى أبا بكر بهذا النوع من الإيذاء الذي هو أعظم أنواع الإيذاء، فانظر أين مبلغ ذلك الضرر في قلب أبي بكر، ثم إنه سبحانه أمره بأن لا يقطع عنه بره وأن يرجع معه إلى ما كان عليه من الإحسان، وذلك من أعظم أنواع المجاهدات، ولا شك أن هذا أصعب من مقاتلة الكفار؛ لأن هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكافر ومجاهدة النفس أشق؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ»[٤].

وثامنها: أن الله تعالى لما أمر أبا بكر بذلك لقبه بأولي الفضل وأولي السعة، كأنه سبحانه

---

(١) أورده العجلوني في (كشف الخفا) (١/ ٣٩٣)، حديث رقم (١٢٥٤).

وقال: لم أر من ذكر أنه حديث أو لا فليراجع، لكن معناه صحيح، وفي الأحاديث ما يشهد لذلك كحديث: «الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله فافهم»، ويشهد له ما رواه القضاعي عن جابر كما في الجامع الصغير بلفظ: «خير الناس أنفعهم للناس» انتهى.

(٢) تقدم.

(٣) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر طرفة العبد، وهو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، أبو عمرو، البكري الوائلي. ٨٦ - ٦٠ ق. هـ/ ٥٣٩ - ٥٦٤م.

شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان هجاءً غير فاحش القول، تفيض الحكمة على لسانه في أكثر شعره، وُلد في بادية البحرين وتنقل في بقاع نجد، اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر عامله على البحرين وعُمان يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر شابًا.

(٤) تقدم.

يقول: أنت أفضل من أن تقابل إساءته بشيء، وأنت أوسع قلبًا من أن تقيم للدنيا وزنًا، فلا يليق بفضلك وسعة قلبك أن تقطع برك عنه بسبب ما صدر منه من الإساءة. ومعلوم أن مثل هذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو في الدين.

وتاسعها: أن الألف واللام يفيدان العموم، فالألف واللام في (الفضل والسعة) يدلان على أن كل الفضل وكل السعة لأبي بكر، كما يقال (فلان هو العالم) يعني قد بلغ في الفضل إلى أن صار كأنه كل العالم وما عداه كالعدم، وهذا وأيضًا منقبة عظيمة.

وعاشرها: قوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ وفيه وجوه: منها: أن العفو قرينة التقوى، وكل من كان أقوى في العفو كان أقوى في التقوى، ومن كان كذلك كان أفضل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ومنها: أن العفو والتقوى متلازمان فلهذا السبب اجتمعا فيه، أما التقوى فلقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧] وأما العفو فلقوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾.

وحادي عاشرها: أنه سبحانه قال لمحمد ﷺ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣] وقال في حق أبي بكر: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ فمن هذا الوجه يدل على أن أبا بكر كان ثاني اثنين لرسول الله ﷺ في جميع الأخلاق حتى في العفو والصفح.

وثاني عشرها: قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فإنه سبحانه ذكره بكناية الجمع على سبيل التعظيم، وأيضًا فإنه سبحانه علق غفرانه له على إقدامه على العفو والصفح، فلما حصل الشرط منه وجب ترتيب الجزاء عليه، ثم قوله: ﴿يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ بصيغة المستقبل وأنه غير مقيد بشيء دون شيء فدلت الآية على أنه سبحانه قد غفر له في مستقبل عمره على الإطلاق، فكان من هذا الوجه ثاني اثنين للرسول ﷺ في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ودليلاً على صحة إمامته رضي الله عنه، فإن إمامته لو كانت على خلاف الحق لما كان مغفورًا له على الإطلاق ودليلاً على صحة ما ذكره الرسول ﷺ في خبر بشارة العشرة بأن أبا بكر في الجنة.

وثالث عشرها: أنه سبحانه وتعالى لما قال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وصف نفسه بكونه غفورًا رحيمًا، والغفور مبالغة في الغفران فعظَّم أبا بكر حيث خاطبه بلفظ الجمع الدل على التعظيم، وعظَّم نفسه سبحانه حيث وصفه بمبالغة الغفران، والعظيم إذا عظَّم نفسه ثم عظَّم مخاطبه فالعظمة الصادرة منه لأجله لا بد وأن تكون في غاية التعظيم، ولهذا قلنا بأنه سبحانه لما قال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] وجب أن تكون العطية عظيمة، فدلت الآية على أن أبا بكر ثاني اثنين للرسول ﷺ في هذه المنقبة أيضًا.

ورابع عشرها: أنه سبحانه لما وصفه بأنه أولو الفضل والسعة على سبيل المدح، وجب أن يقال: إنه كان خاليًا عن المعصية؛ لأن الممدوح إلى هذا الحد لا يجوز أن يكون من أهل النار، ولو كان عاصيًا لكان كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا

﴿خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤] وإذا ثبت أنه كان خاليًا عن المعاصي فقوله: ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لا يجوز أن يكون المراد غفران معصية لأن المعصية التي لا تكون لا يمكن غفرانها، وإذا ثبت أنه لا يمكن حمل الآية على ذلك وجب حملها على وجه آخر، فكأنه سبحانه قال والله أعلم: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ لأجل تعظيمكم هؤلاء القذفة العصاة، فيرجع حاصل الآية إلى أنه سبحانه قال: يا أبا بكر إن قبلت هؤلاء العصاة فأنا أيضًا أقبلهم، وإن رددتهم فأنا أيضًا أردهم. فكأنه سبحانه أعطاه مرتبة الشفاعة في الدنيا، فهذا ما حضرنا في هذه الآية والله أعلم. فإن قيل: هذه الآية تقدح في فضيلة أبي بكر من وجه آخر، وذلك لأنه نهاه عن هذا الحلف فدل على صدور المعصية منه. قلنا: الجواب عنه من وجوه: أحدها: أن النهي لا يدل على وقوعه، قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨] ولم يدل ذلك على أنه عليه الصلاة والسلام أطاعهم، بل دلت الأخبار الظاهرة على صدور هذا الحلف منه، ولكن على هذا التقدير لا تكون الآية دالة على قولكم. وثانيها: هب أنه صدر عنه ذلك الحلف، فلمَ قلتم: إنه كان معصية، وذلك لأن الامتناع من التفضل قد يحسن خصوصًا فيمن يسيء إلى من أحسن إليه أو في حق من يتخذه ذريعة إلى الأفعال المحرمة. لا يقال: فلو لم تكن معصية لما جاز أن ينهى الله عنه بقوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ﴾ لأنا نقول: هذا النهي ليس نهي زجر وتحريم، بل هو نهي عن ترك الأَوْلى، كأنه سبحانه قال لأبي بكر: اللائق بفضلك وسعة همتك أن لا تقطع هذا. فكان هذا إرشادًا إلى الأَوْلى لا منعًا عن المحرم.

المسألة الثالثة: أجمعوا على أن المراد من قوله: ﴿أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مسطح لأنه كان قريبًا لأبي بكر وكان من المساكين وكان من المهاجرين، واختلفوا في الذنب الذي وقع منه: فقال بعضهم: قذف كما فعله عبد الله بن أُبي فإنه عليه الصلاة والسلام حده وأنه تاب عن ذلك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان تاركًا للنكر ومُظهرًا للرضا، وأي الأمرين كان فهو ذنب.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة وقالوا: إنه سبحانه وصفه بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد أن أتى بالقذف، وهذه صفة مدح، فدل على أن ثواب كونه مهاجرًا لم يحبط بإقدامه على القذف.

المسألة الخامسة: أجمعوا على أن مسطحًا كان من البدريين، وثبت بالرواية الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**لَعَلَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: افْعَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» فكيف صدرت الكبيرة منه بعد أن كان بدريًا؟ والجواب: أنه لا يجوز أن يكون المراد منه (افعلوا ما شئتم من المعاصي) فيأمر بها أو يقيمها لأنا نعلم بالضرورة أن التكليف كان باقيًا عليهم، لو حملناه على ذلك لاقتضى زوال التكليف عنهم، ولأنه لو كان كذلك لما جاز أن يحد مسطح على ما فعل ويلعن، فوجب حمله على أحد أمرين: الأول: أنه تعالى اطلع على أهل بدر وقد

علم توبتهم وإنابتهم فقال: افعلوا ما شئتم من النوافل من قليل أو كثير فقد غفرت لكم وأعطيتكم الدرجات العالية في الجنة. الثاني: يحتمل أن يكون المراد أنهم يوافون بالطاعة فكأنه قال: قد غفرت لكم لعلمي بأنكم تموتون على التوبة والإنابة. فذكر حالهم في الوقت وأراد العاقبة.

المسألة السادسة: العفو والصفح عن المسيء حسن مندوب إليه، وربما وجب ذلك، ولو لم يدل عليه إلا هذه الآية لكفى، ألا ترى إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فعلق الغفران بالعفو والصفح، وعنه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ لَمْ يَقْبَلْ عُذْرًا لِمُتَنَصِّلٍ كَاذِبًا كَانَ أَوْ صَادِقًا، فَلاَ يَرِدُ عَلَى حَوْضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١) وعنه عليه الصلاة والسلام: «أَفْضَلُ أَخْلاَقِ الْمُسْلِمِينَ الْعَفْوُ»(٢) وعنه أيضًا: «يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّه أَجْرٌ فَلْيَقُمْ فَلاَ يَقُومُ إِلاَّ أَهْلُ الْعَفْوِ، ثُمَّ تَلاَ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه»(٣) وعنه عليه الصلاة والسلام أيضًا: «لاَ يَكُونُ الْعَبْدُ ذَا فَضْلٍ حَتَّى يَصِلَ مَنْ قَطَعَهُ وَيَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَهُ وَيُعْطِيَ مَنْ حَرَمَهُ»(٤).

المسألة السابعة: في هذه الآية دلالة على أن اليمين على الامتناع من الخير غير جائزة، وإنما تجوز إذا جُعلت داعيةِ للخير لا صارفة عنه.

المسألة الثامنة: مذهب الجمهور الفقهاء أنه من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها أن ينبغي له أن يأتي الذي هو خير ثم يكفر عن يمينه، وقال بعضهم: إنه يأتي بالذي هو خير، وذلك كفارته. واحتج ذلك القائل بالآية والخبر: أما الآية فهي أن الله تعالى أمَر أبا بكر بالحنث ولم يوجب عليه كفارة. وأما الخبر فما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَذَلِكَ كَفَّارَتُهُ» وأما دليل قول الجمهور فأمور: أحدها: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩] فكفارته وقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] وذلك عام في الحانث في الخير وغيره. وثانيها: قوله تعالى في شأن أيوب حين حلف على امرأته أن يضربها ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] وقد علمنا أن الحنث كان خيرًا من تركه وأمَره الله بضرب لا يبلغ منها، ولو كان الحنث فيها كفارتها لما أمر بضربها بل كان يحنث بلا كفارة. وثالثها: قوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى

(١) لم أجده.

(٢) موقوف: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (١/ ٢٤٤)، حديث رقم (٧٠٠)، وهناد في (الزهد) (٢/ ٦٠٤)، حديث رقم (١٢٨٩)، كلاهما من طريق جعفر بن حبان عن الحسن... به.

(٣) أخرجه هناد في (الزهد) (٢/ ٦٠٤)، حديث رقم (١٢٨٨)، قال: حدثنا أبو بكر عن بعض البصريين قال: قال الحسن... فذكره موقوفًا.

(٤) إسناده ضعيف جدًا: ورواه القرشي في (مكارم الأخلاق) (١/ ٢٣)، حديث رقم (٢٢) من طريق يحيى بن حمزة أخبرنا الحكم بن عبد الله بن سعد أنه سمع عياض بن عبد الله بن أبي سرح يحدث عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: لين يقال عبد صريح الإيمان حتى... فذكره. وفي إسناده الحكم بن عبد الله بن سعد، ذكره البخاري في التاريخ وقال: تركوه. كان ابن المبارك يوهنه ونهى أحمد عن حديثه.

غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»(١).

أما الجواب عما ذكره أولاً فهو أنه تعالى لم يذكر أمر الكفارة في قصة أبي بكر لا نفيًا ولا إثباتًا لأن حكمه كان معلومًا في سائر الآيات. والجواب عما ذكره ثانيًا في قوله: «وَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَذَلِكَ كَفَّارَتُهُ» فمعناه تكفير الذنب لا الكفارة المذكورة في الكتاب، وذلك لأنه منهي عن نقض الأيمان فأمَره هاهنا بالحنث والتوبة، وأخبر أن ذلك يُكفر ذنبه الذي ارتكبه بالحلف.

المسألة التاسعة: روى القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (فَضَلْتُ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ بِعَشْرِ خِصَالٍ: تَزَوَّجَنِي رَسُولُ الله ﷺ بِكْرًا دُونَ غَيْرِي، وَأَبَوَايَ مُهَاجِرَانِ، وَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِصُورَتِي فِي حَرِيرَةٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِي، وَكُنْتُ أَغْتَسِلُ مَعَهُ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ، وَجِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ وَأَنَا مَعَهُ فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ، وَتَزَوَّجَنِي فِي شَوَّالٍ، وَبَنَى بِي فِي ذَلِكَ الشَّهْرِ، وَقُبِضَ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى عُذْرِي مِنَ السَّمَاءِ، وَدُفِنَ فِي بَيْتِي، وَكُلُّ ذَلِكَ لَمْ يُسَاوِنِي غَيْرِي فِيهِ)(٢) وقال بعضهم: برأ الله أربعة بأربعة: برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد وشهد شاهد من أهلها، وبرأ موسى عليه السلام من قول اليهود بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بإنطاق ولدها، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر، وروي أنه لما قربت وفاة عائشة جاء ابن عباس يستأذن عليها، فقالت: يجيء الآن فيثني عليَّ، فخبره ابن الزبير فقال: ما أرجع حتى تأذن لي. فأذنت له فدخل فقالت عائشة: أعوذ بالله من النار. فقال ابن عباس: يا أم المؤمنين ما لك والنار قد أعاذك الله منها، وأنزل براءتك تُقرأ في المساجد وطَيَّبك فقال: ﴿وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦] كنت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، ولم يحب ﷺ إلا طيبًا وأنزل بسببك التيمم فقال: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣] وروي أن عائشة وزينب تفاخرتا، فقالت زينب: أنا التي أنزل ربي تزويجي. وقالت عائشة: أنا التي برأني ربي حين حملني ابن المعطل على الراحلة. فقالت لها زينب: ما قلت حين ركبتيها؟ قالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت: قلت كلمة المؤمنين.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الأيمان)، باب: (من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها) (٣/ ١٥/ ١٢٧٢)، والنسائي في كتاب (الأيمان)، باب: (الكفارة بعد الحنث) (٧/ ١٥)، حديث رقم (٣٧٩٤)، وابن ماجه في كتاب (الكفارات)، باب: (من حلف على يمين فرأى خيرًا منها) (١/ ٦٨١)، حديث رقم (٢١٠٨)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٥٦)، والدارمي في كتاب (النذور والأيمان)، باب: (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها) (٢/ ٣٧)، حديث رقم (٢٣٤٥)، جميعًا من رواية عدي بن حاتم... به.

(٢) لم أجده إلا عند أهل التفسير بدون إسناد.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اختلفوا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ هل المراد منه كل من كان بهذه الصفة أو المراد منه الخصوص؟ أما الأصوليون فقالوا: الصيغة عامة ولا مانع من إجرائها على ظاهرها، فوجب حمله على العموم فيدخل فيه قَذَفة عائشة وقَذَفة غيرها. ومن الناس من خالف فيه وذكر وجوهًا: أحدها: أن المراد قَذَفة عائشة. قالت عائشة: رُميت وأنا غافلة وإنما بلغني بعد ذلك، فبينما رسول الله ﷺ عندي إذ أوحى الله إليه فقال «أَبْشِرِي» وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وثانيها: أن المراد جملة أزواج رسول الله ﷺ وأنهن لشرفهن خُصصن بأن من قذفهن فهذا الوعيد لاحق به. واحتج هؤلاء بأمور: الأول: أن قاذف سائر المحصنات تُقبل توبته لقوله تعالى في أول السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النور: ٤ - ٥] وأما القاذف في هذه الآية فإنه لا تُقبل توبته لأنه سبحانه قال: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ ولم يذكر الاستثناء، وأيضًا فهذه صفة المنافقين في قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [الأحزاب: ٦١]، الثاني: أن قاذف سائر المحصنات لا يكفر، والقاذف في هذه الآية يكفر لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ وذلك صفة الكفار والمنافقين كقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ الآيات الثلاث [فصلت: ١٩ - ٢١]. الثالث: أنه قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والعذاب العظيم يكون عذاب الكفر، فدل على أن عقاب هذا القاذف عقاب الكفر، وعقاب قذفه سائر المحصنات لا يكون عقاب الكفر. الرابع: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يُسأل عن تفسير القرآن، فسئل عن تفسير هذه الآية فقال: من أذنب ذنبًا ثم تاب قُبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة. أجاب الأصوليون عنه بأن الوعيد المذكور في هذه الآية لا بد وأن يكون مشروطًا بعدم التوبة؛ لأن الذنب سواء كان كفرًا أو فسقًا، فإذا حصلت التوبة منه صار مغفورًا فزال السؤال. ومن الناس ذكر فيه قولاً آخر، وهو أن هذه الآية نزلت في مشركي مكة حين كان بينهم وبين رسول الله عهد، فكانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة. وقالوا إنما خرجت لتفجر. فنزلت فيهم والقول الأول هو الصحيح.

المسألة الثانية: أن الله تعالى ذكر فيمن يرمي المحصنات الغافلات المؤمنات ثلاثة أشياء: أحدها: كونهم ملعونين في الدنيا والآخرة وهو وعيد شديد، واحتج الجبائي بأن التقييد باللعن

عام في جميع القَذَفة، ومن كان ملعونًا في الدنيا فهو ملعون في الآخرة، والملعون في الآخرة لا يكون من أهل الجنة. وهو بناء على المحابطة وقد تقدم القول فيه. وثانيها: قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ونظيره قوله: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١] وعندنا البنية ليست شرطًا للحياة، فيجوز أن يخلق الله تعالى في الجوهر الفرد علمًا وقدرة وكلامًا، وعند المعتزلة لا يجوز ذلك، فلا جرم ذكروا في تأويل هذه الآية وجهين: الأول: أنه سبحانه يخلق في هذه الجوارح هذا الكلام. وعندهم المتكلم فاعل الكلام، فتكون تلك الشهادة من الله تعالى في الحقيقة إلا أنه سبحانه أضافها إلى الجوارح توسعًا. الثاني: أنه سبحانه يبني هذه الجوارح على خلاف ما هي عليه ويلجئها أن تشهد على الإنسان وتخبر عنه بأعماله، قال القاضي: وهذا أقرب إلى الظاهر؛ لأن ذلك يفيد أنها تفعل الشهادة. وثالثها: قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ ولا شبهة في أن نفس دينهم ليس هو المراد لأن دينهم هو عملهم. بل المراد جزاء عملهم، والدين بمعنى الجزاء مستعمل، كقولهم: (كما تدين تدان)، وقيل: الدين: هو الحساب كقوله (ذلك الدين القيم) أي الحساب الصحيح. ومعنى قوله: ﴿الْحَقَّ﴾ أي أن الذي نوفيهم من الجزاء هو القدر المستحق لأنه الحق وما زاد عليه هو الباطل، وقرئ (الحق) بالنصب صفة للدين وهو الجزاء وبالرفع صفة لله.

وأما قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ فمن الناس من قال: إنه سبحانه إنما سمي بالحق لأن عبادته هي الحق دون عبادة غيره، أو لأنه الحق فيما يأمر به دون غيره، ومعنى ﴿الْمُبِينُ﴾ يؤيد ما قلنا لأن المحق فيما يخاطب به هو المبين من حيث يبين الصحيح بكلامه دون غيره، ومنهم من قال: الحق من أسماء الله تعالى ومعناه الموجود؛ لأن نقيضه الباطل وهو المعدوم، ومعنى المبين المُظهر، ومعناه أن بقدرته ظهر وجود الممكنات، فمعنى كونه حقًّا أنه الموجود لذاته، ومعنى كونه مبينًا أنه المعطي وجود غيره.

قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

اعلم أن الخبيثات يقع على الكلمات التي هي القذف الواقع من أهل الإفك، ويقع أيضًا على الكلام الذي هو كالذم واللعن، ويكون المراد من ذلك لا نفس الكلمة التي هي من قبل الله تعالى، بل المراد مضمون الكلمة، ويقع أيضًا على الزواني من النساء، وفي هذه الآية كل هذه الوجوه محتملة، فإن حملناها على القذف الواقع من أهل الإفك كان المعنى: الخبيثات من قول أهل الإفك للخبيثين من الرجال، وبالعكس، والطيبات من قول منكري الإفك للطيبين من الرجال وبالعكس، وإن حملناها على الكلام الذي هو كالذم واللعن، فالمعنى أن الذم واللعن معدان للخبيثين من الرجال، والخبيثون منهم معرضون للعن والذم. وكذا القول في الطيبات

و(أولئك) إشارة إلى الطيبين وأنهم مبرءون مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلمات، وإن حملناه على الزواني فالمعنى: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، وبالعكس، على معنى قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣] والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والمعنى أن مثل ذلك الرمي الواقع من المنافقين لا يليق إلا بالخبيثات والخبيثين لا بالطيبات والطيبين، كالرسول ﷺ وأزواجه. فإن قيل: فعلى هذا الوجه يلزم أن لا يتزوج الرجل العفيف بالزانية. والجواب: ما تقدم في قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣]. وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ يعني الطيبات والطيبين مما يقوله أصحاب الإفك، سوى قول من حمله على الكلمات فكأنه قال: الطيبون مبرءون مما يقوله الخبيثون. ومتى حمل أولئك على هذا الوجه كان لفظه كمعناه في أنه جمع، ومتى حملته على عائشة وصفوان وهما اثنان فكيف يعبر عنهما بلفظ الجمع؟ فجوابه من وجهين: الأول: أن ذلك الرمي قد تعلق بالنبي ﷺ وبعائشة وصفوان، فبرأ الله تعالى كل واحد منهم من التهمة اللائقة به. الثاني: أن المراد به كل أزواج النبي ﷺ، فكأنه تعالى برأهن من هذا الإفك، لكن لا يقدح فيهن أحد كما أقدموا على عائشة، ونزه الرسول ﷺ بذلك عن أمثال هذا الأمر وهذا أبين، كأنه تعالى بَيَّن أن الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، ولا أحد أطيب ولا أطهر من الرسول، فأزواجه إذن لا يجوز أن يكن إلا طيبات، ثم بَيَّن تعالى أن: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ يعني براءة من الله ورسوله ورزق كريم في الآخرة، ويحتمل أن يكون ذلك خبرًا مقطوعًا به، فيُعلم بذلك أن أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام هن معه في الجنة، وقد وردت الأخبار بذلك، ويحتمل أن يكون المراد بشرط اجتناب الكبائر والتوبة. والأول أَوْلى لأنا إنما نحتاج إلى الشرط إذا لم يمكن حمل الآية عليه، أما إذا أمكن فلا وجه لطلب الشرط، وهذا يدل على أن عائشة رضي الله عنها تصير إلى الجنة، بخلاف مذهب الرافضة الذين يكفرونها بسبب حرب يوم الجمل فإنهم يردون بذلك نص القرآن. فإن قيل: القطع بأنها من أهل الجنة إغراء لها بالقبيح. قلنا: أليس أن الرسول ﷺ قد أعلمه الله تعالى بأنه من أهل الجنة ولم يكن ذلك إغراء له بالقبيح، وكذا العشرة المبشرة بالجنة؟ فكذا هاهنا، والله أعلم. تمت قصة أهل الإفك.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى عدل عما يتصل بالرمي والقذف وما يتعلق بهما من الحكم - إلى ما يليق به

لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت كأنها طريق التهمة، فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام؛ لأن في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة، وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ. **وفي الآية سؤالات:**

السؤال الأول: الاستئناس عبارة عن الأنس الحاصل من جهة المجالسة، قال تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وإنما يحصل ذلك بعد الدخول والسلام، فكان الأَوْلى تقديم السلام على الاستئناس فلمَ جاء على العكس من ذلك؟ والجواب عن هذا من وجوه: أحدها: ما يروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير: إنما هو حتى تستأذنوا فأخطأ الكاتب. وفي قراءة أُبي: حتى تستأذنوا لكم والتسليم خير لكم من تحية الجاهلية والدمور، وهو الدخول بغير إذن. واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك، كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب، وفي الحديث «مَنْ سَبَقَتْ عَيْنُهُ اسْتِئْذَانَهُ فَقَدْ دَمَرَ» واعلم أن هذا القول من ابن عباس فيه نظر؛ لأنه يقتضي الطعن في القرآن الذي نُقل بالتواتر ويقتضي صحة القرآن الذي لم ينقل بالتواتر، وفتح هذين البابين يطرق الشك إلى كل القرآن وأنه باطل. وثانيها: ما روي عن الحسن البصري أنه قال: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، والمعنى: حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا، وذلك لأن السلام مقدم على الاستئناس. وفي قراءة عبد الله: حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا. وهذا أيضًا ضعيف لأنه خلاف الظاهر. وثالثها: أن تجري الكلام على ظاهره. ثم في تفسير الاستئناس وجوه: الأول: حتى تستأنسوا بالإذن. وذلك لأنهم إذا استأذنوا وسلموا أنس أهل البيت، ولو دخلوا بغير إذن لاستوحشوا وشق عليهم. الثاني: تفسير الاستئناس بالاستعلام والاستكشاف، استفعال من آنس الشيء إذا أبصره ظاهرًا مكشوفًا، والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم. ومنه قولهم: استأنِس هل ترى أحدًا، واستأنست فلم أر أحدًا، أي تعرفت واستعلمت. فإن قيل: وإذا حُمل على الأنس ينبغي أن يتقدمه السلام كما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟»(١) قلنا: المستأذن ربما لا يعلم أن أحدًا في المنزل فلا معنى لسلامه والحالة هذه، والأقرب أن يستعلم بالاستئذان هل هناك من يأذن، فإذا أذِن ودخل صار مواجهًا له فيسلم عليه. والثالث: أن يكون اشتقاق الاستئناس من الإنس وهو أن يتعرف هل ثم إنسان، ولا شك أن هذا مقدم على السلام. والرابع: لو سلمنا أن الاستئناس إنما يقع بعد السلام، ولكن الواو لا توجب الترتيب، فتقديم الاستئناس على السلام في اللفظ لا يوجب تقديمه عليه في العمل.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (كيف الاستئذان) (٤/ ٢٢٠١)، حديث رقم (٥١٧٧)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣٦٩)، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ٣٤٠) من طريق ابن أبي شيبة... به، وأورده السيوطي في (الدر المنثور) (٥/ ٣٨).

السؤال الثاني: ما الحكم في إيجاب تقديم الاستئذان؟ والجواب: تلك الحكمة هي التي نبه الله تعالى عليها في قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ فدل بذلك على أن الذي لأجله حرم الدخول إلا على هذا الشرط هو كون البيوت مسكونة، إذ لا يأمن من يهجم عليها بغير استئذان أن يهجم على ما لا يحل له أن ينظر إليه من عورة، أو على ما لا يحب القوم أن يعرفه غيرهم من الأحوال، وهذا من باب العلل المنبه عليها بالنص، ولأنه تصرف في ملك الغير فلا بد وأن يكون برضاه، وإلا أشبه الغصب.

السؤال الثالث: كيف يكون الاستئذان؟ الجواب: استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: أألج؟ فقال عليه الصلاة والسلام لامرأة يقال لها روضة: «قُومِي إِلَى هَذَا فَعَلِّمِيهِ فَإِنَّهُ لاَ يُحْسِنُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ، قُولِي لَهُ يَقُولُ: السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ؟» فسمعها الرجل فقالها، فقال: «ادخل» فدخل وسأل رسول الله ﷺ عن أشياء وكان يجيب، فقال هل في العلم ما لا تعلمه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد آتاني اللَّه خَيْرًا كَثِيرًا، وَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا لاَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ اللَّه»، وَتَلاَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ . .﴾ إِلَى آخِرِهِ [(١)]. وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم إذا دخل بيتًا غير بيته: حييتم صباحًا وحييتم مساء. ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد، فصدق الله تعالى عن ذلك وعلم الأحسن والأجمل، وعن مجاهد: حتى تستأنسوا هو التنحنح. وقال عكرمة: هو التسبيح والتكبير ونحوه.

السؤال الرابع: كم عدد الاستئذان؟ الجواب: روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الاِسْتِئْذَانُ ثَلاَثٌ، بِالأُولَى يَسْتَنْصِتُونَ، وَبِالثَّانِيَةِ يَسْتَصْلِحُونَ، وَبِالثَّالِثَةِ يَأْذَنُونَ أَوْ يَرُدُّونَ» [(٢)] وعن جندب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاَثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ» [(٣)] وعن أبي سعيد الخدري قال: (كُنْتُ جَالِسًا فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ، فَجَاءَ أَبُو مُوسَى فَزِعًا، فَقُلْنَا لَهُ: مَا أَفْزَعَكَ؟ فَقَالَ: أَمَرَنِي عُمَرُ أَنْ آتِيَهُ فَأَتَيْتُهُ، فَاسْتَأْذَنْتُ ثَلاَثًا، فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي) [(٤)]. وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاَثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، فَلْيَرْجِعْ»

---

(١) انظر سابقه.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ ولكن له أصل في الصحيح بلفظ: «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع»، أخرجه مسلم في (صحيحه) (٦/ ١٧٨/ ٥٧٥٣) من طريق بشر بن سعيد عن أبي سعيد الخدري. . . به، وأيضًا أخرجه مسلم في كتاب (الأدب) (٣/ ١٦٩٥/ ٢١٥٣)، قال: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا بشر - يعني ابن مفضل - حدثنا سعيد بن يزيد عن أبي نضرة. . . به، وأحمد في (مسنده) (٤/ ٤٠٣)، قال: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي مسلمة عن أبي نضرة. . . به.

(٣) إسناده صحيح: أخرجه الطبراني في (الكبير) (٢/ ١٦٨)، حديث رقم (١٦٨٧)، وفي (الأوسط) (٧/ ٣١٣)، حديث رقم (٧٥٩٧)، كلاهما من طريق العباس بن محمد حدثنا شبابة بن سوار حدثنا المغيرة بن مسلم عن يونس بن عبيد عن الوليد بن مسلم عن جندب. . . به، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٤٦)، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير العباس بن محمد الدوري وهو ثقة.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الاستئذان)، باب: (التسليم والاستئذان ثلاثًا) (١١/ ٢٨)، حديث رقم (٦٢٤٥)، ومسلم في كتاب (الآداب)، باب: (الاستئذان) (٣/ ٣٣/ ١٦٩٤)، من طرق سفيان. . . به.

فقال: لتأتيني على هذا بالبينة، أو لأعاقبنك!! فقال أبي: لا يقوم معك إلا أصغر القوم. قال: فقام أبو سعيد فشهد له. وفي بعض الأخبار أن عمر قال لأبي موسى: إني لم أتهمك، ولكني خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ. وعن قتادة: الاستئذان ثلاثة: الأولى يسمع الحي، والثاني ليتأهبوا، والثالث إن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا. واعلم أن هذا من محاسن الآداب؛ لأن في أول مرة ربما منعهم بعض الأشغال من الإذن، وفي المرة الثانية ربما كان هناك ما يمنع أو يقتضي المنع أو يقتضي التساوي، فإذا لم يجب في الثالثة يستدل بعدم الإذن على مانع ثابت، وربما أوجب ذلك كراهة قربه من الباب فلذلك يسن له الرجوع، ولذلك يقول: يجب في الاستئذان ثلاثًا أن لا يكون متصلاً، بل يكون بين كل واحدة والأخرى وقت، فأما قرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار، فذاك حرام لأنه يتضمن الإيذاء والإيحاش، وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

السؤال الخامس: كيف يقف على الباب؟ الجواب: روي أن أبا سعيد استأذن على الرسول ﷺ وهو مستقبل الباب، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لاَ تَسْتَأْذِنْ وَأَنْتَ مُسْتَقْبِلُ الْبَابِ**»(١). وروي أنه عليه الصلاة والسلام «**كَانَ إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ الْبَابَ مِنْ تِلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الْأَيْمَنِ أَوِ الْأَيْسَرِ فَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ**»(٢) وذلك لأن الدور لم يكن عليها حينئذٍ ستور.

السؤال السادس: أن كلمة (حتى) للغاية والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها فقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ يقتضي جواز الدخول بعد الاستئذان وإن لم يكن من صاحب البيت إذن، فما قولكم فيه؟ الجواب من وجوه: أحدها: أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان، والاستئناس لا يحصل إلا إذا حصل الإذن بعد الاستئذان. وثانيها: أنا لما علمنا بالنص أن الحكمة في الاستئذان أن لا يدخل الإنسان على غيره بغير إذنه فإن ذلك مما يسوءه، وعلمنا أن هذا المقصود لا يحصل إلا بعد حصول الإذن، علمنا أن الاستئذان ما لم يتصل به الإذن وجب أن لا يكون كافيًا. وثالثها: أن قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ فحظر الدخول إلا بإذن، فدل على أن الإذن مشروط بإباحة الدخول في

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في (الكبير) (٦/ ٢٢)، حديث رقم (٥٤٠٠) من طريق سفيان بن عيينة عن منصور عن هلال بن يساف عن سعد بن عبادة أنه استأذن مستقبل الباب فقال له النبي ﷺ... فذكره، أخرجه أبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (في الاستئذان) (٤/ ٢١٩٩)، حديث رقم (٥١٧٤)، ورواه البيهقي في (شعب الإيمان) (٦/ ٤٤٣)، حديث رقم (٨٨٢٥) من طريق هزيل... به، وأورده السيوطي في (الدر المنثور) (٥/ ١٣٩)، ونسبه إلى ابن أبي شيبة.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد)، حديث رقم (١٠٧٨)، وأبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان؟) (٤/ ٢٢٠٤)، حديث رقم (٥١٨٦)، وأحمد في (مسنده) (٤/ ١٨٩) من طريق بقية... به، وقد صرح فيه بالتحديث.

الآية الأولى، فإن قيل: إذا ثبت أنه لا بد من الإذن فهل يقوم مقامه غيره أم لا؟ قلنا: روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «رَسُولُ الرَّجُلِ إِلَى الرَّجُلِ إِذْنُهُ»(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ فَجَاءَ مَعَ الرَّسُولِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَهُ إِذْنٌ»(٢) وهذا الخبر يدل على معنيين: أحدهما: أن الإذن محذوف من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ وهو المراد منه. والثاني: أن الدعاء إذن إذا جاء مع الرسول وأنه لا يحتاج إلى استئذان ثانٍ، وقال بعضهم: إن من قد جرت العادة له بإباحة الدخول فهو غير محتاج إلى الاستئذان.

السؤال السابع: ما حكم من اطلع على دار غيره بغير إذنه؟ الجواب: قال الشافعي رحمه الله: لو فقئت عينه فهي هدر. وتمسَّك بما روى سهل بن سعد قال: اطلع رجل في حجرة من حجر النبي ﷺ ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال: «لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ لَطَعَنْتُ بِهَا فِي عَيْنِكَ، إِنَّمَا الاِسْتِئْذَانُ قَبْلَ النَّظَرِ»(٣) وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنِ اطَّلَعَ فِي دَارِ قَوْمٍ بغير إذنهم ففقؤوا عَيْنَهُ، فَقَدْ هُدِرَتْ عَيْنُهُ»(٤). قال أبو بكر الرازي: هذا الخبرُ يَرد لوروده على خلاف قياس الأصول، فإنه لا خلاف أنه لو دخل داره بغير إذنه ففقأ عينه كان ضامنًا وكان عليه القصاص إن كان عامدًا والأرش إن كان مخطئًا، ومعلوم أن الداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع، فظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق، فإن صح فمعناه: من اطلع في دار قوم ونظر إلى حرمهم ونسائهم فمونع فلم يمتنع، فذهبت عينه في حال الممانعة، فهي هدر، فأما إذا لم يكن إلا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولا نهي، ثم جاء إنسان ففقأ عينه، فهذا جانٍ يلزمه حكم جنايته لظاهر قوله تعالى: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد)، حديث رقم (١٠٧٦)، وأبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (في الرجل يدعى أيكون ذلك إذنه) (٤/ ٢٢٠٥)، حديث رقم (٥١٨٩)، وابن حبان في (صحيحه) (٦/ ٢٥٤)، حديث رقم (١٩٦٥)، موارد، والبيهقي في (سننه الكبرى) (٨/ ٣٤٠)، والطحاوي في (مشكل الآثار) (٤/ ١٢٧)، حديث رقم (١٣٦٩)، جميعًا من طريق حماد بن سلمة عن أيوب وحبيب بن الشهيد عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة. . . به.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب المفرد)، حديث رقم (١٠٧٥)، وأبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (في الرجل يدعى أيكون في ذلك إذنه) (٤/ ٢٢٠٦)، حديث رقم (٥١٩٠)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٥٣٣) من طريق سعيد. . . به. قال البيهقي في سننه: هذا عندي والله أعلم إذا لم يكن في الدار حرمة، فإن كان حرمة فلابد من الاستئذان بعد نزول آية الحجاب.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الديات)، باب: (من اطلع في بيت قوم ففقئوا عينه) (١٢/ ٢٥٣)، حديث رقم (٦٩٠) من طريق ليث. . . به، ومسلم في كتاب (الآداب)، باب: (تحريم النظر في بيت غيره) (٣/ ٤٠/ ١٦٩٨) من طريق الليث. . . به، كلاهما (الليث، الأوزاعي) عن الزهري. . . به.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الآداب)، باب: (تحريم النظر في بيت غيره) (٣/ ٤٣/ ١٦٩٩)، وأبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (في الاستئذان) (٤/ ٢١٩٩)، حديث رقم (٥١٧٢)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٦٦/ ٥٢٧) من طريق سهيل. . . به.

واعلم أن التمسك بقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المائدة: ٤٥] في هذه المسألة ضعيف؛ لأنا أجمعنا على أن هذا النص مشروط بما إذا لم تكن العين مستحقة، فإنها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص، فلمَ قلت: إن من اطلع في دار إنسان لم تكن عينه مستحقة؟ وهذا أول المسألة.

أما قوله: (إنه لو دخل لم يجز فقوء عينه، فكذا إذا نظر) قلنا: الفرق بين الأمرين ظاهر؛ لأنه إذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتستروا، فأما إذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما لا يجوز الاطلاع عليه، فلا يبعد في حكم الشرع أن يبالغ هاهنا في الزجر حسمًا لباب هذه المفسدة، وبالجملة فرَدُّ حديث رسول الله ﷺ لهذا القدر من الكلام غير جائز.

السؤال الثامن: لما بينتم أنه لا بد من الإذن فهل يكفي الإذن كيف كان، أو لا بد من إذن مخصوص؟ الجواب: ظاهر الآية يقتضي قبول الإذن مطلقًا سواء كان الآذن صبيًا أو امرأة أو عبدًا أو ذميًا فإنه لا يعتبر في هذا الإذن صفات الشهادة، وكذلك قبول أخبار هؤلاء في الهدايا ونحوها.

السؤال التاسع: هل يعتبر الاستئذان على المحارم؟ والجواب: نعم، عن عطاء بن يسار: أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أستأذن على أختي؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**نَعَمْ أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟**»[(١)] وسأل رجل حذيفة: أستأذن على أختي؟ فقال: إن لم تستأذن عليها رأيت ما يسوؤك!! وقال عطاء: سألت ابن عباس رضي الله عنهما: أستأذن على أختي ومن أنفق عليها؟ قال نعم إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩] ولم يفرق بين من كان أجنبيًا أو ذا رحم محرم.

واعلم أن ترك الاستئذان على المحارم وإن كان غير جائز إلا أنه أيسر لجواز النظر إلى شعرها وصدرها وساقها ونحوها من الأعضاء. والتحقيق فيه أن المنع من الهجوم على الغير إن كان لأجل أن ذلك الغير ربما كان منكشف الأعضاء، فهذا دخل فيه الكل إلا الزوجات وملك اليمين، وإن كان لأجل أنه ربما كان مشتغلاً بأمر يكره اطلاع الغير عليه، وجب أن يعم في الكل، حتى لا يكون له أن يدخل على الزوجة والأمة إلا بإذن.

السؤال العاشر: إذا عرض أمر في دار من حريق أو هجوم سارق أو ظهور منكر، فهل يجب الاستئذان؟ **الجواب:** كل ذلك مستثنى بالدليل فهذا جملة الكلام في الاستئذان، وأما السلام فهو من سنة المسلمين التي أُمروا بها، وأمان للقوم، وهو تحية أهل الجنة ومجلبة للمودة ونافٍ للحقد والضغينة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لَمَّا خَلَقَ اللَّه تَعَالَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ للَّه، فَحَمِدَ اللَّه بِإِذْنِ اللَّه، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ**

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٣٦٥)، حديث رقم (١٠٦٣) من طريق سفيان قال: حدثنا عمرو بن جريج عن عطاء... فذكره.

يَا آدَمُ اذْهَبْ إِلَى هَؤُلاَءِ الْمَلاَئِكَةِ، وَهُمْ مَلأٌ مِنْهُمْ جُلُوسٌ فَقُلِ السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ. فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَقَالَ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ»(١) وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ، وَيُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ، وَيَنْصَحُ لَهُ بِالْغَيْبِ، وَيُشَمِّتُهُ إِذَا عَطَسَ، وَيَعُودُهُ إِذَا مَرِضَ، وَيَشْهَدُ جِنَازَتَهُ إِذَا مَاتَ»(٢) وعن ابن عمر قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إِنْ سَرَّكُمْ أَنْ يُسَلَّ الْغِلُّ مِنْ صُدُورِكُمْ فَأَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ»(٣).

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالمعنى فيه ظاهر، إذ المراد أن فعل ذلك خير لكم وأَوْلى لكم من الهجوم بغير إذن ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي تتذكروا هذا التأديب فتتمسكوا به، ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا﴾ أي في البيوت أحدًا ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ لأن العلة في الصورتين واحدة وهي جواز أن يكون هناك أحوال مكتومة يكره اطلاع الداخل عليها، ثم قال: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ وذلك لأنه كما يكون الدخول قد يكرهه صاحب الدار، فكذا الوقوف على الباب قد يكرهه، فلا جرم كان الأَوْلى والأزكى له أن يرجع إزالةً للإيحاش والإيذاء. ولما ذكر الله تعالى حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور التي هي غير مسكونة، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ وذلك لأن المانع من الدخول إلا بإذن زائل عنها، واختلف المفسرون في المراد من قوله: ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ على أقوال: أحدها: وهو قول محمد بن الحنفية أنها الخانات والرباطات وحوانيت البياعين والمتاع المنفعة، كالاستكنان من الحر والبرد، وإيواء الرحال والسلع والشراء والبيع، يروى أن أبا بكر قال: يا رسول الله إن الله قد أنزل عليك آية في الاستئذان وإنا نختلف في تجارتنا فننزل هذه الخانات، أفلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت هذه الآية(٤). وثانيها: أنها الخربات يتبرز فيها والمتاع: التبرز. وثالثها: الأسواق. ورابعها: أنها الحمامات، والأَوْلى أن يقال: إنه لا يمتنع دخول الجميع تحت الآية فيحمل على الكل، والعلة

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٥٣)، حديث رقم (٣٣٦٨)، وابن حبان في (صحيحه) (١٤/ ٤٠)، حديث رقم (٦١٦٧)، والحاكم في (المستدرك) (١/ ١٣٢)، حديث رقم (٢١٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٦٣)، حديث رقم (١٠٠٤٦)، جميعًا من طريق سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة. . . به.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (الأدب)، باب: (في تشميت العاطس) (٥/ ٧٥)، حديث رقم (٢٧٣٦) من طريق أبي الأحوص. . . به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن. وابن ماجه في كتاب (الجنائز)، باب: (في عيادة المريض) (١/ ٤٦١)، حديث رقم (١٤٣٣) من طريق أبي الأحوص. . . به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٨٨)، حديث رقم (٦٧٣) من طريق إسرائيل. . . به، وكذلك في (١/ ٨٩)، حديث رقم (٦٧٤)، كلاهما عن أبي إسحاق. . . به، والدارمي في كتاب (الاستئذان)، باب: (في حق المسلم على المسلم) (٢/ ١٥٠)، حديث رقم (٢٦٣٣) من طريق أبي إسحاق. . . به، والحديث صحيح دون زيادة قوله: (ويحب له ما يحب لنفسه وينصح له بالغيب)، كما ذكر ذلك الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) لم أجده.

(٤) لم أجده.

في ذلك أنها إذا كانت كذلك فهي مأذون بدخولها من جهة العرف، فكذلك نقول: إنها لو كانت غير مسكونة ولكنها كانت مغصوبة، فإنه لا يجوز للداخل أن يدخل فيها، لكن الظاهر من حال الخانات أنها موضوعة لدخول الداخل.

وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فهو وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

اعلم أنه تعالى قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنما خصهم بذلك لأن غيرهم لا يلزمه غض البصر عما لا يحل له ويحفظ الفرج عما لا يحل له؛ لأن هذه الأحكام كالفروع للإسلام والمؤمنون مأمورون بها ابتداء، والكفار مأمورون قبلها بما تصير هذه الأحكام تابعة له، وإن كان حالهم كحال المؤمنين في استحقاق العقاب على تركها، لكن المؤمن يتمكن من هذه الطاعة من دون مقدمة، والكافر لا يتمكن إلا بتقديم مقدمة من قبله، وذلك لا يمنع من لزوم التكاليف له.

واعلم أنه سبحانه أمَر الرجال بغض البصر وحفظ الفرج، وأمَر النساء بمثل ما أمر به الرجال، وزاد فيهن أن لا يبدين زينتهن إلا لأقوام مخصوصين.

أما قوله تعالى: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال الأكثرون: (مِن) هاهنا للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل، وجوَّز الأخفش أن تكون مزيدة، ونظيره قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] وأباه سيبويه، فإن قيل: كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفرج؟ قلنا: دلالة على أن أمر النظر أوسع، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن، وكذا الجواري المستعرضات، وأما أمر الفرج فمضيق، وكفاك فرقًا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه وحظر الجماع إلا ما استثنى منه، ومنهم من قال:

﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي ينقصوا من نظرهم، فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو مغضوض ممنوع عنه، وعلى هذا (مِن) ليست بزائدة ولا هي للتبعيض بل هي من صلة الغض، يقال: غضضت من فلان، إذا نقصت من قدره.

المسألة الثانية: اعلم أن العورات على أربعة أقسام: عورة الرجل مع الرجل، وعورة المرأة مع المرأة، وعورة المرأة مع الرجل، وعورة الرجل مع المرأة: فأما الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر إلى جميع بدنه إلا عورته، وعورته ما بين السرة والركبة، والسرة والركبة ليستا بعورة، وعند أبي حنيفة رحمه الله الركبة عورة، وقال مالك: الفخذ ليست بعورة. والدليل على أنها عورة ما روي عن حذيفة أن النبي ﷺ مر به في المسجد وهو كاشف عن فخذه فقال عليه السلام: «غَطِّ فَخِذَكَ فَإِنَّهَا مِنَ الْعَوْرَةِ» (١) وقال لعلي رضي الله عنه: «لاَ تُبْرِزْ فَخِذَكَ، وَلاَ تَنْظُرْ إِلَى فَخِذِ حَيٍّ وَلاَ مَيِّتٍ» (٢) فإن كان في نظره إلى وجهه أو سائر بدنه شهوة أو خوف فتنة بأن كان أمرد، لا يحل النظر إليه، ولا يجوز للرجل مضاجعة الرجل، وإن كان كل واحد منهما في جانب من الفراش؛ لما روى أبو سعيد الخدري أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ

---

(١) لم أجده عن حذيفة، وقد جاء الحديث من طريق زرعة بن عبد الرحمن عن أبيه، وكان من أصحاب الصُّفة... وذكر الحديث.

صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الحمام)، باب: (النهي عن التعري) (٤/ ١٧٢٣)، حديث رقم (٤٠١٤)، والترمذي في كتاب (الأدب)، باب: (أن الفخذ عورة) (٥/ ١٠٢)، حديث رقم (٢٧٩٥)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن ما أرى إسناده بمتصل. وأحمد في (مسنده) (٣/ ٤٧٨)، والدارمي في كتاب (الاستئذان)، باب: (في أن الفخذ عورة) (٢/ ١٥٧)، حديث رقم (٢٦٥٠)، والحميدي في (مسنده) (٢/ ٣٧٨)، حديث رقم (٨٥٧)، وأبو داود الطيالسي في (مسنده) (١٦٢، ١٦٣)، حديث رقم (١١٧٦)، جميعًا من رواية جرهد الأسلمي... به.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود في كتاب (الجنائز)، باب: (في ستر الميت عند غُسله) (٣/ ١٣٧١)، حديث رقم (٣١٤٠)، وابن ماجه في كتاب (الجنائز)، باب: (في غسل الميت) (١/ ٤٦٩)، حديث رقم (١٤٦٠)، وأحمد في (مسنده) (١/ ١٤٦)، حديث رقم (١٢٤٨).

وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح وفيه كلام كثير. والبيهقي في (سننه) (٣/ ٣٨٨)، والحاكم في (المستدرك) (٤/ ١٨٠، ١٨١)، وسكت عنه هو والذهبي، جميعًا من طريق ابن جريج... به، وأورده الألباني في (الإرواء)، حديث رقم (٢٦٩)، وقال: ضعيف جدًا. قال أبو داود عقيب الحديث رقم (٤٠١٥).

هذا الحديث فيه نكارة. وقال الألباني: الحديث منقطع بين ابن جريج وحبيب، ولكن هنالك روايتان صرح فيهما بالسماع من حبيب:

الأولى: عند أحمد (١/ ١٤٦) من طريق أبي خالد العيسيري القرشي حدثنا ابن جريج أخبرني حبيب... به، وعلتها أبو خالد هذا مجهول كما أشار الحافظ في تعجيل المنفعة.

الثانية: أخرجها الدارقطني من طريق أحمد بن منصور حدثني روح بن عبادة حدثنا ابن جريج أخبرني حبيب... به، وعلتها أحمد بن منصور هذا لم يوثقه أحد إلا ما قاله أبو حاتم فيه: (صدوق) لكن الصدوق قد يخطئ. وقال الألباني: والخلاصة أن الحديث منقطع في موضعين:

الأول: بين ابن جريج وحبيب.

والآخر: بين حبيب وعاصم.

وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ»(١) وتُكره المعانقة وتقبيل الوجه إلا لولده شفقة، وتستحب المصافحة لما روى أنس قال: «قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّه الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَيَنْحَنِي لَهُ؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: أَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: أَفَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ»(٢). أما عورة المرأة مع المرأة فكعورة الرجل مع الرجل، فلها النظر إلى جميع بدنها إلا ما بين السرة والركبة، وعند خوف الفتنة لا يجوز، ولا يجوز المضاجعة. والمرأة الذمية هل يجوز لها النظر إلى بدن المسلمة؟ قيل: يجوز كالمسلمة مع المسلمة، والأصح أنه لا يجوز لأنها أجنبية في الدين والله تعالى يقول: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ وليست الذمية من نسائنا. أما عورة المرأة مع الرجل فالمرأة إما أن تكون أجنبية أو ذات رحم محرم أو مستمتعة: فإن كانت أجنبية فإما أن تكون حرة أو أمة فإن كانت حرة فجميع بدنها عورة، ولا يجوز له أن ينظر إلى شيء منها إلا الوجه والكفين؛ لأنها تحتاج إلى إبراز الوجه في البيع والشراء، وإلى إخراج الكف للأخذ والعطاء، ونعني بالكف ظهرها وبطنها إلى الكوعين، وقيل: ظهر الكف عورة.

واعلم أنا ذكرنا أنه لا يجوز النظر إلى شيء من بدنها، ويجوز النظر إلى وجهها وكفها، وفي كل واحد من القولين استثناء. أما قوله: (يجوز النظر إلى وجهها وكفها)، فاعلم أنه على ثلاثة أقسام(٣) لأنه إما أن لا يكون فيه غرض ولا فيه فتنة، وإما أن يكون فيه فتنة ولا غرض فيه، وإما أن يكون فيه فتنة وغرض:

أما القسم الأول: فاعلم أنه لا يجوز أن يتعمد النظر إلى وجه الأجنبية لغير غرض، وإن وقع بصره عليها بغتة يغض بصره؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ وقيل: يجوز مرة واحدة إذا لم يكن محل فتنة، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله، ولا يجوز أن يكرر النظر إليها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] ولقوله عليه السلام: «يا علي لا تُتبع النظرة النظرة؛ فإن لك الأولى وليست لك الآخرة»(٤) وعن جابر قال: سَأَلْتُ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحيض)، باب: (تحريم النظر إلى العورات) (١/ ٢٦٦/ ٧٤)، وأبو داود في كتاب (الحمام)، باب: (ما جاء في التعري) (٤/ ١٧٢٤/ ١٧٢٥)، حديث رقم (٤٠١٨)، والترمذي في كتاب (الأدب)، باب: (كراهية مباشرة الرجل الرجل والمرأة المرأة) (٥/ ١٠١)، حديث رقم (٢٧٩٣).

قال أبو عيسى: هذا حديث غريب صحيح، وابن ماجه في (الطهارة)، باب: (النهي فيمن يرى عورة أخيه) (١/ ٢١٧)، حديث رقم (٦٦١)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٦٣)، جميعًا من طريق الضحاك بن عثمان... به.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٧٥)، حديث رقم (٢٧٢٨).

وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٢٢٠)، حديث رقم (٣٧٠٢)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٩٨)، حديث رقم (١٣٠٦٧)، وأبو يعلى في (مسنده) (٧/ ٢٦٩)، حديث رقم (٤٢٨٧)، وعبد بن حميد (١/ ٣٦٦)، حديث رقم (١٢١٧)، جميعًا من طريق حنظلة بن عبيد الله عن أنس بن مالك... به.

(٣) اعلم أن القسمة في هذه المسألة رباعية لا ثلاثية، والقسم الذي تركه المؤلف في الإجمال ذكره عند التفصيل، لكنه أهمل القسم الثاني الذي ذكره هنا، فلعل السقط في الموضعين من الناسخ (هامش).

(٤) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (النكاح)، باب: (ما يؤمر به من غض البصر) (٢/ ٩٢١)، حديث=

رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنِ نَظَرِ الْفَجْأَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي»(١) ولأن الغالب أن الاحتراز عن الأولى لا يمكن فوقع عفوًا قَصَدَ أو لم يقصد.

أما القسم الثاني: وهو أن يكون فيه غرض ولا فتنة فيه، فذاك أمور: أحدها: بأن يريد نكاح امرأة فينظر إلى وجهها وكفيها، روى أبو هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله ﷺ: «أَنْظُرُ إِلَيْهَا فَإِنَّ فِي أَعْيُنِ الْأَنْصَارِ شَيْئًا»(٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمُ الْمَرْأَةَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا إِذَا كَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَيْهَا لِلْخِطْبَةِ»(٣) وقال المغيرة بن شعبة: «خَطَبْتُ امْرَأَةً فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَظَرْتَ إِلَيْهَا؟ فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: فَانْظُرْ فَإِنَّهَا أَحْرَى أَنْ يَدُومَ بَيْنَكُمَا»(٤) فكل ذلك يدل على جواز النظر إلى وجهها وكفيها للشهوة إذا أراد أن يتزوجها، ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢] ولا يعجبه حسنهن إلا بعد رؤية وجوههن. وثانيها: إذا أراد شراء جارية فله أن ينظر إلى ما ليس بعورة منها. وثالثها: أنه عند المبايعة ينظر إلى وجهها متأملاً حتى يعرفها عند الحاجة إليه. ورابعها: ينظر إليها عند تحمل الشهادة ولا ينظر إلى غير الوجه لأن

=رقم (٢١٤٩)، والترمذي في كتاب (الأدب)، باب: (نظرة الفجأة) (٥/ ٩٤)، حديث رقم (٢٧٧٧)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣٥١)، جميعًا من طريق شريك... به.

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الآداب)، باب: (نظرة الفجأة) (٣/ ٤٥/ ١٦٩٩) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة وإسماعيل بن علية... به، والترمذي في كتاب (الأدب)، باب: (في نظرة الفجأة) (٥/ ٩٣)، حديث رقم (٢٧٧٦) من طريق هشيم... به.

وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وأبو داود في كتاب (النكاح)، باب: (ما يؤمر به من غض البصر) (٢/ ٩٢٠)، حديث رقم (٢١٤٨) من طريق سفيان... به، والدارمي في كتاب (الاستئذان)، باب: (في نظرة المفاجأة) (٢/ ١٥٤)، حديث رقم (٢٦٤٣) من طريق سفيان عن يونس عن عمرو بن سعيد... به، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٣٩٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. وقد أخرجه مسلم ووافقه الذهبي، جميعًا عن يونس... به.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (النكاح)، باب: (ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها) (٢/ ٧٤/ ١٠٤٠) من طريق سفيان ومروان بن معاوية.. به، والنسائي في كتاب (النكاح»، باب: (إباحة النظر قبل التزويج) (٢/ ٣٨٢)، حديث رقم (٣٢٣٤)، والحميدي في (مسنده) (٢/ ٤٩٤)، حديث رقم (١١٧٢) من طريق سفيان... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٨٦/ ٢٩٩)، قال: حدثنا سفيان. وفي (٢/ ٢٩٩) قال: حدثنا معاذ، والبيهقي في (السنن) (٧/ ٤٨) من طريق أبي عمر... به، جميعًا من طريق يزيد بن كيسان... به.

(٣) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (النكاح)، باب: (في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها) (٢/ ٨٩٠)، حديث رقم (٢٠٨٢)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٣٣٤)، وأورده الحاكم في (المستدرك) (٢/ ١٦٥)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي في كتاب (النكاح)، باب: (في النظر إلى المخطوبة) (٣/ ٣٩٧)، حديث رقم (١٠٨٧) من طريق عاصم بن سليمان... به. وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن. والدارمي في كتاب (النكاح)، باب: (الرخصة في النظر إلى المرأة عند الخطبة) (١/ ٦١٥)، حديث رقم (٢١٧٢) من طريق سفيان عن عاصم الأحول... به.

المعرفة تحصل به.

أما القسم الثالث: وهو أن ينظر إليها للشهوة فذاك محظور، قال عليه الصلاة والسلام: «**الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ**»(١) وعن جابر قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنِ نَظْرَةِ الْفَجْأَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي(٢) وقيل: مكتوب في التوراة: النظرة تزرع في القلب الشهوة، ورُب شهوة أورثت حزنًا طويلاً.

أما الكلام الثاني: وهو أنه لا يجوز للأجنبي النظر إلى بدن الأجنبية فقد استثنوا منه صورًا:

إحداها: يجوز للطبيب الأمين أن ينظر إليها للمعالجة، كما يجوز للختان أن ينظر إلى فرج المختون؛ لأنه موضع ضرورة.

وثانيتها: يجوز أن يتعمد النظر إلى فرج الزانيين لتحمل الشهادة على الزنا، وكذلك ينظر إلى فرجها لتحمل شهادة الولادة، وإلى ثدي المرضعة لتحمل الشهادة على الرضاع، وقال أبو سعيد الإصطخري: لا يجوز للرجل أن يقصد النظر في هذه المواضع؛ لأن الزنا مندوب إلى ستره، وفي الولادة والرضاع تُقبل شهادة النساء فلا حاجة إلى نظر الرجال للشهادة.

وثالثتها: لو وقعت في غرق أو حرق فله أن ينظر إلى بدنها ليخلصها. أما إذا كانت الأجنبية أمة فقال بعضهم: عورتها ما بين السرة والركبة. وقال آخرون: عورتها ما لا يبين للمهنة فخرج منه أن رأسها وساعديها وساقيها ونحرها وصدرها ليس بعورة، وفي ظهرها وبطنها وما فوق ساعديها الخلاف المذكور، ولا يجوز لمسها ولا لها لمسه بحال لا لحجامة ولا اكتحال ولا غيره؛ لأن اللمس أقوى من النظر بدليل أن الإنزال باللمس يفطر الصائم وبالنظر لا يفطره، وقال أبو حنيفة رحمه الله: يجوز أن يمس من الأمة ما يحل النظر إليه، أما إن كانت المرأة ذات محرم له بنسب أو رضاع أو صهرية فعورتها معه ما بين السرة والركبة كعورة الرجل، وقال آخرون: بل عورتها ما لا يبدو عند المهنة، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله. فأما سائر التفاصيل فستأتي إن شاء الله تعالى في تفسير الآية. أما إذا كانت المرأة مستمتعة كالزوجة والأَمَة التي يحل له الاستمتاع بها، فيجوز له أن ينظر إلى جميع بدنها حتى إلى فرجها غير أنه يكره أن ينظر إلى الفرج وكذا إلى فرج نفسه؛ لأنه يروي أنه يورث الطمس، وقيل: لا يجوز النظر إلى فرجها، ولا فرق بين أن تكون الأمة قنة أو مدبرة أو أم ولد أو مرهونة. فإن كانت مجوسية أو مرتدة أو وثنية أو مشتركة بينه وبين غيره أو متزوجة أو مكاتبة فهي كالأجنبية، روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِذَا زَوَّجَ أَحَدُكُمْ جَارِيَتَهُ عَبْدَهُ أَوْ أَجِيرَهُ فَلَا يَنْظُرْ إِلَى مَا دُونَ السُّرَّةِ وَفَوْقَ الرُّكْبَةِ**»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم.

(٣) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (متى يؤمر الغلام بالصلاة) (١/ ٢٤٣)، حديث رقم (٤٩٦) من طريق زهير بن حرب عن وكيع... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٨٠)، حديث رقم (٦٦٨٩)، وأيضًا=

وأما عورة الرجل مع المرأة (ففيه) نظر: إن كان أجنبيًّا منها فعورته معها ما بين السرة والركبة، وقيل: جميع بدنه إلا الوجه والكفين كهي معه، والأول أصح بخلاف المرأة في حق الرجل؛ لأن بدن المرأة في ذاته عورة بدليل أنه لا تصح صلاتها مكشوفة البدن وبدن الرجل بخلافه، ولا يجوز لها قصد النظر عند خوف الفتنة ولا تكرير النظر إلى وجهه؛ لما روي عن أم سلمة: أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَيْمُونَةُ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُوم فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «احْتَجِبَا مِنْهُ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لاَ يُبْصِرُنَا؟ فَقَالَ عليه الصلاة والسلام: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟!»(١) وإن كان محرمًا لها فعورته معها ما بين السرة والركبة، وإن كان زوجها أو سيدها الذي يحل له وطؤها فلها أن تنظر إلى جميع بدنه غير أنه يُكره النظر إلى الفرج كهو معها، ولا يجوز للرجل أن يجلس عاريًا في بيت خالٍ وله ما يستر عورته؛ لأنه روي أنه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال: «اللَّه أَحَقُّ أَنْ يَسْتَحْيا مِنْهُ»(٢) وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِيَّاكُمْ وَالتَّعَرِّيَ؛ فَإِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لاَ يُفَارِقُكُمْ إِلاَّ عِنْدَ الْغَائِطِ، وَحِينَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى أَهْلِهِ»(٣) والله أعلم.

المسألة الثالثة: سئل الشبلي عن قوله: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ فقال: أبصار الرؤوس عن المحرمات، وأبصار القلوب عما سوى الله تعالى.

وأما قوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ فالمراد به عما لا يحل، وعن أبي العالية أنه قال: كل ما في القرآن من قوله: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، ويحفظن فروجهن - منَ الزنا إلا التي في النور: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أن لا ينظر إليها أحد. وهذا ضعيف لأنه تخصيص من

=في (٢/ ١٨٧)، حديث رقم (٦٧٥٦)، والحاكم في (المستدرك) (١/ ١٩٧)، والبيهقي في (السنن) (٣/ ٨٤) من طريق عمرو بن شعيب... به.

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه أبو داود في كتاب (اللباس)، باب: في قوله عز وجل: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١] (٤/ ١٧٦٢)، حديث رقم (٤١١٢)، والترمذي في كتاب (الأدب)، باب: (احتجاب النساء من الرجال) (٥/ ٩٤)، حديث رقم (٢٧٧٨)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في (السنن الكبرى)، كتاب: (عشرة النساء)، باب: (نظر النساء إلى الأعمى) (٥/ ٣٩٣)، حديث رقم (٩٢٤١)، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٢٩٦) من طريق يونس... به، وفي إسناده نبهان أورده الذهبي في (ذيل الضعفاء)، وقال ابن حزم: مجهول. وضَعَّفه الألباني في (الإرواء) (١٨٠٦).

(٢) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (الحمام)، باب: (ما جاء في التعري) (٤/ ١٧٢٤)، حديث رقم (٤٠١٧)، والترمذي في كتاب (الأدب)، باب: (في حفظ العورة) (٥/ ٩٠)، حديث رقم (٢٧٦٩)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن. وابن ماجه في كتاب (النكاح)، باب: (التستر عند الجماع) (١/ ٦١٨)، حديث رقم (١٩٢٠)، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣)، جميعًا من طريق بهز بن حكيم... به.

(٣) **إسناده ضعيف**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ١١٢)، حديث رقم (٢٨٠٠) من طريق أبي محياة عن ليث عن نافع عن ابن عمر... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو محياة اسمه يحيى بن يعلى، وعلته ليث بن أبي سليم، قال الحافظ في التقريب: صدوق اختلط بآخره ولم يتميز حديثه فتُرك.

غير دلالة، والذي يقتضيه الظاهر أن يكون المعنى حفظها عن سائر ما حرم الله عليه من الزنا والمس والنظر، وعلى أنه إن كان المراد حظر النظر فالمس والوطء أيضًا مرادان بالآية، إذ هما أغلظ من النظر، فلو نص الله تعالى على النظر لكان في مفهوم الخطاب ما يوجب حظر الوطء والمس، كما أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] اقتضى حظر ما فوق ذلك من السب والضرب.

أما قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ﴾ أي تمسكهم بذلك أزكى لهم وأطهر؛ لأنه من باب ما يزكون به ويستحقون الثناء والمدح، ويمكن أن يقال: إنه تعالى خص في الخطاب المؤمنين لما أراده من تزكيتهم بذلك، ولا يليق ذلك بالكافر.

أما قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ فالقول فيه على ما تقدم، فإن قيل: فلمَ قدم غض الأبصار على حفظ الفروج؟ قلنا: لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ﴾ فمن الأحكام التي تختص بها النساء في الأغلب، وإنما قلنا (في الأغلب) لأنه محرم على الرجل أن يبدي زينته حليًّا ولباسًا إلى غير ذلك للنساء الأجنبيات لما فيه من الفتنة. **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: اختلفوا في المراد بزينتهن، واعلم أن الزينة اسم يقع على محاسن الخلق التي خلقها الله تعالى وعلى سائر ما يتزين به الإنسان من فضل لباس أو حلي وغير ذلك، وأنكر بعضهم وقوع اسم الزينة عل الخلقة؛ لأنه لا يكاد يقال في الخلقة إنها من زينتها. وإنما يقال ذلك فيما تكتسبه من كحل وخضاب وغيره، والأقرب أن الخلقة داخلة في الزينة، ويدل عليها وجهان: الأول: أن الكثير من النساء ينفردن بخلقتهن عن سائر ما يعد زينة، فإذا حملناه على الخلقة وفينا العموم حقه، ولا يمنع دخول ما عدا الخلقة فيه أيضًا. الثاني: أن قوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ يدل على أن المراد بالزينة ما يعم الخلقة وغيرها، فكأنه تعالى منعهن من إظهار محاسن خلقتهن بأن أوجب سترها بالخمار، وأما الذين قالوا (الزينة عبارة عما سوى الخلقة) فقد حصروه في أمور ثلاثة: أحدها: الأصباغ كالكحل والخضاب بالوسمة في حاجبيها والغمرة في خديها والحناء في كفيها وقدميها. وثانيها: الحلي كالخاتم والسوار والخلخال والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط. وثالثها: الثياب قال الله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] وأراد الثياب.

المسألة الثانية: اختلفوا في المراد من قوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ﴾ أما الذين حملوا الزينة على الخلقة، فقال القفال: معنى الآية إلا ما يظهره الإنسان في العادة الجارية، وذلك في النساء الوجه والكفان، وفي الرجل الأطراف من الوجه واليدين والرجلين، فأُمروا بستر ما لا تؤدي الضرورة إلى كشفه ورخص لهم في كشف ما اعتيد كشفه وأدت الضرورة إلى إظهاره إذ كانت

شرائع الإسلام حنيفية سهلة سمحة، ولما كان ظهور الوجه والكفين كالضروري، لا جرم اتفقوا على أنهما ليسا بعورة، أما القدم فليس ظهوره بضروري، فلا جرم اختلفوا في أنه هل هو من العورة أم لا؟ فيه وجهان، الأصح أنه عورة كظهر القدم، وفي صوتها وجهان أصحهما أنه ليس بعورة؛ لأن نساء النبي ﷺ كن يروين الأخبار للرجال. وأما الذين حملوا الزينة على ما عدا الخلقة فقالوا: إنه سبحانه إنما ذكر الزينة لأنه لا خلاف أنه يحل النظر إليها حالما لم تكن متصلة بأعضاء المرأة، فلما حرم الله سبحانه النظر إليها حال اتصالها ببدن المرأة، كان ذلك مبالغة في حرمة النظر إلى أعضاء المرأة، وعلى هذا القول يحل النظر إلى زينة وجهها من الوشمة والغمرة وزينة بدنها من الخضاب والخواتيم وكذا الثياب، والسبب في تجويز النظر إليها أن تستُّرها فيه حرج لأن المرأة لا بد لها من مناولة الأشياء بيديها والحاجة إلى كشف وجهها في الشهادة والمحاكمة والنكاح.

المسألة الثالثة: اتفقوا على تخصيص قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ بالحرائر دون الإماء، والمعنى فيه ظاهر، وهو أن الأمة مال فلا بد من الاحتياط في بيعها وشرائها، وذلك لا يمكن إلا بالنظر إليها على الاستقصاء بخلاف الحرة.

أما قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فالخُمُر واحدها خمار، وهي المقانع. قال المفسرون: إن نساء الجاهلية كن يشددن خُمُرهن من خلفهن، وإن جيوبهن كانت من قدام فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن، فأمرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليتغطى بذلك أعناقهن ونحورهن وما يحيط به من شعر وزينة من الحلي في الأذن والنحر وموضع العقدة منها، وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء، والباء للإلصاق، وعن عائشة رضي الله عنها: «**مَا رَأَيْتُ خَيْرًا مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ! لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ إِلَى مِرْطِهَا فَصَدَعَتْ مِنْهُ صَدْعَةً فَاخْتَمَرَتْ فَأَصْبَحْنَ على رُؤُوسِهِنَّ الْغِرْبَانُ**» وقرئ (جِيُوبِهِنَّ) بكسر الجيم لأجل الياء وكذلك (بِيوتًا غير بِيوتكم).

فأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما تكلم في مطلق الزينة تكلم بعد ذلك في الزينة الخفية التي نهاهن عن إبدائها للأجانب، وبين أن هذه الزينة الخفية يجب إخفاؤها عن الكل، ثم استثنى اثنتي عشرة صورة: أحدها: أزواجهن. وثانيها: آباؤهن وإن علون من جهة الذكران والإناث، كآباء الآباء وآباء الأمهات. وثالثها: آباء أزواجهن. ورابعها وخامسها: أبناؤهن وأبناء بعولتهن، ويدخل فيه أولاد الأولاد وإن سفلوا من الذكران والإناث كبني البنين وبني البنات. وسادسها: إخوانهن سواء كانوا من الأب أو من الأم أو منهما وسابعها: بنو إخوانهن وثامنها: بنو أخواتهن، وهؤلاء كلهم محارم. **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: أفيحل لذوي المحرم في المملوكة والكافرة ما لا يحل له في المؤمنة؟ الجواب: إذا ملك المرأة وهي من محارمه فله أن ينظر منها إلى بطنها وظهرها لا على وجه الشهوة، بل لأمر يرجع إلى مزية المِلك على اختلاف بين الناس في ذلك.

السؤال الثاني: كيف القول في العم والخال؟ الجواب: القول الظاهر أنهما كسائر المحارم في جواز النظر، وهو قول الحسن البصري، قال: لأن الآية لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب وقال في سورة الأحزاب: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٥]. ولم يذكر فيها البعولة ولا أبناءهم وقد ذُكروا هاهنا، وقد يذكر البعض لينبه على الجملة. قال الشعبي: إنما لم يذكرهما الله لئلا يصفهما العم عند ابنه، الخال كذلك، ومعناه أن سائر القرابات تشارك الأب والابن في المحرمية إلا العم والخال وأبناءهما، فإذا رآها الأب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم فيقرب تصوره لها بالوصف من نظره إليها، وهذا أيضًا من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهم في التستر.

السؤال الثالث: ما السبب في إباحةِ نظر هؤلاء إلى زينة المرأة؟ الجواب: لأنهم مخصوصون بالحاجة إلى مداخلتهن ومخالطتهن ولقلة توقع الفتنة بجهاتهن، ولما في الطباع من النفرة عن مجالسة الغرائب، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار وللنزول والركوب. وتاسعها: قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ وفيه قولان: أحدهما: المراد والنساء اللاتي هن على دينهن. وهذا قول أكثر السلف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس للمسلمة أن تتجرد بين نساء أهل الذمة ولا تبدي للكافرة إلا ما تبدي للأجانب إلا أن تكون أمة لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب من دخول الحمام مع المؤمنات. وثانيهما: المراد بنسائهن جميع النساء، وهذا هو المذهب. وقول السلف محمول على الاستحباب والأولى. وعاشرها: قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ وظاهر الكلام يشمل العبيد والإماء، واختلفوا: فمنهم من أجرى الآية على ظاهرها، وزعم أنه لا بأس عليهن في أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن ما يظهرن لذوي محارمهن، وهو مروي عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، واحتجوا بهذه الآية وهو ظاهر، وبما روى أنس: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَتَى فَاطِمَةَ بِعَبْدٍ قَدْ وَهَبَهُ لَهَا وَعَلَيْهَا ثَوْبٌ إِذَا قَنَّعَتْ بِهِ رَأْسَهَا لَمْ يَبْلُغْ رِجْلَيْهَا، وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رِجْلَيْهَا لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَهَا، فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّه ﷺ مَا بِهَا، قَالَ: «إِنَّهُ لَيسَ عَلَيْكِ بَأْسٌ إِنَّمَا هُوَ أَبُوكِ وَغُلَامُكِ» وعن مجاهد: كان أمهات المؤمنين لا يحتجبن عن مكاتبهن ما بقي عليه درهم. وعن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت لذكوان: «إِنَّكَ إِذَا وَضَعْتَنِي فِي الْقَبْرِ وَخَرَجْتَ فَأَنْتَ حُرٌّ»(١) وروي أن عائشة رضي الله عنها كانت تمتشط والعبد ينظر إليها وقال ابن مسعود ومجاهد والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم: إن العبد لا ينظر إلى شعر مولاته وهو قول أبي حنيفة رحمه الله، واحتجوا عليه بأمور: أحدها: قوله عليه الصلاة والسلام: «لاَ يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ باللَّه وَالْيَوْمِ الأَخِرِ أَنْ تُسَافِرَ سَفَرًا فَوْقَ ثَلاثٍ إِلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»(٢) والعبد ليس بذي محرم منها، فلا يجوز أن يسافر

---

(١) لم أجده.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٢/ ٩٧٧/ ١٣٤٠)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٥٤)، حديث رقم (١١٥٣٣)، كلاهما من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري... به.

بها، وإذا لم يجز له السفر بها لم يجز له النظر إلى شعرها كالحر الأجنبي. وثانيها: أن ملكها للعبد لا يحلل ما يحرم عليه قبل الملك إذ مِلك النساء للرجال ليس كملك الرجال للنساء، فإنهم لم يختلفوا في أنها لا تستبيح بملك العبد منه شيئًا من التمتع كما يملكه الرجل من الأمة. وثالثها: أن العبد وإن لم يجز له أن يتزوج بمولاته إلا أن ذلك التحريم عارض كمن عنده أربع نسوة، فإنه لا يجوز له التزوج بغيرهن، فلما لم تكن هذه الحرمة مؤبدة كان العبد بمنزلة سائر الأجانب. إذا ثبت هذا ظهر أن المراد من قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ الإماء، فإن قيل: الإماء دخلن في قوله: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ فأي فائدة في الإعادة؟ قلنا: الظاهر أنه عنى بنسائهن وما ملكت أيمانهن من في صحبتهن من الحرائر والإماء، وبيانه أنه سبحانه ذكر أولاً أحوال الرجال بقوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى آخر ما ذكر، فجاز أن يظن ظان أن الرجال مخصوصون بذلك إذ كانوا ذوي المحارم أو غير ذات المحارم، ثم عطف على ذلك الإماء بقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ لئلا يظن أن الإباحة مقصورة على الحرائر من النساء إذ كان ظاهر قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يقتضي الحرائر دون الإماء كقوله: ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] على الأحرار لإضافتهم إلينا، كذلك قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ على الحرائر، ثم عطف عليهن الإماء فأباح لهن مثل ما أباح في الحرائر. وحادي عشرها: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قيل: هم الذين يتبعونكم لينالوا من فضل طعامكم، ولا حاجة بهم إلى النساء؛ لأنهم بُله لا يعرفون من أمرهن شيئًا، أو شيوخ صلحاء إذا كانوا معهن غضوا أبصارهم، ومعلوم أن الخصي والعنين ومن شاكلهما قد لا يكون له إربة في نفس الجماع ويكون له إربة قوية فيما عداه من التمتع، وذلك يمنع من أن يكون هو المراد. فيجب أن يُحمل المراد على من المعلوم منه إنه لا إربة له في سائر وجوه التمتع، إما لفقد الشهوة، وإما لفقد المعرفة، وإما للفقر والمسكنة، فعلى هذه الوجوه الثلاثة اختلف العلماء: فقال بعضهم: هم الفقراء الذين بهم الفاقة. وقال بعضهم: المعتوه والأبله والصبي. وقال بعضهم: الشيخ، وسائر من لا شهوة له. ولا يمتنع دخول الكل في ذلك، وروى هشام بن عروة عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا مُخَنَّثٌ، فَأَقْبَلَ عَلَى أَخِي أُمِّ سَلَمَةَ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّه إِنْ فَتَحَ اللَّه لَكُمْ غَدًا الطَّائِفَ دَلَلْتُكَ عَلَى بِنْتِ غَيْلَانَ، فَإِنَّهَا تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لاَ يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا»(١) فأباح النبي عليه الصلاة والسلام دخول المخنث عليهن حين ظن أنه من غير أولي الإربة، فلما علم أنه يعرف أحوال النساء وأوصافهن، علم أنه من أُولي الإربة فحجبه، وفي الخصي والمجبوب ثلاثة أوجه: أحدها: استباحة الزينة الباطنة معهما. والثاني: تحريمها عليهما. والثالثة: تحريمها على الخصي دون المجبوب.

---

(١) تقدم.

المسألة الثانية: الإربة الفِعلة من الأرب كالمِشية والجِلسة من المشي والجلوس، والأرب الحاجة والولوع بالشيء والشهوة له، والإربة الحاجة في النساء، والإربة العقل ومنه الأريب.

المسألة الثالثة: في ﴿غَيْرِ﴾ قراءتان: قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر (غيرَ) بالنصب على الاستثناء أو الحال، يعني (أو التابعين عاجزين عنهن) والقراءة الثانية بالخفض على الوصفية. وثاني عشرها: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ **وفيه مسائل**:

المسألة الأولى: الطفل اسم للواحد لكنه وُضع هاهنا موضع الجمع لأنه يفيد الجنس، ويبين ما بعده أنه يراد به الجمع، ونظيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

المسألة الثانية: الظهور على الشيء على وجهين: الأول: العلم به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ [الكهف: ٢٠] أي إن يشعروا بكم. والثاني: الغلبة له والصولة عليه، كقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] فعلى الوجه الأول يكون المعنى: أو الطفل الذين لم يتصوروا عورات النساء ولم يدروا ما هي من الصغر. وهو قول ابن قتيبة، وعلى الثاني: الذين لم يبلغوا أن يطيقوا إتيان النساء، وهو قول الفراء والزجاج.

المسألة الثالثة: أن الصغير الذي لم يتنبه لصغره على عورات النساء فلا عورة للنساء معه، وإن تنبه لصغره ولمراهقته لزم أن تستر عنه المرأة ما بين سرتها وركبتها، وفي لزوم ستر ما سواه وجهان: أحدهما: لا يلزم لأن القلم غير جار عليه. والثاني: يلزم كالرجل لأنه يشتهي والمرأة قد تشتهيه، وهو معنى قوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ واسم الطفل شامل له إلى أن يحتلم، وأما الشيخ إن بقيت له شهوة فهو كالشاب، وإن لم يبق له شهوة ففيه وجهان: أحدهما: أن الزينة الباطنة معه مباحة والعورة معه ما بين السرة والركبة. والثاني: أن جميع البدن معه عورة إلا الزينة الظاهرة. وهاهنا آخر الصور التي استثناها الله تعالى، قال الحسن: هؤلاء وإن اشتركوا في جواز رؤية الزينة الباطنة فهم على أقسام ثلاثة: فأولهم الزوج وله حرمة ليست لغيره يحل له كل شيء منها. والحرمة الثانية للابن والأب والأخ والجد وأبي الزوج وكل ذي محرم والرضاع كالنسب يحل لهم أن ينظروا إلى الشعر والصدر والساقين والذراع وأشباه ذلك. والحرمة الثالثة هي للتابعين غير أولي الإربة من الرجال وكذا مملوك المرأة، فلا بأس أن تقوم المرأة الشابة بين يدي هؤلاء في درع وخمار صفيق بغير ملحفة، ولا يحل لهؤلاء أن يروا منها شعرًا ولا بشرًا، والستر في هذا كله أفضل، ولا يحل للشابة أن تقوم بين يدي الغريب حتى تلبس الجلباب، فهذا ضبط هؤلاء المراتب.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فقال ابن عباس وقتادة: كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع قعقعة خلخالها، ومعلوم أن الرجل الذي يغلب عليه شهوة النساء إذا سمع صوت الخلخال يصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتهن، وقد علل تعالى ذلك بأن قال: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فنبه به على أن الذي لأجله نهى عنه أن يُعلم زينتهن

من الحلى وغيره، وفي الآية فوائد: الفائدة الأولى: لما نهى عن استماع الصوت الدال على وجود الزينة، فلأن يدل على المنع من إظهار الزينة أولى. الثانية: أن المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الأجانب إذ كان صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها، ولذلك كرهوا أذان النساء لأنه يحتاج فيه إلى رفع الصوت والمرأة منهية عن ذلك. الثالثة: تدل الآية على حظر النظر إلى وجهها بشهوة إذا كان ذلك أقرب إلى الفتنة.

أما قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: في التوبة وجهان: أحدهما: أن تكاليف الله تعالى في كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا ينفك من تقصير يقع منه، فلذلك وصى المؤمنين جميعًا بالتوبة والاستغفار وتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا. والثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة. فإن قيل: قد صحت التوبة بالإسلام والإسلام يَجُبُّ ما قبله فما معنى هذه التوبة؟ قلنا: قال بعض العلماء: إن من أذنب ذنبًا ثم تاب عنه لزمه كلما ذكره أن يجدد عنه التوبة؛ لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه إلى أن يلقى ربه.

المسألة الثانية: قرئ (أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ) بضم الهاء، ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف لالتقاء الساكنين أتبعت حركتها حركة ما قبلها، والله أعلم.

المسألة الثالثة: تفسير (لعل) قد تقدم في سورة البقرة في قوله: ﴿اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أمر من قبل بغضّ الأبصار وحفظ الفروج، بيَّن من بعد أن الذي أمر به إنما هو فيما لا يحل، فبيَّن تعالى بعد ذلك طريق الحل فقال: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب الكشاف: الأيامى واليتامى أصلهما أيايم ويتايم فقُلبا. وقال النضر بن شميل: الأيم في كلام العرب كل ذكر لا أنثى معه، وكل أنثى لا ذكر معها. وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الضحاك، تقول: زوجُّوا أيامكم بعضكم من بعض. وقال الشاعر:

فَإِنْ تَنْكِحِي أَنْكِحْ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي ... وَإِنْ كُنْتُ أَفْتَى مِنْكُمُوا أَتَأَيَّمُ

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ أمر وظاهر الأمر للوجوب على ما بيناه مرارًا، فيدل على أن الولي يجب عليه تزويج مولاته، وإذا ثبت هذا وجب أن لا يجوز النكاح إلا بولي،

إما لأن كل من أوجب ذلك على الولي حكم بأنه لا يصح من المولية، وإما لأن المولية لو فعلت ذلك لفوتت على الولي التمكن من أداء هذا الواجب وأنه غير جائز، وإما لتطابق هذه الآية مع الحديث وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ».

قال أبو بكر الرازي: هذه الآية وإن اقتضت بظاهرها الإيجاب إلا أنه أجمع السلف على أنه لم يرد به الإيجاب، ويدل عليه أمور: أحدها: أنه لو كان ذلك واجبًا لورد النقل بفعله من النبي ﷺ ومن السلف مستفيضًا شائعًا لعموم الحاجة إليه، فلما وجدنا عصر النبي ﷺ وسائر الأعصار بعده قد كان في الناس أيامى من الرجال والنساء، فلم ينكروا عدم تزويجهن، ثبت أنه ما أريد به الإيجاب. وثانيها: أجمعنا على أن الأيم الثيب لو أبت التزوج لم يكن للولي إجبارها عليه. وثالثها: اتفاق الكل على أنه لا يجبر على تزويج عبده وأمته، وهو معطوف على الأيامى، فدل على أنه غير واجب في الجميع. بل ندب في الجميع ورابعها: أن اسم الأيامى ينتظم فيه الرجال والنساء، وهو في الرجال ما أريد به الأولياء دون غيرهم كذلك في النساء. والجواب: أن جميع ما ذكرته تخصيصات تطرقت إلى الآية والعام بعد التخصيص يبقى حجة، فوجب أن يبقى حجة فيما إذا التمست المرأة الأيم من الولي التزويج وجب، وحينئذٍ ينتظم وجه الكلام.

المسألة الثالثة: قال الشافعي رحمه الله، الآية تقتضي جواز تزويج البكر البالغة بدون رضاها؛ لأن الآية والحديث يدلان على أمر الولي بتزويجها، ولولا قيام الدلالة على أنه لا يزوج الثيب الكبيرة بغير رضاها لكان جائزًا له تزويجها أيضًا بغير رضاها. لعموم الآية.

قال أبو بكر الرازي: قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ لا يختص بالنساء دون الرجال على ما بينا، فلما كان الاسم شاملاً للرجال والنساء وقد أضمر في الرجال تزويجهم بإذنهم، فوجب استعمال ذلك الضمير في النساء، وأيضًا فقد أمر النبي ﷺ باستئمار البكر بقوله: «الْبِكْرُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا» وذلك أمر وإن كان في صورة الخبر، فثبت أنه لا يجوز تزويجها إلا بإذنها. والجواب: أما الأول فهو تخصيص للنص وهو لا يقدح في كونه حجة، والفرق أن الأيم من الرجال يتولى أمر نفسه فلا يجب على الولي تعهده أمره، بخلاف المرأة، فإن احتياجها إلى من يُصلح أمرها في التزويج أظهر، وأيضًا فلفظ الأيامى وإن تناول الرجال والنساء، فإذا أطلق لم يتناول إلا النساء، وإنما يتناول الرجال إذا قُيد. وأما الثاني: ففي تخصيص الآية بخبر الواحد كلام مشهور.

المسألة الرابعة: قال أبو حنيفة رحمه الله: العم والأخ يليان تزويج البنت الصغيرة، ووجه الاستدلال بالآية كما تقدم.

المسألة الخامسة: قال الشافعي رحمه الله: الناس في النكاح قسمان: منهم من تتوق نفسه إلى النكاح فيستحب له أن ينكح إن وجد أهبة النكاح، سواء كان مقبلاً على العبادة أو لم يكن كذلك، ولكن لا يجب أن ينكح، وإن لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته لما روى عبد الله بن

مسعود رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ» أما الذي لا تتوق نفسه إلى النكاح فإن كان ذلك لعلة به من كبر أو مرض أو عجز، يُكره له أن ينكح، لأنه يلتزم ما لا يمكنه القيام بحقه، وكذلك إذا كان لا يقدر على النفقة وإن لم يكن به عجز وكان قادرًا على القيام بحقه لم يُكره له النكاح، لكن الأفضل أن يتخلى لعبادة الله تعالى. وقال أبو حنيفة رحمه الله: النكاح أفضل من التخلي للعبادة. وحجة الشافعي رحمه الله وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] مدح يحيى عليه السلام بكونه حصورًا، والحصور: الذي لا يأتي النساء مع القدرة عليهن، ولا يقال: هو الذي لا يأتي النساء مع العجز عنهن؛ لأن مدح الإنسان بما يكون عيبًا غير جائز، وإذا ثبت أنه مدح في حق يحيى وجب أن يكون مشروعًا في حقنا لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] ولا يجوز حمل الهدى على الأصول لأن التقليد فيها غير جائز، فوجب حمله على الفروع.

وثانيها: قوله عليه الصلاة والسلام: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَفْضَلَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ» (١) ويتمسك أيضًا بما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أَفْضَلُ أَعْمَالِ أُمَّتِي قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» (٢).

وثالثها: أن النكاح مباح لقوله عليه الصلاة والسلام: «أَحَبُّ الْمُبَاحَاتِ إِلَى اللَّه تَعَالَى النِّكَاحُ» (٣) ويُحمل الأحب على الأصلح في الدنيا لئلا يقع التناقض بين كونه أحب وبين كونه مباحًا، والمباح ما استوى طرفاه في الثواب والعقاب، والمندوب ما ترجح وجوده على عدمه فتكون العبادة أفضل.

ورابعها: أن النكاح ليس بعبادة، بدليل أنه يصح من الكافر، والعبادة لا تصح منه، فوجب أن تكون العبادة أفضل منه لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والاشتغال بالمقصود أَوْلى.

وخامسها: أن الله تعالى سَوَّى بين التسري والنكاح، ثم التسري مرجوح بالنسبة إلى العبادة ومُساوي المرجوح مرجوح، فالنكاح مرجوح، وإنما قلنا: (إنه سَوَّى بين التسري والنكاح) لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣] وذكر كلمة (أو) للتخيير بين الشيئين،

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (المحافظة على الوضوء) (١/ ١٠١/ ١٠٢)، حديث رقم (٢٧٧) من طريق منصور... به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢٧٦)، (٥/ ٢٨٢) من طريق الأعمش... به، والدارمي في كتاب (الطهارة)، باب: (ما جاء في الطهور) (١/ ١٥٥)، حديث رقم (٦٥٥)، جميعًا عن سالم بن أبي الجعد... به.

وفي الزوائد: رجال إسناده ثقات أثبات إلا أن فيه انقطاعًا من سالم وثوبان.

(٢) لم أجده.

(٣) لم أجده.

والتخيير بين الشيئين أمارة التساوي، كقول الطبيب للمريض (كُلِ الرمان أو التفاح)، وإذا ثبت الاستواء فالتسري مرجوح، ومُساوى المرجوح مرجوح، فالنكاح يجب أن يكون مرجوحًا.

وسادسها: أن النافلة أشق فتكون أكثر ثوابًا، بيان أنها أشق أن ميل الطباع إلى النكاح أكثر، ولولا ترغيب الشرع لما رغب أحد في النوافل، وإذا ثبت أنها أشق وجب أن تكون أكثر ثوابًا لقوله عليه الصلاة والسلام: «أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ أَحْمَزُهَا»(١) وقوله ﷺ لعائشة: «أَجْرُكِ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكِ»(٢).

وسابعها: لو كان النكاح مساويًا للنوافل في الثواب مع أن النوافل أشق منه، لما كانت النوافل مشروعة؛ لأنه إذا حصل طريقان إلى تحصيل المقصود وكانا في الإفضاء إلى المقصود سببين وكان أحدهما شاقًّا والآخر سهلاً، فإن العقلاء يستقبحون تحصيل ذلك المقصود بالطريق الشاق مع المكنة من الطريق السهل، ولما كانت النوافل مشروعة عَلِمنا أنها أفضل.

وثامنها: لو كان الاشتغال بالنكاح أَوْلى من النافلة لكان الاشتغال بالحراثة والزراعة أَوْلى من النافلة بالقياس على النكاح، والجامع كون كل واحد منهما سببًا لبقاء هذا العالم ومحصلاً لنظامه.

وتاسعها: أجمعنا على أنه يقدم واجب العبادة على واجب النكاح، فيقدم مندوبها على مندوبه لاتحاد السبب.

وعاشرها: أن النكاح اشتغال بتحصيل اللذات الحسية الداعية إلى الدنيا، والنافلة قطع العلائق الجسمانية وإقبال على الله تعالى، فأين أحدهما من الآخر؟ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ: الطِّيبُ وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» فرجح الصلاة على النكاح. حجة أبي حنيفة رحمه الله من وجوه:

الأول: أن النكاح يتضمن صون النفس عن الزنا، فيكون ذلك دفعًا للضرر عن النفس، والنافلة جلب النفع، ودفع الضرر أَوْلى من جلب النفع. **الثاني:** أن النكاح يتضمن العدل والعدل أفضل من العبادة لقوله عليه الصلاة والسلام: «لَعَدْلُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً»(٣). **الثالث:** النكاح سنة مؤكدة لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(٤) وقال في الصلاة وإنها

---

(١) أورده القاري في (المطبوع) (١/ ٥٧)، حديث رقم (٣٣)، وقال: قال الزركشي: لا يُعرف. وقال ابن القيم في شرح منازل السائرين: لا أصل له.

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (١/ ٦٤٤)، حديث رقم (١٧٣٣) من طريق سعيد بن سلمان حدثنا هشام عن ابن عون عن القاسم بن محمد عن عائشة... به.

وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأبو نعيم في (أخبار أصفهان) (٣/ ٣٧٢)، حديث رقم (٨٧٢) من طريق سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة... به، والحديث أصله في الصحيحين، أخرجه البخاري في (صحيحه) (٢/ ٦٣٤)، حديث رقم (١٦٩٥)، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٣٢/ ٢٩٨٦) من طريق إبراهيم عن الأسود عن عائشة... به.

(٣) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (النكاح)، باب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه» (٢/ ٥/ ١٠٢٠) من طريق بهز... به، والنسائي في كتاب (النكاح)، باب: (النهي عن التبتل) (٣/ ٣٧٠، ٣٧١)، حديث=

خير موضوع: «فَمَنْ شَاءَ فَلْيَسْتَكْثِرْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَسْتَقْلِلْ»[(١)] فوجب أن يكون النكاح أفضل.

المسألة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ﴾ وإن كانت تتناول جميع الأيامى بحسب الظاهر لكنهم أجمعوا على أنه لا بد فيها من شروط، وقد تقدم شرحها في قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

أما قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ فقد حمله كثير من المفسرين على أن المراد هم الأحرار لينفصل الحر من العبد. وقال بعضهم: بل المراد بذلك من يكون تحت ولاية المأمور من الولد أو القريب. ومنهم من قال: الإضافة تفيد الحرية والإسلام.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ **ففيه مسائل**:

المسألة الأولى: ظاهر أنه أيضًا أمر للسادة بتزويج هذين الفريقين إذا كانوا صالحين، وأنه لا فرق بين هذا الأمر وبين الأمر بتزويج الأيامى في باب الوجوب، لكنهم اتفقوا على أنه إباحة أو ترغيب، فأما أن يكون واجبًا فلا، وفرَّقوا بينه وبين تزويج الأيامى بأن في تزويج العبد التزام مؤنة وتعطيل خدمة، وذلك ليس بواجب على السيد، وفي تزويج الأمة استفادة مهر وسقوط نفقة، وليس ذلك بلازم على المولى.

المسألة الثانية: إنما خص الصالحين بالذكر لوجوه: الأول: ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم. الثاني: لأن الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم (و) ينزلونهم منزلة الأولاد في المودة، فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتُقبل الوصية فيهم، وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك. الثالث: أن يكون المراد الصلاح لأمر النكاح حتى يقوم العبد بما يلزم لها، وتقوم الأمة بما يلزم للزوج. الرابع: أن يكون المراد الصلاح في نفس النكاح بأن لا تكون صغيرة فلا تحتاج إلى النكاح.

المسألة الثالثة: ظاهر الآية يدل على أن العبد لا يتزوج بنفسه، وإنما يجوز أن يتولى المولى تزويجه، لكن ثبت بالدليل أنه إذا أمره بأن يتزوج جاز أن يتولى تزويج نفسه، فيكون توليه بإذنه بمنزلة أن يتولى ذلك نفس السيد، فأما الإماء فلا شبهة في أن المولى يتولى تزويجهن خصوصًا على قول من لا يُجوز النكاح إلا بولي.

أما قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ **ففيه مسألتان**:

المسألة الأولى: الأصح أن هذا ليس وعدًا من الله تعالى بإغناء من يتزوج، بل المعنى: لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزويجها، ففي فضل الله ما يغنيهم، والمال غادٍ ورائح، وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح. فهذا معنى صحيح وليس فيه أن

=رقم (٣٢١٧)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢٤١)، قال: حدثنا مؤمل، وفي (٣/ ٢٥٩) قال: حدثنا أسود بن عامر وفي (٣/ ٢٨٥) قال: حدثنا عفان، جميعًا (بهز، مؤمل، أسود، عفان) عن حماد بن سلمة. . . به.

(١) تقدم.

الكلام قُصد به وعد الغنى حتى لا يجوز أن يقع فيه خلف، وروي عن قدماء الصحابة ما يدل على أنهم رأوا ذلك وعدًا، عن أبي بكر قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى. وعن عمر وابن عباس مثله، قال ابن عباس: التمِسوا الرزق بالنكاح. وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ الحاجة فقال: «عَلَيْكَ بِالْبَاءَةِ»(١) وقال طلحة بن مطرف: تزوجوا فإنه أوسع لكم في رزقكم، وأوسع لكم في أخلاقكم، ويزيد في مروءتكم. فإن قيل: فنحن نرى من كان غنيًّا فيتزوج فيصير فقيرًا؟ قلنا: الجواب عنه من وجوه: أحدها: أن هذا الوعد مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨] والمطلق محمول على المقيد. وثانيها: أن اللفظ وإن كان عامًّا إلا أنه يكون خاصًّا في بعض المذكورين دون البعض، وهو في الأيامى الأحرار الذين يملكون فيستغنون بما يملكون. وثالثها: أن يكون المراد الغنى بالعفاف، فيكون المعنى وقوع الغنى بملك البضع والاستغناء به عن الوقوع في الزنا.

المسألة الثانية: من الناس من استدل بهذه الآية على أن العبد والأمة يملكان؛ لأن ذلك راجع إلى كل من تقدم، فتقتضي الآية بيان أن العبد قد يكون فقيرًا وقد يكون غنيًّا، فإن دل ذلك على الملك ثبت أنهما يملكان، ولكن المفسرون تأولوه على الأحرار خاصة. فكأنهم قالوا: هو راجع إلى الأيامى، أما إذا فسرنا الغنى بالعفاف فالاستدلال به على ذلك ساقط.

أما قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فالمعنى أنه سبحانه في الإفضال لا ينتهي إلى حد تنقطع قدرته على الإفضال دونه؛ لأنه قادر على المقدورات التي لا نهاية لها، وهو مع ذلك عليم بمقادير ما يصلحهم من الإفضال والرزق.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر تزويج الحرائر والإماء، ذكر حال من يعجز عن ذلك، فقال:

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٣١٦) من طريق أبي يوسف محمد بن سفيان بن موسى الصفار بالمصيصة قال: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن ناجح قال: حدثنا عبد العزيز الدراوردي عن ابن عجلان أن رجلًا... فذكره، وفي إسناده عبد العزيز الدراوردي قال الحافظ: صدوق كان يحدث من كتب غيره فيخطئ. قال النسائي: حديثه عن عبيد الله العمر منكر.

وعند الذهبي: قال أبو زرعة: سيئ الحفظ وابن عجلان من صغار التابعين فالحديث، مع فيه من ضعف إلا أنه مرسل أو معضل.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ أي وليجتهد في العفة، كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه.

وأما قوله: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ فالمعنى لا يتمكنون من الوصول إليه، يقال: (لا يجد المرء الشيء) إذا لم يتمكن منه، قال الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ [النساء: ٩٢] والمراد به بالإجماع من لم يتمكن، ويقال في أحدنا (هو غير واجد للماء وإن كان موجودًا)، إذا لم يمكنه أن يشتريه، ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال، فبيَّن سبحانه وتعالى أن من لا يتمكن من ذلك فليطلب التعفف، ولينتظر أن يغنيه الله من فضله، ثم يصل إلى بغيته من النكاح. فإن قيل: أفليس مِلك اليمين يقوم مقام نفس النكاح؟ قلنا: لكن من لم يجد المهر والنفقة، فبأن لا يجد ثمن الجارية أَوْلى، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ﴾.

اعلم أنه تعالى لما بعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والإماء مع الرق، رغَّبهم في أن يكاتبوهم إذا طلبوا ذلك؛ ليصيروا أحرارًا فيتصرفوا في أنفسهم كالأحرار، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ مرفوع على الابتداء، أو منصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم، كقولك (زيدًا فاضربه)، ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط.

المسألة الثانية: الكتاب والكتابة كالعتاب والعتابة، وفي اشتقاق لفظ الكتابة وجوه: أحدها: أن أصل الكلمة من الكَتْب وهو الضم والجمع، ومنه الكتيبة سميت بذلك لأنها تضم النجوم بعضها إلى بعض وتضم ماله إلى ماله. وثانيها: يحتمل أن يكون اللفظ مأخوذًا من الكتاب ومعناه (كتبت لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيت بالمال، وكتبت لي على نفسك أن تفي لي بذلك)، أو (كتبت لي كتابًا عليك بالوفاء بالمال وكتبت على العتق)، وهذا ما ذكره الأزهري. وثالثها: إنما سمي بذلك لما يقع فيه من التأجيل بالمال المعقود عليه؛ لأنه لا يجوز أن يقع على مال هو في يد العبد حين يكاتب؛ لأن ذلك مال لسيده اكتسبه في حال ما كانت يد السيد غير مقبوضة عن كسبه، فلا يجوز لهذا المعنى أن يقع هذا العقد حالاً ولكنه يقع مؤجلاً ليكون متمكنًا من الاكتساب وغيره حين ما انقبضت يد السيد عنه، ثم من آداب الشريعة أن يكتب على من عليه المال المؤجل كتاب، فسمى لهذا المعنى هذا العقد كتابًا لما يقع فيه من الأجل، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

المسألة الثالثة: قال محيي السنة: الكتابة أن يقول لمملوكه (كاتبتك على كذا) ويسمى مالاً معلومًا يؤديه في نجمين أو أكثر، ويبين عدد النجوم وما يؤدي في كل نجم، ويقول: (إذا أديت ذلك المال فأنت حر)، أو نوى ذلك بقلبه ويقول العبد: قبلت.

وفي هذا الضبط أبحاث:

البحث الأول: قال الشافعي رحمه الله: إن لم يقل بلسانه أو لم ينو بقلبه: (إذا أديت ذلك المال فأنت حر) لم يعتق. وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزُفَر رحمهم الله: لا حاجة إلى ذلك. حجة أبي حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ خالٍ عن هذا الشرط فوجب أن تصح الكتابة بدون هذا الشرط، وإذا صحت الكتابة وجب أن يعتق بالأداء للإجماع. حجة الشافعي رحمه الله: أن الكتابة ليست عقد معاوضة محضة؛ لأن ما في يد العبد فهو ملك السيد والإنسان لا يمكنه بيع ملكه بملكه، بل قوله كاتبتك كتابة في العتق فلا بد من لفظ العتق أو نيته.

البحث الثاني: لا تجوز الكتابة الحالة عند الشافعي، وتجوز عند أبي حنيفة. وجه قول الشافعي رحمه الله أن العبد لا يُتصور له ملك يؤديه في الحال، وإذا عقد حالاً توجهت المطالبة عليه في الحال، فإذا عجز عن الأداء لم يحصل مقصود العقد، كما لو أسلم في شيء لا يوجد عند المحل لا يصح، بخلاف ما لو أسلم إلى معسر فإنه يجوز؛ لأنه حين العقد يتصور أن يكون له ملك في الباطن، فالعجز لا يتحقق عن أدائه. وجه قول أبي حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ مطلق يتناول الكتابة الحالة والمؤجلة، وأيضًا لما كان مال الكتابة بدلاً عن الرقبة كان بمنزلة أثمان السلع المبيعة فيجوز عاجلاً وآجلاً، وأيضًا أجمعوا على جواز العتق معلقًا على مال حالٌ فوجب أن تكون الكتابة مثله؛ لأنه بدل عن العتق في الحالين إلا أن في أحدهما العتق معلق على شرط الأداء وفي الآخر معجل، فوجب أن لا يختلف حكمهما.

البحث الثالث: قال الشافعي رحمه الله: لا تجوز الكتابة على أقل من نجمين. يروى ذلك عن علي وعثمان وابن عمر، روي أن عثمان رضي الله عنه غضب على عبده، فقال: (لأضيقن الأمر عليك، ولأكاتبنك على نجمين)، ولو جاز على أقل من ذلك لكاتبه على الأقل؛ لأن التضييق فيه أشد، وإنما شرطنا التنجيم لأنه عقد إرفاق، ومن شرط الإرفاق التنجيم ليتيسر عليهم الأداء. وقال أبو حنيفة رحمه الله: تجوز الكتابة على نجم واحد؛ لأن ظاهر قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ ليس فيه تقييد.

المسألة الرابعة: تجوز كتابة المملوك عبدًا كان أو أمة، ويشترط عند الشافعي رحمه الله أن يكون عاقلاً بالغًا، فإذا كان صبيًا أو مجنونًا لا تصح كتابته؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ولا يُتصور الابتغاء من الصبي والمجنون. وعند أبي حنيفة رحمه الله: تجوز كتابة الصبي ويقبل عنه المولى.

المسألة الخامسة: يشترط أن يكون المولى مكلفًا مطلقًا، فإن كان صبيًا أو مجنونًا أو محجورًا عليه بالسفه لا تصح كتابته كما لا يصح بيعه، ولأن قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ خطاب فلا يتناول غير العاقل، وعند أبي حنيفة رحمه الله تصح كتابة الصبي بإذن الولي.

المسألة السادسة: اختلف العلماء في أن قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ أمر إيجاب أو أمر استحباب؟ فقال قائلون: هو أمر إيجاب، فيجب على الرجل أن يكاتب مملوكه إذا سأله ذلك بقيمته أو أكثر

إذا علم فيه خيرًا، ولو كان بدون قيمته لم يلزمه. وهذا قول عمرو بن دينار وعطاء، وإليه ذهب داود بن علي ومحمد بن جرير، واحتجوا عليه بالآية والأثر: أما الآية فظاهر قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ لأنه أمر وهو للإيجاب، ويدل عليه أيضًا سبب نزول الآية، فإنها نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له صبيح، سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، فنزلت الآية، فكاتبه على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارًا. وأما الأثر فما روي أن عمر أمر أنسًا أن يكاتب سيرين أبا محمد بن سيرين فأبى، فرفع عليه الدرة وضربه وقال: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ وحلف عليه ليكاتبنه، ولو لم يكن ذلك واجبًا لكان ضربه بالدرة ظلمًا، وما أنكر على عمر أحد من الصحابة، فجرى ذلك مجرى الإجماع. وقال أكثر الفقهاء: إنه أمر استحباب. وهو ظاهر قول ابن عباس والحسن والشعبي، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي والثوري، واحتجوا عليه بقوله عليه الصلاة والسلام «لاَ يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بِطِيبٍ مِنْ نَفْسِهِ» وأنه لا فرق أن يطلب الكتابة أو يطلب بيعه ممن يعتقه في الكفارة، فكما لا يجب ذلك فكذا الكتابة، وهذه طريقة المعاوضات أجمع. **وهاهنا سؤالان:**

السؤال الأول: كيف يصح أن يبيع ماله بماله؟ قلنا: إذا ورد الشرع به فيجب أن يجوز، كما إذا علق عتقه على مال يكتسبه فيؤديه أو يؤدي عنه، صار سببًا لعتقه.

السؤال الثاني: هل يستفيد العبد بعقد الكتابة ما لا يملكه؟ لولا الكتابة؟ قلنا: نعم لأنه لو دفع إليه الزكاة ولم يكاتب، لم يحل له أن يأخذها، وإذا صار مكاتبًا حل له، وإذا دفع إلى مولاه حل له، سواء أدى فعتق أو عجز فعاد إلى الرق، ويستفيد أيضًا أن الكتابة تبعثه على الجد والاجتهاد في الكسب، فلولاها لم يكن ليفعل ذلك، ويستفيد المولى الثواب لأنه إذا باعه فلا ثواب، وإذا كاتبه ففيه ثواب، ويستفيد أيضًا الولاء لأنه لو عتق من قِبل غيره لم يكن له ولاء، وإذا عتق بالكتابة فالولاء له، فورد الشرع بجواز الكتابة لما ذكرناه من الفوائد.

أما قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فذكروا في الخير وجوهًا: أحدها: ما روي عن النبي ﷺ: «إِنْ عَلِمْتُمْ لَهُمْ حِرْفَةً، فَلَا تَدَعُوهُمْ كَلًّا عَلَى النَّاسِ» (١) وثانيها: قال عطاء: الخير: المال. وتلا ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] أي ترك مالاً. قال: وبلغني ذلك عن ابن عباس. وثالثها: عن ابن سيرين قال: إذا صلى. وقال النخعي: وفاء وصدقًا. وقال الحسن: صلاحًا في الدين. ورابعها: قال الشافعي رحمه الله: المراد بالخير الأمانة والقوة على الكسب؛ لأن مقصود الكتابة قلما يحصل إلا بهما، فإنه ينبغي أن يكون كسوبًا يحصل المال ويكون أمينًا يصرفه في نجومه ولا يضيعه، فإذا فقد الشرطان أو أحدهما لا يستحب أن يكاتبه. والأقرب أنه لا يجوز حمله على المال لوجهين: الأول: أن المفهوم من كلام الناس إذا قالوا: (فلان فيه خير) إنما يريدون به الصلاح في الدين، ولو أراد المال لقال (إن

---

(١) لم أجده.

علمتم لهم خيرًا)، لأنه إنما يقال (لفلان مال) ولا يقال (فيه مال) الثاني: أن العبد لا مال له بل المال لسيده، فالأَوْلى أن يُحمل على ما يعود على كتابته بالتمام، وهو الذي ذكره الشافعي رحمه الله وهو أن يتمكن من الكسب ويوثق به بحفظ ذلك؛ لأن كل ذلك مما يعود على كتابته بالتمام، ودخل فيه تفسير النبي ﷺ الخير لأنه عليه الصلاة والسلام فسره بالكسب، وهو داخل في تفسير الشافعي رحمه الله.

أما قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: اختلفوا في المخاطب بقوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ على وجوه: أحدها: أنه هو المولى يحط عنه جزءًا من مال الكتابة أو يدفع إليه جزءًا مما أخذ منه. وهؤلاء اختلفوا في قدره فمنهم من جعل الخيار له وقال: يجب أن يحط قدرًا يقع به الاستغناء، وذلك يختلف بكثرة المال وقلته. ومنهم من قال: يحط ربع المال، روى عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن أنه كاتب غلامًا له فترك له ربع مكاتبته، وقال: إن عليًا كان يأمرنا بذلك ويقول: وهو قول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ فإن لم يفعل فالسُّبع، لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كاتب عبدًا له بخمس وثلاثين ألفًا ووضع عنه خمسة آلاف. ويروى أن عمر كاتب عبدًا له فجاء بنجمه فقال له: اذهب فاستعن به على أداء مال الكتابة. فقال المكاتب: لو تركته إلى آخر نجم؟ فقال: إني أخاف أن لا أدرك ذلك. ثم قرأ هذه الآية، وكان ابن عمر يؤخره إلى آخر النجوم مخافة أن يعجز. وثانيها: المراد وآتوهم سهمهم الذي جعله الله لهم من الصدقات في قوله: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠] وعلى هذا فالخطاب لغير السادة، وهو قول الحسن والنخعي، ورواية عطاء عن ابن عباس، وأجمعوا على أنه لا يجوز للسيد أن يدفع صدقته المفروضة إلى مكاتب نفسه. وثالثها: أن هذا أمر من الله تعالى للسادة والناس أن يعينوا المكاتب على كتابته بما يمكنهم، وهذا قول الكلبي وعكرمة والمقاتلين والنخعي وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ أَعَانَ مُكَاتَبًا عَلَى فَكِّ رَقَبَتِهِ، أَظَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّ عَرْشِهِ**»[1]، وروي أن رجلًا قال للنبي ﷺ: علِّمني عملًا يدخلني الجنة. قال: «**لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْظَمْتَ الْمَسْأَلَةَ، أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ. فَقَالَ: أَلَيْسَا وَاحِدًا؟ فَقَالَ: لاَ، عِتْقُ النَّسَمَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكُّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا**»[2] قالوا: ويؤكد هذا القول وجوه: أحدها: أنه أمر بإعطائه من

---

(١) إسناده ضعيف: ابن أبي عاصم في (الجهاد) (١/ ٣٠٢)، حديث رقم (٩٣) من طريق أبي داود قال: حدثنا عمرو بن ثابت قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل أن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف حدثه أن أباه حدثه... فذكره.

في إسناده عبد الله بن محمد بن عقيل، قال الحافظ: صدوق، في حفظه لين ويقال: تغير بآخره.

وعند الذهبي: قال أبو حاتم وغيره: لين الحديث. وقال ابن خزيمة: لا أحتج به.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ٢٩٩)، والحاكم في (المستدرك) (٢/ ٢٣٦)، حديث رقم (٢٨٦١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وابن حبان في (صحيحه) (٢/ ٩٨)، حديث رقم (٣٧٤)، =

مال الله تعالى وما أطلق عليه هذه الإضافة فهو ما كان سبيله الصدقة وصرفه في وجوه القرب. وثانيها: أن قوله: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ هو الذي قد صح ملكه للمالك وأمر بإخراج بعضه، ومال الكتابة ليس بدين صحيح لأنه على عبده والمولى لا يثبت له على عبده دين صحيح. وثالثها: أن ما آتاه الله فهو الذي يحصل في يده ويمكنه التصرف فيه، وما سقط عقيب العقد لم يحصل له عليه يد ملك، فلا يستحق الصفة بأنه من مال الله الذي آتاه. فإن قيل: هاهنا وجهان يقدحان في صحة هذا التأويل: أحدهما: أنه كيف يحل لمولاه إذا كان غنيًّا أن يأخذ من مال الصدقة. والثاني: أن قوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ معطوف على قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ فيجب أن يكون المخاطب في الموضعين واحدًا، وعلى هذا التأويل يكون المخاطب في الآية الأولى السادات، وفي الثانية سائر المسلمين. قلنا: أما الأول فجوابه أن تلك الصدقة تحل لمولاه، وكذلك إذا لم تف الصدقة بجميع النجوم وعجز عن أداء الباقي، كان للمولى ما أخذه لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة، ولكن بسبب عقد الكتابة، كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها منه. يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بريرة: «هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ»(١) والجواب عن الثاني أنه قد يصح الخطاب لقوم ثم يعطف عليه بمثل لفظه خطابًا لغيرهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [البقرة: ٢٣١] فالخطاب للأزواج ثم خاطب الأولياء بقوله: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] وقوله: ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ [النور: ٢٦] والقائلون غير المبرئين، فكذا هاهنا قال للسادة: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ وقال لغيرهم: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أو قال لهم ولغيرهم.

المسألة الثانية: قال الشافعي رحمه الله: يجب على المولى إيتاء المكاتب وهو أن يحط عنه جزءًا من مال الكتابة أو يدفع إليه جزءًا مما أخذ منه. وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابه: إنه مندوب إليه لكنه غير واجب. حجة الشافعي رحمه الله ظاهر قوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ والأمر للوجوب فقيل عليه: إن قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أمران وردا في صورة واحدة فلمَ جعلت الأولى ندبًا والثاني إيجابًا؟ وأيضًا فقد ثبت أن قوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ ليس خطابًا مع الموالي بل مع عامة المسلمين. حجة أبي حنيفة رحمه الله من حيث السنة والقياس: أما السنة فما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أَيُّمَا عَبْدٍ

=والبخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٣٨)، حديث رقم (٦٩)، والدارقطني في (سننه) (٢/ ١٣٥/ ١)، وأبو داود الطيالسي في (مسنده) (١/ ١٠٠)، حديث رقم (٧٣٩)، جميعًا من طريق عيسى بن عبد الرحمن السلمي، حدثنا طلحة اليامي عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب... به. وقال الهيثمي في (المجمع) (٤/ ٢٤٠): رواه أحمد ورجاله ثقات.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الفرائض)، باب: (الولاء لمن أعتق) (١٢/ ٤٠)، حديث رقم (٦٧٥١) من طريق حفص بن عمر... به، ومسلم في كتاب (العتق)، باب: (إنما الولاء لمن أعتق) (٢/ ١٢/ ١١٤٤) من طريق محمد بن جعفر... به.

كَاتَبَ عَلَى مِائَةِ أُوقِيَّةٍ فَأَدَّاهَا إِلاَّ عَشْرَ أَوَاقٍ، فَهُوَ عَبْدٌ»(١) فلو كان الحط واجبًا لسقط عنه بقدره. وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني بريرة فقالت: يا عائشة إني قد كاتبت أهلي على تسع أواق، في كل عام أوقية فأعيتني ولم تكن قضت من كتابتها شيئًا. فقالت عائشة رضي الله عنها: ارجعي إلى أهلك فإن أحبوا أن أعطيهم ذلك جميعًا ويكون ولاؤك لي فعلت. فأبوا فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «لاَ يَمْنَعُكِ ذَلِكَ مِنْهَا، ابْتَاعِي وَأَعْتِقِي؛ فَإِنَّمَا الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ»(٢) وجه الاستدلال أنها ما قضت من كتابتها شيئًا، وأرادت عائشة أن تؤدي عنها كتابتها بالكلية وذكرته لرسول الله ﷺ وترك رسول الله النكر عليها، ولم يقل: إنها تستحق أن يحط عنها بعض كتابتها فثبت قولنا. وأما القياس فمن وجهين: الأول: لو كان الإيتاء واجبًا لكان وجوبه متعلقًا بالعقد فيكون العقد موجبًا له ومسقطًا له، وذلك محال لتنافي الإسقاط والإيجاب. الثاني: لو كان الحط واجبًا لما احتاج إلى أن يضع عنه بل كان يسقط القدر المستحق، كمن له على إنسان دين ثم حصل لذلك الآخر على الأول مثله فإنه يصير قصاصًا، ولو كان كذلك لكان قدر الإيتاء إما أن يكون معلومًا أو مجهولاً: فإن كان معلومًا وجب أن تكون الكتابة بألفين فيعتق إذا أدى ثلاثة آلاف والكتابة أربعة آلاف، وذلك باطل لأن أداء جميعها مشروط فلا يعتق بأداء بعضها، ولأنه عليه السلام قال: «الْمُكَاتَبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ»(٣) وإن كان مجهولاً صارت الكتابة مجهولة لأن الباقي بعد الحط مجهول، فيصير بمنزلة من كاتب عبده على ألف درهم إلا شيئًا وذلك غير جائز، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

اعلم أنه تعالى لما بَيَّن ما يلزم من تزويج العبيد والإماء وكتابتهم، أتبع ذلك بالمنع من إكراه الإماء على الفجور. **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: اختلفوا في سبب نزولها على وجوه: الأول: كان لعبد الله بن أُبي المنافق ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة، يُكرههن على البغاء وضَرَب عليهن ضرائب فشكت (ا) ثنتان منهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية. وثانيها: أن عبد الله بن أُبي أَسَر

(١) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (العتق)، باب: (في المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت) (٤/ ١٦٨٩)، حديث رقم (٣٩٢٧)، والترمذي في (البيوع)، باب: (ما جاء في المكاتب) (٣/ ٥٦١)، حديث رقم (١٢٦٠)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه في كتاب (العتق)، باب: (المكاتب) (٢/ ٨٤٢)، حديث رقم (٢٥١٩)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٨٤)، جميعًا من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده... به.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (العتق)، باب: (المكاتب) (٥/ ٢٢٥)، حديث رقم (٢٥٦٣)، ومسلم في كتاب (العتق)، باب: (إنما الولاء لمن أعتق) (٢/ ١١٤٣)، حديث رقم (٩)، كلاهما من طريق هشام... به.

(٣) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (العتق)، باب: (في المكاتب يؤدي بعض كتابته فيعجز أو يموت) (٤/ ١٦٨٩)، حديث رقم (٣٩٢٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى) (١٠/ ٣٢٤) من طريق هارون بن عبد الله... به.

رجلاً فراود الأسير جارية عبد الله، وكانت الجارية مسلمة فامتنعت الجارية لإسلامها وأكرهها ابن أبي على ذلك؛ رجاء أن تحمل من الأسير فيطلب فداء ولده، فنزلت. وثالثها: روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (جَاءَ عَبْدُ اللَّه بْنُ أُبَيٍّ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَمَعَهُ جَارِيَةٌ مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ تُسَمَّى مُعَاذَةُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه هَذِهِ لِأَيْتَام فُلاَنٍ أَفَلاَ نَأْمُرُهَا بِالزِّنَا فَيُصِيبُونَ مِنْ مَنَافِعِهَا؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «لاَ» فَأَعَادَ الْكَلاَمَ) فنزلت الآية. وقال جابر بن عبد الله: (جَاءَتْ جَارِيَةٌ لِبَعْضِ النَّاسِ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدِي يُكْرِهُنِي عَلَى الْبِغَاءِ) فنزلت الآية.

المسألة الثانية: الإكراه إنما يحصل متى حصل التخويف بما يقتضي تلف النفس، فأما باليسير من الخوف فلا تصير مكرهة، فحال الإكراه على الزنا كحال الإكراه على كلمة الكفر، والنص وإن كان مختصًا بالإماء إلا أن حال الحرائر كذلك.

المسألة الثالثة: العرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٢] وقال: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ [يوسف: ٣٠] وقال: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥] وفي الحديث: «لِيَقُلْ أَحَدُكُمْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَلاَ يَقُلْ عَبْدِي وَأَمَتِي».

المسألة الرابعة: البغاء: الزنا، يقال: بغت تبغي بغاء فهي بغي.

المسألة الخامسة: الذي نقول به أن المعلق بكلمة (إنْ) على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء، والدليل عليه اتفاق أهل اللغة على أن كلمة (إنْ) للشرط واتفاقهم على أن الشرط ما ينتفي الحكم عند انتفائه، ومجموع هاتين المقدمتين النقليتين يوجب الحكم بأن المعلق بكلمة (إن) على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء. واحتج المخالف بهذه الآية فقال: إنه سبحانه علق المنع من الإكراه على البغاء على إرادة التحصن بكلمة (إن) فلو كان الأمر كما ذكرتموه لزم أن لا ينتفي المنع من الإكراه على الزنا إذا لم توجد إرادة التحصن، وذلك باطل، فإنه سواء وجدت إرادة التحصن أو لم توجد فإن المنع من الإكراه على الزنا حاصل. والجواب: لا نزاع أن ظاهر الآية يقتضي جواز الإكراه على الزنا عند عدم إرادة التحصن، ولكنه فسد ذلك لامتناعه في نفسه لأنه متى لم توجد إرادة التحصن في حقها لم تكن كارهة للزنا، وحال كونها غير كارهة للزنا يمتنع إكراهها على الزنا، فامتنع ذلك لامتناعه في نفسه وذاته. ومن الناس من ذكر فيه جوابًا آخر وهو أن غالب الحال أن الإكراه لا يحصل إلا عند إرادة التحصن، والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم الخطاب، كما أن الخلع يجوز في غير حالة الشقاق، ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع في حالة الشقاق لا جرم لم يكن لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٩] مفهوم، ومن هذا القبيل قوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء: ١٠١] والقصر لا يختص بحال الخوف، ولكنه سبحانه أجراه على سبيل الغالب، فكذا هاهنا. والجواب الثالث: معناه: إذا أردن تحصنًا لأن القصة التي وردت الآية فيها كانت كذلك، على ما روينا أن جارية عبد الله بن

أبي أسلمت وامتنعت عليه طلبًا للعفاف فأكرهها، فنزلت الآية موافِقة لذلك، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] أي وإذا كنتم في ريب.

المسألة السادسة: أنه تعالى لما منع من إكراههن على الزنا، ففيه ما يدل على أن لهم إكراههن على النكاح، فليس لها أن تمتنع على السيد إذا زوَّجها بل له أن يكرهها على ذلك، وهذه الدلالة دلالة دليل الخطاب.

أما قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي تعففًا ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني كسبهن وأولادهن.

أما قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فاعلم أنه ليس في الآية (بيان) أنه تعالى غفور رحيم للمكره أو للمكرهة، لا جرم ذكروا فيه وجهين: أحدهما: فإن الله غفور رحيم بهن؛ لأن الإكراه أزال الإثم والعقوبة؛ لأن الإكراه عذر للمُكرَهة، أما المُكرِه فلا عذر له فيما فعل. الثاني: المراد فإن الله غفور رحيم بالمكره بشرط التوبة. وهذا ضعيف لأن على التفسير الأول لا حاجة إلى هذا الإضمار، وعلى التفسير الثاني يحتاج إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيَّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما ذكر في هذه السورة هذه الأحكام، وَصَف القرآن بصفات ثلاثة: أحدها: قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيَّنَاتٍ﴾ أي مفصلات، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم (مبيِّنات) بكسر الياء على معنى أنها تبين للناس كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] أو تكون من بين بمعنى تبين، ومنه المثل: قد بين الصبح لذي عينين. وثانيها: قوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: أنه تعالى يريد بالمثل ما ذكر في التوراة والإنجيل من إقامة الحدود، فأنزل في القرآن مثله، وهو قول الضحاك.

والثاني: قوله: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي شبهًا من حالهم بحالكم في تكذيب الرسل، يعني بينا لكم ما أحللنا بهم من العقاب لتمردهم على الله تعالى، فجعلنا ذلك مثلاً لكم لتعلموا أنكم إذا شاركتموهم في المعصية، كنتم مثلهم في استحقاق العقاب، وهو قول مقاتل.

وثالثها: قوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمراد به الوعيد والتحذير من فعل المعاصي، ولا شبهة في أنه موعظة للكل، لكنه تعالى خص المتقين بالذكر للعلة التي ذكرناها في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] وهاهنا آخر الكلام في الأحكام.

القول في الإلهيات

اعلم أنه تعالى ذكر مثلين: أحدهما: في بيان أن دلائل الإيمان في غاية الظهور. الثاني: في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

اعلم أن الكلام في هذه الآية مرتب على فصول:

الفصل الأول: في إطلاق اسم النور على الله تعالى

اعلم أن لفظ (النور) موضوع في اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الأرض والجدران وغيرهما، وهذه الكيفية يستحيل أن تكون إلهًا لوجوه: أحدها: أن هذه الكيفية إن كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدال على حدوث الجسم دالاً على حدوثها، وإن كانت عَرَضًا فمتى ثبت حدوثه ثبت حدوث جميع الأعراض القائمة به ولكن هذه المقدمة إنما تثبت بعد إقامة الدلالة على أن الحلول على الله تعالى محال. وثانيها: أنا سواء قلنا النور جسم أو أمر حالٌ في الجسم فهو منقسم؛ لأنه إن كان جسمًا فلا شك في أنه منقسم، وإن كان حالاً فيه، فالحالّ في المنقسم منقسم، وعلى التقديرين فالنور منقسم، وكل منقسم فإنه يفتقر في تحققه إلى تحقق أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره، وكل مفتقر فهو في تحققه مفتقر إلى غيره، والمفتقر إلى الغير ممكن لذاته محدث بغيره، فالنور محدث فلا يكون إلهًا. وثالثها: أن هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لا يزول هذا النور لامتناع الزوال على الله تعالى. ورابعها: أن هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب. وذلك على الله محال. وخامسها: أن هذه الأنوار لو كانت أزلية لكانت إما أن تكون متحركة أو ساكنة، لا جائز أن تكون متحركة لأن الحركة معناها الانتقال من مكان إلى مكان فالحركة مسبوقة بالحصول في المكان الأول، والأزلي يمتنع أن يكون مسبوقًا بالغير فالحركة الأزلية محال، ولا جائز أن تكون ساكنة لأن السكون لو كان أزليًا لكان ممتنع الزوال لكن السكون جائز الزوال؛ لأنا نرى الأنوار تنتقل من مكان إلى مكان فدل ذلك على حدوث الأنوار. وسادسها: أن النور إما أن يكون جسمًا أو كيفية قائمة بالجسم، والأول محال لأنا قد نعقل الجسم جسمًا مع الذهول عن كونه نيرًا، ولأن الجسم قد يستنير بعد أن كان مظلمًا فثبت الثاني لكن الكيفية القائمة بالجسم محتاجة إلى الجسم، والمحتاج إلى الغير لا يكون إلهًا، وبمجموع هذه الدلائل يبطل قول المانوية الذين يعتقدون أن الإله سبحانه هو النور الأعظم. وأما المجسمة المعترفون بصحة القرآن فيحتج على فساد قولهم بوجهين: الأول: قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ولو كان نورًا لبطل ذلك لأن الأنوار كلها متماثلة. الثاني: أن قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ صريح في أنه ليس ذاته نفس النور

بل النور مضاف إليه. وكذا قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

فإن قيل: قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يقتضي ظاهره أنه في ذاته نور. وقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ يقتضي أن لا يكون هو في ذاته نورًا وبينهما تناقض.

قلنا: نظير هذه الآية قولك (زيد كرم وجود)، ثم تقول (ينعش الناس بكرمه وجوده)، وعلى هذا الطريق لا تناقض. الثالث: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام: ١] وذلك صريح في أن ماهية النور مجعولة لله تعالى فيستحيل أن يكون الإله نورًا. فثبت أنه لا بد من التأويل، والعلماء ذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أن النور سبب للظهور، والهداية لما شاركت النور في هذا النور في هذا المعنى صح إطلاق اسم النور على الهداية، وهو كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧]. وقوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾[الأنعام: ١٢٢] وقال: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[الشورى: ٥٢] فقوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ذو نور السماوات والأرض والنور هو الهداية، ولا تحصل إلا لأهل السماوات، والحاصل أن المراد الله هادي أهل السماوات والأرض وهو قول ابن عباس والأكثرين رضي الله عنهم. وثانيها: المراد أنه مدبر السماوات والأرض بحكمة بالغة وحجة نيرة، فوصَف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس العالم بأنه نور البلد، فإنه إذا كان مدبرهم تدبيرًا حسنًا فهو لهم كالنور الذي يهتدى به إلى مسالك الطرق، قال جرير:

وَأَنْتَ لَنَا نُورٌ وَغَيْثٌ وَعِصْمَةٌ(١)

وهذا اختيار الأصم والزجاج. وثالثها: المراد ناظم السماوات والأرض على الترتيب الأحسن فإنه قد يعبر بالنور على النظام، يقال: ما أرى لهذا الأمر نورًا. ورابعها: معناه منور السماوات والأرض. ثم ذكروا في هذا القول ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه منور السماء بالملائكة والأرض بالأنبياء.

والثاني: منورها بالشمس والقمر والكواكب.

والثالث: أنه زين السماء بالشمس والقمر والكواكب، وزين الأرض بالأنبياء والعلماء، وهو مروي عن أُبي بن كعب والحسن وأبي العالية، والأقرب هو القول الأول لأن قوله في آخر الآية: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يدل على أن المراد بالنور الهداية إلى العلم والعمل. واعلم أن الشيخ الغزالي رحمه الله صَنَّف في تفسير هذه الآية الكتاب المسمى بمشكاة الأنوار، وزعم أن الله نور في الحقيقة بل ليس النور إلا هو، وأنا أنقل محصل ما ذكره مع زوائد كثيرة تقوي كلامه، ثم ننظر في صحته وفساده على سبيل الإنصاف فقال: اسم النور إنما وُضع للكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على ظواهر هذه الأجسام الكثيفة، فيقال: استنارت الأرض ووقع نور

---

(١) تقدم ترجمة جرير.

الشمس على الثوب ونور السراج على الحائط، ومعلوم أن هذه الكيفية إنما اختصت بالفضيلة والشرف؛ لأن المرئيات تصير بسببها ظاهرة منجلية، ثم من المعلوم أنه كما يتوقف إدراك هذه المرئيات على كونها مستنيرة، فكذا يتوقف على وجود العين الباصرة إذ المرئيات بعد استنارتها لا تكون ظاهرة في حق العميان، فقد ساوى الروح الباصرة النور الظاهرة في كونه ركنًا لا بد منه للظهور، ثم يرجح عليه في أن الروح الباصرة هي المدركة وبها الإدراك، وأما النور الخارج فليس بمدرك ولا به الإدراك بل عنده الإدراك، فكان وصف الإظهار بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصر، فلا جرم أطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في الخفاش: إن نور عينه ضعيف. وفي الأعمش إنه ضعف نور بصره. وفي الأعمى إنه فقد نور البصر.

إذا ثبت هذا فنقول: إن للإنسان بصرًا وبصيرة، فالبصر هو العين الظاهرة المدركة للأضواء والألوان، والبصيرة هي القوة العاقلة، وكل واحد من الإدراكين يقتضي ظهور المدرك، فكل واحد من الإدراكين نور إلا أنهم عددوا لنور العين عيوبًا لم يحصل شيء منها في نور العقل، والغزالي رحمه الله ذكر منها سبعة، ونحن جعلناها عشرين:

الأول: أن القوة الباصرة لا تدرك نفسها ولا تدرك إدراكها ولا تدرك آلتها: أما أنها لا تدرك نفسها ولا تدرك إدراكها فلأن القوة الباصرة وإدراك القوة الباصرة ليسا من الأمور المبصرة بالعين الباصرة، وأما آلتها فهي العين، والقوة الباصرة بالعين لا تدرك العين، وأما القوة العاقلة فإنها تدرك نفسها وتدرك إدراكها وتدرك آلتها في الإدراك وهي القلب والدماغ، فثبت أن نور العقل أكمل من نور البصر.

الثاني: أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات والقوة العاقلة تدركها، ومدرك الكليات وهو القلب أشرف من مدرك الجزئيات، أما أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات فلأن القوة الباصرة لو أدركت كل ما في الوجود فهي ما أدركت الكل؛ لأن الكل عبارة عن كل ما يمكن دخوله في الوجود في الماضي والحاضر والمستقبل، وأما أن القوة العاقلة تدرك الكليات فلأنا نعرف أن الأشخاص الإنسانية مشتركة في الإنسانية ومتمايزة بخصوصياتها، وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فالإنسانية من حيث هي إنسانية أمر مغاير لهذه المشخصات فقد عقلنا الماهية الكلية، وأما أن إدراك الكليات أشرف فلأن إدراك الكليات ممتنع التغير، وإدراك الجزئيات واجب التغير، ولأن إدراك الكلي يتضمن إدراك الجزئيات الواقعة تحته؛ لأن ما ثبت للماهية ثبت لجميع أفرادها ولا ينعكس، فثبت أن الإدراك العقلي أشرف.

الثالث: الإدراك الحسي غير منتج والإدراك العقلي منتج، فوجب أن يكون العقل أشرف، أما كون الإدراك الحسي غير منتج فلأن من أحس بشيء لا يكون ذلك الإحساس سببًا لحصول إحساس آخر له، بل لو استعمل له الحس مرة أخرى لأحس به مرة أخرى، ولكن ذلك لا يكون إنتاج الإحساس لإحساس آخر، وأما أن الإدراك العقلي منتج فلأنا إذا عقلنا أمورًا ثم ركبناها في

عقولنا توسلنا بتركيبها إلى اكتساب علوم أخرى، وهكذا كل تعقل حاصل فإنه يمكن التوسل به إلى تحصيل تعقل آخر إلى ما لا نهاية له، فثبت أن الإدراك العقلي أشرف.

الرابع: الإدراك الحسي لا يتسع للأمور الكثيرة، والإدراك العقلي يتسع لها، فوجب أن يكون الإدراك العقلي أشرف. أما أن الإدراك الحسي لا يتسع لها فلأن البصر إذا توالى عليه ألوان كثيرة عجز عن تمييزها، فأدرك لونًا كأنه حاصل من اختلاط تلك الألوان (و) السمع إذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التمييز، وأما أن الإدراك العقلي متسع لها فلأن كل من كان تحصيله للعلوم أكثر كانت قدرته على كسب الجديد أسهل، وبالعكس، وذلك يوجب الحكم بأن الإدراك العقلي أشرف.

الخامس: القوة الحسية إذا أدركت المحسوسات القوية، ففي ذلك الوقت تعجز عن إدراك الضعيفة، فإن من سمع الصوت الشديد ففي تلك الحالة لا يمكنه أن يسمع الصوت الضعيف، والقوة العقلية لا يشغلها معقول عن معقول.

السادس: القوى الحسية تضعف بعد الأربعين، وتضعف عند كثرة الأفكار التي هي موجبة لاستيلاء النفس على البدن الذي هو موجب لخراب البدن، والقوى العقلية تقوى بعد الأربعين وتقوى عند كثرة الأفكار الموجبة لخراب البدن، فدل ذلك على استغناء القوة العقلية عن هذه الآلات واحتياج القوى الحسية إليها.

السابع: القوة الباصرة لا تدرك المرئي مع القرب القريب ولا مع البعد البعيد، والقوة العقلية لا يختلف حالها بحسب القرب والبعد، فإنها تترقى إلى ما فوق العرش وتنزل إلى ما تحت الثرى في أقل من لحظة واحدة، بل تدرك ذات الله وصفاته مع كونه منزهًا عن القرب والبعد والجهة، فكانت القوة العقلية أشرف.

الثامن: القوة الحسية لا تدرك من الأشياء إلا ظواهرها، فإذا أدركت الإنسان فهي في الحقيقة ما أدركت الإنسان لأنها ما أدركت إلا السطح الظاهر من جسمه، وإلا اللون القائم بذلك السطح، وبالاتفاق فليس الإنسان عبارة عن مجرد السطح واللون، فالقوة الباصرة عاجزة عن النفوذ في الباطن، أما القوة العاقلة فإن باطن الأشياء وظاهرها بالنسبة إليها على السواء فإنها تدرك البواطن والظواهر وتغوص فيها وفي أجزائها، فكانت القوة العاقلة نورًا بالنسبة إلى الباطن والظاهر، أما القوة الباصرة فهي بالنسبة إلى الظاهر نور وبالنسبة إلى الباطن ظلمة، فكانت القوة العاقلة أشرف من القوة الباصرة.

التاسع: أن مدرك القوة العاقلة هو الله تعالى وجميع أفعاله، ومدرك القوة الباصرة هو الألوان والأشكال، فوجب أن تكون نسبة شرف القوة العاقلة إلى شرف القوة الباصرة كنسبة شرف ذات الله تعالى إلى شرف الألوان والأشكال.

العاشر: القوة العاقلة تدرك جميع الموجودات والمعدومات والماهيات التي هي معروضات

الموجودات والمعدومات، ولذلك فإن أول حكمه أن الوجود والعدم لا يجتمعان ولا يرتفعان، وذلك مسبوق لا محالة بتصور مسمى الوجود ومسمى العدم، فكأنه بهذين التصورين قد أحاط بجميع الأمور من بعض الوجوه. وأما القوة الباصرة فإنها لا تدرك إلا الأضواء والألوان وهما من أخس عوارض الأجسام، والأجسام أخس من الجواهر الروحانية، فكان متعلق القوة الباصرة أخس الموجودات، وأما متعلق القوة العاقلة فهو جميع الموجودات والمعدومات فكانت القوة العاقلة أشرف.

الحادي عشر: القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير وتكثير الواحد، والقوة الباصرة لا تقوى على ذلك. أما أن القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير، فذاك لأنها تضم الجنس إلى الفصل فيحدث منهما طبيعة نوعية واحدة، وأما أنها تقوى على تكثير الواحد فلأنها تأخذ الإنسان وهي ماهية واحدة فتقسمها إلى مفهوماتها وإلى عوارضها اللازمة وعوارضها المفارقة، ثم تقسم مقوماته إلى الجنس وجنس الجنس، والفصل وفصل الفصل، وجنس الفصل وفصل الجنس، إلى سائر الأجزاء المقومة التي لا تعد من الأجناس ولا من الفصول، ثم لا تزال تأتي بهذا التقسيم في كل واحد من هذه الأقسام حتى تنتهي من تلك المركبات إلى البسائط الحقيقية، ثم تعتبر في العوارض اللازمة أن تلك العوارض مفردة أو مركبة ولازمة بوسائط أو بوسط أو بغير وسط، فالقوة العاقلة كأنها نفذت في أعماق الماهيات وتغلغلت فيها، وميزت كل واحد من أجزائها عن صاحبه، وأنزلت كل واحد منها في المكان اللائق به. فأما القوة الباصرة فلا تطلع على أحوال الماهيات، بل لا ترى إلا أمرًا واحدًا ولا تدري ما هو وكيف هو، فظهر أن القوة العاقلة أشرف.

الثاني عشر: القوة العاقلة تقوى على إدراكات غير متناهية، والقوة الحاسة لا تقوى على ذلك: بيان الأول من وجوه: الأول: القوة العاقلة يمكنها أن تتوصل بالمعارف الحاضرة إلى استنتاج المجهولات، ثم إنها تجعل تلك النتائج مقدمات في نتائج أخرى لا إلى نهاية، وقد عرفت أن القوة الحاسة لا تقوى على الاستنتاج أصلاً. الثاني: أن القوة العاقلة تقوى على تعقل مراتب الأعداد ولا نهاية لها. الثالث: أن القوة العاقلة يمكنها أن تعقل نفسها، وأن تعقل أنها عقلت وكذا إلى غير النهاية. الرابع: النِّسب والإضافات غير متناهية وهي معقولة لا محسوسة، فظهر أن القوة العاقلة أشرف.

الثالث عشر: الإنسان بقوته العاقلة يشارك الله تعالى في إدراك الحقائق، وبقوته الحاسة يشارك البهائم، والنسبة معتبرة فكانت القوة العاقلة أشرف.

الرابع عشر: القوة العاقلة غنية في إدراكها العقلي عن وجود المعقول في الخارج، والقوة الحاسة محتاجة في إدراكها الحسي إلى وجود المحسوس في الخارج، والغني أشرف من المحتاج.

الخامس عشر: هذه الموجودات الخارجية ممكنة لذواتها وأنها محتاجة إلى الفاعل، والفاعل

لا يمكنه الإيجاد على سبيل الإتقان إلا بعد تقدم العلم، فإذن وجود هذه الأشياء في الخارج تابع للإدراك العقلي، وأما الإحساس بها فلا شك أنه تابع لوجودها في الخارج، فإذن القوة الحساسة تبع لتبع القوة العاقلة.

السادس عشر: القوة العاقلة غير محتاجة في العقل إلى الآلات، بدليل أن الإنسان لو اختلت حواسه الخمس، فإنه يعقل أن الواحد نصف الاثنين، وأن الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية. وأما القوة الحساسة فإنها محتاجة إلى آلات كثيرة، والغني أفضل من المحتاج.

السابع عشر: الإدراك البصري لا يحصل إلا للشيء الذي في الجهات، ثم إنه غير متصرف في كل الجهات بل لا يتناول إلا المقابل أو ما هو في حكم المقابل، واحترزنا بقولنا (في حكم المقابل) عن أمور أربعة: الأول: العَرَض فإنه ليس بمقابل لأنه ليس في المكان، ولكنه في حكم المقابل لأجل كونه قائمًا بالجسم الذي هو مقابل. الثاني: رؤية الوجه في المرآة، فإن الشعاع يخرج من العين إلى المرآة، ثم يرتد منها إلى الوجه فيصير الوجه مرئيًا، وهو من هذا الاعتبار كالمقابل لنفسه. الثالث: رؤية الإنسان قفاه إذا جعل إحدى المرآتين محاذية لوجهه والأخرى لقفاه. والرابع: رؤية ما لا يقابل بسبب انعطاف الشعاع في الرطوبات ما هو مشروح في كتاب المناظر. وأما القوة العاقلة فإنها مبرأة عن الجهات، فإنها تعقل الجهة والجهة ليست في الجهة، ولذلك تعقل أن الشيء إما أن يكون في الجهة، وإما أن لا يكون في الجهة، وهذا الترديد لا يصح إلا بعد تعقل معنى قولنا (ليس في الجهة).

الثامن عشر: القوة الباصرة تعجز عند الحجاب، وأما القوة العاقلة فإنها لا يحجبها شيء أصلاً، فكانت أشرف.

التاسع عشر: القوة العاملة كالأمير، والحاسة كالخادم، والأمير أشرف من الخادم، وتقرير (الفرق بين) الإمارة والخدمة مشهور.

العشرون: القوة الباصرة قد تغلط كثيرًا فإنها قد تدرك المتحرك ساكنًا وبالعكس، كالجالس في السفينة، فإنه قد يدرك السفينة المتحركة ساكنة والشط الساكن متحركًا، ولولا العقل لما تميز خطأ البصر عن صوابه، والعقل حاكم والحس محكوم، فثبت بما ذكرنا أن الإدراك العقلي أشرف من الإدراك البصري، وكل واحد من الإدراكين يقتضي الظهور الذي هو أشرف خواص النور، فكان الإدراك العقلي أولى بكونه نورًا من الإدراك البصري، وإذا ثبت هذا فنقول: هذه الأنوار العقلية قسمان: أحدهما: واجب الحصول عند سلامة الأحوال وهي التعقلات الفطرية. والثاني: ما يكون مكتسبًا وهي التعقلات النظرية، أما الفطرية فليست هي من لوازم جوهر الإنسان لأنه حال الطفولية لم يكن عالمًا ألبتة، فهذه الأنوار الفطرية إنما حصلت بعد أن لم تكن، فلا بد لها من سبب، وأما النظريات فمعلوم أن الفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ في الأكثر، وإذا كان كذلك فلا بد من هاد مرشد، ولا مرشد فوق كلام الله تعالى وفوق إرشاد

الأنبياء، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل بمنزلة نور الشمس عند العين الباصرة إذ به يتم الإبصار، فبالحري أن يسمى القرآن نورًا كما يسمى نور الشمس نورًا، فنور القرآن يشبه نور الشمس ونور العقل يشبه نور العين، وبهذا يظهر معنى قوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨] وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤] ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] وإذا ثبت أن بيان الرسول أقوى من نور الشمس وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس، وكما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيره ولا تستفيده من غيره، فكذا نفس النبي ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية، ولا تستفيد الأنوار العقلية من شيء من الأنفس البشرية، فلذلك وصف الله تعالى الشمس بأنها سراج حيث قال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] ووصف محمدًا ﷺ بأنه سراج منير، إذا عرفت هذا فنقول: ثبت بالشواهد العقلية والنقلية أن الأنوار الحاصلة في أرواح الأنبياء مقتبسة من الأنوار الحاصلة في أرواح الملائكة، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢] وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٤، ٥] والوحي لا يكون إلا بواسطة الملائكة، فإذا جعلنا أرواح الأنبياء أعظم استنارة من الشمس، فأرواح الملائكة التي هي كالمعادن لأنوار عقول الأنبياء لا بد وأن تكون أعظم من أنوار أرواح الأنبياء، لأن السبب لا بد وأن يكون أقوى من المسبب. ثم نقول: ثبت أيضًا بالشواهد العقلية والنقلية أن الأرواح السماوية مختلفة فبعضها مستفيدة وبعضها مفيدة، قال تعالى في وصف جبريل عليه السلام: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١] وإذا كان هو مطاع الملائكة فالمطيعون لا بد وأن يكونوا تحت أمره. وقال: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] وإذا ثبت هذا فالمفيد أولى بأن يكون نورًا من المستفيد للعلة المذكورة ولمراتب الأنوار في عالم الأرواح مثال وهو أن ضوء الشمس إذا وصل إلى القمر ثم دخل في كوة بيت ووقع على مرآة منصوبة على حائط ثم انعكس منها إلى حائط آخر نصب عليه مرآة أخرى ثم انعكس منها إلى طست مملوء من الماء موضوع على الأرض، انعكس منه إلى سقف البيت، فالنور الأعظم في الشمس التي هي المعدن، وثانيًا في القمر، وثالثًا ما وصل إلى المرآة الأولى، ورابعًا ما وصل إلى المرآة الثانية، وخامسًا ما وصل إلى الماء، وسادسًا ما وصل إلى السقف، وكل ما كان أقرب إلى المنبع الأول فإنه أقوى مما هو أبعد منه، فكذا الأنوار السماوية لما كانت مرتبة لا جرم كان نور المفيد أشد إشراقًا من نور المستفيد، ثم تلك الأنوار لا تزال تكون مترقية حتى تنتهي إلى النور الأعظم والروح الذي هو أعظم الأرواح منزلة عند الله الذي هو المراد من قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨] ثم نقول: لا شك أن هذه الأنوار الحسية إن كانت سفلية كانت كأنوار النيران أو علوية كانت كأنوار الشمس والقمر والكواكب، وكذا الأنوار العقلية سفلية كانت كالأرواح السفلية التي

للأنبياء والأولياء أو علوية كالأرواح العلوية التي هي الملائكة، فإنها بأسرها ممكنة لذواتها، والممكن لذاته يستحق العدم من ذاته والوجود من غيره، والعدم هو الظلمة الحاصلة والوجود هو النور، فكل ما سوى الله مظلم لذاته مستنير بإنارة الله تعالى، وكذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل من وجود الله تعالى، فالحق سبحانه هو الذي أظهرها بالوجود بعد أن كانت في ظلمات العدم، وأفاض عليها أنوار المعارف بعد أن كانت في ظلمات الجهالة، فلا ظهور لشيء من الأشياء إلا بإظهاره، وخاصة النور إعطاء الإظهار والتجلي والانكشاف، وعند هذا يظهر أن النور المطلق هو الله سبحانه وأن إطلاق النور على غيره مجاز إذ كل ما سوى الله فإنه من حيث هو هو ظلمة محضة لأنه من حيث إنه هو عدم محض، بل الأنوار إذا نظرنا إليها من حيث هي هي فهي ظلمات؛ لأنها من حيث هي هي ممكنات، والممكن من حيث هو هو معدوم، والمعدوم مظلم. فالنور إذا نظر إليه من حيث هو هو ظلمة، فأما إذا التفت إليها من حيث أن الحق سبحانه أفاض عليها نور الوجود، فبهذا الاعتبار صارت أنوارًا. فثبت أنه سبحانه هو النور، وأن كل ما سواه فليس بنور إلا على سبيل المجاز.

ثم إنه رحمه الله تكلم بعد هذا في أمرين:

الأول: أنه سبحانه لمَ أضاف النور إلى السموات والأرض؟ وأجاب فقال: قد عرفت أن السماوات والأرض مشحونة بالأنوار العقلية والأنوار الحسية، أما الحسية فما يشاهد في السماوات من الكواكب والشمس والقمر وما يشاهد في الأرض من الأشعة المنبسطة على سطوح الأجسام حتى ظهرت به الألوان المختلفة، ولولاها لم يكن للألوان ظهور بل وجود، وأما الأنوار العقلية فالعالم الأعلى مشحون بها وهي جواهر الملائكة، والعالم الأسفل مشحون بها وهي القوى النباتية والحيوانية والإنسانية، وبالنور الإنساني السفلي ظهر نظام عالم السفل كما بالنور الملكي ظهور نظام عالم العلو، وهو المَعنيّ بقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] فإذا عرفت هذا عرفت أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية والباطنية العقلية، ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج فإن السراج هو الروح النبوي، ثم إن الأنوار النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النور، وأن العلويات مقتبسة بعضها من بعض وأن بينها ترتيبًا في المقامات، ثم ترتقي جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول، وأن ذلك هو الله وحده لا شريك له، فإذن الكل نوره فلهذا قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

السؤال الثاني: فإذا كان الله النور فلمَ احتيج في إثباته إلى البرهان؟ أجاب فقال: إن معنى كونه نور السماوات والأرض معروف بالنسبة إلى النور الظاهر البصري، فإذا رأيت خضرة الربيع في ضياء النهار فلست تشك في أنك ترى الألوان، فربما ظننت أنك لا ترى مع الألوان غيرها، فإنك تقول: لست أرى مع الخضرة غير الخضرة. إلا أنك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية

بين اللون حال وقوع الضوء عليه وعدم وقوعه عليه، فلا جرم تعرف أن النور معنى غير اللون يدرك مع الألوان، إلا أنه كان لشدة اتحاده به لا يدرك ولشدة ظهوره يختفي، وقد يكون الظهور سبب الخفاء، إذا عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر، فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله، ونوره حاصل مع كل شيء لا يفارقه، ولكن بقي هاهنا تفاوت وهو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس ويحجب، فحينئذٍ يظهر أنه غير اللون، وأما النور الإلهي الذي به يظهر كل شيء لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره، فيبقى مع الأشياء دائمًا، فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة، ولو تُصورت غيبته لانهدمت السماوات والأرض ولأدرك عنده من التفرقة ما يحصل العلم الضروري به، ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وجود خالقها، وأن كل شيء يسبح بحمده لا بعض الأشياء، وفي جميع الأوقات، لا في بعض الأوقات ارتفعت التفرقة وخفي الطريق، إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد فما لا ضد له ولا تغير له بتشابه أحواله، فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه، فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره، واحتجب عنهم بإشراق نوره. واعلم أن هذا الكلام الذي رويناه عن الشيخ الغزالي رحمه الله كلام مستطاب، ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق إلى أن معنى كونه سبحانه نورًا أنه خالق للعالم وأنه خالق للقوى الدراكة، وهو المَعنيّ من قولنا (معنى كونه نور السموات والأرض أنه هادي أهل السموات والأرض)، فلا تفاوت بين ما قاله وبين الذي نقلناه عن المفسرين في المعنى، والله أعلم.

الفصل الثاني: في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ لِلَّهِ سَبْعِينَ حِجَابًا مِنْ نُورٍ وَظُلْمَةٍ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ مَا أَدْرَكَ بَصَرُهُ»[(١)] وفي بعض الروايات سبعمائة وفي بعضها سبعون ألفًا

فأقول: لما ثبت أن الله سبحانه وتعالى متجلٍّ في ذاته لذاته، كان الحجاب بالإضافة إلى المحجوب لا محالة، والمحجوب لا بد وأن يكون محجوبًا، إما بحجاب مركب من نور وظلمة، وإما بحجاب مركب من نور فقط، أو بحجاب مركب من ظلمة فقط، أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا في الاشتغال بالعلائق البدنية إلى حيث لم يلتفت خاطرهم إلى أنه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا؟ وذلك لأنك قد عرفت أن ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم، وإنما كان مستنيرًا من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى، فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هي هي وصار ذلك الاشتغال حائلاً له عن الالتفات إلى جانب النور، كان حجابه محض الظلمة، ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر، فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر.

القسم الثاني: المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة.

---

(١) وأورده الفتني في (تذكرة الموضوعات) (١/ ١٢)، وقال لأبي الشيخ: بسند ضعيف. وقال ابن الجوزي: لا أصل له.

اعلم أن من نظر إلى هذه المحسوسات فإما أن يعتقد فيها أنها غنية عن المؤثر، أو يعتقد فيها أنها محتاجة، فإن اعتقد أنها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة، أما النور فلأنه تصور ماهية الاستغناء عن الغير، وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور وأما الظلمة فلأنه اعتقد حصول ذلك الوصف في هذه الأجسام مع أن ذلك الوصف لا يليق بهذا الوصف وهذا ظلمة، فثبت أن هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة، ثم أصناف هذا القسم كثيرة، فإن من الناس من يعتقد أن الممكن غني عن المؤثر، ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول: المؤثر فيها طبائعها أو حركاتها أو اجتماعها وافتراقها أو نسبتها إلى حركات الأفلاك أو إلى محركاتها، وكل هؤلاء من هذا القسم.

القسم الثالث: الحجب النورانية المحضة.

واعلم أنه لا سبيل إلى معرفة الحق سبحانه إلا بواسطة تلك الصفات السلبية والإضافية ولا نهاية لهذه الصفات ولمراتبها، فالعبد لا يزال يكون مترقيًا فيها فإن وصل إلى درجة وبقي فيها كان استغراقه في مشاهدة تلك الدرجة حجابًا له عن الترقي إلى ما فوقها، ولما كان لا نهاية لهذه الدرجات كان العبد أبدًا في السير والانتقال، وأما حقيقته المخصوصة فهي محتجبة عن الكل فقد أشرنا إلى كيفية مراتب الحجب، وأنت تعرف أنه عليه الصلاة والسلام إنما حصرها في سبعين ألفا تقريبًا لا تحديدًا فإنها لا نهاية لها في الحقيقة.

الفصل الثالث: في شرح كيفية التمثيل

اعلم أنه لا بد في التشبيه من أمرين: المشبه والمشبه به. واختلف الناس هاهنا في أن المشبه أي شي هو؟ وذكروا وجوهًا: أحدها: - وهو قول جمهور المتكلمين ونَصَره القاضي - أن المراد من الهدى التي هي الآيات البينات، والمعنى أن هداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات وصارت في ذلك بمنزلة المشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية. وفي الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء، فإن قيل: لمَ شبهه بذلك وقد علمنا أن ضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير؟ قلنا: إنه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الذي يلوح وسط الظلمة لأن الغالب على أوهام الخلق وخيالاتهم إنما هو الشبهات التي هي كالظلمات، وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذي يظهر فيما بين الظلمات، وهذا المقصود لا يحصل من ضوء الشمس لأن ضوءها إذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص، وإذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة، فلا جرم كان ذلك المثل هاهنا أليق وأوفق. واعلم أن الأمور التي اعتبرها الله تعالى في هذا المثال مما توجب كمال الضوء، فأولها: المصباح لأن المصباح إذا لم يكن في المشكاة تفرقت أشعته، أما إذا وُضع في المشكاة اجتمعت أشعته فكانت أكثر إنارة، والذي يحقق ذلك أن المصباح إذا كان في بيت صغير فإنه يظهر من ضوئه أكثر مما يظهر في البيت الكبير. وثانيها: أن المصباح إذا كان في زجاجة صافية فإن الأشعة المنفصلة عن المصباح

تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى البعض لما في الزجاجة من الصفاء والشفافية، وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور، والذي يحقق ذلك أن شعاع الشمس إذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى أنه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء، فإن انعكست تلك الأشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة إلى الجانب الآخر، كثرت الأنوار والأضواء وبلغت النهاية الممكنة. وثالثها: أن ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به، فإذا كان ذلك الدهن صافيًا خالصًا كانت حالته بخلاف حالته إذا كان كدرًا، وليس في الأدهان التي توقد ما يظهر فيه من الصفاء مثل الذي يظهر في الزيت، فربما يبلغ في الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد في أجزائه. ورابعها: أن هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجرته، فإذا كانت لا شرقية ولا غربية بمعنى أنها كانت بارزة للشمس في كل حالاتها يكون زيتونها أشد نضجًا، فكان زيته أكثر صفاء وأقرب إلى أن يتميز صفوه من كدره لأن زيادة الشمس تؤثر في ذلك، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة وتعاونت صار ذلك الضوء خالصًا كاملاً فيصلح أن يجعل مثلاً لهداية الله تعالى. وثانيها: أن المراد من النور في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ القرآن، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥] وهو قول الحسن وسفيان بن عيينة وزيد بن أسلم. وثالثها: أن المراد هو الرسول لأنه المرشد، ولأنه تعالى قال في وصفه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] وهو قول عطاء، وهذان القولان داخلان في القول الأول؛ لأن من جملة أنواع الهداية إنزال الكتب وبعثة الرسل. قال تعالى في صفة الكتب: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال في صفة الرسل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]. ورابعها: أن المراد منه ما في قلب المؤمنين من معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع، ويدل عليه أن الله تعالى وصف الإيمان بأنه نور والكفر بأنه ظلمة، فقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢] وقال تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الطلاق: ١١] وحاصله أنه حمل الهدى على الاهتداء، والمقصود من التمثيل أن إيمان المؤمن قد بلغ في الصفاء عن الشبهات والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور، وهو قول أُبي ابن كعب وابن عباس، قال أُبي: (مثل نور المؤمن)، وهكذا كان يقرأ، وقيل: إنه كان يقرأ: (مثل نور من آمن به)، وقال ابن عباس: (مثل نوره في قلب المؤمن). وخامسها: ما ذكره الشيخ الغزالي رحمه الله وهو أنا بينا أن القوى المدركة أنوار، ومراتب القوى المدركة الإنسانية خمسة:

أحدها: القوة الحساسة، وهي التي تتلقى ما تورده الحواس الخمس، وكأنها أصل الروح الحيواني وأوله إذ به يصير الحيوان حيوانًا وهو موجود للصبي الرضيع.

وثانيها: القوة الخيالية وهي التي تستثبت ما أورده الحواس وتحفظه مخزونًا عندها لتعرضه على القوة العقلية التي فوقها عند الحاجة إليه.

وثالثها: القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية .

ورابعها: القوة الفكرية وهي التي تأخذ المعارف العقلية ، فتؤلفها تأليفًا فتستنتج من تأليفها علمًا بمجهول .

وخامسها: القوة القدسية التي تختص بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الأولياء ، وتتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾[الشورى: ٥٢] .

وإذا عرفت هذه القوى فهي بجملتها أنوار ، إذ بها تظهر أصناف الموجودات ، وأن هذه المراتب الخمسة يمكن تشبيهها بالأمور الخمسة التي ذكرها الله تعالى وهي : المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت : أما الروح الحساس فإذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من عدة أثقب كالعينين والأذنين والمنخرين ، وأوفق مثال له من عالم الأجسام المشكاة . وأما الثاني : وهو الروح الخيالي فنجد له خواص ثلاثة : الأولى : أنه من طينة العالم السفلي الكثيف لأن الشيء المتخيل ذو قدر وشكل وحيز ، ومن شأن العلائق الجسمانية أن تحجب عن الأنوار العقلية المحضة التي هي التعقلات الكلية المجردة . والثانية : أن هذا الخيال الكثيف إذا صفا ورقَّ وهُذب صار موازنًا للمعاني العقلية ومؤديًا لأنوارها وغير حائل عن إشراق نورها ، ولذلك فإن المعبر يستدل بالصور الخيالية على المعاني العقلية ، كما يستدل بالشمس على المَلِك ، وبالقمر على الوزير ، وبمن يختم فروج الناس وأفواههم على أنه مؤذن يؤذن قبل الصبح . والثالثة : أن الخيال في بداية الأمر محتاج إليه جدًّا ليضبط بها المعارف العقلية ولا تضطرب ، فنعم المثالات الخيالية الجالبة للمعارف العقلية ، وأنت لا تجد شيئًا في الأجسام يشبه الخيال في هذه الصفات الثلاثة إلا الزجاجة ، فإنها في الأصل من جوهر كثيف ولكن صفا ورقَّ حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ، ثم يحفظه على الانطفاء بالرياح العاصفة . وأما الثالث : وهو القوة العقلية فهي القوية على إدراك الماهيات الكلية والمعارف الإلهية ، فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح ، وقد عرفت هذا حيث بينا كون الأنبياء سرجًا منيرة . وأما الرابع وهو القوة الفكرية : فمن خواصها أنها تأخذ ماهية واحدة ، ثم تقسمها إلى قسمين كقولنا (الموجود إما واجب وإما ممكن) ، ثم تجعل كل قسم مرة أخرى قسمين وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ، ثم تقضي بالآخرة إلى نتائج وهي ثمراتها ، ثم تعود فتجعل تلك الثمرات بذورًا لأمثالها حتى تتأدى إلى ثمرات لا نهاية لها ، فبالحري أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة ، وإذا كانت ثمارها مادة لتزايد أنوار المعارف ونباتها ، فبالحري أن لا يمثل بشجرة السفرجل والتفاح ، بل بشجرة الزيتون خاصة ؛ لأن لب ثمرتها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح ، وله من بين سائر الأدهان خاصية زيادة الإشراق وقلة الدخان ، وإذا كانت الماشية التي يكثر درها ونسلها والشجرة التي تكثر ثمرتها تسمى مباركة ، فالذي لا يتناهى إلى حد

محدود أَوْلى أن يسمى شجرة مباركة، وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الأجسام، فبالحري أن تكون لا شرقية ولا غربية. وأما الخامس وهو القوة القدسية النبوية: فهي في نهاية الشرف والصفاء، فإن القوة الفكرية تنقسم إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه وإلى ما لا يحتاج إليه، ولا بد من وجود هذا القسم قطعًا للتسلسل، فبالحري أن يعبر عن هذا القسم بكماله وصفائه وشدة استعداده بأنه يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، فهذا المثال موافق لهذا القسم، ولما كانت هذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض، فالحس هو الأول وهو كالمقدمة للخيال، والخيال كالمقدمة للعقل، فبالحري أن تكون المشكاة كالظرف للزجاجة التي هي كالظرف للمصباح.

وسادسها: ما ذكره أبو علي بن سينا فإنه نَزَّل هذه الأمثلة الخمسة على مراتب إدراكات النفس الإنسانية، فقال: لا شك أن النفس الإنسانية قابلة للمعارف الكلية والإدراكات المجردة، ثم إنها في أول الأمر تكون خالية عن جميع هذه المعارف فهناك تسمى عقلاً هيوليًا وهي المشكاة، وفي المرتبة الثانية: يحصل فيها العلوم البديهية التي يمكن التوصل بتركيباتها إلى اكتساب العلوم النظرية، ثم إن أمكنة الانتقال إن كانت ضعيفة فهي الشجرة، وإن كانت أقوى من ذلك فهي الزيت، وإن كانت شديدة القوة جدًا فهي الزجاجة التي تكون كأنها الكوكب الدري، وإن كانت في النهاية القصوى وهي النفس القدسية التي للأنبياء فهي التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. وفي المرتبة الثالثة: يكتسب من العلوم الفطرية الضرورية العلوم النظرية إلا أنها لا تكون حاضرة بالفعل، ولكنها تكون بحيث متى شاء صاحبها استحضارها قدر عليه، وهذا يسمى عقلاً بالفعل وهذا المصباح. وفي المرتبة الرابعة: أن تكون تلك المعارف الضرورية والنظرية حاصلة بالفعل ويكون صاحبها كأنه ينظر إليها، وهذا يسمى عقلاً مستفادًا، وهو نور على نور لأن الملكة نور وحصول ما عليه الملكة نور آخر. ثم زعم أن هذه العلوم التي تحصل في الأرواح البشرية إنما تحصل من جوهر روحاني يسمى بالعقل الفعال وهو مدبر ما تحت كرة القمر وهو النار.

وسابعها: قول بعض الصوفية هو أنه سبحانه شَبَّه الصدر بالمشكاة والقلب بالزجاجة والمعرفة بالمصباح، وهذا المصباح إنما توقد من شجرة مباركة وهي إلهامات الملائكة لقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢] وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وإنما شبه الملائكة بالشجرة المباركة لكثرة منافعهم، وإنما وصفها بأنها لا شرقية ولا غربية لأنها روحانية، وإنما وصفهم بقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لكثرة علومها وشدة اطلاعها على أسرار ملكوت الله تعالى، والظاهر هاهنا أن المشبه غير المشبه به.

وثامنها: قال مقاتل: مثل نوره أي مثل نور الإيمان في قلب محمد ﷺ كمشكاة فيها مصباح، فالمشكاة نظير صلب عبد الله والزجاجة نظير جسد محمد ﷺ والمصباح نظير الإيمان في قلب محمد أو نظير النبوة في قلبه.

وتاسعها: قال قوم: المشكاة نظير إبراهيم عليه السلام، والزجاجة نظير إسماعيل عليه السلام، والمصباح نظير جسد محمد ﷺ والشجرة النبوة والرسالة.

وعاشرها: أن قوله (مثل نوره) يرجع إلى المؤمن، وهو قول أُبي بن كعب، وكان يقرأها (مثل نور المؤمن)، وهو قول سعيد بن جبير والضحاك. واعلم أن القول الأول هو المختار لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ فإذا كان المراد بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي مثل هداه وبيانه كان ذلك مطابقًا لما قبله، ولأنا لما فسرنا قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بأنه هادي أهل السماوات والأرض فإذا فسرنا قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ بأن المراد مثل هداه كان ذلك مطابقًا لما قبله.

الفصل الرابع: في بقية المباحث المتعلقة بهذه الآية

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المشكاة: الكوة في الجدار غير النافذة، هذا هو القول المشهور، وذكروا فيه وجوهًا أُخر: أحدها: قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري: المشكاة: القائم الذي في وسط القنديل الذي يدخل فيه الفتيلة. وهو قول مجاهد والقرظي. والثاني: قال الزجاج: هي هاهنا قصبة القنديل من الزجاجة التي توضع فيها الفتيلة. الثالث: قال الضحاك: إنها الحلقة التي يعلق بها القنديل. والأول هو الأصح.

المسألة الثانية: زعموا أن المشكاة هي الكوة بلغة الحبشة، قال الزجاج: المشكاة من كلام العرب، ومثلها المشكاة وهي الدقيق الصغير.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: هذه الآية من المقلوب، والتقدير مثل نوره كمصباح في مشكاة لأن المشبه به هو الذي يكون معدنًا للنور ومنبعًا له، وذلك هو المصباح لا المشكاة.

المسألة الرابعة: المصباح: السراج، وأصله من الضوء، ومنه الصبح.

المسألة الخامسة: قرئ (زجاجة) الزجاجة بالضم والفتح والكسر، أما (دري) فقرئ بضم الدال وكسرها وفتحها: أما الضم ففيه ثلاثة أوجه: الأول: ضم الدال وتشديد الراء والياء من غير همز، وهو القراءة المعروفة، ومعناه أنه يشبه الدر لصفائه ولمعانه، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّكُمْ لَتَرَوْنَ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ» الثاني: أنه كذلك إلا أنه بالمد والهمزة، وهو قراءة حمزة وعاصم في رواية أبي بكر، وصار بعض أهل العربية إلى أنه لحن قال سيبويه: وهذا أضعف اللغات، وهو مأخوذ من الضوء والتلألؤ وليس بمنسوب إلى الدر، قال أبو علي: وجه هذه القراءة أنه فعيل من الدرء بمعنى الدفع وأنه صفة وأنه في الصفة مثل المرىء في الاسم. والثالث: ضم الدال وتخفيف الراء والياء من غير مد ولا همز. أما الكسر ففيه وجهان: الأول: درىء بكسر الدال وتشديد الراء والمد والهمز، وهي

قراءة أبي عمرو والكسائي قال الفراء: هو فعيل من الدرء وهو الدفع كالسكير والفسيق، فكأن ضوءه يدفع بعضه بعضًا من لمعانه. الثاني: بكسر الدال وتشديد الراء من غير همز ولا مد، وهي قراءة ابن خليد وعتبة بن حماد عن نافع. أما الفتح ففيه وجوه أربعة: الأول: بفتح الدال وتشديد الراء والمد والهمز عن الأعمش. الثاني: بفتح الدال وتشديد الراء من غير مد ولا همز عن الحسن ومجاهد وقتادة. الثالث: بفتح الدال وتخفيف الراء مهموزًا من غير مد ولا ياء عن عاصم. الرابع: كذلك إلا أنه غير مهموز وبياء خفيفة بدل الهمزة. أما قوله: (توقد) القراءة المعروفة توقد بالفتحات الأربعة مع تشديد القاف بوزن تفعل، وعن الحسن ومجاهد وقتادة كذلك إلا أنه يضم الدال، وذكر صاحب (الكشاف): يوقد بفتح الياء المنقوطة من تحت بنقطتين والواو والقاف وتشديدها ورفع الدال قال وحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب، وعن سعيد بن جبير بياء مضمومة وإسكان الواو وفتح القاف مخففة ورفع الدال، وعن نافع وحفص كذلك إلا أنه بالتاء، وعن عاصم بياء مضمومة وفتح الواو وتشديد القاف وفتحها، وعن أبي عمرو كذلك إلا أنه بالتاء، وعن طلحة توقد بتاء مضمومة وواو ساكن وكسر القاف وتخفيفها.

المسألة السادسة: قوله: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي ضخم مضيء ودراري النجوم: عظامها، واتفقوا على أن المراد به كوكب من الكواكب المضيئة كالزهرة والمشتري والثوابت التي في العظم الأول.

المسألة السابعة: قوله: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي من زيت شجرة مباركة، أي كثيرة البركة والنفع، وقيل: هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبيًّا، منهم الخليل، وقيل: المراد زيتون الشام؛ لأنها هي الأرض المباركة فلهذا جعل الله هذه شجرة مباركة.

المسألة الثامنة: اختلفوا في معنى وصف الشجرة بأنها لا شرقية ولا غربية على وجوه: أحدها: قال الحسن: إنها شجرة الزيت من الجنة إذ لو كانت من شجر الدنيا لكانت إما شرقية أو غربية. وهذا ضعيف لأنه تعالى إنما ضرب المثل بما شاهدوه وهم ما شاهدوا شجرة الجنة. وثانيها: أن المراد شجرة الزيتون في الشام لأن الشام وسط الدنيا، فلا يوصف شجرها بأنها شرقية أو غربية. وهذا أيضًا ضعيف لأن من قال (الأرض كرة) لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين بل لكل بلد مشرق ومغرب على حدة، ولأن المثل مضروب لكل من يعرف الزيت، وقد يوجد في غير الشام كوجوده فيها. وثالثها: أنها شجرة تلتف بها الأشجار فلا تصيبها الشمس في شرق ولا غرب، ومنهم من قال: هي شجرة يلتف بها ورقها التفافًا شديدًا فلا تصل الشمس إليها، سواء كانت الشمس شرقية أو غربية، وليس في الشجر ما يورق غصنه من أوله إلى آخره مثل الزيتون والرمان. وهذا أيضًا ضعيف لأن الغرض صفاء الزيت، وذلك لا يحصل إلا بكمال نضج الزيتون وذلك إنما يحصل في العادة بوصول أثر الشمس إليه لا بعدم وصوله. ورابعها: قال ابن عباس: المراد الشجرة التي تبرز على جبل عالٍ أو صحراء واسعة

فتطلع الشمس عليها حالتي الطلوع والغروب. وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واختيار الفراء والزجاج، قالا: ومعناه: لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها، ولكنها شرقية وغربية، وهو كما يقال (فلان لا مسافر ولا مقيم) إذا كان يسافر ويقيم، وهذا القول هو المختار لأن الشجرة متى كانت كذلك كان زيتها في نهاية الصفاء وحينئذٍ يكون مقصود التمثيل أكمل وأتم. وخامسها: المشكاة صدر محمد ﷺ والزجاجة قلبه والمصباح ما في قلبه ﷺ من الدين، توقد من شجرة مباركة، يعني واتبعوا ملة أبيكم إبراهيم صلوات الله عليه، فالشجرة هي إبراهيم عليه السلام، ثم وصف إبراهيم فقال: لا شرقية ولا غربية أي لم يكن يصلي قبل المشرق ولا قبل المغرب كاليهود والنصارى، بل كان عليه الصلاة والسلام يصلي إلى الكعبة.

المسألة التاسعة: وصف الله تعالى زيتها بأنه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار لأن الزيت إذا كان خالصًا صافيًا ثم رؤي من بعيد، يرى كأن له شعاعًا، فإذا مسه النار ازداد ضوءًا على ضوء، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد نورًا على نور وهدى على هدى، قال يحيى بن سلام: قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ**»(١) وقال كعب الأحبار: المراد من الزيت نور محمد ﷺ أي يكاد نوره يبين للناس قبل أن يتكلم. وقال الضحاك: يكاد محمد ﷺ يتكلم بالحكمة قبل الوحي، وقال عبد الله بن رواحة(٢):

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٩٨)، حديث رقم (٣١٢٧) من طريق مصعب بن سلام عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد الخدري: قال: قال رسول الله... فذكره، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال أبو عيسى: هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، وقد روي عن بعض أهل العلم، وتفسير هذه الآية إن في ذلك لآيات للمتوسمين قال: للمتفرسين. وفي إسناده عطية العوفي وهو ضعيف، ورواه الطبراني في (الأوسط) (٣/ ٣١٢)، حديث رقم (٣٢٥٤)، وفي (الكبير) (٨/ ١٠٢)، حديث رقم (٧٤٩٧)، والقضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٣٨٧)، حديث رقم (٦٦٣)، جميعًا من طريق عبد الله بن صالح حدثنا معاوية بن صالح عن راشد بن سعد عن أبي أمامة... به، وأورده ابن الجوزي في (الموضوعات) (٣/ ١٤٧)، وقال ابن الجوزي في الموضوعات: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، أما حديث ابن عمر ففيه الفرات بن السائب. قال: يحيى: ليس بشيء. قال البخاري والدارقطني: متروك. وفيه أحمد بن محمد اليماني، قال أبو حاتم الرازي: كان كذابًا. وقال الدارقطني: متروك الحديث. وأما حديث أبي سعيد فإنه تفرد به محمد بن كثير عن عمرو. قال أحمد بن حنبل: خرقنا حديثه. وقال علي بن المديني: كتبنا عنه عجائب وخططت على حديثه وضعفه جدًا.

وأما حديث أبي أمامة ففيه عبد الله بن صالح وهو كاتب الليث، قال أحمد بن حنبل: ليس هو بشيء. وقال ابن حبان: يروي عن الثقاة ما ليس من حديث الأثبات. وأما حديث أبي هريرة فإن أبا معاذ هو سليمان بن أرقم. قال أحمد بن حنبل ويحيى: ليس بشيء. وقال البخاري وأبو داود والنسائي والدارقطني: متروك. وقال ابن حبان: يروي عن الثقاة الموضوعات. قال أبو بكر الخطيب: فالمحفوظ ما رواه سفيان عن عمرو بن قيس أنه قال: كان يقال: (اتقوا فراسة المؤمن).

(٢) **عبد الله بن رواحة**: عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري من الخزرج، أبو محمد، ؟- ٨هـ؟ ظ - ٦٢٩م. صحابي، يعد من الأمراء والشعراء الراجزين، كان يكتب في الجاهلية. وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار. =

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ

المسألة العاشرة: قوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ المراد ترادف هذه الأنوار واجتماعها، قال أُبي بن كعب: المؤمن بين أربع خلال: إن أُعطي شكر، وإن ابتُلي صبر، وإن قال صدق، وإن حكم عدل، فهو في سائر الناس كالرجل الحي الذي يمشي بين الأموات يتقلب في خمس من النور، كلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة. قال الربيع: سألت أبا العالية عن مدخله ومخرجه فقال: سره وعلانيته.

المسألة الحادية عشرة: قال الجبائي: دلت الآية على أن كل من جهل فمن قِبله أُتي، وإلا فالأدلة واضحة ولو نظروا فيها لعرفوا. قال أصحابنا: هذه الآية صريح مذهبنا فإنه سبحانه بعد أن بَيَّن أن هذه الدلائل بلغت في الظهور والوضوح إلى هذا الحد الذي لا يمكن الزيادة عليه، قال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني وضوح هذه الدلائل لا يكفي ولا ينفع ما لم يخلق الله الإيمان، ولا يمكن أن يكون المراد من قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ إيضاح الأدلة والبينات لأنا لو حملنا النور على إيضاح الأدلة لم يجز حمل الهدى عليه أيضًا، وإلا لخرج الكلام عن الفائدة، فلم يبق إلا حمل الهدى هاهنا على خلق العلم. أجاب أبو مسلم بن بحر عنه من وجهين: الأول: أن قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ محمول على زيادات الهدى الذي هو كالضد للخذلان الحاصل للضال. الثاني: أنه سبحانه يهدي لنوره الذي هو طريق الجنة من يشاء. وشَبَّهه بقوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ﴾ [الحديد: ١٢]. وزيف القاضي عبد الجبار هذين الجوابين: أما الأول: فلأن الكلام المتقدم هو في ذكر الآيات المنزلة، فإذا حلمناه على الهدى دخل الكل فيه، وإذا حملناه على الزيادة لم يدخل فيه إلا البعض، وإذا حمل على طريق الجنة لا يكون داخلاً فيه أصلاً إلا من حيث المعنى لا من حيث اللفظ، ولما زيف هذين الجوابين، قال: الأَوْلى أن يقال: إنه تعالى هدى بذلك البعض دون البعض وهم الذين بلغهم حد التكليف.

واعلم أن هذا الجواب أضعف من الجوابين الأولين؛ لأن قوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يُفهم منه أن هذه الآيات مع وضوحها لا تكفي، وهذا لا يتناول الصبي والمجنون، فسقط ما قالوه.

المسألة الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ﴾ والمراد للمكلفين من الناس وهو النبي ومن بُعث إليه، فإنه سبحانه ذكر ذلك في معرض النعمة العظيمة، واستدلت المعتزلة به فقالوا: إنما يكون ذلك نعمة عظيمة لو أمكنهم الانتفاع به، ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما تمكنوا من الانتفاع به. وجوابه ما تقدم. ثم بين أنه سبحانه ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وذلك كالوعيد لمن لا يعتبر ولا يتفكر في أمثاله ولا ينظر في أدلته فيعرف وضوحها وبُعدها عن الشبهات.

=وكان أحد النقباء الاثنى عشر، وشهد بدرًا وأُحدًا والخندق والحديبية. واستخلفه النبي ﷺ على المدينة في إحدى غزواته، وصحبه في عمرة القضاء وله فيها رجز، وكان أحد الأمراء في وقعة مؤتة (بأدنى البلقاء في أرض الشام) فاستشهد فيها.

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٨﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ﴾ يقتضي محذوفًا يكون فيها وذكروا فيه وجوه: أحدها: أن التقدير كمشكاة فيها مصباح في بيوت أذن الله وهو اختيار كثير من المحققين، اعترض أبو مسلم بن بحر الأصفهاني عليه من وجهين: الأول: أن المقصود من ذكر المصباح المثل وكون المصباح في بيوت أذن الله لا يزيد في هذا المقصود؛ لأن ذلك لا يزيد المصباح إنارة وإضاءة. الثاني: أن ما تقدم ذكره فيه وجوه تقتضي كونه واحدًا كقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وقوله: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وقوله: ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ وقوله: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور: ٣٥] ولفظ البيوت جمع ولا يصح كون هذا الواحد في كل البيوت والجواب عن الأول: أن المصباح الموضوع في الزجاجة الصافية إذا كان في المساجد كان أعظم وأضخم فكان أضوأ، فكان التمثيل به أتم وأكمل. وعن الثاني: أنه لما كان القصد بالمثل هو الذي له هذا الوصف فيدخل تحته كل كمشكاة فيها مصباح في زجاجة تتوقد من الزيت، وتكون الفائدة في ذلك أن ضوأها يظهر في هذه البيوت بالليالي عند الحاجة إلى عبادة الله تعالى، ولو أن رجلاً قال: الذي يصلح لخدمتي رجل يرجع إلى علم وكفاية وقناعة يلتزم بيته لكان وإن ذكره بلفظ الواحد فالمراد النوع فكذا ما ذكره الله سبحانه في هذه الآية. وثانيها: التقدير توقد من شجرة مباركة في بيوت أذن الله أن ترفع. وثالثها: وهو قول أبي مسلم أنه راجع إلى قوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النور: ٣٤] أي: ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم في بيوت أذن الله أن ترفع، ويكون المراد بالذين خلوا الأنبياء والمؤمنين والبيوت المساجد، وقد اقتص الله أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذكر أماكنهم فسماها محاريب بقوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] و﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧] فيقول: ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات، وأنزلنا أقاصيص من بعث قبلكم من الأنبياء والمؤمنين في بيوت أذن الله أن ترفع. ورابعها: قول الجبائي إنه كلام مستأنف لا تعلق له بما تقدم والتقدير صلوا في بيوت أذن الله أن ترفع. وخامسها: وهو قول الفراء والزجاج إنه لا حذف في الآية بل فيه تقديم وتأخير كأنه قال: يسبّح في بيوت أذن الله أن ترفع رجال صفتهم كيت وكيت، وأما قول أبي مسلم فقد اعترض عليه القاضي من وجهين: الأول: أن قوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النور: ٣٤] المراد منه خلا من المكذبين للرسل لتعلقه بما

تقدم من الإكراه على الزنا ابتغاء للدنيا فلا يليق ذلك بوصف هذه البيوت؛ لأنها بيوت أذن أن يذكر فيها اسمه. الثاني: أن هذه الآية صارت منقطعة عن تلك الآية بما تخلل بينهما من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وأما قول الجبائي فقيل: الإضمار لا يجوز المصير إليه إلا عند الضرورة وعلى التأويل الذي ذكره الفراء والزجاج لا حاجة إليه فلا يجوز المصير إليه فإن قيل: على قول الزجاج يتوجه عليه إشكال أيضًا؛ لأن على قوله يصير المعنى في بيوت أذن الله يسبح له فيها فيكون قوله فيها تكرارًا من غير فائدة، فلم قلتم: إن تحمل هذه الزيادة أولى من تحمل مثل ذلك النقصان؟ قلنا: الزيادة لأجل التأكيد كثيرة فكان المصير إليها أولى.

المسألة الثانية: أكثر المفسرين قالوا: المراد من قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ المساجد، وعن عكرمة ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ قال: هي البيوت كلها، والأول أولى لوجهين: الأول: أن في البيوت ما لا يمكن أن يوصف بأن الله تعالى أذن أن ترفع. الثاني: أنه تعالى وصفها بالذكر والتسبيح والصلاة وذلك لا يليق إلا بالمساجد ثم للقائلين بأن المراد هو المساجد قولان: أحدهما: أن المراد أربع مساجد الكعبة بناها إبراهيم وإسمعيل عليهما الصلاة والسلام، وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، ومسجد المدينة بناه النبي ﷺ، ومسجد قباء الذي أسس على التقوى بناه النبي ﷺ وعن الحسن هو بيت المقدس يسرج فيه عشرة آلاف قنديل. والثاني: أن المراد هو جميع المساجد والأول ضعيف؛ لأنه تخصيص بلا دليل فالأول حمل اللفظ على جميع المساجد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض.

المسألة الثالثة: اختلفوا في المراد من قوله: ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ على أقوال: أحدها: المراد من رفعها بناؤها لقوله: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧] وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي المساجد أمر الله أن تبنى. وثانيها: ترفع أي: تعظم وتطهر عن الأنجاس وعن اللغو من الأقوال، عن الزجاج. وثالثها: المراد مجموع الأمرين. والقول الثاني أولى لأن قوله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ ظاهره أنها كانت بيوتًا قبل الرفع فأذن الله أن ترفع.

المسألة الرابعة: اختلفوا في المراد من قوله: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ فالقول الأول: أنه عام في كل ذكر. والثاني: أن يتلى فيها كتابه، عن ابن عباس. والثالث: لا يتكلم فيها بما لا ينبغي والأول أولى لعموم اللفظ.

المسألة الخامسة: قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم (يسبَّح) بفتح الباء والباقون بكسرها فعلى القراءة الأولى يكون القول ممتدًا إلى آخر الظروف الثلاثة أعني له فيها بالغدو والآصال، ثم قال الزجاج: (رجال) مرفوع؛ لأنه لما قال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ فكأنه قيل: من يسبح؟ فقيل: يسبح رجال.

المسألة السادسة: اختلفوا في هذا التسبيح فالأكثرون حملوه على نفس الصلاة، ثم اختلفوا فمنهم من حمله على كل الصلوات الخمس، ومنهم من حمله على صلاتي الصبح والعصر، فقال: كانتا واجبتين في ابتداء الحال ثم زيد فيهما، ومنهم من حمله على التسبيح الذي هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به في ذاته وفعله، واحتج عليه بأن الصلاة والزكاة قد عطفهما على ذلك من حيث قال: عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهذا الوجه أظهر.

المسألة السابعة: الآصال جمل أُصُل والأصُل جمع أصيل وهو العشي وإنما وجد الغدو؛ لأنه في الأصل مصدر لا يجمع والأصيل اسم جمع، قال صاحب (الكشاف): بالغدو أي بأوقات الغدو أي بالغدوات وقرئ (والإِيصال) وهو الدخول في الأصيل يقال: آصل كأعتم وأظهر، قال ابن عباس رحمهما الله: إن صلاة الضحى لفي كتاب الله تعالى مذكورة وتلا هذه الآية وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَغْدُو وَيَرُوحُ إِلَى الْمَسْجِدِ يُؤْثِرُهُ عَلَى مَا سِوَاهُ إِلاَّ وَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ نُزُلٌ يعد له فِي الْجَنَّةِ»(١) وفي رواية سهل بن سعد مرفوعًا «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ لِيُعَلِّمَ خيرا أو لِيَتَعَلَّمه كما كَمَثَلِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْجِعُ غَانِمًا»(٢).

المسألة الثامنة: اختلفوا في قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ﴾ فقال بعضهم: نفى كونهم تجّارًا وباعة أصلاً، وقال بعضهم: بل أثبتهم تجّارًا وباعة وبيَّن أنهم مع ذلك لا يشغلهم عنها شاغل من ضروب منافع التجارات، وهذا قول الأكثرين، قال الحسن: أما والله إن كانوا ليتجرون، ولكن إذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شيء فقاموا بالصلاة والزكاة، وعن سالم نظر إلى قوم من أهل السوق تركوا بياعاتهم وذهبوا إلى الصلاة فقال: هم الذين قال تعالى فيهم: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ﴾، وعن ابن مسعود مثله، واعلم أن هذا القول أولى من الأول؛ لأنه لا يقال: إن فلانًا لا تلهيه التجارة عن كيت وكيت إلا وهو تاجر، وإن احتمل الوجه الأول.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: لما قال: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ﴾ دخل فيه البيع فلم أعاد ذكر البيع؟ قلنا: الجواب عنه من وجوه: الأول: أن التجارة جنس يدخل تحت أنواع الشراء والبيع إلا أنه سبحانه خص البيع بالذكر؛ لأنه في الإلهاء أدخل؛ لأن الربح الحاصل في البيع يقين ناجز، والربح الحاصل في

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الثعالبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٣٣٤) من طريق عمير بن مرداس قال: حدثنا إسماعيل بن أبي أويس قال: حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة... به، وفي إسناده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف.

(٢) أخرجه الثعالبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٣٣٥) من طريق إسحاق بن إبراهيم الحسيني عن إبراهيم المدني عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي... به. وفي الصحيحين من رواية أبي هريرة، أخرجه البخاري في (صحيحه) (١/ ٢٣٥)، حديث رقم (٦٣١)، ومسلم في (صحيحه) (١/ ٤٦٣/ ٦٦٩)، كلاهما من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح. واللفظ للبخاري.

الشراء شك مستقبل. الثاني: أن البيع يقتضي تبديل العرض بالنقد، والشراء بالعكس والرغبة في تحصيل النقد أكثر من العكس. الثالث: قال الفراء: التجارة لأهل الجلب، يقال: اتجر فلان في كذا إذا جلبه من غير بلده، والبيع ما باعه على يديه.

السؤال الثاني: لم خص الرجال بالذكر؟ والجواب: لأن النساء لسن من أهل التجارات أو الجماعات.

المسألة التاسعة: اختلفوا في المراد بذكر الله تعالى، فقال قوم: المراد الثناء على الله تعالى والدعوات، وقال آخرون: المراد الصلوات، فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾؟ قلنا: عنه جوابان: أحدهما: قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد بإقام الصلاة إقامتها لمواقيتها. والثاني: يجوز أن يكون قوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ تفسيرًا لذكر الله فهم يذكرون الله قبل الصلاة وفي الصلاة.

المسألة العاشرة: قد ذكرنا في أول تفسير سورة البقرة في قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣] أن إقام الصلاة هو القيام بحقها على شروطها، والوجه في حذف الهاء ما قاله الزجاج، يقال: أقمت الصلاة إقامة وكان الأصل إقوامًا، ولكن قلبت الواو ألفًا فاجتمع ألفان فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين فبقي أقمت الصلاة إقامًا، فأدخلت الهاء عوضًا من المحذوف وقامت الإضافة هاهنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة، قال: وهذا إجماع من النحويين.

المسألة الحادية عشرة: اختلفوا في الصلاة فمنهم من قال: هي الفرائض، ومنهم من أدخل فيه النقل على ما حكيناه في صلاة الضحى عن ابن عباس، والأول أقرب؛ لأنه إلى التعريف أقرب وكذلك القول في الزكاة أن المراد المفروض؛ لأنه المعروف في الشرع المسمى بذلك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما المراد من الزكاة طاعة الله تعالى والإخلاص، وكذا في قوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥] وقوله: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وهذا ضعيف لما تقدم ولأنه تعالى علق الزكاة بالإيتاء، وهذا لا يحمل إلا على ما يعطى من حقوق المال.

المسألة الثانية عشرة: أنه سبحانه بيّن أن هؤلاء الرجال وإن تعبدوا بذكر الله والطاعات فإنهم مع ذلك موصوفون بالوجل والخوف فقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وذلك الخوف إنما كان لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته. واختلفوا في المراد بتقلب القلوب والأبصار على أقوال: فالقول الأول: أن القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الأبصار لقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] الثاني: أنها تتغير أحوالها فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعًا عليها لا تفقه وتبصر الأبصار بعد أن كانت لا تبصر، فكأنهم انقلبوا من الشك إلى الظن، ومن الظن إلى اليقين، ومن اليقين إلى المعاينة، لقوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا

لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]وقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ [ق: ٢٢]، الثالث: أن القلوب تتقلب في ذلك اليوم طمعًا في النجاة وحذرًا من الهلاك والأبصار تنقلب من أي ناحية يؤمر بهم، أَمِنْ ناحية اليمين أم من ناحية الشمال؟ ومن أي ناحية يعطون كتابهم أمن قبل الإيمان أم من قبل الشمائل؟ والمعتزلة لا يرضون بهذا التأويل، فإنهم قالوا: إن أهل الثواب لا خوف عليهم ألبتة في ذلك اليوم، وأهل العقاب لا يرجون العفو، لكنا بيَّنَّا فساد هذا المذهب غير مرة. الرابع: أن القلوب تزول عن أماكنها فتبلغ الحناجر، والأبصار تصير زرقًا، قال الضحاك: يحشر الكافر وبصره حديد وتزرق عيناه ثم يعمى، ويتقلب القلب من الخوف حيث لا يجد مَخْلَصًا حتى يقع في الحنجرة فهو قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]. الخامس: قال الجبائي: المراد بتقلب القلوب والأبصار تغير هيئاتهما بسبب ما ينالها من العذاب، فتكون مرة بهيئة ما أُنضج بالنار ومرة بهيئة ما احترق، قال: ويجوز أن يريد به تقلبها على جمر جهنم وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

المسألة الثالثة عشرة: قوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله ويثيبهم على أحسن ما عملوا، وفيه وجوه: الأول: المراد بالأحسن الحسنات أجمع، وهي الطاعات فرضها ونفلها، قال مقاتل: إنما ذكر الأحسن تنبيهًا على أنه لا يجازيهم على مساوىء أعمالهم بل يغفرها لهم. الثاني: أنه سبحانه يجزيهم جزاء أحسن ما عملوا على الواحد عشرًا إلى سبعمائة. الثالث: قال القاضي: المراد بذلك أن تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم وإنما يجزيهم الله تعالى بأحسن الأعمال، وهذا مستقيم على مذهبه في الإحباط والموازنة.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فالمعنى: أنه تعالى يجزيهم بأحسن الأعمال ولا يقتصر على قدر استحقاقهم بل يزيدهم من فضله على ما ذكره تعالى في سائر الآيات من التضعيف، فإن قيل: فهذا يدل على أن لفعل الطاعة أثرًا في استحقاق الثواب؛ لأنه تعالى ميز الجزاء عن الفضل وأنتم لا تقولون بذلك، فإن عندكم العبد لا يستحق على ربه شيئًا، قلنا: نحن نثبت الاستحقاق لكن بالوعد فذاك القدر هو المستحق والزائد عليه هو الفضل ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ نبه به على كمال قدرته وكمال جوده ونفاذ مشيئته وسعة إحسانه، فكان سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد في الطاعة، ومع ذلك يكونون في نهاية الخوف، فالحق سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم، ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ

بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بيَّن حال المؤمن، وأنه في الدنيا يكون في النور وبسببه يكون متمسكًا بالعمل الصالح، ثم بيَّن أنه في الآخرة يكون فائزًا بالنعيم المقيم والثواب العظيم، أتبع ذلك بأن بيَّن أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران، وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات، وضرب لكل واحد منهما مثلاً، أما المثل الدال على خيبته في الآخرة فهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ قال الأزهري: السراب: ما يتراءى للعين وقت الضحى الأكبر في الفلوات شبيه الماء الجاري وليس بماء ولكن الذي ينظر إليه من بعيد يظنه ماء جاريًا يقال: سرب الماء يسرب سروبًا إذا جرى فهو سارب، أما الآل: فهو ما يتراءى للعين في أول النهار فيرى الناظر الصغير كبيرًا، وظاهر كلام الخليل أن الآل والسراب واحد، وأما القيعة فقال الفراء: هو جمع قاع مثل جار وجيرة والقاع: المنبسط المستوي من الأرض وقال صاحب (الكشاف): القيعة بمعنى القاع، وقال الزجاج: الظمآن قد يخفف همزه، وهو الشديد العطش، ثم وجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر إن كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابًا، مع أنه يعتقد أن له ثوابًا عليه، وإن كان من أفعال الإثم فهو يستحق عليه عقابًا مع أنه يعتقد أنه يستحق عليه ثوابًا، فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابًا عند الله تعالى، فإذا وافى عرصات القيامة، ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه، فيشبه حاله حال الظمآن الذي تشتد حاجته إلى الماء فإذا شاهد السراب تعلق قلبه به ويرجو به النجاة ويقوى طمعه فإذا جاءه وأيس مما كان يرجوه فيعظم ذلك عليه وهذا المثال في غاية الحسن، قال مجاهد: السراب عمل الكافر وإتيانه إياه موته ومفارقة الدنيا فإن قيل: قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ يدل على كونه شيئًا وقوله: ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ مناقض له؟ قلنا: الجواب عنه من وجوه ثلاثة: الأول: المراد معناه أنه لم يجده شيئًا نافعًا كما يقال: فلان ما عمل شيئًا وإن كان قد اجتهد. الثاني: حتى إذا جاءه أي جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئًا فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه. الثالث: الكناية للسراب؛ لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء وإذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء.

أما قوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ أي: وجد عقاب الله الذي توعد به الكافر عند ذلك فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم إلى تيقن الضرر العظيم، أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به إلى جهنم فيسقونه الحميم والغساق، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ [الغاشية: ٣]، ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ﴾ [الفرقان: ٢٣] وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية، كان قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الإسلام.

اما قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فذاك لأنه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه الحساب، وقال بعض المتكلمين: معناه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر كنحن، ولو كان يتكلم بآلة كما يقوله المشبهة لما صح ذلك، وأما المثل الثاني فهو قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ وفي لفظة (أو) هاهنا وجوه: أحدها: اعلم أن الله تعالى بيَّن أن أعمال الكفار إن كانت حسنة فمثلها السراب وإن كانت قبيحة فهي الظلمات. وثانيها: تقدير الكلام أن أعمالهم إما كسراب بقيعة وذلك في الآخرة وإما كظلمات في بحر وذلك في الدنيا. وثالثها: الآية الأولى في ذكر أعمالهم وأنهم لا يتحصلون منها على شيء، والآية الثانية في ذكر عقائدهم فإنها تشبه الظلمات كما قال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: من الكفر إلى الإيمان يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ وأما البحر اللجي فهو ذو اللجنة التي هي معظم الماء الغمر البعيد القعر، وفي اللجى لغتان كسر اللام وضمها، وأما تقرير المثل فهو أن البحر اللجي يكون قعره مظلمًا جدًا بسبب غمورة الماء، فإذا ترادفت عليه الأمواج ازدادت الظلمة فإذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى، فالواقع في قعر هذا البحر اللجى يكون في نهاية شدة الظلمة، ولما كانت العادة في اليد أنها من أقرب ما يراها ومن أبعد ما يظن أنه لا يراها فقال تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ وبيَّن سبحانه بهذا البلوغ تلك الظلمة إلى أقصى النهايات ثم شبه به الكافر في اعتقاده وهو ضد المؤمن في قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] وفي قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢] ولهذا قال أبي بن كعب: الكافر يتقلب في خمس من الظُلَم كلامه، وعمله، ومدخله، ومخرجه، ومصيره إلى النار، وفي كيفية هذا التشبيه وجوه أخر: أحدها: أن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السحاب، وكذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل، عن الحسن. وثانيها: شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث، عن ابن عباس. وثالثها: أن الكافر لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ويعتقد أنه يدري، فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات. ورابعها: أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكفار لشدة إصراره على كفره، قد تراكمت عليه الضلالات حتى أن أظهر الدلائل إذا ذكرت عنده لا يفهمها. وخامسها: قلب مظلم في صدر مظلم.

اما قوله: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فروي عن ابن كثير أنه قرأ (سحاب) وقرأ (ظلمات) بالجر على البدل من قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ وعنه أيضًا أنه قرأ (سحاب ظلماتٍ) كما يقال: سحاب رحمة، وسحاب عذاب على الإضافة وقراءة الباقين ﴿سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ﴾ كلاهما بالرفع والتنوين وتمام الكلام عند قوله: ﴿سَحَابٌ﴾ ثم ابتدأ (ظلماتٌ) أي ما تقدم ذكره ظلمات بعضها فوق بعض.

اما قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ ففيه قولان: أحدهما: أن كاد نفيه إثبات وإثباته نفي فقوله: ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] نفي في اللفظ ولكنه إثبات في المعنى؛ لأنهم فعلوا ذلك وقوله عليه

الصلاة والسلام: «كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا»[١] إثبات في اللفظ لكنه نفي في المعنى؛ لأنه لم يكفر فكذا هاهنا قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ معناه أنه رآها. والثاني: أن كاد معناه المقاربة فقوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ معناه لم يقارب الوقوع ومعلوم أن الذي لم يقارب الوقوع لم يقع أيضًا وهذا القول هو المختار والأول ضعيف لوجهين: الأول: أن ما يكون أقل من هذه الظلمات فإنه لا يرى فيه شيء فكيف مع هذه الظلمات. الثاني: أن المقصود من هذا التمثيل المبالغة في جهالة الكفار وذلك إنما يحصل إذا لم توجد الرؤية ألبتة مع هذه الظلمات.

أما قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فقال أصحابنا: إنه سبحانه لما وصف هداية المؤمن بأنها في نهاية الجلاء والظهور عقبها بأن قال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] ولما وصف ضلالة الكافر بأنها في نهاية الظلمة عقبها بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ والمقصود من ذلك أن يعرف الإنسان أن ظهور الدلائل لا يفيد الإيمان وظلمة الطريق لا تمنع منه، فإن الكل مربوط بخلق الله تعالى وهدايته وتكوينه، وقال القاضي: المراد بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ أي في الدنيا بالألطاف ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: لا يهتدي فيتحير ويحتمل ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ أي: مخلصًا في الآخرة وفوزًا بالثواب ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ والكلام عليه تزييفًا وتقريرًا معلوم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما وصف أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد:

فالنوع الأول: ما ذكره في هذه الآية ولا شبهة في أن المراد ألم تعلم؛ لأن التسبيح لا تتناوله الرؤية بالبصر ويتناوله العلم بالقلب، وهذا الكلام وإن كان ظاهره استفهامًا فالمراد التقرير والبيان، فنبه تعالى على ما يلزم من تعظيمه بأن من في السموات يسبح له وكذلك من في الأرض.

---

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٣٤٢)، حديث رقم (٥٨٦) من طريق سفيان الثوري عن حجاج بن فرافصة عن يزيد الرقاشي عن أنس... به، وابن الخدري في (العلل المتناهية) (٢/ ٨٠٥)، حديث رقم (١٣٤٦) من طريق سفيان الثوري عن الحجاج بن فرافصة عن يزيد الرقاشي عن يروى قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره. قال المؤلف: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ويزيد الرقاشي لا يعول على ما يروي قال شعبة: لأن أزني أحب إليّ من أن أروي عن يزيد الرقاشي، وأورده الذهبي في (الميزان) (٢/ ٢٠٤)، تحت ترجمة حجاج بن فرافضة عن يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعًا، وقال: يزيد تالف.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن كل ما سوى الله سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام، فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه، أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك وبالأمر بأن كل ما سواه فهو مُلكه ومِلكه وأنه غني عن الكل فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: إن الإلهين لا بد وأن يكونا اثنين، فما الفائدة في قوله: ﴿إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾.

وجوابه من وجوه:

أحدها: قال صاحب (النظم): فيه تقديم وتأخير، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين.

وثانيها: وهو الأقرب عندي أن الشيء إذا كان مستنكرًا مستقبحًا، فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سببًا لوقوف العقل على ما فيه من القبح.

إذا عرفت هذا فالقول بوجود الإلهين قول مستقبح في العقول، ولهذا المعنى فإن أحدًا من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال، فقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح.

وثالثها: أن قوله: ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ لفظ واحد يدل على أمرين: ثبوت الإله وثبوت التعدد، فإذا قيل: لا تتخذوا إلهين لم يعرف من هذا اللفظ أن النهي وقع عن إثبات الإله أو عن إثبات التعدد أو عن مجموعهما. فلما قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ ثبت أن قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ﴾ نهي عن إثبات التعدد فقط. ورابعها: أن الاثنينية منافية للإلهية، وتقريره من وجوه: الأول: أنا لو فرضنا موجودين يكون كل واحد منهما واجبًا لذاته لكانا مشتركين في الوجوب الذاتي ومتباينين بالتعين وما به المشاركة غير ما به المباينة، فكل واحد منهما مركب من جزأين، وكل مركب فهو ممكن، فثبت أن القول بأن واجب الوجود أكثر من واحد ينفي القول بكونهما واجبي الوجود. الثاني: أنا لو فرضنا إلهين وحاول أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه امتنع كون أحدهما أولى بالفعل من الثاني، لأن الحركة الواحدة والسكون الواحد لا يقبل القسمة أصلاً ولا التفاوت أصلاً، وإذا كان كذلك امتنع أن تكون القدرة على أحدهما أكمل من القدرة على الثاني، وإذا ثبت هذا امتنع

كون إحدى القدرتين أولى بالتأثير من الثانية، وإذا ثبت هذا فإما أن يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال، أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال أو لا يحصل مراد كل واحد منهما ألبتة. فحينئذ يكون كل واحد منهما عاجزًا والعاجز لا يكون إلهًا. فثبت أن كونهما اثنين ينفي كون كل واحد منهما إلهًا. الثالث: أنا لو فرضنا إلهين اثنين لكان إما أن يقدر أحدهما على أن يستر ملكه عن الآخر أو لا يقدر، فإن قدر ذاك إله والآخر ضعيف، وإن لم يقدر فهو ضعيف، والرابع: وهو أن أحدهما إما أن يقوى على مخالفة الآخر، أو لا يقوى عليه فإن لم يقو عليه فهو ضعيف، وإن قوي عليه فذاك الآخر إن لم يقو على الدفع فهو ضعيف، وإن قوي عليه فالأول المغلوب ضعيف. فثبت أن الاثنينية والإلهية متضادتان. فقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ المقصود منه التنبيه على حصول المنافاة والمضادة بين الإلهية وبين الاثنينية. والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ والمعنى: أنه لما دلت الدلائل السابقة على أنه لا بد للعالم من الإله، وثبت أن القول بوجود الإلهين محال، ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الحق الصمد.

ثم قال بعده: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ وهذا رجوع من الغيبة إلى الحضور، والتقدير: أنه لما ثبت أن الإله واحد وثبت أن المتكلم بهذا الكلام إله، فحينئذ ثبت أنه لا إله للعالم إلا المتكلم بهذا الكلام، فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة إلى الحضور، ويقول: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ وفيه دقيقة أخرى وهي أن قوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ يفيد الحصر، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه، وأن لا يرغبوا إلا في فضله وإحسانه، وذلك لأن الموجود إما قديم وإما محدث، أما القديم الذي هو الإله فهو واحد، وأما ما سواه فمحدث، وإنما حدث بتخليق ذلك القديم وبإيجاده، وإذا كان كذلك فلا رغبة إلا إليه ولا رهبة إلا منه، فبفضله تندفع الحاجات وبتكوينه وبتخليقه تنقطع الضرورات.

ثم قال بعده: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا حق، لأنه لما كان الإله واحدًا، والواجب لذاته واحدًا، كان كل ما سواه حاصلاً بتخليقه وتكوينه وإيجاده، فثبت بهذا البرهان صحة قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، لأن أفعال العباد من جملة ما في السموات والأرض، فوجب أن تكون أفعال العباد لله تعالى، وليس المراد من كونها لله تعالى أنها مفعولة لله لأجله ولغرض طاعته، لأن فيها المباحات والمحظورات التي يؤتى بها لغرض الشهوة واللذة، لا لغرض الطاعة، فوجب أن يكون المراد من قولنا إنها لله أنها واقعة بتكوينه وتخليقه وهو المطلوب.

ثم قال بعده: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ الدين ههنا الطاعة، والواصب الدائم. يقال: وصب الشيء يصب وصوبًا إذا دام، قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩] ويقال: واظب على الشيء وواصب عليه إذا داوم، ومفازة واصبة أي بعيدة لا غاية لها. ويقال للعليل واصب، ليكون ذلك

نحو طرف العش، وإذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه مطمعة له ليتبعها ثم تذهب إلى جانب آخر سوى جانب فراخها، وناقر الخشب قلما يقع على الأرض بل على الشجر ينقر الموضع الذي يعلم أن فيه دودًا، والغرانيق تصعد في الجو جدًا عند الطيران فإن حجب بعضها عن بعض ضباب أو سحاب أحدثت عن أجنحتها حفيفًا مسموعًا يلزم به بعضها بعضًا، فإذا نامت على جبل فإنها تضع رءوسها تحت أجنحتها إلا القائد فإنه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه، وإذا سمع حرسًا صاح، وحال النمل في الذهاب إلى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضًا أمر عجيب، واعلم أن الاستقصاء في هذا الباب مذكور في كتاب طبائع الحيوان، والمقصود أن الأكياس من العقلاء يعجزون عن أمثال هذه الحيل فإذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال: إنها ملهمة من عند الله تعالى بمعرفته والثناء عليه وإن كانت غير عارفة بسائر الأمور التي يعرفها الناس؟ ولله در شهاب الإسلام السمعاني حيث قال: جل جناب الجلال عن أن يوزن بميزان الاعتزال.

أما قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فهو مع وجازته فيه دلالة على تمام علم المبدأ والمعاد، فقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تنبيه على أن الكل منه؛ لأن كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجدان إلا عند الانتهاء إلى القديم الواجب فدخل في هذه القضية جميع الأجرام والأعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطرهم.

وأما قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فهو عبارة تامة في معرفة المعاد وهو أنه لا بد من مصير الكل إليه سبحانه، وله وجه آخر وهو أن الوجود يبدأ من الأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأخس فالأخس ثم يأخذ من الأخس فالأخس مترقيًا إلى الأشرف فالأشرف، فإنه يكون جسمًا ثم يصيره موصوفًا بالنباتية ثم الحيوانية ثم الإنسانية ثم الملكية ثم ينتهي إلى واجب الوجود لذاته، فالاعتبار الأول هو قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والثاني هو قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من الدلائل.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعين عقلك والمراد التنبيه والإزجاء السوق قليلاً قليلاً، ومنه البضاعة المزجاة التي يزجيها كل أحد وإزجاء السير في الإبل الرفق بها حتى تسير شيئًا فشيئًا

ثم يؤلف بينه، قال الفراء: (بين) لا يصلح إلا مضافًا إلى اسمين فما زاد، وإنما قال ﴿بَيْنَهُۥ﴾ لأن السحاب واحد في اللفظ، ومعناه الجمع والواحد سحابة، قال الله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] والتأليف ضم شيء إلى شيء أي يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحابًا واحدًا ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي مجتمعًا، والركم جمعك شيئًا فوق شيء حتى تجعله مركومًا، والودق: المطر، قاله ابن عباس: وعن مجاهد: القطر، وعن أبي مسلم الأصفهاني: الماء. ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ من شُقُوقِهِ وَمَخَارِقِهِ جمع خلل كجبال في جمع جبل، وقرىء (من خلله).

المسألة الثانية: اعلم أن قوله: ﴿يُزْجِى سَحَابًا﴾ يحتمل أنه سبحانه ينشئه شيئًا بعد شيء، ويحتمل أن يغيره من سائر الأجسام لا في حالة واحدة، فعلى الوجه الأول يكون نفس السحاب محدثًا، ثم إنه سبحانه يؤلف بين أجزائه، وعلى الثاني يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التي باعتبارها صارت تلك الأجسام سحابًا، وفي قوله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ دلالة على وجودها متقدمًا متفرقًا إذ التأليف لا يصح إلا بين موجودين، ثم إنه سبحانه يجعله ركامًا، وذلك بتركب بعضها على البعض، وهذا مما لا بد منه؛ لأن السحاب إنما يحمل الكثير من الماء إذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره، قال أهل الطبائع: إن تكوَّن السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع في أكثر الأمر يكون من تكاثف البخار وفي الأقل من تكاثف الهواء، أما الأول فالبخار الصاعد إن كان قليلاً وكان في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ ينحل وينقلب هواء. وأما إن كان البخار كثيرًا ولم يكن في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الأبخرة المتصاعدة إما أن تبلغ في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء أو لا تبلغ، فإن بلغت فإما أن يكون البرد هناك قويًا أو لا يكون، فإن لم يكن البرد هناك قويًا تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد، واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب، والمتقاطر هو المطر، والديمة والوابل إنما يكون من أمثال هذه الغيوم، وأما إن كان البرد شديدًا فلا يخلو إما أن يصل البرد إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كبارًا أو بعد صيرورتها كذلك، فإن كان على الوجه الأول نزل ثلجًا، وإن كان على الوجه الثاني نزل بردًا، وأما إذا لم تبلغ الأبخرة إلى الطبقة الباردة فهي إما أن تكون كثيرة أو تكون قليلة، فإن كانت كثيرة فهي قد تنعقد سحابًا ماطرًا وقد لا تنعقد، أما الأول فذاك لأحد أسباب خمسة:

أحدها: إذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الأبخرة.

وثانيها: أن تكون الرياح ضاغطة إياها إلى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح.

وثالثها: أن تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الأبخرة حينئذ.

ورابعها: أن يعرض للجزء المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته، ثم يلتصق به سائر الأجزاء الكثيرة المدد.

وخامسها: لشدة برد الهواء القريب من الأرض. وقد نشاهد البخار يصعد في بعض الجبال

الأضداد والشركاء، فهذا جهل عظيم وضلال كامل. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

ثم قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وفي هذه اللام وجهان: الأول: أنها لام كي والمعنى أنهم أشركوا بالله غيره في كشف ذلك الضر عنهم. وغرضهم من ذلك الإشراك أن ينكروا كون ذلك الإنعام من الله تعالى، ألا نرى أن العليل إذا اشتد وجعه تضرع إلى الله تعالى في إزالة ذلك الوجع، فإذا زال أحال زواله على الدواء الفلاني والعلاج الفلاني، وهذا أكثر أحوال الخلق. وقال مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي رحمه الله: في اليوم الذي كنت أكتب هذه الأوراق وهو اليوم الأول من محرم سنة اثنتين وستمائة حصلت زلزلة شديدة، وهزة عظيمة وقت الصبح ورأيت الناس يصيحون بالدعاء والتضرع، فلما سكتت وطاب الهواء، وحسن أنواع الوقت نسوا في الحال تلك الزلزلة وعادوا إلى ما كانوا عليه من تلك السفاهة والجهالة، وكان هذه الحالة التي شرحها الله تعالى في هذه الآية تجري مجرى الصفة اللازمة لجوهر نفس الإنسان.

والقول الثاني: أن هذه اللام لام العاقبة كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] يعني أن عاقبة تلك التضرعات ما كانت إلا هذا الكفر.

واعلم أن المراد بقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

فيه قولان:

الأول: أنه عبارة عن كشف الضر وإزالة المكروه.

والثاني: قال بعضهم: المراد به القرآن وما جاء به محمد ﷺ من النبوة والشرائع.

واعلم أنه تعالى توعدهم بعد ذلك فقال: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾ وهذا لفظ أمر، والمراد منه التهديد، كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وقوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الإسراء: ١٠٧].

ثم قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين بالدلائل القاهرة فساد أقوال أهل الشرك والتشبيه، شرح في هذه الآية

تفاصيل أقوالهم وبين فسادها وسخافتها.

فالنوع الأول: من كلماتهم الفاسدة أنهم يجعلون لما لا يعلمون نصيبًا وفيه مسالتان:

المسألة الأولى: الضمير في قوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: أنه عائد إلى المشركين المذكورين في قوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤] والمعنى أن المشركين لا يعلمون. والثاني: أنه عائد إلى الأصنام أي لا يعلم الأصنام ما يفعل عبادها قال بعضهم: الأول أولى لوجوه: أحدها: أن نفي العلم عن الحي حقيقة وعن الجماد مجاز. وثانيها: أن الضمير في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ عائد إلى المشركين فكذلك في قوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ يجب أن يكون عائد إليهم. وثالثها: أن قوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ جمع بالواو والنون. وهو بالعقلاء أليق منه بالأصنام التي هي جمادات، ومنهم من قال بل القول الثاني أولى لوجوه: الأول: أنا إذا قلنا إنه عائد إلى المشركين افتقرنا إلى إضمار، فإن التقدير: ويجعلون لما لا يعلمون إلهًا، أو لما لا يعلمون كونه نافعًا ضارًا، وإذا قلنا إنه عائد إلى الأصنام، لم نفتقر إلى الإضمار لأن التقدير: ويجعلون لما لا علم لها ولا فهم. والثاني: أنه لو كان العلم مضافًا إلى المشركين لفسد المعنى، لأن من المحال أن يجعلوا نصيبًا من رزقهم لما لا يعلمونه، فهذا ما قيل في ترجيح أحد هذين القولين على الآخر.

واعلم أنا إذا قلنا بالقول الأول افتقرنا فيه إلى الإضمار، وذلك يحتمل وجوهًا: أحدها: ويجعلون لما لا يعلمون له حقًا، ولا يعلمون في طاعته نفعًا ولا في الإعراض عنه ضررًا، قال مجاهد: يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه ينفعهم ويضرهم نصيبًا. وثانيها: ويجعلون لما لا يعلمون إلهيتها. وثالثها: ويجعلون لما لا يعلمون السبب في صيرورتها معبودة. ورابعها: المراد استحقار الأصنام حتى كأنها لقلتها لا تعلم.

المسألة الثانية: في تفسير ذلك النصيب احتمالات: الأول: المراد منه أنهم جعلوا لله نصيبًا من الحرث والأنعام يتقربون إلى الله تعالى به، ونصيبًا إلى الأصنام يتقربون به إليها، وقد شرحنا ذلك في آخر سورة الأنعام. والثاني: أن المراد من هذا النصيب، البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وهو قول الحسن. والثالث: ربما اعتقدوا في بعض الأشياء أنه إنما حصل بإعانة بعض تلك الأصنام، كما أن المنجمين يوزعون موجودات هذا العالم على الكواكب السبعة، فيقولون لزحل كذا من المعادن والنبات والحيوانات، وللمشتري أشياء أخرى فكذا هاهنا.

واعلم أنه تعالى لما حكى عن المشركين هذا المذهب قال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ وهذا في هؤلاء الأقوم خاصة بمنزلة قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الحجر: ٩٢، ٩٣] وعلى التقديرين فأقسم الله تعالى بنفسه أنه يسألهم، وهذا تهديد منه شديد، لأن المراد أنه يسألهم سؤال توبيخ وتهديد، وفي وقت هذا السؤال احتمالان: الأول: أنه يقع ذلك السؤال عند القرب

السؤال الأول: لم قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ مع أن كثيرًا من الحيوانات غير مخلوقة من الماء؟ أما الملائكة فهم أعظم الحيوانات عددًا وهم مخلوقون من النور، وأما الجن فهم مخلوقون من النار، وخلق الله آدم من التراب لقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وخلق عيسى من الريح لقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وأيضًا نرى أن كثيرًا من الحيوانات متولد لا عن النطفة. والجواب من وجوه: أحدها: وهو الأحسن ما قاله القفال: وهو أن قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق، والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء فهي مخلوقة لله تعالى. وثانيها: أن أصل جميع المخلوقات الماء على ما يروى «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّه تَعَالَى جَوْهَرَةً فَنَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْهَيْبَةِ فَصَارَتْ مَاءً ثُمَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ خَلَقَ النَّارَ وَالْهَوَاءَ وَالنُّورَ**»، ولما كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الأصل الأول هو الماء لا جرم ذكره على هذا الوجه. وثالثها: أن المراد من الدابة التي تدب على وجه الأرض ومسكنهم هناك فيخرج عنه الملائكة والجن، ولما كان الغالب جدًا من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء، إما لأنها متولدة من النطفة، وإما لأنها لا تعيش إلا بالماء لا جرم أطلق لفظ الكل تنزيلاً للغالب منزلة الكل.

السؤال الثاني: لم نكَّر الماء في قوله: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ وجاء معرفًا في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؟ والجواب: إنما جاء هاهنا منكرًا؛ لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك الدابة، وإنما جاء معرفًا في قوله: : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] لأن المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس، وهاهنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم إلى أنواع كثيرة.

السؤال الثالث: قوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ ضمير العقلاء وكذلك قوله: ﴿مَّن﴾ فلم استعمله في غير العقلاء؟ والجواب: أنه تعالى ذكر ما لا يعقل مع من يعقل وهم الملائكة والإنس والجن فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل؛ لأن جعل الشريف أصلاً والخسيس تبعًا أولى من العكس، ويقال في الكلام: من المقبلان؟ لرجل وبعير.

السؤال الرابع: لم سمى الزحف على البطن مشيًا؟ ويبين صحة هذا السؤال أن الصبي قد يوصف بأنه يحبو ولا يقال: إنه يمشي وإن زحف على حد ما تزحف الحية. والجواب: هذا على سبيل الاستعارة كما قالوا في الأمر المستمر: قد مشى هذا الأمر، ويقال: فلان لا يتمشى له أمر أو على طريق المشاكلة (لِذَلِكَ) الزاحف مع الماشين.

السؤال الخامس: أنه لم يستوف القسمة لأنا نجد ما يمشي على أكثر من أربع مثال العناكب والعقارب والرتيلات بل مثل الحيوان الذي له أربعة وأربعون رجلاً الذي يسمى دخال الأذن. والجواب: القسم الذي ذكرتم كالنادر فكان ملحقًا بالعدم ولأن الفلاسفة يقرون بأن ما له قوائم كثيرة فاعتماده إذا مشى على أربع جهاته لا غير فكأنه يمشي على أربع، ولأن قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ

﴿ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ كالتنبيه على سائر الأقسام.

السؤال السادس: لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب؟ والجواب: قد قدم ما هو (أَعْجَبُ) وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع، واعلم أن قوله: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشي فكذا هي مختلفة بحسب أمور أخر، فلنذكر هاهنا بعض التقسيمات:

التقسيم الأول: الحيوانات قد تشترك في أعضاء وقد تتباين بأعضاء، أما الشركة فمثل اشتراك الإنسان والفرس في أن لهما لحمًا وعصبًا وعظمًا، وأما التباين فإما أن يكون في نفس العضو أو في صفته، أما التباين في نفس العضو فعلى وجهين: أحدهما: أن لا يكون العضو حاصلاً للآخر، وإن كانت أجزاؤه حاصلة للثاني كالفرس والإنسان، فإن الفرس له ذنب والإنسان ليس له ذنب ولكن أجزاء الذنب ليست إلا العظم والعصب واللحم والجلد والشعر، وكل ذلك حاصل للإنسان. والثاني: أن لا يكون ذلك العضو حاصلاً للثاني لا بذاته ولا بأجزائه مثل أن للسلحفاة صدفًا يحيط به وليس للإنسان ذلك وكذا للسمك فلوس وللقنفذ شوك وليس شيء منها للإنسان. وأما التباين في صفة العضو، فإما أن يكون من باب الكمية أو الكيفية أو الوضع أو الفعل أو الانفعال، أما الذي في الكم، فإما أن يتعلق بالمقدار مثل أن عين البوم كبيرة وعين العقاب صغيرة، أو بالعدد مثل أن أرجل ضرب من العناكب ستة وأرجل ضرب آخر ثمانية أو عشرة، والذي في الكيف فكاختلافها في الألوان والأشكال والصلابة واللين، والذي في الوضع فمثل اختلاف وضع ثدي الفيل فإنه يكون قريبًا من الصدر وثدي الفرس فإنه عند السرة. وأما الذي في الفعل فمثل كون أذن الفيل صالحًا للذب مع كونه آلة للسمع وليس كذلك في الإنسان وكون أنفه آلة للقبض دون أنف غيره. وأما الذي في الانفعال فمثل كون عين الخفاش سريعة التحير في الضوء وعين الخطاف بخلاف ذلك.

التقسيم الثاني: الحيوان إما أن يكون مائيًا بمعنى أن مسكنه الأصلي هو الماء أو أرضيًّا أو يكون مائيًا ثم يصير أرضيًّا، أما الحيوانات المائية فتتغير أحوالها من وجوه: الأول: أنه إما أن يكون مكانه وغذاؤه ونفسه مائيًا فله بدل التنفس في الهواء التنشق المائي فهو يقبل الماء إلى باطنه ثم يرده ولا يعيش إذا فارقه، والسمك كله كذلك، ومنه ما مكانه وغذاؤه مائي ولكنه يتنفس من الهواء مثل السلحفاة المائية، ومنه ما مكانه وغذاؤه مائي وليس يتنفس ولا يستنشق مثل أصناف من الصدف لا تظهر للهواء ولا تستدخل الماء إلى باطنها. الوجه الثاني: الحيوانات المائية بعضها مأواها مياه الأنهار الجارية وبعضها مياه البطائح مثل الضفادع وبعضها مأواها مياه البحر. الوجه الثالث: منها لجية ومنها شطية ومنها طينية ومنها صخرية. الوجه الرابع: الحيوان المنتقل في الماء منه ما يعتمد في غوصه على رأسه وفي السباحة على أجنحته كالسمك ومنه ما يعتمد في السباحة على رجليه كالضفدع ومنه ما يمشي في قعر الماء كالسرطان ومنه ما يزحف مثل ضرب

يفعلون ذلك تارة للغيرة والحمية، وتارة خوفًا من الفقر والفاقة ولزوم النفقة، ثم إنه قال: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وذلك لأنهم بلغوا في الاستنكاف من البنت إلى أعظم الغايات، فأولها: أنه يسود وجهه. وثانيها: أنه يختفي عن القوم من شدة نفرته عن البنت، وثالثها: أن الولد محبوب بحسب الطبيعة، ثم إنه بسبب شدة نفرته عنها يقدم على قتلها، وذلك يدل على أن النفرة عن البنت والاستنكاف عنها قد بلغ مبلغًا لا يزداد عليه. إذا ثبت هذا فالشيء الذي بلغ الاستنكاف منه إلى هذا الحد العظيم كيف يليق بالعاقل أن ينسبه لإله العالم المقدس العالي عن مشابهة جميع المخلوقات؟ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

المسألة الثانية: قال القاضي: هذه الآية تدل على بطلان الخبر، لأنهم يضيفون إلى الله تعالى من الظلم والفواحش ما إذا أضيف إلى أحدهم أجهد نفسه في البراءة منه والتباعد عنه، فحكمهم في ذلك مشابه لحكم هؤلاء المشركين، ثم قال: بل أعظم، لأن إضافة البنات إليه إضافة قبح واحد، وذلك أسهل من إضافة كل القبائح والفواحش إلى الله تعالى. فيقال للقاضي، إنه لما ثبت بالدليل استحالة الصاحبة والولد على الله تعالى أردفه الله بذكر هذا الوجه الإقناعي، وإلا فليس كل ما قبح منا في العرف قبح من الله تعالى ألا ترى أن رجلًا زين إماءه وعبيده وبالغ في تحسين صورهن ثم بالغ في تقوية الشهوة فيهم وفيهن، ثم جمع بين الكل وأزال الحائل والمانع فإن هذا بالإتفاق حسن من الله تعالى وقبيح من كل الخلق، فعلمنا أن التعويل على هذه الوجوه المبينة على العرف، إنما يحسن إذا كانت مسبوقة بالدلائل القطعية اليقينية، وقد ثبت بالبراهين القطعية امتناع الولد على الله، فلا جرم حسنت تقويتها بهذه الوجوه الإقناعية. أما أفعال العباد فقد ثبت بالدلائل اليقينية القاطعة أن خالقها هو الله تعالى، فكيف يمكن إلحاق أحد البابين بالآخر لولا شدة التعصب؟ والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والمثل السوء عبارة عن الصفة السوء وهي احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم الإناث خوف الفقر والعار: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الصفة العالية المقدسة، وهي كونه تعالى منزهًا عن الولد.

فإن قيل: كيف جاء: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ مع قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

قلنا: المثل الذي يذكره الله حق وصدق والذي يذكره غيره فهو الباطل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۞ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم

مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم، بين أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة، إظهارًا للفضل والرحمة والكرم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

من وجهين:

الأول: أنه قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ فأضاف الظلم إلى كل الناس، ولا شك أن الظلم من المعاصي، فهذا يقتضي كون كل إنسان آتيًا بالذنب والمعصية، والأنبياء عليهم السلام من الناس، فوجب كونهم آتين بالذنب والمعصية.

والثاني: أنه تعالى قال: ما ترك على ظهرها من دابة وهذا يقتضي أن كل من كان على ظهر الأرض فهو آت بالظلم والذنب، حتى يلزم من إفناء كل ما كان ظالمًا إفناء كل الناس. أما إذا قلنا: الأنبياء عليهم السلام لم يصدر عنهم ظلم فلا يجب إفناؤهم، وحينئذ لا يلزم من إفناء كل الظالمين إفناء كل الناس، وأن لا يبقى على ظهر الأرض دابة، ولما لزم علمنا أن كل البشر ظالمون سواء كانوا من الأنبياء أو لم يكونوا كذلك.

والجواب: ثبت بالدليل أن كل الناس ليسوا ظالمين لأنه تعالى قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢] أي فمن العباد من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق، ولو كان المقتصد والسابق ظالمًا لفسد ذلك التقسيم، فعلمنا أن المقتصدين والسابقين ليسوا ظالمين، فثبت بهذا الدليل أنه لا يجوز أن يقال كل الخلق ظالمون.

وإذا ثبت هذا فنقول: الناس المذكورون في قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ إما كل العصاة المستحقين للعقاب أو الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات. وعلى هذا التقدير فيسقط الاستدلال. والله أعلم.

المسألة الثانية: من الناس من احتج بهذه الآية على أن الأصل في المضار الحرمة، فقال: لو كان الضرر مشروعًا لكان إما أن يكون مشروعًا على وجه يكون جزاء على جرم صادر منهم أو لا على هذا الوجه، والقسمان باطلان، فوجب أن لا يكون مشروعًا أصلاً.

أما بيان فساد القسم الأول، فلقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾

سبخة لا ينالها الماء. فقال لعلي: اقبض أرضك فإنما اشتريتها إن رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء فقال علي: بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك، ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ فقال المغيرة: أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عليَّ فنزلت هذه الآية، وقال الحسن: نزلت هذه الآية(١) في المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل على أن الإيمان لا يكون بالقول إذ لو كان به لما صح أن ينفي كونهم مؤمنين. وقد فعلوا ما هو إيمان في الحقيقة، فإن قيل: إنه تعالى حكى عن كلهم أنهم يقولون: آمنا، ثم حكى عن فريق منهم التولي فكيف يصح أن يقول في جميعهم: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مع أن الذي تولى منهم هو البعض؟ قلنا: إن قوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ راجع إلى الذين تولوا لا إلى الجملة الأولى، وأيضًا فلو رجع إلى الأول يصح ويكون معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي يرجع هذا الفريق إلى الباقين منهم فيظهر بعضهم لبعض الرجوع عما أظهروه، ثم بيَّن سبحانه أنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون، وهذا ترك للرضا بحكم الرسول، ونبه بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم أوشكوا فأما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض بل سارعوا إلى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا، وفي ذلك دلالة على أنه ليس بهم اتباع الحق، وإنما يريدون النفع المعجل، وذلك أيضًا نفاق.

أما قوله تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ **ففيه سؤالات:**

السؤال الأول: كلمة (أَمْ) للاستفهام وهو غير جائز على الله تعالى. والجواب: اللفظ استفهام ومعناه الخبر كما قال جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا (وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ)

السؤال الثاني: أنهم لو خافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا في الدين، وإذ ارتابوا ففي قلوبهم مرض، فالكل واحد، فأي فائدة في التعديد؟ الجواب: قوله: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إشارة إلى النفاق وقوله: ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ إشارة إلى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الإسلام في القلب، وقوله: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى أنهم بلغوا في حب الدنيا إلى حيث يتركون الدين بسببه.

السؤال الثالث: هب أن هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة (أم)؟ الجواب: الأقرب أنه تعالى ذمهم على كل واحد من هذه الأوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق، وكان فيها شك وارتياب، وكانوا يخافون الحيف من الرسول عليه الصلاة والسلام وكل

(١) ذكره أهل التفسير بغير إسناد.

واحد من ذلك كفر ونفاق، ثم بيّن تعالى بقوله: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بطلان ما هم عليه؛ لأن الظلم يتناول كل معصية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إذ المرء لا يخلو من أن يكون ظالمًا لنفسه أو ظالمًا لغيره، ويمكن أن يقال أيضًا: لما ذكر تعالى في الأقسام كونهم خائفين من الحيف، أبطل ذلك بقوله: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يخافون أن يحيف الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم لمعرفتهم بأمانته وصيانته وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم وهم له جحود، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ ثم يأبون المحاكمة إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى قول المنافقين وما قالوه وما فعلوه أتبعه بذكر ما كان يجب أن يفعلوه وما يجب أن يسلكه المؤمنون فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ الحسن (قولُ المؤمنين) بالرفع، والنصب أقوى؛ لأن أولى الاسمين بكونه اسمًا لكان أوغلهما في التعريف و ﴿أَن يَقُولُوا﴾ أوغل؛ لأنه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف ﴿قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه كذلك يجب أن يكون قولهم وطريقتهم إذا دعوا إلى حكم كتاب الله ورسوله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، فيكون إتيانهم إليه وانقيادهم له سمعًا وطاعة، ومعنى ﴿سَمِعْنَا﴾ أجبنا على تأويل قول المسلمين سمع الله لمن حمده أي: قبل وأجاب، ثم قال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: فيما ساءه وسره ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ فيما صدر عنه من الذنوب في الماضي ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقي من عمره ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وهذه الآية على إيجازها حاوية لكل ما ينبغي للمؤمنين أن يفعلوه.

أما قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ فقال مقاتل: من حلف بالله فقد أجهد في اليمين، ثم قال: لما بيّن الله تعالى كراهية المنافقين لحكم رسول الله، فقالوا: والله لئن أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا، ثم إنه تعالى أمر رسوله

ووجه القول الثاني أن المشركين يؤاخذون بالعقوبة إذا انقضت أعمارهم وخرجوا من الدنيا.

النوع الثالث: من الأقاويل الفاسدة التي كان يذكرها الكفار وحكاها الله تعالى عنهم، قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾.

واعلم أن المراد من قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي البنات التي يكرهونها لأنفسهم، ومعنى قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ يصفون الله بذلك ويحكمون به له كقوله جعلت زيدًا على الناس أي حكمت بهذا الحكم وذكرنا معنى الجعل عند قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قال الفراء والزجاج: موضع (أن) نصب لأن قوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدل من الكذب، وتقدير الكلام وتصف ألسنتهم أن لهم الحسنى. وفي تفسير ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

هاهنا قولان:

الأول: المراد منه البنون، يعني أنهم قالوا لله البنات ولنا البنون.

والثاني: أنهم مع قولهم بإثبات البنات لله تعالى، يصفون أنفسهم بأنهم فازوا برضوان الله تعالى بسبب هذا القول، وأنهم على الدين الحق والمذهب الحسن.

الثالث: أنهم حكموا لأنفسهم بالجنة والثواب من الله تعالى.

فإن قيل: كيف يحكمون بذلك وهم كانوا منكرين للقيامة؟

قلنا: كلهم ما كانوا منكرين للقيامة، فقد قيل: إنه كان في العرب جمع يقرون بالبعث والقيامة، ولذلك فإنهم كانوا يربطون البعير النفيس على قبر الميت ويتركونه إلى أن يموت ويقولون: إن ذلك الميت إذا حشر فإنه يحشر معه مركوبه، وأيضًا فبتقدير أنهم كانوا منكرين للقيامة فلعلهم قالوا: إن كان محمد صادقًا في قوله بالبعث والنشور فإنه يحصل لنا الجنة والثواب بسبب هذا الدين الحق الذي نحن عليه، ومن الناس من قال: الأولى أن يحمل ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ على هذا الوجه بدليل أنه تعالى قال بعده: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ فرد عليهم قولهم وأثبت لهم النار، فدل هذا على أنهم حكموا لأنفسهم بالجنة. قال الزجاج: لا رد لقولهم، والمعنى ليس الأمر كما وصفوا جرم فعلهم أي كسب ذلك القول لهم النار، فعلى هذا لفظ (أن) في محل النصب بوقوع الكسب عليه. وقال قطرب (أن) في موضع رفع، والمعنى: وجب أن لهم النار وكيف كان الإعراب فالمعنى هو أنه يحق لهم النار ويجب ويثبت. وقوله: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ قرأ نافع وقتيبة عن الكسائي: (مُفْرِطُون) بكسر الراء، والباقون: (مُفْرَطُونَ) بفتح الراء. أما قراءة نافع فقال الفراء: المعنى أنهم كانوا مفرطين على أنفسهم في الذنوب، وقيل: أفرطوا في الافتراء على الله تعالى، وقال أبو علي الفارسي: كأنه من أفرط، أي صار ذا فرط مثل أجرب، أي صار ذا جرب والمعنى: أنهم ذوو فرط إلى النار كأنهم قد أرسلوا من يهيئ لهم مواضع فيها. وأما قراءة قوله: (مُفْرَطُونَ) بفتح الراء.

ففيه قولان:

القول الأول: المعنى، أنهم متروكون في النار. قال الكسائي: يقال ما أفرطت من القوم أحدًا، أي ما تركت. وقال الفراء: تقول العرب أفرطت منهم ناسًا، أي خلفتهم وأنسيتهم.

والقول الثاني: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ أي معجلون. قال الواحدي رحمه الله: وهو الاختيار ووجهه ما قال أبو زيد وغيره: فرط الرجل أصحابه يفرطهم فرطًا وفروطًا إذا تقدمهم إلى الماء ليصلح الدلاء والأرسان، وأفرط القوم الفارط، وفرطوه إذا قدموه فمعنى قوله: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ على هذا التقدير كأنهم قدموا إلى النار فهم فيها فرط للذين يدخلون بعدهم، ثم بين تعالى أن مثل هذا الصنع الذي يصدر من مشركي قريش قد صدر من سائر الأمم السابقين في حق الأنبياء المتقدمين عليهم السلام، فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وهذا يجري مجرى التسلية للرسول ﷺ فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم. قالت المعتزلة: الآية تدل على فساد قول المجبرة من وجوه:

الأول: أنه إذا كان خالق أعمالهم هو الله تعالى، فلا فائدة في التزيين.

والثاني: أن ذلك التزيين لما كان بخلق الله تعالى لم يجز ذم الشيطان بسببه.

والثالث: أن التزيين هو الذى يدعو الإنسان إلى الفعل، وإذا كان حصول الفعل فيه بخلق الله تعالى كان ضروريًا فلم يكن التزيين داعيًا.

والرابع: أن على قولهم، الخالق لذلك العمل، أجدر أن يكون وليًا لهم من الداعي إليه.

والخامس: أنه تعالى أضاف التزيين إلى الشيطان ولو كان ذلك المزين هو الله تعالى لكانت إضافته إلى الشيطان كذبًا.

وجوابه: إن كان مزين القبائح في أعين الكفار هو الشيطان، فمزين تلك الوساوس في عين الشيطان إن كان شيطانًا آخر لزم التسلسل. وإن كان هو الله تعالى فهو المطلوب.

ثم قال تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ **وفيه احتمالان:**

الأول: أن المراد منه كفار مكة وبقوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي الشيطان ويتولى إغواءهم وصرفهم عنك، كما فعل بكفار الأمم قبلك فيكون على هذا التقدير رجع عن أخبار الأمم الماضية إلى الإخبار عن كفار مكة.

الثاني: أنه أراد باليوم يوم القيامة، يقول فهو ولي أولئك الذين كفروا يزين لهم أعمالهم يوم القيامة، وأطلق اسم اليوم على يوم القيامة لشهرة ذلك اليوم، والمقصود من قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ هو أنه لا ولي لهم ذلك اليوم ولا ناصر، وذلك لأنهم إذا عاينوا العذاب وقد نزل بالشيطان كنزوله بهم، ورأوا أنه لا مخلص له منه، كما لا مخلص لهم منه، جاز أن يوبخوا بأن يقال لهم: هذا وليكم اليوم على وجه السخرية، ثم ذكر تعالى أن مع هذا الوعيد الشديد أقام الحجة وأزاح العلة فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

بهذا دلالة الآية على صحة خلافة هؤلاء، فإن قيل: الآية متروكة الظاهر؛ لأنها تقتضي حصول الخلافة لكل من آمن وعمل صالحًا ولم يكن الأمر كذلك. نزلنا عنه، لكن لم لا يجوز أن يكون المراد من قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ هو أنه تعالى يسكنهم الأرض ويمكنهم من التصرف لا أن المراد منه خلافة الله تعالى ومما يدل عليه قوله: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ واستخلاف من كان قبلهم لم يكن بطريق الإمامة فوجب أن يكون الأمر في حقهم أيضًا كذلك. نزلنا عنه، لكن هاهنا ما يدل على أنه لا يجوز حمله على خلافة رسول الله؛ لأن من مذهبكم أنه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدًا وروي عن علي عليه السلام أنه قال: أترككم كما ترككم رسول الله. نزلنا عنه، لكن لم لا يجوز أن يكون المراد منه عليًّا عليه السلام والواحد قد يعبر عنه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقال في حق علي عليه السلام: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] نزلنا عنه، ولكن نحمله على الأئمة الإثني عشر. والجواب عن الأول: أن كلمة من للتبعيض فقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ يدل على أن المراد بهذا الخطاب بعضهم. وعن الثاني: أن الاستخلاف بالمعنى الذي ذكرتموه حاصل لجميع الخلق فالمذكور هاهنا في معرض البشارة لا بد وأن يكون مغايرًا له.

وأما قوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فالذين كانوا قبلهم كانوا خلفاء تارة بسبب النبوة وتارة بسبب الإمامة والخلافة حاصلة في الصورتين. وعن الثالث: أنه وإن كان من مذهبنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدًا بالتعيين ولكنه قد استخلف بذكر الوصف والأمر بالاختيار فلا يمتنع في هؤلاء الأئمة الأربعة أنه تعالى يستخلفهم وأن الرسول استخلفهم، وعلى هذا الوجه قالوا في أبي بكر: يا خليفة رسول الله، فالذي قيل: إنه عليه السلام لم يستخلف أريد به على وجه التعيين وإذا قيل: استخلف فالمراد على طريقة الوصف والأمر. وعن الرابع: أن حمل لفظ الجمع على الواحد مجاز وهو خلاف الأصل. وعن الخامس: أنه باطل لوجهين: أحدهما: قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ يدل على أن هذا الخطاب كان مع الحاضرين وهؤلاء الأئمة ما كانوا حاضرين. الثاني: أنه تعالى وعدهم القوة والشوكة والنفاذ في العالم ولم يوجد ذلك فيه فثبت بهذا صحة إمامة الأئمة الأربعة وبطل قول الرافضة الطاعنين على أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى بطلان قول الخوراج الطاعنين على عثمان وعلي، ولنرجع إلى التفسير.

أما قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ فلقائل أن يقول: أين القسم المتلقى باللام والنون في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، قلنا: هو محذوف تقديره: وعدهم الله (وأقسم) ليستخلفنهم أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم فتلقي بما يتلقى به القسم كأنه قال: اقسم الله ليستخلفنهم.

أما قوله: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ﴾ هارون ويوشع وداود وسليمان وتقدير النظم ليستخلفنهم استخلافًا كاستخلاف من قبلهم من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، وقرئ كما استخلف بضم التاء وكسر اللام، وقرئ بالفتح.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فالمعنى أنه يثبت لهم دينهم الذي ارتضى لهم وهو الإسلام، وقرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب (وليُبْدِلنهم) ومن الإبدال بالتخفيف والباقون بالتشديد، وقد ذكرنا الفرق بينهما في قوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

أما قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ ففيه دلالة على أن الذين عناهم لا يتغيرون عن عبادة الله تعالى إلى الشرك. وقال الزجاج: يجوز أن يكون في موضع الحال على معنى: وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات في حال عبادتهم وإخلاصهم لله ليفعلن بهم كيت وكيت، ويجوز أن يكون استئنافًا على طريق الثناء عليهم.

أما قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: جحد حق هذه النعم ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي العاصون.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

أما تفسير إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولفظة لعل ولفظة الرحمة، فالكل قد تقدم مرارًا.

وأما قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فالمعنى لا تحسبن يا محمد الذين كفروا سابقين فائقين حتى يعجزونني عن إدراكهم. وقرىء (لاَ يَحْسَبَنَّ) بالياء المعجمة من تحتها، وفيه أوجه: أحدها: أن يكون معجزين في الأرض هما المفعولان، والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحدًا يعجز الله في الأرض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك. وثانيها: أن يكون فيه ضمير الرسول ﷺ لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤] والمعنى: لا يحسبن الذين كفروا معجزين. وثالثها: أن يكون الأصل ولا يحسبنهم الذين كفروا معجزين، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول.

وأما قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فقال صاحب (الكشاف): النظم لا يحتمل أن يكون متصلاً بقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لأن ذلك نفي وهذا إيجاب، فهو إذن معطوف بالواو على مضمر قبله تقديره لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض بل هم مقهورون ومأواهم النار.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ

واللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو، فذاك هو قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ لا يشوبه الدم ولا الفرث.

ولقائل أن يقول: الدم واللبن لا يتولدان ألبتة في الكرش، والدليل عليه الحس فإن هذه الحيوانات تذبح ذبحًا متواليًا، وما رأى أحد في كرشها لا دمًا ولا لبنًا، ولو كان تولد الدم واللبن في الكرش لوجب أن يشاهد ذلك في بعض الأحوال، والشيء الذي دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير إليه، بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف إلى معدته إن كان إنسانًا، وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها، فإذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فما كان منه صافيًا انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفًا نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها ويصير دمًا، وذلك هو الهضم الثاني، ويكون ذلك الدم مخلوطًا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية، أما الصفراء فتذهب إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية، ومنها إلى المثانة، وأما ذلك الدم فإنه يدخل في الأوردة، وهي العروق النابتة من الكبد، وهناك يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم في تلك العروق إلى الضرع، والضرع لحم غددي رخو أبيض فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو الأبيض من صورة الدم إلى صورة اللبن فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن.

فإن قيل: فهذه المعاني حاصلة في الحيوان الذكر فلم لم يحصل منه اللبن؟

قلنا: الحكمة الإلهية اقتضت تدبير كل شيء على الوجه اللائق به الموافق لمصلحته، فمزاج الذكر من كل حيوان يجب أن يكون حارًا يابسًا، ومزاج الأنثى يجب أن يكون باردًا رطبًا، والحكمة فيه أن الولد إنما يتكون في داخل بدن الأنثى، فوجب أن تكون الأنثى مختصة بمزيد الرطوبات لوجهين: الأول: أن الولد إنما يتولد من الرطوبات، فوجب أن يحصل في بدن الأنثى رطوبات كثيرة لتصير مادة لتولد الولد. والثاني: أن الولد إذا كبر وجب أن يكون بدن الأم قابلاً للتمدد حتى يتسع لذلك الولد، فإذا كانت الرطوبات غالبة على بدن الأم كان بدنها قابلاً للتمدد، فيتسع للولد، فثبت بما ذكرنا أنه تعالى خص بدن الأنثى من كل حيوان بمزيد الرطوبات لهذه الحكمة، ثم إن الرطوبات التي كانت تصير مادة لازدياد بدن الجنين حين كان في رحم الأم، فعند انفصال الجنين تنصب إلى الثدي والضرع ليصير مادة لغذاء ذلك الطفل الصغير.

إذا عرفت هذا فاعلم أن السبب الذي لأجله يتولد اللبن من الدم في حق الأنثى غير حاصل في حق الذكر فظهر الفرق.

إذا عرفت هذا التصوير فنقول: المفسرون قالوا: المراد من قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ هو أن هذه الثلاثة تتولد في موضع واحد، فالفرث يكون في أسفل الكرش، والدم يكون في أعلاه، واللبن يكون في الوسط، وقد دللنا على أن هذا القول على خلاف الحس والتجربة، ولأن الدم لو كان

يتولد في أعلى المعدة والكرش كان يجب إذا قاء أن يقيء الدم وذلك باطل قطعًا. وأما نحن فنقول: المراد من الآية هو أن اللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم، والدم إنما يتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث، وهو الأشياء المأكولة الحاصلة في الكرش، وهذا اللبن متولد من الأجزاء التي كانت حاصلة فيما بين الفرث أولاً، ثم كانت حاصلة فيما بين الدم ثانيًا، فصفاه الله تعالى عن تلك الأجزاء الكثيفة الغليظة، وخلق فيها الصفات التي باعتبارها صارت لبنًا موافقًا لبدن الطفل، فهذا ما حصلناه في هذا المقام، والله أعلم.

المسألة الرابعة: اعلم أن حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقًا لتغذية الصبي مشتمل على حكم عجيبة وأسرار بديعة، يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم والمدبر الرحيم، وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى خلق في أسفل المعدة منفذًا يخرج منه ثقل الغذاء، فإذا تناول الإنسان غذاء أو شربة رقيقة انطبق ذلك المنفذ انطباقًا كليًا لا يخرج منه شيء من ذلك المأكول والمشروب إلى أن يكمل انهضامه في المعدة وينجذب ما صفا منه إلى الكبد ويبقى الثقل هناك، فحينئذ ينفتح ذلك المنفذ وينزل منه ذلك الثقل، وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها إلا بتدبير الفاعل الحكيم، لأنه متى كانت الحاجة إلى بقاء للغذاء في المعدة حاصلة انطبق ذلك المنفذ، وإذا حصلت الحاجة إلى خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح، فحصول الانطباق تارة والانفتاح أخرى، بحسب الحاجة وتقدير المنفعة، مما لا يتأتى إلا بتقدير الفاعل الحكيم.

الثاني: أنه تعالى أودع في الكبد قوة تجذب الأجزاء اللطيفة الحاصلة في ذلك المأكول أو المشروب، ولا تجذب الأجزاء الكثيفة، وخلق في الأمعاء قوة تجذب تلك الأجزاء الكثيفة التي هي الثقل، ولا تجذب الأجزاء اللطيفة ألبتة. ولو كان الأمر بالعكس لاختلفت مصلحة البدن ولفسد نظام هذا التركيب.

الثالث: أنه تعالى أودع في الكبد قوة هاضمة طابخة، حتى أن تلك الأجزاء اللطيفة تنطبخ في الكبد وتنقلب دمًا، ثم إنه تعالى أودع في المرارة قوة جاذبة للصفراء، وفي الطحال قوة جاذبة للسوداء، وفي الكلية قوة جاذبة لزيادة المائية، حتى يبقى الدم الصافي الموافق لتغذية البدن. وتخصيص كل واحد من هذه الأعضاء بتلك القوة والخاصية لا يمكن إلا بتقدير الحكيم العليم.

الرابع: أن في الوقت الذي يكون الجنين في رحم الأم ينصب من ذلك الدم نصيب وافر إليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء ذلك الولد وازدياده، فإذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب إلى جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له، فإذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا إلى الرحم ولا إلى الثدي، بل ينصب على مجموع بدن المتغذي، فانصباب ذلك الدم في كل وقت إلى عضو آخر انصبابًا موافقًا للمصلحة والحكمة لا يتأتى إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم.

وبين من قصر عنها بعد أن لا يكون قد بلغ الحلم، ورُوي عن النبي ﷺ من جهات كثيرة: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ» ولم يفرق بين من بلغ خمس عشرة سنة وبين من لم يبلغها، فإن قيل: فهذا الكلام يبطل التقدير أيضًا بثماني عشرة سنة. أجاب بأنا قد علمنا بأن العادة في البلوغ خمس عشرة سنة وكل ما كان مبنيًا على طريق العادات فقد تجوز الزيادة فيه والنقصان منه، وقد وجدنا من بلغ في اثنتي عشرة سنة، وقد بيّنا أن الزيادة على المعتاد جائزة كالنقصان منه فجعل أبو حنيفة رحمه الله الزيادة كالنقصان، وهي ثلاث سنين، وقد حكى عن أبي حنيفة رحمه الله: تسع عشرة سنة للغلام، وهو محمول على استكمال ثماني عشرة سنة والدخول في التاسعة عشرة. حجة الشافعي رحمه الله ما روى ابن عمر أنه عرض على النبي ﷺ يوم أحد وله أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فأجازه[1] اعترض أبو بكر الرازي عليه فقال: هذا الخبر مضطرب؛ لأن أُحدًا كان في سنة ثلاث والخندق في سنة خمس فكيف يكون بينهما سنة؟ ثم مع ذلك فإن الإجازة في القتال لا تعلق لها بالبلوغ؛ لأنه قد يرد البالغ لضعفه ويؤذن غير البالغ لقوته ولطاقته حمل السلاح ويدل على ذلك أنه عليه الصلاة والسلام ما سأله عن الاحتلام والسن.

البحث الثاني: اختلفوا في الإنبات هل يكون بلوغًا، فأبو حنيفة وأصحابه ما جعلوه بلوغًا والشافعي رحمه الله جعله بلوغًا، قال أبو بكر الرازي رحمه الله: ظاهر قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ ينفي أن يكون الإنبات بلوغًا إذا لم يحتلم كما نفى كون خمس عشرة سنة بلوغًا وكذلك قوله عليه السلام: «وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ»[2] حجة الشافعي رحمه الله تعالى ما روى عطية القرظي أن النبي ﷺ أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال: فنظروا إليَّ فلم أكن قد أنبت فاستبقاني[3] قال أبو بكر الرازي: هذا الحديث لا يجوز إثبات الشرع به وبمثله

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي)، باب: (غزوة الخندق) (٧/ ٤٥٣)، حديث رقم (٤٠٩٧)، ومسلم في كتاب (الإمارة)، باب: (بيان سن البلوغ) (٣/ ٩١/ ١٤٩٠) كلاهما من طريق عبيد الله... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (في المجنون يسرق أو يصيب حدًا) (٤/ ١٨٨٣)، حديث رقم (٤٤٠٣)، والبيهقي في (السنن الكبرى) (٦/ ٥٧)، (٧/ ٣٥٩) من طريق موسى بن إسماعيل... به، وأورده الألباني في (الإرواء) (٢/ ٦)، حديث رقم (٢٩٧).

(٣) **صحيح**: أخرجه أبو داود في كتاب (الحدود)، باب: (في الغلام يصيب الحد) (٤/ ١٨٨٣)، حديث رقم (٤٤٠٤)، والترمذي في كتاب (السير)، باب: (في النزول على الحكم) (٤/ ١٢٣)، حديث رقم (١٥٨٤)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب (الطلاق)، باب: (متى يقع طلاق الصبي) (٦/ ٤٦٧)، حديث رقم (٣٤٣٠)، وابن ماجه في كتاب (الحدود)، باب: (من لا يجب عليه الحد) (٢/ ٨٤٩)، حديث رقم (٢٥٤١)، جميعًا من طريق سفيان... به، والنسائي في كتاب (السارق)، باب: (حد البلوغ وذكر السن) (٨/ ٤٦٧)، حديث رقم (٤٩٩٦)، وفي (سننه الكبرى) (٤/ ٣٤٩)، حديث رقم (٧٤٧٤) من طريق شعبة... به، والدارمي في (سننه) من كتاب (الحدود)، باب: (حد الصبي متى يقتل) (٢/ ٢٩٤)، حديث رقم (٢٤٦٤)، والحميدي في (مسنده) (٢/ ٣٩٤)، حديث رقم (٨٨٨) من طريق سفيان... به، كلاهما (سفيان، شعبة) عن عبد الله بن عمير... به.

لوجوه: أحدها: أن عطية هذا مجهول لا يعرف إلا من هذا الخبر لا سيما مع اعتراضه على الآية، والخبر في نفي البلوغ إلا بالاحتلام. وثانيها: أنه مختلف الألفاظ ففي بعضها أنه أمر بقتل من جرت عليه الموسى، وفي بعضها من اخضر عذاره ومعلوم أنه لا يبلغ هذه الحال إلا وقد تقدم بلوغه ولا يكون قد جرت عليه الموسى إلا وهو رجل كبير، فجعل الإنبات وجرى الموسى عليه كناية عن بلوغ القدر الذي ذكرنا من السن وهي ثماني عشرة سنة فأكثر. وثالثها: أن الإنبات يدل على القوة البدنية فالأمر بالقتل لذاك لا للبلوغ، قال الشافعي رحمه الله: هذه الاحتمالات مردودة بما روي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه سئل عن غلام فقال: هل اخضر عذاره؟ وهذا يدل على أن ذلك كان كالأمر المتفق عليه فيما بين الصحابة.

البحث الثالث: ويروى عن قوم من السلف أنهم اعتبروا في البلوغ أن يبلغ الإنسان في طوله خمسة أشبار، روي عن علي عليه السلام أنه قال: إذا بلغ الغلام خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود ويقتص له ويقتص منه، وعن ابن سيرين عن أنس قال: أتى أبو بكر بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أنملة فخلى عنه، وهذا المذهب أخذ به الفرزدق في قوله:

مَـا زَالَ مُـذْ عَـقَـدَتْ يَـدَاهُ إِزَارَهُ وَسَمَـا فَـأَدْرَكَ خَـمْـسَـةَ الْأَشْـبَـارِ[1]

وأكثر الفقهاء لا يقولون بهذا المذهب؛ لأن الإنسان قد يكون دون البلوغ ويكون طويلاً، وفوق البلوغ ويكون قصيرًا فلا عبرة به.

المسألة الثالثة: قال أبو بكر الرازي: دلت هذه الآية على أن من لم يبلغ، وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع وينهى عن ارتكاب القبائح فإن الله أمرهم بالاستئذان في هذه الأوقات، وقال عليه السلام: «مُرُوهُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعٍ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ»[2] وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: نعلم الصبي الصلاة إذا عرف يمينه من شماله، وعن زين العابدين أنه كان يأمر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعًا والمغرب والعشاء جميعًا، فقيل له: يصلون الصلاة

---

(١) هذا البيت من البحر الكامل للشاعر ابن عمار، وابن عمار هو: أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهدي. ٤٢٢ - ٤٧٩هـ/ ١٠٣١ - ١٠٨٦م، أندلسي من شلب وقد ولد في قرية من أعمالها تدعى شنبوس وقد لقي حظوته ومهلكه على يدي المعتمد بن عباد قبل ولايته مُلك إشبيلية وأثناءها وكان من الشعراء المجيدين والإقبال على شعره والإيثار له كبير فقد اصطحبا في شلب التي وليها المعتمد فاستوزر ابن عمار وسلم إليه جميع أموره حتى غلب ابن عمار عليه غلبة شديدة، ولذلك فرق المعتضد بينهما ونفى ابن عمار فطوف في أرجاء الأندلس مغتربًا إلى أن توفى المعتضد سنة ٤٦٢هـ فخلفه المعتمد.

فعاد ابن عمار إلى سابق عهده وأرسله للتغلب على مرسية وأعمالها فلما كان له ذلك أراد الاستبداد بأمرها وأعلن الاستقلال بها حتى افتكها بعض الثوار منه فتشرد بعدها حتى وقع في يد المعتمد وهو في قرطبة فسجنه في إشبيلية حتى قتله سنة ٤٧٩هـ.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (متى يؤمر الغلام بالصلاة) (١/ ٢٤٢)، حديث رقم (٤٩٥)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٨٠)، حديث رقم (٦٦٨٩)، وأيضًا في (٢/ ١٨٧)، حديث رقم (٦٧٥٦)، والحاكم في (المستدرك) (١/ ١٩٧)، والبيهقي في (السنن) (٣/ ٨٤) من طريق عمرو بن شعيب... به.

مجرى شرب الخمر. واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الوجوه التي هي دلائل من وجه، وتعديد للنعم العظيمة من وجه آخر، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والمعنى: أن من كان عاقلاً، علم بالضرورة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، فيحتج بحصولها على وجود الإله القادر الحكيم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن إخراج الألبان من النعم، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب دلائل قاهرة، وبينات باهرة على أن لهذا العالم إلهًا قادرًا مختارًا حكيمًا، فكذلك إخراج العسل من النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على إثبات هذا المقصود.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ يقال وحى وأوحى، وهو الإلهام، والمراد من الإلهام أنه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر، وبيانه من وجوه: الأول: أنها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار. والثاني: أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة، أما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فإنه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة، فإهداء ذلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب. والثالث: أن النحل يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية، وذلك الواحد يكون أعظم جثة من الباقي، ويكون نافذ الحكم على تلك البقية، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران، وذلك أيضًا من الأعاجيب. والرابع: أنها إذا نفرت من وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر، فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى، وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردها إلى وكرها، وهذا أيضًا حالة عجيبة، فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة، وكان حصول هذه الأنواع من الكياسة ليس إلا على سبيل الإلهام وهي حالة شبيهة بالوحي، لا جرم قال تعالى في حقها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.

واعلم أن الوحي قد ورد في حق الأنبياء لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] وفي حق الأولياء أيضًا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١] وبمعنى الإلهام في حق البشر قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧] وفي حق سائر الحيوانات

كما في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ ولكل واحد من هذه الأقسام معنى خاص، والله أعلم.

المسألة الثانية: قال الزجاج: يجوز أن يقال سمي هذا الحيوان نحلاً، لأن الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها، وقال غيره النحل يذكر ويؤنث، وهي مؤنثة في لغة الحجاز، ولذلك أنثها الله تعالى، وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء.

ثم قال تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى﴾ هي (أن) المفسرة، لأن الإيحاء فيه معنى القول، وقرىء: (بِيُوتًا) بكسر الباء ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي يبنون ويسقفون، وفيه لغتان قرىء بهما، ضم الراء وكسرها مثل يعكفون ويعكفون.

واعلم أن النحل نوعان:

النوع الأول: ما يسكن في الجبال والغياض ولا يتعهدها أحد من الناس.

والنوع الثاني: التي تسكن بيوت الناس وتكون في تعهدات الناس، فالأول هو المراد بقوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾. والثاني: هو المراد بقوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وهو خلايا النحل.

فإن قيل: ما معنى (مِنْ) في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟

قلنا: أريد به معنى البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وشجر، بل في مساكن توافق مصالحها وتليق بها.

المسألة الثانية: ظاهر قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أمر، وقد اختلفوا فيه، فمن الناس من يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول، ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله تعالى أمر ونهي. وقال آخرون: ليس الأمر كذلك بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الأحوال، والكلام المستقصى في هذه المسألة مذكور في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨].

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لفظة (من) ههنا للتبعيض أو لابتداء الغاية، ورأيت في (كتب الطب) أنه تعالى دبر هذا العالم على وجه، وهو أنه يحدث في الهواء طل لطيف في الليالي ويقع ذلك الطل على أوراق الأشجار، فقد تكون تلك الأجزاء الطلية لطيفة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار، وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة.

أما القسم الثاني: فهو مثل الترنجبين فإنه طل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الطرفاء في بعض البلدان وذلك محسوس.

وأما القسم الأول: فهو الذي ألهم الله تعالى هذا النحل حتى أنها تلتقط تلك الذرات من الأزهار

هؤلاء إذا بلغوا وإن تقدمت لهم خدمة أو ثبت فيهم ملك لهن .

السؤال الرابع: الأمر بالاستئذان هل هو مختص بالمملوك ومن لم يبلغ الحلم أو يتناول الكل من ذوي الرحم؟ والأجنبي أيضًا لو كان المملوك من ذوي الرحم هل يجب عليه الاستئذان؟ الجواب : أما الصورة الأولى فنعم، إما لعموم قوله تعالى : ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ [النور: ٢٧] أو بالقياس على المملوك، ومن لم يبلغ الحلم بطريق الأولى، وأما الصورة الثانية فيجب عليه الاستئذان لعموم الآية .

السؤال الخامس: ما محل ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ ؟ الجواب : إذا رفعت ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ كان ذلك في محل الرفع على الوصف، والمعنى : هن ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان، وإذا نصبت لم يكن له محل، وكان كلامًا مقررًا للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال خاصة .

السؤال السادس: ما معنى قوله : ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ ؟ الجواب : قال الفراء والزجاج : إنه كلام مستأنف كقولك في الكلام : إنما هم خدمكم وطوافون عليكم، والطوافون : الذين يكثرون الدخول والخروج والتردد، وأصله من الطواف، والمعنى : يطوف بعضكم على بعض بغير إذن .

السؤال السابع: بم ارتفع ﴿بَعْضُكُمْ﴾ ؟ الجواب : بالابتداء وخبره ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ على معنى : طائف على بعض، وإنما حذف، لأن ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ يدل عليه .

أما قوله: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى : قال ابن السكيت : امرأة قاعد إذا قعدت عن الحيض والجمع قواعد، وإذا أردت القعود قلت : قاعدة، وقال المفسرون : القواعد هن اللواتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولا مطمع لهن في الأزواج، والأولى أن لا يعتبر قعودهن عن الحيض؛ لأن ذلك ينقطع والرغبة فيهن باقية، فالمراد قعودهن عن حال الزوج، وذلك لا يكون إلا إذا بلغن في السن بحيث لا يرغب فيهن الرجال .

المسألة الثانية : قوله تعالى في النساء : ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ كقوله : ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٧] .

المسألة الثالثة : لا شبهة أنه تعالى لم يأذن في أن يضعن ثيابهن أجمع لما فيه من كشف كل عورة، فلذلك قال المفسرون : المراد بالثياب هاهنا الجلباب والبرد والقناع الذي فوق الخمار، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ (أَنْ يَضَعْنَ جَلَابِيبَهُنَّ) وعن السدي عن شيوخه (أن يضعن خمرهن رءوسهن) وعن بعضهم أنه قرأ (أَنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيَابِهِنَّ)، وإنما خصهن الله تعالى بذلك؛ لأن التهمة مرتفعة عنهن، وقد بلغن هذا المبلغ فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب ولذلك قال : ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ وإنما جعل ذلك أفضل من حيث هو أبعد من المظنة وذلك يقتضي أن عند المظنة يلزمهن أن لا يضعن ذلك كما يلزم مثله في الشابة .

المسألة الرابعة : حقيقة التبرج : تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه من قولهم سفينة بارج لا غطاء

عليها، والبرج: سعة العين التي يرى بياضها محيطًا بسوادها كله، لا يغيب منه شيء إلا أنه اختص بأن تنكشف المرأة للرجال بإبداء زينتها وإظهار محاسنها.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

اعلم أن في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في المراد من رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فقال ابن زيد: المراد أنه لا حرج عليهم ولا إثم في ترك الجهاد، وقال الحسن: نزلت الآية في ابن أم مكتوم وضع الله الجهاد عنه وكان أعمى وهذا القول ضعيف؛ لأنه تعالى عطف عليه قوله: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟﴾ فنبه بذلك على أنه إنما رفع الحرج في ذلك، وقال الأكثرون: المراد منه أن القوم كانوا يحظرون الأكل مع هؤلاء الثلاثة وفي هذه المنازل، فالله تعالى رفع ذلك الحظر وأزاله، واختلفوا في أنهم لأي سبب اعتقدوا ذلك الحظر، أما في حق الأعمى والأعرج والمريض فذكروا فيه وجوهًا: أحدها: أنهم كانوا لا يأكلون مع الأعمى؛ لأنه لا يبصر الطعام الجيد فلا يأخذه، ولا مع الأعرج؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس فإلى أن يأكل لقمة يأكل غيره لقمتين، وكذا المريض؛ لأنه لا يتأتى له أن يأكل كما يأكل الصحيح، قال الفراء: فعلى هذا التأويل تكون (عَلَى) بمعنى في يعني: ليس عليكم في مواكلة هؤلاء حرج. وثانيها: أن العميان والعرجان والمرضى تركوا مواكلة الأصحاء، أما الأعمى فقال: إني لا أرى شيئًا فربما آخذ الأجود وأترك الأردأ، وأما الأعرج والمريض فخافا أن يفسدا الطعام على الأصحاء لأمور تعتري المرضى، ولأجل أن الأصحاء يتكرهون منهم ولأجل أن المريض ربما حمله الشره على أن يتعلق نظره وقلبه بلقمة الغير، وذلك مما يكرهه ذلك الغير فلهذه الأسباب احترزوا عن مواكلة الأصحاء، فالله تعالى أطلق لهم في ذلك. وثالثها: روى الزهري عن سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله في هذه الآية: أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يسلمون إليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم: قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك قالوا: لا ندخلها وهم غائبون، فنزلت هذه الآية رخصة لهم وهذا قول عائشة رضي الله عنها، فعلى هذا معنى الآية نفي

قلنا: لعله عليه السلام علم بنور الوحي أن ذلك العسل سيظهر نفعه بعد ذلك، فلما لم يظهر نفعه في الحال مع أنه عليه السلام كان عالمًا بأنه سيظهر نفعه بعد ذلك، كان هذا جاريًا مجرى الكذب، فلهذا السبب أطلق عليه هذا اللفظ.

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ واعلم أن تقرير هذه الآية من وجوه: الأول: اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الغامضة مثل بناء البيوت المسدسة وسائر الأحوال التي ذكرناها. والثاني: اهتداؤها إلى جميع تلك الأجزاء العسلية من أطراف الأشجار والأوراق. والثالث: خلق الله تعالى الأجزاء النافعة في جو الهواء، ثم إلقاؤها على أطراف الأشجار والأوراق، ثم إلهام النحل إلى جمعها بعد تفريقها وكل ذلك أمور عجيبة دالة على أن إله العالم بنى ترتيبه على رعاية الحكمة والمصلحة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: لما ذكر تعالى بعض عجائب أحوال الحيوانات، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس، فمنها ما هو مذكور في هذه الآية وهو إشارة إلى مراتب عمر الإنسان، والعقلاء ضبطوها في أربع مراتب:

أولها: سن النشو والنماء.

وثانيها: سن الوقوف وهو سن الشباب.

وثالثها: سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة.

ورابعها: سن الانحطاط الكبير وهو سن الشيخوخة. فاحتج تعالى بانتقال الحيوان من بعض هذه المراتب إلى بعض، على أن ذلك الناقل هو الله تعالى والأطباء الطبائعيون قالوا: المقتضي لهذا الانتقال هو طبيعة الإنسان، وأنا أحكي كلامهم على الوجه الملخص وأبين ضعفه وفساده، وحينئذ يبقى أن ذلك الناقل هو الله سبحانه، وعند ذلك يصح بالدليل العقلي ما ذكر الله تعالى في هذه الآية. قال الطبائعيون: إن بدن الإنسان مخلوق من المني ومن دم الطمث، والمني والدم جوهران حاران رطبان، والحرارة إذا عملت في الجسم الرطب قللت رطوبته وأفادته نوع يبس، وهذا مشاهد معلوم، قالوا: فلا يزال ما في هذين الجوهرين من قوة الحرارة يقلل ما فيه من الرطوبة حتى تتصلب الأعضاء ويظهر فيه الانعقاد، ويحدث العظم والغضروف والعصب والوتر والرباط وسائر الأعضاء فإذا تم تكون البدن وكمل فعند ذلك ينفصل الجنين من رحم الأم ومع ذلك فالرطوبات زائدة، والدليل عليه أنك ترى أعضاء الطفل بعد انفصاله من الأم لينة لطيفة وعظامه لينة قريبة الطبع من الغضاريف، ثم إن ما في البدن من الحرارة يعمل في تلك الرطوبات

ويقللها، قالوا: ويحصل للبدن ثلاثة أحوال.

الحالة الأولى: أن تكون رطوبة البدن زائدة على حرارته، وحينئذ تكون الأعضاء قابلة للتمدد والازدياد والنماء، وذلك هو سن النشو والنماء ونهايته إلى ثلاثين سنة أو خمس وثلاثين سنة.

الحالة الثانية: أن تصير رطوبات البدن أقل ما كانت فتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية الأصلية إلا أنها لا تكون زائدة على هذا القدر، وهذا هو سن الوقوف وسن الشباب وغايته خمس سنين، وعند تمامه يتم الأربعون.

والحالة الثالثة: أن تقل الرطوبات وتصير بحيث لا تكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية، وعند ذلك يظهر النقصان، ثم هذا النقصان قد يكون خفيًا وهو سن الكهولة وتمامه إلى ستين سنة وقد يكون ظاهرًا وهو سن الشيخوخة وتمامه إلى مائة وعشرين سنة فهذا هو الذي حصله الأطباء في هذا الباب، وعندي أن هذا التعليل ضعيف ويدل على ضعفه وجوه:

الوجه الأول: أنا نقول إن في أول ما كان المني منيًا وكان الدم دمًا كانت الرطوبات غالبة وكانت الحرارة الغريزية مغمورة وكانت ضعيفة بهذا السبب، ثم إنها مع ضعفها قويت على تحليل أكثر تلك الرطوبات وأبانتها من حد الدموية والمنوية إلى أن صارت عظمًا وغضروفًا وعصبًا ورباطًا، وعندما تولدت الأعضاء وكمل البدن قلت الرطوبات فوجب أن تكون للحرارة الغريزية قوة أزيد مما كانت قبل ذلك، فوجب أن يكون تحليل الرطوبات بعد تولد البدن وكماله أزيد من تحللها قبل تولد البدن، ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك، لأن قبل تولد البدن انتقل جسم المني والدم إلى أن صار عظمًا وعصبًا، وأما بعد تولد البدن فلم يحصل مثل هذا الانتقال ولا عشر عشره فلو كان تولد هذه الأعضاء بسبب تأثير الحرارة في الرطوبة لوجب أن يكون تحلل الرطوبات بعد كمال البدن أكثر من تحللها قبل تكون البدن، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أن تولد البدن إنما كان بتدبير قادر حكيم يدبر أبدان الحيوانات على وفق مصالحها، وأنه ما كان تولد البدن لأجل ما قالوه من تأثير الحرارة في الرطوبة.

والوجه الثاني: في إبطال هذا الكلام أن نقول: إن الحرارة الغريزية الحاصلة في بدن الإنسان الكامل إما أن تكون هي عين ما كان حاصلاً في جوهر النطفة أو صارت أزيد مما كانت، والأول باطل، لأن الحار الغريزي الحاصل في جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة ولا شك أن جرم النطفة كان قليلاً صغيرًا، فهذا البدن بعد كبره لو لم يحصل فيه من الحرارة الغريزية إلا ذلك القدر كان في غاية القلة، ولم يظهر منه في هذا البدن أثر أصلاً، وأما الثاني: ففيه تسليم أن الحرارة الغريزية تتزايد بحسب تزايد الجثة والبدن، وإذا تزايدت الحرارة الغريزية ساعة فساعة، وثبت أن تزايدها يوجب تزايد القوة والصحة ساعة فساعة، فوجب أن يبقى البدن الحيواني أبدًا في التزايد والتكامل، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن ازدياد حال البدن الحيواني وانتقاصه ليس بحسب الطبيعة، بل بسبب تدبير الفاعل المختار.

محرزًا منهم، فإن قيل: فيلزم أن لا يقطع إذا سرق من مال صديقه، قلنا: من أراد سرقة ماله لا يكون صديقًا له.

أما قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فقال أكثر المفسرين: نزلت الآية في بني ليث بن عمرو وهم حي من كنانة، كان الرجل منهم لا يأكل وحده يمكث يومه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئًا، وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فأعلم الله تعالى أن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه، هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وقال عكرمة وأبو صالح رحمهما الله: كانت الأنصار إذا نزل بواحد منهم ضيف لم يأكل إلا وضيفه معه، فرخص الله لهم أن يأكلوا كيف شاءوا مجتمعين ومتفرقين. وقال الكلبي: كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعامًا عزلوا للأعمى طعامًا على حدة، وكذلك للزمن والمريض، فبيَّن الله لهم أن ذلك غير واجب، وقال آخرون: كانوا يأكلون فرادى خوفًا من أن يحصل عند الجمعية ما ينفر أو يؤذي، فبيَّن الله تعالى أنه غير واجب وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال ﴿أَشْتَاتًا﴾ جمع شت، وشتى جمع شتيت، وشتان تثنية شت قاله المفضل وقيل: الشت مصدر بمعنى التفرق ثم يوصف به ويجمع.

أما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ فالمعنى: أنه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] قال ابن عباس: فإن لم يكن أحد فعلى نفسه ليقل: السلام علينا من قِبَل ربنا، وإذا دخل المسجد فليقل: السلام على رسول الله وعلينا من ربنا. قال قتادة: وحدثنا أن الملائكة ترد عليه. قال القفال: وإن كان في البيت أهل الذمة فليقل: السلام على من اتبع الهدى وقوله ﴿تَحِيَّةً﴾ نصب على المصدر، كأنه قال: فحيوا تحية من عند الله، أي مما أمركم الله به. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من قال: السلام عليكم معناه اسم الله عليكم وقوله: ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ قال الضحاك: معنى البركة فيه تضعيف الثواب، وقال الزجاج: أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك ثابت لما فيه من الأجر والثواب وأنه إذا أطاع الله فيه أكثر خيره وأجزل أجره ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: يفصِّل الله شرائعه لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لتفهموا عن الله أمره ونهيه، وروى حميد عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي في شيء فعلته: لم فعلته ولا قال لي في شيء تركته: لم تركته، وكنت واقفًا على رأس النبي ﷺ أصب الماء على يديه فرفع رأسه إليَّ وقال: **«أَلاَ أُعَلِّمُكَ ثَلاَثَ خِصَالٍ تَنْتَفِعُ بِهِنَّ؟»** قلت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله بلى، فقال: **«مَنْ لَقِيتَ مِنْ أُمَّتِي فَسَلِّمْ عَلَيهِمْ يَطُلْ عُمْرُكَ، وَإِذَا دَخَلْتَ بَيْتًا فَسَلِّمْ عَلَيهِمْ يَكْثُرْ خَيْرُ بَيْتِكَ، وَصَلِّ صَلاَةَ الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين»**(١).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٣٧٤)، حديث رقم (٢٧٧)، وأبو داود في كتاب (الأدب)، باب: (في الحلم وأخلاق النبي ﷺ) (٤/ ٢٠٤١)، حديث رقم (٤٧٧٤)، والإمام أحمد في (مسنده) (٣/ ١٩٥)، =

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (عَلَى أَمْرٍ جَمِيعٍ) ثم ذكروا في قوله ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وجوهًا: أحدها: أن الأمر الجامع هو الأمر الموجب للاجتماع عليه فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز، وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاور في خطب مهم، أو الأمر الذي يعم ضرره ونفعه وفي قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ إشارة إلى أنه خَطْب جليل لا بد لرسول الله ﷺ من أرباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم فمفارقة أحدهم في هذه الحالة مما يشق على قلبه. وثانيها: عن الضحاك في أمر جامع: الجمعة والأعياد وكل شيء تكون فيه الخطبة. وثالثها: عن مجاهد في الحرب وغيره.

المسألة الثانية: اختلفوا في سبب نزوله قال الكلبي: كان ﷺ يعرِّض في خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يمينًا وشمالاً فإذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا، وإن أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفًا؛ فنزلت هذه الآية فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته حتى يستأذن رسول الله ﷺ وكان المنافقون يخرجون بغير إذن.

المسألة الثالثة: قال الجبائي: هذا يدل على أن استئذانهم الرسول من إيمانهم، ولولا ذلك لجاز أن يكونوا كاملي الإيمان وإن تركوا الاستئذان، وذلك يدل على أن كل فرض لله تعالى واجتناب محرم من الإيمان. والجواب: هذا بناء على أن كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر وأيضًا فالمنافقون إنما تركوا الاستئذان استخفافًا، ولا نزاع في أنه كفر.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ المعنى: تعظيمًا لك ورعاية للأدب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

=جميعًا من طريق سليمان بن المغيرة. . . به.

هذا على أنه لما كان معدومًا في المرة الأولى، وكان عوده إلى العدم في المرة الثانية جائزًا، فكذلك لما صار موجودًا، ثم عدم وجب أن يكون عوده إلى الوجود في المرة الثانية جائزًا، وأيضًا كان ميتًا حين كان نطفة ثم صار حيًا ثم مات فلما كان الموت الأول جائزًا كان عود الموت جائزًا، فكذلك لما كانت الحياة الأولى جائزة، وجب أن يكون عود الحياة جائزًا في المرة الثانية، وأيضًا الإنسان في أول طفوليته جاهل لا يعرف شيئًا، ثم صار عالمًا عاقلاً فاهمًا، فلما بلغ أرذل العمر عاد إلى ما كان عليه في زمان الطفولية، وهو عدم العقل والفهم، فعدم العقل والفهم في المرة الأولى عاد بعينه في آخر العمر، فكذلك العقل الذي حصل، ثم زال وجب أن يكون جائز العود في المرة الثانية، وإذا ثبتت هذه الجملة ثبت أن الذي مات وعدم فإنه يجوز عود وجوده وعود حياته وعود عقله مرة أخرى ومتى كان الأمر كذلك، ثبت أن القول بالبعث والحشر والنشر حق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

اعلم أن هذا اعتبار حال أخرى من أحوال الإنسان، وذلك أنا نرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهمًا يفنى عمره في طلب القدر القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك، ونرى أجهل الخلق وأقلهم عقلاً وفهمًا تنفتح عليه أبواب الدنيا، وكل شيء خطر بباله ودار في خياله فإنه يحصل له في الحال، ولو كان السبب جهد الإنسان وعقله لوجب أن يكون الأعقل أفضل في هذه الأحوال، فلما رأينا أن الأعقل أقل نصيبًا، وأن الأجهل الأخس أوفر نصيبًا، علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام، كما قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ [الزخرف: ٣٢] وقال الشافعي رحمه الله تعالى:

وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى الْقَضَاءِ وَكَوْنِهِ بُؤْسُ اللَّبِيبِ وَطِيبُ عَيْشِ الْأَحْمَقِ[1]

واعلم أن هذا التفاوت غير مختص بالمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والاسم القبيح، وهذا بحر لا ساحل له وقد كنت مصاحبًا لبعض الملوك في بعض الأسفار، وكان ذلك الملك كثير المال والجاه، وكانت الجنائب الكثيرة تقاد بين يديه، وما كان يمكنه ركوب واحد منها، وربما حضرت الأطعمة الشهية والفواكه العطرة عنده، وما كان يمكنه تناول شيء منها، وكان الواحد منا صحيح المزاج

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل للإمام الفقيه الشافعي والشافعي فقيه من الفقهاء الأربعة وهو باختصار شديد الشافعي هو: محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي أبو عبد الله، ١٥٠- ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧- ٨١٩ م، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة بفلسطين وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين وقصد مصر (سنة ١٩٩) فتوفي بها وقبره معروف في القاهرة.

قوي البنية كامل القوة، وما كان يجد ملء بطنه طعامًا، فذلك الملك وإن كان يفضل على هذا الفقير في المال، إلا أن هذا الفقير كان يفضل على ذلك الملك في الصحة والقوة، وهذا باب واسع إذا اعتبره الإنسان عظم تعجبه منه.

أما قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

ففيه قولان:

القول الأول: أن المراد من هذا الكلام تقرير ما سبق في الآية المتقدمة من أن السعادة والنحوسة لا يحصلان إلا من الله تعالى، والمعنى أن الموالي والمماليك أنا رازقهم جميعًا فهم في رزقي سواء فلا يحسبن الموالي أنهم يردون على مماليكهم من عندهم شيئًا من الرزق، وانما ذلك رزقي أجريته إليهم على أيديهم وحاصل القول فيه أن المقصود منه بيان أن الرازق هو الله تعالى وأن المالك لا يرزق العبد بل الرازق للعبد والمولى هو الله تعالى، وتحقيق القول أنه ربما كان العبد أكمل عقلاً وأقوى جسمًا وأكثر وقوفًا على المصالح والمفاسد من المولى، وذلك يدل على أن ذلة ذلك العبد وعزة ذلك المولى من الله تعالى كما قال: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

والقول الثاني: أن المراد من هذه الآية الرد على من أثبت شريكًا لله تعالى، ثم على هذا القول ففيه وجهان: الأول: أن يكون هذا ردًا على عبدة الأوثان والأصنام، كأنه قيل: إنه تعالى فضل الملوك على مماليكهم، فجعل المملوك لا يقدر على ملك مع مولاه، فلما لم تجعلوا عبيدكم معكم سواء في الملك، فكيف تجعلون هذه الجمادات معي سواء في المعبودية، والثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في نصارى نجران حين قالوا: إن عيسى ابن مريم ابن الله، فالمعنى أنكم لا تشركون عبيدكم فيما ملكتم فتكونوا سواء، فكيف جعلتم عبدي ولدًا لي وشريكًا في الإلهية؟

ثم قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ معنى الفاء في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ حتى، والمعنى: فما الذين فضلوا بجاعلي رزقهم لعبيدهم، حتى تكون عبيدهم فيه معهم سواء في الملك.

ثم قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ عاصم في رواية أبي بكر: (تجحدون) بالتاء على الخطاب لقوله: (خلقكم وفضل بعضكم) والباقون بالياء لقوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم لقرب الخبر عنه، وأيضًا فظاهر الخطاب أن يكون مع المسلمين، والمسلمون لا يخاطبون بجحد نعمة الله تعالى.

المسألة الثانية: لا شبهة في أن المراد من قوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الإنكار على المشركين الذين أورد الله تعالى هذه الحجة عليهم.

العذاب بل الحذر يحسن عند احتمال نزول العذاب ولهذا يحسن الاحتياط وعندنا مجرد الاحتمال قائم. لأن هذه المسألة احتمالية لا قطعية، سلمنا دلالة الآية على وجود ما يقتضي نزول العقاب، لكن لا في كل أمر بل في أمر واحد لأن قوله: ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ لا يفيد إلا أمرًا واحدًا، وعندما أن أمرًا واحدًا يفيد الوجوب، فلم قلت إن كل أمر كذلك؟ سلمنا أن كل أمر كذلك، لكن الضمير في قوله: ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يحتمل عوده إلى الله تعالى وعوده إلى الرسول، والآية لا تدل إلا على أن الأمر للوجوب في حق أحدهما، فلم قلتم: إنه في حق الآخر كذلك؟

الجواب: قوله: لم قلتم: إن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه؟ قلنا: الدليل عليه أن العبد إذا امتثل أمر السيد حَسُنَ أن يقال: إن هذا العبد موافق للسيد ويجري على وفق أمره، ولو لم يمتثل أمره يقال: إنه ما وافقه بل خالفه، وحسن هذا الإطلاق معلوم بالضرورة من أهل اللغة فثبت أن موافقة الأمر عبارة عن الإتيان بمقتضاه، قوله: الموافقة عبارة عن الإتيان بما يقتضيه الأمر على الوجه الذي يقتضيه الأمر، قلنا: لما سلمتم أن موافقة الأمر لا تحصل إلا عند الإتيان بمقتضى الأمر، فنقول: لا شك أن مقتضى الأمر هو الفعل؛ لأن قوله: افعل لا يدل إلا على اقتضاء الفعل، وإذا لم يوجد الفعل لم يوجد مقتضى الأمر، فلا توجد الموافقة فوجب حصول المخالفة؛ لأنه ليس بين الموافقة والمخالفة واسطة، قوله: الموافقة عبارة عن اعتقاد كون ذلك الأمر حقًّا واجب القبول، قلنا: هذا لا يكون موافقة للأمر بل يكون موافقة للدليل الدال على أن ذلك الأمر حق، فإن موافقة الشيء عبارة عن الإتيان بما يقتضي تقرير مقتضاه، فإذا دل على حقية الشيء كان الاعتراف بحقيته يقتضي تقرير مقتضى ذلك الدليل، أما الأمر فلما اقتضى دخول الفعل في الوجود كانت موافقته عبارة عما يقرر ذلك الدخول، وإدخاله في الوجود يقتضي تقرير دخوله في الوجود، فكانت موافقة الأمر عبارة عن فعل مقتضاه. قوله: لو كان كذلك لكان تارك المندوب مخالفًا فوجب أن يستحق العقاب، قلنا: هذا الإلزام إنما يصح أن لو كان المندوب مأمورًا به وهو ممنوع، قوله: لم لا يجوز أن يكون قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ أمرًا بالحذر عن المخالف لا أمرًا للمخالف بالحذر؟ قلنا: لو كان كذلك لصار التقدير فليحذر المتسللون لواذًا عن الذين يخالفون أمره وحينئذ يبقى قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ضائعًا؛ لأن الحذر ليس فعلاً يتعدى إلى مفعولين. قوله: كلمة (عَنْ) ليست بزائدة، قلنا: ذكرنا اختلاف الناس فيها في المسألة الأولى. قوله: لم قلتم: إن قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ يدل على وجوب الحذر عن العقاب؟ قلنا: لا ندعي وجوب الحذر، ولكن لا أَقَل: من جواز الحذر، وذلك مشروط بوجود ما يقتضي وقوع العقاب. قوله: لم قلت: إن الآية تدل على أن كل مخالف للأمر يستحق العقاب؟ قلنا: لأنه تعالى رتب نزول العقاب على المخالفة فوجب أن يكون معللاً به، فيلزم عمومه لعموم العلة. قوله: هب أن أمر الله أو أمر رسوله للوجوب، فلم قلتم: إن الأمر كذلك؟ قلنا: لأنه لا قائل بالفرق، والله أعلم.

المسألة الرابعة: من الناس من قال: لفظ الأمر مشترك بين الأمر القولي وبين الشأن والطريق، كما يقال: أمر فلان مستقيم. وإذا ثبت ذلك كان قوله تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يتناول قول الرسول وفعله وطريقته، وذلك يقتضي أن كل ما فعله عليه الصلاة والسلام يكون واجبًا علينا، وهذه المسألة مبنيَّة على أن الكناية في قوله ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ راجعة إلى النبي ﷺ، أما لو كانت راجعة إلى الله تعالى فالبحث ساقط بالكلية، وتمام تقرير ذلك ذكرناه في أصول الفقه، والله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالمراد أن مخالفة الأمر توجب أحد هذين الأمرين، والمراد بالفتنة: العقوبة في الدنيا، والعذاب الأليم: عذاب الآخرة، وإنما ردد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الأمرين؛ لأن ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك في الدنيا، فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد، ثم قال الحسن: الفتنة هي ظهور نفاقهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القتل، وقيل: الزلازل والأهوال، وعن جعفر بن محمد يسلط عليهم سلطان جائر.

أما قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فذاك كالدلالة على قدرته تعالى عليهما وعلى ما بينهما وما فيهما، واقتداره على المكلف فيما يعامل به من المجازاة بثواب أو بعقاب، وعلمه بما يخفيه ويعلنه، وكل ذلك كالزجر عن مخالفة أمره.

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ فإنما أدخل ﴿قَدْ﴾ لتوكيد علمه بما هم عليه من المخالفة في الدين والنفاق. ويرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد؛ وذلك لأن قد إذا أدخلت على المضارع كانت بمعنى ربما، فوافقت ربما في خروجها إلى معنى التكثير. كما في قوله الشاعر:

فَإِنْ يُمْسِ مَهْجُورَ الْفِنَاءِ فَرُبَّمَا أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُودِ وُفُودُ

والخطاب والغيبة في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يجوز أن يكونا جميعًا للمنافقين على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عامًا ويرجعون للمنافقين، وقد تقدم في غير موضع أن الرجوع إليه هو الرجوع إلى حيث لا حكم إلا له فلا وجه لإعادته، والله أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة النور

مدنية بالإجماع[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾

مقصودُ هذه السورة ذكرُ أحكام العفاف والسّتر.

وكتب عمر ﷺ إلى أهل الكوفة: علّموا نساءكم سورةَ النور[2].

وقالت عائشة رضي الله عنها: لا تُنزلوا النساءَ الغُرَف، ولا تعلموهنَّ الكتابةَ، وعلموهنَّ سورةَ النُّور والغَزْل[3].

﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ قرئ بتخفيف الراء[4]؛ أي: فرضنا عليكم وعلى مَنْ بعدَكم ما فيها من الأحكام[5]. وبالتشديد أي: أنزلنا فيها فرائض مختلفة.

---

(١) زاد المسير ٦/ ٣، ومجمع البيان ١٨/ ٥، وأخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٣٧ عن ابن عباس قال: سورة النور نزلت بالمدينة فهي مدنية.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١١٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٣٧).

(٣) لم نقف عليه من قول عائشة موقوفاً، وإنما أخرجه الحاكم ٢/ ٣٩٦، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٤٥٣) من طريق عبد الوهاب بن الضحاك عن شعيب بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، مرفوعاً.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي فقال: بل موضوع؛ وآفته عبد الوهاب، قال أبو حاتم: كذاب. اهـ. وسلف بنحوه ٥/ ٤٤.

(٤) وهي قراءة نافع وعاصم وابن عامر وحمزة والكسائي. السبعة ص٤٥٢، والتيسير ص١٦١.

(٥) ما ذكره المصنف على معنى التخفيف، ذكره الفراء ومكي والنحاس وغيرهم على معنى التشديد، وأما المعنى على التخفيف فقالوا: أوجبنا أحكامها بالفرض عليكم. ينظر: معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٤ وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٧، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣٣ وتفسير الرازي ٢٣/ ١٢٩.

وقرأ أبو عمرو: «وفَرّضناها» بالتشديد[١]؛ أي: قطّعناها في الإنزال، نَجْماً نَجْماً، والفرض: القطع، ومنه: فُرْضة القوس، وفرائض الميراث، وفرض النفقة.

وعنه أيضاً: «فرّضناها»: فصّلناها وبيّنّاها[٢].

وقيل: هو على التكثير؛ لكثرة ما فيها من الفرائض[٣].

والسورة في اللغة: اسم للمنزلة الشَّريفة؛ ولذلك سُمّيت السورة من القرآن سورةً. قال النابغة[٤]:

ألم تَرَ أنَّ الله أعطاكَ سورةً ترى كلَّ مَلْكٍ دونها يَتَذبذَبُ

وقد مضى في مقدّمة الكتاب القول فيها[٥].

وقرئ: «سورةٌ» بالرفع على أنها مبتدأ، وخبرها: «أنزلناها». قاله أبو عبيدة[٦] والأخفش. وقال الزجاج والفرّاء والمُبَرّد: «سورةٌ» بالرفع، لأنها خبر الابتداء؛ لأنها نكرة، ولا يبتدأ بالنكرة في كلِّ موضع، أي: هذه سورة[٧]. ويحتمل أن يكون قوله «سورة» ابتداء، وما بعدها صفة لها أخرجتها عن حدّ النكرة المحضة، فحسن الابتداء لذلك، ويكون الخبر في قوله «الزّانِيَةُ والزّانِي»[٨].

وقرئ: «سورةً» بالنصب، على تقدير: أنزلنا سورة أنزلناها[٩]. وقال الشاعر:

---

(١) وهي قراءة ابن كثير أيضاً. السبعة ص٤٥٢ ، والتيسير ص١٦١ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٩٣ ، والكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣٣ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٧ .

(٤) في الأصول: زهير، وهو خطأ، وقد سلف على الصواب ١/ ١٠٦ .

(٥) ١/ ١٠٦ فما بعدها.

(٦) في مجاز القرآن ٢/ ٦٣ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٣ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠ .

(٩) القراءات الشاذة ص١٠٠ ، والمحتسب ٢/ ٩٩ .

والـــذئـــبَ أخـــشـــاه إن مـــررتُ بـــه ... وَحْـدِي وأخـشـى الـريـاحَ والـمـطـرا[١]

أو تكون منصوبة بإضمار فعل؛ أي: اتل سورة. وقال الفرّاء: هي حال من الهاء والألف، والحال من المكني يجوز أن يتقدمَ عليه[٢].

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

فيه اثنتان وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ كان الزّنَى في اللغة معروفاً قبل الشرع، مثل اسم السرقة والقتل، وهو اسمٌ لوطءِ الرجلِ امرأةً في فرجها من غير نكاح ولا شبهة نِكاح، بمطاوعتها[٣]. وإن شئت قلت: هو إدخال فرج في فرج مشتهًى طبعاً محرّمٍ شرعاً[٤]، فإذا كان ذلك وجب الحدُّ. وقد مضى الكلام في حدّ الزنى وحقيقته وما للعلماء في ذلك[٥].

وهذه الآية ناسخة لآية الحبس وآية الأذى، اللَّتين في سورة النساء باتفاق[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ هذا حدّ الزاني الحرّ البالِغ البِكر، وكذلك الزانية البِكر البالغة الحرّة، وثبت بالسُّنّة تغريب عامٍ، على الخلاف في ذلك[٧].

---

(١) نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٨٩ للربيع بن ضبع الفزاري، وسلف ٩/ ١٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠ .

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٢٨٧ .

(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ١٣١ .

(٥) ٧/ ١٣٦ وما بعدها.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٦١ ، والحق أن العلماء لم يختلفوا أن آيتي الحبس والإيذاء قد نُسختا، وإنما الخلاف في الناسخ الذي نسخهما، أهو سورة النور أم حديث؟ أم أن سورة النور هي بيان وتفصيل لهما؟ انظر «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٢/ ١٦٢ ، والإيضاح لناسخ القرآن لمكي ص٣٥٩ ، والنسخ في القرآن لمصطفى زيد ١/ ١٣٩ .

(٧) سلف ٦/ ١٤٠ ، و ١٤٤ .

وأما المملوكات فالواجب خمسون جلدة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، وهذا في الأَمَة، ثم العبدُ في معناها. وأما المُحْصَن من الأحرار فعليه الرّجْم دوْن الجلد. ومن العلماء من يقول: يجلد مئة ثم يُرْجَم[1]. وقد مضى هذا كلُّه ممهَّداً في «النساء»[2] فأغنى عن إعادته، والحمد لله.

الثالثة: قرأ جمهور الناس[3]: «الزَّانِيَةُ والزّانِي» بالرفع.

وقرأ عيسى بن عمر الثَّقَفِيّ: «الزانيةَ» بالنصب[4]، وهو أوجهُ عند سيبويه[5]؛ لأنه عنده كقولك: زيداً اضرب. ووجه الرفع عنده: خبر ابتداء، تقديره: فيما يتلى عليكم الزانيةُ والزاني. وأجمع الناس على الرفع وإن كان القياس عند سيبويه النصب. وأما الفرّاء والمبرّد والزجّاج[6] فإنَّ الرفعَ عندهم هو الأوجه، والخبر في قوله: «فاجلدوا»؛ لأنَّ المعنى: الزانية والزاني مجلودان بحكم الله. وهو قول جيد، وهو قول أكثر النحاة، وإن شئتَ قدّرتَ الخبر: ينبغي أن يُجلدا. وقرأ ابن مسعود: «والزَّان» بغير ياء[7].

الرابعة: ذكر الله سبحانه وتعالى الذَّكَرَ والأنثى، والزَّاني كان يكفي منها، فقيل: ذكرهما للتأكيد، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]. ويحتمل أن يكون ذكرهما هنا لئلا يظنَّ ظانٌّ أنَّ الرجلَ لما كان هو الواطئَ والمرأةُ

---

(١) بداية المجتهد ٤/ ٢٧٣، ٢٧٦ - ٢٧٧، والاستذكار ٢٤/ ٤٨ - ٤٩، وينظر التمهيد ٩/ ٧٩.

(٢) ٦/ ٢٣٧ وما بعدها.

(٣) في (م): الجمهور.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠، والقراءات الشاذة ص١٠٠، والمحتسب ٢/ ١٠٠.

(٥) الكتاب ١/ ١٤٢ - ١٤٣.

(٦) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٠٦، والكامل ٢/ ٨٢٢، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧، ونقله المصنف عنهم بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠ - ١٦١ والكلام منه.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠ - ١٦١، وقراءة ابن مسعود في القراءات الشاذة ص١٠٠.

محلٌ ليست بواطئة؛ فلا يجب عليها حدٌّ؛ فذَكَرها رفعاً لهذا الإشكال الذي أوقع جماعةً من العلماء، منهم الشافعيُّ[١]، فقالوا: لا كفارة على المرأة في الوطء في رمضان؛ لأنَّه قال: جامعتُ أهلي في نهار رمضان؛ فقال له النبيُّ ﷺ «كَفِّر». فأمره بالكفَّارة، والمرأةُ ليست بمجامعةٍ ولا واطئةٍ[٢].

الخامسة: قُدّمت «الزانيةُ» في هذه الآية؛ من حيث كان في ذلك الزمان زِنَى النساء فاش، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت راياتٌ، وكنَّ مجاهراتٍ بذلك[٣].

وقيل: لأنَّ الزنى في النساء أَعرُّ[٤]، وهو لأجل الحَبَل أضرّ. وقيل: لأن الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب؛ فصدّرها تغليظاً لتَرْدَع شهوتها، وإن كان قد رُكِّب فيها حياء، لكنها إذا زنت ذهب الحياء كلُّه[٥].

وأيضاً فإن العار بالنساء أَلْحق؛ إذ موضوعهنّ الحجبة[٦] والصيانة، فقُدِّم ذكرهنّ تغليظاً واهتماماً.

السادسة: الألف واللام في قوله: «الزانية والزاني» للجنس، وذلك يعطي أنها عامة في جميع الزناة.

ومن قال بالجَلد مع الرَّجم، قال: السُّنة جاءت بزيادة حكم؛ فيقام مع الجلد. وهو قول إسحاق بن راهويه والحسن بن أبي الحسن، وفعلَه عليّ بنُ أبي طالب ﷺ

---

(١) ينظر الأم ٢/ ٨٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٣، والحديث أخرجه أحمد (٦٩٤٤)، والبخاري (١٩٣٦)، ومسلم (١١١١) عن أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٥٠٩٢)، والبخاري (١٩٣٥)، ومسلم (١١١٢) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦١.

(٤) من عرَّ، يقال: عرَّ فلان قومه، إذا دخل عليهم بشرٍّ يلطخهم به. تهذيب اللغة ١/ ١٠١.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٤.

(٦) في (م): الحجب، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٦١، والكلام منه.

بشُرَاحة[١]، وقد مضى في «النساء» بيانه[٢].

وقال الجمهور: هي خاصة في البِكْرين، واستدلُّوا على أنها غير عامّة بخروج العبيد والإماء منها[٣].

السابعة: نصّ الله سبحانه وتعالى [على][٤] ما يجب على الزانِيَيْن إذا شُهد بذلك عليهما على ما يأتي[٥]، وأجمع العلماء على القول به.

واختلفوا فيما يجب على الرجل يوجد مع المرأة في ثوب واحد، فقال إسحاق ابن راهويه: يضرب كلُّ واحد منهما مئة جلدة. وروي ذلك عن عمر وعليّ، وليس يثبت ذلك عنهما. وقال عطاء وسفيان الثَّورِيّ: يؤدّبان. وبه قال مالك وأحمد، على قدر مذاهبهم في الأدب. قال ابن المنذر[٦]: والأكثر ممن رأيناه يرى على من وُجد على هذه الحال الأدبَ. وقد مضى في «هود»[٧] اختيارُ ما في هذه المسألة، والحمد لله وحده.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ دخلت الفاء لأنه موضع أمر، والأمرُ مضارع للشرط. وقال المبرّد: فيه معنى الجزاء، أي: إن زنى زانٍ فافعلوا به كذا، ولهذا دخلت الفاء، وهكذا ﴿السارقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[٨] [المائدة:٣٨].

التاسعة: لا خلاف أنَّ المخاطبَ بهذا الأمر الإمامُ ومَنْ نابَ مَنَابَه، وزاد مالك والشافعيّ السادةَ في العبيد، قال الشافعيّ: في كلِّ جلدٍ وقَطْعٍ، وقال مالك: في

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦١ .

(٢) ٦/ ١٤٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦١ .

(٤) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٥) عند تفسير الآية (٤) من هذه السورة.

(٦) في الإشراف ٢/ ٥٥ ، وما قبله منه.

(٧) ١١/ ٢٣٢ .

(٨) الكامل ٢/ ٨٢٢ - ٨٢٣ .

الجلد دون القطع[١].

وقيل: الخطاب للمسلمين؛ لأنَّ إقامةَ مراسم الدِّين واجبةٌ على المسلمين، ثم الإمام ينوبُ عنهم؛ إذ لا يمكنهم الاجتماع على إقامة الحدود[٢].

العاشرة: أجمع العلماء على أنَّ الجلد بالسَّوْط يجب، والسَّوْط الذي يجب أن يجلد به: يكون سوطاً بين سَوْطين، لا شديداً ولا ليِّناً. وروى مالك، عن زيد بن أسلم، أنَّ رجلاً اعترف على نفسه بالزِّنى على عهد رسول الله ﷺ، فدعا له رسولُ الله ﷺ بسَوْط، فأُتيَ بسَوْط مكسورٍ، فقال: «فوق هذا»، فأُتي بسَوْط جديد لم تقطع ثمرتُه، فقال: «دون هذا»، فأُتي بسَوْط قد رُكِّب به ولَانَ، فأمرَ به رسولُ الله ﷺ فجُلِد. الحديث[٣]. قال أبو عمر: هكذا رَوى هذا الحديث مرسلاً جميعُ رواة الموطّأ، ولا أعلمه يستندُ بهذا اللفظ من وجهٍ من الوجوه، وقد روى مَعْمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن النبيّ ﷺ مثلُه سواء[٤].

وقد تقدّم في «المائدة» ضَرْب عمر قُدامةَ[٥] في الخمر بسوط تامٍّ. يريد: وَسَطاً.

الحادية عشرة: اختلف العلماء في تجريد المجلود في الزنى، فقال مالك وأبو حنيفة وغيرُهما: يُجرّد، ويترك على المرأة ما يسترها دون ما يَقِيها الضربَ. وقال الأوزاعِيُّ: الإمامُ مخيَّر، إنْ شاء جَرّد وإنْ شاء ترك. وقال الشَّعْبيُّ والنَّخَعِيُّ:

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٤ .

(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٧ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) الموطأ ٢/ ٨٢٥ عن زيد بن أسلم مرسلاً، وأخرجه البيهقي من طريقه ٨/ ٣٢٦ ونقل عن الشافعي قوله: هذا حديث منقطع ليس مما يثبت به، هو نفسه حجة، وقد رأيت من أهل العلم عندنا من يعرفه ويقول به، فنحن نقول به. اهـ . وقوله: سوط مكسور: أي: ليّن ضعيف، وسوط لم تقطع ثمرته، أي: طرفه الذي يكون في أسفله. النهاية (كسر)، (ثمر).

(٤) التمهيد ٥/ ٣٢١ - ٣٢٢ ، وأخرج خبر معمر عبد الرزاق (١٣٥١٥).

(٥) في النسخ: الجارود، وهو سبق قلم، والتصويب مما تقدم في سورة المائدة ٨/ ١٧٤ ، من قصة الجارود مع عمر بن الخطاب في جلد قدامة بن مظعون.

لا يُجرّد، ولكن يُترك عليه قميصٌ[١]. قال ابن مسعود: لا يحلُّ في هذه الأُمّة تجريدٌ ولا مدٌّ. وبه قال الثوريّ[٢].

الثانية عشرة: اختلف العلماء في كيفية ضرب الرجال والنساء:

فقال مالك: الرجل والمرأة في الحدود كلّها سواء، لا يقام واحد منهما، ولا يجزي عنده إلا في الظهر[٣].

وأصحاب الرأي والشافعي يرونَ أن يُجلدَ الرجلُ وهو واقف، وهو قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه[٤].

وقال اللَّيْث وأبو حنيفة والشافعيّ: الضرب في الحدود كلِّها وفي التعزير، مجرّداً قائماً غير ممدود، إلا حدّ القذف، فإنه يضرب وعليه ثيابه. وحكاه المهدوِيّ في «التحصيل» عن مالك. وينزع عنه المَحْشُو والفَرْو. وقال الشافعي: إن كان مدّه صلاحاً مُدَّ[٥].

الثالثة عشرة: واختلفوا في المواضع التي تضرب من الإنسان في الحدود:

فقال مالك: الحدود كلُّها لا تضرب إلا في الظهر، وكذلك التعزير. وقال الشافعيّ وأصحابه: يُتّقَى الوجه والفرج وتضرب سائر الأعضاء، وروي عن عليّ[٦].

وأشار ابن عمر بالضرب إلى رِجلَيْ أَمَةٍ جَلَدَها في الزِّنى. قال ابن عطية[٧]:

---

(١) الإشراف لابن المنذر ٢/ ٢٣ - ٢٤ .

(٢) الإشراف ٢/ ٢٥ ، وأخرج قول ابن مسعود عبد الرزاق (١٣٥٢٢)، والطبراني في الكبير ٩/ ٣٤٠ (٩٦٩٠)، والبيهقي ٨/ ٣٢٦ .

(٣) التمهيد ٥/ ٣٣٥ و٣٣٦ .

(٤) الإشراف ٢/ ٢٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٦١ .

(٥) التمهيد ٥/ ٣٣٦ .

(٦) التمهيد ٥/ ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٧) في المحرر الوجيز ٤/ ١٦١ وما قبله منه.

والإجماع في تسليم الوجه والعورة والمَقاتل.

واختلفوا في ضرب الرأس؛ فقال الجمهور: يُتّقى الرأس. وقال أبو يوسف: يضرب الرأس. وروي عن عمر وابنه قالا: لا يضرب الرأس[١]. وضرب عمر ﷺ صَبِيغاً في رأسه وكان تعزيراً لا حدًّا[٢]. ومن حجة مالك ما أدرك عليه الناس[٣]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «البينةَ؛ وإلا حَدٌّ في ظهرك» وسيأتي[٤].

الرابعة عشرة: الضرب الذي يجب هو أن يكون مؤلماً؛ لا يَجرح ولا يَبْضَع[٥].

ولا يُخرج الضاربُ يدَه من تحت إبطه، وبه قال الجمهور، وهو قول عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما[٦]. وأُتيَ عمر ﷺ برجل في حدٍّ، فأتى بسوط بين سوطين وقال للضارب: اضرب ولا يُرى إبطك، وأعط كلَّ عضو حقَّه[٧]. وأُتيَ ﷺ بشارب فقال: لأبعثنَّك إلى رجلٍ لا تأخذه فيك هَوَادةٌ؛ فبعثه إلى مطيع بن الأسود العدويّ[٨]، فقال: إذا أصبحتَ الغدَ، فاضربه الحدَّ، فجاء عمرُ ﷺ وهو يضربه ضرباً شديداً، فقال: قتلتَ الرجلَ! كم ضربتَه؟ قال: ستين. قال: أَقِصَّ عنه بعشرين[٩].

قال أبو عبيد[١٠]: «أَقِصَّ عنه بعشرين» يقول: اجعل شدَّة هذا الضربِ الذي ضربتَه

---

(١) في النسخ: يضرب الرأس، والمثبت من التمهيد ٥/ ٣٣٥ والكلام منه.

(٢) سلف ٥/ ٢٣ - ٢٤ .

(٣) التمهيد ٥/ ٣٣٦ .

(٤) ص١٣٩ من هذا الجزء، والحديث أخرجه البخاري (٢٦٧١) عن ابن عباس.

(٥) الإشراف ٢/ ٢٧ .

(٦) الإشراف ٢/ ٢٥ دون ذكر ابن مسعود، وأخرج قول ابن مسعود عبد الرزاق (١٣٥١٩)، والطبراني في الكبير ٩/ ١٠٩ (٨٥٧٢)، والبيهقي ٨/ ٣٢٦ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٣٥١٦)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٤٨ ، والبيهقي ٨/ ٣٢٦ .

(٨) أسلم يوم الفتح، ومات في خلافة عثمان ﷺ بالمدينة. الإصابة ٩/ ٢١٧ .

(٩) أخرجه البيهقي ٨/ ٣١٧ .

(١٠) في (م) و(د) و(ز): أبو عبيدة، والمثبت من (خ) و(ظ)، والكلام في غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٣٠٦ - ٣٠٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة البيهقي ٨/ ٣١٧ - ٣١٨ .

قصاصاً بالعشرين التي بقيت؛ ولا تضربه العشرينَ، وفي هذا الحديث من الفقه أن ضربَ الشارب ضربٌ خفيف.

وقد اختلف العلماء في أشدِّ الحدود ضرباً، وهي:

الخامسة عشرة: فقال مالك وأصحابه واللّيث بن سعد: الضرب في الحدود كلِّها سواء، ضربٌ غير مُبَرِّح، ضربٌ بين ضربين[١]. وهو قول الشافعيّ ﷺ[٢]. وقال أبو حنيفة وأصحابه: التعزير أشدُّ الضرب، وضربُ الزنى أشدُّ من الضرب في الخمر، وضربُ الشارب أشدُّ من ضرب القذف. وقال الثَّوْرِيّ: ضربُ الزنى أشدُّ من ضرب القذف، وضرب القذف أشدُّ من ضرب الخمر. احتجَّ مالك بورود التوقيف على عدد الجلدات، ولم يَرِد في شيءٍ منها تخفيفٌ ولا تثقيلٌ عمن يجب التسليم له. احتجَّ أبو حنيفة بفعل عمر؛ فإنه ضرب في التعزير ضرباً أشدّ منه في الزنى. احتج الثورِيّ بأن الزنى لما كان أكثر عدداً في الجلدات استحال أن يكون القذف أبلغَ في النكاية. وكذلك الخمر؛ لأنه لم يثبت فيه الحدُّ إلا بالاجتهاد، وسبيل مسائل الاجتهاد لا تقوى قوّة مسائل التوقيف[٣].

السادسة عشرة: الحدُّ الذي أَوجب الله في الزنى والخمر والقذف وغير ذلك؛ ينبغي أن يُقام بين أيدي الحُكّام، ولا يُقيمه إلا فضلاءُ الناس وخيارُهم، يختارهم الإمامُ لذلك، وكذلك كانت الصحابةُ تفعلُ كلَّما وقع لهم شيءٌ من ذلك، ﷺ. وسبب ذلك: أنه قيامٌ بقاعدةٍ شرعيةٍ وقُرْبةٍ تعبُّديّة، تجبُ المحافظة على فعلها وقَدْرها ومحلِّها وحالها، بحيث لا يُتعدّى شيءٌ من شروطها ولا أحكامها؛ فإنَّ دمَ المسلم وحرمتَه عظيمةٌ، فيجب مراعاته بكل ما أمكن[٤]. رُويَ في[٥] الصحيح عن حُضين بن

---

(١) التمهيد ٥/ ٣٢٧.

(٢) الإشراف ٢/ ٢٣.

(٣) التمهيد ٥/ ٣٢٧ - ٣٣١، والاستذكار ٢٤/ ٩١ - ٩٢.

(٤) المفهم ٥/ ١٣٤ - ١٣٥.

(٥) لفظة «في» من (د).

المنذر أبي ساسان[(١)] قال: شهدتُ عثمانَ بن عفان أُتِي بالوليد قد صلَّى الصبحَ ركعتين، ثم قال: أَزيدُكم؟ فَشهِد عليه رجلان ـ أحدهما حُمرانُ ـ أنَّه شربَ الخمرَ، وشهد آخرُ أنَّه رآه يتقيَّأُ؛ فقال عثمانُ: إنه لم يتقيَّأ حتى شربَها، فقال: يا عليُّ، قُمْ فاجلِدْهُ. فقال عليّ: قم يا حسنُ فاجلدْه، فقال الحسن: وَلِّ حارَّها من تَوَلَّى قارَّها. فكأنه وَجَد عليه، فقال: يا عبد الله بن جعفر، قُمْ فاجلِدْه. فجَلَده وعليٌّ يَعُدُّ. الحديث[(٢)]. وقد تقدَّم في المائدة[(٣)]، فانظر قولَ عثمان للإمام عليّ: قم فاجلده.

السابعة عشرة: نصَّ الله تعالى على عدد الجلد في الزنى والقذف، وثبت التوقيفُ في الخمر على ثمانين من فعل عمر في جمعِ[(٤)] الصحابة ـ على ما تقدم في المائدة[(٥)] ـ فلا يجوز أن يُتعدَّى الحدُّ في ذلك كلِّه.

قال ابن العربيّ[(٦)]: وهذا ما لم يتتابع الناسُ في الشرِّ، ولا احْلَوْلت لهم المعاصي، حتى يتخذوها ضَرَاوة[(٧)]، ويعطفون عليها بالهَوَادة، فلا يتناهَوْا عن منكرٍ فعلوه؛ فحينئذٍ تتعيّن الشدّةُ، ويزاد الحدُّ لأجل زيادة الذنب. وقد أُتيَ عمر بسكران في رمضان، فضربه مئة: ثمانين حدّ الخمر، وعشرين لهتك حرمة الشهر[(٨)]، فهكذا يجبُ

(١) الرقّاشي البصري، كان صاحب راية عليّ يوم صفين مات سنة ٩٧هـ، قال العجلي والنسائي: ثقة. تهذيب التهذيب ١/ ٤٤٨ .

(٢) صحيح مسلم (١٧٠٧) (٣٨)، وهو في مسند أحمد (١٢٣٠). وقوله: «ولِّ حارّها من تولّى قارّها» هذا مثل من أمثال العرب، قال الأصمعي: معناه: ولِّ شدَّتَها من تولّى هنيئتها، والقارُّ: البارد؛ أي: ولِّ شدة إقامة الحدِّ من تولى إمرة المسلمين وتناول حلاوة ذلك. قاله في المفهم ٥/ ١٣٥ ، وينظر «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري ٢/ ٣٨١ .

(٣) لم يتقدم في المائدة ولا غيرها.

(٤) في (م) و(د) و(ز) و(ظ): جميع، والمثبت من (خ).

(٥) ٨/ ١٧٤ .

(٦) في أحكام القرآن له ٣/ ١٣١٥ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٧) أي: عادة. تهذيب اللغة ١٢/ ٥٦ .

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٥٣ .

أن تُركّب العقوبات على تغليظ الجنايات وهتك الحُرُمات. وقد لعب رجلٌ بصبيٍّ، فضربه الوالي ثلاث مئة سوطٍ. فلم يغيّر [ذلك] مالكٌ حين بَلَغه، فكيف لو رأى زماننا هذا، بهتك الحرمات والاشتهار بالمعاصي[١]، والتظاهر بالمناكر[٢]، وبيع الحدود، واستيفاء العبيد لها في منصب القُضاة، لمات كَمَداً ولم يُجالس أحداً؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قلت: ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ زِيدَ في حدِّ الخمر حتى انتهى إلى ثمانين.

وروى الدّارَقُطْنِيّ: حدّثنا القاضي الحسين بن إسماعيل، حدّثنا يعقوبُ بن إبراهيم الدَّوْرَقِيّ، حدّثنا صفوان بن عيسى، حدّثنا أسامة بن زيد، عن الزُّهريّ، قال: أخبرني عبد الرحمنُ بن أزهر، قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يومَ حُنين وهو يتخلَّل الناسَ يسألُ عن منزل خالد بن الوليد، فأُتيَ بسكران، قال: فقال رسول الله ﷺ لمن عنده، فضربوه بما في أيديهم. قال: وحَثَا رسولُ الله ﷺ عليه التراب. قال: ثم أُتيَ أبو بكر ﷺ بسكران، قال: فتوخّى الذي كان مِن ضربهم يومئذ، فضرب أربعين[٣].

قال الزُّهريّ: ثم أخبرني حُميد بن عبد الرحمن، عن ابن وَبْرَة الكلبي قال: أرسلني خالد بن الوليد إلى عمر، فأتيته[٤] ومعه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن

---

(١) في (م) و(ف): الاستهتار بالمعاصي، وفي (ظ): الأستار بالمعاصي. والمثبت من (د) و(ز).

(٢) في النسخ الخطية: بالمنكر، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي.

(٣) سنن الدارقطني (٣٣٢٠)، وأخرجه أحمد (١٦٨٠٩)، وأبو داود (٤٤٨٧)، والنسائي في الكبرى (٥٢٦٢) من طريق أسامة بن زيد عن الزهري، به. وهذا إسناد منقطع، الزهري لم يسمع من عبد الرحمن بن أزهر فيما ذكر الرازي في المراسيل ص١٩٠ عن الإمام أحمد، بينهما عبد الله بن عبد الرحمن بن الأزهر، كما أخرجه أبو داود (٤٤٨٨)، والنسائي في الكبرى (٥٢٦٤)، والدارقطني (٣٣٢٤) وقال النسائي: وهذا أولى بالصواب. اهـ وعبد الله بن عبد الرحمن بن الأزهر مجهول الحال، انفرد بالرواية عنه الزهري، ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان.

وأخرجه بإسناد حسن النسائي في الكبرى (٥٢٦٥)، والحاكم ٤/ ٣٧٤ من طريق محمد بن عمرو بن علقمة الليثي، عن أبي سلمة، عن عبد الرحمن بن أزهر، به مختصراً. وصححه الحاكم.

(٤) في (م) و(خ): قال فأتيته. ولم ترد هذه الزيادة عند الدارقطني.

عوف وعليّ وطلحة والزُّبير، وهم معه متكئون في المسجد، فقلت: إنَّ خالد بن الوليد أرسلني إليك وهو يقرأ عليك السلام ويقول: إنَّ الناس قد انهمكوا في الخمر، وتحاقروا العقوبة فيه، فقال عمر: هم هؤلاء عندك، فسَلْهم. فقال عليّ: نُراه إذا سكِر هَذَى، وإذا هَذَى افترى، وعلى المفتري ثمانون. قال: فقال عمر: أَبلِغْ صاحبَك ما قال. قال: فجلَدَ خالدٌ ثمانين، و[جلد] عمرُ ثمانين. قال: وكان عمر إذا أُتيَ بالرجل الضعيف الذي كانت منه الزَّلَّةُ، ضرَبَه أربعين. قال: وجلد عثمان أيضاً ثمانين وأربعين[١].

ومن هذا المعنى قوله ﷺ: «لو تأخَّر الهلالُ لزدتكم». كالمُنَكِّل لهم حين أبَوْا أن ينتهوا، في رواية: «لو مُدّ لنا الشهر لواصلنا وصالاً يَدَع المتعمِّقون تعمُّقَهم»[٢].

وروى حامد بن يحيى، عن سفيان، عن مِسْعَر، عن عطاء بن أبي مَرْوان، أن عليًّا ضرب النجاشيَّ في الخمر مئة جلدة. ذكره أبو عمر[٣]، ولم يذكر سبباً.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تمتنعوا عن إقامة الحدود شفقةً على المحدود، ولا تُخفِّفوا الضربَ من غير إيجاعٍ. هذا قول جماعة أهل التفسير[٤].

وقال الشَّعْبيّ والنَّخَعِيّ وسعيد بن جُبير: «لا تأخذكم بِهِما رأفةٌ» قالوا: في الضرب والجَلْد[٥]. وقال أبو هريرة ﷺ: «إقامة حدّ بأرضٍ، خيرٌ لأهلها من مطر

(١) سنن الدارقطني (٣٣٢١).

(٢) سلف ٣/ ٢١٠ .

(٣) في التمهيد ٥/ ٣١٧ ، وأخرجه عبد الرزاق (١٣٥٥٦)، والبيهقي ٨/ ٣٢١ من طريق سفيان، عن عطاء ابن أبي مروان، عن أبيه، أن علياً ضرب النجاشي الحارثي الشاعر، شرب الخمر في رمضان، فضربه ثمانين، ثم حبسه، فأخرجه من الغد، فضربه عشرين، ثم قال له: إنما جلدتك هذه العشرين لجرأتك على الله، وإفطارك في رمضان.

(٤) النكت والعيون ٤/ ٧٢ ، وزاد المسير ٦/ ٧ .

(٥) أخرج قولهم الطبري في تفسيره ١٧/ ١٤١ - ١٤٢ .

أربعين ليلة». ثم قرأ هذه الآية[١].

والرأفة: أرقُّ الرحمة[٢]. وقرئ: «رأَفةٌ» بفتح الألف على وزن فَعَلة[٣]، وقُرئ: «رآفة» على وزن فَعالة[٤]، ثلاث لغات، وهي كلُّها مصادر، أشهرها الأولى، من رَؤُفَ: إذا رَقَّ ورَحِم[٥].

ويقال: رأْفة ورآفة، مثل كَأْبة وكآبة، وقد رَأَفْتُ به ورؤُفْت به، والرؤوف من صفات الله تعالى: العطوفُ الرحيم[٦].

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُكم الله، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦] أي: في حكمه. وقيل: «في دِينِ اللهِ» أي: في طاعة الله وشرعه فيما أمركم به من إقامة الحدود. ثم قرّرهم على معنى التثبيت والحضّ بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾. وهذا كما تقول لرجل تحضّه: إن كنت رَجلاً فافعل كذا؛ أي: هذه أفعال الرجال[٧].

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: لا يشهد التعذيبَ إلا من لا يستحقّ التأديب[٨].

قال مجاهد: رَجُلٌ فما فوقه إلى ألف[٩]. وقال ابن زيد: لابدّ من حضور أربعة

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى ٨/ ٧٦ ، وفي الكبرى (٧٣٥١). وأخرجه أيضاً ٨/ ٧٥ و(٧٣٥٠) عنه مرفوعاً، وصوَّب الموقوف منه.

(٢) الفائق ١/ ٤١٦ .

(٣) وهي قراءة ابن كثير. السبعة ص٤٥٢ ، والتيسير ص١٦١ .

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٠ لابن جريج.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٦١ .

(٦) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٣٨ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢ ، وينظر تفسير الطبري ١٧/ ١٤٤ .

(٨) النكت والعيون ٤/ ٧٢ .

(٩) أخرجه عبد الرزاق (١٣٥٠٥)، والطبري في تفسيره ١٧/ ١٤٦ .

قياساً على الشهادة على الزنى، وأن هذا باب منه، وهو قول مالك والليث والشافعيّ. وقال عكرمة وعطاء: لابدّ من اثنين، وهذا مشهور قول مالك، فرآها موضع شهادة. وقال الزهريّ: ثلاثة؛ لأنه أقلّ الجمع[١]. الحسن: واحد فصاعداً[٢]، وعنه: عشرة[٣]. الربيع: ما زاد على الثلاثة.

وحجة مجاهد قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢] وقولُه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] ونزلت في تقاتل رجلين، فكذلك قوله تعالى: «ولْيَشْهَدْ عذابَهما طائِفةٌ مِن المؤمِنِين»، والواحد يسمى: «طائفة»، إلى الألف[٤]. وقاله ابن عباس وإبراهيم[٥].

وأمر أبو بَرْزَة الأسلميُّ بجاريةٍ له قد زَنَتْ وولَدَت، فألقى عليها ثوباً، وأمر ابنَه أن يضربَها خمسين ضربةً، غير مُبَرِّحٍ ولا خفيفٍ لكن مؤلم، ودعا جماعة ثم تلا: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦].

الحادية والعشرون: اختلف في المراد بحضور الجماعة، هل المقصد[٧] بها الإغلاظ على الزُّناة والتوبيخُ بحضرة الناس[٨]، وأن ذلك يَرْدَع المحدود، ومن شَهِده

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢، والنكت والعيون ٤/ ٧٢، وأخرج الأقوال الطبري في تفسيره ١٧/ ١٤٧-١٤٨.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٧٢.

(٣) زاد المسير ٦/ ٨، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٤٩، والكشاف ٣/ ٤٨.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٩٧، والمحرر الوجيز ٤/ ١٦٢.

(٥) زاد المسير ٦/ ٨، وذكر قول ابن عباس النحاس في معاني القرآن ٤/ ٤٩٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢، وقول إبراهيم ذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٣١٥، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ١٤٦.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ١٤٨، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٢٠ (١٤١٠٨).

(٧) في (م) و(د): المقصود، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز والكلام منه.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢.

وحضره يتّعظ به ويزدجر لأجله، ويَشِيع حديثُه فيَعْتبر به مَن بعده[١]، أو الدعاء لهما بالتوبة والرحمة؟ قولان للعلماء.

الثانية والعشرون: روي عن حُذيفةَ ﷺ، أنَّ النبيّ ﷺ قال: «يا معشر[٢] الناس، اتقوا الزنى، فإنَّ فيه ستَّ خصال: ثلاثاً في الدنيا، وثلاثاً في الآخرة، فأما اللواتي في الدنيا: فيذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر، وأما اللواتي في الآخرة: فيوجب السخط، وسوء الحساب، والخلود في النار»[٣].

وعن أنس، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أعمالَ أمتي تُعرضُ عليَّ في كلِّ جمعة مرتين، فاشتد غضبُ الله على الزُّناة»[٤].

وعن النبيّ ﷺ قال: «إذا كان ليلةُ النصف من شعبان، اطَّلع الله على أمتي، فغَفَر لكلِّ مؤمنٍ لا يشرك بالله شيئاً، إلا خمسةً: ساحراً، أو كاهناً، أو عاقًّا لوالديه، أو مدمِنَ خمر، أو مصِرًّا على الزِّنى»[٥].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٥ .

(٢) في (د) و(ز) و(م): معاشر، والمثبت من (خ) و(ظ).

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٨ ، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ١١١ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٧٥)، وابن الجوزي في الموضوعات (١٥٥٧). وفي إسناده مسلمة بن عُلَي الخشني، وهو متروك، وقال ابن عدي: غير محفوظ وهو منكر، وقال أبو نعيم: تفرد به مسلمة، وهو ضعيف الحديث، وقال البيهقي: إسناده ضعيف، مسلمة متروك. وقال ابن حبان في «المجروحين» ١/ ٩٨ : لا أصل له عن رسول الله ﷺ.

وقد روي من حديث ابن عباس ـ كما عند ابن عدي ٥/ ١٧٦٥ ـ ، وابن الجوزي في الموضوعات (١٥٥٤)، وحديث أنس كما عند الخطيب في تاريخه ١٢/ ٤٩٣ ، وابن الجوزي في الموضوعات (١٥٥٩)، قال ابن الجوزي: ليس فيها شيء يصح عن رسول الله ﷺ.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ١٧٩ . وفي إسناده محمد بن مصطفى له أوهام، وبقية بن الوليد يدلس، وهو ضعيف. وقد أخرج مسلم في صحيحه (٢٥٦٥) من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «تعرض الأعمال في كل يوم اثنين وخميس، فيغفر الله عزَّ وجلَّ في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا».

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج ابن ماجه (١٣٩٠) من حديث أبي موسى مرفوعاً: «إن الله ليطلع في ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن». وفي إسناده ضعف.

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: اختلف العلماء في معنى هذه الآية على ستة أوجهٍ من التأويل:

الأوّل: أن يكون مقصدُ الآية تشنيعَ الزنى وتبشيعَ أمرِه، وأنه محرّمٌ على المؤمنين. واتصال هذا المعنى بما قبلُ حسن بليغ، ويريد بقوله: «لا يَنْكِح» أي: لا يطأ؛ فيكون النكاح بمعنى الجماع. وردّد القصةَ مبالغةً وأخذاً من كِلَا الطرفين، ثم زاد تقسيمَ المُشْركةِ والمُشْرك من حيث إنَّ[1] الشرك أعمُّ في المعاصي من الزنى؛ فالمعنى: الزَّاني لا يطأُ في وقت زناه إلا زانيةً من المسلمين، أو مَنْ هي أخسُّ[2] منها من المشركات. وقد روي عن ابن عباس وأصحابه أنَّ النكاحَ في هذه الآية: الوطء[3]. وأنكر ذلك الزجّاج[4]، وقال: لا يعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج. وليس كما قال؛ وفي القرآن: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] وقد بيّنه النبيُّ ﷺ أنه بمعنى الوطء، وقد تقدّم في «البقرة»[5]. وذكر الطبريّ[6] ما يَنْحُو إلى هذا التأويل عن سعيد بن جبير وابن عباس وعكرمة، ولكن غير مخلّص ولا مكمّل.

وحكاه الخطابيّ[7] عن ابن عباس، وأن معناه: الوطء، أي: لا يكون زِنًى إلا بزانية، ويفيد أنه زنًى في الجهتين، فهذا قول.

---

(١) لفظ: إن. زيادة من (ظ).

(٢) في (م) و(د) و(خ) أحسن، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢ والكلام منه.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٥١ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٢٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز.

(٥) ٤/ ٩٠ .

(٦) في تفسيره ١٧/ ١٥٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٢ .

(٧) لم نقف عليه، وينظر معالم السنن ٣/ ١٨١ .

الثاني: ما رواه أبو داود والترمذِيّ عن عَمرو بن شُعيب، عن أبيه، عن جدّه، أن مَرْثد بن أبي مرثد كان يحمل الأُسارى بمكة، وكان بمكةَ بَغِيّ يقال لها: عَناق، وكانت صديقته، قال: فجئتُ النبيَّ ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أنكِح عَناق؟ قال: فسكتَ عني؛ فنزلت ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ﴾ فدعاني فقرأها عليَّ، وقال: «لا تَنكِحْها»(١). لفظ أبي داود، وحديث الترمذي أكمل.

قال الخطابيّ(٢): هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة، فأما الزانية المسلمة فإنّ العقدَ عليها لا يفسخ.

الثالث: أنها مخصوصة في رجل من المسلمين أيضاً، استأذن رسولَ الله ﷺ في نكاح امرأةٍ يقال لها: أمّ مَهْزُول، وكانت من بغايا الزَّانيات، وشرطت أن تنفق عليه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. قاله [عبد الله بن] عمرو بن العاصي ومجاهد(٣).

الرابع: أنها نزلت في أهل الصُّفّة، وكانوا قوماً من المهاجرين، ولم يكن لهم في المدينة مساكن ولا عشائر، فنزلوا صُفَّة المسجد، وكانوا أربع مئة رجلٍ يلتمسون الرزقَ بالنهار، ويأوون إلى الصُّفّة بالليل، وكان بالمدينة بغايا مُتَعالِنات بالفجور، مخاصِيب بالكُسْوة والطعام، فهمَّ أهلُ الصُّفَّة أن يتزوّجوهنّ، فيأووا إلى مساكنهنّ ويأكلوا من طعامهنّ وكسوتهنّ، فنزلت هذه الآية؛ صيانةً لهم عن ذلك. قاله ابن أبي صالح(٤).

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٥١)، وسنن الترمذي (٣١٧٧)، وسلف ٣/ ٤٥٤ .

(٢) في معالم السنن ٣/ ١٨١ .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٦ ، والخبر أيضاً في النكت والعيون ٤/ ٧٣ ، وأسباب النزول للواحدي ص٣٢٧ ، وما بين حاصرتين من مصادر التخريج. وأثر عبد الله بن عمرو أخرجه أحمد (٦٤٨٠) و(٧٠٩٩)، والنسائي في الكبرى (١١٢٩٥) والواحدي في أسباب النزول ٣٢٧-٣٢٨ ، وأما أثر مجاهد فأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ١٥٢ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٧ ، والنكت والعيون ٤/ ٧٣ ، وقد نسباه لأبي صالح.

الخامس: ذكره الزجاج[١] وغيره[٢] عن الحسن، وذلك أنه قال: المراد الزاني المحدودُ والزانيةُ المحدودة، قال: وهذا حكم من الله، فلا يجوز لزانٍ محدودٍ أن يتزوّجَ إلا محدودة. وقال إبراهيم النَّخَعِيّ نحوه[٣]. وفي «مصنَّف أبي داود» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَنْكِحُ الزَّاني المجلودُ[٤] إلا مثلَه»[٥]. ورويَ أنَّ محدوداً تزوّج غيرَ محدودة، ففرّق عليٌّ ﷺ بينهما[٦].

قال ابن العربي[٧]: وهذا معنًى لا يصح نظراً، كما لم يثبت نقلاً، وهل يصحُّ أن يُوقفَ نكاحُ من حُدَّ من الرجال على نكاحِ من حُدّ من النساء، فبأيّ أثرٍ يكون ذلك، وعلى أيِّ أصلٍ يُقاس من الشريعة!

قلت: وحكى هذا القول الكِيا[٨] عن بعض أصحاب الشافعي المتأخرين، وأنَّ الزاني إذا تزوَّج غيرَ زانيةٍ، فُرّق بينهما لظاهر الآية. قال الكِيَا: وإنْ هو عَمِلَ بالظاهر؛ فيلزمه عليه أن يجوّز للزاني التزوّجَ بالمشركة، ويجوّز للزَّانية أن تزوّج نفسَها من مشركٍ، وهذا في غاية البُعْد، وهو خروج عن الإسلام بالكلِّية، وربما قال هؤلاء: إنَّ الآية منسوخةٌ في المشركة[٩] خاصّةً، دون الزانية.

السادس: أنها منسوخة، روى مالك عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيّب

---

(١) في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٠ ونقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٣ .

(٢) الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٧٣ .

(٣) لم نقف عليه.

(٤) في النسخ عدا (خ): المحدود، والمثبت من (خ) ومصادر التخريج.

(٥) سنن أبي داود (٥٠٥٢)، وهو في مسند أحمد (٨٣٠٠)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٥٤٨).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٣ . وأخرج ابن أبي شيبة ٤/ ٢٧٣ عن ابن سابط أن علياً أُتي بمحدود... وابن سابط - وهو عبد الرحمن - كثير الإرسال، ولم يثبت سماعه من الصحابة.

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٣١٨ .

(٨) في أحكام القرآن له ٤/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٩) في النسخ: المشرك، والمثبت من أحكام القرآن للكيا الطبري.

قال: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ قال: نَسختْ هذه الآيةَ التي بعدها: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] ـ وقاله ابن عمر ـ وقال: دخلت الزانية في أيامَى المسلمين[(١)].

قال أبو جعفر النحاس: وهذا القول عليه أكثر العلماء، وأهل الفُتْيا يقولون: إنّ مَنْ زنى بامرأةٍ، فله أن يتزوَّجها ولغيره أن يتزوّجها، وهو قول ابن عمر، وسالم، وجابر بن زيد، وعطاء، وطاوس، ومالك بن أنس، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، وقال الشافعيّ: القول فيها كما قال سعيد بن المسيّب، إن شاء الله هي منسوخة[(٢)].

قال ابن عطية: وذِكْر الإشراك في هذه الآية يضعف هذه المناحي[(٣)].

قال ابن العربيّ[(٤)]: والذي عندي أنَّ النكاح لا يخلو أنْ يُراد به الوطء، كما قال ابن عباس، أو العقد، فإن أريد به الوطء، فإن معناه: لا يكون زنًى إلا بزانية، وذلك عبارة عن أنَّ الوطأين من الرجل والمرأة زنًى من الجهتين؛ ويكون تقدير الآية: وطءُ الزانية لا يقع إلا من زانٍ أو مشركٍ، وهذا يُؤْثَر عن ابن عباس، وهو معنى صحيح. فإن قيل: فإذا زنى بالغٌ بصبيةٍ، أو عاقلٌ بمجنونةٍ، أو مستيقظٌ بنائمةٍ، فإنَّ ذلك من جهة الرجل زنًى، فهذا زانٍ نَكَح غير زانية، فيخرج المرادُ عن بابه الذي تقدم. قلنا: هو زنًى من كلِّ جهة، إلا أن أحدهما سقط فيه الحدُّ، والآخر ثبت فيه. وإن أُريد به العقد كان معناه: أنَّ متزوِّجَ الزانيةِ التي قد زَنتْ ودَخَل بها ولم يستبرئها يكون بمنزلة

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٩، وأخرج الخبر من غير طريق مالك: الشافعي في الأم ٥/ ١٢، وابن أبي شيبة ٤/ ٢٧١ والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٣٨، والطبري في تفسيره ١٧/ ١٥٩، وقول ابن عمر في الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٤٣.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٣٨ -٥٣٩. وأخرج قول ابن عمر وسالم وجابر وعطاء وطاوس: ابن أبي شيبة ٤/ ٢٤٩ - ٢٥٠، وقول مالك في المدونة ٢/ ٢٧٨، وقول أبي حنيفة في أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٦٥، وقول الشافعي في الأم ٥/ ١٢.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٣.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣١٨.

الزاني، إلا أنه لا حدَّ عليه؛ لاختلاف العلماء في ذلك، وأما إذا عَقَد عليها ولم يدخل بها حتى يستبرئها، فذلك جائز إجماعاً[١].

وقيل: ليس المراد في الآية أنَّ الزَّاني لا ينكحُ قطُّ إلا زانيةً؛ إذ قد يتصوّر أن يتزوّج غير زانية، ولكن المعنى أنَّ من تزوج بزانيةٍ فهو زانٍ، فكأنه قال: لا ينكح الزانيةَ إلا زانٍ، فقلَب الكلامَ، وذلك أنه لا ينكح زانية إلا وهو راضٍ بزناها، وإنما يرضى بذلك إذا كان هو أيضاً يزني[٢].

الثانية: في هذه الآية دليل على أنَّ التزوّج بالزانية صحيح، وإذا زنت زوجةُ الرجل، لم يفسد النكاح، وإذا زنى الزوج، لم يفسد نكاحه مع زوجته؛ وهذا على أنَّ الآية منسوخة[٣]. وقيل: إنها محكمة. وسيأتي[٤].

الثالثة: رُوي أن رجلاً زنى بامرأة في زمن أبي بكر ﷺ، فجلدهما مئة جلدة، ثم زوّج أحدَهما من الآخر مكانه، ونفاهما سنةً[٥]. وروي مثل ذلك عن عمر، وابن مسعود، وجابر ﷺ[٦].

وقال ابن عباس: أوله سفاحٌ وآخره نكاح[٧]. ومَثَلُ ذلك مَثَلُ رجل سَرَق من حائطٍ ثمره، ثم أتى صاحبَ البستان فاشترى منه ثمره، فما سَرَق حرام؛ وما اشترى حلال. وبهذا أخذ الشافعيّ وأبو حنيفة، ورأوا أنَّ الماء لا حرمة له[٨].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٨ - ١٣١٩ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٧ -١٣١٨ .

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٥٣٨ - ٥٣٩ ، والإشراف ٤/ ١٠٢ .

(٤) في المسألة الخامسة الآتية.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٩ ، وأخرج أثر أبي بكر عبد الرزاق (١٢٧٩٦)، والبيهقي ٨/ ٢٢٣ .

(٦) أخرج هذه الآثار ابن أبي شيبة ٤/ ٢٤٨ - ٢٥٠ .

(٧) أخرجه سعيد بن منصور (٨٨٨) و(٨٨٩) (٨٩٠) والدارقطني (٣٦٨١)، والبيهقي ٧/ ١٥٥ .

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٨ ، وقول ابن عباس المذكور أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٨٩٤) من قول عكرمة.

وروي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: إذا زنى الرجلُ بالمرأة ثم نَكَحها بعد ذلك، فهما زانيانِ أبداً. وبهذا أخذ مالك ﷺ؛ فرأى أنَّه لا ينكحها حتى يستبرئها من مائه الفاسد؛ لأنَّ النكاح له حرمة، ومن حرمته ألا يُصَبَّ على ماء السِّفاح؛ فيختلط الحرامُ بالحلالِ، ويمتزج ماءُ المَهَانة بماء العِزّة(١).

الرابعة: قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: من كان معروفاً بالزِّنى أو بغيره من الفسوق، مُعْلِناً به، فتزوّج إلى أهل بيت سترٍ وغَرَّهم من نفسه، فلهم الخيارُ في البقاء معه أو فراقه، وذلك كعَيْبٍ من العيوب، واحتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا ينكحُ الزَّاني المجلودُ إلا مثلَه»(٢). قال ابن خُوَيْزمنداد: وإنما ذكر المجلودَ لاشتهاره بالفسق، وهو الذي يجب أن يفرّق بينه وبين غيره، فأما من لم يشتهر بالفسقِ فلا.

الخامسة: قال قوم من المتقدمين: الآية محكمةٌ غير منسوخة، وعند هؤلاء: مَنْ زنى فَسَد النكاح بينه وبين زوجته، وإذا زنت الزوجةُ فَسدَ النكاح بينها وبين زوجها. وقال قوم من هؤلاء: لا ينفسخُ النكاحُ بذلك، ولكن يُؤمر الرجلُ بطلاقها إذا زنت، ولو أمسكها أَثِم، ولا يجوز التَّزوّج بالزانية ولا من الزَّاني، بل لو ظهرت التوبةُ، فحينئذ يجوز النكاح(٣).

السادسة: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نكاح أولئك البغايا، فيزعم بعض أهل التأويل أنَّ نكاح أولئك البغايا حرَّمه الله تعالى على أمةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، ومن أشهرهنَّ عَناق(٤).

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣١٨، وأخرج أثر ابن مسعود عبد الرزاق (١٢٨٠٢)، وسعيد بن منصور (٨٩٦)، والطبراني في الكبير ٩/ ٣٣٦ (٩٦٧٠) البيهقي ٧/ ١٥٦ بلفظ «فهما زانيان ما اجتمعا»، وينظر المدونة ٢/ ٢٧٨.

(٢) سلف في المسألة الأولى ـ القول الخامس.

(٣) ينظر الإشراف ٤/ ١٠٢، ومصنف عبد الرزاق (١٢٨٠٧) و(١٢٨٠٨)، ومصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٣، وسلف ذكر عناق في المسألة الأولى ـ القول الثاني.

السابعة: حرَّم الله تعالى الزنى في كتابه، فحيثما زنى الرجلُ فعليه الحدُّ، وهذا قول مالك والشافعيّ وأبي ثَوْر، وقال أصحاب الرأي في الرجل المسلم: إذا كان في دار الحرب بأمانٍ وزنى هنالك ثم خَرجَ: لم يُحدّ. قال ابن المنذر[١]: دار الحرب ودار الإسلام سواءٌ، ومَنْ زنى فعليه الحدُّ؛ على ظاهر قوله ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

فيه ست وعشرون مسألة:

الأولى: هذه الآية نزلت في القاذفين، قال سعيد بن جُبير: كان سببها ما قيل في عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها. وقيل: بل نزلت بسبب القَذَفة عامًّا لا في تلك النازلة[٢].

وقال ابن المنذر[٣]: لم نجد في أخبار رسول الله ﷺ خبراً يدلُّ على تَصريح القذف، وظاهرُ كتاب الله تعالى مستغنًى به، دالٌّ[٤] على القذف الذي يُوجبُ الحدَّ، وأهل العلم على ذلك مجمعون.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ يريد يَسبُّون، واستعير له اسم الرَّمْي؛ لأنه إذايةٌ بالقول، كما قال النابغة:

وجرحُ اللسان كجرح اليدِ[٥]

(١) في الإشراف ٢/ ٤٣ وما قبله منه.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ .
(٣) في الإشراف ٢/ ٦١ - ٦٢ .
(٤) في النسخ عدا (ظ): دالاً، والمثبت من (ظ) والإشراف لابن المنذر.
(٥) نسبه ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ٣٢٠ لأبي كبشة، ونسبه الثعالبي في ثمار القلوب ص ٣٣٣ لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٨٥ ، وصدره: ولو عن نثا غيره جاءني.

وقال آخر:

رَمَانِي بأَمْرٍ كنتُ منه ووالدي   بريئاً ومن أجْلِ الطَّوِيِّ رمانِي[(١)]

ويسمّى: قذفاً، ومنه الحديث: «إنَّ ابنَ أميّة قذفَ امرأتَه بشَرِيك بن السَّحماء»[(٢)] أي: رماها.

الثالثة: ذكر الله تعالى في الآية النساء من حيث هنَّ[(٣)] أهمّ، ورَمْيُهنَّ بالفاحشة أشنع وأنكى للنفوس، وقَذْفُ الرجال داخلٌ في حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأمة على ذلك، وهذا نحو نصّه على تحريم لحم الخنزير، ودخل شحمه وغضارِيفه ونحو ذلك بالمعنى والإجماع. وحكى الزَّهراوِيُّ أن المعنى: والأنفس المحصنات؛ فهي بلفظها تعمُّ الرجالَ والنساءَ، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٤][(٤)].

وقال قوم: أراد بالمحصنات الفُروجَ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، فيدخل فيه فروجُ الرجال والنساء. وقيل: إنما ذكر المرأة الأجنبية إذا قُذفت؛ ليعطف عليها قذف الرجل زوجته، والله أعلم.

وقرأ الجمهور: «المحصَناتُ» بفتح الصاد، وكَسَرَها يحيى بن وَثّاب. والمحصَنات العفائف في هذا الموضع[(٥)]. وقد مضى في «النساء»[(٦)] ذكر الإحصان ومراتبه. والحمد لله.

---

(١) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي، وسلف ١/ ٤٨٣.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤٥٠)، ومسلم (١٤٩٦) عن أنس، وأخرجه البخاري (٢٦٧١) عن ابن عباس.

(٣) المثبت من (م) و(ظ) وفي (خ) و(د) و(ز): هو.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤، وقرأ: المحصِنات، بكسر الصاد: الكسائي. السبعة ص٢٣٠، والتيسير ص٩٥.

(٦) ٦/ ٢٤٠.

الرابعة: للقذف شروط عند العلماء تسعة:

شرطان في القاذف، وهما العقل والبلوغ؛ لأنهما أصلا التكليف، إذ التكليف ساقط دونهما.

وشرطان في الشيء المقذوف به، وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحدُّ ـ وهو الزنى أو اللواط ـ أو ينفيه من أبيه، دون سائر المعاصي.

وخمسة في المقذوف، وهي العقل، والبلوغ، والإسلام، والحريّة، والعفَّة عن الفاحشة التي رُميَ بها، كان عفيفاً من غيرها أم لا، وإنما شرطنا في المقذوف العقل والبلوغ ـ كما شرطناهما في القاذف ـ وإن لم يكونا من معاني الإحصان؛ لأجل أنَّ الحدَّ إنما وضع للزَّجر عن الإذاية بالمضرَّة الداخلة على المقذوف، ولا مضرّة على من عَدِم العقلَ والبلوغ؛ إذ لا يوصف الوطء[1] فيهما ولا منهما بأنه زنًى.

الخامسة: اتفق العلماءُ على أنه إذا صرَّح بالزنى؛ كان قذفاً ورَمْياً موجباً للحدّ، فإن عرَّض ولم يُصرِّح؛ فقال مالك: هو قذف. وقال الشافعيُّ وأبو حنيفة: لا يكون قذفاً حتى يقول: أردت به القذف. والدليل لما قاله مالك: هو أنَّ موضوع الحدّ في القذف إنَّما هو لإزالة المعرَّة التي أوقعها القاذف بالمقذوف، فإذا حصلت المعرّة بالتعريض، وَجَب أن يكون قذفاً كالصّريح[2] والمعوّل على الفهم، وقد قال تعالى مُخبراً عن شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧] أي: السفيه الضالّ، فعرّضوا له بالسبِّ بكلام ظاهره المدح في أحد التأويلات، حسبما تقدم في هود[3]. وقال تعالى في أبي جهل: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[4] [الدخان:٤٩]. وقال حكايةً عن مريم: ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٍ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨]

---

(١) في (م): اللواط، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٠-١٣٢١ والكلام منه.

(٢) في (م) و(د) و(ظ): كالتصريح، والمثبت من (ز) و(ف)، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٢.

(٣) ١١/ ١٩٤ - ١٩٥.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢١ - ١٣٢٢.

فمدحوا أباها ونَفَوْا عن أُمِّها البغاء، أي: الزنى، وعرّضوا لمريم بذلك؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٥٦] وكفرُهم معروف، والبهتان العظيم: هو التعريض لها، أي: ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أُمُّك بغيًّا، أي: أنت بخلافهما وقد أتَيْتِ بهذا الولد. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]. فهذا اللفظُ قد فُهم منه أنَّ المراد به أنَّ الكفّار على غير هدًى، وأن الله تعالى ورسوله على الهُدَى؛ ففُهِم من هذا التعريض ما يفهم من صريحه.

وقد حبس عمر ﷺ الحُطيئة لما قال:

دَعِ المكارِمَ لا ترحل لبُغْيتها ... واقْعد فإنّك أنت الطّاعِمُ الكاسي[(١)]

لأنه شبهه بالنساء في أنّهنَّ يُطْعَمْن ويُسقين ويُكسون.

ولما سمع عمر[(٢)] قول النجاشيّ:

قُبيِّلةٌ[(٣)] لا يَغدِرونَ بذمَّةٍ ... ولا يظلمونَ الناسَ حبَّةَ خَرْدَلِ

قال: ليت آل الخَطّاب[(٤)] كذلك. وإنما أراد الشاعر ضعفَ القبيلة، ومثلُه كثير.

السادسة: الجمهور من العلماء على أنّه لا حدَّ على مَنْ قذف رجلاً من أهل الكتاب، أو امرأةً منهم.

وقال الزُّهرِيّ وسعيد بن المسيّب وابن أبي لَيْلَى: عليه الحدُّ إذا كان لها ولد من مسلم.

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/١١٦، وبهجة المجالس ٣/١٠٦، والعقد الفريد ٥/٣١٧ - ٣١٨، والبيت سلف ١١/١٢٥.

(٢) لفظة: عمر من (ظ).

(٣) في (م): قبيلته. والنجاشي هو قيس بن عمرو، الحارثي الشاعر، كان فاسقاً رقيق الإسلام. قاله ابن قتيبة في الشعر والشعراء ص٣٢٩، والبيت فيه ص٣٣١.

(٤) في النسخ عدا (ظ): ليت الخطاب، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الشعر والشعراء ١/٣٣١.

وفيه قول ثالث: وهو أنه إذا قَذَف النصرانيةَ تحت المسلم، جُلِد الحدَّ.

قال ابن المنذر(١): وجُلّ العلماء مجمِعون وقائلون بالقول الأوّل، ولم أُدرك أحداً ولا لقِيته يخالف في ذلك، وإذا قذف النصرانيُّ المسلمَ الحرَّ، فعليه ما على المسلم: ثمانون جلدة، لا أعلم في ذلك اختلافاً.

السابعة: والجمهور من العلماء على أنَّ العبدَ إذا قذف حُرًّا يُجلد أربعين؛ لأنه حَدٌّ يتشطَّر بالرقِّ كحدِّ الزنى.

وروي عن ابن مسعود وعمر بن عبد العزيز وقَبِيصة بن ذؤيب: يجلد ثمانين. وجلدَ أبو بكر بن محمد عبداً قذف حُرًّا ثمانين، وبه قال الأوزاعيّ(٢).

احتج الجمهور بقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥](٣).

وقال الآخرون: فَهِمنا هناك أنَّ حدَّ الزنى لله تعالى، وأنه ربما كان أخفَّ فيمن قلَّت نِعمُ الله عليه، وأفحشَ فيمن عَظُمت نِعمُ الله عليه، وأما حدُّ القذف فحقٌّ للآدميّ وجب للجناية على عِرْض المقذوف، والجناية لا تختلف بالرقّ والحرية، وربما قالوا: لو كان يختلف لذُكر كما ذكر في الزنى.

قال ابن المنذر(٤): والذي عليه علماء الأمصار القولُ الأوّل، وبه أقول.

الثامنة: وأجمع العلماء على أنَّ الحرَّ لا يُجلد للعبد إذا افترى عليه(٥)؛ لتباين مرتبتهما، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَذَف مملوكَه بالزنى؛ أُقيم عليه الحدُّ

---

(١) في الإشراف ٢/ ٦٢ - ٦٣ وما قبله منه.

(٢) الإشراف ٢/ ٦٤، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٤، والاستذكار ٢٤/ ١١٩.

(٣) الاستذكار ٢٤/ ١١٩.

(٤) في الإشراف ٢/ ٦٤.

(٥) الإجماع لابن المنذر ص١٣٣، والإشراف له ٢/ ٦٤.

يومَ القيامة، إلا أن يكون كما قال» خرَّجه البخاريّ ومسلم[١]. وفي بعض طرقه: «مَنْ قَذَف عبدَه بزنًى ثمَّ لم يتب[٢]، أقيم عليه يوم القيامة الحدُّ ثمانين» ذكره الدّارَقُطْنيّ[٣].

قال العلماء: وإنما كان ذلك في الآخرة؛ لارتفاع المِلْك واستواء الشريف والوضيع والحرّ والعبد، ولم يكن لأحدٍ فضلٌ إلا بالتقوى؛ ولما كان ذلك؛ تكافأ الناسُ في الحدود والحرمة، واقتُصَّ من كلٍّ واحد لصاحبه إلا أن يعفوَ المظلومُ عن الظالم، وإنما لم يتكافؤوا في الدنيا؛ لئلا تدخل الداخلة على المالكين في مكافأتهم لهم، فلا تصح لهم حرمة ولا فضل في منزلة، وتبطل فائدة التسخير؛ حكمة من الحكيم العليم، لا إله إلا هو.

التاسعة: قال مالك والشافعيّ: مَنْ قَذَف من يحسَبه عبداً فإذا هو حرٌّ، فعليه الحدُّ. وقاله الحسن البصريّ، واختاره ابن المنذر[٤]. قال مالك: ومَنْ قَذَف أمَّ الولد حُدَّ. وروي عن ابن عمر، وهو قياس قول الشافعيّ. وقال الحسن البصريّ: لا حَدَّ عليه[٥].

العاشرة: واختلف العلماء فيمن قال لرجل: يا مَنْ وطئ بين الفخذين. فقال ابن القاسم: عليه الحدُّ؛ لأنه تعريض. وقال أشهب: لا حدَّ فيه؛ لأنه نسبةٌ إلى فعلٍ لا يُعدُّ زنًى إجماعاً[٦].

الحادية عشرة: إذا رمى صبيةً يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى، كان قذفاً عند مالك.

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٥٨)، وصحيح مسلم (١٦٦٠) واللفظ له، وهو في مسند أحمد (٩٥٦٧) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) في (م) و(ف): يثبت، والمثبت من باقي النسخ.

(٣) في سننه (٣٥٠٠) ورجال إسناده ثقات.

(٤) في الإشراف ٢/ ٦٥ .

(٥) المصدر السابق.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٢ .

وقال أبو حنيفة والشافعيّ وأبو ثور: ليس بقذفٍ؛ لأنه ليس بزنًى، إذ لا حدَّ عليها، ويعزّر. قال ابن العربيّ[(١)]: والمسألة محتملة مشكلة، لكن مالك طلب[(٢)] حمايةَ عِرْض المقذوف، وغيرُه راعى حمايةَ ظهر القاذف؛ وحمايةُ عرض المقذوف أولى؛ لأنَّ القاذف كَشَف ستره بطرف لسانه؛ فلزمه الحدُّ.

قال ابن المنذر[(٣)]: وقال أحمد في الجارية بنت تسعٍ: يُجلد قاذفها، وكذلك الصبيُّ إذا بلغ عشراً، ضُرب قاذفه. قال إسحاق: إذا قذف غلاماً يَطأُ مثلُه، فعليه الحدُّ، والجارية إذا جاوزت تسعاً مثل ذلك. قال ابن المنذر: لا يُحدّ من قَذَف من لم يبلغ، لأنَّ ذلك كذب، ويعزّر على الأذى.

قال أبو عبيد[(٤)]: في حديث عليّ ﷺ أنَّ امرأةً جاءته، فذكرت أنَّ زوجها يأتي جاريتها، فقال: إن كنتِ صادقةً رجمناه، وإن كنت كاذبةً جلدناك. فقالت: رُدّوني إلى أهلي غَيْرَى نَغِرَةً[(٥)].

قال أبو عبيد[(٦)]: في هذا الحديث من الفقه أنَّ على الرجل إذا واقع جارية امرأته الحدَّ.

وفيه أيضاً: أنَّه[(٧)] إذا قَذَفه بذلك قاذفٌ، كان على قاذفه الحدُّ؛ ألا تسمع قولَه: «وإن كنتِ كاذبةً جلدناك». ووجه هذا كلِّه إذا لم يكن الفاعل جاهلاً بما يأتي وبما يقول، فإن كان جاهلاً وادّعى شُبهة، دُرِئ عنه الحدُّ في ذلك كلِّه.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٢٢ ، وما قبله منه، وينظر الإشراف ٢/ ٧٣ .
(٢) في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٢ : غلّب.
(٣) في الإشراف ٢/ ٧٤ .
(٤) في غريب الحديث ٣/ ٤٤٦ - ٤٤٨ .
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ١٢ دون قوله «فقالت: ردوني إلى أهلي غيرى نغرة» وسيرد معنى هذه العبارة قريباً.
(٦) في غريب الحديث ٣/ ٤٤٧ .
(٧) لفظة «أنه» من (ظ).

وفيه أيضاً: أنَّ رجلاً لو قذف رجلاً بحضرة حاكمٍ، وليس المقذوف بحاضر، أنَّه لا شيء على القاذف حتى يجيء: فيطلب حدَّه؛ لأنَّه لا يدري لعله يُصدِّقه، ألا ترى أنَّ عليًّا لم يعرض لها.

وفيه: أنَّ الحاكم إذا قُذف عنده رجلٌ، ثم جاء المقذوف يطلب حقَّه، أَخذَه الحاكم بالحدِّ بسماعه؛ ألا تراه يقول: وإن كنتِ كاذبةً جلدناكِ؛ وهذا لأنه من حقوق الناس.

قلت: اختُلف: هل هو من حقوق الله، أو من حقوق الآدميين؟ وسيأتي[١].

قال أبو عبيد[٢]: قال الأصمعي: سألني شُعبة عن قوله: «غَيْرَى نَغِرة» فقلت له: هو مأخوذ من نَغَرِ القِدْرِ، وهو غليانُها وفَوْرُها؛ يقال منه: نَغِرت تَنْغَر، ونَغَرت تَنْغِر: إذا غلت. فمعناه: أنَّها أرادت أنَّ جوفَها يَغْلي من الغيظ والغَيْرة؛ لمّا لم تجد عنده ما تُريد. قال: ويقال منه: رأيت فلاناً يتنغَّر على فلانٌ، أي: يغلي جوفُه عليه غيظاً.

الثانية عشرة: من قذف زوجةً من أزواج النبيّ ﷺ، حُدّ حدَّين. قاله مسروق. قال ابن العربيّ[٣]: والصحيح أنه حدّ واحد؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية، ولا يقتضي شرفُهنَّ زيادةً في حَدِّ من قَذَفهن؛ لأنَّ شَرفَ المنزلة لا يُؤثِّر في الحدود [بزيادة]، ولا نَقْصها يُؤثِّر في الحدِّ بتنقيص. والله أعلم. وسيأتي الكلام فيمن قَذَف عائشةَ رضي الله عنها، هل يقتل أم لا؟[٤]

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾.

الذي يفتقر إلى أربعة شهداء دون سائر الحقوق: هو الزنى[٥]؛ رحمةً بعباده،

---

(١) في المسألة السابعة عشرة.

(٢) في غريب الحديث ٣/ ٤٤٧ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٥٢١ وما قبله وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) ص١٧٦-١٧٧ من هذا الجزء.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢١ .

وستراً لهم. وقد تقدّم في سورة النساء(١).

الرابعة عشرة: مِن شرطِ أداءِ الشهود الشهادةَ عند مالك رحمه الله: أن يكونَ ذلك في مجلسٍ واحدٍ فإن افترقت لم تكن شهادةً. وقال عبد الملك: تقبل شهادتُهم مجتمعين ومفترقين. فرأى مالك: أنَّ اجتماعَهم تعبُّد، وبه قال ابن الحسن. ورأى عبد الملك أن المقصودَ أداءُ الشهادة واجتماعها، وقد حصل(٢)، وهو قول عثمان البَتِّيّ وأبي ثَوْر، واختاره ابن المنذر(٣)؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ وقوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ ولم يذكر مفترقين ولا مجتمعين.

الخامسة عشرة: فإن تمَّت الشَهادةُ، إلا أنهم لم يُعَدَّلوا؛ فكان الحسنُ البصريُّ والشَّعْبيُّ يَريَان أنْ لا حدَّ على الشهود ولا على المشهود. وبه قال أحمد، والنّعمان، ومحمد بن الحسن. وقال مالك: إذا شهد عليه أربعةٌ بالزنى؛ فإن كان أحدهم مسخوطاً(٤) أو عبداً، يُجلدون جميعاً. وقال سفيان الثوريّ وأحمد وإسحاق في أربعة عميان يشهدون على امرأةٍ بالزنى: يضربون(٥).

السادسة عشرة: فإن رجع أحدُ الشهود وقد رُجم المشهود عليه في الزنى، فقالت طائفة: يَغرَمُ ربعَ الدِّية، ولا شيء على الآخرين. وكذلك قال قتادة، وحماد، وعكرمة، وأبو هاشم، ومالك، وأحمد، وأصحاب الرأي. وقال الشافعيّ: إن قال: عَمَدتُ ليُقتلَ، فالأولياء بالخيار إن شاؤوا قَتَلوا، وإن شاؤوا عَفَوا وأخذوا ربعَ الدِّية، وعليه الحدُّ. وقال الحسن البصريّ: يُقتل، وعلى الآخرين ثلاثةُ أرباع الدِّية. وقال ابن سِيرين: إذا قال: أَخطأتُ وأردتُ غيرَه، فعليه الدِّية كاملةً، وإن قال: تعمّدتُ، قُتل

(١) ٦/ ١٣٨ .
(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٣ ، والإشراف ٢/ ٥١ .
(٣) في الإشراف ٢/ ٥١ وما قبله وما بعده منه.
(٤) في (د) و(ز): مسقوطاً، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الإشراف، وجاء بعدها في (خ) و(ظ) و(ف): عليه.
(٥) الإشراف ٢/ ٥٣ .

به. وبه قال ابن شُبْرُمَة[١].

السابعة عشرة: واختلف العلماء في حدِّ القذف: هل هو من حقوق الله، أو من حقوق الأدميّين، أو فيه شائبة منهما؟ الأول: قول أبي حنيفة. والثاني: قول مالك والشافعيّ. والثالث: قاله بعض المتأخرين. وفائدة الخلاف: أنَّه إنْ كان حقًّا لله تعالى وبلَغَ الإمامَ، أقامه وإن لم يَطلب ذلك المقذوفُ، ونفعت القاذفَ التوبةُ فيما بينه وبين الله تعالى، ويتشطَّر فيه الحدُّ بالرقِّ كالزنى. وإن كان حقًّا للآدمي، فلا يقيمه الإمامُ إلا بمطالبة المقذوف، ويسقط بعفوه، ولم تنفع القاذفَ التوبةُ حتى يحلِّله المقذوفُ[٢].

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ قرأ الجمهور على إضافة الأربعة إلى الشهداء. وقرأ عبد الله بن مسلم بن يسار، وأبو زُرعة بن عمرو بن جرير: «بِأربعةٍ» بالتنوين «شُهَدَاءَ»[٣].

وفيه أربعة أوجه: يكون في موضع جرٍّ على النعت لأربعة، أو بدلاً، ويجوز أن يكون حالاً من نكرة أو تمييزاً، وفي الحال والتمييز نظر؛ إذ الحال من نكرة، والتمييز مجموع، وسيبويه[٤] يرى أنَّ تنوين العدد وتركَ إضافته إنما يجوز في الشعر. وقد حسّن أبو الفتح عثمان ابن جِنّي[٥] هذه القراءةَ وحبب[٦] على قراءة الجمهور.

---

(١) الإشراف ٢/ ٥٣ - ٥٤ . وفيه رواية أخرى عن الحسن: يقتل الذي أكذب نفسه، وعلى الآخرين الدية.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٢٤ ، وينظر الإشراف ٢/ ٧٩ ، وأحكام القرآن للكيا ٤/ ٢٩٩ ، وزاد المسير ٦/ ١١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ ، وقراءة عبد الله وأبي زرعة في القراءات الشاذة ص١٠٠ ، والمحتسب ٢/ ١٠١ .

(٤) في الكتاب ١/ ٢٠٨ ، ونقله عنه المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ .

(٥) في المحتسب ٢/ ١٠١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ .

(٦) كذا في (م) والمثبت منه، ولم تجود هذه الكلمة في النسخ الخطية، وسقطت من (ظ)، ووقع في المحرر الوجيز. ورجحها، بدل: حبب.

قال النحاس[(١)]: ويجوز أن يكون «شهداء» في موضع نصب، بمعنى: ثم لم يُحضروا أربعةَ شهداءَ.

التاسعة عشرة: حكم شهادة الأربعة أن تكون على معايَنة، يرَوْن ذلك كالمِرْوَد في المُكْحُلة[(٢)]، على ما تقدّم في «النساء»[(٣)] في نص الحديث. وأن تكون في موطنٍ واحد، على قول مالك[(٤)]، وإن اضطرب واحد منهم جُلد الثلاثةُ، كما فعل عمر ﷺ في أمر المغيرة بن شُعبة؛ وذلك أنه شَهد عليه بالزِّنى أبو بكرة نُفيع بن الحارث، وأخوه نافع ـ وقال الزهراوي: عبد الله ـ بن الحارث، وزياد أخوهما لأمٍّ وهو مستلحق معاوية، وشِبْل بن مَعْبد البَجَلي، فلما جاؤوا لأداء الشهادة وتوقَّف زياد ولم يؤدِّها، جَلَد عمرُ الثلاثةَ المذكورين[(٥)].

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ الجَلْد: الضرب، والمجالدة: المضاربة في الجلود أو بالجلود، ثم استعير الجَلْد لغير ذلك من سيفٍ أو غيره، ومنه قول قيس بن الخَطِيم:

أجالدُهم يومَ الحديقةِ حاسراً كأنَّ يدي بالسَّيف مِخراقُ لاعبِ[(٦)]

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٢٨ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ .

(٣) ٦/ ١٣٨ .

(٤) سلف في المسألة الرابعة عشرة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ ، وعلق البخاري الخبر مختصراً قبل الحديث (٢٦٤٨)، وأخرجه الشافعي في الأم ٧/ ٤١ ، وعبد الرزاق (١٣٥٦٤) (١٣٥٦٥) (١٣٥٦٦)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٩٢ ، والطحاوي في شرح المعاني ٤/ ١٥٣ ، والطبراني في الكبير (٧٢٢٧)، والحاكم ٣/ ٤٤٨ ، والبيهقي ٨/ ٢٣٥ قال ابن كثير في إرشاد الفقيه ٢/ ٣٦٨ : وهو مشهور من طرق جيدة، وهو كالمستفيض بين العلماء وأهل السير والتواريخ.

(٦) البيت في ديوان قيس ص٢٠٧ ، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ . والحديقة: قرية من أعراض المدينة من طريق مكة، كانت بها وقعة بين الأوس والخزرج قبل الإسلام. معجم البلدان ٢/ ٢٣٢ ، والمِخراق: ما يلعب به الصبيان من الخِرَق المفتولة. تهذيب اللغة ٧/ ٢٤ .

﴿ثَمَٰنِينَ﴾ نصب على المصدر ﴿جَلْدَةً﴾ تمييز. ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ هذا يقتضي مدةَ أعمارهم، ثم حكم عليهم بأنهم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله عزَّ وجلَّ[١].

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ في موضع نصب على الاستثناء، ويجوز أن يكون في موضع خفضٍ على البدل، والمعنى: ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً، إلا الذين تابوا[٢] وأصلحوا من بعد القذف ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فتضمنت الآية ثلاثة أحكامٍ في القاذف: جَلْدَهُ، وردّ شهادتِه أبداً، وفسقَه، فالاستثناء غير عاملٍ في جَلده بإجماعٍ؛ إلا ما رُوي عن الشَّعْبيّ على ما يأتي، وعاملٌ في فسقه بإجماعٍ[٣].

واختلف الناس في عمله في ردّ الشهادة؛ فقال شُريح القاضي، وإبراهيم النَّخَعِيّ، والحسن البصريّ، وسفيان الثَّوْريّ، وأبو حنيفة: لا يعمل الاستثناء في ردِّ شهادته، وإنَّما يزول فسقه عند الله تعالى، وأما شهادة القاذف فلا تُقبل البتةَ ولو تاب وأكذبَ نفسَه، ولا بحال من الأحوال. وقال الجمهور: الاستثناء عامل في ردِّ الشهادة، فإذا تاب القاذف، قُبلت شهادتُه[٤]، وإنما كان ردُّها لعلة الفسق، فإذا زال بالتوبة، قُبلت شهادتُه مطلقاً قبل الحدِّ وبعده، وهو قول عامة الفقهاء.

ثم اختلفوا في صورة توبته: فمذهب عمر بن الخطاب ﷺ، والشّعبيّ، وغيره: أن توبتَه لا تكون إلا بأن يُكذِّب نفسَه في ذلك القذف الذي حُدَّ فيه، وهكذا فعل عمر؛ فإنه قال للذين شهدوا على المغيرة: مَنْ أكذبَ نفسَه، أَجَزْتُ شهادتَه فيما استقبل، ومن لم يفعل لم أُجِز شهادتَه. فأكذبَ شِبْل بن معبد ونافع بن الحارث بن كَلَدة

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥ . وسيرد خبر الشعبي .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥ .

أنفسَهما وتابا، وأبى أبو بكرةَ أن يفعلَ؛ فكان لا يقبل شهادته[١]. وحكى هذا القولَ النحاسُ[٢] عن أهل المدينة.

وقالت فرقة ـ منها مالك رحمه الله تعالى وغيره ـ: توبتُه أن يَصْلُح ويَحْسُن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيبٍ، وحسبه النَّدمُ على قَذْفه والاستغفارُ منه، وتركُ العَود إلى مثله، وهو قول ابن جرير[٣].

ويروى عن الشّعبيّ أنه قال: الاستثناء من الأحكام الثلاثة؛ إذا تاب وظهرت توبته: لم يُحدّ، وقُبلت شهادتُه، وزال عنه التفسيق؛ لأنَّه قد صار ممن يُرْضَى من الشهداء، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [طه: ٨٢] الآية[٤].

الثانية والعشرون: اختلف علماؤنا رحمهم الله تعالى متى تسقط شهادة القاذف، فقال ابن الماجِشُون: بنفس قذفه. وقال ابن القاسم وأشهبُ وسُحْنون: لا تسقط حتى يجلد، فإن مَنع من جَلده مانعُ عفوٍ أو غيره، لم تردّ شهادته. وقال الشيخ أبو الحسن اللَّخْمِيُّ: شهادته في مدة الأجل موقوفة، ورجّح القول بأنَّ التوبةَ إنما تكون بالتكذيب في القذف، وإلا فأيّ رجوع لعَدْل إن قَذف وحُدَّ وبقي على عدالته[٥].

الثالثة والعشرون: واختلفوا أيضاً على القول بجواز شهادته بعد التوبة في أيِّ شيء تجوز؟

فقال مالك رحمه الله تعالى: تجوز في كلِّ شيءٍ مطلقاً، وكذلك كلّ من حُدَّ في شيء من الأشياء[٦]، رواه نافع وابن عبد الحكم عن مالك، وهو قول ابن كنانة[٧].

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥، وأخرج خبر عمر: الطبري في تفسيره ١٧/ ١٦٣ و ١٦٤.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٥٠٢.

(٣) في تفسيره ١٧/ ١٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٠٢.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥.

(٧) النوادر والزيادات ٨/ ٣٣٧، والكافي ٢/ ٨٩٧.

وذكر الوَقَار[١] عن مالك أنه لا تقبل شهادته فيما حُدّ فيه خاصة، وتقبل فيما سوى ذلك، وهو قول مُطَرِّف وابن الماجِشُون، وروى العُتْبِيّ عن أَصْبَغ وسُحنون مثله[٢].

قال سُحْنون: من حُدَّ في شيءٍ من الأشياء، فلا تجوز شهادتُه في مثل ما حُدَّ فيه. وقال مُطَرِّف وابن الماجشون: من حُدَّ في قذف أو زنًى، فلا تجوز شهادتُه في شيءٍ من وجوه الزنى، ولا في قذفٍ ولا لِعانٍ، وإن كان عدلاً. وروياه عن مالك، واتفقوا على ولد الزنى: أن شهادته لا تجوز في الزنى[٣].

الرابعة والعشرون: الاستثناء إذا تعقَّب جُمَلاً معطوفةً، عاد إلى جميعها عند مالك والشافعيّ وأصحابهما، وعند أبي حنيفة وجُلِّ أصحابه: يرجع الاستثناء إلى أقرب مذكور، وهو الفسق، ولهذا لا تُقبل شهادته، فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة[٤].

وسبب الخلاف في هذا الأصل شيئان[٥]:

أحدهما: هل هذه الجمل في حُكم الجملة الواحدة للعطف الذي فيها، أو لكلِّ جملةٍ حُكمُ نفسِها في الاستقلال، وحرفُ العطف محسِّنٌ لا مُشْرِك، وهو الصحيح في عطف الجمل؛ لجواز عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض، على ما يعرف من النحو.

السبب الثاني: يُشبَّه الاستثناء بالشرط في عَوْده إلى الجُمل المتقدِّمة، فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء، أَوْ لا يُشبَّه به؛ لأنه من باب القياس في اللغة، وهو فاسد

(١) هو محمد أبو بكر بن أبي يحيى زكريا، كان حافظاً للمذهب، توفي سنة (٢٦٩هـ) وقيل غير ذلك. ترتيب المدارك ٣/ ٩١ .

(٢) الكافي ٢/ ٨٩٧ ، والنوادر والزيادات ٨/ ٣٣٨، وعقد الجواهر ٣/ ١٤٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥ . والنوادر والزيادات ٨/ ٣٣٩ .

(٤) إحكام الفصول للباجي ٢٧٧ ، والمحصول لابن العربي ص٨٤ – ٨٥ ، والمحصول للرازي ٣/ ٤٣ .

(٥) ينظر لهذين الشيئين: المحصول للرازي ٣/ ٤٣ وما بعدها.

على ما يعرف في أصول الفقه. والأصل أنَّ كلَّ ذلك محتمِل ولا ترجيح، فتعيَّن ما قاله القاضي من الوقف(١).

ويتأيّد الإشكال بأنه قد جاء في كتاب الله عزَّ وجلَّ كِلَا الأمرين؛ فإن آية المحاربة(٢) فيها عودُ الضمير إلى الجميع باتفاق، وآية قتل المؤمن خطأً(٣) فيها ردُّ الاستثناء إلى الأخيرة باتفاق، وآية القذف محتملة للوجهين؛ فتعيّن الوقف من غير مَيْن(٤).

قال علماؤنا: وهذا نظر كُليٌّ أصوليٌّ، ويترجَّح قولُ مالك والشافعيّ رحمهما الله من جهة نظر الفقه الجزئي، بأن يقال: الاستثناء راجع إلى الفسق [والنهي عن قبول الشهادة](٥) جميعاً، إلا أن يفرق بين ذلك بخبر يجب التسليم له، وأجمعت الأمة على أنَّ التوبةَ تمحو الكفرَ، فيجب أن يكون ما دون ذلك أوْلى، والله أعلم.

قال أبو عبيد(٦): الاستثناء يرجع إلى الجُمَل السابقة، قال: وليس مَن نُسبَ إلى الزنى بأعظم جُرْماً من مرتكب الزنى، ثم الزّاني إذا تاب قُبلت شهادتُه؛ لأن «التائبَ من الذَّنب كمَنْ لا ذَنْبَ له»(٧)، وإذا قبل الله التوبةَ من العبد، كان العباد بالقبول

---

(١) ينظر إحكام الفصول ٢٧٧ للباجي.

(٢) في سورة المائدة الآية ٣٣: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٣) في سورة النساء الآية ٩٢: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾.

(٤) المَيْن: الكذب. القاموس (مين).

(٥) في النسخ الخطية: والتوبة، بدل الكلام الواقع بين حاصرتين، والمثبت من فتح القدير ٤/ ٩، ومما سيرد في المسألة الآتية.

(٦) في الناسخ والمنسوخ له ص١٥٣ - ١٥٤.

(٧) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في الكبير (١٠٢٨١) عن ابن مسعود من طريق أبي عبيدة قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٠: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.

وله شواهد عن ابن عباس، وأبي سعدة الأنصاري، وأبي عتبة الخولاني. ينظر سنن البيهقي ١٠/ ١٥٤.

أولى؛ مع أنَّ مثل هذا الاستثناء موجودٌ في مواضع من القرآن؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [المائدة: ٣٣]، ولا شك أنَّ هذا الاستثناء إلى الجميع.

وقال الزجاج[(١)]: وليس القاذف بأشدَّ جُرْماً من الكافر، فحقُّه إذا تاب وأصلَحَ أن تُقبل شهادته، قال: وقوله: «أبداً» أي: ما دام قاذفاً، كما يقال: لا تُقبل شهادة الكافر أبداً؛ فإنَّ معناه: ما دام كافراً.

وقال الشَّعْبي للمخالف في هذه المسألة: يقبلُ الله توبتَه، ولا تَقبلون شهادتَه![(٢)].

ثم إن كان الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة عند أقوامٍ من الأصوليين، فقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ تعليل لا جملة مستقلةٌ بنفسها، أي: لا تقبلوا شهادتَهم لفسقهم، فإذا زال الفسقُ فلِمَ لا تُقبل شهادتهم؟. ثم توبةُ القاذف إكذابُه نفسَه، كما قال عمرُ لقَذَفة المغيرة بحضرةِ الصحابة من غير نكيرٍ، مع إشاعة القضية وشهرتِها من البصرة إلى الحجاز وغيرِ ذلك من الأقطار. ولو كان تأويل الآية ما تأوَّله الكوفيون، لم يجز أن يذهب علمُ ذلك عن الصحابة، ولقالوا لعمر: لا يجوز قبول توبة القاذف أبداً، ولم يسعهم السكوتُ عن القضاء بتحريف تأويل الكتاب؛ فسقط قولُهم، والله المستعان.

الخامسة والعشرون: قال القُشيريّ: ولا خلاف أنَّه إذا لم يُجلد القاذفُ، بأن مات المقذوفُ قبل أن يطالِبَ القاذفَ بالحدِّ، أو لم يُرفع إلى السلطان، أو عفا المقذوفُ، فالشهادة مقبولةٌ؛ لأنَّ عند الخصم في المسألة النهي عن قبول الشهادة معطوفٌ على الجلد، قال الله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾. وعند هذا قال الشافعيّ[(٣)]: هو قبل أن يُحَدَّ شرٌّ منه حين حُدَّ؛ لأنَّ الحدود كفاراتٌ،

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٣١.

(٢) أخرجه أبو عبيد في الناسخ ص١٥١، وعبد الرزاق (١٥٥٥٢).

(٣) في الأم ٧/ ٤١ - ٤٢.

فكيف تُردُّ شهادتُه في أحسن حاليه دون أخسِّهما.

قلت: هكذا قال، ولا خلاف، وقد تقدَّم[١] عن ابن الماجشون أنه بنفس القذف تُردُّ شهادته، وهو قول الليث، والأوزاعيّ، والشافعيّ: تردُّ شهادتُه وإن لم يحدّ[٢]؛ لأنَّه بالقذف يفسق؛ لأنه من الكبائر، فلا تُقبل شهادته حتى تصحَّ براءتُه بإقرار المقذوف له بالزنى، أو بقيام البينة عليه.

السادسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ يريد: إظهارَ التوبة. وقيل: وأصلحوا العملَ. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث تابوا وقَبِلَ توبتَهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

فيه ثلاثون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ «أنفسهم»[٤] بالرفع على البدل، ويجوز النصب على الاستثناء، وعلى خبر «يكن».

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ﴾ بالرفع قراءةُ الكوفيين[٥] على الابتداء والخبر، أي: فشهادةُ أحدهم التي تُزيل عنه حدَّ القذف أربعُ شهادات. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو: «أربعَ» بالنصب[٦]؛ لأن معنى «فشهادةُ»: أن يشهدَ، والتقدير: فعليهم

---

(١) ص١٣٤ من هذا الجزء.

(٢) قول الشافعي في الأم ٧/ ٤١ .

(٣) الوسيط ٣/ ٣٠٥ .

(٤) زيادة من (م).

(٥) يعني هي قراءة عاصم في رواية حفص عنه، وحمزة، والكسائي. السبعة ص٤٥٢ ، والتيسير ص١٦١ .

(٦) وقرأ بها أيضاً ابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية شعبة عنه، كما في المصدرين السالفين.

أن يَشهد أحدُهم أربعَ شهادات، أو: فالأمرُ أن يشهدَ أحدُهم أربعَ شهادات[١]، ولا خلافَ في الثاني أنه منصوبٌ بالشهادة.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ رفع بالابتداء، والخبرُ «أنَّ» وصلتُها، ومعنى المخفَّفة كمعنى المُثقَّلة؛ لأن معناها: أنَّه[٢]. وقرأ أبو عبد الرحمن وطلحةُ وعاصم في رواية حفص «والخامسةَ» بالنصب[٣]، بمعنى: وتشهدُ الشهادةَ الخامسة. الباقون بالرفع على الابتداء، والخبرُ في «أنَّ لعنةَ الله عليه»، أي: والشهادةُ الخامسةُ قولُه: لعنةُ الله عليه.

الثانية: في سبب نزولها، وهو ما رواه أبو داود عن ابن عباس أنَّ هلالَ بنَ أمية قذفَ امرأتَه عند النبيِّ ﷺ بشَرِيك بن سَحْماء، فقال النبيُّ ﷺ: «البَيِّنَة، أو حدٌّ في ظهرك». قال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا رجلاً على امرأته يلتمس البينة! فجعل النبيُّ ﷺ يقول: «البينةَ، وإلَّا حَدٌّ في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك بالحقِّ، إني لصادق، ولَيُنْزِلَنَّ الله في أمري ما يُبرِّئ ظهري من الحدِّ. فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. الحديث بكماله[٤].

وقيل: لمَّا نزلت الآية المتقدِّمةُ في الذين يرمون المحصنات، وتناولَ ظاهرُها الأزواجَ وغيرَهم، قال سعد بن معاذ[٥]: يا رسول الله، إن وجدتُ مع امرأتي رجلاً؛ أُمهلُه حتى آتيَ بأربعة! والله لأضربنَّه بالسَّيف غيرَ مُصْفِح عنه. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٩ ، وقراءة التخفيف في الموضعين هي قراءة نافع، فقد قرأ: «أنْ لعنةُ الله»، و«أنْ غَضِبَ اللهُ».

(٣) ذِكْر عاصم هنا وهم، ولم يذكره النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٢٩ ، وعنه نقل المصنف، وقد قرأ عاصم وحده من العشرة في رواية حفص: والخامسةَ، بالنصب، في الموضع الثاني. وأما في الموضع الأول فالعشرة قرؤوا بالرفع. وقرأ أبو عبد الرحمن ـ وهو السُّلَمي ـ وطلحة بالنصب في الموضعين. ينظر السبعة ص٤٥٣ ، والتيسير ص١٦١ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٦٦ .

(٤) سنن أبي داود (٢٢٥٤)، وأخرجه البخاري أيضاً (٤٧٤٧)، وسلفت قطعة منه ص١٠٨ من هذا الجزء .

(٥) كذا نقل المصنف عن ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥ ، وهو وهم، وصوابه: سعد بن عبادة كما في المصادر.

«أتعجبون من غَيْرة سعدٍ؟! لأنا أغْيَرُ منه، واللهُ أغْيَرُ مني»[١]. وفي ألفاظ سعد رواياتٌ مختلفة، هذا نحو معناها.

ثم جاء من بعد ذلك هلالُ بنُ أميةَ الواقفي، فرمى زوجته بشَرِيك بن سَحْماء البَلَوي على ما ذكرنا، وعزمَ النبيُّ ﷺ على ضربه حدَّ القذف، فنزلت هذه الآيةُ عند ذلك، فجمعهما رسول الله ﷺ في المسجد وتلاعنا، فتلكَّأتِ المرأة عند الخامسة لمَّا وُعِظت وقيل: إنها مُوجِبة، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم، فالْتَعَنَت، وفرَّق رسول الله ﷺ بينهما، ووَلَدت غلاماً كأنه جَمَلٌ أوْرَق ـ على النَّعت المكروه ـ ثم كان الغلام بعد ذلك أميراً بمصر، وهو لا يعرف لنفسه أباً[٢].

وجاء أيضاً عُوَيْمِرٌ العَجْلانيُّ، فرمى امرأته ولاعن[٣]. والمشهورُ أن نازلة هلالٍ كانت قبلُ، وأنها سبب الآية[٤]. وقيل: نازلةُ عويمرِ بن أشقر[٥] كانت قبلُ، وهو حديث صحيحٌ مشهورٌ خرَّجه الأئمة.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨١٦٨)، والبخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ. دون قوله: لما نزلت الآية المتقدمة... وقوله: غير مصفح: قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٩/ ٣٢١ : قال عياض: هو بكسر الفاء وسكون الصاد المهملة. قال: ورويناه أيضاً بفتح الفاء. فمن فتح جعله وصفاً للسيف وحالاً منه، ومن كسر جعله وصفاً للضارب وحالاً منه. اهـ . وزعم ابن التين أنه وقع في سائر الأمهات بتشديد الفاء، وهو من صفح السيف، أي: عرضه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٥ - ١٦٦ ، وخبر الملاعنة بين هلال وزوجته هو من حديث ابن عباس السالف. وقوله: أورق، أي: أسمر.

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٨٣٠)، والبخاري (٤٧٤٥)، ومسلم (١٤٩٢): (١) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٦ .

(٥) كذا قال المصنف: عويمر بن أشقر، وهي رواية القعنبي عن مالك كما ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٤٤٧ ، وقال: وكذا أخرجه أبو داود وأبو عوانة من طريق عياض بن عبد الله الفهري عن الزهري، ووقع في الاستيعاب: عويمر بن أبيض، وعند الخطيب في «المبهمات»: عويمر بن الحارث، وهذا هو المعتمد، فإن الطبري نسبه في «تهذيب الآثار» فقال: هو عويمر بن الحارث بن زيد بن الجدّ بن عجلان، فلعل أباه كان يلقب أشقر، أو أبيض.

قال أبو عبد الله بنُ أبي صُفْرة: الصحيحُ أنَّ القاذفَ لزوجه عُويمر، وهلال بن أميةَ خطأ[١].

قال الطبريُّ ـ يستنكر قوله في الحديث: هلال بن أمية ـ: وإنما القاذفُ عويمرُ بن [الحارث] زيد بنِ الجَدِّ بن العَجْلاني، شهد أُحُداً مع النبيِّ ﷺ، رماها بشَرِيك بن السَّحْماء[٢]، والسَّحماءُ أمُّه، قيل لها ذلك لسوادها، وهو ابنُ عبدةَ بنِ الجدِّ بن العَجْلاني؛ كذلك كان يقول أهل الأخبار.

وقيل: قرأ النبيُّ ﷺ على الناس في الخطبة يوم الجمعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، فقال عاصم بن عَديٍّ الأنصاري: جعلني الله فداك، لو أن رجلاً منَّا وجد على بطن امرأته رجلاً، فتكلَّم فأخبر بما جرى، جُلِد ثمانين، وسمَّاه المسلمون فاسقاً، فلا تُقبل شهادته، فكيف لأحدنا عند ذلك بأربعة شهداء، وإلى أن يلتمس أربعةَ شهود، فقد فرغ الرجل من حاجته! فقال عليه الصلاة والسلام: «كذلك أُنزِلت يا عاصم بنَ عَدي». فخرج عاصم سامعاً مطيعاً، فاستقبله هلال بن أمية يسترجع، فقال: ما وراءك؟ فقال: شرٌّ! وجدت شريك بن السَّحْماء على بطن امرأتي خَولةَ يزني بها. وخولةُ هذه: بنتُ عاصم بن عدي[٣]، كذا في هذا الطريق أنَّ الذي وجد مع امرأته شريكاً هو هلالُ بن أمية، والصحيح خلافُه حسبما تقدَّم بيانه.

---

(١) أورد قوله أبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ٣٠٠، قال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤٥٠: قول ابن أبي صفرة دعوى مجردة، وكيف يجزم بخطأ حديث ثابت في الصحيحين مع إمكان الجمع؟. وذكر ٩/ ٤٥٠ كيفية الجمع بأن يكون هلال سأل أولاً، ثم سأل عويمر، فنزلت في شأنهما معاً . . . وقال أيضاً ٨/ ٤٥٠: ويحتمل أن النزول سبق بسبب هلال، فلما جاء عويمر ولم يكن علمَ بما وقع لهلال؛ أعلمَه النبي ﷺ بالحكم . . .

(٢) أورد قول الطبري ابن عبد البر في الاستيعاب (بهامش الإصابة ٩/ ٥٤) والقاضي عياض في إكمال المعلم ٥/ ٨٦، وأبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ٣٠٠، وابن الأثير في أسد الغابة ٤/ ٣١٧، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٣) لم نقف عليه بهذا السياق وأورد نحوه البغوي في تفسيره ٣/ ٣٢٥ - ٣٢٦ عن ابن عباس ومقاتل مطولاً، وفيه: أن الذي لقي عاصماً هو عويمر العجلاني.

قال الكلبي: والأظهرُ أن الذي وجد مع امرأته شريكاً عُوَيمرٌ العَجْلاني؛ لكثرة ما رُوِيَ أن النبيَّ ﷺ لاعَنَ بين العَجْلاني وامرأتِه. واتفقوا على أن هذا الزاني هو شَريكُ ابن عبدةَ، وأمُّه السَّحْماء، وكان عُويمرٌ وخولةُ بنت قيس وشَريكٌ بني عمٍّ عاصم.

وكانت هذه القصة في شعبانَ سنة تسع من الهجرة، منصرَفَ رسول الله ﷺ من تَبُوك إلى المدينة. قاله الطبري(١).

وروى الدَّارَقُطْنيُّ عن عبد الله بن جعفر قال: حضرتُ رسول الله ﷺ حين لاعن بين عُويمر العجلاني وامرأتِه، مرجعَ رسولِ الله ﷺ من غَزْوة تَبُوك، وأنكر حملها الذي في بطنها، وقال: هو لابن السَّحْماء، فقال له رسول الله ﷺ: «هاتِ امرأتك، فقد نزل القرآن فيكما». فلاعن بينهما بعد العصر عند المنبر على حمل(٢). في طريقه الواقدي عن الضحاك بن عثمان، عن عمرانَ بنِ أبي أنس قال: سمعت عبد الله بن جعفر يقول... فذكره(٣).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ عامٌّ في كلِّ رَمْي، سواء قال: زنيتِ، أو: يا زانية، أو: رأيتُها تزني، أو: هذا الولدُ ليس مني، فإن الآية مشتمِلةٌ عليه(٤). ويجب اللِّعانُ إن لم يأتِ بأربعة شهداء، وهذا قولُ جمهور العلماء، وعامَّةِ الفقهاء، وجماعةِ أهل الحديث. وقد رُويَ عن مالك مثلُ ذلك(٥).

وكان مالك يقول: لا يلاعن، إلَّا أن يقول: رأيتكِ تزني، أو ينفيَ حملاً أو ولداً

---

(١) نقله عن الطبري ابن عبد البر في الاستيعاب بهامش الإصابة ٩/ ٥٤، والقاضي عياض في إكمال المعلم ٥/ ٨٦، وابن الأثير في أسد الغابة ٤/ ٣١٧.

(٢) في (م): خمل، وفي (خ): جمل، وفي (د): (جبل)، والمثبت من (ز) و(ظ) وهو الموافق للمصادر الآتية.

(٣) سنن الدارقطني (٣٧٠٩)، وأخرجه من طريقه البيهقي ٧/ ١٩٨ والواقدي متروك كما قاله ابن حجر في التقريب.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٠.

(٥) التمهيد ٦/ ٢٠٦، والاستذكار ١٧/ ٢٠٨.

منها. وقولُ أبي الزِّناد ويحيى بنِ سعيد والبَتِّي مثلُ قول مالك: إن الملاعنة لا تجب بالقذف، وإنما تجب بالرؤية، أو نفي الحمل مع دعوى الاستبراء(١). هذا هو المشهور عن(٢) مالك، وقاله ابن القاسم(٣).

والصحيح الأوّل لعموم قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾. قال ابن العربي: وظاهر القرآن يكفي لإيجاب اللِّعان بمجرد القذف من غير رؤية، فَلْتُعَوِّلوا عليه، لا سيَّما وفي الحديث الصحيح: أرأيتَ رجلاً وجد مع امرأته رجلاً؟ فقال النبيُّ ﷺ: «فاذهب فأتِ بها»، ولـم يكلِّفه ذِكْر الرؤية(٤). وأجمعوا أن الأعمى يلاعن إذا قذف امرأته، ولو كانت الرؤية من شرط اللعان ما لاعن الأعمى. قاله أبو عمر(٥).

وقد ذكر ابن القصَّار عن مالك أنَّ لعانَ الأعمى لا يصح إلَّا أن يقول: لمستُ فرجه في فرجها(٦). والحجَّةُ لمالك ومَن اتبعه ما رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء هلال بنُ أمية، وهو أحدُ الثلاثة الذين تِيب عليهم، فجاء من أرضه عِشاء، فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه وسمع بأذنه، فلم يَهِجْه حتى أصبح، ثم غدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني جئت أهلي عِشاءً، فوجدتُ عندهم رجلاً، فرأيت بعيني وسمعت بأذني. فكره رسول الله ﷺ ما جاء به، واشتدَّ عليه، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ الآية، وذكر الحديث(٧).

---

(١) التمهيد ٦/ ٢٠٤، والاستذكار ١٧/ ٢٠٥.

(٢) في (م): عند.

(٣) المدونة ٣/ ١١٤.

(٤) أحكام القرآن ٣/ ١٣٣١، وهذا الحديث قطعة من حديث سهل بن سعد الساعدي السالف ذكره في المسألة الثانية في قصة عويمر العجلاني، وهو بهذا اللفظ عند أحمد (٢٢٨٥١)، والبخاري (٥٢٥٩)، ومسلم (١٤٩٢): (١).

(٥) في التمهيد ٦/ ٢٠٧، وينظر الاستذكار ١٧/ ٢٠٨.

(٦) أورد قول ابن القصار ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٤٤٠.

(٧) سنن أبي داود (٢٢٥٦)، وأخرجه أحمد أيضاً (٢١٣١) وهو من طريق عبَّاد بن منصور، عن عكرمة، =

وهو نصٌّ على أن الملاعَنة التي قضى فيها رسول الله ﷺ إنما كانت في الرؤية، فلا يجب أن يُتعدَّى ذلك. ومَن قذف امرأته ولم يذكر رؤية حُدَّ؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾[1].

الرابعة: إذا نفى الحمل فإنه يلتعن؛ لأنه أقوى من الرؤية، ولابدَّ من ذِكر عدم الوطء والاستبراءِ بعده. واختلف علماؤنا في الاستبراء، فقال المغيرة ومالك في أحد قوليهما: يُجزئ في ذلك حَيْضة. وقال مالك أيضاً: لا يَنفيه[2] إلا بثلاث حِيَض. والصحيحُ الأوَّل؛ لأن براءة الرَّحم من الشَّغْل تقع بها كما في استبراء الأمة، وإنما راعَيْنا الثلاث حِيَض في العِدَد لحكم آخرَ[3]؛ يأتي بيانُه في «الطَّلاق» إن شاء الله تعالى.

وحكى اللَّخْمِيُّ عن مالك أنه قال مرة: لا يُنْفَى الولد بالاستبراء؛ لأن الحيض يأتي على الحمل. وقاله[4] أشهب في كتاب ابن المَوَّاز، وقاله المغيرة. وقال: لا يُنْفَى الولد إلا بخمس سنين؛ لأنه أكثرُ مدَّةِ الحمل على ما تقدَّم[5].

الخامسة: اللِّعانُ عندنا يكون في كلِّ زوجين، حرَّين كانا أو عبدين، مؤمنَيْن أو

= عن ابن عباس وهو معلول بعَبَّاد بن منصور، قال البخاري: عباد بن منصور روى عن ابن أبي يحيى الأسلمي، عن داود بن الحصين، عن عكرمة أشياء ربما نسيها، فجعلها عن عكرمة. وقال يحيى بن معين: عباد بن منصور ضعيف قدري. وقال ابن حبان: كان قدرياً داعياً إلى القدر، وكل ما روى عن عكرمة سمعه من ابن أبي يحيى عن داود، فدلَّسها على عكرمة. نصب الراية ٣/ ٢٥١ . وقوله: فلم يَهِجْه، أي: لم يزعجه ولم يُنَفِّره. النهاية (هيج).

(١) التمهيد ٦/ ٢٠٦ ، وينظر الاستذكار ١٧/ ٢٠٧ .

(٢) في (د) و(ز) والمحرر الوجيز ٤/ ١٦٧ والكلام منه: لا ينفعه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣١ .

(٤) في (م) و(د): وبه قال، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٧ والكلام منه.

(٥) ١٢/ ١٩ وما بعدها. وقد ذكرنا هناك أن الحمل لا يزيد عن وقته ـ وهو تسعة أشهر ـ أكثرَ من شهر، وإلا لمات الجنين في بطن أمه.

كافرين، فاسقَين أو عَدْلَين. وبه قال الشافعي[١].

ولا لعانَ بين الرجل وأَمَته، ولا بينه وبين أمِّ ولده. وقيل: لا يَنتفي ولدُ الأَمة عنه إلا بيمين واحدة، بخلاف اللِّعان. وقد قيل: إنه إذا نفى ولدَ أمِّ الولد، لاعن. والأوَّلُ تحصيلُ مذهب مالك، وهو الصَّواب[٢].

وقال أبو حنيفة: لا يصحُّ اللِّعان إلا من زوجين حُرَّين مسلِمَين، وذلك لأن اللِّعان عنده شهادةٌ، وعندنا وعند الشافعيِّ يمينٌ، فكلُّ مَن صحَّت يمينه، صحَّ قذفه ولعانه. واتفقوا على أنه لابُدَّ أن يكونا مكلَّفَيْن[٣].

وفي قوله: [أرأيت رجلاً] وجد مع امرأته رجلاً، دليلٌ على أن الملاعَنة تجب على كلِّ زوجين؛ لأنه لم يَخُصَّ رجلاً من رجل، ولا امرأةً من امرأة، ونزلت آية اللِّعان على هذا الجواب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، ولم يَخُصَّ زوجاً من زوج. وإلى هذا ذهب مالك وأهلُ المدينة، وهو قول الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ وأبي عبيد وأبي ثَوْر. وأيضاً فإن اللِّعان يُوجِب فسخ النكاح، فأشبه الطلاقَ، فكلُّ مَن يجوز طلاقُه، يجوز لِعانُه[٤].

واللِّعان أيمانٌ لا شهاداتٍ، قال الله تعالى ـ وهو أصدق القائلين ـ: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ [المائدة:١٠٧] أي: أيمانُنا. وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون:١]. ثم قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ [المجادلة:١٦] وقال عليه الصلاة والسلام: «لولا الأيمانُ لكان لي ولها شأن»[٥].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣١، وينظر التمهيد ٦/ ١٩٢، والاستذكار ١٧/ ٢٤١ وما بعدها.

(٢) الكافي ٢/ ٦١٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣١ دون قوله: فكل من صحت يمينه، صح قذفه ولعانه.

(٤) التمهيد ٦/ ١٩٢ - ١٩٣ وما بين حاصرتين منه، وجاء فيه: ونزلت آية اللعان على هذا السؤال بهذا العموم، بدل: ونزلت آية اللعان على هذا الجواب.

(٥) هو قطعة من حديث ابن عباس عند أبي داود (٢٢٥٦) السالف في المسألة الثالثة.

وأمَّا ما احتجَّ به الثوريُّ وأبو حنيفة فهي حُجج لا تقوم على ساق[١]، منها: حديثُ عمرو بنِ شعيب، عن أبيه، عن جدِّه عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعةٌ ليس بينهم لِعان: ليس بين الحرِّ والأَمة لِعانٌ، وليس بين الحرَّة والعبد لِعانٌ، وليس بين المسلم واليهودية لِعانٌ، وليس بين المسلم والنصرانية لِعان». أخرجه الدَّارَقُطْنيُّ[٢] من طرق ضعَّفَها كلَّها.

ورُويَ عن الأوزاعي وابن جريج ـ وهما إمامان ـ عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قوله، ولم يرفعه[٣] إلى النبيِّ ﷺ[٤].

واحتجُّوا من جهة النَّظر أن الأزواج لمَّا استُثْنوا من جملة الشهداء بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾، وجَب ألَّا يلاعِن إلا مَن تجوز شهادته[٥]. وأيضاً فلو كانت يميناً ما رُدِّدَت، والحكمةُ في ترديدها قيامُها في الأعداد مَقام الشُّهود في الزنى[٦].

قلنا: هذا يَبطل بيمين القَسامة، فإنها تُكَرَّر وليست بشهادة إجماعاً، والحكمةُ في تكرارها التغليظُ في الفروج والدِّماء [على فاعلها، لعله أن يَكُفَّ عنها، فيقع الستر في الفرج، والحقن في الدم][٧].

قال ابن العربي[٨]: والفَيْصل في أنها يمينٌ لا شهادةٌ، أن الزوج يحلِف لنفسه في

(١) التمهيد ٦/ ١٩٢ .

(٢) في سننه (٣٣٣٨)، وأخرجه البيهقي من طريقه ٧/ ٣٩٦ .

(٣) جاء في سنن الدارقطني وسنن البيهقي: ولم يرفعاه.

(٤) أخرجه الدارقطني (٣٣٤٠)، والبيهقي من طريقه ٧/ ٣٩٦ - ٣٩٧ ، قال البيهقي في المعرفة ١١/ ١٣٣ : قال أحمد: وفي ثبوته عن عبد الله موقوفاً أيضاً نظر، وذاك لأنه إنما رواه عن ابن جريج والأوزاعي عمرُ ابن هارون وليس بالقوي. ورواه أيضاً يحيى بن أبي أنيسة عن عمرو موقوفاً، ويحيى بن أبي أنيسة متروك.

(٥) التمهيد ٦/ ١٩٢ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٢ .

(٧) في (د) و(ز) و(ظ): والدِّية، والمثبت من (ف) و(م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٢ والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٨) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٣٢ .

إثبات دعواها[١]، وتخليصِه من العذاب، وكيف يجوز لأحد أن يدَّعيَ في الشريعة أن شاهداً يشهد لنفسه بما يُوجِب حكماً على غيره؟! هذا بعيدٌ في الأصل، معدومٌ في النظر.

السادسة: واختلف العلماء في ملاعنة الأخرس، فقال مالك والشافعي: يلاعن؛ لأنه ممن يصحُّ طلاقه وظِهارُه وإيلاؤه، إذا فُهِم ذلك عنه. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن؛ لأنه ليس من أهل الشهادة، ولأنه قد ينطق بلسانه فيُنكِر اللِّعان، فلا يمكِنُنا إقامةُ الحدِّ عليه[٢]. وقد تقدَّم هذا المعنى في سورة مريم عليها السلام والدليلُ عليه، والحمد لله[٣].

السابعة: قال ابن العربي: رأى أبو حنيفة عمومَ الآية فقال: إن الرجل إذا قذف زوجته بالزنى قبل أن يتزوجها، فإنه يلاعن، ونسيَ أن ذلك قد تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، وهذا رماها محصنةً غيرَ زوجة، وإنما يكون اللِّعان في قذفٍ يَلحقُ فيه النَّسب، وهذا قذفٌ لا يلحق فيه نسبٌ، فلا يُوجِب لِعاناً، كما لو قذف أجنبية [ثم تزوجها][٤].

الثامنة: إذا قذفها بعد الطَّلاق نَظَرتَ[٥]، فإن كان هنالك نسبٌ يريد أن يَنفيَه، أو حَمْلٌ يتبرَّأ منه، لاعن، وإلَّا لم يلاعن.

وقال عثمان البَتِّي: لا يلاعن بحال؛ لأنها ليست بزوجة.

وقال أبو حنيفة: لا يلاعن في الوجهين؛ لأنها ليست بزوجة. وهذا يُنتَقَض عليه

---

(١) في (م): دعواه.

(٢) التمهيد ٦/ ٢٠٧، وينظر الاستذكار ١٧/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٣) ١٣/ ٤٤٨.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٢ وما بين حاصرتين منه، وجاء فيه: راعى أبو حنيفة، بدل: رأى أبو حنيفة.

(٥) في (ظ): نُظر.

بالقذف قبل الزوجية كما ذكرناه آنفاً، بل هذا أولى؛ لأن النكاح قد تقدَّم، وهو يريد الانتفاءَ من النسب، وتبرئتَه من ولد يُلحق به، فلابُدَّ من اللِّعان.

وإذا لم يكن هناك[1] حملٌ يُرجى، ولا نسبٌ يُخاف تعلُّقُه؛ لم يكن للِّعان فائدةٌ، فلم يُحكم فيه[2]، وكان قذفاً مطلقاً داخلاً تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآية، فوجب عليه الحدُّ، وبطل ما قاله البَتِّي لظهور فساده[3].

التاسعة: لا ملاعنةَ بين الرجل وزوجته بعد انقضاء العِدَّة، إلَّا في مسألة واحدة، وهي أن يكون الرجل غائباً، فتأتيَ امرأته بولد في مَغِيبه وهو لا يعلم، فيطلِّقها، فتنقضي عدُّتها، ثم يَقْدَم[4] فينفيه، فله أن يلاعنها هاهنا بعد العِدَّة.

وكذلك لو قدِم بعد وفاتها ونفى الولد؛ لاعن لنفيه[5] وهي ميتةٌ بعد مدَّة من[6] العِدَّة، ويرثُها؛ لأنها ماتت قبل وقوع الفُرقة بينهما.

العاشرة: إذا انتفى من الحمل، ووقع ذلك بشرطه[7]؛ لاعن قبل الوضع، وبه قال الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن إلَّا بعد أن تضع؛ لأنه يحتمل أن يكون ريحاً، أو داءً من الأدواء. ودليلُنا النصُّ الصريحُ بأن النبيَّ ﷺ لاعنَ قبل الوضع، وقال: «إن جاءت به كذا فهو لأبيه، وإن جاءت به كذا فهو لفلان» فجاءت به على النعت المكروه[8].

---

(١) في (ف) و(م): هنالك.

(٢) في (م): به.

(٣) هذه المسألة بتمامها من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٢ - ١٣٣٣ .

(٤) في (ظ) والكافي ٢/ ٦١١ (والمسألة بتمامها منه): يقوم.

(٥) في (د) و(ظ) و(ف) و(م): لنفسه، والمثبت من (ز) وهو الموافق لما في الكافي.

(٦) لفظة: من ، ليست في (ظ).

(٧) وهو أن يذكر عدم الوطء والاستبراء بعده، كما سلف في المسألة الرابعة.

(٨) هذه المسألة بتمامها من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٣ ، والحديث المشار إليه أخرجه أحمد (٢٢٨٣٠)، والبخاري (٤٧٤٥) من حديث سهل بن سعد مطولاً.

الحادية عشرة: إذا قذف بالوطء في الدُّبر [الزوجة]، لاعن. وقال أبو حنيفة: لا يلاعن، وبناه على أصله في أن اللِّواط لا يُوجِب الحدَّ. وهذا فاسدٌ؛ لأن الرمْيَ به فيه معرَّةٌ، وقد دخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾[(١)]. وقد تقدم في «الأعراف» و«المؤمنون»[(٢)] أنه يجب به الحدّ.

الثانية عشرة: قال ابن العربي[(٣)]: مِن غريب أمر هذا الرجل أنه [قال]: إذا قذف زوجته وأمَّها بالزنى: إنه إن حُدَّ للأم سقط أمر[(٤)] البنت، وإن لاعن للبنت لم يسقط حدُّ الأم. وهذا لا وجه له، وما رأيت لهم [فيه] شيئاً يُحكى، وهذا باطل جدًّا، فإنه خَصَّ عموم الآية في البنت ـ وهي زوجة ـ بحدِّ الأم من غير أثر ولا أصلٍ قاسه عليه.

الثالثة عشرة: إذا قذف زوجته، ثم زنت قبل التعانه، فلا حدَّ ولا لِعان. وبهذا قال أبو حنيفةَ والشافعيُّ وأكثرُ أهل العلم.

وقال الثوريُّ والمُزَنيُّ: لا يسقط الحدُّ عن القاذف، وزِنَى المقذوفِ بعد أن قُذِف لا يقدح في حصانته المتقدِّمة ولا يرفعُها؛ لأن الاعتبار الحصانةُ والعِفَّةُ في حال القذف لا بعده. كما لو قذف مسلماً، فارتدَّ المقذوف بعد القذف وقَبْلَ أن يُحدَّ القاذف؛ لم يسقط الحدُّ عنه. وأيضاً فإن الحدود كلَّها معتبرةٌ بوقت الوجوب، لا وقت الإقامة.

ودليلُنا هو أنه قد ظهر قبل استيفاء اللِّعان والحدِّ معنًى؛ لو كان موجوداً في الابتداء؛ مَنَع صحة اللِّعان ووجوبَ الحدِّ، فكذلك إذا طرأ في الثاني، كما إذا شهد شاهدان ظاهرُهما العدالةُ، فلم يَحكم الحاكم بشهادتهما حتى ظهر فسقُهما بأن زنيا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٣ وما بين حاصرتين منه.

(٢) ٩/ ٢٧٤ - ٢٧٦، ص١٣-١٤ من هذا الجزء.

(٣) في أحكام القرآن: ٣/ ١٣٣٣ - ١٣٣٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٤) في (م) وأحكام القرآن: حد.

أو شربا خمراً؛ لم[١] يَجُز للحاكم أن يحكم بشهادتهما تلك. وأيضاً فإن الحكم بالعفَّة والإحصان يُؤخَذ من طريق الظاهر، لا من حيث[٢] القطعُ واليقين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ظَهْرُ المؤمن حِمًى»[٣]، فلا يُحدُّ القاذف إلا بدليل قاطع. وبالله التوفيق.

الرابعة عشرة: مَن قذف امرأته وهي كبيرةٌ لا تَحْمِل، تلاعنا، هو لدفع الحدِّ، وهي لدرء العذاب. فإن كانت صغيرةً لا تحمل، لاعن هو لدفع الحدِّ، ولم تلاعن هي؛ لأنها لو أقرَّت لم يلزمها شيء. وقال ابن الماجِشُون: لا حدَّ على قاذفِ مَن لم تبلغ. قال اللَّخْميُّ: فعلى هذا لا لِعان على زوج الصغيرة التي لا تحمل[٤].

الخامسة عشرة: إذا شهد أربعة على امرأة بالزنى، أحدُهم زوجُها، فإن الزوج يلاعن، وتُحَدُّ الشهود الثلاثة، وهو أحدُ قولَي الشافعي. والقول الثاني: أنهم لا يُحدُّون. وقال أبو حنيفة: إذا شهد الزوج والثلاثةُ ابتداءً، قُبِلت شهادتهم، وحُدَّت المرأة.

ودليلنا قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية. فأخبر أنَّ مَن قذف محصَناً، ولم يأت بأربعة شهداءَ، حُدَّ، فظاهرُه يقتضي أن يأتي بأربعة شهداء سِوى الرامي[٥]، والزوجُ رامٍ لزوجته، فخرج عن أن يكون أحدَ الشُّهود، والله أعلم.

السادسة عشرة: إذا ظهر بامرأته حملٌ، فترك أن يَنفيَه، لم يكن له نَفْيُه بعد سكوته. وقال شُريح ومجاهد: له أن ينفيَه أبداً. وهذا خطأ؛ لأن سكوته بعد العلم به

---

(١) في (د) و(ز) و(م): فلم.

(٢) في (ظ): جهة.

(٣) أخرجه الطبراني ١٧/ ١٨٠ (٤٧٦) من حديث عصمة بن مالك الخطمي ﷺ. قال الهيثمي في المجمع ٦/ ٢٥٣ : فيه الفضل بن المختار وهو ضعيف. اهـ وترجم البخاري قبل حديث (٦٧٨٥): باب ظهر المؤمن حمى إلا في حدٍّ أو حق.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٧ .

(٥) قوله: فظاهره يقتضي أن يأتي بأربعة شهداء سوى الرامي، من (م).

رِضًى به، كما لو أقرَّ به ثم أراد أن[١] ينفيَه، فإنه لا يُقبل منه، والله أعلم.

السابعة عشرة: فإن أخَّر ذلك إلى أن وضعت، وقال: رجوت أن يكون رِيحاً يَنْفَشُّ، أو تُسقِطَه فأستريح من القذف، فهل لنَفْيه بعد وضعه مدَّةٌ ما، فإذا تجاوزها لم يكن له ذلك؟ فقد اختُلِف في ذلك:

فنحن نقول: إن[٢] لم يكن له عذرٌ في سكوته حتى مضت ثلاثة أيام، فهو راضٍ به، ليس له نفيُه. وبهذا قال الشَّافعيّ.

وقال أيضاً: متى أمكنه نفيه على ما جرت به العادة من تمكُّنه من الحاكم، فلم يفعل، لم يكن له نفيُه من بعد ذلك، وبهذا قال مالك: إنه إن تَرَكَ اليوم واليومين، لم يكن له نفيه[٣].

وقال أبو حنيفة: لا أعتبر مدَّة.

وقال أبو يوسف ومحمد: يُعتبر فيه أربعون يوماً، مدَّةُ النِّفاس.

قال ابن القَصَّار: والدليل لقولنا: هو أنَّ نفْيَ ولده محرَّمٌ عليه، واستلحاقَ ولد ليس منه محرَّمٌ عليه، فلابدَّ أن يُوسَّع عليه لكي ينظر فيه ويفكِّر، هل يجوز له نفيه أو لا. وإنما جعلنا الحدّ ثلاثة أيام[٤]؛ لأنه أوَّلُ حدِّ الكثرة، وآخرُ حدِّ القلَّة، وقد جُعِلت ثلاثةُ أيام يُختبر بها حالُ المُصَرَّاة، فكذلك ينبغي أن يكون هنا. وأمَّا أبو يوسف ومحمد، فليس اعتبارهم مدَّةَ النِّفاس[٥] بأولى من اعتبار مدَّة الولادة والرَّضاع، إذ لا شاهدَ لهم في الشريعة، وقد ذكرنا نحن شاهداً في الشريعة من مدَّة المُصَرَّاة.

---

(١) قوله: أراد أن، من (ظ).

(٢) في (م): إذا.

(٣) قوله: وبهذا قال مالك... لم يكن له نفيه، ليست في (خ) و(م).

(٤) لفظة: أيام، من (ظ).

(٥) قوله: مدة النفاس، من (ظ).

الثامنة عشرة: قال ابن القصَّار: إذا قالت امرأة لزوجها أو لأجنبيٍّ: يا زانية ـ بالهاء ـ، وكذلك الأجنبيُّ لأجنبيٍّ[1]، فلستُ أعرف فيه نصًّا لأصحابنا، ولكنه عندي يكون قذفاً، وعلى قائله الحدُّ، وقد زاد حرفاً، وبه قال الشافعيُّ ومحمدُ بن الحسن.

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: لا يكون قذفاً. واتفقوا على[2] أنه إذا قال لامرأته: يا زانٍ، أنه قَذْف.

والدليلُ على أنه يكون في الرجل قذفاً: هو أن الخطاب إذا فُهِم منه معناه ثَبَت حكمه، سواء كان بلفظ أعجميٍّ أو عربيٍّ. ألا ترى أنه إذا قال للمرأة: زنيتَ ـ بفتح التاء ـ كان قذفاً؛ لأن معناه يُفهم منه.

ولأبي حنيفةَ وأبي يوسف أنه لمَّا جاز أن يُخاطَب المؤنَّث بخطاب المذكَّر كقوله[3] تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: ٣٠]، صَلَح أن يكون قولُه: يا زانٍ للمؤنَّث قذفاً. ولمَّا لم يَجُز أن يُؤنَّث فعلُ المذكَّر إذا تقدَّم عليه، لم يكن لخطابه بالمؤنث حكمٌ، والله أعلم.

التاسعة عشرة: يلاعن في النكاح الفاسد زوجتَه؛ لأنها صارت فراشاً، ويلحق النسب فيه، فجرى اللِّعان عليه[4].

الموفية عشرين: اختلفوا في الزوج إذا أبى من الالتعان، فقال أبو حنيفة: لا حدَّ عليه؛ لأن الله تعالى جعل على الأجنبيِّ الحدَّ وعلى الزوج اللِّعان، فلمَّا لم ينتقل اللِّعان إلى الأجنبيِّ، لم ينتقل الحدُّ إلى الزوج، ويُسجن أبداً حتى يلاعن؛ لأن

---

(١) في (د): وكذلك الأجنبية للأجنبي، وفي (ظ): وكذلك الأجنبية، وفي (ف): وكذلك الأجنبي للأجنبي، والمثبت من (م).

(٢) لفظة: على، من (ظ).

(٣) في (م) و(د) و(ز): لقوله.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٤ .

الحدود لا تؤخذ[١] قياساً. وقال مالك والشافعيُّ وجمهور الفقهاء: إن لم يلتعن الزوج حُدَّ؛ لأن اللِّعان له براءةٌ كما الشهودُ[٢] للأجنبيِّ، فإن لم يأتِ الأجنبيُّ بأربعة شهداءَ حُدَّ، فكذلك الزوجُ إن لم يلتعن. وفي حديث العَجْلانيِّ ما يدلُّ على هذا؛ لقوله: إن سكَتُّ سكتُّ على غَيظ، وإن قَتلتُ قُتِلت، وإن نطقْتُ جُلِدت[٣].

الحادية والعشرون: واختلفوا أيضاً هل للزوج أن يلاعن مع شهوده؟ فقال مالك والشافعيُّ: يلاعن، كان له شهودٌ أو لم يكن؛ لأن الشُّهود ليس لهم عملٌ في غير دَرْء الحدِّ، وأمّا رفعُ الفراش ونفيُ الولد؛ فلابدَّ فيه من اللِّعان. وقال أبو حنيفةَ وأصحابُه: إنما جُعِل اللِّعان للزوج إذا لم يكن له شهودٌ غير نفسه[٤]؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾.

الثانية والعشرون: البداءةُ في اللِّعان بما بدأ الله به، وهو الزوج، وفائدتُه دَرْءُ الحدِّ عنه ونفيُ النسب منه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «البيِّنةَ، وإلا حَدٌّ في ظهرك»[٥]. ولو بَدأ[٦] بالمرأة قبله لم يَجْزِ؛ لأنه عَكْسُ ما رتَّبه الله تعالى. وقال أبو حنيفة: يَجْزيه[٧]. وهذا باطل؛ لأنه خلافُ القرآن، وليس له أصلٌ يَردُّه إليه ولا معنًى

(١) في (م): لا تؤخر.

(٢) في (م) و(ظ): كالشهود.

(٣) التمهيد ٦/ ١٩٨ - ١٩٩ ، وينظر الاستذكار ١٧/ ٢٠٩ ، والحديث أخرجه أحمد (٤٠٠١)، ومسلم (١٤٩٥): (١٠) عن ابن مسعود بلفظ: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم جلدتموه... والكلام فيه لرجل من الأنصار، وليس للعجلاني، وقد أورده المصنف عن ابن عبد البر. وهو ـ بنحوه أيضاً ـ قطعة من حديث سهل بن سعد السالف في المسألة الثانية.

(٤) التمهيد ٦/ ١٩٩ ، والاستذكار ١٧/ ٢٠٩ .

(٥) سلف تخريجه في المسألة الثانية.

(٦) في (م) و(خ) و(ز): بُدئ، والمثبت من (د) و(ظ) و(ف) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٣٤ - ١٣٣٥ والكلام وما سيأتي إلى آخر المسألة منه.

(٧) في (م): يجزي، وفي (د): تجزيه، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) و(ف) وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

يُقوَّى به، بل المعنى لنا؛ لأن المرأة إذا بدأت باللِّعان فتنفي ما لم يُثبِت، وهذا لا وجه له.

الثالثة والعشرون: وكيفيةُ اللِّعان أن يقول الحاكم للملاعِن: قل: أَشهد بالله لَرأيتها تزني، ورأيت فرج الزاني في فرجها كالمِرْوَد في المُكْحُلة، وما وطئتها بعد رؤيتي. وإن شئتَ قلت: لقد زنت وما وطئتها بعد زناها. يُردِّد ما شاء من هذينِ اللفظين أربعَ مرات، فإن نَكَل عن هذه الأيمان أو عن شيء منها، حُدَّ.

وإذا نفى حملاً قال: أشهد بالله لقد استبرأتُها وما وطئتها بعدُ، وما هذا الحملُ مني، ويُشير إليه، فيحلف بذلك أربعَ مرات، ويقول في كلِّ يمين منها: وإني لمن الصادقين في قولي هذا عليها. ثم يقول في الخامسة: عليَّ لعنةُ الله إنْ كُنتُ من الكاذبين. وإن شاء قال: إن كنتُ كذاباً فيما ذكرتُ عنها. فإذا قال ذلك، سقط عنه الحدُّ، وانتفى عنه الولد.

فإذا فرغ الرجل من لِعانه[1]، قامت المرأة بعده، فحلفت بالله أربعةَ أيمان، تقول فيها: أشهد بالله إنه لكاذب، أو: إنه لمن الكاذبين فيما ادَّعاه عليَّ وذكر عني. وإن كانت حاملاً قالت: وإنَّ حملي هذا منه. ثم تقول في الخامسة: وعليَّ غضبُ الله إن كان صادقاً، أو: إن كان من الصادقين في قوله ذلك [فإن نكلت المرأة، حُدَّت إن لم يكن دخل بها، وإن كان دخل بها، رجمت].

ومَن أوجب اللِّعان بالقذف [قال]: يقول في كلِّ شهادة من الأربع: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رمَيت به فلانة من الزنى. ويقول في الخامسة: عليَّ لعنةُ الله إن كنت كاذباً فيما رمَيت به [فلانة] من الزنى. وتقول هي: أشهد بالله إنه لكاذبٌ فيما رماني به من الزنى [أربع مرات]. وتقول في الخامسة: عليَّ غضبُ الله إن كان صادقاً فيما رماني به من الزنى[2].

---

(١) في (خ) و(د) و(ز) و(م): التعانه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الكافي ٢/ ٦١٢ - ٦١٣ والكلام منه.

(٢) الكافي ٢/ ٦١٢ - ٦١٣ وما سلف بين حاصرتين منه.

وقال الشافعيُّ: يقول الملاعن: أَشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي[١] فلانةَ بنتَ فلان، ويشير إليها إن كانت حاضرة، يقول ذلك أربع مرات، ثم يُقعِده[٢] الإمام، ويذكِّره الله تعالى ويقول [له]: إني أخاف إن لم تكن صدقتَ أن تبوء بلعنة الله، فإن رآه يريد أن يَمضي على ذلك، أمر مَن يضع يده على فيه، ويقول: إنَّ قولك: وعليَّ لعنةُ الله إن كنتُ من الكاذبين مُوجِبةٌ[٣] [إن كنت كاذباً]، فإن أبى، تَرَكَه يقول ذلك: لعنةُ الله عليَّ إن كنت من الكاذبين فيما رَمَيت به فلانة من الزنى. واحتج[٤] بما رواه أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً حين[٥] أمر المتلاعنَيْن أن يضع يده على فيه عند الخامسة يقول: إنها مُوجِبة[٦].

الرابعة والعشرون: اختلف العلماء في حكم مَن قذف امرأته برجل سمَّاه، هل يُحدُّ له[٧] أم لا؟ فقال مالك: عليه اللِّعان لزوجته، وحُدَّ للمرميّ. وبه قال أبو حنيفة؛ لأنه قاذفٌ لمن لم يكن له ضرورةٌ إلى قذفه. وقال الشافعيُّ: لا حَدَّ عليه؛ لأن الله عزَّ وجلَّ لم يجعل على مَن رمى زوجته بالزنى إلا حدًّا واحداً بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، ولم يفرِّق بين مَن ذكر رجلاً بعينه، وبين مَن لم يذكره[٨]، وقد رمى العَجْلانيُّ زوجته بشَريك، وكذلك هلالُ بن أمية، فلم يُحَدَّ واحدٌ منهما[٩].

---

(١) في (د) و(م): زوجي.

(٢) في (م): يوعظه، وفي (د): يبعده.

(٣) في النسخ: موجباً، والمثبت من التمهيد ٦/ ٢٠٧ - ٢٠٨ ، والاستذكار ١٧/ ٢١٣ والكلام وما سلف بين حاصرتين منهما.

(٤) في (م): احتج.

(٥) في (خ) و(د) و(ز) و(ظ) و(ف): حيث، والمثبت من (ظ) ومصادر التخريج الآتية.

(٦) سنن أبي داود (٢٢٥٥)، وأخرجه النسائي أيضاً ٦/ ١٧٥ .

(٧) لفظة: له، ليست في (د) و(م).

(٨) في (م): يذكر.

(٩) التمهيد ٦/ ١٨٩ - ١٩٠ .

قال ابن العربي[(١)]: وظاهرُ القرآن لنا؛ لأن الله تعالى وضع الحدَّ في قذف الأجنبيِّ والزوجة مطلَقَيْن[(٢)]، ثم خصَّ حدَّ[(٣)] الزوجة بالخلاص باللِّعان، وبقي الأجنبيُّ على مطلق الآية. وإنما لم يُحَدَّ العجلانيُّ لشريك ولا هلالٌ[(٤)]؛ لأنه لم يطلبه، وحَدُّ القذف لا يقيمه الإمام إلا بعد المطالبة إجماعاً منا ومنه.

الخامسة والعشرون: إذا فرغ المتلاعنان من تلاعنهما جميعاً، تفرَّقا، وخرج كلُّ واحد منهما من[(٥)] باب من المسجد الجامع غيرِ الباب الذي يخرج منه صاحبه، ولو خرجا من باب واحد، لم يَضُرَّ ذلك لِعانَهما. ولا خلاف في أنه لا يكون اللِّعان إلا في مسجد جامع تُجمع فيه الجمعة بحضرة السلطان، أو مَن يقوم مقامه من الحكام[(٦)]. وقد استحبَّ جماعة من أهل العلم أن يكون اللِّعان في الجامع بعد العصر[(٧)]. وتلتعن النصرانية من زوجها المسلم في الموضع الذي تُعظِّمه من كنيستها مثلَ ما تلتعن به المسلمة[(٨)].

السادسة والعشرون: قال مالك وأصحابه: وبتمام اللِّعان تقع الفُرقة بين المتلاعنَيْن، فلا يجتمعان أبداً، ولا يتوارثان، ولا يَحِلُّ له مراجعتها أبداً، لا قبل زوج ولا بعده[(٩)]، وهو قول اللَّيث بن سعد وزُفَرَ بن الهُذَيل والأوزاعيّ[(١٠)].

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٣٥ .

(٢) في (ظ): مطلقاً.

(٣) لفظة: حد، ليست في (ظ).

(٤) جاء في أحكام القرآن: واحتج الشافعي بأن النبي ﷺ لم يحد هلالاً لشريك بن سحماء، بدل: وإنما لم يحد العجلاني لشريك ولا هلال.

(٥) في (م) و(خ) و(د) و(ز): على، والمثبت من (ظ).

(٦) الكافي ٢/ ٦١٤ .

(٧) التمهيد ٦/ ١٩١ ، والاستذكار ١٧/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٨) الكافي ٢/ ٦١٠ .

(٩) الكافي ٢/ ٦١٤ .

(١٠) التمهيد ٦/ ١٩٤ - ١٩٥ ، والاستذكار ١٧/ ٢٢٢ .

وقال أبو حنيفةَ وأبو يوسف ومحمدُ بن الحسن: لا تقع الفُرقة بعد فراغهما من اللِّعان حتى يفرِّق الحاكم بينهما، وهو قول الثوريِّ؛ لقول ابن عمر: فرَّق رسول الله ﷺ بين المتلاعنَيْن[(١)]، فأضاف الفرقة إليه، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «لا سبيل لك عليها»[(٢)].

وقال الشافعيُّ: إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان، فقد زال فراش امرأته، الْتَعنت أو لم تلتعن. قال: وأمَّا التعانُ المرأة، فإنما هو لدرء الحدِّ عنها لا غير، وليس لالتعانها في زوال الفراش معنًى. ولمَّا كان لعانُ الزوج يَنفي الولدَ ويُسقِط الحدَّ، رُفِع الفراش.

وكان عثمانُ البَتِّي لا يرى التلاعن يُنقِص شيئاً من عصمة الزوجين حتى يطلِّق. وهذا قولٌ لم يتقدَّمه إليه أحدٌ من الصحابة، على أن البَتِّيَّ قد استحبَّ للملاعن أن يطلِّق بعد اللِّعان، ولم يستحبَّه[(٣)] قبل ذلك، فدلَّ على أن اللِّعان عنده قد أحدث حكماً[(٤)]. وبقول عثمان قال جابر بن زيد فيما ذكره الطبري[(٥)]، وحكاه اللَّخْميُّ عن محمد بن أبي صُفْرة.

ومشهورُ المذهب أن نَفْس تمام اللِّعان بينهما فرقة[(٦)].

واحتج أهل هذه المقالة بأنه ليس في كتاب الله تعالى إذا لاعن أو لاعنت يجب وقوع الفرقة، وبقول عُوَيْمِر: كذبتُ عليها إن أمسكتُها، فطلَّقها ثلاثاً[(٧)]، قال: ولم

(١) أخرجه الشافعي في مسنده ٢/ ٤٧، وسعيد بن منصور (١٥٥٤)، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٥٣، والدارمي (٢٢٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤٥٨٧)، والبخاري (٥٣١٢)، ومسلم (١٤٩٣): (٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) في (خ) و(ز) و(ف) و(م): يستحسنه، وفي (د): يستحسه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في التمهيد ٦/ ١٩٦ والكلام منه.

(٤) التمهيد ٦/ ١٩٤ - ١٩٦، وينظر الاستذكار ١٧/ ٢٢٣، ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٥) المفهم ٤/ ٢٩٣.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٧ - ١٦٨.

(٧) سلف تخريجه في المسألة الثالثة.

يُنكر النبيُّ ﷺ ذلك عليه، ولم يقل له: لِمَ قلت هذا، وأنت لا تحتاج إليه؛ لأن باللِّعان قد طلقت.

والحجةُ لمالك في المشهور ومَن وافقه قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا سبيل لك عليها». وهذا إعلامٌ منه أن تمام اللِّعان رَفَع سبيله عنها، وليس تفريقه بينهما باستئناف حكم، وإنما كان تنفيذاً لِمَا أوجب الله تعالى بينهما من المباعدة، وهو معنى اللِّعان في اللغة[١].

السابعة والعشرون: ذهب الجمهور من العلماء إلى[٢] أن المتلاعنَيْن لا يتناكحان أبداً، وإن[٣] أكذب نفسه، جُلِد الحدَّ ولحق به الولد، ولم ترجع إليه أبداً. وعلى هذا السنةُ التي لا شكَّ فيها ولا اختلاف.

وذكر ابن المنذر عن عطاء أن الملاعِن إذا أكذب نفسه بعد اللِّعان، لم يُحدَّ، وقال: قد تفرَّقا بلعنة من الله[٤].

وقال أبو حنيفة ومحمد: إذا أكذب نفسه، جُلِد الحدَّ ولحق به الولد، وكان خاطباً من الخُطَّاب إن شاء، وهو قول سعيد بن المسيِّب والحسنِ وسعيدِ بن جبير وعبد العزيز بن أبي سلمة. وقالوا: يعود النكاح حلالاً كما لحق به الولد؛ لأنه لا فرق بين شيء من ذلك[٥].

وحجة الجماعة قولُه عليه الصلاة والسلام: «لا سبيل لك عليها»، ولم يقل: إلا أن تُكذِّب نفسك[٦]. وروى ابن إسحاق وجماعةٌ عن الزهري قال: فمضت السنة

---

(١) التمهيد ١٥/ ٢٣ ، والاستذكار ١٧/ ٢٢٦ .

(٢) لفظة: إلى، من (ظ).

(٣) في (م) و(د): فإن، وفي (ز): فإذا، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في الاستذكار ١٧/ ٢٣١-٢٣٤ والكلام منه، وينظر التمهيد ٦/ ٢٠٠ .

(٤) وأخرجه عبد الرزاق (١٢٤٢٨) عن عطاء.

(٥) الاستذكار ١٧/ ٢٣٥ - ٢٣٧ ، وينظر التمهيد ٦/ ٢٠٠ - ٢٠٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٦٨ .

(٦) الاستذكار ١٧/ ٢٣٤ .

أنهما إذا تلاعنا، فُرِّق بينهما، فلا يجتمعان أبداً[١]. ورواه الدَّارَقُطْنيُّ[٢] مرفوعاً من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «المتلاعنان إذا تفرَّقا[٣] لا يجتمعان أبداً». ورَوى عن عليٍّ وعبد الله قالا: مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان. عن عليّ: أبداً[٤].

الثامنة والعشرون: اللِّعان يفتقر إلى أربعة أشياء:

عدد الألفاظ: وهو أربعُ شهادات على ما تقدَّم.

والمكان: وهو أن يقصد به أشرف البِقاع بالبلدان، إن كان بمكَّةَ فعند الرُّكن والمقام، وإن كان بالمدينة فعند المنبر، وإن كان ببيت المقدس فعند الصخرة، وإن كان في سائر البلدان ففي مساجدها، وإن كانا كافرَيْن، بُعث بهما إلى الموضع الذي يعتقدان تعظيمه، إن كانا يهوديين فالكنيسة، وإن كانا مجوسيين ففي بيت النار، وإن كانا لا دين لهما مثلَ الوثنيين، فإنه يلاعن بينهما في مجلس حكمه.

والوقت: وذلك بعد صلاة العصر.

وجمعُ الناس: وذلك أن يكون هناك أربعة أنفس فصاعداً، فاللفظُ وجمعُ الناس مشروطان، والزمانُ والمكانُ مستحبَّان.

التاسعة والعشرون: مَن قال: إن الفراق لا يقع إلا بتمام التعانهما، فعليه لو مات أحدُهما قبل تمامه، ورِثه الآخر. ومَن قال: لا يقع إلا بتفريق الإمام، فمات أحدهما قبل ذلك وتمام اللِّعان[٥]، ورِثه الآخر. وعلى قول الشافعيِّ: إن مات أحدهما قبل أن

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٣٥٢ ، وأبو عوانة ٣/ ٢٠٠ . وأخرجه أبو داود (٢٢٥٠)، والدارقطني (٣٧٠٤)، والبيهقي ٧/ ٤١٠ عن الزهري عن سهل بن سعد ﷺ.

(٢) بعدها في (م) و(خ) و(د) و(ز): ورواه.

(٣) في (م) و(د) و(ز): افترقا، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في سنن الدارقطني (٣٧٠٦). قال ابن عبد الهادي في التنقيح ـ كما في نصب الراية ٣/ ٢٥١ ـ : إسناده جيد. وقال ابن حجر في الدراية ٢/ ٧٦ : إسناده لا بأس به.

(٤) سنن الدارقطني (٣٧٠٧) (٣٧٠٨)، وأخرجه أيضاً عن علي ﷺ ابن أبي شيبة ٤/ ٣٥١ ، والبيهقي ٧/ ٤١٠ .

(٥) في (ظ): لعانهما.

تلتعن المرأة، لم يتوارثا.

الموفية ثلاثين: قال ابن القَصَّار: تفريق اللِّعان عندنا ليس بفسخ، وهو مذهب المدوَّنة؛ فإن اللِّعان حكمُ تفريقه حكمُ تفريق الطلاق، ويُعطى لغير المدخول بها نصفُ الصَّداق. وفي مختصر ابن الجَلَّاب: لا شيء لها، وهذا على أن تفريق اللِّعان فسخ[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

فيه ثمان وعشرون[2] مسألة:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/١٦٨ بتقديم وتأخير، وجاء فيه قول ابن القصار: تفريق اللِّعان عندنا فسخ.

(٢) كذا في النسخ، والذي سيرد سبع وعشرون مسألة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ﴾ «عُصْبَةٌ» خبر «إنَّ». ويجوز نصبُها على الحال، ويكون الخبر: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ﴾(١).

وسبب نزولها ما رواه الأئمة من حديث الإفك الطويل في قصة عائشةَ رضوانُ الله عليها، وهو خبر صحيحٌ مشهور، أغنى اشتهارُه عن ذكره، وسيأتي مختصراً.

وأخرجه البخاريُّ تعليقاً، وحديثه أتم؛ قال: وقال [أبو] أسامة عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة(٢).

وأخرجه أيضاً عن محمد بن كثير، عن أخيه سليمان من حديث مسروق، عن أمِّ رُومان أمِّ عائشةَ أنها قالت: لمَّا رُميت عائشةُ خرَّتْ مَغْشيًّا عليها(٣).

وعن موسى بن إسماعيل من حديث أبي وائل قال: حدثني مسروق بن الأجدع قال: حدثتني أمُّ رُومان ـ وهي أمُّ عائشة ـ قالت: بينا أنا قاعدةٌ أنا وعائشةُ، إذ وَلَجتِ امرأةٌ من الأنصار فقالت: فعل الله بفلان وفعل(٤)، فقالت أمُّ رومان: وما ذاكِ؟ قالت: ابني فيمن حدَّث الحديث، قالت: وما ذاك؟ قالت: كذا وكذا. قالت عائشة: سمع رسولُ الله ﷺ؟ قالت: نعم. قالت: وأبو بكر؟ قالت: نعم. فخرَّت مغشيًّا عليها، فما أفاقت إلَّا وعليها حُمَّى بنافضٍ(٥)، فطرحتُ عليها ثيابها فغطَّيتُها، فجاء النبيُّ ﷺ فقال: «ما شأنُ هذه؟». قلت: يا رسول الله، أخذتها الحُمَّى بنافض. قال: «فلعلَّ في حديثٍ تُحُدِّثَ به». قالت: نعم. فقعدت عائشة فقالت: والله لئن حلفتُ لا تُصدِّقوني، ولئن قلت لا تَعْذِروني(٦)، مَثَلي ومَثَلُكم كيعقوبَ وبَنِيه، واللهُ المستعان على ما

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٠.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٥٧)، ووصله أحمد (٢٤٣١٧)، ومسلم (٢٧٧٠): (٥٨). وما سيأتي بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٥١)، وهو من طريق سليمان بن كثير، عن حصين، عن أبي وائل، عن مسروق، به.

(٤) بعدها في (م): بفلان.

(٥) أي: بِرِعْدة شديدة، كأنها نفضتها، أي: حركتها. النهاية (نفض).

(٦) في (خ) و(د): لا تصدقوني ... لا تعذروني.

تصفون. قالت: فانصرف ولم يقل شيئاً، فأنزل الله عُذْرَها. قالت: بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك[1].

قال أبو عبد الله الحُميدي[2]: كان بعض من لقينا من الحفاظ البغداديين يقول: الإرسال في هذا الحديث أبْيَن، واستدلَّ على ذلك بأن أمَّ رُومان تُوفِّيت في حياة رسول الله ﷺ، ومسروقٌ لم يشاهد النبيَّ ﷺ بلا خلاف[3].

وللبخاريِّ[4] من حديث عبد الله بن عُبيد الله بن أبي مُلَيكة[5] أن عائشةَ كانت تقرأ: «إِذْ تَلِقُونَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ»[6] وتقول: الوَلْق: الكذب. قال ابن أبي مُليكة: وكانت أعلمَ بذلك من غيرها؛ لأنه نزل فيها.

قال البخاريُّ: وقال النعمان[7] بن راشد عن الزهري: وكان حديث الإفك في غَزْوَة المُرَيْسِيع[8]. قال ابن إسحاق: وذلك سنةَ ستٍّ[9]. وقال موسى بن عقبة:

(١) صحيح البخاري (٤١٤٣)، وأخرجه أحمد أيضاً (٢٧٠٧٠).

(٢) في الجمع بين الصحيحين ٤/ ٣٠٨.

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح ٧/ ٤٣٨ أن الخطيب البغدادي هو القائل بالإرسال في هذا الحديث معتمداً بذلك على قول الواقدي: إن أمَّ رُومان ماتت في حياة النبي ﷺ. قال الحافظ ابن حجر: ولا تُتعقب الأسانيد الصحيحة بما يأتي عن الواقدي، ثم ذكر الحافظ رحمه الله أخباراً وأقوالاً تؤكد خطأ قول الواقدي وأن وفاة أمّ رُومان تأخرت عن وفاة النبي ﷺ، وأن مسروقاً سمع من أمّ رُومان، وحديث البخاري رحمه الله على الاتصال، وليس ثمة انقطاع بين مسروق وأمّ رُومان كما ذكر الخطيب البغدادي ومن تبعه على ذلك.

(٤) برقم (٤١٤٤).

(٥) في (م) و(خ) و(د) و(ز): عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة، وهو خطأ، وفي (ظ): عبد الله بن أبي مليكة، (نُسب فيها إلى جدِّه)، والمثبت من صحيح البخاري وكتب التراجم.

(٦) القراءات الشاذة ص١٠٠ ، والمحتسب ٢/ ١٠٤ .

(٧) في (م) والنسخ الخطية: معمر، والمثبت من صحيح البخاري قبل حديث (٤١٣٨)، والجمع بين الصحيحين ٤/ ٣٠٨ والكلام منه.

(٨) صحيح البخاري قبل حديث (٤١٣٨)، وقول الزهري وصله الجَوْزَقي - كما في فَتح الباري ٧/ ٤٣٠ - ، والبيهقي في الدلائل من طريق حماد بن زيد، عن النعمان بن راشد، ومعمر عن الزهري، عن عائشة رضي الله عنها اهـ وينظر تغليق التعليق ٤/ ١٢٣ .

(٩) صحيح البخاري، وابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٩٧ .

سنة أربع[١].

وأخرج البخاريُّ من حديث مَعْمَر عن الزُّهريِّ قال: قال لي الوليد بن عبد الملك: أَبَلَغك أن عليًّا كان فيمن قَذَف؟ قال: قلت: لا، ولكن قد أخبرني رجلان من قومك ـ أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمن وأبو بكر بنُ عبد الرحمن بنِ الحارث بنِ هشام ـ أن عائشة قالت لهما: كان عليٌّ مُسَلِّماً في شأنها[٢].

وأخرجه أبو بكر الإسماعيليُّ في كتابه «المخرج على الصحيح» من وجه آخرَ من حديث مَعْمَر عن الزهري، وفيه: قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك، فقال: الذي تولَّى كِبْرَه منهم عليُّ بن أبي طالب؟ فقلت: لا، حدثني سعيد بن المسيِّب وعُروةُ وعلقمةُ وعبيدُ الله بنُ عبد الله بنِ عتبةَ كلُّهم يقول: سمعت عائشة تقول: والذي تولَّى كِبْرَه: عبدُ الله بن أُبَيٍّ[٣].

وأخرج البخاري أيضاً من حديث الزهري عن عروةَ، عن عائشة: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ عبدُ الله بن أُبَيٍّ[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾ الإفك: الكذب، والعصبةُ ثلاثةُ رجال، قاله ابن عباس. وعنه أيضاً: من الثلاثة إلى العشرة[٥]. ابن عُيينة: أربعون رجلاً[٦]. مجاهد:

---

(١) صحيح البخاري قبل حديث (٤١٣٨)، قال ابن حجر في فتح الباري ٧/ ٤٣٠ : كذا ذكره البخاري، وكأنه سبق قلم، أراد أن يكتب سنة خمس، فكتب سنة أربع، والذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق أخرجها الحاكم، وأبو سعيد النيسابوري، والبيهقي في الدلائل [١/ ٤٥] وغيرهم: سنة خمس...اهـ وينظر تغليق التعليق ٤/ ١٢٣ .

(٢) صحيح البخاري (٤١٤٢)، وقوله: كان علي مسلِّماً في شأنها، أي: سالماً لم يُبْدِ بشيء من أمرها، ويروى بكسر اللام، أي: مسلِّماً للأمر، والفتح أشبه، أي: أنه لم يقل فيها سوءاً. النهاية (سلم).

(٣) نقله المصنف عن الإسماعيلي بواسطة أبي عبد الله الحميدي في الجمع بين الصحيحين ٤/ ١٢٤-١٢٥ .

(٤) صحيح البخاري (٤٧٤٩)، وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (٢٥٦٢٣)، ومسلم (٢٧٧٠): (٥٦) مطولاً.

(٥) أخرج قولي ابن عباس الطبري ١٨/ ٣١٦ .

(٦) ذكر هذا القول المرتضى الزبيدي في تاج العروس (عصب) ولم ينسبه.

مِن عَشَرة إلى خمسةَ عشَر[(١)]. وأصلُها في اللغة وكلام العرب: الجماعةُ الذين يَتَعصَّب بعضهم لبعض[(٢)].

والخيرُ حقيقتُه ما زاد نفعُه على ضَرِّه. والشرُّ ما زاد ضَرُّه على نفعه. وإنَّ خيراً لا شرَّ فيه هو الجنة. وشرًّا لا خيرَ فيه هو جهنم.فأمَّا البلاءُ النازلُ على الأولياء فهو خير؛ لأن ضرره من الألم قليلٌ في الدنيا، وخيرَه هو الثواب الكثير في الآخرة[(٣)]. فنبَّه الله تعالى عائشةَ وأهلَها وصَفْوان، إذ الخطاب لهم في قوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ لرُجحان النفع والخير على جانب الشَّر.

الثالثة: لمَّا خرج رسول الله ﷺ بعائشةَ معه في غَزْوة بني المُصْطَلِق ـ وهي غزوة المُرَيْسِيع ـ وقَفَل ودنا من المدينة، آذَن ليلةً بالرَّحيل، قامت حين آذَنوا بالرَّحيل، فمشت حتى جاوزت الجيش، فلمَّا فرغت من شأنها، أقبلت إلى الرَّحْل، فلمستْ صدرها، فإذا عِقدٌ من جَزْعِ ظَفَارِ[(٤)] قد انقطع، فرجعتْ فالتمستْه، فحبسها ابتغاؤه، فوجدته وانصرفتْ فلم تجد أحداً، وكانت شابَّة قليلةَ اللَّحم، فرفع الرجال هَوْدَجها ولم يشعروا بزوالها منه، فلمَّا لم تجد أحداً، اضطجعت في مكانها رجاءَ أن تُفتقَد فيُرجع إليها، فنامت في الموضع، ولم يُوقظها إلا قولُ صَفْوانَ بنِ المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون، وذلك أنه كان تَخَلَّف وراء الجيش لحِفْظ الساقة[(٥)].

وقيل: إنها استيقظت لاسترجاعه، ونزل عن ناقته، وتَنَحَّى عنها حتى ركبت

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٨٩، وأخرجه الطبري ١٨/ ٣١٦.

(٢) ينظر مفردات ألفاظ القرآن (عصب).

(٣) في (م) و(خ) و(د) و(ز): الأخرى، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤١ - ١٣٤٢ والكلام منه.

(٤) الجَزْع بالفتح: الخَرَز اليماني، الواحدة جَزْعة. النهاية (جزع). وظَفَار مدينة باليمن في موضعين، إحداهما قرب صنعاء، وهي التي ينسب إليها الجَزْع الظَّفاري وبها كان مسكن ملوك حمير. معجم البلدان ٤/ ٦٠.

(٥) هي مؤخَّر الجيش.

عائشة، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيشَ في نَحْر الظَّهِيرة، فوقع أهل الإفك في مقالتهم، وكان الذي يُجتمَع إليه فيه ويَسْتَوْشِيهِ[١] ويُشْعلُه[٢] عبدُ الله بنُ أُبَيِّ ابنِ سَلُول المنافق، وهو الذي رأى صفوان آخذاً بزمام ناقة عائشة، فقال: والله ما نجتْ منه ولا نجا منها[٣]، وقال: امرأةُ نبيِّكم باتت مع رجل. وكان مِن قالته حسانُ بن ثابت، ومِسْطحُ بن أُثَاثة، وحَمْنَةُ بنت جَحْش. هذا اختصار الحديث، وهو بكماله وإتقانه في البخاريِّ ومسلم، وهو في مسلم أكمل[٤].

ولمَّا بلغ صَفْوانَ قولُ حسان في الإفك، جاء فضربه بالسيف ضربةً على رأسه، وقال:

تَلَقَّ ذُبابَ السيف عني فإنني غلامٌ إذا هُوجِيتُ ليس بشاعرِ

فأخذ جماعةٌ صفوان[٥] ولَبَّبُوه[٦] وجاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فأهدر رسول الله ﷺ جُرْحَ حسان، واستوهبه إيَّاه[٧]. وهذا يدلُّ على أن حسان ممن تَوَلَّى الكِبْر، على ما يأتي، والله أعلم.

وكان صفوان هذا صاحبَ ساقة رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته، وكان من خِيار الصحابة. وقيل: كان حَصُوراً لا يأتي النساء. ذكره ابن إسحاق من طريق

(١) أي: يستخرجه بالبحث والمسألة ثم يُفشيه ويشيعه ويحركه. صحيح مسلم بشرح النووي ١١٦/١٧ .

(٢) في (د) و(ظ): ويستوشيه ويشغله، وفي (ظ): وينشره ويشيعه، والمثبت من (خ) و(م).

(٣) في (ز) و(ظ): وما نجا منها.

(٤) صحيح البخاري (٤١٤١)، وصحيح مسلم (٢٧٧٠): (٥٦)، وهو في مسند أحمد أيضاً (٢٥٦٢٣).

(٥) في (م) و(خ) و(د) و(ز): حسان، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ١٦٩/٤ والكلام منه.

(٦) أي جمعوا ثيابه عند نحره، ثم جرُّوه. ينظر القاموس (لبب).

(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ١١٤ (١٥١) مطولاً، والحاكم في المستدرك ٥١٩/٣ عن عائشة رضي الله عنها بنحوه. وجاء عند الطبراني والحاكم: تلق ذباب السيف مني... بدل: ...عني. وينظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٠٤ - ٣٠٥ .

عائشة[١]. وقيل: كان له ابنان، يدلُّ على ذلك حديثُه المرويُّ مع امرأته، وقولُ النبيِّ ﷺ في ابنيه: «لهما أَشْبهُ به من الغراب بالغراب»[٢]. وقولُه في الحديث: والله ما كَشَفْتُ كَنَف أنثى قطُّ[٣]، يريد بزنًى.

وقُتِل شهيداً ﷺ في غزوة أرمِينِيَة سنة تسعَ عَشْرة في زمان عمر، وقيل: ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمان معاوية.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ يعني: ممن تكلَّم بالإفك. ولم يُسَمَّ من أهل الإفك إلا حسانُ ومِسْطَحُ وحَمْنةُ وعبدُ الله، وجُهِل الغير، قاله عروة بن الزبير، وقد سأله عن ذلك عبدُ الملك بنُ مروان، وقال: ألا إنهم كانوا عُصْبة، كما قال الله تعالى[٤].

وفي مصحف حَفْصة: «عُصْبة أربعة»[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ وقرأ حُميد الأعرج[٦] ويعقوب: «كُبْرَه» بضم الكاف[٧]. قال الفراء: وهو وجه جيِّدٌ؛ لأن العرب تقول: فلان تولَّى

(١) السيرة النبوية ٢/ ٣٠٦، ونقله المصنف بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٦٩، وما قبله منه ص١٦٨.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٩ وما سيأتي منه، ولم نقف على الحديث. وذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤٦٢ وقال: لم أقف على مستند القرطبي في ذلك. اهـ وذكر ابن حجر ما يفيد أن المقول فيه ذلك غير صفوان.

وقد وقع هذا اللفظ عند البخاري (٥٨٢٥) في حق عبد الرحمن بن الزَّبير القرظي وابنيه.

(٣) هو قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٢٤٣٧١)، والبخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠): (٥٧) و(٥٨) من حديث عائشة. والكنف هو الثوب هنا، وأصله الساتر، وهو كناية عن الجماع. أقسم أنه ما جامع امرأة قط، وكأنه لم يكن له أرب في النساء، والله تعالى أعلم. المفهم ٧/ ٣٧٨.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٩، وأخرجه الطبري ١٧/ ١٩٠ بنحوه وورد قول عروة أيضاً في حديث عائشة المذكور آنفاً.

(٥) لم نقف على هذه القراءة.

(٦) في (د) و(ظ): حميد والأعرج، والمثبت من (خ) و(ز) و(م) وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٠ والكلام منه، وحميد هو ابن قيس الأعرج.

(٧) قراءة حميد في القراءات الشاذة ص١٠١، والمحتسب ٢/ ١٠٣ - ١٠٤، وقراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٣١.

عُظْم كذا وكذا، أي: أكْبَره[١].

رُوِيَ عن عائشةَ أنه حسَّان، وأنها قالت حين عَمِيَ: لعلَّ العذابَ العظيم الذي أوعده الله به ذهابُ بصره. رواه عنها مسروق[٢]. ورُوِيَ عنها أنه: عبدُ الله بن أبَيٍّ، وهو الصحيح. وقاله ابن عباس[٣].

وحكى أبو عمر بن عبد البر[٤] أن عائشةَ برَّأت حسان من الفِرْية، وقالت: إنه لم يقل شيئاً. وقد أنكر حسان أن يكون قال شيئاً من ذلك في قوله:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبَةٍ ... وتُصبح غَرْثَى من لُحوم الغَوافِلِ[٥]
حَلِيلةُ خيرِ الناس دِيناً ومَنْصِباً ... نَبِيِّ الهُدَى والمَكْرُمَات الفواضلِ
عَقِيلةُ حَيٍّ[٦] من لُؤَيِّ بن غالبٍ ... كرامِ المساعي مَجْدُها[٧] غيرُ زائلِ
مُهَذَّبةٌ قد طَيَّب الله خِيمَها ... وطهَّرها من كلِّ شَيْنٍ وباطلِ[٨]

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٠ وجاء عندهما: أكثره، بدل: أكبره، قال النحاس: والذي جاء به لا حجة فيه؛ لأنه قد يكون الشيء بمعنى الشيء والحركة فيها مختلفة.

(٢) هو بنحوه عند البخاري (٤١٤٦) و(٤٧٥٥)، ومسلم (٢٤٨٨).

(٣) سلف قول عائشة في آخر المسألة الأولى، وأما قول ابن عباس فقد أخرجه الطبري ١٧/ ١٩٠ ، والطبراني ٢٣/ ١٣٧ (١٨١).

(٤) في الاستيعاب بهامش الإصابة ٣/ ٢٤ - ٢٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي العباس في المفهم ٦/ ٤٢٢ .

(٥) الحصان: هنا العفيفة. والرَّزَان: الملازمة موضعها التي لا تتصرف كثيراً. ما تُزَنُّ، أي: ما تُتَّهم. وغَرْثى، أي: جائعة. والغوافل جمع غافلة، ومعنى هذا الكلام أنها كافَّة عن أعراض الناس. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ٣/ ٤٣ - ٤٤ وما سيأتي من شرح الغريب منه.

(٦) جاء في الاستيعاب بهامش الإصابة ١٣/ ٩٠ : عقيلة أصل، والعقيلة: الكريمة.

(٧) جاء في الاستيعاب، والسيرة النبوية ٢/ ٣٠٦ : مجدهم، بدل: مجدها. والمساعي جمع مَسْعاة: وهو ما يُسعى فيه من طلب المجد والمكارم.

(٨) جاء في الاستيعاب: بغي بدل قوله: شين، وفي ديوان حسان ص٣٨١ والسيرة النبوية والمعجم الكبير ٢٣/ ١١٦ : سوء. وقوله: مهذَّبة، أي: صافية مخلَّصة. والخِيمُ: الطَّبع والأصل.

فإن كان ما بُلِّغتِ عنّيَ قلتُه[١] فلا رفعَتْ سَوْطي إليَّ أناملي

فكيف ووُدّي ما حَيِيتُ ونُصْرتي لآل رسول الله زَيْنِ المحافلِ

له رُتَبٌ عالٍ على الناس فضلُها تقاصَرُ عنها سَوْرةُ المتطاولِ[٢]

وقد رُوِيَ أنه لمَّا أنشدها: حَصانٌ رَزانٌ، قالت له: [لكنَّك] لستَ كذلك، تريد أنك وقعت في الغوافل[٣]. وهذا تَعارُض، ويمكن الجمع بأن يقال: إن حساناً لم يقل ذلك نصًّا وتصريحاً، ويكون عرَّض بذلك وأَوْمأ إليه، فنُسِب ذلك إليه، والله أعلم[٤].

وقد اختلف الناس فيه، هل خاض في الإفك أم لا؟ وهل جُلِد الحدَّ أم لا؟ فالله أعلم أيُّ ذلك كان[٥]، وهي المسألة:

السادسة: فروى محمد بنُ إسحاق[٦] وغيرُه أن النبيَّ ﷺ جَلَد في الإفك رجلين وامرأة: مِسْطَحاً وحسَّان وحَمْنَة. وذكره الترمذي[٧].

وذكر القُشَيريُّ عن ابن عباس قال: جلد رسول الله ﷺ ابنَ أُبَيٍّ ثمانين جلدة، وله في الآخرة عذابُ النار[٨]. قال القُشَيْري: والذي ثبت في الأخبار أنه ضرب ابنَ أُبَيٍّ وضرب حسان وحَمْنة، وأمَّا مِسْطح، فلم يثبت عنه قذفٌ صريح، ولكنه كان يسمع

---

(١) في (م): أني، بدل: عني وجاء هذا الشطر في الاستيعاب بلفظ: فإن كان ما قد قيل عنديَ قلته. وفي الديوان والسيرة النبوية: فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم.

(٢) قوله: السَّورة ـ بفتح السين ـ الوَثْبة، وبضم السين: المنزلة، والبيت الأول سلف ٦/١٩٨، وذكرت هذه الأبيات كلُّها في ديوان حسان ص٣٨٠ - ٣٨١، والسيرة النبوية ٢/٣٠٦ وليس فيه البيت الثاني، والاستيعاب بهامش الإصابة ١٣/٩٠ دون البيت الثاني والأخير.

وأخرجها كلَّها الطبراني في الكبير ٢٣/١١٦ (١٥١) في حديث طويل عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) المحرر الوجيز ٤/١٦٩ وما بين حاصرتين منه، ومن صحيح البخاري (٤١٤٦)، ومسلم (٢٤٨٨).

(٤) المفهم ٦/٤٢٢.

(٥) المفهم ٦/٤٢٢.

(٦) كما في السيرة النبوية ٢/٣٠٢، ونقله المصنف بواسطة ابن العربي في أحكام القرآن ٣/١٣٤٢.

(٧) في سننه (٣١٨١) من حديث عائشة رضي الله عنها، ولم يُسمَّ فيه الرجلان والمرأة.

(٨) أخرجه الحاكم في الإكليل كما في فتح الباري ٨/٤٧٩.

ويُشيع من غير تصريح[(١)].

قال الماورديُّ[(٢)] وغيرُه: اختلفوا هل حَدَّ النبيُّ ﷺ أصحابَ الإفك، على قولين:

أحدُهما: أنه لم يَحُدَّ أحداً من أصحاب الإفك؛ لأن الحدود إنما تُقام بإقرار أو ببيِّنة، ولم يتعبَّده الله أن يُقيمها بإخباره عنها، كما لم يتعبَّده بقتل المنافقين، وقد أخبره بكفرهم.

قلت: وهذا فاسدٌ مخالفٌ لنصِّ القرآن، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: على صِدْق قولهم ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً﴾.

والقول الثاني: أن النبيَّ ﷺ حدَّ أهل الإفك: عبد الله بنَ أُبَيٍّ، ومِسْطَحَ بن أُثَاثة، وحسَّانَ بن ثابت، وحَمْنَةَ بنتَ جحش، وفي ذلك قال شاعر من المسلمين:

لـقـد ذاق حـسَّـانُ الـذي كـان أهـلَـه ... وحَمْـنَـةُ إذ قـالـوا هـجيراً[(٣)] ومِسْطَحُ
وابـنُ سَـلُـولٍ ذاق فـي الـحَـدِّ خِـزيـةً ... كما خاض في إفكٍ من القول يُفْصِح
تـعـاطَـوْا بـرجـم[(٤)] الـغـيـب زَوْجَ نـبـيِّـهـم ... وسخطةَ ذي العرش الكريم فأُبْرِحوا[(٥)]
وآذَوْا رسـولَ الـلـه فـيـهـا فَـجُـلِّـلُـوا ... مـخـازِيَ تـبـقـى عُـمِّـمُـوهـا وفُـضِّـحـوا
وصُـبَّـتْ[(٦)] عـلـيـهـم مُـحْـصَـداتٌ كـأنـهـا ... شآبيبُ قَطْرٍ من ذُرَى المُزْن تَسْفَحُ[(٧)]

---

(١) لم نقف على هذا الخبر.

(٢) في النكت والعيون ٤/ ٨١ - ٨٢ . ولفظة: وغيره، ليست في (د) و(ظ) و(ف).

(٣) قوله: هجيراً: الهَجِير الهُجْر هنا وهو القول الفاحش القبيح. الإملاء المختصر ٣/ ٤٤ - ٤٥ ، وما سيأتي من شرح الغريب منه.

(٤) قوله: برجم، الرجم الظَّن هنا.

(٥) قوله: فأُبرِحوا، من البَرْح، وهو المشقَّة والشِّدة. وجاء في السيرة النبوية ٢/ ٣٠٧ ، وتاريخ المدينة ١/ ٣٤٧ ، والمعجم الكبير ٢٣/ ١١٧ : فأُتْرِحوا، بالتاء، أي: أُحْزِنوا من التَّرَح وهو الحُزْن.

(٦) في (م) و(د): فَصُبَّ، وفي (خ) و(ز) والنكت والعيون: فَصُبَّت، والمثبت من (ظ) والسيرة النبوية وتاريخ المدينة.

(٧) قوله: محصدات: يعني سياطاً محكمة الفَتْل شديداتٍ. والشآبيب: جمع شُؤْبوب، وهي الدُّفْعة من =

قلت: المشهورُ من الأخبار، والمعروف عند العلماء، أن الذي حُدَّ: حسانُ ومِسْطحٌ وحَمْنةُ، ولم يُسمع بحدٍّ لعبد الله بن أُبَيّ. روى أبو داود عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: لمَّا نزل عُذْري، قام النبيُّ ﷺ فذكر ذلك، وتلا القرآن، فلمَّا نزل من المنبر، أمر بالرجلين والمرأة فضُرِبوا حدَّهم(١). وسمَّاهم: حسَّان بن ثابت، ومِسْطح ابن أُثاثة، وحَمْنة بنت جحش(٢). وفي كتاب الطحاوي: «ثمانين ثمانين».

قال علماؤنا: وإنما لم يُحدَّ عبدُ الله بنُ أبَيٍّ، لأن الله تعالى قد أعدَّ له في الآخرة عذاباً عظيماً، فلو حُدَّ في الدنيا، لكان ذلك نَقْصاً من عذابه في الآخرة، وتخفيفاً عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشةَ رضي الله عنها، وبِكَذِب كلِّ مَن رماها، فقد حصلت فائدةُ الحدِّ، إذ مقصودُه إظهارُ كَذِب القاذف وبراءةِ المقذوف، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾. وإنما حُدَّ هؤلاء المسلمون؛ ليُكَفَّر عنهم إثمُ ما صَدَر عنهم من القذف، حتى لا يبقى عليهم تَبِعةٌ من ذلك في الآخرة، وقد قال ﷺ في الحدود: «إنها كفارةٌ لمن أقيمت عليه»(٣)، كما في حديث عُبادةَ بنِ الصامت.

ويحتمل أن يُقال: إنما ترك حَدَّ ابنِ أُبَيٍّ استئلافاً لقومه، واحتراماً لابنه، وإطفاءً لثائرة الفتنة المتوقَّعة من ذلك، وقد كان ظَهَر مبادئُها من سعد بن عُبادةَ ومن قومه،

= المطر. والذُّرى: الأعالي. والمُزْن: السحاب. وتسفح: أي: تسيل. وأورد هذه الأبيات الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٨١ - ٨٢، وابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٣٠٧ ولم يذكر البيت الثاني، وابن شبَّة في تاريخ المدينة ١/ ٣٤٧. وأورد البيت الأول والثالث والخامس الطبراني في المعجم الكبير ٢٣/ ١١٧، وجاء عنده الشطر الأول من البيت الأول بلفظ: لقد كان عبد الله ما كان أهله.

(١) سنن أبي داود (٤٤٧٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٤٠٦٦)، والترمذي (٣١٨١)، وابن ماجه (٢٥٦٧) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق.

(٢) المفهم ٧/ ٣٧٩ والكلام إلى آخر المسألة منه، والحديث أخرجه أبو داود (٤٤٧٥) من طريق محمد بن إسحاق... عن عمرة مرسلاً.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، لكن سلف ٧/ ٤٢ بنحوه، وفيه: تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا... ومن أصاب شيئاً من ذلك، فعوقب به، فهو كفارة له.

كما في صحيح مسلم[١]. والله أعلم.

السابعة: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ هذا عتابٌ من الله سبحانه تعالى للمؤمنين في ظنِّهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا. قال ابن زيد: ظنَّ المؤمنون أن المؤمن لا يَفْجُر بأمِّه[٢]. قاله المَهْدَوِي. و«لولا» بمعنى هَلَّا[٣].

وقيل: المعنى: أنه كان ينبغي أن يَقيس فُضَلاءُ المؤمنين والمؤمنات الأمرَ على أنفسهم، فإن كان ذلك يَبْعد فيهم، فذلك في عائشةَ وصفوانَ أبعد[٤]. ورُوِيَ أن هذا النظرَ السَّديد وقع من أبي أيوب الأنصاريِّ وامرأتِه، وذلك أنه دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب، أسمعتَ ما قيل؟ فقال: نعم، وذلك الكذبُ، أكنتِ أنت يا أمَّ أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله. قال: فعائشةُ واللهِ أفضلُ منك، قالت أمُّ أيوب: نعم[٥]. فهذا الفعلُ ونحوُه هو الذي عاتب الله تعالى عليه المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ قال النحاس[٦]: معنى «بأنفسهم»: بإخوانهم.

---

(١) برقم (٢٧٧٠): (٥٦) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «مَن يعذِرُني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي... فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه... قالت: فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً ولكن اجتهلته الجاهلية ـ فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله... فثار الحيَّان الأوس والخزرج...» وأخرجه ـ أيضاً ـ أحمد (٢٤٣١٧)، والبخاري (٢٦٦١).

(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ١٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ٨٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٠ وما سيأتي منه، وفيه: وإذا كان ذلك يبعد فيهم، فكانوا يقضون بأنه من صفوان وعائشة أبعد لفضلهما.

(٥) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية ٢/ ٣٠٢ ، وابن راهويه في مسنده (١٦٩٨)، والطبري ١٧/ ٢١٢ .

(٦) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٠ .

فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً، ويذكُره بقبيح لا يعرفونه به، أن يُنكِروا عليه ويُكَذِّبوه. وتواعد[١] مَن ترك ذلك ومَن نقله.

قلت: ولأجل هذا قال العلماء: إن الآية أصلٌ في أنَّ درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومنزلةَ الصَّلاح التي حلَّها المرء[٢]، ولُبْسةَ العفاف التي يستتر بها المسلم، لا يُزيلها عنه خبرٌ محتمِلٌ وإن شاع، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ هذا توبيخٌ لأهل الإفك. و«لولا» بمعنى هلَّا، أي: هلَّا جاؤوا بأربعة شهداءَ على ما زعموا من الافتراء. وهذا ردٌّ على الحكم الأوَّل، وإحالةٌ على الآية السابقة في آية القذف[٣].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: هم في حكم الله كاذبون. وقد يَعجِز الرجل عن إقامة البينة وهو صادقٌ في قذفه، ولكنه في حكم الشرع وظاهرِ الأمر كاذبٌ، لا في علم الله تعالى، وهو سبحانه إنما رتَّبَ الحدود على حكمه الذي شَرَعه في الدنيا، لا على مقتضى علمه الذي تَعلَّق بالإنسان على ما هو عليه، فإنما يُبنى على ذلك حكمُ الآخرة.

قلت: ومما يقوِّي هذا المعنى ويَعْضُده ما خرَّجه البخاريُّ[٤] عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ أنه قال: أيُّها الناسُ، إنَّ الوَحْيَ قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فَمَن أظهر لنا خيراً أمِنَّاه وقرَّبناه، وليس لنا من سريرته شيءٌ، اللهُ يحاسبه في سريرته، ومَن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه[٥] ولم نصدِّقه، وإنْ قال إنَّ سريرته

---

(١) في(ز): ويواعد، وفي (ظ): وتوعَّد. والمثبت من باقي النسخ وإعراب النحاس.

(٢) في (م): المؤمن، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٣ والكلام منه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٣ ، والمسألة الآتية منه.

(٤) برقم (٢٦٤١)، وسلف ٣/ ٣٨٣ .

(٥) في (م): نؤمنه .

حسنة. وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائرَ إلى الله عزَّ وجلَّ[١].

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ «فَضْلُ» رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبرُ محذوفٌ لا تُظهِره العرب. وحُذِف جوابُ «لولا»؛ لأنه قد ذُكر مثلُه بعدُ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لمسَّكم ـ أي: بسبب ما قلتم في عائشةَ ـ عذابٌ عظيم في الدنيا والآخرة[٢]. وهذا عتابٌ من الله تعالى بليغٌ، ولكنه برحمته سَتَر عليكم في الدنيا، ويرحمُ في الآخرة مَن أتاه تائباً.

والإفاضة: الأخذُ في الحديث، وهو الذي وقع عليه العتاب[٣]، يُقال: أفاض القوم في الحديث، أي: أخذوا فيه.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قراءةُ محمدِ بن السَّمَيْفَع بضم التاء وسكون اللام وضمِّ القاف، من الإلقاء[٤]، وهذه قراءةٌ بيِّنة. وقرأ أُبَيٌّ وابن مسعود: «إذ تَتلقَّونه» من التَّلَقِّي، بتاءين[٥].

وقرأ جمهور السبعة بحذف[٦] التاء الواحدة، وإظهارِ الذَّال دون إدغام، وهو[٧] أيضاً من التَّلَقِّي. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ بإدغام الذَّال في التاء[٨].

---

(١) التمهيد ١٠/ ١٥٧.

(٢) حقُّ هذا الكلام أن يُذكر في تفسير الآية (١٠) قبل آية الإفك. وهو في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٢٩، وينظر الوسيط ٣/ ٣١١، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٧٩.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١.

(٤) المحتسب ٢/ ١٠٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٠ ولم ينسبها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ ووقع في مطبوعه: ...«إذ تتلقونه» بضم التاء، وهو خطأ. وذكر هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٠ ونسبها لأُبَيٍّ فقط.

(٦) في (م): بحرف.

(٧) في (م): وهذا.

(٨) وكذلك قرأ ابن عامر في رواية هشام. السبعة ص٤٥٣ -٤٥٤، والتيسير ص٤٢.

وقرأ ابن كثير بإظهار الذال وإدغامِ التاء في التاء[١]، وهذه قراءةٌ قَلِقة؛ لأنها تقتضي اجتماعَ ساكنين، وليست كالإدغام في قراءة مَن قرأ: «فلا تناجَوْا»[٢] [المجادلة: ٩]، ﴿وَلَا تَّنَابَزُواْ﴾[٣] [الحجرات: ١١] لأن دونه الألفَ الساكنةَ، وكونها حرفَ لِين حَسُنت هنالك ما لا تحسن مع سكون الذَّال.

وقرأ ابن يَعْمَر وعائشةُ رضي الله عنهما ـ وهم أعلمُ الناس بهذا الأمر ـ: «إذ تَلِقُونه» بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف[٤]، ومعنى هذه القراءة مِن قول العرب: وَلَق الرجلُ يَلِق وَلْقاً: إذا كَذَبَ واستمر عليه، فجاؤوا بالمتعدِّي شاهداً على غير المتعدِّي.

قال ابن عطية[٥]: وعندي أنه أراد: إذ تَلِقُون فيه، فَحَذف حرفَ الجر، فاتصل الضمير.

وقال الخليل وأبو عمرو: أصل الوَلْق: الإسراع، يقال: جاءت الإبل تَلِق، أي: تُسرع[٦]. قال:

لمَّا رأوْا جيشاً عليهم قد طَرَقْ جاؤوا بأسراب من الشأم وَلِقْ
إنَّ الحُصَيْن زَلِقٌ وزُمَّلِقْ جاءت به عَنْسٌ من الشأمِ تَلِقْ[٧]

---

(١) التيسير ص٤٢.

(٢) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٥٣ لابن محيصن، قال: ثم رجع.

(٣) قرأ ابن كثير في رواية البزِّيّ وصلاً بتشديد التاء مع المدّ المشبع لالتقاء الساكنين.

(٤) المحتسب ٢/ ١٠٤، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٠ لعائشة فقط، وسلف ذكرها في المسألة الأولى.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ وما قبله منه.

(٦) العين للخليل ٥/ ٢١٤، والصحاح (ولق).

(٧) البيت الثاني للشماخ بن ضرار الذبياني، وهو في ديوانه ص٤٥٢ - ٤٥٣، وفيه: إن الجليد، بدل: إن الحصين. وكذا جاء في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٨، وتفسير الطبري ١٧/ ٢١٦ ولم ينسباه. وجاء في الصحاح (ولق)، ولسان العرب (زلق) كرواية المصنف، قال ابن منظور: وصوابه: إن الجليد، وهو الجليد الكلابي. اهـ وقوله: عنس، العَنْس: الناقة الصلبة. لسان العرب (عنس). ولم نقف على الأول.

يقال: رجلٌ زَلِقٌ وزُمَلِق، مثال: هُدَبِد[١]، وزُمَالِق وزُمَّلِق - بتشديد الميم - وهو الذي يُنْزِل قبل أن يُجامِع، قال الراجز:

إنّ الـحُـصـيـن زَلِـق وزُمَّـلِـق[٢]

والوَلْق أيضاً: أخفُّ الطَّعن. وقد وَلَقه يَلِقه وَلْقاً. يقال: وَلَقه بالسيف وَلَقاتٍ، أي: ضربات[٣]، فهو مشترك.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ مبالغةٌ وإلزامٌ وتأكيد. والضمير في «تَحْسَبُونَهُ» عائدٌ على الحديث، والخوضِ فيه، والإذاعةِ له[٤]. و﴿هَيِّنًا﴾ أي: شيئاً يسيراً لا يَلْحقكم فيه إثم. ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الوزر ﴿عَظِيمٌ﴾. وهذا مِثلُ قوله عليه الصلاة والسلام في حديث القَبْرَين: «إنهما لَيُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير»[٥] أي: بالنسبة إليكم.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين، أي: كان ينبغي عليكم أن تُنْكِروه، ولا يَتعاطاه بعضُكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تُنَزِّهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيِّه عليه الصلاة والسلام، وأن تَحكُموا على هذه المقالة بأنها بُهتان. وحقيقةُ البُهتان: أن يُقال في الإنسان ما ليس فيه، والغِيبة: أن يُقال في الإنسان ما فيه[٦]. وهذا المعنى قد جاء في صحيح الحديث عن النبيِّ ﷺ[٧].

---

(١) هو اللَّبن الخاثر جداً. القاموس (هدبد).

(٢) الصحاح (زلق).

(٣) الصحاح (ولق)

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ .

(٥) ١٣/ ٨٩ - ٩٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ .

(٧) أخرجه مسلم (٥٢٨٩)، وأحمد (٧١٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٧/ ١٢٢ .

ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة. و«أنْ» مفعولٌ من أجله، بتقدير: كراهيةَ أنْ، ونحوه[١].

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ توقيفٌ وتأكيد[٢]، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يعني: في عائشة[٣]؛ لأن مثله لا يكون إلَّا نظيرَ القول في المقُول عنه بعينه، أو فيمن كان في مرتبته من أزواج النبيِّ ﷺ؛ لِمَا في ذلك من إذاية رسول الله ﷺ في عِرْضه وأهله، وذلك كفرٌ من فاعله[٤].

السابعة عشرة: قال هشام بن عمار: سمعت مالكاً يقول: مَن سَبَّ أبا بكر وعمرَ أُدِّب، ومَن سبَّ عائشة قُتِل؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فمن سَبَّ عائشة فقد خالف القرآن، ومَن خالف القرآن قُتِل[٥].

قال ابن العربي[٦]: قال أصحاب الشافعيِّ: مَن سبَّ عائشة رضي الله عنها أُدِّبَ كما في سائر المؤمنين، وليس قولُه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في عائشة [لأن ذلك] كفرٌ، وإنما هو كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يُؤمِنُ مَن لا يَأْمنُ جارُه بوائقَه»[٧]. ولو كان سلبُ الإيمان في سبِّ مَن سبَّ عائشةَ حقيقةً، لكان سلبُه في قوله: «لا يزني

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ .

(٢) في (م) و(د) و(ف): وتوكيد، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧١ والكلام منه.

(٣) قبلها في (ظ): شأن.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٣ - ١٣٤٤ .

(٥) المصدر السابق، وأخرج هذا الخبر ابن حزم في المحلى ١١/ ٤١٤ - ٤١٥ .

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٤٤ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٧) أخرجه البخاري، وسلف ٦/ ٣٠٤ .

الزاني حين يزني وهو مؤمن»[١] حقيقةً. قلنا: لئن كان كما زعمتم أنَّ[٢] أهل الإفك رَمَوْا عائشة المطهَّرة بالفاحشة، فبرَّأها الله تعالى، فكان[٣] مَن سبَّها بما برَّأها الله منه مكذِّب لله، ومَن كذَّب الله فهو كافر، فهذا طريقُ قول مالك، وهي سبيلُ الآية[٤] لأهل البصائر. ولو أنَّ رجلاً سبَّ عائشة بغير[٥] ما برَّأها الله منه، لكان جزاؤه الأدب[٦].

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي: تفشو، يُقال: شاع الشيء شُيُوعاً وشَيْعاً وشَيَعاناً وشَيْعُوعة، أي: ظهر وتفرَّق. ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: في المحصنين والمحصنات. والمرادُ بهذا اللفظِ العامِّ عائشةُ وصَفْوان رضي الله عنهما[٧].

والفاحشة: الفعلُ القبيحُ المُفْرِطُ القُبحِ. وقيل: الفاحشةُ في هذه الآية: القولُ السَّيِّئ.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الحدُّ. وفي الآخرة عذابُ النار، أي: للمنافقين، فهو مخصوص[٨]. وقد بيَّنَّا أن الحَدَّ للمؤمنين كفارة[٩]. وقال الطبري: معناه: إن مات مُصِرًّا غيرَ تائب[١٠].

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٢١٦)، والبخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧): (١٠٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) جاء في أحكام القرآن: ليس كما زعمتم، فإن.

(٣) في (م): فكل.

(٤) في أحكام القرآن: لائحة، بدل: الآية.

(٥) في (ز) و(ظ) و(ف): بعين، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن والكلام منه.

(٦) في النسخ: الكفر، والمثبت من أحكام القرآن.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٢٣، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٨٣.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٧١، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣٣.

(٩) في آخر المسألة السادسة.

(١٠) تفسير الطبري ١٧/ ٢٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ١٧٢.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ أي: يعلم مِقدار عِظَم هذا الذنب والمجازاةِ عليه، ويعلم كلَّ شيء[1]. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ رُويَ من حديث أبي الدَّرْدَاء أن رسول الله ﷺ قال: «أيُّما رجلٍ شَدَّ عَضُدَ امرئٍ من الناس في خصومة لا عِلم له بها، فهو في سَخَط الله حتى يَنزِع عنها. وأيُّما رجلٍ حال[2] بشفاعته دون حدٍّ من حدود الله أن يُقام، فقد عاند الله حقًّا، وأقدم على سَخَطه، وعليه لعنةُ الله تتابع إلى يوم القيامة. وأيُّما رجلٍ أشاع على رجل مسلم كلمةً وهو منها بريءٌ، يَرى أن يَشينه بها في الدنيا، كان حقًّا على الله تعالى أن يرميَه بها في النار[3]، ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

الموفيةُ عشرين: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ يعني: مسالكَه ومذاهبَه، المعنى: لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليها الشيطان[4]. وواحدُ الخُطُوات خُطْوة، وهو ما بين القدمين. والخَطْوة ـ بالفتح ـ المصدر، يقال: خَطَوتُ خَطْوة، وجمعُها خَطَوات. وتخطَّى إلينا فلان[5]، ومنه الحديث: أنه رأى رجلاً يَتخطَّى رقابَ الناس يوم الجمعة[6].

وقرأ الجمهور: «خُطُوات» بضمِّ الطاء. وسكَّنها عاصم[7] والأعمش. وقرأ الجمهور: «مَا زَكَى» بتخفيف الكاف، أي: ما اهتدى ولا أسلم، ولا عرف رُشْداً[8].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣١ .

(٢) في (م) و(ف): قال.

(٣) قال المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ١٤٢ : رواه الطبراني، ولا يحضرني الآن حال إسناده، وروى بعضه بإسناد جيد. وقال الهيثمي في المجمع ٤/ ٢٠١ : فيه من لم أعرفه.

(٤) ينظر مجاز القرآن ٢/ ٦٥ ، وتفسير الطبري ١٧/ ٢٢١ .

(٥) ينظر الصحاح (خطا)، والمحرر الوجيز ٤/ ١٧٢ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٨٥ .

(٦) أخرجه أحمد (١٧٦٩٧)، وأبو داود (١١١٨)، والنسائي ٣/ ١٠٣ من حديث عبد الله بن بُسْر ﷺ. وأخرجه ابن ماجه (١١١٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٧) في رواية أبي بكر عنه، وهي ـ أيضاً ـ قراءة نافع وأبي عمرو، وابن كثير في رواية البزِّي، وحمزة. السبعة ص١٧٣ - ١٧٤ ، والتيسير ص٧٨ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٢ .

وقيل: «ما زَكَى» أي: ما صلح[١]، يقال: زَكَا يزكُو زَكاءً، أي: صلح. وشدَّدها الحسن وأبو حَيْوة، أي: إن تزكيته لكم وتطهيرَه وهدايتَه إنما هي بفضله لا بأعمالكم[٢].

وقال الكسائيُّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ معترِضٌ، وقولُه: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ جوابٌ لقوله أولاً وثانياً: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾ الآية. المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قُحافة ﷺ ومِسْطحِ ابن أُثَاثة. وذلك أنه كان ابنَ بنت خالته، وكان من المهاجرين البَدْرِيِّين المساكين. وهو مِسْطحُ بن أُثَاثةَ بنِ عَبَّاد بن المطلب بن عبد مناف. وقيل: اسمه عَوف، ومِسْطح لقب. وكان أبو بكر ﷺ يُنفق عليه لمسكنته وقرابته، فلمَّا وقع أمر الإفك وقال فيه مِسْطَحٌ ما قال، حلف أبو بكر ألَّا ينفقَ عليه ولا ينفَعه بنافعة أبداً، فجاء مِسْطَحٌ فاعتذر وقال: إنما كنت أغشى مجلس[٣] حسان، فأسمع ولا أقول. فقال له أبو بكر: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل. ومَرَّ على يمينه، فنزلت الآية.

وقال الضحاك وابن عباس: إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كلِّ مَن قال في الإفك، وقالوا: والله لا نصِل مَن تكلَّم في شأن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم. والأول أصحُّ، غيرَ أن الآية تتناول الأُمَّة إلى يوم القيامة بألا يَغْتاظَ ذو فضل وسَعة، فيحلفَ ألا ينفعَ من هذه صفتُه غابرَ الدهر[٤].

روى الصَّحيح أن الله تبارك وتعالى لمَّا أنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾

---

(١) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٣١٢ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٣٣ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٢٣ ونسبوه لمقاتل.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٢ ، وقراءة الحسن وأبي حَيْوة في القراءات الشاذة ص١٠١ .

(٣) في (م) و(ظ): مجالس، والمثبت من (د) و(ز) و(ف) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٢-١٧٣ والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣ ، وأخرج أثر الضحاك وابن عباس الطبري ١٧/ ٢٢٥ - ٢٢٦ بنحوه.

العشر آيات، قال أبو بكر ـ وكان ينفق على مِسطحٍ لقرابته وفَقره ـ: واللهِ لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ـ قال عبد الله بن المبارك: هذه أرْجَى آية في كتاب الله تعالى ـ فقال أبو بكر: والله إني لأحِبُّ أن يغفر الله لي، فرجَع إلى مِسْطَحٍ النفقةَ التي كان يُنفِق عليه وقال: لا أَنْزِعُها منه أبداً[1].

الثانية والعشرون: في هذه الآية دليلٌ على أن القذف ـ وإن كان كبيراً ـ لا يُحبِط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مِسْطحاً بعد قوله بالهجرة والإيمان[2]، وكذلك سائر الكبائر، ولا يُحبِط الأعمالَ غيرُ الشرك[3]، قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

الثالثة والعشرون: مَن حلف على شيء لا يفعله، فرأى فعلَه أوْلَى منه، أتاه وكفَّر عن يمينه، أو كفَّر عن يمينه وأتاه، كما تقدَّم في «المائدة»[4]. ورأى الفقهاء أنَّ مَن حلف ألَّا يفعل سُنَّة من السُّنن، أو مندوباً وأبَّد ذلك، أنها جُرْحةٌ في شهادته. ذكره الباجي في «المنتقى»[5].

الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ معناه: لا يحلف، وزنُها يَفْتَعِل، من الألِيَّة، وهي اليمين[6]، ومنه قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، وقد تقدَّم في «البقرة»[7]. وقالت فرقة: معناه: يُقَصِّر، مِن قولك: ألَوْتُ في كذا: إذا

---

(١) هو قطعة من حديث عائشة الطويل في قصة الإفك أخرجه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠): (٥٦)، وأحمد (٢٥٦٢٣) وليس عند البخاري وأحمد قول عبد الله بن المبارك.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٥.

(٣) بعدها في (م): بالله.

(٤) ٨/ ١٣٩.

(٥) نقله عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣.

(٧) ٤/ ٢١.

قَصَّرتَ فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[١] [آل عمران:١١٨].

الخامسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ تمثيلٌ وحُجَّة، أي: كما تحبُّون عَفْو الله عن ذنوبكم، فكذلك اغفروا لمن دونكم، ويُنْظَر إلى هذا المعنى قولُه عليه الصلاة والسلام: «مَن لا يَرحم لا يُرحم»[٢].

السادسة والعشرون: قال بعض العلماء: هذه أرْجَى آيةٍ في كتاب الله تعالى، مِن حيث لطفُ الله بالقَذَفة العُصاة بهذا اللفظ[٣].

وقيل: أرجى آيةٍ في كتاب الله عزَّ وجلَّ قولُه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧]. وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى:٢٢]، فشرح الفضل الكبير في هذه الآية، وبشَّر به المؤمنين في تلك.

ومِن آيات الرجاء قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر:٥٣]، وقولُه تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى:١٩].

وقال بعضهم: أرْجَى آيةٍ في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٥]، وذلك أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحدٍ من أُمَّته في النار[٤].

السابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوا﴾ أي: ألَّا يؤتوا، فَحذف «لا»، كقول القائل:

فقلتُ يمينُ اللهِ أبْرَحُ قاعداً[٥]

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣، والحديث أخرجه أحمد (٧١٢١)، والبخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٣، وما سيرد إلى آخر المسألة منه.

(٤) أخرجه الخطيب في تلخيص المتشابه ١/ ١٧٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبنحوه أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٤٥).

(٥) صدر بيت لامرئ القيس، وعجزه: ولو قطَّعوا رأسي لديكِ وأوصالي. وسلف ١١/ ٤٣٣.

ذكره الزجاج[١]. وعلى قول أبي عبيدة لا حاجة إلى إضمار «لا»[٢].

﴿وَلْيَعْفُوا﴾ مِن عَفا الرَّبْعُ، أي: دَرَسَ، فهو مَحْوُ الذنب حتى يعفوَ، كما يعفو أثرُ الرَّبع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ تقدّم في «النساء»[٣]. وأجمع العلماءُ على أنَّ حكمَ المحصنين في القذف كحكم المحصنات قياساً واستدلالاً، وقد بيناه أولَ السورة والحمد لله[٤].

واختلف فيمن المرادُ بهذهِ الآية: فقال سعيدُ بن جُبير: هي في رُماة عائشة رضوان الله عليها خاصّةً. وقال قوم: هي في عائشة وسائرِ أزواج النبيّ ﷺ. قاله ابنُ عباس والضحاك وغيرهما[٥]. ولا تنفع التوبةُ، ومن قذفَ غيرَهن من المحصنات، فقد جعلَ الله له توبةً؛ لأنَّه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾، فجعل الله لهؤلاء توبةً، ولم يجعل لأولئك توبة. قاله الضحاك[٦]. وقيل: هذا الوعيد لمن أصرَّ على القذف ولم يتب.

وقيل: نزلت في عائشة، إلا أنه يراد بها كلُّ من اتّصف بهذه الصفةِ[٧].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٣٦ .

(٢) يعني أن قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يقصِّر ـ كما سلف في المسألة الرابعة والعشرين ـ فيكون التقدير: ولا يقصِّر أولو الفضل في أن يحسنوا. ينظر تفسير الرازي ٢٣/ ١٨٧ .

(٣) ٦/ ١٩٨ فما بعدها.

(٤) عند الآية (٤)، المسألة الرابعة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣٤ وأخرج هذه الأقوال الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٢٧-٢٢٨ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣١٤ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٣٤ .

(٧) تفسير الطبري ١٧/ ٢٢٩ .

وقيل: إنه عامٌّ لجميع الناسِ القَذَفةِ، من ذكرٍ وأنثى، ويكون التقدير: إنَّ الذين يرمون الأنفسَ المحصناتِ، فدخل في هذا المذكرُ والمؤنثُ، واختاره النحاس[(١)].

وقيل: نزلت في مشركي مكةَ؛ لأنَّهم يقولون للمرأةِ إذا هاجرت: إنَّما خرجتْ لتَفْجُر[(٢)].

الثانية: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال العلماءُ: إن كان المرادُ بهذه الآية المؤمنين من القَذَفة، فالمرادُ باللعنة الإبعادُ وضَرْبُ الحدِّ، واستيحاشُ المؤمنين منهم، وهجرُهم لهم، وزوالُهم عن رتبة العدالة، والبعدُ عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين. وعلى قول من قال: هي خاصةٌ لعائشة، تترتبُ هذه الشدائدُ في جانب عبد الله بن أُبَيّ وأشباهه[(٣)]. وعلى قولِ من قال: نزلتْ في مشركي مكةَ فلا كلام، فإنَّهم مبعدون، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم، ومَنْ أسلم فالإسلام يَجُبُّ ما قبله.

وقال أبو جعفر النحاس[(٤)]: مِن أحسنِ ما قيل في تأويل هذه الآية: إنَّه عامٌّ لجميع الناس القَذَفةِ من ذكر وأنثى، ويكون التقدير: إنَّ الذين يرمون الأنفسَ المحصنات، فدخل في هذا المذكَّرُ والمؤنَّثُ، وكذا في ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ إلا أنه غُلِّب المذكرُ على المؤنث.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قراءةُ العامة بالتاء، واختارَه أبو حاتم، وقَرأَ الأعمشُ، ويحيى، وحمزةُ، والكسائيُّ، وخَلَف: «يشهد» بالياء[(٥)]، واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ الجارَّ والمجرور قد حال بين الاسم والفعل، والمعنى: يوم تشهد ألسنةُ بعضِهم على بعض[(٦)] بما كانوا

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٢ ، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٧ .
(٢) زاد المسير ٦/ ٢٥ ، وتفسير الرازي ٢٣/ ١٩٣ .
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٤ .
(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٢ .
(٥) السبعة ص٤٥٤ ، والتيسير ص١٦١ ، والنشر ٢/ ٣٣١ ، وقراءة يحيى في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٨ .
(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٢٣٠ ، وزاد المسير ٦/ ٢٦ .

يعملون من القذف والبهتان.

وقيل: تشهد عليهم ألسنتُهم ذلك اليوم بما تكلموا به.

﴿وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ أي: وتتكلم الجوارح بما عملوا في الدّنيا[١].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

أي: حسابهم وجزاؤهم[٢].

وقرأ مجاهد: «يومئذ يُوَفِّيهم اللهُ دينَهم الحقُّ» برفع: «الحق»[٣] على أنه نعت لله عزَّ وجلَّ. قال أبو عبيد: ولولا كراهةُ خلاف الناس، لكان الوجهُ الرفعَ؛ ليكون نعتاً لله عزَّ وجلَّ، ويكون موافقةً لقراءة أُبَيٍّ، وذلك أنَّ جريرَ بن حازم قال: رأيت في مصحف أُبَيٍّ: «يُوَفِّيهِمُ اللهُ الْحَقُّ دِينَهُمْ». قال النحاس[٤]: وهذا الكلام من أبي عبيد غيرُ مَرْضِيّ؛ لأنَّه احتجَّ بما هو مخالف للسّواد الأعظم، ولا حجةَ أيضاً فيه؛ لأنَّه لو صحَّ هذا أنه في مصحف أُبَيّ كذا، جاز أن تكون القراءةُ: يومئذٍ يوفيهم اللهُ الحقَّ دينَهم، يكون «دينهم» بدلاً من الحق، وعلى قراءة العامَّة: «دِينَهُمُ الْحَقَّ» يكون «الحقّ» نعتاً لدينهم، والمعنى حسن؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ذكر المسيئينَ، وأعلمَ أنَّه يُجازيهم بالحقِّ، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَلْ نُجَزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٧] لأنَّ مجازاةَ الله عزَّ وجلَّ للكافر والمسيء بالحقِّ والعدلِ، ومجازاته للمحسنِ بالإحسان والفضل.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾: اسمان من أسمائه سبحانه. وقد ذكرناهما في غير موضعٍ، وخاصّةً في «الكتاب الأسنى»[٥].

---

(١) الوسيط ٣/ ٣١٤.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠١، والمحتسب ٢/ ١٠٧.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٢، وما قبله منه، وقراءة أُبي في القراءات الشاذة ص١٠١، والمحتسب ٢/ ١٠٧.

(٥) ص١٤٤، ١٤٩.

قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

قال ابن زيد: المعنى: الخبيثاتُ من النِّساء للخبيثين من الرِّجال، وكذا «الخبيثون للخبيثات» وكذا: «الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات»[(١)].

وقال مجاهد، وابنُ جُبير، وعطاء، وأكثر المفسرين: المعنى: الكلماتُ الخبيثاتُ من القول للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول، وكذا الكلماتُ الطيباتُ من القول للطيبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول. قال النحاسُ في كتاب «معاني القرآن»[(٢)]: وهذا أحسنُ ما قيل في هذه الآية، ودلَّ على صحة هذا القول: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: عائشة وصفوان مبرؤون[(٣)] مما يقول الخبيثون والخبيثات.

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ مبنيةٌ على قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية [النور: ٣][(٤)]؛ فالخبيثاتُ الزَّواني، والطيباتُ العفائفُ، وكذا الطيبون والطيبات. واختار هذا القول النحاسُ أيضاً[(٥)]، وهو معنى قول ابن زيد[(٦)].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني به الجنسَ. وقيل: عائشة وصفوان، فجمع، كما قال: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، والمراد: أخوان. قاله الفراء[(٧)].

---

(١) النكت والعيون ٤/ ٨٤.

(٢) ٤/ ٥١٦ وما قبله منه، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٧، والنكت والعيون ٤/ ٨٥. وأخرج الأقوال الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٣٣ - ٢٣٧، وقول مجاهد أيضاً في تفسيره ٢/ ٤٣٩.

(٣) كلمة: مبرؤون، من (ظ)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥١٦.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٥.

(٥) في إعراب القرآن له ٣/ ١٣٣، ومعاني القرآن أيضاً ٤/ ٥١٤.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٤.

(٧) في معاني القرآن له ٢/ ٢٤٩، ونقله المصنف عنه بواسطة معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥١٦، وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٢٣٨.

و﴿مُبَرَّءُونَ﴾ يعني منزّهين مما رُمُوا به.

قال بعضُ أهل التحقيق: إنَّ يوسفَ عليه السلام لما رُمي بالفاحشة، برّأه الله على لسان صبيٍّ في المهد، وإنَّ مريمَ لما رُميتْ بالفاحشة، برأها اللهُ على لسان ابنها عيسى صلواتُ الله عليه، وإنَّ عائشةَ لما رُميتْ بالفاحشة، برّأها الله تعالى بالقرآن، فما رضي لها ببراءة صبيٍّ ولا نبيٍّ حتى برّأها الله بكلامه من القذف والبهتان[١].

وروي عن عليّ بن زيد بن جُدعان، عن جدّته، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لقد أُعطيتُ تسعاً ما أُعطيتهن امرأةٌ: لقد نزلَ جبريلُ عليه السلام بصورتي في راحته حين أمرَ رسول الله ﷺ أنْ يتزوَّجني، ولقد تزوَّجني بِكْراً، وما تزوَّج بِكْراً غيري، ولقد تُوُفّيَ ﷺ وإنَّ رأسَه لفي حِجْري، ولقد قُبرَ في بيتي، ولقد حفَّتِ الملائكةُ بيتي، وإنْ كان الوحيُ لينزلُ عليه وهو في أهله فيتفرقون[٢] عنه، وإن كان لَينزلُ عليه وأنا معه في لحافِه فما يُبِينُني عن جسده، وإني لابنةُ خليفتِه وصديقِه، ولقد نَزَل عُذْرِي من السماء، ولقد خُلقتُ طيّبةً وعند طيِّبٍ، ولقد وُعدتُ مغفرةً ورزقاً كريماً؛ تَعْني قولَه تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة[٣].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه سبع عشرة مسألة:

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٧ .

(٢) في (م): فينصرفون، وفي (د) فيفرقون، والمثبت من (ز) و(ظ) و(ف).

(٣) الوسيط ٣/ ٣١٤ - ٣١٥ ، وأخرجه أبو يعلى (٤٦٢٦)، من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن جدته، عن عائشة. وإسناده ضعيف جداً، علي بن زيد بن جدعان ضعيف، وجدته مجهولة. وقال الهيثمي في المجمع ٩/ ٢٤١ : في الصحيح وغيره بعضه، وفي إسناد أبي يعلى من لم أعرفهم.
وأورده البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ٧/ ٢٤٨ وزاد نسبته للحميدي ولابن أبي عمر. وقد أخرج البخاري (٣٨٩٥) ومسلم (٢٤٣٨) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أُريتُك في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملك في سَرَقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك... وأخرج البخاري (٤٤٤٧) ومسلم (٢٤٤٣) عن عائشة قولها: لما كان يومي قبضه الله بين سَحْري ونَحْري.

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا﴾ لما خصَّص الله سبحانه ابنَ آدم الذي كرَّمه وفضَّله بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار، وملَّكهم الاستمتاعَ بها على الانفراد، وحَجَر على الخلق أن يطَّلعوا على ما فيها من خارج، أو يَلِجُوها من غير إذنِ أربابها[1]، أدَّبهم بما يرجع إلى الستر عليهم؛ لئلا يطَّلع أحدٌ منهم على عَوْرة.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنِ اطَّلعَ في بيتِ قومٍ بغير[2] إذنهم، حلَّ لهم أن يفقؤوا عينَه»[3].

وقد اختلف في تأويله؛ فقال بعضُ العلماء: ليس هذا على ظاهره، فإن فقأ فعليه الضمانُ، والخبرُ منسوخٌ[4]، وكان قبل نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ﴾ [النحل: ١٢٦].

ويحتمل أن يكونَ خَرَج على وجه الوعيدِ، لا على وجه الحَتْم، والخبرُ إذا كان مخالفاً لكتاب الله تعالى، لا يجوز العملُ به، وقد كان النبيُّ ﷺ يتكلَّم بالكلام في الظاهر وهو يريد شيئاً آخر، كما جاء في الخبر: أنَّ عباس بن مِرْداس لمَّا مَدَحه قال لبلال: «قُمْ فاقطع لسانَه»[5] وإنَّما أراد بذلك أن يدفعَ إليه شيئاً، ولم يُرِدْ به القطعَ في الحقيقة.

وكذلك هذا يحتمل أن يكون ذكر فَقْء العين، والمراد أن يُعمل به عملٌ؛ حتى لا ينظرَ بعد ذلك في بيت غيرِه.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٤٦ .

(٢) في (م) و(د) و(ز): من غير، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في صحيح مسلم.

(٣) صحيح مسلم (٢١٥٨)، وأخرجه بنحوه أحمد (٨٩٩٧)، والبخاري (٦٩٠٢).

(٤) لم نقف على من ذكر أن الخبر منسوخ، ومن قال: عليه الضمان؛ تأول الحديث بما سيرد. ينظر فتح الباري ١٢/ ٢٤٤ - ٢٤٥ ، وأحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣١٣ - ٣١٤ ، والمعلم للمازري ٢/ ٢٤٩ ، وإكمال المعلم ٥/ ٤٧٢ ، والمفهم ٥/ ٣٤ .

(٥) سلف ١٠/ ٢٦٣ .

وقال بعضهم: لا ضمانَ عليه ولا قصاص، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى؛ لحديث أنس، على ما يأتي[(١)].

الثانية: سببُ نزول هذه الآيةِ ما رواه الطبريُّ وغيرُه: عن عَدِيّ بن ثابت، أنَّ امرأةً من الأنصار قالت: يا رسول الله، إنِّي أكونُ في بيتي على حالٍ لا أحِبُّ أن يراني عليها أحدٌ، لا والد ولا ولد، فيأتي الأبُ فيدخل عليَّ، وإنَّه لا يزال يدخل عليَّ رجلٌ من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت الآية[(٢)].

فقال أبو بكر ﷺ: يا رسولَ الله، أفرأيت الخانات والمساكن في طرقِ الشام ليس فيها ساكن؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾[(٣)].

الثالثة: مدّ الله سبحانه وتعالى التحريمَ في دخول بيتٍ ليس هو بيتك إلى غاية هي الاستئناس[(٤)]، وهو الاستئذان، قال ابنُ وهب: قال مالك: الاستئناس فيما نرى والله أعلم: الاستئذان، وكذا في قراءة أُبَيّ وابنِ عباس وسعيدِ بن جُبير: «حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا»[(٥)].

وقيل: إنَّ معنى «تستأنسوا»: تستعلموا، أي: تستعلموا مَنْ في البيت. قال مجاهد: بالتنحنح، أو بأي وجهٍ أمكن، ويتأنّى قدرَ ما يَعلم أنّه قد شُعِر به، ويدخل إثْر ذلك. وقال معناه الطبري، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء:٦] أي: علمتم[(٦)]. وقال الشاعر[(٧)]:

---

(١) عند تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة، المسألة الثانية.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤٢ - ٢٤٣ ، والواحدي في أسباب النزول ص٣٣٧ .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٣٣٧ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٦ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٧ ، والتمهيد ٣/ ١٩٢ ، ١٩٦ ، والاستذكار ٢٧/ ١٥٩ - ١٦٠ ، ولم يذكر قراءة سعيد بن جبير.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٥ . وتفسير الطبري ١٧/ ٢٤٣ ، وتفسير مجاهد ٢/ ٤٣٩ .

(٧) هو الحارث بن حِلِّزة، كما في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٥٧ ، والمعاني الكبير ١/ ٣٤٣ ، =

آنستْ نَبْأةً وأفزعها القُنّـ ـاصُ عصراً وقد دنا الإمساءُ

قلت: وفي «سنن ابن ماجه»: حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدّثنا عبدُ الرحيم بن سليمان، عن واصل بن السائب، عن أبي سَوْرة، عن أبي أيوب الأنصاريّ قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئذان؟ قال: «يتكلم الرجلُ بتسبيحةٍ وتكبيرةٍ وتحميدةٍ، ويَتَنحنَح، ويُؤذِن أهلَ البيت(١)».

قلت: وهذا نصٌّ في أنَّ الاستئناسَ غيرُ الاستئذان، كما قال مجاهد ومن وافقه.

الرابعة: وروي عن ابن عباس ـ وبعض الناس يقول: عن سعيد بن جُبير ـ: «حَتَّى تَسْتَأنِسُوا» خطأ أو وَهَم من الكاتب، إنَّما هو: «حتى تستأذنوا». وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيرِه(٢)؛ فإنَّ مصاحفَ الإسلام كلَّها قد ثبت فيها ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾، وصحَّ الإجماع فيها من لَدُن مدَّة عثمان، فهي التي لا يجوزُ خلافُها، وإطلاقُ الخطأ والوَهَم على الكاتبِ في لفظٍ أجمع الصحابةُ عليه قولٌ لا يصح عن ابن عباس(٣)، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

= والحيوان ٤/ ٣٨٩ . قال النحاس: آنست: أحست، النبأة: الصوت الخفي، القنّاص: الصيادون، والعصر: العشي.

(١) سنن ابن ماجه (٣٧٠٧). قال في مصباح الزجاجة ٤/ ١١٠ : هذا إسناد ضعيف؛ أبو سورة هذا، قال البخاري: منكر الحديث، يروي عن أبي أيوب مناكير لا يتابع عليها.

وفيه أيضاً واصل بن السائب؛ قال البخاري في التاريخ الكبير ٨/ ١٧٣ : منكر الحديث.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ ، وأخرج أثر ابن عباس الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٣٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٨٠٢) من طريقين عن أبي بشر جعفر بن إياس أبي وحشية، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

وأخرجه الطبري ١٧/ ٢٤٠ ، والبيهقي في الشعب (٨٨٠٣) من طريق شعبة، عن جعفر أبي بشر، عن سعيد بن جبير. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٨٠): وهذا غريب جداً عن ابن عباس. وقال أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٤٤٥ : ومن روى عن ابن عباس أن قوله: تستأنسوا خطأ أو وهم من الكاتب فهو طاعن في الإسلام؛ ملحد في الدين، وابن عباس بريء من هذا القول.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ .

وقد روي عن ابن عباس: أنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً، والمعنى: حتى تسلِّموا على أهلها وتستأنسوا. حكاه أبو حاتم[١].

قال ابنُ عطية[٢]: ومما يَنْفِي هذا القولَ عن ابن عباس وغيره أنَّ «تستأنسوا» متمكنة في المعنى، بيِّنةُ الوجه في كلام العرب. وقد قال عمر للنبيّ ﷺ: أستأنسُ يا رسول الله؟ وعمرُ واقفٌ على باب الغرفة. الحديث المشهور[٣]. وذلك يقتضي أنه طلبَ الأنس به ﷺ، فكيف يخطِّىءُ ابنُ عباس أصحابَ الرسول في مثل هذا.

قلت: قد ذكرنا من حديث أبي أيوب أنَّ الاستئناسَ إنَّما يكون قبل السلام، وتكون الآية على بابها لا تقديم فيها ولا تأخير، وأنه إذا دخل سلّم. والله أعلم.

الخامسة: السُّنَّةُ في الاستئذان ثلاثُ مرات لا يُزاد عليها. قال ابن وهب: قال مالك: الاستئذان ثلاث، لا أحبُّ أن يزيدَ أحدٌ عليها، إلا من علم أنه لم يسمع، فلا أرى بأساً أن يزيدَ إذا استيقن أنه لم يسمع[٤].

وصورةُ الاستئذان أن يقولَ الرجل: السلام عليكم أأدخل؟ فإن أُذِن له دَخَل، وإن أُمر[٥] بالرجوع انصرف، وإن سُكت عنه استأذن ثلاثاً، ثمَّ ينصرف من بعد الثلاث. وإنَّما قلنا: إنَّ السنّةَ الاستئذانُ ثلاث مرات لا يزاد عليها؛ لحديث أبي موسى الأشعريّ، الذي استعمله مع عمر بن الخطاب، وشهد به لأبي موسى أبو سعيد الخُدريُّ، ثم أُبيّ بن كعب، وهو حديثٌ مشهور أخرجه الصحيح[٦]، وهو نصٌّ

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٤٥ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤١ .

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ .

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩) (٣٤) مطولاً من حديث ابن عباس.

(٤) التمهيد ٣/ ١٩٢ ، والاستذكار ٢٧/ ١٥٩ .

(٥) في (د) و(ز) و(ظ) أمره، وفي (ف) أمر له، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ والكلام منه.

(٦) صحيح البخاري (٦٢٤٥)، وصحيح مسلم (٢١٥٣)، وهو في مسند أحمد (١٩٦١١)، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ .

صريح؛ فإن فيه: فقال ـ يعني عمر ـ: ما مَنَعك أنْ تأتِينا؟ فقلت: أتيتُ فسلَّمتُ على بابِكَ ثلاثَ مراتٍ فلم تردّ عليَّ، فرجعتُ، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «إذا استأذنَ أحدُكم ثلاثاً فلم يُؤذَن له فَلْيرجِع».

وأما ما ذكرناه من صورة الاستئذان، فلِما[١] رواه أبو داود، عن رِبْعِيّ قال: حدّثنا رجلٌ من بني عامر، استأذن على النبيِّ ﷺ وهو في بيتٍ، فقال: أَلِجُ[٢]؟ فقال النبيُّ ﷺ لخادمه: «اخرُجْ إلى هذا فعلِّمْهُ الاستئذانَ؛ فقل[٣] له: قُل: السلامُ عليكم، أأدخل» فسمعه الرجلُ، فقال: السلام عليكم، أأدخلُ؟ فأَذِنَ له النبيُّ ﷺ فدخل[٤].

وذكره الطبري، وقال: فقال رسول الله ﷺ لأَمةٍ له يقال لها: روضة: «قولي لهذا يقول: السلامُ عليكم، أأدخلُ؟» الحديث[٥].

وروي أنَّ ابنَ عمر آذته الرَّمضاءُ يوماً، فأتى فُسْطاطاً لامرأةٍ من قريش، فقال: السلام عليكم أأدخلُ؟ فقال المرأةُ: ادخل بسلامٍ، فأعاد فأعادتْ، فقال لها: قولي: ادخُلْ، فقالت ذلك، فَدَخل. فتوقَّف لما قالت: بسلامٍ؛ لاحتمال اللفظِ أن تريدَ بسلامك لا بشخصك[٦].

---

(١) في (م): فما.

(٢) في (د) و(ظ): أألج.

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ف): فقال، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في سنن أبي داود.

(٤) سنن أبي داود (٥١٧٧). وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١٠٠٧٥)، وأحمد (٢٣١٢٧) من طريق منصور، عن ربعي بن حِراش، عن رجل من بني عامر. وهذا إسناد منقطع، ربعي لم يسمعه من الرجل العامري، فقد أخرجه أبو داود (٥١٧٨) من طريق منصور، عن ربعي، قال: حُدِّثتُ أن رجلاً من بني عامر...، وكذلك أخرجه من طريق منصور، عن ربعي، ولم يقل عن رجل من بني عامر. وله شاهد من حديث كلدة بن حنبل، سيرد في المسألة الثالثة عشرة. ومن حديث ابن عمر سيرد قريباً.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤١ - ٢٤٢ من طريق ابن سيرين وعمر بن سعيد الثقفي: أن رجلاً استأذن ...، فذكره، وهو خبر منقطع، ابن سيرين وعمرو بن سعيد تابعيان، لم يدركا عهد النبوة.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ ، وأخرج الأثر الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤١ وإسناده منقطع. والرمضاء: الأرض الشديدة الحرارة، والفسطاط: بيت يتخذ من الشعر. القاموس (رمض)، والمعجم الوسيط (فسط).

السادسة: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: إنما خُصّ الاستئذان بثلاث؛ لأنَّ الغالبَ من الكلام إذا كُرِّر ثلاثاً سُمع وفُهم؛ ولذلك كان النبيُّ ﷺ إذا تكلَّم بكلمةٍ أعادها ثلاثاً حتى يُفهم عنه، وإذا سلَّم على قومٍ سلَّم عليهم ثلاثاً[(١)]. وإذا كان الغالبُ هذا؛ فإذا لم يُؤذن له بعد ثلاثٍ، ظهر أنَّ ربَّ المنزل لا يريدُ الإذنَ، أو لعلَّه يمنعه من الجواب عنه عذرٌ لا يُمكنُه قطعُه؛ فينبغي للمستأذن أن ينصرفَ؛ لأنَّ الزيادةَ على ذلك قد تُقلق ربَّ المنزل، وربَّما يضره الإلحاحُ حتى ينقطع عما كان مشغولاً به، كما قال النبيّ ﷺ لأبي أيوب حين استأذن عليه، فخرج مستعجلاً فقال: «لعلَّنا أعجلناك...» الحديث[(٢)].

وروى عُقيل عن ابن شهاب قال: أما سنة التسليمات الثلاث فإنَّ رسولَ الله ﷺ أتى سعد بن عُبادة فقال: «السَّلام عليكم» فلم يردّوا، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «السلام عليكم» فلم يردّوا، فانصرف رسولُ الله ﷺ، فلما فَقَد سعدٌ تسليمَه، عرف أنه قد انصرف؛ فخرج سعدٌ في أثره حتى أدركه، فقال: وعليك السَّلام يا رسولَ الله، إنَّما أردنا أنْ نستكثرَ من تسليمك، وقدْ ـ واللهِ ـ سمعنا، فانصرف رسولُ الله ﷺ مع سعدٍ حتى دخل بيتَه[(٣)].

قال ابنُ شهاب: فإنَّما أخِذ التسليم ثلاثاً من قِبَل ذلك، رواه الوليد بن مسلم عن الأوزاعيّ قال: سمعت يحيى بن أبي كثيرٍ يقول: حدثني محمدُ بن عبد الرحمن بنِ أسعد بن زُرارة [عن قيس بن سعد] قال: زارنا رسولُ الله ﷺ في منزلنا، فقال:

---

(١) المفهم ٥/ ٤٧٤ ، والحديث أخرجه أحمد (١٣٢٢١)، والبخاري (٩٤) عن أنس ﷺ.

(٢) المفهم ٥/ ٤٧٤ - ٤٧٥ ، وهذه القصة لم نقف عليها منسوبة لأبي أيوب، وقد أخرج أحمد (١١١٦٢) والبخاري (١٨٠)، ومسلم (٣٤٥) من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجلٍ من الأنصار، فأرسل إليه، فخرج ورأسه يقطر، فقال له: «لعلنا أعجلناك». وهذا الرجل الأنصاري سماه مسلم في رواية أخرى (٣٤٣): عِتْبان. وينظر فتح الباري ١/ ٢٨٤ .

(٣) أخرج قصة سعد بن عبادة أحمد (١٥٤٧٦)، وأبو داود (٥١٨٥)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٨٣). ولم نقف على قول الزُّهري.

«السلام عليكم ورحمة الله» قال: فردَّ سعدٌ ردًّا خفيًّا، قال قيس: فقلتُ: أَلا تأذنُ لرسولِ الله ﷺ؟ فقال: ذَرْه يُكثرْ علينا من السلام... الحديث. أخرجه أبو داود(١) وليس فيه «قال ابنُ شهاب: فإنَّما أخذ التسليم ثلاثاً من قِبَل ذلك». قال أبو داود(٢): ورواه عمر بن عبد الواحد وابن سماعة عن الأوزاعيّ مرسلاً، لم يذكرا قيس بن سعد.

السابعة: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الاستئذانَ تَرَكَ العملَ به الناسُ. قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وذلك لاتخاذ الناس الأبوابَ وقَرْعها، والله أعلم(٣).

روى أبو داود عن عبد الله بن بُسر قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أتى بابَ قومٍ، لم يستقبل البابَ من تلقاءِ وجههِ، ولكنْ من رُكنه الأيمن أو الأيسر، فيقول: «السَّلامُ عليكم السَّلامُ عليكم» وذلك أنَّ الدُّورَ لم يكن عليها يومئذٍ ستورٌ(٤).

الثامنة: فإن كان البابُ مردوداً، فله أن يقفَ حيثُ شاء منه ويستأذن(٥)، وإن شاء دقَّ الباب؛ لما رواه أبو موسى الأشعري، أنَّ رسولَ الله ﷺ كان في حائطٍ بالمدينة على قُفِّ البئر مدلٍ(٦) رجليه في البئر، فدقَّ البابَ أبو بكر، فقال له رسولُ الله ﷺ: «إيذن له وبشِّرْه بالجنةِ»(٧). هكذا رواه عبدُ الرحمن بن أبي الزناد، وتابعه صالح بن

---

(١) في سننه (٥١٨٥)، وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٠٨٤) وأحمد (١٥٤٧٦) وما بين حاصرتين منهما.

(٢) في سننه عقب الحديث السالف.

(٣) التمهيد ٣/ ٢٠٣، وخبر ابن عباس أخرجه أبو داود (٥١٩٢) من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس. قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٨/ ٦٦: قال بعضهم: هذا لا يصح عن ابن عباس.

(٤) سنن أبي داود (٥١٨٦). وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٨/ ٦٢: في إسناده بقية، وفيه مقال. اهـ وهو متابع بإسماعيل بن عياش كما عند أحمد (١٧٦٩٢)، وعثمان بن سعيد بن كثير ويحيى بن سعيد العطار كما عند البيهقي في شعب الإيمان (٨٨٢٢) و(٨٨٢٣).

(٥) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب ١/ ٢٣٨.

(٦) في (م): فمد.

(٧) أخرجه أحمد (١٩٦٥٣)، والبخاري (٧٠٩٧)، ومسلم (٢٤٠٣) مطولاً، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٣٩. واللفظ له، قوله: قُفّ البئر: هو الدَّكَّة التي تُجعل حولها، وأصل القفّ: ما غلظ من الأرض وارتفع. النهاية (قفف).

كَيْسان ويونس بن يزيد، فرووه جميعاً عن أبي الزناد، عن أبي سلمة، عن عبد الرحمن ابن نافع، عن أبي موسى. وخالفهم محمدُ بن عمرو الليثي، فرواه عن أبي الزِّناد، عن أبي سلمة، عن نافع بن عبد الحارث، عن النبيِّ ﷺ كذلك، وإسناد الأوّل أصح، والله أعلم(١).

التاسعة: وصفةُ الدَّقِّ أن يكون خفيفاً بحيث يسمع، ولا يَعنُف في ذلك؛ فقد روى أنسُ بن مالكٍ ﷺ قال: كانت أبوابُ النبيِّ ﷺ تُقرع بالأظافير. ذكره أبو بكر أحمدُ بن علي بن ثابت الخطيب في «جامعه»(٢).

العاشرة: روى الصحيحان وغيرُهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: استأذنتُ على النبيِّ ﷺ، فقال: «مَنْ هذا»؟ فقلتُ: أنا، فقال النبيُّ ﷺ: «أنا أنا»! كأنَّه كره ذلك(٣).

قال علماؤنا: إنَّما كره النبيُّ ﷺ ذلك؛ لأنَّ قولَه: أنا، لا يحصل بها تعريف(٤)، وإنَّما الحكمُ في ذلك أنْ يذكرَ اسمَه، كما فعل عمر بنُ الخطاب ﷺ وأبو موسى؛ لأنَّ في ذِكْر الاسم إسقاطَ كُلْفة السؤال والجواب(٥). ثبت عن عمرَ بنِ الخطاب، أنَّه أتى النبيَّ ﷺ وهو في مَشْرُبة له، فقال: السَّلامُ عليكَ يا رسولَ الله، السَّلامُ عليكم، أيدخلُ عمر؟(٦) وفي «صحيح مسلم»(٧) أنَّ أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: السَّلامُ عليكم، هذا أبو موسى، السَّلامُ عليكم، هذا الأشعري...الحديث.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٣٨ - ٢٤٠ .

(٢) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٤٠ ، وأخرجه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٨٢١).

(٣) صحيح البخاري (٦٢٥٠)، وصحيح مسلم (٢١٥٥)، وهو في مسند أحمد (١٤٤٣٩).

(٤) معالم السنن ٤/ ١٥٤ ، والمفهم ٥/ ٤٧٨ .

(٥) المفهم ٥/ ٤٧٨ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٥٦)، وأبو داود (٥٢٠١)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) (٢١٥٤) وسلف في المسألة الخامسة.

الحادية عشرة: ذكر الخطيب في «جامعه»[(١)] عن عليّ بن عاصم الواسطيّ، قال: قدمتُ البصرةَ، فأتيتُ منزلَ شُعبة، فدققتُ عليه البابَ، فقال: مَنْ هذا؟ قلتُ: أنا، فقال: يا هذا، ما لي صديقٌ يقال له: أنا، ثم خرج إليَّ، فقال: حدّثني محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في حاجةٍ لي فضربتُ[(٢)] عليه البابَ فقال: «مَنْ هذا»؟ فقلتُ: أنا، فقال: «أنا أنا»! كأنّ رسولَ الله ﷺ كره قولي هذا، أو قولَه هذا. وذَكَر عن عمر بن شَبَّة، حدّثنا محمد بن سلام، عن أبيه، قال: دققتُ على عمرو بن عُبيد[(٣)] الباب فقال لي: من هذا؟ فقلت: أنا، فقال: لا يعلم الغيب إلا الله. قال الخطيب: سمعت عليَّ بن المُحَسِّن القاضي[(٤)]، يحكى عن بعض الشيوخ، أنه كان إذا دُقَّ بابُه فقال: مَنْ ذا؟ فقال الذي على الباب: أنا، يقول الشيخ: أنا، هَم دَقّ[(٥)].

الثانية عشرة: ثم لكلِّ قومٍ في الاستئذان عُرْفُهم في العبارة[(٦)]، كما رواه أبو بكر الخطيب[(٧)] مُسنداً عن أبي عبد الملك مولى أُمِّ مسكين بنتِ عاصم بن عمر بن الخطاب قال: أرسلتني مَوْلاتي إلى أبي هريرة، فجاء معي، فلما قامَ بالبابِ، قال:

---

(١) ١/٢٤٢ - ٢٤٤.

(٢) في (م) فطرقت، وفي (د) و(ز) فصرخت، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في الجامع لأخلاق الراوي.

(٣) هو أبو عثمان البصري، كبير المعتزلة، توفي سنة ١٤٤هـ السير ٦/١٠٤ - ١٠٥.

(٤) هو أبو القاسم التنوخي البصري، البغدادي، كان يتشيع ويذهب إلى الاعتزال، مات سنة ٤٤٧هـ السير ١٧/٦٥٠.

(٥) كذا في النسخ غير (ظ)، والجامع لأخلاق الراوي ١/٢٤٤، ووقع في (ظ): لم يفتح، بدل قوله: يقول الشيخ أنا هم دق.

(٦) المحرر الوجيز ٤/١٧٦.

(٧) في الجامع لأخلاق الراوي ١/٢٤٧ من طريق البخاري في الأدب المفرد (١١٠٠). وأبو عبد الملك: مجهول. التقريب.

أَنْدِرايم؟[١] قالت: أندَرُون. وترجم عليه: باب الاستئذان بالفارسية[٢]. وذَكَر عن أحمد بن صالح قال: كان الدَّرَاوَرْدِيُّ من أهلِ أصبهان نزل المدينةَ، فكان يقول للرجلِ إذا أراد أن يدخلَ: أندَرون، فلقبَّه أهلُ المدينة الدراوردي[٣].

الثالثة عشرة: روى أبو داود عن كَلَدةَ بن حنبل، أنَّ صفوان بن أُمَيّة بعثَه إلى رسول الله ﷺ بلَبنٍ وجَدَاية وضَغَابِيس، والنبيُّ ﷺ بأعلى مكةَ، فدخلتُ ولم أُسلِّم، فقال: «ارْجِعْ فقُل: السَّلام عليكم» وذلك بعد ما أسلم صفوان بن أمية[٤].

وروى أبو الزُّبير، عن جابر، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «من لم يبدأْ بالسلام، فلا تَأذَنُوا له»[٥].

وذَكَر ابنُ جُريج، أخبرني عطاء قال: سمعتُ أبا هريرةَ يقول: إذا قال الرجلُ: أأدخلُ؟ ولم يُسلِّم فقل: لا. حتى يأتيَ بالمفتاح، فقلتُ: السلام عليكم؟ قال: نعم[٦].

ورُوي أنَّ حذيفة جاءَه رجلٌ، فنظر إلى ما في البيت، فقال: السَّلامُ عليكم، أأدخلُ؟ فقال حذيفةُ: أمَّا بعينك فقد دَخَلْتَ، وأما باسْتِكَ فلم تَدْخُل[٧].

---

(١) في (د) و(م): أندر. ولم تجود في باقي النسخ. والمثبت من الجامع. قال أبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ٣٧٩ : هذه كلمة فارسية معناها: آدخلُ. وينظر «النهاية» (أندرم)، والمفصَّل في الألفاظ الفارسية المعرّبة ص٩٦ .

(٢) من قوله (وترجم) إلى هنا ليس في (د) و(ز) و(ظ)، والمثبت من (م) و(ف).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٤٧ .

(٤) سنن أبي داود (٥١٧٦)، وأخرجه أحمد (١٥٤٢٥)، والترمذي (٢٧١٠)، والنسائي في الكبرى (٦٧٠٢). والجداية: من أولاد الظباء ما بلغ ستة أشهر أو سبعة، والضغابيس: واحدها ضُغبوس، وهي صغار القِثّاء. النهاية (جدا) (ضغبس).

(٥) أخرجه أبو يعلى (١٨٠٩)، والخطيب في جامعه ١/ ٢٤١ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٣٢ : رواه أبو يعلى، وفيه من لم أعرفه.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٦٧) ومن طريقه الخطيب في جامعه ١/ ٢٤١ .

(٧) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٩٠).

الرابعة عشرة: ومما يدخلُ في هذا الباب ما رواه أبو داود[١] عن أبي هريرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رسولُ الرَّجلِ إلى الرَّجلِ إذْنُه». أي: إذا أرسل إليه فقد أذن له في الدُّخول، يبينه قولُه عليه الصلاة والسلام: «إذا دُعِيَ أحدُكم [إلى طعامٍ] فجاء مع الرسول، فإنَّ ذلك له إذنٌ». أخرجه أبو داود أيضاً عن أبي هريرة[٢].

الخامسة عشرة: فإن وقعت العينُ على العينِ، فالسلام قد تعيَّنَ، ولا تُعدُّ رؤيتُه إذناً لكَ في دخولك عليه، فإذا قضيتَ حقَّ السلام ـ لأنَّك الواردُ عليه ـ تقول: آدخلُ؟ فإنْ أذنَ لك وإلا رجعتَ[٣].

السادسة عشرة: هذه الأحكام كلُّها إنَّما هي في بيتٍ ليس لك، فأما بيتُك الذي تسكُنُه، فإن كان فيه أهلُك، فلا إذن عليها[٤]، إلا أنك تُسلِّم إذا دخلتَ. قال قتادة: إذا دخلتَ بيتَك فسلِّم على أهلك[٥]؛ فهم أحقُّ من سلَّمتَ عليهم.

فإن كان فيه معك أمُّك أو أختُك، فقالوا: تَنحنَح واضرِبْ برجلك حتى يَنْتَبِها لدخولك؛ لأنَّ الأهلَ لا حِشْمة بينَك وبينها. وأما الأم والأُخت فقد يكونا على حالةٍ لا تُحبُّ أن تَرَاهما فيها. قال ابن القاسم: قال مالك: ويستأذن الرجلُ على أُمِّه وأخته إذا أراد أن يدخل عليهما. وقد روى عطاء بن يسار، أنَّ رجلاً قال للنبيِّ ﷺ: أستأذنُ على أُمِّي؟ قال: «نعم»، قال: إنِّي أَخدمها؟ قال: «اسْتأذِنْ عليها» فعاوده ثلاثاً، قال: «أتحبُّ أن تراها عُرْيانة»؟ قال: لا؛ قال: «فاستأذِنْ عليها». ذكره الطبري[٦].

---

(١) في سننه (٥١٨٩).

(٢) في سننه (٥١٩٠) وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً أحمد (١٠٨٩٤) وعلَّقه البخاري قبل الحديث (٦٢٤٦). وقال أبو داود: قتادة لم يسمع من أبي رافع شيئاً. اهـ. وتعقبه الحافظ في الفتح ١١/ ٣١ بقوله: قد ثبت سماعه منه في الحديث الذي سيأتي في البخاري في كتاب التوحيد (٧٥٥٤).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٩ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٩ .

(٥) أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ٦/ ٨٧ من قول قتادة. وأخرجه الترمذي في سننه (٢٦٩٨) مرفوعاً عن أنس ﷺ وقال: حديث حسن غريب. اهـ. وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

(٦) في تفسيره ١٧/ ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ونقله المصنف عنه بواسطة أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٤٩ ، =

السابعة عشرة: فإن دخل بيتَ نفسِه وليس فيه أحد، فقال علماؤنا: يقول: السلام علينا، من ربِّنا التحياتُ الطيباتُ المباركاتُ، لله السلامُ. رواه ابنُ وهب عن النبيّ ﷺ، وسندُه ضعيف(١). وقال قتادة: إذا دخلتَ بيتاً ليس فيه أحد، فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؛ فإنَّه يؤمر بذلك. قال: وذكر لنا أنَّ الملائكة تردّ عليهم(٢). قال ابن العربي(٣): والصحيحُ تركُ السلام والاستئذان، والله أعلم.

قلت: قول قتادة حَسَن.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا﴾ الضمير في ﴿تَجِدُوا فِيهَآ﴾ للبيوت التي هي بيوت الغير. وحكى الطبريُّ عن مجاهدٍ أنه قال: معنى قوله ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا﴾ أي: لم يكن لكم فيها متاع(٤). وضعّف الطبريُّ هذا التأويل، وكذلك هو في غاية الضعف، وكأنَّ مجاهداً رأى أنَّ البيوتَ غيرَ المسكونة إنَّما تُدْخَل دونَ إذن إذا كان للدَّاخل فيها متاع. ورأى لفظة «المتاع» متاع البيت، الذي هو البُسُط والثياب، وهذا كلُّه ضعيف(٥).

= والكلام الذي قبله منه، وأخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٦٣، وأبو داود في المراسيل (٤٨٨)، والبيهقي ٧/ ٩٧. قال ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٢٩: وهذا الحديث لا أعلم يستند من وجهٍ صحيح بهذا اللفظ، وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٠، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٨٣٤) وقال: لا أعرفه إلا من حديث يزيد بن عياض، وليس بالقوي.

(٢) أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره ٦/ ٨٧.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٥٠.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٤٧، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ والكلام وما قبله وما بعده منه. وخبر مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٤٠.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦.

والصحيح أنَّ هذه الآيةَ مرتبطةٌ بما قبلها والأحاديثِ، والتقدير: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا، فإن أُذن لكم فادخلوا وإلا فارجعوا؛ كما فعل عليه الصلاة والسلام مع سعدٍ، وأبو موسى مع عمر رضي الله عنهما. فإنْ لم تجدوا فيها أحداً يأذَنُ لكم، فلا تدخلوها حتى تجدوا إذناً[(١)].

وأسند الطبريُّ[(٢)] عن قتادة قال: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبتُ عُمُري كلَّه[(٣)] هذه الآيةَ فما أدركتها، أن أستأذن على بعض إخواني، فيقولَ لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

الثانية: لا بد من الإذن[(٤)]؛ سواء كان البابُ مغلقاً أو مفتوحاً؛ لأنَّ الشرعَ قد أَغلقَه بالتحريم للدخول حتى يفتحه الإذنُ من ربِّه، بل يجبُ عليه أن يأتي البابَ ويحاول الإذنَ على صفةٍ لا يطَّلعُ منه على البيت لا في إقباله ولا في انقلابه، فقد روى علماؤنا عن عمرَ بنِ الخطاب أنه قال: مَنْ مَلأَ عينيه من قاعة بيت، فقد فَسَق[(٥)].

وروى الصحيح عن سهل بن سعد، أنَّ رجلاً اطَّلع من جُحْرٍ في باب رسولِ الله ﷺ، ومع رسولِ الله ﷺ مِدْرًى يُرجِّل به رأسَه، فقال له رسولُ الله ﷺ: «لو أعلم أنَّك تنظرُ، لطَعَنْتُ به في عينك؛ إنَّما جَعلَ اللهُ الإذنَ من أجل البصر»[(٦)].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٠ وحديث عمر سلف ص١٩٤ من هذا الجزء، وحديث سعد سلف أيضاً ص١٩٢ من هذا الجزء.

(٢) في تفسيره ١٧/ ٢٤٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ .

(٣) قوله: كله، من (م) وتفسير الطبري.

(٤) قوله: لا بد من الإذن، من (ظ).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥١ ، وأخرج أثر عمر البخاريُّ في الأدب المفرد (١٠٩٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٨٢٨)، والقزويني في التدوين ١/ ١٥٢ من طريق عمار بن سعد التُّجِيبي، عن عمر موقوفاً. وعمار بن سعد لم يدرك عمر بن الخطاب ﷺ. تهذيب الكمال ٥/ ٣١٤ .

(٦) صحيح البخاري (٦٩٠١)، وصحيح مسلم (٢١٥٦)، وهو في مسند أحمد (٢٢٨٠٢). المدرى، والمدراة: شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سِنٍّ من أسنان المشط يسرح به الشَّعَر المتلبد. النهاية (درى)، والمفهم ٥/ ٤٧٩ .

وروى عن أنس، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لو أنَّ رجلاً اطَّلع عليك بغير إذنٍ فَخَذَفته بحصاةٍ، ففقأتَ عينَه، ما كان عليك من جُناح»[١].

الثالثة: إذا ثبت أنَّ الإذنَ شرطٌ في دخول المنزل، فإنه يجوز من الصغير والكبير، وقد كان أنس بن مالك دون البلوغ، يستأذنُ على رسول الله ﷺ، وكذلك الصحابةُ مع أبنائهم وغلمانهم ﷺ[٢]. وسيأتي لهذا مزيد بيان في آخر السورة[٣] إن شاء الله تعالى.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعّدٌ لأهل التَّجسُّس على البيوت وطلب الدخول على غفلةٍ للمعاصي والنظر إلى ما لا يحل[٤]، ولغيرهم ممن يقع في محظور.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: رُويَ أنَّ بعضَ الناس لما نزلت آيةُ الاستئذان تعمَّق في الأمر، فكان لا يأتي موضعاً خَرِباً ولا مسكوناً إلا سلَّم واستأذَنَ؛ فنزلتْ هذه الآيةُ، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كلِّ بيتٍ لا يسكنُه أحدٌ؛ لأنَّ العلةَ في الاستئذان إنَّما هي لأجل خوف الكَشْفة على الحُرُمات، فإذا زالت العلةُ زال الحكمُ[٥].

---

(١) لم نقف عليه من حديث أنس، وأخرجه البخاري (٦٩٠٢)، ومسلم (٢١٥٨) (٤٤) وأحمد (٧٣١٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥١ .

(٣) عند تفسير الآية (٥٨).

(٤) في (م) ما لا يحل ولا يجوز، والمثبت من (د) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦ والكلام منه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧ .

الثانية: اختلف العلماء في المراد بهذه البيوت:

فقال محمدُ بن الحنفيّة، وقتادةُ، ومجاهد: هي الفنادق التي في طرق السَّابلة. قال مجاهد: لا يسكنها أحدٌ، بل هي موقوفةٌ ليأويَ إليها كلُّ ابن سبيلٍ، وفيها متاع لهم، أي: استمتاع بمنفعتها.

وعن محمد بن الحنفية أيضاً: أنَّ المراد بها دورُ مكة، ويُبيِّنه قول مالك، وهذا على القول بأنها غير متملَّكة، وأنَّ الناسَ شركاءُ فيها، وأنَّ مكةَ أُخذت عَنْوةً.

وقال ابن زيد والشَّعْبيّ: هي حوانيت القَيْسَارِيّات[١]. قال الشعبيُّ: لأنَّهم جاؤوا ببيوعهم فجعلوها فيها، وقالوا للناس: هَلُمّ. وقال عطاء: المراد بها الخِرَب التي يدخلها الناسُ للبول والغائط؛ ففي هذا أيضاً متاع[٢].

وقال جابر بن زيد: ليس يعني بالمتاع الجَهازَ، ولكن ما سواهُ من الحاجة، أمَّا منزل ينزله قومٌ من ليلٍ أو نهار، أو خَرِبة يدخلها [الرجل] لقضاء حاجة، أو دار ينظر إليها، فهذا متاع، وكلُّ منافع الدنيا متاع. قال أبو جعفر النحاس[٣]: وهذا شرحٌ حسنٌ من قول إمامٍ من أئمة المسلمين، وهو موافقٌ للغة. والمتاع في كلام العرب: المنفعة، ومنه: أمتعَ الله بك، ومنه: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب:٤٩].

قلت: واختاره أيضاً القاضي أبو بكر بن العربيّ[٤]، وقال: أمَّا مَنْ فسَّر المتاعَ بأنَّه جميع الانتفاع، فقد طبَّق المفصَّل وجاء بالفَيْصل، وبيَّن أنَّ الداخلَ فيها إنَّما هو لما لَه من الانتفاع؛ فالطالبُ يدخل في الخانكات ـ وهي المدارس ـ لطلب العلم، والساكنُ يدخل الخانات، ـ وهي الفناتق، أي: الفنادق[٥] ـ [للمنزل فيه]، والزَّبون

---

(١) القيسارية: الخان الكبير الذي يشغله التجار والمسافرون، قد يشمل على سوق مسقوفة، معروف من العصر المملوكي، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ٣٥٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧ . وأخرج الأقوال السابقة الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٤٩-٢٥١ .

(٣) في الناسخ والمنسوخ له ٢/ ٥٤٩ ، وما قبله منه.

(٤) في أحكام القرآن له ٣/ ١٣٥٢ و وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٩ ، وتهذيب اللغة ٩/ ٤١٢ .

يدخل الدُّكان للابتياع، والحاقن يدخل الخلاءَ للحاجة، وكلٌّ يؤتى على وجهه من بابه.

وأما قول ابن زيد والشَّعبيّ فقول [غلط]، وذلك أنَّ بيوتَ القَيْساريّات محظورةٌ بأموال الناس، غيرُ مباحة لكلٍّ من أراد دخولَها بإجماع، ولا يدخلها إلا من أُذِن له ربُّها، بل أربابُها موكَّلون بدفع الناس[١].

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ وَصَل تعالى بذكر السَّتر ما يتعلّقُ به من أمر النَّظر، يقال: غضَّ بَصَره يغُضُّه غضًّا، قال الشاعر:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّك من نُمَيرٍ فلا كَعْباً بلَغْتَ ولا كِلابا[٢]

وقال عَنْترة[٣]:

وأغضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لي جارتي حتى يُواري جارتي مأواها

ولم يذكر اللهُ تعالى ما يُغَضّ البصر عنه ويحفظ الفرج، غيرَ أنَّ ذلك معلوم بالعادة، وأنَّ المرادَ منه المحرَّم دون المحلَّل.

وفي البخاري: وقال سعيدُ بن أبي الحسن للحسن: إنَّ نساءَ العَجَم يكشفْنَ صدورَهن ورؤوسَهن؟ قال: اصْرِفْ بصَرك؛ يقول الله تعالى ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾. وقال قتادة: عما لا يحلُّ لهم، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣١] ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر:١٩] [من] النَّظرِ إلى ما نُهِيَ عنه[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧ . وما بين حاصرتين منه.

(٢) ينظر الصحاح (غضض)، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ص٦٣ .

(٣) وهو في ديوانه ص٧٦ .

(٤) صحيح البخاري، قبل حديث (٦٢٢٨) وما بين حاصرتين منه، وينظر تغليق التعليق ٥/ ١٢٠ .

الثانية: قوله تعالى: ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ «من» زائدة، كقوله ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]. وقيل: «من» للتبعيض؛ لأنَّ من النَّظرِ ما يُباح. وقيل: الغضُّ: النقصان، يقال: غضَّ فلان من فلان، أي: وَضَع منه، فالبصر إذا لم يمكَّن من عمله، فهو موضوعٌ منه ومنقوص. فـ «من» صلة للغضّ، وليست للتبعيض ولا للزيادة(١).

الثالثة: البَصَر هو الباب الأكبرُ إلى القلب، وأعْمَرُ طرقِ الحواسِّ إليه، وبحسب ذلك كَثُر السقوطُ من جهته، ووجب التحذيرُ منه(٢)، وغضُّه واجب عن جميع المحرمات، وكلِّ ما يخشى الفتنة من أجله، وقد قال ﷺ: «إياكم والجلوسَ على الطُّرُقات»، فقالوا: يا رسولَ الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ نتحدَثُ فيها، فقال: «فإذا أبَيْتُم إلا المجلسَ، فأعطُوا الطريقَ حقَّه» قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسولَ الله؟ قال: «غَضُّ البَصَر، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر». رواه أبو سعيد الخُدْريّ، خرّجه البخاري ومسلم(٣).

وقال ﷺ لعليّ: «لا تُتبع النَّظرةَ النَّظرةَ، فإنَّما لك الأُولى، وليست لك الثانية»(٤).

وروى الأوزاعِيُّ، قال: حدثني هارون بن رِئاب، أنَّ غَزْوان وأبا موسى الأشعرِيَّ كانا في بعض مَغازِيهم، فتكشَّفتْ جاريةٌ، فنَظَر إليها غَزْوان، فرفع يده فلطم عينَه حتى نَفَرَت، فقال: إنكِ لَلحّاظة إلى ما يضرك ولا ينفعك، فلقِيَ أبا موسى، فسأله، فقال: ظلمتَ عينَك، فاستغفرِ اللهَ وتُب، فإنَّ لها أوَّلَ نظرة، وعليها ما كان بعد ذلك. قال الأوزاعي، وكان غَزْوان مَلَك نفسَه، فلم يضحك حتى مات ﵁(٥).

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٠٢ بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧.

(٣) صحيح البخاري (٢٤٦٥)، وصحيح مسلم (٢١٢١)، وهو في مسند أحمد (١١٣٠٩).

(٤) أخرجه أحمد (١٣٦٩)، وأبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧).

(٥) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ٣/ ٢٥٢ دون إسناد، وورد الخبر أيضاً بنحوه عن عتبة بن غزوان، فيما أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٦١ ـ ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال (ترجمة عتبة بن =

وفي «صحيح مسلم» عن جرير بن عبد الله قال: «سألتُ رسول الله ﷺ عن نظرة الفُجَاءة، فأمرني أن أصرفَ بصري»[١].

وهذا يقوّي قولَ من يقول: إن «من» للتبعيض؛ لأنَّ النظرة الأولى لا تُمْلَك، فلا تدخل تحت خطاب تكليف؛ إذ وقوعها لا يتأتّى أن يكون مقصوداً، فلا تكون مكتسبةً، فلا يكون مكلفاً بها[٢]، فوجب التبعيض لذلك، ولم يقل ذلك في الفرج؛ لأنَّها تُمْلك.

ولقد كره الشعبيُّ أن يُديمَ الرجلُ النظرَ إلى ابنته أو أمه أو أخته، وزمانُه خيرٌ من زماننا هذا، وحرام على الرجل أن ينظرَ إلى ذاتِ مَحْرم[٣] نظرَ شهوةٍ يُردِّدُها.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ أي: يستروها عن أنْ يراها من لا يحلّ.

وقيل: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ أي: عن الزِّنى، وعلى هذا القول لو قال: «من فروجهم» لجاز، والصحيح أنَّ الجميع مرادٌ، واللفظ عام[٤].

ورَوى بَهْز بن حكيم بن معاوية القُشَيْرِيُّ عن أبيه عن جده قال: قلتُ: يا رسول الله، عوراتُنا ما نَأْتي منها وما نَذَرُ؟ قال: «احفَظْ عورتَكَ إلا من زوجتِكَ أو ما ملكتْ يَمينُك». قال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: «إن استطعتَ ألا يراها [أحدُ] فافعل». قلت: فالرجل يكون خالياً؟ فقال: «الله أحقُّ أن يُستحيا منه من الناس»[٥].

= غزوان) - من طريق الأوزاعي، عن هارون بن رئاب، قال: عن عتبة بن غزوان.

وأورد خبر عتبة بن غزوان أيضاً أحمد في الورع ١١٦، ونعيم بن حمّاد في زوائده على الزهد (٣٢٤) مختصراً. ونفرت العين، أي: هاجت وورِمتْ. لسان (نفر).

(١) صحيح مسلم (٢١٥٩)، وهو في مسند أحمد (١٩١٦٠).

(٢) المفهم ٥/ ٤٨٣ .

(٣) في (م) و(د) و(ف): ذاتِ محرمة. وليست في (خ) و (ز)، والمثبت من (ظ). وهو الموافق لما في الاستذكار ٢٦/ ٣٤٤ ، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧ .

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤)، وأبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩)، والنسائي في الكبرى (٨٩٢٣)، =

وقد ذكرت عائشةُ رضي الله عنها رسول الله ﷺ وحالَها معه، فقال: ما رأيتُ ذلك منه، ولا رأى ذلك مني[١].

الخامسة: بهذه الآية حرَّم العلماءُ نصًّا دخولَ الحمَّام بغير مِئزر[٢]. وقد رُوي عن ابن عمر أنَّه قال: أطْيَبُ ما أنفقَ الرجلُ درهمٌ يعطيه للحمّام في خلوة.

وصحَّ عن ابن عباس أنه دَخلَ الحمَّامَ وهو مُحرِم بالجُحْفة[٣]. فدخولُه جائزٌ للرجال بالمآزر، وكذلك النساء للضرورة، كغُسْلهنَّ من الحيض، أو النِّفاس، أو مرض يلحقهنّ، والأوْلَى بهنَّ والأفضلُ لهنَّ غُسْلُهن إن أمكن ذلك في بيوتهنَّ؛ فقد رَوى أحمدُ بن مَنيع، حدّثنا الحسن بن موسى، حدّثنا ابن لَهيعة، حدّثنا زَبّان، عن سهل بن معاذ، عن أبيه، عن أمّ الدَّرْداء، أنَّه سمعها تقول، لقِيَني رسولُ الله ﷺ وقد خرجتُ من الحمَّام، فقال: «مِنْ أينَ يا أمَّ الدَّرداء»؟ فقالت: من الحمَّام، فقال: «والذي نفسي بيده، ما من امرأةٍ تَضعُ ثيابَها في غير بيت أحدٍ من أُمَّهاتِها، إلا وهي هاتِكةٌ كلَّ سترٍ بينها وبين الرحمن عزَّ وجلَّ»[٤].

= وابن ماجه (١٩٢٠) قال الترمذي: هذا حديث حسن، وجد بهز اسمه معاوية بن حيدة القشيري . اهـ. وما بين حاصرتين من المصادر.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٣ ، وأخرجه أحمد (٢٤٣٤٤)، وابن ماجه (٦٦٢)، والترمذي في الشمائل (٣٥٢) عن عائشة بنحوه. وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن عائشة.

وأخرجه الطبراني في الصغير (١٣٨)، وابن عدي في الكامل ٢/ ٤٧٩ عن عائشة بنحوه، وفي إسناده بركة بن محمد، قال ابن عدي: سائر أحاديث بركة مناكير، باطل كلها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧-١٧٨ .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٣٩٤ (نشرة العمروي).

(٤) هو عند أحمد بن منيع، كما في إتحاف الخيرة المهرة ١/ ٣٠١، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٠٣٨)، والطبراني في الكبير ٢٤/ (٦٤٥) بهذا الإسناد، وهو مسلسل بالضعفاء، وهم ابن لهيعة، وزبّان بن فائد، وسهل بن معاذ بن أنس الجهني.

وأخرجه أحمد (٢٧٠٤١)، والطبراني في الكبير ٢٤/ (٦٥٢) من طريق آخر عن أمّ الدرداء، وإسناده حسن. قال الهيثمي في المجمع ١/ ٢٧٧ : رواه أحمد والطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح.

وخرّج أبو بكر البزّار عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «احذروا بيتاً يقال له الحمَّام». قالوا: يا رسولَ الله، يُنقي الوَسَخ، قال: «فاستتروا»(١).

قال أبو محمد عبد الحق(٢): هذا أصحُّ إسنادِ حديثٍ في هذا الباب، على أنَّ الناس يرسلونَه عن طاوس، وأما ما خرّجه أبو داود في هذا من الحظر والإباحة، فلا يصحُّ منه شيءٌ؛ لضَعْفِ الأسانيد، وكذلك ما خرَّجه الترمذيُّ(٣).

قلت: أما دخولُ الحمام في هذه الأزمان، فحرامٌ على أهل الفضل والدِّين؛ لغلبة الجهل على الناس واستسهالهم إذا توسَّطوا الحمامَ رمْيَ مآزرهم، حتى يُرَى الرجل البَهِيُّ ذو الشيبة قائماً منتصباً وسطَ الحمام وخارجَه بادِياً عن عورته، ضامًّا بين فخذيه، ولا أحدَ يغيّر عليه(٤). هذا أمر بين الرجال، فكيف بالنساء، لا سيّما بالدِّيار المصرية، إذ حماماتُهم خاليةٌ عن المظاهر التي هي عن أعين الناس سواتر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليِّ العظيم.

السادسة: قال العلماء: فإن استتر، فليدخل بعشرة شروط:

الأوّل: ألّا يدخلَ إلا بنيَّة التداوي، أو بنيّة التطهير عن الرُّحَضاء(٥).

---

(١) كشف الأستار (٣١٩)، قال البزار: وهذا رواه الناس عن طاوس مرسلاً ولا نعلم أحداً وصله إلا يوسف عن يعلى عن الثوري. اهـ، وقال الهيثمي في المجمع ١/ ٢٧٧: رجاله عند البزار رجال الصحيح، إلا أن البزار قال: رواه الناس عن طاوس مرسلاً. اهـ.

(٢) في الأحكام الصغرى له ١/ ١٥٠.

(٣) سنن أبي داود (٤٠٠٩)، وسنن الترمذي (٢٨٠٢)، وهو من حديث عائشة رضي الله عنها. قال الترمذي: إسناده ليس بذاك القائم. ونقل المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦/ ١٤ عن أبي بكر بن حازم الحافظ: أحاديث الحمام كلها معلولة، وإنما يصح فيها عن الصحابة ﷺ، فإن كان هذا الحديث محفوظاً فهو صريح في النسخ، والله أعلم بالصواب.

(٤) في (ف): يعير، والمثبت من (م) و (ظ)، ولم تجود في (د).

(٥) الرحضاء: العرق الكثير يغسل الجلد، أو العَرَق إثر الحُمّى. المعجم الوسيط (رحض).

الثاني: أن يعتمدَ أوقات الخلوة، أو قلَّةَ الناس.

الثالث: أن يسترَ عورتَه بإزار صَفيق.

الرابع: أن يكون نظرُه إلى الأرض، أو يستقبلَ الحائط؛ لئلا يقع بصرُه على محظور.

الخامس: أن يُغيّر ما يرى من منكرٍ برفقٍ؛ يقول: استتر سَتَرك اللهُ.

السادس: إن دلَّكه أحدٌ، لا يمكّنه من عورته؛ من سرته إلى ركبته، إلا امرأته أو جاريته. وقد اختلف في الفخذين: هل هما عورة أم لا؟

السابع: أن يدخلَه بأجرةٍ معلومةٍ بشرطٍ أو بعادة(١).

الثامن: أن يصبَّ الماءَ على قدر الحاجة.

التاسع: إن لم يقدر على دخوله وحدَه، اتفق مع قومٍ يحفظون أديانَهم على كِرائه.

العاشر: أن يتذكَّر به جهنَّم.

فإن لم يمكنه ذلك كله، فليستتر وليجتهد في غضِّ البصر(٢).

ذكر الترمذِيّ أبو عبد الله في «نوادر الأصول» من حديث طاوس، عن عبد الله ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا بيتاً يقال له: الحمام»، قيل: يا رسول الله، إنَّه يذهبُ به الوسخُ ويذكّر النارَ، فقال: «إن كنتم لا بُدَّ فاعلين، فادخلوه مستترين»(٣).

وخرّج من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نِعم البيتُ يدخله الرجلُ المسلم بيتُ الحمام، وذلك لأنَّه(٤) إذا دَخَله سأل الله الجنةَ، واستعاذَ به من النار،

---

(١) في (م) بعادة الناس.

(٢) عارضة الأحوذي ١٠/ ٢٤٥، وجامع الأمهات لابن الحاجب ١/ ٥٦٣.

(٣) نوادر الأصول ص١٦٦، والحديث أخرجه الطبراني في الكبير ١١/ ٢٧ (١٠٩٣٢)، والحاكم ٤/ ٣٢٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٧٦٥). قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وسلف الحديث بأخصر منه، وسلف كلام عبد الحق أن الناس يرسلونه عن طاوس.

(٤) في (د) و (ظ) أنه، والمثبت من (م).

وبئس البيتُ يدخله الرجلُ [المسلم] بيتُ العروس، وذلك لأنَّه يرغِّبه في الدنيا وينسيه الآخرة»[١]. قال أبو عبد الله: فهذا لأهل الغفلة، صيَّر الله هذه الدنيا بما فيها سبباً للذِّكر لأهل الغفلة، ليذَّكَّروا بها آخرتهم، فأما أهلُ اليقين فقد صارت الآخرةُ نُصبَ أعينهم، فلا بيت حمّامٍ يُزعجه، ولا بيت عروس يستفزُّه، لقد دَقَّت الدنيا بما فيها من الصنفين والضربين في جنب الآخرة، حتى إنَّ جميعَ نعيمِ الدنيا في أعينهم كنُثَارة الطعام من مائدةٍ عظيمة، وجميعَ شدائد الدنيا في أعينهم كتَفْلةٍ[٢] عُوقب بها مجرمٌ أو مسيءٌ، قد كان استوجب القتلَ أو الصلبَ من جميع عقوبات أهل الدنيا.

السابعة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: غضُّ البصر وحفظُ الفرج أطهرُ في الدين، وأبعدُ من دنس الآثام[٣] ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ﴾ أي: عالم ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ

---

(١) نوادر الأصول ص١٦٥، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٧٧٩) وما بين حاصرتين منهما، وابن عساكر في تاريخه ٨/ ١٨٨. قال البيهقي: في إسناده ضعف.

(٢) في (د): كفعلة، وفي (ظ): كنقلة، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في نوادر الأصول ص١٦٥ والكلام منه.

(٣) في (م): الأنام، والمثبت من (د) و (ظ).

زِينَتَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ فيه ثلاث وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خصَّ الله سبحانه وتعالى الإناثَ هنا بالخطاب على طريق التأكيد؛ فإنَّ قولَه ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يكفي؛ لأنَّه قولٌ عامٌّ يتناول الذَّكر والأنثى من المؤمنين، حسب كلّ خطاب عامٍّ في القرآن[(١)].

وظهر التضعيف في «يَغْضُضْنَ»؛ ولم يظهر في «يَغُضُّوا»؛ لأنَّ لامَ الفعل من الثاني[(٢)] ساكنةٌ، ومن الأوَّل متحركة، وهما في موضع جزم جواباً[(٣)]. وبدأ بالغَضّ قبل الفرج؛ لأنَّ البصرَ رائد للقلب[(٤)]، كما أنَّ الحُمَّى رائد الموت. وأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

ألـم تَـرَ أنَّ الـعـيـنَ لـلـقـلـب رائـدٌ فـمـا تـألـفُ العينانِ فالقلبُ آلفُ[(٥)]

وفي الخبر: «النظرُ سَهْمٌ من سهام إبليسَ مسمومٌ، فمن غضَّ بصرَه، أورثه الله الحلاوةَ في قلبه»[(٦)].

وقال مجاهد: إذا أقبلتِ المرأةُ، جلس الشيطانُ على رأسِها؛ فزيَّنَها لمن ينظرُ،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٥ .

(٢) يعني في قوله: يَغْضُضْنَ.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٣ .

(٤) الكشاف ٣/ ٦١ .

(٥) البيت لمضرس بن قرط كما في الحماسة البصرية ٢/ ٢٠٣ ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٩٣ ، والخزانة ٥/ ٢٣ ، وهو في بهجة المجالس ٣/ ٢٢ دون نسبة. وعندهم: ألا إنما العينان للقلب رائد..

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٣١٤ ، والقضاعي في مسند الشهاب (٢٩٢) من حديث حذيفة ﷺ قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: إسحاق واهٍ، وعبد الرحمن بن إسحاق هو الواسطي ضعفوه. وأخرجه الطبراني في الكبير ١٠/ ١٧٣ (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود، وفي إسناده عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي أيضاً. وأورده المنذري في الترغيب ٢/ ٦٥١ ، والهيثمي في المجمع ٨/ ٦٣ ، وذكرا ضعف عبد الرحمن بن إسحاق.

وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وفي إسناده عبد الرحمن بن إسحاق أيضاً.

فإذا أدبرت، جلس على عَجُزِها؛ فزيَّنها لمن ينظر.

وعن خالد بن أبي عمران، قال: لا تُتْبِعنّ النظرةَ النظرة، فربما نَظَرَ العبدُ نظرةً، نَغِلَ منها قلبُه كما يَنْغَلُ الأديمُ فلا يُنتفع به[(١)].

فأمر الله سبحانَه وتعالى المؤمنين والمؤمنات بغضِّ الأبصار عما لا يحلُّ؛ فلا يحلُّ للرجل أن ينظرَ إلى المرأة، ولا المرأةُ إلى الرجل؛ فإنَّ علاقتها به كعلاقته بها، وقَصْدَها منه كقصده منها[(٢)].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله كَتَب على ابنِ آدمَ حظَّه من الزِّنى، أدرك ذلك لا محالة، فالعينانِ تَزنيانِ وزناهُما النظر، ...» الحديث[(٣)].

وقال الزهري في النظر إلى التي لم تَحِض من النساء: لا يَصلحُ النظرُ إلى شيءٍ منهن؛ ممن يُشْتَهَى النظرُ إليهن، وإن كانت صغيرة. وكره عطاء النظرَ إلى الجواري اللاتي يُبَعن بمكةَ، إلا أن يريد أن يشتري[(٤)].

وفي «الصحيحين» عنه عليه الصلاة والسلام، أنَّه صرفَ وجهَ الفَضْلِ عن الخَثْعَمِيّة حين سألته، وطَفِق الفضلُ ينظر إليها[(٥)]. وقال عليه الصلاة والسلام: «الغَيْرة من الإيمان، والمِذاء من النِّفاق»[(٦)].

---

(١) نوادر الأصول ص٣٠٦. والنَّغَل بالتحريك: الفساد، وقد نَغِلَ الأديم: إذا عَفِن وتهرَّى في الدِّباغ فينفسد ويهلك. النهاية (نغل).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٥.

(٣) صحيح مسلم (٢٦٥٧)، وأخرجه أحمد (٧٧١٩)، والبخاري (٦٦١٢).

(٤) ذكر قول الزهري وعطاء البخاريُّ قبل حديث (٦٢٢٨)، ووصل قول عطاء ابن أبي شيبة ٦/ ٦٨.

(٥) صحيح البخاري (١٥١٣) و(٦٢٢٨)، وصحيح مسلم (١٣٣٤)، وهو في مسند أحمد (٢٢٦٦).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (١٩٥٢٠) والبيهقي في السنن ١٠/ ٢٢٦، وفي شعب الإيمان (١٠٧٩٧) عن زيد بن أسلم عن النبي ﷺ مرسلاً، قال البيهقي: هكذا جاء مرسلاً، وقد رويناه عن أبي مرحوم، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، قال: الغيرة من الإيمان... =

والمِذَاء: هو أن يجمع الرجلُ بين النِّساء والرجال ثم يخلِّيهم يُماذِي بعضُهم بعضاً، مأخوذ من المَذْي. وقيل: هو إرسالُ الرجال إلى النساء، من قولهم: مَذَيْتُ الفرس: إذا أرسلتَها تَرْعَى[(١)]. وكلّ ذَكَر يَمْذي، وكلّ أُنثى تَقْذِي[(٢)]. فلا يحلّ لامرأةٍ تؤمنُ بالله واليوم الآخرِ أن تُبديَ زينتَها إلا لمن تحلُّ له، أو لمن هي محرّمةٌ عليه على التأبيد؛ فهو آمنٌ أن يتحرَّك طبعُه إليها، لوقوع اليأس له منها.

الثانية: روى الترمذيّ عن نَبْهان مولى أم سلمة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال لها ولميمونةَ وقد دخل عليها ابنُ أمّ مَكْتُوم: «احتجِبا» فقالتا: إنَّه أعمى، قال: «أفَعَمْيَاوَانِ أنتما، ألستما تُبصِرانِه؟»[(٣)].

فإن قيل: هذا الحديث لا يصحُّ عند أهل النقل؛ لأنَّ راويه عن أم سلمة نبهان مولاها، وهو ممَّن لا يحتج بحديثه، وعلى تقدير صحته، فإنَّ ذلك منه عليه الصلاة والسلام تغليظ على أزواجه لحرمتهن، كما غلَّظ عليهن أمرَ الحجاب، كما أشار إليه أبو داود وغيرُه من الأئمة[(٤)]. ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت، وهو أنَّ النبيَّ ﷺ أَمَر فاطمةَ بنتَ قيس أن تعتدّ في بيت أُمّ شَرِيك، ثم قال: «تلك امرأةٌ يغشاها

= وهذا الموصول أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٤٩٠). وفي إسناده أبو مرحوم ـ وهو عبد الرحمن بن كردم ـ وهو مجهول، كما ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٦٠٦، وقد وهم الهيثمي في المجمع ٤/ ٣٢٧، فقال: فيه أبو مرحوم، وثقه النسائي، وضعفه ابن معين. اهـ. وهذا الذي أشار إليه الهيثمي هو عبد الرحيم بن ميمون، وكنيته أبو مرحوم أيضاً، وهو من رجال التهذيب.

(١) المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٣/ ٣٩٧، ونقله عنه البيهقي في الشعب ٧/ ٤١١.

(٢) الصحاح: (قذى).

(٣) سنن الترمذي (٢٧٧٨)، وأخرجه أحمد (٢٦٥٣٧)، وأبو داود (٤١١٢)، والنسائي في الكبرى (٩١٩٧) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال النسائي: ما نعلم أحداً روى عن نبهان غير الزهري. اهـ.

قلنا: ونبهان مولى أم سلمة لم يذكروا في الرواة عنه سوى الزهري، وقال ابن عبد البر: مجهول، وقال الإمام أحمد: نبهان روى حديثين عجيبين، فذكر حديث المكاتب، وحديث: أفعمياوان أنتما. ثم إن الحديث معارض بما سيذكر المصنف ها هنا. وينظر شرح مشكل الآثار ١/ ٢٦٥.

(٤) المفهم ٤/ ٢٧٠-٢٧١، وقول أبي داود في سننه عقب الحديث (٤١١٢).

أصحابي، اعتدِّي عند ابنِ أمّ مَكْتُوم؛ فإنه رجلٌ أعمى، تضعين ثيابَك ولا يَرَاكِ[(١)]».

قلنا: قد استدلّ بعضُ العلماء بهذا الحديث على أنَّ المرأة يجوز لها أن تطَّلعَ من الرَّجل على ما لا يجوز للرَّجُل أن يطَّلع عليه[(٢)] من المرأة، كالرأس ومعلَّق القُرْط، وأما العورة فلا[(٣)]. فعلى هذا يكون مخصِّصاً لعموم قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾، وتكون «من» للتبعيض كما هي في الآية قبلها.

قال ابن العربي[(٤)]: وإنَّما أمرها بالانتقال من بيت أم شَريك إلى بيت ابنِ أُمّ مكتوم؛ لأنَّ ذلك أوْلى بها من بقائها في بين أُمّ شريك؛ إذ كانت أُمُّ شريك مُوسرةً[(٥)] بكثرة الدَّاخل إليها، فيكثر الرَّائي لها، وفي بيت ابن أمّ مكتوم لا يراها أحدٌ؛ فكان إمساكُ بصرها عنه أقربَ من ذلك وأوْلى، فرخَّص لها في ذلك، والله أعلم.

الثالثة: أمر الله سبحانه وتعالى النساءَ بألَّا يُبدين زينتهنَّ للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين في باقي الآية؛ حذراً من الافتتان، ثم استثنى ما يظهر من الزِّينة، واختلف الناس في قدر ذلك؛ فقال ابن مسعود: ظاهرُ الزِّينة هو الثياب. وزاد ابن جبير: الوجهَ. وقال سعيد بن جبير أيضاً، وعطاء والأوزاعِيّ: الوجه والكفَّان والثياب. وقال ابنُ عباس وقتادة والمِسْوَر بن مَخْرمة: ظاهرُ الزينة هو الكُحْلُ، والسِّوار، والخِضاب إلى نصف الذِّراع، والقِرطة والفَتَخ[(٦)]، ونحو هذا فمباح أن تُبدِيَه المرأة لكلِّ من دَخَل عليها من الناس[(٧)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٨٠)، وأحمد (٢٧٣٢٧).

(٢) لفظ: عليه، من (ظ) وهو الموافق لما في المفهم ٤/ ٢٧٠ .

(٣) المفهم ٤/ ٢٧٠ .

(٤) في أحكام القرآن له ٣/ ١٣٥٦ .

(٥) في (د) و(م): مؤثرة.

(٦) الفتخ: جمع فَتَخَة، وهي الخواتيم. غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣١٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨ ، وأخرج الأقوال السابقة الطبري في تفسيره ١٧/ ٢٥٦-٢٦١ .

وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي ﷺ(١)، وذكر آخرَ عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر إذا عركَتْ أن تظهرَ إلا وجهها ويديها إلى هاهنا» وقبض على نصف الذراع(٢).

قال ابن عطية(٣): ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية، أنَّ المرأةَ مأمورةٌ بألا تُبديَ، وأن تجتهدَ في الإخفاء لكلِّ ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابدّ منه، أو إصلاح شأنٍ، ونحو ذلك. فما ظهر على هذا الوجه مما تؤدّي إليه الضرورةُ في النساء، فهو المعفوّ عنه.

قلت: هذا قول حسنٌ، إلا أنه لما كان الغالبُ من الوجه والكفين ظهورهما عادةً وعبادةً وذلك في الصلاة والحج، فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما.

يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دَخَلْت على رسول الله ﷺ وعليها ثيابٌ رِقاق، فأعرض عنها رسولُ الله ﷺ، وقال: «يا أسماء إنَّ المرأةَ إذا بَلَغتِ المَحِيضَ، لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا [وهذا]». وأشار إلى وجهه وكفّيه(٤).

فهذا أقوى في جانب الاحتياط، ولمراعاة فساد الناس؛ فلا تُبدي المرأةُ من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفَّيها، والله الموفق لا ربّ سواه(٥).

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ٢٥٩ من طريق عبد الرزاق، وهو في تفسيره ٢/ ٥٦ . والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨ .

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٢٦٠ . وقوله: عركت، أي: حاضت. القاموس (عرك).

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨ .

(٤) سنن أبي داود (٤١٠٤) من طريق سعيد بن بشير، عن قتادة، عن خالد بن دُرَيك، عن عائشة، به ـ وما بين حاصرتين منه ـ. وقال أبو داود: هذا مرسل؛ خالد بن دُرَيك لم يدرك عائشة رضي الله عنها. اهـ. وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦/ ٥٨ : في إسناده سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصري، نزيل دمشق، مولى بني نصر، وقد تكلم فيه غير واحد، وذكر الحافظ أبو أحمد الجرجاني هذا الحديث، وقال: لا أعلم من رواه عن قتادة غير سعيد بن بشير، وقال مرة فيه: عن خالد بن دريك، عن أم سلمة، بدل: عائشة.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨ .

وقد قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد من علمائنا: إنَّ المرأة إذا كانت جميلةً وخِيفَ من وجهها وكفَّيها الفتنةُ، فعليها سَتْر ذلك، وإن كانت عجوزاً أو مُقَبَّحة، جاز أن تكشف وجهها وكفّيها.

الرابعة: الزينة على قسمين: خَلْقِية ومُكتَسبة؛ فالخَلْقية: وجهُها؛ فإنه أصلُ الزينة وجمالُ الخلقة ومعنى الحيوانية؛ لما فيه من المنافع وطرق العلوم. وأما الزينة المكتسبة: فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خِلقتها، كالثياب والحليّ والكُحْل والخِضاب؛ ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: ٣٠]. وقال الشاعر:

يأخُذْنَ زينتَهنّ أحسنَ ما تَرَى ... وإذا عَطِلْنَ فهنّ خيرُ عواطلِ[١]

الخامسة: من الزينة ظاهر وباطن، فما ظهر، فمباحٌ أبداً لكلِّ الناس من المحارم والأجانب، وقد ذكرنا ما للعلماء فيه. وأما ما بَطَن، فلا يحل إبداؤه إلا لمن سمَّاهم الله تعالى في هذه الآية، أو حلَّ محلهم[٢].

واختلف في السِّوار، فقالت عائشة: هو من الزينة الظاهرة؛ لأنه في اليدين. وقال مجاهد: هو من الزينة الباطنة؛ لأنَّه خارج عن الكفين، وإنَّما يكون في الذراع. قال ابن العربي[٣]: وأما الخضاب فهو من الزينة الباطنة إذا كان في القدمين.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ قرأ الجمهور بسكون اللام التي هي للأمر. وقَرأ أبو عمرو في رواية عباس[٤] بكسرها على الأصل؛ لأنَّ الأصلَ في لام الأمر الكسرُ، وحُذفت الكسرةُ لثقلها، وإنما تسكينها كتسكين عَضُد

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٦ ، والبيت منسوب في الأغاني ٢٢/ ٣٣٣ ، والأمالي للزجاجي ص/ ١٠٠ ، والوافي بالوفيات ١٩/ ٥٣٧ للعديل العجلي، وروايتهم (غير) بدل (خير).

عَطِلَت المرأةُ: إذا لم يكن عليها حلي، ولم تلبس الزينة، وخلا جيدها من القلائد. اللسان (عطل).

(٢) هو في النكت والعيون ٤/ ٩٠-٩١ بنحوه.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٥٧ وما قبله منه.

(٤) في (م): ابن عباس، والمثبت من (د) و (ظ)، وهو الصواب، والقراءة المتواترة عن أبي عمرو كقراءة الجمهور. السبعة ص٤٥٤ .

وفَخِذ[١]. و«يَضْرِبْن» في موضع جزم بالأمر، إلا أنه بُني على حالة واحدة إتباعاً للماضي عند سيبويه[٢].

وسبب هذه الآية أنَّ النساء كُنَّ في ذلك الزمان إذا غطَّين رؤوسَهنَّ بالأخْمِرة ـ وهي المقانع ـ سَدَلْنَها من وراء الظهر. قال النقَّاش: كما يصنع النَّبَطُ[٣]؛ فيبقى النحرُ والعنقُ والأذنان لا ستر على ذلك، فأمر الله تعالى بلَيِّ الخمارِ على الجيوب، وهيئةُ ذلك: أن تضربَ المرأةُ بخمارها على جيبها لتسترَ صدرَها[٤].

روى البخاري عن عائشةَ، أنَّها قالت: رَحِم اللهُ نساءَ المهاجراتِ الأُوَل؛ لما نزل: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَقْنَ أُزُرَهنَّ، فاختمَرْنَ بها[٥].

ودخلت على عائشةَ حفصةُ بنتُ أخيها عبدِ الرحمن ﷺ وقد اختمرتْ بشيءٍ يَشِفُّ عن عُنقها وما هنالك، فشقَّته عليها، وقالت: إنَّما يُضرب بالكثيف الذي يَستر[٦].

السابعة: الخُمُر: جمع الخِمار، وهو ما تُغطِّي به رأسَها، ومنه: اختمرت المرأةُ وتخمَّرت، وهي حَسَنة الخِمْرة[٧]. والجيوب: جمع الجيب، وهو موضع القطع من الدّرع والقميص، وهو من «الجَوْب» وهو القطع.

ومشهور القراءة ضم الجيم من «جُيوبهنّ»، وقرأ بعضُ الكوفيين بكسرها بسبب الياء، كقراءتهم ذلك في: «بِيوت» و «شِيوخ»[٨]، والنَّحْويون القدماء لا يُجيزون هذه

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٣ .

(٣) النَّبَط: جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين. الصحاح (نبط).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨ .

(٥) صحيح البخاري (٤٧٥٨). وفيه شققن (مروطهن) بدل (أزرهن).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨ ، وأثر عائشة أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ٧٢ عدا القول الأخير منه.

(٧) تهذيب اللغة ٧/ ٣٧٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٨ ، وقرأ بكسر الجيم: ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي، والقراءة في التيسير ص١٦١ .

القراءةَ، ويقولون: بَيْت وبُيوت، كفَلْس وفُلوس. وقال الزجَّاج: يجوز على أن تُبدل من الضمة كسرة؛ فأما ما روي عن حمزة من الجمع بين الضم والكسر، فمحال، لا يقدر أحدٌ أن ينطق به إلا على الإيماء إلى ما يجوز[١].

وقال مقاتل: «على جيوبهنَّ» أي: على صدورهنّ، يعني على مواضع جيوبهنّ.

الثامنة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الجَيْب إنما يكون في الثوب موضعَ الصدر، وكذلك كانت الجيوبُ في ثياب السلَف رضوان الله عليهم، على ما يصنعه النساءُ عندنا بالأندلس، وأهلُ الديار المصرية من الرجال والصبيان وغيرِهم.

وقد ترجم البخارِيُّ رحمة الله تعالى عليه: باب جيب القميص من عند الصدر وغيره، وساق حديثَ أبي هريرة قال: ضربَ رسولُ الله ﷺ مَثَلَ البخيلِ والمُتصدِّق، كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، قد اضْطرَّت أيدِيَهما إلى ثُديِّهما وتراقِيهما... الحديث، وقد تقدَّم بكماله[٢]، وفيه: قال أبو هريرة: فأنا رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقول بأصبعيه هكذا في جَيْبه، فلو رأيتَه يوسِّعها ولا تتوسَّع[٣].

فهذا يبيّن لك أن جَيْبه عليه الصلاة والسلام كان في صدرِه، لأنَّه لو كان في منكِبه، لم تكن يداه مضطرّةً إلى ثَدْيَيه وتراقِيه. وهذا استدلال حسن.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ البَعْل: هو الزوج والسَّيِّد في كلام العرب، ومنه قول النبيِّ ﷺ في حديث جبريل: «إذا وَلَدتِ الأَمَةُ بَعْلَها...»[٤] يعني: سيِّدَها؛ إشارة إلى كثرة السَّراري بكثرة الفتوحات، فيأتي الأولاد من الإماء، فتعتق كلُّ أمٍّ بولدها، وكأنه سيّدُها الذي مَنّ عليها بالعتق؛ إذ كان العتق حاصلاً لها من

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٤ .

(٢) صحيح البخاري (٥٧٩٧)، وسلف ١٠/ ٢٥٠ .

(٣) صحيح البخاري (٥٧٩٧)، وقال ابن حجر في الفتح ١٠/ ٢٦٨ : جوابه محذوف، وتقديره: لتعجبت منه.

(٤) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٩٥٠١)، والبخاري (٥٠)، ومسلم (٩): (٦) ـ واللفظ له ـ، وأخرجه أحمد (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر ﷺ.

سببه. قاله ابن العربيّ[١].

قلت: ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في ماريَة: «أعتقَها ولدُها»[٢] فنسب العتقَ إليه. وهذا من أحسن تأويلات هذا الحديث. والله أعلم.

مسألة: فالزوج والسَّيِّد يرى الزينةَ من المرأة وأكثرَ من الزينة؛ إذ كلُّ محلٍّ من بدنها حلالٌ له، لذةً ونظراً. ولهذا المعنى بدأ بالبُعولة؛ لأنَّ اطلاعَهم يقع على أعظم من هذا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[٣] [المؤمنون: ٥-٦].

العاشرة: اختلف الناس في جواز نظرِ الرجل إلى فرج المرأة؛ على قولين:

أحدهما: يجوز؛ لإنه إذا جاز له التلذُّذُ به، فالنظر أولى. وقيل: لا يجوز؛ لقول عائشةَ رضي الله عنها في ذكر حالها مع رسولِ الله ﷺ: ما رأيتُ ذلك منه ولا رأى ذلك مني. والأول أصحُّ، وهذا محمولٌ على الأدب. قاله ابنُ العربي[٤]. وقد قال أَصْبغ من علمائنا: يجوز له أن يلحسَه بلسانه.

وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: أما الزوجُ والسيِّد فيجوز له أن ينظر إلى سائر الجسد وظاهِر الفرج دون باطنه. وكذلك المرأةُ يجوز أن تنظرَ إلى عورة زوجها، والأَمَةُ إلى عورة سيدها.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٥٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥١٦) من حديث ابن عباس، قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٣/ ٩٧ : هذا إسناد ضعيف، حسين بن عبد الله بن عبيد الله الهاشمي، تركه علي بن المديني، وأحمد بن حنبل والنسائي وضعفه أبو حاتم وأبو زرعة.
وأخرجه أيضاً ابن حزم في المحلى ٩/ ٢١٩ من طريق آخر عن ابن عباس، وقال: هذا خبر جيد الإسناد، كل رواته ثقات.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٥٧-١٣٥٨ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٥٨ ، وقول أصبغ الآتي منه، وحديث عائشة رضي الله عنها سلف عند الآية (٣٠) من هذه السورة.

قلت: ورويَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «النظرُ إلى الفرج يُورث الطمس»[١] أي: العمى، أي: في الناظر. وقيل: إنَّ الولد بينهما يُولَد أعمى. والله أعلم.

الحادية عشرة: لما ذَكَر الله تعالى الأزواجَ وبَدأ بهم، ثنَّى بذوي المحارم، وسوَّى بينهم في إبداءِ الزينة، ولكن تختلف مراتبهم [في الحرمة] بحسب ما في نفوس البشر، فلا مِرْيةَ أنَّ كشفَ الأب والأخ على المرأة أحْوَط من كشف ولد زوجها. وتختلف مراتب ما يُبْدَى لهم، فَيُبْدَى للأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزوج[٢].

وقد ذكر القاضي إسماعيل عن الحسن والحسين رضي الله عنهما، أنَهما كانا لا يَرَيان أمهات المؤمنين. وقال ابنُ عباس: إنَّ رؤيتهما لهنَّ تحِلّ[٣]. قال إسماعيل: أحسِب أن الحسنَ والحسين ذهبا في ذلك إلى أنَّ أبناء البُعُولة لم يذكروا في الآية التي في أزواج النبي ﷺ، وهي قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

وقال في سورة النُّور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الآية، فذهب ابن عباس إلى هذه الآية، وذهب الحسن والحسين إلى الآية الأخرى.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ يريد ذكورَ أولادِ الأزواج، ويدخل فيه: أولادُ الأولادِ وإن سَفَلوا، من ذُكرانٍ كانوا أو إناثٍ، كبني البنين وبني

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢/ ٥٠٧، والبيهقي ٧/ ٩٤ - ٩٥، وابن الجوزي في الموضوعات (١١١٥) من حديث ابن عباس مرفوعاً، ونقل ابن الجوزي عن ابن حبان أنه موضوع. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٤٩: قال ابن أبي حاتم في العلل: سألت أبي عنه، فقال: موضوع،... وخالف ابن الصلاح فقال: إنه جيد الإسناد، كذا قال، وفيه نظر.

وأخرجه ابن الجوزي (١١١٦) من حديث أبي هريرة مرفوعاً، وفي إسناده إبراهيم بن محمد، قال الأزدي: ساقط. وأورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة ٢/ ١٤٤.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩، وما بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٨/ ١٧٨، وسعيد بن منصور في سننه (٩٦٥)، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٧.

البنات. وكذلك آباءُ البعولة والأجداد وإن عَلَوا من جهة الذُّكران لآباءِ الآباء وآباء الأُمهات، وكذلك أبناؤهنَّ وإن سَفَلوا. وكذلك أبناءُ البنات وإن سَفَلن؛ فيستوي فيه أولادُ البنين وأولادُ البنات. وكذلك أخواتهنَّ، وهم مَن ولدَه الآباء والأمهات، أو أحد الصّنفين. وكذلك بنو الإخوة وبنو الأخوات وإن سَفَلُوا من ذُكرانٍ كانوا أو إناث، كبني بني الأخوات وبني بنات الأخوات. وهذا كلُّه في معنى ما حُرِّم من المناكح، فإنَّ ذلك على المعاني في الوِلادات، وهؤلاء محارم، وقد تقدم في «النساء»[(١)]. والجمهور على أنَّ العَمَّ والخالَ كسائر المحارم في جواز النظر لهما إلى ما يجوز لهم، وليس في الآية ذكر الرضاع، وهو كالنسب على ما تقدم[(٢)].

وعند الشعبِيّ وعكرمة: ليس العمُّ والخال من المحارم. وقال عكرمة: لم يذكرهما في الآية؛ لأنَّهما ينعتانها[(٣)] لأبنائهما.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: المسلمات، ويدخل في هذا الإماءُ المؤمنات، ويخرج منه نساءُ المشركين من أهل الذمة وغيرهم؛ فلا يحلُّ لامرأة مؤمنةٍ أن تكشفَ شيئاً من بدنها بين يدي امرأةٍ مشركةٍ، إلا أن تكونَ أَمَةً لها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾[(٤)].

وكان ابن جُريج، وعُبَادة بن نُسَيّ، وهشام القارىء، يكرهون أن تَقْبَلَ[(٥)] النصرانيةُ المسلمةَ أو ترى عورتَها، ويتأوَّلون ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾[(٦)].

قال عُبَادة بن نُسَيّ: وكتب عمرُ ﷺ إلى أبي عُبيدة بن الجرّاح: أنه بلغني أنَّ نساءَ

---

(١) ٦/ ١٧٣ وما بعدها.

(٢) تنظر المسألة في تفسير الرازي ٢٣/ ٢٠٦-٢٠٧ .

(٣) في النسخ: تبعان، والتصويب من التمهيد وبقية المصادر، وقد أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٣٠-٢٣١ ، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٨ . وأورده الرازي في تفسيره ٢٣/ ٢٠٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ .

(٥) قَبِلَت القابلةُ المرأة تَقْبَلها: إذا قَبِلَت الولد، أي تَلقَّته عند الولادة. اللسان: «قبل».

(٦) مصنف عبد الرازق (١١٣٦) ونسبه إلى عبادة بن نسي، ومكحول وسليمان.

أهلِ الذمّةِ يدخُلنَ الحمّامات مع نساء المسلمين؛ فامنعْ من ذلك، وحُلْ دونَه؛ فإنَّه لا يجوز أن ترى الذمّيةُ عِرْيةَ[١] المسلمة. قال: فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل، وقال أيُّما امرأةٍ تدخل الحمامَ من غير عذرٍ لا تُريد إلا أن تبيِّض وجهها، فسوَّد اللهُ وجهَها يوم تبيضُّ الوجوه[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا يحلُّ للمسلمةِ أن تراها يهوديةٌ أو نصرانيةٌ؛ لئلا تصفَها لزوجها. وفي هذه المسألة خلافٌ للفقهاء. فإن كانت الكافرة أمَةً لمسلمة، جاز أن تنظرَ إلى سيدتها، وأما غيرها فلا؛ لانقطاع الولاية بين أهل الإسلام وأهل الكفر، ولما ذكرناه. والله أعلم.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ظاهر الآية يشمل العبيدَ والإماءَ المسلمات والكتابيّات، وهو قول جماعة من أهل العلم، وهو الظاهر من مذهب عائشةَ وأمِّ سلمة رضي الله عنهما[٣].

وقال ابن عباس: لا بأس أن ينظر المملوكُ إلى شَعَر مولاته[٤]. وقال أشهب: سُئل مالك: أتُلْقي المرأةُ خِمارَها بين يدي الخَصيّ؟ فقال: نعم، إذا كان مملوكاً لها أو لغيرها؛ وأما الحرّ فلا، وإن كان فحلاً كبيراً وَغْداً تملكه، لا هيئة له ولا مَنْظَر، فلينظرْ إلى شعرها. قال أشهب: قال مالك: ليس بواسعٍ أن تَدْخلَ جاريةُ الولدِ أو الزوجة على الرجل المرحاض؛ قال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾. وقال أشهب عن مالك: ينظر الغلامُ الوغد إلى شَعَر سيّدته، ولا أُحبه لغلام الزوج[٥].

وقال سعيد بن المسيب: لا تغرّنَّكم هذه الآية: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ إنمّا عَنَى

---

(١) عِرْية المرأة: يريد ما يَعْرى منها وينكشف. النهاية (عرا).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ ولم ينسبه لعبادة بن نسي، وأخرجه عبد الرزاق (١١٣٤)، والبيهقي ٧/ ٩٥ عن عبادة بن نسي. وأخرجاه أيضاً عن عبادة بن نسي عن الحارث بن قيس.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ .

(٤) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٣٥-٢٣٦ ، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٤ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦١ . والوغد: هو ضعيف العقل، أو الخفيف الأحمق. اللسان (وغد).

بها الإماءَ، ولم يَعْن بها العبيدَ[١]. وكان الشعبيُّ يكره أن ينظرَ المملوكُ إلى شَعَر مولاته. وهو قول مجاهد وعطاء[٢].

وروى أبو داود عن أنس، أنَّ رسولَ الله ﷺ أتى فاطمةَ بعَبْدٍ قد وهَبَه لها، قال: وعلى فاطمةَ ثوبٌ إذا غطَّتْ به رأسَها، لم يبلغ رجليها، وإذا غطّتْ به رجليها، لم يبلغْ رأسَها؛ فلما رأى النبيُّ ﷺ ما تَلْقَى من ذلك قال: «إنَّه لا بأسَ عليك؛ إنَّما هو أبوكِ وغلامُكِ»[٣].

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: غير أُولي الحاجة. والإِرْبَةُ: الحاجة، يقال: أَرِبْتُ إلى كذا آربُ أَرَباً. والإِرْب والإِرْبةُ والمَأْرُبَةُ والأَرَب: الحاجة، والجمع مآرب، أي: حوائج[٤]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] وقد تقدم[٥].

وقال طَرَفة:

إذا المرءُ قال الجهلَ والحُوْبَ والخَنا ... تقدَّمَ يوماً ثمَّ ضاعتْ مآربُهْ[٦]

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ﴾ فقيل: هو الأحمق الذي لا حاجةَ به إلى النساء. وقيل: الأبله. وقيل: الرجلُ يتبع القومَ، فيأكل معهم ويرتفق بهم، وهو ضعيف لا يكترثُ للنساء و لا يَشتهيهنَّ. وقيل: العِنِّين. وقيل: الخَصِيّ. وقيل: المخنَّث. وقيل: الشيخُ الكبير، والصبي الذي لم يُدْرك[٧].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٣٥ ، وابن أبي شيبة ٤/ ٣٣٥ .

(٢) التمهيد ١٦/ ٢٣٦ ، وأخرج قولهم ابن أبي شيبة ١٤/ ٣٣٤-٣٣٥ .

(٣) سنن أبي داود (٤١٠٦). وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦/ ٥٩ : في إسناده أبو جُميع سالم ابن دينار الهُجيمي البصري، قال ابن معين: ثقة، وقال أبو زرعة الرازي: مصري لين الحديث، وهو سالم بن راشد. قال الحافظ في التقريب: مقبول.

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٥٧ ، ومجمل اللغة ١/ ٩٣ ، والمفردات للراغب (أرب).

(٥) ١٤/ ٤٤ .

(٦) لم نقف عليه، الحُوْب: الإثم، والخنا: الفحش. الصحاح (حوب) (خنا).

(٧) التمهيد ٢٢/ ٢٧٤ .

وهذا الاختلاف كلُّه متقارب المعنى، ويجتمع فيمن لا فَهْم له ولا هِمّة ينتبه بها إلى أمر النساء، وبهذه الصفة كان هِيْت المخنَّث عند رسول الله ﷺ، فلمّا سمع منه ما سمع من وصفِ محاسنِ المرأة ـ بادِيَةَ ابنة غَيْلان ـ أَمَر بالاحتجاب منه[١]. أخرج حديثَه مسلم وأبو داود ومالك في «الموطأ» وغيرهم، عن هشام بن عروة، عن عروة، عن عائشة[٢].

قال أبو عمر[٣]: ذكر عبد الملك بن حبيب، عن حبيب كاتبِ مالك، قال: قلت لمالك: إنَّ سفيان زاد في حديث ابنة غَيْلان: «أنَّ مخنَّثاً يقال له: هِيْت» وليس في كتابك: هِيت؟ فقال مالك: صَدَق، هو كذلك، وغرّبه النبي ﷺ إلى الحِمَى؛ وهو موضع من ذي الحُلَيفَة ذات الشمال من مسجدها. قال حبيب: وقلت لمالك: وقال سفيان في الحديث: إذا قعدت تَبَنّت، وإذا تكلّمت تَغَنّت[٤]. قال مالك: صدق، هو كذلك.

قال أبو عمر[٥]: ما ذكره حبيب كاتبُ مالكٍ عن سفيان، أنه قال في الحديث يعني حديثَ هشام بن عروة: «أنَّ مخنثاً يدعى هِيْتاً» فغير معروف عند أحدٍ من رواته عن هشام، لا ابن عيينة ولا غيره، ولم يقل في نَسَق الحديث: «أنّ مخنَّثاً يدعى هيتاً»، وإنَّما ذَكَره عن ابن جُريج بعد تمام الحديث، وكذلك قوله عن سفيان، أنه

---

(١) التمهيد ٢٢/ ٢٧٤ ، و٢٢/ ٢٧٦ .

(٢) صحيح مسلم (٢١٨١)، وسنن أبي داود (٤١٠٨)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٥١٨٥) من حديث عائشة.
وهو في «الموطأ» ٢/ ٧٦٧ من طريق هشام بن عروة، عن عروة، عن أم سلمة، مرسل.
وأخرجه أحمد (٢٦٤٩٠)، والبخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠) عن أم سلمة رضي الله عنها موصولاً.

(٣) في التمهيد ٢٢/ ٢٧٠-٢٧١ .

(٤) تبنَّت: أي فرّجت رجليها، كأنه شبَّهها بالقُبَّة من الأدم، وهي المبناة لسمنها وكثرة لحمها. النهاية (بني)
وتغنَّت: من الغنة لا من الغناء؛ أي: كانت تتغنن في كلامها من لينها ورخامة صوتها. التمهيد ٢٢/ ٢٧٧ .

(٥) في التمهيد ٢٢/ ٢٧١-٢٧٢ ، وينظر تفسير غريب الموطأ لابن حبيب ٢/ ٥٥-٥٦ .

يقول في الحديث: إذا قعدت تبنّت، وإذا تكلّمت تغنّت، هذا ما لم يقله سفيان ولا غيره في حديث هشام بن عروة، وهذا اللفظ لا يوجدُ إلا من رواية الواقدي، والعجب أنه يحكيه عن سفيان، ويحكي عن مالكٍ أنه كذلك، فصارت روايةً عن مالك، ولم يروه عن مالك غيرُ حبيب، ولا ذكره عن سفيان غيره أيضاً، والله أعلم. وحبيب كاتب مالك متروكُ الحديث ضعيفٌ عند جميعهم، لا يُكتب حديثه ولا يلتفت إلى ما يجيء به.

ذكر الواقِدِيّ(١) والكَلْبي أنَّ هِيْتاً المخنَّث قال لعبد الله بن [أبي] أُميَّة المخزوميّ وهو أخو أُمّ سَلَمة لأبيها، وأُمّه عاتكة عمةُ رسول الله ﷺ، قال له وهو في بيت أُخته أمِّ سَلَمة ورسول الله ﷺ يسمع: إنْ فَتَح الله عليكم الطائفَ، فعليك ببادِيَةَ بنت غيلان ابن سَلَمة الثَّقَفِيّ؛ فإنها تُقْبل بأربع وتُدْبر بثمان(٢)، مع ثَغْرٍ كَالأُقْحُوان(٣)، إن جلست تَبَنّت، وإن تكلّمت تغنّت، بين رجليها كالإناء المكفوء، وهي كما قال قَيْس بن الخَطِيم:

تغْتَرِق الطّرفَ وهي لاهِيَةٌ ... كأنَّما شَفَّ وَجْهَها نُزُفُ(٤)
بين شُكُول النِّساء خِلْقَتُها ... قَصْدٌ فلا جَبْلَةٌ ولا قَضَفُ
تنام عن كُبْر شأنِها فإذا ... قامتْ رُوَيْداً تكاد تَنْقَصِف(٥)

---

(١) أخرجه عن الواقدي ابن حبيب في تفسير غريب الموطأ ٢/ ٦٠ .

(٢) تقبل بأربع وتدبر بثمان: وصف امرأةً لها في بطنها أربع عُكن [والعكنة: الطي الذي يكون في جانبي البطن من السمن] فإذا بلغت خصريها صارت أطراف العُكَن ثمانية، أربع من هاهنا، وأربع من هاهنا، فإذا أقبلت إليك استقبلتك ببطنها، رأيت لها أربعاً، فإذا أدبرت عنك صارت تلك الأربع ثمانياً من جهة الأطراف المجتمعة. التمهيد ٢٢/ ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، والمفهم ٥/ ٥١٣ ، وتفسير غريب الموطأ ٢/ ٥٤ .

(٣) هو نبت طيب الريح، حواليه ورق أبيض، ووسطه أصفر. الصحاح (قحا).

(٤) النُّزْف: الضعف الحادث عن خروج الدم، وحركت الزاي لضرورة الشعر، والمعنى: أنها رقيقة المحاسن حتى كأن دمها منزوف. اللسان (نزف).

(٥) التمهيد ٢٢/٢٧٦ ، والمفهم ٥/ ٥١٣-٥١٤ . والأبيات في الأصمعيات ص١٩٦-١٩٧ ، الشكول: الضروب، والقَصْد: الوسط، والجَبْلة: الغليظة، والقضف: الدِّقَّة وقلة اللحم. اللسان (شكل)، (جبل)، (قصد)، (قضف).

فقال له النبيّ ﷺ: «لقد غلغلتَ[١] النظرَ إليها يا عدوّ الله»، ثم أجلاه عن المدينة إلى الحِمَى، قال: فلما افتُتِحتِ الطائف، تزوَّجها عبدُ الرحمن بن عَوف، فوَلَدت له منه بُرَيْهة ـ في قول الكلبي ـ ولم يزل هِيت بذلك المكان حتى قُبض النبيُّ ﷺ، فلما وَلِيَ أبو بكر كُلِّم فيه، فأبى أن يردَّه، فلما وَليَ عمر كُلِّم فيه فأبى، ثم كُلِّم فيه عثمان بعدُ، وقيل: إنَّه قد كَبِر وضَعُف واحتاج، فأذن له أن يدخلَ كلَّ جمعةٍ؛ فيسأل ويرجع إلى مكانه[٢]. قال: وكان هِيت مولًى لعبد الله بن [أبي] أمية المخزومي، وكان له طُوَيْس[٣] أيضاً، فمن ثَمّ قيل: الخَنِث.

قال أبو عمر: يقال «بادية» بالياء، و«بادنة» بالنون، والصواب فيه عندهم بالياء، وهو قول أكثرهم، وكذلك ذكره الزُّبيري بالياء.

السادسة عشرة: وصف التابعين بـ «غير»؛ لأنّ التابعين غيرُ مقصودين بأعيانهم، فصار اللفظ كالنكرة، و«غير» لا يتمحّض نكرةً؛ فجاز أن يجري وصفاً على المعرفة[٤]. وإن شئت قلت: هو بدل. والقول فيها كالقول في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾[٥] [الفاتحة: ٧].

وقرأ عاصم[٦] وابن عامر: «غيرَ» بالنصب، فيكون استثناء؛ أي: يبدين زينتهنَّ للتابعين إلا ذا الإرْبة منهم[٧]. ويجوز أن يكون حالاً؛ أي: والذين يتبعونهن عاجزين

---

(١) أي: بلغتَ بنظرك من محاسن هذه المرأة حيث لا يبلغ النظر، ولا يصل واصل، ولا يصف واصف. النهاية (غلغل).

(٢) التمهيد ٢٢/ ٢٧٥-٢٧٧، والمفهم ٥/ ٥١٣-٥١٤، والأغاني ٣/ ٣٠-٣١.

(٣) هو عيسى بن عبد الله، أحد من يضرب به المثل في صناعة الغناء، مات سنة اثنتين وتسعين. السير ٤/ ٣٦٤.

(٤) الكلام بنحوه في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣٦.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٥١١، والمحرر الوجيز ٤/ ١٧٩.

(٦) في رواية أبي بكر (شعبة) عنه.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٤، وينظر السبعة ٤٥٥، والتيسير ١٦١.

عنهن. قاله أبو حاتم. وذو الحال ما في «التابعين» من الذكر[(١)].

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ اسم جنس بمعنى الجمع، والدليل على ذلك نعتُه بـ «الذين»[(٢)]. وفي مصحف حَفْصة: «أو الأطفال» على الجمع. ويقال: طفلٌ ما لم يراهق الحُلُم. و﴿يَظْهَرُواْ﴾ معناه: يطلعوا بالوطء[(٣)]؛ أي: لم يكشفوا عن عوراتهنّ للجماع لصغرهنّ[(٤)]. وقيل: لم يبلغوا أن يطيقوا النساءَ[(٥)]، يقال: ظهرت على كذا أي: علمته، وظهرت على كذا أي: قهرته[(٦)].

والجمهورُ على سكون الواو من «عَوْرات»؛ لاستثقال الحركة على الواو، وروي عن ابن عامر فتح الواو[(٧)]، مثل جَفْنة وجَفَنَات. وحكى الفراءُ أنَّها لغةُ قيس «عَوَرات» بفتح الواو. النحاس[(٨)]: وهذا هو القياسُ؛ لأنَّه ليس بنعت، كما تقول: جفنة وجَفَنات، إلا أن التسكين أجودُ في «عَوْرات» وأشباهه، لأنَّ الواو إذا تحرّكت وتحركَ ما قبلها، قُلبت ألفاً؛ فلو قيل[(٩)] هذا لذهب المعنى[(١٠)].

الثامنة عشرة: اختلف العلماء في وجوب ستر ما سوى الوجهِ والكفينِ منه، على

---

(١) في (ظ): الضمير، وينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ١٣٦ ، وينظر قول أبي حاتم في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٤ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٤ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ .

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٧١ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٠ .

(٦) ينظر معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٢٦ .

(٧) في (م) و(ظ) والبحر المحيط ٦/ ٤٤٩ : ابن عباس، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ ، وقراءة ابن عامر ذكرها الداني في جامع البيان ٢/ ٣٠٨ من رواية يحيى عنه، وليست هي في التيسير ولا في السبعة لابن مجاهد.

(٨) في إعراب القرآن له ٣/ ١٣٤ .

(٩) في إعراب القرآن: فُعل.

(١٠) من قوله: (بفتح الواو) إلى ها هنا، ليس في النسخ، أثبتناه من (م).

قولين: أحدهما: لا يلزم؛ لأنَّه لا تكليفَ عليه، وهو الصحيح. والآخر: يلزمُهُ؛ لأنَّه قد يشتهي وقد تشتهي أيضاً هي، فإن رَاهَق، فحكمه حكمُ البالغ في وجوب السَّتر. ومثله الشيخ الذي سقطت شهوتُه، اختلف فيه أيضاً على قولين كما في الصَّبي، والصحيح بقاء الحرمةِ. قاله ابن العربي(١).

التاسعة عشرة: أجمع المسلمون على أن السَّوْءتين عورةٌ من الرجل والمرأة، وأنَّ المرأةَ كلَّها عورةٌ، إلا وجهها ويديها، فإنهم اختلفوا فيهما. وقال أكثر العلماء في الرجل: من سرته إلى ركبته عورة، لا يجوز أن تُرَى(٢). وقد مضى في «الأعراف» القولُ في هذا مستوفًى(٣).

المُوفِية عشرين: قال أصحاب الرأي: عورةُ المرأة مع عبدها من السُّرة إلى الركبة. ابن العربي(٤): وكأنهم ظنُّوها رجلاً أو ظنُّوه امرأةً، والله تعالى قد حرَّم المرأةَ على الإطلاق لنظرٍ أو لذةٍ، ثم استثنى اللذَّةَ للأزواج ومِلْك اليمين، ثم استثنى الزينةَ لاثني عَشَر شخصاً، العبدُ منهم، فما لنا ولذلك! هذا نظر فاسدٌ، واجتهادٌ عن السَّدادِ متباعدٌ. وقد تأوّلَ بعضُ الناس قولَه ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ على الإماءِ دون العبيدِ؛ منهم سعيدُ بن المسيِّب، فكيف يُحملون على العبيد ثم يُلحقون بالنساء، هذا بعيد جدًّا!

وقد قيل: إنَّ التقدير أو ما ملكت أيمانهنّ من غير أولي الإرْبة أو التابعين غير أولي الإربة من الرِّجال. حكاه المهدوِيّ.

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآية، أي: لا تَضرب المرأةُ برجلها إذا مَشت لتُسْمِع صوت خَلْخالها؛ فإسماع صوت الزِّينة كإبداء الزينة

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٦٣ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٣ .

(٣) ٩/ ١٨٢ فما بعدها.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٦٣ وما قبله منه.

وأشدّ، والغرض التستر.

أسند الطبريُّ[١] عن المعتمر، عن أبيه، أنه قال: زعم حضرمِيٌّ أنَّ امرأةً اتخذتْ بُرَتَيْن من فضةٍ، واتخذت جَزْعاً[٢]، فجعلت[٣] في ساقها، فمرّت على القومِ، فضربت برِجْلها الأرضَ، فوقع الخَلْخال على الجَزْع فصوَّتَ، فنزلت هذه الآية. وسماع هذه الزينة أشدُّ تحريكاً للشهوة من إبدائها. قاله الزجاج[٤].

الثانية والعشرون: مَن فَعَل ذلك منهنَّ فَرَحاً بحُلِيِّهنَّ، فهو مكروه، ومن فعل ذلك منهنّ تبرُّجاً وتعرُّضاً للرِّجال، فهو حرامٌ مذموم. وكذلك من ضرب بنعله من الرجال، إنْ فعل ذلك تعجُّباً؛ حَرُم، فإنَّ العُجْبَ كبيرةٌ، وإن فعل ذلك تَبَرُّجاً، لم يَجُز[٥].

الثالثة والعشرون: قال مَكِّيٌّ رحمه الله تعالى: ليس في كتاب الله تعالى آيةٌ أكثرَ ضمائر من هذه، جَمَعت خمسةً وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخفوضٍ ومرفوع[٦].

قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ **فيه مسألتان**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ﴾ أمْرٌ، ولا خلاف بين الأُمّة في وجوب التوبة، وأنها فرضٌ متعيّن، وقد مضى الكلامُ فيها في «النساء»[٧] وغيرها؛ فلا معنى لإعادة ذلك. والمعنى: وتوبوا إلى الله؛ فإنكم لا تَخلونَ من سهوٍ وتقصيرٍ في أداء حقوق الله تعالى، فلا تتركوا التوبةَ في كلِّ حال.

---

(١) في تفسيره ١٧/ ٢٧٢، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) البُرَة: كلُّ حلقة من سِوار وقُرْط وخَلخال. والجَزْع: ضرب من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة، مختلفة الألوان. «المعجم الوسيط».

(٣) كذا في النسخ الخطية غير (ظ)، والمحرر الوجيز، وفي(ظ): فجعلته.

(٤) في معاني القرآن له ٤/ ٤٠.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٤.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠.

(٧) ١٤٩/٦.

الثانية: قرأ الجمهورُ: «أيُّهَ» بفتح الهاء، وقرأ ابنُ عامر بضمها[١]؛ ووجهُه أن تُجعل الهاءُ من نفس الكلمةِ، فيكون إعرابَ المنادى فيها، وضعّف أبو عليّ ذلك جدًّا[٢]، وقال: آخر الاسم هو الياء الثانية من «أيّ»، فالمضموم ينبغي أن يكون آخر الاسم، ولو جاز ضمُّ الهاء هاهنا لاقترانها بالكلمة، لجاز ضمُّ الميم في «اللَّهُمَّ»؛ لاقترانها بالكلمة. في كلام طويل.

والصحيح أنَّه إذا ثَبتَ عن النبيّ ﷺ قراءةٌ، فليس إلا اعتقادُ الصحةِ في اللغة؛ فإنَّ القرآن هو الحجة. وأنشد الفراء:

يــا أيُّــهَ الــقــلــبُ الــلَّــجُــوجُ الــنَّــفــس   أفــق عــن الــبِــيــض الــحِــســان الــلُّــعْــسِ

اللَّعَس: لون الشَّفَة إذا كانت تَضرب إلى السواد قليلاً، وذلك يُستملَح، يقال: شَفَةٌ لَعْساء، وفِتيةٌ ونسوةٌ لُعْسٌ[٣].

وبعضهم يقف: «أيُّهْ»، وبعضهم يقف: «أيّها» بالألف؛ لأنَّ علةَ حذفها في الوصل إنَّما هو سكونُها وسكونُ اللام، فإذا كان الوقفُ ذهبت العلةُ فرجعت الألفُ كما ترجع الياءُ إذا وقفت على «مُحِلّي» من قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: ١]. وهذا الاختلاف الذي ذكرناه كذلك هو في ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الزخرف: ٤٩]، و﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾[٤] [الرحمن: ٣١].

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

فيه سبع مسائل:

---

(١) السبعة ص٤٥٥، والتيسير ص١٦١.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠، وما سيأتي من كلام أبي علي هو في الحجة ٥/ ٣٢٠.

(٣) الصحاح (لعس).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠، وقراءة الوقف على «أيُّهْ» بغير ألف مع سكون الهاء قرأ بها الجمهور سوى أبي عمرو والكسائي، ورواية عن قنبل، فقد قرؤوا فيها بالألف وقفاً. السبعة ٤٥٥، وجامع البيان ٢/ ٣٠٨.

الأولى: هذه المخاطبة تدخل في باب السّتر والصلاح؛ أي: زوِّجوا مَنْ لا زَوْجَ له منكم؛ فإنَّه طريقُ التَّعفُّف، والخطاب للأولياء. وقيل: للأزواج. والصحيح الأوّل؛ إذ لو أرادَ الأزواجَ لقال: «وانْكحُوا» بغير همز، وكانت الألفُ للوصل[١].

وفي هذا دليل على أنَّ المرأةَ ليس لها أن تُنكِح نفسَها بغير وَليٍّ، وهو قولُ أكثر العلماء. وقال أبو حنيفةَ: إذا زَوَّجت الثيِّبُ أو البكرُ نفسَها بغير وَليٍّ كُفْأً لها، جاز. وقد مضى هذا في «البقرة» مستوفًى[٢].

الثانية: اختلف العلماءُ في هذا الأمر على ثلاثة أقوال، فقال علماؤنا: يختلف الحكم في ذلك باختلاف حالِ المؤمن مِن خوفِ العَنَت، ومن عدم صَبْره، ومن قوَّته على الصبر وزوالِ خشيةِ العَنَتِ عنه، وإذا خاف الهلاكَ في الدِّين أو الدنيا أو فيهما، فالنكاحُ حَتْمٌ. وإن لم يخشَ شيئاً وكانت الحالُ مطلقةً، فقال الشافعيّ: النكاحُ مباحٌ. وقال مالك وأبو حنيفة: هو مستحبٌّ. تعلّق الشافِعيُّ بأنَّه قضاءُ لذةٍ، فكان مُباحاً كالأكل والشراب، وتعلَّق علماؤنا بالحديث الصحيح: «من رَغِب عن سُنَّتِي فليس منّي»[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: الذين لا أزواجَ لهم من الرِّجال والنساء؛ واحدهم أَيِّم. قال أبو عمرو: «أيامى» مقلوب: أيايم.

واتفق أهلُ اللغة على أنَّ الأيِّم في الأصل: هي المرأةُ التي لا زوجَ لها، بكراً كانت أو ثيِّباً، حكى ذلك أبو عمرو والكسائي وغيرهما[٤]. تقول العرب: تأيَّمتِ المرأةُ: إذا أقامتْ لا تتزوّج[٥]. وفي حديث النبيّ ﷺ: «أنا وامرأةٌ سَفْعاءُ الخَدَّين

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٤ بنحوه.

(٢) ٣/ ٤٦٢ فما بعدها، وينظر التمهيد ١٩/ ٨٤، ٩٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٤-١٣٦٥، والحديث سلف ٢/ ٢٣٧.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٥، والمفهم ٤/ ١١٤.

(٥) المفهم ٤/ ١١٤.

تأيَّمت على ولدِها الصّغار حتى يبلغوا أو يُغنيَهم اللهُ من فضله، كهاتين في الجنة»[١].

وقال الشاعر:

فـإن تَـنْـكِـحـي أنْـكِـحْ وإن تَـتَـأيَّـمِـي وإنْ كـنـتُ أفْـتَـى مـنـكُـمُ أتـأيَّـمُ[٢]

ويقال: أيِّم بيِّن الأيْمة، وقد آمَتْ هي، وإمتُ أنا. قال الشاعر:

لقـد إمْتُ حتـى لامَني كلُّ صاحبٍ رجاءً بسَلْمَى أنْ تَئِيمَ كما إمْتُ[٣]

قال أبو عُبيد: يقال رجل أيِّم وامرأةٌ أيِّمٌ، وأكثر ما يكون ذلك في النِّساء، وهو كالمستعار في الرّجال[٤].

وقال أمَيَّة بن أبي الصَّلْت:

لـلــه دَرُّ بـنـي عَـلِـيٍّ أيّـم مـنـهـم ونـاكـحْ[٥]

وقال قوم: هذه الآية ناسخةٌ لحكم قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦]. وقد بيّناه في أوّل السورة والحمد لله[٧].

الرابعة: المقصود من قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ الحرائرُ والأحرار[٨].

ثم بيَّن حُكمَ المماليك، فقال: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٠٠٦)، وأبو داود (٥١٤٩) من حديث عوف بن مالك الأشجعي. وفيه: آمت، بدل: تأيمت. وإسناده ضعيف لضعف النهّاس بن قَهْم، ولانقطاعه بين شداد بن عمار وعوف بن مالك.

وسفعاء الخدين: أي متغيرة لونها بسبب خدمة الأيتام. قاله السندي في حاشيته على المسند.

(٢) البيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٦٥ ، وأحكام القرآن لإبن العربي ٣/ ١٣٦٣ ، وتفسير الطبري ١٨/ ٢٧٤ دون نسبة .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٣٠٦ ونسبه لابن المعذّل، وفيه: (تأيمت) بدل: (لقد إمت).

(٤) المفهم ٤/ ١١٤ .

(٥) ديوان أمية ص٣٦ ، والعقد الفريد ٣/ ٣٠١ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠ .

(٧) عند تفسير الآية (٣) المسألة السادسة.

(٨) الأضداد لابن الأنباري ص٣٣١ .

وقرأ الحسن: «والصالحين من عبيدكم»، وعَبيد اسم للجمع[١]. قال الفراء[٢]: ويجوز «وإماءَكم» بالنصب، يردّه على «الصالحين»، يعني الذكور والإناث، والصلاحُ الإيمان.

وقيل: المعنى ينبغي أن تكونَ الرغبةُ في تزويج الإماءِ والعبيدِ إذا كانوا صالحين، فيجوز تزويجهم، ولكن لا ترغيب فيه ولا استحباب، كما قال: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾. ثم قد تجوز الكتابة وإن لم يُعلم أن في العبد خيراً، ولكن الخطاب ورد في الترغيب والاستحباب، وإنما يُستحب كتابة من فيه خير[٣].

الخامسة: أكثرُ العلماء على أنَّ للسيِّد أن يكْرِهَ عبدَه وأمتَه على النكاح، وهو قول مالك وأبي حنيفة وغيرِهما. قال مالك: ولا يجوز ذلك إذا كان ضرراً[٤]. وروي نحوُه عن الشافعيّ، ثم قال[٥]: ليس للسيّد أن يكره العبدَ على النكاح.

وقال النَّخَعِيّ: كانوا يكرهون المماليكَ على النكاحِ ويُغلقون عليهم الأبوابَ.

تمسّك أصحاب الشافعيّ فقالوا: العبدُ مكلَّف، فلا يُجبر على النكاح؛ لأنَّ التكليفَ يدلُّ على أن العبدَ كاملٌ من جهة الآدميّة، وإنَّما تتعلق به المملوكيّةُ فيما كان حظًّا للسيد من مِلْك الرقبةِ والمنفعة، بخلاف الأَمَة، فإنَّه له حقُّ المملوكية في بُضْعها ليستوفيَه؛ فأما بُضْع العبد فلا حقَّ له فيه، ولأجل ذلك لا تُباحُ السيّدةُ لعبدها. هذه عمدة أهل خراسان والعراق، وعمدتُهم أيضاً الطلاقُ، فإنه يملكه العبدُ بتملُّك عَقْدِه. ولعلمائنا النُّكتةُ العظمى في أنَّ مالكيَّة العبدِ استغرقتها مالكيةُ السيِّد؛ ولذلك لا يتزوَّجُ إلا بإذنه بإجماعٍ، والنكاح وبابُه إنَّما هو من المصالح، ومصلحةُ العبد موكولةٌ إلى

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٥، وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص١٠٢.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٥١، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٥.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٢٧٧، والنكت والعيون ٤/ ٩٩.

(٤) مختصر اختلاف العلماء ٢/ ٣١٢-٣١٣.

(٥) في الأم ٥/ ٤٢.

السيِّد، هو يراها ويقيمها للعبد[١].

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ رجع الكلامُ إلى الأحرار؛ أي: لا تمتنعوا عن التَّزويج بسبب فَقْر الرجل والمرأة؛ ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ .وهذا وَعْدٌ بالغنى للمتزوِّجين طلبَ رضا الله واعتصاماً من معاصيه. وقال ابن مسعود: التمسوا الغنى في النِّكاح، وتلا هذه الآية. وقال عمر ﷺ: عَجَبي ممن لا يطلب الغنى في النكاح، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٢]. وروي هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً[٣]، ومن حديث أبي هريرة ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عونُه: المجاهدُ في سبيل الله، والناكحُ يريد العفافَ، والمكاتَبُ يريد الأداء». أخرجه ابن ماجه في «سننه»[٤].

فإن قيل: فقد نَجدُ الناكحَ لا يستغني؟ قلنا: لا يلزم أن يكون هذا على الدَّوام، بل لو كان في لحظةٍ واحدةٍ لصدَق الوعدُ. وقد قيل: يغنيه، أي: يغني النفس[٥]. وفي الصحيح: «ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، إنَّما الغنى غِنَى النفس»[٦]. وقد قيل: ليس وعدٌ لا يقع فيه خُلْف؛ بل المعنى: أن المال غادٍ ورائح، فارْجُوا الغنى. وقيل: المعنى يُغنهم اللهُ من فضله إن شاء[٧]، كقوله تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقال تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٦].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠ ، وأخرج أثر ابن مسعود الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٢٧٥ ، وأخرج أثر عمر عبد الرزاق كما في كشف الخفاء ١/ ٢٠٣ .

(٣) أورده الرازي في تفسيره ٢٣/ ٢١٤ ، والديلمي في الفردوس (٢٨٢) بلفظ: «التمسوا الرزق بالنكاح». قال في كشف الخفاء ١/ ٢٠٢ : رواه الثعلبي في تفسيره والديلمي بسند فيه لين.

(٤) برقم (٢٥١٨)، وأخرجه أحمد (٧٤١٦)، والترمذي (١٦٥٥)، والنسائي في المجتبى ٦/ ١٥ ، وفي الكبرى (٤٣١٣) قال الترمذي: حديث حسن .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٧ .

(٦) صحيح البخاري (٦٤٤٦)، وصحيح مسلم (١٠٥١) وسلف ٧/ ٥٢ - ٥٣ .

(٧) تفسير الرازي ٢٣/ ٢١٤ بنحوه.

وقيل: المعنى: إن يكونوا فقراءَ إلى النِّكاح، يُغْنِهِمُ اللهُ بالحلال ليتعفَّفُوا عن الزنى.

السابعة: هذه الآية دليلٌ على تزويج الفقير، ولا يقول: كيف أتزوَّج وليس لي مال؛ فإنَّ رزقَه على الله، وقد زوَّج النبيُّ ﷺ المرأةَ التي أتته تَهَبُ له نفسَها لمن ليس له إلا إزار واحدٌ، وليس لها بعد ذلك فسخُ النِّكاح بالإعسار؛ لأنَّها دخلتْ عليه، وإنما يكون ذلك إذا دخلت على اليَسَار فخرج معسراً، أو طرأ الإعسارُ بعد ذلك؛ لأنَّ الجوعَ لا صبرَ عليه. قاله علماؤنا[١].

وقال النقَّاش: هذه الآية حجةٌ على من قال: إنَّ القاضي يُفرّق بين الزوجين إذا كان الزوجُ فقيراً لا يقدرُ على النفقة؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿يُغْنِهِمُ اللَّهُ﴾ ولم يقل: يفرّق. وهذا انتزاع ضعيف، ليست[٢] هذه الآيةُ حكماً فيمن عَجَزَ عن النفقة، وإنَّما هي وعدٌ بالإغناء لمن تزوّج فقيراً، فأمّا من تزوَّج موسِراً وأعسرَ بالنفقة، فإنَّه يفرَّق بينهما؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠] ونفحاتُ الله تعالى مأمولةٌ في كلِّ حالٍ موعودٍ بها[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ **فيه أربع مسائل:**

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٨ .

(٢) في النسخ: ليس، والمثبت من المحرر الوجيز والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٠ .

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ﴾ الخطاب لمن يَملك أمر نفسه، لا لمن زِمامُه بيد غيره، فإنه يقوده إلى ما يراه، كالمحجور ـ قولاً واحداً ـ والأمةِ والعبد، على أحد قولَي العلماء[١].

الثانية: و«اسْتَعْفَفَ» وزنه استفعل، ومعناه: طَلَبَ أن يكون عفيفاً، فأمر الله تعالى بهذه الآية كلَّ مَن تعذَّر عليه النكاحُ ولا يجدُه بأيِّ وجهٍ تَعذَّرَ أن يستعففَ. ثم لمَّا كان أغلبَ الموانع على النكاح عدمُ المال، وعدَ بالإغناء من فضله[٢]، فيرزقُه ما يتزوَّج به، أو يجدُ امرأة ترضى باليسير من الصَّداق، أو تزولُ عنه شهوة النساء. وروى النسائيُّ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «ثلاثة كلُّهم حقٌّ على الله عزَّ وجلَّ عونُه[٣]: المجاهدُ في سبيل الله، والناكحُ الذي يريد العفاف، والمكاتَبُ الذي يريد الأداء»[٤].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: طَوْلَ نكاح، فحذف المضاف. وقيل: النكاحُ هاهنا ما تُنكَح به المرأةُ من المهر والنفقة، كاللِّحافِ اسمٌ لِمَا يُلتحَف به. واللِّباس اسمٌ لِمَا يُلبس، فعلى هذا لا حذفَ في الآية، قاله جماعة من المفسرين، وحَمَلَهم على هذا قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فظنُّوا أن المأمور بالاستعفاف إنما هو مَن عَدِمَ المالَ الذي يتزوَّج به. وفي هذا القول تخصيصُ المأمورين بالاستعفاف، وذلك ضعيف، بل الأمرُ بالاستعفاف متوجِّهٌ لكلِّ مَن تعذَّر عليه النكاح بأيِّ وجهٍ تعذَّرَ[٥]، كما قدَّمناه، والله تعالى أعلم.

الرابعة: مَن تاقت نفسُه إلى النكاح، فإن وجد الطَّوْل، فالمستحبُّ له أن يتزوَّج، وإن لم يجد الطَّوْل، فعليه بالاستعفاف ما أمكن ولو بالصوم، فإن الصوم له وِجاء،

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٨ ، وسلفت أقوال العلماء في تزويج العبد والأمة في المسألة الخامسة في تفسير الآية قبلها.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١ .

(٣) في (م): عونهم.

(٤) سنن النسائي ٦/ ١٥ - ١٦ ، و ٦١ ، وسلف في المسألة السادسة في تفسير الآية قبلها.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١ .

كما جاء في الخبر الصحيح[١]. ومَن لم تَتُق نفسُه إلى النكاح، فالأولى له التخلي لعبادة الله تعالى. وفي الخبر: «خيرُكم الخفيفُ الحاذِ الذي لا أهلَ له ولا ولد»[٢].

وقد تقدَّم جواز نكاح الإماء عند عَدَم الطَّوْل للحرة في «النساء»[٣] والحمد لله.

ولمَّا لم يجعل الله بين[٤] العِفَّة والنكاح درجةً، دلَّ على أنَّ ما عداهما محرَّمٌ، ولا يدخل فيه مِلْك اليمين؛ لأنه بنصٍّ آخرَ مباح، وهو قولُه تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، فجاءت فيه زيادة، ويبقى على التحريم الاستمناءُ ردًّا على أحمد. وكذلك يخرج عنه نكاحُ المُتْعَة بنسخه[٥]، وقد تقدَّم هذا في «المؤمنين»[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾

فيه ستَّ عَشْرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ «الذين» في موضع رفع. وعند الخليل وسيبويه في موضع نصبٍ على إضمار فعل؛ لأن بعده أمراً[٧]. ولمَّا جرى ذِكْر العبيد والإماء فيما سبق، وَصَل به أن العبد إن طلب الكتاب فالمستحبُّ كتابتُه، فَرُبَّما

---

(١) يشير المصنف بذلك إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٤٠٢٣)، والبخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠): (١). عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء». والوِجاء هو رضُّ الخصيتين، والمراد هنا أن الصوم يقطع الشهوة، ويقطع شر المني كما يفعله الوِجاء. شرح صحيح مسلم للنووي ٩/ ١٧٣ .

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء ٢/ ٦٩ ، والخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ١٩٨ ، وابن عساكر في تاريخه ٦/ ٥٥ ، ١٨/ ٢١١ من حديث حذيفة مرفوعاً. قال أبو حاتم كما في علل الحديث ٢/ ١٣٢ : هذا حديث باطل. وقال أيضاً ٢/ ٤٢٠ : هذا حديث منكر. وكذا قال الذهبي في المغني في الضعفاء ١/ ٢٣٣ . وقال في السير ١٣/ ١٤ : غريب جداً.

(٣) ٦/ ٢٢٥ وما بعدها.

(٤) في (م): له بين.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٩ .

(٦) ص١١-١٢ من هذا الجزء.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٥ .

يقصد بالكتابة أن يَستقِلَّ ويكتسب ويتزوَّج إذا أراد، فيكون أعفَّ له.

قيل: نزلت في غلامٍ لحُوَيْطِب بن عبد العُزَّى يُقال له صُبْح ـ وقيل: صُبَيح ـ طلب من مولاه أن يُكاتبه، فأبى، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فكاتبه حُوَيطب على مئة دينار، ووهب له منها عشرين ديناراً، فأدَّاها، وقُتِل بحُنَيْنٍ في الحرب. ذكره القُشَيْرِيُّ، وحكاه النقاش(١).

وقال مَكِّيّ: هو صبيحٌ القِبطي غلامُ حاطبِ بن أبي بَلْتَعَة. وعلى الجملة فإن الله تعالى أمر المؤمنين كافَّةً أن يكاتِب منهم كلُّ مَن له مملوكٌ، وطلب المملوكُ الكتابة، وعلم سيِّدُه منه خيراً(٢).

الثانية: الكِتاب والمكاتبة سواء، مُفاعلة ممَّا لا تكون إلا بين اثنين؛ لأنها معاقَدةٌ بين السيِّد وعبده، يُقال: كاتب يكاتب كتاباً(٣) ومكاتبة، كما يُقال: قاتل قتالاً ومقاتلة. فالكتاب في الآية مصدرٌ، كالقتال والجِلاد والدِّفاع(٤).

وقيل: الكتاب هاهنا هو الكتابُ المعروفُ الذي يُكتب فيه الشيء، وذلك أنهم كانوا إذا كاتبوا العبد، كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتاباً. فالمعنى: يطلبون العتق الذي يُكتب به الكتاب، فيُدفَعُ إليهم.

الثالثة: معنى المكاتبة في الشرع: هو أن يُكاتِب الرجلُ عبدَه على مال يؤدِّيه مُنَجَّماً عليه، فإذا أدَّاه فهو حُرّ(٥). ولها حالتان:

الأولى: أن يطلبَها العبد ويُجِيبَه السيِّد، فهذا مطلَقُ الآية وظاهرُها.

---

(١) نقله عن النقاش ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٨١، وأورد الخبر الواحدي في أسباب النزول ص٣٣٧، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٤٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٣٧، والرازي في تفسيره ٢٣/ ٢١٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١.

(٣) بعدها في (ظ) والمفهم ٤/ ٣١٨ والكلام منه: وكتابة.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١.

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠ - ٤١، وتهذيب اللغة ١٠/ ١٥٠، والصحاح (كتب).

الثانية: أن يطلبها العبد ويأباها السيِّد، وفيها قولان: الأوَّل لعكرمةَ وعطاءٍ ومسروق وعمرو بن دينار والضحاكِ بن مُزاحم وجماعةِ أهل الظاهر أنَّ ذلك واجبٌ على السيِّد. وقال علماء الأمصار: لا يجب ذلك[١].

وتعلَّق مَن أوجبها بمطلق الأمر، وافعلْ بمطلقه يدلّ[٢] على الوجوب حتى يأتي الدليل بغيره[٣]. ورُويَ ذلك عن عمرَ بنِ الخطاب وابنِ عباس، واختاره الطبري[٤]. واحتج داودُ أيضاً بأنَّ سِيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك الكتابةَ ـ وهو مولاه ـ فأبى أنس، فرفع عمر عليه الدِّرَّة، وتلا: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، فكاتبه أنس. قال داود: ما كان عمرُ لِيرفعَ الدِّرَّة على أنس فيما له مباح ألَّا يفعله[٥].

وتمسك الجمهور بأن الإجماع منعقِدٌ على أنه لو سأله أن يبيعه من غيره لم يلزمه ذلك، ولم يُجبَر عليه وإن ضوعف له في الثمن. وكذلك لو قال له: أعتقني، أو دَبِّرْني، أو زوِّجني، لم يلزمه ذلك بإجماع، فكذلك الكتابةُ؛ لأنها معاوضةٌ، فلا تصح إلا عن تراضٍ[٦].

وقولُهم: مطلق الأمر يقتضي الوجوب: صحيحٌ، لكن إذا عَرِيَ عن قرينة تقتضي صرفَه عن الوجوب، وهي[٧] تعليقُه هنا بشرط علم الخير فيه، فعلَّق الوجوب على أمر باطن، وهو علمُ السيِّد بالخيريَّة. وإذا قال العبد: كاتبني، وقال السيِّد: لم أعلم فيك

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٦٩ - ١٣٧٠ ، وينظر التمهيد ٢٢/ ١٦٧ ، والاستذكار ٢٣/ ٢٥٠ .

(٢) كلمة: يدلّ، من (ظ).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٠ .

(٤) في تفسيره ١٧/ ٢٧٨ ، وأخرج قول عمر وابن عباس ١٧/ ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٥) التمهيد ٢٢/ ١٦٧ . وداود هو الظاهري. وأورد هذا الأثر البخاري معلقاً قبل الحديث (٢٥٦٠) عن عطاء عن موسى بن أنس، ووصله عبد الرازق (١٥٥٧٨).

(٦) الاستذكار ٢٣/ ٢٥٢ دون قوله: ولم يجبر عليه وإن ضوعف له في الثمن. فقد ذكرها أبو العباس في المفهم ٤/ ٣١٩ .

(٧) لفظة: هي، من (ظ).

خيراً، وهو أمرٌ باطن، فيُرجَع فيه إليه، ويُعوَّل عليه. وهذا قويٌّ في بابه[١].

الرابعة: واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿خَيْرًا﴾ فقال ابن عباس وعطاء: المال[٢]. مجاهد: المال والأداء[٣]. الحسن والنَّخَعيّ: الدِّين والأمانة[٤]. وقال مالك: سمعت بعض أهل العلم يقولون: هو القوَّةُ على الاكتساب والأداء[٥]. وعن الليث نحوه، وهو قول الشافعيّ[٦]. وقال عَبيدةُ السَّلْمانيّ: إقامةُ الصلاة والخير[٧].

قال الطحاوي: وقولُ مَن قال: إنه المال، لا يصحُّ عندنا؛ لأن العبد مالٌ لمولاه، فكيف يكون له مال؟ والمعنى عندنا: إنْ علمتم فيهم الدِّينَ والصِّدق، وعلمتم أنهم يعاملونكم على أنهم متعبّدون بالوفاء لكم بما عليهم من الكتابة والصدق في المعاملة، فكاتبوهم.

وقال أبو عمر[٨]: مَن لم يقل: إن الخير هنا المالُ، أنكر أن يُقال: إن علمتم فيهم مالاً، وإنما يقال: علمتُ فيه الخير والصلاح والأمانة، ولا يقال: علمتُ فيه المال، وإنما يقال: علمتُ عنده المال.

قلت: وحديثُ بَرِيرةَ يردُّ قول مَن قال: إن الخير المالُ، على ما يأتي.

الخامسة: اختلف العلماء في كتابة مَن لا حِرْفةَ له، فكان ابن عمر يكره أن

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٠ .

(٢) أخرج قولهما عبد الرزاق (١٥٥٧٠)، والطبري ١٧/ ٢٨٠ - ٢٨٢ ، والبيهقي ١٠/ ٣١٨ . وأخرج ابن أبي شيبة ٧/ ٢٠٢ قول عطاء فقط.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٢٠١ ، والطبري ١٧/ ٢٧٩ ، والبيهقي ١٠/ ٣١٨ .

(٤) أخرج قول الحسن عبد الرزاق (١٥٥٧٤)، وابن أبي شيبة ٧/ ٢٠١ . وأخرج قول النخعي عبد الرزاق (١٥٥٧٥)، وابن أبي شيبة ٧/ ٢٠٢ ، والطبري ١٧/ ٢٧٩ - ٢٨٠ ، والبيهقي ١٠/ ٣١٨ بلفظ: صدقاً ووفاء.

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٦) أحكام القرآن للشافعي ٢/ ١٦٨ ، والتمهيد ٢٢/ ١٦٤ ، والاستذكار ٢٣/ ٢٤٨ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٥٥٧٣)، وأبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان ٣/ ٢١٦ دون قوله: والخير.

(٨) في الاستذكار ٢٣/ ٢٤٩ .

يكاتب عبده إذا لم تكن له حِرْفة، ويقول: تأمرني[١] أن آكلَ أوساخ الناس. ونحوُه عن سلمانَ الفارسي[٢].

ورَوى حكيم بن حِزام قال: كتب عمر بن الخطاب إلى عُمير بن سعد: أما بعد، فانَهَ مَن قِبَلك من المسلمين أن يكاتبوا أرِقَّاءهم على مسألة الناس[٣]. وكَرِهه الأوزاعيُّ وأحمدُ وإسحاق[٤].

ورخَّص في ذلك مالكٌ وأبو حنيفة والشافعيُّ[٥]. ورُويَ عن عليٍّ ﷺ أنَّ ابنَ النَّبَّاح[٦] مؤذِّنَه قال له: أُكاتَبُ وليس لي مال؟ قال: نعم، ثم حضَّ الناسَ على الصَّدقة عليَّ، فأعطَوْني ما فَضَل عن مكاتبتي، فأتيت عليًّا فقال: اجعلها في الرِّقاب[٧].

---

(١) في (م): أتأمرني.

(٢) أخرجه عن ابن عمر وسلمان الفارسي عبد الرزاق (١٥٥٨٣) و(١٥٥٨٥)، وابن أبي شيبة ٧/ ٢٣-٢٤، والبيهقي ١٠/ ٣١٨ - ٣١٩.

(٣) الاستذكار ٢٣/ ٢٤٩، وأخرجه عبد الرزاق (١٥٥٨٦) عن معمر قال: أخبرني رجل من أهل الشام أنهم وجدوا في خزانة حمص كتاباً من عمر بن الخطاب، إلى عمير..
وأخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ٢٣، والبيهقي ١٠/ ٣١٩ - ٣٢٠ من حديث حزام بن حكيم. وحزام هذا هو ابن الصحابي حكيم بن حزام الأسدي، وهو مقبول كما قال ابن حجر في التقريب.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٦٥، والاستذكار ٢٣/ ١٩٦، وإكمال المعلم ٥/ ١١٠، والمفهم ٤/ ٣٢٩. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ١٦٦: وفي هذا الحديث ـ يعني حديث بريرة الآتي ـ دليل على إجازة أخذ السيد نجوم المكاتبة من مسألة الناس... وهذا يردُّ قول من كره كتابة المكاتب الذي يسأل الناس، وقال: تطعمني أوساخ الناس، وليس كما قال ولا كما ظن؛ لأن ما طاب لبريرة أخذه، كان لسيدها قبضه عنها في الكتابة؛ لأنه داخل عليه من غير الجهة التي دخل عليها، وهو كاللحم الذي تُصُدِّق به على بريرة، فقال رسول الله ﷺ: هو عليها صدقة، ولنا هدية. انتهى بتصرف يسير. وينظر الاستذكار ٢٣/ ١٩٤.

(٥) التمهيد ٢٢/ ١٦٥، والاستذكار ٢٣/ ١٩٦.

(٦) في النسخ وسنن البيهقي ١٠/ ٣٢٠: ابن التَّيَّاح، والتصويب من التاريخ الكبير ٦/ ٤٥١، والجرح والتعديل ٦/ ٣٢٨، والمؤتلف والمختلف ١/ ٣١٥، وتوضيح المشتبه ٩/ ٢٣ وجاء فيها: ابن النَّبَّاح، واسمه عامر، مؤذِّن علي بن أبي طالب، يروي عنه.

(٧) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ الدارقطني في المؤتلف والمختلف ١/ ٣١٥. وأخرجه البخاري في التاريخ =

وقد رُوِيَ عن مالك كراهةُ ذلك، وأنَّ الأَمَة التي لا حِرفة لها يُكره مكاتبتُها[١]؛ لِمَا يؤدِّي إليه من فسادها.

والحجةُ في السُّنة لا فيما خالفها. روى الأئمة عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: دخلتْ عليَّ بَرِيرةُ فقالت: إنَّ أهلي كاتبوني على تسع أواقٍ في تسع سنين، كلُّ سنة أوقيَّة، فأعِينِيني... الحديث[٢]. فهذا دليلٌ على أن للسيِّد أن يكاتب عبده وهو لا شيء معه، ألا ترى أن بَريرة جاءت عائشةَ تخبرها بأنها كاتبت أهلها وسألتها أن تعينها؟ وذلك كان في أوَّل كتابتها قبل أن تُؤدِّيَ منها شيئاً، كذلك ذكره ابن شهاب عن عروة أن عائشة أخبرته أن بَريرة جاءت تستعينُها في كتابتها، ولم تكن قضت من كتابتها شيئاً[٣]. أخرجه البخاريُّ وأبو داود[٤].

وفي هذا دليلٌ على إجازة[٥] كتابة الأَمَة، وهي غيرُ ذاتِ صَنْعة ولا حِرْفة ولا مال، ولم يسأل النبيُّ ﷺ: هل لها كسب، أو عملٌ واصبٌ[٦]، أو مالٌ؟ ولو كان هذا واجباً لسأل عنه؛ ليقعَ حكمه عليه؛ لأنه بُعث مبيِّناً معلِّماً ﷺ.

وفي هذا الحديث ما يدلُّ على أن مَن تأوَّل في قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أنَّ المال الخيرُ، ليس بالتأويل الجيِّد، وأن الخير المذكورَ هو القوَّةُ على الاكتساب مع الأمانة[٧]، والله أعلم.

= الكبير ٢/ ١٨٨ مختصراً. وأخرجه عبد الرزاق (١٥٥٨١)، وابن أبي شيبة ٦/ ٤٢٤، والبيهقي ١٠/ ٣٢٠ بنحوه. وجاء عند عبد الرزاق: أبو التَّيَّاح، بدل: ابن النَّبَّاح.

(١) الاستذكار ٢٣/ ١٩٦، والمفهم ٤/ ٣٢٩.

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٧٨٦)، والبخاري (٢١٦٨)، ومسلم (١٥٠٤): (٨).

(٣) التمهيد ٢٢/ ١٦٢ - ١٦٣، والاستذكار ٢٣/ ١٩٣.

(٤) صحيح البخاري (٢٥٦١)، وسنن أبي داود (٣٩٢٩)، وهو عند أحمد (٢٤٠٥٣)، ومسلم (١٥٠٤): (٦).

(٥) في (م) و(د): جواز، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في التمهيد ٢٢/ ١٦٣، والاستذكار ٢٣/ ١٩٣ والكلام منهما.

(٦) أي: دائم، ووقع في (ظ) والتمهيد والاستذكار: واجب.

(٧) الاستذكار ٢٣/ ١٩٣ - ١٩٤.

السادسة: الكتابة تكون بقليل المال وكثيره، وتكون على أنْجُم؛ لحديث بَرِيرة. وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء[1] والحمد لله. فلو كاتبه على ألف درهم ولم يذكر أجلاً، نُجِّمت عليه بقَدْر سِعايته، وإن كره السيِّد[2]. قال الشافعيُّ: لابُدَّ فيها من أجل، وأقلُّها ثلاثةُ أنْجُم. واختلفوا إذا وقعت على نَجْم واحد؛ فأكثرُ أهل العلم يُجيزونها على نجم واحد. وقال الشافعيُّ: لا تجوز على نجم واحد، ولا تجوز حالَّةً ألْبَتَّة، وإنما ذلك عِتْقٌ على صفة، كأنه قال: إذا أدَّيتَ كذا وكذا، فأنت حرٌّ، وليست كتابة[3].

قال ابن العربي[4]: اختلف العلماء والسَّلف في الكتابة إذا كانت حالَّةً على قولين، واختلف قول علمائنا كاختلافهم. والصحيحُ في النَّظر أن الكتابة مؤجَّلةٌ، كما ورد بها الأثر في حديث بَريرةَ حين كاتبتْ أهلها على تسع أواق، في كلِّ عام أُوقيَّة، وكما فعلت الصحابة، ولذلك سُمِّيت كتابةً؛ لأنها تُكتَب ويُشهَد عليها، فقد استَوْسَق[5] الاسم والأثر، وعَضَده المعنى، فإن المال إن جعله حالًّا وكان عند العبد شيءٌ، فهو مالُ مقاطعةٍ وعقدُ مقاطعةٍ[6]، لا عقدُ كتابة.

وقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: إذا كاتبه على مال معجَّل، كان عتقاً على مال، ولم تكن كتابة.

وأجاز غيره من أصحابنا الكتابةَ الحالَّة وسمَّاها قِطاعةً، وهو القياس؛ لأن الأَجَل فيها إنما هو فُسْحةٌ للعبد في التكسُّب. ألا ترى أنه لو جاء بالمنجَّم عليه قَبْل

(١) التمهيد ٢٢/ ١٦٨ .

(٢) ينظر مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٤١١ ، والكافي ٢/ ٩٨٨ ، وإكمال المعلم ٥/ ١١٠ .

(٣) الاستذكار ٢٣/ ١٩٦ ، والتمهيد ٢٢/ ١٦٨ .

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧١ .

(٥) أي: اجتمع، القاموس (وسق). وفي (د) وأحكام القرآن: استوثق.

(٦) المقاطعة هو أن يجعل عتق المكاتَب على شيء يقاطع عليه، معجَّل أو مؤجَّل. المنتقى ٧/ ١٦ – ١٧ .

مَحِلِّه؛ لوجب على السيد أن يأخذه ويتعجَّل للمكاتَب عتقَه[١]. وتجوز الكتابة الحالَّة؛ قاله الكوفيون[٢].

قلت: لم يَرِد عن مالك نصٌّ في الكتابة الحالَّة، والأصحابُ يقولون: إنها جائزة، ويسمُّونها قِطاعة. وأمَّا قولُ الشافعيِّ: إنها لا تجوز على أقلَّ من ثلاثة أَنْجُم، فليس بصحيح؛ لأنه لو كان صحيحاً، لجاز لغيره أن يقول: لا تجوز على أقلَّ من خمسة أنجم[٣]؛ لأنها أقلُّ النجوم التي كانت على عهد رسول الله ﷺ في بَرِيرة، وعَلِم بها النبيُّ ﷺ وقضى فيها، فكان بصواب الحُجَّة أَوْلى. روى البخاريُّ عن عائشةَ أن بَرِيرة دخلت عليها تستعينُها في كتابتها، وعليها خمسةُ أواقٍ نُجِّمت عليها في خمس سنين... الحديث. كذا قال اللَّيث عن يونس، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: وعليها خمسةُ أواقٍ نُجِّمت عليها في خمس سنين[٤]. وقال أبو أسامة: عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت بَرِيرة فقالت: إني كاتبتُ أهلي على تسع أواق... الحديث[٥]. وظاهرُ الروايتين تعارضٌ، غيرَ أنَّ حديث هشام أَوْلى؛ لاتصاله وانقطاع حديث يونس؛ لقول البخاري: وقال اللَّيث: حدثني يونس؛ ولأن هشاماً أثبتُ في حديث أبيه وجدَّته[٦] من غيره، والله أعلم.

---

(١) المفهم ٤/ ٣١٨ .

(٢) مختصر اختلاف العلماء ٤/ ٤١١ .

(٣) في (د) و(م): نجوم.

(٤) كذا علقه البخاري عن الليث (٢٥٦٠)، ووصله الذهلي في الزهريات كما في تغليق التعليق ٣/ ٣٤٩ وفتح الباري ٥/ ١٨٧ . قال ابن حجر في الفتح: والمحفوظ رواية الليث له عن ابن شهاب نفسه بغير واسطة... وهذا هو المحفوظ أن يونس رفيق الليث فيه لا شيخه، ووقع التصريح بسماع الليث له من ابن شهاب ...

(٥) أخرجه البخاري (٢٥٦٣)، ومسلم (١٥٠٤): (٧)، وسلف في المسألة السابقة. قال ابن حجر في الفتح: ٥/ ١٨٧ : وقد جزم الإسماعيلي بأن الرواية المعلقة غلط، ويمكن الجمع بأن التسع أصل والخمس كانت بقيت عليها... ويعكِّر عليه قوله في رواية قتيبة: «ولم تكن أدت من كتابتها شيئاً». ويجاب بأنها كانت حصَّلت الأربع أواق قبل أن تستعين بعائشة، ثم جاءتها وقد بقي عليها خمس.

(٦) في (د) و(م): وجده، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في المفهم ٤/ ٣٢١ والكلام منه دون قوله: لقول البخاري: وقال الليث: حدثني يونس.

السابعة: المكاتَب عبدٌ ما بقي عليه من مال الكتابة شيءٌ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «المكاتَبُ عبدٌ ما بقيَ عليه من مكاتبته درهم». أخرجه أبو داود[(١)] عن عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه. ورُويَ عنه أيضاً أن النبيَّ ﷺ قال: «أيُّما عبدٍ كاتب على مئة دينار، فأدَّاها إلا عَشْرةَ دنانير، فهو عبد»[(٢)]. وهذا قولُ مالك والشافعيِّ وأبي حنيفةَ وأصحابِهم والثوريِّ وأحمدَ وإسحاقَ وأبي ثور وداود والطبري. ورُويَ ذلك عن ابن عمر من وجوه، وعن زيد بن ثابت وعائشةَ وأمِّ سلمة، لم يُختلف عنهم في ذلك ﷺ. ورُويَ ذلك عن عمرَ بنِ الخطاب، وبه قال ابن المسيِّب والقاسم وسالم وعطاء[(٣)]. قال مالك: وكلُّ مَن أَدْركْنا ببلدنا يقول ذلك.

وفيها قولٌ آخَرُ رُويَ عن عليٍّ أنه إذا أدَّى الشَّطْر، فهو غريم. وبه قال النَّخَعي. ورُويَ ذلك عن عمرَ ﷺ[(٤)]، والإسنادُ عنه بأن المكاتبَ عبدٌ ما بقي عليه درهمٌ، خيرٌ من الإسناد عنه بأن المكاتَب إذا أدَّى الشَّطر فلا رِقَّ عليه. قاله أبو عمر[(٥)].

وعن عليٍّ أيضاً: يَعْتِق منه بقَدْر ما أدَّى.

وعنه أيضاً أن العَتاقة تَجري فيه بأوَّل نَجْم يُؤَدِّيه[(٦)].

وقال ابن مسعود: إذا أدَّى ثُلُث الكتابة، فهو عَتيق غَرِيم. وهو[(٧)] قولُ شُرَيح[(٨)].

---

(١) برقم (٣٩٢٦)، وسلف ١٠/ ٢٧٨ .

(٢) أخرجه أحمد (٦٧٢٦)، وأبو داود (٣٩٢٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٠٠٨).

(٣) التمهيد ٢٢/ ١٧٤ .

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٧٤ ، وأخرج قول النَّخَعي ابن أبي شيبة ٦/ ١٥١ . وأخرج قول عمر عبد الرزاق (١٥٧٣٦)، وابن أبي شيبة ٦/ ١٥٠ .

(٥) في الاستذكار ٢٣/ ٢٤١ .

(٦) التمهيد ٢٢/ ١٧٢ ، وأخرج قول علي الأول عبد الرزاق (١٥٧٤١)، وابن أبي شيبة ٦/ ١٥٢ . وأخرج قوله الثاني ابن أبي شيبة ٦/ ١٥٠ .

(٧) في (م): وهذا.

(٨) التمهيد ٢٢/ ١٧٤ ، والاستذكار ٢٣/ ٢٣٥ ، وأخرجه عن ابن مسعود عبد الرزاق (١٥٧٢١)، وابن أبي شيبة ٦/ ١٤٩ ، والبيهقي ١٠/ ٣٢٦ .

وعن ابن مسعود: لو كانت الكتابة مئتي دينار، وقيمةُ العبد مئة دينار، فأدَّى العبدُ المئة التي هي قيمته، عَتَق. وهو قولُ النَّخعيِّ أيضاً.

وقول سابع: إذا أدَّى الثلاثةَ الأرباعِ، وبقي الرُّبع، فهو غريمٌ ولا يعود عبداً. قاله عطاء بن أبي رَباح، رواه ابن جُريج عنه(١).

وحُكيَ عن بعض السَّلف أنه بنفس عقد الكتابة حرٌّ(٢)، وهو غريم بالكتابة، ولا يرجع إلى الرِّقِّ أبداً. وهذا القول يردُّه حديث بَرِيرةَ لصحته عن النبيِّ ﷺ(٣). وفيه دليلٌ واضحٌ على أن المكاتَب عبدٌ، ولولا ذلك ما بِيعت بَرِيرة(٤)، ولو كان فيها شيء من العتق، ما أجاز بيعَ ذلك، إذ مِن سنَّته المُجْمَعِ(٥) عليها ألَّا يباع الحرُّ. وكذلك كتابةُ سَلْمان وجُوَيْرِيَة، فإن النبيَّ ﷺ حكم لجميعهم بالرِّقِّ حتى أدَّوا(٦) الكتابة. وهي حُجَّةٌ للجمهور في أن المكاتَب عبدٌ ما بقي عليه شيء.

وقد ناظر عليَّ بنَ أبي طالب زيدُ بن ثابت في المكاتَب، فقال لعليٍّ: أكنت راجمَه لو زنى، أو مُجيزاً شهادتَه لو شَهِد؟ فقال عليٌّ: لا. فقال زيد: هو عبدٌ ما بقيَ عليه شيء(٧).

وقد روى النَّسائيُّ عن عليٍّ وابنِ عباس ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المكاتَب يَعْتِق منه بقَدْر ما أدَّى، ويُقام عليه الحدُّ بقَدْر ما أدَّى، ويَرِث بقَدْر ما عَتَقَ

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٥٧٤٣) بنحوه مطولاً.

(٢) في (ظ): يعتبر حرًّا.

(٣) ينظر المفهم ٤/ ٣٢٩.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٧٤.

(٥) في (ظ) و(ف) والتمهيد ٢٢/ ١٨٠ ـ والكلام منه ـ: المجتمع.

(٦) في (د): ردوا، وفي (ف) والمفهم ٤/ ٣٢٩ والكلام منه: وَدَوا.

(٧) التمهيد ٢٢/ ١٧٦، وأورد قول زيد فقط دون مناظرته مع علي البخاري تعليقاً قبل حديث (٢٥٦٤)، ووصله عبد الرزاق (١٥٧١٧)، والبيهقي ١٠/ ٣٢٤.

منه». وإسناده صحيح[١]. وهو حُجَّةٌ لِمَا رُوِيَ عن علي، ويعتضد بما رواه أبو داود عن نَبْهانَ مكاتَبِ أمِّ سلمةَ قال: سمعت أمَّ سلمة تقول: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا كان لإحداكنَّ مكاتَب، وكان عنده ما يُؤدِّي، فَلْتَحْتَجب منه». وأخرجه الترمذيُّ وقال: حديث حسن صحيح[٢]. إلا أنه يَحْتمل أن يكون خطاباً مع زوجاته، أخذاً بالاحتياط والورع في حقِّهنّ، كما قال لسَوْدة: «احتجبي منه»[٣] مع أنه قد حكم بأُخُوَّتها له، وبقوله لعائشة وحفصة: «أفَعَمْيَاوَان أنتما، أَلَستُما تُبصرانه» يعني: ابنَ أمِّ مكتوم، مع أنه قال لفاطمةَ بنت قيس: «اعتدِّي عند ابن أمّ مكتوم»[٤]. وقد تقدم هذا المعنى.

الثامنة: أجمع العلماء على أن المكاتَب إذا حلَّ عليه نَجْمٌ من نجومه أو نجمان أو نجومُه كلُّها، فوقف السيد عن مطالبته، وَتَركه بحاله، أنَّ الكتابة لا تنفسخ ما داما على ذلك ثابتَيْن[٥].

التاسعة: قال مالك: ليس للعبد أن يُعجِّز نفسه إذا كان له مالٌ ظاهر، وإن لم يظهر له مالٌ فذلك إليه. وقال الأوزاعيُّ: لا يُمَكَّن من تعجيز نفسه إذا كان قويًّا على الأداء. وقال الشافعيُّ: له أن يُعَجِّز نفسه، عُلِم له مالٌ أو قوَّةٌ على الكتابة أو لم يُعلم، فإذا قال: قد عَجَزت وأبطلت الكتابة؛ فذلك إليه[٦].

---

(١) سنن النسائي ٤٦/٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: ويقام عليه الحد بقدر ما عتق منه، بدل: ويقام عليه الحد بقدر ما أدى، وأخرجه عنه أحمد (١٩٤٤) مختصراً. ولم نقف عليه عند النسائي عن علي ﷺ، وقد أخرجه عنه عبد الرزاق (١٥٧٣٤) بنحوه.

(٢) سنن أبي داود (٣٩٢٨)، والترمذي (١٢٦١)، وهو عند أحمد (٢٦٤٧٣)، وابن ماجه (٢٥٢٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٠٨٦)، والبخاري (٢٠٥٣)، ومسلم (١٤٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها. وقوله: احتجبي منه، أي: من ابن وليدة زمعة، وذلك أن عتبة بن أبي وقاص عهد إلى أخيه سعد أن ابن وليدة زمعة مني فاقبضه، فلما كان عام الفتح أخذه سعد وقال: ابن أخي، قد عهد إليَّ فيه، فقام عبد بن زمعة فقال: أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراشه، فتساوقا إلى النبي ﷺ...

(٤) المفهم ٣٣٠/٤ ، وقد سلف هذان الحديثان ص٢١١-٢١٢ من هذا الجزء .

(٥) التمهيد ١٧٨/٢٢ ، والمفهم ٣٣١/٤ .

(٦) التمهيد ١٧٨/٢٢ ، والمفهم ٣٣١/٤ .

وقال مالك: إذا عَجَز المكاتَب، فكلُّ ما قبضه منه سيِّدُه قبل العجز حَلٌّ له، كان من كسبه أو من صدقة عليه. وأمَّا ما أُعِين به على فَكاك رقبته، فلم يَفِ ذلك بكتابته، كان لكلٍّ مَن أعانه الرجوعُ بما أعْطَى، أو تحلَّل منه المكاتَب. ولو أعانوه صدقةً لا على فَكاك رقبته، فذلك إن عَجَز حَلٌّ لسيِّده، ولو تمَّ به فَكاكه وبقيت منه فَضْلة. فإن كان بمعنى الفَكاك؛ ردَّها إليهم بالحِصَص أو يحلِّلونه منها. هذا كلُّه مذهب مالك فيما ذكر ابن القاسم[1].

وقال أكثر أهل العلم: إنَّ ما قبضه السيد منه من كتابته، وما فَضَل بيده بعد عجزه من صدقة أو غيرها، فهو لسيده، يَطيب له أخذُ ذلك كلِّه. هذا قولُ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ وأصحابِهما وأحمدَ بن حنبل، وروايةٌ عن شُريح.

وقال الثَّوريّ: يجعل السيد ما أعطاه في الرقاب، وهو قول مسروق والنَّخَعيّ، وروايةٌ عن شريح.

وقالت طائفة: ما قبض منه السيد فهو له، وما فضَل بيده بعد العجز فهو له دون سيده، وهذا قول بعض من ذهب إلى أن العبد يملك.

وقال إسحاق: ما أُعطيَ بحال الكتابة رُدَّ على أربابه.

العاشرة: حديثُ بَرِيرة على اختلاف طرقه وألفاظه يتضمَّن أن بريرة وقع فيها بيعٌ بعد كتابةٍ تقدَّمت. واختلف الناس في بيع المكاتَب بسبب ذلك[2]. وقد ترجم البخاريُّ[3]: بابُ بيع المكاتَب إذا رضي. وإلى جواز بيعه للعتق إذا رضي المكاتَب بالبيع ولو لم يكن عاجزاً ذهب ابن المنذر[4] والدَّاوُديُّ، وهو الذي ارتضاه أبو عمر

(١) التمهيد ٢٢/ ١٧٩ - ١٨٠ ، والكلام منه إلى آخر المسألة.

(٢) المفهم ٤/ ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٣) قبل الحديث (٢٥٦٤).

(٤) في الإشراف ١/ ٣٤٠ .

ابن عبد البر[١]، وبه قال ابن شهاب وأبو الزِّناد وربيعة، غير أنهم قالوا: لأن رضاه بالبيع عجزٌ منه.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابُهما: لا يجوز بيع المكاتَب ما دام مكاتَباً حتى يعجِز، ولا يجوز بيع كتابته بحال، وهو قول الشافعيّ بمصر. وكان بالعراق يقول: بيعه جائز، وأمَّا بيعُ كتابته فغيرُ جائزة[٢]. وأجاز مالك بيع الكتابة، فإن أداها عَتَق، وإلَّا كان رقيقاً لمشتري الكتابة. ومنع من ذلك أبو حنيفة؛ لأنه بيع غَرَر. واختلف قول الشافعيّ في ذلك بالمنع والإجازة[٣].

وقالت طائفة: يجوز بيع المكاتَب على أن يَمضيَ في كتابته، فإن أدَّى عَتق، وكان ولاؤه للذي ابتاعه، ولو عَجَز فهو عبد له. وبه قال النَّخَعيُّ وعطاء واللَّيث وأحمدُ وأبو ثور[٤].

وقال الأوزاعيُّ: لا يباع المكاتَب إلا للعتق، ويُكره أن يباع قبل عجزه، وهو قول أحمد وإسحاق[٥].

قال أبو عمر[٦]: في حديث بَريرةَ إجازةُ بيع المكاتَب إذا رضي بالبيع و[إن] لم يكن عاجزاً عن أداء نَجْم قد حلَّ عليه، بخلاف قولِ مَن زعم أن بيع المكاتَب غيرُ جائز إلا بالعجز؛ لأن بَريرة لم تذكر أنها عَجَزت عن أداء نجم، ولا أخبرت بأن النجم قد حلَّ عليها، ولا قال لها النبيُّ ﷺ: أعاجزةٌ أنتِ، أم هل حلَّ عليكِ نجم فلم تؤدِّه[٧]؟ ولو لم يجز بيع المكاتَب والمكاتَبة إلا بالعجز عن أداء ما قد حلَّ، لكان

(١) في التمهيد ٢٢/ ١٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي العباس في المفهم ٤/ ٣٣١ والكلام منه.

(٢) التمهيد ٢٢/ ١٧٧.

(٣) المفهم ٤/ ٣٣١.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٧٧، والمفهم ٤/ ٣٣١.

(٥) ينظر الاستذكار ٢٣/ ٢٩٧.

(٦) في التمهيد ٢٢/ ١٧٦ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٧) قوله: فلم تؤدِّه، ليس في (م).

النبيُّ ﷺ قد سألها: أعاجزةٌ هي أم لا، وما كان ليأذن في شرائها إلا بعد علمه ﷺ أنها عاجزة؛ ولو عن أداء نجم واحد قد حلَّ عليها. وفي حديث الزُّهريِّ أنها لم تكن قضت من كتابتها شيئاً[١]. ولا أعلم في هذا الباب حجَّةً أصحَّ من حديث بَريرة هذا، ولم يُرْوَ عن النبيِّ ﷺ شيءٌ يعارضه، ولا في شيء من الأخبار دليلٌ على عجزها.

استدلَّ مَن منع من بيع المكاتَب بأمور: منها أن قالوا: إن الكتابة المذكورة لم تكن انعقدت، وإنَّ قولها: كاتبت أهلي، معناه أنها راوضتهم عليها، وقدَّروا مبلغها وأجلَها ولم يَعْقدوها. وظاهرُ الأحاديث خلافُ هذا إذا تُؤُمِّل مساقُها[٢].

وقيل: إن بريرة عجزت عن الأداء، فاتفقت هي وأهلُها على فسخ الكتابة، وحينئذٍ صحَّ البيع، إلا أن هذا إنما يتمشَّى على قول مَن يقول: إن تعجيز المكاتَب غيرُ مفتقِر إلى حكم حاكم إذا اتفق العبد والسيد عليه؛ لأن الحقَّ لا يعدوهما، وهو المذهب المعروف. وقال سُحْنُون: لابُدَّ من السلطان، وهذا إنما خاف أن يتواطأا على ترك حقِّ الله تعالى. ويدل على صحة أنها عجزت ما رُوِيَ أن بَريرةَ جاءت عائشةَ تستعينها في كتابتها ولم تكن قضت من كتابتها شيئاً، فقالت لها عائشة: ارجعي إلى أهلك، فإن أحبُّوا أن أقضيَ عنك كتابتك، فعلت[٣]. فظاهر هذا أن جميع كتابتها أو بعضَها استُحِقَّ عليها؛ لأنه لا يُقْضَى من الحقوق إلا ما وجبت المطالبة به، والله أعلم[٤]. هذه التأويلات[٥] أشبهُ ما لهم، وفيها من الدَّخَلِ ما بيَّنَّاه.

وقال ابن المنذر: ولا أعلم حجَّةً لمن قال: ليس له بيع المكاتَب إلا أن يقول: لعل بريرة عَجَزت. قال الشافعيُّ: وأظهر معانيه أن لمالك المكاتَب بَيْعَه.

---

(١) سلف في المسألة الخامسة.

(٢) المفهم ٤/ ٣١٩ - ٣٢٠.

(٣) سلف في المسألة الخامسة.

(٤) المفهم ٤/ ٣٢٠.

(٥) في (ظ): هذان التأويلان.

الحادية عشرة: المكاتَب إذا أدَّى كتابته عَتَق، ولا يحتاج إلى ابتداء عِتق من السيِّد. وكذلك ولدُه الذين وُلِدوا في كتابته من أَمَته، يَعْتِقون بعتقه ويَرِقُّون برقِّه؛ لأن ولد الإنسان من أمَته بمثابته اعتباراً بالحرِّ، وكذلك ولدُ المكاتَبة، فإن كان لهما ولدٌ قبل الكتابة، لم يدخل في الكتابة إلا بشرط.

الثانية عشرة: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ﴾ هذا أمرٌ للسَّادة بإعانتهم في مال الكتابة، إمَّا بأن يُعطوهم شيئاً ممَّا في أيديهم ـ أعني: أيدي السادة ـ أو يحطُّوا عنهم شيئاً من مال الكتابة. قال مالك: يُوضع عن المكاتَب من آخر كتابته، وقد وضع ابن عمر خمسةَ آلاف من خمسة وثلاثين ألفاً[(١)]. واستحسن عليٌّ ﷺ أن يكون ذلك ربعَ الكتابة[(٢)]. قال الزَّهراويُّ: رُويَ ذلك عن النبيِّ ﷺ[(٣)]. واستحسن ابن مسعود والحسن بن أبي الحسن ثلثَها. وقال قتادة: عُشْرها[(٤)]. ابن جُبير: يُسقِط عنه شيئاً، ولم يَحُدَّه، وهو قولُ الشافعيِّ، واستحسنه الثوري.

قال الشافعي: والشيء أقلُّ شيء يقع عليه اسم شيء، ويُجبَر عليه السيِّد، ويَحكم به الحاكم على الورثة إن مات السيد.

ورأى مالك رحمه الله تعالى هذا الأمر على الندب، ولم ير لقَدْر الوضيعة حدًّا[(٥)].

احتجَّ الشافعيُّ بمطلق الأمر في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾، ورأى أن عطف الواجب

---

(١) قول مالك في الموطأ ٢/ ٧٨٨ ، ونقله عنه المصنف بواسطة ابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ١٨٩ ، وأخرج أثر ابن عمر الطبري ١٧/ ٢٨٦ ، والبيهقي ١٠/ ٣٣٠ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٥٥٩٠)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٠١٩)، والطبري ١٧/ ٢٨٣ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٥٥٨٩)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٠١٧) من حديث علي ﷺ. قال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٣/ ٢٥٦ : والصحيح أنه موقوف على علي ﷺ. وقال ابن كثير ٦/ ٥٤ : هذا حديث غريب، ورفعه منكر، والأشبه أنه موقوف على علي.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١ ، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق (١٥٥٩٤).

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١ .

على الندب معلومٌ في القرآن ولسان العرب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] وما كان مثله[١]. قال ابن العربي ـ وذكره قبله إسماعيلُ بن إسحاق القاضي ـ: جعل الشافعيُّ الإيتاء واجباً، والكتابةَ غيرَ واجبة؛ فجعل الأصل غيرَ واجب والفرعَ واجباً، وهذا لا نظير له، فصارت دعوى محضة. فإن قيل: يكون ذلك كالنكاح لا يجب، فإذا انعقد وجبت أحكامه، منها المتعة. قلنا: عندنا لا تجب المتعة، فلا معنى لأصحاب الشافعيّ. وقد كاتب عثمان ابن عفان عبده وحلف ألَّا يحطَّه...، في حديث طويل[٢].

قلت: وقد قال الحسن والنَّخَعيُّ وبُريدة: إنما الخطاب بقوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ للناس أجمعين في أن يتصدَّقوا على المكاتَبين، وأن يعينوهم في فَكاك رقابهم. وقال زيد بن أسلم: إنما الخطاب للولاة بأن يُعطوا المكاتَبين من مال الصدقة حظَّهم، وهو الذي تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾[٣]. وعلى هذين القولين فليس لسيد المكاتب أن يضع شيئاً عن مكاتَبه. ودليلُ هذا أنه لو أراد حطَّ شيء من نجوم الكتابة لقال: وضَعُوا عنهم كذا.

الثالثة عشرة: إذا قلنا: إن المراد بالخطاب السادة، فرأى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك من أوَّل نجومه، مبادرةً إلى الخير خوفاً ألَّا يُدرِك آخرها[٤]. ورأى مالك رحمه الله تعالى وغيرُه أن يكون الوضع من آخر نجم. وعلَّة ذلك أنه إذا وُضِع من أوَّل نَجم ربَّما عَجَز العبد، فرجع هو وماله إلى السيد، فعادت إليه وَضِيعتُه، وهي شبه الصدقة. وهذا قول عبد الله بن عمر[٥] وعليّ. وقال مجاهد: يَتْرك له من كلِّ نجم.

---

(١) الاستذكار ٢٣/ ٢٥٥ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٢ - ١٣٧٣ ، ولم نقف على هذا الأثر .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٨٧ (١٤٥١٠)، والبيهقي ١٠/ ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨١ ، وقول مالك في الموطأ ٢/ ٧٨٨ ، وأخرج قول ابن عمر عبد الرزاق (١٥٥٩٥)، والبيهقي ١٠/ ٣٣٠ .

قال ابن العربي[١]: والأقوى عندي أن يكون في آخرها؛ لأن الإسقاط أبداً إنما يكون في أُخْرَيات الدُّيون.

الرابعة عشرة: المكاتَب إذا بِيع للعتق رضاً منه بعد الكتابة، وقبض بائعه ثمنه، لم يجب عليه أن يعطيه من ثمنه شيئاً، سواء باعه لعتق أو لغير عتق، وليس ذلك كالسيد يؤدِّي إليه مكاتَبُه[٢] كتابتَه فيؤتيه منها، أو يضع عنه من آخرها نَجماً أو ما شاء، على ما أمره[٣] الله به في كتابه، لأن النبيَّ ﷺ لم يأمر موالي بريرةَ بإعطائها ممَّا قبضوا شيئاً، وإن كانوا قد باعوها للعتق[٤].

الخامسة عشرة: اختلفوا في صفة عقد الكتابة، فقال ابن خُوَيْزِمَنْداد: صفتُها: أن يقول السيد لعبده: كاتبتك على كذا وكذا من المال، في كذا وكذا نجماً، إذا أدَّيته فأنت حرّ. أو يقول له: أدِّ إليَّ ألفاً في عَشَرة أنجم وأنت حرّ. فيقول العبد: قد قبلت، ونحو ذلك من الألفاظ، فمتى أدَّاها عَتَق. وكذلك لو قال العبد: كاتبني، فقال السيد: قد فعلت، أو قد كاتبتك. قال ابن العربي[٥]: وهذا لا يلزم؛ لأن لفظ القرآن لا يقتضيه والحال يشهد له، فإن ذكره فحسن، وإن تركه فهو معلوم لا يُحتاج إليه.

ومسائل هذا الباب وفروعُه كثيرةٌ، وقد ذكرنا من أصوله جملة، فيها لمن اقتصر عليها كفاية، والله الموفِّق للهداية.

السادسة عشرة: في ميراث المكاتَب، واختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال: فمذهب مالك أنَّ المكاتَب إذا هلك وترك مالاً أكثَر ممَّا بقي عليه من كتابته، وله ولدٌ وُلِدوا في كتابته، أو كاتَبَ عليهم، ورِثوا ما بقي من المال بعد قضاء كتابته؛

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٣، وقول مجاهد منه.

(٢) في (م): مكاتب.

(٣) في (م): أمر.

(٤) التمهيد ٢٢/ ١٨٧ - ١٨٨.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٤.

لأن حكمهم كحكمه، وعليهم السعي فيما بقي من كتابته لو لم يخلِّف مالاً، ولا يَعْتِقون إلا بعتقه، ولو أدَّى عنهم ما رجع بذلك عليهم؛ لأنهم يَعْتِقون عليه، فهم أولى بميراثه لأنهم مساوون له في جميع حاله.

والقول الثاني: أنه يُؤدَّى عنه من ماله جميعُ كتابته، وجُعِل كأنه قد مات حُرًّا، ويَرِثه جميع ولده، وسواءٌ في ذلك مَن كان حرًّا قبل موته من ولده، ومَن كاتب عليهم، أو وُلِدوا في كتابته؛ لأنهم قد استَوَوا في الحرِّية كلُّهم حين تأدَّت عنهم كتابتُهم. رُويَ هذا القول عن عليٍّ وابن مسعود، ومن التابعين عن عطاء والحسن وطاوس وإبراهيم، وبه قال فقهاء الكوفة؛ سفيانُ الثوريُّ وأبو حنيفةَ وأصحابُه والحسنُ بن صالح بن حَيّ، وإليه ذهب إسحاق.

والقول الثالث: أن المكاتَب إذا مات قبل أن يُؤدِّيَ جميع كتابته فقد مات عبداً، وكلُّ ما يخلفه من المال فهو لسيده، ولا يرثه أحد من أولاده، لا الأحرارُ ولا الذين معه في كتابته؛ لأنه لمَّا مات قبل أن يؤدِّي جميع كتابته، فقد مات عبداً، ومالُه لسيده، فلا يصح عِتقه بعد موته؛ لأنه مُحالٌ أن يَعتِق عبد بعد موته، وعلى ولده الذين كاتب عليهم، أو وُلِدوا في كتابته أن يسعَوْا في باقي الكتابة، ويَسْقُطُ عنهم منها قَدْرُ حصته، فإن أدَّوا عَتَقوا لأنهم كانوا فيها تَبَعاً لأبيهم، وإن لم يُؤدُّوا ذلك رَقُّوا. هذا قول الشافعيِّ، وبه قال أحمد بن حنبل، وهو قول عمرَ بنِ الخطاب وزيدِ بن ثابت، وعمرَ بنِ عبد العزيز والزُّهريِّ وقتادة[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ رُويَ عن جابر بن عبد الله وابنِ عباس ﷺ أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أُبَيٍّ، وكانت له جاريتان؛ إحداهما تسمَّى مُعاذة، والأخرى مُسَيْكة، وكان يُكرِهُهما على الزنى، ويضربهما عليه ابتغاء الأجر وكسب الولد، فشكتا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين. ومعاذةُ هذه أمُّ خولةَ التي جادلت النبيَّ ﷺ في زوجها.

(١) ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن عبد البر في الاستذكار ٢٣/ ٢٤١ - ٢٤٣ .

وفي «صحيح مسلم»[١] عن جابر أن جاريةً لعبد الله بن أُبَيٍّ يقال لها: مُسَيكة، وأخرى يقال لها: أُمَيمة، فكان يُكرههما على الزنى، فشكتا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ راجعٌ إلى الفتَيات، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التحصُّن، فحينئذٍ يمكن ويُتَصوَّر أن يكون السيد مكرِهاً، ويمكن أن يُنهى عن الإكراه. وإذا كانت الفتاة لا تريد التحصُّن، فلا يُتصوَّر أن يقال للسيد: لا تكرهها؛ لأن الإكراه لا يُتصوَّر فيها وهي مريدةٌ للزنى. فهذا أمرٌ في سادة وفتيات حالُهم هذه[٢]. وإلى هذا المعنى أشار ابن العربي فقال[٣]: إنما ذكر الله تعالى إرادة التحصُّن من المرأة؛ لأن ذلك هو الذي يُصَوِّر الإكراه، فأمَّا إذا كانت هي راغبةً في الزنى، لم يُتَصوَّر إكراه، فحصِّلوه.

وذهب هذا النظرُ عن كثير من المفسِّرين، فقال بعضهم: قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ راجعٌ إلى الأَيَامى. قال الزَّجَّاج والحسينُ بن الفضل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وأنكحوا الأيامى والصالحين من عبادكم إنْ أردن تحصناً[٤]. وقال بعضهم: هذا الشرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ﴾ مُلْغًى، ونحو ذلك مما يَضْعُف[٥]. والله الموفق.

قوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: الشيءَ الذي تكتسبه[٦] الأَمَة بفرجها، والولدَ ليُستَرَقَّ[٧] فيباع. وقيل: كان الزاني يَفتدي ولده من المزنيِّ بها بمئة

(١) برقم (٣٠٢٩): (٢٧).

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٤.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠، وكلام الحسين بن الفضل في تفسير البغوي ٣/ ٣٤٤.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢.

(٦) في (د) و(ز) و(م): تكسبه، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢ والكلام منه.

(٧) في (د): يسترق.

من الإبل يدفعُها إلى سيدها.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ أي: يَقْهَرْهنَّ. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهنَّ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهنَّ. وقرأ ابن مسعود وجابر بن عبد الله وابن جبير: «لهنَّ غفور» بزيادة: لهنَّ[1]. وقد مضى الكلام في الإكراه في «النحل»[2] والحمد لله.

ثم عدَّد تعالى على المؤمنين نِعَمَه فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات، وفيما[3] ضرب لهم من أمثال الماضين من الأمم؛ ليقع التحفُّظ مما وقع أولئك فيه.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

النور في كلام العرب: الأضواءُ المدركة بالبصر. واستعمل مجازاً فيما صحَّ من المعاني ولاح، فيقال منه: كلام له نور. ومنه: الكتاب المنير، ومنه قول الشاعر:

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضُّحا ... نوراً ومن فَلَقِ الصباح عمودا[4]

والناس يقولون: فلانٌ نور البلد، وشمس العصر وقمرُه. قال:

فإنَّك شمسٌ والملوك كواكبٌ[5]

وقال آخر:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢ ، ونسبها ابن جني في المحتسب ٢/ ١٠٨ لابن عباس وسعيد بن جبير.

(٢) ١٢/ ٤٣٢ وما بعدها.

(٣) في (د) و(م): وفيها، والمثبت من (ز) و(ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٨٢ والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٣ . والبيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ١/ ٤١٣ .

(٥) المفهم ٢/ ٣٩٦-٣٩٧ . وهذا صدر بيت للنابغة الذبياني، وعجزه: إذا طلعت لم يبد منهن كوكب. والبيت في ديوانه ص١٨ .

هلَّا خصصت من البلادِ بمقصدٍ قمرَ القبائلِ خالدَ بن يزيد[(١)]

وقال آخر:

إذا سار عبدُ الله من مَرْوَ ليلةً فقد سارَ منها نورُها وجمالُها[(٢)]

فيجوز أن يقال: لله تعالى نور، من جهة المدح؛ لأنَّه أوجد الأشياءَ، ونوَّرَ جميع الأشياء، منه ابتداؤها وعنه صدورُها، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدرَكة، جلّ وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيراً.

وقد قال هشام الجواليقي[(٣)] وطائفة من المُجَسِّمة: هو نور لا كالأنوار، وجسم لا كالأجسام[(٤)]. وهذا كلُّه مُحالٌ على الله تعالى عقلاً ونقلاً، على ما يُعرف في موضعه من علم الكلام. ثم إنَّ قولَهم متناقض؛ فإنَّ قولهم: جسم أو نور، حكمٌ عليه بحقيقة ذلك، وقولهم: لا كالأنوار ولا كالأجسام، نفيٌ لما أثبتوه من الجسمِيّة والنور، وذلك متناقض، وتحقيقه في علم الكلام[(٥)].

والذي أوقعهم في ذلك ظواهر اتبعوها؛ منها هذه الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام إذا قام من الليل يتهجَّد: «اللَّهُمّ لك الحمدُ أنت نورُ السماوات والأرض»[(٦)]. وقال عليه الصلاة والسلام وقد سُئل: هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: «رأيت نوراً»[(٧)]. إلى غير ذلك من الأحاديث.

---

(١) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ١/ ٣٩٤ وصدره فيه: كنت الربيع أمامه ووراءه، بدل: هلا خصصت من البلاد بمقصد.

(٢) المفهم ٢/ ٣٩٧ ولم ينسبه.

(٣) هو هشام بن سالم الجواليقي، على مذهب الإمامية ومن الطائفة الهشامية، ومع ذلك هو مفرط في التشبيه والتجسيم، ينظر الفرق للبغدادي ٥١ ، ومقالات الإسلاميين ص٣٤ ، والملل والنحل ١/ ١٨٤ .

(٤) المفهم ١/ ٤٠٧ ، وتنظر المصادر السابقة.

(٥) المفهم ١/ ٤٠٧-٤٠٨ .

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٠٩)، والبخاري (٦٣١٧)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٧) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٧٨): (٢٩٢) من حديث أبي ذر ﷺ.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، فقيل: المعنى أي: به وبقدرته أنارتْ أضواؤها، واستقامت أمورُها، وقامتْ مصنوعاتُها. فالكلام على التقريب للذِّهن، كما يقال: المَلِك نور أهل البلد؛ أي: به قِوامُ أمرها وصلاحُ جملتها؛ لجَرَيان أموره على سنن السَّداد. فهو في المَلِكِ مجاز، وهو في صفة الله حقيقة محضة؛ إذ هو الذي أبدع الموجودات، وخلق العقلَ نوراً هادياً؛ لأنَّ ظهورَ الموجود به حصل كما حصل بالضَّوْء ظهور المبصَرات، تبارك الله تعالى لا ربّ غيره[1]. قال معناه مجاهد والأزهري[2] وغيرهما. قال ابن عرفة: أي منوِّر السماوات والأرض. وكذا قال الضحاك والقُرَظي. كما يقولون: فلان غياثنا، أي: مغيثنا. وفلان زادي؛ أي: مزوِّدي. قال جرير:

وأنت لنا نورٌ وغَيْثٌ وعِصْمةٌ ونبْتٌ لمن يرجو نَداك ورِيقُ[3]

أي: ذو وَرَق.

وقال مجاهد: مدبِّر الأمور في السماوات والأرض.

أُبَيّ بن كعب، والحسن، وأبو العالِيَة: مزيِّنُ السماوات بالشمس والقمر والنجوم، ومزيِّن الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين. وقال ابن عباس وأنس: المعنى: الله هادي أهل السماوات والأرض[4]. والأول أعمّ للمعاني وأصحّ مع التأويل.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: صفةُ دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن، والدلائل تسمى: نوراً. وقد سمَّى الله تعالى كتابه نُوراً، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤]، وسمى نبيَّه نوراً، فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٣.

(٢) في (م) الزهري، والمثبت من (د) و(ظ) وكلام الأزهري في تهذيب اللغة ١٥/ ٢٣٥.

(٣) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٣٥، ولم نقف عليه في ديوان جرير.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٥ - ٢٩٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٥، والنكت والعيون ٤/ ١٠٢.

مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وهذا لأنَّ الكتابَ يهدي ويبيّن، وكذلك الرسول. ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبيِّنها وواضعها.

وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزءٍ من الممثَّل به، بل وقع التشبيه فيه جملةً بجملة، وذلك أن يريد: مَثَل نور الله الذي هو هداه وإتقانُه صنعةَ كلِّ مخلوقٍ وبراهينه الساطعة على الجملة، كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة، التي هي أبلغُ صفات النور الذي بين أيدي الناس، فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكُم أيها البشر.

والمِشْكاة: الكوَّة في الحائط غير النافذة. قاله ابن جبير وجمهور المفسرين، وهي أجمع للضوء، والمصباحُ فيها أكثر إنارةً منه في غيرها[١]. وأصلها: الوعاء يجعل فيه الشيء، والمشكاة: وعاء من أدَم[٢]، كالدَّلْو يبرّد فيها الماء، وهو على وزن مِفعلة، كالمِقراة[٣] والمِصْفاة، قال الشاعر:

كأنَّ عَيْنيه مِشكاتان في حَجَرٍ قِيضا اقتياضاً بأطرافِ المناقيرِ[٤]

وقيل: المِشْكاة عمودُ القِنديل الذي فيه الفتيلة. وقال مجاهد: هي القنديل[٥].

وقال: ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ لأنَّه جسمٌ شفاف، والمصباح فيه أنورُ منه في غير الزُّجاج، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾: الفتيل بناره[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤.

(٢) الصحاح (شكا) وتهذيب اللغة ١٠/ ٢٩٩ بنحوه.

(٣) المقراة: إناء يجتمع فيه الماء، والقَصْعةُ التي يُقرى فيها الضيف. اللسان (قرا).

(٤) ورد هذا البيت في الصناعتين للعسكري ص/ ١٢٤، والحيوان للجاحظ ٤/ ٤٥٧، منسوباً لأبي زبيد، وفيهما: «كأن عينيه في وقبين من حجر» بدل: «كأن عينيه مشكاتان في حجر»، وفي الشعر والشعراء ٢/ ٨٠١ وفيه: «وقبان» بدل «في وقبين». والوقب: النقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء، و«قيضا»: القيض: الشق، والمناقير جمع المنقار: وهي حديدة كالفأس ينقر بها. تاج العروس (وقب)، (قيض)، (نقر).

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٠٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤.

﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: في الإنارة والضوء. وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنَّها بالمصباح كذلك، وإما أن يريد أنَّها في نفسها، لصفائها وجودة جوهرها كذلك. وهذا التأويلُ أبلغ في التعاون على النور. قال الضحاك: الكوكب الدُّرِّي هو الزُّهَرة[1].

قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: من زيت شجرةٍ، فحُذِف المضاف. و﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ المُنَمّاة، و«الزيتون» من أعظم الثمار نَماءً، والرُّمان كذلك. والعِيان يقتضي ذلك[2]. وقول أبي طالب يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أميّة بن عبد شمس:

ليتَ شِعْرِي مسافِرَ بنَ أبي عَمْـ ـرٍو وليتٌ يقولها المحزونُ
بورك الميِّتُ الغريبُ كما بُو رِكَ بيعُ[3] الرُّمان والزَّيتون[4]

وقيل: من بركتهما أنَّ أغصانهما تُورق من أسفلها إلى أعلاها[5]. وقال ابن عباس: في الزيتونة منافع، يُسرج بالزيت، وهو إدامٌ ودِهانٌ ودِباغ، ووَقود يوقد بحطبه وتُفْله، وليس فيه شيء إلا وفيه منفعةٌ، حتى الرَّماد يغسل به الإِبْرِيسَم[6]. وهي أول شجرةٍ نبتَتْ في الدنيا، وأوّلُ شجرة نبتت بعد الطوفان، وتنبتُ في منازل الأنبياء والأرضِ المقدسة، ودعا لها سبعون نبيًّا بالبركة، منهم إبراهيم[7]، ومنهم محمد ﷺ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤ .

(٢) في المحرر الوجيز: يقضي بذلك.

(٣) في (د) و(م): نبع.

(٤) المصدر السابق، والبيتان في كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ ص٧٤ ، والأغاني ٩/ ٥١ ، ومصارع العشاق ١/ ٢٥٠ والخزانة ١٠/ ٤٦٣ . واختلفت الرواية في الشطر الثاني من البيت الثاني منهما، فرواية الجاحظ: «كما بورك نضح الرمان والزيتون» ورواية الأغاني ومصارع العشاق: «كما بورك نضر الريحان والزيتون» ورواية الخزانة: «كما بورك غصن الريحان والزيتون».

(٥) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٣٦ بنحوه.

(٦) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٢٠ دون نسبته إلى ابن عباس .

(٧) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٣٦ .

فإنَّه قال: «اللّهُمّ باركْ في الزيت والزيتون». قاله مرتين[١].

قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ اختلف العلماءُ في قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقال ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: الشرقية التي تُصيبها الشمسُ إذا شَرَقت ولا تُصيبها إذا غَرَبت؛ لأنَّ لها ستراً، والغربِيّة عكسها؛ أي: إنَّها شجرة في صحراء ومنكشفٍ من الأرض، لا يُواريها عن الشمس شيءٌ، وهو أجود لزَيْتِها، فليست خالصةً للشرق فتسمَّى شرقية، ولا للغرب فتسمَّى غربِيّة، بل هي شرقية غربية[٢].

وقال الطبريُّ عن ابن عباس[٣]: إنَّها شجرة في دَوْحة قد أحاطت بها، فهي غير منكشفة من جهة الشرق ولا من جهة الغرب. قال ابن عطية[٤]: وهذا قولٌ لا يصحُّ عن ابن عباس؛ لأنَّ الشجرة[٥] التي بهذه الصفة يفسد جناها، وذلك مشاهَدٌ في الوجود. وقال الحسن: ليست هذه الشجرةُ من شجر الدنيا، وإنّما هو مَثَل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إمّا شرقيةً وإمّا غربية[٦].

الثعلبي: وقد أفصح القرآن بأنَّها من شجر الدنيا؛ لأنَّها بدلٌ من الشجرة، فقال: «زيتونة».

وقال ابن زيد: إنَّها من شجر الشام؛ فإنَّ شجر الشام لا شرقيّ ولا غربيّ، وشجر

---

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة ٢/ ٩٠ من حديث يعلى بن الأشدق عن عبد الله بن جراد ﷺ مرفوعاً. ويعلى بن الأشدق قال البخاري: لا يكتب حديثه. وقال أبو زرعة: ليس بشيء، وقال ابن حبان: وضعوا له أحاديث يحدث بها ولم يدر. ميزان الاعتدال ٤/ ٤٥٦ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣٥٢ دون نسبة، وأخرجه بنحوه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣١١-٣١٢ عن عكرمة وابن عباس.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٣١٢ بنحوه.

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥ ، وما قبله منه.

(٥) في (م) و(د) و(ز): الثمرة، والمثبت من (ظ) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥ ، وأخرج قول الحسن الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٣١٣ .

الشام هو أفضل الشجر، وهي الأرض المباركة[١].

و«شرقيةٍ» نعت لـ «زيتونةٍ»، و«لا» ليست تحول بين النعت والمنعوت، «ولا غربية» عطف عليه[٢].

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ مبالغةٌ في حُسنه وصفائه وجودته[٣].

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: اجتمع في المِشكاة ضوءُ المصباح إلى ضوء الزجاجة وإلى ضوء الزيت؛ فصار لذلك نوراً على نور[٤]. واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة؛ فصارت كأنور ما يكون، فكذلك براهين الله تعالى واضحة، وهي برهانٌ بعد برهان، وتنبيه بعد تنبيه، كإرساله الرسلَ وإنزاله الكتبَ، ومواعظُ تتكرر فيها لمن له عقل معتبر.

ثم ذكر تعالى هداه لنوره مَن شاء وأسعدَ من عباده، وذكر تفضله للعباد في ضرب الأمثال؛ لتقع لهم العبرةُ والنظر المؤدي إلى الإيمان[٥].

وقرأ عبد الله بن عَيّاش بن أبي ربيعة، وأبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ: «اللهُ نَوَّر»؛ بفتح النون والواو المشدّدة[٦].

واختلف المتأوّلون في عود الضمير في «نوره»؛ على من يعود، فقال كعبُ الأحبار وابن جُبير: هو عائدٌ على محمد ﷺ؛ أي: مَثَل نور محمد ﷺ[٧].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٦ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥ .

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٠٥ بنحوه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٣ ، والقراءة ذكرها أيضاً أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٤٥٥ .

(٧) المصدر السابق.

قال ابن الأنباري(١): ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقفٌ حسن، ثم تبتدىء: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ على معنى محمد ﷺ.

وقال أُبَيّ بن كعب وابن جبير أيضاً والضحاك: هو عائدٌ على المؤمنين. وفي قراءة أُبَيّ: «مَثَل نور المؤمنين». وروي أنَّ في قراءته: «مثل نور المؤمن». وروي أنَّ فيها: «مثل نور من آمن به»(٢).

وقال الحسن: هو عائدٌ على القرآن والإيمان. قال مكِّيّ: وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله: «والأرض».

قال ابن عطية(٣): وهذه الأقوال فيها عودُ الضمير على من لم يجرِ له ذكر، وفيها مقابلةُ جزءٍ من المثال بجزء من الممثَّل، فعلى من قال: الممثّل به محمدٌ ﷺ - وهو قول كَعْب الحَبر - فرسولُ الله ﷺ هو المشكاة أو صدره، والمصباحُ هو النبوّة وما يتصل بها من عمله وهداه، والزجاجةُ قلبه، والشجرةُ المباركة هي الوحي، والملائكة رسلُ الله إليه وسببه المتصل به، والزيت هو الحُجج والبراهين والآيات التي تضمّنها الوَحْي. ومن قال: الممثّل به المؤمن - وهو قول أُبَيّ - فالمشكاةُ صدرُه، والمصباحُ الإيمان والعلم، والزجاجةُ قلبه، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمّنها، قال أُبَيّ: فهو على أحسن الحال يمشي في الناس، كالرجل الحيّ يمشي في قبور الأموات. ومن قال: إنَّ الممثّل به هو القرآن والإيمان؛ فتقدير الكلام: مثل نوره الذي هو الإيمان في صدر المؤمن في قلبه كمشكاة، أي: كهذه الجملة. وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأولين؛ لأنَّ المشكاةَ ليست تقابلُ الإيمانَ(٤).

وقالت طائفة: الضمير في «نوره» عائدٌ على الله تعالى. وهذا قول ابن عباس فيما

(١) في الوقف والابتداء ٢/٧٩٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/١٨٣، والقراءتان الأخيرتان أخرجهما الطبري في تفسيره ١٧/٢٩٨.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/١٨٣ وما قبله منه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/١٨٣-١٨٤.

ذكر الثعلبيّ والماوَرْدِيّ[١] والمهدوِيّ، وقد تقدم معناه. ولا يوقف على هذا القول على «الأرض».

قال المهدوِيّ: الهاء لله عزَّ وجلَّ، والتقدير: الله هادي أهلِ السموات والأرض، مَثَل هداه في قلوب المؤمنين كمِشْكاةٍ. وروي ذلك عن ابن عباس[٢]. وكذلك قال زيد بن أسلم والحسن: إنَّ الهاء لله عزَّ وجلَّ. وكان أُبَيّ وابن مسعود يقرآنها: «مثلُ نُوره في قلب المؤمن كمشكاة»[٣].

قال محمد بن علي الترمذي: فأما غيرهما فلم يقرأها في التنزيل هكذا، وقد وافقهما في التأويل أنَّ ذلك نوره في قلب المؤمن، وتصديقه في آية أخرى يقول: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. واعتلَّ الأوّلون بأن قالوا: لا يجوز أن يَكون الهاء لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا حدّ لنوره.

وأمال الكسائيُّ ـ فيما روى عنه أبو عمر الدُّورِيّ ـ الألفَ من «مشكاة» وكسرَ الكاف التي قبلها[٤].

وقرأ نصر بن عاصم: «زَجاجة» بفتح الزاي، و«الزَّجاجة» كذلك، وهي لغة[٥].

وقرأ [نافع وابن كثير و] ابن عامر، وحفصٌ عن عاصم: «دُرِّيٌّ» بضم الدال وشدّ الياء[٦]، ولهذه القراءة وجهان: إمّا أن ينسبَ الكوكب إلى الدُّرِّ؛ لبياضه وصفائه، وإمّا أن يكونَ أصلُه دُرِّيء ـ مهموز ـ ، فُعِّيل من الدَّرء، وهو الدفع، وخُفِّفت الهمزة[٧].

---

(١) في النكت والعيون ٤/ ١٠٢ .

(٢) قول ابن عباس في زاد المسير ٦/ ٤٠ .

(٣) أورد هذه القراءة عنهما الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٢٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٤٠ .

(٤) السبعة ص٤٥٥ ، والتيسير ص١٦٠ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٨٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٠٢ ، والمحتسب ٢/ ١٠٩ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤ ، وينظر السبعة ص٤٥٦ ، والتيسير ص١٦٢ ، وما بين حاصرتين مستدرك منهما.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤ .

ويقال للنجوم العظام التي لا تُعرف أسماؤُها: الدَّراريّ، بغير همز؛ فلعلّهم خفّفوا الهمزةَ، والأصل من الدَّرء الذي هو الدفع[١].

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم: «دُرِّيءٌ» بالهمز والمدّ، وهو فُعِّيل من الدَّرء؛ بمعنى أنَّها يدفع بعضها بعضاً. وقرأ الكسائي وأبو عمرو: «دِرِّيءٌ» بكسر الدال والهمز من الدَّرء والدفع[٢]، مثل السِّكّير والفِسِّيق.

قال سيبويه: أي: يدفع بعض ضوئه بعضاً من لمعانه.

قال النحاس[٣]: وضعّف أبو عبيد قراءةَ أبي عمرو والكسائي تضعيفاً شديداً؛ لأنَّه تأوّلها من دَرأتُ، أي: دفعتُ، أي: كوكب يجري من الأفق إلى الأفق، وإذا كان التأويلُ على ما تأوله، لم يكن في الكلام فائدة، ولا كان لهذا الكوكب مزيةٌ على أكثر الكواكب، ألا ترى أنه لا يقال: جاءني إنسانٌ من بني آدم؟ ولا ينبغي أن يُتأوّلَ لمثل أبي عمرو والكسائي مع علمهما وجلالتهما هذا التأويل البعيد، ولكن التأويل لهما على ما روي عن محمد بن يزيد أنَّ معناهما في ذلك: كوكبٌ مندفع بالنور؛ كما يقال: اندرأ الحريقُ، أي: اندفع. وهذا تأويل صحيحٌ لهذه القراءة. وحكى سعيد بن مَسْعدة أنه يقال: دَرأ الكوكبُ بضوئه: إذا امتدَّ ضوءُه وعلا.

وقال الجوهري: في «الصّحاح»[٤]: ودرأ علينا فلان يدرأُ دُروءاً، أي: طَلَع مفاجأة. ومنه: «كوكب دِرّيء»، على فِعِّيل، مثل: سِكِّير وخِمِّير؛ لشدّة توقّده وتلألئه، وقد دَرأ الكوكبُ دروءاً. قال أبو عمرو بن العلاء: سألتُ رجلاً من سعد بن بكرٍ من أهل ذات عِرقٍ، فقلت: هذا الكوكبُ الضخمُ؛ ما تُسمُّونه؟ قال: الدِّرّيء، وكان من أفصح الناس.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٣٠٨، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤، وينظر السبعة ص٤٥٦، والتيسير ص١٦٢ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٧ .

(٤) الصحاح (درأ).

قال النحاس[١]: فأما قراءةُ حمزةَ، فأهل اللغة جميعاً قالوا: هي لحنٌ لا تجوز؛ لأنَّه ليس في كلام العرب اسمٌ على فُعِّيل، وقد اعترض أبو عبيد في هذا، فاحتجَّ لحمزة، فقال: ليس هو فُعِّيل، وإنَّما هو فُعُّول، مثل سُبُّوح، أُبدل من الواو ياء، كما قالوا: عُتيّ.

قال أبو جعفر النحاس[٢]: وهذا الاعتراضُ والاحتجاجُ من أعظم الغلط وأشدّه؛ لأنَّ هذا لا يجوز البتة، ولو جاز ما قال، لقيل في سُبّوح: سُبّيح، وهذا لا يقوله أحدٌ، وليس عُتيّ من هذا، والفرق بينهما واضحٌ بَيِّن؛ لأنَّه ليس يخلو عُتِيّ من إحدى جهتين: إما أن يكون جمعَ عاتٍ، فيكون البدلُ فيه لازماً؛ لأنَّ الجمع باب تغييرٍ، والواو لا تكون طرفاً في الأسماء وقبلها ضمة، فلما كان قبل هذه ساكنٌ، وقبل الساكن ضمةٌ، والساكن ليس بحاجز حصِين، أُبدل من الضمة كسرةٌ، فقلبت الواو ياءً، وإن كان عُتِيّ واحداً كان بالواو أوْلى، وجاز قلبها لأنَّها طرف، والواو في فُعول ليست طرفاً؛ فلا يجوز قلبها.

قال الجوهري[٣]: قال أبو عبيد: إن ضَممتَ الدالَ قُلتَ: دُرِّيّ، يكون منسوباً إلى الدُّرِّ، على فُعْليٍّ، ولم تهمزه، لأنَّه ليس في كلام العرب فُعِّيل، ومن هَمَزه من القُرَّاء، فإنَّما أراد فُعُّول[٤]، مثل سُبُّوح، فاستُثقل، فردَّ بعضُه إلى الكسر. وحكى الأخفش[٥] عن بعضهم: «دَرِّيء» من درأتُه، وهَمَزها وجعلها على فَعِّيل مفتوحةَ الأوّل. قال: وذلك من تَلَأْلُئِه.

قال الثعلبيّ: وقرأ سعيدُ بن المسيب وأبو رَجاء: «دَرِّيء» بفتح الدال مهموزاً[٦].

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٧ .

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٧-١٣٨ .

(٣) في الصحاح (درأ).

(٤) في (م) فعولاً.

(٥) في معاني القرآن له ٢/ ٦٤١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الصحاح (درأ) والكلام منه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٦ دون أن ينسبه للثعلبي، والقراءتان في القراءات الشاذة ص١٠٢ ، والمحتسب ٢/ ١١٠ .

قال أبو حاتم: هذا خطأ؛ لأنَّه ليس في الكلام فَعِّيل، فإن صحّ عنهما، فهما حُجَّة.

﴿يُوقَدُ﴾ قرأ شيبة، ونافع، وأيوب، وسلام، وابن عامر وأهل الشام، وحفص: «يُوقَدُ» بياء مضمومة وتخفيف القاف وضم الدال[١].

وقرأ الحسن، والسُّلَمِيّ، وأبو جعفر، وأبو عمرو بن العلاء البصري: «تَوَقَّدَ» مفتوحةَ الحروف كلِّها مشدّدةَ القاف[٢]، واختارها أبو حاتم وأبو عبيد.

قال النحاس[٣]: وهاتان القراءتان متقاربتان؛ لأنَّهما جميعاً للمصباح، وهو أشبه بهذا الوصف؛ لأنَّه الذي ينير ويُضيء، وإنَّما الزجاجة وعاء له. و«تَوَقَّدَ» فعلٌ ماضٍ من تَوَقّد يتوقّد، ويُوقد فعل مستقبل من أُوقِد يُوقَد. وقرأ نصر بنُ عاصم: «تَوَقَّدُ» والأصل على قراءته: تتوقدُ، حذف إحدى التاءين؛ لأنَّ الأخرى تدل عليها. وقرأ الكوفيون: «تُوقَد» بالتاء، يعنون الزجاجةَ. فهاتان القراءتان على تأنيث الزجاجة[٤].

﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيۡتُونَةٍ لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ﴾ تقدم القول فيه.

﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ على تأنيث النار، وزعم أبو عبيد، أنَّه لا يعرف إلا هذه القراءة. وحكى أبو حاتم: أنَّ السُّدِّيَّ روى عن أبي مالك، عن ابن عباس، أنَّه قرأ: «ولَوْ لم يَمْسَسْه نار» بالياء[٥]. قال محمد بن يزيد: التذكير على أنه تأنيث غير حقيقي، وكذا سبيل المؤنث عنده.

قال ابن عمر: المشكاة جَوْف محمد ﷺ، والزجاجة قلبُه، والمصباح النورُ الذي

---

(١) قراءة شيبة في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٨، وقراءة نافع وابن عامر وحفص في السبعة ص٤٥٦ والتيسير ص١٦٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٨، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٣٢، وقراءة أبي عمرو في السبعة ٤٥٥-٤٥٦ وهي قراءة ابن كثير أيضاً. وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٢ أن قراءة الحسن والسلمي برفع الدال والتشديد (تَوقَّدُ)، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٣٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٨، وينظر السبعة ص٤٥٦، والتيسير ص١٦٢.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٨، وما بعده منه، وقراءة ابن عباس في القراءات الشاذة ص١٠٢.

جعله الله تعالى في قلبه، يوقد من شجرة مباركة، أي: أنّ أصلَه من إبراهيم، وهو شجرته، فأوقد الله تعالى في قلب محمد ﷺ النور، كما جعله في قلب إبراهيم عليه السلام[١].

وقال محمد بن كعب: المشكاة إبراهيم، والزجاجة إسماعيل، والمصباح محمد صلوات الله عليهم أجمعين، سمّاه الله تعالى مصباحاً كما سماه سراجاً[٢]، فقال: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦]، يوقد من شجرة مباركة، وهي آدم عليه السلام، بُورك في نسله وكَثُر منه الأنبياء والأولياء.

وقيل: هي إبراهيم عليه السلام، سمّاه الله تعالى مباركاً؛ لأنَّ أكثر الأنبياء كانوا من صُلْبه ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: لم يكن يهودِيًّا ولا نصرانيًّا، وإنَّما كان حَنِيفاً مسلماً. وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّ اليهودَ تصلِّي قِبَل المغرب، والنصارى تصلِّي قِبَل المشرق. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ أي: يكاد محاسنُ محمد ﷺ تظهرُ للناس قبل أن أوحى الله تعالى إليه. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نَبِيٌّ من نَسْل نبيّ[٣].

قال الضحَّاك: شبَّه عبدَ المطلب بالمِشكاة، وعبدَ الله بالزُّجاجة، والنبيَّ ﷺ بالمصباح[٤] كان في قلبهما، فورث النبوّةَ من إبراهيم ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: شجرة التُّقَى والرضوان وعشيرة الهدى والإيمان، شجرة أصلُها نبوّة، وفرعها مُروءة، وأغصانها تنزيل، وورقها تأويلٌ، وخَدَمُها جبريل وميكائيل.

قال القاضي أبو بكر بن العربي[٥]: ومن غريب الأمر أنَّ بعضَ الفقهاء قال: إنَّ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٧ ، وأخرج قول ابن عمر بنحوه ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٥٥٦ ، وفي إسناده الوازع بن نافع العقيلي، قال ابن معين: ليس بثقة، وقال أحمد: ليس حديثه بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث وقال النسائي: متروك الحديث. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه عن شيوخه بالأسانيد التي يرويها غير محفوظة.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٧ .

(٣) زاد المسير ٦/ ٤٤ .

(٤) المرجع السابق.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٦-١٣٧٧ .

هذا مَثَل ضربه اللهُ تعالى لإبراهيم، ومحمدٍ، ولعبد المطلب وابنه عبدِ الله؛ فالمشكاة هي الكوّة بلغة الحبشة، فشبَّه عبدَ المطلب بالمشكاة فيها القِنديل وهو الزُّجاجة، وشبَّه عبدَ الله بالقِنديل، وهو الزجاجة؛ ومحمد كالمصباح، يعني من أصلابهما، وكأنه كوكب دُرِّيٌّ، وهو المشتَرِي ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ يعني إرْث النبوّة من إبراهيم عليه السلام، وهو الشجرة المباركة، يعني حَنيفيّة ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: لا يهودية ولا نصرانية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ يقول: يكاد إبراهيمُ يتكلم بالوحي من قبل أن يوحَى إليه ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ إبراهيم ثم محمد ﷺ. قال القاضي: وهذا كلُّه عدول عن الظاهر، وليس يمتنع في التمثيل أن يتوسع المرء فيه.

قلت: وكذلك في جميع الأقوال؛ لعدم ارتباطه بالآية ما عدا القول الأوّل، وأنَّ هذا مَثَل ضَرَبه الله تعالى لنوره، ولا يمكن أن يضربَ لنوره المعظَّم مثلاً تنبيهاً لخلقه إلا ببعض خلقه؛ لأنَّ الخلقَ لقصورهم لا يفهمون إلا بأنفسهم ومن أنفسهم، ولولا ذلك ما عَرف اللهَ إلّا اللهُ وحدَه. قاله ابن العربي[(١)].

قال ابن عباس: هذا مَثَلُ نورِ الله وهُداه في قلب المؤمن، كما يكادُ الزيتُ الصافي يضيء قبل أن تمسَّه النار، فإن مسّته النار زاد ضوءه، كذلك قلب المؤمن، يكاد يعمل بالهدى قبل أن يأتيَه العلم، فإذا جاءه العلمُ، زاده هُدًى على هدًى ونوراً على نور، كقول إبراهيم من قبل أن تجيئه المعرفة: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: ٧٧-٧٨]، من قبل أن يخبره أحدٌ أنَّ له رَبًّا؛ فلما أخبره اللهُ أنه ربُّه زاد هُدًى[(٢)]، فـ ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

ومن قال: إنَّ هذا مَثَل للقرآن في قلب المؤمن، قال: كما أنَّ هذا المصباحَ يُستضاء به ولا ينقص؛ فكذلك القرآن يُهتدَى به ولا ينقص، فالمصباح القرآن، والزجاجة قلبُ المؤمن، والمِشْكاة لسانُه وفمُه[(٣)]، والشجرةُ المباركةُ شجرةُ الوحي

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٦ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٣٥ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٧ .

(٣) في (م) و(د): وفهمه.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ تكاد حجج القرآن تتّضِح ولو لم يقرأ. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ يعني أنَّ القرآنَ نورٌ من الله تعالى لخلقه، مع ما أقام لهم من الدلائل والإعلام قبل نزول القرآن، فازدادوا بذلك نوراً على نور.

ثم أخبر أنَّ هذا النورَ المذكورَ عزيز، وأنه لا يناله إلا من أراد اللهُ هداه، فقال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ أي: يبين الأشباه[1] تقريباً إلى الأفهام[2] ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: بالمَهدِي والضّال.

وروي عن ابن عباس أنَّ اليهود قالوا: يا محمد، كيف يَخْلُص نور الله تعالى من دون السماء؟ فضَرَب الله تعالى ذلك مثلاً لنوره[3].

قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِۙ﴾ **فيه تسع عشرة مسألة:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ الباء في «بُيوت» تضم وتكسر، وقد تقدّم[4]. واختلف في الفاء من قوله «في»، فقيل: هي متعلقةٌ بـ ﴿مِصْبَاحٌۖ﴾. وقيل: بـ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾؛ فعلى هذا التأويل يوقف على ﴿عَلِيمٌ﴾[5].

---

(١) في (د): الأشياء.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٤.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٠٦.

(٤) ٣/ ٢٣٦.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥.

قال ابن الأنباري[١]: سمعتُ أبا العباس يقول: هو حالٌ للمصباح والزجاجة والكوكب، كأنه قال: وهي في بيوت.

وقال الترمذيُّ الحكيمُ محمد بن علي: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ منفصل، كأنه يقول: الله في بيوت أذن اللهُ أن تُرفع؛ وبذلك جاءت الأخبار، أنَّه «مَنْ جلس في المسجد فإنما[٢] يجالس ربَّه»[٣]. وكذا ما جاء في الخبر فيما يحكى عن «التوراة»: أنَّ المؤمنَ إذا مشى إلى المسجد، قال الله تبارك اسمه: عبدي زارني وعليَّ قِراه، ولن أرضى له قِرىً دون الجنة[٤].

قال ابن الأنباري[٥]: إن جعلت «في» متعلقة بـ «يُسبِّح» أو رافعة للرِّجال، حَسُنَ الوقفُ على قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقال الرُّمَّاني: هي متعلقة بـ «يوقد»، وعليه فلا يوقف على «عليم»[٦].

فإن قيل: فما الوجهُ إذا كان البيوتُ متعلقة بـ «يوقد» في توحيد المصباح والمشكاة وجمع البيوت، ولا يكون مشكاة واحدة إلا في بيت واحد. قيل: هذا من الخطاب المتلوّن الذي يُفتح بالتوحيد ويُختم بالجمع، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] ونحوه. وقيل: رجع إلى كلِّ واحد من البيوت[٧].

---

(١) في الوقف والابتداء ٢/ ٧٩٧ .

(٢) في (م): فإنّه، والمثبت من (د) و(ظ) وهو الموافق لما في مصادر التخريج.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٤١٦) من طريق الزهري عن خاله عبد الله مؤذن، عن سعيد بن المسيب قوله. وعبد الله مؤذن. أورده البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ٢٠٢ ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج البزار (١٩١٨) (زوائد)، وأبو يعلى (٤١٤٠)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٤٠٩ ، من حديث أنس بن مالك ﷺ، مرفوعاً، بلفظ: «ما من عبدٍ مسلم أتى أخاً له يزوره في الله إلا ناداه منادٍ من السماء: أن طبت وطابت لك الجنة، وإلا قال الله في ملكوت عرشه: عبدي زارني وعليَّ قراه، فلم أرضَ له بقرى دون الجنة». وفي إسناده ميمون بن سياه ضعيف فيما ذكر ابن معين، ونقله عنه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٤٠٨ .

(٥) في الوقف والابتداء ٢/ ٧٩٧-٧٩٨ ، وينظر كلام المصنف في المسألة الثالثة عشرة.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥ .

(٧) زاد المسير ٦/ ٤٦ .

وقيل: هو كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]. وإنَّما هو في واحدة منها.

واختلف الناس في البيوت هنا على خمسة أقوال:

الأول: أنَّها المساجدُ المخصوصةُ لله تعالى بالعبادة، وأنَّها تضيء لأهل السماء كما تضيء النجومُ لأهل الأرض. قاله ابن عباس ومجاهد والحسن(١).

الثاني: هي بيوت بيت المقدس، عن الحسن أيضاً. الثالث: بيوت النبيِّ ﷺ، عن مجاهد أيضاً. الرابع: هي البيوت كلُّها، قاله عكرمة(٢)، وقوله: «يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ والآصال» يقوّي أنَّها المساجد. وقول خامس: أنَّها المساجدُ الأربعةُ التي لم يبنها إلا نبيّ: الكعبة، وبيت أرِيحَا، ومسجد المدينة، ومسجد قُبَاء، قاله ابن بُريدة(٣). وقد تقدّم ذلك في «براءة»(٤).

قلت: الأظهر القول الأوّل؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أحبَّ الله عزَّ وجلَّ فليحبَّني، ومن أحبّني فلْيُحِبَّ أصحابي، ومن أحبَّ أصحابي فليُحِبَّ القرآن، ومن أحبَّ القرآن فلْيُحِبَّ المساجد؛ فإنَّها أفنيةُ الله وأبنيته(٥)، أذن الله في رفعها وبارك فيها، ميمونةٌ ميمون أهلُها، محفوظةٌ محفوظٌ أهلُها، هم في صلاتهم والله عزَّ وجلَّ في حوائجهم، هم في مساجدهم والله من ورائهم»(٦).

---

(١) مجمع البيان ١٨/ ٥٠ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣١٦-٣١٧ عن جماعة.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥، وأخرج الطبري في تفسيره ١٧/ ٣١٧ قول عكرمة.

(٣) التمهيد ١٣/ ٢٦٨ .

(٤) ١٠/ ٣٨٠ .

(٥) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: أبنيته، دون واو.

(٦) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ١٥٥ من طريق أبي معمر ـ لعله: عباد بن عبد الصمد ـ عن أنس ابن مالك مرفوعاً. وأبو معمر قال ابن حبان: أبو معمر يروي عن أنس بن مالك ما لم يحدث به أنس قط، لا يحل ذكره في الكتب إلا على سبيل الإنباء عن أمره.

وأخرجه ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٤٨ من طريق موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، عن ابن جريج، =

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾.

«أَذِن» معناه: أمرَ وقضى. وحقيقة الإذن: العلم والتمكين دون حظر، فإن اقترن بذلك أمرٌ وإنفاذ، كان أقوى[(١)].

و«تُرفع» قيل: معناه تُبْنَى وتُعْلى، قاله مجاهد[(٢)] وعكرمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾[(٣)] [البقرة:١٢٧]، وقال ﷺ: «من بنى مسجداً من ماله، بنى اللهُ له بيتاً في الجنة»[(٤)]. وفي هذا المعنى أحاديث كثيرةٌ تحضُّ على بنيان المساجد[(٥)].

وقال الحسن البصري وغيره: معنى ﴿تُرۡفَعَ﴾: تعظَّم، ويرفع شأنها[(٦)]، وتطهر من الأنجاس والأقذار، ففي الحديث: «إنَّ المسجد لَيَنْزَوِي من النجاسة كما ينزوي الجلدُ من النار»[(٧)].

وروى ابن ماجه في «سننه»[(٨)] عن أبي سعيد الخُدْريّ قال: قال رسولُ الله ﷺ:

= عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً. قال ابن عدي: موسى بن عبد الرحمن منكر الحديث، ثم قال: لا أعلم له أحاديث غير ما ذكرته، وقد يقبل بابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وهذه الأحاديث بواطيل.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٥-١٨٦ .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣١٨ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٦ .

(٤) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (٧٣٧) من طريق الوليد بن مسلم، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، عن علي ﷺ. قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٥٩ : هذا إسناد ضعيف الوليد مدلس، وابن لهيعة ضعيف. قلنا: وللحديث شواهد يصح بها كما سيرد .

(٥) منها حديث عثمان ﷺ عند أحمد (٥٠٦)، والبخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣): (٢٥)، وحديث جابر ﷺ عند ابن ماجه (٧٣٨)، وعن ابن عباس عند أحمد (٢١٥٧).

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٦ .

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٦٩١)، وابن أبي شيبة ٢/ ٣٦٦ عن أبي هريرة موقوفاً. والكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٨ . قال في النهاية (زوى): ينزوي، أي: ينضم وينقبض، وقيل: أراد أهل المسجد وهم الملائكة.

(٨) سنن ابن ماجه (٧٥٧). من طريق محمد بن صالح المدني، عن مسلم بن أبي مريم، عن أبي سعيد الخدري ﷺ. قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٦٣ : هذا إسناد ضعيف مسلم [ابن أبي مريم] هو ابن يسار، لم يسمع من أبي سعيد، ومحمد فيه لين.

«مَنْ أخرجَ أذىً من المسجدِ، بنى اللهُ له بيتاً في الجنة». وروى عن عائشةَ قالت: أَمَرنا رسولُ الله ﷺ أن تُتَّخَذَ[1] المساجدُ في الدُّور، وأن تُطهَّر وتُطيَّب[2].

الثالثة: إذا قلنا: إنَّ المرادَ بنيانُها، فهل تُزيَّن وتُنْقش؟ اختلف في ذلك: فكرهه قومٌ وأباحه آخرون.

فروى حماد بن سلمةَ، عن أيوب، عن أبي قِلَابة عن أنس، وقتادة عن أنس، أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «لا تقومُ الساعةُ حتى يتباهى الناسُ في المساجد». أخرجه أبو داود[3].

وفي البخاري: وقال أنس[4]: «يتباهَوْن بها ثُمَّ لا يَعْمُرونها إلا قليلاً». وقال ابن عباس[5]: لَتزَخْرِفُنّها كما زَخْرفتِ اليهود والنصارى.

وروى الترمِذيُّ الحكيم أبو عبد الله في «نوادر الأصول»[6] من حديث أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زخرفتُم مساجدَكم وحلَّيتُم مصاحفَكم، فالدَّبار عليكم».

احتجّ من أباح ذلك بأنَّ فيه تعظيم المساجد، والله تعالى أَمَر بتعظيمها في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ يعني: تُعظَّم. وروي عن عثمان أنَّه بنى مسجدَ النبيِّ ﷺ

---

(١) في (م): نتخذ، وفي سنن ابن ماجه: أمر، بدل: أمرنا.

(٢) سنن ابن ماجه (٧٥٩)، وأخرجه أحمد (٢٦٣٨٦)، وأبو داود (٤٥٥)، والترمذي (٥٩٤). قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ١/ ٢٥٨ : أخرجه الترمذي وابن ماجه، وأخرجه الترمذي مرسلاً وقال: وهذا أصح من الحديث الأول.

(٣) سنن أبي داود (٤٤٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٣٧٩)، والنسائي ٢/ ٣٢ ، وابن ماجه (٧٣٩). من طريق أبي قلابة عن أنس ﷺ.

(٤) علقه البخاري عنه قبل حديث (٤٤٦)، ووصله أبو يعلى (٢٨١٧)، و ابن خزيمة في صحيحه (١٣٢١)، وابن حجر في التغليق ٢/ ٢٣٦ . وإسناده حسن.

(٥) علقه البخاري عنه قبل حديث (٤٤٦)، ووصله أبو داود (٤٤٨).

(٦) ص٣٣٤ . وسلف ١/ ٥٤ .

بالسَّاج وحسّنه(١).

قال أبو حنيفة: لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب(٢). وروي عن عمر بن عبد العزيز، أنه نقش مسجدَ النبيِّ ﷺ وبالغ في عِمارته وتزيينه، وذلك في زمن ولايته قبل خلافته، ولم ينكر عليه أحد ذلك.

وذكر أنَّ الوليد بن عبد الملك أنفق في عمارة مسجد دمشقَ وفي تزيينه مثل خَراج الشام ثلاث مرات. وروي أنَّ سليمان بن داود عليهما السلام بنى مسجدَ بيت المقدس وبالغ في تزيينه.

الرابعة: ومما تُصان عنه المساجد وتُنزَّه عنه الروائحُ الكريهة، والأقوال السيئةُ، وغيرُ ذلك على ما نبيّنه؛ وذلك من تعظيمها. وقد صحَّ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال في غَزْوةٍ(٣): «من أكلَ من هذه الشجرةِ ـ يعني الثُّومَ ـ فلا يأتِيَنَّ المساجدَ»(٤).

وفي حديث جابر بن عبد الله، عن النبيّ ﷺ، قال: «مَنْ أكلَ من هذه البقلةِ الثُّوم ـ وقال مرة: من أكل البصلَ والثومَ والكُرَّاث ـ فلا يقربنَّ مسجدنا؛ فإنَّ الملائكةَ تتأذَّى مما يتأذَّى منه بنو آدم»(٥).

وقال عمر بن الخطاب ﷺ في خطبته: ثم إنَّكم أيُّها الناسُ تأكلون شجرتين، ولا أُراهما إلا خبيثتين، هذا البصل والثُّوم، لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ إذا وَجدَ ريحَهما من

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦)، وأحمد (٦١٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. والساج: نوع من الخشب معروف، يؤتى به من الهند. فتح الباري ١/ ٥٤٠.

(٢) ينظر تبيين الحقائق للزيلعي ١/١٦٨.

(٣) في (م) و (د): غزوة تبوك، والمثبت من (ظ)، فإنه لم يرد في مصادر التخريج ذكر غزوة تبوك، وجاء في بعضها: غزوة خيبر، وينظر فتح الباري ٢/٣٣٨.

(٤) أخرجه البخاري (٨٥٣)، ومسلم (٥٦١) (واللفظ له)، وأحمد (٤٧١٥) من حديث ابن عمر مرفوعاً، وعند الشيخين: في غزوة خيبر. ولم تذكر عند أحمد.

(٥) أخرجه أحمد (١٥١٥٩)، ومسلم (٥٦٤).

رجلٍ في المسجد، أمَرَ به فأُخرِجَ إلى البقيع، فمن أكَلهما فَلْيُمِتْهُما طبخاً. خرَجه مسلم في «صحيحه»[١].

قال العلماء: وإذا كانت العلَّةُ في إخراجه من المسجد أنه يُتأذَّى به، ففي القياس: أنَّ كلَّ مَنْ تأذَّى به جيرانُه في المسجد، بأن يكون ذَرِب[٢] اللِّسان سفيهاً عليهم، أو كان ذا رائحةٍ قبيحةٍ لا تَرِيمه[٣] لسوء صناعته، أو عاهة مؤذيةٍ؛ كالجُذَام وشبهه، وكل ما يتأذَّى به الناس، كان لهم إخراجُهُ، ما كانت العلةُ موجودةً فيه حتى تزولَ[٤].

وكذلك يجتنبُ مجتمعَ الناسِ حيث كان لصلاةٍ أو غيرها ـ كمجالس العلم والولائم، وما أشبهها ـ مَن أكلَ الثُّومَ وما في معناه، مما له رائحة كريهة تؤذي الناسَ، ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث، وأخبر أنَّ ذلك مما يتأذى به[٥].

قال أبو عمر بن عبد البر[٦]: وقد شاهدت شيخَنا أبا عمر أحمدَ بنَ عبد الملك بن هاشم[٧] رحمه الله، أفتى في رجلٍ شَكاهُ جيرانُه واتفقوا عليه أنه يُؤذيهم في المسجد بلسانه ويده، فشُووِرَ فيه، فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعادِه عنه، وألا يُشاهِد معهم الصلاةَ؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه، فذاكرتُه يوماً أَمْرَه، وطالبته بالدليل فيما أفتى به من ذلك، وراجعته فيه القولَ، فاستدلَّ بحديث الثُّوم، وقال: هو عندي أكثر أذًى من آكل الثوم، وصاحبه يُمنع من شهودِ الجماعة في المسجد.

---

(١) صحيح مسلم (٥٦٧)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٩).

(٢) ذرب: ذرب لسانه إذا كان حادَّ اللسان، لا يبالي ما قال. اللسان (ذرب).

(٣) لا تريمه: لا تبرحه. اللسان (ريم)، ووقع في (ظ) بدلها: لازمة.

(٤) التمهيد ٦/ ٤٢٣ .

(٥) المفهم ٢/ ١٦٦ .

(٦) في التمهيد ٦/ ٤٢٣ .

(٧) في النسخ: هشام، والمثبت من التمهيد ومصادر ترجمته، وهو أبو عمر المعروف بابن المَكْوِيِّ، المتوفى سنة (٤٠١هـ). السير ١٧/ ٢٠٦ .

قلت: وفي الآثار المرسلة: «أنَّ الرجلَ ليكذبُ الكِذْبَة، فيتباعد عنه المَلَك من نَتَنِ رِيحهِ»(١). فعلى هذا يُخرجُ من عُرف منه الكذب والتقوُّل بالباطل، فإنَّ ذلك يؤذي.

الخامسة: أكثر العلماء على أنَّ المساجد كلَّها سواء(٢)؛ لحديث ابن عمر(٣).

وقال بعضهم: إنَّما خَرَج النهيُ على مسجد رسولِ الله ﷺ من أجل جبريل عليه السلام ونزوله فيه، ولقوله في حديث جابر: «فلا يقربَنَّ مسجدنا»(٤). والأوّل أصح؛ لأنه ذكر الصفةَ في الحكم، وهي المسجدية، وذِكْرُ الصفةِ في الحكم تعليل.

وقد روى الثعلبي بإسناده عن أنس ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يأتي اللهُ يوم القيامة بمساجد الدنيا كأنّها نجائبُ بيض، قوائمها من العنبر، وأعناقُها من الزعفران، ورؤوسُها من المسك، وأزِمّتُها من الزبرجد الأخضر، وقُوّامها والمؤذنون فيها يقودونها، وأئمتها يسوقونها، وعمَّارها متعلقون بها، فتجوز عرصات القيامة كالبرق الخاطف، فيقول أهلُ الموقف: هؤلاء ملائكةٌ مقرّبون وأنبياء مرسلون، فينادى: ما هؤلاء بملائكة ولا أنبياء، ولكنهم أهل المساجد والمحافظون على الصلوات من أمة محمدٍ ﷺ»(٥).

وفي التنزيل ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]. وهذا عام في كلِّ مسجد.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٢) وابن حبان في المجروحين ٢/ ١٣٧ من طريق عبد الرحيم بن هارون، عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً. قال الترمذي: هذا حديث حسن جيد غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، تفرَّد به عبد الرحيم بن هارون. اهـ. وقال ابن حبان: روى عبد العزيز عن نافع عن ابن عمر نسخة موضوعة، لا يحل ذكرها إلا على سبيل الاعتبار.

(٢) التمهيد ٦/ ٤١٤.

(٣) سلف في المسألة الرابعة.

(٤) سلف في المسألة الرابعة.

(٥) لم نقف عليه.

وقال النبيُّ ﷺ: «إذا رأيتم الرجلَ يعتاد المسجدَ، فاشهدوا له بالإيمان؛ إنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة:١٨]. وقد تقدم(١).

السادسة: وتصان المساجدُ أيضاً عن البيع والشراء وجميعِ الاشتغال؛ لقوله ﷺ للرجل الذي دعا إلى الجمل الأحمر: «لا وَجَدْتَ؛ إنَّما بُنيت المساجدُ لِمَا بُنيت له». أخرجه مسلم من حديث سليمان بن بُريدة، عن أبيه، أنَّ النبي ﷺ لما صلَّى قام رجل، فقال: مَنْ دعا إلى الجمل الأحمر؟ فقال النبيُّ ﷺ: «لا وَجدتَ؛ إنَّما بُنيت المساجدُ لِمَا بُنيت له»(٢).

وهذا يدل على أنَّ الأصلَ ألا يُعمل في المسجد غير الصلوات والأذكار وقراءة القرآن(٣). وكذا جاء مفسراً من حديث أنس، قال: بينما نحن في المسجد مع رسولِ الله ﷺ، إذ جاء أعرابيٌّ فقام يبول في المسجد، فقال أصحابُ رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ، فقال النبيّ ﷺ: «لا تُزْرِمُوه، دَعُوه». فتركوه حتى بَالَ، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إنَّ هذه المساجدَ لا تَصلُح لشيءٍ من هذا البول ولا القَذَر، ؛ إنَّما هي لذكرِ الله والصلاةِ وقراءة القرآن» ـ أو كما قال رسولُ الله ﷺ ـ قال: «فأمر رجلاً من القوم؛ فجاء بدَلْوٍ من ماء، فشَنَّه عليه». خرّجه مسلم(٤).

ومما يدلُّ على هذا من الكتاب قوله الحق: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، وقوله ﷺ لمعاوية بن الحكم السُّلَمِيّ: «إنَّ هذه المساجدَ لا يَصلُح فيها شيٌ من كلام الناس؛ إنَّما هو التسبيحُ والتكبيرُ وقراءةُ القرآن ـ أو كما قال رسولُ الله ﷺ ـ الحديث بطوله

(١) مسند أحمد (١١٦٥١)، وسنن الترمذي (٢٦١٧)، وسلف ١٠/ ١٣٤ .

(٢) صحيح مسلم (٥٦٩)، وهو في مسند أحمد (٢٣٠٥١).

(٣) المفهم ٢/ ١٧٥ .

(٤) في صحيحه (٢٨٥) وهو في مسند أحمد (١٢٩٨٤)، وأخرجه البخاري (٢١٩) مختصراً. قوله: لا تزرموه: أي: لا تقطعوا عليه بولَه، فشنَّه: أي صبَّها. النهاية (زرم)، واللسان (شنن).

خرَّجه مسلم في «صحيحه»[١]، وحسبك!

وسمع عمرُ بن الخطاب ﷺ صوتَ رجلٍ في المسجد، فقال: ما هذا الصوتُ! أتدري أين أنتَ؟![٢]

وكان خَلَفُ بن أيوب[٣] جالساً في مسجده، فأتاه غلامُه يسألُهُ عن شيءٍ، فقام وخَرَجَ من المسجد وأجابه، فقيل له في ذلك، فقال: ما تكلمتُ في المسجد بكلامِ الدنيا منذُ كذا وكذا، فكرهت أن أتكلَّم اليوم.

السابعة: روى الترمذِيُّ من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه، عن رسول الله ﷺ: «أنَّه نهى عن تَناشُد الأشعارِ في المسجد، وعن البيعِ والشراءِ فيه، وأن يتحلَّق الناسُ يومَ الجمعة قبل الصلاة». قال: وفي الباب عن بُريدة وجابر وأنس، حديث عبد الله بن عمرو حديث حسن. قال محمد بن إسماعيل: رأيت أحمد[٤] وإسحاق وذكَر غيرَهما يحتجُّون بحديث عمرو بن شعيب. وقد كره قومٌ من أهل العلم البيعَ والشراءَ في المسجد، وبه يقول أحمد وإسحاق[٥].

وروي أنَّ عيسى ابن مريم عليهما السلام أتى على قومٍ يتبايعونَ في المسجد، فجعل رداءَه مخراقاً، ثم جعل يسعى عليهم ضَرْباً، ويقول: يا أبناء الأفاعي، اتخذتُم مساجدَ الله أسواقاً! هذا سوق[٦] الآخرة[٧].

---

(١) (٥٣٧)، وهو في مسند أحمد (٢٣٧٦٢).. وفيهما: (الصلاة) بدل: (المساجد).

(٢) سلف ٢/ ٣٧٩.

(٣) العامري أبو سعيد البلخي، فقيه أهل الرأي، توفي سنة ٢١٥ هـ. تقريب التهذيب.

(٤) في النسخ الخطية: محمداً، والمثبت من سنن الترمذي، والكلام منه، ومحمد بن إسماعيل: هو البخاري.

(٥) سنن الترمذي (٣٢٢)، وأخرج الحديث أيضاً النسائي في المجتبى ٢/ ٤٨، وفي الكبرى (٧٩٥-٧٩٦)، وابن ماجه (٧٤٩).

(٦) في (ظ) هذه أسواق.

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٨٣ من طريق الحكم بن سنان أبي عون، عن مالك بن دينار، قال: =

قلت: وقد كره بعض أصحابنا تعليمَ الصبيان في المساجد، ورأى أنَّه من باب البيع، وهذا إذا كان بأجرة، فلو كان بغير أجرةٍ لمنعَ أيضاً من وجهٍ آخر، وهو أنَّ الصبيان لا يتحرَّزون عن الأقذار والوَسَخ، فيؤدِّي ذلك إلى عدم تنظيف المساجد، وقد أَمرَ ﷺ بتنظيفها وتطييبها[١]، فقال: «جَنِّبُوا مساجدَكم صبيانَكم ومجانينَكم، وسلَّ سيوفِكم، وإقامةَ حدودِكم، ورفعَ أصواتكم وخصوماتِكم، وأجمروها في الجُمَع، واجعلوا على أبوابها المطاهرَ». في إسناده العلاء بن كثير الدمشقي مولى بني أمية، وهو ضعيف عندهم، ذكره أبو أحمد بن عديّ الجرجاني الحافظ[٢].

وذكر أبو أحمد أيضاً[٣] من حديث عليّ بن أبي طالب ﷺ، قال: صلّيتُ العصرَ مع عثمان أميرِ المؤمنين، فرأى خياطاً في ناحية المسجد، فأمر بإخراجه، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنه يكنس المسجدَ، ويغلِق الأبوابَ، ويرشُّ أحياناً. فقال عثمان: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «جنِّبوا صُنَّاعكم من مساجدكم». هذا حديث غيرُ محفوظ، في إسناده محمد بن مجيب الثقفي، وهو ذاهب الحديث.

قلت: ما ورد في هذا المعنى وإن كان طريقهُ لَيِّناً فهو صحيح معنىً، يدلُّ على صحته ما ذكرناه قبل.

= دخل عيسى ابن مريم مسجد بيت المقدس وهم يتبايعون... ، فذكره دون قوله «هذا سوق الآخرة». والحكم بن سنان ضعيف. والمخراق: ثوب يُلَف ويضرب به الصبيانُ بعضهم بعضاً. النهاية (خرق).

(١) المفهم ٢/ ١٧٥ .

(٢) في الكامل ٥/ ١٨٦١ من حديث العلاء بن كثير، عن مكحول، عن واثلة وأبي الدرداء وأبي أمامة مرفوعاً. وقال ابن عدي: للعلاء بن كثير عن مكحول عن الصحابة، عن النبي ﷺ نسخ كلها غير محفوظة، وهو منكر الحديث. وأخرجه ابن ماجه (٧٥٠) من طريق الحارث بن نبهان، عن عتبة بن يقظان، عن أبي سعيد، عن مكحول، عن واثلة مرفوعاً، قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٦٢ : أبو سعيد هو محمد بن سعيد، قال النسائي: كذاب، والحارث بن نبهان ضعيف.

وأخرجه الطبراني في الكبير ٢٠/ ١٧٣ من طريق يحيى بن العلاء، عن مكحول، عن معاذ مرفوعاً. قال البيهقي في السنن ١٠/ ١٠٣ : ليس بصحيح.

(٣) في الكامل له ٦/ ٢٢٦٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة الأحكام الوسطى لأبي محمد عبد الحق ١/ ٢٩٦ - ٢٩٧ .

قال الترمِذيّ[١]: وقد رُويَ عن بعض أهل العلم من التابعين رُخْصةٌ في البيع والشراء في المسجد، وقد رُويَ عن النبيّ ﷺ في غير حديثٍ رخصةٌ في إنشاد الشعر في المسجد[٢].

قلت: أما تناشدُ الأشعار في المسجد[٣] فاختلف في ذلك، فمن مانع مطلقاً، ومن مجيز مطلقاً. والأَوْلى التفصيل، وهو أن يُنظر إلى الشعر، فإن كان مما يقتضي الثناءَ على الله عزَّ وجلَّ، أو على رسوله ﷺ، أو الذبَّ عنهما كما كان شعر حسان، أو يتضمن الحضَّ على الخير والوعظ، والزهد في الدنيا والتقلّل منها، فهو حسن في المساجد وغيرها[٤]، كقول القائل:

طوِّفي يا نفسُ كي أقصدَ فرداً صمدا   وذريني لستُ أبغي غير ربِّي أحدا
فهو أُنْسي وجليسي ودعي الناس   فما إنْ تجدي من دونه مُلتحدا[٥]

وما لم يكن كذلك لم يجز؛ لأنَّ الشعرَ في الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب والتزيين[٦] بالباطل، ولو سلم من ذلك، فأقل ما فيه اللّغْوُ والهَذَر[٧]، والمساجد مُنزَّهةٌ عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾[٨].

وقد يجوز إنشاده في المسجد، كقول القائل:

---

(١) في سننه ٢/ ١٤٢-١٤٤.

(٢) منها ما أخرجه البخاري (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) عبارة: في المسجد. لم ترد في (م) و(د): أثبتناها من (ظ) ومن المفهم والكلام منه.

(٤) المفهم ٦/ ٤١٨.

(٥) كذا في النسخ ولم نقف عليه.

(٦) في (م) و(د): التزين، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في المفهم.

(٧) أي: الهذيان. الصحاح (هذر).

(٨) المفهم ٦/ ٤١٨.

كَفَحْل العَدَاب الفَرْدِ يضربُه النَّدَى تَعَلَّى النّدَى في متنه وتَحدّرا[(١)]

وقول الآخر:

إذا سقَطَ السماءُ بأرضِ قومٍ رَعَيناه وإن كانوا غِضابَا[(٢)]

فهذا النوع ـ وإن لم يكن فيه حَمْدٌ ولا ثناءٌ ـ يجوز؛ لأنَّه خالٍ عن الفواحش والكذب. وسيأتي ذكر الأشعار الجائزة وغيرِها بما فيه كفاية في «الشعراء» إن شاء الله تعالى[(٣)].

وقد روى الدَّارقطنِيُّ من حديث هشام بن عُرْوة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ذُكِرَ الشِّعرُ عند رسول الله ﷺ، فقال: «هو كلامٌ حَسَنُه حَسَنٌ، وقبيحُه قبيحٌ»[(٤)]. وفي الباب عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي هريرة، وابن عباس عن النبيّ ﷺ. ذكره في «السنن»[(٥)].

قلت: وأصحاب الشافعيّ يأثرون هذا الكلام عن الشافعيّ وأنه لم يتكلم به غيره، وكأنهم لم يقفوا على الأحاديث في ذلك. والله أعلم.

الثامنة: وأما رفعُ الصوت؛ فإن كان مما يقتضي مصلحةً للرَّافع صوته، دُعي عليه بنقيض قصده[(٦)]؛ لحديث بريدة المتقدّم[(٧)]، وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) البيت لابن أحمر الباهلي كما في أدب الكاتب ص٩٦، وتهذيب اللغة ٢/ ٢٣٩، والصحاح (عدب) وروايتهم: كثور العداب، بدل: كفحل العداب. والعداب: ما استرق من الرمل. الصحاح (عدب)، وقال ابن قتيبة: والعرب تسمي النبت ندى؛ لأنه بالمطر يكون.

(٢) البيت لمعوّد الحكماء، معاوية بن مالك، كما في المفضليات ص٣٥٩ وروايته: إذا نزل السحاب، بدل: إذا سقط السماء. والبيت ورد أيضاً في أدب الكاتب ص٩٧، والأمالي ١/ ١٨١ ، وشرح ديوان الحماسة ٣/ ١٤٣٢ . قال ابن قتيبة: يقولون للمطر: سماء؛ لأنه من السماء ينزل.

(٣) عند تفسير الآية (٢٢٤) منها.

(٤) سنن الدارقطني (٤٣٠٦) وفي إسناده عبد العظيم بن حبيب بن رغبان، قال الدارقطني: ليس بثقة كما في «الميزان» وتابعه عبد الرحمن بن ثابت عند أبي يعلى (٤٧٦٠)، والبيهقي ١٠/ ٢٣٩ .

(٥) برقم (٤٣٠٨)، (٤٣٠٩)، (٤٣١٠).

(٦) المفهم ٢/ ١٧٤ .

(٧) في المسألة السادسة.

«من سمع رجلاً يَنْشُد ضالّةً في المسجد، فليقل: لا ردّها الله عليك؛ فإنَّ المساجدَ لم تُبْن لهذا»[١].

وإلى هذا ذهب مالك وجماعة، حتى كرهوا رفعَ الصوت في المسجد في العلم وغيره. وأجاز أبو حنيفةَ وأصحابُه ومحمد بن مسلمة من أصحابنا رفعَ الصوت فيه في الخصومة والعلم، قالوا: لأنَّهم لا بُدَّ لهم من ذلك، وهذا مخالف لظاهر الحديث، وقولهم: لابُدَّ لهم من ذلك، ممنوع، بل لهم بُدٌّ من ذلك بوجهين: أحدهما: بملازمة الوَقَار والحرمة، وبإحضار ذلك بالبال والتحرُّز من نقيضه. والثاني: أنه إذا لم يتمكن من ذلك، فليتخذ لذلك موضعاً يخصّه، كما فعل عمر حيث بَنَى رحبةً تُسمَّى البُطَيْحاء، وقال: من أراد أن يَلْغَط أو يُنْشِد شعراً ـ يعني في مسجد رسول الله ﷺ ـ فليخرج إلى هذه الرحبة[٢]. وهذا يدل على أنَّ عمرَ كان يكره إنشادَ الشعر في المسجد، ولذلك بنى البُطَيحاء خارجه.

التاسعة: وأما النوم في المسجد لمن احتاج إلى ذلك من رجلٍ أو امرأةٍ، كالغُرباء[٣] ومن لا بيت له، فجائز[٤]؛ لأنَّ في البخاري: وقال أبو قِلابة عن أنس: قَدِم رهطٌ من عُكْل على النبي ﷺ، فكانوا في الصُّفَّة[٥]. وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: كان أصحابُ الصُّفَّة فقراء[٦].

وفي «الصحيحين»[٧] عن ابن عمر، أنَّه كان ينام وهو شابٌّ أعزبُ لا أهل له في

---

(١) أخرجه أحمد (٨٥٨٨)، ومسلم (٥٦٨).

(٢) المفهم ٢/ ١٧٤ ، وأثر عمر ذكره مالك في الموطأ ١/ ١٧٥ بلاغاً، وهو موصول برواية أبي مصعب (٥٨١)، والبيهقي ١٠/ ١٠٣ .

(٣) في (م): من الغرباء.

(٤) المفهم ٦/ ٤٠٩ بنحوه.

(٥) علقه البخاري في صحيحه قبل الحديث (٤٤٠) وقد وصله برقم (٦٨٠٤). وسلف ٧/ ٤٣١ .

(٦) علقه البخاري في صحيحه قبل الحديث (٤٤٠)، ووصله برقم (٦٠٢)

(٧) صحيح البخاري (٤٤٠)، وصحيح مسلم (٢٠٥٧)، وهو في مسند أحمد (٦٣٠٣).

مسجد النبيِّ ﷺ. لفظ البخاري. وترجم: «باب نوم المرأة في المسجد» وأَدخلَ حديثَ عائشة في قصة السَّوداء التي اتهمها أهلُها بالوِشاح، قالت عائشة: وكان لها خِبَاء في المسجد أو حِفْش... الحديث[١].

ويقال: كان مبيتُ عطاء بن أبي رَبَاح في المسجد أربعين سنة.

العاشرة: روى مسلم عن أبي حُميد أو عن أبي أُسَيْد، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا دَخَل أحدُكم المسجدَ فلْيَقُل: اللَّهُمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتِك، وإذا خرج فليقلْ: اللّهُمّ إنِّي أسألُكَ من فضلك»[٢]. خرَّجه أبو داود كذلك، إلا أنَّه زاد بعد قوله «إذا دخل أحدكم المسجد: فليسلِّم، ولْيصلِّ على النبيِّ ﷺ، ثمَّ ليقل: اللهم افتح لي .....» الحديث[٣].

وروى ابنُ ماجه عن فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا دَخَل المسجدَ قال: «باسم الله، والسَّلامُ على رسول الله، اللّهُمَ اغفرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ رحمتكَ، وإذا خَرَج قال: باسم الله، والسلام[٤] على رسول الله، اللّهُمّ اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبوابَ رحمتك وفضلك»[٥].

وروي عن أبي هريرةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أحدُكم المسجدَ، فليصلِّ على النبيِّ ﷺ، وليقل: اللّهُمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتك، وإذا خرج، فلْيُسَلِّم على

(١) صحيح البخاري (٤٣٩). والوشاح: شيء ينسج عريضاً من أديم. والخِباء: أحد بيوت العرب من وبر أو صوف. الحفش: البيت الصغير الذليل القريب السَّمْك. النهاية (وشح)، (خبا)، (حفش). والسوداء ـ كما ورد في الحديث ـ هي وليدة كانت سوداء لحيٍّ من العرب، فأعتقوها فكانت معهم.

(٢) صحيح مسلم (٧١٣).

(٣) سنن أبي داود (٤٦٥)، وأخرجه أحمد (١٦٠٥٧).

(٤) في (م) و (ظ) والصلاة.

(٥) سنن ابن ماجه (٧٧١). وأخرجه أحمد (٢٦٤١٧)، والترمذي (٣١٤) من طريق فاطمة بنت الحسين عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعندهم: افتح لي أبواب فضلك. دون قوله: رحمتك. قال الترمذي: حديث فاطمة حديث حسن، وليس إسناده بمتصل، وفاطمة بنت الحسين لم تدرك فاطمة الكبرى، إنَّما عاشت فاطمة بعد النبي ﷺ أشهراً.

النبي ﷺ، وليقل: اللّهُمّ اعْصِمْنِي من الشيطان الرجيم»[١].

وخرج أبو داود[٢] عن حَيْوة بن شُريح قال: لَقِيت عقبة بنَ مسلم، فقلت له: بلغني أنَّك حدّثت عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن النبيّ ﷺ، أنَّه كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيمِ، وبوجههِ الكريمِ، وسلطانهِ القديمِ من الشيطان الرجيم». قال: نعم. قال: فإذا قال ذلك، قال الشيطانُ: حُفِظ مني سائرَ اليوم.

الحادية عشرة: روى مسلم عن أبي قتادةَ: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «إذا دخل أحدُكم المسجدَ، فليركعْ ركعتين قبل أن يجلس»[٣]. وعنه قال: دخلتُ المسجدَ ورسولُ الله ﷺ جالسٌ بين ظَهْرَانَي الناسِ، قال: فجلستُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما مَنَعك أن تركعَ ركعتين قبل أن تجلسَ»؟ فقلتُ: يا رسول الله، رأيتُك جالساً والناسُ جلوس، قال: «فإذا دَخَل أحدُكم المسجدَ، فلا يجلسْ حتى يركعَ ركعتين»[٤].

قال العلماء: فجعل ﷺ للمسجد مزيّةً يتميَّز بها عن سائر البيوت، وهو ألا يجلسَ حتى يركع.

وعامّةُ العلماء على أنَّ الأمرَ بالركوع على الندب والترغيب، وقد ذهب داودُ وأصحابُه إلى أنَّ ذلك على الوجوب، وهذا باطل، ولو كان الأمر على ما قالوه، لَحَرُمَ دخولُ المسجد على المُحدث الحدث الأصغر حتى يتوضأ، ولا قائل به فيما أعلم، والله أعلم[٥].

فإن قيل: فقد روى إبراهيم بن يزيد، عن الأوزاعيّ، عن يحيى بن أبي كثير، عن

---

(١) سنن ابن ماجه (٧٧٣). قال البوصيري في الزوائد ١/ ١٦٥ : إسناده صحيح رجاله ثقات. وحسنه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار ١/ ٢٧٧ .

(٢) في سننه (٤٦٦). وقال الحافظ في نتائج الأفكار ١/ ٢٧٧ : هذا حديث حسن غريب ورجاله موثقون، وهم من رجال الصحيح إلا إسماعيل وعقبة.

(٣) صحيح مسلم (٧١٤)، وأخرجه أحمد (٢٢٥٢٣)، والبخاري (٤٤٤).

(٤) صحيح مسلم (٧١٤) (٧٠)، وهو في مسند أحمد (٢٢٦٠١).

(٥) المفهم ٢/ ٣٥٢ .

أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دَخَل أحدُكم المسجدَ، فلا يجلسْ حتى يركعَ ركعتين، وإذا دخلَ أحدُكم بيتَه، فلا يجلسْ حتى يركعَ ركعتين، فإنَّ الله جاعل [له] من ركعتيه في بيته خيراً»(١)، وهذا يقتضي التسوِيَة بين المسجد والبيت.

قيل: هذه الزيادةُ في الركوع عند دخول البيت لا أصل لها، قال ذلك البخاري(٢). وإنّما يصحُ في هذا حديثُ أبي قتادةَ الذي تقدم لمسلم، وإبراهيم هذا؛ لا أعلم روى عنه إلا سعد بن عبد الحميد، ولا أعلم له إلّا هذا الحديثَ الواحد، قاله أبو محمد عبد الحق(٣).

الثانية عشرة: روى سعيد بن زبّان، حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن أبي هند ﷺ قال: حَمَل تميمٌ ـ يعني الدّارِيَّ ـ من الشام إلى المدينة قناديلَ وزَيْتاً ومُقُطاً، فلما انتهى إلى المدينةِ، وَافقَ ذلك ليلةَ الجمعة، فأَمَر غلاماً يقال له: أبو البرَّاد، فقام فنَشَط المُقُطَ(٤)، وعلّق القناديلَ، وصبَّ فيها الماءَ والزيتَ، وجعل فيها الفتيلَ، فلما غرَبَت الشمسُ أمرَ أبا البرَّاد فأسرجَها، وخرج رسولُ الله ﷺ إلى المسجد، فإذا هو بها تَزْهَر؛ فقال: «مَنْ فَعلَ هذا»؟ قالوا: تميمٌ الدَّارِيُّ يا رسول الله، فقال: «نوّرتَ الإسلامَ، نوّرَ الله عليك في الدنيا والآخرة، أما إنَّه لو كانت لي ابنةٌ لزوّجْتُكَها». قال نَوْفلُ بن الحارث: لي ابنةٌ يا رسول الله ـ تسمى المغيرة بنت نَوْفلِ ـ فافعل بها ما أردتَ. فأنكَحه إيّاها(٥).

(١) أخرجه العقيلي في الضعفاء ١/ ٧٢، وابن عدي في الكامل ١/ ٢٥١، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٠٧٩). وما بين حاصرتين من المصادر. وقال العقيلي: لا أصل له من حديث الأوزاعي، وقال في إبراهيم بن يزيد: في حديثه وهم وغلط.

وقال ابن عدي: وهذا بهذا الإسناد منكر. وقال البيهقي: أنكره البخاري بهذا الإسناد.

(٢) في التاريخ الكبير ١/ ٣٣٦.

(٣) في الأحكام الوسطى ١/ ٢٩٩.

(٤) جمع المقاط، وهو الحبل، كما سيره، ونشطها، أي: عَقَدَها.

(٥) ذكره المستغفري في الصحابة، فيما ذكر الحافظ في الإصابة ١١/ ٣٢-٣٣. وقال: سنده ضعيف.

زَبّان: «بفتح الزاي والباء وتشديدها بنقطة واحدة من تحتها[(١)]، ينفرد بالتّسمِّي به سعيدٌ وحدَه، فهو أبو عثمان سعيدُ بن زبَّان بن فائد[(٢)] بن زبَّان بن أبي هند، وأبو هند هذا: مولى ابن بياضة حجّام النبيّ ﷺ.

والمُقُط: جمع المِقاط، وهو الحبل، فكأنَّه مقلوبُ القِماط[(٣)]. والله أعلم.

وروى ابن ماجه عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ قال: أوّلُ مَنْ أَسرَجَ في المساجد تَميمٌ الدَّارِيّ[(٤)].

وروي عن أنس، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ أَسرجَ في مسجدٍ سراجاً، لم تَزلِ الملائكةُ وحَمَلةُ العرش يُصلُّون عليه ويستغفرونَ له ما دَامَ ذلك الضوءُ فيه، وإنَّ كَنْسَ غُبار المسجدِ نقدُ الحُور العين»[(٥)].

قال العلماء: ويستحب أن يُنورَ البيتُ الذي يُقرأ فيه القرآن بتعليق القناديلِ ونصبِ

---

(١) كذا قال المصنف رحمه الله، والذي في توضيح المشتبه ٤/ ٣٢٠-٣٢٢ ، والإصابة ١١/ ٣٢ . زيّاد، بفتح الزاي، وتشديد الياء المثناة من تحت وبعد الألف دال.

(٢) في (م) و(ظ): قائد، بالقاف، والمثبت من (د) وهو الموافق لما في توضيح المشتبه، والإصابة.

(٣) الصحاح (مقط).

(٤) سنن ابن ماجه (٧٦٠) وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢٤٧) من قول أبي هريرة ﷺ وفي سندهما خالد ابن إياس، وهو متروك، ينظر مصباح الزجاجة ١/ ١٦٣-١٦٤ ، ومجمع الزوائد ٩/ ٣٩٢ .

(٥) أخرجه الحارث بن أبي أسامة (١٢٧) (زوائد) عن إسحاق بن بشر، عن أبي عامر الأسدي مهاجر بن كثير، عن الحكم بن مسقلة العبدي، عن أنس مرفوعاً دون قوله: وإن كنس الخ.... قال البوصيري في إتحاف المهرة ٢/ ٤٢ : إسناده ضعيف، قال الذهبي في الميزان [١/ ٥٨٠]: الحكم بن مسقلة، قال الأزدي: كذاب، وقال البخاري: عنده عجائب. اهـ ثم قال: وإسحاق بن بشر كذبه علي بن المديني، وقال ابن حبان: لا يحل كتب حديثه إلا على جهة التعجب، وقال الدار قطني: كذاب متروك. اهـ قلنا: وفيه مهاجر بن كثير قال أبو حاتم: متروك الحديث. الميزان ٤/ ١٩٣ .

وقوله: «وإن كنس غبار المسجد..» أورده الديلمي في مسند الفردوس ٣/ ٢٩٩ من حديث أنس ﷺ ونقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ٢/ ٣٨٣ عن ابن الجوزي [في الموضوعات (١٨٠٨)] أنه لا يصح، فيه مجاهيل وعبد الواحد بن زيد متروك، وتعقبه بما أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٢١) من حديث أبي قرصافة مرفوعاً، وفيه: «وإخراج القمامة منها مهور حور العين»، وأن الضياء المقدسي صححه في المختارة. قلنا: لكن الهيثمي قال في المجمع ٢/ ٩ : رواه الطبراني وفي إسناده مجاهيل.

الشموع فيه، ويُزاد في شهر رمضان في أنوار المساجدِ.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ . رِجَالٌ﴾. اختلف العلماء في وصف الله تعالى المسبِّحين: فقيل: هم المراقبون أمرَ الله، الطالبون رضاءَه، الذين لا يشغلُهم عن الصلاة وذكرِ الله شيءٌ من أمور الدنيا. وقال كثيرٌ من الصحابة: نَزلَت هذه الآيةُ في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النِّداءَ بالصلاة تَركوا كلَّ شُغل وبادروا. ورأى سالم بنُ عبد الله أهلَ الأسواق وهم مُقبلون إلى الصلاة، فقال: هؤلاء الذين أراد اللهُ بقوله: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾. وروي ذلك عن ابن مسعود[(١)].

وقرأ عبد الله بنُ عامر، وعاصم في رواية أبي بكر عنه، والحسن: «يُسبَّح له فيها» بفتح الباء على ما لم يسمّ فاعلُه. وكان نافع وأبو عمرو[(٢)] وحمزة يقرؤون: «يُسَبِّح» بكسر الباء، وكذلك روى أبو عمر عن عاصم[(٣)].

فمن قرأ: «يُسبَّح» بفتح الباء، كان على معنيين: أحدهما: أن يرتفعَ «رجال» بفعل مضمر دلَّ عليه الظاهرُ، بمعنى يُسبّحه رجال، فيوقف على هذا على «الآصال»[(٤)]. وقد ذكر سيبويه مثل هذا، وأَنشد:

لِيُبْكَ يَزِيدٌ ضارعٌ لخصُومةٍ ومُخْتَبِطٌ مما تُطيح الطَّوائحُ

المعنى: يبكيه ضارع[(٥)]. وعلى هذا تقول: ضُرب زيد عمرو؛ على معنى ضربه عمرو.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/١٨٦، وأخرج أثر سالم بن عبد الله وابن مسعود الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٣٢١-٣٢٢.

(٢) في (م): نافع وابن عمر وأبو عمرو، والمثبت من (د) و(ظ).

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٧٩٨، ووقع في النسخ: أبو عمرو، بدل: أبو عمر، وهو خطأ، وهو أبو عمر حفص بن سليمان راوي عاصم، وقرأ بكسر الباء أيضاً ابن كثير والكسائي. وينظر السبعة ص٤٥٦ والتيسير ص١٦٢.

(٤) إيضاح الوقف والابتداء ٢/٧٩٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/١٨٦، والكتاب لسيبويه ١/٢٨٨ و ٣٦٦ وسلف الشطر الأول للبيت ٨/ ٤٣٢.

والوجه الآخر: أن يرتفعَ «رجالٌ» بالابتداء، والخبر: «في بيوت»؛ أي: في بيوت أَذِن الله أن تُرفع رجالٌ. و«يُسبَّح له فيها» حالٌ من الضمير في «تُرفع»، كأنّه قال: أنْ تُرفع مسبَّحاً له فيها، ولا يوقف على «الآصال» على هذا التقدير.

ومن قرأ: «يُسبِّح» بكسر الباء لم يقف على «الآصال»؛ لأنَّ «يُسبِّح» فعل للرجال، والفعل مضطر إلى فاعله ولا إضمار فيه[١]. وقد تقدَّم القول في «الغدوّ والآصال» في آخر «الأعراف»[٢] والحمد لله وحده.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ قيل: معناهُ يصلِّي. وقال ابن عباس: كلُّ تسبيحٍ في القرآن صلاةٌ، ويدل عليه قولُه: «بِالغدوّ والآصالِ»، أي: بالغداة والعَشِيّ[٣].

وقال أكثر المفسرين: أراد الصلاةَ المفروضةَ؛ فالغدوُّ صلاةُ الصبح، والآصال صلاةُ الظهر والعصر والعشاءين[٤]؛ لأنَّ اسم الآصال يجمعها.

الخامسة عشرة: روى أبو داود[٥]، عن أبي أمامةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ خَرَجَ من بيته متطهِّراً إلى صلاةٍ مكتوبةٍ، فأجرُه كأجر الحاجِّ المُحْرِم، ومَنْ خَرَج إلى تسبيحِ الضُّحى لا يُنصِبه إلا إياه، فأجرُه كأجرِ المُعْتَمِر، وصلاةٌ على إثرِ صلاةٍ [لا لَغْوَ بينهما] كتابٌ في عِلِّيِّين».

وخرّج عن بُريدة، عن النبي ﷺ قال: «بَشِّر المشّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنُّور التَّامِّ يومَ القيامة»[٦].

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/٧٩٨-٧٩٩.

(٢) ٩/٤٣٤-٤٣٥.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٢٠.

(٤) زاد المسير ٦/ ٤٧.

(٥) في سننه (٥٥٨) وما بين حاصرتين منه وفي إسناده القاسم أبو عبد الرحمن، قال المنذري في مختصر معالم السنن ١/ ٢٩٤: فيه مقال.

(٦) سنن أبي داود (٥٦١)، وأخرجه الترمذي (٢٢٣) وقال: هذا حديث غريب. وقال المنذري في =

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غدا إلى المسجدِ أو رَاحَ، أعدَّ اللهُ له نُزُلاً في الجنة كُلَّما غَدَا أو راح»[١].

في غير الصحيح من الزيادة: «كما أنَّ أحدَكم لو زَارَ مَنْ يحب زيارته لاجتهد في كرامته» ذكره الثعلبي[٢].

وخرّج مسلم[٣] من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تطهَّر في بيته، ثمَّ مشى إلى بيتٍ من بيوتِ الله ليقضيَ فريضةً من فرائض الله، كانت خَطْوتاه إحداهما تَحطُّ خطيئةً، والأخرى تَرفعُ درجةً».

وعنه: قال رسول الله ﷺ: «صلاةُ الرَّجل في جماعةٍ تزيدُ على صلاته في بيته وصلاتِه في سُوقه بِضْعاً وعشرين درجةً، وذلك أنَّ أحدَهم إذا توضَّأ فأَحسنَ الوضوءَ، ثمَّ أتى المسجدَ، لا يَنْهَزهُ إلا الصلاةُ، لا يريد إلا الصلاةَ، فلم يَخْطُ خُطوةً إلا رُفع له بها درجةٌ، وحُطَّ عنه بها خطيئةٌ، حتى يدخلَ المسجد، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانتِ الصلاةُ هي تحبِسُهُ، والملائكةُ يُصلُّون على أحدِكم ما دَامَ في مجلسِهِ الذي صلَّى فيه؛ يقولون: اللّهُمَّ ارْحَمه، اللَّهم اغْفِرْ له، اللّهُمّ تُبْ عليه، ما لم يُؤْذِ فيه، ما لم يُحْدِث فيه»[٤].

= مختصر معالم السنن ١/ ٢٩٥ : قال الدارقطني: تفرد به إسماعيل بن سليمان الضبي البصري الكحال عن عبد الله بن أوس.

وأخرجه ابن ماجه (٧٨١) من حديث أنس بن مالك ﷺ، قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٦٨ : هذا إسناد ضعيف؛ سليمان بن داود قال فيه العقيلي: لا يتابع على حديثه.

وأخرجه ابن ماجه أيضاً (٧٨٠) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال في مصباح الزجاجة ١/ ١٦٧ : هذا إسناد فيه مقال؛ إبراهيم بن محمد هذا قال ابن حبان في الثقات: يخطئ. اهـ. وبمجموع هذه الطرق يتحسن الحديث.

(١) صحيح مسلم (٦٦٩)، وهو في صحيح البخاري (٦٦٢)، وأخرجه أحمد (١٠٦٠٨).

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس (٦١٠٤).

(٣) في صحيحه برقم (٦٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (٧٤٣٠)، والبخاري (٤٧٧)، ومسلم (٦٤٩): (٢٧٢). والنهز: الدفع. اللسان (نهز).

في رواية: ما يُحدِثُ؟ قال: «يَفْسُو أو يَضْرِطُ»[(١)].

وقال حكيم بن زُريق: قيل لسعيد بن المسيب: أَحضورُ الجنازةِ أحبُّ إليكَ أمِ الجلوسُ في المسجد؟ فقال: مَنْ صلَّى على جنازةٍ فله قِيراطٌ، ومَنْ شَهدَ دَفْنَها، فله قيراطان، والجلوسُ في المسجد أحبُّ إليَّ؛ لأنَّ الملائكةَ تقول: اللَّهُمَّ اغْفِر له، اللهم ارْحَمْه، اللّهم تُبْ عليه[(٢)].

وروي عن الحكم بن عُمير صاحبِ رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كُونُوا في الدنيا أضيافاً، واتخذوا المساجدَ بيوتاً، وعوّدوا قلوبَكم الرِّقةَ، وأكثروا التَّفكر والبكاء، ولا تختلف بكم الأهواءُ، تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتؤمّلون ما لا تدركون»[(٣)].

وقال أبو الدَّرْداء لابنه: ليكُن المسجدُ بيتَك؛ فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ المساجدَ بيوتُ المُتَّقين، ومن كانت المساجدُ بيتَه، ضَمِنَ الله تعالى له الرَّوح والرَّاحة والجَوَاز على الصِّراط»[(٤)].

---

(١) صحيح مسلم (٦٤٩): (٢٧٤)، وأخرجه أحمد (٩٣٧٤).

(٢) التمهيد ١٩/ ٣٩ - ٤٠ .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٣٥٨ من طريق بقية، عن عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حبيب، عن الحكم بن عمير، به. قال الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٧٤ : قال ابن أبي حاتم عن أبيه: روى عن النبي ﷺ أحاديث منكرة يرويها عيسى بن إبراهيم، وهو ضعيف، عن موسى بن أبي حبيب وهو ضعيف، عن عمه الحكم. وقال ابن عبد البر: رويت عنه أحاديث مناكير من حديث أهل الشام لا تصح.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٣١٧ ، وابن أبي عمر العدني ـ كما في إتحاف المهرة ٢/ ٤٩ والمطالب العالية ٣/ ٥٦١ ـ، وهناد في الزهد (٩٥١) من طريق إسماعيل بن أبي خالد، عن رجل عن محمد بن واسع، عن أبي الدرداء، به. وهذا إسناد ضعيف لإبهام الرجل الراوي عن محمد بن واسع، ولانقطاعه محمد بن واسع لم يسمع من أبي الدرداء.

وأخرجه البزار (٤٣٤) (زوائد) و(٢٧٧) (مختصر) من طريق عبد الله بن المختار، عن محمد بن واسع، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، قال: لتكن المساجد... قال البزار: لا نعلم هذا الحديث بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد، وإسناده حسن، وقد روي نحوه بغير لفظه. وقال الهيثمي في المجمع ٢/ ٢٢ : رجال البزار كلهم رجال الصحيح. اهـ. قلنا: لكن في العلل للدارقطني ٢/ ورقة ٧٣ أن المرسل هو =

وكَتَب أبو صادق الأزدي إلى شُعيب بن الحَبْحاب: أنْ عليكَ بالمساجِدِ فالْزَمْها؛ فإنه بلغني: أنَّها كانت مجالسَ الأنبياء(١).

وقال أبو إدريس الخَوْلانِيّ: المساجدُ مجالسُ الكرام من الناس(٢).

وقال مالك بن دينار: بلغني أنَّ الله تبارك وتعالى يقول: «إني أَهُمُّ بعذابِ عبادي، فأَنظُر إلى عُمَّار المساجدِ وجُلساء القرآنِ ووُلدان الإسلام، فيسكُنُ غضبي»(٣).

ورويَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «سيكونُ في آخر الزَّمان رجالٌ يأتونَ المساجدَ، فيقعُدونَ فيها حِلَقاً حِلَقاً، ذِكْرُهم الدُّنيا وحبُّها، فلا تُجالسوهم، فليس لله بهم حاجة»(٤).

= المحفوظ. يعني الذي ليس فيه: أم الدرداء، وكذا أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٧٢) من طريق مطعم بن المقدام وغيره عن محمد بن واسع، قال: كتب أبو الدرداء إلى سلمان، فذكره.

وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٠٢٩)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٢١٤، والبيهقي في الشعب (١٠٦٥٨) من طريق معمر، عن صاحب له، أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان، فذكره، وهذا إسناد ضعيف لإبهام شيخ معمر.

وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧١٤٥)، والخطيب في تاريخه ٨/ ٣٤٠ من طريق عمرو بن جرير، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال سمعت أبا الدرداء يقول لابنه، فذكره. وعمرو بن جرير، قال أبو حاتم: كان يكذب. الميزان ٣/ ٢٥٠.

وأخرجه الطبراني في الكبير (٦١٤٣)، وأبو نعيم ٦/ ١٧٦ من طريق صالح المري، عن الجريري، عن أبي عثمان قال: كتب سلمان إلى أبي الدرداء، فذكره. قال أبو نعيم: غريب من حديث صالح لم نكتبه إلا من هذا الوجه. اهـ. وقال الهيثمي في المجمع ٢/ ٢٢: فيه صالح المري، وهو ضعيف.

(١) أخرج الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٢٠٠) من قول علي ﷺ: المساجد مجالس الأنبياء.

وأورده الديلمي في مسند الفردوس (٦٦٥٢) من قول أنس ﷺ.

وشعيب بن الحبحاب، هو أبو صالح البصري، تابعي ثقة، توفي سنة ١٣١هـ. وأبو صادق الأزدي كوفي صدوق. تقريب التهذيب.

(٢) أخرجه عنه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٢٣، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٥٦)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٢٠١).

(٣) ذكره في نوادر الأصول ص٤٣.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٤٥٢)، وابن عدي في الكامل ٢/ ٤٩٣، وأبو نعيم في الحلية =

وقال ابن المسيِّب: من جلس في مسجد فإنَّما يجالس ربّه[١]، فما حقّه أن يقول إلا خيراً. وقد مضى من تعظيم المساجد وحرمتها ما فيه كفاية[٢].

وقد جمع بعضُ العلماء في ذلك خمسَ عشرة خصلة، فقال: من حرمة المسجد أن يُسلِّم وقتَ الدُّخول إنْ كان القومُ جلوساً، وإن لم يكن في المسجد أحدٌ قال: السلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين، وأن يركعَ ركعتين قبل أن يجلس، وألا يشتري فيه ولا يبيع، ولا يَسُلَّ فيه سَهْماً ولا سيفاً، ولا يطلب فيه ضالَّةً، و لا يرفع فيه صوتاً بغير ذكر الله تعالى، ولا يتكلَّم فيه بأحاديثِ الدنيا، ولا يتخطَّى رقابَ الناس، ولا يُنازع في المكان، ولا يُضيِّق على أحدٍ في الصف، ولا يَمرّ بين يدي مصلٍّ، ولا يبصق، ولا يتنخّم، ولا يتمخّط فيه، ولا يفرقع أصابعَه، ولا يَعبث بشيءٍ من جسده، وأن يُنَزَّه عن النجاسات والصبيان والمجانين، وإقامةِ الحدود، وأن يُكثرَ ذكرَ الله تعالى ولا يغفلَ عنه. فإذا فعل هذه الخصال، فقد أدّى حقَّ المسجد، وكان المسجدُ حرزاً له وحِصْناً من الشيطان الرجيم.

وفي الخبر: «أنَّ مسجداً ارتفع بأهلِه إلى السماء يشكُوهم إلى الله لما يتحدَّثون فيه من أحاديث الدنيا»[٣].

وروى الدّارَقُطْنِيّ عن عامر الشَّعْبِيّ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقترابِ الساعةِ أن يُرَى الهلالُ قَبَلاً، فيقال: لليلتين، وأن تُتّخذ المساجد طُرُقاً، وأن يظهرَ موتُ

= ٤/ ١٠٩ . من حديث ابن مسعود، مرفوعاً. قال ابن عدي: لا أعلم يرويه غير بزيع أبو الخليل. وقال أبو نعيم: غريب من حديث الأعمش تفرد به ابن صدران عن بزيع، وبزيع هو الخصاف البصري واهي الحديث. وقال ابن حبان في المجروحين ١/ ٢٠٠ : روى بزيع هذا أحرفاً يسيرة إلا أن فيها مناكير لا تشبه حديث الأثبات، فوجب مجانبته في الروايات. وقال في مجمع الزوائد ٢/ ٢٤ : رواه الطبراني في الكبير، وفيه بزيع، ونسب إلى الوضع.

(١) سلف ص٢٦٩ من هذا الجزء.

(٢) ١٠/ ١٣٤ فما بعدها.

(٣) لم نقف عليه.

الفجأة». هذا يرويه عبد الكبير بن المعافى، عن شريك، عن العباس بن ذَرِيح، عن الشعبي، عن أنس، وغيره يرويه عن الشعبي مرسلاً، والله أعلم[١].

وقال أبو حاتم: عبد الكبير بن معافى ثقة كان يُعَدّ من الأبدال[٢].

وفي البخاري: عن أبي موسى، عن النبيّ ﷺ قال: «مَنْ مَرَّ في شيءٍ من مساجدنا أو أسواقنا بنَبْلٍ، فليأخُذْ على نِصالها؛ لا يَعْقِر بكفِّه مسلماً»[٣].

وخرّج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «البُزاقُ في المسجدِ خطيئةٌ، وكفَّارتها دَفْنُها»[٤]. وعن أبي ذَرٍّ عن النبيّ ﷺ قال: «عُرِضت عليَّ أعمالُ أُمّتي حَسَنُها وسيئُها، فوجدتُ في محاسن أعمالها الأذى يُماطُ عن الطريق، ووجدتُ في مساوي أعمالها النُّخاعَةُ تكون في المسجد لا تُدفن»[٥].

وخرّج أبو داود عن الفَرَج بن فَضالة، عن أبي سعيد الحميري[٦] قال: رأيتُ واثلةَ بن الأَسْقع في مسجد دمشق بَصَق على الحصير، ثمَّ مَسَحَه برجله، فقيل له: لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: لأنِّي رأيت رسولَ الله ﷺ يفعله[٧]. فرج بن فضالة ضعيف، وأيضاً:

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٣٧٦)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٣٢٥) (٢٣٢٦) (٢٣٢٧) قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن العباس بن ذريح إلا شريك، تفرد به عبد الكبير بن المعافى. اهـ. وقال الضياء: ذكر الدارقطني هذه الرواية. ثم قال: وغيره يرويه عن الشعبي مرسلاً، والله أعلم. اهـ. قلنا: وشريك ضعيف.

وأخرجه مرسلاً ابن أبي شيبة ١٥/ ١٦٦، والداني في السنن الواردة في الفتن ٤/ ٧٩٣ مختصراً. قوله: «أن يُرى الهلال قَبَلاً»، أي: يُرى ساعة ما يطلع؛ لعظمه ووضوحه، من غير أن يُتطلَّب، وهو بفتح القاف والباء. النهاية (قبل).

(٢) الجرح والتعديل ٦/ ٦٣. والأبدال: هم الأولياء والعبّاد، سمّوا بذلك لأنهم كلما مات واحد منهم أبدل بآخر. النهاية (بدل).

(٣) صحيح البخاري (٤٥٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٥٤٥)، ومسلم (٢٦١٥).

(٤) صحيح مسلم (٥٥٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٣٤٣٣)، والبخاري (٤١٥).

(٥) أخرجه أحمد (٢١٥٤٩)، ومسلم (٥٥٣). والنخاعة: البزقة التي تخرج من أصل الفم. النهاية (نخع).

(٦) في النسخ: الخدري، والتصويب من سنن أبي داود، وتحفة الأشراف ٩/ ٨١.

(٧) سنن أبي داود (٤٨٤)، وهو في مسند أحمد (١٦٠٠٩). وإسناده ضعيف. أبو سعيد الحميري مجهول، وفرج بن فضالة ضعيف كما ذكر المصنف.

فلم يكن في مسجدِ رسول الله ﷺ حُصُر، والصحيح أنَّ رسولَ الله ﷺ إنَّما بَصَق على الأرض ودلكه بنعله اليسرى[١]، ولعلّ واثلةَ إنَّما أراد هذا فحمل الحصير عليه.

السادسة عشرة: لما قال تعالى: «رجال» وخصَّهم بالذِّكر، دلَّ على أنَّ النساءَ لا حظَّ لهنَّ في المساجد؛ إذ لا جُمعةَ عليهنَّ ولا جماعة[٢]، وأنَّ صلاتهن في بيوتهن أفضلُ. روى أبو داود عن عبد الله ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال: «صلاةُ المرأةِ في بيتها أفضلُ من صلاتِها في حُجْرتها، وصلاتُها في مَخْدعها أفضلُ من صلاتها في بيتها»[٣].

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ﴾ أي: لا تشغلهم ﴿تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ خصّ التجارة بالذكر؛ لأنَّها أعظمُ ما يشتغل بها الإنسانُ عن الصلاة، فإن قيل: فلمَ كرَّر ذِكْرَ البيعِ والتجارةُ تشملُه؟ قيل له: أراد بالتجارةِ الشراءَ؛ لقوله ﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾. نظيرُه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الجمعة: ١١] قاله الواقدي[٤].

وقال الكلبي: التجارُ هم الجُلّاب المسافرون، والباعةُ هم المقيمون[٥].

﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ اختلف في تأويله: فقال عطاء: يعني حضورَ الصلاة[٦]. وقاله ابن عباس، وقال: المكتوبة[٧].

وقيل: عن الأذان، ذكره يحيى بن سلام. وقيل: عن ذكره بأسمائه الحسنى[٨]؛ أي: يُوحِّدونه ويمجِّدونه.

---

(١) صحيح مسلم (٥٥٤).

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٨.

(٣) سنن أبي داود (٥٧٠). والمخدع: هو البيت الصغير الذي يكون داخل البيت الكبير، وتضم ميمه وتفتح. النهاية (خدع).

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٨. دون ذكر الواقدي، وزاد المسير ٦/ ٤٧.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٠٧.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٤٣٩.

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٢٢، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٠٨.

(٨) النكت والعيون ٤/ ١٠٧.

والآية نزلت في أهل الأسواق. قاله ابن عمر. قال سالم: جاز عبد الله بنُ عمر بالسّوق وقد أغلقُوا حوانيتَهم وقاموا ليُصلُّوا في جماعة، فقال: فيهم نزلت ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ الآية(١).

وقال أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ: «هم الذين يضربونَ في الأرض يبتغونَ من فضل الله»(٢).

وقيل: إنَّ رجلين كانا في عهد النبيِّ ﷺ، أحدُهما بياعاً، فإذا سمع النداءَ بالصلاة، فإن كان الميزانُ بيده طَرَحه ولا يضعه وَضْعاً، وإن كان بالأرض لم يرفعه، وكان الآخر قَيْناً يعملُ السيوفَ للتجارة، فكان إذا كانت مِطْرقتُه على السَّنْدان أبقاها موضوعة، وإن كان قد رَفَعها ألقاها من وراءِ ظهره إذا سمع الأذانَ؛ فأنزل الله تعالى هذا ثناءً عليهما وعلى كلٍّ من اقتدى بهما.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: هذا يدلّ على أنَّ المرادَ بقوله: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ غير الصلاة؛ لأنَّه يكون تكراراً.

يقال: أقام الصلاة إقامةً، والأصل: إقوامةٌ(٣)، فقلبت حركةُ الواو على القاف فانقلبت الواو ألفاً وبعدها ألفٌ ساكنة، فحذفت إحداهما، وأُثبتت الهاء لئلا تحذفها فتُجْحف، فلما أُضيفت قام المضاف [إليه] مقام الهاء، فجاز حذفها، وإن لم تضف لم يجز حذفها؛ ألا ترى أنك تقول: وَعَد عِدَة، ووَزَن زِنَة؛ فلا يجوز حذفُ الهاء؛ لأنَّك قد حذفت واواً؛ لأنَّ الأصلَ وَعَد وِعْدَةً، ووَزَن وِزْنة، فإن أضفت حذفت الهاء، وأنشد الفراء:

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٣٩ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٤٨ ، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٦١ .

(٢) ذكره الديلمي في الفردوس ٥/ ٧٩ ، وقال أبو حاتم كما في العلل ١/ ٣٩٤ . حديث رواه ابن وهب، عن ابن لهيعة، عن دراج، عن ابن حجيرة، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ فذكره، قال: هذا حديث منكر، ودراج في حديثه صنعة. وأورده الديلمي أيضاً ٢/ ٢٧٧ ، عن أبي سعيد ﷺ.

(٣) في (م): إقواماً، وفي (د): قوامه.

إنّ الخَلِيطَ أجَدُّوا البَيْنَ فانْجَرَدُوا وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذي وَعَدُوا[١]

يريد: عِدَة، فحذف الهاء لما أضاف.

وروي من حديث أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يأتي اللهُ يومَ القيامة بمساجدِ الدنيا كأنَّها نُجُب بيضٌ، قوائمُها من العنبر، وأعناقُها من الزَّعفران، ورؤوسها من المسك، وأزِمّتها من الزَّبرجد الأخضر، وقُوّامُها والمؤذنون فيها يقودونها، وأئمتُها يسوقونها، وعُمّارُها متعلقون بها، فتجوز عَرَصات القيامة كالبرق الخاطف، فيقول أهل الموقف: هؤلاء ملائكةٌ مقرَّبون أو أنبياء مرسلون، فينادَى: ما هؤلاء بملائكةٍ ولا أنبياءَ، ولكنَّهم أهلُ المساجد والمحافظون على الصلوات من أُمة محمد ﷺ»[٢].

وعن عليّ ﷺ أنَّه قال: يأتي على الناسِ زمانٌ لا يبقى من الإسلام إلا اسمُه، ولا من القرآنِ إلا رَسْمُه، يعمرون مساجدَهم وهي من ذكر الله خَرَاب، شرُّ أهلِ ذلك الزَّمن علماؤهم، منهم تخرج الفتنةُ وإليهم تعودُ. يعني أنَّهم يعلمون ولا يعملون بواجبات ما علموا[٣].

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ قيل: الزكاة المفروضة. قاله الحسن. وقال ابن عباس: الزكاة هنا: طاعةُ الله تعالى والإخلاص[٤]؛ إذ ليس لكلِّ مؤمن مال.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٤، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٩-١٤٠، وما سلف بين حاصرتين منه. الخليط: القوم الذين أمرهم واحد، والبين: الفُرقة. اللسان (خلط)، (بين).

(٢) سلف ص٢٧٥ من هذا الجزء.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٤٣، والداني في السنن الواردة في الفتن ٣/ ٥٤٥، والبيهقي في الشعب (١٩٠٩) وفي إسناده عبد الله بن دكين، قال معين: ليس بشيء، وفي إسناده انقطاع.

وأخرجه ابن عدي أيضاً ٤/ ١٥٤٣ والبيهقي في الشعب (١٩٠٨) عن علي مرفوعاً. وإسناده ضعيف كسابقه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٦، وأخرج قول ابن عباس ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٠٩.

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يعني: يومَ القيامة ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ يعني من هولهِ وحَذَرِ الهلاك. والتقلّب: التحوّل، والمرادُ: قلوبُ الكفار وأبصارهم، فتقلُّبُ القلوب: انتزاعُها من أماكنها إلى الحناجر، فلا هي تَرجعُ إلى أماكنها، ولا هي تخرج[١]. وأما تقلّب الأبصار فالزَّرَق بعد الكَحَل، والعَمَى بعد البصر. وقيل: تتقلَّب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك، والأبصار تنظر من أيّ ناحية يُعطَون كتبهم، وإلى أيّ ناحية يؤخذ بهم[٢].

وقيل: إنَّ قلوبَ الشاكّين تتحول عمَّا كانت عليه من الشك، وكذلك أبصارهم؛ لرؤيتهم اليقين، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] فما كان يراه في الدنيا غَيّاً يراه رُشْداً، إلا أنَّ ذلك لا ينفعهم في الآخرة.

وقيل: تقلّب على جمر جهنم، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأحزاب:٦٦]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام:١١٠] في قول من جعل المعنى تقلّبها على لهب النار.

وقيل: تقلب بأن تلفحها النارُ مرةً وتُنْضِجها مرة. وقيل: إن تقلب القلوب وَجيبُها[٣]، وتقلّب الأبصار النظر بها إلى نواحي الأهوال[٤].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ فذكَر الجزاء على الحسنات، ولم يذكر الجزاءَ على السيئات ـ وإنْ كان يُجازي عليها ـ لأمرين: أحدهما: أنَّه ترغيب، فاقتصر على ذكر الرغبة. الثاني: أنّه في صفة قومٍ لا تكون منهم الكبائر؛ فكانت صغائرهم مغفورة.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: ما يُضاعفه من الحسنة بعشر أمثالها. الثاني: ما يتفضَّل به من غير جزاء[٥].

(١) تفسير البغوي ٣/٣٤٨.

(٢) زاد المسير ٦/٤٨.

(٣) وجب القلب وجيباً: اضطرب. الصحاح (وجب).

(٤) النكت والعيون ٤/١٠٧.

(٥) النكت والعيون ٤/١٠٨.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير أن يُحاسبه على ما أعطاه؛ إذ لا نهايةَ لعطائه.

ورويَ أنَّه لمّا نزلت هذه الآيةُ، أمر رسولُ الله ﷺ ببناء مسجدِ قُبَاء، فحَضَر عبدُ الله بن رَوَاحة، فقال: يا رسولَ الله، قد أفلَح من بنى المساجد؟ قال: «نعم يا ابنَ رواحة» قال: وصلَّى فيها قائماً وقاعداً؟ قال: «نعم يا ابنَ رواحة» قال: ولم يَبِت لله إلا ساجداً؟ قال: «نعم يا ابنَ رواحة، كُفَّ عن السَّجْع، فما أُعطيَ عبدٌ شيئاً شرًّا من طلاقة في لسانه». ذكره الماوَرْدِيّ[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ لمَّا ضرب مَثَلَ المؤمن؛ ضرب مَثَلَ الكافر. قال مقاتل: نزلت في شيبةَ بنِ ربيعةَ بن عبد شمس، كان يترهَّب متلمِّساً[٢] للدِّين، فلمَّا خرج ﷺ كفر[٣]. أبو سهل: في أهل الكتاب. الضحاك: في أعمال الخير للكافر، كصلة الرَّحم ونفع الجيران.

والسَّراب: ما يُرَى نصفَ النهار في اشتداد الحَرِّ، كالماء في المفاوِز، يلتصق بالأرض[٤]. والآلُ: الذي يكون ضُحىً كالماء، إلَّا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين الأرض والسماء[٥]. وسُمِّيَ السَّراب سراباً؛ لأنه يَسْرُب، أي: يجري كالماء[٦]. ويقال: سَرَب الفحل، أي: مضى وسار في الأرض. ويُسمَّى الآلَ أيضاً،

---

(١) في النكت والعيون ٤/١٠٨ .

(٢) في (ز) و (ظ): ملتمساً.

(٣) بعدها في (ظ): به، وذكر نحو هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١١٠ ولم ينسبه.

(٤) تهذيب اللغة ١٢/٤١٦ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٤ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢١٦ ، وزاد المسير ٦/ ٤٩ .

(٦) تهذيب اللغة ١٢/٤١٦ .

ولا يكون إلَّا في البَرِّيَّة والحرّ، فيغترُّ به العطشان. قال الشاعر:

فكنت كمُهْرِيق الذي في سِقائه ... لِرَقراقِ آلٍ فوق رابِيَةٍ صَلْدِ[1]

وقال آخر:

فلمَّا كَفَفْنا الحربَ كانت عهودُهم ... كلَمْعِ سَرَابٍ بالفلا متألِّقِ[2]

وقال امرؤ القيس:

ألم أُنْضِ المَطِيَّ بكلِّ خَرْقٍ ... طويلِ الطُّولِ لَمَّاعِ السَّرابِ[3]

والقِيعة جمعُ القاع، مثلُ: جِيرة وجار؛ قاله الهَرَويُّ[4]. وقال أبو عبيدة[5]: قِيعةٌ وقاعٌ واحد. حكاه النحاس[6]. والقاع ما انبسط من الأرض واتسع، ولم يكن فيه نبت[7]، وفيه يكون السَّراب[8]. وأصلُ القاع: الموضعُ المنخفضُ الذي يستقرُّ فيه الماء، وجمعه قِيعان. قال الجوهري[9]: والقاع: المستوي من الأرض، والجمع أَقْوُع وأَقْواع وقِيعان، صارت الواو ياءً لكسرة[10] ما قبلها، والقِيعةُ مثلُ القاع، وهو

(١) نسبه محمد بن عبد الرحمن العبيدي في التذكرة السعدية ص٩٣ ، والبغدادي في الخزانة ٩/ ٢٧٩ للعديل بن الفُرخ، ونسبه ابن ميمون في منتهى الطلب ٨/ ١٨٠ لأبي الأخيل العجلي. وجاء في التذكرة السعدية ومنتهى الطلب: لكنت، بدل: فكنت. والرابية: ما ارتفع من الأرض. والصَّلْد: الصُّلْب الأملس. القاموس (ربا) و(صلد).

(٢) سلف ١/ ٣٤٢ ، وجاء هناك: عهودكم، بدل: عهودهم. وفي الملا، بدل: بالفلا.

(٣) ديوان امرئ القيس ص٩٨ ، وفيه: أمَقّ الطول، بدل: طويل الطول. وقوله: ألم أُنْضِ المطيَّ، يقول: ألم أُهزل المطيَّ بطول السفر ودؤب السير بكل فلاة منخرقة. نقلاً عن شرح الديوان.

(٤) في غريب الحديث ٢/ ٢٣٩ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٦٦ .

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٥٤٠ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٧ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٤٠ ، وزاد المسير ٦/ ٤٩ .

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٩ .

(٩) في الصحاح (قوع).

(١٠) في (د) و(ز) و(م): لكسر.

أيضاً من الواو. وبعضهم يقول: هو جمع.

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ أي: العطشان. ﴿مَآءً﴾ أي: يحسَب السَّراب ماءً[١]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ مما قدَّره، ووجد أرضاً لا ماء فيها[٢]. وهذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكفار، يُعَوِّلون على ثواب أعمالهم، فإذا قَدِموا على الله تعالى، وجدوا ثواب أعمالهم محبَطةً بالكفر[٣]، أي: لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السَّراب إلَّا أرضاً لا ماء فيها، فهو يهلِكُ أو يموت. ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: وجد الله بالمِرصاد. ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: جزاءَ عمله[٤]. قال امرؤ القيس:

فَـوَلَّـى مُـدْبِـراً يَـهْـوي حَـثِـيـثـاً وأيـقـن أنَّـه لاقَـى الـحِـسـابَـا[٥]

وقيل: وَجَد وعْد الله بالجزاء على عمله. وقيل: وجد أمر الله عند حَشْره[٦]، والمعنى متقارب.

وقُرِئ: «بقِيْعات»[٧]. المهدويُّ: ويجوز أن تكون الألف مُشْبعَة من فتحة العين. ويجوز أن تكون مثل رَجُلٍ عِزْهٍ وعِزْهاة، للذي لا يَقْرب النساء. ويجوز أن يكون جمع قِيعة، ويكون على هذا بالتاء في الوصل والوقف.

ورُوِيَ عن نافع وأبي جعفر وشيبة: «الظَّمان» بغير همز[٨]، والمشهور عنهما الهمز، يقال: ظمِئ يَظْمَأ فهو ظَمآن، وإن خفَّفت الهمزة، قلت: الظَّمان.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٠٩ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٤١ .

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٠٩ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٩ .

(٥) هو في النكت والعيون ٤/ ١٠٩ دون قوله: يهوي حثيثاً، ولم نقف عليه في ديوانه.

(٦) ذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٠٩ .

(٧) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٢ ، وابن جني في المحتسب ٢/ ١١٣ لمسلمة بن محارب.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٧ .

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ابتداء ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ ابتداء ثان. والكاف من ﴿كَسَرَابِۭ﴾ الخبرُ، والجملةُ خبرٌ عن «الذين». ويجوز أن تكون ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدلاً من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[١]، أي: وأعمالُ الذين كفروا كسراب، فحذف المضاف.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ﴾ ضرب تعالى مثلاً آخر للكفار، أي: أعمالُهم كسراب بِقِيعة أو كظلمات. قال الزجاج: إن شئتَ مَثِّلْ بالسَّراب، وإن شئتَ مَثِّلْ بالظلمات[٢]. فـ «أو» للإباحة حسبما تقدَّم من القول في ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ﴾[٣] [البقرة: ١٩]. وقال الجُرْجَانيُّ: الآيةُ الأولى في ذِكْر أعمال الكفار، والثانيةُ في ذِكر كفرهم، ونُسِّق الكفر على أعمالهم؛ لأن الكفر أيضاً من أعمالهم، وقد قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أي: من الكفر إلى الإيمان. وقال أبو علي: «أوْ كظلمات»: أو كذي الظلمات، ودلَّ على هذا المضافِ قولُهُ تعالى: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾، فالكنايةُ تعود إلى المضاف المحذوف[٤].

قال القشيريُّ: فعند الزجَّاج التمثيلُ وقع لأعمال الكفار، وعند الجُرْجاني لكفر الكافر، وعند أبي عليٍّ للكافر.

وقال ابن عباس في رواية: هذا مَثَلُ قلب الكافر[٥].

---

(١) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٠ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٨ .

(٣) ذكرَ المصنف في تفسير قوله: «أو كصيب» ١/ ٣٢٦ أن «أو» للتخيير، وثمة فرق بين التخيير والإباحة، فيمكن الجمع بين الشيئين في الإباحة، ويمتنع ذلك في التخيير، ينظر مغني اللبيب ص٨٩ - ٩٠ .

(٤) أورد قول أبي علي الطبرسيُّ في مجمع البيان ١٨/ ٥٣ .

(٥) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٣٠ بنحوه.

﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ قيل: هو منسوب إلى اللُّجَّة، وهو الذي لا يُدْرَكُ قَعْره. واللُّجَّةُ مُعظم الماء، والجمع لُجَج. والتَجَّ البحر: إذا تلاطمت أمواجه، ومنه ما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن رَكب البحر إذا التَجَّ، فقد بَرِئت منه الذِّمة»[1]. والتجَّ الأمر: إذا عَظُم واختلط. وقولُه تعالى: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النمل:٤٤]، أي: مالَه عمق. ولَجَّجَتِ السفينة، أي: خاضت اللُّجَّة، بضمِّ اللام.

فأمَّا اللَّجَّةُ ـ بفتح اللام ـ فأصوات الناس، تقول: سمعت لَجَّةَ الناس، أي: أصواتَهم وضجَّتَهم[2]. قال أبو النَّجْم:

فـي لَـجَّـةٍ أمْـسِـكْ فُـلانـاً عـن فُـلِ[3]

والتجَّت الأصوات، أي: اختلطت وعَظُمت.

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ أي: يعلو ذلك البحرَ اللُّجِّيَّ مَوْج[4]. ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي: من فوق الموج موجٌ، ومن فوق هذا الموجِ الثاني سحابٌ، فيجتمع خوفُ الموج وخوفُ الرِّيح[5] وخوفُ السَّحاب.

وقيل: المعنى يغشاه موجٌ من بعده موج، فيكون المعنى: المَوْجُ يَتْبع بعضُه بعضاً حتى كأنَّ بعضَه فوق بعض، وهو أَخْوفُ ما يكون إذا توالى مَوْجُه وَتقارَب، ومن فوق هذا الموجِ سحاب. وهو أعظمُ للخوف من وجهين: أحدُهما: أنه قد غَطَّى النجوم

(١) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ١/ ٢٧٥ ، وأحمد (٢٠٧٤٨)، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٤٢٦ والحديث ضعيف لاضطراب إسناده. وينظر الكلام عليه مفصلاً في مسند أحمد. وجاء عند أحمد: ... عند ارتجاجه فمات. وعند البخاري: حين يرتج فهلك. قال أبو عبيد: وأكثر ظني أنه: التج.

(٢) في (د) و (م): وصخبهم، والمثبت من(ظ) و (ف)، وهو الموافق لما في الصحاح (لجج)، والكلام منه.

(٣) ديوان أبي النجم العجلي ص١٩٩ ، قوله: فُل، أي: فلان.

(٤) الوسيط ٣/ ٣٢٢ ، وزاد المسير ٦/ ٥٠ .

(٥) في (ظ): البحر.

التي يُهتدَى بها. الثاني: الريح التي تنشأ مع السحاب، والمطر الذي يَنْزل منه[١].

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن والبَزِّيُّ عن ابن كثير: ﴿سحابُ ظلماتٍ﴾ بالإضافة والخفض. قُنْبل: ﴿سَحَابٌ﴾ منوَّناً، ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ بالجرِّ والتنوين. الباقون بالرفع والتنوين[٢]. قال المهدويُّ: مَن قرأ: ﴿مِن فَوقِهِ سحابُ ظلماتٍ﴾ بالإضافة، فلأن السَّحاب يرتفع وقت هذه الظلمات، فأُضيف إليها، كما يقال: سحابُ رحمةٍ، إذا ارتفع في وقت المطر. ومَن قرأ: ﴿سحابٌ ظلماتٍ﴾ جَرَّ «ظلماتٍ» على التأكيد لـ«ظلماتٍ» الأولى أو البدلِ منها. و«سحابٌ» ابتداء و«من فوقه» الخبر. ومَن قرأ: «سحابٌ ظلماتٌ» فظلمات خبرُ ابتداء محذوف، التقدير: هي ظلماتٌ، أو: هذه ظلمات.

قال ابن الأنباريِّ[٣]: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٌ﴾ غيرُ تام؛ لأن قوله: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌ﴾ صلةٌ للمَوْج، والوقف على قوله: ﴿مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌ﴾ حَسَن، ثم تبتدئ: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ على معنى: هي ظلماتٌ بعضُها فوق بعض. ورُوِيَ عن أهل مكَّةَ أنهم قرؤوا: «ظُلُماتٍ» على معنى: أو كظُلُماتٍ ظُلُماتٍ[٤] بعضها فوق بعض، فعلى هذا المذهب لا يَحسُن الوقف على السحاب.

ثم قيل: المرادُ بهذه الظُّلمات: ظلمةُ السَّحاب، وظلمةُ الموج، وظلمةُ اللَّيل، وظلمةُ البحر[٥]، فلا يبصر من كان في هذه الظلمات شيئاً ولا كَوْكباً. وقيل: المرادُ بالظُّلمات الشَّدائد، أي: شدائدُ بعضُها فوق بعض[٦]. وقيل: أراد بالظُّلماتِ أعمالَ

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١١٠ .

(٢) السبعة ص٤٥٧ ، والتيسير ص١٦٢ .

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٩٩-٨٠٠ .

(٤) قوله: ظلمات، ليس في (د).

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٤٣ ، والنكت والعيون ٤/ ١١١ ولم يذكرا ظلمة الموج، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٠ ، والوسيط ٣/ ٣٢٢ ، ولم يذكرا ظلمة الليل.

(٦) النكت والعيون ٤/ ١١١ .

الكافر، وبالبحرِ اللُّجِّيِّ قلبَه، وبالموج فوق الموج ما يغشى قلبَه من الجهل والشكِّ والحَيْرة، وبالسحاب الرَّيْنَ والخَتْمَ والطَّبع على قلبه[١]. رُوِيَ معناه عن ابن عباس[٢] وغيره، أي: لا يُبصر بقلبه نورَ الإيمان، كما أن صاحب الظُّلمات في البحر إذا أخرج يده لم يكد يراها.

وقال أُبَيُّ بن كعب: الكافرُ يتقلَّب في خمسٍ من الظُّلمات: كلامُهُ ظُلمة، وعملُه ظُلمة، ومدخلُه ظلمة، ومخرجُهُ ظلمة، ومصيرُه يوم القيامة إلى الظُّلمات في النار وبئس المصير[٣].

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾ يعني الناظر. ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ أي: من شدَّة الظُّلمات. قال الزَّجَّاج وأبو عبيدة: المعنى لم يَرَها ولم يَكَد[٤]، وهو معنى قول الحسن[٥]. ومعنى «لم يَكَدْ»: لم يطمع أن يراها[٦].

وقال الفَرَّاء: «كاد» صلةٌ، أي: لم يرها[٧]، كما تقول: ما كدت أعرفه.

وقال المبرِّد: يعني: لم يرها إلا من بعد الجَهْد، كما تقول: ما كدت أراك من الظُّلمة، وقد رآه بعد يأس وشدَّة[٨].

وقيل: معناه: قَرُب من الرؤية ولم يَرَ، كما يقال: كاد العروس يكون أميراً، وكاد النَّعَام يطير[٩]، وكاد المنتعِل يكون راكباً.

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٥٠.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٣٠.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٣١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١٤ (١٤٦٨٨)، والحاكم ٢/ ٤٠٠.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٨، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٤/ ٥٤٢.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١١١، والوسيط ٣/ ٣٢٣.

(٦) النكت والعيون ٤/ ١١١.

(٧) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٥، ونقله عنه المصنف بواسطة البغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٠.

(٨) كذا ذكر المصنف والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٥٠ عن المبرد، والذي في المقتضب ٣/ ٧٥، والكامل ١/ ٢٥٢ قوله: لم يرها ولم يكد، أي: لم يدن من رؤيتها.

(٩) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٥٠.

النحاس[١]: وأصحُّ الأقوال في هذا أن المعنى: لم يقارب رؤيتها، فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يَرَها[٢] رؤية بعيدة ولا قريبة.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ يهتدي به، أظلمتْ عليه الأمور. وقال ابن عباس: أي: مَن لم يجعل الله له دِيناً، فما له من دين، ومَن لم يجعل الله له نوراً يمشي به يوم القيامة، لم يهتدِ إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾[٣] [الحديد:٢٨]. وقال الزجاج[٤]: ذلك في الدنيا، والمعنى: مَن لم يهده الله لم يهتد.

وقال مقاتل بن سليمان: نزلت في عتبةَ بنِ ربيعة، كان يلتمس الدِّين في الجاهلية، ولَبِسَ المُسُوح، ثم كفر في الإسلام[٥]. الماوَرْديُّ[٦]: في شيبةَ بن ربيعة، وكان يترهَّب في الجاهلية، ويلبسُ الصُّوف، ويطلب الدِّين، فكفر في الإسلام.

قلت: وكلَاهُمَا مات كافراً، فلا يبعد أن يكونا هما المراد بالآية وغيرُهما.

وقد قيل: نزلت في عبيد الله[٧] بن جَحْش، وكان أسلم وهاجر إلى أرض الحبشة ثم تنصَّر بعد إسلامه. وذكر الثَّعلبيُّ: وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «إن الله تعالى خلقني من نور، وخلق أبا بكرٍ من نوري، وخلق عمرَ وعائشةَ من نور أبي بكر، وخلق المؤمنين من أمتي من نور عمر، وخلق المؤمناتِ من أمتي من نور عائشة، فمن لم يحبَّني ويحبَّ أبا بكر وعمرَ وعائشةَ، فما له من نور»، فنزلت: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[٨].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٥٤٢ .

(٢) في (ظ): فإذاً فلم يرها. . . ، بدل: فإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها. . .

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٢٣ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٠ مختصراً.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٨ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٥٠ ، والمُسُوح جمع مِسح وهو كساء غليظ من شعر. معجم متن اللغة (مسح).

(٦) في النكت والعيون ٤/ ١١٠ .

(٧) في النسخ: عبد الله، وهو خطأ، وينظر الإصابة ١٢/ ٢٦٠ .

(٨) أورده الديلمي في الفردوس (٦٤٠) عن ابن عباس بنحوه مختصراً. والذهبي في الميزان ١/ ١٦٦ عن =

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ لمَّا ذكر وضوح الآيات، زاد في الحجَّة والبيِّنات، وبيَّن أن مصنوعاتِه تدلُّ بتغييرها على أنَّ لها صانعاً قادراً على الكمال، فله بِعْثةُ الرُّسل، وقد بعثهم وأيَّدهم بالمعجزات، وأخبروا بالجنة والنار. والخطاب في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للنبيِّ ﷺ، ومعناه: ألم تعلم، والمرادُ الكُلُّ.

﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الملائكة. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ من الجنِّ والإنس. ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ قال مجاهد وغيره: الصلاةُ للإنسان، والتسبيحُ لِمَا سواه من الخلق[(١)]. وقال سفيان: للطَّير صلاةٌ ليس فيها ركوع ولا سجود. وقيل: إنَّ ضَرْبها بأجنحتها صلاةٌ، وإنَّ أصواتها تسبيح. حكاه النقَّاش[(٢)]. وقيل: التسبيح ها هنا ما يُرى في المخلوق من أثَر الصَّنعة. ومعنى ﴿صَافَّاتٍ﴾: مصطفَّاتِ الأجنحةِ في الهواء.

وقراءة[(٣)] الجماعة: ﴿وَالطَّيْرُ﴾ بالرفع عطفاً على «مَنْ». وقال الزجاج[(٤)]: ويجوز «والطيرَ» بمعنى: مع الطَّير. قال النحاس[(٥)]: وسمعته يخبر: قمتُ وزيداً، بمعنى: مع زيد. قال: وهو أجودُ من الرفع. قال: فإن قلت: قمت أنا وزيدٌ، كان الأجود الرفع،

= أبي هريرة بنحوه مختصراً. قال الذهبي: قال أبو نعيم: هذا باطل مخالف كتاب الله.

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٤٣ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٣٣٣ ، والنحاس في معاني القرآن ٤/ ٥٤٣ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١٦ (١٤٧٠٢).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١١٢ .

(٣) في (م): وقرأ.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٤١ وما قبله منه.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٤١ .

ويجوز النصب.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يجوز أن يكون المعنى: كلٌّ قد علم اللهُ صلاتَه وتسبيحه[١]، أي: عَلِم صلاة المصلِّي وتسبيحَ المسبِّح. ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه طاعتُهم ولا تسبيحُهم[٢]. ومن هذه الجهة يجوز نصب «كلّ» عند البصريين والكوفيين[٣] بإضمار فعل يفسِّره ما بعده. وقيل: المعنى: قد عَلِم كلُّ مُصَلٍّ ومسبِّح صلاةَ نفسه وتسبيحَه الذي كُلِّفه[٤].

وقرأ بعض الناس: «كلٌّ قد عُلِم صلاتُه وتسبيحُه» غير مسمَّى الفاعل[٥]. وذكر بعض النَحْويين أن بعضهم قرأ: «كلٌّ قد عَلَّم صلاتَه وتسبيحه»، فيجوز أن يكون تقديره: كلٌّ قد علَّمه الله صلاته وتسبيحه. ويجوز أن يكون المعنى: كلٌّ قد علَّم غيرَه صلاته وتسبيحَه، أي: صلاةَ نفسه، فيكون التعليم الذي هو الإفهام، والمراد الخصوص؛ لأن من الناس مَن لم يُعَلِّم.

ويجوز أن يكون المعنى: كلٌّ قد استدلَّ منه المستدِلُّ، فعبَّر عن الاستدلال بالتعليم. قاله المهدويُّ.

والصلاة هنا بمعنى التسبيح، وكُرِّر تأكيداً، كقوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٦] [طه:٧]. والصلاةُ قد تسمَّى تسبيحاً. قاله القُشَيْرِيُّ.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تقدَّم في غير موضع[٧].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٢٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤١.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٣٣٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٠، وزاد المسير ٦/ ٥٢.

(٥) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٢ لقتادة.

(٦) في (د) و (م): يعلم السِّرَّ والنجوى.

(٧) ٢/ ٣١١، و ٧/ ٣٨٩.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ ذكر من حُجَجه شيئاً آخر، أي: ألم ترَ بعَيْنَيْ قلبِك أن الله[1] يُزْجي سَحَاباً، أي: يسوقه[2] إلى حيث يشاء. والرِّيح تُزْجي السَّحاب، والبقرة تُزْجي ولدها، أي: تسوقه. ومنه زجا الخَراجُ يزجو زَجاءً ـ ممدوداً ـ إذا تيسَّرت جِبايته[3]. وقال النابغة:

إنـي أتـيـتـك مـن أهـلـي ومـن وطـنـي أُزجي حُشاشة نفسٍ ما بها رَمَقُ[4]

وقال أيضاً:

أسْـرَتْ عـلـيـه مـن الـجـوزاء سـارِيَـةٌ تُزجي الشَّمالُ عليه جامِدَ البَرَدِ[5]

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: يجمعه عند انتشائه؛ ليقوَى ويتَّصلَ ويَكْثُفَ[6]. والأصلُ في التأليف الهمزُ، تقول: تألَّف. وقُرِئ: «يُوَلِّف» بالواو تخفيفاً[7]. والسُّحاب واحدٌ في اللَّفظ، ولكن معناه جمعٌ، ولهذا قال: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ [الرعد: ١٢].

و«بين» لا يقع إلا لاثنين فصاعداً، فكيف جاز «بينه»؟ فالجواب أنَّ «بينه» هنا

---

(١) قوله: أن الله، من (ظ).

(٢) في النسخ: يسوق، والمثبت من النكت والعيون ٤/ ١١٢ .

(٣) الصحاح (زجا).

(٤) أورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١١٢ ولم نقف عليه في ديوان النابغة. والحُشاشة: بقية الرُّوح في المريض والجريح. والرَّمَق: بقية الحياة. القاموس. (حشش) و(رمق).

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص٣١ ، وفيه: سَرَت، بدل: أَسرتْ، وسلف ١١/ ١٨٢ .

(٦) النكت والعيون ٤/ ١١٢ .

(٧) نسبها ابن مجاهد في السبعة ص٤٥٧ لنافع من رواية ورش عنه.

لجماعة السحاب، كما تقول: الشَّجر قد جلستُ بينه[١]، لأنه جمعٌ، وذكَّر الكناية على اللَّفظ. قال معناه الفراء[٢].

وجواب آخر: وهو أن يكون السَّحاب واحداً، فجاز أن يقال: بينه؛ لأنه مشتمل على قِطَع كثيرة، كما قال:

. . . . بيـن الـدَّخُـول فَـحـوْمَـلِ[٣]

فأوقع «بين» على الدَّخول، وهو واحد لاشتماله على مواضع[٤]. وكما تقول: مازلت أدور بين الكوفة؛ لأن الكوفة أماكنُ كثيرةٌ. قاله الزجاج[٥] وغيره. وزعم الأصْمَعيُّ أن هذا لا يجوز، وكان يَروي:

. . . . بيـن الـدَّخُـول وحَـوْمَـلِ[٦]

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي: مجتمِعاً، يَرْكَب بعضُه بعضاً، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]. والرَّكْم: جمعُ الشيء، يقال منه: رَكَم الشيءَ يَرْكُمه رَكْماً: إذا جمعه وألقى بعضه على بعض. وارْتكمَ الشيءُ وتراكمَ: إذا اجتمع. والرُّكْمةُ: الطِّينُ المجموع. والرُّكَامُ: الرَّمل المتراكم. وكذلك السَّحابُ وما أشبهه. ومُرْتكَمُ الطريق ـ بفتح الكاف ـ جادَّتُه[٧].

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ في «الوَدْق» قولان: أحدهما: أنه البرق. قاله أبو الأشهب العقيلي، ومنه قول الشاعر:

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤١ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٥٦ .

(٣) قطعة من بيت لامرئ القيس، وقد أورده بهذه الرواية أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٧٠ ، والبغدادي ٣/ ٢٢٤ ، وسلف الشطر الأول ١٠/ ٣٦٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤١ .

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٤٩ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٢ ، والبيت بهذه الرواية في ديوان امرئ القيس ص٨ برواية الأصمعي.

(٧) الصحاح (ركم).

أَثَـرنَ[١] عَـجـاجـةً وخـرجـنَ مـنـهـا خـروجَ الـوَدْق مـن خـلَـلِ السَّـحـابِ[٢]

الثاني: أنه المطر. قاله الجمهور. ومنه قول الشاعر:

فـلا مُـزْنـةٌ ودَقَـتْ وذقَـهـا ولا أرضَ أبْـقَـلَ إبـقـالـهـا[٣]

وقال امرؤ القيس:

فـدمـعُـهـمـا وَدْقٌ وسَـحٌّ ودِيـمَـةٌ وسَـكْـبٌ وتَـوْكَـافٌ وتَـنْـهَـمِـلانِ[٤]

يقال: وَدَقت السَّحابة فهي وادقة. ووَدَق المطر يَدِق وَدْقاً، أي: قَطَر. ووَدَقْتُ إليه: دنوتُ منه. وفي المَثَل: وَدَق العَيْرُ[٥] إلى الماء، أي: دنا منه. يُضرب لمن خضع للشيء لحرصه عليه. والموضع مَوْدِق. ووَدَقْتُ [به] وَدْقاً: استأنستُ به. ويقال لذات الحافر إذا أرادت الفحل: ودَقَتْ تَدِق وَدْقاً، وأوْدَقَتْ واستودَقَتْ. وأتانٌ وَدُوق، وفرسٌ وَدُوق، ووَدِيقٌ أيضاً، وبها وِداق. والوَدِيقة: شدَّة الحَرّ.

وخِلالٌ جمع خَلَل، مثلُ الجبل والجبال، وهي فُرَجُه ومخارجُ القَطْر منه.

وقد تقدَّم في «البقرة»[٦] أن كعباً قال: إن السَّحاب غِرْبالُ المطر، لولا السَّحابُ حين ينزل الماء من السماء، لأفسد ما يقع عليه من الأرض.

---

(١) في (د): أبرن، وفي (م): أثرنا، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في النكت والعيون ٤/ ١١٣ والكلام منه.

(٢) نسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٦٨ لزيد الخيل، وجاء الشطر الأول فيه: ضَرَبنَ بغَمرة فخرجن منها.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١١٣ ، والبيت لعامر بن جوين الطائي، وقد سلف ٩/ ٢٥١ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص٨٨ ، وفيه: سكب، بدل: ودق، ورشٌّ، بدل: وسكب. قال شارح الديوان: معنى قوله: فدمعهما سكب: شبه توالي دموعه بضروب الأمطار. والسحُّ: الصبُّ الشديد، والسَّكْب نحوه. والدِّيمة: مطر دائم في ليل. والتَّوكاف: القليل من المطر.

(٥) في (د) و (ظ) و (ف): البعير، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في الصحاح (ودق) والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه والعَيْر: الحمار. والمثل في جمهرة الأمثال ٢/ ٣٣٥ ، ومجمع الأمثال ٢/ ٣٦٢ ، والمستقصى ٢/ ٣٧٤ .

(٦) ٢/ ٥٠٤ .

وقرأ ابن عباس والضَّحاك وأبو العالية: مِن خَلَله، على التوحيد[١]. وتقول: كنت في خِلال القوم، أي: وسطهم.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ قيل: خلق الله في السماء جبالاً من بَرد، فهو يُنزِّل منها بَرَداً، وفيه إضمار، أي: يُنزِّل من جبال البَرَد بَرَداً، فالمفعول محذوف. ونحو هذا قول الفرَّاء[٢]؛ لأن التقدير عنده: من جبالٍ بَرَدٍ، فالجبالُ عنده هي البَرَد. و«بَرَدٍ» في موضع خفض، ويجب أن يكون على قوله المعنى: من جبالٍ بردٍ فيها، بتنوين «جبال»[٣].

وقيل: إن الله تعالى خلق في السماء جبالاً فيها بَرَدٌ، فيكون التقدير: ويُنزِّل من السماء من جبال فيها بَرَدٌ. و«من» صِلة[٤]. وقيل: المعنى: ويُنَزِّل من السماء قَدْرَ جبال، أو مِثلَ جبال من بَرَد إلى الأرض، فـ «من» الأولى للغاية؛ لأن ابتداء الإنزال من السماء، والثانية للتبعيض لأن البَرَد بعضُ الجبال، والثالثة لتبيين الجنس؛ لأن جنس تلك الجبال من البَرَد.

وقال الأخفش: إنَّ «مِن» في الجبال و«بَرَد» زائدةٌ في الموضعين، والجبالُ والبَرَد في موضع نصب، أي: يُنزِّل من السماء بَرَداً يكون كالجبال. والله أعلم.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيكون إصابته نِقمة، وصرفُه نعمة. وقد مضى في «البقرة»، و«الرَّعد»[٥] أنَّ مَن قال حين يسمع الرَّعد: سبحان مَن يسبِّح الرَّعد بحمده، والملائكة من خِيفته، ثلاثاً، عُوفي ممَّا يكون في ذلك الرَّعد.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ أي: ضوءُ ذلك البرق الذي في السحاب ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ من

---

(١) قراءة ابن عباس والضحاك في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٠ ، وقراءة الثلاثة في زاد المسير ٦/ ٥٢ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٢٥٦-٢٥٧ .

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٢ .

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥١٤ .

(٥) ١/ ٣٢٩ و ١٢/ ٣٨ .

شدَّة بَريقه وضوئه[١]. قال الشَّمَّاخ:

وما كادت إذا رفعَتْ سَناهَا ليُبْصِر ضوءَها إلَّا البَصِيرُ[٢]

وقال امرؤ القيس:

يُضيء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ أهانَ السَّلِيطَ في الذُّبال المُفَتَّلِ[٣]

فالسَّنَا ـ مقصور ـ: ضَوْءُ البرق. والسَّنَا أيضاً: نبتٌ يُتداوَى به. والسَّناء من الرِّفعة، ممدود[٤]. وكذلك قرأ طلحة بنُ مُصَرِّف: «سناء» بالمدِّ على المبالغة في شدَّة الضوء والصَّفاء، فأطلق عليه اسم الشَّرف[٥]. قال المبرِّد[٦]: السَّنَا ـ مقصور ـ وهو اللَّمع، فإذا كان من الشَّرف والحَسَب فهو ممدود، وأصلُهما واحد، وهو الالتماع.

وقرأ طلحة بنُ مُصَرِّف: «سَنَاءُ بُرَقِه[٧]»، قال احمد بن يحيى: وهو جمع بُرْقة. قال النحاس[٨]: البُرْقة المقدار من البَرْق، والبَرْقة المرَّة الواحدة.

وقرأ الجَحْدَريُّ وابن القَعْقاع: ﴿يُذهِب بالأبصار﴾ بضمِّ الياء وكسر الهاء[٩]، من الإذهاب، وتكون الباء في: «بالأبصار» صلةً زائدة. والباقون: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ بفتح الياء والهاء، والباء للإلصاق. والبرْقُ[١٠] دليلٌ على تكاثُف السَّحاب،

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٥١.

(٢) ديوان الشَّمَّاخ ص١٥٢، وفيه: فما كادت ولو رفعوا، بدل: وما كادت إذا رفعت. ورواية المصنف في النكت والعيون ٤/ ١١٣.

(٣) ديوان امرئ القيس ص٢٤. والسَّليط: الزيت. والذُّبال جمع الذُّبلة: الفتيلة. القاموس (سلط) و(ذبل). قال شارح الديوان قوله: أهان السَّليط: أي كثَّر منه؛ لأنه كان كثيراً هنياً.

(٤) الصحاح (سنا).

(٥) المحتسب ٢/ ١١٤.

(٦) في الكامل ١/ ٢٨٦، ٢/ ١٠٤٣، ٣/ ١٤٤١.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٠، وجاءت قراءته في القراءات الشاذة ص١٠٢: سنا بُرُقه؛ بضمتين.

(٨) في معاني القرآن ٤/ ٥٤٥، وقول أحمد بن يحيى منه.

(٩) قراءة الجحدري في القراءات الشاذة ص١٠٢، وقراءة ابن القعقاع في النشر ٢/ ٣٣٢.

(١٠) في (ظ): والبرد.

ونذيرٌ[١] بقوَّة المطر، ومحذِّرٌ من نزول الصواعق[٢].

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ قيل: تقليبُهما أن يأتيَ بأحدهما بعد الآخر. وقيل: تقليبهما نقصُهما وزيادتهما. وقيل: هو تغيير النهار بظُلمة السَّحاب مرَّة وبضَوْء الشمس أخرى، وكذا اللَّيلُ؛ مرَّة بظلمة السَّحاب ومرَّة بضوء القمر. قاله النقاش. وقيل: تقليبهما باختلاف ما يُقدَّر فيهما من خير وشرٍّ، ونفع وضَرٍّ[٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في الذي ذكرناه من تقلُّب اللَّيل والنهار، وأحوال المطر، والصيف والشتاء ﴿لَعِبۡرَةً﴾ أي: اعتباراً ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: لأهل البصائر من خَلْقي.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ﴾ قرأ يحيى بن وَثَّاب والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿واللهُ خَالِقُ كلِّ﴾ بالإضافة. الباقون: ﴿خَلَقَ﴾ على الفعل[٤]. قيل: إن المعنيين في القراءتين صحيحان. أخبر الله عز وجل بخبرين، ولا ينبغي أن يقال في هذا: أحد[٥] القراءتين أصحُّ من الأخرى.

وقد قيل: إنَّ «خلق» لشيء مخصوص، وإنما يقال: خالق على العموم، كما قال الله عز وجل: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ﴾ [الحشر: ٢٤]. وفي الخصوص: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: ١]، وكذا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾

---

(١) في (د): برير، وفي (م): وبشير.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١١٤.

(٣) القولان الأخيران من النكت والعيون ٤/ ١١٤.

(٤) السبعة ص٤٥٧، والتيسير ص١٣٤، وقراءة ابن وثاب والأعمش في البحر المحيط ٦/ ٤٦٥.

(٥) في (م): إحدى.

[الأعراف: ١٨٩]. فكذا يجب أن يكون: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[١].

والدَّابَّة كلُّ ما دَبَّ على[٢] الأرض من الحيَوان، يقال: دَبَّ يَدِبُّ فهو دابٌّ، والهاء للمبالغة[٣]. وقد تقدم في «البقرة»[٤].

﴿مِّن مَّآءٍ﴾ لم يدخل في هذا الجنُّ والملائكة؛ لأنَّا لم نشاهدهم[٥]، ولم يَثْبُت أنهم خُلِقوا من ماء، بل في الصحيح: «أن الملائكة خُلِقوا من نور، والجانَّ[٦] من نار». وقد تقدم[٧]. وقال المفسِّرون: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾، أي: من نُطْفة[٨]. قال النقَّاش: أراد أَمْنِيَةَ الذكور. وقال جمهور النَّظَرة: أراد أن خلْقة كلِّ حيوَان فيها ماءٌ، كما خُلِق آدمُ من الماء والطِّين، وعلى هذا يتخرَّج قول النبيِّ ﷺ للشيخ الذي سأله في غَزاة بدر: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء». الحديث[٩].

وقال قوم: لا يُستثنى الجنُّ والملائكة، بل كلُّ حيوان خُلِق من الماء، وخُلِق النار من الماء، وخُلِق الريح من الماء، إذ أوَّلُ ما خلق الله تعالى من العالم الماء، ثم خلق منه كلَّ شيء.

قلت: ويدلُّ على صحة هذا قولُه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ المشيُ على البطن للحيَّات والحُوت، ونحوهِ من الدُّود وغيرهِ. وعلى الرِّجْلين للإنسان والطَّير إذا

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٣.

(٢) بعدها في (د) و(م): وجه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٤.

(٤) ٢/ ٤٩٧.

(٥) الوسيط ٣/ ٣٢٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥١.

(٦) في (م): والجن.

(٧) ١٢/ ٢٠٧.

(٨) الوسيط ٣/ ٣٢٤، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥١، وزاد المسير ٦/ ٥٣.

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٠، والحديث أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية ١/ ٦١٦، ومن طريقه الطبري في التاريخ ٢/ ٤٣٥ عن محمد بن يحيى بن حبَّان.

مشى. والأربع لسائر الحيوان. وفي مصحف أُبَيٍّ: «ومنهم مَن يمشي على أكثر»، فعمَّ بهذه الزيادة جميع الحيوان كالسَّرطان والخِشَاش[(١)]، ولكنه قرآن لم يُثْبِته إجماع، لكن قال النَّقَّاش: إنما اكتفى في القول بذكر ما يمشي على أربع عن ذِكْر ما يمشي على أكثر؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتمادُه على أربع، وهي قِوامُ مشيه، وكثرةُ الأرجُل في بعضه زيادةٌ في خلقته، لا يحتاج ذلك الحيوان في مَشْيه إلى جميعها. قال ابن عطية[(٢)]: والظاهر أن تلك الأرجلَ الكثيرةَ ليست باطلاً، بل هي محتاجٌ إليها في تنقُّل الحيوان، وهي كلُّها تتحرك في تصرُّفه.

وقال بعضهم: ليس في الكتاب ما يمنع من المشي على أكثرَ من أربع، إذ لم يقل: ليس منها ما يمشي على أكثرَ من أربع.

وقيل: فيه إضمار: ومنهم مَن يمشي على أكثرَ من أربع، كما وقع في مصحف أُبَيٍّ. والله أعلم.

و﴿دَآبَّةٍ﴾ تشمل مَن يعقل وما لا يعقل، فغُلِّب مَن يعقل لمَّا اجتمع مع مَن لا يعقل؛ لأنه المخاطَب والمتعبَّد[(٣)]، ولذلك قال: ﴿فَمِنْهُم﴾. وقال: ﴿مَّن يَمْشِى﴾ فأشار بالاختلاف إلى ثبوت الصانع، أي: لولا أن للجميع صانعاً مختاراً لَمَا اختلفوا، بل كانوا من جنس واحد، وهو كقوله ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ [الرعد: ٤].

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يريد خلقه ﴿قَدِيرٌ﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تقدم بيانه في غير موضع[(٤)].

---

(١) الخِشَاش: هي حشرات الأرض. القاموس (خشش).

(٢) في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٠-١٩١ وما قبله منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٤ .

(٤) ٢/ ٤٣٣ ، ١٠/ ٤٨١ .

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ يعني المنافقين، يقولون بألسنتهم: آمنَّا بالله وبالرسول من غير يقين ولا إخلاص[(١)]. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي: ويقولون، وكَذَبوا. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝٤٩ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ قال الطبريُّ وغيرُه: إن رجلاً من المنافقين اسمُه بِشرٌ كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومةٌ في أرضٍ، فدعاه اليهوديُّ إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ، وكان المنافق مبطِلاً، فأبى من ذلك وقال: إن محمداً يَحيف علينا، فلنُحَكِّم كعبَ بن الأشرف، فنزلت الآية فيه[(٢)].

وقيل: نزلت في المغيرة بن وائل من بني أميَّةَ، كان بينه وبين عليِّ بن أبي طالب ﷺ خصومةٌ في ماء وأرض، فامتنع المغيرة أن يحاكم عليًّا إلى رسول الله ﷺ، وقال: إنه يُبْغِضني، فنزلت الآية. ذكره الماورديّ[(٣)].

وقال: ﴿لِيَحْكُمَ﴾، ولم يقل: ليحكما؛ لأن المعنيَّ به الرسولُ ﷺ، وإنما بدأ

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٥٢ .

(٢) أخرجه الطبري ٧/ ١٩٣-١٩٤ بنحوه عن مجاهد في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [الآية: ٦٠]. ونقله المصنف عنه بواسطة أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٨ . وذكرت هذه القصة أيضاً في تفسير أبي الليث ٢/ ٤٤٥ ، وأسباب النزول ص٣٤٠ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩١ .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١١٥ .

بذكر الله إعظاماً لله واستفتاحَ كلام[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي: طائعين منقادين؛ لعلمهم أنه عليه الصلاة والسلام يحكم بالحقّ. يقال: أذعن فلانٌ لحكم فلان يُذعِن إذعاناً. وقال النقَّاش: ﴿مُذْعِنِينَ﴾: خاضعين[٢]. مجاهد: مُسرِعين[٣]. الأخفش وابن الأعرابي: مُقِرِّين[٤].

﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: شكٌّ وريْب. ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾: أم حَدَث لهم شكٌّ في نبوَّته وعدله[٥]. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: يَجُورَ في الحكم والظُّلم. وأتى بلفظ الاستفهام؛ لأنه أشدُّ في التوبيخ وأبلغُ في الذَّمّ، كقول جرير في المدح:

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأنْدَى العالمين بُطُونَ راحِ[٦]

﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: المعاندون الكافرون؛ لإعراضهم عن حكم الله تعالى.

الثالثة: القضاء يكون للمسلمين إذا كان الحكم بين المُعَاهَد والمسلم، ولا حقَّ لأهل الذِّمة فيه. وإذا كان بين ذِمِّيَّين فذلك إليهما. فإن جاءا قاضيَ الإسلام، فإن شاء حكم، وإن شاء أعرض[٧]، كما تقدم في «المائدة»[٨].

الرابعة: هذه الآيةُ دليلٌ على وجوب إجابة الدَّاعي إلى الحاكم؛ لأن الله سبحانه

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٨، وتفسير الطبري ١٧/ ٣٤٢.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١١٥.

(٣) أخرجه عنه الطبري ١٧/ ٣٤٢.

(٤) في (ظ) والنكت والعيون ٤/ ١١٦: مقرنين!، والمثبت من (د) و(ف) و(م) وتهذيب اللغة ٢/ ٣٢٠ وقول ابن الأعرابي فيه.

(٥) ينظر النكت والعيون ٤/ ١١٧.

(٦) ديوان جرير ١/ ٨٩، وسلف ٩/ ٣٤٩، وسلف الشطر الأول ٤/ ٣١٢.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٨.

(٨) ٧/ ٤٨٨.

ذمَّ مَن دُعيَ إلى رسوله ليحكم بينه وبين خصمه فلم يُجِب بأقبح الذمِّ، فقال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية[1].

قال ابن خُوَيْزِمنداد: واجبٌ على كلِّ مَن دُعيَ إلى مجلس الحاكم[2] أن يجيب، ما لم يعلم أن الحاكم فاسق، أو يعلم[3] عداوةً بين المدَّعي والمدَّعى عليه.

وأسند الزهراويُّ عن الحسن بن أبي الحسن أن رسول الله ﷺ قال: «مَن دعاه خصمه إلى حاكم من حُكَّام المسلمين، فلم يُجِب، فهو ظالم ولا حقَّ له». ذكره الماوَرديّ أيضاً[4]. قال ابن العربي[5]: وهذا حديثٌ باطل، فأمَّا قوله: «فهو ظالم»، فكلام صحيح، وأمَّا قوله: «فلا حقَّ له»، فلا يصحُّ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحقّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إلى كتاب الله وحكم رسوله. ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ قال ابن عباس: أخبر بطاعة المهاجرين والأنصار، وإن كان ذلك فيما يكرهون، أي: هذا قولُهم، وهؤلاء لو كانوا مؤمنين لكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا. فالقولُ نصب على خبر كان، واسمُها في قوله: ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ نحو: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران:١٤٧].

وقيل: إنما قولُ المؤمنين، و«كان» صلةٌ في الكلام، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٧٩ وما بين حاصرتين منه.

(٢) في (ظ): الحكم.

(٣) لفظة: يعلم، هي من قول ابن خويزمنداد السالف في سورة آل عمران ٥/ ٧٨ .

(٤) في النكت والعيون ٤/ ١٢٦ ، وسلف هذا الحديث وكلام ابن العربي الآتي ٥/ ٧٨ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٧٩ .

وقرأ ابن القَعْقَاع: ﴿لِيُحكَمَ بينهم﴾ غير مسمَّى الفاعل[١]. عليُّ بن أبي طالب: «إنما كان قولُ» بالرفع[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمر به وحكم. ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ﴾ قرأ حفص: «وَيَتَّقْه» بإسكان القاف على نية الجزم، قال الشاعر:

ومَن يَتَّقْ فإنَّ اللهَ معه ... ورِزْقُ اللهِ مُؤْتابٌ وغادي[٣]

وكسرها الباقون، لأن جزمه بحذف آخره. وأسكن الهاءَ أبو عمرو وأبو بكر. واختلس الكسرةَ يعقوبُ، وقالُون عن نافع، والمثنى[٤] عن أبي عمرو، وحفص. وأشبع كسرةَ الهاء الباقون[٥].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ ذَكر أسلمُ أن عمر بينما هو قائم في مسجد النبيِّ ﷺ وإذا رجلٌ من دَهَاقين[٦] الروم قائمٌ على رأسه وهو يقول: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فقال له عمر: ما شأنك؟ قال: أسلمت لله. قال: هل لهذا سبب! قال: نعم، إني قرأت التَّوراة والزَّبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جُمِع فيها كلُّ ما في الكتب المتقدِّمة، فعلمت أنه من عند الله، فأسلمت. قال: ما هذه الآية؟ قال: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في الفرائض، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في السنن، ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى من عمره، ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾

---

(١) النشر ٢/ ٢٢٧.

(٢) المحتسب ٢/ ١١٥، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٣ ونسبها للحسن.

(٣) أورده ابن جني في المحتسب ١/ ٣٦١، وفي الخصائص ١/ ٣٠٦، والبغدادي في شرح شواهد الشافية ٢/ ٢٢٩.

(٤) في (د) و(ف): المسيبي، وفي (م): البستي، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما وقع في فتح القدير ٤/ ٤٦.. ولم نعرفه.

(٥) السبعة ص٤٥٧-٤٥٨، والتيسير ص١٦٣، وقراءة يعقوب في النشر ١/ ٣٠٧.

(٦) الدَّهاقين، جمع: الدِّهقان وهو التاجر، فارسي معرَّب. اللسان (دهق).

فيما بقي من عمره، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، والفائزُ مَن نجا من النار وأُدخِل الجنة. فقال عمر: قال النبيُّ ﷺ: «أُوتيتُ جوامعَ الكَلِم»[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ عاد إلى ذكر المنافقين، فإنه لمَّا بيَّن كراهتهم لحكم النبيِّ ﷺ أتَوْه فقالوا: والله لو أمرتنا أن نَخْرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا، فنزلت هذه الآية[٢]. أي: وأقسموا بالله أنهم يَخْرجون معك في المستأنف ويطيعون. ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: طاقةَ ما قَدَروا أن يحلفوا. وقال مقاتل: مَن حلف بالله فقد أجهد في اليمين[٣]. وقد مضى في «الأنعام»[٤] بيانُ هذا. و«جَهْدَ» منصوبٌ على مذهب المصدر تقديره: إقساماً بليغاً.

﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ وتمَّ الكلام[٥].

﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي: طاعة معروفة[٦] أَوْلَى بكم من أيمانكم، أو: ليكن منكم طاعةٌ معروفة[٧]، وقولٌ معروف بإخلاص القلب، ولا حاجةَ إلى اليمين. وقال مجاهد: المعنى: قد عُرِفتْ طاعتُكم، وهي الكذب والتكذيب[٨]، أي: المعروفُ منكم الكذبُ دون الإخلاص.

---

(١) لم نقف عليه. وقوله منه: «أوتيت جوامع الكلم» قطعة من حديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٧٤٠٣)، والبخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣): (٥)، وسلف ١٢/ ٢٤٣ .

(٢) ينظر الوسيط ٣/ ٣٢٦ ، وزاد المسير ٦/ ٥٦ ، وتفسير الرازي ٢٤/ ٢٣ .

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٣ .

(٤) ٨/ ٤٩٣ وما بعدها.

(٥) تفسير غريب القرآن ص٣٠٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٤٩ .

(٦) قوله: أي طاعة معروفة، من (د) و(ظ).

(٧) ينظر تفسير غريب القرآن ص٣٠٦ ، ومعاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٤٩ ، وذكر هذا القول الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٢٦ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٣ ونسباه لمقاتل بن حيان.

(٨) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٤٤ .

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بإخلاص الطّاعة وترك النفاق. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: فإن تتولَّوْا، فحذف إحدى التاءين[٢]. ودلَّ على هذا أن بعده: ﴿وَعَلَيْكُم﴾، ولم يقل: وعليهم[٣]. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي: من تبليغ الرسالة. ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: من الطاعة له[٤]، عن ابن عباس وغيره. ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ جعل الاهتداء مقروناً بطاعته. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: التبليغ ﴿الْمُبِينُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

نزلت في أبي بكر وعمرَ رضي الله عنهما. قاله مالك[٥]. وقيل: إن سبب نزول[٦] هذه الآية أن بعض أصحاب النبيِّ ﷺ شكا جَهْد مكافحة العدوِّ، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم، وأنهم لا يضعون أسلحتهم، فنزلت الآية[٧].

---

(١) الوسيط ٣/ ٣٢٦.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٥، وزاد المسير ٦/ ٥٦.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٤٩.

(٤) ينظر النكت والعيون ٤/ ١١٧، والوسيط ٣/ ٣٢٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٣، وزاد المسير ٦/ ٥٦.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٠.

(٦) لفظة: نزول، من (ظ).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٢.

وقال أبو العالية: مكث رسول الله ﷺ بمكةَ عَشْرَ سنين ـ بعدما أُوحي إليه ـ خائفاً هو وأصحابُه، يَدْعون إلى الله سرًّا وجهراً، ثم أُمِر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين، يُصْبِحون ويُمسُون في السِّلاح. فقال رجل: يا رسول الله، ما[١] يأتي علينا يومٌ نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لن تلبثوا[٢] إلَّا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِياً ليس عليه حديد»[٣]. ونزلت هذه الآية، وأظهر الله نبيَّه على جزيرة العرب، فوضعوا السلاح وأَمِنوا[٤].

قال النحاس[٥]: فكان في هذه الآية دِلالةٌ على نبوَّة رسول الله ﷺ؛ لأن الله جلَّ وعزَّ أنجز ذلك الوعد.

قال الضحاك في كتاب النقَّاش: هذه الآية[٦] تتضمَّن خلافة أبي بكر وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ؛ لأنهم أهلُ الإيمان وعملوا الصالحات. وقد قال رسول الله ﷺ: «الخلافةُ بعدي ثلاثون»[٧].

وإلى هذا القول ذهب ابن العربيِّ في أحكامه[٨]، واختاره وقال: قال علماؤنا: هذه الآيةُ دليلٌ على صحة خلافة الخلفاء الأربعة ﷺ، وأنَّ الله استخلفهم ورضي أمانتهم، وكانوا على الدِّين الذي ارتضى لهم، لأنهم لم يتقدَّمهم أحدٌ في الفضيلة إلى يومنا هذا، فاستقرَّ الأمر لهم، وقاموا بسياسة المسلمين، وذَبُّوا عن حَوْزة الدِّين،

---

(١) في (م): أما.

(٢) في (د): لم تلبثوا، وفي (م): لا تلبثون، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في أسباب النزول للواحدي ص٣٤١ والكلام منه.

(٣) في (م): حديدة.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/٣٤٨، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٢٩ (١٤٧٧٢).

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٤٥ .

(٦) لفظة: الآية، من (ف) والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٣ والكلام منه.

(٧) هو قطعة من حديث سيرد بتمامه.

(٨) ٣/ ١٣٨٠، وما سيرد بين حاصرتين منه.

فَنَفَذ الوعدُ فيهم، وإذا لم يكن هذا الوعد لهم نَجَز، وفيهم نَفَذ، وعليهم ورَدَ، ففيمن يكون إذاً؟! وليس بعدهم مثلُهم إلى يومنا هذا، ولا يكون فيما بعده، ﷺ.

وحكى هذا القولَ القُشَيْريُّ عن ابن عباس. واحتجُّوا بما رواه سَفِينة مولى رسول الله ﷺ قال: سَمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخلافة من[1] بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون مُلْكاً». قال سفينة: أمسِك[2] خلافة أبي بكر سنتين، وخلافةَ عمرَ عَشْراً، وخلافةَ عثمانَ ثنتي عَشْرة سنة، وخلافةَ عليٍّ ستًّا[3].

وقال قوم: هذا وعدٌ لجميع الأمة في مِلك الأرض كلِّها تحت كلمة الإسلام، كما قال عليه الصلاة والسلام: «زُوِيَتْ لي الأرضُ، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغُ مُلْك أمتي ما زُوِيَ لي منها»[4]. واختار هذا القولَ ابنُ عطية في تفسيره حيث قال: والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور، واستخلافُهم هو أن يُمَلِّكهم البلاد ويجعلَهم أهلها، كالذي جرى في الشام والعراق وخراسان والمغرب[5].

قال ابن العربي[6]: قلنا لهم: هذا وعدٌ عامٌّ في النبوَّة والخلافة، وإقامةِ الدعوة، وعمومِ الشريعة، فَنَفَذ الوعد في كلِّ أحد بقَدْره وعلى حاله، حتى في المفتين والقُضاة[7] والأئمة، وليس للخلافة محلٌّ تَنْفُذ فيه الموعِدةُ الكريمةُ إلَّا مَن تقدَّم من الخلفاء [الأربعة].

---

(١) لفظة: من، ليست في (م).

(٢) بعدها في (م): عليك.

(٣) أخرجه أحمد (٢١٩١٩)، وأبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦)، والنسائي في الكبرى (٨٠٩٩).
قال الترمذي: هذا حديث حسن قد رواه غير واحد عن سعيد بن جُمْهان، ولا نعرفه إلا من حديث سعيد ابن جُمْهان. ا.هـ. وسفينة هو أبو عبد الرحمن مولى رسول الله ﷺ، كان عبداً لأمّ سلمة، فأعتقته، وشرطت عليه خدمة رسول الله ﷺ ما عاش. توفي بعد سنة سبعين. السير ٣/ ١٧٢-١٧٣.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٣، والحديث في صحيح مسلم (٢٨٨٩)، وسلف ٨/ ٤١٥ وزُويَت: جُمِعَت.

(٥) في (ظ): الغرب، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٢-١٩٣.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٣، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٧) في (د) و(ظ): المتقين والعصاة.

ثم ذكر قبل هذا[١] اعتراضاً وانفصالاً معناه: فإن قيل: هذا الأمر لا يصحُّ إلَّا في أبي بكر وحده، فأمَّا عمرُ وعثمانُ فقُتِلا غِيلَةً، وعليٌّ قد نُوزع في الخلافة. قلنا: ليس في ضمن الأمن السلامةُ من الموت بأيِّ وجه كان، وأمَّا عليٌّ، فلم يكن نِزاله في الحرب مُذْهباً للأمن، وليس من شرط الأمن رفعُ الحرب، إنما شرطه مِلْكُ الإنسان لنفسه باختياره، لا كما كان أصحاب النبيِّ ﷺ بمكَّة[٢].

ثم قال في آخر كلامه: وحقيقةُ الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين، فهذا نهايةُ الأمن والعزّ.

قلت: هذه الحالُ لم تختص بالخلفاء الأربعة ﷺ حتى يُخَصُّوا بها من عموم الآية، بل شاركهم في ذلك جميعُ المهاجرين، بل وغيرُهم. ألا ترى إلى إغزاء قريشٍ المسلمينَ في أُحُد وغيرها وخاصَّة الخندق، حتى أخبر الله تعالى عن جميعهم[٣] فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ . هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١٠-١١]. ثم إن الله ردَّ الكافرين لم ينالوا خيراً، وأمَّن المؤمنين، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وهو المراد بقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وقوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني بني إسرائيل، إذ أهلك الله الجبابرة بمصر، وأورثهم أرضهم وديارهم فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف:١٣٧]. وهكذا كان الصَّحابة مستضعفين خائفين، ثم إن الله تعالى أمَّنهم ومكَّنهم وملَّكهم، فصحَّ أن الآية عامَّةٌ لأمة محمد ﷺ غيرُ مخصوصة، إذ التخصيصُ لا يكون إلا بخبر ممن يجب [له][٤] التسليم، ومن الأصل المعلوم التمسكُ بالعموم.

---

(١) قوله: قبل هذا، من (ظ).

(٢) أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٢-١٣٨٣ وما بعده منه.

(٣) في (ظ): جمعهم.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله ﷺ لمَّا قال أصحابه: ما[(١)] يأتي علينا يومٌ نأمن فيه ونضع السلاح. فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تلبثون إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِياً، ليس عليه حديدة»[(٢)]. وقال ﷺ: «واللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون». خرَّجه مسلم في صحيحه[(٣)]، فكان كما أخبر ﷺ. فالآية معجِزةُ النبوَّة؛ لأنها إخبارٌ عمَّا سيكون فكان.

قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: يعني أرضَ مكة؛ لأن المهاجرين سألوا الله تعالى ذلك، فوُعِدوا كما وُعِدت بنو إسرائيل. قال معناه النقاش[(٤)].

الثاني: بلاد العرب والعجم. قال ابن العربيّ[(٥)]: وهو الصحيح؛ لأن أرض مكَّةَ محرَّمةٌ على المهاجرين، قال النبيُّ ﷺ: «لكنِ البائسُ سعدُ بن خَوْلة». يَرثي له رسول الله ﷺ أنْ مات بمكَّة[(٦)]. وقال في الصحيح أيضاً: «يمكث المهاجر بمكَّةَ بعد قضاء نُسُكه ثلاثاً»[(٧)].

واللامُ في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جوابُ قَسَم مُضْمَر؛ لأن الوعد قولٌ، مجازُها: قال الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات: واللهِ لَيستخلفنَّهم في الأرض، فيجعلهم ملوكها وسُكَّانَها.

---

(١) في (د): أم، وفي (م): أما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٣، وسلف الخبر ص٣٢١ من هذا الجزء.

(٣) ليس هو في صحيح مسلم، وأخرجه البخاري (٣٦١٢) من حديث خبَّاب بن الأرتّ، وسلف ١٢/ ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٤) النكت والعيون ٤/ ١١٨، دون قوله: فوعدوا كما وعدت بنو إسرائيل.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٣ وما قبله منه.

(٦) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨): (٥) من حديث سعد بن أبي وقاص، وسلف ١٤/ ٣٧٨.

(٧) أخرجه أحمد (١٨٩٨٥)، والبخاري (٣٩٣٣)، ومسلم (١٣٥٢): (٤٤٢) من حديث العلاء بن الحضرمي.

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني بني إسرائيل، أهلك الجبابرة بمصرَ والشام، وأورثهم أرضهم وديارهم[(١)]. وقراءةُ العامة: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ بفتح التاء واللام؛ لقوله: «وَعَدَ»، وقوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾. وقرأ عيسى بن عمر وأبو بكر والمفضَّل عن عاصم: «استُخلِف» بضم التاء وكسر اللام على الفعل المجهول[(٢)].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وقد تقدَّم[(٣)]. ورَوى سُلَيم بن عامر، عن المِقْداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما على ظهر الأرض بيتُ حجر ولا مَدَر إلا أدخله الله كلمة الإسلام؛ بعزِّ عزيز، أو ذُلِّ ذليل، إمَّا يُعزُّهم[(٤)] فيجعلُهم من أهلها، وإمَّا يُذلُّهم[(٥)] فيدينون بها». ذكره الماورديُّ[(٦)] حجة لمن قال: إن المراد بالأرض بلادُ العرب والعجم، وهو القول الثاني، على ما تقدَّم آنفاً.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير ويعقوبُ وأبو بكر بالتخفيف[(٧)]، مِن أَبدل، وهي قراءةُ الحسن، واختيارُ أبي حاتم. الباقون بالتشديد، مِن بدَّل، وهي اختيار أبي عبيد؛ لأنها أكثرُ ما في القرآن، قال الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤]. وقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ [النحل: ١٠١] ونحوه، وهما لغتان.

---

(١) ذكر هذا الكلام الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٢٦-٣٢٧ ونسبه لمقاتل، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٤ دون نسبة.

(٢) قراءة عاصم من رواية أبي بكر عنه في السبعة ص٤٥٨ ، والتيسير ص١٦٣ .

(٣) ٧/ ٢٩٥-٢٩٦ .

(٤) في (ظ) و(م): بعزهم، والمثبت من (د) و(ف) وهو الموافق لمصادر التخريج الآتية.

(٥) في (ظ) و(م): بذلهم، والمثبت من (د) و(ف) وهو الموافق لمصادر التخريج.

(٦) في النكت والعيون ٤/ ١١٨ ، وأخرجه أحمد (٢٣٨١٤)، وابن حبان (٦٦٩٩)، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٦٠١)، والحاكم ٤/ ٤٣٠ .

(٧) قراءة ابن كثير وأبي بكر في السبعة ص٤٥٩ ، والتيسير ص١٦٣ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٣٣ ، وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٣ .

قال النحاس[١]: وحكى محمدُ بن الجَهْم عن الفَرَّاء[٢] قال: قرأ عاصم والأعمش: «وليبدِّلنَّهم» مشدَّدة، وهذا غلطٌ على عاصم، وقد ذكر بعده غلطاً أشدَّ منه، وهو أنه حكى عن سائر الناس التخفيف.

قال النحاس: وزعم أحمد بن يحيى أن بين التثقيل والتخفيف فرقاً، وأنه يقال: بدَّلته، أي: غيَّرته، وأبدلته: أزلته وجعلت غيره. قال النحاس: وهذا القولُ صحيحٌ، كما تقول: أَبدِلْ لي هذا الدِّرهم، أي: أزله وأعطني غيره. وتقول: قد بدّلتَ بعدنا، أي: غيّرت، غير أنه قد يُستعمل أحدهما موضع الآخر، والذي ذكره أكثر.

وقد مضى هذا في «النساء»[٣] والحمد لله، وذكرنا في سورة إبراهيم[٤] الدليلَ من السنة على أن بدَّل معناه: إزالة العَين، فتأمَّله هناك. وقُرئ: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾ [القلم: ٣٢] مخفَّفاً ومثقلاً[٥].

﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ هو في موضع الحال، أي: في حال عبادتهم اللهَ بالإخلاص. ويجوز أن يكون استئنافاً على طريق الثناء عليهم[٦]. ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ فيه أربعة أقوال: أحدها: لا يعبدون إلهاً غيري. حكاه النقاش. الثاني: لا يُراؤون بعبادتي أحداً. الثالث: لا يخافون غيري. قاله ابن عباس. الرابع: لا يحبُّون غيري. قاله مجاهد[٧]. ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بهذه النِّعم. والمراد كُفرانُ النِّعمة؛ لأنه قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ والكافر بالله فاسقٌ بعد هذا الإنعام وقبله.

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٤٥-١٤٦ وكذا ما بعده.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٥٨ .

(٣) ٦/ ٤٢٠ وما بعدها.

(٤) ١٢/ ١٦٨-١٧٠ .

(٥) قرأ من السبعة بالتشديد نافع وأبو عمرو، والباقون بالتخفيف. السبعة ص٤٥٨-٤٥٩ ، والتيسير ص١٤٥ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٥١ .

(٧) النكت والعيون ٤/ ١١٩ ، وقول ابن عباس عزاه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٥٥ لعبد بن حميد.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾

تقدَّم[١]، فأعاد الأمر بالعبادة تأكيداً.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ ووعدٌ بالنَّصر[٢]. وقراءةُ العامَّة: «تَحْسبَنَّ» بالتاء خطاباً. وقرأ ابن عامر وحمزةُ وأبو حَيْوة: «يَحْسَبَنَّ» بالياء[٣]، بمعنى: لا يحسبنَّ الذين كفروا أنفسَهم[٤] مُعجِزين اللهَ في الأرض؛ لأن الحُسْبان يتعدَّى إلى مفعولين. وهذا قولُ الزجاج[٥].

وقال الفرَّاء وأبو عليٍّ: يجوز أن يكون الفعل للنبيِّ ﷺ، أي: لا يحسبنَّ محمدٌ الذين كفروا مُعجِزين في الأرض[٦]. فـ «الذين» مفعول أوَّل، و«مُعجِزين» مفعول ثان. وعلى القول الأوَّل: «الذين كفروا» فاعل، «أنفسهم» مفعول أوَّل، وهو محذوفٌ مرادٌ، «مُعجِزين» مفعول ثان.

قال النحاس: وما علمت أحداً من أهل العربية بَصْرِيًّا ولا كوفِيًّا إلا وهو يُخَطِّئ قراءةَ حمزة، فمنهم مَن يقول: هي لَحْنٌ؛ لأنه لم يأت إلا بمفعول واحد لـ «يحسبنَّ». وممن قال هذا أبو حاتم[٧].

---

(١) ١/ ٢٥٣ وما بعدها، و ٢/ ٢٣-٢٤ ، و ٥/ ٣١٢ .

(٢) في (م): بالنُّصرة.

(٣) السبعة ص٣٠٧ ، والتيسير ص١٦٣ ، وكسر السين نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي .

(٤) في (ظ): أنهم .

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٥٢ .

(٦) الحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٣٣٢ ، وقد ضعف أبو حيان في البحر المحيط ٦/ ٤٧٠ ، والسمين في الدر المصون ٨/ ٤٣٥ أن يكون الفاعل هو الرسول عليه الصلاة والسلام، لأن مثل هذا الحسبان لا يُتصوَّر منه حتى يُنهى عنه.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٦ وفيه: إلا وهو يحظر أن تقرأ هذه القراءة، بدل: إلا وهو يخطئ قراءة حمزة.

وقال الفرَّاء: هو ضعيف، وأجازه على ضعفه، على أنه يحذف المفعول الأوَّل[١]، وقد بيَّناه.

قال النحاس[٢]: وسمعت عليَّ بنَ سليمان يقول في هذه القراءة: يكون «الذين كفروا» في موضع نصب. قال: ويكون المعنى: ولا يحسبنَّ الكافرُ الذين كفروا مُعجِزين في الأرض.

قلت: وهذا موافقٌ لما قاله الفرَّاء وأبو عليٍّ؛ لأن الفاعل هناك النبيُّ ﷺ. وفي هذا القولِ الكافرُ.

و«معجزين» معناه: فائتين. وقد تقدَّم[٣]. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قال العلماء: هذه آية[٤] خاصَّةٌ، والتي قبلها عامَّة؛ لأنه قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ﴾ [النور: ٢٧]، ثم خصَّ هنا فقال: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾، فخصَّ في هذه الآية بعضَ المستأذنين، وكذلك أيضاً يتناول[٥] القول في الأولى[٦] جميع الأوقات عموماً.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٩، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٤٦.
(٢) في إعراب القرآن ٤/ ١٤٦.
(٣) ٩/ ٣٥.
(٤) في (د) و(م): الآية.
(٥) في (د) و(ف) و(م): يتأوَّل، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٤-١٣٨٥ والكلام منه: تناول، والمثبت من (ز).
(٦) بعدها في (د) و(ف) و(م): في.

وخصَّ في هذه الآية بعض الأوقات، فلا يدخل فيها عبدٌ ولا أَمَة، وَغْداً كان أو ذا منظر إلا بعد الاستئذان.

قال مقاتل: نزلت في أسماءَ بنتِ مَرْثَد، دخل عليها غلام لها كبير، فاشتكت إلى رسول الله ﷺ، فنزلت عليه الآية[(١)].

وقيل: سبب نزولها دخولُ مُدْلج على عمر، وسيأتي[(٢)].

الثانية: اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَئْذِنكُمُ﴾ على ستة أقوال:

الأول: أنها منسوخة. قاله ابن المسيِّب وابنُ جبير[(٣)].

الثاني: أنها ندب غير واجبة. قاله أبو قِلَابة، قال: إنما أُمِروا بهذا نظراً لهم[(٤)].

الثالث: عنى بها النساء. قاله أبو عبد الرحمن السُّلَميّ[(٥)].

وقال ابن عمر: هي في الرجال دون النساء[(٦)]. وهو القول الرابع.

الخامس: كان ذلك واجباً، إذ كانوا لا غَلَق لهم ولا أبواب، ولو عاد الحال لعاد الوجوب. حكاه المهدويُّ عن ابن عباس[(٧)].

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٣٤٢ ، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٥ ، وزاد المسير ٦/ ٦٠ .

(٢) في المسألة الرابعة.

(٣) أخرجه عن ابن المسيب النحاس في الناسخ والمنسوخ (٧١٧). وعن ابن جبير الطبري ١٧/ ٣٥٥ ، والنحاس (٧١٨). وأخرج أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٠٥) واللفظ له، والطبري ١٧/ ٣٥٥ عن سعيد بن جبير في هذه الآية، قال: يقولون هي منسوخة، لاوالله ما نسخها شيء، ولكنها مما تهاون به الناس.

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٥١-٥٥٢ . وأبو قِلابة هو عبد الله بن زيد الجَرْمي.

(٥) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٠٢)، وابن أبي شيبة ٤/ ٤٠٠ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٢٠)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٣٣ (١٤٧٩٢). وأخرج الطبري ١٧/ ٣٥١-٣٥٢ عن أبي عبد الرحمن في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم...﴾ قال: هي في الرجال والنساء، يستأذنون على كل حال، بالليل والنهار. وكذا جاء في النكت والعيون ٤/ ١٢٠ ، وزاد المسير ٦/ ٦١ .

(٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٧)، والطبري ١٧/ ٣٥١ ، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٧٢١).

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤ .

السادس: أنها محكمةٌ واجبة ثابتة على الرجال والنساء، وهو قول أكثر أهل العلم، منهم القاسمُ وجابر بن زيد والشَّعْبيّ[(١)].

وأضعفُها قولُ السُّلَمِيّ؛ لأن «الذين» لا يكون للنساء في كلام العرب، إنما يكون للنساء: اللَّاتي واللَّواتي. وقولُ ابن عمر يستحسنه أهل النظر، لأن «الذين» للرجال في كلام العرب، وإن كان يجوز أن يَدخل معهم النساء، فإنَّما يقع ذلك بدليل، والكلامُ على ظاهره، غيرَ أنَّ في إسنادهِ لَيْثَ بنَ أبي سُلَيم[(٢)].

وأمَّا قولُ ابن عباس، فروى أبو داود[(٣)] عن عُبَيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول: آيةٌ لم يُؤمَر[(٤)] بها أكثرُ الناس: آيةُ الاستئذان، وإني لآمرُ جاريتي هذه تستأذن عليّ. قال أبو داود: وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس: يأمر به.

وروى عكرمةُ أنَّ نفراً من أهل العراق قالوا: يا ابن عباس، كيف ترى في هذه الآية التي أُمِرنا فيها بما أُمِرنا ولا يعمل بها[(٥)] [أحد]، قول الله عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾. قال أبو داود: قرأ القَعْنَبيُّ إلى: ﴿عَلِيمٌ

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٥١، ٥٥٧، وقول القاسم بن محمد أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٤٠٠ واللفظ له، والطبري١٧/ ٣٥٥ عن حنظلة قال: سمعت القاسم وسئل عن الإذن، فقال: استأذن عند كل عورة، ثم هو طوَّاف بعدها.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس٢/ ٥٥٣-٥٥٤. وليث هذا قال فيه ابن حبان في المجروحين ص٢٣١: اختلط في آخر عمره حتى كان لا يدري ما يحدث به، فكان يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل، ويأتي عن الثقات بما ليس من أحاديثهم، تركه يحيى القطان وابن مهدي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين. اهـ. وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب: قال البزار: كان أحد العباد، إلا أنه أصابه اختلاط فاضطرب حديثه.

(٣) برقم (٥١٩١).

(٤) في (د): لم يأمر، وفي (ظ) و(ف): لم يؤمن، والمثبت من(م) وهو الموافق لسنن أبي داود.

(٥) في (د): ولا تفعل بها، وفي (ف): ولا نعمل بها، وليست في (ز) و(ظ).

حَكِيمٌ﴾. قال ابن عباس: إنَّ الله حليم[١] رحيم بالمؤمنين يحبُّ السِّتر، وكان الناس ليس لبيوتهم[٢] سُتُور ولاحِجال[٣]، فربما دخل الخادم، أو الولدُ، أو يتيمةُ الرجل[٤] والرجلُ على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالسُّتور والخير، فلم أر أحداً يعمل بذلك [بعد][٥].

قلت: هذا متنٌ حسن، وهو يَرُدُّ قول سعيد وابنِ جبير، فإنه ليس فيه دليلٌ على نسخ الآية، ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت، فإن كان مِثلُ ذلك الحال، فحكمها قائمٌ كما كان[٦]، بل حكمها لليوم[٧] ثابتٌ في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصَّحارى ونحوِها. وروى وَكيعٌ، عن سفيانَ، عن موسى بن أبي عائشةَ، عن الشَّعبي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾قال: ليست بمنسوخة. قلت: إنَّ الناس لا يعملون، قال: الله عزَّ وجلَّ المستعان[٨].

الثالثة: قال بعض أهل العلم: إن الاستئذان ثلاثاً مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ قال: يريد ثلاثَ دُفعات. قال: فورد القرآن في المماليك والصبيان، وسنَّةُ رسول الله ﷺ في الجميع. قال ابن عبد البر[٩]: ما قاله من هذا وإن كان له وجه، فإنه غيرُ معروف عن

(١) في (د) و(ف): عليم، وفي (ز): حكيم.
(٢) في النسخ الخطية: لأبوابهم، والمثبت من (م) وسنن أبي داود.
(٣) في (ظ): ولا حجاب. والحجال جمع الحَجَلة ـ بالتحريك ـ: بيت كالقُبَّة يستر بالثياب، وتكون له أزرار كبار. النهاية (حجل).
(٤) لفظة: الرجل، من (م) وسنن أبي داود.
(٥) سنن أبي داود (٥١٩٢) وما بين حاصرتين منه.
(٦) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٥٥ دون قوله: وهو يرد قول سعيد وابن جبير.
(٧) في (د) و(ف): اليوم.
(٨) أخرجه بهذا الإسناد ابن أبي شيبة ٤/ ٤٠٠، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٤٠٤). وأخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٠٤)، والطبري ١٧/ ٣٥٤ من طريق يحيى بن سعيد وعبد الرحمن عن سفيان به.
(٩) في التمهيد ٣/ ١٩٧، والاستذكار ٢٧/ ١٦١-١٦٢.

العلماء في تفسير الآية التي نَزَع بها، والذي عليه جمهورُهم في قوله.﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾أي: في ثلاثة أوقات. ويدلُّ على صحَّة هذا القول ذِكْرُه فيها: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ﴾.

الرابعة: أدَّب الله عز وجل عباده في هذه الآية بأن يكون العبيدُ إذ لا بال لهم، والأطفالُ الذين لم يبلغوا الحُلُم إلا أنهم عَقَلُوا معاني الكَشْفة ونحوها، يستأذنون على أهليهم في هذه الأوقات الثلاثة، وهي الأوقاتُ التي تقتضي عادةُ الناس الانكشافَ فيها وملازمة التَعرِّي. فما قبلَ الفجر وقتُ انتهاء النوم، ووقتُ الخروج من ثياب النوم، ولبس ثياب النهار. ووقتُ القائلة وقتُ التجرُّد أيضاً وهي الظَّهيرة، لأن النهار يظهر فيها إذا علا[1] واشتد حَرُّه. وبعد صلاة العشاء وقتُ التَّعرِّي للنوم[2]، فالتكشُّف غالبٌ في هذه الأوقات.

يُروى أن رسول الله ﷺ بعث غلاماً من الأنصار ـ يقال له: مُدْلج إلى عمرَ بن الخطاب ظَهِيرةً ليدعوه، فوجده نائماً قد أغلق عليه الباب، فدقَّ عليه الغلام الباب فناداه ودخل، فاستيقظ عمر وجلس، فانكشف منه شيء، فقال عمر: وَدِدتُ أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد هذه الآية قد أُنزلت، فخرَّ ساجداً شكراً لله[3]. وهي مكية[4].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي: الذين لم يحتلموا من أحراركم. قاله مجاهد[5]. وذكر إسماعيل بن إسحاق [أن ابن عباس] كان يقول:

---

(١) بعدها في (م): شعاعه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤ .

(٣) أخرجه ابن منده ـ كما في الإصابة ٩/ ١٥٥ ـ من طريق السُّدِّي الصغير، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس بنحوه. وهذا إسناد تالف. وأورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٢٠ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٥ .

(٤) لم نقف على من ذكر أن هذه الآية مكية. وسلف في أول السورة أنها مدنية كلها بالإجماع.

(٥) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٠٨)، والطبري ١٧/ ٣٥٢ .

لِيستأذِنْكم الذين لم يبلُغوا الحُلُم ممَّا ملكت أيمانكم[١]، على التقديم والتأخير، وأنَّ الآية في الإماء. وقرأ الجمهور بضمِّ اللام، وسكَّنها الحسن بن أبي الحسن لثِقَل الضَّمة. وكان أبو عمرو يستحسِنُها[٢].

و﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ نصب على الظرف؛ لأنهم لم يُؤمروا بالاستئذان ثلاثاً، إنما أُمِروا بالاستئذان في ثلاثة مواطن، والظرفيةُ في «ثلاث» بيِّنةٌ[٣]: من قبل صلاة الفجر، وحِين تَضَعُون ثيابكم من الظَّهيرة، ومن بعد صلاة العشاء. وقد مضى معناه. ولا يجب أن يُستأذَن ثلاث مرات في كلِّ وقت.

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ﴾ قرأ جمهور السبعة: «ثلاثُ عَوْراتٍ» برفع «ثلاث». وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو بكر عن عاصم: «ثلاثَ» بالنصب على البدل من الظرف في قوله: «ثلاثَ مرَّات»[٤]. قال أبو حاتم: النصب ضعيفٌ مردود. وقال الفرَّاء[٥]: الرفعُ أحبُّ إليَّ. قال: وإنما اخترتُ الرفع لأن المعنى: هذه الخصالُ ثلاثُ عورات. والرفع عند الكسائيِّ بالابتداء، والخبر عنده ما بعده، ولم يقل بالعائد، وقال نَصًّا بالابتداء. قال: والعَوْرات: الساعاتُ التي تكون فيها العَوْرة، إلا أنه قَرَأ بالنصب، والنصب فيه قولان: أحدهما: أنه مردود على قوله: «ثلاثَ مرَّات»، ولهذا استبعده الفرَّاء. وقال الزجاج[٦]: المعنى: لِيستأذِنكم أوقاتَ ثلاثِ عورات، فحُذِف المضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه.

---

(١) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٢١ ومابين حاصرتين منه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٣ دون ذكر قراءة الحسن، وقد ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٤٦، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٣ في هذه الآية والتي بعدها لعبد الوارث عن أبي عمرو.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤، والسبعة ص٤٥٩، والتيسير ص١٦٣.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٢٦٠، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٤٧ وماقبله وماسيرد منه.

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٥٢.

و«عَوْرات» جمعُ عَوْرة، وبابُه في الصَّحيح أن يجيء على فَعَلات ـ بفتح العين ـ كجَفْنة وجَفَنات، ونحو ذلك. وسكَّنوا العَيْن في المُعْتَلِّ كبَيْضة وبَيْضات؛ لأن فتحه داعٍ إلى اعتلاله، فلم يُفتح لذلك[1]، فأمَّا قول الشاعر:

أبــو بَـيَـضــاتٍ رائــحٌ أو مُـغْـتَـدِ[2] عــجــلانَ ذا زاد وغــيــرَ مُـزَوَّد[3]

[فضرورة][4].

السادسة: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾أي: في الدخول من غير أن يستأذنوا وإن كنتم متبذِّلين.﴿طَوَّٰفُونَ﴾ بمعنى: هم طوَّافون. قال الفرَّاء[5]: كقولك في الكلام: إنما هم خدمُكم وطوَّافون عليكم. وأجاز الفراء نصب «طوَّافين»[6]؛ لأنه نكرة، والمضمرُ في «عليكم»[7] معرفة. ولا يُجيز البصريون أن يكون حالاً من المضمَرَيْن اللَّذَين في «عليكم» وفي «بعضكم» لاختلاف العاملين. ولا يجوز: مررتُ بزيد ونزلت على عمرو العاقليْن، على النعت لهما[8]. ومعنى[9]

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤ .

(٢) كذا وقع في (ف)، وهو غير موزون، ولم تجود اللفظتان الأخيرتان في (د) و(ظ)، وهذا القسم من التفسير سقط من (خ) و(ز).

(٣) المثبت من (ظ)، ولم تجود اللفظة الأخيرة في (د) و(ف)، ولم نقف على البيت بهذا السياق، ووقع في ديوان النابغة الذبياني ص٣٨ :

أمِــنَ آل مــيَّــةَ رائــح أو مــغــتــد عــجــلان ذا زاد وغــيــر مــزوَّد

ووقع هذا البيت في الخصائص ٣/ ١٨٤ ، ولسان العرب (بيض)، وخزانة الأدب ٨/ ١٠٢ وما بعدها:

أخــو بَـيَـضــات رائــحٌ مــتــأوِّبٌ رفــيــق بــمــسح الـمَـنْـكـبـيـن سَـبُـوحُ

(٤) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق . وفتح حرف العلة في: بيضات، هي لغة هذيل، وعند غير هذيل يكون الفتح ضرورة. ينظر خزانة الأدب ٨/ ١٠٣ .

(٥) في معاني القرآن٢/ ٢٦٠ .

(٦) وهذه قراءة ابن أبي عبلة كما في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤ .

(٧) في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٠ : عليهم .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٧ .

(٩) في (د) و(م): فمعنى .

«طَوَّافون عليكم»، أي: يطوفون عليكم وتطوفون عليهم، ومنه الحديثُ في الهِرَّة: «إنما هي من الطوَّافين عليكم أو الطوَّافات»(١). فمنع في الثلاث العورات من دخولهم علينا؛ لأن حقيقة العَوْرة كلُّ شيء لا مانع دونه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣] أي: سهلةُ المَدْخَل(٢)، فبيَّن العلة الموجبة للإذن، وهي الخَلوة في حال العورة، فتعيَّن امتثاله وتعذَّر نسخه.

ثم رفع الجناح بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يطوف بعضكم على بعض

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الكاف في موضع نصب، أي: يبيِّن الله لكم آياته الدَّالة على متعبَّداته بياناً مثلَ ما يبيِّن لكم هذه الأشياء(٣).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تقدَّم(٤).

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ يريد العَتَمة. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تَغْلِبَنَّكم الأعراب على اسم صلاتكم، ألَا إنَّها العِشاء، وهم يُعْتِمون بالإبل»(٥). وفي رواية «فإنها في كتاب الله العِشاءُ، وإنها تُعْتِم بِحِلاب الإبل»(٦).

وفي البخاريِّ عن أبي بَرْزة: كان النبيُّ ﷺ يؤخِّر العشاء(٧). وقال أنس: أخَّر

---

(١) قطعة من حديث أبي قتادة أخرجه أحمد (٢٢٥٨٠)، وأبو داود(٧٥)، والترمذي (٩٢)، والنسائي ١/ ٥٥ و١٧٨، وابن ماجه (٣٦٧). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) في (د) و(ف) و(م): للمدخل، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٧ والكلام منه.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٧.

(٤) ١/ ٤٢٩.

(٥) صحيح مسلم (٦٤٤): (٢٢٨)، وهو عند أحمد (٤٥٧٢).

(٦) برقم (٦٤٤): (٢٢٩).

(٧) علقه بهذا اللفظ قبل حديث (٥٦٤)، ووصله (٥٩٩) بلفظ: وكان يستحب أن يؤخر العشاء. وسلف ص٦٧ من هذا الجزء.

النبيُّ ﷺ العشاء[١]. وهذا يدلُّ على العشاء الأولى.

وفي الصحيح: فصلَّاها ـ يعني العصر ـ بين العشاءين المغربِ والعشاء[٢]. وفي الموَطَّأ[٣] وغيره: «ولو يعلمون ما في العَتَمة والصبح، لأتَوْهما ولوْ حَبْواً».

وفي مسلم عن جابر بن سَمُرةَ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلواتِ نحواً من صلاتكم، وكان يؤخِّر العَتَمة بعد صلاتكم شيئاً، وكان يُخِفُّ الصلاة[٤].

قال القاضي أبو بكر بن العربي[٥]: وهذه أخبارٌ متعارضة، لا يعلم منها الأوَّلُ من الآخِرِ بالتاريخ، ونهيُه عليه الصلاة السلام عن تسمية المغرب عشاءً[٦] وعن تسمية العشاء عَتَمةً ثابتٌ، فلا مَردَّ له من أقوال الصحابة فضلاً عمن عداهم. وقد كان ابن عمر يقول: مَن قال: صلاة العَتَمة؛ فقد أَثِم[٧]. وقال ابن القاسم: قال مالك: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ فاللهُ سمَّاها صلاةَ العشاء، فأحبَّ النبيُّ ﷺ أن تُسمَّى بما سمَّاها الله تعالى به، ويُعلِّمها الإنسانُ أهله وولده، ولايُقال: عَتَمة، إلَّا عند خطاب مَن لايفهم. وقد قال حسَّان:

وكانت لا يَزال بها أَنيسٌ خلالَ مُروجِها نَعَمٌ وَشاءُ

(١) علقه البخاري بهذا اللفظ قبل حديث (٥٦٤)، ووصله (٥٧٢)، وأحمد (١٢٨٨٠)، ومسلم (٦٤٠): (٢٢٢). وسلف ٤/ ١٧٥ من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٦٢٧): (٢٠٥)، وأحمد (٦١٧) من حديث علي ﷺ.

(٣) الموطأ ١/ ١٣١ عن أبي هريرة ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١): (٢٥٢)، وسلف ٤/ ١٨٠.

(٤) صحيح مسلم (٦٤٣): (٢٢٧)، وهو عند أحمد (٢١٠٠٢). وجاء عنده وفي رواية عند مسلم: يخفِّف، بدل: يخف.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٦.

(٦) يشير المصنف بذلك إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٦٣) عن عبد الله المزني أن النبي ﷺ قال: «لا تغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم المغرب» قال: وتقول الأعراب: هي العشاء.

(٧) لم نقف عليه، وأخرج عبد الرزاق (٢١٥٤) عن عبد العزيز بن أبي روَّاد، وابن أبي شيبة ٢/ ٤٣٩ عن نافع كلاهما قال (واللفظ لنافع): كان ابن عمر إذا سمعهم يقولون: العتمة، غضب غضباً شديداً، ونهى نهياً شديداً.

فـدَعْ هــذا ولـكــن مَــنْ لِـطَـيْـفٍ يُـؤَرِّقــنــي إذا ذهــب الـعِــشــاء[١]

وقد قيل: إن هذا النهيَ عن اتِّباع الأعراب في تسميتهم العشاءَ عَتَمة، إنَّما كان لئلا يُعدَل بها عما سمَّاها الله تعالى في كتابه إذ قال: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾، فكأنه نَهْيُ إرشاد إلى ما هو الأَوْلى، وليس على جهة التحريم، ولا على أنَّ تسميتها العَتَمة لا يجوز. ألا ترى أنه قد ثبت أن النبيَّ ﷺ قد أطلق عليها ذلك، [إذ قال: «ولو يعلمون ما في العَتَمة والصبح»] وقد أباح تسميتها بذلك أبو بكر وعمرُ رضي الله عنهما[٢].

وقيل: إنما نهى عن ذلك تنزيهاً لهذه العبادة الشريفة الدِّينية عن أن يُطلق عليها ما هو اسم لفِعلة دُنْيَويَّة، وهي الحَلْبةُ التي كانوا يَحلُبونها في ذلك الوقت ويسمُّونها العَتَمة، ويشهد لهذا قوله: «فإنها تُعْتِم بِحلاب الإبل».

الثامنة: روى ابن ماجه في سننه: حدَّثنا عثمان بن أبي شيبةَ، حدَّثنا إسماعيل بن عيَّاش، عن عُمارةَ بن غَزِيَّة، عن أنس بن مالك، عن عمرَ بنِ الخطاب، عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقول: «مَن صَلَّى في[٣] جماعة أربعين ليلةً، لاتفوته الرَّكعة الأولى من صلاة العشاء، كتب الله له بها عِتْقاً من النار»[٤].

وفي «صحيح مسلم»[٥] عن عثمانَ بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن صلَّى العشاء في جماعة، فكأنَّما قام نصفَ الليل، ومَن صلَّى الفجر في جماعة، فكأنَّما قام الليلَ كلَّه».

وروى الدارقطني في سننه[٦] عن سُبَيع أو تُبَيْع، عن كعب قال: مَن توضأ فأحسن

---

(١) سلف البيت الأول ٥/ ٥٤ ، والبيت الثاني ٩/ ٤٢٦ .

(٢) المفهم ٢/ ٢٦٨ وما سلف بين حاصرتين وما سيرد منه، وفيه: ابن عباس، بدل: عمر.

(٣) بعدها في سنن ابن ماجه: مسجد .

(٤) سنن ابن ماجه (٧٩٨)، وقد أشار إليه الترمذي إثر الحديث (٢٤١) دون أن يذكر لفظه، وقال: هذا حديث غير محفوظ ، وهو حديث مرسل، وعمارة بن غَزِيَّة لم يدرك أنساً. اهـ. وقال ابن حجر في التقريب: لا بأس به، وروايته عن أنس مرسلة. وينظر مصباح الزجاجة ١/ ١٦٩ .

(٥) برقم (٦٥٦)، وسلف ٤/ ١٨٠-١٨١ .

(٦) برقم (٣٤٣٤).

الوضوء، وصلَّى العشاء الآخرة، وصلَّى بعدها أربع ركعات، فأتمَّ ركوعهن وسجودهن، ويعلمُ ما يَقترِئ فيهنَّ، كُنَّ له بمنزلة ليلة القدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

قرأ الحسن: «الحُلْم»، فَحَذف الضمةَ لثِقَلها[١]. والمعنى أن الأطفال أُمِروا بالاستئذان في الأوقات الثلاثة المذكورة، وأُبيح لهم الأمرُ في غير ذلك كما ذكرنا. ثم أمر الله تعالى في هذه الآية أن يكونوا إذا بلغوا الحُلُم على حكم الرجال في الاستئذان في كلِّ وقت[٢]. وهذا بيانٌ من الله عزَّ وجل لأحكامه، وإيضاح حلاله وحرامه[٣]، وقال: «فَلْيَسْتَأْذِنُوا»، ولم يقل: فليستأذنوكم.

وقال في الأولى: «لِيَسْتَأْذِنْكُم» لأن الأطفال غيرُ مخاطَبين ولا متعبَّدين[٤]. وقال ابن جُريح: قلت لعطاء: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ قال: واجبٌ على الناس أن يستأذنوا إذا احتلموا، أحراراً كانوا أو عبيداً[٥]. وقال أبو إسحاق الفَزَاريُّ: قلت للأوزاعيِّ: ما حدُّ الطفل الذي يستأذن؟ قال: أربع سنين، قال: لايدخل على امرأة حتى يستأذن[٦]. وقال الزهريُّ: أي يستأذن الرجلُ على أمِّه. وفي هذا المعنى نزلت هذه الآية[٧].

(١) إعراب القرآن للنحاس٣/ ١٤٧ ، ونسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٣ القراءة في الموضعين لعبد الوارث عن أبي عمرو.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤ .

(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٨ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس٣/ ١٤٧ .

(٥) الاستذكار ٢٦/ ٣٤٤-٣٤٥ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٣٥٨-٣٥٩ بنحوه .

(٦) الاستذكار ٢٦/ ٣٤٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس٤/ ٥٥٥ .

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ القواعدُ واحدتُها قاعِد، بلا هاء؛ ليدلَّ حذفها على أنه قُعُود الكِبَر، كما قالوا: امرأة حامل؛ ليدلَّ بحذف الهاء أنه حملُ حَبَل[١]. قال الشاعر:

فلو أنَّ ما في بطنه بين نِسوةٍ حَبِلْن وإن كنَّ القواعد عُقَّرا[٢]

وقالوا في غير ذلك: قاعدةٌ في بيتها، وحاملةٌ على ظهرها، بالهاء[٣]. والقواعدُ أيضاً: أساس البيت، واحده قاعدة، بالهاء.

الثانية: القواعد: العُجَّزُ اللَّواتي قَعَدْنَ عن التصرُّف من السنِّ، وقَعَدْنَ عن الولد والمَحِيض. هذا قول أكثر العلماء[٤]. قال ربيعة: هي التي إذا رأيتها تستقذرُها من كِبَرِها[٥]. وقال أبو عبيدة اللاتي قَعَدْنَ عن الولد[٦]. وليس ذلك بمستقيم، لأن المرأة تقعد عن الولد فيها مستمتَع. قاله المهدويّ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ إنما خصَّ القواعد بذلك لانصراف الأنفس عنهن، إذ لا مَذْهب للرجال

---

(١) تفسير غريب القرآن ص٣٠٨.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٢١، وأورده أيضاً ابن منظور في اللسان (عقر)، وجاء فيه الشطر الثاني: حبلن ولو كانت قواعد عقَّرا.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٣٠٨.

(٤) ينظر تفسير غريب القرآن ص٣٠٧، والنكت والعيون ٤/ ١٢١، والوسيط٣/ ٣٢٨، والمحرر الوجيز٤/ ١٩٤.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٥٥٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٥.

(٦) مجاز القرآن ٢/ ٦٩.

فيهنَّ، فأُبيح لهنَّ ما لم يُبَح لغيرهنَّ، وأُزيل عنهنَّ كُلْفةُ التحفُّظِ المتعِبِ لهنّ[١].

الرابعة: قرأ ابن مسعود وأُبَيّ وابنُ عباس: «أنْ يَضَعْنَ مِنْ ثِيابهن» بزيادة: من[٢]. قال ابن عباس: وهو الجِلْباب[٣]. ورُويَ عن ابن مسعود أيضاً: «من جلابيبهن». والعرب تقول: امرأة واضع، للتي كَبِرت فوضعت خِمارها[٤]. وقال قوم: الكبيرة التي أَيِست من النكاح، لو بدا شعرها فلابأس، فعلى هذا يجوز لها وضع الخمار. والصحيح أنها كالشابة في التستُّر، إلا أن الكبيرة تضع الجِلباب الذي يكون فوق الدِّرع والخِمار. قاله ابن مسعود وابن جُبير وغيرهما[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غيرَ مُظهِرات ولا متعرِّضات بالتزيُّن[٦] ليُنْظر إليهنَّ[٧]، فإن ذلك من أقبح الأشياء وأبعدِه عن الحقّ. والتبرُّج: التكشُّف والظُّهورُ للعيون، ومنه: بروج مُشَيَّدةٌ، وبروجُ السماء والأسوار[٨]، أي: لا حائلَ دونها يسترها.

وقيل لعائشةَ رضي الله عنها: يا أمَّ المؤمنين، ما تقولين في الخِضاب والصِّباغ والتمائم والقُرْطَين والخَلْخال وخاتم الذهب ورِقاق الثياب؟ فقالت: يا معشر النساء، قصتُّكنَّ قصةُ امرأة واحدة، أحلَّ الله لكُنَّ الزينة غيرَ متبرِّجات لمن لا يحلُّ لَكُنَّ أن

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ .

(٢) قراءة ابن مسعود وأبي في تفسير البغوي ٣/ ٣٥٦ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ ، وقراءة ابن عباس في مجمع البيان ١٨/ ٧١ .

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٩٣ ، والبيهقي ١٧/ ٣٦٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ .

(٥) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ ، وأخرجه عن ابن مسعود الطبري ١٧/ ٣٦٢ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٠ (١٤٨٣٨) و(١٤٨٤٠). وأخرجه عن سعيد بن جبير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤١ (١٤٨٤٥).

(٦) في (م): بالزِّينة.

(٧) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ .

يَرَوْا منكنَّ مُحرَّماً(١).

وقال عطاء: هذا في بيوتهنّ، فإذا خرجت فلا يحلُّ لها وضع الجلباب. وعلى هذا: «غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ» غير خارجات من بيوتهن. وعلى هذا يلزم أن يقال: إذا كانت في بيتها فلابدَّ لها من جلباب فوق الدِّرع. وهذا بعيد، إلا إذا دخل عليها أجنبيّ.

ثم ذكر تعالى أنَّ تحفُّظ الجميع منهنَّ، واستعفافَهنَّ عن وضع الثياب، والتزامَهنَّ ما يَلْزَم الشبابَ أفضلُ لهنَّ وخير. وقرأ ابن مسعود: «وأن يَعْفِفْنَ» بغير سين(٢).

ثم قيل: من التبرُّج أن تلبس المرأة ثوبين رقيقين يَصِفانها(٣). روى الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سِيَاط كأذناب البَقَر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسُهن كأَسْنِمة البُخْتِ المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدنَ ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»(٤). قال ابن العربي(٥): وإنما جعلهنَّ كاسياتٍ لأن الثياب عليهنَّ، وإنما وصفهنَّ بأنهنَّ عاريات؛ لأن الثوب إذا رقَّ يصفهنَّ، ويُبدي محاسنهنَّ، وذلك حرام. قلت: هذا أحد التأويلين للعلماء في هذا المعنى.

والثاني: أنهنَّ كاسياتٌ من الثياب، عارِياتٌ من لباس التَّقْوَى الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾(٦) [الأعراف: ٢٦]. وأنشدوا:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٢ (١٤٨٤٩) عن أم الضياء أنها دخلت على عائشة، فقالت: يا أم المؤمنين ما تقولين...

(٢) في (م): يتعففن، ولم تجوَّد في (د)، والمثبت من (ظ) و(ف) وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ والكلام منه، والقراءات الشاذة ص١٠١.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٨٩.

(٤) صحيح مسلم (٢١٢٨)، وهو عند أحمد (٨٦٦٥). والبُخْت ـ وسيأتي شرحها عند المصنف ـ: ضرب من الإبل، عظام الأجسام، عظام الأسنمة.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٨٩.

(٦) المفهم ٥/ ٤٥٠.

إذا المرءُ لم يلبس ثياباً من التُّقَى تقلَّب عُرياناً وإن كان كاسِيا
وخيرُ لباس المرء طاعةُ ربِّه ولا خيرَ فيمن كان لِله عاصِيا(١)

وفي «صحيح مسلم» عن أبي سعيد الخُدْريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائمٌ رأيت الناس يُعْرَضون عليَّ وعليهم قُمُص؛ منها ما يبلغ الثُّدِيَّ، ومنها ما دون ذلك، ومرَّ عمر بن الخطاب وعليه قميصٌ يجرُّه» قالوا: ماذا أوَّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: «الدِّين»(٢). فتأويلُه ﷺ القميصَ بالدِّين مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾. والعرب تُكنِّي عن الفضل والعفاف بالثياب، كما قال شاعرهم:

ثيابُ بني عَوْفٍ طَهارَى نَقِيَّةٌ(٣)

وقد قال ﷺ لعثمان: «إن الله سيُلْبِسك قميصاً، فإن أرادوك أن تخلعه، فلا تخلعه»(٤). فعبَّر عن الخلافة بالقميص، وهي استعارة حسنةٌ معروفة(٥).

قلت: هذا التأويل أصحُّ التأويلين، وهو اللائق بهنَّ في هذه الأزمان، وخاصَّةً الشباب، فإنهنَّ يتزيَّنَّ ويَخْرُجنَ متبرِّجات، فهنَّ كاسياتٌ بالثياب، عارياتٌ من التَّقْوَى حقيقةً، ظاهراً وباطناً، حيث تُبْدِي زينتها، ولا تُبالي بمن ينظر إليها، بل ذلك مقصودُهنَّ، وذلك مشاهدٌ في الوجود منهنَّ، فلو كان عندهنَّ شيءٌ من التَّقوى لَمَا فعلن ذلك، ولم يعلم أحد ما هنالك.

وممَّا يقوِّي هذا التأويل ما ذُكر من وصفهنَّ في بقيَّة الحديث في قوله: «رؤوسُهنَّ كأسنمة البُخْت». والبُخْت ضربٌ من الإبل عظام الأجسام، عظامِ الأسنمة، شبَّه رؤوسهنَّ بها لما رفعن من ضفائر شعورهنَّ على أوساط رؤوسهنَّ [تزيُّناً وتصنُّعاً](٦).

---

(١) البيت الأول لأبي العتاهية، وسلف البيتان ٩/ ١٨٥ .

(٢) صحيح مسلم (٢٣٩٠)، وهو عند أحمد (١١٨١٤)، والبخاري (٢٣).

(٣) صدر بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٨٣ ، وعجزه: وأوجُههم عند المَشاهد غُرَّانُ.

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٥٦٦)، وابن حبان (٦٩١٥) مطولاً من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) المفهم ٦/ ٢٥٣ .

(٦) المفهم ٥/ ٤٥٠ وما بين حاصرتين منه.

وهذا مشاهَد معلوم، والناظرُ إليهنَّ ملوم.

قال ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء». خرَّجه البخاري(١).

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

فيه إحدى عشرةَ مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ اختلف العلماءُ في تأويل هذه الآية على أقوال ثمانية: أقربها: هل هي منسوخةٌ، أو ناسخة، أو مُحْكَمة؛ فهذه ثلاثة أقوال:

الأول: أنها منسوخةٌ من قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر الآية؛ قاله عبد الرحمن بن زيد، قال: هذا شيءٌ قد انقطع، كانوا في أول الإسلام ليس على أبوابهم أغلاقٌ، فكانت السُّتورُ مُرْخَاةً، فربما جاء الرَّجلُ فدخَل البيتَ وهو جائع وليس فيه أحدٌ؛ فسوَّغ اللهُ عزَّ وجلَّ أن يأكلَ منه، ثم صارت الأغلاقُ على البيوت، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يفتحها، فذهب هذا وانقطع(٢). قال ﷺ: «لا يَحْتَلِبَنَّ أحدٌ ماشيةَ أحدٍ إلا بإذنه» الحديث. خرَّجهُ الأئمةُ(٣).

(١) برقم(٥٠٩٦)، وهو عند أحمد (٢١٧٤٦) و(٢١٨٢٩)، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد ﷺ.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٥٩ ، وأخرج هذا الأثر الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٦٩ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٦ (١٤٨٧٤)، وذكره مكي في الإيضاح لناسخ القرآن ص٣٦٩ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤٤٧١)، والبخاري (٢٤٣٥)، ومسلم (١٧٢٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وسلف٤/ ٤٧٣ .

الثاني: أنها ناسخةٌ؛ قاله جماعة. روى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: لمَّا أنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] قال المسلمون: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد نهانا أن نأكل أموالَنا بيننا بالباطل، وإنَّ الطعامَ من أفضل الأموال، فلا يَحِلُّ لأحدٍ منَّا أن يأكلَ عند أحدٍ، فكفَّ الناسُ عن ذلكَ؛ فأنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قال: هو الرجلُ يوكِّل الرجل بضيعته[1].

قلت: عليُّ بن أبي طلحة هذا هو مولى بني هاشم، سكَن الشامَ، يُكْنَى أبا الحسن، ويقال: أبا محمد، واسمُ أبيه أبي طلحة: سالمٌ، تُكلِّم في تفسيره؛ فقيل: إنه لم يَرَ ابنَ عباس[2]، واللهُ أعلم.

الثالث: أنها محكمة؛ قاله جماعةٌ من أهل العلم ممن يُقْتَدَى بقولهم؛ منهم سعيدُ ابن المسيِّب، وعبيدُ اللهِ بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[3].

وروى الزُّهْرِيُّ، عن عروةَ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يُوعِبُون في النَّفِير مع رسول الله ﷺ، فكانوا يدفعون مفاتيحهم إلى ضَمناهم، ويقولون: إن احتجتم فكُلُوا؛ فكانوا يقولون: إنما أحلُّوه لنا عن غيرِ طِيبِ نَفْسٍ؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ إلى آخر الآية[4].

(١) في (ظ): بصنعته. وضيعة الرجل ما يكون منها معاشه، كالصنعة والتجارة والزراعة... ينظر «النهاية» (ضيع). والأثر أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٠، وأبو عبيد الهروي في الناسخ والمنسوخ (٤٤٣) والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٦٦، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٨ (١٤٨٨٦)، وأخرجه البيهقي ٧/ ٢٧٤-٢٧٥ من طريق عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تهذيب الكمال ٢٠/ ٤٩٠ وما بعدها، بنحوه.

(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٦٤.

(٤) أخرجه البزار (٢٢٤١) (زوائد)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٦ (١٤٨٧٥)، والنحاس في الناسخ =

قال النحاس[(١)]: «يُوعِبون» أي: يَخرجون بأجمعهم في المغازي؛ يقال: أوْعَب بنو فلانٍ لبني فلان، إذا جاؤوهم بأجمعهم. وقال ابن السكِّيت: يقال: أوْعب بنو فلان جلاءً؛ فلم يَبْقَ ببلدهم منهم أحدٌ. وجاء الفرسُ برَكْضٍ وَعِيبٍ، أي: بأقصى ما عنده[(٢)]. وفي الحديث: «في الأنف إذا استُوعِبَ جَدْعُه الدِّيَةُ»: إذا لم يُتْرَك منه شيء. واستيعاب الشيء: استئصالُه[(٢)]. ويقال: بَيْتٌ وَعِيبٌ: إذا كان واسعاً يَسْتَوْعِبُ كلَّ ما جُعِل فيه. والضَّمْنَى هم الزَّمْنَى، واحدُهم ضَمِنٌ؛ مثل زَمِن. قال النحاس[(٣)]: وهذا القولُ من أَجَلِّ ما رُوِيَ في الآية؛ لِما فيه عن الصحابة والتابعين من التوقيف أنَّ الآيةَ نَزلت في شيءٍ بعينه.

قال ابن العربي[(٤)]: وهذا كلامٌ منتظم لأجلِ تخلُّفِهم عنهم في الجهاد وبقاء أموالهم بأيديهم، لكن قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ قد اقتضاه[(٥)]؛ فكان هذا القولُ بعيداً جداً، لكن المختار أن يقال: إن اللهَ رفَع الحَرَجَ عن الأعمى فيما يتعلَّق بالتكليف الذي يُشترط فيه البَصَرُ، وعن الأعرج فيما يشترط في التكليف به من المشي؛ وما يتعذَّر من الأفعال مع وجود العَرَج، وعن المريض فيما يُؤثِّر المرضُ في إسقاطه، كالصوم وشروطِ الصلاة وأركانها، والجهادِ ونحو ذلك. ثم قال [تعالى] بعد ذلك مبيِّناً: وليس عليكم حرجٌ في أن تأكلوا من بيوتكم. فهذا معنى صحيحٌ، وتفسيرٌ مبينٌ[(٦)] مفيد، يَعْضُده الشرع والعقلُ، ولا يَحتاج في تفسير الآية إلى نقل.

= والمنسوخ ٢/ ٥٦٥ . قال البزار: لا نعلم رواه عن الزهري إلا صالح . وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٨٣ - ٨٤ : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(١) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٦ .

(٢) الصحاح (وعب)، والحديث أخرجه البزار (١٥٣١) (زوائد) من حديث عمر ﷺ؛ قال البزار: لا نعلمه عن عمر إلا بهذا الإسناد...، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٩٦ : رواه البزار، وفيه محمد بن أبي ليلى، وهو سيئ الحفظ، وبقية رجاله ثقات.

(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٦ ، وما قبله منه.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٩٢-١٣٩٣ ، وما بين حاصرتين منه.

(٥) في (د): هذا مقتضاه.

(٦) في (م): بيِّنٌ .

قلت: وإلى هذا أشار ابن عطية[١]، فقال: فظاهرُ الآية وأمرُ الشريعة يدلُّ على أن الحَرجَ عنهم مرفوعٌ في كلِّ ما يضطرهم إليه العذرُ، وتقتضي نيتهم فيه الإتيان بالأكمل، ويقتضي العذر أن يَقَعَ منهم الأنقصُ؛ فالحرج مرفوع[٢] عنهم في هذا. فأما ما قال الناس في هذا الحرج هنا، وهي:

الثانية: فقال ابن زيد: هو الحَرجُ في الغزو، أي: لا حَرَجَ عليهم في تأخُّرِهم، وقوله تعالى: «وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ» الآية، معنًى مقطوع من الأوَّل[٣].

وقالت فرقةٌ: الآية كلُّها في معنى المطاعم. قالت: وكانت العرب ومَن بالمدينة قبل المَبْعث تَتَجنَّب الأكلَ مع أهل الأعذار؛ فبعضُهم كان يفعلُ ذلك تقَذُّراً، لجَوَلانِ اليدِ من الأعمى، ولانبساط الجِلسةِ من الأعرج، ولرائحةِ المريض وعلَّاته؛ وهي أخلاقٌ جاهلية وكِبرٌ، فنزلت الآية مؤدِّبة[٤]. وبعضُهم كان يَفعل ذلك تحرُّجاً من عين[٥] أهل الأعذارِ، إذ هم مقصرون[٦] عن درجة الأصحاء في الأكل؛ لعدم الرؤية في الأعمى، وللعجز عن المُزاحمة في الأعرج، ولضعف المريض؛ فنزلت الآيةُ في إباحة الأكل معهم.

وقال ابنُ عباس في كتاب الزَّهْرَاويِّ: إن أهلَ الأعذار تَحَرَّجوا في الأكل مع الناس[٧] من أجل عُذرهم؛ فنزَلت الآيةُ مبيحةً لهم.

وقيل: كان الرجل إذا ساق أهلَ العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب به إلى

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥-١٩٦ .

(٢) في (ظ): مدفوع.

(٣) الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٦ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٦٩ .

(٤) في (ف) و(م): مؤذنة، وفي المحرر الوجيز ٤/ ١٩٥ مؤيدة. والمثبت من (د) و(ظ).

(٥) في (م): غير، وفي المحرر الوجيز: غبن. والمثبت من (ظ) و(ف).

(٦) في (ظ): مقصورون.

(٧) في (ظ): الأصحاء .

بيوت قرابته؛ فتحرَّج أهلُ الأعذار من ذلك؛ فنزَلت الآية[١].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ هذا ابتداء كلام؛ أي: ولا عليكم أيها الناس، ولكن لمَّا اجتمع المخاطَب وغيرُ المخاطب، غُلِّب المخاطبُ لينتظمَ الكلامُ[٢].

وذَكَر بيوتَ القرابات وسقط منها بيوتُ الأبناء؛ فقال المفسرون: ذلك لأنها داخلةٌ في قوله: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ لأن بيت ابن الرجل بيتُه[٣]؛ وفي الخبر: «أنت ومالُكَ لأبيك»[٤]، ولأنه ذكر الأقرباء بعدُ ولم يذكر الأولادَ.

قال النحاس[٥]: وعارَض بعضُهم هذا القولَ، فقال: هذا تحكُّمٌ على كتاب اللهِ تعالى؛ بل الأَولى في الظاهر ألَّا يكون الابنُ مخالفاً لهؤلاء، وليس الاحتجاجُ بما رُوي عن النبيِّ ﷺ: «أنت ومالك لأبيك» بقويٍّ، لِوَهاء[٦] هذا الحديثِ، وأنه لو صحَّ لم تكن فيه حجة؛ إذ قد يكون النبيُّ ﷺ عَلِمَ أنَّ مالَ ذلك المخاطب لأبيه. وقد قيل: إن معناه[٧]: أنت لأبيك، ومالُكَ مبتدأ؛ أي: ومالك لك. والقاطعُ لهذا التوارثُ بين الأب والابن.

وقال الترمذيُّ الحكيم[٨]: ووجهُ قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ ، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٤٤٤ ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٦٤ ، والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٦٨ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٥ (١٤٨٦٩-١٤٨٧٠) من قوله.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٩١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٦٦٧٨)، وأبو داود (٣٥٣٠)، وابن ماجه (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص، وأخرجه ابن ماجه أيضاً (٢٢٩١) من حديث جابر بن عبد الله.

(٥) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦١-٥٦٣ .

(٦) جاءت العبارة في (ظ): تقوى لهذا، وفي (م): بقوي لَوْهي، والمثبت من (ف)، والناسخ والمنسوخ.

(٧) في (م): المعنى، وفي (د) و(ظ) و(ف): معنى. والمثبت من الناسخ والمنسوخ.

(٨) لم نقف على قوله .

﴿بُيُوتِكُمْ﴾ كأنه يقول: مساكنكم التي فيها أهاليكم وأولادكم، فيكون للأهل[١] والولد هناك شيءٌ قد أفادهم هذا الرجلُ الذي له المسكن، فليس عليه حَرَج أن يأكل معهم من ذلك القُوت، أو يكون للزوجة والولد هناك شيءٌ من ملكهم، فليس عليه في ذلك حرج.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ﴾ قال بعض العلماء: هذا إذا أَذِنوا له في ذلك[٢]. وقال آخرون: أَذِنوا له أَوْ لم يأذنوا، فلَه أن يأكلَ؛ لأن القرابةَ التي بينهم هي إذنٌ منهم؛ وذلك لأن في تلك القرابة عَطْفاً تَسمَحُ النفوسُ منهم بذلك العطفِ أن يأكل هذا من شيئهم، ويُسَرُّوا بذلك إذا علموا[٣].

ابن العربي[٤]: أباح لنا الأكلَ من جهة النَّسب من غير استئذانٍ، إذا كان الطعامُ مبذولاً، فإذا كان مُحرزاً[٥] دونهم لم يكن لهم أخذه، ولا يجوز أن يجاوزوا[٦] إلى الادِّخار، ولا إلى ما ليس بمأكولٍ وإن كان غير مُحْرَزٍ[٧] عنهم إلا بإذنٍ منهم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ يعني مما اختزَنتم وصار في قَبضتكم، وعُظْمُ ذلك ما ملكه الرجل في بيته وتحت غَلَقه؛ وذلك هو تأويل الضحاك

---

(١) في (د) و(ظ): الأهل.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٨ بنحوه.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٣٥، وتفسير أبي الليث ٢/ ٤٤٩ - ٤٥٠، وتفسير الرازي ٢٤/ ٣٦ بنحوه.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٩١.

(٥) في (ظ): محروزاً، وفي (ف): محوزاً.

(٦) في (د): يُجَاوز، وفي (ظ): يتجاوز.

(٧) في (ظ): محروز، وفي (ف): محوز.

وقتادة ومجاهد[١]. وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيدُ والأُجَراء[٢]. قال ابن عباس: عنى وكيلَ الرجلِ على ضيعته، وخازنَه على ماله؛ فيجوز له أن يأكل مما هو قَيِّمٌ عليه[٣]. وذكر معمر عن قتادة عن عكرمة قال: إذا ملك الرجلُ المفتاحَ، فهو خازنٌ، فلا بأسَ أن يَطْعَم الشيءَ اليسيرَ[٤].

ابن العربي[٥]: وللخازن أن يأكل مما يخزُن إجماعاً؛ وهذا إذا لم تكن له أجرة، فأما إن كانت له أجرة على الخَزْن حَرُم عليه الأكلُ.

وقرأ سعيدُ بن جُبير: «مُلِّكْتُم» بضم الميم، وكسرِ اللام وشدِّها[٦].

وقرَأ أيضاً: «مفاتيحه» بياء بين التاء والحاء، جمع مفتاح[٧]؛ وقد مضى في «الأنعام»[٨]. وقرَأ قتادة: «مفتاحه» على الإفراد[٩].

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآيةُ في الحارث بن عمرو، خرَج مع رسول الله ﷺ غازِياً، وخلَّف مالكَ بنَ زيد على أهله، فلمَّا رجع وَجَده مجهوداً، فسأله عن حاله، فقال: تحرَّجتُ أن آكل من طعامك بغير إذنك؛ فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ[١٠].

---

(١) أخرج أقوالهم الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧١، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٦٤ عن قتادة، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٧ (١٤٨٧٨) عن الضحاك و(١٤٨٧٩) عن قتادة.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ وما قبله منه.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٩١، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧٠.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٦٥ عن معمر، به. وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧٤، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٨ (١٤٨٨٤) من قول قتادة.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٩٤.

(٦) القراءات الشاذة ص١٠٣.

(٧) المحرر الوجيز٤/ ١٩٦.

(٨) ٨/ ٤٠١.

(٩) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٦.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٨ (١٤٨٨٥) عن مقاتل بن حيان بأطول منه.

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ الصديق بمعنى الجمع، وكذلك العدوُّ؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]. وقال جرير:

دعَوْن الهوَى ثم ارْتَمَيْنَ قلوبَنا   بأسهمِ أعداء وهنَّ صديقُ[1]

والصديق مَن يَصْدقك في مودَّته وتَصْدُقه في مودَّتك. ثم قيل: إن هذا منسوخٌ بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يحلُّ مالُ امرئٍ مسلم إلا بطِيبة نفس منه»[2]. وقيل: هي محكمة[3]؛ وهو أصحُّ.

ذكر محمد بن ثَوْر، عن مَعْمَر قال: دخلتُ بيتَ قتادة، فأبصرت فيه رُطَباً، فجعلتُ آكله؛ فقال: ما هذا؟ قلت: أبصرت رطباً في بيتك فأكلتُ؛ قال: أحسنتَ، قال الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[4].

وذكر عبدُ الرزاق عن معمر، عن قتادة في قوله: «أَوْ صَدِيقِكُمْ» قال: إذا دخلتَ بيتَ صديقك من غير مؤامرته لم يكن بذلك بأس. وقال معمر: قلت لقتادة: ألا أشرب من هذا الحُبِّ؟ قال: أنتَ لي صديق، فما هذا الاستئذان؟![5].

وكان ﷺ يدخلُ حائطَ أبي طلحة المسمَّى بـ: بَيْرَحا، ويشربُ من ماءٍ فيها

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٢٤، والبيت في ديوان جرير ١/ ٣٧٢، وهو أيضاً في ديوان نُصيب بن رباح ص١٠٩، وفيه: بأعين أعداء. بدل: بأسهم أعداء.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٢٥، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٦، والحديث أخرجه أحمد (١٥٤٨٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٧٩)، والفسوي في المعرفة والتاريخ ١/ ٣٣٢ من حديث عمرو بن يثربي الضمري.

وأخرجه أيضاً الإمام أحمد (٢٠٦٩٥) من حديث عمّ أبي حُرَّة الرقاشي. وأخرجه أيضاً الدارقطني (٢٨٨١) من حديث ابن عباس.

(٣) كما ذكر النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٤، ومكي في الإيضاح ص٣٧٠.

(٤) التمهيد ١/ ٢٠٢.

(٥) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٦٤-٦٥، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧٤. قوله: الحُبّ، أي: الجرة، أو الضخمة منها. القاموس (حبب).

طيِّبٍ[١]، بغير إذنه، على ما قاله علماؤنا؛ قالوا: والماء متملَّكٌ لأهله، وإذا جاز الشربُ من ماء الصديق بغير إذنه، جاز الأكلُ من ثماره وطعامه إذا علم أن نَفْسَ صاحبه تطيبُ به لتفاهته ويسير مؤنته، أو لِما بينهما من المَودَّة[٢]. ومن هذا المعنى: إطعامُ أمِّ حَرامٍ له ﷺ إذ نام عندها[٣]؛ لأن الأغلبَ أنَّ ما في البيت من الطعام هو للرجل، وأن يدَ زوجته في ذلك عارِيَة، وهذا كلُّه ما لم يتخذ الأكل خُبْنة[٤]، ولم يقصد بذلك وقاية ماله، وكان تافهاً يسيراً[٥].

السابعة: قَرَن اللهُ عزَّ وجلَّ في هذه الآية الصديقَ بالقرابة المَحْضة الوكيدة؛ لأن قُرب المودَّة لَصِيق. قال ابنُ عباس في كتاب النقَّاش: الصديق أوْكد من القرابة؛ ألا ترى استغاثة الجَهَنمِيِّين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[٦] [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

قلت: ولهذا لا تجوز عندنا شهادةُ الصديق لصديقه، كما لا تجوز شهادةُ القريب لقريبه[٧]. وقد مضى بيانُ هذا والعلةُ فيه في «النساء»[٨]، وفي المَثَل: أيُّهم أحبُّ إليكَ أخوك أمْ صديقُك؟ قال: أخي إذا كان صديقي[٩].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٢٤٣٨)، والبخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وسلف ٥/ ١٩٩.

(٢) التمهيد ١/ ٢٠١ بنحوه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٨٨-٢٧٨٩)، ومسلم (١٩١٢)، وهو عند أحمد (٢٧٠٣٢) من حديث أنس بن مالك، ولفظه: كان رسول الله ﷺ يَدخل على أُمِّ حَرَام بِنْتِ مِلحان فتطعمه، وكانت أمُّ حَرام تحت عبادة ابن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته، وجعلت تُفْلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك... الحديث. وسلفت قطعة منه ١/ ٢١٩.

قال ابنُ عبد البر في التمهيد ١/ ٢٢٦: أمُّ حرام هذه خالةُ أنس بن مالك، أخت أم سليم بنت ملحان أم أنس، وأظنها أرضعت رسول الله ﷺ، أو أم سليم أرضعت رسولَ الله ﷺ، فحصلت أم حرام خالة له من الرضاعة فلذلك كانت تفلي رأسه وينام عندها، وكذلك كان ينام عند أم سليم.

(٤) أي يأكل من طعام صديقه ويُخبّئ طعامه إلى وقت الشِّدَّة. اللسان: (خبن).

(٥) التمهيد ١/ ٢٢٨ و٢٣٢.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦، والنكت والعيون ٤/ ١٢٤ بنحوه.

(٧) عقد الجواهر الثمينة ٣/ ١٤٤.

(٨) ٧/ ١٧٣ وما بعدها.

(٩) ذكره ابنُ قتيبة في عيون الأخبار ٣/ ٦، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/ ٣١٣ ونسباه لبُزرجمهر، =

الثامنة: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قيل: إنها نَزَلت في بني ليث بن بكر، وهم حيٌّ من بني كِنانة، كان الرجلُ منهم لا يَأكل وحدَه، وَيمكُثُ أياماً جائعاً حتى يَجِدَ من يُؤاكله[١]. ومنه قولُ بعضِ الشعراء:

إذا ما صَنَعتِ الزَّادَ فالتمسي له أَكِيلاً فإني لستُ آكِلَه وَحْدي[٢]

قال ابن عطية: وكانت هذه السيرةُ موروثةً عندهم عن إبراهيم ﷺ، فإنه كان لا يأكل وحدَه[٣].

وكان بعضُ العرب إذا كان له ضيفٌ لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه؛ فنزلت الآيةُ مبيِّنة سُنَّةَ الأكل، ومذهبةً كلَّ ما خالفها من سيرة العرب، ومبيحةً من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرَّماً، نَحَتْ به نَحْوَ كَرَمِ الخُلق، فأفرطت في إلزامه، وإن إحضار الأكيل لحَسَنٌ، ولكن بألا يحرم الانفراد[٤].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ «جميعاً» نصب على الحال[٥]. و«أَشْتَاتاً» جمع شَتٍّ، والشَّتُّ المصدر بمعنى التفرُّق[٦]؛ يقال: شتَّ القومُ، أي: تفرَّقوا.

وقد ترجم البخاريُّ في «صحيحه»: باب ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ

= ونسبه ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٨٩ لعبد الحميد الكاتب، وذكره ابن العربي ٣/ ١٣٩٤ دون نسبة.

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٦٥ عن قتادة، والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧٦ عن قتادة والضحاك، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٩ (١٤٨٨٨) عن قتادة، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٤ عنهما.

(٢) هو في البيان والتبيين ٣/ ٣١٠ ، وعيون الأخبار ٣/ ٢٦٣ ، وديوان الحماسة شرح المرزوقي ٤/ ١٦٦٨ ، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ دون نسبة، وهو منسوب في الكامل للمبرد ٢/ ٧٠٩ ، والأغاني ١٤/ ٧١ لقيس بن عاصم المِنقري، ونسبه التبريزي في شرح الحماسة ٤/ ١٠٠ لحاتم الطائي.

(٣) هذه العبارة هي في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٩٤ ، وكلام ابن عطية هو الآتي بعده.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٩ .

(٦) الوسيط ٣/ ٣٣٠ ، والرازي ٢٤/ ٣٧ ، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٥٤ .

حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الآية، والنِّهدِ والاجتماعِ [على الطعام][١]. ومقصودُه فيما قاله علماؤنا في هذا الباب: إباحةُ الأكلِ جميعاً وإن اختلفت أحوالهم في الأكل. وقد سوَّغ النبيُّ ﷺ ذلك، فصارت تلك سنَّةً في الجماعات التي تُدعى إلى الطعام في النِّهد والولائم وفي الإملاق في السفر. وما ملكتَ مفاتحه بأمانةٍ أو قَرابةٍ أو صداقة، فلَك أن تأكلَ مع القريب أو الصديق وَوَحدَك.

والنِّهد: ما يَجمعه الرُّفقاءُ من مالٍ أو طعام على قدرٍ في النفقة ينفقونه بينهم؛ وقد تَناهدوا[٢]؛ عن صاحب العين. وقال ابن دُرَيد[٣]: يقال من ذلك: تَنَاهَد القومُ الشيءَ بينهم. الهَرَوِيُّ: وفي حديث الحَسَن: «أَخرِجوا نِهْدَكم، فإنه أعظمُ للبركة وأحسن لأخلاقكم». النِّهد: ما تُخرجه الرُّفقة عند المناهدة؛ وهو استقسام النفقةِ بالسَّويَّة في السفر وغيره[٤]. والعرب تقول: هات نِهْدَك؛ بكسر النون[٥]. قال المهلَّب: وطعامُ النِّهد لم يُوضع للآكلين على أنهم يأكلون بالسَّواء، وإنما يأكل كلٌّ واحدٍ على قدرِ نَهْمته، وقد يأكل الرَّجلُ أكثرَ من غيره[٦].

وقد قيل: إن تركها أشبهُ بالوَرَع. وإن كانت الرُّفقة تجتمع كلَّ يومٍ على طعام أحدِهم، فهو أحسن من النهد؛ لأنهم لا يَتناهدون إلا لِيُصيبَ كلٌّ واحدٍ منهم من ماله، ثم لا يدرى لعلَّ أحدَهم يقصِّر عن ماله، ويأكلُ غيرُه أكثرَ من ماله، وإذا كانوا

(١) صحيح البخاري قبل الحديث (٥٣٨٤)، وما بين حاصرتين منه، وقد أشار الحافظ في الفتح ٩/ ٥٢٩ أن قوله: والنِّهد والاجتماع على الطعام. هي رواية المستملي وحده، وذكر العيني في عمدة القاري ٢١/ ٣٣-٣٤: أنها رواية النسفي وحده.

(٢) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٦/ ٢٠٩، والصحاح (نهد).

(٣) في جمهرة اللغة ٢/ ٣٠٤.

(٤) ذكر قول الهروي مع الأثر ابنُ الأثير في النهاية (نهد)، وذكر الأثر أيضاً ابنُ حجر في الفتح ٥/ ١٢٩، والعيني في عمدة القاري ١٣/ ٤٠.

(٥) تهذيب اللغة ٢/ ٢٠٩.

(٦) ذكره عنه بنحوه ابنُ حجر في الفتح ٩/ ٥٢٩، والعيني في عمدة القاري ٢١/ ٣٤، وينظر أحكام القرآن للكيا ٣/ ٢٦٥.

يوماً عند هذا ويوماً عند هذا بلا شرطٍ؛ فإنما يكونون أضيافاً، والضَّيفُ يأكل بطِيب نَفْسٍ ممَّا يُقدَّم إليه.

وقال أيوب السَّختياني: إنما كان النِّهد أنَّ القومَ كانوا يكونون في السفر، فيسبق بعضُهم إلى المنزل، فيَذْبحُ ويهيِّئ الطعامَ ثم يأتيهم، ثم يسبق أيضاً[1] إلى المنزِلِ، فيفعل مثلَ ذلك؛ فقالوا: إنَّ هذا الذي تصنع كلُّنا نحبُّ أن نصنعَ مثلَه، فتعالوْا نجعل بيننا شيئاً لا يتفضَّل بعضُنا على بعض، فوضعوا النِّهد بينهم. وكان الصُّلحاء إذا تَناهدوا تحرَّى أفضلُهم أن يزيدَ على ما يُخرجه أصحابُه، وإن لم يرضوا بذلك منه إذا علموه، فعله سرًّا دونهم.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

اختلف المتأوِّلون في أيِّ البيوت أراد؛ فقال إبراهيم النَّخَعِيُّ والحسنُ: أراد المساجدَ؛ والمعنى: سلِّموا على مَن فيها من صنفكم[2]، فإن لم يكن في المساجد أحدٌ، فالسلام أن يقول المرءُ: السَّلام على رسول الله. وقيل: يقول: السَّلام عليكم؛ يريد الملائكةَ، ثم يقول: السَّلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين[3]. وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن عمرو بن دِينار، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية، قال: إذا دخلتَ المسجدَ، فقل: السلام علينا وعلى عباد اللهِ الصالحين[4].

وقيل: المراد بالبيوت البيوتُ المسكونة، أي: فسلِّموا على أنفسكم. قاله جابر

(١) في (د): ضائفاً.

(٢) في (ظ) و(م): ضيفكم. والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٦ والكلام منه، وأخرج الأثر عن إبراهيم والحسن الطبريُّ في تفسيره ١٧/ ٣٨١.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦.

(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٦٦، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٠ (١٤٨٩٤)، والحاكم ٢/ ٤٠١، والبيهقي في الشعب (٨٨٣٦).

ابن عبد الله، وابن عباس أيضاً، وعطاء بن أبي رباح[١]، قالوا: يدخل في ذلك البيوت غير المسكونة، ويسلّم المرء فيها على نفسه بأن يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

قال ابن العربي[٢]: القولُ بالعموم في البيوت هو الصحيح، ولا دليلَ على التخصيص؛ وأطلَق القولَ ليدخل تحت هذا العموم كلُّ بيتٍ كان للغير أو لنفسه، فإذا دخل بيتاً لغيره استأذن كما تقدَّم، فإذا دخل بيتاً لنفسه سلَّم كما ورَد في الخبر، يقول: السلام علينا وعلى عباد اللهِ الصالحين؛ قاله ابن عمر[٣]. وهذا إذا كان فارغاً، فإن كان فيه أهلُه [وعياله] وخدمُه، فليقل: السلام عليكم. وإنْ كان مسجداً، فليقل: السَّلام علينا وعلى عباد اللهِ الصالحين. وعليه حَمل ابنُ عمر البيتَ الفارغ. قال ابن العربي[٤]: والذي اختاره إذا كان البيتُ فارِغاً ألا يلزم السلام، فإنه إن كان المقصود الملائكة؛ فالملائكةُ لا تفارِقُ العبدَ بحال، أما إنه إذا دخلت بيتك يُستحب لك ذِكْرُ الله بأن تقول: ما شاء اللهُ لا قوةَ إلا بالله، وقد تقدَّم في سورة الكهف[٥].

وقال القُشَيْريُّ في قوله: ﴿إذا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾: والأوجَهُ أن يقال: إن هذا عامٌّ في دخول كلِّ بيت، فإن كان فيه ساكنٌ مسلم يقول: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، وإن لم يكن فيه ساكن يقول: السلام علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحين، وإن كان في البيت مَنْ ليس بمسلم، قال: السلام على مَنِ اتّبع الهُدى، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وذكر ابن خُوَيزمَنداد قال: كتب إليَّ أبو العباس الأصمُّ، قال: حدثنا محمدُ بن

---

(١) أخرج أقوالهم الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٧٨-٣٨٠ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٠ (١٤٨٩٥).

(٢) في أحكام القرآن له ٣/ ١٣٩٦-١٣٩٧ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٥٥)، والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨٣ .

(٤) في أحكام القرآن له ٣/ ١٣٩٧ ، والكلام قبله وما بين حاصرتين منه.

(٥) ١٣/ ٢٨٠ - ٢٨١ .

عبد الله بن عبد الحكم، قال: حدثنا ابنُ وهب، قال: حدثنا حفص[١] بنُ ميسرة، عن زيد بن أسلم، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إذا دخلتُم بيوتاً فسلِّموا على أهلها، واذكروا اسمَ اللهِ؛ فإنَّ أحدَكم إذا سلَّم حين يَدخل بيتَه، وذكر اسمَ اللهِ تعالى على طعامه، يقول الشيطانُ لأصحابه: لا مَبِيتَ لكم هاهنا ولا عَشاء، وإذا لم يُسلِّم أحدُكم إذا دَخَل ولم يذكرِ اسمَ الله على طعامه، قال الشيطانُ لأصحابه: أدركتُم المبيتَ والعَشاءَ»[٢].

قلت: هذا الحديث ثَبَت معناه مرفوعاً من حديث جابر، خرَّجه مسلم[٣].

وفي كتاب أبي داود، عن أبي مالك الأشعري[٤]، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وَلَج الرجلُ بيتَه، فلْيقل: اللَّهُمَّ إني أسألُكَ خَيْرَ المَوْلَج وخيرَ المخرج، باسم اللهِ وَلَجْنَا، وباسم الله خَرَجنا، وعلى الله ربِّنا توكلنا. ثم ليسلِّم على أهله»[٥].

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً﴾ مصدر؛ لأن قوله ﴿فَسَلِّمُوا﴾ معناه: فحيُّوا[٦].

ووصفَها بالبركة، لأن فيها الدعاءَ واستجلاب مودَّةِ المسلَّم عليه، ووصفها أيضاً

---

(١) في النسخ: جعفر، وهو تصحيف، والمثبت من (د).

(٢) الحديث مرسل. زيد بن أسلم من التابعين.

(٣) صحيح مسلم (٢٠١٨)، وهو عند أحمد (١٥١٠٨)، ولفظه: «إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء...».

(٤) في (ظ) و(ف) و(م): الأشجعي، والمثبت من(د) وسنن أبي داود.

(٥) سنن أبي داود (٥٠٩٦). وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٤٥٢) ومن طريقه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار ١/ ١٧٢ من طريق محمد بن إسماعيل بن عياش، عن أبيه، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد، عن أبي مالك الأشعري، به. قال الحافظ: هذا حديث غريب، ونقل عن النووي قوله: لم يضعفه أبو داود، فتعقبه الحافظ بقوله: يريد في السنن، وإلا فقد ضعف راويه في أسئلة الآجري، فقال: محمد بن إسماعيل بن عياش ليس بذاك وقال أبو حاتم: لم يسمع من أبيه، ثم قال: وفي السند علة أخرى، قال أبو حاتم: رواية شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري مرسلة.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٤٩ .

بالطِّيب، لأن سامعها يستطيبها. والكاف من قوله «كذلك»: كافُ تشبيهٍ، و«ذلك» إشارةٌ إلى هذه السُّنَن؛ أي: كما بيَّن لكم سُنَّةَ دينِكم في هذه الأشياء، يبيِّن لكم سائرَ ما بكم حاجة إليه في دينكم(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. «إِنَّمَا» في هذه الآية للحصر؛ المعنى: لا يَتمُّ ولا يَكملُ إيمانُ من آمن باللهِ ورسولهِ إلا بأن يَكونَ من الرسول سامعاً، غير معنِّت في أن يكونَ الرسولُ يُريد إكمالَ أمرٍ فيريد هو إفسادَه بزواله في وقت الجمع، ونحو ذلك(٢). وبيَّن تعالى في أول السورة، أنَّه أنزَل آياتٍ بيِّنات، وإنما النزول على محمدٍ ﷺ؛ فختم السورةَ بتأكيد الأمر في متابعته عليه الصلاة والسلام؛ ليعلم أن أوامرَه كأوامر القرآن.

الثانية: واختلف في «الأمر الجامع» ما هو؟ فقيل: المراد به ما للإمام من حاجةٍ إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، من إقامة سُنَّةٍ في الدِّين(٣)، أو لترهيب عدوٍّ باجتماعهم، وللحروب؛ قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فإذا كان أمرٌ يَشملهم نفعُه وضرُّه جمعَهم للتشاور في ذلك.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٧.

(٣) المصدر السابق.

والإمام الذي يُرتَقَب[١] إذنُه هو إمام الإمْرة، فلا يذهب أحدٌ لعذرٍ إلا بإذنه، فإذا ذهب بإذنه ارتفع عنه الظنُّ السيِّئ. وقال مَكْحُول والزُّهْرِيُّ: الجمعة من الأمر الجامع[٢]. وإمام الصلاة ينبغي أن يُستأذن إذا قدَّمه إمامُ الإمرة، إذا كان يرى المستأذن[٣].

قال ابن سيرين: كانوا يستأذنون الإمامَ على المنبر؛ فلما كثُرَ ذلك، قال زياد: مَنْ جعل يدَه على أنفه[٤] فليَخرج دونَ إذن، وقد كان هذا بالمدينة، حتى إنَّ سهيل[٥] ابن أبي صالح رَعَف يومَ الجمعة فاستأذن الإمامَ[٦].

وظاهرُ الآية يَقتضي أن يُستأذن أميرُ الإمْرةِ الذي هو في مَقعد النبوَّة، فإنه ربما كان له رأيٌ في حبس ذلك الرجل لأمرٍ من أمور الدِّين، فأمَّا إمامُ الصلاة فقط فليس ذلك إليه؛ لأنه وكيلٌ على جزءٍ من أجزاء الدِّين للذي هو في مقعد النبوَّة[٧].

وروي أنَّ هذه الآية نَزلَت في حفرِ الخندق، حين جاءت قريش وقائدُها أبو سفيان، وغَطفان وقائدُها عُيَيْنة بن حِصْن؛ فضَربَ النبيُّ ﷺ الخندقَ على المدينة، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، فكان المنافقونَ يتسلَّلون لِوَاذاً من العمل، ويَعتذرون بأعذارٍ كاذبة[٨]. ونحوه رَوَى أشهب وابنُ عبد الحكم عن مالك، وكذلك

---

(١) في (د) و(م) يُتَرَقَّب. والمثبت من باقي النسخ والمحرر الوجيز ٤/ ١٩٧ والكلام منه.

(٢) أخرج قولهما عبد الرزاق (٥٥٠٧) و(٥٥٠٨)، والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨٦ ، وأخرج قول مكحول ابن أبي حاتم في تفسيره ٨/ ٢٦٥٣ (١٤٩١٨).

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٧ .

(٤) في النسخ: فيه، والتصويب من المصادر الآتية.

(٥) في (ف) و(م): سهل . والمثبت من (د) و(ظ) وأحكام القرآن .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٣٩٨ ، وأخرج خبر زياد عبد الرزاق (٥٥٠٩)، وابن أبي شيبة ٢/ ١١٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٧ .

(٨) المحرر الوجيز٤/ ١٩٧ بنحوه، وينظر السيرة النبوية ٣/ ٢١٥-٢١٦ .

قال محمدُ بن إسحاق[١].

وقال مقاتل: نَزَلت في عمر ﷺ، استأذن النبيَّ ﷺ في غَزْوةِ تَبُوك في الرجعة، فأذِن له، وقال: «انطلق، فواللهِ ما أنتَ بمنافقٍ»[٢] يريد بذلك أن يُسمِعَ المنافقين.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما استأذن عمرُ ﷺ في العُمْرة، فقال عليه الصلاة والسلام لمَّا أذِن له: «يا أبا حَفْص لا تَنْسنا في صالح دعائك»[٣].

قلت: والصحيح الأوّلُ لتناوله جميعَ الأقوال، واختار ابن العربيّ[٤] ما ذكره في نزول الآية عن مالك وابن إسحاق، وأنَّ ذلك مخصوصٌ في الحرب، قال: والذي يبيِّن ذلك أمران:

أحدهما: قوله في الآية الأخرى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ وذلك أنَّ المنافقين كانوا يتلوَّذون، ويَخرجون عن الجماعة، ويتركون رسولَ الله ﷺ، فأمَرَ اللهُ جميعَهم بألَّا يَخرجَ أحدٌ منهم حتى يأذنَ له رسول الله ﷺ، وبذلك يتبيَّن إيمانُه.

الثاني: قوله: ﴿لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ وأيُّ إذنٍ في المحدث[٥] والإمام يَخطُب، وليس للإمام خيارٌ في مَنعهِ ولا إبقائه، وقد قال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾؛ فبيَّن بذلك أنه مخصوص في الحرب.

قلت: القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي٣/ ١٣٩٨ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون٤/ ١٢٧ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٩٥)، وأبو داود(١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤) من حديث ابن عمر، عن عمر، بنحوه. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. اهـ . وفي إسناده عاصم بن عبيد الله، وهو ضعيف.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٣٩٨ .

(٥) في (م): الحدث.

﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فكان النبيُّ ﷺ بالخيار إن شاء أن يأذَن وإن شاء منع. وقال قتادة: قوله ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ منسوخةٌ[١] بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ أي: لخروجهم عن الجماعة إن علمتَ لهم عذراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ يريدُ: يَصيحُ من بعيدٍ: يا أبا القاسم! بل عظِّموه، كما قال في الحُجُرات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآية [٣].

وقال سعيدُ بن جُبير ومُجاهد: المعنى قُولوا: يا رسول اللهِ، في رِفقٍ ولِين، ولا تقولوا: يا محمَّد، بتجَهُّم[٢].

وقال قتادة: أمرهم أن يشرِّفوه ويفخِّموه[٣]. ابن عباس: لا تتعرَّضوا لدعاءِ الرسولِ عليكم بإسخاطه؛ فإنَّ دعوته موجِبة[٤].

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ التسلُّلُ والانسلال: الخروج. واللِّواذ

---

(١) كذا، وفي تفسير مجاهد ٢/ ٤٤٥، والناسخ والمنسوخ للنحاس٢/ ٤٣٩، والنكت والعيون٤/ ١٢٧ عن قتادة أن آية النور ناسخة لآية التوبة ﴿عفا الله عنك...﴾. وكذا روي عن ابن عباس والحسن وعكرمة كما في الناسخ والمنسوخ للنحاس٢/ ٤٣٨، وسلف قول قتادة على الصواب ١٠/ ٢٢٨.

(٢) هو في تفسير مجاهد٢/ ٤٤٥، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨٩، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٥ (١٤٩٢٦). وأما قول سعيد بن جبير فقد أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٥ (١٤٩٢٥) بلفظ: لا تقولوا: يا محمد قولوا: يا رسول الله يا نبي الله بأبي أنت وأمي.

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٦٦، والطبري في تفسيره ١٧/ ٣٨٩، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٥ (١٤٩٢٧).

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٨٨، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٥ (١٤٩٢٩).

من المُلاوَذَة، وهو[١] أن تَستتر بشيءٍ مخافةَ من يراك؛ فكان المنافقون يتسلَّلون عن صلاة الجمعة[٢]. «لِوَاذاً» مصدر في موضع الحال، أي: متلاوِذين[٣]، أي: يَلوذ بعضُهم ببعضٍ، يَنضمُّ إليه استتاراً من رسولِ اللهِ ﷺ؛ لأنه لم يكن على المنافقين أثقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة؛ حكاه النقاش، وقد مضى القول فيه. وقيل: كانوا يتسلَّلون في الجهاد رجوعاً عنه؛ يَلُوذُ بعضهم ببعض. وقال الحسن: لِواذاً: فراراً من الجهاد؛ ومنه قولُ حسان[٤]:

وقريشٌ تجول منكم[٥] لِوَاذاً   لم تحافظ وخَفّ منها الحُلُوم

وصحَّت[٦] واوها لتحركها في لاوَذ، يقال: لاوَذ يلاوِذ ملاوذةً ولِواذاً، وَلَاذَ يَلُوذ [لِوذاً] ولِياذاً؛ انقلبت الواو ياءً لانكسار ما قبلها إتباعاً لِلَاذ في الاعتلال؛ فإذا كان مصدرَ فاعَل لم يُعَلَّ؛ لأن فاعَل لا يجوز أن يُعَلَّ[٧].

قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ بهذه الآية احتجَّ الفقهاءُ على أنَّ الأمرَ على الوجوب[٨]. ووجهها: أنَّ الله تبارَك وتعالى قد حذَّر من مخالفةِ أمرِهِ، وتوَّعدَ بالعقاب عليها بقوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فتحرُم مخالفته، فيجب امتثالُ أمرِه. والفتنةُ هاهنا: القتلُ، قاله ابن عباس. وعن[٩] عطاء: الزلزالُ والأهوال. جعفر بن محمد: سلطانٌ جائر يُسلَّط عليهم. وقيل: الطبعُ على

(١) في (م): هي والكلام بنحوه في زاد المسير ٦/٦٨-٦٩، ومجمع البيان ١٨/ ٨٠.
(٢) النكت والعيون ٤/١٢٨.
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/١٤٩.
(٤) النكت والعيون ٤/١٢٨-١٢٩، والبيت في ديوانه ص٤٣٥، وهو أيضاً في السيرة النبوية٣/ ٢١٧.
(٥) في الديوان والسيرة النبوية: منّا.
(٦) في (ظ): وفتحت.
(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٠ وما بين حاصرتين منه.
(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٠.
(٩) لفظ: وعن، من (ظ) والكشاف ٣/ ٧٩، وذكر قول ابن عباس، وعطاء، وجعفر أيضاً الرازيُّ ٢٤/ ٤٢.

القلوب بشؤم مخالفةِ الرسول.

والضمير في «أَمْرِهِ» قيل هو عائدٌ إلى أمر اللهِ تعالى؛ قاله يحيى بن سلام. وقيل: إلى أمر رسوله عليه الصلاة والسلام؛ قاله قتادة[١].

ومعنى«يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ» أي: يُعرضون عن أمره[٢].

وقال أبو عبيدة والأخفش: «عن» في هذا الموضع زائدة[٣]. وقال الخليل وسيبويه: ليست بزائدة، والمعنى: يُخالفون بعد أمره؛ كما قال:

...لـم تَـنْـتَـطِـق عـن تَـفَـضُّـلِ[٤]

ومنه قوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] أي: بَعْدَ أمر ربه.

و«أن» في موضع نصب بـ «يَحْذر»، ولا يجوز عند أكثر النحويين حَذِر زيداً، وهو في «أن» جائز؛ لأن حروف الخفض تُحذَف معها[٥].

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ خَلْقاً وملكاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ

---

(١) النكت والعيون٤/ ١٢٩ .

(٢) في(د) و(ظ): يعرضون عنه. والمثبت من(م)، وهو الموافق لما في النكت والعيون٤/ ١٢٩ .

(٣) قول أبي عبيدة في مجاز القرآن٢/ ٦٩ ، وقول الأخفش في النكت والعيون٤/ ١٢٩ ، وزاد الميسر ٦/ ٩٩ .

(٤) قطعة من بيت لامرئ القيس في ديوانه ص١٧ ، وتمامه:

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها ... نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل.

ووردت أيضاً في ديوان كثير عزة ص٢٨٥ ، قال:

أخـاضـت إلـيَّ الـلـيـلَ خَـوْدٌ غـريـرةٌ ... جَبَانُ السُّرى لم تنتطق عن تفضل

وقوله: لم تنتطق أي: لم تشدَّ عليها نطاقاً بعد تفضل، والتفضل: لبْس ثوب واحد. كذا في شرح ديوان امرئ القيس.

(٥) إعراب القرآن للنحاس٣/ ١٥٠ .

عَلَيْهِ﴾ فهو يُجازيكم به. و«يعلم» هنا بمعنى عَلِمَ. ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ بعد ما كان في خطابٍ رجعَ في خبر؛ وهذا يقال له: خطاب التلوين. ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: يخبرهم بأعمالهم ويجازيهم بها. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أعمالهم وأحوالهم[1].

ختمت السورة بما تضمنت من التفسير، والحمد لله على التيسير.

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث السمرقندي ٢/ ٤٥١، والكشاف ٣/ ٨٠.

سُورَةُ النُّورِ

مَدنِيَّةٌ، وهي ثنتانِ أو أربعٌ وستُّونَ آيةً[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿سُورَةٌ﴾؛ أي: هـذه سُـورةٌ، أو: فيمـا أوحينـا إليـكَ سُـورَةٌ[2] ﴿أَنزَلْنَـٰهَا﴾ صِفتُهـا، ومَـن نصبَها[3] جعلَهُ مُفسِّـرًا لناصبِهـا، فلا يكونُ له مَحـلٌّ إلَّا إذا قُـدِّرَ: اتلُ، أو دونَـك[4]، ونحوُه.

﴿وَفَرَضْنَـٰهَا﴾: وفَرَضْنا ما فيها مِن الأحكامِ، وشدَّدَه ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو[5] لكَثْرَةِ فَرائِضِها أو المفروضِ علَيْهِم، أو للمُبالغَةِ في إيجابِها[6].

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾: واضحاتِ الدَّلالةِ.

---

(١) هي ستون وآيتان في المدنيين والمكي، وأربع في عدد الباقين. انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ١٩٣).

(٢) وهي خبرُ مبتدأٍ محذوف على الأول، ومُبتدأٌ موصوفٌ والخبرُ محذوفٌ على الثَّاني.

(٣) أي: قرأ «سورةً»، وهي قراءة شاذة نسبت لأم الدرداء وعيسى الثقفي وعيسى الهمداني وعمر بن عبد العزيز ومجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠١)، و«المحتسب» (٢/ ٩٩).

(٤) منعه أبو حيان لأنَّ حذفَ أداةِ الإغراءِ لا يَجوزُ. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ٨).

(٥) أي: ﴿فرَّضناها﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٢)، و«التيسير» (ص: ١٦١).

(٦) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وقد فُسِّر بـ: فصَّلناها، فهو من «الفرض» بمعنى: القطع.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرون﴾ فتتَّقونَ المحارمَ، وقُرِئَ بتَخفيفِ الذَّالِ[١].

(٢) ـ ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾؛ أي: فيما فَرَضْنا أو أَنْزَلْنا حُكْمَهُما وهو الجَلْدُ[٢]، ويجوزُ أن يُرفَعَا بالابتداءِ، والخبرُ: ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾، والفاءُ لتَضمُّنِهما مَعنى الشَّرطِ؛ إذ اللَّامُ بمَعنى «الذي».

وقُرِئَا بالنَّصبِ[٣] على إضمارِ فعلٍ يُفَسِّرُه الظَّاهِرُ، وهو أحسَنُ مِن نصبِ «سورةٌ» لأجلِ الأمرِ[٤].

و: «الزَّانِ» بلا ياءٍ[٥].

وإنَّما قدَّمَ الزَّانيةَ لأنَّ الزِّنى[٦] في الأغلبِ يكونُ بتَعرُّضِها للرَّجلِ وعَرْضِ نَفسِها عليه، ولأنَّ مَفسدَتَه تتحقَّقُ بالإضافَةِ إليها.

و«الجَلْدُ»: ضربُ الجِلْدِ، وهو حُكمٌ يُخَصُّ بمَنْ ليسَ بمُحصَنٍ؛ لِمَا دلَّ على أنَّ

---

(١) هي قراءة حفص وحمزة والكسائي، والباقون بالتشديد. انظر: «التيسير» (ص: ١٠٨).

(٢) أي: رفعُهما عَلى الابتداء، والخبرُ محذوفٌ، وإلى هذا ذهب الخليل وسيبويه. انظر: «الكتاب» (١/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، و«الكشاف» (٦/ ٨).

(٣) نسبت لعمرو بن فائد وعيسى الثقفي ويحيى بن يعمر وجمع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٠).

(٤) أي: ذكر فعل الأمر ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ يقوِّي وجه النصب.

(٥) أي: وقُرئَ: «الزَّانِ» بلا ياءٍ. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٢) عن ابن مسعود.

(٦) «الزِّنى»: يُمدُّ فيقال: «الزِّناء»، ويُقصر فيُقال: «الزِّنى»؛ فمن مدَّ جعله فعلاً بين اثنين، ومن قصره أخذه من «زنى يزني»، فحقُّه أن يُكتب بالياء غير المنقوطة، ومن كتبه بالألف ذهب إلى أن الممدود هو المراد، ولكن خُففت الهمزة؛ كما يقال في «سماء»: سما، ونحو ذلك، ولكن ما كان هذا سبيله وكان أصل ألفه فحقُّه أن يُرعى ذلك الأصل، والله أعلم. وانظر: «المقصور والممدود» لابن ولاد (ص: ١٤٧ و١٦٥ ـ ١٦٦).

حدَّ المُحصَنِ هو الرَّجمُ، وزادَ الشَّافِعيُّ عليه تَغريبَ الحُرِّ سنَةً؛ لقولِه عليه السَّلامُ: «البِكْرُ بالبِكْرِ جَلدُ مئةٍ وتغريبُ عامٍ»[١]، وليسَ في الآيةِ ما يدفَعُه ليَنسخَ أحدُهُما الآخرَ نسخًا مَقبولًا أو مَردودًا[٢].

وله في العَبدِ ثلاثةُ أقوالٍ[٣].

والإحصانُ[٤] بـ: الحُرِّيَّةِ والبُلوغِ والعَقلِ والإصابةِ في نكاحٍ صحيحٍ، واعتبرَت الحَنفيَّةُ الإسلامَ أيضًا، وهو مَردودٌ برَجمِه عليه السَّلامُ يَهودِيَّينِ[٥]، ولا يُعارِضُه: «مَن أشركَ باللهِ فليسَ بمُحصَنٍ»[٦]؛ إذ المرادُ: المُحصَنُ الَّذي يُقتصُّ له مِن المُسلِمِ.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» (١٦٩٠)، وأبو داود في «سننه» (٤٤١٥)، والترمذي في «سننه» (١٤٣٤).

(٢) فهو عام أريد به الخاص، وليس عامًا نُسخ عمومه، وهذا ترجيح لمذهب الشافعي في أنَّ الزيادة على نص الكتاب بيان مخصص، وليست نسخًا كما يقول الحنفية، وقد ذكر الإمام الشافعي الآية في «الرسالة» (ص:٦٧) في باب: ما نزل عاماً، دلت السنة خاصة على أنه يراد به الخاص.

(٣) أصحُّها: أنه يُغرَّبُ نصفَ سنةٍ، وثانيها: سنةً، وثالثها: لا يُغرَّبُ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٨١).

(٤) أي: المعتبر لحدِّ الرجم.

(٥) حديث رجم اليهوديين رواه البخاري في «صحيحه» (٦٨١٩)، ومسلم في «صحيحه» (١٦٩٩)، وأبو داود في «سننه» (٤٤٤٦)، والترمذي في «سننه» (١٤٣٦)، وابن ماجه في «سننه» (٢٥٥٦)، والنسائي في «الكبرى» (٧١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.
وقد ناقش الإمام القدوري رحمه الله هذه المسألة مناقشة مفصلة في كتابه «التجريد» (١١/ ٥٨٧٦) في مسألة: «هل الإسلام شرط في الإحصان» فراجعها.

(٦) رواه الدارقطني في «سننه» (٣٢٩٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما موقوفاً، ورواه أيضاً (٣٢٩٥) من طريق إسحاق بن راهويه، عن ابن عمر مرفوعاً، ثم قال: ولم يرفعه غير إسحاق، ويقال: إنه رجع عنه، والصواب موقوف.

﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾: رحمةٌ ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾: في طاعَتِه وإقامةِ حَدِّه فتُعَطِّلوه أو تُسامِحُوا فيه، ولذلك قالَ عليهِ السَّلامُ: «لو سَرَقَت فاطمَةُ بنتُ مُحمَّدٍ لقَطَعْتُ يَدها»[(١)].

وقرأ ابنُ كثيرٍ بفَتحِ الهمزةِ[(٢)]، وقُرِئَت بالمَدِّ[(٣)] على فَعالَة.

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ فإنَّ الإيمانَ يَقتَضِي الجِدَّ في طَاعَةِ اللهِ، والاجتهادَ في إقامَةِ أَحكامِه، وهو مِن بابِ التَّهييجِ[(٤)].

﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ زيادةً في التَّنكيلِ، فإنَّ التَّفضيحَ قد يُنكِّلُ أكثرَ ما يُنكِّلُ التَّعذيبُ.

والطَّائفَةُ: فرقَةٌ يمكنُ أَنْ تكونَ حافَّةً حولَ شَيءٍ، مِن «الطَّوفِ»، وأقلُّها ثَلاثةٌ، وقيلَ: واحدٌ أو اثنانِ، والمرادُ: جمعٌ يحصُلُ بِهِ التَّشهيرُ[(٥)].

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٧٨٨)، ومسلم في «صحيحه» (١٦٨٩)، وأبو داود في «سننه» (٤٣٧٣)، والترمذي في «سننه» (١٤٣٠)، والنسائي في «سننه» (٤٨٩٩)، وابن ماجه في «سننه» (٢٥٤٧) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أي: ﴿رَأَفَةٞ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٢)، و«التيسير» (ص: ١٦١).

(٣) أي: «رَآفَة». انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٢) عن ابن جريج.

(٤) أي: المخاطبون هنا مقطوع بإيمانهم، فاستعمال «إنْ» الشرطية التي تفيد التشكيك في إيمانهم قُصد به تهييجهم وتحريك حميتهم وعزتهم لله.

(٥) قال ابن الملقن في «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (٣/ ١٨): الطائفة: القطعة من الشيء، وقد تطلق الطائفة عَلَى الواحد، هذا قول الجمهور من أهل اللغة، وقال الزجاج: الذي عندي أن أقل الطائفة اثنان. وقد حمل الشافعي وغيره من العلماء الطائفة في مواضع من القرآن عَلَى أوجه مختلفة بحسب المواطن؛ فهي في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ [التوبة: ١٢٢] واحد فأكثر، واحتج به في قبول خبر الواحد، وفي قوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ﴾ [النور: ٢] =

(٣) ـ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إذ الغالبُ أنَّ المائلَ إلى الزِّنَى لا يرغبُ في نِكاحِ الصَّوالحِ، والمُسافِحَةُ لا يرغبُ فيها الصُّلَحاءُ؛ فإنَّ المُشاكلةَ عِلَّةُ الأُلفَةِ والتَّضامِّ، والمُخالفَةَ سببٌ للنُّفرةِ والافتراقِ.

وكان حقَّ المقابلةِ أَنْ يُقالُ: «والزَّانِيَةُ لا تُنكَحُ إلَّا مِن زانٍ أو مُشركٍ»، لكنَّ المرادَ بيانُ أحوالِ الرِّجالِ في الرَّغبَةِ فيهِنَّ؛ لأنَّ الآيَةَ نَزَلَت في ضَعفَةِ المُهاجِرينَ لَمَّا هَمُّوا أن يَتَزوَّجُوا بَغايَا يُكْرِيْنَ أَنفُسَهُنَّ لِيُنفِقْنَ عليهم مِن أكسابِهنَّ على عادةِ الجاهليَّةِ[١]، ولذلك[٢] قدَّمَ الزَّانِي.

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّه تشبُّهٌ بالفُسَّاقِ، وتعرُّضٌ للتُّهمَةِ، وتَسبُّبٌ لسوءِ القالَةِ والطَّعنِ في النَّسبِ، وغير ذلك مِن المَفاسِدِ، ولذلك عبَّرَ عَن التَّنزيهِ بالتَّحريمِ مُبالغَةً[٣].

= أربعة، وفي قوله تعالى: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] ثلاثة. وفرقوا في هذه المواضع بحسب القرائن؛ أما في الأولى فلأن الإنذار يحصل به، وفي الثانية لأنها البينة فيه، وفي الثالثة لذكرهم بلفظ الجمع في قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وقال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: الطائفة في الأصل اسم فاعل مؤنث، فهو إمّا صفة نفس فتُطلق على الواحد، أو صفة جماعة فتُطلق على ما فوقه، وهو كالمشترك بين تلك المعاني، فيُحمل في كل مقام على ما يناسبه بحسب القرائن.

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٥٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، و(١٧/ ١٥٢ ـ ١٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٢٢)، عن مجاهد. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٢٣) عن مقاتل بن حيان مطولًا، رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٦٩٣٢) من مرسل سعيد بن جبير.

(٢) أي: لكون المراد بيان ما نزلت له من أحوال الرجال.

(٣) أي: لكثرة الأسباب المقتضية للكراهة عبّر عنها بالتحريم... والقرينة على ذلك قيام الدليل على أنَّ الزنى لا يوجب الحرمة المؤبدة، وليست الزانية معدودة من المحرَّمات. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٢٥٨).

وقيلَ: النَّفيُ بمَعنى النَّهيِ، وقد قُرِئَ به[١]، والحُرمَةُ على ظاهرِها؛ أي: لا تُحمَلُ على التَّنزيهِ[٢]، والحكمُ مَخصوصٌ بالسَّببِ الَّذي وردَ فيه، أو مَنسوخٌ بقولِه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النور: ٣٢] فإنَّه يَتناوَلُ المُسافِحَاتِ، ويؤيِّدُه أنَّه عليه السَّلامُ سُئِلَ عَن ذلك فقالَ: «أوَّلُه سِفاحٌ، وآخِرُهُ نِكاحٌ، والحرامُ لا يُحَرِّمُ الحلالَ»[٣].

وقيلَ: المرادُ بالنِّكاحِ: الوطءُ، فيَؤولُ إلى نهيِ الزَّانِي عن الزِّنَى إلَّا بزَانِيَةٍ، والزَّانِيَةِ أن يزنيَ بها إلَّا زانٍ، وهو فاسِدٌ[٤].

---

(١) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٧) عن أبي البرهسم. واسمه: عمران بن عثمان الحمصي، كما جاء في «الكامل» (ص: ٢٤٢).

(٢) «أي لا تحمل على التنزيه» من نسخة التفتازاني. وقد مال إلى هذا الزمخشري، وعن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ الرَّجُل إذا زَنى بامرأة ليسَ له أن يتزوَّجَها لهذه الآية، وإذا باشَرها كان زانياً، ورُوي نحوه عن ابن مسعود والبراء بن عازب. رواه سعيد بن منصور في «السنن» (٨٨٨) و(٨٨٩) و(٨٩٠) عن ابن مسعود وعائشة والبراء بن عازب رضي الله عنهم، ورواه الطبراني في «الكبير» (٩٦٧٤) عن ابن مسعود وعائشة، ورواه البيهقي في «السنن» (٧/ ١٥٦) عن عائشة، ورواه ابن الجعد في «مسنده» (٩٩٩) عن ابن مسعود، كلها بلفظ: «لا يزالان زانيين ما اجتمعا» أو نحوه.

(٣) قال الزيلعي في « تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤١٩): غريب بهذا اللفظ.

قلت: الظاهر أنه مركب من خبرين؛ فقوله: «أوَّلُه سِفاحٌ، وآخِرُهُ نِكاحٌ» رواه أبو يوسف في «الآثار» (٦٠٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٢٧٨٧)، وسعيد بن منصور في «السنن» (٨٨٨) و(٨٨٩)، والدارقطني في «السنن» (٣٦٨١)، عن ابن عباس موقوفاً.

وقوله: «الحرامُ لا يُحَرِّمُ الحلالَ» رواه الطبراني في «الأوسط» (٧٢٢٤)، والدارقطني في «سننه» (٣٦٨٠) ـ واللفظ له ـ عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة فأراد أن يتزوجها أو ابنتها[؟] قال: «لا يحرم الحرام الحلال، إنما يحرم ما كان بنكاح». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٢٦٩): فيه عثمان بن عبد الرحمن الزهري، وهو متروك.

(٤) هذا أحد وجهي فساد هذا القول الذين ذكرهما الزمخشري، وذكر وجهًا آخر، وهو: أن هذه الكلمةَ أينما وَردَتْ في القرآن لم تَرِدْ إلّا في مَعْنَى العَقد. انظر: «الكشاف» (٦/ ١٥).

(٤ ـ ٥) ـ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾: يَقذِفونَهُنَّ بالزِّنى[١]؛ لوَصفِ المَقذوفاتِ بالإحصانِ، وذكرِهنَّ عَقِيبَ الزَّواني، واعتبارِ أربعةِ شُهداءَ بقولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾.

والقَذفُ بغيرِه[٢] مثلَ: يا فاسِقُ، و: يا شارِبَ الخمرِ، يُوجِبُ التَّعزيرَ كقَذفِ غيرِ المُحصَنِ.

والإحصانُ هاهنا[٣] بـ: الحريَّةِ والبُلوغِ والعَقلِ والإسلامِ والعِفَّةِ عَن الزِّنى، ولا فرقَ فيه بينَ الذَّكَرِ والأنثى، وتخصيصُ المُحصناتِ لِخُصوصِ الواقعَةِ[٤]، أو لأنَّ قذفَ النِّساءِ أغلَبُ وأشنَعُ.

ولا يُشترَطُ اجتِماعُ الشُّهودِ عندَ الأَداءِ[٥]، ولا تُعتبَرُ شَهادَةُ زوجِ المَقذوفَةِ خلافًا لأبي حَنيفَةَ.

ولْيَكُنْ ضَرْبُه[٦] أخفَّ مِن ضَربِ الزِّنى؛ لضعفِ سَبَبِه واحتِمالِه، ولذلك نقصَ عددُه.

---

(١) أثبت أن المراد برمي المحصنات: القذف بالزنى دون غيره من أنواع الشتم، وعلل هذا التخصيص بالوجوه الثلاثة الآتية. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٢٦١).

(٢) أي: بغير الزِّنى.

(٣) أي: المعتبر لحدِّ القذف، والفرق بين شروط الإحصان في باب الرجم والقذف: أنَّ الإصابةَ في نكاحٍ صحيحٍ شرط لإقامة حد الرجم وليس بشرط لإقامة حد القذف اتِّفاقًا، وأنَّ الإسلام شرط متفق عليه في القذف، أما في الرجم فهو معتبر عند الحنفية لا الشافعية.

(٤) على ما قيل بأن الآيات نزلت في حادثة الإفك، وما جرى من قذف السيدة عائشة رضي الله عنها.

(٥) يعني: عند الشافعية، أما عند الجمهور فيشترط اجتماعهم عند الأداء. انظر: «المبسوط» للسرخسي (٩/ ٩٠)، و«الحاوي الكبير» للماوردي (١٣/ ٢٢٩)، و«المغني» لابن قدامة (٩/ ٦٦).

(٦) أي: ضرب حدِّ القذف.

﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً﴾ أيَّ شَهادةٍ كانَتْ؛ لأنَّه مُفترٍ، وقيلَ: شهادَتَهُم في القذفِ.

ولا يتوقَّفُ ذلك على استيفاءِ الجَلدِ[(١)]، خلافًا لأبي حنيفةَ، فإنَّ الأَمرَ بالجَلدِ والنَّهيَ عَن القَبُولِ سِيَّانِ في وُقوعِهِما جوابًا للشَّرطِ، لا ترتيبَ بينَهُمَا، فيَترتَّبانِ عليه دُفعةً، كيفَ وحالُه قبلَ الجلدِ[(٢)] أسوَأُ ممَّا بعدَه؟

﴿أَبَدًا﴾ ما لَمْ يَتُب، وعندَ أبي حنيفةَ: إلى آخرِ عمرِهِ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المحكومُ بِفِسْقِهِم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عَن القَذفِ ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أعمالَهُم بالتَّدارُكِ، ومنه الاستسلامُ للحَدِّ، أو الاستحلالُ مِن المَقذوفِ.

والاستثناءُ راجِعٌ إلى أصلِ الحُكمِ، وهو اقتضاءُ الشَّرطِ لهذه الأمورِ[(٣)]، ولا يلزَمُه سقوطُ الحدِّ به كما قيلَ؛ لأنَّ مِن تَمامِ التَّوبَةِ الاستسلامُ له أو الاستحلالُ، ومحلُّ المُستثنى النَّصبُ على الاستثناءِ.

وقيلَ: إلى النَّهيِ، ومحلُّه الجَرُّ على البدلِ مِن «هم» في ﴿لَهُمْ﴾.

وقيلَ: إلى الأخيرةِ، ومحلُّهُ النَّصبُ لأنَّه عن موجَبٍ.

وقيلَ: مُنقَطِعٌ مُتَّصِلٌ بما بعدَه[(٤)].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عِلَّةٌ للاستثناءِ.

---

(١) في نسخة الفاروقي: «الحد».

(٢) في نسخة الفاروقي: «الحد».

(٣) في نسخة الطبلاوي: «لهذا الأمر».

(٤) قوله: «وقيل: منقطع» مقابلٌ للمتصل المتبادِرِ من قوله: «والاستثناء راجع...»؛ إذ معناه: (والاستثناءُ متصلٌ راجعٌ...) إلى آخره. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٨٤).

(٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ نزلَتْ في هِلالِ بن أُميَّةَ، رأى رَجُلًا على فراشِه[1].

و﴿أَنفُسُهُمۡ﴾ بدلٌ مِن ﴿شُهَدَآءُ﴾ أو صفةٌ لهم على أنَّ ﴿إِلَّآ﴾ بمَعنى: غير.

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أربعَ شَهَٰدَٰتِۭ﴾: فالواجبُ شهادةُ أَحدِهم، أو: فعَلَيْهم شَهادَةُ أحدِهم[2]، و﴿أَرۡبَعُ﴾[3] نصبٌ على المصدرِ[4]، وقد رفعَهُ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ[5] على أنَّه خبرُ ﴿شهادةُ﴾.

﴿بِٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿شَهَٰدَٰتِۭ﴾ لأنَّها أقربُ، وقيلَ: بـ﴿شهادةُ﴾ لتَقدُّمِها[6].

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: فيما رَماها به مِن الزِّنى، وأصلُه: على أنَّه، فحُذِفَ الجارُّ وكُسِرَت «إنَّ» وعُلِّقَ العاملُ عنه باللَّامِ تأكيدًا.

(٧) ـ ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ﴾: والشَّهادةُ الخامسةُ ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في الرَّمي.

وقرأَ نافعٌ ويَعقوبُ بالتَّخفيفِ في الموضِعَين[7].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) فهو خبر لمبتدأ محذوف على الأول، ومبتدأ خبره محذوف على الثاني. انظر: «مشكل إعراب القرآن» لمكي (٢/ ٥٠٩).

(٣) في نسخة التفتازاني زيادة: «شهادات».

(٤) في نسخة الفاروقي: «على أنه مصدر».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٢)، و«التيسير» (ص: ١٦١).

(٦) وثمة قول ثالث، وهو أنَّ هذا من باب التنازعِ؛ فإنَّ كلًّا مِنْ ﴿شهادةُ﴾ و﴿شَهَٰدَٰتِۭ﴾ تَطْلُبه من حيث المَعنى، وتكون المسألةُ من إعْمال الثاني للحَذْفِ من الأول، وهو مختار البصريين. انظر: «الدر المصون» للحلبي (٨/ ٣٨٦).

(٧) بعدها في نسخة التفتازاني: «ورفع اللعنة والغضب»، ورفع الغضب عند يعقوب فقط: =

هذا لِعانُ الرَّجُلِ[1]، وحكمُهُ: سُقوطُ حدِّ القَذْفِ عنه، وحصولُ الفُرقَةِ بينَهُما ـ بنفسِه[2] فُرقَةَ فسخٍ عندَنا؛ لقولِه عليه السَّلامُ: «المُتلاعِنانِ لا يَجتَمِعَانِ أبدًا»[3]، وبتفريقِ الحاكمِ فرقةَ طلاقٍ عـنـدَ أبـي حنيفةَ ـ، ونفيُ[4] الوَلدِ إن تُعُرِّضَ له فيه، وثبوتُ حَدِّ الزِّنى على المرأةِ؛ لقولِه:

(٨) ـ ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: الـحـدَّ ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيمَا رَماني به

(٩) ـ ﴿والخامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في ذلك.

ورفعُ ﴿الخامسَةُ﴾ بالابتداءِ وما بعدَها الخبرُ، أو بالعَطفِ على ﴿أَن تَشْهَدَ﴾، ونَصبَها حفصٌ عطفًا على ﴿أَرْبَعَ﴾، وقرأَ نافعٌ: ﴿أَنْ غَضِبَ اللهُ﴾ بكسرِ الضَّادِ وفتحِ الباءِ ورفعِ ﴿اللهُ﴾[5].

= فقد قرأ: ﴿أَنْ لعنتُ الله﴾ نافع ويعقوب، وقرأ باقي العشرة: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾.

وقـرأ: ﴿أَنْ غَضَـبُ الله﴾ يعقوب، وباقي العشـرة عدا نافعًا: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾، وقـرأ نافع: ﴿أَنْ غَضِبَ الله﴾. انظـر: «السـبعة» (ص: ٤٥٣)، و«التيسـير» (ص: ١٦١)، و«النشـر» (٢/ ٣٣٠).

(١) يُراد باللعان كلُّ ما يجري بين الزوجين بعد القذف من الشهادات الأربع واللعن، سمِّي بذلك لاشتماله على كلمة اللعن. انظر: «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (٤/ ١٢٧).

(٢) أي: بنفس اللعان من غير احتياج إلى تفريق الحاكم أو القاضي.

(٣) رواه الدارقطني في «سننه» (٣٧٠٦) عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «المتلاعنان إذا تفرقا لا يجتمعان أبداً».

(٤) قوله: «نفي الولد» عطف على «سقوطُ حدٍّ»، فهو من جملة أحكام اللعان، والمراد به: عدم ثبوت النسب لولده إن تعرض له بأن قال: أنت ولد الزانية. انظر: «حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (١٣/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٣)، و«التيسير» (ص: ١٦١).

(١٠) ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ متروكُ الجَوابِ للتَّعظيمِ[١]؛ أي: لَفَضَحَكُم وعاجَلَكُم بالعُقوبَةِ.

(١١) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَآءُو بِالْإِفْكِ﴾: بأبلغِ ما يكونُ مِن الكَذبِ، مِن «الأَفْكِ» وهو الصَّرفُ؛ لأنَّه قولٌ مَأفوكٌ عَن وَجهِهِ.

والمرادُ: ما أُفِكَ به على عائشةَ رضيَ اللهُ عَنْها، وذلك أنَّه ـ عليهِ السَّلامُ ـ استَصْحَبَها[٢] في بعضِ الغَزواتِ، فآذَنَ ليلةً في القُفولِ بالرَّحيلِ، فمَشَتْ لقَضاءِ حاجةٍ ثمَّ عادَتْ إلى الرَّحلِ، فلَمَسَتْ صدرَهَا فإذا عِقدٌ مِن جَزْعِ ظَفَارٍ[٣] قد انقطعَ، فرَجَعَتْ لتَلْتَمِسَه، فظنَّ الَّذي كانَ يُرحِّلُها[٤] أنَّها دَخلَت الهودَجَ، فرحلَهُ على مطيَّتِهَا وسارَ، فلَمَّا عادَتْ إلى مَنزِلِها لم تَجِدْ ثمَّةَ أحدًا، فجلسَت كي يرجعَ إليها مُنشِدٌ، وكانَ صَفوانُ بن المُعطَّلِ السُّلَمِيُّ قد عرَّسَ وراءَ الجَيشِ، فادَّلَجَ فأصبَحَ[٥] عندَ مَنزِلِها، فعرفَها، فأناخَ راحلَتَهُ فركِبَتْهَا، فقادَها حتَّى أَتَيَا الجيشَ، فاتُّهِمَتْ به[٦].

﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾: جَماعَةٌ مِنكُم، وهي مِن العشرةِ إلى الأربعينَ، وكذلك

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «متروكُ الجَوابِ للتَّعظيمِ»؛ أي: ليدلَّ على أنَّ المقدَّر أمر هائل عظيم لا تُحيط به العبارة.

(٢) أي: جعلها مصاحبة له. انظر: «حاشية ابن تمجيد» (١٣/ ٢٧٩).

(٣) أي: خرز منسوب لظفارِ، وهي مدينة باليمن في موضعين؛ إحداهما قرب صنعاء، وهي التي يُنسب إليها الجزع الظفاريّ، وبها كان مسكن ملوك حمير. انظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٤/ ٦٠).

(٤) «يرحلها» بضم الياء التحتية وتشديد الحاء المهملة؛ أي: يشد رحلها. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٢٨٠).

(٥) ادَّلج: سار طول الليل. وأصبح: طلع عليه الصباح، أو صار في وقت الصباح عند منزلها.

(٦) رواه البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

«العِصابَـةُ»، يريـدُ: عبـدَ اللهِ بـنَ أُبَيٍّ وزيدَ بـن رِفاعةَ وحسَّـانَ بنَ ثابتٍ ومِسـطَحَ بنَ أُثاثـةَ وحَمْنَـةَ بنـتَ جَحشٍ ومَن سـاعدَهُم.

وهي خبرُ ﴿إِنَّ﴾، وقولُه: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ مُستأنَفٌ، والخطابُ للرَّسولِ عليه السَّلامُ وأبي بكرٍ وعائشَةَ وصفوانَ[1]، والهاءُ[2] للإفكِ.

﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابِكُم به الثَّوابَ العظيمَ، وظهورِ كَرامَتِكُم على اللهِ بإنزالِ ثماني عشرةَ آيةً في بَراءَتِكُم وتعظيمِ شَأنِكُم، وتهويلِ الوَعيدِ لِمَن تكلَّم فيكم، والثَّناءِ على مَن ظنَّ بِكُم خيرًا.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ لكلٍّ جَزاءُ ما اكتسبَ بقَدْرِ ما خاضَ فيه مختصًّا به ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾: مُعظمَه[3]، وقرأَ يعقوبُ بالضَّمِّ[4]، وهو لُغَةٌ فيه.

﴿مِنْهُمْ﴾: مِن الخائضينَ، وهو ابنُ أُبَيٍّ، فإنَّه بدأَ به وأذاعَهُ عداوةً لرَسُولِ اللهِ، أو هو وحسَّانُ ومِسْطَحٌ فإنَّهما شايَعاهُ بالتَّصريحِ بهِ، و﴿الذي﴾ بمعنى: الَّذينَ[5].

﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فـي الآخـرةِ، أو: فـي الدُّنيـا بـأنْ جُلـدوا[6] وصـارَ ابـنُ أُبَيٍّ

---

(١) قوله: «والخطابُ للرَّسولِ عليه السَّلامُ وأبي بكرٍ وعائشَةَ وصفوانَ». لعل الأولى منه عبارة «الكشاف» (٦/ ٢٦): والخطابُ لمَنْ ساءهُ ذلك من المؤمنينَ وخَاصَّةً رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ وعائشةُ وصفوانُ.

(٢) أي: هاء الضمير في ﴿تَحْسَبُوهُ﴾.

(٣) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «تعظمه». وفي «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» لأبي حيان (ص: ٢٦٩): ﴿كِبْرَهُ﴾: معظمَه. «كُبرَه»: عُظْمَه.

(٤) أي: ﴿كُبْرَهُ﴾. انظر: «النشر» (٢/ ٣٣١).

(٥) انظر: «البديع في العربية» لابن الأثير (٢/ ٢٣٦). ومتقدمو النحاة يقولون: «الذي» جاء دالاً على الجنس. انظر: «المقتضب» للمبرد (٢/ ١٤٣)، و«الأصول» لابن السراج (١/ ١١٣).

(٦) قوله: «جلدوا» رُوي جلد حسان ومسطح وحمنة بأسانيد حسنة، فقد رواه البزار (٢٦٦٣ ـ كشف) =

مطرودًا مشهورًا بالنِّفاقِ، وحسَّانٌ أعمى أشلَّ اليدين [١]، ومسطحٌ مكفوفَ البصرِ.

(١٢) ـ ﴿لَّوۡلَآ﴾: هلَّا ﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾: بالذينَ مِنهم مِن المؤمنينَ والمؤمناتِ؛ كقولِه: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١]، وإنَّما عدلَ فيه مِن الخطابِ إلى الغَيبَةِ مُبالغَةً في التَّوبيخِ، وإشعارًا بأنَّ الإيمانَ يَقتَضِي ظنَّ الخيرِ بالمُؤمنينَ، والكفَّ عَن الطَّعنِ فيهم، وذبَّ الطَّاعنينَ عَنْهُم كما يَذُبُّونَهُم عَن أَنفُسِهِم [٢].

= من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسن إسناده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٤٦). وله شاهد رواه أبو داود (٤٤٧٤)، والترمذي (٣١٨١) وحسنه، وابن ماجه (٢٥٦٧)، من حديث عائشة رضي الله عنه، وفيه: فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم.

أما ابن أبي فلم يصح جلده؛ فقد روى ضربه الحدَّ الطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفيه: أنه ضرب حدَّين. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٤٠): فيه إسماعيل بن يحيى التيمي وهو كذاب.

ورواه الطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٣٠ و١٣٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفي: أنه جلد ثمانين. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٤٠): في إسناده موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو ضعيف. وانظر: «إكمال المعلم» للقاضي عياض (٨/ ٢٧٩)، و«المفهم» لأبي العباس القرطبي (٧/ ٣٧٩).

(١) لم أقف على أنه كان أشل اليدين، وأما كونه أعمى فقد ثبت في البخاري (٤١٤٦) عن مسروق قال: دخلنا على عائشة رضي الله عنها، وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعرًا، يشبب بأبيات له: وقال:

حصانٌ رزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتصبحُ غَرْثَى من لحومِ الغَوَافلِ

فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك، قال مسروق: فقلت لها: لمَ تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؟ فقالت: وأي عذاب أشد من العمى؟ قالت له: إنه كان ينافح ـ أو: يهاجي ـ عن رسول الله ﷺ.

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: يعني: لم يقل: «ظننتم»، وأتى بالاسم الظاهر لإشعاره بأنَّ من =

وإنَّما جازَ الفَصلُ بين «لولا» وفعلِه بالظَّرفِ[١]؛ لأنَّه مُنزَّلٌ مَنزِلَتَه مِن حيثُ إنَّه لا يَنفَكُّ عنه، ولذلك يُتَّسَعُ فيه ما لا يُتَّسَعُ في غيرِه، وذلك لأنَّ ذكرَ الظَّرفِ أهَمُّ، فإنَّ التَّحضيضَ على أن لا يُخِلُّوا بأوَّلِه[٢].

﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ كما يقولُ المُتيَقِّنُ[٣] المُطَّلِعُ على الحالِ.

(١٣) ـ ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ مِن جُملَةِ المقولِ تقريرًا لكونِه كذبًا، فإنَّ ما لا حُجَّةَ عليه مُكذَّبٌ عندَ اللهِ؛ أي: في حكمِه، ولذلك رتَّبَ الحدَّ عليه.

(١٤) ـ ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ﴿لولا﴾ هذهِ لامتناعِ الشَّيءِ لوجودِ غيرِه، والمعنى: لَوْلَا فضلُ اللهِ عَلَيكُم في الدُّنيا بأنواعِ النِّعَمِ الَّتي مِن جُمْلَتِها الإمهالُ للتَّوبَةِ ورَحمتُهُ في الآخرَةِ بالعَفوِ والمَغفِرَةِ المُقدَّرانِ لَكُم ﴿لَمَسَّكُمۡ﴾ عاجِلًا ﴿فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾: خُضْتُم فيه ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُستحقَرُ دونَه اللَّومُ والجلدُ.

(١٥) ـ ﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ لـ«مسَّكم» أو «أفضتم» ﴿تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ يأخذُه بَعضُكُم مِن بَعضٍ بالسُّؤالِ عنه، يُقالُ: «تلقَّى القولَ» و«تَلقَّفَه» و«تلقَّنَه».

= لم يظن خيراً كأنه ليس بمؤمن كناية؛ كقوله: «المسلمُ من سلمَ النَّاسُ من يدِه ولسانِه».

قلت: الحديث مشهور، وقد رواه البخاري (١٠) عن عبد الله بن عمرو بلفظ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ».

(١) أي: الظرف مع مدخوله، وهو ﴿إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾، والفعل ﴿ظَنَّ﴾. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٢٨٥).

(٢) اعترض عليه أبو حيان بأنَّه يجوزُ تَقديمُ المفعول به على الفعلِ نحو: لولا زَيدًا ضربتُ، فلا يظهر وجه ذكر الظرف هنا. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ٤٣).

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «المستيقن».

وقُرِئَ: «تَتلَقَّوْنَه» على الأصلِ، و: ﴿إذ تّلَقَّونه﴾ بإدغامِ الذَّالِ في التَّاءِ، و: «تَلْقَوْنَه» من «لَقِيَه»: إذا لَقِفَه[1]، و: «تِلْقُونَه» بكسرِ حرفِ المضارعةِ، و: «تُلْقُونَه» من إلقائِه بَعضِهم على بَعضٍ، و: «تَلِقُونَه» و: «تَأْلِقُونَه» من «الوَلْقِ» و«الأَلْقِ» وهو الكَذِبُ، و: «تَثْقَفُونَه»[2] مِن «ثَقِفْتُه»: إذا طلبتَه فوَجدتَه.

و: «تُقَفُّونَه»[3]؛ أي: تتَّبِعُونه.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: وتقولون كلامًا مُختصًّا بالأفواهِ بلا مُساعدةٍ من القلوبِ؛ لأنَّه ليس تعبيرًا عن علمٍ به في قُلوبِكُم؛ كقولِه: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ سهلًا لا تبعةَ له[4] ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزرِ واستجرارِ العذابِ.

---

(١) أي: تَناوَلَه بسُرْعَة. انظر: «تاج العروس» (٢٤/ ٣٧٧).

(٢) انظر هذه القراءات في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٢)، و«المحتسب» (٢/ ١٠٤)، و«الكشاف» (٦/ ٢٩).

قال ابن خالويه: وفي هذا الحرف عشر قراءات، انتهى. قلت: وكلها من الشواذ سوى إدغام الذَّالِ في التَّاء فهي رواية البزي عن ابن كثير. انظر: «التيسير» (ص: ٨٣).

(٣) انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٤٠) عن مجاهد عن أم سفيان بن عيينة، و«التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢/ ٩٦٧) بلا نسبة.

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «تُبْعة» بضم فسكون كـ«فرجة»: الظُّلامة كما في «القاموس»، وفي «المصباح»: هي العاقبة السيئة، وهذا هو المناسب هنا. وأخذ منه القونوي قوله: «سهلاً لا تُبْعة له» بضم فسكون هي العاقبة السيئة، وهو المناسب لهذا المقام. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٢٩١).

والمعروف أنَّ هذه الكلمة بوزن «كَلِمة»، ومثلها «تِباعة»، وهي: الشَّيءُ الذي لكَ فيه بُغيَةٌ شِبهُ ظُلامةٍ ونحوِها. وانظر: «المصباح المنير» للفيومي (١/ ٧٢)، و«القاموس المحيط» (ص: ٧٠٦). ولعلَّ =

فهذه ثلاثةُ آثامٍ مُترتِّبَةٌ عُلِّقَ بها مَسُّ العـذابِ العَظيمِ: تَـلَقِّي الإفكِ بألسِنَتِهم، والتَّحدُّثُ به مِن غيرِ تَحقُّقٍ(١)، واستِصغارُهُم لذلك وهو عندَ اللهِ عَظيمٌ.

(١٦) ـ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾: مـا يَنـبغي وما يَصِحُّ لنا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ يجوزُ أن تكونَ الإشارةُ إلى القولِ المَخصوصِ، وأن تكونَ إلى نوعِه، فإنَّ قذفَ آحادِ النَّاسِ مُحرَّمٌ شَرعًا فَضلًا عَن تَعرُّضِ الصِّدِّيقَةِ ابنةِ الصِّدِّيقِ حُرْمَةِ رسولِ اللهِ.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجُّبٌ ممَّن يقولُ ذلك، وأصلُهُ: أنَّه يذكرُ عـنـدَ كـلِّ مُتعجَّبٍ تَنزيهًا للهِ تعالى مِن أَنْ يَصعبَ عليه مثلُه، ثمَّ كَثُرَ فاستُعمِلَ لكلِّ مُتعجَّبٍ، أو: تنزيهٌ للهِ مِن أن تكونَ حرمَةُ نَبيِّهِ فاجِرَةً، فإنَّ فُجورَهَا تَنفيرٌ عنه، ويُخلُّ بمَقصودِ الزَّواجِ، بخِلافِ كُفرِهَا، فيكونُ تقريرًا لِمَا قبلَه وتمهيدًا لقولِه:

﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ لعظمَةِ المبهوتِ عليه؛ فإنَّ حقارةَ الذُّنوبِ وعِظمَهَا باعتبارِ مُتعلَّقاتِها.

(١٧) ـ ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟﴾: كراهـةَ أَنْ تعـودوا، أو: في أَنْ تَعودوا ﴿لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ مـا دُمْتُـم أحيـاءً مُكلَّفِيـن ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فـإنَّ الإيمـانَ يمنَـعُ عنـه، وفيـه تَهييـجٌ وتَقريعٌ.

(١٨) ـ ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدَّالـةَ علـى الشَّـرائعِ ومحاسـنِ الآدابِ كـي تَتَّعظُـوا وتتأدَّبُوا.

= الشهاب تبع في ضبط الكلمة العيني، فقد قال: و«التبعة» ـ بفتح التاء المثناة من فوق، وكسر الباء ـ اسم للاتباع، وكذلك «التبعة» بضم التاء وسكون الباء، و«التباعة» بالفتح. انظر: «شرح سنن أبي داود» للعيني (٣/ ٣١٥)، و«نخب الأفكار» له (٣/ ٥٠٨). ولكن لا يخفى أن معنى «التُّبعة» الذي ذكره العيني غير المعنى المراد في السياق الذي ذكره الشهاب، والله أعلم.

(١) في نسخة التفتازاني: «تحقيق».

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأحوالِ كُلِّها ﴿حَكِيمٌ﴾ في تَدابيرِه، ولا يُجوِّزُ الكشخنَةَ[١] على نبيِّهِ، ولا تقريرَهُ عليها.

(١٩) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾: يريدونَ ﴿أَن تَشِيعَ﴾: أن تنتَشِرَ ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالحدِّ والسَّعيرِ إلى غيرِ ذلك.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في الضَّمائرِ ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فعاقِبوا في الدُّنيا على ما دلَّ عليه الظَّاهِرُ، واللهُ سُبحانَه يُعاقبُ على ما[٢] في القلوبِ مِن حُبِّ الإشاعةِ.

(٢٠) ـ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكريرٌ للمِنَّةِ بتركِ المعاجلَةِ بالعقابِ؛ للدلالَةِ على عظمِ الجريمَةِ، وكذا[٣] عطفُ قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على حصولِ فَضلِهِ ورَحمَتِه عليهم وحذفُ[٤] الجوابِ، وهو مُستغنًى عنه بذكرِه مَرَّةً[٥].

(٢١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بإشاعةِ الفاحِشَةِ.

---

(١) «الكشخنة» بالشين والخاء المعجمتين: الدِّياثةُ، والكشخانُ: الدَّيُّوثُ الذي لا غيرةَ له. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ١٨٩).

(٢) بعدها في نسخة الخيالي: «وقع».

(٣) قال ابن التمجيد في «حاشيته» (١٣/ ٢٩٨): أي: وكدلالة تكرير المنة بترك المعاجلة بالعقاب على عظم الجريمة يدلُّ أيضًا عطف قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على الشرط الواقع بعد «لو»، وهو حصول فضله ورحمته وحذفُ الجوابِ. وفي نسخة الطبلاوي: «ولذا عُطفَ قولُ»، وعليها شرح الخفاجي فقال: أي: للدلالة على عظمه، ويجوز أن تكون الإشارة للتكرير؛ أي: ليزداد قوّة بالتكرير مرّة بعد أخرى، والأوّل أولى.

(٤) «حذفُ» معطوف على «عطفُ» على الوجه الذي أثبتناه، وأمَّا على ما في نسخة الطبلاوي فالوجه أن يُضبط: «وحُذفَ الجوابُ»، والله أعلم.

(٥) الجواب هو: «لمسَّكم...»، وقد ذكر قبل هذا في جواب: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وقرأ نافعٌ والبزِّيُّ وأبو عمرٍو وأبو بكرٍ وحمزةُ بسكونِها[١].

وقُرِئَ بفتحِ الطَّاءِ وسكونِها[٢].

﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ بيانٌ لعِلَّةِ النَّهيِ عَن اتِّباعِه. والفَحشاءُ: ما أفرطَ قبحُهُ، والمنكرُ: ما أنكرَهُ الشَّرعُ[٣].

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتَوفيقِ التَّوبةِ الماحيةِ للذُّنوبِ، وشرعِ الحُدودِ المُكفِّرَةِ لها.

﴿مَا زَكَىٰ﴾ ما طَهُرَ مِن دَنَسِها ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ آخرَ الدَّهرِ ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ بحملِهِ على التَّوبةِ وقَبولِها ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَقالِهِم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّاتِهم.

(٢٢) ـ ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾: ولا يَحلِفْ، افتِعَالٌ مِن «الأَلِيَّةِ»، أو: ولا يُقَصِّرْ، مِن «الأَلوِ»، ويؤيِّدُ الأوَّلَ[٤] أنَّه قُرِئَ: ﴿وَلَا يَتَأَلَّ﴾[٥]، وأنَّه نزلَ في أبي بكرٍ وقد حلفَ أن لا يُنفقَ على مِسطَحٍ بعدُ[٦]، وكانَ ابنَ خالَتِه، وكانَ مِن فقراءِ المُهاجرينَ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٤)، و«التيسير» (ص: ٧٨)، و«النشر» (٢/ ٢١٦) وذكر خلافًا عن البزي.

(٢) قرئ بفتح الخاء والطاء، وبفتح الخاء مع تسكين الطاء، وهما من الشواذ. وقرئ في السبعة بضم الطاء وبإسكانه، كلاهما مع ضم الخاء، وقد تقدمت هذه القراءات عند تفسير الآية (١٦٨) من سورة البقرة.

(٣) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: فيه ردٌّ على قول الزمخشري (٦/ ٣٤): و«المُنكَر»: ما تُنكِرُه النفوسُ فتَنفِرُ عنه ولا تَرتَضِيه؛ لابتنائه على مذهب المعتزلة في الحسن والقبح العقليين.

(٤) الأول: أنه من «الأليَّة» وهي القسم والحلف، والثاني: أنه من «الألو» وهو التقصير، ويؤيد أنه من القسم قراءة أبي جعفر وسبب النزول. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٣٠٢).

(٥) قرأ بها أبو جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٣١). وهذا مضارع تألَّى بمعنى: حَلَف.

(٦) رواه البخاري في «صحيحه» (٦٦٧٩) مختصراً، ومسلم في «صحيحه» (٢٧٧٠) في حديث الإفك مطولاً عن عائشة رضي الله عنها.

﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدِّينِ ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المالِ، وفيه دليلٌ على فضلِ أبي بكرٍ وشرفِهِ رضيَ اللهُ عنه.

﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾: على أَنْ لا يُؤتوا، أو: في أَنْ يُؤتوا[١]، وقُرِئَ بالتَّاءِ[٢] على الالتفاتِ.

﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفاتٌ لِمَوصوفٍ واحدٍ؛ أي: ناسًا جامِعينَ لها؛ لأنَّ الكَلامَ فيمَنْ كانَ كذلك، أو لِمَوصوفاتٍ أُقيمَتْ مُقامَها فيكونُ أبلَغَ في تعليلِ المَقصودِ[٣].

﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ ما فَرَطَ مِنْهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغماضِ[٤] عنه، ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ على عَفوِكُم وصَفْحِكُم وإحسانِكُم إلى مَن أساءَ إِلَيكُم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع كَمالِ قُدرَتِه، فتَخلَّقُوا بأخلاقِه.

رُوِيَ: أنَّه عليهِ السَّلامُ قرأَها على أبي بكر فقالَ: بَلى أُحِبُّ، ورجَعَ إلى مِسْطَحٍ نفقتَه[٥].

(٢٣) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائفَ ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ ممَّا قُذِفْن به[٦] ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ باللهِ ورسولِه؛ استباحةً لعرضِهِنَّ وطعنًا في الرَّسولِ والمؤمنينَ كابنِ أُبَيٍّ.

---

(١) التقدير الأول على اعتبار ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ من الأليَّة، والثاني على اعتباره من الألو. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٢٠٦).

(٢) أي: «أن تُؤتوا». انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٣) عن أبي حيوة وابن قطيب وأبي البرهسم.

(٣) بناء على ما اشتهر من أن تعليق الحكم بالمشتق يفيد عِلِّيَّة المأخذ. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٢٠٦). والمقصود هو النهي عن التقصير في حق مسطح. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٣٠٤).

(٤) في نسخة التفتازاني: «بالإعراض»، وهما متقاربان في المعنى.

(٥) قطعة من حديث الإفك الطويل المتقدم عن عائشة رضي الله عنها.

(٦) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: المراد بالغفلة عما قذفن به: أنه لم يخطر لهن ببالٍ؛ لكونهن مطبوعات على الخير مخلوقات من عنصر الطهارة، فهو تَرَقٍّ لا تكرارَ فيه؛ كأنه قيل: المبرّآت من الزنى، بل اللاتي لم يخطر ذلك ببالهن قط.

﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لِمَا[١] طعنُوا فيهنَّ، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعِظَمِ ذُنوبِهم.

وقيلَ: هو حكمُ كلِّ قاذفٍ ما لم يَتُب.

وقيلَ: مَخصوصٌ بمَنْ قذفَ أزواجَ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ، ولذلك قالَ ابنُ عبَّاسٍ: لا توبةَ له[٢].

ولو فتَّشْتَ وَعيداتِ القرآنِ لم تَجِد أغلظَ ممَّا نزَلَ في إفكِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها[٣].

(٢٤) ـ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ ظرفٌ لِمَا في ﴿لهم﴾ مِن مَعنى الاستقرارِ، لا للعَذابِ لأنَّه مَوصوفٌ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بالياءِ[٤] للتَّقدُّمِ والفصلِ[٥].

---

(١) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «كما».

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٣/ ١٥٣) رقم (٢٣٤)، وابن مردويه كما ذكره الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٢٤). قال الشهاب الخفاجي في قول ابن عباس: هو مبالغة وتعظيم لأمر الإفك، وإلا فقد تاب مسطح كغيره، وما تقدَّم مصرّح بقبول توبته.

(٣) هذا مستفاد من «الكشاف» (٦/ ٣٧)، وفي عبارته مزيد فائدة، فقد قال: ولو فَلَيْتَ القرآنَ كُلَّه وفتَّشتَ عمّا أُوعِدَ به العُصاةُ لم ترَ اللهَ عزَّ وجلَّ قد غلَّظَ في شيءٍ تَغليظَهُ في إفكِ عائشةَ رضي الله عنها، ولا أنزلَ من الآياتِ القَوارعِ المَشْحُونةِ بالوَعيْدِ الشديدِ والعتابِ البَليغِ والزَّجرِ العَنيفِ واستِعظامِ ما رُكِبَ من ذلك واستفظاعِ ما أُقدِمَ عليه ما أنزَل فيه على طُرقٍ مختَلفةٍ وأساليبَ مُفْتنَّةٍ، كلُّ واحدٍ منها كافٍ في بابهِ، ولو لم يُنْزِل إلّا هذه الثَّلاثَ ـ أي: هذه الآية والآيتين بعدها ـ لكفَى بها: حيثُ جَعَل القَذفة ملعُونينَ في الدّارَين جميعاً، وتَوعَّدَهم بالعَذاب العَظِيم في الآخِرة وبأنَّ ألسنَتَهُم وأيديَهُم وأرجُلَهُم تشهَدُ عَليْهم بما أفَكُوا وبَهتُوا، وأنَّه يُوفِّيهم جَزاءَهم الحقَّ الواجبَ الذي هُم أهْلُه حَتَّى يَعلَمُوا عندَ ذلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾، فأوجَزَ في ذلك وأشبَعَ، وفصَّلَ وأجمَلَ، وأكَّد وكرَّرَ، وجاءَ بما لم يَقَعْ في وَعِيدِ المُشركين عبَدةِ الأوثان إلّا ما هو دُونه في الفظاعةِ، وما ذاكَ إلّا لأمرٍ.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٤)، و«التيسير» (ص: ١٦١).

(٥) أي: لتقدُّم الفعل وهو ﴿يشهدُ﴾، وإسناده إلى مؤنث غير حقيقي وهو ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾، والفصل بينهما =

﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: يَعترفونَ بـهـا بإنطاقِ اللهِ إيَّاها بغيرِ اختيارِهِم، أو بظهورِ آثارِه عليها، وفي ذلك مَزيدُ تَهويلٍ للعَذابِ.

(٢٥) ـ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾: جزاءَهُم المُستحَقَّ ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ لِمُعايَنتِهِم الأمرَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾: الثَّابتُ بذاتِه الظَّاهرُ أُلوهيَّتُه، لا يُشارِكُه في ذلك غيرُه، ولا يقدرُ على الثَّوابِ والعِقابِ سِواه، أو: ذو الحقِّ البيِّنِ؛ أي: العادلُ الظَّاهرُ عدلُه، ومَن كانَ هذا شَأنُه ينتقِمُ مِن الظَّالمِ للمَظلومِ لا محالةَ.

(٢٦) ـ ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ أي: الخبائِثُ يتزوَّجْنَ الخِباثَ وبالعكسِ، وكذلك أهلُ الطِّيبِ، فيكونُ كالدَّليلِ على قولِه:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ يعني: أهلَ بيتِ النَّبي، أو الرَّسولَ وعائشةَ وصَفْوانَ ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إذ لو صدقَ لَمْ تَكُن زوجتَه ولم يقرَّر عليهِ.

وقيلَ: الخبيثاتُ والطَّيِّباتُ من الأقوالِ.

والإشارةُ[1] إلى الطَّيِّبينَ، والضَّميرُ فـي ﴿يَقُولُونَ﴾ للآفكينَ؛ أي: مُبَرَّؤونَ ممَّا يقولونَ فيهم، أو للخبيثينَ[2] والخَبيثاتِ؛ أي: مُبرَّؤونَ مِن أَنْ يقولوا مثلَ قَولِهم.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: الجنَّةَ.

ولقد برَّأَ اللهُ أربعَةً بأربعَةٍ، برَّأَ يوسُفَ عليه السَّلامُ بشاهدٍ مِن أهلِها، وموسى

= بـ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ويجوز تذكير الفعل إذا وقع فاصل بينه وبين فاعله الذي هو مؤنث حقيقي، فكيف إذا كان غير حقيقي. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٣٠٩).

(١) في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾.

(٢) أي: والضَّميرُ في ﴿يَقُولُونَ﴾ للخبيثين.

عليه السَّلامُ مِن قولِ اليهودِ فيه بالحَجَرِ الَّذي ذهبَ بثَوبِه[١]، ومريمَ بإنطاقِ وَلدِها، وعائشةَ بهذه الآياتِ مع هذه المُبالغاتِ، وما ذلك إلَّا لإظهارِ مَنصبِ الرَّسولِ وإعلاءِ مَنزِلَتِه.

(٢٧) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ الَّتي تَسكنونَها[٢]؛ فإنَّ الآجِرَ[٣] والمُعيرَ أيضًا لا يَدخُلانِ إلَّا بإذنٍ.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾: تَستأذِنُوا، من «الاستئناسِ» بمعنى: الاستعلامِ، مِن «آنسَ الشَّيءَ»: إذا أبصرَهُ، فإنَّ المستأذِنَ مُستعلِمٌ للحالِ مُستكشِفٌ أنَّه: هل يُرادُ دخولُه أو يؤذَنُ له؟ أو مِن «الاستئناسِ» الَّذي هو خلافُ الاستيحاشِ، فإنَّ المستأذِنَ مُستوحِشٌ[٤] خائفٌ أن لا يُؤذنَ، فإذا أُذنَ استأنَسَ.

أو: تتعرَّفُوا هل ثَمَّ إنسانٌ؟ مِن «الإنسِ».

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا: السَّلامُ عليكم، أأَدْخُل؟ وعنه عليه السَّلامُ: «التَّسليمُ أَنْ يقولَ: السَّلامُ عليكم، أأدخُلُ؟ ثلاث مَرَّاتٍ، فإن أُذنَ له دخلَ وإلَّا رَجَعَ»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أي: لا يُراد من ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ معنى التملك، بل الاختصاص بالسُّكنى.

(٣) قال المطرزي: واسم الفاعل من نحو «آجره الدار»: مُؤجِر، والآجر في معناه غلطٌ، إلا إذا صحت روايته عن السلف. انظر: «المغرب في ترتيب المعرب» (ص: ٢٠).

(٤) في نسخة الفاروقي والخيالي: «متوحش».

(٥) رواه الترمذي في «سننه» (٢٦٩٠) عن أبي موسى الأشعري، قال رسول الله ﷺ: «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك، وإلا فارجع».

وروى ابن ماجه (٣٧٠٧) في معنى الاستئناس غير هذا عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجل تسبيحة وتكبيرة وتحميدة، ويتنحنح، ويُؤذن أهل البيت». قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/ ١١٠): هذا إسناد ضعيف.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ أي: الاستئذانُ والتَّسليمُ خيرٌ لَكُم من أَنْ تَدخلُوا بَغتةً، أو من تحيَّةِ الجاهليَّةِ، كانَ الرَّجلُ منهم إذا دخلَ بيتًا غيرَ بيتِه قالَ: «حُيِّيتُمْ صَباحًا» و«حُيِّيتُم مساءً» ودخلَ، فرُبَّما أصابَ الرَّجُلَ مع امرأتِه في لحافٍ[1].

ورُوِيَ أنَّ رجلًا قالَ للنَّبيِّ ﷺ: أأستأذِنُ على أُمِّي؟ قالَ: «نعم» قالَ: لا خادمَ لها غيري، أأستأذِنُ عليها كلَّما دخلتُ؟ قالَ: «أتُحِبُّ أن تَرَاها عُريانةً؟» قالَ: لا، قالَ: «فاستأذِنْ»[2].

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ؛ أي: أنزلَ عليكُم ـ أو: قيلَ لكم هذا ـ إرادةَ أن تذكَّرُوا وتعمَلُوا بما هو أَصلَحُ لَكُم.

(٢٨) ـ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ يأذَنُ لَكُم ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾: حتَّى يَأتِيَ مَن يأذَنُ لَكُم، فإنَّ المانعَ مِن الدُّخولِ[3] ليسَ الاطِّلاعَ على العوراتِ فقَطْ، بَلْ وعلى ما يخفيهِ النَّاسُ عادةً، مع أنَّ التَّصرُّفَ في ملكِ الغيرِ بغيرِ إذنِه محظورٌ، واستُثنِيَ ما إذا عَرَضَ فيه حَرْقٌ أو غَرَقٌ، أو كانَ فيه مُنكَرٌ، ونحوها.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ ولا تُلِحُّوا ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ الرُّجوعُ أطهَرُ لَكُم عمَّا لا يخلو الإلحاحُ والوُقوفُ على البابِ عَنْه مِن الكراهةِ وتركِ المُروءةِ، أو: أنفَعُ لدِينِكُم ودُنياكُم.

---

(١) رواه بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٦٥) عن مقاتل بن حيان.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (٣٥٣٨)، وأبو داود في «المراسيل» (٤٨٨)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٤٤) عن عطاء بن يسار مرسلًا.

(٣) في نسخة التفتازاني: «الدمور»، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٦/ ٤٥)، وفيه: وهُو الدُّخولُ بغَير إِذْنٍ، واشتِقاقُه من الدَّمارِ وهو الهلاكُ؛ كأنَّ صَاحبَه دَامرٌ لِعظَمِ ما ارتكبَ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلَمُ ما تأتونَ وما تَذرونَ ممَّا خُوطِبْتُم به فيُجازِيكُم عليه.

(٢٩) - ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالرُّبُطِ والخاناتِ والحوانيتِ[١].

﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾: استمتاعٌ لَكُم؛ كالاستكنانِ من الحرِّ والبَردِ، وإيواءِ الأَمْتِعَةِ، والجلوسِ للمُعاملَةِ[٢]، وذلك استِثناءٌ مِن الحُكمِ السَّابقِ لشُمولِهِ البيوتَ المَسكونةَ وغيرَها.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وَعِيدٌ لِمَن دخلَ مدخلًا لفسادٍ أو تطلَّعَ على عوراتٍ.

(٣٠) - ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ أي: ما يكونُ نحوَ مُحرَّمٍ ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ إلَّا على أزواجِهِم أو ما مَلَكتْ أَيْمانُهم.

ولَمَّا كانَ المُستثنى منه كالشَّاذِّ النَّادرِ بخلافِ الغَضِّ أطلقَهُ وقيَّدَ الغضَّ بحرفِ التَّبعيضِ[٣].

وقيلَ: حفظُ الفُروجِ هاهنا خاصَّةً: سَترُها[٤].

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: الرُّبط: جمع رِباط، وهو مكان يقيم فيه المجاهدون وتربط فيه خيولهم، ويُطلق على الخانقاه، والحانوت هو الدُّكان، والخان: الذي تنزله التجار والسابلة معروف، وهما معرّبان.

(٢) في نسخة التفتازاني: «للمعاملات».

(٣) هذا وما بعده لتعليل دخول «مِن» التبعيضية هنا على غضِّ البصر دون حفظ الفروج، مع أنه ثبت استثناء الأزواج والسراري عنه.

(٤) إشارة إلى ما روى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٧١) وغيره عن أبي العالية قال: كل شيء في =

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾: أنفَعُ لهم، أو: أطهَرُ؛ لِمَا فيه مِن البُعدِ عن الرِّيبةِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾: لا يَخْفَى عليه إجالةُ أَبصارِهِم، واستعمالُ سائرِ حَواسِّهِم، وتحريكُ جوارِحِهم وما يقصدونَ بها، فليكونوا على حَذرٍ منه في كلِّ حركةٍ وسُكونٍ.

(٣١) ـ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ فلا يَنْظُرْن إلى ما لا يَحِلُّ لَهُنَّ النَّظرُ إليه مِن الرِّجالِ، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتَّسَتُّرِ، أو التَّحفُّظِ عن الزِّنى؛ وتَقديمُ الغَضِّ؛ لأنَّ النَّظرَ بَرِيدُ الزِّنَى.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحلي والثِّيابِ والأَصباغِ فضلًا عَن مَواضِعِها لِمَن لا يَحِلُّ أن تُبدى له ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عندَ مزاولةِ الأَشياءِ كالثِّيابِ والخاتمِ؛ فإنَّ في سترِها حرَجًا.

وقيلَ: المرادُ بالزِّينَةِ: مَواقِعُها [1] على حذفِ المضافِ، أو: ما يعمُّ المحاسِنَ الخَلْقيَّةَ والتَّزيُّنيَّةَ، والمُستثنى هو الوجهُ والكفَّانِ لأنَّها ليسَتْ بعَورَةٍ، والأظهَرُ أنَّ هذا في الصَّلاةِ لا في النَّظرِ؛ فإنَّ كُلَّ بدنِ الحُرَّةِ عورَةٌ لا يَحِلُّ لغيرِ الزَّوجِ والمَحْرَمِ النَّظرُ إلى شيءٍ مِنْها إلَّا لضَرورةٍ كالمعالجةِ وتَحمُّلِ الشَّهادةِ [2].

= القرآن «يحفظوا فروجهم، ويحفظن فروجهن»، يقول: من الزنى، إلا ما كان من هذه الآية في النور. يقول: لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة. وذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ١٤٢) عن ابن زيد.

(١) في نسخة التفتازاني: «مواضعها».

(٢) هذا القول الأظهر عند الشافعية، وهو قول الحنابلة، والقول الآخر أن هذا في الصلاة وغيرها، وهو قول الحنفية والمفتى به عند المالكية. انظر: «الفقه على المذاهب الأربعة» (٥/ ٥٢).

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ سَتْرًا لأعناقِهِنَّ، وقرأَ نافعٌ وعاصمٌ وأبو عمرٍو وهشامٌ بضمِّ الجيمِ[١].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرَّرَه لبيانِ مَن يَحِلُّ له الإبداءُ ومَن لا يَحِلُّ له.

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنَّهُم المقصودونَ بالزِّينَةِ، ولهم أن ينظُروا إلى جميعِ بدنهنَّ حتَّى الفرجِ بكُرهٍ[٢].

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكثرةِ مُداخلَتِهِم عليهنَّ، واحتياجِهِنَّ إلى مُداخَلَتِهِم، وقلَّةِ توقُّعِ الفتنةِ مِن قبلِهِم؛ لِمَا في الطِّباعِ مِن النّفرَةِ[٣] عن مُماسَّةِ القرائبِ، ولهم أن ينظروا مِنهنَّ إلى ما يبدو عندَ المِهنةِ والخدمةِ، وإنَّما لم يذكُر الأعمامَ والأخوالَ لأنَّهُم في مَعنى الإخوانِ، أو لأنَّ الأحوطَ أن يَتستَّرْنَ عنهم حَذرًا أَنْ يصفوهنَّ لأبنائِهِم.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: المؤمناتِ، فإنَّ الكافراتِ لا يَتحرَّجْنَ عن وَصفِهِنَّ للرِّجالِ، أو النِّساءِ كلِّهنَّ، وللعلماءِ في ذلك خِلافٌ[٤].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ١٧٨ ـ ١٧٩)، و«التيسير» (ص: ١٦١).

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «بكره» بضم الكاف بمعنى: الكراهية، وحرّمه بعض الشافعية، وقيل: إنه خلاف الأولى، وهو مذهب الحنفية.

(٣) مصدر «نفر»، وهو بمعنى: التباعد. انظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ٤٥٩).

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: يحتمل أن يريد خلاف الشافعية لأبي حنيفة، ويحتمل أن يريد الخلاف في مذهبه؛ فإنّ فيه خلافًا عندهم.

قلت: الأصح في مذهب الأحناف والمالكية موافق للأصح من مذهب الشافعية، ورواية عن أحمد، وهي أن المرأة الأجنبية الكافرة كالرجل الأجنبي بالنسبة للمسلمة، فلا يجوز أن تنظر إلى بدنها، وللشافعية أقوال أخرى، فقيل: يجوز أن ترى الكافرة من المسلمة ما يبدو منها عند =

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ يعمُّ الإماءَ والعَبيدَ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّه عليه السَّلامُ أتى فاطمةَ بعبدٍ وهبَهُ لها وعليها ثوبٌ إذا قنَّعَتْ[1] به رأسَها لم يبلُغ رِجلَيْها، وإذا غطَّتْ رِجلَيْهَا لم يَبلُغْ رأسَها، فقالَ عليه السَّلامُ: «إنَّه ليسَ عليكِ بأسٌ إنَّما هو أبوكِ وغُلامُكِ»[2].

وقيلَ: المرادُ بها الإماءُ، وعبدُ المرأةِ كالأَجنَبِيِّ.

﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾؛ أي: أولي الحاجةِ إلى النِّساءِ، وهم: الشُّيوخُ الهمُّ[3]، والممسوحونَ، وفي المجبوبِ والخَصِيِّ خلافٌ[4].

وقيلَ: البُلْهُ[5] الَّذينَ يتبعونَ النَّاسَ لفضلِ طعامِهِم، ولا يعرفونَ شيئًا مِن أُمورِ النِّساءِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ: ﴿غيرَ﴾ بالنَّصبِ على الحَالِ[6].

= المهنة، وفي رأي آخر أنه يجوز أن ترى منها ما تراه المسلمة منها. انظر: «الهداية على مذهب الإمام أحمد» للكلوذاني (ص: ٣٨٢)، و«مغني المحتاج» للشربيني (٤/ ٢١٣).

(١) في نسخة الخيالي: «تقنعت».

(٢) رواه أبو داود في «سننه» (٤١٠٦) عن أنس رضي الله عنه.

(٣) «الهِمُّ»: الشيخ الفاني البالي، والجمع: أهمام، كما في «تاج العروس» (٣٤/ ١٢٠)، لكن وُصف الجمع بالمفرد في هذه النسخة؛ لأن استغراقه بمعنى كلِّ فرد. وفي نسخة الطبلاوي: «الشيوخ الهرم»، وفي نسخة الفاروقي: «الشيخ الهم».

(٤) الممسوح: مقطوع الذكر والخصيتين، والخصي مقطوع الخصيتين، والأجب: مقطوع الذكر. والخلاف أن من العلماء من عدَّ هؤلاء جميعًا كالفحول. انظر: «نهاية المطلب في دراية المذهب» للجويني (١٢/ ٣٥)، و«حاشية القونوي» (١٣/ ٣٣٣).

(٥) في نسخة التفتازاني: «والبله». والأَبْلَهُ: هو الذي غلبتْ عليه سلامةُ الصدر، والجمع: بُلْه. انظر: «الصحاح» (٦/ ٢٢٢٧).

(٦) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٦١).

﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لعَدمِ تمييزِهم، مِن «الظُّهورِ» بمَعْنَى: الاطِّلاعِ، أو لعدمِ بُلوغِهِم حَدَّ الشَّهوَةِ، مِن «الظُّهورِ» بمعنى: الغلبَةِ.

و﴿ٱلطِّفۡلِ﴾ جِنسٌ وُضِعَ مَوضِعَ الجَمعِ اكتفاءً بدلالةِ الوَصفِ(١).

﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ ليَتَقْعَقَعَ خَلْخالُها فيُعلمَ أنَّها ذاتُ خَلخالٍ، فإنَّ ذلك يُورِثُ مَيْلًا في الرِّجالِ، وهو أبلَغُ مِن النَّهيِ عَن إظهارِ الزِّينَةِ، وأدَلُّ على المنعِ مِن رَفعِ الصَّوتِ(٢).

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إذ لا يكادُ يخلو أحدُكُم(٣) مِن تَفريطٍ سِيَّما في الكفِّ عن الشَّهواتِ.

وقيلَ: توبوا ممَّا كُنْتُم تَفعلونَه في الجاهليَّةِ، فإنَّه وإن جُبَّ بالإسلامِ لكنَّه يجبُ النَّدَمُ عليه، والعزمُ على الكَفِّ عنه كلَّما تذكَّرَه(٤).

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ بسَعادةِ الدَّارَينِ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿أيُّهُ المؤمنون﴾ وفي آيةِ الزُّخرفِ: ﴿يا أيُّهُ السَّاحر﴾، وفي الرَّحمنِ: ﴿أيُّهُ الثَّقلانِ﴾ بضمِّ الهاءِ في الوصلِ في الثَّلاثةِ، والباقون بفتحِها، ووقفَ أبو عمرٍو والكسائيُّ عليهنَّ ﴿أيُّها﴾ بالألف، ووقفَ الباقون بغيرِ ألفٍ(٥).

---

(١) قال أبو حيان: هو من المفرد المعرَّف بلام الجنس، فيعمُّ. انظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٦/ ٧٠). وقال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قال بعض النحاة: إنه في الأصل مصدر فيقع على القليل والكثير، وهذا أولى؛ لأنَّ وقوع المفرد موقع الجمع ردَّه بعض النحاة.

(٢) أي: إذا نهي عن إسماع صوتها كان النهي عن إظهارها من باب أولى، وكذا إذا منع صوت الحلي فرفع الصوت أولى. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٣٣٥).

(٣) في نسخة التفتازاني: «إذ لا يخلو أحد منكم»، وفي نسخة الطبلاوي: «إذ لا يخلو أحدكم».

(٤) كذا في نسخة الطبلاوي، وفي نسخة التفتازاني والخيالي: «كلما يتذكر».

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٦١ ـ ١٦٢).

(٣٢) ـ ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ لـمَّـا نـهـى عـمَّا عَـسَـى[١] أن يُفضِيَ إلى السِّفاحِ المُخِلِّ بالنَّسبِ المقتضي للأُلفَةِ وحسنِ التَّربيَةِ ومزيدِ الشَّفقَةِ المؤديَّةِ إلى بقاءِ النَّوعِ بعد الزَّجرِ عنه مُبالغةً فيه[٢] = أمرَ بالنِّكاحِ الحافظِ له.

والخطابُ للأولياءِ والسَّادةِ، وفيه دليلٌ على وُجوبِ تزويجِ المَوْليَّةِ والمَمْلوكِ وذلك عند طَلَبِهما، وإشعارٌ بأنَّ المرأةَ والعبدَ لا يستبدَّانِ به؛ إذ لو استَبدَّا لَمَا وجبَ على الوليِّ والمولَى.

و«أَيَامَى» مَقلوبُ: أَيائِم ـ كـ«يَتامَى» ـ جمعُ أَيِّمٍ[٣]، وهو العزَبُ ذكرًا كانَ أو أُنثى، بِكرًا كانَ أو ثَيِّبًا، قالَ:

فَـإِنْ تَنكِحِـي أَنكِـحْ وإِنْ تَتَأَيَّمِـي ... وإِنْ كُنـتُ أَفتَـى مِنكُـمُ أَتَأَيَّـمِ[٤]

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «عسى» مقحمة هنا. وانظر: «فتوح الغيب» للطيبي (١٢/ ١٤٧).

(٢) قوله: «المقتضي» صفة لـ«النسب»، وقوله: «بعد الزجر» متعلق بـ«نهى»، وضمير «عنه»؛ أي: عن الزِّنى، والمبالغةُ من النهي عن النظر والزينة، وهو تعليل للنهي. والمراد: لما نهى عن النظر وإبداء الزينة والضرب بالأرجل التي تفضي إلى الزنى بعد زجره عنه مبالغة في اجتنابه أمر بالزواج الحافظ للنسب والنوع.

(٣) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: ذهب المصنف تبعاً للزمخشريّ ومن تابعه إلى أنه مقلوب لأنَّ فعيلًا وفيعلًا لا يجمعان على فَعالى.
قلت: أخذ الزمخشري في هذا بمذهب الأخفش، وأنكر الرضي قول الزمخشري مستندًا إلى ظاهر كلام سيبويه أنه على فَعالى حملًا على «وَجَاعَى». وانظر: «الكتاب» (٣/ ٦٥٠)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٢٠٠)، و«أبنية الأسماء والأفعال والمصادر» لابن القطاع (ص: ٣٦٩)، و«شرح المفصل» لابن يعيش (٣/ ٣٤١)، و«شرح الرضي للشافية» (٢/ ١٤٥ ـ ١٤٦).

(٤) ذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى في «مجاز القرآن» (٢/ ٦٥) من غير نسبة، وذكره بعده كثير من =

وتخصيصُ الصَّالحينَ لأنَّ إحصانَ دينِهم والاهتمامَ بشَأنِهم أهمُّ.

وقيلَ: المرادُ الصَّالحونَ للنِّكاحِ والقيامِ بحُقوقِه.

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ رَدٌّ لِمَا عَسَى يمنعُ مِن النِّكَاحِ، والمعنى: لا يمنعنَّ فَقرُ الخاطبِ أو المَخطوبَةِ مِن المُناكَحَةِ، فإنَّ في فضلِ اللهِ غُنيَةً عن المالِ فإنَّه غادٍ ورائحٌ، أو وَعدٌ[1] مِن اللهِ بالإغناءِ؛ لقولِه عليه السَّلامُ: «اطلُبُوا الغِنَى في هذهِ الآيَةِ»[2]، لكن مشروطَةٌ بالمشيئَةِ[3]؛ لقولِه[4] تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التَّوبة: ٢٨].

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: ذو سَعَةٍ لا تَنفَدُ نِعمَتُه؛ إذ لا تَنْتَهِي قُدرَتُه.

﴿عَلِيمٌ﴾ يبسطُ الرِّزقَ ويقدرُ على ما تَقتَضيهِ حِكمَتُه.

(٣٣) ـ ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾: وليَجتَهِدْ في العِفَّةِ وقَمعِ الشَّهوةِ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾: أسبابَه، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بالنِّكاحِ: ما يُنكَحُ به، أو بالوجدانِ: التَّمكُّنُ منه.

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيَجِدوا ما يتزوَّجونَ به.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: المكاتبةَ، وهو أن يقولَ الرَّجلُ لمَملوكِه: كاتَبْتُكَ على كذا[5]، ....

= المفسرين والفقهاء، ولم أقف على أحدٍ نسبه. والشاهد فيه أن «الأيِّم» يطلق على الذكر والأنثى، والمعنى: أنا موافق لكِ اخترتِ الزواج أو العزوبة وإن كنتُ أصغر سنًّا منك.

(١) معطوف على «ردٌّ».

(٢) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٤٤٥) عن عبد العزيز بن رواد مرسلًا.

(٣) في نسخة الفاروقي: «لكن بشريطة المشيئة».

(٤) في نسخة الطبلاوي: «كقوله».

(٥) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته» نقلاً عن الدميري: الكتابة لفظة إسلامية، وأوّل من كاتبه المسلمون عبد لعمر رضي الله عنه يُسمَّى أبا أمية.

مِن «الكتابِ»[(١)]؛ لأنَّ السَّيِّدَ كتبَ على نفسِه عِتقَهُ إذا أدَّى المالَ، أو لأنَّه ممَّا يُكتَبُ لتأجيلِه، أو مِن «الكَتْبِ» بمَعنى الجمعِ؛ لأنَّ العِوضَ فيه يكونُ مُنجَّمًا بنُجومٍ يُضمُّ بَعضُها إلى بَعضٍ[(٢)].

﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ عبدًا كانَ أو أَمَةً.

والموصولُ بصِلَتِه[(٣)] مُبتدأٌ خبرُه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾، أو مفعولٌ لِمُضمَرٍ هذا تفسيرُه، والفاءُ لتَضمُّنِ معنى الشَّرطِ.

والأمرُ فيه للنَّدبِ عندَ أكثرِ العُلَماءِ[(٤)]؛ لأنَّ الكِتابَةَ مُعاوَضَةٌ تتضمَّنُ الإرفاقَ فلا تَجِبُ كغَيرِهَا، واحتجاجُ الحنفيَّةِ بإطلاقِه على جوازِ الكتابَةِ الحالَّةِ ضَعيفٌ؛ لأنَّ المطلَقَ لا يَعُمُّ، مع أنَّ العَجزَ عن الأداءِ في الحالِ يمنَعُ صِحَّتَها، كما في السَّلَمِ فيما لا يُوجدُ عندَ المحلِّ[(٥)].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «الكتبة».

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: هو شامل للنجم الواحد عندنا ـ أي: الحنفية ـ ومذهب المصنف رحمه الله لا بد من تعدده، فهو على ظاهره.

وذكر القونوي في وجه أخذه من «الكَتْب» بمعنى الجمع: الجمع بين حرِّيَّة الرقبة مآلًا وحرِّيَّة اليد حالًا. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٣٤٤).

(٣) أي: ﴿الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَبَ﴾.

(٤) نقل ابن المنذر للعلماء فيه خلافًا، وبالوجوب أخذ الظاهرية، لكن قال الطحاوي: لم يختلفوا أن قوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ على الندب. انظر: ما ذكره البخاري في «صحيحه» معلقاً (٣/ ١٥١)، و«الإشراف على مذاهب العلماء» لابن المنذر (٧/ ٥)، و«اختلاف العلماء» للطحاوي باختصار الجصاص (٤/ ٤١٢)، و«المحلى» لابن حزم (٨/ ٢١٩).

(٥) انظر: «المبسوط» للسرخسي (٨/ ٣).

﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾: أمانَةً وقُدرَةً على أداءِ المالِ بالاحترافِ[١]، وقد رُوِيَ مثلُه مَرفوعًا[٢]. وقيلَ: صلاحًا في الدِّينِ. وقيلَ: مالًا، وضَعفُهُ ظاهِرٌ لفظًا ومَعنًى. وهو شرطُ الأمرِ فلا يَلزَمُ مِن عدمِهِ عَدمُ الجَوازِ.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ أمرٌ للمَوالي كمَا قبلَهُ بأَنْ يَبذُلُوا لهم شيئًا مِن أَموالِهِم، وفي معناه حَطُّ شيءٍ مِن مالِ الكتابَةِ، وهو للوُجوبِ عندَ الأكثَرِ.

ويكفي أقلُّ ما يُتمَوَّلُ، وعَن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه: يحطُّ الرُّبعَ[٣]، وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: الثُّلُثَ[٤].

وقيلَ: ندبٌ لهم إلى الإنفاقِ عليهم بعد أن يؤدُّوا ويَعْتِقوا.

وقيلَ: أمرٌ لعامَّةِ المسلمينَ بإعانةِ المكاتَبين وإعطائِهم سهمَهم من الزَّكـاةِ، ويَحِلُّ للمَولى وإن كانَ غنيًّا؛ لأنَّه لا يأخذُه صدقةً كالدَّائنِ والمشتري، ويدلُّ عليه قولُه عليه السَّلامُ في حديث بَريرةَ: «هو لها صدقةٌ ولنا هديةٌ»[٥].

---

(١) أي: بممارسة حرفة.

(٢) روى أبو داود في «المراسيل» (١٨٥) عن يحيى بن أبي كثير، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ [النور: ٣٣]، قال: «إِنْ عَلِمْتُمْ مِنْهُمْ حِرْفَةً، وَلَا تُرْسِلُوهُمْ كَلًّا عَلَى النَّاسِ». وهذا القول اختاره الإمام الشافعي بعد مناقشة بقية الأقوال. وانظر: «الأم» للشافعي (٨/ ٣٣).

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٥٩٠)، والنسائي في «الكبرى» (٥٠١٩)، عن علي رضي الله عنه موقوفًا. ورواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٥٥٨٩)، والنسائي في «الكبرى» (٥٠١٧)، عنه مرفوعًا، ورفعه منكر كما ذكر ابن كثير عند هذه الآية، قال: والأشبه أنه موقوف على علي.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٨٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢١٦٧٥) بلفظ: «ضعوا عنهم من مكاتبتهم»، دون تحديد. وذكر التحديد بالثلث عن ابن عباس: السمعاني في «تفسيره» (٣/ ٥٢٨)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٤١٣).

(٥) رواه البخاري في «صحيحه» (١٤٩٣)، ومسلم في «صحيحه» (١٠٧٥) عن عائشة رضي الله عنها.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾: إماءَكُـم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾: علـى الزِّنـى، كانَـتْ لعبـدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ سِـتُّ جَـوارٍ يُكرِهُهنَّ على الزِّنى، وضـربَ عليهنَّ الضَّرائبَ[١]، فشـكا بعضُهنَّ إلى رسـولِ اللهِ ﷺ، فنزَلَتْ[٢].

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾: تَعفُّفًـا، شـرطٌ للإكـراهِ فإنَّه لا يوجَدُ دونَه، وإنْ جُعلَ شَـرطًا للنَّهـيِ لـم يَلـزَمْ مِـن عدمِـه جوازُ الإكـراهِ؛ لجـوازِ أن يكـونَ ارتفـاعُ النَّهـيِ بامتناعِ المَنهـيِّ عنهُ.

وإيثارُ ﴿إِنْ﴾ على «إذا» لأنَّ إرادةَ التَّحصُّنِ مِن الإماءِ كالشَّاذِّ النَّادرِ[٣].

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لهـنَّ، أو: لـه إنْ تـابَ، والأوَّلُ أوفَـقُ للظَّاهـرِ[٤]، ولِمَـا فـي مُصحَفِ ابنِ مَسـعودٍ: «مِـن بعـدِ إكراهِهـنَّ لَهُـنَّ غفورٌ رحيـمٌ»[٥].

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: الضرائب: جمع ضريبة، وهي المال المعين المقسط.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٣٣) عن مقاتل، وروى مسلم في «صحيحه» (٣٠٢٩) عن جابر رضي الله عنه قَالَ: كَانَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ يَقُولُ لِجَارِيَةٍ لَهُ: اذهَبِي فَابغِينَا شَيئًا، فَأَنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾...

(٣) أي: اختيار كلمة «إنْ» في ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ الموضوعة للشك على كلمة «إذا» الموضوعة لأن تُستعمل في مقام الجزم والقطع للإشعار بندرة قصد التحصُّن من الإماء وشذوذه، والدلالة على أنَّ التحصُّن منهن أمر من شأنه أن يشكُّ فيه ولا يُقطع به. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٣٥٣).

(٤) والثاني هو الذي رجَّحه أبو حيان. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ٧٩ ـ ٨٠).

(٥) رواها ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٥٣٦)، وذكرها مقاتل في «تفسيره» (٣/ ١٩٨)، ويحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٤٤٨) عن ابن مسعود، وهي قراءة جابر كما في «صحيح مسلم» (٣٠٢٩)، و«فضائل القرآن» للقاسم بن سلام (ص: ٣٠٨)، وقراءة ابن عباس وسعيد بن جبير كما في «المحتسب» لابن جني (٢/ ١٠٨)، و«شواذ القراءات» للكرماني (ص:٣٤٢) وزاد أنها قراءة الحسن أيضًا. وانظر: «غرائب التفسير» للكرماني (٢/ ٧٩٦).

ولا يَرِدُ عليه أنَّ المُكرهَةَ غيرُ آثمةٍ فلا حاجةَ إلى المغفرةِ؛ لأنَّ الإكراهَ لا يُنافي المؤاخذةَ بالذَّاتِ، ولذلك حَرُمَ على المكرَهِ القتلُ وأُوجبَ عليه القصاصُ[1].

(٣٤) ـ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يعني: الآياتِ الَّتي بُيِّنَت[2] في هذه السُّورَةِ وأُوضِحَت فيها الأحكامُ والحُدودُ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ وحمزَةُ والكِسائيُّ في الموضعينِ هنا وفي الطَّلاقِ بالكسرِ[3]؛ لأنَّها واضِحاتٌ تصدِّقُها الكتبُ المُتقدِّمَةُ والعقولُ المُستقيمَةُ، مِن «بَيَّنَ»؛ بمعنى: تَبيَّنَ، أو لأنَّها بَيَّنَت الأحكامَ والحُدودَ.

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: ومثلًا مِن أمثالِ مَن[4] قبلَكُم؛ أي: وقِصَّةً عَجِيبَةً مثلَ قصصِهِم، وهي قصَّةُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها فإنَّها كقصَّةِ يوسُفَ ومَريمَ[5].

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني: ما وُعِظَ به في تلكَ الآياتِ[6]، وتخصيصُ المُتَّقينَ لأنَّهُم المُنتفِعُونَ بها.

وقيلَ: المرادُ بالآياتِ القرآنُ، والصِّفاتُ المذكورةُ صِفاتُه[7].

---

(١) انظر: «الإشراف على نكت مسائل الخلاف» للقاضي عبد الوهاب المالكي (٢/ ٨١٦)، و«نهاية المطلب في دراية المذهب» لإمام الحرمين الجويني (١٦/ ١١٥).

(٢) في نسخة التفتازاني: «تبينت».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٢٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٢).

(٤) في نسخة التفتازاني: «من أمثال الذين».

(٥) حيث أُسند إليهما مثل هذا الإفك، فبرأهما الله منه. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٣٥٦).

(٦) إشارة إلى ما مضى في هذه السورة.

(٧) هذا القول يقابل ما بدأ به تفسير الآية بقوله: «يعني: الآياتِ...»، قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: فالمراد بها في الأوَّل الآيات الماضية في هذه السورة، وفي هذا جميع القرآن.

(٣٥) ـ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ النُّورُ في الأصلِ كيفيَّةٌ تُدرِكُها الباصِرَةُ أوَّلًا، وبوساطَتِها[١] سائرَ المُبصَرَاتِ، كالكيفيَّةِ الفائضَةِ مِن النَّيِّرينِ على الأجرامِ الكَثيفَةِ المحاذيَةِ لهما[٢]، وهو بهذا المعنى لا يَصِحُّ إطلاقُه على اللهِ تَعالى إلَّا بتَقديرِ مُضافٍ؛ كقولِك: زيدٌ كَرَمٌ، بمعنى: ذو كرمٍ، أو على تجوُّزٍ:

ـ إمَّا بمَعنى: مُنَوِّرُ السَّماواتِ والأَرضِ، وقد قُرِئَ به[٣]؛ فإنَّه تعالى نَوَّرَهما بالكَواكِبِ وما يفيضُ عنها مِن الأنوارِ، أو بالملائكَةِ والأنبياءِ.

ـ أو: مُدَبِّرُهما، مِن قَولِهِم للرَّئيسِ الفائقِ في التَّدبيرِ: نورُ القَوْمِ؛ لأنَّهُم يَهتدونَ به في الأمورِ.

ـ أو: مُوجِدُهما، فإنَّ النُّورَ ظاهرٌ بذاتِهِ مُظهِرٌ لغَيرِه، وأصلُ الظُّهورِ هو الوجودُ كما أنَّ أصلَ الخَفاءِ هو العدمُ، واللهُ سُبحانَه وتَعالى موجودٌ بذاتِه مُوجِدٌ لِمَا عَداه.

ـ أو: الَّذي به يُدرِكُ ـ أو يُدرَكُ ـ أهلُهما[٤]..............................

---

(١) في نسخة التفتازاني: «وبواسطتها»، وفي نسخة الطبلاوي: «وبواسطها».

(٢) النيِّران هما الشمس والقمر. وانظر: «التنبيه والإشراف» للمسعودي (ص: ٧٣)، و«مفاتيح العلوم» للخوارزمي (ص:٢٥٠).

(٣) أي: قرئ بفعله وهو (نوَّر) كما أشار أبو حيان في «البحر» (١٦/ ٨٢)، وقراءة (الله نوَّر..) نسبت في «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٤٢) لزيد بن علي، وفي «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٣) لأبي جعفر المدني وعبد العزيز المكي، وفي «المحرر الوجيز» (٤/ ١٨٣) لعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وأبي عبد الرحمن السلمي، وزاد في «البحر» (١٦/ ٨٢) على هؤلاءِ نسبتها لثابت بن أبي حفصة والقورصي ومسلمة بن عبد الملك.

(٤) قوله: «أو الذي به يدرك...» معطوف على قوله: «منورهما»، فهو مجاز، و«يدرِك» الأول مبني للمعلوم، والثاني للمجهول، وقد تنازعا قوله: «أهلهما»؛ أي: أهل السماوات والأرض. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (١٣/ ٣٦٠). =

مِن حيثُ إنَّه[1] يُطلَقُ على الباصرَةِ لتَعلُّقِها به أو لِمُشارَكَتِها له في توقُّفِ الإدراكِ عليه، ثمَّ على البَصيرَةِ[2] لأنَّها أقوى إدراكًا؛ فإنَّها تُدرِكُ نفسَهَا وغَيرَها مِن الكُلِّيَّاتِ والجزئِيَّاتِ المَوجوداتِ والمَعدوماتِ، وتَغوصُ في بَواطِنِها وتتصرَّفُ فيها بالتَّركيبِ والتَّحليلِ. ثمَّ إنَّ هذهِ الإدراكاتِ ليسَتْ لذَاتِها وإلَّا لَمَا فارَقَتْهَا، فهي إِذَنْ مِن سَبَبٍ يفيضُها عليها، وهو اللهُ سُبحانَهُ وتعالى ابتداءً، أو بتوسُّطٍ مِن الملائكةِ والأنبياءِ، ولذلك سُمُّوا أَنوارًا[3].

ويقرُبُ مِنهُ قولُ ابنِ عَبَّاسٍ: مَعناه: هادي مَن فيهِمَا[4]، فهُمْ بنُورِهِ يَهتَدُونَ[5].

= وخالف هذا الأنصاريُّ في «الحاشية» (٤/ ٢٠١) فقال: «أو الذي به تدرك، أو يدرك أهلها» عطف على «كيفية»؛ أي: النورُ في الأصل إمَّا كيفيةٌ تدركُها الباصرةُ... إلى آخره، أو الذي به تُدرِكُ الباصرةُ، أو يُدرِكُ به أهلُها الأشياءَ، وهو بهذا المعنى يصحُّ إطلاقُه على الله تعالى بدون تقديرِ مضافٍ أو تجوُّزٍ.

(١) أي: النور.

(٢) أي: ثم يُطلق النور على البصيرة. والبصيرة: قوة في القلب تدرك بها المعاني. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٣٦١).

(٣) انظر: «مشكاة الأنوار» للغزالي (٤١ ـ ٥٢)، و«تفسير الرازي» (٢٣/ ٣٧٨ ـ ٣٨٥)، فكلام المصنف ملخص منهما كما أفاده الخفاجي.

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٩٥) عن ابن عباس: قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يقول: الله سبحانه هادي أهل السماوات والأرض.

(٥) اعترض عليه الطيبي بقوله في «فتوح الغيب» (١١/ ٩٠): قول ابن عباس من واد، وهذا من واد؛ فإنَّ نور حبر الأمة من وادي طور سينا، وهذا من وادٍ يهيم فيه ابن سينا. يعني: كلام حبر الأمة من مشكاة الوحي الإلهي، وهذا الكلام متأثر بكلام الفيلسوف ابن سينا في كتابه «الإشارات»، كما أفاد الخفاجي.

وإضافَتُه إليهِمَا للدَّلالَةِ على سعَةِ إشراقِه، أو لاشتمالِهما على الأنوارِ الحِسِّيَّةِ والعَقليَّةِ وقصورِ الإدراكاتِ البَشريَّةِ عليهِما وعلى المتعلِّقِ بهما والمدلولِ لَهُما(١).

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: صِفةُ نورِهِ العَجيبةُ الشَّأنِ، وإضافَتُه إلى ضَميرِه سبحانَه دَليلٌ على أنَّ إطلاقَهُ عليه لم يَكُن على ظاهرِهِ.

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: كصِفَةِ مِشكاةٍ، وهي الكُوَّةُ الغيرُ النَّافذةِ. وقرأَ الكسائيُّ بروايةِ الدُّوريِّ بالإمالةِ(٢).

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: سراجٌ ضَخمٌ ثاقِبٌ.

وقيلَ: «المشكاةُ»: الأُنبوبَةُ في وسطِ القِنديلِ، و«المصباحُ»: الفَتِيلَةُ المُشتَعِلَةُ.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾: في قنديلٍ مِن الزَّجاجِ ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾: مُضيءٌ مُتلألئٌ كالزُّهَرَةِ في صَفائِه وزهرَتِه(٣)، مَنسوبٌ إلى «الدُّرِّ»، أو فُعِّيلٌ كـ«مُرِّيقٍ» مِن «الدَّرءِ»؛ فإنَّه يدفعُ الظَّلامَ بضَوئِهِ، أو بعضُ(٤) ضوئِه بعضًا مِن لَمَعانِه، إلَّا أنَّه قُلِبَت همزَتُه ياءً، ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ وأبي بكرٍ على

---

(١) أي: إضافة نور الربِّ سبحانه إلى السماء والأرض في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ـ مع أنه بجميع معانيه التي سبق ذكرها نور لجميع الموجودات ـ ليس للتخصيص، وإنما للدلالة على سعة إشراقه، أو لقصور البشر عن إدراك غير الأنوار الحسية والعقلية المتعلقة بهما.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٥).

(٣) قوله: «زهرته» بفتح الزاي مع سكون الهاء: بهجته وحسنه، وبضمها؛ أي: بياضه وحسنه. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٣٦٥).

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «أو بعض ضوئه» معطوف على فاعل «يدفع» المستتر؛ أي: أو يدفع بعضُ ضوئه بعضًا.

الأصلِ[١]، وقـراءةُ أبي عَمرٍو والكِسـائيِّ: ﴿دِرِّيءٌ﴾ كـ«شِـرِّيبٍ»[٢]، وقـد قُرِئَ به مَقلوبًـا[٣].

﴿تَوَقَّدَ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ﴾؛ أي: ابتداءُ ثُقوبِ[٤] المصباحِ مِن شَجرةِ الزَّيتونِ المُتكاثرِ نَفعُهُ بأَنْ رُوِيَت ذُبالَتُه بزَيْتِها.

وفي إبهامِ الشَّجَرَةِ ووَصفِهَا بالبركةِ ثمَّ إبدالِ الزَّيتونةِ عنها تَفخيمٌ لشأنِها.

وقـرأَ نافِـعٌ وابنُ عامـرٍ وحفصٌ باليـاءِ والبنـاءِ للمَفعـولِ مِن «أُوقِـد»، وحمزةُ والكِسـائيُّ وأبـو بكـرٍ بالتَّاءِ كذلك على إسـنادِهِ إلـى الزُّجاجةِ بحـذفِ المضافِ[٥].

وقُرِئَ: «تَوَقَّدُ»[٦]، بمعنى: تَتوقَّد.

و«يَوَقَّد» بحذفِ التَّاءِ لاجتماعِ زِيادَتَينِ، وهو غريبٌ[٧].

---

(١) أي: ﴿دُرِّيءٌ﴾.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٥)، و«التيسير» (ص: ١٦٢).

(٣) أي: بكسر الدال، وقلب همزته ياء. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية ابن التمجيد» مع «حاشية القونوي» (١٣/ ٣٦٦). رواها المفضَّل عن عاصم، وهي قراءة عبد الله بن عمرو والزهري. انظر: «زاد المسير» (٣/ ٢٩٦).

وقالَ الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٢٠٢): «أي: قلْبًا مكانيًا بأن قُدِّمَت الهمزةُ ساكنةً على الراء، وهي قراءة غريبة». وقال القونوي: قد أغرب من قال هذا.

(٤) الثقوب: الإضاءة والاتقاد.

(٥) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿تَوَقَّدَ﴾ بالتاء مفتوحة وفتح الواو والدال والقاف مشددًا على أنه فعلٌ ماضٍ من التوقُّد وهو التلهُّب، والفعل للمصباح. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٢).

(٦) هي رواية عن عاصم كما في «السبعة» (ص: ٤٥٦). وذكرها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٣) عن السلمي ومجاهد والحسن وجماعة والمفضل عن عاصم.

(٧) انظر: «المحتسب» (٢/ ١١٠)، و«البحر» (١٦/ ٨٨). قال أبو حيان: هو شاذ جدًّا. =

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقَعُ الشَّمسُ عليها حينًا دونَ حينٍ، بل بحيثُ تقَعُ عليها طولَ النَّهارِ كالَّتي تكونُ على قُلَّةٍ[1] أو صحراءَ واسِعَةٍ، فإنَّ ثمرتَها تكونُ أنضجَ وزيتَها أَصْفَى.

أو: لا نابتةٍ في شرقِ المَعمورةِ وغربِها، بل في وسطِها وهوَ الشَّامُ، فإنَّ زيتونَه أجوَدُ الزَّيتونِ.

أو: لا في مَضحَى تُشرِقُ الشَّمسُ عليها دائمًا فتُحرِقُها، أو في مَقْنَأَةٍ[2] تغيبُ عَنْها دائِمًا[3] فتتركُها نِيْئًا، وفي الحديثِ: «لا خيرَ في شجرةٍ ولا نَباتٍ في مَقنأَةٍ، ولا خيرَ فيهِما في مَضْحَى»[4].

= وقالَ ابن جني: وهذا مشكل، وذلك أن أصله: (يتوقد)، فحُذف التاء لاجتماع حرفين زائدين في أول الفعل، وهما الياء والتاء المحذوفة، والعرفُ في هذا أنه إنما تحذف التاء إذا كان حرفُ المضارعة قبلها تاء، نحو (تَفَكَّرُون) و﴿تَذَكَّرُونَ﴾، والأصل: تتفكرون وتتذكرون؛ فيكره اجتماع المثلين زائدين، فيحذف الثاني منهما طلبًا للخفة بذلك. وليس في (يتوقد) مثلان فيحذفَ أحدهما، لكنَّهُ شبَّه حرفَ مضارعةٍ بحرف مضارعة، أعني: شبه الياء في (يتوقد) بالتاء الأولى في (تتوقد) إذ كانا زائدين، كما شبهت التاء والنون في (تَعِد) و(نَعِد) بالياء في (يَعِد)، فحذفت الواو معهما كما حذفت مع الياء في (يعد).

(١) القُلَّةُ: رأس كل شيء. انظر: «العين» (٥/ ٢٥).

(٢) المقنأة: المكان الذي لا تطلع عليه الشمس.

(٣) في نسخة الفاروقي: «دائبًا».

(٤) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/ ٤٤٧): غريب جدًّا، وقالَ الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١١٩): لم أجده. قلت: هو قول لبعض العرب في «تصحيفات المحدثين» للعسكري (١/ ٢٥ـ٢٦).

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾؛ أي: يكادُ يُضيءُ بنفسِه مِن غيرِ نارٍ: لتَلأْلُئِه وفَرْطِ وَبيصِه(١).

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نورٌ مُتَضاعِفٌ، فإنَّ نُورَ المِصباحِ زادَ في إنارَتِه صفاءُ الزَّيتِ وزهرَةُ القنديلِ(٢) وضبطُ المِشكاةِ لأشعَّتِه.

وقد ذُكِرَ في مَعنى التَّمثيلِ وُجوهٌ:

الأوَّلُ(٣): أنَّه تَمثيلٌ للهُدَى الَّذي دلَّ عليه الآياتُ البيِّنَاتُ في جلاءِ مَدلولِها وظهورِ ما تضمَّنَهُ مِن الهُدى بالمشكاةِ المنعوتةِ.

أو: تَشبيهٌ للهُدى مِن حيثُ إنَّه محفوفٌ بظلماتِ أَوهامِ النَّاسِ وخيالاتِهم بالمصباحِ، وإنَّما وَلِيَ الكافَ المشكاةُ لاشتِمالِها عليه(٤)، وتَشبيهُه به أوفَقُ مِن تَشبيهِهِ بالشَّمسِ.

أو: تمثيلٌ لِمَا نَوَّرَ اللهُ بِهِ قلبَ المؤمنِ مِن المعارفِ والعُلومِ بنُورِ المِشكاةِ المُنبَثِّ فيها مِن مِصباحِها(٥).

---

(١) الوَبِيصُ: البريقُ. انظر: «غريب الحديث» للقاسم بن سلام (٤/ ٣٣٣).

(٢) زهرَةُ القنديلِ: حُسنُه أو بياضُه.

(٣) قوله: «الأول» الأولى حذفُه؛ لأنَّه لم يذكر مقابِلَه بلفظ الثاني، والثالث، والرابع، والخامس. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٠٣).

(٤) قوله: «وإنما ولي الكاف المشكاة»؛ أي: لا المصباحَ «لاشتمالها عليه»؛ أي: على المصباحِ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٠٣).

(٥) هذا الوجه رجحه الطيبي على غيره، واستدلَّ له بما روي عن كعب أنه قال: إنه مثل ضربه الله لنبيه ﷺ؛ فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح ما فيه من الحكم، وعن الحسن وابن زيد: أنَّ الشجرة المباركة شجرة الوحي ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ تكاد حجة القرآن تتضح وإن لم يقرأ. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (١١/ ٩٤ ـ ٩٦). وانظر خبر كعب في «تفسير الثعلبي» (١٩/ ٢٦٥)، وفيه: =

ويؤيِّده قراءةُ أُبَيٍّ: «مثلُ نورِ المُؤمنِ»[١].

أو: تمثيلُ ما منحَ اللهُ[٢] عِبادَهُ مِن القُوَى الدَّرَّاكةِ الخمسِ المترتِّبَةِ الَّتي ينوطُ بها المعاشَ والمعادَ، وهي: الحسَّاسَةُ الَّتي تُدرِكُ المَحسوساتِ بالحَواسِّ الخَمسِ، والخَياليَّةُ الَّتي تحفَظُ صُورَ تلك المَحسوساتِ لتَعْرِضَها على القُوَّةِ العَقليَّةِ متَى شاءَتْ، والعقليَّةُ[٣] الَّتي تُدرِكُ الحَقائقَ الكُلِّيَّةَ، والمُفكِّرَةُ وهي الَّتي تؤلِّفُ المعقولاتِ لتَستَنْتِجَ مِنْها عِلمَ ما لم تَعلَمْ، والقُوَّةُ القُدسِيَّةُ الَّتي تتجَلَّى فيها لوائِحُ الغَيبِ وأسرارُ المَلكوتِ المُختصَّةُ بالأنبياءِ والأولياءِ المَعنيَّةُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]= بالأشياءِ الخمسَةِ المذكورةِ في الآيةِ، وهي: «المشكاةُ» و«الزُّجاجَةُ» و«المِصباحُ» و«الشَّجرةُ» و«الزيتُ»:

فإن الحساسَّةَ كالمشكاةِ لأنَّ محلَّها كالكُوَى[٤]، ووَجهُهَا إلى الظَّاهِرِ لا تُدرِكُ ما وَراءَهَا، وإضاءَتُها بالمَعقولاتِ لا بالذَّاتِ.

= المصباح نور النبوة، وخبر الحسن وابن زيد فيه أيضًا (١٩/ ٢٦٩).
وقد روى الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٠٢) نحو خبر كعب عن أبي بن كعب، لكنه قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ قال: مثل المؤمن قد جعل الإيمان والقرآن في صدره كمشكاة، قال: المشكاة: صدره، ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ قال: والمصباح القرآن والإيمان الذي جعل في صدره، ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ قال: والزجاجة: قلبه...

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٨٣)، و«البحر» (١٦/ ٨٤). وهذه القراءة رواها عن أبيٍّ: أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣٠٧)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٩٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٩٤).

(٢) بعدها في نسخة الفاروقي والتفتازاني والطبلاوي: «به».

(٣) في نسخة الطبلاوي: «والعلمية»، وفي نسخة التفتازاني زيادة: «العاقلة».

(٤) قوله: «فإن الحساسَّةَ كالمشكاةِ لأنَّ محلَّها كالكُوَى» هكذا جاء في نسخنا الخطية، لكن وقع في غيرها اختلاف كثير في النسخ بيَّنه الشهاب في «الحاشية» فقال: قوله: «فإنّ الحاسة» في نسخة =

والخَياليَّةَ كالزُّجاجةِ في قَبولِ صُوَرِ المُدرَكَاتِ مِن الجَوانِبِ وضَبطِها للأنوار العَقليَّةِ وإنارَتِها بما تَشتَمِلُ عليها مِن المعقولاتِ.

والعَاقِلَةَ كالمِصبَاحِ لإضاءَتِها بالإدراكاتِ الكُلِّيَّةِ والمَعارفِ الإلهيَّةِ.

والمُفَكِّرَةَ كالشَّجرَةِ المباركَةِ لتَأدِّيها [١] إلى ثمراتٍ لا نِهايَةَ لها، والزَّيتونَةِ المُثمِرَةِ بالزَّيتِ [٢] الَّذي هو مادَّةُ المصابيحِ الَّتي لا تكونُ شَرقيَّةً ولا غَربيَّةً؛ لتَجرُّدِها عن اللَّواحقِ الجِسميَّةِ، أو لوُقوعِها بينَ الصُّوَرِ والمَعاني مُتصرِّفَةً في القَبِيلَيْنِ مُنتفعَةً مِن الجانِبَينِ.

والقُوَّةَ القدسيَّةَ كالزَّيتِ، فإنَّها لصَفائِها وشدَّةِ ذَكائِها تكادُ تُضِيءُ بالمعارفِ مِن غيرِ تَفكُّرٍ ولا تَعليمٍ [٣].

أو: تمثيلٌ للقُوَّةِ العَقليَّةِ في مراتِبِها [٤] بذلك؛ فإنَّها في بَدءِ أَمرِهَا خَالِيَةٌ عَن

= بدله: «الحساسة»، وقوله: «لأنَّ محالها الكوى» في نسخة: «كالكوى»... و«محالها»: جمع محل، وفي نسخة: «محلها»، وضمير «محالها» و«وجهها» للحاسة، والمراد: بيان وجه السبب لتجويفها وتوجهها لظاهر البيت لا لِمَا خَلْفَه لتوجُّهها للحواسِّ الظاهرة وكونها في مقدم الدماغ.

(١) في نسخة التفتازاني والخيالي: «بالشجرة المباركة لتأديتها». والمثبت من نسخة الفاروقي وهو أوفق مما في النسخ الأخرى كما قال الشهاب في «الحاشية» (٦/ ٣٨٤)، وقوله الآتي: «والزيتونة» معطوف على «الشجرة» كما ذَكَر.

(٢) في نسخة الفاروقي: «للزيت».

(٣) نقل الطيبي كلام المصنف في بيان وجوه التمثيل، وقال عن هذا الأخير: إنه مبنيٌّ على أصول الحكماء، والمقام ينبو عنه. انظر: «فتوح الغيب» (١١/ ٩٢ ـ ٩٤). قلت: وما بعده مثله، كما لا يخفى.

(٤) ذكر ابن التمجيد في «حاشيته» (١٣/ ٣٧٩): أن مراتب القوة العقلية هي: العقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل المستفاد، والعقل بالفعل. وانظر بيان هذه المراتب في: «التعريفات» للجرجاني (ص: ١٥٢)، وانظر: «معيار العلم في فن المنطق» للغزالي (ص:٢٨٧ ـ ٢٨٨)، و«العناية شرح الهداية» للبابرتي (٧/ ٣٧٢).

العُلومِ مُستَعِدَّةٌ لقَبُولِها كالمِشكاةِ، ثمَّ تَنتَقِشُ بالعُلومِ الضَّروريَّةِ بتَوسُّطِ إحساسِ الجُزئيَّاتِ بحيثُ تَتمكَّنُ مِن تَحصيلِ النَّظَريَّاتِ فتَصيرُ كالزُّجاجَةِ مُتلألِئَةً في نَفسِها قابِلةً للأنوارِ، وذلك التَّمكُّنُ إنْ كانَ بفكرٍ واجتِهادٍ فكالشَّجرَةِ الزَّيتونَةِ، وإن كانَ بالحَدْسِ فكالزَّيتِ، وإن كانَ بقُوَّةٍ قُدسِيَّةٍ فكالتي يَكادُ زَيتُها يُضيءُ؛ لأنَّها تَكادُ تعلَمُ ولو لم تَتَّصِل بملَكِ الوَحيِ والإلهامِ الَّذي مَثَلُه النَّارُ مِن حيثُ إنَّ العُقولَ تَشتَعِلُ عَنْها، ثمَّ إذا حَصَلَتْ لها العُلومُ بحيثُ تَتمكَّنُ مِن استحضارِهَا مَتى شاءَتْ كانَ كالمِصباحِ، فإذا استحضَرَها كانَ نُورًا على نُورٍ.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾؛ أي: لهذا النُّورِ الثَّاقبِ ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ فإنَّ الأسبابَ دونَ مَشيئَتِه لاغيةٌ إذ بها تَمامُها.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ إدناءً للمَعقولِ مِن المَحسوسِ تَوْضِيحًا وبَيانًا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ مَعقولًا كانَ أَوْ مَحسوسًا، ظاهِرًا كانَ أَوْ خَفِيًّا، وفيه وَعدٌ ووَعيدٌ لِمَن تَدبَّرَها ولِمَن لَمْ يَكْتَرِث بها[١].

(٣٦) ـ ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ مُتعلِّقٌ بما قبلَه؛ أي: كمِشكاةٍ في بعضِ بيوتِ الله، والمرادُ: المسجدُ.

أو: توقَدُ في بيوتٍ[٢]، فيكونُ تقييدًا للمُمثَّلِ به بما يكونُ لخيرٍ[٣]، أو مُبالغةً فيه؛ فإنَّ قناديلَ المساجدِ تكونُ أعظمَ، أو تمثيلًا لصلاةِ[٤] المُؤمنينَ أو أبدانِهم بالمساجدِ.

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: الاكتراث: الاعتناء. وأفاد أنَّ في العبارة لفًّا ونشرًا مرتبًا؛ أي: وعدٌ لمن تدبَّرها، ووعيدٌ لمن لم يكترث بها.

(٢) بعدها في نسخة التفتازاني لفظ الجلالة: «الله».

(٣) أي: قيَّد النور السابق الموصوف بتلك الصفات بأنه معدٌّ للخير، وهو الطاعة والعبادة، فيكون أشد مناسبة للممثَّل به وهو الهداية. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٣٨٤).

(٤) في نسخة الفاروقي: «لصدور».

ولا يُنافي جمعُ البُيوتِ وحدةَ المشكاةِ؛ إذ المرادُ بها ما له هذا الوَصفُ بلا اعتبارِ وِحدةٍ ولا كَثرةٍ.

أو بما بعدَهُ[1] وهو ﴿يُسَبِّحُ﴾، و﴿فيها﴾ تَكريرٌ مُؤكِّدٌ، لا بـ﴿يُذكَرَ﴾؛ لأنَّه مِن صِلَةِ ﴿أَن﴾ فلا يعملُ فيما قبلَه.

أو بمَحذوفٍ[2] مثلِ: سَبِّحُوا فـي بيوتٍ، والمرادُ بها[3]: المساجِدُ؛ لأنَّ الصِّفَةَ تُلائِمُها.

وقيلَ: المساجِدُ الثَّلاثَةُ[4]، والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ.

﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ بالبناءِ أو التَّعظيمِ[5] ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ عامٌّ فيما يَتضمَّنُ ذكرَه حتَّى المذاكرةَ في أفعالِه والمباحثةَ في أحكامِه.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ يُنزِّهونَـهُ، أو يُصَلُّـونَ لـه فيهـا بالغَـدَواتِ والعَشِـيَّاتِ[6]، و«الغُدُوُّ»: مَصـدَرٌ أُطلِقَ للوَقتِ، ولذلك حَسُـنَ اقترانُه بـ«الآصالِ» وهو جمـعُ أَصيـلٍ[7].

---

(١) أي: أو ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلِّق بما بعدَه.

(٢) أي: أو ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلِّق بمحذوف.

(٣) أي: بالبيوت، وهذا جار على الاعتبارات السابقة كلِّها، وهو لمخالفة قول عكرمة الذي رواه الطبري (١٧/ ٣١٧) بأنَّ المراد في الآية البيوت كلُّها.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠٤) عن ابن بريدة. وعلى هذا القول تكون البيوت معرفة، يكون تنكيرها للتعظيم.

(٥) فالرفع حسِّيٌّ على الأول، معنويٌّ على الثاني. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٣٨٦).

(٦) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «والعشايا».

(٧) في نسخة الفاروقي والخيالي: «أُصُل»، وفي نسخة التفتازاني: «جمع أُصُل جمع أصيل». والمثبت من نسخة الطبلاوي، وهذه الثلاثة قد قيل بكل منها: ففي «الكشاف» (٦/ ٧٩): والآصَالُ: جَمعُ =

وقُرِئَ «والإيصالِ»[1]، وهو الدُّخولُ في الأصيلِ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ: ﴿يُسبَّحُ﴾ بالفَتحِ على إسنادِهِ إلى أحدِ الظُّروفِ الثَّلاثَةِ ورفعِ ﴿رِجَالٌ﴾[2] بما يَدُلُّ عليه، وقُرِئَ بالتَّاءِ مَكسورًا[3] لتأنيثِ الجَمعِ، ومفتوحًا[4] على إسنادِه إلى أوقاتِ الغُدوِّ.

(٣٧) ـ ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾: لا تَشغَلُهُم معاملةٌ رابِحَةٌ ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مُبالغَةٌ بالتَّعميمِ بعدَ التَّخصيصِ إنْ أُريدَ بهِ مُطلَقُ المعاوَضَةِ، أو بإفرادِ ما هو أهمُّ مِن قِسمَي التِّجارَةِ، فإنَّ الرِّبحَ يَتحقَّقُ بالبَيعِ ويُتوقَّعُ بالشِّراءِ.

وقيلَ: المرادُ بالتِّجارَةِ الشِّراءُ؛ فإنَّه أَصلُها ومَبدَؤُها.

وقيلَ: الجَلَبُ[5] لأنَّه الغالِبُ فيها، ومنه يُقالُ: «تَجَرَ في كذا» إذا جَلَبَه[6].

= أُصُلٍ ـ على وزن «عُنُقٍ» كما قال الشهاب في «الحاشية» ـ. وفي «الصحاح» (مادة: أصل): والأَصيلُ: الوقت بعد العصر إلى المغرب، وجمعه: أُصُلٌ وآصال.

وقالَ العكبري في «التبيان» (ص: ٦١٠): والآصال: جمعُ الجمع؛ لأن الواحد أَصيلٌ، وفَعِيلٌ لا يُجمع على أفعالٍ، بل على فُعُلٍ، ثُم فُعُلٌ على أَفعالٍ.

(١) قرأ بها أبو مجلز وسعيد بن جبير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٤)، و«المحتسب» (٢/ ١١٣).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٢).

(٣) أي: (تُسبِّحُ) بكسر الباء. انظر «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٤) عن أبي حيوة. والفاعل: ﴿رِجَالٌ﴾ والتأنيث للجمع.

(٤) انظر «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٤) عن أبي جعفر، والمشهور عنه: ﴿يُسَبِّحُ﴾ مثل الأكثر.

(٥) أي: جلب الأمتعة من بلد إلى بلد، وبه يحصل الاكتفاء عن ذكر الشراء. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٣٩١).

(٦) حاصل ذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى ذكر البيع بعد التجارة، وهما متلازمان عادة؛ فبيَّن مسوِّغ ذلك =

وفيه إيماءٌ بأنَّهم تُجَّارٌ[١].

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عَوَّضَ فيه الإضافةَ مِن التَّاءِ المُعوَّضَةِ عَن العينِ السَّاقطَةِ بالإعلالِ[٢]؛ كقولِه:

وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الأَمْرِ الذِي وَعَدُوا[٣]

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ما يجبُ إخراجُهُ مِن المالِ للمُسْتَحِقِّينَ.

= من وجوه، بنى أوَّلها على أن المراد بالتجارة المعاملة الرابحة، وبالبيع مطلق البيع لربح أو لسداد دين أو غير ذلك، فيكون من ذكر العام بعد الخاص، وهو يفيد المبالغة. وأما الوجوه الثلاثة التالية فالبيع فيه بمعناه، لكن المراد بالتجارة في الثاني البيع والشراء، وذكر البيع وحده بعده من ذكر الخاص بعد العام، وهو يفيد المبالغة، والمراد بالتجارة في الثالث الشراء، وفي الرابع الجلب.

(١) إنما اعتبره إيماء مع ظهوره؛ لاحتمال أن يكون المراد: لا يتاجرون ولا تلهيهم تجارة، بل هم ملازمون بيوت الله يذكرونه كأصحاب الصُّفَّة، ولاحتمال أن يكون المراد: لا يلهيهم شيء عن ذكر الله، وإنما ذُكرت التجارة كناية عن كلِّ ما يلهي. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٢٣٤)، و«حاشية القونوي» (١٣/ ٣٩١).

(٢) أصله: أقوام، فقُلبت الواو ألفًا ثم حذفت لاجتماع ألفين، وأُدخلت التاء عوضاً عن المحذوف، فصار: إقامة، ثمَّ حُذفت التاء وعُوِّض عنه بالإضافة، واشتراط الحذف بتعويض التاء أو الإضافة مذهب الفراء، وسيبويه لا يشترط التعويض بالإضافة. انظر: «شرح كتاب سيبويه» للسيرافي (٤/ ٤٥٨).

(٣) عجز بيت نسب للفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب في «العباب الزاخر» (مادة: خلط)، و«اللسان» (مادة: غلب)، و«المقاصد النحوية» (٤/ ٢٠٩٦)، وعزاه السمين في «الدر المصون» (٦/ ٥٧) لزهير، وصدره:

إنَّ الخَليطَ أَجَدُّوا البينَ فانجَرَدُوا

وهو بلا نسبة في «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٤)، و«تفسير الطبري» (١٧/ ٣٢٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٩٧)، و«الخصائص» لابن جني (٣/ ١٧١).

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ مع ما هُـمْ عـليهِ مِـن الذِّكـرِ والطَّـاعَةِ ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾: تَضطَرِبُ وتَتغيَّرُ مِن الهَوْلِ، أو: تَنقَلِبُ أَحْوَالُهَا فتفقَهُ القُلوبُ مَا لم تكُن تَفقَهُهُ، وتُبصِرُ الأَبصَارُ ما لَمْ تَكُن تُبْصِرُ، أو: تَتقَلَّبُ القُلُوبُ مِن تَوَقُّعِ النَّجاةِ وخوفِ الهَلاكِ، والأَبصارُ مِن أيِّ ناحِيَةٍ يُؤخَذُ بهم ويُؤتى كِتابُهم.

(٣٨) ـ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يُسَبِّحُ﴾ أو ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ أو ﴿يَخَافُونَ﴾.

﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾: أَحسَنَ جَزاءِ ما عَمِلُوا الموعودِ لَهُم من الجنَّةِ.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أشياءَ لم يَعِدْهُم بها على أَعمالِهم ولم تَخْطُر ببالِهِم.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقريرٌ للزِّيادَةِ، وتَنبيهٌ على كَمالِ القُدرَةِ، ونَفاذِ المَشيئَةِ، وسَعةِ الإحسانِ.

(٣٩) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾: والذينَ كَفَرُوا حالُهم على ضِدِّ ذلك؛ فإنَّ أَعمَالَهُم الَّتي يَحسبونَها صالحَةً نافعَةً عندَ اللهِ يَجِدُونَها لاغِيَةً مُخيِّبَةً في العاقبةِ كالسَّرابِ، وهو ما يُرَى في الفَلاةِ مِن لَمَعانِ الشَّمسِ عليها وقتَ الظَّهيرَةِ فيُظَنُّ أَنَّه ماءٌ يَسْرُبُ؛ أي: يَجْرِي.

و«القِيعَـةُ» بمَعنـى، القَـاعِ، وهـو الأرضُ المُسـتَوِيَةُ، وقيـلَ: جمعُـهُ؛ كـ«جـارٍ» و«جِيـرَةٍ»(١).

وقُرِئَ «بِقِيعَاتٍ»(٢) كـ«دِيمَاتٍ» في دِيمَةٍ.

---

(١) الأول قـول أبـي عبيـدة، والثاني قول الفـراء. انظر: «معاني القـرآن» للفـراء (٢/ ٢٥٤)، وللنحاس (٤/ ٥٤٠).

(٢) قرأ بها مسلمة بن محارب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٤)، و«المحتسب» (٢/ ١١٣).

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾؛ أي: العَطشانُ، وتَخصيصُهُ لتَشبيهِ الكافرِ بهِ في شِدَّةِ الخَيبةِ عندَ مَسيسِ الحاجَةِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾: جاءَ ما تَوَهَّمَه ماءً، أو مَوضِعَه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ ممَّا ظَنَّه[1] ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾: عقابَه، أو: زَبانيتَهُ، أو وجدَهُ محاسبًا إيَّاه ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ استعراضًا أو مُجازاةً.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يَشغَلُه حسابٌ عَن حِسابٍ.

رُوِيَ: أنَّها نَزَلَت في عُتبةَ بنِ رَبيعةَ بنِ أُميَّةَ، تعبَّدَ في الجاهليَّةِ ولَبِسَ المُسوحَ والتمسَ الدِّينَ، فلَمَّا جاءَ الإسلامُ كَفَرَ[2].

(٤٠) ـ ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطفٌ على ﴿كَسَرَابٍ﴾.

و«أو» للتَّخييرِ؛ فإنَّ أعمالَهُم لكَونِها لاغيَةً لا منفعةَ لها كالسَّرابِ، ولكَونِها خاليَةً عَن نورِ الحَقِّ كالظُّلماتِ المُتراكِمَةِ مِن لُجِّ البَحْرِ والأَمواجِ والسَّحابِ.

أو للتَّنويعِ؛ فإنَّ أَعْمالَهُم إنْ كانَتْ حَسَنَةً فكالسَّرابِ، وإن كانَتْ قَبيحَةً فكالظُّلماتِ.

أو للتَّقسيمِ باعتِبارِ وَقتَيْنِ؛ فإنَّها كالظُّلماتِ في الدُّنيَا، والسَّرابِ[3] في الآخرَةِ.

﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾: عميقٍ مَنسوبٍ إلى «اللُّجِّ»، وهو مُعظَمُ الماءِ ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يَغشى البحرَ ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾؛ أي: أَمواجٌ مُترادِفَةٌ مُتراكِمَةٌ ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: فسره به إشارة إلى أنّ «الحسبان» بمعنى الظن، وهو المشهور، وإن فرَّق بينهما الراغب بأن الظن أن يخطر النقيضين بباله ويغلب أحدهما على الآخر، والحسبان أن يحكم بأحدهما من غير أن يخطر الآخر بباله.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٩٢)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٥٣)، عن مقاتل. وهو في «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٠٢) إلَّا أن فيه: (شيبة) بدل (عتبة).

(٣) في نسخة التفتازاني: «وكالسراب».

مِـن فوقِ المـوجِ الثَّانـي ﴿سَحَابٌ﴾ غَطَّى النُّجـومَ وحَجَـبَ أَنوارَهَا، والجُملَـةُ صِفَةٌ أُخـرى للبَحرِ[١].

﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾؛ أي: هذه ظُلماتٌ[٢] ﴿بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ بالجرِّ على إبدالِها مِن الأُولى، وبإضافَةِ السَّحابِ إليها في روايةِ البزِّيِّ[٣].

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾ وهـيَ أَقـرَبُ مـا يُـرَى إليـه ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾: لـم يَقْـرَبْ أَنْ يراهَـا فَضْـلًا أَنْ يَراهـا[٤]؛ كقولِـه:

إِذَا غَيَّـرَ النَّـأْيُ[٥] المُحِبِّـينَ لَـمْ يَكَـدْ رَسِيسُ الهَـوَى مِنْ حُـبِّ مَيَّـةَ يَبْرَحُ[٦]

---

(١) الصفة الأولى ﴿لُّجِّيّٖ﴾، والثانية: ﴿يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾.

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «هذه ظلمات» يشير إلى أنه خبر مبتدأ مقدَّر.

(٣) قرأ قنبل: ﴿سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ﴾، وقرأ البزي: ﴿سحابُ ظُلُماتٍ﴾، والباقون بالرفع والتنوين فيهما. انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٢).

(٤) هذا قول الشيخ عبد القاهر الجرجاني فيها، وله في تأملها كلام جميل. انظر: «دلائل الإعجاز» للجرجاني (ص: ٢٧٤) وما بعدها، وقال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: نفي «كاد» أبلغ من نفي الفعل الداخلة عليه؛ لأنَّ نفي مقاربته يدلُّ على نفيه بطريق برهاني.

(٥) في نسخة الخيالي: «الهجر».

(٦) البيـت لـذي الرمـة، وهو فـي «ديوانه بشـرح الباهلـي» (٢/ ١١٩٢)، ويـروى: إذا غيَّـر اليأس، و: إذا غيَّـر الهجر. انظـر: «أخبار القضاة» لكيـع الضبي (٣/ ٩٢)، و«حماسـة الخالديين» (ص:٨١)، و«شـرح المفصـل» لابـن يعيـش (٤/ ٣٨٣). والرسـيس: الثابـت. وفي «أخبـار القضـاة» «إعراب القـراءات السـبع وعللها» لابن خالويه (ص:٢٦) أنَّ ابن شُـبرمة سـمع البيت مـن ذي الرمة، فقال: يـا ذا الرمـة أُراه قـد بـرح. ففكَّـر سـاعة، ثـم قـال: لم أجد رسـيس الهـوى. وقيـل: أخطـأ ذو الرمة حيـن رجع.

والضَّمائِرُ[1] للوَاقعِ في البَحرِ ـ وإنْ لم يَجرِ ذِكرُه ـ لدَلالَةِ المَعنى عليه.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾: ومَن لَمْ يُقَدِّر لَهُ الهِدايةَ ولَمْ يُوَفِّقْهُ لأَسبابِها ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ خلافَ الموفَّقِ الَّذي له نورٌ على نُورٍ.

(٤١) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أَلَمْ تَعلَم عِلْمًا يشبهُ المشاهدةَ في اليَقينِ والوَثاقةِ بالوَحْيِ أو الاستدلالِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: يُنزِّهُ ذاتَه عَن كلِّ نَقصٍ وآفةٍ أهلُ السَّماواتِ والأَرضِ، و﴿مَن﴾ لتَغليبِ العُقَلاءِ، أو الملائكةُ والثَّقلانِ= بما يَدُلُّ عليه مِن مقالٍ أو دَلالةِ حالٍ[2].

﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ على الأوَّلِ تخصيصٌ لِمَا فيهَا مِن الصُّنعِ الظَّاهرِ والدَّليلِ البَاهرِ، ولذلك قيَّدَها بقولِه: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، فإنَّ إعطاءَ الأَجرامِ الثَّقيلَةِ ما بِهِ تَقْوَى على الوُقوفِ في الجوِّ صافَّةً باسِطَةً أجنِحَتَها بما فيها مِن القَبضِ والبَسْطِ حُجَّةٌ قاطِعَةٌ على كمالِ قُدرَةِ الصَّانعِ ولطفِ تَدبيرِه.

﴿كُلٌّ﴾: كلُّ واحدٍ ممَّا ذُكِرَ، أو: مِن الطَّيرِ ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾؛ أي: قد عَلِمَ اللهُ دُعاءَه وتَنزيهَهُ اختيارًا أو طبعًا؛ لقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

أو: عَلِمَ كُلٌّ[3]، على تشبيهِ حالِه في الدَّلالةِ على الحَقِّ والميلِ إلى النَّفعِ على وجهٍ يَخُصُّه بحالِ مَن عَلِمَ ذلك، مع أنَّه لا يَبعدُ أن يُلْهِمَ اللهُ الطَّيرَ دعاءً وتَسبيحًا كما أَلهمَها علومًا دَقيقَةً في أسبابِ تَعَيُّشِها لا يكادُ يَهتَدِي إليها العُقَلاءُ.

---

(١) في قوله: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾.

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «الملائكةُ والثقلان» معطوف على «أهلُ»، وقوله: «بما يدل...» متعلق بـ«ينزه»، وهو ناظر إلى الوجه الأوَّل، وسكت عن الثاني لظهوره وعلمه منه، وضمير «عليه» للتنزيه المعلوم من الفعل «ينزه».

(٣) فالفاعل على هذا الوجه ضمير مستتر تقديره «هو» يعود على مذكور وهو ﴿كُلٌّ﴾، وعلى الأول ضمير مستتر يعود على المولى سبحانه وتعالى.

(٤٢) ـ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإنَّه الخَالِقُ لَهُما ولِمَا فيهِمَا مِن الذَّواتِ والصِّفَاتِ والأفعالِ مِن حَيثُ إنَّها مُمكِنَةٌ واجِبَةُ الانتهاءِ إلى الواجبِ، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ مَرجِعُ الجَميعِ.

(٤٣) ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ﴾: يسوقُ، ومنه: البِضاعَةُ المُزجاةُ، فإنَّها يُزجِيها(١) كلُّ أحدٍ.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ بأَنْ يكونَ قَزَعًا(٢) فيَضمَّ بعضَهُ إلى بعضٍ، وبهذا الاعتبارِ صحَّ ﴿بَيْنَهُۥ﴾ إذ المعنى: بينَ أجزائِه. وقرأَ نافعٌ بروايةِ ورشٍ: ﴿يُوَلِّفُ﴾ غيرَ مهموزٍ(٣).

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ﴾: متراكمًا بعضُه فوقَ بَعضٍ ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ ﴾: المطرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾: مِن فُتوقِه، جمع خَلَلٍ؛ كـ«جبالٍ» في جَبلٍ. وقُرِئَ: «مِن خَلَلِه»(٤).

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: مِن الغمامِ، وكُلُّ ما علاكَ فهُوَ سَماءٌ.

﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا ﴾: مِن قطعٍ عظامٍ تشبهُ الجبالَ في عظمِها أو جمودِها.

﴿مِنۢ بَرَدٍ ﴾ بيانٌ للجبالِ، والمفعولُ محذوفٌ؛ أي: ينزلُ مُبتَدئًا مِن السَّماءِ مِن جبالٍ فيها مِن بردٍ بَرَدًا، ويجوزُ أن تكونَ ﴿مِنْ﴾ الثَّانيةُ أو الثَّالثةُ للتَّبعيضِ واقعةً مَوقِعَ المفعولِ(٥).

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «يزجيها كل أحد» بتشديد الجيم وتخفيفها؛ أي: يدفعها لرغبته عنها، أو يقدر على سوقها وإيصالها.

(٢) بفتح القاف والزاي؛ أي: قطعًا.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٧).

(٤) رواها يحيى بن سلام في «تفسيره» (٢/ ٦٦٥)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٣٦) عن الضحاك بن مزاحم، وذكرها الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٢٩٦)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ١٩٠) عن ابن عباس والضحاك، وذكرها الهذلي في «الكامل» (ص: ٦٠٩) عن معاذ العنبري عن أبي عمرو، والزَّعفراني.

(٥) وهو مختار الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ٨٧).

وقيلَ: المرادُ بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: المُظِلَّةُ، وفيها جِبالٌ مِن بَرَدٍ كما في الأرضِ جِبالٌ مِن حَجَرٍ، وليسَ في العَقلِ قاطِعٌ يمنَعُه[١]، والمشهورُ[٢] أنَّ الأَبخِرَةَ إذا تَصاعدَتْ ولم تُحلِّلْها حَرارَةٌ فبلغَت الطَّبَقَةَ الباردَةَ مِن الهَواءِ وقَوِيَ البَرْدُ هناك اجتمعَ وصارَ سَحابًا، فإن لم يَشتَدَّ البَردُ تقاطرَ مَطَرًا، وإن اشتَدَّ فإن وصلَ إلى الأَجزاءِ البُخارِيَّةِ قبلَ اجتماعِها نَزَلَ ثَلْجًا وإلَّا نَزَلَ بَرَدًا، وقد يبرُدُ الهواءُ بردًا مُفرِطًا فيَنقَبِضُ ويَنعَقِدُ سَحابًا وينزلُ منه المَطرُ أو الثَّلجُ، وكلُّ ذلك لا بُدَّ وأَنْ يَستَنِدَ إلى إرادةِ الواجبِ الحكيمِ؛ لقيامِ الدَّليلِ على أنَّها المُوجِبَةُ لاختصاصِ الحوادثِ بمَحالِّها وأوقاتِها، وإليه أشارَ بقولِه:

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ والضَّميرُ للبَرَدِ ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾: ضُوءُ برقِه. وقُرِئَ بالمدِّ بمَعنى: العُلُوِّ[٣]، وبإدغامِ الدَّالِ في السِّينِ[٤]، و: «بُرَقِه»

---

(١) هذا مقابل لقوله: «﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: مِن الغمامِ» الذي قدَّمه ورجَّحه، وهذا مذكور عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أخبر الله تعالى أن في السَّماء جبالًا من برد. قال الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٢٤): وهذا القول هو الذي عليه التفسير، وأهل العربية. وقال الشريف المرتضى في «أماليه» (٢/ ٣٠٤): وجدت جميع المفسِّرين على اختلاف عباراتهم يذهبون إلى أنَّه أراد أنَّ في السماء جبالًا من برد. وانظر: «تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٤٥٥)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٦)، وللزجاج (٤/ ٤٩)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٦١٨).

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «والمشهور»؛ أي: بين أهل الحكمة.

قلت: نقل الشهرستاني نحوًا من كلام البيضاوي عن ابن سينا. انظر: «الملل والنحل» (٣/ ٥٨ ـ ٥٩)، وذكر القشيري قريبًا منه في «لطائف الإشارات» (٢/ ٦١٧).

(٣) نسبت لطلحة بن مصرف. انظر: «المحتسب» (٢/ ١١٤)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٩)، و«البحر» (١٦/ ١١١).

(٤) وهي قراءة أبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ٢٤).

بضمِّ الباءِ وفتحِ الرَّاءِ[١]، وهو جَمعُ بُرْقَةٍ، وهي المِقدارُ مِن البَرْقِ كـ«الغُرْفَةِ»، وبضَمِّها للإِتْبَاعِ[٢].

﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾: بأبصارِ النَّاظرينَ إليه من فَرْطِ الإضاءةِ، وذلك أقوَى دليلٍ على كمالِ القُدرَةِ مِن حَيثُ إنَّه تَوليدُ الضِّدِّ مِن الضِّدِّ[٣].

وقُرِئَ: ﴿يُذْهِبُ﴾ على زيادةِ الباءِ[٤].

(٤٤) ـ ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ بالمُعاقبَةِ بينَهُما، أو بنقصِ أحدِهِما وزيادةِ الآخرِ، أو بتَغييرِ أحوالِهِما بالحَرِّ والبَردِ والظُّلمَةِ والنُّورِ، أو بما يَعُمُّ ذلك.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾: فيما تقدَّمَ ذِكرُه ﴿لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾: لدَلالَةً[٥] على وُجودِ الصَّانعِ القَديمِ، وكَمالِ قُدرَتِه، وإحاطَةِ عِلمِه، ونَفاذِ مَشيئَتِه، وتَنزُّهِهِ عن الحاجَةِ وما يُفضِي إليها= لِمَن يرجعُ إلى بصيرةٍ[٦].

---

(١) وهي قراءة طلحة بن مصرف. انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٥٤٥)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ١٩٠)، و«البحر» (١٦/ ١١١).

(٢) أي: بضم الراء إتباعًا لضمة الباء. نسبت أيضًا لطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٤)، و«الكامل» للهذلي (ص: ٦٠٩)، و«البحر» (١٦/ ١١١).

(٣) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: أي: البرق الذي هو نار أو منير من السحاب الذي هو ماء منعقد، أو ظلمة من نور، أو ذهاب البصر من النور الذي به الأبصار. والوجه الأول هو الذي ذكره شيخ زاده والقونوي انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٢٤٠)، و«حاشية القونوي» (١٣/ ٤١٤).

(٤) هي قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٢).

(٥) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «لدلالته».

(٦) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: فيه إشارة إلى أنّ البصر هنا بمعنى البصيرة... وقيل: إنه ليس في القرآن جناس تام غير هذه الآية، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.
قلت: وممن ذهب إلى أن ﴿الْأَبْصَارِ﴾ في مثل هذا بمعنى البصائر مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٢٠٤) =

(٤٥) ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾: حيوانٍ يَدِبُّ على الأرضِ، وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿خالِقُ كلِّ دابَّةٍ﴾ بالإضافةِ[١].

﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو جزءُ مادَّتِه[٢]، أو ماءٍ مَخصوصٍ هو النُّطفَةُ، فيكونُ تنزيلًا للغالِبِ مَنزلَةَ الكُلِّ، إذ مِن الحيواناتِ ما يتولَّدُ لا عَن النُّطفةِ.

وقيلَ: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿دَآبَّةٍ﴾، وليسَ صِلَةً لـ﴿خَلَقَ﴾.

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيَّةِ، وإنَّما سُمِّيَ الزَّحفُ مَشْيًا على الاستعارَةِ للمُشاكلَةِ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسِ والطَّيرِ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالنَّعمِ والوَحشِ، ويَندرِجُ فيه ما لَهُ أكثَرُ مِن أربعٍ كالعناكبِ، فإنَّ اعتمادَها إذا مَشَتْ على أربعٍ.

وتذكيرُ الضَّميرِ[٣] لتَغليبِ العُقَلاءِ، والتَّعبيرُ بـ﴿مَن﴾ عَن الأصنافِ ليُوافِقَ التَّفصيلُ الجُملَةَ[٤]،..

= والحسن والكلبي في «أمالي المرتضى» (٢/ ٣٠٨) والسمعاني في «تفسيره» (١/ ٢٩٩) والكرماني في «لباب التفاسير» والراغب في «تفسيره» (٢/ ٤٤٨).

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٧)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(٢) قال الدسوقي في «حاشيته على مختصر المعاني» (١/ ٥٨١): ما قاله مبنى على مذهب الحكماء من تركيب كل حيوان من العناصر الأربعة وهى الماء والنار والهواء والتراب، وقال القونوي: وهذا ضعيف عند المتكلمين. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٤١٥).

(٣) أي: في «منهم». قال ابن هشام في «المغني» (ص: ٩٠١): لأجل الاختلاط أطلقت «مَن» على ما لا يعقل في نحو: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾.

(٤) يعني: لمَّا كانت هذه الأمور المفصلة عين ما أُجمل بلفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾ كان الأنسب أن يُعبَّر عنها كلِّها بلفظ واحد، وهو ﴿مَّن﴾، ولا يعبر عن بعضها بـ«ما» وبعضها الآخر بـ«مَن». انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٤١٩).

والتَّرتيبُ لتَقديمِ ما هو أعرَقُ[١] في القُدرَةِ[٢].

﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ممَّا ذكرَ وممَّا لم يُذكَر، بَسيطًا ومُركَّبًا على اختلافِ الصُّوَرِ والأَعضاءِ والهَيئاتِ والحَركاتِ والطَّبائعِ والقُوَى والأَفعالِ مع اتِّحادِ العُنصُرِ بمُقتَضى مَشيئَتِه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فيفعَلُ ما يَشاءُ.

(٤٦) ـ ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ للحقائقِ بأَنواعِ الدَّلائلِ ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ بالتَّوفيقِ للنَّظرِ فيها والتَّدبُّرِ لِمَعانيها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هو دينُ الإسلامِ المُوصِلُ إلى دَرْكِ الحَقِّ والفَوْزِ بالجنَّةِ.

(٤٧) ـ ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ نَزَلَت في بشرٍ المُنافِقِ خاصمَ يَهودِيًّا، فدَعاه إلى كَعبِ بنِ الأشرَفِ، وهو يدعوهُ إلى النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ[٣].

وقيلَ: في مُغيرَةَ بنِ وائلٍ؛ خاصمَ عَلِيًّا في أَرْضٍ، فأَبَى أَنْ يُحاكِمَهُ إلى الرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ[٤].

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «أعرف». وعليها شرح الخفاجي، وذكر أنها في نسخ: «أغرب» وفي نسخ: «أعرق».

(٢) فإن الحركة بغير آلة والمشي على البطن صعب مستغرب أكثر من المشي على رجلين، وهو أصعب من المشي على أربع. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٤١٩).

(٣) أي: دعا بشر اليهوديَّ إلى كعب، ودعاه اليهوديُّ إلى النبيِّ ﷺ. انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٠٥)، وعن مقاتل ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٥١٩)، والواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٣٢)، ودون عزو في «تفسير الثعلبي» (١٩/ ٣٠٠)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٢٧).

ورواه الطبري في «تفسيره» (٧/ ١٩٣ ـ ١٩٤) عن مجاهد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [النساء: ٦٠]، وكذا رواه الواحديُّ في أسباب النزول (ص: ١٦١)، عن قتادة والشعبي، وعن ابن عباس من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه.

(٤) ذكره دون عزو الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ١١٥)، والكرماني في «لباب التفاسير»، =

﴿وَأَطَعْنَا﴾؛ أي: وأطَعْنَا لهما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ بالامتناعِ عن قَبُولِ حُكمِه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعدَ قولِهم هذا ﴿وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى القَائلينَ بأَسرِهِم، فيكونُ إعلامًا مِن اللهِ بأَنَّ جميعَهُم وإنْ آمَنُوا بلِسانِهِم لم تُؤمِن قُلوبُهُم، أو: إلى الفَريقِ مِنْهُم، وسلبُ الإيمانِ عَنْهُم لتَوَلِّيهِم.

والتَّعريفُ فيهِ[1] للدَّلالَةِ على أَنَّهُم ليسُوا بالمؤمنينَ الَّذينَ عرَفْتَهُم، وهُم المُخلِصونَ في الإيمانِ، أو الثَّابِتونَ[2] عليه.

(٤٨) ـ ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: ليَحْكُمَ النَّبِيُّ؛ فإنَّه[3] الحاكِمُ ظاهِرًا والمدعوُّ إليه، وذكرُ اللهِ لتَعظيمِه والدَّلالَةِ على أَنَّ حُكمَهُ في الحقيقَةِ حكمُ اللهِ.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾: فاجأَ فريقٌ مِنْهُم الإعراضَ إذا كانَ الحقُّ عليهِم لعِلْمِهِم بأَنَّه لا يحكُمُ[4] لهم، وهو شَرحٌ للتَّولِّي ومُبالَغَةٌ فيه.

= والقرطبي في «تفسيره» (١٥/ ٣١٥)، وعزاه الجرجاني في «درج الدرر» (٢/ ٣٧٢)، والرازي في «تفسيره» (٢٤/ ٤١٠) للضحاك.

وأورد الخبر أيضًا بعض المتأخرين من المفسرين كابن عادل والنيسابوري والخطيب الشربيني وأبي السعود والآلوسي وابن عاشور وغيرهم، لكني لم أقف للمغيرة بن وائل هذا على ذكر في شيء من كتب السيرة والتاريخ والتراجم، ولم يعرف به أحد ممن أورد الخبر من المفسرين، سوى قول ابن عاشور عند ذكره لهذا الخبر: وقيل: إن أحد المنافقين اسمُه المغيرةُ بنُ وائلٍ من الأوسِ من بني أُميَّةَ بن زيدٍ الأوسيِّ تَخاصَم مع عليٍّ بن أبي طالبٍ في أرضٍ....

(١) أي: في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٢) في نسخة التفتازاني: «والثَّابتون».

(٣) في نسخة التفتازاني: «لأنه»، وفي نسخة الطبلاوي: «وأنه».

(٤) في نسخة التفتازاني والخيالي والطبلاوي: «بأنك لا تحكم».

(٤٩) ـ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ﴾ ـ أي: الحكمُ ـ لا عَلَيْهِم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾: مُنقادِينَ؛ لعِلْمِهِم بأنَّه يُحْكَم لهم. و«إلى» صِلَةٌ لـ﴿يَأْتُوا﴾، أو لـ﴿مُذْعِنِينَ﴾ وتقديمُه للاختصاصِ.

(٥٠) ـ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: كفرٌ، أو مَيْلٌ إلى الظُّلمِ، ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ بأَنْ رَأَوْا مِنكَ تُهمةً فزالَت ثِقَتُهُم ويَقِينُهُم بك، ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الحُكومَةِ؟

﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إضرابٌ عَن القِسمَيْنِ الأَخيرَيْنِ لتَحقيقِ القسمِ الأوَّلِ.

ووجهُ التَّقسيمِ: أنَّ امتِناعَهُم: إمَّا لخَللٍ فيهِم أو في الحاكمِ، والثَّاني: إمَّا أن يكونَ مُحقَّقًا عِندَهُم أو مُتوقَّعًا، وكلاهُمَا باطلٌ؛ لأنَّ مَنصِبَ نُبُوَّتِه وفَرْطَ أمانَتِه يمنَعُه، فتعيَّنَ الأوَّلُ.

وظُلْمُهُم يَعُمُّ خللَ عَقيدتِهم وميلَ نُفوسِهِم إلى الحَيفِ، والفصلُ[1] لنَفْيِ ذلك عَن غَيرِهِم سيَّمَا المدعوُّ إلى حُكمِهِ.

(٥١) ـ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ على عادتِه تعالى في إِتْبَاعِ ذكرِ المُحِقِّ المُبطِلَ، والتَّنبيهِ على ما يَنبَغِي بعدَ إنكارِه لِمَا لا يَنبَغِي.

وقُرِئَ: «قولُ» بالرَّفعِ[2]، و: ﴿لِيُحْكَمَ﴾[3] على البناءِ للمَفعولِ، وإسنادُه إلى ضَميرِ مَصدَرِه على مَعنى: ليُفعَلَ الحُكْمُ.

---

(١) أي: الضمير ﴿هُمُ﴾.

(٢) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شوذ القراءات» (ص: ١٠٤)، و«المحتسب» (٢/ ١١٥).

(٣) هي قراءة أبي جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٢٧).

(٥٢) ـ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيمَا يَأمُرَانِه، أو في الفرائضِ والسُّنَنِ ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ على ما صدرَ عَنْه مِن الذُّنوبِ ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ فيما بَقِيَ مِن عُمرِه.

وقرأ يَعقوبُ وقالونُ عَن نافعٍ بلا ياءٍ، وأبو عمرٍو وأبو بكرٍ بسُكونِ الهاءِ، وحفصٌ بسُكونِ القافِ[١]، فشُبِّهَ «تَقِهْ» بـ«كَتِف» وخُفِّف.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ بالنَّعيمِ المُقيمِ.

(٥٣) ـ ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ إنكارًا للامتناعِ عَن حُكمِه ﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ﴾ بالخُروجِ عَن دِيارِهِم وأَموالِهِم ﴿لَيَخۡرُجُنَّ﴾ جوابٌ لـ﴿أقسموا﴾ على الحكايَةِ.

﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْ﴾ علـى الكذبِ ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾؛ أي: المطلوبُ مِنْكُم طاعَةٌ معروفَةٌ لا اليَمينُ الكاذبةُ[٢] والطَّاعةُ النِّفاقِيَّةُ المُنكرَةُ، أو: طاعَةٌ مَعروفَةٌ أمثَلُ مِنْها[٣]، أو: لِتكُن طاعَةٌ[٤].

---

(١) قرأ قالون عن نافع: ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ بكسر القاف والهاء من غير إشباع، وهو أحد وجهي هشام عن ابن عامر، وبه قرأ يعقوب وأبو جعفر بخلف.

وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، وخلاد ـ بخلاف عنه ـ عن حمزة: ﴿ويَتَّقِهْ﴾ بكسر القاف وسكون الهاء. وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ بسكون القاف وكسر الهاء غير مشبعة.

وقرأ ورش عن نافع، وابنُ كثير، وابنُ ذكوان عن ابن عامر، وخلفٌ عن حمزة، وهو الوجه الآخر عن خلاد وعن هشام بكسر القاف وكسر الهاء مشبعةً بحيث يتولد ياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٦٢ ـ ١٦٣)، و«النشر» (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦).

(٢) «الكاذبة» من نسخة الخيالي.

(٣) في نسخة التفتازاني: «مثل فيها».

(٤) فهو على الأول خبرٌ مبتدأ محذوف، وعلى الثاني مبتدأٌ محذوفُ الخبر، وعلى الثالث مرفوع بفعل مقدَّر. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ١٠٠)، و«الدر المصون» للحلبي (٨/ ٤٣٢).

وقُرِئَتْ بالنَّصبِ[1] على: أَطِيعُوا طاعَةً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تَخْفَى عليه سَرائِرُكُم.

(٥٤) - ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أمرٌ بتَبليغِ ما خاطبَهُم اللهُ بهِ على الحِكايَةِ مُبالغَةً في تَبكيتِهِم[2] ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ على مُحمَّدٍ ﴿مَا حُمِّلَ﴾ مِن التَّبليغِ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ مِن الامتِثالِ، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ في حُكمِه ﴿تَهْتَدُواْ﴾ إلى الحقِّ.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾: التَّبليغُ الموضِحُ لِمَا كُلِّفْتُم به، وقَدْ أَدَّى، وإنَّما بَقِيَ ما حُمِّلْتُم؛ فإِنْ أَدَّيْتُم فلكُم، وإِنْ تَولَّيْتُم فعلَيْكُم.

(٥٥) - ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خطابٌ للرَّسولِ عليه السَّلامُ والأمَّةِ، أو له ولِمَن معه، و«مِن» للبَيانِ.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: لَيَجعَلَنَّهُم خُلفاءَ مُتصرِّفِينَ في الأَرضِ تَصرُّفَ المُلوكِ في مَمالِكِهِم[3]، وهو جوابُ قَسَمٍ مُضمَرٍ تَقديرُه: وعَدَهُم اللهُ وأقسَمَ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم، أو الوعدُ في تَحقُّقِه مُنزَّلٌ منزلةَ القَسمِ[4].

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: بني إسرائيلَ، استَخْلَفَهُم في مِصرَ

---

(١) انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٤) عن اليزيدي.

(٢) قال في «الكشاف» (٦/ ٩٥): صُرِفَ الكلامُ عن الغَيبة إلى الخطاب على طريقةِ الالتِفاتِ وهو أبلغُ في تبكيتِهم.

(٣) في نسخة الخيالي: «مماليكهم».

(٤) وقد ذهب الفراء إلى جواز تلقي «وعد» بالقسم مطلقًا، فقال: العِدَة قول يصلح فيها «أنْ» وجواب اليمين، فتقول: وعدتك أن آتيك، ووعدتك لآتينَّكَ. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٢٥٨).

والشَّامِ بعدَ الجبابرةِ[١]. وقرأَ أبو بكرٍ بضمِّ التَّاءِ وكسرِ اللَّامِ، وإذا ابْتَدأَ ضمَّ الألفَ، والباقونَ بفتحِهِما، وإذا ابتدؤوا كسروا الألفَ[٢].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلامُ بالتَّقويَةِ والتَّثبيتِ ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ مِن الأَعداءِ. وقرأَ أبو بكرٍ وابنُ كثيرٍ بالتَّخفيفِ[٣].

﴿أَمْنًا﴾ مِنهم[٤]، وكانَ رسولُ اللهِ وأَصحابُه مَكَثُوا بمكَّةَ عشرَ سِنينَ خائفينَ، ثمَّ هاجَرُوا إلى المدينَةِ فكانُوا يُصبِحُونَ في السِّلاحِ ويُمسونَ فيه، حتَّى أَنْجَزَ اللهُ وعدَهُ فأظهرَهُم على العَربِ كُلِّهِم، وفتحَ لهم بلادَ الشَّرقِ والغَرْبِ، وفيه دَليلٌ على صِحَّةِ النُّبوَّةِ للإخبارِ عَن الغَيبِ على ما هو بِهِ، وخلافةِ[٥] الخُلَفاءِ الرَّاشدينَ؛ إِذْ لم يَجتَمِع الموعودُ والمَوعودُ عليه لغيرِهِم بالإجماعِ[٦].

وقيلَ: الخَوْفُ مِن العَذابِ، والأمنُ منه في الآخرةِ.

﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حالٌ مِن ﴿الَّذِينَ﴾ لتَقييدِ الوَعدِ بالثَّباتِ على التَّوحيدِ، أو استئنافٌ ببَيانِ المُقتَضِي للاستخلافِ والأَمنِ.

﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ حالٌ مِن الواوِ؛ أي: يَعبدونَني غيرَ مُشركينَ.

---

(١) قال ابن عطية: استخلفوا في مصر في زمن داود وسليمان. وقال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قيل: واستخلافهم بمصر وتملكهم لها مخالف لما في التواريخ. انظر: «المحرر الوجيز» (٢/ ٤٤٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

(٤) الضمير يعود على «الأعداء».

(٥) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «خلافةِ الخلفاء الراشدين» معطوف على «صحة» أو «النبوّة»، والمآلُ واحد، وهو ردٌّ على الرافضة والشيعة.

(٦) قوله: «إذ لم يجتمع الموعود»؛ أي: وهو استخلافُهم وما عُطِفَ عليه، «والموعود عليه»؛ أي: وهو العملُ الصالحُ «لغيرهم»؛ أي: لغيرِ الخلفاءِ الراشدين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢١٦).

﴿وَمَن كَفَرَ﴾: ومَن ارتَدَّ أو كفرَ هذه النِّعْمةَ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: بعدَ الوَعدِ، أو حصولِ الخِلافَةِ.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾: الكامِلُونَ في فِسْقِهِم حيثُ ارتَدُّوا بعدَ وُضوحِ مثلِ هذه الآياتِ، أو كفَرُوا بتلكَ النِّعمَةِ العَظِيمَةِ.

(٥٦) ـ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في سائرِ ما أمرَكُم بهِ، ولا يَبعدُ عَطْفُ ذلك على ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ [النور: ٥٤]؛ فإنَّ الفاصِلَ وعدٌ على المأمورِ بهِ، فيكونُ تكريرُ الأَمرِ بطاعَةِ الرَّسولِ للتَّأكيدِ، وتَعليقِ الرَّحمةِ بها أو بالمندَرِجَةِ هي فيه بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كما عُلِّقَ به الهُدَى[1].

(٥٧) ـ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾: ولا تحسبَنَّ يا محمَّدُ الكُفَّارَ مُعجزينَ اللهَ عَن إدراكِهِم وإهلاكِهِم، و﴿فِي الْأَرْضِ﴾ صِلَةُ ﴿مُعْجِزِينَ﴾[2].

وقرأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ بالياءِ[3] على أنَّ الضَّميرَ فيه لمحمَّدٍ ﷺ، والمعنى كما هو في القراءةِ بالتَّاءِ، أو ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فاعلٌ، والمعنى: ولا يَحسبَنَّ الكُفَّارُ في الأرضِ أحَدًا مُعجِزًا للهِ، فيكونُ ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ مَفْعولَيْهِ، أو: لا يَحْسَبونَهُم

(١) قوله: «للتأكيد»؛ أي: لتأكيد وجوبِ الطاعةِ، «وتعليق الرحمة» بالجر عطف على (للتأكيدِ) «بها»؛ أي: بالطاعةِ، وهو متعلق بـ (الرحمةِ)، «أو بالمندرجة» عطف على (بها) «هي»؛ أي: الطاعةُ «فيه»؛ أي: في ﴿وَأَطِيعُوا﴾ «بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾» متعلق بـ (تعليق الرحمة) «كما علق به»؛ أي: بما ذُكِر من الطاعة أو المندرجةِ فيه «الهدى»؛ أي: في قوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢١٦).

(٢) وفائدة التقييد للتعميم؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٤٤٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٠٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

مُعجِزينَ، فحُذِفَ المَفعولُ الأوَّلُ؛ لأنَّ الفاعِلَ والمفعولَيْنِ لشَيءٍ واحِدٍ، فاكتُفِي بذكرِ اثنينِ عن الثَّالثِ[١].

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ عطفٌ عليه مِن حَيثُ المعنى؛ كأنَّه قيلَ: الَّذينَ كفَرُوا ليسوا بمُعجِزينَ ومَأواهُم النَّارُ؛ لأنَّ المَقصودَ مِن النَّهيِ عَن الحُسبانِ تَحقيقُ نَفْيِ الإعجازِ.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المَأْوَى الَّذي يصيرونَ إليه.

(٥٨) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ رجوعٌ إلى تَتِمَّةِ الأحكامِ السَّالفَةِ بعدَ الفَراغِ عن الإلهيَّاتِ الدَّالَّةِ على وُجوبِ الطَّاعةِ فيما سلفَ مِن الأحكامِ وغيرِه والوعدِ علَيْها والوَعيدِ على الإعراضِ عَنْها، والمرادُ بِهِ: خَطابُ الرِّجالِ والنِّساءِ غُلِّبَ فيه الرِّجالُ؛ لِمَا رُوِيَ أنَّ غُلامَ أسماءَ بنتِ أبي مرثدٍ[٢] دخلَ علَيْهَا في وقتٍ كرهَتْه، فنَزلَتْ[٣].

---

(١) ردَّه أبو حيان بأنه ليس من الضمائر التي يفسرها ما بعدها. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ١٢٦).

(٢) كلمة «أبي» ليست في نسخة الفاروقي.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١١٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٢٩)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٦٠)، وأبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٠٥)، جميعهم عن مقاتل. وصرح النسفي بأنه مقاتل بن حيان، وكذا رواه بنحوه عن مقاتل بنِ حيان ابنُ أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣٣). لكنَّهُ ورد أيضًا في «تفسير مقاتل بن سليمان» (٣/ ٢٠٧)، ولعله مروي عن كليهما، فقد جاء في «البسيط» للواحدي (١٦/ ٣٥٢): وقالَ المقاتلان... فذكره.

ووقع في اسم صاحبة القصة اختلاف في المصادر؛ فجاء الاسم عند الثعلبي والواحدي في «أسباب النزول» والبغوي وابن الجوزي: أسماء بنت مرثد، ومثله في «الإصابة» (٨/ ١٨) لكن لم يذكر لها هذا الحديث.

وفي «تفسير مقاتل»: أسماء بنت أبي مُرْشِدٍ.

وقيلَ: أرسلَ رسولُ اللهِ ﷺ مُدْلجَ بنَ عَمرٍو الأنصارِيَّ ـ وكانَ غُلامًا ـ وقتَ الظَّهيرَةِ ليَدْعُوَ عُمَرَ، فدخلَ وهو نائمٌ وقد انكشفَ عَنه ثوبُه، فقالَ عُمَر: لودِدْتُ أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ نَهَى آباءَنا وأبناءَنا وخَدَمَنا أن لا يَدخُلوا هذه السَّاعاتِ علينا إلَّا بإذنٍ، ثمَّ انطلَقَ معَهُ إلى النَّبيِّ ﷺ فوجَدَه وقد أُنزِلَتْ عليه هذهِ الآيَةُ[1].

= وعند ابن أبي حاتم والنسفي والواحدي في «البسيط»: أسماء بنت مرشدة، وذكرها ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٣٣٥) وابن الأثير في «أسد الغابة» (٧/ ١٩) في الصحابيات، لكن لم يوردا لها هذا الحديث.

وعند البغوي في «تفسيره» (٦/ ٦٠)، والرازي في «تفسيره» (٢٤/ ٤١٦) كما هنا: أسماء بنت أبي مرثد ، قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: هي بالشين المعجمة أو الثاء المثلثة، قيل: وهو بفتح الميم فيهما.

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٥٢٢)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣١٤)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٢٩)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٦٠)، والرازي في «تفسيره» (٢٤/ ٤١٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٠٥)، عن ابن عباس رضي الله عنهما دون سند.

وذكره الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٣٥٢) عن الكلبي.

وهو من رواية السديّ الصغير، عن الكلبيّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس؛ رواه كذلك ابن منده كما في «الإصابة» (٦/ ٥٠). والسدي الصغير هو محمد بن مروان: كذاب، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

وقوله: «نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا» كذا تابع المصنفُ الزمخشريَّ في هذه العبارة، قال الطيبي: قيل: «لا» مزيدةٌ لتأكيد النهي؛ كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] حملهم على ذلك أن عدم الدخول لا يجوز أن يكون منهيًا، والمنهي الدخول، ومن ثم طرحها صاحب «المطلع» وقال: أن يدخلوا علينا. انظر: «الكشاف» (٦/ ١٠١)، و«فتوح الغيب» (١١/ ١٤٢).

ثم تمحَّل الطيبي في ذكر وجه لها بما لا طائل تحته، فقد وردت في أكثر المصادر بلا «لا» كما ذكرها صاحب «المطلع»، وفي باقيها بنحو ذلك، فلا ضرورة لأخذ كلام الزمخشري وكأنه منزل، فلعله سها بذكر «لا»، أو بوضع «نهى» موضع «أمر»، والله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾: والصبيانُ الَّذينَ لم يَبْلُغوا(١) الاحتلام مِن الأحرارِ، فعَبَّرَ عَن البُلوغِ بالاحتلامِ لأَنَّه أَقْوَى دلائِله.

﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ في اليَومِ واللَّيلَةِ؛ مَرَّةً ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لأنَّه وقتُ القِيامِ مِن المضاجعِ وطَرحِ ثِيابِ النَّومِ ولبسِ ثيابِ اليَقظَةِ، ومَحلُّهُ النَّصبُ بدلًا مِن ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، أو الرَّفعُ خبرًا لِمَحذوفٍ؛ أي: هِي مِن قبلِ.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾؛ أي: ثيابَكُم لليَقظَةِ للقَيلولَةِ(٢) ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بيانٌ للحينِ.

﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ لأنَّه وَقتُ التَّجرُّدِ عن اللِّباسِ والالتحافِ باللِّحافِ.

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾؛ أي: هيَ ثَلاثُ أوقاتٍ لكم يختلُّ فيها تَستُّرُكُم، ويجوزُ أَنْ يكونَ مُبتدأً وخبرُه ما بعدَهُ، وأَصلُ العَوْرَةِ الخَلَلُ، ومنها: أعوَرَ المَكانُ(٣)، ورَجُلٌ أعوَرُ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائِيُّ وأبو بَكرٍ بالنَّصبِ(٤) بَدلًا مِن ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾: بعد هذهِ الأَوقاتِ في تركِ الاستئذانِ.

وليسَ فيه ما يُنافي آيَةَ الاستئذانِ فينسَخَها؛ لأَنَّه في الصِّبيانِ ومماليكِ المدخولِ عليه، وتلكَ في الأحرارِ البالغينَ(٥).

---

(١) في نسخة الخيالي زيادة: «الاحتلام».

(٢) قوله: «لليقظة» أي: التي تلبس لليقظة، كما تقدم قريبًا من قوله: «ولبس ثياب اليقظة»، وقوله: «للقيلولة» متعلق بـ﴿تَضَعُونَ﴾؛ أي: حين تضعون ثيابكم التي تلبسونها حال اليقظة لأجل القيلولة. وفي نسخة: «للقيظة؛ أي: للقيلولة». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢١٨).

(٣) يقال: «أعوَرَ المكانُ فهو مُعوِرٌ» إذا خيف فيه القَطعُ والهلاكُ. انظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٤٠).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

(٥) دلت آية الاستئذان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ =

﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: هُمْ طَوَّافونَ، استئنافٌ ببيانِ العُذرِ المُرخِّصِ في تركِ الاستئذانِ، وهو المخالطَةُ وكثرةُ المُداخَلَةِ، وفيه دليلٌ على تَعليلِ الأحكامِ[1]، وكذا في الفرقِ بين الأوقاتِ الثَّلاثِ وغيرِها بأنَّها عَوراتٌ[2].

﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بعضُكُم طائِفٌ على بعضٍ، أو: يَطوفُ بعضُكُم على بَعضٍ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك التَّبيينِ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ أي: الأحكامَ، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالِكُم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يَشرعُ لكم.

(٥٩) ـ ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الَّذيـنَ بَلَغوا مِن قبلِهم في الأوقاتِ كلِّها.

واستَدَلَّ به مَن أوجَبَ استئذانَ العبدِ البالغِ على سيِّدتِه[3]، وجوابُه: أنَّ المرادَ بهم المعهودونَ الَّذينَ جُعلوا قسيمًا للمماليكِ، فلا يندرجونَ فيهم.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كرَّرَه تأكيدًا ومُبالغَةً في الأمرِ بالاستئذانِ.

(٦٠) ـ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: العجائزُ اللَّاتي قَعَدْنَ عـن الحيضِ والحَملِ ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾: لا يطمَعْنَ فيـه لكبرِهِنَّ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ

= على أن الاستئذان واجب في كلِّ حال، فلا يقال: صار ذلك منسوخًا في غير الأوقات الثلاث؛ لأنه لا منافاة بين أن يستأذن الأحرار البالغون في جميع الأحوال وبين أن لا يستأذن الأطفال ومماليك المخول عليهم إلا في هذه الأحوال الثلاث. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٢٥٣).

(١) قوله: «الأحكام»؛ أي: الأحكام الشرعية، وتعليل الأحكام يدلُّ على صحة القياس إذا اطلع على العلة، فهو ردٌّ على الظاهرية، والله أعلم.

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «وكذا»؛ أي: ما ذُكر دالٌّ على التعليل في الجملة.

(٣) انظر: «عجالة المحتاج إلى توجيه المنهاج» لابن الملقن (٣/ ١١٧٤).

﴿ثِيَابَهُنَّ﴾؛ أي: الثِّيابَ الظَّاهرةَ كالجِلبابِ، والفاءُ فيهِ لأنَّ اللَّامَ في ﴿القَواعِدُ﴾ بمعنى: اللَّاتي، أو لوَصفِها بها[(١)].

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾: غيرَ مُظهِراتٍ زينةً ممَّا أُمِرَ بإخفائِه في قولِه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، وأصلُ «التَّبرُّجِ»: التَّكلُّفُ في إظهارِ ما يَخْفَى، مِن قَولِهم: «سَفينَةٌ بارِجَةٌ» لا غِطَاءَ عليها[(٢)]، و«البَرَجُ»: سَعَةُ العينِ بحيثُ يُرَى بَياضُها مُحيطًا بسَوَادِهَا كُلِّهِ لا يَغيبُ مِنْهُ شَيءٌ، إلَّا أنَّه خُصَّ بكَشفِ المَرأَةِ زينَتَها ومَحاسِنَها للرِّجالِ.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ مِن الوَضعِ؛ لأنَّه بَعيدٌ[(٣)] مِن التُّهمَةِ.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَقالِهِنَّ للرِّجالِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بمَقصودِهِنَّ.

(٦١) ـ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ نَفْيٌ لِمَا كانُوا يَتحرَّجُونَ مِن مُؤاكلَةِ الأَصِحَّاءِ حَذرًا مِن استِقذارِهِم، أو أَكْلِهِم[(٤)] مِن بَيتِ مَن يدفَعُ إليهِم المفتاحَ، ويُبيحُ لَهُم التَّبسُّطَ فيه إذا خرجَ إلى الغَزْوِ وخَلَّفَهُم على المنازلِ؛ مَخافةَ أَنْ لا يكونَ ذلك مِن طيبَةِ قَلبٍ.

أو: مِن إجابَةِ[(٥)] مَن يَدعوهُمْ إلى بيوتِ آبائِهِم وأَولادِهِم وأَقارِبِهم فيُطعِمُونَهُم؛ كراهَةَ أَنْ يَكونُوا كَلًّا عليهِم.

---

(١) يعني: أن الفاء في خبر المبتدأ ـ وهو ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ ـ لتضمن المبتدأ ﴿القواعدُ﴾ معنى الشرط؛ لكون اللام فيه بمعنى الموصول، أو لكونه موصوفًا بالموصول، وهو ﴿ٱلَّتِى﴾. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٤٥٤).

(٢) في نسخة الخيالي: «لها».

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «أبعد».

(٤) قوله: «أو أكلهم» بالجر عطف على «مؤاكلة». انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٤٥٧). وفي نسخة الفاروقي: «وأكلهم»، وهو أيضًا معطوف على«مؤاكلة». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٥) قوله: «أو من إجابة» عطف أيضًا على «مؤاكلة» متعلق بـ«يتحرجون». انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٤٥٧).

وهـذا إنَّمـا يكونُ إذا عُلِمَ رِضـا صاحبِ البَيتِ بـإذْنٍ أو قَرِينَـةٍ، أو كانَ في أوَّلِ الإسـلامِ ثـمَّ نُسِـخَ بنَحـوِ قولِـه: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣](١).

وقيلَ: نفيٌ للحَرَجِ عَنْهُم في القُعودِ عَن الجهادِ، وهو لا يلائِمُ ما قبلَهُ وما بعدَهُ.

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ مِـن البُيوتِ الَّتي فيها أزواجُكُم وعِيالُكُم، فيدخلُ فيها بيوتُ الأَولادِ لأنَّ بيتَ الوَلَدِ كبَيتِه؛ لقولِه عليه السَّلامُ: «أنتَ ومالُكَ لأَبيكَ»(٢)، وقولِه: «إنَّ أطيبَ ما يأكُلُ المرءُ مِن كَسبِهِ، وإنَّ ولَدَهُ مِن كَسبِهِ»(٣).

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وهو ما يكونُ تحتَ أيديكُم وتَصرُّفِكُم مِن ضيعَةٍ أو ماشِيَةٍ وكالةً أو حِفظًا.

وقيلَ: بيوتُ المماليكِ.

---

(١) اختُلف في هذه الآية إن كانت من الناسخ أو المنسوخ، وفي المنسوخ منها، وانظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد (١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٧)، وللنحاس (ص:٥٩٦ ـ ٦٠٢).

(٢) رواه ابن ماجه في «سننه» (٢٢٩١) من حديث جابر رضي الله عنه، وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/ ٣٧): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط البخاري. ورواه الإمام أحمد (٦٩٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود في «سننه» (٣٥٢٨)، والترمذي في «سننه» (١٣٥٨)، وقال: هذا حديث حسن، ورواه النسائي في «سننه» (٤٤٥٢)، وابن ماجه في «سننه» (٢١٣٧)، والدارمي في «سننه» (٢٥٧٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٥٧٤٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٢٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢٢٩٥)، وصححه، ووافقه الذهبي في «التلخيص».

والمفاتِحُ: جمعُ مِفْتَحٍ، وهو ما يُفتَحُ به. وقُرِئَ: «مِفْتاحَهُ»[(١)].

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾: أو بيوتِ صَديقِكُم، فإنَّهُم أَرْضَى بالتَّبسُّطِ في أموالِهِم وأسَرُّ به، وهو يقَعُ على الواحدِ والجَمعِ كـ«الخَلِيطِ».

هذا كلُّه إنَّما يكونُ إذا عُلِمَ رِضَا صاحبِ البَيتِ بإذنٍ أو قَرينَةٍ، ولذلك خصَّصَ هؤلاءِ فإنَّه يُعتادُ التَّبسُّطُ بينَهُم، أو كانَ في أوَّلِ الإسلامِ فنُسِخَ، فلا احتِجاجَ للحَنفيَّةِ به على أَنْ لا قطعَ بسَرِقَةِ مالِ المحرَمِ[(٢)].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾: مُجتمعينَ أو مُتفرِّقينَ. نَزلَتْ في بَنِي لَيثِ بنِ عمرٍو مِن كِنانَةَ، كانُوا يَتحرَّجُونَ أَنْ يأكُلَ الرَّجُلُ وحدَهُ[(٣)].

أو في قومٍ مِن الأَنصارِ إذا نزَلَ بِهِم ضَيفٌ لا يأكلونَ إلَّا مَعَهُ[(٤)].

أو في قومٍ تَحرَّجُوا عَن الاجتماعِ على الطَّعامِ لاختلافِ الطِّباعِ[(٥)] في القَزازةِ والنُّهمَةِ[(٦)].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥)، و«المحتسب» (٢/ ١١٦)، عن قتادة.

(٢) انظر: «الأصل» للشيباني (٧/ ٤٤٥)، و«الإشراف على مذاهب العلماء» لابن المنذر (٧/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٣) رواه يحيى بن سلام في «تفسيره» (١/ ٤٦٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤٩)، من طريق سعيد بن جبير عن قتادة، وفيهما: «كنانة بن خزيمة» بدل: «ليث بن عمرو من كِنانَةَ».
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٧٠)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٧٦)، عن معمر عن قتادة، وفيه: وأحسب أنه ذكر أنهم من كنانة.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٣٧٧) عن أبي صالح وعكرمة.

(٥) في نسخة الفاروقي: «الناس»، وفي نسخة الطبلاوي: «الطعام».

(٦) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «القزازة»: كراهة المأكول والمشروب، يقال: «قززت الشيء» إذا عفته، وهو ضد النهمة، وهي اشتهاء الطعام والرغبة فيه، والمعنى: أنّ الناس يختلفون في كراهة الطعام ومحبته، فمن أحبه كره مشاركة الناس لشَرِهِهِ.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ مِن هذهِ البُيوتِ ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾: على أهلِها الَّذينَ هُمْ مِنكُم دِينًا وقَرابَةً ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: ثابتةً بأمرِهِ مَشروعَةً مِن لَدُنه، ويجوزُ أَنْ تكونَ صِلَةً للتَّحِيَّةِ فإنَّه طلبُ الحياةِ، وهيَ مِن عندِه، وانتصابُها بالمصدَرِ لأنَّها بمَعْنى التَّسليمِ.

﴿مُبَٰرَكَةً﴾ لأنَّها يُرْجَى بها زِيادَةُ الخيرِ والثَّوابِ ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيبُ بها نفسُ المُستمِعِ.

وعن أنسٍ: أنَّه عليه السَّلامُ قالَ: «مَتى لقيتَ أحدًا مِن أُمَّتي فسَلِّمْ عليهِ يَطُلْ عُمُرُكَ، وإذا دخلتَ بيتَكَ فسَلِّمْ عليهِم يَكْثُرْ خَيرُ بَيتِكَ، وصَلِّ صَلاةَ الضُّحَى فإنَّها صَلاةُ الأَبرارِ الأَوَّابينَ»[1].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ كرَّرَه ثالثًا لِمَزيدِ التَّأكيدِ، وتَفخيمِ الأحكامِ المختَتَمةِ بهِ[2]، وفَصَلَ[3] الأَوَّلَينِ[4]..............................

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٣٨٦)، والثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٤١ ـ ٣٤٢)، وحمزة السهمي الجرجاني في «تاريخ جرجان» (ص: ٤٥٣)، من طريق أبي نصر اليسع بن زيد بن سهل الزينبي، حدثنا سفيان بن عيينة عن حميد الطويل عن أنس به، قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤٥٢): واليسع هذا ذكره شيخنا الذهبي [كما في «ميزان الاعتدال» (٢/ ١٣٧)] فقال: اليسع بن سهل الزينبي عن ابن عيينة بخبر باطل، ولم أر لهم فيه كلاماً، وهو آخر من زعم أنه سمع من سفيان. وصحح السيوطي إسناده في «حاشيته» (٩/ ٣٩١).

(٢) التفخيم نشأ من التكرير، ويقويه التعبير بـلفظ «ذلك» الموضوع للبعد المكاني، فنُزِّل بعد المكانة منزلة البعد المكاني، والإشارة ـ وإن كانت للتبيين ـ فتفخيمه يستلزم تفخيم المبيَّن بطريق برهاني. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٤٦٨).

(٣) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «فصل» بتخفيف الصاد؛ أي: أورده في الفاصلة.

(٤) في نسخة الفاروقي: «الأولين»، وكتب تحتها: «بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾». قلت: هي =

بمـا هـو المقتضِـي لذلـك[١]، وهـذا بمَا هـو المقصـودُ منـه[٢]، فقـالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: الحـقَّ والخيـرَ فـي الأُمـورِ.

(٦٢) ـ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: الكامِلُونَ فـي الإيمانِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ مِن صَميمِ قُلوبِهِم ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كالجُمعةِ والأَعيادِ والحروبِ والمشاورَةِ في الأمورِ، ووَصفُ الأمرِ بالجَمعِ للمُبالغَةِ.

وقُرِئَ: «أَمرٍ جَميعٍ»[٣].

﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾؛ أي: يَستأذِنُوا رسـولَ اللهِ فيأذنَ لَهُم، واعتبارُه فـي كَمالِ الإيمانِ لأَنَّه كالمِصداقِ لصِحَّتِه والمميِّزِ للمُخْلِصِ فيه عن المُنافقِ؛ فإنَّ ديدنَهُ التَّسلُّلُ والفِرارُ، ولتَعظيمِ[٤] الجرمِ في الذَّهابِ عَن مجلسِ رَسولِ اللهِ ﷺ بغيرِ إذنِهِ، ولذلك أعادَهُ مؤكَّدًا على أسلوبٍ أبلغَ فقالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فإنَّه يفيدُ أنَّ المستأذِنَ مؤمِنٌ لا محالةَ، وأنَّ الذَّاهبَ بغيرِ إذنٍ[٥] ليسَ كذلك.

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾: ما يَعْرِضُ لَهُم مِن المهامِّ، وفيه أيضًا مُبالغَةٌ وتَضييقٌ للأَمرِ.

= الفاصلة التي تكررت في الآيتين (٥٨) و(٥٩)، وهي تدل على مقتضي الحكم.

(١) كتب تحتها في نسخة الفاروقي: «المقام».

(٢) أي: وأورد في فاصلة هذه الآية ما يدل على غاية هذا الحكم والقصد منه.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥) عن اليماني. وهو محمد بن السميفع.

(٤) الضمير في «اعتباره» للاستئذان، وضمير «لصحته» للإيمان، و«المميز» يجوز رفعه عطفاً على خبر «أنَّ» وجرّه عطفًا على «المصداق»، وضمير «ديدنه» للمنافق، وهو بمعنى: عادته. و«التَعظيمِ» عطف على «لأنه».

(٥) في نسخة الفاروقي: «عذر»، وفي نسخة الطبلاوي: «إذنه».

﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويضٌ للأمرِ إلى رأيِ الرَّسولِ عليهِ السَّلامُ، واستُدلَّ بهِ على أنَّ بعضَ الأَحكامِ مفوَّضةٌ إلى رأيِهِ، ومن منعَ ذلك قَيَّدَ المشيئةَ بأن تكونَ تابعةً لعلمِهِ بصدقِه، فكأنَّ المَعنى: فأذَنْ لِمَن علمتَ أنَّ لَهُ عُذرًا[1].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعدَ الإذنِ، فإنَّ الاستئذانَ ولَوْ لعُذْرٍ قُصورٌ؛ لأنَّه تَقديمٌ لأمرِ الدُّنيا على أمرِ الدِّينِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفَرَطَاتِ العبادِ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتَّيسيرِ عليهِمْ.

(٦٣) ـ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ لا تَقيسُوا دعاءَه إيَّاكُم على دُعاءِ بَعضِكُم بعضًا في جوازِ الإعراضِ والمُساهلةِ في الإجابةِ والرُّجوعِ بغيرِ إذنٍ؛ فإنَّ المُبادرةَ إلى إجابَتِه واجبةٌ، والمراجعةَ بغيرِ إذنِهِ محرَّمةٌ.

وقيلَ: لا تجعَلُوا نداءَهُ وتَسميتَه كنِداءِ بَعضِكُم بعضًا باسمِه، ورفعِ الصَّوتِ به، والنِّداءِ وراءَ الحُجرةِ، ولَكن بلقبِهِ المعظَّمِ مثل: يا نبيَّ اللهِ، ويا رسولَ اللهِ، معَ التَّوقيرِ والتَّواضُعِ وخفضِ الصَّوتِ.

أو: لا تجعَلُوا دُعاءَهُ عليكُم كدُعاءِ بَعضِكُم على بعضٍ فلا تُبالُوا بسخطِهِ؛ فإنَّ دُعاءَهُ موجبٌ.

أو: لا تجعَلُوا دعاءَه رَبَّه كدُعاءِ صَغيرِكُم كبيرَكُم يجيبُهُ مَرَّةً ويردُّه أُخرَى، فإنَّ دُعاءَهُ مُستجابٌ.

---

(١) قال الآلوسي في «تفسيره» (٩/ ٤١٣): هذه مسألة التفويض المختلف في جوازها بين الأصوليين، وهي: أن يُفوَّض الحكم إلى المجتهد، فيقال له: احكم بما شئت؛ فإنه صواب، فأجاز ذلك قوم، لكن اختلفوا؛ فقال موسى بن عمران بجواز ذلك مطلقًا للنبي وغيره من العلماء، وقال أبو علي الجبائي بجواز ذلك للنبي خاصة في أحد قوليه، وقد نقل عن الإمام الشافعي عليه الرحمة في «الرسالة» ما يدل على التردد بين الجواز والمنع، ومنع من ذلك الباقون. وانظر: «نهاية الوصول في دراية الأصول» للأرموي (٨/ ٤٠١٦)، و«الإبهاج في شرح المنهاج» للسبكي (٣/ ١٩٦).

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾: يَنسَلُّونَ قليلًا قليلًا مِن الجَماعَةِ، ونَظيرُ «تَسلَّلَ»: تَدرَّجَ وتدخَّلَ[١].

﴿لِوَاذًا﴾: ملاوذةً، بأنْ يَستَتِرَ بعضُهُم ببعضٍ حتَّى يخرجَ، أو يلوذَ بمَن يُؤذَنُ له فينطلقَ معَهُ كأنَّه تابعُه، وانتصابهُ على الحالِ[٢]. وقُرِئَ بالفَتحِ[٣].

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾: يُخالِفونَ أمرَهُ بتركِ مُقتضاهُ ويَذهبونَ سَمْتًا خلافَ سَمتِهِ، و«عن» لتَضمُّنِهِ مَعنى الإعراضِ.

أو: يَصُدُّونَ عَن أمرِهِ دونَ المُؤمنينَ، مِن «خالفَهُ عَن الأمرِ»: إذا صدَّ عنه دونَهُ، وحُذِفَ المفعولُ[٤] لأنَّ المقصودَ بيانُ المُخالِفِ والمخالَفِ عَنه.

والضَّميرُ للهِ؛ فإنَّ الأمرَ لَهُ في الحَقيقَةِ، أو للرَّسولِ؛ فإنَّه المَقصودُ بالذِّكرِ.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾: مِحنَةٌ في الدُّنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرةِ.

واستُدِلَّ بـه[٥] على أنَّ الأمرَ للوُجوبِ؛ فإنَّه يدلُّ على أنَّ تركَ مُقتضَى الأمرِ

---

(١) وجه التنظير: دلالة «تَفَعَّلَ» على مواصلة العمل في تأنٍ ومهلة. انظر: «حاشية القونوي» (١٣/ ٤٧٦).

(٢) وأجيز أيضًا أن يُعرب مفعولاً مطلقًا نئب عن المصدر؛ لأن معنى «يتسللون»: يلوذون. انظر: «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢/ ٩٧٩).

(٣) أي: «لَواذًا» بفتح اللام. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥) عن يزيد بن قطيب.

(٤) «أو يصدون عن أمره» عطف على (يخالفون أمره) «دون المؤمنين»؛ أي: فإنهم لا يصدُّونَ عنه، «مِن»؛ أي: مأخوذٌ ذلك من قولهم: «خالفه عن الأمر: إذا صد عنه دونه»؛ أي: مُجاوِزًا له «وحذف المفعول»؛ أي: مفعولُ ﴿يُخَالِفُونَ﴾ المعنيِّ به: يَصُدُّون، والتقدير: يخالفون المؤمنين. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٢٣).

(٥) أي: استدل بما ذكر في هذه الآية على أن الأمر المطلق للوجوب. انظر: «التقريب والإرشاد» للباقلاني (٢/ ٥٩)، و«العدة في أصول الفقه» للقاضي أبي يعلى (١/ ٢٣١).

مُقتضٍ لأحـدِ العَذابين، فإنَّ الأمرَ بالحَذرِ عنه يدلُّ على حُسنِهِ(١) المشروطِ بقيامِ المُقتَضِي له، وذلك يَستلزمُ الوُجوبَ.

(٦٤) ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ ـ أيُّهَـا المُكلَّفُـونَ ـ مِـن المُخالفَـةِ والمُوافقَـةِ، والنِّفـاقِ والإخـلاصِ، وإنَّمـا أَكَّـدَ عِلْمَـهُ بـ﴿قد﴾ لتأكيدِ الوَعيدِ.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾: يـومَ يرجـعُ المنافقونَ إليه للجَزاءِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ الخِطابُ أيضًا مَخصوصًا بهم على طَريقِ الالتِفاتِ(٢).

وقرأَ يعقوبُ بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيمِ(٣).

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ مِن سُوءِ الأَعمالِ بالتَّوبيخِ والمُجازاةِ عليه.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ لا يَخْفَى عليه خافِيَةٌ.

عـن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ النُّورِ أُعطِيَ مِن الأَجرِ عشرَ حَسَناتٍ بعَدَدِ كلِّ مُؤمِنٍ ومُؤمِنَةٍ فيمَا مَضى وفيمَا بَقِيَ»(٤).

***

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: أي: حُسن الحذر لأمر الله به.

(٢) أي: يجوز أن يكون الخطاب في ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ مخصوصًا بالمنافقين أيضًا كاختصاص الإخبار بصيغة الغيبة بهم في ﴿يوم يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾، على أن يكون هذا التفاتًا من الخطاب إلى الغيبة... انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٣/ ٤٨٢).

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٢٠٨).

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٩) من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٨٧٩)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٢٤) سورة النور مدنية وآياتها أربع وستون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝﴾

يقول تعالى هذه السورة أنزلناها، فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها ﴿وفرضناها﴾ قال مجاهد: أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود، وقال البخاري: ومن قرأ ﴿فرضناها﴾ يقول: فرضناها عليكم وعلى من بعدكم، ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ أي مفسرات واضحات ﴿لعلكم تذكرون﴾، ثم قال تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذي لم يتزوج، أو محصناً وهو الذي قد وطىء في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل، فأما إذا كان بكراً لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غرّب وإن شاء لم يغرب، وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً - يعني أجيراً - على هذا، فزنى بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى: الوليدة والغنم ردٌّ عليك، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام، واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها[1]. وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً، فأما إذا كان محصناً فإنه يرجم، كما روى الإمام مالك .

---

(١) أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني .

عن ابن عباس أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف»[1]. وفي رواية عنه: «ولولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت»[2]. وقال ابن عمر: نبئت عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مروان وفينا زيد فقال زيد بن ثابت: كنا نقرأ: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، قال مروان: ألا كتبتها في المصحف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك، قال، قلنا: فكيف؟ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: فذكر كذا وكذا الرجم، فقال: يا رسول الله اكتب لي آية الرجم، قال: «لا أستطيع الآن»، هذا أو نحو ذلك[3]. وهذه طرق كلها متعددة متعاضدة، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به والله أعلم. وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة لما زنت مع الأجير، ورجم رسول الله ﷺ (ماعزاً) و (الغامدية) ولم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم، ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله؛ وذهب الإمام أحمد إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنة، كما روى الإمام أحمد وأهل السنن عن عبادة بن الصامت قال، قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

وقوله تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ أي في حكم الله أي لا ترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك، قال مجاهد ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ قال: إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل، وقد جاء في الحديث: «تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب»، وفي الحديث الآخر: «لحد يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً»، وقيل: المراد ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرح، قال عامر الشعبي: رحمة في شدة الضرب، وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح، وقال: هذا في الحكم والجلد يعني في إقامة الحد وفي شدة الضرب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها، قال نافع: أراه قال: وظهرها، قال، قلت: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ قال: يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلدها في رأسها، وقد أوجعت حين ضربتها، وقوله تعالى: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحاً،

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً

(٢) أخرجه الإمام أحمد والنسائي .

(٣) أخرجه الحافظ الموصلي عن محمد بن سيرين .

ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك، وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال: «ولك في ذلك أجر»، وقوله تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردعهما، فإن في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً، قال الحسن البصري في قوله ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾: يعني علانية، والطائفة الرجل فما فوقه، وقال مجاهد: الطائفة الرجل الواحد إلى الألف، وكذا قال عكرمة ولهذا قال أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد، وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان، وقال الزهري ثلاثة نفر فصاعداً، وقال الإمام مالك: الطائفة أربعة نفر فصاعداً، لأنه لا يكفي شهادة في الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً، وبه قال الشافعي، وقال الحسن البصري: عشرة، وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين: أي نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿الزانية لا ينكحها إلا زان﴾ أي عاص بزناه ﴿أو مشرك﴾ لا يعتقد تحريمه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع لا يزني بها إلا زان أو مشرك[1]، وقوله تعالى: ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي تعاطيه والتزوج بالبغايا أو تزويج العفائف بالرجال الفجار، وقال أبو داود الطيالسي عن ابن عباس ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ قال: حرم الله الزنا على المؤمنين، وقال قتادة ومقاتل ابن حيان: حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾، وقوله: ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾ الآية، ومن ههنا ذهب الإمام أحمد إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة، لقوله تعالى: ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾. عن عبد الله بن عمرو: قال كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾[2]. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له (مرثد بن أبي مرثد) وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها (عناق) وكانت صديقة له، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط، فلما انتهت إليَّ عرفتني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد، فقالت: مرحباً وأهلاً، هلم فبت عندنا الليلة، قال، فقلت: يا عناق حرم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية ودخلت الحديقة، فانتهيت إلى غار أو كهف، فدخلت فيه فجاءوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا، فظل بولهم على رأسي، فأعماهم

(١) هذا إسناد صحيح عن ابن عباس وقد روي نحو ذلك عن مجاهد وعكرمة والضحاك ومقاتل وسعيد بن جبير.
(٢) رواه النسائي والأمام أحمد.

الله عني، قال: ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه أحبله، فجعلت أحمله ويعينني حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً أنكح عناقاً - مرتين ؟ - فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد: الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها»[١]

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن يسار مولى ابن عمر قال: أشهد لسمعت سالماً يقول: قال عبد الله، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة، العاق لوالديه، والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال، والديوث» وفي رواية: «ثلاثة حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والذي يقر في أهله الخبث». وقال أبو داود الطيالسي في مسنده عن عمار بن ياسر قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة ديوث»[٢]. وفي الحديث: «من أراد أن يلقى الله وهو طاهر متطهر فليتزوج الحرائر»[٣]. فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج، لما روي عن ابن عباس وسأله رجل فقال: إني كنت ألم بامرأة آتي منها ما حرم الله عزَّ وجلَّ عليَّ فرزق الله عزَّ وجلَّ من ذلك توبة، فأردت أن أتزوجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فعليّ[٤]، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذه الآية منسوخة. قال ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: ذكر عنده ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾ قال: نسختها التي بعدها: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ قال: كان يقال الأيامى من المسلمين[٥]

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً، وليس فيه نزاع بين العلماء، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: (**أحدها**) أن يجلد ثمانين جلدة، (**الثاني**) أن ترد شهادته أبداً، (**الثالث**) أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس؛ ثم قال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا﴾ الآية. واختلف العلماء في هذا الاستثناء؛ هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، فترفع التوبة

(١) رواه الترمذي والنسائي وأبو داود واللفظ للترمذي .

(٢) في الصحاح للجوهري الديوث: القنزع وهو الذي لا غيرة له على أهله .

(٣) أخرجه ابن ماجه وفي إسناده ضعف .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن شعبة مولى ابن عباس رضي الله عنهما .

(٥) أخرجه ابن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ ونص عليه الإمام الشافعي رحمه الله .

الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ وأما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر، ولا حكم له بعد ذلك، بلا خلاف. فذهب (مالك وأحمد والشافعي) إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق[1]، وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبداً[2]، وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته، وتعسّر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عزَّ وجلّ، وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين: أي فيما رماها به من الزنا ﴿والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين﴾ فإذا قال ذلك بانت منه وحرمت عليه أبداً، ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين: أي فيما رماها به، ﴿والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾، ولهذا قال: ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ يعني الحد، ﴿أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين﴾ فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه؛ ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق، فقال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ﴿وأن الله تواب﴾ أي على عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة ﴿حكيم﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه.

عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾، قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار رضي الله عنه: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟» فقالوا: يا رسول الله لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال

(١) نقل هذا عن سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً.

(٢) وبه قال شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وغيرهم رضي الله عنهم.

سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق وأنها من الله، ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه، حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، قال: فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء (هلال بن أمية) وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينيه وسمع بأذنيه، فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه واجتمعت عليه الأنصار، وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً؛ وقال هلال: يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم إني لصادق، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربد وجهه، يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت: ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾ الآية، فسري عن رسول الله ﷺ فقال: «أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً»، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عزَّ وجلَّ، فقال رسول الله ﷺ: «فأرسلوا إليها»، فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهما فذكرهما، وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليها، فقالت: كذب، فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما»، فقيل لهلال، اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كانت الخامسة قيل له يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قيل للمرأة: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة اتقي الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفضح قومي فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين؛ ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب، ولا يرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها، وقال: «إن جاءت به أصيهب أريشح حمش الساقين فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين فهو للذي رميت به»، فجاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن»، قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب(١)

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة؛ فمنها ما رواه البخاري عن ابن عباس: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك» فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد، فنزل جبريل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود بنحوه مختصراً.

وأنزل عليه: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ - فقرأ حتى بلغ ﴿إن كان من الصادقين﴾ فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليهما فشهد هلال والنبي ﷺ يقول «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب» ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت، فقال النبي ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء» فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»[1]. وروى الإمام أحمد عن عبدالله قال: كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد، فقال رجل من الأنصار: إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ؟! والله لئن أصبحت صحيحاً لأسألن رسول الله ﷺ، قال: فسأله، فقال: يا رسول الله إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ، اللهم احكم، قال: فنزلت آية اللعان، فكان ذلك الرجل أول من ابتلي به[2]. وعن سهل بن سعد قال: جاء عويمر إلى (عاصم بن عدي) فقال له: سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ، فعاب رسول الله ﷺ المسائل، قال: فلقيه عويمر فقال: ما صنعت؟ قال: ما صنعت أنك لم تأتني بخير، سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فقال عويمر: والله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه، فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيها، قال: فدعا بهما ولاعن بينهما، قال عويمر: إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها، قال ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ، فصارت سنة المتلاعنين، وقال رسول الله ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين فلا أراه إلا قد صدق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة، فلا أراه إلا كاذباً»، فجاءت به على النعت المكروه[3]

وروى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لأول لعان كان في الإسلام أن شريك بن سحماء قذفه هلال بن أمية بامرأته، فرفعه إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أربعة شهود وإلا فحد في ظهرك» فقال: يا رسول الله إن الله يعلم إني لصادق، ولينزلن الله عليك ما يبرىء به ظهري من الجلد، فأنزل الله آية اللعان: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ إلى آخر الآية، قال: فدعاه النبي ﷺ فقال: «اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا» فشهد بذلك أربع شهادات، ثم قال له الخامسة: «ولعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا» ففعل، ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: «قومي فاشهدي بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا» فشهدت بذلك أربع شهادات، ثم قال لها في الخامسة: «وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا» قال: فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت على القول، ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقال: «انظروا فإن جاءت به جعداً حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء، وإن جاءت به أبيض سبطاً قصير العينين فهو لهلال بن أمية»

(١) انفرد به البخاري من هذا الوجه.

(٢) وأخرجه مسلم من طرق عن سليمان بن مهران الأعمش.

(٣) أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذي.

فجاءت به جعداً حمش الساقين، فقال رسول الله ﷺ: « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لي ولها شأن »[1]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت، والفرية التي غار الله عزَّ وجلَّ لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ أي جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة؛ فكان المقدم في هذه اللعنة (عبد الله بن أبي بن سلول) رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن؛ وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما نزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذن بالرحيل، فشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذى كنت أركب وهم يحسبون أني فيه، قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام؛ فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وقد كان رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطىء على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره (عبد الله بن أبي بن سلول).

فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك،

(١) ذكر السيوطي الروايات في ذلك وقال، قال ابن حجر: اختلف الأئمة فنهم من رجح أنها نزلت في هلال، ومنهم من رجح أنها في عويمر، ومنهم جمع بينهما، ويحتمل أن النزول سبق بسبب هلال ثم صادف مجيء عويمر ولم يكن له علم بما وقع لهلال، وجنح القرطبي إلى تجويز نزول الآية مرتين، قال ابن حجر: ولا مانع من تعدد الأسباب.

وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: « كيف تيكم ؟ » فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قِبَل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت، تسبين رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ قلت: وماذا قال ؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال: « كيف تيكم ؟ » فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه لماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت أي بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت أمرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت، فقلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بها ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي

قالت: فدعا رسول الله ﷺ (علي بن أبي طالب) و (أسامة بن زيد) حين استلبث الوحي، يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال أسامة: يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: « أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ » فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي »، فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة، كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافق، فتثاور الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي إذا استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس

عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء .

قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: والله لقد علمت، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتُصَدِّقُنّي، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾، قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن: والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيٌ يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت: فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله عزَّ وجلَّ فقد برأك» .

قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عزَّ وجلَّ، هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى - إلى قوله - ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾، فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجَّع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل (زينت بنت جحش) زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها (حمنة بنت جحش) تحارب لها فهلكت فيمن هلك، قال ابن شهاب فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط[1]

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدَّهم[2]، وروى الإمام أحمد أيضاً عن مسروق عن أم رومان قالت: بينا أنا عند عائشة

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وقال الترمذي: حديث حسن، ووقع عند أبي داود تسميتهم وهم (حسان بن ثابت)=

إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت: فعل الله بابنها وفعل، فقالت عائشة: ولم؟ قالت: إنه كان فيمن حدَّث الحديث، قالت: وأي الحديث؟ قالت: كذا وكذا، قالت: وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قالت: وبلغ أبا بكر؟ قالت: نعم، فخرت عائشة رضي الله عنها مغشياً عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض، قالت: فقمت فدثرتها، قالت: فجاء النبي ﷺ قال: « فما شأن هذه؟ » فقلت: يا رسول الله أخذتها حمى بنافض، قال: « فلعله في حديث تحدث به » قالت: فاستوت عائشة قاعدة، فقالت: والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني، ولئن اعتذرت إليكم لا تعذروني، فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ قالت: فخرج رسول الله ﷺ وأنزل الله عذرها، فرجع رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر فدخل، فقال يا عائشة: « إن الله تعالى قد أنزل عذرك »، فقالت: بحمد الله لا بحمدك، فقال لها أبو بكر، تقولين هذا لرسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قالت: وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر، فحلف أن لا يصله، فأنزل الله: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة﴾ إلى آخر الآية، فقال أبو بكر بلى فوصله.

فقوله تعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك﴾ أي الكذب والبهت والافتراء ﴿عصبة﴾ أي جماعة منكم ﴿لا تحسبوه شراً لكم﴾ أي يا آل أبي بكر ﴿بل هو خير لكم﴾ أي في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء، وقوله تعالى: ﴿لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم﴾ أي لكل من تكلم في هذه القضية، ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب، ﴿والذي تولى كبره منهم﴾ قيل: ابتدأ به، وقيل: الذي كان يجمعه ويذيعه ويشيعه ﴿له عذاب عظيم﴾ أي على ذلك، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو (عبد الله بن أبي بن سلول) قبحه الله تعالى ولعنه، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث؛ وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ بشعره، وهو الذي قال له ﷺ: « هاجهم وجبريل معك ». وقال مسروق: كنت عند عائشة رضي الله عنها، فدخل حسان ابن ثابت، فأمرت فألقي له وسادة، فلما خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بهذا؟ يعني يدخل عليك، وفي رواية قيل لها: أتأذنين لهذا يدخل عليك؟ وقد قال الله: ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾، قالت: وأي عذاب أشد من العمى، وكان قد ذهب بصره، لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم، ثم قالت: إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ، وفي رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها شعراً يمتدحها به فقال:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت: لكنك لست كذلك.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ

= و (مسطح بن أثاثة) و (حمنة بنت جحش).

﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء وما ذكر من شأن الإفك، فقال تعالى: ﴿لولا﴾ يعني هلا ﴿إذ سمعتموه﴾ أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى، روي أن أبا أيوب (خالد بن زيد الأنصاري) قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك، فلما نزل القرآن وذكر أهل الإفك، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ يعني أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال[1]. وقوله تعالى: ﴿ظن المؤمنون﴾ الخ: أي هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، وقوله: ﴿وقالوا﴾: أي بألسنتهم ﴿هذا إفك مبين﴾ أي كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة (صفوان بن المعطل) في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، قال الله تعالى ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿جاءوا عليه﴾ أي على ما قالوه ﴿بأربعة شهداء﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ أي في حكم الله كاذبون فاجرون.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لمسكم فيما أفضتم فيه﴾ من قضية الإفك ﴿عذاب عظيم﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة، كمسطح و (حسان) و (حمنة بنت جحش)، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، ثم قال تعالى: ﴿إذ تلقّونه بألسنتكم﴾ قال مجاهد: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول: هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا، وقوله تعالى: ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ أي تقولون ما لا تعلمون. ثم قال تعالى: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجة

(١) ذكره محمد بن إسحاق بن يسار ومحمد بن عمر الواقدي.

النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا، ولهذا قال تعالى: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾، وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ[1] يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض».

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول، يقول الله تعالى: ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله، وحليلة خليله، ثم قال تعالى: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ أي ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، أي فيما يستقبل، ولهذا قال: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعظمون رسوله ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

﴿۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به، فقد قال تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا﴾ أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ﴿لهم عذاب أليم في الدنيا﴾ أي بالحد، وفي الآخرة بالعذاب ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي فردوا الأمر إليه ترشدوا، وقال النبي ﷺ: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»[2]

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

يقول الله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم﴾ أي لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه

---

(١) وفي رواية: لا يلقي لها بالاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ثوبان مرفوعاً.

تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم، ثم قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾، هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها. قال ابن عباس ﴿خطوات الشيطان﴾: عمله، وقال عكرمة: نزغاته، وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان، وسأل رجل ابن مسعود فقال: إني حرمت أن آكل طعاماً وسماه، فقال: هذا من نزغات الشيطان، كفّر عن يمينك وكل. وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده: هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كبشاً. وعن أبي رافع قال: غضبت على امرأتي فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان[1]. ثم قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي لولا أن الله يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه، لما حصّل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً، ﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾ أي من خلقه ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي، وقوله: ﴿والله سميع﴾ أي سميع لأقوال عباده، ﴿عليم﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولا يأتل﴾ من الألية وهي الحلف أي لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم﴾ أي الطول والصدقة والإحسان. ﴿والسعة﴾ أي الجدة ﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين، وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ أي عما تقدم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم، وهذه الآيات نزلت في (الصدّيق) رضي الله عنه، حين حلف أن لا ينفع (مسطح بن أثاثة) بنافعة أبداً، بعدما قال في عائشة ما قال كما تقدم في الحديث، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه، شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والمنة - يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها، وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية، قال الصديق: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

(١) ذكره ابن أبي حاتم.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات، خرج مخرج الغالب ﴿المؤمنات﴾ فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما؛ وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وقوله تعالى: ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾، كقوله: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ الآية، وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي الله عنها، قال ابن عباس: نزلت في عائشة خاصة، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك، قالت: فبينا رسول الله ﷺ جالس عندي، إذ أوحي إليه، قالت: وكان إذا أوحي إليه أخذه كهيئة السبات، وإنه أوحي إليه وهو جالس عندي ثم استوى جالساً يمسح على وجهه وقال: «يا عائشة أبشري» قالت، فقلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات - حتى بلغ - أولئك مبرأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم﴾[1]، وقال الضحاك: المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات﴾ الآية: يعني أزواج النبي ﷺ رماهن أهل النفاق، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب وباؤوا بسخط من الله، فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ، ثم نزل بعد ذلك: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله - فإن الله غفور رحيم﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تقبل والشهادة ترد.

وقال ابن جرير: فسّر ابن عباس سورة النور، فلما أتى على هذه الآية ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات﴾ الآية قال: في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ، وهي مبهمة[2] وليست لهم توبة، ثم قرأ: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله - إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ الآية، قال: فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة، قال فهمَّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور، وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[3]. وقوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾، عن ابن عباس قال: إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثاً.

---

(١) أخرجه ابن جرير.

(٢) قوله وهي مبهمة: أي عامة في تحريم قذف كل محصنة.

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: «أتدرون ممَّ أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مجادلة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام عليك شهوداً، فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكنَّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»[1]. وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متهمة من بدنك فراقبهم، واتق الله في سرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظُّلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله. وقوله تعالى: ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق﴾، قال ابن عباس ﴿دينهم﴾: أي حسابهم، وكذا قال غير واحد، وقوله: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول، قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك[2]، واختاره ابن جرير، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم! ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك مبرأون مما يقولون﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء؛ والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء؛ أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك مبرأون مما يقولون﴾ أي هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لهم مغفرة﴾ أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ورزق كريم﴾ أي عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

---

(١) ورواه مسلم والنسائي.

(٢) وبه قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري.

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى (يستأنسوا) أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين أستأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر : ألم تسمع صوت عبد الله ابن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما أرجعك ؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف »، فقال عمر لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضرباً، فذهب إلى ملإ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق. وعن أنس أن النبي ﷺ استأذن على (سعد بن عبادة) فقال: « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد: وعليك السلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً، ورد عليه سعد ثلاثاً، ولم يسمعه، فرجع النبي ﷺ، فاتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما سلمت تسليمة إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيباً، فأكل نبي الله فلما فرغ قال: « أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون »[1]. ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره، لما رواه أبو داود عن عبد الله بن بشر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: « السلام عليكم، السلام عليكم »، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور. وجاء رجل فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن، فقام على الباب - يعني : مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ : « هكذا عنك - أو هكذا - فإنما الاستئذان من النظر »[2]

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح »، وعن جابر قال: أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: « من ذا ؟ » فقلت: أنا، قال: « أنا أنا »، كأنه كرهه[3]، وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان المأمور به في الآية، قال ابن عباس: الاستئناس الاستئذان، وكذا قال غير واحد. وعن عمرو بن سعيد الثقفي أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: أألج أو أنلج ؟ فقال النبي ﷺ لأمة له يقال لها روضة: « قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن يستأذن، فقولي له يقول السلام عليكم أأدخل ؟ »، فسمعها الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل ؟ فقال: « ادخل »[4]. وقال مجاهد: جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرمضاء، فأتى فسطاط امرأة من قريش، فقال: السلام عليكم أأدخل، قالت: ادخل بسلام، فأعاد، فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال: قولي

---

(١) أخرجه أحمد واللفظ له ورواه أبو داود والنسائي بنحوه .

(٢) أخرجه أبو داود وقد جاء في بعض الروايات أن الرجل سعد رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الجماعة من حديث شعبة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أبو داود .

ادخل، قالت أدخل، فدخل. وروى هشيم عن ابن مسعود قال: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم، وقال أشعث عن (عدي بن ثابت) أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، قال: فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً﴾ الآية[1]. وقال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ثلاث آيات جحدهن الناس، قال الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً، قال: والأدب كله قد جحده الناس، قال، قلت: أستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد؟ قال: نعم، فرددت عليه ليرخص لي فأبى، فقال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن، قال: فراجعته أيضاً فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قال، قالت: نعم، قال: فاستأذن، وقال طاووس: ما من امرأة أكره إليَّ أن أرى عورتها من ذات محرم قال: وكان يشدد في ذلك. وقال ابن مسعود: عليكم الإذن على أمهاتكم، وقال ابن جريج: قلت لعطاء أيستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا، وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها.

وروى ابن جرير عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق، كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه[2]. وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم ورفع صوته، وقال مجاهد: ﴿حتى تستأنسوا﴾ قال: تنحنحوا أو تنخّموا، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه، ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً – وفي رواية – ليلاً يتخوفهم، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهاراً فأناخ بظاهرها وقال: «انتظروا حتى ندخل عشاء – يعني آخر النهار – حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة». وقال قتادة في قوله ﴿حتى تستأنسوا﴾: هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردّوا؛ ولا تقفنَّ على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال والله أولى بالعذر. وقال مقاتل بن حيان في الآية: كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه، ويقول: حييت صباحاً وحييت مساء، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه، فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول: قد دخلت ونحو ذلك، فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغيّر الله ذلك كله في ستر وعفة، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن. فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ الآية، وهذا الذي قاله مقاتل حسن، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلكم خير لكم﴾ يعني الاستئذان، خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿لعلكم تذكرون﴾، وقوله تعالى: ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن وإن شاء لم يأذن، ﴿وإن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن جرير وقال ابن كثير: إسناده صحيح.

قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم﴾ أي إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿فارجعوا هو أزكى لكم﴾ أي رجوعكم أزكى لكم وأطهر ﴿والله بما تعلمون عليم﴾. وقال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها أن أستأذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع فأرجع وأنا مغتبط، لقوله تعالى: ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعلمون عليم﴾ وقال سعيد بن جبير في الآية: أي لا تقفوا على أبواب الناس، وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة﴾ الآية، هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى، قال ابن عباس ﴿لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾، ثم نسخ واستثنى، فقال تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾(١)، وقال آخرون: هي بيوت التجار كالخانات ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك.

* ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠)﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا لما أباح لهم النظر إليه، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً، كما روي عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري(٢). وقال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»(٣). وفي الصحيح عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات» قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، لذلك أمر الله بحفظ الفروج، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ الآية، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»(٤) ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته. وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغضّ بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه»(٥). وقوله تعالى: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾، كما قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين

(١) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم: لما نزلت آية الاستئذان قال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام، ولهم بيوت معلومة على الطريق، وليس فيها سلطان، فنزلت: ﴿ليس عليكم..﴾ الآية.

(٢) أخرجه مسلم ورواه أبو داود والترمذي والنسائي أيضاً.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.

(٤) أخرجه أحمد وأصحاب السنن.

(٥) أخرجه الطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً.

وما تخفي الصدور﴾. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال، قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تمنّى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحدّ الرجل نظره إلى الأمرد، وقد شدّد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم، لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً. وفي الحديث: «كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضت عن محارم الله، وعيناً سهرت في سبيل الله، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عزّ وجل»[1]

* ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيرة منه لأزواجهن المؤمنين، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات؛ وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره (مقاتل بن حيان) قال: بلغنا أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات، فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ الآية، فقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً، واحتج كثير منهم بما روي عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه» فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو عمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه»[2]. وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملّت ورجعت، وقوله: ﴿ويحفظن فروجهن﴾ قال سعيد بن جبير: عن الفواحش؛ وقال قتادة: عما لا يحل لهن؛ وقال مقاتل: عن الزنا؛ وقال أبو العالية: كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

إلا هذه الآية: ﴿ ويحفظن فروجهن ﴾ أن لا يراها أحد، وقوله تعالى: ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه، قال ابن مسعود: كالرداء والثياب، يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب، فلا حرج عليها فيه، لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه، وقال ابن عباس: وجهها وكفيها والخاتم، وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال عبد الله بن مسعود: الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب، وقال مالك ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾: الخاتم والخلخال، ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن (أسماء بنت أبي بكر) دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه وكفيه»[1]

وقوله تعالى: ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ يعني المقانع يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها، ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك، بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ والخمر جمع خمار: وهو ما يخمر به أي يغطى به الرأس، وهي التي تسميها الناس المقانع، قال سعيد بن جبير ﴿ وليضربن ﴾ وليشددن ﴿ بخمرهن على جيوبهن ﴾ يعني على النحر والصدر فلا يرى منه شيء، وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها. وروى ابن أبي حاتم عن صفية بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلاً وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل، فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان[2]. وقال ابن جرير عن عائشة قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن أكثف مروطهن فاختمرن بها، وقوله تعالى: ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾ أي أزواجهن ﴿ أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها، ولكن من غير تبرج. فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله، فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره، وقوله: ﴿ أو نسائهن ﴾ يعني تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات، دون نساء أهل الذمة، لئلا تصفهن لرجالهن، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع؛ فأما

(١) رواه أبو داود وهو حديث مرسل لأن خالد بن دريك لم يسمع من عائشة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو داود.

المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»(١)

وروي أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فانه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها، وقال مجاهد في قوله: ﴿أو نسائهن﴾ قال: نساؤهن المسلمات، ليس المشركات من نسائهن، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة، وروي عن ابن عباس ﴿أو نسائهن﴾ قال: هَنَّ المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية، وهو النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم، وروى سعيد عن مجاهد قال: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة لأن الله تعالى يقول: ﴿أو نسائهن﴾ فليست من نسائهن، وعن مكحول وعبادة ابن نسي: أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة. وقوله تعالى: ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾ قال ابن جرير: يعني من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها؛ وإليه ذهب سعيد بن المسيب. وقال الأكثرون: بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود عن أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطّت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك». وروى الإمام أحمد عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحداكن مكاتب وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه»، وقوله تعالى: ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ يعني كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وله ولا همة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن، قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له. وقال مجاهد: هو الأبله، وقال عكرمة: هو المخنث الذي لا يقوم ذكره، وكذلك قال غير واحد من السلف، وفي الصحيح عن عائشة أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعدونه من غير أولي الأربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة يقول: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثمان، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكم» فأخرجه، وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ، وعندها مخنث، وعندها (عبد الله بن أبي أمية) يعني أخاها والمخنث يقول: يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ، فقال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك»(٢)

وقوله تعالى: ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكّن من الدخول على النساء، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والدخول على

---

(١) أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٢) وأخرجاه في الصحيحين من حديث هشام بن عروة.

النساء» قيل: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: «الحمو الموت». وقوله تعالى: ﴿ولا يضربن بأرجلهن﴾ الآية، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ضربت برجلها الأرض، فيسمع الرجال طنينه، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي، لقوله تعالى: ﴿ولا يضربن بأرجلهن﴾ إلى آخره، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها، فيشم الرجال طيبها، فقد قال النبي ﷺ: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا» يعني زانية[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه لقي امرأة شم منها ريح الطيب ولذيلها إعصار، فقال: يا أمة الجبار جئت من المسجد؟ قالت: نعم، قال لها: تطيبت؟ قالت: نعم، قال: إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة طيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة»[2]، وفي الحديث: «الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها»[3]، ومن ذلك أيضاً أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج، فقد روى عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن فإنه ليس لكن أن تحتضن الطريق، عليكن بحافات الطريق»، فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به[4]، وقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه والله تعالى المستعان.

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ *

اشتملت هذه الآيات الكريمات، على جمل من الأحكام المحكمة، فقوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ أمر بالتزويج، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه، واحتجوا بظاهر قوله عليه السلام: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه أيضاً أبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

(٣) أخرجه الترمذي عن ميمونة بنت سعد مرفوعاً.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن.

فإنه له وجاء »[1] ، وقد جاء في السنن: « تزوجوا الولود، تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة »، الأيامى جمع أيم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له، يقال: رجل أيم وامرأة أيم، وقوله تعالى: ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ الآية، قال ابن عباس: رغبهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد، ووعدهم عليه الغنى، فقال: ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى: ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾، وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله »[2] ، وقد زوّج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لا يجد عليه إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن، والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله، وقوله تعالى: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام، كما قال ﷺ: « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » وهذه الآية مطلقة والتي في سورة النساء أخص منها وهي قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات﴾، إلى قوله: ﴿وأن تصبروا خير لكم﴾ أي صبركم عن تزوج الإماء خير لكم لأن الولد يجيء رقيقاً ﴿والله غفور رحيم﴾، قال عكرمة في قوله: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً﴾ قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه الله .

وقوله تعالى: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾[3] هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب، يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب، لا أمر تحتم وإيجاب، قال الشعبي: إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه[4] ، وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذاً بظاهر هذا الأمر ، وقال البخاري عن ابن جريج قلت لعطاء: أواجب علي إذا علمت له مالاً أن أكاتبه ؟ قال: ما أراه إلا واجباً، وقال عمرو بن دينار، قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا، ثم أخبرني أن سيرين سأل أنساً المكاتبة، وكان كثير المال، فأبى، فانطلق إلى عمر رضي الله عنه، فقال: كاتبه، فأبى، فضربه بالدرة ويتلو عمر رضي الله عنه: ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ فكاتبه[5] ،

---

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود .

(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي .

(٣) في اللباب: أخرج ابن السكن: عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال: كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتابة، فنزلت ﴿والذين يبتغون ...﴾ الآية .

(٤) وكذا قال عطاء ومقاتل والحسن البصري .

(٥) ذكره البخاري معلقاً .

وذهب الشافعي في الجديد إلى أنه لا يجب لقوله عليه السلام: «لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس»، وقال مالك: الأمر عندنا أنه ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده، وكذا قال الثوري وأبو حنيفة، وقوله تعالى: ﴿إن علمتم فيهم خيراً﴾ قال بعضهم: أمانة، وقال بعضهم: صدقا، وقال بعضهم: مالا، وقال بعضهم: حيلة وكسباً، وقوله تعالى: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها، وقال آخرون: بل المراد هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة[1]، وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب، وقد تقدم الحديث: «ثلاثة حق على الله عونهم» فذكر منهم المكاتب يريد الأداء، والقول الأول أشهر. وعن ابن عباس في الآية ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ قال: ضعوا عنهم من مكاتبتهم، وقال محمد بن سيرين في الآية: كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته، وقوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ الآية، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة في شأن (عبد الله بن أبي بن سلول) فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم.

(ذكر الآثار الواردة في ذلك)

قال الحافظ البزار في مسنده: كانت جارية لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها (معاذة) يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ الآية، وقال الأعمش: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها (مسيكة) كان يكرهها على الفجور وكانت لا بأس بها فتأبى، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ الآية، وروى النسائي عن جابر نحوه. وعن الزهري أن رجلاً من قريش أسر يوم بدر، وكان عند (عبد الله بن أبي) أسيراً وكانت لعبد الله بن أبي جارية يقال لها (معاذة) وكان القرشي الأسير يريدها على نفسها، وكانت مسلمة، وكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً﴾، وقال السدي: أنزلت هذه الآية الكريمة في (عبد الله بن أبي بن سلول) رأس المنافقين، وكانت له جارية تدعى (معاذة) وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له، فأقبلت الجارية إلى أبي بكر رضي الله عنه فشكت إليه ذلك، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ، فأمره بقبضها، فصاح عبد الله بن أبي من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا، وقوله تعالى: ﴿إن أردن تحصناً﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، وقوله تعالى: ﴿لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ أي من خراجهن ومهورهن وأولادهن، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام، ومهر البغي، وحلوان الكاهن، وفي رواية: «مهر البغي خبيث وكسب الحجام خبيث، وثمن الكلب خبيث»، وقوله تعالى: ﴿ومن يكرههنَّ فإن الله من بعد إكراههن

(١) وهذا قول الحسن ومقاتل وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير.

غفور رحيم﴾ أي لهن، كما تقدم في الحديث عن جابر. وقال ابن عباس: فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم، وإثمهن على من أكرههن؛ وقال أبو عبيد عن الحسن في هذه الآية ﴿فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ قال: لهن والله، لهن والله، وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ يعني القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ﴿ومثلا من الذين خلوا من قبلكم﴾ أي خبراً عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي لمن اتقى الله وخافه، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن: فيه حكم ما بينكم، وخبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

قال ابن عباس ﴿الله نور السموات والأرض﴾ يقول: هادي أهل السماوات والأرض، يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما. وقال ابن جرير عن أنس بن مالك قال: إن الله يقول نوري هدى، واختار هذا القول ابن جرير، وقال أبي بن كعب: هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ فبدأ بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن، فقال: مثل نور من آمن به، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره، وعن ابن عباس أنه قرأها ﴿مثل نور من آمن بالله﴾ وقرأ بعضهم ﴿الله منوّر السموات والأرض﴾ وقال السدي في قوله ﴿الله نور السموات والأرض﴾ فبنوره أضاءت السماوات والأرض، وفي الحديث: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات»[1]. وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن» الحديث. وعن ابن مسعود قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه، وقوله تعالى: ﴿مثل نوره﴾ في هذا الضمير قولان: (أحدهما) أنه عائد إلى الله عزَّ وجلَّ أي مثل هداه في قلب المؤمن، قاله ابن عباس ﴿كمشكاة﴾. (والثاني): أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام، تقديره: مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه، كما قال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف؛ فقوله ﴿كمشكاة﴾ قال ابن عباس

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة من دعائه ﷺ يوم آذاه أهل الطائف.

ومجاهد: هو موضع الفتيلة من القنديل، هذا هو المشهور؛ ولهذا قال بعده ﴿فيها مصباح﴾ وهو الزبالة[1] التي تضيء

وقال مجاهد: هي الكوة بلغة الحبشة، وزاد بعضهم فقال: المشكاة الكوة التي لا منفذ لها، وعن مجاهد: المشكاة الحدائد التي يعلق بها القنديل؛ والقول الأول أولى، وهو أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل: ولهذا قال: ﴿فيها مصباح﴾ وهو النور الذي في الزبالة، قال أبي بن كعب: المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره، وقال السدي هو السراج ﴿المصباح في زجاجة﴾ أي هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية، وهي نظير قلب المؤمن ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ أي كأنها كوكب من در، قال أبي بن كعب: كوكب مضيء، وقال قتادة: مضيء مبين ضخم ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ أي يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زيتونة﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أي ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربيها فيقلص عنها الفيء قبل الغروب، بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً، عن ابن عباس في قوله ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ قال: هي شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف، ولا يواريها شيء، وهو أجود لزيتها، وقال عكرمة: تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها، فإذا غربت غربت عليها فذلك أصفى ما يكون من الزيت، وعن سعيد بن جبير في قوله﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء﴾ قال: هو أجود الزيت، قال إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداة والعشي فتلك لا تعد شرقية ولا غربية .

وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره، وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿توقد من شجرة مباركة﴾ قال: رجل صالح ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني، **وأولى هذه الأقوال**: أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس، تقرعه من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف، ولهذا قال تعالى: ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ يعني لضوء إشراق الزيت، وقوله تعالى: ﴿نور على نور﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله، وقال أبي بن كعب ﴿نور على نور﴾ المؤمن يتقلب في خمسة من النور، فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة. وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله تعالى ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ قال: يكاد محمد ﷺ يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء، وقال السدي في قوله تعالى ﴿نور على نور﴾ قال: نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه، وقوله تعالى: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ أي يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأ ضل، فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله عزَّ وجلَّ»[2]. وقوله

(١) الزُبالة : يقال للفتيلة التي يُصبَحُ بها السراج زبالة وزبّالة ، وجمعها زُبال وزُبّال .

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبزار عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

تعالى: ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال، عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: « القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه »[1]

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل مثلاً، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد، فقال تعالى: ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ أي أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو، والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها، كما قال ابن عباس: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها، وقال قتادة: هي هذه المساجد أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها، وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول: مكتوب في التوراة إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من توضأ فأحسن وضوءه، ثم زارني في بيتي أكرمته، وحقٌ على المزور كرامة الزائر[2]. وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها، فعن أمير المؤمنين (عثمان بن عفان) رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة »[3]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتاً في الجنة »[4]، وعن عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظّف وتطيب[5]. وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد ». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا: لا ردها الله عليك ».

(١) أخرجه أحمد قال ابن كثير: إسناده جيد ولم يخرجوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

(٤) رواه ابن ماجة.

(٥) رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي.

وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعاً قال: خصال لا تنبغي في المسجد: لا يتخذ طريقاً، ولا يشهر فيه سلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا ينثر فيه نبل، ولا يمر فيه بلحم نيء، ولا يضرب فيه حد، ولا يقتص فيه أحد، ولا يتخذ سوقاً. وعن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ: «جنبوا المساجد صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم، وخصوماتكم، ورفع أصواتكم، وإقامة حدودكم وسل سيوفكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر، وجمروها في الجمع»[1]. أما أنه لا يتخذ طريقاً فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه؛ وفي الأثر: إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه؛ وأما أنه لا يشهر فيه السلاح ولا ينبض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به، وأما النهي عن المرور باللحم النيء فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه، وأما أنه لا يضرب فيه حد ولا يقتص منه فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع؛ وأما أنه لا يتخذ سوقاً فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بني لذكر الله والصلاة فيه، كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد: «إن المساجد لم تبن لهذا إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها»، وفي الحديث الثاني: «جنبوا مساجدكم صبيانكم» وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم؛ وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى صبياناً يلعبون في المسجد ضربهم بالمخفقة وهي الدرة، وكان يفتش المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً، «ومجانينكم» يعني لأجل ضعف عقولهم، وسخر الناس بهم، فيؤدي إلى اللعب فيها ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ونحو ذلك «وبيعكم وشراءكم» كما تقدم، «وخصوماتكم» يعني التحاكم والحكم فيه؛ ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المسجد، بل يكون في موضع غيره لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والألفاظ التي لا تناسبه؛ ولهذا قال بعده: «ورفع أصواتكم».

وروى البخاري عن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر ابن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئته بهما فقال: من أنتما؟ أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ، وقال النسائي: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال: أتدري أين أنت؟ وقوله: «واتخذوا على أبوابها المطاهر» يعني المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة، وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها فيشربون ويتطهرون ويتوضأون وغير ذلك، وقوله: «وجمروها في الجمع» يعني بخروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ، وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن ابن عمر: أن عمر كان يجمر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة» وعند الدارقطني مرفوعاً: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»، وفي السنن: «بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة».

ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري[2] عن عبد الله بن

(١) أخرجه ابن ماجه وفي إسناده ضعف.

(٢) هو في أبي داود.

عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم» قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان حفظ مني سائر اليوم، وقال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك»[١]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم[٢]، وعن فاطمة بنت الحسين عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»[٣]، فهذا الذي ذكرناه داخل في قوله تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع﴾ وقوله: ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ أي اسم الله، كقوله: ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾، وقوله: ﴿وأن المساجد لله﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ قال ابن عباس: يعني يتلى كتابه، وقوله تعالى: ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ أي في البكرات والعشيات، والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار، وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن هو الصلاة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني بالغدو صلاة الغداة، ويعني بالآصال صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده، وعن الحسن والضحاك ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾: يعني الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿رجال﴾ فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عماراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ الآية. وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن، لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها»، وعن أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «خير مساجد النساء قعر بيوتهن»[٤]. وروى أحمد عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك، قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي» قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها، فكانت والله تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى. ويجوز للمرأة شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت في الصحيح: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[٥]، وفي رواية: «وليخرجن وهن

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي.
(٢) أخرجه ابن ماجه وابن حبان.
(٣) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن وإسناده ليس بمتصل لأن فاطمة الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى.
(٤) أخرجه الإمام أحمد.
(٥) أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً.

تفلات » أي لا ريح لهن، وقد ثبت في صحيح مسلم عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً ». وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس، وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل .

وقوله تعالى: ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾، كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ الآية، يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم، لأن الذي عنده خير لهم وأنفع مما بأيديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ أي يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم، روى عمرو بن دينار: أن ابن عمر رضي الله عنهما كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾، وقال ابن أبي حاتم قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إني قمت على هذا الدرج أبايع عليه، أربح كل يوم ثلثمائة دينار، أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول إن ذلك ليس بحلال، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم: ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾. وقال عمرو بن دينار الأعور: كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد فمررنا بسوق المدينة، وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس فيها أحد، فتلا سالم هذه الآية: ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ ثم قال: هم هؤلاء؛ وقال الضحاك: لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها، وقال مطر الوراق: كانوا يبيعون ويشترون ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة، وقال ابن عباس ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ يقول: عن الصلاة المكتوبة؛ وقال السدي: عن الصلاة في جماعة، وقال مقاتل بن حيان: لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها .

وقوله تعالى: ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار: أي من شدة الفزع وعظمة الأهوال، كقوله: ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾، وقال تعالى: ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾، وقوله تعالى ههنا: ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا﴾ أي هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم. وقوله: ﴿ ويزيدهم من فضله﴾ أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم كما قال تعالى: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ الآية، وقال: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ الآية، وقال: ﴿ والله يضاعف لمن يشاء﴾، وقال ههنا: ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً، ثم تلا قوله: ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾، وفي الحديث: « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، ليقم الذين لا تلهيهم

تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق »[1]. وروى الطبراني عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ قال: أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام، والقيعة جمع قاع كجار وجيرة، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿ لم يجده شيئاً ﴾، فكذلك الكافر، يحسب أنه قد عمل عملا وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية، كما قال تعالى: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾، وقال ههنا: ﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾، وفي الصحيحين: «أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون؟ فيقولون: يا رب عطشنا فاسقنا، فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فينطلقون فيتهافتون فيها »[2] وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب. فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى: ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ قال قتادة: ﴿ لجي ﴾ هو العميق، ﴿ يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم، قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال. لا أدري. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ يغشاه موج ﴾ يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ الآية. وكقوله: ﴿ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ الآية. فالكافر يتقلب في خمسة من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار، وقوله تعالى: ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل بائر كافر، كقوله: ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾ وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾، فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، وأن يعظم لنا نوراً.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد بن السكن مرفوعاً.

(٢) أخرجه الشيخان.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السماوات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾ أي في حال طيرانها، تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال تعالى: ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عزَّ وجلَّ، ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض فهو الحاكم المتصرف الإلّه المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا معقب لحكمه، ﴿وإلى الله المصير﴾: أي يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا﴾ الآية، فهو الخالق المالك، له الحمد في الأولى والآخرة

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو الإزجاء، ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي يجمعه بعد تفرقه، ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي متراكماً أي يركب بعضه بعضاً، ﴿فترى الودق﴾ أي المطر، ﴿يخرج من خلاله﴾ أي من خلله، وقوله: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ قال بعض النحاة: ﴿من﴾ الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، والثالثة لبيان الجنس، ومعناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد، وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فإن «من» الثانية عنده لابتداء الغاية لكنها بدل من الأولى والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿فيصيب به﴾: أي بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد، فيكون قوله: ﴿فيصيب به من يشاء﴾ رحمة لهم ﴿ويصرفه عمن يشاء﴾ أي يؤخر عنهم الغيث، ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿فيصيب به﴾ أي بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من إتلاف زروعهم وأشجارهم، ﴿ويصرفه عمن يشاء﴾ رحمة بهم، وقوله: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته، وقوله تعالى: ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ أي يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا، حتى يعتدلا، فهو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه، ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي لدليلاً على عظمته تعالى.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى

أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد، ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ كالإنسان والطير، ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا قال: ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ أي بقدرته، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

* لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى، ولهذا قال: ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

* وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم ﴿ آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ﴾ أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾ الآية، أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله تعالى: ﴿ رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾، وفي الطبراني عن سمرة مرفوعاً: « من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له ». وقوله تعالى: ﴿ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله ﴿ مذعنين ﴾، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله، فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه، ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفي قلوبهم مرض ﴾ الآية، يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأياً ما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم، وما هو منطو عليه من هذه الصفات، وقوله تعالى: ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ أي بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك

قال الحسن: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة، فدعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن، وعلم أن النبي ﷺ سيقضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: أنطلق إلى فلان، فأنزل الله هذه الآية، ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ أي سمعاً وطاعة، ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال تعالى: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾، وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة، قال: وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين[1]. والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنّة رسوله وللخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر في هذا المكان. وقوله: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ قال قتادة: فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ﴿ويخش الله﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿ويتقه﴾ فيما يستقبل، وقوله ﴿فأولئك هم الفائزون﴾ يعني الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

* وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لئن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن، قال الله تعالى: ﴿قل لا تقسموا﴾ أي لا تحلفوا، وقوله: ﴿طاعة معروفة﴾ قيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة، أي قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتم كذبتم، كما قال تعالى: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ الآية، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون﴾، وقيل المعنى ﴿طاعة معروفة﴾ أي ليكن أمركم طاعة معروفة، أي بالمعروف من غير حلف ولا أقسام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف، فكونوا أنتم مثلهم ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ أي هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لايروج عليه شيء من التدليس، بل هو خبير بضمائر عباده وإن أظهروا خلافها. ثم قال تعالى: ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أي اتبعوا كتاب الله وسنّة رسوله، وقوله تعالى: ﴿فإن تولوا﴾ أي تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ﴿فإنما عليه ما حمّل﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ﴿وعليكم ما حملتم﴾ أي بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم

(١) رواه بن أبي حاتم .

﴿صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾، كقوله تعالى: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ .

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر المقوقس، وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة، ثم قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة (خالد بن الوليد) رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها، وجيشاً آخر صحبة (أبي عبيدة) رضي الله عنه إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة (عمرو بن العاص) رضي الله عنه إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق، وتوفاه الله عزَّ وجلَّ واختار له ما عنده من الكرامة، ومنَّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله؛ وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى، وأهانه غاية الهوان، وكسر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة. ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص، وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها » فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً » ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني، فسألت أبي ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال، قال: « كلهم من قريش »، وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلاً،

وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر، فإن كثيراً من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً؛ وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، ثم كانت بعدهم فترة؛ ثم وجد منهم من شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى؛ ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً عضوضاً»[1].

وقال أبو العالية في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ الآية، قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة» وأنزل الله هذه الآية، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح، ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه، فأدخل عليهم الخوف، فاتخذوا الحجزة والشرط وغيَّروا فغيَّر بهم، وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد، وهذه الآية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿كما استخلف الذين من قبلهم﴾ كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ الآيتين.

وقوله تعالى: ﴿وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ الآية، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه: «أتعرف الحيرة؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها، قال: «فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد» قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها، وقال الإمام أحمد عن أبي بن كعب قال، قال رسول الله ﷺ: «بشِّرْ هذه الأمة بالسنا والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»، وقوله تعالى: ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾، وفي الحديث: «يا معاذ ابن جبل» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»[2]، وقوله تعالى: ﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) الحديث من رواية الشيخين عن معاذ بن جبل.

هم الفاسقون﴾ أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك، فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً، فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بأوامر الله عزَّ وجلَّ، وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا سائر العباد والبلاد، ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة – وفي رواية حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»[1]

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ فيما به أمرهم، وترك ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾، وقوله تعالى: ﴿لا تحسبن﴾ أي لا تظن يا محمد أن ﴿الذين كفروا﴾ أي خالفوك وكذبوك ﴿معجزين في الأرض﴾ أي لا يعجزون الله بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى ﴿ومأواهم﴾ أي في الدار الآخرة ﴿النار ولبئس المصير﴾ أي بئس المآل مآل الكافرين، وبئس القرار وبئس المهاد.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: (الأول) من قبل صلاة الغداة لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم، ﴿وحين

---

(١) وفي رواية «حتى يقاتلوا الدجال» وفي رواية «حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون» وكلها صحيحة ولا تعارض بينها.

تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي في وقت القيلولة، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾، لأنه وقت النوم فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال؛ ولهذا قال: ﴿ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن﴾ أي إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم، ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال، ولأنهم طوافون عليكم أي في الخدمة وغير ذلك، ولهذا روى أهل السنن أن النبي ﷺ قال في الهرة: «إنها ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم - أو الطوافات -». عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان في ثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن؟ فقال ابن عباس: إن الله ستير يحب الستر، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله؛ ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به[1] وقال السدي: كان أناس من الصحابة رضي الله عنهم يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن، وقال مقاتل بن حيان: بلغنا والله أعلم أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا للنبي ﷺ طعاماً، فجعل الناس يدخلون بغير إذن، فقالت أسماء: يا رسول الله ما أقبح هذا، إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد غلامهما بغير إذن، فأنزل الله في ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ إلى آخرها؛ ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾، ثم قال تعالى: ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ يعني إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي: إذا كان الغلام رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال، وقال في قوله: ﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾ يعني كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه، وقوله: ﴿والقواعد من النساء﴾ هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد ﴿اللاتي لا يرجون نكاحاً﴾ أي لم يبق لهن تشوف إلى التزوج، ﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة﴾ أي ليس عليهن من الحجر في التستر كما على غيرهن من النساء، قال ابن مسعود في قوله: ﴿فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن﴾ قال: الجلباب أو الرداء، وقال أبو صالح: تضع الجلباب وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار، وقال سعيد ابن جبير في الآية ﴿غير متبرجات بزينة﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة. عن أم الضياء أنها قالت: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين ما تقولين في الخضاب والنفاض والصباغ والقرطين والخلخال وخاتم الذهب وثياب الرقاق؟ فقالت: يا معشر النساء قصتكن كلها واحدة، أحل الله لكنّ الزينة غير متبرجات[2]، أي لا يحل لكن أن يروا منكن محرماً. وقوله: ﴿وأن يستعففن خير لهن﴾ أي وترك وضعهن لثيابهن وإن كان جائزاً، خير وأفضل لهن، والله سميع عليم.

(١) أخرجه بن أبي حاتم وإسناده صحيح إلى ابن عباس كما قال ابن كثير.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي رفع لأجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا، فقال عطاء ابن أسلم: يقال إنها نزلت في الجهاد، وجعلوا هذه الآية ههنا كالتي في سورة الفتح وتلك في الجهاد لا محالة، أي أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ وقيل: المراد ههنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك[1]؛ وقال الضحاك: كانوا قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتعززاً ولئلا يتفضلوا عليهم فأنزل الله هذه الآية. وقال السدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثمّ، فقال الله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ إنما ذكر هذا وهذا معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ، وليساوي به ما بعده في الحكم، وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنت ومالك لأبيك»[2]

وقوله تعالى: ﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم - إلى قوله - أو ما ملكتم مفاتحه﴾ هذا ظاهر، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنهما، وأما قوله: ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾ فقال سعيد بن جبير والسدي: هو خادم الرجل من عبد وقهرمان، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف. وقال الزهري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يذهبون مع النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم، ويقولون: قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله: ﴿أو ما ملكتم مفاتحه﴾، وقوله: ﴿أو صديقكم﴾ أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك، وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس

(١) وهذا قول سعيد بن جبير وغيره. (٢) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد وأصحاب السنن.

أن تأكل بغير إذنه، وقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾، قال ابن عباس: وذلك لما أنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾، قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله: ﴿ليس على الأعمى حرج - إلى قوله - أو صديقكم﴾، وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك، فقال: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾، وقال قتادة: كان هذا الحي من (بني كنانة) يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله: ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل، كما روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع، قال: «لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»(١). وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فإن البركة مع الجماعة»(٢)

وقوله تعالى: ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم﴾ يعني فليسلم بعضكم على بعض، وقال جابر بن عبد الله إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله طيبة مباركة، قال ابن جريج: قلت لعطاء: أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم؟ قال: لا، ولا أوثر وجوبه عن أحد، ولكن هو أحب إليَّ، وقال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر بذلك، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه، وقال أنس بن مالك: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال، قال: «يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت - يعني بيتك - فسلم على أهلك يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك، يا أنس ارحم الصغير، ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة»(٣). وقوله: ﴿تحية من عند الله مباركة طيبة﴾. عن ابن عباس أنه كان يقول: ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله، سمعت الله يقول: ﴿فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ فالتشهد في الصلاة: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، وقوله: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة؛ نبه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

(٢) أخرجه ابن ماجة عن عمر مرفوعاً.

(٣) أخرجه الحافظ البزار عن أنس مرفوعاً.

وهذا أيضاً أدب أرشده الله عباده المؤمنين، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء الله، ولهذا قال: ﴿فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم﴾ الآية، وقد قال ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»(١)

* لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عزَّ وجلَّ عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ، قال: فقولوا يا نبي الله، يا رسول الله، وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ وأن يبجل وأن يعظم وأن يسود، وقال مقاتل في قوله: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ يقول: لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرِّفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾، فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته، والقول الثاني في ذلك أن المعنى في: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا، حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري، والأول أظهر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً﴾ قال مقاتل: هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة، فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ، حتى يخرجوا من المسجد، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل، وقال السدي: كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم، وقال قتادة في قوله ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون لواذاً﴾ يعني لواذاً عن نبي الله وعن كتابه، وقال سفيان ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً﴾ قال: من الصف، وقال مجاهد في الآية: ﴿لواذاً﴾ خلافاً، وقوله: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ أي أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهجه وطريقته وسنته وشريعته، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً ﴿أن تصيبهم فتنة﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾ أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك؛ كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن.

أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني وتتقحمون فيها »[١]

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم فقال: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾، وقد للتحقيق، كما قال قبلها ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً﴾، وقال تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾ الآية، فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد، فقوله تعالى: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾، وقال تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ أي هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر، وقال تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به﴾ الآية. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً. وقوله: ﴿ويوم يرجعون إليه﴾ أي ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ أي يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، وقال: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً لا يظلم ربك أحداً﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾ والحمد لله رب العالمين.

[آخر تفسير سورة النور ، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق.

تفسير سورة النور

وهى مدنية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ .

يقول تعالى : هذه ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾ ، فيه تنبيه على (١) الاعتناء بها ولا ينفى ما عداها .

﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ : قال مجاهد وقتادة : أىْ بيّنا الحلال والحرام ، والأمر والنهى ، والحدود .

وقال البخارى : ومن قرأ « فَرَضْنَاها » يقول : فَرَضنا عليكم وعلى من بعدكم .

﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : مفسَّرات واضحَات ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ : هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ؛ فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكرًا ، وهو الذى لم يتزوج . أو محصنا ، وهو الذى قد وَطئَ فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل . فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج ، فإن حده مائة جلدة (٢) ، كما فى الآية ، ويزاد على ذلك أن يُغرّب عاما [عن بلده] (٣) عند جمهور العلماء ، خلافا لأبى حنيفة ، رحمه اللّه ؛ فإن عنده أن التغريبَ إلى رأى الإمام ، إن شاء غَرَّب وإن شاء لم يغرِّب .

وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين ، من رواية الزهرى ، عن عُبَيْد اللّه بن عبد اللّه ابن عُتبة بن مسعود ، عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجُهَنِىّ ، فى الأعرابيين اللذين أتيا رسولَ الله ﷺ، فقال أحدهما : يا رسول اللّه ، إن ابنى كان عَسيفا ـ يعنى : أجيرا ـ على هذا ، فزنى بامرأته ، فافتديت [ابنى] (٤) منه بمائة شاة وَوَليدَة ، فسألت أهل العلم ، فأخبرونى أن (٥) على ابنى جلد مائة وتغريبَ عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول اللّه ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لأقضين بينكما بكتاب اللّه :الوليدة والغنم ردٌّ عليك ،وعلى ابنك جَلْدُ مائة وتغريبُ عام .واغد يا أنيس ـ لرجل من أسلم ـ إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » . فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها (٦) .

ففى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلد مائة إذا كان بكرا لم يتزوج ، فأما إن كان محصنا فإنه يرجم ، كما قال الإمام مالك :

---

(١) فى أ : « إلى » .
(٢) فى ف ، أ : « جلد مائة » .
(٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) زيادة من ف ، أ ، وصحيحى البخارى ومسلم .
(٥) فى أ : « إنما » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٢٣١٤ ، ٦٦٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٦٩٧) .

حدثنى ابن شهاب ، أخبرنا [١] عبيد اللّه بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أن ابن عباس أخبره ، أن عمر ، رضى اللّه عنه ، قام فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإن [٢] الله بعث محمدًا بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها وَوَعَيْناها ، ورَجَمَ رسول اللّه ﷺ ورَجَمْنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم فى كتاب اللّه ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها اللّه ، فالرجم فى كتاب اللّه حق على من زنى، إذا أحصن ، من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو الحبل ، أو الاعتراف .

أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك مطولا [٣] ، وهذا [٤] قطعة منه ، فيها مقصودنا هاهنا .

وروى الإمام أحمد عن هُشَيْم ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد اللّه ، عن ابن عباس : حدثنى عبد الرحمن بن عوف ؛ أن عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول : ألا وَإنّ أناسا [٥] يقولون : ما بالُ الرجم ؟ فى كتاب اللّه الجلدُ . وقد رَجَم رسول اللّه ﷺ ورَجَمنا بعده . ولولا أن يقول قائلون ـ أو يتكلم [٦] متكلمون ـ أن عمر زاد فى كتاب اللّه ما ليس منه [٧] ، لأثبتها كما نزلت .

وأخرجه النسائى ، من حديث عُبَيْد اللّه بن عبد اللّه ، به [٨] .

وقد روى أحمد [٩] أيضًا عن هُشَيْم ، عن على بن زيد ، عن يوسف بن مِهْران ، عن ابن عباس قال : خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال : لا تُخْدَعُن [١٠] عنه ؛ فإنه حَدٌّ من حدود اللّه ، ألا إن رسول اللّه ﷺ قد رجم ورَجَمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : زاد عمر فى كتاب اللّه ما ليس فيه ، لكتبت فى ناحية من المصحف : وشهد عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وفلان وفلان : أن رسول اللّه ﷺ قد رجم ورجمنا بعده . ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالدجال [١١] وبالشفاعة وبعذاب القبر ، وبقوم يخرجون من النار بعد ما امتُحِشُوا [١٢] .

وروى أحمد [١٣] أيضا عن يحيى القَطَّان ، عن يحيى الأنصارى ، عن سعيد بن المسيَّب ، عن عمر بن الخطاب [١٤] : إياكم أن تَهلكوا عن آية الرجم .

الحديث رواه الترمذى ، من حديث سعيد عن عُمَر ، وقال : صحيح [١٥] .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا عُبَيْد اللّه بن عمر القواريرى ، حدثنا يزيد بن زُرَيْع ، حدثنا ابن [١٦] عَوْن ، عن محمد ـ هو ابن سِيرين ـ قال : نُبِّئتُ عن كَثِير بن الصلت قال : كنا عند

(١) فى ف : « عن » . (٢) فى ف : « إن » .
(٣) الموطأ (٢ / ٨٢٢) وصحيح البخارى برقم (٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠) وصحيح مسلم برقم (١٦٩١) وهو عندهما بهذا السياق من حديث ابن شهاب الزهرى .
(٤) فى ف ، أ : « وهذه » . (٥) فى ف : « ناسًا » . (٦) فى ف : « ويتكلم » . (٧) فى أ : « فيه » .
(٨) المسند (١ / ٢٩) والنسائى فى السنن الكبرى (٧١٥٤) .
(٩) فى ف ، أ : « الإمام أحمد » . (١٠) فى أ : « لا تحيد عنه » . (١١) فى ف : « والدجال » .
(١٢) المسند (١ / ٢٣) .
(١٣) فى ف ، أ : « الإمام أحمد » . (١٤) فى ف ، أ : « عمر رضى الله عنه » .
(١٥) المسند (١ / ٣٦) وسنن الترمذى برقم (١٤٣١) .
(١٦) فى ف : « أبو » .

مروان وفينا زيد ، فقال زيد : كنا نقرأ : « والشيخ والشيخة فارجموهما »[١] البتة » . قال مروان : ألا كتبتَها في المصحف ؟ قال : ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب ، فقال : أنا أشفيكم من ذلك . قال: قلنا : فكيف ؟ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، قال : فذكر كذا وكذا ، وذكر الرجم ، فقال: يا رسول اللّه ، أكْتِبْنى آية الرجم : قال : « لا أستطيع الآن » . هذا أو نحو[٢] ذلك .

وقد رواه النسائى عن محمد بن المثنى ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جُبَير ، عن كَثِير بن الصَّلْت ، عن زيد بن ثابت ، به[٣] .

وهذه طرق كلها متعددة[٤] ، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها ، وبقى حكمها معمولا به ، ولله الحمد[٥] .

وقد أمر رسول اللّه ﷺ برجم هذه المرأة ، وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنَت مع الأجير . ورجم النبى[٦] ﷺ ماعزًا والغامديَّة . وكل هؤلاء لم يُنقَل عن رسول اللّه ﷺ أنه جَلدهم قبل الرجم . وإنما وردت الأحاديث الصِّحَاح المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم ، وليس فيها ذكر الجلد ؛ ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، رحمهم اللّه . وذهب الإمام أحمد ، رحمه اللّه ، إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصَن بين[٧] الجلد للآية ، والرجم للسنة ، كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى اللّه عنه ، أنه لما أتى بشُرَاحة[٨] ، وكانت قد زنت وهى مُحْصَنَةٌ ، فجلدها يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتُها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول اللّه ﷺ .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم ، وأهل السنن الأربعة ، من حديث قتادة ، عن الحسن ، عن حطَّان[٩] بن عبد اللّه الرَّقَاشىّ ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول اللّه ﷺ : « خذوا عنى ، خَذوا عنى ، قد جعل اللّه لهن سبيلا : البِكْر بالبِكْر ، جَلْد مائة وتغريب سنة[١٠] ، والثيب بالثيب ، جلد مائة والرجم »[١١] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى : فى حكم اللّه . لا ترجموهما وترأفوا بهما فى شرع اللّه ، وليس المنهى عنه[١٢] الرأفة الطبيعية [ألا تكون حاصلة][١٣] على ترك الحد ، [وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد][١٤] ، فلا[١٥] يجوز له ذلك .

قال مجاهد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان ، فتقام ولا تعطل . وكذا رُوى عن سعيد بن جُبَيْر ، وعَطَاء بن أبى رَبَاح . وقد جاء فى الحديث :

---

(١) فى ف ، أ : « والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما » . (٢) فى ف : « أو نحوه » .
(٣) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٧١٤٨) .
(٤) فى ف ، أ : « متعاضدة » . (٥) فى ف ، أ : « والله أعلم » . (٦) فى ف ، أ : « رسول الله » .
(٧) فى أ : « من » .
(٨) فى أ : « بسراجة » . (٩) فى أ : « عطاء » . (١٠) فى أ : « عام » .
(١١) المسند (٥ / ٣١٧) وصحيح مسلم برقم (١٦٩٠) وسنن أبى داود برقم (٤٤١٦) وسنن الترمذى برقم (١٤٣٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٩٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٥٠) .
(١٢) فى ف : « النهى عن » . (١٣ ، ١٤) زيادة من ف ، أ . (١٥) فى ف : « فإنه لا » .

«تعافَوُا الحدود فيما بينكم ، فما بلغنى من حَدٍّ فقد وَجَب » (١) . وفى الحديث الآخر : « لَحَدٌّ يقام فى الأرض ، خير لأهلها من أن يُمطَرُوا أربعين صباحا » (٢) .

وقيل : المراد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ : فلا تقيموا الحد كما ينبغى ، من شدة الضرب الزاجر عن المأثم ، وليس المراد الضرب المبرِّح .

قال عامر الشعبى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : رحمة (٣) فى شدة الضرب . وقال عطاء : ضرب ليس بالمبرِّح . وقال سعيد بن أبى عَرُوبَة ، عن حماد بن أبى سليمان : يجلد (٤) القاذف وعليه ثيابه ، والزانى تخلع ثيابه، ثم تلا : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، فقلت : هذا فى الحكم ؟ قال : هذا فى الحكم والجلد ـ يعنى فى إقامة الحد ، وفى شدة الضرب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن عبد الله الأَوْدِىّ (٥) ،حدثنا وَكِيع ، عن نافع ، [عن] (٦) ابن عُمْر ، عن (٧) ابن أبى مُلَيْكَة ، عن عبيد الله (٨) بن عبد الله بن عمر : أن جارية لابن عمر زنت، فضرب رجليها ـ قال نافع : أراه قال : وظهرها ـ قال : قلت : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، قال : يا بنى ، ورأيتنى أخَذَتْنى بها رأفة ؟ إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ، ولا أن أجعل جَلدها فى رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت (٩) .

وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : فافعلوا ذلك : أقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرِّحا ؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد جاء فى المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله ، إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها ، فقال : « ولك فى ذلك أجر » (١٠) .

وقوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ فى زجرهما ، وأنجع فى ردعهما ، فإن فى ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحة إذا كان الناس حضورا .

قال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى : علانية .

ثم قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، الطائفة: الرجل فما فوقه .

وقال مجاهد : الطائفة : رجل إلى الألف . وكذا قال عكرمة ؛ ولهذا قال الإمام أحمد : إن الطائفة تصدُق على واحد .

وقال عطاء بن أبى رباح: اثنان .وبه قال إسحاق بن رَاهَويه. وكذا قال سعيد بن جبير : ﴿ طَائِفَةٌ

(١) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٣٧٦) والنسائى فى السنن (٨ / ٧٠) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .
(٢) المسند (٢ / ٣٦٢) والنسائى فى السنن (٨ / ٧٥) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .
(٣) فى ف ، أ : « رحمة الله » . (٤) فى أ : « نجلد » . (٥) فى ف : « الأزدى » ، وفى أ : « الأرزمى » .
(٦) زيادة من جـ ، أ . (٧) فى ف ، أ : « وعن » . (٨) فى ف ، أ : « عبد الله » .
(٩) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٥٢) من طريق نافع عن ابن عمر فذكره .
(١٠) المسند (٣ / ٤٣٦) من حديث قرة المزنى ، رضى الله عنه .

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : يعنى : رجلين فصاعدا .

وقال الزهرى : ثلاثة نفر فصاعدا .

وقال عبد الرزاق : حدثنى ابن وَهْب ، عن الإمام مالك فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : الطائفة : أربعة نفر فصاعدا ؛ لأنه لا يكون شهادة فى الزنا دون أربعة شهداء فصاعدًا . وبه قال الشافعى .

وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصرى : عشرة . وقال قتادة : أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، أى : نفر من المسلمين ؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا بَقِيَّةُ قال : سمعت نصر بن علقمة فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : ليس ذلك للفضيحة ، إنما ذلك ليدعى اللهُ تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ .

هذا خَبَر من الله تعالى بأن الزانى لايَطأ إلا زانية أو مشركة . أى : لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة ، لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك : ﴿ الزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ ﴾ أى : عاص بزناه ، ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ : لا يعتقد تحريمه .

قال سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى عَمَرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ قال : ليس هذا بالنكاح ، إنما هو الجماع ، لا يزنى بها إلا زانٍ أو مشرك .

وهذا إسناد صحيح عنه ، وقد رُوى عنه من غير وجه أيضا . وقد رُوى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعُرْوَة بن الزبير ، والضحاك ، ومكحول ، ومُقَاتِل بن حَيَّان ، وغير واحد ، نحوُ ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفائف بالفجار من الرجال .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا قَيْس ، عن أبى حُصَين ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : حرَّم الله الزنا على المؤمنين .

وقال قتادة ، ومقاتل بن حيّان : حَرّم الله على المؤمنين نكاح البغايا ، وتَقَدّم فى ذلك فقال : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء : ٢٥] ، وقوله : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ الآية [المائدة : ٥] . ومن هاهنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى ما دامت

كذلك حتى تستتاب ، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا ،وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح ، حتى يتوب توبة صحيحة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقال الإمام أحمد : حدثنا عارم (١) ، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان قال : قال أبى : حدثنا الحضرمى، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عَمْرو ، رضى الله عنهما ، أن رجلا من المسلمين استأذنَ رسول الله ﷺ فى امرأة ـ يقال لها : « أم مهزول » ـ كانت تسافح ، وتشترط له أن تنفق عليه ـ قال : فاستأذن رسول الله ﷺ ـ أو : ذكر له أمرها ـ قال : فقرأ عليه رسول (٢) الله ﷺ : ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وقال النسائى : أخبرنا عمرو بن على ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الحضرمى ، عن القاسم بن محمد ، عن عبد الله بن عمرو قال : كانت امرأة ـ يقال لها : « أم مهزول » ـ وكانت تسافح،فأراد رجل من أصحاب رسول (٤) الله ﷺ أن يتزوجها ،فأنزل الله عز وجل: ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .

[و] (٦) قال الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا رَوح بن عُبَادة بن عُبَيد الله بن الأخنس ، أخبرنى عمرو بن شُعَيب عن أبيه ، عن جده قال : كان رجل يقال له « مَرْثَد بن أبى مرثد » ، وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة . قال : وكانت امرأة بَغى (٧) بمكة يقال لها « عَنَاق » ، وكانت صديقة له ، وأنه واعد (٨) رجلا من أسارى مكة يحمله . قال : فجئت حتى انتهيتُ إلى ظل حائط من حوائط مكة فى ليلة مقمرة ، قال : فجاءت « عناق » فأبصرت سواد ظلى تحت الحائط ، فلما انتهت إلىّ عرفتنى (٩) ، فقالت : مَرْثَد ؟ فقلت : مرثد . فقالت :مرحبًا وأهلا ، هلم فبت عندنا الليلة . قال : فقلت (١٠) : يا عناق ، حرم الله الزنا . فقالت (١١) : يا أهل الخيام ، هذا الرجل يحمل أسراكم . قال : فتبعنى ثمانية ودخلت الخَندمة (١٢) ، فانتهيت إلى غار ـ أو : كهف ـ فدخلت فيه (١٣) ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسى فبالوا ، فظل بولهم على رأسى ، فأعماهم الله عنى ـ قال : ثم رجعوا ، فرجعتُ إلى صاحبى فحملته ، وكان رجلا ثقيلا ، حتى انتهيت إلى الإذخَر ، ففككت عنه أكبُله (١٤) ، فجعلت أحمله ويعيننى ، حتى أتيت به (١٥) المدينة، فأتيت رسولَ الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أنكح عناقا ؟ أنكح عناقا ؟ ـ مرتين ـ فأمسك رسول الله ﷺ ، فلم يرد على شيئا ، حتى نزلت : ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فقال رسول الله ﷺ : « يا مرثد ، ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً

---

(١) فى ف ، أ : « عارم بن الفضل » . (٢) فى ف ، أ : « نبى » .
(٣) المسند (٢ / ١٥٩) .
(٤) فى ف : « النبى » .
(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٥٩) .
(٦) زيادة فى ف ، أ . (٧) فى أ : « تغنى » . (٨) فى ف : « وعد » . (٩) فى ف ، أ : « عرفت » .
(١٠) فى ف : « قلت » . (١١) فى ف : « قالت » . (١٢) فى ف ، أ : « الحديقة » . (١٣) فى أ : « به » .
(١٤) فى أ : « أكليله » . (١٥) فى ف : « قدمت » .

[وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ] (١)﴾ ، فلا تنكحها » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقد رواه أبو داود والنسائى ، فى كتاب النكاح من سننهما (٢) ، من حديث عبيد الله بن الأخنس، به (٣) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا مُسَدَّد أبو الحسن ، حدثنا عبد الوارث ، عن حبيب المعلم ، حدثنى عمرو بن شعيب ، عن سعيد المَقْبُرِىّ ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله » .

وهكذا أخرجه أبو داود فى سننه عن مسدد وأبى معمر ـ عبد الله بن عمرو ـ كلاهما عن عبد الوارث ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا عاصم بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عن أخيه عمر بن محمد ، عن عبد الله بن يسار ـ مولى ابن عمر ـ قال : أشهد لسمعت سالما يقول : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة ، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجلة ـ المتشبهة بالرجال ـ والديوث . وثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، ومُدْمِن الخمر ، والمنَّان بما أعطى » .

ورواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس ، عن يزيد بن زُرَيع ، عن عُمَر بن محمد العُمَرى ، عن عبد الله بن يسار ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، حدثنا الوليد بن كثير ، عن قَطَن بن وهب، عن عُوَيْمر بن الأجدع ، عمن حدثه ، عن سالم بن عبد الله بن عمر قال : حدثنى عبد الله ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة حرم الله عليهم الجنة : مدمن الخمر ، والعاق ، والدَّيُّوث الذى يقر فى أهله الخبث » (٦) .

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده : حدثنا شعبة ، حدثنى رجل ـ من آل سهل بن حُنَيْف ـ عن محمد بن عَمَّار ، عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة ديُّوث » (٧) .

يستشهد به لما قبله من الأحاديث .

وقال ابن ماجه : حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سَلام بن سَوَّار ، حدثنا كَثِير بن سُلَيم ، عن الضحاك بن مُزَاحِم : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ [يقول] (٨) : « من أراد أن يلقى الله طاهرًا مُطَهَّرًا ، فليتزوج الحرائر » .

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « سننيهما » .
(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٧٧) وسنن أبى داود برقم (٢٠٥١) وسنن النسائى (٦ / ٦٦) .
(٤) سنن أبى داود برقم (٢٠٥٢) .
(٥) المسند (٢ / ١٣٤) وسنن النسائى (٨ / ٨٠) .
(٦) المسند (٢ / ٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع (٨ / ١٤٧) : « فيه راوٍ لم يسم » .
(٧) مسند الطيالسى برقم (٦٤٢) .
(٨) زيادة من ف ، أ .

فى إسناده ضعف [١] .

قال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حَمَّاد الجوهرى فى كتاب « الصحاح فى اللغة » : الدَّيُّوث القُنْذُع وهو الذى لا غَيرَةَ له [٢] .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائى فى كتاب « النكاح » من [٣] سننه : أخبرنا محمد بن إسماعيل بن عُلَيَّة ، عن يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة وغيره ، عن هارون ابن رئاب ، عن عبد اللّه بن عبيد بن عمير ـ وعبد الكريم ، عن عبد اللّه بن عُبَيد بن عمير ، عن ابن عباس ـ عبدُ الكريم رفعه إلى ابن عباس ، وهارون لم يرفعه ـ قالا : جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال : إن عندى امرأة [هى] [٤] من أحبِّ الناس إلى [٥] ، وهى لا تمنع يد لامِس . قال : «طلقها». قال : لا صبر لى عنها . قال : « استمتع بها » .

ثم قال النسائى : هذا الحديث غير ثابت ، وعبد الكريم ليس بالقوى ، وهارون أثبت منه ، وقد أرسل الحديث وهو ثقة ، وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم [٦] .

قلت : وهو ابن أبى المخارق البصرى المؤدب تابعى ضعيف الحديث ، وقد خالفه هارون بن رئاب، وهو تابعى ثقة من رجال مسلم ، فحديثه المرسل أولى كما قال النسائى . لكن قد رواه النسائى فى كتاب « الطلاق » ، عن إسحاق بن راهويه ، عن النضر بن شُمَيل [٧] ، عن حماد بن سلمة ، عن هارون بن رئاب ، عن عبد اللّه بن عُبَيد بن عمير ، عن ابن عباس مسندا ، فذكره بهذا الإسناد ، رجاله على شرط مسلم ، إلا أن النسائى بعد روايته له قال : « وهذا خطأ ، والصواب مرسل » [٨] . ورواه غير النضر على الصواب .

وقد رواه النسائى أيضا وأبو داود ، عن الحسين بن حُرَيث ، أخبرنا الفضل بن موسى ، أخبرنا الحسين بن واقد ، عن عُمَارة بن أبى حفصة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبى ﷺ فذكره . وهذا إسناد جيد [٩] .

وقد اختلف الناس فى هذا الحديث ما بين مُضَعِّف له ، كما تقدم عن النسائى ، وكما قال الإمام أحمد : هو حديث منكر .

وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلا . وحكاه النسائى فى سننه عن بعضهم فقال : وقيل : « سخية تعطى » ، ورُدّ هذا بأنه لو كان المراد لقال : لا تَرُدّ يد ملتمس .

---

(١) سنن ابن ماجة برقم (١٨٦٢) ووجه ضعف إسناده ؛ لأن فيه كثير بن سليم ، وهو ضعيف ، وسلام هو ابن سليمان بن سوار المدائنى، قال ابن عدى : « عنده مناكير » ، وقال العقيلى : « فى حديثه مناكير » ، قال ذلك البوصيرى فى مصباح الزجاجة (٢/ ٧٣).

(٢) الصحاح (١ / ٢٨٢) .

(٣) فى ف ، أ : « فى » .　　(٤) زيادة من ف ، أ ، والنسائى .　　(٥) فى ف : « لى » .

(٦) سنن النسائى (٦ / ٦٧) .

(٧) فى ف ، أ : « إسماعيل » .

(٨) سنن النسائى (٦ / ١٧٠) .

(٩) سنن النسائى (٦ / ١٦٩) .

وقيل : المراد أن سجيتها لا تَرُدّ يد لامس ، لا أن المراد أن هذا واقع منها ، وأنها تفعل الفاحشة؛ فإن رسول الله ﷺ لا يأذن فى مصاحبة من هذه صفتها . فإن زوجها ــ والحالة هذه ــ يكون ديّوثا ، وقد تقدم الوعيد على ذلك . ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد ، أمره رسولُ الله ﷺ بفراقها . فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها ؛ لأن محبته لها محققة ، ووقوع الفاحشة منها متوهم (١) ، فلا يُصَار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

قالوا : فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج ، كما قال الإمام أبو محمد بن أبى حاتم ، رحمه الله :

حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو خالد ،عن ابن أبى ذئب ،قال :سمعت [شعبة] (٢) ـ مولى ابن عباس ، رضى الله عنه ـ قال : سمعت ابن عباس وسأله رجل قال (٣) : إنى كنت ألم بامرأة آتى منها ما حَرّم الله ، عز وجل ، علىّ ، فرزق الله ، عز وجل من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها ، فقال أناس : إن الزانى لا ينكح إلا زانية . فقال ابن عباس : ليس هذا فى هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلى .

وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن يحيي بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : ذُكر عنده ﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ** ﴾ ، قال : كان يقال: نسختها [الآية] (٤) التى بعدها : ﴿ **وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ** ﴾ [النور: ٣٢] ، قال : كان يقال الأيامى من المسلمين .

وهكذا رواه الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب « الناسخ والمنسوخ » له ، عن سعيد بن المسيب . ونص على ذلك أيضا الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، رحمه الله .

﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)** ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهى الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضًا ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء . فأما إن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله ، رُدّ عنه الحد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ ، فأوجب على القاذف إذا لم يقم بينة على

(١) فى أ : « يتوهم » .
(٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) فى أ : « فقال » .
(٤) زيادة من ف ، أ .

صحة ما قاله ثلاثة أحكام :

أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة .

الثانى : أنه [١] ترد شهادته دائما .

الثالث : أن يكون فاسقًا ليس بعدل ، لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، اختلف العلماء فى هذا الاستثناء : هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى ، سواء تاب أو أصر ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف ـ فذهب الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . ونص عليه سعيد بن المسيب ـ سيد التابعين ـ وجماعة من السلف أيضًا .

وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبدًا . وممن ذهب إليه من السلف القاضى ـ شُرَيح ، وإبراهيم النَّخَعِىّ ، وسعيد ابن جُبَيْر ، ومكحول ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم [٢] .

وقال الشعبى والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته ، والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها فَرَج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها ، كما أمر الله ، عز وجل [٣] ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعى عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله فى مقابلة أربعة شهداء ، ﴿ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى : فيما رماها به من الزنا ، ﴿ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ . فإذا قال ذلك ، بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه أبدًا ، ويعطيها مهرها ، ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها إلا أن تلاعن ، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، أى : فيما رماها به ، ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . ولهذا قال : ﴿ وَيَدْرَأُ

---

(١) فى ف : « أن » . (٢) فى ف : « جابر » . (٣) فى أ : « الله تعالى » .

عَنْهَا الْعَذَاب ﴾ يعنى : الحد ، ﴿ **أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَات بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِين** ﴾ . فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهى تعلم صدقه فيما رماها به . ولهذا كانت الخامسة فى حقها أن غضب الله عليها . والمغضوب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يحيد عنه .

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه ، ورأفته بهم ، وشرعه [١] لهم الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق ، فقال : ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُه** ﴾ أى : لحرجتم [٢] ولشق عليكم كثير من أموركم ، ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ** ﴾ [أى] [٣] : على عباده ـ وإن كان بعد الحلف والأيمان المغلظة ـ ﴿**حَكِيم**﴾ فيما يشرعه [٤] ويأمر به وفيما ينهى عنه .

وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية ، وذكر سبب نزولها ، وفيمن نزلت فيه من الصحابة ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا عَبَّاد بن منصور عن عكْرِمَة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا** ﴾ قال سعد بن عبادة ـ وهو سيد الأنصار ـ : هكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ :« يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ، لا تَلُمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قَطّ [إلا بكرًا ، وما طلق امرأة له قط] [٥] فاجترأ رجل منا أن يتزوجها ، من شدة غيرته. فقال سعد : والله ـ يا رسول الله ـ إنى لأعلم أنها حق ، وأنها من الله ، ولكنى قد تعجَبت أنى لو وجدت لكاعًا قد تَفَخَّذها رجل ، لم يكن لى أن أهيّجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله لا آتى بهم حتى يقضى حاجته . قال : فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية ـ وهو أحد الثلاثة الذين تِيبَ عليهم ـ فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينيه ، وسمع بأذنيه، فلم يُهيّجه حتى أصبح ، فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء ، فوجدتُ عندها رجلا ، فرأيت بعينى ، وسمعت بأذنى . فكَرِهَ رسولُ الله ﷺ ما جاء به ، واشتدّ عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا [٦] : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلالَ بن أمية ، ويبْطل شهادته فى المسلمين [٧] . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجًا . وقال هلال : يا رسول الله ، إنى قد أرى ما اشتد عليك مما [٨] جئت به ، والله يعلم إنى لصادق . فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه ، إذا أنزل الله على رسول الله ﷺ الوحى ـ وكان إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك ، فى تَرَبُّد وجهه [٩] . يعنى : فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى ـ فنزلت : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِم** ﴾ [١٠] الآية، فَسُرّى عن رسول الله ﷺ ، فقال : « أبشر يا هلال ، قد جعل الله لك فرجًا ومخرجًا » . فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربى ، عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : « أرسلوا إليها » .

---

(١) فى ف ، أ : « فى شرعه » . (٢) فى ف : « خرجتم » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى أ : « فيما شرعه » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٦) فى ف : « فقالت » .
(٧) فى هـ : « ويبطل شهادته فى الناس » والمثبت من ف ، أ ، والمسند . (٨) فى ف : « فيما » .
(٩) فى أ : « جلده » . (١٠) فى ف ، أ : ﴿ **فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ** ﴾ .

فأرسلوا إليها ، فجاءت ، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، وذكرهما وأخبرهما أن عذابَ الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا . فقال هلال : والله ـ يا رسول الله ـ لقد صَدَقتُ عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : « لاعنوا بينهما » . فقيل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كان فى الخامسة قيل له : يا هلال ، اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبةُ التى توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبنى الله عليها ، كما لم يجلدنى عليها . فشهد فى الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل [لها : اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، فلما كانت الخامسة قيل] [١] لها : اتقى الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبةُ التى توجب عليك العذاب . فتلكأت ساعة ، ثم قالت : والله لا أفضح قومى . فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى ألا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى ألا [بيت لها عليه ولا] [٢] قوت لها ، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ،ولا مُتَوَفى عنها. وقال : « إن جاءت به أُصَيْهِب أُرَيسح حَمْش الساقين فهو لهلال ، وإن جاءت به أورق جعداً جُمَاليّاً خَدَلَّج الساقين سابغ الأليتينِ ، فهو الذى رميت به » . فجاءت به أورقَ جَعداً جَماليّاً خَدلَّج الساقين سابغ الأليتين ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » .

قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميراً على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب .

ورواه أبو داود عن الحسن بن علىّ ، عن يزيد [٣] بن هارون ، به نحوه مختصراً [٤] .

ولهذا الحديث شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ما قال البخارى :

حدثنى محمد بن بَشَّار ، حدثنا ابن أبى عَدىّ ، عن هشام بن حسان ، حدثنى عكْرِمَة ، عن ابن عباس ؛ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشَرِيك بن سَحْماء ، فقال رسولَ الله [٥] ﷺ : « البينة أوحَدٌ فى ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إذا أرى [٦] أحدنا على امرأته رجلا ينطلقُ يلتمس البينة ؟ فجعل النبى ﷺ يقول : « البينة وإلا حدّ فى ظهرك » . فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلن [٧] الله ما يُبرئ ظهرى [٨] من الحد . فنزل جبريل ، وأنزل [٩] عليه : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُم** ﴾ ، فقرأ حتى بلغ : ﴿ **إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِين** ﴾ . فانصرف النبى ﷺ ، فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد ، والنبى ﷺ يقول : « الله يشهد أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب » ؟ ثم قامت فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وَقّفُوها وقالوا : إنها مُوجبة . قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم . فمضت ، فقال النبى ﷺ : « أبْصرُوها ، فإن جاءت به أكحلَ العينين ، سابغ الأليتين ، خَدَلَّج الساقين ، فهو لشَرِيك بن سَحْمَاءَ». فجاءت به كذلك ،فقال النبى ﷺ:« لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن» .

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند. (٣) فى ف : « زيد » .
(٤) المسند (١ / ٢٣٨) وسنن أبى داود برقم (٢٢٥٦) .
(٥) فى ف ، أ : « النبى » . (٦) فى ف ، أ : « رأى » . (٧) فى أ : « ولينزل » .
(٨) فى ف : « ما يطهرنى » . (٩) فى ف : « فأنزل » .

انفرد به البخارى من هذا الوجه [١] ، وقد رواه من غير وجه ، عن ابن عباس وغيره .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الزيادى [٢] ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا صالح ـ وهو ابن عمر ـ حدثنا عاصم ـ يعنى : ابن كُلَيْب ـ عن أبيه ، حدثنى ابن عباس قال : جاء رجل إلى رسول اللّه ، فرمى امرأته برجل ، فكره ذلك رسولُ اللّه ﷺ ، فلم يزل يُرَدِّده حتى أنزل اللّه : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ [إِلا أَنفُسُهُمْ] [٣] ﴾ ، [فقرأ] [٤] حتى فرغ من الآيتين ، فأرسل إليهما فدعاهما ، فقال : « إن اللّه ، عزّ وجل ، قد أنزل فيكما » . فدعا الرجل فقرأ عليه ، فشهد أربع شهادات باللّه إنه لمن الصادقين . ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه ، فقال له : « كل شىء أهون عليه من لعنة اللّه » . ثم أرسله فقال : ﴿ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ، ثم دعا بها ، فقرأ عليها ، فشهدت أربع شهادات باللّه إنه لمن الكاذبين ، ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها ، وقال : « ويحك . كل شىء أهون من غضب اللّه » . ثم أرسلها ، فقالت : ﴿ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فقال رسول اللّه ﷺ : « أما واللّه لأقضينّ بينكما قضاء فصلا » . قال : فولدت ، فما رأيت مولودًا بالمدينة أكثر غاشية منه، فقال : « إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا ، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا » . فجاءت به يشبه الذى قُذفت به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان قال : سمعت سعيد بن جُبَير قال : سُئِلْتُ عن المتلاعنين أيفرّق بينهما ـ فى إمارة ابن الزبير ؟ فما دَرَيْتُ ما أقول ، فقمت من مكانى إلى منزل ابن عمر فقلتُ : أبا عبد الرحمن ، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان اللّه ، إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال : يا رسول اللّه ، أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تَكَلَّم تكلم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك . فسكت فلم يجبه ، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال : الذى سألتك عنه قد ابتُليت به . فأنزل اللّه عز وجل هذه الآيات [٥] فى سورة النور : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ، حتى بلغ : ﴿ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فبدأ بالرجل فوعظه وذكَّره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة ، فقال : والذى بعثك بالحق ما كَذَبْتُك . ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكَّرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقالت : والذى بعثك بالحق [٦] ، إنه لكاذب . قال : فبدأ بالرجل ، فشهد أربع شهادات باللّه إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة اللّه عليه إن كان من الكاذبين . ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات باللّه إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب اللّه عليها إن كان من الصادقين ، ثم فَرَّقَ بينهما .

رواه النسائى فى التفسير ، من حديث عبد الملك بن أبى سليمان ، به [٧] . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث سعيد بن جبير ، عن ابن عباس [٨] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٧) .

(٢) فى أ : « الرمادى » . (٣ ، ٤) زيادة من أ .

(٥) فى أ : « الآية » . (٦) زيادة من ف ، أ . فى ف ، أ : « والذى بعثك بالحق ما كذبتك » .

(٧) المسند (٢ / ١٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٥٧) .

(٨) صحيح البخارى برقم (٥٣١٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٣) .

علقمة ، عن عبد الله قال : كنَّا جلوسًا عشية الجمعة فى المسجد ، فقال رجل من الأنصار : أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت عن غيظ ؟ والله لَئن أصبحت صالحًا لأسألن رسول الله ﷺ . قال : فسأله . فقال : يا رسول الله ، إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا فقتله قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ اللهم احكم . قال : فأنزل آية اللعان ، فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به .

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه من طُرُق ، عن سليمان بن مِهْران الأعمش ، به [(١)] .

وقال الإمام أحمد أيضًا : حدثنا أبو كامل : حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب ، عن سهل بن سعد ، قال : جاء عُوَيْمر إلى عاصم بن عَدِىّ فقال : سَلْ رسول الله ﷺ : أرأيت رجلا وجد رجلا مع امرأته فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسولّ الله ﷺ ، فعابَ رسولَ الله ﷺ المسائل . قال: فلقيه عُوَيمر فقال : ما صنعْتَ ؟ قال : ما صنعت ! إنك لم تأتنى بخير ؛ سألت رسول ﷺ فعاب المسائل . فقال عُوَيمر : والله لآتين رسول الله ﷺ فَلأسألنه . فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما . قال : فدعا بهما فَلاعَن بينهما . قال عُوَيمر : لئن انطلقتُ بها يا رسول الله لقد كذبت عليها . قال : ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ ، فصارت سنة المتلاعنين ، فقال رسول الله ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَة فلا أراه إلا كاذبًا » . فجاءت به على النعت المكروه .

أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذى ، من طرق ، عن الزهرى ، به [(٢)] .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسحاق بن الضيف ، حدثنا النضر بن شُمَيْل ، حدثنا يونس بن أبى إسحاق ، عن أبيه ، عن زيد [(٣)] بن يُثَيْع ، عن حذيفة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بكر : « لو رأيت مع أم رومان رجلا ما كنت فاعلا به ؟ قال : كنت والله فاعلا به شرًا . قال : « فأنتَ ياعمر ؟ » . قال : كنتُ والله فاعلا ، كنت أقول : لعن الله الأعجز ، وإنه خبيث . قال : فنزلت : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ** ﴾ .

ثم قال : لا نعلم أحدًا أسنده إلا النَّضْر بن شُمَيْل ، عن يونس بن أبى إسحاق ، ثم رواه من حديث الثورى عن [أبى] [(٤)] أبى إسحاق ، عن زيد بن يُثَيْع مرسلا ، فالله أعلم [(٥)] .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا مسلم بن أبى مسلم الجَرْمى ، حدثنا مُخَلَّدُ بن الحسين ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : لأول لعان كان فى الإسلام أن شَرِيكَ بن سَحْمَاء قذَفه هلال بن أمية بامرأته ، فرفعه إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أربعة شهود وإلا فَحَدٌّ فى ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إن الله يعلم إنى لصادق ، ولينزلن الله عليك ما يبرئ به ظهرى من الجلد . فأنزل الله آية اللعان : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنفُسُهُمْ** ﴾ إلى آخر الآية. قال : فدعاه النبى ﷺ فقال : « اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا » فشهد بذلك أربع

---

(١) المسند (١ / ٤٢١) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٥) .

(٢) المسند (٥ / ٣٣٤) وصحيح البخارى برقم (٤٧٤٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٩٢) وسنن أبى داود برقم (٢٢٤٥) وسنن النسائى (٦ / ١٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٦٦) .

(٣) فى أ : « يزيد » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) مسند البزار برقم (٢٢٣٧) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٧٤) : « رجاله ثقات » .

شهادات ، ثم قال له فى الخامسة : « ولعنة اللّه عليك إن كنتَ من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا » ، ففعل. ثم دعاها رسول اللّه ﷺ فقال : « قومى فاشهدى باللّه إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا » . فشهدت بذلك أربع شهادات ، ثم قال لها فى الخامسة : « وغَضب اللّه عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا » ، فقالت : فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة ، حتى ظنوا أنها ستعترف ، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم . فمضت على القول ، ففرّق رسول اللّه ﷺ بينهما ، وقال : « انظروه ، فإن جاءت به جَعْدًا حَمْشَ الساقين ، فهو لشَرِيك بن سَحْماء ، وإن جاءت به أبيض سبطا قَضيء [١] ، العينين فهو لهلال بن أمية » . فجاءت به آدَمَ جَعَدًا حَمْش الساقين ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لولا ما نزل فيهما من كتاب اللّه ، لكان لى ولها شأن » [٢] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) ﴾ .

هذه العشر الآيات كلها نزلت فى شأن عائشة أم المؤمنين ، رضى اللّه عنها ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التى غار اللّه تعالى [٣] لها ولنبيه ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، فأنزل [اللّه عز وجل] [٤] براءتها صيانة لعرض الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام [٥] ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ ﴾ أى : جماعة منكم ، يعنى : ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدَّم فى هذه اللعنة [٦] عبد اللّه بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه ، حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين ، فتكلموا به ، وَجوّزه آخرون منهم ، وبقى الأمر كذلك قريبًا من شهر، حتى نزل القرآن ، وسياق ذلك فى الأحاديث الصحيحة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهرى قال : أخبرنى سعيد بن المسيَّب ، وعُرْوَة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص ، وعُبَيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود ، عن حديث عائشة زوج النبى ﷺ ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها اللّه ، وكلّهم قد حدثنى بطائفة من حديثها ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصًا ، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذى حدثنى ، وبعض حديثهم يصدق بعضًا : ذكروا أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : كان رسول اللّه ﷺ إذا أراد أن يخرج سَفَرًا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول اللّه ﷺ معه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمى ، وخرجت مع رسول اللّه ﷺ ، وذلك بعدما أنزل الحجابُ ، فأنا أحْمَل فى هَودَجى وأنزل فيه مسيرنا ، حتى إذا فرغ رسول اللّه ﷺ من غَزْوه وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى ، فإذا عقْدٌ من جَزْع ظَفَار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى ، فحَبَسنى ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فحملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب ـ وهم يحسبون أنى فيه ـ قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يُهَبِّلْهُنَّ ولم يغشهن اللحمُ ، إنما يأكلن العُلْقَة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقَل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ،

---

(١) فى أ : « قضى قصير » .
(٢) مسند أبى يعلى (٥ / ٢٠٧) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٩٦) من طريق هشام عن محمد ، به .
(٣) فى أ : « جل شأنه » . (٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « ﷺ » . (٦) فى أ : « العصبة » .

ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعون إلىّ . فبينا أنا جالسة فى منزلى ، غلبتنى عينى فنمت ــ وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذّكْوَانَى قد عَرّس من وراء الجيش ـ فادّلج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى . وقد كان يرانى قبل أن يُضْرَب علىّ الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخَمّرت وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غيرَ استرجاعه ، حتى أناخ راحلته ، فَوَطِئَ على يَدها فركبتُها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مُوغرين فى نحر الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كِبْره عبد الله بن أبى بن سلول . فَقَدمتُ المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهرا ، والناس يُفيضُون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشىء من ذلك ، وهو يَريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللُّطْف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ، ثم يقول : « كيف تِيكُم ؟ » فذلك يَريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد ما نَقِهْتُ وخَرَجَت مَعى أم مِسْطح قبل المناصع ــ وهو مُتَبرَّزُنا ـ ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نَتَّخذَ الكُنُف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه ، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها فى بيوتنا . فانطلقت أنا وأم مسْطح ــ وهى ابنة أبى رُهْم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة ضخر بن عامر ، خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسْطَح بن أثاثة بن عَبَّاد بن المطلب ــ فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قِبَلَ بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسْطح فى مِرْطها فقالت : « تَعِس مسْطح » . فقلت لها : بئسما قلت . تسبين رجلا [قد] [١] شهد [٢] بدرا ؟ قالت : أىْ هَنْتاه ، ألم [٣] تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فأخبرتنى [٤] بقول أهل الإفك ، فازددتُ مرضًا إلى [٥] مرضى . فلما رجعتُ إلى بيتى فدخل على رسول الله ﷺ فسلم ، ثم قال : « كيف تِيكُم ؟ » قلت : أتأذن لى أن آتى أبوىّ ـ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قِبَلهما ـ فأذنَ لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمَّتاه ، ما يتحدث الناس ؟ فقالت : أىْ بُنَية [٦] ، هَوِّنى عليك ، فوالله لقلما كانت [٧] امرأة قَطّ وضيئة ، عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلتُ : سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . فدعا رسول الله ﷺ عَليًا [٨] ، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحىُ، يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه له من الود ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك، ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : لم يُضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدُقك الخبر. قالت [٩] : فدعا رسول الله ﷺ بَريرة ، فقال : « أىْ بَريرة ، هل رأيت من شىء يَريبك من عائشة؟» فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إنْ رأيت عليها أمرا قَطّ أغمصُه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبى بن سَلُول . قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ، مَنْ يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرًا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرًا ،

---

(١) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٢) فى أ : « شاهد » . (٣) فى ف : « أولم » .
(٤) فى ف ، أ : « وماذا قال ؟ قالت : فأخبرتنى » . (٥) فى أ : « على » . (٦) فى ف ، أ : « يا بنية » .
(٧) فى ف : « ما كانت » . (٨) فى المسند : « على بن أبى طالب » . (٩) فى ف : « قال » .

وماكان يدخل على أهلى إلا معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية ـ فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله[١]، ولا تقدر على قتله . فقام أُسَيد بن حُضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال لسعد بن عبادة: كذبت ! لعمر الله [٢] لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هَمّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ [قائم على المنبر . فلم يزل رسول الله ﷺ] [٣] يُخَفّضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكيت يومى ذلك ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى . قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى ، استأذَنَت على امرأة من الأنصار ، فأذنتُ لها ، فجلست تبكى معى ، فبينا نحن على ذلك [٤] ، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ـ قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل [لى] [٥] ما قيل ، وقد لبث شهرًا لا يُوحَى إليه فى شأنى شىء ـ قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كُنت ألْمَمْت بذنب فاستغفرى الله ثم توبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت [٦] لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أدرى ما أقول للرسول . فقلت لأمى: أجيبى عنى رسول الله . فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله . قالت : فقلت ـ وأنا جارية حديثة السن ، لا أحفظ [٧] كثيرا من القرآن ـ : [إنى] [٨] والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا ، حتى استقر [٩] فى أنفسكم وصدقتم به ، ولَئن [١٠] قلت لكم إنى بريئة ـ والله يعلم إنى بريئة ـ لا تصدقونى [بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر والله عز وجل يعلم أنى بريئة تصدقونى][١١] ، وإنى والله ما أجد لى [١٢] ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مُبَرِّئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى، ولشأنى كان أحقرَ فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يُتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤْيا يبرّئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ من مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجُمَان من العرق فى اليوم الشاتى ، من ثقَل القول الذى أنزل عليه . قالت [١٣] : فلما سُرِّىَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : «أبشرى يا عائشة ، أما الله [١٤] فقد بَرّأك[١٥]» . فقالت لى أمى : قومى إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى[١٦] ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ** ﴾ عشر آيات . فأنزل الله هذه الآيات براءتى قالت : فقال أبو بكر ، رضى الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره ـ : والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة . فأنزل الله عز

---

(١) فى ف : « لعمر والله لنقتلنه » .
(٢) فى ف : « والله » .
(٣) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٤) فى ف ، أ : « كذلك » .
(٥) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٦) فى ف ، أ : « قلت » .
(٧) فى ف ، أ : « لا أقرأ » .
(٨) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٩) فى ف ، أ : « استقرت » .
(١٠) فى ف : « وإن » .
(١١) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(١٢) فى ف : « والله إنى لا أجد لى » .
(١٣) فى ف : « ذلك » .
(١٤) فى ف ، أ : « والله » .
(١٥) فى ف ، أ : « فقد برأك الله » .
(١٦) فى أ : « هو الذى برأنى » .

وجل : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُم ﴾ [النور : ٢٢]، فقال أبو بكر (١) : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فَرجّع إلى مِسْطَح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال: لا أنزعها منه أبدًا .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينبَ بنت جحش ـ زوجَ النبى ﷺ ـ عن أمرى : يا زينب ، ما علمت ، أو : ما رأيت [أو ما بلغك] (٢) ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمتُ إلا خيرًا . قالت عائشة : وهى التى كانت تُسَامينى من أزواج النبى ﷺ (٣) ، فعصمها الله تعالى بالورع . وطَفِقَت أختها حَمنة بنت جحش تُحارب لها ، فهلكت فيمن هلك .

قال ابن شهاب : فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط .

أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، من حديث الزهرى (٤) . وهكذا رواه ابن إسحاق ، عن الزهرى كذلك ، قال : وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عائشة . وحدثنى عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى ، عن عمرة ، عن عائشة (٥) بنحو (٦) ما تقدم ، والله أعلم (٧) .

ثم قال البخارى : وقال أبو أسامة ، عن هشام بن عُرْوَة قال : أخبَرَنى أبى ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : لما ذُكرَ من شأنى الذى ذُكر وما عَلمتُ به ، قام رسولُ الله ﷺ فىَّ خطيبا ، فتشهد فَحَمدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أشيروا عَلَىّ فى أناس أبَنُوا أهلى ، وَايمُ الله ما علمت على أهلى من سوء (٨) ، وأبَنُوهم بمَن والله ما علمتُ عليه من سوء قطّ ، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : ائذن يا رسول الله أن نضرب أعناقهم ، فقام رجل من الخزرج ـ وكانت أمّ حسان [بن ثابت] (٩) من رهط ذلك الرجل ـ فقال : كذبت، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببتَ أن تُضرب أعناقهم . حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شَرٌّ فى المسجد ، وما عَلمتُ . فلما كان مساء ذلك اليوم ، خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فعَثَرتْ فقالت: تَعس مسطح ، فقلت : أىْ أمّ ، أتسبين ابنك ؟ وسكتت ، ثم عَثَرت الثانية فقالت : تَعس مسطح. فقلت لها: أىْ أمّ ، تسبين ابنك ؟ ثم عثَرت الثالثة فقالت : تَعس مسْطح . فانتهرتها فقالت : والله ما أسبه إلا فيك، فقلت : فى أىّ شأنى ؟ قالت : فَبَقَرت لى الحديث . فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله . فرجعتُ إلى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيرًا ، ووُعكت ، وقلت لرسول الله ﷺ : أرسلنى إلى بيت أبى . فأرسل معى الغلام ، فدخلتُ الدار ، فوجدت أم رومان فى السّفل ، وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت [لى] (١٠) أمى : ما جاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها ، وذكرتُ لها الحديثَ ، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ منى ، [فقالت : يا بنية ، خَفِّضى عليك الشأن ؛ فإنه ـ والله ـ لَقَلَّما كانت امرأة

(١) فى ف ، أ : « فقال أبو بكر : أى والله » . (٢) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٣) فى ف ، أ : « رسول الله » .

(٤) المسند (٦ / ١٩٤) وصحيح البخارى برقم (٤٧٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٠) .

(٥) فى ف ، أ : « عمرة ، أخبرنى أبى عن عائشة » . (٦) فى ف : « نحو » .

(٧) رواه ابن هشام فى السيرة (٢ / ٢٩٧) من طريق ابن إسحاق ، ورواه الحافظ ابن ديزيل فى جزئه برقم (٢) من طريق أبى أويس عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى عن عمرة عن عائشة .

(٨) فى ف ، أ : « ما علمت على أهلى إلا خيرا ، أو ما علمت على أهلى من سوء » . (٩) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

(١٠) فى ف ، أ : « فقالت لى أمى » .

حسناء ، عند رجل يحبها ، لها ضرائر إلا حَسَدنها ، وقيل فيها وإذا هو لم يبلغ منها ما بلغ منى ، فقلت : وقد عَلِمَ به أبى ؟ قالت : نعم . قلت : ورسولُ اللّه ﷺ ؟ قالت : نعم ، ورسول اللّه ﷺ][1] . فاستَعْبَرْتُ وبكيت ، فسمعَ أبو بكر صوتى ، وهو فوق البيت يقرأ ، فنزل فقال لأمى : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذى ذُكر من شأنها . ففاضت عيناه وقال [2] : أقسمت عليك ـ أىْ بُنَيّة ـ إلا رجعت إلى بيتك . فَرَجعتُ ، ولقد جاء رسول اللّه ﷺ بيتى ، فسأل عنى خادمى [3] ، فقالت : لا ، واللّه ما علمت عليها عيبا، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خَميرها ـ أو : عجينها ـ وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدُقى رَسُولَ اللّه ﷺ ، حتى أسقطوا لها به ، فقالت : سبحان اللّه . واللّه ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبْر الذهب الأحمر . وبلغ الأمر ذلك الرجلَ الذى قيل له ، فقال : سبحان اللّه . واللّه ما كَشَفَتُ كَنَف أنثى قط ـ قالت عائشة : فقتل شهيدا فى سبيل اللّه ـ قالت : وأصبح أبواى عندى ، فلم يزالا حتى دخل على رسول اللّه ﷺ وقد صَلّى العصر ، ثم دخل وقد اكتنفَنى أبواى عن يمينى وعن شمالى ، فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد يا عائشة ، إن كنت قارفت سُوءًا أو ظَلَمت فتوبى إلى اللّه ، فإن اللّه يقبل التوبة عن عباده » . قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار ، فهى [4] جالسة بالباب ، فقلت : ألا تستحى من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ؟ فوَعَظَ رسولُ اللّه ﷺ ، فالتفتّ إلى أبى ، فقلت له : أجبْه . قال : فماذا أقول ؟ فالتفتُ إلى أمى فقلت : أجيبيه . قالت : أقول ماذا ؟ فلما لم يجيباه ، تَشَهَّدتُ فحمدتُ اللّه وأثنيت عليه بما هو أهله ، ثم قلت : أما بعد ، فَوَاللّه لئن قلت لكم إنى لم أفعل ـ واللّه عز وجل يشهد إنى لصادقة ـ ما ذاك بنافعى عندكم ، لقد تكلمتم به ، وأشْربته قلوبكم ، وإن قلت : إنى قد فعلت ـ واللّه يعلم أنى لم أفعل ـ لتقولُنَ : قد باءت به على نفسها ، وإنى ـ واللّه ـ ما أجد لى ولكم مثلا ـ والتمستُ اسم يعقوب فلم أقدر عليه ـ إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف : ١٨]، وأنزل اللّه على رسوله ﷺ من ساعته ، فسكتنا ، فَرُفع عنه وإنى لأتبين السرور فى وجهه ، وهو يمسح جبينه ويقول : « أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل اللّه براءتك » ، قالت : وكنت [5] أشد ما كنتُ غضبًا ، فقال لى أبواى : قومى [إليه][6] . فقلت : لا ، واللّه لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد اللّه الذى أنزل براءتى ، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيَّرتموه ، وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فقد عصمها اللّه بدينها ، فلم تقل إلا خيرًا . وأما أختها حَمنة بنت جحش ، فهلكت فيمن هلك . وكان الذى يتكلم به [7] مسطح وحسان بن ثابت . وأما المنافق عبد اللّه بن أبى بن سلول فَهو الذى [كان] [8] يستوشيه ويجمعه ، وهو الذى تولى كبْرَه منهم هو وحمنة . قالت : وحلف أبو بكر ألا ينفع مسطحا بنافعة أبدًا ، فأنزل اللّه : ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ** ﴾ إلى آخر الآية ، يعنى : أبا بكر ، ﴿ **وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ** ﴾ يعنى : مسطحا ، إلى قوله : ﴿ **أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [النور: ٢٢]. فقال أبو بكر: بلى واللّه يا ربّنا ، إنا لنُحبّ أن تغفر لنا وعاد له بما كان يصنع .

هكذا رواه البخارى من هذا الوجه مُعَلَّقا بصيغة الجزم [9] ، عن أبى أسامة حماد بن أسامة [أحد

---

(١) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .
(٢) فى ف : « فقال » .
(٣) فى ف ، أ : « خادمتى » .
(٤) فى ف : « وهى » .
(٥) فى ف : « فكنت » .
(٦) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .
(٧) فى ف : « فيه » .
(٨) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٥٧) .

الأئمة الثقات . وقد رواه ابن جرير فى تفسيره عن سفيان بن وَكيع ، عن أبى أسامة] [١] ، به مطولا، مثله أو نحوه [٢] . ورواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، ببعضه .

وقال الإمام أحمد : حَدّثنا هُشَيْم ، أخبرنا عمر [٣] بن أبى سلمة ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : لما نزل عُذْرى من السماء ، جاءنى النبى ﷺ فأخبرنى بذلك ، فقلت : نَحمدُ الله لا نَحمدك [٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنى ابن أبى عَدىّ ، عن محمد بن إسحاق ، عن عبد اللّه بن أبى بكر ، عن عَمْرَةَ ، عن عائشة قالت : لما نزل عُذْرىَ قام رسول اللّه ﷺ فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أمَرَ برجلين وامرأة فَضُربوا حدهم [٥] .

وأخرجه أهل السنن الأربعة ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ووقع عند أبى داود تسميتهم: حسان بن ثابت ، ومَسْطح بن أثاثة ، وحَمْنة بنت جحش .

فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة ، رضى اللّه عنها ، فى المسانيد والصحاح والسنن وغيرها[٦] .

وقد رُوى من حديث أمها أمّ رومان ، رضى اللّه عنها ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا على بن عاصم ، أخبرنا حُصَين عن أبى وائل ، عن مسروق ، عن أم رومان قالت : بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت عليها [٧] امرأة من الأنصار فقالت : فعل اللّه ـ بابنها ـ وفعل . فقالت عائشة : ولم ؟ قالت : إنه كان فيمن حَدَّث الحديث . قالت عائشة : وأىّ حديث ؟ قالت : كذا وكذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسولَ اللّه ﷺ ؟ قالت : نعم ، وبلغ أبا بكر ؟ قالت : نعم ، فخرت عائشة ، رضى اللّه عنها ، مغشيا عليها ، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض . قالت : فقمت فدثرتها، قالت : وجاء النبى ﷺ فقال : « ما شأن هذه ؟ » قلت : يا رسول اللّه ، أخذتها حمى بنافض . قال : فلعله فى حديث تُحدّث به » . قالت : فاستوت له عائشة قاعدة فقالت : واللّه لئن حلفت لكم لا تصدقونى ، ولئن اعتذرت إليكم لا تُعذرُونى ، فمثلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه ﴿**وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : وخرج رسول اللّه ﷺ ، فأنزل اللّه عُذرها ، فرجع رسول اللّه ﷺ معه أبو بكر ، [فدخل فقال : « يا عائشة ، إن اللّه تعالى قد أنزل عذرك » . فقالت : بحمد اللّه لا بحمدك . فقال لها أبو بكر : تقولين هذا لرسول اللّه ﷺ ؟ قالت: نعم . قالت : فكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر] [٨] ، فحلف أبو بكر ألا يصله ، فأنزل اللّه : ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ** ﴾ إلى آخر الآية [النور : ٢٢] ، قال أبو بكر : بلى . فوصله .

---

(١) زيادة من ف ، أ .

(٢) تفسير الطبرى (١٨ / ٧٤) ورواه الحافظ ابن ديزيل فى جزئه برقم (١) من طريق إسماعيل بن أبى أويس عن أبيه عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مثله .

(٣) فى أ : « عمرو » .

(٤) المسند (٦ / ٣٠) .

(٥) المسند (٦ / ٣٥) وسنن أبى داود برقم (٤٤٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٨١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٧٣٥١) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٦٧) .

(٦) فى ف : « وغيرهم » . (٧) فى ف : « علينا » . (٨) زيادة من ف ، أ ، والمسند .

تفرد به البخارى دون مسلم ، من طريق حُصَين (١) . وقد رواه البخارى عن موسى بن إسماعيل عن أبى عَوَانة ـ وعن محمد بن سلام ـ عن محمد بن فضيل ، كلاهما عن حصين ، به (٢) . وفى لفظ أبى عوانة : حدثتنى أم رومان . وهذا صريح فى سماع مسروق منها ، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ ، منهم الخطيب البغدادى ، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت فى زمان النبى ﷺ ، قال الخطيب : وقد كان مسروق يرسله فيقول : « سئلت أم رومان » ، ويسوقه ، فلعل بعضهم كتب «سُئلت » بألف ، فاعتقد الراوى أنها « سَألت » ، فظنه متصلا . قال الخطيب : « وقد رواه البخارى كذلك ، ولم تظهر (٣) له علته » . كذا قال ، والله أعلم .

فقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ ﴾ أى : بالكذب والبهت والافتراء ، ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ أى : جماعة منكم ، ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ أى : يا آل أبى بكر ، ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُم ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة، لسانُ صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين ، حيث أنزل الله تعالى براءتها فى القرآن العظيم الذى ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ؛ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ، رضى الله عنه(٤)، وهى فى سياق الموت ، قال لها : أبشرى ، فإنك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكرًا غيرك ، وأنزل (٥) براءتك من السماء (٦) .

وقال ابن جرير فى تفسيره : حدثنى محمد بن عثمان الواسطى ، حدثنا جعفر بن عَوْن ، عن المعلى بن عرفان ، عن محمد بن عبد الله بن جَحْش قال : تفاخَرَت عائشةُ وزينبُ ، رضى الله عنهما، فقالت زينب : أنا التى نزل تزوجى [من السماء] (٧) ، قال : وقالت عائشة : أنا التى نزل عُذرى فى كتابه ، حين حملنى ابن المعطل على الراحلة . فقالت لها زينب : يا عائشة ، ما قلت حين ركبتيها؟ قالت : قلت : حسبى الله ونعم الوكيل . قالت : قلت كلمة المؤمنين (٨) .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ ﴾ أى : لكل من تكلم فى هذه القضية ورَمَى أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بشىء من الفاحشة ، نصيب عظيم من العذاب .

﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ (٩) ﴾ : قيل : ابتدأ به . وقيل : الذى كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه، ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : على ذلك .

ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبى بن سَلُول ــ قبحه الله ولعنه ــ وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث ، وقال ذلك مجاهد وغير واحد .

وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ما

---

(١) المسند (٦ / ٣٦٧) وصحيح البخارى برقم (٤٧٥١) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٤٣) من رواية موسى بن إسماعيل ، وبرقم (٣٣٨٨) من رواية محمد بن سلام .
(٣) فى ف : « يظهر » . (٤) فى ف : « عنها » . (٥) فى ف : « ونزلت » .
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٥٣) .
(٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) تفسير الطبرى (١٨ / ٧٠) .
(٩) فى ف ، أ : « كبره منهم » .

قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر ، وأحسن محاسنه أنه كان يَذُبّ عن رسول اللّه ﷺ [بشعره] [١] ، وهو الذى قال له رسول اللّه ﷺ : «هاجهم وجبريل معك » .

وقال الأعمش ، عن أبى الضُّحَى ، عن مسروق قال : كنتُ عندَ عائشة ، رضى اللّه عنها ، فدخل حسان بن ثابت ، فأمرت فألقى له وسادة ، فلما خرج قلت لعائشة : ما تصنعين بهذا ؟ يعنى : يدخل عليك ـ وفى رواية قيل لها : أتأذنين لهذا يدخل عليك ، وقد قال اللّه : ﴿ **وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ ؟ قالت : وأىّ عذاب أشدّ من العمى ـ وكان قد ذهب بصره ـ لعل اللّه أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم . ثم قالت : إنه كان يُنافحُ عن رسول اللّه ﷺ .

وفى رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها [شعراً] [٢] يمتدحها به ، فقال :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنّ [٣] بريبة وتُصْبح غَرْثَى من لُحُوم الغَوَافِل

فقالت : أما أنت فلست كذلك . وفى رواية : لكنك لست كذلك [٤] .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن قَزْعَة ، حدثنا سلمة بن علقمة ، حدثنا داود ، عن عامر عن عائشة أنها قالت : ما سمعت بشَىء أحسن من شعر حسان ، ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبى سفيان ـ يعنى ابن [الحارث] [٥] ابن عبد المطلب ـ :

هَجَوتَ مُحَمَّدًا ، فَأجبتُ [٦] عنه وَعندَ اللّه فى ذاك الجَزَاءُ
فَإنَ أبى وَوَالده وعرْضى لعرْض مُحَمَّد منكم وقاءُ
أَتَشْتُمُه ، ولستَ لَه بكُفء ؟ فَشَرُكُما لخَيْرِكُمَا الفداءُ
لِسَانِى صَارمٌ لا عَيْبَ فيه وبَحْرِى لا تُكَدِّرُه الدِّلاءُ

فقيل : يا أم المؤمنين ، أليس هذا لغوا ؟ قالت : لا ، إنما اللغو ما قيل عند النساء . قيل : أليس اللّه يقول : ﴿ **وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ ، قالت : أليس قد أصابه [عذاب] [٧] عظيم؟ [أليس] [٨] قد ذهب بصره وكُنِّع بالسيف ؟ تعنى : الضربة التى ضربه إياها [٩] صفوان بن المعطل [السلمى] [١٠] ، حين بلغه عنه أنه يتكلم فى ذلك ، فعلاه بالسيف ، وكاد أن يقتله [١١] .

﴿ **لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)** ﴾ .

هذا تأديب من اللّه للمؤمنين فى قضية [١٢] عائشة ، رضى اللّه عنها ، حين أفاض بعضهم فى

(١ ، ٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « ما ترن » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٤٦) حدثنى بشر بن خالد عن محمد بن جعفر عن شعبة عن الأعمش ، به .
(٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « وأجبت » . (٧ ، ٨) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .
(٩) فى ف : « ضربها إياه » . (١٠) زيادة من ف ، أ .
(١١) تفسير الطبرى (١٨ / ٦٩) .
(١٢) فى ف : « قصة » .

ذلك الكلام السيئ ، وما ذكر من شأن الإفك ، فقال : ﴿ **لَوْلا** ﴾ بمعنى : هلا ﴿ **إِذْ سَمِعْتُمُوهُ** ﴾ أى : ذلك الكلام ، أى : الذى رميت به أم المؤمنين ﴿ **ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا** ﴾ أى : قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.

وقد قيل : إنها نزلت فى أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى وامرأته ، رضى اللّه عنهما ، كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يَسَار ، عن أبيه ، عن بعض رجال بنى النجار ؛ أن أبا أيوب خالدَ بن زيد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ، رضى اللّه عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب . أكنتِ فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا ، واللّه ما كنتُ لأفعله . قال : فعائشة واللّه خير منك . قالَ : فلما نزل القرآن ذكر اللّه ، عز وجل ، من قال فى الفاحشة ما قال من أهل الإفك : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ** ﴾ [النور : ١١] ، وذلك حسان وأصحابه ، الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال : ﴿ **لَّوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ** (١) ﴾ الآية ، أى : كما قال أبو أيوب وصاحبته (٢) .

وقال محمد بن عمر الواقدى : حدثنى ابن أبى حبيبة (٣) ، عن داود بن الحصين ، عن أبى سفيان ، عن أفلح مولى أبى أيوب ، أن أم أيوب قالت لأبى أيوب : ألا تسمع (٤) ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب ، أفكنت يا أم أيوب [فاعلة ذلك] (٥) ؟ قالت : لا واللّه . قال: فعائشة واللّه خير منك : فلما نزل القرآن ، وذكر أهل الإفك ، قال اللّه ، عز وجل : ﴿ **لَّوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ** ﴾ يعنى : أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال .

ويقال : إنما قالها أُبى بن كعب .

وقوله : ﴿ **ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا** ﴾ أى : هَلا ظنوا الخبر ، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به ، هذا ما يتعلق بالباطن ،﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أى : بألسنتهم : ﴿ **هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ** ﴾ أى : كذب ظاهر على أم المؤمنين ، فإن الذى وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجىء أم المؤمنين راكبة جَهْرَةً على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ، ورسول اللّه ﷺ بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا (٦) جَهْرَة ، ولا كانا يُقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ،بل كان يكون هذا ـ لو قُدر ـ خفية مستورا،فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رَمَوا به أم المؤمنين هو الكذب البحت،والقول الزور، والرّعُونة الفاحشة [الفاجرة] (٧)، والصفقة الخاسرة .

قال اللّه تعالى : ﴿ **لَّوْلا** ﴾ أى : هلا ﴿ **جَاءُوا عَلَيْهِ** ﴾ أى : على ما قالوه ﴿ **بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ** ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به ،﴿ **فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴾ أى : فى حكم اللّه كَذَبَةٌ فاجرون (٨) .

---

(١) فى ف ، أ : « ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا » .
(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٧٧) .
(٣) فى ف ، أ : « حبيب » . (٤) فى ف : « تستمع » . (٥) زيادة من ف ، أ .
(٦) فى ف : « هذا » . (٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف : « فجرة » .

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ .

يقول : [الله] (١) : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أيها الخائضون فى شأن عائشة ، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه فى الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ، ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ ، من قضية الإفك ، ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . وهذا فيمن عنده إيمان رزقه الله بسببه التوبة إليه ، كمسْطَح ، وحسان ، وحَمْنَةَ بنت جحش ، أخت زينبَ بنت جحش . فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى بن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين فى هذه الآية ؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه . وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين ، يكون مطلقًا مشروطًا بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عَمَل صالح يوازنُه أو يَرجح عليه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبير : أى : يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا : سمعته من فلان ، وقال فلان كذا ، وذكر بعضهم كذا .

وقرأ آخرون « إِذْ تَلِقُونَه بألسنتكم » . وفى صحيح البخارى عن عائشة : أنها كانت تقرؤها كذلك (٢) . وتقول : هو من وَلَق القول . يعنى : الكذب الذى يستمر صاحبه عليه (٣) ، تقول العرب : وَلَق فلان فى السير : إذا استمر فيه (٤) . والقراءة الأولى أشهر ، وعليها الجمهور ، ولكن الثانية مَرْويّة عن أم المؤمنين عائشة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو أسامة ، عن نافع بن عمر (٥) ، عن ابن أبى مليكة ، [عن عائشة أنها كانت تقرأ : « إِذْ تَلِقُونَه » ، وتقول : إنما هو وَلَق القول ــ والوَلَقُ : الكذب . قال ابن أبى مليكة (٦)] : هى أعلم به من غيرها .

وقوله : ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ أى : تقولون ما لا تعلمون .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أى : تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيرا [سهلاً] (٧) ، ولو لم تكن زوجة النبى ﷺ لما كان هَيِّنا ، فكيف وهى زوجة النبى الأمى ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، فعظيم عند الله أن يقال فى زوجة رسوله ما قيل ! الله يغار لهذا ، وهو ، سبحانه وتعالى ، لا يُقَدِّر على زوجة نبى من أنبيائه ذلك ، حاشا وكَلاَ ، ولما [لم يكن ذلك] (٨) ، فكيف يكون هذا فى سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ؟ ! ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ، وفى الصحيحين :

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١٤٤ ، ٤٧٥٢) .
(٣) فى ف : « فيه » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١٤٤) .
(٥) فى ف ، أ : « نافع عن ابن عمر » .
(٦ ، ٧ ، ٨) زيادة من ف ، أ .

«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله، لا يدرى ما تَبْلُغ ، يَهْوِى بها فى النار أبْعَد ما بين السماء والأرض » . وفى رواية : « لا يلقى لها بالا » (١) .

﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) ﴾ .

هذا تأديب آخر بعد الأول : الآمر بالظن خيرا ، أى : إذا ذكر ما لا يليق من القول فى شأن الخيرة(٢) ، فأولى ينبغى الظن بهم خيرا ، وألا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن علَق بنفسه شىء من ذلك ـ وسوسةً أو خيالاً ـ فلا ينبغى أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدَّثت به أنفسها (٣) ، ما لم تقل أو تعمل » . أخرجاه فى الصحيحين (٤) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ أى : ما ينبغى لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ ، أى : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على(٥) زوجة [نبيه و] (٦) رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ أى : ينهاكم الله متوعدا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبدًا ، أى : فيما يستقبل . فلهذا قال : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسولَه ﷺ ، فأما من كان متصفًا بالكفر فذاك له حكم آخر .

ثم قال : ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ أى : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحِكَمَ القَدَرِيّة ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى شَرْعه وقَدَره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) ﴾ .

وهذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيئ ، فقام بذهنه منه شىء ، وتكلم به ، فلا يكثر منه ويشيعه ويذيعه ، فقد قال تعالى (٧) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ ، أى : بالحد ، وفى الآخرة بالعذاب ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ أى: فردوا الأمور إليه تَرْشُدُوا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون بن أبى محمد المَرَئىّ ، حدثنا محمد بن عَبّاد المخزومى ، عن ثَوْبَان ، عن النبى ﷺ قال : « لا تُؤذوا عبادَ الله ولا تُعيِّروهم ، ولا تطلبوا

(١) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٨٨) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .
(٢) فى أ : « الحرة » . (٣) فى ف : « نفسها » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٢٧) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .
(٥) فى ف : « عن » . (٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف ، أ : « قال الله تعالى » .

عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم ، طلب الله عورته ، حتى يفضحه فى بيته »[١] .

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ أى : لولا هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده ، رحيم بهم . فتاب على من تاب إليه من هذه [القضية][٢] ، وطهر من طهر منهم بالحد الذى أقيم عليه .

ثم قال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** ﴾ يعنى : طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿ **وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾ : هذا تنفير وتحذير من ذلك ، بأفصح العبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ **خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** ﴾ : عمله . وقال عكرمة : نزغاته. وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان . وقال أبو مِجْلَز : النذور فى المعاصى من خطوات الشيطان .

وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إنى حرمت أن آكل طعامًا ؟ فقال : هذا من نزغات الشيطان ، كَفِّر عن يمينك ، وكُلْ .

وقال الشعبى فى رجل نَذَر ذَبْح ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشًا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا حسان بن عبد الله المصرى ، حدثنا السُّرِّىّ بن يحيى ، عن سلمان التيمى ، عن أبى رافع قال : غضبت على امرأتى فقالت : هى يومًا يهودية ، ويومًا نصرانية، وكل مملوك لها حر ، إن لم تطلق امرأتك . فأتيت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من نزغات الشيطان . وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة ، وهى يومئذ أفقه امرأة بالمدينة ، وأتيت عاصم ابن عمر، فقال مثل ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ أى : لَولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكى النفوس من شركها وفجورها ودسها وما فيها من أخلاق رديئة ، كل بحسبه ، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا ، ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ** ﴾ أى : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه فى مهالك الضلال والغىّ .

وقوله : ﴿ **وَاللَّهُ سَمِيعٌ** ﴾ أى : سميع لأقوال عباده[٣] ، ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بهم ، مَنْ يستحق منهم الهدى والضلال .

---

(١) المسند (٥ / ٢٧٩) .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف : « العباد » .

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **وَلا يَأْتَلِ** ﴾ من الألية ، [وهى : الحلف] (١) ، أى : لا يحلف ﴿ **أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ** ﴾ أى : الطَّول والصدقة والإحسان ﴿ **وَالسَّعَةِ** ﴾ أى : الجِدَة ، ﴿ **أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ أى : لا تحلفوا ألا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين . وهذه(٢) فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا** ﴾ أى : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآية نزلت فى الصدِّيق ، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح بن أثَاثَه بنافعة بعدما قال فى عائشة ما قال ، كما تقدم فى الحديث . فلما أنزل اللّه براءةَ أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب اللّه على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك ، وأقيم الحد على مَن أقيم عليه (٣) ــ شَرَعَ تبارك وتعالى ، وله الفضل والمنة ، يعطفُ الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مِسْطَح بن أثاثة ، فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ، رضى اللّه عنه ، وكان من المهاجرين فى سبيل اللّه ، وقد ولَق وَلْقَة (٤) تاب اللّه عليه منها ، وضُرب الحد عليها . وكان الصديق ، رضى اللّه عنه ، معروفًا بالمعروف ، له الفضل والأيادى على الأقارب والأجانب . فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ **أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ ، أى : فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر (٥) عن المذنب إليك نغفر (٦) لك ، وكما تصفح نصفح (٧) عنك . فعند ذلك قال الصديق : بلى ، واللّه إنا نحب ـ يا ربنا ـ أن تغفر لنا . ثم رَجَع إلى مِسْطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : واللّه لا أنزعها منه أبدًا ، فى مقابلة ما كان قال : واللّه لا (٨) أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصدّيق هو الصديق [رضى الله عنه وعن بنته] (٩) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) ﴾ .

هذ وعيد من اللّه تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات ـ خُرِّج مخرج الغالب ـ المؤمنات .

فأمهات المؤمنين أولى بالدخول فى هذا من كل محصنة ، ولاسيما التى كانت سبب النزول ، وهى عائشة بنت الصديق ، رضى اللّه عنهما .

وقد أجمع العلماء ، رحمهم اللّه ، قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به [بعد هذا

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « وهذا » . (٣) فى ف ، أ : « من أقيم الحد عليه » .
(٤) فى ف : « زلق زلقة » . (٥) فى ف : « يغفر » . (٦) فى ف : « يغفر » .
(٧) فى ف : « يصفح » . (٨) فى ف : « ما » . (٩) زيادة من ف ، أ .

الذى ذكر] (١) فى هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهي ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا** (٢) ﴾ [الأحزاب : ٥٧] .

وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة ، فقال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبد الله بن خراش ، عن العوَّام ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [قال] (٣) : نزلت فى عائشة خاصة.

وكذا قال [سعيد بن جبير و] (٤) مقاتل بن حيان ، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال :

حدثنا أحمد بن عَبْدَةَ الضَّبِّى ، حدثنا أبو عوَانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه قال : قالت عائشة : رُميت بما رميت به وأنا غافلة ، فبلغنى بعد ذلك . قالت : فبينا رسول الله ﷺ جالس عندى(٥) ، إذ أوحى (٦) إليه . قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السُّبات ، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندى ، ثم استوى جالسًا يمسح على وجهه ، وقال : « يا عائشة ، أبشرى » . قالت : قلت: بحمد الله لا بحمدك . فقرأ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ ، حتى قرأ(٧) : ﴿ **أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ** ﴾ [النور : ٢٦] (٨) .

هكذا أورده ، وليس فيه أن الحكم خاص بها ، وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها ، وإن كان الحكم يعمها كغيرها ، ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله ، والله أعلم .

وقال الضحاك ، وأبو الجوزاء ، وسلمة بن نُبَيْط : المراد بها أزواج النبىّ خاصة ، دون غيرهن من النساء .

وقال العَوْفىّ ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ الآية: يعنى أزواج النبى ﷺ ، رماهن أهل النفاق ، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب ، وباؤوا بسخط من الله ، فكان (٩) ذلك فى أزواج النبى ﷺ ثم نزل بعد ذلك : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ ، فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تقبل، والشهادة تُرَدّ .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا العوام بن حوشب ، عن شيخ (١٠) من بنى أسد ، عن ابن عباس ـ قال : فسر سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا** ﴾ الآية ـ قال : فى شأن عائشة ، وأزواج النبىﷺ، وهى مبهمة ، وليست لهم توبة ، ثم قرأ : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إِلا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا** ﴾ الآية [النور : ٤ ، ٥] ، قال : فجعل

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « والآخرة ولهم عذاب مهين » وهو خطأ . (٣ ، ٤) زيادة فى ف ، أ .
(٥) فى ف ، أ : « عندى جالس » . (٦) فى ف ، أ : « أوحى الله تعالى إليه » . (٧) فى ف ، أ : « بلغ » .
(٨) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٢) .
(٩) فى ف : « وكان » . (١٠) فى ف ، أ : « العوام بن حوشب عن حوشب عن شيخ » .

لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة ، قال : فهمّ بعضُ القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه ، من حسن ما فسر به سورة النور (١) .

فقوله : « وهى مبهمة » ، أى : عامة فى تحريم قذف كل محصنة ، ولَعْنته فى الدنيا والآخرة .

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا فى عائشة ، ومن صنع مثل هذا أيضًا اليوم فى المسلمات ، فله ما قال اللّه ، عز وجل ، ولكن عائشة كانت إمَامَ ذلك .

وقد اختار ابن جرير عمومها ، وهو الصحيح ، ويعضد العموم (٢) ما رواه ابن أبى حاتم :

حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ـ ابن أخى ابن وهب ـ حدثنا عمى ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور بن زيد ، عن أبى الغَيْث (٣) ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول اللّه ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : يا رسول اللّه ، وما هُنَّ ؟ قال : « الشرك باللّه ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم اللّه إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سليمان بن بلال ، به (٤) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عَمْرو بن خالد الحَذَّاء الحرانى ، حدثنى أبى ، (ح) وحدثنا أبو شُعَيب الحرانى ، حدثنا جدى أحمد بن أبى شُعَيب ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ليث ، عن أبى إسحاق ، عن صِلَة بن زُفَر ، عن حذيفة ، عن النبى ﷺ قال : « قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة » (٥) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو يحيى الرازى ، عن عمرو بن أبى قيس ، عن مُطَرِّف ، عن المِنْهَال ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : إنهم ـ يعنى : المشركين ـ إذا رأوا أنه لا يدخلُ الجَنةَ إلا أهل الصلاة ، قالوا : تعالوا حتى نجحد . فيجحدون فيختم [الله] (٦) على أفواههم ، وتشهد أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون اللّه حديثًا .

وقال ابن جرير ، وابن أبى حاتم أيضًا : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن درَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد عن رسول اللّه ﷺ قال : «إذا كان يوم القيامة ، عُرف الكافر بعمله ، فيجحد ويخاصم ، فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك . فيقول : كذبوا . فيقول : أهلك وعشيرتك . فيقول : كذبوا ، فيقول : احلفوا . فيحلفون، ثم يُصمتهم اللّه ، فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ، ثم يدخلهم النار » (٧) .

وقال ابن أبى حاتم أيضًا : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد اللّه بن أبى شيبة الكوفى ، حدثنا

---

(١) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٣) .
(٢) فى ف ، أ : « الصحيح » . (٣) فى أ : « المغيب » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٧٦٦) وصحيح مسلم برقم (٨٩) .
(٥) المعجم الكبير للطبرانى (٣ / ١٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٦ / ٢٧٩) : « وفيه ليث بن أبى سليم وهو ضعيف وقد يحسن حديثه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .
(٦) زيادة من ف ، أ .
(٧) تفسير الطبرى (١٨ / ١٠٥) ورواه أبو يعلى فى مسنده برقم (١٣٩٢) من طريق ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبى الهيثم به ، ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .

منْجَاب بن الحارث التميمى [١] ، حدثنا أبو عامر الأسَدِىَ ، حدثنا سفيان ، عن عبيد المُكْتب ، عن فُضَيل بن عمرو الفُقَيمى ، عن الشعبى ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نَوَاجذُه ، ثم قال : « أتدرون [٢] مِمَّ أضحك ؟ » قلنا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : يا رب ، ألم تُجرْنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز علىّ شاهدًا إلا من نفسى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام عليك شهودا[٣]. فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعدًا لكُنّ وسُحْقًا ، فعنكُنَّ كنتُ أناضل » .

وقد رواه مسلم والنسائى جميعًا ، عن أبى بكر بن أبى النضر ، عن أبيه ، عن عُبَيد اللّه [٤] الأشجعى ، عن سفيان الثورى ، به [٥] . ثم قال النسائى : لا أعلم أحدًا روى هذا الحديث عن سفيان الثورى غير [٦] الأشجعى ، وهو حديث غريب ، واللّه أعلم . هكذا قال .

وقال قتادة : ابن آدم ، والله إن عليك لَشُهودًا غيرَ متهمة فى بدنك ، فراقبهم واتق اللّه فى سرك[٧] وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء [٨] ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو باللّه حسنِ الظن ، فليفعل ولا قوة إلا باللّه .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَ ﴾ ، قال ابن عباس : ﴿ دِينَهُم ﴾ أى : حسابهم، وكل ما فى القرآن ﴿ دِينَهُم ﴾ أى : حسابهم . وكذا قال غير واحد .

ثم إن قراءة الجمهور بنصب ﴿ الْحَقَ ﴾ على أنه صفة لدينهم ، وقرأ مجاهد بالرفع ، على أنه نعت الجلالة . وقرأها بعض السلف فى مصحف أبى بن كعب : « يومئذ يوفيهم اللّه الحقّ دينهم»[٩].

وقوله : ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ أى : وعده ووعيده وحسابه هو العدل ، الذى لا جور فيه .

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾ .

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول ، للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول . قال: ونزلت فى عائشة وأهل الإفك .

وهكذا رُوى عن مجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جُبَير ، والشعبى ، والحسن بن أبى الحسن البصرى ، وحبيب بن أبى ثابت ، والضحاك . واختاره ابن جرير ، ووجَّهَهُ بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم

(١) فى ف : « التيمى » . (٢) فى ف : « تدرون » . (٣) فى ف ، أ : « شهيدًا » . (٤) فى أ : « عبد الله » .
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩) .
(٦) فى أ : « إلا » . (٧) فى أ : « سرائرك » . (٨) فى ف : « ضياء » . (٩) فى أ : « يوفيهم الله دينهم الحق » .

أولى به ، وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَٰئِكَ [١] مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء .

وهذا ـ أيضًا ـ يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم ، أى : ما كان اللّه ليجعل عائشة زوجة لرسول اللّه ﷺ إلا وهى طيبة ؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له ، لا شرعًا ولا قدرا ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ أى : هم بُعَداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ،﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أى : بسبب ما قيل فيهم من الكذب ، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : عند اللّه فى جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة النبىّ ﷺ فى الجنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن مسلم ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن يزيد بن عبد الرحمن ، عن الحكم ، عن يحيى بن الجزار قال : جاء أسير[٢] بن جابر إلى عبد اللّه فقال : لقد سمعت الوليد بن عقبة اليوم تكلم بكلام أعجبنى . فقال عبد اللّه : إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه الكلمة غير طيبة [٣] تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها [٤] رجل عنده يَتُلّها فيضمها إليه . وإن الرجل الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها ، فيسمعها [٥] الرجل الذى عنده يَتُلّها [٦] فيضمها إليه ، ثم قرأ عبد اللّه : ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ .

ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد فى المسند مرفوعًا : « مثل الذى يسمع الحكمة ثم لا يُحدِّث إلا بشر ما سمع ، كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم ، فقال : أجْزِرنى شاة . فقال : اذهب فَخُذ بأذن أيها شئتَ . فذهب فأخذ بأذن كَلْب الغنم » [٧] . وفى الحديث الآخر :« الحكمة [٨] ضالة المؤمن ، حيث وجدها أخذها » [٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾ .

---

(١) فى ف ، أ : « فاولئك » وهو خطأ . (٢) فى ف ، أ : « أسيد » . (٣) فى أ : « طائل » .
(٤ ، ٥) فى أ : « فسمعها » . (٦) فى أ : « مثلها » .
(٧) المسند (٢ / ٣٥٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .
(٨) فى أ : « الكلمة » .
(٩) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٨٧) وابن ماجة فى السنن برقم (٤١٦٩) من طريق عبد الله بن نمير ، عن إبراهيم بن الفضل ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه . وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإبراهيم ابن الفضل المدنى المخزومى ، يضعف فى الحديث من قبل حفظه » .

هذه آداب شرعية ، أدّب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك فى الاستئذان ، أمر الله المؤمنين ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا ، أى : يستأذنوا قبلّ الدخول ويسلموا بعده . وينبغى أن يستأذن ثلاثًا ، فإن أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت [١] فى الصحيح : أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثًا ، فلم يؤذن له ، انصرف . ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له . فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما رَجَعَك ؟ قال : إنى استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثًا ، فلم يؤذن له ، فلينصرف » . فقال : لَتَأتِيَنَّ على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا . فذهب إلى ملأ من الأنصار ، فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد [٢] لك إلا أصغرنا . فقام معه أبو سعيد الخُدْرِىّ فأخبر عمر بذلك، فقال : ألهانى عنه الصَّفْق بالأسواق [٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر عن ثابت ، عن أنس ـ أو : غيره [٤] ـ أن رسول الله ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليك ورحمة الله » . فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبى ﷺ حتى سلم ثلاثًا . ورد عليه [٥] سعد ثلاثًا ولم يُسْمعه. فرجع النبى ﷺ ، واتبعه سعد فقال : يا رسول الله ، بأبى وأنت وأمى ، ما سلمتَ تسليمة إلا وهى بأذنى، ولقد رَدَدْتُ عليك ولم أُسْمعك ، وأردتُ أن أستكثر من سلامك ومن البركة . ثم أدخله البيت ، فقرَّبَ إليه زَبيبًا ، فأكل نبىّ الله . فلما فرغ قال : « أكل طعامكم الأبرار ، وصلّت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون » [٦] .

وقد رَوَى أبو داود والنسائى ، من حديث أبى عمرو الأوزاعى : سمعت يحيى بن أبى كثير يقول: حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن سعد [٧] بن زرارة ، عن قيس بن سعد ــ هو ابن عبادة ــ قال : زارنا رسولُ الله ﷺ فى منزلنا ، فقال : « السلام عليكم ورحمة الله » ، فردّ سعد ردًا خفيًا[٨]، قال قيس : فقلت : ألا تأذنْ لرسول الله ﷺ ؟ فقال : ذَرْه [٩] يكثر علينا من السلام . فقال رسول الله ﷺ : « السلام عليكم ورحمة الله » ، فرد سعد رَدًا خفيًا [١٠] ، ثم قال رسول الله ﷺ: « السلام عليكم ورحمة الله » ، ثم رَجَع رسول الله ﷺ ، واتبعه سعد فقال : يا رسول الله ، إنى كنت أسمع تسليمك ، وأرد عليك ردًا خفيًا [١١] ، لتكثر علينا من السلام . قال : فانصرف معه [رسول الله ﷺ ، فأمر له سعد بغسل ، فاغتسل ، ثم ناوله مِلْحَفَة مصبوغة] [١٢] بزعفران ـ أو : وَرَس ـ فاشتمل بها ، ثم رفع رسول الله ﷺ يديه وهو يقول : « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » . قال : ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام ، فلما أراد الانصراف قَرّب إليه سعد حمارًا قد وَطَّأ عليه بقطيفة ، فركب رسول الله ﷺ ، فقال سعد : يا قيس ، اصحب رسول

---

(١) فى أ : « وثبت » . (٢) فى أ : « لا نشهد » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٢٤٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٣) .
(٤) فى أ : « وغيره » . (٥) فى أ : « على » .
(٦) المسند (٣ / ١٣٨) .
(٧) فى أ : « أسعد » . (٨) فى أ : « خفيفًا » . (٩) فى أ : « ودعه » .
(١٠) فى أ : « خفيفًا » . (١١) فى أ : « خفيفًا » . (١٢) زيادة من أ ، وأبى داود .

اللّه ﷺ . قال قيس : فقال رسول اللّه ﷺ : « اركب » . فأبيت ، فقال : « إما أن تركب وإما أن تنصرف » . قال : فانصرفت .

وقد روى هذا من وجه آخر [١] ، فهو حديث جيد قوىّ ، واللّه أعلم .

ثم ليُعْلَمْ أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن [٢] البابُ عن يمينه أو يساره ؛ لما رواه أبو داود : حدثنا مُؤَمَّل بن الفضل الحرانى ـ فى آخرين ـ قالوا : حدثنا بَقيَّة ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن ، عن عبد اللّه بن بُسْر [٣] ، قال : كان رسول اللّه ﷺ إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : « السلام عليكم ، السلام عليكم » . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور . تَفَرد به أبو داود [٤] .

وقال أبو داود أيضًا : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جرير ، (ح) قال أبو داود : وحدثنا أبوبكر بن أبى شيبة ، حدثنا حفص ، عن الأعمش ، عن طلحة ، عن هُزَيل قال : جاء رجل ـ قال عثمان : سعد ـ فوقف على باب النبى ﷺ يستأذن ، فقام على الباب ـ قال عثمان :مستقبل الباب ـ فقال له النبى ﷺ : « هكذا عنك ـ أو : هكذا ـ فإنما الاستئذان من النظر » [٥] .

وقد رواه أبو داود الطيالسى ، عن سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن طلحة بن مُصَرِّف ، عن رجل ، عن سعد عن النبى ﷺ . رواه أبو داود من حديثه [٦] .

وفى الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فَخَذَفته بحصاة، ففقأت عينه ، ما كان عليك من جُنَاح » [٧] .

وأخرج الجماعة من حديث شعبة ، عن محمد بن المُنْكَدر ، عن جابر قال : أتيتُ النبى ﷺ فى دَين كان على أبى ، فدققتُ الباب ، فقال : « من ذا » ؟ قلت : أنا . قال : « أنا ، أنا » ، كأنه كرهه [٨] .

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرَف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها ، وإلا ، فكل أحد يُعبِّر عن نفسه بـ « أنا » ، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذى هو الاستئناس المأمور به فى الآية .

وقال العَوْفى ، عن ابن عباس : الاستئناس : الاستئذان . وكذا قال غيرُ واحد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بَشَّار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبى بِشْر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ **لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا**

(١) سنن أبى داود برقم (٥١٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠١٥٧) ، (٥٠١٥٩) من طريق عبد الله عن الأوزاعى عن يحيى ابن أبى كثير عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان : أن رسول الله ﷺ أتى سعد بن عبادة زائرًا ، فذكر الحديث .

(٢) فى أ : « ليكون » .

(٣) فى أ : « بشر » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٨٦) .

(٥) سنن أبى داود برقم (٥١٧٤) .

(٦) سنن أبى داود برقم (٥١٧٥) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٩٠٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٨) .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٢٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢١٥٥) وسنن أبى داود برقم (٥١٨٧) وسنن الترمذى برقم (٢٧١١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠١٦٠) وسنن ابن ماجه برقم (٣٧٠٩) .

وَتُسَلِّمُوا﴾[١] قال : إنما هي خطأ من الكاتب ، « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا » .

وهكذا رواه [٢] هُشَيْم عن أبي بشر ـ وهو جعفر بن إياس ـ به . وروى معاذ بن سليمان ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، بمثله ، وزاد : وكان ابن عباس يقرأ : « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا » ، وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه .

وهذا غريب جدًا عن ابن عباس .

وقال هُشَيْم [٣] : أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم قال : في مصحف ابن مسعود : « حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا » . وهذا أيضًا رواية عن ابن عباس ، وهو اختيار ابن جرير .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا رَوْح ، حدثنا ابن جُرَيْج ، أخبرني عمرو بن أبي سفيان : أن عمرو بن أبي صفوان أخبره ، أن كَلَدَةَ بن الحنبل أخبره ، أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبأ وجَدَايَة وضَغَابيس ، والنبي ﷺ بأعلى الوادي . قال : فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم أستأذن ، فقال النبي ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ » ، وذلك بعدما أسلم صفوان .

ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج ، به [٤] وقال الترمذي : حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديثه .

وقال أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أبو الأحوص ، عن منصور ، عن ربْعي قال: حدثنا [٥] رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ ، وهو في بيته ، فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « اخرج إلى هذا فعلِّمه الاستئذان ، فقل له : قل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل [٦] .

وقال هُشَيْم : أخبرنا منصور ، عن ابن سيرين ــ وأخبرنا يونس بن عبيد ، عن عَمْرو بن سعيد الثقفي ـ أن رجلا استأذن على النبي ﷺ فقال : أألج ـ أو : أنلج ؟ ـ فقال النبي ﷺ لأمة له ، يقال لها روضة : « قومي إلى هذا فعلميه ، فإنه لا يحسن يستأذن ، فقولي له يقول : السلام عليكم، أأدخل » . فسمعها الرجل ، فقالها ، فقال : « ادخُل » [٧] .

وقال الترمذي : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا سعيد بن زكريا ، عن عَنْبَسَةَ بن عبد الرحمن، عن محمد بن زاذان ، عن محمد بن المنْكَدِر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «السلام قبل الكلام » [٨] .

ثم قال الترمذي : عنبسة ضعيف الحديث ذاهب ، ومحمد بن زاذان مُنكَر الحديث .

وقال هُشَيْم : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة ، وقد آذاه الرمضاء ، فأتى قُسْطَاط امرأة من قريش ، فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ قالت : ادخل بسلام . فأعاد ، فأعادت،

---

(١) في ف ، أ زيادة : « على أهلها » . (٢) في أ : « روى » . (٣) في أ : « سفيان » .
(٤) المسند (٣ / ٤١٤) .
(٥) في أ : « جاء » .
(٦) سنن أبي داود برقم (٥١٧٧) .
(٧) رواه الطبري في تفسيره (١٨ / ٨٧) .
(٨) سنن الترمذي برقم (٢٦٩٩) .

وهو يُرَاوح بين قدميه ، قال : قولى : ادخل . قالت : ادخل ، فدخل (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نعيم الأحول ، حدثنا خالد بن إياس، حدثتنى جدتى أم إياس قالت : كنت فى أربع نسوة نستأذن [على عائشة] (٢) فقلت : ندخل ؟ قالت: لا ، قلن (٣) لصاحبتكن : تستأذن . فقالت : السلام عليكم ، أندخل ؟ قالت : ادخلوا ، ثم قالت : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ [الآية] (٤) .

وقال هُشَيْم : أخبرنا أشعث بن سوَّار ، عن كُرْدُوس ، عن ابن مسعود قال : عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم . قال أشعث ، عن عدى بن ثابت : إن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول اللّه ، إنى أكون فى منزلى على الحال التى لا أحب أن يرانى أحد عليها ، والد ولا ولد ، وإنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى ، وأنا على تلك الحال ؟ قال : فنزلت : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ (٥) .

وقال ابن جُرَيْج : سمعت عطاء بن أبى رباح يخبر عن ابن عباس ، رضى اللّه عنه ، قال : ثلاث آيات جَحَدها الناس : قال اللّه : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] ، قال : ويقولون : إن أكرمهم عند اللّه أعظمهم بيتًا . قال : والإذن كله قد جحده الناس . قال : قلت : أستأذن على أخواتى أيتام فى حجرى ، معى فى بيت واحد ؟ قال : نعم . فرددت ليرخِّص (٦) لى ، فأبى . قال : تحب أن تراها عريانة؟ قلت : لا . قال : فاستأذن . قال : فراجعته أيضًا ، فقال : أتحب أن تطيع اللّه ؟ قلت : نعم . قال : فاستأذن .

قال ابن جُرَيْج : وأخبرنى ابن طاوس عن أبيه قال : ما من امرأة أكره إلى أن أرى عريتها من ذات محرم . قال : وكان يشدد فى ذلك .

وقال ابن جريج ، عن الزهرى : سمعت هُزَيل بن شُرَحْبِيل الأوْدِىّ الأعمى ، أنه سمع ابن مسعود يقول : عليكم الإذن على أمهاتكم .

وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا .

وهذا محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها .

وقال أبو جعفر بن جَرِير : حدثنا القاسم ، [قال] (٧) حدثنا الحسين ، حدثنا محمد بن حازم ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخى زينب ـ امرأة عبد اللّه بن مسعود ـ عن زينب ، رضى اللّه عنها ، قالت : كان عبد اللّه إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنح وبزق ؛ كراهية (٨) أن يهجُم منا على أمر يكرهه (٩) . إسناد صحيح .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سِنَان الواسطى ، حدثنا عبد اللّه بن نُمَيْر ، حدثنا

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .
(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى هـ ، أ : « قلت » ، والمثبت من ف . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٨٧) .
(٦) فى أ : « على لمن خضرنى » . (٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) فى ف : « كراهة » .
(٩) تفسير الطبرى (١٨ / ٨٨) .

الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى هُبَيْرة [(١)] قال : كان عبد اللّه إذا دخل الدار استأنس ــ تكلم ورفع صوته .

[و] [(٢)] قال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ قال : تنحنحوا ــ أو [(٣)] : تَنَخَّموا .

وعن الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه اللّه ، أنه قال : إذا دخل الرجل بيته ، استحب له أن يتنحنح ، أو يحرك نعليه .

ولهذا جاء فى الصحيح عن رسول اللّه ﷺ : أنه نَهَى أن يطرقَ الرجل أهلَه طُروقاً ــ وفى رواية: ليلا يَتَخوّنهم [(٤)] .

وفى الحديث الآخر : أن رسول اللّه ﷺ قدم المدينة نهارًا ، فأناخ بظاهرها ، وقال : « انتظروا حتى تدخل عشاء ـ يعنى : آخر النهار ـ حتى تمتشط الشَّعِثَة وتستحدّ المُغَيبة » [(٥)] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا عبد الرحمن [(٦)] بن سليمان ، عن واصل بن السائب ، حدثنى أبو سَوْرَة ابن أخى أبى أيوب ، عن أبى أيوب قال : قلت: يا رسول اللّه ، هذا السلام ، فما الاستئناس ؟ قال : « يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة، ويتنحنح فَيؤذنُ أهل البيت » . هذا حديث غريب [(٧)] .

وقال قتادة فى قوله : ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ ، قال : هو الاستئذان . [قال : وكان يقال : الاستئذان] [(٨)] ثلاث ، فمن لم يؤذن له فيهن ، فليرجع . أما الأولى : فليسمع [(٩)] الحى ، وأما الثانية : فليأخذوا حذرهم ، وأما الثالثة : فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردّوا . ولا تَقِفَنَّ على باب قوم ردوك عن بابهم ؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال ، واللّه أولى بالعذر .

وقال مقاتل بن حيَّان فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ : كان الرجل فى الجاهلية إذا لقى صاحبه ، لا يسلم عليه ، ويقول: حُيِّيتَ صباحًا وحييت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم . وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول : « قد دخلتُ » . فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله، فغَيَّر اللّه ذلك كله ، فى ستر وعفة ، وجعله نقيًا نَزهًا من الدنس والقذر والدرَن ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ .

---

(١) فى ف ، أ : « عبيدة » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى أ : « و » .

(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٤٣ ، ٥٢٤٤) وصحيح مسلم برقم (٧١٥) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٤٧) من حديث جابر ، رضى الله عنه .

(٦) فى هـ : « عبد الرحيم » .

(٧) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٨ / ٦٠٧) ومن طريقه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٧٠٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٨/٤) ، حدثنا عبيد بن غنام عن أبى بكر بن أبى شيبة ، به . قال البوصيرى فى الزوائد (٣ / ١٧١) : « هذا إسناد ضعيف » .

(٨) زيادة من ف ، أ . (٩) فى ف ، أ : « فليستمع » .

وهذا الذى قاله مقاتل حسن ؛ ولهذا قال : ﴿ **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُم** ﴾ يعنى : الاستئذان خير لكم ، بمعنى : هو خير للطرفين [١] : للمستأذن ولأهل البيت ، ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ** ﴾ ، وذلك لما فيه من التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن ﴿ **وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ** ﴾ أى : إذا ردّوكم من الباب قبلَ الإذن أو بعده ، ﴿ **فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ** ﴾ أى : رجوعكم [٢] أزكى لكم وأطهر ، ﴿ **وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم** ﴾ .

وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبتُ عمرى كلَّه هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذنَ على بعض إخوانى ، فيقول لى : « ارجع » ، فأرجع وأنا مغتبط [٣] [لقوله] [٤] : ﴿ **وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُم وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم** ﴾ .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ **وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا** ﴾ أى : لا تقفوا على أبواب الناس .

وقوله : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُون** ﴾: هذه الآية الكريمة أخص من التى [٥] قبلها ، وذلك أنها تقتضى جواز الدخول إلى البيوت التى ليس فيها أحد ، إذا كان له [٦] فيها متاع ، بغير إذن ، كالبيت المعد للضيف ، إذا أذن له فيه أولَ مرة ، كفى .

قال ابن جُرَيْج : قال ابن عباس : ﴿ **لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُم** ﴾ ، ثم نُسخ واستثنى فقال : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُم** ﴾ . وكذا روى عن عكرمة ، والحسن البصرى .

وقال آخرون : هى بيوت التجار ، كالخانات [٧] ، ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة ، وغير ذلك . واختار ذلك ابن جرير ، وحكاه عن جماعة . والأول أظهر ، والله أعلم .

وقال مالك عن زيد بن أسلم : هى بيوت الشَّعر .

ـ ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُون (٣٠)** ﴾ .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه [٨] ، وأن يغضوا [٩] أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحرَّم من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعًا ، كما رواه مسلم فى صحيحه ، من حديث يونس بن عُبَيد ، عن عَمرو بن سعيد ، عن أبى زُرْعَة بن عمرو بن جرير ، عن جده جرير بن عبد الله البجلى، رضى الله عنه ، قال : سألت النبى ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرنى أن أصرفَ بَصَرى .

وكذا رواه الإمام أحمد ، عن هُشَيْم ، عن يونس بن عبيد ، به . ورواه أبو داود والترمذى

(١) فى ف ، أ : « من الطرفين » . (٢) فى أ : « رجعوكم » . (٣) فى أ : « متغيط » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « الذى » . (٦) فى ف ، أ : « لكم » .
(٧) فى أ : « فى الخانات » . (٨) فى ف : « إليهم » . (٩) فى ف : « يغمصوا » .

والنسائى ، من حديثه أيضًا [١] . وقال الترمذى : حسن صحيح . وفى رواية لبعضهم : فقال : «أطرقْ بصرك » ، يعنى : انظر إلى الأرض . والصرف أعم ؛ فإنه قد يكون إلى الأرض ، وإلى [٢] جهة أخرى ، والله أعلم .

وقال أبو داود : حدثنا إسماعيل بن موسى الفَزَارى ، حدثنا شَريك ، عن أبى ربيعة الإيادى ، عن عبد الله بن بُرَيْدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « يا علىّ ، لا تتبع النظرة النظرةَ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » .

ورواه الترمذى من حديث شَريك [٣] ، وقال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه .

وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » . قالوا : يا رسول الله ، لابد لنا من مجالسنا ، نتحدث فيها . فقال رسول الله ﷺ : « إن أبيتم ، فأعطوا الطريق حقَّه » . قالوا : وما حقّ الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غضُّ البصر ، وكفُّ الأذى، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » [٤] .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا فضل [٥] بن جبير : سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اكفلوا لى بِستّ أكفل لكم بالجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا اؤتمن فلا يَخُن ، وإذا وَعَد فلا يخلف . وَغُضُّوا أبصاركم ، وكُفُّوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » [٦] .

وفى صحيح البخارى : « من يكفل [٧] لى ما بين لَحْيَيه و ما بين رجليه ، أكفل له الجنة » [٨] .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا مَعْمَر ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة قال : كل ما عُصى الله به ، فهو كبيرة . وقد ذكر الطَّرْفين فقال : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴾ .

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب ، كما قال بعض السلف : « النظر سهام سم إلى القلب » ؛ ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك ، فقال : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** ﴾ . وحفظُ الفَرج تارةً يكون بمنعه من الزنا ، كما قال : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** ﴾ [المعارج : ٢٩ ، ٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه ، كما جاء فى الحديث فى مسند أحمد [٩] والسنن :

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٥٩) والمسند (٤ / ٣٦١) وسنن أبى داود برقم (٢١٤٨) وسنن الترمذى برقم (٢٧٧٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٢٣٣) .

(٢) فى أ : « أو إلى » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٢١٤٩) وسنن الترمذى برقم (٢٧٧٧) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٢٤٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٢١) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .

(٥) فى هـ : « فضال » .

(٦) رواه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (٧ / ٣٩٢) من طريق أبى القاسم البغوى ، به . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨ / ٣١٤) وابن حبان فى المجروحين (٢ / ٢٠٤) من طريق فضال بن جبير . ويقال : ابن زبير ، به . وقال ابن حبان : « فضال بن جبير لا يحل الاحتجاج به » .

(٧) فى أ : « كفل » .

(٨) صحيح البخارى برقم (٦٤٧٤) من حديث سهل بن سعد ، رضى الله عنه .

(٩) فى أ : « المسند » .

«احفظ عورتك ، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » (١) .

﴿ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُم ﴾ أى : أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم ، كما قيل : « من حفظ بصره ، أورثه الله نورًا فى بصيرته » . ويروى : « فى قلبه » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عَتَّاب ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا يحيى بن أيوب ، عن عُبَيْد الله بن زَحْر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة [أوّل مرّة] (٢) ، ثم يَغُضّ بصره ، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » (٣) .

ورُوى هذا مرفوعًا عن ابن عمر ، وحذيفة ، وعائشة ، رضى الله عنهم (٤) ، ولكن فى إسنادها ضعف ، إلا أنها فى الترغيب ، ومثله يتسامح فيه .

وفى الطبرانى من طريق عبيد الله بن زَحْر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة مرفوعًا : « لَتغضُنَّ أبصاركم ، ولتحفظن فروجكم ، ولتقيمُنّ وجوهكم ـ أو : لتكسفن وجوهكم»(٥).

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن زهير التُّسْتُرِىّ قال : قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ ، حدثنا يحيى بن أبى بُكَيْر ، حدثنا هُرَيْم بن سفيان ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتى ، أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » (٦) .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُون ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور ﴾ [غافر : ١٩] .

وفى الصحيح ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كُتبَ على ابن آدم حَظّه من الزنا ، أدرَكَ ذلك لا محالة . فَزنا العينين : النظر . وزنا اللسان : النَطقُ . وزنا الأذنين: الاستماع . وزنا اليدين : البطش . وزنا الرجلين : الخطى . والنفس تَمَنّى وتشتهى ، والفرج يُصَدِّق ذلك أو يُكذبه » .

---

(١) المسند (٥ / ٣ ، ٤) وسنن أبى داود برقم (٤٠١٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٢٠) من حديث معاوية بن حيدة ، رضى الله عنه.

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) المسند (٥ / ٢٦٤) . وفى إسناده عبيد الله بن زحر ، قال ابن حبان : « يروى الموضوعات عن الأثبات وإذا روى عن على بن يزيد أتى بالطامات ، وإذا اجتمع فى إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم أبو عبد الرحمن ، لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم » .

(٤) أما حديث حذيفة ، فرواه الحاكم فى المستدرك (٤ / ٣١٤) من طريق إسحاق القرشى عن هشيم عن عبد الرحمن عن إسحاق عن محارب عن صلة بن زفر عن حذيفة ، رضى الله عنه ، وصححه الحاكم ، وتعقبه الذهبى . قلت : إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطى ضعفوه . وأما حديث ابن عمر ، فرواه أبو نعيم فى الحلية (٦ / ١٠١) من طريق أبى اليمان عن أبى المهدى عن أبى الزاهرية عن كثير بن مرة عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، وإسناده ضعيف جدًا .

(٥) المعجم الكبير (٨ / ٢٤٦) وعبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم ضعفاء .

(٦) المعجم الكبير (١٠ / ٢١٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٨ / ٦٣) : « وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطى وهو ضعيف » .

رواه البخارى تعليقاً ، ومسلم مسنداً من وجه آخر (١) ، بنحو ما تقدم .

وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهَون أن يحدَّ الرجل بَصَره (٢) إلى الأمرد . وقد شَدَّد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك ، وحَرَمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان ، وشَدَّد آخرون فى ذلك كثيراً جداً .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا أبو سعيد المدنى (٣) ، حدثنا عمر بن سهل المازنى ، حدثنى عمر بن محمد بن صُهْبَان ، حدثنى صفوان بن سليم ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ: « كل عين باكية (٤) يوم القيامة ، إلا عينًا غَضّت عن محارم الله ، وعينًا سهرت فى سبيل الله ، وعينًا يخرج منها مثل رأس الذباب ، من خشية الله ، عز وجل » (٥) .

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾ .

هذا (٦) أمرٌ من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغَيْرَة (٧) منه لأزواجهنّ ، عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات . وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيَّان قال : بلغنا ـ والله أعلم ـ أن جابر بن عبد الله الأنصارى حَدث : أن « أسماء بنت مُرشِدَة » كانت فى محل لها فى بنى حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير مُتَأزّرات فيبدو ما فى أرجلهن من الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا . فأنزل الله : **﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾** الآية .

فقوله تعالى : **﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾** أى : عما حَرَّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن . ولهذا ذهب [كثير من العلماء] (٨) إلى أنه : لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً . واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذى ، من حديث الزهرى ، عن نبهان ـ مولى أم سلمة ـ أنه حدثه : أن أم سلمة حَدَّثته : أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابنُ أمّ مكتوم ، فدخل عليه ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله ﷺ:« احتجبا منه » . فقلت :يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٣٤٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٧) .

(٢) فى أ : « نظره » . (٣) فى أ : « المقبرى » . (٤) فى أ : « زانية » .

(٥) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣ / ١٦٣) من طريق داود بن عطاء عن عمر بن صهبان ، عن صفوان عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . فلا أدرى أسقط أبو سلمة من إسناد ابن أبى الدنيا أم لا ؟ وعمر بن صهبان منكر الحديث اتفق الأئمة على تضعيفه .

(٦) فى ف ، أ : « وهذا » . (٧) فى أ : « وعزة » . (٨) زيادة من ف ، أ .

فقال رسول الله ﷺ : « أو عمياوان (١) أنتما؟ ألستما تبصرانه » (٢) .

ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة ، كما ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ جعَلَ ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد ، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه : وهو يسترها منهم حتى ملّت ورجعت (٣) .

وقوله : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُن ﴾ : قال سعيد بن جُبَيْر : عن الفواحش . وقال قتادة وسفيان : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنا . وقال أبو العالية : كل آية أنزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج ، فهو من الزنا ، إلا هذه الآية : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُن ﴾ ألا يراها أحد .

وقال (٤) : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أي : ولا يُظهِرْنَ شيئا من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه .

وقال ابن مسعود : كالرداء والثياب . يعني : على ما كان يتعاناه نساء العرب ، من المِقْنعة التي تُجَلِّل ثيابها ، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه ؛ لأن هذا لا يمكن اخفاؤه . [ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها ، وما لا يمكن إخفاؤه . وقال] (٥) بقول ابن مسعود : الحسن ، وابن سيرين ، وأبو الجوزاء ، وإبراهيم النَّخَعي ، وغيرهم .

وقال الأعمش ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ قال: وجهها وكفيها والخاتم . ورُوي عن ابن عمر ، وعطاء ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبي الشعثاء ، والضحاك ، وإبراهيم النَّخَعي ، وغيرهم ـ نحوُ ذلك . وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها ، كما قال أبو إسحاق السَّبيعي ، عن أبي الأحْوَص ، عن عبد الله قال في قوله : ﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ : الزينة القُرْط والدُّمْلُج والخلخال والقلادة . وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال : الزينة زينتان : فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، [وزينة يراها الأجانب ، وهي] (٦) الظاهر من الثياب .

وقال الزهري : [لا يبدو] (٧) لهؤلاء الذين سَمَّى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر ، وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم .

وقال مالك ، عن الزهري : ﴿ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ : الخاتم والخلخال .

ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه :

حدثنا يعقوب بن كعب الإنطاكي ومُؤَمَّل بن الفضل الحَرَّاني قالا : حدثنا الوليد ، عن سعيد بن بَشير ، عن قتادة ، عن خالد بن دُرَيك عن عائشة ، رضي الله عنها ؛ أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم

(١) في أ : « أفعمياوان » .

(٢) سنن أبي داود برقم (٤١١٢) وسنن الترمذي برقم (٢٧٧٨) .

(٣) صحيح البخاري برقم (٤٥٤) .

(٤) في أ : « وقوله » . (٥ ، ٦ ، ٧) زيادة من ف ، أ .

يصلح أن يُرَى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه [١] .

لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازى : هذا مرسل ؛ خالد بن دُرَيك لم يسمع من عائشة ، فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعنى : المقانع يعمل لها صَنفات ضاربات على صدور النساء ، لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها ؛ ليخالفن شعارَ نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك ، بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة بصدرها ، لا يواريه شىء ، وربما أظهرت [٢] عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها . فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب : ٥٩] . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ والخمر : جمع خمار ، وهو ما يُخَمر به ، أى : يغطى به الرأس ، وهى التى تسميها الناس المقانع .

قال سعيد بن جبير : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ : وليشددن ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِن ﴾ يعنى : على النحر والصدر ، فلا يرى منه شىء .

وقال البخارى : وقال أحمد بن شَبِيب [٣] : حدثنا أبى ، عن يونس ، عن [٤] ابن شهَاب ، عن عُرْوَةَ ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِن ﴾ شقَقْنَ مُرُوطهن فاختمرن به [٥] [٦] .

وقال أيضا : حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا إبراهيم بن نافع ، عن الحسن بن مسلم ، عن صَفيَّة بنت شيبة ؛ أن عائشة ، رضى الله عنها ، كانت تقول [٧] : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِن ﴾ أخذن أزرهن فَشَقَقنها من قبل الحواشى ، فاختمرن بها [٨] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنى الزنجىّ بن خالد ، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة ، قالت : فذكرنا نساء قريش وفضلهن . فقالت عائشة ، رضى الله عنها : إن لنساء قريش لفضلاً ، وإنى ـ والله ـ وما رأيت أفضلَ من نساء الأنصار أشدّ تصديقاً بكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل . لقد أنزلت سورة النور : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِن﴾ ، انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذى قرابة [٩] ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مِرْطها المُرَحَّل فاعتجرت به ، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحْنَ وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات ، كأن على رؤوسهن الغربان .

(١) سنن أبى داود برقم (٤١٠٤) .

(٢) فى ف : « ظهرت » .

(٣) فى هـ : « حدثنا أحمد بن شبيب » وفى ف ، أ : « حدثنا أحمد بن شبيب قال » والمثبت من البخارى .

(٤) فى ف ، أ : « قال » .

(٥) فى ف : « بها » وفى أ : « بهن » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٥٨) .

(٧) فى هـ ، ف : « رضى الله عنها قالت : لما » ، والمثبت من البخارى .

(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٥٩) .

(٩) فى ف : « قرابته » .

ورواه أبو داود من غير وجه ، عن صفية بنت شيبة ، به (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أن قُرَّةَ بن عبد الرحمن أخبره ، عن ابن شهاب ، عن عُرْوَة ، عن عائشة ؛ أنها قالت : يرحم اللّه النساء المهاجرات الأوَل ، لما أنزل اللّه : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شقّقن أكثَف مروطهن فاختمرن به . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب ، به (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ يعنى : أزواجهن ، ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ ، كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ، ولكن من غير اقتصاد وتبهرج (٣) .

وقال ابن المنذر : حدثنا موسى ـ يعنى : ابن هارون ـ حدثنا أبو بكر ـ يعنى ابن أبى شيبة ـ حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا داود ، عن الشعبى وعِكْرِمَة فى هذه الآية : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ ـ حتى فرغ منها قال : لم يذكر العم ولا الخال ؛ لأنهما ينعَتان (٤) لأبنائهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتصنع له ما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعنى : تُظهر زينتها أيضًا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة ؛ لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك ـ وإن كان محذورًا فى جميع النساء ـ إلا أنه فى نساء أهل الذمة أشدّ ، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع ، وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه . وقد قال رسول اللّه ﷺ : « لا تباشر المرأة المرأةَ ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » . أخرجاه فى الصحيحين ، عن ابن مسعود (٥) .

وقال سعيد بن منصور فى سننه : حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن هشام بن الغاز ، عن عبادة بن نُسَىّ ، عن أبيه ، عن الحارث بن قيس قال : كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة : أما بعد، فإنه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه مَنْ قِبَلَك فلا(٦) يحل لامرأة تؤمن باللّه واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها (٧) .

وقال مجاهد فى قوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدى المشركة .

وروى عَبدُ فى تفسيره (٨) ، عن الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ قال: هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية ، وهو النَّحْر والقُرْط والوُشَاح ، وما لا يحل أن يراه إلا محرم .

---

(١) سنن أبى داود برقم (٤١٠٠ ، ٤١٠١) .

(٢) تفسير الطبرى (١٨ / ٩٤) وسنن أبى داود برقم (٤١٠٢) .

(٣) فى أ : « بهرج » .

(٤) فى أ : « يتبعان » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٢٤١) .

(٦) فى ف ، أ : « فإنه لا » .

(٧) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧ / ٩٥) من طريق سعيد بن منصور ، به .

(٨) فى ف : « تفسير » .

وروى سعيد : حدثنا جرير ، عن ليث ، عن مجاهد قال : لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ ، فليست (١) من نسائهن .

وعن مكحول وعبادة بن نُسَيّ : أنهما كرها أن تقبل النصرانيةُ واليهودية والمجوسية المسلمة .

فأما ما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو عمير ، حدثنا ضَمْرَة قال : قال ابن عطاء ، عن أبيه : ولما قدم أصحاب النبى ﷺ بيت المقدس ، كان قَوَابل نسائهم اليهوديات والنصرانيات فهذا ـ إن صح ـ محمول على حال الضرورة ، أو أن ذلك من باب الامتهان ، ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولابد ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ قال ابن جُرَيج (٢) : يعنى : من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر [زينتها لها وإن كانت مشركة ؛ لأنها أمتها . وإليه ذهب سعيد بن المسيَّب . وقال الأكثرون : بل يجوز لها أن تظهر] (٣) على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود :

حدثنا محمد بن عيسى ، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار ، عن ثابت ، عن أنس ، رضى الله عنه، أن النبى (٤) ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها . قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قَنَّعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبى ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك » (٥) .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه [فى] (٦) ترجمة حُدَيْج الخَصِىّ ـ مولى معاوية ـ أن عبدالله بن مَسْعَدَة الفزارى كان أسود شديد الأدمة ، وأنه قد كان النبى ﷺ وهبه لابنته فاطمة ، فربّته ثم أعتقته ، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين ، وكان من أشد الناس على علىّ بن أبى طالب ، رضى الله عنه (٧) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة ، عن الزهرى ، عن نَبْهَان ، عن أم سلمة ، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان لإحداكن مُكَاتَب ، وكان له ما يؤدى ، فلتحتجب منه » .

ورواه أبو داود ، عن مُسَدَّد ، عن سفيان ، به (٨) .

وقوله : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ يعنى : كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك فى عقولهم وَله وخَوَث (٩) ، ولا هَم لهم إلى النساء ولا يشتهونهن .

قال ابن عباس : هو المغفل الذى لا شهوة له .

وقال مجاهد : هو الأبْلَه .

وقال عكرمة : هو المخَنَّث الذى لا يقوم زُبُّه . وكذلك قال غير واحد من السلف .

وفى الصحيح من حديث الزهرى ، عن عُرْوَة ، عن عائشة ؛ أن مخنثاً كان يدخل على أهل

---

(١) فى ف : « فليس » ، وفى أ : « فلسن » .
(٢) فى أ : « جرير » .
(٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى ف : « نبى الله » .
(٥) سنن أبى داود برقم (٤١٠٦) .
(٦) زيادة من ف ، أ .
(٧) تاريخ دمشق (٤ / ٢٧٨ « المخطوط ») .
(٨) المسند (٦ / ٢٨٩) وسنن أبى داود برقم (٣٩٢٨) .
(٩) فى ف ، أ : « وحوب » .

رسول الله ﷺ ، وكانوا يعدّونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبىّ ﷺ وهو ينعَت امرأة : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال رسول الله ﷺ : « ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا، لا يدخلَنّ عليكُنَ » فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عُرْوَةَ ، عن أبيه ، عن زينب بنت أبى سلمة ، عن أم سلمة قالت : دخل عليها [رسول الله ﷺ] (٢) وعندها مخنث ، وعندها [أخوها](٣) عبد الله بن أبى أمية [والمخنث يقول لعبد الله : يا عبد الله بن أبى أمية] (٤) ، إن فتح الله عليكم الطائف غدًا ، فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر (٥) بثمان . قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : « لا يدخلن هذا عليك » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث هشام بن عروة ، به (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر عن الزهرى ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبى ﷺ مخنث ، وكانوا يعُدّونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبى ﷺ يوما وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة . فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال النبى ﷺ : « ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا ؟ لا يدخلَنَ عليكم هذا » ، فحجبوه .

ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائى من طريق عبد الرزاق ، به (٧) .

وقوله : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ يعنى : لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهنّ من كلامهن (٨) الرخيم ، وتعطفهن فى المشية وحركاتهن ، فإذا كان الطفل صغيرًا لا يفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء . فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكن من الدخول على النساء . وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إياكم والدخول على النساء » . قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت الحمْوُ؟ قال : «الحَمْوُ الموت » .

وقوله : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ :كانت المرأة فى الجاهلية إذا كانت (٩) تمشى فى الطريق وفى رجلها خلخال صامت ـ لا يسمع صوته ـ ضربت برجلها الأرض ، فيعلم الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك . وكذلك إذا كان شىء من زينتها مستورًا ، فتحركت بحركة لتظهر (١٠) ما هو خفى ، دخل فى هذا النهى ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ . ومن ذلك أيضا أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها لَيَشْتَمَ (١١) الرجال طيبها ، فقد قال أبو عيسى الترمذى :

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢١٨١) وزيادة : « فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل كل يوم جمعة .... الحديث » أخرجها أبو داود فى السنن برقم (٤١٠٩) من طريق الزهرى ، به ، وليست فى صحيح مسلم .

(٢ ـ ٤) زيادة من ف ، أ ، والمسند . (٥) فى ف ، أ : « وتذهب » .

(٦) المسند (٦ / ٢٩٠) وصحيح البخارى برقم (٥٨٨٧) وصحيح مسلم برقم (٢١٨٠) .

(٧) المسند (٦ / ١٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٨١) وسنن أبى داود برقم (٤١٠٨) والنسائى فى السنن الكبرى (٩٢٤٧) .

(٨) فى ف : « كلامهم » . (٩) فى ف : « كانت المرأة إذا كانت فى الجاهلية » .

(١٠) فى ف : « ليظهر » . (١١) فى أ : « ليشم » .

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد القَطَّان ، عن ثابت بن عُمَارة الحنفى ، عن غُنَيْم ابن قيس ، عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرَّت بالمجلس فهى كذا وكذا » يعنى زانية (١) .

قال : وفى الباب عن أبى هريرة ، وهذا حسن صحيح .

رواه أبو داود والنسائى ، من حديث ثابت بن عمارة ، (٢) به .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، عن عاصم بن (٣) عبيد الله ، عن عبيد مولى أبى رُهْم ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : لقيتْه امرأة وجد منها ريح الطيب ، ولذيلها إعصار فقال : يا أمة الجبار ، جئت من المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : [وله] (٤) تَطَيَّبت ؟ قالت: نعم . قال : إنى سمعت حبى أبا القاسم (٥) ﷺ يقول : « لا يقبل الله صلاة امرأة تَطَيَّبت لهذا المسجد ، حتى ترجع فتغتسل غُسلها من الجنابة » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن سفيان ــ هو ابن عيينة ــ (٦) به .

وروى الترمذى أيضًا من حديث موسى بن عُبَيدة ، عن أيوب بن خالد ، عن ميمونة بنت سعد ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الرافلة فى الزينة فى غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها » (٧) .

ومن ذلك أيضًا أنهن يُنهَين عن المشى فى وسط الطريق ؛ لما فيه من التبرج . قال أبو داود :

حدثنا القَعْنَبِىّ ، حدثنا عبد العزيز ــ يعنى : ابن محمد ــ عن (٨) أبى اليمان ، عن شداد بن أبى عمرو بن حماس ، عن أبيه ، عن حمزة بن أبى أسيد الأنصارى ، عن أبيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج من المسجد ـ وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق ـ فقال رسول الله ﷺ للنساء : « استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تَحْقُقْن (٩) الطريق ، عليكن بحافات الطريق » ، فكانت المرأة تلصق بالجدار ، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار ، من لصوقها به (١٠) .

وقوله : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ أى : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفَلاح كل الفَلاح فى فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهيا (١١) عنه ، والله تعالى هو المستعان [وعليه التكلان] (١٢) .

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٧٨٦) .

(٢) سنن أبى داود برقم (٤١٧٣) وسنن النسائى (٨ / ١٥٣) .

(٣) فى ف : « عن » . (٤) زيادة من ف ، أ ، وأبى داود . (٥) فى ف : « رسول الله » .

(٦) سنن أبى داود برقم (٤١٧٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٠٠٢) .

(٧) سنن الترمذى برقم (١١٦٧) وقال الترمذى : « وهذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى بن عبيدة يضعف فى الحديث من قبل حفظه وهو صدوق ، وقد رواه بعضهم عن موسى بن عبيدة ولم يرفعه » .

(٨) فى ف : « ابن » . (٩) فى ف : « تحتضن » ، وفى أ : « تختص » .

(١٠) سنن أبى داود برقم (٥٢٧٢) .

(١١) فى أ : « ما نهاه » . (١٢) زيادة من ف ، أ .

فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤) ﴾ .

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ :هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قَدَر عليه . واحتجوا بظاهر قوله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء » . أخرجاه من حديث ابن مسعود(١).

وجاء فى السنن ـ من غير وجه ـ أن رسول اللّه ﷺ قال : « تَزَوَّجوا ، توالدوا ، تناسلوا ، فإنى مُبَاه بكم الأمم يوم القيامة » (٢) . وفى رواية : « حتى بالسقط » .

الأيامى : جمع أيِّم ، ويقال ذلك للمرأة التى لا زوج لها ، وللرجل الذى لا زوجة له . وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهرى عن أهل اللغة ، يقال : رجل أيّم وامرأة أيّم أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس : رغبهم اللّه فى التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى ، فقال : ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمود بن خالد الأزرق ، حدثنا عمر بن عبد الواحد ، عن سعيد ـ يعنى : ابن عبد العزيز ـ قال : بلغنى أن أبا بكر الصديق ، رضى اللّه عنه ، قال : أطيعوا اللّه فيما أمركم به من النكاح ، ينجز [لكم] (٣) ما وعدكم من الغنى ، قال : ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ .

وعن ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح ، يقول اللّه تعالى : ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ . رواه (٤) ابن جرير ، وذكر البغوى عن عمر بنحوه .

وعن الليث عن محمد بن عَجْلان ، عن سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال: قال رسول اللّه ﷺ : « ثلاثة حَقٌّ على اللّه عَوْنهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتَب يريد الأداء، والغازى فى سبيل اللّه » . رواه الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه (٥) .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) .
(٢) سنن أبى داود برقم (٢٠٥٠) وسنن النسائى (٦ / ٦٥) .
(٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « ورواه » .
(٥) المسند (٢ / ٢٥١) وسنن الترمذى برقم (١٦٥٥) وسنن النسائى (٦ / ٦١) وسنن ابن ماجه برقم (٢٥١٨) .

وقد زوج رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى لم يجد إلا إزاره (١) ، ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوّجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما يحفظه من القرآن .

والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه [وإياها] (٢) ما فيه كفاية له ولها . فأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث : « تزوجوا فقراء يغنكم الله » ، فلا أصل له ، ولم أره بإسناد قوى ولا ضعيف إلى الآن ، وفى القرآن غنية عنه ، وكذا (٣) هذا الحديث الذى أوردناه ، ولله الحمد .

وقوله : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ : هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً [بالتعفف] (٤) عن الحرام ، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام (٥) ـ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغَضُّ للبصر ، وأحْصَنُ للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء » .

وهذه (٦) الآية مطلقة ، والتى فى سورة النساء أخص منها ، وهى قوله تعالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ **ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [النساء : ٢٥] ، أى صبركم عن تزويج الإماء خير؛ لأن الولد يجىء رقيقا ، ﴿ **وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

قال عكرمة فى قوله : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا** ﴾ قال : هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهى ، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض (٧) حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فلينظر فى ملكوت السموات [والأرض] (٨) حتى يغنيه الله .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا** ﴾ : هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكاتبوا (٩) ، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيده المال الذى شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمرُ إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، بل السيد مخير ، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكاتبه .

وقال الثورى ، عن جابر ، عن الشعبى : إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه .

وقال ابن وهب ، عن إسماعيل بن عياش ، عن رجل ، عن عطاء بن أبى رَبَاح : إن يشأ يكاتبه وإن لم يشأ لم يكاتبه (١٠) . وكذا قال مُقاتل بن حيَّان ، والحسن البصرى .

وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبدُه ذلك ، أن يجيبه إلى ما طلب ؛ أخذًا بظاهر هذا الأمر :

قال البخارى : وقال روح ، عن ابن جُرَيْج قلت لعَطَاء : [أواجب علىّ إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجبًا . وقال عمرو بن دينار : قلت لعطاء] (١١) : أتأثُرُه عن أحد ؟ قال : لا . ثم أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره ، أن سيرين سأل أنسًا المكاتبةَ ـ وكان كثير المال ، فأبى .

---

(١) فى أ : « الإزارة » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « وكذلك » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى ف : « ﷺ » . (٦) فى ف : « فهذه » .
(٧) فى ف : « فليقض » . (٨) زيادة من ف ، أ . (٩) فى ف : « يكاتبوهم » .
(١٠) فى ف ، أ : « إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه » . (١١) زيادة من ف ، أ ، والبخارى .

فانطلق إلي عمر بن الخطاب فقال : كاتبه . فأبى ، فضربه بالدِّرة ، ويتلو عمر ، رضى اللّه عنه : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ (١) إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ، فكاتبه (٢) .

هكذا ذكره البخارى تعليقا (٣) ، ورواه عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج قال : قلت لعطاء : أواجب عليَّ إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟ قال : ما أراه إلا واجبًا . وقال عمرو (٤) بن دينار ، قال : قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بَشَّار ، حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن سيرين أراد أن يكاتبه ، فتلكأ عليه ، فقال له عمر : لتكاتبَنَّه . إسناد صحيح (٦) .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيْم بن جُوَيْبِر ، عن الضحاك قال : هي عَزْمة .

وهذا هو القول القديم من قولى الشافعى ، رحمه اللّه ، وذهب فى الجديد إلى أنه لا يجب ؛ لقوله ، عليه الصلاة والسلام (٧) : « لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا بطيب من نفسه » (٨) .

وقال ابن وهب : قال مالك : الأمر عندنا أنْ ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك ، ولم أسمع أحدًا من الأئمة أكره أحدًا على أن يكاتب عبده . قال مالك : وإنما ذلك أمر من اللّه ، وإذن منه للناس ، وليس بواجب .

وكذا قال الثورى ، وأبو حنيفة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم . واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية .

وقوله : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ ، قال بعضهم : أمانة . وقال بعضهم : صدقا . [وقال بعضهم: مالا] (٩) . وقال بعضهم : حيلة وكسبا .

وروى أبو داود فى كتاب المراسيل ، عن يحيى بن أبى كثير قال : قال رسول اللّه ﷺ : «﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ »قال: « إن علمتم فيهم حرفة ،ولا ترسلوهم كَلا (١٠) على الناس».

وقوله : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ ، اختلف المفسرون فيه ، فقال قائلون : معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها ، ثم قال بعضهم : مقدار الربع . وقيل : الثلث . وقيل : النصف . وقيل : جزء من الكتابة من غير واحد .

وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ : هو النصيب الذى فرض اللّه لهم من أموال الزكوات . وهذا قول الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبيه ، ومقاتل ابن حيان . واختاره ابن جرير .

---

(١) فى ف : « وكاتبوهم » وهو خطأ .

(٢) صحيح البخارى (٥ / ١٨٤) « فتح » .

(٣) فى أ : « معلقا » . (٤) فى أ : « عمر » .

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ٩٨) من طريق عبد الرزاق به .

(٦) تفسير الطبرى (١٨ / ٩٨) .

(٧) فى ف : « ﷺ » .

(٨) رواه أحمد فى مسنده (٥ / ٧٢) من حديث عم أبى حرة الرقاشى ، وفى (٥ / ٤٢٥) من حديث أبى حميد الساعدى ، وفى (٣/ ٤٢٣) من حديث عمرو بن يثربى .

(٩) زيادة من ف ، أ . (١٠) فى ف ، أ : « كلايا » .

وقال إبراهيم النَّخَعيّ في قوله : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم﴾ قال : حَثَّ الناس عليه (١) ، مولاه وغيره . وكذلك قال بُرَيْدة بن الحُصَيب الأسلمى ، وقتادة .

وقال ابن عباس : أمر الله المؤمنين أن يعينوا فى الرقاب . وقد تقدَّمَ فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاثة حق على الله عونهم » : فذكر منهم المكاتَب يريد الأداء ، والقول الأول أشهر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا وَكِيع ، عن ابن شَبِيب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن عمر ؛ أنه كاتب عبداً له ، يكنى أبا أمية ، فجاء بنجمه حين حل ، فقال : يا أبا أمية ، اذهب فاستعن به فى مكاتبتك . قال : يا أمير المؤمنين ، لو تركتَه حتي يكون من آخر نجم ؟ قال : أخاف ألا أدرك ذلك . ثم قرأ : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم﴾، قال عكرمة : كان (٢) أول نجم أدّى فى الإسلام .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا هارون بن المغيرة ، عن عنبَسَة ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتَبه لم يضع عنه شيئا من أول نجومه ، مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته . ولكنه إذا كان فى آخر مكاتبته ، وضع عنه ما أحبّ (٣) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم ﴾ قال : يعنى : ضعوا عنهم من مكاتبتهم . وكذلك قال مجاهد ، وعطاء ، والقاسم بن أبى بَزَّة ، وعبد الكريم بن مالك الجَزَرىّ ، والسدى .

وقال محمد بن سيرين فى قوله : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُم ﴾ : كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتَبه طائفة من مكاتبته .

وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا الفضل بن شاذان المقرئ ، أخبرنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام ابن يوسف ، عن ابن جرَيْج ، أخبرنى عطاء بن السائب : أن عبد الله بن جندب أخبره ، عن على ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « ربع الكتابة » (٤) .

وهذا حديث غريب ، ورفعه منكر ، والأشبه أنه موقوف على علىّ ، رضى الله عنه ، كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمى ، رحمه الله (٥) .

وقوله : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية : كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة ، أرسلها تزنى ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كلّ وقت . فلما جاء الإسلام ، نهى الله المسلمين (٦) عن ذلك .

وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة ـ فيما ذكره غير واحد من المفسرين ، من السلف والخلف ـ فى شأن عبد الله بن أبى بن سلول [المنافق] (٧) ، فإنه كان له إماء ، فكان يكرهن على البِغاء طلبا لخَراجهن ، ورغبة فى أولادهن ، ورياسة منه فيما يزعم [قبحه الله ولعنه] (٨) .

---

(١) فى ف ، أ : « على » . (٢) فى ف ، أ : « فكان » .

(٣) تفسير الطبرى (١٨ / ١٠١) .

(٤) ورواه عبد الرزاق فى المصنف برقم (١٥٥٨٩) من طريق ابن جريج ، به . وقال : « قال ابن جريج : وأخبرنى غير واحد عن عطاء ابن السائب أنه كان يحدث بهذا الحديث ، لا يذكر فيه النبى ﷺ » .

(٥) ورواه عبد الرزاق فى مصنفه برقم (١٥٥٩٠) من طريق معمر ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، به .

(٦) فى ف ، أ : « المؤمنين » . (٧ ، ٨) زيادة من ف ، أ .

[ذكر الآثار [١] الواردة فى ذلك] [٢] :

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزَّار ، رحمه الله ، فى مسنده : حدثنا أحمد ابن داود الواسطى ، حدثنا أبو عمرو اللخمى ـ يعنى : محمد بن الحجاج ـ حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهرى قال : كانت جارية لعبد الله بن أبى بن سلول ، يقال لها : معاذة ، يكرهها على الزنا ، فلما جاء الإسلام نزلت : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [٣] .

وقال الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر فى هذه الآية : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ** ﴾ قال: نزلت فى أمة لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها : مُسَيْكَة ، كان يكرهها على الفجور ـ وكانت لا بأس بها ـ فتأبى . فأنزل الله ، عز وجل ، هذه الآية إلى قوله : ﴿ **وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [٤] .

وروى النسائى ، من حديث ابن جُرَيْج ، عن أبى الزبير ، عن جابر نحوه [٥] .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا على بن سعيد ، حدثنا الأعمش ، حدثنى أبو سفيان ، عن جابر قال : كان لعبد الله بن أبى بن سلول جارية يقال لها : مسيكة ، وكان يكرهها على البغاء ، فأنزل الله : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ .

صرح الأعمش بالسماع من أبى سفيان طلحة بن نافع ، فدل على بطلان قول من قال : « لم يسمع منه ، إنما هو صحيفة » حكاه البزار .

قال أبو داود الطيالسى ، عن سليمان بن معاذ ، عن سِمَاك ، عن عكْرِمة ، عن ابن عباس ؛ أن جارية لعبد الله بن أبى كانت تزنى فى الجاهلية ، فولدت أولاداً من الزنا ، فقال لها : ما لك لا تزنين؟ قالت [٦] : لا ، والله لا أزنى . فضربها ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** ﴾ [٧] .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن الزهرى : أن رجلا من قريش أُسر يوم بدر ، وكان عند عبد الله بن أُبَىّ أسيرًا ، وكانت لعبد الله بن أُبَىّ جارية يقال لها : معاذة ، وكان القرشى الأسير يريدها على نفسها ، وكانت مسلمة [٨] ، وكانت تمتنع منه لإسلامها ، وكان عبد الله بن أبى يكرهها على ذلك ويضربها ، رجاء أن تحمل للقرشى ، فيطلب فداء ولده ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ **وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** ﴾ [٩] .

---

(١) فى أ : « الأحاديث » . (٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) مسند البزار برقم (٢٢٤٠) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٨٣) : « فيه محمد بن الحجاج اللخمى وهو كذاب» .

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ١٠٣) من طريق الأعمش به .

(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٦٥) من طريق ابن جريج عن أبى الزبير ، به .

(٦) فى ف : « فقالت » .

(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١ / ٢٨٤) من طريق أبى داود الطيالسى ، به .

(٨) فى أ : « تسلم » .

(٩) تفسير عبد الرزاق (٢ / ٥٠) .

وقال السدى : أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد اللّه بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها ، إرادة الثواب منه والكرامة له . فأقبلت الجارية إلى أبى بكر ، رضى اللّه عنه ، فشكت إليه ذلك ، فذكره أبو بكر للنبى ﷺ ، فأمره بقبضها . فصاح عبد اللّه بن أبى : من يَعْذُرنى من محمد ، يغلبنا على مملوكتنا ؟ فأنزل اللّه فيهم هذا.

وقال مُقَاتِل بن حَيَّان : بلغنا ـ واللّه أعلم ـ أن هذه الآية نزلت فى رجلين كانا يكرهان أمتين لهما، إحداهما اسمها مُسَيْكَة ، وكانت للأنصارىّ ، وكانت أميمة أم مسيكة لعبد اللّه بن أبى ، وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة ، فأتت مسيكة وأمها النبى ﷺ ، فذكرتا ذلك له ، فأنـزل اللّه فى ذلك : ﴿ **وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ** ﴾ يعنى : الزنا .

وقوله : ﴿ **إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** ﴾ : هذا خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له .

وقوله : ﴿ **لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ** [**الْحَيَاةِ**] (١) **الدُّنْيَا** ﴾ أى : من خَرَاجهن ومهورهن وأولادهن . وقد نهى رسول اللّه ﷺ عن كسب الحجَّام ، ومهر البَغىّ وحُلْوان الكاهن (٢) ـ وفى رواية : « مهر البغى خبيث ، وكسب الحجَّام خبيث ، وثمن الكلب خبيث » (٣) .

وقوله : ﴿ **وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [أى : لهن ، كما تقدم فى الحديث عن جابر .

وقال ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس : فإن فعلتم فإن اللّه لهن غفور رحيم](٤) وإثمهن على من أكرههن : وكذا قال مجاهد ، وعطاء الخراسانى ، والأعمش ، وقتادة .

وقال أبو عبيد : حدثنى إسحاق الأزرقَ ، عن عَوْف ، عن الحسن فى هذه الآية : ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ قال : لهن واللّه . لهن واللّه .

وعن الزهرى قال : غفور لهن ما أُكْرِهْنَ عليه .

وعن زيد بن أسلم قال : غفور رحيم للمكرهات .

حكاهن ابن المنذر فى تفسيره بأسانيده .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يحيى بن عبد اللّه ، حدثنى ابن لَهِيعَة ، حدثنى عطاء ، عن سعيد بن جُبَيْر قال : فى قراءة عبد اللّه بن مسعود : « فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ لهن غَفُورٌ (٥) رَّحِيم » وإثمهن على من أكرههن .

وفى الحديث المرفوع عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « رُفِع عن أمَّتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه » (٦) .

---

(١) زيادة من ف ، أ . وهو الصواب .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٢٣٧) ومسلم فى صحيحه برقم (١٥٦٧) من حديث أبى مسعود الأنصارى رضى الله عنه : «أن النبى ﷺ نهى عن ثمن الكلب ومهر البغى وحلوان الكاهن » ، وأما كسب الحجَّام ، فروى ابن ماجة فى السنن برقم (٢١٦٥) من حديث عقبة بن عمرو : « نهى النبى ﷺ عن كسب الحجَّام » .

(٣) رواه أحمد فى مسنده (٣ / ٤٦٤) من حديث رافع بن خديج ، رضى الله عنه .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى ف : « غفور لهن » .

(٦) رواه ابن ماجة فى السنن برقم (٢٠٤٣) وقد سبق الكلام عليه فى سورة الأعراف .

ولما فصل تعالى [١] هذه الأحكام وبيَّنها قال : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى : القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ، ﴿ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أى : خبرا عن الأمم الماضية ، وما حل بهم فى مخالفتهم أوامر الله تعالى [٢] ، كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦] .

﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أى : زاجرًا عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى : لمن اتقى الله وخافه .

قال على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، فى صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وهو الفَصْل ليس بالهَزْل ، من تركه من جبَّار قَصَمَه الله . ومن ابتغى الهدى من [٣] غيره أضله الله .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ يقول : هادى أهل السموات والأرض .

وقال ابن جُرَيْج : قال مجاهد وابن عباس فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ : يدبر الأمر فيهما ، نجومهما وشمسهما وقمرهما .

وقال ابن جرير : حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرَّقِّى ، حدثنا وهب بن راشد ، عن فَرْقَد ، عن أنس بن مالك قال : إن إلهى يقول : نورى هداى .

واختار هذا القول ابن جرير ، رحمه الله .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أُبَىّ بن كعب فى قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ قال : هو المؤمن الذى قد جعل [الله] [٤] الإيمان والقرآن فى صدره ، فضرب الله مثله فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به . قال : فكان أُبى بن كعب يقرؤها : « مثل نور من آمن به [٥] » ، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن فى صدره .

وهكذا قال [٦] سعيد بن جُبير ، وقيس بن سعد ، عن ابن عباس أنه قرأها كذلك : « نور من آمن بالله » .

وقرأ بعضهم : « اللَّهُ نَوَّر السَّمَوَات وَالأرض » .

وعن الضحاك : « اللَّهُ نَوَّر السَّمَوَات وَالأرض » .

---

(١) فى ف ، أ : « ولما فصل تبارك وتعالى » . (٢) فى ف ، أ : « عز وجل » . (٣) فى أ : « فى » .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « بالله » . (٦) فى ف : « روى » .

وقال السدى فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ : فبنوره أضاءت السموات والأرض .

وفى الحديث الذى رواه محمد بن إسحاق فى السيرة ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال فى دعائه يوم آذاه أهل الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل بى غَضبك أو ينزل بى سَخَطُك ، لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك[1] » [2] .

وفى الصحيحين عن ابن عباس : كان رسول اللّه ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد، أنت قَيّم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن» الحديث [3] .

وعن ابن مسعود ، رضى اللّه عنه ، قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه .

وقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ : فى هذا الضمير قولان :

أحدهما : أنه عائد إلى اللّه ، عز وجل ، أى : مثل هداه فى قلب المؤمن ، قاله ابن عباس ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ .

والثانى : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام : تقديره : مثل نور المؤمن الذى فى قلبه ، كمشكاة . فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود : ١٧] ، فشبه قلب [4] المؤمن فى صفائه فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهرى ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل ، الذى لا كدر فيه ولا انحراف .

فقوله [5] : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب ، وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل . هذا هو المشهور ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو الذُّبالة التى تضىء .

وقال العوفى ، عن ابن عباس [فى] [6] قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ : وذلك أن اليهود قالوا لمحمد ﷺ : كيف يخلص نور اللّه من دون السماء ؟ فضرب اللّه مثل ذلك لنوره ، فقال : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ . والمشكاة : كُوَّة فى البيت ـ قال: وهو مثل ضَرَبه اللّه لطاعته [7] . فسمى اللّه طاعَتَه نُورًا ، ثم سَمَاها أنواعا شتَّى .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : الكوة بلُغة الحبشة . وزاد غيره فقال : المشكاة : الكوة التى لا منفذ لها . وعن مجاهد : المشكاة : الحدائد التى يعلق بها القنديل .

والقول الأول أولى ، وهو : أن المشكاة هى موضع الفَتِيلة من القنديل ؛ ولهذا قال : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو النور الذى فى الذُّبالة .

---

(١) فى ف ، أ : « بالله » .

(٢) رواه ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٤٢٠) عن ابن إسحاق .

(٣) صحيح البخارى برقم (١١٢٠) وصحيح مسلم برقم (٧٦٩) .

(٤) فى ف ، أ : « القلب » . (٥) فى أ : « وقوله » . (٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف : « لأهل طاعته » .

قال أبيّ بن كعب : المصباح : النور ، وهو القرآن والإيمان الذى فى صدره .

وقال السدِّى : هو السراج .

﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ أى : هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية .

قال أبيّ بن كعب وغير واحد : وهى نظير قلب المؤمن . ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ : قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة ، من الدّر ، أى : كأنها كوكب من دُرّ .

وقرأ آخرون : « درّىء » و « دُرِّىء » بكسر الدال وضمها مع الهمز ، من الدَرْء وهو الدفع ؛ وذلك أن النجم إذا رُمِى به يكون أشدّ استنارةً من سائر الأحوال ، والعرب تسمى ما لا يعرف من الكواكب درارىّ .

قال أبيّ بن كعب : كوكب مضىء . وقال قتادة : مضىء مبين ضخم .

﴿ يُوقَدُ [١] مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ أى : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أى : ليست فى شرقى بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا فى غربيها فيتقلّص عنها الفىء قبل الغروب ، بل هى فى مكان وسط ، تَفْرَعه [٢] الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجىء زيتها معتدلا صافيا مشرقا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد ، أخبرنا عمرو بن أبى قيس ، عن سمَاك بن حرب ، عن عكرِمة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال: شجرة بالصحراء ، لا يظلها جبل ولا شجر ولا كهف ، ولا يواريها شىء ، وهو أجود لزيتها .

وقال يحيى بن سعيد القَطَّان ، عن عمران بن حُدَيْر ، عن عكرمة ، فى قوله : ﴿ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى بصحراء ، وذلك أصفى لزينتها .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نُعَيْم ، حدثنا عُمَر بن فَرُّوخ ، عن حبيب بن الزبير، عن عكرمة ـ وسأله رجل عن : ﴿ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال [٣] : تلك [زيتونة] [٤] بأرض فلاة، إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها ، وإذا غربت غربت عليها فذاك أصفى ما يكون من الزيت .

وقال مجاهد فى قوله : ﴿ [زَيْتُونَةٍ] [٥] لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : ليست بشرقية ، لا تصيبها الشمس إذا غربت ، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت ، [ولكنها شرقية وغربية ، تصيبها إذا طلعت] [٦] وإذا غربت .

وقال سعيد بن جُبَيْر فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ قال : هو أجود الزيت . قال : إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق ، فإذا أخذت فى الغروب أصابتها الشمس ، فالشمس تصيبها بالغداة والعَشىّ ، فتلك لا تعد شرقية ولا غربية .

وقال السدى [فى] [٧] قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ يقول : ليست بشرقية يحوزها

---

(١) فى ف ، أ : « توقد » . (٢) فى هـ ، أ : « تقصرها » والمثبت من ف . (٣) فى ف ، أ : « فقال » .
(٤ ـ ٧) زيادة من ف ، أ .

المشرق ، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ، ولكنها على رأس جبل ، أو فى صحراء ، تصيبها الشمس النهارَ كلَّه .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : إنها فى وسط الشجر ، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أُبى بن كعب ، فى قول الله تعالى : ﴿ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : فهى خضراء ناعمة ، لا تصيبها الشمس على أى حال كانت ، لا إذا طلعت ولا إذا غربت . قال : فكذلك هذا المؤمن ، قد أجير من أن يصيبه شىء من الفتن ، وقد ابتلى بها فيثبته الله فيها ، فهو بين أربع خلال : إن قال صَدَق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلى صبر ، وإن أعطى شكر ، فهو فى سائر الناس كالرجلِ الحى يمشى فى قبور الأموات .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا مُسَدَّد قال : حدثنا أبو عَوَانة ، عن أبى بشر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى وسط الشجر ، لا تصيبها الشمس شرقا ولا غربا .

وقال عطية العوفى : ﴿ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى شجرة فى موضع من الشجر ، يرى ظل ثمرها فى ورقها ، وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عبد الرحمن الدَّشْتكِى ، حدثنا عمرو بن أبى قيس ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، فى قوله تعالى : ﴿ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ، ولكنها شرقية غربية .

وقال محمد بن كعب القُرَظى : ﴿ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : هى القِبْلية .

وقال زيد بن أسلم : ﴿ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : الشام .

وقال الحسن البصرى : لو كانت هذه الشجرة فى الأرض لكانت شرقية أو غربية ، ولكنه مثل ضربه الله لنوره .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ تُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ قال : رجل صالح ، ﴿ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : لا يهودى ولا نصرانى .

وأولى هذه الأقوال القولُ الأول ، وهو أنها فى مستوى من الأرض ، فى مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس ، تَقْرعه من أول النهار إلى آخره ، ليكون ذلك أصفى لزينتها وألطف ، كما قال غير واحد ممن تقدم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : لضوء إشراق الزيت .

وقوله : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بذلك إيمان العبد وعمله .

وقال مجاهد ، والسدى : يعنى نور النار ونور الزيت .

وقال أُبى بن كعب : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة .

وقال شِمْر بن عَطية : جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال : حدثنى عن قول الله : ﴿ يَكَادُ

زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ قال : يكاد محمد يبين للناس ، وإن [١] لم يتكلم ، أنه نبى ، كما يكاد ذلك الزيت أن يضىء .

وقال السُّدِّى فى قوله : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قال : نور النار ونور الزيت ، حين اجتمعا أضاءا ، ولا يضىء واحد بغير صاحبه [كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه] [٢] .

وقوله : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : يرشد الله إلى هدايته من يختاره ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى ربيعة بن يَزيد ، عن عبد الله [بن] [٣] الديلمى ، عن عبد الله بن عمرو ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصاب يومئذ من نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل . فلذلك أقول : جف القلم على علم الله ، عز وجل » [٤] .

طريق أخرى عنه : قال البزار : حدثنا أيوب [٥] بن سُوَيْد ، عن يحيى بن أبى عمرو الشَّيْبانى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، فألقى عليهم نوراً من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه [٦] ضل . [ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر ، بلفظه وحروفه] [٧] [٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هداه فى قلب المؤمن ، ختم الآية بقوله : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر : حدثنا أبو معاوية ـ يعنى [٩] شيبان ـ عن ليث ، عن عمرو ابن مُرَّة ، عن أبى البَخْتَرى ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يُزهرُ ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مُصْفَح: فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، سراجه فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس فقلب [المنافق] [١٠] ، عَرَفَ ثم أنكر . وأما القلب المُصْفَح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يَمُدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يَمُدّها القيح والدم ، فأى المَدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » . إسناد جيد [١١] ولم يخرجوه .

---

(١) فى ف ، أ : « ولو » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٤) المسند (٢ / ١٧٦) .
(٥) فى ف ، أ : « قال البزار : حدثنا شهاب بن عثمان حدثنا أيوب » . (٦) فى ف ، أ : « أخطأ » . (٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) مسند البزار برقم (٢١٤٥) « كشف الأستار » ، ورواه أحمد فى مسنده (٢ / ١٩٧) من طريق محمد بن مهاجر عن عروة بن رويم عن ابن الديلمى عن عبد الله بن عمرو ، به .
(٩) فى هـ : « حدثنا » والمثبت من ف ، أ ، والمسند . (١٠) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(١١) المسند (٣ / ١٧) .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) ﴾ .

لما ضرب الله تعالى [مثل] [١] قلب المؤمن ، وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح فى الزجاجة الصافية المتوقّد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، ذكر محلها وهى المساجد ، التى هى أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهى بيوته التى يعبد فيها ويُوَحّد ، فقال : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أى : أمر الله تعالى برفعها ، أى : بتطهيرها من الدنس واللغو ، والأفعال والأقوال التى لا تليق فيها، كما قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية الكريمة : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ قال : نهى ، الله سبحانه ، عن اللغو فيها . وكذا قال عكرمة ، وأبو صالح ، والضحاك ، ونافع بن جبير ، وأبو بكر بن سليمان بن أبى حَثْمة [٢] ، وسفيان بن حسين ، وغيرهم من علماء المفسرين [٣] .

وقال قتادة : هى هذه المساجد ، أمر الله ، سبحانه ، ببنائها ورفعها ، وأمر بعمارتها وتطهيرها . وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول : إن فى التوراة مكتوباً : « ألا إن بيوتى فى الأرض المساجد ، وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم زارنى فى بيتى أكرمته ، وحَقّ على المَزُور كرامةُ الزائر » . رواه عبد الرحمن بن أبى حاتم فى تفسيره .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى بناء المساجد ، واحترامها وتوقيرها ، وتطييبها وتبخيرها . وذلك له محل مفرد يذكر فيه ، وقد كتبت فى ذلك جزءًا على حدَة ، ولله الحمد والمنة . ونحن بعون الله تعالى نذكر [٤] هاهنا طرفا من ذلك ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان :

فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : «من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله ، بنى الله له مثله فى الجنة » . أخرجاه فى الصحيحين [٥] .

وروى ابن ماجه ، عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من بنى مسجدا يذكر فيه اسم الله ، بنى الله له بيتا فى الجنة » [٦] .

وللنسائى عن عمرو بن عَبَسَة [٧] مثله [٨] . والأحاديث فى هذا كثيرة جدا .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد فى الدور ، وأن تنظف

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « خيثمة » . (٣) فى ف ، أ : « التفسير » . (٤) فى ف : « سنذكر » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٥٠) وصحيح مسلم برقم (٥٣٣) .
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٧٣٥) من طريق الوليد بن أبي الوليد عن عثمان بن عبد الله عن عمر . وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٠) : « هذا إسناد مرسل ، عثمان بن عبد الله بن سراقة روى عن عمر وهو جده لأمه ، ولم يسمع منه . قاله المزى » .
(٧) فى أ : « عنبسة » .
(٨) سنن النسائى (٢ / ٣١) .

وتطيب [١] . رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائى . ولأحمد وأبى داود ، عن سَمُرة بن جُنْدَب نحوه[٢] .

وقال البخارى : قال عمر : ابن للناس ما يكنهم ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس [٣] .

وروى ابن ماجة عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما ساء عملُ قوم قطّ إلا زخرفوا مساجدهم»[٤] . وفى إسناده ضعف .

وروى أبو داود عن ابن عباس ، رضى اللّه عنهما ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « ما أُمِرْتُ بتشييد المساجد » . قال ابن عباس : لَتُزَخرفُنّها كما زَخْرَفت اليهود والنصارى [٥] .

وعن أنس ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد » . رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى [٦] .

وعن بُرَيْدَةَ أن رَجُلا أنشدَ في المسجد ، فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبى ﷺ : «لا وجدت ، إنما بُنِيت المساجد لما بُنيت له » . رواه مسلم [٧] .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : نهى رسول اللّه ﷺ عن البيع والابتياع ، وعن تناشد الأشعار فى المساجد . رواه أحمد وأهل السنن [٨] ، وقال الترمذى : حسن .

وعن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاعِ فى المسجد ، فقولوا : لا أربح اللّه تجارتك . وإذا رأيتم من يَنشُد ضالة فى المسجد ، فقولوا : لا ردّ اللّه عليك » . رواه الترمذى ، وقال : حسن غريب [٩] .

وقد روى ابن ماجه وغيره ، من حديث ابن عمر مرفوعًا ، قال : « خصال لا تنبغى فى المسجد: لا يُتَّخذُ طريقًا ، ولا يُشهَرِ فيه سلاح ، ولا يُنبَض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، ولا يُمَرّ فيه بلحم نيئ : ولا يُضرَبُ فيه حَدُ ، ولا يقتَص فيه من أحد ، ولا يُتَّخذ سوقاً » [١٠] .

وعن واثلة بن الأسقع ، عن رسول اللّه ﷺ قال : « جَنِّبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ، وشراءكم وبيعكم ، وخصوماتكم ورفع أصواتكم ، وإقامة حدودكم وسل سيوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجَمّروها فى الجُمَع » .

---

(١) المسند (٦ / ٢٧٩) وسنن أبى داود برقم (٤٥٥) وسنن الترمذى برقم (٥٩٤) وسنن ابن ماجه برقم (٧٥٩) .

(٢) المسند (٥ / ١٧) وسنن أبى داود برقم (٤٥٦) .

(٣) صحيح البخارى (١ / ٥٣٩) « فتح » .

(٤) سنن ابن ماجه برقم (٧٤١) من طريق جبارة بن المغلس عن عبد الكريم بن عبد الرحمن عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب، به. قال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٢) : « هذا إسناد فيه جبارة بن المغلس وقد اتهم » .

(٥) سنن أبى داود برقم (٤٤٨) .

(٦) المسند (٣ / ١٣٤) وسنن أبى داود برقم (٤٤٩) وسنن النسائى (٢ / ٣٢) وسنن ابن ماجه برقم (٧٣٩) .

(٧) صحيح مسلم برقم (٥٦٩) .

(٨) المسند (٢ / ١٧٩) وسنن أبى داود برقم (١٠٧٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢) وسنن النسائى (٢ / ٤٧) وسنن ابن ماجه برقم (٧٤٩) .

(٩) سنن الترمذى برقم (٣١٢١) .

(١٠) سنن ابن ماجه برقم (٧٤٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٤) : « هذا إسناد فيه زيد بن جبيرة . قال ابن عبد البر : أجمعوا على أنه ضعيف » .

ورواه ابن ماجة أيضًا [١] ، وفى إسنادهما [٢] ضعف .

أما أنه « لا يتخذ طريقًا » ، فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وَجَد مندوحة عنه . وفى الأثر : « إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلى فيه » .

وأما أنه « لا يشهر فيه بسلاح [٣] ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل [٤] » ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة المصلين فيه ؛ ولهذا أمر رسول اللّه ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها ؛ لئلا يؤذى أحدًا ، كما ثبت فى الصحيح [٥] .

وأما النهى عن المرور باللحم النيئ فيه ، فَلِما يخشى من تقاطر الدم منه ، كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث .

وأما أنه « لا يضرب فيه حد أو يقتص » ، فَلِما يخشى من إيجاد نجاسة فيه من المضروب أو المقطوع .

وأما أنه « لا يتخذ سوقًا » ، فلما تقدم من النهى عن البيع والشراء فيه ، فإنه إنما بنى لذكر اللّه والصلاة كما قال النبى ، عليه الصلاة والسلام ، [٦] لذلك الأعرابى الذى بال فى طائفة المسجد :« إن المساجد لم تبن لهذا ، إنما بنيت لذكر اللّه والصلاة فيها » . ثم أمر بسَجْل من ماء ، فأهريق على بوله[٧].

وفى الحديث الثانى : « جَنِّبوا مساجدكم صبيانكم » ؛ وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم ، وقد كان عمر بن الخطاب ، رضى اللّه عنه ، إذا رأى صبيانًا يلعبون فى المسجد [٨] ، ضربهم بالمِخْفَقَة ـ وهى الدِّرَّة ـ وكان يَعُسّ [٩] المسجد بعد العشاء ، فلا يترك فيه أحدًا .

« ومجانينكم » يعنى : لأجل ضعف عقولهم ، وسَخْر الناس بهم ، فيؤدى إلى [١٠] اللعب فيها، ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ، ونحو ذلك .

« وبيعكم وشراءكم » ، كما تقدم .

« وخصوماتكم » يعنى : التحاكم والحكم فيه ؛ ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية فى المسجد ، بل يكون فى موضع غيره ؛ لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والعياط [١١] الذى لا يناسبه ؛ ولهذا قال بعده : « ورفع أصواتكم » .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد اللّه ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا الجُعَيد [١٢] بن عبدالرحمن قال : حدثنى [١٣] يزيد بنُ خَصَيفة [١٤] ، عن السائب بن يَزِيدَ الكنْدىَ قال : كنت قائمًا فى المسجد ، فحصبنى رجل ، فنظرت فإذا عمر [١٥] بن الخطاب ، فقال : اذهب فائتنى بهذين . فجئته بهما ، فقال : من أنتما ؟ أو : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال:لو كنتما من أهل

---

(١) سنن ابن ماجه برقم (٧٥٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٢٦٥) : « هذا إسناد ضعيف ، أبو سعيد هو محمد بن سعيد المصلوب ، قال أحمد : عمدًا كان يضع الحديث ، ثم قال : والحارث بن نبهان ضعيف » .

(٢) فى ف ، أ : « إسناده » . (٣) فى أ : « السلام » . (٤) فى ف : « بنبل » .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦١٥) من حديث أبى موسى الأشعرى .

(٦) فى أ : « ﷺ » .

(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٤) من حديث أنس بن مالك ، رضى الله عنه .

(٨) فى ف : « فيه » . (٩) فى ف ، أ : « يفتش » . (١٠) فى أ : « على » .

(١١) فى أ : « والغياظ » . (١٢) فى ف ، أ : « الجعد » . (١٣) فى ف ، أ : « عن » .

(١٤) فى ف ، أ : « حفصة » . (١٥) فى ف ، أ : « فإذا هو عمر » .

البلد لأوجعتكما . ترفعان أصواتكما في مسجد رسول اللّه ﷺ [١] .

وقال النسائي : حدثنا سُوَيْد بن نصر ، عن عبد اللّه بن المبارك ، عن شعبة ، عن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال : أتدري أين أنت ؟ وهذا أيضًا صحيح [٢] .

وقوله : « وإقامة حدودكم ، وسل سيوفكم » : تقدمًا [٣] .

وقوله : « واتخذوا على أبوابها المطاهر » ، يعني : المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريبًا من مسجد رسول اللّه ﷺ آبار [٤] يستقون منها ، فيشربون ويتطهرون، ويتوضؤون وغير ذلك .

وقوله : « وجمِّروها في الجُمَع » يعني : بخروها في أيام الجُمَع لكثرة اجتماع الناس يومئذ .

وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا عبيد اللّه ، حدثنا عبد الرحمن [٥] بن مهدي ، عن عبد اللّه بن عمر ، عن نافع عن ابن عمر ؛ أن عمر كان يُجَمِّر مسجد رسول اللّه ﷺ كل جمعة . إسناده حسن لا بأس به [٦] ، واللّه أعلم .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « صلاة الرجل في الجماعة تُضَعَّف على صلاته في بيته وفي سوقة ، خمسًا وعشرين ضعفًا . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه [٧] ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يَخطُ خَطوة إلا رُفع له بها درجة ، وحطّ عنه بها خطيئة ، فإذا صَلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام في مُصَلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولايزال في صلاة ما انتظر الصلاة » [٨] .

وعند الدارقطني مرفوعًا : « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » [٩] .

وفي السنن : « بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة » [١٠] .

والمستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى ، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري عن عبد اللّه بن عَمرو [١١] ، رضي اللّه عنه [١٢] ، عن رسول اللّه ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد قال :

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٧٠) .

(٢) وذكره المزي في تحفة الأشراف (٨ / ٤) وعزاه للنسائي في السنن الكبرى في المواعظ .

(٣) في أ : « تقدم » . (٤) في أ : « أباريق » . (٥) في أ : « عبد الله » .

(٦) مسند أبي يعلى (١ / ١٧٠) .

(٧) في ف ، أ : « الوضوء » .

(٨) صحيح البخاري برقم (٦٤٧) وصحيح مسلم برقم (٦٤٩) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه .

(٩) سنن الدارقطني (١ / ٤٢٠) من طريق سليمان بن داود اليمامي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا ، به . وقد رواه الحاكم في المستدرك (١ / ٢٤٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٣ / ٥٧) من طريق سليمان بن داود ، به . وسليمان بن داود مجمع على تضعيفه . ومن حديث جابر ، رواه الدارقطني أيضا في السنن (١ / ٤٢٠) من طريق محمد بن مسكين عن عبد الله بن بكير عن محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعًا ، به . وقال أبو الطيب في التعليق : « فيه محمد بن مسكين، قال الذهبي : لا يعرف وخبره منكر . وقال البخاري : في إسناد حديثه نظر » .

(١٠) رواه أبو داود في السنن برقم (٥٦١) والترمذي في السنن برقم (٢٢٣) من حديث بريدة بن الحصيب ، رضي الله عنه ، وقال الترمذي : « هذا حديث غريب من هذا الوجه مرفوع ، وهو صحيح مسند وموقوف إلى أصحاب النبي ﷺ ، ولم يسند إلى النبي ﷺ » .

(١١) في أ : « عمر » . (١٢) في ف ، أ : « عنهما » .

«أعوذ باللّه العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » [قال : أقط ؟ قال: نعم] (١) . قال : فإذا قال ذلك قال الشيطان : حُفظ منى سائر اليوم (٢) .

وروى مسلم بسنده عن أبى حميد ـ أو : أبى أسَيْد ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » .

ورواه النسائى عنهما ، عن النبى (٣) ﷺ [مثله] (٤) (٥) .

وعن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد ، فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم اعصمنى من الشيطان الرجيم » .

ورواه ابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبَّان فى صحيحيهما (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا لَيْث بن أبى سليم ، عن عبد اللّه بن حسن(٧)، عن أمه فاطمة بنت حسين ، عن جدتها فاطمة بنت رسول اللّه ﷺ قالت : كان رسول اللّه ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ، ثم قال : « اللهم ، اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب رحمتك » . وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللهم ، اغفر لى ذنوبى ، وافتح لى أبواب فضلك » .

ورواه الترمذى وابن ماجه (٨) ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن وإسناده ليس بمتصل ؛ لأن فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى .

فهذا الذى ذكرناه ، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك لحال الطول (٩) ، كله داخل فى قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أى : اسم اللّه ، كقوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] .

قال ابن عباس : ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ يعنى : يتلى فيها كتابه .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ أى : فى البُكرات والعَشيَّات . والآصال :جمع أصيل،

---

(١) زيادة من أ .

(٢) لم أجده فى صحيح البخارى ، وقد ذكره المزى فى تحفة الأشراف وابن الأثير فى جامع الأصول ولم يعزواه إلا لأبى داود فى السنن برقم (٤٦٦) .

(٣) فى ف ، أ : « رسول الله » . (٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) صحيح مسلم برقم (٧١٣) وسنن النسائى (٢ / ٥٣) .

(٦) سنن ابن ماجة برقم (٧٧٣) وصحيح ابن خزيمة برقم (٤٥٢) وصحيح ابن حبان برقم (٢٠٤٨) « الإحسان » كلهم من طريق أبى بكر الحنفى عن الضحاك بن عثمان عن المقبرى عن أبى هريرة ، به . وقال البوصيرى فى الزوائد (١ / ٩٧) : « هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات » .

(٧) فى أ : « حسين » .

(٨) المسند (٦ / ٢٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣١٤) وسنن ابن ماجه برقم (٧٧١) .

(٩) فى ف ، أ : « لجافى القول » .

وهو آخر النهار .

وقال سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن هو الصلاة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى بالغدو : صلاة الغداة ، ويعنى بالآصال : صلاة العصر ، وهما أول ما افترض اللّه من الصلاة ، فأحب أن يَذْكُرهما وأن يُذكِّرَ بهما عباده .

وكذا قال الحسن ، والضحاك : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ يعنى : الصلاة .

ومن قرأ من القَرَأة [(١)] : « يُسبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَال » ـ بفتح الباء من « يُسبح » على أنه مبنى لما لم يسم فاعله ـ وقف [(٢)] على قوله : ﴿ وَالآصَالِ ﴾ وقفًا تامًا ، وابتدأ بقوله : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ وكأنه مُفَسِّر للفاعل المحذوف ، كما قال الشاعر [(٣)] :

لِيُبْكَ يزيدُ ، ضارعٌ لخُصُومة ومُخْتَبطٌ مما تُطيح الطوَائحُ

كأنه قال : من يبكيه ؟ قال : هذا يبكيه . وكأنه قيل : من يسبح له فيها ؟ قال : رجال .

وأما على قراءة مَنْ قرأ : ﴿ يُسبِّح ﴾ ـ بكسر الباء ـ فجعله فعلا ، وفاعله : ﴿رِجَالٌ﴾ ، فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل ؛ لأنه تمام الكلام .

فقوله : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التى بها صاروا عُمَّارا للمساجد ، التى هى بيوت اللّه فى أرضه ، ومواطن عبادته وشكره ، وتوحيده وتنزيهه ، كما قال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فأما النساء فَصَلاتهن فى بيوتهن أفضل لهن ؛ لما رواه أبو داود ، عن عبد اللّه بن مسعود ، رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ قال : « صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها » [(٤)] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غَيْلان ، حدثنا رِشْدين ، حدثنى عمرو ، عن أبى السمح ، عن السائب ـ مولى أم سلمة ـ عن أم سلمة ، رضى اللّه عنها ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « خير مساجد النساء [قعر] [(٥)] بيوتهن » [(٦)] .

وقال الإمام أحمد أيضًا : حدثنا هارون ، أخبرنى عبد اللّه بن وهب ، حدثنا داود بن قيس ، عن عبد اللّه بن سُوَيد الأنصارى ، عن عمته أم حميد ـ امرأة أبى حميد الساعدى ـ : أنها جاءت النبى ﷺ فقالت : يا رسول اللّه ، إنى أحب الصلاة معك قال : « قد علمت أنك تحبين الصلاة معى ، وصلاتك فى بيتك خير من صلاتك فى حجرتك ، وصلاتك فى حُجْرَتك خير من صلاتك فى دارك ، وصلاتك فى دارك خير من صلاتك فى مسجد قومك ، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى » . قال : فأمَرَت فبُنى لها مسجد فى أقصى بيت من بيوتها وأظلمه [(٧)] ، فكانت تصلى فيه حتى لقيت اللّه ، عز وجل . لم يخرجوه [(٨)] .

---

(١) فى ف ، أ : « القراء » . (٢) فى ف : « ويقف » .

(٣) ينسب للشاعر نهشل بن حرى ولغيره ، وهو من شواهد الكتاب لسيبويه (١ / ١٤٥) والمقتضب للمبرد (٣ / ٣٨٢) ومغنى اللبيب لابن هشام الشاهد رقم (١٠٤٨) ا . هـ ، مستفادًا من حاشية الشعب .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥٨٠) .

(٥) زيادة من ف ، أ .

(٦) المسند (٦ / ٢٩٧) .

(٧) فى هـ : « بيوتها والله » وفى ف ، أ : « بيتها والله » ، والمثبت من المسند .

(٨) المسند (٦ / ٣٧١) .

هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال ، بشرط ألا تؤذى أحدًا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت فى الصحيحين عن عبد اللّه بن عُمَر أنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تمنعوا إماء اللّه مساجد اللّه » (١) .

رواه البخارى ومسلم ، ولأحمد وأبى داود : « بيوتهن خير لهن » (٢) ، وفى رواية : «وليخرجن وهن تَفِلات » (٣) أى : لا ريح لهن .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن زينب ـ امرأة ابن مسعود ـ قالت : قال لنا رسول اللّه ﷺ : «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبًا » (٤) .

وفى الصحيحين عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، أنها قالت : كان نساء المؤمنين (٥) يشهدن الفجر مع رسول اللّه ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمُرُوطهن ، ما يُعْرَفْن من الغَلَس (٦) .

وفى الصحيحين أيضًا عنها أنها قالت : لو أدرك رسول اللّه ﷺ ما أحدث النساء لمنعهُنّ المساجد ، كما مُنعت نساء بنى إسرائيل (٧) .

وقوله : ﴿ **رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [المنافقون : ٩] ،وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [الجمعة : ٩] .

يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها ومَلاذ بَيعها وريحها ، عن ذكر ربهم الذى هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذى عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند اللّه باق ؛ ولهذا قال : ﴿ **لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** ﴾ أى: يقدمون طاعته ومُرَاده ومحبته على مرادهم ومحبتهم .

قال هُشَيْم : عن سَيَّار (٨) : [قال] (٩) حُدِّثت عن ابن مسعود أنه رأى قومًا من أهل السوق ، حيث نودى بالصلاة ، تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة ، فقال عبد اللّه : هؤلاء من الذين ذكر اللّه فى كتابه : ﴿ **رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ (١٠) .

وهكذا روى عَمْرو بن دينار القَهْرَمَانىّ ، عن سالم ، عن عبد اللّه بن عمر ، رضى اللّه عنهما ، أنه كان فى السوق (١١) فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم

---

(١) صحيح البخارى برقم (٩٠٠) وصحيح مسلم برقم (٤٤٢) .
(٢) المسند (٢ / ٧٦) وسنن أبى داود برقم (٥٦٧) من حديث عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما .
(٣) وهى فى المسند (٢ / ٤٣٨) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه .
(٤) صحيح مسلم برقم (٤٤٣) .
(٥) فى ف ، أ : « المؤمنات » .
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٧٨) وصحيح مسلم برقم (٦٤٥) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٨٦٩) وصحيح مسلم برقم (٤٤٥) .
(٨) فى ف ، أ : « شيبان » .
(٩) زيادة من ف ، أ .
(١٠) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨ / ١١٣) .
(١١) فى ف ، أ : « بالسوق » .

نزلت : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير [١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد اللّه بن بكر [٢] الصنعانى ، حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم [٣] ، حدثنا عبد اللّه بن بُجَيْر ، حدثنا أبو عبد رب [٤] قال : قال أبو الدرداء ، رضى اللّه عنه: إنى قمت[٥] على هذا الدرج أبايع عليه ، أربح كل يوم ثلاثمائة دينار ، أشهد الصلاة فى كل يوم فى المسجد ، أما إنى لا أقول : « إن ذلك ليس بحلال » ، ولكنى أحب أن أكون من الذين قال اللّه : ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

وقال عمرو بن دينار الأعور : كنت مع سالم بن عبد اللّه ونحن نريد المسجد ، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمَّروا متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد ، فتلا سالم هذه الآية : ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، ثم قال : هم هؤلاء .

وكذا قال سعيد بن أبى الحسن ، والضحاك : لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها.

وقال مطر الورَّاق : كانوا يبيعون ويشترون ، ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانُه فى يده خفضه ، وأقبل إلى الصلاة .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يقول : عن الصلاة المكتوبة . وكذا قال الربيع بن أنس ومقاتل بن حيَّان .

وقال السُّدِّى : عن الصلاة فى جماعة .

وعن مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم [٦] اللّه ، وأن يحافظوا على مواقيتها ، وما استحفظهم اللّه فيها .

وقوله : ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ أى : يوم القيامة الذى تتقلب فيه القلوب والأبصار ، أى : من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ [غافر : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨ ـ ١٢] .

وقال هاهنا ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أى : هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم .

وقوله : ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وقال : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة:

---

(١) تفسير الطبرى (١٨ / ١١٣) .

(٢) فى ف ، أ : « بكير » . (٣) فى أ : « هشام » . (٤) فى ف ، أ : « عبد ربه » .

(٥) فى أ : « اقمت » . (٦) فى ف ، أ : « أمر » .

٣٦١] ، كما قال هاهنا : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وعن ابن مسعود : أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحدًا واحدًا ، فكلهم لم يشربه لأنه كان صائمًا ، فتناوله ابن مسعود وكان مفطرًا فشربه ، ثم تلا قوله تعالى (١) : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ ، رواه النسائى ، وابن أبى حاتم ، من حديث الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة، عنه (٢) .

وقال [ابن أبى حاتم] (٣) أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا سُوَيْد بن سعيد ، حدثنا على بن مُسْهِر عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن شهر بن حَوْشَب عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول اللّه ﷺ: «إذا جمع اللّه الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فناد بصوت يُسمِع الخلائق : سيعلم أهلُ الجمع من أولى بالكرم ، ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه . فيقومون ، وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق » (٤) .

وروى الطبرانى ، من حديث بَقّية ، عن إسماعيل بن عبد اللّه الكندى ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [فاطر : ٣٠] قال : ﴿ أُجُورَهُم ﴾ يدخلهم الجنة ، ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ : الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة، لمن صنع لهم المعروف فى الدنيا (٥) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ .

هذان مثلان ضربهما اللّه تعالى لنوعى الكفار ، كما ضرب للمنافقين فى أول « البقرة » (٦) مثلين ناريًا ومائيًا ، وكما ضرب لما يقر فى القلوب من الهدى والعلم فى سورة « الرعد » (٧) مثلين مائيًا وناريًا ، وقد تكلمنا على كل منها (٨) فى موضعه بما أغنى عن إعادته ، ولله الحمد والمنة .

فأما الأول من هذين المثلين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا فى نفس الأمر على شيء ، فمثلهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيعان من الأرض عن (٩) بعد كأنه بحر طام .

---

(١) فى ف ، أ : « عز وجل » .

(٢) ذكره المزى فى تحفة الأشراف برقم (٩٤٣٥) وعزاه للنسائى فى المواعظ .

(٣) زيادة من ف ، أ .

(٤) ورواه هناد فى الزهد برقم (١٧٦) من طريق أبى معاوية عن عبد الرحمن بن إسحاق ، به . وعبد الرحمن بن إسحاق ضعيف .

(٥) المعجم الكبير للطبرانى (١٠ / ٢٤٨) وقال الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية : ١٧٣ من سورة النساء : « هذا إسناد لا يثبت ، وإذا روى عن ابن مسعود موقوفًا فهو جيد » .

(٦) عند الآية : ١٧ ، والآية : ١٩ . (٧) عند الآية : ١٧ . (٨) فى ف ، أ : « منهما » . (٩) فى ف : « من » .

والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرَة . والقاع أيضًا : واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران . وهى : الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار . وأما الآل (١) فإنما يكون أول النهار ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، حسبه ماءً فقصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ ، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً ، وأنه قد حَصَّل شيئًا ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئًا بالكلية قد قُبل ، إما لعدم الإخلاص ،وإما لعدم سلوك الشرع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

وقال هاهنا : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . وهكذا رُوى عن أُبى بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة وغير واحد .

وفى الصحيحين (٢) : أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عُزَيْر ابن الله . فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من ولد ،ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى رَبَّنَا ، عَطشنا فاسقنا. فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا ، فينطلقون فيتهافتون فيها (٣) .

وهذا المثال مثال لذوى الجهل المركب . فأما أصحاب الجهل البسيط ، وهم الطَّماطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر ، الصم البكم الذين لا يعقلون ، فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ . قال قتادة : وهو العميق . ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أى : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذى لا يدرى أين يذهب ، ولا [هو] (٤) يعرف حال من يقوده ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدرى .

وقال العوفى ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾: يعنى بذلك : الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر ، وهى كقوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[البقرة : ٧] ، وكقوله (٥) : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية : ٢٣] .

وقال أُبىّ بن كعب فى قوله : ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من الظلم : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات ، إلى النار .

وقال الربيع بن أنس ، والسُّدِّى نحو ذلك أيضًا .

وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ أى : من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر ، كما قال تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾[الأعراف : ١٨٦] ، وهذا [فى] (٦)

---

(١) فى أ : « الأول » . (٢) فى أ : « الصحيح » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٥٨١) وصحيح مسلم برقم (١٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه .
(٤) زيادة من ف ، أ . (٥) فى أ : « وقوله » . (٦) زيادة من ف ، أ .

مُقابلة ما قال فى مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ : فنسأل اللّه العظيم أن يجعل فى قلوبنا نورًا ، وعن أيماننا نورًا ، وعن شمائلنا نورًا ، وأن يعظم لنا نورا .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يُسَبِّحه من فى السموات والأرض ، أى : من الملائكة والأناسى ، والجان والحيوان ، حتى الجماد ، كما قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ أى : فى حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هى فاعلة ؛ ولهذا قال : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أى : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة اللّه ، عز وجل .

ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ؛ ولهذا [1] قال : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم أخبر تعالى : أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الذى لا معقب لحكمه ، وهو الإله المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له . ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ؛ ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] ، فهو الخالق المالك ، ألا له الحكم فى الدنيا والأخرى ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ؟ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ (٤٤) ﴾ .

يذكر تعالى أنه بقدرته يسوق السحاب أول ما ينشئها وهى ضعيفة ، وهو الإزجاء ، ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى : يجمعه بعد تفرُّقه ، ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ أى : متراكمًا ، أى : يركب بعضه بعضًا ، ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أى المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ﴾ أى : من خَلَله . وكذا [2] قرأها ابن عباس والضحاك.

قال عبيد بن عمير الليثى : يبعث اللّه المثيرة فَتَقُمّ الأرض قماً ، ثم يبعث اللّه الناشئة فتنشئ السحاب ، ثم يبعث اللّه المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث [الله] [3] اللواقح فتلقح السحاب . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، رحمهما اللّه .

وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ : قال بعض النحاة : « من » الأولى : لابتداء الغاية ، والثانية : للتبعيض ، والثالثة : لبيان الجنس . وهذا إنما يجىء على قول من ذهب من

---

(١) فى ف ، أ : « ولذا » . (٢) فى ف ، أ : « وكذلك » . (٣) زيادة من ف .

المفسرين إلى أن قوله : ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ ومعناه : أن فى السماء جبالَ بَرَد ينزل اللّه منها البرد. وأما من جعل الجبال هاهنا عبارة (١) عن السحاب ، فإن « من » الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضًا ، لكنها بَدَل من الأولى ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ : يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أى : بما ينزل من السماء من نوعى البرد والمطر (٢) ، فيكون قوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ رحمة لهم ، ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ أى : يؤخر عنهم الغيث .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أى : بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم . ويصرفه عمن يشاء [أى :] (٣) رحمة بهم .

وقوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ أى : يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته .

وقوله : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول الذى كان قصيرًا ، ويقصر الذى كان طويلا . واللّه هو المتصرف فى ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ أى : لدليلاً على عظمته تعالى ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وما بعدها من الآيات الكريمات .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾ .

يذكر تعالى قدرتَه التامة وسلطانه العظيم ، فى خلقه أنواع [المخلوقات] (٤) ، على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها ، من ماء واحد ، ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ ﴾ كالحية وما شاكلها ، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطير ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى : بقدرته ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾ .

يقرر تعالى أنه أنزل فى هذا القرآن من الحكم (٥) والأمثال البينة المحكمة ، كثيرًا (٦) جدًا ،وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولى الألباب والبصائر والنهى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

---

(١) فى ف ، أ : « كناية » . (٢) فى ف : « المطر والبرد » . (٣ ، ٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى هـ : « من الحكم والحكم والأمثال » . والمثبت من ف ، أ . (٦) فى ف : « المحكمة ما هو كثير » .

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن صفات المنافقين ، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولا بألسنتهم : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى : يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ أى : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى ، فيما أنزل اللّه على رسوله ، أعرضوا عنه واستكبروا فى أنفسهم عن اتباعه . وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء : ٦٠ : ٦١] .

وفى الطبرانى من حديث روح بن عطاء بن [(١)] أبى ميمونة ، عن أبيه ، عن الحسن ، عن سَمُرَة مرفوعًا : « من دُعى إلى سلطان فلم يجب ، فهو ظالم لا حق له » [(٢)] .

وقوله : ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى : إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم ، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ ، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبى ﷺ ليروج باطله ثَمّ . فإذعانه أولاًس لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ؛ ولهذا لما خالف الحقّ قصده ، عدل عنه إلى غيره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ يعنى : لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مَرَض لازم لها ، أو قد عرض لها شك فى الدين ، أو يخافون أن يجور اللّه ورسوله عليهم فى الحكم . وأيا مّا كان فهو كفر محض ، واللّه عليم بكل منهم ، وما هو عليه منطو من هذه الصفات .

وقوله : ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : بل هم الظالمون الفاجرون ، واللّه ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى اللّه ورسوله عن ذلك .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا مبارك ، حدثنا الحسن قال :

---

(١) فى ف ، أ : « عن » .

(٢) المعجم الكبير للطبرانى (٧ / ٢٢٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٤ / ١٩٨) : « فيه روح بن عطاء ، وثقه ابن عدى وضعفه الأئمة ».

كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة ، فدعى إلى النبى ﷺ وهو مُحقّ أذعن ، وعلم أن النبى ﷺ سيقضى له بالحق . وإذا أراد أن يظلم فدُعى إلى النبى ﷺ أعرض ، وقال : أنطلقُ إلى فلان . فأنزل الله هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « من كان بينه وبين أخيه شىء ، فَدُعِى إلى حكَم من حُكّام المسلمين فأبى أن يجيب ، فهو ظالم لا حق له » (١) .

وهذا حديث غريب ، وهو مرسل .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ أى : سمعًا وطاعة ؛ ولهذا وصفهم تعالى بفلاح ، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال : ﴿ **وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية : ﴿ **أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ : ذُكر لنا أن عُبادة بن الصامت ــ وكان عقَبيًّا بدريا ، أحد نقباء الأنصار ــ : أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية : ألا أنبئك بماذا عليك ومَاذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومَنْشَطك ومكرهك ، وأثرةً عليك . وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وألا تنازع الأمرَ أهله ، إلا أن يأمروك بمعصية الله بوَاحا ، فما أمرت به من شىء يخالف كتاب الله ، فاتبع كتاب الله .

وقال قتادة : وذُكر (٢) لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا فى جماعة، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة .

قال : وقد ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كان يقول : عُروة الإسلام شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وإقامُ الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين .

رواه ابن أبى حاتم . والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله [وسنة رسوله ، وللخلفاء الراشدين ، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله] (٣) كثيرة جدًا ، أكثر من أن تحصر فى هذا المكان .

وقوله : ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ أى : فيما أمراه به وترك (٤) وما نهياه (٥) عنه ، ﴿ **وَيَخْشَ اللَّهَ** ﴾ فيما مضى من ذنوبه ، ﴿ **وَيَتَّقْهِ** ﴾ فيما يستقبل .

وقوله : ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ يعنى : الذين فازوا بكل خير ، وأمنُوا من كل شر(٦) فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) ﴾ .

(١) ورواه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن مرسلاً كما فى الدر المنثور (٦ / ٢١٣) .
(٢) فى ف : « وذكروا » . (٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى أ : « ويترك » .
(٥) فى ف ، أ : « نهيا » . (٦) فى ف ، أ : « سوء » .

يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق ، الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ : لئن أمرهم [(١)] بالخروج [فى الغزو] [(٢)] ، قال اللّه تعالى : ﴿ **قُل لا تُقْسِمُوا** ﴾ أى : لا تحلفوا .

وقوله : ﴿ **طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ** ﴾ : قيل : معناه [(٣)] : طاعتكم طاعة معروفة ، أى : قد عُلمت طاعتكم، إنما هى قول لا فعل معه ، وكلما حلفتم كذبتم ، كما قال تعالى : ﴿ **يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ **اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المنافقون : ٢] ، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه ، كما قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ** ﴾ [الحشر : ١١ ، ١٢] .

وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ **طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ** ﴾ أى : ليكن أمركم طاعة معروفة ، أى : بالمعروف من غير حَلف ولا إقسام ، كما يطيع اللّه ورسوله المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ أى : هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى ،فالحلف وإظهار الطاعة ـ والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق [(٤)] ـ فالخالق ، تعالى ، يعلم السر وأخفى ، لا يروج عليه شىء من التدليس ، بل هو خبير بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها .

ثم قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾ أى : اتبعوا كتاب اللّه وسنة رسوله .

وقوله : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا** ﴾ أى : تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ، ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ** ﴾ أى : إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ، ﴿ **وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ** ﴾ أى : من ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ، ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ ؛ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ **صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ** ﴾ [الشورى : ٥٣] .

وقوله : ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ كقوله : ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴾ [الرعد: ٤٠] ، وقوله : ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] .

وقال وهب بن مُنَبِّه : أوحى اللّه إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل ـ يقال له : شعياء ـ : أن قم فى بنى إسرائيل فإنى سأطلق لسانك بوحى . فقام فقال : يا سماء اسمعى ، ويا أرض أنصتى ، فإن اللّه يريد أن يقضى شأنًا ويدبر أمرًا هو منفذه ، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة ، والآجام [(٥)] فى الغيطان ، والأنهار فى الصحارى ، والنعمة فى الفقراء ، والملك فى الرعاة ، ويريد أن يبعث أميا من الأميين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سَخّاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشى على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه . أبعثه مُبَشِّرًا ونذيرًا ، لا يقول

---

(١) فى ف ، أ : « أمرتهم » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف ، أ : « تقديره » .
(٤) فى ف : « المحلوف » . (٥) فى أ : « الأجسام » .

الخنَا ، أفتح به أعينا عُميًا ، وآذانًا صمًا ، وقلوبا غُلْفًا ، وأسَدِّده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته، وأحمد اسمه ، أهْدى به بعد الضلالة ، وأعلِّم به من الجهالة ، وأرْفعُ به بعد الخمَالة ، وأعرف به بعد النُكْرَة ، وأكثر به بعَد القلّة وأغنى به بعد العَيْلَة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاماً من الناس عظيما من الهَلَكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين بما جاءت به رُسُلى . رواه ابن أبى حاتم (١) .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ .

هذا وعد من اللّه لرسوله ﷺ (٢) ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى : أئمةَ الناس والولاةَ عليهم ، وبهم تصلح (٣) البلاد ، وتخضع (٤) لهم العباد ، ولَيُبدلَنّ بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم ، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك ، وله الحمد والمنة ، فإنه لم يمت رسول اللّه ﷺ حتى فتح اللّه عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها . وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية ـ وهو المقوقس ـ وملوك عمان والنجاشى ملك الحبشة ،الذى تَملَّك بعد أصْحَمة ،رحمه اللّه وأكرمه .

ثم لما مات رسول اللّه ﷺ واختار اللّه له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبوبكر الصديق ، فَلَمّ شَعَث ما وَهَى عند (٥) موته ، عليه الصلاة والسلام (٦) ، وأطَّدَ جزيرة العرب ومهدها ، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ، رضى اللّه عنه ، ففتحوا طرفا منها ، وقتلوا خلقا من أهلها . وجيشا آخر صحبة أبى عبيدة ، رضى اللّه عنه ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص ، رضى اللّه عنه ، إلى بلاد مصر ، ففتح اللّه للجيش الشامى فى أيامه بُصَرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها ، وتوفاه اللّه ، عزوجل ، واختار له ما عنده من الكرامة . ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام فى الأمر بعده قياما تاما ، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء [عليهم السلام] (٧) على مثله ، فى قوة سيرته وكمال عدله . وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس ، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقَصَّر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة ، وأنفق أموالهما فى سبيل اللّه ، كما أخبر

---

(١) وروى عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار كما فى الشفاء للقاضى عياض (١ / ١٥) .
(٢) فى ف ، أ : « صلوات الله وسلامه عليه » . (٣) فى ف ، أ : « يصلح » . (٤) فى ف ، أ : « ويخضع » .
(٥) فى ف : « بعد » . (٦) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٧) زيادة من ف ، أ .

بذلك ووعد به رسول اللّه ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية ، أمتدت المماليك [١] الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سَبْتَةَ مما يلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية . وفتحت مدائن العراق ، وخراسان ، والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل اللّه ملكهم الأعظم خاقان ، وجُبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى اللّه عنه . وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ؛ ولهذا ثبت فى الصحيح [٢] عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « إن اللّه زَوَى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زُوى لى منها » [٣] . فها نحن نتقلب فيما وعدنا اللّه ورسوله ، وصدق اللّه ورسوله ، فنسأل [٤] اللّه الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا .

قال الإمام مسلم بن الحجاج : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سَمُرَة قال : سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول : « لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا » . ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت عنى [٥] فسألت أبى : ماذا قال رسول اللّه ﷺ ؟ فقال: «كلهم من قريش » .

ورواه البخارى من حديث شعبة ، عن عبد الملك بن عمير ، به [٦] .

وفى رواية لمسلم أنه قال ذلك عشية رجم ماعز بن مالك ، وذكر معه أحاديث أخر [٧] .

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لابد من وجود اثنى عشرَ خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر فإن كثيرا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شىء ؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش ، يَلُون فيعدلون . وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعا ومتفرقا ، وقد وُجد منهم أربعة على الولاء ، وهم : أبوبكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علىِ ، رضى اللّه عنهم . ثم كانت [٨] بعدهم [٩] فترة ، ثم وُجِد منهم ما شاء اللّه ، ثم قد يُوجَد منهم مَن بقى فى وقت يعلمه اللّه . ومنهم المهدى الذى يطابق اسمه اسم رسول اللّه ﷺ ، وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جورًا وظلما .

وقد روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث سعيد بن جُمْهان ، عن سَفِينة ـ مولى رسول اللّه ﷺ ـ قال : قال رسول اللّه ﷺ [١٠] : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم

(١) فى جـ ، أ : « الممالك » . (٢) فى أ : « الصحيحين » .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان ، رضى الله عنه .
(٤) فى ف : « ونسأل » .
(٥) فى ف ، أ : « علىَّ » .
(٦) صحيح مسلم برقم (١٨٢١) وصحيح البخارى برقم (٧٢٢٢) .
(٧) صحيح مسلم برقم (١٨٢٢) .
(٨) فى ف ، أ : « كان » . (٩) فى ف ، أ : « بينهم » .
(١٠) فى ف ، أ : « عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال » ، والمثبت من المسند وسننى أبى داود والترمذى .

يكون ملكا عَضُوضا » [١] .

وقال الربيع بن أنس ، عن أبي العالية في قوله : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ** [٢] **فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾ الآية ، قال : كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة [٣] نحوا من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده ، وعبادته وحده لا شريك له سرًا وهم خائفون ، لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعدُ بالهجرة إلى المدينة ، فقدموا المدينة ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يُمْسُون في السلاح ويصبحون في السلاح ، فَغَبَّرُوا [٤] بذلك ما شاء الله . ثم إن رجلا من أصحابه [٥] قال : يا رسول الله ، أبدَ الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا [فيه] [٦] السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لن تَغْبَروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم مُحْتَبِيًا ليست فيهم حديدة » . وأنزل الله هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله ، عز وجل ، قبض نبيه ﷺ ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا ، فأدخل [الله] [٧] عليهم الخوف فاتخذوا الحَجَزَةَ والشرط وغيّروا ، فَغُيِّر بهم .

وقال بعض السلف : خلافة أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، حق في كتابه ، ثم تلا هذه الآية .

وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ، ونحن في خوف شديد .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

وقوله : ﴿ **كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ كما قال تعالى عن موسى ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٩]، وقال تعالى : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾ ، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم ، حين وفد عليه : « أتعرف الحيرة ؟ » قال [٨] : لم أعرفها ، ولكن قد [٩] سمعت بها . قال : « فوالذي نفسي بيده ، ليُتِمّن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحِيَرة حتى

---

(١) المسند (٥ / ٢٢٠) وسنن أبي داود برقم (٤٦٤٦) وسنن الترمذي برقم (٢٢٢٦) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٨١٥٥) وقال الترمذي : « حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جمهان » ، ولم ترد لفظة : « عضوض » في هذه المصادر ، وإنما وردت في حديث آخر عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة ، وكائنًا خلافة ورحمة ، وكائنًا ملكًا عضوضًا ، وكائنًا عنوة وجبرية وفسادًا في الأمة . . . الحديث » أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٥٩/٨) .

(٢) في ف : « لنستخلفنهم » . (٣) في ف ، أ : « بمكة وأصحابه » . (٤) في ف : « فصبروا » ، وفي أ : « فعيروا » .

(٥) في ف ، أ : « الصحابة » . (٦ ، ٧) زيادة من أ ، والدر المنثور ٥ / ٥٥ .

(٨) في ف : « قلت له » . (٩) في ف ، أ : « لم أرها وقد » .

تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال: « نعم ، كسرى بن هرمز ، وليُبذَلَنّ المالُ حتى لا يقبله أحد » . قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن افتتح [١] كنوز كسرى بن هرمز، والذى نفسى بيده ، لتكونن الثالثة ؛ لأن رسول اللّه ﷺ قد قالها [٢] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن أبى سلمة ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أُبى بن كعب قال : قال رسول اللّه ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسَّناء والرفعة ، والدين والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له فى الآخرة نصيب » [٣] .

وقوله : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ ، قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا قتادة عن أنس ، أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا [٤] أنا رديف رسول اللّه ﷺ ليس بينى وبينه إلا آخرة الرَّحْل ، قال : « يا معاذ » ، قلت : لبيك يا رسول اللّه وَسَعْديك . قال : ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول اللّه وسعديك. [ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول اللّه وسعديك»][٥] . قال : « هل تدرى ما حق اللّه على العباد » ، قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال : «[فإن] [٦] حق اللّه على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » . قال : ثم سار ساعة . ثم قال : «يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول اللّه وسعديك . قال : « فهل تدرى ما حق العباد على اللّه إذا فعلوا ذلك ؟» ،قال : قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال :« فإن حق العباد على اللّه ألا يعذبهم ».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة [٧] .

وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : فمن خرج عن طاعتى بعد ذلك ، فقد فَسَقَ عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبًا عظيما . فالصحابة ، رضى اللّه عنهم ، لما كانوا أقوم الناس بعد النبى ﷺ بأوامر اللّه ، عز وجل ، وأطوعهم للّه ــ كان نصرهم بحسبهم ، وأظهروا كلمة اللّه فى المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييدًا عظيما ، وتحكموا فى سائر العباد والبلاد . ولما قَصَّر الناس بعدهم فى بعض الأوامر ، نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى اليوم [٨] القيامة » . وفى رواية : « حتى يأتى أمر اللّه ، وهم كذلك [٩] » . وفى رواية : « حتى يقاتلوا الدجال » . وفى رواية : « حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم ظاهرون » . وكل

(١) فى أ : « فتح » .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٩٥) .
(٣) المسند (٥ / ١٣٤) .
(٤) فى أ : « بينما » .
(٥ ، ٦) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٧) المسند (٥ / ٢٤٢) وصحيح البخارى برقم (٥٩٦٧) وصحيح مسلم برقم (٣٠) .
(٨) فى ف ، أ : « يوم » .
(٩) فى ف ، أ : « على ذلك » .

هذه الروايات صحيحة ، ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) ﴾ .

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بإقام الصلاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهى : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين للرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، أى : سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وتاركين (١) ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك . ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وقوله ﴿ لا تَحْسَبَنَ ﴾ ، أى : [لا تظن] (٢) يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : خالفوك وكذبوك ، ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى : لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَأْوَاهُم ﴾ أى : فى الدار الآخرة ﴿ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بئس المآل مآلُ الكافرين ، وبئس القرار وبئس المهاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾ .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم فى أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض . فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنَهم خدَمُهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم فى ثلاثة أحوال : الأول من قبل صلاة الغداة ؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا فى فرشهم ، ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ أى : فى وقت القيلولة ؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله ، ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ﴾ ؛ لأنه وقت النوم ، فيُؤمَرُ الخدمُ والأطفال ألا يهجمُوا على أهل البيت فى هذه الأحوال ، لما يخشى من أن يكون الرجل

(١) فى ف : « وترك » .

(٢) زيادة من ف ، أ .

على أهله ، ونحو ذلك من الأعمال ؛ ولهذا قال : ﴿ **ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ** ﴾ أى : إذا دخلوا فى حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئا فى غير تلك الأحوال ؛ لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ، ولأنهم ﴿ **طَوَّافُون** ﴾ عليكم، أى : فى الخدمة وغير ذلك ، ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم ؛ ولهذا رَوَى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول اللّه ﷺ قال فى الهِرَّة : « إنها ليست بنجَس ؛ إنها من الطوافين عليكم ـ أو ـ والطوافات » (١) .

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشىء ، وكان عمل الناس بها قليلا جدًا ، أنكر عبد اللّه ابن عباس ذلك على الناس ، كما قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا يحيى بن عبد اللّه بن بُكَيْر ، حدثنى عبد اللّه بن لَهِيعة ، حدثنى عطاء ابن دينار ، عن سعيد بن جُبَيْر قال : قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ [مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ]** (٢)﴾ إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء : ﴿ **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ** ﴾[النساء : ٨] ، والآية التى فى الحجرات : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣] .

وروى أيضًا من حديث إسماعيل بن مسلم ـ وهو ضعيف ـ عن عمرو بن دينار ، عن عطاء بن أبى رَبَاح ، عن ابن عباس قال : غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات ، فلم يعملوا بهن : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم** ﴾ إلى آخر الآية .

وقال أبو داود : حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة ـ وهذا حديثه ـ أخبرنا سفيان ، عن عبيد اللّه بن أبى يزيد ، سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر (٣) الناس ـ آية الإذن ـ وإنى لآمر جاريتى هذه تستأذن على .

قال أبو داود : وكذلك رواه عطاء ، عن ابن عباس يأمر به (٤) .

وقال الثورى ، عن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبى : ﴿ **لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم** ﴾ ، قال : لم تنسخ قلت . فإن الناس لا يعملون بها . فقال : اللّه المستعان .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنا سليمان بن بلال ، عن عمرو بن أبى عَمرو ، عن عكرمة عن ابن عباس ؛ أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى الثلاث عورات التى أمر اللّه بها فى القرآن ، فقال ابن عباس : إن اللّه ستِّير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حِجال فى بيوتهم ، فربما فاجأ الرجلَ خادمُه أو ولده أو يتيمه فى حجره ،

---

(١) الموطأ (١ / ٢٣) والمسند (٥ / ٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٧٥) وسنن الترمذى برقم (٩٢) وسنن النسائى (١ / ٥٥) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٧) .

(٢) زيادة من ف ، أ .

(٣) فى ف ، أ : « كثير من » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٩١) .

وهو على أهله ، فأمرهم اللّه أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمَّى اللّه . ثم جاء اللّه بعد بالستور (١) ، فبسط [الله] (٢) عليهم الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحِجَال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ورواه أبو داود ، عن القَعْنَبِىّ ، عن الدَّرَاوَرْدِىّ ، عن عمرو ابن أبى عَمْرو ، به (٣) .

وقال السُّدِّىّ : كان أناس من الصحابة ، رضى اللّه عنهم ، يحبون أن يُوَاقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم اللّه أن يأمروا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذنَ .

وقال مقاتل بن حَيَّان : بلغنا ـ واللّه أعلم ـ أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مُرْشدة صنعا للنبى ﷺ طعاما ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن ، فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ! إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد ، غلامهما بغير إذن ! فأنزل اللّه فى ذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ [ثَلاثَ مَرَّاتٍ]** (٤) ﴾ الآية .

ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ ، قوله : ﴿ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ يعنى : إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم ، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعنى بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التى يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن فى الأحوال الثلاث .

قال الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير : إذا كان الغلام رباعيا فإنه يستأذنَ فى العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبير .

وقال فى قوله : ﴿ **كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ يعنى : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .

وقوله : ﴿ **وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ** ﴾ : قال سعيد بن جُبَيْر ، ومُقَاتِل بن حَيَّان ، وقتادة ، والضحاك: هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد ، ﴿ **اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا** ﴾ أى : لم يبق لهن تَشوُّف إلى التزويج ، ﴿ **فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ** ﴾ أى : ليس عليها من الحرج فى التستر كما على غيرها من النساء .

قال أبو داود : حدثنا أحمد بن محمد المروزى حدثنى على بن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ **وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ** ﴾ الآية [النور : ٣١] فنسخ ، واستثنى من ذلك ﴿ **وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا** ﴾ الآية (٥) .

قال ابن مسعود [فى قوله] (٦) : ﴿ **فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ** ﴾ قال : الجلباب ، أو

---

(١) فى ف : « بعده بالستور » ، وفى أ : « بعده الستر » . (٢) زيادة من أ ، والدر المنثور ٥ / ٥٦ .
(٣) سنن أبى داود برقم (٥١٩٢) .
(٤) زيادة من أ .
(٥) سنن أبى داود برقم (٤١١١) .
(٦) زيادة من أ .

الرداء : وكذا رُوى عن ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى الشعثاء [١] ، وإبراهيم النَّخَعِىّ ، والحسن ، وقتادة ، والزهرى ، والأوزاعى ، وغيرهم .

وقال أبو صالح : تضع الجلباب ، وتقوم بين يدى الرجل فى الدرع والخمار .

وقال سعيد بن جُبَيْر وغيره ، فى قراءة عبد اللّه بن مسعود : « أن يضعن من ثيابهن » : وهو الجلباب من فوق الخمار فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره ، بعد أن يكون عليها خمَار صَفيق .

وقال سعيد بن جبير : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب ، أن يرى ما عليها من الزينة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد اللّه ، حدثنا ابن المبارك ، [حدثنى سَوَّار ابن ميمون ، حدثتنا طلحة بنت عاصم ، عن أم المصاعن ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، أنها قالت: دخلت علىّ] [٢] فقلت : يا أم المؤمنين ، ما تقولين فى الخضاب ، والنفاض ، والصباغ ، والقُرطين، والخلخال ، وخاتم الذهب ، وثياب الرقاق ؟ فقالت : يا معشر النساء ، قصتكن [٣] كلها واحدة ، أحل اللّه لكن الزينة غير متبرجات . أى : لا يحلّ لكنّ أن يَرَوَا منكن محرما .

وقال السدى : كان شريك لى يقال له : « مسلم » ، وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان ، فجاء يوما إلى السوق وأثر الحنّاء فى يده ، فسألته عن ذلك ، فأخبرنى أنه خَضَبَ رأس مولاته ـ وهى امرأة حذيفة ـ فأنكرت ذلك . فقال : إن شئت أدخلتك عليها ؟ فقلت : نعم . فأدخلنى عليها ، فإذا امرأة جليلة ، فقلت : إن مسلما حدثنى أنه خضب رأسك ؟ فقالت : نعم يا بنى ، إنى من القواعد اللاتى لا يرجون نكاحًا ، وقد قال اللّه فى ذلك ما سمعت .

وقوله : ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُن ﴾ أى : وترك وضعهن لثيابهن ـ وإن كان جائزًا ـ خير وأفضل لهن ، واللّه سميع عليم.

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾ .

اختلف المفسرون ـ رحمهم اللّه ـ فى المعنى الذى رفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض هاهنا ، فقال عطاء الخرَاسانى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى الجهاد .

---

(١) فى أ : « والشعبى » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى أ : « فصلن » .

وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتى فى سورة الفتح [١] . وتلك فى الجهاد لا محالة ، أى : أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد ؛ لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالي في سورة براءة : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ [التوبة : ٩١ ، ٩٢] .

وقيل : المراد [هاهنا] [٢] أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى ؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك . ولا مع الأعرج ؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس ، فيفتات عليه جليسُه . والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره ، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم ، فأنزل اللّه هذه الآية رخصة فى ذلك . وهذا قول سعيد بن جبير ، ومِقْسَم .

وقال الضحاك : كانوا قبل المبعث يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذرًا وتَقَزُّزًا ، ولئلا يتفضلوا عليهم ، فأنزل اللّه هذه الآية .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ** ﴾ الآية قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو الأعرج أو المريض إلى بيت أبيه أو بيت أخيه، أو بيت أخته ، أو بيت عمته ، أو بيت خالته . فكان الزّمنى يتحرجون [٣] من ذلك ، يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم [٤] . فنزلت هذه الآية رخصةً لهم [٥] .

وقال السُّدّى : كان الرجل يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتُتْحفه المرأة بالشيء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن رَبَّ البيت ليس ثَمّ . فقال اللّه تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُم** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُم** ﴾ ، إنما ذَكَر هذا ـ وهو معلوم ـ ليعطفَ عليه غيره فى اللفظ ، وليستأديه [٦] ما بعده فى الحكم . وتضمن هذا بيوت الأبناء ؛ لأنه لم ينص عليهم . ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أنَ مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء فى المسند والسنن ، من غير وجه ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « أنت ومالك لأبيك » [٧] .

وقوله : ﴿ **أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُم** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ** ﴾ ، هذا ظاهر. وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب [الإمام] [٨] أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل ، فى المشهور عنهما .

---

(١) عند الآية : ١٧ . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « يحرجون » . (٤) فى أ : « عشيرتهم » .

(٥) تفسير عبد الرزاق (٢ / ٥٣) .

(٦) فى أ : « ولا يساوى » .

(٧) المسند (٢ / ١٧٩) وسنن أبى داود برقم (٣٥٣٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما .

(٨) زيادة من ف ، أ .

وأما قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَه ﴾ : فقال سعيد بن جُبَير ، والسُّدِّى : هو خادم الرجل من عبد وقَهْرَمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف .

وقال الزهرى ، عن عُرْوَة ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : كان المسلمون يرغبون فى النفير مع رسول اللّه ﷺ ، فيدفعون مفاتحهم إلى ضُمَنائهم ، ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه . فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء . فأنزل اللّه : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَه ﴾ .

وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُم ﴾ أى : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها، إذا علمتم أن ذلك لا يَشُقّ عليهم ولا يكرهون ذلك .

وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى هذه الآية : وذلك لما أنزل اللّه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] ، قال المسلمون : إن اللّه قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد . فكف الناسُ عن ذلك ، فأنزل اللّه : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى ﴾ (١) ، إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُم ﴾ (٢) . وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص اللّه لهم فى ذلك ، فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

وقال قتادة : وكان هذا الحى من بنى كنانة ، يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده فى الجاهلية ، حتى إن كان الرجلُ لَيَسوُق الذَّودَ الحُفَّل وهو جائع ، حتى يجد من يؤاكله ويشاربه ، فأنزل اللّه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

فهذه رخصة من اللّه تعالى فى أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ، كما رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن وَحْشىّ بن حَرْب ، عن أبيه ، عن جده ؛ أنّ رجلا قال للنبىّ ﷺ : إنا نأكلُ ولا نشبَع . قال : « فلعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم اللّه يُبَارِكْ لكم فيه » .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث الوليد بن مسلم ، به (٣) .

وقد رَوَى ابن ماجه أيضاً ، من حديث عمرو بن دينار القهرمانى ، عن سالم ، عن أبيه ، عن عمر ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « كلوا جميعًا ولا تَفَرَّقُوا ؛ فإن البركة مع الجماعة » (٤) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُم ﴾ : قال سعيد بن جبير ، والحسن البصرى ،

---

(١) بعدها فى ف ، أ : « ولا على الأعرج حرج » .
(٢) قبلها فى ف ، أ : « أو ما ملكتم مفاتحه » .
(٣) المسند (٣ / ٥٠١) وسنن أبى داود برقم (٣٧٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٨٦) .
(٤) سنن ابن ماجه برقم (٣٢٨٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣ / ٧٧) : « هذا إسناد ضعيف » .

وقتادة ، والزهرى : فليسلم بعضكم على بعض .

وقال ابن جُرَيْج : حدثنا أبو الزبير : سمعتُ جابر بن عبد الله يقول : إذا دخلتَ على أهلك ، فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة . قال : ما رأيته إلا يوجبه .

قال ابن جريج : وأخبرنى زياد ، عن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخلَ أحدكم بيته ، فليسلِّم.

قال ابن جُرَيج : قلت لعطاء : أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلِّم عليهم ؟ قال : لا ، ولا آثرُ وجوبه عن أحد ، ولكن هو أحب إلى ، وما أدعه إلا نابيًا [١] .

وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله . وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وروى الثورى ، عن عبد الكريم الجَزَرِىّ ، عن مجاهد : إذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل : بسم الله ، والحمد لله ، السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وقال قتادة : [إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد ، فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين] [٢] . فإنه كان يؤمر بذلك ، وحُدِّثنا أن الملائكة ترد عليه .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا عَوْبَدُ بن أبى عمران الجونى ، عن أبيه ، عن أنس قال : أوصانى النبىّ [٣] ﷺ بخمس خصال ، قال : « يا أنس ، أسبغ الوضوء يُزَد فى عمرك ، وسَلّم على من لقيك من أمتى تكثُر حسناتك ، وإذا دخلت ـ يعنى : بيتك ـ فسلم على أهل بيتك ، يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضُّحى فإنها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس ، ارحم الصغير ، ووقِّر الكبير ، تكُنْ من رفقائى يوم القيامة » [٤] .

وقوله : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ : قال محمد بن إسحاق : حدثنى داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أخذت التشهدَ إلا من كتاب الله ، سمعت الله يقول: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ ، فالتشهد فى الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . ثم يدعو لنفسه ويسلم.

هكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث ابن إسحاق .

والذى فى صحيح مسلم ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ يخالف هذا [٥] ، والله أعلم .

---

(١) فى ف ، أ : « ناسيًا » . (٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف : « رسول الله » .

(٤) ورواه ابن عدى فى الكامل (٥ / ٣٨٢) من طريق موسى عن عويد بن أبى عمران الجونى ، به . ونقل عن البخارى : « عويد بن أبي عمران عن أبيه منكر الحديث » ثم قال ابن عدى : « وعويد بين على حديثه الضعف » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٤٠٣) ولفظه : كان رسول الله ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن ، فكان يقول : « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تعقلُون ﴾ : لما ذكر تعالى ما فى هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة ، نَبَّه تعالى على أنه يُبَيّن لعباده الآيات بيانًا شافيًا ، ليتدبروها ويتعقلوها .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾ .

وهذا أيضًا أدب أرشد اللّه عبادَه المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ـ لا سيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، من صلاة جمعة أو [(١)] عيد أو [(٢)] جماعة ، أو اجتماع لمشورة ونحو ذلك ـ أمرهم اللّه تعالى ألا ينصرفوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته . وإن من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين .

ثم أمر رسوله ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ إذا استأذنه أحد منهم فى ذلك أن يأذن له ، إن شاء؛ ولهذا قال : ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيم ﴾ .

وقد قال أبو داود : حدثنا أحمد بن حَنْبَل ومُسَدَّد ، قالا : حدثنا بشر ـ هو ابن المفضل ـ عن عَجْلان عن سعيد المقبُرِىّ ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلّم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلِّم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » .

وهكذا رواه الترمذى والنسائى ، من حديث محمد بن عجلان ، به [(٣)] . وقال الترمذى : حسن.

﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾.

قال الضحاك ، عن ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم اللّه عز وجل، عن ذلك ، إعظاماً لنبيه ، صلوات اللّه وسلامه عليه [(٤)] . قال : فقالوا : يا رسول اللّه ، يا نبى اللّه . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جُبَير .

وقال قتادة : أمر اللّه أن يهاب نبيه ﷺ ، وأن يُبَجَّل وأن يعظم وأن يسود .

(١ ، ٢) فى ف : « و » .

(٣) سنن أبى داود برقم (٥٢٠٨) وسنن الترمذى برقم (٢٧٠٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٠١) .

(٤) فى ف ، أ : « ﷺ » .

وقال مقاتل [بن حيَّان] (١) فى قوله : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ يقول : لا تُسَمّوه إذا دَعَوتموه : يا محمد ، ولا تقولوا : يا ابن عبد اللّه ، ولكن شَرِّفوه فقولوا: يانبى اللّه ، يا رسول اللّه (٢) .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ قال : أمرهم اللّه أن يشرِّفوه .

هذا قول . وهو الظاهر من السياق ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾ [البقرة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات : ٢ ـ ٥] .

فهذا كله من باب الأدب [فى مخاطبة النبى ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته] (٣) .

والقول الثانى فى ذلك أن المعنى فى : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ أى: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا .

حكاه ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس ، والحسن البصرى ، وعطية العَوفى ، واللّه (٤) أعلم .

وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ : قال مقاتل بن حيَّان : هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة ـ ويعنى بالحديث الخطبة ـ فيلوذون ببعض الصحابة ـ أصحاب محمد ﷺ ـ حتى يخرجوا من المسجد، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبىّ ﷺ فى يوم الجمعة ، بعدما يأخذ فى الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروجَ أشارَ بإصبعه إلى النبى ﷺ ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبى ـ ﷺ ـ يخطب ، بطلتْ جُمعته .

قال السُّدِّى كانوا إذا كانوا معه فى جماعة ، لاذ بعضهم ببعض ، حتى يتغيبوا عنه ، فلا يراهم.

وقال قتادة فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، يعنى : لواذا [عن نبى اللّه وعن كتابه :

وقال سفيان : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، قال : من الصف . وقال مجاهد فى الآية : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾] (٥) قال : خلافًا .

وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أى : عن أمر رسول اللّه ﷺ ، سبيله هو (٦)

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف : « يا رسول الله ، يا نبى الله » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) فى ف ، أ : « فالله » . (٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى ف : « وهو سبيله » .

ومنهاجه وطريقته [وسنته] (١) وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قُبِل ، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائله وفاعله ، كائنا ما كان ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عَمَلاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ » (٢) .

أي : فليحذر وليخشَ من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أي : في قلوبهم ، من كفر أو نفاق أو بدعة ، ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : في الدنيا ، بقتل ، أو حَد ، أو حبس ، أو نحو ذلك .

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبوهُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا ، فلما أضاءت ما حولها(٣) ، جعل الفراش وهذه الدواب اللاتي [يقعن في النار] (٤) يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه ويتقحّمن فيها » : قال : « فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار ، فتغلبوني وتقتحمون فيها » . أخرجاه من حديث عبد الرزاق (٥) .

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤) ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم غيب السموات والأرض ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم ، فقال : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ و « قد » للتحقيق ، كما قال قبلها: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الأحزاب : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] : وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣]، وقال : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ [فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا] (٦)﴾ [البقرة : ١٤٤] . فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بـ « قد » ، كما يقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا : « قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة»: فقوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي : هو عالم به ،مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[الشعراء : ٢١٧ ــ ٢٢٠] . وقال : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) صحيح البخاري برقم (٢٦٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٧١٨) .
(٣) في ف ، أ : « حوله » .
(٤) زيادة من ف ، أ ، والمسند .
(٥) المسند (٢ / ٣١٢) ومسلم برقم (٢٢٨٤) وليس عند البخاري من هذا الطريق .
(٦) زيادة من ف ، أ .

السَّمَاء (١) وَلا أَصْغَرَ من ذَلكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِين ﴾ [يونس : ٦١] وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] أي : هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] (٢) ﴾ [هود: ٥] وقال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد : ١٠] : وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، وقال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] . والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جدًا .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى : ويوم ترجع (٣) الخلائق إلى الله ـ وهو يوم القيامة ـ ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا ، من جليل وحقير ، وصغير وكبير ، كما قال تعالى : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] . وقال : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف : ٤٩] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ والحمد لله رب العالمين ، ونسأله التمام .

(١) فى ف : « فى السموات ولا فى الأرض » ، وهو خطأ .
(٢) زيادة من ف ، أ .
(٣) فى ف : « يرجع » .

/ سورة النور [١٥١و]

مدنيّة، وهي ثِنتان أو أربع وسبعون آيةً.[١]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١﴾

﴿سُورَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هذه سورة، وإنّما أشيرَ إليها مع عدم سبق ذكرها لأنّها باعتبار كونها في شرَف الذكر في حُكم الحاضر المشاهَد.

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهَا﴾ مع ما عطف عليه صفاتٌ لها مؤكِّدة لِما أفاده التنكير مِن الفخامة مِن حيث الذاتُ بالفخامة مِن حيث الصفات. وأمّا كونها مبتدأً محذوفَ الخبر على أن يكون التقدير: فيما أوحينا إليك سورةٌ أنزلناها؛[٢] فيأباه أنّ مقتضى المقام بيان شأن هذه السورة الكريمة، لا أنّ في جملة ما أوحيَ إلى النبيّ عليه السلام سورةً شأنُها كذا وكذا. وحملُها على السورة الكريمة بمعونة المقام يوهم أنّ غيرها مِن السوَر الكريمة ليست على تلك الصفات.

وقُرئ بالنصب[٣] على إضمار فعل يفسّره ﴿أَنزَلۡنَٰهَا﴾، فلا محلّ له حينئذ مِن الإعراب، أو على تقدير "اقرأ" ونحوِه، أو "دونَك" عند مَن يسوّغ حذف أداة الإغراء،[٤] فمَحلّ "أنزَلنا" النصب على الوصفيّة.

---

١ ط س: وهي ثنتان وستّون آيةً، وقيل: أربع وستّون. | وما في نسخة م سهو، وهي في المصاحف اليوم أربع وستون آية.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٠٨/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٨/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أم الدرداء وعمر بن عبد العزيز وعيسى البصري وعيسى الكوفي وابن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٩.

٤ أجازه الزمخشري في الكشّاف، ٢٠٨/٣، وردّه أبو حيّان في البحر المحيط، ٦/٨، قال: «ولا يجوز حذف أداة الإغراء».

﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أي: أوجبنا ما فيها مِن الأحكام إيجابًا قطعيًا، وفيه مِن الإيذان بغاية وَكادة الفرضيّة ما لا يخفى. وقُرئ: "فَرَّضْنَاهَا" بالتشديد[١] لتأكيد الإيجاب، أو لتعدّد الفرائض، أو لكثرة المفروض عليهم مِن السلَف والخلَف.

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في تضاعيف السورة ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إن أريدَ بها الآيات التي نِيطت بها الأحكام المفروضة -وهو الأظهر- فكونها في السورة ظاهر، ومعنى كونها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ وضوحُ دلالاتها على أحكامها، لا على معانيها على الإطلاق، فإنّها أسوة لسائر الآيات في ذلك.

وتكرير ﴿أَنزَلْنَا﴾ مع استلزام إنزال السورة لإنزالها لإبراز كمال العناية بشأنها، وإن أريدَ جميع الآيات فالظرفيّة باعتبار اشتمال الكلّ على كلّ واحد مِن أجزائه. وتكرير ﴿أَنزَلْنَا﴾ مع أنّ جميع الآيات عينُ السورة وإنزالَها عينُ إنزالِها لاستقلالها بعنوانٍ / رائقٍ داعٍ إلى تخصيص إنزالها بالذكر إبانةً لخَطرها [١٥١ظ] ورفعًا لِمحلّها، كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ٥٨/١١] بعد قوله تعالى:[٢] ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود، ٥٨/١١].

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين، وقُرئ بإدغام الثانية في الذال،[٣] أي: تتذكّرونها فتعملون بموجَبها عند وقوع الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها، وفيه إيذان بأنّ حقّها أن تكون على ذكرٍ منهم بحيث متى مسّت الحاجة إليها استحضروها.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ شروع في تفصيل ما ذُكر مِن الآيات البيّنات وبيانِ أحكامها. و﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ هي المرأة المطاوِعة للزنا الممكِّنة منه كما يُنبئ عنه الصيغة،

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

[٢] س – تعالى.

[٣] أي: "تَذَّكَّرُونَ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٦٦/٢.

لا المَزنيّةُ كرهًا، وتقديمُها على الزاني لأنّها الأصل في الفعل، لكون الداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع.

ورفعُهما على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ و"الفاء" لتضمّن المبتدأ معنى الشرط، إذ "اللام" بمعنى الموصول، والتقدير: التي زَنت والذي زَنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء، ١٦/٤]. وقيل: الخبر محذوف، أي: فيما أنزلنا، أو فيما فرَضنا الزانيةُ والزاني، أي: حكمهما.

وقوله تعالى ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾... الخ بيان لذلك الحكم، وكان هذا عامًّا في حقّ المحصَن وغيره، وقد نُسخ في حقّ المحصَن قطعًا. ويكفينا في تعيين الناسخ القَطعُ بأنّه عليه السلام قد رجَم ماعِزًا[١] وغيرَه،[٢] فيكون مِن باب نسخ الكتاب بالسنّة المشهورة. وفي **الإيضاح**:[٣] «الرجم حكمٌ ثبت بالسنّة المشهورة المتّفَق عليها، فجازت الزيادة بها على الكتاب»،[٤] ورُوي عن عليّ رضي الله تعالى[٥] عنه: «جلدتُها بكتاب الله، ورجمتُها بسنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[٦] وقيل: نُسخ بآية منسوخة التلاوة، هي: «الشيخُ والشيخةُ إذا زنَيا فارجموهما البتّة، نكالًا مِن الله، والله عزيز حكيم».[٧] / ويأباه ما رُوي عن عليّ رضي الله عنه. [١٥٢و]

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ وقُرئ بفتح الهمزة،[٨] وبالمدّ أيضًا[٩] على "فَعالة"، أي: رحمة ورِقّة ﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته وإقامة حدّه، فتعطّلوه أو تسامحوا فيه،

---

١ انظر: **صحيح البخاري**، ١٦٧/٨ (٦٨٢٤)؛ و**صحيح مسلم**، ١٣٢١/٣ (١٦٩٥). | هو ماعز بن مالك الأسلمي، ويقال: إنّ اسمه غريب، وماعز لقَب، عن جابر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا رُجم ماعز بن مالك قال: «لقد رأيته يتَخضخَض في أنهار الجنّة». انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٥٢١/٥.

٢ انظر حديث رجم المرأة الغامديّة في **صحيح مسلم**، ١٣٢١/٣ (١٦٩٥).

٣ لعلّه **الإيضاح** لأبي الفضل الكرماني الحنفي.

٤ انظر: **تبيين الحقائق** للزيلعي مع **حاشية الشلبي**، ١٧٣/٣.

٥ س - تعالى.

٦ **مسند أحمد**، ٢٥٦/٢ (٩٤٢)؛ **المستدرك** للحاكم، ٤٠٥/٤ (٨٠٨٦).

٧ انظر: **مسند أحمد**، ١٣٤/٣٥ (٢١٢٠٧)؛ **المستدرك** للحاكم، ٤٠٠/٤ (٨٠٦٨). وذُكرت آية الرجم دون لفظها في **صحيح البخاري**، ١٦٨/٨ (٦٨٣٠)؛ و**صحيح مسلم**، ١٣١٧/٣ (١٦٩١).

٨ قرأ بها ابن كثير بخُلف عن البزّي. **النشر** لابن الجزري، ٣٣٠/٢.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم وابن كثير وابن جريج. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٣٩.

وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لو سرقَت فاطمةُ لَقَطعت يدها».[١]
﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ مِن باب التهييج والإلهاب، فإنّ الإيمان بهما يقتضي الجِدّ في طاعته تعالى والاجتهادَ في إجراء أحكامه. وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه مِن العقابِ في مقابلة المسامحة والتعطيل.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لِتحضُره زيادةً في التنكيل، فإنّ التفضيح قد ينكِّل أكثر ممّا ينكِّل التعذيب. و"الطائفة" فرقة يمكن أن تكون حافّةً حول الشيء، مِن "الطَّوف"، وأقلّها ثلاثة كما رُوي عن قتادة.[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى[٣] عنهما: أربعة إلى أربعين.[٤] وعن الحسَن: عشرة.[٥] والمراد جمعٌ يحصل به التشهير والزجر.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ حكمٌ مؤسَّس على الغالب المعتاد، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا بهنّ.

وقد رغِب بعض مِن ضعَفة المهاجرين في نكاح موسرات كانت بالمدينة مِن بَغايا المشركين، فاستأذنوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم في ذلك، فنُفِّروا عنه ببيان أنّه مِن أفعال الزناة وخصائص المشركين،[٦] كأنّه قيل: الزاني لا يرغب إلّا في نكاح إحداهما، والزانية لا يرغب في نكاحها إلّا أحدُهما، فلا تحوموا حوله كيلا تنتظموا في سِلكهما، أو تتّسِموا بسمتِهما، فإيرادُ الجملة الأولى -مع أنّ مَناط التنفير هي الثانية- إمّا للتعريض بقَصرهم الرغبةَ عليهنّ حيث استأذنوا في نكاحهنّ،

---

[١] صحيح البخاري، ١٧٥/٤ (٣٤٧٥)؛ صحيح مسلم، ١٣١٥/٣ (١٦٨٨).
[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨.
[٣] س - تعالى.
[٤] الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨.
[٥] الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٨.
[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ٦٥/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢١٠/٣.

أو لتأكيد العلاقة بين الجانبين مبالغةً / في الزجر والتنفير. وعدم التعرّض في الجملة الثانية للمشرِكة للتنبيه على أنّ مناط الزجر والتنفير هو الزنا، لا مجرّدُ الإشراك، وإنّما تُعُرِّض لها في الأولى إشباعًا في التنفير عن الزانية بنظمها في سِلك المشرِكة. [١٥٢ظ]

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نكاحُ الزواني ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِما أنّ فيه مِن التشبّه بالفسَقة، والتعرّضِ للتهمة، والتسبّبِ لسوء القالة، والطعنِ في النسب، واختلالِ أمر المعاش، وغيرِ ذلك مِن المفاسد ما لا يكاد يَليق بأحدٍ مِن الأداني والأراذل فضلًا عن المؤمنين، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً في الزجر. وقيل: النفي بمعنى النهي، وقد قُرئ به.[١] والتحريم على حقيقته، والحكمُ إمّا مخصوص بسبب النزول، أو منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور، ٣٢/٢٤]، فإنّه متناول للمسافِحات، ويؤيّده ما رُوي أنّه عليه السلام سُئل عن ذلك، فقال: «أوّله سِفاح، وآخره نكاح، والحرام لا يُحرِّم الحلال».[٢] وما قيل مِن أنّ المراد بالنكاح هو الوطء بيّنُ البطلان.[٣]

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ بيان لحكم العفائف إذا نُسِبن إلى الزنا بعد بيان حكم الزواني. ويُعتبر في الإحصان ههنا مع مدلوله الوضعي الذي هو العفّة عن الزنا: الحرّيّةُ والبلوغ والإسلام.

---

١ أي: "لَا يَنْكِحْ" بالجزم. قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن عُبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٩.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢١٢/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٤. قال الزيلعي: «غريب بهذا اللفظ». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤١٩/٢. وأخرج الدارقطني في السنن، ٤٠١/٤ (٣٦٨٠)، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سئل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن رجل زنى بامرأة فأراد أن يتزوّجها أو ابنتها، قال: «لا يحرّم الحرامُ الحلالَ، إنّما يحرّم ما كان بنكاح». وأخرج ابن أبي شيبة في مصنّفه، ٥٢٩/٣ (١٦٧٩٦)، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، في الرجل يفجر بالمرأة، ثمّ يتزوّجها، قال: «أوّله سِفاح، وآخره نكاح، أوّله حرام، وآخره حلال».

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢١٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٤.

وفي التعبير عن التفوّه بما قالوا في حقّهنّ بالرمي المنبئ عن صلابة الآلة وإيلام المَرميّ وبُعدِه عن الرامي إيذانٌ بشدّة تأثيره فيهنّ وكونِه رجمًا بالغيب، والمراد به رميُهنّ بالزنا لا غير، وعدمُ التصريح به للاكتفاء بإيرادهنّ عقيب الزواني، ووصفِهنّ بالإحصان الدالّ بالوضع على نزاهتهنّ عن الزنا خاصّةً، فإنّ ذلك بمنزلة التصريح بكون رميهنّ به لا محالةَ.

ولا حاجة في ذلك إلى الاستشهاد باعتبار الأربعة مِن الشهداء على أنّ فيه مؤنة بيان تأخّر نزول الآية عن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً﴾ [النساء، ١٥/٤]، / ولا بعدم وجوب الحدّ بالرمي بغير الزنا، على أنّ فيه شبه المصادرة، [١٥٣و]
كأنّه قيل: والذين يرمون العفائف المنزّهات عمّا رُمين به مِن الزنا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون عليهنّ بما رمَوهنّ به. وفي كلمة ﴿ثُمَّ﴾ إشعار بجواز تأخير الإتيان بالشهود، كما أنّ في كلمة ﴿لَمْ﴾ إشارة إلى تحقّق العجز عن الإتيان بهم وتقرّره، خلا أنّ اجتماع الشهود لا بدّ منه عند الأداء خلافًا للشافعي، فإنّه جوّز التراخي بين الشهادات، كما بين الرمي والشهادة.[١] ويجوز أن يكون أحدُهم زوجَ المقذوفة خلافًا له أيضًا.[٢] وقُرئ: "بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ".[٣]

﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ لظهور كذِبهم وافترائهم بعجزهم عن الإتيان بالشهداء، لقوله تعالى: ﴿فَإِذْ[٤] لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور، ١٣/٢٤]. وانتصاب ﴿ثَمَٰنِينَ﴾ كانتصاب المصادر، ونصبُ ﴿جَلْدَةً﴾ على التمييز. وتخصيصُ رميهنّ بهذا الحكم مع أنّ حكم رمي المحصَنين أيضًا ذلك لخصوص الواقعة وشيوع الرمي فيهنّ.

﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً﴾ عطفٌ على "اجلِدوا"، داخل في حكمه، تتمّة له، لِما فيه مِن معنى الزجر؛ لأنّه مؤلم للقلب، كما أنّ الجَلد مؤلم للبدن، وقد آذى المقذوفُ بلسانه فعوقب بإهدار منافعه جزاءً وِفاقًا.

---

[١] انظر: الحاوي الكبير للماوردي، ٢٢٨/١٣.

[٢] انظر: المبسوط للسرخسي، ٥٤/٧؛ وبدائع الصنائع للكاساني، ٢٤٠/٣؛ والبيان للعُمراني، ٣٢٨/١٣.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسلمة وأبي زرعة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٣٩.

[٤] م: وإذ.

و"اللام" في ﴿لَهُمْ﴾ متعلّقة بمحذوف هو حال مِن ﴿شَهَٰدَةً﴾، قدّمت عليها لكونها نكرة، ولو تأخّرت عنها لكانت صفةً لها. وفائدتها تخصيص الردّ بشهادتهم الناشئة عن أهليّتهم الثابتة لهم عندَ الرمي، وهو السرّ في قبول شهادة الكافر المحدود في القذف بعد التوبة والإسلام؛ لأنّها ليست ناشئةً مِن أهليّته السابقة؛ بل مِن أهليّةٍ حدثت له بعد إسلامه، فلا يتناولها الردّ، فتدبّر ودَع عنك ما قيل مِن أنّ المسلمين لا يَعبأون بسَبّ الكفّار، فلا يلحق المقذوفَ بقذفِ / الكافر مِن الشَّين والشَّنار ما يلحقه بقذف المسلم،[١] فإنّ ذلك بدون ما مرّ [١٥٣ظ]
مِن الاعتبار تعليل في مقابلة النصّ، ولا يخفى حاله، فالمعنى: لا تقبلوا منهم شهادةً مِن الشهادات حالَ كونها حاصلةً لهم عند الرمي.

﴿أَبَدًا﴾ أي: مدّةَ حياتهم وإن تابوا وأصلحوا، لِما عرفت مِن أنّه تتمّة للحدّ، كأنّه قيل: فاجلدوهم ورُدّوا شهادتَهم، أي: فاجمعوا لهم الجلد والردّ، فيبقى كأصله.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ كلام مستأنَف مقرِّر لِما قبله، ومبيِّن لسوءِ حالهم عند الله عزّ وجلّ. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الشرّ والفساد، أي: أولئك هم المَحكوم عليهم بالفِسق، والخروجِ عن الطاعة، والتجاوزِ عن الحدود، الكاملون فيه، كأنّهم هم المستحِقّون لإطلاق اسم الفاسق عليهم، لا غيرُهم مِن الفسَقة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ استثناء مِن "الفاسقين"،[٢] كما يُنبئ عنه التعليل الآتي. ومحلّ المستثنى النصب؛ لأنّه عن موجَب. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ لتهويل المَتوب عنه، أي: مِن بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم الهائل، ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أي: أصلحوا أعمالهم التي مِن جملتها ما فرَط منهم بالتلافي والتدارك، ومنه الاستسلام للحدّ، والاستحلال مِن المقذوف. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

---

[١] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٢١٤.
[٢] في الآية السابقة.

تعليل لِما يفيده الاستثناء مِن العفو عن المؤاخذة بموجَب الفسق، كأنّه قيل: فحينئذٍ لا يؤاخذهم الله تعالى بما فرَط منهم، ولا ينظمهم في سِلك الفاسقين؛ لأنّه تعالى مبالغ في المغفرة والرحمة.

هذا، وقد علّق الشافعي رحمه الله الاستثناء بالنهي، فمحلّ المستثنى حينئذ الجرّ على البدليّة مِن الضمير في ﴿لَهُمْ﴾،[١] وجعلَ "الأبد" عبارةً عن مدّة كونه قاذفًا، فتنتهي بالتوبة، فتُقبل شهادته بعدها.[٢]

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾

[١٥٤و] ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ / بيان لحكم الرامين لأزواجهم خاصّةً، بعد بيان حكم الرامين لغيرهنّ، لكن لا بأن يكون هذا مخصِّصًا للمحصَنات بالأجنبيّات ليلزم بقاء الآية السابقة ظنّيّة فلا يثبت بها الحدّ، فإنّ مِن شرائط التخصيص[٣] أن لا يكون المخصِّص متراخي النزول؛ بل بكونه ناسخًا لعمومها ضرورةَ تراخي نزولها -كما سيأتي- فيبقى الآية السابقة قطعيّة الدلالة فيما بقي بعد النسخ، لِما بُيِّن في موضعه أنّ دليل النسخ غير معلَّل.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ يشهدون بما رموهنّ به مِن الزنا. وقُرئ بتأنيث الفعل.[٤] ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ بدل مِن ﴿شُهَدَآءُ﴾ أو صفة لها على أنّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى "غير".

جُعِلوا مِن جملة الشهداء إيذانًا مِن أوّل الأمر بعدم إلغاءِ قولهم بالمرّة، ونظمِه في سِلك الشهادة في الجملة، وبذلك ازداد حسنُ إضافة الشهادة إليهم في قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ أي: شهادة كلّ واحد منهم، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ خبره، أي: فشهادتهم المشروعة أربعُ شهادات ﴿بِٱللَّهِ﴾

---

١ في الآية السابقة.

٢ انظر: الحاوي الكبير للماوردي، ١٧/٢٥.

٣ س: التخصّص.

٤ أي: "تكُنْ". قراءة شاذّة، عزاها ابن خالويه إلى بعضهم، وعزاها الكرماني إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٠٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٠.

متعلّق بـ﴿شَهَٰدَٰتٍ﴾ لِقُربها، وقيل: بـ﴿شَهَٰدَةُ﴾ لِتقدّمها. وقُرئ: "أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ"[١] بالنصب على المصدر، والعاملُ ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾ على أنّه إمّا خبر لمبتدأ محذوف، أي: فالواجب شهادة أحدهم، وإمّا مبتدأ محذوف الخبرِ، أي: فشهادة أحدهم واجبة.

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما رماها به مِن الزنا، وأصله "على أنّه"... إلخ، فحُذف الجارّ، وكُسرت ﴿إِنَّ﴾، وعُلّق العامل عنها للتأكيد.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ أي: الشهادة الخامسة للأربع المتقدّمة، أي: الجاعلةُ لها خمسًا بانضمامها إليهنّ، وإفرادُها عنهنّ مع كونها شهادةً أيضًا لاستقلالها بالفحوى، ووَكادتِها في إفادة ما يقصد بالشهادة مِن تحقيق الخبر، وإظهارِ الصدق. وهي مبتدأ، خبره: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماها به مِن الزنا، فإذا لاعَنَ الزوجُ حُبست الزوجة حتّى تعترف فتُرجَمَ، أو تُلاعِن.

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي: العذابَ الدنيوي، وهو الحبس المُغيّا على أحد الوجهين بالرجم الذي هو أشدّ / العذاب، ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ﴾ أي: [١٥٤ظ]
الزوجَ ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: فيما رماني به مِن الزنا.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾

﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ﴾،[٢] ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ﴾ أي: الزوجُ ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فيما رماني به مِن الزنا. وقُرئ: "وَالْخَامِسَةُ" بالرفع[٣] على الابتداء. وقُرئ: "أَنْ" بالتخفيف في الموضعين،

---

[١] قرأ بها نافع وابن جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٠.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٣١.

ورَفعِ "اللَّعنة" و"الغضب".[١] وقُرئ: "أَنْ غَضِبَ اللهُ".[٢] وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لِما أنّها مادّة الفجور، ولأنّ النساء كثيرًا ما يستعملن اللعن، فربّما يجترئن على التفوّه به لسقوط وقعه عن قلوبهنّ بخلاف غضبه تعالى.

رُوي أنّ آية القذف لمّا نزلت قرأها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على المنبر، فقام عاصم بن عديّ الأنصاري رضي الله عنه فقال: «جعلني الله فداك، إن وجَد رجل مع امرأته رجلًا فأخبَرَ جُلدَ ثمانين ورُدّت شهادته وفُسِّق، وإن ضربه بالسيف قُتل، وإن سَكت سَكت على غيظ، وإلى أن يجيء بأربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى، اللّهمّ افتَح»، وخرَج، فاستقبله هلال بن أميّة،[٣] أو عُويمِر،[٤] فقال: «ما وراءك؟» قال: «شرّ، وجدتُ على امرأتي خولة -وهي بنتُ عاصم- شريكَ بن سحماء»،[٥] فقال: «واللهِ، هذا سُؤالي، ما أسرع ما ابتُلِيتَ به»، فرجَعا فأخبرا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فكلّم خولة فأنكرت، فنزلَت، فلاعَنَ بينهما.[٦]

---

١ قرأ: "أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِ" نافع ويعقوب. وقرأ: "أَنْ غَضَبُ اللهِ عَلَيْهَا" يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٠.

٢ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٠.

٣ هو هلال بن أميّة بن عامر بن قيس بن عبد الأعلم بن عامر بن كعب بن واقف الأنصاري الواقفي. شهدَ بدرًا وما بعدها. وهو أحد الثلاثة الذين تِيب عليهم. قال الحافظ ابن حجر: «أخرج ابن شاهين عن عكرمة بن هلال بن أميّة أنّه أتى عمرَ، فذكر قصّة اللِّعان مطوّلة. وهذا لو ثبت لدلّ على أنّ هلال بن أميّة عاش إلى خلافة معاوية حتى أدرك عكرمة الرواية عنه، ولكنّ عطاء بن عجلان متروك، ويحتمل أيضًا أن يكون عكرمة أرسل الحديث عنه». **الإصابة** لابن حجر، ٦/٤٢٨.

٤ هو عُوَيمر بن أبي أبيض العجلاني. وقال الطبراني: هو عُوَيمر بن الحارث بن زيد بن جابر بن الجدّ بن العجلان. و"أبيض" لقَب لأحد آبائه. **الإصابة** لابن حجر، ٤/٦٢٠.

٥ شريك بن سَحْماء، وهي أمّه. واسم أبيه: عبدة بن مغيث بن الجدّ بن العجلان البلوي، حليف الأنصار. يقال: إنّه شهِد مع أبيه أحُدًا، ويقال: إنّ شريك بن سَحماء بعثه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه رسولًا إلى خالد بن الوليد وهو باليمامة، وبعثه عمر رضي الله عنه رسولًا إلى عمرو بن العاص حين أذِن له أن يتوجّه إلى فتح مصر. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٣/٢٧٩.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢١٦. قال الزيلعي: «غريب بهذا السياق، وفيه تخليط، فإنّ حديث عاصم بن عدي رواه البخاري ومسلم عن ابن عبّاس مِن غير هذا الوجه، وروى مسلم أوّله عن ابن مسعود، وليس فيه ذكر الأسامي. وقصّة هلال وشريك رواها مسلم، وليس فيها ذكر عاصم وغيره. ونقله الثعلبي هكذا بتمامه عن ابن عبّاس». **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٢/٤٢١.

والفُرقة الواقعة باللِّعان في حكم التطليقة البائنة عند أبي حنيفة ومحمّد رحمهما الله تعالى، ولا يتأبّد حكمها، حتّى إذا أَكذبَ الرجلُ نفسه بعد ذلك فحُدَّ جاز له أن يتزوّجها. وعند أبي يوسف وزُفر[1] والحسن بن زياد[2] والشافعي رحمهم الله تعالى[3] / هي فُرقة بغير طلاق توجب تحريمًا مؤبَّدًا، ليس لهما اجتماع بعد ذلك أبدًا.[4] [١٥٥و]

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ التفات إلى خطاب الرامين والمرميّات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقّه. وجواب ﴿لَوۡلَا﴾ محذوف لتهويله والإشعارِ بضيق العبارة عن حصره، كأنّه قيل: لولا تفضّله تعالى عليكم ورحمته، وأنّه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي مِن جملتها ما شرع لكم مِن حكم اللعان، لكان ما كان ممّا لا يحيط به نطاق البيان.

ومِن جملته أنّه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حدّ القذف مع أنّ الظاهر صدقه؛ لأنّه أعرف بحال زوجته، وأنّه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضاحة. وبعد ما شرَعَ لهم ذلك لو جعل شهاداته موجبةً لحدّ الزنا عليها لفات النظر لها، ولو جعل شهاداتها موجبة لحدّ القذف عليه لفات النظر له، ولا ريبَ في خروج الكلّ عن سَنن الحكمة والفضل والرحمة.

---

[1] هو زُفر بن الهذيل بن قيس العنبري، مِن تميم، أبو الهذيل (ت. ١٥٨هـ/٧٧٥م)، الفقيه، المجتهد، صاحب الإمام أبي حنيفة. أصله مِن أصبهان. أقام بالبصرة وولي قضاءها، وتُوفّي بها. وهو أحد العشرة الذين دوّنوا الكتب. جمع بين العلم والعبادة. وكان يقول: «نحن لا نأخذ بالرأي ما دام أثر، وإذا جاء الأثر تركنا الرأي». انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٨/٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٤٥/٢.

[2] هو الحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي، أبو عليّ (ت. ٢٠٤هـ/٨١٩م)، القاضي، فقيه العراق، صاحب الإمام أبي حنيفة. كان أحد الأذكياء البارعين في الرأي، ولِيَ القضاء بعد حفص بن غياث، ثمّ عزَل نفسَه. مِن كتبه: **أدب القاضي، ومعاني الإيمان، والنفقات، والخراج، والفرائض، والوصايا**. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥٤٣/٩؛ **والأعلام** للزركلي، ١٩١/٢.

[3] س – تعالى.

[4] انظر: **الهداية** للمَرغيناني، ٢٧١/٢؛ **وردّ المحتار** لابن عابدين، ٤٨٨/٣؛ **والحاوي الكبير** للماوردي، ٧٥/١١؛ **والمهذَّب** للشيرازي، ٩١/٣.

فجعَل شهاداتِ كلٍّ منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتمًا دَارِئةً لِما توجّه إليه مِن الغائلة الدنيويّة، وقد ابتُلي الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته مِن العذاب بما هو أتمّ ممّا درأَتْه عنه وأطَمُّ. وفي ذلك مِن أحكام الحِكَم البالغة وآثار التفضّل والرحمة ما لا يخفى، أمّا على الصادق فظاهر، وأمّا على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا، / ودرْءُ الحدّ عنه، وتعريضُه للتوبة حسبما يُنبئ عنه التعرّض لعنوان توّابيّته سبحانه، ما أعظمَ شأنه، وأوسعَ رحمته، وأدقَّ حكمته. [١٥٥ظ]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ﴾ أي: بأبلغ ما يكون مِن الكذب والافتراء. وقيل: هو البهتان، لا تشعر به حتّى يفجَأك، وأصله الإفك، وهو القلب؛ لأنّه مأفوك عن وجهه وسَننه، والمراد به ما أُفِك به الصدِّيقةُ أمُّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها. وفي لفظ "المجيء" إشارة إلى أنّهم أظهروه مِن عند أنفسهم مِن غير أن يكون له أصل.

وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا أراد سفَرًا أقرَع بين نسائه، فأيّتهنّ خرجت قُرعتُها استصحبَها، قالت عائشة رضي الله تعالى[١] عنها: «فأقرَع بيننا في غزوة غزاها -قيل: غزوة بني المصطلق-[٢] فخرج سهمي، فخرجت معه صلّى الله عليه وسلّم بعد نزول آية الحجاب، فحُمِلتُ في هَودج،[٣] فسِرنا حتّى إذا قفَلنا ودنَونا مِن المدينة نزلنا منزلًا، ثمّ نُودي بالرحيل، فقُمت ومشَيت حتّى جاوزت الجيش، فلمّا قضيتُ شأني أقبلتُ إلى رحلي، فلمستُ صدري فإذا عِقدي مِن جَزْع ظَفارِ[٤] قد انقطع، فرجعتُ فالتمسته، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط

---

١ س - تعالى.

٢ بنو المُصْطَلِق: بطن مِن خُزاعة مِن الأزْد مِن القحطانيّة، وهم بنو المُصْطَلِق، واسمه جذيمة بن سعد بن عمرو بن عامر بن لحيّ. **نهاية الأرب للقلقشندي**، ص ٧٢.

٣ "الهَودج" بفتح الهاء مركَب مِن مراكب النساء. **شرح النووي على صحيح مسلم**، ١٧/١٠٤.

٤ "الجَزْع" بفتح الجيم وإسكان الزاي؛ وهو خرز يماني. وأمّا "ظَفارِ" فبفتح الظاء المعجمة وكسر الراء، وهي مبنيّة على الكسر، تقول: هذه ظَفارِ، ودخلت ظَفارِ، وإلى ظَفارِ، بكسر الراء بلا تنوين في الأحوال كلّها، وهي قرية في اليمن. **شرح النووي على صحيح مسلم**، ١٧/١٠٤.

الذين كانوا يَرْحَلون بي،[١] فاحتملوا هَودجي فرَحَلوه على بعيري، وهم يحسبون أنّي فيه لخفّتي، فلم يستنكروا خِفّة الهَودج، وذهبوا بالبعير، ووجدت عِقدي بعد ما استمرّت الجيش، فجئت منازلَهم وليس فيها داعٍ ولا مجيب، فتيمّمت منزلي، وظننت أنّي سيفقدونني ويعودون في طلبي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنِمت، وكان / صفوان بن المعطَّل السلمي[٢] مِن وراء الجيش، فلمّا رآني [١٥٦و] عرفني، فاستيقظت باسترجاعه، فخمّرت وجهي بجِلبابي، وواللهِ ما تكلّمنا بكلِمة، ولا سمعتُ منه كلمة غيرَ استرجاعه، وهَوَى حتّى أناخ راحلتَه فوطِئ على يديها، فقُمت إليها فركبتُها، وانطلق يقود بي الراحلةَ حتّى أتينا الجيش موعرين[٣] في نَحر الظهيرة[٤] وهم نزول، وافتقدني الناس حين نزلوا، وماج القوم في ذكري، فبينا الناس كذلك إذ هجَمتُ عليهم فخاض الناس في حديثي، فهلَك مَن هلَك».[٥]

وقوله تعالى: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، أي: جماعة، وهي مِن العشرة إلى الأربعين، وكذا العِصابة، وهم عبد الله بن أبيّ، وزيد بن رفاعة،[٦] وحسّان بن ثابت، ومِسطح بن أثاثة، وحمنةُ بنت جحش،[٧] ومَن ساعدهم.

---

١ أي: يجعلون الرَّحْل على البعير. وهو معنى قولها: "فرَحَلوه" بتخفيف الحاء. **شرح النووي على صحيح مسلم**، ١٧/١٠٤.

٢ هو صفوان بن المعطّل بن رُبيّعة بن خزاعي بن محارب بن مرّة بن فالج بن ذكوان السلمي، ثمّ الذكواني (ت. ١٩هـ/٦٧٠م). سكَن المدينة، وشهِد الخندق والمشاهد في قول الواقدي، ويقال: أوّل مشاهِده المُريسيع. يقال: عاش إلى خلافة معاوية، فغزا الروم، فاندقّت ساقه، ثمّ نزل يُطاعن حتّى مات. وقال ابن السُّكن مثله، لكن قال: في خلافة عمر. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٣/٣٥٦؛ **والاعلام** للزركلي، ٣/٢٠٦.

٣ كذا في الأصول الخطّيّة بالعين، والأصحّ بالغين، قال النووي رحمه الله: «المُوغِر بالغين المعجمة: النازل في وقت الوَغْرة بفتح الواو وإسكان الغين، وهي شدّة الحرّ، كما فسّرها في الكتاب في آخر الحديث، وذكَر هناك أنّ منهم مَن رواه "موعرين" بالعين المهملة، وهو ضعيف». **شرح النووي على صحيح مسلم**، ١٧/١٠٥.

٤ "نحر الظهيرة": وقت القائلة وشدّة الحرّ. **شرح النووي على صحيح مسلم**، ١٧/١٠٥.

٥ **صحيح البخاري**، ٥/١١٦ (٤١٤١)؛ **صحيح مسلم**، ٤/٢١٢٩ (٢٧٧٠).

٦ لم أجد له ترجمة. وقال الألوسي: «وعدّ بعضهم مع الأربعة المذكورين: زيدَ بن رفاعة، ولم نرَ فيه نقلًا صحيحًا، وقيل: إنّه خطأ». **روح المعاني** للألوسي، ٩/٣١١.

٧ هي حَمْنة بنت جَحش الأسديّة، أخت أمّ المؤمنين زينب وإخوتها، وكانت زوج مصعب بن عمير، فقتل عنها يومَ أحُد، فتزوّجها طلحة بن عبيد الله فولَدت له محمّدًا وعمران. قال ابن عبد البرّ: «كانت مِن المبايِعات، وشهِدت أحُدًا، فكانت تسقي العطشى، وتحمل الجرحى وتُداويهم». انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٨/٨٨.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ استئناف خوطب به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر وعائشة وصفوان تسليةً لهم مِن أوّل الأمر، والضمير لـ﴿ٱلْإِفْكِ﴾. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهورِ كرامتكم على الله عزّ وجلّ بإنزال ثماني عشرة آية في نزاهة ساحتكم، وتعظيمِ شأنكم، وتشديدِ الوعيد فيمَن تكلّم فيكم، والثناءِ على مَن ظنّ بكم خيرًا.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم﴾ أي: مِن أولئك العُصبة ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ بقدرِ ما خاض فيه. ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ أي: معظَمه. وقُرئ بضمّ الكاف،[١] وهي لغة فيه. ﴿مِنْهُمْ﴾ مِن العُصبة، وهو ابن أبيّ، فإنّه بدأ به وأذاعه بين الناس عداوةً لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: هو وحسّان ومِسطح، فإنّهما شايَعاه بالتصريح به، فإفراد الموصول حينئذ باعتبار الفوج أو الفريق أو نحوهما. / ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: في الآخرة، أو في الدنيا أيضًا، فإنّهم جُلِدُوا ورُدّت شهادتهم، وصار ابنُ أبيّ مطرودًا مشهودًا عليه بالنفاق، وحسّانُ أعمى وأشلَّ اليدين، ومِسطح مكفوفَ البصر. وفي التعبير عنه بـ﴿ٱلَّذِى﴾ وتكريرِ الإسناد وتنكيرِ العذاب ووصفِه بالعِظَم مِن تهويل الخَطْب ما لا يخفى. [١٥٦ظ]

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تلوين للخطاب وصرفٌ له عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وذويه إلى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد ما في ﴿لَّوْلَآ﴾ التحضيضيّة مِن التوبيخ، ثمّ العدولُ عنه إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ لتأكيد التوبيخ والتشنيع، لكن لا بطريق الإعراض عنهم وحكايةِ جناياتهم لغيرهم على وجه المُباثّة؛ بل بالتوسّل بذلك إلى وصفهم بما يوجب الإتيانَ بالمحضَّض عليه ويقتضيه اقتضاءً تامًّا، ويزجرهم عن ضدّه زجرًا بليغًا، فإنّ كون وصفِ الإيمان ممّا يحملهم على إحسان الظنّ، ويكفّهم عن إساءته بأنفسهم، أي: بأبناء جنسهم النازلين منزلةَ أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ

---

[١] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣١.

تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة، ٨٥/٢]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات، ١١/٤٩] ممّا لا ريب فيه، فإخلالهم بموجَب ذلك الوصف أقبَحُ وأشنَعُ، والتوبيخُ عليه أدخلُ، مع ما فيه مِن التوسّل به إلى التصريح بتوبيخ الخائضات.

ثمّ إن كان المراد بالإيمان الإيمانَ الحقيقي فإيجابه لِما ذُكر واضح، والتوبيخُ خاصّ بالمؤمنين، وإن كان مطلقَ الإيمان الشاملَ لِما يظهره المنافقون أيضًا فإيجابه له مِن حيث إنّهم كانوا يحترزون عن إظهار ما ينافي مُدّعاهم، فالتوبيخ حينئذ متوجِّه إلى الكلّ، وتوسيط الظرف بين ﴿لَوۡلَآ﴾ وفعلها لتخصيص التحضيض بأوّل زمانِ سماعهم. وقَصر التوبيخ / على تأخير الإتيان بالمحضَّض عليه عن [١٥٧و] ذلك الآن والتردّدُ فيه ليفيد أنّ عدم الإتيان به رأسًا في غاية ما يكون مِن القباحة والشناعة، أي: كان الواجب أن يَظنّ المؤمنون والمؤمنات أوّلَ ما سمعوه ممّن اخترعه بالذاتِ أو بالواسطة مِن غير تلعثم وتردّد بمثلهم مِن آحاد المؤمنين خيرًا.

﴿وَقَالُواْ﴾ في ذلك الآن: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ظاهر مكشوف كونُه إفكًا، فكيف بالصدّيقةِ ابنةِ الصدّيق أمّ المؤمنين حُرمةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣﴾

﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إمّا مِن تمام القول المحضَّض عليه، مَسوقٌ لحثّ السامعين على إلزام المُسمِعين، وتكذيبِهم إثر تكذيب ما سمعوه منهم بقولهم: هذا إفك مبين، وتوبيخِهم على تركه، أي: هلّا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا.

﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ﴾ بهم، وإنّما قيل: ﴿بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ لزيادة التقرير، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الخائضين،[١] وما فيه مِن معنى البعد للإيذان بغلوّهم في الفساد، وبُعدِ منزلتهم في الشرّ، أي: أولئك المفسدون ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وشرعِه المؤسَّس على الدلائل الظاهرة المتقَنة ﴿هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ الكاملون في الكذب، المشهودُ عليهم بذلك، المستحقّون لإطلاق الاسم عليهم دون غيرهم، ولذلك رُتّب عليه الحدّ خاصّةً.

---

١ س: الحائضين.

وإمّا كلامٌ مبتدَأ[١] مَسوق مِن جهته تعالى للاحتجاج على كذبهم بكون ما قالوه قولًا لا يساعده الدليل أصلًا.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٤﴾

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب للسامعين والمُسمِعين جميعًا ﴿وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ مِن فنون النعم التي مِن جملتها الإمهال للتوبة، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ مِن ضروب الآلاء التي مِن جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلًا ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ بسبب ما خضتم فيه مِن حديث الإفك. والإبهام لتهويل أمره والاستهجانِ
[١٥٧ظ] بذكره. / يقال: "أفاض في الحديث"، و"خاض"، و"اندفع"، و"هَضَب"؛ بمعنًى. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُستحقَر دونه التوبيخ والجَلد.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥﴾

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ بحذف إحدى التاءين ظرف للمَسّ، أي: لَمسّكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقّيكم إيّاه مِن المخترعين ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ و"التلقّي" و"التلقّف" و"التلقّن" معانٍ متقاربة، خلا أنّ في **الأوّل** معنى الاستقبال، وفي **الثاني** معنى الخطف والأخذِ بسرعة، وفي **الثالث** معنى الحذق والمهارة.

وقُرئ: "تَتَلَقَّونَهُ"[٢] على الأصل، و"تَلْقَوْنَهُ"[٣] مِن "لَقِيَه"، و"تِلْقَوْنَهُ" بكسر حرف المضارَعة،[٤] و"تُلْقُونَهُ"[٥] مِن "إلقاء بعضهم على بعض"، و"تَلِقُونَهُ"،[٦]

---

[١] السياق: إمّا مِن تمام القول... وإمّا كلامٌ مبتدَأ...

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٤٠.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٢/٨.

[٤] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بغير نسبة. انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٠١/٤.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٤٠.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن عائشة وابن عبّاس رضي الله عنهم وعيسى وابن يَعمر وزيد بن علي. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٤٠؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٢/٨.

و"تَأْلِقُونَهُ"[١] مِن "الوَلْقِ" و"الأَلْق" وهو الكذب، و"تَثْقَفُونَهُ"[٢] مِن "ثَقِفتُه" إذا طلبتَه فوجدتَه، و"تَقَفَّوْنَهُ"،[٣] أي: تَتَتَبَّعُونَه.[٤]

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون قولًا مختصًّا بالأفواه مِن غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب؛ لأنّه ليس بتعبيرٍ عن علمٍ به في قلوبكم، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران، ١٦٧/٣]. ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ سهلًا لا تَبِعةَ له، أو ليس له كثير عقوبة، ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ والحال أنّه عنده عزّ وجلّ ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يقادَر قدرُه في الوِزر واستجرار العذاب.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ مِن المخترِعين أو المُشايعين[٥] لهم ﴿قُلْتُم﴾ تكذيبًا لهم وتهويلًا لِما ارتكبوه: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما يمكننا ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ وما يصدر عنّا ذلك بوجهٍ مِن الوجوه. وحاصله نفي وجود التكلّم به، لا نفي وجوده على وجه الصحّة أو الاستقامة والانبغاء. و﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما سمعوه. وتوسيط الظرف بين ﴿لَوْلَآ﴾ و﴿قُلْتُم﴾ لِما مرّ مِن تخصيص التحضيض بأوّل وقت السماع، وقَصرِ التوبيخ واللوم على تأخير القول المذكور عن ذلك الآن، ليفيد أنّه / المحتمِلُ [١٥٨و]
للوقوع، المفتقرُ إلى التحضيض على تركه، وأمّا تركُ القولِ نفسِه رأسًا فممّا لا يتوهّم وقوعه حتّى يُحضّض على فعله، ويُلام على تركه، وعلى هذا ينبغي أن يُحمل ما قيل: إنّ المعنى أنّه كان الواجب عليهم أن يتفادَوا أوّلَ ما سمعوا بالإفك عن التكلّم به، فلمّا كان ذكر الوقت أهمَّ وجب التقديم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أسلم وأبي جعفر. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٢/٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أمّ سفيان بن عيينة وكان أبوها يقرأ بحرف ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٣٤٠؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٢/٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة كذلك عن أمّ سفيان بن عيينة. انظر: **المحتسب** لابن جنّي، ١٠٤/٢؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٠.

٤ ط س: تتبّعونه. | وفي هامش م: و"تَقَفَّوْنَهُ" مِن "تَقَفَّيْتُ" تَتَبَّعْتُ. «**كواشي**». | **تفسير الكواشي**، ٣٤٩ظ.

٥ م: المشائعين. | وهو مِن المُشايَعة، وهي المُتابَعة والمُطاوَعة. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «شيع».

وأمّا ما قيل مِن أنّ ظروف الأشياء مُنزَّلةٌ مَنزلةَ أنفسها لوقوعها فيها، وأنّها لا تنفكّ عنها، فلذلك يتّسع فيها ما لا يتّسع في غيرها، فهي ضابطةٌ ربّما تُستعمل فيما إذا وُضع الظرف موضع المظروف، بأن جُعل مفعولًا صريحًا لفعل مذكور، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ [الأعراف، ٦٩/٧]، أو مقدَّرٍ، كعامّة الظروف المنصوبة بإضمار "اذكُرْ"، وأمّا ههنا فلا حاجة إليها أصلًا لِما تحقّقت أنّ مَناط التقديم توجيهُ التحضيض إليه، وذلك يتحقّق في جميع متعلَّقات الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝ تَرْجِعُونَهَآ﴾ [الواقعة، ٥٦/٨٦-٨٧].

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجّب ممَّن تفوّه به، وأصله أن يُذكر عند معاينة العجيب مِن صنائعه تعالى تنزيهًا له سبحانه مِن أن يصعب عليه أمثاله، ثمّ كثر حتّى استُعمل في كلّ متعجَّب منه، أو تنزيهٌ له تعالى مِن أن يكون حرمة نبيّه فاجرةً، فإنّ فجورها تنفير عنه، ومخِلّ بمقصود الزواج، فيكون تقريرًا لِما قبله، وتمهيدًا لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ لِعَظَمة المبهوت عليه، واستحالة صدقه، فإنّ حقارة الذنوب وعِظَمَها باعتبار متعلَّقاتها.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ينصحُكم ﴿أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ أي: كراهةَ أن تعودُوا، أو يزجرُكم مِن أن تعودُوا، أو في أن تعودوا، مِن قولِك: "وعظتُه في كذا فتركَه". ﴿أَبَدًا﴾ أي: مدَّةَ حياتِكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنّ الإيمان وازع عنه لا محالةَ، وفيه تهييج وتقريع.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالّةَ على الشرائع ومحاسن الآداب دلالةً واضحةً لتتّعظوا وتتأدّبوا بها، أي: ينزّلُها كذلك، أي: مبيَّنةً ظاهرة الدلالة على معانيها، لا أنّه يبيّنها بعد أن لم يكن كذلك، وهذا كما في قولهم: "سبحانَ مَن صغّر البعوض وكبّر الفيل"، أي: خلقهما صغيرًا وكبيرًا، ومنه قولك:

"ضيّق فمَ الركيّة، ووسّع أسفلها". وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتفخيم شأن البيان.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلائلِها ودقائقِها، ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع تدابيره وأفعاله، فأنّى يمكن صدقُ ما قيل في حقّ حُرمةِ مَن اصطفاه لرسالاته، وبعثه إلى كافّة الخلق ليرشدهم إلى الحقّ، ويزكّيهم، ويطهّرهم تطهيرًا. وإظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي، والإشعارِ بعلّيّة الألوهيّة للعلم والحكمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أي: يريدون ويقصدون ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي: تنتشر الخَصلة المفرطة في القُبح، وهي الفِرية والرمي بالزنا، أو نفس الزنا، فالمراد بشيوعها شيوعُ خبرها، أي: يحبّون شيوعها، ويتصدّون مع ذلك لإشاعتها، وإنّما لم يصرَّح به اكتفاءً بذكر المحبّة، فإنّها مستتبعة له لا محالةَ.

﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ متعلّق بـ﴿تَشِيعَ﴾، أي: تشيع فيما بين الناس، وذِكر المؤمنين لأنّهم العمدة فيهم، أو بمُضمَر هو حال مِن ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ﴾، فالموصول عبارة عن المؤمنين خاصّةً، أي: يحبّون أن تشيع الفاحشة كائنةً في حقّ المؤمنين وفي شأنهم. ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذكر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ مِن الحَدّ وغيره ممّا يتّفق مِن البلايا الدنيويّة. ولقد ضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عبدَ الله بنَ أبيّ وحسّانًا ومِسطحًا حدَّ القذف. وضرب صفوانُ حسّانًا ضربةً بالسّيف، وكُفّ بصره. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ مِن عذاب النار، وغير ذلك ممّا يعلمه الله عزّ وجلّ.

[١٥٩و] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميع الأمور التي مِن جملتها / ما في الضمائر مِن المحبّة المذكورة، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما يعلمه تعالى؛ بل إنّما تعلمون ما ظهر لكم مِن الأقوال والأفعال المحسوسة، فابنوا أمركم على ما تعلمونه، وعاقبوا في الدنيا على ما تشاهدونه مِن الأحوال الظاهرة، والله سبحانه هو المتولّي للسرائر، فيعاقب في الآخرة على ما تُكِنّه الصدور.

هذا إذا جُعل العذابُ العظيم في الدنيا عبارةً عن حدّ القذف أو منتظِمًا له كما أطبَق عليه الجمهور، أمّا إذا أُبقِيَ[١] على إطلاقه يُراد بالمحبّة نفسُها مِن غير أن يقارنها التصدّي للإشاعة -وهو الأنسب بمساق النظم الكريم- فيكون ترتيب العذاب عليها تنبيهًا على أنّ عذاب مَن يباشر الإشاعة ويتولّاها أشدّ وأعظم، ويكون الاعتراض التذييلي -أعني: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾- تقريرًا لثبوت العذاب العظيم لهم وتعليلًا له.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ تكرير للمِنّة بترك المعاجَلة بالعقاب للتنبيه على كمال عِظَم الجَريرة، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ عطفٌ على ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾. وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة، والإشعارِ باستتباع صفة الألوهيّة للرأفة والرحمة. وتغيير سَبكه وتصديرُه بحرف التحقيق لِما أنّ المراد بيان اتّصافه تعالى في ذاته بالرأفة التي هي كمال الرحمة، وبالرحيميّة التي هي المبالغة فيها على الدوام والاستمرار، لا بيانُ حدوث تعلّق رأفته ورحمته بهم كما أنّه المراد بالمعطوف عليه. وجواب ﴿لَوۡلَا﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: لا تسلُكوا مسالكَه في كلّ ما تأتون وما تذرون مِن الأفاعيل التي مِن جملتها إشاعة الفاحشة وحبّها. وقُرئ: "خُطْوَاتِ" بسكونِ الطّاءِ[٢] وبفتحِها[٣] أيضًا. ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وُضِع الظاهِران / مَوضع ضميرَيهما، حيثُ لم يُقَل: "ومَن يتّبعْها" أو "ومَن يتّبع خطواتِه" [١٥٩ظ]

---

١ ط س: أبقى.

٢ قرأ بها نافع وأبو عمرو وحمزة وخلف وشعبة والبزي بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها الزجّاج بغير نسبة، ونقلها عنه الكرماني. انظر: **معاني القرآن وإعرابه** للزجّاج، ١/٢٤١؛ و**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٨١.

لزيادة التقرير، والمبالغةِ في التنفير والتحذير. ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ علّة للجزاء وضعت موضعه، كأنّه قيل: فقد ارتكب الفحشاء والمنكر؛ لأنّ دأبه المستمرّ أن يأمر بهما، فمَن اتّبع خطواتِه فقد امتثل بأمره قطعًا.

و﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ ما أفرَط قُبحه كالفاحشة، و﴿ٱلْمُنكَرِ﴾ ما ينكره الشرع. وضمير ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشيطان، وقيل: للشأن على رأي مَن لا يوجب عودَ الضمير مِن الجملة الجزائيّة إلى اسم الشرط، أو على أنّ الأصل "يأمره". وقيل: هو عائد إلى ﴿مَن﴾ أي:[1] فإنّ ذلك المتّبِع يأمر الناسَ بهما؛ لأنّ شأن الشيطان هو الإضلال، فمَن اتّبعه يترقّى مِن رتبة الضلال والفسادِ إلى رتبة الإضلال والإفساد.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بما مِن جُملته هاتيك البيانات، والتوفيق للتوبة الماحِصة للذنوب، وشرع الحدود المكفِّرة لها. ﴿مَا زَكَىٰ﴾ أي: ما طهُر مِن دنَسها. وقُرئ: "مَا زَكّى" بالتشديد،[2] أي: ما طهّر الله تعالى.

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنكُم﴾ بيانيّة، وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ زائدة، و﴿أَحَدٍ﴾ في حيّز الرفع على الفاعليّة على القراءة الأولى، وفي محلّ النصب على المفعوليّة على القراءة الثانية. ﴿أَبَدًا﴾ لا إلى نهاية. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى﴾ يطهّر ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِن عباده، بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه، وحملِه على التوبة، ثمّ قبولِها منه، كما فعلَ بكم.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ مبالِغ في سمع الأقوال التي مِن جملتها ما أظهروه مِن التوبة، ﴿عَلِيمٌ﴾ بجميع / المعلومات التي مِن جملتها نيّاتهم، وفيه حثّ لهم [١٦٠و]
على الإخلاص في التوبة. وإظهار الاسم الجليل للإيذان باستدعاء الألوهيّة للسمع والعلم مع ما فيه مِن تأكيد استقلال الاعتراض التذييلي.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

---

١ س – أي.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة وزوح وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤١.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يحلِف، "افتعال" مِن "الألِيّة"، وقيل: لا يقصّر مِن "الألْو". والأوّل هو الأظهر لنزوله في شأن الصدّيق رضي الله عنه حين حلَف أن لا يُنفق على مِسطح بعدُ،[١] وكان ينفق عليه لكونه ابنَ خالته، وكان مِن فقراء المهاجرين. ويعضده قراءة مَن قرأ: "وَلَا يَتَألَّ".[٢]

﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين، وكفى به دليلًا على فضل الصدّيق رضي الله تعالى عنه، ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ أي: على أن لا يؤتوا. وقُرئ بتاء الخطاب[٣] على الالتفات. ﴿أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، جيء بها بطريق العطف تنبيهًا على أنّ كلًّا منها علّة مستقلّة لاستحقاقه الإيتاءَ، وقيل: لِموصوفاتٍ أقيمت هي مُقامها، وحذفُ المفعول الثاني لغاية ظهوره، أي: على أن لا يؤتِيَهم شيئًا.

﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ ما فرَط منهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغضاء عنه. وقد قُرئ الأمرانِ بتاءِ الخطابِ[٤] على وَفق قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى مَن أساء إليكم. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخذة وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها. وفيه ترغيب عظيم في العفو، ووعد كريم بمقابلته، كأنّه قيل: ألا تحبّون أن يغفر الله لكم، فهذا مِن موجباته. رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم قرأها على أبي بكر رضي الله عنه، فقال: «بلى أُحِبّ أن يغفر الله لي»، فرَجع إلى مِسطح نفقتَه، وقال: «واللهِ لا أنزعها أبدًا».[٥]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: العفائفَ ممّا رُمِينَ به مِن الفاحشة ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ منها على الإطلاق بحيث لم يخطر ببالهنّ شيء / منها ولا مِن مقدّماتها أصلًا، [١٦٠ظ]

---

١ صحيح البخاري، ١١٦/٥ (٤١٤١)؛ صحيح مسلم، ٢١٢٩/٤ (٢٧٧٠).

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٣١/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة وابن قطيب وأبي البرهسم. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥/٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه والحسن وسفيان بن الحسين وأسماء بنت يزيد. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥/٨.

٥ صحيح البخاري، ١١٦/٥ (٤١٤١)؛ صحيح مسلم، ٢١٢٩/٤ (٢٧٧٠).

ففيها مِن الدلالة على كمال النزاهة ما ليس في ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، أو السليماتِ الصدور النقيّاتِ القلوب عن كلّ سوءٍ.

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: المتّصفات بالإيمان بكلّ ما يجب أن يؤمَن به مِن الواجبات والمحظورات وغيرها إيمانًا حقيقيًّا تفصيليًّا كما يُنبئ عنه تأخير ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عمّا قبلها مع أصالة وصف الإيمان، فإنّه للإيذان بأنّ المراد بها المعنى الوصفي المُعرِب عمّا ذكر، لا المعنى الاسمي المصحّح لإطلاق الاسم في الجملة كما هو المتبادَر على تقدير التقديم.

والمراد بها عائشة الصدّيقة رضي الله تعالى عنها، والجمعُ باعتبار أنّ رميها رميٌ لسائر أمّهات المؤمنين لاشتراك الكلّ في العصمة والنزاهة والانتساب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء، ١٠٥/٢٦]، ونظائره.

وقيل: أمّهات المؤمنين، فيدخل فيهنّ الصدّيقة دخولًا أوّليًّا. وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد هي الصدّيقة، والجمعُ باعتبار استتباعها للمتّصفات بالصفات المذكورة مِن نساء الأمّة،[1] فيأباه أنّ العقوبات المرتّبة على رمي هؤلاء عقوباتٌ مختصّةٌ بالكفّار والمنافقين. ولا ريب في أنّ رمي غير أمّهات المؤمنين ليس بكفر، فيجب أن يكون المراد إيّاهنّ على أحد الوجهين، فإنّهنّ قد خُصِصْنَ مِن بين سائر المؤمنات، فجُعل رميُهنّ كفرًا إبرازًا لِكرامتهنّ على الله عزّ وجلّ، وحمايةً لحِمى الرسالة عن أن يَحوم حوله أحد بسوء، حتّى إنّ ابن عبّاس رضي الله عنهما جعله أغلظَ مِن سائر أفراد الكفر حين سُئل عن هذه الآيات، فقال: «مَن أذنب ذنبًا ثمّ تاب منه قُبلت توبته إلّا مَن خاض في أمر عائشة رضي الله تعالى عنها».[2] وهل هو منه رضي الله عنه إلّا لِتهويل أمر الإفك والتنبيهِ على أنّه كفرٌ غليظ.

﴿لُعِنُوا۟﴾ بما قالوا في حقّهنّ ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون مِن المؤمنين والملائكة أبدًا، ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ما ذكر مِن اللعن الأبدي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٤/٣.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٣؛ اللباب لابن عادل، ٣٣٨/١٤.

هائل لا يُقادَر قدره لغاية عِظم ما اقترفوه مِن الجناية.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

[١٦١و] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾... إلخ، / إمّا متّصل بما قبله، مَسوق لتقرير العذاب المذكور بتعيين وقت حلوله، وتهويلِه ببيان ظهور جنايتهم الموجبة له مع سائر جناياتهم المستتبعة لعقوباتها على كيفيّةٍ هائلة وهيئةٍ خارقة للعادات، فـ﴿يَوْمَ﴾ ظرف لِما في الجارّ والمجرور المتقدّم مِن معنى الاستقرار، لا لِـ﴿عَذَابٌ﴾[١] وإن أغضَينا عن وصفه؛ لإخلاله بجزالة المعنى.

وإمّا منقطع عنه مَسوق لتهويل اليوم بتهويل ما يحويه على أنّه ظرف لفعل مؤخَّر قد ضُرِب عنه الذكرُ صفحًا للإيذان بقصور العبارة عن تفصيل ما يقع فيه مِن الطامّة التامّة والداهية العامّة، كأنّه قيل: يومَ تشهد عليهم ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يحيط به حيطة المقال، على أنّ الموصول المذكور عبارة عن جميع أعمالهم السيّئة وجناياتِهم القبيحة، لا عن جنايتهم المعهودة فقط.

ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها أنّه تعالى يُنطِقُها بقدرته، فتُخبر كلّ جارحة منها بما صدَر عنها مِن أفاعيل صاحبها، لا أنّ كلًّا منها تخبر بجنايتهم المعهودة فحسبُ،[٢] والموصول المحذوف عبارة عنها وعن فنون العقوبات المترتّبة عليها كافّة، لا عن إحداهما خاصّةً، ففيه مِن ضروب التهويل بالإجمال والتفصيل ما لا مزيد عليه.

وجَعلُ الموصول المذكور عبارةً عن خصوص جنايتهم المعهودة، وحملُ شهادة الجوارح على إخبار الكلّ بها فقط؛ تحجيرٌ للواسع، وتهوينٌ لأمر الوازع. والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرارهم عليها في الدنيا. وتقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون الشهادة ضارّةً لهم، مع ما فيه مِن التشويق إلى المؤخَّر كما مرّ مرارًا.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٢٣/٣.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يوم إذ تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءَهم الثابتَ الذي يحقّ أن يثبت لهم لا محالةَ وافيًا كاملًا، كلام مبتدأ مَسوق لبيان ترتيب حكم الشهادة عليها، متضمّن لبيان ذلك المبهم المحذوف على وجه الإجمال، ويجوز أن يكون / ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾[1] ظرفًا لـ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلًا منه. وقيل: هو منصوب على أنّه [١٦١ظ]
مفعولٌ لفعل مضمَر، أي: اذكُر يوم تشهد. وقُرئ: "يَوْمَ يَشْهَدُ"[2] بالتذكير للفصل.

﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ عند معاينتهم الأهوالَ والخطوبَ حسبما نطق به **القرآن الكريم** ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي يحقّ أن يثبت لا محالةَ في ذاته وصفاته وأفعاله التي مِن جملتها كلماتُه التامّات المنبئة عن الشئون التي يشاهدونها منطبقةً عليها، ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ المظهِرُ للأشياءِ كما هي في أنفسها، أو الظاهرُ أنّه هو الحقّ. وتفسيره بظهور ألوهيّته تعالى وعدمِ مشاركة الغير له فيها، وعدمِ قدرة ما سواه على الثواب والعقاب؛[3] ليس له كثير مناسبة للمقام، كما أنّ تفسير ﴿الحقّ﴾ بـ"ذي الحقّ البيّن"، أي: العادل الظاهر عدلُه،[4] كذلك.

ولو تتبّعتَ ما في الفرقان المجيد مِن آيات الوعيد الواردة في حقّ كلّ كفّارٍ مَريد وجبّار عنيد لا تجد شيئًا منها فوق هاتيك القَوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد، وما ذاك إلّا لإظهار منزلة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في علوّ الشأن والنباهة، وإبرازِ رتبة الصدّيقة رضي الله[5] عنها في العفّة والنزاهة.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٢٦﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾... إلخ كلامٌ مستأنَف مؤسَّس على قاعدة السنّة الإلهيّة الجارية فيما بين الخلق على موجب أنّ لله مُلكًا يسوق الأهل إلى الأهل،

---

١ في الآية السابقة.
٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف، النشر لابن الجزري، ٣٣١/٢.
٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٣/٤.
٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٣/٤.
٥ س + تعالى.

أي: الخبيثات مِن النساء ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ مِن الرجال، أي: مختصّات بهم لا يكَدْنَ يتجاوَزْنَهم إلى غيرهم على أنّ "اللام" للاختصاص. ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ أيضًا ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ لأنّ المجانَسة مِن دواعي الانضمام.

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ منهنّ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ منهم، ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ أيضًا ﴿لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ منهنّ بحيث لا يكادون يجاوزونهنّ إلى مَن عداهنّ، وحيث كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أطيبَ الأطيبين وخيرةَ الأوّلين والآخرين تبيّن كونُ الصدّيقة [١٦٢و] رضي الله تعالى عنها مِن أطيب الطيّبات بالضرورة، واتّضح بطلان ما قيل / في حقّها مِن الخرافات حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ على أنّ الإشارة إلى أهل البيت المنتظِمين للصدّيقة انتظامًا أوّليًا. وقيل: إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والصدّيقة وصفوان. وما في اسم الإشارة مِن معنى البعد للإيذان بعلوّ رتبة المشار إليهم وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك الموصوفون بعلوّ الشأن مبرَّءون ممّا يقوله أهل الإفك في حقّهم مِن الأكاذيب الباطلة.

وقيل: الخبيثات مِن القول للخبيثين مِن الرجال والنساء، أي: مختصّة ولائقة بهم، لا ينبغي أن تُقال في حقّ غيرهم، وكذا الخبيثون مِن الفريقين أحقّاء بأن يقال في حقّهم خبائثُ القول. والطيّبات مِن الكلِم للطيّبين مِن الفريقين، مختصّةٌ وحقيقةٌ بهم، وهم أحقّاء بأن يقال في شأنهم طيّباتُ الكلِم، أولئك الطيّبون مبرَّءون ممّا يقول الخبيثون في حقّهم، فمآله تنزيه الصدّيقة أيضًا.

وقيل: خبيثات القول مختصّة بالخبيثين مِن فريقَي الرجال والنساء، لا تصدر عن غيرهم، والخبيثون مِن الفريقين مختصّون بخبائث القول متعرّضون لها، والطيّبات مِن الكلام للطيّبين مِن الفريقين، أي: مختصّة بهم، لا تصدر عن غيرهم، والطيّبون مِن الفريقين مختصّون بطيّبات الكلام، لا يصدر عنهم غيرها، أولئك الطيّبون مبرَّءون ممّا يقوله الخبيثون مِن الخبائث، أي: لا يصدر عنهم مثل ذلك، فمآله تنزيه القائلين: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.[١]

---

[١] النور، ٢٤/١٦.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة لِما لا يخلو عنه البشر مِن الذنب، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجنّة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ إثر ما فُصِل الزواجر عن الزنا وعن رميِ العفائف عنه، شُرِع في تفصيل الزواجر عمّا عسى يؤدّي إلى أحدهما مِن مخالطة الرجال بالنساء، ودخولِهم عليهنّ في أوقات الخلوات، وتعليمِ الآداب الجميلة، والأفاعيلِ المرضيّة المستتبعة لسعادة الدارين. ووصفُ البيوت بمغايرة بيوتهم خارج / مخرجَ العادة التي هي سُكنى كلّ أحد في مِلكه، وإلّا فالآجر والمُعير [١٦٢ظ] أيضًا منهيّان عن الدخول بغير إذنٍ. وقُرئ: "بِيُوتًا غَيْرَ بِيُوتِكُمْ" بكسر الباء[١] لأجل الياء.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ أي: تستأذنوا مَن يملك الإذن مِن أصحابها، مِن "الاستئناس" بمعنى الاستعلام، مِن "آنس الشيءَ" إذا أبصرَه، فإنّ المستأذِن مستعلِم للحال، مستكشِف أنّه هل يؤذَن له، أو مِن "الاستئناس" الذي هو خلاف الاستيحاش، لِما أنّ المستأذِن مستوحِش خائف أن لا يؤذَنَ له، فإذا أُذِن له استأنس.

﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ عند الاستئذان. رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم «أنّ التسليم أن يقول: السلام عليكم، أأدخل؟ ثلاث مرّات، فإن أُذِن له دخل، وإلّا رجع».[٢]

---

[١] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وقالون وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٦.

[٢] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٠٣. وفي سنن الترمذي، ٥/٥٣ (٢٦٩٠)، عن أبي سعيد، قال: استأذن أبو موسى على عمر، فقال: «السلام عليكم أأدخل؟» قال عمر: «واحدة»، ثم سكت ساعة، ثم قال: «السلام عليكم أأدخل؟» قال عمر: «ثنتان»، ثمّ سكت ساعة فقال: «السلام عليكم أأدخل؟» فقال عمر: «ثلاث»، ثم رجع، فقال عمر للبوّاب: «ما صنع؟» قال: «رجَع»، قال: «عليّ به»، فلمّا جاءه، قال: «ما هذا الذي صنعت؟» قال: «السنّة»، قال: «آلسنّة؟ والله لتأتيني على هذا ببرهان أو ببيّنة أو لأفعلنّ بك»، قال: فأتانا ونحن رفقة مِن الأنصار، فقال: يا معشر الأنصار، ألستم أعلم الناس بحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ ألَم يقل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الاستئذان ثلاث، فإن أُذِن لك، وإلّا فارجع» فجعل القوم يمازحونه، قال أبو سعيد: «ثم رفعت رأسي إليه» فقلت: «فما أصابك في هذا مِن العقوبة فأنا شريكك». قال: فأتى عمر فأخبره بذلك، فقال عمر: «ما كنت علمت بهذا».

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: الاستئذان مع التسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِن أن تدخلوا بغتةً، أو على تحيّة الجاهليّة حيث كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتًا غير بيته يقول: "حُيِّيتم صباحًا"، "حُيِّيتم مساءً"، فيدخلُ، فربّما أصابَ الرجلَ مع امرأته في لِحاف.[1] ورُوي أنّ رجلًا قال للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أأستأذن على أمّي؟» قال: «نعم»، قال: «ليس لها خادم غيري، أأستأذن عليها كلّما دخلتُ؟» قال عليه السلام: «أتحبّ أن تراها عريانةً؟» قال: «لا»، قال عليه السلام: «فاستأذِنْ».[2]

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلّق بمُضمَر، أي: أُمِرتم به، أو قيل لكم هذا كي تتذكّروا وتتّعظوا وتعملوا بموجَبه.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ أي: ممّن يملك الإذن على أنّ مَن لا يملكه مِن النساء والولدان وجدانُه كفُقدانه، أو أحدًا أصلًا على أنّ مدلول النصّ الكريم عبارةً هو النهي عن دخول البيوت الخالية، لِما فيه مِن الاطّلاع على ما يعتاد الناس إخفاءَه، مع أنّ التصرّف في مِلك الغير محظور مطلقًا، وأمّا حرمة دخول ما فيه النساء والولدان فثابتة بدلالة النصّ؛ لأنّ الدخول حين حَرُم مع ما ذُكر مِن العلّة فلَأن يَحرم عند انضمام / ما هو أقوى منه إليه -أعني الاطّلاعَ على العورات- أولى. [١٦٣و]

﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واصبروا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: مِن جهة مَن يملك الإذن عند إتيانه. ومَن فسّره بقوله: حتّى يأتي مَن يأذن لكم،[3] أو حتّى تجدوا مَن يأذن لكم؛[4] فقد أبرز القطعي في معرض الاحتمال.

ولمّا كان جعلُ النهي مُغيًّا بالإذن ممّا يوهم الرخصة في الانتظار على الأبواب مطلقًا؛ بل في تكرير الاستئذان ولو بعد الردّ دُفعَ ذلك بقوله تعالى:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٣/٤.

٢ الموطّأ لمالك، ١٤٠٢/٥ (٣٥٣٨)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ١٥٧/٧ (١٣٥٥٧).

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٤/٤.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٢٧/٣.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْ﴾ أي: إن أُمِرتـم مِن جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الآمر ممّن يملك الإذن أو لا فارجعوا، ولا تُلِحّوا بتكرير الاستئذان كما في الوجه الأوّل، ولا تَلَجُوا[١] بالإصرار على الانتظار إلى أن يأتي الآذِن كما في الثاني، فإنّ ذلك ممّا يجلب الكراهة في قلوب الناس، ويقدح في المروءة أيّ قدْح.

﴿هُوَ﴾ أي: الرجوع ﴿أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ أي: أطهر ممّا لا يخلو عنه اللجّ والعناد والوقوف على الأبواب مِن دنَس الدناءة والرذالة. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذَرون ممّا كُلِّفتموه فيجازيكم عليه.

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ﴾ أي: بغير استئذانٍ ﴿بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ﴾ أي: غيرَ موضوعة لسُكنى طائفة مخصوصة[٢] فقط؛ بل ليتمتّع بها مَن يضطرّ إليها كائنًا مَن كان مِن غير أن يتّخذها سَكنًا، كالرُّبُط والخانات والحوانيت والحمّامات ونحوها، فإنّها مُعدّة لمصالح الناس كافّة، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ فإنّه صفة للبيوت، أو استئناف جارٍ مجرى التعليل لعدم الجُناح، أي: فيها حقّ تمتّع لكم، كالاستكنان مِن الحرّ والبرد، وإيواءِ الأمتعة والرِّحال والشِّرى والبيع والاغتسال وغير ذلك ممّا يليق بحال البيوت وداخليها، فلا بأس بدخولها بغير استئذان مِن داخليها مِن قبلُ، ولا ممّن يتولّى أمرها ويقوم بتدبيرها مِن قُوّام الرباطات والخانات وأصحاب الحوانيت ومتصرّفي الحمّامات ونحوهم.

ويُروى أنّ أبا بكر رضي الله عنه / قال: «يا رسول الله، إنّ الله تعالى قد أنزل [١٦٣ظ]
عليك آية في الاستئذان، وإنّا نختلف في تجاراتنا، فننزل هذه الخانات، أفَلا ندخلها إلّا بإذن؟» فنزلت.[٣] وقيل: هي الخَرِبات يُتبرّز فيها، و"المتاع" التبرّز. والظاهر أنّها مِن جملة ما ينتظمه البيوت، لا أنّها المُرادة فقط.

---

[١] وفي هامش م: لجّ يَلَجّ. | انظر: لسان العرب لابن منظور، «لجج». وفيه: «ولَجّ في الأمر: تمادى عليه وأبَى أن ينصرف عنه».

[٢] س: محصوصة.

[٣] الكشّاف للزمخشري، ٢٢٨/٣؛ اللباب لابن عادل، ٣٤٨/١٤.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيد لِمَن يدخل مدخلًا مِن هذه المداخل لفسادٍ أو اطّلاعٍ على عورات.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ شروع في بيان أحكامٍ كلّيّة شاملة للمؤمنين كافّةً، يندرج فيها حكم المستأذِنين عند دخولهم البيوت اندراجًا أوّليًا. وتلوين الخطاب وتوجيهُه إلى رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وتفويضُ ما في حيّزه مِن الأوامر والنواهي إلى رأيِه عليه السلام لأنّها تكاليف متعلّقة بأمور جزئيّة كثيرة الوقوع حقيقةٍ بأن يكون الآمرُ بها والمتصدّي لتدبيرها حافظًا ومهيمنًا عليهم. ومفعول الأمر أمرٌ آخر قد حُذف تعويلًا على دلالة جوابه عليه، أي: قل لهم: غُضُّوا ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ عمّا يحرُم ويقتصروا به على ما يحِلّ ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وتقييد الغضّ بـ﴿مِنْ﴾ التبعيضيّة دون الحفظ لِما في أمر النظر مِن السَّعة. وقيل: المراد بالحفظ ههنا خاصّةً هو الستر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر مِن الغضّ والحفظ ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطهَر لهم مِن دنَس الريبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء ممّا يصدر عنهم مِن الأفاعيل التي مِن جملتها إحالةُ النظر، واستعمالُ سائر الحواسّ، وتحريكُ الجوارح، وما يقصدون بذلك فليكونوا على حذَر منه في كلّ ما يَأتون وما يَذرون.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظرن إلى ما لا يحلّ لهنّ النظر إليه

﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستّر أو التصوّن عن الزنا. وتقديم الغضّ لأنّ النظر بَريد الزنا ورائد الفساد. ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحُلِيّ وغيرها ممّا يُتَزيّن به، وفيه مِن المبالغة في النهي عن إبداء مواقعها ما لا يخفى. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ عند مزاولة الأمور التي لا بدّ منها عادةً كالخاتم والكُحل / والخضاب ونحوها، فإنّ في [١٦٤و] سَترها حرَجًا بيّنًا. وقيل: المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف، أو ما يعمّ المحاسن الخَلقيّة والتزيينيّة. والمستثنى هو الوجه والكفّان؛ لأنّها ليست بعورة.

﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ إرشاد إلى كيفيّة إخفاء بعض مواقع الزينة بعد النهي عن إبدائها. وقد كانت النساء على عادة الجاهليّة يسدُلن خُمُرهنّ مِن خلفهنّ فتبدو نُحورهنّ وقلائدهنّ مِن جيوبهنّ لوسعتها، فأُمِرن بإرسال خُمُرهنّ إلى جُيوبهنّ سترًا لِما يبدو منها. وقد ضُمِّن الضرب معنى الإلقاء فعُدّي بـ﴿عَلَىٰ﴾. وقُرئ بكسر الجيم[١] كما تقدّم. ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كُرّر النهي لاستثناء بعض موادّ الرخصة عنه باعتبار الناظر بعد ما استُثني عنه بعض موادّ الضرورة باعتبار المنظور. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنّهم المقصودون بالزينة، ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهنّ حتّى الموضع المعهود.

﴿أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكثرة المخالطة الضروريّة بينهم وبينهنّ، وقلّةِ توقّع الفتنة مِن قِبلهم، لِما في طباع الفريقين مِن النُّفرة عن مماسّة القرائب، ولهم أن ينظروا منهنّ ما يبدو عند المِهنة والخدمة. وعدمُ ذكر الأعمام والأخوال لِما أنّ الأحوط أن يتستّرن عنهم حِذارًا مِن أن يصفوهنّ لأبنائهم.

﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ المختصّات بهنّ بالصحبة والخدمة مِن حرائر المؤمنات، فإنّ الكوافر لا يتحرّجن عن وصفهنّ للرجال. ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ أي: مِن الإماء، فإنّ عبد المرأة بمنزلة الأجنبي منها. وقيل: مِن الإماء والعبيد، لِما رُوي أنّه عليه السلام أتى فاطمة رضي الله تعالى[٢] عنها بعبدٍ وهبَه لها،

---

[١] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وابن ذكوان وشعبة بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٦.

[٢] م - تعالى.

[١٦٤ظ] / وعليها ثوب إذا قَنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطّت رجليها لم يبلغ رأسها، فقال عليه السلام: «إنّه ليس عليك بأس، إنّما هو أبوكِ وغلامُكِ».[١]

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: أولي الحاجة إلى النساء، وهم الشيوخ الهِمُّ[٢] والمَمسوحون. وفي المَجبوب والخَصيّ خلاف. وقيل: هم البُلْهُ الذين يتّبعون الناس لفَضل طعامهم، ولا يعرفون شيئًا مِن أمور النساء. وقُرئ: "غَيْرَ" بالنصب[٣] على الحاليّة. ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لعدم تمييزهم، مِن "الظهور" بمعنى الاطّلاع، أو لعدم بلوغهم حدّ الشهوة، مِن "الظهور" بمعنى الغلَبة. و"الطفل" جنسٌ وُضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ﴾ أي: ما يخفينه مِن الرؤية ﴿مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا يضربن بأرجلهنّ الأرضَ ليتقعقع خَلخالهنّ، فيُعلم أنّهنّ ذوات خَلخال، فإنّ ذلك ممّا يورث الرجالَ مَيلًا إليهنّ، ويوهم أنّ لهنّ مَيلًا إليهم. وفي النهي عن إبداء صوت الحليّ بعد النهي عن إبداء عينها مِن المبالغة في الزجر عن إبداء مواضعها ما لا يخفى.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ تلوين للخطاب وصرفٌ له عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الكلّ بطريق التغليب لإبراز كمال العناية بما في حيّزه مِن أمر التوبة، وأنّها مِن معظمات المهمّات الحقيقة بأن يكون سبحانه وتعالى هو الآمِرَ بها، لِما أنّه لا يكاد يخلو أحد مِن المكلّفين عن نوع تفريط في إقامة مواجب التكاليف كما ينبغي.

وناهيك بقوله صلّى الله عليه وسلّم: «شيّبتني سورة هود»،[٤] لِما فيها مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود، ١١/١١٢]، لا سيّما إذا كان المأمورُ به الكفَّ عن الشهوات.

---

١ سنن أبي داود، ٦/٢٠٠ (٤١٠٦)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٧/١٥٤ (١٣٥٤٥).

٢ الهِمّ، بالكسر: الكبير الفاني. لسان العرب لابن منظور، «همم».

٣ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

٤ سنن الترمذي، ٥/٤٠٢ (٣٢٩٧)؛ المستدرك للحاكم، ٢/٣٧٤ (٣٣١٤).

/ وقيل: توبوا عمّا كنتم تفعلونه في الجاهليّة، فإنّه وإن جُبّ بالإسلام، لكن يجب الندم عليه والعزمُ على تركه كلّما خطر بباله. وفي تكرير الخطاب بقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ[1] ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للإيجاب، وإيذان بأنّ وصف الإيمان موجب للامتثالِ حتمًا. وقُرئ: "أَيُّهُ الْمُؤْمِنونَ".[2] ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بذلك سعادةَ الدارين. [١٦٥و]

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ بعدما زجر تعالى عن السِّفاح ومباديه القريبة والبعيدة أمرَ بالنكاح، فإنّه مع كونه مقصودًا بالذات مِن حيث كونُه مناطًا لبقاء النوع خيرُ مَزجرة عن ذلك. و"أيامَى" مقلوب "أيايم" جمعِ "أيِّم"، وهو مَن لا زوج له مِن الرجال والنساء، بِكرًا كان أو ثيِّبًا، كما يُفصح عنه قول مَن قال:

فإن تَنكحي أنكِحْ وإن تتأيّمي   وإن كنتُ أفتى منكمُ أتأيّمِ[3]

أي: زوِّجوا مَن لا زوجَ له مِن الأحرار والحرائر.

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ على أنّ الخطاب للأولياء والسادات. واعتبار الصلاح في الأرقّاء لأنّ مَن لا صلاحَ له منهم بمَعزِل مِن أن يكون خليقًا بأن يعتني مولاه بشأنه، ويشفق عليه، ويتكلّف في نظم مصالحه بما لا بدّ منه شرعًا وعادةً مِن بذل المال والمنافع؛ بل حقّه أن لا يستبقيَه عنده، وأمّا عدم اعتبار الصلاح في الأحرار والحرائر فلأنّ الغالب فيهم الصلاح على أنّهم مستبِدّون في التصرّفات المتعلّقة بأنفسهم وأموالهم، فإذا عزموا النكاح فلا بدّ مِن مساعدة الأولياءِ لهم، إذ ليس عليهم في ذلك غرامة حتّى يعتبر في مقابلتها غنيمة عائدة إليهم عاجلة أو آجلة. وقيل: المراد هو الصلاح للنكاح، والقيام بحقوقه.

---

١ م ط س: أيّها.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

٣ بغير نسبة في الجليس الصالح للنهرواني، ص ٦٣٩؛ والكشّاف للزمخشري، ٣/٢٣٣. يقول: أوافقك في حالتي التزوّج والتأيّم، وإن كنتُ أفتى منك. فتوح الغيب للطيبي، ١١/٧٣.

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إزاحة لِما عسى يكون وازعًا مِن النكاح مِن فقر أحد الجانبين، أي: لا يَمنعنّ فقرُ الخاطب أو المخطوبة مِن المناكحة، فإنّ في فضل الله عزّ وجلّ غُنية عن المال، فإنّه غادٍ ورائحٌ، يرزق مَن يشاء مِن حيث لا يحتسب، أو وعدٌ منه سبحانه بالإغناء لقوله عليه السلام: «اطلبوا الغنى في هذه الآية»،[١] لكنّه مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ / يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة، ٢٨/٩]. [١٦٥ظ]

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ غنيّ ذو سَعة، لا يرزؤه إغناءُ الخلائق، إذ لا نفادَ لِنعمته، ولا غايةَ لقدرته، ومع ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسط الرزق لمَن يشاء ويقدِر حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٣﴾

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ إرشاد للعاجزين عن مبادي النكاح وأسبابها إلى ما هو أولى لهم وأحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء، أي: لِيجتهدْ في العفّة وقمع الشهوة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: أسباب نكاح أو لا يتمكّنون ممّا يُنكح به مِن المال ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ عِدةٌ كريمة بالتفضّل عليهم بالغنى، ولطف لهم في استعفافهم، وتقويةٌ لقلوبهم، وإيذانٌ بأنّ فضله تعالى أولى بالأعفّاء، وأدنى مِن الصلحاء.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بعد ما أُمِر بإنكاح صالحي المماليك الأحقّاءِ بالإنكاح أُمِر بكتابة مَن يستحقّها منهم. و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مصدر "كاتَبَ" كـ"المكاتَبة"، أي: الذين يطلبون المكاتبةَ ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عبدًا كان أو أمةً.

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٥/٤. ولم أجده بهذا اللفظ في كتب الحديث، وبمعناه ما أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان، ٩٥/٧، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «التمسوا الرزق بالنكاح».

وهي أن يقول المَولى لمَملوكه: "كاتبتُك على كذا درهمًا تؤدّيه إليّ وتَعتِق"، ويقولَ المملوكُ: "قبلتُه" أو نحو ذلك، فإن أدّاه إليه عَتَق. قالوا: معناه: كتبتُ لك على نفسي أن تَعتِق منّي إذا وَفّيتَ بالمال، وكتبتَ لي على نفسك أن تفِي بذلك، أو كتبتُ عليك الوفاءَ بالمال، وكتبتَ عليّ العتقَ عنده.

والتحقيق أنّ المكاتبة اسم للعقد الحاصل مِن مجموع كلاميهما كسائر العقود الشرعيّة المنعقدة بالإيجاب والقبول، ولا ريب في أنّ ذلك لا يصدر حقيقةً إلّا مِن المتعاقدَين. وليس وظيفة كُلّ منهما في الحقيقة إلّا الإتيان بأحد شطرَيه معربًا عمّا يتمّ مِن قِبَله ويصدر عنه مِن الفعل الخاصّ به مِن غير تعرّض لِما يتمّ مِن قِبَل صاحبه ويصدر عنه مِن فعله الخاصّ به، إلّا أنّ كلًّا مِن ذينِك الفعلين لمّا كان بحيث لا يمكن تحقّقه في نفسه إلّا منوطًا بتحقّق الآخر، ضرورةَ أنّ التزام العتق بمقابلة البدل مِن جهة المولى لا يتصوّر تحقّقه وتحصّله إلّا بالتزام البدل مِن طرف / العبد، كما أنّ عقد البيع الذي هو تمليك المبيع [١٦٦و] بالثمن مِن جهة البائع لا يمكن تحقّقه إلّا بتملّكه به مِن جانب المشتري؛ لم يكن[١] بدّ مِن تضمين أحدِهما الآخرَ وقتَ الإنشاء، فكما أنّ قول البائع: "بِعتُ" إنشاء لِعقد البيع على معنى أنّه إيقاع لِما يتمّ مِن قِبَله أصالةً، ولِما يتمّ مِن قِبَل المشتري ضِمنًا، إيقاعًا متوقّفًا على رأيه توقّفًا شبيهًا بتوقّف عقد الفضولي، كذلك قول المَولى: "كاتبتك على كذا" إنشاء لعقد الكتابة، أي: إيقاع لِما يتمّ مِن قِبَله مِن التزام العتق بمقابلة البدل أصالةً، ولِما يتمّ مِن قِبَل العبد مِن التزام البدل ضِمنًا، إيقاعًا متوقّفًا على قَبوله، فإذا قَبِل تمّ العقد.

ومحلُّ الموصول الرفعُ على الابتداء، خبره: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾، و"الفاء" لتضمّنه معنى الشرط، أو النصب على أنّه مفعول لمُضمَر يفسّره هذا. والأمر فيه للندب؛ لأنّ الكتابة عقد يتضمّن الإرفاق، فلا يجب كغيرها، ويجوز حالًّا ومؤجّلًا، ومنجّمًا وغير منجّم. وعند الشافعي لا يجوز إلّا مؤجّلًا منجّمًا،[٢] وقد فُصِّل في موضعه.

---

[١] وفي هامش م: جواب "لَمّا".

[٢] انظر: مغني المحتاج للشربيني، ٦/٤٨٦.

﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ أي: أمانةً ورشدًا وقدرةً على أداء البدل بتحصيله مِن وجهٍ حلال، وصلاحًا لا يؤذِيَ الناس بعد العتق وإطلاق العَنان.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ أمر للموالي ببذل شيء مِن أموالهم، وفي حكمه حطُّ شيء مِن مال الكتابة، ويكفي في ذلك أقلّ ما يُتموَّل. وعن عليّ رضي الله عنه: حطّ الربع.[١] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: الثلث.[٢] وهو للندب عندنا، وعند الشافعي للوجوب،[٣] ويردّه قوله عليه السلام: «المكاتَب عبد ما بقي عليه درهم»،[٤] إذ لو وجب الحطّ لسقط عنه الباقي حتمًا، وأيضًا لو وجب الحطّ لكان وجوبه معلّقًا بالعقد، فيكون العقد موجِبًا ومسقِطًا معًا، وأيضًا فهو عقد معاوضة، فلا يجبَر على الحطيطة كالبيع.

وقيل: معنى ﴿آتوهم﴾ أقرِضوهُم. وقيل: هو أمر لهم بأن ينفقوا عليهم بعد أن يؤدّوا ويَعتِقوا.

وإضافة المال إليه تعالى ووصفُه بإيتائه إيّاهم للحثّ على الامتثال بالأمر بتحقيق المأمور به، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد، ٧/٥٧]، فإنّ ملاحظة وصول المال إليهم مِن جهته تعالى مع كونه هو المالكَ الحقيقيَّ له / مِن أقوى الدواعي إلى صرفه إلى الجهة المأمور بها. [١٦٦ظ]

وقيل: هو أمر بإعطاء سهمهم مِن الصدقات، فالأمر للوجوب حتمًا، والإضافة والوصف لتعيين المَأخذ. وقيل: هو أمر ندبٍ لعامّة المسلمين بإعانة المكاتَبين بالتصدّق عليهم، ويحلّ ذلك للمولى وإن كان غنيًا لتبدّل العنوان، حسبما ينطق به قوله عليه السلام في حديث بريرةَ:[٥] «هو لها صدقة، ولنا هديّة».[٦]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٨٣/١٧؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٩٧/٧.

٢ معالم التنزيل للبغوي، ٤٣/٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٦/٤.

٣ انظر: مغني المحتاج للشربيني، ٤٩١/٦.

٤ سنن أبي داود، ٧١/٦ (٣٩٢٦)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٥٤٥/١٠ (٢١٦٣٨).

٥ هي بَريرة مولاة عائشة رضي الله عنها، قيل: كانت مولاة لقوم مِن الأنصار، وقيل: لبني هلال، فاشترتها عائشة رضي الله عنها، فأعتقتها، وكانت تخدم عائشة قبل أن تشتريها، وقصّتها في ذلك في الصحيحين. انظر: الإصابة لابن حجر، ٥٠/٨.

٦ صحيح البخاري، ١٢٨/٢ (١٤٩٣)؛ صحيح مسلم، ٧٥٥/٢ (١٠٧٤).

﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ﴾ أي: إماءَكم، فإنّ كلًّا مِن "الفتى" و"الفتاة" كناية مشهورة عن العبد والأمة، وعلى ذلك مَبنى قوله عليه السلام: «لِيَقُلْ أحدُكم: فتايَ وفتاتِي، ولا يَقُلْ: عبدي وأمَتي».[١] ولهذه العبارة في هذا المقام باعتبار مفهومها الأصلي حُسن موقع ومزيد مناسبة لقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ وهو الزنا مِن حيث صدورُه عن النساء؛ لأنّهنّ اللاتي يُتوقّع منهنّ ذلك غالبًا دون مَن عداهنّ مِن العجائز والصغائر.

وقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ ليس لتخصيص النهي بصورة إرادتهنّ التعفّف عن الزنا، وإخراجِ ما عداها مِن حُكمه، كما إذا كان الإكراه بسبب كراهتهنّ الزنا لخصوص الزاني، أو لخصوص الزمان، أو لخصوص المكان، أو لغير ذلك مِن الأمور المصحِّحة للإكراه في الجملة؛ بل للمحافظة على عادتهم المستمرّة حيث كانوا يكرهونهنّ على البِغاء، وهنّ يُرِدن التعفّف عنه مع وفور شهوتهنّ الآمرةِ بالفجور، وقصورهنّ في معرفة الأمور الداعية إلى المحاسن الزاجرةِ عن تعاطي القبائح، فإنّ عبد الله بن أُبيّ كانت له ستّ جوارٍ يُكرههنّ على الزنا، وضرَب عليهنّ ضرائب، فشكَت اثنتان منهنّ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت.[٢]

وفيه مِن زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه مِن القبائح ما لا يخفى، فإنّ مَن له أدنى مروءة لا يكاد / يرضى بفجور مَن يَحوِيه حَرَمُه مِن [١٦٧و]
إمائه، فضلًا عن أمرهنّ به، أو إكراهِهنّ عليه، لا سيّما عند إرادتهنّ التعفّف، فتأمّل، ودَعْ عنك ما قيل مِن أنّ ذلك لأنّ الإكراه لا يتأتّى إلّا مع إرادة التحصّن.[٣] وما قيل مِن أنّه إن جُعل شرطًا للنهي لا يلزم مِن عدمه جواز الإكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي لامتناع المنهيّ عنه،[٤] فإنّهما بمَعزِل مِن التحقيق.

وإيثارُ كلمة ﴿إِنۡ﴾ على "إذا" مع تحقّق الإرادة في مورد النصّ حتمًا للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادة التحصّن في حيّز التردّد والشكّ،

---

[١] صحيح البخاري، ١٥٠/٣ (٢٥٥٢)؛ صحيح مسلم، ١٧٦٥/٤ (٢٢٤٩).

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢٣٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٦/٤.

[٣] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢٣٩/٣.

[٤] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٠٦/٤.

فكيف إذا كانت محقَّقةَ الوقوع كما هو الواقع، وتعليله بأنّ الإرادة المذكورةَ منهنّ في حيّز الشاذّ النادر[١] مع خلوّه عن الجدوى بالكلّيّة؛ يأباه اعتبارُ تحقّقها إباءً ظاهرًا.

وقوله تعالى: ﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ قيد للإكراه، لكن لا باعتبار أنّه مدار للنهي عنه؛ بل باعتبار أنّه المعتاد فيما بينهم كما قبله، جيء به تشنيعًا لهم فيما هم عليه مِن احتمال الوزر الكبير لأجل النَّزْرِ الحقير، أي: لا تفعلوا ما أنتم عليه مِن إكراههنّ على البِغاء لِطلب المتاع السريع الزوال، الوشيكِ الاضمحلال، فالمراد بالابتغاء الطلبُ المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل، إذ هو الصالح لكونه غايةً للإكراه مترتّبا عليه، لا المطلقُ المتناوِل للطلب السابق الباعث عليه.

﴿وَمَن يُكۡرِههُّنَّ﴾... إلخ جملة مستأنَفةٌ سيقت لتقرير النهي وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرَهات عن عقوبة المكرَهِ عليه عبارةً، ورجوعِ غائلةِ الإكراهِ إلى المكرِهين إشارةً، أي: ومَن يكرههنّ على ما ذكر مِن البِغاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: لهنّ، كما وقع في مصحف ابن مسعود، وعليه قراءة ابن عبّاس رضي الله تعالى[٢] عنهم،[٣] وكما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ﴾ أي: كونهنّ مُكرَهاتٍ، على أنّ الإكراه مصدَر مِن المبنيّ للمفعول، / فإنّ توسيطه بين اسم "إنّ" وخبرها للإيذان بأنّ ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة. [١٦٧ظ]

وكان الحسن البصري إذا قرأ هذه الآية يقول: "لهنّ واللهِ، لهنّ واللهِ".[٤] وفي تخصيصهما بـ"هنّ" وتعيينِ مدارِهما مع سبق ذكر المكرِهين أيضًا في الشرطيّة دلالة بيّنة على كونهم محرومين منهما بالكلّيّة، كأنّه قيل: لا للمكرِه، ولظهور هذا التقدير اكتُفي به عن العائد إلى اسم الشرط، فتجويزُ تعلّقهما بهم

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٤٠/٣.

٢ س - تعالى.

٣ أي: "مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنّ لَهُنّ غَفُورٌ رَحِيمٌ". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والحسن وسعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٢.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٩٩/٧؛ اللباب لابن عادل، ٣٧٧/١٤.

بشرط التوبة استقلالًا أو معهنّ[1] إخلالٌ بجَزالة النظم الجليل، وتهوينٌ لأمر النهي في مقام التهويل.

وحاجتهنّ إلى المغفرة المُنبئة عن سابقة الإثم إمّا باعتبار أنّهنّ وإن كنّ مكرَهاتٍ لا يخلون في تضاعيف الزنا عن شائبةِ مطاوعةٍ ما بحكم الجِبلّة البشريّة، وإمّا باعتبار أنّ الإكراه قد يكون قاصرًا عن حدّ الإلجاء المزيل للاختيار بالمرّة، وإمّا لغاية تهويل أمر الزنا، وحثِّ المكرَهات على التثبُّتِ في التجافي عنه، والتشديدِ في تحذير المكرِهين ببيان أنّهنّ حيث كنّ عُرضةً للعقوبة لولا أن تداركهنّ المغفرة والرحمة مع قيام العذر في حقهنّ فما حالُ مَن يكرههنّ في استحقاق العقاب؟

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ كلام مستأنَف جيء به في تضاعيف ما ورد مِن الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شئونها المستوجِبة للإقبال الكلّي على العمل بمضمونها. وصُدِّر بالقَسَم الذي يُعرِب عنه "اللام" لإبراز كمال العناية بشأنه، أي: وباللهِ لقد أنزلنا إليكم في هذه السورة الكريمة آياتٍ مبيّناتٍ لكلّ ما بكم حاجة إلى بيانه مِن الحدود وسائر الأحكام والآداب وغير ذلك ممّا هو مِن مبادي بيانِها، على أنّ إسناد التبيين إليها مجازي، أو آياتٍ واضِحات تصدّقها الكتب القديمة والعقول السليمة، على أنّ ﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ مِن "بيّن" بمعنى "تَبيّن"، ومنه المَثل: «قد بَيّن الصبحُ لِذي عَينين».[2]

وقُرئ على صيغة المفعول،[3] أي: التي بُيِّنَت وأوضِحت في هذه السورة في معاني الأحكام والحدود، وقد جُوّز أن يكون الأصل "مُبيَّنًا فيها الأحكام"، فاتُّسِع في الظرف بإجرائه مُجرى المفعول.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٤٠/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٦/٤.

٢ يُضرب للأمر يظهر كلَّ الظهور. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ٩٩/٢.

٣ أي: "مُبَيَّنَاتٍ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿ءَايَٰتٍ﴾، أي: وأنزلنا مثلًا كائنًا مِن قَبيل أمثال الذين مَضوا مِن قبلكم مِن القصص العجيبة، والأمثالِ المضروبة لهم في الكتب السابقة، والكلماتِ الجارية على ألسنة الأنبياء عليهم السلام، فينتظِم قصّةَ عائشة رضي الله عنها المحاكيةَ لقصّة يوسف عليه السلام، وقصّةِ مريم رضي الله عنها، وسائرَ الأمثالِ الواردة في السورة الكريمة انتظامًا واضحًا. وتخصيص الآيات المبيَّنات بالسوابق وحملُ المَثل على القصّة العجيبة فقط[١] يأباه تعقيبُ الكلام بما سيأتي مِن التمثيلات.

﴿وَمَوْعِظَةً﴾ تتّعظون به، وتنزجرون عمّا لا ينبغي مِن المحرَّمات والمكروهات وسائرِ ما يُخِلّ بمحاسن الآداب، فهي عبارة عمّا سبق مِن الآيات والمَثل لظهور كونها مِن المواعظ بالمعنى المذكور. ومدار العطف / هو التغاير [١٦٨و]
العنواني المنزّلُ منزلةَ التغاير الذاتي. وقد خُصّت "الآيات" بما يبيّن الحدود والأحكام، و"الموعظةُ" بما وُعِظ به مِن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور، ٢/٢٤]، وقولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور، ١٢/٢٤]، وغيرِ ذلك مِن الآيات الواردة في شأن الآداب.

وإنّما قيل: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع شمول الموعظة للكلّ حسب شمول الإنزال لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ حثًّا للمخاطَبين على الاعتناء بالانتظام في سِلك المتّقين ببيان أنّهم المغتنِمون لِآثارها المقتبِسون مِن أنوارها فحسب. وقيل: المراد بـ"الآيات المبيّنات" و"المَثل" و"الموعظة" جميعُ ما في **القرآن المجيد** مِن الآيات والأمثال والمواعظ.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ٣٥﴾

---

١ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٤٠/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٠٦/٤.

فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾... إلخ حينئذ استئناف مَسوق لتقرير ما فيها مِن البيان مع الإشعار بكونه في غاية الكمال على الوجه الذي ستعرفه، وأمّا على الأوّل فلتحقيق أنّ بيانه تعالى ليس مقصورًا على ما ورد في السورة الكريمة؛ بل هو شامل لكلّ ما يحقّ بيانه مِن الأحكام والشرائع ومباديها وغاياتها المترتّبة عليها في الدنيا والآخرة وغير ذلك ممّا له مدخل في البيان، وأنّه واقع منه تعالى على أتمّ الوجوه وأكملِها، حيث عُبّر عنه بالتنوير الذي هو أقوى مراتب البيان وأجلاها، وعُبّر عن المُنوِّر بنفس النور تنبيهًا على قوّة التنوير وشدّة التأثير، وإيذانًا بأنّه تعالى ظاهر بذاته، وكلّ ما سواه ظاهر بإظهاره، كما أنّ النور نيّر بذاته، وما عداه مستنير به.

وأضيفَ "النور" إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له، وغايةِ شموله لكلّ ما يليق به مِن الأمور التي لها مدخل في إرشاد الناس بوساطة بيان شمول المستعار منه لجميع ما يقبله ويستحقّه مِن الأجرام العلويّة والسفليّة، فإنّهما قُطران للعالَم الجسماني الذي لا مَظهر للنور الحسّي سواه، أو على شمول البيان لأحوالهما وأحوال ما فيهما مِن الموجودات، إذ ما مِن موجودٍ إلّا / وقد بيّن مِن أحواله ما يستحقّ البيان إمّا تفصيلًا أو إجمالًا، [١٦٨ظ]
كيف لا ولا ريب في بيان كونه دليلًا على وجود الصانع وصفاته، وشاهدًا بصحّة البعث، أو على تعلّق البيان بأهلهما، كما قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:[١] «هادي أهلِ السماوات والأرض، فهُم بنوره يهتدون، وبهُداه مِن حَيرة الضلالة ينجون».[٢]

هذا، وأمّا حمل التنوير على إخراجه تعالى للماهيّات مِن العدم إلى الوجود، إذ هو الأصل في الإظهار، كما أنّ الإعدام هو الأصل في الإخفاء، أو على تزيين السماوات بالنيّرين وسائر الكواكب، وما يفيض عنها مِن الأنوار،

---

[١] وفي هامش م: وبه قال أنس بن مالك رضي الله عنه. | في جامع البيان للطبري، ٢٩٦/١٧، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: «إنّ إلهي يقول: نوري هداي».

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٠/٧؛ اللباب لابن عادل، ٣٨١/١٤.

أو بالملائكة عليهم السلام، وتزيينِ الأرض بالأنبياء عليهم السلام والعلماءِ والمؤمنين، أو بالنبات والأشجار، أو على تدبيره تعالى لأمورهما وأمور ما فيهما؛[١] فممّا لا يلائم المقام، ولا يساعده حُسن النظام.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: نورِه الفائضِ منه تعالى على الأشياء المستنيرة به، وهو **القرآن المبين**، كما يُعرِب عنه ما قبله مِن وصفِ آياته بالإنزال والتبيين، وقد صُرِّح بكونه نورًا أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء، ١٧٤/٤]، وبه قال ابن عبّاس رضي الله عنهما والحسَن وزيدُ بن أسلم رحمهم الله.[٢] وجعلُه عبارةً عن الحقّ -وإن شاع استعارته له كاستعارة الظلمة للباطل-[٣] يأباه مقامُ بيانِ شأن الآيات ووصفِها بما ذكر مِن التبيين، مع عدم سبق ذكر الحقّ، ولأنّ المعتبَر [١٦٩و] في مفهوم النور هو الظهور والإظهار كما هو شأن **القرآن الكريم**. / وأمّا الحقّ فالمعتبر في مفهومه مِن حيث هو حقّ هو الظهور لا الإظهار.

والمراد بـ"المَثل" الصفة العجيبة، أي: صفة نوره العجيبةُ ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي: صفة كوّة غير نافذة في الجدار في الإنارة والتنوير. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سِراج ضخم ثاقبٌ. وقيل: "المِشكاة" الأنبوبة في وسط القنديل، و"المصباح" الفتيلة المشتعلة.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي: قنديل مِن الزجاجِ الصافي الأزهر. وقُرئ بفتح الزاء[٤] وكسرها[٥] في الموضعين. ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ متلألِئٌ وقّاد شبيه بالدُّرّ في صفائه وزُهرته. و"دَراريّ الكواكب" عِظامها المشهورة.

وقُرئ: "دِرِّيءٌ" بدال مكسورة وراء مشدّدة وياء ممدودةٍ بعدَها همزة،[٦] على أنّه "فِعِّيلٌ" مِن "الدَّرْءِ"، وهو الدَّفع، أي: مبالغ في دفع الظلام بضوئه،

---

١ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٠٠/٧؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٤٥/٦؛ و**اللباب** لابن عادل، ٣٨١/١٤.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٠١/٧. وانظر: **جامع البيان** للطبري، ٢٩٩/١٧.

٣ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٤٠/٣.

٤ س: الزاي. | قراءة شاذّة، مرويّة عن نصر بن عاصم وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٤٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء ونصر بن عاصم. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٤/٨.

٦ قرأ بها أبو عمرو والكسائي. **النشر** لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

أو في دفع بعض أجزاء ضيائه لبعضٍ عند البريق واللمعان. وقرئ بضمّ الدال،[١] والباقي على حاله.

وفي إعادة "المصباح" و"الزجاجة" معرَّفين إثرَ سبقهما منكَّرين، والإخبارِ عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بأن يقال: كمِشكاة فيها مصباح في زجاجة كأنّها كوكب دُرّيّ؛ مِن تفخيم شأنهما ورفعِ مكانهما بالتفسير إثرَ الإبهام، والتفصيلِ بعد الإجمال، وبإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المُنبئ عن القصد الأصلي دون الوصف المبنيّ على الإشارة إلى الثبوت في الجملة ما لا يخفى.

ومحلّ الجملة الأولى الرفع على أنّها صفة لـ﴿مِصۡبَاحٌ﴾، ومحلّ الثانية الجرّ على أنّها صفة لـ﴿زُجَاجَةٍ﴾، و"اللام" مغنية عن الرابط، كأنّه قيل: فيها مصباح، هو في زجاجة، هي كأنّها كوكب دُرّيّ.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: يُبتدأ إيقاد المصباح مِن شجرة ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: كثيرةِ المنافع، بأن رُوِّيَت ذُبالته[٢] بزيتها. وقيل: إنّما وصفت بالبركة لأنّها تَنبت في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين. ﴿زَيۡتُونَةٍ﴾ بدل مِن ﴿شَجَرَةٍ﴾، وفي إبهامها ووصفها بالبركة ثمّ الإبدالِ عنها تفخيم لشأنها.

/ وقُرئ: "تُوقَدُ" بالتاء[٣] على أنّ الضمير القائم مقام الفاعل للزجاجة دون المصباح. وقُرئ: "تَوَقَّدَ"[٤] على صيغة الماضي مِن "التَّفَعّلِ"، أي: ابتدأ ثُقُوب المصباح منها. وقُرئ: "تَوَقَّدُ"[٥] بحذف إحدى التاءين مِن "تَتَوَقّد" على إسناده إلى "الزجاجة". [١٦٩ظ]

﴿لَّا شَرۡقِيَّةٍ وَلَا غَرۡبِيَّةٍ﴾ تقع الشمس عليها حينًا دون حين؛ بل بحيث تقع عليها طولَ النهار كالتي على قلّة، أو صحراء واسعة فتقع الشمس عليها

---

١ أي: "دُرِّيء". قرأ بها حمزة وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

٢ الذبالة: الفتيلة التي تُسرَج. لسان العرب لابن منظور، «ذبل».

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

٤ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي والحسن وابن محيصن وسلام. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٢.

حالتَي الطلوع والغروب، وهذا قول ابن عبّاس رضي الله عنهما، وسعيدِ بن جبير، وقتادة.[١] وقال الفرّاء والزجّاج: «لا شرقيّة وحدَها، ولا غربيّة وحدَها، لكنّها شرقيّة غربيّة»،[٢] أي: تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها، فيكون شرقيّة غربيّة تأخذ حظّها مِن الأمرين، فيكون زيتها أضوَء.

وقيل: لا نابتةٍ في شرق المعمورة ولا في غربها؛ بل في وسطها، وهو الشام، فإنّ زيتونها أجود ما يكون.[٣] وقيل: لا في مَضحًى تشرق الشمس عليها دائمًا فتحرقها، ولا في مَقنأةٍ[٤] تغيب عنها دائمًا فتتركها نِيًّا،[٥] وفي الحديث: «لا خيرَ في شجرة ولا نبات في مَقنأةٍ، ولا خير فيهما في مضحًى».[٦]

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: هو في الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه مِن غير مَساس نار أصلًا. وكلمة ﴿لَوْ﴾ في أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء شيء في الزمان الماضي لانتفاء غيره فيه، فلا يلاحظ لها جواب قد حُذف ثقةً بدلالة ما قبلها عليه ملاحظةً قصديّةً إلّا عند القصد إلى بيان الإعراب على القواعد الصناعيّة.

بل هي لبيان تحقّق ما يفيده الكلام السابق مِن الحُكم الموجَب أو المنفيّ على كلّ حال مفروض مِن الأحوال المقارِنة له إجمالًا بإدخالها على أبعدها منه، إمّا لوجود المانع كما في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء، ٧٨/٤]، وإمّا لعدم الشرط كما في هذه الآية الكريمة؛ ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوتُه أو انتفاؤه مع ما عداه مِن الأحوال بطريق الأولويّة، لِما أنّ الشيء / متى تحقّق مع ما ينافيه مِن وجود المانع [١٧٠و]

---

[١] انظر: جامع البيان للطبري، ٣١١/١٧؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٢١/٣.

[٢] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢٥٣/٢؛ ومعاني القرآن للزجّاج، ٤٥/٤.

[٣] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٣/٧؛ والكشّاف للزمخشري،٢٤١/٣.

[٤] المَقْنَأة: المكان الذي لا تَطلع عليه الشمس. الصحاح للجوهري، «قنأ».

[٥] النِّيّ: غير الناضج. انظر: لسان العرب لابن منظور، «نيأ».

[٦] الكشّاف للزمخشري،٢٤١/٣. ولم أجده في كتب الحديث، وقال الزيلعي: «غريب جدًّا». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٤٤٦/٢.

أو عدمِ الشرط فلَأن يتحقّق بدون ذلك أولى، ولذلك لا يُذكَر معه شيء آخر مِن سائر الأحوال، ويُكتفى عنه بذكر "الواو" العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناوِلة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعدّدها.

وهذا معنى قولهم: إنّها لاستقصاء الأحوال على سبيل الإجمال، وهذا أمر مطّرد في الخبر الموجَب والمنفيّ، فإنّك إذا قلت: "فلان جواد يعطي ولو كان فقيرًا"، أو "بخيل لا يعطي ولو كان غنيًّا" تريد بيان تحقّق الإعطاء في الأوّل، وعدمِ تحقّقه في الثاني في جميع الأحوال المفروضة. والتقدير: يعطي لو لم يكن فقيرًا ولو كان فقيرًا، ولا يعطي لو لم يكن غنيًّا ولو كان غنيًّا، فالجملة مع ما عُطفت هي عليه في حيّز النصب على الحاليّة مِن المستكِنّ في الفعل الموجَب أو المنفيّ، أي: يعطي أو لا يعطي كائنًا على جميع الأحوال. وتقدير الآية الكريمة: يكاد زيتها يضيء لو مسّته نار ولو لم تمسَسه نار، أي: يضيء كائنًا على كلّ حال مِن وجود الشرط وعدمه، وقد حُذفت الجملة الأولى حسبما هو المطّرد في الباب لدلالة الثانية عليها دلالةً واضحة.

﴿نُورٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة له مؤكِّدة لِما أفاده التنكير مِن الفخامة. والجملة فذلكة للتمثيل، وتصريح بما حصل منه، وتمهيد لِما يعقُبه، أي: ذلك النور الذي عُبّر به عن القرآن ومُثِّلَتْ صفتُه العجيبة الشأنِ بما فُصِّل مِن صفة المشكاة نورٌ عظيم كائن على نورٍ كذلك، لا على أنّه عبارة عن نور واحد معيّن أو غيرِ معيّن فوق نورٍ آخرَ مثلِه، ولا عن مجموع نورين اثنين فقط؛ بل عن نور متضاعف مِن غير تحديدٍ لتضاعفه بحدٍّ معيّن، وتحديدُ مراتب تضاعُفِ ما مُثِّل به مِن نور المشكاة بما ذُكر لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة، فإنّ المصباح إذا كان في مكان متضايق -كالمشكاة- كان أضوَأَ له وأجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه إلى أصل الشعاع، بخلاف المكان المتّسع، فإنّ الضوء ينبثّ فيه وينتشر، والقنديل أعونُ شيء على زيادة الإنارة، وكذلك الزيت وصفاؤه، وليس وراء هذه المراتب ممّا يزيد نورَها إشراقًا ويمدّه بإضاءة مرتبةً أخرى عادةً.

[١٧٠ظ] هذا، وجعلُ النور / عبارةً عن النور المشبّه به[١] ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ أي: يهدي هدايةً خاصّةً موصِلةً إلى المطلوب حتمًا لذلك النور المتضاعف العظيم الشأن. وإظهارُه في مقام الإضمار لزيادة تقريره، وتأكيدِ فخامته الذاتيّة بفخامته الإضافيّة الناشئة مِن إضافته إلى ضميره عزّ وجلّ. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه مِن عباده بأن يوفّقَهم لفَهم ما فيه مِن دلائل حقّيّته، وكونِه مِن عند الله تعالى، مِن الإعجاز، والإخبارِ عن الغيب، وغيرِ ذلك مِن موجبات الإيمان به. وفيه إيذان بأنّ مَناط هذه الهداية ومَلاكَها ليس إلّا مشيئتَه تعالى، وأنّ تظاهر الأسباب بدونها بمَعزِل مِن الإفضاء إلى المطالب.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ في تضاعيف الهداية حسبما يقتضي حالهم، فإنّ له دخلًا عظيمًا في باب الإرشاد؛ لأنّه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس، وتصويرٌ لأَوَابِد المعاني بصورة المأنوس، ولذلك مَثّل نورَه المعبّرَ به عن **القرآن المبين** بنور المِشكاة. وإظهارُ الاسم الجليل في مقام الإضمار للإيذان باختلاف حال ما أُسندَ إليه تعالى مِن الهداية الخاصّة وضربِ الأمثال الذي هو مِن قبيل الهداية العامّة كما يفصح عنه تعليق الأولى بـ﴿مَن يَشَآءُ﴾، والثانيةِ بـ"الناس" كافّةً.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولًا كان أو محسوسًا، ظاهرًا كان أو باطنًا، ومِن قضيّته أن يتعلّق مشيئته بهداية مَن يليق بها ويستحقّها مِن الناس دون مَن عداهم لِمخالفته الحكمةَ التي عليها مبنى التكوين والتشريع، وأن يكون هدايته العامّةُ على فنون مختلفة وطرائقَ شتّى حسبما يقتضيه أحوالهم. والجملة اعتراض تذييلي مقرّر لِما قبله. وإظهار الاسم الجليل لتأكيد استقلال الجملة، والإشعارِ بعلّة الحكم وبما ذُكر مِن اختلاف حال المحكوم به ذاتًا وتعلّقًا.

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦﴾

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ لمّا ذُكِر شأنُ **القرآن الكريم** في بيانه للشرائع والأحكام ومباديها وغاياتها المترتّبة عليها مِن الثواب والعقاب

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٤١.

وغير ذلك مِن أحوال الآخرة وأهوالها، وأشيرَ إلى كونه في غاية ما يكون مِن التوضيح والإظهار حيث مُثّل بما فُصِّل مِن نور المشكاة، وأشيرَ إلى أنّ ذلك النور مع كونه في أقصى مراتب الظهور إنّما يَهتدي بهداه مَن تعلّقت مشيئة الله تعالى بهدايته دون مَن عداه؛ عُقِّب ذلك بذِكر الفريقين وتصويرِ بعض أعمالهم المُعرِبة عن كيفيّة حالهم / في الاهتداء وعدمه. [١٧١و]

والمراد بـ"البيوت" المساجد كلُّها حسبما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[١] عنهما.[٢] وقيل: هي المساجد التي بناها نبيّ مِن أنبياء الله تعالى؛ الكعبةُ التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبيتُ المقدس الذي بناه داود وسليمان عليهما السلام، ومسجدُ المدينة ومسجدُ قباء اللذان بناهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وتنكيرها للتفخيم.

والمراد بـ"الإذن في رفعها" الأمرُ ببنائها رفيعةً، لا كسائر البيوت. وقيل: هو الأمر برفع مقدارها بعبادة الله تعالى فيها، فيكون عطف "الذكر" عليه مِن قَبيل العطف التفسيري. وأيًا ما كان ففي التعبير عنه بالإذن تلويح بأنّ اللائق بحال المأمور أن يكون متوجِّهًا إلى المأمور به قبل ورود الأمر به ناويًا لِتحقيقه، كأنّه مستأذِن في ذلك، فيقع الأمرُ به موقعَ الإذن فيه. والمراد بـ"ذِكر اسمِه تعالى" ما يعمّ جميعَ أذكاره تعالى. وكلمةُ ﴿فِي﴾ متعلّقة بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ تكرير لها للتأكيد والتذكير، لِما بينهما مِن الفاصلة، وللإيذان بأنّ التقديم للاهتمام، لا لقَصر التسبيح على الوقوع في البيوت فقط.

وأصل "التسبيح" التنزيه والتقديس، يستعمل بـ"اللام" وبدونها أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى، ١/٨٧]، قالوا: أريدَ به الصلوات المفروضة كما يُنبئ عنه تعيين الأوقات بقوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: بالغدوات والعشايا على أنّ ﴿ٱلْغُدُوِّ﴾ إمّا جمع "غَداة"، كـ"قُنِيّ" في جمع "قَناة"[٣]

---

[١] س - تعالى.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٣١٦/١٧؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٠٧/٧.

[٣] القَناة: الرُمح، والجمع قَنَواتٌ وقَنًا وقُنِيٌّ. لسان العرب لابن منظور، «قنا».

كما قيل،[١] أو مصدر أطلقَ على الوقت حسبما يشعر به اقترانه بـ﴿ٱلۡأٓصَالِ﴾، وهو جمع "أَصيل"، وهو العشيّ، وهو شامل لأوقات ما عدا صلاة الفجر المؤدّاة بالغَداة.

ويجوز أن يراد به نفس التنزيه على أنّه عبارة عمّا يقع منه في أثناء الصلوات وأوقاتها، لزيادة شرفه وإنافتِه على سائر أفراده، أو عمّا يقع في جميع الأوقات. وإفرادُ طرفَي النهار بالذكر لقيامهما مقام كلّها لكونهما العمدةَ فيها بكونهما مشهورين، وكونِهما أشهرَ ما يقع فيه المباشَرةُ للأعمال، والاشتغالُ بالأشغال. وقُرئ: "وَالْإِيصَالِ"،[٢] وهو / الدخول في الأصيل. [١٧١ظ]

﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فاعلُ ﴿يُسَبِّحُ﴾،[٣] وتأخيرُه عن الظروف لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناءِ بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر، ولأنّ في وصفِه نوعَ طول، فيُخِلّ تقديمه بحسن الانتظام. وقُرئ: "يُسَبَّحُ"[٤] على البناء للمفعول بإسناده إلى أحد الظروف. و﴿رِجَالٌ﴾ مرفوع بما يُنبئ عنه حكاية الفعل مِن غير تسمية الفاعل على طريقة قوله:

لِيُبكَ يزيدُ ضارعٌ لخُصومة[٥]

كأنّه قيل: مَن يسبّح له؟ فقيل: يُسبّح له رجال.

وقُرئ: "تُسَبِّحُ"[٦] بتأنيث الفعل مبنيًا للفاعل؛ لأنّ جمع التكسير قد يعامَل

---

١ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٨٤/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير وأبي مجلز. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٣.

٣ في الآية السابقة.

٤ قرأ بها ابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

٥ في هامش م: تمامه:
ومختبط ممّا تطيح الطوائحُ
لنهشل بن حرّي مِن قصيدة يرثي بها يزيدَ بن نهشل. والضارع: الذليل، والمختبط: طالب الحاجة مِن غير وسيلة لها، وتطيح: تهلك، والطوائح: الدواهي. والمعنى: يبكي عليه اثنان؛ مظلوم وطالب حاجة. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ٣٠٩/١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٣.

معاملةَ المؤنّث، ومبنيًا للمفعول[١] على أن يسنَد إلى أوقات الغدوّ والآصال بزيادة "الباء"، وتُجعَل الأوقات مُسَبَّحةً مع كونها مسبَّحًا فيها، أو يسنَد إلى ضمير التسبيحة، أي: تُسبَّح له التسبيحةُ على المجاز المسوّغ لإسناده إلى الوقتين، كما خرّجوا قراءةَ أبي جعفر: "لِيُجْزَى قَوْمًا"،[٢] أي: ليُجزَى الجزاءُ قومًا؛ بل هذا أولى مِن ذلك، إذ ليس هنا مفعول صريح.

﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ﴾ صفة لـ﴿رِجَالٌ﴾ مؤكّدة لِما أفاده التنكير مِن الفخامة، مفيدة لكمال تبتّلهم إلى الله تعالى واستغراقِهم فيما حُكي عنهم مِن التسبيح مِن غير صارف يَلويهم، ولا عاطف يَثنيهم، كائنًا ما كان. وتخصيص "التجارة" بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرَها، أي: لا يَشْغَلُهم نوع مِن أنواع التجارة.

﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أي: ولا فرد مِن أفراد البَياعات، وإن كان في غاية الربح. وإفرادُه بالذكر مع اندراجه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها، لأنّ ربحه متيقَّن ناجز، وربح ما عداه متوقَّع في ثاني الحال عند البيع، فلم يلزم مِن نفيِ إلهاءِ ما عداه نفيُ إلهائه، ولذلك كُرِّرت كلمةُ ﴿لَا﴾ لِتذكير النفي وتأكيده. وقد نُقِل عن الواقدي أنّ المراد بـ"التجارة" هو الشِّرى؛ لأنّه أصلها ومبدؤها. وقيل: هو الجَلَب؛ لأنّه الغالب / فيها، ومنه يقال: "تَجَر في كذا"، أي: جلَبَه. [١٧٢و]

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالتسبيح والتمجيد ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إقامتِها لمواقيتها مِن غير تأخيرٍ، وقد أُسقِطت "التاء" المعوَّضة عن "العين" الساقطة بالإعلال، وعُوّض عنها الإضافة، كما في قوله:

وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذي وَعدوا[٣]

أي: عِدَةَ الأمر.

---

[١] أي: "يُسَبَّحُ". قرأ بها ابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

[٢] في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية، ١٤/٤٥]. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٢.

[٣] وفي هامش م: صدره:
إنّ الخليط أجدّوا البَين وانجردوا
للفضل بن العبّاس بن عُتبة اللهبي في لسان العرب لابن منظور، «غلب».

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: المال الذي فُرِض إخراجه للمستحقّين. وإيراده ههنا وإن لم يكن ممّا يُفعَل في البيوت لكونه قرينة لا تفارق إقامةَ الصلاة في عامّة المواضع، مع ما فيه مِن التنبيه على أنّ محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع في المساجد، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ﴾... إلخ، فإنّه صفة ثانية لـ﴿رِجَالٌ﴾، أو حال مِن مفعول ﴿لَا تُلْهِيهِمْ﴾، وأيًا ما كان فليس خوفهم مقصورًا على كونهم في المساجد.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمًا﴾ مفعول لـ﴿يَخَافُونَ﴾، لا ظرفٌ له. وقوله تعالى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ صفة لـ﴿يَوْمًا﴾، أي: تضطرب وتتغيّر في أنفسها مِن الهول والفَزع وتشخَص، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب، ١٠/٣٣]، أو تتغيّر أحوالها وتتقلّب فَتَفْقَهُ القلوب بعد أن كانت مطبوعًا عليها، وتبصر الأبصار بعد أن كانت عمياءَ، أو تتقلّب القلوب بين توقّع النجاة وخوف الهلاك، والأبصارُ مِن أيّ ناحية يؤخَذ بهم ويُؤتَى كتابهم.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٨﴾

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلّق بمحذوف يدلّ عليه ما حُكي مِن أعمالهم المرضيّة، أي: يفعلون ما يفعلون مِن المداومة على التسبيح والذكر وإيتاء الزكاة والخوف مِن غير صارفٍ لهم عن ذلك، ليجزيهم الله تعالى ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم، حسبما وُعِد لهم بمقابلة حسنة واحدة عَشرُ أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يتفضّل عليهم بأشياء لم توعَد لهم بخصوصيّاتها أو بمقاديرها، ولم يخطر ببالهم كيفيّاتها ولا كميّاتها، بل إنّما وُعِدت بطريق الإجمال في مثل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس، ٢٦/١٠]، وقولِه عليه السلام حكاية عنه عزّ وجلّ: / «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت [١٧٢ظ]

ولا أذنٌ سمعَت ولا خطرَ على قلب بشر»»،[١] وغيرِ ذلك مِن المواعيد الكريمة التي مِن جملتها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فإنّه تذييل مقرّر للزيادة، ووعد كريم بأنّه تعالى يعطيهم غيرَ أجزية أعمالهم مِن الخيرات ما لا يَفي به الحساب، وأمّا عدم سبق الوعد بالزيادة ولو إجمالًا، وعدمُ خطورها ببالهم ولو بوجه ما؛ فيأباه نظمها في سِلك الغاية.

والموصول عبارة عمّن ذُكرت صفاتهم الجميلة، كأنّه قيل: والله يرزقهم بغير حساب، ووضعُه موضعَ ضميرهم للتنبيه بما في حيّز الصلة على أنّ مَناط الرزق المذكور مَحض مشيئته تعالى، لا أعمالُهم المَحكيّة، كما أنّها المَناط لِما سبَق مِن الهداية لنوره تعالى، لا تظاهرُ الأسباب، وللإيذان بأنّهم ممّن شاء الله تعالى أن يرزقهم، كما أنّهم ممّن شاءَ تعالى أن يهديهم لنوره، حسبما يُعرِب عنه ما فصِّل مِن أعمالهم الحسنة، فإنّ جميع ما ذُكر مِن الذكر والتسبيح وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وخوف اليوم الآخر وأهواله ورجاء الثواب مقتبَس مِن **القرآن العظيم** الذي هو المَعنيّ بالنور، وبه يتمّ بيان أحوال مَن اهتدى بهُداه على أوضح وجهٍ وأجلاه.

هذا، وقد قيل: قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾... إلخ[٢] مِن تتمّة التمثيل، وكلمة ﴿فِي﴾ متعلّقة بمحذوف هو صفة لـ﴿مِشۡكَوٰةٖ﴾،[٣] أي: كائنة في بيوت، وقيل: لـ﴿مِصۡبَاحٌ﴾،[٤] وقيل: لـ﴿زُجَاجَةٍ﴾،[٥] وقيل: متعلّقة بـ﴿يُوقَدُ﴾.[٦] والكلّ ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل، كيف لا، وإنّ ما بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾[٧] على ما هو الحقّ، أو ما بعد قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾[٨] على ما قيل إلى قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[٩] كلام متعلِقٌ بالممثَّل قطعًا؟ فتوسيطه بين أجزاء التمثيل

---

١ صحيح البخاري، ١١٨/٤ (٣٢٤٤)؛ صحيح مسلم، ٢١٧٤/٤ (٢٨٢٤).

٢ النور، ٣٦/٢٤.

٣ النور، ٣٥/٢٤.

٤ النور، ٣٥/٢٤.

٥ النور، ٣٥/٢٤.

٦ النور، ٣٥/٢٤. | انظر: اللباب لابن عادل، ٣٩١/١٤.

٧ النور، ٣٥/٢٤.

٨ النور، ٣٥/٢٤.

٩ النور، ٣٥/٢٤.

[١٧٣و] مع كونه مِن قبيل الفصل / بين الشجر ولِحائه بالأجنبي يؤدّي إلى كون ذكر حال المنتفعين بالتمثيل المهديّين لنور **القرآن الكريم** بطريق الاستتباع والاستطراد، مع كون بيان حال أضدادهم مقصودًا بالذات، ومثل هذا ممّا لا عهد به في كلام الناس فضلًا أن يُحمل عليه الكلام المعجز.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عطفٌ على ما ينساق إليه ما قبله، كأنّه قيل: الذين آمنوا أعمالُهم حالًا ومآلًا كما وُصِف، والذين كفروا ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي: أعمالهم التي هي مِن أبواب البِرّ، كصلة الأرحام، وفكّ العُناة، وسقاية الحاجّ، وعمارة البيت، وإغاثة الملهوفين، وقِرى الأضياف، ونحو ذلك ممّا لو قارنه الإيمان لاستتبع الثواب، كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ الآيةَ [إبراهيم، ١٨/١٤].

﴿كَسَرَابِۭ﴾ وهو ما يُرى في الفلَوات مِن لَمعانِ الشمس عليها وقت الظهيرة فيُظَنُّ أنه ماء يسرُب، أي: يجري. ﴿بِقِيعَةٖ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿سَرَابِۭ﴾، أي: كائنٍ في قاعٍ، وهي الأرض المنبسطة المستوية. وقيل: هي جمع "قاعٍ"، كـ"جِيرة" جمع "جار". وقُرئ: "بِقِيعَاتٍ"[١] بتاء ممدودة كـ"دِيمات"، إمّا على أنّها جمع "قِيعة"، أو على أنّ الأصل "قِيعة" قد أشبعَت فتحة "العين"، فتولّد منها ألِف.

﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ صفة أخرى لـ﴿سَرَابِۭ﴾، وتخصيص الحسبان بـ﴿ٱلظَّمۡـَٔانُ﴾ -مع شموله لكلّ مَن يراه كائنًا مَن كان مِن العطشان والريّان- لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرَفيه في وجه الشبه الذي هو المَطلَع المُطمِع، والمَقطع المُوئِس. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي: إذا جاء العطشانُ ما حسِبه ماء، وقيل: موضعَه ﴿لَمۡ يَجِدۡهُ﴾ أي: ما حسِبه ماءً وعلّق به رجاءَه ﴿شَيۡـٔٗا﴾ أصلًا، لا محقّقًا

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن مسلمة بن محارب. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٥١/٨.

ولا متوهّمًا كما كان يراه مِن قبلُ، فضلًا عن وجدانه ماءً، وبه تمّ بيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بيان لبقيّة أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة؛ لئلّا يُتوهّم أنّ قُصارى أمرهم / هو الخيبة والقنوط فقط، كما هو شأن الظمآن، ويظهَرَ أنّه يعتريهم بعد [١٧٣ظ] ذلك مِن سوء الحال ما لا قدر عنده للخيبة أصلًا، فليست الجملة معطوفةً على ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾؛ بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل مِن عدم وجدان الكفرة مِن أعمالهم المذكورة عينًا ولا أثرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٣].

كيف لا، وإنّ الحكم بأنّ "أعمال الكفرة كسَراب يحسبه الظمآنُ ماءً حتّى إذا جاءه لم يجده شيئًا" حكمٌ بأنّها بحيث يحسبونها في الدنيا نافعةً لهم في الآخرة حتّى إذا جاءوها لم يجدوها شيئًا، كأنّه قيل: حتّى إذا جاء الكفرةُ يوم القيامة أعمالهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعةً لهم في الآخرة لم يجدوها شيئًا، ووَجدوا الله، أي: حكمَه وقضاءَه عند المجيءِ، وقيل: عند العمل، فوفّاهم، أي: أعطاهم وافيًا كاملًا حسابَهم، أي: حسابَ أعمالهم المذكورة وجزاءَها، فإنّ اعتقادهم لنفعها بغير إيمانٍ وعملَهم بموجَبه كفرٌ على كفر موجِب للعقاب قطعًا.

وإفراد الضميرين الراجعين إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إمّا لإرادة الجنس كـ﴿ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ الواقع في التمثيل، وإمّا للحمل على كلّ واحد منهم، وكذا إفرادُ ما يرجع إلى ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾.

هذا، وقد قيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أميّة، كان قد تعبّد في الجاهليّة، ولبِسَ المُسوح، والتمَس الدين، فلمّا جاء الإسلام كفَر.[١]

﴿أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/١١١؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٤٤.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطفٌ على ﴿كَسَرَابِۭ﴾، وكلمةُ ﴿أَوْ﴾ للتنويع إثرَ ما مُثِّلت أعمالهم التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد، ويفتخرون بها في كلِّ وادٍ وناد، بما ذُكر مِن حال السراب، مع زيادة حساب وعقاب، مُثِّلت أعمالهم القبيحة التي ليس فيها شائبةُ خيريّةٍ يَغْتَرُّ بها المغترّون بظلمات كائنةٍ ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ أي: عميقٍ كثيرِ الماء منسوبٍ إلى "اللُّجّ"، وهو معظم ماء البحر، وقيل: إلى اللُّجّة، وهي أيضًا معظمه.

﴿يَغْشَىٰهُ﴾ صفة أخرى للبحر، أي: يستره ويُغطّيه بالكلّيّة ﴿مَوْجٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر محلّها الرفع على أنّها صفة لـ﴿مَوْجٌ﴾، أو الصفة هي الجارّ والمجرور، و﴿مَوْجٌ﴾ الثاني فاعل له، لاعتماده على الموصوف، والكلام فيه كما مرّ في قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾،[1] أي: يغشاه
[١٧٤و] أمواج / متراكِمة متراكِبة بعضُها على بعض.

وقوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ صفة لـ﴿مَوْجٌ﴾ الثاني على أحد الوجهين المذكورَين، أي: مِن فوق ذلك الموج سحاب ظلماني ستر أضواء النجوم. وفيه إيماء إلى غاية تراكم الأمواج وتضاعفها حتّى كأنّها بلغت السحاب.

﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هي ظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي: متكاثفة متراكمة، وهذا بيان لكمال شدّة الظلمات، كما أنّ قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[2] بيان لغاية قوّة النور، خلا أنّ ذلك متعلّق بالمشبَّه، وهذا بالمشبَّه به كما يُعرِب عنه ما بعده. وقُرئ بالجرّ[3] على الإبدال مِن الأولى، وقُرئ بإضافة "السحاب" إليها.[4]

﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾ أي: مَن ابتُلِي بها، وإضمارُه مِن غير ذكره لدلالة المعنى عليه دلالة واضحة. ﴿يَدَهُۥ﴾ وجعَلَها بمرأى منه قريبةً مِن عينه لينظر إليها ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ وهي أقرب شيء منه فضلًا عن أن يراها. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾... إلخ

---

١ النور، ٣٥/٢٤.
٢ النور، ٣٥/٢٤.
٣ أي: "ظُلُمَاتٍ". وهي رواية قنبل عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.
٤ أي: "سَحَابُ ظُلُمَاتٍ". وهي رواية البزّي عن ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

اعتراض تذييلي جيء به لتقرير ما أفاده التمثيل مِن كون أعمال الكفرة كما فُصِّل، وتحقيقِ أنّ ذلك لعدم هدايته تعالى إيّاهم لنوره.

وإيرادُ الموصول للإشارة بما في حيّز الصلة إلى علّة الحكم، وأنّهم ممّن لم يشأ الله تعالى هدايتهم، أي: ومَن لم يشأ الله أن يهديه لنوره الذي هو القرآن هدايةً خاصّةً مستتبعةً للاهتداء حتمًا، ولم يوفّقه للإيمان به ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: فما له هدايةٌ ما مِن أحدٍ أصلًا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾... إلخ، استئناف خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم للإيذان بأنّه تعالى قد أفاض عليه عليه السلام أعلى مراتب النور وأجلاها، وبيّن له مِن أسرار المُلك والملكوت أدقّها وأخفاها.

و"الهمزة" للتقرير، أي: قد علمتَ عِلمًا يقينيًا شبيهًا بالمشاهدة في القوّة والرصانة بالوحي الصريح والاستدلال الصحيح ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي: ينزّهه تعالى على الدوام في ذاته وصفاته وأفعاله عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل مِن نقص أو خلَل ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما فيهما، إمّا بطريق الاستقرار فيهما مِن العقلاء وغيرهم كائنًا ما كان، / أو بطريق الجزئيّة منهما، تنزيهًا معنويًا يفهمه العقول السليمة، فإنّ كلّ موجود مِن الموجودات الممكنة مركّبًا كان أو بسيطًا فهو مِن حيث ماهيّته ووجوده وأحواله يدلّ على وجود صانعٍ واجبِ الوجود، متّصفٍ بصفات الكمال، مقدّسٍ عن كلّ ما لا يليق بشأنٍ مِن شئونه الجليلة. [١٧٤ظ]

وقد نُبِّه على كمال قوّة تلك الدلالة وغاية وضوحها حيث عُبّر عنها بما يخصّ العقلاء مِن التسبيح الذي هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها تنزيلًا لِلسان الحال منزلةَ لسان المقال، وأُكِّد ذلك بإيثار كلمة ﴿مَن﴾ على "ما"، كأنّ كلّ شيء ممّا عزّ وهانَ وكلّ فرد مِن أفراد الأعراض والأعيان عاقلٌ ناطق ومخبرٌ صادق بعلوّ شأنه تعالى وعِزّة سلطانه. وتخصيصُ التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما

على اتّصافه تعالى بنعوت الكمال أيضًا لِما أنّ مساق الكلام لتقبيح حال الكفرة في إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجماداتِ شركاءَ له في الألوهيّة، ونسبتِهم إلى اتّخاذ الولد، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وحملُ التسبيحِ على ما يليق بكلّ نوع مِن أنواع المخلوقات بأن يرادَ به معنًى مجازي شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم حسبما هو المتبادر مِن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾،[1] يردّه أنّ بعضًا مِن العقلاء -وهم الكفرة مِن الثقلين- لا يسبّحونه بذلك المعنى قطعًا، وإنّما تسبيحهم ما ذُكر مِن الدلالة التي يشارِكهم فيها غيرُ العقلاء أيضًا. وفيه مزيد تخطئةٍ لهم، وتعبير ببيان أنّهم يسبّحونه تعالى باعتبار أخسّ جهاتهم التي هي الجماديّة والجسميّة[2] والحيوانيّة، ولا يسبّحونه باعتبار أشرفها التي هي الإنسانيّة.

﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿مَن﴾، وتخصيصُها بالذكر مع اندراجها في جملة ما في الأرض لعدم استمرار قرارها فيها واستقلالِها بصنعٍ بارع وإنشاءٍ رائع، قُصِد بيانُ تسبيحها مِن تلك الجهة لوضوح إنبائها عن كمال قدرة صانعها، ولطفِ تدبير مبدِعها، حسبما يعرِب عنه التقييد بقوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: تسبّحه تعالى حال كونها صافّاتٍ أجنحتَها، فإنّ إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة
[١٧٥و] ما تتمكّن به / مِن الوقوف في الجوّ والحركةِ كيف تشاء مِن الأجنحة والأذناب الخفيفة، وإرشادَها إلى كيفيّة استعمالها بالقبض والبسط؛ حجّةٌ نيّرة واضحة المكنون، وآية بيّنة لقوم يعقلون، دالّة على كمال قدرة الصانع المجيد، وغايةِ حِكمة المبدئ المعيد.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ بيان لكمال عراقة كلّ واحد ممّا ذُكر في التنزيه ورسوخِ قدمه فيه بتمثيل حالِه بحال مَن يعلم ما يصدر عنه مِن الأفاعيل فيفعلها عن قصدٍ ونيّة، لا عن اتّفاق بلا رويّة. وقد أُدْمِجَ في تضاعيفه الإشارةُ إلى أنّ لكلّ واحد مِن الأشياء المذكورة مع ما ذُكر مِن التنزيه حاجةً ذاتيّةً إليه تعالى، واستفاضةً منه لِما يهمّه بلسان استعداده.

---

[1] انظر: اللباب لابن عادل، ١٤/٤٠٩.

[2] وفي هامش م: أي: النامية.

وتحقيقُه أنّ كلّ واحد مِن الموجودات الممكنة في حدّ ذاته بمَعزِل مِن استحقاق الوجود، لكنّه مستعدّ لِأن يفيض عليه منه تعالى ما يليق بشأنه مِن الوجود وما يتبعه مِن الكمالاتِ ابتداءً وبقاءً، فهو مستفيض منه تعالى على الاستمرار، فيفيض عليه في كلّ آنٍ مِن فنون الفيوض المتعلّقة بذاته وصفاته ما لا يحيط به نطاق البيان، بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الربّانيّة مِن العلاقة لانعدم بالمرّة. وقد عُبّر عن تلك الاستفاضة المعنويّة بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل، وإفادةِ المزايا المذكورة فيما مرّ على التفصيل.[1] وتقديمُها على التسبيح في الذكر لتقدّمها عليه في الرتبة.

هذا، ويجوز أن يكون العلم على حقيقته، ويراد به مطلق الإدراك، وبما ناب عنه التنوين في ﴿كُلٌّ﴾ أنواعُ الطيرِ أو أفرادُها، وبالصلاة والتسبيح ما ألهمه الله تعالى كلَّ واحد منها مِن الدعاء والتسبيح المخصوصَين به، لكن لا على أن يكون ﴿ٱلطَّيْرُ﴾ معطوفًا على كلمة ﴿مَن﴾ مرفوعًا برافعها، فإنّه يؤدّي إلى أن يراد بالتسبيح معنًى مجازي شامل للتسبيح المقالي والحالي مِن العقلاء وغيرهم، وقد عرفت ما فيه؛ بل بفعلٍ مضمر أريدَ به التسبيح / المخصوص [١٧٥ظ] بالطير معطوفٍ على المذكور، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾،[2] أي: وتسبّح الطير تسبيحًا خاصًّا بها حال كونها صافّاتٍ أجنحتَها، وقولِه تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي: دعاءَه وتسبيحَه اللذَين ألهمهما الله عزّ وجلّ إيّاه لبيان كمال رسوخه فيهما، وأنّ صدورهما عنه ليس بطريق الاتّفاق بلا رَويّة؛ بل عن علم وإيقان مِن غير إخلال بشيء منهما حسبما ألهمه الله تعالى، فإنّ إلهامه تعالى لكلّ نوع مِن أنواع المخلوقات علومًا دقيقةً لا يكاد يهتدي إليه جهابذة العقلاء ممّا لا سبيل إلى إنكاره أصلًا.

كيف لا، وإنّ القنفذ مع كونه أبعد الأشياء مِن الإدراك قالوا: إنّه يُحِسّ بالشمال والجنوب قبل هبوبها، فيغيّر المدخل إلى جحرها، حتّى رُوي

---

[1] وفي هامش م: عند بيان سرّ التعبير عن الدلالة بالتسبيح. «منه».

[2] الحج، ١٨/٢٢.

أنّه كان بقسطنطينيّة قبل الفتح الإسلامي رجل قَدْ أُثرِيَ بسبب أنّه كان يُنذر الناسَ بالرياح قبل هبوبها، وينتفعون بإنذاره بتدارك أمور سفائنهم وغيرها، وكان السبب في ذلك أنّه كان يقتني في داره قنفذًا يستدِلّ بأحواله على ما ذَكر. وتخصيصُ تسبيح الطير بهذا المعنى بالذكر لِما أنّ أصواتها أظهر وجودًا وأقرب حملًا على التسبيح.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي: ما يفعلونه؛ اعتراض مقرّر لمضمون ما قبله. و﴿مَا﴾ على الوجه الأوّل عبارة عمّا ذكر مِن الدلالة الشاملة لجميع الموجودات مِن العقلاء وغيرهم، والتعبيرُ عنها بالفعل مسندًا إلى ضمير العقلاء لِما مرّ غير مرّة، وعلى الثاني إمّا عبارة عنها وعن التسبيح الخاصّ بالطير معًا، أو عن تسبيح الطير فقط، فالفعل على حقيقته، وإسنادُه إلى ضمير العقلاء لِما مرّ، والاعتراضُ حينئذ مقرِّر لتسبيح الطير فقط، وعلى الأوّلين لتسبيح الكلّ.

هذا، وقد قيل إنّ الضمير في قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ﴾ لله عزّ وجلّ، وفي ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ لـ﴿كُلٌّ﴾، أي: قد علّم الله تعالى صلاةَ كلّ واحد ممّا في
[١٧٦و] السماوات / والأرض وتسبيحَه، فالاعتراض حينئذ مقرّر لمضمونه على الوجهين، لكن لا على أن يكون ﴿مَا﴾ عبارة عمّا تعلّق به علمُه تعالى مِن ﴿صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾؛ بل عن جميع أحواله العارضة له، وأفعاله الصادرة عنه، وهما داخلتان فيها دخولًا أوّليًّا.

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢﴾

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لا لغيره؛ لأنّه الخالق لهما ولِما فيهما مِن الذوات والصفات، وهو المتصرّف في جميعها إيجادًا وإعدامًا، بَدءًا وإعادةً. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إليه تعالى خاصّةً، لا إلى غيره ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: رجوعُ الكلّ بالفناء والبعث؛ بيانٌ لاختصاص المُلك به تعالى في المَعاد إثرَ بيان اختصاصه به تعالى في المبدأ. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المَهابة، والإشعارِ بعلّة الحكم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ "الإزجاء" سَوق الشيء برِفقٍ وسهولة، غلَب في سَوق شيء يسيرٍ أو غيرِ معتَدّ به، ومنه "البضاعة المُزجاة"، ففيه إيماء إلى أنّ السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى ممّا لا يعتَدّ به.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أي: بين أجزائه بِضَمّ بعضِها إلى بعضٍ. وقُرئ: "يُوَلِّف" بغير همزة.[1] ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي: متراكمًا بعضُه فوق بعض، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ أي: المطرَ إثرَ تراكمه وتكاثفه. وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: مِن فتوقه؛ حالٌ مِن ﴿ٱلْوَدْقَ﴾؛ لأنّ الرؤية بصريّة.

وفي تعقيب الجعل المذكور برؤيته خارجًا لا بخروجه مِن المبالغة في سرعة الخروج، على طريقة قوله تعالى: ﴿أَنِ[2] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، ومِن الاعتناء بتقرير الرؤية ما لا يخفى. و"الخِلال" جمع "خَلَل"، كـ"جِبال" و"جَبَل". وقيل: مفرد كـ"حِجاب" و"حِجاز"، ويؤيّده أنّه قُرئ: "مِنْ خَلَلِهِ".[3]

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن الغمام، فإنّ كلّ ما علاك سماءٌ ﴿مِن جِبَالٍ﴾ أي: مِن قِطَعٍ عِظامٍ تشبه الجبال في العِظَم كائنةٍ ﴿فِيهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ مفعول ﴿يُنَزِّلُ﴾ على أنّ ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، والأولَيان لابتداء الغاية على أنّ الثانية بدل اشتمال مِن الأولى بإعادة الجارّ، أي: ينزّل مبتدئًا مِن السماء مِن جبالٍ فيها بعض بَرَدٍ.

وقيل: المفعول محذوف، و﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال، أي: ينزّل مبتدئًا مِن السماء مِن جبالٍ فيها مِن جنس البرَد بَرَدًا. والأوّل أظهر لخلوّه عن ارتكاب الحذف،

---

[1] قرأ بها أبو جعفر وورش عن نافع. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٩٥/١.

[2] م ط س: فقلنا. | وهو في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة، ٦٠/٢].

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن عبّاس وابن مسعود رضي الله عنهم والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٤.

والتصريحِ ببعضيّة المنزَّل. وقيل: المفعول ﴿مِن جِبَالٍ﴾ على أنّ ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، و﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ بيان للجبال، / أي: ينزّل مِن السماء بعضَ جبالٍ كائنة فيها مِن بَرَد، أي: مشبّهةٍ بالجبال في الكثرة. وأيًّا ما كان فتقديم الجارّ والمجرور على المفعول لِما مرّ غير مرّة مِن الاعتناء بالمقدّم والتشويقِ إلى المؤخّر. [١٧٦ظ]

وقيل: المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ المظِلّة، وفيها جبال مِن برَد كما أنّ في الأرض جبالًا مِن حجَر، وليس في العقل ما ينفيه مِن قاطع. والمشهور أنّ الأبخِرة إذا تصاعَدت ولم يُحلّلها حرارة فبلغت الطبقة الباردة مِن الهواء وقوي البرْدُ اجتمع هناك وصار سحابًا، وإن لم يشتدّ البرد تقاطَر مطرًا، وإن اشتدّ فإن وصل إلى الأجزاء البخاريّة قبل اجتماعها نزَل ثلجًا، وإلّا نزَل برَدًا، وقد يبرد الهواء برْدًا مفرِطًا، فينقبض وينعقِد سحابًا، وينزل منه المطر أو الثلج، وكلّ ذلك مستنِد إلى إرادة الله تعالى ومشيئته المبنيّة على الحِكم والمصالح.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بما ينزّله مِن البرَد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يصيبه به، فينالُه ما يناله مِن ضرر في نفسه وماله، ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أن يصرفه عنه فينجو مِن غائلته ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ أي: ضَوءُ برْق السحاب الموصوف بما مرّ مِن الإزجاء والتأليف وغيرهما.

وإضافة "البرْق" إليه قبل الإخبار بوجوده فيه للإيذان بظهور أمره واستغنائه عن التصريح به. وقُرئ بالمدّ[١] بمعنى الرفعة والعلوّ، وبإدغام الدال في السين،[٢] و"بُرَقِهِ"[٣] بفتح الراء على أنّه جمع "بُرْقَة"، وهي مقدار مِن البَرق، كـ"الغُرفة"، وبضمّها[٤] للإتباع بضمّة الباء.

﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: يخطفها مِن فرط الإضاءة وسرعة وُرودها. وفي إطلاق ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ مزيد تهويل لأمره، وبيان لشدّة تأثيره فيها، كأنّه يكاد يذهب بها

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٤.

٢ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب بخُلف عنهما. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٩١/١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٤.

ولو عند الإغماض، وهذا مِن أقوى الدلائل على كمال القدرة مِن حيث إنّه توليد للضدّ مِن الضدّ. وقُرئ: "يُذْهِبُ"[١] مِن "الإذهاب" على زيادة "الباء".

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ٤٤﴾

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بالمعاقبة بينهما، أو بنقصِ أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحرّ والبرد وغيرهما ممّا يقع فيهما مِن الأمور / التي مِن [١٧٧و] جملتها ما ذُكر مِن إزجاء السحاب وما تَرتّب عليه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما فُصّل آنفًا، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب المشار إليه للإيذان بعلوّ رتبته وبُعدِ منزلته ﴿لَعِبْرَةً﴾[٢] لَدلالةً واضحةً على وجود الصانع القديم ووَحدته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه بجميع الأشياء، ونَفاذ مشيئته، وتنزّهه عمّا لا يليق بشأنه العليّ ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لكلّ مَن له بصَر.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤٥﴾

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ أي: كلَّ حيوان يدبّ على الأرض. وقُرئ: "خَالِقُ كُلِّ دَابَّةٍ"[٣] بالإضافة. ﴿مِن مَّآءٍ﴾ هو جزء مادّته، أو ماءٍ مخصوص هو النطفة، فيكون تنزيلًا للغالب منزلة الكلّ؛ لأنّ مِن الحيوانات ما يتولّد لا عن نُطفة، وقيل: ﴿مِن مَّآءٍ﴾ متعلّق بـ﴿دَآبَّةٍ﴾، وليست صلةً لـ﴿خَلَقَ﴾.

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحيّة، وتسميةُ حركتها مشيًا مع كونها زحفًا بطريق الاستعارة أو المشاكلة، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالنَّعَم والوحش. وعدم التعرّض لِما يمشي على أكثر مِن أربع -كالعناكب ونحوها مِن الحشرات- لعدم الاعتداد بها.

---

١ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

٢ ط س + أي.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٢.

وتذكير الضمير في ﴿مِنْهُم﴾ لتغليب العقلاء. والتعبير عن الأصناف بكلمة ﴿مَن﴾ ليوافق التفصيلُ الإجمالَ.[1] والترتيب لتقديم ما هو أعرق في القدرة.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ممّا ذكر وممّا لم يذكر، بسيطًا كان أو مركّبًا، على ما يشاء مِن الصور والأعضاء والهيئات والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل مع اتّحاد العنصر. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخَلق المذكور، والإيذانِ بأنّه مِن أحكام الألوهيّة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء. وإظهار الجلالة لِما ذكر مع تأكيد استقلال الاستئناف التعليلي.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

[١٧٧ظ] ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ / أي: لكلّ ما يليق بيانُه مِن الأحكام الدينيّة والأسرار التكوينيّة. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه بتوفيقه للنظر الصحيح فيها، وإرشادِه إلى التأمّل في مطاويها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى حقيقة الحقّ والفوز بالجنّة.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ شروع في بيان أحوال بعضِ مَن لم يشأ الله هدايته إلى الصراط المستقيم. قال الحسن: «نزلت في المنافقين الذين كانوا يُظهرون الإيمانَ ويُسِرّون الكفر».[2] وقيل: نزلت في بِشرٍ المنافقِ، خاصم يهوديًّا، فدعاه إلى كعب بن الأشرف، واليهوديُّ يدعوه إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[3] وقيل: في المغيرة بن وائل، خاصم عليًّا رضي الله عنه في أرضٍ وماءٍ، فأبى أن يحاكم إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم.[4] وأيًّا ما كان فصيغة الجمع للإيذان

---

١ س: الإجمالي.

٢ اللباب لابن عادل، ٤٢٦/١٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ٣٤١/١٧.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٣/٧؛ التفسير الوجيز للواحدي، ص ٧٦٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٤٨/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٢٦/١٤.

بأنّ للقائل طائفةً يساعدونه ويشايعونه في تلك المقالة، كما يقال: "بنو[١] فلان قتلوا فلانًا" والقاتل واحد منهم.

﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي: أطعناهما في الأمر والنهي، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ عن قبول حكمه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما صدر عنهم ما صدر مِن ادّعاء الإيمان بالله وبالرسولِ والطاعةِ لهما على التفصيل، وما في ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البعد للإيذان بكونه أمرًا معتدًّا به واجبَ المراعاة.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى القائلين، لا إلى الفريق المتولّي منهم فقط؛ لعدم اقتضاء نفي الإيمان عنهم نفيَه عن الأوّلين، بخلاف العكس، فإنّ نفيه عن القائلين مقتضٍ لنفيه عنهم على أبلغ وجهٍ وآكده، وما فيه مِن معنى البعد للإشعار ببُعد منزلتهم في الكفر والفساد، أي: وما أولئك الذين يدّعون الإيمان والطاعة ثمّ يتولّى بعضهم الذين يشاركونهم في العقد والعمل ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المؤمنين حقيقةً كما يُعرِب عنه "اللام"، أي: ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالإخلاص في الإيمان والثبات عليه.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ﴾ أي: الرسولُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لأنّه المباشِر للحكم حقيقة، وإن كان ذلك حكم الله تعالى حقيقة. وذكرُ الله عزّ وجلّ[٢] لتفخيمه عليه السلام والإيذانِ بجلالة محلّه عنده تعالى. ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه عليه السلام لكون الحقّ عليهم، وعلمِهم بأنّه عليه السلام يحكم بالحقّ عليهم، وهو شرح للتولّي ومبالغة فيه.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لا عليهم ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ / مُذْعِنِينَ﴾ منقادين لجَزمهم [١٧٨و]
بأنّه عليه السلام يحكم لهم. و﴿إِلَى﴾ صلة لـ﴿يَأْتُوٓاْ﴾، فإنّ الإتيان والمجيء

---

[١] ط س: بنوا.
[٢] س: تعالى.

يعدَّيان بـ"إلى"، أو لـ﴿مُذۡعِنِينَ﴾ على تضمين معنى الإسراع والإقبال، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات، ٩٤/٣٧]. والتقديم للاختصاص.

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إنكار واستقباح لإعراضهم المذكور، وبيانٌ لمَنشئه بعد استقصاء عدّة مِن القبائح المحقَّقة فيهم والمتوقّعة منهم، وترديدِ المنشئيّة بينها، فمدارُ الاستفهام ليس نفسَ ما وَلِيَتْه "الهمزة" و﴿أَمۡ﴾ مِن الأمور الثلاثة؛ بل هو منشئيّتُها له؛ كأنّه قيل: أَذلك -أي: إعراضُهم المذكور- لأنّهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم، ﴿أَمِ﴾ لأنّهم ﴿ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ في أمر نبوّته عليه السلام مع ظهور حقّيّتها، ﴿أَمۡ﴾ لأنّهم ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾؟

ثمّ أُضربَ عن الكلّ، وأُبْطِلَت منشئيّته، وحُكِم بأنّ المَنشأ شيء آخر مِن شنائعهم، حيث قيل: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: ليس ذلك لشيء ممّا ذكر، أمّا الأوّلان فلأنّه لو كان لشيء منهما لأعرضوا عنه عليه السلام عند كون الحقّ لهم، ولَما أتَوا إليه عليه السلام مذعنين لحكمه؛ لِتحقّق نفاقهم وارتيابهم حينئذ أيضًا، وأمّا الثالث فلانتفائه رأسًا حيث كانوا لا يخافون الحَيفَ أصلًا لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه السلام في الأمانة والثبات على الحقّ؛ بل لأنّهم هم الظالمون، يريدون أن يظلموا مَن له الحقُّ عليهم، ويتمّ لهم جُحودُه، فيأبَون المحاكَمة إليه عليه السلام لعلمهم بأنّه عليه السلام يقضي عليهم بالحقّ، فمناطُ النفي المستفاد مِن الإضراب في الأوّلين هو وصفُ منشئيّتهما للإعراض فقط مع تحقّقهما في نفسهما، وفي الثالث هو الأصل والوصف / جميعًا. [١٧٨ظ]

هذا، وقد خُصّ الارتياب بما له منشأ مصحِّح لعروضه لهم في الجملة، والمعنى: أم ارتابوا بأن رأوا منه عليه السلام تُهمةً فزالت ثقتُهم ويقينهم به عليه السلام، فمدارُ النفي حينئذ نفسُ الارتياب ومنشئيّتُه معًا، فتأمّل فيما ذُكر على التفصيل، ودَع عنك ما قيل وقيل حسبما يقتضيه النظر الجليل.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصب على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿أَنْ﴾ مع ما في حيّزها اسمُها. وقُرئ بالرفع[1] على العكس. والأوّل أقوى صناعةً؛ لأنّ الأَولى للاسميّة ما هو أوغل في التعريف، وذلك هو الفعل المُصَدَّر بـ﴿أَنْ﴾، إذ لا سبيل إليه للتنكير، بخلاف قول المؤمنين فإنّه يحتمله، كما إذا اختزلت عنه الإضافة.

لكنّ قراءة الرفع أقعَدُ بحسب المعنى، وأوفى لمقتضى المقام، لِما أنّ مصبّ الفائدة وموقع البيان في الجمل هو الخبر، فالأحقّ بالخبريّة ما هو أكثر إفادةً وأظهر دلالةً على الحدوث، وأوفرُ اشتمالًا على نِسبٍ خاصّةٍ بعيدة مِن الوقوع في الخارج وفي ذهن السامعِ. ولا ريب في أنّ ذلكَ ههنا في ﴿أَنْ﴾ مع ما في حيّزها أتمّ وأكمل، فإذن هو أحقّ بالخبريّة، وأمّا ما يفيده الإضافة مِن النسبة المطلقة الإجماليّة فحيث كانت قليلة الجدوى سهلةَ الحصول خارجًا وذهنًا كان حقّها أن تُلاحَظ ملاحظةً مجملةً، وتُجعل عنوانًا للموضوع، فالمعنى: إنّما كانَ مطلقُ القول الصادر عن المؤمنين ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ﴾ أي: الرسول عليه السلام ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: وبين خصومهم سواء كانوا منهم أو مِن غيرهم ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: خصوصيّةُ هذا القول المحكي عنهم، لا قولًا آخر أصلًا.

وأمّا قراءة النصب فمعناها: إنّما كان قولَ المؤمنين، أي: إنّما كانَ قولًا لهم عند الدعوة خصوصيّةُ قولهم المحكي عنهم، ففيه مِن جعل أخصّ النسبتين وأبعدهما وقوعًا وحضورًا في الأذهان وأحقِّهما بالبيان مفروغًا عنها عنوانًا للموضوع، وإبرازِ ما هو بخلافها في معرض القصد الأصلي ما لا يخفى.

/ وقُرئ: "لِيُحْكَمَ"[2] على بناء الفعل للمفعول مسندًا إلى مصدره مُجاوِبًا لقوله [١٧٩و]
تعالى: ﴿إِذَا دُعُوٓاْ﴾، أي: ليُفعَلَ الحكمُ، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام، ٦/٩٤]، أي: وقع التقطّع بينكم.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٥.

[2] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٧.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعلوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بما ذُكر مِن النعت الجميل ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الفائزون بكلّ مطلب، والناجون عن كلّ محذور.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استئناف جيء به لتقرير مضمون ما قبله مِن حسن حال المؤمنين، وترغيبِ مَن عداهم في الانتظام في سلكهم، أي: ومَن يطعهما كائنًا مَن كان فيما أَمرا به مِن الأحكام الشرعيّة اللازمة والمتعدّية، وقيل: في الفرائض والسنن، والأوّل هو الأنسب بالمقام.

﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ بإسكان القاف المبنيّ على تشبيهه بـ"كَتْف". وقُرئ بكسر القاف والهاء، وبإسكان الهاء،[1] أي: ويَخْشَ الله على ما مضى مِن ذنوبه ويتّقِهِ فيما يَستقبل.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر مِن الطاعة والخشية والاتّقاء ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم، لا مَن عداهم.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ حكاية لبعضٍ آخر مِن أكاذيبهم مؤكِّدٍ بالأيمان الفاجرة. وقوله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ نصب على أنّه مصدر مؤكِّد لفعله الذي هو في حيّز

---

[1] للقرّاء في "وَيَتّقه" سبع قراءات: الأولى: بكسر القاف والهاء مع اختلاس كسرة الهاء، لقالون ويعقوب. الثانية: بإسكان القاف واختلاس كسرة الهاء، لحفص. الثالثة: بكسر القاف وإسكان الهاء، لأبي عمرو وشعبة. الرابعة: بكسر القاف والهاء مع إشباع كسرة الهاء، لورش وابن كثير وخلف عن حمزة والكسائي وخلف. الخامسة: بكسر القاف والهاء مع جواز الوجهين الإشباع والاختلاس، لابن ذكوان وابن جمّاز. السادسة: بكسر القاف وفي الهاء الوجهان الإسكان والإشباع، لخلّاد وابن وَردان. السابعة: بكسر القاف وفي الهاء ثلاثة أوجه الإسكان والاختلاس والإشباع، لهشام. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٠٥/١.

النصب على أنّه حال مِن فاعل ﴿أَقۡسَمُواْ﴾، أي: أقسموا به تعالى يَجهَدون أيمانَهم جَهدًا، ومعنى "جَهد اليمين" بلوغُ غايتها بطريق الاستعارة، مِن قولهم: "جَهَدَ نفسَه" إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها، أي: جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين في الشدّة والوَكادة. وقيل: هو مصدر مؤكِّد لـ﴿أَقۡسَمُواْ﴾، أي: أقسموا إقسامَ اجتهاد في اليمين. قال مقاتل: «مَن حلف بالله فقد اجتهد في اليمين».[١]

﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ﴾ / أي: بالخروج إلى الغزو، لا عن ديارهم وأموالهم، كما [١٧٩ظ] قيل: لأنّه حكاية لِما كانوا يقولون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أينما كنتَ نكن معك؛ لئن خرجتَ خرجنا، وإن أقمتَ أقمنا، وإن أمرتَنا بالجهاد جاهدنا».[٢]

وقوله تعالى: ﴿لَيَخۡرُجُنَّ﴾ جواب لـ﴿أَقۡسَمُواْ﴾ بطريق حكاية فعلِهم،[٣] لا حكايةِ قولِهم،[٤] وحيث كانت مقالتُهم هذه كاذبةً ويَمِينُهم فاجرةً أُمِر عليه السلام بردِّها حيث قيل: ﴿قُل﴾ أي: ردًّا عليهم وزجرًا لَهم عن التفوّه بها، وإظهارًا لِعدم القبول لكونهم كاذبين فيها: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْ﴾ أي: على ما ينبئ عنه كلامكم مِن الطاعة.

وقوله تعالى: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملة تعليل للنهي، أي: لا تقسموا على ما تدَّعون مِن الطاعة؛ لأنّ طاعتكم طاعة نفاقيّة واقعة باللسان فقط مِن غير مواطأةٍ مِن القلب، وإنّما عُبّر عنها بـ﴿مَّعۡرُوفَةٌ﴾ للإيذان بأنّ كونها كذلك مشهور معروف لكلّ أحد. وقُرئ بالنصب،[٥] والمعنى: تطيعون طاعةً معروفةً. هذا، وحملُها على الطاعة الحقيقيّة بتقدير ما يناسبُها مِن مبتدأٍ أو خبرٍ أو فعلٍ -مثل: الذي يُطلب منكم طاعة معروفة حقيقيّةٌ، لا نفاقيّة، أو طاعة معروفة أمثلُ، أو ليكن طاعةٌ معروفة، أو أطيعوا طاعةً معروفة-[٦] ممّا لا يساعده المقام.

---

١ تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٥٨٣؛ التفسير البسيط للواحدي، ١٦/٣٣٩.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/١١٤؛ اللباب لابن عادل، ١٤/٤٣٤.

٣ وفي هامش م: كقولك: "حلَف ليفعلنّ". «منه».

٤ وفي هامش م: كقولك: "حلَف لأفعلنّ". «منه».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن علي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٤.

٦ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٥٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١١٢.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الأعمال الظاهرة والباطنة التي مِن جملتها ما تظهرونه مِن الأكاذيب المؤكَّدة بالأيمان الفاجرة، وما تضمرونه في قلوبكم مِن الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرها مِن فنون الشرِّ والفساد. والجملة تعليل للحكم بأنّ طاعتهم طاعة نفاقيّة، مشعِر بأنّ مدار شهرة أمرها فيما بين المؤمنين إخبارُه تعالى بذلك، ووعيد لهم بأنّه تعالى مُجازيهم بجميع أعمالهم السيّئة التي منها نفاقهم.

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ كرّر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به، والإشعارِ / باختلافهما مِن حيث إنّ المَقول في الأوّل نهي بطريق الردّ والتقريع، [١٨٠و] كما في قوله تعالى: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون، ١٠٨/٢٣]، وفي الثاني أمرٌ بطريق التكليف والتشريع. وإطلاق الطاعة المأمور بها عن وصف الصحّة والإخلاص ونحوهما بعدَ وصف طاعتهم بما ذُكر للتنبيه على أنّها ليست مِن الطاعة في شيء أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ خطاب للمأمورين بالطاعة مِن جهته تعالى وارد لتأكيد الأمر بها، والمبالغةِ في إيجاب الامتثال به. والحمل عليه بالترهيب والترغيب، لِما أنّ تغيير الكلام المَسوق لمعنى مِن المعاني وصرفَه عن سَننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشأنه مِن المتكلّم، ويستجلب مزيدَ رغبة فيه مِن السامع، كما أشيرَ إليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]، لا سيّما إذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة إلى الخطاب بالذات، فإنّ في خطابه تعالى إيّاهم بالذات بعد أمره تعالى إيّاهم بوساطته[١] عليه السلام، وتصدِّيه لبيان حكم الامتثال بالأمر والتولّي عنه إجمالًا وتفصيلًا؛ مِن إفادة ما ذُكِر مِن التأكيد والمبالغة ما لا غاية وراءه.

[١] س: بواسطته.

وتَوهّمُ أنّه داخل تحت القول مأمورٌ بحكايته مِن جهته تعالى، وأنّه أبلغ في التبكيت؛[١] تعكيسٌ للأمر.

و"الفاء" لترتيب ما بعدها على تبليغه عليه السلام للمأمور به إليهم، وعدمُ التصريح به للإيذان بغاية ظهور مسارعته عليه السلام إلى تبليغ ما أُمِر به، وعدمِ الحاجة إلى الذكر، أي: إن تتولّوا عن الطاعة إثر ما أُمِرتم بها ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: فاعلموا أنّما عليه عليه السلام ﴿مَا حُمِّلَ﴾ أي: أُمِر به مِن التبليغ، وقد شاهدتموه عند قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾. ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: ما أُمِرتم به مِن الطاعة. ولعلّ التعبيرَ عنه بالتحميل للإشعار بثقله وكونِه مؤنةً باقية في عُهدتهم بعد، كأنّه قيل: وحيث تولّيتم عن[٢] ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحِمل الثقيل. وقوله تعالى: ﴿مَا حُمِّلَ﴾ محمول على المشاكلة.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ / أي: فيما أمركم به مِن الطاعة ﴿تَهْتَدُواْ﴾ إلى الحقّ الذي [١٨٠ظ] هو المَقصد الأصلي الموصل إلى كلّ خير، والمنجّي عن كلّ شرّ. وتأخيره مِن بيان حكم التولّي لِما في تقديم الترهيب مِن تأكيدِ الترغيب وتقريبِه ممّا هو مِن بابه مِن الوعد الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ اعتراض مقرّر لِما قبله مِن أنّ غائلةَ التولّي وفائدةَ الإطاعة مقصورتان عليهم. و"اللام" إمّا للجنس المنتظِم له عليه السلام انتظامًا أوّليًا، أو للعهد، أي: ما على جنس الرسول كائنًا مَن كان، أو ما عليه عليه السلام إلّا التبليغُ الموضّح لكلّ ما يحتاج إلى الإيضاح، أو الواضحُ على أنّ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ مِن "أبانَ" بمعنى "بَانَ"، وقد علمتم أنّه قد فعله بما لا مزيد عليه، وإنّما بقي ما حُمِّلتم.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٥٠؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١١٢.

٢ س: مِن.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ استئناف مقرّر لِما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[١] مِن الوعد الكريم، ومُعرِب عنه بطريق التصريح، ومبيِّنٌ لتفاصيل ما أُجمِل فيه مِن فنون السعادات الدينيّة والدنيويّة التي هي مِن آثار الاهتداء، ومتضمِّن لِما هو المرادُ بالطاعة التي نِيط بها الاهتداء. والمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كلُّ مَن اتّصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق، مِن أيّ طائفةٍ كان، وفي أيّ وقتٍ كان، لا مَن آمنَ مِن طائفة المنافقين فقط، ولا مَن آمَن بعد نزول الآية الكريمة فحسب، ضرورةَ عموم الوعد الكريم للكلّ كافّةً، فالخطاب في ﴿مِنكُمْ﴾ لعامّة الكفرة، لا للمنافقين خاصّةً، و﴿مِن﴾ تبعيضيّة.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾، داخل معه في حيّز الصلة، وبه يتمّ تفسير الطاعة التي أُمر بها ورُتِّب عليها ما نُظِم في سلك الوعد الكريم كما أشيرَ إليه. وتوسيط الظرف بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، والإيذانِ بكونه أوّلَ ما يُطلَب منهم، وأهمَّ ما يجب عليهم.

وأمّا تأخيره عنهما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
[١٨١و] مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح، ٢٩/٤٨] / فلأنّ ﴿مِن﴾ هناك بيانيّة، والضمير للذين معه عليه الصلاة والسلام مِن خُلَّص المؤمنين، ولا ريب في أنّهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة، مثابرون عليهما، فلا بدّ مِن وُرُود بيانهم بعد ذِكر نعوتهم الجليلة بكمالها.

هذا، ومَن جعل الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وللأمّة عمومًا على أنّ ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، أو له عليه السلام ولمَن معه مِن المؤمنين خصوصًا على أنّها بيانيّة،[٢] فقد نأى عمّا يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه بمَنازل، وأبعدَ عمّا يليق بشأنه عليه السلام بمراحل.

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جواب للقسَم، إمّا بالإضمار، أو تنزيل وعده تعالى منزلةَ القسَم لتحقّق إنجازه لا محالةَ، أي: لَيجعلنّهم خلفاء متصرّفين فيها

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٥١/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٢/٤.

تصرّف الملوك في ممالكهم، أو خلفاءَ مِن الذين لم يكونوا على حالهم مِن الإيمان والأعمال الصالحة.

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم بنو إسرائيل، استخلفهم الله عزّ وجلّ في مصر والشام بعد إهلاك فرعونَ والجبابرة، أو هم ومَن قبلَهم مِن الأمم المؤمِنة التي أشيرَ إليهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [إبراهيم، ٩/١٤] إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم، ١٤/١٣-١٤].

ومحلّ "الكاف" النصب على أنّه مصدر تشبيهي مؤكِّد للفعل بعد تأكيده بالقسَم، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: ليَستخلفنّهم استخلافًا كائنًا كاستخلافه تعالى للذين مِن قبلهم. وقُرئ: "كَمَا اسْتُخْلِفَ"[1] على البناء للمفعول، فليس العاملُ في "الكاف" حينئذ الفعلَ المذكورَ؛ بل ما يدلّ هو عليه مِن فعلٍ مبنيّ للمفعول، جارٍ منه مجرى المطاوع، فإنّ استخلافه تعالى إيّاهم مستلزِم لكونهم مستخلَفين لا محالةَ، كأنّه قيل: لَيَستخلفنَّهم في الأرض فيُسْتَخْلَفُنَّ فيها استِخلافًا، أي: / مُسْتَخْلَفِيَّةً كائنةً كَمُسْتَخْلَفِيّة مَن قَبلهم، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة، ١٠٨/٢]. ومِن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا[2] نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣٧/٣] على أحد الوجهين، أي: فَنبت نباتًا حسنًا، وعليه قولُ مَن قال: [١٨١ظ]

وَعضّةُ دهرٍ يا ابنَ مروانَ لم يدَع   مِن المال إلّا مُسْحَتٌ أو مُجلّفُ[3]

أي: فلم يبقَ إلّا مُسْحَت... إلخ.

---

١ قرأ بها شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٢/٢.

٢ ط س: فأنبته الله. | يظهر أثر كشطٍ في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ للفرزدق في ديوانه، ١١٧/٢، بلفظ:
وَعَضّ زمان يا ابنَ مروانَ لم يدَع
مِن المال إلّا مُسْحَتًا أو مُجرّفُ
قال ابن منظور: «ويُروى: "إلّا مُسحَتٌ أو مُجَلّفُ"، ومَن رواه كذلك جعل معنى "لم يدَع": لم يتقارّ؛ ومَن رواه: "إلّا مُسحتًا" جعل "لم يدَع" بمعنى: لم يترك، ورَفع قوله: "أو مجلّفُ" بإضمار، كأنه قال: "أو هو مجلّفُ"؛ قال الأزهري: "وهذا هو قول الكسائي"، ومال مَسحوت ومُسحَت، أي: مُذهَب». لسان العرب لابن منظور، «سحت».

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ عطفٌ على ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، منتظِم معه في سِلك الجواب، وتأخيرُه عنه مع كونه أجلّ الرغائب الموعودة وأعظمَها لِما أنّ النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميَل، فتصدير المواعيد بها في الاستمالة أدخل، والمعنى: لَيجعلَنّ دينَهم ثابتًا مقرَّرًا بحيث يستمرّون على العمل بأحكامه ويرجعون إليه في كلّ ما يأتون وما يذرون.

والتعبير عن ذلك بـ"التمكين" -الذي هو جعلُ الشيء مكانًا لآخر، يقال: مَكّن له في الأرض، أي: جعلها مَقرًّا له، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف، ٨٤/١٨] ونظائرُه. وكلمة ﴿فِى﴾ للإيذان بأنّ ما جُعل مقرًّا له قطعة منها، لا كلُّها- للدلالة على كمال ثباتِ الدين، ورَصانةِ أحكامه، وسلامتِه عن التغيير والتبديل؛ لابتنائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والقرار، مع ما فيه مِن مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف في الأرض.

وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة إلى بيان كون الموعود مِن منافعهم تشويقًا لهم إليه وترغيبًا لهم في قبوله عند وروده، ولأنّ في توسيطها بينه وبين وصفه -أعني قولَه تعالى: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾- وتأخيرِها عنه مِن الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى. وفي إضافة "الدين" إليهم -وهو دين الإسلام- ثمّ وصفِه بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم، ومزيدُ ترغيب فيه، وفضلُ تثبيت عليه.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بالتشديد، وقُرئ بالتخفيف[1] مِن الإبدال. ﴿مِنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ أي: مِن الأعداء ﴿أَمْنًا﴾ حيث كان أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل الهجرة عشر سنين -بل أكثر- خائفين، ثمّ هاجروا / إلى المدينة، وكانوا [١٨٢و] يُصبحون في السلاح ويُمسون كذلك، حتّى قال رجل منهم: «ما يأتي علينا يوم نأمَن فيه؟» فقال عليه السلام: «لا تَغبُرون[2] إلّا يسيرًا حتّى يجلس الرجل منكم

---

[1] أي: "وَلَيُبْدِلَنَّهُمْ". قرأ بها ابن كثير ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

[2] "لا تَغبُرون" أي: لا تبقون. غَبَر الشيء يَغبُر، أي: بَقي، والغابِر: الباقي. انظر: الصحاح للجوهري، «غبر».

في الملأ العظيم مُحتَبيًا ليس معه حديدة»،[١] فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية،[٢] وأنجز وَعده[٣] فأظهرهم على جزيرة العرب، وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وصاروا إلى حالٍ يخافهم كلُّ مَن عداهم.

وفيه مِن الدلالة على صحّة النبوّة للإخبار بالغيب على ما هو عليه قبل وقوعه ما لا يخفى. وقيل: المراد الخوفُ مِن العذاب والأمنُ منه في الآخرة.

﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ حال مِن الموصول الأوّل مفيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد، أو استئناف ببيان المقتضي للاستخلاف وما انتظم معه في سِلك الوعد. ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ حال مِن "الواو"، أي: يعبدونني غيرَ مشركين بي في العبادة شيئًا.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: اتّصف بالكفر، بأن ثبت واستمرّ عليه ولم يتأثّر بما مرّ مِن الترهيب والترغيب، فإنّ الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفرٌ مستأنَف زائد على الأصل. وقيل: كفَرَ بعد الإيمان. وقيل: كفَرَ هذه النعمة العظيمة، والأوّل هو الأنسب بالمقام. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ذلك الوعد الكريم بما فُصِّل مِن المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعي الجميل في حيازتها ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ البُعَداءُ عن الحقّ التائهون في تِيه الغواية والضلال ﴿هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عطفٌ على مقدّر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام، فإنّ خطابه تعالى للمأمورين بالطاعة على طريق الترهيبِ مِن التولّي بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾... إلخ،[٤] وترغيبَه تعالى إيّاهم في الطاعة بقوله تعالى:

---

[١] "مُحتبيًا ليس فيه حديدة"، عبارةٌ عن غاية الأمن ورخاء البال. "الحَبو": هو أن يضمّ الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب ويجمعها مع ظهره، ويشدّه عليها. **فتوح الغيب** للطيبي، ١٣٤/١١.

[٢] **جامع البيان** للطبري، ٣٤٨/١٧؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١١٥/٧.

[٣] س + الكريم.

[٤] النور، ٥٤/٢٤.

[١٨٢ظ] ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾... إلخ،[١] / ووَعْدَه تعالى إيّاهم على الإيمان والعمل الصّالح بما فُصِّل مِن الاستخلاف، وما يتلوه مِن الرغائب الموعودة، ووَعيدَه على الكفر؛ ممّا يوجب الأمرَ بالإيمان والعمل الصالح والنهيَ عن الكفر، فكأنّه قيل: فآمِنوا واعملوا صالحًا وأقيموا، أو فلا تكفروا وأقيموا. وعطفُه على ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٢] ممّا لا يليق بجزالة النظم الكريم.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أمرهم الله سبحانه بالذات بما أمرهم به بواسطة الرسول عليه السلام مِن طاعته التي هي طاعته تعالى في الحقيقة تأكيدًا للأمر السابق، وتقريرًا لِمضمونه، على أنّ المراد بالمطاع فيه جميعُ الأحكام الشرعيّة المنتظِمة للآداب المرضيّة أيضًا، أي: وأطيعوه في كلّ ما يأمركم به وينهاكم عنه، أو تكميلًا لِما قبله مِن الأمرين الخاصّين المتعلِّقين بالصلاة والزكاة، على أنّ المراد بما ذُكر ما عداهما مِن الشرائع، أي: وأطيعوه في سائر ما يأمركم به... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ متعلّق على الأوّل بالأمر الأخير المشتمِل على جميع الأوامر، وعلى الثاني بالأوامر الثلاثة، أي: افعلوا ما ذكر مِن الإقامة والإيتاء والإطاعة راجِين أن تُرحَموا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لمّا بيِّنَ حالُ مَن أطاعه عليه السلام وأشيرَ إلى فوزِه بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين عُقِّب ذلك ببيان حالِ مَن عصاه عليه السلام ومآلِ أمرِه في الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيه في الفسق تكميلًا لأمر الترغيب والترهيب. والخطاب إمّا لِكلّ أحد ممّن يصلح له كائنًا مَن كان، وإمّا للرسول صلّى الله عليه وسلّم على منهاج قوله تعالى: ﴿وَلَا[٣] تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ١٤/٦] ونظائرِه للإيذانِ بأنّ الحِسبان المذكورَ مِن القُبح والمحذوريّة بحيث يُنْهَى عنه مَن يمتنع صدوره عنه، فكيف بمَن يمكن ذلك منه؟

---

١ النور، ٥٤/٢٤.

٢ النور، ٥٤/٢٤. | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٥٢/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٤.

٣ م ط س: فلا.

ومحلّ الموصول النصب على أنّه مفعول أوّلُ للحسبان، وقوله تعالى: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ ثانيهما، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ظرف لـ﴿مُعْجِزِينَ﴾، لكن لا لإفادة كون الإعجاز المنفيّ فيها لا في غيرها، فإنّ ذلك ممّا لا يحتاج إلى البيان؛ بل لإفادة شمول عدم الإعجاز لجميع أجزائها، أي: لا تحسبنّهم معجزين الله عزّ وجلّ[1] عن إدراكهم وإهلاكهم / في قُطر مِن أقطار الأرض بما رحبت، وإن هربوا منها كلَّ مهرب. [١٨٣و]

وقُرئ: "لَا يَحْسَبَنَّ"[2] بياء الغيبة على أنّ الفاعل كلّ أحد، والمعنى كما ذُكر، أي: لا يحسَبنّ أحدٌ الكافرين معجزين له سبحانه في الأرض، أو هو الموصولُ والمفعول الأوّل محذوف؛ لكونه عبارة عن أنفسهم، كأنّه قيل: لا يحسبنّ الكافرون أنفسهم معجزين في الأرض. وأمّا جعلُ ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مفعولًا أوّل، و﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مفعولًا ثانيًا؛[3] فبمَعزِل مِن المطابقة لمقتضى المقام ضرورةَ أنّ مصبّ الفائدة هو المفعول الثاني، ولا فائدة في بيان كون المعجزين في الأرض، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٢/٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ معطوف على جملة النهي بتأويلها بجملة خبريّة؛ لأنّ المقصود بالنهي عن الحِسبان تحقيقُ نفي الحِسبان، كأنّه قيل: ليس الذين كفروا معجزين ومأواهم... إلخ، أو على جملة مقدَّرة وقعت تعليلًا للنهي، كأنّه قيل: لا تحسبنّ الذين كفروا معجزين في الأرض، فإنّهم مُدْرَكون ومأواهم... إلخ. وقيل: الجملة المقدّرة: بل هم مقهورون، فتدبّر.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جواب لقسَم مقدّر، والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: وبالله، لبئس المصير هي، أي: النار. والجملة اعتراض تذييلي مقرّر لِما قبله. وفي إيراد ﴿ٱلنَّارُ﴾ بعنوان كونها مأوًى ومصيرًا لهم إثرَ نفي فوتهم بالهرب في الأرض كُلَّ مَهرب مِن الجزالة ما لا غاية وراءَه، فللهِ درّ شأن التنزيل.

---

١ س: تعالى.

٢ قرأ بها ابن عامر وحمزة وإدريس عن خَلف بخُلف عنه، إلّا أنّ إدريس يكسر السين والباقين يفتحونها. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٧.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٥٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١١٣.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٨﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ رجوع إلى بيان تتمّة الأحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب الامتثال بالأوامر والنواهي الواردة فيها وفي الأحكام اللاحقة مِن التمثيلات والترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد. والخطاب / إمّا للرجال خاصّةً، [١٨٣ظ] والنساءُ داخلات في الحكم بدلالة النصّ،[١] أو للفريقين جميعًا بطريق التغليب.

رُوي أنّ غلامًا لأسماء بنتِ أبي مرثد دخل عليها في وقتٍ كَرِهته، فنزلت.[٢] وقيل: أرسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مدلجَ بن عمرو الأنصاري[٣] -وكان غلامًا- وقتَ الظهيرة ليدعو عمر رضي الله تعالى[٤] عنه، فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبُه، فقال عمر رضي الله عنه: «لَوددت أنّ الله تعالى نهى آباءَنا وأبناءَنا وَخَدَمَنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعاتِ إلّا بإذن»، ثمّ انطلق معه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فوجدَه وقد أنزلت عليه هذه الآية.[٥]

﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ مِن العبيد والجواري ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾ أي: الصبيان القاصرون عن درجة البلوغ المعهود. والتعبير عنه بـ﴿ٱلْحُلُمَ﴾ لكونه أظهرَ دلائله. ﴿مِنكُمْ﴾ أي: مِن الأحرار ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي: ثلاثةَ أوقات في اليوم والليلة. والتعبير عنها بـ"المرّات" للإيذان بأنّ مدار وجوب الاستئذان مقارنةُ تلك الأوقاتِ لمرور المستأذِنين بالمخاطَبين، لا أنفسُها.

---

١ وفي هامش م: بل بطريق الأولويّة. «منه».

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٥٣/٣؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١١٣/٤.

٣ ذكره أبو نُعيم باسم مُدلِج الأنصاري، وقال: «غير منسوب، ذكره ابن عبّاس في حديثه» وأخرج القصّة. **معرفة الصحابة** لأبي نعيم، ٢٦٢١/٥.

٤ س – تعالى.

٥ **التفسير البسيط** للواحدي، ٣٥٢/١٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٥٣/٣.

﴿مِن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لظهور أنّه وقتُ القيام عن المضاجع، وطرحِ ثياب النوم، ولبسِ ثياب اليقظة. ومحلّه النصبُ على أنّه بدل مِن ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، أو الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: أحدُها مِن قبل... إلخ.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ أي: ثيابكم التي تلبسونها في النهار وتخلعونها لأجل القَيلولة. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهي شدّة الحرّ عند انتصاف النهار؛ بيانٌ للحِين. والتصريح بمدار الأمر -أعني: وضعَ الثياب في هذا الحين، دون الأوّل والآخر- لِما أنّ التجرّد عن الثياب فيه لأجل القيلولة لِقلّة زمانها، كما ينبئ عنها إيرادُ الحِين مضافًا إلى فعلٍ حادث مُتَقَضٍّ، ووقوعُها في النهار الذي هو مَئِنّة لكثرة الورود والصدور ومظِنّة لظهور الأحوال وبروز الأمور ليس مِن التحقّق والاطّراد بمنزلة ما في الوقتين المذكورين، / فإنّ تحقّق التجرّد واطّرادَه [١٨٤و] فيهما أمر معروف لا يحتاج إلى التصريح به.

﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ ضرورةَ أنّه وقت التجرّد عن اللباس والالتحاف باللحاف، وليس المراد بالقبليّة والبعديّة المذكورتين مطلقَهما المتحقّقَ في الوقتِ الممتدِّ المتخلّلِ بين الصلاتين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف، ٣/١٢]، وقولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [يوسف، ١٠٠/١٢]؛ بل ما يعرض منهما[١] لطرفي ذلك الوقت الممتدّ المتّصلين بالصلاتين المذكورتين اتّصالًا عاديًا.

وقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ خبر مبتدأ محذوف. وقوله تعالى: ﴿لَّكُمْ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾، أي: كائنة لكم، والجملة استئناف مسوق لبيان علّة وجوب الاستئذان، أي: هنّ ثلاثةُ أوقات يختلّ فيها التستّر عادةً. و"العورة" في الأصل هو الخلل، غلَب في الخلل الواقع فيما يهُمّ حفظه ويُعتَنَى بسَتره، أُطلقت على الأوقات المشتملة عليها مبالغةً، كأنّها نفس العورة. وقُرئ: "ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ"[٢] بالنصب بدلًا مِن ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾.

---

[١] وفي هامش م: مِن القبليّة والبعديّة. «منه».

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المماليك والصبيان ﴿جُنَاحٌ﴾ أي: إثم في الدخول بغير استئذانٍ، لعدم ما يوجبه مِن مخالفة الأمر والاطّلاع على العورات، ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي: بعد كلّ واحدةٍ مِن تلك العورات الثلاثِ، وهي الأوقات المتخلّلة بين كلّ اثنتين منهنّ، وإيرادها بعنوان البعديّة -مع أنّ كلّ وقت مِن تلك الأوقات قبلَ عورة مِن العورات، كما أنّها بعد أُخرى منهنّ- لتوفية حقّ التكليف والترخيص الذي هو عبارة عن رفعه، إذ الرخصة إنّما تتصوّر في فعل يقع بعد زمان وقوع الفعل المكلّف.

والجملة على القراءتين مستأنَفة مسوقة لتقرير ما قبلها بالطرد والعكس. [١٨٤ظ] وقد جُوّز على القراءة الأولى كونُها في محلّ الرفع على أنّها / صفةٌ أخرى لـ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾، وأمّا على القراءة الثانية فهي[١] مستأنَفة لا غير، إذ لو جعلت صفة لـ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾، وهي بدل مِن ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾؛ لكان التقدير: لِيستأذنكم هؤلاء في ثلاث عوراتٍ، لا إثمَ في ترك الاستئذان بعدهنّ، وحيث كان انتفاء الإثم حينئذ ممّا لم يعلمه السامع إلّا بهذا الكلام لم يَتَسَنَّ إبرازُه في معرِض الصفة، بخلاف قراءة الرفع، فإنّ انتفاء الإثم حينئذ معلوم مِن صدر الكلام.

وقوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ استئناف ببيان العذر المرخِّص في ترك الاستئذان، وهي المخالطة الضروريّة، وكثرة المداخلة. وفيه دليل على تعليل الأحكام، وكذا في الفرق بين الأوقات الثلاثة وبين غيرها بكونها عورات. ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بعضكم طائف على بعض طوافًا كثيرًا، أو بعضكم يطوف على بعض.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ مرارًا مِن تفخيم شأن المشار إليه، والإيذانِ ببُعد منزلته، وكونِه مِن الوضوح بمنزلة المشار إليه حِسًّا، أي: مثلَ ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالّةَ على الأحكام، أي: ينزّلها مبيَّنةً واضحةَ الدلالات عليها، لا أنّه تعالى يبيّنها بعد أن لم تكن كذلك.

---

[١] س: هي.

و"الكاف" مقحمة، وقد مرّ تفصيله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢]. و﴿لَكُمُ﴾ متعلّق بـ﴿يُبَيِّنُ﴾، وتقديمُه على المفعول الصريح لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر. وقيل: يبيّن عِلل الأحكام، وليس بواضح مع أنّه مؤدٍّ إلى تخصيص الآيات بما ذكر ههنا.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم بجميع المعلومات، فيعلم أحوالكم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفاعيله، فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشًا ومعادًا.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ لمّا بيّن فيما مرّ آنفًا حكم الأطفال في أنّه لا جناح عليهم[1] في ترك الاستئذان فيما عدا الأوقات الثلاثة عُقِّبَ ببيان حالهم بعد البلوغ دفعًا لِما عسى يُتوهّم أنّهم / وإن كانوا أجانب ليسوا كسائر الأجانب [١٨٥و]
بسبب اعتيادهم الدخولَ، أي: إذا بلغ الأطفال الأحرار الأجانب ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في حيّز النصب على أنّه نعت لِمصدر مؤكِّدٍ للفعل السابق. والموصول عبارة عمّن قيل لهم: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ الآية [النور، ٢٧/٢٤]، ووصفُهم بكونهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرهم قبل ذكرهم، لا باعتبار بلوغهم قبل بلوغهم كما قيل،[2] لِما أنّ المقصود بالتشبيه بيانُ كيفيّة استئذانِ هؤلاءِ وزيادةُ إيضاحه، ولا يتسنّى ذلك إلّا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع. ولا ريب في أنّ بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء ممّا لا يخطر ببال أحدٍ وإن كان الأمر كذلك في الواقع، وإنّما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم، أي: فليستأذنوا استئذانًا كائنًا مثل استئذان المذكورين قبلكم، بأن يستأذنوا في جميع الأوقات ويرجعوا إن قيل لهم: "ارجعوا" حسبما فصّل فيما سلف.

---

[1] ط س - عليهم.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٥٤/٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٤/٤.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الكلام فيه كالذي سبق، والتكرير للتأكيد والمبالغةِ في الأمر بالاستئذان. وإضافة الآيات إلى ضمير الجلالة لتشريفها.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: العجائز اللاتي قعدن عن الحيض والحمل ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يطمعن فيه لكِبرهنّ، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الثيابَ الظاهرةَ كالجلباب ونحوه. و"الفاء" فيه لأنّ "اللام" في ﴿ٱلْقَوَٰعِدُ﴾ بمعنى "اللاتي" أو للوصف بها.[١]

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ غيرَ مظهراتٍ لزينةٍ ممّا أُمِر بإخفائه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾،[٢] وأصل التبرّجِ التكلّف في إظهار ما يخفى، مِن قولهم: "سفينة بارجة" لا غطاءَ عليها، / و"البرَجُ" سَعة العين بحيث يُرى بياضها محيطًا بسوادِها كلِّه، إلّا أنّه خُصّ[٣] بكشف المرأة زينتَها ومحاسنَها للرجال. ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بترك الوضع ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ مِن الوضع، لبُعده مِن التهمة. [١٨٥ظ]

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ مبالغ في سمع جميع ما يُسْمَع، فيسمع بما يجري بينهنّ وبين الرجال مِن المقاوَلة، ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم مقاصِدهنّ، وفيه مِن الترهيب ما لا يخفى.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

---

١ وفي هامش م: أي: وصف ﴿ٱلْقَوَٰعِدُ﴾ بـ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾. «منه».

٢ النور، ٢٤/٣١.

٣ س: خص.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ كانت هؤلاء الطوائف يتحرّجون مِن مؤاكلة الأصحّاء حذارًا مِن استقذارهم إيّاهم، وخوفًا مِن تأذّيهم بأفعالهم وأوضاعهم، فإنّ الأعمى ربّما سبقت يده إلى ما سبقت إليه عينُ أكيله وهو لا يشعُر به، والأعرج يتفسّح في مجلسه، فيأخذ أكثر مِن موضعه، فيضيّقُ على جليسه، والمريض لا يخلو عن حالة تؤذي قرينَه.

وقيل: كانوا يدخلون على الرجل لطلب العلم، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمّهاتهم، أو إلى بعض مَن سمّاهم الله عزّ وجلّ في الآية الكريمة، فكانوا يتحرّجون مِن ذلك، ويقولون: "ذهب بنا إلى بيت غيره، ولعلّ أهلَه كارهون لذلك". وكذا كانوا يتحرّجون مِن الأكل مِن أموال الذين كانوا إذا خَرجوا إلى الغزو خلّفوا هؤلاء الضعفاءَ في بيوتهم، ودفعوا إليهم مفاتيحها، وأَذِنوا لَهم أن يأكلوا ممّا فيها مخافةَ أن لا يكون إذنهم عن طيب نفس منهم. وكان غير هؤلاء أيضًا يتحرّجون مِن الأكل في بيوت غيرهم، فقيل لهم: ليس على الطوائف المعدودة ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: عليكم وعلى مَن يماثلكم في الأحوال مِن المؤمنين حرَج ﴿أَن تَأْكُلُواْ﴾ أي: تأكلوا أنتم وهم معكم.

وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة أيضًا يأباه ما قبله وما بعده، فإنّ الخطاب فيهما لغير أولئك الطوائف حتمًا.

﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: البيوتِ التي فيها أزواجكم وعيالكم، فيدخل فيها بيوت الأولاد؛ لأنّ بيتهم كبَيته؛ لقوله عليه السلام: «أنت ومالُك لأبيك»،[1] وقوله عليه السلام: «إنّ أطيب مال الرجل مِن كسبه، / وإنّ ولده مِن كسبه».[2] [١٨٦و]

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وقُرئ بكسر الهمزة والميم،[3] وبكسر الأولى وفتح الثانية.[4] ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ

---

١ مسند أحمد، ٥٠٣/١١ (٦٩٠٢)؛ سنن ابن ماجه، ٣٩١/٣ (٢٢٩١).

٢ مسند أحمد، ٣٤/٤٠ (٢٤٠٣١)؛ سنن ابن ماجه، ٢٦٩/٣ (٢١٣٧).

٣ قرأ بها حمزة في حالة الوصل. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

٤ قرأ بها الكسائي في حالة الوصل. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ مِن البيوت التي تملكون التصرّف فيها بإذن أربابها على الوجه الذي مرّ بيانه. وقيل: هي بيوت المماليك، و"المفاتِح" جمع "مِفتَح"، وجمع "المِفتاح" "مفاتيح". وقُرِئ: "مِفْتَاحَهُ".[١]

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: أو بيوتِ صديقكم، وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نَسَبيّة، فإنّهم أرضى بالتبسّط وأَسَرُّ به مِن كثيرٍ مِن الأقرباء. رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ الصَّديق أكبر مِن الوالِدين، إنّ الجهنّميّين لمّا استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمّهات؛ بل قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء، ٢٦/١٠٠-١٠١]».[٢] و"الصَّديق" يقع على الواحد والجمع، كـ"الخَليط" و"القَطِين" وأضرابِهما. وهذا فيما إذا عُلِم رضى صاحب البيت بصريح الإذن أو بقرينةٍ دالّة عليه، ولذلك خُصّص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التَبسُّطَ فيما بينهم.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ كلام مستأنَف مسوق لبيان حكم آخر مِن جنس ما بُيّن قبله، حيث كان فريق مِن المؤمنين كبَني ليث بن عمرو بن كنانة[٣] يتحرّجون أن يأكلوا طعامهم منفردين. وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومَه حتّى يجد ضيفًا يأكل معه، فإن لم يجد مَن يؤاكله لم يأكل شيئًا. وربّما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله مِن الصباح إلى الرواح، وربّما كانت معه الإبل الحُفَّلُ[٤] فلا يشرب مِن ألبانها حتّى يَجد مَن يشاربه، فإذا أمسى ولم يجد أحدًا أكل.[٥]

[١٨٦ظ] وقيل: كان الغنيّ منهم يدخل على الفقير / مِن ذوي قرابته وصداقته، فيدعوه إلى طعامه، فيقول: "إنّي أتحرّج أن آكل معك وأنا غنيّ وأنت فقير".

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وهارون عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٧١/٨.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٧/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٦٠/١٤.

٣ كذا في الأصول الخطيّة، والصواب: "مِن كِنانة"، فإنّ بني ليث بن عمرو حيّ مِن كِنانة. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١١٩/٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٦٥/٦.

٤ حفَل اللبن في الضَّرع يَحفِل: اجتمع، وضَرع حافل، أي: ممتلئ لبنًا، والجمع حُفَّل. لسان العرب لابن منظور، «حفل».

٥ معاني القرآن للزجّاج، ٥٤/٤؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧٩/١٦.

وقيل: كان قوم مِن الأنصار لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلّا مع ضيفهم، فرُخّص لهم في أن يأكلوا كيف شاءوا.[١] وقيل: كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعامًا عزلوا للأعمى وأشباهِه طعامًا على حِدة، فبيّن الله تعالى أنّ ذلك ليس بواجب.[٢]

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حال مِن فاعل ﴿تَأْكُلُواْ﴾، و﴿أَشْتَاتًا﴾ عطفٌ عليه داخل في حكمه، وهو جَمع "شَتٍّ" على أنّه صفةٌ كـ"الحَقّ"، يقال: "أمرٌ شَتٌّ"، أي: متفرّق، أو على أنّه في الأصل مصدر وُصف به مبالغةً، أي: ليس عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرّقين.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم﴾ شروع في بيان الآداب التي تجب رعايتها عند مباشرة ما رُخّص فيه إثرَ بيان الرخصة فيه. ﴿بُيُوتًا﴾ أي: مِن البيوت المذكورة ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: على أهلها الذين بمنزلة أنفسكم، لِما بينكم وبينهم مِن القرابة الدينيّة والنسَبيّة الموجِبة لذلك.

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ثابتة بأمره مشروعةً مِن لدنه، ويجوز أن يكون صلة للتحيّة، فإنّها طلب الحياة التي هي مِن عنده تعالى، وانتصابُها على المصدريّة؛ لأنّها بمعنى التسليم. ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ مستتبعةً لزيادة الخير والثواب ودوامهما ﴿طَيِّبَةً﴾ يطيبُ بها نفسُ المستمع. وعن أنس رضي الله عنه أنّه عليه السلام قال: «متى لقيتَ أحدًا مِن أمّتي فسلّم عليه يَطُلْ عمرك، وإذا دخلتَ بيتك فسلّم عليهم يكثُرْ خيرك، وصَلِّ صلاة الضحى، فإنّها صلاة الأبرار الأوّابين».[٣]

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ تكرير لتأكيد الأحكام المختتَمة به وتفخيمها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: ما في تضاعيفها مِن الشرائع والأحكام / وتعملون [١٨٧و] بموجَبها، وتفوزون بذلك سعادة الدارين. وفي تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييل الأوّلين بما يوجبهما مِن الجزالة ما لا يخفى.

---

١ جامع البيان للطبري، ٣٧٦/١٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٩/٧.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٦١/١٤.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٨/٣. وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ١٨٨/١١ (٨٣٨٣).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ استئناف جيء به في أواخر الأحكام السابقة تقريرًا لها وتأكيدًا لوجوب مراعاتها، وتكميلًا لها ببيان بعض آخر مِن جنسها. وإنّما ذُكِر الإيمان بالله ورسوله في حيّز الصلة للموصول الواقع خبرًا للمبتدأ مع تضمّنه له قطعًا تقريرًا لِما قبله، وتمهيدًا لِما بعده، وإيذانًا بأنّه حقيق بأن يجعل قرينًا للإيمان بهما منتظَمًا في سِلكه. فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾... إلخ معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾ داخل معه في حيّز الصلة.

أي: إنّما الكاملون في الإيمان الذين آمنوا بالله ورسوله عن صميم قلوبهم وأطاعوهما في جميع الأحكام التي مِن جملتها ما فُصِّل مِن قبلُ مِن الأحكام المتعلّقة بعامّة أحوالهم المطّردة في الوقوع، وأحوالهم الواقعة بحسب الاتّفاق، كما إذا كانوا معه عليه السلام على أمرٍ مهمّ يجب اجتماعهم في شأنه، كالجمعة والأعياد والحروب وغيرها مِن الأمور الداعية إلى اجتماع أولي الآراء والتجارِب. ووصف الأمر بالجمع للمبالغة. وقُرئ: "أَمْرٍ جَمِيعٍ".[١]

﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي: مِن المَجمع مع كون ذلك الأمر ممّا لا يوجب حضورَهم لا محالةَ، كما عند إقامة الجمعة ولقاءِ العدوّ؛ بل يَسوغُ التخلّف عنه. ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ عليه السلام في الذهاب، لا على أنّ نفس الاستئذان غاية لعدم الذهاب؛ بل الغاية هي الإذن المَنوط برأيه عليه السلام. والاقتصارُ على ذكره لأنّه الذي يتمّ مِن قِبَلهم، وهو المعتبَر في كمال الإيمان، / لا الإذن ولا الذهاب المترتّبُ عليه. واعتبارُه في ذلك لِما أنّه كالمِصداق لصحّته، والمميّز للمخلِص عن المنافق، فإنّ دَيدَنه التسلّل للفِرار، ولتعظيم ما في الذهاب بغير إذنه عليه السلام مِن الجناية. [١٨٧ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٧٤/٨.

وللتنبيه على ذلك عُقِّب بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فقُضِي بأنّ المستأذِنين هم المؤمنون بالله ورسوله، كما حكم في الأوّل بأنّ الكاملين في الإيمان هم الجامعون بين الإيمان بهما وبين الاستئذان. وفي ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مِن تفخيم شأن المستأذِنين ما لا يخفى.

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ بيان لِما هو وظيفتُه عليه السلام في هذا الباب إثرَ بيان ما هو وظيفة المؤمنين، وأنّ الإذن عند الاستئذان ليس بأمر محتوم، بل هو مفوَّض إلى رأيه عليه السلام. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: بعد ما تحقّق أنّ الكاملين في الإيمان هم المستأذِنون، فإذا استأذنوك ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي: لبعض أمرِهم المهمّ، وخَطبِهم المُلِمّ ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ لِما علمتَ في ذلك مِن حكمةٍ ومصلحةٍ، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ فإنّ الاستئذان وإن كان لعذرٍ قويّ لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ مبالِغ في مغفرة فَرطات العباد، ﴿رَّحِيمٌ﴾ مبالِغ في إفاضة آثار الرحمة عليهم. والجملة تعليل للمغفرة الموعودة في ضمن الأمر بالاستغفار لهم.

﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما قبله، والالتفاتُ لإبراز مزيد الاعتناء بشأنه، أي: لا تجعلوا دعوته عليه السلام إيّاكم في الاعتقاد والعمل بها ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تقيسوا دُعاءه عليه السلام إيّاكم / على [١٨٨و] دعاء بعضكم بعضًا في حال مِن الأحوال وأمر مِن الأمور التي مِن جملتها المساهَلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه السلام بغير استئذان، فإنّ ذلك مِن المحرَّمات.

وقيل: لا تجعلوا دعاءَه عليه السلام رَبَّه كدعاء صغيرِكم كبيرَكم؛ يجيبه مرّة ويردّه أُخرى، فإنّ دعاءه مستجاب لا مَرَدَّ له عند الله عزّ وجلّ. وتقرير الجملة

حينئذ لِما قبلها إمّا مِن حيث إنّ استجابته تعالى لدعائه عليه السلام ممّا يوجب امتثالهم بأوامره عليه السلام ومتابعتهم له في الورود والصدور أكملَ إيجاب، وإمّا مِن حيث إنّها موجِبة للاحتراز عن التعرّض لسخطه عليه السلام المؤدّي إلى ما يوجب هلاكهم مِن دعائه عليه السلام عليهم.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: لا تجعلوا نداءَه عليه السلام كنداءِ بعضكم بعضًا باسمه ورفعِ الصوت والنداءِ مِن وراء الحجرات، ولكن بلقبه المعظّم، مثل: يا رسول الله، يا نبيّ الله، مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوتِ؛[1] فلا يناسبُ المقام، فإنّ قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾... إلخ وعيد لِمُخالفي أمره عليه السلام فيما ذُكِر مِن قبل، فتوسيط ما ذُكر بينهما ممّا لا وجه له.

و"التسلّل" الخروج مِن البَين على التدريج والخُفية. و﴿قَدْ﴾ للتحقيق، كما أنّ "رُبَ" يجيء للتكثير حسبما بُيّن في مطلع سورة الحِجر، أي: يعلم الله الذين يخرجون مِن الجماعة قليلًا قليلًا على خُفية.

﴿لِوَاذًا﴾ أي: مُلاوذةً، بأن يستتر بعضهم ببعضٍ حتّى يخرجَ، أو بأن يلوذ بمَن يخرج بالإذن إراءةَ أنّه مِن أتباعه. وقُرئ بفتح "اللام".[2] وانتصابه على الحاليّة مِن ضمير يتسلّلون، أي: مُلاوِذين، أو على أنّه مصدر مؤكِّد لفعل مُضمَر هو الحال في الحقيقة، أي: يلوذون لِواذًا.

[١٨٨ظ] / و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦ﴾ لترتيب الحذَر أو الأمرِ به على ما قبلها مِن علمه تعالى بأحوالهم، فإنّه ممّا يوجب الحذَر البتّة، أي: يخالفون أمره بترك مقتضاه، ويذهبون سَمتًا خلاف سَمته. و﴿عَنْ﴾ إمّا لتضمينه معنى الإعراض، أو حملِه على معنى: يَصدّون عن أمره دون المؤمنين، مِن "خالَفه عن الأمر" إذا صدّ عنه دونه. وحذف المفعول لِما أنّ المقصود بيان المخالِف والمخالَف عنه. والضمير لله تعالى؛ لأنّه الآمر حقيقةً، أو للرسول صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّه المقصود بالذكر.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٦/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يزيد بن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٦.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: مِحنة في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. وكلمة ﴿أَوْ﴾ لمَنع الخلوّ دون الجمع. وإعادة الفعل صريحًا للاعتناء بالتهديد والتحذير. واستُدلّ به على أنّ الأمر للإيجاب، فإنّ ترتيب العذابين على مخالفته كما يُعرِب عنه التحذير عن إصابتهما يوجِب وجوبَ الامتثال به حتمًا.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن الموجوداتِ بأسرها خَلقًا ومِلكًا وتصرّفًا، وإيجادًا وإعدامًا، بَدءًا وإعادةً، ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيّها المكلّفون مِن الأحوال والأوضاع التي مِن جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ عطفٌ على ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: يعلم يومَ يُرْجَعُ المنافقون المخالِفون للأمر إليه تعالى للجزاء والعقاب. وتعليقُ علمه تعالى بيوم رَجْعهم -لا بِرَجْعهم- لزيادة تحقيق علمه تعالى بذلك. وغاية تقريره لِما أنّ العلم بوقت وقوع الشيء مستلزِم للعلم بوقوعه على أبلغ وجه وآكَده. وفيه إشعار بأنّ علمه تعالى لِنفْس رَجْعهم مِن الظهور بحيث لا يحتاج إلى البيان قطعًا. ويجوز أن يكون الخطاب أيضًا خاصًّا بالمنافقين على طريقة الالتفات. وقُرئ: "يَرْجِعُونَ"[١] مبنيًّا للفاعل.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ مِن الأعمال السيّئة التي مِن جملتها مخالفةُ الأمر، فيرتّب عليه ما يَليق به مِن التوبيخ والجزاء، وقد مرّ وجه التعبير مِن[٢] الجزاء بالتنبئة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ الآيةَ [يونس، ٢٣/١٠]. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ لا يعزُب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة النور أعطيَ مِن الأجر عشر حسنات بعدد كلّ مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي».[٣]

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٠٨/٢.

٢ ط س: عن.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٦٢/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٠٢/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١. | وفي هامش م: الحمد لله سبحانه وتعالى. إلى هنا انتهى يومَ الخميس الثاني مِن شهر رمضان الكريم لسنة ٩٧٠.

٢٤

سُورَةُ النُّورِ

مدنيّة، وهي ثنتان أو أربعٌ وستون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ هذه ﴿سُورةٌ، أنزَلْناها وفَرَضْناها﴾ ـ مُخففًا، ومُشدّدًا لكثرة المفروض فيها ـ ﴿وأنزَلْنا فِيها آياتٍ بيِّناتٍ﴾: واضحاتِ الدلالة، ﴿لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾، بإدغام التاء الثانية في الذال، أي: تتّعظون.

٢ ـ ﴿الزّانِيةُ والزّانِي﴾ أي: غيرُ المحصَنَينِ ....

سُورَةُ النُّورِ

قولُه: (هذِهِ) أو: فيما أوحَينا إليكَ.

قولُه: (ومُشَدَّدًا) مَكيٌّ وبَصريٌّ[1].

قولُه: (المَفْرُوضِ) أي: الفَرائِضِ، أو: المفروضِ عليهم؛ يعني: وفَرَضنا ما فيها من الأحكامِ.

قولُه: (بإِدْغَامِ) تَقدَّمَ[2] أنَّ حَفصاً وحمزةَ والكِسائيَّ بالتَّخفيفِ[3]، وعبارةُ البَيضاويِّ[4]: قُرِئَ. ضعيفةٌ.

قولُه: (غَيْرُ المُحصَنَين) الإحصانُ: بالحريَّةِ والبلوغِ والعقلِ والإصابةِ في نِكاحٍ صحيحٍ[5]، واعتَبرتِ الحنَفيَّةُ الإسلامَ أيضاً[6].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٤).

(٢) في الآية: (٨٥) من سورة المؤمنون.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٧٩).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ٩٨).

(٥) «صحيح» من (م) وهو الموافق لما في «أنوار التنزيل».

(٦) انظر: «الهداية» (٢/ ٣٥٦).

لرجمِهما بالسُّنَّة، «وأل» فيما ذُكر: موصولة، وهو مبتدأ ولشبهه بالشرط دخلت الفاء في خبره، وهو: ﴿فاجلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنهُما مِائَةَ جَلْدةٍ﴾ أي: ضربةٍ - يقال: جَلَدَه: ضَرَبَ جِلدَه. ويُزاد على ذلك بالسُّنَّةِ تغريبُ عام، والرقيقُ على النِّصف ممّا ذُكر - ﴿ولا تأخُذْكُم بِهِما رأفةٌ في دِينِ اللهِ﴾ أي: حُكمِه بأن تتركوا شيئًا من حدّهما، ﴿إن كُنتُم تُؤمِنُونَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ﴾ أي: يوم البعث - في هذا تحريض على ما قبلَ الشرط، وهو جوابه أو دالّ على جوابه - ﴿ولْيَشهَدْ عَذابَهُما﴾ أي: الجَلدَ ﴿طائفةٌ مِنَ المُؤمِنِينَ﴾. قيل: ثلاثةٌ، وقيل: أربعةٌ عددُ شهودِ الزنى.

٣ - ﴿الزّاني لا يَنكِحُ﴾: يتزوّجُ ﴿إلاّ زانِيةً أو مُشرِكةً، والزّانِيةُ لا يَنكِحُها إلاّ زانٍ أو مُشرِكٌ﴾ أي: المناسبُ لكُلّ منهما ما ذُكر..

قولُه: (لِرَجْمِهِمَا بِالسُّنَّةِ) وبالآيةِ المنسوخِ لَفظُها، وهي: (الشَّيخُ والشَّيخةُ إذا زَنَيا فارجُموهُما البتَّةَ)(١).

قولُه: (مَوْصُولَةٌ) بمعنى: الَّذي والتي.

قولُه: (وَهُو) أي: الخَبرُ بتأويلِ: مَقولٌ في حَقِّهِما.

قولُه: (أي: ضَرْبَةٍ) مُتفرِّقةٍ على الأعضاءِ دونَ الرَّأسِ والوجهِ.

قولُه: (ضَرَبَ جِلْدَهُ) وفيه إشعارٌ إلى عدمِ إيصالِ الألمِ إلى اللَّحمِ.

قولُه: (تَغْرِيْبُ عَامٍ) للحُرِّ؛ أي: إخراجُ سَنَةٍ عندَ الشَّافِعيِّ(٢)، وعندَنا: التَّغريبُ مَنسوخٌ(٣).

قولُه: (والرَّقِيْقُ) مُبتدأٌ، وحُكمُه عُلِمَ مِن قوله تعالى: ﴿فعليهن نصف ما على المحصنات﴾ [النساء: ٢٥].

قولُه: (مِمَّا ذُكِرَ) من مئةِ جَلدَةٍ.

قولُه تعالى: (﴿رأفة﴾) حَرَّكهُ المَكيُّ(٤).

قولُه: (أَوْ دَالٌّ) هو الصَّحيحُ.

قولُه: (أي: الجَلْدَ) زيادَةٌ في التَّنكيلِ.

قولُه: (أي: المُنَاسِبُ) لأنَّ مُناسَبةَ المُشاكَلةِ علَّةُ الأُلفَةِ والنِّظامِ.

---

(١) رواه النسائي في «السنن الكبرى» (٧١١٨)، وابن ماجه (٢٥٥٣)، ومالك في «الموطأ» (ص: ٨٢٤) (١٠) عن عمر رضي الله عنه. وجاء الإشارة إلى الآية دون ذكر لفظها فيما رواه البخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١) عن عمر رضي الله عنه أيضاً.

(٢) انظر: «الحاوي الكبير» (١٣/ ١٩٣).

(٣) انظر: «الهداية» (٢/ ٣٤٣).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٥).

﴿وحُرِّمَ ذلِكَ﴾ أي: نِكاحُ الزَّواني ﴿علَى المُؤمِنِينَ﴾ الأخيار. نزل ذلك لمّا همَّ فُقراء المُهاجرين أن يتزوّجوا بَغايا المشركين، وهنّ مُوسِرات، ليُنفِقْنَ عليهم. فقيل: التحريم خاصّ بهم، وقيل: عامّ ونُسخ بقوله: «وأنكِحُوا الأيامَى مِنكُم».

قولُه: (الأَخيَارِ) لأنَّه تشَبُّهٌ بالفُجّارِ، وتعرُّضٌ للتُّهمَةِ والطَّعنِ في النَّسبِ، وغيرِ ذلك من المفاسِدِ، ولذلكَ عبَّرَ عن التَّنزيهِ بالتَّحريمِ مُبالغةً.

قولُه: (فَقِيلَ: التَّحْرِيمُ) على ظاهرِهِ، والنَّفيُ بمعنى النَّهيِ، وقد قُرِئَ به[1].

قولُه: (خَاصٌّ بِهِم) بالسَّببِ الذي وَردَ فيهم.

قولُه: (وقِيلَ: عَامٌّ) قائلُه: سَعيدُ بنُ المُسيِّبِ، كَذا في «مُوطَّأِ الإمامِ مُحمَّد»[2].

قولُه: (﴿وأَنكِحُوا الأَيَامَى﴾) فإنَّه يتناوَلُ المُسافِحاتِ، ويُؤيدُه أنَّه ﷺ سُئِلَ عن ذلك ـ أي: مَن[3] زَنى بامرأةٍ ثُمَّ نَكَحها ـ فقالَ: «أوَّلُهُ سِفَاحٌ، وآخِرُه نِكاحٌ، والحرامُ لا يُحرِّمُ الحلالَ» رواهُ الدَّارقطنيُّ، وابنُ حبَّانَ في «الضُّعَفاء»[4].

---

(١) أي: (الزاني لا ينكحْ). انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٠٢) عن عمرو بن عبيد.

(٢) روى مالك في «الموطأ» برواية محمد بن الحسن (١٠٠٤) عن سعيد بن المسيب، في قول الله عز وجل: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾ [النور: ٣]، قال: وسمعته يقول: إنها نسخت هذه الآية بالتي بعدها، ثم قرأ: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ [النور: ٣٢].

قال محمد: وبهذا نأخذ، وهو قول أبي حنيفة والعامة من فقهائنا: لا بأس بتزوُّج المرأة، وإن كانت قد فجرت، وإنْ يتزوَّجْها من لم يفجُرْ.

(٣) في (م): «عمن».

(٤) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٤١٩): غريب بهذا اللفظ.

وجاء عن عائشة، قالت: سئل رسول الله ﷺ عن رجل زنى بامرأة فأراد أن يتزوجها أو ابنتها، قال: «لا يحرم الحرام الحلال إنما يحرم ما كان بنكاح».

رواه ابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٩٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٨٠٣)، والدارقطني في «السنن» (٣٦٨٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٩٦٦)، وأعلَّه ابن حبان بعثمان بن عبد الرحمن؛ كان ممن يروي عن الثقات الأشياء الموضوعات لا يجوز الاحتجاج به.

وروى أبو يوسف في «الآثار» (٦٠٤)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (١٢٧٨٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٥١) (١٣٨٧٨) عن ابن عباس رضي الله عنه في الرجل يفجر بالمرأة ثم يتزوجها بعد قال: «كان أوله سفاح، وآخره نكاح، وأوله حرام، وآخره حلال» واللفظ للبيهقي.

٤ ـ ﴿والَّذِينَ يَرمُونَ المُحصَنَاتِ﴾: العفيفات بالزنى، ﴿ثُمَّ لَم يأتُوا بِأربَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ على زناهنّ برؤيتهم، ﴿فاجلِدُوهُم﴾ أي: كُلَّ واحد منهم ﴿ثَمانِينَ جَلْدَةً، ولا تَقبَلُوا لَهُم شَهادةً﴾ في شيء ﴿أبَدًا، وأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ﴾ لإتيانهم كبيرةً، ٥ ـ ﴿إلاّ الَّذِينَ تابُوا مِن بَعدِ ذلِكَ، وأصلَحُوا﴾ عملَهم. ﴿فإنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لهم قذفَهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم بإلهامهم التوبةَ. فبها ينتهي فِسقهم، وتُقبل شهادتهم. وقيل: لا تُقبل، رُجوعًا بالاستثناء إلى الجُملة الأخيرة.

٦ ـ ﴿والَّذِينَ يَرمُونَ أزْواجَهُم﴾ بالزنى، ﴿ولَم يَكُن لَهُم شُهَداءُ﴾ عليه ﴿إلاّ أنفُسُهُم﴾ ـ وقع ذلك لجماعة من الصحابة ـ ﴿فشَهادةُ أحَدِهِم﴾: مبتدأٌ ﴿أربَعَ شَهاداتٍ﴾: نصبٌ على المصدر ﴿بِاللهِ، إنَّهُ لَمِنَ الصّادِقِينَ﴾، فيما رمى به زوجته من الزنى، ٧ ـ ﴿والخامِسةُ أنَّ لَعْنَةَ اللهِ علَيهِ، إن كانَ مِنَ الكاذِبِينَ﴾ في ذلك ـ..

قولُه: (العَفِيفَاتُ) والإحصانُ هاهُنا: بالحُريَّةِ والبُلوغِ والعَقلِ والإسلامِ والعِفَّةِ عن الزِّنا، والمُحصَنينَ بطَرِيقِ الأَولى؛ لأنَّهُم أكثرُ عقلاً ودِيناً، والتَّخصيصُ لخصوصِ الواقِعةِ، أو لأنَّ قَذفَ النِّساءِ أغلبُ وأشنَعُ.

قولُه: (بالزِّنَا) والقَذفُ بغيرِهِ مِثلَ: «يا فاسِق» يوجِبُ التَّعزيرَ، كقَذفِ غيرِ المُحصَنِ.

قولُه: (فِي شَيْءٍ) قيلَ: في القَذْفِ.

قولُه: (لا تُقبَلُ) وهو قَولُ أبي حَنيفَةَ[١].

قولُه: (الأَخِيْرَةِ) وهي: ﴿أولئك هم الفاسقون﴾.

قولُه: (عَلَيْهِ) أي: الزِّنا.

وقولُه: (﴿أَنفُسُهُم﴾) بَدلٌ من: ﴿شُهداء﴾.

قولُه: (مُبْتَدَأٌ) أو خَبرٌ؛ يعني: فَعليهِم، أو: فالواجِبُ، شَهادةُ أحدِهِم.

قولُه: (نَصْبٌ) وحمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ بالرَّفعِ[٢] على أنَّه خَبرٌ لـ﴿شَهادةُ﴾.

قولُهُ تعالى: (﴿والخامسَةُ﴾) أي: الشَّهادةُ الخامِسةُ، ونافعٌ بتَخفيفِ (أَنْ) ورَفعِ (لَعنَتُ)[٣].

قولُه: (فِي ذَلِكَ) أي: فيما رَمى بِهِ... إلخ.

---

(١) انظر: «الهداية» (٣/ ١٢١).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٥).

(٣) انظر المصدرين السابقين.

وخبر المبتدأ: تدفعُ عنه حدَّ القذف ـ ٨ ـ ﴿وَيَدْرأُ﴾: يدفع ﴿عَنها العَذابَ﴾ أي: حدَّ الزنى الذي ثَبَتَ بشهاداته ﴿أن تَشهَدَ أربَعَ شَهاداتٍ بِاللهِ، إنَّهُ لَمِنَ الكاذِبِينَ﴾ فيما رماها به من الزنى، ٩ ـ ﴿والخامِسةُ أنَّ غَضَبَ اللهِ علَيها، إن كانَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ في ذلك. ١٠ ـ ﴿ولَولا فَضلُ اللهِ علَيكُم ورَحْمتُهُ﴾ بالسَّتر في ذلك، ﴿وأنَّ اللهَ تَوّابٌ﴾ بقَبوله التوبةَ في ذلك وفي غيره ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم به في ذلك وغيره، لبَيَّنَ الحقّ في ذلك وعاجل بالعُقوبة من يستحقّها.

١١ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ جاؤُوا بالإفكِ﴾: أسوَإ الكذب على عائشةَ أُمّ المؤمنين بقذفها ﴿عُصْبةٌ مِنكُم﴾: جماعة من المؤمنين. قالتْ: حسّانُ بن ثابتٍ، وعبدُ الله بنُ أُبَيٍّ، ومِسطحٌ، وحَمنةُ بنتُ جحشٍ. ﴿لا تَحسِبُوهُ﴾ ـ أيّها المؤمنون غيرَ العُصبة ـ ﴿شَرًّا لَكُم. بَل هُوَ خَيرٌ لَكُم﴾ يأجُركم الله به، ويُظهِرُ براءة عائشة ومَن أتى معها منه. وهو صفوانُ. فإنها قالت: ....

قولُه: (المُبْتَدَأ) الذي هو ﴿الخَامسةُ﴾، وما بعدَها بدلٌ منها، والمشهورُ: أنَّ خَبرَ الشَّهادةِ ما بعدَها، فقوله: (خَبرُ المُبْتَدَأِ) يعني: المبتدأ المُتقدِّم، وهو ﴿شهادةُ أحدِهم﴾، وهو بَعيدٌ؛ لكنَّه ظاهرُ كلامِه[1].

قولُه: (فِي ذَٰلِكَ) أي: فيما رَماها، ورَفعُ ﴿الخَامِسةُ﴾ بالابتداءِ، وما بَعدها الخَبرُ، أو بالعَطْفِ على: ﴿أنْ تَشهدَ﴾، ونَصَبها حَفصٌ عطفًا على ﴿أربعَ﴾، وما بعدَها بَدلٌ منها، وقَرأ نافعٌ بتخفيفِ النُّونِ وكَسرِ الضَّادِ ورَفعِ الهاء[2].

قولُه: (فِي ذَٰلِكَ وَغَيرِهِ لبَيَّنَ) أي: لفَضَحَكُم.

قولُه: (عَلَى عَائِشَةَ) أي: المرَادُ: ما ائتُفِكَ به عليها.

قولُه: (قَالَتْ) أي: عائِشَةُ.

قولُه: (عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ) حقُّهُ التَّأخيرُ، أو التَّقديمُ.

قولُه: (ومِسْطَحٌ) بكَسرٍ وسُكونٍ وفَتحٍ، ابنُ أُثاثَةَ؛ بضمِّ الهَمزةِ.

قولُه: (أَيُّهَا المُؤمِنُونَ) وقالَ القاضِي: الخِطابُ للرَّسولِ وأبي بَكرٍ وعائِشةَ وصَفوانَ، والهاءُ للإفكِ[3].

---

(١) كأن في كلام الشارح هنا تناقض وتشويش، فهو قد جزم أن المراد من قوله: (المبتدأ) هو ﴿الخامسة﴾، ثم عاد فجزم أن قوله: (خَبرُ المُبْتَدَإ) يعني به: المبتدأ المُتقدِّم، وهو ﴿شهادةُ أحدِهم﴾، والذي أراه أن الجلال لم يتكلم بكلام بعيد ولا متناقض، وإنما جاء كلامه على قراءة: ﴿أربعَ﴾ بالنصب، فقال في إعراب ﴿فشهادة﴾: «مبتدأ» ثم لما وصل إلى بيان الخبر قال: «وخبر المبتدأ...» فأعاده معرفة إشارة إلى ما تقدم منكراً من قوله: «مبتدأ»، ثم ذكر تقدير الخبر، وهذا على قراءة النصب في ﴿أربعَ﴾ كما ذكرنا.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٥، ٤٩٦).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٠).

«كنتُ معَ النبيّ ﷺ في غزوةٍ بعدَ ما أُنزِلَ الحِجابُ، ففَرَغَ منها ورجَعَ ودَنا من المَدِينةِ، وآذَنَ بالرَّحِيلِ ليلةً فمَشَيتُ وقضَيتُ شأني، وأقبلتُ إلى الرَّحلِ فإذا عِقدي انقطعَ ـ هو بكسر المهملة: القِلادة ـ فرجَعتُ ألتمِسُه، وحَملوا هَودَجي ـ هو ما يُركب فيه ـ على بعيري يَحسِبونني فيه، وكانتِ النساءُ خِفافًا إنّما يأكلْنَ العُلقةَ ـ هو بضمّ المُهملة وسكون اللام ـ من الطعام أي: القليلَ، ووجدتُ عِقدي وجِئتُ بعدَ ما ساروا، فجلستُ في المنزلِ الذي كنتُ فيه، وظننتُ أنّ القوم سيَفقِدونني، فيرجِعون إليَّ.

فغَلَبَتْني عيناي فنِمتُ، وكان صفوانُ قد عرّسَ من وراء الجيش، فادّلجَ ـ هما بتشديد الراء والدال، أي: نزلَ من آخِر الليل للاستراحة، فسار منه ـ فأصبحَ في منزِله، فرأى سَوادَ إنسانٍ نائمٍ، أي: شخصَه، فعرَفني حينَ رآني ـ وكان يَراني قبلَ الحِجابِ ـ فاستيقظتُ باسترجاعِه، حينَ عرَفني، أي: قولِه: إنّا للهِ وإنّا إليه راجِعُونَ.

فخمّرتُ وجهي بجِلبابي، أي: غطّيتُه بالمُلاءة. واللهِ ما كلّمني بكلمة، ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعِه، حين أناخَ راحلته ووطِئَ على يدها فركبتُها، فانطلقَ يقودُ بي الراحلة، حتّى أتَينا الجيشَ بعد ما نزلوا، مُوغِرِينَ في نحرِ الظهيرة، أي: مِن: أوغرَ، واقعِينَ في مكانٍ وغْر، في شِدّة الحرّ، فهَلَكَ من هَلَكَ فيَّ. وكان الذي تَوَلّى كِبْرَه منهم عبدُ اللهِ بنُ أُبَيِّ بنِ سَلُولَ». انتهى قولها، رواه الشيخانِ.

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ امرِئٍ مِنهُم﴾ أي: عليه ﴿ما اكتَسَبَ مِنَ الإثمِ﴾ في ذلك، ﴿والَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنهُم﴾ أي: تحمّل مُعظمه، فبدأ بالخوض فيه وأشاعه ـ وهو عبدالله بن أُبيٍّ ـ ﴿لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾، هو النار في الآخرة. ....

قولُه: (شَأْنِي) كِنايةٌ عنِ الحاجَةِ.

قولُه: (عَلَى بَعِيْرِي) مُتعلّقٌ بـ(حَمَلوا).

قولُه: (وَغرٍ) صَعبٍ.

قولُه: (أيْ: عَلَيهِ) أو: لِكلٍّ جزاءُ ما اكتَسبَ بقَدْرِ ما خاضَ فيه مُختصًّا به.

قولُه: (وأَشَاعَهُ) عَداوةً لرسولِ اللهِ ﷺ.

قولُه: (هُوَ النَّارُ) أو في الدُّنيا بأن جُلِدوا، وصارَ ابنُ أُبيٍّ مَطروداً مَشهوراً بالنِّفاقِ، وحسَّانُ أعمى وأشَلَّ اليدينِ[1]، ومِسْطَحٌ مَكفوفَ البَصرِ[2].

---

(١) لم أقف على أنه شلت يداه، وأما أنه عمي فجاء فيما رواه البخاري (٤١٤٦)، ومسلم (٢٤٨٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٠). ولم أقف على ذلك مسنداً.

١٢ ـ ﴿لَولا﴾: هلاّ، ﴿إذ﴾: حينَ ﴿سَمِعتُمُوهُ، ظَنَّ المُؤمِنُونَ والمؤمِناتُ بِأنفُسِهِم﴾ أي: ظنّ بعضهم ببعض ﴿خَيرًا، وقالُوا: هذا إفكٌ مُبِينٌ﴾: كذبٌ بيِّن. فيه التفات عن الخِطاب، أي: ظننتم ـ أيها العُصبةُ ـ وقلتم.

١٣ ـ ﴿لَولا﴾: هلاّ ﴿جاؤوا﴾ أي: العُصبةُ ﴿علَيهِ بِأربَعةِ شُهَداءَ﴾ شاهَدُوه. ﴿فإذ لَم يأتُوا بِالشُّهَداءِ فأُولئِكَ عِندَ اللهِ﴾ أي: في حُكمه ﴿هُمُ الكاذِبُونَ﴾ فيه. ١٤ ـ ﴿ولَولا فَضلُ اللهِ علَيكُم ورَحمتُهُ في الدُّنيا والآخِرةِ لَمَسَّكُم فِيما أفَضتُم فِيهِ﴾ ـ أيُّها العُصبةُ ـ أي: خُضتُم ﴿عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة، ١٥ ـ ﴿إذ تَلَقَّونَهُ بِألسِنَتِكُم﴾ أي: يَرويه بعضكم عن بعض ـ وحُذف من الفعل إحدى التاءين. وإذ منصوب بـ «مسّكم» أو بـ «أفضتم» ـ ﴿وتَقُولُونَ بِأفواهِكُم ما لَيسَ لَكُم بِهِ عِلمٌ، وتَحسِبُونَهُ هَيِّنًا﴾: لا إثمَ فيه، ﴿وهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ في الإثم.

١٦ ـ ١٧ ـ ﴿ولَولا﴾: هلاّ، ﴿إذ﴾: حينَ ﴿سَمِعتُمُوهُ، قُلتُم: ما يَكُونُ﴾: ما ينبغي ﴿لَنا أن نَتكَلَّمَ بِهذا ـ سُبحانَكَ﴾!...

قولُه: (أي: ظَنَّ) أي: ظَنُّوا بالَّذينَ منهم من المؤمِنينَ والمُؤمناتِ، كقولِه تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩].

قولُه: (كَذِبٌ بَيِّنٌ) كما يقولُ المُستَيقِنُ المُطَّلعُ على الحالِ.

قولُه: (فِيهِ التِفَاتٌ) مُبالغةً في التَّوبيخِ.

قولُه: (أي: في حُكمِهِ) لا في عِلمِه؛ يعني: في غيرِ هذه القضيَّةِ(١)، وأمّا فيها فحُكماً وعلماً.

قولُه: (فِي الآخِرَةِ) فيه: أنَّ من جُملةِ العُصبَةِ ابنُ أُبيٍّ، وهو مُعذَّبٌ في العُقبى، قال القَاضِي: ﴿لولا﴾ هذه لامتِناعِ الشَّيءِ لوجودِ غيره، والمعنى: لولا فَضلُ اللهِ عليكُم في الدُّنيا بأنواعِ النِّعَم التي من جُملتِها الإمهالُ للتَّوبةِ، ورحمتُهُ في الآخِرةِ بالعفوِ والمَغفِرةِ المقَرَّرانِ لكم، لمسَّكُم عاجلاً عذابٌ عظيمٌ يُستَحْقَرُ دُونَه اللَّومُ والجَلدُ(٢).

قولُه: (مَنصُوبٌ) على الظَّرفيَّةِ.

قولُه: (لا إِثْمَ فِيهِ) ولا تَبِعةَ له.

قولُه: (مَا يَنبَغِي) وما يصحُّ، ويجوزُ أن تكونَ الإشارَةُ إلى القَولِ المخصُوصِ، وأن تكونَ إلى نَوعِه، فإنَّ قَذفَ آحادِ النَّاسِ يَحرُم شرعاً فضلاً عن تعرُّضِ الصِّدِّيقةِ بنتِ الصِّدِّيق حَرَمِ رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) في (م): «القصة».

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠١).

هو للتعجّب هنا ـ ﴿هذا بُهتانٌ﴾: كذبٌ ﴿عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللهُ﴾: ينهاكم ﴿أن تَعُودُوا لِمِثلِهِ أبَدًا، إن كُنتُم مُؤمِنِينَ﴾ تتّعظون بذلك، ١٨ ـ ﴿ويُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ﴾ في الأمر والنهي، ﴿واللهُ عَلِيمٌ﴾ بما يأمر به وينهى عنه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيه.

١٩ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أن تَشِيعَ الفاحِشةُ﴾ باللسان ﴿في الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بنِسبتها إليهم ـ وهم العُصبة ـ ﴿لَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ في الدُّنيا﴾ بالحدّ للقذف ﴿والآخِرةِ﴾ بالنار لحقّ الله. ﴿واللهُ يَعلَمُ﴾ انتفاءها عنهم، ﴿وأنتُم﴾ ـ أيها العُصبة ـ ﴿لا تَعلَمُونَ﴾ وجودَها فيهم، ٢٠ ـ ﴿ولَولا فَضلُ اللهِ علَيكُم﴾ ـ أيها العُصبة ـ ﴿ورَحمتُهُ وأنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بكم، لعاجلكم بالعُقوبة.

٢١ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيطانِ﴾ أي: طُرقَ تزيينه........................

قولُه: (هُوَ) وفي نُسخةٍ: «هذا» للتَّعجُّبِ ممَّن يقولُ ذلك.

قولُه: (يَنْهَاكُم) أي: عن أن، أو: ينصَحُكُم كراهَةَ أن تَعودوا، أو في أن تَعودوا.

وقولُهُ تعالى: (﴿أبداً﴾) أي: ما دُمتُم أحياءً مُكلَّفينَ.

قولُه: (تَتَّعِظُوا) وفي نسخةٍ: «تَتَّعِظون»(١).

قولُه: (فِيْهِ) فيما يَأمُر... إلخ.

قولُه: (باللِّسَانِ) والظَّاهِرُ: الإطلاقُ، لكِن قيَّدَهُ لتَفسيرِ عذابِ الدُّنيا بالحَدِّ.

قولُه: (إلَيهِم) أي: الَّذينَ آمنوا، (وهُم) أي: الَّذينَ يُحبُّونَ.

وقولُه تعالى: (﴿لهم﴾) للثَّاني.

قولُه: (لِحَقِّ اللهِ) فيَرتَفِعُ بالتَّوبةِ في الدُّنيا قبلَ الحدِّ أو بعدَه.

قولُه: (عَنْهُم) عن الَّذينَ آمنوا، أو: واللهُ يعلمُ ما في الضَّمائرِ وأنتُم لا تعلمُونَ، فعوقِبوا في الدُّنيا على ما دَلَّ عليه الظَّاهِرُ، واللهُ سبحانَه وتعالى يعاقِبُ بما في القُلوبِ من حُبِّ الإشاعةِ وسائرِ السَّرائرِ.

قولُه: (أيُّهَا العُصْبَةُ) تَكريرٌ للمنَّةِ؛ للدَّلالةِ على عظيمِ الجريمةِ.

قولُه: (لَعَاجَلَكُم) إشارَةٌ إلى حَذفِ الجَوابِ، قال القاضِي: وهو مُستغنًى عنهُ بذكْرِه مَرةً(٢). وهوَ: ﴿لَمَسَّكُم﴾.

قولُه: (طُرُقَ تَزْيِيْنِهِ) ومنها: إشاعَةُ الفاحِشَةِ.

---

(١) وهكذا هي في المتن.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٢).

﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيطانِ فإنَّهُ﴾ أي: المتَّبَعَ ﴿يأمُرُ بِالفَحشاءِ﴾ أي: القبيح ﴿والمُنكَرِ﴾ شرعًا، باتباعهما، ﴿ولَولا فَضلُ اللهِ علَيكُم ورَحْمتُهُ ما زَكا مِنكُم﴾ ـ أيها العُصبةُ ـ بما قلتم من الإفك ﴿مِن أحَدٍ أبَدًا﴾ أي: ما صلَحَ وطَهُرَ من هذا الذنب بالتوبة منه، ﴿ولكِنَّ اللهَ يُزَكِّي﴾: يُطهِّرُ ﴿مَن يَشاءُ﴾ من الذنب بقَبول توبته منه، ﴿واللهُ سَمِيعٌ﴾ لِما قلتم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما قصدتم.

٢٢ ـ ﴿ولا يأتَلِ﴾: يَحلفْ ﴿أُولُو الفَضلِ﴾ أي: أصحاب الغِنى ﴿مِنكُم والسَّعةِ، أن﴾ لا ﴿يُؤتُوا أُولِي القُربَى والمَساكِينَ والمُهاجِرِينَ في سَبِيلِ اللهِ﴾ ـ نزلتْ في أبي بكر، حلفَ ألاّ يُنفقَ على مِسطح، وهو ابن خالته مِسكينٌ مُهاجر بدريّ لمّا خاض في الإفك بعد أن كان يُنفق عليه،............

قولُه: (أي: المُتَّبَعَ) بفتحِ الموحَّدةِ.

قولُه: (أي: القَبِيْحِ) أي: ما أفرطَ قُبحُه.

قولُه: (بِاتِّبَاعِهَا) الظَّاهرُ: باتِّباعِهِما[1]، أشارَ إلى مُضافٍ مُقدَّرٍ.

قولُه: (مَا صَلَحَ وطَهُرَ) الأولى الاكتِفاءُ بالأخيرِ، وهو التَّخفيفُ.

قولُه: (مِن هَذا الذَّنْبِ) أي: من دَنسِهِ وغَيرِه.

قولُه: (يُطَهِّرُ) بالتَّشديدِ.

قولُه: (بِقَبُوْلِ تَوْبَتِهِ) فالمعنى: ولولا فَضلُ اللهِ عليكُم ورَحمتُه بقَبولِ التَّوبةِ، وقدَّرَ القاضي: بتَوفيقِ التَّوبةِ المَاحيةِ للذُّنوبِ، وشَرْعِ الحُدودِ المُكفِّرةِ لها.

قالَ: ﴿يزَكِّي مَن يشاءُ﴾ بحمْلِهِ على التَّوبةِ وقَبولِها[2].

قولُه: (يَحْلِفْ) أو يُقَصِّرْ، والأولُ أظهَرُ لسَببِ النُّزُولِ[3].

قولُه: (أَصْحَابُ الغِنَى) الصَّحيحُ: أولُو الفَضْلِ في الدِّينِ، والسَّعةِ في المَالِ، وفيهِ دَليلٌ على فَضلِ أبي بَكرٍ وشَرفِه.

قولُه: (لا ﴿يُؤْتُوا﴾) أي: على أن لا يُؤتوا، أو: في أنْ يُؤتوا.

---

(١) وهكذا هي في المتن.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٢).

(٣) وهو يمين أبي بكر أن لا ينفق على مسطح كما كان ينفق عليه قبل حادثة الإفك، كما رواه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنه.

وناسٍ من الصحابة أقسموا ألاّ يتصدّقوا على من تكلّم بشيء من الإفك ـ ﴿وليَعفُوا وليَصفَحُوا﴾ عنهم في ذلك. ﴿ألا تُحِبُّونَ أن يَغفِرَ اللهُ لَكُم؟ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ للمؤمنين. قال أبو بكر: «بلَى أنا أُحبُّ أن يغفر الله لي»، ورَجَعَ إلى مِسطح ما كان يُنفقه عليه.

٢٣ ـ ٢٤ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يَرمُونَ﴾ بالزنى ﴿المُحصَناتِ﴾: العفائفَ ﴿الغافِلاتِ﴾ عن الفواحش بألاّ يقع في قلوبهن فِعلُها ﴿المُؤمِناتِ﴾ بالله ورسوله ﴿لُعِنُوا في الدُّنيا والآخِرة، ولَهُم عَذابٌ عَظِيمٌ يَومَ﴾ ـ ناصبُه الاستقرارُ الذي تعلق به «لهم» ـ ﴿تَشهَدُ﴾، بالفَوقانيّة والتحتانيّة، ﴿علَيهِم ألسِنتُهُم وأيدِيهِم وأرجُلُهُم بِما كانُوا يَعمَلُونَ﴾ من قول وفعل ـ وهو يوم القيامة ـ ٢٥ ـ ﴿يَومَئِذٍ يُوَفِّيهِمِ اللهُ دِينَهُم الحَقَّ﴾: يُجازيهم جزاءه الواجب عليهم، ﴿ويَعلَمُونَ أنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ﴾ حيثُ حقّق لهم جزاءه الذي كانوا يشكّون فيه. ومنهم عبد الله بن أُبَيّ. والمحصناتُ هنا أزواج النبيّ ﷺ، لم يُذكر في قذفهنّ توبةٌ،

قولُه: (عَلَى مَن تَكَلَّمَ) فالصِّفاتُ أُقيمَت لموصوفاتٍ مُقامَها[1]، ويكونُ أبلَغَ في تَعليلِ المَقصودِ حيثُ يَلزمُ بالطَّريقِ الأولى لموصوفٍ جامِعٍ لها.

قولُه: (للمُؤمِنِينَ) مع كَمالِ قُدرَته، فتخلَّقُوا بأخلاقِهِ.

قولُه: (قَالَ: أَبُو بَكْرٍ) قيل: بعدَما قَرأَهَا ﷺ[2].

قولُه: (وَرَجَعَ) أعادَ.

قولُه: (فِعْلُهَا) أي: الفواحِشَ، هذا بيانُ الكَمالِ الواقِعِ فيمَن نزلَ بسَببِها، وإلَّا فيَكفي الغفلَةُ ممَّا قُذفنَ به.

قولُه: (الاستِقرَارُ) أو: «اذكُر» مُقدَّراً.

قولُه: (والتَّحْتَانِيَّة) حَمزةُ والكِسائيُّ[3] للتقدُّمِ والفَصلِ.

قولُه: (الوَاجِبَ) أي: الثَّابتَ، والظَّاهرُ: جزاءَهُم المُستَحقَّ.

قولُه: (لَمْ يذكرْ) ولذا قال ابنُ عبَّاس: «لا توبَةَ له»[4]، قال القاضِي: ولو فَتَّشْتَ وعيداتِ القُرآنِ لم تَجدْ

---

(١) عبارة البيضاوي: «الموصوفات أقيمت مقامها».

(٢) روى البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) في حديث عائشة رضي الله عنه: فأنزل الله: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة...﴾ الآية، قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٤)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٦).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٣٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٣/ ١٥٣) (٢٣٤) عن ابن عباس، أنه قرأ سورة النور ففسرها، فلما أتى على هذه الآية ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ [النور: ٢٣]، قال: «هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ، ولم يجعل لمن فعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من

ومَن ذُكر في قذفهنّ أولَ السورة التوبةُ غيرُهنّ.

٢٦ ـ ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ من النساء ومن الكلمات ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الناس، ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الناس ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ ممّا ذُكر، ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾ ممّا ذُكر ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ من الناس، ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ منهم ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ ممّا ذُكر، أي: اللائقُ بالخبيث مِثلُه وبالطيّب مِثلُه. ﴿أُولَئِكَ﴾ الطيّبون والطيّبات من النساء والرجال ومنهم عائشة وصفوان ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: الخبيثون والخبيثات من الرجال والنساء فيهم، ﴿لَهُم﴾: ....

أغلظَ ممَّا نزَلَ في إفكِ عائشةَ[١].

لكِن مَزجَها الحَكيمُ الحَقيقيُّ بحيثُ تصير أرجى قصةٍ[٢]، وبَيانُه: أنّه أثبتَ الفَضلَ والرَّحمةَ مُكرراً، وذكَرَ التَّوابَ الذي معناهُ مُوافِقُ التَّوبةِ وقابِلُها، والرَّاجِعُ بالُّلطفِ والكَرمِ، ووُضِعَ المؤمنونَ موضِعَ ضَميرِ الخِطابِ، وجَعلَهُم أنفسَهُم، وقال: ﴿هم الكاذبون﴾ لا الكافرونَ أو الفاسِقونَ أو الظَّالمونَ، وأثبتَ التَّزكيةَ لهم، وعاتَبَ الصِّدِّيقَ على منعِ الإحسانِ بمن أساءَ مثلَ هذهِ الإساءةِ مع تسميتِهِ مُهاجِراً، وما ذلكَ إلَّا لكونِه تعالى أرحمَ الرَّاحمينَ، والرَّسولُ نبيُّ الرَّحمةِ، والمؤمنونَ أُمَّةٌ مَرحومَةٌ.

وقيل: هو حُكمُ كُلِّ قاذِفٍ ما لم يَتُب، وهو الظَّاهرُ ممَّا تقدَّمَ من الآياتِ، ولئلَّا يَلزمَ تَفسيقُ بعضِ الصَّحابةِ، ولعُمومِ الآياتِ والأحاديثِ الوارِدةِ في التَّوبةِ، مع أنَّ العِبرةَ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ، ولا يَلزمُ من عدمِ ذِكرِ التَّوبةِ عَدمُ قَبولِها، نعم فيه إشارَةٌ إلى التَّغليظِ والتَّهديدِ والوَعيدِ الشَّديدِ، والمفهومُ من البَغويِّ أنَّ الأكثَرينَ على هذا[٣]، واللهُ أعلمُ.

قولُه: (مِنَ النِّسَاءِ والكَلِمَاتِ) والأفعالِ والأخلاقِ والأحوالِ والأرزاقِ والأمكنَةِ.

قولُه: (مِن النَّاسِ) بَيانُ ممَّا.

قولُه: (أي: اللَّائِقُ) فيَكونُ كالدَّليلِ على قولِه: ﴿أولئك﴾ يعني: أهلَ بيتِ النَّبيِّ، أو الرَّسولَ وعائشةَ وصَفوانَ.

وقولُه: (الطَّيِّبُونَ) الظَّاهرُ: أنَّ المُشارَ إليهم خاصٌّ، وهُم الَّذين ذَكرناهُم، لا جِنسُ الطَّيبينَ والطَّيباتِ.

قولُه: (أي: الخَبِيثُونَ) المرادُ: بَعضُهم القاذِفونَ في هذهِ القَضيَّةِ[٤].

المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة».

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٣).

(٢) في الأصول: «تصدرُ في قصّة»، وما أثبته وجدته بأصل أستأنس به في ضبط المتن.

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٣/ ٣٩٦).

(٤) في (م): «القصة».

للطيّبين والطيّبات من النساء ﴿مَغفِرةٌ ورِزقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنّة. وقد افتخرت عائشة بأشياءَ، منها أنها «خُلقتْ طيّبةً، ووُعِدَتْ مغفرةً ورِزقًا كريمًا».

٢٧ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لا تَدخُلُوا بُيُوتًا غَيرَ بُيُوتِكُم، حَتَّى تَستَأنِسُوا﴾ أي: تستأذنوا ﴿وتُسَلِّمُوا علَى أهلِها﴾ فيقولَ الواحد: «السَّلامُ عليكُم. أأدخُلُ»؟ كما ورد في حديث ـ ﴿ذلِكُم خَيرٌ لَكُم﴾ من الدخول بغير استئذان، ﴿لَعَلَّكُم تَذَّكَّرُونَ﴾، بإدغام التاء الثانية في الذال: خيريّتَه فتعملون به ـ

٢٨ ـ ﴿فإن لَم تَجِدُوا فِيها أحَدًا﴾ يأذنُ لكم ﴿فلا تَدخُلُوها حَتَّى يُؤذَنَ لَكُم، وإن قِيلَ لَكُمُ﴾ بعد الاستئذان: ﴿ارجِعُوا. فارجِعُوا. هُوَ﴾..........................

قولُه: (لِلطَّيِّبِيْنَ) لا بُدَّ من التَّخصيصِ، إذ لا يَصحُّ العمومُ، ولذا كانت تفتَخرُ عائِشةُ على سائرِ النِّساءِ بالأشياءِ الآتيةِ، وظاهرُ افتِخارِها: أنَّ مُرادَها برزقٍ كريمٍ غيرَ الجنَّةِ، بل لا يصِحُّ هذا الافتِخارُ منها إلَّا على القولِ بأنَّ هذه الآيَةَ وآيَةَ ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ [٤] خاصَّةٌ بها، وإنَّما ذُكِرَ بلفظِ الجَمْعِ تعظيماً لها كما قيلَ، فتدبَّر.

قولُه: (الوَاحِدُ) إذ ما فوقَهُ يقولُ: أندخُلُ، والواو في الآيةِ لمجرَّدِ الجَمعِ، والحديثُ[1] دلَّ على أنَّ السَّلامَ مُقدَّمٌ فلا يُلتفتُ إلى قولِ من قالَ: الاستئذانُ مُقدَّمٌ، أو من قالَ: في الآيةِ تَقديمٌ وتَأخيرٌ.

قولُه: (مِنَ الدُّخُولِ) تبعَ فيه القاضِي[2]، وهو مُشعرٌ بجَوازِهِ، والحالُ أنَّهُ لا يَجوزُ، فيُحمَلُ ﴿خَير﴾ على مُجردِ الزِّيادةِ، أو يُقالُ: خَيرٌ من تحيةِ أهلِ الجاهليَّةِ بقولِهم: حُيِّيتُم صباحاً، وحُيِّيتُم مساءً، ودُخولِهم بغيرِ إذنٍ.

قولُه: (بِإدْغَامِ التَّاءِ) غيرَ حَفصٍ وحمزةَ والكِسائيِّ[3].

قولُه: (فتَعْلَمُونَ) الصَّوابُ: فتَعمَلونَ[4]، بتقديمِ الميمِ على اللَّامِ.

وقولُه: (بِهِ) أي: بما هو خَيرٌ.

قولُه: (يَأذَنُ) والظَّاهرُ: أنَّه كذلك إذا وَجدَ أحداً لم يأذَنْ بدليلِ ﴿حتَّى يُؤذَنَ لكم﴾، قال القاضي:

---

(١) روى أبو داود (٥١٧٦)، والترمذي (٢٧١٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦٧٠٢)، وأحمد في «مسنده» (١٥٤٢٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٨١) عن كلدة بن حنبل رضي الله عنه أنه قال: «أن صفوان بن أمية بعثه بلبن ولبأ وضغابيس إلى النبي ﷺ، والنبي ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت عليه ولم أسلم ولم أستأذن، فقال النبي ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل؟» وذلك بعد ما أسلم صفوان». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٣).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٢٧٩).

(٤) وهكذا جاء في المتن.

أي: الرجوع ﴿أَزْكَىٰ﴾ أي: خيرٌ ﴿لَكُمْ﴾ من القُعود على الباب، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الدخول بإذنٍ وغيرِ إذن ﴿عَلِيمٌ﴾ فيُجازيكم عليه. ٢٩ ـ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ﴾ أي: منفعة ﴿لَكُمْ﴾، باستِكنانٍ وغيره كبيوت الرُّبط والخانات المُسبَّلة. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾: تُظهِرون ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾: تُخفون في دُخول غير بُيوتكم من قصد صلاح أو غيره. وسيأتي أنه إذا دخلوا بُيوتَهم يُسلِّمون على أنفسهم.

٣٠ ـ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ عمّا لا يحِلُّ لهم نظره ـ ومِن: زائدةٌ ـ ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عمّا لا يحلّ لهم فِعلُه بها..

أي: حتَّى يأتي من يأذنُ لكم، فإنَّ المانعَ من الدُّمور[1] ليس الاطِّلاعَ على العَوراتِ فقط، بل وعلى ما يُخفيهِ النَّاسُ عادةً، مع أنَّ التَّصرفَ في مُلكِ الغَيرِ بغيرِ إذنِه محظورٌ، واستُثنِيَ ما إذا عَرَضَ فيه حَرقٌ أو غَرقٌ، أو كان فيه مُنكرٌ ـ يعني: مُتيَقَّنٌ ـ ونحوُها[2]. يعني: الرِّضا.

قولُه: (مِنَ القُعُودِ) أو: أطهَر؛ إذ لا يَخلو الإلحاحُ والوقوفُ على البابِ من الكراهَةِ وتركِ المروءَةِ، أو المعنى: أنفعُ لدينِكُم ودُنياكُم، فالزَّكاةُ من النَّماءِ.

قولُه: (أي: مَنْفَعَةٌ) وفي نُسخةٍ: «مُتعةٌ»، وهي بالضَّمِّ والكسرِ، اسمٌ للتَّمتُّعِ كالمتاعِ فهيَ الأنسبُ.

قولُه: (باسْتِكنَانٍ) الظَّاهرُ: بسُكنى، أو: بسُكونٍ، واستكنانٍ من الحرِّ والبردِ وإيواءِ الأمتعةِ والجُلوسِ للمُعاملةِ، قال القاضي: وهذا استثناءٌ من الحُكمِ السَّابقِ لشُمولِهِ البُيوتَ المسكونَةَ وغيرَها[3].

وفيه: أنَّ المرادَ بغيرِ المسكونِ هنا: التي يَسكُنها الخاصُّ[4]، بل يَسكنُها العامُّ، فهي غيرُ داخِلةٍ فيما تَقدَّم.

قولُه: (و﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ) ولامُ الأمرِ مَحذوفَةٌ.

قولُه: (بِهَا) أي: بالفُروجِ، من نحوِ الزِّنا والتَّكشُّفِ.

---

(١) في النسخ وبعض نسخ البيضاوي: «الدخول»، والمثبت من نسخ من البيضاوي، وهكذا وردت الكلمة في «الكشاف» عند تفسير هذه الآية، وهكذا نقلها عنه متابعوه. انظر: «أنوار التنزيل» (٩/ ٣٤٣) طبعة دار اللباب، و«الكشاف» وشرحها بقوله: وهُو الدُّخولُ بغَير إذْنٍ، واشتِقاقُه من الدَّمارِ وهو الهلاكُ؛ كأنَّ صَاحبَه دَامرٌ لِعظَمِ ما ارتكبَ. وانظر كذلك «تفسير الرازي» (٢٣/ ٣٥٦)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٤٩٨)، و«تفسير النيسابوري» (٥/ ١٧٦).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٤).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٤).

(٤) كذا في النسخ، ولعل الصواب: «التي لا يسكنها الخاص» ليستقيم ما بعده من الإضراب.

﴿ذلِكَ أزكَى﴾ أي: خيرٌ ﴿لَهُم. إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما يَصنَعُونَ﴾ بالأبصار والفُروج فيُجازيهم عليه.
٣١ ـ ﴿وقُلْ لِلمُؤمِناتِ، يَغضُضْنَ مِن أبصارِهِنَّ﴾ عمّا لا يحِلّ لهنّ نظره، ﴿ويَحفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عمّا لا يحِلّ لهنَّ فعله بها، ﴿ولا يُبدِينَ﴾: يُظهِرنَ ﴿زِينَتَهُنَّ إلاّ ما ظَهَرَ مِنها﴾. وهو الوجه والكفّانِ. فيجوز نظره لأجنبيّ إن لم يَخف فِتنةً في أحد وجهين، والثاني يَحرمُ لأنه مَظِنّة الفِتنة،..............

قولُه: (أي: خَيْرٌ) يُحمَلُ على مُجرَّدِ الزِّيادةِ، وكذلك عِبارةُ البَيضاويِّ: أنفَعُ لهم وأطهَرُ[1].

قولُه: (والفُرُوجِ) وغيرِهما[2].

قولُه: (نَظَرُهُ) أي: نَظرُهنَّ إليه من الرِّجالِ والنِّساءِ، وتَقديمه لأنَّ النَّظرَ بَريدُ الزِّنا، وفي الحديثِ: «النَّظرُ سَهمٌ مَسمُومٌ مِن سِهَامِ إبليسَ»[3].

قولُه تعالى: (﴿ولا يبدين زينتهن﴾) وقال صاحبُ «المَدارِك»: الزِّينةُ: ما تَزيَّنت به المَرأةُ من حُليٍّ أو كُحلٍ أو خِضابٍ، والمرادُ: مَواضعُ الزِّينةِ؛ لأنَّ إظهارَ عَينِها مُباحٌ، أو إظهارُها وهي في مَواضِعِها لإظهارِ مواضِعِها لا لإظهارِ أعيانِها، ومَواضعُها: الرَّأسُ والأُذُنُ والعُنُقُ والصَّدرُ والعَضُدانِ والذِّراعُ والسَّاقُ فهي للإكليلِ ـ يعني: التَّاجَ، أو العِصابةَ المُزيَّنةَ بالجوهرِ ـ والقُرطِ والقِلادَةِ والوِشاحِ والدُّمْلُجِ[4] والسِّوارِ والخلْخَال[5].

قولُه: (وهُوَ الوَجْهُ والكَفَّانِ) في «المَدارِك» أي: إلا ما جَرتِ العادَةُ، والجبلَّةُ على ظُهورِه، وهو الوجهُ والكَفَّانِ والقَدمانِ، ففي سترها حَرجٌ بيِّنٌ، فإنَّ المرأةَ لا تَجدُ بُدًّا من مُعالجةِ الأشياءِ بيدِها، ومِن الحاجَةِ إلى كشفِ وجهِها، خُصوصاً في الشَّهادةِ والمُحاكمةِ والنِّكاحِ، وتَضْطرُّ إلى المشيِ في الطُّرقاتِ، وظُهورِ قَدَمِها، وخاصةً الفَقيرات[6].

قوله: (يَحرُمُ) يعني: إلا لضَرورةٍ؛ كالمُعالجةِ وتحمُّلِ الشَّهادةِ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٤).

(٢) في (م): «وغيرها».

(٣) رواه الخرائطي في «اعتلال القلوب» (٢٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٧٥) وصححه، والقضاعي في «مسنده» (٢٩٢)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.
ورواه الطبراني في «الكبير» (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
وضعف الحديثين المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٣) بأن فيهما عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو واه.

(٤) سوار يُحيط بالعضد. «المعجم الوسيط» (١/ ٢٩٧).

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٠٠).

(٦) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٠٠).

ورُجّح حسمًا للباب.

﴿ولْيَضرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: يَستُرْنَ الرؤوس والأعناق والصدور بالمَقانع، ﴿ولا يُبدِينَ زِينتَهُنَّ﴾ الخفيّة ـ وهي ما عدا الوجهَ والكفّينِ ـ ﴿إلاّ لِبُعُولتِهِنَّ﴾: جمع بعل أي: زوج، ﴿أو آبائهِنَّ أو آباءِ بُعُولتِهِنَّ، أو أبنائهِنَّ أو أبناءِ بُعُولتِهِنَّ، أو إخوانِهِنَّ أو بَنِي إخوانِهِنَّ أو بَنِي أَخَواتِهِنَّ، أو نِسائهِنَّ أو ما مَلَكَتْ أيمانُهُنَّ﴾، ....

قولُه: (وَرُجِّحَ) أي: الثَّاني، ولذا قال القاضِي: والأظهَرُ: أنَّ هذا في الصَّلاةِ لا في النَّظرِ[1].

وقَولُهُ: (حَسْماً) أي: قَطعاً لفَتحِ بابِ التُّهمةِ والفَسادِ والرِّيبةِ والشُّبهةِ.

قولُه تعالى: (﴿وليضربن﴾) أي: ليَضَعْنَ، من ضَربَ اليدَ على الحائطِ إذا وضعَها، وقيل: ضمِّنَ معنى الوَضعِ.

قولُه: (يَسْتُرْنَ) حاصِلُ مَعنى الضَّرب.

قولُه: (الرُّؤُوسَ) المفهومُ من الخمُرِ، فلو قال: يسدلْنَ، أو: يُرسِلنَ، مَوضِعَ (يَستُرْنَ) لاستغنى عن ذِكرِ الرُّؤوسِ، وقال القاضِي: ستراً لأعناقِهِنَّ[2].

وفي «المَدارِك»[3]: كانت جُيوبُهنَّ واسعةً تَبدو منها صُدورهُنَّ ومَا حَولها، وكُنَّ يُسدِلنَ الخُمُرَ من وَرائهِنَّ فتبقى مَكشُوفةً، فأُمِرنَ بأن يُسدِلنَها من قُدَّامِهِنَّ حتى يُغطِّينَها.

قولُه: (الخَفِيَّة) فعَلى هذا لا تَكرارَ، وقالَ القاضِي: كرَّرهُ لبيانِ من يَحِلُّ له الإبداءُ، ومن لا يحِلُّ له[4].

قولُه: (وهِيَ مَا عَدَا الوَجْهَ) أي: ما عدا زينتَه، والأظهرُ: أنَّ المضافَ مُقدَّرٌ؛ أي: مَواضِعَ زينَتِهِنَّ.

قولُه: (جَمْعُ: بَعْلٍ) أي: لا لأحَدٍ.

وقولُه تعالى: (﴿أو آبائهن﴾) يدخلُ الأجدادُ ﴿أو أبنائهن﴾ يَدخلُ النَّوافلُ.

قولُه: (﴿أو بَني أخواتِهن﴾) يدخُلُ فيهم النَّوافلُ، وسائرُ المحارمِ كالأعمامِ والأخوالِ دِلالةً.

قولُه: (﴿نسائهنَّ﴾) أي: نِساءِ المؤمناتِ، والإضافَةُ لأدنى مُلابَسةٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٤).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٥).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٠٠).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٥).

فيجوز لهم نظره إلاّ ما بين السُّرّة والرُّكبة فيحرم نظره لغير الأزواج ـ وخرج بـ «نِسائهِنّ» الكافراتُ فلا يجوز للمسلمات التكشّف لهنَّ، وشمَل «ما مَلَكَتْ أيمانُهُنَّ» العبيدَ ـ ﴿أوِ التّابِعِينَ﴾ في فُضول الطعام ﴿غَيرِ﴾، بالجرّ: صفةٌ، والنصبِ: استثناءٌ، ﴿أُولِي الإرْبَةِ﴾: أصحابِ الحاجة إلى النساء ﴿مِنَ الرِّجالِ﴾ بأن لم ينتشر ذَكرُ كُلٍّ، ﴿أوِ الطِّفلِ﴾ بمعنى: الأطفال ﴿الَّذِينَ لَم يَظهَرُوا﴾: يطّلعوا ﴿عَلَى عَوْراتِ النِّساءِ﴾ للجِماع، فيجوز أن يُبدِينَ لهم ما عدا ما بين السرّة والركبة، ﴿ولا يَضرِبْنَ بِأرجُلِهِنَّ لِيُعلَمَ ما يُخفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ من خَلخال يَتَقعقعُ.........

قولُه: (الكَافِرَاتُ) قَالَ القاضِي: لأنَّهُنَّ لا يتحرَّجْنَ عن وَصفِهنَّ للرِّجالِ، أو المرادُ: النِّساءُ كُلُّهنَّ، وللعُلماءِ في ذلك خِلافٌ[١].

وفي «المَدارِكِ» أي: الحرائرُ؛ لأنَّ مُطلقَ هذا اللفظِ يَتناولُ الحرائرَ[٢].

قلت: ولمُقابلةِ ما بَعدَهُ.

قولُه: (العَبِيْدَ) وعِندنا: لا يحِلُّ لعبدِها أن يَنظرَ إلى هذه المَواضِعِ منها، خَصيًّا كان أو فَحْلاً[٣].

قولُه: (والنَّصْبَ) شَاميٌّ وشُعبةُ[٤].

قولُه: (استِثْنَاءٌ) أو حالٌ، أو ﴿مِن الرِّجالِ﴾ حال.

قولُه: (بأَنْ لم يَنتَشِرْ) في «المَدارِكِ» قيل: هُم الَّذين يتبعونكُم ليُصيبُوا من فَضلِ طعامِكُم، ولا حاجَةَ لهم إلى النِّساءِ[٥]. وهو الوَجْه.

قولُه: (بِمَعنَى: الأَطْفَالِ) يعني: ﴿الطِّفلِ﴾ جنسٌ وُضِعَ مَوضِعَ الجَمعِ اكتفاءً بدَلالةِ الوَّصفِ.

قوله: (يَتقَعْقَعُ) يَتصَوَّتُ، فيُعلمَ أنَّها ذاتُ خَلخالٍ، فإنَّ ذلك يورِثُ مَيلاً في الرِّجالِ، وهو أبلغُ مِن النَّهي عن إظهارِ الزِّينةِ، وأدلُّ على المنعِ من رَفعِ الصَّوتِ، كذا قالَه القَاضي[٦]، وفي «المَدارِكِ»: إذ[٧] سماعُ صَوتِ الزِّينةِ كإظهارِها[٨].

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٥).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٠١).

(٣) انظر: «الهداية» (٤/ ٣٧٢).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٦).

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٠١).

(٦) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٥).

(٧) في (م): «أن».

(٨) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٠١).

﴿وتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا ـ أَيُّها المُؤمِنُونَ﴾ ممّا وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره ـ ﴿لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ﴾: تنجُون من ذلك بقَبول التوبة منه. وفي الآية تغليب الذكور على الإناث.

٣٢ ـ ﴿وأنكِحُوا الأيامَى مِنكُم﴾: جمع أَيِّم ـ وهي مَن ليس لها زوج بكرًا كانت أو ثيّبًا، ومَن ليس له زوج. وهذا في الأحرار والحرائر ـ ﴿والصَّالِحِينَ﴾ أي: المؤمنين ﴿مِن عِبادِكُم وإمائكُم﴾ ـ وعِباد من جُموع عبْد. ﴿إن يَكُونُوا﴾ أي: الأحرارُ ﴿فُقَراءَ يُغنِهِم اللهُ﴾ بالتزوّج ﴿مِن فَضلِهِ. واللهُ واسِعٌ﴾ لخلقه ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم ـ ٣٣ ـ ﴿ولْيَستَعفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحًا﴾ أي: ما يَنكحون به من مَهر ونفقة عن الزنى ﴿حَتَّى يُغنِيَهُمُ اللهُ﴾: يُوسِعَ عليهم ﴿مِن فَضلِهِ﴾، فيَنكِحون.

﴿والَّذِينَ يَبتَغُونَ الكِتابَ﴾ بمعنى: المُكاتبة ﴿مِمّا مَلَكَتْ أيمانُكُم﴾..............

قولُه: (ومِنْ غَيرِهِ) أي: من غَيرِ النَّظرِ، إذ لا يَكادُ يَخلو أحدٌ منكم مِن تَفريطٍ، سيَّما في الكَفِّ عن الشَّهواتِ.

قولُه: (مِن ذَلِكَ) أي: ممَّا وَقعَ.

قولُه: (لِقَبُولِ التَّوبَةِ) فيه: أنَّ التَّوبةَ إذا تَحقَّقت لا يُشَكُّ في قَبولِها؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ [الشورى: ٢٥]، فلا يكونُ تحتَ الرَّجاءِ، وقد تقدَّمَ هذا المَبحثُ[١]، فالأَولى أن يُقالَ: لعلَّكم تفوزونَ بسعادَةِ الدَّارينِ، اللَّهمَ إلَّا أن يُقالَ: (لعلَّ) بمعنى: لكي، أو الرَّجاءُ بقَبولِ التَّوبةِ هو الرَّجاءُ بتحقُّقِها، فالشَّكُّ في ثُبوتِها لا في قبولِها، وظاهرُ الآيةِ يَدلُّ على أنَّ العِصيانَ لا ينافي الإيمانَ.

قولُه: (جَمْعُ: أَيِّم) فيعِلٍ، والأيامى مَقلوبُ: أيايِمَ[٢].

قولُه: (وهَذَا) أي: الحُكْمُ؛ بقَرينَةِ ما بَعدَه.

قولُه: (أي: المُؤمِنِينَ) أو الخَيِّرينَ؛ لأنَّ إحصانَ دينِهِم أهمُّ، والأمرُ للنَّدبِ.

قولُه: (بالتَّزَوُّجِ) كما يُفْقِرُ بالزِّنا.

قولُه: (لخَلْقِهِ) بالعَطاءِ، لا تَنفَدُ نعمتُهُ، إذ لا تَنتَهي قُدرَتُه.

قولُه: (بِهِم) يبسُطُ الرِّزقَ ويَقدِرُ على ما تَقتضيهِ حِكمتُهُ.

قولُه: (مَا يَنْكِحُونَ) أو: أسبابَ النِّكاحِ.

قولُه: (عَنِ الزِّنَا) مُتعلِّقٌ بـ﴿يستعْفِف﴾؛ أي: ليَجتهِد في العِفَّةِ وقَمعِ الشَّهوةِ.

قولُه: (بِمَعْنَى المُكَاتَبَةِ) كالعِتابِ بمعنى المُعاتَبةِ.

---

(١) في (م): «البحث».

(٢) انظر: «تاج العروس» (٣١/ ٢٥٥).

من العبيد والإماء ﴿فكاتِبُوهُم، إن عَلِمتُم فِيهِم خَيرًا﴾ أي: أمانة وقُدرة على الكسب لأداء مال الكِتابة ـ وصيغتُها مثلاً: كاتبتُك على ألفينِ في شهرين، كُلَّ شهر ألف. فإذا أدَّيتَها فأنت حُرّ. فيقول: قبلتُ ذلك ـ ﴿وآتُوهُم﴾ أمرٌ للسادة ﴿مِن مالِ اللهِ الَّذِي آتاكُم﴾ ما يستعينون به في أداء ما التزموه لكم. وفي معنى الإيتاء حطُّ شيء ممّا التزموه.

﴿ولا تُكرِهُوا فَتَياتِكُم﴾ أي: إماءكم ﴿عَلَى البِغاءِ﴾ أي: الزنى، ﴿إن أرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾: تعففًا عنه ـ وهذه الإرادة محلّ الإكراه فلا مفهوم للشرط ـ ....

قولُه: (أي: أَمَانَةً) والأمرُ فيه للنَّدبِ عندَ أكثرِ العُلماءِ.

قولُه: (فِي شَهْرَينِ) إشارةٌ إلى أقلِّ النُّجومِ في مذهَبِ الشَّافِعيِّ[١]، وجازَ عندَنا ولو حالاً؛ للإطلاقِ[٢].

قولُه: (أَمرٌ للسَّادَةِ) قال القَاضِي: وهو للوجوبِ عندَ الأكثَرِ، ويَكفي أقلُّ ما يُتمَوَّل ـ يعني: ما يُسمَّى مالاً بأن يَكونَ عِوضاً أو ثَمناً ـ وعن عَليٍّ: «يَحُطُّ الرُّبعَ»[٣]، وعن ابنِ عبَّاسٍ: «الثُّلُثَ»[٤].

وفي «المَدارِكِ»: أَمرٌ لعامَّةِ المسلمينَ على وجهِ الوجوبِ بإعانَةِ المكاتَبينَ، وإعطاءِ سَهْمِهِم من الزَّكاةِ، وما وردَ مِن الحَطِّ فمَحمولٌ على النَّدبِ[٥].

قولُه: (أي: إِمَاءَكُم) تكتبُ بلا مركَزٍ.

قولُه: (مَحَلُّ الإِكْرَاهِ) يعني: أنَّه شَرطٌ للإكراهِ، فإنَّه لا يُوجَدُ دُونَه، فيكونُ تَقريراً.

قولُه: (فلا مَفهُومَ) بل تَعريضٌ وتَشنيعٌ لمَواليهِنَّ؛ أي: إذا رَغِبنَ بالتَّحصُّنِ فأنتُم أحقُّ بذلك، أو لأنَّها نَزلَت على سَببٍ[٦]، فوقَعَ النَّهيُ على تلكَ الصِّفةِ، وهذا هو المُلائِمُ لما بَعده.

---

(١) انظر: «الحاوي الكبير» (١٨/ ١٤٩).

(٢) انظر: «الهداية» (٣/ ٢٥٠).

(٣) رواه عبد الرزاق في «التفسير» (٢٠٣٨)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٥٠٩) عن علي موقوفاً.
ورواه النسائي في «السنن الكبرى» (٥٠١٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٥٠٨)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٠٠١)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٠١) وصححه، من حديث علي رضي الله عنه مرفوعاً.
ورفعه منكر كما ذكر ابن كثير عند هذه الآية، قال: والأشبه أنه موقوف على علي.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٦). وذكر التحديد بالثلث أيضاً عن ابن عباس: السمعاني في «تفسيره» (٣/ ٥٢٨)، والبغوي في «تفسيره» (٣/ ٤١٣)، ولم أجده مسندا، لكن روى الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٢٨٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٨٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢١٦٧٥) عنه قوله: «ضعوا عنهم من مكاتبتهم»، دون تحديد.

(٥) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٠٣).

(٦) رواه مسلم (٣٠٢٩) عن جابر رضي الله عنه: أن جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها: مسيكة، وأخرى يقال لها: أميمة، =

﴿لِتبتَغُوا﴾ بالإكراه ﴿عَرَضَ الحَياةِ الدُّنيا﴾. نزلتْ في عبدالله بن أُبيٍّ، كان يُكرِهُ جواريَ له على الكسب بالزنى. ﴿ومَن يُكرِههُنَّ فإنَّ اللهَ مِن بَعدِ إكراهِهِنَّ غفُورٌ﴾ لهنّ ﴿رَحِيمٌ﴾ بهنّ.

٣٤ ـ ﴿ولَقَد أنزَلْنا إلَيكُم آياتٍ مُبيِّناتٍ﴾ ـ بفتح الياء وكسرها ـ في هذه السورة بُيِّن فيها ما ذُكر أو بيَّنته، ﴿ومَثَلاً﴾: خبرًا عجيبًا وهو خبر عائشة ﴿مِنَ الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبلِكُم﴾ أي: من جِنس أمثالهم أي: أخبارهم العجيبة كخبر يُوسفَ ومريمَ ﴿ومَوعِظةً لِلمُتَّقِينَ﴾، في قوله تعالى «ولا تأخُذكُم بِهِما رأفةٌ في دِينِ اللهِ»، «لَولا إذْ سَمِعتُمُوهُ ظَنَّ المُؤمِنُونَ» إلى آخره، «ولَولا إذْ سَمِعتُمُوهُ قُلتُم» إلى آخره، «يَعِظُكُمُ اللهُ أن تَعُودُوا» إلى آخره. وتخصيصها بالمتّقين لأنهم المنتفعون بها.

٣٥ ـ ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ والأرضِ﴾ أي: مُنوِّرُهما بالشمس والقمر. ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: صِفتُهُ في قلب المؤمن ﴿كَمِشكاةٍ فِيها مِصباحٌ، المِصباحُ في زُجاجةٍ﴾........................

قولُه: (لَهُنَّ) وقُرِئَ به[(١)]، ولعلَّ الإكراهَ كانَ دُونَ ما اعتبرَتْهُ الشَّريعةُ ـ وهو الَّذي يُخافُ منه التَّلفُ ـ فكانَت آثِمةً، أو: لهمْ إذا تابوا، أو: إن شاءَ.

قولُه: (وكَسْرِهَا) شاميٌّ وحَفصٌ وحَمزةُ والكِسائيُّ[(٢)].

قولُه: (مَا ذُكِرَ) من الأحكامِ والحُدودِ.

قولُه: (أي: مُنَوِّرُهُمَا) وقُرِئَ به[(٣)].

قولُه: (بالشَّمْسِ والقَمَرِ) أو بالملائكةِ والأنبياءِ، وقيلَ: هادي مَن فيهما فهُم بنورِه يهتَدونَ، أو مُدبِّرُهُما أو موجدُهُما، وقال الجُنَيدُ: مُنوِّرُ قُلوبِ من فيهما من الملائكةِ والأنبياءِ والمؤمنينَ[(٤)].

قولُه: (أي: صِفَتُه) العَجيبَةُ الشَّأنِ، وقالَ سُفيانُ: مَثَلُ نورِ القُرآنِ، وقالَ سَهلٌ: مَثَلُ نورِ مُحمَّدٍ ﷺ[(٥)].

قولُه: (فِي قَلْبِ المُؤمِنِ) وقُرِئَ به[(٦)]،........................

= فكان يكرههما على الزنا، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾.

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «المحتسب» (٢/ ١٠٨) ونسبت لابن عباس وسعيد بن جبير.

(٢) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٤٩٨).

(٣) جاء في قراءة شاذة: (الله نوَّرَ) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٤٢) ونسبت لزيد بن علي.

(٤) وانظر: «حقائق التفسير» (٢/ ٤٦).

(٥) انظر: «حقائق التأويل» للسلمي (٢/ ٤٥).

(٦) أي: (مثل نوره في قلب المؤمن) وهي قراءة شاذة، انظر: «تفسير السمعاني» (٣/ ٥٢٩)، و«معالم التنزيل» (٣/ ٤١٥) ونسبت لابن مسعود رضي الله عنه.

هي القِنديل - والمِصباح: السِّراج أي: الفتيلةُ الموقودة، والمِشكاة: الطاقة غير النافذة أي: الأُنبوبة في القِنديل - ﴿الزُّجاجةُ كأنَّها﴾ والنورُ فيها ﴿كوكبٌ دِرِّيءٌ﴾ أي: مُضِيءٌ - بكسرِ الدال وضمِّها: من الدَّرْء بمعنى الدّفع لدفعه الظلامَ، وبضمّها وتشديد الياء: منسوب إلى الدُّرّ: اللؤلؤ - ﴿تَوَقَّدَ﴾ المِصباحُ بالماضي، وفي قراءة بمضارع «أوقَدَ» مبنيًّا للمفعول بالتحتانيّة، وفي أُخرى بالفوقانيّة، أي: الزجاجةُ، ﴿مِن﴾...

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: مَثلُ نورِ اللهِ الَّذي هَدى به المُؤمِنَ[١].

قولُه: (هِيَ القِنْدِيلُ) من الزُّجاجِ.

قولُه: (السِّرَاجُ) الضَّخمُ الثَّاقِبُ، وقيلَ: الفَتيلةُ المُشتَعِلةُ.

قولُه: (أي: الأُنبُوبَةُ) الظَّاهرُ: أو؛ لأنَّه قيلَ[٢].

قولُه: (فِي القِنْدِيلِ) أي: وَسطَه.

قولُه: (بكَسْرِ الدَّالِ) بَصريٌّ وكِسائيٌّ[٣].

قولُه: (وضَمِّهَا) شُعبةُ وحمزةُ[٤].

قولُه: (مِنَ الدَّرْءِ) مُتعلِّقٌ بالقِراءَتَينِ فيهِما بالهَمزِ.

قولُه: (لدَفْعِهِ) كأنَّه يَدفعُ الظَّلامَ بضَوئِهِ.

قولُه: (الدُّرِّ) لفَرطِ ضيائِهِ وصَفائِهِ، شَبَّهُ في زُهرَتِه بأحدِ الكَواكِبِ الدَّرارِي كالمُشتَري والزُّهرةِ.

قولُه: (بالمَاضِي) مَكِّيٌّ وبَصريٌّ[٥].

قولُه: (بالتَّحْتَانِيَّةِ) نافعٌ وشاميٌّ وحَفصٌ[٦].

قولُه: (أي: الزُّجَاجَةُ) أي: مِصباحُها.

---

(١) لم أقف عليه هكذا، وروى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٧٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٥٩٤) (١٤٥٥٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٣٦) عنه أنه قال: مثل هداه في قلب المؤمن..

(٢) أي: قيل: المشكاةُ: الأنبوبةُ في وسطِ القِنديلِ، والمصباحُ: الفَتِيلَةُ المُشتَعِلَةُ. انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٧).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٤٩٩).

(٤) انظر المصدرين السابقين.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٠).

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٠).

زيتِ ﴿شَجَرةٍ مُبارَكةٍ زَيتُونةٍ، لا شَرقِيّةٍ ولا غَربِيّةٍ﴾ بل بينَهما، فلا يتمكّن منها حرّ ولا برد مُضِرَّين، ﴿يَكادُ زَيتُها يُضِيءُ، ولَو لَم تَمسَسْهُ نارٌ﴾ لِصَفائه. ﴿نُورٌ﴾ به ﴿عَلَى نُورٍ﴾ بالنار، ونورُ الله أي: هُداه للمؤمن نُورٌ على نُور الإيمان،......................

قولُه: (زَيْت) أي: ابتِداءُ ثُقوبِ المصباحِ من زَيتِ شَجرةِ الزَّيتونِ المُتكاثِرِ نَفعُه، أو لأنَّها تنبُتُ في الأرضِ المباركةِ، وقيل: باركَ فيها سَبعونَ نَبيًّا، منهم: إبراهيمُ، وفي الحديثِ: «كُلُوا الزَّيتَ وادَّهِنُوا به، فإنَّهُ مِن شَجَرةٍ مُباركةٍ»[1] بأن رُوِّيت فَتيلتُهُ بزَيتِها.

قولُه: (مُضِرَّانِ) يعني: لا في مَضحًى تُشرقُ الشَّمسُ عليها دائماً فتُحرِقُها، أو في مَقناةٍ تَغيبُ عنها دائماً فتَترُكَها نِيئًا.

قوله: (بالنَّارِ) أي: نورٌ مُتضَاعِفٌ، فإنَّ نورَ المِصباحِ زادَ في إنارَتِه صَفاءُ الزَّيتِ، وزهرَةُ القِنديلِ، وضَبطُ المِشكاةِ لأشِعَّتِه.

قولُه: (أي: هُدَاهُ) الَّذي دلَّت عليه الآياتُ المُبيِّناتُ، أو: ما نوَّرَ اللهُ به قَلبَ المؤمنِ من المعارفِ والعُلومِ.

قولُه: (للمُؤمِنِ) وقُرِئَ: (مَثَلُ نُورِ الْمُؤمنِ)[2]، وفيه احتِمالانِ: كما في حَديثِ: «المؤمِنُ مِرآةُ المؤمِنِ»[3].

(١) رواه الترمذي (١٨٥٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦٦٦٩)، وأحمد في «مسنده» (١٦٠٥٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٠٤) وصححه، من حديث أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. قلت: فيه عطاء الشامي ذكر الحافظ ابن حجر في «التهذيب» عن البخاري عن سفيان: أنه لم يُقم حديثه. وقال ابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٠٠٤): عطاء الشامي ليس بمعروف.

وللحديث شاهد أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٥٦٨)، ومن طريقه الترمذي عقب الحديث (١٨٥١) عن معمر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن النبي ﷺ، مرسلاً. قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث عبد الرزاق عن معمر، وكان عبد الرزاق يضطرب في رواية هذا الحديث، فربما ذكر فيه عن عمر، عن النبي ﷺ، وربما رواه على الشك، فقال: أحسبه عن عمر، عن النبي ﷺ، وربما قال: عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن النبي ﷺ، مرسلاً.

وقد صوب ابن معين أنه معضل، فقال في «تاريخه» (٥٩٥) برواية الدوري: حدث معمر عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به»، ثم قال: ليس هو بشيء، إنما هو عن زيد مرسلاً، يعني بالمرسلِ المنقطعَ، ويُراد به في هذه الرواية الإعضال.

وشاهد آخر لا يفرح به رواه ابن ماجه (٣٣٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي إسناده عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبُري. قال عنه الحافظ ابن حجر في «التقريب»: متروك.

(٢) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٣٤٢) ونسبت لأبي رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو داود (٤٩١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٩)، والطبراني في «مكارم الأخلاق» (٩٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٦٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال ابن حجر في «بلوغ المرام» (١٥٣٥): رواه أبو داود بإسناد حسن.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ أي: دِينِ الإسلام ﴿مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ﴾: يُبيِّنُ ﴿اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ تقريبًا لأفهامهم ليعتبروا فيؤمنوا. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، منه ضربُ الأمثال.

٣٦ ـ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾: مُتعلّق بـ «يُسبّحُ» الآتي، ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾: تُعظَّم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بتوحيده، ﴿يُسَبِّحُ﴾ ـ بفتحِ المُوحَّدة وكسرِها ـ أي: يُصلِّي ﴿لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ﴾: مصدرٌ بمعنى: الغُدُوات أي: البُكَر ﴿وَالْآصَالِ﴾: العشايا من بعد الزوال ٣٧ ـ ﴿رِجَالٌ﴾: فاعلُ «يسبِّح» بكسر الباء، وعلى فتحها نائبُ الفاعل «له» ورجالٌ: فاعلُ فعلٍ مُقدّر جوابِ سؤال مُقدّر، كأنه قيل: مَن يُسبِّحُه؟ ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ﴾ أي: شِراء ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾.........................

قولُه: (أي: دِيْنِ الإِسلامِ) أو: لهذا النُّورِ الثَّاقِبِ.

قولُه: (﴿مَن يَشَاءُ﴾) فإنَّ الأسبابَ دُونَ مَشيئَتِه لاغيةٌ، إذ بها تَمامُها.

قولُه: (تَقرِيْباً) وإِدْناءً للمَعقولِ من المحسوسِ تَوضيحاً وبَياناً.

قولُه: (بِـ﴿يُسَبِّحُ﴾ الآتِي) يعني: لا المقدَّرِ، وفيها تكريرٌ مُؤكِّد، والمرادُ بها: المساجِدُ؛ لأنَّ الصِّفةَ تُلائمُها.

قولُه: (تُعَظَّمَ) أو: تُبنى، وقيل: تُرفَعُ فيها الحوائجُ إلى الله تعالى.

قولُه: (بتَوحِيدِهِ) بل عامٌّ فيما يتضمَّنُ ذِكرُه مَعنى المذاكَرةِ في أفعالِهِ والمباحثَةِ في أحكامِهِ.

قولُه: (بفَتحِ المُوَحَّدَةِ) شاميٌّ وشُعبةُ[1].

قولُه: (أي: يُصَلِّي) أو: يُنَزِّه.

قولُه: (بمَعنَى الغَدَوَاتِ) ولذلك حَسُنَ اقتِرانُهُ بالآصالِ، وهو جَمعُ أصيلٍ، أو وُحِّدَ لأنَّ صلاتَهُ واحِدةٌ وهي الفجرُ، والآصالُ صلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ والعِشاءَين.

قولُه: (لَهُ) أو: فيها، أو: بالغُدوِّ.

قولُه: (مُقَدَّرٍ) هو: «يسَبِّحُ» بالكسرِ يدلُّ عليه ﴿يُسَبَّحُ﴾ بالفتح[2].

قولُه: (أي: شِرَاءٌ) إطلاقاً لاسمِ الجِنْسِ على النَّوعِ، أو: ﴿تجارَةٌ﴾ في السَّفرِ ﴿ولا بَيْعٌ﴾ في الحَضَرِ.

وقولُهُ تعالى: (﴿عن ذكر الله﴾) أي: باللِّسانِ والقَلبِ، والمعنى: لا تجارةَ لهم حتى تُلهيهم؛ كأولياءِ العُزلَةِ، أو يبيعونَ ويَشتَرونَ ويَذكرونَ اللهَ مع ذلك؛ كأولياءِ العِشْرةِ، قال قُطبُ العارِفينَ خَواجَة بهاءُ الدِّينِ

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠١).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: (يسبَّح) بفتح الباء. «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٦).

ـ حذفُ هاء «إقامة» تخفيفٌ ـ ﴿وإيتاءِ الزَّكاةِ، يَخافُونَ يَومًا تَتَقَلَّبُ﴾: تضطرب ﴿فِيهِ القُلُوبُ والأبصارُ﴾ من الخوف ـ القلوبُ بين النجاة والهلاك، والأبصارُ بين ناحيتَي اليمين والشِّمال ـ وهو يوم القيامة، ٣٨ ـ ﴿لِيَجزِيَهُمُ اللهُ أحسَنَ ما عَمِلُوا﴾ أي: ثوابَه ـ وأحسنُ بمعنى: حَسَن ـ ﴿ويَزِيدَهُم مِن فَضلِهِ. واللهُ يَرزُقُ مَن يَشاءُ بِغَيرِ حِسابٍ﴾. يقال: فُلان يُنفق بغير حساب، أي: يُوسع كأنه لا يَحسُب ما يُنفقه.

٣٩ ـ ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا أعمالُهُم كَسَرابٍ بِقِيعةٍ﴾: جمع قاع أي: في فلاة ـ وهو شُعاع يُرى فيها نصفَ النهار في شِدّة الحرّ، يُشبِهُ الماء الجاري ـ ﴿يَحسِبُهُ﴾: يظنّه ﴿الظَّمآنُ﴾ أي: العطشان ﴿ماءً ـ حَتَّى إذا جاءَهُ لَم يَجِدْهُ شَيئًا﴾ ممّا حسِبه، كذلك الكافر يحسب أنّ عمله كصدقة ينفعه. حتّى إذا مات وقدِم على ربّه لم يجد عمله، أي: لم ينفعه، ﴿ووَجَدَ اللهَ عِندَهُ﴾ أي: عِند عمله،...................

رئيسُ النَّقشبَنديينَ: رأيتُ أيَّامَ حَجِّي غَريبَين: أحدُهُما شابٌّ باعَ واشتَرى في سوقِ مِنى أُلوفًا، وما غَفَلَ عن اللهِ ساعةً، والثَّاني: شيخٌ كبيرٌ مُتشَبِّثٌ بالملتَزمِ غافِلٌ عن المولى يَطلبُ الدُّنيا.

قولُه: (تَضطَرِبُ) وتتغيَّر.

قولُه: (مِنَ الخَوفِ) والهَولِ.

قولُه: (والشِّمَالِ) على هيئةِ الخائِفِ، أو: من أيِّ ناحيةٍ يُؤتى كتابُهُم، ويؤخَذُ بهم.

قولُه: (بمَعْنَى حُسْنَ) أو: أحسنَ جزاءِ ما عَمِلوا الموعودِ لهم مِن الجنَّةِ، واللَّامُ مُتعلِّقٌ بـ﴿يُسَبِّحُ﴾ أو ﴿يَخافُونَ﴾، وهوَ الأقرَبُ، أو لامُ العاقِبَة.

قولُه: (لا يَحْسُبُ) بضمِّ السينِ، مضارِعُ حَسَبَ بالفتحِ بمعنى: عَدَّ.

قولُه: (وهُوَ) أي: السَّرابُ.

قولُه: (فِيهَا) أي: الفَلاةُ، وهي الصَّحراءُ.

قولُه: (يَظنُّهُ) بفتحِ السِّينِ شاميٌّ وعاصمٌ وحمزَةُ، والباقونَ بالكَسرِ[1].

قولُه: (أي: العَطْشَانُ) وتخصيصُهُ لتَشبيهِ الكافرِ به في شدَّةِ الخَيبةِ عندَ مَسيسِ الحاجَةِ.

وقولهُ تعالى: (﴿حتَّى إذا جاءه﴾) أي: ما توهَّمهُ ماءً، أو: مَوضِعَه.

قولُه: (يَنْفَعُهُ) بالتَّذكيرِ، خَبرُ (أنَّ)، و(كصِدْقةٍ) مُعترِضَة.

قولُه: (أي: عِنْدَ عَمَلِهِ) أو: وجَدَ عِقابَهُ، أو زَبانيَتَهُ، أو: وجدَهُ مُحاسِباً إيَّاه، أو: وجدَ جَزاءَ اللهِ عندَهُ؛ أي: عِندَ الكافرِ، وحَّدَ بعدَ تقدُّمِ الجمعِ حَملاً على كُلِّ واحدٍ من الكُفَّارِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٩١).

﴿فوَفَّاهُ حِسابَهُ﴾ أي: جازاه عليه في الدنيا. ﴿واللهُ سَرِيعُ الحِسابِ﴾ أي: المُجازاة ـ ٤٠ ـ ﴿أو﴾ الذين كفروا أعمالهم السيِّئة ﴿كَظُلُماتٍ في بَحرٍ لُجِّيٍّ﴾: عميق، ﴿يَغشاهُ مَوجٌ مِن فَوقِهِ﴾ أي: الموجِ ﴿مَوجٌ، مِن فَوقِهِ﴾ أي: الموجِ الثاني ﴿سَحابٌ﴾ أي: غيم. هذه ﴿ظُلُماتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ﴾: ظُلمةُ البحر، وظُلمةُ الموجِ الأوّل، وظُلمةُ الثاني، وظُلمةُ السحاب، ﴿إذا أخرَجَ﴾ الناظر ﴿يَدَهُ﴾ في هذه الظلمات ﴿لَم يَكَدْ يَراها﴾ أي: لم يقرُب من رؤيتها. ﴿ومَن لَم يَجعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فما لَهُ مِن نُورٍ﴾ أي: مَن لم يَهدِه اللهُ لم يَهتدِ.

٤١ ـ ﴿أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن في السَّماواتِ والأرضِ﴾، ومن التسبيح صلاةٌ، ﴿والطَّيرُ﴾:....

قولُه: (فِي الدُّنْيَا) أو في العُقبى، وهو الظَّاهرُ.

قولُه: (الَّذِينَ كَفَرُوا) عَطفٌ على: ﴿كَسَرابٍ﴾، و﴿أو﴾ للتَّخييرِ، أو للتَّنويعِ، أو للتَّقسيمِ باعتبارِ وَقتَي الدُّنيا والآخِرةِ.

قولُه: (هذِهِ) يَعني: ﴿ظُلُماتٌ﴾ مرفوعٌ بالخبرِّيةِ لمبتَدأٍ مُقدَّرٍ هو هي، وقرأ ابنُ كثيرٍ: (ظُلُماتٍ) بالجرِّ مُنوَّنةً بروايَةِ قُنْبُلٍ على إبدالِها من الأولى، وبإضافةِ السَّحابِ إليها في روايةِ البَزِّي[1].

قولُه: (النَّاظِرُ) قالَ القاضي: الضَّمائرُ للواقِعِ في البَحرِ وإن لم يجرِ ذِكرُه؛ لدلالَةِ المعنى عليه[2].

قولُه: (لَم يَقرُبْ) فَضلاً أن يَراها وهي أقرَبُ ما يُرى إليه.

قولُه: (لَمْ يَهتَدِ) والأظهَرُ: مَن لم يُقدِّرْ له الهدايَةَ، ولم يُوفِّقهُ لأسبابِها، فما له من نورٍ، خلافَ الموفَّقِ الَّذي له نورٌ على نورٍ، وفي الحديثِ: «إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ في ظُلْمَةٍ ثُمَّ رَشَّ عَلَيهِم مِن نُورِه، فمَنْ أصابَهُ مِن ذلكَ النُّورِ اهتدَى، ومَن أَخطَأَهُ فَقد ضَلَّ»[3].

قولُه تعالى: (﴿ألم تر﴾) أي: ألم تَعلمْ عِلماً يقومُ مَقامَ العيانِ في الإتيانِ.

قولُه: (ومِنَ التَّسبِيْحِ صَلاةٌ) أي: بعضُ التَّسبيحِ ـ وهو تسبيحُ البَعضِ، كبَعْضِ الملائكَةِ والمؤمنينَ ـ صَلاةٌ، والباقي من التَّسبيحِ من باقي المسبِّحينَ تنزيهٌ أو انقيادٌ، وهو جمعٌ بين الحقيقةِ والمجازِ، ولا يجوزُ

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠١).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٠٩).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٤٢)، وأحمد في «مسنده» (٦٦٤٤)، والطيالسي في «مسنده» (٢٤٠٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٤٢)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٢١٤٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٦٩)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٥٣٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قال الترمذي: هذا حديث حسن. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٤): رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات.

جمع طائر بين السماء والأرض ﴿صافّاتٍ﴾: حالٌ، باسطاتٍ أجنحتَهنّ، ﴿كُلٌّ قَد عَلِمَ﴾ اللهُ ﴿صَلاتَهُ وتَسبِيحَهُ. واللهُ عَلِيمٌ بِما يَفعَلُونَ﴾. فيه تغليب العاقل، ٤٢ ـ ﴿وللهِ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ﴾: خزائنِ المطر والرزق والنبات ﴿وإِلَى اللهِ المَصِيرُ﴾: المَرجِعُ.

٤٣ ـ ﴿أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ يُزجِي سَحابًا﴾: يسوقُه برِفق، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَينَهُ﴾: يضمّ بعضَه إلى بعض، فيجعل القِطع المُتفرّقة قِطعة واحدة، ﴿ثُمَّ يَجعَلُهُ رُكامًا﴾: بعضَه فوق بعض ـ ﴿فتَرَى الوَدْقَ﴾: المطر ﴿يَخرُجُ مِن خِلالِهِ﴾: مَخارجِه ـ ﴿ويُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿جِبالٍ فِيها﴾: في السماء، بدلٌ بإعادة الجارّ، ﴿مِن بَرَدٍ﴾..........................

عندَنا إلا إذا حُمِلَ على عُمومِ المجازِ، وهو الانقيادُ الشَّاملُ للتَّسبيحِ الجَناني الَّذي هو التَّنزيهُ، واللِّسانيِّ وهو قولُكَ: سُبحانَ اللهِ، والأركانيِّ وهو الصَّلاةُ.

قولُه: (جَمْعُ طَائِرٍ) وقد يَقعُ على الواحِدِ، عَطفٌ على: ﴿مَن﴾.

قولُه: (بَيْنَ) ظَرفٌ لما بَعدَه.

قولُهُ تعالى: (﴿كُلٌّ﴾) أي: كُلُّ واحِدٍ ممَّا ذُكِر، أو من الطَّيرِ.

قولُه: (اللهُ) أي: قد عَلِمَ اللهُ دُعاءَهُ وتنزيهَهُ اختياراً بلسانِ القالِ، أو طَبعاً بلسانِ الحالِ، وفي «المَدارِكِ»: الضَّميرُ في ﴿عَلِمَ﴾ لـ﴿كُلٌّ﴾ أو للهِ، وكذا في ﴿صلاته وتسبيحه﴾، والصَّلاةُ: الدُّعاءُ، ولا يبعُدُ أن يُلهِمَ اللهُ الطَّيرَ دُعاءَهُ وتسبيحَهُ[1] كما ألهَمَها عُلوماً دَقيقةً في أسبابِ تعيُّشِها لا يكادُ يَهتَدي إليها العُقلاءُ[2].

قولُه: (المَرْجِعُ) أي: مَرجِعُ الجميعِ.

قولُه: (يَضُمُّ) فيصِحُّ ﴿بَينَه﴾، إذ المَعنى: بينَ أجزائِهِ.

قولُه: (بَعْضَهُ) أي: مُتَراكِماً.

قولُه: (مَخَارِجِهِ) وفُتوقِهِ.

قولُه تعالى: (﴿مِن السَّماء﴾) لابتداءِ الغايَةِ؛ لأنَّ ابتداءَ الإنزالِ من السَّماءِ، والمشُهورُ عن السَّلفِ أنَّ المرادَ بالسَّماءِ: المُظلَّةُ، وفيها جبالٌ من بَرَدٍ كما في الأرضِ جبالٌ من حَجرٍ.

قولُه: (زَائِدَةٌ) أو تبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ ما ينزلُهُ اللهُ بَعضُ تلك الجبالِ الَّتي في السَّماءِ، فيكونُ مفعولاً.

---

(١) بعدها في النسخ: «وطيرها» والظاهر أنها مقحمة، وليست في المصدر.

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥١٠).

أي: بعضَه، ﴿فيُصِيبُ بِهِ مَن يَشاءُ، ويَصرِفُهُ عَمَّن يَشاءُ، يَكادُ﴾: يقرُب ﴿سَنا بَرقِهِ﴾: لَمَعانُه ﴿يَذهَبُ بِالأبصارِ﴾ الناظرةِ له أي: يَخطَفها.

٤٤ ـ ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ﴾ أي: يأتي بكُلّ منهما بدلَ الآخر ـ ﴿إنَّ في ذلِكَ﴾ التقليبِ ﴿لَعِبرَةً﴾: دلالة ﴿لِأُولِي الأبصارِ﴾: لِأصحاب البصائر على قُدرة الله تعالى ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ﴿واللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ﴾ أي: حيوانٍ ﴿مِن ماءٍ﴾ أي: نُطفة، ﴿فمِنهُم مَن يَمشِي علَى بَطنِهِ﴾ كالحيّات والهوامّ، ﴿ومِنهُم مَن يَمشِي علَى رِجلَينِ﴾ كالإنسان والطير، ﴿ومِنهُم مَن يَمشِي علَى أربَعٍ﴾ كالبهائم والأنعام. ﴿يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ. إنَّ اللهَ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ. لَقَد أنزَلْنا آياتٍ مُبيِّناتٍ﴾........................

قولُه: (أي: بَعْضَه) فهو مفعولُ: ﴿يُنَزِّلُ﴾، أو للبيانِ، والمفعولُ مُقدَّرٌ؛ أي: بَرداً، وقيل: الأُولَيانِ للابتداءِ، والأخيرةُ[١] للتَّبعيضِ، ويؤيِّدُه ما في بعضِ النُّسخِ بعدَ «في السَّماءِ»: «بَدلٌ بإعادةِ الجارِّ»[٢] لكن يُنافيهِ قولُه: (زَائِدَةٌ) مع أنَّها زيادةُ ضَررٍ في المعنى أيضاً؛ لأنَّها إذا كانت زائدةً يصيرُ التَّقديرُ: ويُنَزِّلُ من السَّماءِ جبالاً في السَّماءِ بعضَ بَردٍ على حِلِّهِ، ولا طائلَ تحتَهُ، فالصَّوابُ حذفُ (زَائِدَةٌ) وإثباتُ تلكَ النُّسخةِ.

قوله: (لَمَعَانُهُ) الضَّميرُ للبَرَدِ، وكذا فيما قَبلَهُ.

قولُه: (بَدَلَ الآخَرِ) أي: بالمعاقَبةِ بينَهُما، أو بنقصِ أحدِهما وزيادةِ الآخَرِ، أو بتَغييرِ أحوالِهما بالحرِّ والبَردِ والظُّلمةِ والنُّورِ، أو بما يَعمُّ ذلك.

قولُه: (التَّقْلِيْبِ) أو فيما تقدَّمَ ذكرُهُ.

قولُه: (أي: حَيَوَانٍ) يَدِبُّ على الأرضِ، وحمزةُ والكِسائيُّ: (خَالِقُ كُلِّ دَابةٍ) على الإضافَةِ[٣].

قولُه: (أي: نُطْفَةٍ) أي: ماءٍ مخصُوصٍ هو النُّطفةُ، فيكونُ غَالِبيًّا، إذ بعضُ الحَيَواناتِ لا يَتولَّدُ من النُّطفةِ، أو: من ماءٍ هو جُزءُ مادَّتِهِ.

قولُه: (كالحَيَّاتِ) وإنَّما سَمَّى الزَّحفَ مَشياً بالرِّجلِ على الاستعارَةِ للمُشاكَلةِ، وتذكيرُ الضَّميرِ لتَغليبِ العُقلاءِ.

قولُه: (والأَنْعَامِ) قُرئَ: (ومِنهُم مِن يَمشِي على أكثَرَ)[٤]، أو هذا معلومٌ ممَّا بَعدَه.

---

(١) في النسخ: «أو الأخيرة»، والصواب المثبت. انظر: «الكشاف» (٣/ ٢٤٦).

(٢) وهكذا هي في النسخ المعتمدة في المتن.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٢).

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: «تفسير السمعاني» (٣/ ٥٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ٢٩٢) ونسبت لأبي بن كعب رضي الله عنه.

أي: بيّناتٍ هي القُرآن، ﴿واللهُ يَهدِي مَن يَشاءُ إلَى صِراطٍ﴾: طريقٍ ﴿مُستَقِيمٍ﴾ أي: دِينِ الإسلام.

٤٧ ـ ﴿ويَقُولُونَ﴾ أي: المنافقون: ﴿آمَنَّا﴾: صدّقْنا ﴿بِاللهِ﴾: بتوحيده ﴿وبِالرَّسُولِ﴾ مُحمّد، ﴿وأَطَعْنا﴾ هما فيما حكما به، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾: يُعرِضُ ﴿فَرِيقٌ مِنهُم مِن بَعدِ ذلِكَ﴾ عنه، ﴿وما أُولئِكَ﴾ المُعرضون ﴿بِالمُؤمِنِينَ﴾ المعهودين المُوافقِ قُلوبُهم لِألسنتهم، ٤٨ ـ ﴿وإذا دُعُوا إلَى اللهِ ورَسُولِهِ﴾ المُبلّغ عنه ﴿لِيَحكُمَ بَينَهُم إذا فَرِيقٌ مِنهُم مُعرِضُونَ﴾ عن المجيء إليه، ٤٩ ـ ﴿وإن يَكُنْ لَهُمُ الحَقُّ يأتُوا إلَيهِ مُذعِنِينَ﴾: مُسرعِين طائعين.

٥٠ ـ ﴿أفي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾: كُفر؟ ﴿أمِ ارتابُوا﴾ أي: شكّوا في نُبوّته؟ ﴿أم يَخافُونَ أن يَحِيفَ اللهُ علَيهِم ورَسُولُهُ﴾ في الحُكم أي: يُظلَموا فيه؟ لا..........................

قولُه: (أي: بَيِّنَاتٍ) تقدَّمَ الوَجهانِ.

قولُه: (أي: المُنَافِقُونَ) نزلَتْ في بِشْرٍ المُنافقِ، خاصَمَ يَهوديًّا فدَعاهُ إلى كَعبِ بن الأشرَفِ، وهو يَدعوهُ إلى النَّبيِّ ﷺ(١).

قولُه: (عَنْهُ) أي: من بَعدِ قولِهم هذا عن قَبولِ حُكمِه.

قولُه: (المُعْرِضُونَ) إشارَةٌ إلى القائلينَ بأسرِهم، أو إلى الفَريقِ منهم.

قولُه: (المَعْهُودِينَ) يعني: التَّعريفُ فيه للدَّلالَةِ على أنَّهم ليسوا بالمؤمِنينَ الَّذين عَرَفْتَهم، وهم المخلِصونَ في الإيمانِ الثَّابتونَ عليه.

قولُهُ تعالى: (﴿إلى اللهِ﴾) أي: حُكمِه.

وقَولُه: (﴿لِيَحْكُمَ﴾) أي: النَّبيُّ، فإنَّه الحاكِمُ ظاهراً والمَدعوُّ إليه، وذِكرُ اللهِ لتَعظيمِه(٢)، والدَّلالَةِ على أنَّ حُكمَهُ في الحقيقةِ حُكْمُ اللهِ تعالى.

قولُه: (عَنِ المَجِيءِ إِلَيهِ) إذا كانَ الحقُّ عليهم لعِلْمِهم بأنَّكَ لا تحكُمُ لهم.

قولُه: (كُفْرٌ) أو مَيلٌ إلى الظُّلمِ.

قولُه: (أي: فَيُظْلَمُوا) مَجهولٌ، وجعلُهُ بَدلاً من ﴿أَن يَحِيفَ﴾ بحسَبِ حاصلِ المعنى.

قولُه: (لا) راجعٌ إلى الأخيرِ لا إلى الكُلِّ؛ يعني: أنَّ اللهَ قسَمَ الأمرَ في امتِناعِهم عن حُكومَتِهِ إذا كانَ الحقُّ عليهم بثلاثةِ أقسامٍ، ثمَّ أبطَلَ الأخيرَ بقولِه: ﴿بَل أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يَخافونَ أن يحيفَ عليهم

---

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (١٩/ ٣٠٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٢٧).

(٢) أي: لتعظيم النبي ﷺ.

﴿بَل أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بالإعراض عنه. ٥١ ـ ﴿إنَّما كانَ قَولَ المُؤمِنِينَ، إذا دُعُوا إلَى اللهِ ورَسُولِهِ لِيَحكُمَ بَينَهُم﴾، أي: القولَ اللائق بهم ﴿أن يَقُولُوا: سَمِعْنا وأطَعْنا﴾ بالإجابة. ﴿وأُولئِكَ﴾ حينئذ ﴿هُمُ المُفلِحُونَ﴾: الناجُون. ٥٢ ـ ﴿ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ، ويَخشَ اللهَ﴾: يخافُهُ ﴿ويَتَّقِهْ﴾ ـ بسكون الهاء وكسرها ـ بأن يُطيعه، ﴿فأُولئِكَ هُمُ الفائِزُونَ﴾ بالجنّة.

٥٣ ـ ﴿وأقسَمُوا بِاللهِ جَهدَ أيمانِهِم﴾: غايتَها، ﴿لَئِنْ أمَرتَهُم﴾ بالجِهاد ﴿لَيَخرُجُنَّ. قُلْ﴾ لهم: ﴿لا تُقسِمُوا. طاعةٌ مَعرُوفةٌ﴾ للنبيّ خيرٌ من قسَمكم الذي لا تَصدُقون فيه. ﴿إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعمَلُونَ﴾ من طاعتكم بالقول ومُخالفتكم بالفعل. ٥٤ ـ ﴿قُلْ: أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ. فإن تَوَلَّوا﴾ عن طاعته ـ بحذف إحدى التاءين خطابٌ لهم ـ ﴿فإنَّما علَيهِ ما حُمِّلَ﴾ من التبليغ ﴿وعلَيكُم ما حُمِّلتُم﴾ من طاعته، ﴿وإن تُطِيعُوهُ تَهتَدُوا، وما علَى الرَّسُولِ إلاّ البَلاغُ المُبِينُ﴾ أي: التبليغُ البيِّن.

٥٥ ـ ﴿وعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وعَمِلُوا الصّالِحاتِ، لَيَستَخلِفَنَّهُم في الأرضِ﴾ بدلاً عن الكُفّار ﴿كَما استَخلَفَ﴾ ـ بالبناء للفاعل..

لمعرفَتِهم بحالِهِ، وإنَّما هم ظالِمونَ يُريدونَ أن يَظلِموا مَن له الحقُّ عليهم، وذلك شَيءٌ لا يستطيعونَهُ في مجلِسِ رَسولِ الله ﷺ، فمن ثمَّ يأبونَ المحاكَمةَ إليه.

قولُه: (بسُكُونِ الهَاءِ) بَصريٌّ وشُعبَةُ وخَلَّادٌ بخُلفٍ عنه، وبالقصرِ قالونُ، وهشامٌ بخُلْفٍ عنه، والباقي بالإشباعِ إلا حَفصاً، فإنَّهُ يُسكِّنُ القافَ ويقصرُ الهاءَ تَشبيهاً لـ(تَقِهْ) بكَتِف وخُفِّف[١].

قولُه: (بِأَنْ يُطِيْعَهُ) هذا تَكرارٌ، فالأولى: يَخافُهُ على ما صَدرَ عنهُ من الذُّنوبِ، ويَتَّقِه فيما بَقيَ من عُمُرِه، أو: يَخافُ عِقابهُ، ويَتَّقي مُخالَفته.

قولُه: (بالجَنَّةِ) هذه الآيَةُ جامِعةٌ للفَوزِ.

قولُه: (بالجِهَادِ) أو بالخُروجِ عن ديارِهِم وأموالِهِم.

قولُه: (خَيْرٌ) فيه ما تقدَّمَ، أو: المَطلوبُ منكُم طاعَةٌ معروفَةٌ لا اليَمينُ والطَّاعةُ النِّفاقيَّةُ المُنكَرة.

قولُه: (بالعَمَلِ) الظَّاهرُ: بالفعلِ[٢]؛ للمُقابَلةِ، ولشُمولِ العَملِ إيَّاهما.

قولُه: (خِطَابٌ لَهُم) أي: بَعدما كانَ الخِطابُ له ﷺ.

قولُه: (البَيِّنُ) أو: الموضِّحُ لِمَا كُلِّفتُم، وقد أدَّى.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٦٢)، و«غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٢٤).

(٢) وهكذا هي في نسخ المتن المعتمدة.

والمفعول ـ ﴿الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ من بَني إسرائيل بدلاً عن الجبابرة، ﴿ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُم دِينَهُمُ الَّذِي ارتَضَى لَهُم﴾ ـ وهو الإسلام ـ بأن يُظهره على جميع الأديان، ويُوسّع لهم في البلاد فيملكوها، ﴿ولَيُبْدِلَنَّهُم﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ ﴿مِن بَعدِ خَوفِهِم﴾ من الكُفّار ﴿أمنًا﴾. وقد أنجزَ الله وعده لهم بما ذكره، وأثنى عليهم بقوله: ﴿يَعبُدُونَنِي لا يُشرِكُونَ بِي شَيئًا﴾، هو مستأنف في حُكم التعليل. ﴿ومَن كَفَرَ بَعدَ ذلِكَ﴾ الإنعام منهم به ﴿فأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ﴾. وأوّل من كفرَ به قَتَلةُ عُثمانَ رضي الله عنه، فصاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخوانًا.

٥٦ ـ ﴿وأقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ، لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ﴾ أي: رجاءَ الرحمة.

٥٧ ـ ﴿لا تَحسَبَنَّ﴾ ـ بالفَوقانيّة والتحتانيّة، والفاعلُ الرسول ـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مُعجِزِينَ﴾ لنا ﴿في الأرضِ﴾ بأن يفوتونا، ﴿ومأواهُمُ﴾: مرجعهم ﴿النّارُ، ولَبِئسَ المَصِيرُ﴾: المرجعُ هي!

٥٨ ـ ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا، لِيَستَأذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أيمانُكُم﴾ من العبيد والإماء،..............

قولُه: (ولِلمَفعُولِ) شُعبةُ[1].

قولُه: (مِن بَنِي إسرَائِيلَ) استَخلَفَهُم في مصرَ والشَّامِ.

قولُه: (بالتَّخفِيفِ) مَكيٌّ وشُعبةُ[2].

قولُه: (هُوَ) أي: ﴿يَعبُدُونَنِي ولا يُشرِكُونَ﴾ حالٌ؛ أي: يَعبدونَني غيرَ مُشرِكينَ.

قولُه: (التَّعلِيلِ) أي: المقتَضِي للاستِخلافِ والأمنِ.

قولُه: (وأَوَّلُ مَنْ كَفَرَ) أي: هذهِ النِّعمةَ.

قولُه: (أي: رَجَاءَ الرَّحْمَةِ) منصوبٌ على العلَّةِ، فالمعنى: لكي تُرحَموا.

قولُه: (والتَّحتَانِيَّةِ) شاميٌّ وحمزَةُ[3].

قولُه: (والفَاعِلُ) على القِراءتَين.

قولُه: (بِأَنْ يَفُوتُونَا) أو: مُعجِزينَ اللهَ عن إدراكِهم وإهلاكِهم.

قولُه: (والإِمَاءِ) ففيه تَغليبٌ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٤).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٤).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٠٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٤).

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ من الأحرار وعرَفوا أمر النساء، ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾: في ثلاثة أوقات، ﴿مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أي: وقتَ الظهر، ﴿وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ. ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ ـ بالرفع: خبرُ مبتدإٍ مُقدّرٍ، بعده مُضافٌ، وقام المُضاف إليه مَقامه، أي: هي أوقاتٌ، وبالنصب بتقدير «أوقاتَ» منصوبًا بدلاً من محلّ ما قبله، قام المُضاف إليه مَقامه ـ وهي لإلقاء الثياب تبدو فيها العورات.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: المماليكِ والصِّبيانِ ﴿جُنَاحٌ﴾ في الدخول عليكم بغير استئذان، ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي: بعد الأوقات الثلاثة. هم ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ للخِدمة، ﴿بَعْضُكُمْ﴾ طائف ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾. والجملة: مُؤكِّدةٌ لِما قبلها..........................

قولُه: (مِنَ الأَحرَارِ) أي: الصِّبيانِ الَّذين لم يَبلغُوا من الأحرارِ، فعبَّر عن البُلوغِ بالاحتلامِ؛ لأنَّهُ أقوى دلائلِه من السِّنِّ والشَّعرِ، وأمرُهُم أمرُ تأديبٍ كحديثِ: «مُرُوا صبيانَكم بالصَّلاةِ»[1].

قولُه: (أَوْقَاتٍ) في اليومِ واللَّيلَةِ.

قولُه: (وَقتَ الظُّهرِ) الأظهَرُ: وَقتَ الاستواءِ للقَيلولَةِ.

قولُه: (أي: هِيَ أَوْقَاتٌ) أي: هي ثَلاثُ أوقاتِ عَوراتٍ[2]، سمَّى كُلَّ واحِدةٍ من هذهِ الأحوالِ عَورةً لأنَّ الإنسانَ يختلُّ تستُّرُه فيها، والعورَةُ: الخَلَلُ.

وقيل: هي ثلاثُ ساعاتِ انكِشافِ عَوراتٍ، بحذفِ مُضافَينِ.

قولُه: (وبالنَّصبِ) شُعبةُ وحمزَةُ والكِسائيُّ[3].

قولُه: (بتَقدِيرِ أَوْقَاتَ) أي: أوقاتَ ثلاثِ عَوراتٍ، أو: ثَلاثَ أوقاتِ عَوراتٍ، والأوَّلُ هو مُرادُ المصنِّفِ.

قولُه: (مِن مَحَلِّ مَا قَبْلَهُ) أي: من الظُّروفِ، والأظهَرُ على ما عليهِ الأكثرُ: أنَّهُ بدلُ ﴿ثَلاثَ﴾ الأولى، وقيل: بإضمارِ أعني.

قولُه: (طَائِفٌ) حُذفَ لدَلالةِ ﴿طَوافُونَ﴾ عليه.

قولُه: (مُؤَكِّدَةٌ) فإنَّها استئنافٌ ببَيانِ العُذرِ المرَخِّصِ في تَركِ الاستئذانِ، وهو المخالطَةُ وكَثرةُ المداخَلةِ؛ لأنَّه لو جزمَ الأمرَ بالاستئذانِ في كُلِّ وَقتٍ لأدَّى إلى الحَرجِ، وهو مَدفوعٌ بالنَّصِّ.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٥)، وأحمد في «مسنده» (٦٦٨٩)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٨٢)، والدارقطني في «السنن» (٨٨٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. وصححه ابن الملقن في «البدر المنير» (٣/ ٢٣٨).

(٢) كذا قدرها، والظاهر من كلام المتن أن التقدير: هي أوقات ثلاث عورات.

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٥٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٥).

﴿كَذلِكَ﴾: كما بَيّن ما ذَكرَ ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ﴾ أي: الأحكامَ، ﴿واللهُ عَلِيمٌ﴾ بأُمور خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ بما دبّره لهم. وآيةُ الاستئذان قيلَ: منسوخة، وقيل: لا ولكن تهاون الناس في ترك الاستئذان.

٥٩ ـ ٦٠ ـ ﴿وإذا بَلَغَ الأطفالُ مِنكُمُ﴾ ـ أيها الأحرار ـ ﴿الحُلُمَ فلْيَستأذِنُوا﴾ في جميع الأوقات، ﴿كَما استأذَنَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ أي: الأحرارُ الكبار ـ ﴿كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم آياتِهِ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ـ والقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ﴾: قَعدْنَ عن الحَيض والولد لكِبَرهنّ ﴿اللاّتِي لا يَرجُونَ نِكاحًا﴾ لذلك ﴿فلَيسَ عليهِنَّ جُناحٌ أن يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ﴾ من الجِلباب والرداء والقِناع فوق الخِمارِ، ﴿غَيرَ مُتبَرِّجاتٍ﴾: مُظهرات ﴿بِزِينةٍ﴾ خفيّة كقِلادة وسِوار وخلخال، ﴿وأن يَستَعفِفْنَ﴾ بألاّ يضعنها ﴿خَيرٌ لَهُنَّ. واللهُ سَمِيعٌ﴾ لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قُلوبكم.

٦١ ـ ﴿لَيسَ علَى الأعمَى حَرَجٌ ولا علَى الأعرَجِ حَرَجٌ ولا علَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في مُؤاكلة مُقابليهم، ﴿ولا﴾ حرجَ ﴿علَى أنفُسِكُم أن تأكُلُوا مِن بُيُوتِكُم﴾ أي: بُيوت أولادِكم، ﴿أو بُيُوتِ آبائكُم أو بُيُوتِ أُمَّهاتِكُم، أو بُيُوتِ إخوانِكُم أو بُيُوتِ أخَواتِكُم، أو بُيُوتِ أعمامِكُم أو بُيُوتِ عَمّاتِكُم، أو بُيُوتِ أخوالِكُم أو بُيُوتِ خالاتِكُم، أو ما مَلَكتُم مَفاتِحَهُ﴾........

قولُه: (قِيلَ: مَنسُوخَةٌ) قالَ القاضِي: ليسَ فيه ما يُنافي آيَةَ الاستِئذانِ فينسَخَها؛ لأنَّه في الصِّبيانِ ومماليكِ المدخولِ عليه، وتلك في الأحرارِ البالِغينَ[1]. وعليه صاحِبُ «المَدارِكِ» أيضاً[2].

قولُه: (أي: الأَحْرَارُ) يعني: الَّذين بَلَغوا من قبلِهم، وكرَّرَ ما بعدَهُ تأكيداً ومُبالغَةً في الأمرِ بالاستِئذانِ.

قولُه: (والوَلَدِ) أي: الحَملِ.

قولُه: (لِذَلِكَ) أي: لا يطمَعْنَ فيه لكبَرِهِنَّ، صِفةٌ كاشِفةٌ.

قولُه: (مِنَ الجِلبَابِ) يعني: الثِّيابَ الظَّاهرةَ.

قولُه: (خَفِيَّةٍ) أي: ممَّا أُمِرنَ بإخفائِهِ في قولِهِ: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ [النور: ٣١].

قولُه: (كَقِلادَةٍ) وفي «المدارِكِ»: كالشَّعرِ والنَّحرِ والسَّاقِ ونحوِ ذلك[3]؛ أي: لا يَقصِدنَ بوَضعِها التَّبرُّجَ، ولكن التَّخفُّفَ وعدمَ التَّكلُّفِ.

قولُه: (أَوْلادِكُمْ) أو: أزواجِكم.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١١٤).

(٢) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥١٧).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥١٩).

أي: خَزنتُموه لغيركم، ﴿أو صَدِيقِكُم﴾ وهو مَن صَدَقكم في مودّته ـ المعنى: يجوز الأكل من بُيوت من ذُكر، وإن لم يَحضروا، أي: إذا عُلم رضاهم به ـ ﴿لَيسَ عليكُم جُناحٌ أن تأكُلوا جَمِيعًا﴾ أي: مُجتمعِين، ﴿أو أشتاتًا﴾ أي: مُتفرّقين جمعُ شتّ. نزل فيمن تحرّج أن يأكل وحده، وإذا لم يجد مَن يُؤاكله يتركُ الأكل.

﴿فإذا دَخَلتُم بُيُوتًا﴾ لكم لا أهل فيها ﴿فَسَلِّمُوا على أنفُسِكُم﴾ أي: قولوا: «السَّلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصَّالِحِينَ» ـ فإن الملائكة تردّ عليكم ـ وإن كان بها أهل فسلّموا عليهم ﴿تَحِيَّةً﴾: مصدرُ: حيّا،

قولُه: (خَزَنْتُمُوهُ) أي: حَفِظْتُموهُ، وهو ما يكونُ تحتَ أيديكُم وتصرُّفِكُم من ضَيعَةٍ وماشيةٍ، وكالةً أو حِفظاً، وقيل: بُيوتُ المماليكِ.

قولُه: (فِي مَوَدَّتِهِ) وهو يقعُ على الواحدِ والجمعِ، ويمكِنُ أن يُقالَ: عَدمُ الجمعِ لقلَّةِ الصَّديقِ وعزَّتِهِ.

قولُه: (مَا ذُكِرَ) الظَّاهرُ: من ذُكِرَ[1].

قولُه: (أَنْ يَأكُلَ وَحْدَهُ) فما وَرَدَ في ذمِّ من يأكُلُ وحدَهُ[2] يُحمَلُ على مَن فَعَلَ ذلك كِبْراً وبُخلاً، أو نزلَتْ في قَومٍ تحَرَّجوا عن الاجتماعِ على الطَّعامِ لاختِلافِ النَّاسِ في الأكلِ، وزيادةِ بعضِهِم على بَعضٍ[3].

قولُه: (لا أَهْلَ بِهَا) أو: بُيوتاً فارغةً، أو: مَسجِداً.

قولُه: (وإِنْ كَانَ بِهَا أَهْلٌ) أو: إذا دَخلتُم بُيوتاً من هذهِ البُيوتِ فابدَؤوا بالسَّلامِ على أهلِها الَّذينَ هم منكُم ديناً وقَرابَةً، أو كأنفُسِكُم.

قولُه: (مَصْدَرُ حَيَّا) على طَريقِ: قَعدْتُ جُلوساً.

---

(١) وهكذا هو في نسخ المتن المعتمدة.

(٢) روى أبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦)، وأحمد في «مسنده» (١٦٠٧٨) أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إنا نأكل وما نشبع، قال: «فلعلكم تأكلون مفترقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه».

وروى الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٥٨٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٣٠/ ١٨٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٩٥٨)، من طريق جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً: «الكنود الَّذي يأكُلُ وحدَه، ويمنَعُ رِفدَه، ويضرِبُ عبدَه» فإن كان هذا الحديث مراد المؤلف فإنه لا يصح، فقد قال ابن حبان في «المجروحين» (١/ ٢١٢) ترجمة جعفر بن الزبير: «وروى جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة نسخة موضوعة أكثر من مئة حديث» وذكر منها هذا الحديث.

(٣) روى الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٢٣) عن ابن عباس قوله: ﴿أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا﴾ قال: كان الغني يدخل على الفقير من ذوي قرابته وصديقه فيدعوه إلى طعامه ليأكل معه فيقول: والله إني لأجنح أن آكل معك ـ والجنح الحرج ـ وأنا غني وأنت فقير، فأمروا أن يأكلوا جميعًا أو أشتاتاً.

وروى أبو داود (٣٧٥٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٨٨٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٤٦٠٠) عنه بنحوه.

﴿مِن عِندِ اللهِ مُباركةً طَيِّبةً﴾ يُثاب عليها. ﴿كَذلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ﴾ أي: يُفصّل لكم معالمَ دِينكم، ﴿لَعَلَّكُم تَعقِلُونَ﴾: لكي تفهموا ذلك.

٦٢ ـ ﴿إنّما المُؤمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ، وإذا كانُوا مَعَهُ﴾ أي: الرسولِ ﴿علَى أمرٍ جامِعٍ﴾ كخطبة الجُمعة ﴿لَم يَذهَبُوا﴾ لِعُروض عُذر لهم ﴿حَتَّى يَستأذِنُوهُ. إنَّ الَّذِينَ يَستأذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِاللهِ ورَسُولِهِ. فإذا استأذَنُوكَ لِبَعضِ شأنِهِم﴾: أمرهِم ﴿فائذَنْ لِمَن شِئتَ مِنهُم﴾ بالانصراف، ﴿واستَغفِرْ لَهُمُ اللهَ. إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٦٣ ـ ﴿لا تَجعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَينَكُم كَدُعاءِ بَعضِكُم بَعضًا﴾ بأن تقولوا: يا مُحمّد. بل قولوا: «يا نبيَّ الله، يا رسول الله»، في لِينٍ وتواضعٍ وخفض صوت. ﴿قَد يَعلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُم لِواذًا﴾ أي: يخرجون من المسجد في الخُطبة من غير استئذان خُفيةً مستترين بشيء. وقد: للتحقيق. ﴿فلْيَحذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَن أمرِهِ﴾ أي: اللهِ أو رسولِه ....

وقوله: (﴿من عند الله﴾) أي: ثابتةً بأمرِه، مَشروعَةً من لَدُنْهُ.

وقوله: (﴿مباركة﴾) لأنَّها يُرجى بها زيادةُ الخَيرِ والثَّوابِ ﴿طَيبَةً﴾: تَطيبُ بها نفسُ المستَمعِ، أو يحصُلُ بها طِيبُ الرِّزقِ، وحُسنُ الخُلُقِ.

قولُه: (أي: يُفَصِّلُ) كرَّرهُ ثالثاً لمزيدِ التَّأكيدِ، وتَفْخيمِ الأحكامِ المختَتَمةِ به.

قوله تعالى: (﴿إنَّما المؤمنون﴾) أي: الكامِلونَ في الإيمانِ.

قولُه: (كَخُطْبَةِ الجُمُعَةِ) والأعيادِ وكالحُروبِ والمشاورَةِ في الأُمورِ، ووصفُ الأمرِ بالجمعِ للمُبالغَةِ، فإنَّه يُجمَع له النَّاسُ.

قوله تعالى: (﴿حتى يستأذنوه﴾) أي: فيأذَنَ لهم.

قوله تعالى: (﴿واستغفر لهم الله﴾) بعدَ الإذنِ، فإنَّ الاستئذانَ ولو لعُذرٍ قُصورٌ؛ لأنَّه تقديمٌ لأمرِ الدُّنيا على الدِّينِ، ويُمكِنُ أن يكونَ جَبراً لما فاتَهم من حَضرتِهِ وخِدمَتِه.

قولُه: (أي: يَخْرُجُونَ) قَليلاً قَليلاً من الجَماعَةِ.

قولُه: (مُسْتَتِرِينَ) يعني ﴿لِواذاً﴾ بمعنى: مُلاوَذَةً، بأن يَستَتِرَ بعضُهم ببعضٍ حتَّى يخرُجَ، أو يَلوذَ بمن يُؤذَنُ فينطَلِقَ معه كأنَّهُ تابِعَهُ، وانتصابُهُ على الحالِ.

قولُه: (أي: اللهِ) فإنَّ الأمرَ له في الحقيقَةِ.

قولُه: (أو رَسُولِهِ) فإنَّهُ المقصودُ بالذِّكرِ.

﴿أن تُصِيبَهُم فِتْنَةٌ﴾: بلاء، ﴿أو يُصِيبَهُم عَذابٌ ألِيمٌ﴾ في الآخرة.

٦٤ ـ ﴿ألا إنَّ لِلهِ ما في السَّماواتِ والأرضِ﴾ مُلكًا وعَبيدًا وخلقًا. ﴿قَد يَعلَمُ ما أنتُم﴾ ـ أيها المُكلّفون ـ ﴿عليهِ﴾ من الإيمان والنفاق، ﴿و﴾ يعلم ﴿يَومَ يُرجَعُونَ إلَيهِ﴾ ـ فيه التفات عن الخِطاب ـ أي: متى يكون، ﴿فيُنَبِّئُهُم﴾ فيه ﴿بِما عَمِلُوا﴾ من الخير والشرّ. ﴿واللهُ بِكُلِّ شَيءٍ﴾ من أعمالهم وغيرها ﴿عَلِيمٌ﴾.

قولُه: (بَلاءٌ) ومحنَةٌ في الدُّنيا.

قولُه: (من الإِيمَانِ) الأظهَرُ: (الإخلاص) لمقابَلةِ النِّفاقِ، أو: من المخالفَةِ والموافقَةِ، وإنَّما أكَّدَ علمَهُ بـ﴿قَدْ﴾ لتَوكيدِ الوعيدِ، وفي «المغنِي»: (قد) لتَقليلِ مُتَعلَّقِهِ[1]. أي: أنَّ ما أنتُم عليه هو أقلُّ معلوماتِهِ، وقيل: (قد) للتَّحقيقِ. وعليه الشَّيخُ كما سَبَقَ.

قولُه: (عَنِ الخِطَابِ) والخِطابُ والغيبَةُ يجوزُ أن يَكونا جميعاً للمُنافِقينَ على طريقَةِ الالتِفاتِ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿ما أَنْتُم عَليهِ﴾ عامًّا، و﴿يُرجَعونَ﴾ للمُنافِقينَ.

قولُهُ: (أي: مَتى يَكُونُ) تَقديرٌ لمفعولِ ﴿يَعلَمُ﴾ المقدَّر، والأظهرُ: نَصبُه بـ﴿اذْكُر﴾ مُقدَّراً، ولذلك جَعلوا ﴿مَا أَنتُم عليهِ﴾ وَقفاً تامًّا.

قولُه: (فِيْهِ) أي: في ذلك اليَومِ بالتَّوبيخِ والمجازاةِ عليهِ.

قولُه: (وغَيرِهَا) لا تَخفى عليه خافيَةٌ، واللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) انظر: «مغني اللبيب» (ص: ٢٣٠، ٢٣١).

سُورَةُ النُّورِ

مَدَنيَّةٌ كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهم[1]. وحكى أبو حيان الإجماعَ على مدنيَّتها[2]. ولم يَسْتَثْنِ الكثيرُ من آيها شيئاً، وعن القرطبيِّ أنَّ آيةَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ إلخ مكية[3].

وهي اثنتان وستُّون آيةً، وقيل: أربعٌ وستُّون آية.

ووَجْهُ اتصالِها بسورة المؤمنين أنه سبحانه لمَّا قال فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥﴾ ذكر في هذه أحكام مَن لم يَحْفَظْ فَرْجَه من الزانية والزاني، وما اتَّصل بذلك من شأن القَذْفِ وقصةِ الإفك، والأمرِ بغضِّ البصر الذي هو داعيةٌ للزنى، والاستئذانِ الذي إنما جُعل من أجل النظر، وأَمَرَ فيها بالإنكاح حفظاً للفرج، وأَمَرَ مَن لم يقدر على النكاح بالاستعفاف، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنى.

وقال الطبرسيُّ في ذلك: إنه تعالى لمَّا ذكر فيما تقدَّم أنه لم يخلق الخَلْقَ للعبث بل للأمر والنهي، ذَكَر جلَّ وعلا هاهنا جملةً من الأوامر والنواهي[4]. ولعل الأول أَوْلَى.

وجاء عن مجاهد قال: قال رسول الله ﷺ: «علِّموا رجالكم سورة المائدة، وعلِّموا نساءكم سورة النور»[5].

---

(١) الدر المنثور ٥/١٨، وأخرجه عن ابن عباس أيضاً النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/٥٣٧.

(٢) البحر ٦/٤٢٦.

(٣) تفسيرالقرطبي ١٥/٣٣٢.

(٤) مجمع البيان ١٨/٦.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٤٢٨).

وعن حارثةَ بنِ مُضَرِّبٍ ﵁ قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب ﵁: أن تعلَّموا سورة النساء والأحزاب والنور[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هذه سورةٌ، وأُشيرَ إليها بـ «هذه» تنزيلاً لها منزلةَ الحاضر المشاهَدِ، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ مع ما عُطِفَ عليه صفاتٌ لها، مؤكِّدةٌ لِمَا أفاده التنكيرُ من الفخامة من حيث الذاتُ بالفخامة من حيث الصفاتُ، على ما ذكره شيخ الإسلام[٢]. والقولُ بجواز أن تكون للتخصيص احترازاً عمَّا هو قائمٌ بذاته تعالى، ليس بشيءٍ أصلاً كما لا يخفى.

وجوِّز أن تكون «سورة» مبتدأً محذوفَ الخبر، أي: ممَّا يُتْلَى عليكم، أو: فيما أَوْحينا إليك، سورةٌ أنزلناها.. إلخ، وذَكَر بعضُهم أنه قُصد من هذه الجملة[٣] الامتنانُ والمدحُ والترغيبُ، لا فائدةُ الخبر ولا لازمُها وهو كونُ المخبرِ عالماً بالحكم للعلم بكلِّ ذلك، والكلامُ فيما إذا قُصد به مثلُ هذا إنشاءٌ على ما اختاره في «الكشف»، وهو ظاهرُ قول الإمام المرزوقيِّ في قوله:

قَومِي هُمُوا قَتَلُوا أُمَيْمَ أَخِي

هذا الكلامُ تحزُّنٌ وتفجُّعٌ، وليس بإخبار[٤].

واختار آخرون أنَّ الجملة خبريةٌ مرادٌ بها معناها إلا أنها إنما أُوْرِدتْ لغرضٍ سوى إفادةِ الحكم أو لازمه، وإليه ذهب السيالكوتيُّ، وأَوَّلَ كلامَ المرزوقيِّ بأنَّ المراد بالإخبار فيه الإعلام، وتحقيقُ ذلك في موضعه.

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٢٨.

(٢) في تفسيره ٦/ ١٥٥.

(٣) أي: على القول بأن «سورة» مبتدأ محذوف الخبر. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٥١.

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٠٤، وسلف البيت ٤/ ١٣٦ و٦/ ٣٧٣ و١٢/ ٢٤٨. وعجزه: فإذا رميتُ يصيبني سهمي.

واعترض شيخُ الإسلام هذا الوجهَ بما بحث فيه[١].

وجوَّز ابنُ عطية أن تكون «سورة» مبتدأً، والخبر قوله تعالى: (ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي) إلخ[٢]. وفيه من البُعْدِ ما فيه.

والوجهُ الوجيهُ هو الأول، وعندي في أمثال هذه الجمل أنَّ الإثبات فيها متوجِّهٌ إلى القيد، وقد ذكر ذلك الشيخ عبد القاهر، وهو هنا إنزالُها وفَرْضُها، وإنزالُ آياتٍ بينات فيها لأَجْلِ أن يتذكَّر المخاطبون، أو مرجوًّا تَذَكُّرُهم، فتأمَّل.

وقرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهدٌ وعيسى بنُ عمر الثقفيُّ البصريُّ وعيسى بن عمر الهمدانيُّ الكوفيُّ وابنُ أبي عبلةَ وأبو حيوةَ ومحبوبٌ عن أبي عمرو وأُمُّ الدرداء: «سورةً» بالنصب[٣] على أنها مفعولُ فعلٍ محذوفٍ، أي: اتلُ، وقدَّر بعضهم: اتلوا بضمير الجمع؛ لأنَّ الخطابات الآتيةَ بعده كذلك، وليس بلازم؛ لأنَّ الفعل متضمِّنٌ معنى القول، فيكون الكلام حينئذٍ نظيرَ قوله تعالى: (قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ) ولا شكَّ في جوازه.

وجوَّز الزمخشريُّ أن تكون نصباً على الإغراء، أي: دونك سورةً[٤]. وردَّه أبو حيان: بأنه لا يجوز حذفُ أداة الإغراء[٥]؛ لضَعْفِها في العمل؛ لِمَا أنَّ عملها بالحمل على الفعل، وكلامُ ابن مالك يقتضي جوازَه، وزَعَم أنه مذهبُ سيبويه[٦]، وفيه بحث.

وجوَّز غيرُ واحدٍ كونَ ذلك من باب الاشتغال، وهو ظاهرٌ على مذهبِ مَن

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٥٥، وفيه: وأما كونها مبتدأ محذوف الخبر، على أن يكون التقدير: فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها، فيأباه أن مقتضى المقام بيان شأن السورة الكريمة، لا أن في جملة ما أوحي إلى النبي ﷺ سورة شأنها كذا وكذا، وحَمْلُها على السورة الكريمة بمعونة المقام يوهم أن غيرها من السور الكريمة ليست على تلك الصفات.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٠٠، والمحتسب ٢/ ٩٩، والبحر ٦/ ٤٢٧.

(٤) الكشاف ٢/ ٤٦.

(٥) البحر ٦/ ٤٢٧.

(٦) حاشية الشهاب ٦/ ٣٥٢. ويعني بكلام ابن مالك ما ذكره الشهاب من أن ابن مالك أجاز في قوله: أيها المائح دلوي دونكا، أن يكون دلوي مفعولاً لدونك آخر مضمراً.

لا يشترط في المنصوب على الاشتغال صحةَ الرفع على الابتداء، وأمَّا على مذهب مَن يشترطُ ذلك فغيرُ ظاهرٍ؛ لأنَّ «سورة» نكرةٌ لا مسوِّغ لها، فلا يجوز رَفْعُها على الابتداء، ولعل مَن يشترطُ ذلك ويقول بالنصب على الاشتغال هنا يجعل النكرةَ موصوفةً بما يدلُّ عليه التنوينُ، كأنه قيل: سورةٌ عظيمةٌ، كما قيل في: شرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ[1].

وقال الفرَّاء: نصب «سورةً» على أنها حالٌ من ضمير النصب في «أنزلناها» والحالُ من الضمير يجوز أن يتقدَّم عليه[2]. انتهى، ولعل الضمير على هذا للأحكام المفهومة من الكلام، فكأنه قيل: أنزلنا الأحكام سورةً، أي: في حال كونها سورةً من سُوَرِ القرآن، وإلى هذا ذهب في «البحر»[3].

وربما يقال: يجوز أن يكون الضمير للسورة الموجودة في العِلْم من غير ملاحظةِ تقييدها بوَصْفٍ، و«سورةً» المذكورةُ موصوفةٌ بما يدلُّ عليه تنوينُها، فكأنه قيل: أنزلنا السورةَ حالَ كونها سورةً عظيمة. ولا يخفى أنَّ كلَّ ذلك تكلُّفٌ لا داعيَ إليه مع وجود الوجه الذي لا غبارَ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ إما على تقدير مضافٍ، أي: فرضنا أحكامها، وإمَّا على اعتبارِ المجازِ في الإسناد، حيث أسند ما للمدلول للدالِّ لملابسةٍ بينهما تُشْبِهُ الظرفية. ويحتمل على بُعْدٍ أن يكون في الكلام استخدامٌ بأن يراد بـ «سورة» معناها الحقيقيُّ، وبضميرها معناها المجازيُّ، أعني الأحكامَ المدلول عليها بها.

والفَرْضُ في الأصل: قَطْعُ الشيء الصلب والتأثيرُ فيه، والمراد به هنا الإيجابُ على أتمِّ وجهٍ، فكأنه قيل: أَوْجَبْنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعيّاً، وفي ذكر ذلك براعةُ استهلالٍ على ما قيل.

وقرأ عبد الله، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وأبو عمرو، وابن

---

(١) المستقصى ٢/ ١٣٠، ومجمع الأمثال ١/ ٣٧٠، والقاموس (هرر)، وفيه: يُضرب في ظهور أمارات الشرِّ ومخايله، لمَّا سمع قائلُه هريراً أشفق من طارق شرٍّ، فقال ذلك تعظيماً للحال عند نفسه ومستمعه.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٤ بنحوه.

(٣) ٦/ ٤٢٧.

كثير: «وفرَّضناها» بتشديد الراء[١] لتأكيد الإيجاب، والإشارةِ إلى زيادة لزومه، أو لتعدُّدِ الفرائض وكثرتها، أو لكثرةِ المفروض عليهم من السَّلَفِ والخَلَف. وفي بعض الحواشي الشهابية[٢]: قد فُسِّر «فرَّضناها» بفصَّلناها، ويجري فيه ما ذُكر أيضاً.

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ﴾ أي: في هذه السورة ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ يحتملُ أن يراد بها الآياتُ التي نِيْطَتْ بها الأحكامُ المفروضةُ، وأمرُ الظرفية عليه ظاهر، ومعنى كونها بيناتٍ وضوحُ دلالتها على أحكامها لا على معانيها مطلقاً؛ لأنها أسوةٌ لأكثر الآيات في ذلك، وتكريرُ «أنزلنا» مع استلزام إنزالِ السورة إنزالَها لإبراز[٣] كمال العناية بشأنها.

ويحتملُ أن يراد بها جميعُ آيات السورة، والظرفيةُ حينئذٍ باعتبارِ اشتمالِ الكلِّ على كلِّ واحدٍ من أجزائه، ومعنى كونها بيناتٍ أنها لا إشكالَ فيها يُحْوِجُ إلى تأويلٍ كبعض الآيات، وتكريرُ «أنزلنا» مع ظهورِ أنَّ إنزالَ جميع الآيات عينُ إنزالِ السورة؛ لاستقلالها بعنوانٍ رائقٍ داعٍ إلى تخصيص إنزالها بالذكر إبانةً لخطرها ورَفْعاً لمحلِّها، كقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود:٥٨] بعد قوله سبحانه: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود:٥٨].

والاحتمالُ الأول أَظْهَرُ، وقال الإمام: إنه تعالى ذكر في أول السورة أنواعاً من الأحكام والحدود وفي آخرها دلائلَ التوحيد، فقوله تعالى: (وَفَرَضْنَٰهَا) إشارةٌ إلى الأحكام المبيَّنةِ أولاً، وقوله سبحانه: (وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ) إشارةٌ إلى ما بيّن من دلائل التوحيد، ويؤيِّده قولُه عز وجل: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فإنَّ الأحكام لم تكن معلومةً حتى يتذكَّرونها[٤]. انتهى.

وهو عندي وجهٌ حسن، نعم قيل: فيما ذكره من التأييد نظرٌ، إذ لمن ذهب إلى الاحتمال الأول أن يقول: المراد من التذكُّر غايتُه، وهو اتِّقاءُ المحارِمِ بالعمل

---

(١) التيسير ص ١٦١، والنشر ٢/ ٣٣٠ عن ابن كثير وأبي عمرو.
(٢) ٦/ ٣٥٣.
(٣) في (م): إبراز، وهو خطأ.
(٤) تفسير الرازي ٢٣/ ١٣٠.

بموجب تلك الآيات. ولقائلٍ أن يقول: إنَّ هذا مُحْوِجٌ إلى ارتكاب المجاز في التذكُّر، دون ما ذكره الإمام؛ فإنَّ التذكُّر عليه على معناه المتبادِرِ، ويكفي هذا القَدْرُ في كونه مؤيِّداً.

وأصل «تَذَكَّرون»: تتذكَّرون حذف إحدى التاءين. وقرئ بإدغام الثانية منهما في الذال[1].

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ شروعٌ في تفصيل الأحكام التي أُشيرَ إليها أوَّلاً، ورَفْعُ «الزانية» على أنها خبرُ مبتدأ محذوفٍ، والكلامُ على حذفِ مضافٍ وإقامةِ المضاف إليه مقامه، والأصلُ: ممَّا يُتْلَى عليكم، أو: في الفرائض ـ أي: المشارِ إليها في قوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ ـ حكمُ الزانية والزاني. والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ سببيةٌ، وقيل: سيفُ خطيب.

وذهب الفرَّاء والمبرِّد والزجَّاجُ[2] إلى أنَّ الخبر جملةُ «فاجلدوا» إلخ، والفاء في المشهور لتضمُّنِ المبتدأ معنى الشرط؛ إذ اللام فيه وفيما عُطِفَ عليه موصولةٌ، أي: التي زَنَتْ والذي زَنَى فاجلدوا.. إلخ.

وبعضُهم يجوِّزُ دخول الفاء في الخبر إذا كان في المبتدأ معنًى يستحقُّ به أن يترتَّب عليه الخبر وإنْ لم يكن هناك موصولٌ، كما في قوله:

وقـائـلـةٍ خـولانُ فـانْـكِـحْ فـتـاتَـهـم[3]

فإنَّ هذه القبيلة مشهورةٌ بالشرف والحُسْنِ شهرةَ حاتمٍ بالسخاء وعنترةَ بالشجاعة، وذلك معنًى يستحقُّ به أن يترتَّب عليه الأمرُ بالنكاح، وعلى هذا يَقْوَى أمرُ دخول الفاء هنا كما لا يخفى.

وقال العلَّامة القطب: جيءَ بالفاء لوقوع المبتدأ بعد «أمَّا» تقديراً، أي: أمَّا

---

(١) أي: «تذَّكَّرون» وهي قراءة ابن عامر وأبي عمرو ونافع وابن كثير وشعبة ويعقوب وأبي جعفر، وقرأ الباقون: «تَذَكَّرون». التيسير ص ١٠٨، والنشر ٢/ ٢٦٦.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٤٤، والكامل ٢/ ٨٢٢، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٧-٢٨.

(٣) وعجزه: وأكرومةُ الحيين خِلْوٌ كما هيا، وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها، وسلف ٧/ ١٨٩.

الزانيةُ والزاني فاجلدوا.. إلخ، ونقل عن الأخفش أنها سيفُ خطيب.

والداعي لسيبويه على ما ذهب إليه[1] ما يُفْهَمُ من «الكتاب» - كما قيل - من أنَّ النهج المألوفَ في كلام العرب إذا أريد بيانُ معنًى وتفصيلُه اعتناءً بشأنه أن يذكر قبله ما هو عنوانٌ وترجمةٌ له، وهذا لا يكون إلا بأنْ يُبْنَى على جملتين، فما ذهب إليه في الآية أَوْلَى لذلك ممَّا ذهب إليه غيره، وأيضاً هو سالمٌ من وقوع الإنشاء خبراً والدغدغة التي فيه، وأمرُ الفاء عليه ظاهرٌ لايحتاج إلى تكلُّفٍ، وقال أبو حيان: سببُ الخلاف أنَّ سيبويه والخليل يشترطان في دخول الفاء الخبرَ كونَ المبتدأ موصولاً بما يقبل مباشرةَ أداةِ الشرط، وغيرهما لا يشترط ذلك[2].

وقرأ عبد الله: «والزَّانِ» بلا ياءٍ تخفيفاً[3].

وقرأ عيسى الثقفيُّ، ويحيى بن يعمر، وعمرو بن فائد، وأبو جعفر، وشيبةُ، وأبو السمال، ورويس: «الزانيةَ والزانيَ» بنَصْبِهما[4] على إضمارِ فعلٍ يفسِّره الظاهر، والفاء على ما قال ابنُ جنِّي[5] لأنَّ مآل المعنى إلى الشرط، والأمرُ في الجواب يقترنُ بها، فيجوز: زيداً فاضْرِبه، لذلك، ولا يجوز: زيداً فضَرَبْتُه، بالفاء؛ لأنها لا تدخل في جواب الشرط إذا كان ماضياً.

والمراد هنا على ما في بعض شروح «الكشاف»: إنْ أردتُم معرفةَ حُكْمِ الزانية والزاني فاجلدوا.. إلخ.

وقيل: إنْ جلدتُم الزانيةَ والزاني فاجلدوا.. إلخ، وهو لا يدلُّ على الوجوب المرادِ.

وقيل: دخلت الفاء لأن حقَّ المفسِّر أن يذكر عقبَ المفسَّر، كالتفصيل بعد الإجمال في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤].

---

(١) أي: في اعتباره أن «الزانية» خبر مبتدأ محذوف، كما سلف قريباً، والمصنف رحمه الله لم ينسب هذا القول لسيبويه عند ذكره له، وهو مذهبٌ مشهور عنه. ينظر الكتاب ١/ ١٤٢-١٤٣.

(٢) بنحوه في البحر ٦/ ٤٢٧.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٠٠، والبحر ٦/ ٤٢٧.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٠٠، والمحتسب ٢/ ١٠٠، والبحر ٦/ ٤٢٧.

(٥) في المحتسب ٢/ ١٠٠، وينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٥٣.

ويجوز أن تكون عاطفةً، والمراد: جَلْدٌ بعد جَلْدٍ، وذلك لا ينافي كونَه مفسِّراً للمعطوف عليه؛ لأنه باعتبار الاتِّحاد النوعيِّ. انتهى.

وأنتَ تعلم أنه لم يُعْهَدِ العطفُ بالفاء فيما اتَّحد فيه لفظُ المفسِّر والمفسَّر، وقد نصُّوا على عدم جواز: زيداً فضَرَبْتُه، بالاتِّفاق، فلو ساغ العطفُ فيما ذكر لجاز هذا على معنى: ضَرْبٌ بعد ضَرْبٍ، على أنَّ كون المراد فيما نحن فيه جَلْدٌ بعد جَلْدٍ ممَّا لا يخفى ما فيه، فالظاهرُ ما نُقِلَ عن ابن جنِّي.

والمشهور أنَّ سيبويه والخليل يفضلان قراءة النصب[1]؛ لمكان الأمر، وغيرُهما من البصريين والكوفيين يفضِّلون الرفعَ لأنه كالإجماع في القراءة، وهو أقوى في العربية؛ لأنَّ المعنى عليه: مَن زَنَى فاجْلِدوه، كذا قال الزجَّاج[2].

وقال الخفاجيُّ بعد نقله كلام سيبويه في هذا المقام: ليس في كلام سيبويه شيءٌ مما يدلُّ على التفضيل كما سمعتَ، بل يُفْهَمُ منه أنَّ الرفعَ في نحو ذلك أفصحُ وأبلغُ من النصب من جهة المعنى، وأفصحُ من الرفع على أنَّ الكلام جملةٌ واحدةٌ من جهة المعنى واللفظ معاً[3]، فليُراجَعْ ولْيتأمَّلْ.

والجَلْدُ: ضَرْبُ الجِلْدِ، وقد اطَّرد صوغُ فعلِ المفتوح العين الثلاثيِّ من أسماء الأعيان، فيقال: رَأَسَه وظَهَرَه وبَطَنَه: إذا ضَرَبَ رَأْسَه وظَهْرَه وبَطْنَه. وجوَّز الراغب أن يكون معنى جَلَده: ضَرَبه بالجِلْدِ، نحو عَصَاه: ضربه بالعصا[4].

والمراد هنا المعنى الأولُ، فإنَّ الأخبار قد دلَّتْ على أنَّ الزانية والزاني يُضربان بسوطٍ لا عقدةَ عليه، ولا فَرْعَ له، وقيل: إنَّ كون الجَلْدِ بسوطٍ كذلك كان في زمن عمر رضي الله عنه بإجماع الصحابة، وأمَّا قبله فكان تارةً باليد، وتارةً بالنعل، وتارةً بالجريدة الرطبة، وتارةً بالعصا.

ثم الظاهرُ من ضرب الجِلد أعمُّ من أن يكون بلا واسطةٍ أو بواسطة، وزعم بعضهم - وليس بشيءٍ - أنَّ الظاهر أن يكون بلا واسطة، وأنه ربما يُستأنس به لِمَا

---

(١) ينظر الكتاب ١/ ١٤٤.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٢٧.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٥٣.

(٤) مفردات الراغب (جلد).

ذهب إليه أصحابُنا، وبه قال مالكٌ، من أنه يُنزع عن الزاني عند الجَلْدِ ثيابه إلا الإزار، فإنه لا يُنزع لستر عورته به، وعن الشافعيِّ وأحمد: أنه يترك عليه قميصٌ أو قميصان.

ورَوَى عبدُ الرزاق بسنده عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه أُتي برجلٍ في حدٍّ، فضربه وعليه كساءٌ قسطلانيٌّ[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لا يحلُّ في هذه الأمة تجريدٌ ولامدٌّ[٢].

وأما الامرأةُ[٣] فلا يُنزعُ عنها ثيابُها عندنا إلا الفروُ والمحشوُّ، ووجهُه ظاهر.

وفي بعض الأخبار ما يدلُّ على أنَّ الرجل والمرأة في عدم نَزْعِ الثياب إلَّا الفروَ والمحشوَّ سواءٌ[٤]. وكأنَّ مَن لا يقول بنَزْعِ الثياب يقول: إنَّ الجَلْدَ في العُرْفِ الضَّرْبُ مطلقاً، وليس خاصّاً بضرب الجِلْدِ بلا واسطةٍ، نعم ربما يقال: إنَّ في اختياره على الضرب إشارةً إلى أنَّ المراد ضَرْبٌ يؤلمُ الجِلْدَ، وكأنه لهذا قيل: يُنْزَعُ الفروُ والمحشوُّ، فإنَّ الضرب في الأغلب لا يؤلم جِلْدَ مَن عليه واحدٌ منهما.

وينبغي أن لا يكون الضرب مبرِّحاً لأنَّ الإهلاك غيرُ مطلوب، ومن هنا قالوا: إذا كان مَن وجب عليه الحدُّ ضعيفَ الخِلْقةِ فخيفَ عليه الهلاكُ يُجلَدُ جَلْداً ضعيفاً يَحْتَمِلُه، وكذا قالوا: يفرَّقُ الضربُ على أعضاء المحدود؛ لأنَّ جَمْعَه في عضوٍ قد يفسدُه، وربما يُفْضي إلى الهلاك.

وينبغي أن يُتَّقى الوجهُ والمذاكير؛ لِمَا رُوي موقوفاً على عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، أنه أُتي برجلٍ سكرانَ، أو في حدٍّ، فقال: اضْرِبْ وأَعْطِ كلَّ عضوٍ حقَّه، واتَّقِ الوجهَ والمذاكير[٥].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٣٥٢٣).

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٣٥٢٢).

(٣) كذا في الأصل و(م)، والأفصح: المرأة. قال الزبيدي في تاج العروس (مرأ): وقد حكى أبو علي: الامرأة، بدخول «أل» على امرأة المقرون بهمزة الوصل من أوَّله، أنكرها أكثر شرَّاح الفصيح، ومن أثبتها حكم بأنها ضعيفة.

(٤) أخرج عبد الرزاق في المصنف (١٣٥٢٦) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه سئل عن القاذف: أتنزعُ عنه ثيابه؟ فقال: لا تنزع إلا أن تكون فرواً أو محشوًّا.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/٤٨-٤٩.

وكذا الرأسُ؛ لأنه مَجْمَعُ الحواسِّ الباطنةِ فربما يَفْسُدُ، وهو إهلاكٌ معنى، وكان أبو يوسف يقول باتِّقائه، ثم رجع وقال: يُضْرَبُ ضربةً واحدة.

وروي عنه أنه استثنى البطن والصدر، وفيه نظرٌ، إلَّا أن يقال: كان الضربُ في زمانه كالضرب الذي يفعلُه ظَلَمَةُ زماننا، وحينئذ ينبغي أن يقول باستثناء الرأس قطعاً.

وعن مالك أنه خصَّ الظَّهْرَ وما يليه بالجَلْدِ؛ لِمَا صحَّ من قوله ﷺ لهلال بن أمية: «البينةَ وإلَّا فحدٌّ في ظهرك»(١).

وأجيب بأن المراد بالظهر فيه نَفْسُه، أي: فحدٌّ ثابتٌ عليك، بدليلِ ما ثَبَتَ عن كبار الصحابة من عمر وعليٍّ وابن مسعود ﭫ، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا ضَرَبَ أحدُكم فلْيَتَّقِ الوَجْهَ»(٢) فإنه في نحوِ الحدِّ، فما سواه داخلٌ في الضرب، ثم خُصَّ منه الفرجُ بدليل الإجماع. وعن محمد: في التعزير ضَرْبُ الظَّهْرِ، وفي الحدود ضَرْبُ الأعضاء.

ثم هذا الضربُ يكون للرجلِ قائماً غيرَ ممدودٍ، وللمرأة قاعدةً، وجاء ذلك عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه. وكأنَّ وجهه أنَّ مَبْنَى الحدِّ على التشهير زجراً للعامَّة عن مثله، والقيامُ أبلغ فيه، والمرأةُ مَبْنَى أمرِها على الستر، فيُكتفَى بتشهير الحدِّ فقط من غير زيادةٍ، وإن امتنع الرجلُ ولم يقف، أو لم يصبر، فلا بأس برَبْطِه على أسطوانةٍ، أو إمساكِ أحدٍ له.

والمراد من العدد المفروض في جَلْدِ كلٍّ واحدٍ منهما ـ أعني مئةَ جَلْدةٍ ـ ما يقال له مئةُ جلدةٍ بوجهٍ من الوجوه، وإن لم تتعيَّن الأولى والثانيةُ والثالثةُ، وهكذا إلى تمام المئة، فلو ضربه مئةُ رجلٍ بمئة سوطٍ دفعةً واحدةً كفى في الحدِّ، بل قالوا: جاز أن تُجمع الأسواط فيُضربَ مرةً واحدة بحيث يصيبه كلُّ واحدٍ منها، وروي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه ضَرَبَ في حدٍّ بسوطٍ له طرفان أربعين ضربةً، فحَسَب كلَّ ضربةٍ بضربتين.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٤٧) من حديث ابن عباس ﭭ.

(٢) أخرجه أحمد (٧٣٢٣)، وأبو داود (٤٤٩٣) من حديث أبي هريرة ﭬ، وهو عند البخاري (٢٥٥٩)، ومسلم (٢٦١٢)، بلفظ: «إذا قاتل أحدكم..».

وقدّمت الزانيةُ على الزاني مع أنَّ العادة تقديمُ الزاني عليها؛ لأنها هي الأصل؛ إذ الباعثةُ فيها أقوى ولولا تمكينُها لم يَزْنِ.

واشتقاقُهما من الزنى، وهو مقصورٌ في اللغة الفصحى، وهي لغة أهل الحجاز، وقد يمدُّ في لغة أهل نجد، وعليها قال الفرزدق:

أبا طاهرٍ مَن يَزْنِ يُعْرَفْ زناؤُه ومَن يشربِ الخرطومَ يُصْبِحْ مُسَكَّراً(١)

والزِّنى في عُرْفِ اللغة والشرع على ما قيل: وَطْءُ الرجلِ المرأةَ في القُبُلِ في غير الملكِ وشُبْهةِ الملك. وفيه أنه يَرِدُ عليه زنى المرأة؛ فإنه زنًى ولا يَصْدُقُ عليه التعريف.

وما قيل في الجواب عنه: إنَّ فِعْلَ الوطء أمرٌ مشتركٌ بين الرجل والمرأة، فإذا وُجد بينهما يتَّصفُ كلٌّ منهما به، وتسمَّى هي واطئة، ولذا سمَّاها سبحانه وتعالى: زانيةً، لا يخفى ما فيه، مع أنَّ في التعريف مالا يصلحه هذا الجواب لو كان صحيحاً.

والحقُّ أنَّ زناها لغةً: تمكينُها من زنى الرجل بها، وأنه إذا أُريد تعريفُ الزنى المرادِ في الآية بحيث يشمل زناها فلابدَّ من زيادة التمكين بالنسبة إليها، بل زيادته بالنسبة إلى كلٍّ منهما، وأن يقال: هو إدخالُ المكلَّف الطائعِ قَدْرَ حشفته قُبُلَ مشتهاةٍ حالاً أو ماضياً بلا ملكٍ أو شبهةٍ، أو تمكينُه من ذلك أو تمكينُها في دار الإسلام؛ لِيَصْدُقَ على ما لو كان مستلقياً فقعدت على ذَكَرِه فتركها حتى أدخلته، فإنهما يحدَّان في هذه الصورة، وليس الموجودُ منه سوى التمكين.

ويُعلم من هذا التعريف أنه لا حدَّ على الصبيِّ، والمجنونِ، ومَن أكرهه السلطان، ولا على مَن أَوْلَجَ في دبرٍ، أو في فرجِ صغيرةٍ غيرِ مشتهاةٍ، أو ميتةٍ، أو بهيمةٍ، بخلافِ مَن أولج في فرجِ عجوزٍ. ولا على مَن زنى في دار الحرب، ولا على مَن زنى مع شبهةٍ. وفي بعض ما ذكر كلامٌ يطلب من كتب الفقه.

والحُكْمُ عامٌّ فيمَن زَنَى وهو مُحْصَنٌ وفي غيره، لكنْ نُسِخَ في حقِّ المحصَنِ قطعاً، فإنَّ الحكم في حقِّه الرَّجْمُ، ويكفينا في تعيين الناسخ القطعُ بأمره ﷺ

(١) البيت في الصحاح وأساس البلاغة (زنى)، واللسان والتاج (سكر)، وفيهما: المسَكَّر: المخمور.

بالرَّجْمِ، وفعله في زمانه عليه الصلاة والسلام مرَّاتٍ، فيكون من نسخ الكتاب بالسُّنَّة القطعية.

وقد أجمع الصحابةُ ﷺ ومَن تقدَّم من السَّلفِ وعلماء الأمة وأئمة المسلمين على أنَّ المُحصَنَ يُرْجَمُ بالحجارة حتى يموت، وإنكارُ الخوارج ذلك باطلٌ؛ لأنهم إنْ أنكروا حجِّيَّةَ إجماعِ الصحابة ﷺ فجَهْلٌ مركَّبٌ، وإن أنكروا وقوعَه من رسول الله ﷺ لإنكارهم حجِّيَّةَ خبر الواحد، فهو بعد بطلانه بالدليل ليس ممَّا نحن فيه؛ لأنَّ ثبوتَ الرجم منه عليه الصلاة والسلام متواترُ المعنى، كشجاعةِ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وجُودِ حاتم، والآحادُ في تفاصيل صُوَرِه وخصوصياتِه، وهم كسائر المسلمين يوجبون العمل بالمتواتر معنًى كالمتواتر لفظاً.

إلَّا أنَّ انحرافهم عن الصحابة والمسلمين، وتَرْكَ التردُّدِ إلى علماء المسلمين والرواةِ، أوقعهم في جهالاتٍ كثيرةٍ لخفاء السمع عنهم والشهرة، ولذا حين عابوا على عمر بن عبد العزيز في القول بالرجم مِن كونه ليس في كتاب الله تعالى ألزمهم بأعداد الركعات ومقادير الزَّكوات، فقالوا: ذلك من فِعْلِه ﷺ والمسلمين، فقال لهم: وهذا أيضاً كذلك.

وقد كوشف بهم عمر بن الخطاب ﷺ وكاشَفَ بهم حيث قال كما رَوَى البخاري: خشيتُ أن يطول بالناس زمانٌ حتى يقول قائلٌ: لا نَجِدُ الرجم في كتاب الله عز وجل، فيضلُّوا بترك فريضةٍ أنزلها الله عز وجل، ألا وإنَّ الرجم حقٌّ على مَن زنى وقد أُحْصِنَ، إذا قامت البينةُ، أو كان الحَبَلُ، أو الاعتراف[(١)].

وروى أبو داود أنه ﷺ خطب وقال: إنَّ الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بالحقِّ، وأنزل عليه كتاباً، فكان فيما أنزل عليه آيةُ الرجم ـ يعني بها قوله تعالى: «الشيخُ والشيخةُ إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيزٌ حكيم» ـ فقرأناها ووَعَيْناها، إلى أن قال: وإنِّي خشيتُ أن يطول بالناس زمانٌ فيقول قائل: لا نَجِدُ الرجم، الحديثَ بطُرقِه[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٢٩).

(٢) سنن أبي داود (٤٤١٨)، وهو عند أحمد (٢٧٦)، والبخاري (٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١). وليس عندهم ذكر لفظ آية الرجم، وورد ذلك في رواية النسائي في الكبرى (٧١١٨)، وابن =

وقال: لولا أن يقال: إنَّ عمر زاد في الكتاب لكتبتُها على حاشية المصحف الشريف[١].

ومن الناس مَن ذهب إلى أنَّ الناسخ الآيةُ المنسوخةُ التي ذكرها عمر رضي الله عنه. وقال العلَّامةُ ابنُ الهمام[٢]: إنَّ كونَ الناسخ السُّنةَ القطعيةَ أولى من كون الناسخ ما ذُكر من الآية؛ لعدم القَطْع بثبوتها قرآناً ثم نَسْخ تلاوتها، وإن ذكرها عمر رضي الله عنه وسكت الناس؛ فإنَّ كون الإجماع السكوتيِّ حجةً مختلفٌ فيه، وبتقدير حجِّيتهِ لا نقطعُ بأنَّ جميع المجتهدين من الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذ ذاك حضوراً، ثم لا شكَّ في أنَّ الطريق في ذلك إلى عمر رضي الله عنه ظنيٌّ، ولهذا ـ والله تعالى أعلم ـ قال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه حين جَلَدَ شُراحةَ ثم رَجَمها: جَلَدْتُها بكتاب الله تعالى، ورَجَمتُها بسنَّةِ رسول الله ﷺ[٣]. ولم يعلِّل الرجم بالقرآن المنسوخ التلاوة.

ويُعلم من قوله المذكورِ كرَّم الله تعالى وجهه أنه قائلٌ[٤] بعدم نَسْخِ عموم الآية، فيكون رأيه أنَّ الرجم حكمٌ زائدٌ في حقِّ المحصَنِ ثَبَتَ بالسُّنة، وبذلك قال أهلُ الظاهر، وهو روايةٌ عن أحمد، واستدلُّوا على ذلك بما رواه أبو داود من قوله ﷺ: «الثيبُ بالثيبِ جَلْدُ مئةٍ ورميٌ بالحجارة»[٥] وفي روايةٍ غيره: «ورَجْمٌ بالحجارة»[٦].

وعند الحنفية لا يجمعُ بين الرجم والجلد في المحصَن، وهو قولُ مالكٍ والشافعيِّ، وروايةٌ أخرى عن أحمد؛ لأنَّ الجلد يَعْرَى عن المقصود الذي شُرِعَ

= ماجه (٢٥٥٣). قال النسائي: لا أعلم أن أحداً ذكر في هذا الحديث: الشيخ والشيخة فارجموها البتة غير سفيان، وينبغي أن يكون وَهِمَ، والله أعلم.

(١) قطعة من رواية أبي داود، دون قوله: على حاشية المصحف الشريف، ونقله المصنف عن فتح القدير لابن الهمام ٤/ ١٢١.

(٢) في فتح القدير ٤/ ١٢٥.

(٣) أخرجه أحمد (٧١٦)، والنسائي في الكبرى (٧١٠٢)، والحاكم ٤/ ٣٦٥ وصححه، والحازمي في الاعتبار ص ٤٧٣.

(٤) في الأصل: أنه غير قائل، وهو خطأ، والمثبت من (م)، وفتح القدير ٤/ ١٢٥، والكلام منه.

(٥) سنن أبي داود (٤٤١٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٦) أخرج هذه الرواية أحمد (٢٢٧١٥)، ومسلم (١٦٩٠). ولفظ مسلم: .... جَلْدُ مئة والرجم.

الحدُّ له، وهو الانزِجارُ أو قَصْدُه إذا كان القتل لاحقاً له، والعمدةُ في استدلالهم على ذلك أنه ﷺ لم يجمع بينهما قَطْعاً، فقد تَضافَرت الطرق أنه ﷺ بعد سؤاله ماعزاً عن الإحصان وتَلْقينِه الرجوعَ لم يَزِدْ على الأمر بالرجم، فقال: «اذهبوا به فارجموه»[١] وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «اغْدُ يا أنيس إلى امرأةِ هذا، فإن اعْتَرَفَتْ بذلك فارْجُمْها»[٢] ولم يقل: فاجْلِدْها ثم ارْجُمْها. وجاء في باقي الحديث الشريف: فاعترفَتْ، فأمر بها ﷺ فرُجِمَتْ.

وقد تكرَّر الرَّجْمُ في زمانه ﷺ ولم يَرْوِ أحدٌ أنه جَمَعَ بينه وبين الجلد، فقَطَعْنا بأنه لم يكن إلَّا الرجمُ، فوَجَبَ كونُ الخبر السابق منسوخاً وإن لم يُعْلَمْ خصوصُ الناسخ.

وأجيب عمَّا فعل عليٌّ كرم الله تعالى وجهه من الجمع بأنه رأيٌ لا يُقاوِمُ ما ذكر من القَطْع عن رسول الله ﷺ، وكذا لا يُقاوِمُ إجماعَ الصحابة ﷺ.

ويحتمل أن يقال: إنه كرم الله تعالى وجهه لم يثبت عندهُ الإحصانُ إلَّا بعد الجلد، وهو بعيدٌ جدّاً كما يظهر من الرجوع إلى القصة، والله تعالى أعلم.

وإحصانُ الرَّجْم يتحقَّق بأشياء نَظَمها بعضُهم فقال:

شروطُ إحصانٍ[٣] أتت ستةٌ ... فخذها عن النصِّ مستفهما
بلوغٌ وعقلٌ وحرِّيةٌ ... ورابعُها كونُه مسلما
وعقدٌ صحيحٌ ووَطْءٌ مباح ... متى اختلَّ شرطٌ فلن يُرْجَما

---

(١) أخرج حديث ماعز مسلم (١٦٩٢) و(١٦٩٣) و(١٦٩٤)، و(١٦٩٥) من حديث جابر بن سمرة وابن عباس وأبي سعيد وبريدة.
وأخرجه البخاري (٦٨١٥)، ومسلم (١٦٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ، ولم يذكر فيه اسم ماعز.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٠٣٨)، والبخاري (٢٣١٤-٢٣١٥)، ومسلم (١٦٩٧) و(١٦٩٨)، من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني.

(٣) في الدر المختار: شروط الإحصان، وقال ابن عابدين في حاشيته ١٨/٤: ويوجد في بعض النسخ: شروط الحصانة في ستة، وهذا هو الصواب. اهـ. وذكر ابن عابدين أن هذا النظم نقله القاضي زين الدين بن رشيد صاحب العمدة عن الفاكهاني المالكي.

وزاد غيرُ واحدٍ كونَ [كلّ][(١)] واحدٍ من الزوجين مساوياً الآخرَ في شرائط الإحصان وقتَ الإصابة بحكم النكاح، فلو تزوَّج الحرُّ المسلم البالغُ العاقلُ أَمَةً أو صبيةً أو مجنونةً أو كتابيةً ودخل بها، لا يصير محصناً بهذا الدخول، حتى لو زنى مِن بعدُ لا يُرْجَم، وكذا لو تزوَّجتِ الحرَّةُ البالغةُ العاقلةُ المسلمة من عبدٍ أو مجنونٍ أو صبيٍّ ودخل بها، لا تصير مُحْصَنةً، فلا تُرْجَمُ لو زَنَتْ بعدُ.

وذكر ابن الكمال شرطاً آخَرَ، وهو أن لا يبطل إحصانُهما بالارتداد[(٢)]، فلو ارتدَّا ـ والعياذُ بالله تعالى ـ ثم أسلما، لم يَعُدْ إلَّا بالدخول بعده، ولو بطل بجنونٍ أو عتهٍ عاد بالإفاقة، وقيل: بالوطء بعده.

والشافعيُّ لا يشترط المساواة في شرائط الإحصان وقتَ الإصابة، فلا رَجْمَ عنده[(٣)] في المسألتين السابقتين، وكذا لا يَشْتَرِطُ الإسلامَ، فلو زنى الذمِّيُّ الثيِّبُ الحرُّ يُجلَدُ عندنا ويُرْجَمُ عنده، وهو روايةٌ عن أبي يوسف، وبه قال أحمد، وقولُ مالكٍ كقولنا.

واستدلَّ المخالفُ بما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنَّ امرأةً منهم ورجلاً زَنَيا، فقال رسول الله ﷺ: «ما تَجِدُونَ في التوراة في شأنِ الرَّجْمِ»؟ فقالوا: نفضحُهم ويُجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كذبتُم فيما زعمتم، إنَّ فيها الرجمَ. فَأَتوا بالتوراة فَسَرَدوها، فوضع أحدهم ـ يعني عبد الله بن صوريا ـ يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا آيةُ الرجم، فقالوا: صَدَقَ يا محمد. فأَمَر بهما النبيُّ ﷺ فرُجِما[(٤)].

ودليلنا ما رواه إسحاق بن راهويه في «مسنده» قال: أخبرنا عبد العزيز بن

---

(١) ما بين حاصرتين من فتح القدير ٤/ ١٣١، والكلام منه.

(٢) لأنهما إن ارتدَّا بطل إحصانهما. ينظر فتح القدير ٤/ ١٣١، والكلام من الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ٤/ ١٧-١٨.

(٣) كذا قال، وهو وهم، والصواب: فالرجم عنده.

(٤) صحيح البخاري (٣٦٣٥)، وصحيح مسلم(١٦٩٩)، وليس فيهما ذكر اسم الواضع يده، وورد ذلك في رواية ابن حبان (٤٤٣٥). وجاء في المصادر: فنشروها، بدل: فسردوها.

محمد، حدثنا عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن أشرك بالله فليس بِمُحْصَنٍ» وقد رُفع هذا الخبر ـ كما قال إسحاق ـ مرةً ووُقفَ أخرى[١]. ورواه الدارقطني في «سننه»[٢] وقال: لم يرفعه غيرُ ابن راهويه[٣]، ويقال: إنه رجع عن ذلك، والصوابُ أنه موقوفٌ. اهـ.

وفي «العناية»[٤] أنَّ لفظ إسحاق كما تراه ليس فيه رجوعٌ وإنما ذكر عن الراوي أنه مرةً رفعه ومرةً أخرجه مخرج الفتوى ولم يَرْفَعْه، ولاشك في أنَّ مثله بعد صحة الطريق إليه محكومٌ برَفْعِه على ما هو المختار في علم الحديث من أنه إذا تعارض الرفعُ والوقفُ حُكِمَ بالرفع، وبعد ذلك إذا خرِّج من طرقٍ فيها ضَعْفٌ لا يَضُرّ.

وأجاب بعضُ أَجِلَّةِ أصحابنا بأنه كان الرجم مشروعاً بدون اشتراطِ الإسلام حين رجم ﷺ الرجل والمرأة اليهوديين، وذلك بما أنزله الله تعالى إليه عليه الصلاة والسلام. وسؤالُه ﷺ اليهود عمَّا يجدونه في التوراة في شأنه ليس لأنْ يعلمَ حُكْمَه من ذلك. والقولُ بأنه عليه الصلاة والسلام كان أولَ ما قَدِمَ المدينةَ مأموراً بالحكم بما في التوراة، ممنوعٌ، بل ليس ذلك إلَّا ليبكِّتهم بترك الحكم بما أنزل الله تعالى عليهم، فلمَّا حصل الغرضُ حَكَمَ ﷺ برَجْمِهما بشَرْعِه الموافقِ لشرعهم.

وإذا عُلِمَ أنَّ الرجم كان ثابتاً في شرعنا حالَ رَجْمِها بلا اشتراطِ الإسلام، وقد ثَبَتَ حديثُ ابن عمر رضي الله عنهما المفيدُ لاشتراطِ الإسلام، وليس تاريخٌ يُعرف به تَقدُّمُ اشتراط الإسلام على عدم اشتراطه أو تأخُّرُه عنه، حصل التعارُضُ بين فِعْلِه ﷺ رَجْمَ اليهوديين وقولِه المذكور، فيطلب الترجيح، وقد قالوا: إذا تعارَضَ القولُ والفعلُ ولم يُعْلَمِ المتقدِّمُ من المتأخِّرِ يقدَّمُ القول على الفعل.

وفيه وجهٌ آخر وهو أنَّ تقديم هذا القول موجبٌ لدَرْءِ الحدِّ، وتقديم ذلك الفعل

---

(١) نصب الراية ٣/ ٣٢٧.

(٢) برقم(٣٢٩٥).

(٣) في (م): راهويه ابن راهويه، وهو خطأ.

(٤) العناية بمعرفة أحاديث الهداية، لمحيي الدين عبد القادر بن محمد القرشي، والكلام من فتح القدير لابن الهمام ٤/ ١٣٢.

يوجبُ الاحتياط في إيجاب الحدِّ، والأَوْلَى في الحدود ترجيحُ الرافع عند التعارُض.

ولا يخفى أنَّ كلَّ مترجِّحٍ فهو محكومٌ بتأخُّره اجتهاداً، فيكون المعوَّلُ عليه في الحكم حديثَ ابن عمر رضي الله عنهما.

وقولُ المخالف: إنَّ المراد بالمحصن فيه المحصنُ الذي يقتصُّ له من المسلم، خلافُ الظاهر؛ لأنَّ أكثر استعمال الإحصان في إحصان الرجم.

وردَّ بعضهم بالآية على القائلين: إنَّ حدَّ زنى البكر بالبكر جلدُ مئةٍ وتغريبُ سنةٍ، وهم الإمام الشافعيُّ والإمام أحمد والثوريُّ والحسن بن صالح. ووجهُ الردِّ: أن قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ إلخ شروعٌ في بيانِ حكم الزنى ما هو، فكان المذكورُ تمامَ حكمه، وإلا كان تجهيلاً لا بياناً وتفصيلاً؛ إذ يفهم منه أنه تمامٌ وليس بتمام في الواقع، فكان مع الشروع في البيان أبعدَ من البيان؛ لأنه أَوْقَعَ في الجهل المركَّب، وقبله كان الجهل بسيطاً، فيفهم بمقتضى ذلك أن حدَّ الزانية والزاني ليس إلا الجَلْدَ. وأَخْصَرُ من هذا أنَّ المقام مقامُ البيان، فالسكوت فيه يفيد الحصر.

وقال المخالف: لو سلَّمنا الدلالة على الحصر، وأنَّ المذكور تمامُ الحكم ليكون المعنى أنَّ حدَّ كلٍّ ليس إلا الجلدَ، فذلك منسوخٌ بما صحَّ من رواية عبادة بن الصامت عنه ﷺ: «البِكْرُ بالبِكْرِ جَلْدُ مئةٍ وتغريبُ عامٍ»[1].

وأجيب: بأنه بعد التسليم لا تصحُّ دعوى النسخ بما ذكر؛ لأنه خبرُ الواحد، وعندنا لا يجوز نسخُ الكتاب به. والقولُ بأنَّ الخبر المذكورَ قد تلقَّته الأمَّة بالقبول، لا يُجدي نفعاً؛ لأنه إن أريدَ بتلقِّيه بالقبول إجماعُهم على العمل به فممنوعٌ، فقد صحَّ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه لا يقول بتغريبهما، وقال: حَسْبُهما من الفتنة أن يُنْفَيا، وفي رواية: كفى بالنفي فتنةً.

وإن أريدَ إجماعُهم على صحته بمعنى صحةِ سنده، فكثيرٌ من أخبار الآحاد كذلك، ولم تَخْرُجْ بذلك عن كونها آحاداً. على أنه ليس فيه أكثر من كون التغريب

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٦٦٦)، ومسلم (١٦٩٠)، وأوَّله: «خذوا عني قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البكر بالبكر...».

واجباً، ولا يدلُّ على أنه واجبٌ بطريق الحدِّ، بل ما في «صحيح البخاريِّ» من قول أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قضى فيمَن زنى ولم يُحصَنْ بنفي عام وإقامةِ الحدِّ[١]، ظاهرٌ في أنَّ النفي ليس من الحدِّ؛ لعَطْفِه عليه. وكونُه استَعْمَلَ الحدَّ في جزءٍ مسمَّاه وعَطَفَ على الجزء الآخَرِ بعيدٌ، فجاز كونُه تعزيراً لمصلحة، وقد يغرِّبُ الإمام لمصلحةٍ يراها في غير ما ذكر، كما صحَّ أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ غرَّبَ نصر بن حجاج إلى البصرة بسبب أنه لجماله افتتن بعض النساء به، فسمع قائلةً ـ يقال: إنها أمُّ الحجَّاج الثقفيِّ، ولذا قال له عبد الملك يوماً: يا ابن المتمنِّية ـ تقول:

هل مِن سبيلٍ إلى خمرٍ فأَشْرَبَها ... أو هل سبيلٌ إلى نصر بنِ حجَّاج
إلى فتًى ماجدِ الأعراق مُقْتَبلٍ[٢] ... سهلِ المحيَّا كريمٍ غيرِ مِلْجاجِ[٣]

والقولُ بأنه لا يجتمع التعزيرُ مع الحدِّ لا يخفى ما فيه.

وادَّعى الفقيهُ المرغينانيُّ أنَّ الخبر المذكور منسوخٌ، فإنَّ شطره الثانيَ الدالَّ على الجمع بين الجلدِ والرَّجْمِ منسوخٌ كما علمت[٤].

وفيه: أنه لا لزومَ، فيجوزُ أن تُرْوَى جملٌ نُسِخَ بعضُها، وبعضُها لم يُنْسَخْ. نعم ربما يكون نَسْخُ أحدِ الشطرين مسهِّلاً لتطرُّقِ احتمالِ نَسْخِ الشطر الآخر، فيكون هذا الاحتمالُ قائماً فيما نحن فيه، فيَضْعُفُ عن درجة الآحاد التي لم يتطرَّقْ ذلك الاحتمالُ إليها، فيكون أحرى أنْ لا يَنْسَخَ ما أفاده الكتابُ من أنَّ الحدَّ هو الجَلْدُ لا غيرَ على ما سمعتَ تقريرَه، فتأمَّلْ.

ثم إنَّ التغريب ليس مخصوصاً بالرجل عند أولئك الأئمة، فقد قالوا: تغرَّبُ

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٣٣).

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): هو الذي لم يظهر فيه أثر كِبَر.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٨٥، وابن عساكر في تاريخه ٦٢/ ٢٢، وليس فيه تعيين القائلة، وورد ذلك عند ابن قتيبة في غريب الحديث ٢/ ٢٢٣، وفيه أن القائل: يا ابن المتمنية هو عروة بن الزبير في مجلس عبد الملك بن مروان.

(٤) يعني حديث عبادة بن الصامت ﷺ الذي سلف قريباً، وتمامه: «والثيِّبُ بالثيِّب، جلدُ مئةٍ والتغريب». وكلام المرغيناني في الهداية مع فتح القدير ٤/ ١٣٤، وما سيأتي من كلام ابن الهمام.

المرأةُ مع مَحْرَمٍ، وأجرتهُ عليها في قول، وفي بيتِ المالِ في آخَرَ. ولو امتنع ففي قولٍ يُجْبِرهُ الإمام، وفي آخَرَ: لا. ولو كانت الطريق آمنةً ففي تغريبها بلا مَحْرَمٍ قولان.

وعند مالك والأوزاعيِّ إنما يُنْفَى الرجل ولا تُنفَى المرأة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «البكرُ بالبكرِ» إلخ. وقال غيرهما ممن تقدَّم: إنَّ الحديث يجب أن يشملها، فإنَّ أوَّلَه: «خُذوا عنِّي، قد جَعَلَ الله تعالى لهنَّ سبيلاً، البكرُ بالبكرِ» إلخ، وهو نصٌّ على أنَّ النفيَ والجَلْدَ سبيلٌ للنساء، والبكرُ يقال على الأنثى، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «البكرُ تستأذن»(١)؟

ومع قَطْعِ النظر عن كلِّ ذلك قد يقال: إنَّ هذا من المواضع التي تَثْبتُ الأحكام فيه في النساء بالنصوص المفيدةِ إياها للرجال بتنقيح المناط(٢).

هذا، ثم لا يَخْفَى أنَّ الظاهر من «الزانية والزاني» ما يَشْمَلُ الرقيقَ وغيرَه، فيكون مقدارُ الحدِّ في الجميع واحداً، لكنَّ قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ الآية [النساء: ٢٥] أخرجت الإماء، فإنَّ الآية نزلت فيهنَّ، وكذا أخرجت العبيدَ؛ إذ لا فَرْقَ بين الذكر والأنثى بتنقيح المناط، فيرجع في ذلك إلى دلالة النصِّ بناءً على أنه لا يُشتَرَطُ في الدلالة أولويةُ المسكوت بالحكم من المذكور، بل المساواةُ تكفي فيه. وقيل: تدخلُ العبيد بطريق التغليب، عكسَ القاعدة وهي تغليبُ الذكور.

ولا يشترطُ الإحصانُ في الرقيق؛ لِمَا روى مسلم وأبو داود والنسائيُّ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: «أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانُكم، مَن أُحْصِنَ ومَن لم يُحْصَنْ»(٣) وفيه دليلٌ على أنَّ الشرط ـ أعني الإحصان

(١) أخرجه البخاري (٦٩٧١) من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم (١٤٢١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تنقيح المناط: إلحاق الفرع بالأصل بإلغاء الفارق، أو: إلحاق المسكوت عنه بالمنصوص عليه. المحصول للرازي ٥/ ٢٢٩، وإرشاد الفحول للشوكاني ص١٩٤.

(٣) صحيح مسلم (١٧٠٥)، وسنن أبي داود (٤٤٧٣)، وسنن النسائي الكبرى (٧٢٠١) و(٧٢٢٩). وهو عند مسلم موقوف على عليٍّ رضي الله عنه. وليس في المرفوع عند أبي داود

=

في الآية الدالَّة على تنصيف الحدِّ ـ لا مفهومَ له، ونقل عن ابن عباس وطاوس أنه لا حدَّ على الأمة حتى تُحْصَنَ بزوج، وفيه اعتبارُ المفهوم. ثم هذا الإحصانُ شرطٌ للجَلْدِ لأنَّ الرجم لا يتنصَّفُ.

وللشافعيِّ في تغريب العبد أقوالٌ: يغرَّبُ سنةً. يغرَّبُ نصفَ سنةٍ. لا يغرَّب أصلاً.

والخطاب في قوله تعالى: (فَٱجۡلِدُواْ) لأئمَّةِ المسلمين ونوَّابهم. واختلف في إقامة المولى الحدَّ على عبده، فعندنا لا يقيمُه إلا بإذن الإمام، وقال الشافعيُّ ومالكٌ وأحمد: يقيمه من غير إذن، وعن مالك: إلا في الأَمَة المزوَّجة[1]. واستثنى الشافعيُّ من المولى: الذميَّ والمكاتَبَ والمرأة.

وكذا اختلف في إقامة الخارجيِّ المتغلب الحدَّ، فقيل: يقيم، وقيل: لا.

وأدلَّةُ الأقوال المذكورة وتحقيقُ ما هو الحقُّ منها في محلِّه.

والظاهرُ أنَّ إقامة الحدِّ المذكور بعد تحقُّق الزنى بإحدى الطرق المعلومة، وقال إسحاق: إذا وجد رجلٌ وامرأةٌ في ثوبٍ واحد يُجْلَدُ كلُّ واحدٍ منهما مئةَ جلدةٍ. وروي ذلك عن عمر وعليٍّ رضي الله عنهما. وقال عطاءٌ والثوريُّ ومالكٌ وأحمدُ: يؤدَّبان، على مذاهبهم في الأدب.

﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ تلطُّفٌ ومعاملةٌ برفقٍ وشفقةٍ ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته وإقامةِ حدِّه الذي شرعه عز وجل. والمرادُ النهيُ عن التخفيف في الجلد، بأن يجلدوهما جلداً غيرَ مؤلمٍ، أو بأن يكون أقلَّ من مئة جلدةٍ.

وقال أبو مجلز ومجاهد وعكرمة وعطاء: المراد النهيُ عن إسقاط الحدِّ بنحو شفاعةٍ، كأنه قيل: أقيموا عليهما الحدَّ ولابد. وروي معنى ذلك عن ابن عمر وابن جبير، وفي هذا دليلٌ على أنه لا يجوز الشفاعة في إسقاط الحدِّ. والظاهرُ أن المراد عدمُ جوازِ ذلك بعد ثبوت سبب الحدِّ عند الحاكم، وأما قبل الوصول إليه والثبوتِ

= والنسائي: أحصن أولم يحصن. وله شاهد من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني عند البخاري (٢١٥٣، ٢١٥٤)، ومسلم (١٧٠٤).

(١) هذا مذهب مالك إذا لم يكن الزوج ملكاً للسيد، فلو كان جاز للسيد ذلك. ينظر المفهم لأبي العباس القرطبي ٥/ ١٢٢، وتفسير القرطبي ٦/ ٢٤٠.

فإنَّ الشفاعة عند الرافع لمن اتَّصَفَ بسبب الحدِّ إلى الحاكم ليطلقه قبل الوصول وقبل الثبوت، تجوز.

ولم يَخصُّوا ذلك بالزنى؛ لِمَا صحَّ أنه عليه الصلاة والسلام أنكر على حِبِّه أسامةَ بنِ زيد حين شفع في فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية السارقة قطيفةً، وقيل حلياً، فقال له: «أَتَشْفَعُ في حدٍّ من حدود الله تعالى؟» ثم قام فخطب فقال: «أيها الناس، إنما ضلَّ مَن قَبْلَكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وايمُ الله تعالى لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سَرَقَتْ ـ وحاشاها ـ لقطعتُ يدها»(١).

وكما تَحرُمُ الشفاعة يَحْرُمُ قبولُها، فعن الزبير بن العوام ﷺ أنه قال: إذا بلغ الحدُّ إلى الإمام فلا عفا الله تعالى عنه إن عفا.

و«بهما» قيل: متعلِّقٌ بمحذوفٍ على البيان، أي: أعني بهما، وقيل: بتَرْأفوا محذوفاً، أي: ولا تَرْأفوا بهما. ويُفْهِمُ صنيعُ أبي البقاء اختيارَ تعلُّقه بـ «تأخذ» والباء للسببية، أي: ولا تأخذكم بسببهما رأفةٌ، ولم يجوِّز تعلُّقه بـ «رأفة» معلِّلاً بأنَّ المصدرَ لا يتقدَّم معمولهُ عليه(٢).

وعندي هو متعلِّقٌ بالمصدر، ويُتَوسَّعُ في الظرف ما لا يتوسَّعُ في غيره، وقد حقَّق ذلك العلَّامةُ سعدُ الملَّةِ والدِّين في أول «شرح التلخيص» بما لا مزيدَ عليه.

و«في دين» قيل: متعلِّقٌ بـ «تأخذ» وعليه أبو البقاء(٣). وقيل: متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «رأفة».

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسُّلميُّ وابن مقسم، وداود بن أبي هند عن مجاهد: «ولا يأخذكم» بالياء التحتية(٤)؛ لأن تأنيث «رأفة» مجازيٌّ، وحسَّن ذلك الفَصْلُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨) من حديث عائشة ﷺ.
(٢) الإملاء ٤/ ٦٨.
(٣) في الإملاء ٤/ ٦٨.
(٤) القراءات الشاذة ص ١٠٠، والبحر ٦/ ٤٢٩.

وقرأ ابن كثير: «رأَفةٌ» بفتح الهمزة[١]. وابن جريج: «رآفة» بألف بعد الهمزة على وزن فَعَالة، ورُوي ذلك عن عاصم وابن كثير[٢]. ونقل أبو البقاء أنه قرئ: «رافةٌ» بقَلْبِ الهمزة ألفاً[٣]، وهي في كلٍّ ذلك مصدرٌ مسموعٌ، إلا أنَّ الأشهر في الاستعمال ما وافق قراءة الجمهور.

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ من باب التهييج والإلهاب، كما يقال: إن كنتَ رجلاً فافعل كذا، ولاشكَّ في رجوليَّته، وكذا المخاطبون هنا مقطوعٌ بإيمانهم، لكنْ قُصِدَ تهييجُهم وتحريكُ حَمِيَّتهم ليَجدُّوا في طاعة الله تعالى، ويجتهدوا في إجراء أحكامه على وجهها. وذكر «اليوم الآخر» لتذكير ما فيه من العقاب في مقابلة الرأفة بهما.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ أي: ليحضُرْه زيادةً في التنكيل، فإنَّ التفضيح قد ينكِّلُ أكثر من التعذيب، أو لذلك وللعبرة والموعظة.

وعن نصر بن عَلْقمةَ[٤]: أنَّ ذلك ليُدْعَى لهما بالتوبة والرحمة لا للتفضيح. وهو في غاية البُعْدِ من السياق.

والأمر هنا ـ على ما يدلُّ عليه كلام الفقهاء ـ للنَّدْبِ.

واختلف في هذه الطائفة؛ فأخرج عبد بن حميد[٥] وغيره عن ابن عباس أنه قال: الطائفةُ: الرجلُ فما فوقه. وبه قال أحمد.

وقال عطاء وعكرمةُ وإسحاق بن راهويه: اثنان فصاعداً، وهو القولُ المشهور

---

(١) التيسير ص ١٦١، والنشر ٢/ ٣٣٠.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٠٠، والبحر ٦/ ٤٢٩، والمشهور عن ابن كثير فتح الهمزة كما سلف، وعن عاصم تسكينها.

(٣) الإملاء ٤/ ٦٨. قال السمين في الدر المصون ٨/ ٣٨٠: ومثل هذا ظاهر غير محتاج للتنبيه عليه، فإنها لغة مستقلة وقراءة متواترة. اهـ. وقال الداني في التيسير ص ٣٦: اعلم أنَّ أبا عمرو كان إذا قرأ في الصلاة، أو أدرج قراءته، أو قرأ بالإدغام، لم يهمز كلَّ همزة ساكنة، سواءٌ كانت فاءً أو عيناً أو لاماً.

(٤) الحضرمي، أبو علقمة الحمصي، من رجال التهذيب، وأخرج قوله ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٢٠.

(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ١٨، وأخرجه أيضاً ابن ابي حاتم ٨/ ٢٥٢٠.

لمالك. وقال قتادة والزهريُّ: ثلاثةٌ فصاعداً. وقال الحسن: عشرة. وعن الشافعي وزيد: أربعة، وهو قولٌ لمالك.

قال الخفاجيُّ: وتحقيقُ المقام أنَّ الطائفة في الأصل اسمُ فاعلٍ مؤنَّثٍ من الطَّواف: الدوران أو الإحاطة، فهي إما صفةُ نفسٍ، أي: نفسٌ طائفةٌ، فتُطلَقُ على الواحد، أو صفةُ جماعةٍ، أي: جماعةٌ طائفة، فتطلق على ما فوقه، فهي كالمشترك بين تلك المعاني، فتُحْمَلُ في كلِّ مقامٍ على ما يناسبه.

وذكر الراغب[1]: أنها إذا أريد بها الواحد يصحُّ أن تكون جمعاً كُني به عن الواحد، ويصحُّ أن تكون مفرداً والتاءُ فيها كما في: راوية.

وفي حواشي العَضُد للهرويِّ[2]: يصحُّ أن يقال للواحد: طائفة، ويراد: نفسٌ طائفةٌ، فهي من الطواف بمعنى الدوران.

وفي «شرح البخاري»: حَمَلَ الشافعيُّ الطائفة في مواضعَ من القرآن على أَوْجُهٍ مختلفةٍ بحسب المواضع، فهي في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة:١٢٢] واحدٌ فأكثر، واحتَجَّ على قبول خبر الواحد، وفي قوله تعالى: (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ) أربعةٌ، وفي قوله سبحانه: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] ثلاثةٌ. وفرَّقوا في هذه المواضع بحسب القرائن؛ أما في الأولى فلأنَّ الإنذار يحصل به، وأما في الثانية فلأنَّ التشنيع فيه أشدّ، وأما في الثالثة فلضمير الجمع بعدُ في قوله تعالى: (وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ) وأقلُّه ثلاثةٌ. وكونُها مشتقَّةً من الطواف لا ينافيه؛ لأنه يكون بمعنى الدوران، أو هو الأصلُ وقد لا يُنْظَرُ إليه بعد الغلبة، فلذا قيل: إنَّ تاءها للنقل[3]. انتهى. ولا يخلو عن بحث.

والحقُّ أن المراد بالطائفة هنا: جماعةٌ يَحْصُلُ بهم التشهيرُ والزَّجْر، وتختلف قلَّةً وكثرةً بحَسَبِ اختلاف الأماكن والأشخاص، فربَّ شخصٍ يحصل تشهيرُه

---

(١) في مفرداته (طوف).

(٢) لعله المحقق المولى حيدر الهروي، المتوفى في عشر الثلاثين وثمانمئة، وله شرح المواقف للعضد الإيجي. كشف الظنون ٢/ ١٨٩٤. والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٣٥٦.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٥٦، والكلام في عمدة القاري ١/ ٢٠٩ إلى قوله: وأقله ثلاثة، وينظر أحكام القرآن للشافعي ١/ ٢١٩.

وزَجْرُه بثلاثةٍ، وآخَرَ لا يحصلُ تشهيرُه وزَجْرُه بعشرة، وللقائل بالأربعة هنا وجهٌ وجيهٌ كما لا يخفى.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ تقبيحٌ لأمر الزاني أشدَّ تقبيح، ببيان أنه بعد أن رضي بالزنى لا يليق به أن ينكح العفيفةَ المؤمنةَ، فبينهما كما بَيْنَ سهيلٍ والثُّريَّا فترى هذه شاميَّةً إذا ما استقلَّت، وترى ذاك إذا ما استقلَّ يمانياً، وإنما يليقُ به أن ينكح زانيةً هي في ذلك طَبَقَه[1]، ليوافِقَ ـ كما قيل ـ شَنٌّ طَبَقَه[2]. أو مشركةً هي أسوأ منه حالاً وأقبح أفعالاً.

فـ «لا ينكحُ» خبرٌ مرادٌ منه: لا يليقُ به أن ينكح، كما تقول: السلطانُ لا يكذب، أي: لا يليق به أن يكذب، نزل فيه عدمُ لياقة الفعل منزلةَ عَدَمِه، وهو كثيرٌ في الكلام. ثم المرادُ اللياقةُ وعدمُ اللياقةِ من حيث الزنى، فيكون فيه من تقبيح الزنى ما فيه.

ولا يُشْكِلُ صحةُ نكاح الزاني المسلم الزانيةَ المسلمةَ وكذا العفيفةَ المسلمةَ، وعدمُ صحة نكاحه المشركةَ المذكورةَ في الآية ـ إذا فسِّرت بالوثنية ـ بالإجماع؛ لأنَّ ذلك ليس من اللِّياقة وعدم اللياقة من حيث الزنى، بل من حيثيةٍ أخرى يعلمها الشارع كما لا يخفى.

وعلى هذا الطرزِ قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي: الزانية بعد أن رضيت بالزنى، فَوَلَغَ فيها كلبُ شهوةِ الزاني، لا يليقُ أن ينكحها من حيث إنها كذلك إلَّا مَن هو مثلُها وهو الزاني، أو مَن هو أسوأ حالاً منها وهو المشرك، وأمَّا المسلم العفيفُ فَأَسَدُ غيرته يأبى ورودَ جُفْرَتها[3]:

---

(١) الطَّبَق من كل شيء: ما ساواه، والطَّبَق: غطاء كل شيء. القاموس (طبق).

(٢) الشنُّ: وعاءٌ من أدم كان قد تشنَّنَ، أي: تقبَّض، فجُعل له غطاءٌ فوافقه. وقيل: طبق: قبيلة من إياد كانت لا تطاق، فأوقعت بها شنٌّ فانتصفت منها، فضربتا مثلاً للمتفقين في الشدة وغيرها. وقيل: طبقةُ: امرأة عاقلة تزوَّج بها رجل عاقل. ينظر جمهرة الأمثال ٢/ ٢٣٦، ومجمع الأمثال ٢/ ٢٥٩، والمستقصى ١/ ٤٣٣، والقاموس (طبق).

(٣) الجُفْرة والجَفْر: البئر الواسعة التي لم تُطْوَ، أو هي التي طوي بعضها ولم يُطْوَ بعض. التاج (جفر).

وتـجـتـنـبُ الأسـودُ ورودَ مـاءٍ إذا كـان الـكـلاب يَـلِـغْـنَ فـيـه[1]

ولا يُشْكِلُ على هذا صحةُ نكاحه إياها، وعدمُ صحةِ نكاح المشرك سواءٌ فسِّر بالوثنيِّ أو بالكتابيِّ ليحتاج إلى جواب، وهو ظاهر.

والإشارةُ في قوله سبحانه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ يحتمل أن تكون للزِّنا المفهوم مما تقدَّم، والتحريمُ عليه على ظاهره، وكذا «المؤمنين». ولعل هذه الجملة وما قبلها متضمِّنةٌ لتعليلِ ما تقدَّم من الأمر والنهي، ولذا لم يعطف قوله سبحانه: (ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ) إلخ عليه كما عطف قوله عز وجل الآتي: (وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ) إلخ، وأمرُ إشعارِ ما تقدَّم بالتحريم سهلٌ. وتخصيصُ المؤمنين بالتحريم عليهم على رأيِ مَن يقول: إنَّ الكفار غيرُ مكلَّفين بالفروع؛ ظاهر، وأمَّا على رأي مَن يقول بتكليفهم بها كالأصول ـ وإن لم تصحَّ منهم إلا بعد الإيمان ـ فتخصيصُهم بالذكر لشرفهم.

ويحتمل أن تكون لنكاح الزانية، وعليه فالمرادُ من التحريم المنعُ، وبـ «المؤمنين» المؤمنون الكاملون، ومعنى مَنْعِهم عن نكاح الزواني: جَعْلُ نفوسهم أبيَّةً عن الميل إليه، فلا يليقُ ذلك بهم.

ولا يأبى حَمْلُ الآية على ما قرِّر فيها ما روي في سبب نزولها مما أخرج أبو داود، والترمذيُّ وحسَّنه، والحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ وابن المنذر وغيرهم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه قال: كان رجلٌ يقال له: مَرْثَد، يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينةَ، وكانت امرأةٌ بَغيٌّ بمكة يقال لها: عَناق، وكانت صديقةً له، وإنه وَعَدَ رجلاً من أسارى مكة بحمله، قال: فجئتُ حتى انتهيتُ إلى ظلِّ حائطٍ من حوائط مكة في ليلةٍ مقمرة، فجاءت عَناقُ فأبصرتْ سوادَ ظلِّ تحت الحائط، فلما انتهتْ إليَّ عَرَفَتْني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً، هلمَّ فبِتْ عندنا الليلةَ. قلت: يا عَناق، حرَّم الله تعالى الزنى. قالت: يا أهل الخيام هذا الرجلُ يحمل أسراكم. قال: فتَبِعني ثمانيةٌ، وسلكتُ الخندمة فانتهيتُ إلى غارٍ أو كهفٍ فدخلتُ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي [فبالُوا]، فظَلَّ بولُهم على

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٧/ ٣٤٤، والمستطرف ١/ ١٠٤.

رأسي، وعَمَاهم الله تعالى عنِّي، ثم رجعوا، ورجعتُ إلى صاحبي فحملتُه حتى قدمتُ المدينةَ، فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، أنكحُ عناق؟ فأمسك فلم يَرُدَّ عليَّ شيئاً، حتى نزل: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «يا مرثد: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلا تنكحها»[1] = لأنَّ تفريع النهي فيه عن نكاح تلك البغيِّ ممَّا لا شبهةَ في صحته على تقدير كون الآية المفرَّع عليها لتقبيح أمر الزاني والزانية، فكأنه قيل: إذا علمتَ أمر الزانية، وأنها بلغت في القُبْحِ إلى حيث لا يليقُ أن ينكحها إلا مثلُها أو مَن هو أسوأُ حالاً، فلا تنكحها.

نعم في هذا الخبر ما هو أوفقُ بجَعْلِ الإشارة فيما مرَّ إلى نكاح الزانية، ويعلمُ منه وجهُ تقديم «الزاني» والإخبارِ عن «الزانية» بأنه لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ على خلاف ما تقتضيه المقابلةُ.

هذا، وللعلماء[2] في هذه الآية الجليلة كلامٌ كثيرٌ لا بأس بنقل ما تيسَّر منه وإبداءِ بعض ما قيل فيه، ثم انظر فيه وفيما قدَّمناه واخْتَرْ لنفسك ما يحلو.

فأقول: نُقل عن الضحَّاك والقفَّال ـ وقال النيسابوريُّ[3]: إنه أحسنُ الوجوه في الآية ـ أنَّ قوله سبحانه: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ﴾ إلخ حُكْمٌ مؤسَّسٌ على الغالب المعتاد، جيءَ به لزَجْرِ المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زَجْرِهم عن الزنى، وذلك أنَّ الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنى والتقحُّبُ لا يرغبُ غالباً في نكاح الصَّوَالِح من النساء اللاتي على خلافِ صفته، وإنما يرغبُ في فاسقةٍ خبيثةٍ من شَكْلِه أو في مُشْرِكةٍ. والفاسقةُ الخبيثةُ المسافحةُ كذلك لا يرغب في نكاحها الصُّلَحاءُ من الرجال، وينفرون عنها، وإنَّما يرغبُ فيها مَن هو مِن شَكْلِها من الفَسَقةِ والمشركين، ونظيرُ هذا الكلام: لا يفعلُ الخيرَ إلَّا تقيٌّ، فإنَّه جارٍ مجرى الغالب.

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٥١) مختصراً، وسنن الترمذي(٣١٧٧) واللفظ له وما بين حاصرتين منه، والمستدرك ٢/ ١٦٦، وسنن البيهقي الكبرى ٧/ ١٥٣، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ١٩، وأخرجه أيضاً النسائي في المجتبى ٦/ ٦٦.

(٢) في (م): والعلماء، وهو خطأ.

(٣) في غرائب القرآن ١٨/ ٥٧.

ومعنى التحريم على المؤمنين على هذا، قيل: التنزيهُ، وعبَّر به عنه للتغليظ، ووجهُ ذلك أنَّ نكاح الزَّوَاني متضمِّنٌ التشبُّه بالفسَّاق، والتعرُّضَ للتهمة، والتسبُّبَ لسوء القالة والطعنِ في النسب، إلى كثيرٍ من المفاسد. وقيل: التحريمُ على ظاهره، وذلك الفعلُ يتضمَّن محرَّماتٍ، والحرمةُ ليست راجعةً إلى نفس العقد ليكون العقد باطلاً. وعلى القولين الآيةُ محكَمةٌ.

ولا يخفى أنَّ حمل الزاني والزانية على مَن شأنُهما الزنى والتقحُّبُ لايخلو عن بُعْدٍ؛ لأنهما فيما تقدَّم لم يكونا بهذا المعنى، والظاهر الموافقة، وأيضاً لا يكاد يسلَّم أنَّ الغالب عدمُ رغبةِ مَن شأنهُ الزنى في نكاح العفائف، ورغبتُه في الزواني أو المشركات، فكثيراً ما شاهدنا كثيراً من الزناة يتحرَّون في النكاح أكثر من تحرِّي غيرِهم، فلا يكاد أحدهم ينكحُ مَن في أقاربها شبهةُ زنًى، فضلاً عن أن تكون فيها، وقليلاً ما سمعنا برغبة الزاني في نكاح زانيةٍ أو مشركةٍ.

وأيضاً في حَمْلِ التحريم على التنزيه نوعُ بُعْدٍ، وكذا حَمْلُه على ظاهره مع التزامِ أنَّ الحرمة ليست راجعةً إلى نفس العقد.

وفي «البحر»:(١) روي عن ابن عمر(٢) وابن عباس وأصحابه أنَّ الآية في قومٍ مخصوصين كانوا يزنون في جاهليتهم ببغايا مشهوراتٍ، فلمَّا جاء الإسلام وأسلموا لم يُمكِنْهم الزنى، فأرادوا لفقرهم زواجَ أولئك النسوة إذ كان من عادتهن الإنفاقُ على مَن تَزَوَّجهن، فنزلت الآية لذلك. والإشارةُ بالزاني إلى أحد أولئك القوم، أطلق عليه اسم الزنى الذي كان في الجاهلية للتوبيخ، ومعنى «لا ينكحُ إلا زانيةً أو مشركةً»: لا يريد أن يتزوَّج إلا زانيةً أو مشركة، أي: لا تَنْزِعُ نفسُه إلا إلى هذه الخسائس لقلَّة انضباطها، والإشارةُ بـ «ذلك» إلى نكاح أولئك البغايا، والتحريم على ظاهره. ويَرِدُ على هذا التأويل أنَّ الإجماع على أنَّ الزانية لا يجوز أن يتزوَّجها مشركٌ. انتهى.

---

(١) ٦/ ٤٣٠

(٢) كذا في الأصل و(م) والبحر، ولعل الصواب: ابن عمرو، وخبره أخرجه أحمد (٦٤٨٠) و(٧٠٩٩)، والنسائي في الكبرى (١١٢٩٥)، والطبري١٧/ ١٥٠، والواحدي في أسباب النزول ص ٣٢٧-٣٢٨.

وأنت تعلم أنَّ هذا لا يَرِدُ بعد حَمْلِ نفي النكاح على نفي إرادة التزوُّج؛ إذ يكون المعنى حينئذ: الزانيةُ لا يريد أن يتزوَّجها إلا زانٍ أو مشركٌ، وليس في الإجماع ما يأباه. وفيه أيضاً كلامٌ ستعلمه قريباً إن شاء الله تعالى.

نعم كونُ «الزاني» إشارةً إلى أحد أولئك القوم، وهم من المهاجرين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين كما جاء في آثارٍ كثيرة وقد أسلموا وتابوا من الزنى، محلُّ تردُّدٍ؛ إذ يَبعُدُ كلَّ البُعْدِ أنْ يسمِّيَ الله عز وجل بالزنى صحابيًّا كان قد زنى قبل إسلامه، ثم أسلم وتاب فخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه، ويُطْلِقَ سبحانه عليه هذا الوصفَ الشنيعَ الذي غَفَرَه تبارك وتعالى له بمجرَّدِ أنه مال إلى نكاح زانيةٍ بسبب ما به من الفقر قبل العلم بحَظْرِ ذلك، مع أنهم كانوا ناوين[1] على فراق مَن ينكحونهنَّ إذا وجدوا عنهنَّ غنًى.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنه قال: لمَّا قدم المهاجرون المدينةَ قَدِموها وهم بجهدٍ إلا قليلٌ منهم، والمدينةُ غاليةُ السعر شديدةُ الجهد، وفي السوق زَوَانٍ مُتَعالِناتٌ من أهل الكتاب وإماء لبعض الأنصار، قد رَفَعَتْ كلُّ امرأةٍ على بابها علامةً لتُعرَف أنها زانية، وكنَّ من أخصبِ أهل المدينة وأكثرِهم خيراً، فرغب أناسٌ من مهاجري المسلمين فيما يكتَسِبْنَ للذي فيهم من الجهد، فأشار بعضُهم على بعضٍ: لو تزوَّجْنا بعضَ هؤلاء الزواني، فنصيبَ من فضول ما يكتَسِبْنَ. فقال بعضهم: نستأمرُ رسولَ الله ﷺ. فأتَوْه فقالوا: يا رسول الله، قد شقَّ علينا الجهدُ، ولا نجدُ ما نأكل، وفي السوق بغايا نساءِ أهل الكتاب وولائدهن وولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهنَّ، فيَصْلُحُ لنا أن نتزوَّجَ منهنَّ فنُصيبَ من فضولِ ما يكتسبن، فإذا وجدنا عنهنَّ غنًى تركناهنَّ؟ فأنزل الله تعالى الآية[2].

وأيضاً إطلاقُ الزاني عليه بهذا المعنى لا يوافقُ إطلاق الزانية على إحدى صاحبات الرايات، وكذا لا يوافقُ إطلاق الزاني على مَن أطلق عليه في قوله سبحانه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا﴾ إلخ.

---

(١) في(م): نادين، وهو تصحيف.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٢٢- ٢٥٢٣.

وقال أبو مسلم وأبو حيان[(١)]، وأخرجه أبو داود في «ناسخه»، والبيهقيُّ في «سننه»، والضياء في «المختارة»، وجماعةٌ، من طريق ابن جبير عن ابن عباس، أنَّ النكاح بمعنى الوطء ـ أي: الزنى ـ و«ذلك» إشارةٌ إليه[(٢)]، والمعنى: الزاني لا يطأ في وقت زناه إلَّا زانيةً من المسلمين، أو أخسَّ منها وهي المشركةُ، والزانيةُ لا يطؤُها حين زناها إلا زانٍ من المسلمين، أو أخسُّ منه وهو المشركُ، وحرَّم الله تعالى الزنى على المؤمنين.

وتعقِّبَ بأنه لا يُعْرَفُ النكاحُ في كتاب الله تعالى إلَّا بمعنى التزويج، وبأنه يؤدِّي إلى قولك: الزاني لا يزني إلَّا بزانيةٍ، والزانيةُ لا تزني إلا بزانٍ، وهو غيرُ مسلَّم؛ إذ قد يزني الزاني بغيرِ زانيةٍ، يعلم أحدُهما بالزنى والآخر جاهلٌ به يظنُّ الحِلَّ، وإذا ادُّعي أنَّ ذلك خارجٌ مخرجَ الغالب كان من الإخبار بالواضحات، وإن حُمِلَ النفي على النهي كان المعنى نهيَ الزاني عن الزنى إلا بزانيةٍ، وبالعكس، وهو ظاهرُ الفساد.

وأجيب عن الأول: بأنَّ جلَّ العلماء على أن النكاح في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] بمعنى الوطء دون العقد، وردُّوا على مَن فسَّره بالعقد وزعم أنَّ المطلَّقة ثلاثاً تَحِلُّ لزوجها الأول بعقدِ الثاني عليها دون وطءٍ.

وعن الثاني: بأنه إخبارٌ خارجٌ مخرجَ الغالب أريد به تشنيعُ أمرِ الزنى، ولذلك زِيدَتِ المشركةُ، والاعتراضُ بالوضوح ليس بشيءٍ.

وللفاضلِ سريِّ الدِّين المصريِّ كلامٌ طويلٌ في ذلك. وما قيل: إنه حينئذٍ يكون كقوله تعالى: (ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ) إلخ فيحصل التكرار، ستعلم إن شاء الله تعالى أنه لا يتمُّ إلا في قول.

وقيل: النكاحُ بمعنى التزوُّجِ، والنفيُ بمعنى النهي، وعبّر به عنه للمبالغة، وأيِّد بقراءة عمرو بن عبيد: «لا يَنْكِحْ» بالجزم[(٣)]، والتحريمُ على ظاهره.

---

(١) في البحر ٦/ ٤٢٩.

(٢) سنن البيهقي الكبرى ٧/ ١٥٤، والأحاديث المختارة ١٠/ ١٥٠، وعزاه لأبي داود السيوطي في الدر ٥/ ١٩، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٥١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٢٢.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٠٠، والبحر ٦/ ٤٣١.

قال ابن المسيب: وكان الحكم عامّاً في الزناة أن لا يتزوَّج أحدُهم إلا زانيةً، ثم جاءت الرخصةُ ونُسِخَ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] وقوله سبحانه: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣].

وروي القول بالنسخ عن مجاهد، والى ذلك ذهب الإمام الشافعيُّ؛ قال في «الأم»: اختلف أهلُ التفسير في قوله تعالى: (ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً) إلخ اختلافاً متبايناً، قيل: هي عامةٌ ولكنها نُسِخَتْ؛ أخبرنا سفيان، عن يحيى، عن سعيد بن المسيّب أنه قال: هي منسوخةٌ، نَسَخَتْها: (وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ) فهي - أي: الزانية - من أيامى المسلمين كما قال ابن المسيب إن شاء الله تعالى، ولنا دلائلُ من الكتاب والسنَّة على فساد غيرِ هذا القول، وبَسَطَ الكلام[(١)].

وقد نقل هذا عن الإمام الشافعيِّ البقاعيُّ، ثم قال[(٢)]: إنَّ الشافعيَّ لم يُرِدْ أنَّ هذا الحكم نُسِخَ بآية الأيامى فقط، بل مع ما انضمَّ إليها من الإجماع وغيرِه من الآيات والأحاديث، بحيث صيَّر ذلك دلالتَها على ما تناولته متيقَّناً كدلالة الخاصِّ على ما تناوله، فلا يقال: إنه خالف أصله في أنَّ الخاصَّ لا يُنْسَخُ بالعامِّ، بل العامُّ المتأخِّر محمولٌ على الخاصِّ؛ لأنَّ ما تناوله الخاصُّ متيقَّنٌ وما تناوله العامُّ مظنونٌ. اهـ.

والجبائيُّ يزعم أنَّ النسخ بالإجماع، ولعله أراد أنه كاشفٌ عن ناسخٍ، وإلَّا فالإجماع لا يكون ناسخاً كما بيِّن في علم الأصول، نعم في تحقُّقِ الإجماع هنا كلام.

واعترض هذا الوجهُ بأنه يلزم عليه حِلُّ نكاح المشرك للمسلمة، وأقول: إنَّ نكاح الكافر للمسلمة كان حلالاً قبل الهجرة وبعدها إلى سنة الستِّ، وفيها بعد الحديبية نزلت آيةُ التحريم كما صرَّح بذلك العلَّامةُ ابنُ حجر الهيتميُّ وغيرُه، وقد صحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ زوَّج بنته زينب ﵂ لأبي العاص بن الربيع قبل البعثة، وبُعث عليه الصلاة والسلام ثم هاجَرَ وهاجَرَتْ معه وهي في نكاح أبي العاص، ولم يكن

---

(١) الأم ٥/ ١٣١

(٢) في نظم الدرر ١٣/ ٢١٠.

مؤمناً إذ ذاك، واستمرَّ الأمر على ذلك إلى سنة الستِّ، فلمَّا نزلت آيةُ التحريم لم يَلْبَثْ إلَّا يسيراً حتى جاء وأظهر إسلامه ﷺ، فردَّها ﷺ له بنكاحه الأول[١].

فيحتمل أن يكون النكاح المذكور حلالاً عند نزول الآية التي نحن فيها، بأنْ يكون نزولُها قبل سنة الستِّ ثم نُسخ، وفي هذه السورة آياتٌ نصُّوا على أنَّ نزولها كان قبل ذلك، وهي قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ إلخ [الآية: ١١] قالوا[٢]: إنها نزلت عامَ غزوةِ بني المُصطَلِق، وكانت سنة خمسٍ[٣] لِلَيْلتين خَلَتا من شعبان، فلعل هذه الآيةَ من هذا القبيل، بل في أثرٍ رواه ابنُ أبي شيبة عن ابن جبير وذكره العراقيُّ وابنُ حجر ما ظاهرهُ أنَّ هذه الآية مكيةٌ[٤]، فإذا انضمَّ هذا إلى ما روي عن ابن المسيب وقال به الشافعيُّ يكون فيها نسخان، لكنْ لم أَرَ مَن نبَّه على ذلك، وإذا صحَّ كان هذا الوجهُ أقلَّ من الأَوْجُهِ السابقة مؤنةً، وكأنِّي بك لا تفضِّلُ عليه غيره.

وذهب قومٌ إلى أنَّ حرمة التزوُّج بالزانية أو من الزاني إن لم تَظْهَر التوبةُ من الزنى باقيةٌ إلى الآن، وعندهم أنه إن زنى أحد الزوجين يَفْسُد النكاح بينهما. وقال

(١) أخرج أحمد (٢٣٦٦)، وأبو داود (٢٢٤٠)، والترمذي (١١٤٣) من حديث ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ ردَّ ابنته زينب على أبي العاص بن الربيع، وكان إسلامها قبل إسلامه بست سنين، على النكاح الأول، ولم يُحْدِثْ شهادة ولا صَدَاقاً. وذكر ابن كثير عند تفسير الآية (١٠) من سورة الممتحنة، وابن حجر في الفتح ٩/ ٤٢٣ أن هجرة زينب كانت بعد غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، وأن قدوم أبي العاص مسلماً كان في السنة الثامنة للهجرة بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين. وقال ابن كثير: أجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه (يعني تطاولت العدة فيما بين نزول آية التحريم وإسلام أبي العاص) لأن الذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يُسلم انفسخ نكاحها منه. وقال آخرون: بل إذا انقضت العدة هي بالخيار، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت، وحملوا عليه حديث ابن عباس. والله اعلم.

(٢) في (م): قال.

(٣) في (م): خمسة.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة٤/ ٢٧٢ بلفظ: كنَّ بغايا بمكة قبل الإسلام، فكان رجال يتزوَّجونهن فينفقن عليهم ما أصبن، فلما جاء الإسلام تزوَّجهن رجال من أهل الإسلام، فحرَّم رسول الله ﷺ ذلك عليهم.

بعضهم: لا ينفسخ، إلَّا أنَّ الرجل يؤمر بطلاق زوجته إذا زنت، فإنْ أمسكها أثم. وعند بعضٍ من العلماء أنَّ الزنى عيبٌ من العيوب التي يثبت بها الخيارُ، فلو تزوَّجتْ برجلٍ فبان لها أنه ممن يُعْرَفُ بالزنى، ثبت لها الخيارُ في البقاء معه أو فراقه.

وعن الحسن: أنَّ حرمةَ نكاح الزاني للعفيفة إنما هي فيما إذا كان مجلوداً، وكذا حرمة نكاح العفيف للزانية إنما هي إذا كانت مجلودةً، فالمجلودُ عنده لا يتزوَّج إلا مجلودةً، والمجلودةُ لا يتزوَّجُها إلا مجلودٌ، وهو موافقٌ لما في بعض الأخبار، فقد أخرج أبو داود وابن المنذر وجماعةٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكحُ الزاني المجلودُ إلَّا مثلَه»(١).

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر أنَّ رجلاً تزوَّج امرأةً، ثم إنه زنى فأقيم عليه الحدُّ، فجاؤوا به إلى عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، ففرَّق بينه وبين امرأته وقال له: لا تتزوَّج إلا مجلودةً مثلك(٢).

وعن ابن مسعود والبراء بن عازب أنَّ مَن زنى بامرأةٍ لا يجوزُ له أن يتزوَّجها أصلاً.

وأبو بكر الصديق وابنُ عمر وابنُ عباس وجابر وجماعةٌ من التابعين والأئمةِ على خلافه. واستُدلَّ على ذلك بما أخرجه الطبرانيُّ والدارقطنيُّ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سئل رسول الله ﷺ عن رجلٍ زنى بامرأةٍ وأراد أن يتزوَّجها فقال: «الحرامُ لا يحرِّمُ الحلال»(٣).

---

(١) سنن أبي داود (٢٠٥٢)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٢٠، وأخرجه أيضاً أحمد (٨٣٠٠).

(٢) الدر المنثور ٥/ ٢٠، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٤/ ٢٧٣ عن ابن سابط أن علياً أتي بمحدود. . . وعبد الرحمن بن سابط لم يثبت سماعه من الصحابة. وأخرجه البيهقي ٧/ ١٥٦ من طريق العلاء بن بدر وقال: فهذا منقطع، وروي عن حنش بن المعتمر أن قوماً اختصموا إلى عليٍّ. . . وحنش غير قوي. اهـ.

(٣) المعجم الأوسط (٤٨٠٣)، وسنن الدارقطني (٣٦٨٠)، وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ٥/ ٩٨، وابن عدي ٥/ ١٨٠٨، وابن الجوزي في العلل ٢/ ٩٩، وفي إسناده عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي، قال ابن حبان: كان ممن يروي عن الثقات الأشياء الموضوعات، لا يجوز الاحتجاج به. وقال الحافظ في التقريب: متروك، وكذبه ابن معين =

هذا ومن أَضْعَفِ ما قيل في الآية: إنه يجوز أن يكون معناها ما في الحديث، من أنَّ مَن زَنَى تَزْني امرأتُه، ومَن زَنَتْ يزني زوجُها. فتأمَّل جميعَ ذاك، والله عز وجل يتولَّى هُداك.

وقرأ أبو البرهسم: «وحرَّم» بالبناء للفاعل وهو الله تعالى. وزيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «وحَرُمَ» بفَتْحِ الحاء وضمِّ الراء(١).

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ شروعٌ في بيانِ حُكْمِ مَن نَسَبَ الزنى إلى غيره بعد بيانِ حُكْمِ مَن فَعَلَه والموصولُ على ما اختاره العلَّامةُ الثاني في «التلويح»(٢) منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ يدلُّ فعلُ الأمر بعدُ عليه، أي: اجلدوا الذين. ويجوزُ أن يكون في محلِّ رفعٍ على الابتداء، ولا يخفى عليك خبرُه.

والآيةُ نزلت في امرأة عويمر كما في «صحيح البخاريِّ»(٣).

وعن سعيد بن جبير أنها نزلت بسبب قصة الإفك.

والرميُ مَجازٌ عن الشتم، وجُرْحُ اللسانِ كجُرْحِ اليد، والمراد: الرميُ بالزنى،كما يدلُّ عليه إيرادُ ذلك عقيبَ الزَّواني، مع جَعْلِ المفعول «المحصنات» الدالَّ على النزاهة عن الزنى، وهذا كالصريح في ذلك، وربما يُدَّعَى أنَّ اشتراط أربعةٍ من الشهود يشهدون بتحقُّق ما رمي به كما يدلُّ عليه قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ قرينةٌ على المراد، بناءً على العلم بأنه لا شيءَ يتوقَّفُ ثبوتُه بالشهادة على شهادة أربعةٍ إلا الزنى.

والظاهرُ أن المراد: النساءُ المحصنات، وعليه يكون ثبوتُ وجوبِ جَلْدِ رامي المُحْصَنِ بدلالة النصِّ؛ للقَطْعِ بإلغاء الفارق وهو صفة الأنوثة، واستقلالِ دَفْعِ عارِ

= وأخرجه ابن ماجه (٢٠١٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وضعف إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٣٥٠.

(١) القراءتان في البحر ٦/ ٤٣١.

(٢) التلويح في كشف حقائق التنقيح، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني. كشف الظنون ١/ ٤٩٦.

(٣) برقم (٤٧٤٥)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٢٨٣٠)، ومسلم (١٤٩٢)، وهو من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

ما نُسب إليه بالتأثير، بحيث لا يتوقَّف فهمُه على ثبوت أهلية الاجتهاد. وكذا ثبوتُ وجوبِ جَلْدِ راميةِ المحصَنِ أو المحصَنةِ بتلك الدلالة، وإلَّا فـ «الذين يرمون» للجمع المذكَّر، وتخصيصُ الذكور في جانب الرامي والإناث في جانب المرميِّ لخصوص الواقعة.

وقيل: المرادُ: الفروج المُحْصَنات. وفيه أنَّ إسناد الرمي يأباه، مع ما في التوصيف[(١)] بالمحصنات من مخالفة الظاهر.

وقال ابن حزم وحكاه الزهراويُّ[(٢)]: المراد: الأنفس المحصنات[(٣)]، واستدلَّ له أبو حيان بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٤][(٤)] فإنه لولا أنَّ المحصنات صالحٌ للعموم لم يقيَّد.

وتُعقِّب بأنَّ «من النساء» هناك قرينةٌ على العموم، ولا قرينةَ هنا، وجَعْلُ كونِ حُكْمِ الرجال كذلك قرينةً لا يخلو عن شيءٍ، فالأولى الاعتمادُ على ما تقدم.

والإحصانُ هنا لا يتحقَّق إلا بتحقُّق العفَّة عن الزنى ـ وهو معناه المشهور ـ وبالحرية والبلوغ والعقل والإسلام.

قال أبو بكر الرازيُّ: ولا نعلم خلافاً بين الفقهاء في ذلك[(٥)]. ولعل غيره عَلِمَ كما ستعلم إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (م): مع ما فيه من التوصيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٦/ ٣٥٧، والكلام منه.

(٢) أبو حفص عمر بن عبيد الله بن يوسف القرطبي، محدث الأندلس مع ابن عبد البر، توفي سنة (٤٥٤هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢١٩.

(٣) قول الزهراوي ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤، ونقله المصنف مع قول ابن حزم عن البحر ٦/ ٤٣١. وفي المحلى ١١/ ٢٧٠: قال بعض أصحابنا: نص الآية عام للرجال والنساء، وإنما أراد الله تعالى: النفوس المحصنات... وأما جوابنا الذي نعتمد عليه ونقطع على صحته، وأنه مراد الله بالبرهان الواضح، فهو أن الله تعالى إنما أراد بقوله: «والذين يرمون المحصنات»: الفروج المحصنات.

(٤) في البحر ٦/ ٤٣١.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢٦٧، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ٤٣١.

وثبوتُه[1] بإقرار القاذف، أو شهادةِ رجلين، أو رجلٍ وامرأتين خلافاً لزفر. ووجهُ اعتبار العفَّة عن الزنى ظاهرٌ لكنْ في «شرح الطَّحَاوي» في الكلام على العفة عدمُ الاقتصار على كونها عن الزنى، حيث قال فيها: بأنْ لم يكن وطئ امرأةً بالزنى ولا بشبهةٍ ولا بنكاحٍ فاسد في عمره، فإنْ كان فَعَلَ ذلك مرةً ـ يريدُ النكاحَ الفاسد ـ تسقطُ عدالتُه ولا حدَّ على قاذفه.

وكذا لو وطئ في غير الملك، كما إذا وطئ جاريةً مشتَركةً بينه وبين غيره سقطت عدالته. ولو وطئ في الملك إلا أنه مُحْرَّمٌ فإنه يُنظرَ: إن كانت الحرمةُ مؤقَّتةً لا تسقط عدالتُه، كما إذا وطئ امرأته في الحيض أو أمتَه المجوسيةَ، وإن كانت مؤبَّدةً سقطت عدالتُه، كما إذا وطئ أمته وهي أخته من الرضاعة.

ولو مسَّ امرأةً أو نظر إلى فَرْجِها بشهوةٍ، ثم تزوَّج بنتَها فدخل بها، أو أمَّها، لا يسقطُ إحصانُه عند أبي حنيفة عليه الرحمة[2]، وعندهما يسقط. ولو وطئ امرأةً بالنكاح ثم تزوَّج [بنتها ودخل] بها سقط إحصانه. انتهى.

والمذكورُ في غيرِ كتابٍ[3] أنَّ أبا حنيفة يشترطُ في سقوط الحدِّ عن قاذف الواطئ في الحرمة المؤبَّدة كونَ تلك الحرمةِ ثابتةً بحديثٍ مشهورٍ، كحُرْمةِ وَطْءِ المنكوحة بلا شهودٍ، الثابتةِ بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا نكاحَ إلَّا بشهود»[4] وهو حديثٌ مشهورٌ. أو ثابتةً بالإجماع كموطوءة أبيه بالنكاح أو بملك اليمين، لو تزوَّجها الابنُ، أو اشتراها فوَطِئَها. ومثلُ ذلك عنده وَطْءُ مَزْنيَّته، فإنه لا يعتبر الخلاف عند ثبوت الحرمة بالنصِّ، وهنا قد ثبتت به لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٢] وإنما يعتبرُه إذا ثبتت بقياسٍ أو احتياطٍ

---

(١) أي: الإحصان. فتح القدير ٤/ ١٩٢، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) جاء في هامش الأصل و(م): وكذا عند الأئمة الثلاثة. اهـ منه.
(٣) كما في فتح القدير ٤/ ٢٠٥.
(٤) قال ابن حجر في الدراية ٢/ ٥٥: لم أره بهذا اللفظ. وقال الزيلعي في نصب الراية ٣/ ١٦٧: غريب بهذا اللفظ، وفي الباب أحاديث منها ما أخرجه ابن حبان في صحيحه [(٤٠٧٥)] عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا نكاح إلا بوليٍّ وشاهدي عدل، وما كان من نكاح على غير ذلك فهو باطل...».

كثبوتها بالنظر إلى الفرج والمسِّ بشهوة، فإنَّ ثبوتها فيما ذكر لإقامة السبب مقام المسبَّب احتياطاً، ومِن هذا يُعلم حالُ فروعٍ كثيرة، فليحفظ.

وما ذكر من سقوط إحصان مَن وَطِئَ أَمَتَه وهي أختُه من الرضاع فيه خلافُ الكرخيِّ، فإنه قال: لا يسقط الإحصان بوطئها، وهو قول الشافعيِّ ومالكٍ وأحمد، لقيام الملك، فكان كوطء أمته المجوسية.

وفيه أنَّ الحرمة في وطء المجوسية يمكن ارتفاعُها فتكون مؤقتةً، وحرمةُ الرضاع لا يمكن ارتفاعُها، فلم يكن المحلُّ قابلاً للحلِّ أصلاً[(١)].

واشترط في الملك أن لا يظهر فسادُه بالاستحقاق، فلو اشترى جاريةً فوطئها، ثم استحقَّت فقذفه إنسانٌ، لا يحدُّ[(٢)].

وفي «كافي» الحاكم والقهستانيِّ و«الفتح»: أنَّ الوطء في الشراء الفاسد يُسْقِطُ الحدَّ عن القاذف[(٣)]، وحَمَلَه بعضهم على ما ذكرنا.

وقال بعض الأجلَّة: كما يشترط العفةُ عن الزنى يشترط السلامةُ عن تهمته، ويُحتَرزُ به عن قذفِ ذاتِ ولدٍ ليس له أبٌ معروف، فإنهم ذكروا أنه لا يحدُّ قاذفُها لمكان التهمة، وقد ذكر ذلك الحصكفيُّ في باب اللِّعان من «شرح تنوير الأبصار»[(٤)].

ولا تقاسُ اللواطةُ على الزنى، فلو قذف بها لا يحدُّ القاذف خلافاً لأبي يوسف ومحمد، وقد اختلفا في أحكامٍ كثيرةٍ ذكرها زين الدين في «بحره»[(٥)].

وأما اعتبارُ الحريةِ فلأنَّها يُطْلَقُ عليها اسم الإحصان، قال الله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] فإن المراد بالمحصنات فيه

---

(١) فتح القدير ٤/ ٢٠٦.

(٢) حاشية ابن عابدين ٤/ ٤٦.

(٣) كذا قال، وقال ابن عابدين في الحاشية ٤/ ٤٦: في كافي الحاكم: رجل اشترى جارية شراءً فاسداً فوطئها ثم قذفه إنسان، قال: على قاذفه الحد. ومثله في القهستاني، وكذا في الفتح [٤/ ٢٠٦] قال: لأن الشراء الفاسد يوجب الملك، بخلاف النكاح الفاسد.

(٤) ١/ ٣٣٥، وذكره أيضاً في باب حد القذف ١/ ٤٣٧.

(٥) البحر الرائق ٥/ ١٨ و٣٤.

الحرائر، فالرقيقُ ليس مُحصَناً بهذا المعنى، وكونُه محصناً بمعنًى آخَرَ كالإسلام وغيرِه فيكونُ[1] محصناً من وجهٍ دون وجهٍ، وذلك شبهةٌ في إحصانه توجبُ درءَ الحدِّ عن قاذفه، فلا يحدُّ حتى يكون محصناً بجميع المفهومات التي يطلق عليها لفظُ الإحصان، إلا ما أُجمع على عدم اعتباره في تحقُّق الإحصان، وهو كونُ المقذوفة زوجةً، أو كونُ المقذوف زوجاً؛ فإنه جاء بمعناه في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٤] أي: المتزوجات، ولا يعتبر في إحصان القذف، بل في إحصان الرَّجم.

ثم لا شكَّ في أنَّ الإحصان أطلق بمعنى الحرية كما سمعتَ، وبمعنى الإسلام في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ [النساء:٢٥] قال ابن مسعود: أَسْلَمْنَ. وهذا يكفي في إثبات اعتبارِ الإسلام في الإحصان.

وعن داود عدمُ اشتراطِ الحرية، وأنَّه يحدُّ قاذفُ العبد.

وأما اعتبارُ العقلِ والبلوغِ ففيه إجماعٌ، إلا ما رُوي عن أحمد عليه الرحمة، من أنَّ الصبيَّ الذي يجامِعُ مثلُه محصَنٌ فيُحَدُّ قاذفه، والأصحُّ عنه موافقةُ الجماعة.

وقولُ مالكٍ في الصبية التي يجامَعُ مثلُها: يحدُّ قاذفها، خصوصاً إذا كانت مراهقةً؛ فإنَّ الحدَّ لعلةِ إلحاقِ العار، ومثلُها يلحقُه العار. وكذا قولُه وقولُ الليث: إنه يحدُّ قاذفُ المجنون لذلك.

والجماعةُ يمنعون كونَ الصبيِّ والمجنون يلحقُهما العارُ بنسبتهما إلى الزنى، بل ربما يُضْحَكُ مِن ناسِبِهما إليه، إمَّا لعدم صحةِ قَصْدِه منهما، وإما لعدم مخاطبتهما بالمحرَّمات وما أشبه ذلك. ولو فرضنا لحوقَ عارٍ بالمراهقِ، فليس ذلك على الكمال، فيندرئُ الحدُّ.

ومثلُ الصبيِّ والمجنون في أنه ربَّما يُضْحَكُ مِن نسبةِ الزنى إليهما: الرَّتقاءُ والمجبوبُ، بل هما أولى بذلك؛ لعدم تصوُّره فيهما، ولذا لا يحدُّ بقَذْفِهِما.

وإلَّا ما روي عن سعيدٍ وابن أبي ليلى: من أنه يحدُّ بقذفِ الذمية إذا كان لها ولدٌ مسلم، وكذا ما قيل: إنه يحدُّ بقذفها إذا كانت تحت مسلم.

---

(١) جاء في فتح القدير ٤/ ١٩٢ (والكلام منه) بدل فيكون: يوجب كونه، وهو أنسب بالسياق.

ثم إنَّ الإسلام والحرية إذا لم يكونا موجودَيْنِ وقت الزنى المقذوف به، بل كانا موجودين وقتَ القذف لا يفيدان شيئاً، فلو قذف امرأةً مسلمة زنت في نصرانيتها، أو رجلاً مسلماً زنى في نصرانيته، وقال: زنيتِ وأنتِ كافرة، أو زنيتَ وأنت كافر، أو قذف معتَقاً زنى وهو عبدٌ، أو معتقةً زنتْ وهي أمةٌ، وقال: زنيتِ أو زنيتَ وأنتَ عبدٌ أو وأنتِ أمةٌ، لا يحدٌّ. وكذا المكاتَبُ والمكاتَبةُ، والكافر الحربيُّ إذا زنى في دار الحرب ثم أسلم.

ويفهم من كلامهم أنَّ البلوغ والعقل كالإسلام والحريةِ في ذلك، فقد صرَّحوا فيما إذا قال: زنيتِ وأنتِ صغيرة، أو زنيتَ وأنتَ مجنونٌ، بأنه لا يحدُّ، وكان المدار في درء الحدِّ الصدق في كلِّ ذلك، ومن هنا قال في «المبسوط»(١): إنَّ الموطوءة إذا كانت مكرهةً يسقط إحصانُها، ولا يحدُّ قاذفها، كما يسقط إحصانُ المكرَهِ الواطئ ولا يحدُّ قاذفه؛ لأنَّ الإكراه يُسْقِطُ الإثمَ، ولا يَخرج الفعل به من أن يكون زنىً.

لكنْ ذَكَر فيه أنَّ مَن قذف زانياً لا حدَّ عليه، سواءٌ قذفه بذلك الزنى بعينه، أو بزنًى آخر من جنسه، أو أبهم في حالة القذف(٢). ووجَّه أنَّ الله تعالى أوجب الحدَّ على مَن رَمَى المتَّصِفَ بالإحصان، وبالزنى لا يبقى إحصانٌ، فلا يثبت الحدُّ، خلافاً لإبراهيم وابن أبي ليلى(٣). نعم إذا كان القذفُ بزنًى تاب عنه المقذوفُ يعزَّرُ القاذف، وهذا يقتضي أنه لا يحتاج سقوط الحدِّ في المسائل السابقة إلى التقييد، فليتأمل.

ولو تزوَّج مجوسيٌّ بأمِّه أو بنته، ثم أسلم ففُسِخَ النكاح، فقذفه مسلمٌ في حال إسلامه، يحدُّ عند أبي حنيفة عليه الرحمة، بناءً على ما يراه من أنَّ أنكحة المجوس لها حكمُ الصحة. وقال الإمامان: لا يحدُّ، بناءً على أنَّ ليس لها حكمُ الصحة، وهو قول الأئمة الثلاثة.

---

(١) ٩/ ١١٨، ونقله المصنف بواسطة ابن الهمام في فتح القدير ٤/ ٢٠٥.

(٢) المبسوط ٩/ ١١٦.

(٣) حيث حكى عنهما أنه إن قذفه بغير ذلك الزنى أو بالزنى مبهماً فعليه الحد؛ لأن الرمي موجب للحد إلا أن يكون الرامي صادقاً، وإنما يكون صادقاً إذا نسبه إلى ذلك الزنى بعينه. المبسوط ١/ ١١٦.

ولا يُعلم خلافٌ بين مَن يعتبر الحرية في الإحصان في أنه لا حدَّ على مَن قذف مكاتَباً مات وترك وفاءً، لتمكُّنِ الشبهة في شرط الحدِّ وهو الإحصانُ؛ لاختلاف الصحابة ﷺ في أنه مات حرًّا أو عبداً، وذلك يوجبُ دَرْءَ الحدِّ.

ولأنه يُدْرَأُ بالشبهة، لا يحدُّ من قَذَفَ أخرسَ؛ فإنَّ هناك احتمالَ أنْ يصدِّقه لو نطق، ولايعوَّلُ على إشارته هنا ـ وإن قالوا: إنها تقومُ مقام عبارته في بعض الأحكام ـ لقيام الاحتمال فيها.

واشترطوا أيضاً أن يوجد الإحصانُ وقتَ الحدِّ، حتى لو ارتدَّ المقذوفُ سقط الحدُّ ولو أسلم بعدُ، وكذا لو زَنَى أو وَطِئَ وَطْئاً حراماً، أو صار معتوهاً أو أخرسَ، وبقي ذلك، لم يُحَدَّ كما في «كافي» الحاكم[1].

واشترطوا أيضاً أن لا يموت قبل أن يحدَّ القاذف؛ لأن الحدَّ لا يُورَثُ، وأن لا يكون المقذوفُ ولدَ القاذف، أو وَلَدَ ولدِه، فلا يُحدُّ مَن قذف أحدهما، إلى غير ذلك مما ستعلم بعضه إن شاء الله تعالى.

ولم يصرِّح أكثر الفقهاء بشروط القاذف، ويُفهم من كلامهم أنه يشترط فيه أن يكون: بالغاً فلا يحدُّ الصبيُّ إذا قذف ويعزَّر، عاقلاً فلا يحدُّ المجنونُ ولا السكران إلَّا إذا سكر بمحرَّمٍ، ناطقاً فلا يحدُّ الأخرسُ لعدم التصريح بالزنى، وصرَّح بهذا ابن الشلبي عن «النهاية»[2]، طائعاً فلا يحدُّ المكرَه، قاذفاً في دار العدل فلا يحدُّ القاذفُ في دار الحرب أو البغي. وفي الآية إشارة إلى بعض ذلك.

ويحتمل أن يعدَّ من الشروط كونُه عالماً بالحرمة حقيقةً أو حكماً، بأن يكون ناشئاً في دار الإسلام، لكن في «كافي» الحاكم[3]: حربيٌّ دخل دار الإسلام بأمانٍ فقَذَفَ مسلماً، يحدُّ في قوله الأخير وهو قولُ صاحبيه، وظاهرُه أنه يحدُّ ولو كان

---

(١) حاشية ابن عابدين ٤/ ٤٦.

(٢) كما في حاشية ابن عابدين ٤/ ٤٥. وابن الشلبي هو أحمد بن يونس المصري الحنفي، توفي بالقاهرة سنة (٩٤٧هـ)، له فتاوى ابن الشلبي جمعها حفيده الشيخ نور الدين علي بن محمد المتوفى سنة (١٠١٠هـ). كشف الظنون ٢/ ١٢١٨، والكواكب السائرة ٢/ ١١٥، وشذرات الذهب ١٠/ ٣٨٢.

(٣) كما في حاشية ابن عابدين ٤/ ٤٥.

قذفُه في فور دخوله، ولعل وجهه أنَّ الزنى حرامٌ في كلِّ ملَّةٍ، فيحرُمُ القذفُ به أيضاً فلا يصدَّقُ بالجهل.

ويشترط أن يكون القذف بصريح الزنى بأيِّ لسانٍ كان، كما صرَّح به جمعٌ من الفقهاء، وألحقوا به بعضَ ألفاظٍ ثبت الحدُّ بها بالأثر والإجماع، فيحدُّ بقوله: زنيتَ، أو: زاني، بياء ساكنة، وكذا: يا زانئُ، بهمزةٍ مضمومةٍ عند أبي حنيفة وأبي يوسف، خلافاً لمحمد فلا يحدُّ بذلك عنده؛ لأنه حقيقةٌ عنده في الصعود.

وتعقِّب بأنَّ ذلك إنما يفهم منه إذا ذُكر مقروناً بمحلِّ الصعود، على أنه ينبغي أن يكون المذهبُ أنه لو قيل مع ذِكْرِ محلِّ الصعود في حالة الغضب والسُّباب يكون قذفاً، فقد جزم في «المبسوط» بالحدِّ فيما إذا قال: زَنَأْتَ في الجبل، أو: على الجبل، في حالة الغضب(١).

ولو قال لامرأةٍ: يا زاني، حُدَّ اتفاقاً، وعلَّله في «الجوهرة»(٢) بأنَّ الأصل في الكلام التذكير.

ولو قال للرجل: يا زانيةُ، لا يحدُّ عند الإمام وأبي يوسف؛ لأنه أحال كلامه فوَصَفَ الرجلَ بصفة المرأة. وقال محمد: يحدُّ؛ لأن الهاء تدخل للمبالغة كما في علَّامة.

وأجيب بأنَّ كونها للمبالغة مجازٌ، بل هي لِمَا عُهِدَ لها من التأنيث، ولو كانت في ذلك حقيقةً فالحدُّ لا يجب للشك.

ويحدُّ بقوله: أنت أزنى من فلان، أو منِّي، على ما في «الظهيرية» وهو

---

(١) المبسوط ٩/ ١٢٦-١٢٧، ولم يقيِّد فيه بحالة الغضب. وقيدها بذلك وبالسباب ابن الهمام في فتح القدير ٤/ ٣٠١ حيث قال: إن كان بحيث يقال بمعنى الفاحشة وبمعنى الصعود، فحالة الغضب والسباب تعيِّن الفاحشة.

(٢) كما في حاشية ابن عابدين ٤/ ٥٥. والجوهرة لأبي بكر بن علي المعروف بالحدادي العبادي المتوفى في حدود سنة (٨٠٠هـ). اختصر فيه مصنِّفه كتابَه السراج الوهاج، الذي هو شرح لمختصر القدوري. كشف الظنون ٢/ ١٦٣١.

الظاهر، لكن في «الفتح» عن «المبسوط» أنه لا حدَّ في: أنت أَزْنَى من فلان، أو: أزنى الناسِ[1].

وعلَّله في«الجوهرة»[2] بأنَّ معناه: أنت أقدرُ على الزنى.

وفي «الفتح» بأن «أفعل» في مثله يُستعمل للترجيح في العلم، فكأنه قال: أنت أعلم بالزنى[3]. ولا يخفى أنَّ قَصْدَ ذلك في حالة السباب بعيدٌ.

وفي «الخانية»[4] في: أنت أزنى الناس، أو: أزنى من فلانٍ، الحدُّ، وفي: أنت أزنى منِّي، لا حدَّ. ولا يخفى أنَّ التفرقة غيرُ ظاهرة، وقد يقال: إنَّ قوله: أنت أزنى من فلان، فيه نسبةُ فلانٍ إلى الزنى وتشريكُ المخاطب معه في ذلك؛ بخلاف: أنت أزنى منِّي، لأنَّ فيه نسبة نفسه إلى الزنى، وذلك غيرُ قذفٍ، فلا يكون قذفاً للمخاطب؛ لأنه تشريكٌ له فيما ليس بقَذْفٍ.

ويحدُّ بـ : لستَ لأبيك؛ لِمَا فيه من نسبة الزنى إلى الأمِّ، لِمَا جاء في الأثر عن ابن مسعود: لا حدَّ إلا في قذفِ محصنةٍ، أو نفي رجلٍ من أبيه. وقيِّد بكونه في حالة الغضب؛ إذ هو في حالة الرضا يراد به المعاتبةُ بنفي مشابهته له. وذُكر أن مقتضَى القياس أنْ لا حدَّ به مطلقاً لجوازِ أنْ ينفي النسب من أبيه من غير أن تكون الأمُّ زانيةً من كلِّ وجه، بأنْ تكون موطوءةً بشبهةٍ ولدت في عدَّة الواطئ، لكنْ تُرِكَ ذلك للأثر.

ولا حدَّ بالتعريض، كأن يقول: ما أنا بزانٍ، أو: ليست أمِّي زانيةً، وبه قال الشافعيُّ وسفيان الثوريُّ وابنُ شبرمة والحسن بنُ صالح، وهو الروايةُ المشهورة عن أحمد.

وقال مالك، وهو روايةٌ عن أحمد: يحدُّ بالتعريض، لِمَا رَوَى الزهريُّ عن سالم عن ابن عمر قال: كان عمر ﷺ يَضْرِبُ الحدَّ بالتعريض. وعن عليٍّ كرم الله

---

(١) فتح القدير ٤/ ٢١١، والمبسوط ٩/ ١٢٩.

(٢) كما في حاشية ابن عابدين ٤/ ٤٦.

(٣) فتح القدير ٤/ ١٩١.

(٤) كما في فتح القدير ٤/ ٢١١، وحاشية ابن عابدين ٤/ ٤٦.

تعالى وجهه أنه جَلَدَ رجلاً بالتعريض. ولأنه إذا عرف المراد بدليله من القرينة صار كالصريح.

وللجماعة أنَّ الشارع لم يعتبر مثلَه، فإنه حرَّم صريحَ خطبةِ المتوفَّى عنها زوجُها في العدَّة، وأباح التعريضَ فقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة: ٢٣٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فإذا ثبت من الشرع عدمُ اتِّحادِ حُكْمِهما في غير الحدِّ لم يَجز أن يعتبر مثلُه على وجهٍ يوجبُ الحدَّ المحتاطَ في دَرْئِه. وهو أولى من الاستدلال بأنه ﷺ لم يُلْزم الحدَّ للَّذي قال: يا رسول الله، إنَّ امرأتي ولدت غلاماً أسود. يعرِّضُ بنفيه[1]؛ لأن إلزام حدِّ القذف متوقِّفٌ على الدعوى، والمرأةُ لم تدَّع ذلك.

ولا حدَّ بـ: وَطِئَكِ فلانٌ وطئاً حراماً، أو: جامعكِ حراماً، أو: فَجَرْتَ بفلانة، أو: يا حرام زاده[2]، أو: اذهب فقل لفلان: إنك زانٍ، فذهب الرسول فقال له ذلك عنه، بأنْ قال: فلانٌ يقول: إنك زانٍ، لا إذا قال له: إنك زانٍ، فإنه يحدُّ الرسول حينئذٍ.

واستيفاءُ ما فيه حدٌّ وما لا حدَّ فيه في كتب الفقه. وقولُنا: في كذا حدٌّ، على إرادةِ إذا تحقَّق الشرط المفهومُ من قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ إلخ، واشتُرِطَ الإتيان بأربعةِ شهداءَ تشديداً على القاذف، ويُشترط كونُهم رجالاً؛ لِمَا صرَّحوا به من أنه لا مدخلَ لشهادة النساء في الحدود، وظاهرُ إتيانِ التاء في العدد مشعرٌ باشتراطِ كونهم كذلك.

ولا يشترطُ فيهم العدالةُ، ليلزمَ من عدم الإتيان بأربعةِ شهداءَ عدولٍ الجَلْدُ؛ لِمَا صرَّح به في «الملتقط»[3] من أنه لو أتى بأربعةِ فُسَّاقٍ فشهدوا أنَّ الأمر كما قال،

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٨٩)، والبخاري (٧٣١٤)، ومسلم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والكلام من فتح القدير ٤/ ١٩١.

(٢) قوله: ياحرام زاده، هي كلمة فارسية، ومعناها بالعربية كما في المعجم الذهبي: ياابن الحرام.

(٣) الملتقط في الفتاوى الحنفية للإمام ناصر الدين أبي القاسم محمد بن يوسف السمرقندي المتوفى سنة (٥٥٦هـ). كشف الظنون ٢/ ١٨١٣. والكلام من الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ٤/ ٥٧.

دُرِئ الحدُّ عن القاذف والمقذوفِ والشهود.

ووجهُ ذلك أن في الفاسق نوعَ قصورٍ وإن كان من أهل الأداء والتحمُّل، ولذا لو قضى بشهادته نفذ عندنا، فيثبتُ بشهادتهم شبهةُ الزنى، فيسقط الحدُّ عنهم وعن القاذف، وكذا عن المقذوف لاشتراط العدالة في الثبوت.

ولو كانوا عمياناً أو عبيداً أو محدودين في قذف، فإنهم يحدُّون للقذف دون المشهود عليه؛ لعدم أهلية الشهادة فيهم كما قيل.

والظاهر أنَّ القاذف يحدُّ أيضاً؛ لأنَّ الشهود إذا حُدُّوا مع أنهم إنما تكلَّموا على وجه الشهادة دون القذف، فحدُّ القاذف أولى.

والظاهر أنَّ المراد: «ثم لم يأتوا بأربعةِ شهداءَ» يشهدون على مَن رُمي بأنه زَنَى، والمتبادرُ أن يكون ذلك عن معاينةٍ، لكن قال في «الفتح»: لو شهد رجلان أو رجلٌ وامرأتان على إقرارِ المقذوف بالزنى، يُدَرأُ عن القاذف الحدُّ، وكذا عن الثلاثة، أي: الرجل والمرأتين؛ لأنَّ الثابت بالبينة كالثابت، فكأنَّا سمعنا إقراره بالزنى[1]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ البينة على الإقرار لا تُعتبر بالنسبة إلى حدِّ المقذوف؛ لأنه إن كان مُنْكِراً فقد رجع بالإنكار عن الإقرار، وهو موجبٌ لدرء الحدِّ، فتلغو البينةُ، وإن أقرَّ بشَرْطِه لا تُسمع؛ فإنها إنما تُسْمَعُ مع الإقرار في سبع مواضع[2] ليس هذا الموضعُ منها.

ويشترطُ اجتماعُ شهود الزنى في مجلس الحاكم، بأن يأتوا إليه مجتمعين أو فُرادى، ويجتمعوا فيه، ويقوم منهم إلى الحاكم واحدٌ بعد واحدٍ، فإن لم يأتوا كذلك بأن أتوا متفرِّقين، أو اجتمعوا خارجَ مجلس الحاكم ودخلوا واحداً بعد واحدٍ لم تُعتبر شهادتُهم، وحُدُّوا حدَّ القذف.

والظاهر أنه يجوز أن يكون أحد الشهود زوجَ المقذوفة؛ لاندراجه في «أربعة شهداء» وبه قال أبو حنيفة وأصحابه، وروي ذلك عن الحسن والشعبيِّ. وقال مالك والشافعيُّ: يلاعِنُ الزوجُ وتُحدُّ الثلاثة، وروي مثلُه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) فتح القدير ٤/ ٢١٠.

(٢) تنظر هذه المواضع في حاشية ابن عابدين ٤/ ٥٧.

وظاهرُ الآية أنه إذا لم يأتِ القاذفُ بتمام العدة بأن أتى باثنين أو ثلاثةٍ منها جُلِدَ وحده ولا يُجْلَدُ الشاهد، إلَّا أنَّ المأثور جَلْدُه، فقد روي أنَّه شهد على المغيرة بالزنى شِبْل بنُ مَعْبَدٍ البجليُّ، وأبو بكرة، وأخوه نافعٌ، وتوقَّف زياد، فحَدَّ الثلاثةَ عمرُ رضي الله عنه بمحضَرٍ من الصحابة رضي الله عنهم ولم ينكروا عليه وهم هم[١].

وفي كلمة «ثم» إشعارٌ بجواز تأخير الإتيان بالشهود، كما أن في كلمة «لم» إشارةٌ إلى تحقُّق العجز عن الإتيان بهم وتقرُّرِه.

وفي غير كتاب من كتب الفروع لأصحابنا أنَّ القاذف إذا عجز عن الشهود للحال، واستأجل لإحضارهم زاعماً أنهم في المصر، يؤجَّل مقدارَ قيام الحاكم من مجلسه، فإن عجز حُدَّ، ولا يُكْفَلُ ليذهب لطلبهم، بل يُحبَسُ ويقال: ابعث إليهم مَن يُحْضِرُهم، عند الإمام وأبي يوسف في أحد قوليه؛ لأنَّ سبب وجوب الحدِّ ظَهَرَ عند الحاكم، فلا يكون له أن يؤخِّر الحدَّ؛ لتضرُّر المقذوفِ بتأخيرِ دَفْعِ العار عنه، والتأخيرُ مقدارَ قيامه من المجلس قليلٌ لا يتضرَّر به. وفي قول أبي يوسف الآخر وهو قولُ محمد: يُكْفَلُ - أي: بالنَّفْسِ - إلى ثلاثة أيام.

وكان أبو بكر الرازيُّ يقول[٢]: مراد أبي حنيفة أنَّ الحاكم لا يُجبِرُه على إعطاء الكفيل، فأما إذا سمحت نفسُه به فلا بأس؛ لأن تسليم نفسه مستحَقٌّ عليه، والكفيلُ بالنفس إنما يطالَبُ بهذا القَدْرِ. وذكر ابن رستم[٣] عن محمد: أنه إذا لم يكن له مَن يأتي بالشهود يبعثُ معه الحاكم واحداً ليردَّه عليه.

---

(١) علقه البخاري مختصراً قبل الحديث (٢٦٤٨)، وأخرجه الشافعي في الأم ٧/ ٤١، وعبد الرزاق (١٣٥٦٤) و(١٣٥٦٥) و(١٣٥٦٦)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٩٢، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ١٥٣. قال ابن كثير في إرشاد الفقيه ٢/ ٣٦٨: وهو مشهور من طرق جيدة، وهو كالمستفيض بين العلماء وأهل السير والتواريخ.

(٢) كما في فتح القدير ٤/ ٢١٠.

(٣) إبراهيم بن رستم، أبو بكر المروزي الحنفي، تفقَّه على محمد بن الحسن، وسمع من مالك والثوري وحماد بن سلمة وغيرهم، له: النوادر في الفروع، توفي سنة (٢١١هـ). الجواهر المضية ١/ ٨٠، وكشف الظنون ٢/ ١٩٨١. وكلامه في المبسوط ٩/ ١١٥، وفتح القدير ٢/ ٢١٠.

والأمرُ في قوله سبحانه: «فاجلدوهم» لوُلاةِ الأمر ونوَّابِهم، والظاهرُ وجوبُ الجلدِ وإن لم يطالِب المقذوفُ، وبه قال ابن أبي ليلى. وقال أبو حنيفة وأصحابُه والاوزاعيُّ والشافعيُّ: لا يحدُّ إلا بمطالبته. وقال مالك كذلك، إلا أن يكون الإمام سمعه يقذفُه فيَحُدُّه إن كان مع الإمام شهودٌ عدولٌ وإن لم يطالب المقذوف، كذا قال أبو حيان[١].

وللمقذوف المطالبةُ وإن كان آمراً للقاذف بقذفه، لأنَّ بالأمر لا يسقطُ الحدُّ، كما نقل الحصكفيُّ ذلك عن «شرح التكملة»[٢].

ثم لا يخفى أنَّ القول بأنَّ القاذف لا يُحدُّ إلا بمطالبة المقذوفِ ظاهرٌ في أنَّ الحدَّ حقُّ العبد، ويشهد لذلك أحكامٌ كثيرة ذكرها أصحابنا:

منها: أنه لا تَبْطُلُ الشهادة على ما يوجبه بالتقادُم.

ومنها: أنه لا يدفعُه الرجوعُ عن الإقرار بموجبه.

ومنها: أنه يقام على المستأمَن، وإنما يؤاخَذُ المستأمَنُ بما هو من حقوق العباد.

ومنها: أنه يقدَّم استيفاؤه على استيفاء حدِّ الزنى وحدِّ السرقة وشرب الخمر.

ومنها: أنه يُقِيمُه القاضي بعِلْمِه إذا عَلِمَه في أيام قضائه، ولذا لو قَذَفَ بحضرته يَحدُّه.

وعندنا أحكامٌ تشهد بأنه حقُّ الله عز وجل:

منها: أنَّ استيفاءه إلى الإمام، وهو إنما يتعيَّن نائباً في استيفاء حقِّ الله تعالى، وأما حقُّ العبد فاستيفاؤه إليه.

ومنها: أنه لا يحلَّفُ القاذف إذا أنكر سببه وهو القذف ولم تَقُمْ عليه بينة.

ومنها: أنه لا ينقلب مالاً عند السقوط.

ومنها: أنه يتنصَّف بالرقِّ كسائر العقوبات الواجبة حقّاً له عز وجل.

---

(١) في البحر ٦/ ٤٣٢.

(٢) الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ٤/ ٤٨.

وذكر ابن الهمام[١]: أنه لا خلافَ في أنَّ فيه حقَّ الله تعالى وحقَّ العبد، إلَّا أنَّ الشافعيَّ مال إلى تغليب حقِّ العبد باعتبارِ حاجته وغِنَى الحقِّ سبحانه وتعالى، ونحن صِرْنا إلى تغليب حقِّ الله تعالى؛ لأنَّ ما للعبد من الحقوق يتولَّى استيفاءَه مولاه، فيصير حقُّ العبد مُوجَباً لتغليب[٢] حقِّ الله تعالى لا مُهْدَراً، ولا كذلك عكسُه، أي: لو غلِّب حقُّ العبد لزم أن لا يُستَوْفَى حقُّ الله عز وجل إلَّا بأن يجعل ولاية استيفائه إليه، وذلك لا يجوز إلا بدليلٍ ينصبُه الشرعُ على إنابة العبد في الاستيفاء، ولم يثبت ذلك، بل الثابتُ هو استنابة الإمام، حتى كان هو الذي يستوفيه كسائر الحدود التي هي حقُّه سبحانه وتعالى.

ويتفرَّع على الخلاف: أنَّ مَن ثبت أنه قُذِفَ فمات قبل إقامة الحدِّ على القاذف لا يُورَثُ عنه إقامةُ الحدِّ عندنا؛ إذ الإرثُ يجري في حقوق العباد بشرط كونها مالاً، أو ما يتَّصل بالمال[٣]، أو ما ينقلبُ إليه[٤]، وتُورَثُ عنده.

وأنَّ الحدَّ لا يسقط عندنا بعد ثبوته، إلَّا أن يقول المقذوف: لم يقذفني، أو: كَذَبَ شهودي، وحينئذ يظهر أن القذف لم يقع موجباً للحدِّ، لا أنه وقع ثم سقط بقوله ذلك، وهذا كما إذا صدَّقه المقذوف.

وقال زين الدين: إنَّ المقذوف إذا عفا لم يكن للإمام استيفاءُ الحدِّ؛ لعدم الطلب، فإذا عاد وطَلَبَ، يقيمُه ويَلْغو العفوُ. وعند الشافعيِّ يصحُّ العفو، وعن أبي يوسف مثله[٥]، وكأنَّ المراد أنه إذا عفا سقط الحدُّ، ولا ينفع العودُ إلى المطالبة.

وأنه لا يجوز الاعتياضُ عنه عندنا، وبه قال مالك، وعنده يجوزُ، وهو قولُ أحمدَ.

وأنه يجري فيه التداخُلُ عندنا لا عنده، وبقولنا قال مالك والثوريُّ والشعبيُّ

---

(١) في فتح القدير ٤/١٩٧-١٩٨.
(٢) في فتح القدير: فيصير حقُّ العبد مرعيّاً بتغليب.
(٣) بعدها في فتح القدير: كالكفالة.
(٤) بعدها في فتح القدير: كالقصاص.
(٥) البحر الرائق ٥/٣٩ بنحوه.

والنخعيُّ والزهريُّ وقتادةُ وطاوسٌ وحمادٌ، وأحمدُ في روايةٍ، حتى إذا حُدَّ إلا سوطاً فقَذَفَ آخر، فإنه يتمُّ الأول ولا شيءَ للثاني.

وكذا إذا قَذَفَ واحداً مراتٍ، أو جماعةً بكلمةٍ مثل: أنتم زناة، أو بكلمات مثل: أنت يا زيدُ زانٍ، وأنت يا عمرو زانٍ، وأنت يا بِشْرُ زان، في يوم أو أيامٍ، يُحدُّ حدّاً واحداً إذا لم يتخلَّلْ حدٌّ بين القذفين.

ووافَقَنا الشافعيُّ في الحدِّ الواحد لقاذفِ جماعةٍ بكلمةٍ مرةً واحدةً.

وفي «الظهيرية»: مَن قَذَفَ إنساناً فحُدَّ، ثم قَذَفَه ثانياً لم يُحَدَّ، والأصلُ فيه ما روي أنَّ أبا بكرةَ لمَّا شهد على المغيرة فحُدَّ لِمَا سمعتَ، كان يقول بعد ذلك في المحافل: أشهدُ: إنَّ المغيرة لزانٍ، فأراد عمر رضي الله عنه أن يحدَّه ثانياً، فمنعه عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، فرجع إلى قوله وصارت المسألةُ إجماعاً[1]. اهـ.

والظاهرُ أنَّ هذا فيما إذا قذفه ثانياً بالزنى الأول، أو أطلق، لحمل إطلاقه على الأول؛ لأن المحدود بالقذف يكرِّر كلامه لإظهار صِدْقِه فيما حُدَّ به كما فعل أبو بكرة، فإنه لم يُرِدْ: إنَّ المغيرة لزانٍ، أنه زانٍ غير الزنى الأول، أما إذا قذفه بعد الحدِّ بزنًى آخَر فإنه يحدُّ به كما في «الفتح»[2].

وذكر صدر الإسلام أبو اليسر[3] في «مبسوطه»: الصحيحُ أنَّ الغالب في هذا الحدِّ حقُّ العبد كما قال الشافعي؛ لأنَّ أكثر الأحكام تدلُّ عليه، والمعقولُ يشهد له، وهو أنَّ العبد ينتفع به على الخصوص، وقد نصَّ محمد في «الأصل» على أنَّ حدَّ القذف كالقصاص حقُّ العبد، وتفويضُه إلى الإمام لأنَّ كلَّ أحدٍ لا يهتدي إلى إقامته، ولأنه ربما يريد المقذوفُ موتَه لحنقه، فيقع متلَفاً، وإنما لا يورَثُ لأنه مجرَّد حقٍّ، ليس مالاً ولا بمنزلته، فهو كخيارِ الشرط وحقِّ الشُّفعة، بخلاف

(١) البحر الرائق ٥/ ٤٣، وحاشية ابن عابدين ٤/ ٥٨. وخبر المغيرة أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٩٢-٩٣، والبيهقي ٨/ ٢٣٥.

(٢) ٤/ ٢٣٧.

(٣) محمد بن محمد بن عبد الكريم البزدوي، انتهت إليه رئاسة الحنفية بما وراء النهر، ملأ بتصانيفه بطون الأوراق، توفي ببخارى سنة (٤٩٣هـ). الفوائد البهية ص ١٨٨، وكشف الظنون ٢/ ١٥٨١، وكلامه في فتح القدير ٤/ ١٩٨.

القصاص فإنه ينقلب إلى المال، وأيضاً هو في معنى ملك العين؛ لأنَّ مَن له القصاصُ يملك إتلاف العين، وملكُ الإتلاف ملكُ العين عند الناس، فصار مَن عليه القصاصُ كالملك لمن له القصاصُ، فيملكه الوارث في حقِّ استيفاء القصاص، وإنما لا يصحُّ عفوُه لأنه متعنِّتٌ فيه؛ لأنه رضي بالعار، والرضا بالعار عارٌ. ولا يخفى ما في ذلك من الأبحاث.

والشافعيُّ[1] يستدلُّ بالآية لعدم التداخل؛ فإنَّ مقتضاها ترتُّبُ الحكم على الوصف المشعِرِ بالعلِّية، فيتكرَّر بتكرُّره.

ويجاب: بأن الإجماع لمَّا كان على دفع الحدود بالشبهات، كان مقيِّداً لِمَا اقتضته الآية من التكرُّر ـ عند التكرُّرِ ـ بالتكرُّر الواقع من بعد الحدِّ الأول، بل هذا ضروريٌّ؛ لظهورِ أنَّ المخاطبين بالإقامة في قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ﴾ هم الحكَّامُ، ولا يتعلَّق بهم هذا الخطاب إلا بعد الثبوت عندهم، فكان حاصلُ الآية إيجابَ الحدِّ إذا ثبت عندهم السببُ، وهو الرميُ، وهو أعمُّ من كونه بوصفِ الكثرة أو القلَّة، فإذا ثبت وقوعُه منه كثيراً كان موجباً للجَلْدِ ثمانين ليس غير، فإذا جُلد ذلك وقع الامتثال.

ثم هو عليه الرحمةُ ترك مقتضَى التكرُّر بالتكررُّ فيما إذا قذف واحداً مرةً، ثم قذفه ثانياً بذلك الزنى، فإنه لا يحدُّ مرتين عنده أيضاً، وكذا في حدِّ الزنى والشرب؛ فإنه إذا زنى ألفَ مرةٍ أو شرب كذلك، لا يحدُّ إلا مرةً. فالحقُّ أنَّ استدلاله بالآية لا يخلص؛ فإنه مُلْجِئٌ إلى ترك مِثْلِها من آيةٍ أخرى، وهي آيةُ حدِّ الزنى، فيعود إلى أنَّ هذا حقّ آدميّ بخلاف الزنى، فكان المبنى هو إثبات أنه حقُّ الله عز وجل، أو حقُّ العبد، والنظر الدقيق يقتضي أنَّ الغالب فيه حقُّ الله سبحانه وتعالى، فتدبرَّ.

ثم الظاهرُ أنَّ الرمي المرادَ في الآية لا يتوقَّفُ على حضور المرميِّ وخطابه، فقذفُ المحصَن حاضراً أو غائباً له الحكمُ المذكور، كما في «التتارخانية» نقلاً عن «المضمرات»[2] واعتمده في «الدرر». ويدلُّ على أنَّ الغيبة كالحضور حدُّه ﷺ أهلَ

(١) كما في فتح القدير ٤/٢٠٨-٢٠٩، وعنه نقل المصنف.
(٢) جامع المضمرات والمشكلات، ويقال له أيضاً: المضمرات، وهو من شروح مختصر =

الإفك مع أنه لم يُشافِهْ أحدٌ منهم به مَن نزَّهها الله تعالى عنه.

فما في «حاوي الزاهدي»[1]: سمع من أناسٍ كثيرةٍ أن فلاناً يزني بفلانة، فتكلَّم بما سمعه منهم مع آخَرَ في غيبة فلانٍ، لا يجب حدُّ القذف؛ لأنه غيبةٌ لا رميٌ وقذفٌ بالزنى؛ لأنَّ الرمي والقذف به إنما يكون بالخطاب، كقوله: يا زاني يا زانية = ضعيفٌ لا يُعوَّلُ عليه.

والظاهرُ أيضاً أنه لا فرقَ بين رمي الحيِّ ورمي الميت، فإذا قال: أبوك زانٍ، أو: أمُّك زانيةٌ، كان قذفاً ويحدُّ عند تحقُّق الشرط، لا لو قال: جدُّك زانٍ، فإنه لا حدَّ عليه لما في «الظهيرية»[2] من أنه لا يُدْرَى أيُّ جدٍّ هو. وفي «الفتح»: لأنَّ في أجداده مَن هو كافر، فلا يكون قاذفاً مالم يعيِّن محصَناً[3].

ويطالِبُ بحدِّ القذف للميت مَن يقع القَدْحُ في نسبه بالقذف، وهو الوالد وإن علا والولدُ وإن سفل، ولا يطالِبان عن غائبٍ، خلافاً لابن أبي ليلى، لعدم اليأس عن مطالبته، ولأنه يجوز أن يصدِّق القاذفَ، وولدُ البنت كولد الابن في هذا الفصل، خلافاً لما روي عن محمد.

وتثبتُ المطالبة للمحروم عن الميراث بقتلٍ أو رقٍّ أو كفرٍ، نعم ليس للعبد أن يطالب مولاه بقذفِ أمِّه الحرَّةِ التي قذفها في حال موتها، وعند زُفر: إذا كان الولد عبداً أو كافراً، لا حقَّ له فيها مطلقاً.

وتَثبُت للأبعد مع وجود الأقرب، فيطالِبُ ولدُ الولد مع وجود الولد، خلافاً لزفر. ولو عفا بعضهم كان لغيره المطالبةُ؛ لأنها لدفع العار عن نفسه.

والأمُّ كالأب تطالب بحدِّ قَذْفِ ولدها، لا أمُّ الأمِّ وأبوها.

= القدوري في فروع الحنفية، ليوسف بن عمر بن يوسف الصوفي المتوفى سنة (٨٣٢هـ). كشف الظنون ٢/ ١٦٣٢-١٦٣٣. والكلام من حاشية ابن عابدين ٤/ ٤٨.

(١) مختار بن محمود الزاهدي الغزميني الحنفي، أبو الرجا، المتوفى سنة (٦٥٨هـ). كشف الظنون ١/ ٦٢٨.

(٢) كما في البحر الرائق ٥/ ٣٨، وحاشية ابن عابدين ٤/ ٥٠.

(٣) فتح القدير ٤/ ١٩٦، وفيه: مسلماً، بدل: محصناً، وكذا في حاشية ابن عابدين ٤/ ٥٠ نقلاً عن فتح القدير.

ولا يطالبُ الابنُ أباه وجدَّه وإن علا بقذفِ أمِّه، وهو قول الشافعيِّ وأحمد وروايةٌ عن مالك، والمشهورُ عنه أنَّ للابن أن يطالب الأبَ بقذفِ الأمِّ، فيقيم عليه الحدَّ، وهو قول أبي ثور وابنِ المنذر؛ لعموم الآية أو إطلاقها، ولأنه حدٌّ هو حقُّ الله عز وجل، ولا يمنع من إقامته قرابةُ الولاد.

وأجيب بأنَّ عموم قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] مانعٌ من إقامة الولد الحدَّ على أبيه، ولا فائدة للمطالبة سوى ذلك، والمانعُ مقدَّم، وقد صحَّ أنه ﷺ قال: «لا يقادُ الوالدُ بولده، ولا السيدُ بعبده»(١).

وأجمعوا على أنه لا يقتصُّ منه بقتل ولده، ولا شكَّ أن إهدار جنايته على نفس الولد تُوْجِبُ إهدارَها في عِرْضِه بطريق الأَوْلى، مع أن القصاص متيقَّنٌ سببُه والمغلَّبُ فيه حقُّ العبد، بخلاف حدِّ القذف فيهما.

ولا حقَّ لأخي الميت وعمِّه وعمته وخاله وخالته في المطالبة بحدِّ قذفه.

وعند الشافعيِّ ومالكٍ عليهما الرحمةُ تثبتُ المطالبة لكلِّ وارثٍ، وهو روايةٌ غريبةٌ عن محمد، وللشافعية فيمَن يرثُه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ الأول: جميعُ الورثة، والثاني: غير الوارث بالزوجية، والثالث: ذكورُ العصبات لا غير.

والظاهر أن مطالبة مَن له المطالبةُ بالحدِّ غيرُ واجبةٍ عليه، بل في «التتارخانية»(٢): وحَسُنَ أن لا يرفعَ القاذفُ إلى القاضي ولا يطالبَ بالحدِّ، وحَسُنَ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٦٥٧)، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ١٨٢، وابن عدي ٥/ ١٧١٣، والحاكم ٤/ ٣٦٨ من حديث عمر رضي الله عنه بلفظ: «لا يقاد مملوك من مالكه ولا والد بولده» وفيه قصة. وفي إسناده عمر بن عيسى القرشي، قال عنه البخاري: منكرالحديث. ينظر نصب الراية ٤/ ٣٤٠.

وأخرجه بإسناد آخر من حديث عمر أيضاً أحمد (١٤٧) و(٣٤٦)، والترمذي (١٤٠٠)، وابن ماجه (٢٦٦٢). والبيهقي ٨/ ٣٨ بلفظ: «لا يقاد والد من ولد». قال ابن عبد البر في التمهيد ٢٣/ ٤٣٧: روي حديث «لا يقاد والد بولده» من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ومن حديث عمر، ومن حديث ابن عباس، وهو حديث مشهور عند أهل العلم بالحجاز والعراق، مستفيض عندهم، يستغنى بشهرته وقبوله والعمل به عن الإسناد فيه، حتى يكاد أن يكون الإسناد في مثله لشهرته تكلفاً.

(٢) كما في حاشية ابن عابدين ٤/ ٤٨.

من الإمام أن يقول للمطالِب: أَعْرِضْ عنه ودَعْه. اهـ.

وكأنه لا فرقَ في هذا بين أن يعلم الطالبُ صِدْقَ القاذف وأن يعلم كذبه. وما نقل في «القنية» من أنَّ المقذوفَ إذا كان غيرَ عفيفٍ في السرِّ له مطالبةُ القاذفِ ديانةً، فيه نظرٌ لا يخفى[1].

وظاهرُ الآية أنه لا فرقَ بين أن يكون الرامي حرّاً وأن يكون عبداً، فيُجْلَدُ كلٌّ منهما إذا قَذَفَ وتحقَّق الشرطُ ثمانين جلدةً، وبذلك قال عبد الله بن مسعود والأوزاعيُّ وجمهورُ الأئمة، على أنَّ العبد ينصَّفُ له الحدُّ؛ لِمَا علمتَ أولَ السورة.

وإذا أُريدَ إقامةُ الحدِّ على القاذف لا يجرَّدُ من ثيابه إلَّا في قول مالك؛ لأن سببه وهو النسبةُ الى الزنى كذباً غيرُ مقطوعٍ به؛ لجواز كونه صادقاً غير أنه عاجزٌ عن البيان. نعم ينزع عنه الفروُ والثوبُ المحشوُّ؛ لأنهما يَمنعان من وصول الألم إليه، كذا في عامة الكتب، ومقتضاه أنه لو كان عليه ثوبٌ ذو بطانةٍ غيرُ محشوٍّ لا يُنْزَع. والظاهرُ كما في «الفتح» أنه لو كان هذا الثوبُ فوق قميصٍ نُزِع؛ لأنه يصيرُ مع القميص كالمحشوِّ أو قريباً من ذلك، ويَمنع إيصالَ الألم[2]، وكيف لا والضربُ هنا أخفُّ من ضرب الزنى؟

هذا وقرأ أبو زرعة وعبد الله بن مسلم: «بأربعةٍ»[3] بالتنوين، فـ «شهداءَ» بدلٌ أو صفة، وقيل: حالٌ أو تمييزٌ، وليس بذاك. وهي قراءةٌ فصيحةٌ ورجَّحها ابن جنِّي[4] على قراءة الجمهور، بناءً على إطلاق قولهم: إنه إذا اجتمع اسمُ العدد والصفة كان الإتباعُ أجودَ من الإضافة.

وتعقِّبَ بأنَّ ذاك إذا لم تَجْرِ الصفة مجرى الأسماء في مباشرتها العوامل، وأمَّا إذا جَرَتْ ذلك المجرى فحُكْمُها حُكْمُها في العدد وغيره، غايةُ ما في الباب أنه يجوزُ فيها الإبدالُ بعد العدد نظراً إلى أنها غيرُ متمحِّضةِ الاسمية، و«شهداء» من ذلك القبيل، فـ «أربعةِ شهداءَ» بالإضافة أفصحُ من «أربعةٍ شهداءَ» بالتنوين والإتباع.

---

(١) حاشية ابن عابدين ٤/ ٤٨.

(٢) فتح القدير ٤/ ١٩٢

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٠، والمحتسب ٢/ ١٠١، والبحر ٦/ ٤٣١.

(٤) في المحتسب ٢/ ١٠١، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٣١.

وقال ابن عطية(١): وسيبويه يرى أنَّ تنوين العدد وتَرْكَ إضافته إنما يجوز في الشعر. انتهى.

وكأنه أراد الطعن في هذه القراءة على هذا القول، وفيه أنَّ سيبويه إنما يرى ذلك في العدد الذي بعده اسمٌ، نحو: ثلاثة رجال، دون الذي بعده صفةٌ فإنه على التفصيل الذي ذكر، كما قال أبو حيان(٢).

وقولهُ سبحانه: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ أي: مدةَ حياتهم كما هو الظاهرُ، عطفٌ على «اجلدوا» داخلٌ في حُكْمِه، تتمَّةٌ له، كأنه قيل: فاجلدوهم وردُّوا شهادتهم، أي: فاجمعوا لهم الجَلْدَ والرَّدَّ.

وردُّ شهادتهم عند الإمام أبي حنيفة عليه الرحمةُ معلَّقٌ باستيفاءِ الجَلْدِ، فلو شهدوا قبل الجَلْدِ، أو قبل تمام استيفائه، قُبِلَتْ شهادتُهم. وقيل: تُرَدُّ إذا ضُربوا سوطاً. وقيل: تردُّ إذا أقيم عليهم الأكثرُ.

ومن الغريب ما رَوَى ابنُ الهمام عن مالك، أنه مع قوله: إنَّ للابن أن يطالب بحدٍّ والده إذا قذف أمَّه، قال: إنه إذا حُدَّ الأب سقطتْ عدالةُ الابن؛ لمباشرته سببَ عقوبةِ أبيه(٣)، أي: وكذا عدالةُ الأب، وهذا ظاهرٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾ كلامٌ مستأنفٌ مبيِّنٌ لسوء حالهم في حُكْمِ الله عز وجل، وما في اسم الإشارة من معنى البعدِ للإيذان ببُعْدِ منزلتهم في الشر والفساد، أي: أولئك هم المحكومُ عليهم بالفسق والخروجِ عن الطاعة والتجاوُزِ عن الحدود الكاملون فيه، كأنهم هم المستحقُّون لإطلاق اسم الفاسق عليهم، لا غيرُهم من الفسقة.

ويعلم مما أشرنا إليه أنهم فَسَقةٌ عند الشرع الحاكم بالظاهر، لا أنهم كذلك في نفس الأمر وعند الله عز وجل العالِم بالسرائر؛ لاحتمال صِدْقِهم مع عَجْزِهم عن الإتيان بالشهداء كما لا يخفى، وصرَّح بهذا بعضُ المفسرين.

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٤، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ٤٣٢.
(٢) في البحر ٦/ ٤٣٢. وينظر الكتاب ١/ ٢٠٦.
(٣) فتح القدير لابن الهمام ٤/ ١٩٧.

وجوَّز أن يكون المراد الإخبارَ عن فِسْقِهم عند الله تعالى وفي عِلْمِه، ووجهُه إذا كانوا كاذبين ظاهرٌ. وأما وجهُه إذا كانوا صادقين، فهو أنهم هتكوا ستر المؤمنين، وأوقعوا السامعَ في الشكِّ من غير مصلحةٍ دينية بذلك، والعِرْضُ مما أمر الله تعالى بصَوْنِه إذا لم يتعلَّقْ بهَتْكِه مصلحةٌ، فكانوا فسقةً غير ممتثلين أمرَه عز وجل.

ولا يخفى حُسْنُ حَمْلِ الآية على هذا المعنى، وهو أوفقُ لما ذكره الحصكفيُّ في «شرح الملتقى»[(١)] نقلاً عن النجم الغزِّيِّ، من أن الرمي بالزنى من الكبائر وإن كان الرامي صادقاً ولا شهود له عليه، ولو من الوالد لولده وإن لم يحدَّ به بل يعزَّر، ولو لغير[(٢)] مُحْصَنٍ، وشَرْطُ الفقهاء الإحصانَ إنما هو لوجوب الحدِّ لا لكونه كبيرة، وقد روى الطبرانيُّ عن واثلة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَن قذفَ ذمياً حُدَّ له يومَ القيامة بسياطٍ من نار»[(٣)].

وهذه مسألةٌ مختلفٌ فيها، ففي «شرح جمع الجوامع» للعلَّامة المحلِّي[(٤)]: قال الحَليميُّ: قذفُ الصغيرة والمملوكةِ والحرَّةِ المتهتِّكةِ من الصغائر؛ لأنَّ الإيذاء في قَذْفِهنَّ دونه في الحرَّة الكبيرة المستترة[(٥)]. وقال ابن عبد السلام: قَذْفُ المحصَنِ في خلوةٍ بحيث لا يسمعه إلَّا اللهُ تعالى والحفظةُ ليس بكبيرةٍ موجبةٍ للحدِّ؛ لانتفاء المَفْسَدة، أمَّا قذفُ الرجلِ زوجتَه إذا أتت بولدٍ يَعْلَمُ أنه ليس منه فمباحٌ، وكذا جَرْحُ الراوي والشاهدِ بالزنى إذا عُلِمَ، بل هو واجبٌ. انتهى.

وظاهرُ ما نُقِلَ عن ابن عبد السلام نفي إيجاب الحدِّ، لا نفيُ كونه كبيرةً أيضاً؛ لشيوع توجُّه النفي إلى القيد في مثله، وإن قلنا: إنه هنا لنفي القيد والمقيَّد، فهو ظاهرٌ ـ كما قال الزركشيُّ ـ فيما إذا كان صادقاً، لا فيما إذا كان كاذباً؛ لجرأته على الله تعالى جلَّ شأنُه، فهو كبيرةٌ وإن كان في الخلوة.

---

(١) على هامش مجمع الأنهر ١/ ٦١٢، وذكره عنه ابن عابدين في الحاشية ٤/ ٤٤.
(٢) في (م): غير، والمثبت من الأصل وشرح الملتقى وحاشية ابن عابدين.
(٣) المعجم الكبير ٢٢/ (١٣٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٨٠: فيه محمد بن محصن العكاشي وهو متروك.
(٤) شرح جمع الجوامع مع حاشية البناني ٢/ ١٥٤.
(٥) في شرح جمع الجوامع: المتسترة.

ولعل ما ذكره من وجوب جَرْحِ الشاهد بالزنى ـ إذا عُلم ـ مقيَّدٌ بما إذا قدر على الإتيان بالشهود. والأوْلى عندي فيما إذا كان الضررُ في قبول شهادته عليه يسيراً عدمُ الجَرْحِ بذلك وإن قدر على إثباته.

وما ذكره في جَرْحِ الراوي لا يتمُّ ـ فيما أرى ـ على رأي مَن يعتبر الجَرْحَ المجرَّدَ عن بيان السبب.

ولا يَبْعُدُ القول بأنَّ الرمي منه ما هو كفرٌ، كرمي عائشةَ ﵂، سواءٌ كان جهراً أو سرّاً، وسواءٌ كان بخصوص الذي برَّأه الله تعالى منه أو بغيره، وكذا رميُ سائرِ أمَّهاتِ المؤمنين رضي الله عنهن، وكذا القولُ في مريم عليها السلام.

ومنه ما هو كبيرةٌ دون الكفر، ومثالُه ظاهرٌ.

ومنه ما هو صغيرةٌ كرمي المملوكة والصغيرة.

ومنه ما هو واجبٌ كرمي شاهدٍ على مسلم معصومِ الدم بما يكون سبباً لقتله لو قُبلت شهادته، وعلم كونها زوراً، وتعيَّن ذلك لردِّ شهادته وصيانةِ ذلك المسلم من القتل، ولو كان رميُه مع إقامة البينة عليه بالزنى موجباً لرَجْمِه.

ومنه ما هو سنَّةٌ، كرمي ترتَّبتْ عليه مصلحةٌ دون مصلحةِ الرمي الواجب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي: رجعوا عما قالوا، وندموا على ما تكلَّموا، استثناءٌ من «الفاسقين» كما صرَّح به أكثر الأصحاب. وقال بعضهم: المستثنى منه في الحقيقة «أولئك»، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يتعلَّق بذلك. ومحلُّ المستثنى النصبُ لأنه عن الموجب.

وقوله عز وجل: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ لتهويل المَتوبِ عنه، أي: من بعد ما اقترفوا ذلك الذنبَ العظيم الهائل.

وقوله تعالى ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ على معنى: وأصلحوا أعمالَهم بالاستحلال ممن رمَوْه. وهذا ظاهرٌ إن كان قد بقي حيّاً، فإن كان قد مات، فلعل الاستغفارَ له يقومُ مقام الاستحلال منه، كما قيل في نظير المسألة.

فإن كانوا قد رَمَوا أمواتاً فالظاهرُ أنهم يستحلُّون ممَّن خاصمَهم وطَلَبَ إقامةَ

الحدِّ عليهم، ويحتمل أن يغنيَ عنه الاستغفارُ لمن رموه، والجمعُ بين الاستحلال من أولئك المخاصمين والاستغفارِ للمَرْميينَ أولى، ولم أرَ مَن تعرَّضَ لذلك.

وكونُ الاستثناء من الجملة الأخيرة مذهبُ الحنفية، فعندهم لا تُقبَلُ شهادةُ المحدود في قذفٍ وإن تاب وأصلح، لكن قالوا: إنْ حُدَّ الكافرُ ثم أسلم قُبلَتْ شهادتُه وإن لم تكن تقبل قَبْلُ على أهل الذمة، ووجهُه: أنَّ النصَّ موجبٌ لردِّ شهادته الناشئةِ عن أهليته الثابتةِ له عند القَذْفِ، ولذا قيل: «ولا تقبلوا لهم شهادةً» دون: ولا تقبلوا شهادتهم، أي: ولا تقبلوا منهم شهادةً من الشهادات حالَ كونها حاصلةً لهم عند الرمي، والشهادةُ التي كانت حاصلةً للكافر عند الرمي هي الشهادةُ على أبناء جنسه، فتدخلُ تحت الردِّ، وأما الشهادةُ التي اعتُبِرتْ بعد الإسلام فغيرُ تلك الشهادة، ولهذا قُبِلتْ على أهل الإسلام وغيرهم، فلم تدخل تحت الردِّ.

وهذا بخلاف العبد إذا حدَّ في قذفٍ ثم أعتق، فإنه لا تقبل شهادتهُ لأنه لم تكن له شهادةٌ من قبلُ للرِّقِّ، فلزم كونُ تتميم حدِّه بردِّ شهادته التي تجدَّدت له.

وقد طُلبَ الفرقُ بينه وبين مَن زنى في دار الحرب ثم خرج إلى دار الإسلام فإنه لا يحدُّ، حيث توقَّفَ حكمُ الموجب في العبد إلى أن أَمْكَنَ، ولم يتوقَّف في الزنى في دار الحرب إلى الإمكان بالخروج إلى دار الإسلام.

وأجيبَ بأنَّ الزنى في دار الحرب لم يقع موجباً أصلاً؛ لعدم قدرة الإمام، فلم يكن الإمامُ مخاطَباً بإقامته أصلاً؛ لأنَّ القدرة شرطُ التكليف، فلو حُدَّ بعد خروجه من غير سببٍ آخَرَ كان بلا موجِبٍ، وغيرُ الموجب لا ينقلب موجباً بنفسه، خصوصاً في الحدِّ المطلوب دَرْؤُه، وأما قَذْفُ العبد فموجبٌ ـ حال صدوره ـ للحدِّ، غير أنه لم يكن تمامُه في الحال، فيتوقَّف تتميمُه على حدوث ذلك بعد العتق، كذا قيل.

وقال في «المبسوط» في الفرق بين الكافر إذا أسلم بعد الحدِّ والعبدِ إذا أعتق بعده: إن الكافر استفاد بالإسلام عدالةً لم تكن موجودةً له عند إقامة الحدِّ، وهذه العدالةُ لم تكن مجروحةً، بخلاف العبد فإنه بالعتق لا يستفيدُ عدالةً لم تكن من قبل، وقد صارت عدالته مجروحةً بإقامة الحدِّ[1].

---

(١) المبسوط ١٦/١٢٨.

ثم لا فرقَ في العبد بين أن يكون حُدَّ ثم أُعتق، وبين أن يكون أُعتق ثم حُدَّ، حيث لم تُقبل شهادته في الصورتين، وأما الكافرُ فإنه لو قَذَفَ محصناً ثم أسلم ثم حُدَّ، لا تقبلُ شهادته.

ومقتضى الآية عدمُ قبول كلِّ شهادةٍ للمحدود حادثةً كانت أو قديمةً؛ لما أنَّ «شهادة» نكرةٌ، وهي واقعةٌ في حيِّز النهي فتفيدُ العمومَ، كالنكرة الواقعة في حيِّز النفي، وهذا يعكِّر على ما مرَّ من قبول شهادة الكافر المحدود إذا أسلم.

وأجاب العلَّامة ابن همام[1]: بأن التكليف بما في الوسع، وقد كلِّف الحكامُ بردِّ شهادته، فالامتثالُ إنما يتحقَّق بردِّ شهادةٍ قائمة، فحيث ردَّت تحقَّقَ الامتثالُ وتمَّ، وقد حدثَتْ أخرى فلو ردَّت كانت بلا مقتضٍ[2]، إذ الموجب أخذُ مقتضاه. وللبحث فيه مجال.

ومقتضى العموم أيضاً عدمُ قبول شهادة المحدود في الديانات وغيرها، وهي روايةُ «المنتقى»[3]، وفي روايةٍ أخرى أنها تقبل في الديانات، وكأنهم اعتبروها روايةً وخبراً لا شهادةً، وربَّ شخصٍ تردُّ شهادته وتقبل روايته.

وأورد على العموم أنهم اكتَفَوْا في النكاح بشهادة المحدودين.

وأجيب: بأنَّ الشهادة هناك بمعنى الحضور، وإنما يكتفَى به في انعقاد النكاح، وقد صرَّحوا بأنَّ للنكاح حُكْمين: حُكْمُ الانعقاد وحُكْمُ الإظهار، ولا يقبل في الثاني إلا شهادةُ من تُقْبلُ شهادتُه في سائر الأحكام كما في «شرح الطحاوي»[4].

والحاصلُ أنَّ الآية تدلُّ على وجوب ردِّ شهادة المحدود على الحكَّام، بمعنى: أنه إذا شهد عندهم على حكمٍ وجب عليهم ردُّ شهادته، ويندرج في ذلك شهادتُه في النكاح؛ لأنه يشهد عندهم إذا وقع التجاحُد، فلا يعكِّر على العموم اعتبارُ حضوره مجلسَ النكاح في صحة انعقاده؛ إذ ذلك أمرٌ وراء ما نحن فيه، كذا قيل فليتدبَّر.

---

(١) في فتح القدير ٤/ ٢٠٧.
(٢) في الأصل: كانت غير مقتض، وفي (م): كان غير مقتضى، والمثبت من فتح القدير.
(٣) كما في فتح القدير ٦/ ٣١.
(٤) حاشية ابن عابدين ٣/ ٢٣.

وذهب الشافعيُّ إلى قبول شهادة المحدود إذا تاب، والمرادُ بتوبته أن يكذِّبَ نفسه في قذفه. ومَبْنَى الخلاف ـ على المشهور ـ الخلافُ فيما إذا جاء استثناءٌ بعد جُملٍ مقترنة بالواو، هل ينصرف للجملة الأخيرة، أو إلى الكلِّ، أو هناك تفصيلٌ؟

فالذي ذهب إليه أصحاب الشافعيِّ انصرافُه إلى الكلِّ، والذي ذهب إليه أصحاب أبي حنيفة انصرافُه للجملة الأخيرة. وقال القاضي عبد الجبار وأبو الحسين البصريُّ وجماعةٌ من المعتزلة: إنْ كان الشروع في الجملة الثانية إضراباً عن الأولى ولا يضمر فيها شيءٌ مما في الأولى فالاستثناءُ مختصٌّ بالجملة الأخيرة؛ لأنَّ الظاهر أنه لم ينتقل عن الجملة الأولى ـ مع استقلالها بنفسها ـ إلى غيرها إلَّا وقد تمَّ مقصودُه منها.

وذلك على أربعة أقسام:

الأول: أن تختلف الجملتان نوعاً، كما لو قال: أَكْرِمْ بني تميم والنحاةُ البصريون إلَّا البغاددة؛ إذ الجملة الأولى أمرٌ والثانية خبر.

الثاني: أن يتَّحدا نوعاً ويختلفا اسماً وحكماً، كما لو قال: أَكْرِمْ بني تميم واضْرِبْ ربيعةَ إلا الطِّوال؛ إذ هما أمران.

الثالث: أن يتَّحِدا نوعاً ويشتركا حكماً لا اسماً، كما لو قال: سَلِّم على بني تميم وسَلِّم على بني ربيعةَ إلا الطِّوال.

الرابع: أن يتَّحدا نوعاً ويشتركا اسماً لا حكماً، ولا يشتركَ الحُكْمانِ في غرضٍ من الأغراض، كما لو قال: سَلِّم على بني تميم واسْتَأْجِرْ بني تميم إلا الطِّوال. وقوةُ اقتضاءِ اختصاصِ الاستثناء بالجملة الأخيرة في هذه الأقسام على هذا الترتيب.

وإن لم يكنِ الشروعُ في الجملة الثانية إضراباً عن الأولى، بأنْ كان بين الجملتين نوعُ تعلُّقٍ، فالاستثناءُ ينصرف إلى الكلِّ، وذلك على أربعة أقسام أيضاً:

الأول: أن يتَّحِدَ الجملتان نوعاً واسماً لا حُكماً، غيرَ أنَّ الحُكْمين قد اشتركا في غرضٍ واحد، كما لو قال: أَكْرِمْ بني تميم وسلِّم على بني تميم إلا الطِّوال؛ لاشتراكهما في غرضِ الإعظام.

الثاني: أن يتَّحِدَ الجملتان نوعاً ويختلفا حكماً واسمُ الأولى مُضْمَرٌ في الثانية، كما لو قال: أَكْرِمْ بني تميم واستأْجِرْهم إلا الطِّوال.

الثالث: بعكس ما قبله، كما لو قال: أَكْرِمْ بني تميم وربيعةَ إلا الطِّوال.

الرابع: أن يختلف نوعُ الجمل إلَّا أنه قد أُضْمِرَ في الأخيرة ما تقدَّم، أو كان غرضُ الأحكام المختلفة فيها واحداً، وجُعِلَ آيةُ الرمي التي نحن فيها من ذلك، حيث قيل: إنَّ جُملَها مختلفةُ النوع من حيث إنَّ قوله تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ أمرٌ، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ نهيٌ، وقوله جل وعلا: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ خبرٌ، وهي داخلةٌ أيضاً تحت القِسْمِ الأول من هذه الأقسام الأربعة؛ لاشتراك أحكام هذه الجمل في غرض الانتقام والإهانة، وداخلةٌ أيضاً تحت القسم الثاني من جهة إضمار الاسم المتقدِّم فيها.

وذهب الشريف المرتَضَى من الشيعة إلى القول بالاشتراك، وذهب القاضي أبو بكر والغزاليُّ وجماعةٌ إلى الوقف.

وقال الآمديُّ: المختارُ أنه مهما ظهر كونُ الواو للابتداء، فالاستثناءُ يكون مختصّاً بالجملة الأخيرة كما في القسم الأول من الأقسام الثمانية؛ لعدم تعلُّق إحدى الجملتين بالأخرى، وهو ظاهرٌ، وحيث أمكن أن تكون الواو للعطف أو الابتداء كما في باقي الأقسام السبعة فالواجبُ الوقف، وذكر حجج المذاهب بما لها وعليها في «الإحكام»[1].

وفي «التلويح» وغيره: أنه لا خلافَ في جواز رجوع الاستثناء إلى كلٍّ، وإنما الخلاف في الأظهر. وفيه نظر؛ فإنَّ بعض حجج القائلين برجوعه إلى الجملة الأخيرة قد استدلَّ بما يدلُّ على عدم جواز رجوعه للجميع، قال القلانسيُّ[2]: إنَّ نَصْبَ ما بعد الاستثناء في الإثبات إنما كان بالفعل المتقدِّم بإعانة «إلا» على ما ذهب إليه أكابر البصريين، فلو قيل برجوعه إلى الجميع لكان ما بعد «إلا» منتصباً بالأفعال

---

(١) الإحكام للآمدي ٢/ ٣٢١-٣٢٣، وعنه نقل المصنف قول القاضي عبد الجبار وأبي الحسين البصري وما بعده.

(٢) كما في الإحكام للآمدي ٢/٣٢٨-٣٢٩، وعنه نقل المصنف.

المقدَّرةِ في كلِّ جملةٍ، ويلزم منه اجتماعُ عاملين على معمولٍ واحد، وذلك لا يجوز؛ لأنه بتقديرِ مُضَادَّةِ أحدهما للآخر في العمل يلزمُ أن يكون المعمولُ الواحد مرفوعاً منصوباً معاً، وهو محالٌ، ولأنه إن كان كلٌّ منهما مستقلًّا في العمل لزم عدمُ استقلاله، ضرورةَ أنه لا معنى لكون كلٍّ مستقلًّا إلا أنَّ الحكم ثبتَ به دون غيره، وإن لم يكن كلٌّ منهما مستقلًّا لزم خلافُ المفروض، وإن كان المستقلُّ البعضَ دون البعضِ لزم الترجيحُ بلا مرجِّحٍ، ووجه دلالته ـ وإن بُحِثَ فيه ـ على عدم جواز رجوعه للجميع ظاهرٌ.

وكما اختلف الأصوليون في ذلك اختلف النحاة فيه، ففي «شرح اللُّمع»[١] أنه يختصُّ بالأخيرة، وأنَّ تعليقه بالجميع خطأٌ؛ للزوم تعدُّد العامل في معمولٍ واحد، إلا على القول بأن العامل «إلا»، أو تمام الكلام [قبله].

وقال أبو حيان: لم أرَ مَن تكلّم على هذه المسألة من النحاة غير المهاباذيِّ وابن مالكٍ، فاختار ابن مالك عودَ الاستثناء إلى الجمل كلِّها كالشرط، واختار المهاباذي عودَه إلى الجملة الأخيرة[٢].

وقال الوليُّ بن العراقيِّ[٣]: لم يطلق ابن مالك عَوْدَه إلى الجمل كلِّها، بل استثنى مِن ذلك ما إذا اختلف العاملُ والمعمولُ، كقولك: اكْسُ الفقراءَ وأَطْعِم أبناء السبيل إلا مَن كان مبتدعاً، فقال في هذه الصورة: إنه يعود إلى الأخيرة[٤] خاصةً.

ونقل عن أبي عليٍّ الفارسيِّ القولُ برجوعه إلى الأخيرة مطلقاً، وهذا كقول الحنفية في المشهور، والحقُّ أنهم إنما يقولون برجوعه إلى الأخيرة فقط إذا تجرَّد

(١) لأحمد بن عبد الله المهاباذي الضرير، من تلاميذ عبد القاهر الجرجاني. وهو شرح لكتاب اللمع في النحو لابن جني. بغية الوعاة ١/ ٣٢٠، وكشف الظنون ٢/ ١٥٦٢. ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٦/ ٣٦٠، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) البحر ٦/ ٤٣٣.

(٣) أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة، له حاشية على الكشاف، وأخبار المدلسين، وغيرهما، توفي سنة (٨٠٦هـ). الضوء اللامع ١/ ٣٣٦، والأعلام ١/ ١٤٨.

(٤) في (م): الأخير.

الكلام عن دليلٍ رجوعه إلى الكلِّ، أما إذا وُجد الدليل عُمِلَ به، وذلك كما في قوله تعالى في المحاربين: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤] فإن قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ يقتضي رجوعه إلى الكلِّ؛ فإنه لو عاد إلى الأخيرة أعني قوله سبحانه: (وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(١) لم يَبْقَ للتقيد بذلك فائدةٌ؛ للعلم بأنَّ التوبة تُسقِطُ العذابَ، فليس فائدةُ «مِن قَبۡلِ» إلخ إلا سقوطُ الحدِّ، وعلى مثل ذلك ينبغي حَمْلُ قول الشافعية، بأنْ يقال: إنهم أرادوا رجوعَ الاستثناء إلى الكلِّ إذا لم يكن دليلٌ يقتضي رجوعَه إلى الأخيرة.

وذكر بعضُ أجلَّةِ المحقِّقين أنَّ الحنفية إنما قالوا برجوع الاستثناء إلى الجملة الأخيرة هنا؛ لأن الجملتين الأُوْلَيين وردتا جزاءً؛ لأنهما أُخرجتا بلفظ الطلب مخاطباً بهما الأئمةُ، ولا يضرُّ اختلافهما أمراً ونهياً، والجملةُ الأخيرة مستأنفةٌ بصيغة الإخبار دفعاً لتوهُّم استبعادِ كون القذف سبباً لوجوب العقوبة التي تندرئُ بالشبهة، وهي قائمةٌ هنا لأنَّ القذف خبرٌ يحتمل الصدق وربما يكون حسبةً، ووجهُ الدفع أنهم فسّقوا بهتك سترِ العفة بلا فائدة، حيث عجزوا عن الإثبات فلذا استحقُّوا العقوبةَ، وحيث كانت مستأنفةً توجَّه الاستثناءُ إليها.

ونقل عن الشافعيِّ أنه جعل «ولا تقبلوا» استئنافاً منقطعاً عن الجملة السابقة، وأبى أن يكون من تتمة الحدِّ؛ لأنه لا مناسبة بين الجلد وعدمِ قبول الشهادة، وجَعَل الاستثناء مصروفاً إليه بجَعْلِ مَن تاب مستثنًى من ضميرِ «لهم»، ويكون قوله تعالى: (وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ) اعتراضاً جارياً مجرى التعليل لعدم قبول الشهادة، غيرَ منقطع عما قبله، ولهذا جاز توسُّطه بين المستثنى والمستثنى منه، ولا تعلُّق للاستثناء به.

وآثر ذلك ابن الحاجب في «أماليه»(٢) حيث قال: إنَّ الاستثناء لا يرجع إلى الكلِّ، أمَّا الجلدُ فبالاتِّفاق، وأمَّا قولُه تعالى: (وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ) فلأنه إنما جيءَ به لتقريرِ منعِ الشهادة، فلم يبق إلا الجملةُ الثانية فيرجعُ إليها.

---

(١) في الأصل و(م): ولهم عذاب عظيم.

(٢) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٣٦٠.

وتعقِّب بأن استئناف «ولا تقبلوا» إلخ في غاية البعد، والمرادُ من عدم قبول الشهادة ردُّها، ومناسبتُه للجَلْدِ ظاهرةٌ؛ لأن كلًّا منهما مُؤْلِمٌ زاجرٌ عن ارتكاب جريمة الرمي، وكم من شخصٍ لا يتألَّم بالضرب كما يتألَّم بردِّ شهادته.

وربما يقال: إنَّ ردَّ الشهادة قَطْعٌ للآلة الخائنة معنًى، وهي اللسان، فيكون كقَطْعِ اليد حقيقةً في السرقة.

ومَن أَنْصَفَ رأى مناسبتَه للجَلْدِ أتمَّ من مناسبة التغريب له؛ لأنَّ التغريب ربما يكون سبباً لزيادة الوقوع في الزنى لقلَّة مَن يراقِبُ ويُسْتحَى منه في الغربة، وقد تُضْطَرُّ المرأةُ إذا غرِّبتْ إلى ما يسدُّ رمقها، فتسلِّم نفسَها لتحصيل ذلك.

وأيضاً الجلدُ فِعْلٌ يَلزمُ على الإمام فعلُه، والردُّ المرادُ من عدم القبول كذلك، وقد خوطب بكلتا الجملتين الإنشائيتين لفظاً ومعنًى الأئمةُ، وبهذا يَقْوَى أمرُ المناسبة.

واعترض الزيلعيُّ[1] على القول بأنَّ جملة «وأولئك هم الفاسقون» تعليلٌ لردِّ الشهادة، فقال: لا جائزَ أن يكون ردُّ شهادته لفِسْقِه؛ لأن الثابت بالنصِّ في خبر الفاسق هو التوقُّفُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦] لا الردُّ، وعلَّةُ الردِّ هنا ليست إلا أنه حدٌّ. انتهى. وفيه نظر.

ولم يجعل الشافعيُّ على هذا النقل الجملةَ المذكورة مع كونها جاريةً مجرى التعليل لِمَا قبلها معطوفةً عليه؛ لِمَا قال غيرُ واحدٍ من أنَّ العطف بالواو يمنع قَصْدَ التعليل لردِّ الشهادة بسبب الفسق؛ لأن العلَّة لا تُعطَفُ على الحكم بالواو بل إنما تُذْكَرُ بالفاء. وكذا ينبغي أن لا تكون معطوفةً على ما أشير إليه سابقاً من أنها علَّةٌ لاستحقاق العقوبة؛ إذ ذلك غير منطوق.

وانتُصِر للشافعيِّ عليه الرحمةُ فيما ذهب إليه من قبول شهادته إذا تاب بأنه إذا جُعِلَتِ الجملةُ تعليلاً للردِّ يتمُّ ذلك ولو سلِّم رجوعُ الاستثناء إلى الجملة الأخيرة من الجمل المتعاقبة بالواو؛ لوجوب زوال الحكم بزوال العلَّة، ولا أظنه يُدْفَعُ إلَّا بِالْتزامِ أنها ليست للتعليل.

---

(١) في تبيين الحقائق ٤/٢١٩.

وقال بعضهم: لا انقطاعَ بين الجمل عند الشافعيِّ، ومقتضى أصلِه المشهورِ رجوعُ الاستثناء إلى الجميع، فيلزمُ حينئذٍ سقوطُ الجَلْدِ بالتوبة، لكنه لا يقول بذلك؛ لأن تحقيق مذهبه أنَّ الرجوع إلى الكلِّ قد يُعْدَلُ عنه، وذلك عند قيام الدليل وظهورِ المانع، والمانعُ هنا من رجوعه إلى الجملة الأولى ـ على ما قيل ـ الإجماعُ على عدم سقوط الجلد بالتوبة؛ لِمَا فيه من حقِّ العبد.

وأولى منه ما أومأ إليه القاضي البيضاويُّ من أنَّ الاستسلام للجَلْدِ من تتمَّةِ التوبة[1]، فكيف يعود إليه؟ ولا يمكن أن يقال: إن عدم قبول الشهادة والتفسيق من تتمَّتها أيضاً كما لا يخفى.

وقيل: يجوز أن تُخرَّجَ الآية على أصله المشهور، ولا مانع من رجوع الاستثناء إلى الجملة الأولى أيضاً؛ لِمَا أنَّ المستثنى هو «الذين تابوا وأصلحوا» ومن جملة الإصلاح: الاستحلالُ وطلبُ العفو من المقذوف، وعند وقوع ذلك يسقطُ الجلد أيضاً.

وفيه أن كون طلب العفو من الإصلاح غيرُ نافع؛ لأنَّ الجلد لا يسقط بطلب العفو بل بالعفو، وهو ليس من جملة هذا الإصلاح؛ إذ العفو فِعْلُ المقذوف، وهذا الإصلاحُ فِعْلُ القاذف، فلم يصحَّ صرفُ الاستثناء إلى الكلِّ كما هو أصلُه المشهور.

وقال الزمخشريُّ: الذي يقتضيه ظاهرُ الآية ونَظْمُها أن تكون الجملُ الثلاثُ بمجموعهنَّ جزاءَ الشرط، والمعنى: ومَن قَذَفَ فاجمعوا لهم بين الأجزئة الثلاثة، إلَّا الذين تابوا منهم فيعودون غيرَ مجلودين ولا مردودي الشهادة ولا مفسَّقين[2].

قال في «الكشف»: وهذا جارٍ على أصل الشافعيِّ من أنَّ الاستثناء يرجع إلى الكلِّ، وانضمَّ إليه هاهنا أنَّ الجمل دخلت في حيِّز الشرط فصِرْنَ كالمفردات.

وتعقَّب القولُ بدخول قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ في حيِّز الجزاء بأنَّ دليل عدم المشاركة في الشرط يقتضي عدم الدخول؛ فإنه جملةٌ خبرية غير مخاطبٍ بها

---

(١) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٦/ ٣٥٩.

(٢) الكشاف ٣/ ٥١.

الأئمة لإفراد الكاف في «أولئك»، فهو عطفٌ على الجملة الاسمية، أي: الذين يرمون.. إلخ، أو مستأنفٌ لحكاية حالِ الرامين عند الشرع.

وأورد عليه أنَّ عَطْفَ الخبر على الإنشاء وعكسَه لاختلاف الأغراض شائعان في الكلام. وأنَّ إفرادَ كافِ الخطاب مع الإشارة جائزٌ في خطاب الجماعة، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٥٢]. على أنَّ التحقيق أنَّ «الذين يرمون» منصوبٌ بفعلٍ محذوف، أي: اجلدوا الذين.. إلخ، فهو أيضاً جملةٌ فعليةٌ إنشائيةٌ مخاطبٌ بها الأئمةُ، فالمانعُ المذكورُ قائمٌ هنا، مع زيادة العدولِ عن الأقرب إلى الأبعد.

ولو سلِّم أنَّ «الذين» مبتدأ، فلا بدَّ في الإنشائية الواقعة موقعَ الخبر من تأويلٍ وصرفٍ عن الإنشائية عند الأكثر، وحينئذٍ يصحُّ عطف «أولئك هم الفاسقون» عليه، وقال الزمخشريُّ: معنى «أولئك هم الفاسقون»: فسِّقوهم[(١)].

والإنصافُ يحكم بعدم ظهور دخول الجملة الأخيرة في حيِّز الجزاء، وجميعُ ما ذكروه إنما يفيدُ الصحة لا الظهور.

ولعل الظاهر أنها استئنافٌ تذييليٌّ لبيانِ سوءِ حالِ الرَّامين في حكم الله تعالى، وحينئذٍ عودُ الاستثناء[(٢)] إليه ظاهر.

لا يقال: إنَّ ذلك ينفي الفائدة؛ لأنه معلومٌ شرعاً أن التوبة تزيلُ الفسقَ من غير هذه الآية. لأنَّا نقول: لا شبهةَ في أنَّ العلم بذلك من طريق السمع، وقد ذُكر الدالُّ عليه منه، وكونُ آيةٍ أخرى تفيدُه لا يضرُّ؛ للقَطْعِ بأنَّ طريق القرآن تكرارُ الدَّوَالِّ، خصوصاً إذا كان التأكيدُ مطلوباً.

هذا، وإلى ما ذهب إليه أبو حنيفة من عدم قبول شهادة المحدود في القذف إذا تاب، ذهب الحسنُ وابن سيرين وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، وقد رَوَى ذلك عن كلٍّ الجلالُ السيوطيُّ في «الدر المنثور»[(٣)].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٥٩.
(٢) في (م): الاستئناف، وهو تصحيف.
(٣) ٥/ ٢٠-٢١.

وإلى ما ذهب إليه الشافعيُّ من قبول شهادته، ذَهَب مالكٌ وأحمد، وروي ذلك عن عمر بن عبد العزيز وطاوس ومجاهد والشعبيُّ والزهريُّ ومحاربٌ وشريح ومعاوية بن قرة وعكرمة وسعيد بن جبير على ما ذكره الطيبيُّ.

وعَدُّ ابنِ جُبيرٍ من القائلين كقول الشافعيِّ يخالفُه ما سمعتَ آنفاً. وعَدَّ ابنُ الهمام شريحاً ممَّن قال كقول أبي حنيفة[١]. وعن ابن عباس روايتان.

وفي «صحيح البخاريِّ»: جَلَدَ عمر رضي الله عنه أبا بكرة وشبل بن معبد ونافعاً بقَذْفِ المغيرة، ثم استتابهم، وقال: مَن تاب قُبِلتْ شهادته[٢].

ومَن تتبَّع تحقَّق أنَّ أكثر الفقهاء قائلون كقول الشافعيِّ عليه الرحمة، ودعوى إجماع فقهاء التابعين عليه غيرُ صحيحةٍ كما لا يخفى، والله تعالى أعلم.

ووجهُ التعليل المستفادِ من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ على القولين ظاهرٌ، لكن قيل: إنه على قول أبي حنيفة أظهرُ، وهو تعليلٌ لِمَا يفيدُه الاستثناء، ولا محلَّ له[٣] من الإعراب. وجوَّز أبو البقاء كون «الذين» مبتدأ، وهذه الجملةُ خبرُه، والرابطُ محذوفٌ، أي: لهم[٤].

واختار الجمهور الاستئناف والاستثناء، وهو على ما ذهب إليه أصحابنا منقطعٌ، وبيَّنه أبو زيد الدبوسيُّ في «التقويم»[٥] بما حاصله: أنَّ المستثنى وإنْ دخل في الصدر، لكنْ لم يُقْصَدْ إخراجُه من حُكْمِه على ما هو معنى الاستثناءِ المتَّصلِ، بل قُصِدَ إثباتُ حكمٍ آخَرَ له، وهو أنَّ التائب لا يبقى فاسقاً.

وتعقَّبه العلَّامةُ الثاني: بأنه إنما يتم إذا لم يكن معنى «هم الفاسقون» الثباتَ والدوامَ، وإلا فلا تعذُّرَ للاتصال، فلا وجهَ للانقطاع.

---

(١) فتح القدير ٦/ ٣٠.

(٢) علقه البخاري قبل الحديث (٢٦٤٨).

(٣) قوله: له، ساقط من (م).

(٤) الإملاء ٤/ ٦٩.

(٥) تقويم الأدلة في الأصول للقاضي أبي زيد عبد الله بن عمر الدبوسي الحنفي المتوفى سنة (٤٣٠هـ). سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٢١، وكشف الظنون ١/ ٤٦٧.

وبيَّنه فَخْرُ الإسلام[1] بأنَّ المستثنى غير داخلٍ في صدر الكلام؛ لأنَّ التائب ليس بفاسقٍ، ضرورةَ أنه عبارةٌ عمَّن قام به الفسق، والتائبُ ليس كذلك لزوال الفسق بالتوبة. وهذا مبنيٌّ على أنه يُشترط في حقيقة اسم الفاعل بقاءُ معنى الفعل، وأما إذا لم يشترط ذلك فيتحقَّقُ التناولُ لكن لا يصحُّ الإخراج؛ لأنَّ التائب ليس بمُخْرَجٍ ممن كان فاسقاً في الزمان الماضي.

واعترض بأن المستثنى منه على تقدير اتصال الاستثناء ليس هو الفاسقين، بل الذين حُكم عليهم بذلك، وهم «الذين يرمون» المشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، ولا شكَّ أنَّ التائبين داخلون فيهم، مُخْرَجون عن حُكمهم وهو الفسق، كأنه قيل: جميعُ القاذفين فاسقون إلَّا التائبين منهم، كما يقال: القومُ منطلقون إلا زيداً، استثناء متصلاً بناءً على أن زيداً داخلٌ في القوم مُخْرَجٌ عن حكم الانطلاق، فيصحُّ الاستثناء المتصلُ سواءٌ جُعِلَ المستثنى منه بحسب اللفظ هو القومُ، أو الضميرُ المستتر في منطلقون بناءً على أنه أقربُ وأنَّ عمل الصفة في المستثنى أظهر، وليس المراد أنَّ المستثنى منه لفظاً هو لفظُ القوم ألبتة، وإذا جُعل المستثنى منه ضميرَ منطلقون فمعنى الكلام أن زيداً داخلٌ في الذوات المحكومِ عليهم بالإطلاق، مخرجٌ عن حكم الانطلاق، كما في قولنا: انطلق القوم إلا زيداً، وكذا الكلام في الآية.

وأجيبَ: بأن الفاسقين هاهنا إما أن يكون بمعنى الفاسق على قَصْدِ الدَّوام والثبات، أو بمعنى مَن صَدَرَ عنه الفسقُ في الزمان الماضي، أو مَن قام به الفسقُ في الجملة ماضياً كان أو حالاً، فإنْ أُريدَ الأولُ فالتائبُ ليس بفاسقٍ، ضرورةَ قضاء الشارع بأنَّ التائب ليس بفاسقٍ حقيقةً، ومِن شَرْطِ الاستثناء المتَّصل أن يكون الحكم متناولاً للمستثنى على تقدير السكوت عن الاستثناء، وهذا مرادُ فخر الإسلام بعدم تناول الفاسقين للتائبين، بخلاف منطلقون فإنه يدخل فيه زيد على تقدير عدم الاستثناء، وإن أريد الثاني أو الثالثُ فلا صحةَ لإخراج التائب عن الفاسقين؛ لأنه فاسقٌ بمعنى صدورِ الفسق عنه في الجملة، ضرورةَ أنه قاذفٌ والقذفُ فِسْقٌ.

ولا يخفى أنَّ منعَ عدم دخول التائبين في الفاسقين بالمعنى الذي ذكرنا، ومَنْعَ عدم صحة إخراجِهم عنهم بالمعنى الآخَرِ، غيرُ موجَّهٍ، وأنَّ الاستدلال على

(١) أي: البزدوي، وكلامه في أصوله بهامش كشف الأسرار لعلاء الدين البخاري ٣/ ١٣٣.

دخولهم بأنه قد حُكم بالفسق على «أولئك» المشارِ به إلى «الذين يرمون» وهو عامٌّ ليس بصحيح؛ للإجماع القاطع على أنه لا فِسْقَ مع التوبة، وكفى به مخصِّصاً. اهـ.

وفيه أنَّ الإجماع لا يكون مخصِّصاً فيما نحن فيه؛ لكونه متراخياً عن النصِّ، ضرورةَ أنه لا إجماع إلَّا بعد زمان النبيِّ ﷺ، فالحكم بالفسق على «أولئك» المشارِ به إلى «الذين يرمون» وهو عامٌّ، فيتمّ الاستدلال.

وأجيب عن هذا: بأنَّ المراد بالتخصيص قَصْرُ العامِّ على بعض ما يتناولُه اللفظُ لا التخصيصُ المصطلحُ، وهو كما ترى.

وفي قوله: ومِن شَرْطِ الاستثناء المتصل.. إلخ، بحثٌ يعلم مما سيأتي إن شاء الله تعالى قريباً.

وقال العلَّامة: الظاهرُ كونُ الاستثناء متصلاً، أي: أولئك الذين يرمون محكومٌ عليهم بالفسق، إلا التائبين منهم فإنه غيرُ محكوم عليهم بالفسق؛ لأنَّ التائب من الذنب كمن لا ذنبَ له(١). وكأنه أراد أنهم غيرُ محكومٍ عليهم بالفسق الدائم، وهو المحكومُ به عليهم في الصدر بقرينة الجملة الاسمية.

وذكر بعضُ الأفاضل في توجيه كونه متصلاً: أنَّ دخول المستثنى في المستثنى منه إنما يكون باعتبارِ تناوُلِ المستثنى منه وشمولِه إياه، لا بحَسَبِ ثُبوته له في الواقع، كيف ولو ثبت الحكم له لما صحَّ استثناؤه، فها هنا «الذين يرمون» شاملٌ للتائبين منهم، فلا يضرُّ في صحة الاستثناء أنهم ليسوا بفاسقين وأنَّ التوبة تُنافي ثبوتَ الفسقِ، كما إذا لم يدخل زيد في الانطلاق، فإنه يصحُّ استثناؤه باعتبار دخوله في القوم، مثل: انطلق القوم إلا زيداً.

والحاصل أنه يكفي في الاستثناء دخولُ المستثنى في حكم المستثنى منه بحسَبِ دلالة اللفظ، وإنْ لم يدخل فيه بحسب دليلٍ خارج، كما يقال: خلق الله تعالى كلَّ شيءٍ إلَّا ذاتَه سبحانه وصفاتِه العُلَى.

قال العلَّامة: ويمكن الجواب عن هذا بأنه لا فائدة للاستثناء المتصل على هذا التقدير؛ لأنَّ خروج المستثنى من حكم المستثنى منه معلومٌ، فيحمَلُ على المنقطع

---

(١) ورد فيه حديث سيأتي تخريجه قريباً.

المفيدِ لفائدةٍ جديدةٍ، وهذا مرادُ فخر الإسلام بعدم دخول التائبين في صدر الكلام.

وبَحَثَ فيه بأنَّ عدم التناول الشرعيّ مستفادٌ من الاستثناء المذكور في الآية، والحديثُ ـ أعني: «التائبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ له»[(١)] ـ مبيِّنٌ له، فلا وَجْهَ لمنْعِ وجود الفائدة. وبأنَّ كون خروج المستثنى من حُكْم المستثنى منه معلوماً هنا غيرُ معلوم؛ لمكان الخلاف في اشتراط بقاء الفعل. وبأن الفائدة الجديدة في المنقطع التي يَعْرَى عنها المتصلُ غيرُ ظاهرةٍ.

وقال أيضاً: لا يقال: لِمَ لا يجوزُ أن يكون المستثنى منه هو «الفاسقون»، ويكون الاستثناء لإخراج التائبين منهم في الحكم الذي هو الحملُ على أولئك القاذفين والإثباتُ له، فإنَّ الاستثناء كما يجوزُ من المحكوم به يجوزُ من غيره، كما يقال: كرامُ أهلِ بلدتنا أغنياؤهم إلَّا زيداً، بمعنى أنَّ زيداً وإن كان غنيّاً لكنه خارجٌ عن الحمل على الكرام = لأنَّا نقول: فحينئذٍ يلزمُ أن يكون التائبون من الفاسقين ولا يكونوا من القاذفين، والأمرُ بالعكس.

وقد يقال: إنَّ الاستثناء منقطعٌ، على معنى: أنهم فاسقون في جميع الأحوال إلا حال التوبة. ولا يخفى أنه يحتاجُ إلى تكليفٍ[(٢)] في التقدير، أي: إلَّا حال توبة الذين.. إلخ، أو: إلا توبةَ القاذفين، أي: وقتَ توبتِهِم، على أن يجعل «الذين» حرفاً مصدريًّا لا اسماً موصولاً، وضمير «تابوا» عائداً على «أولئك»، وبعد اللُّتيَّا والتي يكونُ الاستثناء مفرَّغاً متصلاً لا منقطعاً. انتهى، فتأمَّلْ.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ بيانٌ لحكم الرامين لأزواجهم خاصةً، وهو ناسخٌ لعموم المحصَناتِ، وكانوا قبل نزول هذه الآية يفهمون من آية «والذين يرمون» إلخ أنَّ حكم مَن رَمَى الأجنبيةَ وحُكْمَ مَن رَمَى زوجته سواءٌ، فقد أخرج أبو داود وجماعةٌ عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت (وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ) الآيةَ قال سعد بن عبادة وهو

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في الكبير (١٠٢٨١) من طريق أبي عبيدة عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٠: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه. اهـ. وله شواهد عن ابن عباس وأبي سعدة الأنصاري وأبي عتبة الخولاني. ينظر سنن البيهقي ١٠/ ١٥٤.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعل الأولى: تكلُّف.

سيدُ الأنصار: أهكذا أُنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقولُ سيدكم؟» قالوا: يا رسول الله، لا تَلُمْه فإنَّه رجلٌ غَيُورٌ، واللهِ ما تزوَّج امرأةً قط إلَّا بكراً، وما طلَّق امرأةً فاجترأ رجلٌ منَّا على أن يتزوَّجها من شدة غيرته. فقال سعدٌ: واللهِ يا رسول الله إنِّي لأَعْلَمُ أنَّها حقٌّ، وأنَّها مِن عند الله تعالى، ولكنِّي تعجَّبْتُ أنِّي لو وجدتُ لَكَاعاً قد تفخَّذَها رجلٌ، لم يكن لي أنْ أَهِيجَه ولا أُحَرِّكَه حتى آتيَ بأربعةِ شهداءَ، فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته! قال: فما لبثوا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية، وهو أحد الثلاثة الذين تِيبَ عليهم، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنِّي جئت أهلي[1] عشاءً فوجدتُ عندها رجلاً[2]، فرأيتُ بعيني وسمعتُ بأذني. فكَرِهَ رسولُ الله ﷺ ما جاء به، واشتدَّ عليه، واجتمعت الأنصارُ فقالوا: قد ابتُلينا بما قال سعد بن عبادة، الآن يَضْرِبُ رسول الله عليه الصلاة والسلام هلال بنَ أمية، وتَبْطُلُ شهادتُه في المسلمين. فقال هلالٌ: والله إنِّي لأرجو أن يَجْعَلَ اللهُ تعالى لي منها مَخْرجاً. فقال: يا رسول الله، إنِّي قد أرى ما اشتدَّ عليك مما جئتُ به، واللهُ تعالى يعلمُ إني لصادقٌ. فواللهِ إنَّ رسول الله ﷺ يريدُ أن يأمر بضَرْبِه إذ نزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوحيُ، وكان إذا نزل عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الوحيُ عرفوا ذلك في تربُّدِ جِلْدِه، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآيةَ، فَسُرِّيَ عن رسول الله ﷺ، فقال: «أبشر يا هلال، قد كنتُ أرجو ذلك من ربِّي» وقال عليه الصلاة والسلام: «أرسلوا إليها» فجاءت، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما وذكَّرهما، وأخبرهما أنَّ عذاب الآخرة أشدُّ من عذاب الدنيا، فقال هلالٌ: والله يا رسول الله لقد صَدَقْتُ عليها. فقالت: كَذَبَ. فقال: رسولُ الله ﷺ: «لاعِنوا بينهما» الحديث[3]. ومنه ـ وكذا من روايةٍ أخرى ذكرها

(١) جاء في هامش (م): اسمها خولة بنت عاصم. اهـ منه.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): هو شريك بن سحماء كما في صحيح البخاري. اهـ منه.

(٣) سنن أبي داود (٢٢٥٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٣١) واللفظ له، والطيالسي (٢٧٨٩)، والطبري ١٧/ ١٨٠ وهو من طريق عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس. قال البخاري: عباد بن منصور روى عن ابن أبي يحيى عن داود بن الحصين عن عكرمة أشياء ربما نسيها، فجعلها عن عكرمة. وقال يحيى: عباد بن منصور ضعيف قدري. وقال ابن حبان: كان قدرياً داعياً إلى القدر، وكلُّ ما روى عن عكرمة سمعه من ابن أبي يحيى عن =

البخاريُّ في صحيحه والترمذيُّ وابنُ ماجه[1] - يُعلم أنَّ قصة هلالٍ سببُ نزول الآية.

وقيل: نزلت في عاصم بن عدي[2]. وقيل: في عويمر بن نصر العجلانيِّ، وفي «صحيح البخاريِّ» ما يشهدُ له[3]، بل قال السهيليُّ: إنَّ هذا هو الصحيحُ، ونَسَبَ غيرَه للخطأ[4]. والمشهورُ كما في «البحر» أنَّ نازلةَ هلالٍ قبل نازلةِ عويمر[5].

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أنس أنه قال: لأوَّلُ لعانٍ كان في الإسلام ما وقع بين هلال بن أمية وزوجته[6].

ونقل الخفاجيُّ هنا عن السبكيِّ إشكالاً، وأنه قال: إنه إشكالٌ صعبٌ واردٌ على آية اللِّعانِ والسرقة والزنى، وهو أنَّ ما تَضمَّنَ الشرطَ نصٌّ في العلِّية مع الفاء

= داود فدلسها على عكرمة. نصب الراية ٣/ ٢٥١. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة.

(١) صحيح البخاري (٤٧٤٧)، وسنن الترمذي (٣١٧٩)، وسنن ابن ماجه (٢٠٦٧).

(٢) ذكره النووي في مبهماته من تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٣٠٥، وتعقبه ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٤٥١ بقوله: فيه نظر؛ لأنه ليس لعاصم فيه قصةٌ أنه الذي لاعن امرأته، وإنما الذي وقع عن عاصم نظير الذي وقع من سعد بن عبادة.

(٣) صحيح البخاري (٤٧٤٥) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ، وهو عند أحمد (٢٢٨٣٠)، ومسلم (١٤٩٢): (١). وقوله: عويمر بن نصر، كذا نقله عن حاشية الشهاب ٦/ ٣٦١ ولم يُذكر اسم أبيه في مصادر التخريج، وذكر الحافظ في الفتح ٩/ ٧ أن المعتمد: عويمر بن الحارث. وينظر تفسير القرطبي ١٥/ ١٤٠-١٤١.

(٤) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٦١، وليس هذا القول للسهيلي، وإنما نقله السهيلي في التعريف والإعلام ص١٢٠ عن المهلب، وقال قبل ذلك: الحديث في كلٍّ منهما (يعني هلالاً وعويمراً) صحيح، فيحتمل أن تكون قصتين: نزل القرآن في إحداهما، وحُكم في الأخرى بما حُكم في الأولى. اهـ. وقول المهلب ذكره أبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ٣٠٠ عن أبي عبد الله أخي المهلب، وابن حجر في الفتح ٨/ ٤٥٠ وقال: أما قول ابن أبي صفرة فدعوى مجردة، وكيف يجزم بخطأ حديثٍ ثابتٍ في الصحيحين مع إمكان الجمع؟!.

(٥) البحر ٦/ ٤٣٣، وذكر ذلك أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٦.

(٦) مسند أبي يعلى (٢٨٢٤)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٢٣. وأخرجه أيضاً النسائي في المجتبى ٦/ ١٧٢، وابن حبان (٤٤٥١).

ومحتملٌ لها بدونها، ولتنزيله منزلةَ الشرط يكون ما تضمَّنه من الحدث مستقبَلاً لا ماضياً، فلا ينسحبُ حُكْمُه على ما قبله، ولا يَشْمَلُ ما قبله من سبب النزول.

وتعقَّبه بأنه لا صعوبةَ فيه، بل هو أسهلُ من شرب الماء البارد في حرِّ الصيف؛ لأنَّ هذا وأمثالَه معناه: إن أردتم معرفةَ هذا الحكم فهو كذا، فالمستقبلُ معرفةُ حُكْمِه وتنفيذه، وهو مستقبلٌ في سبب النزول وغيره، والقرينةُ على أنَّ المراد هذا أنها نزلت في أمرٍ ماضٍ أريدَ بيانُ حكمِه، ولذا قالوا: دخولُ سببِ النزول قطعيٌّ. ولا حاجةَ إلى القول بأنَّ الشرط قد يدخل على الماضي، ولا أنَّ ما تضمَّن الشرطَ لا يلزمُه مساواتُه لصريحه من كلِّ وجهٍ، ولا أنَّ دخول ما ذكر بدلالة النصِّ؛ لفساده هنا[(١)]. انتهى.

ثم إنَّ المراد هنا نظيرُ ما مرَّ: والذين يرمون بالزنى أزواجَهم المدخولَ بهنَّ وغيرَ المدخولِ بهنَّ، وكذا المعتدَّات في طلاقٍ رجعيٍّ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ أربعةٌ يشهدون بما رَمَوْهنَّ به من الزنى.

وقرئ: «تكن» بالتاء الفوقية[(٢)]، وقراءة الجمهور أفصح.

﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ بدلٌ من «شهداء»؛ لأنَّ الكلام غيرُ موجبٍ والمختارُ فيه الإبدالُ، أو «إلا» بمعنى «غير» صفة لـ «شهداء» ظَهَرَ إعرابُها على ما بعدها لكونها على صورة الحرف، كما قالوا في «أل» الموصولةِ الداخلةِ على أسماء الفاعلينَ مثلاً.

وفي جَعْلِهم من جملة الشهداء إيذانٌ - كما قيل - من أول الأمر بعدم إلغاءِ قولهم بالمرَّة، ونَظْمِه في سِلْكِ الشهادة، وبذلك ازداد حُسْنُ إضافة الشهادة إليهم في قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ أي: شهادةُ كلِّ واحدٍ منهم، وهو مبتدأ، وقولُه سبحانه: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ خبرُه، أي: فشهادتُهم المشروعةُ أربعُ شهادات ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بـ «شهادات»،

وجوَّز بعضُهم تعلُّقَه بـ «شهادة». وتُعقِّبَ بأنه يلزم حينئذٍ الفصلُ بين المصدر ومعمولِه بأجنبيٍّ، وهو الخبر. وأنت تعلم أنَّ في كون الخبر أجنبيًّا كلاماً، وأنَّ

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٣٦١.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٠، والبحر ٦/ ٤٣٣.

بعض النَّحْويِّينَ أجاز الفصل مطلقاً، وبعضُهم أجازه فيما إذا كان المعمول ظرفاً كما هنا.

وقرأ الأكثر: «أربعَ» بالنصب على المصدرية[1]، والعاملُ فيه «شهادة» وهي خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: فالواجبُ شهادةُ، أو مبتدأ خبرُه محذوف، أي: فعليهم شهادةُ، أو: فشهادةُ أحدهم أربعُ شهادات بالله واجبةٌ أو كافيةٌ. ولا خلافَ في جواز تعلُّقِ الجارِّ على هذه القراءة بكلٍّ من الشهادة والشهادات، وإنما الخلافُ في الأولى.

﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦﴾ أي: فيما رماها به من الزنى، والأصلُ: على أنه.. إلخ، فحُذِفَ الجارُّ وكُسِرتْ «إنَّ»، وعلِّق العاملُ عنها باللام للتأكيد، ولا يختصُّ التعليق بأفعال القلوب، بل يكونُ فيما يجري مجراها، ومنه الشهادةُ لإفادتها العلمَ.

وجوِّز أن تكون الجملة جواباً للقسم، بناءً على أنَّ الشهادة هنا بمعنى القسم، حتى قال الراغب[2]: إنه يفهم منها ذلك وإن لم يذكر «بالله»، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقُ ذلك.

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ أي: والشهادةُ الخامسةُ للأربع المتقدِّمة، أي: الجاعلةُ لها خمساً بانضمامها إليهنَّ، وإفرادُها مع كونها شهادةً أيضاً لاستقلالها بالفحوى ووكادتها في إفادتها ما يُقْصَدُ بالشهادة من تحقيق الخبر وإظهار الصدق. وهي مبتدأٌ خبره قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾ فيما رماها به من الزنى.

﴿وَيَدْرَؤُا۟﴾ أي: يدفع ﴿عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي: العذابَ الدنيويَّ، وهو الحبسُ عندنا والحدُّ عند الشافعيِّ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقُ الكلام فيه. ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ﴾ أي: الزوجَ ﴿لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾ فيما رماها به من الزنى. ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ﴾ بالنصب عطفاً على «أربعَ شهاداتٍ». وقولُه تعالى: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ﴾ أي: الزوجُ ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ فيما رماها به من الزنى، بتقديرِ

---

(١) هي قراءة ابن عامر وابن كثير وشعبة وأبي عمرو ونافع وأبي جعفر ويعقوب. التيسير ص١٦١، والنشر ٢/ ٣٣٠.

(٢) في مفرداته (شهد).

حَرْف الجرِّ، أي: بأنَّ غضب. . إلخ، وجوِّز أن تكون «أنَّ» وما بعدها بدلاً من «الخامسة».

وتخصيصُ الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها؛ لِمَا أنها مادَّةُ الفجور، ولأنَّ النساء كثيراً ما يَسْتَعْمِلْنَ اللَّعْنَ، فربما يجترئن على التفوُّه به لسقوط وَقْعِه عن قلوبهنَّ، بخلافِ غَضَبِه جلَّ جلالُه.

وقرأ طلحةُ والسلميُّ والحسنُ والأعمشُ وخالد بنُ إياس بنصب «الخامسةَ» في الموضعين[١]، وقد علمتَ وَجْهَ النصب في الثاني، وأمَّا وجهُ النصب في الأول فهو عَطْفُ «الخامسةَ» على «أربعَ شهادات» على قراءة مَن نَصَبَ «أربعَ»، وجَعْلُها مفعولاً لفعلٍ محذوفٍ يدلُّ عليه المعنى على قراءة مَن رَفَعَ «أربعُ»، أي: ويَشْهَدُ الخامسةَ.

والكلامُ في «أنَّ لَعْنَةَ» إلخ كما سمعتَ في «أنَّ غَضَبَ» إلخ.

وقرأ نافع: «أنْ لعنةُ» بتخفيفِ «أنْ» ورَفْعِ «لعنةُ»، و: «أنْ غَضِبَ» بتخفيف «أنْ» و«غَضِبَ» فعلٌ ماضٍ، والجلالةُ بعدُ مرفوعةٌ[٢]، و«أنْ» في الموضعين مخفَّفةٌ من الثقيلة، واسمُها ضميرُ الشأن. ولم يؤتَ بأحدِ الفواصل من «قد» والسين و«لا» بينها وبين الفعل في الموضع الثاني لكون الفعل في معنى الدعاء، فما هناك نظيرُ قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل:٨] فلا غرابةَ في هذه القراءة خلافاً لِمَا يوهِمُه كلامُ ابن عطية[٣].

وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى وسلام وعمرو بن ميمون، والأعرجُ ويعقوبُ بخلافٍ عنهما: «أنْ لعنةُ» كقراءة نافع و«أنْ غَضَبُ» بتخفيف «أنْ» و«غَضَبُ» مصدرٌ مرفوعٌ[٤].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٦، والبحر ٦/ ٤٣٤. وقد قرأ بالنصب في الموضع الثاني عاصم في رواية حفص عنه. التيسير ص١٦١، والنشر ٢/ ٣٣١.

(٢) التيسير ص١٦١، والنشر ٢/ ٣٣٠.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ١٦٧.

(٤) القراءة عن يعقوب في النشر ٢/ ٣٣٠، وذكرها عن الباقين ابن جني في المحتسب ٢/ ١٠٢، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٣٤، وعنه نقل المصنف.

هذا وظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ العمومُ، والمذكورُ في كتب الأصحاب أنه يُشترط في القاذف وزوجته التي قذفها أن يكون لهما أهليةُ أداء الشهادة على المسلم، فلا يجري اللعان بين الكافرين والمملوكين، ولا إذا كان أحدُهما مملوكاً أو صبياً أو مجنوناً أو محدوداً في قَذْفٍ. ويشترطُ في الزوجة كونُها مع ذلك عفيفةً عن الزنى وتهمتِه بأنْ لم تُوطأ حراماً لعينه ولو مرةً بشبهةٍ أو بنكاحٍ فاسدٍ، ولم يكن لها ولدٌ بلا أبٍ معروفٍ في بلدِ القَذْفِ.

واشتراطُ هذا لأنَّ اللِّعانَ قائمٌ مقامَ حدِّ القذف في حقِّ الزوج، كما يشيرُ إليه ما قدَّمناه من الخبر، لكنْ بالنسبة إلى كلِّ زوجةٍ على حِدَةٍ لا مطلقاً، ألا ترى أنه لو قَذَفَ بكلمةٍ أو كلماتٍ أربعَ زوجاتٍ له بالزِّنى، لا يَجْزيه لعانٌ واحدٌ لهنَّ، بل لا بدَّ أن يُلاعِنَ كلًّا منهنَّ، ولو قَذَفَ أربعَ أجنبياتٍ كذلك حُدَّ حدّاً واحداً بهنَّ. فمتى لم تكُنِ الزوجة ممن يُحدُّ قاذفُها ـ كما إذا لم تكن عفيفةً ـ لم يتحقَّق في قَذْفِها ما يوجب الحدَّ ليقام اللعانُ مقامَه.

وأمَّا اشتراطُ كونِهما ممَّن له أهليةُ أداءِ الشهادة، فلأنَّ اللعان شهاداتٌ مؤكَّداتٌ بالأيمان عندنا، خلافاً للشافعي فإنه عنده أيمانٌ مؤكَّدةٌ، وهو الظاهرُ من قول مالكٍ وأحمدَ، فيقع ممَّن كان أهلاً لليمين، وهو مَن[1] يملك الطلاق، فكلُّ مَن يملكُه فهو أهلٌ لِلِّعان عنده، فيكون مِن كلِّ زوجٍ عاقلٍ وإنْ كان كافراً أو عبداً.

واستدلَّ على أنَّ اللعان أيمانٌ مؤكَّدةٌ بقوله سبحانه: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾، وذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ﴾ مُحْكَمٌ في اليمين، والشهادةُ مُحتَمِلةٌ لليمين، ألا يُرى أنه لو قال: أشهدُ، ينوي به اليمينَ، كان يميناً؟ فيُحْمَلُ المحتملُ على المحكَمِ؛ لأنَّ حَمْلَه على حقيقته متعذِّرٌ؛ لأنَّ المعهود في الشرع عدمُ قبول شهادة الإنسانِ لنفسه بخلاف يمينه. وكذا المعهودُ شرعاً عدمُ تكرُّرِ الشهادة في موضعٍ، بخلافِ اليمين فإنَّ تكرُّرَه معهودٌ في القَسَامة. ولأنَّ الشهادة محلُّها الإثباتُ واليمين للنفي، فلا يتصوَّر تعلُّق حقيقتهما بأمرٍ واحد، فوجب العمل بحقيقة أحدهما ومجازِ الآخر، فليكن المجازُ لفظُ الشهادة لِمَا سمعتَ من المُوْجِبَيْن.

---

(١) في الأصل و(م): ممن، والمثبت من فتح القدير ٣/ ٢٤٨، والكلام منه.

واستدلَّ أصحابنا على أنه شهاداتٌ مؤكَّدةٌ بأيمانٍ بالآيةِ أيضاً؛ لأنَّ الحمل على الحقيقة يجب عند الإمكان، وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ أثبتَ أنهم شهداءُ؛ لأنَّ الاستثناء من النفي إثباتٌ، وجَعْلُ الشهداء مجازاً عن الحالفينَ يصيِّرُ المعنى: ولم يكن لهم حالفون إلا أنفسُهم، وهو غيرُ مستقيم؛ لأنه يفيدُ أنه إذا لم يكن للذين يرمون أزواجهم مَن يحلف لهم يحلفون لأنفسهم، وهذا فرعُ تصوُّرِ حلفِ الإنسانِ لغيره، ولا وجود له أصلاً. فلو كان معنى اليمين حقيقيّاً لِلَفْظِ الشهادة، كان هذا صارفاً عنه إلى مجازه، كيف وهو مجازيٌّ لها. ولو لم يكن هذا كان إمكانُ العمل بالحقيقة مُوْجِباً لعدم الحمل على اليمين، فكيف وهذا صارفٌ عن المجاز، وما توهِّم كونُه صارفاً مما ذكر غيرُ لازم.

قوله: قبولُ الشهادة لنفسه وتكرُّرُ الأداء لا عهدَ بهما.

قلنا: وكلٌّ من الحلف لغيره والحلفِ لإيجابِ الحكم لا عَهْدَ به، بل اليمينُ لرفع[1] الحكم، فإنْ جاز شرعيةُ هذين الأمرين في محلٍّ بعينه ابتداءً، جاز أيضاً شرعيةُ ذلك ابتداءً[2]، بل هي أقربُ لعقليةِ كونِ التعدُّدِ في ذلك أربعاً بدلاً عمَّا عجز عنه من إقامة شهود الزنى، وهم أربع، وعدم قبول الشهادة له[3] عند التهمة، ولذا تثبتُ عند عَدَمِها أعظمَ ثبوتٍ؛ قال الله عز وجل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] فغيرُ بعيدٍ أن تُشْرَعَ عند ضَعْفِها بواسطة تأكيدها باليمين، وإلزامِ اللعنة والغضب إن كان كاذباً، مع عدم ترتُّبِ موجبها في حقِّ كلٍّ من الشاهدَيْن، إذ موجبُ شهادةِ كلٍّ إقامةُ الحدِّ على الآخر، وليس ذلك بثابتٍ هنا، بل الثابتُ عند الشهادتين هو الثابتُ بالإيمان، وهو اندفاعُ موجبِ دعوى كلٍّ عن الآخر، وإنما قيل: عندهما، ولم يُقَلْ: بهما؛ لأنَّ هذا الاندفاعَ ليس موجبَ الشهادتين، بل هو موجبُ تعارُضهما.

---

(١) في فتح القدير ٣/٢٤٩: لدفع.

(٢) كذا جاءت عبارة المصنف مختصرة، وفي فتح القدير: فإن جاز لمن له ولايةُ الإيجادِ والإعدام والحكمِ كيفما أراد شرعيةُ هذين الأمرين في محلٍّ بعينه، جاز له أيضاً شرعية ذلك ابتداء.

(٣) في فتح القدير: لنفسه، بدل: له.

وأما قوله: واليمينُ للنفي. . إلخ، فمحلُّه ما إذا وقعت في إنكارِ دعوى مدَّعٍ، وإلَّا فقد يحلفُ على إخبارٍ بأمرٍ نفيٍ أو إثباتٍ، وهنا كذلك؛ فإنها على صِدْقِه في الشهادة، والحقُّ أنها على ما وقعت الشهادةُ به، وهو كونُه من الصادقين فيما رماها به، كما إذا جمع أيماناً على أمرٍ واحدٍ يخبر به، فإنَّ هذا هو حقيقةُ كونها مؤكِّدةً للشهادة، إذ لو اختلف متعلَّقُهما لم يكن أحدهما مؤكِّداً للآخر.

وأُورِدَ على اشتراط الأهلية لأداء الشهادة، أنهم قالوا: إنَّ اللعان يجري بين الأعميين والفاسقين مع أنه لا أهلية لهما لذلك.

ودُفع بأنهما من أهل الأداء، إلا أنه لا يقبل؛ للفِسْقِ، ولعدم تمييز الأعمى بين المشهود له وعليه، وهنا هو قادرٌ على أن يَفْصِلَ بين نفسه وزوجتهِ، فيكون أهلاً لهذه الشهادة دون غيرها. وروى ابن المبارك عن أبي حنيفة: أنَّ الأعمى لا يلاعِن(١).

وعمم القهستانيُّ(٢) الأهليةَ فقال: ولو بحكم القاضي. والفاسقُ يصحُّ القضاءُ بشهادته، وكذا الأعمى على القول بصحَّتها فيما يثبتُ بالتسامُع، كالموت والنكاح والنسب، وهذا بخلاف المحدود بالقذف؛ فإنه لا يصحُّ القضاء بشهادته، ولعل مراد ابن كمال باشا(٣) بقوله: لو قضى بشهادة المحدود بالقذف نَفَذَ = نفاذُ الحكم بصحَّتها ممَّن يراها كشافعيٍّ على ما قيل، وهو خلافُ ظاهر كلامه، كما لا يخفى على مَن رجع إليه.

ويشترط كونُ القذف في دار الإسلام، وكونُه بصريح الزنى، فلا لعانَ بالقذف باللِّواط عند الإمام، وعندهما فيه لعانٌ، ولا لعانَ بالقذف كنايةً وتعريضاً، والقذفُ بصريحه نحوُ أن يقال(٤): أنت زانية، أو: يا زانية، أو: رأيتُك تَزْنينَ. والمشهورُ

---

(١) فتح القدير ٣/ ٢٤٧.

(٢) كما في حاشية ابن عابدين ٣/ ٤٨٣.

(٣) شمس الدين أحمد بن سليمان الحنفي الشهير بابن كمال باشا، أحد الموالي الرومية، له تفسير حسنٌ اخْتَرَمَتْه المنية ولم يكمله، وله حواش على الكشاف، وشرح بعض «الهداية»، وله متن في الفقه وشرحه، وغير ذلك، توفي سنة (٩٤٠هـ). شذرات الذهب ١٠/ ٣٣٥. وكلامه في حاشية ابن عابدين ٣/ ٤٨٣.

(٤) في الأصل: يقول.

عن مالكٍ أنَّ القذفَ بالأوَّلَين يوجبُ الحدَّ والذي يوجب اللِّعان القذفُ بالأخير، وهو قول الليث وعثمان ويحيى بن سعيد. وضُعِّفَ بأنَّ الكلَّ رميٌ بالزنى، وهو السببُ كما تدلُّ عليه الآية فلا فرق. ويمنزلة القذفِ بالصريح نفيُ نَسَبِ ولدها منه أو من غيره.

وفي «المحيط» و«المبتغى»: إذا نفى الولدَ فقال: ليس هذا بابني، ولم يقذفها بالزنى، لا لعانَ بينهما؛ لأنَّ النفي ليس بقذفٍ لها بالزنى يقيناً، لاحتمال أن يكون الولدُ من غيره بوطءِ شبهةٍ، وهو احتمالٌ ساقط لا يُلتفتُ إليه كما حقَّقه زين في «البحر»(١).

ويشترط في وجوب اللِّعان طلبُ الزوجة في مجلس القاضي ـ كما في «البدائع»(٢) ـ إذا كان القذفُ بصريح الزنى؛ لأنَّ اللِّعان حقُّها فإنه لدفع العار عنها، وبذلك قالت الأئمةُ الثلاثة أيضاً. وإذا كان القذفُ بنفي الولد فيشترطُ طلبُ القاذف، لأنه حقُّه أيضاً؛ لاحتياجه إلى نفي مَن ليس ولدَه عنه، ويجب عليه هذا النفيُ إذا تيقَّن أن الولد ليس منه؛ لِمَا في السكوت أو الإقرار من استلحاق نسبِ مَن ليس منه، وهو حرامٌ كنفي نسبِ مَن هو منه، فقد روى أبو داود والنسائيُّ أنه عليه الصلاة والسلام قال حين نزلت آية الملاعنة: «أيُّما امرأةٍ أدخلت على قومٍ مَن ليس منهم فليست من الله تعالى في شيءٍ، ولن يُدْخِلَها اللهُ تعالى جنَّته، وأيُّما رجلٍ جَحَدَ ولدَه وهو ينظر إليه احْتَجَبَ الله عز وجل عنه يومَ القيامةِ وفَضَحَه على رؤوس الأوَّلين والآخِرين»(٣).

وإن احتملَ أن يكون الولدُ منه فلا يجب، بل قد يباحُ وقد يكون خلافَ الأَوْلَى، بحسب قوةِ الاحتمال وضَعْفِه.

وقد يَضْعُفُ الاحتمالُ إلى حدٍّ لا يباحُ معه النفيُ، كأنْ أتتِ امرأتُه المعروفةُ بالعفاف بولدٍ لا يشبهُه؛ فعن أبي هريرة: أنَّ رجلاً قال للنبيِّ ﷺ: إنَّ امرأتي وَلَدَتْ غلاماً أسود. فقال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «ما ألوانها؟» قال:

---

(١) البحر الرائق ٤/ ١٢٣، وينظر بدائع الصنائع ٥/ ٣٤.

(٢) البحر الرائق ٤/ ١٢٤، وينظر بدائع الصنائع ٥/ ٢٦-٢٧.

(٣) سنن أبي داود (٢٢٦٣)، والمجتبى ٦/ ١٧٩ من حديث أبي هريرة ﷺ.

حمرٌ. قال: «فهل فيها أَوْرَقُ؟» قال: نعم. قال: «فكيف ذلك؟» قال: نَزَعَهُ عِرْقٌ. قال: «فلعل هذا نَزَعَه عِرْقٌ»[(١)].

وذكروا فيما إذا كانت متَّهمةً برجلٍ، فأتت بولدٍ يشبهُه وجهين: إباحة النفي، وعَدَمَها.

وأمَّا القذفُ بصريح الزنى فمع التحقُّق يباح، ويجوزُ أن يَسْتُرَ عليها ويمسكَها؛ لظاهر ما روي من أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ امرأتي لا تردُّ يَدَ لامسٍ، قال: «طلِّقها» قال: إنِّي أحبُّها. قال: «فأمْسِكْها»[(٢)] وفيه احتمالٌ آخر ذكره شرَّاحُ الحديث[(٣)]. ومع عدم التحقُّق لا يباح ذلك.

والأفضلُ للزوجة أن لا تطالبَ باللِّعان وتَسْتُرَ الأمر، وللحاكم أن يأمرها [به][(٤)]، وإذا طَلَبَتْ وقد أقرَّ الزوجُ بقَذْفِها، أو ثبت بالبينةِ وهي رجلان لا رجلٌ وامرأتان؛ إذ لا شهادةَ للنساء في الحدود ـ وما في «النهر» و«الدرِّ المنتقى»[(٥)] من جواز ذلك سَبْقُ قلمٍ ـ لاعَنَ إن كان مصرّاً وعجزَ عن البينة على زناها، أو على إقرارها به، أو على تصديقِها له، أو أقام البينةَ على ذلك ثم عمي الشاهدان، أو

---

(١) أخرجه أحمد (٧١٨٩)، والبخاري (٧٣١٤)، ومسلم (١٥٠٠)، وسلف ص٩٢ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤٩)، والنسائي في المجتبى ٦/ ١٦٩-١٧٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن كثير عند تفسير الآية (٣) من هذه السورة: هذا إسناد جيد. اهـ. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٣٢٤ من حديث جابر وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا الحديث لا يثبت عن رسول الله ﷺ، ليس له أصل. اهـ. وسئل عنه ابن حجر ـ كما في تنزيه الشريعة ٢/ ٢١٠ـ فأجاب بأنه حسن صحيح، وقال: لم يصب مَن قال: إنه موضوع. اهـ. قال ابن كثير: قيل: المراد أن سجيتها لا ترد يد لامس، لا أن هذا الأمر واقع منها وأنها تفعل الفاحشة؛ فإن رسول الله ﷺ لا يأذن في مصاحبة مَن هذه صفتها، فإن زوجها في هذه الحالة يكون ديوثاً.

(٣) ذكر هذا الاحتمال ابن كثير عن ابن قتيبة قال: إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلاً. وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ٣٢٥: حمله أبو بكر الخلال على الفجور، ولا يجوز هذا، إنما يحمل على تفريطها في المال، لو صحَّ الحديث.

(٤) ما بين حاصرتين من الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ٣/ ٤٨٥.

(٥) كما في حاشية ابن عابدين ٣/ ٤٨٥.

فَسَقا، أو ارتدَّا، وهذا بخلافِ ما إذا ماتا أو غابا بعد ما عُدِّلا؛ فإنه حينئذٍ لا يُقضى باللعان.

فإن امتنع حَبَسه الحاكم حتى تَبِينَ منه بطلاقٍ أو غيره، أو يلاعنَ، أو يكذِّبَ نفسه فيُحَدَّ. وعند الشافعيِّ إن امتنع حُدَّ حَدَّ القذف، وكذا إذا لاعَنَ فامتنعت تُحدُّ عنده حَدَّ الزنى، وعندنا تُحْبَسُ حتى تلاعِنَ أو تصدِّقه، فيرتفع سببُ وجوب لعانهما، وهو التكاذبُ على ما قيل، والأوجهُ كونُ السبب القَذْفَ، والتكاذُب شَرْطه.

وكما لا لعانَ مع التصديق إذا كان بلفظِ: صدَقْتَ، لا حدَّ عليها ولو أعادتْ ذلك أربعَ مرَّاتٍ في مجالس متفرِّقةٍ، لأنَّ التصديق المذكورَ ليس بإقرارٍ قصداً وبالذات، فلا يُعتبر في وجوب الحدِّ بل في دَرْئِه، فيندفع به اللِّعان ولا يجبُ به الحدُّ، وكذا يندفع بذلك ـ كما في «كافي» الحاكم ـ الحدُّ عن قاذفها بعدُ.

ولو صدَّقتْه في نفي الولد فلا حدَّ ولا لعانَ أيضاً، وهو ولدُهما؛ لأنَّ النسب إنما ينقطع بحكم اللعان ولم يوجد، وهو حقُّ الولد، فلا يصدَّقان في إبطاله، وما في شرحي «الوقاية» و«النقاية» من أنها إذا صدَّقته ينتفي، غيرُ صحيحٍ كما نبَّه عليه في شرح «الدُّرر والغرر»(١).

ووجهُ قول الشافعيِّ بالحدِّ عند الامتناع: أنَّ الواجب بالقذف مطلقاً الحدُّ؛ لعموم قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ إلخ، إلا أنه يتمكَّن من دفعه فيما إذا كانت المقذوفةُ زوجةً باللعان تخفيفاً عليه، فإذا لم يدفعه به يحدُّ. وكذا المرأة تلاعِنُ بعدما أَوْجَبَ الزوجُ عليها اللعانَ بلعانه، فإذا امتنعت حُدَّت للزنى، ويشير إليه قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾.

ووجهُ قولنا أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ﴾ إلخ يُفهم منه ـ كيفما كانت القراءةُ ـ أنَّ الواجب في قذف الزوجات اللعانُ، ولا ينكِرُ ذلك إلا مكابرٌ، فإمَّا أن يكون ناسخاً أو مخصِّصاً لعموم ذلك العامِّ، والظاهرُ عندنا كونُه ناسخاً؛ لتراخي نزوله كما تشهدُ له الأخبارُ الصحيحة،

---

(١) البحر الرائق ٤/ ١٢٥، وحاشية ابن عابدين ٣/ ٤٨٦.

والمخصِّصُ لا يكون متراخيَ النزول، وعلى التقديرين يلزم كونُ الحكم الثابت في قذف الزوجات إنما هو ما تضمَّنته الآية من اللعان حالَ قيام الزوجية كما هو الظاهر، فلا يجب غيرُه عند الامتناع عن إيفائه، بل يُحْبَسُ لإيفائه كما في كلِّ حقٍّ امتنع مَن هو عليه عن إيفائه، ولم يتعيَّن كونُ المراد من العذاب في الآية الحدَّ؛ لجواز كونه الحبسَ، وإذا[1] قام الدليلُ على أنَّ اللعان هو الواجبُ وَجَبَ حَمْلُه عليه.

قيل: والعجبُ من الشافعيِّ عليه الرحمةُ لا يقبل شهادةَ الزوج عليها بالزنى مع ثلاثةِ عدولٍ، ثم يوجب الحدَّ عليها بقوله وحده وإن كان عبداً فاسقاً!

وأعجبُ منه أنَّ اللعان يمينٌ عنده، وهو لا يَصْلُحُ لإيجابِ المال ولا لإسقاطه بعد الوجوب، وأسقط به كلٌّ من الرجل والمرأة الحدَّ عن نفسه، وأوجب به الرَّجْمَ الذي هو أغلظُ الحدود على المرأة.

فإن قال: إنما وجب[2] عليها لنكولها بامتناعها عن اللعان.

قلنا: هو أيضاً من ذلك العَجَبِ؛ فإنَّ كون النكول إقراراً فيه شبهة، والحدُّ مما يندفع بها، مع أنه غايةُ ما يكون بمنزلةِ إقراره مرةً. ثم إنَّ هذه الشبهةَ أثَّرتْ عنده في منع إيجاب المال مع أنه يثبت مع الشبهة، فكيف يوجب الرجمَ به، وهو أغلظُ الحدود، وأصعبُها إثباتاً، وأكثرُها شروطاً؟ انتهى. ولْيُراجَعْ في ذلك كتبُ الشافعية.

وفي «النهر» نقلاً عن الأسْبيجابي[3]: أنهما يُحبسان إذا امتنعا عن اللِّعان بعد الثبوت، ثم قال: وينبغي حملُه على ما إذا[4] لم تعفُ المرأة كما في «البحر»[5]،

(١) في فتح القدير ٣/ ٢٥١: وإذ. والكلام منه.
(٢) في (م): يوجب، والمثبت من الأصل وفتح القدير.
(٣) أحمد بن منصور، أبو نصر الأسبيجابي القاضي، أحد شرَّاح مختصر الطحاوي، توفي سنة (٤٨٠هـ). الجواهر المضية ١/ ٢٥٩، والطبقات السنية ٢/ ١١، والفوائد البهية ص٤٢. وكلامه من شرح مختصر الطحاوي كما ذكر صاحب البحر الرائق ٤/ ١٢٥.
(٤) في (م): على ماذا، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل والبحر الرائق.
(٥) ٤/ ١٢٥.

وعندي[١] في حَبْسِها بعد امتناعه نوعُ إشكالٍ؛ لأنَّ اللِّعان لا يجب عليها إلا بعد لعانه، فقبلَه ليس امتناعاً لحقٍّ وَجَبَ عليها. انتهى.

وأجاب الطحطاويُّ[٢] بأنه بعد الترافُع منهما صار إمضاءُ اللعان حقَّ الشرع، فإذا لم تَعْفُ وأظهرت الامتناعَ تُحبس، بخلاف ما إذا أبى هو فقط، فلا تُحْبَسُ. انتهى.

وقيل: ليس المراد امتناعَهما في آنٍ واحدٍ، بل المرادُ امتناعُه بعد المطالبة به، وامتناعُها بعد لعانه. فتأمل.

والمتبادرُ من الشهادة ما كان قولاً حقيقةً، ولذا قالوا: لا لعانَ لو كانا أخرسين أو أحدَهما، لفَقْدِ الركن وهو لفظُ: أَشْهدُ. وعلَّل أيضاً بأنَّ هناك شبهةُ احتمالِ تصديقِ أحدِهما للآخر لو كان ناطقاً، والحدُّ يدرأ بالشبهة، وكتابةُ الأخرس في هذا الفصل كإشارته لا يعوَّلُ عليها، وذكروا: لو طرأ الخرسُ بعد اللعان قبل التفريق، فلا تفريقَ ولا حدَّ.

ويُشعِرُ ظاهرُ الآية بتقديم لعان الزوج، وهو المأثور في السُّنة، فلو بدأ القاضي بأمرها فلاعَنَتْ قبله، فقد أخطأ السُّنةَ ولا يجبُ كما في «الغاية» أن تعيد لعانها بعدُ، وبه قال مالك[٣].

وفي «البدائع»: ينبغي أنْ تُعيد؛ لأنَّ اللعان شهادةُ المرأة، وشهادتُها تقدحُ في شهادة الزوج، فلا تصحُّ إلا بعدَ وجود شهادته، ولهذا يُبدأ بشهادة المدَّعي في باب الدعوى، ثم بشهادةِ المدَّعَى عليه بطريق الدفع له[٤]. ونُقل ذلك عن الشافعيِّ وأحمدَ عليهما الرحمة، وأشهبَ من المالكية.

والوجهُ ما تقدم، فقد أَعْقَبَ في الآية الرميَ بشهادةِ أحدهم وشهادتها الدارئة عنها العذاب، فيكونُ هذا المجموعُ بعد الرمي، وليس في الآية ما يدلُّ على

---

(١) أي: عند صاحب النهر. ينظر الدر المختار مع حاشية ابن عابدين ٣/ ٤٨٦.
(٢) في حاشيته على الدر المختار ٢/ ٢٠٥، ونقله المصنف عن حاشية ابن عابدين ٣/ ٤٨٦.
(٣) فتح القدير ٣/ ٢٥٣.
(٤) بدائع الصنائع ٥/ ٢٧.

الترتيب بين أجزاء المجموع. وهذا نظيرُ ما قرَّره بعضُ أجلَّةِ الأصحاب في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ الآية [المائدة: ٦] في بيان أنه لا يدل على فرضية الترتيب كما يقوله الشافعية.

وظاهرُ الآية أنه لا يجب في لعانه أن يأتيَ بضمير المخاطَبةِ، ولا في لعانها أن تأتي بضمير المخاطَبِ، ففي «الهداية»: صفةُ اللعان أنْ يبتدئ به القاضي، فيشهد أربعَ مرَّاتٍ يقول في كلِّ مرةٍ: أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتُها به من الزنى، ويقول في الخامسة: لعنةُ الله عليه إنْ كان من الكاذبين فيما رميتُها به من الزنى، يشير [إليها] في جميع ذلك. ثم تشهدُ المرأةُ أربعَ مرَّاتٍ تقول في كلِّ مرةٍ: أشهدُ بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنى، وتقول في الخامسة: غَضَبُ الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماني به من الزنى، والأصلُ فيه الآية.

ورَوَى الحسن[١] عن أبي حنيفة: أنه يأتي بلفظة المواجهة، ويقول: فيما رميتُكِ به من الزنى، أي: وتأتي هي بذلك أيضاً وتقول: إنك لمن الكاذبين فيما رميتني به من الزنى؛ لأنه أقطعُ للاحتمال، وهو احتمالُ إضمارِ مرجعٍ للضمير الغائب غير المراد.

ووجهُ الأول أن لفظة المغايبة إذا انضمَّتْ إليها الإشارة انقطع الاحتمال[٢].

وعن الليث أنه يُكتفى في اللعان بالكيفية المذكورة في الآية، ويأتي المُلاعِنُ مكانَ ضمير الغائب بضميرِ المتكلِّم في شهادته مطلقاً، وتأتي الملاعِنةُ بذلك في شهادتها الخامسةِ فتدخل «على» على ياء الضمير.

والمرادُ من الاكتفاء بالكيفية المذكورة أنه لا يحتاجُ إلى زيادةٍ: فيما رميتُها به من الزنى، في شهادته، وإلى زيادةٍ: فيما رماني به من الزنى، في شهادتها.

وما ذكر من الإتيان بضمير المتكلِّم هو الظاهر، ولم يؤتَ به في النظم الكريم لتتَّسق الضمائرُ، وتكونَ في جميع الآية على طرزٍ واحدٍ، مع ما في ذلك من نكتةٍ

---

(١) ابن زياد الأنصاري، أبو علي، فقيه العراق، صاحب أبي حنيفة، نزل بغداد وصنف وتصدر للفقه، توفي سنة (٢٤٠هـ). سير أعلام النبلاء ٩/ ٥٤٣.

(٢) الهداية مع فتح القدير ٣/ ٢٥٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

رعاية التالي على ما قيل، وليس في الآية التفاتٌ أصلاً كما توهَّم بعض مَن أدركناه من فضلاء العصر.

وأمَّا ما أشيرَ من عدم الاحتياج إلى زيادةِ ما تقدَّم، فالظاهرُ أنَّ الأحوط خلافُه، وقد جاءت تلك الزيادةُ فيما وقع في زمانه ﷺ من اللعان بين هلالٍ وزوجته، على ما في بعض الروايات(١).

وذكر الأصحابُ أنه يزيد في صورة اللعان بالقذف بنفي الولد بعد قوله: «لَمِنَ الصادقين» قولَه: فيما رميتُكِ به من نفي الولد. وأنها تزيد بعد «لمن الكاذبين» قولَها: فيما رميتَني به من نفي الولد. ولو كان القذفُ بالزنى ونفيِ الولد ذُكر في اللعان الأمران.

ونقل أبو حيان عن مالك أنَّ الملاعن يقول: أشهد بالله إني رأيتُها تزني، والملاعنةُ تقول: أشهد بالله ما رآني أزني. وعن الشافعي أنَّ الزوج يقول: أشهد بالله إني لصادقٌ فيما رميتُ به زوجتي فلانة بنت فلان، ويشير إليها إن كانت حاضرةً أربعَ مراتٍ، ثم يُقْعِدُه الإمام ويذكِّره اللهَ تعالى، فإنْ رآه يريد أن يَمضي أَمَر مَن يضعُ يده على فيه، فإن لم يمتنع تَرَكَه، وحينئذٍ يقول الخامسةَ ويأتي بياء الضمير مع «على»، وإن كان قد قذفها بأحدٍ يسمِّيه بعينه واحداً أو اثنين في كلِّ شهادة، وإن نفى ولدها زاد: إنَّ هذا الولدَ ولد زنًى ما هو منِّي(٢).

والتخويفُ بالله عز وجل مشروعٌ في حقِّ المتلاعنين، فقد صحَّ في قصة هلال أنه لمَّا كان الخامسةُ قيل له: اتَّقِ الله تعالى واحْذَرْ عقابَه فإنَّ عذاب الدنيا أسهلُ من عذاب الآخرة، وإنَّ هذه هي الموجبةُ التي توجبُ عليك العقاب، وقيل نحوُ ذلك لامرأته عند الخامسة أيضاً(٣).

وفي ظاهر الآية ردٌّ على الشافعيِّ عليه الرحمةُ حيث قال: إنه بمجرَّد لعان الزوج تثبتُ الفُرْقَةُ بينهما، وذلك لأنَّ المتبادر أنها تشهد الشهادات وهي زوجةٌ، ومتى كانت الفرقة بلعانِ الزوج لم تَبْقَ زوجةً عند لعانها.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤٤٥١)، وأبو يعلى (٢٨٢٤) من حديث أنس ﷺ.
(٢) البحر ٦/ ٤٣٥، وفيه: وإن هذا الولد ما هو مني. وليس فيه: ولد زنى.
(٣) أخرجه أحمد (٢١٣١)، وأبو داود (٢٢٥٦)، وسلفت قطعة منه ص٢٣١ من هذا الجزء.

والذي ذهب إليه أبو حنيفة عليه الرحمةُ أنه إذا وقع التلاعُنُ ثبتتْ حرمةُ الوطء ودواعيه على[1] المُلاعِنِ، فإنْ طلَّقها فذاك، وإن لم يطلِّقها بانَتْ بتفريق الحاكم وإن لم يرضَيَا بالفرقة، ولو فرَّق خطأً بعد وجود الأكثر من كلٍّ منهما صحَّ[2].

ويشترط كونُ التفريق بحضورهما، وحضورُ الوكيل كحضور الأصيل، ويتوارثان قبله. ولو زالت أهلية اللِّعان بعده فإنْ كان بما يُرجى زواله كجنون فرّق، وإلَّا لا. وقال زفر: تقع الفرقة بتلاعُنهما.

وإن أكذَبَ نفسَه من بعد اللعان والتفريق، وحُدّ أم لم يحدَّ، يحلُّ له تزوُّجُها عند أبي حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف: إذا افترق المتلاعنان فلا يجتمعان أبداً، وثبتت بينهما حرمةٌ كحرمةِ الرضاع، وبه قالت الأئمة الثلاثة.

وأدلةُ هذه الأقوالِ وما لها وما عليها تُطلبُ من كتب الفقه المبسوطة.

واستُدلَّ بمشروعية اللِّعان على جواز الدعاء باللعن على كاذبٍ معيَّنٍ، فإنَّ قوله: «لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين» دعاءٌ على نفسه باللَّعن على تقدير كذبه، وتعليقُه على ذلك لا يُخرِجه عن التعيين، نعم يقال: إنَّ مشروعيته إن كان صادقاً، فلو كان كاذباً فلا يَحِلُّ له.

واستدلَّ الخوارجُ على أنَّ الكذب كفرٌ؛ لاستحقاق مَن يتَّصفُ به اللعنَ، وكذا الزنى كفرٌ؛ لاستحقاق فاعِلِه الغضبَ، فإنَّ كلّاً من اللعن والغضب لا يستحقُّه إلا الكافر؛ لأنَّ اللعن الطردُ عن الرحمة، وهو لا يكون إلَّا لكافر، والغضبُ أعظمُ منه.

وفيه أنه لا يُسلَّمُ أن اللعن في أيِّ موضعٍ وقع بمعنى الطَّرد عن الرحمة، فإنه قد يكون بمعنى الإسقاط عن درجة الأبرار، وقد يقصد به إظهارُ خساسة الملعون. وكذا لا يُسلَّم اختصاصُ الغضب بالكافر وإن كان أشدَّ من اللعن، والله تعالى أعلم.

---

(١) في (م): عن.

(٢) وعند زفر وبقية الأئمة لا ينفذ؛ قال ابن الهمام في فتح القدير ٣/ ٢٥٤: لو فرق القاضي بينهما بعد التعانهما ثلاثاً خطأً نفذ تفريقه عندنا، وعند زفر وبقية الأئمة لا ينفذ.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ التفاتٌ إلى خطاب الرَّامين والمرميَّات بطريقِ التغليب، لتوفيةِ مقام الامتنان حقَّه، وجوابُ «لولا» محذوفٌ لتهويله، حتى كأنه لا توجدُ عبارةٌ تحيط ببيانه، وهذا الحذفُ شائعٌ في كلامهم؛ قال جرير:

كَذَبَ العواذلُ لو رأينَ مناخَنا ... بحَزيزِ رامةَ والمَطِيُّ سَوامِ[(١)]

ومن أمثالهم: لو ذاتُ سوارٍ لطمتني[(٢)]. فكأنه قيل: لولا تفضُّلُه تعالى عليكم ورحمتُه سبحانه، وأنه تعالى مُبالغٌ في قبول التوبة، حكيمٌ في جميع أفعاله وأحكامِه، التي من جملتها ما شرعَ لكم من حُكْمِ اللعان، لكان مما لا يحيطُ به نطاقُ البيان.

ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حدُّ القذف، مع أنَّ الظاهر صِدْقُه؛ لأنه أعرفُ بحالِ زوجته، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضاحة. وبعد ما شرع لهم لو جَعَلَ شهاداته موجبةً لحدِّ الزنى عليها لفات النظرُ إليها، ولو جعل شهاداتها موجبةً لحدِّ القذف عليه لفات النظر له.

ولا ريبَ في خروج الكلِّ عن سَنَنِ الحكمة والفضل والرحمة، فجَعْلُ شهاداتِ كلٍّ منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتماً دارئةٌ لِمَا توجَّه إليه من الغائلة الدنيوية، وقد ابتلي الكاذبُ منهما في تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتمُّ مما دَرَأَتْه عنه وأطمُّ، وفي ذلك من إحكام الحِكَمِ البالغة، وآثارِ التفضُّل والرحمة ما لا يخفى؛ أمَّا على الصادق فظاهرٌ، وأمَّا على الكاذب فهو إمهالُه والسترُ عليه في الدنيا، ودرءُ الحدِّ عنه وتعريضُه للتوبة حَسْبما ينبئُ عنه التعرُّضُ لعنوان تَوَّابيَّته تعالى، فسبحانه ما أعظمَ شأنه وأوسعَ رحمته وأدقَّ حكمته! قاله شيخ الإسلام[(٣)].

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٩٩١، والنقائض ١/ ٢٧١، وفيه: الحزيز: أرض فيها غلظ واستواء. وقوله سوام، يقول: رافعة أبصارها وأعناقها. والمطي: ما امتطي ظهره. وقوله: والمطي سوام، أي: هي في بلد لا رعي فيها فهي تسمو بأبصارها إلى موضع الري. يقول: لو رأين مُناخنا وما نلقى ما عذلننا في الطلب.

(٢) جمهرة الأمثال ٢/ ١٩٣، ومجمع الأمثال ٢/ ١٧٤، والمستقصى ٢/ ٢٩٧، قال الزمخشري: أي: لو لطمتني حرةٌ ذات حليٍ لاحتملتُ، ولكن لطمتني أمةٌ عاطل.

(٣) ٦/ ١٥٩-١٦٠.

وعن ابن سلام تفسير الفضل بالإسلام، ولا يخفى أنه مما لا يقتضيه المقام.

وعن أبي مسلم أنه أَدْخَلَ في الفضل النهيَ عن الزنى، ويَحْسُنُ ذلك لو جُعلت الجملة تذييلاً لجميع ما تقدَّم من الآيات، وفيه من البُعْد ما فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ أي: بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وكثيراً ما يفسَّر بالكذب مطلقاً. وقيل: هو البهتانُ لا تَشْعرُ به حتى يَفْجَأَكَ. وجوِّز فيه فتحُ الهمزة والفاءِ، وأصله من الأَفْكِ بفتحٍ فسكون، وهو القلبُ والصَّرفُ؛ لأنَّ الكذب مصروفٌ عن الوجه الذي يحقُّ.

والمرادُ به ما أُفك به الصديقةُ أمُّ المؤمنين ﵂، على أنَّ اللام فيه للعهد، وجوِّز حملُه على الجنس؛ قيل: فيفيد القَصْرَ كأنه لا إفكَ إلا ذلك الإفكُ.

وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل.

وتفصيلُ القصة ما أخرجه البخاريُّ وغيرُه[1] عن عروةَ عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أَقْرعَ بين أزواجِه، فأيتُهنَّ خرجَ سهمُها خَرَجَ بها رسولُ الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأَقْرَعَ بيننا في غزوةٍ[2] غزاها فخرج سهمي، فخرجتُ مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجابُ، فأنا أُحْمَلُ في هودجي وأُنْزَلُ فيه، فسرنا[3] حتى إذا فَرَغَ رسول الله ﷺ من تلك وقَفَل[4]، ودنونا من المدينة قافلينَ، آذَنَ ليلةً بالرحيل [فقمتُ حين آذَنُوا بالرحيل] فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فلمَّا قَضَيْتُ شأني أقبلتُ إلى رَحْلي، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارِ[5] قد انْقَطَعَ، فالتمستُ عِقْدي وحَبَسني ابتغاؤُه، وأقبل الرَّهْطُ الذين كانوا يَرْحَلون لي

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٥٠)، وهو عند أحمد (٢٥٦٢٣)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): هي غزوة بني المصطلق، وكانت في سنة ستٍّ. اهـ منه.

(٣) في مسند أحمد وصحيح مسلم: مسيرنا.

(٤) في المسند وصحيح مسلم: من غَزْوِهِ وقفل، وفي صحيح البخاري: من غزوته تلك وقفل.

(٥) الجَزْعُ: الخرز اليماني، وظفارِ: اسم مدينة لِحِمْيَر باليمن، ويروى: أظفار، وهو جنس من الطيب، وقيل: هو شيء من العطر أسود، والقطعة منه شبيهة بالظفر، كأنه يؤخذ ويثقب ويجعل في العقد والقلادة. النهاية (جزع) و(ظفر).

فاحتملوا هَوْدَجي، فرَحَلوه على بعيري الذي كنتُ ركبتُ وهم يَحْسِبون أنِّي فيه، وكان النساءُ إذ ذاكَ خفافاً لم يُثْقِلْهنَّ اللحمُ، إنما نأكل العُلقةَ من الطعام، فلم يستنكر القومُ خفَّةَ الهودج حين رفعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السنِّ، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدتُ عِقْدي بعد ما استمرَّ الجيش، فجئتُ منازلَهم وليس بها داعٍ ولا مجيبٌ، فأَمَمْتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنهم سيفقدوني فيَرْجِعون إليَّ، فبينا أنا جالسةٌ في منزلي غلبتْني عيني فنمتُ، وكان صفوان بنُ المُعَطَّل السلميُّ - ثم الذكوانيُّ - من وراء الجيش، فأدْلَجَ فأصبح عند منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرفني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظتُ باسترجاعه حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلَّمني كلمةً ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعه، حتى[(١)] أناخ راحلته فوَطِئَ على يديها فركبتُها، فانطلق يقود بي الراحلةَ حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مُوْغِرينَ في نَحْرِ الظهيرة، فهلك فيَّ مَن هلك[(٢)]، وكان الذي تولَّى الإفك عبد الله بنُ أبيّ ابن سلول، فقَدِمْنا المدينةَ، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهراً، والناسُ يُفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيءٍ من ذلك، وهو يَريبُني في وجعي أنِّي لا أعرفُ من رسول الله ﷺ اللُّطْفَ الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي، إنما يدخلُ عليَّ رسول الله ﷺفيسلِّم ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرفُ، فذاكَ الذي يَريبُني ولا أشعرُ بالشرِّ، حتى خرجتُ بعد ما نَقَهْتُ، فخرجَتْ معي أمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وهو متبرَّزُنا، وكنَّا لا نخرجُ إلا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبل أن نتَّخذ الكُنُفَ قريباً من بيوتنا، وأَمْرُنا أمرُ العرب الأولِ في التبرُّزِ قِبَلَ الغائط، فكنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أن نتَّخذها عند بيوتنا، فانطلقتُ أنا وأمُّ مسطحٍ، وهي ابنةُ أبي رُهْم بنِ عبد مناف، وأمُّها بنتِ صخر بن عامر خالةُ أبي بكر الصِّديق، وابُنها مِسْطَح بنُ أثاثةَ، فأقبلتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بيتي قد فَرَغْنا من شأننا، فعثَرتْ أمُّ مسطحٍ في مِرْطها، فقالت: تَعِسَ مِسْطَحٌ. فقلتُ لها: بئسَ ما قلتِ، أتسبِّين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هَنْتاه[(٣)]، أوَلم تسمعي ما قال؟ قالت: قلتُ: وما قال؟ فأخبرتني بقول

---

(١) في الأصل و(م): حين، والمثبت من المصادر.

(٢) في المسند وصحيح مسلم: فهلك من هلك في شأني، وفي صحيح البخاري: فهلك مَن هلك.

(٣) أي: يا هذه. النهاية (هنا).

أهلِ الإفك، فازددتُ مرضاً على مرضي. فلما رجعتُ إلى بيتي ودخل عليَّ رسولُ الله ﷺ ثم قال: «كيف تيكم؟» فقلتُ: أتأذنُ لي أنْ آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقنَ الخبر من قِبَلِهما. قالت: فأذِنَ لي رسولُ الله ﷺ، فجئتُ أبويَّ فقلتُ لأمي[1]: يا أمَّتاه، ما يتحدَّث الناس؟ قالت: يا بنيةُ، هوِّني عليكِ، فوالله لقلَّما كانت امرأةٌ قطُّ وضيئةٌ عند رجل[2] ولها ضرائرُ إلَّا كَثَّرْنَ عليها. قالت: فقلتُ: سبحان الله، ولقد تحدَّث الناس بهذا؟ قالت: فبكيتُ تلك الليلةَ حتى أصبحتُ لا يَرْقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ حتى أصبحتُ أبكي، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحيُ، يستأمرُهما في فراق أهله، قالت: فأمَّا أسامةُ بنُ زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يَعْلَمُ من براءة أهله، وبالذي يعلمُ لهم في نفسه من الودِّ، فقال: يا رسول الله أهْلَكَ، وما نعلم إلا خيراً. وأمَّا عليّ بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيِّقِ الله عليك، والنساءُ سواها كثيرٌ، وإن تَسْألِ الجارية تَصْدُقْكَ. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرةَ فقال: «أيْ بريرةُ، هل رأيتِ من شيءٍ يَريبُكِ؟» قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحقِّ، إنْ رأيتُ عليها أمراً أَغْمِصُه عليها أكثرَ من أنها جاريةٌ حديثةُ السنِّ تنامُ عن عجين أهلها، فتأتي الدَّاجِنُ فتأكله. فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذٍ من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسولُ الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشرَ المسلمين، مَن يَعْذِرني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فواللهِ ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاريُّ فقال: يا رسول الله، أنا أَعذِرُكَ منه، إن كان من الأوس ضربتُ عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أَمَرْتَنا ففعلنا أمركَ. قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيدُ الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكنِ احْتَمَلَتْه الحميَّةُ، فقال لسعد: كذبتَ، لَعَمْرُ الله لا تقتُله ولا تقدر على قتله. فقام أُسيد بن حُضَيرٍ وهو ابنُ عمِّ سعدٍ فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ، لعَمْرُ الله لنقتلنَّه، فإنك منافقٌ تجادلُ عن المنافقين. فثار[3] الحيان من الأوس والخزرج، حتى همُّوا أن

(١) في هامش الأصل و(م): هي أم رومان زينب بنت دهمان. اهـ منه.

(٢) في المصادر: عند رجل يحبها.

(٣) في صحيح البخاري: فتثاور.

يقتتلوا، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبر، فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يخفِّضُهم حتى سكتوا وسكت. قالت: فمكثتُ يومي ذلك لا يَرْقأُ لي دمعٌ، ولا اكتحلُ بنومٍ، قالت: فأصبح أبواي عندي وقد بكيتُ ليلتين ويوماً، لا أكتحلُ بنومٍ، ولا يَرْقأُ لي دمعٌ، يَظنّان(١) أنَّ البكاء فالقٌ كبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنتْ عليَّ امرأة من الأنصار، فأذِنْتُ لها، فجلستْ تبكي معي. قالت: فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلَّم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل فيَّ ما قيل قبلها، وقد لَبِثَ شهراً لا يُوحَى إليه في شأني قالت: فتشهَّد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أمَّا بعدُ، يا عائشةُ، فإنه قد بلغني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً فسيبرِّئُكِ اللهُ، وإنْ كنتِ أَلْمَمْتِ بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه» قالت: فلمَّا قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَصَ دمعي حتى ما أحسُّ منه قطرةً، فقلت لأبي: أَجِبْ رسولَ الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله. فقلتُ لأمي: أجيبي رسولَ الله. قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلتُ، وأنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ لا أقرأ كثيراً من القرآن: إنِّي والله لقد علمتُ أنكم سمعتُم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدَّقتُم به، فلئن قلتُ لكم: إني بريئةٌ واللهُ يعلمُ أني بريئةٌ لا تصدِّقوني، ولئن اعترفتُ لكم بأمرٍ واللهُ يعلم أنِّي منه بريئةٌ لتُصَدِّقُنِّي، والله لا أَجِدُ لي ولا لكم مثلاً إلا قولَ أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:٨٣] فاضطجعتُ على فراشي وأنا حينئذٍ أعلم أنِّي بريئةٌ، وأنَّ الله مُبرِّئي ببراءتي، ولكنْ ما كنتُ أظنُّ أنَّ الله منزلٌ في شأني وحياً يُتْلَى، ولَشَأْني في نفسي كان أحقرَ من أنْ يتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتْلَى، ولكنْ كنتُ أرجو أن يَرَى رسولُ الله ﷺ في النوم رؤيَا يبرِّئني اللهُ بها. قالت: فواللهِ ما رام(٢) رسولُ الله ﷺ، ولا خرج أحدٌ من أهل البيت، حتى أُنزِلَ عليه، فأخذه ما كان يأخُذُه من البُرَحاءِ، حتى إنه ليتحدَّرُ منه مثلُ الجُمانِ من العَرَقِ وهو في يومٍ شاتٍ، من ثِقَلِ القول الذي ينزلُ عليه. قالت: فلمَّا سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ سرِّيَ عنه

(١) في (م): يظناني.
(٢) أي: فارق، ومصدره: الريم، بخلاف رام بمعنى الطلب، فمصدره الرَّوْم. فتح الباري ٨/ ٤٧٦.

وهو يضحكُ، فكان أولُ كلمةٍ تكلَّم بها: «يا عائشةُ، أمَّا اللهُ فقد برأك» فقالت أمي: قومي إليه. فقلتُ: واللهِ لا أقومُ، ولا أحمدُ إلا الله، وأنزل الله: (إِنَّ الَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ) العَشْرَ الآياتِ كلَّها.

والظاهر أنَّ قوله تعالى: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ خبرُ «إنَّ» وإليه ذهب الحوفيُّ وأبو البقاء[1]. وقال ابن عطية: هو بدلٌ من ضمير «جاؤوا» والخبرُ جملةُ قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ والتقديرُ: إنَّ فِعْلَ الذين، وهذا أنسقُ في المعنى وأكثرُ فائدةً من أن يكون «عصبةٌ» الخبر[2]. انتهى، ولا يخفى أنه تكلف.

والفائدة في الإخبار على الأول، قيل: التسليةُ بأنَّ الجائين بذلك الإفكِ فرقةٌ متعصِّبةٌ متعاوِنةٌ، وذلك من أمارات كونه إفكاً لا أصلَ له.

وقيل: الأَوْلَى أن تكون التسليةُ بأنَّ ذلك ممَّا لم يُجْمَعْ عليه، بل جاء به شرذمةٌ منكم.

وزعم أبو البقاء أنه بوصف العصبة بكونها منهم أفاد الخبر[3]، وفيه نظر.

والخطابُ في «منكم» على ما أَميل إليه لمن ساءه ذلك من المؤمنين، ويدخل فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر وأمُّ رومان وعائشةُ وصفوان دخولاً أوَّليّاً.

وأصلُ العُصْبةِ: الفرقةُ المتعصِّبةُ قلَّتْ أو كَثُرتْ، وكَثُر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين، وعليه اقتصر في «الصحاح»[4]. وتُطلق على أقلَّ من ذلك، ففي مصحف حفصة: «عُصْبةٌ أربعةٌ»[5].

وقد صحَّ أنَّ عائشةَ ﵂ عدَّتِ المنافقَ عبدَ الله ابنَ أبيٍّ ابن سلول، وحمنةَ

---

(١) في الإملاء ٤/ ٧٣.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ١٦٩. قال السمين في الدر المصون ٨/ ٣٨٩: والاعتراض عليه واضح، من حيث إنه أوقع خبر «إنَّ» جملةً طلبيةً، وقد تقدم أنه لا يجوز، وإن ورد شيءٌ منه في الشعر أُوِّل.
(٣) الإملاء ٤/ ٧٣.
(٤) مادة (عصب).
(٥) تفسير القرطبي ١٥/ ١٦٦، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٦٢.

بنتَ جحشٍ أختَ أمِّ المؤمنين زينبَ رضي الله عنها وزوجةَ طلحةَ بنِ عبيد الله، ومسطح بنَ أثاثة، وحسان بنَ ثابت. ومن الناسِ مَن برَّأ حسان وهو خلافُ ما في «صحيح البخاريِّ» وغيره[١].

نعم الظاهرُ أنه رضي الله عنه لم يتكلَّم به عن صميم قلبٍ، وإنما نقله عن ابن أبيٍّ لعنه الله تعالى. وقد جاء أنه رضي الله عنه اعتذر عما نُسب إليه في شأن عائشةَ رضي الله عنها فقال:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتُصْبحُ غَرْثَى من لحوم الغوافل[٢]
حليلةُ خيرِ الناس ديناً ومَنْصِباً ... نبيِّ الهدى ذي المَكْرُماتِ الفَوَاضِلِ
عقيلةُ[٣] حيٍّ من لؤيّ بنِ غالبٍ ... كرامِ المساعي مجدُهم غيرُ زائلِ
مهذَّبةٌ قد طيَّبَ الله خِيمَها[٤] ... وطهَّرَها من كلِّ سوءٍ وباطلِ
فإنْ كنتُ قد قلتُ الذي قد زَعَمتُمو ... فلا رَفَعتْ سوطي إليَّ أناملي
وكيف ووُدِّي ما حَيِيْتُ ونُصْرتي ... لآل رسول الله زينِ المحافلِ
له رتَبٌ عالٍ على الناس كلِّهم ... تَقاصَرُ عنه سَوْرَةُ المتطاولِ
فإنَّ الذي قد قيل ليس بلائطٍ ... ولكنه قولُ امرئٍ بي ماحل[٥]

وكانت عائشةُ رضي الله عنها تُكرِمُه بعد ذلك وتَذْكُره بخيرٍ - وإنْ صحَّ أنها قالت له حين

---

(١) صحيح البخاري (٤١٤١) و(٤١٤٦)، وصحيح مسلم (٢٧٧٠).

(٢) الحصان هنا: العفيفة. والرَّزان: كاملة الوقار والعقل. ما تزنُّ، أي: ما تُتَّهم. غَرْثَى: جائعة، والمعنى: أنها كافَّةٌ عن أعراض الناس. والغوافل: جمع غافلة. المفهم ٦/ ٤٢١، والإملاء المختصر في شرح غريب السير ٣/ ٤٣-٤٤، وما سيأتي من شرح الغريب منه. والبيت ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤١٤٦)، ومسلم (٢٤٨٨)، وسيأتي قريباً.

(٣) أي: كريمة.

(٤) الخِيمُ: الطبع والأصل. ومهذَّبة، أي: صافيةٌ مخلَّصة.

(٥) جاء في هامش الأصل و(م): يقال: محل به، إذا سعى به إلى السلطان، فهو ماحل. اهـ منه. وقوله: ليس بلائط، أي: ليس بلاصق، يقال: هذا لا يَليطُ بفلان، أي: لا يلصقُ به. وهذه الأبيات في ديوان حسان ص٣٨٠-٣٨١، والسيرة النبوية ٢/ ٣٠٦، والاستيعاب ١٣/ ٩٠، وأخرجها الطبراني في الكبير ٢٣/ (١٥١) في حديث طويل عن عائشة رضي الله عنها.

أنشدها أولَ هذه الأبيات: لكنَّك لَسْتَ كذلك[١] - فقد أخرج ابن سعد[٢] عن محمد بن سيرين أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تَأْذَنُ لحسان، وتدعو له بالوسادة، وتقول: لا تُؤذوا حساناً فإنه كان ينصر رسول الله ﷺ بلسانه.

وأخرج ابن جَرِيرٍ[٣] من طريق الشعبيِّ عنها أنها قالت: ما سمعتُ بشيءٍ أحسنَ من شعرِ حسانَ، وما تمثَّلتُ به إلا رجوتُ له الجنةَ، قولهُ لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

هَجَوْتَ محمداً وأَجَبْتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ

فإنَّ أبي ووالدتي وعِرْضي ... لعِرْضِ محمدٍ منكم وقاءُ

أتشتُمه ولستَ له بكُفْءٍ ... فشرُّكما لخيرِكما الفداءُ

لساني صارمٌ لا عيبَ فيه ... وبحري لا تكدِّرُه الدِّلاءُ

وعدَّ بعضُهم مع الأربعة المذكورين زيد بنَ رفاعة[٤]، ولم نَرَ فيه نقلاً صحيحاً، وقيل: إنه خطأ.

ومعنى «منكم»: من أهل ملَّتكم وممن ينتمي إلى الإسلام، سواءٌ كان كذلك في نفس الأمر أم لا، فيشمَلُ ابنَ أبيٍّ لأنه ممن ينتمي إلى الإسلام ظاهراً، وإن كان كافراً في نفس الأمر.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾ خارجٌ مخرجَ الأغلب، وأغلبُ أولئك العصبةِ مؤمنون مُخْلِصون، وكذا الخطابُ في «لا تحسبوه شرًّا لكم». وقيل: الخطاب في الأول للمسلمين، وفي هذا لسيد المخاطَبين رسولِ الله ﷺ، ولأبي بكر وعائشةَ وصفوان رضي الله عنهم، والكلامُ مسوقٌ لتسليتهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٤٦)، ومسلم (٢٤٨٨)، وقد سلف تخريجه مع البيت الأول. وسيأتي بتمامه قريباً.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٣٣.

(٣) في تفسيره ١٧/ ١٩٣.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٢. قال ابن حجر في الفتح ٨/ ٤٦٤: زاد الزمخشري زيد بن رفاعة، ولم أره لغيره.

وأخرج ابن أبي حاتم والطبرانيُّ عن سعيد بن جبير أنَّ الخطاب في الثاني لعائشة وصفوان[١].

وأَبْعدَ عن الحقِّ مَن زعم أنه للذين جاؤوا بالإفك، وتكلَّف للخيرية ما تكلَّف، ولعل نسبته إلى الحسن لا تصحُّ.

والظاهرُ أنَّ ضمير الغائب في «لا تحسبوه» عائدٌ على الإفك. وجوَّز أن يعود على القَذْفِ، وعلى المصدر المفهوم من «جاؤوا»، وعلى ما نال المسلمين من الغمِّ، والكلُّ كما ترى.

وعلى ما ذهب إليه ابنُ عطية[٢] يعود على المحذوف المضاف إلى اسم «إنَّ» الذي هو الاسم في الحقيقة.

ونُهوا عن حسبان ذلك شرًّا لهم إراحةً لبالهم بإزاحةِ ما يوجبُ استمرارَ بلبالهم، وأردف سبحانه النهيَ عن ذلك بالإضراب بقوله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ اعتناءً بأمر التسلية، والمراد: بل هو خيرٌ عظيم لكم لنيلكم بالصبر عليه الثوابَ العظيم، وظهورِ كرامتكم على الله عز وجل بإنزال ما فيه تعظيمُ شأنِكم، وتشديدِ الوعيد فيمَن تكلَّم بما أحزنكم.

والآيات المنزلةُ في ذلك على ما سمعتَ آنفاً عن عائشة رضي الله عنها عشرةٌ.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال: نزلت ثماني عشرةَ آيةً متواليات بتكذيب مَن قَذَفَ عائشةَ وبراءتِها[٣].

وأخرج الطبرانيُّ عن الحكم بن عتيبة قال: إنه سبحانه أنزل فيها خمس عَشْرَةَ آيةً من سورة «النور». ثم قرأ حتى بلغ: (ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ)[٤].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٤٤، والمعجم الكبير ٢٣/ (١٧١)، وعزاه إليهما السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٠.

(٢) يعني من قوله: إن «عصبةٌ» بدل من ضمير «جاؤوا»، وجملة «لا تحسبوه» هي الخبر، والتقدير: إنَّ فِعْلَ الذين جاؤوا، وقد سلف قريباً.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٤٣-٢٥٤٤.

(٤) المعجم الكبير ٢٣/ (٢٥١).

وكأنَّ الخلاف مبنيٌّ على الخلاف في رؤوس الآي، وفي كتاب «العدد» للداني ما يوافق المرويَّ عن ابن جبير.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم﴾ أي: من الذين جاؤوا بالإفك ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: جزاءُ ما اكتسب، وذلك بقَدْرِ ما خاض فيه؛ فإنَّ بعضهم تكلَّم وبعضهم ضحك كالمُعْجَبِ الراضي بما سمع، وبعضهم أكْثَرَ، وبعضهم أقلَّ.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ بكسر الكاف. وقرأ الحسنُ والزهريُّ وأبو رجاءٍ ومجاهدٌ والأعمشُ وأبو البرهسم وحميدٌ وابنُ أبي عبلةَ وسفيان الثوريُّ ويزيد بنُ قطيب ويعقوبُ والزعفرانيُّ وابن مقسم وعمرةُ بنتُ عبد الرحمن، وسورةُ عن الكسائيِّ، ومحبوبٌ عن أبي عمرو: «كُبْرَه» بضم الكاف[1]، وهو ومكسورُها مصدران لكَبُرَ الشيء: عَظُم، ومعناهما واحد.

وقيل: الكبرُ بالضم المُعْظَمُ، وبالكسر البداءةُ بالشيء، وقيل: الإثم.

والجمهور على الأول. أي: والذي تحمَّل مُعْظَمه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الجائين به ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة فقط.

وفي التعبير بالموصول، وتكريرِ الإسناد، وتنكيرِ العذاب، ووَصْفِه بالعظم من تهويل الخطب ما لا يخفى.

والمراد بـ «الذي تولَّى كبره» كما في «صحيح البخاريِّ» عن الزهريِّ، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها عبد الله بن أُبيٍّ عليه اللعنة[2]، وعلى ذلك أكثرُ المحدِّثين. وكان لَعَنَه الله تعالى يجمعُ الناس عنده ويذكُر لهم ما يذكر من الإفك، وهو أولُ مَن اخْتَلَقه وأشاعه لإمعانه في عداوةِ رسول الله ﷺ. وعذابُه في الآخرة بعد جَعْلِه في الدَّرْكِ الأسفلِ من النار لا يَقْدرُ قَدْرَه إلا اللهُ عز وجل، وأما في الدنيا فوسمُه بميسم الذلِّ، وإظهارُ نفاقه على رؤوس الأشهاد، وحَدُّه حدَّين على ما أخرج الطبرانيُّ وابنُ مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما، من أنه ﷺ بعد أنْ نزلت الآياتُ خرج إلى المسجد فدعا أبا عبيدة بنَ الجرَّاح، فجمع الناس ثم تلا عليهم ما أنزل اللهُ تعالى من البراءة

---

(١) القراءة في النشر ٢/ ٣٣١ عن يعقوب، وذكرها عنهم جميعاً أبو حيان في البحر ٦/ ٤٣٧.

(٢) صحيح البخاري (٤٧٤٩).

لعائشةَ، وبعث إلى عبد الله بن أبيٍّ فجيء به فضربه عليه الصلاة والسلام حدَّين، وبعث إلى حسان ومسطحٍ وحمنةَ فضُربوا ضرباً وجيعاً، ووُجئوا في رقابهم[١].

وقيل: حُدَّ حدّاً واحداً، فقد أخرج الطبرانيُّ عن ابن عباس أنه فسَّر العذاب في الدنيا بجلد رسول الله ﷺ إياه ثمانين جلدةً، وعذابه في الآخرة بمصيره إلى النار[٢].

وقيل: إنه لم يُحدَّ أصلاً لأنه لم يُقِرَّ، ولم يلتزم إقامة البينةِ عليه تأخيراً لجزائه إلى يوم القيامة، كما أنه لم يلتزم إقامة البينة على نفاقه وصدورِ ما يوجب قتلَه لذلك. وفيه نظر.

وزعم بعضهم أنه لم يُحدَّ مسطح. وآخرون أنه لم يُحدَّ أحدٌ ممن جاء بالإفك؛ إذ لم يكن إقرارٌ ولم يلتزم إقامة بينةٍ. وفي «البحر» أنَّ المشهور حَدُّ حسانَ ومسطحٍ وحمنةَ[٣]. وقد أخرجه البزَّارُ وابن مردويه بسندٍ حسنٍ عن أبي هريرة[٤]. وقد جاء ذلك في أبياتٍ ذكرها ابن هشام في ملخَّص السيرة لابن إسحاق[٥] وهي:

لقد ذاق حسانُ الذي كان أهلَه ... وحمنةُ إذ قالوا هَجيراً[٦] ومسطحُ
تعاطَوا برَجْم الغيب أمرَ[٧] نبيِّهم ... وسَخْطةَ ذي العرشِ الكريم فأُتْرِحوا
وآذَوْا رسولَ الله فيها فجُلِّلوا ... مخازيَ بغيٍ يمموها[٨] وفضِّحوا

---

(١) المعجم الكبير ٢٣/ (١٦٤). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٠: فيه إسماعيل بن يحيى التيمي، وهو كذاب.

(٢) المعجم الكبير ٢٣/ (١٦٨) و(١٨١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٧٧: في إسناده موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، وهو ضعيف.

(٣) البحر ٦/ ٤٣٧.

(٤) مسند البزار (٢٦٦٣ـ كشف)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٢٧. وله شاهد أخرجه أبو داود (٤٤٧٥) من طريق عمرة بنت عبد الرحمن مرسلاً، وأخرجه أبو داود (٤٤٧٤)، والترمذي (٣١٨١) وحسنه متصلاً من طريق عمرة عن عائشة، وفيه: فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدَّهم.

(٥) ٢/ ٣٠٧، وذكرها ابن شبَّة في تاريخ المدينة ١/ ٣٤٧.

(٦) الهجير: الهُجْر هنا، وهو القول الفاحش القبيح. الإملاء المختصر ٣/ ٤٤-٤٥.

(٧) في السيرة وتاريخ المدينة: زوج نبيهم.

(٨) في السيرة وتاريخ المدينة: مخازي تبقى عُمِّموها.

وصُبَّ[1] عليهم محصداتٌ كأنها شآبيبُ قَطْرٍ من ذُرَى المُزْنِ تسْفَحُ[2]

وقيل: الذي تولَّى كِبْرَه حسان، واستدلَّ بما في «صحيح البخاري» أيضاً عن مسروق قال: دخل حسان على عائشةَ فشبَّب وقال: حصانٌ..، البيتَ. قالت: لكنَّك لستَ كذلك. قلتُ: تَدَعين مثلَ هذا يدخلُ عليكِ وقد أنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقالت: وأيُّ عذابٍ أشدُّ من العمى[3]؟

وجاء في بعض الأخبار أنها قيل لها: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ الآيةَ؟ فقالت: أليس أصابه عذابٌ عظيم، أليس قد ذهب بصرُه وكُسِعَ بالسيف؟ تعني الضربةَ التي ضَرَبَها إياه صفوان حين بلغه عنه أنه يتكلَّم في ذلك؛ فإنه يُروَى أنه ضربه بالسيف على رأسه لذلك، ولأبياتٍ عرَّض فيها به وبمن أسلم من العرب من مُضَرَ، وأنشد:

تَلَقَّ ذبابَ السيفِ منِّي فإنَّني غلامٌ إذا هُوجِيتُ لستُ بشاعرِ
ولكنني أحمي حماي وأتقي من الباهت الرأي البريءِ الظواهر[4]

وكاد يقتلُه بتلك الضربة؛ فقد روى ابنُ إسحاق[5] أنه لمَّا ضربه وثب عليه ثابت بن قيس بن شماس، فجمع يديه إلى عنقه بحبلٍ ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج، فلقيه عبدُ الله بنُ رواحةَ فقال: ما هذا؟ قال: أما أعجبك ضرب حسان بالسيف! والله ما أراه إلا قد قتله. فقال له عبد الله: هل علم رسول الله ﷺ بذلك وبما صنعتَ؟ قال: لا والله. قال: لقد اجترأت، أطْلِقِ

---

(١) في السيرة وتاريخ المدينة: وصبت.

(٢) قوله: محصدات، يعني سياطاً محكمة الفتل شديدات. والشآبيب جمع شُؤبوب، وهي الدفعة من المطر. والذرى: الأعالي. والمزن: السحاب. وتسفح: تسيل. الإملاء المختصر ٣/ ٤٥.

(٣) صحيح البخاري (٤١٤٦) و(٤٧٥٦)، وهو عند مسلم (٢٤٨٨).

(٤) أخرجه مطولاً الطبراني في الكبير ٢٣/ ١٥١، ومختصراً الحاكم ٣/ ٥٢٧ كلاهما من حديث عائشة ﵂. ورواية البيت الثاني في الكبير:

ولكنني أحمي حماي وأنتقم من الباهت الرامي البراة الطواهر

وفي المستدرك: ... وأشتفي من الباهت الرامي البراء الطواهر.

(٥) كما في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

الرجلَ. فأطلقه، فأتوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فذكروا ذلك له، فدعا حسان وصفوان، فقال صفوان: يا رسول الله، آذاني وهجاني، فاحتملني الغضبُ فضربتُه. فقال ﷺ: «يا حسان أتشوَّهْتَ على قومي[1] بعد أن هداهم الله تعالى للإسلام» ثم قال: «أحْسِنْ يا حسان في الذي أصابك» فقال: هي لك يا رسول الله. فعوَّضه رسول الله ﷺ منها بِيرَحاء، وكان [أبو] طلحة بن سهل أعطاها إياه عليه الصلاة والسلام، ووَهَبَه أيضاً سيرين ـ أمة قِبْطية ـ فولدتْ له عبدَ الرحمن بنَ حسان.

وفي روايةٍ في «صحيح البخاري» عن عائشة أيضاً رضي الله عنها أنها قالت في «الذي تولى كبره منهم»: هو ـ أي: المنافقُ ـ ابن أبيٍّ وحمنةُ[2].

وقيل: هو وحسان ومسطحٌ، وعذابُ المنافق الطردُ وظهورُ نفاقه، وعذابُ الأخيرين بذهاب البصر.

ولا يأبى إرادةَ المتعدِّد إفرادُ الموصول؛ لما في «الكشف» من أنَّ «الذي» يكون جمعاً وإفرادُ ضميره جائزٌ باعتبار إرادةِ الجمع، أو الفوجِ، أو الفريقِ، أو نظراً إلى أنَّ صورتَه صورةُ المفرد، وقد جاء إفرادُه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر:٣٣] وجمعُه في قوله سبحانه: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة:٦٩].

والمشهورُ جوازُ استعمال «الذي» جمعاً مطلقاً، واشترط ابن مالك في «التسهيل» أن يراد به الجنسُ لا جَمْعٌ مخصوصٌ، فإن أريدَ به[3] الخصوصُ قُصِرَ على الضرورة[4].

هذا، ولا يخفى أنَّ إرادة الجمع هنا لا تخلو عن بعْدٍ، والذي أختاره إرادةُ الواحد، وأنَّ ذلك الواحد هو عدوُّ الله تعالى ورسولِه ﷺ والمؤمنين ابنُ أبيٍّ، وقد روى ذلك الزهريُّ عن سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعلقمة بن وقاص، و[عبيد الله بن] عبد الله بن عتبةَ، وكلُّهم سمع عائشة تقول: «الذي تولَّى كِبْرَه»

(١) أي: أتنكَّرت وتقبَّحت لهم. النهاية (شوه).
(٢) صحيح البخاري (٤٧٥٧) معلقاً، ووصله مسلم (٢٧٧٠): (٥٨).
(٣) قوله: به، ساقط من (م).
(٤) التسهيل ص٣٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٣/ ٣٦٣.

عبدُ الله بن أبيّ[١]. وقد تضافرت رواياتٌ كثيرةٌ على ذلك، والذاهبون إليه من المفسِّرين أكثر من الذاهبين منهم إلى غيره.

ومن الإفك الناشئ من النَّصْبِ قولُ هشام بن عبد الملك عليه من الله تعالى ما يستحقُّ حين سأل الزهريَّ عن «الذي تولَّى كِبْرَه» فقال له: هو ابنُ أبيٍّ: كَذَبْتَ هو عليٌّ. يعني به أميرَ المؤمنين عليّ بنَ أبي طالب كرم الله تعالى وجهه. وقد رَوَى ذلك عن هشامٍ البخاريُّ، والطبرانيُّ، وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدلائل»[٢]، ولا بدعَ من أمويٍّ الافتراءُ على أمير المؤمنين عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه ورضي عنه.

وأنت تعلم أنَّ قُصارى ما روي عن الأمير رضي الله عنه أنه قال لأخيه وابنِ عمِّه رسولِ الله ﷺ حين استشاره: يا رسول الله، لم يضيِّقِ الله تعالى عليك، والنساءُ سواها كثيرٌ، وإنْ تسأل الجارية تَصْدُقْكَ[٣].

وفي رواية أنه قال: يا رسول الله، قد قال الناسُ وقد حلَّ لك طلاقُها[٤].

وفي روايةٍ أنه رضي الله عنه ضَربَ بريرةَ وقال: اصْدُقي رسولَ الله ﷺ[٥].

وليس في ذلك شيءٌ ممَّا يَصْلُحُ مستنداً لذلك الأمويِّ الناصبي، وجلُّ غرض الأمير مما ذكر أن يسرِّيَ عن رسول الله ﷺ ما هو فيه من الغمِّ، غايةُ ما في الباب أنه لم يسلك في ذلك مَسْلَكَ أسامةَ، وهو أمرٌ غيرُ متعيّنٍ، ومَن دقَّق النظر عرف مَغْزَى الأميرِ كرَّم الله تعالى وجهه، وأنه بعيدٌ عمَّا يزعمه النواصبُ بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب، فليتدبَّر.

---

(١) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ١/ ٣٩٣، وابن شبَّة في تاريخ المدينة ١/ ٣٣٧، وما بين حاصرتين منهما، وأخرجه البخاري (٤٧٤٩) من طريق الزهري عن عروة عن عائشة، وسلف ص٢٥٦ من هذا الجزء.

(٢) بنحوه في صحيح البخاري (٤١٤٢)، والمعجم الكبير ٣/(١٤٥)، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٧٢، والدر المنثور ٥/ ٣٢، وجاء فيه عندهم: الوليد بن عبد الملك، بدل: هشام، وليس فيه قوله: كذبت. وأخرجه بلفظ المصنف مع زيادة فيه يعقوب بن شبة في مسنده كما في الدر المنثور ٥/ ٣٢، وابن عساكر في تاريخه ٥٥/ ٣٧٠-٣٧١.

(٣) سلف ضمن حديث الإفك ص٢٤٨-٢٥٢ من هذا الجزء.

(٤) وردت هذه العبارة ضمن رواية ابن عمر عند الطبراني في الكبير ٢٣/(١٦٤).

(٥) تنظر هذه الرواية وغيرها في فتح الباري ٨/ ٤٦٩.

﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ التفاتٌ إلى خطاب الخائضينَ ما عدا مَن تولَّى كِبْرَه منهم، واستظهر أبو حيان كونَ الخطاب للمؤمنين دونه[1].

واختير الخطابُ لتشديد ما في «لولا» التحضيضيةِ من التوبيخ، ولتأكيد التوبيخ عَدَلَ إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ لكن لا بطَريق الإعراض عن المخاطَبينَ وحكايةِ جناياتهم لغيرهم، بل بالتوسُّلِ بذلك إلى وَصْفِهم بما يوجبُ الإتيانَ بالمحضَّض عليه ويقتضيه اقتضاءً تامًّا، ويَزْجُرُهم عن ضدِّه زجراً بليغاً، وهو الإيمان.

وكونُه مما يحملُهم على إحسان الظنِّ، ويكفُّهم عن إساءته بأنفسهم، أي: بأبناء جنسهم وأهلِ ملَّتهم النازلين منزلةَ أنفسِهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: ١١] وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٨٥] ولا حاجةَ إلى تقدير مضافٍ ـ أي: ظنَّ بعضُ المؤمنين والمؤمناتِ بأنفسِ بعضِهم الآخَرِ ـ وإن قيل بجوازه[2] = مما لا ريبَ فيه[3]، فإخلالُهم بموجب ذلك الوصف أقبحُ وأشنعُ، والتوبيخُ عليه أدْخَلُ، مع ما فيه من التوسُّل به إلى توبيخ الخائضات، والمشهورُ منهنَّ حمنةُ.

ثم إن كان المراد بالإيمان الإيمانَ الحقيقيَّ، فإيجابُه لِمَا ذُكر واضحٌ، والتوبيخُ خاصٌّ بالمتَّصفين به، وإن كان مطلقَ الإيمان الشاملِ لما يُظْهِرُه المنافقون أيضاً، فإيجابُه له من حيث إنهم كانوا يحترزون عن إظهار ما ينافي مدَّعاهم، فالتوبيخُ حينئذٍ متوجِّهٌ إلى الكلِّ.

والنكتةُ في توسيط معمولِ الفعل المحضَّض عليه بينه وبين أداة التحضيض، وإن جاز ذلك مطلقاً، أي: سواءٌ كان المعمولُ الموسَّطُ ظرفاً أو غيره = تخصيصُ التحضيض بأول وقت السماع، وقَصْرُ التوبيخ واللومِ على تأخير الإتيان بالمحضَّض عليه عن ذلك الآن، والتردُّدِ فيه، ليفيد أنَّ عدم الإتيان به رأساً في غاية ما يكون من

---

(١) البحر ٦/ ٤٣٧.

(٢) أي: بجواز تقدير المضاف.

(٣) قوله: مما لا ريب فيه، هو خبر قوله: وكونه مما يحملهم..

القباحة والشناعة، أي: كان الواجب على المؤمنين والمؤمنات أن يظنُّوا أولَ ما سمعوا ذلك الإفكَ ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تلعثُم وتردُّدٍ بأهل ملَّتهم من آحاد المؤمنين والمؤمنات خيراً.

﴿وَقَالُوا۟﴾ في ذلك الآن: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: ظاهرٌ مكشوفٌ كونُه إفكاً، فكيف بأمِّ المؤمنين حليلةِ رسول الله ﷺ، بنتِ المهاجرَيْن رضي الله عنهما؟

ويجوز أن يكون المعنى: هلَّا ظنَّ المؤمنون[1] والمؤمناتُ أولَ ما سمعوا ذلك خيراً بأهل ملَّتهم عائشةَ وصفوانَ وقالوا.. إلخ.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إما من تمام القول المحضَّضِ عليه، مسوقٌ لتوبيخ السامعين على ترك إلزام الخائضين، أي: هلَّا جاء الخائضون بأربعة شهداءَ يشهدون على ثبوتِ ما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ الأربعة، وكان الظاهرُ: فإذ لم يأتوا بهم، إلَّا أنه عدل إلى ما في النظم الجليل لزيادة التقرير.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخائضين، وما فيها من معنى البعد للإيذان ببعدِ منزلتهم في الفساد، أي: فأولئك المفسدون ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حُكْمِه وشريعته ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: المحكومُ عليهم بالكذب شرعاً، أي: بأنَّ خبرهم لم يطابق في الشرع الواقعَ.

وقيل: المعنى: فأولئك في علم الله تعالى هم الكاذبون الذين لم يطابقْ خبرُهم الواقعَ في نفس الأمر؛ لأن الآية في خصوص عائشةَ رضي الله عنها، وخبرُ أهل الإفك فيها غيرُ مطابقٍ للواقع في نفس الأمر في علمه عزَّ وجل.

وتعقِّب بأنَّ خصوصَ السبب لا ينافي عمومَ الحكم، مع أنَّ ظاهر التقييد بالظرف يأبى ذلك، وجَعْلُه من قبيل قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦] خلافُ الظاهر. وأيّاً ما كان فالحصرُ للمبالغة.

وإمَّا كلامٌ[2] مبتدأٌ مسوقٌ من جهته سبحانه وتعالى تقريراً لكون ذلك إفكاً.

---

(١) في (م): المؤمنين، وهو خطأ.

(٢) قوله: وإما كلام، معطوف على القول المحضض..

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أي: تفضُّله سبحانه ﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إياكم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بفنون النعم التي من جملتها الإمهالُ للتوبة ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بضروبِ الآلاء التي من جملتها العفوُ والمغفرةُ بعد التوبة. وفي الكلام نشرٌ على ترتيب اللَّفِّ.

وجوِّز أن يتعلق «في الدنيا والآخرة» بكلٍّ من فضل الله تعالى ورحمته، والمعنى: لولا الفضلُ العامُّ والرحمة العامَّة في كلا الدارين ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي: بسبب ما خضتُم فيه من حديث الإفك.

والإبهامُ لتهويل أمره واستهجانِ ذِكْرِه، يقال: فاض في الحديث وخاض وهَضَبَ واندفع بمعنًى. والإفاضةُ في ذلك مستعارةٌ من إفاضة الماء في الإناء. و«لولا» امتناعيةٌ، وجوابُها «لمسَّكم» ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُستحقَرُ دونه التوبيخُ والجَلْدُ. والخطابُ لغير ابن أبيٍّ من الخائضين.

وجوِّز أن يكون لهم جميعاً. وتعقِّب بأنَّ ابن أُبيٍّ رأسَ المنافقين لاحظَّ له من رحمة الله تعالى في الآخرة؛ لأنه مخلَّدٌ في الدَّرْكِ الأسفل من النار.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ بحذفِ إحدى التاءين، و«إذ» ظرفٌ للمسِّ، وجوِّز أن يكون ظرفاً لـ «أفضتُم»، وليس بذاك، والضميرُ المنصوبُ لـ «ما»، أي: لمسَّكم ذلك العذابُ العظيم وقتَ تلقِّيكم ما أفضتُم فيه من الإفك وأَخْذِ بعضِكم إياه من بعضٍ بالسؤال عنه.

والتلقِّي والتلقُّفُ والتلقُّنُ متقاربةُ المعاني، إلا أنَّ في التلقِّي معنى الاستقبال، وفي التلقُّفِ معنى الخَطْفِ والأَخْذِ بسرعة، وفي التلقُّن معنى الحَذْقِ والمهارة.

وقرأ أبيٌّ ﷺ: «تتلقَّونه» على الأصل[1].

وشدَّ التاءَ البزِّيُّ[2]، وأدغم الذال في التاء النحويان وحمزة[3].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٠.

(٢) أي: في حال الوصل. التيسير ص٨٣، والنشر ٢/ ٢٢٢.

(٣) وكذلك قرأ ابن عامر في رواية هشام، وخلف. التيسير ص٤٢، والنشر ٢/ ٢-٣.

وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «تُلْقُونه» بضمِّ التاء والقاف وسكون اللام[١]، مضارع أَلْقَى. وعنه: «تَلْقَوْنه» بفتح التاء والقاف وسكونِ اللام[٢]، مضارع لَقِيَ.

وقرأت عائشةُ وابنُ عباس رضي الله عنهم وعيسى وابنُ يعمر وزيد بنُ عليٍّ بفتح التاء وكَسْرِ اللام وضمِّ القاف[٣]، من وَلَقَ الكلامَ: كَذَبه؛ حكاه السرقسطي[٤]، وفيه ردٌّ على مَن زعم أنَّ وَلَقَ إذا كان بمعنى كَذَبَ لا يكون متعدِّياً، وهو ظاهرُ كلامِ ابن سيده، وارتضاه أبو حيان[٥]، ولذا جَعَلَ ذلك من باب الحذف والإيصال، والأصل: تَلِقون فيه.

وروي عن عائشَةَ رضي الله عنها أنها كانت تقرأ ذلك وتقول: الوَلْقُ: الكذب، وقال ابن أبي مُليكة: وكانت أَعْلَمَ بذلك من غيرها؛ لأنه نزل فيها[٦].

وقال ابن الأنباريِّ[٧]: من وَلَقَ الحديثَ: أَنْشأه واخترعه. وقيل: من وَلَقَ الكلام: دبَّره.

وحكى الطبريُّ وغيرُه أن هذه اللفظة مأخوذةٌ من الوَلْقِ الذي هو الإسراعُ بالشيء بعد الشيء، كعددٍ في إثْرِ عددٍ، وكلامٍ في إثْرِ كلامٍ[٨]. ويقال: ناقةٌ وَلْقَى: سريعة، ومنه: الأَوْلَقُ، للمجنون؛ لأن العقل بابٌ من السكون والتماسُكِ، والجنونُ بابٌ من السرعة والتهافُت.

---

(١) المحتسب ٢/ ١٠٤، والبحر ٦/ ٤٣٨، والكلام منه، وهي في القراءات الشاذة ص١٠٠ دون نسبة.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٠، والبحر ٦/ ٤٣٨، وعنه نقل المصنف.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٠، والمحتسب ٢/ ١٠٤، والبحر ٤٣٨.
(٤) في كتاب الأفعال ٤/ ٢٥٨، والسرقسطي هو أبو عثمان سعيد بن محمد المعافري.
(٥) ذكر أبو حيان قول ابن سيده في البحر ٦/ ٤٣٨، ولم يذكر فيه شيئاً، وكلام ابن سيده في المحكم كما في المحرر الوجيز ٤/ ١٧١.
(٦) أخرجه البخاري (٤١٤٤).
(٧) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٣٦٤.
(٨) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٢١٦، والعين ٥/ ٢١٤، والصحاح (ولق)، والكلام من البحر ٦/ ٤٣٨.

وعن ابن جنِّي أنه إذا فسَّر ما في الآية بما ذُكر يكون ذلك من باب الحذف والإيصال، والأصل: تُسْرعون فيه أو إليه[1].

وقرأ زيد بن أسلم وأبو جعفر: «تَأْلِقونه» بفتح التاء وهمزةٍ ساكنةٍ بعدها لامٌ مكسورةٌ[2]، من الأَلْقِ وهو الكذب.

وقرأ يعقوب في رواية المازنيِّ: «تِيْلَقونه» بتاء فوقانيةٍ مكسورةٍ بعدها ياءٌ ولامٌ مفتوحة[3]، كأنه مضارعُ وَلِقَ بكسر اللام، كما قالوا: تِيجَلُ، مضارع وَجِلَ.

وعن سفيان بن عيينة: سمعتُ أمي تقرأ: «إذ تثقفونه» من ثَقِفْتُ الشيءَ: إذا طلبته فأدركته، جاء مثقَّلاً ومخفَّفاً[4]، أي: تتصيَّدون الكلام في الإفك من هاهنا ومن هاهنا.

وقرئ: «تَقْفُوْنه» من قَفَاه إذا تبعه، أي: تتبعونه[5].

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: تقولون قولاً مختصًّا بالأفواه من غير أن يكون له مصداقٌ ومنشأٌ في القلوب؛ لأنه ليس تعبيراً عن عِلْمٍ به في قلوبكم، فهذا كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقال ابن المنير: يجوز أن يكون قولُه سبحانه: «تقولون بأفواهكم» توبيخاً، كقولك: أتقول ذلك بملءِ فيك، فإنَّ القائل ربما رمَّز وعرَّض، وربما تشدَّق جازماً كالعالم، وقد قيل هذا في قوله سبحانه: ﴿بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[6] [آل عمران: ١١٨].

وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يقال: فائدةُ ذكر «بأفواهكم» أنْ لا يظنَّ

---

(١) المحتسب ٢/ ١٠٤-١٠٥.

(٢) في الأصل و(م): ساكنة، وهو خطأ، والمثبت من البحر ٦/ ٤٣٨، والكلام منه، ومثله في الدر المصون ٨/ ٣٩١.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٠، والبحر ٦/ ٤٣٨، والكلام منه.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٠، والمحتسب ٢/ ١٠٤، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٦٤، والكلام منه.

(٥) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٦٤، وذكر العكبري في الإملاء أنه قرئ: «تَقَفَّونه». وفي المحتسب ٢/ ١٠٤ عن أم ابن عيينة أنها قرأت: (تتقفونه).

(٦) بنحوه في الانتصاف ٣/ ٥٤، وينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٦٤.

أنهم قالوا ذلك بالقلب؛ لأن القول يطلق على غير الصادر من الأفواه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. وقول الشاعر:

امتلأ الحوضُ وقال قَطْني مهلاً رويداً قد مَلأْتَ بطني[١]

فهو تأكيدٌ لدفع المجاز.

وأنت تعلم أن السياق يقتضي الأول، وإليه ذهب الزمخشريُّ[٢]. وكان الظاهر: وتقولونه بأفواهكم، إلا أنه عَدَلَ عنه إلى ما في النظم الجليل لما لا يخفى.

﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا﴾ سهلاً لا تَبِعةَ له ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ أي: والحالُ أنه عند الله عز وجل أمرٌ عظيمٌ لا يقادرُ قَدْرُه في الوِزْرِ واستجرارِ العذاب.

والجملتان الفعليتان معطوفتان على جملة «تلقَّونه»، داخلتان معها في حيِّز «إذ»، فيكون قد عُلِّق مسُّ العذاب العظيم بتلقِّي الإفك بألسنتهم، والتحدُّثِ به من غير رَوِيَّةٍ وفِكْرٍ، وحسبانِهم ذلك مما لا يُعبأ به وهو عند الله عزَّ وجلَّ عظيم.

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ﴾ ممن اخترعه، أو المتابعِ له ﴿قُلۡتُم﴾ تكذيباً له، وتهويلاً لِمَا ارتكبه: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ﴾ أي: ما يمكنُنا وما يَصْدُر عنا بوجهٍ من الوجوه التكلُّمُ ﴿بِهَٰذَا﴾ إشارة إلى القول الذي سمعوه باعتبار شخصه.

وجوِّز أن يكون إشارةً إلى نوعه، فإنَّ قَذْفَ آحادِ الناس المتَّصفين بالإحصان محرَّمٌ شرعاً، وجاء عن حذيفةَ مرفوعاً: أنه يهدمُ عملَ مئةِ سنةٍ[٣]، فضلاً عن تعرُّضِ الصدِّيقة حُرْمةِ رسول الله ﷺ. والكلامُ في توسيط الظرف على نحو ما مرَّ[٤].

---

(١) سلف عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام، وص١٠٩ من هذا الجزء.

(٢) في الكشاف ٣/ ٥٤.

(٣) أخرجه البزار (١٠٥) من طريق ليث عن أبي إسحاق عن صلة عن حذيفة به. قال البزار: لا نعلم أسنده إلا ليث، ولا عنه إلا موسى بن أيمن، وقد رواه جماعة عن أبي إسحاق موقوفاً على حذيفة. اهـ. وليث هو ابن أبي سليم، قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق اختلط جداً ولم يتميز حديثه فتُرِك.

(٤) يعني: توسيط الظرف بين «لولا» و«قلتم» على نحو ما مرَّ ص٢٦١ من هذا الجزء، من تخصيص التحضيض بأول وقت السماع... إلخ.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجُّبٌ ممن تَفَوَّه به، وأصلُه أن يُذكر عند معاينة العجيب[1] من صنائعه تعالى شأنه تنزيهاً له سبحانه من أن يَصْعُبَ عليه أمثالُه، ثم كَثُر حتى استُعمل في كلِّ متعجَّبٍ منه.

واستعمالُه فيما ذُكر مجازٌ متفرِّعٌ على الكناية، ومثلُه في استعماله للتعجُّب: لا إله إلا الله. والعوامُّ يستعملون الصلاةَ على النبيِّ ﷺ في ذلك المقام أيضاً، ولم يُسمع في لسان الشرع، بل قد صرَّح بعضُ الفقهاء بالمنع منه.

وجوِّز أن يكون «سبحانك» هنا مستعملاً في حقيقته، والمرادُ تنزيهُ الله تعالى شأنُه من أن يَصِمَ نبيَّه عليه الصلاة والسلام ويَشِينَه، فإنَّ فجورَ الزوجة وَصْمةٌ في الزوج تنفِّرُ عنه القلوبَ، وتمنعُ عن اتِّباعِه النفوسَ، ولذا صان الله تعالى أزواج الأنبياء عليهم السلام عن ذلك، وهذا بخلاف الكفر، فإنَّ كفر الزوجة ليس وصمةً في الزوج، وقد ثبت كفرُ زوجتي نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام، كذا قيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما يتعلَّق به.

وعلى هذا يكون «سبحانك» تقريراً لِمَا قبله، وتمهيداً لقوله سبحانه: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ﴾ أي: كذبٌ يَبْهتُ ويحيِّر سامعه لفظاعته ﴿عَظِيمٌ ⑯﴾ لا يقادَرُ[2] قَدْرُه لعظمةِ المبهوت عليه، فإنَّ حقارة الذنوب وعظمَها كثيراً ما يكونان باعتبار متعلَّقاتها.

والظاهرُ أنَّ التوبيخ للسامعين الخائضين لا للسامعين مطلقاً، فقد روي عن سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لمَّا سمع ما قيل في أمر عائشة ﷺ قال: سبحانك هذا بهتان عظيم.

وعن سعيد بن المسيب أنه قال: كان رجلان من أصحاب النبيِّ ﷺ إذا سمعا شيئاً من ذلك قالا ما ذُكر، أسامةُ بن زيد بن حارثة، وأبو أيوبَ ﷺ.

وأخرج ابن مردويه[3] عن عائشة ﷺ أنها قالت: إنَّ امرأة أبي أيوبَ الأنصاريِّ قالت له: يا أبا أيوبَ، ألا تسمعُ ما يتحدَّثُ به الناس؟ فقال: ما يكونُ لنا أن نتكلَّم بهذا، سبحانَكَ هذا بهتانٌ عظيم.

---

(١) في الأصل: العجب، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ١٦٣، والكلام منه.
(٢) في (م): يقدر.
(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ٣٥، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ٢٣/ (١٤٠).

ومنشأ هذا الجزم على ما قاله الإمام الرازيُّ: العلمُ بأنَّ زوجةَ الرسول عليه الصلاة والسلام لا يجوزُ أن تكون فاجرةً(١).

وعلَّل بأنَّ ذلك ينفِّرُ عن الاتِّباع فيخلُّ بحكمة البعثة، كدناءة الآباء وعُهْرِ الأمهات. وقد نصَّ العلَّامة الثاني على أنَّ من شروط النبوَّة السلامةُ عن ذلك، بل عن كلِّ ما ينفِّر عن الاتِّباع.

واستشكل ذلك بأنه إذا كان ما ذكر شرطاً، فكيف عَلِمَه مَن سمعتَ حتى قالوا ما قالوا، وخَفي الأمرُ على رسول الله ﷺ حتى قال كما في صحيح البخاري وغيره: «يا عائشةُ إنَّه بلغني عنكِ كذا وكذا، فإن كنتِ بريئةً فسيبرِّئُك الله تعالى، وإن كنتِ ألممتِ بذنبٍ فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه»(٢)؟

وجاء في بعض الروايات: «يا عائشة، إنْ كنتِ فعلتِ هذا الأمرَ فقولي لي حتى أستغفر الله تعالى لك»(٣).

وكذا خفي على صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد أخرج البزار بسندٍ صحيح عن عائشةَ رضي الله عنها، أنه لما نزل عُذْرُها قبَّل أبو بكر رضي الله عنه رأسها، فقالت: ألَا عَذَرْتَني؟ فقال: أيُّ سماء تُظِلُّني وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني إن قلتُ ما لا أعلم(٤)؟.

وأجيب بأنَّ ذلك ليس من الشروط العقلية للنبوَّة كالأمانة والصدق، بل هو من الشروط الشرعية والعادية، كما قال اللقاني(٥)، فيجوزُ أن يقال: إنه لم يكن معلوماً قبلُ، وإنما عُلِمَ بعد نزول آيات براءةِ عائشة رضي الله عنها، وعدمُ العلم بمثل ذلك لا يقدحُ في منصب النبوَّة، وأما دعوى عِلْمِ مَن ذُكر به فلا دليلَ عليها، وقولُهم ذلك يجوز

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ١٨٠.

(٢) سلف في حديث الإفك ص٢٥١ من هذا الجزء.

(٣) أخرجه الطبراني ٢٣/ ١٦٤ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) مسند البزار (٢٦٦٥ ـ كشف)، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٥/ ٣٢، وهو من طريق أبي حصين عن مجاهد عن عائشة. وأخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٣٣٦-٣٣٧ من طريق أبي حصين عن مجاهد. قال الدارقطني في العلل ١/ ٢٢٧: والصحيح قول من قال: عن أبي حصين عن مجاهد مرسلاً.

(٥) في شرح جوهرة التوحيد ص١٨١.

أن يكون ناشئاً عن حُسْنِ الظنِّ، لا عن عِلْمٍ بكون السلامة من المنفِّر عن الاتِّباع من شروط النبوَّة.

ويشهدُ لهذا نظراً إلى بعض القائلين والظاهرُ تَسَاوِيهم ما أخرجه ابن إسحاق وابن جريرٍ وابنُ المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابنُ عساكر عن بعض الأنصار أنَّ امرأةَ أبي أيوبَ قالت له حين قال أهل الإفك ما قالوا: أَلَا تسمعُ ما يقولُ الناسُ في عائشةَ رضي الله عنها؟ قال: بلى، وذلك الكذبُ، أكنتِ أنت فاعلةً يا أمَّ أيوب؟ قالت: لا والله. فقال: فعائشةُ رضي الله عنها والله خيرٌ منك وأطيبُ، إنما هذا كذبٌ وإفكٌ باطل[1].

ورَوَى قريباً منه الحاكم وابن عساكر أيضاً عن أفلح مولى أبي أيوب[2]، ولعله المعنيُّ ببعض الأنصار في الخبر السابق.

ولم يقل ﷺ نحوَ ذلك لحسن الظنِّ لشدَّةِ غيرته عليه الصلاة والسلام، والغَيُورُ لا يكاد يعوِّل في مثل ذلك على حُسْنِ الظنِّ. ويمكن أن يكون قولُهم ذلك ناشئاً عن العلم بكون السلامة من المنفِّر عن الاتِّباع من شروط النبوَّة بأن يكونوا قد تفطَّنوا لكون حكمة البعثة تقتضي تلك السلامةَ، وقد يتفطَّنُ العالِمُ لِمَا لا يتفطَّنُ له مَن هو أعلمُ منه.

وجوِّز أن يُدَّعَى أنَّ النبيَّ ﷺ كان عالماً بعدم جواز فُجورِ نساء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لما فيه من النفرة المخلَّةِ بحكمة البعثة، لكن أراد عليه الصلاة والسلام أن يَظْهَرَ أمرُ براءة الصدِّيقة رضي الله عنها ظهورَ الشمس في رابعة النهار، بحيث لا يبقى فيه خفاءٌ عند أحدٍ من الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وما عراه من الهمِّ إنما هو أمرٌ طبيعيٌّ حصل بسبب خوض المنافقين ومَن تَبِعَهم، وشيوعِ ما لا أصل له من الباطل بين الناس.

ويحتمل أنه ﷺ كان عالماً بأنَّ السلامة من المنفِّر من شروط النبوَّة، لكن خشي

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٢، وتفسير الطبري ١٧/ ٢١٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٤٦، وتاريخ ابن عساكر ١٦/ ٤٨-٤٩، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٣٣، وعنه نقل المصنف.

(٢) الدر المنثور ٥/ ٣٣، وهو في تاريخ ابن عساكر ٦/ ٤٩، ولم نقف عليه عند الحاكم.

من الله عز وجل الذي لا يجب عليه شيءٌ أنْ لا يجعل ما خاض المنافقون وأتباعُهم فيه من المنفِّر، بأن لا يرتِّبَ سبحانه خَلْقَ النفرةِ في القلوب عليه ليمنع من الاتِّباع فتختلّ حكمة البعثة، فداخَلَه عليه الصلاةُ والسلام من الهمِّ ما داخَلَه، وجعل يتتبَّع الأمرَ على أتمِّ وجهٍ، وما ذلك إلا من مزيد العلم ونهاية الحزم. ونظيرُه من وجهٍ خوفُه عليه الصلاة والسلام من قيام الساعة عند اشتداد الريح بحيث لا يستطيعُ أن ينام ما دام الأمرُ كذلك حتى تُمطِرَ السماء[1].

وقيل[2]: يجوز أنْ لا يُعدَّ فجورُ الزوجة منفِّراً إلا إذا أُمسكت بعد العلم به، فلمَ لا يجوزُ أن يقع فيجب طلاقُها، وإذا طلِّقت لا يتحقَّق المنفِّر المخِلُّ بالحكمة.

هذا، ولا يخفى عليك ما في بعض الاحتمالات من البحث، بل بعضُها في غاية البُعْدِ عن ساحة القبول. ولعل الحقَّ أنه عليه الصلاة والسلام قد أُخْفي عليه أمرُ الشرطية إلى أن اتَّضحَ أمرُ البراءة ونزلت الآيات فيها، لحكمةِ الابتلاءِ وغيرِه مما اللهُ تعالى أعلمُ به. وأنَّ قول أولئك الأصحاب ﷺ: سبحانك هذا بهتانٌ عظيم، لم يكن ناشئاً إلّا عن حُسْنِ الظن، ولم يتمسَّك به ﷺ لأنه لا يحسم القالَ والقيلَ، ولا يُردُّ به شيءٌ من الأباطيل، ولا ينبغي لمن يؤمنُ بالله تعالى ورسوله ﷺ أن يخالج قلبه بعد الوقوف على الآيات والأخبار شكٌّ في طهارة نساءِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الفجور في حياة أزواجهنَّ وبعد وفاتهم عنهنَّ.

ونُسِبَ للشيعة قذْفُ عائشةَ ﵂ بما برَّأها الله تعالى منه، وهم ينكرون ذلك أشدَّ الإنكار، وليس في كتبهم المعوَّلِ[3] عليها عندهم عينٌ منه ولا أثرٌ أصلاً.

وكذلك ينكرون ما نُسب إليهم من القول بوقوع ذلك منها بعد وفاته ﷺ، وليس له أيضاً في كتبهم عينٌ ولا أثر. والظاهرُ أنه ليس في الفرق الإسلامية مَن يختلجُ في قلبه ذلك، فضلاً عن الإفك الذي برأها الله عز وجل منه.

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج البخاري (١٠٣٤) من حديث أنس ﷺ قال: كانت الريح الشديدة إذا هبت عرف ذلك في وجه النبي ﷺ.

(٢) في الأصل: هذا وقيل.

(٣) في الأصل: المعمول.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ينصحُكم ﴿أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: كراهةَ أن تعودوا، أو: لئلَّا تعودوا، أو: يعظكم في العود، أي: في شأنه وما فيه من الإثم والمضارِّ، كما يقال: وعظتُه في الخمر وما فيها من المعارِّ، أو: يزجركم عن العود، على تضمين الوعظ معنى الزَّجر، ويقال: عاده، وعاد إليه، وعاد له، وعاد فيه، بمعنى. والمراد بـ «أبداً» مدَّةُ الحياة.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⑰﴾ من باب: إنْ كنتُ أباً لك فلمَ لا تحسنُ إليَّ، يتضمَّن تذكيرَهم بالإيمان الذي هو العلَّةُ في الترك والتهييج لإبرازه في معرض الشكِّ، وفيه طرفٌ من التوبيخ.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: ينزلُها مبيَّنةً ظاهرةَ الدلالة على معانيها، والمراد بها الآياتُ الدالَّة على الشرائع ومحاسنِ آدابِ معاملةِ المسلمين، وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمارِ لتفخيم شأن البيان.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلِّها ودقِّها ﴿حَكِيمٌ ⑱﴾ في جميع أفعاله، فأنَّى يمكنُ صِدْقُ ما قيل في حقِّ حَرَمِ مَن اصطفاه لرسالته، وبعثه إلى كافَّةِ الخَلْقِ ليرشدهم إلى الحقِّ، ويزكِّيهم ويطهِّرَهم تطهيراً. وإظهارُ الاسم الجليل هاهنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييليِّ، والإشعارِ بعلِّيةِ الأُلوهية للعلم والحكمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ أي: يريدون ويقصدون ﴿أَن تَشِيعَ﴾ أن تنتشر ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أي: الخَصْلةُ المُفْرِطةُ في القبح، وهي الفِرْيةُ والرميُ بالزنى، أو نفسُ الزنى كما روي عن قتادة، والمراد بشُيوعها: شيوعُ خبرها ﴿فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ متعلقٌ بـ «تشيع»، أي: تشيع فيما بين الناس، وذَكَرَ المؤمنين لأنهم العمدةُ فيهم. أو بمضمَرٍ هو حالٌ من الفاحشة، أي: كائنةً في حقِّ المؤمنين وفي شأنهم. والمرادُ بهم المحصَنون والمحصناتُ كما روي عن ابن عباس.

﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ مما يصيبه من البلاء كالشلل والعمى ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْءَاخِرَةِ﴾ من عذاب النار ونحوِه، وترتُّبُ ذلك على المحبة ظاهرٌ على ما نقل عن الكرمانيِّ، من أنَّ أعمال القلب السيئةَ كالحقد والحسد ومحبةِ شيوع الفاحشة يؤاخَذُ العبدُ إذا وطَّن نفسه عليها.

ويُعلم من الآية على أتمِّ وجهٍ سوءُ حالِ مَن نزلت الآيةُ فيهم، كابن أبيٍّ ومَن وافَقَه قلباً وقالباً، وأنَّ لهم الحظَّ الأوفر من العذابين، حيث أحبُّوا الشيوعَ وأشاعوا.

وقال بعضهم: المرادُ من محبة الشيوعِ الإشاعةُ، بقرينةِ ترتُّبِ العذابِ عليها؛ فإنه لا يترتَّب إلَّا على الإشاعةِ دون المحبةِ التي لا اختيارَ فيها. وإنْ سلِّم أنَّ المراد بها محبةٌ تدخلُ تحت الاختيار، وهي مما يترتَّبُ عليها العذابُ، قلنا: إنَّ ذلك هو العذابُ الأخرويُّ، دون العذاب الدنيويِّ مثل الحدِّ، وقد فسَّر ابنُ عباس وابنُ جبيرٍ العذابَ الأليم في الدنيا هنا بالحدِّ، وهو لا يترتَّبُ على المحبة مطلقاً بالاتِّفاق، ومن هنا قيل أيضاً: إنَّ ذِكْرَ المحبة من قبيل الاكتفاءِ عن ذكر الشيء - وهو الإشاعةُ - بذكر مقتضيه، تنبيهاً على قوة المقتضي.

وقيل: إنَّ الكلام على التضمين، أي: يُشيعون الفاحشةَ محبِّين شيوعَها؛ لأنَّ كِلَا مَعْنَيي المحبةِ والإشاعةِ مقصودان.

واستشكل تفسيرُ العذاب الأليم في الدنيا بالحدِّ، بأنه لا يُضمُّ إليه العذابُ الأليم في الآخرة؛ لأنَّ الحدود مكفِّرة.

وأجيب بأنَّ حُكْمَ الآية مخصوصٌ بمَن أشاع ذلك في حقِّ أمِّ المؤمنين. وقيل: الحدُّ لمن نقل الإفك من المسلمين، والعذابُ الأخرويُّ لأبي عذرتِه[1] ابنِ أبيٍّ، والموصولُ عامٌّ لهما.

على أنَّ في كون الحدود مطلقاً مكفِّرةً خلافاً، فبعضُهم قال به فيما عدا الردةَ، وبعضُهم أنكره، وبعضُهم توقَّفَ فيه لحديث أبي هريرةَ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا»[2].

---

(١) أي: أول مَن تكلم به. ينظر أساس البلاغة (عذر).

(٢) أخرجه الحاكم ١/٣٦، والبيهقي ٨/٣٢٩ من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وصححه الحاكم، وقال البيهقي: ورواه هشام الصنعاني، عن معمر عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن النبي ﷺ مرسلاً، قال البخاري: وهو أصح، ولا يثبت هذا عن النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ قال: «الحدود كفارة». اهـ.

=

ولعل الأنسبَ بمساقِ النظم الكريم من تقبيح الخائضين في الإفك المُشيعينَ له هو ما ذكرناه أولاً، والمراد بالموصول إمَّا هم، على أن يكون للعهد الخارجيِّ كما روي عن مجاهد وابن زيد[1]، والتعبيرُ بالمضارع في الصلة للإشارة إلى زيادة تقبيحهم بأنه قد صارت محبتُهم لشيوع الفاحشة عادةً مستمرة. وإما ما يعمُّهم وغيرَهم من كلِّ مَن يتَّصفُ بمضمونِ الصلة، على إرادة الجنس، ويدخل أولئك المُشِيعون دخولاً أوَّلياً كما قيل.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ جميعَ الأمور التي من جملتها ما في الضمائر من المحبة المذكورة، وكذا وجه الحكمة في تغليظ الوعيد ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ ما يعلمه سبحانه وتعالى. والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ جيء به تقريراً لثبوت العذاب لهم وتعليلاً له.

وقيل: المعنى: والله يعلمُ ما في ضمائرهم فيعاقبهم عليه في الآخرة، وأنتم لا تعلمون ذلك، بل تعلمون ما يظهر لكم من أقوالهم فعاقِبوا عليه في الدنيا.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ الخطابُ ـ على ما أخرج الطبرانيُّ عن ابن عباس ـ لمسطح وحسان وحمنة[2]، أو لمن عدا ابن أبيٍّ وأضرابه من المنافقين الخائضين، وهذا تكريرٌ للمنَّة بتَرْكِ المُعاجَلةِ بالعقاب؛ للتنبيه على كمال عظم الجريرة.

وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ عطفٌ على «فضل الله»، وإظهارُ الاسم الجليل لتربية المهابة، والإشعارِ باستتباع صفةِ الألوهية للرأفة

= قال القاضي عياض في إكمال المعلم ٥/ ٥٥٠ في شرحه لحديث عبادة بن الصامت (. . . ومَن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارةٌ له. . .): أكثر العلماء ذهبوا إلى أن الحدود كفارة أخذاً بهذا الحديث، ومنهم مَن وقفه لحديث أبي هريرة، لكن حديث عبادة أصح إسناداً، ولا تعارضَ بين الحديثين، فيحتمل أن حديث أبي هريرة قبل حديث عبادة، إذ لم يعلم أولاً حتى أعلمه الله أخيراً. اهـ. وحديث عبادة أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

(١) ذكره عنهما أبو حيان في البحر ٣/ ٤٣٩، أنهما قالا: الإشارة فيه إلى عبد الله بن أُبَيّ ومَن أشبهه. وأخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٢٢٠.

(٢) المعجم الكبير ٢٣/ (١٦٨).

والرحمة. وتغييرُ سَبْكِه وتصديرُه بحرف التحقيق لِمَا أنَّ المراد بيانُ اتِّصافه تعالى في ذاته بهاتين الصفتين الجليلتين على الدوام والاستمرار، لا بيانُ حدوثِ تعلُّقِهما بهم، كما أنه المراد بالمعطوف عليه. وجواب «لولا» محذوفٌ كما مرَّ.

وهذه نظيرُ الآية المارَّة في آخر حديث اللِّعان، إلا أنَّ في التعقيبِ بالرؤوف الرحيم بدلَ التوَّابِ الحكيم هنالك ما يُؤذِنُ بأنَّ الذنب في هذا أعظمُ، وكأنه لا يرتفع إلا بَمَحْضِ رأفته تعالى، وهو أعظمُ من أن يرتفع بالتوبة، كما روي عن ابن عباس: مَن خاض في حديث الإفك وتاب لم تقبل توبته. والغرضُ التغليظُ فلا تغفل[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ أي: لا تسلكوا مَسَالِكَه في كلّ ما تأتون وما تَذَرون، والكلامُ كنايةٌ عن اتِّباع الشيطان وامتثالِ وَسَاوِسه، فكأنه قيل: لا تتَّبعوا الشيطانَ في شيءٍ من الأفاعيل التي من جملتها إشاعةُ الفاحشة وحبُّها.

وقرأ نافع، والبَزِّيُّ في روايةِ ابن ربيعةَ عنه، وأبو عمرو وأبو بكر وحمزةُ: «خُطْوات» بسكون الطاء[2]، وقرئ بفتحها[3]. وهو في جميع ذلك جمعُ خُطْوةٍ بضم الخاء وسكون الطاء، اسمٌ لِمَا بين القدمين، وأما الخَطْوةُ بفتح الخاء فهو مصدر خَطَا، والأصل في الاسم إذا جُمع أن تحرَّك عينُه فَرْقاً بينه وبين الصفة، فيضمُّ إتْباعاً للفاء، أو يُفْتَحُ تخفيفاً، وقد يسكَّن.

﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وُضع الظاهران موضعَ ضميري الخطوات والشيطان ـ حيث لم يقل: ومَن يتَّبعها، أو: ومن يتَّبع خطواته ـ لزيادة التقرير والمبالغة.

﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ هو ما أفرط قبحُه كالفاحشة ﴿وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ هو ما يُنْكِرهُ الشرع، وضميرُ «إنه» للشيطان، وقيل للشأن.

وجوابُ الشرط مقدَّرٌ سدَّ ما بعد الفاء مسدَّه، وهو في الأصل تعليلٌ للجملة الشرطية وبيانٌ لعلَّة النهي، كأنه قيل: مَن يتَّبعِ الشيطانَ ارتكب الفحشاء والمنكر فإنه

(١) ينظر ما سيرد ص٢٨٠ من هذا الجزء.

(٢) التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢١٦، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٦٦، وينظر البحر ١/ ٤٧٩، و٦/ ٤٣٩.

لا يأمر إلَّا بهما، ومَن كان كذلك لا يجوزُ اتِّباعُه وطاعته. وقد قرَّر ذلك النسفيُّ[1]، وابن هشام في الباب الخامس من «المغني»[2].

وتعقِّب بأنه يأباه ما نصَّ عليه النحاة، من أنَّ الجواب لا يُحذف إلا إذا كان الشرط ماضياً، حتى عدُّوا من الضرورة قولَه:

لئن تَكُ قد ضاقتْ عليَّ بيوتُكم ... لَيَعْلَمُ ربِّي أنَّ بيتيَ أوسعُ[3]

وأجيب بأنَّ الآية ليست من قبيل ما ذكروه في البيت، فإنه ممَّا حُذف فيه الجواب رأساً، وهذا ممَّا أُقيم مقامه ما يصحُّ جَعْلُه جواباً بحسب الظاهر.

وقال أبو حيَّان: الضمير عائدٌ على «مَن» الشرطيةِ، ولم يعتبر في الكلام حذفاً أصلاً، والمعنى على ذلك: مَن يتَّبع الشيطانَ فإنه يصير رأساً في الضلال بحيث يكونُ آمراً بالفحشاء والمنكر[4]، وهو مبنيٌّ على اشتراط ضميرٍ في جواب الشرط الاسميِّ يعودُ إليه، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما فيه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بما من جملته إنزالُ هاتيك الآياتِ البيناتِ، والتوفيقُ للتوبة الممحِّصة من الذنوب، وكذا شَرْعُ الحدود المكفِّرةِ لِمَا عدا الرِّدة منها، على ما ذهب إليه جمعٌ وأجابوا عن حديث أبي هريرة السابق آنفاً بأنه كان قبل أن يوحَى إليه ﷺ بذلك.

﴿مَا زَكَىٰ﴾ أي: ما طَهُرَ من دَنَسِ الذنوب. وقرأ روحٌ والأعمشُ: «ما زكَّى» بالتشديد والإمالة[5]. وكُتب «زكى» المخفَّفُ بالياء مع أنه من ذوات الواو، وحقُّها أن تكتب بالألف؛ قال أبو حيان: لأنه قد يمال، أو حملاً على المشدَّد[6].

---

(١) لم نقف عليه في تفسيره، ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٦/ ٣٦٦.
(٢) ص٨٥١، والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٣٦٦.
(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٦٦.
(٤) البحر ٦/ ٤٣٩.
(٥) القراءات الشاذة ص١٠١ عن الحسن، والبحر ٦/ ٤٣٩ عن الأعمش، وذكر أبو حيان عن روح التشديد ولم يذكر عنه الإمالة. وروي عن روح أيضاً: «زُكِّي» بضم الزاي وكسر الكاف مشدَّدة. ينظر النشر ٢/ ٣٣١.
(٦) البحر ٦/ ٤٣٩.

و«من» في قوله تعالى: ﴿مِنكُم﴾ بيانيةٌ، وفي قوله سبحانه: ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ سيفُ خطيب، و«أحد» في حيِّز الرفع على الفاعلية على القراءة الأولى، وفي محل النصب على المفعولية على القراءة الثانية، والفاعلُ عليها ضميرُه تعالى، أي: ما زكَّى اللهُ تعالى منكم أحداً ﴿أَبَدًا﴾.

لا إلى غاية ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي﴾ يطهِّر ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده بإفاضةِ آثارِ فضله ورحمته عليه، وحَمْلِه على التوبة، وقبولِها منه، كما فعل سبحانه بمن سَلِمَ عن داء النفاق ممن وقع في شرك الإفك منكم.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ مبالغٌ في سَمْعِه الأقوالَ التي من جملتها ما أظهروه من التوبة ﴿عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ بجميع المعلومات التي من جملتها نيَّاتُهم، وفيه حثٌّ لهم على الإخلاص في التوبة. وإظهارُ الاسم الجليل للإيذان باستدعاء الألوهية للسمع والعلم، مع ما فيه من تأكيد الاستقلال التذييليّ.

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يَحْلِفْ، افتعال من الألِيَّة[1].

وقال أبو عبيدة واختاره أبو مسلم[2]: أي: لا يقصِّر، من الأَلْوِ بوزن الدَّلْوِ، والأُلُوِّ بوزن العُتُوِّ.

قيل: والأولُ أَوْفَقُ بسبب النزول، وذلك أنه صحَّ عن عائشةَ وغيرِها أنَّ أبا بكر رضي الله عنه حلف لمَّا رأى براءةَ ابنته أنْ لا ينفقَ على مسطح شيئاً أبداً، وكان من فقراء المهاجرين الأوَّلين الذين شهدوا بدراً - وكان ابنَ خالته، وقيل: ابنَ أخته رضي الله عنه - فنزلت: «ولا يأتل» إلخ[3]، وهذا هو المشهور.

وعن محمد بن سيرين: أنَّ أبا بكرٍ حَلَفَ لا ينفق على رجلين كانا يتيمين في حِجْرِه حيث خاضا في أمر عائشة، أحدُهما مسطح، فنزلت[4].

وعن ابن عباس والضحاك أنه قطع جماعة من المؤمنين منهم أبو بكر رضي الله عنه

(١) الأليَّة: اليمين. القاموس (ألو).

(٢) كما في البحر ٦/ ٤٤٠، وينظر مجاز القرآن ٢/ ٦٥.

(٣) قطعة من حديث عائشة الطويل في قصة الإفك، وقد سلف تخريجه ص٢٤٨ من هذا الجزء.

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٣٥.

منافعَهم عمَّن قال في الإفك، وقالوا: والله لا نَصِلُ مَن تكلَّم فيه، فنزلت[(١)].

وقرأ عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة[(٢)] وأبو جعفر مولاه وزيد بن أسلم: «يتألَّ»[(٣)] مضارعُ تألَّى بمعنى حَلَفَ، قال الشاعر:

تـألَّـى ابـنُ أوسٍ حَـلـفـةً لَـيَـرُدُّنـي ... إلـى نـسـوةٍ كـأنـهـنَّ مـفـائِـدُ[(٤)]

وهذه القراءة تؤيِّدُ المعنى الأول لـ «يأتل».

﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي: الزيادةِ في الدين ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ أي: في المال ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ أي: على أن لا يؤتوا، أو كراهةَ أن يؤتوا، أو: لا يقصِّروا في أن يؤتوا.

وقرأ أبو حيوة وابن قطيب وأبو البرهسم: «تؤتوا» بتاء الخطاب[(٥)] على الالتفات.

﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ بناءً على ما علمتَ من أنَّ الآية نزلت على الصحيح بسبب حلفِ أبي بكر أنْ لا ينفقَ على مسطح، وهو متَّصفٌ كما سمعتَ بها، فالعطفُ لتنزيل تغايُر الصفات منزلةَ تغايُر الموصوفات، والجمعُ ـ وإن كان السببُ خاصّاً ـ لقَصْدِ العموم.

وعدمُ الاكتفاء بصفةٍ للمبالغة في إثبات استحقاقِ مسطح ونحوِه الإيتاءَ، فإنَّ مَن اتَّصفَ بواحدةٍ من هذه الصفات إذا استحقَّه فَمَن جَمَعها بالطريق الأَوْلَى. وقيل: هي لموصوفاتٍ أُقيمتْ هي مقامها.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ١٧/ ٢٢٥.

(٢) في الأصل و(م): عبد الله بن عباس بن ربيعة، والصواب ما أثبتناه، وهو عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة القرشي المخزومي، كان أبوه قديم الإسلام، فهاجر إلى الحبشة، فكان عبد الله فيمن ولد بأرض الحبشة، وتوفي سنة (٦٤هـ). الإصابة ٦/ ١٨٨، وينظر سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٨٧.

(٣) النشر ٢/ ٣٣١ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٦/ ٤٤٠.

(٤) البيت لزيد الفوارس بن حصين الضبي، وهو في الضرائر ص٦٥٧، وشرح ديوان الحماسة ٢/ ٥٥٧، والخزانة ١٠/ ٦٥. ووقع في الأصل و(م): إلى نسوة لي، والمثبت من المصادر. قال البغدادي: وروي أيضاً بكسر اللام وفتح الدال. والمفائد جمع المِفْأد، وهي المسعر، ومعنى البيت: حلف هذا الرجل حلفة ليأسرنِّي، ثم يمتنَّ عليَّ فيردَّني على نسوة كأنهن مساعير لاحتراقهن وجداً بي وغمّاً عليَّ.

(٥) القراءات الشاذة ص١٠١، والبحر ٦/ ٤٤٠، والكلام منه.

وحُذف المفعولُ الثاني لغايةِ ظهوره، أي: أن يؤتوهم شيئاً.

﴿وَلْيَعْفُوا﴾ ما فرط منهم ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ بالإغضاء عنه، وقرأ عبد الله والحسن وسفيان بن الحسين وأسماء بنت يزيد: «ولتعفوا ولتصفحوا» بتاء الخطاب[١] على وَفْقِ قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: بمقابلةِ عَفْوِكم وصَفْحِكم وإحسانِكم إلى مَن أساء إليكم.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مُبالغٌ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته سبحانه على المؤاخَذةِ، وكثرةِ ذنوب العباد الداعية إليها، وفيه ترغيبٌ عظيم في العفو، ووعد كريم بمقابلته، كأنه قيل: ألا تحبُّون أن يغفر الله لكم، فهذا من مُوْجِباته.

وصحَّ أن أبا بكر لمَّا سمع الآيةَ قال: بلى واللهِ يا ربَّنا إنَّا لَنُحِبُّ أن تَغْفِرَ لنا، وأعاد له نفقته[٢]. وفي روايةٍ: أنه صار يعطيه ضِعْفَيْ ما كان يُعطيه أوَّلاً[٣].

ونزلت هذه الآية على ما أخرج ابن أبي حاتم[٤] عن مقاتل بعد أن أقبل مسطحٌ إلى أبي بكر معتذراً فقال: جعلني الله تعالى فداك، واللهِ الذي أنزل على محمد ﷺ ما قذفتُها وما تكلَّمتُ بشيءٍ مما قيل لها أيْ خال. فقال أبو بكر: ولكن قد ضحكت وأعجبك الذي قيل فيها. فقال مسطح: لعله يكون قد كان بعضُ ذلك.

وفي الآية من الحثِّ على مكارم الأخلاق ما فيها. واستدلَّ بها على فضل الصديق ﷺ؛ لأنه داخلٌ في أولي الفضل قَطْعاً؛ لأنه وحده أو مع جماعةٍ سببُ النزول، ولا يضرُّ في ذلك عمومُ الحكم لجميع المؤمنين كما هو الظاهر. ولا حاجةَ إلى دعوى أنها فيه خاصةً والجمعُ للتعظيم، وكونُه[٥] مخصوصاً بضمير المتكلِّم مردودٌ، على أنَّ فيها من ارتكاب خلافِ الظاهر ما فيها.

وأجاب الرافضةُ بأنَّ المراد بالفضل الزيادةُ في المال. ويَرِدُ عليه أنه حينئذٍ يتكرَّر مع قوله سبحانه: «والسَّعَةِ».

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠١، والمحتسب ٢/ ١٠٦، والبحر ٦/ ٤٤٠ وعنه نقل المصنف.

(٢) قطعة من حديث عائشة الطويل في قصة الإفك، وقد سلف تخريجه ص١١١ من هذا الجزء.

(٣) أخرج هذه الرواية ابن المنذر عن الحسن كما في الدر المنثور ٥/ ٣٤.

(٤) في تفسيره ٨/ ٢٥٥٤.

(٥) أي: الجمع.

وادَّعى الإمام[1] أنها تدلُّ على أنَّ الصدِّيق ﷺ أفضلُ جميع الصحابة ﷺ، وبيَّن ذلك بما هو بعيدٌ عن فَضْلِه. وذَكر أيضاً دلالتها على وجوهٍ من مَدْحِه ﷺ، وأكثرُها للبحث فيها مجال.

واستدلَّ بها على أنَّ ما لا يكون ردَّةً من المعاصي لا يُحْبِطُ العمل، وإلَّا لَمَا سمَّى الله تعالى مسطحاً مهاجراً مع أنه صَدَرَ منه ما صدر.

وعلى أنَّ الحلف على ترك الطاعة غيرُ جائزٍ؛ لأنه تعالى نهى عنه بقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾، ومعناه على ما يقتضيه سببُ النزول: لا يَحْلِفْ. وظاهرُ هذا حَمْلُ النهي على التحريم، وقيل: هو للكراهة، وقيل: الحقُّ أن الحلف على ترك الطاعة قد يكون حراماً، وقد يكون مكروهاً، فالنهيُ هنا لطلب الترك مطلقاً، وفيه بحث.

وذكر جمهور الفقهاء: أنه إذا حَلَفَ على يمينٍ فرأى غيرها خيراً منها، فليأتِ الذي هو خيرٌ وليكفِّر عن يمينه، كما جاء في الحديث[2].

وقال بعضهم: إذا حلف فليأتِ الذي هو خيرٌ وذلك كفارتُه، كما جاء في حديث آخر[3].

وتعقِّب بأنَّ المراد من الكفارة في ذلك الحديث تكفيرُ الذنب لا الكفارةُ الشرعيةُ التي هي بإحدى الخصال.

---

(١) في تفسيره ٢٣/ ١٨٦.

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٣٤)، ومسلم (١٦٥٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٠٦١٦)، والبخاري (٦٧٢٢)، ومسلم (١٦٥٢) من حديث عبد الرحمن بن سمرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٩٥٥٨)، والبخاري (٦٧١٨)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٦٧٣٦)، وأبو داود (٣٢٧٤)، وابن ماجه (٢١١١)، والبيهقي ١٠/ ٣٣ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ. وأخرجه البيهقي ١٠/ ٣٤ من حديث أبي هريرة ﷺ. قال أبو داود: الأحاديث كلها عن النبي ﷺ: «وليكفر عن يمينه» إلا فيما لا يعبأ به. وقال الخطابي في معالم السنن ٤/ ٤٩: قد نطقت الأخبار الثابتة عن رسول الله ﷺ بأن الكفارة لازمة لمن حنث في يمينه، وهو حديث عبد الرحمن بن سمرة وحديث أبي موسى الأشعري وحديث أبي هريرة. وينظر الفتح ١١/ ٦١٧.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ قد تقدَّم تفسيرُها ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عما يُرْمَيْنَ به، بمعنى أنه لم يخطر لهنَّ ببالٍ أصلاً؛ لكونهنَّ مطبوعاتٍ على الخير، مخلوقاتٍ من عنصر الطهارة، ففي هذا الوصفِ من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس في المحصنات.

﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: المتَّصفاتِ بالإيمان بكلِّ ما يجب أن يؤمَنَ به من الواجبات والمحظورات وغيرها إيماناً حقيقياً تفصيلياً، كما ينبئُ عنه تأخيرُ المؤمناتِ عمَّا قبلها، مع أصالةِ وَصْفِ الإيمان؛ فإنه للإيذان بأنَّ المراد بها المعنى الوصفيُّ المعرِبُ عمَّا ذُكر، لا المعنى الاسميُّ المصحِّحُ لإطلاق الاسم في الجملة، كما هو المتبادر على تقدير التقديم، كذا في «إرشاد العقل السليم»[(١)].

وفرَّعَ عليه كونَ المراد بذلك عائشةَ الصدِّيقة ﵂، ورُوي ما ظاهرُه ذلك عن ابن عباس وابن جبير. والجمعُ على هذا باعتبارِ أنَّ رميها رميٌ لسائر أمهاتِ المؤمنين؛ لاشتراك الكلِّ في النزاهة والانتساب إلى رسول الله ﷺ، ونظيرُ ذلك جمعُ «المرسلين» في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

وقيل: المراد أمهاتُ المؤمنين، فيدخل فيهنَّ الصدِّيقةُ دخولاً أوَّليّاً. ورُوي ما يؤيِّده عن أبي الجوزاء والضحاك.

وجاء أيضاً عن ابن عباس ما يقتضيه؛ فقد أخرج عنه سعيد بن منصور وابن جَريرٍ والطَّبَرانيُّ وابن مردويه أنه ﵁ قرأ سورة «النور» ففسَّرها، فلمَّا أتى على هذه الآية «إن الذين» إلخ، قال: هذه في عائشةَ وأزواج النبيِّ ﷺ، ولم يَجْعَلْ لمن فَعَلَ ذلك توبةً، وجَعَل لمن رَمَى امرأةً من المؤمنات من غير أزواج النبيِّ ﷺ التوبةَ، ثم قرأ: (وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ) إلى قوله تعالى: (إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟) الخبرَ[(٢)]. وظاهرُه أنه لا تُقْبَلُ توبةُ مَن قَذَفَ إحدى الأزواجِ الطاهراتِ رضي الله عنهن.

وقد جاء عنه في بعض الروايات التصريحُ بعدم قبول توبةِ مَن خاض في أمر عائشة ﵂، ولعل ذلك منه خارجٌ مخرجَ المبالغةِ في تعظيم أمر الإفك كما ذكرنا

(١) هو تفسير أبي السعود، والكلام فيه ٦/ ١٦٥.
(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٢٢٨، والمعجم الكبير ٢٣/ ٢٣٤، والكلام من الدر المنثور ٥/ ٣٥.

أوَّلاً، وإلا فظاهرُ الآيات قبولُ توبته، وقد تاب مَن تاب من الخائضين، كمسطح وحسان وحمنة، ولو علموا أن توبتهم لا تقبل لم يتوبوا.

نعم ظاهِرُ هذه الآية ـ على ما سمعتَ من المراد من الموصوف بتلك الصفات ـ كفرُ قاذفِ أمَّهاتِ المؤمنين رضي الله عنهن؛ لأن الله عز وجل رتَّب على رميهنَّ عقوباتٍ مختصَّةً بالكفار والمنافقين، فقال سبحانه: ﴿لُعِنُوا﴾ أي: بسبب رميهم إياهنَّ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حيث يلعنُهم اللاعنون والملائكةُ في الدارين ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ما ذُكر من اللعن ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ هائلٌ لا يقادرُ قَدْرُه؛ لغايةِ عِظمِ ما اقترفوه من الجناية.

وكذا ذكر سبحانه أحوالاً مختصَّةً بأولئك، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ، ودليلُ الاختصاصِ قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث [فصلت:١٩-٢١].

ومن هنا قيل: إنه لا يجوز أن يراد بالمحصناتِ.. إلخ، المتَّصفاتِ بالصفات المذكورةِ، أمهاتُ المؤمنين وغيرُهنَّ من نساء الأمة؛ لأنه لا ريب في أنَّ رمي غيرِ أمهاتِ المؤمنين ليس بكفرٍ.

والذي ينبغي أن يعوَّلَ عليه الحكمُ[1] بكفرِ مَن رمى إحدى أمهاتِ المؤمنين بعد نزول الآيات، وتبيُّنِ أنهنَّ طيباتٍ، سواءٌ استباح الرميَ، أم قَصَدَ الطعن برسول الله ﷺ، أم لم يَسْتَبِحْ ولم يَقْصِدْ.

وأما مَن رَمَى قبلُ فالحكمُ بكفره مطلقاً غيرُ ظاهر. والظاهرُ أنه يحكم بكفره إن كان مستبيحاً، أو قاصداً الطعنَ به عليه الصلاة والسلام، كابن أبيٍّ لعنه الله تعالى، فإنَّ ذلك مما يقتضيه إمعانُه في عداوة رسول الله ﷺ.

ولا يُحكَمُ بكفره إن لم يكن كذلك، كحسان ومسطح وحمنة، فإنَّ الظاهر أنهم لم يكونوا مستحلِّينَ، ولا قاصدين الطعنَ بسيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وعلى آله أجمعين، وإنما قالوا ما قالوا تقليداً، فوبِّخوا على ذلك توبيخاً شديداً.

ومما يدلُّ دلالةً واضحةً على عدم كفر الرامين قبلُ بالرمي، أنه عليه الصلاة

---

(١) في (م): الحكم عليه، وهو خطأ.

والسلام لم يعاملهم معاملةَ المرتدِّين بالإجماع، وإنَّما أقام عليهم حدَّ القذفِ على ما جاء في بعض الروايات.

فالآيةُ بناءً على القول بخصوص «المحصنات»، وهو الذي تعضدُه أكثرُ الروايات، إن كانت لبيان حكم مَن يرمي عائشةَ أو إحدى أمَّهاتِ المؤمنين مطلقاً بعد تلك القصة ـ كما هو ظاهرُ الفعل المضارع الواقعِ صلةَ الموصول ـ فأمْرُ الوعيد المذكورِ فيها على القول بأنه مختصٌّ بالكفار والمنافقين ظاهرٌ؛ لِمَا سمعتَ من القول بكفر الرامي لإحدى أمهات المؤمنين بعدُ مطلقاً. وإن كانت لبيان حُكمِ مَن رَمَى قبلُ احتاجَ أمرُ الوعيد إلى القول بأنَّ المراد بالموصول أناسٌ مخصوصون رَمَوْا عائشةَ رضي الله عنها استباحةً لعِرْضها، وقَصْداً إلى الطعن برسول الله ﷺ، كابن أبيٍّ وإخوانه المنافقين عليهم اللعنةُ، وعلى هذا يكون التعبيرُ بالمضارع لاستحضارِ الصورة التي هي من أغرب الغرائب، أو للإشارة كما قيل إلى أنَّ شأنهم الرميُ، وأنه يتجدَّدُ منهم آناً فآناً، وعلى هذا يمكن أن يقال: المرادُ بيانُ حكمِ مَن لم يتُبْ مِن الرمي، فإنَّ التائب من فعلٍ قلَّما يقال فيه: إنَّ شأنه ذلك الفعلُ، فيكون الوعيد مخصوصاً بمَن لم يَتُبْ.

والذي تقتضيه الأخبارُ أنَّ كلَّ مَن وَقَعَ في تلك المعصيةِ تاب سوى اللعينِ ابنِ أبيٍّ وأشياعِه من المنافقين. وعن ابن عباس أنها نزلت فيه خاصةً، ولا يخفى وجهُ الجمع عليه.

وقيل: المرادُ بيانُ حكمِ مَن رَمَى، والوعيدُ مشروطٌ بعدم التوبة، ولم يُذكر للعلم به من القواعد المستقرَّة؛ إذ الذنبُ كيفما كان يُغفر بالتوبة، فلا حاجةَ إلى أن يقال: المراد: إنَّ الذين شأنُهم الرميُ؛ ليُشْعِرَ بعدم التوبة. والظاهرُ أنَّ مَن لم يَتُبْ بعد نزول هذه الآيات كافرٌ، وليس هو إلا اللعينَ وأشياعَه المنافقين.

واختار جمعٌ ـ وقال النحاس: هو أحسنُ ما قيل ـ أنَّ الحكم عامٌّ فيمَن يرمي الموصوفاتِ بالصفاتِ المذكورةِ من نساء الأمة[1]. ورميُهنَّ إن كان مع استحلالٍ فهو كفرٌ، فيستحِقُّ فاعلُه الوعيدَ المذكورَ إنْ لم يَتُبْ، على ما عُلم من القواعد، وإن

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٢.

كان بدون استحلالٍ فهو كبيرةٌ وليس بكفر، ويُحتاج في هذا إلى منع اختصاص تلك العقوبات والأحوالِ بالكفار والمنافقين، أو التزامِ القول بأن ذلك ثابتٌ للجنس، ويكفي فيه ثبوتُه لبعض أفراده، ولا شك أن فيها مَن يموت كافراً.

وفي «البحر»: يناسبُ أن تكون هذه الآيةُ ـ كما قيل ـ نزلت في مشركي مكة، كانت المرأةُ إذا خرجت إلى المدينة مهاجرةً قذفوها وقالوا: خرجَتْ لتَفْجُرَ؛ قاله أبو حمزة اليمانيُّ، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ﴾ إلخ[1]. اهـ.

وأنت تعلم أن الأوفق بالسباق والسياق ما عليه الأكثرُ، من نزولها في شأن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وحكمُ رمي سائر أمهاتهم حكمُ رميها، وكذا حُكْمُ رمي سائر أزواج الأنبياء عليهم السلام، وكذا أمهاتُهم.

وعندي أنَّ حكم رمي بناتِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام كذلك، لا سيما بضعته الطاهرة الكريمة فاطمة الزهراء صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم، ولم أَرَ مَن تعرَّض لذلك فتدبَّر.

واعلم أنه لا خلافَ في جواز لعن كافرٍ معيَّنٍ تحقَّق موتُه على الكفر إن لم يتضمَّن إيذاءَ مسلمٍ، أو ذمِّيٍّ إذا قلنا باستوائه مع المسلم في حرمة الإيذاء، أما إنْ تضمَّن ذلك حَرُمَ.

ومن الحرام لَعْنُ أبي طالب على القول بموته كافراً، بل هو من أعظم ما يتضمَّنُ ما فيه إيذاءُ مَن يَحْرُمُ إيذاؤه.

ثم إنَّ لَعْنَ مَن يجوزُ لَعْنُه لا أرى أنه يُعدُّ عبادةً إلَّا إذا تضمَّن مصلحةً شرعيةً. وأمَّا لَعْنُ كافرٍ معيَّنٍ حيٍّ فالمشهورُ أنه حرامٌ، ومقتضى كلام حجَّة الإسلام الغزالي[2] أنه كفرٌ؛ لِمَا فيه من سؤال تثبيته على الكفر الذي هو سببُ اللعنةِ، وسؤالُ ذلك كفرٌ. ونصَّ الزركشيُّ على ارتضائه حيث قال عَقِبَه: فتفطَّن لهذه المسألة فإنها غريبةٌ، وحكمُها متَّجهٌ، وقد زلَّ فيه جماعةٌ.

---

(١) البحر ٦/ ٤٤٠.

(٢) في الإحياء ٣/ ١٢٤.

وقال العلَّامةُ ابنُ حجر في ذلك: ينبغي أن يقال: إنْ أراد بلَعْنِه الدعاءَ عليه بتشديدِ الأمر، أو أطْلقَ، لم يكفر، وإن أراد سؤالَ بقائه على الكفر، أو الرضا ببقائه عليه، كَفَر. ثم قال: فتدبَّر ذلك حقَّ التدبُّرِ فإنَّه تفصيلٌ متجهٌ قضَتْ به كلماتُهم. اهـ.

وكلَعْنِ الكافر الحيِّ المعيَّن بالشخصِ في الحرمة لَعْنُ الفاسق كذلك، وقال السِّراج البلقينيُّ بجواز[1] لعن العاصي المعيَّنِ، واحتجَّ على ذلك بحديث الصحيحين: «إذا دعا الرجلُ امرأتَه إلى فراشِه فأبَتْ أن تَجيء، فبات غضبان، لَعَنَتْها الملائكةُ حتَّى تُصْبِحَ»[2] وهو ظاهرٌ فيما يدَّعيه.

وقولُ ولده الجلالِ البلقينيِّ في بحثه معه: يحتمل أن يكون لعنُ الملائكة لها ليس بالخصوص بل بالعموم، بأن يقولوا: لعن الله مَن دعاها زوجُها إلى فراشه فأبت فبات غضبان = بعيدٌ جداً.

وممَّا يؤيِّد قولَ السِّراج خبرُ مسلم: أنه ﷺ مرَّ بحمارٍ وُسم في وجهه فقال: «لَعَن الله مَن فَعَلَ هذا»[3] وهو أبعدُ عن الاحتمال الذي ذكره ولدُه.

وقد صحَّ أنه ﷺ لعن قبائلَ من العرب بأعيانهم، فقال: «اللهمَّ الْعَنْ رِعْلاً وذَكْوانَ وعُصَيَّةَ، عَصَوا الله تعالى ورسولَه»[4]، وفيه نوعُ تأييدٍ لذلك أيضاً؛ لكن قيل: إنه يجوز أن يكون قد عَلِمَ عليه الصلاة والسلام موتَهم، أو موتَ أكثرهم على الكفر، فلم يَلْعَنْ ﷺ إلا مَن عَلِمَ موته عليه.

ولا يخفى عليك الأحوطُ في هذا الباب، فقد صحَّ: «مَن لَعَنَ شيئاً ليس له بأهلٍ رَجَعَتِ اللعنةُ عليه»[5]. وأرى الدعاءَ للعاصي المعيَّنِ بالصلاح أحبَّ مِن لَعْنِه

(١) في الأصل: يجوز.

(٢) صحيح البخاري (٣٢٣٧)، وصحيح مسلم (١٤٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وسلف عند تفسير الآية (٦٠) من سورة الإسراء.

(٣) صحيح مسلم (٢١١٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وسلف مع قول السراج وولده عند تفسير الآية (٦٠) من سورة الإسراء. وذكر قولهما ابن حجر الهيتمي في الزواجر ٢/ ٥٦.

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٦٠)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٢٥١٧) من حديث خفاف بن إيماء رضي الله عنه، وسلف عند تفسير الآية (٦٠) من سورة الإسراء.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٠٨)، والترمذي (١٩٧٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

على القول بجوازه، وأرى لَعْنَ مَن لَعنَه رسولُ الله ﷺ بالوصف أو بالشخص عبادةً، من حيث إنَّ فيه اقتداءً برسول الله عليه الصلاة والسلام، وكذا لَعْنُ مَن لَعَنَه اللهُ تعالى على الوجه الذي لعنه سبحانه به.

هذا وقولُه عز وجل: (يَوْمَ تَشْهَدُ) إلخ إمَّا متَّصلٌ بما قبله، مسوقٌ لتقرير العذاب العظيم بتعيينِ وقتِ حلوله، وتهويله ببيانِ ظهورِ جنايةِ الرَّامينَ، المستتبعةِ لعقوباتها على كيفيةٍ هائلةٍ وهيئةٍ خارِقةٍ للعادات، فـ «يوم» ظرفٌ لِمَا في «لهم» من معنى الاستقرارِ، لا لـ «عذاب» كما ذهب إليه الحوفيُّ، لِمَا في جواز إعمال المصدر الموصوفِ من الخلاف. وقيل: لإخلاله بجزالةِ المعنى، وفيه نظر.

وإما منقطعٌ عنه على أنه ظرفٌ لـ «اذْكُر» محذوفاً، أو لـ «يوفيهم» الآتي، كما قيل بكلٍّ.

واختير أنه ظرفٌ لفعلٍ مؤخَّرٍ، وقد ضُرب عنه الذِّكْرُ صَفْحاً للإيذان بأنَّ العبارة لا تكادُ تحيط بتفصيل ما يقع فيه من العظائم، والكلامُ مسوقٌ لتهويل اليوم بتهويلِ ما يحويه، كأنه قيل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يظهرُ من الأحوال والأهوال ما لا يحيطُ به نطاقُ المقال.

على أنَّ الموصول المذكورَ عبارةٌ عن جميع أعمالهم السيئةِ وجناياتهم القبيحة، لا عن جناياتهم المعهودة فقط، ومعنى شهادةِ الجوارح المذكورة بها: أنه عزَّ وجلَّ يُنْطِقُها بقدرته فتخبرُ كلُّ جارحةٍ منها بما صَدَر عنها من أفاعيل صاحبها، لا أنَّ كلّاً منها يخبرُ بجنايتهم المعهودةِ فحَسْب. والموصولُ المحذوفُ عبارةٌ عنها وعن فنون العقوبات المترتِّبةِ عليها كافةً، لا عن إحداهما خاصةً، ففيه من ضروب التهويل بالإجمال والتفصيلِ ما لا مزيدَ عليه. قاله شيخ الإسلام[١].

ثم قال: وجَعْلُ الموصول المذكورِ عبارةً عن جنايتهم[٢] المعهودةِ، وحَمْلُ شهادةِ الجوارح على إخبار الكلِّ بها فقط، تحجيرٌ للواسع، وتهوينٌ للأمر الرَّادِع. والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدلالة على استمرارهم على هاتيك

(١) في تفسيره ٦/ ١٦٦.
(٢) في تفسير أبي السعود: عن خصوص جنايتهم.

الأعمال في الدنيا، وتجدُّدِها منهم آناً فآناً. وتقديمُ «عليهم» على الفاعل للمُسارعةِ إلى كون الشهادة ضارَّةً لهم، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخَّر. اهـ. ولا يخلو عن حسن.

وجوَّز أن تكون الشهادة بما ذكر مجازاً عن ظهور آثاره على هاتيك الأعضاء، بحيثُ يَعْلَمُ مَن يشاهدُهم ما عملوه، وذلك بكيفيةٍ يعلمها الله تعالى.

واعتُرض بأنه معارَضٌ بقوله تعالى: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

وأجيب بأنَّ مجوِّزَ ما ذُكر يَجْعَلُ النطقَ مجازاً عن الدلالة الواضحة، كما قيل به في قولهم: نَطَقتِ الحال، أو يقول: هذا في حالٍ، وذاك في حال، أو: كلٌّ منهما في قوم.

ولا يخفى أن الظاهر بقاءُ الشهادة على حقيقتها، إلَّا أنه استشكل ذلك: بأنه حينئذٍ يلزمُ التعارُضُ بين ما هنا وقولِه تعالى في سورة «يس»: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآيةَ [٦٥]؛ لأنَّ الختم على الأفواه ينافي شهادةَ الألْسُنِ.

وأجيبَ بأنَّ المراد من الختم على الأفواه منعُهم عن التكلُّم بالألسنة التي فيها، وذلك لا ينافي نطقَ الألسنة نفسِها، الذي هو المرادُ من الشهادة كما أشرنا إليه، فإنَّ الألسنة في الأول آلةٌ للفعل، وفي الثاني فاعلةٌ له، فيجتمع الختم على الأفواه وشهادةُ الألسُنِ بأن يُمنعوا عن التكلُّم بالألسنة، وتُجعل الألسنةُ نفسُها ناطقةً متكلِّمةً كما جعل سبحانه الذراعَ المسمومَ ناطقاً متكلِّماً حتى أخبر النبيَّ ﷺ بأنه مسموم[1]. وللمعتزلة في ذلك كلامٌ.

وقيل في التوفيق: يجوزُ أن يكون كلٌّ من الختم والشهادة في موطنٍ وحالٍ،

(١) أخرجه أبو داود (٤٥١٠) من طريق الزهري عن جابر رضي الله عنه، والزهري لم يسمع من جابر. وأخرجه أبو داود أيضاً (٤٥١٢) من طريق أبي سلمة مرسلاً. وأخرجه البزار (٢٤٢٣) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٩٥: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير مبارك بن فضالة، وهو ثقة وفيه ضعف. وأخرجه البزار أيضاً (٢٤٢٤)، والحاكم ٤/ ١٠٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وصححه الحاكم، وقال الهيثمي: رواه البزار ورجاله ثقات.

وأن يكون الشهادة في حقِّ الرامين والختمُ في حق الكفرة، وكأنه لما كانت هذه الآيةُ في حقِّ القاذف بلسانه، وهو مطالبٌ معه بأربعةِ شهداءَ، ذكر فيها خمسةً أيضاً، وصرَّح باللسان الذي به عملُه ليفضحَه، جزاءً له من جنس عمله؛ قاله الخَفَاجيُّ[1]، وقال: إنها نكتةٌ سريةٌ. واللهُ تعالى أعلم بأسرارِ كتابه، فتدبر.

وقرأ الأخوان والزعفرانيُّ وابن مقسم وابن سعدان: «يشهد» بالياء آخرِ الحروف[2]، ووجهُه ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفٌ لقوله سبحانه: ﴿يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ والتنوينُ عوضٌ عن الجملة المضافة إليها. والتوفيةُ: إعطاءُ الشيءِ وافياً. والدِّين هنا الجزاء، ومنه: كما تدينُ تُدان. والحقُّ: الموجدُ بحسَبِ مقتضى الحكمة، وقريبٌ منه تفسيرُه بالثابت الذي يحقُّ أن يَثْبُتَ لهم لا محالة، أي: يومَ إذ تشهدُ عليهم أعضاؤهم المذكورةُ بأعمالهم القبيحةِ يُعطيهم الله تعالى جزاءَهم المطابقَ لمقتضَى الحكمةِ وافياً تامّاً.

والكلامُ استئنافٌ مسوقٌ لبيان ترتيب حُكْمِ الشهادة عليها، متضمِّنٌ لبيان ذلك المبهَم المحذوفِ فيما سبق على وجه الإجمال.

وجوَّز أن يكون «يومئذٍ» بدلاً من «يومَ تَشْهدُ» مَن جوَّز تَعَلُّقَ ذاك بـ «يوفِّيهم».

وقرأ زيد بن عليٍّ رضي الله عنهما: «يُوْفِيْهِم» مخفَّفاً[3].

وقرأ عبد الله ومجاهدٌ وأبو روق وأبو حيوة: «الحقُّ» بالرفع[4] على أنه صفةٌ للاسم الجليل، ويجوزُ الفَصْلُ بالمفعول بين الموصوف وصفته.

ومعنى «الحق» على هذه القراءة على ما قال الراغبُ[5]: الموجِدُ للشيءِ

---

(١) في الحاشية ٦/ ٣٦٩.

(٢) التيسير ص١٦١، والنشر ٢/ ٣٣١ عن الأخوين، وهما حمزة والكسائي وقرأ بها أيضاً خلف من العشرة.

(٣) البحر ٦/ ٤٤١.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠١، والمحتسب ٢/ ١٠٧، والبحر ٦/ ٤٤١، والكلام منه.

(٥) في مفرداته (حقق).

بحسب ما تقتضيه الحكمةُ، وفسَّره بعضُهم بالعادل، والأكثرون على تفسيره بالواجب لذاته.

وكذا في قوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ و«المبينُ» إما من أبانَ اللازم، أي: الظاهرُ حقِّيتُه، على تقدير جَعْلِه نعتاً للحق، أو: الظاهرُ أُلوهيتُه عزَّ وجلَّ على تقدير جَعْلِه خبراً ثانياً. أو من أبان المتعدِّي، أي: المُظْهِرُ للأشياء كما هي في أنفسها.

وجملة «يعلمون» معطوفةٌ على جملة «يوفِّيهم الله»؛ فإن كانت مقيَّدةً بما قيِّدت به الأولى فالمعنى: يومَ إذ تشهدُ عليهم أعضاؤهم المذكورةُ بأعمالهم القبيحةِ يعلمون أنَّ الله.. إلخ. وإن لم تكن مقيَّدةً بذلك جاز أن يكون المعنى: ويعلمون عند مُعايَنَتِهم الأهوالَ والخطوبَ أنَّ الله.. إلخ.

والظاهرُ أنَّ للشهادة على الأول وللمعاينة على الثاني دخلاً في حصول العلم بمضمون ما في حيز «يعلمون»، فتأمَّلْ لتعرفَ كيفيةَ الاستدلال على ذلك، فإنَّ فيه خفاءً لا سيما مع ملاحظةِ الحَصْرِ المأخوذِ من تعريف الطرفين وضميرِ الفصل.

وقيل: إنَّ عِلْمَ الخَلْقِ بصفاته تعالى يوم القيامة ضروريٌّ، وإنْ تَفاوَتُوا في ذلك من بعض الوجوه، فيعلمون ما ذُكر من غير مدخليةِ أحد الأمرين.

ولعل فائدةَ هذا العلم يأسُهم من إنقاذ أحدٍ إياهم مما هم فيه، أو انسدادُ باب الاعتراض المروِّح للقلب في الجملة عليهم، أو تبيُّنُ خطئهم في رميهم حَرَمَ رسول الله ﷺ بالباطل؛ لِمَا أنَّ حقِّيته تأبى كونه عز وجل حقّاً، أي: مُوجِداً للأشياء بحسَبِ ما تقتضيه الحكمةُ؛ لِمَا قدَّمنا من أنَّ فجور زوجات الأنبياء عليهم السلام مُخِلٌّ بحكمة البعثة، وكذا تأبى كونَه عزَّ وجلَّ حقّاً، أي: واجباً لذاته، بناءً على أن الوجوب الذاتيَّ يستتبعُ الاتِّصاف بالحكمة، بل بجميع الصفات الكاملة.

وهذه الجملةُ ظاهرةٌ جدّاً في أنَّ الآية في ابن أبيٍّ وأضرابِه من المنافقين الرامينَ حَرَمَ الرسول ﷺ؛ لأنَّ المؤمن عالمٌ أنَّ الله تعالى هو الحقُّ المبينُ منذ كان في الدنيا، لا أنه يحدُثُ له عِلْمُ ذلك يومَ القيامة.

ومَن ذهب إلى أنها في الرامين من المؤمنين، أو فيهم وفي غيرهم من المنافقين

قال: يحتمل أن يكون المراد من العلم بذلك التفاتُ الذهن وتوجُّهُه إليه، ولا يأبى ذلك كونُه حاصلاً قبلُ. وقد حَمَل السيد السند قدِّس سرُّه في حواشي «المطالع»[(١)] العلمَ في قولهم في تعريف الدلالة: كون الشيء بحالةٍ يلزمُ من العلم به العلمُ بشيءٍ آخر = على ذلك؛ لئلا يَرِدَ أنه يلزم على الظاهر أن لا يكون للَّفْظ دلالةٌ عند التكرار لامتناع علم المعلوم.

ويحتملُ أن يكون قد نزل علمُهم الحاصلُ قبلُ منزلةَ غيرِ الحاصلِ؛ لعدم ترتُّبِ ما يقتضيه من الكفِّ عن الرمي عليه، ومثلُ هذا التنزيل شائعٌ في الكتاب الجليل.

ويحتمل أن يكون المراد: يعلمون عياناً مقتضى أنَّ الله هو الحقُّ المبين، أعني الانتقامَ من الظالم للمظلوم. ويحتمل غير ذلك، وأنت تعلم أن الكلَّ خلافُ الظاهر فتدبَّر.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ إلخ كلامٌ مستأنفٌ مؤسَّسٌ على السنَّةِ الجاريةِ فيما بين الخَلْقِ على موجب أنَّ للهِ تعالى مَلَكاً يسوقُ الأهلَ إلى الأهل، وقولِ القائل: إنَّ الطيور على أشباهها تقع، أي: الخبيثاتُ من النساء ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال، أي: مختصَّاتٌ بهم لا يتجاوَزْنَهم إلى غيرهم، على أنَّ اللام للاختصاص ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ أيضاً ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ لأنَّ المجانَسةَ من دواعي الانضمام ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ منهن ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ منهم ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ أيضاً ﴿لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ منهنَّ، بحيث لا يتجاوزونهنَّ إلى مَن عَداهنَّ.

وحيث كان رسول الله ﷺ أطيبَ الأطيبينَ، وخيرةَ الأوَّلينَ والآخِرين، تبيَّن كونُ الصدِّيقةِ ﵂ من أطيب الطيباتِ بالضرورة، واتَّضح بطلانُ ما قيل فيها من الخرافات حَسْبَما نطقَ به قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ على أنَّ الإشارة إلى أهل البيت النبويِّ رجالاً ونساءً، ويدخلُ في ذلك الصدِّيقة ﵂ دخولاً أوَّلياً.

وقيل: إلى رسول الله ﷺ والصدِّيقةِ وصفوان. وقال الفرَّاء[(٢)]: إشارة إلى

---

(١) مطالع الأنوار في المنطق للقاضي سراج الدين محمود بن أبي بكر الأرموي، والسيد السند هو علي بن محمد الجرجاني. كشف الظنون ٢/ ١٧١٥.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٢٤٩.

الصدِّيقة وصفوان، والجمعُ يُطْلَقُ على ما زاد على الواحد. وفي الآية على جميع الأقوال تغليبٌ. أي: أولئك منزَّهون ممَّا يقولُه أهلُ الإفك في حقِّهم من الأكاذيب الباطلة.

وجَعْلُ الموصوفِ للصفات المذكورة النساءَ والرجالَ حَسْبَما سمعتَ رواه الطبرانيُّ عن ابن عباس ضِمْنَ خبرٍ طويل(١). ورواه الإماميةُ عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﵄. واختاره أبو مسلم والجبائيُّ وجماعةٌ، وهو الأظهرُ عندي.

وجاء في روايةٍ أخرى عن ابن عباسٍ أخرجها الطبرانيُّ أيضاً وابن مردويه وغيرُهما: أنَّ «الخبيثات» و«الطيبات» صفتان للكَلِم، و«الخبيثون» و«الطيبون» صفتان للخبيثين من الناس(٢)، وروي ذلك عن الضحاك والحسن. و«الخبيثون» عليه شاملٌ للرجال والنساء على سبيل التغليب، وكذا «الطيبون»، و«أولئك» إشارةٌ إلى الطيبين، وضمير «يقولون» للخبيثين، وقيل للآفكين، أي: الخبيثاتُ من الكلم للخبيثين من الرجال والنساء، أي: مختصَّةٌ ولائقةٌ بهم لا ينبغي أن تقال في حقِّ غيرهم، وكذا الخبيثون من الفريقين أحقَّاءُ بأن يقال في حقِّهم خبائثُ الكَلِم، والطيباتُ من الكلم للطيبين من الفريقين مختصَّة وحقيقة بهم، وهم أحقَّاء بأن يقال في شأنهم طيباتُ الكَلِم، أولئك الطيبون مبرؤون عن الاتِّصاف ممَّا يقول الخبيثون - وقيل: الآفكون - في حقِّهم، فمآله تنزيهُ الصدِّيقةِ ﵂ أيضاً.

وقيل: المراد: الخبيثاتُ من القول مختصَّةٌ بالخبيثين من فريقي الرجال والنساء لا تَصْدُرُ عن غيرهم، والخبيثون من الفريقين مختصُّون بالخبيثات من القول متعرِّضون لها، والطيباتُ من القول للطيبين من الفريقين، أي: مختصَّةٌ بهم لا تَصْدُر عن غيرهم، والطيبون من الفريقين مختصُّون بالطيبات من القول لا يَصْدُرُ عنهم غيرها، أولئك الطيبون مبرَّؤون ممَّا يقول الخبيثون، أي: لا يَصْدُرُ عنهم مثلُ ذلك. وروي ذلك عن مجاهدٍ، والكلامُ عليه على حذف مضافٍ إلى «ما». ومآلُه الحطُّ على الآفكين وتنزيهُ القائلين: سبحانك هذا بهتانٌ عظيم.

---

(١) المعجم الكبير ٢٣/ (١٦٨) و(٢٣٨).

(٢) المعجم الكبير ٢٣/ (٢٤٨) و(٢٤٩) و(٢٥٠)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٦.

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمةٌ لِمَا لا يخلو البشرُ عنه من الذنب، وحسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين. ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ هو الجنةُ كما قاله أكثر المفسرين، ويشهد له قولُه تعالى في سورة «الأحزاب» في أمَّهات المؤمنين: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ الآية [٣١] فإنَّ المراد به ثَمَّةَ الجنةُ بقرينةِ «أعتدنا»، والقرآن يفسِّر بعضُه بعضاً.

وفي هذه الآياتِ من الدلالة على فضل الصدِّيقةِ ما فيها، ولو قَلَبْتَ القرآنَ كلَّه، وفتَّشْتَ عما أوعدَ به العصاة، لم تَرَ الله عزَّ وجل قد غلَّظ في شيءٍ تغليظَه في الإفك، وهو دالٌّ على فضلها أيضاً. وكانت رضي الله عنها تتحدَّث بنعمة الله تعالى عليها بنزول ذلك في شأنها.

فقد أخرج ابن أبي شيبة(١) عنها أنها قالت: خِلالٌ فيَّ لم تكن في أحدٍ من الناس إلَّا ما آتى اللهُ تعالى مريمَ ابنةَ عمران، واللهِ ما أقول هذا أني أفتخر على صواحباتي. قيل: وما هنَّ؟ قالت: نزل الملكُ بصورتي، وتزوَّجني رسول الله ﷺ لسبع سنينَ، وأهديتُ له لتسع سنين، وتزوَّجني بكراً لم يَشْرَكه فيَّ أحدٌ من الناس، وأتاه الوحيُ وأنا وإياه في لحافٍ واحد، وكنتُ مِن أحبِّ الناس إليه، ونزل فيَّ آياتٌ من القرآن كادت الأمَّةُ تهلك فيهنَّ، ورأيتُ جبريلَ عليه السلام ولم يَرَهُ أحدٌ من نسائه غيري، وقُبِضَ في بيتي لم يَلِهِ أحدٌ غير الملكِ وأنا.

وأخرج ابن مردويه(٢) عنها أنها قالت: لقد نزل عُذْري من السماء، ولقد خُلقتُ(٣) طيبةً عند طيبٍ، ولقد وُعِدْتُ مغفرةً وأجراً عظيماً.

وفي قوله سبحانه: (لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ) بناءً على شموله عائشةَ رضي الله عنها ردٌّ على الرافضة القائلين بكفرها وموتِها على ذلك ـ وحاشاها ـ لقصةِ وقعةِ الجمل، مع أشياءَ افترَوْها ونَسَبوها إليها.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ١٢٩، وأخرجه أيضاً الحاكم ٤/ ١٠ وصححه.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٣٧.

(٣) جاء في حاشية (م): بالقاف، ويروى بالفاء وتشديد اللام، أي: تُركت عند رسول الله ﷺ بعد وفاته طيبة. اهـ منه.

وممَّا يردُّ زَعْمَهم[1] ذلك أيضاً قولُ عمار بنِ ياسر في خطبته حين بعثه الأميرُ كرَّم الله تعالى وجهه مع الحسن رضي الله عنه يستنفران أهلَ المدينة وأهلَ الكوفة: إنِّي لأَعْلَمُ أنها زوجةُ نبيِّكم عليه الصلاة والسلام في الدنيا والآخرة، ولكنَّ الله تعالى ابتلاكم ليَعْلَم أتُطيعونه أم تُطيعونها.

وممَّا يقضي منه العجب ما رأيتُه في بعض كتب الشيعة من أنها خرجتْ من أمَّهات المؤمنين بعد تلك الوقعة؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ قال للأمير كرَّم الله تعالى وجهه: قد أَذِنْتُ لك أن تُخْرِجَ بعد وفاتي من الزوجية مَن شئتَ من أزواجي، فأخرجها كرَّم الله تعالى وجهه من ذلك لمَّا صَدَرَ منها معه ما صدر. ولعَمْري إنَّ هذا مما يكاد يُضْحِكُ الثَّكْلَى، وفي حُسْنِ معاملة الأمير كرم الله تعالى وجهه إياها رضي الله عنها بعد استيلائه على العسكر الذي صَحِبَها، الثابتِ عند الفريقين، ما يكذِّبُ ذلك.

ونحن لا نشكُّ في فَضْلِها رضي الله عنها؛ لهذه الآيات، ولِمَا جاء في مَدْحِها عن رسول الله ﷺ، ولو لم يكن من ذلك سوى ما أخرجه ابن أبي شيبةَ وأحمدُ والبخاريُّ ومسلم والترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ فَضْلَ عائشةَ على النساءِ كفَضْلِ الثريدِ على الطعام»[2].

لكنِّي مع هذا لا أقولُ بأنها أفضلُ من بضعته ﷺ الكريمةِ فاطمةَ الزهراء رضي الله عنها، والوجهُ لا يخفى. وفي هذا المقام أبحاثٌ تُطْلَبُ من محلِّها.

ثم إن الذي أراه أنَّ إنزال هذه الآياتِ في أمرها لمزيد الاعتناءِ بشأن الرسول عليه الصلاة والسلام، ولجَبْرِ قَلْبِ صاحبه الصدِّيق رضي الله عنه، وكذا قلب زوجته أم رومان، فقد اعتراهما من ذلك الإفكِ ما اللهُ تعالى أعلمُ به، ولمزيدِ انقطاع عائشةَ رضي الله عنها إليه عزَّ وجلَّ، مع فَضْلِها وطهارتِها في نفسها. وقد جاء في خبرٍ غريبٍ ذكره ابن النجار[3] في «تاريخ بغدادَ» بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنتُ

---

(١) في (م): زعم.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ١٣١، ومسند أحمد (١٢٥٩٧)، وصحيح البخاري (٣٧٧٠)، وصحيح مسلم (٢٤٤٦)، وسنن الترمذي (٣٨٨٧)، وسنن النسائي الكبرى (٦٦٥٨)، وسنن ابن ماجه (٣٢٨١).

(٣) جاء في حاشية (م): ونقله السيوطي في الدر المنثور. اهـ منه. وهو فيه ٥/ ٣٧-٣٨.

جالساً عند أمِّ المؤمنين عائشةَ ﵂ لأقرَّ عينَها بالبراءة، وهي تبكي، فقالت: هَجَرني القريبُ والبعيدُ، حتى هجرتني الهرة، وما عُرِضَ عليَّ طعامٌ ولا شراب، فكنتُ أرقد وأنا جائعةٌ ظامئةٌ، فرأيتُ في منامي فتًى فقال لي: ما لَكِ؟ فقلتُ: حزينةٌ مما ذَكَرَ الناس. فقال: ادعي بهذه الدعوات يفرِّجِ الله تعالى عنك. فقلتُ: وما هي؟ فقال: قولي: يا سابغَ النِّعَم، ويا دافِع النِّقَم، ويا فارِجَ الغمم، ويا كاشف الظُّلَم، يا أَعْدَلَ مَن حَكَم، يا حسيبَ مَن ظَلَم، يا وليَّ مَن ظُلِم، يا أولُ بلا بدايةٍ، ويا آخِرُ بلا نهايةٍ، يا مَن له اسمٌ بلا كُنية، اللهمَّ اجْعَلْ لي من أمري فرجاً ومخرجاً. قالت: فانتبهتُ وأنا ريَّانةٌ شبعانةٌ وقد أنزل الله تعالى فَرَجي. ويسمَّى هذا الدعاءُ دعاءَ الفَرَج، فليُحْفَظْ وليُسْتَعْمَلْ.

ثم إنه عزَّ وجلَّ إثْرَ ما فَصَّلَ الزَّواجِرَ عن الزنى وعن رمي العفائف عنه، شَرَعَ في تفصيل الزَّواجر عمَّا عسى يؤدِّي إلى أحدهما، من مخالطة الرجال بالنساء، ودخولِهم عليهنَّ في أوقات الخلوات، وتعليم الآداب الجميلة، والأفاعيلِ المَرْضِيةِ المُسْتَتْبِعةِ لسعادة الدارين:

فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ إلخ. وسببُ النزول على ما أخرج الفريابيُّ وغيرُه من طريق عديِّ بن ثابت عن رجلٍ من الأنصار أنَّ امرأة قالت: يا رسول الله، إنِّي أكون في بيتي على الحالة التي لا أحبُّ أن يراني عليها أحدٌ، لا ولدٌ ولا والدٌ، فيأتيني آتٍ فيدخلُ عليَّ، فكيف أصنع؟ فنزلت: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) إلخ(١).

وإضافةُ البيوت إلى ضمير المخاطَبين لاميَّةٌ اختصاصية، والمرادُ عند بعضٍ الاختصاصُ الملْكيُّ، ووصفُ البيوت بمغايرةِ بيوتهم بهذا المعنى خارجٌ مخرجَ العادة التي هي سُكْنَى كلِّ أحدٍ في ملكه، وإلَّا فالآجِرُ والمُعيرُ أيضاً منهيَّان عن الدخول بغيرِ إذن.

وقال بعضهم: المراد اختصاصُ السُّكنى، أي: غيرَ بيوتكم التي تسكنونها؛

(١) الدر المنثور ٥/٣٨، وأخرجه الطبري ١٧/٢٤٢ من طريق عدي بن ثابت أيضاً، وليس فيه: عن رجل من الأنصار.

لأنَّ كون الآجر والمعيرِ منهيَّينِ كغيرهما عن الدخول بغير إذنٍ دليلٌ على عدم إرادة الاختصاص الملْكيِّ، فيحمل ذلك على الاختصاص المذكور، فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ ذاك خارجٌ مخرجَ العادة.

وقرئ: «بيوتاً غير بِيوتكم» بكسر الباء[1] لأجل الياء.

﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ أي: تستأذنوا من يملكُ الإذنَ من أصحابها، وتفسيرُه بذلك أخرجه ابن أبي حاتم وابنُ الانباريِّ في «المصاحف» وابنُ جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما[2].

ويخالفه ما روى الحاكم وصحَّحه، والضياء في «المختارة»، والبيهقيُّ في «شعب الايمان» وناسٌ آخرون عنه، أنه قال في «حتى تستأنسوا»: أخطأ الكاتب، وإنما هي: حتى تستأذنوا[3].

لكنْ قال أبو حيَّان: مَن رَوَى عن ابن عباس أنه قال ذلك فهو طاعنٌ في الإسلام، مُلْحِدٌ في الدين، وابنُ عباس بريءٌ من ذلك القول[4]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ تصحيح الحاكم لا يعوَّلُ عليه عند أئمة الحديث، لكنْ للخبرِ المذكور طرقٌ كثيرةٌ، وكتابُ «الأحاديث المختارة» للضياء كتابٌ معتبر، فقد قال السخاويُّ في «فتح المغيث» في تقسيم أهل المسانيد: ومنهم مَن يقتصر على الصالح للحجَّة كالضياء في «مختارته»[5]. والسيوطيُّ بعدما عدَّ في ديباجةِ «جَمْعِ الجوامع» الكتبَ الخمسة وهي: «صحيح البخاريِّ»، و«صحيح مسلم»، و«صحيح ابن حبَّان»، و«المستدرك»، و«المختارة» للضياء، قال: وجميعُ ما في هذه الكتب الخمسة صحيحٌ.

---

(١) هي قراءة ابن عامر وابن كثير وحمزة والكسائي وشعبة وقالون وخلف. التيسير ص٨٠، والنشر ٢/ ٢٢٦.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٢٤١، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٦٦ (١٤٣٤٤)، وعزاه لابن مردويه وابن الأنباري السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٨.

(٣) المستدرك ٢/ ٣٩٦، والأحاديث المختارة ١٠/ ٩٠، والشعب (٨٨٠١). وأخرجه أيضاً الطبري ١٧/ ٢٣٩-٢٤٠.

(٤) البحر ٦/ ٤٤٥.

(٥) فتح المغيث ٢/ ٣٨٦.

ونقل الحافظ ابن رجب في «طبقات الحنابلة» عن بعض الأئمة أنه قال: كتابُ «المختارة» خيرٌ من «صحيح الحاكم»[١]. فوجود هذا الخبر هناك مع ما ذُكر من تعدُّد طرقه يُبْعِدُ ما قاله أبو حيان[٢].

وابنُ الأنباريِّ أجاب عن هذا الخبر ونحوِه من الأخبار الطاعنة بحسب الظاهر في تواتُرِ القرآن المرويَّةِ عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وسيأتي في تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى بعضُها أيضاً ـ بأنَّ الروايات ضعيفةٌ ومعارَضةٌ برواياتٍ أُخَرَ عن ابن عباسٍ أيضاً وغيره. وهذا دون طَعْنِ أبي حيان.

وأجاب ابن أَشْتَة عن جميع ذلك: بأنَّ المراد الخطأُ في الاختيار، وتركُ ما هو الأَوْلَى بحَسَبِ ظنِّه رضي الله عنه لجمع الناس عليه من الأحرف السبعة، لا أنَّ الذي كُتب خطأٌ خارجٌ عن القرآن.

واختار الجلال السيوطيُّ هذا الجواب وقال: هو أَوْلَى وأقعدُ من جواب ابن الأنباريِّ.

ولا يخفى عليك أنَّ حَمْلَ كلام ابن عباس على ذلك لا يخلو عن بُعْدٍ؛ لما أنَّ ما ذُكر خلافُ ظاهرِ كلامه. وأيضاً ظنُّ ابنِ عباس أولويةَ ما أجمع سائرُ الصحابة رضي الله عنهم على خلافه مما سمع من رسول الله ﷺ في العَرْضةِ الأخيرة بعيدٌ.

وكأنهم رأوا أنَّ التزام ذلك أهونُ من إنكار ثبوتِ الخبر عن ابن عباس مع

---

(١) طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/ ٢٣٩.

(٢) كذا قال، وليس أبو حيان وحده هو الذي ردَّه، فقد قال النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٤٥-٥٤٦: وأما ماروي عن ابن عباس ـ وبعض الناس يقول: عن سعيد بن جبير ـ أنه قال: أخطأ الكاتب. . .، فعظيمٌ محظورٌ القولُ به؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. اهـ. وقال ابن العربي في أحكام القرآن ٢/ ١٣٤٧: وليس فيه خطأ من كاتب، ولا يجوز أن ينسب الخطأ إلى كتاب تولى الله حفظه وأجمعت الأمة على صحته، فلا يلتفت إلى راوي ذلك عن ابن عباس. اهـ. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ١٧٦: مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها «تستأنسوا»، وصح الإجماع فيها من لدن مدة عثمان رضي الله عنه، فهي التي لا يجوز خلافها، والقراءة بـ «تستأذنوا» ضعيفة، وإطلاق الخطأ والوهم على الكتاب في لفظ أجمع الصحابة عليه لا يصح عن ابن عباس. اهـ. وقال القرطبي ١٥/ ١٨٩: وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره.

تعدُّد طرقه، وإخراجِ الضياء إياه في «مختارته». ويشجِّع على هذا الإنكارِ اعتقادُ جلالةِ ابن عباس رضي الله عنهما، وثبوتُ الإجماع على تواتُرِ خلافِ ما يقتضيه ظاهرُ كلامه، فتأمل.

واستعمالُ الاستئناسِ بمعنى الاستئذان بناءً على أنه استفعالٌ مِن آنَسَ الشيءَ بالمدِّ: عَلِمَه أو أَبْصَره، وإبصارُه طريقٌ إلى العلم، فالاستئناسُ استعلامٌ، والمستأذِنُ طالبُ العلمَ بالحال، مستكشفٌ أنه هل يرادُ دخولُه أوْ لا؟

وقيل: الاستئناسُ خلافُ الاستيحاش، فهو من الأُنْس بالضمِّ خلاف الوحشة. والمراد به المأذونيةُ، فكأنه قيل: حتى يؤذَنَ لكم، فإنَّ مَن يطرقُ بيتَ غيرِه لا يدري أيؤذَنُ له أم لا؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أُذن له استأنَسَ، وهو في ذلك كنايةٌ أو مجاز.

وقيل: الاستئناسُ من الإِنْس بالكسر بمعنى الناس، أي: حتى تطلبوا معرفةَ مَن في البيوت من الإنس. وضُعِّفَ بأنَّ فيه اشتقاقاً من جامدٍ، كما قيل[1] في المسرج[2] أنه مشتقٌّ من السِّراج، وبأنَّ معرفةَ مَن في البيت لا تكفي بدون الإذن، فيوهمُ جوازَ الدخول بلا إذنٍ. ومن الناس مَن رجَّحه بمناسبته لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ ولا يكافئُ التضعيفَ بما سمعتَ.

وذهب الطبريُّ إلى أنَّ المعنى: حتى تُؤْنِسوا أهلَ البيت من أنفُسِكم بالاستئذان ونحوِه، وتُؤْنِسوا أنفسَكم بأن تَعْلَموا أنْ قد شُعِر بكم[3]. ولا يخفى ما فيه.

وقيل: المعنى: حتى تطلبوا عِلْمَ أهلِ البيت بكم[4]، والمراد: حتى تُعْلِموهم على أتمِّ وجه. ويُرشد إلى ذلك ما روي عن أبي أيوب الأنصاريِّ أنه قال: قلنا: يا رسول الله ما الاستئناسُ؟ فقال: «يتكلَّم الرجلُ بالتسبيحة والتكبيرة والتحميدة، يتنحنحُ، يُؤْذِنُ أهلَ البيت»[5].

---

(١) قوله: قيل، ساقط من (م).

(٢) في حاشية الشهاب ٦/ ٣٧٠ (والكلام منه): السرج، بدل: المسرج.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٢٤٦ بنحوه.

(٤) قوله: بكم، ليس في (م).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٣٧٠٧)، وضعَّف إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة ٤/ ١١٠.

وما أخرجه ابن المنذر[١] وجماعةٌ عن مجاهد أنه قال: «تستأنسوا»: تَنَحْنَحوا وتَنخَّموا.

وقيل: المراد: حتى تُؤْنِسوا أهلَ البيت بإعلامهم بالتسبيح أو نحوه. والخبران المذكوران لا يَأبَيانِه، وكِلَا القولين كما ترى. وفي دلالة ما ذُكر من تفسير الاستئناس في الخبر على ما سيق[٢] له بحثٌ سنشيرُ إليه إن شاء الله تعالى.

﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ أي: الساكنين فيها. وظاهرُ الآية أنَّ الاستئذان قبل التسليم، وبه قال بعضُهم.

وقال النوويُّ: الصحيحُ المختار تقديمُ التسليم على الاستئذان[٣]. فقد أخرج الترمذيُّ عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «السلامُ قبل الكلام»[٤]. وابنُ أبي شيبةَ والبخاريُّ في «الأدب المفرد» عن أبي هريرة فيمَن يستأذنُ قبل أن يسلِّم، قال: لا يؤذَنُ له حتى يسلِّم[٥]. وأخرج ابن أبي شيبة وابن وهب في كتاب «المجالس» عن زيد بن أسلم قال: أرسلني أبي إلى ابن عمر ﷺ، فجئتُه فقلتُ: أَأَلِجُ؟ فقال: ادخُل. فلمَّا دخلتُ قال: مرحباً، يا ابن أخي لا تَقُلْ: أَأَلِجُ، ولكن قل: السلامُ عليكم، فإذا قيل: وعليك، فقل: أأدخل؟ فإذا قالوا: ادخُلْ، فادْخُلْ[٦].

وأخرج قاسم بن أصبغ وابن عبد البر في «التمهيد» عن ابن عباس قال: استَأْذَنَ عمر ﷺ على النبيِّ ﷺ، فقال: السلامُ على رسول الله، السلامُ عليكم، أيدخُلُ عمر[٧]؟

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ٣٨، وأخرجه أيضاً الطبري ١٧/ ٢٤٣.

(٢) في (م): سبق.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٤/ ١٣١.

(٤) سنن الترمذي (٢٧٩٩). قال الترمذي: هذا حديث منكر. وقال النووي في الأذكار ص٣١٦: السنَّة أن المسلم يبدأ بالسلام قبل كل الكلام، والأحاديث الصحيحة وعملُ سَلَفِ الأمة وخَلَفها على وفق ذلك مشهورة، فهذا هو المعتمد في دليل الفصل، وأما حديث جابر: «السلام قبل الكلام» فهو حديث ضعيف.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٦٤٦، والأدب المفرد (١٠٦٦).

(٦) مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٦٠٨، وعزاه لابن وهب السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٣٨.

(٧) التمهيد ٣/ ٢٠٢، وعزاه لقاسم ابن أصبغ السيوطي في الدر ٥/ ٣٨، وأخرجه أيضاً أحمد =

واختار الماورديُّ التفصيلَ، وهو أنه إنْ وقعتْ عينُ المستأذِن على مَن في البيت قبل دخوله قدَّمَ السلام، وإلا قدَّم الاستئذانَ[1].

والظاهرُ أنَّ الاستئذان بما يدلُّ على طلب الإذن صريحاً، والمأثورُ المشهورُ في ذلك: أأدخُلُ؟ كما سمعْتَ. وجوَّز أن يكون بما يفهم منه ذلك مطلقاً، وجعلوا منه التسبيحَ والتكبيرَ ونحوَهما ممَّا يحصُلُ به إيذانُ أهلِ البيت بالجائي، فإنَّ في إيذانهم دلالةٌ مّا على طلب الإذن منهم، وحملوا ما تقدَّم من حديث أبي أيوب وكلامِ مجاهدٍ على ذلك.

وهو على ما روي عن عطاءٍ واجبٌ على كلِّ محتلم، ويكفي فيه المرةُ الواحدةُ، على ما يقتضيه ظاهرُ الآية، وأخرج البيهقيُّ في «الشعب» وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال: كان يقال: الاستئذانُ ثلاثاً، فَمَنْ لم يُؤْذَنْ له فيهنَّ فليَرْجِعْ، أمَّا الأولى فيسمعُ الحيّ، وأما الثانية فيأخذوا حِذْرَهم، وأما الثالثة فإن شاؤوا أَذِنوا وإن شاؤوا رَدُّوا[2].

وفي الأمر بالرجوع بعد الثلاث حديثٌ مرفوعٌ أخرجه مالكٌ والبخاريُّ ومسلم وأبو داود عن أبي سعيد الخدريِّ[3].

وذكر أبو حيان أنه لا يزيدُ على الثلاث إلَّا إنْ تحقَّقَ أنَّ مَن في البيت لم يسمع[4].

وظاهرُ الآية مشروعيةُ الاستئذان إذا أريد الدخولُ على المحارم، وقد أخرج مالكٌ في «الموطأ» عن عطاء بن يسار، أنَّ رجلا قال للنبيِّ ﷺ: أأستأذنُ على أمِّي؟ قال: «نعم». قال: ليس لها خادمٌ غيري، أأستأذنُ عليها كلَّما دخلتُ؟ قال: «أتُحِبُّ أن تراها عريانة؟» قال الرجل: لا. قال: «فاستأذن عليها»[5].

= (٢٧٥٦)، وأبو داود (٥٢٠١)، والنسائي في الكبرى (١٠٠٨٠).

(١) النكت والعيون ٤/ ٨٧.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٦٦، والشعب (٨٨٢٠).

(٣) الموطأ ٢/ ٩٦٣، وصحيح البخاري (٦٢٤٥)، وصحيح مسلم (٢١٥٣)، وسنن أبي داود (٥١٨٠)، وهو عند أحمد (١١٠٢٩).

(٤) البحر ٦/ ٤٤٦.

(٥) الموطأ ٢/ ٩٦٣، وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (٤٨٨). قال ابن عبد البر في التمهيد

وأخرج ابن جرير والبيهقيُّ عن ابن مسعود: عليكم أن تستأذنوا على أمَّهاتكم وأخواتكم[(١)].

وهو أيضاً على ما تقتضيه بعضُ الآثار مشروعٌ للنساء إذا أردْنَ دخول بيوتٍ غيرِ بيوتهنَّ، فقد أخرج ابن أبي حاتم[(٢)] عن أمِّ إياس قالت: كنتُ في أربع نسوةٍ نستأذنُ على عائشةَ ﵂، فقلت: نَدْخُل؟ فقالت: لا. فقالت واحدة[(٣)]: السلام عليكم أندخل؟ قالت: ادخلوا، ثم قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ إلخ. وإذا صحَّ ذلك ففي الآية نوعُ تغليبٍ.

ووجهُ مشروعيةِ الاستئذان لهنَّ نحوُ وجهِ مشروعيته للرجال، فإنَّ أهل البيت قد يكونون على حالٍ لا يحبُّون اطِّلاعَ النساء عليه كما لا يحبُّون اطِّلاعَ الرجال.

وصحَّ من حديثٍ أخرجه الشيخان وغيرُهما: «إنما جُعِلَ الاستئذان من أجل النظر»[(٤)]. ومن هنا لا ينبغي النظرُ في قَعْرِ البيت قبل الاستئذان، وقد أخرج الطبرانيُّ عن أبي أمامةَ ﵁، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن كان يشهدُ أنِّي رسولُ الله فلا يَدْخُلْ على أهلِ بيتٍ حتى يستأذنَ ويسلِّم، فإذا نظر في قَعْرِ البيت فقد دخل»[(٥)].

وكان رسول الله ﷺ ـ كما أخرج أبو داود والبخاريُّ في «الأدب المفرد» عن عبد الله بن بُسْرٍ ـ إذا أتى بابَ قومٍ لم يستقبل البابَ من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه

= ١٦/ ٢٢٩: وهذا الحديث لا أعلم يستند من وجه صحيح بهذا اللفظ، وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه.

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٢٤٢، وسنن البيهقي ٧/ ٩٧.

(٢) في تفسيره ٨/ ٢٥٦٩، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٥/ ٣٨، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وعزاه لابن أبي حاتم أيضاً.

(٣) في الأصل و(م): فقال واحد، والمثبت من الدر المنثور، وجاء في تفسير ابن أبي حاتم بدلاً منها: فقلت لصاحبتكن: نستأذن، فقالت. وفي تفسير ابن كثير: قلن لصاحبتكن تستأذن، فقالت.

(٤) صحيح البخاري (٦٩٠١)، وصحيح مسلم (٢١٥٦)، وهو من حديث سهل بن سعد ﵁، وأخرجه أحمد (٢٢٨٠٢).

(٥) المعجم الكبير(٧٥٠٥)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٤٣: رواه الطبراني، وفيه: السفر بن نسير وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وعبد الله بن رجاء الشيباني لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

الأيمنِ أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم»(١). وذلك أنَّ الدُّورَ لم يكن عليها يومئذٍ ستورٌ، فاستقبالُ الباب ربما يفضي إلى النظر.

وظاهرُ الآية أيضاً مشروعية الاستئذان للأعمى؛ لدخوله في عموم الموصول، ووجهُها كراهةُ اطّلاعه بواسطة السمع على ما لا يحبُّ أهلُ البيتِ اطّلاعَه عليه من الكلام مثلاً.

وفي «الكشاف»: إنما شُرِعَ الاستئذانُ لئلَّا يوقَفَ على الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفَّظون من اطّلاع أحدٍ عليها، ولم يُشْرَعْ لئلَّا يطَّلع الدامرُ(٢) على عورةِ أحدٍ، ولا تسبقَ عينُه إلى ما لا يحلُّ النظر إليه فقط(٣).

وهو تعليلٌ حسنٌ إلا أنه يحتاجُ القولُ بذلك إلى القول بأنَّ قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما جُعِلَ الاستئذانُ من أجل النظر» خارجٌ مخرجَ الغالب، وجيءَ بـ «إنما» لمزيدِ الاعتناءِ لا للحصر، وقد صرَّحوا بمجيءِ «إنما» لذلك فلا تغفل.

ثم اعلم أنَّ الاستئذانَ والتسليمَ متغايران، لكنَّ ظاهر بعض الأخبار يقتضي أنَّ الاستئذان داخلٌ في التسليم، كما أنَّ بعضها يقتضي مغايرتَه له وعدمَ دخوله فيه، ووجهُ جَعْلِه من التسليم أنه بدونه كالعدم؛ لما أنَّ السنَّة فيه أن يُقْرَنَ بالتسليم.

هذا، وفي مصحف عبد الله كما أَخرجَ ابنُ جَريرٍ وغيرُه عن إبراهيم: «حتى تسلِّموا على أهلها وتستأذنوا»(٤).

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ ـ على ما قيل ـ إلى الدخول بالاستئذان والتسليم، المفهوم من الكلام. وقيل: إشارةٌ إلى المذكور في ضِمْنِ الفعلين المُغنَيَّا بهما، أي: الاستئذانُ والتسليم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الدخول بغتةً، والدخولِ على تحية الجاهلية، فقد كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتاً غيرَ بيته يقول: حُيِّيتُم صباحاً، حُيِّيتم مساء،

---

(١) سنن أبي داود (٥١٨٦)، والأدب المفرد (١٠٧٨). وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٦٩٤).
(٢) الدامر: الطفيلي، ومعنى دَمَر: دخل بغير إذن. معجم متن اللغة (دمر).
(٣) الكشاف ٣/ ٥٩.
(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٤١.

فيدخل فربما أصاب الرجلَ مع امرأته في لحاف. وخيريةُ المفضَّلِ عليه، قيل ـ على زَعْمِهم ـ لما في الانتظار من المذلَّةِ، ولعدِّهم[1] تحيةَ الجاهلية حسنةً كما هو عادةُ الناس اليومَ في قولهم: صباح الخير ومساء الخير.

ولعل الأَوْلَى أن يقال: إنَّ ذلك من قَبيلِ: الخلُّ أحلى من العسل. وجوَّزَ أن يكون «خير» صفةً، فلا تقدير.

وقولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ تعليلٌ على ما اختاره جمعٌ لمحذوفٍ، أي: أُرْشِدْتُم إلى ذلك، أو قيل لكم هذا كي تتذكَّروا وتتَّعظوا وتعملوا بموجبه.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ بأن كانت خاليةً من الأهل ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ واصبروا ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ من جهة مَن يملك الإذنَ عند وجدانكم إياه. ووجهُ ذلك أنَّ الدخول في البيوت الخالية من غير إذنٍ سببٌ للقيل والقال، وفيه تصرُّفٌ بملك الغير بغير رضاه، وهو يشبهُ الغَصْبَ.

وهذه الآيةُ لبيانِ حكم البيوت الخالية عن أهلها، كما أنَّ الآية الأولى لبيان حكم البيوتِ التي فيها أهلُها.

وجوَّزَ أن تكون هذه تأكيداً لأمر الاستئناس، وأنه لا بدَّ منه والأمرُ دائرٌ عليه، والمعنى: فإن لم تجدوا فيها أحداً من الآذِنينَ، أي: ممن يملكُ الإذنَ فلا تدخلوها.. إلخ، ويفيد هذا حرمةَ دخولِ ما فيه مَن لا يملك الإذنَ كعبدٍ وصبيٍّ، من دون إذنِ مَن يملكُه. ومَن اختار الأول قال: إنَّ حرمة ما ذُكر ثابتةٌ بدلالة النصِّ، فتأمل.

وقال سبحانه: (فَإِن لَّمْ تَجِدُوا) إلى آخره، دون: فإن لم يكن فيها أحدٌ؛ لأنَّ المعتبر وجدانُها خاليةً من الأهل مطلقاً، أو ممن يملك الإذنَ، سواءٌ كان فيها أحدٌ في الواقع أم لم يكن، كذا قيل، وعليه فالمرادُ من قولهم في تفسير ذلك: بأن كانت خاليةً، كونُها خاليةً بحسب الاعتقاد، وكذا يقال في نظيره فلا تَغْفَلْ.

ثم إنَّ ما أفادته الآيتان من الحُكْمِ قد خصَّصه الشرعُ، فجوَّزَ الدخولَ لإزالةِ

---

(١) في (م): ولعدم، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٦/ ٣٧١، والكلام منه.

منكرٍ توقَّفتْ على الدخول من غيرِ إذنِ أهل البيتِ، والدخولَ في البيت الخالي لإطفاءِ حريقٍ فيه، أو نحو ذلك.

وقد ذكر الفقهاء الصورَ التي فيها الدخولُ من غير إذنٍ ممن يملك الإذنَ، فلتراجع.

وقيل: المرادُ بالإذن في قوله سبحانه: (حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ) ما يعمُّ الإذنَ دلالةً وشرعاً، ولذا وقع بصيغة المجهول، وحينئذٍ لا حاجةَ إلى القول بالتخصيص، وفيه خفاء.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي: إن أُمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع ـ سواءٌ كان الآمر مَن يملك الإذنَ أم لا ـ فارجعوا ولا تُلِحُّوا.

﴿هُوَ﴾ أي: الرجوعُ ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أطهرُ مما لا يخلو عنه اللَّجُّ والعنادُ، والوقوفُ على الأبواب ـ بعد القول المذكور ـ من دنسِ الدناءة والرذالة. أو: أنفعُ لدينكم ودنياكم، على أنَّ «أزكى» من الزكاة بمعنى النمو. والظاهرُ أنَّ صيغة أفعل في الوجهين للمبالغة.

وقيَّدنا الوقوفَ على الأبواب بما سمعتَ؛ لأنه ليس فيه دناءةٌ مطلقاً، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يأتي دورَ الأنصار لطلب الحديث، فيقعُدُ على الباب ولا يستأذِنُ حتى يخرج إليه الرجلُ، فإذا خرج ورآه قال: يا ابن عمِّ رسول الله، لو أخبرتني بمكانك. فيقول: هكذا أُمرنا أن نطلب العلم.

وكأنه رضي الله عنه عَدَّ ذلك من التواضُع، وهو من أقوى أسباب الفتوح لطالب العلم، وقد أعطاني الله عزَّ وجلَّ نصيباً وافياً منه، فكنتُ أكثر التلامذةِ تواضُعاً وخدمةً للمشايخ، والحمد لله تعالى على ذلك.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ فيعلم ما تأتون وما تَذَرون مما كلِّفْتُموه، فيجازيكم عليه.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟﴾ أي: بغير استئذانٍ ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أي: موضوعةٍ لسُكْنى طائفةٍ مخصوصةٍ فقط، بل ليتمتَّع بها مَن يحتاجُ إليها كائناً مَن كان، من غيرِ أن يتَّخذها سكناً، كالرُّبُط والخانات والحوانيت والحمامات

وغيرها، فإنها مُعدَّةٌ لمصالح الناس كافةً كما ينبئُ عنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ فإنه صفةٌ للبيوت، أو استئنافٌ جارٍ مجرى التعليلِ لنفي الجناح، أي: فيها حقُّ تمتُّعٍ لكم، كالاستكنان من الحرِّ والبرد، وإيواءِ الأمتعة والرِّحال، والشراء والبيع والاغتسال، وغيرِها مما يليقُ بحال البيوت وداخليها، فلا بأس بدخولها من غيرِ[1] استئذانٍ من داخِليها من قبلُ، ولا ممن يتولّى أمرها ويقومُ بتدبيرها.

وأخرج ابن أبي حاتم[2] عن مقاتل، أنه لما نزل قولُه تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ) إلخ قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، فكيف بتجّارِ قريشٍ الذين يختلفون من مكة والمدينة والشام وبيت المقدس، ولهم بيوتٌ معلومةٌ على الطريق، فكيف يستأذنون ويسلِّمون وليس فيها سكان؟ فرخَّص سبحانه في ذلك، فأنزل قوله تعالى: (لَّيْسَ عَلَيْكُمْ) إلخ.

وعَنَى الصدِّيقُ ﷺ بالبيوت المعلومة: الخاناتِ التي في الطرق، وهي في الآية أعمُّ من ذلك، ولا عبرةَ بخصوصِ السبب، فما روي عن ابن جبير ومحمد بن الحنفية والضحَّاك وغيرهم من تفسيرها فيها بذلك من باب التمثيل. وكذا ما أخرجه جماعةٌ عن عطاء، وعبد بنُ حُميد [عن عكرمة][3] وإبراهيمَ النخعيِّ أنها البيوتُ الخربةُ التي تُدْخَلُ للتبرُّز.

وأمَّا ما روي عن ابن الحنفية أيضاً من أنها دورُ مكةَ، فهو من باب التمثيل أيضاً، لكنَّ صحةَ ذلك مبنيَّةٌ على القول بأنَّ دُورَ مكةَ غيرُ مملوكةٍ، والناسُ فيها شركاء، وقد علمتَ ما في المسألة من الخلاف[4].

وأخرج أبو داود في «الناسخ» وابنُ جريرٍ عن ابن عباس، أنَّ قوله سبحانه: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا) قد نُسخ بقوله تعالى: (لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) إلخ، واستُثنيَ منه البيوتُ الغيرُ

---

(١) في (م): بغير.
(٢) في تفسيره ٨/ ٢٥٧٠.
(٣) ما بين حاصرتين من الدر المنثور ٥/ ٤٠، وعنه نقل المصنف جميع ما ذكر من أخبار.
(٤) ينظر ما سلف ١٧/ ٢٨٨، وما بعد.

المسكونةِ[١]. ورُوي حديثُ الاستثناء عن عكرمة والحسن، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ خبرِ مقاتل، وإليه ذهب الزمخشريّ[٢].

وتعقَّبه أبو حيان[٣] بأنه لا يظهر ذلك؛ لأنَّ الآية الأولى في البيوت المملوكة والمسكونةِ، وهذه الآيةُ في البيوت المباحة التي لا اختصاصَ لها بواحدٍ دون واحد.

والذي يقتضيه النظرُ الجليل أنَّ البيوت فيما تقدَّم أعمُّ من هذه البيوت، فيكون ما ذكر تخصيصاً لذلك، وهو المعنيُّ بالاستثناء، فتدبَّر ولا تَغْفَلْ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وعيدٌ لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل لفسادٍ أو اطِّلاعٍ على عوراتٍ.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ شروعٌ في بيان أحكامٍ كلِّيةٍ شاملةٍ للمؤمنين كافَّةً يندرجُ فيها حكمُ المستأذنين عند دخولهم البيوت اندراجاً أولياً.

وتلوينُ الخطاب وتوجيهُه إلى رسول الله ﷺ، وتفويضُ ما في حيِّزه من الأوامر والنواهي إليه عليه الصلاة والسلام؛ قيل: لأنها تكاليفُ متعلِّقةٌ بأمورٍ جزئيةٍ كثيرةِ الوقوع، حَرِيَّةٍ بأن يكون الآمرُ بها والمتصدِّي لتدبيرها حافظاً ومُهيمناً عليهم.

وقيل: إنَّ ذلك لِمَا أنَّ بعض المؤمنين جاء إلى رسول الله ﷺ كالمستدعي لأنْ يقول له ما في حيِّز القول. فقد أخرج ابن مردويه[٤] عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه قال: مرَّ رجلٌ على عهد رسول الله ﷺ في طريقٍ من طرقاتِ المدينة، فنظر إلى امرأةٍ ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدُهما إلى الآخر إلَّا إعجاباً به، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائطٍ وهو ينظر إليها إذ استقبله الحائط فشقَّ أنفه، فقال: واللهِ لا أغسلُ الدَّمَ حتى آتيَ رسولَ الله ﷺ فأُخْبِرَه أمري. فأتاه فقصَّ عليه قصته، فقال النبيُّ ﷺ: «هذا عقوبةُ ذنبك»، وأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٢٤٢ و٢٥٣، وعزاه لأبي داود السيوطي في الدر ٥/ ٤٠.
(٢) في الكشاف ٣/ ٦٠.
(٣) في البحر ٦/ ٤٤٦.
(٤) كما في الدر المنثور ٥/ ٤٠.

ومفعولُ القول مقدَّرٌ، و«يغضُّوا» جوابٌ لـ «قل»، لتضمُّنه معنى حرفِ الشرط، كأنه قيل: إن تَقُلْ لهم غُضُّوا يغضُّوا، وفيه إيذانٌ بأنهم لفَرْطِ مطاوعتهم لا ينفكُّ فِعْلُهم عن أمره عليه الصلاة والسلام، وأنه كالسبب الموجب له، وهذا هو المشهور.

وجوِّز أن يكون «يغضُّوا» جواباً للأمر المقدَّرِ المقولِ للقول. وتعقِّب بأن الجواب لا بدَّ أن يخالف المجابَ؛ إما في الفعل والفاعل نحو: ائتني أُكْرِمْكَ، أو في الفعل نحو: أَسْلِمْ تَدْخُلِ الجنةَ، أو في الفاعل نحو: قم أَقُمْ. ولا يجوز أن يتوافقا فيه. وأيضاً الأمرُ للمواجهة، و«يغضُّوا» غائبٌ، ومثلُه لا يجوز.

وقيل عليه: إنه لم لا يجوز أن يكون من قبيل «مَن كانت هجرتُه» الحديثَ[١]. ولا نسلِّم أنه لا يجاب الأمرُ بلفظ الغيبة إذا كان محكيّاً بالقول؛ لجواز التلوين حينئذٍ، وفيه بحثٌ. ومَن أَنْصَفَ لا يرى هذا الوجهَ وجيهاً، وهو على ما فيه خلافُ الظاهر جدًّا.

وجوَّز الطبرسيُّ[٢] وغيرُه أن يكون «يغضُّوا» مجزوماً بلام أمرٍ مقدَّرةٍ لدلالةِ «قل»، أي: قل لهم ليغضوا، والجملةُ نصبٌ على المفعولية للقول.

وغضُّ البصر: إطباقُ الجفن على الجفن. و«مِن» قيل: صلة، وسيبويه يأبى ذلك في مثل هذا الكلام، والجوازُ مذهبُ الأخفش[٣].

وقال ابن عطيةَ: يصحُّ أن تكون «من» لبيان الجنس، ويصحُّ أن تكون لابتداءِ الغاية[٤].

وتعقَّبه في «البحر» بأنه لم يتقدَّم مبهمٌ لتكون «من» لبيان الجنس، على أنَّ الصحيحَ أنها ليس من موضوعاتها أن تكون لبيانِ الجنس[٥]. انتهى.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٣٠٠)، والبخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر ﷺ، وسلف ٢/ ٤١٢. والشاهد في هذا الحديث هو أن الشرط والجزاء قد اتَّحدا صورةً وتغايرا حقيقة.

(٢) في مجمع البيان ١٨/ ٣٦.

(٣) ينظر معاني القرآن له ١/ ٢٧٢.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٧.

(٥) البحر ٦/ ٤٤٧.

والجلُّ على أنها هنا تبعيضيةٌ، والمراد غضُّ البصر عمَّا يحرمُ، والاقتصارُ به على ما يحلُّ، وجُعل الغضُّ عن بعض المُبْصَرِ غضَّ بعضِ البصر، وفيه كما في «الكشف» كنايةٌ حسنة.

ثم إنَّ غضَّ البصرِ عمَّا يَحْرُمُ النظرُ إليه واجبٌ، ونظرةُ الفجأة التي لا تعمُّدَ فيها معفوٌّ عنها، فقد أخرج أبو داود والترمذيُّ وغيرُهما عن بُريدةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ، فإنَّ لك الأولى وليست لك الآخِرة»(١).

وبدأ سبحانه بالإرشاد إلى غضِّ البصر لِمَا في ذلك من سدِّ باب الشرِّ، فإنَّ النظر بابٌ إلى كثيرٍ من الشرور، وهو بريدُ الزنى ورائدُ الفجور، وقال بعضهم:

كلُّ الحوادثِ مَبْدَاها من النظر ... ومعظمُ النارِ من مُسْتصْغَرِ الشَّرَرِ
والمرءُ ما دام ذا عينٍ يقلِّبها ... في أَعْيُنِ العِينِ موقوفٌ على الخَطَرِ
كم نظرةٍ فَعَلتْ في قلب فاعِلِها ... فِعْلَ السهامِ بلا قوسٍ ولا وَتَرِ
يسرُّ ناظرَه ما ضرَّ خاطِرَه ... لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضَّرَرِ

والظاهرُ أنَّ الإرشاد لكلِّ واحدٍ من المؤمنين، ولفظُ الجمع لا يأبى ذلك. والظاهرُ أيضاً أنَّ المؤمنين أعمُّ من العبَّادِ وغيرِهم، وزَعَم بعضُهم جوازَ أن يكون المرادُ بهم العبَّادَ والمؤمنين المخلصين، على أن يكون المعنى: قل للمؤمنين الكاملين يغضُّوا من أبصارهم.

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ أي: عمَّا لا يحلُّ لهم من الزنى واللِّواطة، ولم يؤتَ هنا بـ«من» التبعيضيةِ كما أُتي بها فيما تقدَّم؛ لِمَا أنه ليس فيه حسنُ كنايةٍ كما في ذلك. وفي «الكشاف»: دخلت «من» في غضِّ البصر دون حفظ الفرج دلالةً على أنَّ أمر النظر أوسعُ، ألا ترى أنَّ المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورِهنَّ وصُدورِهنَّ وثُدِيِّهنَّ وأعضادِهنَّ وسُوقِهنَّ وأقدامهنَّ، وكذلك الجواري المستعرضات للبيع، والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفَّيها وقدميها في إحدى الروايتين، وأما أمرُ الفَرْجِ فمضيَّقٌ،

(١) سنن أبي داود (٢١٤٩)، وسنن الترمذي (٢٧٧٧)، وهو عند أحمد (٢٢٩٧٤). قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وكفاك فرقاً أن أبيح النظر إلَّا ما استُثْنيَ منه، وحُظِرَ الجماعُ إلا ما استُثْنيَ منه[1]. انتهى.

وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يقال: المراد غضُّ البصر عن الأجنبية، والأجنبيةُ يحلُّ النظر إلى بعضها، وأمَّا الفرجُ فلا طريقَ إلى الحِلِّ فيه أصلاً بالنسبة إلى الأجنبية، فلا وجهَ لدخول «مِن» فيه، وفيه تأمُّلٌ.

وقيل: لم يؤتَ بـ «من» هنا لأنَّ المراد من حفظ الفروج سترُها؛ فقد أخرج ابن المنذر[2] وجماعةٌ عن أبي العالية أنه قال: كلُّ آيةٍ يُذْكَرُ فيها حفظُ الفرج فهو من الزنى، إلا هذه الآيةَ في «النور»: ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ فهو أن لا يراها أحد. وروي نحوُه عن ابن زيد[3]، والسترُ مأمورٌ به مطلقاً.

وتعقِّب بأنه يجوز الكشفُ في مواضع، فلو جيء بـ «من» لكان فيه إشارةٌ إلى ذلك، وتفسيرُ حِفْظِ الفروج هنا خاصةً بسترها؛ قيل: لا يخلو عن بُعْدٍ؛ لمخالفته لِمَا وقع في القرآن الكريم كما اعترف به مَن فسَّره بما ذكر.

واختار بعض المدققين أنَّ المراد من ذلك حفظُ الفروج عن الإفضاء إلى ما لا يحلُّ، وحفظُها عن الإبداء؛ لأنَّ الحفظ لعدم ذكر صلته يتناولُ القسمين.

وذُكر أنَّ الحفظ عن الإبداء يستلزمُ الآخَرَ من وجهين: عدمِ خلوِّه عن الإبداء عادةً، وكونِ الحِفْظِ عن الإبداء - بل الأمر بالتستُّرِ مطلقاً - للحفظ عن الإفضاء، ومن هنا تعلم أنَّ مَن ضعَّف ما روي عن أبي العالية وابنِ زيد بعدم تعرُّضِ الآية عليه بحفظ الفرج عن الزنى لم يُصِبِ المَحَزّ.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الغضِّ والحفظ ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أطهرُ من دَنَسِ الريبة، أو أنفعُ من حيث الدِّينُ والدنيا، فإنَّ النظر بريدُ الزنى، وفيه من المَضَارِّ الدينية والدنيوية[4] ما لا يخفى.

---

(١) الكشاف ٣/ ٦٠.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٤٠، وأخرجه أيضاً الطبري ١٧/ ٢٥٥.

(٣) في الأصل و(م): أبي زيد، وهو تصحيف، والمثبت من البحر ٦/ ٤٤٧، وسيأتي قريباً على الصواب.

(٤) في (م): الدينية أو الدنيوية.

وأفعل للمبالغة دون التفضيل. وجوِّز أن يكون للتفضيل، على معنى: أزكى مِن كلِّ شيءٍ نافعٍ أو مبعد عن الريبة. وقيل: على معنى أنه أنفع من الزنى والنظرِ الحرام، فإنهم يتوهَّمون لذةَ ذلك نفعاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠﴾ لا يخفى عليه شيءٌ مما يصدر عنهم من الأفاعيل، التي من جملتها إجالةُ النظر واستعمالُ سائرِ الحواسِّ، وتحريكُ الجوارح، وما يقصدون بذلك، فليكونوا على حذرٍ منه عزَّ وجلَّ في كلِّ ما يأتون وما يَذَرون.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظرْنَ إلى ما لا يَحِلُّ لهنَّ النظرُ إليه، كالعورات من الرجال والنساء، وهي ما بين السُّرَّةِ والرُّكبة، وفي «الزواجر» لابن حجر المكِّيِّ: كما يحرُمُ نظرُ الرجل للمرأة يَحْرُمُ نظرُها إليه ولو بلا شهوةٍ ولا خوفِ فتنة، نعم إن كان بينهما محرميَّةُ نسبٍ أو رضاع أو مصاهرةٍ نظر كلٌّ إلى ما عدا ما بين سُرَّةِ الآخَرِ وركبته(١).

والمذكورُ في بعض كتب الأصحاب: إن كان نظرُها إلى ما عدا ما بين السُّرةِ والركبة بشهوةٍ حرمَ، وإن بدونها لا يحرم. نعم غضُّها بصرَها من الأجانب أصلاً أَوْلَى بها وأحسنُ، فقد أخرج أبو داود، والترمذيُّ وصحَّحه، والنسائيُّ، والبيهقيُّ في «سننه» عن أمِّ سلمةَ أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونةَ قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابنُ أمِّ مكتوم، فدخل عليه عليه الصلاة والسلام، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه» فقلت: يا رسول الله، هو أعمى لا يبصر. قال: «أفعمياوان أنتما، ألستُما تبصرانه؟»(٢) واستَدَلَّ به مَن قال بحرمة نظر المرأة إلى شيءٍ من الرجل الأجنبيِّ مطلقاً.

---

(١) الزواجر ٢/ ٣.

(٢) سنن أبي داود (٤١١٢)، وسنن الترمذي (٢٧٧٨)، وسنن النسائي الكبرى (٩١٩٧)، وسنن البيهقي ٧/ ٩١-٩٢، وهو من طريق الزهري، عن نبهان مولى أمِّ سلمة، عن أم سلمة. قال النسائي: ما نعلم أحداً روى عن نبهان غير الزهري. اهـ. وقال أبو العباس القرطبي في المفهم ٤/ ٢٧١: هذا الحديث لا يصح عند أهل النقل؛ لأن راويه عن أم سلمة نبهان مولاها، وهو ممن لا يحتج بحديثه، وعلى تقدير صحته فذلك تغليظ منه على أزواجه لحرمتهن كما غلظ عليهن أمر الحجاب. اهـ. وهو معارَضٌ بما أخرجه أحمد (٢٧٣٢٧)، ومسلم (١٤٨٠) من حديث فاطمة بنت قيس، أن النبي ﷺ قال لها: «اعتدِّي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك». وينظر التمهيد لابن عبد البر ١٩/ ١٥٤.

ولا يَبْعدُ القولُ بحُرمة نظرِ المرأةِ المرأةَ إلى ما عدا ما بين السرَّةِ والركبة إذا كان بشهوةٍ، ولا تَسْتَبْعِدْ وقوعَ هذا النظرِ؛ فإنه كثيرٌ ممَّن يستعملنَ السحاقَ من النساء، والعياذُ بالله تعالى.

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي: عمَّا لا يحلُّ لهنَّ من الزنى والسِّحاق، أو من الإبداء، أو مما يعمُّ ذلك والإبداء.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: ما يتزيَّنَّ به من الحليِّ ونحوه ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: إلَّا ما جَرتِ العادةُ والجِبِلَّةُ على ظهوره، والأصلُ فيه الظهورُ كالخاتم والفَتْخة[1] والكحل والخضاب فلا مؤاخذةَ في إبدائه للأجانب، وإنما المؤاخذةُ في إبداء ما خفي من الزينة كالسِّوارِ والخلخال والدُّمْلُج والقلادة والإكليل والوشاح والقُرْط.

وذِكْرُ الزينة دون مواقعِها للمبالغة في الأمر بالتستُّر؛ لأن هذه الزِّيَنَ واقعةٌ على مواضعَ من الجسد لا يحلُّ النظر إليها إلا لمن استثني في الآية بعدُ، وهي الذراعُ والساقُ والعَضُدُ والعنقُ والرأسُ والصَّدرُ والأذنُ، فنَهَى عن إبداءِ الزين نفسِها ليعلم أنَّ النظر إذا لم يحلَّ إليها لملابستها تلك المواقع، بدليل أن النظر إليها غيرَ مُلابِسةٍ لها ـ كالنظر إلى سوار امرأة يباع في السوق ـ لا مقال في حلِّه، كان النظرُ إلى المواقع أنفسِها متمكناً في الحظر، ثابتَ القدم في الحرمة شاهداً على أنَّ النساء حقّهنَّ أن يَحْتَطْنَ في سترها، ويتَّقينَ الله تعالى في الكشف عنها. كذا في «الكشاف»[2]. وهو على ما قال الطيبيُّ مشعرٌ بأنَّ ما ذكر من باب الكناية، على نحو قولهم: فلانٌ طاهرُ الجيب طاهرُ الذيل.

وقال صاحب «الفرائد»: هو من باب إطلاق اسم الحالِّ على المحلِّ، فالمراد بالزينة مواقعُها، فيكون حرمة النظر إلى المواقع بعبارة النص لا[3] بدلالته، وهي أقوى. وفيه بحثٌ.

وقيل: الكلامُ على تقدير مضاف، أي: لا يبدينَ مواقعَ زينتهن.

---

(١) بسكون التاء ويحرك: خاتم كبير يكون في اليد والرجل. القاموس (فتخ).
(٢) ٣/ ٦١.
(٣) قوله: لا، ساقط من (م).

وقال ابن المنير: الزينةُ على حقيقتها، وما يأتي إن شاء الله تعالى من قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ﴾ الآيةَ يحقِّق أن إبداء الزينة مقصودٌ بالنهي[١]. وأيضاً لو كان المرادُ من الزينة موقعَها للَزِمَ أن يحلَّ للأجانب النظرُ إلى ما ظهر من مواقع الزِّيَن الظاهرة، وهذا باطل؛ لأنَّ كلَّ بدنِ الحرَّة عورةٌ لا يحلُّ لغير الزوج والمَحْرَمِ النظر إلى شيءٍ منها إلا لضرورة، كالمعالجة وتحمُّل الشهادة.

وأنت تعلم أنَّ ابن المنير مالكيٌّ، وما ذكره مبنيٌّ على مذهبه، وما ذكره الزمخشريُّ مبنيٌّ على المشهور من مذهب الإمام أبي حنيفة، من أنَّ مواقع الزِّيَنِ الظاهرة من الوجه والكفين والقدمين ليست بعورةٍ مطلقاً[٢]، فلا يحرمُ النظر إليها، وقد أخرج أبو داود وابن مردويه والبيهقيُّ عن عائشة ﵂، أنَّ أسماء بنتَ أبي بكر دخلت على النبيِّ ﷺ وعليها ثيابٌ رقاقٌ، فأعرض عنها وقال: «يا أسماء، إنَّ المرأةَ إذا بلغتِ المَحِيضَ لَمْ يَصْلُحْ أنْ يُرَى منها إلَّا هذا» وأشار إلى وجهه وكفِّه ﷺ[٣].

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: رِقعةُ الوجهِ وباطنُ الكفِّ. وأخرجا عن ابن عمر أنه قال: الوجهُ والكفَّانِ[٤].

ولعل القدمين عندهما كالكفَّين، إلَّا أنهما لم يذكراهما اكتفاءً بالعلم بالمقايَسةِ، فإنَّ الحرج في سترهما أشدُّ من الحرجِ في ستر الكفَّين، لا سيما بالنسبة

---

(١) كلام ابن المنير في الانتصاف ٣/ ٦١ إلى هذا الموضع، وما بعده ذكره عنه الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٧٣.

(٢) جاء في حاشية (م): وفي رواية أن الذراعين ليستا بعورة. اهـ منه.

(٣) سنن أبي داود (٤١٠٤)، وسنن البيهقي ٢/ ٢٢٦ و٧/ ٨٦ من طريق سعيد بن بشير، عن قتادة، عن خالد بن دريك عن عائشة ﵂. قال أبو داود: هذا مرسل؛ خالد بن دريك لم يدرك عائشة. اهـ. وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦/ ٥٨: في إسناده سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصري، وقد تكلم فيه غير واحد، وذكر الحافظ أبو أحمد الجرجاني هذا الحديث وقال: لا أعلم مَن رواه عن قتادة غير سعيد بن بشير، وقال مرة فيه: عن خالد بن دريك عن أم سلمة، بدل: عائشة.

(٤) الخبران في مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٢٨٣ و٢٨٤.

إلى أكثر نساءِ العرب الفقيرات، اللاتي يمشينَ لقضاء مصالحهنَّ في الطرقات.

ومذهبُ الشافعيِّ عليه الرحمة كما في «الزواجر» أنَّ الوجه والكفَّين ظَهْرَهما وبطنَهما إلى الكوعين عورةٌ في النظر من المرأة ولو أمةً على الأصحِّ، وإن كانا ليسا عورةً من الحرَّة في الصلاة(١).

وفي «المنهاج» وشَرْحِه لابن حجر في باب شروط الصلاة: عورةُ الأمةِ ولو مبعضةً ومكاتَبةً وأمَّ ولدٍ كعورة الرجل ما بين السرَّةِ والركبة في الأصحِّ، وعورةُ الحرَّةِ ـ ولو غيرَ مميِّزةٍ ـ والخنثى الحرِّ ما سوى الوجهِ والكفَّين، وإنما حرم نظرُهما كالزائد على عورةِ الأمة؛ لأن ذلك مظنةٌ للفتنة، ويجب في الخلوة سترُ سوأة الأمةِ كالرجل، وما بين سرَّةٍ وركبةِ الحرَّةِ فقط، إلا لأدنى غرضٍ كتبريدٍ وخشيةِ غبارٍ على ثوبٍ تجمُّل(٢). انتهى.

وذكر في «الزواجر» حُرْمةَ نظرِ سائرِ ما انفصل من المرأة؛ لأنَّ رؤيةَ البعض ربَّما جرَّ إلى رؤية الكلِّ، فكان اللائقُ حرمةَ نَظَرِه أيضاً، بل قال: حرَّم أئمتنا النظرَ لقُلامةِ ظفرِ المرأة المنفصلةِ ولو من يدها(٣).

وذهب بعضُ الشافعية إلى حِلِّ النظر إلى الوجه والكفِّ إنْ أُمنتِ الفتنةُ، وليس بمعوَّلٍ عليه عندهم. وفسَّر بعضُ أجِلَّتهم «ما ظهر» بالوجه والكفَّين بعد أن ساق الآية دليلاً على أنَّ عورة الحرَّة ما سواهما، وعلَّل حُرْمةَ نظرِهما بمَظِنَّةِ الفتنة، فدلَّ ذلك على أنه ليس كلُّ ما يحرُم نظرُه عورةً.

وأنت تعلم أنَّ إباحة إبداءِ الوجه والكفَّين حَسْبَما تقتضيه الآيةُ عندهم مع القول بحرمة النظر إليهما مطلقاً في غاية البُعد، فتأمَّل.

واعلم أنه إذا كان المرادُ النهيَ عن إبداء مواقع الزينة، وقيل بعمومها الوجهَ والكفين، والتُزِمَ القولُ بكونهما عورةً، وحرمة إبدائهما لغير مَن استثني بعدُ، يجوز أن يكون الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من الحُكْم الثابت بطريق

(١) الزواجر ٢/ ٣.

(٢) تحفة المحتاج ٢/ ١١٠-١١١.

(٣) الزواجر ٢/ ٣، وفيه: .... ولو مع يدها.

الإشارة، وهو المؤاخَذَةُ في دار الجزاء، ويكون المعنى: أن ما ظهر منها من غير إظهارٍ ـ كأنْ كَشَفَتْه الريحُ مثلاً ـ فهنَّ غيرُ مؤاخَذاتٍ به في دار الجزاء، وفي حُكْم ذلك ما لزم إظهارُه لنحوِ تحمُّلِ شهادةٍ ومعالجةِ طبيب.

وروى الطبرانيُّ والحاكم وصحَّحه وابن المنذر وجمعٌ آخرون عن ابن مسعود: أنَّ «ما ظهر» الثيابُ والجلباب[1]. وفي روايةٍ الاقتصارُ على الثياب[2]، وعليها اقتصر أيضاً الإمامُ أحمد، وقد جاء إطلاقُ الزينة عليها في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] على ما في «البحر»[3].

وجاء في بعض الروايات عن ابن عباس أنَّ «ما ظهر»: الكحلُ والخاتم والقرط والقلادة.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عكرمة أنه الكفُّ وثغرةُ النَّحرِ[4].

وعن الحسن: أنه الخاتمُ والسِّوَار. وروي غيرُ ذلك.

ولا يخفى أنَّ بعض الأخبار ظاهرٌ في حمل الزينة على المعنى المتبادِرِ منها، وبعضُها ظاهرٌ في حَمْلِها على مواقعها، وقال ابن بحر: الزينةُ تقعُ على محاسنِ الخَلْقِ التي فعلها الله تعالى، وعلى ما يُتزيَّن به من فضل لباس. والمراد في الآية النهيُ عن إبداء ذلك لمن ليس بمَحْرَمٍ، واستثني ما لا يمكن إخفاؤه في بعض الأوقات كالوجه والأطراف.

وأنكر بعضهم إطلاقَ الزينة على الخِلْقَةِ، قال في «البحر»[5]: والأقربُ دخولُها في الزِّيَن، وأيُّ زينةٍ أحسنُ من الخِلْقةِ المعتدلة؟!

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ إرشادٌ إلى كيفية إخفاءِ بعضِ مواقع الزينة بعد النهي عن إبدائها، والخُمُرُ جمعُ خمار، ويُجمع في القلَّة على أَخْمِرةٍ، وكِلَا

---

(١) المعجم الكبير (٩١١٧)، وشرح معاني الآثار ٤/ ٣٣٢، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٤١. وهو في المستدرك ٢/ ٣٩٧ دون قوله: والجلباب، وهي رواية ستأتي لاحقاً.

(٢) أخرجها ابن أبي شيبة ٤/ ٢٨٣، والطبراني في الكبير (٩١١٥)، والحاكم ٢/ ٣٩٧.

(٣) ٦/ ٤٤٧، وعنه نقل المصنف قول أحمد.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٢٨٥.

(٥) ٦/ ٤٤٨، وعنه نقل المصنف قول ابن بحر.

الجمعين مَقيسٌ، وهو المِقْنَعةُ[١] التي تُلقيها المرأةُ على رأسها، من الخَمْر وهو الستر.

والجيوب جمعُ جيب وهو فتحٌ في أعلى القميص يبدو منه بعضُ الجسد، وأصلُه ـ على ما قيل ـ من الجيب بمعنى القطع، وفي «الصحاح»: تقول: جُبْتُ القميصَ أَجُوبُه وأَجِيبُه، إذا قوَّرْتَ جيبه، قال الراجز:

باتَتْ تَجِيبُ أَدْعَجَ الظلامِ جَيْبَ البِيَطْرِ مِدْرَعَ الهُمَامِ[٢]

وإطلاقُه على ما ذُكِرَ هو المعروفُ لغةً، وأمَّا إطلاقُه على ما يكون في الجَنْبِ لوضع الدراهم ونحوِها ـ كما هو الشائعُ بيننا اليوم ـ فليس من كلام العرب كما ذكره ابن تيميةَ، لكنه ليس بخطأ بحَسَبِ المعنى.

والمراد من الآية كما رَوَى ابنُ أبي حاتم[٣] عن ابن جبير: أَمْرُهنَّ بسترِ نُحورِهنَّ وصدورِهنَّ بخُمُرِهنَّ لئلَّا يُرى منها شيءٌ، وكان النساء يغطِّينَ رؤوسهنَّ بالخُمرِ ويُسْدِلْنَها كعادةِ الجاهلية من وراء الظهر، فيبدو نحورُهنَّ وبعضُ صدورهنَّ.

وصحَّ أنه لمَّا نزلت هذه الآيةُ سارَعَ نساءُ المهاجرين إلى امتثالِ ما فيها، فَشَقَقْنَ مُرُوطَهنَّ فاخْتَمرْنَ بها[٤]، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله تعالى من كتابه.

وعدِّي «يضرب» بـ «على» ـ على ما قال أبو حيَّان ـ لتضمينه معنى الوضعِ والإلقاء[٥]. وقيل: معنى الشد. وظاهرُ كلام الراغب أنه يتعدَّى بـ «على» بدون تضمين[٦].

---

(١) المِقْنَعة والمِقْنَع: ما تقنَّع به المرأة رأسها. القاموس (قنع).

(٢) الصحاح (جوب). وذكر البيت أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١١/٢١٨، وصاحب اللسان (جوب) و(بيطر)، وفيه: البِيَطر: الخياط.

(٣) في تفسيره ٨/٢٥٧٦.

(٤) صحيح البخاري (٤٧٥٨) من حديث عائشة ﵂.

(٥) البحر ٦/٤٤٨.

(٦) مفردات الراغب (ضرب).

وقرأ عيّاش عن أبي عمرو: «ولِيَضْرِبْنَ» بكسر اللام[١]. وطلحة: «بخُمْرِهنَّ» بسكون الميم[٢].

وقرأ غيرُ واحد من السبعة: «جِيوبهنَّ» بكسر الجيم[٣]، والضمُّ هو الأصل لأنَّ فَعْلاً يُجمَعُ على فُعول في الصحيح والمعتلِّ، كفُلوس وبيوت، والكسرُ لمناسبة الياء، وزعم الزجَّاج أنها لغةٌ رديئة[٤].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرِّر النهيُ لاستثناءِ بعض موادِّ الرخصة عنه باعتبارِ الناظر، بعد ما استُثني عنه بعضُ موادِّ الضرورة باعتبار المنظور:

﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجِهنَّ، فإنهم المقصودون بالزينة، والمأموراتُ نساؤهم بها لهم، حتى إنَّ لهم ضَرْبَهنَّ على تَرْكها، ولهم النظرُ إلى جميع بدنهنَّ حتى المحلِّ المعهود، كما في «إرشاد العقل السليم»[٥].

وكَرِهَ النظرَ إلى ذلك أكثرُ الشافعية، وحرَّمه بعضُهم. وقيل: إنه خلافُ الأَوْلَى، وهو ـ على ما قال الخفاجيُّ ـ مذهب الحنفية، وتفصيلُه في «الهداية»[٦].

وفيما ذكرنا إشارةٌ إلى وجه تقديم «بعولتهنَّ».

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكَثْرةِ المخالطةِ الضروريةِ بينهم وبينهنَّ، وقلَّةِ توقُّعِ الفتنة مِن قِبَلهم، ولهم أن ينظروا منهنَّ ما يبدو عند المهنةِ والخدمة.

وهذا الحكمُ ليس خاصّاً بالآباء الأقربين، بل آباءُ الآباء وإن عَلَوْا كذلك، ومِثْلُهم آباءُ الأمَّهات، وكذا ليس خاصّاً بالأبناء والبنين الصُّلْبِيِّينَ، بل يعمُّهم وأبناءَ الأبناءِ وبني البنينَ وإن سفلوا.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠١، والبحر ٦/ ٤٤٨.

(٢) البحر ٦/ ٤٤٨.

(٣) هي قراءة ابن كثير وابن ذكوان وحمزة والكسائي. التيسير ص١٦١، والنشر ٢/ ٢٢٦.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٣٨، وقوله فيه: وذلك عند البصريين رديءٌ جدّاً؛ لأنه ليس في كلام العرب فِعول بكسر الفاء.

(٥) ٦/ ١٧٠.

(٦) حاشية الشهاب ٦/ ٢٧٣، وفتح القدير ٨/ ١٠٥.

والمرادُ بالإخوان ما يشملُ الأعيانَ، وهم الإخوةُ لأبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة، وبني العلَّاتِ وهم أولادُ الرجل من نسوةٍ شتَّى، والأخيافِ وهم أولادُ المرأة من آباءٍ شتَّى، ونظيرُ ذلك يقال في الأخوات. واستُعْمِلَ «بني» معهم دون أبناء لأنه أوفقُ بالعموم، وأكثرُ استعمالاً في الجماعة ينتمون إلى شخصٍ مع عدم اتِّحاد صنفِ قرابتهم فيما بينهم، ألا ترى أنك كثيراً ما تسمع: بني آدم وبني تميم، وقلَّما تسمع: أبناء آدم وأبناء تميم، وفيما نحن فيه قد يجتمع للمرأة ابنُ أخٍ شقيقٍ، وابنُ أخٍ لأبٍ، وابنُ أخٍ لأمٍّ، بل قد يجتمع لها أبناءُ أخٍ شقيقٍ أو إخوةٍ أشقَّاء أعيان، وبنو علَّاتٍ وأبناء أخٍ أو إخوة لأبٍ، وأبناء أخٍ أو إخوة لأمٍّ كذلك، ويتأتَّى مثلُ ذلك في ابن الأخت، لكن لا يتصوَّرُ هنا بنو العلَّاتِ، كما لا يتصوَّر في أبناء الأخ الأخيافُ، والاجتماعُ في أبنائهنَّ وأبناءِ بعولتهنَّ وإن اتفق لكنه ليس بتلك المثابة.

وقيل: اختير في الأخيرين «بني»؛ لأنه لو جيء بأبناء تلاقَتْ همزتان إحداهما همزةُ أبناء والثانيةُ همزةُ إخوان أو أخوات.

وهو على ما فيه لا يحسمُ مادةَ السؤال؛ إذ للسائل أن يقول بعدُ: لِمَ اختير في الأوَّلين «أبناء» دون «بني»؟ ويحتاجُ إلى نحوِ أنْ يقال: اختير ذلك لأنه أوفقُ بآباء.

وقيل: اختير «أبناء» في الأوَّلين لهذا، واختير «بني» في «بني أخواتهن» ليكون المضافُ والمضافُ إليه من نوعٍ واحد، وفي «بني إخوانهن» للمشاكلة. وفيه ما فيه.

ولم يذكر سبحانه الأعمامَ والأخوالَ مع أنهم ـ كما قال الحسن وابن جبير ـ كسائر المحارم في جواز إبداء الزينة لهم؛ قيل: لأنهم في معنى الإخوان من حيث كونُ الجدِّ سواءٌ كان أبَ الأبِ أو أبَ الأمِّ في معنى الأب، فيكون ابنُه في معنى الأخ.

وقيل: لم يذكرهم سبحانه لِمَا أنَّ الأحوط أن يستَتِرْنَ عنهم حذاراً[١] من أن يصفوهنَّ لأبنائهم، فيؤدِّي ذلك إلى نظر الأبناء إليهنَّ. وأخرج ذلك ابنُ المنذر وابن أبي شيبةَ عن الشعبيِّ[٢]، وفيه من الدلالة على وجوب التستُّر من الأجانب ما فيه.

---

(١) في الأصل: حذراً.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٤/٣٣٨، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٥/٤٢.

وضعِّفَ بأنه يجري في آباء البعولة؛ إذ لو رأوا زينتهنَّ لربما وصفوهن لأبنائهم، وهم ليسوا مَحارِمَ، فيؤدِّي إلى نظرهم إليهنَّ لا سيما إذا كنَّ خليَّات.

وقيل: لم يُذكروا اكتفاءً بذكر الآباء، فإنهم عند الناس بمنزلتهم، لا سيما الأعمام، وكثيراً ما يُطْلَقُ الأب على العمِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤]. ثم إن المحرميَّة المبيحةَ للإبداء كما تكون من جهة النَّسَبِ تكون من جهة الرضاع، فيجوزُ أن يُبْدينَ زينتهنَّ لآبائهنَّ وأبنائهنَّ مثلاً من الرضاع.

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ المختصَّاتِ بهنَّ بالصُّحبة والخدمة من حرائر المؤمنات، فإنَّ الكَوَافِرَ لا يتحرَّجْنَ أن يَصِفْنَهنَّ للرجال، فهنَّ في إبداء الزينة لهنَّ كالرجال والأجانب، ولا فرقَ في ذلك بين الذِّميةِ وغيرِها، وإلى هذا ذهب أكثرُ السلف.

وأخرج سعيد بن منصور وابنُ المنذر، والبيهقيُّ في «سننه» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه كتب إلى أبي عبيدةَ رضي الله عنه: أمَّا بعدُ، فإنه بلغني أنَّ نساءً من نساء المسلمين يدخُلْنَ الحمامات مع نساءِ أهل الشرك، فانْهَ من قِبَلَكَ عن ذلك، فإنه لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ أن تنظر إلى عورتها إلا مَن كانت من أهل ملَّتها[1].

وفي «روضة» النووي: في نظر الذمية إلى المسلمة وجهان أصحُّهما عند الغزاليِّ أنها كالمسلمة، وأصحُّهما عند البغويِّ المنعُ[2].

وفي «المنهاج» له: الأصحُّ تحريمُ نظرِ ذميةٍ إلى مسلمة[3]. ومقتضاه أنها معها كالأجنبيِّ، واعتمده جمعٌ من الشافعية، وقال ابن حجر[4]: الأصحُّ تحريمُ نظرها إلى ما لا يبدو في المهنة من مسلمةٍ غيرِ سيدتها ومَحْرَمِها، ودخولُ الذِّميات على أمَّهاتِ المؤمنين الواردُ في الأحاديث الصحيحة دليلٌ لحِلِّ نظرها منها ما يبدو في المهنة.

---

(١) سنن البيهقي ٧/ ٩٥، وعزاه لسعيد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٤٣، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق في المصنف (١١٣٤).

(٢) روضة الطالبين ٧/ ٢٥.

(٣) المنهاج مع تحفة المحتاج على هامش حاشية الشرواني ٧/ ٢٠٠.

(٤) في تحفة المحتاج ٧/ ٢٠٠.

وقال الإمام الرازيُّ: المذهبُ أنها كالمُسْلمة، والمرادُ بـ «نسائهنَّ» جميع النساء، وقولُ السلف محمولٌ على الاستحباب(١). وهذا القولُ أرفقُ بالناس اليومَ، فإنه لا يكاد يمكنُ احتجابُ المسلماتِ عن الذمِّيات.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ أي: من الإماء ولو كوافرَ، وأما العبيدُ فهم كالأجانب، وهذا مذهبُ أبي حنيفة ﷺ، وأحدُ قولين في مذهب الشافعيِّ عليه الرحمةُ، وصحَّحه كثيرٌ من الشافعية. والقولُ الآخر أنهم كالمحارم وصحِّح أيضاً، ففي «المنهاج» وشرحه لابن حجر: والأصحُّ أنَّ نظر العبد العَدْلِ ـ ولا يكفي العفَّةُ عن الزنى فقط ـ غيرِ المشترَكِ والمبعَّضِ، وغيرِ المكاتَب كما في «الروضة» عن القاضي وأقرَّه وإن أطالوا في ردِّه = إلى سيدته المتَّصفة بالعدالة كالنظر إلى مَحْرَم، فينظر منها ما عدا ما بين السرَّةِ والركبة، وتنظرُ منه ذلك، ويُلْحَقُ بالمَحْرَمِ أيضاً في الخلوة والسفر(٢). اهـ بتلخيصٍ.

وإلى كون العبد كالأَمَةِ ذهب ابنُ المسيب، ثم رجع عنه وقال: لا يغرَّنكم آيةُ «النور»، فإنها في الإناث دون الذكور. وعلَّل بأنهم فحولٌ ليسوا أزواجاً ولا محارمَ، والشهوةُ متحقِّقةٌ فيهم لجواز النكاح في الجملة، كما في «الهداية»(٣).

وروي عن ابن مسعود والحسن وابن سيرين أنهم قالوا: لا ينظرُ العبدُ إلى شعرِ مولاته.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن طاوسٍ [ومجاهد قالا: لا يَنْظُرُ المملوكُ لشعر سيدته، قالا: وفي بعض القراءة: «أو ما مَلَكَتْ أيمانكم الذين لم يبلغوا الحلم». وأخرج عبد الرزاق عن عطاء] أنه سُئل: هل يَرَى غلامُ المرأةِ رأسَها وقَدَمَها؟ قال: ما أُحِبُّ ذلك إلَّا أنْ يكون غلاماً يسيراً، فأمَّا رجلٌ ذو لحيةٍ فلا(٤).

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٠٧.
(٢) تحفة المحتاج ٧/ ١٩٦.
(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٣٧٤، وفتح القدير ٨/ ١٠٨-١٠٩.
(٤) الدر المنثور ٥/ ٤٣، وما بين حاصرتين منه، والخبران في مصنف عبد الرزاق (١٢٨٢٥) و(١٢٨٢٧).

ومذهبُ عائشةَ وأمِّ سلمة رضي الله عنهما، ورُويَ عن بعض أئمة أهل البيت رضي الله عنهم أنه يجوزُ للعبد أن ينظر من سيدته ما ينظرُ أولئك المستَثْنَون.

وروي عن عائشة أنها كانت تمتشطُ وعبدُها ينظر إليها. وأنها قالت لذكوان: إذا وضعتني في القبر وخرجتَ فأنْتَ حرٌّ[(١)]. وعن مجاهد: كانت أمَّهاتُ المؤمنين لا يَحْتَجِبْنَ عن مُكاتَبِهنَّ ما بقي درهمٌ.

وأخرج أحمد في «مسنده»[(٢)] وأبو داود وابن مردويه والبيهقيُّ عن أنس رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ أتى فاطمة رضي الله عنها بعبدٍ قد وَهَبَه لها، وعلى فاطمةَ رضي الله عنها ثوبٌ، إذا قنَّعت به رأسَها لم يبلغ رجليها، وإذا غطَّت به رجليها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبيُّ ﷺ ما تَلْقَى قال: «إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوك وغلامُك»[(٣)].

والذي يقتضيه ظاهرُ الآية عدمُ الفرق بين الذكر والأنثى؛ لعموم «ما»، ولأنه لو كان المراد الإناثَ خاصةً لقيل: أو إمائهنَّ، فإنه أَخْصَرُ ونصٌّ في المقصود، وإذا ضُمَّ الخبرُ المذكور إلى ذلك قَوِيَ القولُ بعدم الفَرْقِ، والتفصِّي عن ذلك صعبٌ.

وأحسنُ ما قيل في الجواب عن الخبر: إنَّ الغلام فيه كان صبياً؛ إذ الغلامُ يختصُّ حقيقةً به، فتأمَّل.

وخَرَج بإضافة الملكِ إليهنَّ عبدُ الزوج، فهو والأجنبيُّ سواءٌ، قيل: وجَعَلَه بعضُهم كالمَحْرَم لقراءة: «أو ما ملكت أيمانكم»[(٤)].

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي: الذين يَتْبعون ليُصيبوا من فَضْلِ الطعام غيرِ أصحاب الحاجة إلى النساء، وهم الشيوخُ الطاعنون في السنِّ الذين فَنَتْ شهواتُهم، والممسوحون الذين قُطِعتْ ذكورهم وخصَاهم، وفي المجبوب وهو الذي قُطع ذكرهُ، والخصيِّ وهو مَن قُطِعَ خصاه، خلافٌ، واختير أنهما في

---

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق (١٣٦١٦).

(٢) كذا نقل المصنف عن حاشية الشهاب ٦/ ٣٧٤، ولم نقف عليه في المسند.

(٣) سنن أبي داود (٤١٠٦)، وسنن البيهقي ٧/ ٩٥، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٤٣. قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/ ١٤٨: فيه سالم أبو جميع مختلف فيه.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩.

حرمة النظر كغيرهما من الأجانب، وكان معاويةُ يرى جوازَ نظر الخصيِّ، ولا يُعتدُّ برأيه، وهو - على ما قيل - أولُ مَن اتَّخذ الخصيان. وعن ميسون الكلابيةَ أنَّ معاوية دخل عليها ومعه خصيٌّ، فتقنَّعتْ منه، فقال: هو خصيٌّ. فقالت: يا معاويةُ، أَتَرى أنَّ المُثْلَةَ به تحلِّلُ ما حرَّم الله تعالى[1]. وليس له أن يستدلَّ بما رُوي: أنَّ المقوقس أَهْدَى للنبيّ ﷺ خصيّاً، فقَبِله[2]، إذ لا دلالةَ فيه على جواز إدخاله على النساء.

وأخرج ابن جريرٍ وجماعةٌ عن مجاهدٍ أنَّ «غير أولي الإربة»: الأبلهُ الذي لا يَعْرِفُ أمرَ النساء[3]. وروي ذلك عن أبي عبد الله رضي الله عنه.

وعن ابن جُبير: أنه المعتوه، ومثلُه المجنون كما قال ابن عطية[4].

وأخرج ابن المنذر[5] وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه المخنَّثُ الذي لا يقوم زبُّه. لكنْ أخرج مسلم وأبو داود والنسائيُّ وغيرُهم عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: كان رجلٌ يدخلُ على أزواج النبيِّ ﷺ مخنَّثٌ، فكانوا يَعُدُّونه من غير أولي الإربة، فدخل النبيُّ عليه الصلاة والسلام يوماً وهو عند بعض نسائه، وهو ينعتُ امرأةً قال: إذا أقبلتْ أقبلَتْ بأربع، وإذا أدبرتْ أدبرتْ بثمانٍ. فقال النبيُّ ﷺ: «ألا ترى هذا يعرفُ ما هاهنا، لا يدخلْ عليكن» فحَجَبوه[6].

---

(١) الكشاف ٣/ ٦٢، وقال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١١٧: ذكره المسعودي في مروج الذهب بغير إسناد. وما وقع في الكشاف من قوله: الكلابية، خطأ، والصواب كما قال ابن حجر: الكَلْبية بسكون اللام.

(٢) أخرجه الحاكم ٤/ ٣٨ مطولاً. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١١٨: وقع ذكر الخصيِّ هذا في عدة أحاديث.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٢٦٨، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٤/ ٣١٨.

(٤) نقله المصنف بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٤٨-٤٤٩، ووقع في مطبوع المحرر الوجيز ٤/ ١٧٩ بدلاً عنه: المجبوب.

(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ٤٨.

(٦) صحيح مسلم (٢١٨١)، وسنن أبي داود (٤١٠٧)، وسنن النسائي الكبرى (٩٢٠٣)، وجاء عندهم بدل «ألا ترى»: «ألا أرى». وفي الباب عن أم سلمة عند البخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠).

وجاء أنه عليه الصلاة والسلام أخرجه، فكان بالبيداء يدخل كلَّ جمعةٍ يَسْتَطْعِمُ[(١)].

ولعل الأَوْلَى حملُ غيرِ أولي الإربة على الذين لا حاجةَ لهم بالنساء، ولا يعرفون شيئاً من أمورهنَّ، بحيث لا تحدِّثُهم أنفسُهم بفاحشةٍ، ولا يَصِفونهنَّ للأجانب.

ولا أرى الاكتفاءَ في غير أولي الإربة بعدم الحاجة إلى النساء؛ إذ لا تنتفي مفسدةُ الإبداء بالكلِّية كما لا يخفى. ولعل في الخبر نوعُ إيماءٍ إلى هذا؛ وفي «المنهاج» وشرحه لابن حجر عليه الرحمة: والأصحُّ أنَّ نَظَرَ المَمْسوحِ ذَكَرُه كلُّه وأُنثياه، بشرطِ أنْ لا يبقى فيه ميلٌ للنساء أصلاً، وإسلامِه[(٢)] في المسلمة، ولو أجنبيًّا لأجنبيةٍ متَّصفةٍ بالعدالة = كالنظر إلى مَحْرَم، فينظر منها ما عدا ما بين السرَّةِ والركبة، وتنظرُ منه ذلك، ويُلحق بالمَحْرَمِ أيضاً في الخلوة والسفر[(٣)]. ويُعلم منه أنَّ التمثيل بالممسوح فيما سبق ليس على إطلاقه.

وأما الشيخُ الهِمُّ[(٤)] والمخنَّثُ فهما عند الشافعية في النظر إلى الأجنبيات ليسا كالممسوح، وصحَّحوا أيضاً أنَّ المجنون يجب الاحتجابُ منه فلا تغفل.

وجرُّ «غير»؛ قيل: على البدلية لا الوصفية؛ لاحتياجها إلى تكلُّفِ جَعْلِ «التابعين» لعَدَمِ تعيُّنهم كالنكرة، كما قاله الزجَّاج[(٥)]، أو جَعْلِ «غير» متعرِّفاً بالإضافة هنا مثلها في «الفاتحة»، وفيه نظر.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر: «غيرَ» بالنصب على الحال أو الاستثناء[(٦)].

---

(١) أخرجه بهذه الرواية أبو داود (٤١٠٩).
(٢) قوله: وإسلامِهِ، بالجر عطفاً على «أن لا يبقى».
(٣) تحفة المحتاج ٧/ ١٩٦.
(٤) هو الهرم الفاني. حاشية الشهاب ٦/ ٣٧٤.
(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ١/ ٥٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٧٤.
(٦) في الأصل و(م): والاستثناء، والمثبت من البحر ٦/ ٤٤٩، وهو الصواب. والقراءة عن ابن عامر وأبي بكر في التيسير ص١٦١، والنشر ٢/ ٣٣١-٣٣٢، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: الأطفالِ الذين لم يعرفوا ما العورةُ، ولم يميِّزوا بينها وبين غيرها، على أنَّ «لم يَظْهَروا» إلخ من قولهم: ظَهَرَ على الشيء، إذا اطَّلع عليه، فجُعل كنايةً عن ذلك.

أو: الذين لم يبلغوا حدَّ الشهوة والقدرةِ على الجماع، على أنه مِن ظَهَرَ على فلان: إذا قَوِيَ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] ويشمل الطفلُ الموصوفُ بالصفة المذكورة بهذا المعنى المراهقَ الذي لم يظهر منه تشوُّقٌ للنساء، وقد ذكر بعضُ أئمة الشافعية أنه كالبالغ فيلزمُ الاحتجابُ منه على الأصحِّ، كالمراهق الذي ظهر منه ذلك، ويشمل أيضاً مَن دونَ المراهق، لكنَّه بحيث يَحْكي ما يراه على وجهه. وذكروا في غير المراهق أنه إن كان بهذه الحيثية فكالمَحْرَمِ، وإلَّا فكالعَدَمِ، فيباحُ بحضوره ما يباحُ في الخلوة، فلا تغفل.

والظاهرُ أنَّ «الطفل» عطفٌ على قوله تعالى: (لِبُعُولَتِهِنَّ) أو على ما بعده من نظائره، لا على «الرجال»، وكلامُ أبي حيَّان ظاهرٌ في أنه عطفٌ عليه(١)، وليس بشيء.

ثم هو مفردٌ محلًّى بـ «أل» الجنسيةِ فيعمُّ، ولهذا ـ كما قال في «البحر»- وُصِفَ بالجمع. فكأنه قيل: أو الأطفال، كما هو المرويُّ عن مصحفِ حفصةَ، ومثلُ ذلك قولُهم: أهلك الناسَ الدينارُ الصُّفرُ والدرهمُ البِيضُ(٢).

وقيل: هو مفردٌ وُضع موضعَ الجمع، ونحوُه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].

وتعقِّب بأنَّ وضع المفرد موضعَ الجمع لا ينقاسُ عند سيبويه(٣)، وما هنا عنده من باب المفرد المعرَّف بلام الجنس، وهو يعمُّ بدليل صحةِ الاستثناء منه.

والآيةُ المذكورةُ يحتمل أن تكون عنده على معنى: ثم يخرجُ كلَّ واحدٍ منكم طفلاً، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١] أنه على معنى:

(١) البحر ٦/ ٤٤٩.
(٢) المصدر السابق.
(٣) كما في البحر ٦/ ٤٤٩، والكلام منه.

وأَعْتدَتْ لكلِّ واحدةٍ منهنَّ متكأ، فلا يتعيَّنُ كونُ «طفلاً» فيها مما لا ينقاسُ عنده.

وقال الراغب: إنَّ «طفلاً» يقعُ على الجمع كما يقع على المفرد(١). ونصَّ على ذلك الجوهريُّ(٢)، وكذا قال بعضُ النحاة: إنه في الأصل مصدرٌ، فيقع على القليل والكثير، والأمرُ على هذا ظاهرٌ جدًّا.

والعَوْرات: جمعُ عورةٍ، وهي في الأصل ما يُحْتَرَزُ من الاطِّلاع عليه، وغَلَبَتْ في سوأة الرجل والمرأة، ولغةُ أكثرِ العرب تسكينُ الواو في الجمع، وهي قراءةُ الجمهور.

وروي عن ابن عامر أنه قرأ: «عَوَرَات» بفتح الواو(٣)، والمشهور أنَّ تحريك الواوِ وكذا الياءُ في مثل هذا الجمع لغةُ هذيل بن مدركة. ونقل ابن خالويه في كتاب «شواذِّ القراءات» أنَّ ابن أبي إسحاق والأعمش قرأا: «عَوَرَات» بالفتح، ثم قال: وسمعنا ابنَ مجاهدٍ يقول: هو لحنٌ، وإنَّما جَعَله لحناً وخطأً من قِبَلِ الرواية، وإلَّا فله مذهبٌ في العربية، فإنَّ بني تميم يقولون: رَوَضَات وجَوَزَات وعَوَرَات بالفتح فيها، وسائرُ العرب بالإسكان(٤).

وقال الفرَّاء(٥): العربُ على تخفيف ذلك إلَّا هذيلاً، فتثقِّل ما كان من هذا النوع من ذوات الياء والواو؛ وأنشدني بعضُهم:

أبو بَيَضاتٍ رائحٌ مُتَأَوِّبٌ(٦) رفيقٌ بمسح المنكبين سَبُوحُ(٧)

---

(١) مفردات الراغب (طفل).

(٢) في الصحاح (طفل).

(٣) ذكرها عنه الداني في جامع البيان ٢/ ٣٠٨ من رواية يحيى عنه، وهي ليست في التيسير ولا في النشر.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٣، عند ذكر شواذِّ الآية (٥٨) من هذه السورة. ونقله المصنف بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٤٩.

(٥) كما في البحر ٦/ ٤٤٩.

(٦) في الأصل و(م): متأدب، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٧) الخصائص ٣/ ١٨٤، واللسان (بيض)، وأسرار العربية ص٣٠٨، وشرح المفصل ٥/ ٣٠، والخزانة ٨/ ١٠٢. وفيه: والبيت على كثرة وجوده في كتب النحو لم أطَّلع على قائله ولا على تتمته. والرائح: الذي يسير ليلاً، والمتأوِّب: الذي يسير نهاراً، يقول: ناقتي في =

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ﴾ أي: ما يَسْتُرْنَه عن الرؤية ﴿مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا يَضْرِبْنَ بأَرْجُلِهنَّ الأرضَ ليتقعْقَعَ خَلاخِلُهنَّ فيُعْلَمَ أنَّهنَّ ذَوَاتُ خَلاخِلَ، فإنَّ ذلك مما يُوْرِثُ الرجالَ ميلاً إليهنَّ، ويُوْهِمُ أنَّ لهنَّ ميلاً إليهم.

أخرج ابنُ جرير عن حضرميٍّ: أنَّ امرأةً اتَّخذَتْ خلخالاً من فضَّةٍ، واتَّخذتْ جَزْعاً، فمرَّتْ على قوم فضربت برجلها، فوقع الخلخالُ على الجَزْعِ فصوَّتَ، فأنزل الله تعالى: (وَلَا يَضْرِبْنَ) إلخ(١).

والنساءُ اليومَ على جَعْلِ الخرز ونحوِها في جوف الخلخال، فإذا مَشَيْنَ به ولو هوناً صَوَّتَ، ولهنَّ من أنواع الحليِّ غير الخلخال ما يصوِّتُ عند المشي أيضاً، لا سيما إذا كان مع ضَرْبِ الرِّجْلِ وشدَّةِ الوطء، ومِن الناس مَن يحرِّكُ شهوتَه وسوسةُ الحليِّ أكثر من رؤيته.

وفي النهي عن إبداء صوت الحليِّ ـ بعد النهي عن إبداء عينه ـ من النهي عن إبداء مواضعه ما لا يخفى. وربما يستدلُّ بهذا النهي على النهي عن استماع صوتهنَّ.

والمذكورُ في معتبرات كتب الشافعية ـ وإليه أميلُ ـ أنَّ صوتهنَّ ليس بعورةٍ، فلا يَحرمُ سماعُه إلا إن خُشي منه فتنةٌ، وكذا إن التذَّ به، كما بَحَثَه الزركشيُّ.

وأمَّا عند الحنفية فقال الإمام ابنُ الهمام(٢): صرَّح في «النوازل» أنَّ نغمة المرأة عورةٌ، ولذا قال النبيُّ ﷺ: «التكبير للرجال والتصفيقُ للنساء»(٣) فلا يَحْسنُ أن يسمعها الرجل. اهـ.

ثم اعْلَمْ أنَّ عندي مما يلحقُ بالزينة المنهيِّ عن إبدائها ما يلبسُه أكثر مُتْرَفاتِ النساء في زماننا فوق ثيابهنَّ ويتستَّرْنَ به إذا خَرَجْنَ من بيوتهنَّ، وهو غطاءٌ منسوجٌ

= سرعة سيرها كظليم (وهو ذكر النعام) له بيضاتٌ، يسير ليلاً ونهاراً ليصل إلى بيضاته. رفيق بمسح المنكبين: عالمٌ بتحريكهما في السير. سَبُوح: حَسَنُ الجَرْي. وقيل في شرحه غير ذلك. ينظر الخزانة ٨/ ١٠٥.

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٢٧٢. والجَزَع: الخرز اليماني. القاموس (جزع).

(٢) في فتح القدير ١/ ١٨١.

(٣) أخرجه أحمد (٧٢٨٥)، والبخاري (١٢٠٣)، ومسلم (٤٢٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

من حريرٍ ذي عدَّةِ ألوانٍ، وفيه من النقوش الذهبية أو الفضية ما يبهرُ العيونَ، وأرى أنَّ تمكين أزواجهنَّ ونحوِهم لهنَّ من الخروج بذلك، ومَشْيِهنَّ به بين الأجانب، من قلَّةِ الغيرة، وقد عمَّت البَلْوَى بذلك.

ومثلُه ما عمَّتْ به البلوى أيضاً من عدم احتجاب أكثرِ النساء من إخوان بعولتهنَّ، وعدمِ مبالاة بعولتهنَّ بذلك، وكثيراً ما يأمرونهنَّ به. وقد تحتجبُ المرأة منهم بعد الدخول أياماً إلى أن يعطوها شيئاً من الحليِّ ونحوه، فتبدو لهم ولا تحتجبُ منهم بعدُ.

وكلُّ ذلك مما لم يأذنْ به الله تعالى ورسولُه ﷺ، وأمثالُ ذلك كثيرٌ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ تلوينٌ للخطاب، وصرفٌ له عن رسول الله ﷺ إلى الكلِّ بطريق التغليب؛ لإبراز كمال العناية بما في حيِّزه من أمر التوبة، وأنها من معظَّماتِ المُهِمَّات الحقيقةِ[1] بأنْ يكون سبحانه وتعالى الآمرَ بها؛ لِمَا أنه لا يكاد يخلو أحدٌ من المكلَّفين عن نوعِ تفريطٍ في إقامةِ مَواجِبِ التكاليف كما ينبغي، لا سيما في الكفِّ عن الشهوات.

وقد أخرج أحمد والبخاريُّ في «الأدب المفرد» ومسلمٌ وابن مردويه والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن الأغرِّ ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يا أيها الناسُ، توبوا إلى الله فإنِّي أتوبُ إليه كلَّ يوم مئةَ مرَّةٍ»[2]. والمراد بالتوبة على هذا التوبة عمَّا في الحال، وعن ابن عباس ﷺ أن المراد التوبةُ عما كانوا يفعلونه قبلُ من إرسال النظر وغيرِ ذلك، وهو وإن جُبَّ بالإسلام لكنه يلزم الندَمُ عليه، والعزمُ على الكفِّ عنه كلما يتذكَّر، وقد قالوا: إن هذا يلزم كلَّ تائبٍ عن خطيئة إذا تذكَّرها. ومنه يُعلم أنَّ ما يفعلُه كثيرٌ ممن يزعمون التوبةَ، من نَقْلِ ما فعلوه من الذنوب على وجه التبجُّح والاستلذاذ، دليلٌ على[3] عدم صدق توبتهم.

---

(١) في الأصل من (م): الحقيقية، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ١٧١، والكلام منه.

(٢) مسند أحمد (١٧٨٤٧)، والأدب المفرد (٦٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٠٢)، وشعب الإيمان (٧٠٢٢).

(٣) في (م): عن.

وفي تكرير الخطاب بقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيدٌ للإيجاب، وإيذانٌ بأنَّ وصف الإيمان موجبٌ للامتثال حتماً، وفي هذا دليلٌ على أنَّ المعاصي لا تُخرِجُ عن الإيمان.

وقرأ ابن عامر: «أيُّهُ المؤمنون» بضم الهاء[1]، ووجهُه أنها كانت مفتوحةً لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألفُ لالتقاء الساكنين أُتْبِعَتْ حركتُها حركةَ ما قبلها، وضمُّ «ها» التي للتنبيه بعد «أي» لغةٌ لبني مالك رَهْطِ شقيق بن سلمة[2].

ووقف بعضُهم بسكون الهاء لأنها كُتبت في المصحف بلا ألفٍ بعدها، ووقف أبو عمرو والكسائيُّ ويعقوب ـ كما في «النشر» ـ بالألف على خلاف الرسم[3].

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي: لكي تفوزوا بذلك بسعادةِ الدارين، أو مَرْجوّاً فَلَاحُكم.

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ بعدما زَجَرَ سبحانه عن السِّفاح ومباديه القريبةِ والبعيدة أَمَر بالنكاح، فإنه مع كونه مقصوداً بالذات من حيث كونُه مَناطاً لبقاء النوع على وجهٍ سالمٍ من اختلاط الأنساب [خيرُ] مزجرةٍ عن[4] ذلك.

و«الأيامى» ـ كما نقل في «التحرير» عن أبي عمرو، وإليه ذهب الزمخشريُّ[5] ـ مقلوبُ أيايم جمع أَيِّم؛ لأن فَيْعَل لا يجمعُ على فَعَالَى، أي: أن أصله ذلك فقدِّمت الميم وفُتحت للتخفيف، فقُلبت الياءُ ألفاً لتحرُّكها وانفتاح ما قبلها، وذهب ابن مالك ومَن تبعه إلى أنه جمعٌ شاذٌّ لا قَلْبَ فيه، ووزنُه فَعَالَى، وهو ظاهرُ كلام سيبويه[6].

---

(١) التيسير ص١٦١، والنشر ٢/ ١٤٢.

(٢) في الأصل و(م): مسلمة. وهو تصحيف، والمثبت من البحر ٦/ ٤٥٠، والكلام منه.

(٣) النشر ٢/ ١٤١-١٤٢، وهي عن أبي عمرو والكسائي في التيسير ص١٦٢.

(٤) في الأصل و(م): من، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ١٧١، والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٥) في الكشاف ٣/ ٦٣.

(٦) ينظر الكتاب ٣/ ٦٥٠، والبحر ٦/ ٤٥١.

والأيِّمُ قال النضر بن شميل: كلُّ ذكرٍ لا أنثى معه، وكلُّ أنثى لا ذَكَر معها، بكراً أو ثيِّباً، ويقال: آمَ وآمَتْ: إذا لم يتزوَّجا، بكرين كانا أو ثيِّبيْنِ، قال:

فإنْ تَنْكِحي أَنْكِحْ وإنْ تتأيَّمي وإنْ كنتُ أَفْتَى منكمُ أتأيَّمِ[1]

وقال التبريزيُّ في «شرح ديوان أبي تمام»: قد كثر استعمالُ هذه الكلمة في الرجل إذا ماتت امرأتُه، وفي المرأة إذا مات زوجُها، وفي الشعر القديم ما يدلُّ على أنَّ ذلك بالموت، وبتَرْكِ الزوج من غير موتٍ، قال الشمَّاخ:

يُقِرُّ لعيني أن أحدِّث أنها وإنْ لمْ أنَلْها أيمٌ لم تزوَّجِ[2]

انتهى.

وفي «شرح كتاب سيبويه» لأبي بكر الخفاف[3]: الأيِّم التي لا زوجَ لها، وأصلُه هي التي كانت متزوجةً ففقدت زوجَها برزءٍ طرأ عليها، ثم قيل في البكر مجازاً لأنها لا زوجَ لها.

وعن محمد أنها الثيِّبُ، واستدلَّ له بما روي أنه ﷺ قال: «الأيِّمُ أحقُّ بنفسها من وليِّها، والبِكْرُ تستأذَنُ في نفسها، وإذْنُها صُماتُها»[4] حيث قابلها بالبكر.

وفيه أنه يجوز أن تكون مشتركةً لكنْ أريدَ منها ذلك لقرينةِ المقابلة.

والأكثرون على ما قاله النضر، أي: زوِّجوا مَن لا زوجَ له من الأحرار والحرائر ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ على أنَّ الخطاب للأولياء والسادات، والمراد بالصَّلاح معناه الشرعيُّ، واعتبارُه في الأرِقَّاء لأنَّ مَن لا صلاحَ له منهم بمعزلٍ من أن يكون خليقاً بأنْ يعتنيَ مولاه بشأنه، ويُشْفِقَ عليه، ويتكلَّفَ في نَظْم مصالحه بما لا بدَّ منه شرعاً وعادةً من بَذْلِ المال والمنافع، بل ربما يَحْصُلُ له

---

(١) مجاز القرآن ٢/ ٦٥، وتفسير الطبري ١٧/ ٢٧٤، وتفسير القرطبي ١٥/ ٢٣٠.

(٢) ديوان الشماخ ص٧٦. وفيه: يقر بعيني...

(٣) أبو بكر بن يحيى بن عبد الله الجذامي المالقي النحوي، قرأ النحو على الشلوبين، وكان رجلاً صالحاً، له: شرح سيبويه، وشرح إيضاح الفارسي، وشرح لمع ابن جني، توفي سنة (٦٥٧هـ). بغية الوعاة ١/ ٤٧٣.

(٤) أخرجه أحمد (١٨٨٨)، ومسلم (١٤٢١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ضررٌ منه بتزويجه، فحقُّه أن يستبقيَه عنده. ولمَّا لم يكن مَن لا صلاحَ له من الأحرار والحرائر بهذه المثابة لم يُعتبر صلاحُهم.

وقيل: المرادُ بالصلاح معناه اللغويُّ، أي: الصالحين للنكاح والقيامِ بحقوقه.

والأمرُ هنا قيل: للوجوب، وإليه ذهب أهلُ الظاهر، وقيل: للندب، وإليه ذهب الجمهور.

ونقل الإمام عن أبي بكر الرازيِّ: أنَّ الآية وإنِ اقتضتِ الإيجابَ إلَّا أنه أجمع السلفُ على أنه لم يُرِدِ الإيجاب، ويدلُّ عليه أمورٌ:

أحدها: أنَّ الإنكاح لو كان واجباً لكان النقلُ بفِعْلِه من النبيِّ ﷺ ومن السلف مستفيضاً شائعاً؛ لعموم الحاجة، فلمَّا وجدنا عَصْرَه عليه الصلاة والسلام وسائرَ الأعصار بعده قد كانت فيه أيامى من الرجال والنساء ولم يُنْكَر ذلك، ثبت أنه لم يُرِدْ بالأمر الإيجاب.

وثانيها: أنَّا أجمعنا على أنَّ الأيم الثيِّب لو أبت التزويج لم يكن للوليِّ إجبارُها.

وثالثها: اتِّفاقُ الكلِّ على أنه لا يجبُ على السيد تزويجُ أَمتِه وعبدِه، فيقتضي للعطف عدمَ الوجوب في الجميع.

ورابعها: أن اسم الأيامى ينتظمُ الرجالَ والنساء، فلمَّا لزم في الرجال تزويجُهم بإذنهم لزم ذلك في النساء[1]. انتهى.

وقال الإمامُ نفسُه: ظاهرُ الأمرِ للوجوب، فيدلُّ على أنَّ الوليَّ يجب عليه تزويجُ موليته، وإذا ثبت هذا وجب أنْ لا يجوز النكاحُ إلا بوليٍّ، وإلا لفوَّتت المولية على الوليِّ المكنةَ من أداء هذا الواجب، وإنه غير جائز.

والجوابُ عمَّا نُقِلَ عن أبي بكر: أنَّ جميع ما ذكره تخصيصاتٌ تطرَّقتْ إلى الآية، والعامُّ بعد التخصيص يبقى حجةً، فوجب إذا التمستِ المرأة الأيِّمُ من الوليِّ التزويجَ وجب[2]. انتهى.

---

(١) تفسير الرازي ٢٣/ ٢١١، وكلام أبي بكر الجصاص الرازي في أحكام القرآن له ٣/ ٣١٩-٣٢٠.
(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٢١١.

وفي «الإكليل»: استَدلَّ بعموم الآية مَن أباح نكاحَ الإماء بلا شرطٍ، ونكاحَ العبدِ الحرَّةَ[1].

وأنت تعلم أنها لم تَبْقَ على العموم. والذي أميل إليه أنَّ الأمر لمُطْلَقِ الطلب، وأنَّ المراد من الإنكاح المعاونةُ والتوسُّطُ في النكاح، أو التمكينُ منه، وتوقُّفُ صحته في بعض الصور على الوليِّ يُعْلَمُ من دليلٍ آخر. والاستدلالُ بهذه الآية على اشتراط الوليِّ، وعلى أنَّ له الجبرُ في بعض الصور، لا يخلو عن بحثٍ، ودون تمامه خَرْطُ القتاد، فتدبر.

وقرأ الحسن ومجاهد: «من عبيدكم» بالياء مكانَ الألف وفتح العين[2]، وهو كالعباد جمعُ عبد، إلَّا أنَّ استعماله في المماليك أكثرُ من استعمال العباد فيهم.

﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الظاهر أنه وَعْدٌ من الله عزَّ وجلَّ بالإغناء، وأخرج ذلك ابنُ جريرٍ وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما[3]. ولا يَبْعدُ أن يكون في ذلك سدٌّ لباب التعلُّل بالفقر، وعدِّه مانعاً من المناكحة.

وفي الآية شرطٌ مُضْمَرٌ وهو المشيئةُ، فلا يَرِدُ أنَّ كثيراً من الفقراء تزوَّجَ ولم يحصل له الغِنَى، ودليلُ الإضمار قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ - وكونُه وارداً في منع الكفار عن الحَرَم لا يأبى الدلالةَ كما توهِّم - أو قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي: غنيٌّ ذو سعةٍ لا يَرْزَؤه إغناءُ الخلائق؛ إذ لا نفادَ لنعمته، ولا غايةَ لقدرته ﴿عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ يبسط الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِرُ حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ، فإنَّ مآل هذا إلى المشيئة، وهو السرُّ في اختيار «عليم» دون كريم، مع أنه أوفقُ بـ «واسع» نظراً إلى الظاهر.

وفي «الانتصاف»: فإن قيل: العَزَبُ كذلك فإنَّ غِنَاه معلَّقٌ بالمشيئة أيضاً، فلا وَجه للتخصيص.

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص١٩٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٢، والبحر ٦/ ٤٥١.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٢٧٤-٢٧٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٨٢، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٤٤-٤٥.

فالجواب أنه قد تقرَّر في الطباع الساكنة إلى الأسباب أنَّ العيال سببٌ للفقر، وعَدَمُهم سببُ توفُّر المال، فأُريدَ قَطْعُ هذا التوهُّم المتمكِّن بأنَّ الله تعالى قد ينمي المال مع كثرة العيال التي هي في الوهم سبب لقلة المال، وقد يحصلُ الإقلالُ مع العزوبة، والواقع يشهدُ، فدلَّ على أن ذلك الارتباطَ الوهميَّ باطلٌ، وأنَّ الغِنَى والفقرَ بفعل الله تعالى مسبِّبِ الأسباب، ولا توقُّفَ لهما إلا على المشيئة، فإذا علم الناكح أنَّ النكاح لا يؤثِّر في الإقتار لم يمنعه في الشروع فيه، ومعنى الآية حينئذ أن النكاح لا يمنعهم الغنَى من فضل الله تعالى، فعبَّر عن نفي كونه مانعاً عن الغنى بوجوده معه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] فإنَّ ظاهره الأمرُ بالانتشار عند انقضاءِ الصلاة، والمرادُ تحقيق زوال المانع، وأنَّ الصلاة إذا قُضيتْ فلا مانعَ من الانتشار، فعبَّر عن نفي مانع الانتشار بما يقتضي تَقَاضي الانتشار مبالغةً(١). انتهى.

وقال بعضهم في الفَرْقِ بين المتزوِّج والعَزَبِ: إنَّ الغِنَى للمتزوِّج أقربُ، وتعلُّق المشيئة به أَرْجَى؛ للنصِّ على وعده دون العزب، وكذلك يوجَدُ الحال إذا استُقْرِئ.

وتعقِّب بأنَّ فيه غفلةً عن قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٠] وكذا عن قوله سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ إلخ.

وأشار صاحب «الكشف» إلى أنَّ في هذه الآية والتي بعدها وعداً للمتزوِّج والعَزَبِ معاً بالغنى، فلا ورود للسؤال، قال: إنه تعالى أمر الأولياء أن لا يبالوا بفَقْرِ الخاطب بعد وجود الصلاح، ثقةً بلُطْفِ الله تعالى في الإغناء، ثم أمر الفقراء بالاستعفاف إلى وجدان الغنى تأميلاً لهم، وأَدْمجَ سبحانه أنَّ مدار الأمر على العفَّة والصلاح على التقديرين، وهو الجوابُ عن سؤال المعترض. انتهى.

ولا يخفى عليك أنَّ الأخبار الدالَّةَ على وَعْدِ الناكح بالغنى كثيرةٌ، ولم نجد في وَعْدِ العزب الذي ليس بصَدَدِ النكاح من حيث هو كذلك خبراً.

فقد أخرج عبد الرزاق، وأحمدُ، والترمذيُّ وصحَّحه(٢)، والنسائيُّ، وابنُ

---

(١) الانتصاف ٣/ ٦٤-٦٥ بنحوه.

(٢) كذا نقل المصنف عن الدر المنثور ٥/ ٤٥، والذي في سنن الترمذي (١٦٥٥)، وتحفة الأشراف ٩/ ٤٩٣، وتحفة الأحوذي ٥/ ٢٩٦: حديث حسن.

ماجه، وابن حبان، والحاكم وصحَّحه، والبيهقيُّ في «سننه»، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ حقّ على الله تعالى عونُهم: الناكحُ يريد العفافَ، والمكاتَبُ يريد الأداء، والغازي في سبيل الله تعالى»(١).

وأخرج الخطيب في «تاريخه» عن جابر قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يشكو إليه الفاقةَ، فأمره أن يتزوَّج(٢).

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه قال: أطيعوا الله تعالى فيما أَمَرَكم(٣) به من النكاح، يُنْجِزْ لكم ما وعدكم من الغِنَى؛ قال تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٤).

وأخرج عبد الرزاق، وابن أبي شيبة في «المصنف»، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ابتغوا الغنى في الباءة ـ وفي لفظ: ابتغوا الغنى في النكاح ـ يقول الله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(٥).

وأخرج الثعلبيُّ والديلميُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «التمسوا الرزقَ بالنكاح»(٦). إلى غير ذلك من الأخبار.

ولغِنَى الفقيرِ إذا تزوَّج سببٌ عاديٌّ، وهو مزيدُ اهتمامه في الكسب، والجدُّ التامُّ في السعي، حيث ابتُلِيَ بمن تلزمُه نفقتُها شرعاً وعُرفاً، وينضمُّ إلى ذلك

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٩٥٤٢)، ومسند أحمد (٧٤١٦)، وسنن الترمذي (١٦٥٥)، وسنن النسائي (المجتبى) ٦/ ١٥، وسنن ابن ماجه (٢٥١٨)، وصحيح ابن حبان (٤٠٣٠)، والمستدرك ٢/ ١٦٠ و٢١٧، وسنن البيهقي ٧/ ٧٨. ونقله المصنف عن الدر المنثور ٥/ ٤٥.

(٢) تاريخ بغداد ١/ ٣٦٥ من طريق سعيد بن محمد، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، به. وسعيد بن محمد قال عنه أبو حاتم: ليس بشيء، وقال ابن حبان: لا يجوز أن يحتج به. الميزان ٢/ ١٥٦.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): يعني ضمناً فلا تغفل.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٨٢.

(٥) مصنف عبد الرزاق (١٠٣٨٥) و(١٠٣٩٣)، وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٤٥.

(٦) الفردوس للديلمي (٢٨٢)، وعزاه للثعلبي في تفسيره العجلوني في كشف الخفا ١/ ٢٠٢ وأشار إلى ضعفه، وتنظر أحاديث الباب ثمة.

مساعدةُ المرأة له، وإعانتُها إياه على أمر دنياه، وهذا كثيرٌ في العرب وأهلِ القرى، فقد وجدنا فيهم مَن تكفيه امرأتُه أمرَ معاشه ومعاشِها بشغلها، وقد ينضمُّ إلى ذلك حصولُ أولادٍ له، فَيقْوَى أمرُ التَّسَاعُدِ والتعاضُد، وربما يكون للمرأة أقاربُ يَحْصُلُ له منهم الإعانةُ بحَسَبِ مُصاهَرتِه إياهم، ولا يوجد ذلك في العَزَب، ويشارك هذا الفقيرَ المتزوِّجَ الفقيرُ الذي هو بصَدَدِ التزوُّج بمزيدِ الاهتمام في الكسب، لكنَّ هذا الاهتمامَ لتحصيل ما يتزوَّجُ به، وربما يكون لذلك ولتحصيل ما يحسِّنُ به حالَه بعد التزوُّج، ولا يخفى أنَّ حال الامرأة[1] المتزوِّجة وحالَ الامرأة[1] التي بصَدَدِ التزوُّج على نحو حال الرجل، والفرقُ يسير.

هذا، والظاهرُ من كلام بعضهم أنَّ ما ذكر في «الأيامى» و«الصالحين» مطلقاً، وأمرُ تذكيرِ الضمير ظاهر.

وقيل: هو في الأحرار والحرائر خاصَّةً، وبذلك صرح الطبرسيُّ[2]؛ لأنَّ الأرِقَّاءَ لا يملكون وإن ملكوا، ولذا لا يرثون ولا يُوْرَثون، والمتبادِرُ من الإغناء بالفضل أن يملكوا ما به يحصلُ الغِنَى وتُدفعُ الحاجةُ، وهو لا يتحقَّق مع بقاء الرقِّ، نعم إذا أُريدَ بالإغناء التَّوْسِعةُ ودفعُ الحاجة سواءٌ كان ذلك بما يملك أم لا، فلا بأسَ بالعموم. فتدبر.

وجوِّز أن تكون الآيةُ في الأحرار خاصةً، بأن يكون المرادُ منها نهيَ الأولياء عن التعلُّل بفَقْرِهم إذا استنكحوهم، وأن تكون في المستَنْكِحينَ من الرجال مطلقاً، والمرادُ نهيُ الأولياء عن ذلك أيضاً، فتدبَّرْ جميعَ ذلك.

واحتجَّ بعضهم ـ كما قال ابن الفرس ـ بالآية على أنَّ النكاح لا يُفْسَخُ بالعَجْزِ عن النفقة؛ لأنه سبحانه وَعَدَ فيها بالغنى، وفيه مناقشةٌ لا تخفى.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ إرشادٌ للتائقين العاجزين عن مَبادي النكاحِ وأسبابِه، إلى ما هو أَوْلَى لهم وأَحْرَى بهم، أي: ولْيَجْتَهِدْ في العفَّة وصَوْنِ النفس ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: أسبابَ نكاحٍ، أو لا يتمكَّنون مما ينكح به من المال، على أنَّ فِعالاً اسمُ آلةٍ، كرِكَاب لِمَا يُرْكَبُ به.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الأصوب: المرأة. كما أشرنا إليه ص١٧٢.
(٢) في مجمع البيان ١٨/ ٤٠.

﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ عِدَةٌ كريمةٌ بالتفضُّل عليهم بالغنى، ولُطْفٌ بهم في استعفافهم، ورَبْطٌ على قلوبهم، وإيذانٌ بأنَّ فَضْلَه تعالى أَوْلَى بالأعِفَّاء، وأدنى من الصُّلحاء.

واستدلَّ بالآية بعضُ الشافعية على نَدْبِ تَرْكِ النكاح لمن لا يملك أهبتَه مع التَّوَقان، وكثيرٌ من الناس ذهب إلى استحبابه له لآيةِ: (إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ) وحَمَلوا الأمرَ بالاستعفاف في هذه الآية على مَن لم يجد زوجةً، بجَعْلِ «فِعَال» صفةً بمعنى مفعول، ككتاب بمعنى مكتوب، ولا يخفى أنَّ الغايةَ المذكورةَ تُبْعِدُه، ولا يلزمُ من الفقر وجدانُ الأُهْبةِ المفسَّرةِ عندهم بالمهر وكسوة فصل التمكين ونفقة يومه.

والمذكورُ في مُعْتَبَراتِ كتبنا أنَّ النكاح يكونُ واجباً عند التَّوقان، أي: شدة الاشتياق، بحيث يخاف الوقوعَ في الزنى لو لم يتزوَّج، وكذا فيما يظهر لو كان لا يمكنه مَنْعُ نفسه عن النظر المحرَّم، أو عن الاستمناء بالكفّ. ويكونُ فرضاً بأن كان لا يمكنه الاحترازُ عن الزنى إلَّا به، بأنْ لم يَقْدِرْ على التسرِّي، أو الصومِ الكاسِرِ للشهوة، كما يدلُّ عليه حديثُ: «ومَن لم يَسْتَطِعْ فعليه بالصوم فإنَّه له وِجَاء»[١] فلو قدر على شيءٍ من ذلك لم يَبْقَ النكاحُ فرضاً أو واجباً عيناً، بل هو أو غيرُه مما يمنعه من الوقوع في المحرَّم.

وكلا القسمين مشروطٌ بملكِ المهر والنفقة، وزاد في «البحر»[٢] شرطاً آخر فيهما، وهو عدمُ خوفِ الجور، ثم قال: فإن تَعَارضَ خوفُ الوقوع في الزنى لو لم يتزوَّج وخوفُ الجورِ لو تزوَّج قدّم الثاني، ويكرَه التزوُّج حينئذ كما أفاده الكمال في «الفتح»، ولعله لأنَّ الجور معصيةٌ متعلِّقةٌ بالعباد، دون المنع من الزنى، وحقُّ العبد مقدَّمٌ عند التعارُضِ؛ لاحتياجه وغِنَى المولى عزَّ وجلَّ. انتهى.

ومقتضاه الكراهةُ أيضاً عند عدم ملك المهر والنفقة؛ لأنهما حقُّ عبدٍ أيضاً وإن

---

(١) أخرجه أحمد (٤٠٢٣)، والبخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
الوجاء: رضُّ الخصيتين، والمراد أن الصوم يقطع الشهوة، ويقطع شر المني كما يفعله الوجاء. شرح صحيح مسلم للنووي ٩/ ١٧٣.

(٢) البحر الرائق ٣/ ٨٤.

خاف الزنى، لكنْ ذَكَروا أنه يُنْدَبُ استدانةُ المهر، ومقتضاه أنه يجب إذا خاف الزنى وإن لم يملك المهرَ إذا قدر على استدانته، وهذا منافٍ للاشتراط السابق، إلا أن يقال: الشرطُ ملكُ النفقةِ والمهْرِ، ولو بالاستدانة، أو يقال: هذا في العاجز عن الكَسْبِ، ومَن ليس له جهةُ وفاءٍ.

وذكر بعضُ الأجلَّة أنه ينبغي حَمْلُ ما ذكروا من نَدْبِ الاستدانة على نَدْبِها إذا ظنَّ القدرةَ على الوفاء، وحينئذٍ فإذا كانت مندوبةً مع هذا الظنِّ عند أمْنِه من الوقوع في الزنى، ينبغي وجوبُها عند تيقُّن الزنى، بل ينبغي وجوبُها حينئذٍ وإن لم يَغْلِبْ على ظنِّه قدرةُ الوفاء، وهو معذورٌ ـ فيما أرى ـ عند الله عز وجل إذا فعل ومات ولم يترك وفاء، فتأمّل.

ويكون مكروهاً عند خوف الجور كما سمعتَ، وحراماً عند تيقُّنه؛ لأنَّ النكاح إنما شُرِعَ لمصلحةِ تحصينِ النفس، وتحصيل الثواب، وبالجور يأثَمُ ويرتكبُ المحرَّمات، فتنعدمُ المصالح لرجحان هذه المفاسد.

ويكون سنَّةً مؤكَّدة في الأصحِّ حالةَ القدرةِ على الوطء والمهر والنفقة، مع عَدَمِ الخوف من الزنى والجورِ وتركِ الفرائض والسُّنن، فلو لم يقدر على واحد من الثلاثة الأُوَل، أو خاف واحداً من الثلاثة الأخيرة فلا يكون النكاح سنَّةً في حقِّه كما أفاده في «البدائع»[(١)].

ويفهم من «أشباه» ابن نُجَيم توقُّفُ كونه سنَّةً على النية[(٢)]، وذكر في «الفتح» أنه إذا لم يقترن بها كان مباحاً؛ لأنَّ المقصود منه حينئذٍ مجرَّدُ قضاء الشهوة، ومَبْنَى العبادة على خلافه[(٣)]، فلا يثاب. والنيةُ التي يثاب بها أن ينويَ مَنْعَ نفسه وزوجتِه عن الحرام، وكذا نيةُ تحصيل ولدٍ تكثُر به المسلمون، وكذا نيةُ الاتِّباع وامتثالِ

---

(١) كما في حاشية ابن عابدين ٣/ ٧.

(٢) الأشباه والنظائر لزين الدين ابن نجيم ص ١٨، وفيه: النكاح سنة مؤكدة فيحتاج إلى النية، قال ابن عابدين في الحاشية ٣/ ٨: أشار بالفاء إلى توقف كونه سنة على النية.

(٣) فتح القدير ٢/ ٣٤٣. وقال ابن الهمام بعد أن ذكر هذا الكلام: وأقول: بل فيه فضل من جهة أنه كان متمكناً من قضائها بغير الطريق المشروع، فالعدول إليه مع ما يعلمه من أنه قد يستلزم أثقالاً فيه قَصْدُ تَرْكِ المعصية، وعليه يثاب.

الأمر، وهو عندنا أفضلُ من الاشتغال بتعلُّم وتعليم كما في «درر البحار»[1]، وأفضل من التخلِّي للنوافل كما نصَّ عليه غيرُ واحدٍ.

وفي بعض معتبراتِ كتبِ الشافعية[2]: أنَّ النكاح مستحبٌّ لمحتاجٍ إليه يجدُ أهبته من مهرٍ وكسوةِ فصل التمكين ونفقةِ يومه. ولا يستحبُّ لمن في دار الحرب النكاحُ مطلقاً، خوفاً على ولده التديُّنَ بدينهم والاسترقاقَ، ويتعيَّنُ حملُه على مَن يَغْلِبُ على ظنِّه الزنى لو لم يتزوج؛ إذ المصلحةُ المحقَّقةُ الناجِزةُ مقدَّمةٌ على المصلحة المستقبلةِ المتوهَّمة.

وأنه إنْ فَقَدَ الأهبةَ استُحبَّ تركُه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ الآيةَ، ويكسرُ شهوتَه بالصوم للحديث، وكونُه يثيرُ الحرارةَ والشهوةَ إنما هو بابتدائه، فإن لم تنكسر به تزوَّج، ولا يكسرُها بنحوِ كافورٍ، فيُكره بل يَحْرُمُ على الرجل والمرأةِ إن أدَّى إلى اليأس من النسل، وقولُ جمع: إنَّ الحديث يدلُّ على حِلِّ قَطْعِ العاجز الباءةَ بالأدوية، مردودٌ، على أنَّ الأدوية خطيرةٌ، وقد استَعْملَ قومٌ الكافورَ فأَوْرَثَهم عللاً مزمنةً، ثم أرادوا الاحتيالَ لعَوْدِ الباءةِ بالأدوية الثمينة فلم تنفعهم.

فإنْ لم يَحْتَجْ للنكاح، كُره له إن فَقَدَ الأهبةَ، وإلَّا يَفْقِدْها مع عدم حاجته له فلا يُكْرَه له؛ لقدرته عليه، ومقاصدُه لا تنحصرُ في الوطء، والتخلِّي للعبادة أفضلُ منه، فإنْ لم يتعبَّدْ فالنكاحُ أفضلُ في الأصحِّ كما قال النوويُّ[3]؛ لأنَّ البطالة تُفْضي إلى الفواحش.

فإن وجد الأهبةَ وبه علَّةٌ، كهرمٍ أو مرضٍ دائم أو تعنُّنٍ كذلك، كُرِه له؛ لعدم حاجته، مع عدم تحصين المرأة المؤدِّي غالباً إلى فسادها، وبه يندفع قولُ «الإحياء»[4]: يسنُّ لنحوِ الممسوح تشبُّهاً بالصالحين كما يسنُّ إمرارُ الموسَى على رأس الأصلع. وقولُ الفزاريِّ: أيُّ نهيٍ وَرَدَ في نحوِ المجبوب؟ والحاجةُ لا تنحصرُ في الجماع.

---

(١) درر البحار في الفروع للشيخ شمس الدين أبي عبد الله، محمد بن يوسف القونوي الدمشقي الحنفي، المتوفى سنة (٧٨٨هـ). كشف الظنون ١/ ٧٤٦. والكلام من حاشية ابن عابدين ٣/ ٧.

(٢) هو المنهاج وشرحه لابن حجر الهيتمي ٧/ ١٨٣-١٨٧.

(٣) في المنهاج مع تحفة المحتاج ٧/ ١٨٧.

(٤) إحياء علوم الدين ٢/ ٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن حجر في تحفة المحتاج ٧/ ١٨٧.

ولو طرأتْ هذه الأحوالُ بعد العقد، فهل يلْحَقُ بالابتداء أوْ لا لقوة الدوام، تردَّد فيه الزركشيُّ، والثاني هو الوجهُ كما هو ظاهر. انتهى، وفيه ما لم يُتَعَرَّضْ له في كتب أصحابنا فيما علمتُ، لكن لا تأباه قواعدُنا.

ثم إنَّ الظاهرَ أنَّ الآيةَ خاصةٌ بالرجال، فهم المأمورون بالاستعفاف عند العَجْزِ عن مَبَادي النكاحِ وأسبابهِ، نعم يمكنُ القولُ بعمومها واعتبارُ التغليب إذا أُريدَ بالنكاح ما يُنْكَح، لكن قد علمتَ ما فيه؛ ولا تتوهَّمَنَّ من هذا أنه لا يُنْدَبُ الاستعفافُ للنساء أصلاً؛ لظهور أنه قد يُندب في بعض الصور، بل مَن تأمَّل أدنى تأمُّلٍ يرى جريان الأحكام في نكاحهنَّ، لكنْ لم أرَ مَن صرَّح به من أصحابنا، نعم نقل بعضُ الشافعية عن «الأم» نَدْبَ النكاح للتائقة(١)، وأُلْحِقَ بها محتاجةٌ للنفقة، وخائفةٌ من اقتحامِ فَجْرةٍ.

وفي «التنبيه»: مَن جاز لها النكاحُ إن احتاجته، نُدِب لها(٢)، ونقله الأذرعيُّ عن أصحاب الشافعي، ثم بحث وجوبَه عليها إذا لم تندفع عنها الفَجْرةُ إلا به، ولا دَخْلَ للصوم فيها. وبما ذُكر عُلِمَ ضَعْفُ قولِ الزنجانيِّ: يُسنُّ لها مطلقاً؛ إذ لا شيءَ عليها، مع ما فيه من القيام بأمرها وسترها. وقولِ غيره: لا يُسَنُّ لها مطلقاً؛ لأنَّ عليها حقوقاً للزَّوج خطيرةً لا يتيسَّر لها القيامُ بها، بل لو علمتْ من نفسها عدمَ القيام بها ولم تَحْتَجْ له حَرُمَ عليها. اهـ. ولا يَخْفَى أن ما ذَكَره بَعْدَ «بل» متَّجهٌ.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على بطلان نكاح المتعة؛ لأنه لو صحَّ لم يتعيَّن الاستعفافُ على فاقد المهر، وظاهرُ الآية تعيُّنُه، ولا يلزم من ذلك تحريمُ ملك اليمين؛ لأنَّ مَن لا يقدر على النكاح لعدم المهر لا يقدر على شراء الجارية غالباً، ذكره إلْكيا(٣)، وهو كما ترى.

---

(١) الأم ٥/ ١٢٨، ونقله المصنف بواسطة ابن حجر في التحفة ٧/ ١٨٧، وما سيأتي منه.

(٢) التنبيه للشيرازي ص ١٥٧، ونقله المصنف بواسطة ابن حجر في التحفة ٧/ ١٨٧، وما سيأتي منه.

(٣) في أحكام القرآن له ٣/ ٣١٤، وإلْكِيَا هو علي بن محمد بن علي الطبري الهَرَّاسي، أبو الحسن شيخ الشافعية، ومدرسُ النِّظامية، وله تصانيف حسنة، توفي سنة (٥٠٤هـ). السير ١٩/ ٣٥٠.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ بعد ما أمَرَ سبحانه بإنكاح صالحي المماليكِ الأحقَّاءِ بالإنكاح، أمرَ جلَّ وعلا بكتابة مَن يستحقُّها منهم؛ ليصير حرّاً فيتصرَّفَ في نفسه، وأخرج ابنُ السكن في «معرفة الصحابة»[١] عن عبد الله بن صبيح قال: كنتُ مملوكاً لحويطب بن عبد العزَّى، فسألته الكتابةَ فأبى، فنزلت: (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ) إلخ. ويلوحُ من هذا أنَّ عبد الله المذكورَ أولُ من كوتب، وربما يُتخيَّلُ منه أنَّ الكتابة كانت معلومةً من قبلُ، لكن نقل الخفاجيُّ عن الدميريِّ أنه قال: الكتابة لفظةٌ إسلاميةٌ، وأولُ مَن كاتبه المسلمون عبدٌ لعمر رضي الله عنه يسمَّى: أبا أمية[٢].

وصرَّح ابنُ حجرٍ أيضاً بأنها لفظةٌ إسلاميةٌ لا تَعْرِفُها الجاهلية[٣]. والله تعالى أعلم.

والكتابُ مصدرُ كاتَبَ كالمكاتبة، ونظيرُه العتابُ والمعاتبة، أي: والذين يطلبون منكم المكاتَبةَ ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ذكوراً كانوا أو إناثاً.

وهو عندنا شرعاً: إعتاقُ المملوك يداً حالاً، ورقبةً مآلاً، وركنُه: الإيجابُ بلفظ الكتابة أو ما يؤدِّي معناه، والقبولُ، نحوُ أن يقول المولَى: كاتبتُك على كذا درهماً تؤدِّيه إليَّ وتعتقُ، ويقول المملوك: قبلتُه، وبذلك يخرج من يد المولى دون مِلْكِه، فإذا أدَّى كلَّ البدل عتق وخرج من ملكه.

ومعناه: كتب الحروف، أي: جمعها، وإطلاقُه على ما ذكر لأنَّ فيه ضمَّ حرية اليد إلى حرية الرقبة، أو لأنَّ البدل يكون في الأغلب منجَّماً بنجومٍ يُضمُّ بعضُها إلى بعضٍ، أو لأنه يَكتُبُ المملوكُ على نفسه لمولاه ثَمَنَه، ويكتبُ المولى له عليه العتق، وهذا أوفق بصيغة المفاعلة، أعني المكاتَبَةَ.

وفي «إرشاد العقل السليم» قالوا: معناه: كتبتُ لك على نفسي أن تعتق منِّي إذا وفيتَ بالمال، وكتبتَ لي على نفسك أن تفيَ بذلك، أو: كتبتُ عليكَ الوفاء بالمال، وكتبتَ عليَّ العتقَ عنده.

ثم قال: والتحقيقُ أنَّ المكاتبةَ اسمٌ للعقد الحاصل من مجموع كلامي المالك

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ٤٥.
(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٣٧٧.
(٣) تحفة المحتاج ١٠/ ٣٩٠.

والمملوك، كسائرِ العقودِ الشرعية المنعقدة بالإيجاب والقبول، ولا ريب في أنَّ ذلك لا يصدرُ حقيقةً إلا من المتعاقدَيْنِ، وليس وظيفةُ كلٍّ منهما في الحقيقة إلَّا الإتيانَ بأحدِ شطريه مُعْرِباً عمَّا يتمُّ من قِبَله ويَصْدُرُ عنه من الفعل الخاصِّ به، من غيرِ تعرُّضٍ لِمَا يتمُّ من قِبَلِ صاحبه ويَصْدُرُ عنه من فعله الخاصِّ به، إلَّا أنَّ كلًّا من ذينك الفعلين لمَّا كان بحيث لا يمكن تحقُّقه في نفسه إلَّا مَنُوطاً بتحقُّقِ الآخَرِ، ضرورة أنَّ التزامَ العتق بمقابلة البدل من جهة المولى لا يُتصوَّرُ تحقُّقه وتحصُّلُه إلا بالتزام البَدَلِ من طرف العبد، كما أنَّ عقد البيع الذي هو تمليكُ المبيع بالثمن من جهة البائع لا يمكنُ تحقُّقه إلَّا بتملُّكه به من جانب المشتري، لم يكن بدٌّ من تضمين أحدهما الآخَرَ وقتَ الإنشاء، فكما أنَّ قولَ البائع: بعتُ، إنشاءٌ لعقدِ البيع، على معنى أنه إيقاعٌ لِمَا يتمُّ من قبله أصالةً، ولِمَا يتم من قِبلِ المشتري ضمناً، إيقاعاً متوقِّفاً على رأيه توقُّفاً شبيهاً بتوقُّفِ عَقْدِ الفضولي، كذلك قولُ المولَى: كاتبتُك على كذا، إنشاءٌ لعقد الكتابة، أي: إيقاعٌ لِمَا يتم من قِبَله من التزام العتق بمقابلة البدل أصالةً، ولِمَا يتمُّ من قِبَلِ العبد من التزام البدل ضمناً، إيقاعاً متوقفاً على قبوله، فإذا قَبِل تمَّ العقدُ[1]. اهـ.

وبه ينحلُّ إشكالٌ صعب واردٌ على إسناد أفعال العقود، وهو أنه إذا كان ركنُ كلٍّ منها الإيجابُ والقبولُ، يلزمُ أن لا يصحَّ نحوُ: بعتُ كذا بكذا مثلاً؛ لأن المتكلِّم به لم يُوْقِع إلا ما يتمُّ مِن قِبَله، وليس ذلك بيعاً شرعيًّا؛ إذ لابد في البيع الشرعيِّ من فعلِ آخَرَ، أعني قبولَ المشتري، وهو مما لم يُوْقِعْه المتكلِّمُ المذكور. والحاصلُ أنَّ إسنادَ باعَ إلى ضمير المتكلِّم يقتضي أنه أوقع البيع، مع أنه لم يُوْقِعْ إلَّا أحدَ ركنيه، فكيف يصحُّ الإسناد؟

ووجهُ انحلالِ هذا بما ذكر ظاهرٌ، إلا أنه أُورِدَ عليه أنَّ فيه دعوى يكذِّبها وجدانُ كلِّ عاقدٍ عاقلٍ، ألا ترى أنك إذا قلتَ: بعتُ، مثلاً، لا يخطر ببالك إيقاعٌ ضمنيٌّ منك لشراء غيرك إيقاعاً متوقِّفاً على رأيه أصلاً، بل قُصارى ما يخطر بالبال إيقاعُه الشراءَ دون إيقاعك لشرائه على نحوِ فِعْلِ الفضوليِّ، ومَن ادَّعى ذلك فقد كابَرَ وجدانه.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٧٢.

وأجيب بأنَّ الأمور الضمنية قد تُعتبر شرعاً وإن لم تُقْصَدْ، كما يرشد إلى ذلك أنهم اعتبروا في قول القائل لآخر: أعتق عبدك عنِّي بكذا، فأعتقه، البيعَ الضمنيَّ برُكْنيه وإن لم يكن القائل خاطراً بباله ذلك وقاصداً له.

وبُحث فيه بأنهم إنما اعتبروا أولاً العتقَ الذي هو مدلولُ اللفظ والمقصودُ منه ترجيحاً لجانب الحرية، ثم لمَّا رأوا أنَّ ذلك موقوفٌ على الملكِ الموقوفِ على البيع حَسبَ العادة الغالبةِ، اعتبروا البيعَ ليتمَّ لهم الاعتبارُ الأولُ، ولم يعتبروه مدلولاً لِلَفْظِ العتق أصلاً ليشترط القصد وإن أوهمه تسميتُهم إياه بيعاً ضمنيّاً، بخلاف ما نحن فيه على ما سمعتَ، فإنَّ إيقاع القبول قد توقَّف عليه ماهيةُ البيع الشرعيِّ، واعتُبر مدلولاً ضمنيّاً له، بحيث صار عندهم ـ كما يقتضيه ظاهرُ كلام «الإرشاد» ـ نحوُ: بعتُ، بمعنى: أوقعتُ إيجاباً منِّي أصالةً، وقبولاً منك نيابةً، وظاهرٌ في مثل ذلك تحقُّقُ القَصْدِ، وحيث نُفي بالوجدان قَصْدُ إيقاع القبول نيابةً عُلِمَ أنه ليس مدلولاً ضمنيًّا.

ومن الناس مَن تَفَصَّى عن الإشكال بالتزامِ أنَّ البيعَ هو الإيجابُ، والقبول شَرْطُ صحته، فقولُ القائل: بعتُ، إنشاءٌ لبيعٍ يحتملُ الصحةَ وعدمَها، ومتى قال الآخرُ: اشتريتُ، تعيَّنتِ الصحةُ، وأنَّ قولَهم: ركنُ البيع الإيجابُ والقبولُ من المسامحات الشائعة.

أو بالتزامِ أنَّ للبيع ونحوِه إطلاقين، أحدُهما العقدُ الحاصلُ من مجموع الإيجاب والقبول، كما في نحو قولك: وقع البيع بين زيدٍ وعمرو، وثانيهما الإيجابُ فقط، كما في نحو قولك: بعتُه كذا فلم يشترِ، والبيعُ الدالُّ عليه «بعتُ» الإنشائيُّ من هذا القبيل، فلا إشكال في إسناده إلى المتكلِّم، فتأمَّل وتدبَّر.

وفي هذا المقام أبحاثٌ تركناها خوفاً من مزيدِ البُعْدِ عمَّا نحن بصَدَدِه، والله تعالى الموفِّق.

و«الذين» يحتمل أن يكون في محلِّ رفعٍ على الابتداء، والخبرُ قولُه تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾، وهو بتقدير القول، بناءً على المشهور من أنَّ الجملة الإنشائية لا تقعُ خبراً عن المبتدأ إلَّا كذلك. وقال بعض المحقِّقين: لا حاجةَ في مثل هذا إلى التأويل؛ لأنه في معنى الشرط والجزاءِ، ولذا جيءَ في الخبر بالفاء.

ويحتمل أن يكون في محلِّ نصبٍ على أنه مفعولٌ لمحذوفٍ يفسِّره المذكور، والفاءُ فيه لتضمُّن الشرط أيضاً. وفي «البحر»: يجوز أن تقول: زيداً فاضْرِبْ، وزيداً اضْرِبْ، فإذا دخلت الفاء كان التقدير: تنبَّه فاضْرِبْ، فالفاء في جواب أمرٍ محذوفٍ[1]. اهـ. وأنت تعلم أنه لا يُحتاج إلى هذا في الآية.

وذكر بعض الأفاضل أنَّ الفاء فيها على الاحتمال الثاني؛ لأنَّ حقَّ المفسِّر أن يُعْقِبَ المفسَّر، والمراد: كتابة بعد كتابة، فإنَّ في الموالي كثرةً، وكذا في المكاتَبين، فليس الأمرُ به للمولى بالنسبة إلى مكاتَبٍ واحد. اهـ. وهو يُشْبِهُ الرطانة بالأعجمية.

والأمرُ للندب على الصحيح. وقيل: هو للوجوب، وهو مذهبُ عطاء وعمرو بن دينار والضحاك وابن سيرين وداود. وما أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جريرٍ عن أنس بن مالك قال: سألني سيرين المكاتبة، فأبيتُ عليه، فأتى عمر بن الخطاب ﷺ فأقبل عليَّ بالدُّرةِ، وتلا قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ إلخ، وفي رواية: كاتِبْه أو لأَضْرِبنَّكَ بالدِّرَّةِ[2] = ظاهرٌ في القول بالوجوب.

وجمهورُ الأئمة كمالكٍ والشافعيِّ وغيرِهما على أنَّ المكاتبة بعد الطلب وتحقُّق الشرط الآتي إن شاء الله تعالى مندوبةٌ، بيدَ أنَّ مَن قال منهم بأنَّ ظاهر الأمر للوجوب كالشافعيِّ لم يقل بظاهره هنا؛ لأنه[3] بعد الحظر - وهو بيعُ ماله بماله - للإباحة، وادَّعى أنَّ نَدْبَها من دليلٍ آخر.

وظاهرُ الآيةِ جوازُ الكتابةِ سواءٌ كان البدل حالّاً أو مؤجَّلاً، أو منجَّماً أو غيرَ منجَّمٍ؛ لمكان الإطلاق، وإلى ذلك ذهب الحنفية.

وذهب جمهورُ الشافعية إلى أنه يُشْتَرطُ أن يكون منجَّماً بنجمين فأكثر، فلا تجوزُ بدون أَجَلٍ وتنجيمٍ مطلقاً. وقيل: إنْ مَلَكَ السيدُ بعضَ العبد وباقيه حرٌّ لم يُشْتَرطْ أَجَلٌ وتنجيم. وردَّه محقِّقوهم، وأجابوا عن دعوى إطلاقِ الآية بأنَّ الكتابة

---

(١) البحر ٦/ ٤٥١.

(٢) بنحوه في مصنف عبد الرزاق (١٥٥٧٨)، وتفسير الطبري ١٧/ ٢٧٦، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٤٥ وأورده البخاري معلقاً قبل الحديث (٢٥٦٠) بنحوه أيضاً.

(٣) أي: الأمر.

تُشْعِرُ بالتنجيم فتُغني عن التقييد؛ لأنه(١) يكتب أنه يعتقُ إذا أدَّى ما عليه، ومثلُه لا يكون في الحال.

واعترضوا أيضاً على القول بصحَّةِ الكتابة الحالَّةِ، بأنَّ الكتابة لو عُقِدَتْ حالَّةً توجَّهتِ المطالبةُ عليه في الحال، وليس له مالٌ يؤدِّيه فيه، فيعجزُ عن الأداء فيُرَدُّ إلى الرقِّ، فلا يحصل مقصودُ العقد، وهذا كما لو أسلم فيما لا يوجدُ عند حلولِ الأجل فإنه لا يجوز.

وأنت تعلمُ ما في دَعْوَى إشعارِ الكتابة بالتنجيم، وأنها تَضُرُّ الشافعية؛ لأنَّ التنجيم الذي تُشْعِرُ به الكتابة على زَعْمِهم يتحقَّقُ بنجمٍ واحدٍ، فيقتضي أن تجوزَ به كما ذهب إليه أكثر العلماء، وهم لا يجوِّزون ذلك، ويشترطون نجمين فأكثر.

وما ذكروه في الاعتراض ليس بشيءٍ؛ فإنه لا عَجْزَ مع أمر المسلمين بإعانته بالصدقةِ والهبةِ والقَرْضِ، والقياسُ على السَّلَمِ لا يصحُّ لظهور الفارق، ولعل ما ذكر كالبيع لمن لا يملك الثمن، ولا شك في صحته، كذا قيل وفيه بحث.

وقال ابن خويزمنداد(٢): إذا كانت الكتابةُ على مالٍ معجَّلٍ كانت عتقاً على مالٍ، ولم تكن كتابةً. والفرقُ بين العتق على مالٍ والكتابةِ مذكورٌ في موضعه.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: أمانةً وقُدْرةً على الكَسْبِ، وبهما(٣) فسَّره الشافعيُّ. وذكر البيضاويُّ أنه روي هذا التفسيرُ مرفوعاً(٤)، وجاء نحوُ ذلك في بعض الروايات عن ابن عباس.

وفسِّرت الأمانة بعدم تضييع المال، قيل: ويحتمل أن يكون المرادُ بها العدالةَ، لكنْ يُشتَرَطُ على هذا لاستحباب(٥) المكاتبة أن لا يكون العبد معروفاً بإنفاقِ ما بيده بالطاعة؛ لأنَّ مثل هذا لا يُرجى له عتقٌ بالكتابة.

---

(١) جاء في حاشية (م): أي الشأن.

(٢) هو محمد بن أحمد بن عبد الله، له كتاب في أحكام القرآن، وآخر في أصول الفقه، وله أيضاً كتاب كبير في الخلافيات، توفي نحو (٣٩٠هـ). الوافي بالوفيات ٢/ ٥٢، والديباج المذهب ٢/ ٢٢٩، وكلامه في تفسير القرطبي ١٥/ ٢٤١.

(٣) بعدها في (م): الخير.

(٤) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٧٧.

(٥) في (م): الاستحباب، وهو تصحيف، والكلام من تحفة المحتاج ١٠/ ٣٩٠.

وأخرج أبو داود في «المراسيل»، والبيهقيُّ في «سننه» عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا): «إنْ علمتُم فيهم حرفةً»[١]. وظاهرُه الاكتفاءُ بالقدرة على الكَسْبِ وعدمُ اشتراط الأمانة، وهو قولٌ نقله ابن حجر[٢] عن بعضهم، وتعقَّبه بأنَّ المكاتَبَ إذا لم يكن أميناً، يضيِّعُ ما كَسَبه فلا يحصلُ المقصود.

وأخرج عبد بن حميد عن عبيدة السلمانيِّ وقتادةَ وإبراهيمَ وأبي صالح أنهم فسَّروا الخير بالأمانة[٣]. وظاهرُ كلامهم الاكتفاءُ بها وعدمُ اشتراطِ القدرة على الكسب، ونقله أيضاً ابن حجر عن بعضهم، وتعقَّبه بأنّ المكاتَبَ إذا لم يكن قادراً على الكَسْبِ، كان في مكاتَبته ضررٌ على السيد، ولا وثوقَ بإعانته بنحو الصدقة والزكاة[٤].

وأخرج ابن مردويه[٥] عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنه فسَّر الخيرَ بالمال. وأخرجه جماعة عن ابن عباس، وعن ابن جُريج، وروي عن مجاهدٍ وعطاءٍ والضحَّاك[٦].

وتعقِّب بأنَّ ذلك ضعيفٌ لفظاً ومعنًى؛ أما لفظاً: فلأنه لا يقال: فيه مال، بل: عنده ـ أَوْ: لَه ـ مال. وأما معنًى: فلأنَّ العبد لا مالَ له، ولأنَّ المتبادر من الخير غيرُه وإن أُطلق الخير على المال في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وأجيب بأنه يمكن أن يكون المراد بالخير عند هؤلاء الأجلَّةِ القدرةَ على كَسْبِ المال، إلَّا أنهم ذكروا ما هو المقصودُ الأصليُّ منه تساهلاً في العبارة، ومثلُه كثير.

---

(١) المراسيل (١٨٥)، وسنن البيهقي ١٠/ ٣١٧.
(٢) في تحفة المحتاج ١٠/ ٣٩٠.
(٣) الدر المنثور ٥/ ٤٥.
(٤) تحفة المحتاج ١٠/ ٣٩٠.
(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ٤٦.
(٦) أخرجه عنهم عدا الضحاك الطبري ١٧/ ٢٨٠-٢٨٢.

وقال أبو حيان: الذي يظهر من الاستعمال أنه الدِّينُ؛ تقول: فلانٌ فيه خيرٌ، فلا يتبادر إلى الذهن إلَّا الصلاح[1].

وتعقِّب بأنه لا يناسِبُ المقام، ويقتضي أن لا يكاتَبَ غيرُ المسلم.

وفسَّره كثيرٌ من أصحابنا بأن لا يضروا المسلمين بعد العتق، وقالوا: إنْ غَلَبَ ظنُّ الضرر بهم بعد العتق فالأفضلُ تَرْكُ مُكاتَبتهم، وظاهرُ التعليق بالشرط أنه إذا لم يعلموا فيهم خيراً لا يستحبُّ لهم مكاتبتُهم، أو لا تَجِبُ عليهم، وهذا للخلاف في أنَّ الأمر: هل هو للندب أو للوجوب؟ فلا تفيدُ الآيةُ عدمَ الجواز عند انتفاءِ الشرط، فإنَّ غايةَ ما يلزمُ انتفاؤه انتفاءُ المشروط، وليس هو فيها إلا الأمرُ الدالُّ على الوجوب أو الندب، ومَن قال: إنه للإباحة، التزم أنَّ الشرط هنا لا مفهومَ له؛ لجَرْيِه على العادة في مكاتبةِ مَن علم خيريته.

كذا قيل، والذي أراه حرمةُ المكاتبةِ إذا عَلِمَ السيدُ أنَّ المكاتبَ لو عَتَقَ أضرَّ المسلمين.

ففي «التحفة» لابن حجر في باب الكتابة عند قول النوويِّ: هي مستحبَّةٌ إن طَلَبها رقيقٌ أمينٌ قويٌّ على كَسْبٍ ولا تُكرَه بحالٍ، ما نصُّه: لكنْ بَحَثَ البلقينيُّ كراهتَها لفاسقٍ يضيِّعُ كَسْبَه في الفِسْقِ، ولو استولى عليه السيد لامتنع من ذلك، وقال هو وغيره: بل [قد] ينتهي الحال للتحريم، أي: وهو قياسُ حرمةِ الصدقةِ والقَرْضِ إذا عَلِمَ أنَّ مَن أخذهما يَصْرِفُهما في محرَّم. ثم رأيتُ الأذرعيَّ بَحَثَه فيمَن عُلم أنه يَكْتسِبُ بطريق الفسق، وهو صريحٌ فيما ذَكَرْتُه؛ إذ المدارُ على تمكينه بسببها من المحرَّم[2]. اهـ، وما ذُكر من المدار موجودٌ فيما[3] قلنا.

ثم المراد من العلم الظنُّ القويُّ، وهو مدارُ أكثر الأحكام الشرعية.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ الظاهرُ أنه أمرٌ للموالي بإيتاء المكاتَبين شيئاً من أموالهم إعانةً لهم، وفي حُكْمِه حطُّ شيءٍ من مال الكتابة ويكفي في ذلك أقلُّ ما يتموَّلُ.

---

(١) البحر ٦/ ٤٥٢.

(٢) تحفة المحتاج ١٠/ ٣٩١، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في (م): فيها، وهو تصحيف.

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصحَّحه والبيهقيُّ وغيرُهم(١) من طريق عبد الله بن حبيب، عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُترَكُ للمكاتب الربع»(٢).

وجاء هذا أيضاً في بعض الروايات موقوفاً على عليٍّ كرم الله تعالى وجهه(٣)، وقال ابن حجر الهيتميُّ: هو الأصحُّ، ولعل ذلك اجتهادٌ منه رضي الله عنه، وادِّعاءُ أنَّ هذا لا يقال من قِبَل الرأي، فهو في حكم المرفوع، ممنوعٌ(٤).

ولهذا الخبر وقولِ ابن راهويه: أجمعَ أهل التأويل على أنَّ الربع هو المراد بالآية قالوا: إنَّ الأفضل إيتاءُ الربع.

واستحْسنَ ابن مسعود والحسن إيتاءَ الثلث، وابنُ عمر رضي الله عنهما إيتاءَ السُّبع، وقتادةُ إيتاءَ العُشْرِ.

والأمرُ بالإيتاء عندنا للنَّدب، وقال الشافعية: للوجوب؛ إذ لا صارِفَ عنه، وصرَّحوا بأنه يلزم السيدَ ـ أو وارثَه مقدِّماً له على مؤن التجهيز ـ إمَّا الحطُّ عن المكاتَبِ كتابةً صحيحةً لجزءٍ من المال المكاتَبِ عليه، أو دفعُ جزءٍ من المعقودِ عليه بعد أَخْذِه أو مِن جِنْسِه إليه، وأنَّ الحطَّ أولى من الدفع لأنه المأثورُ عن الصحابة، ولأن الإعانة فيه محقَّقةٌ والمدفوعُ قد ينفقُه في جهةٍ أخرى، وهو في النجم الأخير أفضلُ، والأصحُّ أنَّ وقت الوجوب قبل العتق، ويتضيَّق إذا بقي من النجم قَدْرُ ما يفي به من مال الكتابة. وشاع أنهم يقولون بوجوب الحطِّ، ويردُّه

---

(١) في الأصل و(م): وغيرهما.

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٥٥٨٩)، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٨٦-٢٥٨٧، والمستدرك ٢/ ٣٩٧، وسنن البيهقي ١٠/ ٣٢٩، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٤٦، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (٥٠١٧). قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذا حديث غريب ورفعه منكر، والأشبه أنه موقوف على علي. وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥٥٩٠)، وفي التفسير ٢/ ٥٨، والنسائي في الكبرى (٥٠١٩)، والطبري ١٧/ ٢٨٣، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٨٧، والبيهقي ١٠/ ٣٢٩ وقال: هذا هو الصحيح موقوف، وكذا قال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٣/ ٢٥٦.

(٤) تحفة المحتاج ١٠/ ٤٠٠.

قولُه ﷺ: «المكاتَبُ عبدٌ ما بقيَ عليه درهمٌ»[(١)] إذ لو وَجَبَ الحطُّ لسقط عنه الباقي حتماً.

وأيضاً لو وجب الحطُّ لكان وجوبُه معلَّقاً بالعقد، فيكون العقدُ موجباً ومسقطاً معاً. وأيضاً هو عقدُ معاوَضةٍ، فلا يُجبَرُ على الحطيطة، كالبيع.

وقيل: معنى «آتوهم»: أَقْرِضوهم. وقيل: هو أمرٌ لهم بالإنفاقِ عليهم بعد أن يؤدُّوا ويعتقوا. وإضافةُ المال إليه تعالى، ووصفُه بإيتائه تعالى إياهم؛ للحثِّ على الامتثال بالأمر بتحقيق المأمور به؛ فإنَّ ملاحظةَ وصولِ المال إليهم من جهته سبحانه، مع كونه عزَّ وجلَّ هو المالكُ الحقيقيُّ له، من أقوى الدواعي إلى صَرْفِه إلى الجهة المأمور بها.

وقيل: هو أمرُ ندبٍ لعامَّةِ المسلمين بإعانة المكاتَبين بالتصدُّق عليهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم: أنه أمرٌ للولاة أن يعطوهم من الزكاة[(٢)]. وهذا نحوُ ما ذُكر في «الكشاف»[(٣)]: من أنه أمرٌ للمسلمين على وجه الوجوب بإعانةِ المكاتَبين، وإعطائهم سَهْمَهم الذي جَعَلَ اللهُ تعالى لهم في بيت المال، كقوله سبحانه: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠] عند أبي حنيفة وأصحابه.

ويَحِلُّ للمَوْلَى إذا كان غنيّاً أن يأخذ ما تُصدِّق به على المكاتَب لتبدُّل الملك، كما فيما إذا اشترى الصدقةَ من فقيرٍ أو وهبها الفقيرُ له، فإنَّ المكاتَبَ يتملَّكُه صدقةً والمولَى عوضاً عن العتق، وكذا الحكمُ لو عجز بعد أداء البعض عن الباقي فأُعيدَ إلى الرقِّ، أو أُعتِقَ من غير جهة الكتابة، والعلَّةُ تبدُّلُ الملك أيضاً عند محمد. وفيه خفاءٌ؛ لأنَّ ما أخذ لم يقع عوضاً عن العتق؛ أمَّا فيما إذا أعيد إلى الرقِّ فظاهرٌ، وأما فيما إذا أُعْتِقَ من غير جهة الكتابة فلأنَّ العتق لم يكن مشروطاً بأداء ذلك، فتدبر.

وعلَّل أبو يوسف المسألةَ بأنه لا خبث في نفس الصدقة، وإنما الخبثُ في فِعْلِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٢٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وذكره البخاري معلَّقاً ـ كما في فتح الباري ٥/ ١٩٤ـ عن عائشة وزيد بن ثابت وابن عمر.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢٥٨٦/٨.
(٣) ٦٦/٣.

الآخِذِ؛ لكونه إذلالاً بالآخذ، ولا يجوزُ ذلك له من غير حاجةٍ، والآخذُ لم يوجد من السيد.

وأُورِدَ عليه أنه ينافي جَعْلَهَا أوساخَ الناس في الحديث(١).

ونقل عن الشافعيِّ أنه إذا أُعيد المكاتَبُ إلى الرِّق أو أُعْتِقَ من غير جهة الكتابة يلزمُ السيدَّ ردُّ ما أَخَذَه إلا أنْ يتلفَ قبله؛ لأنَّ ما دفع للمكاتَبِ لم يقع موقعه، ولم يترتَّبْ عليه الغرَضُ المطلوب.

قال الطيبيُّ: وبهذا يظهر أنَّ قياس ذلك على الصدقة التي اشتُرِيَتْ من الفقير غيرُ صحيح، والمدارُ عندي اختلافُ جهتي الملك، فمتى تحقَّق لم تَبْقَ شبهةٌ في الحِلِّ، وقد صحَّ أنَّ بريرة مولاةَ عائشةَ رضي الله عنها جاءت بعد العتق بلحم بقر، فقالت عائشةُ للنبيِّ ﷺ: هذا ما تُصدِّق به على بريرةَ. فقال عليه الصلاة والسلام: «هو لها صدقةٌ ولنا هديةٌ»(٢)، فأشار عليه الصلاة والسلام إلى حِلِّه لآل البيت الذين لا تحلُّ لهم الصدقة، باختلافِ جهتي الملك فتأمل.

وللمكاتَبةِ أحكام كثيرة تُطْلَبُ من كتب الفقه.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أخرج مسلم وأبو داود عن جابر رضي الله عنه: أنَّ جاريةً لعبد الله بن أبيٍّ ابن سلول يقال لها: مُسَيْكة، وأخرى يقال لها: أُمَيْمة، كان يُكْرِهُهما على الزنى، فشَكَتَا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت(٣).

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدِّي قال: كان لعبد الله بن أبيٍّ جاريةٌ تُدْعَى معاذة، فكان إذا نزل ضيفٌ أرسلها له ليُواقِعَها إرادةَ الثواب منه والكرامةِ له، فأقبلت الجاريةُ إلى أبي بكر رضي الله عنه فشَكَتْ ذلك إليه، فذكره أبو بكر للنبيِّ ﷺ، فأمره بقَبْضِها، فصاح عبد الله بن أبيٍّ: مَن يعذرُنا من محمدٍ يغلبنا على مماليكنا؟! فنزلت(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٥١٩)، ومسلم (١٠٧٢) من حديث عباد بن شرحبيل رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد (١٢١٥٩)، والبخاري (٢٥٧٧)، ومسلم (١٠٧٤) من حديث أنس رضي الله عنه.
وأخرجه أحمد (٢٤١٨٧)، والبخاري (٢٥٧٨)، ومسلم (١٠٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) صحيح مسلم (٣٠٢٩): (٢٧)، وهو في سنن أبي داود (٢٣١١) بنحوه.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٩٠.

وقيل: كانت لهذا اللَّعين ستُّ جوارٍ: معاذةُ، ومُسَيْكَةُ، وأُمَيمةُ، وعَمْرَةُ، وأَرْوَى، وقتيلةُ، يكرهُهنَّ على البغاء، وضَرَبَ عليهنَّ ضرائبَ، فشَكَتْ ثنتان منهنَّ إلى رسول الله ﷺ، فنزلت.

وقيل: نزلت في رجلين كانا يُكرِهان أَمَتين لهما على الزنى، أحدهما ابنُ أبيٍّ.

وأخرج ابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه: أنهم كانوا في الجاهلية يُكرِهون إماءَهم على الزنى، يأخذون أجورهنَّ، فنُهوا عن ذلك في الإسلام، ونزلت الآية. ورَوَى نحوَه عن ابن عباس رضي الله عنهما[1].

وعلى جميع الروايات لا اختصاصَ للخطاب بمن نزلت فيه الآيةُ، بل هي عامةٌ في سائر المكلَّفين.

والفتياتُ جمع: فتاةٍ، وكلٌّ من الفتى والفتاة كنايةٌ مشهورةٌ عن العبد والأمة مطلقاً، وقد أمر الشارعُ ﷺ بالتعبير بهما مضافين إلى ياء المتكلِّم، دون العبد والأمةِ مضافين إليه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يقولنَّ أحدُكم: عبدي وأمتي، ولكن: فَتَاي وفتاتي»[2] وكأنَّه ﷺ كَرِهَ العبوديةَ لغيره عزَّ وجلَّ، ولا حَجْرَ عليه سبحانه في إضافة الأخيرين إلى غيره تعالى شأنُه. وللعبارة المذكورة في هذا المقام باعتبار مفهومها الأصليِّ حُسْنُ موقع، ومزيدُ مناسبةٍ لقوله سبحانه: (عَلَى ٱلْبِغَآءِ) ـ وهو زنى النساء كما في «البحر»[3] ـ من حيث صدورُه عن شوابِّهنَّ؛ لأنَّهنَّ اللاتي يُتوقَّعُ منهنَّ ذلك غالباً، دون مَن عَدَاهنَّ من العجائز والصغائر.

وقوله عز وجل: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيص النهي بصورةِ إرادتِهنَّ التعفُّفَ عن الزنى وإخراجِ ما عَدَاها عن حُكْمِه كما إذا كان الإكراه بسبب كراهتهنَّ الزنى لخصوص الزاني أو لخصوص الزمان أو لخصوص المكان، أو لغير ذلك من الأمور المصحِّحة للإكراه في الجملة، بل هو للمحافظة على عادةِ مَن نزلت فيهم الآيةُ، حيث كانوا يُكرِهونَهنَّ على البغاء وهنَّ يُرِدْنَ التعفُّفَ عنه مع وفورِ شهوتهنَّ

---

(١) الدر المنثور ٥/٤٦.

(٢) أخرجه أحمد (١٠٣٦٨)، والبخاري (٢٥٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ٦/٤٤٣.

الآمرةِ بالفجور، وقصورِهنَّ في معرفة الأمورِ الداعية إلى المحاسن الزاجرة عن تعاطي القبائح.

وفيه من الزيادة لتقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا يفعلونه من القبائح ما لا يخفى، فإنَّ مَن له أدنى مروءةٍ لا يكاد يرضَى بفجورِ مَن يحويه بيتُه من إمائه، فضلاً عن أَمْرِهنَّ به، أو إكراههنَّ عليه، لاسيما عند إرادةِ التعفُّفِ وتوفُّرِ الرغبة فيها كما يُشْعِرُ به التعبير بـ «أردن» بلفظ الماضي.

وإيثارُ كلمة «إنْ» على «إذا» لأنَّ إرادةَ التحصُّنِ من الإماء كالشاذِّ النادرِ، أو للإيذان بوجوب الانتهاء عن الإكراه عند كون إرادةِ التحصُّنِ في حيِّز التردُّدِ والشكِّ، فكيف إذا كانت محقَّقةَ الوقوع كما هو الواقع. ويُعلم من توجيه هذا الشرط، مع ما أشرنا إليه من بيان حُسْنِ موقعِ الفتيات هنا باعتبار مفهومها الأصليِّ، أنه لا مفهومَ لها ولو فرضت صفةً؛ لأنَّ شرطَ اعتبارِ المفهوم عند القائلين به أن لا يكون المذكورُ خرج مخرجَ الغالب. وقد تمسَّك جمعٌ بالآية لإبطال القول بالمفهوم، فقالوا: إنه لو اعتُبر، يلزمُ جوازُ الإكراه عند عدمِ إرادة التحصُّن، والإكراهُ على الزنى غيرُ جائزٍ بحالٍ من الأحوال إجماعاً، ومما ذكرنا يعلم الجواب عنه.

وفي «شرح المختصر الحاجبي» للعلَّامة العَضُدِ الجوابُ عن ذلك:

أولاً: أنه ممَّا خرج مخرجَ الأغلب؛ إذ الغالب[1] أنَّ الإكراه عند إرادة التحصُّن، ولا مفهوم في مثله.

وثانياً: أنَّ المفهوم اقتضى ذلك، وقد انْتَفَى لمعارضٍ أقوى منه وهو الإجماع.

وقد يجابُ عنه بأنه يدلُّ على عدم الحرمة[2] عند عدم الإرادة، وأنه ثابتٌ إذ لا يمكن الإكراه حينئذٍ؛ لأنهنَّ إذ لم يُرِدْنَ التحصُّنَ لم يَكْرَهْنَ البغاءَ، والإكراهُ إنما هو إلزامُ فِعْلٍ مكروهٍ، وإذا لم يمكن لم يتعلَّق به التحريم؛ لأنَّ شرط التكليف الإمكانُ، ولا يلزمُ من عدم التحريم الإباحةُ. انتهى، ولعل ما ذكرناه أوَّلاً هو الأَوْلى.

---

(١) في هامش الأصل و(م): الظاهر أنه أراد بالغالب الراجح. ميرزاجان.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): أو عدم طلب الكف عن الإكراه، فتأمل. اهـ منه.

وجَعَل غيرُ واحدٍ زيادةَ التقبيح والتشنيع جواباً مستقلًّا بتغييرٍ يسيرٍ، ولابأسَ به.

وزعم بعضهم أنَّ «إِنْ أَرَدْنَ» راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾، وهو مما يَقْضِي منه العَجَبَ.

وبالجملة لا حجَّةَ في ذلك لمبطلي القولِ بالمفهوم، وكذا لا حجةَ لهم في قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فإنه كما في «إرشاد العقل السليم» قيدٌ للإكراه، لا باعتبارِ أنه مدارٌ للنهي عنه، بل باعتبارِ أنه المعتادُ فيما بينهم أيضاً، جيء به تشنيعاً لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير لأجْلِ النَّزْرِ الحقير، أي: لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههنَّ على البغاء لطلب المتاع السريعِ الزوالِ، الوشيكِ الاضمحلال، فالمرادُ بالابتغاء: الطلبُ المقارِنُ لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل؛ إذ هو الصالحُ لكونه غايةً للإكراه مترتِّباً عليه، لا المطلقُ المتناوِلُ للطلبِ السابق الباعث عليه(١).

ولا اختصاصَ لعَرَضِ الحياة الدنيا بكَسْبِهنَّ - أعني أجورَهنَّ التي يأخُذْنَها على الزنى بهنَّ - وإن كان ظاهرُ كثير من الأخبار يقتضي ذلك، بل ما يعمُّه وأولادَهنَّ من الزنى، وبذلك فسَّره سعيد بن جبير كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم(٢). وفي بعض الأخبار ما يُشْعِرُ بأنهم كانوا يكرهونهنَّ على ذلك للأولاد.

أخرج الطبرانيُّ والبزَّارُ وابنُ مردويه بسندٍ صحيحٍ عن ابن عباس: أنَّ جاريةً لعبد الله بن أبيٍّ كانت تَزْني في الجاهلية، فولَدَتْ له أولاداً من الزنى، فلمَّا حرَّم الله تعالى الزِّنى قال لها: ما لَكِ لا تزنين؟ قالت: واللهِ لا أزني أبداً. فضربها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟﴾ الآية(٣). ولا يقتضي هذا وأمثالُه تخصيصَ العَرَضِ بالأولاد كما لا يخفى.

وسمعتُ أنَّ بعضَ قبائلِ أعرابِ العراق كآلِ عزَّةَ يأمرون جواريَهم بالزِّنى للأولاد كفعل الجاهلية، ولا يُستَغْرَبُ ذلك من الأعراب، لاسيما في مثل هذه

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٧٣-١٧٤.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٩٠-٢٥٩١.

(٣) المعجم الكبير (١١٧٤٧)، ومسند البزار (٢٢٣٩- كشف)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٤٦. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٨٣: رجال الطبراني رجال الصحيح.

الأعصار، التي عَرَا فيها كثيراً من رياض الأحكام الشرعية في كثيرٍ من المواضع إعصارٌ، فإنهم أَجْدَرُ أنْ لا يعلموا حُدودَ ما أنزل الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ إلى آخره جملةٌ مستأنفةٌ سيقتْ لتقريرِ النهي، وتأكيدِ وجوبِ العملِ [به][(١)]، ببيانِ خلاصِ المُكْرَهات من عقوبة المُكْرَه عليه عبارةً، ورجوعِ غائلةِ الإكراه إلى المُكْرِهين إشارةً، أي: ومَن يُكْرِهْهنَّ على ما ذُكر من البغاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ لهنَّ، كما في قراءة ابن مسعود، وقد أخرجها عبد بن حميد وابنُ أبي حاتم عن سعيد بن جبير عنه، لكنْ بتقديم «لهنَّ» على «غفور رحيم»[(٢)]. ورُوِيَتْ كذلك أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما[(٣)]، ويُنْبِئُ عنه ـ على ما قيل ـ قولُه تعالى: (مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ) أي: كونِهنَّ مُكْرَهاتٍ، على أنَّ الإكراه مصدرُ المبنيِّ للمفعول، فإنَّ توسيطه بين اسم «إنَّ» وخبرِها للإيذان بأنَّ ذلك هو السببُ للمغفرة والرحمة.

وأخرج ابن أبي شيبةَ وابنُ جريرٍ وغيرُهما عن مجاهدٍ أنه قال: «غفورٌ رحيم» لهنَّ، وليست لهم[(٤)]، وكان الحسن إذا قرأ الآية يقول: لهنَّ واللهِ لهنَّ.

وفي تخصيصِ ذلك بهنَّ، وتعيين مَدَارِه على ما سمعتَ، مع سَبْقِ ذِكْرِ المكرِهين أيضاً في الشرطية، دلالةٌ على كونهم محرومين من المغفرة والرحمة بالكلِّية، كأنه قيل: لا لهم، أو: لا له، ولظهورِ هذا التقدير اكْتُفَى به عن العائد إلى اسم الشرط، اللازمِ في الجملة الشرطية على الأصحِّ كما في «المغني»[(٥)].

وقيل: في توجيه أمر العائد: إنَّ «إكراههنَّ» مصدرٌ مضافٌ إلى المفعول، وفاعلُ المصدرِ ضميرٌ محذوفٌ عائدٌ على اسم الشرط، والمحذوفُ كالملفوظ، والتقدير: مِن بَعْدِ إكراههم إياهنَّ.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ١٧٤، والكلام منه.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٩١، وعزاها لعبد بن حميد السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٤٧.
(٣) المحتسب ٢/ ١٠٨.
(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٣، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٩١، وعزاه لابن أبي شيبة السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٤٧، ولفظه عندهم: غفور رحيم للمكرهات على الزنى. ولفظ المصنف ذكره السيوطي في الدر ٥/ ٤٧ عن قتادة إثر خبر مجاهد، وعزاه لعبد بن حميد.
(٥) مغني اللبيب ص ٦٠٨.

وردَّه أبو حيان[(١)] بأنهم لم يَعدُّوا في الروابط الفاعلَ المحذوفَ للمصدر في نحو: هندٌ عجبتُ مِن ضَرْبِ زيدٍ، وإن كان المعنى: من ضربها زيداً، فلم يجوِّزوا هذا التركيبَ، ولا فَرْقَ بينه وبين ما نحن فيه.

وقيل: جوابُ الشرط محذوفٌ، والمذكورُ تعليلٌ لِمَا يُفْهَمُ من ذلك المحذوفِ، والتقديرُ: ومَن يُكرِهْهُنَّ فعليه وبالُ إكراهِهنَّ لا يتعدَّى إليهن فإنَّ الله من بعدِ إكراههنَّ غفورٌ رحيم لهنَّ، وفيه عدولٌ عن الظاهر، وارتكابُ مزيدِ إضمارٍ بلا ضرورةٍ، وكونُ ذلك لتسبُّبِ الجزاء على الشرط ليس بشيء.

وقال في «البحر»: الصحيحُ أنَّ التقدير: «غفورٌ رحيمٌ» لهم؛ ليكون في جواب الشرط ضميرٌ يعود على اسم الشرط المخبَرِ عنه بجملةِ الجواب، ويكون ذلك مشروطاً بالتوبة[(٢)].

وفيه إخلالٌ بجزالةِ النظم الجليلِ، وتهوينٌ لأمرِ النهي في مقام التهويل، وأمرُ الربط لا يتوقَّف على ذلك، ومثلُه ما قيل: إنَّ التقدير: لهما، فالوجهُ ما تقدَّم.

والجارُّ والمجرورُ في قراءةِ مَن سمعتَ، قال ابن جنِّي: متعلِّقٌ بـ «غفور»؛ لأنه أدنى إليه، ولأنَّ فعولاً أَقْعدُ في التعدِّي من فعيل. ويجوزُ أن يتعلق بـ «رحيم» لأَجْلِ حَرفِ الجرِّ، إذا قدِّر خبراً بعد خبرٍ ولم يقدَّر صفةً لـ «غفور»؛ لامتناع تقدُّمِ الصفة على موصوفها، والمعمولُ إنما يصحُّ وقوعُه حيث يقع عاملُه وليس الخبرُ كذلك، وأيضاً يَحسُنُ في الخبر لأنَّ رتبة الرحمة أعلى من رتبة المغفرة؛ لأنَّ[(٣)] المغفرة مسبَّبةٌ عنها، فكأنها متقدِّمةٌ معنًى وإن تأخَّرت لفظاً[(٤)]، والمعنى على تعلُّقه بهما كما لا يخفى.

وتعليقُ المغفرة لهنَّ مع كونهنَّ مكرهاتٍ لا إثمَ لهنَّ، بناءً على أنَّ المكره غيرُ مكلَّفٍ، ولا إثم بدون تكليفٍ، وتفصيلُ المسألة في الأصول، قيل: لشدَّةِ المعاقبةِ على المكرِه؛ لأنَّ المُكْرَهةَ مع قيام العذر إذا كانت بصددِ المعاقبة حتى احتاجت

---

(١) في البحر ٦/٤٥٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في الأصل: ولأن.
(٤) بنحوه في المحتسب ٢/١٠٨-١٠٩.

إلى المغفرة، فما حالُ المكرِه؟ وللدلالةِ على أنَّ حدَّ الإكراهِ الشرعيِّ والمصابرة إلى أن يُنْتَهَى إليه فيرتكب ضيِّقٌ، واللهُ تعالى يغفرُ ذلك بلطفه.

وقيل: لغاية تهويل أمرِ الزنى، وحثِّ المكرَهاتِ على التشبُّثِ في التجافي عنه، أو لاعتبار أنهنَّ وإن كنَّ مكرهاتٍ، لا يَخْلُوْنَ في تضاعيف الزنى عن شائبةِ مُطاوَعةٍ بحكم الجِبِلَّة البشرية.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ كلامٌ مستأنفٌ جيءَ به في تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة لبيانِ جلالةِ شؤونها المستوجبةِ للإقبال الكلِّيِّ على العمل بمضمونها، وصدِّر بالقَسَم المُعْرِبةِ عنه اللامُ لإبراز كمالِ العناية بشأنه، أي: وباللهِ لقد أنزلنا إليكم في هذه السورة الكريمة آياتٍ مبيِّناتٍ لكلِّ ما لكم حاجةٌ إلى بيانه، من الحدودِ وسائرِ الأحكام والآداب، وغيرِ ذلك مما هو من مبادي بيانها، على أنَّ «مبيِّنات» من بيَّن المتعدِّي، والمفعولُ محذوفٌ، وإسنادُ التبيين إلى الآيات مجازيٌّ.

أو: آيات واضحات صدَّقتها الكتبُ القديمةُ والعقولُ السليمةُ، على أنها من بيَّن بمعنى تَبيَّنَ اللازم، أي: آيات تبيَّن كونُها آياتٍ من الله تعالى، ومنه المثلُ: قد بيَّن الصبح لذي عينين.

وقرأ الحِرْميَّان وأبو عمرو وأبو بكر: «مبيَّناتٍ» على صيغة المفعول[(١)]، أي: آياتٍ بيَّنها الله تعالى، وجَعَلَها واضحةَ الدلالةِ على الأحكام والحدودِ وغيرِها، وجوِّز أن يكون الأصلُ: مبيَّناً فيها الأحكامُ، فاتُّسِعَ في الظرف بإجرائه مجرى المفعول.

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ عطفٌ على «آيات»، أي: وأنزلنا مَثَلاً كائناً من قَبيلِ أمثالِ الذين مَضَوْا من قبلكم، من القصص العجيبة والأمثالِ المضروبة لهم في الكتب السابقة، والكلمات الجارية على ألسنةِ الأنبياء عليهم السلام، فَيَنْتَظِمُ قصةَ عائشةَ رضي الله عنها المحاكيةَ لقصةِ يوسف عليه السلام، وقصةِ مريم رضي الله عنها ـ حيث أُسند إليهما مثلُ ما أُسْنِدَ إلى عائشةَ من الإفك، فبرَّأهما الله تعالى منه ـ وسائرَ الأمثالِ

(١) التيسير ص ١٦٢، والنشر ٢/ ٢٤٨، وهي قراءة يعقوب وأبي جعفر من العشرة.

الواردةِ في هذه السورة الكريمة انتظاماً أوَّلياً، وهذا أوفقُ بتعقيب الكلام بما سيأتي إن شاء الله تعالى من التمثيلات من تخصيص الآيات بالسوابق، وحَمْلِ المَثَلِ على القصة العجيبة فقط.

﴿وَمَوْعِظَةً﴾ تتَّعظون بها، وتَنْزَجِرون عمَّا لا ينبغي من المحرَّمات والمكروهات وسائرِ ما يُخلُّ بمحاسن الآداب، فهي عبارةٌ عمَّا سبق من الآيات والمَثَلِ؛ لظهور كونها من المواعظ بالمعنى المذكور، ويكفي في العطف التغايرُ العنوانيُّ المنزَّلُ منزلة التغايُرِ الذاتيِّ، وقد خُصَّتِ الآياتُ بما يبيِّنُ الحدودَ والأحكامَ، والموعظةُ بما يُتَّعَظُ به كقوله تعالى: (وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ) وقوله سبحانه: (لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) إلخ، وغير ذلك من الآيات الواردة في شأن الآداب.

وقيِّدتِ الموعظةُ بقوله سبحانه: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ مع شمولها للكلِّ حَسبَ شمولِ الإنزال، حثّاً للمخاطبين على الاغتنام بالانتظام في سلك المتَّقين، ببيانِ أنهم المغتنمون لآثارِها المقتبسون من أنوارها فحسب.

وقيل: المرادُ بالآياتِ المُبيّناتِ والمَثَلِ والموعظةِ جميعُ ما في القرآن المجيد من الآيات والأمثال والمواعظ.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النورُ في اللغة - على ما قال ابنُ السكِّيت - الضياء[1]، وهذا ظاهرٌ في عَدَمِ الفَرْقِ بين النور والضياء، وفرَّق بينهما جمعٌ وإن كان إطلاقُ أحدهما على الآخر شائعاً، فقال الإمام السُّهَيْليُّ في «الروض» في قول ورقة:

ويظهرُ في البلاد ضياءُ نورٍ ... يُقِيمُ به البريةَ أنْ تموجا

إنه يوضِّحُ معنى النورِ والضياءِ، وأنَّ الضياء هو المنتشرُ عن النور، والنورُ هو الأصل، وفي التنزيل: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] و﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] لأن نور القمر لا ينتشر عنه ما ينتشرُ عن الشمس، لاسيما في طرفي الشهر[2].

---

(١) إصلاح المنطق ص١٤٢.

(٢) الروض الأنف ١/ ٢١٩.

وقال الفلاسفةُ: الضياءُ ما يكون للشيء من ذاته، والنورُ ما يَفيض عليه من مقابلة المضيء، وعلى هذا جاء فيما زَعَم إسلاميُّوهم قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ فإنَّ اختلاف تشكُّلاتِ القمر بالقُرْبِ والبُعْدِ من الشمس، مع خُسوفِه وقتَ حيلولةِ الأرض بينه وبينها، دليلٌ على أنَّ نوره فائضٌ عليه من مقابلتها. وأنتَ تَعْلمُ أنَّ في هذا مقالاً لعلماءِ الإسلام، وقد قدَّمنا ما فيه في غير هذا المقام، ولعل الأَوْلى في وجه الفرق ما تقدَّم آنفاً في كلام السُّهَيْليّ.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنه يُعْلَم من كلامهم أنَّ لكلٍّ من النور والضياء جهةَ أَبْلَغيةٍ، فجهةُ أبلغيةِ النور كونُه أصلاً ومبدأً للضياء، وجهةُ أبلغيةِ الضياء أنَّ الإبصار بالفعل بِمَدْخَلِيَّتِه.

وادَّعى بعضُهم أنَّ النور على الإطلاق أبلغُ من الضياء؛ للآية التي نحن فيها، وفيه بحثٌ يُعْلَم إن شاء الله تعالى أثناء تفسيرها.

واعلم أنَّ الفلاسفة اختلفوا في حقيقة النور، فمنهم مَن زَعَم أنه أجسامٌ صغارٌ تنفصِلُ عن المضيءِ وتتَّصل بالمستضيء. وأُبطِلَ بعدَّةِ أوجُهٍ:

الأول: أنه لو كان جُسَيْماً[1] متحرِّكاً لكانت حركتُه طبيعيةً، والحركةُ الطبيعية إلى جهةٍ واحدةٍ دون سائر الجهات، لكنَّ النور يقع على الجسم في كلِّ جهةٍ كانت له.

والثاني: أنه إذا دخل من كوَّةٍ، ثم سَدَدْناها دفعةً، فتلك الأجزاءُ النورانيةُ إما أن تكون باقيةً في البيت، فيلزمُ أن يكون البيت مستنيراً كما كان قبل السدِّ، وليس كذلك، وإما أن تكون خارجةً من الكوَّة قبل انسدادها وهو محالٌ، لأنَّ السدَّ كان سببَ انقطاعها، فلابد أن يكون سابقاً عليه بالذات أو بالزمان، وإما أن تكون غير باقيةٍ أصلاً فيلزم أن يكون تخلُّلُ جسم بين جسمين موجباً انعدامَ أحدهما، وهو معلومُ الفساد.

والثالث: أنَّ كونَ تلك الأجسامِ الصغارِ أنواراً إما أن يكون هو عينُ كونِها أجساماً، وهو باطلٌ لأنَّ المفهوم من النُّوْرِيَّةِ مغايرٌ للمفهوم من الجِسْمِيَّة، وإما أن

(١) في (م): جسماً.

يكون مغايراً لها، بأن تكون تلك الأجسام حاملةً لتلك الكيفية، منفصلةً من المضيء متَّصلةً بالمستضيء، فإن لم تكن تلك الأجسامُ محسوسةً فهو ظاهر البطلان؛ لأنها حينئذ كيف تكونُ واسطةً لإحساسِ غيرها، وإن كانت محسوسةً كانت ساترةً لِمَا وراءها، ويجب أنها كلَّما ازدادت اجتماعاً ازدادت ستراً، لكنَّ الأمر بالعكس، فإنَّ النور كلَّما ازداد قوةً ازداد إظهاراً.

والرابع: أن الشمس إذا طلعتْ من الأفق يستنير وجهُ الأرض كلُّه دفعةً، ومن البعيد أن تنتقل تلك الأجزاء من الفلك الرابع إلى وجه الأرض في تلك اللحظة اللطيفة، ولا يَخْفَى حالُه على القول باستحالة الخرق على الأفلاك.

والخامس: أنَّ انفصال الأجزاء من الأجرام الكوكبية يستلزمُ الذُّبولَ والانتقاصَ وخلوَّ مواضعها عن تمام مقدارِها أو مقدارِ أجزائها، أو كونَها دائمةَ التحليل مع إيراد البدل عمَّا يتحلَّلُ عن جُرْمِها، فتكونُ أجسامُها أجساماً مستحيلةً غذائيةً كائنةً فاسدةً، وذلك محالٌ في الفلكيات.

وتعقَّبها بعضُ متأخِّريهم بأنها في غاية الضعف:

أما الأول: فلأنَّ كونَ النور جُسَيْماً[1] لا يستلزمُ كونَه متحرِّكاً، ولا كونَ حدوثه بالحركة، بل هو مما يوجد دفعةً بلا حركة.

وأما الثاني: فلقائلٍ أن يقول: إنَّ قيام المجعول بلا مادةٍ إنما يكون بالفاعل الجاعل إياه مع اشتراط عدم الحجاب المانع عن الإفاضة، فإذا طرأ المانع لم تقع الإفاضة، فينعدمُ المفاضُ بلا مادةٍ باقية عنه؛ لأن وجوده لم يكن بشركة المادة فكذا عدمُه، فعند انسداد الباب المانع عن الإفاضة ينعدمُ الشعاعُ عن البيت دفعةً، ولا فرق في ذلك بين كونه عَرَضاً أو جوهراً، والسرُّ فيهما جميعاً أن النور مطلقاً ليس حصوله من جهة انفعال المادة وشركة الهيولى كسائر الجواهر والأعراض الانفعاليات، ولذلك لا ينعدم شيءٌ منها دفعةً لو فُرض حجابٌ بينها وبين المبدأ الفاعليِّ إلا بعد زمانٍ واستحالة.

---

(١) في (م): جسماً.

وأما الذي ذكر ثالثاً: فجوابه أن المغايرة في المفهوم لا تنافي الاتِّحاد والعينية في الوجود، فما ذُكر مغالطةٌ من باب الاشتباه بين مفهوم الشيء وحقيقته.

وأما المذكورُ رابعاً وخامساً: فلأنَّ مبناه على الانفصال والقَطْعِ للمسافة، لا على مجرَّد الجوهرية والجِسْمِيَّة.

هذا وذهب بعضُهم إلى أنه عَرَضٌ من الكيفيات المحسوسة، وقالوا: هو غنيٌّ عن التعريف كسائر المحسوسات. وتعريفُه بأنه كمالٌ أول للشفاف من حيث إنه شفافٌ، أو بأنه كيفيةٌ لا يتوقَّفُ الإبصار بها على الإبصار بشيءٍ آخَرَ، تعريفٌ بما هو أخفى، وكأنَّ المراد به التنبيهُ على بعض خواصِّه.

ومن هؤلاء مَن قال: إنه نفسُ ظهور اللون. ومنهم مَن قال بمغايرتهما، واستدلُّوا بأوجُهٍ:

الأول: أنَّ ظهور اللون إشارةٌ إلى تجدُّد أمرٍ، فهو إما اللونُ أو صفةٌ نسبيةٌ أو غيرُ نسبية، والأول باطل لأنَّ النور إمَّا أن يُجعَلَ عبارةً عن تَجدُّد اللون أو اللون المتجدِّد، والأول يقتضي أن لا يكون مستنيراً إلا في آن تجدُّده، والثاني يوجب كونَ الضوء نفسَ اللون، فلا يبقى لقولهم: الضوءُ هو ظهورُ اللون، معنًى، وإن جعلوا الضوء كيفيةً ثبوتيةً زائدةً على ذات اللون وسمَّوه بالظهور فذلك نزاعٌ لفظيٌّ، وإن زعموا أنَّ ذلك الظهور تجدُّدُ حالةٍ نسبيةٍ فهو باطلٌ؛ لأن الضوء أمرٌ غيرُ نسبيٍّ وإلَّا لكان أمراً عقلياً واقعاً تحت مقولةِ المضاف، فلم يكن محسوساً أصلاً، لكن الحسَّ البصريَّ مما ينفعل عنه ويتضرَّرُ بالشديد منه حتى يبطل، والأمورُ الذهنية لا تؤثِّر مثلَ هذا التأثير، فإذا لم يكن أمراً نسبيّاً لم يمكن تفسيرُه بالحالة النسبية.

والثاني: أن البياض قد يكون مضيئاً مشرقاً، وكذا السواد، فلو كان ضوءُ كلٍّ منهما عينَ ذاته، لزم أن يكون بعضُ الضوء ضدَّ بعضه، وهو محالٌ لأنَّ ضدَّ الضوء الظلمةُ.

والثالث: أنَّ اللون يوجد بدون الضوء كما في الجسم الملوَّن في الظلمة، وكذا الضوءُ يوجد بدون اللون كما في البلَّور إذا وقع عليه الضوءُ، فهما متغايران لوجودِ كلٍّ منهما بدون الآخر.

والرابع: أنَّ الجسم الأحمر ـ مثلاً ـ المضيء إذا انعكس عنه إلى مقابله، فتارةً ينعكسُ الضوءُ عنه إلى جسمٍ آخَرَ، وتارةً ينعكس منه اللونُ والضوءُ معاً إذا قَوِيَا حتى يحمرَّ المنعكسُ إليه، فلو كان مجرَّدَ ظهور اللون لاستحال أن يفيد غيره لمعاناً ساذجاً.

وليس لقائلٍ أن يقول: هذا البريقُ عبارةٌ عن إظهار اللون في ذلك القابل. لأنه يقال: فلماذا إذا اشتدَّ لونُ الجسم المنعكسِ منه ضوءُه أَخْفَى ضوءَ المنعكس إليه، وأبطله وأعطاه لونَ نفسه.

وقال بعض المتأخِّرين: استقرَّ الرأيُ على أنَّ النور المحسوسَ بما هو محسوسٌ عبارةٌ عن نحوِ وجودِ الجوهر المُبْصَرِ الحاضر عند النفس في غير هذا العالم، وأمَّا الذي في الخارج بإزائه فلا يزيدُ وجودُه على وجود اللون، والأوجُهُ التي ذُكِرتْ لمغايرتهما مقدوحةٌ:

أمَّا الوجهُ الأول: فهو مقدوحٌ بأنَّ ظهور اللون عبارةٌ عن وجوده، وهو صفةٌ حقيقيةٌ من شأنها أن يُنْسبَ ويُضافَ إلى القوة المدركة، وبهذا الاعتبارِ يقع له التجدُّدُ. قولُهم: يوجبُ أن يكون الضوءُ نفسَ اللون. قلنا: نعم، ولكنَّهما متغايران بالاعتبار، كما أنَّ الماهية والوجودَ في كلِّ شيءٍ متَّحدان بالذات متغايران بالاعتبار، فإنَّ النورَ والضوءَ يرجع معناه إلى وجودٍ خاصٍّ عارِضٍ لبعض الأجسام، والظلمةُ عبارةٌ عن عدم ذلك الوجود الخاصِّ بالكلية، والظلُّ عبارةٌ عن عدمه في الجملة، واللونُ عبارةٌ عن امتزاجٍ يقع بين حاملِ هذا الوجود النوريِّ وحاملِ عَدَمِه على أنحاءٍ مختلفةٍ، فليست الألوان إلا مراتبَ تراكيبِ الأنوار، والأدلَّةُ المُوْرَدةُ على إبطال ذلك ضعيفةٌ، فعلى هذا صحَّ قولهم: النورُ هو ظهورُ اللون، وصحَّ أيضاً قولُ من يقول: إنه غيرُ اللون؛ لأنَّ النور بما هو نورٌ لا يختلف؛ إذ لا يُعتبر فيه امتزاجٌ ولا شَوْبٌ مع عدمٍ أو ظُلْمةٍ، والألوانُ مختلفة.

وأما الوجهُ الثاني: فهو أيضاً مندفعٌ بما مُهِّد، وبأنَّ اللون وإن لم يكن غيرَ النورِ إلَّا أن مراتب الأنوار مختلفةٌ شدةً وضعفاً، ومع هذا الاختلافِ قد تختلفُ بوجوهٍ أُخَرَ بحسبِ تركيباتٍ وامتزاجاتٍ كثيرةٍ تقعُ بين أعدادٍ من النور وإمكانِها وفِعْليَّتِها وأصلِها وفَرْعِها، وأعدادٍ من الظُّلمة ـ أعني عَدَمَ ذلك النور ـ وإمكانِها

وفِعْلِيَّتها وأصلِها وفَرْعِها، فإنَّ هذه الألوانَ أمورٌ ماديةٌ في الأكثر، أو متعلِّقةٌ بها، والمادةُ منبعُ الانقسام والتركيبِ بين الوجودات والأعْدامِ والإمكانات، فليس بعَجَبٍ أن يَحْصُلَ من ضروبِ تركيباتِ النورِ بالظُّلمةِ هذه الألوانُ التي تراها[1]، فتقع تلك الأقسام في محالِّها على الوجه المذكور، ثم يقعُ عليها نورٌ آخَرُ بمقابلة المنير.

ومَن قال بأنَّ النور عينُ اللون لم يقل بأنَّ كلَّ نورٍ عينُ كلِّ لونٍ، كما أنَّ مَن قال بأنَّ الوجود عينُ الماهيةِ لم يقل بأنَّ كلَّ وجودٍ عينُ كلِّ ماهيةٍ، ليَلْزمَه أنْ لا يطَّرِدَ[2] وجودٌ على وجودٍ، ولا يضادَّ وجودٌ لوجودٍ، فالألوانُ متخالفةُ الأحكام، وبعضُها أمورٌ متضادَّةٌ، لكن بما هي ألوانٌ لا بما هي أنوارٌ، كما أنَّ الموجوداتِ متخالفةُ الأحكامِ وبعضُها أشياءُ متضادَّةٌ، لكنْ بما هي ماهياتٌ لا بما هي موجوداتٌ، مع أنَّ الوجود والماهية واحد.

وأما الوجهُ الثالث فسبيلُ دَفْعِه سهلٌ بما بيِّنَ، وكذا الوجهُ الرابعُ بأدنى إعمالِ رويَّةٍ، فإنَّ عدم ظهورِ اللون قد يكون لضَعْفِ اللَّمَعان الواقع على شيءٍ، وقد يكون لشدة اللَّمَعان، فالواقع على المقابل من عَكْسِ المضيءِ الملوّن قد يكونُ ضوءُه فقط، وذلك عند قصورِ الضوء واللون، أو قصورِ استعداد القابل المقابلِ، وقد يكون كلاهما لقوَّتهما وقوةِ استعداد المنعكس إليه، على أنَّ الكلام في مباحث العكوس طويلٌ.

وكونُ المنعكس من الجسم المضيء إلى جسم آخَرَ ضوءُه دون لونه، ربَّما كان لأَجْلِ صَقَالته؛ فإنَّ الصَّقيل قد يكون ذا لونٍ وضوءٍ لكنَّ المنعكِسَ منه إلى مُقابله ليس إلا ما حصل من نيِّرٍ آخَرَ بتوسُّطه على نسبةٍ وضعيةٍ مخصوصةٍ بينهما له إليهما لا اللونُ والضوء اللذان يستقرَّان فيه، فالمنعكسُ في ذلك المقابل ليس إلَّا الضوءَ فقط من ذلك النيِّر لا من المنعكس منه، إلَّا أنْ يكون المنعكس إليه أيضاً جسماً صقيلاً فيقع فيه حكاية منهما، أي: الضوءِ واللونِ، أو من أحدهما أيضاً.

هذا غايةُ ما قالوه في النور المحسوس الذي يظهر به الأجسام على الأبصار. ولهم في النور إطلاقٌ آخَرُ، وهو: الظاهرُ بذاته والمظهِرُ لغيره، وقالوا: هو بهذا

---

(١) في (م): نراها.
(٢) في الأصل: يطرأ.

المعنى مساوٍ[١] للوجود بل نفسُه، فيكون حقيقةً بسيطةً كالوجود منقسماً كانقسامه، فمنه نورٌ واجبٌ لذاته قاهرٌ على ما سواه، ومنه أنوارٌ عقليةٌ ونفسيةٌ وجسميةٌ، والواجب تعالى نورُ الأنوارِ غيرُ متناهي الشدةِ، وما سواه سبحانه أنوارٌ متناهيةُ الشدة، بمعنى أن فوقها ما هو أشدُّ منها، وإن كان بعضُها ـ كالأنوار العقلية ـ لا تقف آثارُها عند حدٍّ. والكلُّ من لمعاتِ نورِه عزَّ وجل، حتى الأجسامُ الكثيفةُ فإنها أيضاً من حيث الوجودُ لا تخلو عن نورٍ، لكنه مشوبٌ بظلماتِ الأعدام والإمكانات.

إذا علمتَ هذا فاعْلَمْ أنَّ إطلاق النور على الله سبحانه وتعالى بالمعنى اللغويِّ والحُكْميِّ السابقِ غيرُ صحيحٍ، لكمالِ تنزُّهه جلَّ وعلا عن الجسمية والكيفية ولوازِمِهما.

وإطلاقُه عليه سبحانه بالمعنى المذكورِ ـ وهو: الظاهرُ بذاته والمظهِرُ لغيره ـ قد جوَّزه جماعة منهم حجةُ الإسلام الغزاليُّ، فإنه قدِّسَ سرُّه بعد أن ذكر في رسالته «مشكاة الأنوار» معنى النور ومراتبَه قال: إذا عرفتَ أنَّ النور يرجع إلى الظهور والإظهار، فاعلم أنْ لا ظلمةَ أشدُّ من كَتْمِ العَدَم؛ لأنَّ المظلم سمِّي مُظْلِماً لأنه ليس بظاهرٍ للأبصار مع أنه موجودٌ في نفسه، فما ليس موجوداً أصلاً كيف لا يَستحقُّ أن يكون هو الغايةَ في الظُّلمة؟

وفي مقابلته الوجودُ، وهو النورُ، فإنَّ الشيءَ ما لم يظهر في ذاته لا يظهرُ لغيره، والوجودُ ينقسم إلى ما للشيء من ذاته، وإلى ما لَه من غيره، فما له الوجودُ من غيره، فوجودُه مستعارٌ لا قوامَ له بنفسه، بل إذا اعتُبِر ذاتُه من حيث ذاتُه فهو عدمٌ مَحْضٌ، وإنما هو وجودٌ من حيث نسبتُه إلى غيره، وذلك ليس بوجودٍ حقيقيٍّ، فالوجودُ الحقُّ هو الله تعالى كما أنَّ النور الحقَّ هو الله عز وجل[٢].

وقد قال قبل هذا: أقول ولا أبالي: إنَّ إطلاق اسم النور على غير النور الأول مجازٌ محضٌ؛ إذ كلُّ ما سواه سبحانه إذا اعتبر[٣] ذاته فهو في ذاته من حيث ذاتُه

(١) في الأصل: مساوق.
(٢) مشكاة الأنوار ص ١١.
(٣) في مشكاة الأنوار ص ١١: اعتبرت.

لا نور له، بل نورانيتُه مستعارةٌ من غيره، ولا قوامَ لنورانيته المستعارةِ بنفسها بل بغيرها، ونسبةُ المستعارِ إلى المستعير مجازٌ مَحْضٌ.

وفسَّر النورَ في هذه الآية ـ أعني قوله تعالى: (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) ـ بذلك، ثم أشار إلى وجه الإضافة إلى «السماوات والأرض» بقوله[1]: لا ينبغي أن يَخْفَى عليك ذلك بعد أن عرفتَ أنه تعالى هو النورُ ولا نورَ سواه، وأنه كلُّ الأنوار والنورُ الكلِّيُّ؛ لأن النور عبارةٌ عما تنكشفُ به الأشياء [وأعلى منه ما تنكشف به وله] وأعلى منه ما تنكشفُ به وله ومنه، وليس فوقه نورٌ منه اقتباسُه واستمدادُه، بل ذلك له في ذاته لذاته[2] لا من غيره، ثم عرفتَ أنَّ هذا لا يتَّصفُ به إلا النورُ الأول، ثم عرفتَ أن السماوات والأرضَ مشحونةٌ نوراً من طبقتي النور، أعني المنسوبَ إلى البصرِ والمنسوبَ إلى البصيرة ـ أي: إلى الحسِّ[3] والعقل ـ كنور الكواكب، وجواهر الملائكة، وكالأنوار المشاهَدةِ المنبسطةِ على كلِّ ما على الأرض، وكأنوار النبوَّة والقرآن، إلى غير ذلك.

وهذا منزعٌ صوفيٌّ، والصوفيةُ لا يتحاشَوْنَ من القول بأنه ـ سبحانه وتعالى عمَّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً ـ هو الكلُّ، بل هو هو لا هوية لغيره إلَّا بالمجاز، ويقولون: لا إله إلا الله توحيدُ العوامِّ، ولا إله إلا هو توحيدُ الخواصِّ، لأنه أتمُّ وأخصُّ وأشملُ وأحقُّ وأدقُّ وأَدْخَلُ لصاحبه في الفردانية المحضةِ والوحدانية الصرفةِ، وقد قال بذلك الغزاليُّ في رسالته المذكورةِ أيضاً[4]، وأنت تعلم أنه ممَّا لا يُهتَدَى إليه بنورِ الاستدلال، بل هو طورٌ وراء طورِ العقل، لا يُهتدَى إليه إلا بنورِ الله عزَّ وجلَّ.

وجوَّز بعضُ المحقِّقين كونَ المرادِ من النور في الآية: الموجِدَ، كأنه قيل: الله مُوْجِدُ السماوات والأرض، ووجّه ذلك بأنه مجازٌ مرسَلٌ باعتبارِ لازمِ معنى النورِ، وهو الظهورُ في نفسه وإظهارُه لغيره. وقيل: هو استعارةٌ، والمستعارُ منه النورُ

---

(١) في مشكاة الأنوار ص ١٣، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) في مشكاة الأنوار: من ذاته، بدل: لذاته.
(٣) في (م): الحسن.
(٤) مشكاة الأنوار ص ١٤، وفيه: لا هو إلا هو، بدل: لا إله إلا هو.

بمعنى الظاهر بنفسه المُظْهِر لما سواه، والمستعارُ له الواجبُ الوجودِ الموجِدُ لِمَا عَدَاه.

وكونَ[1] المراد به مفيضَ الإدراك ومعطيَه مجازاً مرسلاً أو استعارةً، والكلامُ على حذفِ مضافٍ، أي: نورُ أهلِ السماوات[2] والأرض، وهذا قريبٌ مما أخرجه ابنُ جَريرٍ وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس ﵄ أنه قال: «الله نورُ السماوات والأرض»: هادي أهلِ السماوات والأرض[3]. وهو وجهٌ حسن.

وجاء في روايةٍ أخرى أخرجها ابن جريرٍ عنه ﵁، أنه فسَّر النور بالمدبِّر فقال: «الله نورُ السماوات والأرض»: يدبِّر الأمرَ فيهما. ورَوَى ذلك عن مجاهد أيضاً[4]. وجَعَل ذلك بعضُهم من التشبيه البليغ، ووجهُ الشَّبهِ كونُ كلٍّ من التدبير والنورِ سببَ الاهتداء إلى المصالح.

وجوِّز أن يكون هناك استعارةٌ تصريحية. وتعقِّب بأنَّ ذكر طرفي التشبيه وهو الله تعالى والنورُ ينافي ذلك. وأجيب بأنَّ ذكرهما إنما ينافيه إذا كان على وجهٍ ينبئُ عن التشبيه، وكان كلٌّ من المشبَّه والمشبَّه به مذكوراً بعينه، وهنا لم يشبَّه الله سبحانه بالنور بل شبِّه المدبِّرُ به، وذكرُ جزئيٍّ يَصْدُقُ عليه المشبَّه أو كلِّيٍّ يشملُه لا ينافي ذلك كما أشار إليه صاحبُ «الكشاف» في مواضع منه، وصرَّح به أهلُ المعاني.

وقيل: المراد به: المنزَّه من كلِّ عيبٍ، ومن ذلك قولُهم: امرأةٌ نَوَار، أي: بريئةٌ من الريبة بالفحشاء، وهو من باب المجاز أيضاً.

وقيل: الكلامُ على حذفِ مضافٍ، كما في: زيدٌ كَرَمٌ، أي: ذو نورٍ، ويؤيِّده ـ كما قيل ـ قولُه تعالى بعدُ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ و﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾.

---

(١) عطف على كون الأولى في قوله: وجوَّز بعض المحققين كونَ. . .

(٢) في (م): والسماوات.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٩٣، والأسماء والصفات (١٣٦)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٤٨.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٦ عن ابن عباس ومجاهد.

وقيل: «نور» بمعنى: منوِّر، وروي ذلك عن الحسن وأبي العالية والضحاكِ، وعليه جماعةٌ من المفسِّرين، ويؤيِّده قراءةُ بعضهم: «منَوِّر»[١]، وكذا قراءةُ عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وأبي جعفر، وعبدِ العزيز المكيِّ، وزيد بن عليٍّ، وثابت بن أبي حفصةَ، والقورصيِّ، ومسلمةَ بنِ عبد الملك، وأبي عبد الرحمن السُّلميِّ، وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة: «نَوَّرَ» فعلاً ماضياً «والأرضَ» بالنصب[٢].

وتنويرُه سبحانه السماواتِ والأرضَ قيل: بالشمس والقمر وسائرِ الكواكب، ونُسب إلى الحسن ومَن معه. وقيل: تنويرُ السماوات بالملائكة عليهم السلام، وتنويرُ الأرض بالأنبياء عليهم السلام والعلماءِ، ونُسب إلى أبيّ بن كعب. والتنويرُ على الأول حسيٌّ، وعلى الثاني عقليٌّ.

وقيل وهو الذي أختاره: تنويرُه سبحانه إياهما بما فيهما من الآيات التكوينية والتنزيلية، الدالَّة على وجوده ووحدانيته وسائرِ صفاته عز وجل، والهاديةِ إلى صلاح المعاشِ والمَعَاد.

والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ إمَّا لتحقيق أنَّ بيانه تعالى المؤذِنَ به قولُه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ﴾ الآيةَ ليس مقصوراً على ما ورد في هذه السورة الكريمة. وإمَّا لتقرير ما في القرآن الجليل من البيان، ويتأتَّى نحوُ هذا على بعض الأقوال السابقة في بيان المراد بالنور، وهو وجهٌ قويٌّ في مناسبةِ الآية لِمَا قبلها، ولا يكاد يظهر مثلُه على بعضٍ آخَرَ منها.

وذكر العلَّامةُ الطيبيُّ في بيان المناسبة كلاماً فيه الغثُّ والسمينُ، إن أَرَدْتَه فارْجِعْ إليه.

وتخصيصُ السماواتِ والأرضِ بالذكر لأنهما المقرُّ المعروفُ للمكلَّفين المحتاجين لِمَا يدلُّهما ويهديهما لما سبق.

وقال العلَّامة البيضاويُّ بعد ذِكْرِ عدَّةِ احتمالاتٍ في المراد بالنور: إنَّ إضافته

---

(١) ذكرها البيضاوي في تفسيره ٦/ ٣٧٩ مع حاشية الشهاب.
(٢) القراءات الشاذة ص ١٠١، والبحر ٦/ ٤٥٥ وعنه نقل المصنف.

إليهما للدلالة على سعة إشراقه، أو لاشتمالهما على الأنوار الحسِّيةِ والعقلية، وقصورِ الإدراكات البشرية عليهما وعلى المتعلِّق بهما والمدلولِ لهما[1].

وقيل: المراد بهما العالمُ كلُّه، كإطلاق المهاجرين والأنصار على جميع الصحابة رضي الله عنهم.

وتعقِّب بأنَّ هذا من إطلاق اسم البعض على الكلِّ مجازاً، وقد اشتَرط في «التلويح»[2] أن يكون الكلُّ مركَّباً تركيباً حقيقيّاً، ولم يثبت في اللغة إطلاقُ الأرض على مجموعِ الأرض والسماء، والإنسانِ على الآدميِّ والسَّبُع.

وأجيب بأنه لا يتعيَّنُ كونُه مجازاً؛ لجواز كونه كنايةً، ولو سلِّم فما في «التلويح» غيرُ مسلَّم، أو هو أغلبيٌّ، فقد ذكر الزمخشريُّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥] أنه عبَّر عن جميع العالم بالسماء والأرض[3]، وقال العلَّامة في شرحه: إنه من إطلاق الجزء على الكلِّ. فالمعنى حينئذ: الله نورُ العالمِ كلِّه.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: أدلَّتِه سبحانه العقليةِ والسَّمعية في السماوات والأرض التي هَدَى بها مَن شاء إلى ما فيه صلاحُه، وحُكي هذا عن أبي مسلم، وينتظم ذلك القرآنَ انتظاماً أوليًّا.

وعن ابن عباسٍ والحسن وزيد بن أسلم أنَّ المراد بالنور هنا القرآنُ، كما يُعْرِبُ عنه ما قبلُ من وصف آياته بالإنزال والتبيين، وقد صرَّح بكونه نوراً أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقيل: المراد به الحقُّ، فقد جاء استعارةُ النور له كاستعارةِ الظُّلمةِ للباطل في قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي: من أنواع الباطل إلى الحقِّ، ووجهُ الشَّبَهِ الظهورُ، ومن أمثالهم: الحقُّ أبلج، ويكفي ذلك في جواز الاستعارة، ولا تتوقَّفُ على تحقُّق ما في النور من معنى

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٨١.

(٢) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٣٨١، والكلام منه.

(٣) الكشاف ١/ ٤١١.

الإظهار في الحقِّ، نعم إذا تحقَّق ذلك أيضاً فهو نورٌ على نورٍ.

لكن رجَّح ضَعْفُ تفسيره بما ذُكر دون القرآن بأنه يأباه مقامُ بيانِ شأنِ الآيات، ووصفُها بما ذكر من التبيين، مع عَدَمِ سَبْقِ ذِكْرِ الحقِّ.

وفي «الكشف»: المرادُ بالحقِّ الذي فسِّر النورُ به: ما يقابلُ الباطلَ، وهو يتناولُ التوحيدَ والشرائع وما دلَّ عليه بدليل السمع والعقل، وليس المراد به كونَ السماوات والأرض دليلين على وجود فاطرهما، بل ذلك أيضاً داخلٌ في عموم اللفظ. انتهى، ويَضْعُفُ عليه أمرُ هذا التضعيفِ.

وقيل: المراد به الهدى الذي دلَّ عليه الآياتُ المبيِّناتُ.

وقيل: الهدى مطلقاً، فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس أنه قال: «مثلُ نُورِه»: مثلُ هُداه في قلب المؤمن[1]. وأخرج ابن جرير عن أنس قال: إنَّ إلهي يقول: نُوري هُدَايَ[2].

وذكر بعضهم أنَّ تفسيره بالهدى مختارُ الأكثرين، وأنَّ تفسيره بالحقِّ بالمعنى العامِّ يوافقه.

وقيل: المراد به المعارِفُ والعلومُ التي أفاضها عز وجل على قلب المؤمن، وإضافةُ ذلك إليه سبحانه لأنه مفاضه تعالى.

وعن أبيّ بن كعب والضحاك تفسيرُه بالإيمان الذي أعطاه سبحانه المؤمنَ ووفَّقه إليه.

وجاء في بعض الروايات عن ابن عباس تفسيرُه بالطاعات التي حلَّى بها جلَّ شأنُه قلبَ المؤمن، فيشمل الإيمان وسائرَ الأعمال القلبية الحميدة.

وقيل: المراد بنوره رسولُه محمدٌ ﷺ، وقد جاء إطلاقُ النورِ عليه عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] على قول. وقيل غيرُ ذلك مما ستَعْلَمُه إن شاء الله تعالى.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٩، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٥٩٤، والأسماء والصفات (١٣٦)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٤٨.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٢٩٦.

والضمير على جميع هذه الأقوال راجعٌ إليه تعالى كما هو الظاهر، وجوِّز رجوعُ الضمير إلى المؤمن، وروي ذلك عن عكرمة، وهو إحدى الروايات ـ وصحَّحها الحاكم ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما[1].

ورُوي أيضاً عن أبيّ بن كعب، بل أخرج عبد بنُ حميد وابنُ الأنباريِّ في «المصاحف»[2] عن الشعبيِّ أنه قال: قرأ أبيّ بن كعب: «مثلُ نورِ المؤمن». وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أبي العالية أن أبيّاً قرأ: «مَثَلُ نورِ مَن آمَنَ به» أو قال: «مَثَلُ مَن آمَنَ به»[3]. وفي «البحر»: روي عن أبيٍّ أنه قرأ: «مَثَلُ نورِ المؤمنين»[4].

وقيل: الضميرُ راجعٌ إلى محمد ﷺ وروى ذلك جماعةٌ عن ابن عباس عن كعبِ الأحبار، وحكاه أبو حيان عن ابن جبير أيضاً[5].

وقيل: هو راجعٌ إلى القرآن. وقيل: إلى الإيمان. ولا يخفى أنَّ رجوعَ الضمير إلى غيرِ مذكورٍ في الكلام إذا لم يكن في الكلام ما يدلُّ عليه، أو كان لكن كانت دلالتُه عليه خَفيَّةً، خلافُ الظاهر جدّاً، لاسيما إذا فات المقصودُ من الكلام على ذلك.

والمراد بالمَثَل: الصفةُ العجيبة، أي: صفةُ نورِه سبحانه العجيبةُ الشأن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ أي: كصِفَتِها في الإنارة والتنوير. وقال أبو حيان[6]: أي: كنور مشكاةٍ.

وهي الكوَّة غيرُ النافذة، كما قال ابن عباس وأبو مالك وابنُ جُبيرٍ وسعيد بن عياض والجمهور.

وقال أبو موسى: هي الحديدةُ أو الرصاصةُ التي تكون فيها الفتيلةُ في جوف الزجاجة.

---

(١) المستدرك ٢/ ٤٣٢.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٤٨، وعنه نقل المصنف.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٧٩، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٤٨.

(٤) لم نقف عليها في البحر، وذكرها عن أبيٍّ رضي الله عنه القرطبي في التفسير ١٥/ ٢٦١، والسمين في الدر المصون ٨/ ٤٠٤.

(٥) البحر ٦/ ٤٥٥.

(٦) النهر المادّ على هامش البحر ٦/ ٤٥٣.

وعن مجاهد: أنها الحديدة التي يعلَّقُ بها القنديل، وهو كما ترى، والمعوَّلُ عليه قولُ الجمهور، وعن ابن عطية أنه أصحُّ الأقوال(١).

وعلى جميعها هو لفظٌ حبشيٌّ معرَّبٌ، كما قال ابن قتيبة(٢) والكلبيُّ وغيرُهما. وقيل: روميٌّ معرب.

وقال الزجَّاج كما في «مجمع البيان»: يجوز أن يكون عربيّاً فيكون مِفْعَلة، والأصلُ: مِشْكَوَة، فقُلبت الواوُ ألفاً لتحرُّكِها وانفتاح ما قبلها(٣).

وإلى أنَّ أصل ألِفِها الواوُ ذهب ابن جنِّي(٤)، واستدلَّ عليه بأنَّ العرب قد نَحَوْا بها منحاةَ الواو كما فعلوا بالصلاة.

وقرأ الكسائيُّ برواية الدوريِّ بالإمالة(٥).

﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ سراجٌ ضخمٌ ثاقبٌ. وقيل: الفتيلةُ المشتعلةُ.

﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ في قنديلٍ من الزجاج الصافي الأزهر، وضمُّ الزاي لغةُ الحجاز، وكَسْرُها وفتحُها لغةُ قيس، وبالفتح قرأ أبو رجاء ونصر بن عاصم في رواية ابن مجاهد، وقرأ بعضهم بالكسر أيضاً(٦).

وكذا قُرئ بهما(٧) في قوله تعالى: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ مضيءٌ متلألئٌ كالزُّهَرةِ(٨) في صفائه وزهْرَتِه(٩)، منسوبٌ إلى الدرِّ فوزنُه فُعْلي، وجوَّز أن يكون

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٤.
(٢) في أدب الكاتب ص ٤٩٦.
(٣) مجمع البيان ١٨/ ٤٥، والكلام بنحوه مختصراً في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٣.
(٤) كما في اللسان (شكا).
(٥) التيسير ص ٥٠.
(٦) القراءتان في الكشاف ٣/ ٦٨، و البحر ٦/ ٤٥٦، والقراءة بفتح الزاي ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٠٢، وابن جني في المحتسب ٢/ ١٠٩.
(٧) الكشاف ٣/ ٦٨، والبحر ٦/ ٤٥٦، والقراءة بالكسر ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٠٢.
(٨) بضم الزاي وفتح الهاء، والتسكين خطأ، اسم للكوكب المعروف، حاشية الشهاب ٦/ ٣٨١.
(٩) بفتح الزاي وضمها مع سكون الهاء: بياضه وحسنه. حاشية الشهاب ٦/ ٣٨١.

أصله: دُرِّيء بهمزةٍ آخرِه كما قرأ به حمزة وأبو بكر[١]، فقُلبتْ ياءً وأُدغمتْ في الياء، فوزنُه فُعِّيل، وهو من الدَّرْء بمعنى الدفع فإنه يدفعُ الظلَامَ بضوئه، أو يدفع بعضُ ضوئه بعضاً من لمعانه. وجوّز أن يكون من الدَّرْءِ بمعنى الجري، وليس بذاك، ومثلُه ما قيل: إنه مِن دَرَأ، إذا طلع بغتةً وفاجأ.

ولا يخفى على المتتبِّع أنَّ فُعِّيلاً قليلٌ في كلامهم، ففي «اللباب»: فُعِّيل غريبٌ لا نظير له إلَّا مُرِّيق ـ لحبِّ العُصْفُر أو ما سمن من الخيل ـ وعُلِّيّة وسُرِّيَّة وذُرِّيّة، قاله أبو علي[٢].

وفي «البحر»: سمع أيضاً مُرِّيخ للذي في داخل القَرْنِ اليابس، وفيه لغتان ضمُّ الميم وكَسْرُها[٣].

وقال الفراء: لم يُسْمَعْ إلا مُرِّيق، وهو أعجميٌّ[٤]. وسيبويه عدَّ ذلك من أبنية العرب[٥]، ولم يُثْبِتْ بعضُهم هذا الوزنَ أصلاً.

وقال أبو عبيد[٦]: أصل «دُرِّيء»: درُّوء كسُبُّوح، فجُعلت الضمةُ كسرةً للاستثقال، والواو ياءً لانكسارِ ما قبلها، كما قالوا في عُتُوّ: عُتِيّ، فوزنه فُعُّول، وكذا قيل في سُرِّيّة وذُرِّيّة.

وجعل بعضُهم سُرِّيّة من السرِّ وهو النكاح أو الإخفاء، والضمُّ من تغييرات النَّسب، فوزنُه فِعْلِيَّة كما في «الصحاح». والأخفشُ يرى أنه من السرور، وقد أبدلت الراءُ الأخيرة ياءً، وهو معهودٌ في الفعل، فقد قالوا: تسرّرْتُ جاريةً

---

(١) التيسير ص ١٦٢، والنشر ٢/ ٣٣٢.

(٢) في الحجة ٥/ ٣٢٣، والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٣٨١.

(٣) البحر ٦/ ٤٥٦.

(٤) حاشية الشهاب ٦/ ٣٨١، وقول الفراء في معاني القرآن٢/ ٢٥٢: ولا تُعرف جهةُ ضمِّ أوله وهمزه، لا يكون في الكلام فُعِّيل إلا عجميًّا.

(٥) الكتاب ٤/ ٢٦٨.

(٦) في الأصل: عبيدة، وهو موافق لما في تفسير البغوي ٣/ ٣٤٥، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٨١، والمثبت من (م) وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٣٧، والصحاح (درأ)، وتفسير القرطبي ١٥/ ٢٦٤.

وتسرَّيْتُ، كما قالوا: تَظَنَّنْتُ وتَظنَّيْتُ[1]، فوزنه على هذا كما قال الخفاجيُّ[2] فُعْلِيْلة.

وجَعَل بعضُهم ذُرِّيَّةً نسبةً إلى الذَّرِّ على غير القياس؛ لإخراجهم كالذَّرِّ من ظهر آدم عليه السلام.

وقرأ قتادة وزيد بن عليٍّ والضحاك: «دَرِّيٌّ» بفتح الدال، وروي ذلك عن نصر بن عاصم وأبي رجاء وابن المسيب[3]. وقرأ الزهريُّ: «دِرِّيٌّ» بكسر الدال[4].

وقرأ أبو عمرو والكسائي «دِرِّيءٌ» بالكسر والهمزة آخره[5]، وهو بناءٌ كثيرٌ في الأسماء نحو: سِكِّين، وفي الأوصاف نحو: سِكِّير.

وقرأ قتادة أيضاً وأبان بن عثمان وابنُ المسيب وأبو رجاء وعمرو بن فائد والأعمش ونصر بن عاصم: «دَرِّيءٌ» بالهمز وفتح الدال[6]؛ قال ابن جنِّي: وهذا عزيزٌ لم يحفظ منه إلا السَّكِّينة بفتح السين وشدِّ الكاف في لغةٍ حكاها أبو زيد[7].

وقرئ: «دِئريٌّ» بتقديم الهمزة ساكنةً على الراء وهي من نادرِ الشَّوَاذِّ[8].

وفي إعادة «المصباح» و«الزجاجة» معرَّفين إثر سَبْقِهما منكَّرين، والإخبارِ عنهما بما بعدهما ـ مع انتظام الكلام بأنْ يقال: كمشكاةٍ فيها مصباحٌ في زجاجةٍ كأنها كوكبٌ درِّيٌّ ـ من تفخيم شأنهما ورفعِ مكانتهما، بالتفسير إثر الإبهام، والتفصيلِ بعد الإجمال، وبإثبات ما بعدهما لهما بطريق الإخبار المُنْبِئِ عن القصد الأصليِّ دون الوصف المنبئ عن الإشارة إلى الثبوت في الجملة = ما لا يخفى.

---

(١) الصحاح (سرر).
(٢) في الحاشية ٦/ ٣٨٢.
(٣) البحر ٦/ ٤٥٦.
(٤) في الأصل و(م): الراء، والمثبت من البحر ٦/ ٤٥٦، والكلام منه.
(٥) التيسير ص١٦٢، والنشر ٢/ ٣٣٢، والكلام من البحر ٦/ ٤٥٦.
(٦) القراءات الشاذة ص ١٠٢، والمحتسب ٢/ ١١٠، والبحر ٦/ ٤٥٦، والكلام منه.
(٧) المحتسب ٢/ ١١٠.
(٨) وهي بكسر الدال. وهذه القراءة ذكرها البيضاوي، والكلام من حاشية الشهاب ٦/ ٣٨٢.

والجملة الأولى في محلِّ الرفع على أنها صفةٌ لمصباح، والجملةُ الثانية في محلِّ الجر على أنها صفةٌ لزجاجة، واللام مغنيةٌ كما في «مجمع البيان» و«إرشاد العقل السليم» عن الرابط، كأنه قيل: فيها مصباحٌ هو في زجاجة هي كأنَّها كوكبٌ دريٌّ[1].

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ أي: يُبتدأ إيقادُ المصباح من شجرة ﴿مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ أي: كثيرةِ المنافع، بأن رُويتْ ذُبالته بزيتها. وقيل: إنما وصفت بالبركة لأنها تَنْبُتُ في الأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين، وقيل: بارك فيها سبعون نبيّاً منهم إبراهيم عليه السلام.

﴿زَيْتُونَةٍ﴾ بدلٌ من «شجرة»، وقال أبو عليٍّ: عطفُ بيانٍ عليها، وهو مبنيٌّ على مذهب الكوفيين من تجويزهم عطفَ البيان في النكرات، وأما البصريون فلا يجوِّزونه إلا في المعارف.

وفي إبهام الشجرة، ووَصْفِها بالبركة، ثم الإبدالِ عنها أو بيانِها، تفخيمٌ لشأنها، وقد جاء في الحديث مدحُ الزيت لأنه منها، أخرج عبد بن حميد في مسنده، والترمذيُّ وابن ماجه عن عمر ﷺ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ائْتدِمُوا بالزَّيتِ وادَّهِنُوا به، فإنَّه من شجرةٍ مُبارَكةٍ»[2].

وأخرج البيهقيُّ عن عائشة ﷺ: أنها ذُكر عندها الزيتُ فقالت: كان رسولُ الله ﷺ يأمرُ أن يؤكلَ ويُدْهَنَ ويُسْعَطَ به، ويقول: «إنه من شجرةٍ مباركةٍ»[3].

وهو في حدِّ ذاته ممدوح، ففي الحديث أنه مصحَّةٌ من الباسور[4]، وذكر له

(١) مجمع البيان ١٨/ ٤٦، وتفسير أبي السعود ٦/ ١٧٦.

(٢) مسند عبد بن حميد (١٣)، وسنن الترمذي (١٨٥١)، وسنن ابن ماجه (٣٣٢٠)، وسلف ص٥٥ من هذا الجزء.

(٣) شعب الإيمان (٥٩٤٠)، وأخرجه أيضاً الحارث في مسنده (٥٣٣ـ زوائد)، وفي إسناده الواقدي، وهو متروك.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ١٧/ (٧٧٤). قال أبو حاتم كما في العلل لابنه ٢/ ٢٧٩: هذا حديث كذب.

الأطباء منافعَ كثيرةً، وكان ﷺ يأكل الخبز به، وأكل عليه الصلاة والسلام اللسانَ مطبوخاً بالشعير وفيه الزيت والتوابل(١)، فليحفظ.

وقرأ الأخوان وأبو بكر والحسنُ وزيد بنُ عليٍّ وقتادةُ وابنُ وثَّابٍ وطلحةُ وعيسى والأعمش: «تُوقَدُ» بالتاء المثناة من فوق مضارع أُوْقِدَتْ مبنياً للمفعول(٢)، على أنَّ الضمير القائمَ مقامَ الفاعل للزجاجة. وإسنادُ الفعل إليها، قيل: على سبيل المبالغة. وقيل: هو بتقدير مضافٍ، أي: مصباحُها.

وقرأ الحسن والسُّلميُّ وقتادةُ أيضاً وابنُ مُحيصِنٍ وسلامٌ ومجاهدٌ وابن أبي إسحاق والمفضَّل عن عاصم: «تَوَقَّدُ» بالتاء الفوقية أيضاً مضارع تَوَقَّد(٣)، وأصله: تَتَوَقَّدُ بتاءين، فخفِّف بحذف أحدهما.

وذكر الخفاجيُّ أنها قراءة أبي عمرو وابن كثير(٤)، والإسنادُ فيها للزجاجة على ما مرَّ.

وقرأ السُّلَميُّ وقتادةُ وسلام أيضاً: «يَوَقَّدُ» بالياء التحتية على أنه مضارع توَقَّدَ أيضاً، وجاء كذلك عن الحسن وابن محيصن(٥)، وأصله يَتَوقَّد - أي: المصباح - فحُذفت التاء، وهو غير معروفٍ مع الياء وإنما المعروفُ هو الحذفُ عند اجتماع التاءين المتماثلين.

ووجهُ ذلك على - ما قال ابن جنِّي - أنه شبِّه فيه حرفُ مضارعةٍ بحرف مضارعةٍ، يعني الياءَ بالتاءِ، فعومل معاملته، كما شبِّهتِ التاءُ والنون في تَعِدُ ونَعِدُ بياء يَعِدُ، فحُذِفَ الواوُ معهما كما حُذفتْ فيه لوقوعها بين ياءٍ وكسرة(٦).

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): كالفلفل ونحوه. اهـ منه. ولم نقف على هذا الخبر، وينظر ما سلف ص٥٥ من هذا الجزء.

(٢) التيسير ص ١٦٢، والنشر ٢/ ٣٣٢ عن حمزة والكسائي وأبي بكر، وذكرها عنهم جميعاً أبو حيان في البحر ٦/ ٤٥٦، والكلام منه.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٠٢، والبحر ٦/ ٤٥٦.

(٤) كذا ذكر الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٨٢، والصواب أن قراءة أبي عمرو وابن كثير كما في التيسير ص ١٦٢، والنشر ٢/ ٣٣٢: «تَوَقَّدَ» بفتح الأربعة فعلاً ماضياً. وسترد قريباً دون نسبة.

(٥) المحتسب ٢/ ١١٠، والبحر ٦/ ٤٥٦، وعنه نقل المصنف.

(٦) المحتسب ٢/ ١١١.

وقرئ: «تَوَقَّدَ» بالتاء من فوق على صيغة الماضي من التفعُّلِ[١]، والضميرُ للمصباح، أي: ابتداءُ توقُّدِ المصباح من شجرة.

﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: ضاحية للشمس لا يظلُّها جبلٌ ولا شجرٌ، ولا يحجبُها عنها شيءٌ من حين تَطْلُعُ إلى أن تَغْرُبَ، وذلك أحسنُ لزيتها، وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والكلبيِّ، وهو تفسيرٌ بلازمِ المعنى، أعني به كونَها بين الشرق والغرب.

وعن ابن زيد: أي: ليست من شجر الشرق ولا من شجر الغرب؛ لأنَّ ما اختصَّ بإحدى الجهتين كان أقلَّ زيتاً وأضعفَ ضوءاً، لكنها من شجر الشام، وهي ما بين المشرق والمغرب، وزيتونُها أجودُ ما يكون.

وقال أبو حيَّان في «تذكرته»: المعنى: ليست في مَشْرقةٍ أبداً، أي: في موضعٍ لا يصيبُه ظلٌّ، وليست في مَقْنَأةٍ[٢] أبداً، أي: في موضعٍ لا تُصيبه الشمس، وحاصلُه: ليست الزيتونةُ تصيبُها الشمسُ خاصَّةً ولا الظلُّ خاصةً، ولكنْ يُصيبها هذا في وقتٍ وهذا في وقتٍ[٣].

وقال الفرَّاء والزجَّاج: المعنى: لا شرقيةٍ فقط ولا غربيةٍ فقط، لكنها شرقيةٌ غربيةٌ، أي: تصيبُها الشمسُ عند طلوعها وغروبها[٤].

وأنت تعلمُ أنه لابدَّ من تقديرِ قيدِ «فقط» بعد كلٍّ من «شرقية» و«غربية» ـ كما سمعتَ ـ ليتوجَّه النفيُ إليه، فيفيدُ التركيبُ اجتماعَ الأمرين، وإلَّا فظاهرُه نَفْيُهما.

وعن «المطلع»: أنَّ هذا كقول الفرزدق:

بأيدي رجالٍ لم يَشِيمُوا سيوفَهم ولم تَكْثُرِ القَتْلَى بها حين سُلَّتِ[٥]

---

(١) هي قراءة أبي عمرو وابن كثير، وينظر ما سلف قبل تعليقين.

(٢) بالقاف وفتح النون وضمها والهمزة، وقيل: إنه بالألف بدون همزة. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٨٢.

(٣) بنحوه في البحر المحيط ٦/ ٤٥٧، ونقله المصنف عن حاشية الشهاب ٦/ ٣٨٢-٣٨٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٣، وللزجاج ٤/ ٤٥.

(٥) الكامل للمبرد ١/ ٤٠١، والأضداد لابن الأنباري ص ٢٥٩، واللسان (شيم). قوله: لم يشيموا، أي: لم يغمدوا.

إذ معناه: شاموا سيوفهم وأكْثَروا بها القَتْلَ.

وتعقَّبه في «الكشف» بأنه لا استدلالَ بالبيت على ذلك؛ لجوازِ أنْ يريد: لم يَشِيموا غيرَ مكثري القتلى، على الحال، وإفادتُه المعنى المذكورَ واضحةٌ حينئذ.

وعن ابن عباس: أنها في دوحةٍ أحاطت بها، فليست منكشفةً لا من جهة الشرق ولا من جهة الغرب.

وتعقِّب بأنَّ هذا لا يصحُّ عن ابن عباس؛ لأنها إذا كانت بهذه الصفة فَسَدَ جناها.

وعن الحسن: أنَّ هذا مَثَلٌ، وليست من شجر الدنيا؛ إذ لو كانت في الدنيا لكانت شرقيةً أو غربيةً.

وعن عكرمة: أنها من شجر الجنة. ولعله إنما جَزَمَ بذلك لِمَا ذَكَرَ الحسن، ولا يخفى ما فيه.

وقرأ الضحاك: «لا شرقيةٌ ولا غربيةٌ» بالرفع[1]، أي: هي لا شرقيةٌ ولا غربيةٌ.

وقال أبو حيان: أي: لا هي شرقيةٌ ولا غربيةٌ[2]، ولعل ما ذكرنا أولى. والجملةُ في موضع الصفة لـ «زيتونة».

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ أي: هو في الصفاء والإنارةِ بحيث يكادُ يضيءُ بنفسه من غير مساسِ نارٍ أصلاً، وكلمةُ «لو» في أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء الشيءِ لانتفاءِ غيره في الزمان الماضي، فلا يلاحَظُ لها جوابٌ قد حُذِفَ ثقةً بدلالةِ ما قبلها عليه ملاحظةً قصديةً إلا عند القَصْدِ إلى بيانِ الإعراب على القواعد الصناعية، بل هي لبيانِ تحقُّقِ ما يفيدُه الكلامُ السابق من الحُكمِ المُوْجَبِ أو المنفيِّ على كلِّ حالٍ مفروضٍ من الأحوال المقارِنةِ له إجمالاً بإدخالها على أبعدها منه. والواو الداخلةُ عليها لعطفِ الجملة المذكورة على جملةٍ محذوفةٍ مقابلةٍ لها عند الجزوليِّ ومَن وافقَه، ومجموعُ الجملتين في حيِّز النصب على الحالية

(١) البحر ٦/ ٤٥٧.

(٢) المصدر السابق.

من المستكنِّ في الفعل الموجَبِ أو المنفيِّ، وتقدير الآية الكريمة: يكاد زيتُها يضيء لو مسَّتْهُ نارٌ ولو لم تَمْسَسْه[١] نارٌ، أي: يضيءُ كائناً على كلِّ حالٍ من وجودِ شرطِ الإضاءة وعَدَمِه، وحُذفت الجملةُ الأولى حَسْبَما هو المطَّرِدُ في الباب ثقةً بدلالةِ الثانية عليها دلالةً واضحة.

وقال الزمخشريُّ: الواوُ للحال، ومقتضاه أنَّ «لو» مع ما بَعْدَها حالٌ، فالتقدير: والحالُ لو كان، أو لو لم يكن كذا، أي: مفروضاً ثبوتُه أو انتفاؤه، لكنَّ الزمخشريَّ ومثلُه المرزوقيُّ يقدِّر: ولو كان الحالُ كذا[٢].

وتعقَّب ذلك بأنَّ أدوات الشرط لا تصلحُ للحالية؛ لأنها تقتضي عَدَمَ التحقُّق، والحالُ يقتضي خلافه.

والتُزِمَ لذلك أنه انسلخ عنها الشرطيةُ، وأنها مؤوَّلةٌ بالحال، كما أنَّ الحال تكون في معنى الشرط، نحو: لأفعلنَّه كائناً ما كان، أي: إنْ كان هذا أو غيره، ولذا لا تحتاج إلى الجزاء أصلاً. وإنما قدَّر الحال بعد «لو» ـ على ما قيل ـ إشارةً إلى أنه قُصِدَ إلى جَعْلِ الجملة حالاً قبل دخول الشرط المنافي له، ثم دخلت «لو» تنبيهاً على أنها حالٌ غيرُ محقَّقةٍ.

واعترض الرضيُّ القولَ بأنها عاطفةٌ، بأنه لو كان كذلك لوقع التصريحُ بالمعطوف عليه في الاستعمال، وليس كذلك، وذهب إلى أنها اعتراضيةٌ، ويجوز الاعتراضُ في آخر الكلام، والمقصود منه التأكيد.

وأجيب عن اعتراضه بأنَّ ظهور ترتُّبِ الجزاء على المعطوف عليه أَغْنَى عن ذكره، حتى كان ذكرُه تكراراً.

وبالجملة: الذي عَطَفَ عليه الأكثرون وارتَضَوْه كونُها عاطفةً. وبجَعْلِ مجموع الجملتين في موضع الحال ـ على ما سمعتَ ـ يندفعُ ما يُتَوهَّم من أنَّ «كاد» تُنافي اعتبارَ العطف هنا، فتأمل.

---

(١) في الأصل: تمسَّه.

(٢) الكشاف ١/ ٣٦١، وذكره عن المرزوقي الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٨٣، وينظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٧٤.

وقرأ ابن عباس والحسن: «يَمْسَسْه» بالياء التحتية(١)، وحسَّنه الفَصْلُ وكونُ الفاعلِ غيرَ حقيقيِّ التأنيث.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: هو نورٌ عظيم كائنٌ على نورٍ، على أنْ يكون «نورٌ» خبر مبتدأ محذوفٍ، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً له مؤكِّدةً لِمَا أفاده التنكيرُ من الفخامة. والجملةُ فذلكةٌ للتمثيل، وتصريحٌ بما حصل منه، وتمهيدٌ لِمَا يعقبُه، فالمرادُ من الضمير النورُ الذي مثِّلتْ صفتُه العظيمةُ الشأن بما سمعتَ، لا النورُ المشبَّهُ به، وحَمْلُه عليه لا يليقُ ـ كما قيل ـ بشأن التنزيل الجليل، وليس معنى كونِه نوراً فوق نورٍ أنه نورٌ واحدٌ ـ معيَّنٌ أو غيرُ معيَّنٍ ـ فوق نورٍ آخَرَ مِثْلِه، ولا أنه مجموعُ نورين اثنين فقط، بل أنه نورٌ متضاعف من غير تحديدٍ لتضاعُفِه بحدٍّ معيَّنٍ.

وتحديدُ مراتبِ تضاعُفِ ما مثِّل به من نورِ المشكاة بما ذُكِرَ لكونه أقصى مراتبِ تضاعُفِه عادةً، فإن المصباح إذا كان في مكانٍ متضايقٍ كالمشكاة، كان أَضْوَأَ له وأَجْمَعَ لنوره بسبب انضمامِ الشعاع المنعكس منه إلى أصل الشعاع، بخلافِ المكانِ المتسع فإن الضوء ينبثُّ فيه وينتشر، والقنديلُ أعونُ شيءٍ على زيادةِ الإنارة، وكذلك الزيتُ وصفاؤه. وليس وراء هذه المراتبِ مما يزيدُ نورَها إشراقاً ويمدُّه بإضاءةٍ مرتَبَةٌ أخرى عادةً.

والظاهرُ عندي أنَّ التشبيه الذي تضمَّنته الآيةُ الكريمة من تشبيه المعقول ـ وهو نورُه تعالى بمعنى أدلَّتِه سبحانه، لكنْ من حيث إنها أدلةٌ، أو القرآنُ، أو التوحيدُ والشرائع وما دُلَّ عليه بدليل السمع والعقل، أو الهدى، أو نحو ذلك ـ بالمحسوس، وهو نورُ المشكاة المبالَغ في نعته، وأنه ليس في المشبَّهِ به أجزاءٌ ينتزع منها الشَّبه ليُبنى عليه أنه مركَّبٌ أو مفرَّقٌ.

وذُكر أنه إذا كان المراد تشبيهَ النورِ بمعنى الهدى الذي دلَّت عليه الآياتُ المبيِّنات، فهو من التشبيه المركَّب العقليِّ، وقد شبِّه فيه الهيئةُ المنتزعةُ بأخرى، فإنَّ النور وإنْ كان لفظُه مفرداً دالٌّ على متعدِّدٍ. وكذا إذا كان المراد تشبيه ما نوَّر الله

(١) القراءات الشاذة ص ١٠٢، والمحتسب ٢/ ١١١، والبحر ٦/ ٤٥٧.

تعالى به قلبَ المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبثّ فيها من مصباحها.

وفي الحواشي الطيِّبة الطيبيَّةِ بعد اختيارِ أن المراد بالنور الهدايةُ بوحيٍ يُنْزِلُه ورسولٍ يبعثه، ما هو ظاهرٌ في أنَّ التشبيه من التشبيهِ المفرَّق، بل صرَّح بذلك أخيراً، واستدلَّ عليه بأنَّ التكرير في الآية يستدعي ذلك.

وقد أطال الكلام في هذا المقام، ومنه: أنَّ المشبَّهات المناسِبةَ على هذا المعنى صدرُ الرسول ﷺ وقلبه الشريفُ، واللطيفةُ الربانية فيه والقرآنُ، وما يتأثَّرُ منه القلبُ عند استمدادِه.

والتفصيلُ أنه شبّه صدره عليه الصلاة والسلام بالمشكاة لأنه كالكوَّة ذو وجهين؛ فمن وجهٍ يقتبسُ النورَ من القلب المستنير، ومن آخَرَ يُفيضُ ذلك النورَ المقتبَسَ على الخلق، وذلك لاستعداده بانشراحه مرتين: مرةً في صباه، وأخرى عند إسرائه، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وهذا تشبيهٌ صحيح قد اشتهر عن جماعةٍ من المفسِّرين؛ روى محيي السنَّة عن كعب: هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لنبيِّه ﷺ، المشكاة صدرُه، والزجاجةُ قلبُه، والمصباحُ فيه النبوَّةُ، والشجرةُ المباركة شجرةُ النبوَّةِ(١).

وروى الإمامُ عن بعضهم أنَّ المشكاة صدرُ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، والزجاجةَ قلبُه، والمصباحَ ما في قلبه من الدِّين(٢).

وفي «حقائق» السلميِّ عن أبي سعيد الخراز: المشكاةُ جوفُ محمدٍ ﷺ، والزجاجةُ قلبُه الشريفُ، والمصباحُ النورُ الذي فيه، وشبِّه قلبه صلواتُ الله تعالى وسلامه عليه بالزجاجةِ المنعوتةِ بالكوكب الدرِّيِّ لصفائه وإشراقه، وخُلوصِه عن كُدورَةِ الهوى ولوثِ النفس الأمَّارة، وانعكاسِ نور اللطيفة إليه.

وشبِّهت اللطيفةُ القدسية المزهرةُ في القلب بالمصباح الثاقب؛ أخرج الإمام

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٣/ ٢٣٧.

أحمد في «مسنده» عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوبُ أربعةٌ: قلبٌ أَجْرَدُ فيه مثلُ السراج يزهر» وفيه: «أمّا القلبُ الأجرد فقلبُ المؤمن سراجُه فيه نورُه» الحديث(١).

وشبِّه نفسُ القرآنِ بالشجرة المباركة لثبات أصلها وتشعُّب فروعها وتأدِّيها إلى ثمراتٍ لا نهايةَ لها؛ قال الله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ الآية [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

وروى محيي السنَّة عن الحسن وابن زيد: الشجرةُ المباركةُ شجرةُ الوحي، «يكاد زيتُها يضيء»: تكادُ حجةُ القرآن تتَّضح وإن لم تُقرأ(٢).

وشبِّه ما يستمدُّه نورُ قلبه الشريفِ صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليه من القرآن، وابتداءُ تفويته منه، بالزيت الصافي؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢] فكما جعل سبحانه القرآن سبَب توقُّدِه منه في قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ جعل ضوءه مستفاداً من انعكاس نورِ اللطيفة إليه في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ﴾.

والمعنى على ما ذُكر في «إنسان العين»: يكادُ سرُّ القرآن يظهر للخَلْقِ قبل دعوةِ النبي ﷺ، وفيه مسحةٌ من معنى قوله:

رَقَّ الزُّجاجُ ورَقَّتِ الخمرُ ... فتشابها وتَشاكَلَ الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

ومنه وصفت الشجرة بكونها «لا شرقية ولا غربية».

وعن ابن عباس: تشبيهُ فؤادِه ﷺ بالكوكب الدريِّ، وأن الشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام، ومعنى «لا شرقية ولا غربية»: أنه ليس بنصرانيٍّ فيصلِّي نحو المشرق، ولا يهوديٍّ فيصلِّي نحو المغرب، والزيتُ الصافي: دينُ إبراهيم عليه السلام.

---

(١) مسند أحمد (١١١٢٩).
(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٧.

وقد يقال على تفريق التشبيه لكنْ على مشرعٍ آخر: شبِّه القرآنُ بالمصباح على ما سبق، ونفسُه ﷺ الزكيةُ الطاهرةُ بالشجرة لكونها نابتةً من أرض الدِّين، متشعِّبةً فروعُها إلى سماء الإيمان، متدلِّيةً أثمارُها إلى فضاء الإخلاص والإحسان، وذلك لاستقامتها بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود:١١٢]، غيرَ مائلةٍ إلى طرفي الإفراط والتفريط، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ [النور: ٣٥] ويشبّه ما مَحَضَ من تلك الثمرات بعد التصفية التامَّةِ للتهيئة وقبولِ الآثار بالزيت الصافي؛ لوفور قوةِ استعدادها للاستضاءة للدهنية القابلة للاشتعال، ومن ثَمَّ خُصَّتْ شجرةُ الزيتون لأنَّ لبَّ ثمرتها الزيتُ الذي تشتعل به المصابيح، وخصَّ هذا الدهنُ لمزيد إشراقه مع قلَّةِ الدخان، يكاد زيتُ استعدادِه صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليه لصفائه وزكائه يضيءُ ولو لم يَمْسَسْه نورُ القرآن، رَوَى البغويُّ عن محمد بن كعب القرظيِّ: تكاد محاسنُ محمد ﷺ تَظْهَرُ للناس قبل أن يُوْحَى إليه[١]. قال ابن رواحة:

لو لم يَكُنْ فيه آياتٌ مبيِّنةٌ … كانت بداهتُه تُنْبيكَ عن خبره[٢]

وفي «حقائق» السُّلَميِّ: «مثلُ نوره» في عبده المُخلِصِ، والمشكاة القلبُ، و«المصباحُ» النورُ الذي قُذِفَ فيه، والمعرفةُ تضيءُ في قلب العارف بنورِ التوفيق، «يوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ» يضيء[٣] على شخصٍ مباركٍ تتبيَّن أنوارُ باطِنِه على آداب ظاهِره وحُسْنِ معاملته، «زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ» جوهرة صافية لا لها حظٌّ في الدنيا ولا في الآخرة؛ لاختصاصها بموالاة العزيز الغفَّار، وتفرُّدِها بالفرد الجبَّار، إلى غير ذلك.

وجَعَل بعضُهم التشبيهَ من المركَّب الوهميِّ، بناءً على أنَّ المراد من النور المشبَّهِ الهدى، من حيث إنه محفوفٌ بظلماتِ أوهامِ الناس وخيالاتهم[٤].

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٤٧.
(٢) الإصابة ٦/ ٨٠، والمستطرف ١/ ٤٩١، وعزاه المبرد في الفاضل ص ٩-١٠ لحسان، وهو في الروض الأنف ٢/ ٥٠، والبيان والتبيين ١/ ١٥ دون نسبة.
(٣) في الأصل: تُضيء.
(٤) قوله: من المركب الوهمي...، قال الشهاب في شرحه: حيث تصوّر في المشبَّه والمشبَّهِ به حالٌ منتزعة، وهي قوله: من حيث إنه محفوف... إلخ، فشُبِّه الهدى المحيطُ به الضلالُ بمصباح في ليل مظلم. حاشية الشهاب ٦/ ٣٨٣.

وكان الظاهرُ على هذا دخولُ الكاف على المصباح دون المشكاة المشتَمِلَةِ عليه، ومن هنا قيل: إنَّ في الآية قلباً، ووجَّه بعضُهم دخولَها على المشكاة بأنَّ المشتمِل مقدَّمٌ على المشتَمَلِ عليه في رأيِ العين، فقدِّم لفظاً ودخل الكافُ عليه رعايةً لذلك.

وقيل: إنَّه على هذا أيضاً تشبيهٌ مفرَّقٌ؛ لأنه شبَّه الهدى بالمصباح، والجهالاتِ بظُلَمٍ استلزمتها، وهو كما ترى.

ومن الناس مَن جعل التشبيهَ مفرَّقاً، لكنْ بَنَى كلامه على ما أسَّسه الفلاسفةُ، فَجَعَلَ النورَ المشبَّهَ ما مَنَحَ الله تعالى به عبادَه من القوى الخمسِ الدرَّاكةِ المترتِّبة التي نيطَ بها المعاشُ، وهي: القوةُ الحسَّاسةُ، أعني الحسَّ المشتَرَكَ الذي يُدْرِكُ المحسوساتِ بجواسيس الحواسِّ الخمسِ الظاهرة. والقوةُ الخياليةُ التي تحفظُ صورَ تلك المحسوسات[1] لتَعْرِضَها على القوة العقلية متى شاء. والقوةُ العقليةُ المدرِكةُ للحقائق الكلِّية. والقوةُ الفكرية التي تأخذ المعارف العقلية فتؤلِّفُها على وجهٍ يحصُل به العلمُ بالمجهولات. والقوةُ القُدسية التي يختصُّ بها الأنبياءُ والأولياء، وتَنْجَلي فيها لوائحُ الغيب وأسرارُ المَلَكوتِ. وجَعَل ما في حيِّز الكاف عبارةً عن أمورٍ شبَّه بكلٍّ منها واحدٌ من هذه الخمس، فقال:

شبِّهتِ القوةُ الحسَّاسة بالمشكاة من حيث إن محلَّها تجويفٌ في مقدَّم الدماغ - كالكوَّة - تضعُ فيه الحواسُّ الظاهرةُ ما تُحِسُّ به، وبذلك يضيء.

وشُبِّهتِ القوةُ الخياليةُ بالزجاجة من حيث إنها تقبلُ الصورَ المدرَكةَ من الجوانب كما تقبلُ الزجاجةُ الأنوارَ الحسِّيةَ من الجوانب، ومن حيث إنها تَضْبطُ الأنوارَ العقلية وتحفظُها كما تَحْفَظُ الزجاجةُ الأنوارَ الحسِّيةَ، ومن حيث إنها تستنيرُ بما يشتَمِلُ عليها من المعقولات.

وشبِّهت القوةُ العقلية بالمصباح لإضاءتها بالإدراكات والمعارف.

وشبِّهت القوةُ الفكرية بالشجرة المباركةِ من حيث إنها تؤدِّي إلى نتائجَ كثيرةٍ هي بمنزلة ثمرات الشجرة، واعتُبرت زيتونةً لأنَّ لها فضيلةً على سائر الأشجار، من

(١) في الأصل: صور تلك الصور المحسوسات.

حيث إن لبَّ ثمرتها هو الزيتُ الذي له منافعُ جَمَّةٌ، منها أنه مادةُ المصابيح والأنوارِ الحسِّيةِ، وله من بين سائر الأدهان خاصيةُ زيادةِ الإشراق وقلَّةِ الدخان. واعتبارُ وصفِ «لا شرقية ولا غربية» في جانب المشبَّهِ من حيث إن القوةَ الفكرية مجردةٌ عن اللواحِقِ الجِسْميةِ، أو من حيث إن انتفاعها ليس مختصّاً بجانب الصُّورِ ولا بجانب المعاني.

وشبِّهت القوة القدسية بالزيت الذي يكاد يضيءُ من غير أن تمسسه نارٌ، من حيث إنها لكمال صفائها وشدةِ استعدادها لا تحتاجُ إلى تعليم أو تفكُّرٍ.

واعتُرِضَ بأنَّ حقَّ النظم الكريم على هذا أن يقال: مَثَلُ نوره كمشكاةٍ، وزجاجةٍ، ومصباحٍ، وشجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ، وزيتٍ يكادُ يضيءُ ولو لم تَمْسَسْه نارٌ، حتى يُفيدَ تشبيهُ كلٍّ واحدٍ بكلٍّ واحدٍ.

وأجيب بأنه لما كان كلٌّ من هذه الحواسِّ يأخذ ما يدركه مما قبله كما يأخذ المظروفُ من ظرفه، أشار سبحانه إلى ذلك بأداة الظرفية دلالةً على بديعِ صنعه سبحانه وحكمتِه جلَّ شأنه.

وجوِّز أن يراد تشبيهُ النورِ المرادِ به القوةُ العقليةُ للنفس بمراتبها بذلك، ومراتبُها أربعٌ:

الأولى: أن تكون النفسُ خاليةً عن جميع العلوم الضرورية والنظريةِ، مستعدَّةً لها كما في مبدأ الطفولية، وتسمَّى القوةُ العقلية في هذه المرتبة بالعقل الهيولاني؛ لأنها كالهيولى في أنها في ذاتها خاليةٌ عن جميع الصور قابلةٌ لها.

وثانيتُها: أن تَسْتَعْمِلَ آلاتِها، أي: الحواسَّ مطلقاً، فيحصل لها علومٌ أوَّليةٌ، وتستعدُّ لاكتساب علوم نظرية، وتسمَّى القوةُ المذكورةُ في هذه المرتبة: عقلاً بالملكةِ؛ لحصولِ مَلَكةِ الانتقال إلى النظريات لها بسبب تلك الأوَّليات.

وثالثتُها: أن تصير النظرياتُ مخزونةً عندها، وتحصل لها ملكةُ استحضارِها متى شاءت من غير تجشُّم كَسْبٍ جديدٍ، وتسمَّى تلك القوةُ في هذه المرتبةِ: عقلاً بالفعل؛ لحصول تلك العلومِ لها بالقوَّة القريبةِ من الفعل.

ورابعتها: أن ترتِّبَ العلومَ الأوَّليةَ، وتُدْرِكَ العلومَ النظرية مشاهِدةً إياها

بالفعل، وتسمَّى تلك القوةُ في هذه المرتبة: عقلاً مستفاداً؛ لاستفادتها من العقل الفعَّال.

فشبِّهت القوةُ بالمرتبة الأولى بالمشكاةِ الخالية في بدء الأمر عن الأنوار الحسِّيةِ المستعدَّةِ للاستنارة بها. وبالمرتبة الثانية بالزجاجة المتلألئةِ في نفسها، القابلةِ للأنوار الفائضةِ عليها من الغير الخارجيِّ. وبالمرتبة الثالثة بالمصباح الذي اشتعلت فتيلتُه المُشْبَعةُ من الزيت. وبالمرتبة الرابعة بالنور المتضاعِفِ المشارِ إليه بقوله تعالى: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

والشيخ ابنُ سينا بعد أن بيَّن المراتب، حَمَلَ مفردات التنزيل عليها، وحقَّق في «المحاكمات» وَجْهَ الترتيب فيها، حيث جَعَلَ الزجاجةَ في المشكاة والمصباحَ في الزجاجة بأنَّ هناك استعداداً محضاً كما في المرتبة الأولى، واستعدادَ اكتسابٍ كما في المرتبة الثانية، واستعدادَ استحضارٍ كما في المرتبة الثالثة، ولا شكَّ أنَّ استعدادَ الاكتسابِ بحسب الاستعدادِ المحضِ، واستعدادَ الاستحضارِ بحسب استعدادِ الاكتساب، فتكون الزجاجةُ التي هي عبارةٌ عن العقل بالمَلَكةِ كأنما هي في المشكاة التي هي عبارةٌ عن العقل الهيولانيِّ، والمصباحُ وهو العقلُ بالفعل في الزجاجة التي هي العقلُ بالملكة؛ لأنه إنما يحصلُ باعتبارِ حصولِ العقل أولاً، وحيث إن العقل بالملكة إنما يخرجُ من القوَّة إلى الفعل بالفكر أو بالحدس أو بالقوة القدسية، أشير إلى الفكر بالشجرة الزيتونة، وإلى الحدس بالزيت، وإلى القوة القدسية بـ «يكاد زيتُها يضيءُ».

ودَفَع ما يظهر من عَدَم انطباق ما ذُكِرَ على النَّظْم الجليل لأنه وَصَفَ فيه الشجرة بما سمعتَ من الصفات، وهذه أمورٌ متباينةٌ لا يجوزُ وصفُ أحدِها بالآخَر = بأنَّ الشجرةَ الزيتونةَ شيءٌ واحدٌ، فإذا ترقَّتْ في أطوارها حَصَلَ لها زيتٌ، إذا ترقَّى وَصَفَا كاد يضيء، وكذلك الاكتسابُ قوةٌ نفسيةٌ هي فكرةٌ، فإذا ترقَّتْ كانت حَدْساً، ثم قوةً قدسيةً، فهي وإن كانت متباينةً ترجعُ إلى شيءٍ واحدٍ كالشجرة.

وذَكَر أنَّ قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ إشارةٌ إلى أنها ليست من عالم الحسِّ الذي لا يخلو عن أحد الأمرين.

ولا يخفى عليك أنَّ هذا مع تكلُّفِه وابتنائه على ما أسَّسه الفلاسفةُ الذين هم في عمىً عن نور الشريعة، ولله تعالى درُّ مَن قال فيهم:

قَطَعْنا[1] الأخوَّةَ عن معشرٍ ... بهم مرضٌ من كتاب الشِّفا
فماتوا على دينِ رسْطَالِسٍ ... وعِشْنا على سُنَّة المصطفى[2]

لا يناسبُ المقامَ، ولا ينتظمُ معه أطرافُ الكلام، وفيه ما يقتضي أنَّ قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ داخلٌ في التمثيل، وفيه خلافٌ.

ثم اعْلم أنه يُعْلَمُ بمعونةِ ما ذَكَرْنا حالُ التشبيه على سائر الأقوال في المراد بالنور، ولعل ما ذكرناه فيه أتمُّ نوراً وأشدُّ ظهوراً، والله تعالى أعلمُ بحقائق الأمور ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ أي: يهدي سبحانه هدايةً خاصةً مُوْصِلةً إلى المطلوب حتماً لذلك النورِ المتضاعِفِ العظيم الشأن، وإظهارُه في مقام الإضمار لزيادةِ تقريرِه وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية الناشئةِ من إضافته إلى ضميره عز وجل.

﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه من عباده، بأنْ يوفِّقهم سبحانه لفَهْمِ وجوهِ دلالةِ الأدلَّةِ العقلية والسمعية التي نوَّرَ بها السماواتِ والأرضَ، على وجهٍ ينتفعون به. أو بأنْ يوفِّقهم لفَهْمِ ما في القرآن من دلائل حقِّيته وكونِه من عنده عزَّ وجلَّ، من الإعجاز والإخبار عن الغيب وغيرِ ذلك من موجباتِ الإيمان. وفيه احتمالاتٌ أُخَرُ بحسَبِ ما في النور من الأقوال.

وأيّاً ما كان ففيه إيذانٌ بأنَّ مناط هذه الهدايةِ وملاكَها ليس إلَّا مشيئتَه تعالى، وأنَّ إظهار الأسباب بدونها بمعزلٍ عن الإفضاء إلى المطالب:

إذا لم يكُ التوفيقُ عوناً لطالبٍ ... طريقَ الهدى أَعْيَتْ عليه مطالبُه

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ في تضاعيف الهداية حَسْبَما يقتضيه حالُهم، فإنَّ لضَرْبِ المَثَلِ دَخْلاً عظيماً في باب الإرشاد؛ لأنه إبرازٌ للمعقول في هيئة

---

(١) في (م): قطعت.
(٢) البيتان لعبد الكافي بن عليٍّ، زين الدين السبكي الشافعي المتوفى سنة (٧٣٥هـ). أعيان العصر ٣/ ١٣٢، والدرر الكامنة ٣/ ١٩٧.

المحسوس، وتصويرٌ لأوابدِ المعاني بصورة المأنوس، ولذلك مَثَّلَ جلَّ وعلا نورَه المرادَ به ما يشملُ القرآنَ أو القرآنَ المبينَ فقط بنورِ المشكاة.

وإظهارُ الاسم الجليل في مقام الإضمار ـ على ما في «إرشاد العقل السليم»[1] ـ للإيذانِ باختلافِ ما أُسند إليه تعالى من الهداية الخاصَّةِ، وضَرْبِ الأمثال الذي هو من قبيل الهداية العامة، كما يُفْصِحُ عنه تعليقُ الأولى بمن شاء والثانية بالناس كافة.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً كان أو باطناً، ومن قضيته أن تتعلَّق مشيئتُه تعالى بهدايةِ من يليقُ بها ويستحقُّها من الناس دون مَن عَدَاهم؛ لمخالفته الحكمةَ التي هي مَبْنَى التكوينِ والتشريع، وأن تكون هدايتُه سبحانه العامَّةُ على فنونٍ مختلفةٍ وطرائقَ شتَّى، حَسْبَما تقتضيه أحوالُهم وتقومُ به الحجَّةُ له تعالى عليهم.

والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لِمَا قبله. وقيل: جيء بها لوَعْدِ مَن تَدَبَّر الأمثال، ووعيدِ مَن لم يكترث بها.

وقيل: لبيانِ أنَّ فائدة ضَرْبِ الأمثال التي هي التوضيحُ إنما هي للناس، وليس بذاك.

وإظهارُ الاسم الجليل لتأكيد استقلال الجملةِ، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكْم، وبما ذُكر آنفاً من اختلافِ حالِ المحكوم به ذاتاً وتعلُّقاً.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾ إلخ استئنافٌ لبيان حالِ مَن حَصَلَتْ لهم الهدايةُ لذلك النور، وذكرِ بعضِ أعمالهم القلبيةِ والقالبية، فالجارُّ والمجرورُ ـ أعني قولَه تعالى: (فِي بُيُوتٍ) ـ متعلِّقٌ بـ «يسبِّح»[2]، وفيها تكريرٌ لذلك جيء به للتأكيد والتذكيرِ بما بعدُ في الجملة، وللإيذان بأنَّ التقديم للاهتمام دون الحصر، ومثلُ ما ذُكر في التكرير للتأكيد قولُه تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧]. وقولك: مَرَرْتُ بزيدٍ به.

---

(١) ٦/ ١٧٧-١٧٨.

(٢) في (م): أعني: متعلق قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ بـ: ﴿يُسَبِّحُ﴾.

وبعضُ النحاةِ أعربَ نحوَ ذلك بدلاً كما في «شرح التسهيل».

وفي «المغني»: هو من توكيدِ الحرف بإعادة ما دخل عليه مضمَراً، وليس الجارُّ والمجرورُ توكيداً للجارِّ والمجرور؛ لأنَّ الظاهرَ ـ لكونه أقوى ـ لا يؤكَّدُ بالضمير، وليس المجرورُ بدلاً بإعادة الجارِّ؛ لأنه لا يبدَلُ مُضْمَرٌ من مُظْهَرٍ، وإنما جوَّزه بعض النحاة قياساً[1].

وأنت تعلم أنَّ ما ذَكَرَ غيرُ واردٍ؛ لأنَّ المجموعَ بدلٌ أو توكيدٌ، وأتى بالظاهر هرباً من التكرار.

و«رجال» فاعلُ «يسبح»، وتأخيرُه عن الظروف لأنَّ في وَصْفِه نوعُ طولٍ فيُخِلُّ تقديمه بحسن الانتظام.

وقال الرمَّانيُّ: «في بيوتٍ» متعلِّقٌ بـ «يُوقَدُ». وقال الحوفيُّ: متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «مشكاة». وقيل: هو صفةٌ لـ «مصباح». وقيل: صفة لـ «زجاجة». وهو على هذه الأقوال الأربعة تقييدٌ للممثَّلِ به للمبالغة فيه، والتنوينُ في الموصوف للنوعية لا للفردية؛ لينافيَ ذلك جَمْعَ البيوت.

وأورِدَ على ما ذُكر أنَّ شيئاً منه لا يليقُ بشأنِ التنزيل الجليل، كيف لا وإنَّ ما بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ على ما هو الحقُّ، أو بعد قوله سبحانه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ـ على ما قيل ـ إلى قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كلامٌ متعلِّقٌ بالممثَّل قطعاً، فتوسيطهُ بين أجزاء التمثيل ـ مع كونه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه بالأجنبي ـ يؤدِّي إلى كونِ ذِكْرِ حالِ المنتفعينَ بالتمثيل، المَهْدِيِّينَ لنوره تعالى، بطريق الاستتباع والاستطراد مع كون بيانِ حالِ أضدادِهم مقصوداً بالذات، ومثلُ هذا مما لا عَهْدَ به في كلام الناس، فضلاً أنْ يُحمَلَ عليه الكلامُ المعجزُ.

وتعقَّبه الخفاجيُّ بأنه زخرفٌ من القول؛ إذ لا فَصْلَ فيه، وما قبله إلى هنا من المثل[2]. والظاهر عندي أنَّ التمثيل قد تمَّ عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

---

(١) المغني ص ٥٨٣.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٣٨٥.

وقيل: هو متعلِّقٌ بسبِّحوا أو نحوِه محذوفاً، وتلك الجملة ـ على ما قيل ـ مترتِّبةٌ على ما قبلها، وترك الفاء للعلم به، كما في نحو: قُمْ يَدْعوك[1]،

ومنعوا تعلُّقه بـ «يُذْكَر»؛ لأنه من صلةِ «أنْ» فلا يعمل فيما قبله.

والمراد بالبيوت: المساجدُ كلُّها، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة ومجاهد.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد[2] أنه قال: إنما هي أربعُ مساجدَ لم يبنهنَّ إلا نبيٌّ: الكعبةُ بناها إبراهيمُ وإسماعيلُ عليهما السلام، وبيتُ المقدس بناه داودُ وسليمان عليهما السلام، ومسجدُ المدينةِ ومسجدُ قُباء بناهما رسولُ الله ﷺ.

وعن الحسن: أنَّ المراد بها بيت المقدس، والجمعُ من حيث إنَّ فيه مواضعَ يتميَّزُ بعضُها عن بعضٍ. وهو خلافُ الظاهرِ جدّاً.

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبُريدةَ[3] قال: قرأ رسول الله ﷺ: هذه الآية: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ إلخ، فقام إليه عليه الصلاة والسلام رجلٌ فقال: أيُّ بيوتٍ هذه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «بيوتُ الأنبياء عليهم السلام» فقام إليه أبو بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، هذا البيتُ منها؟ لبيتِ عليٍّ وفاطمةَ رضي الله عنهما، قال: «نعم مِن أفاضلها». وهذا إنْ صحَّ لا ينبغي العدولُ عنه[4].

وقال أبو حيان: الظاهر أنها مُطْلَقَةٌ تَصْدُقُ على المساجد والبيوت التي تقع فيها الصلاة والعلم[5].

---

(١) والتقدير: قم فإنه يدعوك. ينظر البرهان ٣/ ١٨٢، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٨٦، والكلام منه.

(٢) كذا نقل المصنف عن السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٥٠، والصواب: ابن بريدة، كما في تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٠٤، ومثله في التمهيد ١٣/ ٢٦٨، وتفسير القرطبي ١٠/ ٣٨٠ و١٥/ ٢٧٠. وابن بريدة هو عبد الله بن بريدة، ويرويه عنه صالح بن حيان القرشي، وهو ضعيف كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ٥٠ ، وأخرجه أيضاً الثعلبي في تفسيره ٧/ ١٠٧، وينظر التعليق الذي بعده.

(٤) ولم يصحَّ، فقد رواه عن أنس وبريدة نفيع بن الحارث، أبو داود الأعمى، وهو متروك، وقد كذبه ابن معين كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٥) البحر ٦/ ٤٥٨.

وجوّز أنْ يراد بها صلاةُ المؤمنين أو أبدانُهم، بأنْ تُشبَّه صلاتُهم الجامعةُ للعباداتِ القوليةِ والفعلية، أو أبدانُهم المحيطةُ بالأنوار، بالبيوت المذكورة ـ أعني المساجدَ ـ ثم يستعارُ اسمُها لذلك.

وتعقَّب بأنه لا حُسْنَ فيما ذُكر، وأظنُّك لا تكتفي بهذا المقدار من الجَرحِ.

والمراد بالإذن: الأمْرُ، وبالرفع: التعظيمُ، أي: أَمَرَ سبحانه بتعظيم قَدْرِها، وروي هذا عن الحسن والضحاك.

ولا يخفى أنه إذا أريد بها المساجد فتعظيمُ قَدْرِها يكون بأشياء شتَّى، كصيانتها عن دخول الجُنُبِ والحائض والنُّفساءِ ولو على وَجْهِ العبور، وقد قالوا بتحريم ذلك.

وإدخالِ نجاسةٍ فيها يُخاف منها التلويثُ، ولذا قالوا: ينبغي لمن أراد أن يدخل المسجد أن يتعاهَدَ النعلَ والخفَّ عن النجاسة ثم يدخل فيه، احترازاً عن تلويث المسجد. ومنعِ إدخالِ الميت فيها.

ومنعِ إدخال الصبيان والمجانين، وهو حرامٌ حيث غَلَبَ تنجيسُهم، وإلَّا فهو مكروهٌ. وقد جاء الأمرُ بتجنيبهم عن المساجد مطلقاً؛ أخرج ابن ماجه عن واثلةَ بن الأسقع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جَنِّبوا مساجدَكم صبيانَكم ومجانينَكم، وشراءكم وبيعَكم، وخصوماتِكم ورفعَ أصواتكم، وإقامةَ حدودِكم وسلَّ سيوفكم، واتَّخِذوا على أبوابها المطاهرَ، وجمِّروها في الجُمَعِ»(١).

ومنعِ إنشادِ الضالَّة وإنشادِ الأشعار، فقد أخرج الطبرانيُّ وابنُ السنِّيِّ وابنُ منده عن ثوبان قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَن رأيتُموه يُنْشِدُ شعراً في المسجد

---

(١) سنن ابن ماجه (٧٥٠) من طريق الحارث بن نبهان، عن عتبة بن يقظان، عن أبي سعيد، عن مكحول، عن واثلة به. قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ١٦٢: أبو سعيد هو محمد بن سعيد، قال النسائي: كذاب، والحارث بن نبهان ضعيف. وأخرجه ابن عدي ٥/ ١٨٦١ من طريق العلاء بن كثير، عن مكحول عن واثلة وأبي الدرداء وأبي أمامة مرفوعاً. قال ابن عدي: للعلاء بن كثير عن مكحول عن الصحابة عن النبي ﷺ نسخ كلها غير محفوظة، وهو منكر الحديث.

فقولوا: فضَّ الله تعالى فاك، ثلاث مرات، ومَن رأيتموه يَنْشُدُ ضالَّةً في المسجد فقولوا: لا وَجَدْتها، ثلاث مرات» الحديث(١).

وينبغي أن يقيَّد المنعُ من إنشادِ الشعر بما إذا كان فيه شيءٌ مذمومٌ، كهَجْوِ المسلم، وصفةِ الخمر، وذِكْرِ النساء والمردان، وغيرِ ذلك ممَّا هو مذمومٌ شرعاً، وأما إذا كان مشتملاً على مدح النبوَّة والإسلام، أو كان مشتملاً على حكمةٍ، أو باعثاً على مكارم الأخلاق والزهد، ونحوِ ذلك من أنواع الخير، فلا بأس بإنشاده فيها.

ومنع إلقاءِ القَمْلةِ فيه بعد قَتْلِها، وهو مكروهٌ تنزيهاً على ما صرَّح به بعضُ المتأخِّرين، ويُنْدَبُ أنْ لا تُلْقَى حيةً في المسجد، فقد أخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن رجلٍ من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وَجَدَ أحدُكم القَمْلَةَ في المسجد فَلْيَصُرَّها في ثوبه حتى يُخْرِجَها»(٢).

ومنع البول فيها ولو في إناءٍ، وقد صرَّحوا بحرمةِ ذلك، وفي «الأشباه»: وأمَّا الفَصْدُ في المسجد في إناءٍ فلمْ أَرَه، وينبغي أنْ لا فَرْقَ(٣)، أي: لأنَّ كلًّا من البول والدَّم نجسٌ مغلَّظٌ.

ومنع إلقاء البصاقِ فيها. وفي «البدائع»: يُكْرَه التَّوضِّي في المسجد؛ لأنه مستَقْذَرٌ طبعاً، فيجب تنزيهُ المسجد عنه كما يجب تنزيهُه عن المخاط والبلغم(٤).

(١) المعجم الكبير (١٤٥٤)، وعمل اليوم والليلة لابن السني (١٥٣)، من طريق محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن أبيه عن جده، وليس عند ابن السني قوله: «ومن رأيتموه ينشد ضالة...» إلخ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٥: لم أجد مَن ترجم عبد الرحمن بن ثوبان. اهـ. وللحديث شواهد؛ ينظر حديث عبد الله بن عمرو عند الترمذي (٣٢٢)، والنسائي ٢/ ٤٨، وابن ماجه (٧٤٩). وحديث أبي هريرة عند أحمد (٨٥٨٨)، ومسلم (٥٦٨). وقُيِّد منعُ إنشاد الشعر في المسجد بما سيذكره المصنف لاحقاً، وقد ورد جوازه في حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاري (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٣٦٨، ومسند أحمد (٢٣٤٨٥)، وأخرجه أيضاً أبو داود في المراسيل (١٦)، والبيهقي ٢/ ٢٩٤، وهو من طريق الحضرمي بن لاحق عن رجل من الأنصار. قال البيهقي: وهذا مرسل حسن في مثل هذا.

(٣) الأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٤٣٩.

(٤) بدائع الصنائع ١/ ٣٩٤.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي، أنَّ النبيَّ ﷺ رأى في قبلة المسجد نُخَامةً، فقام إليها فحكَّها بيده الشريفة ﷺ، ثم دعا بخَلُوقٍ فلطَّخ مكانها، فقال الشعبيُّ: هو سنَّةٌ(١).

وذكروا أنَّ إلقاء النخامة فوق الحصير أخفُّ من وَضْعِها تحته، فإن اضْطُرَّ إليه دَفَنها، وفي حديث أخرجه ابن أبي شيبة عن أنس مرفوعاً: «التفلُ في المسجد خطيئةٌ، وكفارتُه أنْ يُوارِيَه»(٢).

وروى الطبرانيُّ في «الأوسط» عن ابن عباس مرفوعاً أيضاً نحوه(٣).

ومنع الوطء فيها وفوقها كالتخلِّي، وصرَّحوا بحرمةِ ذلك.

ومَنْع دخول مَن أكل ذا رائحةٍ كريهةٍ فيها كالثُّومِ والبَصَلِ والكرَّاثِ، وآكل الفجل إذا تجشَّأ كذلك، وقد كان الرجلُ في زمان النبي ﷺ إذا وُجِدَ منه ريحُ الثومِ يؤخَذُ بيده ويُخْرَجُ إلى البقيع(٤).

والظاهرُ أن الأَبْخَرَ(٥) أو مَن به صُنانٌ(٦) مستحكِمٌ حُكْمُه حكمُ آكلِ الثوم والبصل، وكذا حُكْمُ مَن رائحةُ ثيابه كريهةٌ، كثياب الزيَّاتين والدبَّاغين. وعن مالكٍ أنَّ الزيَّاتين يتأخَّرون ولا يتقدَّمون إلى الصفِّ الأول، ويقعدون في أُخريات الناس.

ومنع النوم والأكل فيها لغير معتكفٍ، ومنعِ الجلوس فيها للمصيبة، أو للتحدُّثِ بكلام الدنيا، ومنع اتِّخاذها طريقاً وهو مكروهٌ أو حرامٌ، وقد جاء النهيُ عن ذلك في حديث رواه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً(٧).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٣٦٣، وله شاهد من حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم (٣٠٠٨).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٣٦٥، وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٨٩٠)، ومسلم (٥٥٢).

(٣) المعجم الأوسط (٩٤٣١).

(٤) أخرجه أحمد (٨٩)، ومسلم (٥٦٧) من حديث عمر رضي الله عنه، وفيه: ... لقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما (يعني الثوم والبصل) من رجل أمر به فأخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فليُمتهما طبخاً.

(٥) الأبخر من بَخِرَ ـ كفرح ـ بَخَراً، والبَخَر: النَّتَنُ في الفم. القاموس (بخر).

(٦) الصُّنان: ذفر الإبْط. القاموس (صنن).

(٧) سنن ابن ماجه (٧٤٨)، وإسناده ضعيف كما قال البوصيري في الزوائد.

وأخرج ابن أبي شيبةَ عن ابن مسعودٍ أنَّ اتِّخاذَها طريقاً من أشراط الساعة[١]، وفي «القنية»: معتادُ ذلك يأثم ويفسقُ، نعم إن كان هناك عذرٌ لم يُكره المرور.

ومن تعظيمها رشُّها وقَمُّها، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم قال: كان المسجد يُرَشُّ ويُقَمُّ على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ. وأخرج عن يعقوب بن زيد أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام كان يتبع غبارَ المسجدِ بجريدةٍ[٢].

وكذا تعليقُ القناديل فيها، وفَرْشُها بالآجرِّ والحصير، وفي «مفتاح السعادة»: ولأهل المسجد أن يفرشوا المسجد بالآجرِّ والحصير، ويعلِّقوا القناديلَ، لكنْ مِن مالِ أنفسهم لا من مال المسجد، إلا بأمرِ الحاكم، ولعلَّ محلَّ ذلك ما لم يعيِّنِ الواقفُ شيئاً من ريع الوقف لذلك.

وينبغي أن يكون إيقادُ القناديل الكثيرة فيها في لياليَ معروفةٍ من السَّنة، كليلةِ السابع والعشرين من رمضان، الموجبِ لاجتماع الصبيان وأهل البطالة، ولعبِهم ورَفْعِ أصواتهم، وامتهانهم بالمساجد = بدعةً منكرةً. وكذا ينبغي أن يكون فَرْشُها بالقطائف المنقوشة التي تُشوِّشُ على المصلِّين وتُذْهِبُ خشوعَهم كذلك.

ومن التعظيم أيضاً تقديمُ الرِّجْلِ اليُمنى عند دخولها واليسرى عند الخروج منها، وصلاةُ الداخل ركعتين قبل الجلوس إذا كان دخولهُ لغير الصلاة على ما ذكره بعضُهم، وأخرج ابن أبي شيبةَ عن أبي قتادةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَعْطُوا المساجدَ حقَّها» قيل: وما حقُّها؟ قال: «ركعتان قبل أن تجلس»[٣].

ومن ذلك أيضاً بناؤها رفيعةً عاليةً لا كسائر البيوت، لكنْ لا ينبغي تزيينُها بما يشوِّش على المصلِّينَ، وفي حديثٍ أخرجه ابنُ ماجه والطبرانيُّ عن جبير بن

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٣٣٩-٣٤٠.

(٢) الخبران في مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٣٩٧ - ٣٩٨.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٣٤٠، وأخرجه بنحوه أحمد (٢٢٥٢٣)، والبخاري (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤).

مطعم مرفوعاً، أنها لا تبنى بالتصاوير، ولا تزيَّنُ بالقوارير[(١)].

وفسَّر بعضُهم الرَّفْعَ ببنائها رفيعةً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧] والأَوْلَى عندي تفسيرُه بما سبق وجَعْلُ بنائها كذلك داخلاً في العموم، ويدخُلُ فيه أمورٌ كثيرةٌ غيرُ ما ذَكَرْنا وقد ذكرها الفقهاء وأطالوا الكلامَ فيها.

وزعم بعضُ المفسِّرين أنَّ إسناد الرفع إليها مجازٌ، والمرادُ: تُرفع الحوائجُ فيها إلى الله تعالى. وقيل: تُرفع الأصواتُ بذكر الله عزَّ وجلَّ فيها. ولا يخفى ما فيه.

وفي التعبير عن الأمر بالإذن تلويحٌ بأنَّ اللائق بحال المأمورِ أن يكون متوجِّهاً إلى المأمور به قبل الأمر به ناوياً لتحقيقه كأنه مستأذِنٌ في ذلك، فيقع الأمرُ به موقعَ الإذن[(٢)] فيه.

والمراد بذكر اسمه تعالى شأنُه ما يعمُّ جميعَ أذكاره تعالى، وجُعِلَ من ذلك المباحثُ العلميةُ المتعلِّقةُ به عزَّ وجل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: المرادُ به توحيدُه عزَّ وجلَّ، وهو قولُ: لا إله إلا الله. وعنه أيضاً: المرادُ تلاوةُ كتابه سبحانه.

وقيل: ذكرُ أسمائه تعالى الحسنى. والظاهرُ ما قدَّمنا.

وعَطْفُ الذكر على الرفع من قبيل عَطْفِ الخاصِّ على العام، فإنَّ ذكر اسمِه تعالى فيها من أنواع تعظيمها، وليس مِن عَطْفِ التفسير في شيءٍ، خلافاً لمن تَوَهَّمه.

والتسبيحُ: التنزيهُ والتقديسُ، ويُستعمل باللَّام وبدونها كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ والمرادُ به: إما ظاهرهُ، أو الصلاةُ لاشتمالها عليه، وروي هذا عن ابن عباس والحسن والضحاك، وعن ابن عباس: كلُّ تسبيحٍ في القرآن صلاةٌ، وأيَّدَ إرادةَ الصلاةِ هنا تعيينُ الأوقات بقوله سبحانه: (بِٱلْغُدُوِّ

---

(١) المعجم الكبير (١٥٨٩)، ولم نقف عليه عند ابن ماجه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٢٥: رواه الطبراني في الكبير، وفيه بشر بن جبلة وهو ضعيف.

(٢) في الأصل و(م): الأمر، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ١٧٨، والكلام منه.

﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾ والغدوُّ جمعُ غداةٍ كقُنِيٍّ وقَنَاة[1]، أو مصدرٌ أطلق على الوقت[2]، وأيِّد بأنَّ أبا مجلز قرأ: «والإيصال» مصدراً[3]، أي: الدخول في وقت الأصيل. و«الآصال» كما قال الجوهريُّ[4]: جمعُ أصيل، كشريف وأشراف، واختاره جماعةٌ مع أنَّ جمع فعيل على أفعال ليس بقياسيٍّ.

واختار الزمخشريُّ[5] أنه جمع أُصُل، كعُنُقٍ وأَعْناق، والأُصُل كالأصيل: العشيُّ، وهو من زوال الشمس إلى الصباح، فيشملُ الأوقاتِ ما عدا الغداةَ، وهي من أوَّل النهار إلى الزوال، ويُطلقان على أول النهار وآخره، وإفرادُهما بالذِّكر لشرفِهما وكونهما أشهرَ ما يقعُ فيه المباشرةُ للأعمال، والاشتغالُ بالأشغال.

وعن ابن عباس أنه حَمَلَ الغداةَ على وقت الضحى، وهو مقتضَى ما أخرج ابنُ أبي شيبة والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عنه ﵄ من قوله: إنَّ صلاة الضحى لفي القرآن، وما يغوصُ عليها إلا غوَّاص، وتلا الآيةَ حتى بلغ «الآصال»[6].

وقرأ ابن عامر، وأبو بكر، والبحتريُّ عن حفص، ومحبوبٌ عن أبي عمرو، والمنهال عن يعقوب، والمفضَّل وأبان: «يُسبَّح» بالياء التحتية والبناءِ للمفعول[7]، ونائبُ الفاعل «له»، أو «فيها» إن لم يتعلَّق «في بيوت» به، أو «بالغدو»، والأوَّليةُ للأول؛ لأنه وَليَ الفعلَ، والإسنادُ إليه حقيقيٌّ دون الأخيرين. وجوِّز أن يكون المجرورُ فيما ذُكر نائبَ الفاعلِ والجارُّ فيه زائداً[8]، وفيه ارتكابٌ لِمَا لا داعيَ إليه.

---

(١) القناة: الرمح. القاموس (قنو).

(٢) بعدها في (م): الغدو.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٠٢، والمحتسب ٢/ ١١٣، والبحر ٦/ ٤٥٨.

(٤) في الصحاح (أصل).

(٥) في الكشاف ٣/ ٦٨.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة ٢/ ٤٠٧، وعزاه للبيهقي السيوطي في الدر ٥/ ٥٢، وعنه نقل المصنف، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٤٨٧١) وفيه بدل الآية المذكورة قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ [ص:١٨]. وتحرف قوله: ولا يغوص عليها إلا غوَّاص، عند ابن أبي شيبة إلى: ولا يعوض عنها الأعواض.

(٧) التيسير ص١٦٢، والنشر ٢/ ٣٣٢ عن ابن عامر وأبي بكر، والكلام من البحر ٦/ ٤٥٨.

(٨) في الأصل: زائد.

ورفع «رجالٌ» على هذه القراءة على أنه فاعلٌ لفعلٍ محذوفٍ، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ على ما في «البحر»، أي: يُسَبِّحُ له، أو: المسبِّحُ له رجالٌ[١]. والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ وقع جواباً لسؤالٍ نشأ من الكلام السابق، وهذا نظيرُ قوله:

لِيُبْكَ يزيدٌ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تطيحُ الطوائحُ[٢]

وهو قياسيٌّ عند الكثير، فيجوز عندهم أن يقال: ضُرِبَتْ هندٌ زيدٌ، بتقدير: ضَرَبها ـ أو: ضارِبُها ـ زيد.

وليس هذا كذكر الفاعل تمييزاً بعد الفعل المبنيِّ للمفعول، نحو: ضُرِبَ أخوك رجلاً، المصرَّحِ بعدم جوازه ابنُ هشام في الباب الخامس من «المغني»[٣]، وإنْ أَوْهَمتِ العلَّةُ أنه مثلُه، فتأمَّل.

وقرأ أبو حيوة وابن وثاب: «تُسبِّحُ» بالتاء الفوقية والبناء للفاعل[٤] وهو «رجالٌ»، والتأنيثُ لأنَّ جمع التكسير كثيراً ما يعامَلُ معاملةَ المؤنَّثِ.

وقرأ أبو جعفر: «تُسبَّحُ» بالتاء الفوقية والبناء للمفعول[٥] وهو قولهُ تعالى: (بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ)، على أنَّ الباء زائدة والإسنادُ مجازيٌّ بجَعْلِ الأوقات المسبَّحِ فيها ربُّها مسبِّحةً.

وجوَّز أبو حيان أن يكون الإسناد إلى ضمير التسبيحة الدالِّ عليه «تُسبَّح»، أي: تُسبَّح هي، أي: التسبيحةُ، كما قالوا في قوله تعالى: «لِيُجْزَى قوماً» على قراءةِ مَن بنى «يُجْزَى» للمفعول، أي: لِيُجْزَى هو، أي: الجزاء[٦]. قال في «إرشاد العقل السليم»: وهذا أَوْلَى مِن التوجيه الأولِ إذ ليس هنا مفعولٌ صريحٌ[٧].

---

(١) البحر ٦/ ٤٥٨.

(٢) سلف ٥/ ٣٦٩.

(٣) ص٦٨٥.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٢، والبحر ٦/ ٤٥٨.

(٥) المصدران السابقان.

(٦) البحر ٦/ ٤٥٨، والقراءة المذكورة هي قراءة أبي جعفر، وستأتي عند تفسير الآية (١٤) من سورة الجاثية.

(٧) تفسير أبي السعود ٦/ ١٧٩.

وضعَّفه بعضُهم هنا بأنَّ الوحدة لا تناسبُ المقامَ. وأجيب بالتزام كونِ الوحدة جنسيةً.

وأيّاً ما كان فرفعُ «رجال» على هذه القراءة على الفاعلية أو الخبرية كما سمعتَ آنفاً، والتنوينُ فيه على جميع القراءات للتفخيم، وقوله سبحانه: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ﴾ صفةٌ له، مؤكِّدةٌ لِمَا أفاده التنوينُ من الفخامة، مفيدةٌ لكمال تبتُّلهم إلى الله تعالى من غير صارِفٍ يَلْوِيهِم ولا عاطفٍ يُثْنيهم كائناً ما كان.

وتخصيصُ الرجال بالذِّكر لأنهم الأَحِقَّاءُ بالمساجد، فقد أخرج أحمد والبيهقيُّ عن أمِّ سلمةَ، عن رسول الله ﷺ: «خيرُ مساجدِ النساء قَعْرُ بيوتهنَّ»[1].

وتخصيصُ التجارةِ التي هي المُعاوَضةُ مطلقاً بذلك؛ لكونها أقوى الصوارِف عندهم وأشهرَها، أي: لا يَشغلُهم نوعٌ من أنواع التجارة ﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾ أي: ولا فردٌ من أفراد البياعات وإن كان في غاية الربح، وإفرادُه بالذِّكر مع اندراجِه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها، لأنَّ ربحَه متيقَّنٌ ناجِزٌ، وربح ما عَدَاه متوقَّعٌ في ثاني الحال عند البيع، فلمْ يَلْزَم من نفي إلهاءِ ما عداه نفيُ إلهائه، ولذلك كرر كلمة «لا» لتذكير النفي وتأكيدِه.

وجوِّز أن يراد بالتجارة المعاوَضةُ الرابحة، وبالبيع المعاوضةُ مطلقاً، فيكون ذكرُه بعدها من باب التعميم بعد التخصيص للمبالغة.

ونقل عن الواقديِّ أنَّ المراد بالتجارة هو الشراء لأنه أصلُها ومبدؤها، فلا تخصيصَ ولا تعميم.

وقيل: المراد بالتجارة الجلبُ؛ لأنه الغالبُ فيها فهو لازمٌ لها عادةً، ومنه يقال: تَجَرَ في كذا، أي: جَلَبَه. ويؤيِّد هذا ما أخرجه ابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه عن أبي هريرةَ عن رسول الله ﷺ أنه قال في هؤلاء الموصوفين بما ذكر: «هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى»[2]، وأخرج الديلميُّ وغيرُه عن

(١) مسند أحمد (٢٦٥٤٢)، وسنن البيهقي ٣/ ١٣١.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٠٧، وهو من طريق ابن لهيعة، عن دَرَّاج، عن ابن حجيرة، عن

أبي سعيد الخدريِّ مرفوعاً نحوه[١].

وفي ذلك أيضاً ما يقتضي أنهم كانوا تجَّاراً، وهو الذي يدلُّ عليه ظاهرُ الآية؛ لأنه لا يقال: فلانٌ لا تُلْهِيه التجارة، إلا إذا كان تاجراً، ورُوي ذلك عن ابن عباس؛ أخرج الطبرانيُّ وابن مردويه عنه أنه قال: أَمَا واللهِ لقد كانوا تجاراً، فلم تكن تجارتُهم ولا بيعُهم يُلْهيهم عن ذكر الله تعالى[٢]. وبه قال الضحاك.

وقيل: إنهم لم يكونوا تجَّاراً، والنفيُ راجعٌ للقيد والمقيَّد كما في قوله:

علـى لاحِـبٍ لا يُـهـتَـدَى بـمـنـاره[٣]

كأنه قيل: لا تجارةَ لهم ولا بيعٌ فيُلهيهم؛ فإنَّ الآية نزلت فيمَن فرغَ عن الدنيا كأهل الصُّفَّةِ.

وأنت تعلم أنَّ الآية على الأول المؤيَّدِ بما سمعتَ أمدحُ، ولم نجد لنزولها فيمَن فرغ عن الدنيا سنداً قوياً أو ضعيفاً، ولا يُكْتَفَى في هذا الباب بمجرَّدِ الاحتمال.

﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بالتسبيح والتحميد ونحوهما ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إقامتها لمواقيتها من غير تأخيرٍ، والأصل: إقوام، فنُقِلتْ حركة الواو لما قبلها فالتقى ساكنان فحذفت، فقيل: إقام.

وعن الزجَّاج: أنه قلبت الواو ألفاً ثم حذف لاجتماع ألفين[٤]. وأُورِدَ عليه أنه لا داعيَ إلى قَلْبِها ألفاً مع فَقْدِ شرطه، وهو أن لا يسكَّن ما بعدها.

= أبي هريرة به، قال أبو حاتم كما في العلل لابنه ١/ ٣٩٤: هذا حديث منكر، ودراج في حديثه صنعة.

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢٧٧.

(٢) المعجم الكبير (١٧٨٨).

(٣) وعجزه: إذا سافه العَوْدُ النباطيُّ جرجرا، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ١/ ٤٥٧.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٢/ ٤٦.

وأَوْجَبَ الفرَّاء لجوازِ هذا الحذف تعويضَ التاء، فيقال: إقامة، أو الإضافةَ كما هنا، وعلى هذا جاء قولُه:

إنَّ الخليط أجَدُّوا البينَ وانْجَرَدوا ... وأَخْلَفوك عِدَا الأمرِ الذي وَعَدُوا(١)

فإنه أراد: عِدَةَ الأمر. وتأوَّل خالد بنُ كلثوم(٢) ما في البيت على أنَّ عِدَا جمعُ عدوةٍ بمعنى ناحية، كأنَّ الشاعر أراد: نواحي الأمر وجوانبه. ومذهبُ سيبويه(٣) جوازُ الحذفِ من غير تعويضِ التاء أو الإضافة.

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: المال الذي فُرِضَ إخراجهُ للمستحقِّينَ كما روي عن الحسن، ويدلُّ على تفسير الزكاة بذلك دون الفعلِ ظاهرُ إضافةِ الإيتاء إليها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما تفسيرُ إيتاء الزكاة بإخلاص طاعةِ اللهِ تعالى، وفيه بُعْدٌ كما ترى.

وإيرادُ هذا الفعل ها هنا وإن لم يكن مما يُفعل في البيوت؛ لكونه قرينةً لا تفارِقُ إقامةَ الصلاة في عامَّةِ المواضع، مع ما فيه من التنبيه على أنَّ محاسن أعمالهم غيرُ منحصرةٍ فيما يقع في المساجد.

وكذا قولهُ تعالى: ﴿يَخَافُونَ﴾ إلى آخره؛ فإنه صفةٌ أخرى لـ «رجال»، أو حالٌ من مفعولِ «لا تُلهيهم»، أو استئنافٌ مسوقٌ للتعليل. وأيًّا ما كان فليس خوفُهم مقصوراً على كونهم في المساجد.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمًا﴾ مفعولٌ لـ «يخافون» على تقدير مضافٍ، أي: عقابَ يومٍ وهولَه، أو بدونه. وجَعْلُه ظرفاً لمفعولٍ محذوفٍ بعيدٌ.

وأمَّا جَعْلُه ظرفاً لـ «يخافون» والمفعولُ محذوفٌ، فليس بشيءٍ أصلاً؛ إذ المرادُ أنهم يخافون في الدنيا يوماً ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ لا أنَّهم يخافون شيئاً في ذلك اليوم الموصوفِ بأنه تتقلَّبُ فيه.. إلخ.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٤، وسلف البيت ٧/ ٢٨٥ و١٠/ ٣٥٩.

(٢) كما في البحر ٦/ ٤٥٩، وخالد بن كلثوم الكوفيُّ الكلبيُّ لغويٌّ نحويٌّ راويةٌ نسَّابةٌ، له كتاب الشعراء المذكورين، وأشعار القبائل. إنباه الرواة ١/ ٣٥٢، وبغية الوعاة ١/ ٥٥٠.

(٣) في الكتاب ٤/ ٨٣.

والمراد به يومُ القيامة، ومعنى تقلُّبِ القلوب والأبصار فيه: اضطرابُها وتغيُّرُها أنفسها فيه من الهول والفزع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. أو تغيُّر أحوالها بأنْ تَفْقَهَ القلوبُ ما لم تكن تَفْقَهُ، وتُبْصِرَ الأبصارُ ما لم تكن تُبْصِرُ. أو بأن تتوقَّعَ القلوبُ النجاةَ تارةً وتخافَ الهلاكَ أخرى، وتَنْظُرَ الأبصارُ يميناً تارةً وشمالاً أخرى؛ لِمَا أنَّ أغلب أهل الجمع لا يدرون من أيِّ ناحيةٍ يؤخَذُ بهم، ولا من أيِّ جهةٍ يؤتَوْنَ كُتُبَهم.

وقيل: المراد: تُقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصار على جمر جهنم. وليس بشيءٍ. ومثلُه قولُ الجبائيِّ أن المراد: تنتقلُ من حالٍ إلى حالٍ، فتَلْفَحُها النارُ ثم تُنْضِجُها ثم تُحْرِقُها.

وقرأ ابن محيصن: «تَتْقَلَّبُ» بإسكان التاء الثانية[(١)].

وقوله سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلِّقٌ ـ على ما استَظْهَرَه أبو حيان ـ بـ «يسبح»[(٢)]. وجوَّز أبو البقاء أن يتعلَّق بـ «لا تُلهيهم» أو بـ «يخافون»[(٣)]. ولا يخفَى أن تعلُّقه بأحد المذكورين مُحْوِجٌ إلى تأويل، ولعل تعلُّقه بفعلٍ محذوفٍ يدلُّ عليه ما حُكي عنهم أَوْلَى من جميع ذلك، أي: يفعلون ما يفعلون من التسبيح والذكر وإيتاءِ الزكاة والخوفِ من غيرِ صارف لهم عن ذلك ليَجْزِيَهم اللهُ تعالى ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾.

واللامُ على سائر الأوجُهِ للتعليل. وقال أبو البقاء[(٤)]: يجوزُ أن تكونَ لامَ الصيرورةِ، كالتي في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وموضعُ الجملة حالٌ، والتقدير: يخافون مُلْهَمِينَ[(٥)] ليَجْزِيَهم الله، وهو كما ترى.

والجزاءُ: المقابلةُ والمكافأةُ على ما يُحْمَدُ، ويتعدَّى إلى الشخص المجزيِّ بـ «عن»، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] وإلى ما فَعَلَه ابتداءً

---

(١) لم نقف عليها، وفي القراءات الشاذة ص١٠٢ عن ابن محيصن أنه قرأ بتشديد التاء، وكذا ذكر أبو حيان في البحر ٦/ ٤٥٩ عنه أنه قرأ بإدغام التاء في التاء.
(٢) البحر ٦/ ٤٥٩.
(٣) الإملاء ٤/ ٧٨.
(٤) في الإملاء ٤/ ٧٨-٧٩.
(٥) كذا في الأصل و(م)، والذي في الإملاء: ملهين.

بـ «على»، تقول: جزيتهُ على فِعْلِه، وقد يتعدَّى إليه بالباء، فيقال: جزيتُه بفعله. وإلى ما وقع في مقابلته بنفسه وبالباء؛ قال الراغب: يقال: جزيتُه كذا وبكذا(١).

والظاهرُ أنَّ «أحسن» هو ما وقع في المقابلة، فيكون الجزاء قد تعدَّى إليه بنفسه، ويحتاجُ إلى تقديرِ مضافٍ، أي: ليجزيهم أحسنَ جزاءِ عَملِهم، أو الذي عَمِلوه ـ حسبما وعد لهم بمقابلةِ حسنةٍ واحدةٍ عشرةَ أمثالِها إلى سبع مئةِ ضِعْفٍ ـ ليكون الأحسنُ من جنس الجزاء.

وجوِّز أن يكون الأحسنُ هو الفعل المجزيَّ عليه أو به الشخصُ، وليس هناك مضافٌ محذوفٌ، والكلامُ على حذف الجارِّ، أي: ليجزيهم على أحسنِ أو بأحسنِ ما عملوا، وأحسنُ العمل أدناه المندوبُ، فاحترز به عن الحسن وهو المباحُ؛ إذ لا جزاء له.

ورجِّح الأولُ بسلامته عن حذف الجارِّ الذي هو غيرُ مقيسٍ في مثل ما نحن فيه، بخلافِ حذفِ المضاف فإنه كثيرٌ مقيسٌ.

وجوِّز أن يكون المضافُ المحذوفُ قبل «أحسن»، أي: جزاءَ أحسنِ ما عملوا، والظاهرُ أن المراد بما عملوا أعمُّ ممَّا سبق، وبعضُهم فسَّره به.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يتفضَّل عليهم بأشياء لم تُوْعَدْ لهم بخصوصيتها أو بمقاديرها، ولم يخطرْ ببالهم كيفياتُها ولا كمِّيتُها، بل إنما وُعِدَتْ بطريق الإجمال في مثل قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وقوله ﷺ حكايةً عنه عزَّ وجلَّ: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأَتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بشر»(٢).

إلى غير ذلك من المواعيد الكريمة التي من جملتها قولهُ سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ فإنه تذييلٌ مقرِّرٌ للزيادة، ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غيرَ أجزيةِ أعمالهم من الخيرات ما لا يفي به الحسابُ، والموصولُ عبارةٌ عمَّن ذُكرتْ صفاتُهم الجميلة، كأنه قيل: والله يرزقُهم بغيرِ حسابٍ، ووَضْعُه موضعَ ضميرهم

(١) مفردات الراغب (جزا).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٠١٧)، والبخاري (٤٧٨٠)، ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

للتنبيه بما في حيِّز الصلة على أنَّ مناط الرزق المذكورِ محضُ مشيئته تعالى، لا أعمالُهم المحكيةُ، كما أنها المناطُ لِمَا سبق من الهداية لنوره عز وجل، وللإيذان بأنهم ممن شاء الله تعالى أن يرزقهم، كما أنهم ممَّن شاء سبحانه أن يهديهم لنوره، حَسْبَما يُعْرِبُ عنه ما فصِّل من أعمالهم الحسنةِ، فإنَّ جميعها من آثار تلك الهداية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إلى آخره عطفٌ على ما قبله عطفَ القصة على القصة، أو على مقدَّرٍ ينساقُ إليه ما قبله، كأنه قيل: الذين آمنوا أعمالُهم حالاً ومآلاً كما وُصِفَ، والذين كفروا ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ﴾ أي: أعمالُهم التي هي من أبوابِ البرِّ، كصلةِ الأرحام، وفكِّ العناةِ[1]، وسقاية الحاجِّ، وعمارةِ البيتِ، وإغاثةِ الملهوفين، وقِرَى الأضيافِ، ونحوِ ذلك على ما قيل.

وقيل: أعمالُهم التي يظنون الانتفاعَ بها، سواءٌ كان ممَّا يشترطُ فيها الإيمان كالحجِّ، أم كانت مما لا يُشْتَرطُ فيها ذلك، كسقاية الحاجِّ وسائرِ ما تقدَّم.

وقيل: المراد بها ما يشملُ الحَسَنَ والقبيحَ؛ ليتأتَّى التشبيهان، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلامُ في ذلك.

والسرابُ: بخارٌ رقيقٌ يرتفعُ من قعور القيعان، فإذا اتَّصل به ضوءُ الشمس أَشْبَهَ من بعيدٍ الماءَ السارب، أي: الجاري، واشتَرَطَ فيه الفرَّاءُ اللصوقَ في الأرض[2].

وقيل: هو ما تَرَقْرقَ من الهواء في الهجير في فيافي الأرض المنبسطة.

وقيل: هو الشعاعُ الذي يُرى نصفَ النهار عند اشتداد الحرِّ في البرِّ، يخيَّلُ للناظر أنه ماءٌ ساربٌ؛ قال الشاعر:

فلمَّا كففْنا الحربَ كانت عهودُكم كَلَمْعِ سرابٍ في الفلا متألِّقِ[3]

وإلى هذا ذهب الطبرسيُّ، وفسَّر الآل بأنه شعاعٌ يرتفعُ بين السماء والأرض كالماء ضحوةَ النهار[4].

---

(١) جمع العاني، وهو الأسير. مختار الصحاح (عني).

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٤.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٣٨٧، وأمالي ابن الشجري ١/ ٧٧، والحماسة البصرية ١/ ٢٦.

(٤) مجمع البيان ١٨/ ٥٤.

﴿بِقِيعَةٍ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صفةُ «سراب»، أي: كائنٍ بقيعة، وهي الأرضُ المنبسطةُ المستويةُ، وقيل: هي جمعُ قاعٍ، كجِيْرةٍ في جارٍ، ونيرةٍ في نار.

وقرأ مَسْلَمةُ بنُ محاربٍ: «بقيعاتٍ» بتاءٍ طويلةٍ على أنه جمعُ قيعةٍ، كديماتٍ وقيماتٍ في ديمةٍ وقيمة. وعنه أيضاً أنه قرأ: «بقيعاة» بتاءٍ مدوَّرةٍ ويقف عليها بالهاء، فيحتمل أن يكون جمعَ قيعةٍ ووَقَفَ بالهاء على لغة طيِّئٍ، كما قالوا: البَنَاه والأخَوَاه، ويحتمل كما قال صاحب «اللوامح» أن يكون مفرداً، وأصلهُ: قيعة كما في قراءة الجمهور، لكنه أشبع الفتحةَ فتولَّدتْ منها الألف[1].

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ صفةٌ أخرى لـ «سراب».

وجوِّز أن يكون هو الصفةَ، و«بقيعة» ظرفاً لما يتعلَّق به الكافُ وهو الخبر.

والحسبان: الظنُّ على المشهور، وفرَّق بينهما الراغبُ[2] بأنَّ الظنَّ أنْ يَخْطُرَ النقيضان بباله ويغلِّب أحدَهما على الآخر، والحسبان أنْ يَحْكُم بأحدهما من غير أن يَخْطُرَ الآخَرُ بباله، فيعقد[3] عليه الإصبع، ويكون بعرضٍ أن يعتريَه فيه شكٌّ.

وتخصيصُ الحسبان بالظمآن مع شموله لكلِّ مَن يراه كائناً مَن كان من العطشان والريَّانِ؛ لتكميل التشبيهِ بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشَّبَهِ الذي هو المَطْلَعُ المُطْمِعُ والمَقْطَعُ المُؤْيِسُ.

وقرأ شيبة وأبو جعفر ونافعٌ بخلاف عنهما: «الظَّمانُ» بحَذْفِ الهمزةِ ونَقْلِ حركتها إلى الميم[4].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي: إذا جاء العطشانُ ما حَسِبَه ماءً، وقيل: إذا جاء موضِعَه ﴿لَمْ يَجِدْهُ﴾ أي: لم يَجِدْ ما حَسِبَه ماءً وعلَّقَ رجاءَه به ﴿شَيْـًٔا﴾ أصلاً، لا محقَّقاً

---

(١) البحر ٦/ ٤٦٠، والقراءتان في المحتسب ٢/ ١١٣، والأولى في القراءات الشاذة ص١٠٢.
(٢) في مفرداته (حسب).
(٣) في المفردات: فيحسبه ويعقد.
(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٨٧، وتفسير القرطبي ١٥/ ٢٩٩، والبحر ٦/ ٤٦٠، وعنه نقل المصنف. والمشهور عنهما الهمز كما قال القرطبي.

ولا مظنوناً [كما] كان يراه من قبلُ، فضلاً عن وجدانه[1] ماء.

ونصب «شيئاً» قيل: على الحالية، وأمرُ الاشتقاقِ سهلٌ. وقيل: على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «وَجَدَ»، بناءً على أنها من أخوات «ظنَّ». وجوِّز أن يكون منصوباً على البَدَلية من الضمير، ويجوزُ إبدالُ النكرةِ من المعرفة بلا نعتٍ إذا كان مفيداً، كما صرَّح به الرضيُّ. واختار أبو البقاء أنه منصوبٌ على المصدرية، كأنه قيل: لم يجده وجداناً[2]، وهو كما ترى.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ عطف على جملة «لم يَجِدْه» فهو داخلٌ في التشبيه، أي: ووجَدَ الظمآنُ مقدورَه تعالى من الهلاك عند السراب المذكور.

وقيل: أي وَجَدَ الله تعالى محاسباً إياه، على أنَّ العِنْدِيَّة بمعنى الحساب؛ لذكر التوفيةِ بعدُ بقوله سبحانه: ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: أعطاه وافياً كاملاً حسابَ عمله وجزاءَه، أو: أتَمَّ حسابَه بعَرْضِ الكَتَبةِ ما قدَّمه ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ لا يشغلُه حسابٌ عن حساب.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ بيان أحوالِ الكفرة بطريق التمثيل قد تمَّ بقوله سبحانه: (لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا)، وقولُه تعالى: (وَوَجَدَ) إلخ بيانٌ لبقية أحوالِهم العارضةِ لهم بَعْدَ ذلك بطريق التكملة؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ قصارى أمرِهم هو الخيبةُ والقنوطُ فقط، كما هو شأنُ الظمآن، ويَظْهَرَ أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال ما لا قَدْرَ للخيبة عنده أصلاً، فليست الجملةُ معطوفةً على «لم يجده شيئاً» بل على ما يُفْهَمُ منه بطريقِ التمثيل من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم عيناً ولا أثراً، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] كيف لا وإنَّ الحكم بأنَّ أعمال الكفرة كسرابٍ يَحْسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يَجِدْه شيئاً حكمٌ بأنها بحيث يحسبونها في الدنيا نافعةً لهم في الآخرة حتى إذا جاؤوها لم يجدوها شيئاً، كأنه قيل: حتى إذا جاء الكَفَرةُ يومَ القيامة أعمالَهم التي كانوا في الدنيا يحسبونها نافعةً لهم في الآخرة لم يجدوها شيئاً ووَجَدوا الله، أي: حُكْمَه

---

(١) في (م): وجد أنه، وفي الأصل: وجدانه أنه، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ١٨١، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) الإملاء ٤/ ٧٩.

وقضاءَه، عند المجيء ـ وقيل: عند العمل ـ فوفّاهم، أي: أعطاهم وافياً حسابَهم، أي: حسابَ أعمالهم المذكورةِ وجزاءَها، فإنَّ اعتقادهم لنَفْعِها بغير إيمانٍ وعَمَلَهم بموجبه كفرٌ على كفرٍ موجبٌ للعقاب قطعاً، وإفرادُ الضميرين الراجعين إلى الذين كفروا؛ إما لإرادة الجنس كالظمآن الواقع في التمثيل، وإمَّا للحَمْلِ على كلِّ واحدٍ منهم، وكذا إفرادُ ما يرجع إلى أعمالهم[1]. انتهى، ولا يخفى ما فيه من البُعدِ وارتكابِ خلاف الظاهر.

وأيًّا ما كان فالمراد بالظمآن مطلقُ الظمآن. وقيل: المرادُ به الكافر، وإليه ذهب الزمخشريُّ؛ قال: شبَّه سبحانه ما يعملُه مَن لا يعتقد الإيمانَ بسرابٍ يراه الكافرُ بالساهرة وقد غَلَبه عطشُ القيامةِ، فيحسبه ماءً، فيأتيه فلا يجدُه، ويجدُ زبانيةَ اللهِ تعالى عنده يأخذونه فيَسْقُونه الحميمَ والغسَّاقَ[2].

وكأنه مأخوذٌ مما أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق السدِّيِّ في غرائبه عن أصحاب رسول الله ﷺ[3] قال: إنَّ الكفار يبعثون يومَ القيامة وِرْداً عِطاشاً، فيقولون: أين الماء؟ فيمثَّلُ لهم السرابُ فيحسبونه ماءً، فينطلقون إليه فيجدون الله تعالى عنده فيوفيهم حسابهم، والله سريع الحساب.

واستَطْيَبَ ذلك العلَّامةُ الطيبيُّ حيث قال: إنما قيَّد المشبَّه به برؤية الكافر وجعل أحواله ما يلقاه يوم القيامة ولم يُطْلِقْ؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ إلخ لأنه من تتمَّةِ أحوال المشبَّه به، وهذا الأسلوبُ أبلغُ لأنَّ خيبةَ الكافر أَدْخَلُ، وحصوله على خلافِ ما يؤمِّله أعرق[4].

وتعقَّبه أبو حيان بأنه يلزم من حَمْلِ الظمآن على الكافر تشبيهُ الشيء بنفسه[5].

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٨١.
(٢) الكشاف ٣/ ٦٩.
(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي الدر المنثور ٥/ ٥٣ (والكلام منه): من طريق السدي عن أبيه عن أصحابه، وهو في تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١١ من طريق عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل (وهو ابن يونس بن أبي إسحاق)، عن أبيه، عن أصحاب محمد ﷺ. ثم أخرج ابن أبي حاتم نحوه من طريق أسباط عن السدي قوله.
(٤) في الأصل: أعرف، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٦/ ٣٨٨، والكلام فيه بنحوه.
(٥) البحر ٦/ ٤٦١.

ورُدَّ بأنَّ التشبيه على ما ذكره جار الله تمثيليٌّ أو مقيّدٌ، لا مفرّقٌ كما توهّم، فلا يلزمُ من اتِّحاد بعضِ المفردات في الطرفين تشبيهُ الشيء بنفسه، كاتِّحاد الفاعل في: أراكَ تقدِّم رِجْلاً وتؤخِّر أخرى. وبالجملة هو أحسن مما في «الإرشاد» كما لا يخفى على مَن سَلِمَ ذهنُه من غبار العناد.

والآيةُ على ما روي عن مقاتل نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية، كان تعبَّد ولبس المسوحَ والتمسَ الدين في الجاهلية،ثم كفر في الإسلام. ولا يأبَى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لأنه غيرُ خاصٍّ بسبب النزول وإن دخل فيه دخولاً أوليّاً.

ولا يَرِدُ عليه أنَّ الآية مدنيةٌ نزلت بعد بدر وعتبةُ قتل في بدر، فإن كثيراً من الآيات نزل بسبب الأموات، وليس في ذلك محذورٌ أصلاً.

ثم لا يَبْعدُ أن يكون في حُكْمِ هؤلاء الكفرةِ الفلاسفةُ ومتَّبعوهم من المتزيِّينَ بزيِّ الإسلام، فإن اعتقاداتهم وأعمالَهم ـ حيث لم تكن على وفقِ الشرع ـ كسرابٍ بقيعة.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطفٌ على «كسراب»، وكلمةُ «أو» قيل: لتقسيم حالِ أعمالهم الحسنة، وجوّز الإطلاقُ باعتبارِ وقتين، فإنها كالسراب في الآخرة من حيث عدمُ نَفْعِها، وكالظلماتِ في الدنيا من حيث خلوُّها عن نورِ الحقِّ، وخصَّ هذا بالدنيا لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فإنه ظاهرٌ في الهداية والتوفيق المخصوص بها، والأولُ بالآخرة لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ﴾ إلخ، وقدّم أحوال الآخرة التي هي أعظم وأهمُّ؛ لاتِّصال ذلك بما يتعلَّق بها من قوله سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ إلخ، ثم ذكر أحوال الدنيا تتميماً لها.

وجوّز أن يُعْكَسَ ذلك، فيكون المراد من الأول تشبيهَ أعمالهم بالسراب في الدنيا حالَ الموت، ومن الثاني تشبيهَها بالظلمات في القيامة، كما في الحديث: «الظلمُ ظلماتٌ يومَ القيامة»[1]، ويكون ذلك تَرقِّياً مناسباً للترتيب الوقوعيِّ. وليس بذلك لِمَا سمعتَ.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٤٤٦١)، ومسلم (٢٥٧٨) عن أبي هريرة ﷺ.

وقيل: للتنويع؛ وذلك أنه إثْرَ ما مثِّلتْ أعمالُهم التي كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتمادٍ، ويفتخرون بها في كلِّ وادٍ ونادٍ بما ذُكر من حال السرابِ، مثِّلتْ أعمالُهم القبيحةُ التي ليس فيها شائبةُ خيريةٍ يغترُّ بها المغترُّون بالظلمات المذكورة. وزَعَمَ الجرجانيُّ أنَّ المراد هنا تشبيهُ كفرِهم فقط، وهو كما ترى.

والظاهرُ على التنويع أن يراد من الأعمال في قوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ ما يشملُ النوعين.

واعتُرض بأنه يأبى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ بناءً على دخوله في التشبيه؛ لأنَّ أعمالهم الصالحة وإنْ سُلِّمَ أنها لا تنفعُ مع الكفر لا وخامةَ في عاقبتها كما يؤذنُ به قوله سبحانه: ﴿وَوَجَدَ﴾ إلخ.

وأجيبَ بأنه ليس فيه ما يدلُّ على أنَّ سبب العقاب الأعمالُ الصالحةُ، بل وجدانُ العقاب بسبب قبائح أعمالهم، لكنها ذُكِرتْ جميعُها لبيان أنَّ بعضها جُعِلَ هباءً منثوراً، وبعضَها معاقَبٌ به.

وجوِّز أن تكون للتخيير في التشبيه؛ لمشابهة أعمالِهم الحسنةِ - أو مطلقاً - السرابَ لكونها لاغيةً لا منفعةَ فيها، والظلماتِ المذكورةَ لكونها خاليةً عن نور الحقِّ، واختاره الكرمانيُّ.

واعتُرِضَ بأنَّ الرضيَّ كغيره ذَكَرَ أنها لا تكون للتخيير إلَّا في الطلب.

وأجيب بأنه وإن اشتهر ذلك فقد ذهب كثيرٌ إلى عدم اختصاصِه به كابنِ مالكٍ والزمخشريِّ[(١)]، ووقوعُه في التشبيه كثير.

وأيًّا ما كان فليس في الكلام مضافٌ محذوف، وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: فيه مضافٌ محذوفٌ، والتقدير: أو كذي ظلمات، ودلَّ عليه ما يأتي من قوله سبحانه: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾. والتشبيهُ عنده هنا يَحْتَمِلُ أن يكون للأعمال على نمط التشبيه السابق ويقدَّر: أو كأعمالِ ذي ظلماتٍ، ويحتمل أن يكون للكفرة ويقدَّر: أو هم كذي ظلماتٍ. والكلُّ خلافُ الظاهر، وأمرُ الضمير سيظهر لك إن شاء الله تعالى.

---

(١) ينظر التسهيل ص ١٧٦، والكشاف ١/ ٢١٣، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٨٩، والكلام منه.

وقرأ سفيان بن حسين: «أوَ كظلمات» بفتح الواو، ووجَّه ذلك في «البحر» بأنه جَعَلَها واوَ عطفٍ تقدَّمتْ عليها الهمزةُ التي لتقرير التشبيه الخالي عن مَحْضِ الاستفهام(١).

وقيل: هي «أو» التي في قراءة الجمهور، وفُتحت الواو للمجاورةِ كما كُسِرتِ الدالُ لها في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على بعض القراءات.

﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ أي: عميقٍ كثيرِ الماء، منسوبٍ إلى اللُّجِّ وهو مُعْظَمُ ماءِ البحر. وقيل: اللُّجَّة، وهي أيضاً معظمُه. وهو صفةُ «بحر»، وكذا جملةُ قوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ أي: يغطِّي ذلك البحرَ ويسترُه بالكلية ﴿مَوْجٌ﴾، وقدِّمت الأولى لإفرادها.

وقيل: الجملةُ صفةُ «ذي» المقدَّرِ والضميرُ راجعٌ إليه. وقد علمتَ حالَ ذلك التقديرِ.

وقولُه تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ جملةٌ من مبتدأ وخبرٍ محلُّها الرفعُ على أنها صفةٌ لـ «موج»، أو الصفةُ الجارُّ والمجرورُ وما بعده فاعلٌ له لاعتماده على الموصوف، والمراد: يغشاه أمواجٌ متراكمةٌ متراكبةٌ بعضُها على بعضٍ.

وقولُه تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ صفةٌ لـ «موج» الثاني على أحد الوجهين المذكورَيْن، أي: من فوق ذلك الموج سحابٌ ظلمانيٌّ سَتَرَ أضواء النجوم، وفيه إيماءٌ إلى غايةِ تَرَاكُمِ الأمواج وتَضَاعُفِها حتى كأنها بلغت السحاب.

﴿ظُلُمَٰتٌۢ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي ظلماتٌ ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي: متكاثفةٌ متراكمةٌ، وهذا بيانٌ لكمالِ شدَّةِ الظلمات كما أنَّ قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ بيانٌ لغاية قوةِ النور، خلا أنَّ ذلك متعلِّقٌ بالمشبَّه وهذا بالمشبَّه به كما يُعْرِبُ عنه ما بعده.

وأجاز الحوفيُّ أن يكون «ظلماتٌ» مبتدأ خبرُه قولُه تعالى: ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

وتعقَّبه أبو حيان وتَبِعَه ابنُ هشامٍ بأنَّ الظاهرَ أنه لا يجوزُ؛ لِمَا فيه من الابتداء

---

(١) البحر ٦/٤٦١.

بالنكرة من غير مسوِّغ، إلا أن يقدَّر صفةٌ لها يُؤْذِنُ بها التنوين، أي: ظلماتٌ كثيرةٌ أو عظيمةٌ[(١)]، وهو تكلُّفٌ.

وأجاز أيضاً أن يكون «بعضُها» بدلاً من «ظلمات».

وتعقِّب[(٢)] بأنه لا يجوزُ من جهةِ المعنى؛ لأنَّ المراد والله تعالى أعلمُ الإخبارُ بأنها ظلماتٌ وأنَّ بعض تلك الظلمات فوق بعضٍ، أي: هي ظلماتٌ متراكمةٌ، لا الإخبارُ بأنَّ بعض ظلماتٍ فوق بعضٍ من غير إخبارٍ بأنَّ تلك الظلماتِ السابقةَ متراكمةٌ.

وقرأ قنبل: «ظلماتٍ» بالجرِّ على أنه بدلٌ من «ظلمات» الأولى لا تأكيدٌ لها، وجملة «بعضُها فوق بعضٍ» في موضع الصفة له. وقرأ البزِّيُّ: «سحابُ ظلماتٍ» بإضافة «سحابِ» إلى «ظلمات»[(٣)]، وهذه الإضافةُ كالإضافة في: لجين الماء، أو لبيان أنَّ ذلك السحابَ ليس سحابَ مطرٍ ورحمة.

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ﴾ أي: مَن ابتُليَ بها، وإضمارهُ من غير ذكرٍ لدلالةِ المعنى عليه دلالةً واضحةً، وكذا تقديرُ ضميرٍ يرجع إلى «ظلمات»، واحتيج إليه لأنَّ جملة «إذا أخرج» إلخ في موضعِ الصفة لـ «ظلمات» ولا بدَّ لها من رابطٍ، ولا يتعيَّنُ ما أشرنا إليه.

وقيل: ضميرُ الفاعل عائدٌ على اسم الفاعل المفهوم من الفعل، على حدِّ: «لا يَشْرَبُ الخمرَ وهو مؤمنٌ»[(٤)]، أي: إذا أخرج المُخْرِجُ فيها ﴿يَدَهُۥ﴾ وجعَلَها بمرأى منه قريبةً من عينيه لينظر إليها ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ أي: لم يَقْرُبْ من رؤيتها وهي أقربُ شيءٍ إليه فضلاً عن أن يراها.

وزعم ابن الأنباريِّ زيادةَ «يكد». وزعم الفرَّاءُ والمبرِّدُ أنَّ المعنى: لم يَرَها إلَّا بعد الجهد[(٥)]، فإنه قد جرى العرفُ أن يقال: ما كاد يفعل، ولم يكد يفعل، في

---

(١) البحر ٦/ ٤٦٢، والمغني ص ٧٥١.

(٢) المتعقب هو أبو حيان أيضاً في البحر ٦/ ٤٦٢.

(٣) القراءتان في التيسير ص ١٦٢، والنشر ٢/ ٣٣٢.

(٤) أخرجه أحمد (١٠٢١٦)، والبخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) كذا ذكر المصنف، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٥٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٥٠، =

فِعْلٍ قد فُعِلَ بجهدٍ مع استبعادِ فِعْلِه، وعليه جاء قولُه تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] ومن هنا خطَّأ ابنُ شُبْرمةَ ذا الرُّمةِ بقوله:

إذا غيَّر النأيُ المحبِّين لم يَكَدْ رسيسُ الهوى من حبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

وناداه: يا غيلان[1]، أراه قد بَرِحَ. ففكَّر[2]، وسلَّم له ذو الرُّمَّةِ ذلك، فغيَّر «لم يكد» بـ :لم يكن، أو: لم أَجِدْ[3].

والتحقيقُ: أن الذي يقتضيه «لم يكد» و«ما كاد يفعل» أنَّ الفِعْلَ لم يَكُنْ مِن أصله، ولا قارَبَ في الظنِّ أن يكون، ولا يُشَكُّ في هذا.

وقد عُلِمَ أنَّ «كاد» موضوعةٌ لشدَّةِ قُرْبِ الفعل من الوقوع ومُشارَفَتِه، فمحالٌ أن يُوْجِبَ نَفْيُه وجودَ الفعل، لأنه يؤدِّي إلى أن يكون ما قارَبَ كذلك، فالنظرُ إلى أنه إذا لم يكن المعنى على أنَّ ثمت حالاً يَبْعُد معها أن يكون[4] ثم تغيَّرت كما في قوله تعالى: (فَذَبَحُوهَا) إلخ، يُلتزمُ الظاهرُ، ويُجعل المعنى أنَّ الفعل لم يقارب أن يكون، فضلاً عن أن يكون، والآيةُ على ذلك وكذا البيت[5]، وقد ذُكر أن «لم يكد» فيهما جوابُ «إذا» فيكون مستقبلاً، وإذا قلتَ: إذا خرجْتَ لم أَخْرُجْ، فقد نفيتَ خروجاً في المستقبل، فاستحال أن يكون المعنى فيهما على أنَّ الفعل قد كان.

= وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٦٢ عن المبرد، والذي في المقتضب ٣/ ٧٥، والكامل ١/ ٢٥٢ قوله: لم يرها ولم يكد، أي: لم يدن من رؤيتها. وذكر الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٥٥ مثله، حيث قال: «لم يكد يراها» قال بعض المفسرين: لا يراها، وهو المعنى؛ لأن أقل من الظلمات التي ذكرها الله لا يرى فيها الناظر كفه. ثم ذكر عن بعضهم نحو ما نقله المصنف عنه وعن المبرد وقال: وهو وجه العربية.

(١) في الأصل و(م): يا أبا غيلان، والصواب ما أثبتناه، وذو الرمة هو غيلان بن عقبة بن بُهيش. الشعر والشعراء ١/ ٥٢٤.

(٢) في الأصل و(م): ففك، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٣) وهذه هي رواية الديوان ٢/ ١١٩٢: لم أجد. والقصةُ في أخبار القضاة لوكيع ٣/ ٩٢-٩٣، والأغاني ١٨/ ٣٤، وتاريخ ابن عساكر ٤٨/ ١٦٢، ودلائل الإعجاز ص٢٧٤-٢٧٥، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٩٠، والخزانة ٩/ ٣١١.

(٤) في (م): تكون، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٦/ ٣٩٠، والكلام منه.

(٥) ومعنى البيت على هذا أن الهوى لرسوخه في القلب وتملُّكِه للنفس بحيث لا يتوهم عليه البراح، وأنه لا يقارب من أن يوجد فضلاً عن الوجود. حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٠.

وهذا التحقيق خلاصةُ ما حقَّق الشيخ في «دلائل الإعجاز»[١]، ومنه يُعْلَمُ تخطئةُ مَن زَعَم أن «كاد» نفيُها إثباتٌ وإثباتُها نفيٌ.

وفي «الحواشي الشهابية»[٢]: أنَّ نفي «كاد» على التحقيق المذكور أبلغُ من نفي الفعلِ الداخلةِ عليه؛ لأنَّ نفي مقاربته يدلُّ على نفيه بطريقٍ برهانيٍّ، إلا أنه إذا وقع في الماضي لا ينافي ثبوتَه في المستقبل، وربما أَشْعَرَ بأنه وقع بعد اليأس منه كما في آية «البقرة»، وإذا وقع في المستقبل لا ينافي وقوعَه في الماضي، فإنْ قامت قرينةٌ على ثبوته فيه أَشْعَرَ بأنه انتفى وأُيِسَ منه بعد ما كان ليس كذلك كما في هذه الآية، فإنه لشدَّة الظُّلمةِ لا يمكنه رؤيةُ يدِه التي كانت نُصْبَ عينيه.

ثم فرَّع على هذا أنَّ لك أن تقول: إنَّ مراد مَن قال: إنَّ نفيها إثباتٌ وإثباتها نفيٌ، أنَّ نفيها في الماضي يُشْعِرُ بالثبوت في المستقبل، وعكسه كما سمعتَ، وهذا وجهُ تخطئةِ ابن شُبْرُمَة وتغييرِ ذي الرُّمَّةِ؛ لأنَّ مراده أنَّ قديم هواها لم يَقْرُبْ من الزوال في جميع الأزمان، ونفيُه في المستقبل يوهم ثبوتَه في الماضي، فلا يقال: إنهما من فُصَحاء العرب المستَشْهَدِ بكلامهم، فكيف خَفِيَ ذلك عليهما؟ ولذا استبعده في «الكشف» وذهب إلى أنَّ قصتهما موضوعةٌ.

وأوصى[٣] بحفظ ذلك حيث قال: فاحْفَظْه؛ فإنه تحقيقٌ أنيقٌ، وتوفيقٌ دقيقٌ، سَنَحَ بمَحْضِ اللطف والتوفيق. انتهى.

ولَعمري إن ما أَوَّلَ به كلامَ القائل بعيدٌ غايةَ البعد، ولا أظنُّه يقع موقعَ القبول عنده، ونفيُ كلِّ فعلٍ في الماضي لا ينافي ثبوتَه في المستقبل، ونفيُهُ في المستقبل لا ينافي وقوعه في الماضي، ولا اختصاصَ لـ «كاد» بذلك، فياليت شعري، هل دَفَعَ الإيهامَ ما غيَّر إليه ذو الرُّمَّةِ بيتَه؟! فتأمَّلْ ذاك والله يتولَّى هُداكَ.

ثم إنَّ ظاهر الآية يقتضي أنَّ مانع الرؤية شدةُ الظُّلمةِ، وهو كذلك لأنَّ شرط الرؤية بحسب العادة في هذه النشأة الضوءُ، سواءٌ كانت بمحضِ خَلْقِ الله تعالى كما ذهب إليه أهلُ الحقِّ، أو كانت بخروج الشعاع من العين على هيئةِ مخروطٍ

---

(١) ص٢٧٥-٢٧٦.

(٢) ٦/ ٣٩٠.

(٣) يعني الشهاب.

مُصْمَتٍ، أو مؤلَّفٍ من خطوطٍ مجتمعةٍ في الجانب الذي يلي الرأسَ، أوْ لا على هيئة مخروطٍ بل على استواءٍ لكنْ مع ثبوتِ طرفه الذي يلي العينَ واتِّصاله بالمرئيِّ، أو بتكيُّفِ الشعاع الذي في العين بكيفية الهواء وصيرورةِ الكلِّ آلةً للرؤية = كما ذهب إليه فرقُ الرياضيين، أو كانت بانطباعِ شبحِ المرئيِّ في جزءٍ من الرطوبة الجليدية التي تُشْبِهُ البَرَد والجمد كما ذهب إليه الطبيعيون، وهذان المذهبان هما المشهوران للفلاسفة.

ونُسِبَ للإشراقيين[(١)] منهم واختاره شهاب الدين القتيل[(٢)]: أنَّ الرؤية بمقابلةِ المستنير للعضو الباصر الذي فيه رطوبةٌ صقيلة، وإذا وُجدت هذه الشروطُ مع زوال المانع يقع للنفس علمٌ إشراقيٌّ حضوريٌّ على المبصَر، فتدركُه النفس مشاهَدةً ظاهرةً جليةً بلا شعاع ولا انطباع.

واختار الملا صدرا أنها بإنشاء صورةٍ مماثلةٍ للمرئيِّ بقدرة الله تعالى من عالم الملكوت النفسانيِّ، مجرَّدةٍ عن المادة الخارجية، حاضرةٍ عند النفس المدرِكةِ، قائمةٍ بها قيامَ الفعل بفاعله لا قيامَ المقبول بقابله.

وتحقيقُ ذلك بما له وما عليه في مبسوطات كتب الفلسفة.

وربما يُظَنُّ أن الظُّلمةَ ـ سواءٌ كانت وجوديةً أو عدمَ ملكةٍ ـ من شروط الرؤية كالضوء، لكن بالنسبة إلى بعض الأجسام كالأشياء التي تلمع بالليل.

ونفى ابنُ سينا ذلك وقال: لا يمكن أن تكون الظلمةُ شرطاً لوجود اللوامع مُبْصَرةً، وذلك لأنَّ المضيء مرئيٌّ سواءٌ كان الرائي في الظلمة أو في الضوء، كالنار نراها مطلقاً، وأما الشمسُ فإنما لا يمكننا أن نراها في الظلمة لأنها متى طَلَعتْ لم تَبْقَ الظلمةُ، وأما الكواكبُ واللوامعُ فإنما تُرى في الظلمة دون النهار لأنَّ ضوء الشمس غالبٌ على ضوئها، وإذا انفعل الحسُّ عن الضوء القويِّ لا جَرَمَ لا ينفعلُ عن الضعيف، فأما في الليل فليس هناك ضوءٌ غالبٌ على ضوئها فلا جَرَمَ تُرى،

---

(١) هم قوم من الفلاسفة يُؤْثِرون طريق أفلاطون وما له من الكشف والعيان على طريقة أرسطو وما له من البحث والبرهان. شرح المقاصد لمسعود بن عمر التفتازاني ٣/ ٦١.

(٢) هو يحيى بن حَبَش السُّهْرَوردي الفيلسوف المنطقي، قُتل في أوائل سنة سبع وثمانين وخمس مئة. السير ٢١/ ٢١١.

وبالجملة فصيرورتُها غيرَ مرئيةٍ ليس لتوقُّفِ ذلك على الظلمة بل لوجود المانع عن الرؤية، وهو وجودُ الضوءِ الغالب. انتهى.

ويمكن أن يقال: إنَّ ضوء الشمس على ما ذكر مانعٌ عن رؤية اللوامع، ورفعُ مانع الرؤية شرطٌ لها، ورفعُ الضوء(١) هو الظلمةُ، فالظلمة شرطُ رؤية اللوامع بالليل، وهو المطلوبُ، فتدبَّر ولا تَغْفَلْ، والله تعالى أعلم بحقائق الأمور.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ جيءَ به لتقريرِ ما أفاده التمثيلُ من كون أعمال الكفار كما فصّل، وتحقيقِ أنَّ ذلك لعدم هدايته تعالى إياهم لنوره. وإيرادُ الموصول للإشارة بما في حيِّز الصلة إلى علَّة الحكم، وأنهم ممن لم يشأ الله تعالى هدايتهم، أي: مَن لم يشأ الله تعالى أن يهديه لنوره(٢) في الدنيا فما له هدايةٌ مّا من أحدٍ أصلاً فيها.

وقيل: معنى الآية: مَن لم يكن له نورٌ في الدنيا فلا نورَ له في الآخرة.

وقيل: كِلَا الأمرين في الآخرة، والمعنى: مَن لم ينوِّرْه الله تعالى بعفوه ويَرْحَمْه برحمته يومَ القيامة، فلا رحمةَ له من أحدٍ فيها. والمعوَّلُ عليه ما تقدَّم.

والظاهرُ أنَّ المراد تشبيهُ أعمالِ الكفرة بالظلمات المتكاثفةِ من غير اعتبارِ أجزاءٍ في طرفي التشبيه يُعتبر تشبيهُ بعضها ببعض.

ومنهم مَن اعتبر ذلك فقال: الظلماتُ: الأعمالُ الفاسدةُ والمعتقداتُ الباطلة، والبحرُ اللجِّيُّ صَدْرُ الكافرِ وقلبهُ، والموجُ: الضَّلَالُ والجهالةُ التي قد غَمَرتْ قلبه، والموج الثاني: الفِكَرُ المعوجَّةُ، والسحاب: شهوتُه في الكفر وإعراضُه عن الإيمان.

وقيل: الظلماتُ: أعمالُ الكافر، والبحرُ: هواه العميقُ القَعْرِ الكثيرُ الخطر الغريقُ هو فيه، والموجُ: ما يَغْشَى قلبَه من الجهل والغفلة. والموج الثاني: ما يغشاه من شكٍّ وشبهةٍ، والسحاب: ما يغشاه من شركٍ وحيرةٍ فيمنعُه من الاهتداء. والكلُّ كما ترى، ولو جُعِلَ من باب الإشارة لهان الأمر.

❊ ❊ ❊

---

(١) في (م): ودفع.

(٢) في الأصل و(م): أن يهديه الله سبحانه لنوره، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٢.

ومن باب الإشارة ما قيل: إنَّ في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنه ينبغي للشيخ إذا أراد تأديبَ المريدِ وكَسْرَ نفسِه الأمَّارةِ أن يؤدِّبه بمَحْضَرِ طائفةٍ من المريدين الذين لا يحتاجون إلى تأديب، ومن هنا قال أبو بكر بن طاهر: لا يشهدُ مواضعَ التأديبِ إلَّا مَن لا يستحقُّ التأديبَ، وهم طائفةٌ من المؤمنين لا المؤمنون أجمع. والزنى عندهم إشارةٌ إلى الميل للدنيا وشهواتِها.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ إلخ، وقولِه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ إلخ إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي للأخيار معاشرةُ الأشرار، إن الطيور على أشباهها تقع.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي لمن يُشَنِّع عليه المنكرون من المشايخ أن يحزنَ من ذلك ويظنَّه شرًّا له، فإنه خيرٌ له موجبٌ لترَقِّيه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾ إلخ إشارةٌ إلى أنه ينبغي للشيوخ والأكابر أن لا يَهْجُروا أصحاب العَثَراتِ وأهلَ الزلَّات من المريدين، وأن لا يقطعوا إحسانَهم وفُيُوضاتِهم عنهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ﴾ إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي لمن يريد الدخولَ على الأولياء أن يدخل حتى يجد روحَ القبول، والإذنَ بإفاضة المَدَدِ الروحانيِّ على قلبه، المشارِ إليه بالاستئناس، فإنه قد يكون للوليِّ حالٌ لا يليق للداخل أن يحضره فيه، وربما يضرُّه ذلك.

وأَطْرَدَ بعضُ الصوفية ذلك فيمَن يريد الدخول لزيارة قبور الأولياء قدَّس الله تعالى أسرارهم، فقال: ينبغي لمن أراد ذلك أن يقف بالباب على أكمل ما يكون من الأدب، ويجمعَ حواسَّه ويعتمدَ(١) بقلبه طالباً الإذن، ويجعلَ شيخه واسطةً بينه وبين الوليِّ المزور في ذلك، فإن حصل له انشراحُ صدرٍ ومددٌ روحانيٌّ وفيضٌ باطنيٌّ فليدخل، وإلا فلْيَرْجِعْ. وهذا هو المعنيُّ بأدب الزيارة عندهم، ولم نجد ذلك عن أحدٍ من السَّلَفِ الصالح.

---

(١) في الأصل: ويستمد.

والشيعةُ عند زيارتهم للأئمة ﷺ ينادي أحدُهم: أأدْخُلُ يا أمير المؤمنين، أو: يا ابنَ بنتِ رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ أو نحو ذلك، ويزعمون أنَّ علامة الإذن حصولُ رقَّةِ القلب ودَمْع العين.

وهو أيضاً مما لم نعرفه عن أحدٍ من السَّلفِ، ولا ذَكَره فقهاؤنا، وما أظنه إلا بدعةً، ولا يعدُّ فاعلُها إلا مَضْحَكةً للعقلاء. وكونُ المزورِ حيّاً في قبره لا يستدعي الاستئذانَ في الدخول لزيارته. وكذا ما ذكره بعضُ الفقهاء من أنه ينبغي للزائر التأدُّبُ مع المزور كما يتأدَّبُ معه حيّاً كما لا يخفى.

وقد رأيتُ بعد كتابتي هذه في «الجوهر المنتظم في زيارة القبر المعظَّم صلى الله تعالى على صاحبه وسلم» لابن حجر المكيِّ ما نصُّه: قال بعضهم: وينبغي أن يقف ـ يعني الزائر ـ بالباب وقفةً لطيفة كالمستأذن في الدخول على العظماء. انتهى، وفيه أنه لا أصلَ لذلك، ولا حالَ ولا أدبَ يقتضيه. انتهى.

ومنه يُعلم أنه إذا لم يُشْرَعْ ذلك في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام، فعَدَمُ مشروعيته في زيارةِ غيرِه من بابِ أَوْلَى، فاحْفَظْ ذاك، والله تعالى يَعْصِمُنا من البِدَع وإياك.

وقيل في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ إلخ: إنَّ فيه أمراً بغضِّ بصر النفس عن مشتهياتِ الدنيا، وبصرِ القلب عن رؤية الأعمال ونعيمِ الآخرة، وبَصَرِ السرِّ عن الدرجات والقُرُبات، وبصرِ الروح عن الالتفات إلى ما سوى اللهِ تعالى، وبَصَرِ الهمَّةِ عن أن يرى نفسَه أهلاً لشهود الحقِّ، تنزيهاً له تعالى وإجلالاً، وأمراً بحِفْظِ فَرْجِ الباطن عن تصرُّفات الكونين فيه.

والإشارةُ بأمر النساء بعدم إبداء الزينة إلا لمن استُثني إلى أنه لاينبغي لمن تزيَّن بزينةِ الإسرار أن يظهرها لغير المحارم، ومَن لم يسترها عن الأجانب.

وبقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ إلخ إلى النكاح المعنويِّ، وهو أن يُوْدِعَ الشيخُ الكامل في رحم القلب من صُلْبِ الولايةِ نطفةَ استعدادِ قبول الفيض الإلهي، وقد أُشير إلى هذا الاستعدادِ بقوله سبحانه: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ثم قال جل وعلا: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ أي: ليحفظ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ شيخاً في الحال،

أرحامَ قلوبهم عن تصرُّفات الدنيا والهوى والشيطان ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بأن يوفِّق لهم شيخاً كاملاً، أو يخصَّهم سبحانه بجذبةٍ من جذباته.

وأشير بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلخ إلى أنَّ المريد إذا طلب الخلاصَ عن قيد الرياضة لزم إجابتُه إن عُلم فيه الخيرُ، وهو التوحيدُ والمعرفةُ والتوكُّل، والرضا والقناعةُ، وصِدْقُ العمل، والوفاءُ بالعهد، ووجب أن يؤتَى بعضَ المواهب التي خصَّ[1] الله تعالى بها الشيخ.

وأشيرَ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟﴾ إلخ إلى أنَّ النفس إذا لم تكن مائلةً إلى التصرُّف في الدنيا لم تُكْرَهْ عليه.

ولهم في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلامٌ طويلٌ عريضٌ، وفيما قدَّمنا ما يَصْلُحُ أن يكون من هذا الباب.

وذُكر أن قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مما يدخل في عمومه أهلُ الطريقة العليَّةِ النقشبندية، الذين حصل لهم الذكرُ القلبيُّ، ورسخ في قلوبهم بحيث لا يغفلون عنه سبحانه في حالٍ من الأحوال، وهذا وإنْ ثَبَتَ لغيرهم أيضاً من أرباب الطرائق فإنما يثبتُ في النهايات دون المبادي، كما يثبتُ لأهل تلك الطريقة.

وفي مكتوبات الإمام الربَّانيِّ[2] قدِّس سرُّه ما يغني عن الإطالة في شرح أحوال هؤلاء القوم، وبيانِ منزلتهم في الذكر والحضور بين سائر الأقوام، حَشَرَنا الله تعالى وإياهم تحت لواءِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ إشارةٌ لما ورد في حديث: «خَلَقَ اللهُ تعالى الخَلْقَ في ظلمةٍ ثم رشَّ عليهم من نوره، فَمَن أصابه منه اهْتَدَى، ومنه أخطأه ضلَّ»[3]. واللهُ تعالى الموفِّقُ لصالح العمل.

❁ ❁ ❁

(١) في الأصل و(م): خصها، والمثبت من تفسير النيسابوري ١٨/ ١٠٣.
(٢) ١/ ٧٨.
(٣) أخرجه أحمد (٦٦٤٤)، والترمذي (٢٦٤٢) وحسنه، وهو من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلخ استئناف خُوطِبَ به النبيُّ ﷺ للإيذان ـ كما في «إرشاد العقل السليم» ـ بأنَّ الله تعالى قد أفاض عليه أعلى مراتبِ النور وأَجْلَاها، وبيَّن له من أسرار الملك والملكوت أدقَّها وأخفاها[1].

وقال الطبرسيُّ: هو بيانٌ للآيات التي جَعَلَها نوراً، والخطابُ له عليه الصلاة والسلام، والمرادُ به جميعُ المكلَّفين[2].

والهمزةُ للتقرير، والرؤيةُ هنا بمعنى العلم، والظاهرُ أنَّ إطلاقها عليه حقيقةٌ، وقيل: هي حقيقةٌ في الإبصار، وإطلاقُها على العلم استعارةٌ أو مجازٌ بعلاقة[3] اللزوم.

وأيّاً ما كان فالمراد: ألم تَعْلَمْ بالوحي أو بالمكاشَفَةِ أو بالاستدلال أنَّ الله تعالى ينزِّهُه آناً فآناً في ذاته وصفاته وأفعالِه عن كلِّ ما لا يليقُ بشأنه الجليلِ من نقصٍ أو خللٍ تنزيهاً معنوياً تفهمُه العقولُ السليمةُ جميعُ مَن في السماواتِ والأرضِ من العقلاء وغيرِهم كائناً ما كان، فإنَّ كلَّ موجودٍ من الموجودات الممكنةِ مركَّباً كان أو بسيطاً، فهو من حيث ذاتُه ووجودُه وأحوالُه المتجدِّدةُ له يدلُّ على صانعٍ واجبِ الوجود، متَّصفٍ بصفات الكمال، منزَّهٍ عن كلِّ ما لا يليقُ بشأنٍ من شؤونه الجليلة.

وقد نبَّه سبحانه على كمال قوة تلك الدلالة وغايةِ وضوحها، حيث عبَّر عنها بما يخصُّ العقلاءَ من التسبيح الذي هو أقوى مراتب التنزيه وأظهرُها؛ تنزيلاً للسانِ الحال منزلةَ لسانِ المقال.

وتخصيصُ التنزيهِ بالذكر ـ مع دلالة ما فيهما على اتِّصافه تعالى بنعوتِ الكمال أيضاً ـ لِمَا أنَّ مَساقَ الكلام لتقبيح حال الكفرة في إخلالهم بالتنزيه بجَعْلِهم الجمادات شركاءَ له سبحانه في الألوهية، ونِسْبَتِهم إياه عز وجل إلى اتِّخاذِ الولد، ونحوِ ذلك مما تعالى الله عنه علوّاً كبيراً.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٢.

(٢) مجمع البيان ١٨/ ٥٨.

(٣) في (م): لعلاقة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٦/ ٣٩٠، والكلام فيه بنحوه.

وإطلاقُ «مَن» على العقلاء وغيرِهم بطريق التغليب، ولا يغني عن اعتباره أو اعتبارِ مجازٍ مثله إسنادُ التسبيح المختصِّ بالعقلاء بحسب الظاهر، كما تَوهَّمه بعضُ الأجلَّةِ.

وحَمَل بعضُهم التسبيحَ على معنًى مجازيٍّ شاملٍ لتسبيح العقلاء وغيرهم، ويسمَّى عموم المجاز.

ورُدَّ بأنَّ بعضاً من العقلاء وهم الكفرةُ من الثقلَيْن لا يسبِّحونه بذلك المعنى قطعاً، وإنما تسبيحُهم ما ذُكر من الدلالة التي يشاركهم فيها غيرُ العقلاء أيضاً، وفي ذلك من تخطئتهم وتعييرهم ما فيه. والقولُ بأنَّ الكفرة يسبِّحون كالمؤمنين لكنْ من حيث لا يشعرون، كما قال الحلَّاج: جُحودي لك تقديسٌ، مما لا يقبله ذوو العقول، وحريٌّ بأن لا يكون من المقبول.

وقال بعضُهم: إذا كانت «مَن» للتغليب، يندرجُ في عمومها العقلاءُ المطيعون والعقلاءُ العاصون وغيرُ العقلاء مطلقاً، فيحمل التسبيح على معنًى مجازيٍّ يصحُّ نسبتُه إلى كلٍّ مما ذكر، وأيُّ مانع من ذلك؟ وهو كما ترى.

واستَظْهَر أبو حيان إبقاءَ التسبيح على ظاهره، وتخصيصَ «مَن» بالعقلاء المطيعين[1]. وما ذُكر أولاً أولى.

﴿وَالطَّيْرُ﴾ بالرفع عطفاً على «مَن»، وتخصيصُها بالذكر عليه مع اندراجِها في جملة ما في الأرض؛ لعدم استمرار[2] قرَارِها فيها، واستقلالِها بصنعٍ بارعٍ وإنشاءٍ رائعٍ، قصد بيان تسبيحِها من تلك الجهة لوضوح إنبائها عن كمال قدرة صانعها، ولطفِ تدبير مُبْدِعها، حَسْبَمَا يُعْرِبُ عنه التقييدُ بقوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، أي: تسبِّحه الطيرُ حالَ كونها صافَّاتٍ أجنحتَها، فإنَّ إعطاءه تعالى للأجرام الثقيلة ما تتمكَّن به من الوقوف في الجوِّ والحركةِ كيف تشاءُ[3]، من الأجنحة والأذناب الخفيفة، وإرشادَها إلى كيفية استعمالها بالقَبْضِ والبَسْطِ والتحريك يميناً وشمالاً

---

(١) البحر ٦/ ٤٦٣.
(٢) في تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٣ (والكلام منه): استقرار.
(٣) في الأصل و(م): شاء، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٣، والكلام منه.

ونحو ذلك، حجَّةٌ واضحةُ الدلالةِ على كمالِ قدرةِ الصانع المجيد، وغايةِ حِكْمَةِ المُبدئ المعيد.

والعطفُ على ما استظهره أبو حيان على «مَن» أيضاً، وقد صرَّح بذلك، ونَقَل عن الجمهور أنَّ تسبيحها حقيقيٌّ[1]. وظاهرُه أنه على نحو تسبيح العقلاء من الثَّقَلين، ولعل ملتزِمَ ذلك لا يلتزمُ وجوبَ كونِ التسبيح الحقيقيِّ بالألفاظ المألوفةِ لنا، وإلا لا يَتَسنَّى القول بأنَّ تسبيحها حقيقيٌّ مع هذا الوجوب؛ لفَقْدِ الألفاظ المألوفة لنا منها.

ويجوزُ أن يقال: إنه تعالى أَلْهمَ الطير تسبيحاً مخصوصاً يليقُ بها، هو غيرُ التسبيح الحاليِّ الذي هو الدلالةُ السابقةُ، ويقدَّر فعلٌ رافعٌ لها يرادُ منه ذلك المعنى الملهَم، أي: وتُسبِّح[2] الطيرُ، وتخصيصُ تسبيحِها بذلك المعنى بالذكر لِمَا أنَّ أصواتها أظهرُ وجوداً وأقربُ حملاً على التسبيح، لكنَّ التقييد بالحال على هذا حالُه في الحسنِ دون حالِه على ما سبق.

وقرأ الأعرج: «والطيرَ» بالنصب على أنه مفعولٌ معه. وقرأ الحسنُ وخارجةُ عن نافع: «والطيرُ صافاتٌ» برَفْعِهما على الابتداء[3] والخبرية، والظاهرُ على هذه القراءة أنَّ قولَه تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ خبرٌ بعد خبرٍ، وعلى قراءة الجمهور استئنافٌ جيءَ به لبيانِ كمالِ عراقةِ كلٍّ واحدٍ مما ذُكر من الطير، وما انْدَرَجَ في عموم «مَن في السماوات والأرض»، في التنزيه ورسوخِ قدمه فيه، بتمثيل حالِه بحالِ مَن يعلم ما يَصْدُرُ عنه من الأفاعيل، فيفعلُها عن قَصْدٍ ونيةٍ لا عن اتِّفاقٍ بلا رَوِيَّة، وقد أدمج سبحانه في تضاعيفه الإشارةَ إلى أنَّ لكلٍّ واحدٍ من الأشياء المذكورة ـ مع ما ذُكر من التنزيه ـ حاجةٌ ذاتيةٌ إليه تعالى، واستفاضةٌ منه عزَّ وجلَّ لِمَا يهمُّه بلسان استعداده، وتحقيقُه أنَّ كلَّ واحدٍ من الموجودات الممكنةِ في حدِّ ذاته بمعزلٍ عن استحقاق الوجود، لكنه مستعدٌّ لأنْ يَفيضَ عليه منه تعالى ما يليقُ بشأنه من الوجود، وما يَتْبعُه من الكمالات ابتداءً وبقاءً، فهو مستفيضٌ منه تعالى

---

(١) البحر ٦/ ٤٦٣.

(٢) في (م): ويسبح.

(٣) في الأصل: الابتدائية، والقراءتان في البحر ٦/ ٤٦٣.

على الاستمرار، فيفيضُ عليه في كلِّ آنٍ من فنون الفيوض المتعلِّقةِ بذاته وصفاته ما لا يُحيط به نطاقُ البيان، بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانْعَدمَ بالمرَّة، وقد عبّر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التي هي الدعاءُ والابتهالُ؛ لتكميل التمثيل، وتقديمُها على التسبيح في الذكر لتقدُّمها عليه في الرتبة. كذا في «إرشاد العقل السليم»(١)، والكلامُ عليه استعارةٌ تمثيليةٌ.

والمضافُ إليه الذي ناب عنه تنوينُ «كلٌّ» ما يشملُ المذكورَ المصرَّحَ به والمندرجَ تحت العموم حتى الجماد. وضميرُ «عَلِمَ» وكذا ضميرا «صلاتَه وتسبيحَه» لكلِّ واحدٍ، وإليه ذهب الزجَّاج(٢).

وزعم بعضُهم أنه يكون في «عَلِمَ» على ذلك استعارةٌ تبعيةٌ، وقال في بيان ذلك: إنَّه يشبِّهُ دلالةَ كلِّ واحدٍ من المذكورين على الحقِّ بلسان الحقِّ والمقال، وميلَ كلٍّ منهم إلى النفع اختياراً أو طبعاً بعِلْم التسبيح والصلاة، فيطلَقُ على كلِّ واحدٍ من تلك الدلالة والميلِ اسمُ العلم على سبيل الاستعارة، ويشتقُّ منه لفظ علم. ومَن له أدنى ذوقٍ لا يرتضيه.

وجوّز أيضاً أن يكون الصلاةُ مجازاً عن الميل، والتسبيحُ مجازاً عن الدلالة، ومع هذا قيل: إنه وإن صحَّ غيرُ مناسبٍ للتمثيل.

وزعم بعضٌ أنَّ الأولى أن يُجعل المضافُ إليه غيرَ شاملٍ للجماد، وليس بذاك.

وجوّز أن يكون ضميرا «صلاته وتسبيحه» لله تعالى على أنَّ الإضافة للمفعول. وجوّز أن يكونا(٣) لكلِّ واحدٍ مما في السماوات والأرض، ويكونَ ضميرُ «عَلِمَ» لله عز وجل.

وقال غيرُ واحدٍ: يجوز أن لا يكون هناك استعارةٌ، والعلمُ على حقيقته، ويراد به مطلقُ الإدراك، ويراد بما ناب عنه التنوينُ أنواعُ الطير وأفرادُها، وبالصلاة

---

(١) ٦/١٨٣.

(٢) ذكر الزجاج في معاني القرآن ٤/٤٨ جوازه، ثم قال: والأجود أن يكون: كلٌّ قد علم الله صلاته وتسبيحه.

(٣) في (م): يكون.

والتسبيحِ ما ألهمه الله عزَّ وجلَّ كلَّ واحدٍ من الدعاء والتسبيح المخصوصَيْنِ به. ولا بُعْدَ في هذا الإلهام، فقد أَلْهَمَ سبحانه كلَّ نوعٍ من أنواع الحيوانات علوماً دقيقةً لا يكاد يهتدي إليها جهابذةُ العقلاء، وهذا مما لا سبيل إلى إنكاره أصلاً، كيف لا وإنَّ القنفذَ مع كونه أبعدَ الحيواناتِ من الإدراك قالوا: إنه يحسُّ بالشمال والجنوب قبل هبوبهما، فيغيِّر المدخلَ إلى جُحْرِه؟ والجملةُ على هذا لبيان كمال الرسوخ في الأمرين، وأنَّ صدورهما عن الطير ليس بطريق الاتِّفاقِ بلا رويَّة، بل عن علم وإتقانٍ[(١)] نظير ما مرَّ، لكنْ لا على سبيل التمثيل، وقدِّر فعلٌ رافعٌ للطير عليه، أي: وتسبِّحُ الطير، كما تقدَّم، ولم تُجعل معطوفةً على «مَن» مرفوعةً برافعها، قيل: لأنه يؤدِّي إلى أنْ يراد بالتسبيح الدالِّ عليه الفعلُ المذكورُ معنًى مجازيٌّ شاملٌ للتسبيح المقاليِّ والحاليِّ من العقلاء وغيرهم، وقد تقدَّم ما فيه.

وجوِّز جَعْلُ ما ناب عنه التنوينُ ما يشملُ الطيرَ وغيرَه من المندرِج في العموم السابق.

وفيه أنَّ مما اندرج في العموم الجمادَ، ولا يُنْسَبُ إليه العلمُ وإن كان بمعنى مطلقِ الإدراك، والتزامُ[(٢)] أنَّ له علماً وأنه سبحانه ألهمَه صلاةً وتسبيحاً لائقين به مما لا يرتضيه كثيرٌ من الناس، وقد تقدَّم لك ما يتعلَّق بهذا المقام في سورة الإسراء[(٣)] فتذكَّر.

وجوَّز بعضُهم ـ على تقدير حَمْلِ العلم على المعنى الحقيقيِّ ـ أن يكون عطفُ التسبيح على الصلاةِ مِن عَطْفِ التفسير. وأنت تعلم أنه إذا قُبِلَ ذلك على ذلك التقدير فما المانعُ من قبوله على التقدير السابق، من جَعْلِ الاستعارةِ تمثيليةً؟ نعم يَفُوتُ حينئذٍ الإدماجُ الذي أُشيرَ إليه فيما مرَّ، وهو ليس بمانع. والحقُّ أنَّ احتمال التفسير بعيد، ولا داعيَ إلى ارتكابه، بل يفوتُ عليه ما يفوت كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: بالذي يفعلونه، اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، و«ما» إما عبارةٌ عن الدلالة الشاملة لجميع

---

(١) في تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٣ (والكلام منه): وإيقان.
(٢) في (م): والتزم، وهو خطأ.
(٣) ١٥/ ٨٣ - ٨٤.

الموجودات من العقلاء وغيرهم، والتعبيرُ عنها بالفعل مسنداً إلى ضمير العقلاء لِمَا أشرنا إليه أولَ الكلام. وإما عبارةٌ عنها وعن التسبيح الخاصِّ بالطير معاً، أو عن تسبيح الطير فقط، فالفعلُ على حقيقته وإسنادُه إلى ضمير العقلاء لِمَا مرَّ، والاعتراضُ حينئذٍ مقرِّرٌ لتسبيح الطير فقط، وعلى الأوَّلين لتسبيحِ الكلِّ. وإما عبارةٌ عن الأعمِّ من الصلاةِ والتسبيحِ وغيرِهما من الأفعال الصادرة عمَّن في السماواتِ والأرضِ، والأحوالِ العارضة له، والاعتراضُ حينئذٍ مقرِّرٌ لمضمون «كلٌّ قد علم» أي: اللهُ تعالى «صلاته وتسبيحه»، وأمرُ التعبير بالفعل والإسنادِ إلى ضمير العقلاء لا يخفى، ولتعدُّد الأوجُهِ فيما مرَّ تعدَّدتِ الاحتمالاتُ هنا، فتأمل ولا تغفل.

وقرأ الحسنُ وعيسى وسلام، وهارون عن أبي عمرو: «تفعلون» بتاء الخطاب[1]، وفيه - كما قيل - وعيدٌ وتخويفٌ، ولعل الظاهر أنَّ الخطاب فيه للكفرة. وربما يجوزُ أن يكون ضميرُ الجمع على قراءةِ الجمهور لهم أيضاً، على أنَّ المراد بالجملة تخويفُهم لإعراضهم عن تسبيحه تعالى، بعد أن أخبر سبحانه عمَّن أخبر بأنه قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه، وهذا وإن كان بعيداً إلا أنَّ في القراءة المذكورة نوعُ تأييدٍ له.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا لغيره تعالى استقلالاً أو اشتراكاً؛ لأنه سبحانه الخالقُ لهما ولِمَا فيهما من الذَّوات والصفات، وهو المتصرِّفُ في جميعها إيجاداً وإعداماً، إبداءً وإعادةً.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إليه عزَّ وجلَّ خاصَّةً لا إلى غيره أصلاً ﴿ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ أي: رجوعُ الكلِّ بالفناء والبعث، بيانٌ لاختصاص الملكِ به تعالى في المنتهَى إثرَ بيانِ اختصاصِه به تعالى في المبتدأ.

وقيل: إنَّ الجملةَ لبيانِ أنَّ ما يُرى من ظهور بعض الآثار على أيدي المخلوقات لا ينافي الحَصْرَ السابق، بإفادةِ أنَّ الانتهاء إليه تعالى لا إلى غيره، ويكفي ذلك في الحصر. ولعل الأوَّلَ أَوْلَى.

وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربيةِ المهابةِ، والإشعارِ بعلَّة الحكم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٢، والبحر ٦/ ٤٦٤.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ إلخ كالتأكيد لِمَا قبله والتنويرِ له، والإزجاءُ: سوقُ الشيء برفقٍ وسهولة. وقيل: سوقُ الثقيلِ برفقٍ، وغَلَبَ ـ على ما ذَكَر بعضُ الأجلَّة ـ في سوقِ شيءٍ يسيرٍ أو غيرِ معتدٍّ به، ومنه البضاعةُ المزجاة، أي: المسوقةُ شيئاً بعد شيءٍ على قلَّةٍ وضَعْفٍ. وقيل: أي: التي تُزْجَى، أي: تُدفَعُ للرغبة عنها.

وفي التعبير بـ «يُزْجِي» على ما ذُكر إيماءٌ إلى أنَّ السحاب بالنسبة إلى قدرته تعالى مما لا يعتدُّ به، وهو اسمُ جنسٍ جمعيّ، واحدُه سحابةٌ، والمعنى كما في «البحر»(١): يسوقُ سحابةً إلى سحابة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ بأن يُوْصِلَ سحابةً بسحابةٍ.

وقال غيرُ واحدٍ: السحابُ واحدٌ كالعماء، والمراد: يؤلِّفُ بين أجزائه وقِطَعِه، وهذا لأنَّ «بين» لا تُضافُ لغيرِ متعدِّدٍ، وبهذا التأويل يحصلُ التعدُّدُ كما قيل به في قوله:

بـيـن الـدَّخـولِ فـحَـوْمَـلِ(٢)

واستغنى بعضُهم عنه بجَعْلِ السحاب اسمَ جنسٍ جمعيٌّ على ما سمعت.

وقرأ ورشٌ عن نافع: «يوَلِّفُ» غير مهموزٍ(٣).

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي: متراكماً بعضُه فوقَ بعضٍ ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي: المطرَ شديداً كان أو ضعيفاً، إثر تراكُمِه وتكاثُفِه، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بجيلةَ عن أبيه أنه فَسَّر الوَدْقَ بالبَرْقِ(٤)، ولم نَرَه لغيره. والذي رأيناه في معظم التفاسير وكتب اللغة أنه المطر.

﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: من فتوقه ومخارجه التي حدثَتْ بالتراكم والانعصار،

---

(١) ٦/ ٤٦٤.

(٢) أي: أنه أوقع «بين» على الدخول وهو واحدٌ؛ لاشتماله على مواضع، كما تقول: مازلت أدور بين الكوفة. لأن الكوفة أماكن كثيرة. إعراب القرآن للنحاس ٣/ ٤٢، وتفسير القرطبي ١٥/ ٣٠٨. وهذه قطعة من بيت لامرئ القيس، وهو بهذه الرواية في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٧٠، والخزانة ٣/ ٢٢٤. قال النحاس: وزعم الأصمعي أن هذا لا يجوز، وكان يروي: بين الدخول وحومَل. اهـ. والبيت بهذه الرواية في ديوان امرئ القيس برواية الأصمعي ص٨.

(٣) التيسير ص٣٤، والنشر ١/ ٣٩٥، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١٨، وفيه بدل أبي بجيلة: أبو تميلة رجل من بني جمان.

وهو جمع خَلَلٍ كجبال وجَبَلٍ. وقيل: هو مفردٌ كحجابٍ وحجازٍ، وأيِّد بقراءة ابن عباس وابن مسعود وابن زيد والضحاك، ومعاذٍ العنبريِّ عن أبي عمرو، والزعفرانيِّ: «من خَلَلِه»[1]، والمراد حينئذٍ الجنسُ.

والجملةُ في موضع الحال من «الودق»؛ لأنَّ الرؤية بصريةٌ.

وفي تعقيب الجَعْلِ المذكور برؤيته خارجاً لا بخروجه، من المبالغة في سرعة الخروج على طريقة قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء:٦٣] ومن الاعتناء بتقرير الرؤية ما لا يخفى.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السحاب؛ فإنَّ كلَّ ما عَلَاكَ سماءٌ، وكأنَّ العدول عنه إلى السماء للإيماء إلى أنَّ للسموِّ مدخلاً فيما ينزل بناءً على المشهور في سببِ تكوُّنِ البَرَدِ. وجوِّز أن يراد به جهةُ العلوِّ، وللإيماء المذكور ذُكِرَتْ مع التنزيل.

﴿مِن جِبَالٍ﴾ أي: من قطعٍ عظامٍ تُشْبِهُ الجبالَ في العِظَم على التشبيه البليغ، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ [الكهف: ٩٦] والمرادُ بها قِطَعُ السحاب، ومن الغريب الذي لا تساعده اللغة ـ كما في «الدرر والغرر» الرَّضوية ـ قولُ الأصفهانيِّ: إنَّ الجبال ما جَبَلَه الله تعالى ـ أي: خَلَقه ـ من البَرَد[2].

﴿فِيهَا﴾ أي: في السماء، والجارُّ والمجرورُ في موضع الصفة لـ «جبال».

وقولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ ـ وهو معروفٌ، وسمِّي بَرَداً لأنه يَبْرُدُ وجهَ الأرض، أي: يقشره، من بَرَدْتُ الشيءَ بالمبرد ـ مفعولُ «ينزل» على أنَّ «مِن» تبعيضةٌ. وقيل: زائدةٌ على رأي الأخفش. والأُوليان لابتداء الغاية، والجارُّ والمجرورُ الثاني بدلٌ من الأول بدلَ اشتمالٍ أو بعضٍ، أي: ينزِّل مبتدأً من السماء من جبالٍ كائنةٍ فيها بعضَ بَرَدٍ، أو بَرَداً.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٠، وزاد المسير ٦/ ٥٢، والبحر ٦/ ٤٦٤، وعنه نقل المصنف.

(٢) الدرر والغرر للشريف المرتضى ٢/ ٣٤، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٩٢، والأصفهاني هو أبو مسلم بن بحر.

وزعم الحوفيُّ أنَّ «من» الثانيةَ للتبعيض كالثالثةِ، مع قوله بالبدلية، وهو خطأٌ ظاهر[١].

وقيل: «مِن» الأُولى ابتدائيةٌ، والثانيةُ للتبعيض واقعةٌ موقعَ المفعول ـ وقيل: زائدةٌ على رأي الأخفش أيضاً ـ والثالثةُ للبيان، أي: ينزِّل مبتدأً من السماء بعضَ جبالٍ ـ أو جبالاً ـ كائنة فيها التي هي بَرَد، فالمنزلُ بَرَدٌ.

وعن الأخفش: أنَّ «مِن» الثانيةَ و«من» الثالثةَ زائدتان، وكلٌّ من المجرورَيْنِ في محلِّ نصبٍ؛ أمَّا الأولُ فعلى المفعولية لـ «ينزِّلُ»، وأما الثاني فعلى البدلية منه، أي: ينزل من السماء جبالاً بَرَداً، ومآلُه: ينزلُ من السماء بَرَداً.

وقال الفرَّاء: هما زائدتان، إلَّا أنَّ المجرور بأُوْلاهما في موضع نصبٍ على المفعولية، والمجرور بثانيتهما في موضع رفع؛ إمَّا على أنه مبتدأ و«فيها» خبرُه والضمير من «فيها» للجبال، أي: ينزِّلُ من السماء جبالاً في تلك الجبال بَرَدٌ لا شيءٌ آخَرُ من حصًى وغيره، وإما على أنه فاعلُ «فيها» لأنه قد اعتمد على الموصوف ـ أعني الجبالَ ـ والضميرُ راجعٌ إليها أيضاً.

والمراد بالجبال على غيرِ ما قولٍ الكثرةُ مجازاً، وقد جاء استعمالُها فيها كذلك في قول ابن مقبل:

إذا متُّ عن ذِكْرِ القوافي فلن تَرَى ... لها شاعراً مني أَطَبَّ وأَشْعَرا
وأكثرَ بيتاً شاعرٍ ضُرِبَتْ له ... بطونُ جبال الشعر حتى تيسَّرا[٢]

ويقال: عنده جبلٌ من ذهب وجبلٌ من علم.

وعن مجاهدٍ والكلبيِّ وأكثرِ المفسِّرين أنَّ المراد بالسماء المُظِلَّةُ، والجبال حقيقتُها، قالوا: إنَّ الله تعالى خَلَقَ في السماء جبالاً من بَرَدٍ كما خلق في الأرض

---

(١) لأن الأولى لابتداء الغاية فيما دخلت عليه، وإذا كانت الثانية بدلاً لزم أن تكون مثلها لابتداء الغاية، فلو قلت: خرجت من بغداد من الكرخ، لزم أن يكونا معاً لابتداء الغاية. البحر ٦/ ٤٦٤.

(٢) ديوان ابن مقبل ص١٣٦، ودلائل الإعجاز ص٥١٢، والبحر ٦/ ٤٦٤ وعنه نقل المصنف، وفيه: شاعراً، بدل: شاعر، والبيتان في الديوان والدلائل باختلاف يسير.

جبالاً من حَجَرٍ، وليس في العقل ما ينفيه من قاطعٍ، فيجوزُ إبقاءُ الآيةِ على ظاهرِها كما قيل.

والمشهورُ بين أهل الحكمة أنَّ انبعاث قوى السماويات وأشعتَها قد يوجبُ تصعيد أجسامٍ لطيفةٍ مرتفعةٍ عن الماء ممتزجةٍ مع الهواء، وهي التي تسمَّى بخاراً، ولثقله بالنسبة إلى الدخان ـ لرطوبته ويُبْس الدخان ـ يقف في حيِّز الهواء بحيث لا يكون واصلاً إليه الحرارةُ الكائنة من الشعاع المنعكس عن جرم الأرض، ويكون متباعداً عن المتسخِّن بحرارة النارِ، فيبقى في الطبقة الباردة من الهواء، فيبردُ ويتكاثفُ بالتصاعُدِ شيئاً فشيئاً، فيَرْتَكِم منه سحابٌ فيقطر مطراً إما كله أو بعضه، ويتفرَّقُ بعضُه لبقائه على صورته الهوائية، واستحالةِ ما قَطَر إلى صورته المائية، فإن طالت مسافتُها اتَّصلتْ فكانت قطراتُها أكبر، وإن اشتدَّ البَرْدُ عليها صارت بَرَداً أو نزلت ثلجاً، وامتنع تصاعُدُ البخار عند ذلك فيبردُ وجهُ الأرض مع بَرْدِ الجوِّ، فيكون من ذلك البرد القويُّ، فإن صادف ريحاً اشتد البرد لإزالتها البخار الأرضيَّ، وإن لم يصادف ريحاً أذاب البخارُ الثلجَ وسخَّن وجهَ الأرض. وذكروا أنه كلما طالت المسافةُ حتى اتَّصلتْ وكبرت القطراتُ وصادف البَرْد كان البَرَدُ أكبرَ مقداراً.

وقد ينعقد المطر بَرَداً داخل السحاب ثم ينزل، وذلك في الربيع عندما يصيبه سخونةٌ من خارجه، فتبطن البرودة في داخله عند انحلاله قطراتٍ فيَجْمُد.

وقد يكون البخار أكثرَ تكاثفاً فلا يَقْوَى على الارتفاع، ويبردُ بسرعةٍ بما يوافيه من برد الليل لعدم الشعاع، وليس بحيث يصير سحاباً، فيكون منه الطلُّ، وقد يجمد في الأعالي قبل تراكُمِه فيكون منه الصَّقيعُ، وقد يتكاثفُ الهواء لإفراط البرد فينعقد سحاباً ويمطر بحاله.

والحقُّ أنَّ كلَّ ذلك مستندٌ إلى إرادة الله عز وجل ومشيئته سبحانه المبنيةِ على الحِكَم والمصالح، والأسبابُ التي ذكرت عاديةٌ، ولا أرى بأساً بالقول بذلك. وباعتبارِ أنَّ أول الأسباب القوى السماويةُ وأشعتُها صحَّ أنْ يقال: إن الإنزال مبتدأ من السماء، على ما أشار إليه العلَّامة البيضاوي في الكلام على سورة البقرة(١)،

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الآية: ٢٢] وينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٢.

وحَمْلُ الآيةِ على ما يوافق المشهور[١] لا يُخِلُّ بجزالتها، بل هي عليه أجزلُ، وعن شكوك العوامِّ أبعدُ، لاسيما أهل الجبال الذين قد يُمطَرون وينزِلُ على أرضهم البَرَدُ وهم فوق الجبال في الشمس.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بما ينزل من البَرَدِ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: يصيبه فينالُه ما ينالُه من ضررٍ في ماله ونفسه ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أن يصرفَه عنه فينجو من غائلته. ورجوعُ الضميرين إلى البَرَدِ هو الظاهر.

وفي «البحر» يحتمل رجوعُهما إلى الوَدْقِ والبَرَدِ، وجرى فيهما مجرى اسم الإشارة، كأنه قيل: فيصيب بذلك ويصرفُ ذلك، والمطر أغلبُ في الإصابة والصرف وأَبْلغُ في المنفعة والامتنان[٢]. اهـ، وفيه بعدٌ ومنعٌ ظاهر.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ أي: ضوءُ برقِ السحاب الموصوفِ بما مرَّ من الإزْجاءِ والتأليف وغيرِهما، وإضافةُ البرق إليه قبل الإخبار بوجوده فيه للإيذان بظهور أمره، واستغنائه عن[٣] التصريح به، وعلى ما سمعتَ عن أبي بجيلةَ لا يحتاجُ إلى هذا. ورجوعُ الضمير إلى البَرَد، أي: بَرْق البَرَدِ الذي يكون معه، ليس بشيءٍ، وتقدَّم الكلامُ في حقيقة البرق[٤]، فتذكَّر.

وقرأ طلحة بن مصرف: «سَناءُ» ممدوداً «بُرَقِه» بضم الباء وفتح الراء جمع بُرْقَةٍ بضم الباء[٥]، وهي المقدارُ من البرق، كالغُرْفةِ واللُّقْمة. وعنه أيضاً أنه قرأ: «بُرُقه» بضم الباء والراء[٦]، أَتْبَع حركةَ الراء لحركةِ الباء، كما قيل نظيره في «ظلمات». والسناءُ ممدوداً بمعنى العلوِّ وارتفاعِ الشأن، وهو هنا كنايةٌ عن قوة الضوء.

وقرئ: «يكاد سَّنا» بإدغام الدال في السين[٧].

---

(١) في (م): المشهورة، وهو تصحيف.

(٢) البحر ٦/ ٤٦٥، وفيه: أبلغ، بدل: وأبلغ.

(٣) في الأصل و(م): على، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٥، والكلام منه.

(٤) ١/ ١٧٢.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٠، والبحر ٦/ ٤٦٥.

(٦) القراءات الشاذة ص١٠٢، والبحر ٦/ ٤٦٥.

(٧) التيسير ص٢٤، والنشر ١/ ٢٩١.

﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: يَخْطَفُها من فَرْطِ الإضاءة وسرعةِ وُرودِها، وفي إطلاق الأبصار مزيدُ تهويلٍ لأمره، وبيانٌ لشدة تأثيره فيها، كأنه يكاد يذهبُ بها ولو عند الإغماض، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة من حيث إنه توليدٌ للضدِّ من الضدِّ.

وقرأ أبو جعفر: «يُذْهِبُ» بضمِّ الياء وكَسْرِ الهاء[1]، وذهب الأخفش وأبو حاتم إلى تخطئته في هذه القراءة قالا: لأنَّ الباء تُعاقِبُ الهمزةَ، ولا يجوزُ اجتماعُ أداتي تعديةٍ، وقد أخطأا في ذلك؛ لأنه لم يكن ليقرأ إلَّا بما رَوَى، وقد أخذ القراءةَ عن ساداتِ التابعين الآخِذين عن جلَّةِ الصحابة أبيٍّ وغيرِه ﵃، ولم ينفرد هو بها كما زعم الزجَّاج[2]، بل قرأ أيضاً كذلك شيبةُ[3]، وخرِّجَ ذلك على زيادة الباء، أي: يُذْهِبُ الأبصارَ، وعلى أن الباء بمعنى «مِن» كما في قوله:

فلَثَمْتُ فاها قابضاً بقُرونها　　　شُرْبَ النزيفِ ببردِ ماءِ الحَشْرَجِ[4]

والمفعول محذوفٌ، أي: يُذْهِبُ النورَ من الأبصار. وأجاز الحريريُّ كما نقل عنه الطيبيُّ الجمعَ بين أداتي تعدية.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ بإتيان أحدهما بعد الآخر، أو بنَقْصِ أحدهما وزيادةِ الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحرِّ والبرد وغيرِهما مما يقع فيهما من الأمور التي من جملتها ما ذُكر من إزجاء السحاب وما ترتَّب عليه، وكأنَّ الجملة على هذا استئناف لبيان الحكمة فيما مرَّ، وعلى الأوَّلين استئنافٌ لبيانِ أنه عزَّ وجلَّ لا يتعاصاه ما تقدَّم من الإزجاء وما بعده.

---

(١) النشر ٢/ ٣٣٢.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٥٠.

(٣) البحر ٦/ ٤٦٥، والكلام منه.

(٤) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٤٣، وذكر أيضاً في ملحق ديوان الراعي النميري ص٣٠٢، ونقل صاحب اللسان (حشرج) عن ابن بري قوله: البيت لجميل بن معمر وليس لعمر بن أبي ربيعة. والنزيف: المحموم الذي منع من الماء. ولثمت فاها: قبَّلته. والحشرج: كوز صغير لطيف، فكأنه قال: شربتُ ريقها شُرْبَ النزيف للماء البارد.

وقيل: هي معطوفةٌ على ما تقدَّم داخلةٌ في حيِّز الرؤية، وأسقط حرف العطف لقَصْدِ التعداد، وهو كما ترى.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما فصِّل آنفاً، وما فيه من معنى البُعْدِ مع قُرْبِ المشار إليه؛ للإيذان بعلوِّ رتبته وبُعْدِ منزلته.

﴿لَعِبْرَةً﴾ لدلالةً واضحةً على وجود الصانع القديم ووحدته وكمالِ قدرته، وإحاطةِ عِلْمِه بجميع الأشياء، ونفاذِ مشيئته، وتنزُّهِه عمَّا لا يليقُ بشأنه العليِّ، ودلالةُ ذلك على الوحدة بواسطة برهان التمانُعِ، وإلَّا ففيه خفاءٌ، بخلافِ دلالته على ما عدا ذلك فإنها واضحةٌ.

﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: لكلِّ مَن له بصيرةٌ يراجعُها ويُعْمِلُها، فالأبصارُ هنا جمعُ بصرٍ بمعنى البصيرة، بخلافها فيما سبق.

وقيل: هو بمعنى البصر الظاهرِ كما هو المتبادِرُ منه، والتعبيرُ بذلك دون البصائر للإيذان بوضوحِ الدلالة.

وتعقِّبَ بأنه يلزم عليه ذهابُ حُسْنِ التجنيس، وارتكابُ ما هو كالإيطاء[(١)]، واشتهر أنه ليس في القرآن جناسٌ تامٌّ غير ما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] وفيه كلامٌ نقله السيوطيُّ في «الإتقان» ناشئٌ عند مَن دقَّق النظر من عَدَم الإتقان[(٢)]. واستنبط شيخ الإسلام ابنُ حجرٍ العسقلانيُّ[(٣)] موضعاً آخر وهو هذه الآيةُ الكريمةُ، وهو لا يتمُّ إلا على ما قلنا، وأشار إليه البيضاويُّ[(٤)] وغيره[(٥)]، ولعل مَن اختار المتبادر راعَى أنَّ حُسْنَ تلك الإشارة فوق حُسْنِ التجنيس، فتأمَّل.

---

(١) الإيطاء: أن تتكرر القافية في قصيدة واحدة بمعنى واحد، فإن كان بمعنيين لم يكن إيطاء. الكافي في العروض والقوافي للتبريزي ص١٦٢.

(٢) الإتقان ٢/ ٩٢١. وينظر حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٢.

(٣) كما في الإتقان ٢/ ٩٢٠.

(٤) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٢.

(٥) بعدها في حاشية (م): كالثعالبي. اهـ منه.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ أي: كلَّ حيوانٍ يدبُّ على الأرض، وأَدْخَلوا في ذلك الطيرَ والسمك، وظاهرُ كلام بعضِ أئمة التفسير أنَّ الملائكة والجنَّ يدخلون في عموم الدابة، ولعلها عنده كلُّ ما دبَّ وتحرَّك مطلقاً، ومعظمُ اللغويين يفسِّرها بما سمعتَ، والتاءُ فيها للنقل إلى الاسمية لا للتأنيث، وقيل: دابة واحدُ دابٍّ، كخائنة وخائن.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابن وثابٍ والأعمش: «خالقُ» اسم فاعل «كلِّ دابةٍ» بالجرِّ بالإضافة(١).

﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو جزءُ مادَّتِه، وخصَّه بالذكر لظهورِ مزيدِ احتياجِ الحيوان بعد كمال تركيبه إليه، وأنَّ امتزاجَ الأجزاءِ الترابيةِ به، إلى غير ذلك. أو ماء مخصوص هو النطفةُ. فالتنكيرُ على الأول للإفراد النوعيِّ، وعلى الثاني للإفراد الشخصيِّ، وجوِّز أن يكون عليهما لذلك(٢).

وكلمة «كلّ» على الثاني للتكثير، كما في قوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] لأنَّ من الدوابِّ ما يتولَّدُ لا عن نطفة، وزعم بعضهم أنها على الأول لذلك أيضاً، بناءً على شمول الدابة للملائكة المخلوقين من نورٍ، وللجنِّ المخلوقين من نار.

وادُّعي أيضاً أنّ من الإنس مَن لم يُخلَق من ماءٍ أيضاً، وهو آدمُ وعيسى عليهما السلام؛ فإنَّ الأول خُلِقَ من التراب والثاني خُلِقَ من الروح. ولا يخفى ما فيه.

وجوِّز أن يُعتبر العمومُ في «كلّ»، ويرادَ بالدابَّةِ ما يُخْلَقُ بالتوالُدِ بقرينة «من ماء»، أي: نطفة. وفيه بحث.

وقيل: ما من شيءٍ - دابةً كان أو غيرَه - إلا وهو مخلوقٌ من الماء، فهو أصلُ جميع المخلوقات؛ لِمَا رُوي أنَّ أولَ ما خَلَقَ اللهُ تعالى جوهرةٌ، فنظر إليها بعين

---

(١) قراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٨٩ و٣٣٢، وهي قراءة خلف من العشرة. وذكرها عن ابن وثاب والأعمش أبو حيان في البحر ٦/ ٤٦٥.

(٢) أي: على الأول والثاني للإفراد الشخصي. حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٣.

الهيبةِ فصارت ماءً، ثم خَلَقَ من ذلك الماءِ النارَ والهواءَ والنورَ، وخَلَق منها الخَلْقَ(١).

وأيًا ما كان فـ «مِن» متعلِّقةٌ بـ «خَلَقَ». وقال القفَّال واستحسنه الإمام(٢): هي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «دابة»، فالمرادُ الإخبارُ بأنه تعالى خَلَقَ كلَّ دابةٍ كائنةٍ أو متولِّدةٍ من الماء، فعمومُ الدابة عنده مخصَّصٌ بالصفة، وعمومُ «كل» على ظاهره، والظاهرُ أنه متعلِّقٌ بـ «خَلَق»، وهو أوفقُ بالمقام كما لا يخفى على ذوي الأفهام.

وتنكيرُ الماء هنا وتعريفُه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] لأنَّ القصد هنا إلى معنى الإفراد شخصاً أو نوعاً، والقصدُ هناك إلى معنى الجنس، وأنَّ حقيقة الماء مبدأ كلِّ شيءٍ حيّ.

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحياتِ والسمك، وتسميةُ حركتها مشياً مع كونها زحفاً مجازٌ؛ للمبالغة في إظهار القدرة، وأنها تزحف بلا آلةٍ كشِبْهِ المشي وأقوى، ويَزيدُ ذلك حُسْناً ما فيه من المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين، ونظيرُ ما هنا من وجهٍ قولُه تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] على رأيٍ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالنعم والوحش، والظاهر أنَّ المراد: أربع أرجلٍ، فيفيدُ إطلاقَ الرِّجْلِ على ما تقدَّم من قوائم ذواتِ القوائم الأربع، وقد جاء إطلاق اليد عليه.

وعدمُ ذِكرِ مَن يمشي على أكثر من أربع، كالعناكب، وأمِّ أربعٍ وأربعين، وغيرِ ذلك من الحشرات؛ لعدم الاعتدادِ بها مع الإشارة إليها بقوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: مما ذُكر ومما لم يُذْكَر، بسيطاً كان أو مركَّباً، على ما يشاء من الصور والأعضاء والحركات والطبائع والقوى والأفاعيل.

وزعم الفلاسفة أنَّ اعتمادَ ما لَه أكثر من أربعٍ من الحيوان إنما هو على أربعٍ، ولا دليلَ لهم على ذلك.

---

(١) ذكره أبو حيان في البحر ٦/٤٦٥، دون قوله: وخلق منها الخلق.

(٢) في تفسيره ٢٤/١٦.

وفي مصحف أبيٍّ: «ومنهم مَن يمشي على أكثر»(١)، وهو ظاهرٌ في خلاف ما يزعمون، لكنه لم يَثْبُتْ قرآناً.

وتذكيرُ الضميرِ في «منهم» لتغليبِ العقلاء، وبُنيَ على تغليبهم في الضمير التعبيرُ بـ «مَن» واقعةً على ما لا يَعْقِلُ؛ قاله الرَّضيُّ. وظاهرُ بعض العبارات يُشْعِرُ باعتبارِ التغليب في «كلّ دابةٍ»، وليس بمرادٍ، بل المرادُ أنَّ ذلك لمَّا شمل العقلاءَ وغيرَهم على طريق الاختلاط لزم اعتبارُ ذلك في الضمير العائد عليه وتغليبُ العقلاء فيه.

ويُفْهَمُ من كلام بعض المحقِّقين أنْ لا تغليب في «مَن» الأولى والثالثة، بل هو في الثانية فقط، وقد يقال: لا تغليبَ في الثلاثة بعد اعتباره في الضمير، فتدبَّر.

وترتيبُ الأصناف حَسْبَما رتِّبتْ لتقديم ما هو أَعْرَفُ في القدرة، ولا ينافي ذلك كون المشي على البطن بمعنى الزحف مجازاً كما توهِّم.

وإظهارُ الاسم الجليل في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخَلْقِ المذكور، والإيذانِ بأنه من أحكام الألوهية، والإظهارُ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾ ـ أي: فيفعلُ ما يشاء كما يشاء ـ لذلك أيضاً، مع تأكيدِ استقلال الاستئناف التعليليِّ.

﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ﴾ أي: لكلِّ ما يليقُ بيانُه من الأحكام الدينية والأسرارِ التكوينية، أو: واضحاتٍ في أنفسها، وهذا كالمقدِّمة لِمَا بعده، ولذا لم يأتِ بالعاطف فيه كما أتى سبحانه به فيما مرَّ من قوله تعالى: (وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ) الآيةَ، ومِن اختلافِ المَسَاقِ يُعلَمُ وجهُ ذِكْرِ «إليكم» هناك وعَدَمِ ذِكرِه هنا.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه بتوفيقه للنظر الصحيح فيها والتدبُّرِ لمعانيها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾ مُوْصِلٍ إلى حقيقة الحقِّ والفوزِ بالجنة.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ شروعٌ في بيان أحوال بعضِ مَن لم يشأ الله تعالى

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩١، والبحر ٦/ ٤٦٦.

هدايتَه إلى صراطٍ مستقيم، وهم صنفٌ من الكفرة الذي سَبَقَ وصفُ أعمالهم؛ أخرج ابن المنذر[١] وغيره عن قتادة أنها نزلت في المنافقين. وروي عن الحسن نحوُه.

وقيل: نزلت في بشرِ المنافقِ، دعاه يهوديٌّ في خصومةٍ بينهما إلى رسول الله ﷺ، ودعا هو اليهوديَّ إلى كعب بن الأشرف، ثم تحاكما إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، فحكم لليهوديِّ، فلم يَرْضَ المنافقُ بقضائه عليه الصلاة والسلام، وقال: نتحاكمُ إلى عمر رضي الله عنه، فلمَّا ذهبا إليه قال له اليهوديُّ: قضى لي النبيُّ ﷺ فلم يَرْضَ بقضائه. فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ فقال: نعم. فقال: مكانكما حتى أخرج إليكما. فدخل رضي الله عنه بيتَه وخرج بسيفه فضرب عنقَ ذلك المنافق حتى بَرَدَ، وقال: هكذا أقضي لمن لم يَرْضَ بقضاء الله تعالى ورسوله ﷺ. فنزلت، وقال جبريل عليه السلام: إنَّ عمر فرق بين الحقِّ والباطل فسمِّي لذلك الفاروق[٢]. وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما[٣].

وقال الضحاك: نزلت في المغيرة بنِ وائل، كان بينه وبين عليٍّ كرم الله تعالى وَجْهَه خصومةٌ في أرضٍ، فتقاسما، فوقع لعليٍّ ما لا يصيبه الماء إلا بمشقَّةٍ، فقال المغيرةُ: بعني أرضك. فباعها إياه وتقابضا، فقيل للمغيرة: أخذتَ سبخةً لا ينالُها الماء. فقال لعليٍّ كرم الله تعالى وجهه: اقبض أرضك فإنما اشتريتُها إن رضيتُها، ولم أرْضَها فإنَّ الماء لا ينالُها. فقال عليٌّ: قد اشتريتَها ورضيتَها وقَبَضْتَها وأنت

---

(١) كما في الدر المنثور ٥/ ٥٤.

(٢) وردت القصة مختصرة عند تفسير هذه الآية في تفسير أبي الليث ٢/ ٤٤٥، وأسباب النزول للواحدي ص٣٤٠، والمحرر الوجيز ٤/ ١٩١، والكشاف ٣/ ٧٢، والقرطبي ١٥/ ٣١٥. قال الواحدي: وقد مضت هذه القصة عند قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]. وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) وردت القصة بتمامها من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول الآية (٦٠) من سورة النساء، كما في أسباب النزول للواحدي ص١٥٥، وتفسير البغوي ١/ ٤٤٦، والعجاب في بيان الأسباب لابن حجر ٢/ ٩٠٣، وعزاه ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٤٥، والسيوطي في الدر ٢/ ١٧٩ للثعلبي. وذكر القصة الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٥٩ عن مكحول. وأما لقب عمر بالفاروق فهو باتفاق وفي أخبارٍ أخر. ينظر فتح الباري ٧/ ٤٤.

تعرفُ حالها، لا أقبلُها منك. ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ فقال: أمَّا محمدٌ فلستُ آتيه فإنه يبغضني، وأنا أخاف أن يَحيف عليَّ. فنزلت[1].

وعلى هذا وما قبله جمعُ الضمير لعموم الحكم، أو لأنَّ مع القائل طائفةً يساعدونه ويشايعونه في تلك المقالة، كما في قولهم: بنو فلان قتلوا قتيلاً، والقاتلُ واحدٌ منهم.

وإعادةُ الباء للمبالغة في دعوى الإيمان، وكذا التعبيرُ عنه ﷺ بعنوان الرسول، وقولهم مع ذلك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي: وأطعنا الله تعالى والرسول ﷺ في الأمر والنهي.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ أي: يُعْرِضُ عمَّا يقتضيه هذا القولُ من قبول الحكم الشرعيِّ عليه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد ما صدر عنهم من ادِّعاء الإيمان بالله تعالى وبالرسول ﷺ والطاعةِ لهما، وما في «ذلك» من معنى البُعْدِ للإيذان بكونه أمراً معتدّاً به واجبَ المراعاة.

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى القائلين: «آمنا» إلخ، وهم المنافقون جميعُهم، لا إلى الفريق المتولِّي منهم فقط، وما فيه من معنى البُعْدِ للإيذان ببُعْدِ منزلتهم في الكفر والفساد، أي: وما أولئك الذين يدَّعون الإيمانَ والطاعةَ ثم يتولَّى بعضُهم الذين يشاركونهم في العقد والعمل ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: المؤمنين حقيقةً، كما يُعْرِبُ عنه اللامُ، أي: ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالإخلاص والثبات عليه، ونفيُ الإيمان بهذا المعنى عنهم مقتضٍ لنفيه عن الفريق على أبلغ وجهٍ وآكَدِه، ولذا اختير كونُ الإشارة إليهم.

وجوِّز أن تكون للفريق على أنَّ المراد بهم فريقٌ منافقون، وضميرُ «يقولون» للمؤمنين مطلقاً، والحكمُ على أولئك الفريق بنفي الإيمان؛ لظهور أمارةِ التكذيبِ ـ الذي هو التولِّي ـ منهم. و«ثم» على هذا ـ حَسْبَمَا قرَّره الطيبيُّ ـ للاستبعاد، كأنه قيل: كيف يدخلون في زمرة المؤمنين الذي يقولون: آمنَّا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يُعْرِضون ويتجاوزون عن الفريق المؤمنين، ويرغبون عن تلك المقالة، وهذا بعيدٌ عن العاقل المميِّز! وعلى الأول حَسْبَمَا قرَّره أيضاً للتراخي

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٢٠، وذكر القصة الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١١٥ دون نسبة.

في الرتبة؛ إيذاناً بارتفاع درجةِ كفرِ الفريق المتولِّي منهم[(١)] وانحطاطِ درجة أولئك.

وفي «الكشف»: إنَّ الكلام ـ على تقديرِ كونِ الإشارة إلى القائلين لا إلى الفريق المتولِّي وحده ـ كالاستدراك، وفيه دلالةٌ على توغُّل المتولِّين في الكفر، وأصلُ الكفر شاملٌ للطائفتين. وأما على تقدير اختصاصِ الإشارة بالمتولِّين، ففائدةُ «ثم» استبعادُ التولِّي بعد تلك المقالة، وفائدةُ الإخبار إظهارُ أنهم لم يَثْبُتوا على قولهم، كأنه قيل: يقولون هذا ثم يوجدُ فيهم ما يُضادُّه، فلا يكون في دليل خطابه أنَّ غيرهم مؤمنٌ. انتهى، وعليه فضميرُ «يقولون» للمنافقين الشاملين للفريق المتولِّي لا للمؤمنين مطلقاً على الوجهين، فتأمَّل.

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: وبين خصومهم، وضميرُ «يحكم» للرسول عليه الصلاة والسلام. وجوِّز أن يكون الضمير عائداً إلى ما يُفْهَم من الكلام، أي: المدعوُّ إليه، وهو شاملٌ لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، لكنَّ المباشر للحكم هو الرسولُ ﷺ.

وذِكْرُ الله تعالى على الوجهين لتفخيمه عليه الصلاة والسلام، والإيذانِ بجلالة محلِّه عنده تعالى، وأنَّ حُكْمَه في الحقيقة حُكْمُ الله عز وجل، فقد قالوا: إنه إذا ذكر اسمان متعاطفان والحكمُ إنما هو لأحدهما، كما في نحو قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٩] أفاد قوةَ اختصاص المعطوفِ بالمعطوف عليه، وأنهما بمنزلةِ شيءٍ واحد، بحيث يصحُّ نسبةُ أوصافِ أحدهما وأحوالِه إلى الآخر.

وضمير «دُعوا» يعودُ إلى ما يعود إليه ضميرُ «يقولون»، أي: وإذا دُعي المنافقون أو المؤمنون مطلقاً ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: فاجأ فريقٌ منهم الإعراضَ عن المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام؛ لكون الحقِّ عليهم، وعِلْمِهم بأنه ﷺ لا يحكم إلا بالحقِّ.

والجملةُ الشرطيةُ شرحٌ للتولِّي ومبالغةٌ فيه، حيث أفادت مفاجأتَهم الإعراضَ عقبَ الدعوة دون الحُكْم عليهم، مع ما في الجملة الاسمية الواقعة جزاءً من

---

(١) في (م): عنهم.

الدلالة على الثبوت والاستمرار على ما هو المشهور.

والتعبير بـ «بينهم» دون: عليهم؛ لأنَّ المتعارَفَ قولُ أحد المتخاصمين للآخر: اذهب معي إلى فلانٍ ليحكم بيننا، لا: عليك، وهو الطريقُ المُنْصِفُ.

وقيل: هذا الإعراضُ إذا اشْتَبَه عليهم الأمر، ولذا قال سبحانه: (بَيْنَهُمْ) لا: عليهم، وفي ذلك زيادةٌ في المبالغة في ذمِّهم، وفيه بحث.

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: لا عليهم، كما يؤذِنُ به تقديمُ الخبر ﴿يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الرسول ﷺ ﴿مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ منقادين؛ لعِلْمِهم بأنه عليه الصلاة والسلام يحكم لهم.

والظاهر تعلُّق «إلى» بـ «يأتوا»، وجوِّز تعلُّقُها بـ «مذعنين» على أنها بمعنى اللام، أو على تضمين الإذعان معنى الإسراع. وفسَّره الزجَّاج بالإسراع مع الطاعة(١)، وتقديمُ المعمول للاختصاص أو للفاصلة أو لهما.

وعبَّر بـ «إذا» فيما مرَّ إشارةً إلى تحقُّق الشرط، وبـ «إنْ» هنا إشارةً إلى عدم تحقُّقه، وفي ذلك أيضاً ذمٌّ لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ ترديدٌ لسبب الإعراض المذكورِ، فمدارُ الاستفهامِ ما يُفْهَمُ من الكلام، كأنه قيل: أسببُ إعراضِهم عن المحاكمة إليه ﷺ أنهم مَرْضَى القلوبِ لكفرهم ونفاقهم، أم سببُه أنهم ارتابوا وشكُّوا في أمر نبوَّته عليه الصلاة والسلام مع ظهور حقِّيتها، أم سببُه أنهم يخافون أن يَحيفَ ويجورَ الله تعالى شأنُه عليهم ورسولُه ﷺ؟!

وهذا نظيرُ قولك: أفيه مرضٌ، أم غاب عن البلد، أم يخافُ من الواشي؟ بعد قولِ: هَجَر الحبيبُ ـ مثلاً ـ فإنَّ كون المعنى: أسببُ هَجْرِه أنَّ فيه مرضاً، أم سببُه أنه غاب عن البلد، أم سببُه أنه يخاف من الواشي، ظاهرٌ جدّاً، وهو كثيرٌ في المحاورات، إلا أنَّ الاستفهام في الآية إنكاريٌّ، وهو لإنكارِ السببية.

وقولُه تعالى: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ تعيينٌ للسبب بعد إبطالِ سببيةِ جميع ما تقدَّم، ففيه تأكيدٌ لما يفيدُه الاستفهامُ، كأنه قيل: ليس شيءٌ مما ذُكر سبباً

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٥٠.

لذلك الإعراض، أمَّا الأوَّلان فلأنه لو كان شيءٌ منهما سبباً له لأعْرَضوا عن المحاكمة إليه ﷺ عند كون الحقِّ لهم ولَمَا أتوا إليه عليه الصلاة والسلام مذعنين لحُكْمِه؛ لتحقُّق نفاقِهم وارتيابهم حينئذٍ أيضاً. وأمَّا الثالثُ فلانتفائه رأساً حيث كانوا لا يخافون الحيفَ أصلاً؛ لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه الصلاة والسلام في الأمانة والثباتِ على الحقِّ، بل سببُ ذلك أنهم هم الظالمون يريدون أن يظلموا مَن الحقُّ له عليهم، ولا يتأتَّى مَرَامُهم مع الانقيادِ إلى المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام، فيُعْرِضون عنها لأنه ﷺ يقضي بالحقِّ عليهم، فمناطُ النفي المستفادِ من الاستفهام الإنكاريِّ والإضرابِ الإبطاليِّ في الأوَّلين هو وصفُ سببيتهما للإعراض فقط مع تحقُّقهما في نفسهما، وفي الثالث هو الأصلُ والوصف جميعاً.

وإذا خُصَّ الارتيابُ بما لَه جهةٌ مصحِّحةٌ لعرُوضِه لهم في الجملة كما فَعَلَ البعضُ، حيث جَعَلَ المعنى: أم ارتابوا بأنْ رأوا منه ﷺ تهمةً فزالتْ ثقتُهم ويقينُهم به عليه الصلاة والسلام، كان مناطُ النفي في الثاني كما في الثالث، كذا قرَّره بعضُ الأجلَّة، و«أم» عليه متَّصلةٌ. وقد ذهب إلى أنها كذلك الزمخشريُّ والبيضاويُّ، حيث جَعَلَا ما تقدَّم تقسيماً لسبب الإعراض، إلا أنَّ الأول جَعَلَ الإضرابَ عن الأخير من الأمور الثلاثة[1]، ووجَّه بأنه أدلُّ على ما كانوا عليه، وأَدْخَلُ في الإنكار من حيث إنه يناقضُ تسرُّعهم إليه ﷺ إذا كان الحقُّ لهم على الغير.

والثاني جَعَلَه إضراباً عن الأخيرين منها لتحقيق القسم الأول، وقال: وَجْهُ التقسيم أنَّ امتناعَهم عن المحاكمة إليه ﷺ إمَّا أن يكون لخللٍ فيهم أو في الحاكم، والثاني إما أن يكون محقَّقاً أو متوقَّعاً - وفسَّر الارتيابَ برؤيةِ مثلِ تهمةٍ تزيلُ يقينَهم - ثم قال: وكلاهما باطلان فتعيَّن الأول، أما الأولُ فظاهرٌ، وأما الثاني فلأنَّ منصب النبوَّةِ وفَرْطَ أمانته عليه الصلاة والسلام يمنعه، وظلمُهم يعمُّ خَلَلَ عقيدتهم وميلَ نفوسِهم إلى الحيف[2].

وقال العلَّامة الطيبيُّ: الحقُّ أن «بل» إضرابٌ عن نفس التقسيم، وهو إضرابٌ انتقاليٌّ، كأنه قيل: دع التقسيم فإنهم هم الكاملون في الظلم، الجامعون لتلك

---

(١) الكشاف ٣/ ٧٢.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٥.

الأوصاف، فلذلك صدُّوا عن حكومتك. يدلُّ عليه الإتيانُ باسم الإشارة، والخطابُ، وتعريفُ الخبر بلام الجنس، وتوسيطُ ضمير الفصل.

ونُقل عن الإمام(١) ما يدلُّ على أنَّ «أم» منقطعةٌ، قال: أَثْبتَهم على كلِّ واحدٍ من هذه الأوصاف، فكان في قلوبهم مرضٌ وهو النفاق، فكان فيها ارتيابٌ، فكانوا يخافون الحيفَ، ووَجْهُ الإضراب أنَّ كلًّا مُسبَّبٌ عن الآخر عَلَمٌ على وجودِه وزيادة.

واعتُرِضَ بأنه لا يجب التسبُّبُ إلَّا أنْ يُدَّعَى في هذه المادة خصوصاً.

وصرَّح أبو حيان بأنها منقطعةٌ، وبأنَّ الاستفهام للتوقيف والتوبيخ ليُقِرُّوا بأحد هذه الأوجُهِ التي عليهم في الإقرار بها ما عليهم، ويُستعمل في الذمِّ والمدح كما في قوله:

ألستَ من القوم الذين تعاهَدوا ... على اللؤم والفحشاء في سالف الدهر(٢)

وقوله:

ألستُم خيرَ مَن ركب المطايا ... وأنْدَى العالمين بطونَ راح(٣)

ولا يخفى أنَّ الأظهر أنها متَّصلةٌ، والتلازمُ بين الأمور الثلاثة ممنوعٌ على أنه لا يضرُّ، وأنَّ معنى الآية ما ذكرناه أوّلاً.

وتقديم «عليهم» على الرسول لتأكيدِ أن حُكْمَه عليه الصلاة والسلام هو حكمُ الله تعالى، ووجهُ اختلاف أساليب الجمل يظهر بأدنى تأمُّل.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ جارٍ على عادته تعالى في إتْباعِ ذِكْرِ المحقِّ المبطِلَ، والتنبيهِ على ما ينبغي بعد إنكاره لِمَا لا ينبغي، ونصب «قول» على أنه خبرُ «كان» و«أنْ» مع ما في حيِّزها في تأويل مصدرٍ اسمُها.

---

(١) في تفسيره ٢٤/ ٢١.

(٢) البحر ٦/ ٤٦٧.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه ١/ ٨٩، والبحر ٦/ ٤٦٧.

ونصَّ سيبويه[1] في مثل ذلك على جوازِ العكس، فيرفع «قول» على الاسمية، وينصب المصدر الحاصل من السَّبْكِ على الخبرية. وقد قرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابن أبي إسحاق والحسن برفع «قول» على ذلك[2]، قال الزمخشريُّ: والنصبُ أقوى؛ لأنَّ الأَوْلَى للاسمية ما هو أَوْغَلُ في التعريف، وذلك هو المصدرُ الذي أُوِّل به «أنْ يقولوا» لأنه لا سبيلَ عليه للتنكير، بخلافِ «قول المؤمنين»[3] فإنه يحتملُه، كما إذا اختزلتَ عنه الإضافة.

وقيل في وجه أَعْرَفيَّتِه: إنه لا يوصَفُ، كالضمير. ولا يَخْفَى أنه لا دَخْلَ له في الأعرفيَّة.

ثم أنت تعلم أنَّ المصدر الحاصل من سَبْكِ «أنْ» والفعل لا يجب كونُه مضافاً في كلِّ موضعٍ، ألا ترى أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ [يونس: ٣٧] إنه بمعنى: ما كان هذا القرآن افتراءً.

وذُكر أنَّ جوازَ تنكيره مذهبُ الفارسيِّ، وهو متعيّنٌ في نحوِ: أنْ يقومَ رجلٌ، إذ هو مؤوَّلٌ قطعاً بـ: قيام رجلٍ، وهو نكرةٌ بلا ريب.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أن النصب أقوى صناعةً، لكنَّ الرفعَ أقعدُ معنًى وأَوْفَى لمقتضَى المقام؛ لِمَا أنَّ مَصَبَّ الفائدةِ وموقعَ البيان في الجمل هو الخبرُ، فالأحقُّ بالخبرية ما هو أكثرُ إفادةً وأظهرُ دلالةً على الحدوث، وأوفرُ اشتمالاً على نسبٍ خاصةٍ بعيدةٍ من الوقوع في الخارج وفي ذهن السامع، ولا ريب في أنَّ ذلك ها هنا في «أنْ» مع ما في حيِّزها أتمُّ وأكملُ، فإذن هو أحقُّ بالخبرية، وأما ما تفيدُه الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية فحيث كانت قليلةَ الجدوى سهلةَ الحصول خارجاً وذهناً كان حقّها أن تلاحَظَ ملاحظةً مجملةً وتُجعلَ عنواناً للموضوع، فالمعنى: إنما كان مُطْلَقُ القول الصادر عن المؤمنين إذا دُعوا إلى الله تعالى ورسوله ﷺ ليحكم بينهم وبين خصومهم أن يقولوا «سمعنا» إلخ، أي: خصوصية هذا القول المحكيِّ عنهم لا قولاً آخرَ أصلاً، وأما النصبُ فالمعنى عليه: إنما كان

(١) في الكتاب ١/ ٥٠.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٥، والكشاف ٣/ ٧٢، والبحر ٦/ ٤٦٨.

(٣) الكشاف ٣/ ٧٢.

قولاً للمؤمنين خصوصيةُ قولهم: «سمعنا» إلخ، ففيه من جَعْلِ أخصِّ النسبتين وأبعدِهما وقوعاً وحضوراً في الأذهان وأحقِّهما بالبيان مفروغاً عنها عنواناً للموضوع، وإبرازِ ما هو بخلافها في معرض القصد الأصليِّ، ما لا يخفى[1]. انتهى.

وبحث فيه بعضُهم بأنَّ مساق الآية يقتضي أن يكون قولُ المؤمنين: سمعنا وأطعنا، في مقابلةِ إعراضِ المنافقين، فحيث ذمَّ ذلك على أتمِّ وجهٍ ناسَبَ أن يمدح هذا، ولا شكَّ أن الأنسبَ في مَدْحِه الإخبارُ عنه لا الإخبارُ به، فينبغي أن يجعل «أن يقولوا سمعنا وأطعنا» اسمَ كان، و«قول المؤمنين» خبرَها، وفي ذلك مدحٌ لقولهم: سمعنا وأطعنا؛ إذ معنى كونه قولَ المؤمنين أنه قولٌ لائقٌ بهم ومن شأنهم، على أنَّ الأهمَّ بالإفادة كونُ ذلك القولِ الخاصِّ هو قولهم إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، أي: قولهم المقيَّد بما ذُكر، ليظهر أتمَّ ظهورٍ مخالفةُ حالِ قولهم: سمعنا وأطعنا، وحالِ قولِ المنافقين: آمنَّا بالله وبالرسول وأطعنا، فتدبَّر فإنه لا يخلو عن دغدغةٍ.

والظاهرُ أنَّ المراد من «أطعنا» هنا غيرُ المرادِ منه فيما سبق، فكأنهم أرادوا: سمعنا كلامَكم وأطعنا أمرَكم بالذهاب إلى رسول الله ﷺ ليحكم بيننا وبينكم.

وقيل: المعنى: قَبِلْنا قولَكم وانْقَدْنا له، وأَجَبْنا إلى حكم الله تعالى ورسولِهِ ﷺ.

وعن ابن عباس ومقاتل أنَّ المعنى: سمعنا قولَ النبي ﷺ وأطعنا أمره.

وقيل: المراد من الطاعة الثبوتُ أو الإخلاصُ لتُغايِرَ ما مرَّ، وهو كما ترى.

وقرأ الجحدريُّ وخالد بن إلياس: «لِيُحْكَم» بالبناء للمفعول[2] مجاوباً لـ «دُعوا»، وكذلك قرأ أبو جعفر هنا وفيما مرَّ[3]، ونائبُ الفاعل ضميرُ المصدر، أي: ليُحْكَم هو، أي: الحكمُ، والمعنى: ليُفْعَلَ الحكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ [سبأ: ٥٤].

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٧-١٨٨.

(٢) البحر ٦/ ٤٦٨، والقراءة ذكرت في القراءات الشاذة ص١٠٢ ونسبها ليزيد بن القعقاع.

(٣) النشر ٢/ ٢٢٧.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنين باعتبارِ صدورِ القول المذكورِ عنهم، وما فيه من معنى البُعْدِ للإيذان بعلوِّ رتبتهم، وبُعْدِ منزلتهم في الفضل، أي: وأولئك المنعوتون بما ذكر من النعت الجليل ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: هم الفائزون بكلِّ مطلوبٍ، والناجون عن كلِّ محذور.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استئنافٌ جيءَ به لتقريرِ مضمونِ ما قبله من حُسْنِ حالِ المؤمنين، وترغيبِ مَن عَدَاهم في الانتظام في سِلْكِهم، أي: ومَن يطع الله تعالى ورسولَه ﷺ كائناً مَن كان فيما أمر به من الأحكام اللازمة والمتعدِّية.

وعن ابن عباس أنه قال: ومَن يطع الله ورسوله في الفرائض والسنن، وهو يَحْتَمِلُ اللفَّ والنشر، وعلى ذلك جرى في «البحر»[(١)].

﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية والاتِّقاء ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بالنعيم المقيم، لا مَن عَدَاهم.

وقرأ أبو جعفر، وقالون عن نافع، ويعقوبُ: «ويتَّقِهِ» بكسر القاف وكَسْرِ الهاء من غير إشباعٍ[(٢)].

وقرأ أبو عمرو، وحمزةُ في رواية العجليِّ، وخلَّاد، وأبو بكر في رواية حماد، ويحيى، بكَسْرِ القاف وسكون الهاء[(٣)].

وقرأ حفصٌ بسكون القاف وكَسْرِ الهاء غير مشبعةٍ. والباقون بكسر القاف وكَسْرِ الهاء مشبعةً بحيث يتولَّد ياء[(٤)]، ووجَّه ذلك أبو عليٍّ[(٥)] بأنَّ الأصل في هاء الضمير

---

(١) ٦/٤٦٨.

(٢) التيسير ص ١٦٣، والنشر ١/٣٠٧ عن قالون ويعقوب، وهو أحد وجهي هشام، أما أبو جعفر فروى عنه ابن وردان إسكان الهاء، وروى ابن جماز الإشباع فيها.

(٣) التيسير ص١٦٢، والنشر ١/٣٠٦ عن أبي عمرو وأبي بكر وخلاد بخلاف عنه، وهي قراءة ابن وردان كما أسلفنا.

(٤) هي قراءة ورش وابن كثير وابن ذكوان وخلف عن حمزة وعن نفسه، والوجهُ الآخر عن خلاد وعن هشام. وهي قراءة ابن جماز كما أسلفنا. التيسير ص١٦٣، والنشر ١/٣٠٦ - ٣٠٧.

(٥) في الحجة ٥/٣٢٧.

إذا كان ما قبلها متحرِّكاً أن تُشْبَعَ حركتُها، كما في يُؤْتِهِ ويؤدِّه. ووجهُ عدم الإشباع أنَّ ما قبل الضمير ساكنٌ تقديراً، ولا إشباعَ بحركته فيما إذا سكن ما قبله، كـ: عنه[1]، ومنه.

ووجهُ إسكان الهاء أنها هاءُ السكتِ وهي تسكَّنُ في كلامهم. وقيل: هي هاءُ الضمير لكنْ أُجْرِيَتْ مجرى هاء السكت فسكِّنَتْ، وكثيراً ما يجري الوصلُ مجرى الوقف، وقد حكي عن سيبويه أنه سمع مَن يقول: هذِهْ أَمَة الله، في الوصل والوقف[2].

ووجهُ قراءةِ حفصٍ أنه أعطى «تقه»[3] حكمَ كَتْف لكونه على وزنه، فخفّف بسكون وسطه لجعله ككلمةٍ واحدة، كما خفّف يلد في قوله:

وذي ولــدٍ لــم يَــلْــدَه أبــوان[4]

وعن ابن الأنباريِّ أنه لغةٌ لبعض العرب في كلِّ معتلٍّ حُذِفَ آخرُه، فيقولون: لم أرْ زيداً، يُسْقِطون الحرفَ للجزم ثم يسكِّنون ما قَبْلُ، وعلى ذلك قولُه:

ومَــن يــتَّــقْ فــإنَّ الله مــعــه ... ورزقُ الله مــؤتــابٌ وغــادِ[5]

وقوله:

قالت سُلَيْمَى اشْتَرْ لنا سويقا ... وهاتِ خبزَ البرِّ أو دقيقا[6]

والهاءُ إمَّا للسَّكْتِ وحرِّكتْ لالتقاء الساكنين، أو ضميرٌ، وكان القياسُ ضمَّها حينئذٍ كما في «منه»، لكنَّ السكون لعُروضِه لم يُعتدَّ به، ولئلا ينتقل من كَسْرٍ لضمٍّ تقديراً. وضعِّف الأول؛ لتحريك هاء السكت، وإثباتِها في الوصل، كذا قيل فلا تغفل.

---

(١) في (م): كفيه.
(٢) الكتاب ٤/ ١٩٨.
(٣) في الأصل و(م): يتقه، والمثبت من حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٥، والكلام منه.
(٤) وصدره كما في الكتاب ٢/ ٢٦٦: ألا ربَّ مولود وليس له أبٌ، وهو في الخزانة ٢/ ٣٨١ برواية: عجبت لمولود وليس... ونسبه سيبويه لرجل من أزد السراة.
(٥) المحتسب ١/ ٣٦١، والخصائص ١/ ٣٠٦، وشرح شواهد الشافية للبغدادي ٢/ ٢٢٩.
(٦) الرجز للعُذافر الكندي كما في نوادر أبي زيد ص٣٠٦، وشرح شواهد الشافية ٢/ ٢٢٥.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ حكايةٌ لبعضٍ آخَرَ من أكاذيب الكفرة المنافقين مؤكَّداً بالأيمان الفاجرة، فهو عَوْدٌ على بَدْءٍ، والقَسَمُ: الحَلِفُ، وأصلُه من القسامة، وهي أيمانٌ تُقْسَمُ على متَّهمينَ بقتلٍ حَسْبَما بيِّن في كتب الفقه، ثم صار اسماً لكلِّ حَلِفٍ.

وقولُه سبحانه: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ نصبٌ على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لفِعْلِه المحذوف، وجملةُ ذلك الفعل مع فاعله في موضع الحال. أو هو نصبٌ على الحال. أي: حَلَفوا به تعالى يجهدون أيمانَهم جهداً أو جاهِدينَ أيمانَهم.

ومعنى جهد اليمين: بلوغُ غايتِها بطريق الاستعارة، من قولهم: جَهَدَ نفسَه إذا بلغ أقصى وسعِها وطاقتها، والمراد: أقسموا بالغينَ أقصى مراتب اليمين في الشدَّة والوكادة.

وجوِّز أن يكون مصدراً مؤكِّداً لـ «أقسموا»، أي: أقسموا إقسامَ اجتهادٍ في اليمين. قال مقاتل: مَن حَلَفَ بالله تعالى فقد اجتهد في اليمين. والظاهرُ هنا أنهم غلَّظوا الأيمانَ وشدَّدوها، ولم يكتفوا بقولِ: والله.

﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ أي: بالخروج، كما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾. والمراد بهذا الخروج: الخروجُ للجهاد كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل[1].

وأخرج ابن مردويه[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما مايدلُّ على أنَّ المراد الخروجُ من الأموال.

وأيًّا ما كان فالجملةُ جوابٌ لـ «أقسموا»، وجوابُ الشرط محذوفٌ لدلالة هذه الجملة عليه، وهي حكايةٌ بالمعنى، والأصل: لَنَخْرُجَنَّ، بصيغة المتكلِّم مع الغير.

وقيل: الأصل: لخرجنا، إلا أنه أريدَ حكايةُ الحالِ الماضية فعبَّر بذلك. وتعقِّب بأن المعتبَر زمانُ الحكم وهو مستقبلٌ.

﴿قُل﴾ أي: ردّاً عليهم وزجْراً لهم عن التفوُّهِ بتلك الأيمان، وإظهاراً لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها: ﴿لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ على ما ينبئُ عنه كلامكم من الطاعة.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٢٥.
(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٥٤.

﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: طاعتُكم طاعةٌ، والجملةُ تعليلٌ للنهي، كأنه قيل: لا تُقْسِموا على ما تدَّعون من الطاعة؛ لأنَّ طاعتكم طاعةٌ معروفةٌ بأنها واقعةٌ باللسان فقط من غيرِ مواطأةٍ من القلب لا يجهلُها أحدٌ من الناس.

وقيل: التقدير: المطلوبُ منكم طاعةٌ معروفةٌ معلومةٌ لا يُشَكُّ فيها، كطاعةِ الخلَّص من المؤمنين.

وقيل: «طاعةٌ» مبتدأ خبرُه محذوفٌ، أي: طاعةٌ معروفةٌ متوسِّطةٌ على قَدْرِ الاستطاعةِ أَمثلُ وأولى بكم من قَسَمِكم، واختاره الزجَّاج[1].

وقيل: مرفوعٌ بفعلٍ مقدَّرٍ، أي: لتَكُنْ طاعةٌ معروفةٌ منكم.

وضعَّف الكلُّ بأنه ممَّا لا يساعدُه المقام، والأخيرُ بأنَّ فيه حَذْفَ الفعل في غيرِ موضعِ الحذف.

وقال البقاعيُّ[2]: لا تقدير في الكلام، و«طاعة» مبتدأٌ خبره «معروفةٌ»، وسوَّغ الابتداءَ بالنكرة أنها أُريدَ بها الحقيقةُ فتعمُّ، والعمومُ من المسوِّغات، ولم تعرَّفْ لئلَّا يُتَوهَّم أنَّ تعريفَها للعهد، والجملةُ تعليلٌ للنهي، أي: لا تُقْسِموا فإنَّ الطاعةَ معروفةٌ منكم ومن غيركم لا تَخْفَى، فقد جَرَتْ سنَّةُ الله تعالى على أنَّ العبد وإن اجتهد في إخفاء الطاعة لابدَّ وأن يُظْهِرَ سبحانه مَخَايِلَها على شمائله، وكذا المعصيةُ، فلا فائدةَ في إظهار ما يخالفُ الواقع.

وفي الأحاديث ما يَشْهَدُ لِمَا ذُكر، فقد رَوَى الطبرانيُّ عن جندب: «ما أسرَّ عبدٌ سريرةً إلَّا أَلْبَسَه الله تعالى رداءَها»[3].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٥١.

(٢) في نظم الدرر ١٣/ ٣٠٠ - ٣٠١، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٩٦.

(٣) المعجم الكبير (١٧٠٢)، وزاد: «إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥: فيه حامد بن آدم، وهو كذاب. وقال العجلوني في كشف الخفاء ٢/ ٣٥٠: قيل ليس بحديث ولكن معناه صحيح.
وأخرج الطبري ١٠/ ١٢٧ نحوه من حديث عثمان ﷺ، وذكره ابن كثير عند تفسير الآية (٢٦) من سورة الأعراف، وقال: هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم، وفيه ضعف.

ورَوَى الحاكم ـ وقال: صحيحُ الإسناد ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أنَّ أحدكم يعملُ في صخرةٍ صماءَ ليس لها بابٌ ولا كوَّةٌ، لخرج عملُه للناس كائناً مَن كان»[1].

وهذا المعنى ـ على ما قيل ـ حسنٌ لكنه خلافُ الظاهر.

وقرأ زيد بن عليٍّ واليزيديُّ: «طاعةً معروفةً» بالنصب[2]، على تقدير: تُطيعون طاعةً معروفةً نِفَاقيةً. وقيل: أطيعوا طاعةً معروفةً حقيقيةً، و«طاعةً» بمعنى: إطاعةً، كما في قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح: ١٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنةِ، التي من جملتها ما تُظْهِرونه من الأكاذيب المؤكَّدةِ بالأيمان الفاجرة، وما تُضْمِرونه من الكفر والنفاق والعزيمةِ على مُخادَعةِ المؤمنين، وغيرِها من فنون الشرِّ والفساد، والمرادُ الوعيدُ بأنه تعالى مُجازيهم بجميع أعمالهم السيئةِ التي منها نفاقُهم.

وفي «الإرشاد»: أنَّ الجملة تعليلٌ للحكم بأنَّ طاعتهم طاعةٌ نفاقيةٌ، مشعرٌ بأن مَدارَ شهرةِ أمرِها فيما بين المؤمنين إخبارُه تعالى بذلك، ووعيد لهم بالمجازاة[3].

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ كرَّر الأمر بالقول لإبراز كمالِ العناية به، والإشعارِ باختلافهما، حيث إنَّ المقول الأولَ نهيٌ بطريق الردِّ والتبكيت، وفي الثاني أمرٌ بطريق التكليفِ والتشريع. وفي تكرُّرِ فِعْلِ الإطاعة، والعدولِ عن: أطيعوني، إلى: أطيعوا الرسول، مالا يخفى من الحثِّ على الطاعةِ. وإطلاقُها عن وصف الصحة والإخلاصِ ونحوِهما بعد وصفِ طاعتهم بما تقدَّم؛ للتنبيه على أنها ليست من الطاعة في شيءٍ.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ خطابٌ للمنافقين الذين أُمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ما سمعتَ، واردٌ من قِبَلِه عزَّ وجلَّ، غيرُ داخلٍ في حيِّز «قل» على

---

(١) المستدرك ٤/ ٣١٤، وأخرجه أيضاً أحمد (١١٢٣٠) وهو من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ودراج ضعيف في روايته عن أبي الهيثم.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٣، والبحر ٦/ ٤٦٨.

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ١٨٩.

ما اختاره صاحب «التقريب» وغيرُه، وفيه تأكيدٌ للأمر السابق، والمبالغةُ في إيجاب الامتثال به، والحملُ عليه بالترهيب والترغيب؛ لِمَا أنَّ تغيير الكلام المسوقِ لمعنًى من المعاني، وصَرْفَه عن سَنَنِه المسلوكِ، يُنْبِئ عن اهتمام جديدٍ بشأنه من المتكلِّم، ويَسْتَجلبُ مزيدَ رغبةٍ فيه من السامع، لاسيما إذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة [إلى الخطاب] بالذات كما هنا.

والفاءُ لترتيب ما بعدها على تبليغه عليه الصلاة والسلام للمأمور به إليهم، وعدمُ التصريح به[1] للإيذان بغايةِ مسارعته ﷺ إلى تبليغ ما أُمر به، وعدم الحاجة إلى الذكر، أي: إن تتولَّوا عن الطاعة إِثْرَ ما أمركم الرسول ﷺ بها ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿مَا حُمِّلَ﴾ أي: ما أُمِرَ به من التبليغ، وقد شاهدتُموه عند قوله: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول» ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: ما أمرتم به من الطاعة.

ولعل التعبير بالتحميل أولاً للإشعار بثقل الوحي في نفسه، وثانياً للإشعار بثقل الأمر عليهم.

وقيل: لعل التعبير بذلك في جانبهم للإشعار بثقله، وكونِه[2] مؤنة باقيةً في عهدتهم بعدُ، كأنه قيل: وحيث تولَّيتم عن ذلك فقد بقيتُم تحت ذلك الحمل الثقيل، والتعبيرَ به في جانبه عليه الصلاة والسلام للمشاكلة.

والفاء واقعةٌ في جواب الشرط، وما بعدها قائمٌ مقام الجواب أو جوابٌ، على حدِّ ما في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] كأنه قيل: فإن تتولَّوا فاعلموا أنما عليه.. إلخ.

هذا واختار بعضُهم دخولَ الجملة الشرطية في حيِّز القول، قال الطيبيُّ: الظاهرُ أنه تعالى أَمَرَ رسولَه ﷺ بأنْ يقول لهم: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، ولا يخافَ مضرَّتهم، فكان أصلُ الكلام: قل: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولَّوا

---

(١) قوله: به، ليس في (م)، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ١٨٩، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) في الأصل و(م): وكون، والمثبت من تفسير أبي السعود.

فإنما عليك ما حمِّلتَ وعليهم ما حمِّلوا، بمعنى: فما يضرُّونك شيئاً وإنما يضرُّون أنفسهم، على الماضي والغيبة في «تَوَلَّوا»، فصَرَفَ الكلام إلى المضارع، والخطاب في تتولوا بحذف إحدى التاءين بمعنى: فما ضَرَرْتُموه وإنما ضررتُم أنفسَكم، لتكون المواجهةُ بالخطاب أبلغَ في تبكيتهم، وجَعَلَ ذلك جارياً مجرى الالتفات. وجَعَلَه غيرُه التفاتاً حقيقيّاً من حيث إنهم جُعِلوا أولاً غيّباً، حيث أمر الرسول ﷺ بخطابهم بـ: قل لهم، ثم خوطبوا بإنْ تتولَّوا استقلالاً من الله تعالى لا من رسوله ﷺ. ولا يخفى أنَّ حَمْلَ الآية على الخطاب الاستقلاليِّ الغيرِ الداخلِ تحت القول أدخلُ في التبكيت.

وفي «الإحكام»: أنه استُدلَّ بهذه الآية على أنَّ الأمر للوجوب؛ لأنه تعالى أمر بالإطاعة ثم هدَّد بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ إلخ، والتهديد على المخالفة دليلُ الوجوب[1].

وتعقِّب بأنه لا نسلِّم أنَّ ذلك للتهديد بل للإخبار، وإن سلَّمنا أنه للتهديد فهو دليلٌ على الوجوب فيما هدّد على تركه ومخالفته من الأوامر، وليس فيه ما يدلُّ على أن كلَّ أمرٍ مهدَّدٌ بمخالفته، بدليل أمر الندب، فإنَّ المندوب مأمورٌ به وليس مهدَّداً على مخالفته، وإذا انقسم الأمر إلى مهدَّدٍ عليه وغيرِ مهدَّدٍ عليه وجب اعتقادُ الوجوب فيما هدِّد عليه دون غيره، وبه يخرج الجواب عن كلِّ صيغةِ أمرٍ هدّد على مخالفتها وحذّر منها ووصف مخالفها بكونه عاصياً، وبه يُدفع أكثر ما ذكره القائلون بالوجوب في معرض الاستدلال على دعواهم[2]، فتدبر.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ فيما أَمَرَكم به عليه الصلاة والسلام من الطاعة ﴿تَهْتَدُواْ﴾ إلى الحقِّ الذي هو المقصدُ الأصليُّ المُوْصِلُ إلى كلِّ خيرٍ، المنجي عن كلِّ شرٍّ، ولعل في تقديم الشقِّ الأول وتأخيرِ هذا إشارةً إلى أنَّ الترهيب أولى بهم، وأنهم مُلابِسون لِمَا يقتضيه. وفي «الإرشاد»[3]: تأخيرُ بيانِ حكم الإطاعة عن بيان حكم التولِّي لِمَا في تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب، وتقريبه مما هو من بابه من الوعد الكريم.

---

(١) الإحكام للآمدي ٢/ ١٦٤.
(٢) الإحكام ٢/١٦٨-١٦٩.
(٣) ٦/ ١٨٩.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لِمَا قبله من أنَّ غائلة التولِّي وفائدةَ الإطاعة مقصورتان على المخاطبين. و«أل» إما للجنس المنتظِمِ له ﷺ انتظاماً أوَّلياً، أو للعهد، أي: ما على جنس الرسول كائناً مَن كان، أو: ما على رسولنا محمدٍ ﷺ، إلا التبليغُ الموضِّحُ لكلِّ ما يَحتاجُ إلى الإيضاح، أو الواضحُ في نفسه على أنَّ «المبين» من أبان المتعدِّي بمعنى بان اللازمِ، وقد علمتُم أنه عليه الصلاة والسلام قد فعله بما لا مزيد عليه وإنما بقي ما عليكم.

وقولُه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ خطابٌ لرسول الله ﷺ ومَن آمَنَ معه، ففي الآية تنويعُ الخطاب، حيث خاطب سبحانه المُقْسِمينَ على تقدير التولِّي، ثم صرفه تعالى عنهم إلى المؤمنين الثابتين، وهو كالاعتراض بناءً على ما سيأتي إن شاء الله تعالى من كون (وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ) عطفاً على قوله سبحانه: (أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ)، وفائدتُه أنه لـمَّا أفاد الكلامُ السابق أنه ينبغي أن يأمرهم بالطاعة كفاحاً ولا يخافَ مضرَّتهم، أكّد بأنه عليه الصلاة والسلام هو الغالبُ ومَن معه، فأنّى للخوفِ مجال.

وإن شئتَ فاجعله استئنافاً جيء به لتأكيد ما يفيده الكلامُ من نفي المضرَّة على أبلغ وجهٍ، من غير اعتبارِ كونه اعتراضاً، فإنَّ في العطف المذكور ما ستسمعه إن شاء الله تعالى.

و«من» بيانية، ووسِّط الجارُّ والمجرورُ بين جملة «آمنوا» والجملةِ المعطوفةِ عليها الداخلةِ معها في حيِّز الصلة، أعني قولَه تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مع التأخير في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩] قيل: للدلالة على أنَّ الأصل في ثبوت الاستخلاف الإيمانُ، ولهذا كان الأصحَّ عدمُ الانعزال بالفسق الطارئ، ودلَّ عليه صحاحُ الأحاديث(١)، ومدخلية الصلاح في ابتداء البيعة، وأما في المغفرة والأجر العظيم فكلاهما أصلٌ، فكان

(١) منها حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند البخاري (٧٠٥٤-٧٠٥٥)، ومسلم (١٧٠٩): (٤٢) كتاب الإمارة، وفيه: بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأَثَرةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا أن تَرَوْا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان».

المناسبُ التأخيرَ. وقد يقال: إنَّ ذلك لتعجيل مسرَّةِ المخاطبين، حيث إنَّ الآية سيقتْ لذلك.

وقيل: الخطاب للمُقْسِمينَ، والكلامُ تتميمٌ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾، ببيانِ ما لهم في العاجل من الاستخلاف وما يترتَّب عليه، وفي الآجل ما لا يقادرُ قَدْرُه على ما أُدمج في قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، والجارُّ للتبعيض، وأمرُ التوسيط على حاله.

ولم يرْتَضِه بعضُ الأجِلَّة؛ لأنَّ «آمنوا» إن كان ماضياً على حقيقته لم يستقم؛ إذ لم يكن فيهم مَن كان آمَنَ حالَ الخطاب، وإن جُعِلَ بمعنى المضارع على المألوف من إخبار الله تعالى، فمع نبوِّه عن هذا المقام لم يكن دليلاً على صحة أمر الخلفاء، ولم يطابق الواقع أيضاً؛ لأنَّ هؤلاء الأجِلَّاءَ لم يكن مِن بعضِ مَن آمَنَ من أولئك المخاطبين، ولا كان في المقسِمينَ مَن نال الخلافة. انتهى. وفيه شيءٌ، ولعله لا يضرُّ بالغرض.

وارتضى أبو السعود تعلُّقَ الكلام بذلك، وادَّعى أنه استئنافٌ مقرِّرٌ لِمَا في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ إلخ من الوعد الكريم، مُعْرِبٌ عنه بطريق التصريح، ومبيِّنٌ لتفاصيل ما أُجمل فيه من فنون السعادات الدينية والدنيوية التي هي من آثار الاهتداء، ومتضمِّنٌ لِمَا هو المراد بالطاعة التي نيطَ بها الاهتداءُ. وأنَّ المراد بالذين آمنوا كلُّ مَن اتَّصَفَ بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق، من أيِّ طائفةٍ كان، وفي أيِّ وقتٍ كان، لا مَن آمَنَ من طائفة المنافقين فقط، ولا مَن آمَنَ بعد نزول الآية الكريمة فحسبُ، ضرورةَ عمومِ الوعد الكريم. وأنَّ الخطاب ليس للرسول عليه الصلاة والسلام ومَن معه من المؤمنين المخلصين، أو مَن يعمُّهم وغيرَهم من الأمة، ولا للمنافقين خاصةً، بل هو لعامَّةِ الكفرة. وأنَّ «مِن» للتبعيض.

وقال في نكتة التوسيط: إنه لإظهار أصالة الإيمان وعراقتِه في استتباع الآثار والأحكام، والإيذانِ بكونه أولَ ما يُطْلَبُ منهم، وأهمَّ ما يجبُ عليهم، وأمَّا التأخيرُ في آية سورة الفتح، فلأنَّ «من» هناك بيانيةٌ، والضمير للذين معه عليه الصلاة والسلام مِن خلَّصِ المؤمنين، ولا ريب في أنهم جامعون بين الإيمان

والأعمال الصالحة مثابرون عليهما، فلا بدَّ من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة بكمالها[1]. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ كون الخطاب لعامَّة الكفرة خلافُ الظاهر، وحَمْلُ الفعل الماضي على ما يعمُّ الماضي والمستقبل كذلك. وفيما ذكره أيضاً بُعْدٌ عن سبب النزول، فقد أخرج ابن المنذر، والطبرانيُّ في «الأوسط»، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقيُّ في «الدلائل»، والضياء في «المختارة»، عن أبيّ بن كعب ﷺ قال: لمَّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينةَ وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يُصبحون إلَّا فيه، فقالوا: ترون أنَّا نعيشُ حتى نبيتَ آمنين مطمئنِّين لا نخاف إلا الله تعالى؟ فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ الآية[2].

ولا يتأتّى معه الاستدلالُ بالآية على صحة أمرِ الخلفاء أصلاً، ولعله لا يقول به، ويستغني عنه بما هو أوضحُ دلالةً.

وعن ابن عباس ومجاهد: عامةٌ في أمة محمد ﷺ، وأطلقا الأمة، وهي تُطْلَقُ على أمةِ الإجابة وعلى أمةِ الدعوة[3]، لكنَّ الأغلب في الاستعمال الإطلاقُ الأول، فلا تغفل.

وإذا كانت «مِن» بيانيةً فالمعنى: وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا الذين هم أنتم ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليجعلنَّهم خلفاءَ متصرِّفين فيها تصرُّفَ الملوك في مماليكهم، أو خلفاءَ من الذين كانوا يخافونهم من الكفرة، بأن ينصرَهم عليهم ويورثَهم أرضهم.

والمراد بالأرض على ـ ما قيل ـ جزيرةُ العرب. وقيل: ما رآه[4] عليه الصلاة

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ١٩٠.

(٢) المعجم الأوسط (٧٠٢٩)، والمستدرك ٢/ ٤٠١، ودلائل النبوة ٣/ ٦، والأحاديث المختارة ٣/ ٣٥٢-٣٥٣، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٥٥.

(٣) أمة الدعوة هم مَن بُعثَ إليهم مطلقاً، وأمة الإجابة هم مَن آمَن به. حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٦.

(٤) في (م): مأواه، وهو تصحيف.

والسلام من مشارق الأرض ومغاربها ففي الصحيح: «زُويَتْ لي الأرضُ فأُريْتُ مَشارِقَها ومَغَارِبَها، وسَيَبْلغُ ملكُ أمَّتي ما زُوي لي منها»[١].

واللامُ واقعةٌ في جواب القسم المحذوفِ، ومفعولُ «وعد» الثاني محذوفٌ دلَّ عليه الجواب،أي: وَعَدَ الله الذين آمنوا استخلافَهم، وأقسم ليستخلفنَّهم، ويجوز أن ينزَّلَ وعدُه تعالى لتحقُّقِ إنجازه لا محالةَ منزلةَ القسم، وإليه ذهب الزجَّاج، ويكون «ليستخلفنهم» منزَّلٌ منزلةَ المفعول فلا حَذْفَ.

و«ما» في قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ﴾ مصدريةٌ، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: ليستخلفنَّهم استخلافاً كائناً كاستخلافه ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهم بنو إسرائيل، استَخْلَفَهم الله عزَّ وجلَّ في الشام بعد إهلاك الجبابرة، وكذا في مصر على ما قيل من أنها صارت تحت تصرُّفهم بعد هلاك فرعون، وإن لم يعودوا إليها. أو هم ومَن قبلهم من الأمم المؤمنة، الذين أسكنهم الله تعالى في الأرض بعد إهلاك أعدائهم من الكفرة الظالمين.

وقرئ: «كما استُخْلِفَ» بالبناء للمفعول[٢]، فيكون التقديرُ: ليَسْتَخْلِفَنَّهم في الأرض فيُسْتَخْلَفون فيها استخلافاً، أي: مُستخلفيةً كائنةً كمُستخلفيةِ الذين من قبلهم[٣].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾ عطفٌ على «ليستخلفنهم»، والكلامُ فيه كالكلام فيه؛ وتأخيرهُ عنه مع كونه أَجَلَّ الرغائب الموعودةِ وأَعْظَمَها؛ لِمَا أنه كالأثر للاستخلاف المذكور.

وقيل: لِمَا أنَّ النفوس إلى الحظوظ العاجلة أَمْيَلُ، فتصديرُ المواعيد بها في الاستمالة أَدْخَلُ.

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه، وأخرجه أحمد (١٧١١٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٢) التيسير ص ١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٢ عن شعبة.

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ١٩٠-١٩١، وقال أبو السعود: فليس العامل في الكاف الفعل المذكور، بل ما يدل هو عليه من فعل مبني للمفعول جارٍ منه مجرى المطاوع؛ فإن استخلافه تعالى إياهم مستلزمٌ لكونهم مستخلفين لا محالة.

والتمكين في الأصل: جَعْلُ الشيء في مكان، ثم استُعمل في لازِمِه، وهو التثبيتُ، والمعنى: ليَجْعلنَّ دينَهم ثابتاً مقرَّراً، بأنْ يُعليَ سبحانه شأنَه، ويقوِّيَ بتأييده تعالى أركانَه، ويعظِّم أهلَه في نفوس أعدائهم الذين يستغرقون النهار والليل في التدبير لإطفاء أنواره، ويستنهضون الرَّجِلَ والخيلَ للتوصُّلِ إلى إعفاء آثاره، فيكونون بحيث ييأسون من التجمُّع لتفريقهم عنه ليذهب من البين، ولا تكاد تحدِّثُهم أنفسُهم بالحيلولة بينهم وبينه ليعود أثراً بعد عين.

وقيل: المعنى: ليَجْعَلنَّه[1] مقرَّراً ثابتاً بحيث يستمرُّون على العمل بأحكامه، ويرجعون إليه في كلِّ ما يأتون وما يَذَرون، وأصلُ التمكين: جَعْلُ الشيءِ مكاناً لآخر، والتعبيرُ عن ذلك به للدلالة على كمالِ ثبات الدين، ورصانةِ أحكامه، وسلامته عن التغيير والتبديل؛ لابتنائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والقرار، مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف في الأرض. انتهى، وفيه بحث.

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعول الصريح للمسارعة إلى بيان كون الموعود مِن منافعهم، مع التشويق إلى المؤخَّر، ولأنَّ في توسيطه بينه وبين وَصْفه، أعني قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، وتأخيرِه عن الوصف، من الإخلال بجزالةِ النظم الكريم ما لا يخفى.

وفي إضافة الدين وهو دينُ الإسلام إليهم، ثم وَصْفِه بارتضائه لهم، من مزيد الترغيب فيه والتثبيت عليه ما فيه.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بالتشديد، وقرأ ابن كثير وأبو بكر والحسن وابن محيصن بالتخفيف من الإبدال[2]؛ وأخرج ذلك عبد بن حميد[3] عن عاصم. وهو عطف على «ليستخلفنَّهم» أو «ليمكننَّ». ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ بمقتضى البشرية في الدنيا من أعدائهم في الدِّين ﴿أَمْنًا﴾ لا يقادَرُ قَدْرُه.

---

(١) في الأصل و(م): ليجعله، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ١٩١، والكلام منه.
(٢) التيسير ص ١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣ عن ابن كثير وأبي بكر، وهي قراءة يعقوب من العشرة. وذكرها عن الحسن وابن محيصن أبو حيان في البحر ٦/ ٤٦٩.
(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ٥٥.

وقيل: الخوف في الدنيا من عذاب الآخرة، والأمن في الآخرة، ورجِّح بأنَّ الكلام عليه أبعدُ من احتمال التأكيد بوجهٍ من الوجوه، بخلافه على الأول.

وأنت تعلم أن الأول أوفقُ بالمقام، والأخبارُ الواردةُ في سبب النزول تقتضيه، وأمرُ احتمالِ التأكيد سهلٌ.

﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ جوِّز أن تكون الجملةُ في موضع نصبٍ على الحال؛ إما من «الذين» الأول لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد؛ لأنَّ ما في حيِّز الصلة من الإيمان وعمل الصالحات بصيغة الماضي لمَّا دلَّ على أصل الاتِّصاف به، جيء بما ذُكر حالاً بصيغة المضارع الدالِّ على الاستمرار التجدُّديِّ. وإمَّا من الضمير العائد عليه في «ليستخلفنهم»، أو في «ليبدلنهم».

وجوِّز أن تكون مستأنفةً، إما لمجرَّد الثناء على أولئك المؤمنين، على معنى: هم يعبدونني، وإما لبيان علَّة الاستخلاف وما انْتَظَم معه في سلك الوعد.

وقولُه تعالى: ﴿لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ حالٌ من الواو في «يعبدونني»، أو من «الذين»، أو بدلٌ من الحال، أو استئنافٌ.

ونصب «شيئاً» على أنه مفعولٌ به، أي: شيئاً مما يُشْرَكُ به، أو مفعولٌ مطلقٌ، أي: شيئاً من الإشراك. ومعنى العبادةِ وعدمِ الإشراك ظاهرٌ.

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله سبحانه: (يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ): لا يخافون أحداً غيري. وأخرج هو وجماعةٌ عن مجاهد نحوَه(١).

ولعلهما أرادا بذلك تفسير «لا يشركون بي شيئاً»، وكأنهما عدَّا خوفَ غيرِ الله تعالى نوعاً من الإشراك، واختيرَ على هذا حاليةُ الجملة من الواو، كأنه قيل: يعبدونني غير خائفين أحداً غيري.

وجوِّز أن يكونا قد أرادا بيان المراد بمجموع «يعبدونني لا يشركون» إلخ وكأنهما ادَّعيا أنَّ عدم خوف أحدٍ غيرِه سبحانه من لوازمِ العبادة والتوحيد، وأنَّ

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٥٥.

جملة «يعبدونني» إلخ استئنافٌ لبيانِ ما يَصِلُون إليه في الأمن، كأنه قيل: يأمنون إليّ حيث لا يخافون أحداً غيرَ الله تعالى.

ولا يخفَى ما في التعبير بضميرِ المتكلِّم وحدَه في «يعبدونني» و«لا يُشْرِكون بي» دون ضميرِ الغائب ودونَ ضمير العظمة من اللطافة.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: ومَن ارتدَّ من المؤمنين ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد حصولِ الموعود به ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المرتدُّون البعداءُ عن الحقِّ ﴿هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: الكاملون في الفسق والخروجِ عن حدود الكفر والطغيان؛ إذ لا عُذْرَ لهم حينئذٍ ولا كَجَناحِ بعوضة.

وقيل: «كَفَر» من الكفران، لا من الكفر مقابل الإيمان، وروي ذلك عن أبي العالية، وكمالُهم في الفسق لعظم النعمة التي كَفَروها.

وقيل: «ذلك» إشارةٌ إلى الوعد السابق نفسه. وفي «إرشاد العقل السليم»[١]: أنَّ المعنى: ومَن اتَّصف بالكفر بأن ثبتَ واستمرَّ عليه، ولم يتأثَّر بما مرَّ من الترغيب والترهيب بعد ذلك الوعد الكريم بما فصِّل من المطالب العالية المستوجبةِ لغاية الاهتمام بتحصيلها، فأولئك هم الكاملون في الفسق. وكونُ المرادِ بـ «كفر» ما ذُكر أنسبُ بالمقام من كونِ المراد به: ارتدَّ أو كَفَرَ النعمةَ. انتهى.

والأَوْلَى عندي ما تقدَّم، فإنه الظاهرُ، وفي الكلام عليه تعظيمٌ لقَدْرِ الموعودِ به، من حيث إنه لا يبقى بعدَ حصوله عذرٌ لمن يرتدُّ، وقوةُ مناسبته[٢] للمقام لا تخفى.

وهو ظاهرُ قولِ حذيفة رضي الله عنه؛ فقد أخرج ابن مردويه عن أبي الشعثاء قال: كنتُ جالساً مع حذيفةَ وابنِ مسعود رضي الله عنهما، فقال حذيفةُ: ذهب النفاقُ؛ إنما كان النفاقُ على عهد رسول الله ﷺ، وإنما هو الكفرُ بعد الإيمان. فضحك ابنُ مسعود ثم قال: بِمَ تقول؟ قال: بهذه الآية: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) إلى آخرِ الآية.

---

(١) ٦/ ١٩١.
(٢) في الأصل: مناسبة.

وكأنَّ ضَحِكَ ابنِ مسعودٍ كان استغراباً لذلك، وسكوتُه بعد الاستدلال ظاهرٌ في ارتضائه لِمَا فَهِمَه معدنُ سرِّ رسول الله ﷺ من الآية.

و«مَن» تحتملُ أن تكون موصولةً، وتحتملُ أن تكون شرطيةً. وجملةُ «مَن كَفَرَ» إلخ، قيل: معطوفةٌ على جملةِ «وَعَدَ اللهُ» إلخ، أو على جملةٍ محذوفة، كأنه قيل: مَن آمَنَ فَهُمُ الفائزون ومَن كفر.. إلخ.

وقيل: إنَّ هذه الجملةَ وكذا جملة «يعبدونني» استئنافٌ بيانيٌّ؛ أمَّا ذلك في الأولى فالسؤالُ ناشىءٌ من قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ إلخ، فكأنه قيل: فما ينبغي للمؤمنين بعد هذا الوعد الكريم، أو بعد حصوله؟ فقيل: يعبدونني لا يشركون بي شيئاً. وأما في الثانية فالسؤالُ ناشئٌ من الجواب المذكور، فكأنه قيل: فإن لم يفعلوا فماذا؟ فقيل: ومَن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون وجزاؤُهم معلومٌ، وهو كما ترى.

هذا واستدلَّ كثيرٌ بهذه الآية على صحةِ خلافة الخلفاء الأربعة ﷺ؛ لأنَّ الله تعالى وعد فيها مَن في حضرة الرسالة من المؤمنين بالاستخلاف وتمكينِ الدِّين والأمنِ العظيم من الأعداء، ولابد من وقوع ما وَعَدَ به ضرورةَ امتناعِ الخُلْفِ في وعده تعالى، ولم يقع ذلك المجموعُ إلَّا في عهدهم، فكان كلٌّ منهم خليفةً حقّاً باستخلافِ الله تعالى إياه حَسْبمَا وَعَدَ جلَّ وعلا، ولا يلزم عمومُ الاستخلافِ لجميع الحاضرين المخاطَبين، بل وقوعُه فيهم كبنو فلانٍ قتلوا فلاناً، فلا ينافي ذلك عمومَ الخطابِ الجميعَ، وكونَ «من» بيانيةً. وكذا لا ينافيه ما وقع في خلافةِ عثمانَ وعليٍّ ﷺ من الفتن؛ لأنَّ المرادَ من الأمن الأمنُ من أعداء الدِّين، وهم الكفارُ كما تقدم.

وأقامها بعضُ أهلِ السُّنةِ دليلاً على الشيعة في اعتقادهم عدمَ صحَّةِ خلافةِ الخلفاءِ الثلاثة ـ ولم يَسْتدِلَّ بها على صحة خلافةِ الأمير كرَّم الله تعالى وجهه لأنها مسلَّمةٌ عند الشيعة، والأدلَّةُ كثيرةٌ عند الطائفتين على مَن يُنْكِرها من النواصب عليهم من الله تعالى ما يستحقُّون ـ فقال: إنَّ الله تعالى وَعَدَ فيها جمعاً من المؤمنين الصالحين الحاضرين وقتَ نزولها بما وَعَدَ من الاستخلاف وما معه، ووَعْدُه سبحانه الحقُّ، ولم يقع ذلك إلَّا في عهد الثلاثة، والإمامُ المهديُّ لم يكن موجوداً

حين النزول قطعاً بالإجماع، فلا يمكن حَمْلُ الآية على وَعْدِه بذلك، والأميرُ كرَّم الله تعالى وجهه وإن كان موجوداً إذ ذاك لكن لم يَرُجِ الدينُ المَرْضيُّ كما هو حقُّه في زمانه رضي الله عنه بزَعْم الشيعة، بل صار أسوأ حالاً ـ بزَعْمِهم ـ مما كان في عهد الكفار، كما صرَّح بذلك المرتضى في تنزيه الأنبياء والأئمة عليهم السلام، بل كلُّ كتب الشيعة تصرِّح بأنَّ الأمير وشيعتَه كانوا يُخْفون دينَهم ويُظْهِرون دين المخالفين تَقِيَّةً، ولم يكن الأمنُ الكاملُ حاصلاً أصلاً في زمانه رضي الله عنه، فقد كان أهلُ الشام ومصرَ والمغربِ ينكرون أصلَ إمامته ولا يَقْبَلون أحكامَه، وهم كفرةٌ بزَعْم الشيعة، وأغلبُ عسكر الأمير يخافونهم ويحذرون غايةَ الحذرِ منهم، ومع هذا الأميرُ فردٌ فلا يمكن إرادتُه من «الذين آمنوا» ليكون هو رضي الله عنه مصداقَ الآية كما يزعمون، فإنَّ حَمْلَ لَفْظِ الجمع على واحدٍ خلافُ أصولهم؛ إذ أقلُّ الجمع عندهم ثلاثةُ أفراد، وأمَّا الأئمةُ الآخرون الذين وُلدوا بعدُ فلا احتمالَ لإرادتهم من الآية؛ إذ ليسوا بموجودين حالَ نزولها، ولم يحصل لهم التسلُّط في الأرض، ولم يقع رواجُ دينهم المرتَضَى لهم، وما كانوا آمنين بل كانوا خائفين من أعداء الدين متَّقين منهم، كما أجمع عليه الشيعة، فلزم أنَّ الخلفاء الثلاثة هم مصداقُ الآية، فتكون خلافتُهم حقَّةً، وهو المطلوب.

وزعم الطبرسيُّ أن الخطاب للنبيِّ وأهلِ بيته ﷺ، فهم الموعودون بالاستخلاف وما معه، ويكفي في ذلك تحقُّقُ الموعودِ في زمن المهديِّ رضي الله عنه، ولا ينافي ذلك عدمَ وجودِه عند نزول الآية؛ لأنَّ الخطاب الشفاهيَّ لا يخصُّ الموجودين، وكذا لا ينافي عدمَ حصوله للكلِّ، لأنَّ الكلام نظيرُ: بنو فلان قتلوا فلاناً.

واستَدلَّ على ذلك بما رَوَى العياشيُّ بإسناده عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه قرأ الآية فقال: هم والله شيعتُنا أهل البيت، يُفْعَلُ ذلك بهم على يد رجلٍ منَّا، وهو مهديُّ هذه الأمة، وهو الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «لو لم يَبْقَ من الدنيا إلا يومٌ واحدٌ لطوَّل الله تعالى ذلك اليومَ حتى يليَ رجلٌ من عترتي اسمُه اسمي، يملأ الأرضَ عدلاً وقسطاً كما مُلِئتْ ظلماً وجوراً» وزَعَم أنه رُويَ مثلُ ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله عنهما[1].

---

(١) مجمع البيان ١٨/ ٦٨.

وهذا على ما فيه مما يأباه السياقُ والأخبارُ الصحيحةُ الواردةُ في سبب النزول، وأخبارُ الشيعةِ لا يخفى حالُها، لاسيما على مَن وقف على «التحفة الاثني عشرية»[(١)].

نعم ورد من طريقنا ما يُستأنَسُ به لهم في هذا المقام، لكنه لا يعوَّل عليه أيضاً مثل أخبارهم، وهو ما أخرجه عبد بن حميد[(٢)] عن عطيةَ، أنه عليه الصلاة والسلام قرأ الآية فقال: «أهل البيت ها هنا» وأشار بيده إلى القبلة.

وزعم بعضُهم نحوَ ما سمعتَ عن الطبرسيِّ، إلا أنه قال: هي في حقِّ جميع أهل البيت، عليٍّ كرم الله تعالى وجهَه وسائرِ الأئمة الاثني عشر، وتحقُّقُ ذلك فيهم زَمَنَ الرجعة حين يقومُ القائم ﷺ. وزَعَم أنها أحدُ أدلَّة الرجعة، وهذا قد زاد في الطنبور نغمةً.

وقال الملَّا عبدُ الله المشهديُّ في كتابه «إظهار الحق» لإبطال الاستدلال بها على صحة خلافة الخلفاء الثلاثة: يحتملُ أن يكون الاستخلافُ بالمعنى اللغويِّ، وهو الإتيانُ بواحدٍ خلفَ آخر، أي: بعده، كما في قوله تعالى في حقِّ بني إسرائيل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] فقصارى ما يثبتُ أنهم خلفاءُ بالمعنى اللغويِّ، وليس النزاعُ فيه بل هو في المعنى الاصطلاحيِّ، وهو معنًى مستحدَثٌ بعد رحلة النبيِّ ﷺ. اهـ.

وأجيب: بأنه لو تمَّ هذا لا يتمُّ لهم الاستدلالُ على خلافة الأمير كرَّم الله تعالى وجهه بالمعنى المصطلح بحديث: «أنت منِّي بمنزلة هارون من موسى»[(٣)] المعتضدِ بما حكاه سبحانه عن موسى عليه السلام من قوله لهارون: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢] وبما يَرْوُونه من قوله ﷺ: «يا عليُّ، أنت خليفتي من بعدي»[(٤)].

---

(١) التحفة الاثنا عشرية في رد الروافض، فارسي. تأليف عبد العزيز الدهلوي المتوفى سنة(١٢٣٩هـ). إيضاح المكنون١/ ٢٣٧.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٥٥.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٤) ذكره ابن تيمية في منهاج السنَّة النبوية٧/ ٢٩٧-٢٩٩، وقال: هذا الحديث ليس في شيء من كتب المسلمين التي يستفيدون منها علم النقل: لا في الصحاح، ولا في المسانيد والسنن والمغازي والتفسير التي يذكر فيها الإسناد الذي يحتج به.

وكذا لا يتمُّ لهم الاستدلالُ على إمامة الأمير كرم الله تعالى وجهه بما تضمَّن لفظُ الإمام؛ لأنه لم يُستعمل في الكتاب المجيد بالمعنى المصطلح أصلاً، وإنما استُعمل بمعنى النبيِّ والمُرشِدِ والهادي والمقتدَى به في أمرٍ، خيراً كان أو شرًّا، ومتى ادَّعى فهمَ المعنى المصطلح من ذلك بطريق اللزوم، فليَدَّعِ فَهْمَ المعنى المصطلحِ من الخليفة كذلك، وربما يدَّعي أنَّ فهمه منه أقوى؛ لأنه مقرونٌ حيث وقع في الكتاب العزيز بلفظ: «في الأرض» الدالِّ على التصرُّفِ العامِّ الذي هو شأنُ الخليفة بذلك المعنى.

على أنَّ مبنى الاستدلالِ على خلافة الثلاثة بهذه الآيةِ ليس مجرَّدَ لَفْظِ الاستخلافِ حتى يتمَّ غرضُ المناقش فيه، بل ذلك مع ملاحظةِ إسنادِهِ إلى الله تعالى، وإذا أسند الاستخلاف اللغوي إلى الله عز وجل فقد صار استخلافاً شرعياً.

وقد يُستَفْتَى في هذه المسألة من علماء الشيعة فيقال: إنَّ إتيانَ بني إسرائيلَ بمكان آل فرعون والعمالقةِ، وجَعْلَهم متصرِّفين في أرض مصر والشام، هل كان حقّاً أو لا؟ ولا أظنُّهم يقولون إلا أنه حقٌّ، وحينئذٍ يلزمُهم أن يقولوا به في الآية لعدم الفرق، وبذلك يتمُّ الغرض، هذا حاصلُ ما قيل في هذا المقام.

والذي أميلُ إليه أنَّ الآية ظاهرةٌ في نزاهةِ الخلفاء الثلاثة ﷺ عمَّا رماهم الشيعةُ به من الظلم والجور والتصرُّفِ في الأرض بغير الحقِّ؛ لظهور تمكين الدِّين والأمنِ التامِّ من أعدائه في زمانهم، ولا يكاد يَحْسنُ الامتنان بتصرُّفٍ باطلٍ عُقْباهُ العذابُ الشديد. وكذا لا يكاد يَحْسُنُ الامتنانُ بما تضمنته الآيةُ على أهل عصرهم مع كونهم الرؤساءَ الذين بيدهم الحلُّ والعقدُ لو كانوا ـ وحاشاهم ـ كما يزعم الشيعة فيهم، ومتى ثبت بذلك نزاهتُهم عمَّا يقولون اكتفينا به، وهذا لا يتوقَّفُ إلَّا على اتِّصافهم بالإيمان والعملِ الصالح حالَ نزول الآية، وإنكارُ الشيعة له إنكارٌ للضروريات، وكونُ المراد بالآية عليّاً كرَّم الله تعالى وجهه، أو المهديَّ ﷺ، أو أهلَ البيت مطلقاً، مما لا يقولُه مُنْصِفٌ.

وفي كلام الأمير كرم الله تعالى وجهه ما يقتضي بسوقه خلافَ ما عليه الشيعةُ، ففي «نهج البلاغة»: أن عمر بن الخطاب ﷺ لمَّا استشار الأميرَ كرم الله تعالى

وجهه لانطلاقه لقتال أهل فارس حين تجمَّعوا للحرب، قال له: إنَّ هذا الأمرَ لم يكن نَصْرُه ولا خذلانُه بكثرةٍ ولا بقلَّةٍ، وهو دينُ الله تعالى الذي أظهره، وجندُه الذي أعزَّه وأيَّدَه، حتى بلغ ما بلغ، وطلع حيث طلع، ونحن على موعودٍ من الله تعالى حيث قال عز اسمه: (وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) واللهُ تعالى منجزٌ وعدَه، وناصرٌ جندَه، ومكانُ القيِّم في الإسلام مكان النظام من الخرز، فإن انقطع النظام تفرَّق، ورُبَّ متفرِّقٍ لم يجتمع، والعربُ اليومَ وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام، عزيزون بالاجتماع، فكن قطباً واستَدر الرحى بالعرب، وأَصْلِهم دونك نارَ الحرب، فإنك إن شخصتَ من هذه الأرض تنقَّضت عليك العربُ من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تَدَعُ وراءك من العورات أهمَّ إليك مما بين يديك، وكان قد آن للأعاجم أن ينظروا إليك غداً يقولون: هذا أصلُ العرب فإذا قطعتُموه استرحتُم، فيكون ذلك أشدَّ لكَلَبِهم عليك وطَمَعِهم فيك، فأما ما ذكرتَ من عددهم فإنَّا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنَّا نقاتلُ بالنصر والمعونة. اهـ، فتأمل ذاك واللهُ تعالى يتولى هداك.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ جوِّز أن يكون عطفاً على «أطيعوا الله» داخلاً معه في حيِّز القول، والفاصلُ ليس بأجنبيٍّ من كلِّ وجهٍ، فإنه وعدٌ على المأمور به، وبعضُه من تتمَّته[1].

وفي «الكشاف»[2]: ليس ببعيدٍ أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصلٌ وإن طال؛ لأن حقَّ المعطوف أن يكونَ غيرَ المعطوف عليه، والفاصلُ يؤكِّد المغايرةَ ويرشِّحُها؛ لأنَّ المجاورةَ مَظِنَّةُ الاتِّصال والاتحاد، فيكونُ تكرير الأمر بإطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام للتأكيد، وأكِّد دون الأمر بطاعة الله تعالى لِمَا أنَّ في النفوس لاسيما نفوس العرب من صعوبة الانقياد للبشر ما ليس فيها من صعوبة الانقياد لله تعالى، ولتعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه ـ وهي الجملُ

---

(١) قوله: وبعضه من تتمته، أي أن قوله تعالى: «ومن كفر» من تتمة الوعد. حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٨.

(٢) ٣/ ٧٤.

الواقعةُ في حيِّز القول ـ بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾ كما علَّق الاهتداء بالإطاعة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.

والإنصافُ أنَّ هذا العطفَ بعيدٌ، بل قال بعضهم[1]: إنه مما لا يليقُ بجزالة النظم الكريم.

وجوِّز أن يكون عطفاً على «يعبدونني» وفيه تخصيصٌ بعد التعميم، وكان الظاهر أن يقال: يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الرسول لعلهم يرحمون، لكن عدلَ عن ذلك إلى ما ذُكر التفاتاً إلى الخطاب لمزيد الاعتناء، وحسَّنه هنا الخطابُ في «منكم».

وتعقِّب بأنه ممَّا لا وجه له؛ لأنه بعد تسليم الالتفاتِ، وجوازِ عَطْفِ الإنشاء على الإخبار، لا يناسبُ ذلك كونَ[2] الجملةِ السابقةِ حالاً أو استئنافاً بيانياً.

والذي أختارُه كونَه عطفاً على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلام ويستدعيه النظام، فإنه سبحانه لمَّا ذكر: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فُهِمَ النهيُ عن الكفر، فكأنه قيل: فلا تكفروا وأقيموا الصلاة.. إلخ.

وجوِّز أن يكون انفهامُ المقدَّر من مجموع ما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ إلخ، حيث إنه يوجبُ الأمر بالإيمان والعمل الصالح، فكأنه قيل: فآمِنوا واعْمَلوا الصالحات وأقيموا.. إلخ.

وجوِّز في «أطيعوا» أن يكون أمراً بإطاعته ﷺ بجميع الأحكام الشرعية المنتظمةِ للآداب المَرْضِيَّة، وأن يكون أمراً بالإطاعة فيما عدا الأمرين السابقين فيكون ذكره لتكميلهما، كأنه قيل: وأطيعوا الرسول في سائر ما يأمركم به، وقولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إلخ متعِّلقٌ بالأوامر الثلاثة، وجُعل على الأول متعلِّقاً بالأخير.

وقولُه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلخ بيانٌ لمآل الكفرة في الدنيا والآخرة بعد بيانِ تَنَاهيهم في الفسق، وفوزِ أضدادهم بالرحمة المطلقةِ المستتبعةِ لسعادة الدارين.

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ١٩٢.

(٢) في (م): وكون، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٦/ ٣٩٧، والكلام منه.

وفي ذلك أيضاً رفعُ استبعاد تحقُّق الوعد السابق مع كثرة عَدَدِ الكفَرَةِ وعُدَدِهم.

والخطابُ لكلِّ مَن يتأتَّى منه الحسبانُ، نظير ما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢].

وجوِّز أن يكون للرسول ﷺ على سبيل التعريض بمَن صَدَر منه ذلك، كقوله:

إيـاكِ أعـنـي فـاسـمـعـي يـا جـاره[١]

أو الإشارةِ إلى أنَّ الحسبان المذكورَ بَلَغَ في القُبْح والمحذورية إلى حيث يُنْهَى مَن يَمتنعُ صدورُه عنه، فكيف بمن يُمكنُ ذلك منه؟ كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القَصص: ٨٧] فقولُ أبي حيان: إنَّ جَعْلَ الخطاب للرسول ﷺ ليس بجيد؛ لأنَّ مثلَ هذا الحسبانِ لا يتصوَّرُ وقوعُه منه عليه الصلاة والسلام[٢]. ليس بجيدٍ؛ لما فيه من الغفلة عما ذُكر.

ومحلُّ الموصول نصبٌ على أنه مفعولٌ أولُ للحسبانِ، وقولُه تعالى: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ ثانيهما، وقولُه تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفٌ لـ «معجزين» لكنْ لا لإفادةِ كونِ الإعجاز المقصودِ بالنفي فيها لا في غيرها، فإنَّ ذلك غنيٌّ عن البيان، بل لإفادةِ شمولِ عدمِ الإعجاز لجميع أجزائها، أي: لا تحسبنَّهم معجزين الله تعالى عن إدراكهم وإهلاكهم في قطرٍ من أقطار الأرض بما رَحُبَتْ، وإن هربوا منها كلَّ مَهْرَبٍ.

وقرأ حمزة وابن عامر: «يحسبن» بالياء آخرِ الحروف[٣]، على أنَّ الفاعل كلُّ أحدٍ، كأنه قيل: لا يحسبنَّ حاسبٌ الكافرين معجزين له عز وجل في الأرض، أو ضميرُه ﷺ لتقدُّم ذكره عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: (وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ)، وإليه ذهب أبو عليٍّ[٤].

---

(١) وقبله: أصبح يَهْوَى حرَّةً مِعْطارَه، كما في المستقصى ١/ ٤٥٠. والرجز لسيَّار بن مالك الفزاري، وذكره العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٢٩، وقبله:

مَـدْفَـعُ مَـيْـثـاءَ إلـى قـراره

(٢) البحر ٦/ ٤٧٠.

(٣) التيسير ص ١٦٣، والنشر ٢/ ٢٧٧.

(٤) في الحجة ٥/ ٣٣٢.

وزَعْمُ أبي حيان أنه ليس بجيدٍ لِمَا تقدَّم[١]، ليس بجيدٍ لما تقدّم.

أو ضميرُ الكافر، أي: لا يحسبنَّ الكافر الذين كفروا معجزين، ونُقِلَ ذلك عن عليّ بن سليمان[٢].

أو الموصولُ، والمفعولُ الأولُ محذوفٌ، كأنه قيل: لا يحسبنَّ الذين كفروا أنفسَهم معجزين في الأرض. وذُكر أن الأصل على هذا: لا يحسبنَّهم الذين كفروا معجزين، ثم حُذف الضمير الذي هو المفعولُ الأول، وكأنَّ الذي سوَّغ ذلك أنَّ الفاعلَ والمفعولَيْنِ لما كانت كالشيءِ الواحد اقتُنِعَ بذكر اثنين عن ذكر الثالث.

وتعقَّبه في «البحر» بأن هذا الضمير ليس من الضمائر التي يفسِّرها ما بعدها، فلا يجوزُ كونُ الأصل: لا يحسبنَّهم الذين.. إلخ، كما لا يجوزُ: ظنَّه زيدٌ قائماً[٣].

وقال الكوفيون: «معجزين» المفعولُ الأول، و«في الأرض» المفعولُ الثاني، والمعنى: لا يحسبنَّ الذين كفروا أحداً يُعْجِزُ اللهَ تعالى في الأرض حتى يطمعوا في مثل ذلك؛ قال الزمخشريُّ: وهذا معنًى قويٌّ جيد[٤].

وتعقِّب بأنه بمعزلٍ عن المطابقة لمقتضى المقام، ضرورةَ أنَّ مصبَّ الفائدة هو المفعولُ الثاني، ولا فائدة في بيان كون المعجزين في الأرض.

ورُدَّ بأنه وإن كان مصبُّ الفائدة جُعِلَ مفروغاً منه وإنما المطلوبُ بيانُ المحلِّ، أي: لا يعجزوه سبحانه في الأرض. والإنصافُ أنَّ ما ذكر خلافُ الظاهر، والظاهرُ إنما هو تعلُّق «في الأرض» بـ «معجزين».

وأيّاً ما كان فالقراءةُ المذكورةُ صحيحةٌ وإن اختلفت مراتبُ تخريجاتها قوةً وضعفاً، ومن ذلك يُعلم ما في قول النحاس[٥]: ما علمتُ أحداً من أهل العربية بَصْريّاً ولا كوفيّاً إلا وهو يخطِّئُ قراءةَ حمزة، فمنهم مَن يقول: هي لحنٌ لأنه لم

---

(١) البحر ٦/ ٤٧٠.
(٢) كما في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦٤، والبحر ٦/ ٤٧٠.
(٣) البحر ٦/ ٤٧٠.
(٤) الكشاف ٣/ ٧٤.
(٥) في إعراب القرآن ٤/ ١٤٦.

يأتِ إلا بمفعولٍ واحد لـ «يحسبن»، وممَّن[١] قال هذا أبو حاتم. انتهى = من قلَّة الوقوف ومزيدِ الهذيان، والجسارةِ على الطعن في متواتر من القرآن.

ولعمري لو كانت القراءةُ بالرأي، لكان اللائقُ بمن خفي عليه وجهُ قراءة حمزةَ أن لا يتكلَّم بمثل ذلك الكلام، ويتَّهم نفسه، ويُحْجِمَ عن الطعن في ذلك الإمام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ عطفٌ على جملة النهي بتأويلها بجملة خبريةٍ؛ لأن المقصود بالنهي عن الحسبان تحقيقُ نفي الحسبان، كأنه قيل: [ليس][٢] الذين كفروا معجزين ومأواهم النار.

وجوِّز أن يكون عطفاً على مقدَّرٍ؛ لأن الأول وعيدٌ [في] الدنيا، كأنه قيل: فهم مقهورون في الدنيا بالاستئصال، ومُخْزَون[٣] في الآخرة بعذاب النار. وعن صاحب «النظم»[٤] تقديره: بل هم مقدورٌ عليهم ومحاسبون ومأواهم النار.

قال في «الكشف»: وجَعْلُه حالاً على معنى: لا ينبغي الحسبانُ لمن مأواه النار، كأنه قيل: أنَّى للكافر هذا الحسبانُ وقد أُعِدَّ له النار، والعدولُ إلى «ومأواهم النار» للمبالغة في التحقُّق، وأنَّ ذلك معلومٌ لهم لا ريب = وجهٌ حَسَنٌ خالٍ عن كلف الكلفة، ألمَّ به بعضُ الأئمة. انتهى. ولا يخفى أنَّ في ظاهره ميلاً إلى بعض تخريجات قراءة «يحسبنَّ» بياء الغيبة.

وتعقَّب في «البحر» تأويلَ جملةِ النهي لتصحيح العطف عليها بقوله: الصحيحُ أنه يجوز عطفُ الجمل على اختلافها بعضاً على بعضٍ وإن لم تتَّحِدْ في النوعية، وهو مذهبُ سيبويه[٥].

---

(١) في الأصل و(م): ومنهم من، بدل: وممن، والمثبت من إعراب القرآن، وفيه أيضاً: إلا وهو يحظر هذه القراءة، بدل: إلا وهو يخطئ قراءة حمزة.

(٢) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٦/ ١٩٢، والكلام منه.

(٣) في حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٨: ومجزيون، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) نظم القرآن لأبي علي الحسن بن يحيى بن نصر الجُرجاني الجَمَاجمي. ينظر البحر ٦/ ٤٧٠، والدر المصون ٨/ ٤٧٠، وحاشية الشهاب ٦/ ٣٩٨، وتاريخ جرجان ص ١٨٧-١٨٨، والأنساب ٣/ ٢٨٩.

(٥) البحر ٦/ ٤٧٠-٤٧١.

والمأوى: اسمُ مكانٍ، وجوِّز فيه المصدريةُ، والأولُ أظهر.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٥٧﴾ جوابٌ لقسمٍ مقدَّرٍ، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ، أي: وبالله لبئس المصيرُ هي، أي: النار، والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لِمَا قبله.

وفي إيراد النار بعنوان كونها مأوًى ومصيراً لهم إثر نفي فَوْتِهم بالهرب في الأرض كلَّ مهربٍ، من الجزالةِ ما لا غايةَ وراءه، فلِلّهِ تعالى درُّ شأن التنزيل.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلخ رجوعٌ عند الأكثرين إلى بيانِ تتمَّة الأحكام السابقة بعد تمهيدِ ما يوجبُ الامتثالَ بالأوامر والنواهي الواردةِ فيها وفي الأحكام اللاحقةِ، من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعد والوعيد. وفي التحقيق: ويحتمل أن يقال: إنه مما يطاعُ الله تعالى ورسوله ﷺ فيه، وتخصيصُه بالذكر لأنَّ دخولَه في الطاعة باعتبارِ أنه من الآداب أبعدُ من غيره.

والخطابُ إما للرجال خاصةً والنساءُ داخلاتٌ في الحكم بدلالة النصِّ، أو للفريقين تغليباً. واعتُرضَ الأولُ بأنَّ الآية نزلت بسبب النساء، فقد رُوي أنَّ أسماء بنتَ أبي مَرْثَد[1] دخل عليها غلامٌ كبيرٌ لها في وقتٍ كرهتْ دخولَه، فأتتْ رسولَ الله ﷺ فقالت: إنَّ خَدَمنا وغلماننا يدخلون علينا في حالٍ نكرهُها، فنزلت[2]، وقد ذَكَر في «الإتقان»[3] أنَّ دخول سبب النزول في الحكم قطعيٌّ.

وأجيب بأنه ما المانع من أن يُعلم الحكم في السبب بطريق الدلالة والقياس الجليِّ ويكون ذلك في حكم الدخول، ونقل عن السبكيِّ أنه ظنيٌّ فيجوز إخراجُه، وتمامُ الكلام في ذلك في كتب الأصول.

ثم ما ذُكر في سبب النزول ليس مُجْمَعاً عليه، فقد رُوي أنَّ رسول الله ﷺ بعث

---

(١) في هامش الأصل و(م): وقيل: أبي مرشد بالشين المعجمة، واختاره جمع. اهـ منه. وقال الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٩٨: بنت أبي مرشد بالشين المعجمة أو الثاء المثلثة، قيل: وهو بفتح الميم فيهما.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٣٤٢، وتفسير البغوي ٣/ ٣٥٥، وتفسير القرطبي ١٥/ ٣٢٩ عن مقاتل، وأخرجه عنه بنحوه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٣٣.

(٣) الإتقان ١/ ٩٣، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٣٩٨.

وقتَ الظَّهيرةِ إلى عمر ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له: مُدْلِج، وكان ﷺ نائماً، فدقَّ عليه الباب ودخل، فاستيقظ وجلس فانكشف منه شيءٌ، فقال عمر ﷺ: لوددتُ أنَّ الله تعالى نهى آباءنا وأبناءنا وخَدَمَنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذنٍ. فانْطَلَقَ معه إلى رسول الله ﷺ، فوجد هذه الآيةَ قد نزلت، فخرَّ ساجداً(١). وهذا أحدُ موافقاتِ رأيه الصائبِ ﷺ للوحي.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدِّيِّ أنه قال: كان أناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ يُعْجِبهُم أن يُواقِعوا نساءهم في هذه الساعات، فيغتسلوا ثم يخرجون إلى الصلاة، فأمرهم الله تعالى أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذنٍ بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا)(٢).

ويُعلم منه أنَّ الأمر في قوله سبحانه: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ وإنْ كان في الظاهر للمملوكين والصبيان، لكنه في الحقيقة للمخاطَبين، فكأنهم أُمروا أن يأمروا المذكورينَ بالاستئذان، وبهذا ينحلُّ ما قيل: كيف يأمر الله عز وجل مَن لم يبلغ الحلمَ بالاستئذانِ، وهو تكليفٌ ولا تكليفَ قبل البلوغ؟ وحاصلُه أنَّ الله تعالى لم يأمره حقيقةً، وإنما أمر سبحانه الكبيرَ أن يأمره بذلك، كما أمره أن يأمره بالصلاة، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «مُرُوا أولادَكم بالصلاةِ وهم أبناءُ سبعِ سنينَ، واضْرِبوهم عليها وهم أبناءُ عشرِ سنين»(٣) وأَمْرُه بما ذُكر ونحوِه من باب التأديب والتعليم، ولا إشكال فيه.

وقيل: الأمرُ للبالغين من المذكورين على الحقيقة، ولغيرهم على وجه التأديب.

وقيل: هو للجميع على الحقيقة، والتكليفُ يعتمِدُ التمييزَ ولا يتوقَّف على

---

(١) أخرجه ابن منده ـ كما في الإصابة ٩/ ١٥٥ـ من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ﷺ بنحوه، وهذا إسناد تالف.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٣٣-٢٦٣٤.

(٣) أخرجه أحمد (٦٦٨٩) و(٦٧٥٦)، وأبو داود (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، وأخرجه أحمد (١٥٣٣٩)، وأبو داود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

البلوغ، فالمرادُ بالذين لم يبلغوا الحلم: المميِّزون من الصغار، وهو كما ترى.

واختلف في هذا الأمر؛ فذهب بعضٌ إلى أنه للوجوب، وذهب الجمهورُ إلى أنه للنَّدْبِ، وعلى القولين هو مُحْكَمٌ على الصحيح، وسيأتي تمامُ الكلام في ذلك.

والجمهورُ على عموم «الذين مَلَكَتْ أيمانُكم» في العبيد والإماء، الكبارِ والصغار، وعن ابن عمر ومجاهدٍ أنه خاصٌّ بالذكور كما هو ظاهرُ الصيغة، ورُوي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله رضي الله عنهما.

وقال السُّلميُّ: إنه خاصٌّ بالإناث[1]. وهو قولٌ غريبٌ لا يعوَّل عليه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما تخصيصُه بالصغار، وهو خلافُ الظاهر جداً.

والمراد بـ «الذين لم يبلغوا الحلم» الصبيانُ ذكوراً وإناثاً على ما يقتضيه ما مرَّ في سابقه عن الجمهور، وخُصَّ بالمراهقين منهم. و«منكم» لتخصيصهم بالأحرار، ويُشْعِرُ به المقابلةُ أيضاً. وفي «البحر»: هو عامٌّ في الأطفال عبيداً كانوا أو أحراراً[2]. وكنى عن القصور عن درجة البلوغ بما ذكر لأن الاحتلام أقوى دلائله.

وقد اتفق الفقهاءُ على أنه إذا احتلم الصبيُّ فقد بَلَغَ، واختلفوا فيما إذا بلغ خمسَ عَشْرَةَ سنةً ولم يحتلم، فقال أبو حنيفة في المشهور: لا يكون بالغاً حتى يَتِمَّ له ثماني عَشْرةَ سنةً، وكذا الجاريةُ إذا لم تحتلم أو لم تَحِضْ أو لم تَحْبَلْ لا تكون بالغةً عنده حتى يتمَّ لها سَبْعَ عَشْرةَ سنةً، ودليلُه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٣٤] وأَشُدُّ الصبيِّ ـ كما روي عن ابن عباس، وتبعه القُتَيبيُّ[3] ـ ثماني عَشْرةَ سنةً، وهو أقلُّ ما قيل فيه، فيبنَى الحكم عليه للتيقُّن به، غيرَ أنَّ الإناث نشؤهنَّ وإدراكهنَّ أسرعُ، فنقص في حقهنَّ سنة؛ لاشتمالها على الفصول الأربعة التي يوافقُ واحدٌ منها المزاجَ لا محالة.

---

(١) أخرجه عن أبي عبد الرحمن السلميِّ أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤٠٢)، وابن أبي شيبة ٤/ ٤٠٠، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٥٢-٥٥٣. وأخرج عنه الطبري ١٧/ ٣٥١-٣٥٢ قوله: هي في الرجال والنساء، يستأذنون على كل حال، بالليل والنهار.

(٢) البحر ٦/ ٤٧٢.

(٣) في تفسير غريب القرآن ص٢٥٤.

وقال صاحباه والشافعيُّ وأحمد: إذا بلغ الغلامُ والجاريةُ خمسَ عشرةَ سنةً فقد بلغا، وهو روايةٌ عن الإمام رضي الله عنه أيضاً وعليه الفتوى.

ولهم أنَّ العادة الفاشية أن لا يتأخَّر البلوغُ فيهما عن هذه المدة، وقيِّدت العادةُ بالفاشية لأنه قد يبلغ الغلام في اثنتي عشرةَ سنةً، وقد تبلغُ الجارية في تسع سنين. واستدلَّ بعضُهم على ما تقدَّم بما رَوَى ابن عمر رضي الله عنهما أنه عُرِضَ على النبيِّ ﷺ يومَ أحدٍ وله أربعَ عَشْرةَ سنةً فلم يُجزْه، وعُرِضَ عليه عليه الصلاة والسلام يومَ الخندقِ وله خمسَ عَشْرَةَ سنةً فأجازه(١).

واعترض أبو بكر الرازيُّ على ذلك بأنَّ أُحُداً كان في سنة ثلاثٍ والخندقَ في سنة خمسٍ، فكيف يصحُّ ما ذكر في الخبر؟ وأيضاً لا دلالةَ فيه على المدَّعى؛ لأن الإجازة في القتال لا تعلُّقَ لها بالبلوغ، فقد لا يؤذَنُ البالغُ لضَعْفِه، ويؤذَنُ غيرُ البالغ لقوَّته وقدرته على حمل السلاح.

ولعل عَدَمَ إجازته عليه الصلاة والسلام ابنَ عمر رضي الله عنهما أولاً إنما كان لضَعْفِه، ويُشْعِرُ بذلك أنه ﷺ ما سأله عن الاحتلام والسنّ(٢).

ومما تفرَّد به الشافعيُّ رضي الله عنه - على ما قيل - جَعْلُ الإنباتِ دليلاً على البلوغ، واحتجَّ له بما رَوَى عطيةُ القرظيُّ أنَّ النبيَّ ﷺ أَمَرَ بقتل مَن أَنْبتَ مِن قريظةَ، واستَحْيى(٣) مَن لم يُنْبِتْ، قال: فنظروا إليَّ فلم أكن قد أنبتُّ، فاستبقاني ﷺ(٤).

وتعقَّبه أبو بكر الرازيُّ(٥) بأنَّ هذا الخبر لا يجوز إثباتُ الشرع بمثله، فإنَّ عطيةَ هذا مجهولٌ لا يُعْرَفُ إلا من هذا الخبر. وأيضاً هو مختلِفُ الألفاظ، ففي بعضِ

---

(١) أخرجه أحمد (٤٦٦١)، والبخاري (٢٦٦٤)، ومسلم (١٨٦٨).

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٣١. وقد رُدَّ ما ذُكر أولاً من أن أُحُداً كانت سنة ثلاث والخندق سنة خمس، بأنه يمكن أن يكون ابن عمر رضي الله عنهما في غزوة أحد قد دخل في أول سنة أربع عشرة، وفي غزوة الخندق كان في آخر الخامسة عشرة. ينظر المفهم ٣/ ٦٩٧.

(٣) في (م): واستحياء.

(٤) أخرجه أحمد (١٨٧٧٦)، والترمذي (١٥٨٤) وقال: حسن صحيح.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ٣٣٢.

رواية أنَّ النبيَّ ﷺ أَمر بقَتْلِ مَن جَرَتْ عليه المَوَاسي(١)، وأيضاً يجوزُ أن يكون الأمرُ بقَتْلِ مَن أَنْبتَ ليس لأنه بالغٌ بل لأنه قويٌّ، فإنَّ الإنباتَ يدلُّ على القوَّة البدنية.

وانتُصِرَ للشافعيِّ بأنَّ الاحتمال مردودٌ بما روي عن عثمان رضي الله عنه، أنه سئل عن غلامٍ فقال: هل اخضرَّ إزارُه(٢)؟ فإنه يدلُّ على أنَّ ذلك كان كالأمر المتَّفقِ عليه فيما بين الصحابة رضي الله عنهم.

ثم المشهورُ عن الشافعيِّ عليه الرحمةُ جَعْلُ ذلك دليلاً على البلوغ في حقِّ أطفال الكفار(٣). وتكلَّف الشافعيةُ في الانتصار له وردِّ التشنيع عليه بما لا يخفى ما فيه على مَن راجَعَه.

ومن الغريب ما روي عن قوم من السَّلَفِ أنهم اعتبروا في البلوغ أن يبلغ الإنسانُ في طوله خمسةَ أشبارٍ، وروي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنه قال: إذا بلغ الغلامُ خمسةَ أشبارٍ فقد وقعتْ عليه الحدودُ؛ يُقتصُّ له ويُقتصُّ منه(٤).

وعن ابن سيرين عن أنس قال: أُتي أبو بكر رضي الله عنه بغلامٍ قد سرق، فأمر به فشُبِرَ، فنقص أنملةً فخلَّى عنه(٥). وبهذا المذهب أخذ الفرزدق في قوله يمدحُ يزيدَ بن المهلَّب:

مازال مذ عَقَدتْ يداه إزارَه ... وسما فأدرَكَ خمسةَ الأشبارِ
يُدْني كتائبَ من كتائبَ تلتقي ... بالطَّعنِ يومَ تجَاوُلٍ وغوارِ(٦)

وأكثرُ الفقهاء لا يقولون به؛ لأنَّ الإنسان قد يكونُ دونَ البلوغ ويكونُ طويلاً،

---

(١) أخرجه بنحوه الحاكم ٤/ ٣٨٩-٣٩٠، والبيهقي ٦/ ٥٨.
(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شيبة ٩/ ٤٨٥، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٢١٧.
(٣) الأم ٤/ ١٧٦.
(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٣٢، وينظر مصنف ابن أبي شيبة ٩/ ٤٨٦، والمحلى ١١/ ١٤.
(٥) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٣٢، وأخرجه ابن أبي شيبة ٩/ ٤٨٦ من طريق حميد عن أنس.
(٦) ديوان الفرزدق ص ٣٠٥، والبيت الثاني فيه برواية:
يدني خوافقَ من خوافقَ تلتقي ... في كلِّ مُعْتَبَطِ الغبارِ مُثَارِ

وفوقَ البلوغ ويكونُ قصيراً، فلا عبرةَ بذلك، ولعل الأخبار السابقة لا تصحّ. وما نُقِلَ عن الفرزدق لا يتعيَّن إرادةُ البلوغ فيه، ومِن الناس مَن قال: إنه أراد بخمسة الأشبار القبر، كما قال الآخر:

عـجـبـاً لأربـع أَذْرُعٍ فـي خـمـسـةٍ فـي جـوفـه جـبـلٌ أشـمُّ كـبـيـرُ[1]

هذا وقرأ الحسن وأبو عمرو في رواية: «الحُلْم» بسكون اللام[2]، وهي لغةُ تميم.

وذكر الراغب[3] أن الحُلُم بالضم والحُلْم بالسكون كلاهما مصدرُ «حَلَم في نومه بكذا» بالفتح: إذا رآه في المنام، يحلُم بالضم. ولم يخصَّ ذلك بلغةٍ دون أخرى. وعن بعضهم عدُّ حَلَماً بالفتح مصدراً لذلك أيضاً.

وفي «الصحاح»[4]: الحلم بالضم: ما يراه النائم؛ تقول منه: حَلَم بالفتح واحْتَلَم، وتقول: حَلَمْتُ بكذا، وحَلَمْتُه أيضاً، فيتعدَّى بالباء وبنفسه؛ قال:

فـحـلَـمْـتُـهـا وبـنـو رُفَـيـدةَ دونَـهـا لا يَـبْـعَـدَنَّ خـيـالَـهـا الـمـحـلـومُ[5]

والحِلْمُ بكسر الحاء: الأناةُ؛ تقول منه: حَلُم الرجلُ بالضم، إذا صار حليماً.

وفي «القاموس»: الحُلْم بالضمِّ وبضمَّتين: الرؤيا، جمعُه أحلام. ثم قال: وحَلَم به وعنه: رأى له رؤيا، أو رآه في النوم. والحُلْم بالضم والاحتلامُ: الجماع في النوم، والاسم: الحُلُم كعُنُق. والحِلْم بالكسر: الأناة والعقلُ، وجَمْعُه: أحلامٌ وحُلوم[6]. اهـ.

والظاهرُ أنَّ ما نحن فيه بمعنى الجماع في النوم، وهو الاحتلامُ المعروف، ووجهُ الكناية السابقةِ عليه ظاهرٌ.

---

(١) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/ ٨، وقائله كما ذكر التبريزي عبد الله بن أيوب من أهل اليمامة، وهو من قصيدة قالها في منصور بن زياد أحد وجوه الدولة العباسية.

(٢) القراءات الشاذة ص ١٠٣، والبحر ٦/ ٤٧٢.

(٣) في مفرداته (حلم).

(٤) مادة (حلم).

(٥) الصحاح (حلم)، والبيت للأخطل، وهو في ديوانه ص ٨٨. ورفيدة: أبو حيٍّ من العرب يقال لهم: الرفيدات. اللسان (رفد).

(٦) القاموس (حلم).

وقال الراغب: الحُلُم: زمان البلوغ، وسمِّي الحُلُمَ لكونه جديراً صاحبُه بالحِلْم، أي: الأناة وضبط النفس عن هَيَجانِ الغضب[١]. وفي النفس منه شيءٌ.

﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي: ثلاثَ أوقاتٍ في اليوم والليلة، والتعبيرُ عنها بالمرَّات للإيذان بأنَّ مدار طلب الاستئذان مقارَنةُ تلك الأوقاتِ لمرور المستأذِنين بالمخاطَبين، لا أنْفُسُها، فنَصْبُ «ثلاثَ مراتٍ» على الظرفية للاستئذان، وهو الذي ذهب إليه الجمهور، ويدلُّ على ما ذُكر قولُه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ إلخ فإنَّ الظاهر أنه في محلِّ النصب أو الجرِّ ـ كما قيل ـ على[٢] أنه بدلٌ من «ثلاث» أو من «مرَّات» بدلَ مفصَّلٍ من مُجْمَلٍ.

وجوِّز أن يكون في محلِّ الرفع على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: أحدُها من قبل.. إلخ، وهو أيضاً يدلُّ على ما ذكرنا.

واختار في «البحر» أنَّ المعنى: ثلاثَ استئذاناتٍ كما هو الظاهرُ، فإنك إذا قلت: ضربتُ ثلاثَ مرَّاتٍ، لا يفهَمُ منه إلَّا ثلاثَ ضرباتٍ، ويؤيِّدُه قولُه عليه الصلاة والسلام: «الاستئذانُ ثلاثٌ»[٣]، وعليه يكون «ثلاثَ مراتٍ» مفعولاً مطلقاً للاستئذان، و«من قَبْلِ» إلخ ظرفٌ له.

وشُرِعَ الاستئذانُ من قَبْلِ صلاةِ الفجر لظهور أنه وقتُ القيام عن المضاجع وطرحِ ثياب النوم ولبسِ ثيابِ اليقظة[٤]، وكلُّ ذلك مَظِنَّةُ انكشافِ العورة.

وأيضاً كثيراً ما يُجْنِبُ الشخص ليلاً، فيغتسلُ في ذلك الوقت ويستحي من الاطِّلاع عليه في تلك الحالة ولو مستورَ العورة.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ أي: وحين تخلعون ثيابكم التي تلبسونها في النهار وتَحطُّونها عنكم ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بيانٌ للحين، والظهيرةُ كما قال الراغب: وقتُ

---

(١) مفردات الراغب (حلم) بنحوه.
(٢) قوله: على، ليس في (م).
(٣) البحر ٦/ ٤٧٢، والحديث أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣): (٣٥) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، ولفظ البخاري: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع».
(٤) جاء في هامش الأصل و(م): بفتح القاف، وتسكينُها غير جائز إلا في الضرورة. اهـ منه. والكلام بلفظه في حاشية الشهاب ٦/ ٣٩٩.

الظهر[١]. وفي «القاموس»: هي حدُّ انتصافِ النهار، أو إنما ذلك في القيظ[٢].

وجوِّز أن تكون «من» أَجْلية والكلامُ على حذف مضافٍ، أي: وحين تضعون ثيابكم من أَجْلِ حرِّ الظهيرة. وفسَّر بعضُهم الظهيرةَ بشدَّة الحرِّ عند انتصاف النهار، فلا حاجةَ إلى الحذف.

و«حين» عطفٌ على «من قبل»، وهو ظاهرٌ على تقدير كونه في محلِّ نصب، وأمَّا على التقديرين الآخرين فيلتزَمُ القولُ ببناءِ «حينَ» على الفتح وإن أُضيفَ إلى مضارعٍ، كما قيل في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] على قراءةِ فَتْحِ ميم «يوم»[٣].

والتصريحُ بمدار الأمر أعني وضعَ الثياب في هذا الحين دون ما قبلُ وما بعدُ؛ لِمَا أنَّ التجرُّد عن الثياب فيه لأَجْلِ القيلولة لقلَّةِ زمانها، كما ينبئُ عنه إيرادُ الحين مضافاً إلى فعلٍ حادثٍ مُتَقضٍّ، ووقوعُها في النهار الذي هو مَئِنةٌ لكثرةِ الورود والصدور، ومَظِنةٌ لظهور الأحوال وبروزِ الأمور، ليس من التحقُّق والاطِّرادِ بمنزلة ما في الوقتين المذكورين، فإنَّ تحقُّق المدار فيهما أمرٌ معروفٌ لا يحتاج إلى التصريح به.

﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ ضرورةَ أنه وقتُ التجرُّدِ عن لباس اليقظة والالتحافِ بثيابِ النوم، وكثيراً ما يتعاطى فيه مقدِّمات الجماع، وإن كان الأفضل تأخيره لمن لا يغتسل على الفور إلى آخر الليل.

ويعلمُ ممَّا ذُكر في حيِّز بيانِ حكمةِ مشروعيةِ الاستئذانِ في الوقت الأول والوقت الأخير أنَّ المراد بالقَبْليةِ والبَعْديةِ المذكورتين ليس مُطْلَقَهما المتحقِّقَ في الوقت الممتدِّ المتخلِّلِ بين صلاةِ الفجر وصلاةِ العشاء، بل المرادُ بهما طرفا ذلك الوقتِ الممتدِّ المتَّصلان اتِّصالاً عادياً بالصلاتين المذكورتين، وعدمُ التعرُّضِ للأمر بالاستئذان في الباقي من الوقت الممتدِّ: إمَّا لانفهامه بعد الأمر بالاستئذان في

---

(١) مفردات الراغب (ظهر).

(٢) القاموس (ظهر).

(٣) هي قراءة نافع كما في التيسير ص ١٠١.

الأوقات المذكورة من باب الأَوْلَى، وإمَّا لندرة الوارد فيه جدّاً كما قيل. وقيل: إنَّ ذاك لجريان العادة على أنَّ مَن وَرَدَ فيه لا يَرِدُ حتى يُعْلِمَ أهلَ البيت؛ لِمَا في الورود ودخولِ البيت فيه من دونِ إعلامِ أهله من التهمة ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقولُه سبحانه: ﴿لَّكُمْۚ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً له، أي: هنَّ ثلاثُ عوراتٍ كائنةٌ لكم، والعورةُ: الخللُ، ومنه: أَعْوَرَ الفارسُ وأعْوَرَ المكانُ: إذا اختلَّ حالُه، والأعور: المختلُّ العين. وعورةُ الإنسان: سوأتُه، وأصلُها كما قال الراغب: من العار، وذلك لِمَا يلحق في ظهورها من العار، أي: المذمّة[١].

وضميرُهنَّ المحذوفُ للأوقات الثلاثة، والكلامُ على حذفِ مضافٍ، أي: هنَّ[٢] ثلاثُ أوقات يختلُّ فيها التستُّر عادةً، وقدَّر أبو البقاء المضافَ قبل «ثلاث» فقال: أي: هي أوقاتُ ثلاثِ عوراتٍ[٣]. أو لا حَذْفَ فيه، وإطلاقُ العورات على الأوقات المذكورة المشتمِلةِ عليها للمبالغة كأنها نفسُ العورات. والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لبيان علَّة طلبِ الاستئذان في تلك الأوقات.

وقرأ أبو بكر وحمزةُ والكسائيُّ: «ثلاثَ» بالنصب[٤] على أنه بدلٌ من «ثلاثَ مرَّاتٍ»، وجوَّز أبو البقاء[٥] كونَه بدلاً من الأوقات المذكورة[٦]، وكونَه منصوباً بإضمارِ: أعني.

وقرأ الأعمش: «عَوَراتٍ» بفتح الواو[٧]، وهي لغةُ هذيل بنِ مدركة وبني تميم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الذين مَلَكَتْ أيمانُكم، والذين لم يبلغوا

---

(١) مفردات الراغب (عور).

(٢) في (م): هي.

(٣) الإملاء ٤/ ٨٨.

(٤) التيسير ص ١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٥) في الإملاء ٤/ ٨٨.

(٦) يعني قوله: «من قبل صلاة الفجر» وما عطف عليه، ويكون بدلاً على المحل، ولذلك نُصب. الدر المصون ٨/ ٤٣٩.

(٧) القراءات الشاذة ص ١٠٣، والبحر ٦/ ٤٧٢، والكلام منه.

الحلم منكم ﴿جُنَاحٌ﴾ أي[1]: في الدخول بغير استئذان ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أي: بعد كلِّ واحدةٍ من تلك العورات الثلاثة، وهي الأوقاتُ المتخلِّلةُ بين كلِّ اثنتين[2] منهنَّ.

وإيرادُها بعنوان البَعْديةِ مع أنَّ كلَّ وقتٍ من تلك الأوقاتِ قَبْلَ كلِّ عورةٍ من العورات كما أنها بعد أخرى منهنَّ؛ لتوفيةِ حقِّ التكليف والترخيص الذي هو عبارةٌ عن رَفْعِه، إذ الرخصة إنما تُتَصوَّر في فعلٍ يقع بعد زمانِ وقوع الفعل المكلَّف، كذا في «إرشاد العقل السليم»[3]. وظاهرُه أنه لا حَرَجَ في الدخول بغير استئذانٍ في الوقت المتخلِّلِ بين ما بعدَ صلاةِ العشاء وما قبلَ صلاةِ الفجر بالمعنى السابق للبَعْديةِ والقَبْليةِ، ومقتضَى ما قدَّمنا ثبوتُ الحرج في ذلك، فيكون كالمستثنى مما ذكر.

وكان الظاهرُ أن يقال: ليس عليهم جناحٌ بعدهنَّ، وعَدَم التعرُّضِ لنفيِ أنْ يكون على المخاطبين جناحٌ؛ لأن المأمورين ظاهراً فيما تقدَّم بالاستئذان في العورات الثلاث هم المماليك والمراهقون الأحرارُ لا غير، وإن اعتبر المأمورون في الحقيقة فيما مرَّ كان الظاهرُ هاهنا أن يقال: ليس عليكم جناحٌ بعدهنَّ مقتصراً عليه، ولعل اختيار ما في النظم الجليل لرعايةِ المبالغة في الإذن بتَرْكِ الاستئذان فيما عدا تلك الثلاث، حيث نُفي الجناحُ عن المأمورين به فيها ظاهراً وحقيقة.

والظاهرُ أنَّ المراد بالجُناحِ: الإثمُ الشرعيُّ، واستشكل بأنه يُفْهَمُ من الآية ثبوتُ ذلك للمخاطَبين إذا دخل المماليكُ والذين لم يبلغوا الحلم منهم عليهم من غيرِ استئذانٍ في تلك العورات، مع أنه لا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى، وثبوتُه للمماليك والصغارِ كذلك مع أنَّ الصغار غيرُ مكلَّفين، فلا يتصوَّرُ في حقِّهم الإثمُ الشرعيُّ.

وأجيب بأن ثبوتَ ذلك لمن ذُكر بواسطة المفهوم، ولا عبرةَ به عندنا، وعلى القول باعتباره يمكن أن يكون ثبوتُه للمخاطبين حينئذٍ لتَرْكِهم تعليمَهم، والتمكينِ من الدخول عليهم.

---

(١) قوله: أي، ليس في الأصل.

(٢) في (م): اثنين.

(٣) ٦/ ١٩٤.

ويبقى إشكالُ ثبوتِه للصغار، ولا مَدْفَعَ له إلا بالتزامِ القولِ بأنَّ التكليف يعتمدُ التمييزَ ولا يتوقَّفُ على البلوغ، وهو خلافُ ما عليه جمهورُ الأئمة.

ويَرِدُ على القول بأنَّ ثبوت ذلك لمن ذُكِر بواسطة المفهوم بحثٌ لا يخفى. والتُزِمَ في الجواب كونُ المراد بالجناح الإثمَ العرفيَّ الذي مَرْجِعُه تَرْكُ الأَوْلَى والأَخْلَقِ من حيث المروءةُ والأدبُ، وجوازُ ثبوتِ ذلك للمكلَّفِ وغيرِ المكلَّفِ مما لا كلامَ فيه، فكأنَّ المعنى: ليس عليكم أيها المؤمنون جناحٌ في دخولهم عليكم بعدهنَّ لتَرْكِكُم تعليمَهم، وتَمْكينِكم إياهم منه، المُفْضي إلى الوقوف على ما تأبَى المروءةُ والغيرةُ الوقوفَ عليه، ولا عليهم جُناحٌ في ذلك لإخلالهم بالأدب المفضي إلى الوقوف على ما تكرهُ ذوو الطباع السليمةِ الوقوفَ عليه وينفعلون منه. ولا يأبى ذلك تقدُّمُ الأمرِ السابق، ولا ما في «الإرشاد» من بيان نكتةِ إيرادِ العورات الثلاث بعنوان البَعْدِيةِ بما سمعتَ، فتدبَّر فإنه دقيق.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ منسوخٌ بهذه الآية، حيث دلَّتْ على جواز الدخول بدون استئذانٍ بعد الأوقات الثلاث، ودلَّ ذلك على خلافه.

ومَن لم يذهب[1] إليه قال: إنها في الصبيان ومماليكِ المدخولِ عليه، وآيةُ الاستئذان في الأحرار البالغين، ومماليكُ الغير في حُكْمِهم، فلا منافاةَ ليُلتزَمَ النسخُ.

ثم اعلم أنَّ نفي الجُناحِ بعدهنَّ على مَن ذُكر ليس على عمومه، فإنه متى تحقَّق[2] أو ظُنَّ كونُ أهل البيت على حالٍ يكرهون اطِّلاع المماليك والمراهقين من الأحرار عليها، كانكشافِ عورةِ أحدِهم، ومعاشرتِه لزوجته أو أَمتِه، إلى غير ذلك، لا ينبغي الدخولُ عليهم بدون استئذانٍ، سواءٌ كان ذلك في إحدى العورات الثلاثِ أو في غيرها. والأمرُ بالاستئذان فيها ونفيُ الجناح بعدها بناء على العادة الغالبة من كون أهلِ البيت في الأوقات الثلاث المذكورةِ على حالٍ يقتضي الاستئذانَ، وكونِهم على حالٍ لا يقتضيه في غيرها.

---

(١) في (م): ومن ذهب، وهو خطأ.

(٢) في الأصل: حقق.

هذا وفي الآية توجيهٌ آخَرُ ذَكَره أبو حيان، وظاهرُ صَنيعِه اختيارُه، وعليه اقْتَصَر أبو البقاء، وهو أنَّ التقدير: ليس عليكم ولا عليهم جناحٌ بعد استئذانهم فيهنَّ، فحُذِفَ الفاعلُ وحرفُ الجرِّ فبقي: بعد استئذانهنَّ، ثم حُذف المصدر فصار: بعدهنَّ[١]. وعليه تقلُّ مؤونة الكلام في الآية، إلا أنه خلافُ الظاهر جداً، والجمهورُ على ما سمعتَ أولاً في معناها.

والظاهرُ أنَّ الجملة على القراءتين السابقتين في «ثلاث» مستأنفةٌ مسوقةٌ لتقرير ما قبلها، وفي «الكشاف» أنها إذا رُفع «ثلاث» كانت في محلِّ رفعٍ على الوصف، والمعنى: هنَّ ثلاثٌ مخصوصةٌ بالاستئذان، وإذا نُصب لم يكن لها محلٌّ وكانت كلاماً مقرِّراً للاستئذان في تلك الأحوال خاصةً[٢].

وقال في ذلك صاحب «التقريب»: إنَّ رَفْعَ الحرج وراء الأوقات الثلاثة مقصودٌ في نفسه، فإذا وُصف به «ثلاثَ عوراتٍ» نصباً، وهو بدلٌ من «ثلاثَ مرَّاتٍ»، كان التقدير: ليستأذنكم هؤلاء في ثلاث عوراتٍ مخصوصةٍ بالاستئذان. ويدفعه وجوهٌ مستفادةٌ من علم المعاني:

أحدها: اشتراطُ تقدُّمِ عِلْمِ السامع بالوصف، وهو مُنْتفٍ إذ لم يُعلم إلا من هذا.

والثاني: جَعْلُ الحكم المقصود وصفاً للظرف، فيصيرُ غيرَ مقصودٍ.

والثالث: أنَّ الأمر بالاستئذان في المرَّات الثلاث حاصلٌ، وُصِفَتْ بأنْ لا حَرَجَ وراءها أوْ لَمْ تُوصَفْ، فيضيع الوصف. وأما إذا وُصِفَ المرفوعُ فيزول الدوافعُ لأنه ابتداءُ تعليم، أي: هنَّ ثلاثٌ مخصوصةٌ بالاستئذان، وصفة للخبر المقصود ولم يتقيَّد أمرُ الاستئذان به، فليتأمَّلْ فإنه دقيقٌ جليلٌ. انتهى.

وتعقِّب بأن الوجهين الأخيرين ساقطان لا طائلَ تحتهما، والأولُ هو الوجه.

فإن قيل: هو مشتركُ الإلزام. قيل: قد تقدَّم في قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَئْذِنكُمُ﴾ ما يرشد إلى العلم بذلك، وليست الجملةُ الأخيرة من أجزائه كما هي كذلك على فرض

---

(١) البحر ٦/ ٤٧٢، والإملاء ٤/ ٨٨.

(٢) الكشاف ٣/ ٧٥.

جَعْلِها صفةً للبدل، ولا يحتاجُ مع هذا إلى حديثِ أنَّ رَفْعَ الحرج وراء الأوقات الثلاثة مقصودٌ في نفسه، بل قيل: هو في نفسه ليس بشيءٍ، فقد قال الطيبيُّ: إنَّ المقصود الأولى الاستئذانُ في الأوقات المخصوصة، ورفعُ الحرج في غيرها تابع له؛ لقول المحدَّثِ رضي الله عنه: لوددتُ أنَّ الله عز وجل نهى آباءنا وخَدَمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن، ثم انطلق إلى النبيِّ ﷺ وقد نزلت الآية[1].

وفي «الكشف»: أنه جيء به، أي: بالكلام الدالِّ على رَفْعِ الحرج ـ أعني «ليس عليكم» إلخ ـ على رَفْعِ «ثلاث» مؤكِّداً للسالف على طريق الطَّرْدِ والعَكْسِ[2]، وكذلك إذا نُصبَ وجُعل استئنافاً، وأما إذا جُعل وصفاً فيفوتُ هذا المعنى، وهذا أيضاً من الدوافع. انتهى، فتأمَّل ولا تغفل.

وقوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هم طوَّافون، والجملةُ استئنافٌ ببيانِ العُذْرِ المرخِّصِ في ترك الاستئذان، وهو المخالطةُ الضروريةُ وكثرةُ المداخلة. وفيه دليلٌ على تعليل الأحكام الشرعية، وكذا في الفرق بين الأوقات الثلاث وغيرها بأنها عورات.

وقولُه عز وجل: ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ جوِّز أن يكون مبتدأً وخبراً، ومتعلَّق الجارِّ كونٌ خاصٌّ حُذِفَ لدلالةِ ما قبلَه عليه، أي: بعضُكم طائفٌ على بعض. وجوِّز أن يكون معمولاً لفعل محذوفٍ، أي: يطوف بعضُكم على بعض.

وقال ابن عطية: «بعضُكم» بدلٌ من «طوَّافون»[3].

وتعقَّبه في «البحر» بأنه إن أراد أنه بدلٌ من «طوافون» نفسِه فلا يجوز؛ لأنه يصير التقدير: هم بعضُكم على بعض، وهو معنًى لا يصحُّ. وإن أراد أنه بدلٌ من الضمير فيه فلا يصحُّ أيضاً إن قدِّر الضميرُ ضميرَ غيبةٍ لتقديرِ «هُم»؛ لأنه يصير التقدير: هم يطوفُ بعضُكم على بعض. وإن جُعِلَ التقدير: أنتم يطوف عليكم بعضُكم على بعضٍ، فيدفعُه أنَّ «عليكم» يدلُّ على أنهم هم المطوفُ عليهم، وأنتم

---

(١) سلف ص٤٥٨-٤٥٩ من هذا الجزء.

(٢) الطرد والعكس: هو أن يؤتى بكلامين يقرِّر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني، وبالعكس، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] الإتقان ٢/ ٨٧٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤.

طوافون يدلُّ على أنهم طائفون، فيتعارضان(١).

وقيل: يقدَّر: أنتم طوَّافون، ويرادُ بأنتم: المخاطبون والغيَّبُ من المماليك والصبيان، وهو كما ترى.

وجوَّز أبو البقاء كونَ الجملة بدلاً من التي قبلها، وكونَها مبيِّنةً مؤكِّدةً(٢).

ولا يخفَى عليك ما تضمَّنته من جبر قلوب المماليك بجَعْلِهم بعضاً من المخاطَبين، وبذلك يقوَى أمرُ العلِّية.

وقرأ ابن أبي عبلةَ: «طوافين» بالنصب على الحال من ضمير «عليهم»(٣).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مصدرِ الفعل الذي بعدُ، على ما مرَّ تفصيلُه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وفي غيره أيضاً، أي: مثلَ ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالَّةَ على ما فيه نفعُكم وصلاحُكم، أي: ينزِّلُها مبيَّنةً واضحةَ الدلالةِ، لا أنه سبحانه يبيِّنها(٤) بعد أن لم تكن كذلك. وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعول الصريح لِمَا مرَّ غيرَ مرةٍ.

وقيل: يبيِّنُ عللَ الأحكام. وتعقِّب بأنه ليس بواضحٍ، مع أنه مؤدٍّ إلى تخصيص الآيات بما ذُكر ها هنا.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغٌ في العلم بجميع المعلومات، فيعلم أحوالكم ﴿حَكِيمٌ ۝٥٨﴾ في جميع أفاعيله، فيشرِّعُ لكم ما فيه صلاحُكم مَعَاشاً ومَعَاداً.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ لمَّا بيَّن سبحانه آنفاً حُكْمَ الأطفال من أنهم لا يحتاجون إلى الاستئذان في غير الأوقات الثلاثة، عقَّب جلَّ وعلا ببيان حالهم إذا بلغوا؛ دفعاً لِمَا عسى أن يُتوهَّمَ أنهم وإن كانوا أجانب ليسوا كسائر الأجانب بسبب اعتيادهم الدخولَ، فاللامُ في «الأطفال» للعهد، إشارةً إلى «الذين لم يبلغوا الحلم» المجعولين قسيماً للمماليك، أي: إذا بلغ الأطفالُ الأحرارُ الأجانبُ

(١) البحر ٦/ ٤٧٣.
(٢) الإملاء ٤/ ٨٨.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٤، والبحر ٦/ ٤٧٣.
(٤) في الأصل: بينها.

﴿فَلْيَسْتَـْذِنُوا۟﴾ إذا أرادوا الدخول عليكم ﴿كَمَا ٱسْتَـْذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: الذين ذُكروا من قبلهم في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧].

وجوِّز أن تكون القَبْليةُ باعتبارِ الوصف لا باعتبار الذكر في النظم الجليل، بقرينةِ ذكرِ البلوغ وحكمِ الطفولية، أي: الذين بَلَغوا من قَبْلِهم. وأخرجَ هذا ابنُ أبي حاتم عن مقاتل(١)، وزَعَم بعضُهم أنه أَظْهَر.

وتعقِّبَ بأنَّ المراد بالتشبيه بيانُ كيفية استئذان هؤلاء وزيادةُ إيضاحِه، ولا يتسنَّى ذلك إلا بتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع، ولا ريبَ في أنَّ بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لا يخطر ببالِ أحدٍ وإن كان الأمر كذلك في الواقع، وإنما المعهودُ المعروفُ ذِكْرُهم قبل ذكرِهم، فالمعنى: فليستأذنوا استئذاناً كائناً مثلَ استئذانِ المذكورين قبلهم، بأنْ يستأذنوا في جميع الأوقات، ويرجعوا إن قيل لهم: ارجعوا، حَسْبَما فصِّل فيما سلف.

وكونُ المرادِ بالأطفال الأطفالَ الأحرارَ الأجانبَ قد ذهب إليه غيرُ واحد. وقال بعضُ الأجلَّة: المرادُ بهم ما يعمُّ الأحرارَ والمماليكَ، فيجب الاستئذانُ على مَن بلغ من الفريقين، وأَوْجَبَ هذا استئذان العبدِ البالغِ على سيدته لهذه الآية.

وقال في البحر: «منكم» أي: من أولادكم وأقربائكم(٢). وأخرج ابن أبي حاتم نحوَ هذا التفسير عن سعيد بن جبير. وأخرج عن سعيد بن المسيِّب أنه قال: يستأذنُ الرجل على أمِّه، فإنما نزلت: (وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ) في ذلك(٣).

وأخرج سعيد بن منصور، والبخاريُّ في «الأدب»، وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم وابنُ مردويه عن عطاءٍ أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما: أأستأذنُ على أختي؟ قال: نعم. قلت: إنها في حِجْري وأنا أنفقُ عليها، وإنها معي في البيت، أأستأذنُ عليها؟ قال: نعم، إنَّ الله تعالى يقول: (لِيَسْتَـْذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ) الآيةَ،

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٣٨.
(٢) البحر ٦/ ٤٧٣.
(٣) الخبران في تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٣٧ و٢٦٣٨.

فلم يأمر هؤلاء بالاستئذان إلا في العورات الثلاث، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، فالإذنُ واجبٌ على خَلْقِ الله تعالى أجمعين[(١)].

ورُوي عنه رضي الله عنه أنه قال: آيةٌ لا يؤمن بها أكثرُ الناس؛ آيةُ الإذن، وإنِّي لآمُرُ جارتي ـ يعني زوجَتَه ـ أنْ تستأذن عليَّ[(٢)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمَّهاتِكم وأخَوَاتِكم.

ونُقل عن بعضهم أنَّ وجوب الاستئذان المستفادَ من الأمر الدالِّ عليه في الآية منسوخٌ، وأنكر ذلك سعيد بن جبير، روي عنه: يقولون: هي منسوخةٌ، لا واللهِ ما هي منسوخةٌ، ولكنَّ الناس تَهاونوا بها.

وعن الشعبيِّ: ليستْ منسوخةً، فقيل له: إنَّ الناس لا يعملون بها. فقال: اللهُ تعالى المستعانُ.

وقيل: ذلك مخصوصٌ بعَدَم الرضا، وعدمِ بابٍ يُغْلَقُ كما كان في العصر الأول.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٩﴾ الكلام فيه كالذي سبق، والتكريرُ للتأكيد والمبالغةِ في طلب الاستئذان، وإضافةُ الآيات إلى ضمير الجلالة لتشريفها، وهو مما يقوِّي أمرَ التأكيد والمبالغة.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: العجائزُ، وهو جمعُ قاعدٍ كحائضٍ وطامثٍ، فلا يؤنَّثُ لاختصاصه، ولذا جُمِعَ على فواعل؛ لأنَّ التاء فيه كالمذكورة، أو هو شاذٌّ. قال ابن السكِّيت: امرأةٌ قاعد: قَعدتْ عن الحيض[(٣)].

---

(١) الأدب المفرد (١٠٦٣)، والكلام من الدر المنثور ٥/ ٥٧.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٤/ ٤٠٠، وأبو داود (٥١٩١)، وعزاه السيوطي في الدر لسعيد بن منصور وابن مردويه. وصححه الحافظ في الفتح ١١/ ٣١. وعندهم جميعاً: جاريتي، وليس عندهم: يعني زوجته. وأخرجه البيهقي في سننه ٧/ ٩٧ بلفظ: ... وإني آمُرُ هذه ـ جارية قصيرة قائمة على رأسه ـ أن تستأذن عليَّ.

(٣) إصلاح المنطق ص ٣٧٦، ونقله المصنف عن البحر ٦/ ٤٧٣.

وقال ابن قتيبة: سمِّيت العجائزُ قواعدَ لأنهنَّ يُكْثِرْنَ القعودَ لكِبَرِ سِنِّهنَّ[١].

وقال ربيعة[٢]: لقعودهنَّ عن الاستمتاع، حيث أَيِسْنَ ولم يَبْقَ لهنَّ طمعٌ في الأزواج. فقولُه تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ ـ أي: لا يَطْمَعْنَ فيه لكبرهنَّ ـ صفةٌ كاشفة.

﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الثياب الظاهرةَ التي لا يُفْضي وضعُها لكَشْفِ العورة، كالجلباب، والرداء، والقناعِ الذي فوقَ الخِمَار.

وأخرج ابن المنذر عن ميمون بن مهران أنه قال: في مُصْحَفِ أبيّ بن كعبٍ ومُصْحَفِ ابن مسعود: «فليس عليهن جناح أن يضعن جلابيبهن»[٣]. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود وابن عباس ﷺ أنهما كانا يقرآن كذلك[٤]. ولعله لذلك اقتصر بعضٌ في تفسير الثياب على الجلباب.

والجملةُ خبرُ «القواعد»، والفاءُ إمَّا لأنَّ اللام في «القواعد» موصولةٌ بمعنى اللاتي، وإمَّا لأنها موصوفةٌ بالموصول.

وقولُه تعالى: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾ حالٌ. وأصلُ التبرُّج: التكلُّفُ في إظهارِ ما يَخْفَى، من قولهم: سفينةٌ بارِجٌ: لا غطاءَ عليها. والبَرَجُ: سعةُ العين بحيث يُرى بياضُها محيطاً بسوادها كلِّه لا يغيبُ منه شيءٌ.

وقيل: أصلُه الظهورُ، من البُرْج، أي: القَصْر، ثم خُصَّ بأن تتكشَّف المرأةُ للرجال بإبداء زينتها وإظهارِ محاسنها.

وليست الزينةُ مأخوذةً في مفهومه حتى يقال: إنَّ ذِكْرَ الزينةِ من باب التجريد.

---

(١) تفسير الغريب لابن قتيبة ص ٣٠٨.

(٢) في الأصل و(م): ابن ربيعة، والمثبت هو الصواب، وهو ربيعة بن أبي عبد الرحمن، التيمي مولاهم، أبو عثمان المدني، المعروف بربيعة الرأي، ونقل المصنف كلامه عن البحر ٦/ ٤٧٣، وذكر عنه نحوه النحاس في معاني القرآن ٤/ ٥٥٥، وابن عطية في المحرر ٤/ ٩٥، والبغوي ٣/ ٣٥٦.

(٣) الدر المنثور ٥/ ٥٧.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤١.

والظاهر أنَّ الباء للتعدية. وقيل: زائدة في المفعول؛ لأنهم يفسِّرون التبرُّج بمتعدٍّ، ففي «القاموس»: تبرَّجَتْ: أظهرتْ زينتَها للرجال[1]. وفيه نظر.

والمرادُ بالزينة: الزينةُ الخفيَّةُ؛ لسَبْقِ العلم باختصاص الحكم بها، ولِمَا في لَفْظِ التبرُّج من الإشعار. والتنكيرُ لإفادة الشياع، وأنَّ زينةً ما وإنْ دقَّتْ داخلةٌ في الحكم، أي: غيرَ مُظْهِراتٍ زينةً مما أمر بإخفائه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بتَرْكِ الوَضْعِ والتستُّرِ كالشوابِّ ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ من الوضع؛ لبُعْدِه من التُّهمة، فلكلٍّ ساقطةٍ لاقطةٌ، وذكر ابن المنير للآية معنًى استحسنه الطيبيُّ فقال[2]: يَظْهرُ لي ـ والله تعالى أعلمُ ـ أنَّ قوله تعالى: (غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ) من بابِ:

على لاحبٍ لا يُهْتَدَى بمناره[3]

أي: لا منارَ فيه فيُهْتَدَى به، وكذلك المراد: والقواعدُ من النساء[4] لا زينةَ لهنَّ فيتبرَّجْنَ بها؛ لأن الكلام فيمَن هنَّ بهذه المثابة، وكأنَّ الغرض من ذلك أنَّ هؤلاء استعفافهنَّ عن وَضْعِ الثياب خيرٌ لهن، فما ظنُّك بذواتِ الزينة من الشوابّ؟ وأبلغُ ما في ذلك أنه جَعَلَ عَدَمَ وضع الثياب في حقِّ القواعد من الاستعفاف، إيذاناً بأنَّ وَضْعَ الثياب لا مدخلَ له في العفَّة، هذا في القواعد فكيف بالكواعب؟

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ مبالغٌ في سمع جميع ما يُسْمَعُ، فيَسْمَعُ بما يجري بينهنَّ وبين الرجال من المقاولة ﴿عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ فيعلم سبحانه مَقاصِدَهنَّ. وفيه من الترهيب ما لا يخفى.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في كتاب

---

(١) القاموس (برج).
(٢) في الانتصاف ٣/ ٧٦.
(٣) صدر بيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ١/ ٤٥٧.
(٤) بعدها في الانتصاف: اللاتي.

الزهراويّ[(١)] عن ابن عباس ﷺ: أنَّ هؤلاء الطوائفَ كانوا يتحرَّجون من مُؤاكلةِ الأصحَّاء حذاراً[(٢)] من استقذارهم إياهم، وخوفاً من تَأَذِّيهم بأفعالهم وأوضاعهم، فنزلت.

وقيل: كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام، فإذا لم يكن عنده ما يطعمُهم ذهب بهم إلى بيوت آبائهم وأمَّهاتهم، أو إلى بعضِ مَن سمَّاهم الله تعالى في الآية الكريمة، فكانوا يتحرَّجون من ذلك ويقولون: ذهب بنا إلى بيتِ غيره، ولعل أهلَه كارهون لذلك.

وكذا كانوا يتحرَّجون من الأكل من أموال الذين كانوا إذا خرجوا إلى الغزو وخلَّفوا هؤلاء الضعفاءَ في بيوتهم ودفعوا إليهم مفاتيحها وأذِنوا لهم أن يأكلوا مما فيها، مخافةَ أن لا يكون إذنُهم عن طيبِ نفسٍ منهم[(٣)].

وكان غيرُ هؤلاء أيضاً يتحرَّجون من الأكل في بيوت غيرهم، فعن عكرمة: كانت الأنصارُ في أنفسها قزازةٌ، فكانت لا تأكل من البيوت الذي ذكر الله تعالى.

وقال السدّيُّ: كان الرجل يدخل بيتَ أبيه[(٤)] أو بيتَ أخيه أو أخته فتُتْحِفُه المرأة بشيءٍ من الطعام، فيتحرَّجُ لأَجْلِ أنه ليس ثَمَّ ربُّ البيت.

والحَرَجُ لغةً كما قال الزجَّاج: الضيق[(٥)]، من الحَرَجَةِ: وهو الشجرُ الملتفُّ بعضُه ببعضٍ لضيق المسالك فيه. وقال الراغب: هو في الأصل: مجتمعُ الشيء، ثم أُطلق على الضِّيق وعلى الإثم[(٦)].

---

(١) كما في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٦، والبحر ٦/ ٤٧٣، والزهراوي هو عمر بن عبيد الله، أبو حفص القرطبي، محدث الأندلس مع ابن عبد البر، توفي سنة (٤٥٤هـ). السير ١٨/ ٢١٩.

(٢) في الأصل: حذراً.

(٣) أخرجه البزار (٢٢٤١-كشف)، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٦، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٥ من حديث عائشة ﵂. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٨٣-٨٤: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٤) في الأصل: ابنه، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في تفسير الرازي ٢٤/ ٣٥.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٥٣.

(٦) مفردات الراغب (حرج).

والمعنى على الرواية الأولى: ليس على هؤلاء حرجٌ في أكلهم مع الأصحاء. ويقدَّر على سائر الروايات ما يناسبُ ذلك مما لا يخفى. و«على» على معناها في جميع ذلك.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه لما نزل ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩] تحرَّج المسلمون عن مُؤاكلةِ الأعمى لأنه لا يبصر موضعَ الطعام الطيِّب، والأعرجِ لأنه لا يستطيع المزاحمةَ على الطعام، والمريضِ لأنه لا يستطيعُ استيفاءَ الطعام، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

وقيلَ: كانت العرب ومَن بالمدينة قبل البعث تجتنبُ الأكل مع أهل هذه الأعذار؛ لمكانِ جَوَلان يدِ الأعمى، وانبساطِ جِلْسةِ الأعرج، وعَدَمِ خلوِّ المريض من رائحةٍ تؤذي أو جرحٍ ينضُّ أو أنفٍ يَذِنُّ[2]، فنزلت.

ومَن ذهب إلى هذا جعَل «على» بمعنى «في»، أي: ليس في مؤاكلةِ الأعمى حرجٌ، وهكذا، وإلَّا لكان حقُّ التركيب: ليس عليكم [حرجٌ] أن تأكلوا مع الأعمى [ولم يكن: ليس على الأعمى][3] حرجٌ، وكذا يقال فيما بَعْدُ، وفيه بُعدٌ لا يخفى.

وقيل: لا حاجةَ إلى أن يقدَّر محذوفٌ بعد قوله تعالى: (حَرَجٌ) حَسْبَما أُشيرَ إليه، إذ المعنى: ليس على الطوائف المعدودة ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ حرجٌ ﴿أَن تَأْكُلُواْ﴾ أنتم وهم معكم ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ إلخ، وإلى كون المعنى كذلك ذهب مولانا شيخُ الإسلام، ثم قال: وتعميمُ الخطاب للطوائف المذكورة أيضاً يأباه ما قبله وما بعده، فإنَّ الخطابَ فيهما لغير أولئك الطوائفِ حتماً[4]. ولعل ما تقدَّم أولى، وأما تعميمُ الخطاب فلا أقولُ به أصلاً.

وعن ابن زيد والحسن، وذهب إليه الجبائيُّ، وقال أبو حيان: هو القولُ الظاهر، أنَّ الحرجَ المنفيَّ عن أهل العُذرِ هو الحرجُ في القعود عن الجهاد وغيرِه

(١) البحر ٦/ ٤٧٣، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٤٣ عن سعيد بن جبير.
(٢) أي: يسيل، والأذَنُّ: من يسيل منخراه. القاموس (ذنن).
(٣) ما بين حاصرتين من البحر ٦/ ٤٧٣، والكلام فيه بنحوه.
(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ١٩٦.

مما رخِّص لهم فيه، والحرجُ المنفيُّ عمَّن بعدَهم الحرجُ في الأكل من البيوت المذكورة[١].

قال صاحب «الكشاف»: والكلامُ عليه صحيحٌ؛ لالتقاء الطائفتين في أنَّ كلًّا منفيٌّ عنه الحرجُ، ومثالُه: أن يستفتي مسافرٌ عن الإفطار في رمضان، وحاجٌّ مفردٌ عن تقديم الحلق على النحر، فتقول: ليس على المسافر حَرَجٌ أن يفطر، ولا عليك يا حاجُّ أن تقدِّم الحلقَ على النحر[٢].

وهو تحقيقٌ لأمرِ العطف، وذلك أنه لمَّا كان فيه غرابةٌ لبُعْدِ الجامع باديَ النظر أزاله بأنَّ الغرض لما كان بيان الحكم كفاء الحوادث[٣]، والحادثتان ـ وإنْ تَباينتَا كلَّ التباينِ ـ إذا تقارنتا في الوقوع والاحتياجِ إلى البيان قَرُبَ الجامعُ بينهما، ولا كذلك إذا كان الكلامُ في غير معرض الإفتاء والبيان، وليس هذا القولُ منه بناءً على أنَّ الاكتفاء في تصوُّرٍ ما كافٍ في الجامعية كما ظُنَّ. وبهذا يظهر الجواب عمَّا اعتُرِضَ به على هذه الرواية من أنَّ الكلام عليها لا يلائمُ ما قبله ولا ما بعده؛ لأنَّ ملاءمته لِمَا بعده قد عَرفْتَ وَجْهَها، وأما ملاءمتُه لِمَا قبله فغيرُ لازمةٍ؛ إذ لم يُعْطَفْ عليه.

وربما يقال في وجه ذكر نفي الحرج عن أهلِ العذر بترك الجهاد وما يشبهُه مما رخِّص لهم فيه أثناءَ بيان الاستئذان ونحوه: إنَّ نفي الحرج عنهم بذلك مستلزمٌ عدمَ وجوب الاستئذان منه ﷺ لتَرْكِ ذلك، فلهم القعودُ عن الجهاد ونحوِه من غير استئذانٍ ولا إذنٍ، كما أن للمماليك والصبيان الدخولَ في البيوت في غير العورات الثلاث من غير استئذانٍ ولا إذنٍ من أهل البيت، ومثلُ هذا يكفي وجهاً في توسيط جملةٍ أثناء جملٍ ظاهرةِ التناسُبِ. ويَرِدُ عليه شيءٌ عسى أن يُدْفَعَ بالتأمُّل.

وإنما لم يُذكر الحرجُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بأنْ يقال: ولا على أنفسكم حرجٌ، اكتفاءً بذكره فيما مرَّ، والأَوَاخِرُ محلُّ الحذف.

---

(١) البحر ٦/ ٤٧٣-٤٧٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٧٧.

(٣) لعل المراد من عبارة المصنف: أزاله بأن الغرض بيانُ حُكْمِ حوادثَ تقاربت في الوقوع. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٤٠٠.

ولم يكتفِ بحرجٍ واحدٍ بأن يقال: ليس على الأعمى والأعرجِ والمريضِ وأنفسِكم حرجٌ أن تأكلوا؛ دفعاً لتوهُّم خلافِ المراد.

وقيل: حذف الحرج آخراً للإشارة إلى مغايرته للمذكور، ولا تقدحُ في دلالته عليه، لاسيما إذا قلنا: إنَّ الدالَّ غيرُ منحصرٍ فيه، وهو كما ترى.

ومعنى «على أنفسكم» كما في «الكشاف»: عليكم وعلى مَن في مثلِ حالِكم من المؤمنين[(١)]. وفيه كما في «الكشف» إشارةٌ إلى فائدةِ إقحام النفس، وأنَّ الحاصل: ليس على الضعفاء المطعَمين، ولا على الذاهبين إلى بيوت القرابات ومَن في مثل حالهم وهم الأصدقاءُ، حَرَجٌ.

وقيل: إنَّ فائدة إقحامها الإشارةُ إلى أنَّ الأكل المذكورَ ـ مع أنه لا حَرَجَ فيه ـ لا يُخِلُّ بقَدْرِ مَن له شأنٌ. وهو وجهٌ حَسَنٌ دقيق لا يلزمُه استعمالُ اللفظ في حقيقته ومجازه ظاهراً، وكأنَّ منشأه كثرةُ إقحام النفس في ذوي الشأن، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ﴾ [الأنعام:١٢] ولم يَقُلْ سبحانه: كَتَبَ ربُّكم عليه الرحمةَ. وقولُه عزَّ وجلَّ في الحديث القدسيِّ: «يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي»[(٢)] دون أن يقول جل وعلا: إنِّي حرمتُ الظلم عَلَيَّ. إلى غير ذلك مما يعرفُه المتتبِّعُ المنصِفُ.

وما قيل من أنَّ فائدة الإقحام الإشارةُ إلى أنَّ التجنُّبَ عن الأكل المذكور لا يخلو عن رعايةِ حظِّ النفس، مع خفائه، لا يلائمُ إلا بعضَ الروايات السابقة في سبب النزول.

ونحو[(٣)] ما قيل من أنها أُقحمت للإشارة إلى أنَّ نفيَ الحرج عن المخاطبين في الأكل من البيوت المذكورة لذواتهم، بخلافِ نفي الحرج عن أهل الأعذار في الأكل منها؛ فإنه لكونهم مع المخاطبين وذهابهم بهم إليها.

والتعرُّضُ لنفي الحرج عنهم في أكلهم من بيوتهم مع ظهور انتفاءِ ذلك؛ لإظهارِ

---

(١) الكشاف ٣/ ٧٦.
(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٢١٤٢٠)، ومسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر ﷺ.
(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: ونحوه.

التسوية بينه وبين قرنائه، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران:٤٦] لكنَّ ذلك فيما نحن فيه من أول الأمر. ولم يتعرَّض لبيوت أولادهم؛ لظهورِ أنها كبيوتهم، وذَكَر جمعٌ أنها داخلةٌ في بيوتِ المخاطبين؛ فقد روى أبو داود وابنُ ماجه: «أنتَ ومالُك لأبيك»[(١)]. وفي حديثٍ رواه الشيخان وغيرُهما: «إنَّ أطيبَ ما يأكلُ المرءُ من كَسْبِه، وإنَّ ولده من كَسْبِه»[(٢)].

وقال بعضهم: المرادُ ببيوت المخاطبين بيوتُ أولادِهم، وأضافها إليهم لمزيدِ اختصاصِها بهم كما يشهدُ به الشرعُ والعُرفُ.

وقيل: المعنى: أن تأكلوا من بيوتكم من مال أولادِكم وأزواجكم الذين هم في بيوتكم ومن جملة عيالكم، وهو كما ترى.

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وقرأ حمزةُ بكسر الهمزة والميم، والكسائيُّ وطلحةُ بكسر الهمزة وفتحِ الميم[(٣)].

﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ أي: أو ممَّا تحت أيديكم وتَصَرُّفِكم من بستانٍ أو ماشيةٍ، وكالةً أو حفظاً، وهو الذي يقتضيه كلامُ ابن عباس، فقد رَوَى عنه غيرُ واحدٍ أنه قال: ذاك وكيلُ الرجل وقيِّمُه في ضيعته وماشيته، فلابأس عليه أن يأكل من ثمرِ حائطه، ويشربَ من لبن ماشيته، ولا يحملُ ولا يدَّخِرُ.

وقال السديُّ: هو الرجلُ يولَّى طعامَ غيره ويقومُ عليه، فلابأس أن يأكل منه.

وقال ابن جرير: هو الزَّمِنُ يسلَّم إليه مفتاحُ البيتِ ويؤذَنُ له بالتصرُّفِ فيه[(٤)].

وقيل: وليُّ اليتيم الذي له التصرُّفُ بماله، فإنه يباحُ له الأكلُ منه بالمعروف.

---

(١) سنن أبي داود (٣٥٣٠)، وسنن ابن ماجه (٢٢٩٢)، وأخرجه أحمد (٦٦٧٨)، وهو من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) كذا نقل المصنف عن الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٠٠، والحديث لم يروه الشيخان، وأخرجه أحمد (٢٤٠٣٢)، وأبو داود (٣٥٢٨)، والنسائي في المجتبى ٧/ ٢٤٠-٢٤١ عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) قراءة حمزة وقراءة الكسائي في التيسير ص ٩٤، والنشر ٢/ ٢٤٨.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٣٧٣ بنحوه.

وملكُ المفتاح على جميع ذلك كنايةٌ عن كون الشيء تحت يدِ الشخص وتصرُّفِه. والعطفُ على ما أشرنا إليه على ما بعدَ «مِن».

وعن قتادة أنَّ المراد بـ «ما ملكتُم مفاتحه»: العبيد، فالعَطْفُ على ما بعد «بيوت»، والتقدير: أو بيوتِ الذين ملكتُم مفاتحهم. وكأنَّ ملكَ المفتاح لمَّا شاع كنايةً لم يُنْظَر فيه إلى أنَّ المتصرّفَ مما(١) يتوصَّلُ إليه بالمفتاح أوْ لا، ومثلُه كثير. أو هو تشريحٌ لجَرْيِ العبيد مجرى الجماد من الأموال، المشعِرِ به استعمالُ «ما» فيهم.

ولا يخفى عليك بُعْدُ هذا القولِ، وأنه يندرجُ بيوتُ العبيد في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِكُمْ﴾؛ لأنَّ العبد لا ملك له، وإرادةُ المعتوقين منهم بقرينةِ «ملكتُم» بلفظ الماضي مما لا ينبغي أن يلتفت إليه.

وقرأ ابن جبير: «ملِّكتُم» بضمِّ الميم وكَسْرِ اللام مشدَّدةً، و«مفاتيحه» بياءٍ بعد التاء جمع مفتاح(٢).

وقرأ قتادةُ وهارون عن أبي عمرو: «مفتاحه» بالإفراد(٣)، وهو آلةُ الفتحِ، وكذا المِفْتَحُ كما في «القاموس»(٤). وقال الراغب: المِفْتَحُ والمفتاحُ ما يُفْتَحُ به، وجمعُه مَفَاتيحُ ومَفَاتِحُ(٥). وفي بعض الكتب: أنَّ جمع مِفْتَح: مَفَاتِح، وجمعَ مِفْتاح: مفاتيح.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْۚ﴾ أي: أو بيوتِ صديقكم، وهو مَن يَصْدُقُ في موَدَّتِكَ وتَصْدُقُ في مودَّته، يقعُ على الواحد والجمع، والمرادُ به هنا الجمعُ، وقيل: المفرد، وسرُّ التعبير به دون أصدقائكم: الإشارةُ إلى قلَّة الأصدقاء، حتى قيل:

صادُ الصديقِ وكافُ الكيمياء معا
لا يوجدان فَدَعْ عن نفسك الطَّمَعا(٦)

---

(١) في حاشية الشهاب ٦/ ٤٠١: لم يُنْظَر إلى أن التصرُّف فيه مما. . .، وهو أنسب بالسياق.
(٢) القراءتان عن سعيد بن جبير في البحر ٦/ ٤٧٤، والأولى في القراءات الشاذة ص ١٠٣.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٦، والبحر ٦/ ٤٧٤.
(٤) مادة (فتح).
(٥) مفردات الراغب (فتح).
(٦) نفحة الريحانة ٢/ ٢٤٧ دون نسبة.

ونُقل عن هشام بن عبد الملك أنه قال: نلتُ ما نلتُ حتى الخلافة، وأعوزني صديقٌ لا أحتشم منه.

وقيل: إنه إشارة إلى أنَّ شأن الصداقةِ رفع الاثنينية.

ورفعُ الحرجِ في الأكل من بيت الصديق لأنه أَرْضَى بالتبسُّط وأَسَرُّ به من كثير من ذوي القرابة؛ روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الصَّديقُ أكبرُ من الوالدين، إنَّ الجهنَّميين لمَّا استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات، فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: مِن عظمِ حُرْمةِ الصَّديقِ أنْ جَعَله اللهُ تعالى من الأُنْسِ والثِّقةِ والانبساطِ ورفعِ الحشمة بمنزلةِ النفس والأب والأخ.

وقيل لأفلاطون: مَن أحبُّ إليك، أخوك أم صديقُك؟ فقال: لا أحبُّ أخي إلا إذا كان صديقي.

وقد كان السلفُ ينبسطون بأكل أصدقائهم من بيوتهم ولو كانوا غيَّباً؛ يُحكَى عن الحسن أنَّه دَخَلَ دارَه وإذا حلقةٌ من أصدقائه وقد استلُّوا سِلالاً من تحت سريره فيها الخبيصُ وأطايبُ الأطعمة، وهم مكبُّون عليها يأكلون، فتهلَّلتْ أساريرُ وجهِه سروراً، وضحك وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم، يريد كُبراء الصحابة ومَن لقيهم من البدريين، وكان الرجلُ منهم يدخلُ دارَ صديقه وهو غائبٌ، فيسأل جاريتَه كيسَه فيأخذ ما شاء، فإذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سروراً بذلك. وهذا شيءٌ قد كان:

إذِ النـــاسُ نـــاسٌ والـــزمـــانُ زمـــانُ[(1)]

وأمَّا اليومَ فقد طُوي فيما أَعْلَمُ بِساطُه، واضْمَحَلَّ والأمرُ لله تعالى فسطاطُه، وعَفَتْ آثارُه، وأَفِلتْ أقمارُه، وصار الصَّديقُ اسماً للعدوِّ الذي يُخفي عداوتَه، وينتظر لك حَرْبَ الزمان وغارتَه، فآهٍ ثم آه، ولا حول ولا قوة إلا بالله:

---

(١) البيت لرجل من عاد كما في الأغاني ٢١/٩٣، ويتيمة الدهر ٤/٣١١، وصدره: بلاد بها كنا وكنا نحبها، وجاء في الأغاني: إذ الناسُ ناسٌ والبلادُ بلاد.

ومِن نَكَدِ الدنيا على الحرِّ أن يَرى   عـدوًّا لـه مـا مـن صـداقـتِـه بُـدّ[(١)]

ثم إنَّ نفي الحرج في الأكل المذكورِ مشروطٌ بما إذا عَلِمَ الآكِلُ رضا صاحب المال بإذنٍ صريحٍ أو قرينةٍ، ولا يَرِدُ أنه إذا وجد الرضا جاز الأكلُ من مال الأجنبيِّ والعدوِّ أيضاً، فلا يكون للتخصيص وجهٌ؛ لأن تخصيص هؤلاء لاعتيادِ التبسُّط بينهم، فلا مفهومَ له.

وقال أبو مسلم: هذا في الأقارب الكَفَرةِ، أباح سبحانه في هذه الآية ما حَظَره في قوله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وليس بشيء.

وقيل: كان ذلك في صدر الاسلام، ثم نُسخ بقوله ﷺ: «لا يحلُّ مالُ امرئ مسلم إلَّا عن طيبِ نفسٍ منه»[(٢)] وقولِه عليه الصلاة والسلام من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «لا يَحْلبنَّ أحدٌ ماشيةَ أحدٍ إلَّا بإذنه»[(٣)]، وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ الآية [النور: ١٧]، وقوله عز وجل: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] فإنهم إذا مُنعوا من منزله ﷺ إلَّا بالشرط المذكورِ، وهو عليه الصلاة والسلام أكرمُ الناسِ وأقلُّهم حجاباً، فغيرُه ﷺ يُعْلَم بالطريق الأَوْلَى.

وأنت تعلمُ أنه لا حاجةَ إلى القول بالنسخ بناءً على ما قلنا أولاً.

واحتجَّ بالآية بعضُ أئمة الحنفية على أنه لا قَطْعَ بسرقة مالِ المحارِم مطلقاً، لا فَرْقَ في ذلك بين الوالدِين والمولودينَ وبين غيرِهم؛ لأنها دلَّت على إباحة دخول دارِهم بغير إذنهم، فلا يكونُ مالُهم مُحْرَزاً، ومجرَّدُ احتمالِ إرادةِ الظاهر وعدم النسخ كافٍ في الشبهة المُدْرِئةِ للحدِّ.

وبُحث فيه بأنَّ درءَ الحدودِ بالشبهات ليس على إطلاقه عندهم كما يُعلم من أصولهم.

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ٢/ ٩٣.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٤٨٨) من حديث عمرو بن يثربي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٣٥)، ومسلم (١٧٢٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وأُورِدَ عليه أيضاً أنه يستلزمُ أنْ لا تُقْطَعَ يدُ مَن سَرَقَ من الصَّديق.

وأجيب عن هذا بأنَّ الصَّديقَ متى قَصَدَ سرقةَ مالِ صديقه انْقلَبَ عدوًّا.

وتعقِّب بأنَّ الشرع ناظرٌ إلى الظاهر لا إلى السرائر.

وقرئ: «صِدِيقِكم» بكسر الصاد إتباعاً لحركة الدال، حَكَى ذلك حميدٌ الخزاز[1].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين وهو نصبٌ على الحال من فاعل «تأكلوا»، وهو في الأصل بمعنى «كلّ»، ولا يفيدُ الاجتماعَ خلافاً للفرَّاء، ودلَّ عليه هنا لمقابلته بقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فإنه عطفٌ عليه داخلٌ في حكمه، وهو جمعُ شَتٍّ على أنه صفةٌ كالحق، يقال: أمرٌ شَتٌّ، أي: متفرِّقٌ، أو على أنه في الأصل مصدرٌ وُصِفَ به مبالغةً.

والآيةُ على ما ذهب أكثر المفسِّرين كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان حكمٍ آخَرَ مِن جنسِ ما بيِّن قبله، وقد نَزَلَت على ما روي عن ابن عباس والضحاك وقتادة في بني ليث بنِ عمرو بن كنانةَ، تحرَّجوا أن يأكلوا طعامهم منفردين، وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكثُ يومَه حتى يجد ضيفاً يأكلُ معه، فإن لم يجد مَن يؤاكلُه لم يأكل شيئاً، وربَّما قَعَدَ الرجلُ منهم والطعامُ بين يديه لا يتناولُه من الصباح إلى الرَّواحِ، وربما كانت معه الإبلُ الحُفَّلُ[2] فلا يشربُ من ألبانها حتى يجدَ مَن يشاربُه، فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل.

قيل: وهذا التحرُّجُ سنَّةٌ موروثةٌ من الخليل عليه الصلاة والسلام، وقد قال حاتم:

إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسي له أكيلاً فإنِّي لستُ آكلَه وحدي[3]

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٣، والبحر ٦/ ٤٧٤. وحميد الخزاز هو ابن الربيع، أبو القاسم السابوري، روى القراءة عن الكسائي وهو من المكثرين عنه. طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٢٦٥.

(٢) جمع حافل، وفي القاموس (حفل): ضرع حافل: كثير لبنه.

(٣) شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٠٠، وهو في الكامل للمبرد ٢/ ٧٠٩، والأغاني ١٤/ ٧١ منسوب لقيس بن عاصم المِنقري، ودون نسبة في عيون الأخبار ٣/ ٢٦٣، والبيان والتبيين ٣/ ٣١٠، والبحر ٦/ ٤٧٤.

وفي الحديث: «شَرُّ الناسِ مَنْ أَكَلَ وحدَه، وضَرَبَ عَبْدَه، ومَنَعَ رِفْدَهَ»(١).
وهذا الذمُّ لاعتياده بخلاً بالقِرَى، ونُفي الجناحُ عن وقوعه أحياناً بياناً لأنه لا إثم فيه، ولا يُذمُّ به شرعاً كما ذَمَّتْ به الجاهليةُ، فلا حاجةَ إلى القول بأن الوعيد في الحديث لمن اجتمعت فيه الخصالُ الثلاثُ دون الانفراد بالأكل وحده، فإنه يقتضي أن كلًّا منها على الانفراد غيرُ منهيٍّ عنه، وليس كذلك.

والقولُ بأنهم أهلُ لسانٍ لا يَخْفَى عليهم مثلُه، ولكن لمجيءِ الواو بمعنى «أو» تركوا كلَّ واحدٍ منها احتياطاً، لا وجهَ له؛ لأن هؤلاء المتحرِّجين لم يتمسَّكوا بالحديث، وكونُ الواوِ بمعنى «أو» توهُّمٌ لا عبرة به، ولا شكَّ أن اجتماع الأيدي على الطعام سنةٌ، فتركُه بغيرِ داعٍ مذمَّةٌ(٢). انتهى.

وعن عكرمة وأبي صالح: أنها نزلت في قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيفٌ لا يأكلون إلا معه، فرخَّصَ لهم أن يأكلوا كيف شاؤوا.

وقيل: كان الغنيُّ يدخُلُ على الفقير من ذوي قرابته وصداقته، فيدعوه إلى طعامه فيقول: إنِّي لأتحرَّجُ أن آكُلَ معك وأنا غنيٌّ وأنت فقير. ورُوي ذلك عن ابن عباس.

وقال الكلبيُّ: كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاماً عزلوا للأعمى ونحوِه طعاماً على حِدَةٍ، فبيَّن الله تعالى أنَّ ذلك ليس بواجبٍ.

وقيل: كانوا يأكلون فُرادى خوفاً أن يزيدَ أحدُهم على الآخر في الأكل، أو أن يحصُل من الاجتماع ما ينفِّرُ أو يؤذي، فنزلت لنفي وجوب ذلك.

وأيَّاما كان فالعبرةُ لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

وقيل: الآيةُ من تتمة ما قبلها، على معنى أنها وقعتْ جواباً لسؤالٍ نشأ منه،

---

(١) أخرجه ابن حبان في المجروحين ١/ ١٣٩، وابن الجوزي في العلل (٨٥٨) وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ. وورد نحوه ضمن حديث طويل عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد للإمام أحمد ص٣٥٩.

(٢) الكلام من قوله: وهذا التحرج سنة موروثة من الخليل، إلى هذا الموضع منقول من حاشية الشهاب ٦/ ٤٠١.

كأنَّ سائلاً يقول: هل نفيُ الحرجِ في الأكل من بيوت مَن ذُكر خاصٌّ فيما إذا كان الأكلُ مع أهل تلك البيوت، أم لا؟ فأجيب بقوله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا) أي: مجتمعين مع أهل تلك البيوت في الأكل (أَوْ أَشْتَاتًا) أي: متفرِّقين، بأنْ يأكلَ كلٌّ منكم وحدَه ليس معه صاحبُ البيت، وما ألطفَ نفيَ الحرج فيما اتَّسعتْ دائرتُه، ونفيَ الجناح فيما ورد فيه بين أمرين، والنكاتُ لا يجب اطِّرادُها، كذا قيل فتدبَّر.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم﴾ شروعٌ في بيان الأدب الذي ينبغي رعايتُه عند مباشرةِ ما رخِّصَ فيه بعد بيانِ الرخصة فيه ﴿بُيُوتًا﴾ أي: من البيوت المذكورة، كما يؤذن به الفاء ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: على أهلها، كما أخرج ذلك ابن المنذر وابن أبي حاتم، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن ابن عباس[١].

وقريبٌ منه ما أخرجه عبدُ الرزاق وجماعةٌ عن الحسن، أنَّ المعنى: فلْيُسلِّم بعضُكم على بعضٍ، نظير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[٢] [النساء: ٢٩].

والتعبير عن أهل تلك البيوت بالأنفس لتنزيلهم منزلتَها؛ لشدَّة الاتصال. وفي «الانتصاف»: في التعبير عنهم بذلك تنبيهٌ على السرِّ الذي اقتضَى إباحةَ الأكل من تلك البيوت المعدودة، وأنَّ ذلك إنَّما كان لأنها بالنسبة إلى الداخِلِ كبيتِ نفسِه؛ للقرابة ونحوها[٣].

وقيل: المرادُ السلامُ على أهلها على أبلغ وجهٍ؛ لأنَّ المسلِّم إذا رُدَّتْ تحيتُه عليه فكأنه سلَّم على نفسه، كما أن القاتل لاستحقاقه القتلَ بفِعْلِه كأنه قاتِلُ نفسِه.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير والحاكم وصحَّحه وغيرُهم عن ابن عباس أنه

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٠، وشعب الإيمان (٨٨٣٥)، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٥٩.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٦٦، وأخرجه أيضاً الطبري ١٧/ ٣٨١، وابن أبي حاتم ٦/ ٢٦٥١. ووقع في الأصل و(م): ﴿اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ والمثبت من المصادر.

(٣) الانتصاف ٣/ ٧٨، وفيه: لاتحاد القرابة، بدل: للقرابة ونحوها.

قال في الآية: هو المسجدُ، إذا دخلتَه فقل: السلامُ علينا وعلى عباد الله تعالى الصالحين[١]. فحَمَل البيوتَ فيها على المساجد، والسلامَ على الأنفس على ظاهره.

وقيل: المرادُ بيوتُ المخاطَبين وأهلُهم، وذُكِرَ أنَّ الرجل إذا دخل على أهله سُنَّ له أن يقول: السلامُ عليكم تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً، فإن لم يجد أحداً فليقل: السلامُ علينا من ربِّنا، ورُوي هذا عن عطاء[٢].

وقيل: السلامُ على الأنفُس على ظاهره، والمراد بـ «بيوت» بيوتُ الكفار، وذُكر أنَّ داخلَها ـ وكذا داخل البيوت الخالية ـ يقول ما سمعتَ آنفاً عن ابن عباس. وقيل: يقول على الكفار يقول[٣]: السلام على مَن اتَّبع الهدى. ولا يخفَى المناسبُ للمقام.

والسلامُ بمعنى السلامةِ من الآفات، وقيل: اسمٌ من أسمائه عز وجل. وقد مرَّ الكلامُ في ذلك على أتمِّ وجهٍ[٤]، فتذكَّرْ.

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ثابتةً بأمره تعالى مشروعةً من لَدُنْه عزَّ وجلَّ، فالجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «تحية». وجوِّز أن يتعلَّق بـ «تحية» فإنها طلبُ الحياة، وهي من عنده عزَّ وجلَّ. وأصلُ معناها أن تقول: حياك الله تعالى، أي: أعطاك سبحانه الحياةَ، ثم عمِّم لكلِّ دعاء، وانتصابُها على المصدريةِ لـ «سلِّموا» على طريق: قعدتُ جلوساً، فكأنه قيل: فسلِّموا تسليماً، أو: فحيُّوا تحيةً.

﴿مُبَٰرَكَةً﴾ بورِكَ فيها بالأجر، كما روي عن مقاتل، قال الضحاك: في السلام عشرُ حسناتٍ، ومع الرحمةِ عشرون، ومع البركات ثلاثون.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٦٦، وتفسير الطبري ١٧/ ٣٨١، والمستدرك ٢/ ٤٠١، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٠.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٣٧٨-٣٨٠.

(٣) كذا وقعت العبارة في الأصل و(م)، ولعل الصواب فيها: الداخل على الكفار يقول.

(٤) ينظر ٦/ ١٧٤.

﴿طَيِّبَةً﴾ تطيبُ بها نفسُ المستمِع، والظاهرُ أنه يَزيدُ المسلِّم ما ذُكر في سلامه، وعن بعض السلف زيادتُه كما مرَّ آنفاً، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما أخذتُ التشهُّدَ إلا من كتاب الله تعالى، سمعتُ الله تعالى يقول: (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً) فالتشهُّدُ في الصلاة: التحياتُ المباركاتُ الطيبات لله[1].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ تكريرٌ لمزيدِ التأكيد، وفي ذلك تفخيمٌ فخيمٌ للأحكام المختتمةِ به. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ما في تضاعيفها من الشرائع والأحكام، وتعملون بموجبها، وتَحُوزون بذلك سعادةَ الدارين.

وفي تعليل هذا التبيينِ بهذه الغاية القُصْوَى بعد تذييلِ الأوَّلين بما يوجبُهما، من الجزالة ما لا يخفى.

وذكر بعضُ الأجلَّة أنه سبحانه بدأ السورةَ بقوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ) وخَتَمها بقوله عزَّ وجلَّ (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ) ثم جَعَل تبارك وتعالى ختامَ الختم قولَه سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلخ دلالةً على أنَّ ملاكَ ذلك كلِّه والمنتفعَ بتلك الآيات جُمَعَ مَن سلَّم نفسَه لصاحب الشريعة صلواتُ الله وسلامُه عليه كالميت بين يدي الغاسل، لا يُحْجِمُ ولا يُقْدِمُ دون إشارته ﷺ. ولهذه الدقيقة أورد هذه الآيةَ شهابُ الحقِّ والدِّين أبو حَفْصٍ عمرُ السهرورديُّ قدِّس سرُّه في بابِ سَيْرِ المريدِ مع الشيخ، ونبَّه بذلك أنَّ كلَّ ما يَرْسُمُه من أمور الدِّين فهو أمرٌ جامعٌ.

وقال شيخ الإسلام[2]: إنَّ هذا استئنافٌ جيء به في أواخر الأحكام السابقة تقريراً لها، وتأكيداً لوجوب مراعاتها، وتكميلاً لها ببيان بعضٍ آخَرَ من جنسها، وإنما ذُكر الإيمانُ باللهِ تعالى ورسوله ﷺ صلةً للموصولِ الواقع خَبراً للمبتدأ ـ مع تضمُّنِه له قطعاً ـ تقريراً لِمَا قبله، وتمهيداً لِمَا بعده، وإيذاناً بأنَّه حقيقٌ بأنْ يُجْعلَ

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢٦٥١).
(٢) في تفسيره ٦/ ١٩٧.

قريناً للإيمان المذكور(١) منتظِماً في سِلْكِه، فقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ إلخ معطوفٌ على «آمنوا» داخلٌ معه في حيِّز الصلة، وبذلك يصحُّ الحمل، والحصرُ باعتبارِ الكمال، أي: إنما الكاملون في الإيمان الذين آمنوا بالله تعالى ورسوله ﷺ عن صميم قلوبهم، وأطاعوا في جميع الأحكام، التي من جملتها ما فصِّل من قبلُ، من الأحكام المتعلِّقة بعامةِ أحوالهم المطَّردةِ في الوقوع وأحوالِهم الواقعةِ بحسَبَ الاتِّفاق، كما إذا كانوا معه عليه الصلاة والسلام على أمرٍ مُهمٍّ يجبُ اجتماعُهم في شأنه، كالجمعة والأعياد والحروب، وغيرِها من الأمور الداعيةِ إلى الاجتماع لغرضٍ من الأغراض.

وعن ابن زيد: أنَّ الأمرَ الجامعَ الجهادُ.

وقال الضحاك وابن سلام: هو كلُّ صلاةٍ فيها خطبةٌ، كالجمعة والعيدين والاستسقاء.

وعن ابن جبير: هو الجهادُ وصلاةُ الجمعة والعيدين.

ولا يخفَى أنَّ الأَوْلَى العمومُ وإنْ كانت الآيةُ نازلةً في حفر الخندق، ولعل ما ذُكر من باب التمثيل. ووصفُ الأمر بالجَمْعِ مع أنه سببٌ له للمبالغة، والظاهرُ أنَّ ذلك من المجاز العقليِّ، وجوِّز أن يكون هناك استعارةٌ مكنية.

وقرأ اليمانيُّ: «على أمرٍ جَميعٍ»(٢) وهو بمعنى جامعٍ، أو مجموعٍ له على الحذف والإيصال.

﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ﴾ عنه ﷺ ﴿حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ عليه الصلاة والسلام في الذهاب فيأذنَ لهم به فيذهبون، فالغايةُ هي الإذنُ الحاصلُ بعد الاستئذان، والاقتصارُ على الاستئذان لأنه الذي يتمُّ من قِبَلِهم، وهو المعتبرُ في كمال الإيمان، لا الإذنُ ولا الذهابُ المترتِّبُ عليه. واعتبارُه في ذلك لِمَا أنه كالمصداق لصحته، والمميِّزِ للمُخْلِصِ عن المنافق، فإنَّ ديدنَه التسلُّل للفرار.

---

(١) أي: الإيمان بالله واليوم الآخر، وجاءت العبارة في تفسير أبي السعود: قريناً للإيمان بهما.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٣، والبحر ٦/ ٤٧٦، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٠٢، والكلام منه.

ولتعظيم ما في الذهاب بغير إذنه عليه الصلاة والسلام من الجناية، وللتنبيه على ذلك، عقَّب سبحانه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فقد جَعَلَ فيه المستأذنين هم المؤمنون عَكْسَ الأولِ؛ دلالةً على أنهما متعاكسان سواء بسواء، ومنه يلزمُ أنه كالمصداق لصحة الإيمانين، وكذلك من اسم الإشارة؛ لدلالته على أنَّ اسْتِئهالَ الإيمانينِ لذلك.

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ﴾ بيانٌ لِمَا هو وظيفتُه ﷺ في هذا الباب إِثْرَ بيانِ ما هو وظيفةُ المؤمنين، والفاءُ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها، أي: بَعْدَ ما تَحقَّقَ أنَّ الكاملينَ في الإيمان هم المستأذنون، فإذا استأذنوك ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أي: لبعضِ أمرِهم المهمِّ وخَطْبِهم المُلِمِّ ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويضٌ للأمر إلى رأيه ﷺ. واستُدلَّ به على أنَّ بعض الأحكام مفوَّضةٌ إلى رأيه ﷺ، وهذه مسألةُ التفويض المختلفُ في جوازِها بين الأصوليين، وهي أن يفوَّض الحكم إلى المجتهد، فيقال له: احكُمْ بما شئتَ فإنه صوابٌ.

فأجاز ذلك قومٌ لكن اختلفوا؛ فقال موسى بنُ عمران(١) بجواز ذلك مطلقاً للنبيِّ وغيره من العلماء. وقال أبو عليٍّ الجبائيُّ بجواز ذلك للنبيِّ خاصةً في أحد قوليه. وقد نُقل عن الإمام الشافعيِّ عليه الرحمةُ في «الرسالة» ما يدلُّ على التردُّدِ بين الجوازِ والمنع. ومَنَعَ من ذلك الباقون.

والمجوِّزون اختلفوا في الوقوع، قال الآمديُّ(٢): والمختارُ الجوازُ دون الوقوع. وقد أطال الكلام في هذا المقام فَلْيُراجَعْ.

والذي أميلُ إليه جوازُ أن يفوَّض الحكمُ إلى المجتهد إذا عُلِمَ أنه يحكم تروِّياً لا تَشهِّياً، ويكون التفويضُ حينئذٍ كالأمر بالاجتهاد، والأَلْيَقُ بشأن الله تعالى وشأنِ رسوله ﷺ أن ينزَّل ما هنا على ذلك، وتكون المشيئةُ مقيَّدةً بالعلم بالمصلحة.

وذكر بعضُ الفُضلاءِ أنه لا خلافَ في جواز أن يقال: احكُمْ بما شئتَ تروِّياً،

---

(١) الأنصاري النيسابوري الصوفي، أبو المظفر، مسنِد خراسان، توفي سنة(٤٨٦هـ). سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٣٠.

(٢) في الإحكام ٤/ ٢١٥، وعنه نقل المصنف ما سلف من أقوال.

بل الخلافُ في جواز أن يقال: احكُمْ بما شئتَ تشهِّياً كيفَما اتَّفقَ. وأنت تعلمُ أنه بعد التقييد لا يكون ما نحن فيه من محلِّ النزاع.

ومن الغريب ما قيل: إنَّ المراد ممن شئتَ منهم: عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه. ولا يخفى ما فيه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ فإنَّ الاستئذان وإن كان لعذرٍ قويٍّ لا يخلو عن شائبةِ تقديمِ أمرِ الدنيا على أمر الآخرة. وتقديمُ «لهم» للمبادرة إلى أنَّ الاستغفار للمستأذنين لا للآذِنِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ مُبالِغٌ في مغفرةِ فرطاتِ العباد ﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ مبالغٌ في إفاضةِ شآبيبِ الرحمةِ عليهم. والجملةُ تعليلٌ للمغفرة الموعودةِ في ضمن الاستغفار لهم.

وقد بالَغَ جلَّ شأنُه في الاحتفال برسوله صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليه، فجعل سبحانه الاستئذان للذهاب عنه ذنباً محتاجاً للاستغفار، فضلاً عن الذهاب بدون إذنٍ، ورتَّب الإذنَ على الاستئذان لبعض شأنهم لا على الاستئذان مطلقاً، ولا على الاستئذان لأيِّ أمرٍ مُهِمًّا كان أو غيرَ مُهِمٍّ، ومع ذلك علَّق الإذنَ بالمشيئة.

وإذا اعتبرتَ وجوهَ المبالغةِ في قوله تعالى: (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ) إلى هنا وجدتَها تزيدُ على العشرة.

وفي «أحكام القرآن» للجلال السيوطيِّ: إنَّ في الآية دليلاً على وجوب استئذانه ﷺ قبل الانصرافِ عنه عليه الصلاة والسلام في كلِّ أمرٍ يجتمعون عليه.

قال الحسن: وغيرُ الرسول ﷺ من الأئمة مثلُه في ذلك؛ لِمَا فيه من أدب الدين وأدب النفس.

وقال ابن الفرس: لا خلافَ في الغزو أنه يَستأذِنُ إمامَه إذا كان له عذرٌ يدعوه إلى الانصراف، واختُلف في صلاة الجمعة إذا كان له عذرٌ كالرعاف وغيره؛ فقيل: يلزمُه الاستئذانُ سواءٌ كان إمامُه الأميرَ أم غيرَه، أخذاً من الآية[1]، وروي ذلك عن مكحولٍ والزهريِّ.

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص١٩٦.

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، والالتفاتُ لإبراز مزيدِ الاعتناء بشأنه، أي: لا تقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام إياكم على دعاء بعضِكم بعضاً في حالٍ من الأحوال، وأمرٍ من الأمور التي من جملتها المساهلةُ فيه، والرجوعُ عن مجلسه عليه الصلاة والسلام بغيرِ استئذانٍ، فإنَّ ذلك من المحرَّمات. وإلى نحوِ هذا ذهب أبو مسلم، واختاره المبرِّدُ والقفَّال[١].

وقيل: المعنى: لا تَحْسَبوا دعاءه ﷺ عليكم كدعاءِ بعضكم على بعض، فتعرَّضوا لسَخَطه ودعائه عليكم عليه الصلاة والسلام بمخالفةِ أمره، والرجوعِ عن مجلسه بغير استئذان، ونحو ذلك. وهو مأخوذ مما جاء في بعض الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروي عن الشعبيِّ.

وتعقَّبه ابن عطية بأنَّ لفظ الآية يدفعُ هذا المعنى[٢]. وكأنه أراد أنَّ الظاهر عليه: على بعض.

وقيل: إنه يأباه «بينكم»، وهو في حيِّز المنع.

وقيل: المعنى: لا تجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربَّه عز وجلَّ كدعاءِ صغيركم كبيرَكم وفقيرِكم غنيَّكم يسأله حاجتَه فربما أجابه وربَّما ردَّه، فإنَّ دعاءه ﷺ مستجابٌ لا مَرَدَّ له عند الله عز وجل، فتعرَّضوا لدعائه لكم بامتثال أمره واستئذانه عند الانصراف عنه إذا كنتم معه على أمرٍ جامع، وتحقَّقوا قبولَ استغفاره لكم، ولا تتعرَّضوا لدعائه عليكم بضدِّ ذلك.

ولا يخفى وجهُ تقريرِ الجملة لِمَا قبلها على هذين القولين، لكنْ بُحث في دَعْوَى أنَّ جميع دعائه عليه الصلاة والسلام مستجابٌ، بأنه قد صحَّ أنه ﷺ سأل الله تعالى في أمته أن لا يذيقَ بعضَهم بأسَ بعضٍ فمُنِعَه[٣]. وهو ظاهرٌ في أنه قد يردُّ بعض دعائه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) كما في تفسير الرازي ٢٤/٣٩، والبحر ٦/٤٧٦.

(٢) المحرر الوجيز ٤/١٩٨.

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٧٥) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه وقال: حديث حسن غريب صحيح. وله شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أخرجه أحمد (١٥١٦)، ومسلم (٢٨٩٠).

وتعقِّب بأنه كيف يردُّ وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] وفي الحديث أنَّ الله تعالى لا يردُّ دعاءَ المؤمن وإن تأخَّر(١). وقد قال الإمام السهيليُّ في «الروض»(٢): الاستجابةُ أقسامٌ: إما تعجيلُ ماسأل، أو أن يدَّخَرَ له خيرٌ مما طَلَبَ، أو يُصْرفَ عنه من البلاء بقَدْرِ ما سأل من الخير، وقد أُعطي ﷺ عوضاً من أنْ لا يُذيقَ بعضَهم بأسَ بعضٍ الشفاعةَ وقال: «أمَّتي هذه أمةٌ مرحومةٌ، ليس عليها في الآخرة عذابٌ، عذابُها في الدنيا الزلزالُ والفتن» كما في أبي داود(٣). فإذا كانت الفتنةُ سبباً لصَرْفِ عذاب الآخرة عن الأمة، فلا يقال: ما أجاب دعاءه ﷺ؛ لأنَّ عدم استجابته أنْ لا يُعْطَى ما سأل، أوْ لا يعوَّضَ عنه ما هو خيرٌ منه.

والمرادُ بالمنع في الحديث منعُ ذلك بخصوصه، لا عدمُ استجابةِ الدعاء بذلك بالمعنى المذكور. وتمامُ الكلام في هذا المقام يُطلب من محله.

وقيل: المعنى: لا تجعلوا نداءه عليه الصلاة والسلام وتسميتَه كنداءِ بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به والنداءِ وراءَ الحجرات، ولكنْ بلقَبه المعظَّم مثل: يا نبيَّ الله، و: يا رسول الله، مع التوقير والتواضُع وخَفْضِ الصوت.

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» عن ابن عباس قال: كانوا يقولون: يا محمدُ يا أبا القاسم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك بقوله سبحانه: (لَّا تَجۡعَلُواْ) الآيةَ؛ إعظاماً لنبيِّه ﷺ، فقالوا: يا نبيَّ الله يا رسول الله(٤). وروي نحوُ هذا عن قتادة والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد. وفي «أحكام القرآن» للسيوطيِّ: أنَّ في هذا النهي تحريمُ ندائه ﷺ باسمه. والظاهرُ استمرارُ ذلك بعد وفاته إلى الآن(٥).

---

(١) منها ما أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي».

(٢) ١/ ٥١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٠٣.

(٣) في سننه (٤٢٧٨) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٦٧٨)، وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٥٤-٢٦٥٥، وعزاه لأبي نعيم وابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٦١.

(٥) الإكليل في استنباط التنزيل لجلال الدين السيوطي ص١٩٦.

وذكر الطبرسيُّ(١) أنَّ من جملة المنهيِّ عنه النداءُ بـ : يا ابن عبد الله، فإنه مما ينادي به العربُ بعضَهم بعضاً.

وتعقِّب هذا القولُ بأنَّ الآية عليه لا تلائمُ السباقَ واللحاق.

وقال بعضُهم: وجهُ الارتباطِ بما قبلَها عليه: الإرشادُ إلى أنَّ الاستئذان ينبغي أن يكون بقولهم: يا رسول الله إنا نستأذنُك، ونحوَه، وكذا خطابُ مَن معه في أمرٍ جامعٍ إياه ﷺ ينبغي أن يكون بنحوِ: يا رسول الله، لا بنحو: يا محمد، ويكفي هذا القَدْرُ من الارتباط بما قبلُ.

ولا حاجةَ إلى بيانِ المناسبة بأنَّ في كلٍّ منهما ما ينافي التعظيمَ اللائقَ بشأنه العظيم ﷺ. نعم الأظهرُ في معنى الآية ما ذكرناه أولاً كما لا يخفى.

وقرأ الحسن ويعقوب في رواية: «نبيِّكم» بنونٍ مفتوحةٍ وباءٍ مكسورةٍ وياءٍ آخر الحروف مشدَّدةٍ(٢)، بدل «بينكم» الظرفِ في قراءة الجمهور. وخرِّج على أنه بدلٌ من «الرسول»، ولم يُجعل نعتاً له لأنه مضافٌ إلى الضمير، والمضافُ إليه في رتبة العَلَم، وهو أعرفُ من المعرَّفِ بـ «أل»، ويشترطُ في النعت أن يكون دون المنعوت أو مساوياً له في التعريف، وقال أبو حيان: ينبغي أن يجوِّز النعتُ؛ لأنَّ «الرسول» قد صار عَلَماً بالغلبة كالبيت للكعبة، فقد تساويا في التعريف(٣).

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ وعيدٌ لمن هو بضدِّ أولئك المؤمنين الذين لم يذهبوا حتى يستأذنوه عليه الصلاة والسلام. والتسلُّلُ: الخروجُ من البَيْنِ على التدريج والخفية. و«قد» للتحقيق، وجوِّز أن تكون لتقليل المتسلِّلين في جَنْبِ معلوماته تعالى، وأن تكون للتكثير إما حقيقةً أو استعارةً ضدِّيةً.

وقال أبو حيان(٤): إنَّ قول بعض النحاة بإفادة «قد» التكثير إذا دَخَلتْ على المضارع غيرُ صحيح، وإنما التكثيرُ مفهومٌ من سياق الكلام كما في قول زهير:

---

(١) في مجمع البيان ١٨/ ٨١.
(٢) البحر ٦/ ٤٧٦.
(٣) البحر ٦/ ٤٧٧.
(٤) في البحر ٦/ ٤٧٧.

أخي ثقةٍ لا يُهْلِكُ الخمرُ مالَه ولكنَّه قد يُهْلِكُ المالَ نائلُه[١]

فإنَّ سياق الكلام للمدح يُفْهَمُ منه ذلك. أي: قد يعلمُ الله الذين يخرجون من الجماعة قليلاً قليلاً على خفيةٍ ﴿لِوَاذًا﴾ أي: مُلاوَذَةً بأنْ يستترَ بعضُهم ببعضٍ حتى يخرجَ. وأخرج أبو داود في «مراسيله» عن مقاتل قال: كان لا يخرجُ أحدٌ لرعافٍ أو إحداثٍ حتى يستأذنَ النبيَّ ﷺ، يشير إليه بإصبعه التي تلي الإبهام، فيأذنُ له النبيُّ ﷺ يشيرُ إليه بيده، وكان من المنافقين مَن تثقُلُ عليه الخطبةُ والجلوسُ في المسجد، فكان إذا استأذن رجلٌ من المسلمين قام المنافقُ إلى جنبه يَسْتَتِرُ به حتى يخرجَ، فأنزل الله تعالى: (قَدْ يَعْـلَمُ) الآيةَ[٢].

وقيل: يلوذُ به إراءةَ أنَّه مِن أتباعه.

ونُصبَ «لواذاً» على المصدرية أو الحالية بتأويل مُلاوِذينَ، وهو مصدرُ لاوَذَ لعَدَمِ قَلْبِ واوه ياءً تبعاً لفِعْلِه، ولو كان مصدرَ «لاذ» لقيل: لياذاً كقياماً.

وقرأ يزيد بن قطيب: «لَوَاذاً» بفتح اللام[٣]، فاحْتَمَلَ أن يكون مصدرَ «لاذ» ولم تُقْلَبْ واوُه ياءً، لأنه لا كسرةَ قبلها فهو كطَوافٍ مصدر طاف، واحْتَمَلَ أن يكون مصدرَ لاوَذَ وفتحةُ اللامِ لأَجْلِ فتحةِ الواو.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ لترتيب الحَذَرِ - أو الأمرِ به - على ما قبلها من عِلْمِه تعالى بأحوالهم، فإنه مما يوجبُ الحذرَ البتة، والمخالفةُ كما قال الراغب: أن يأخذَ كلٌّ واحدٍ طريقاً غيرَ طريقِ الآخَرِ في حاله أو فِعْلِه[٤].

والأكثرُ استعمالُها بدون «عن»، فيقال: خالَفَ زيدٌ عمراً، وإذا استُعملت بـ «عن» فذاك على تضمين معنى الإعراض، وقيل: الخروج، أي: يخالفون مُعْرِضينَ أو خارجين عن أمره.

---

(١) ديوان زهير ص١٤١.

(٢) المراسيل(٦٢).

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٣، والبحر ٦/ ٤٧٧، والكلام منه.

(٤) مفردات الراغب (خلف)، ونقله عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٠٣، وجاء في المفردات: قوله، بدل: فعله.

وقال ابن الحاجب: عدِّي «يخالفون» بـ «عن» لِمَا في المخالفة من معنى التباعُدِ والحَيْدِ، كأنه قيل: الذين يَحيدون عن أمره بالمخالفة، وهو أبلغُ من أن يقال: يخالفون أمرَه.

وقيل: على تضمين معنى الصَّدِّ. وقيل: إذا عدِّي بـ «عن» يرادُ به الصَّدُّ دون تضمينٍ، ويتعدَّى إلى مفعولٍ بنفسه؛ يقال: خالفَ زيداً عن الأمر، أي: صدَّه عنه، والمفعولُ عليه هنا محذوفٌ، أي: يخالفون المؤمنين، أي: يصدُّونهم عن أمره، وحُذف المفعولُ لأنَّ المراد تقبيحُ حالِ المخالف، وتعظيمُ أمرِ المخالَفِ عنه، فذُكِر الأهمُّ وتُرِكَ ما لا اهتمام به.

وقد يتعدَّى بـ «إلى»، فيقال: خالف إليه، إذا أقبل نحوه.

وقال ابن عطية[١]: «عن» هنا بمعنى بَعْدَ، والمعنى: يقعُ خلافُهم بعدَ أمره، كما تقول: كان المطر عن ريحٍ، وأطعمتهُ عن جوعٍ.

وقال أبو عبيدة والأخفش: هي زائدة، أي: يخالفون «أمرَه»[٢].

وضمير «أمرَه» لله عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ الأمر له سبحانه في الحقيقة، أو للرسول ﷺ فإنه المقصودُ بالذكر. والأمرُ[٣]، قيل: الطلبُ، أو الشأنُ، أو ما يعمُّهما، ولا يَخْفَى أنَّ في تجويز كلٍّ على كلٍّ من الاحتمالين في الضمير نظراً، فلا تغفل.

وقرئ: «يُخلِّفون» بالتشديد[٤]، أي: يخلِّفون أنفسَهم عن أمره.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاءٌ ومحنةٌ في الدنيا، كما روي عن مجاهد. وعن ابن عباس تفسيرُ الفتنة بالقتل. وعن جعفر الصادقِ رضي الله عنه تفسيرُها بتسليط سلطانٍ جائرٍ. وعن السديِّ ومقاتلٍ تفسيرُها بالكفر. والأولُ أَوْلَى.

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة. وقيل: في الدنيا، والمراد بالعذاب

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ١٩٨.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٦٩، وذكره عن الأخفش الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٢٩، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٧٧.

(٣) بعدها في (م): له.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٣، والبحر ٦/ ٤٧٧.

الأليم: القتلُ، وبالفتنة: ما دونه، وليس بشيءٍ. وكلمةُ «أو» لمنع الخلوِّ دون الجمع.

وإعادةُ الفعل صريحاً للاعتناء بالتهديد والتحذير. وشاع الاستدلالُ بالآية على أنَّ الأمر للوجوب، فإنه تعالى أوجبَ فيها على مخالفِ الأمر الحذرَ عن العذاب، وذلك تهديدٌ على مخالفةِ الأمر، وهو دليلُ كونِ الأمر للوجوب؛ إذ لا تهديدَ على تَرْكِ غيرِ الواجب، وأيضاً بناءُ حُكْمِ الحَذَرِ عن العذاب إلى المخالف يقتضي أن يكون حذرُه عنه من حيث المخالفة، وذلك إنما يكون إذا أفضى إلى العذاب، كما في قولك: فليَحْذَرِ الشاتمُ للأمير أن يَضْرِبَه، ولا إفضاءَ في تَرْكِ غير الواجب.

وهذا الأمرُ أعني «فليحذر» بخصوصه مستعملٌ في الإيجاب، إذ لا معنى لندب الحَذَرِ عن العقاب أو إباحته. وأيضاً إشعارُ الآية بوجوبِ الحذر غيرُ خافٍ، بقرينةِ ورودها في مَعْرِضِ الوعيد بتوقُّع إصابة العذاب.

على أنه لو حُمِلَ الأمرُ المذكورُ على أنه للندب يَحصُلُ المطلوب، وذلك لأنَّ التحذير عمَّا لم يُعْلَمْ أو لم يُظَنَّ تَحقُّقُه ولا تحقُّقُ ما يفضي إلى وقوعه في الجملة سَفَهٌ غيرُ جائزٍ، بمعنى أنه مخالفٌ للحكمة، ولهذا يُلَامُ مَن يحذَرُ عن سقوطِ الجدار المُحْكَمِ الغير المائل.

وأيّاً ما كان يندفعُ ما يقال: لا نسلِّم أنَّ قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ للوجوب؛ لأنه عينُ محلِّ النزاع، إذ يكفي في المطلوب على ما قرَّرنا استعمالهُ في الندب أيضاً.

والقولُ بأنَّ معنى مخالفة الأمر عدمُ اعتقادِ حَقِّيتِه، أو حملُه على غير ما هو عليه بأنْ يكونَ للوجوب أو الندب مثلاً فيحمل على غيره = بعيدٌ جدّاً. والظاهرُ المتبادِرُ إلى الفَهْمِ أنه تَرْكُ الامتثالِ والإتيانِ بالمأمور به، فلا يترك إلى ذلك إلَّا بدليل.

واعتُرِض بأنه بعد هذا القيل والقال لا يدلُّ على أنَّ جميع الأوامر حقيقَةٌ في الوجوب لإطلاق الأمر.

وأجيب بأن «أمره» مصدرٌ مضافٌ، وهو يفيدُ العمومَ حيث فُقِدَتْ قرينةُ العهدِ،

على أنَّ الإطلاق كافٍ في المطلوب، وهو كونُ الأمرِ المُطْلَقِ للوجوب خاصةً؛ إذ لو كان حقيقةً لغيره أيضاً لم يترتَّب التهديدُ على مخالفةِ مُطْلَقِ الأمرِ.

وقال بعض الأجلَّة: لا قائل بالفصل في صيغ الأمر بأنَّ بعضَها للوجوب وبعضَها لغيره.

وزعم بعضُهم أنَّ الاستدلال لا يتمُّ إذا أريد بالأمر الطلب، ولو فسِّر بالشأن وكان الضميرُ للرسول عليه الصلاة والسلام، لزمَ من القول بدلالتها على الوجوب أن يكون كلُّ ما يفعله ﷺ واجباً علينا، ولا قائل به. والزمخشريُّ فسَّره بالدِّين والطاعة(١).

وقال صاحب «الكشف»: إنَّ الاستدلال بالآية على أنَّ الأمر للوجوب مشهورٌ، سواءٌ فسِّر بما ذُكِرَ لأنَّ الطاعة امتثالُ الأمر القوليِّ، أو فسِّر على الحقيقة. وأمَّا إذا جُعِلَ إشارةً إلى ما سبق من الأمر الجامع، ومعنى «يخالفون عن أمره»: ينصرفون عنه، فلا. وليس بالوجه وإنْ آثَرَه جمعٌ؛ لفواتِ المبالغة والتناوُلِ الأوليِّ، والعدولِ عن الحقيقة في لَفْظِ الأمرِ ثم المخالفةِ من غير ضرورةٍ. انتهى.

وهذا الذي آثره جمعٌ ذكره الطيبيُّ عن البغويِّ(٢)، ثم قال: هذا هو التفسيرُ الذي عليه التعويلُ، ويساعدُ عليه النظمُ والتأويلُ؛ لأنَّ الأمرَ حينئذٍ بمعنى الشأن وواحدِ الأمور، وبيانُه أن ما قبله حديثٌ في الأمر الجامع، وهو الأمرُ الذي يُجمَعُ عليه الناس، ومَدْحُ مَن لَزِمَ مجلسَ رسول الله ﷺ ولم يذهب عنه، وذمُّ مَن فارَقَه بغير الإذن، وأَمْرٌ بالاستغفار في حقِّ مَن فارَقَ بالإذن؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ يؤذِنُ أنَّ القوم ثلاثُ فِرَقٍ: المأذونُ في الذهاب بعد الاستئذان، والمتخلِّفُ عنه، ثم المتخلِّفُ إمَّا أن يدومَ في مجلسه عليه الصلاة والسلام ولم يذهب وهم المؤمنون المُخْلِصون، أو يتسلَّلَ لواذاً وهم المنافقون، وقولُه تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾ إلخ مترتِّبٌ على القسم الثالث على سبيل الوعيد، والفعلُ المضارعُ يفيدُ معنى الدَّأْبِ والعادةِ، وقد أقيم المُظْهَرُ موضعَ المُضْمَرِ علَّةً لاستحقاقهم فتنةَ الدارين. انتهى.

---

(١) الكشاف ٣/ ٧٩.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٥٩، وفيه: وقيل: معناه يُعْرِضون عن أمره، وينصرفون عنه بغير إذنه.

وقد كَشَفَ عن بعضٍ ما فيه صاحبُ «الكشف»، نعم قيل عليه: إنَّ فواتَ المبالغةِ والتناوُلِ لا يقاوِمُ العهدَ، ولا عدولَ عن الحقيقة لأنَّ الأمر حقيقةٌ في الحادثة، وكذا المخالفةُ فيما ذكر، ولو سلِّم فهو مشتركُ الإلزام فإنَّ الأمر ليس حقيقةً في الأمر العامِّ. وقولُه: بلا ضرورةٍ، ممنوعٌ، فإنَّ إضافةَ العهدِ صارفةٌ.

وتعقِّب بأنَّ هذا مكابرةٌ ومنعٌ مجرَّدٌ لا يُسمع؛ فإنَّ الأبلغيةَ لا شبهةَ فيها؛ فإنَّ تهديد مَن لم يمتثل أمرَه عليه الصلاة والسلام أشدُّ مِن تَرْكِه بلا إذنٍ، وكونُ الأمر حقيقةً في الطلب هو الأصحُّ في الأصول، والمخالفةُ المقارِنةُ للأمر لا شبهةَ في أنَّ حقيقتها عدمُ الامتثال، واشتراكُ الإلزام ليس بتامٍّ؛ لأنَّ أمره إذا عمَّ يشملُ الأمرَ الجامع بمعنى الطلب أيضاً، وعهدُ الإضافة ليس بمتعيِّنٍ حتى يُعدَّ صارفاً. كذا قيل، وفيه بحثٌ فتأمَّل.

وقد يقال بناءً على كون الأمر المذكور إشارةً إلى الأمر الجامع: إنه جيءَ بـ «أو» في قوله: (أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) لِمَا أنَّ الأمر الجامعَ إمَّا أن يكون أمراً دنيويًّا كالتشاوُرِ في الأمور الحربية، فالانصرافُ عنه مَظِنَّةُ إصابةِ المحنةِ الدنيويةِ للمُنْصَرِفينَ، وإمَّا أنْ يكون أمراً دينيًّا كإقامةِ الجمعةِ التي فيها تعظيمُ شعائرِ الإسلام، فالانصرافُ عنه مَظِنَّةُ إصابةِ العذابِ الأخرويِّ.

وبالجملة لا استدلالَ بالآية على اعتبارِ العهد، وأمَّا إذا لم يُعتبَرْ فقد استُدِلَّ بها، وقد سمعتَ شيئاً من الكلام في ذلك، وتمامُه جرحاً وتعديلاً وغيرَ ذلك في كتب الأصول.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات بأسرها خَلْقاً وملكاً وتصرُّفاً، إيجاداً وإعداماً، بدءاً وإعادةً، لا لأحدٍ غيرِه شركةً أو استقلالاً.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيُّها المكلَّفون، من الأحوال والأوضاع التي من جملتها الموافقةُ والمخالفةُ، والإخلاصُ والنفاقُ، ودخولُ المنافقين ـ مع أنَّ الخطاب فيما قبلُ للمؤمنين ـ بطريق التغليب.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ خاصٌّ بالمنافقين، وهو مفعولٌ به عطف على «ما أنتم»، أي: يعلمُ يومَ يُرْجَعُ المنافقون المخالفون للأمر إليه عزَّ وجلَّ للجزاء والعقاب.

وتعليقُ عِلْمِه بيومِ رجعِهِم لا برجعهم لزيادةِ تحقيق عِلْمِه سبحانه بذلك وغايةِ تقريره؛ لِمَا أنَّ العلم بوقتِ وقوع الشيء مستلزمٌ للعلم بوقوع الشيء على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه. وفيه إشعارٌ بأنَّ عِلْمَه جلَّ وعلا بنفس رجعهم من الظهور بحيث لا يحتاجُ إلى البيان قطعاً.

ويجوز أن يكون الخطابُ السابق خاصّاً بهم أيضاً فيتحقَّقُ التفاتان: التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب في «أنتم»، والتفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة في «يرجعون» والعطفُ على حاله. وجوِّز أن يكون على مقدَّرٍ، أي: ما أنتم عليه الآن ويومَ.. إلخ، فإنَّ الجملة الاسمية تدلُّ على الحال في ضمن الدوام والثبوت.

وقيل: يجوز أن يكون «يومَ» ظرفاً لمحذوفٍ يعطفُ[1] على ما قبله، أي: وسيحاسبُهم يومَ، أو نحو ذلك، ولا أرى اختصاصَه بالوجه الثاني في الخطاب.

وفي «البحر» بعد ذِكْرِ الوجهين فيه: والظاهرُ عَطْفُ «يوم» على «ما أنتم عليه»، وقال ابن عطية: يجوزُ أن يكون التقديرُ: والعلمُ يظهرُ لكم ـ أو نحو هذا ـ يومَ، فيكون «يوم» نصباً على الظرفية بمحذوفٍ[2].

و«قد» للتحقيق، وفيها الاحتمالان المتقدِّمان آنفاً. وقد مرَّ غيرَ مرةٍ ما يراد بمثلِ هذه الجملةِ من الوعيد أو الوَعْدِ، ولا يخفى المناسبُ لكلٍّ من الاحتمالات في «أنتم» و«يرجعون».

وقرأ ابن يعمر وابن أبي إسحاق وأبو عمرو: «يَرْجِعون» مبنيّاً للفاعل[3].

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: بعملهم، أو بالذي عملوه من الأعمال السيئة التي من جملتها مخالفةُ الأمر، فيرتِّبُ سبحانه عليه ما يليقُ به من التوبيخ والجزاء، أو

(١) في الأصل: بعطف.

(٢) البحر ٦/ ٤٧٧- ٤٧٨، وكلام ابن عطية في المحرر ٤/ ١٩٨. وفيهما: والعلم الظاهر، بدل: والعلم يظهر.

(٣) في (م): للمفعول، والمثبت من البحر ٦/ ٤٧٧، والكلام منه، والمشهور عن أبي عمرو القراءة بالبناء للمفعول، وقرأ بالبناء للفاعل يعقوب كما في النشر ٢/ ٢١٨، وينظر السبعة ص٤٥٩.

فينبِّئهم بما عملوا خيراً أو شرّاً فيرتِّبُ سبحانه على ذلك ما يليق به إن خيراً فخيرٌ وإن شرّاً فشرٌّ.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ لا يخفَى عليه شيءٌ من الأشياء. والجملةُ تذييلٌ مقرِّرٌ لِمَا قبله، وإظهارُ الاسم الجليل في مقام الإضمار لتأكيد استقلالِ الجملة والإشعارِ بعلَّةِ الحكم، وتقديمُ الظرف لرعاية رؤوس الآي. وقيل ـ وفيه بحثٌ ـ: إنه للحَصْرِ على معنى: واللهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ لا ببعضِ الأشياء كما يزعمهُ بعضُ جَهَلةِ الفلاسفة ومَن حَذَا حَذْوَهم، حَفِظَنا الله تعالى والمسلمين مما هم عليه من الضلالات، وجَعَلَ لنا نوراً نهتدي به إذا ادْلَهَمَّ ليلُ الجهالات.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ما قيل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ إلى آخره: إنّه إشارةٌ إلى جمع العناصر الأربعة وتركيبِ الإنسان منها، ثم خروجِ مطرِ الإحساس من عينيه وأذنيه مثلاً، وينزِّلُ من سماء العقل الفيَّاض بَرَدَ حقائق العلوم، فيصيب به مَن يشاء، فتظهرُ آثارُه عليه، ويَصْرِفُه عمَّن يشاء حَسْبَما تقتضيه الحكمةُ الإلهية.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ نورُ تَجلِّيه ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1] بأنْ يعطِّلَها عن الإبصار، ويُفْني أصحابَها عنها؛ لما أنَّ الإدراكَ بنورِه فوق الإدراك بنورِ الأبصار.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ إشارةٌ إلى ليل المَحْوِ ونهار الصَّحْوِ، أو ليلِ القَبْضِ ونهارِ البَسْطِ، أو ليل الجلال ونهار الجمال، أو نحو ذلك.

وقيل: يُزْجي سحابَ المعاصي إلى أن يتراكم، فتَرَى مَطَرَ التوبة يخرج من خلاله كما خرج من سحابِ «وعصى آدم» مَطرُ «ثم اجتباه ربُّه»، وينزِّلُ من سماء القلوب من جبال القَسْوةِ فيها من بَرَدِ القَهْرِ، يقلِّبُ الله ليلَ المعصية لمن يشاء إلى نهار الطاعة وبالعكس.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ تقدَّم الكلام في الماء ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ يعتمدُ في سيره على الباطن، وهم أهل الجذبة المغمورون في بحار المحبَّة ﴿وَمِنْهُم

(١) في (م): الأبصار.

﴿مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ يعتمدُ في سيره الشريعةَ والطريقةَ، لكن فيما يتعلَّق به خاصةً منهما، وهم صنفٌ من الكاملين سكنوا زوايا الخمول، ولم يخالطوا الناس ولم يشتغلوا بالإرشاد ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖ﴾ يعتمد في سيره الشريعةَ والطريقةَ فيما يتعلَّق به وبغيره منهما، وهم صنفٌ آخَر من الكاملين برزوا للناس وخالطوهم واشتغلوا بالإرشاد وعملوا في أنفسهم بما تقتضيه الشريعة والطريقة وعاملوا الناس والمريدين بذلك أيضاً.

﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فلا يَبْعدُ أن يكون في خَلْقِه من يمشي على أكثر، كالكاملين الذين أَوْقَفَهم الله تعالى على أسرار الملك والملكوت، وما حدَّه لكلِّ أمةٍ من الأمم ونوعٍ من أنواع المخلوقات، فعامَلوا ـ بعد أن عملوا في أنفسهم ما يليقُ بهم ـ كلَّ أمةٍ وكلَّ نوعٍ بما حُدَّ له ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ الآياتِ إشارةٌ إلى أحوال المنكرين في القلب على المشايخ، وأحوالِ المصدِّقين بهم قلباً وقالباً.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ إشارة إلى أنَّ طاعة الرسول سببٌ لحصول المكاشَفات ونحوِها؛ قال أبو عثمان: من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نَطَقَ بالحكمة، ومَن أمَّر الهوى على نفسه نطقَ بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ إشارةٌ إلى أنه لا ينبغي للمريد الاستبدادُ بشيءٍ؛ قال عبد الله الرازي: قال قومٌ من أصحاب أبي عثمان لأبي عثمان: أَوْصِنَا. فقال: عليكم بالاجتماع على الدين، وإياكم ومخالفةَ الأكابر، والدخولَ في شيءٍ من الطاعات إلَّا بإذنهم ومشورتهم، وواسُوا المحتاجين بما أمكنكم، فإذا فعلتُم أرجو أن لا يُضيعَ اللهُ تعالى لكم سعياً.

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ فيه من تعظيم أمرِ الرسول ﷺ ما فيه، وذكر أنَّ الشيخ في جماعته كالنبيِّ في أمته، فينبغي أن يُحترَمَ في مخاطبته، ويميَّز على غيره.

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال أبو سعيد الخزاز: الفتنةُ إسباغُ النعم مع الاستدراج. وقال الجنيد قدّس سرُّه: قسوةُ القلب عن معرفة المعروف والمنكر. وقال بعضهم: طبعٌ على القلوب. والعذابُ الأليمُ هو عذابُ البعد، والحجابُ عن الحضرة، نعوذُ بالله تعالى من ذلك، ونسأله سبحانه التوفيقَ إلى أَقْوَمِ المسالك، فلا ربَّ غيرُه، ولا يُرْجَى إلَّا خَيْرُه.

(٢٥) سورة الفرقان مكية وآياتها سبع وسبعون

سورةُ الفرقانِ من السور المكية التي تُعنى بأمور العقيدة وأصول الإيمان ، وتعالج شبهاتِ المشركين حول الوحدانية ، والرسالة ، والبعث والجزاء ، وحول القرآن العظيم معجزة محمد الخالدة . سميت سورةَ الفرقان لأن الله تعالى فرق فيها بين الهُدى والضلال ، والحقِ والباطل ، وسُميَّ القرآنُ فرقاناً لأنه هو الفارق بين الحق والباطل ، والظلام والنور ، والإيمان والكفر ، ولما كان القرآن العظيم نعمةَ الله الكبرى على الإنسانية لذلك بدأت السورة الكريمة بتمجيد الإله الذي أنزل هذا الكتاب فاصلاً وفارقاً بين دعوة الخير ودعوة الشر ، وبين نور الإيمان وظلمة الكفر والطغيان ﴿ تباركَ الذي نزَّل الفرقانَ على عبدهِ ليكونَ للعالمينَ نذيراً . الذي له ملكُ السمواتِ والأرضِ ، ولم يتخذْ ولداً ولم يكنْ له شريكٌ في المُلْك وخَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدَّره تَقْديراً ﴾ وقد تحدثت السورة الكريمة عن الوحي ، والقرآن ، والرسالة المحمدية ، ولعلَّ محور هذه السورة يدور حول هذه الأمور الثلاثة كما يدور حول عقيدة البعث والنشور . أمَّا القرآن فلقد تفنَّن المشركون في الطعن فيه والاستهزاء بآياته ، فتارةً يزعمون أنه كذبٌ وبهتانٌ افتراه محمد وأعانه عليه بعضُ أهل الكتاب ، وتارةً يزعمون أنه أساطيرُ الأولين ، وحكاياتُ الغابرين ، وأُخرى يزعمون أنه سحرٌ وكهانة ، وقد ردَّ الله تبارك وتعالى عليهم هذه المزاعمَ الكاذبة ، والأوهامَ التي لا تستند على دليل أو برهان ، وبيَّن أنَّ هذا

القرآن تنزيلٌ من الرحيم الرحمن ، الذي يعلم السرَّ وأخفى ﴿وقالَ الذينَ كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراهُ وأعَانهُ عليه قومٌ آخرونَ ، فقدْ جاءُ واظُلْماً وزَوْراً . وقالوا أساطيرُ الأولين اكتَتَبها فهي تُملَى عليه بُكْرةً وأصيلاً . قلْ أنزله الذي يعلم السرَّ في السمواتِ والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾ . وتنتقل الآيات الكريمة للحديث عن الرسالة وعن الرسول ، فقد عزَّ على المشركين أن يأتيهم رسولٌ من البشر ، واقترحوا أن يكون من الملائكة أو يكون من البشر الأثرياء ، لا من الفقراء الذين لا يملكون القصور الشاهقة والبساتين الغناء ، وقد حكى القرآن الكريم شبهتهم وردَّ عليها بالبرهان القاطع والحجة الدامغة ﴿وقالوا ما لِهذَا الرسولِ يأكل الطعامَ ويمشي في الأسواق ! ! لولا أُنزلَ إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيراً ؟ أو يُلْقى إليه كنزٌ أو تكونُ له جنةٌ يأكل منها ؟ وقال الظالمون إن تتَّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً . أُنْظُرْ كيفَ ضربوا لكَ الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ ثم نَّبهت الآياتُ على فضل الله العظيم على رسوله الكريم ، فلو شاء الله لآتاه في الدنيا خيراً مما يقترحون ، القصورَ والجنَان ، والأنهار والعيون ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلكَ ، جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ويَجعَلْ لك قصوراً﴾ ثم نَّبهتْ إلى سبب هذا التكذيب والجدَال بالباطل وهو عدمُ اعترافهم بالبعث بعد الفناء وإنكارُهم للآخرة ﴿بل كذّبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذَّب بالساعة سعيراً . إذا رأتْهُمْ من مكانٍ بعيد سمعوا لها تَغيُّظاً وزَفِيراً . وإذا أُلْقوا منها مكاناً ضَيّقاً مُقَرَّنينَ دَعَوْا هنالك ثُبوراً . لا تدعوا اليومَ ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ .

وتتحدث الآيات عن مشهد من مشاهد الطغيان ، لفريق من المشركين الذين عرفوا الحقَّ وأقروا به ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وتذكر قصةَ « عُقْبةَ بَن أَبِي مُعَيْطٍ » الذي كان جاراً لرسول الله ﷺ وكان

يُكثر مجالسة النبي عليه السلام ، فصنع عُقْبة ذاتَ يوم طعاماً ودعا إليه الناسَ ودعا كذلك رسول الله ﷺ فأبى رسول الله أن يأكل من طعامه حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله ، فشهد بذلك وأسلم ، وكان صديقُه « أُبَيُّ بن خَلَف » غائباً في سفر فلما حضر وأُخبر بإسلام عُقبة جاء إليه وقال له : وجهي من وجهك حرام إن لم تكفر بمحمد وتَرُدَّ عليه دعوته ، ففعل الشقيُّ ما أشار عليه به صديقُه فارتدَّ عن الإسلام وكفر بعد أن هداه الله ، وقد سمَّاه القرآن الكريم بالظالم لأنه ظلم نفسه بأقبح أنواع الظلم فكفر بعد الإيمان ، وشقي بعد السعادة ﴿ ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يديهِ يقولُ يا لَيْتني اتَّخَذْتُ مع الرَّسُولِ سبيلاً . يا وَيْلَتا لَيْتني لم أَتَّخِذْ فُلاَناً خليلاً . لَقَد أَضَلَّني عن الذكر بعد إذْ جاءني ، وكان الشيطانُ للإنسانِ خَذُولاً ﴾ وكان آخرُ أخبار هذا الشقي أن قُتِل ببدر بعد وقوعه في الأسر كافراً . وتنتقل السورة الكريمة للحديث عن قَصَص بعض الأنبياء ، ثم تذكر الأمم المدمَّرة من الغابرين الذين استهزءوا بدعوة الرسل وكذبوا بآيات الله فحقَّ عليهم عذاب الله العاجل وهم قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرَّس الذين ألْقوا نبيَّهم في البئر ، وقوم لوط ، وغيرَهم من الكافرين الجاحدين ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ وجعلنا معه أخاه هارونَ وزيراً . فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذَّبوا بآياتنا فدمَّرناهم تدميراً . وقومَ نوحٍ لما كذَّبوا الرسلَ أغرقناهم وجعلناهم للناسِ آيةً ، وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً . وعاداً وثمودَ وأصحابَ الرَّسِ ، وقُروناً بين ذلك كثيراً . وكلاً ضربنا له الأمثالَ وكلاً تَبَّرْنَا تَتْبيرا ﴾ وتتحدث السورة الكريمة عن دلائل قدرة الله ووحدانيته ، وعن عجائب صنعه في هذا الكون البديع الذي هو أثر من آثار قدرة الله ، وشاهدٌ من شواهد العظمة والجلال ﴿ ألم تر إلى ربكَ كيف مدَّ الظلَّ ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعلنا

الشمس عليه دليلاً ، ثم قبضناه إلينا قَبْضاً يسيراً . وهو الذي أرسل الرياحَ بُشْراً بين يَدَيْ رحمته ، وأنزلنا من السماء ماءً طَهُوراً . لنُحْيِيَ بهِ بلدةً مَيْتاً ونُسْقِيَهُ مما خلقنا أنْعَاماً وأَنَاسِيَّ كثيراً﴾ وتختم السورة الكريمة – بعد مظاهر القدرة العظيمة – ببيان صفاتِ عبادِ الرحمن الذين خصَّهم الله بالأخلاقِ الحميدة ، والسجايا العظيمة ، والاستقامةِ في هذه الحياة على شريعة الله ، وتذكر ما أعدَّ الله لهم من الأجر العظيم في جنات النعيم ﴿وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سَلاَماً . والذين يبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً . والذين يقولون ربَّنا اصرفْ عنا عذاب جهنَّم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقراً ومُقَاماً﴾ إلى قوله تعالى ﴿أولئك يُجْزونَ الغُرفةَ بما صبروا ويُلَقَّوْن فيها تحيةً وسلاماً . خالدينَ فيها حَسُنَتْ مُسْتقراً ومُقَاماً . قل ما يَعْبَأُ بكم ربي لولا دعاؤكم ، فقد كذَّبتم فسوف يكون لزاماً﴾ ..

سورة الفرقان

[٦٦٦] ك. . أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن أبي حاتم عن خيثمة قال قيل للنبي [ﷺ] إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها لا ينقصك ذلك عندنا شيئاً في الآخرة وإن شئت جمعتهما لك في الآخرة قال: «**بل اجمعها لي في الآخرة**» فنزلت: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾(١) الآية.

[٦٦٧] وأخرج الواحدي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما عير المشركون رسول الله [ﷺ] بالفاقة ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(٢) حزن رسول الله [ﷺ] فنزل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(٣)، وأخرج ابن جرير نحوه من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس.

[٦٦٨] وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال كان أُبي بن خلف يحضر النبي [ﷺ] فيزجره عقبة بن أبي معيط فنزل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿خَذُولًا﴾(٤) وأخرج مثله عن الشعبي ومقسم.

[٦٦٩] ك. . وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: قال المشركون إن كان محمد كما يزعم نبياً فلم يعذبه ربه ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة فينزل عليه الآية والآيتين فأنزل الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾(٥).

---

[٦٦٦] (١) سورة الفرقان: الآية (١٠).

[٦٦٧] (٢) سورة الفرقان: الآية (٧).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٢٠). ورواية الواحدي في أسباب النزول ص (١٩٠) أطول منها بكثير.

[٦٦٨] (٤) سورة الفرقان: الآية (٢٧ـ ٢٩).

[٦٦٩] (٥) سورة الفرقان: الآية (٣٢).

[٦٧٠] وأخرج الشيخان(١) عن ابن مسعود قال سألت رسول الله [ﷺ] أي الذنب أعظم قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»** قلت ثم أي قال: **«إن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»** قلت ثم أي قال: **«أن تزاني خليلة جارك»** فأنزل الله تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾(٢).

[٦٧١] وأخرج الشيخان عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً [ﷺ] فقالوا إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٣) ونزل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾(٤) الآية.

[٦٧٢] وأخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال لما أنزلت في الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي﴾(٥) الآية قال مشركو أهل مكة قد قتلنا النفس بغير حق ودعونا مع الله إلهاً آخر وأتينا الفواحش فنزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ الآية.

* * *

[٦٧٠] (١) صحيح البخاري (٦/ ٢٢)، صحيح مسلم كتاب الإيمان (١٤١) والنسائي في سننه (٧/ ٨٩ و ٩٠)، والترمذي (١٢/ ٣١) وأبو داود (٢٣١٠) في سننيهما والإمام أحمد في مسنده (١/ ٣٨٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٨).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٦٨).

[٦٧١] (٣) سورة الفرقان: الآية (٦٨).

(٤) سورة الزمر: الآية (٥٣).

[٦٧٢] (٥) سورة الفرقان: الآية (٦٨).

سورة الفرقان

سبع وسبعون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝﴾

اعلم أن الله سبحانه وتعالى تكلم في هذه السورة في التوحيد والنبوة وأحوال القيامة، ثم ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين، ولما كان إثبات الصانع وإثبات صفات جلاله يجب أن يكون مقدمًا على الكل لا جرم افتتح الله هذه السورة بذلك فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: تبارك: تفاعل من البركة، والبركة كثرة الخير وزيادته وفيه معنيان: أحدهما: تزايد خيره وتكاثر، وهو المراد من قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]والثاني: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو المراد من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وأما تعاليه عن كل شيء في ذاته، فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه، وأن يكون المعنى جل بفردانيته ووحدانيته عن مشابهة شيء من الممكنات. وأما تعاليه عن كل شيء في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضروريًا أو كسبيًا أو تصورًا أو تصديقًا وفي قدرته أن يحتاج إلى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال. وأما في أفعاله فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود إلا من قبله. وقال آخرون: أصل الكلمة تدل على البقاء، وهو مأخوذ من بروك البعير، ومن بروك الطير على الماء، وسميت البركة بركة لثبوت الماء فيها، والمعنى: أنه سبحانه وتعالى باقٍ في ذاته أزلاً وأبدًا ممتنع التغير وباق في صفاته ممتنع التبدل، ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجوه المنافع والمصالح والمبقي لها وجب وصفه سبحانه بأنه تبارك وتعالى.

المسألة الثانية: قال أهل اللغة: كلمة (الَّذِي) موضوعة للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة، وعند هذا يتوجه الإشكال، وهو أن القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو

الذي نزَّل الفرقان فكيف حسن هاهنا لفظ (الَّذِي)؟ وجوابه: أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزًا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله، فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم.

المسألة الثالثة: لا نزاع أن الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث إنه سبحانه فرَّق به بين الحق والباطل في نبوة محمد ﷺ وبين الحلال والحرام، أو لأنه فرق في النزول كما قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦] وهذا التأويل أقرب؛ لأنه قال: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ولفظة (نزل) تدل على التفريق، وأما لفظة (أنزل) فتدل على الجمع، ولذلك قال في سورة آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ . . . ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣] واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال أولاً: ﴿تَبَارَكَ﴾ ومعناه كثرة الخير والبركة، ثم ذكر عقبه أمر القرآن دل ذلك على أن القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات، لكن القرآن ليس إلا منبعًا للعلوم والمعارف والحكم، فدل هذا على أن العلم أشرف المخلوقات وأعظم الأشياء خيرًا وبركة.

المسألة الرابعة: لا نزاع أن المراد من العبد هاهنا محمد ﷺ، وعن ابن الزبير على عباده وهم رسول الله، وأمته كما قال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فالمراد ليكون هذا العبد نذيرًا للعالمين، وقول من قال: إنه راجع إلى الفرقان فأضاف الإنذار إليه كما أضاف الهداية إليه في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ [الإسراء: ٩] فبعيد وذلك لأن المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف، وإذا وصف به القرآن فهو مجاز، وحمل الكلام على الحقيقة إذا أمكن هو الواجب، ثم قالوا: هذه الآية تدل على أحكام: الأول: أن العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة، لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولاً إلى الملائكة فوجب أن يكون رسولاً إلى الجن والإنس جميعًا، ويبطل بهذا قول من قال: إنه كان رسولاً إلى البعض دون البعض. الثاني: أن لفظ ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على أنه رسول للخلق إلى يوم القيامة، فوجب أن يكون خاتم الأنبياء والرسل. الثالث: قالت المعتزلة: دلت الآية على أنه سبحانه أراد الإيمان وفعل الطاعات من الكل؛ لأنه إنما بعثه إلى الكل ليكون نذيرًا للكل، وأراد من الكل الاشتغال بالحسن والإعراض عن القبيح وعارضهم أصحابنا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية. الرابع: لقائل أن يقول: إن قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ كما دل على كثرة الخير والبركة لا بد وأن يكون المذكور عقيبه ما يكون سببًا لكثرة الخير والمنافع، والإنذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق هذا لهذا الموضع؟ جوابه: أن هذا الإنذار يجري مجرى تأديب الولد، وكما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الإحسان إليه أكثر، لما أن ذاك يؤدي في المستقبل إلى المنافع العظيمة، فكذا هاهنا كلما كان الإنذار كثيرًا كان رجوع الخلق إلى الله أكثر، فكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر، وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات إلى المنافع العاجلة،

وذلك لأنه سبحانه لما وصف نفسه بأنه الذي يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر إلا منافع الدين، ولم يذكر ألبتة شيئًا من منافع الدنيا.

ثم إنه سبحانه وصف ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء أولها: قوله: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه؛ لأنه لا طريق إلى إثباته إلا بواسطة احتياج أفعاله إليه، فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالأمر الواجب. وقوله: ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها في ماهيتها وفي وجودها، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء. وثانيها: قوله: ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فبيَّن سبحانه أنه هو المعبود أبدًا، ولا يصح أن يكون غيره معبودًا ووارثًا للملك عنه فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله: ﴿ تَبَارَكَ﴾ ولقوله: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا كالرد على النصارى. وثالثها: قوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ والمراد أنه هو المنفرد بالإلهية، وإذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكل، ولا يبقى مشغول القلب إلا برحمته وإحسانه. وفيه الرد على الثنوية، والقائلين بعبادة النجوم، والقائلين بعبادة الأوثان. ورابعها: قوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ **وفيه سؤالات:**

الأول: هل في قوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ دلالة على أنه سبحانه خالق لأعمال العباد؟ والجواب: نعم، من وجهين: الأول: أن قوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يتناول جميع الأشياء فيتناول أفعال العباد. والثاني: وهو أنه تعالى بعد أن نفى الشريك ذكر ذلك، والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كأن قائلاً قال: هاهنا أقوام يعترفون بنفي الشركاء والأنداد، ومع ذلك يقولون: إنهم يخلقون أفعال أنفسهم فذكر الله تعالى هذه الآية لتكون معينة في الرد عليهم. قال القاضي: الآية لا تدل عليه لوجوه: أحدها: أنه سبحانه صرح بكون العبد خالقًا في قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وثانيها: أنه سبحانه تمدح بذلك فلا يجوز أن يريد به خلق الفساد. وثالثها: أنه سبحانه تمدح بأنه قدَّره تقديرًا ولا يجوز أن يريد به إلا الحسن والحكمة دون غيره، فثبت بهذه الوجوه أنه لا بد من التأويل لو دلت الآية بظاهرها عليه، فكيف ولا دلالة فيها ألبتة؛ لأن الخلق عبارة عن التقدير فهو لا يتناول إلا ما يظهر فيه التقدير، وذلك إنما يظهر في الأجسام لا في الأعراض والجواب:

أما قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ [المائدة: ١١٠] وقوله: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فهما معارضان بقوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وبقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] وأما قوله: لا يجوز التمدح بخلق الفساد، قلنا: لم لا يجوز أن يقع التمدح به نظرًا إلى تقادير القدرة وإلى أن صفة الإيجاد من العدم والإعدام من الوجود ليست إلا له؟ وأما قوله: الخلق لا يتناول إلا الأجسام، فنقول: لو كان كذلك لكان قوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ خطأ لأنه يقتضي إضافة الخلق إلى جميع الأشياء مع أنه لا يصح في العقل إضافته إليها.

السؤال الثاني: في الخلق معنى التقدير (فَقَوْلُهُ): ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (مَعْنَاهُ) وقدر كل شيء فقدره تقديرًا؟ والجواب: المعنى (أنه) أحدث كل شيء إحداثًا يراعي فيه التقدير والتسوية، فقدره تقديرًا وهيأه لما يصلح له، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر (الْمُسْتَوِي) الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة (بِهِ فِي بَابِ) الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما ومصلحة ما، مطابقًا لما قدر (له) غير (مُتَخَلِّفٍ) عنه.

السؤال الثالث: هل في قوله: ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ دلالة على مذهبكم؟ الجواب: نعم، وذلك من وجوه: أحدها: أن التقدير في حقنا يرجع إلى الظن والحسبان، أما في حقه سبحانه فلا معنى له إلا العلم به والإخبار عنه، وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة، فلما علم في الشيء الفلاني أنه لا يقع فلو وقع ذلك الشيء لزم انقلاب علمه جهلاً وانقلاب خبره الصدق كذبًا، وذلك محال والمفضي إلى المحال محال فإذن وقوع ذلك الشيء محال والمحال غير مراد فذلك الشيء غير مراد وإنه مأمور به، فثبت أن الأمر والإرادة لا يتلازمان، وظهر أن السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه. وثانيها: أنه عند حصول القدرة والداعية الخالصة إن وجب الفعل، كان فعل العبد يوجب فعل الله تعالى، وحينئذ يبطل قول المعتزلة، وإن لم يجب فإن استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لا عن مرجح وتجويزه يسد باب إثبات الصانع وإن لم يستغن عن المرجح، فالكلام يعود في ذلك المرجح، ولا ينقطع إلا عند الانتهاء إلى واجب الوجود. وثالثها: أن فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع إلا الشيء الذي أراد تكوينه وإيجاده، لكن الإنسان لا يريد إلا العلم والحق فلا يحصل له إلا الجهل والباطل، فلو كان الأمر بقدرته لما كان كذلك، فإن قيل: إنما كان لأنه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل، قلنا: إن اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهو محال فلا بد من الانتهاء إلى جهل أول، ووقع في قلب الإنسان لا بسبب جهل سابق، بل الإنسان أحدثه ابتداء من غير موجب، وذلك محال؛ لأن الإنسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لا يحاول إلا العلم، فوجب أن لا يحصل له إلا ما قصده وأراده، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الكل بقضاء سار وقدر نافذ، وهو المراد من قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بصفات الجلال والعزة والعلو أردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الأوثان وبيَّن نقصانها من وجوه: أحدها: أنها ليست خالقة للأشياء، والإله يجب أن يكون قادرًا على الخلق والإيجاد. وثانيها: أنها مخلوقة والمخلوق محتاج، والإله يجب أن

يكون غنيًّا. وثالثها: أنها لا تملك لأنفسها ضرًا ولا نفعًا، ومن كان كذلك فهو لا يملك لغيره أيضًا نفعًا، ومن كان كذلك فلا فائدة في عبادته. ورابعها: أنها لا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا، أي لا تقدر على الإحياء والإماتة في زمان التكليف وثانيًا في زمان المجازاة، ومن كان كذلك كيف يسمى إلهًا؟ وكيف يحسن عبادته مع أن حق من يحق له العبادة أن ينعم بهذه النعم المخصوصة، وهاهنا سؤالات:

الأول: قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ هل يختص بعبدة الأوثان أو يدخل فيه النصارى وعبدة الكواكب وعبدة الملائكة؟ والجواب: قال القاضي: بعيد أن يدخل فيه النصارى؛ لأنهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع، فالأقرب أن المراد به عباد الأصنام، ويجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لأن لمعبودهم كثرة، ولقائل أن يقول: قوله ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ صيغة جمع وقوله ﴿ءَالِهَةً﴾ جمع، والجمع إذا قوبل بالجمع يقابل المفرد بالمفرد، فلم يكن كون معبود النصارى واحدًا مانعًا من دخوله تحت هذا اللفظ.

السؤال الثاني: احتج بعض أصحابنا بقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال: إن الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيئًا، وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن يعبد، فلو كان العبد خالقًا لكان معبودًا إلهًا، أجاب الكعبي عنه: بأنا لا نطلق اسم الخالق إلا على الله تعالى. وقال بعض أصحابنا في الخلق: إنه الإحداث لا بعلاج وفكر وتعب، ولا يكون ذلك إلا لله تعالى، ثم قال: وقد قال تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥] في وصف الأصنام أفيدل ذلك على أن كل من له رجل يستحق أن يعبد؟ فإذا قالوا: لا، قيل: فكذلك ما ذكرتم، وقد قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] هذا كله كلام الكعبي. والجواب: قوله: لا يطلق اسم الخالق على العبد، قلنا: بل يجب ذلك؛ لأن الخلق في اللغة هو التقدير، والتقدير يرجع إلى الظن والحسبان، فوجب أن يكون اسم الخالق حقيقة في العبد مجازًا في الله تعالى، فكيف يمكنكم منع إطلاق لفظ الخالق على العبد؟ أما قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٩٥] فالعيب إنما وقع عليهم بالعجز فلا جرم أن كل من تحقق العجز في حقه من بعض الوجوه لم يحسن عبادته. وأما قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فقد تقدم الكلام عليه.

واعلم أن هذه الآية لا يقوى استدلال أصحابنا بها لاحتمال أن العيب لا يحصل إلا بمجموع أمرين: أحدهما: أنهم ليسوا بخالقين، والثاني: أنهم مخلوقون، والعبد وإن كان خالقًا إلا أنه مخلوق فلزم أن لا يكون إلهًا معبودًا.

السؤال الثالث: هل تدل هذه الآية على البعث؟ الجواب: نعم، لأنه تعالى ذكر النشور ومعناه أن المعبود يجب أن يكون قادرًا على إيصال الثواب إلى المطيعين والعقاب إلى العصاة، فمن لا يكون كذلك وجب أن لا يصلح للإلهية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝﴾

اعلم أنه سبحانه تكلم أولاً في التوحيد، وثانيًا في الرد على عبدة الأوثان، وثالثًا في هذه الآية تكلم في مسألة النبوة، وحكى سبحانه شبههم في إنكار نبوة محمد ﷺ. الشبهة الأولى: قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] واعلم أنه يحتمل أن يريدوا به أنه كذب في نفسه، ويحتمل أن يريدوا به أنه كذب في إضافته إلى الله تعالى. **ثم هاهنا بحثان:**

الأول: قال أبو مسلم: الافتراء افتعال من فريت، وقد يقال في تقدير الأديم: فريت الأديم، فإذا أريد قطع الإفساد قيل: أفريت وافتريت وخلقت واختلقت، ويقال فيمن شتم امرءًا بما ليس فيه: افترى عليه.

البحث الثاني: قال الكلبي ومقاتل: نزلت في النضر بن الحارث فهو الذي قال هذا القول ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعني عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار (غُلَامُ عَامِرٍ) بن الحضرمي، وجبر مولى عامر، وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب، وكانوا يقرأون التوراة ويحدِّثون أحاديث منها فلما أسلموا وكان النبي ﷺ يتعهدهم، فمن أجل ذلك قال النضر ما قال.

واعلم أن الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ **وفيه أبحاث:**

الأول: أن هذا القدر إنما يكفي جوابًا عن الشبهة المذكورة؛ لأنه قد علم كل عاقل أنه عليه السلام تحداهم بالقرآن وهم النهاية في الفصاحة، وقد بلغوا في الحرص على إبطال أمره كل غاية، حتى أخرجهم ذلك إلى ما وصفوه به في هذه الآيات، فلو أمكنهم أن يعارضوه لفعلوا، ولكان ذلك أقرب إلى أن يبلغوا مرادهم فيه مما أوردوه في هذه الآية وغيرها، ولو استعان محمد عليه السلام في ذلك بغيره لأمكنهم أيضًا أن يستعينوا بغيرهم؛ لأن محمدًا ﷺ كأولئك المنكرين في معرفة اللغة وفي المكنة من الاستعانة، فلما لم يفعلوا ذلك والحالة هذه علم أن القرآن قد بلغ النهاية في الفصاحة وانتهى إلى حد الإعجاز، ولما تقدمت هذه الدلالة مرات وكرات في القرآن

وظهر بسببها سقوط هذا السؤال، ظهر أن إعادة هذا السؤال بعد تقدم هذه الأدلة الواضحة لا يكون إلا للتمادي في الجهل والعناد، فلذلك اكتفى الله في الجواب بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

البحث الثاني: قال الكسائي: قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي: أتوا ظلمًا وكذبًا وهو كقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩] فانتصب بوقوع المجيء عليه، وقال الزجاج: انتصب بنزع الخافض، أي: جاءوا بالظلم والزور.

البحث الثالث: أن الله تعالى وصف كلامهم بأنه ظلم وبأنه زور، أما أنه ظلم فلأنهم نسبوا هذا الفعل القبيح إلى من كان مبرأ عنه، فقد وضعوا الشيء في غير موضعه وذلك هو الظلم، وأما الزور فلأنهم كذبوا فيه، وقال أبو مسلم: الظلم تكذيبهم الرسول والرد عليه، والزور كذبهم عليهم.

الشبهة الثانية لهم: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ **وفيه أبحاث:**

البحث الأول: الأساطير: ما سطره المتقدمون كأحاديث رستم واسفنديار، جمع أسطار أو أسطورة كأحدوثة ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ انتسخها محمد من أهل الكتاب يعني عامرًا، ويسارًا، وجبرًا، ومعنى اكتتب هاهنا أمر أن يكتب له كما يقال: احتجم وافتصد إذا أمر بذلك ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تقرأ عليه والمعنى أنها كتبت له وهو أميٌّ فهي تلقى عليه من كِتَابه ليحفظها؛ لأن صورة الإلقاء على الحافظ كصورة الإلقاء على الكاتب.

أما قوله: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ قال الضحاك: ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية، وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة.

البحث الثاني: قال الحسن: قوله: ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ كلام الله ذكره جوابًا عن قولهم كأنه تعالى قال: إن هذه الآيات تملى عليه بالوحي حالاً بعد حال، فكيف ينسب إلى أنه أساطير الأولين، وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على أن ذلك من كلام القوم، وأرادوا به أن أهل الكتاب أملوا عليه في هذه الأوقات هذه الأشياء ولا شك أن هذا القول أقرب لوجوه: أحدها: شدة تعلق هذا الكلام بما قبله، فكأنهم قالوا: اكتتب أساطير الأولين فهي تملى عليه. وثانيها: أن هذا هو المراد بقولهم: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ وثالثها: أنه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ قال صاحب (الكشاف) وقول الحسن إنما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الإنكار وحق الحسن أن يقف على ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **وفيه أبحاث:**

البحث الأول: في بيان أن هذا كيف يصلح أن يكون جوابًا عن تلك الشبهة؟ وتقريره ما قدمنا أنه

عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم أيضًا أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحي الله وكلامه، فلهذا قال: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ وذلك لأن القادر على تركيب ألفاظ القرآن لا بد وأن يكون عالمًا بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه: أحدها: أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات. وثانيها: أن القرآن مشتمل على الإخبار عن الغيوب، وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات. وثالثها: أن القرآن مبرأ عن النقص وذلك لا يتأتى إلا من العالم على ما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ورابعها: اشتماله على الأحكام التي هي مقتضية لمصالح العالم ونظام العباد، وذلك لا يكون إلا من العالم بكل المعلومات. وخامسها: اشتماله على أنواع العلوم وذلك لا يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات، فلما دل القرآن من هذه الوجوه على أنه ليس إلا كلام بكل المعلومات لا جرم اكتفى في جواب شبههم بقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾.

البحث الثاني: اختلفوا في المراد بالسر، فمنهم من قال: المعنى أن العالم بكل سر في السموات والأرض هو الذي يمكنه إنزال مثل هذا الكتاب، وقال أبو مسلم: المعنى أنه أنزله من يعلم السر فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥] وقال آخرون: المعنى أنه يعلم كل سر خفي في السموات والأرض، ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله مع علمكم بأن ما يقوله حق ضرورة، وكذلك باطن أمر رسول الله ﷺ وبراءته مما تتهمونه به، وهو سبحانه مجازيكم ومجازيه على ما علم منكم وعلم منه.

البحث الثالث: إنما ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع لوجهين: الأول: قال أبو مسلم المعنى أنه إنما أنزله لأجل الإنذار فوجب أن يكون غفورًا رحيمًا غير مستعجل في العقوبة. الثاني: أنه تنبيه على أنهم استوجبوا بمكايدتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبًّا ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفورًا رحيمًا يمهل ولا يعجِّل.

الشبهة الثالثة: وهي في نهاية الركاكة ذكروا له صفات خمسة فزعموا أنها تخل بالرسالة إحداها: قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ وثانيتها: قولهم: ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ يعني أنه لما كان كذلك فمن أين له الفضل علينا وهو مثلنا في هذه الأمور. وثالثتها: قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ يصدقه أو يشهد له ويرد على من خالفه. ورابعتها: قولهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: من السماء فينفقه فلا يحتاج إلى التردد لطلب المعاش. وخامستها: قولهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي (نأكل منها) بالنون وقرأ الباقون بالياء والمعنى إن لم يكن لك كنز فلا أقل من أن تكون كواحد من الدهاقين فيكون لك بستان تأكل منه. وسادستها: قولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ وقد تقدمت هذه القصة في آخر سورة بني إسرائيل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه: أحدها: قوله: ﴿ٱنظُرْ

كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ وفيه أبحاث:

الأول: أن هذا كيف يصلح أن يكون جوابًا عن تلك الشبهة؟ وبيانه أن الذي يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة وهذه الأشياء التي ذكروها لا يقدح شيء منها في المعجزة فلا يكون شيء منها قادحًا في النبوة، فكأنه تعالى قال: انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الأمثال التي لا فائدة فيها لأجل أنهم لما ضلوا وأرادوا القدح في نبوتك لم يجدوا إلى القدح فيه سبيلاً ألبتة، إذ الطعن عليه إنما يكون بما يقدح في المعجزات التي ادعاها لا بهذا الجنس من القول. وفيه وجه آخر وهو أنهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق، وهذا إنما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مستوي الداعي إلى الحق والباطل، وإما أن يكون داعيته إلى أحدهما أرجح من داعيته إلى الثاني، فإن كان الأول فحال الاستواء ممتنع الرجحان فيمتنع الفعل وإن كان الثاني فحال رجحان أحد الطرفين يكون حصول الطرف الآخر ممتنعًا، فثبت أن حال رجحان الضلالة في قلبه استحال منه قبول الحق، وما كان محالاً لم يكن عليه قدرة، فثبت أنهم لما ضلوا ما كانوا مستطيعين.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة فقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: من الله ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة وفسر ذلك الخير بقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ نبه بذلك سبحانه على أنه قادر على أن يعطي الرسول كل ما ذكروه، ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب الصالح أو على وفق المشيئة ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم، ويسد عليه أبواب الدنيا، وفي حق الآخر بالعكس وما ذاك إلا أنه فعال لما يريد، وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: خير من ذلك مما عيروك بفقده الجنة؛ لأنهم عيروك بفقد الجنة الواحدة وهو سبحانه قادر على أن يعطيك جنات كثيرة، وقال في رواية عكرمة: (خيرا من ذلك) أي: من المشي في الأسواق وابتغاء المعاش.

المسألة الثانية: قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ معناه: أنه سبحانه قادر على ذلك لا أنه تعالى شاك؛ لأن الشك لا يجوز على الله تعالى، وقال قوم: ﴿إِن﴾ هاهنا بمعنى إذا، أي قد جعلنا لك في الآخرة

جنات وبنينا لك قصورًا وإنما أدخل إن تنبيهًا للعباد على أنه لا ينال ذلك إلا برحمته، وأنه معلق على محض مشيئته وأنه ليس لأحد من العباد على الله حق لا في الدنيا ولا في الآخرة.

المسألة الثالثة: القصور جماعة قصر وهو المسكن الرفيع ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنًا ومتنزهًا، ويجوز أن يكون القصور مجموعة والجنات مجموعة. وقال مجاهد: إن شاء جعل لك جنات في الآخرة وقصورًا في الدنيا.

المسألة الرابعة: اختلف الفراء في قوله (وَيَجْعَلْ) فرفع ابن كثير وابن عامر وعاصم اللام وجزمه الآخرون، فمن جزم فلأن المعنى: إن شاء يجعل لك جنات ويجعل لك قصورًا ومن رفع فعلى الاستئناف والمعنى: سيجعل لك قصورًا، هذا قول الزجاج: قال الواحدي: وبين القراءتين فرق في المعنى، فمن جزم فالمعنى إن شاء يجعل لك قصورًا في الدنيا ولا يحسن الوقوف على الأنهار، ومن رفع حسن له الوقوف على الأنهار، واستأنف أي ويجعل لك قصورًا في الآخرة. وفي مصحف أبيّ وابن مسعود: (تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ يَجْعَلُ).

المسألة الخامسة: عن طاوس عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ جالس وجبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام: هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في زيارتك فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء الملك وسلم على رسول الله ﷺ وقال: «إِنَّ اللَّهَ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أَنْ يُعْطِيَكَ مَفَاتِيحَ كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يُعْطِهَا أَحَدًا قَبْلَكَ وَلاَ يُعْطِيهِ أَحَدًا بَعْدَكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَكَ مِمَّا ادَّخَرَ لَكَ شَيْئًا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَلْ يَجْمَعُهَا جَمِيعًا لِي فِي الْآخِرَةِ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ الْآيَةَ»[1]، وعن ابن عباس قال عليه السلام: «عَرَضَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا فَقُلْتُ: بَلْ شُبْعَةٌ وَثَلاَثُ جَوْعَاتٍ وَذَلِكَ أَكْثَرُ لِذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي لِرَبِّي»[2] وفي رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب قال عليه السلام: «أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ ثَلاَثًا، فَأَحْمَدُكَ إِذَا شَبِعْتُ وَأَتَضَرَّعُ إِلَيْكَ إِذَا جُعْتُ»[3] وعن الضحاك: لمَّا عَيَّرَ المشركون رسول اللَّه ﷺ بالفاقة حزن رسول الله ﷺ لذلك فنزلَ جبريلُ عليهِ السلام معزيا له، وقال: إن اللَّه يقرؤك السَّلاَمَ وَيقولُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٢٠] الآية، قال: فبينما جبريل عليه السلام والنبي ﷺ يتحدثان إذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذَلِكَ، ثم قال: أَبْشِرْ يَا مُحَمَّدُ، هَذَا رِضْوَانُ خَازِنُ

---

(١) لم أجده.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٤/ ٥٧٥)، حديث رقم (٢٣٤٧)، وقال: قال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن فضالة بن عبيد القاسم هذا هو ابن عبد الرحمن ويكنى أبا عبد الرحمن ويقال أيضًا: يكنى أبا عبد الملك وهو مولى عبد الرحمن بن خالد بن يزيد بن معاوية وهو شامي وعلي بن يزيد ضعيف الحديث ويكنى أبا عبد الملك، قال الشيخ الألباني: ضعيف، أحمد في (مسنده) (٥/ ٢٥٤)، حديث رقم (٢٢٢٤٤)، والطبراني في (الكبير) (٨/ ٢٠٧)، حديث رقم (٧٨٣٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ١٧٢)، حديث رقم (١٤٦٧)، وأبو الشيخ في (أخلاق النبي ﷺ) (٢/ ٤٠١)، حديث رقم (٧٨٩)، جميعًا من طريق علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة... به.

(٣) انظر سابقه.

الْجَنَّةِ قَدْ أَتَاكَ بِالرِّضَا مِنْ رَبِّكَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يُخَيِّرُكَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ نَبِيًّا مَلِكًا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ نَبِيًّا عَبْدًا وَمَعَهُ سَفَطٌ مِنْ نُورٍ يَتَلأْلأُ ثم قال: هَذِهِ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا فَاقْبِضْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَكَ اللَّهُ مِمَّا أَعَدَّ لَكَ فِي الْآخِرَةِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ كَالْمُسْتَشِيرِ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ أَنْ تَوَاضَعْ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، «بَلْ نَبِيًّا عَبْدًا» قال: فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكئا حتى فارق الدنيا(١).

أما قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال: ليس ما تعلقوا به شبهة عليك في نفس المسألة، بل الذي حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالاً للاستعداد لها، ويحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابًا ولا عقابًا ولا يتحملون كلفة النظر والفكر، فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل، ثم قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال أبو مسلم: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: جعلناها عتيدًا ومعدة لهم، والسعير: النار الشديدة الاستعار، وعن الحسن أنه اسم من أسماء جهنم.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وعلى أن النار التي هي دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهي قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ إخبار عن فعل وقع في الماضي، فدلت الآية على أن دار العقاب مخلوقة قال الجبائي: يحتمل وأعتدنا النار في الدنيا وبها نعذب الكفار والفساق في قبورهم ويحتمل نار الآخرة ويكون معنى ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: سنعدها لهم كقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الطبراني في (المعجم الأوسط) (٦/ ٢١١)، حديث رقم (٦٢١٤)، قال: حدثنا محمد بن علي الصائغ. قال: أخبرنا سعيد بن منصور. . . به، والبيهقي في (دلائل النبوة) (٢/ ٢٧٠/ ٢٧١)، حديث رقم (٦٨٩)، قال: أخبرنا أبو جعفر محمد بن علي بن دحيم. . . به، والمصنف في (شعب الإيمان) (١/ ١٧٥)، حديث رقم (١٥٥) من طريق محمد بن علي بن زيد الصائغ. . . به، وأبو الشيخ في (العظمة) (٢/ ٧١٤)، حديث رقم (٤١) من طريق مسلم بن إبراهيم وسعيد بن منصور عن الحارث بن عبيد. . . به، والمروزي في (تعظيم قدر الصلاة) (٢/ ٨٦٩)، حديث رقم (٨٨٣) من طريق عبد الصمد قال: حدثنا الحارث بن عبيد الأيادي. . . به، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/ ٣١٦) من طريق سعيد بن منصور. . . به، وذكره ابن أبي حاتم في (العلل) (٢/ ٤٠٢)، حديث رقم (٢٧١٣)، فقال: سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه الحارث بن عبيد أبو قدامة عن أبي عمران الجوني عن أنس قال: بينما النبي ﷺ جالس مع أصحابه إذ جاء جبريل فنكت في ظهره ثم ذهب إلى شجرة فيها مثل وكري الطير. . . ثم ذكرت لهما الحديث بطوله فقالا: هذا خطأ إنما هو كما رواه حماد بن سلمة عن أبي عمران عن محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب الداري قال: بينما النبي ﷺ. . . مرسل وذكر الحديث فقال: هذا الحديث هو الصحيح.

وأورده الهيثمي في (المجمع) (١/ ٧٥)، وقال: رواه الطبراني في (الأوسط) ورجاله رجال الصحيح، وضعفه الألباني في (السلسلة الضعيفة) (٥٤٤٤)، وقال الذهبي في الكشاف: ليس بالقوي وضعفه ابن معين وقال الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ.

﴿ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤] واعلم أن هذا السؤال في نهاية السقوط؛ لأن المراد من السعير، إما نار الدنيا وإما نار الآخرة، فإن كان الأول فإما أن يكون المراد أنه تعالى يعذبهم في الدنيا بنار الدنيا أو يعذبهم في الآخرة بنار الدنيا، والأول باطل؛ لأنه تعالى ما عذبهم بالنار في الدنيا، والتالي أيضًا باطل؛ لأنه لم يقل أحد من الأمة أنه تعالى يعذب الكفرة في الآخرة بنيران الدنيا، فثبت أن المراد نار الآخرة وثبت أنها معدة، وحمل الآية على أن الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل، وعلى أن الحسن قال: السعير اسم من أسماء جهنم فقوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ صريح في أنه تعالى أعد جهنم.

المسألة الثالثة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن السعيد من سعد في بطن أمه فقالوا: إن الذين أعد الله تعالى لهم السعير وأخبر عن ذلك وحكم به أن صاروا مؤمنين من أهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من أهل السعير كذبًا وانقلب بذلك علمه جهلاً، وهذا الانقلاب محال والمؤدي إلى المحال محال فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال، فثبت أن السعيد لا ينقلب شقيًّا، والشقي لا ينقلب سعيدًا، ثم إنه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات إحداها قوله: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: السعير مذكر ولكن جاء هاهنا مؤنثًا؛ لأنه تعالى قال: ﴿رَأَتۡهُم﴾ وقال: ﴿سَمِعُواْ لَهَا﴾ وإنما جاء مؤنثًا على معنى النار.

المسألة الثانية: مذهب أصحابنا أن البنية ليست شرطًا في الحياة، فالنار على ما هي عليه يجوز أن يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها، وعند المعتزلة ذلك غير جائز، وهؤلاء المعتزلة ليس لهم في هذا الباب حجة إلا استقراء العادات، ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات في حق الرسل، فهؤلاء قولهم متناقض، بل إنكار العادات لا يليق إلا بأصول الفلاسفة، فعلى هذا قال أصحابنا: قول الله تعالى في صفة النار: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ يجب إجراؤه على الظاهر؛ لأنه لا امتناع في أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار، أما المعتزلة فقد احتاجوا إلى التأويل وذكروا فيه وجوهًا: أحدها: قالوا: معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم: دورهم تتراءى وتتناظر، وقال عليه السلام: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ لاَ تَتَرَاءَى نَارَاهُمَا**»[1] أي: لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك، ويقال: دور فلان متناظرة، أي: متقابلة. وثانيها: أن النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم. وثالثها: قال الجبائي: إن الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار؛ لأن الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار فهو كقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[يوسف: ٨٢] أراد أهلها.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الجهاد)، باب: (النهي عن قتل من اعتصم بالسجود) (٣/ ١١٤٤)، حديث رقم (٢٦٤٥)، والترمذي في كتاب (السير)، باب: (كراهية المقام في أظهر المشركين) (٤/ ١٣٢)، حديث رقم (١٦٠٤)، والبيهقي في (السنن) (٩/ ١٤٢)، جميعًا من طريق أبي معاوية... به.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعًا، فكيف قال الله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾؟ والجواب عنه من وجوه: أحدها: أن التغيظ وإن لم يسمع فإنه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله: رأيت غضب الأمير على فلان إذا رأى ما يدل عليه، وكذلك يقال في المحبة فكذا هاهنا، والمعنى سمعوا لها صوتًا يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج. وثانيها: المعنى: علموا لها تغيظًا وسمعوا لها زفيرًا وهذا قول قطرب، وهو كقول الشاعر: متقلدًا سيفًا ورمحًا. وثالثها: المراد تغيظ الخزنة.

المسألة الرابعة: قال عبيد بن عمير: (إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَزْفِرُ زَفْرَةً لاَ يَبْقَى أَحَدٌ إِلاَّ وَتُرْعَدُ فَرَائِصُهُ حَتَّى إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يَجْثُو عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَيَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي)(١).

الصفة الثانية للسعير: قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ واعلم أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حينما يكونون بالبعد من جهنم وصف حالهم عندما يلقون فيها، نعوذ بالله منه بما لا شيء أبلغ منه **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في ﴿ضَيِّقًا﴾ قراءتان التشديد والتخفيف وهو قراءة ابن كثير.

المسألة الثانية: نقل في تفسير الضيق أمور، قال قتادة: ذكر لنا عبد الله بن عمر قال: «إِنَّ جَهَنَّمَ لَتَضِيقُ عَلَى الْكَافِرِ كَضِيقِ الزُّجِّ عَلَى الرُّمْحِ»(٢) وسئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الْوَتَدُ فِي الْحَائِطِ»(٣) قال الكلبي: الأسفلون يرفعهم اللهيب، والأعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الأبواب الضيقة، قال صاحب (الكشاف): الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والأرض، وجاء في الأحاديث «إِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ الْقُصُورِ وَالْجِنَانِ كَذَا وَكَذَا» ولقد جمع الله على أهل النار أنواع (البلاء حيث ضم إلى العذاب الشديدِ الضيقَ.

المسألة الثالثة: قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨] إن أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد، يكونون مقرنين في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم وقيل: يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة، وفي أرجلهم الأصفاد، ثم إنه سبحانه حكى عن أهل النار أنهم حين ما يشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورًا، والثبور الهلاك، ودعاؤهم أن يقولوا: واثبوراه، أي: يقولوا: يا ثبور، هذا حينك وزمانك، وروى أنس

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٨/ ١٨٧) من طريق المنصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير... به، ابن أبي عاصم في (الزهد) (١/ ٣٦٨) من طريق الوليد بن شجاع بن قيس أخبرني شعيب بن الليث بن سعد وغيره عن الليث بن سعد عن عبيد الله بن أبي جعفر... فذكره.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (١٠/ ٢٦١)، حديث رقم (١٥٨٠١)، وابن أبي الدنيا في (صفة النار) (١/ ٢١٥)، حديث رقم (٢٠٥)، كلاهما من طريق ابن المبارك أنبأنا محمد بن يسار عن قتادة قال: ذكر لنا أن عبد الله بن عمرو... فذكره. وفي إسناده انقطاع بين قتادة وعبد الله بن عمر.

(٣) انظر سابقه.

مرفوعًا: (أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى حُلَّةً مِنَ النَّارِ إِبْلِيسُ فَيَضَعُهَا عَلَى جَانِبَيْهِ وَيَسْحَبُهَا مِنْ خَلْفِهِ ذُرِّيَّتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا ثُبُورَاهْ، وَيُنَادَوْنَ يَا ثُبُورَهُمْ حَتَّى يَرِدُوا النَّارَ)[١].

أما قوله: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ أي: يقال لهم ذلك، وهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يكن ثَمَّ قول، ومعنى ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدًا، إنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها، أو لأن ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم في كل وقت من الأوقات التي لا نهاية لها ثبور، أو لأنهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعًا من الخفة، فإن المعذب إذا صاح وبكى وجد بسببه نوعًا من الخفة فيزجرون عن ذلك، ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه. قال الكلبي نزل هذا كله في حق أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة، فقال لرسوله: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ أن يلتمسوها بالتصديق والطاعة، فإن قيل: كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد، وهل يجوز أن يقول العاقل: السكر أحلى أم الصبر؟ قلنا: هذا يحسن في معرض التفريع، كما إذا أعطى السيد عبده مالاً فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضربًا وجيعًا، ويقول على سبيل التوبيخ: هذا أطيب أم ذاك؟

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بقوله: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ على أن الثواب غير واجب على الله تعالى؛ لأن من قال السلطان وعد فلانًا أن يعطيه كذا، فإنه يحمل ذلك على التفضيل، فأما لو كان ذلك الإعطاء واجبًا لا يقال: إنه وعده به، أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضًا على مذهبهم قالوا: لأنه سبحانه أثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى، وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد إنما حصل معللاً بصفة التقوى، والتفضيل غير

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ١٥٢)، حديث رقم (١٢٥٥٨)، وابن أبي شيبة في (مصنفه) (٧/ ٢٦٢)، حديث رقم (٣٥٩٠٧)، وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٣٦٨)، حديث رقم (١٢٢٥)، والطبري في (تفسيره) (١٩/ ٢٤٥)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (١٠/ ٢٦٢)، حديث رقم (١٥٨٠٦)، جميعًا من طريق حماد قال: حدثنا علي بن زيد عن أنس بن مالك... به، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان ضعيف.

مختص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجبًا.

المسألة الثالثة: قال أبو مسلم: جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها، والخلد والخلود سواء، كالشكر والشكور قال الله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] فإن قيل: الجنة اسم لدار الثواب وهي مخلدة فأي فائدة في قوله: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾؟ قلنا: الإضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال، كما يقال: الله الخالق البارىء، وما هنا من هذا الباب.

أما قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المعتزلة احتجوا بهذه الآية على إثبات الاستحقاق من وجهين: الأول: أن اسم الجزاء لا يتناول إلا المستحق، فأما الوعد بمحض التفضيل فإنه لا يسمى جزاء. والثاني: لو كان المراد من الجزاء الأمر الذي يصيرون إليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله: ﴿جَزَآءً﴾ وبين قوله: ﴿وَمَصِيرًا﴾ تفاوت فيصير ذلك تكرارًا من غير فائدة. قال أصحابنا رحمهم الله: لا نزاع في كونه (جزاء)، إنما النزاع في أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق، وليس في الآية ما يدل على التعيين.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين: الأول: أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقًا للثواب؛ لأن الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر، والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع، والجمع بينهما محال، وما كان ممتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه، فإذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فنقول: لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان إما أن يخرجه من النار ولا يدخله الجنة، وذلك باطل بالإجماع؛ لأنهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة، إما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وإما أن يخرجه من النار ويدخله الجنة وذلك باطل لأن الجنة حق المتقين لقوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ فجعل الجنة لهم ومختصة بهم وبيَّن أنها إنما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقًا لهم، وإعطاء حق الإنسان لغيره لا يجوز، ولما بطلت الأقسام ثبت أن العفو غير جائز. أجاب أصحابنا: لم لا يجوز أن يقال: المتقون يرضون بإدخال الله أهل العفو في الجنة؟ فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها. الوجه الثاني: قالوا: المتقي في عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر، وإن اختلفنا في أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمنًا أم لا، لكنا اتفقنا على أنه لا يسمى متقيًا، ثم قال في وصف الجنة: إنها كانت لهم جزاءً ومصيرًا وهذا للحصر، والمعنى أنها مصير للمتقين لا لغيرهم، وإذا كان كذلك وجب أن لا يدخلها صاحب الكبيرة، قلنا: أقصى ما في الباب أن هذا العموم صريح في الوعيد فتخصه بآيات الوعد.

المسألة الثالثة: لقائل أن يقول: إن الجنة ستصير للمتقين جزاءً ومصيرًا، لكنها بعد ما صارت

كذلك، فلم قال الله تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾؟ جوابه من وجهين: الأول: أن ما وعد الله فهو في تحققه كأنه قد كان. والثاني: أنه كان مكتوبًا في اللوح قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة أن الجنة جزاؤهم ومصيرهم.

أما قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾ فهو نظير قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: أهل الدرجات النازلة إذا شاهدوا الدرجات العالية لا بد وأن يريدوها، فإذا سألوها ربهم، فإن أعطاهم إياها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة، وإن لم يعطها قدح ذلك في قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ وأيضًا فالأب إذا كان ولده في درجات النيران وأشد العذاب إذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلا بد وأن يسأل ربه أن يخلصه منه، فإن فعل الله تعالى ذلك قدح في أن عذاب الكافر مخلد، وإن لم يفعل قدح ذلك في قوله: (وَلَكُمْ فِيها مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ) وفي قوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ وجوابه: أن الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلاً عن الالتفات إلى حال غيره.

المسألة الثانية: شرط نعيم الجنة أن يكون دائمًا، إذ لو انقطع لكان مشوبًا بضرب من الغم ولذلك قال المتنبي:

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ ... تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاً [(١)]

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لا يكون إلا في الجنة فأما في غيرها فلا يحصل ذلك، بل لا بد في الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات، ولذلك قال عليه السلام: «مَنْ طَلَبَ مَا لَمْ يُخْلَقْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ وَلَمْ يُرْزَقْ، فَقِيلَ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّه؟ فَقَالَ: سُرُورُ يَوْم».

أما قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: كلمة (عَلَى) للوجوب قال عليه السلام: «مَنْ نَذَرَ وَسَمَّى فَعَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِمَا سَمَّى» [(٢)] فقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى، والواجب هو الذي لو لم

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الوافر للشاعر المتنبي وقد تقدمت ترجمته.

(٢) ذكره الزيلعي في (نصب الراية) (٣/ ٣٠٠)، وقال: قلت: غريب، وفي وجوب الوفاء بالنذر أحاديث: منها ما أخرجه البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن أختي نذرت أن تحج وأنها ماتت قبل أن تحج، فقال عليه السلام: (لو كان عليها دينٌ أكنت قاضيه؟ قال: نعم، قال: فاقض الله، فهو أحق بالقضاء)، انتهى. وفي رواية له: إن أمي.

حديث آخر: أخرجه البخاري عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»، انتهى. وترجم عليه (باب النذر في الطاعة). =

يفعل لاستحقّ تاركه بفعله الذم، أو أنه الذي يكون عدمه ممتنعًا، فإن كان الوجوب على التفسير الأول كان تركه محالاً. لأن تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال، ومستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالاً والمحال غير مقدور، فلم يكن الله تعالى قادرًا على أن لا يفعل فيلزم أن يكون ملجأ إلى الفعل، وإن كان الوجوب على التفسير الثاني وهو أن يقال: الواجب ما يكون عدمه ممتنعًا يكون القول بالإلجاء لازمًا، فلم يكن الله قادرًا، فإن قيل: إنه ثبت بحكم الوعد، فنقول: لو لم يفعل لانقلب خبره الصدق كذبًا وعلمه جهلاً وذلك محال، والمؤدي إلى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ إلى الفعل والملجأ إلى الفعل لا يكون قادرًا، ولا يكون مستحقًا للثناء والمدح، تمام السؤال. وجوابه: أن فعل الشيء متقدم على الإخبار عن فعله وعن العلم بفعله، فيكون ذلك الفعل فعلاً لا على سبيل الإلجاء، فكان قادرًا ومستحقًا للثناء والمدح.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَعْدًا﴾ يدل على أن الجنة حصلت بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مَسْئُولًا﴾ ذكروا فيه وجوهًا أحدها: أن المكلفين سألوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وثانيها: أن المكلفين سألوه بلسان الحال؛ لأنهم لما تحملوا المشقة الشديدة في طاعته كان ذلك قائمًا مقام السؤال، قال المتنبي:

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي كَلَامٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ [(١)]

وثالثها: الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [غافر: ٨] ورابعها: ﴿وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أي: واجبًا، يقال: لأعطينك ألفًا وعدًا مسؤولاً أي واجبًا وإن لم تسأل، قال الفراء: وسائر الوجوه أقرب من هذا؛ لأن سائر الوجوه أقرب إلى الحقيقة، وما قاله الفراء مجاز وخامسها: مسؤولاً أي من حقه أن يكون مسؤولاً لأنه حق واجب، إما بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة، أو بحكم الوعد على قول أهل السنة.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا

=واقد، قال أبو حاتم: ضعيف، وقال العقيلي: كان مرجئًا، ولكن قد رواه غيره، كما رواه ابن أبي شيبة حدثنا زيد بن الحباب عن حسين بن واقد به، وزاد: فضرت، فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل عمر، وهي تضرب، فألقت الدف، وجلست عليه، فقال عليه السلام: «إني لأحسب الشيطان يفرق منك يا عمر»، قال: وهذا حديث صحيح، انتهى كلامه. أ. هـ ثم ذكر عدة أحاديث اكتفينا بما ذكرناه.

(١) تقدمت ترجمة المتنبي.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ [الفرقان: ٣] ثم هاهنا مسائل:

المسألة الأولى: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ فنقول: كلاهما بالنون والياء وقرئ (نحشِرهم) بكسر الشين.

المسألة الثانية: ظاهر قوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ أنها الأصنام، وظاهر قوله: ﴿فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي﴾ أنه من عبد من الأحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما؛ لأن الإضلال وخلافه منهم يصح فلأجل هذا اختلفوا، فمن الناس من حمله على الأوثان، فإن قيل لهم: الوثن جماد فكيف خاطبه الله تعالى، وكيف قدر على الجواب؟ فعند ذلك ذكروا وجهين: أحدهما: أن الله تعالى يخلق فيهم الحياة، فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب. وثانيها: أن يكون ذلك الكلام لا بالقول اللساني بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم في تسبيح الموات وكلام الأيدي والأرجل، وكما قيل: سل الأرض من شق أنهارك، وغرس أشجارك؟ فإن لم تجبك حوارًا، أجابتك اعتبارًا! وأما الأكثرون فزعموا أن المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام، قالوا: ويتأكد هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] وإذا قيل لهم: لفظة (مَا) لا تستعمل في العقلاء أجابوا عنه من وجهين: الأول: لا نسلم أن كلمة (مَا) لما لا يعقل بدليل أنهم قالوا: (مَنْ) لما لا يعقل. والثاني: أريد به الوصف كأنه قيل: (وَمَعْبُودَهُمْ)، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] لا يستقيم إلا على أحد هذين الوجهين، وكيف كان فالسؤال ساقط.

المسألة الثالثة: حاصل الكلام أن الله تعالى يحشر المعبودين، ثم يقول لهم: أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال عن طريق الحق، أم هم ضلوا عنه بأنفسهم؟ قالت المعتزلة: وفيه كسر بيِّن لقول من يقول: إن الله يضل عباده في الحقيقة؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الجواب الصحيح أن يقولوا: إلهنا هاهنا قسم ثالث غيرهما هو الحق وهو أنك أنت أضللتهم، فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا إضلالهم إلى أنفسهم، علمنا أن الله تعالى لا يضل أحدًا من عباده. فإن قيل: لا نسلم أن المعبودين ما تعرضوا لهذا القسم بل ذكروه، فإنهم قالوا: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ﴾ وهذا تصريح بأن ضلالهم إنما حصل لأجل ما فعل الله بهم وهو أنه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا. قلنا: لو كان الأمر كذلك لكان يلزمهم أن يصير الله محجوبًا في يد أولئك المعبودين، ومعلوم أنه ليس الغرض ذلك بل الغرض أن يصير الكافر محجوجًا مفحمًا

ملزمًا هذا تمام تقرير المعتزلة في الآية، أجاب أصحابنا بأن القدرة على الضلال إن لم تصلح للاهتداء فالإضلال من الله تعالى، وإن صلحت له لم تترجح مصدريتها للإضلال على مصدريتها للاهتداء إلا لمرجح من الله تعالى، وعند ذلك يعود السؤال، وأما ظاهر هذه الآية فهو وإن كان لهم لكنه معارض بسائر الظواهر المطابقة لقولنا.

المسألة الرابعة: ظاهر الآية يدل على أن هذا السؤال من الله تعالى وإن احتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى. بقي على الآية سؤالات.

السؤال الأول: ما فائدة أنتم وهم؟ وهلا قيل: أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل؟ الجواب: ليس السؤال عن الفعل ووجوده؛ لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن فاعله فلا بد من ذكره وإيلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسئول عنه.

السؤال الثاني: أنه سبحانه كان عالمًا في الأزل بحال المسئول عنه فما فائدة هذا السؤال؟ الجواب: هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين كما قال لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ولأن أولئك المعبودين لما برؤا أنفسهم، وأحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين عنهم أشد في حسرتهم وحيرتهم.

السؤال الثالث: قال تعالى: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ والقياس أن يقال: ضل عن السبيل. الجواب: الأصل ذلك، إلا أن الإنسان إذا كان متناهيًا في التفريط وقلة الاحتياط، يقال: ضل السبيل.

أما قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فاعلم أنه سبحانه حكى جوابهم، وفي قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ وجوه: أحدها: أنه تعجب منهم فقد تعجبوا مما قيل لهم؛ لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون فما أبعدهم عن الإضلال الذي هو مختص بإبليس وحزبه. وثانيها: أنهم نطقوا بسبحانك ليدلوا على أنهم المسبحون (الْمُقَدِّسُونَ الْمُؤْمِنُونَ) بذلك فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده. وثالثها: قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، سواء كان وثنًا أو نبيًّا أو ملكًا. ورابعها: قصدوا تنزيهه أن يكون مقصوده من هذا السؤال استفادة علم أو إيذاء من كان بريئًا عن الجرم، بل إنه إنما سألهم تقريعًا للكفار وتوبيخًا لهم.

أما قوله: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: القراءة المعروفة (أن نَتخِذ) بفتح النون وكسر الخاء وعن أبي جعفر وابن عامر برفع النون وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله، قال الزجاج: أخطأ من قرأ (أَنْ نُتَّخَذَ) بضم النون؛ لأن (مِنْ) إنما تدخل في هذا الباب في الأسماء إذا كان مفعولاً أولاً ولا تدخل على مفعول الحال تقول: ما اتخذت من أحد وليًّا، ولا يجوز ما اتخذت أحدًا من ولي، قال صاحب (الكشاف): اتخذ يتعدى إلى مفعول واحد كقولك: اتخذ وليًّا، وإلى مفعولين كقولك اتخذ فلانًا وليًّا، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] والقراءة الأولى من المتعدي

إلى واحد وهو (من أولياء)، والأصل أن نتخذ أولياء فزيدت من لتأكيد معنى النفي، والثانية من المتعدي إلى مفعولين، فالأول ما بني له الفعل، والثاني (مِنْ أَوْلِيَاءَ) من للتبعيض، أي: لا نتخذ بعض أولياء وتنكير أولياء من حيث إنهم أولياء مخصوصون وهم الجن والأصنام.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير هذه الآية وجوهًا: أولها: وهو الأصح الأقوى، أن المعنى إذا كنا لا نرى أن نتخذ من دونك أولياء فكيف ندعو غيرنا إلى ذلك. وثانيها: ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما يوليهم الكفار، قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [النساء: ٧٦] يريد الكفرة، وقال ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧] عن أبي مسلم. وثالثها: ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك من أولياء، أي لما علمنا أنك لا ترضى بهذا ما فعلناه، والحاصل أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ورابعها: قالت: الملائكة إنهم عبيدك، فلا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دون إذنك وليًّا ولا حبيبًا، فضلاً عن أن يتخذ عبد عبدًا آخر إلهًا لنفسه. وخامسها: أن على قراءة أبي جعفر الإشكال زائل، فإن قيل: هذه القراءة غير جائزة؛ لأنه لا مدخل لهم في أن يتخذهم غيرهم أولياء؛ قلنا: المراد إنا لا نصلح لذلك، فكيف ندعوهم إلى عبادتنا. وسادسها: أن هذا قول الأصنام، وأنها قالت: لا يصح منا أن نكون من العابدين، فكيف يمكننا ادعاؤنا أنَّا من المعبودين.

المسألة الثالثة: الآية تدل على أنه لا تجوز الولاية والعداوة إلا بإذن الله، فكل ولاية مبنية على ميل النفس ونصيب الطبع فذاك على خلاف الشرع.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: معنى الآية أنك يا إلهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم وهي توجب الشكر والإيمان لا الإعراض والكفران، والمقصود من ذلك بيان أنهم ضلوا من عند أنفسهم لا بإضلالنا، فإنه لولا عنادهم الظاهر، وإلا فمع ظهور هذه الحجة لا يمكن الإعراض عن طاعة الله تعالى وقال آخرون: إن هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى عليه السلام في قوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وذلك لأن المجيب قال: إلهي أنت الذي أعطيته جميع مطالبه من الدنيا حتى صار كالغريق في بحر الشهوات، واستغراقه فيها صار صادًا له عن التوجه إلى طاعتك والاشتغال بخدمتك، فإن هي إلا فتنتك.

المسألة الثانية: الذكر ذكر الله والإيمان به (و) القرآن والشرائع، أو ما فيه حسن ذكرهم في الدنيا والآخرة.

المسألة الثالثة: قال أبو عبيدة: يقال: رجل بور، ورجلان بور، ورجال بور، وكذلك الأنثى، ومعناه هالك، وقد يقال رجل: بائر وقوم بور، وهو مثل هائر وهور، والبوار الهلاك، وقد احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة القضاء والقدر، ولا شك أن المراد منه: وكانوا من الذين حكم عليهم في الآخرة بالعذاب والهلاك، فالذي حكم الله عليه بعذاب الآخرة وعلم ذلك

وأثبته في اللوح المحفوظ وأطلع الملائكة عليه، لو صار مؤمنًا لصار الخبر الصدق كذبًا، ولصار العلم جهلاً ولصارت الكتابة المثبتة في اللوح المحفوظ باطلة، ولصار اعتقاد الملائكة جهلاً وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال، فصدور الإيمان منه محال، فدل على أن السعيد لا يمكنه أن ينقلب شقيًا، والشقي لا يمكنه أن ينقلب سعيدًا، ومن وجه آخر هو أنهم ذكروا أن الله تعالى آتاهم أسباب الضلال وهو إعطاء المرادات في الدنيا واستغراق النفس فيها، ودلت الآية على أن ذلك السبب بلغ مبلغًا يوجب البوار، فإن ذكر البوار عقيب ذلك السبب يدل على أن البوار إنما حصل لأجل ذلك السبب، فرجع حاصل الكلام إلى أنه تعالى فعل بالكافر ما صار معه بحيث لا يمكنه ترك الكفر، وحينئذ ظهر أن السعيد لا ينقلب شقيًا، وأن الشقي لا ينقلب سعيدًا.

أما قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ فاعلم أنه قرىء (يقولون) بالياء والتاء، فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم: إنهم آلهة، أي كذبوكم في قولكم: إنهم آلهة، ومن قرأ بالياء المنقوطة من تحت، فالمعنى أنهم كذبوكم بقولكم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، ومثاله قولك: كتبت بالقلم.

أما قوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ فاعلم أنه قرىء (يستطيعون) بالياء والتاء أيضًا، يعني فما تستطيعون أنتم يأيها الكفار صرف العذاب عنكم، وقيل: الصرف التوبة، وقيل: الحيلة من قولهم: إنه ليتصرف، أي يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب (و) أن يحتالوا لكم.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: قرىء (يذقه) بالياء وفيه ضمير الله تعالى أو ضمير (الظُّلْم).

المسألة الثانية: أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية في القطع بوعيد أهل الكبائر، فقالوا ثبت أن (من) للعموم في معرض الشرط، وثبت أن الكافر ظالم لقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والفاسق ظالم لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] فثبت بهذه الآية أن الفاسق لا يعفى عنه، بل يعذب لا محالة. والجواب: أنا لا نسلم أن كلمة (من) في معرض الشرط للعموم، والكلام فيه مذكور في أصول الفقه، سلمنا أنه للعموم ولكن قطعًا أم ظاهرًا؟ ودعوى القطع ممنوعة، فإنا نرى في العرف العام المشهور استعمال صيغ العموم، مع أن المراد هو الأكثر، أو لأن المراد أقوام معينون، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] ثم إن كثيرًا من الذين كفروا قد آمنوا فلا دافع له إلا أن يقال قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وإن كان يفيد العموم، لكن المراد منه الغالب أو المراد منه أقوام مخصوصون، وعلى التقديرين ثبت أن استعمال ألفاظ العموم في الأغلب عرف ظاهر، وإذا كان كذلك كانت دلالة هذه الصيغ على العموم دلالة ظاهرة لا قاطعة، وذلك لا ينفي تجويز العفو. سلمنا دلالته قطعًا، ولكنا أجمعنا على أن قوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ مشروط بأن لا يوجد ما يزيله، وعند هذا نقول: هذا مسلم، لكن لم قلت: بأن لم يوجد ما يزيله؟ فإن العفو

عندنا أحد الأمور التي تزيله، وذلك هو أحد الثلاثة. أول المسألة سلمنا دلالته على ما قال، ولكنه معارض بآيات الوعد كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] فإن قيل: آيات الوعيد أولى؛ لأن السارق يقطع على سبيل التنكيل ومن لم يكن مستحقًا للعقاب لا يجوز قطع يده على سبيل التنكيل، فإذا ثبت أنه مستحق للعقاب ثبت أن استحقاق الثواب أحبط لما بينا أن الجمع بين الاستحقاقين محال. قلنا: لا نسلم أن السارق يقطع على سبيل التنكيل، ألا ترى أنه لو تاب فإنه يقطع لا على سبيل التنكيل بل على سبيل المحنة، نزلنا عن هذه المقامات، ولكن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ إنه خطاب مع قوم مخصوصين معينين فهب أنه لا يعفو عنهم فلم قلت إنه لا يعفو عن غيرهم؟!

أما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: هذا جواب عن قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] بيَّن الله تعالى أن هذه عادة مستمرة من الله في كل رسله فلا وجه لهذا الطعن.

المسألة الثانية: حق الكلام أن يقال: (إلا أنهم) بفتح الألف لأنه متوسط والمكسورة لا تليق إلا بالابتداء، فلأجل هذا ذكروا وجوهًا: أحدها: قال الزجاج: الجملة بعد (إلاَّ) صفة لموصوف محذوف، والمعنى وما أرسلنا قبلك أحدًا من المرسلين إلا آكلين وماشين، وإنما حذف؛ لأن في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دليلاً عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] على معنى وما منا أحد. وثانيها: قال الفراء: إنه صلة لاسم متروك اكتفى بقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عنه، والمعنى: إلا من أنهم كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي من له مقام معلوم، وكذلك قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] أي: إلا من يردها، فعلى قول الزجاج: الموصوف محذوف، وعلى قول الفراء: الموصول هو المحذوف، ولا يجوز حذف الموصول وتبقية الصلة عند البصريين. وثالثها: قال ابن الأنباري: تكسر إن بعد الاستثناء بإضمار واو على تقدير إلا وإنهم. ورابعها: قال بعضهم المعنى: إلا قيل إنهم.

المسألة الثالثة: قرئ (يُمَشَّوْنَ) على البناء للمفعول أي تمشيهم حوائجهم أو الناس، ولو قرئ (يمشون) لكان أوجه لولا الرواية.

أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: فيه أقوال: أحدها: أن هذا في رؤساء المشركين وفقراء الصحابة، فإذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله؛ أنف أن يسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه، ودليله قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وهذا قول الكلبي والفراء والزجاج. وثانيها: أن هذا عام في جميع الناس، روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «**وَيْلٌ لِلْعَالِمِ مِنَ الْجَاهِلِ، وَوَيْلٌ لِلسُّلْطَانِ مِنَ الرَّعِيَّةِ، وَوَيْلٌ لِلرَّعِيَّةِ مِنَ السُّلْطَانِ، وَوَيْلٌ لِلْمَالِكِ مِنَ**

الْمَمْلُوكِ، وَوَيْلٌ لِلشَّدِيدِ مِنَ الضَّعِيفِ، وَلِلضَّعِيفِ مِنَ الشَّدِيدِ، بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةٌ»(١) وقرأ هذه الآية. وثالثها: أن هذا في أصحاب البلاء والعافية، هذا يقول: لِمَ لَمْ أجعل مثله في الخَلْق والخُلُق وفي العقل وفي العلم وفي الرزق وفي الأجل؟ وهذا قول ابن عباس والحسن. ورابعها: هذا احتجاج عليهم في تخصيص محمد بالرسالة مع مساواته إياهم في البشرية وصفاتها، فابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وأنواع أذاهم على ما قال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦] والمرسل إليهم يتأذون أيضًا من المرسل بسبب الحسد وصيرورته مكلفًا بالخدمة وبذل النفس والمال بعد أن كان رئيسًا مخدومًا، والأَوْلى حمل الآية على الكل؛ لأن بين الجميع قدرًا مشتركًا.

المسألة الثانية: قال أصحابنا الآية تدل على القضاء والقدر؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ قال الجبائي: هذا الجعل هو بمعنى التعريف كما يقال فيمن سرق: إن فلانًا لص جعله لصًا، وهذا التأويل ضعيف لأنه تعالى أضاف الجعل إلى وصف كونه فتنة لا إلى الحكم بكونه كذلك، بل العقل يدل على أن المراد غير ما ذكره وذلك؛ لأن فاعل السبب فاعل للمسبب، فمن خلقه الله تعالى على مزاج الصفراء والحرارة وخلق الغضب فيه ثم خلق فيه الإدراك الذي يطلعه على الشيء المغضب فمن فعل هذا المجموع كان هو الفاعل للغضب لا محالة، وكذا القول في الحسد وسائر الأخلاق والأفعال، وعند هذا يظهر أنه سبحانه هو الذي جعل البعض فتنة للبعض. سلمنا أن المراد ما قاله الجبائي أن المراد من الجعل هو الحكم ولكن المجعول إن انقلب لزم انقلابه انقلاب حكم الله تعالى من الصدق إلى الكذب وذلك محال، فانقلاب ذلك الجعل محال، فانقلاب المجعول أيضًا محال، وعند ذلك يظهر القول بالقضاء والقدر.

المسألة الثالثة: الوجه في تعلق هذه الآية بما قبلها أن القوم لما طعنوا في الرسول ﷺ بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وبأنه فقير كانت هذه الكلمات جارية مجرى الخرافات، فإنه لما قامت الدلالة على النبوة لم يكن لشيء من هذه الأشياء أثر في القدح فيها، فكان النبي ﷺ يتأذى منهم من حيث إنهم كانوا يشتمونه، ومن حيث إنهم كانوا يذكرون الكلام المعوج الفاسد وما كانوا يفهمون الجواب الجيد، فلا جرم صبَّره الله تعالى على كل تلك الأذية، وبين أنه جعل الخلق بعضهم فتنة للبعض.

أما قوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة: لو كان المراد من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾

---

(١) ضعيف: أخرجه الثعالبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٣٦٩) من طريق أبي عبد الله محمد بن جمعان قال: حدثنا محمد بن موسى قال: حدثنا القاسم بن يحيى عن الحسن بن دينار عن الحسن عن أبي الدرداء أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ... فذكره.

وضعفه الألباني في (الضعيفة) (١٠/ ٢٥٨)، حديث رقم (٤٧٥٦)، وقال: ضعيف. وفي إسناده الحسن بن دينار تركه يحيى وابن مهدي ووكيع وابن المبارك، كذا قاله البخاري في (التاريخ الكبير) (٢/ ٢٩٢).

الخبر لما ذكر عقيبه ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ لأن أمر العاجز غير جائز.

المسألة الثانية: المعنى أتصبرون على البلاء فقد علمتم ما وعد الله الصابرين ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: هو العالم بمن يصبر ومن لا يصبر، فيجازي كلاً منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ استفهام والمراد منه التقرير وموقعه بعد ذكر الفتنة موقع أيكم بعد الابتلاء في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

اعلم أن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ هو الشبهة الرابعة لمنكري نبوة محمد ﷺ وحاصلها: لِمَ لَمْ ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدًا محق في دعواه ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا؟ وتقرير هذه الشبهة أن من أراد تحصيل شيء، وكان له إلى تحصيله طريقان: أحدهما يفضي إليه قطعًا، والآخر قد يفضي وقد لا يفضي، فالحكيم يجب عليه في حكمته أن يختار في تحصيل ذلك المقصود الطريق الأقوى والأحسن، ولا شك أن إنزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد ﷺ أكثر إفضاء إلى المقصود، فلو أراد الله تعالى تصديق محمد ﷺ لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أراد تصديقه هذا حاصل الشبهة.

ثم هاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال الفراء: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ معناه: لا يخافون لقاءنا ووضع الرجاء في موضع الخوف لغة تهامية، إذا كان معه جحد، ومثله قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]أي: لا تخافون له عظمة، وقال القاضي: لا وجه لذلك؛ لأن الكلام متى أمكن حمله على الحقيقة لم يجز حمله على المجاز، ومعلوم أن من حال عبّاد الأصنام أنهم كما لا يخافون العقاب لتكذيبهم بالمعاد، فكذلك لا يرجون لقاءنا ووعدنا على الطاعة من الجنة والثواب، ومعلوم أن من لا يرجو ذلك لا يخاف العقاب أيضًا، فالخوف تابع لهذا الرجاء.

المسألة الثانية: المجسمة تمسكوا بقوله تعالى: ﴿لِقَاءَنَا﴾ أنه جسم وقالوا: اللقاء هو الوصول يقال: هذا الجسم لقي ذلك أي وصل إليه واتصل به، وقال تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]فدلت الآية على أنه سبحانه جسم والجواب على طريقين: الأول: طريق بعض أصحابنا قال المراد من اللقاء: هو الرؤية، وذلك لأن الرائي يصل برؤيته إلى حقيقة المرئي

فسمى اللقاء أحد أنواع الرؤية، والنوع الآخر الاتصال والمماسة، فدلت الآية من هذا الوجه على جواز الرؤية. الطريق الثاني: وهو كلام المعتزلة، قال القاضي: تفسير اللقاء برؤية البصر جهل باللغة، فيقال في الدعاء: لقاك الله الخير وقد يقول القائل: لم ألق الأمير وإن رآه من بعد أو حجب عنه، ويقال في الضرير: لقي الأمير إذا أذن له ولم يحجب وقد يلقاه في الليلة الظلماء، ولا يراه بل المراد من اللقاء هاهنا هو المصير إلى حكمه حيث لا حكم لغيره في يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا لا أن رؤية البصر، واعلم أن هذا الكلام ضعيف؛ لأنا لا نفسر اللقاء برؤية البصر بل نفسره بمعنى مشترك بين رؤية البصر، وبين الاتصال والمماسة وهو الوصول إلى الشيء، وقد بينا أن الرائي يصل برؤيته إلى المرئي واللفظ الموضوع لمعنى مشترك بين معان كثيرة، ينطلق على كل واحد من تلك المعاني فيصح قوله: لقاك الخير، ويصح قول الأعمى: لقيت الأمير، ويصح قول البصير: لقيته بمعنى رأيته وما لقيته بمعنى ما وصلت إليه، وإذا ثبت هذا فنقول قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ مذكور في معرض الذم لهم، فوجب أن يكون رجاء اللقاء حاصلاً، ومسمى اللقاء مشترك بين الوصول المكاني، وبين الوصول بالرؤية، وقد تعذر الأول فتعين الثاني، وقوله: المراد من اللقاء الوصول إلى حكمه صرف للفظ عن ظاهره بغير دليل، فثبت دلالة الآية على صحة الرؤية بل على وجوبها، بل على أن إنكارها ليس إلا من دين الكفار.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾ معناه هلا أنزل، قال الكلبي ومقاتل: نزلت هذه الآية في أبي جهل، والوليد، وأصحابهما الذين كانوا منكرين للنبوة والبعث.

أما قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ فاعلم أن هذا هو الجواب عن تلك الشبهة **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: في تقرير كونه جوابًا، وذلك من وجوه: أحدها: أن القرآن لما ظهر كونه معجزًا فقد ثبتت دلالة نبوة محمد ﷺ، فبعد ذلك يكون اقتراح أمثال هذه الآيات لا يكون إلا محض الاستكبار والتعنت. وثانيها: أن نزول الملائكة لو حصل لكان أيضًا من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه بنزول الملك، بل لعموم كونه معجزًا، فيكون قبول ذلك المعجز ورد ذلك المعجز الآخر ترجيحًا لأحد المثلين على الآخر من غير مزيد فائدة ومرجح، وهو محض الاستكبار والتعنت. وثالثها: أنهم بتقدير أن يروا الرب ويسألوه عن صدق محمد ﷺ وهو سبحانه يقول: نعم، هو رسولي، فذلك لا يزيد في التصديق على إظهار المعجز على يد محمد ﷺ؛ لأنا بينا أن المعجز يقوم مقام التصديق بالقول إذ لا فرق وقد ادعى النبوة بين أن يقول: اللهم إن كنت صادقًا فأحيي هذا الميت فيحييه الله تعالى والعادة لم تجر بمثله وبين أن يقول له: صدقت، وإذا كان التصديق الحاصل بالقول أو الحاصل بالمعجز تعيين في كونه تصديقًا للمدعى كان تعيين أحدهما محض الاستكبار والتعنت. ورابعها: وهو أنا نعتقد أن الله سبحانه وتعالى

يفعل بحسب المصالح على ما يقوله المعتزلة، أو نقول: إن الله تعالى يفعل بحسب المشيئة عى ما يقوله أصحابنا، فإن كان الأول لم يجز لهم أن يعينوا المعجز إذ ربما كان إظهار ذلك المعجز مشتملاً على مفسدة لا يعرفها إلا الله تعالى، وكان التعيين استكبارًا وعتوًّا من حيث إنه لما ظنه مصلحة قطع بكونه مصلحة، فمن قال ذلك فقد اعتقد في نفسه أنه عالم بكل المعلومات، وذلك استكبار عظيم، وإن كان الثاني وهو قول أصحابنا فليس للعبد أن يقترح على ربه فإنه سبحانه فعال لما يريد فكان الاقتراح استكبارًا وعتوًّا وخروجًا عن حد العبودية إلى مقام المنازعة والمعارضة. وخامسها: وهو أن المقصود من بعثة الأنبياء الإحسان إلى الخلق فالملك الكبير إذا أحسن إلى بعض الضعفاء رحمة عليه فأخذ ذلك الضعيف إلى اللجاج والنزاع، ويقول: لا أريد هذا بل أريد ذاك، حسن أن يقال: إن هذا المكدي قد استكبر في نفسه وعتا عتوًّا شديدًا من حيث لا يعرف قدر نفسه ومنتهى درجته فكذا هاهنا وسادسها: يمكن أن يكون المراد أن الله تعالى قال: لو علمت أنهم ما ذكروا هذا السؤال لأجل الاستكبار والعتو الشديد لأعطيتهم مقترحهم، ولكني علمت أنهم ذكروا هذا الاقتراح لأجل الاستكبار والتعنت فلو أعطيتهم مقترحهم لما انتفعوا به فلا جرم لا أعطيهم ذلك، وهذا التأويل يعرف من اللفظ. وسابعها: لعلهم سمعوا من أهل الكتاب أن الله تعالى لا يرى في الدنيا، وأنه تعالى لا ينزِّل الملائكة في الدنيا على عوام الخلق، ثم إنهم علقوا إيمانهم على ذلك على سبيل التعنت أو على سبيل الاستهزاء.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: الآية دلت على أن الله تعالى لا تجوز رؤيته لأن رؤيته لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتوًّا واستكبارًا، قالوا وقوله: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ليس إلا لأجل سؤال الرؤية حتى لو أنهم اقتصروا على نزول الملائكة لما خوطبوا بذلك، والدليل عليه أن الله تعالى ذكر أمر الرؤية في آية أخرى على حدة وذكر الاستعظام وهو قوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥] وذكر نزول الملائكة على حدة في آية أخرى فلم يذكر الاستعظام وهو قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهل نرى الملائكة فثبت بهذا أن الاستكبار والعتو في هذه الآية إنما حصل لأجل سؤال الرؤية.

واعلم أن الكلام على ذلك قد تقدم في سورة البقرة، والذي نريده ههنا أنا بينا أن قوله ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يدل على الرؤية، وأما الاستكبار والعتو، فلا يمكن أن يدل ذلك على أن الرؤية مستحيلة لأن من طلب شيئًا محالاً، لا يقال إنه عتا واستكبر، ألا ترى أنهم لما قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتوًّا واستكبارًا، بل قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] بل العتو والاستكبار لا يثبت إلا إذا طلب الإنسان ما لا يليق به ممن فوقه أو كان لائقًا به، ولكنه يطلبه على سبيل التعنت. وبالجملة فقد ذكرنا وجوهًا كثيرة في تحقيق معنى الاستكبار والعتو سواء كانت الرؤية ممتنعة أو ممكنة، ومما يدل عليه أن موسى لما سأل الرؤية ما وصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو؛ لأنه عليه السلام طلب الرؤية

شوقًا، وهؤلاء طلبوها امتحانًا وتعنتًا، لا جرم وصفهم بذلك فثبت فساد ما قاله المعتزلة.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ لأنهم أضمروا الاستكبار (عَنِ الْحَقِّ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ) في قلوبهم واعتقدوه كما قال: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] وقوله: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تجاوزوا الحد في الظلم يقال: عتا (عَتَا) فلان وقد وصف العتو بالكبر فبالغ في إفراطه، يعني أنهم لم يجترئوا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو.

أما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ فهو جواب لقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فبيَّن تعالى أن الذي سألوه سيوجد، ولكنهم يلقون منه ما يكرهون وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في انتصاب ﴿يَوْمَ﴾ وجهين: الأول: أن العامل ما دل عليه ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ أي: يوم يرون الملائكة (يَبْغُونَ الْبُشْرَى) و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتكرير. الثاني: أن التقدير اذكر يوم يرون الملائكة.

المسألة الثانية: اختلفوا في ذلك اليوم، فقال ابن عباس: يريد عند الموت، وقال الباقون: يريد يوم القيامة.

المسألة الثالثة: إنما يقال للكافر: لا بشرى؛ لأن الكافر وإن كان ضالاً مضلاً إلا أنه يعتقد في نفسه أنه كان هاديًا مهتديًا، فكان يطمع في ذلك الثواب العظيم، ولأنهم ربما عملوا ما رجوا فيه النفع كنصرة المظلوم وعطية الفقير وصلة الرحم، ولكنه أبطلها بكفره فبيَّن سبحانه أنهم في أول الأمر يشافهون بما يدل على نهاية اليأس والخيبة، وذلك هو النهاية في الإيلام وهو المراد من قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

المسألة الرابعة: حق الكلام أن يقال: يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم، لكنه قال: لا بشرى للمجرمين وفيه وجهان: أحدهما: أنه ظاهر في موضع ضمير. والثاني: أنه عام فقد تناولهم بعمومه، قالت المعتزلة: تدل الآية على القطع بوعيد الفساق وعدم العفو؛ لأن قوله: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ نكرة في سياق النفي فيعم جميع أنواع البشرى في جميع الأوقات بدليل أن من أراد تكذيب هذه القضية قال: بل له بشرى في الوقت الفلاني، فلما كان ثبوت البشرى في وقت من الأوقات يذكر لتكذيب هذه القضية، علمنا أن قوله تعالى: ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ يقتضي نفي جميع أنواع البشرى في كل الأوقات، ثم إنه سبحانه أكد هذا النفي بقوله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ والعفو من الله من أعظم البشرى، والخلاص من النار بعد دخولها من أعظم البشرى، وشفاعة الرسول ﷺ من أعظم البشرى فوجب أن لا يثبت ذلك لأحد من المجرمين، والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم غير مرة، قال المفسرون: المراد بالمجرمين هاهنا الكفار بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

المسألة الخامسة: في تفسير قوله: ﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ ذكر سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو معاذ الله وقعدك (الله) وعمرك (الله)، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو (مَوْتُورٍ) أو هجوم نازلة ونحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة، قال سيبويه: يقول الرجل للرجل: (يَفْعَلُ) كذا وكذا فيقول: حجرًا، وهي من حجره إذا منعه؛ لأن المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه، فكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعًا ويحجره حجرًا ومجيئه على فعل أو فعل في قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد، فإن قيل: لما ثبت أنه من باب المصادر فما معنى وصفه بكونه محجورًا؟ قلنا: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا: (ذَيْلٌ ذَايِلٌ فَالذَّيْلُ) الهوان وموت مائت وحرام محرم.

المسألة السادسة: اختلفوا في أن الذين يقولون: حجرًا محجورًا من هم؟ على ثلاثة أقوال: القول الأول: أنهم هم الكفار وذلك لأنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه، (ثُمَّ) إذا رأوهم عند الموت (و) يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم؛ لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون، فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو (الْمَوْتُورِ) ونزول الشدة. القول الثاني: أن القائلين هم الملائكة ومعناه حرامًا محرمًا عليكم الغفران والجنة والبشرى، أي جعل الله ذلك حرامًا عليكم، ثم اختلفوا على هذا القول فقال بعضهم: إن الكفار إذا خرجوا من قبورهم، قالت الحفظة لهم: حجرًا محجورًا، وقال الكلبي: الملائكة على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين: حجرًا محجورًا، وقال عطية: إذا كان يوم القيامة يلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى فإذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم: بشرونا فيقولون: حجرًا محجورًا، القول الثالث: وهو قول القفال، والواحدي، وروي عن الحسن أن الكفار يوم القيامة إذا شاهدوا ما يخافونه فيتعوذون منه ويقولون: حجرًا محجورًا، فتقول الملائكة: لا يعاذ من شر هذا اليوم.

اما قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ فقد استدلت المجسمة بقوله: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ لأن القدوم لا يصح إلا على الأجسام، وجوابه أنه لما قامت الدلالة على امتناع القدوم عليه؛ لأن القدوم حركة والموصوف بالحركة محدث، ولذلك استدل الخليل عليها السلام بأفول الكواكب على حدوثها وثبت أن الله عز وجل لا يجوز أن يكون محدثًا، فوجب تأويل لفظ القدوم وهو من وجوه: أحدها: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ﴾ أي وقصدنا إلى أعمالهم، فإن القادم إلى الشيء قاصد له، فالقصد هو المؤثر في المقدوم إليه وأطلق المسبب على السبب مجازًا. وثانيها: المراد قدوم الملائكة إلى موضع الحساب في الآخرة، ولما كانوا بأمره يقدمون جاز أن يقول: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ على سبيل التوسع ونظيره قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥]. وثالثها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤]فلما أباد الله أعمالهم وأفسدها بالكلية صارت شبيهة بالمواضع التي يقدمها الملك فلا جرم قال: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾.

اما قوله: ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ﴾ يعني الأعمال التي اعتقدوها برًّا وظنوا أنها تقربهم إلى الله

تعالى، والمعنى إلى ما عملوا من أي عمل كان.

أما قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ فالمراد أبطلناه وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذي لا يمكن القبض عليه ونظيره قوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩] ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [إبراهيم: ١٨] ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ٥] قال أبو عبيدة والزجاج: الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس. وقال مقاتل: إنه الغبار الذي يستطير من حوافر الدواب.

أما قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ فاعلم أنه سبحانه لما بيَّن حال الكفار في الخسار الكلي والخيبة التامة شرح وصف أهل الجنة تنبيهًا على أن الحظ كل الحظ في طاعة الله تعالى، **وهاهنا سؤالات:**

الأول: كيف يكون أصحاب الجنة خيرًا مستقرًا من أهل النار، ولا خير في النار، ولا يقال في العسل: هو أحل من الخل؟ والجواب من وجوه: الأول: ما تقدم في قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ [الفرقان: ١٥]. **والثاني:** يجوز أن يريد أنهم في غاية الخير؛ لأن مستقر خير من النار، كقول الشاعر:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ(١)

الثالث: التفاضل الذي ذكر بين المنزلتين إنما يرجع إلى الموضع، والموضع من حيث إنه موضع لا شر فيه. **الرابع:** هذا التفاضل واقع على هذا التقدير، أي لو كان لهم مستقر فيه خير لكان مستقر أهل الجنة خيرًا منه.

السؤال الثاني: الآية دلت على أن مستقرهم غير مقيلهم فكيف ذلك؟ والجواب من وجوه: الأول: أن المستقر مكان الاستقرار، والمقيل زمان القيلولة، فهذا إشارة إلى أنهم من المكان في أحسن مكان، ومن الزمان في أطيب زمان. الثاني: أن مستقر أهل الجنة غير مقيلهم، فإنهم يقيلون في الفردوس، ثم يعودون إلى مستقرهم. الثالث: أن بعد الفراغ من المحاسبة والذهاب إلى الجنة يكون الوقت وقت القيلولة، قال ابن مسعود: «**لاَ يَنْتَصِفُ النَّهَارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقِيلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ**»(٢) وقرأ ابن مسعود: (ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ). وقال سعيد بن جبير: إن الله تعالى إذا أخذ في فصل القضاء قضى بينهم بقدر ما بين صلاة الغداة إلى انتصاف النهار، فيقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. وقال مقاتل: يخفف الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من أيام الدنيا، ثم يقيلون من يومهم ذلك في الجنة.

---

(١) البيت للفرزدق وتقدمت ترجمته.

(٢) **إسناده ضعيف**: رواه الثوري في (تفسيره) (١/ ٢٢٦) من طريق ميسرة بن حبيب النهدي عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله بن مسعود. . . به. وفي إسناده انقطاع فأبي عبيدة لم يسمع من أبيه، والطبري في (تفسيره) (٢١/ ٥٦) من طريق أسباط عن السدى. . . به وهذا مرسل.

السؤال الثالث: كيف يصح القيلولة في الجنة والنار، وعندكم أن أهل الجنة في الآخرة لا ينامون، وأهل النار أبدًا في عذاب يعرفونه، وأهل الجنة في نعيم يعرفونه؟ والجواب: قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] وليس في الجنة بكرة وعشي، لقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] ولأنه إذا لم يكن هناك شمس لم يكن هناك نصف النهار ولا وقت القيلولة، بل المراد منه بيان أن ذلك الموضع أطيب المواضع وأحسنها، كما أن موضع القيلولة يكون أطيب المواضع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

اعلم أن هذا الكلام مبني على ما استدعوه من إنزال الملائكة فبيَّن سبحانه أنه يحصل ذلك في يوم له صفات:

الصفة الأولى: أن في ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] يدل على التشقق وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] يدل على الغمام فقوله: ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ جامع لمعنى الآيتين ونظيره قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩] وقوله: ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦].

المسألة الثانية: قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين هاهنا وفي سورة ق، والباقون بالتشديد، قال أبو عبيدة: الاختيار التخفيف كما يخفف تساءلون ومن شدد فمعناه تتشقق.

المسألة الثالثة: قال الفراء: المراد من قوله: ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي عن الغمام؛ لأن السماء لا تتشقق بالغمام بل عن الغمام، وقال القاضي: لا يمتنع أن يجعل تعالى الغمام بحيث تشقق السماء باعتماده عليه وهو كقوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨].

المسألة الرابعة: لا بد من أن يكون لهذا التشقق تعلق بنزول الملائكة، فقيل: الملائكة في أيام الأنبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة والسماء على اتصالها، ثم في ذلك اليوم تتشقق السماء فإذا انشقت خرج من أن يكون حائلاً بين الملائكة وبين الأرض فنزلت الملائكة إلى الأرض.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ صيغة عموم فيتناول الكل، ولأن السماء مقر الملائكة فإذا تشقق وجب أن ينزلوا إلى الأرض، ثم قال مقاتل: تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها

وهم أكثر من سكان الدنيا، كذلك تتشقق سماء سماء، ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش، ثم ينزل الرب تعالى. وروى الضحاك عن ابن عباس قال: تتشقق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم ويصيرون سبع صفوف حول العالم، واعلم أن نزول الرب بالذات باطل قطعًا؛ لأن النزول حركة والموصوف بالحركة محدث والإله لا يكون محدثًا. وأما نزول الملائكة إلى الأرض فعليه سؤال، وذلك لأنه ثبت أن الأرض بالقياس إلى سماء الدنيا كحلقة في فلاة، فكيف بالقياس إلى الكرسي والعرش فملائكة هذه المواضع بأسرها كيف تتسع لهم الأرض جميعًا؟ فلعل الله تعالى يزيد في طول الأرض وعرضها ويبلغها مبلغًا يتسع لكل هؤلاء، ومن المفسرين من قال: الملائكة يكونون في الغمام منه، والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقر الملائكة. قال الحسن: والغمام سترة بين السماء والأرض تعرج الملائكة فيه بنسخ أعمال بني آدم والمحاسبة تكون في الأرض.

المسألة السادسة: أما نزول الملائكة فظاهر، ومعنى ﴿تَنزِيلًا﴾ توكيد للنزول ودلالة على إسراعهم فيه.

المسألة السابعة: الألف واللام في الغمام ليس للعموم فهو للمعهود، والمراد ما ذكروه في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

المسألة الثامنة: قرىء: (وَنُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ)، (وَنُنْزِلُ الْمَلاَئِكَةَ)، (وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ)، (وَنُزِلَتِ الْمَلاَئِكَةُ) (وَنُزِلَ الْمَلاَئِكَةُ) على حذف النون الذي هو فاء الفعل من ننزل قراءة أهل مكة.

الصفة الثانية لذلك اليوم: قوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ قال الزجاج: الحق صفة للملك وتقديره الملك الحق يومئذ للرحمن، ويجوز الحق بالنصب على تقدير أعني ولم يقرأ به ومعنى وصفه بكونه حقًّا أنه لا يزول ولا يتغير، فإن قيل: مثل هذا الملك لم يكن قط إلا للرحمن فما الفائدة في قوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؟ قلنا: لأن في ذلك اليوم لا مالك سواه لا في الصورة ولا في المعنى، فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الأيام، واعلم أن هذه الآية دالة على فساد قول المعتزلة: في أنه يجب على الله الثواب والعوض وذلك لأنه لو وجب لاستحق الذم بتركه فكان خائفًا من أن لا يفعل فلم يكن ملكًا مطلقًا وأيضًا فقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ يفيد أنه ليس لغيره ملك وذلك لا يتم على قول المعتزلة؛ لأن كل من استحق عليه شيئًا فإنه يكون مالكًا له، ولا يكون هو سبحانه مالكًا لذلك المستحق؛ لأنه سبحانه إذا استحق على أحد شيئًا أمكنه أن يعفو عنه، أما غيره إذا استحق عليه شيئًا فإنه لا يصح إبراؤه عنه، فكانت العبودية هاهنا أتم، ولأن من كفر بالله إلى آخر عمره ثم في آخر عمره عرف الله لحظة ومات فهو سبحانه لو أعطاه ألف ألف سنة أنواع الثواب وأراد بعد ذلك أن لا يعطيه لحظة واحدة صار سفيهًا، وهذا نهاية العبودية والذل فكيف يليق بمن هذا حاله أن يقال له: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وأيضًا فكل من فعل فعلاً لو لم يفعله لكان مستوجبًا للذم وكان بذلك الفعل مكتسبًا

للكمال وبتركه مكتسبًا للنقصان فلم يكن ملكًا بل فقيرًا مستحقًا، فثبت أن قوله سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ غير لائق بأصول المعتزلة.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ فالمعنى ظاهر لأنه تعالى عالم بالأحوال قادر على كل ما يريده وأما غيره فالكل في ربقة العجز ولجام القهر، فكان في نهاية العسر على الكافر.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الألف واللام في الظالم فيه قولان: أحدهما: أنه للعموم، والثاني: أنه للمعهود، والقائلون بالمعهود على قولين: الأول: قال ابن عباس المراد عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من مقر إلا صنع طعامًا يدعو إليه جيرته من أهل مكة ويكثر مجالسة الرسول ويعجبه حديثه فصنع طعامًا ودعا الرسول فقال ﷺ: ما آكل من طعامك حتى تأتي بالشهادتين ففعل فأكل رسول الله ﷺ من طعامه فبلغ أمية بن خلف فقال: صبوت يا عقبة، وكان خليله، فقال: إنما ذكرت ذلك ليأكل من طعامي فقال: لا أرضى أبدًا حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ على عنقه ففعل، فقال عليه السلام: لا ألقاك خارجًا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فنزل ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ ندامة يعني عقبة يقول: يا ليتني لم أتخذ أمية خليلاً لقد أضلني عن الذكر. أي صرفني عن الذكر وهو القرآن والإيمان بعد إذ جاءني مع محمد ﷺ فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرًا ولم يقتل يومئذ من الأسارى غيره وغير النضر بن الحارث(١).

الثاني: قالت الرافضة: هذا الظالم هو رجل بعينه وإن المسلمين غيروا اسمه وكتموه وجعلوا فلانًا بدلاً من اسمه، وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله، واعلم أن إجراء اللفظ على العموم ليس لنفس اللفظ؛ لأنَّا بينا في أصول الفقه أن الألف واللام إذا دخل على الاسم المفرد لا يفيد العموم بل إنما يفيده للقرينة من حيث إن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بعلية الوصف، فدل ذلك على أن المؤثر في العض على اليدين كونه ظالمًا وحينئذ يعم الحكم لعموم علته وهذا القول أولى من التخصيص بصورة واحدة؛ لأن هذا الذي ذكرناه يقتضي العموم، ونزوله في واقعة أخرى خاصة لا ينافي أن يكون المراد هو العموم حتى يدخل فيه تلك الصورة وغيرها ولأن المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم وذلك لا يحصل إلا بالعموم، وأما قول الرافضة فذلك لا يتم إلا بالطعن في القرآن وإثبات أنه غيَّر وبدَّل ولا نزاع في أنه كفر.

المسألة الثانية: استدلت المعتزلة بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ قالوا: الظالم يتناول الكافر والفاسق، فدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة والكلام عليه تقدم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ قال الضحاك: يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت

---

(١) رواه أحمد في (العلل ومعرفة الرجال) (١/ ١٣٠/ ٤) من طريق هشيم قال: أخبرنا مجالد عن الشعبي... فذكره، وهذا إسناد ضعيف فيه مجالد وهو ضعيف مع إرسال الشعبي.

فلا يزال كذلك كلما أكلها نبتت، وقال أهل التحقيق: هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والغم، يقال عض أنامله وعض على يديه.

المسألة الرابعة: كما بينا أن الظالم غير مخصوص بشخص واحد بل يعم جميع الظلمة فكذا المراد بقوله: فلانًا ليس شخصًا واحدًا بل كل من أطيع في معصية الله، واستشهد القفال بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠] يعني به: جماعة الكفار.

المسألة الخامسة: قرئ (يَا وَيْلَتِي) بالياء وهو الأصل؛ لأن الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها: تعالى فهذا أوانك، وإنما قلبت الياء ألفًا كما في صحارى و(عَذَارَى).

المسألة السادسة: قوله: ﴿عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: عن ذكر الله أو القرآن وموعظة الرسول ويجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق (وَغَيْرَتَهُ) على الإسلام والشيطان إشارة إلى خليله سماه شيطانًا؛ لأنه أضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة، أو أراد إبليس فإنه هو الذي حمله على أن صار خليلًا لذلك المضل ومخالفة الرسول ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والإنس، ويحتمل أن يكون ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

اعلم أن الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله تعالى وقال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أكثر المفسرين أنه قول واقع من الرسول ﷺ وقال أبو مسلم: بل المراد أن الرسول عليه السلام يقوله في الآخرة وهو كقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] والأول أولى؛ لأنه موافق للفظ، ولأن ما ذكره الله تعالى من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١] تسلية للرسول ﷺ ولا يليق إلا إذا كان وقع ذلك القول منه.

المسألة الثانية: ذكروا في المهجور قولين: الأول: أنه من الهجران أي: تركوا الإيمان به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه. الثاني: أنه من أهجر أي: مهجورًا فيه ثم حذف الجار ويؤكده قوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧] ثم هجرهم فيه أنهم كانوا يقولون: إنه سحر، وشعر، وكذب، وهجر أي هذيان، وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ وَعَلَّقَ مُصْحَفًا لَمْ يتعهده ولم ينطر فِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَعَلِّقًا بِهِ يَقُولُ يَا رَبِّ**

الْعَالَمِينَ عَبْدُكَ هَذَا اتَّخَذَنِي مَهْجُورًا، اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ»[1] ثم إنه تعالى قال مسليًا لرسوله عليه الصلاة والسلام ومعزيًا له: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وبيَّن بذلك أن له أسوة بسائر الرسل، فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبروا ثم فيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى خلق الخير والشر؛ لأن قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ولا شك أن تلك العداوة كفر قال الجبائي: المراد من الجعل التبيين، فإنه تعالى لما بيَّن أنهم أعداؤه، جاز أن يقول: جعلناهم أعداءه، كما إذا بيَّن الرجل أن فلانًا لص يقال: جعله لصًا كما يقال في الحاكم: عدل فلانًا وفسق فلانًا وجرحه، قال الكعبي: إنه تعالى لما أمر الأنبياء بعداوة الكفار وعداوتهم للكفار تقتضي عداوة الكفار لهم، فلهذا جاز أن يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لأنه سبحانه هو الذي حمله ودعاه إلى ما استعقب تلك العداوة، وقال أبو مسلم: يحتمل في العدو أنه البعيد لا القريب إذ المعاداة المباعدة كما أن النصر القرب والمظاهرة، وقد باعد الله تعالى بين المؤمنين والكافرين. والجواب عن الأول: أن التبيين لا يسمونه ألبتة جعلاً؛ لأن من بين لغيره وجود الصانع وقدمه لا يقال: إنه جعل الصانع وجعل قدمه. والجواب عن الثاني: أن الذي أمره الله تعالى به هل له تأثير في وقوع العداوة في قلوبهم أو ليس له تأثير؟ فإن كان الأول فقد تم الكلام؛ لأن عداوتهم للرسول ﷺ كفر فإذا أمر الله الرسول بما له أثر في تلك العداوة فقد أمره بما له أثر في وقوع الكفر وإن لم يكن فيه تأثير ألبتة كان منقطعًا عنه بالكلية فيمتنع إسناده إليه، وهذا هو الجواب عن قول أبي مسلم.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول: إن قول محمد عليه السلام: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ في المعنى كقول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥-٦] وكما أن المقصود من هذا إنزال العذاب فكذا هاهنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله بالرحمة في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؟ جوابه: أن نوحًا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم، وأما محمد عليه الصلاة والسلام فلما ذكر هذا ما دعا عليهم بل انتظر فلما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كان ذلك كالأمر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فظهر الفرق.

المسألة الثالثة: قوله ﴿جَعَلْنَا﴾ صيغة العظماء والتعظيم إذا ذكر نفسه في كل معرض من التعظيم وذكر أنه يعطي فلا بد وأن تكون تلك العطية عظيمة كقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾

---

(١) موضوع: أخرجه الثعلبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٣٧٥) من طريق الحسن بن علي بن محمد بن عقبة الشيباني قال: حدثنا أبو القاسم الخضر بن أبان القرشي قال: حدثنا أبو هدبة إبراهيم بن هدبة قال: حدثنا أنس بن مالك... به، وفي إسناده أبي هدبة إبراهيم بن هدبة. ذكره ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل) (٢/ ١٤٣)، وقال: سألت أبي عن أبي هدبة فقال: كذاب وتلميذه الخضر بن أبان ضعفه الحاكم وغيره كذا قاله الذهبي في (ميزان الاعتدال) (٢/ ٤٤٣).

[الحجر: ٨٧] وقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١] فكيف يليق بهذه الصيغة أن تكون تلك العطية هي العداوة التي هي منشأ الضرر في الدين والدنيا؟ وجوابه: أن خلق العداوة سبب لازدياد المشقة التي هي موجبة لمزيد الثواب، والله أعلم.

المسألة الرابعة: يجوز أن يكون العدو واحدًا وجمعًا كقوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧] وجاء في التفسير أن عدو الرسول ﷺ أبو جهل. أما قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾ فقال الزجاج: الباء زائدة يعني كفى ربك هاديًا ونصيرًا منصوبان على الحال هاديًا إلى مصالح الدين والدنيا، ونصيرًا على الأعداء، ونظيره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو الشبهة الخامسة لمنكري نبوة محمد ﷺ، وأن أهل مكة قالوا: تزعم أنك رسول من عند الله أفلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود؟ وعن ابن جريج بين أوله وآخره اثنتان أو ثلاث وعشرون سنة وأجاب الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ وبيان هذا الجواب من وجوه: أحدها: أنه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو، وإنما نزلت التوراة جملة؛ لأنها مكتوبة يقرؤها موسى. وثانيها: أن من كان الكتاب عنده، فربما اعتمد على الكتاب وتساهل في الحفظ فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له أكمل فيكون أبعد له عن المساهلة وقلة التحصيل. وثالثها: أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك، أما لما نزل مفرقًا منجمًا لا جرم نزلت التكاليف قليلاً قليلاً فكان تحملها أسهل. ورابعها: أنه إذا شاهد جبريل حالاً بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حمل، وعلى الصبر على عوارض النبوة وعلى احتماله أذية قومه وعلى الجهاد. وخامسها: أنه لما تم شرط الإعجاز فيه مع كونه منجمًا ثبت كونه معجزًا، فإنه لو كان ذلك في مقدور البشر لوجب أن يأتوا بمثله منجمًا مفرقًا. وسادسها: كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة؛ لأن بسبب ذلك كان ينضم إلى الفصاحة الإخبار عن الغيوب. وسابعها: أن القرآن لما نزل منجمًا مفرقًا وهو عليه السلام كان يتحداهم من أول الأمر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم

عن معارضة الكل أولى فبهذا الطريق ثبت في فؤاده أن القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة.

وثامنها: أن السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه إلى الخلق منصب عظيم فيحتمل أن يقال: إنه تعالى لو أنزل القرآن على محمد ﷺ دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل عليه السلام فلما أنزله مفرقًا منجمًا بقي ذلك المنصب العالي عليه فلأجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفرقًا منجمًا.

أما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ **ففيه وجهان:**

الأول: أنه من تمام كلام المشركين أي جملة واحدة كذلك أي كالتوراة والإنجيل، وعلى هذا لا يحتاج إلى إضمار في الآية وهو أن يقول: أنزلناه مفرقًا لنثبت به فؤادك.

الثاني: أنه كلام الله تعالى ذكره جوابًا لهم أي: كذلك أنزلناه مفرقًا، فإن قيل: ذلك في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدمه والذي تقدم فهو إنزاله جملة (وَاحِدَةً) فكيف فسر به كذلك أنزلناه مفرقًا؟ قلنا: لأن قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ معناه: لِمَ نزل مفرقًا؟ فذلك إشارة إليه.

أما قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ فمعنى الترتيل في الكلام أن يأتي بعضه على أثر بعض على تؤدة وتمهل وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفلجها يقال: ثغر رتل وهو ضد المتراص، ثم إنه سبحانه وتعالى لما بيَّن فساد قولهم بالجواب الواضح قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ من الجنس الذي تقدم ذكره من الشبهات إلا جئناك بالحق الذي يدفع قولهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] وبيَّن أن الذي يأتي به أحسن تفسيرًا لأجل ما فيه من المزية في البيان والظهور، ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه، فقالوا: تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا.

أما قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: **«يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ، صِنْفٍ عَلَى الدَّوَابِّ، وَصِنْفٍ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَصِنْفٍ عَلَى الْوُجُوهِ»** وعنه عليه السلام: **«إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ»**(١).

المسألة الثانية: الأقرب أنه صفة للقوم الذين أوردوا هذه الأسئلة على سبيل التعنت، وإن كان غيرهم من أهل النار يدخل معهم.

المسألة الثالثة: حمله بعضهم على أنهم يمشون في الآخرة مقلوبين، وجوههم إلى القرار وأرجلهم إلى فوق، روي ذلك عن الرسول ﷺ وقال آخرون: المراد أنهم يحشرون ويسحبون

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٠٥)، حديث رقم (٣١٤٢)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٥٤)، حديث رقم (٨٦٣٢)، وأبو داود الطيالسي في (مسنده) (١/ ٣٣٤)، حديث رقم (٢٥٦٦)، جميعًا من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة... به، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

على وجوههم، وهذا أيضًا مروي عن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أَوْلَى، وقال الصوفية: الذين تعلقت قلوبهم بما سوى الله فإذا ماتوا بقي ذلك التعلق فعبَّر عن تلك الحالة بأنهم يحشرون على وجوههم إلى جهنم، ثم بيَّن تعالى أنهم شر مكانًا من أهل الجنة وأضل سبيلاً وطريقًا، والمقصود منه الزجر عن طريقهم والسؤال عليه كما ذكرناه على قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٢٤] وقد تقدم الجواب عنه.

واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم في التوحيد ونفي الأنداد وإثبات النبوة والجواب عن شبهات المنكرين لها وفي أحوال القيامة شرع في ذكر القصص على السنة المعلومة.

القصة الأولى قصة موسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ [الفرقان: ٣١] أتبعه بذكر جماعة من الأنبياء وعرَّفه بما نزل بمن كذب من أممهم فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ والمعنى: لست يا محمد بأول من أرسلناه فكُذِّب، وآتيناه الآيات فَرُدَّ، فقد آتينا موسى التوراة وقوينا عضده بأخيه هارون ومع ذلك فقد رد.

وفيه مسائل

المسألة الأولى: كونه وزيرًا لا يمنع من كونه شريكًا له في النبوة، فلا وجه لقول من قال في قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾: إنه خطاب لموسى عليه السلام وحده بل يجري مجرى قوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣] فإن قيل: إن كونه وزيرًا كالمنافي لكونه شريكًا بل يجب أن يقال: إنه لما صار شريكًا خرج عن كونه وزيرًا، قلنا: لا منافاة بين الصفتين؛ لأنه لا يمتنع أن يشركه في النبوة ويكون وزيرًا وظهيرًا ومعينًا له.

المسألة الثانية: قال الزجاج: الوزير في اللغة: الذي يرجع إليه ويتحصن برأيه، والوزر: ما يعتصم به ومنه ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١] أي: لا منجى ولا ملجأ، قال القاضي: ولذلك لا يوصف تعالى بأن له وزيرًا ولا يقال فيه أيضًا؛ بأنه وزير؛ لأن الالتجاء إليه في المشاورة والرأي على هذا الحد لا يصح.

المسألة الثالثة: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ أهلكناهم إهلاكًا فإن قيل: الفاء للتعقيب والإهلاك لم يحصل عقيب ذهاب موسى وهارون إليهم بل بعد مدة مديدة، قلنا: التعقيب محمول هاهنا على الحكم لا على الوقوع، وقيل: إنه تعالى أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أولها وآخرها؛ لأنهما المقصود من القصة بطولها أعني إلزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم:

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ إن حملنا تكذيب الآيات على تكذيب آيات الإلهية فلا إشكال، وإن حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ، وإن كان للماضي إلا أن المراد هو المستقبل.

القصة الثانية قصة نوح عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى إنما قال: ﴿كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ إما لأنهم كانوا من البراهمة المنكرين لكل الرسل أو لأنه كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبًا للجميع؛ لأن تكذيب الواحد منهم لا يمكن إلا بالقدح في المعجز، وذلك يقتضي تكذيب الكل، أو لأن المراد بالرسل وإن كان نوحًا عليه السلام وحده ولكنه كما يقال: فلان يركب الأفراس.

اما قوله: ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ فقال الكلبي: أمطر الله عليهم السماء أربعين يومًا وأخرج ماء الأرض أيضًا في تلك الأربعين فصارت الأرض بحرًا واحدًا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: وجعلنا إغراقهم أو قصتهم آية، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: لكل من سلك سبيلهم في تكذيب الرسل عذابًا أليمًا، ويحتمل أن يكون المراد قوم نوح.

القصة الثالثة قصة عاد وثمود وأصحاب الرس

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

المسألة الأولى: عطف ﴿وَعَادًا﴾ على (هم) في ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أو على (الظَّالِمِينَ)؛ لأن المعنى ووعدنا الظالمين.

المسألة الثانية: قرئ (وثَمُودَ) على تأويل القبيلة، وأما على المنصرف فعلى تأويل الحي أو لأنه اسم للأب الأكبر.

المسألة الثالثة: قال أبو عبيدة: الرس هو البئر غير المطوية، قال أبو مسلم: في البلاد موضع يقال له: الرس فجائز أن يكون ذلك الوادي سكنًا لهم، والرس عند العرب: الدفن، ويسمى به الحفر يقال: رس الميت إذا دفن وغيب في الحفرة، وفي التفسير أنه البئر، وأي شيء كان فقد أخبر الله تعالى عن أهل الرس بالهلاك انتهى.

المسألة الرابعة: ذكر المفسرون في أصحاب الرس وجوهًا: أحدها: كانوا قومًا من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش، فبعث الله تعالى إليهم شعيبًا عليه السلام فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينما هم حول الرس خسف الله بهم وبدارهم. وثانيها: الرس:

قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود. وثالثها: أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء، وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له: فتح وهي تَنْقَضُ على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأُهلكوا. ورابعها: هم أصحاب الأخدود، والرس هو الأخدود. وخامسها: الرس أنطاكية قتلوا فيها حبيبًا النجار، وقيل: (كذبوه) ورسوه في بئر أي دسوه فيها. وسادسها: عن علي عليه السلام أنهم كانوا قومًا يعبدون شجرة الصنوبر وإنما سموا بأصحاب الرس؛ لأنهم رسوا نبيهم في الأرض. وسابعها: أصحاب الرس قوم كانت لهم قرى على شاطىء نهر يقال له: الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى إليهم نبيًّا من ولد يهودا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمنًا فشكى إلى الله تعالى منهم فحفروا بئرًا ورسوه فيها وقالوا: نرجو أن يرضى عنا إلهنا وكانوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيهم يقول: إلهي وسيدي ترى ضيق مكاني وشدة كربي وضعف قلبي وقلة حيلتي فعجِّل قبض روحي حتى مات، فأرسل الله تعالى ريحًا عاصفة شديدة الحمرة فصارت الأرض من تحتهم حجر كبريت متوقد وأظلتهم سحابة سوداء فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص. وثامنها: روى ابن جرير عن الرسول ﷺ «أَنَّ اللَّه بَعَثَ نَبِيًّا إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ مِنْ أَهْلِهَا أَحَدٌ إِلاَّ عَبْدٌ أَسْوَدُ ثُمَّ عَدَوْا عَلَى الرَّسُولِ فَحَفَرُوا لَهُ بِئْرًا فَأَلْقَوْهُ فِيهَا، ثُمَّ أَطْبَقُوا عَلَيْهِ حَجَرًا ضَخْمًا، وَكَانَ ذَلِكَ الْعَبْدُ يَحْتَطِبُ فَيَشْتَرِي لَهُ طَعَامًا وَشَرَابًا وَيَرْفَعُ الصَّخْرَةَ وَيُدْلِيهِ إِلَيْهِ فَكَانَ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّه فَاحْتَطَبَ يَوْمًا فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَجَدَ نَوْمًا فَاضْطَجَعَ فَضَرَبَ اللَّه عَلَى أُذُنِهِ سَبْعَ سِنِينَ نَائِمًا، ثُمَّ انْتَبَهَ وَتَمَطَّى وَتَحَوَّلَ لِشِقِّهِ الآخَرِ فَنَامَ سَبْعَ سِنِينَ أُخْرَى، ثُمَّ هَبَّ فَحَمَلَ حُزْمَتَهُ فَظَنَّ أَنَّهُ نَامَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَجَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ فَبَاعَ حُزْمَتَهُ وَاشْتَرَى طَعَامًا وَشَرَابًا وَذَهَبَ إِلَى الْحُفْرَةِ فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا، وَكَانَ قَوْمُهُ قَدِ اسْتَخْرَجُوهُ وَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَكَانَ ذَلِكَ النَّبِيُّ يَسْأَلُهُمْ عَنِ الأَسْوَدِ، فَيَقُولُونَ: لاَ نَدْرِي حَالَهُ حَتَّى قَبَضَ اللَّه النَّبِيَّ وَقَبَضَ ذَلِكَ الأَسْوَدَ» فقال عليه السلام: «إِنَّ ذَلِكَ الأَسْوَدَ لأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»[1] واعلم أن القول ما قاله أبو مسلم وهو أن شيئًا من هذه الروايات غير معلوم بالقرآن، ولا بخبر قوي الإسناد، ولكنهم كيف كانوا فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم أهلكوا بسبب كفرهم.

المسألة الخامسة: قال النخعي: القرن أربعون سنة، وقال علي عليه السلام: بل سبعون سنة، وقيل: مائة وعشرون.

المسألة السادسة: قوله: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ذلك المذكور، وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادًا متكاثرة، ثم يقول: فذلك كيت وكيت على معنى: فذلك المحسوب أو المعدود.

---

(١) أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٩/ ٢٧٠) من طريق سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي. . . به، وفي إسناده محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعنه.

أما قوله: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فالمراد بيَّنَّا لهم وأزحنا عللهم فلما كذبوا تبرناهم تتبيرًا ويحتمل ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ بأن أجبناهم عما أوردوه من الشبه في تكذيب الرسل كما أورده قومك يا محمد، فلما لم ينجع فيه تبرناهم تتبيرًا، فحذر تعالى بذلك قوم محمد ﷺ في الاستمرار على تكذيبه لئلا ينزل بهم مثل الذي نزل بالقوم عاجلاً وآجلاً.

المسألة السابعة: ﴿وَكُلًّا﴾ الأول منصوب بما دل عليه ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ وهو أنذرنا أو حذرنا، والثاني بتبرنا؛ لأنه فارغ له.

المسألة الثامنة: التتبير: التفتيت والتكسير، ومنه التبر وهو كسارة الذهب والفضة والزجاج.

القصة الرابعة قصة لوط عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

واعلم أنه تعالى أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط عليه السلام وكانت خمسًا أهلك الله تعالى أربعًا بأهلها وبقيت واحدة، و﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ الحجارة يعني أن قريشًا مروا مرارًا كثيرة في متاجرهم إلى الشأم على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟﴾ في (مرار) مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله تعالى ونكاله ﴿بَلْ كَانُوا۟﴾ قومًا كفرة ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ وذكروا في تفسير ﴿يَرْجُونَ﴾ وجوهًا: أحدها: وهو الذي قاله القاضي وهو الأقوى: أنه محمول على حقيقة الرجاء؛ لأن الإنسان لا يتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال إلا لرجاء ثواب الآخرة فإذا لم يؤمِّن بالآخرة لم يرج ثوابها فلا يتحمل تلك المشاق والمتاعب. وثانيها: معناه لا يتوقعون نشورًا، فوضع الرجاء موضع التوقع؛ لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن. وثالثها: معناه لا يخافون على اللغة التهامية، وهو ضعيف والأول هو الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بيَّن مبالغة المشركين في إنكار نبوته وفي إيراد الشبهات في ذلك، بيَّن بعد ذلك أنهم إذا رأوا الرسول اتخذوه هزوًا فلم يقتصروا على ترك الإيمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار، ويقول بعضهم لبعض: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): (إِنْ) الأولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينهما.

المسألة الثانية: جواب (إِذَا) هو ما أضمر من القول يعني وإذا رأوك مستهزئين قالوا: أبعث الله هذا رسولاً، وقوله: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ جملة اعترضت بين (إِذَا) وجوابها.

المسألة الثالثة: اتخذوه هزوًا في معنى استهزؤا به والأصل اتخذوه موضع هزء أو مهزوءًا به.

المسألة الرابعة: اعلم أن الله تعالى أخبر عن المشركين أنهم متى رأوا الرسول أتوا بنوعين من الأفعال: أحدهما أنهم يستهزئون به، وفسر ذلك الاستهزاء بقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ وذلك جهل عظيم؛ لأن الاستهزاء إما أن يقع بصورته أو بصفته. أما الأول فباطل؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان أحسن منهم صورة وخلقة، وبتقدير أنه لم يكن كذلك، لكنه عليه السلام ما كان يدعي التميز عنهم بالصورة بل بالحجة. وأما الثاني فباطل؛ لأنه عليه السلام ادَّعى التميز عنهم في ظهور المعجز عليه دونهم، وأنهم ما قدروا على القدح في حجته ودلالته، ففي الحقيقة هم الذين يستحقون أن يهزأ بهم، ثم إنهم لوقاحتهم قلبوا القضية واستهزؤا بالرسول عليه السلام، وذلك يدل على أنه ليس للمبطل في كل الأوقات إلا السفاهة والوقاحة. وثانيهما أنهم كانوا يقولون فيه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وذلك يدل على أمور:

الأول: أنهم سموا ذلك إضلالاً، وذلك يدل على أنهم كانوا مبالغين في تعظيم آلهتهم وفي استعظام صنيعه ﷺ في صرفهم عنه، وذلك يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق، فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف في أنه لا يكفر إلا من يعرف الدلائل لأنهم جهلوه، ثم نسبهم الله تعالى إلى الكفر والضلال، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يدل أيضًا على ذلك.

الثاني: يدل هذا القول منهم على جَدِّ الرسول عليه السلام واجتهاده في صرفهم عن عبادة الأوثان، ولولا ذلك لما قالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وهكذا كان عليه السلام فإنه في أول الأمر بالغ في إيراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من أنواع السفاهة وسوء الأدب.

الثالث: أن هذا يدل على اعتراف القوم بأنهم لم يعترضوا ألبتة على دلائل الرسول ﷺ وما عارضوها إلا بمحض الجحود والتقليد؛ لأن قولهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ إشارة إلى الجحود والتقليد، ولو ذكروا اعتراضًا على دلائل الرسول عليه السلام لكان ذكر ذلك أولى من ذكر مجرد الجحود والإصرار الذي هو دأب الجهال، وذلك يدل على أن القوم كانوا مقهورين تحت حجته عليه السلام، وأنه ما كان في أيديهم إلا مجرد الوقاحة.

الرابع: الآية تدل على أن القوم صاروا في ظهور حجته عليه السلام عليهم كالمجانين؛ لأنهم

استهزؤا به أولاً، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن قابلناه بالجحود والإصرار، فهذا الكلام الأخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل، والكلام الأول وهو السخرية والاستهزاء لا يليق إلا بالجاهل العاجز، فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على أنهم كانوا كالمتحيرين في أمره، فتارة بالوقاحة يستهزئون منه، وتارة يصفونه بما لا يليق إلا بالعالم الكامل، ثم إنه سبحانه لما حكى عنهم هذا الكلام زيف طريقتهم في ذلك من ثلاثة أوجه:

أولها: قوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأنهم لما وصفوه بالإضلال في قولهم: ﴿إِن كَادَ﴾ بيَّن تعالى أنه سيظهر لهم مَنْ المضل ومَنْ الضال عند مشاهدة العذاب الذي لا مخلص لهم منه فهو وعيد شديد لهم على التعامي والإعراض عن الاستدلال والنظر.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ والمعنى أنه سبحانه بيَّن أن بلوغ هؤلاء في جهالتهم وإعراضهم عن الدلائل إنما كان لاستيلاء التقليد عليهم وأنهم اتخذوا أهواءهم آلهة، فكل ما دعاهم الهوى إليه انقادوا له، سواء منع الدليل منه أو لم يمنع، ثم هاهنا أبحاث:

الأول: قوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ كلمة تصلح للإعلام والسؤال، وهاهنا هي تعجيب من جهل من هذا وصفه ونعته.

الثاني: قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ معناه اتخذ إلهه ما يهواه أو إلهًا يهواه، وقيل: هو مقلوب ومعناه اتخذ هواه إلهه وهذا ضعيف؛ لأن قوله: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يفيد الحصر، أي لم يتخذ لنفسه إلهًا إلا هواه، وهذا المعنى لا يحصل عند القلب. قال ابن عباس: الهوى إله يعبد، وقال سعيد بن جبير: كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فإذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده.

الثالث: قوله: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: حافظًا تحفظه من اتباع هواه أي لست كذلك.

الرابع: نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] وقوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] قال الكلبي: نسختها آية القتال. وثالثها: قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أم هاهنا منقطعة، معناه بل تحسب، وذلك يدل على أن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها، وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول؛ لأنهم لشدة عنادهم لا يصغون إلى الكلام، وإذا سمعوه لا يتفكرون فيه، فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع ألبتة، فعند ذلك شبههم بالأنعام في عدم انتفاعهم بالكلام وعدم إقدامهم على التدبر والتفكر وإقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية وإعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية **وهاهنا سؤالات:**

السؤال الأول: لِمَ قال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ فحكم بذلك على الأكثر دون

الكل؟والجواب: لأنه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق، إلا أنه ترك الإسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل.

السؤال الثاني: لِمَ جعلوا أضل من الأنعام؟ الجواب: من وجوه: أحدها: أن الأنعام تنقاد لأربابها وللذي يعلفها ويتعهدها وتميز بين من يحسن إليها وبين من يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يميزون بين إحسانه إليهم وبين إساءة الشيطان إليهم الذين هو عدو لهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يحترزون من العقاب الذي هو أعظم المضار. وثانيها: أن قلوب الأنعام كما أنها تكون خالية عن العلم فهي خالية عن الجهل الذي هو اعتقاد المعتقد على خلاف ما هو عليه مع التصميم. وأما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فإنهم لا يعلمون ولا يعلمون أنهم لا يعلمون، بل هم مصرون على أنهم يعلمون. وثالثها: أن عدم علم الأنعام لا يضر بأحد أما جهل هؤلاء فإنه منشأ للضرر العظيم؛ لأنهم يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجًا. ورابعها: أن الأنعام لا تعرف شيئًا ولكنهم عاجزون عن الطلب وأما هؤلاء الجهال فإنهم ليسوا عاجزين عن الطلب، والمحروم عن طلب المراتب العالية إذا عجز عنه لا يكون في استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له لسوء اختياره. وخامسها: أن البهائم لا تستحق عقابًا على عدم العلم، أما هؤلاء فإنهم يستحقون عليه أعظم العقاب. وسادسها: أن البهائم تسبح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ما قال ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الأسراء: ٤٤] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحج: ١٨] إلى قوله: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨] وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١] وإذا كان كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الأنعام.

السؤال الثالث: أنه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل، فكيف ذمهم على الإعراض عن الدين وكيف بعث الرسول إليهم فإن من شرط التكليف العقل؟ الجواب: ليس المراد أنهم لا يعقلون بل إنهم لا ينتفعون بذلك العقل، فهو كقول الرجل لغيره إذا لم يفهم: إنما أنت أعمى وأصم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم في ذلك ذكر بعده أنواعًا من الدلائل الدالة على وجود الصانع.

النوع الأول: الاستدلال بحال الظل في زيادته ونقصانه وتغيره من حال إلى حال، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه من رؤية العين. والثاني: أنه من رؤية القلب يعني العلم، فإن حملناه على رؤية العين فالمعنى: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك وإن كان تخريج لفظه على عادة العرب أفصح وإن حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج، فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل إذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى في تمديده غير مرئي بالاتفاق، ولكنه معلوم من حيث إن كل متغير جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه.

المسألة الثانية: المخاطب بهذا الخطاب وإن كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام في المعنى؛ لأن المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل، وجميع المكلفين مشتركون في أنه يجب تنبههم لهذه النعمة وتمكنهم من الاستدلال بها على وجود الصانع.

المسألة الثالثة: الناس أكثروا في تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع إلى وجهين:

الأول: أن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الأحوال؛ لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية، فإذن أطيب الأحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] وإذا ثبت هذا فنقول: إنه سبحانه بيَّن أنه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة، ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئًا سوى الجسم وسوى اللون، ونقول: الظل ليس أمرًا ثالثًا، ولا يعرف به إلا إذا طلعت الشمس ووقع ضوؤها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجودًا وماهية؛ لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها، فلولا الشمس لما عرف الظل، ولولا الظلمة لما عرف النور، فكأنه سبحانه وتعالى لما طلع الشمس على الأرض وزال الظل، فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون، فلهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: خلقنا الظل أولاً بما فيه من المنافع واللذات ثم إنا هدينا العقول إلى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلاً على وجود هذه النعمة، ثم قبضناه أي أزلنا الظل لا دفعة بل يسيرًا يسيرًا فإن كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب، ولما كان الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرًا يسيرًا فكذا زوال الإظلال لا يكون دفعة بل يسيرًا يسيرًا، ولأن قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح، ولكن قبضها يسيرًا يسيرًا يفيد معه أنواع مصالح العالم، والمراد بالقبض الإزالة والإعدام هذا أحد التأويلين.

التأويل الثاني: وهو أنه سبحانه وتعالى لما خلق الأرض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الأرض، ثم إنه سبحانه خلق الشمس دليلاً عليه وذلك لأن بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال فإنهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر، وكما أن المهتدي يهتدي بالهادي والدليل ويلازمه، فكذا الأظلال كأنها مهتدية وملازمة للأضواء فلهذا جعل الشمس دليلاً عليها.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فأما أن يكون المراد منه انتهاء الأظلال يسيرًا يسيرًا إلى غاية نقصاناتها، فسمى إزالة الأظلال قبضًا لها أو يكون المراد من قبضها يسيرًا قبضها عند قيام الساعة، وذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام التي تلقي الأظلال وقوله: ﴿يَسِيرًا﴾ هو كقوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] فهذا هو التأويل الملخص.

المسألة الرابعة: وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للأحياء والعقلاء، وأما حصول الضوء الخالص، أو الظلمة الخالصة، فهو ليس من باب المنافع، فحصول ذلك الظل، إما أن يكون من الواجبات أو من الجائزات، والأول باطل وإلا لما تطرق التغير إليه؛ لأن الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات، فلا بد له في وجوده بعد العدم، وعدمه بعد الوجود، من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع، وما ذاك إلا من يقدر على تحريك الأجرام العلوية وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن والترتيب الأكمل، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى. فإن قيل: الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه أن يضيء، فكيف استدل بالأمر العدمي على ذاته، وكيف عده من النعم؟ قلنا: الظل ليس عدمًا محضًا، بل هو أضواء مخلوطة بظلم، والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثاني وهو أمر وجودي، وفي تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه إلى كتبنا العقلية.

النوع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ اعلم أنه تعالى شبه الليل من حيث إنه يستر الكل ويغطي باللباس الساتر للبدن، ونبه على ما لنا فيه من النفع بقوله: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ والسبات هو الراحة وجعل النوم سباتًا؛ لأنه سبب للراحة قال أبو مسلم: السبات الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه، ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلة: مسبوت، وقال صاحب (الكشاف): السبات الموت والمسبوت الميت؛ لأنه مقطوع الحياة قال: وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وإنما قلنا: إن تفسيره بالموت أولى من تفسيره بالراحة؛ لأن النشور في مقابلته يأباه، قال أبو مسلم: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الإنسان وفاة، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] كذلك وفَّق بين القيام من النوم والقيام من الموت في التسمية بالنشور، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمه على خلقه؛ لأن الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية، والنوم واليقظة

شبههما بالموت والحياة، وعن لقمان أنه قال لابنه: كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر.

النوع الثالث: قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ وقد تقدم تفسيره في سورة الأعراف ثم فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرئ (الرِّيحَ) و(الرِّيَاحَ)، قال الزجاج: وفي (نَشْرًا) خمسة أوجه بفتح النون، وبضمها، وبضم النون والشين، وبالباء الموحدة مع ألف، والمؤنث وبشرًا بالتنوين، قال أبو مسلم من قرأ (بُشْرًا) أراد جمع بشير مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وأما بالنون فهو في معنى قوله: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ [المرسلات: ٣] وهي الرياح، والرحمة: الغيث والماء والمطر.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ نص في أنه تعالى ينزل الماء من السماء، لا من السحاب. وقول من يقول: السحاب سماء ضعيف؛ لأن ذاك بحسب الاشتقاق، وأما بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن الطهور ما هو؟ قال كثير من العلماء: الطهور ما يتطهر به كالفطور ما يفطر به، والسحور ما يتسحر به وهو مروي أيضًا عن ثعلب، وأنكر صاحب (الكشاف) ذلك، وقال: ليس فعول من التفعيل في شيء والطهور على وجهين في العربية: صفة واسم غير صفة فالصفة قولك: ماء طهور كقولك: طاهر، والاسم قولك: طهور لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به النار. حجة القول الأول قوله عليه السلام: «**التُّرَابُ طَهُورُ الْمُسْلِمِ وَلَوْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ حِجَجٍ**»(١) ولو كان معنى الطهور الطاهر لكان معناه التراب طاهر للمسلم وحينئذ لا ينتظم الكلام، وكذا قوله عليه السلام: «**طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبعًا**»(٢) ولو كان الطهور الطاهر لكان معناه طاهر إناء أحدكم وحينئذ لا ينتظم الكلام، ولأنه تعالى قال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١] فبيَّن أن المقصود من الماء إنما هو التطهر به فوجب أن يكون المراد من كونه طهورًا أنه هو المطهر به؛ لأنه تعالى ذكره في معرض الإنعام، فوجب حمله على الوصف الأكمل ولا شك أن المطهر أكمل من الطاهر.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (الجنب يتيمم) (١/ ٩٠)، حديث رقم (٣٣٢) مطولًا من طريق خالد الحذاء... به، والترمذي في كتاب (الطهارة)، باب: (ما جاء في التيمم للجنب إذا لم يجد الماء) (١/ ٢١١)، حديث رقم (١٢٤)، قال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (الصلوات بتيمم واحد) (١/ ٢٦٩)، حديث رقم (٣٢١) من طريق مخلد عن سفيان عن أيوب عن أبي قلابة... به، كلاهما (أيوب، وخالد الحذاء) عن أبي قلابة... به.

(٢) حسن: أخرجه مسلم في كتاب (الطهارة)، باب: (حكم ولوغ الكلب) (١/ ٢٣٤/ ٩١)، وأبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (الوضوء بسؤر الكلب) (١/ ٤١/ ٤٢)، حديث رقم (٧١)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٦٥/ ٤٢٧/ ٤٨٩/ ٥٠٨)، والحميدي في (مسنده) (٩٦٨)، وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٥٠)، حديث رقم (٩٥) من طريق هشام... به.

المسألة الرابعة: اعلم أن الله تعالى ذكر من منافع الماء أمرين: أحدهما: ما يتعلق بالنبات والثاني: ما يتعلق بالحيوان، أما أمر النبات فقوله: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: لم قال: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً﴾ ميتًا ولم يقل ميتة؟ الجواب: لأن البلدة في معنى البلد في قوله: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: ٩].

السؤال الثاني: ما المراد من حياة البلد وموتها؟ الجواب: الناس يسمون ما لا عمارة فيه من الأرض مواتًا، وسقيها المقتضي لعمارتها إحياء لها.

السؤال الثالث: أن جماعة الطبائعيين [١] وكذا الكعبي من المعتزلة قالوا: إن بطبع الأرض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا﴾ فإن الباء في (به) تقتضي أن للماء تأثيرًا في ذلك. الجواب: الظاهر وإن دلَّ عليه لكن المتكلمون تركوه لقيام الدلالة على فساد الطبع وأما أمر الحيوان فقوله سبحانه: ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: لِمَ خص الإنسان والأنعام هاهنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء؟ الجواب: لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام؛ لأنها قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكأن الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام عليهم بسقيهم.

السؤال الثاني: ما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفهما بالكثرة؟ الجواب: معناه أن أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار (وَمَنَافِعِ) المياه فهم في غنية (فِي شُرْبِ الْمِيَاهِ عَنِ الْمَطَرِ)، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر وذلك قوله: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظان الماء ويحتمل في (كَثِيرٍ) أن يرجع إلى قوله: ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ﴾ لأن الحي يحتاج إلى الماء حالاً بعد حال وهو مخالف للنبات الذي يكفيه من الماء قدر معين، حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان إلى الضرر أقرب، والحيوان يحتاج إليه حالاً بعد حال ما دام حيًّا.

السؤال الثالث: لم قدَّم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟ الجواب: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم؛ لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا لأرضهم ومواشيهم فقد ظفروا أيضًا بسقياهم وأيضًا فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفرقان: ٥٠] يعني صرف المطر كل سنة إلى جانب آخر، وإذا كان كذلك فلا

---

(١) هكذا في الأصل وهو مخالف للقياس فإن النسبة لا تكون إلا للمفرد فالأولى أن يقول: (جماعة الطبيعيين) نسبة للطبيعة، وقد خطَّأ العلماء ذلك أيضًا فقالوا: الصواب النسبة للطبع والطبيعة وحينئذ يكون الصواب أن يقال: (جماعة الطبيعيين) وقد سبق المصنف إلى هذا أبو عثمان بن جنى إمام أهل العربية فسمي كتابه بالتصريف الملوكي خروجًا على القياس المقتضي كون التسمية التصريف الملكي فلعله من خطأ النساخ.

يسقي الكل منه بل يسقي كل سنة أناسي كثيرًا منه.

السؤال الرابع: ما الأناسي؟ الجواب: قال الفراء والزجاج: الإنسي والأناسي كالكرسي والكراسي، ولم يقل كثيرين؛ لأنه قد جاء فعيل مفردًا ويراد به الكثرة كقوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. واعلم أن الفقهاء قد استنبطوا أحكام المياه من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ونحن نشير إلى معاقد تلك المسائل فنقول هاهنا نظران: أحدهما: أن الماء مطهر. والثاني: أن غير الماء هل هو مطهر أم لا؟ النظر الأول: أن نقول الماء إما أن لا يتغير أو يتغير القسم الأول وهو الذي لا يتغير فهو طاهر في ذاته مطهر لغيره، إلا الماء المستعمل فإنه عند الشافعي طاهر وليس بمطهر، وقال مالك والثوري: يجوز الوضوء به، وقال أبو حنيفة في رواية أبي يوسف إنه نجس فهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: في بيان أنه ليس بمطهر، ودليلنا قوله عليه السلام: «لاَ يَغْتَسِلْ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ وَهُوَ جُنُبٌ»(١) ولو بقي الماء كما كان طاهرًا مطهرًا لما كان للمنع منه معنى، ومن وجه القياس أن الصحابة كانوا يتوضؤون في الأسفار وما كانوا يجمعون تلك المياه مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك إلى الماء، ولو كان ذلك الماء مطهرًا لحملوه ليوم الحاجة، واحتج مالك بالآية والخبر والقياس. أما الآية فمن وجهين: الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ [الأنفال: ١١] فدلت الآية على حصول وصف المطهرية للماء، والأصل في الثابت بقاؤه، فوجب الحكم ببقاء هذه الصفة للماء بعد صيرورته مستعملاً، وأيضًا قوله: ﴿طَهُورًا﴾ يقتضي جواز التطهر به مرة بعد أخرى. والثاني: أنه أمر بالغسل مطلقًا في قوله: ﴿فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: ٦] واستعمال كل المائعات غسل؛ لأنه لا معنى للغسل إلا إمرار الماء على العضو، قال الشاعر:

فَيَا حُسْنَهَا إِذْ يَغْسِلُ الدَّمْعُ كُحْلَهَا(٢)

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الطهارة)، باب: (النهي عن الاغتسال في الماء الراكد) (١/ ٩٧/ ٢٣٦) من طريق هارون بن سعيد... به، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (النهي عن اغتسال الجنب في الماء الدائم) (١/ ٢١١)، حديث رقم (٢٢٠) من طريق سليمان بن داود والحارث بن مسكين... به، وابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (الجنب يتغمس في الماء الدائم يجزئه) (١/ ١٩٨)، حديث رقم (٦٠٥) من طريق أحمد بن عيسى... به. كلاهما (هارون بن سعيد، أحمد بن عيسى) عن ابن وهب... به،

(٢) هذا الشطر الأول من بيت ضمن قصيدة لجميل بُثينة والبيت هكذا

فَيا حُسنَها إذ يَغسِلُ الدمعُ كُحلَها وَإذ هِي تُذري الدمعَ مِنها الأَنامِلُ

جَميل بُثَينَة هو: جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي، أبو عمرو. ؟- ٨٢هـ/ ؟- ٧٠١م. شاعر من عشاق العرب، افتتن ببثينة من فتيات قومه، فتناقل الناس أخبارهما، شعره يذوب رقة، أقل ما فيه المدح، وأكثره في النسيب والغزل والفخر. كانت منازل بني عذرة في وادي القرى من أعمال المدينة ورحلوا إلى أطراف الشام الجنوبية. فقصد جميل مصر وافدًا على عبد العزيز بن مروان، فأكرمه وأمر له بمنزل فأقام قليلاً ومات فيه.

فمن اغتسل بالماء المستعمل فقد أتى بالغسل، فوجب أن يكون مجزئًا له؛ لأنه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة وأما السنة فما روي أنه عليه السلام «تَوَضَّأَ فَمَسَحَ رَأْسَهُ بِفَضْلِ مَا فِي يَدِهِ»(١) وعنه عليه السلام: «أَنَّهُ تَوَضَّأَ فَأَخَذَ مِنْ بَلَلِ لِحْيَتِهِ فَمَسَحَ بِهِ رَأْسَهُ»(٢) وعن ابن عباس أنه عليه السلام: «اغْتَسَلَ فَرَأَى لُمْعَةً فِي جَسَدِهِ لَمْ يُصِبْهَا الْمَاءُ، فَأَخَذَ شَعْرَةً عَلَيْهَا بَلَلٌ فَأَمَرَّهَا عَلَى تِلْكَ اللُّمْعَةِ»(٣) وأما القياس فإنه ماء طاهر لقي جسدًا طاهرًا فأشبه ما إذا لقي حجارة أو حديدًا، وكذا الماء المستعمل في الكرة الرابعة والمستعمل في التبرد والتنظيف، ولأنه لا خلاف أنه إذا وضع الماء على أعلى وجهه وسقط به فرض ذلك الموضع، ثم نزل ذلك الماء بعينه إلى بقية الوجه فإنه يجزيه مع أن ذلك الماء صار مستعملاً في أعلى الوجه.

المسألة الثانية: الدليل على أن الماء المستعمل طاهر قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ومن السنة أنه عليه السلام: أخذ من بلل لحيته ومسح به رأسه، وقال: «خُلِقَ الْمَاءُ طَهُورًا لاَ يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إِلاَّ مَا غَيَّرَ طَعْمَهُ أَوْ رِيحَهُ أَوْ لَوْنَهُ»(٤) وقال الشافعي: إنه عليه السلام توضأ ولا شك أنه أصابه ما تساقط منه، ولم ينقل أنه غير ثوبه ولا أنه غسله، ولا أحد من المسلمين فعل ذلك، فثبت أنهم أجمعوا على أنه ليس بنجس، ولأنه ماء طاهر لقي جسمًا طاهرًا فأشبه ما إذا لاقى حجارة.

المسألة الثالثة: الماء المستعمل إما أن يكون مستعملاً في أعضاء الوضوء أو في غسل الثياب، أما المستعمل في أعضاء الوضوء فإما أن يكون مستعملاً فيما كان فرضًا وعبادة، أو فيما كان فرضًا ولا يكون عبادة، أو فيما كان عبادة ولا يكون فرضًا، أو فيما لا يكون فرضًا ولا عبادة.

أما القسم الأول: وهو المستعمل فيما كان فرضًا وعبادة فهو غير مطهر باتفاق أصحاب الشافعي.

وأما القسم الثاني: فهو كالماء الذي استعملته الذمية التي تحت الزوج المسلم، أي في غسل حيضها ليحل للزوج غشيانها.

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (صفة وضوء النبي ﷺ) (١/ ٦٤)، حديث رقم (١٣٠) من طريق عبد الله بن داود عن سفيان بن سعيد... به، وأحمد في (مسنده) (٦/ ١٣٠) من طريق سفيان بن سعيد... به، وتقدم من طرق عن الحديث رقم (١٢٦)..

(٢) انظر سابقه.

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه ابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (من اغتسل من الجنابة...) (١/ ٢١٧)، حديث رقم (٦٦٣)، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي رشيد وإسحاق بن منصور... فذكره، وعبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٦٩٩)، حديث رقم (٥٧٠)، قال: أخبرنا يزيد بن هارون... به، وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٤٣)، حديث رقم (٢١٨٠) من طريق أبي علي الرحبي... به، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٤٢)، حديث رقم (٤٥٩)، جميعًا من طريق عن أبي علي الرحبي، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن النبي ﷺ... فذكره.

والحديث مداره على الحسين بن قيس الرحبي أبو علي الواسطي قال الحافظ: متروك.

(٤) انظر تقدم قريبًا.

وأما القسم الثالث: فهو كالماء المستعمل في الكرة الثانية والثالثة، والماء المستعمل في تجديد الوضوء، والماء المستعمل في الأغسال المسنونة، فلأصحاب الشافعي في هذين القسمين وجهان.

وأما القسم الرابع: فهو كالماء المستعمل في الكرة الرابعة، وفي التبرد والتنظف، فذاك باتفاق أصحاب الشافعي غير مستعمل، وهو طاهر مطهر، أما الماء المستعمل في غسل الثياب، فإذا غسل ثوبًا من نجاسة وطهر بغسلة واحدة، يستحب أن يغسله ثلاثًا فالمنفصل في الكرة الثانية والثالثة مطهر على الأصح. القسم الثاني: الماء الذي يتغير فنقول: الماء إذا تغيَّر، فإما أن يتغير بنفسه أو بغيره، أما الأول فكالمتغير بطول المكث فيجوز الوضوء به؛ لأنه عليه السلام كان يتوضأ من بئر (قُضَاعَة)، وكان ماؤها كأنه نقاعة الحناء[1]، وأما المتغير بسبب غيره فذلك الغير إما أن لا يكون متصلاً به أو يكون متصلاً به. أما الذي لا يكون متصلاً به فهو كما لو وقع بقرب الماء جيفة فصار الماء منتنًا بسببها فهو أيضًا مطهر، وأما إذا تغير بسبب شيء متصل به فذلك المتصل إما أن يكون طاهرًا أو نجسًا القسم الأول: إذا كان طاهرًا فهو إما أن لا يخالطه أو يخالطه، فإن لم يخالطه فهو كالماء المتغير بسبب وقوع الدهن والطيب والعود والعنبر والكافور الصلب فيه وهذا أيضًا مطهر كما لو كان بقرب الماء جيفة، ولأن الطهورية ثبتت بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ والأصل في الثابت بقاؤه، وأما المتغير بسبب شيء يخالطه، فذلك المخالط إما أن لا يمكن صون الماء عنه أو يمكن، أما الذي لا يمكن فكالمتغير بالتراب والحمأة والأوراق التي تقع فيه والطحلب الذي يتولد فيه، وهذا أيضًا مطهر؛ لأن الطهورية ثبتت بالآية والاحتراز عن ذلك عسير، فيكون مرفوعًا لقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وكذا لو جرى الماء في طريقه على معدن زرنيخ أو نورة أو كحل أو وقع شيء منها فيه أو نبع من معادنها، أما إذا تغير الماء بسبب مخالطة ما يستغني الماء عن جنسه نظر إن كان التغير قليلاً، بحيث لا يضاف الماء إليه بأن وقع فيه زعفران فاصفر قليلاً، أو دقيق فابيض قليلاً، جاز الوضوء به على الصحيح من المذهب؛ لأنه لم يسلبه إطلاق اسم الماء، وأما إن كان التغير كثيرًا فإن استحدث اسمًا جديدًا كالمرقة لم يجز الوضوء به بالاتفاق، وإن لم يستحدث اسمًا جديدًا فعند الشافعي لا يجوز الوضوء به، وعند أبي حنيفة يجوز.

حجة الشافعي من وجوه: أحدها: أنه عليه السلام توضأ ثم قال: «هَذَا وُضُوءٌ لاَ يَقْبَلُ اللَّه الصَّلاَةَ إِلاَّ بِهِ»[2] فذلك الوضوء إن كان واقعًا بالماء المتغير وجب أن لا يجوز إلا به، وبالاتفاق ليس الأمر كذلك، فثبت أنه كان بماء غير متغير وهو المطلوب. وثانيها: أنه إذا اختلط ماء الورد بالماء ثم توضأ الإنسان به، فيحتمل أن بعض الأعضاء قد انغسل بماء الورد دون الماء، وإذا كان

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في كتاب (المياه) باب: (ذكر بئر بضاعة) (١/ ٢٧٣)، حديث رقم (٣٢٦)، وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٥)، كلاهما من طريق عبد العزيز بن مسلم. . . به.

(٢) تقدم.

كذلك فقد وقع الشك في حصول الوضوء وكان تيقن الحدث قائمًا، والشك لا يعارض اليقين فوجب أن يبقى على الحدث، بخلاف ما إذا كان قليلاً لا يظهر أثره فإنه صار كالمعدوم، أما إذا ظهر أثره علمنا أنه باق فيتوجه ما ذكرناه. وثالثها: أن الوضوء تعبد لا يعقل معناه، فإنه لو توضأ بماء الورد لا يصح وضوؤه ولو توضأ بالماء الكدر المتعفن صح وضوؤه. وما لا يعقل معناه وجب الاقتصار فيه على مورد النص وترك القياس.

حجة أبي حنيفة وجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ دلت الآية على كون الماء مطهرًا والأصل في الثابت بقاؤه، فوجب بقاء هذه الصفة بعد التغير بالمخالطة. وثانيها: قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟﴾ [المائدة: ٦] أمر بمطلق الغسل وقد أتى به فوجب أن يخرج عن العهدة وقد بينا تقرير هذا الوجه فيما تقدم. وثالثها: قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ [النساء: ٤٣] علق جواز التيمم بعدم وجدان الماء وواجد هذا الماء المتغير واجد للماء؛ لأن الماء المتغير ماء مع صفة التغير، والموصوف موجود حال وجود الصفة، فوجب أن لا يجوز له التيمم. ورابعها: قوله عليه السلام في البحر: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ»(١) ظاهره يقتضي جواز الطهارة به وإن خالطه غيره؛ لأن النبي ﷺ أطلق ذلك. وخامسها: أنه عليه السلام أباح الوضوء بسؤر الهرة وسؤر الحائض وإن خالطه شيء من لعابهما(٢). وسادسها: لا خلاف في الوضوء بماء المدر والسيول مع تغير لونه بمخالطة الطين وما يكون في الصحارى من الحشيش والنبات، ومن أجل مخالطة ذلك له يرى تارة متغيرًا إلى السواد وأخرى إلى الحمرة والصفرة فصار ذلك أصلاً في جميع ما خالط الماء إذا لم يغلب عليه فيسلبه اسم الماء القسم الثاني: إذا كان المخالط للماء شيئًا نجسًا

---

(١) تقدم.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (الماء لا ينجس) (١/ ١٨)، حديث رقم (٦٨)، والترمذي في كتاب (الطهارة)، باب: (في الرخصة في ذلك) (١/ ٩٤)، حديث رقم (٦٥) من طريق أبي الحوص... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في (مسنده) (١/ ٣٣٧)، حديث رقم (٣١٢٠) من طريق شريك... به، والدارمي في كتاب (الطهارة)، باب: (الوضوء بفضل وضوء المرأة) (١/ ١٨٣/ ١٨٤)، حديث رقم (٧٣٤) من طريق يزيد بن عطاء عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٤٨)، حديث رقم (٩١) من طريق شعبة... به، جميعًا عن سماك بن حرب... به، وأخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (سؤر الهرة) (١/ ٢٠)، حديث رقم (٧٥) من طريق عبيد الله بن مسلمة القعنبي... به، والترمذي في كتاب (الطهارة)، باب: (في سؤر الهرة) (١/ ١٥٣)، حديث رقم (٩٢) من طريق معين... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (الوضوء بسؤر الهرة) (١/ ١٣١)، حديث رقم (٣٦٧) من طريق زيد بن الحباب... به، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (سؤر الهرة) (١/ ٥٨)، حديث رقم (٦٨) من طريق قتيبة بن سعيد... به، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣٥٠٩) من طريق حماد بن خالد... به، والدارمي في كتاب (الطهارة) باب: (الهرة إذا ولغت في الإناء) (١/ ١٨٤)، حديث رقم (٧٣٦) من طريق مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة... به، ومالك في (الموطأ)، كتاب (الطهارة)، باب: (الطهور للوضوء) (١/ ٢٢/ ٢٣)، حديث رقم (١٣)، وابن خزيمة في (صحيحه)، حديث رقم (١٠٤) من طريق ابن وهب... به، جميعًا عن مالك بن أنس... به.

فمن الناس من زعم أن الماء لا ينجس ما لم يتغير بالنجاسة سواء كان قليلاً أو كثيرًا وهو قول الحسن البصري والنخعي ومالك وداود، وإليه مال الشيخ الغزالي في كتاب (الإحياء)، وقال أبو بكر الرازي: مذهب أصحابنا أن كل ما تيقنا فيه جزأ من النجاسة أو غلب على الظن ذلك لم يجز استعماله ولا يختلف على هذا الحد ماء البحر وماء البئر والغدير والراكد والجاري؛ لأن ماء البحر لو وقعت فيه نجاسة لم يجز استعمال الماء الذي فيه النجاسة وكذلك الماء الجاري، وأما اعتبار أصحابنا للغدير الذي إذا حرك أحد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر، فإنما هو كلام في جهة تغليب الظن في بلوغ النجاسة الواقعة في أحد طرفيه إلى الطرف الآخر، وليس هو كلامنا في أن بعض المياه الذي فيه النجاسة قد يجوز استعمالها، وبعضها لا يجوز استعماله هذا كله كلام أبي بكر وأقول: من الناس من فرق بين القليل والكثير فعن عبد الله بن عمر: «**إِذَا كَانَ الْمَاءُ أَرْبَعِينَ قُلَّةً لَمْ يُنَجِّسْهُ شَيْءٌ**» (١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «**الْحَوْضُ لاَ يَغْتَسِلُ فِيهِ جُنُبٌ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ أَرْبَعُونَ غَرْبًا**» (٢) وهو قول محمد بن كعب القرظي، وقال مسروق وابن سيرين: إذا كان الماء كثيرًا لا ينجسه شيء، وقال سعيد بن جبير: الماء الراكد لا ينجسه شيء إذا كان قدر ثلاث قلال وقال الشافعي: إذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه إلا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه، وإن كان أقل ينجس لظهور النجاسة فيه.

واعلم أنه يمكن التمسك لنصرة قول مالك بوجوه: أحدها: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ ترك العمل به في الماء الذي تغير لونه أو طعمه أو ريحه لظهور النجاسة فيه فيبقى فيما عداه على الأصل. وثانيها: قوله عليه السلام: «**خَلَقَ اللَّهُ الْمَاءَ طَهُورًا لاَ يُنَجِّسُهُ شَيْءٌ إِلاَّ مَا غَيَّرَ طَعْمَهُ أَوْ لَوْنَهُ أَوْ رِيحَهُ**» وهو نص في الباب. وثالثها: قوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] المتوضيء بهذا الماء قد غسل وجهه فيكون آتيًا بما أمر به فيخرج عن العهدة. ورابعها: أن من شأن كل مختلطين كان أحدهما غالبًا على الآخر أن يتكيف المغلوب بكيفية الغالب فالقطرة من الخل لو وقعت في الماء الكثير بطلت صفة الخلية عنها واتصفت بصفة الماء، وكون أحدهما غالبًا على الآخر إنما يعرف بغلبة الخواص والآثار المحسوسة وهي الطعم أو اللون أو الريح، فلا جرم مهما ظهر طعم النجاسة أو لونها أو ريحها كانت النجاسة غالبة على الماء وكان الماء مستهلكًا فيها، فلا جرم يغلب حكم النجاسة فإذا لم يظهر شيء من ذلك كان الغالب هو الماء

---

(١) صحيح موقوف: أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (١/ ٢٦٢) من طريق الثوري ومعمر عن محمد بن المنكدر... به، والدارقطني في (سننه) (١/ ٢٧)، حديث رقم (٣٥) من طريق روح بن القاسم عن محمد بن المنكدر... به، وأيضًا في نفس المصدر من طريق معمر وسفيان عن محمد بن المنكدر... به، والعقيلي في (الضعفاء) (٣/ ٤٧٣) من طريق سفيان عن محمد بن المنكدر... به.

(قلت): وهذا الحديث إسناده صحيح إلى عبد الله بن عمرو ولكن الصواب كلام النبي ﷺ وهو أولى بالاتباع إذا ثبت صحة الحديث والثابت صحته أن القلتين هي الصحيح كما جاء في الحديث المرفوع أيضًا والله أعلم.

(٢) ذكره أهل التفسير موقوفًا على ابن عباس بدون إسناد.

وكانت النجاسة مستهلكة فيه فيغلب حكم الطهارة. وخامسها: ما روي عن عمر (أَنَّهُ) توضأ من جرة نصرانية، مع أن نجاسة أواني النصارى معلومة بظن قريب من العلم، وذلك يدل على أن عمر لم يعول إلا على عدم التغير. وسادسها: أن تقدير الماء بمقدار معلوم ولو كان معتبرًا كالقلتين عند الشافعي وعشر في عشر عند أبي حنيفة رضي الله عنه لكان أولى المواضع بالطهارة مكة والمدينة؛ لأنه لا تكثر المياه هناك لا الجارية ولا الراكدة الكثيرة ومن أول عصر الرسول ﷺ إلى آخر عصر الصحابة لم ينقل أنهم خاضوا في تقدير المياه بالمقادير المعينة، ولا أنهم سألوا عن كيفية حفظ المياه عن النجاسات وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يحترزون عن النجاسات. وسابعها: إصغاء رسول الله ﷺ الإناء للهرة وعدم منعهم الهرة من شرب الماء من أوانيهم بعد أن كانوا يرون أنها تأكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل إلى الآبار. وثامنها: أن الشافعي نص على أن غسالة النجاسات طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إذا تغيرت، وأي فرق بين أن يلاقي الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه؟ وأي معنى لقول القائل: إن قوة الورود تدفع النجاسة مع أن قوة الورود لم تمنع المخالطة. وتاسعها: أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة، ولا خلاف أن مذهب الشافعي إذا وقع بول في ماء جار ولم يتغير أنه يجوز الوضوء به وإن كان قليلاً، وأي فرق بين الجاري والراكد؟ وليت شعري الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان؟ وعاشرها: إذا وقع بول في قلتين ثم فرقتا فكل كوز يؤخذ منه فهو ظاهر على قول الشافعي ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل، فأي فرق بينه إذا وقع ذلك القليل في ذلك القدر من الماء ابتداء، وبينه إذا وصل إليه عند اتصال غيره به؟ وحادي عشرها: أن الحمامات لم تزل في الأعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الأيدي والأواني في ذلك القليل من الماء من تلك الحياض مع علمهم بأن الأيدي الطاهرة والنجسة كانت تتوارد عليها ولو كان التقدير بالقلتين معتبرًا لاشتهر ذلك ولبلغ ذلك إلى حد التواتر؛ لأن الأمر الذي تشتد حاجة الجمهور إليه يجب بلوغ نقله إلى حد التواتر لما لم يكن كذلك علمنا أنه غير معتبر. وثاني عشرها: أنا لو حكمنا بنجاسة الماء فلا يمكننا أن نحكم بنجاسة الماء إن كان في غاية الكثرة مثل ماء الأودية العظيمة والغدران الكبار، فإن ذلك بالإجماع باطل، فلا بد من التقدير بمقدار معين، وقد نقلنا عن الناس تقديرات مختلفة فليس بعضها أولى من بعض فوجب التعارض والتساقط، أما تقدير أبي حنيفة بعشر في عشر فمعلوم أنه مجرد تحكم، وأما تقدير الشافعي بالقلتين بناء على قوله عليه السلام: «إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا» فضعيف أيضًا؛ لأن الشافعي لما روى هذا الخبر، قال أخبرني: رجل فيكون الراوي مجهولاً، ويكون الحديث مرسلاً وهو عنده ليس بحجة، وأيضًا زعم كثير من المحدثين أنه موقوف على ابن عمر رضي الله عنه، سلمنا صحة الرواية لكنه إحالة مجهول على مجهول؛ لأن القلة غير معلومة فإنها تصلح للكوز والجرة ولكل

ما نقل باليد، وهو أيضًا اسم لهامة الرجل ولقلة الجبل، سلمنا كون القلة معلومة لكن في متن الخبر اضطراب فإنه روي «إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ»، وروي «إِذَا بَلَغَ قُلَّةً»، وروي «أَرْبَعِينَ قُلَّةً»، وروي «إِذَا بَلَغَ قُلَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا»، وروي «إِذَا بَلَغَ كُوزَيْنِ» سلمنا صحة المتن ولكنه متروك الظاهر؛ لأن قوله: «لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا» لا يمكن إجراؤه على ظاهره، فإن الخبث إذا ورد عليه فقد حمله، سلمنا إمكان إجرائه على ظاهره لكن الخبث على قسمين خبث شرعي وخبث حقيقي، والاسم إذا دار بين المسمى اللغوي والمسمى الشرعي، كان حمله على المسمى اللغوي أولى؛ لأن الاسم حقيقة في المسمى اللغوي مجاز في المسمى الشرعي، دفعًا للاشتراك والنقل، وإذا كان كذلك وجب حمله عليه، والمسمى اللغوي للخبث المستقذر بالطبع قال عليه السلام: «مَا اسْتَخْبَثَتْهُ الْعَرَبُ فَهُوَ حَرَامٌ» (١) إذا ثبت هذا فنقول: معنى قوله: «لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا» أي لا يصير مستقذرًا طبعًا، ونحن نقول بموجبه لكن لم قلت: إنه لا ينجس شرعًا، سلمنا أن المراد من الخبث النجاسة الشرعية لكن قوله: «لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا» أي يضعف عن حمله ومعنى الضعف تأثره به، فيكون هذا دليلاً على صيرورته نجسًا لا على بقائه طاهرًا. لا يقال: الجواب عن هذه الأسئلة أن يقال: إن الشافعي وإن لم يذكر اسم الراوي في بعض المواضع فقد ذكره في سائر المواضع فخرج عن كونه مرسلاً، ولأن سائر المحدثين قد عينوا اسم الراوي. قوله: إنه موقوف على ابن عمر، قلنا: لا نسلم فإن يحيى بن معين قال: إنه جيد الإسناد فقيل له: إن ابن علية وقفه على ابن عمر، فقال: إن كان ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه وقوله: القلة مجهولة قلنا: لا نسلم؛ لأن ابن جريج قال في روايته: «بِقِلَالِ هَجَرٍ». ثم قال: وقد شاهدت قلال هجر فكانت القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئًا. قوله: في متنه اضطراب قلنا: لا نسلم لأنا وأنتم توافقنا على أن سائر المقادير غير معتبرة فيبقى ما ذكرناه معتبرًا. قوله: إنه متروك الظاهر قلنا: إذا حملناه على الخبث الشرعي اندفع ذلك، وذلك أولى لأن حمل كلام الشرع على الفائدة الشرعية أولى من حمله على المعنى العقلي، لا سيما وفي حمله على المعنى العقلي يلزم التعطيل، قوله: المراد أنه يضعف عن حمله قلنا: صح في بعض الروايات أنه قال: «إِذَا كَانَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَنْجُسْ»، ولأنه عليه السلام جعل القلتين شرطًا لهذا الحكم، والمعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط وعلى ما ذكروه لا يبقى للقلتين فائدة؛ لأنا نقول: لا شك أن هذا الخبر بتقدير الصحة يقتضي تخصيص عموم قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وعموم قوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ

(١) لا أصل له: وهذا الحديث منكر ولذلك قال الألوسي في (روح المعاني)، معدان ذكر الحديث (٦/ ٥٦).
قال: وقد علم أن الذي تستخبثه غير مضبوط فسيد العرب بل سيد العالمين عليه الصلاة والسلام لما رآهم يأكلون الضب قال: (يعافه طبعي) ولم يكن ذلك سببًا لتحريمه. وأما سائر العرب ففيهم من لا يستقذر شيئًا وقد يختلفون في بعض الأشياء فيستقذرها قوم ويستطيبها آخرون فعلم أن أمر الاستقذار غير مضبوط بل هو مختلف باختلاف الأشخاص والأحوال فكيف يجوز نسخ هذا النص القاطع بذلك الأمر الذي ليس له ضابط معين ولا قانون معلوم» انتهى.
(قلت): بل هو في الصحيحين من رواية خالد بن الوليد بلفظ (لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه . . . الحديث).

﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وعموم قوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وعموم قوله ﷺ: «خُلِقَ الْمَاءُ طَهُورًا لا ينجسه شيء»(١) وهذا المتخصص لا بد وأن يكون بعيدًا عن الاحتمال والاشتباه وقلال هجر مجهولة وقول ابن جريج القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئًا ليس بحجة؛ لأن القلة كما أنها مجهولة فكذا القربة مجهولة فإنها قد تكون كبيرة، وقد تكون صغيرة، ولأن الروايات أيضًا مختلفة فتارة قال: «إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ»، وتارة «أَرْبَعِينَ قلة»، وتارة كرين فإذا تدافعت وتعارضت لم يجز تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة البعيدة عن الاحتمال بمثل هذا الخبر. هذا تمام الكلام في نصرة قول مالك، واحتج من حكم بنجاسة الماء الذي تقع النجاسة فيه بوجوه: أولها: قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] والنجاسات من الخبائث، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ [النحل: ١١٥]، وقال في الخمر: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠] ومر عليه السلام بقبرين فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ إِنَّ أَحَدَهُمَا كَانَ لاَ يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ وَالآخَرَ كَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»(٢) فحرم الله هذه الأشياء تحريمًا مطلقًا، ولم يفرق بين حال انفرادها واختلاطها بالماء، فوجب تحريم استعمال كل ما يبقى فيه جزء من النجاسة أكثر ما في الباب أن الدلائل الدالة على كون الماء مطهرًا تقتضي جواز الطهارة به، ولكن تلك الدلائل مبيحة والدلائل التي ذكرناها حاظرة والمبيح والحاظر إذا اجتمعا فالغلبة للحاظر، ألا ترى أن الجارية بين رجلين لو كان لأحدهما منها مائة جزء وللآخر جزء واحد، أن جهة الحظر فيها أولى من جهة الإباحة، وأنه غير جائز لواحد منهما وطؤها فكذا هاهنا. وثانيها: قوله عليه السلام: «لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ مِنَ الْجَنَابَةِ»(٣) ذكره على الإطلاق من غير فرق بين القليل والكثير. وثالثها: قوله عليه السلام: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنَ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (الماء لا يجنب) (١/ ١٩)، حديث رقم (٦٨)، والترمذي في كتاب (الطهارة)، باب: (في الرخصة في ذلك) (١/ ٩٤)، حديث رقم (٦٥)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في كتاب (المياه) (١/ ٢٧١/ ٢٧٢)، حديث رقم (٣٢٤)، وابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (الرخصة بفضل وضوء المرأة) (١/ ١٣٢)، حديث رقم (٣٧)، جميعًا من طريق الأحوص... به. وأحمد في (مسنده) (١/ ٢٣٥/ ٣٠٨)، والدارمي في كتاب (الطهارة)، باب: (الوضوء بفضل وضوء المرأة)، (١/ ٢٠٣)، حديث رقم (٧٣٥) من طريق سفيان... به، وكذلك أحمد في (مسنده) (١/ ٣٣٧) من طريق شريك... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (١/ ٤٨)، حديث رقم (٩١) من طريق شعبة... به، أربعتهم (أبو الأحوص، سفيان، شريك، شعبة) عن سماك بن حرب... به، جميعًا من طريق سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس... فذكره، وليس فيه (خلق).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الوضوء) (١/ ٣٨٥)، حديث رقم (٢١٨) من طريق محمد بن حزم... به، ومسلم في كتاب (الطهارة)، باب: (الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه) (١/ ١١١/ ٢٤٠/ ٢٤١) من طريق وكيع... به، جميعًا عن الأعمش... به.

(٣) حسن صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (البول في الماء الراكد) (١/ ٤١)، حديث رقم (٧٠)، وابن ماجه في كتاب (الطهارة)، باب: (النهي عن البول في الماء الراكد) (١/ ١٢٤)، حديث رقم (٣٤٤)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٤٣٣).

مَنَامِهِ فَلْيَغْسِلْ يَدَهُ ثَلَاثًا قَبْلَ أَنْ يُدْخِلَهَا الإِنَاءَ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ»[١] فأمر بغسل اليد احتياطًا من نجاسة قد أصابته من موضع الاستنجاء، ومعلوم أن مثلها إذا أدخلت الماء لم تغيره ولولا أنها تفسده ما كان للأمر بالاحتياط منها معنى. ورابعها: قوله عليه السلام: «إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ قُلَّتَيْنِ لَمْ يَحْمِلْ خَبَثًا»[٢] يدل بمفهومه على أنه إذا لم يبلغ قلتين وجب أن يحمل الخبث. أجاب مالك عن الوجه الأول فقال: لا نزاع في أنه يحرم استعمال النجاسة ولكن الجزء القليل من النجاسة المائعة إذا وقع في الماء لم يظهر فيه لونه ولا طعمه ولا رائحته، فلم قلتم إن تلك النجاسة بقيت، ولم لا يجوز أن يقال إنها انقلبت عن صفتها؟ وتقريره ما قدمناه. وأما قوله عليه السلام: «لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ»[٣] فلم قلتم إن هذا النهي ليس إلا لما ذكرتموه، بل لعل النهي إنما كان لأنه ربما شربه إنسان وذلك مما ينفر طبعه عنه، وليس الكلام في نفرة الطبع، وأما قوله: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَنَامِهِ فَلْيَغْسِلْ يَدَهُ ثَلَاثًا»[٤] فقد أجمعنا على أن هذا الأمر استحباب، فالمرتب عليه كيف يكون أمر إيجاب ثم بتقدير أن يكون أمر إيجاب، فلم قلتم: إنه لم يوجه ذلك الإيجاب إلا لما ذكرتموه؟ وأما قوله عليه السلام: «إذا بلغ الماء قلتين» فقد سبق الكلام عليه، ثم بعد النزول عن كل ما قلناه فهو تمسك بالمفهوم والنصوص التي ذكرناها منطوقة والمنطوق راجح على المفهوم، والله أعلم.

النظر الثاني: في أن غير الماء هل هو طهور أم لا؟ فقال الأصم والأوزاعي: يجوز الوضوء بجميع المائعات، وقال أبو حنيفة: يجوز الوضوء بنبيذ التمر في السفر، وقال أيضًا: تجوز إزالة النجاسة بجميع المائعات التي تزيل أعيان النجاسات، وقال الشافعي رضي الله عنه: الطهورية مختصة بالماء على الإطلاق ودليله في صورة الحدث قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: ٤٣] أوجب التيمم عند عدم الماء، ولو جاز الوضوء بالخل أو نبيذ التمر لما وجب التيمم عند عدم الماء، وأما في صورة الخبث، فلأن الخل لو أفاد طهارة الخبث لكان طهورًا؛ لأنه لا معنى للطهور إلا المطهر ولو كان طهورًا لوجب أن يجوز به طهارة الحدث لقوله عليه السلام:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الطهارة) (٣/ ١٨١) نووي، وأبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (في الرجل يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها) (١/ ٥٤)، حديث رقم (١٠٣)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٢٥٣/ ٤٧١) من طريق الأعمش عن أبي رزين وأبي صالح . . . به.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة)، باب: (ما ينجس الماء) (١/ ١٧)، حديث رقم (٦٣) من طريق محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة والحسن بن علي وغيرهم . . . به، والنسائي في كتاب (الطهارة)، باب: (التوقيت في الماء) (١/ ٤٩)، حديث رقم (٥٢) من طريق هناد بن السرى والحسين بن حريث . . . به، والدارمي في كتاب (الطهارة)، باب: (قدر الماء الذي لا ينجس) (١/ ١٨٣)، حديث رقم (٧٣٢)، جميعًا عن أبي أسامة . . . به.

(٣) تقدم.

(٤) تقدم.

«لاَ يَقْبَلُ اللَّه صَلاَةَ أَحَدِكُمْ حَتَّى يَضَعَ الطَّهُورَ مَوَاضِعَهُ»[(١)] وكلمة (حَتَّى) لانتهاء الغاية فوجب انتهاء عدم القبول عند استعمال الطهور وانتهاء عدم القبول يكون بحصول القبول، فلو كان الخل طهورًا لحصل باستعماله قبول الصلاة، وحيث لم يحصل علمنا أن الطهورية في الخبث أيضًا مختصة بالماء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

المسألة الأولى: اعلم أنهم اختلفوا في أن الهاء في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ إلى أي شيء يرجع وذكروا فيه ثلاثة أوجه: أحدها: وهو الذي عليه الجمهور أنه يرجع إلى المطر، ثم من هؤلاء من قال معنى (صَرَّفْنَاهُ): أنا أجريناه في الأنهار حتى انتفعوا بالشرب وبالزراعات وأنواع المعاش به، وقال آخرون معناه: أنه سبحانه ينزله في مكان دون مكان وفي عام دون عام، ثم في العام الثاني يقع بخلاف ما وقع في العام الأول، قال ابن عباس: ما عام بأكثر مطرًا من عام، ولكن الله يصرفه في الأرض، ثم قرأ هذه الآية، وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ عَامٍ بِأَمْطَرَ مِنْ عَامٍ، وَلَكِنْ إِذَا عَمِلَ قَوْمٌ بِالْمَعَاصِي حَوَّلَ اللَّه ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَإِذَا عَصَوْا جَمِيعًا صَرَفَ اللَّه ذَلِكَ إِلَى الْفَيَافِي»[(٢)] وثانيها: وهو قول أبي مسلم: أن قوله: ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ راجع إلى المطر والرياح والسحاب والأظلال وسائر ما ذكر الله تعالى من الأدلة. وثالثها: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب والصحف التي أنزلت على رسل وهو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر ليتفكروا ويستدلوا به على الصانع، والوجه الأول أقرب؛ لأنه أقرب المذكورات إلى الضمير.

المسألة الثانية: قال الجبائي: قوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ يدل على أنه تعالى مريد من الكل أن يتذكروا ويشكروا ولو أراد منهم أن يكفروا ويعرضوا لما صح ذلك، وذلك يبطل قول من قال: إن الله تعالى مريد للكفر ممن يكفر، قال: ودل قوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ على قدرتهم على فعل هذا التذكر إذ لو لم يقدروا لما جاز أن يقال: أبوا أن يفعلوه كما لا يقال في الزَّمن أبى أن يسعى، وقال الكعبي قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ حجة على من زعم أن

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة)، باب: (صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود) (١/ ٣٨٠)، حديث رقم (٨٥٧)، وأحمد في (مسنده (٤/ ٣٤٠) من طريق علي بن يحيى بن خلاد وإسناده صحيح.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أبو نعيم في (حلية الأولياء) (٧/ ٢٠٨) من طريق عباد بن الوليد حدثنا علي بن حميد حدثنا شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله عن النبي ﷺ. . . فذكره، وابن حبان في (الثقات) (٨/ ٤٦٢)، حديث رقم (١٤٤٤٠)، تحت ترجمة علي بن حميد السلولي. . . فذكره، وقال عن علي بن حميد: يغرب، وكذلك ذكره الذهبي في (الميزان) (٥/ ١٥٤)، تحت ترجمة علي بن حميد وقال: غريب جدًا.

القرآن وبال على الكافرين وأنه لم يرد بإنزاله أن يؤمنوا؛ لأن قوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ عام في الكل، وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يقتضي أن يكون هذا الأكثر داخلاً في ذلك العام؛ لأنه لا يجوز أن يقال: أنزلناه على قريش ليؤمنوا، فأبى أكثر بني تميم إلا كفورًا. واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مرارًا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ المراد كفران النعمة وجحودها من حيث لا يتفكرون فيها ولا يستدلون بها على وجود الصانع وقدرته وإحسانه، وقيل: المراد من الكفور هو الكفر وذلك الكفر إنما حصل؛ لأنهم يقولون: مطرنا بنوء كذا؛ لأن من جحد كون النعم صادرة من المنعم، وأضاف شيئًا من هذه النعمة إلى الأفلاك والكواكب فقد كفر، واعلم أن التحقيق أن من جعل الأفلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الأشياء فلا شك في كفره، وأما من قال: الصانع تعالى جبلها على خواص وصفات تقتضي هذه الحوادث، فلعله لا يبلغ خطؤه إلى حد الكفر.

المسألة الرابعة: قالوا: الآية دلت على أن خلاف معلوم الله مقدور له؛ لأن كلمة لو دلت على أنه تعالى ما شاء أن يبعث في كل قرية نذيرًا، ثم إنه تعالى أخبر عن كونه قادرًا على ذلك فدل ذلك على أن خلاف معلوم الله مقدور له.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ فالأقوى أن المراد من ذلك تعظيم النبي ﷺ وذلك لوجوه: **أحدها:** كأنه تعالى بيّن له أنه مع القدرة على بعثة رسول ونذير في كل قرية خصه بالرسالة وفضله بها على الكل ولذلك أتبعه بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا توافقهم. **وثانيها:** المراد ولو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة إلى كل العالمين ولبعثنا في كل قرية نذيرًا ولكنا قصرنا الأمر عليك وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل، فقابل هذا الإجلال بالتشدد في الدين. **وثالثها:** أن الآية تقتضي مزج اللطف بالعنف؛ لأنها تدل على القدرة على أن يبعث في كل قرية نذيرًا مثل محمد، وأنه لا حاجة بالحضرة الإلهية إلى محمد ألبتة، وقوله: ﴿وَلَوۡ﴾ يدل على أنه سبحانه لا يفعل ذلك، فبالنظر إلى الأول يحصل التأديب، وبالنظر إلى الثاني يحصل الإعزاز.

أما قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فالمراد نهيه عن طاعتهم، ودلت هذه الآية على أن النهي عن الشيء لا يقتضي كون المنهي عنه مشتغلاً به.

وأما قوله: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ فقال بعضهم: المراد بذل الجهد في الأداء، والدعاء وقال بعضهم: المراد القتال، وقال آخرون: كلاهما، والأقرب الأول؛ لأن السورة مكية، والأمر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان وإنما قال: ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ لأنه لو بعث في كل قرية نذيرًا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته، فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات وكثر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له: ﴿وَجَٰهِدۡهُم﴾ بسبب كونك نذير كافة القرى ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ جامعًا لكل مجاهدة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من دلائل التوحيد وقوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي خلاهما وأرسلهما يقال: مرجت الدابة إذا خليتها ترعى، وأصل المرج الإرسال والخلط، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[ق: ٥] سمى الماءين الكبيرين الواسعين بحرين. قال ابن عباس: مرج البحرين، أي أرسلهما في مجاريهما كما ترسل الخيل في المرج وهما يلتقيان، وقوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ والمقصود من الفرات البليغ في العذوبة حتى (يَصِيرَ) إلى الحلاوة، والأجاج نقيضه، وأنه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج، وجعل من عظيم اقتداره برزخًا حائلاً من قدرته.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: ما معنى قوله: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؟ الجواب: هي الكلمة التي يقولها المتعوذ وقد فسرناها، وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له حجرًا محجورًا، كما قال: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾[الرحمن: ٢٠] أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغي (ثمة) كالتعوذ، وهاهنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه، فهو يتعوذ منه وهي من أحسن الاستعارات.

السؤال الثاني: لا وجود للبحر العذب، فكيف ذكره الله تعالى هاهنا؟ لا يقال: هذا مدفوع من وجهين: الأول: أن المراد منه الأودية العظام كالنيل وجيحون. الثاني: لعله جعل في البحار موضعًا يكون أحد جانبيه عذبًا والآخر ملحًا؛ لأنا نقول: أما الأول فضعيف؛ لأن هذه الأودية ليس فيها ملح، والبحار ليس فيها ماء عذب، فلم يحصل ألبتة موضع التعجب وأما الثاني فضعيف؛ لأن موضع الاستدلال لا بد وأن يكون معلومًا، فأما بمحض التجويز فلا يحسن الاستدلال؛ لأنا نقول: المراد من البحر العذب هذه الأودية، ومن الأجاج البحار الكبار، وجعل بينهما برزخًا، أي حائلاً من الأرض، ووجه الاستدلال هاهنا بيّن؛ لأن العذوبة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء، فلا بد من الاستواء، وإن لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد من الأجسام بصفة خاصة معينة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

واعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد.

وفيه بحثان:

الأول: ذكروا في هذا الماء قولين: أحدهما: أنه الماء الذي خلق منه أصول الحيوان، وهو الذي عناه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾[النور: ٤٥] والثاني: أن المراد النطفة لقوله: ﴿خُلِقَ مِن

مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦]، ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

البحث الثاني: المعنى أنه تعالى قسَّمَ البشر قسمين ذوي نسب، أي ذكورًا ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان، وذوات صهر، أي إناثًا (يصاهرن) ونحوه، قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩]، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والأنثى.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرتهم في عبادة الأوثان.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قيل: المراد بالكافر أبو جهل؛ لأن الآية نزلت فيه، والأولى حمله على العموم؛ لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، ولأنه أوفق بظاهر قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

المسألة الثانية: ذكروا في الظهير وجوهًا: أحدها: أن الظهير بمعنى المظاهر، كالعوين بمعنى المعاون، وفعيل بمعنى مفاعل غير (غَريبٍ)، والمعنى أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة. فإن قيل: كيف يصح في الكافر أن يكون معاونًا للشيطان على ربه بالعداوة؟ قلنا: إنه تعالى ذكر نفسه وأراد رسوله كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وثانيها: يجوز أن يريد بالظهير الجماعة، كقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] كما جاء الصديق والخليط، وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر الجنس، وأن بعضهم مظاهر لبعض على إطفاء نور (دِينِ) الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]. وثالثها: قال أبو مسلم الأصفهاني: الظهير من قولهم: ظهر فلان بحاجتي إذا نبذها وراء ظهره، وهو من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢] ويقال فيمن يستهين بالشيء: نبذه وراء ظهره، وقياس العربية أن يقال: مظهور، أي مستخف به متروك وراء الظهر، فقيل: فيه ظهير في معنى مظهور، ومعناه هين على الله أن يكفر الكافر وهو تعالى مستهين بكفره.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ فتعلق ذلك بما تقدم، هو أن الكفار يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله، والله تعالى بعث رسوله لنفعهم؛ لأنه بعثه ليبشرهم على الطاعة، وينذرهم على المعصية، فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب، فلا جهل أعظم من جهل من

استفرغ جهده في إيذاء شخص استفرغ جهده في إصلاح مهماته دينًا ودنيا، ولا يسألهم على ذلك ألبتة أجرًا.

أما قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾ فذكروا فيه وجوهًا متقاربة أحدها: لا يسألهم على الأداء والدعاء أجرًا إلا أن يشاءوا أن يتقربوا بالإنفاق في الجهاد وغيره، فيتخذوا به سبيلاً إلى رحمة ربهم ونيل ثوابه. وثانيها: قال القاضي: معناه لا أسألكم عليه أجرًا لنفسي وأسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم. وثالثها: قال صاحب (الكشاف): مثال قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾ والمراد إلا فعل من شاء، واستثناؤه عن الأجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثوابًا على ما سعيت، إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه، فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه فأفاد فائدتين إحداهما قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك: إن كان حفظك لمالك ثوابًا، فإني أطلب الثواب، والثانية إظهار الشفقة البالغة، وأن حفظك لمالك يجري مجرى الثواب العظيم الذي توصله إليَّ، ومعنى اتخاذهم إلى الله سبيلاً، تقربهم إليه وطلبهم عنده الزلفى بالإيمان والطاعة، وقيل المراد: التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله.

أما قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ فالمعنى أنه سبحانه لما بيَّن أن الكفار متظاهرون على إيذائه، فأمره بأن لا يطلب منهم أجرًا ألبتة، أمره بأن يتوكل عليه في دفع جميع المضار، وفي جلب جميع المنافع، وإنما قال: ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لأن من توكل على الحي الذي يموت، فإذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعًا، أما هو سبحانه وتعالى فإنه حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه ألبتة.

أما قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول، ومنهم من حمله على الصلاة، ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لا يليق به في توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال: كفى بالعلم جمالاً، وكفى بالأدب مالاً وهو بمعنى حسبك، أي لا تحتاج معه إلى غيره؛ لأنه خبير بأحوالهم قادر على مكافأتهم وذلك وعيد شديد، كأنه قال: إن أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بأمور: أولها: بأنه حي لا يموت وهو قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] وثانيها: أنه عالم بجميع

المعلومات وهو قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨] وثالثها: أنه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ متصل بقوله: ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لأنه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والأرضين ولكل ما بينهما ثبت أنه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار، وأن النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل إلا عليه.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: الأيام عبارة عن حركات الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام، فكيف قال الله خلقها في ستة أيام؟ الجواب: يعني في مدة مقدارها هذه المدة لا يقال الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدمًا محضًا، بل لا بد وأن يكون موجودًا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان؛ لأنا نقول هذا معارض بنفس الزمان؛ لأن المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل خمسة أيام، والمدة المتوهمة التي تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام، فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى، فلما لم يلزم هذا لم يلزم ما قلتموه وعلى هذا نقول: لعل الله سبحانه خلق المدة أولاً ثم السموات والأرض فيها بمقدار ستة أيام، ومن الناس من قال: في ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد؛ لأن التعريف لا بد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول.

السؤال الثاني: لم قدَّر الخلق والإيجاد بهذا التقدير؟ الجواب: أما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص، قالت المعتزلة: بل لا بد من داعي حكمة وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين: أحدهما: أن حصول تلك الحكمة، إما أن يكون واجبًا لذاته أو جائزًا فإن كان واجبًا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلاً في كل الأزمنة، فلا يصلح أن يكون سببًا لتخصيص زمان معين وإن كان جائزًا افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت إلى مخصص آخر ويلزم التسلسل. والثاني: أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله، فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورًا به كيف يقدح في حصول المصالح.

واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة، فإنه بحر لا ساحل له. من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثني عشر والسموات السبع وكذا الأرض وكذا القول في عدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالإقرار بأن كل ما قاله الله تعالى حق هو الدين، وترك البحث عن هذه الأشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ

ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ﴾ [المدثر: ٣١] ثم قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١] وهذا هو الجواب أيضًا في أنه لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير أنه إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليمًا لخلقه الرفق والتثبت، قيل: تم خلقها يوم الجمعة فجعلها الله تعالى عيدًا للمسلمين.

السؤال الثالث: ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؟ ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة؛ لأن الاستيلاء والقدرة في أوصاف الله لم تزل ولا يصح دخول (ثُمَّ) فيه والجواب: الاستقرار غير جائز؛ لأنه يقتضي التغير الذي هو دليل الحدوث، ويقتضي التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: ٣١] فإن المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون، فإن قيل: فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] قلنا: كلمة (ثم) ما دخلت على خلق العرش، بل على رفعه على السموات.

السؤال الرابع: كيف إعراب قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾؟ الجواب: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ خبره، أو هو صفة للحي، والرحمن خبر مبتدأ محذوف ولهذا أجاز الزجاج وغيره أن يكون الوقف على قوله ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ثم يبتدىء بالرحمن أي هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم إلا له، ويجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

السؤال الخامس: ما معنى قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾؟ الجواب: ذكروا فيه وجوهًا أحدها: قال الكلبي: معناه فاسأل خبيرًا به وقوله: ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى ما ذكرنا من خلق السماء والأرض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله عز وجل؛ لأنه لا دليل في العقل على كيفية خلق الله السموات والأرض فلا يعلمها أحد إلا الله تعالى وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وإنما قدم لرءوس الآي وحسن النظم. وثانيها: قال الزجاج: قوله: ﴿بِهِۦ﴾ معناه عنه والمعنى فاسأل عنه خبيرًا، وهو قول الأخفش، ونظيره قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] وقال علقمة بن عبدة:

فَإنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ[(١)]

وثالثها: قال ابن جرير الباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ صلة والمعنى فسله خبيرًا، وخبيرًا نصب على الحال.

ورابعها: أن قوله ﴿بِهِۦ﴾ يجري مجرى القسم كقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١].

أما قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول.

---

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للشاعر علقَمَةِ الفَحل وهو: علقمة بن عَبدة بن ناشرة بن قيس، من بني تميم؟- ٢٠ ق. هـ/ ؟- ٦٠٣م. شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصرًا لامرئ القيس وله معه مساجلات. وأسر الحارث بن أبي شمر الغساني أخًا له اسمه شأس، فشفع به علقمة ومدح الحارث بأبيات فأطلقه.

ويحتمل أنهم جهلوا الله تعالى، ويحتمل أنهم إن عرفوه لكنهم جحدوه، ويحتمل أنهم وإن اعترفوا به لكنهم جهلوا أن هذا الاسم من أسماء الله تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول الأخير قالوا: الرحمن اسم من أسماء الله مذكور في الكتب المتقدمة، والعرب ما عرفوه قال مقاتل: إن أبا جهل قال: إن الذي يقوله محمد شعر، فقال عليه السلام: الشعر غيرُ هذا إن هذا إلا كلام الرحمن فقال أبو جهل: بخ بخ لعمري والله إنه لكلام الرحمن الذي باليمامة هو يعلمك فقال عليه السلام: «الرَّحْمَنُ الَّذِي هُوَ إِلَهُ السَّمَاءِ وَمِنْ عِنْدِهِ يَأْتِينِي الْوَحْيُ»[1] فقال: يا آل غالب، من يعذرني من محمد يزعم أن الله واحد، وهو يقول الله يعلمني والرحمن، ألستم تعلمون أنهما إلهان ثم قال: ربكم الله الذي خلق هذه الأشياء، أما الرحمن فهو مسيلمة. قال القاضي: والأقرب أن المراد إنكارهم لله لا للاسم؛ لأن هذه اللفظة عربية، وهم كانوا يعلمون أنها تفيد المبالغة في الإنعام، ثم إن قلنا بأنهم كانوا منكرين لله كان قولهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ سؤال طالب عن الحقيقة، وهو يجري مجرى قول فرعون ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] وإن قلنا بأنهم كانوا مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ سؤالاً عن الاسم.

أما قوله: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ فالمعنى للذي تأمرنا بسجوده على قوله أمرتك بالخير، أو لأمرك لنا، وقرىء (يَأْمُرُنَا) بالياء كأن بعضهم قال لبعض: أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو، وزادهم أمره نفورًا، ومن حقه أن يكون باعثًا على الفعل والقبول. قال الضحاك: فسجد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعثمان بن مظعون وعمرو بن عنبسة، ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين. فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: فزادهم سجودهم نفورًا.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما حكى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعباد للرحمن فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أما تبارك فقد تقدم القول فيه، وأما البروج فهي منازل السيارات وهي مشهورة سميت بالبروج التي هي القصور العالية؛ لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها، واشتقاق البروج من التبرج لظهوره، وفيه قول آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن البروج هي الكواكب العظام والأول أولى؛ لقوله

---

(١) لم أجده.

تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي في البروج فإن قيل: لِمَ لا يجوز أن يكون قوله: ﴿فِيهَآ﴾ راجعًا إلى السماء دون البروج؟ قلنا: لأن البروج أقرب فعود الضمير إليها أولى. والسراج الشمس لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] وقرىء (سُرُجًا) وهي الشمس والكواكب الكبار فيها وقرأ الحسن والأعمش (وَقَمراً مُنيراً) وهي جمع ليلة قمراء كأنه قيل: وذا قمرًا منيرًا؛ لأن الليالي تكون قمراء بالقمر فأضافه إليها، ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر كالرَّشَد والرُّشْد والعَرَب والعُرْب. وأما الخلفة ففيها قولان: الأول: أنها عبارة عن كون الشيئين بحيث أحدهما يخلف الآخر ويأتي خلفه، يقال فلان خلفة واختلاف، إذا اختلف كثيرًا إلى متبرزه، والمعنى جعلهما ذوي خلفة أي ذوي عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه فمن فرَّط في عمل في أحدهما قضاه في الآخر، قال: أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب وقد فاتته قراءة القرآن بالليل: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ لَقَدْ أَنْزَلَ اللَّه فِيكَ آيَةً وَتَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ مَا فَاتَكَ مِنَ النَّوَافِلِ بِاللَّيْلِ فَاقْضِهِ فِي نَهَارِكَ، وَمَا فَاتَكَ مِنَ النَّهَارِ فَاقْضِهِ فِي لَيْلِكَ»(١) القول الثاني: وهو قول مجاهد وقتادة والكسائي: يقال لكل شيئين اختلفا: هما خلفان فقوله: ﴿خِلْفَةً﴾ أي: مختلفين وهذا أسود وهذا أبيض وهذا طويل وهذا قصير، والقول الأول أقرب.

أما قوله تعالى: ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾ فقراءة العامة بالتشديد وقراءة حمزة بالتخفيف وعن أبي بن كعب (يتذكر)، والمعنى لينظر الناظر في اختلافهما فيعلم أنه لا بد في انتقالهما من حال إلى حال (وتغيرهما) من ناقل ومغير وقوله: ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾ راجع إلى كل ما تقدم من النعم، بيَّن تعالى أن الذين قالوا: وما الرحمن لو تفكروا في هذه النعم وتذكروها لاستدلوا بذلك على عظيم قدرته، ولشكر الشاكرين على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين، من فاته في أحدهما ورد من العبادة قام به في الآخر، والشكور مصدر شكر يشكر شكورًا.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ

---

(١) عبد الرزاق في (تفسيره) (٥/ ٦٣)، حديث رقم (٢٠٣٤) من طريق معمر عن الحسن. . . فذكره، وهذا موقوف على الحسن.

مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل: وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة، ويجوز أن يكون خبره ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾، واعلم أنه سبحانه خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية، فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات، وقرىء (وَعِبادُ الرَّحْمنِ) واعلم أنه سبحانه وصفهم بتسعة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: قوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرىء ﴿يَمْشُونَ﴾ ﴿هَوْنًا﴾ حال أو صفة للمشي بمعنى هينين أو بمعنى مشيًا هينًا، إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة، والهون الرفق واللين ومنه الحديث «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا» وقوله: «الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ» والمعنى أن مشيهم يكون في لين وسكينة ووقار وتواضع، ولا يضربون بأقدامهم (وَلاَ يَخْفُقُونَ بِنِعَالِهِمْ) أشرًا وبطرًا، ولا يتبخترون لأجل الخيلاء كما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧] وعن زيد بن أسلم التمست تفسير ﴿هَوْنًا﴾ فلم أجد، فرأيت في النوم فقيل لي: هم الذين لا يريدون الفساد في الأرض، وعن ابن زيد لا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علوًا في الأرض.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ معناه لا نجاهلكم ولا خير بيننا ولا شر أي نسلم منكم تسليمًا، فأقيم السلام مقام التسليم، ثم يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت، ويحتمل أن يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكي يمتنعوا، ويحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة، ويحتمل أن يكون المراد إظهار الحلم في مقابلة الجهل، قال الأصم: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي سلام توديع لا تحية، كقول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧] ثم قال الكلبي وأبو العالية: نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك؛ لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ واعلم أنه تعالى لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين: أحدهما: ترك الإيذاء، وهو المراد من قوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ والآخر تحمل التأذي، وهو المراد من قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق في النهار، فبيّن في هذه الآيات سيرتهم في الليالي عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو كقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] ثم قال الزجاج: كل من أدركه الليل قيل، بات وإن لم ينم كما يقال: بات فلان قلقًا، ومعنى ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ أن يكونوا في لياليهم مصلين، ثم اختلفوا فقال بعضهم: من قرأ شيئًا من القرآن في صلاة وإن قل، فقد بات ساجدًا وقائمًا، وقيل: ركعتين بعد المغرب وأربعًا بعد العشاء الأخيرة، والأولى أنه وصف لهم

بإحياء الليل أو أكثره يقال: فلان يظل صائمًا ويبيت قائمًا، قال الحسن: يبيتون لله على أقدامهم ويفرشون له وجوههم تجري دموعهم على خدودهم خوفًا من ربهم.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول، وقال الحسن: خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقًا من عذاب جهنم، وقوله: ﴿غَرَامًا﴾ أي: هلاكًا وخسرانًا ملحًا لازمًا، ومنه الغريم لإلحاحه وإلزامه، ويقال: فلان مغرم بالنساء إذا كان مولعًا بهن، وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الغرام فقال: هو الموجع، وعن محمد بن كعب في ﴿غَرَامًا﴾ أنه سأل الكفار ثمن نعمه فما أدوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار، واعلم أنه تعالى وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذانًا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ فقوله: ﴿سَاءَتْ﴾ في حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره (مُسْتَقِرًّا)، والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرًا ومقامًا هي (وَهَذَا الضَّمِيرُ هُوَ الَّذِي رَبَطَ الْجُمْلَةَ بِاسْمِ إِنَّ وَجَعَلَهَا خَبَرًا، لَهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ سَاءَتْ بِمَعْنَى أَحْزَنَتْ، وَفِيهَا ضَمِيرُ اسْمِ إِنَّ) ومستقرًا حال أو تمييز، فإن قيل دلت الآية على أنهم سألوا الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم لعلتين: إحداهما أن عذابها كان غرامًا، وثانيهما: أنها ساءت مستقرًا ومقامًا، فما الفرق بين الوجهين؟ وأيضًا فما الفرق بين المستقر والمقام؟ قلنا: المتكلمون ذكروا أن عقاب الكافر يجب أن يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة، فقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إشارة إلى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع، وقوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ إشارة إلى كونها دائمة، ولا شك في المغايرة، أما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل أن يكون المستقر للعصاة من أهل الإيمان فإنهم يستقرون في النار ولا يقيمون فيها، وأما الإقامة فللكفار، واعلم أن قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ يمكن أن يكون من كلام الله تعالى ويمكن أن يكون حكاية لقولهم.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ قرىء (يَقْتُرُوا) بكسر التاء وضمها ويقتروا بضم الياء وتخفيف القاف وكسر التاء وأيضًا بضم الباء وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها وكلها لغات. والقتر والإقتار والتقتير التضييق الذي هو نقيض الإسراف، والإسراف مجاوزة الحد في النفقة. وذكر المفسرون في الإسراف والتقتير وجوهًا: أحدها: وهو الأقوى أنه تعالى وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] وعن وهيب بن الورد قال لعالم: ما البناء الذي لا سرف فيه؟ قال: ما سترك عن الشمس وأكنك من المطر، فقال له: فما الطعام الذي لا سرف فيه؟ قال ما سد الجوعة، فقال له: في اللباس، قال:

ما ستر عورتك ووقاك من البرد، وروي أن رجلاً صنع طعامًا في إملاك فأرسل إلى الرسول عليه السلام فقال: «حَقٌّ فَأَجِيبُوا»(١) ثم صنع الثانية فأرسل إليه فقال: «حَقٌّ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُجِبْ وَإِلاَّ فَلْيَقْعُدْ» ثم صنع الثالثة فأرسل إليه فقال: «رِيَاءٌ وَلاَ خَيْرَ فِيهِ». وثانيها: وهو قول ابن عباس ومجاهد، وقتادة، والضحاك: أن الإسراف الإنفاق في معصية الله تعالى، والإقتار منع حق الله تعالى، قال مجاهد: لو أنفق رجل مثل أبي قبيس ذهبًا في طاعة الله تعالى لم يكن سرفًا ولو أنفق صاعًا في معصية الله تعالى كان سرفًا، وقال الحسن: لم ينفقوا في معاصي الله ولم يمسكوا عما ينبغي، وذلك قد يكون في الإمساك عن حق الله، وهو أقبح التقتير، وقد يكون عما لا يجب، ولكن يكون مندوبًا مثل الرجل الغني الكثير المال إذا منع الفقراء من أقاربه: وثالثها: المراد بالسرف مجاوزة الحد في التنعم والتوسع في الدنيا، وإن كان من حلال، فإن ذلك مكروه؛ لأنه يؤدي إلى الخيلاء، والإقتار هو التضييق فالأكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة سرف وإن أكل بقدر الحاجة فذاك إقتار، وهذه الصفة صفة أصحاب محمد ﷺ كانوا لا يأكلون طعامًا للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوبًا للجمال والزينة، ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعهم ويعينهم على عبادة ربهم، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد.

وهاهنا مسألتان:

المسألة الأولى: القوام، قال ثعلب: القوام بالفتح العدل والاستقامة، وبالكسر ما يدوم عليه الأمر ويستقر، قال صاحب (الكشاف): القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما، ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء، وقرىء (قِوَامًا) بالكسر وهو ما يقام به الشيء، يقال: أنت قوامنا، يعني ما يقام به الحاجة لا يفضل عنه ولا ينقص.

المسألة الثانية: المنصوبان أعني ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ جائز أن يكونا خبرين معًا، وأن يجعل بين ذلك لغوًا وقوامًا مستقرًا، وأن يكون الظرف خبرًا وقوامًا حالاً مؤكدة، قال الفراء: وإن شئت جعلت ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ اسم كان، كما تقول: كان دون هذا كافيًا، تريد أقل من ذلك، فيكون معنى ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، أي: كان الوسط من ذلك قوامًا، أي عدلاً، وهذا التأويل ضعيف؛ لأن القوام هو الوسط فيصير التأويل، وكان الوسط وسطًا وهذا لغو.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا

---

(١) لم أجده.

صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر أن من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا، ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الأشياء من العقاب، ثم استثنى من جملتهم التائب.

وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: أنه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الأمور الخفيفة، فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الأمور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا، أليس أنه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى؟ الجواب: أن الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكًا بالشرك تدينًا ومقدمًا على قتل الموءودة تدينًا وعلى الزنا تدينًا، فبيَّن تعالى أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن، حتى يضاف إلى ذلك كونه مجانبًا لهذه الكبائر، وأجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر فقال: المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار، كأنه قال: وعباد الرحمن هم الذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر وأنت تدعون ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وأنتم تقتلون الموءودة، ﴿وَلَا يَزْنُونَۚ﴾ وأنتم تزنون.

السؤال الثاني: ما معنى قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ومعلوم أنه من يحل قتله لا يدخل في النفس المحرمة فكيف يصح هذا الاستثناء؟ الجواب: المقتضى لحرمة القتل قائم أبدًا، وجواز القتل إنما ثبت بالمعارض فقوله: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى المقتضى وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى المعارض.

السؤال الثالث: بأي سبب يحل القتل؟ الجواب: بالردة وبالزنا بعد الإحصان، وبالقتل قودًا على ما في الحديث، وقيل وبالمحاربة وبالبينة، وإن لم يكن لما شهدت به حقيقة.

السؤال الرابع: منهم من فسر قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالردة فهل يصح ذلك؟ الجواب: لفظ القتل عام فيتناول الكل. وعن ابن مسعود «**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ للَّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**»[1] فأنزل الله تصديقه.

السؤال الخامس: ما الأثام؟ الجواب: فيه وجوه: **أحدها:** أن الأثام جزاء الإثم، بوزن الوبال والنكال. **وثانيها:** وهو قول أبي مسلم: أن الأثام والإثم واحد، والمراد هاهنا جزاء الأثام فأطلق

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير)، باب: (قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢٢]) (٨/ ١٣)، حديث رقم (٤٤٧٧)، ومسلم في كتاب (الإيمان)، باب: (كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده) (١/ ٩٠/ ٨٦)، وأبو داود في كتاب (الطلاق)، باب: (في تعظيم الزنا) (٢/ ٩٩٧)، حديث رقم (٢٣١٠)، جميعًا من طريق منصور... به.

اسم الشيء على جزائه. وثالثها: قال الحسن: الأثام اسم من أسماء جهنم وقال مجاهد: ﴿أَثَامًا﴾ وادٍ في جهنم، (وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ (أَثاماً) أَيْ شَدِيدًا، يُقَالُ: يَوْمٌ ذُو أَثَامٍ لِلْيَوْمِ الْعَصِيبِ).

أما قوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ بدل من ﴿يَلۡقَ﴾ لأنهما في معنى واحد، وقرىء (يُضْعَفْ) و(نُضْعِفْ لَهُ الْعَذَابَ) بالنون ونصب العذاب، وقرىء بالرفع على الاستئناف أو على الحال، وكذلك (يَخْلُدْ) (وَقُرِئَ) (وَيُخْلَدْ) على البناء للمفعول مخففًا ومثقلاً من الإخلاد والتخليد، وقرىء (وَتَخْلُدْ) بالتاء على الالتفات.

المسألة الثانية: سبب تضعيف العذاب أن المشرك إذا ارتكب المعاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعًا، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه، وهذا يدل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع.

المسألة الثالثة: قال القاضي: بيَّن الله تعالى أن المضاعفة والزيادة يكون حالهما في الدوام كحال الأصل، فقوله: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾ أي ويخلد في ذلك التضعيف، ثم إن ذلك التضعيف إنما حصل بسبب العقاب على المعاصي، فوجب أن يكون عقاب هذه المعاصي في حق الكافر دائمًا، وإذا كان كذلك وجب أن يكون في حق المؤمن كذلك؛ لأن حاله فيما يستحق به لا يتغير سواء فعل مع غيره أو منفردًا. والجواب: لم لا يجوز أن يكون للإتيان بالشيء مع غيره أثر في مزيد القبح، ألا ترى أن الشيئين قد يكون كل واحد منهما في نفسه حسنًا وإن كان الجمع بينهما قبيحًا، وقد يكون كل واحد منهما قبيحًا، ويكون الجمع بينهما أقبح، فكذا هاهنا.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ إشارة إلى ما ثبت أن العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالإذلال والإهانة، كما أن الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: دلت الآية على أن التوبة مقبولة، والاستثناء لا يدل على ذلك؛ لأنه أثبت أنه يضاعف له العذاب ضعفين، فيكفي لصحة هذا الاستثناء أن لا يضاعف للتائب العذاب ضعفين، وإنما الدال عليه قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ﴾.

المسألة الثانية: نقل عن ابن عباس أنه قال: توبة القاتل غير مقبولة، وزعم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ [النساء: ٩٣] وقالوا: نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة، وعن الضحاك ومقاتل بثمان سنين، وقد تقدم الكلام في ذلك في سورة النساء.

المسألة الثالثة: فإن قيل: العمل الصالح يدخل فيه التوبة والإيمان، فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشوًا، قلنا: أفردهما بالذكر لعلو شأنهما، ولما كان لا بد معهما من سائر الأعمال لا جرم ذكر عقيبهما العمل الصالح.

المسألة الرابعة: اختلفوا في المراد بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ على وجوه: أحدها: قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة: إن التبديل إنما يكون في الدنيا، فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الأعمال في الإسلام فيبدلهم بالشرك إيمانًا، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصانًا، فكأنه تعالى يبشرهم بأنه يوفقهم لهذه الأعمال الصالحة فيستوجبوا بها الثواب. وثانيها: قال الزجاج: السيئة بعينها لا تصير حسنة، ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات. وثالثها: قال قوم: إن الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية، وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول، ويحتجون بما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ، قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ: الَّذِينَ يُبَدِّلُ اللَّه سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»(١) وعلى هذا التبديل في الآخرة. ورابعها: قال القفال والقاضي: أنه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأراد ما يستحق بهما، وإذا حمل على ذلك كانت الإضافة إلى الله حقيقة؛ لأن الإثابة لا تكون إلا من الله تعالى.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ **ففيه سؤالان:**

السؤال الأول: ما فائدة هذا التكرير؟ الجواب: من وجهين: الأول: أن هذا ليس بتكرير؛ لأن الأول لما كان في تلك الخصال بيَّن تعالى أن جميع الذنوب بمنزلتها في صحة التوبة منها. الثاني: أن التوبة الأولى رجوع عن الشرك والمعاصي، والتوبة الثانية رجوع إلى الله تعالى للجزاء والمكافأة كقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] أي مرجعي.

السؤال الثاني: هل تكون التوبة إلا إلى الله تعالى فما فائدة قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾؟ الجواب من وجوه: **الأول:** ما تقدم من أن التوبة الأولى الرجوع عن المعصية والثانية الرجوع إلى حكم الله تعالى وثوابه. **الثاني:** معناه أن من تاب إلى الله فقد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم. **الثالث:** قوله: ﴿وَمَن تَابَ﴾ يرجع إلى الماضي فإنه سبحانه ذكر أن من أتى بهذه التوبة في الماضي على سبيل الإخلاص فقد وعده بأنه سيوفقه للتوبة في المستقبل، وهذا من أعظم البشارات.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: الزور يحتمل إقامة الشهادة الباطلة، ويكون المعنى أنهم لا يشهدون شهادة

---

(١) حسن: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٤/ ٢٨١)، حديث رقم (٧٩٤٣) من طريق الفضل بن موسى عن أبي العنبسي عن أبيه عن أبي هريرة... به، وقال: إسناده صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢١٧٧)، وقال: حسن، والثعالبي في (الكشف والبيان) (٩/ ٤٠٤) من طريق محمد بن عبد العزيز أبي رزقة قال: حدثنا الفضل بن موسى القطيعي عن أبي العنبسي عن ابنه عن أبي هريرة... به.

الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[الأنعام: ٦٨] ويحتمل حضور كل موضع يجري فيه ما لا ينبغي ويدخل فيه أعياد المشركين ومجامع الفساق؛ لأن من خالط أهل الشر ونظر إلى أفعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم في تلك المعصية؛ لأن الحضور والنظر دليل الرضا به، بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه؛ لأن الذي حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد مجالس الزور التي يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله، وقال محمد بن الحنفية: الزور الغناء، واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله في الكذب أكثر.

المسألة الثانية: الأصح أن اللغو كل ما يجب أن يلغى ويترك، ومنهم من فسر اللغو بكل ما ليس بطاعة، وهو ضعيف؛ لأن المباحات لا تعد لغوًا فقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ أي بأهل اللغو.

المسألة الثالثة: لا شبهة في أن قوله: ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ معناه أنهم يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو وإكرامهم لها لا يكون إلا بالإعراض وبالإنكار وبترك المعاونة والمساعدة، ويدخل فيه الشرك واللغو في القرآن وشتم الرسول، والخوض فيما لا ينبغي وأصل الكلمة من قولهم: ناقة كريمة إذا كانت تعرض عند الحلب تكرمًا، كأنها لا تبالي بما يحلب منها للغزارة، فاستعير ذلك للصفح عن الذنب، وقال الليث: يقال: تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه عنه ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[القصص: ٥٥] وعن الحسن لم تسفههم المعاصي وقيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا، وقيل: إذا ذكر النكاح كنوا عنه.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

قال صاحب (الكشاف): قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له ونفي للصمم والعمى كما يقال: لا يلقاني زيد مُسَلمًا، هو نفي للسلام لا للقاء، والمعنى أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصًا على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان حيث لا (يفهمونها ولا يبصرون) ما فيها كالمنافقين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم (ذُرِّيَّاتِنا) بألف الجمع

وحذفها الباقون على التوحيد والذرية تكون واحدًا وجمعًا.

المسألة الثانية: أنه لا شبهة أن المراد أن يكون قرة أعين لهم في الدين لا في الأمور الدنيوية من المال والجمال ثم ذكروا فيه وجهان: أحدهما: أنهم سألوا أزواجًا وذرية في الدنيا يشاركونهم فأحبوا أن يكونوا معهم في التمسك بطاعة الله فيقوى طمعهم في أن يحصلوا معهم في الجنة فيتكامل سرورهم في الدنيا بهذا الطمع وفي الآخرة عند حصول الثواب. والثاني: أنهم سألوا أن يلحق الله أزواجهم وذريتهم بهم في الجنة ليتم سرورهم بهم.

المسألة الثالثة: فإن قيل: (مِنْ) في قوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ ما هي؟ قلنا: يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل: هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ وهو من قولهم: رأيت منك أسدًا أي أنت أسد، وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح، فإن قيل: لم قال: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ فنكر وقلل؟ قلنا: أما التنكير فلأجل تنكير القرة؛ لأن المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه كأنه قال: هب لنا منهم سرورًا وفرحًا وإنما قال: (أَعْيُنٍ) دون عيون؛ لأنه أراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

المسألة الرابعة: قال الزجاج: أقر الله عينك أي: صادف فؤادك ما يحبه، وقال المفضل: في قرة العين ثلاثة أقوال: أحدها: يرد دمعتها وهي التي تكون مع الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة. والثاني: نومها؛ لأنه يكون مع ذهاب الحزن والوجع. والثالث: حضور الرضا.

المسألة الخامسة: قوله: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الأقرب أنهم سألوا الله تعالى أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار إليهم ويقتدى بهم، قال بعضهم: في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقيل: نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة.

المسألة السادسة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، قالوا؛ لأن الإمامة في الدين لا تكون إلا بالعلم والعمل، فدل على أن العلم والعمل إنما يكون بجعل الله تعالى وخلقه، وقال القاضي: المراد من السؤال الألطاف التي إذا كثرت صاروا مختارين لهذه الأشياء فيصيرون أئمة والجواب: أن تلك الألطاف مفعولة لا محالة فيكون سؤالها عبثًا.

المسألة السابعة: قال الفراء: قال: (إِمَامًا)، ولم يقل: أئمة كما قال للاثنين: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] ويجوز أن يكون المعنى اجعل كل واحد منا إمامًا كما قال: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] وقال الأخفش: الإمام جمع واحده آم كصائم وصيام. وقال القفال: وعندي أن الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل: اجعلنا حجة للمتقين، ومثله البينة يقال: هؤلاء بينة فلان. واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين المخلصين بيَّن بعد ذلك أنواع إحسانه إليهم وهي مجموعة في أمرين المنافع والتعظيم.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾

والمراد أولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧] وقال: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ [الزمر: ٢٠] والغرفة في اللغة: العلية، وكل بناء عالٍ فهو غرفة، والمراد به الدرجات العالية. وقال المفسرون: الغرفة اسم الجنة، فالمعنى يجزون الجنة وهي جنات كثيرة، وقرأ بعضهم: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ فِي الْغُرْفَةِ) وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

فيه بحثان:

البحث الأول: احتج بالآية من ذهب إلى أن الجنة بالاستحقاق فقال: الباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك.

البحث الثاني: ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه، ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق التفكر والاستدلال في معرفة الله تعالى، وعلى مشاق الطاعات، وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق أذى المشركين وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس فلا وجه لقول من يقول: المراد الصبر على الفقر خاصة؛ لأن هذه الصفات إذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر.

وثانيهما التعظيم: وهو قوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾: قرىء (يلقون) كقوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١] ويلقون كقوله: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٨]، والتحية: الدعاء بالتعمير، والسلام: الدعاء بالسلامة، فيرجع حاصل التحية إلى كون نعيم الجنة باقيًا غير منقطع، ويرجع السلام إلى كون ذلك النعيم خالصًا عن شوائب الضرر، ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله تعالى لقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] ويمكن أن يكون من الملائكة لقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض. أما قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ فالمراد أنه سبحانه لما وعد بالمنافع أولاً وبالتعظيم ثانيًا، بيَّن أن من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ ومن صفتهما الخلوص أيضًا وهو المراد من قوله: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ وهذا في مقابلة قوله: ﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٦] أي: ما أسوأ ذلك وما أحسن هذا.

أما قوله: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا﴾ فاعلم أنه سبحانه لما شرح صفات المتقين، وشرح حال ثوابهم أمر رسوله أن يقول: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ فدل بذلك على أنه تعالى غنيٌّ عن عبادتهم، وأنه تعالى إنما كلفهم لينتفعوا بطاعتهم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الخليل: ما أعبأ بفلان أي: ما أصنع به كأنه (يَسْتَقِلُّهُ) ويستحقره، وقال أبو عبيدة: ما أعبأ به أي وجوده وعدمه عندي سواء، وقال الزجاج: معناه أي لا وزن لكم عند ربكم، والعبء في اللغة الثقل، وقال أبو عمرو بن العلاء: ما يبالي بكم ربي.

المسألة الثانية: في ﴿مَا﴾ قولان: أحدهما: أنها متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر، كأنه قيل: وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم. والثاني أن تكون ما نافية.

المسألة الثالثة: ذكروا في قوله: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ وجهين: أحدهما: لولا دعاؤه إياكم إلى الدين والطاعة والدعاء على هذا مصدر مضاف إلى المفعول. وثانيهما: أن الدعاء مضاف إلى الفاعل وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوهًا: أحدها: لولا دعاؤكم لولا إيمانكم. وثانيها: لولا عبادتكم. وثالثها: لولا دعاؤكم إياه في الشدائد كقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ورابعها: دعاؤكم يعني لولا شكركم له على إحسانه لقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وخامسها: ما خلقتكم وبي إليكم حاجة إلا أن تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم.

أما قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ فالمعنى أني إذا أعلمتكم أن حكمي أني لا أعتد بعبادي إلا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم وهو عقاب الآخرة، ونظيره أن يقول الملك لمن استعصى عليه: إن من عادتي أن أحسن إلى من يطيعني، وقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك. فإن قيل: إلى من يتوجه هذا الخطاب؟ قلنا: إلى الناس على الإطلاق، ومنهم (مُؤْمِنُونَ) عابدون ومكذبون عاصون، فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب، وقرىء (فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ) (فسوف) يكون العذاب لِزامًا، وقرئ (لَزامًا) بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت، والوجه أن ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به لأجل الإبهام ويتناول ما لا يحيط به الوصف، ثم قيل: هذا العذاب في الآخرة، وقيل: كان يوم بدر وهو قول مجاهد رحمه الله، والله أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الفرقان

مكيَّةٌ كلها في قول الجمهور[١]. وقال ابنُ عباس وقتادة: إلا ثلاث آياتٍ منها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢] [الآية:٦٨-٧٠] وقال الضحَّاك: هي مدنيةٌ، وفيها آيات مكية؛ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآيات[٣].

ومقصودُ هذه السورة ذِكرُ موضع عِظم[٤] القرآن، وذِكْرُ مطاعنِ الكفَّار في النبوَّة، والردُّ على مقالاتهم[٥]، فمن جملتها قولُهم: إنَّ القرآن افتراه محمدٌ، وإنه ليس من عند اللهِ[٦].

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ① ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ② وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ③﴾.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ «تبارَكَ» اختلف في معناه؛ فقال الفرَّاءُ: هو

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٩ .

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٣٠ ، وزاد المسير ٦/ ٧١ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ١٩٩ .

(٤) في النسخ: عظيم . والمثبت من (م).

(٥) بعدها في (م) وجهالاتهم .

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ١٩٩ .

في العربية و«تقدَّس» واحدٌ، وهما للعظَمة. وقال الزجاج: «تَبَارَكَ»: تَفَاعَلَ من البركة. قال: ومعنى البَرَكَة: الكَثْرَةُ من كلِّ ذي خيرٍ. وقيل: «تَبَارَكَ»: تعالى. وقيل: تعالى عطاؤه، أي: زاد وكثُر. وقيل: المعنى دام وثبَت إنعامُه. قال النحاس[١]: وهذا أولاها في اللغة والاشتقاق؛ من بَرك الشيءُ: إذا ثبَت، ومنه: بَركَ الجملُ والطيرُ على الماء، أي: دام وثبت. فأما القولُ الأوَّل فمخلَّط؛ لأن التقديس إنما هو من الطهارة، وليس من ذا في شيءٍ. قال الثعلبيُّ: ويقال: تبارك اللهُ، ولا يقال له[٢]: متبارَكٌ ولا مبارَكٌ؛ لأنه ينتهي في أسمائه وصفاته إلى حيث ورَد التوقيفُ. وقال الطِّرِمَّاح:

تباركتَ لا مُعطي لشيءٍ منعتَه ... وليس لِما أعطيتَ يا ربِّ مانعُ[٣]

وقال آخر:

تَبَارَكْتَ ما تَقْدِرْ يقعْ ولك الشكرُ[٤]

قلت: قد ذكر بعضُ العلماء في أسمائه الحسنى: «المبارك»، وذكرناه أيضاً في كتابنا[٥]. فإن كان وقع اتفاقٌ على أنه لا يقال، فيسلَّم للإجماع، وإن كان وقع فيه اختلاف؛ فكثيرٌ من الأسماء اختُلف في عدِّه؛ كالدَّهر وغيرِه. وقد نبَّهنا على ذلك هنالك، والحمدُ للهِ.

و«الفرقان»: القرآن. وقيل: إنه اسمٌ لكلِّ مُنزَّل، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وفي تسميته فرقاناً وجهان:

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥١، وما قبله منه، وينظر قول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٢، وقولُ الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٥٧.

(٢) لفظة: له من النسخ الخطية.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) عجز بيت لأبي صخر الهذلي، وصدره: ولا عائداً ذاك الزمان الذي مضى. وسلف ١٤/ ٢٧١.

(٥) لم نقف عليه في المطبوع من كتاب الأسنى للمصنف، ومعلومٌ أن أسماءه سبحانه وصفاته توقيفية كما ذكر الثعلبي وغيره من العلماء.

أحدهما: لأنه فرَق بين الحقِّ والباطل، والمؤمنِ والكافر.

الثاني: لأن فيه بيانَ ما شرع من حلالٍ وحرام؛ حكاه النقاش[١]. ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ يريد محمَّداً ﷺ. ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ اسم «يَكُونَ» فيها مضمر يعود على «عَبْدِهِ» وهو أوْلى لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكون يعود على «الفرقان».

وقرأ عبدُ الله بن الزبير: «عَلَى عِبَادِهِ»[٢]. ويقال: أنذر: إذا خوَّف؛ وقد تقدَّم في أول «البقرة»[٣]. والنذير: المحذِّر من الهلاك. الجوهريُّ[٤]: والنذير: المنذِرُ، والنذير: الإنذارُ.

والمراد بـ «العالَمِين» هنا الإنس والجِنُّ، لأن النبيَّ ﷺ قد كان رسولاً إليهما، ونذيراً لهما، وأنه خاتم الأنبياء، ولم يكن غيره عامَّ الرسالة إلا نوحٌ؛ فإنه عمَّ برسالته جميعَ الإنس بعد الطوفان؛ لأنه بَدأ به الخَلقَ[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عظَّمَ تعالى نفسَه. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ نزَّه سبحانه وتعالى نفسه عمَّا قاله المشركون من أن الملائكة أولادُ اللهِ؛ يعني بنات الله سبحانه وتعالى، وعما قالت اليهودُ: عُزَيرٌ ابن الله؛ جلَّ اللهُ تعالى، وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله؛ تعالى اللهُ عن ذلك. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما قال عبدةُ الأوثان[٦]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لا كما قال المجوس والثَّنَوِيَّة[٧]: إن الشيطان أو الظُّلْمةَ يخلقُ بعضَ الأشياء. ولا كما يقول من قال: للمخلوق قدرةُ الإيجاد. فالآية ردٌّ على هؤلاء[٨]. ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي: قدَّر كلَّ شيءٍ مما خلَق

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٣١.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٧.

(٣) ١/ ٢٨١.

(٤) في الصحاح (نذر).

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٣١.

(٦) ينظر تفسير الطبري ١٧/ ٣٩٦، والوسيط ٣/ ٣٣٢.

(٧) الثَّنَوية: فرقة زعمت أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام ... اهـ. الملل والنحل ١/ ٢٤٤.

(٨) ينظر تفسير الرازي ٤/ ٤٦، والفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي ص٢٦١.

بحكمته على ما أراد، لا عن سَهوٍ[١] وغَفْلة، بل جَرَت المقاديرُ على ما خلق اللهُ إلى يوم القيامة وبعد القيامة، فهو الخالق المقدِّر؛ فإياه فاعبدوه.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ ذكر ما صنَع المشركون على جهة التعجيبِ[٢] في اتخاذهم الآلهة، مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته. ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ يعني الآلهة. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لمَّا اعتقَد الكفار[٣] فيها أنها تضرُّ وتنفع، عبَّر عنها كما يعبِّر عما يَعقل. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا دفع ضرٍّ وجلب نفع، فحذف المضاف.

وقيل: لا يقدرون أن يضروا أنفسَهم أو ينفعوها بشيءٍ، ولا لمن يعبدهم، لأنها جمادات. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: لا يُميتون أحداً، ولا يُحيونه[٤]. والنُّشور: الإحياءُ بعد الموت؛ أنشَر اللهُ الموتى فنشروا. وقد تقدَّم[٥]. وقال الأعشى[٦]:

حتى يقولَ الناسُ مما رَأَوْا ... يا عجباً للميِّتِ الناشِرِ

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني مشركي قريش. وقال ابنُ عباس: القائل

(١) في (د) و(ف) شهوة، وفي (م) سهوة، والمثبت من (ز) و(ظ).
(٢) في (د) و(ظ): التعجب، وفي (ز): النعت.
(٣) في (م): المشركون.
(٤) ينظر زاد المسير ٦/ ٧٢.
(٥) ٩/ ٢٥٢-٢٥٣.
(٦) ديوانه ص١٩١.

منهم ذلك النضرُ بن الحارث ؛ وكذا كلُّ ما كان في القرآن فيه ذكر الأساطير[١] . قال محمد بن إسحاق: وكان مؤذياً للنبيِّ ﷺ[٢]. ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ يعني القرآن .﴿إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: كَذِبٌ اختَلَقه .﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعني اليهود؛ قاله مجاهد[٣]. وقال ابن عباس: المراد بقوله: «قَوْمٌ آخَرُونَ»: أبو فُكَيْهة مولى بني الحضرمي، وعدَّاس، وجبر، وكان هؤلاء الثلاثة من أهل الكتاب[٤] . وقد مضى في «النحل» ذِكْرُهم[٥] ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ أي: بظلم. وقيل: المعنى: فقد أتوا ظلْماً ﴿وَزُورًا﴾ . ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال الزجاج[٦]: واحد الأساطير أُسطورة؛ مثل: أُحدوثة وأَحاديث.

وقال غيره: أساطير جمع أسطار ؛ مثل أقوال وأقاويل[٧]. ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ يعني محمداً. ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُلقى عليه وتقرأ .﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ حتى تُحفظَ[٨]. و«تملى» أصله: تُملَل، فأبدلت اللام الأخيرة ياء [هرباً] من التضعيف[٩]: كقولهم: تقَضَّى البازي[١٠]؛ وشبهه.

---

(١) النكت والعيون ٤/ ١٣٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠ .

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١/ ٣٠٠ مطولاً، وأخرجه الطبري في التفسير ١٧/ ٣٩٩-٤٠٠ عن ابن عباس، من رواية ابن إسحاق.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٣٢ ، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٤٧ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٢٩٨ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٣ (١٤٩٧٢).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠ ، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٧٢-٧٣ عن قتادة.

(٥) ١٢/ ٤٢٨ .

(٦) في معاني القرآن ٤/ ٥٨ .

(٧) البيان لابن الأنباري ٢/ ٢٠٢ .

(٨) زاد المسير ٦/ ٧٣ .

(٩) ينظر سر صناعة الإعراب ٢/ ٧٥٨ وما بين حاصرتين منه.

(١٠) قال الزبيدي في تاج العروس (قض): الأصل: تقضض، فلما اجتمعت ثلاث ضادات؛ قلبت إحداهنَّ ياءً، كما قالوا: تمطى، وأصله: تمطط، أي: تمدد، وكذلك: تظنى من الظن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: قل يا محمد: أنزَل هذا القرآنَ الذي يعلم السرَّ، فهو عالِمُ الغيبِ، فلا يحتاج إلى مُعلِّم.

وذكر «السرَّ» دون الجهر؛ لأنه مَن علم السِّر فهو في الجهر أعلم. ولو كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغيرهم لَمَا زاد عليها، وقد جاء بِفُنون تخرج عنها، فليس مأخوذاً منها. وأيضاً: ولو كان مأخوذاً من هؤلاء لتمكن المشركون منه أيضاً كما تمكَّن محمدٌ ﷺ؛ فهلَّا عارَضوه؟! فبطَل اعتراضُهم من كلِّ وجهٍ[1]. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يريد غفوراً لأوليائه رحيماً بهم[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: «وَقَالُوا»؛ ذكَر شيئاً آخرَ من مطاعنهم. والضمير في «قَالُوا» لقريش؛ وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله ﷺ مجلس مشهور، وقد تقدَّم في «سبحان»[3]. ذكره ابن إسحاق في السيرة وغيره، مضمَّنه: أنَّ سادتهم عتبةَ بن ربيعة وغيره اجتمعوا معه فقالوا: يا محمد، إن كنتَ تحبُّ الرياسةَ وَلَّيناك علينا، وإن كنتَ تحب المالَ جمعنا لك من أموالنا. فلمَّا أَبَى رسولُ الله ﷺ عن ذلك رجَعوا في باب الاحتجاج معه، فقالوا: ما بالُك وأنت رسولُ الله تأكلُ الطعامَ، وتقِفُ بالأسواق[4]!

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٤/ ٥١.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٣٤.

(٣) ٢٣/ ١٧٢ وما بعدها.

(٤) في (ظ) في الأسواق، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٠-٢٠١، وعنه نقل المصنف كلام ابن إسحاق، وهو بنحوه في السيرة النبوية ١/ ٢٩٣ - ٢٩٤.

فعيَّروه بأكل الطعام؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسولُ ملَكاً، وعيَّروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرةَ والقياصرةَ والملوك الجبابرةَ يَترفَّعون عن الأسواق، وكان عليه الصلاة والسلام يخالطهم في أسواقهم، ويأمرُهم وينْهاهم؛ فقالوا: هذا يَطلب أن يتملَّك علينا، فماله يخالف سيرةَ الملوك؟ فأجابهم اللهُ بقوله، وأنزل على نبيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] فلا تَغْتَمَّ ولا تَحزن، فإنها شَكاة ظاهرٌ عنك عارُها[(١)].

الثانية: دخولُ الأسواق مباحٌ للتجارة وطلبِ المعاش. وكان عليه الصلاة والسلام يَدخلها لحاجته؛ ولتذكرة الخلق بأمر اللهِ ودعوته، ويَعرِض نفْسَه فيها على القبائل، لعلَّ اللهَ أن يرجع بهم إلى الحقِّ[(٢)]. وفي البخاري[(٣)] في صفته عليه الصلاة والسلام: «ليس بفظٍّ ولا غلِيظ ولا سخَّاب في الأسواق» وقد تقدَّم في «الأعراف»[(٤)].

وذِكر السوق مذكور في غير ما حديثٍ، ذكره أهلُ الصحيح. وتجارة الصحابة فيها معروفة، وخاصةً المهاجرين؛ كما قال أبو هريرة: وإنَّ إخواننا من المهاجرين كان يَشغلُهم الصَّفْق بالأسواق؛ خرَّجه البخاري[(٥)]. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان في هذه السورة إن شاء الله[(٦)].

---

(١) في قوله: «شكاة ظاهر عنك عارها» تضمين لبيت أبي ذؤيب الهُذلي

وعيَّرها الواشون أني أحبُّها وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارُها

وسلف في تفسير الآية (٢٢) من سورة الكهف.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٢، والكلام بنحوه في السيرة النبوية ١/ ٣٠٩.

(٣) برقم (٢١٢٥) وهو من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) ٩/ ٣٥٤.

(٥) برقم (١١٨) وهو عند أحمد (٧٢٧٥)، ومسلم (٢٤٩٢).

وقوله: الصَّفْقُ: قال السندي: كناية عن البيع والشراء، أي: أنهم كانوا أصحاب تجارات، وكان الأنصار أصحابَ زرعات وبساتين.

(٦) عند تفسير الآية (٢٠).

قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلّا. ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ جوابُ الاستفهام. ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ﴾ في موضع رفع؛ والمعنى: أوْ هلَّا يُلقى ﴿إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ ﴿أَوْ﴾ هلّا ﴿تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[1] «يأْكُلُ» بالياء قرَأ المدنيون وأبو عمرو وعاصمٌ. وقرَأ سائر الكوفيين بالنون[2]، والقراءتان حَسنتان تؤديان عن معنى، وإن كانت القراءة بالياء أبين؛ لأنه قد تقدَّم ذِكْرُ النبيِّ ﷺ وحدَه، فأَنْ يعودَ الضميرُ عليه أبين؛ ذكره النحاس[3]. ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ تقدَّم في «سبحان»[4] والقائلُ عبدُ الله بن الزِّبَعْرى فيما ذكره الماورديُّ[5].

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: ضربوا لك هذه الأمثالَ ليتوصلوا إلى تكذيبك، ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عن سبيل الحقِّ وعن بلوغ ما أرادوا. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى تصحيح ما قالوه فيك.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ﴾ شرطٌ ومجازاة، ولم يُدغم «جَعَلَ لَكَ» لأن الكلمتين منفصلتان، ويجوز الإدغام لاجتماع المثلين[6]. ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ في موضع جزْم عطفاً على موضع «جعل». ويجوز أن يكون في موضع رفع مقطوعاً من الأول. وكذلك قَرَأ أهلُ الشام. ويروى عن عاصمٍ أيضاً: «وَيَجْعلُ لَكَ» بالرفع، أي: وسيَجعلُ لك في الآخرة قصوراً[7].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٢ .

(٢) قرأ حمزة والكسائي بالنون، والباقون من السبعة بالياء. السبعة ص٤٦٢ ، والتيسير ص١٦٣ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٢-١٥٣ .

(٤) ١٣/ ٩٧ .

(٥) في النكت والعيون ٤/ ١٣٤ .

(٦) وهو هنا من الإدغام الكبير لأبي عمرو من رواية السوسي.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٣ ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية شعبة: ويجعلُ، =

قال مجاهد: كانت قريشٌ ترى البيتَ من حجارة يسمى[١] قصراً كائناً ما كان[٢].

والقصر في اللغة: الحبس، وسمي القصر قصراً لأن مَن فيه مقصورٌ عن أن يُوصَل إليه[٣].

وقيل: العرب تسمي بيوتَ الطين القَصْرَ، وما يُتخذ من الصوف والشَّعَر البيتَ[٤]؛ حكاه القُشَيريُّ.

وروى سفيان، عن حبيب بن أبي ثابت، عن خَيْثَمة قال: قيل للنبيِّ ﷺ: إن شئتَ أن نُعطيَك خزائنَ الدنيا ومفاتيحها، ولم يُعْطَ ذلك مَن قبلك ولا يعطاه أحدٌ بعدك، وليس ذلك بناقصك في الآخرة شيئاً؛ وإن شئتَ جمعنا لك ذلك في الآخرة؛ فقال: «يجمع[٥] ذلك لي في الآخرة». فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾[٦].

ويروى أن هذه الآيةَ أنزلها رضوان خازنُ الجِنان إلى النبيِّ ﷺ، وفي الخبر: إن رضوان لمَّا نَزَل سلَّم على النبيِّ ﷺ، ثم قال: يا محمد! ربُّ العِزَّة يُقرئك السلامَ، وهذا سَفَط[٧] ـ فإذا سَفَط[٨] مِن نور[٩] يتلألأ ـ يقول لك ربُّك: هذه مفاتيحُ خزائنِ الدنيا، مع أنه لا ينقص مالَك في الآخرة مثلَ جناح بعوضة؛ فنظر النبيُّ ﷺ إلى جبريلَ كالمستشير له، فضَرب جبريل بيده الأرضَ؛ يُشير[١٠] أن تَواضع، فقال: «يا

= بالرفع، والباقون بالجزم. السبعة ص٤٦٢. والتيسير ص١٦٣.

(١) لفظة يسمى من (ظ).

(٢) تفسير مجاهد ٢/٤٤٨، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/٤٠٧، وابن أبي حاتم ٨/٢٦٦٦ (١٤٩٩٦).

(٣) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٨/٣٥٩.

(٤) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/٢٠١.

(٥) في (ظ) تجمع.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/٥٠٩، وابن أبي حاتم ٨/٢٦٦٦ (١٤٩٩١)، وهو مرسل. وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/٤٠٨ عن حبيب قال: قيل للنبي ﷺ..

(٧) في النسخ الخطية: سوط. والمثبت من (م)، والسَّفَط وعاء، كالقُفَّة. القاموس (سفط).

(٨) في (د) و(ز) سوط، وفي (ظ) و(ف) بسوط، والمثبت من (م).

(٩) في (د) لؤلؤ.

(١٠) بعدها في (ظ): إلى.

رضوان، لا حاجة لي فيها، الفقرُ أحبُّ إليَّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً». فقال رضوان: أصبتَ! أصاب[١] اللهُ لك. وذكر الحديث[٢].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ يريد يومَ القيامة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ يريد جهنم تتلظَّى عليهم. ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: من مسيرة خمس مئة عام[٣]. ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ قيل: المعنى إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوتَ التغيُّظ عليهم. وقيل: المعنى: إذا رأتهم خزَّانُها سمعوا لهم[٤] تغيظاً وزفيراً حرصاً على عذابهم[٥]. والأول أصحُّ؛ لِما روي مرفوعاً أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن كذَب عليَّ متعمِّداً فليتبوأ بَيْنَ عيني جهنمَ مقعداً» قيل: يا رسول الله! ولها عينان؟ قال: «أما سمعتم اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾»[٦]. يخرج عُنُقٌ من النار له عينان تبصران، ولسانٌ يَنْطق فيقول: وُكِّلت بكلِّ مَن جَعَلَ مع

---

(١) لفظة أصاب من (ز) وأسباب النزول. وجاءت العبارة في (ز): أصاب اللهُ بك.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٥-٣٤٦ عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا إسناد ضعيف جداً.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٥٥.

(٤) في النسخ الخطية: لها، والمثبت من (م).

(٥) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٤/ ٥٦.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٠٩، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٧ (١٤٩٩٩) عن خالد بن دريك، عن رجل من أصحاب محمد ﷺ... وخالد بن دُريك؛ قال الحافظ ابن حجر في التقريب: ثقة يرسل. وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ١٣١-١٣٢ (٧٥٩٩) من حديث أبي أمامة. قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٤٨: رواه الطبراني في الكبير وفيه الأحوص بن حكيم، ضعفه النسائي وغيره، ووثقه العجلي ويحيى بن سعيد القطان في رواية، ورواه عن الأحوص محمدُ بن الفضل بن عطية، وهو ضعيف.

وقوله ﷺ: «مَنْ كذب عليَّ متعمداً فليتبوَّأ مقعده من النار» صحيح متواتر، وسلف ١/ ٥٧.

اللهِ إلهاً آخرَ ، فلَهُو أبصرُ بهم من الطير بِحَبِّ السِّمْسِم فيلتقطه»[١].

وفي رواية: «فيَخرج عُنُقٌ من النار فيلتقطُ الكفارَ لَقْطَ الطائرِ حبَّ السِّمْسِم» ذكره رَزِين في كتابه، وصححَّه ابنُ العربي في قبسه[٢]، وقال: أي: يَفْصِلهم[٣] عن الخلق في المعرفة كما يَفصل الطائرُ حبَّ السِّمسِمِ من التربة.

وخرَّجَه الترمذيُّ من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يَخرج عُنُقٌ من النار يومَ القيامة له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق يقول: إني وُكِّلت بثلاث: بكلِّ جَبَّار عنيد ، وبكلِّ مَن دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصوِّرين».

وفي الباب عن أبي سعيدٍ . قال أبو عيسى: هذا حديث حسنٌ غريب صحيحٌ[٤].

وقال الكلبيُّ: سمعوا لها تغيظاً كتغيظ بني آدم وصوتاً كصوت الحمار[٥].

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير ، سمعوا لها زفيراً وعلموا لها تغيُّظاً.

وقال قطرب: التغيظ لا يُسمع ، ولكن يُرى ، والمعنى: رأوا لها تغيظاً، وسمعوا لها زفيراً[٦]؛ كقول الشاعر:

ورأيتُ زوجَكِ في الوَغَى ... مُتقلِّدا سيفاً ورُمحا

أي: وحاملاً رمحاً[٧].

وقيل: «سَمِعُوا لَهَا» أي: فيها، أي: سمعوا فيها تغيُّظاً وزفيراً للمعذَّبين ، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:١٠٦] و«في» واللام يتقاربان؛ تقول: أفعل هذا في اللهِ وللهِ.

---

(١) أخرجه بنحوه الحارث بن أسامة (١١٢٢) (بغية الباحث) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً.

(٢) ١/ ١٠٩-١١٠ .

(٣) في (ز) و(ف) و(م) تفصلهم . والمثبت من (ظ) والقبس.

(٤) سنن الترمذي (٢٥٧٤)، وحديثا أبي هريرة وأبي سعيد عند أحمد برقمي (٨٤٣٠) و(١١٣٥٤).
وقوله: «عنُق» أي: طائفة منها. النهاية (عنق).

(٥) هو في تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٥ دون نسبة، وجاءت العبارة في (ظ): تغيظاً وزفيراً كغيظ بني آدم...

(٦) ذكره عنه الرازيُّ ـ بنحوه ـ في تفسيره ٢٤/ ٥٦ .

(٧) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٣ والبيت قائله عبد الله بن الزبعرى. ديوانه ص٣٢ ، وسلف ١/ ٢٩١ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن عبدَ اللهِ كان يقول: إن جهنَّمَ لتضيَّق على الكافر كتضييق الزُّج على الرمح؛ ذكره ابن المبارك في رقائقه[1]. وكذا قال ابن عباس، ذكره الثعلبي والقُشَيريُّ عنه، وحكاه الماورديُّ عن عبد الله بن عمرو[2]. ومعنى «مُقَرَّنين»: مكتَّفينَ؛ قاله أبو صالح. وقيل: مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال. وقيل: قُرِنوا مع الشياطين، أي: قُرِن كلُّ واحدٍ منهم إلى شيطانه؛ قاله يحيى بن سلام[3]. وقد مضى هذا في «إبراهيم»[4] وقال عمرو بن كلثوم:

فآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايا ... وأُبْنا بالملوكِ مُقَرَّنينا

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: هلاكاً؛ قاله الضحاك. ابن عباس: وَيْلاً[5].

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: أول مَن يقوله إبليس، وذلك أنه «أولُ مَن يُكْسَى حُلَّةً من النار، فتوضعُ على حَاجبيه، ويَسْحَبُها من خَلْفه، وذُرِّيَّتُه مِن خلْفه، وهو يقول: واثُبُوراه»[6].

وانتصب على المصدر، أي: ثَبَرنا ثبوراً؛ قاله الزجاج[7]. وقال غيره: هو

---

(١) في زوائد نعيم بن حماد ص٨٦ (٢٩٩)، وابن أبي حاتم ٨/٢٦٦٨ (١٥٠٠٦) وقال: لم يروه عنه إلا ابن المبارك.
وقوله الزُّج: هو الحديدة في أسفل الرُّمح. القاموس (زجج).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٣٤، وفيه أيضاً قول أبي صالح الآتي. وأخرجه عنه ابنُ أبي حاتم ٨/٢٦٦٨ (١٥٠٠٧)، و ٢٦٦٩ (١٥٠٠٨).

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٣٤، والكلام بنحوه في تفسير البغوي ٣/ ٣٦٣.

(٤) ١٢/ ١٧٠-١٧١، وسلف ثمة بيت عمرو الآتي، وسلف البيت أيضاً ٢/ ١٥٥.

(٥) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره ١٧/ ٤١١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٩ (١٥٠١٣) عن ابن عباس و(١٥٠١٤) عن الضحاك.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١٢٥٣٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي إسناده علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب قوله: واثبوراه قال السندي كما في حاشية المسند: كأنه ينادي الهلاكَ، ويقول له: هذا أوانك فالحقني.

(٧) في معاني القرآن ٤/٥٩-٦٠، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٥٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٧٦.

مفعول به.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فإنَّ هلاككم أكثرُ من أن تدعوا مرَّةً واحدة. وقال: ثبوراً؛ لأنه مصدر يقع للقليل والكثير، فلذلك لم يجمع، وهو كقولك: ضربته ضرباً كثيراً، وقعد قعوداً طويلاً. ونَزلت الآياتُ في ابن خَطَل وأصحابه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ﴾.

إن قيل: كيف قال: «أَذَلِكَ خَيْرٌ» ولا خيرَ في النار؟ فالجواب: أن سيبويه حكى عن العرب: الشقاءُ أحبُّ إليك أم السعادة؟ وقد علم أن السعادةَ أحبُّ إليه.

وقيل: ليس هو من باب أفعل منك، وإنما هو كقولك: عنده خير. قال النحاس[(١)]: وهذا قولٌ حسن؛ كما قال:

فَشَرُّكُما لِخَيرِكُما الفِداءُ[(٢)]

قيل: إنما قال ذلك؛ لأنَّ الجنةَ والنارَ قد دَخَلتا في باب المنازل[(٣)]؛ فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلتين.

وقيل: هو مردودٌ على قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ الآية.

وقيل: هو مردودٌ على قوله: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٤، وما قبله منه.

(٢) عجز بيت لحسان بن ثابت ﷺ، وصدره: أتهجوه ولست له بكفءٍ. وهو في ديوانه ص٦٤، وسلف ١/ ٣٤٧.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٠.

مِنۡهَآۚ﴾ .وقيل: إنما قال ذلك على معنى: عِلمكم واعتقادُكم أيها الكفار؛ وذلك أنهم لمَّا كانوا يَعملون عملَ أهلِ النار صاروا كأنهم يقولون: إن في النار خيراً.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: من النعيم. ﴿خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ قال الكلبيُّ: وَعَدَ اللهُ المؤمنين الجنةَ جزاءً على أعمالهم، فسألوه ذلك الوعدَ فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]. وهو معنى قولِ ابن عباس(١).

وقيل: إن الملائكةَ تسأل لهم الجنةَ؛ دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ [غافر: ٨] الآية. وهذا قولُ محمد بن كعب القُرَظِيِّ(٢).

وقيل: معنى «وَعْداً مَسْؤُولاً» أي: واجباً وإن لم يكن يُسْأَل كالدَّين؛ حكي عن العرب: لأُعطينَّك ألفاً. وقيل: «وَعْداً مَسْؤُولاً» يعني أنه واجبٌ لك فتسْألُه(٣). وقال زيد بن أسلم: سألوا اللهَ الجنةَ في الدنيا، ورغِبوا إليه بالدعاء، فأجَابهم في الآخرة إلى ما سَألوا وأعطاهم ما طَلبوا(٤). وهذا يرْجع إلى القول الأول.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ قرأ ابن مُحيصِن، وحميد، وابن كثير، وحفص،

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤١٤، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧١ (١٥٠٢١) عن ابن عباس بلفظ: فاسألوا الذي وعدَكم وتنَجَّزوه.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٣٥، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧١ (١٥٠٢٢).

(٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٣، وتفسير الطبري ١٧/ ٤١٤، وفيهما: «لأعطينك ألفاً وعداً مسؤولاً، بمعنى أنه واجب لك فتسأله».

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٣٥.

ويعقوب، وأبو عمرو في رواية الدُّوريِّ: «يَحشرهم» بالياء. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله في أول الكلام: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾، وفي آخره: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾. الباقون بالنون على التعظيم[١]. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الملائكة والإنس والجِن والمسيح وعُزير؛ قاله مجاهد وابن جُريج. الضحاك وعكرمة: الأصنام[٢]. ﴿فَيَقُولُ﴾ قراءة العامة بالياء، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ ابنُ عامر وأبو حيوة بالنون على التعظيم[٣].

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ وهذا استفهام توبيخ للكفار. ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: قال المعبُودون من دون اللهِ: سبحانَك، أي: تنزيهاً لك ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

فإن قيل: فإن كانت الأصنامُ التي تُعبد تُحشَرُ؛ فكيف تَنطق وهي جمادٌ؟ قيل له: يُنطقها اللهُ تعالى يومَ القيامة كما يُنطق الأيدي والأرجل[٤]. وقرَأ الحسنُ وأبو جعفر: «أنْ نُتَّخَذَ» بضم النون وفتح الخاء على الفعل المجهول[٥]. وقد تكلَّم في هذه القراءة النحْويون؛ فقال أبو عمرو بنُ العلاء وعيسى بنُ عمر: لا يجوز «نُتَّخذ».

وقال أبو عمرو: لو كانت «نُتَّخذ» لحذفتَ «مِن» الثانية فقلتَ: «أن نُتَّخذ من دونك أولياءَ». كذلك[٦] قال أبو عبيدة: لا يجوز «نُتَّخذ» لأنَّ الله تعالى ذَكَرَ «مِن»

---

(١) قراءة ابن كثير وحفص - بالياء - في السبعة ص٤٦٣، والتيسير ص١٦٣، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٣٣، والقراءة المشهورة عن أبي عمرو البصري هي بالنون.

(٢) الوسيط ٣/ ٣٣٦، وتفسير البغوي ٣/ ٣٦٣-٣٦٤، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٨٤، وأخرجه عنه الطبري مع قول ابن جريج في تفسيره ١٧/ ٤١٥، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٢ (١٥٠٢٧) عن مجاهد. دون قوله: والإنس والجن.

(٣) السبعة ص٤٦٣، والتيسير ص١٦٣.

(٤) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٤.

(٥) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٣٣، وذكرها الزجاج في معانيه ٤/ ٦٠، والنحاس في إعرابه ٣/ ١٥٤، وأبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٥٥، وابن عطية في المحرر ٤/ ٢٠٤، وقراءة الحسن في زاد المسير ٦/ ٧٨.

(٦) في (ظ) وكذا.

مرَّتين، ولو كان كما قرَأ لقال: «أن نُتخذ من دونك أولياء».

وقيل: إن «مِن» الثانية صلة.

قال النحاس[١]: ومثل أبي عمرو على جلالته ومحلِّه يُستَحْسَن [منه] ما قال؛ لأنه جاء ببينةٍ.

وشرحُ ما قال أنه يقال: ما اتخذتُ رَجلاً وليًا، فيجوز أن يقع هذا لواحد[٢] بعينه؛ ثم يقال: ما اتخذت من رَجُلٍ وليًا. فيكون نفياً عاماً، وقولك «وليًا» تابعٌ لما قبله، فلا يجوز أن يُدخل[٣] فيه «مِن» لأنه لا فائدةَ في ذلك.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ أي: في الدنيا بالصحة والغنى وطولِ العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم. ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: تركوا ذكرك، فأشرَكوا بك بَطَراً وجهلاً، فعبدونا من غير أن نأمرهم[٤] بذلك.

وفي الذكر قولان:

أحدهما: القرآن المنزَّل على الرسل، تركوا العملَ به، قاله ابن زيد.

الثاني: الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم.

إنهم ﴿كانوا قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ أي: هلكى؛ قاله ابن عباس. مأخوذٌ من البوار وهو الهلاك[٥]. وقال أبو الدرداء ﷺ وقد أشرف على أهل حِمص: يا أهل حِمص! هلمَّ[٦] إلى أخٍ لكم ناصحٍ، فلمَّا اجتمعوا حوله قال: ما لَكم لا تَستحيون[٧]! تَبنون ما لا

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٤-١٥٥ ، وما قبله منه عدا كلام أبي عبيدة ، وما سيرد بين حاصرتين منه .

(٢) في (م) للواحد ، وفي (ظ) الواحد . والمثبت من (ز) وإعراب القرآن للنحاس .

(٣) في (م) تدخل .

(٤) في (م) و(د): أمرناهم.

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٣٦-١٣٧ .

(٦) في (ز) هلموا .

(٧) في (م) تستحون .

تَسكنون، وتَجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تُدركون، إنَّ مَن كان قبلكم بَنَوْا شديداً[١]، وجمعوا عبيداً، وأمَّلوا بعيداً، فأصبح جمعُهم بُوراً، وآمالهم[٢] غروراً، ومساكنُهم قبورا[٣]. فقوله: «بُورًا» أي: هلكى.

وفي خبرٍ آخر: فأصبحت منازلهُم بوراً، أي: خالية لا شيءَ فيها.

وقال الحسن: «بُورًا»: لا خيرَ فيهم. مأخوذٌ من بَوار الأرض، وهو تعطيلُها من الزرع، فلا يكون فيها خير.

وقال شَهْرُ بن حَوْشَب: البَوار: الفَسَاد والكساد؛ مأخوذٌ من قولهم: بارَت السلعة: إذا كسدت كسادَ الفاسد؛ ومنه الحديث: «نعوذ بالله من بَوَارِ الأَيِّم»[٤]. وهو اسم مصدر كالزُّور؛ يستوي فيه الواحدُ والاثنان والجمعُ والمذكر والمؤنث[٥]. قال ابن الزِّبَعْرى[٦]:

يا رسولَ المليكِ إنَّ لساني ... راتِقٌ ما فَتَقتُ إذ أنا بُورُ
إذ أُباري الشيطانَ في سَنَن الغَـ ... ـيِّ ومَنْ مَالَ ميلَه مَثْبُورُ

وقال بعضهم: الواحدُ: بائر، والجمع: بور[٧]. كما يقال: عائذ وعُوذ، وهائد

---

(١) في (م) مشيدا . والمثبت من (د) و(ز) و(ظ) وتاريخ مدينة دمشق .

(٢) في (ظ): ومالهم، وكذلك في شعب الإيمان.

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤٧/ ١٣١ ، وأخرجه أيضاً البيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٣٩) و(١٠٧٤٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ١٣٣ ، وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة ١/ ٦٣٥ أنه قال على درج مسجد دمشق: يا أهل دمشق. . .

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٣٧ ، والحديث قطعة من حديثٍ أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٣٢٣ (١١٨٨٢) ، والخطيب البغدادي في تاريخه ١٢/ ٤٥٠ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/ ١٤٣ وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط والصغير باختصار، وفيه عباد ابن زكريا الصريمي، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٤ .

(٦) ديوانه ص٣٦ .

(٧) الوسيط ٣/ ٣٣٧ .

وهُود[١]. وقيل: «بُورًا»: عُمياً عن الحق.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: يقول اللهُ تعالى عند تبرّي المعبودين: «فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ» أي: في قولكم إنهم آلهة[٢]. ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يعني الآلهة صرفَ العذابِ عنكم ولا نصرَكم. وقيل: فما يستطيعُ هؤلاء الكفارُ لمَّا كذَّبهم المعبودون ﴿صَرْفًا﴾ للعذاب ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ من الله[٣]. وقال ابن زيد: المعنى فقد كذَّبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفارُ بما جاء به محمدٌ؛ وعلى هذا فمعنى «بِمَا تَقُولُونَ»: بما تقولون من الحقِّ[٤]. وقال أبو عبيد: المعنى: فيما تقولون[٥]، فما يَستطيعون لكم صرفاً عن الحقِّ الذي هداكم الله إليه، ولا نصراً لأنفسهم مما يَنزل بهم من العذاب بتكذيبهم إيَّاكم.

وقراءةُ العامة: «بِمَا تَقُولُونَ» بالتاء على الخطاب. وقد بيَّنَّا معناه.

وحكى الفراءُ أنه يقرأ: «فَقَدْ كَذَبُوكُمْ» مخفَّفاً، «بِمَا يَقُولُونَ». وكذا قرأ مجاهد والبَزِّيُّ بالياء[٦]، ويكون معنى «يَقُولُونَ»: بقولهم. وقرأ أبوحَيْوَة: «بِمَا يَقُولُونَ» بياء «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ» بتاء على الخطاب لمتخِذي الشركاء[٧]. ومن قرأ بالياء فالمعنى: فما يستطيع الشركاء.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ قال ابن عباس: من يُشرك منكم ثم مات عليه[٨] ﴿نُذِقْهُ﴾

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ١٤، والكشاف ٣/ ٨٦. وفي (ز) و(ظ) عائد وعود.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦١.

(٣) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ٣٣٧.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤٢٠، وأخرجه أيضاً عن ابن زيد ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٣ (١٥٠٤٠).

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٥.

(٦) ذكر كلام الفراء النحاس في معاني القرآن ٥/ ١٥. وقال ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٣٤: نص عليها ابن مجاهد عن البزي سماعاً من قنبل.

(٧) ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٤ قراءة أبي حيوة. وقرأ حفص: تستطيعون، بالتاء، والباقون بالياء. السبعة ص٤٦٣، والتيسير ص١٦٣.

(٨) أخرج نحوه عبد الرزاق ٢/ ٧٢، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٢-٤٢٣ عن الحسن.

أي: في الآخرة. ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي شديداً؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] أي: شديداً.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ نزلت جواباً للمشركين حيثُ قالوا: «مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي في الْأَسْوَاقِ»[(١)]. وقال ابن عباس: لمَّا عيَّر المشركون رسولَ الله ﷺ بالفاقة وقالوا: «مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ» الآية؛ حَزِن النبيُّ ﷺ لذلك، فَنَزَلت تعزيةً له، فقال جبريل عليه السلام: السلام عليك يا رسولَ الله! الله ربُّك يقرئك السَّلامَ ويقول لك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: يَبتغون المعاشَ[(٢)] في الدنيا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ إذا دخلت اللام؛ لم يكن في «إن» إلا الكسر، ولو لم تكن اللامُ ما جاز أيضاً إلا الكسر؛ لأنها مستأنفة. هذا قولُ جميع النحويين. قال النحاس[(٣)]: إلا أنَّ عليَّ بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد قال: يجوز في «إنَّ» هذه الفتحُ وإن كان بعدها اللام، وأَحسِبه وَهْماً منه. قال أبو إسحاق الزجاجُ[(٤)]: وفي الكلام حذفٌ، والمعنى: وما أرسلنا قبلك رسلاً إلا إنهم

---

(١) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٥.

(٢) في (ز) و(م) المعايش، والمثبت من (د) و(ظ) وأسباب النزول للواحدي ص٣٤٥ وقد أخرجه عنه مطولاً، وسلف بعضه ص٣٧٢-٣٧٣ من هذا الجزء.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٥-١٥٦، وما قبله منه.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن له ٤/ ٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن.

ليأكلون الطعامَ، ثم حذف رسلاً؛ لأن في قوله: «مِنَ الْمُرْسَلِينَ» ما يدلُّ عليه. فالموصوف محذوفٌ عند الزجاج، ولا يجوز عنده حذفُ الموصول وتبقيةُ الصلة كما قال الفراء. قال الفراء[١]: والمحذوف «مَن»، والمعنى: إلا مَنْ إنهم لَيأكلون الطعامَ، وشبَّهه بقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] أي: ما منكم إلا مَن هو وارِدُها. وهذا قول الكسائيِّ أيضاً. وتقول العرب: ما بعثتُ إليك مِن الناس إلا مَن إنه لَيطيعك[٢]. فقولك: إنه لَيطيعك صلةُ «مَن».

قال الزجاج[٣]: هذا خطأٌ، لأن مَن موصولةٌ، فلا يجوز حذفها.

وقال أهل المعاني: المعنى: وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا قيل: إنهم ليأكلون؛ دليله قولهُ تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَۚ﴾ [فصلت: ٤٣].

وقال ابن الأنباريِّ[٤]: كسرت «إنَّهم» بعد «إلا» للاستئناف بإضمار واو، أي: إلا وإنهم.

وذهبت فرقةٌ إلى أن قوله: «لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ» كنايةٌ عن الحدث[٥].

قلت: وهذا بليغٌ في معناه، ومثله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ﴾ قرأ الجمهورُ: «يَمْشُونَ» بفتح الياء وسكون الميم وتخفيفِ الشين. وقرأ عليٌّ وابنُ عوف وابنُ مسعود بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة، بمعنى يُدْعَون إلى المشي ويُحملون عليه. وقرأ أبوعبد الرحمن السُّلَميُّ

---

(١) في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٥٦، والرازي في تفسيره ٢٤/ ٦٥.

(٢) في (د) و(ظ) ليعطيك (في الموضعين).

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٦٢، ونقله عنه المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٥٦.

(٤) ذكره عن ابن الأنباري ابنُ الجوزي في زاد المسير ٦/ ٨٠، والرازي في تفسيره ٢٤/ ٦٥، وما قبله فيه بنحوه.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشدّدة، وهي بمعنى يَمْشُونَ؛ قال الشاعر:

أُمَشِّي بأعطان المِيَاه وأَبتغي(١) قلائصَ منها صعبةٌ ورَكُوبُ(٢)

وقال كعب بن زهير:

منه تظلُّ سِباعُ الجَوِّ ضامِزة ولا تُمَشِّي بوادِيهِ الأَراجيلُ(٣)

بمعنى تَمْشي.

الثالثة: هذه الآيةُ أصلٌ في تناول الأسباب وطلبِ المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك. وقد مضَى هذا المعنى في غير موضع، لكنَّا نذكُر هنا مِن ذلك ما يكفي، فنقول: قال لي بعض مشايخ هذا الزمان في كلام جَرَى: إن الأنبياء عليهم الصلاة السلام إنما بُعثوا ليَسُنوا الأسبابَ للضعفاء.

فقلت مجيباً له: هذا قولٌ لا يصدُر إلا من الجهال والأغبياء، والرَّعَاع السفهاء، أومن طاعنٍ في الكتاب والسنة العَلياء، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف، فقال وقولهُ الحقُّ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ قال العلماء: أي يتَّجِرون ويحترفون. وقال عليه الصلاة والسلام: «جُعِل رزقي تحت ظل رُمْحي»(٤).

---

(١) في (م) ومَشَّى بأعطان المباءة وابتغى، ووقع في النسخ الخطية: وأتقي، بدل: وأبتغي، والمثبت من المصدرين الآتيين.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥ ، ونسبه أبو علي القالي في الأمالي ١/ ٢٨ للعلاء بن حذيفة الغَنَوي. قوله: قلائص: هو جمع قَلُوص، وهي من الإبل: الشابَّة، أو الباقية على السير، أو أول ما يُركب من إناثها إلى أن تُثني، ثم هي ناقة، أو الناقة الطويلة القوائم. القاموس (قلص).

(٣) ديوان كعب ص ٩٠ وروايته فيه: منه تظل حمير الوحش ضامزة، وهو في السيرة النبوية ٢/ ٥١٢ وفيه: نافرة، بدل: ضامزة.

والضامز في اللغة: الساكت لا يتكلم، والبعير إذا لم يجتر وأغلق فمه فقد ضمز. تهذيب اللغة ١١/ ٤٨٩ . وقوله الأراجيل: الجماعات من الرجال. الجو: موضع. الإملاء المختصر ٣/ ١٣٨ ، يصف كعبٌ أسداً بأن السباع والأسود والرِّجال تخافه من هيبته، ولا تمشي بالوادي الذي يوجد فيه.

(٤) سلف ١٠/ ١٦٠ .

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

وكان الصحابةُ ﷺ يَتجرون ويحترفون، وفي أموالهم يَعملون، ومَن خالفهم من الكفار يقاتلون؛ أَتُراهم ضعفاءَ! بل هم كانوا واللهِ الأقوياءَ، وبهم الخَلَف الصالحُ اقتدى، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء.

قال: إنما تناولوها لأنهم أئمةُ الاقتداء، فتناولوها مباشرة في حقِّ الضعفاء، فأما في حقِّ أنفسهم فلا؛ وبيان ذلك أصحابُ الصُّفَّة.

قلت: لو كان ذلك لوجب عليهم وعلى الرسول معهم البيانُ؛ كما ثبت في القرآن: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩] الآية. وهذا من البينات والهدى.

وأما أصحاب الصُّفَّة فإنهم كانوا ضيفَ الإسلامِ عند ضِيق الحال، فكان عليه الصلاة والسلام إذا أَتَته صَدقةٌ خصَّهم بها، وإذا أتته هديةٌ أكلها معهم، وكانوا مع هذا يَحتِطبون ويَسُوقون الماءَ إلى أبيات رسولِ الله ﷺ. كذا وصفهم البخاريُّ(١) وغيرُه. ثم لمَّا افتتح اللهُ عليهم البلادَ ومهَّد لهم المهاد تأمَّروا، وبالأسباب أُمِروا.

ثم إن هذا القول يدلُّ على ضعفِ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ؛ لأنهم أُيِّدوا بالملائكة وثُبِّتوا بهم، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدُهم(٢) إذ ذلك سببٌ من أسباب النصر؛ نعوذُ بالله من قولٍ وإطلاقٍ يَؤول إلى هذا، بل القولُ بالأسباب والوسائط سنةُ اللهِ وسنةُ رسولِهِ ﷺ، وهو الحقُّ المبين، والطريقُ المستقيم الذي انعقد عليه إجماعُ المسلمين؛ وإلا كان يكون قولُه الحق: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] الآية؛ مقصوراً على الضعفاء، وجميعُ الخطابات كذلك. وفي التنزيل حيث خاطب موسى الكليمَ: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] وقد كان قادراً على فَلْق البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّىٓ

(١) في صحيحه برقم (٦٤٥٢)، وسلف ١٠/ ١٦٠.

(٢) في (د) و(ظ) و(ف): تثبيتهم.

﴿إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، وقد كان قادراً على سقوط الرُّطَب دون هَزٍّ ولا تعب؛ ومع هذا كلِّه فلا ننكر أن يكون رجل يُلطَفُ به ويُعان، أو تجاب دعوتُه، أو يُكرم بكرامةٍ في خاصة نفسِه أو لأجل غيرِه، ولا تهدُّ لذلك القواعدُ الكلية والأمورُ الجُملية. هيهات هيهات! لا يقال فقد قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فإنَّا نقول: صَدَق اللهُ العظيمُ، وصدَق رسولُه الكريم، وإن الرزقَ هنا المطرُ بإجماعِ أهل التأويل؛ بدليل؛ قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، ولم يشاهَد ينزِّل من السماء على الخلق أطباقَ الخبز ولا جِفانَ اللحم، بل الأسبابُ أصلٌ في وجود ذلك؛ وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «اطلبوا الرزق في خبايا الأرض»(١)، أي: بالحرث والحفْرِ والغرس. وقد يسمى الشيء بما يَؤول إليه، فسمي(٢) المطرُ رزقاً؛ لأنه عنه يكون الرزقُ، وذلك مشهورٌ في كلام العرب. وقال عليه الصلاة والسلام: «لأن يَأخذَ أحدُكم حَبْلَه، فيَحْتَطِبَ على ظهرِه؛ خيرٌ له من أن يسأل أحداً أعطاه أو مَنَعَه»(٣)، وهذا فيما خرَج بغير(٤) تعبٍ من الحشيش والحطب. ولو قُدِّر رَجُلٌ بالجبال منقطعاً عن الناس لَمَا كان(٥) له بُدٌّ من الخروج إلى ما تُخرجه الآكامُ وظهورُ الأعلام حتى يتناول من ذلك ما يَعيش به، وهومعنى قولِهِ عليه الصلاة والسلام: «لو أَنَّكُمْ كُنتم تَوكَّلون على اللهِ حقَّ توكُّله، لَرزقتم كما تُرزق الطيرُ، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً»(٦).

فغدوُّها ورَواحها سببٌ؛ فالعَجَبُ العجب ممن يدَّعي التجريدَ والتوكل على

---

(١) ضعيف، وسلف ٤/ ٣٢٢ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في (م) وسمي.

(٣) سلف ١/ ٣٤٦ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) في (د) و(م) من غير.

(٥) في النسخ الخطية: لكان والمثبت من (م).

(٦) سلف ٧/ ٢٩٧ و ١٠/ ١٥٨-١٥٩.

التحقيق، ويقعدُ على ثَنِيَّاتِ الطريق، ويَدَعُ الطريقَ المستقيم، والمنهجَ الواضحَ القويم.

ثبَت في البخاريّ[١] عن ابن عباسٍ قال: كان أهلُ اليمن يَحجُّون ولا يَتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدموا [مكة] سألوا الناسَ؛ فأنزل اللهُ تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾. ولم يُنقل عن النبيِّ ﷺ وأصحابِه ـ رضوان الله عليهم ـ أنَّهم خرَجوا إلى أسفارهم بغير زَادٍ، وكانوا المتوكِّلين حَقًّا.

والتوكل: اعتمادُ القلب على الرَّبِّ في أن يَلمَّ شعَثَه ويَجمعَ عليه أرَبَه؛ ثم يتناول الأسبابَ بمجرد الأمر، وهذا هو الحقُّ.

سأل رجلٌ الإمام أحمدَ بن حنبل فقال: إني أريد الحجَّ على قدم التوكل. فقال: اخرج وحدَك، فقال: لا، إلاَّ مع الناس. فقال له: أنت إذن متَّكلٌ على أجربتهم[٢]. وقد أتينا على هذا في كتاب «قمع الحرص بالزهد والقناعة، وردُّ ذلِّ السؤال[٣] بالكسب والصناعة»[٤].

الرابعة: خَرَّج مسلمٌ عن أبي هريرة أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أحبُّ البلادِ إلى اللهِ مساجدُها، وأبغضُ البلاد إلى اللهِ أسواقها»[٥].

وخرَّج البزَّار[٦] عن سلمان الفارسيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكوننَّ ـ إن استطعتَ ـ أولَ مَن يَدخل السُّوقَ، ولا آخِرَ من يَخرجُ منها، فإنَّها معركةُ الشيطان، وبها

(١) في صحيحه (١٥٢٣) وما بين معقوفتين منه، وسلف٣/ ٣٢٨.

(٢) ذكره ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص١٤١ و٢٧٤-٢٧٥، وسلف ٣/ ٣٢٩. وقوله: أجربتهم ـ الجراب: المزود أو الوعاء، ويجمع أيضاً على جُرُب، القاموس «جرب».

(٣) في (د) الناس.

(٤) في (د) و(ظ) و(ف) بالكتب والشفاعة وفي (ز) بالكسب والشفاعة. وجاء في ذيل كشف الظنون ٤/ ٢٤١ بالكف والشفاعة، وقال: إن القرطبي: رتبه على أربعين باباً في التفسير والحديث.

(٥) صحيح مسلم برقم (٦٧١).

(٦) في مسنده (٢٥٤١)، وأخرجه أيضاً مسلم (٢٤٥١).

يَنصبُ رايته». أخرجه أبوبكر البَرْقانيُّ مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ ـ من رواية عاصم ـ عن أبي عثمان النهديِّ، عن سلمان قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تكن أولَ مَن يدخلَ السُّوقَ ولا آخرَ مَن يَخرج منها، فبها باضَ الشيطانُ وفرَّخ»[١].

ففي هذه الأحاديث ما يدلُّ على كراهة دخول الأسواق، ولا سيما في هذه الأزمان التي يُخالط فيها الرجال النسوان[٢]. وهكذا قال علماؤنا لمآ كثُرَ الباطلُ في الأسواق وظهَرت فيها المناكرُ: كُره دخولُها لأرباب الفضلِ والمقتدَى بهم في الدِّين؛ تنزيهاً لهم عن البقاع التي يُعصى اللهُ فيها[٣]. فحقّ على من ابتلاه اللهُ بالسُّوق أن يخطر بباله أنه قد دخَل محلَّ الشيطان ومحلَّ جنودِه، وأنه إن أقام هناك هَلك، ومن كانَت هذه حالُه اقتصر منه على قدر ضرورته، وتحرَّز من سُوء عاقبته وبَليته[٤].

الخامسة: تشبيه النبيِّ ﷺ السوقَ بالمعركة تشبيهٌ حسن، وذلك أنَّ المعركةَ موضعُ القتال، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومُصارعةِ بعضهم بعضاً. فشبَّه السوقَ وفعلَ الشيطانِ بها ونيلَه منهم ـ بما[٥] يَحملهم [عليه] من المكر والخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة، والكذِب والأيمان الكاذبة، واختلاطِ الأصوات وغيرِ ذلك ـ بمعركة الحرب، ومن[٦] يصرع فيها.

السادسة: قال ابنُ العربيِّ[٧]: أما أكلُ الطعام فضرورةُ الخلق، لا عارَ ولا دَرَكَ فيه[٨]، وأما الأسواقُ فسمعت مشيخةَ أهل العلم يقولون: لا يَدخل إلا سوقَ الكتب

---

(١) ٣٠١/١٣ .

(٢) جاءت العبارة في (ظ) : .. تخالَط فيها الرجال والنسوان .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٢ .

(٤) المفهم ٦/ ٣٥٩ .

(٥) في (م) : مما والمثبت من (د) و(ظ) و(ف) والمفهم ٦/ ٣٥٨-٣٥٩ ، والكلام وما بين حاصرتين منه .

(٦) في (ظ) : فيمن .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٣ .

(٨) أي: لا تَبِعةَ فيه.

والسلاح. وعندي أنه يَدخل كلَّ سوقٍ للحاجة إليه ولا يَأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاطٌ للمروءة، وهدمٌ للحِشمة؛ ومِن الأحاديث الموضوعةِ: «الأكل في السوق دناءة»[1].

قلت: ما ذَكَرته مشيخةُ أهل العلم فنِعَّما هو، فإنّ ذلك خالٍ عن النظر إلى النّسوان ومخالطتهِنّ، إذ ليس ذلك[2] من حاجتهنّ. وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهنّ، وقلّةُ الحياءِ قد غلبت عليهنّ، حتى ترى المرأةَ في القيساريات[3] وغيرهن قاعدةً متبرجة بزينَتِها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا، نعوذُ بالله من سخطه.

السابعة: خرَّج أبو داود الطيالسيُّ في مسنده[4]: حدَّثنا حماد بنُ زيد قال: حدَّثنا عمرو بن دينار ـ قهرمان[5] آل الزبير ـ عن سالم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب قال: «من دخل سوقاً من هذه الأسواق فقال: لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير، كتب الله له ألفَ ألفِ حسنة، ومحا عنه ألفَ ألفِ سيئةٍ، وبنى له قصراً في الجنة». خرَّجه الترمذيُّ أيضاً وزاد بعد «ومحا عنه ألفَ ألفِ سيئةٍ»: «ورفع له ألفَ ألفِ درجة». في رواية[6]: «وبنى له بيتاً في الجنة». وقال: هذا حديثٌ غريب[7]. قال

(١) أخرجه عبد بن حميد (١٤٤٤)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢١٥٠، والخطيب البغدادي في تاريخه ٣/ ١٦٣ و٧/ ٢٨٣، وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٣٥ من حديث أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير ٨/ ٢٤٩ (٧٩٧٧)، وابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٧٠، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ١٩٢، وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٣٦ من حديث أبي أمامة ﷺ.
قال ابن الجوزي: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وقال العقيلي: ولا يثبت في هذا الحديث شيء عن النبي ﷺ.

(٢) في (م) بذلك.

(٣) جمع قيسارية، وهي الخان الكبير الذي يشغله التجار والمسافرون، وقد يشتمل على سوق مسقوفة. معجم المصطلحات والألقاب التاريخية: ٣٥٧.

(٤) ص٤.

(٥) هو كالخازن والوكيل والحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل، بلغة الفرس. النهاية (قهرم).

(٦) عبارة: في رواية، من (د) و(ظ).

(٧) سنن الترمذي (٣٤٢٨) و(٣٤٢٩)، قال الترمذي: وعمرو بن دينار هذا هو شيخ بصري، وقد تكلم فيه بعض أصحاب الحديث من غير هذا الوجه.

ابن العربيّ[١]: وهذا إذا لم يَقصد في البقعة سواه[٢] ليعمرها بالطاعة إذ عُمرت بالمعصية ولِيحلِّيها بالذِّكر إذ عُطلت بالغفلة، وليعلِّم الجَهَلةَ ويذكِّرَ الناسين.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: إن الدنيا دارُ بلاء وامتحان، فأرَاد سبحانه أن يَجْعَل بعضَ العبيد فتنةً لبعضٍ على العموم في جميع الناس مؤمنٍ وكافر، فالصحيحُ فتنةٌ للمريض، والغنيُّ فتنةٌ للفقير، والفقير الصابر فتنة للغنيّ[٣]. ومعنى هذا أن كلَّ واحدٍ مختبَرٌ بصاحبه، فالغنيُّ ممتحَن بالفقير، عليهِ أن يواسِيَه ولا يسخرَ منه. والفقيرُ ممتحَن بالغنيّ، عليه ألا يحسدَه ولا يأخذَ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبرَ كلٌّ واحدٍ منهما على الحقِّ؛ كما قال الضحاك في معنى «أَتَصْبِرُونَ» أي: على الحق[٤].

وأصحابُ البلايا يقولون: لِمَ لم نُعَافَ؟ والأعمى يقول: لِمَ لمْ أُجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كلِّ آفةٍ[٥].

والرسولُ المخصوصُ بكرامة النبوَّة فتنةٌ لأشراف الناس من الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكَّام العدل[٦]. ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فالفتنةُ أن يَحسُدَ المبتلَى المعافى، ويَحقِر المعافَى المبتلى. والصبرُ أن يَحبِس كلاهما نفسَه، هذا عن البَطَر، وذاك عن الضَّجَر.

«أَتَصْبِرُونَ» محذوف الجواب، يعني أم لا تَصبرون. فيقتضي جوابًا كما قاله

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٣.

(٢) أي سوى الله سبحانه وتعالى.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٦.

(٥) أخرج نحواً من هذا الكلام الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٤، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٥ (١٥٠٤٧)، والبيهقي في الشعب (١٠٠٧٢) عن الحسن.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

المزَنيُّ وقد أخرَجته الفاقةُ، فرأى خَصِيًا في مراكب ومناكب، فَخَطَر بباله شيءٌ فسمِع مَن يقرأ الآية: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ فقال: بلى ربَّنا! نصبرُ ونَحتَسِب[١].

وقد تلا ابنُ القاسم صاحبُ مالك هذه الآيةَ حين رأى أشهبَ بن عبد العزيز في مملكته عابراً عليه، ثم أجاب نفسه بقوله: سَنَصْبِر[٢].

وعن أبي الدرداء أنه سمِع النبيَّ ﷺ يقول: «ويلٌ للعالم من الجاهل، وويلٌ للجاهل من العالم، وويلٌ للمالك من المملوك، وويلٌ للمملوك من المالك، وويلٌ للشديد من الضعيف، وويلٌ للضعيف من الشديد، وويلٌ للسلطان من الرَّعيَّة، وويلٌ للرَّعيَّة من السلطان، وبعضُهم لبعضٍ فتنةٌ، وهو قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾» أسندَه الثعلبيُّ تغمَّده الله برحمته[٣].

وقال مقاتل: نزَلت في أبي جهلِ بن هشام، والوليد بنِ المغيرة والعاص بن وائل، وعقبة بن أبي مُعَيط، وعُتْبة بن ربيعة، والنضرِ بن الحارثِ حين رَأَوا أبا ذرٍّ وعبدَ الله ابن مسعود، وعماراً وبلالاً وصُهَيباً وعامرَ بن فُهَيرة، وسالماً مولى أبي حُذَيفة ومِهْجَعاً مولى عمر بن الخطاب وجبراً مولى الحضْرَمي، وذويهم، فقالوا على سبيل الاستهزاء: أَنُسلمُ فنكونَ مثل هؤلاء؟ فأنزل الله تعالى يخاطب هؤلاء المؤمنين: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ على ما تَرَون من هذه الحال الشديدةِ والفقر[٤]، فالتوقيف بـ«أَتَصْبِرونَ» خاصٌ للمؤمنين المحقِّين من أمة محمدٍ ﷺ. كأنه جعل إمهالَ الكفار والتوسعةَ عليهم فتنةً للمؤمنين، أي: اختباراً لهم[٥]. ولمَّا صبَر المسلمون أنزَل اللهُ فيهم: ﴿إِنِّي

(١) ذكر الخطَّابيُّ في كتاب العزلة ص١٠٥-١٠٦ نحو هذه القصة عن المزني، وفيها أن ابن عبد الحكم أقبل في موكبه، فبهره ما رأى .. فتلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ ...

(٢) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥ دون قوله: في مملكته عابراً عليه.

(٣) أخرجه البزار (٣٤٤٢كشف)، وأبو يعلى في مسنده (٤٠٠٩)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٥٥ من رواية الأعمش عن أنس ﷺ. والأعمش لم يرو عن الصحابة، ينظر جامع التحصيل ص٢٢٨-٢٢٩.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٥، وذكر سبب النزول أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٣٨، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٨٧.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

﴿جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [المؤمنون: ١١١].

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بكلِّ امرئٍ وبمن يَصبر أو يَجزع[(١)]، وبمن يؤمن ومن لا يؤمن، وبمن أدَّى ما عليه من الحقِّ ومن لا يُؤدِّي[(٢)].

وقيل: «أَتَصْبِرُونَ» أي: اصبروا[(٣)]. مثل: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] أي: انتهوا، فهو أمرٌ للنبيِّ ﷺ بالصبر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يريدُ: لا يَخافون البعثَ[(٤)] ولقاءَ الله، أي: لا يؤمنون بذلك.

قال:

إذا لَسَعَته النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَهَا ... وخالَفَها في بيت نُوبٍ عَوامِلِ[(٥)]

وقيل: «لَا يَرْجُونَ»: لا يُبالون. قال:

لَعمركَ ما أرجو إذا كنتُ مُسْلِماً ... على أيِّ جَنْبٍ كان في اللهِ مَصْرَعي[(٦)]

ابن شجرة: لا يأملون؛ قال:

أترجو أُمَّةٌ قتلتْ حُسَيناً ... شفاعةَ جدِّه يومَ الحسابِ[(٧)]

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٥.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٧/ ٤٢٥.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٦.

(٤) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٥.

(٥) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وسلف ٣/ ٤٣٣.

(٦) قائله خبيب بن عدي ﷺ، وهو في السيرة النبوية ٣/ ١٧٦ وسلف بنحوه ١٣/ ٣٤٤.

(٧) البيت أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣/ ١٢٣ (٢٨٧٣)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق =

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾ أي: هلَّا أُنزل. ﴿عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيخبروا أن محمداً صادقٌ. ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ عِياناً فيخبرنا برسالته[١]. نظيرُه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قوله: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]. قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ حيثُ سألوا اللهَ الشَّططَ؛ لأنَّ الملائكةَ لا تُرى إلا عندَ الموت، أو عند نزولِ العذاب، واللهُ تعالى لا تُدركه الأبصارُ، وهو يدركُ الأبصارَ، فلا عينٌ تراه. وقال مقاتل: «عُتُوًّا» علوًّا في الأرض. والعتوُّ: أشدُّ الكفر وأفحش الظلم[٢]. وإذا[٣] لم يكتفوا بالمعجزات وهذا القرآن، فكيف يكتفون بالملائكة؟ وهم لا يميزون بينهم وبين الشياطين، ولابدَّ لهم من معجزة يُقيمها من يَدَّعي أنه مَلَكٌ، وليس للقوم طلبُ معجزةٍ بعد أن شاهدوا معجزةً، وأن ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يريد أن الملائكة لا يراها أحدٌ إلا عند الموت[٤]: فتبشر المؤمنين بالجنة، وتضرب المشركين والكفار بمقامع الحديد حتى تَخرج أنفسهم. ﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ يُريد تقول الملائكة: حراماً محرَّماً أن يدخل الجنة إلا من قال: لا إلهَ إلا اللهُ، وأقام شرائعَها، عن ابن عباس وغيرِه[٥].

وقيل: إن ذلك يوم القيامة، قاله مجاهد[٦] وعطية العوفيُّ. قال عطية: إذا كان

= ١٤/ ٢٤٣، والمزي في تهذيب الكمال ٢/ ١٩٤-١٩٥، وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي قبيل وابن لهيعة صدوق خلط بعد احتراق كتبه، وأبو قبيل صدوق يَهم. كما في تقريب التهذيب.

وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب على هامش الإصابة ٣/ ١١٨ قائلاً: وهذا البيت زعموا قديماً ولا يدرى قائله، وذكره برهان الدين الوطواط في غرر الخصائص ص٣٣٨، والهيثمي في المجمع ٩/ ١٩٩ وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه.

والأبيات الثلاثة في النكت والعيون٤/ ١٣٩.

(١) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٥.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٥.

(٣) في(ظ) و(ف) وإذ.

(٤) النكت والعيون٤/ ١٤٠.

(٥) ذكره عنه الواحدي في الوسيط٣/ ٣٣٨، والبغوي في تفسيره٣/ ٣٦٥.

(٦) تفسيره ٢/ ٤٤٩.

يوم القيامة تلقى المؤمن بالبشرى، فإذا رأى ذلك الكافرُ تمناه، فلم يره من الملائكة[١].

وانتصب «يَوْمَ يَرَوْنَ» بتقدير: لا بشرى للمجرمين يومَ يَرون الملائكة. «يومَئِذٍ» تأكيدٌ لـ «يَوْمَ يَرَوْنَ»[٢]. قال النحاس[٣]: لا يَجوز أن يكون «يَوْمَ يَرَوْنَ» منصوباً بـ «بُشْرَى» لأنَّ ما في خبر[٤] النفي لا يَعمل فيما قبله، ولكن فيه تقدير أن يكون المعنى: يُمنعون البشارة يومَ يرون الملائكة؛ ودلَّ على هذا الحذف ما بعده.

ويجوز أن يكون التقدير: لا بشرى تكون «يومَ يرون الملائكة» و«يَوْمَئِذٍ» مؤكدٌ. ويجوز أن يكون المعنى: اذكر يومَ يرون الملائكة، ثم ابتدأ فقال: «لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا» أي: وتقول الملائكة: حَراماً محرَّماً أن تكون لهم البشرى إلا للمؤمنين. قال الشاعر:

أَلَا أَصْبَحَتْ أَسماءُ حِجْراً مُحَرَّماً وأَصْبَحْتُ من أَدْنَى حُمُوَّتِها حَمَا

أراد: أَلَا أصبحت أسماءُ حراماً محرَّماً[٥].

وقال آخر:

حَنَّت إلى النَّخْلَةِ القُصْوى فقلتُ لها حِجْرٌ حرامٌ أَلَا تِلْكَ الدَّهارِيسُ[٦]

(١) النكت والعيون٤/ ١٤٠ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٣ .

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٦ .

(٤) في(د) و(م) حيز ... والمثبت من(ز) و(ظ) و(ف) وإعراب القرآن .

(٥) الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٨٠٣-٨٠٤ ، وقائل البيت عبد الله بن عجلان كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/ ٧١٦ ، وعيون الأخبار٤/ ١٣١ ، والأغاني للأصبهاني ٢٢/ ٢٤٢ بلفظ: ألا إن هنداً أصبحت منك محرماً ...، وذكر البيت ابن منظور في اللسان (حمو) دون نسبة .

(٦) البيت للمتلمس بن جرير ، ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٧٣ ، والمبرد في الفاضل ص٧٨ ، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٧ ، والماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٤١-١٤٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦ ، وابن الشجري في المختارات ١/ ٣٢ ، واللسان (دهرس)، ولفظه عند المبرد وابن الشجري: بسل .. بدل حجر، وقوله: الدهاريس، أي: الدواهي.

ورويَ عن الحسن أنه قال: «وَيَقُولُونَ حِجْراً» وقفٌ من قول المجرمين، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: «مَحْجُورًا» عليهم أن يُعاذوا أو يُجاروا؛ فحجَر اللهُ ذلك عليهم يومَ القيامة. والأول قولُ ابن عباس. وبه قال الفرَّاء؛ قاله ابن الأنباريّ[١].

وقرأ الحسن وأبورجاء: «حُجْرًا» بضم الحاء، والناسُ على كسرها[٢].

وقيل: إنَّ ذلك من قول الكفار؛ قالوه لأنفسهم؛ قاله قتادة فيما ذكر الماورديُّ[٣].

وقيل: هو من قول الكفار للملائكة[٤].

وهي كلمةُ استعاذة، وكانت معروفةً في الجاهلية؛ فكان إذا لقيَ الرجلُ مَن يَخافُه قال: حجراً محجوراً، أي: حراماً عليك التعرُّضُ لي[٥].

وانتصابه على معنى: حَجَرتُ عليك؛ أو حجَر اللهُ عليك؛ كما تقول: سُقْياً ورعياً[٦]. أي إن المجرمين إذا رأوا الملائكةَ يُلقونهم في النار قالوا: نَعُوذُ بالله منكم؛ ذكره القشيريُّ، وحكى معناه المهدويُّ عن مجاهد[٧].

وقيل: «حِجْرًا» من قول المجرمين. «مَحْجُورًا» من قول الملائكة، أي: قالوا للملائكة: نعوذُ باللهِ منكم أن تَعرَّضوا لنا. فتقول الملائكة: «محَجُورًا» أن تُعاذوا من شرِّ هذا اليوم؛ قاله الحسن[٨].

---

(١) في بيان الوقف والابتداء ٢/ ٨٠٤ ، وبنحوه في المكتفى للداني ص٤١٦ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٠٤عن الحسن والضحاك .

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١٤١ .

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٩-٤٣٠ عن ابن جُريج .

(٥) أخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٦٧ ، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٢٨ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٨ (١٥٠٦٤) عن الحسن وقتادة.

(٦) ينظر الكتاب ١/ ٣٢٥ ، والكشاف ٣/ ٨٨ .

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٣/ ٣٦٥ بنحوه.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦ ، وتفسير الرازي ٢٤/ ٧١ .

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾ هذا تنبيهٌ على عِظم قَدرِ يوم القيامة، أي: قَصَدنا في ذلك إلى ما كان يَعمله المجرمون من عملِ برٍّ عند أنفسهم. يقال: قَدِم فلانٌ إلى أمر كذا، أي: قصده. وقال مجاهد: «قَدِمْنَا» أي: عَمدنا[١]. وقال الراجز:

وقَــدِم الــخــوارجُ الــضُّــلَّالُ إلـى عِـبـاد ربِّـهـم فـقـالـوا

إن دمــاءكــم لــنــا حَــلالُ[٢]

وقيل: هو قُدوم الملائكة[٣]، أخبر به عن نفسه تعالى فاعلُه.

﴿فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي: لا يُنتَفَعُ به، أي: أَبطلناه بالكفر. وليس «هَبَاءً»من ذوات الهمز وإنما هُمِزت لالتقاء الساكنين. والتصغير: هُبَيّ في موضع الرفع، ومن النحويين مَن يقول: هُبيّ في موضع الرفع؛ حكاه النحاسُ[٤]. و واحده هباءة والجمع أهباء. قال الحارث بن حِلِّزة يصف [ناقةً]:

فَـتَـرى خـلْـفَـهـا مـن الـرَّجـع والـوَقْـ ـعِ مَـنِـيـنـاً كـأنـه أهـبـاءُ[٥]

وروى الحارث عن عليٍّ قال: الهباء المنثورُ: شعاعُ الشمس الذي يَدخل من الكُوَّة[٦].

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٤٩، وأخرجه عنه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣١، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٨ (١٥٠٦٥).

(٢) الرجز في مجاز القرآن ٢/ ٧٤، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٣٠، والنكت والعيون ٤/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦، ومجمع البيان للطبرسي ١٩/ ١٠٠ دون نسبة.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٧.

(٥) شرح المعلقات العشر للنحاس ص٥٧، وقال في شرحه: «الرَّجع»: رجع قوائمها. «الوقع»: وقع خفافها. «المنين»: الغبار الضعيف كأنه الذي ذهبت مُنّتُه، أي: قوته.

(٦) ذكره عنه أبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٥٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٨٣، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٩ (١٥٠٧١)

وقال الأزهريُّ(١): الهَباءُ: ما يَخرج من الكُوَّة في ضوء الشمس؛ شبيهٌ بالغبار. تأويله: إنَّ الله تعالى أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور. فأما الهباءُ المنبثُّ فهوما تُثيره الخيلُ بسنابكها من الغبار. والمنبثّ: المتفرِّق. وقال ابن عرفة: الهبوَة والهبَاء: التراب الدقيق. الجوهريُّ(٢): ويقال له إذا ارتفع هبَا يَهْبُو هُبُوّاً، وأهبيته أنا. والهَبْوة: الغَبَرة. قال رؤبة:

تَبْدُو لنا أعلَامُه بعدَ الغَرَقْ ... في قِطَعِ الآلِ وهَبْوَاتِ الدُّقَقْ(٣)

وموضعٌ هابي التراب، أي: كأن ترابه مثل الهباءِ في الرِّقَّة.

وقيل: إنه ما ذَرَته الرياحُ من يابس أوراقِ الشجر؛ قاله قتادة وابن عباس. وقال ابن عباس أيضاً: إنه الماء المُهراق. وقيل: إنه الرَّماد؛ قاله عبيدُ بن يعلى(٤).

قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾

تقدم القول فيه عند قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ [الفرقان: ١٥]. قال النحاس(٥): والكوفيون يُجيزون: «العسل أحلى من الخل» وهذا قولٌ مردودٌ؛ لأن معنى «فلان خيرٌ من فلان» أنه أكثر خيراً منه، ولا حلاوةَ في الخَلِّ. ولا يجوز أن يقول(٦): النصرانيُّ خيرٌ من اليهودي؛ لأنه لا خيرَ فيهما فيكون أحدهما أزيدَ في الخير [من الآخر]. ولكن يقال: اليهوديُّ شرٌّ من النصراني؛ فعلى هذا كلامُ العرب.

---

(١) في تهذيب اللغة ٦/ ٤٥٤-٤٥٥ بنحوه.

(٢) في الصحاح (هبو).

(٣) ديوان رؤبة ص١٠٤ والدُّقق: جمع دُقَّة، وهو التراب الليِّن الذي كَسَحَتْه الريح من الأرض. الصحاح (دقق).

(٤) النكت والعيون ٤/ ١٤١، وأخرج قول قتادة وابن عباس الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٣.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٤، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في (م) والنسخ عدا (د) يقال. والمثبت من(د) وإعراب القرآن.

و«مُسْتَقَرًّا» نصب على الظرف إذا قدِّر على غير باب «أفعل منك» والمعنى: لهم خير في مستقر. وإذا كان من باب «أفعل منك» فانتصابه على البيان؛ قاله النحاس[(١)] والمهدويُّ.

قال قتادة: «وَأَحْسَنُ مَقِيلاً»: منزلاً ومأوًى[(٢)].

وقيل: هو على ما تعرفه العربُ من مقيلِ نصفِ النهار[(٣)]. ومنه الحديثُ المرفوع: «إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يفرغ من حساب الخلق في مقدار نصف يوم، فَيَقِيلُ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار» ذكره المهدوِيُّ[(٤)].

وقال ابن مسعود: لا يَنتصف النهارُ يومَ القيامة من نهارِ الدنيا حتى يَقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، ثم قرَأ: «ثم إن مقِيلهم لإلى الجحيم» كذا هي في قراءة ابنِ مسعود[(٥)]. وقال ابن عباس: الحساب من ذلك اليوم في أوله، فلا يَنتصف النهارُ من يوم القيامة حتى يَقيل أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار[(٦)].

ومنه ما روي: «قِيلوا فإنَّ الشياطين لا تَقِيل»[(٧)] وذكر قاسم بن أصبغ، من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة»

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٥٧ .

(٢) أخرجه عنه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨١ (١٥٠٨٤) .

(٣) زاد المسير ٦/ ٨٤ .

(٤) وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٣١٤)، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٤ ، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٣٢ عن الأعمش ، عن إبراهيم النخعي قوله، ولفظه كانوا يرون أنه يُفرغ من حساب الناس. . .

(٥) أخرجه عنه في الزهد (١٣١٣)، والطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٥ ، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٠ (١٥٠٧٩)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٠٢ .

(٦) ذكره أبو الليث السمرقندي ٣/ ٤٥٨ ، والواحدي في الوسيط٣/ ٣٣٨ ، وأخرجه عنه بنحوه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٥ .

(٧) أخرجه الأصبهاني في أخبار أصبهان١/ ٣٥٣ ، والطبراني في الأوسط (٢٨) من حديث أنس ﷺ وذكره ابن حبان في المجروحين ٢/ ١٦٨ في ترجمة عباد بن منصور الناجي، والهيثمي في المجمع ٨/ ١١٢ ، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه كثير بن مروان وهو كذاب.

فقلت: ما أطول هذا اليوم. فقال النبيُّ ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه لَيُخَفَّفُ عن المؤمن حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةِ المكتوبة يُصلِّيها في الدنيا»[١].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي: واذكر يومَ تشقَّق السماء بالغمام. وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائيُّ وأبو عمرو: «تَشَقَّقُ»[٢] بتخفيف الشين، وأصله تتشقَّق بتائين، فحذفوا الأولى تخفيفاً، واختاره أبوعبيد. الباقون: «تَشَّقَّقُ» بتشديد الشين على الإدغام، واختاره أبو حاتم. وكذلك في «ق»[٣].

«بِالْغَمَام» أي: عن الغمام. والباءُ و«عن» يتعاقبان، كما تقول: رميت بالقوس، وعن القوس[٤].

وروي أن السماء تتشقق عن سحاب أبيض رقيقٍ مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تِيهِهم، فتنشق السماءُ عنه؛ وهو الذي قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[٥] [البقرة: ٢١٠].

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مِن السماوات، ويأتي الربُّ جلَّ وعزَّ في الثمانية الذين يَحملون العرشَ لفصل القضاء، على ما يَجوز أن يُحملَ عليه إتيانُه؛ لا على ما تُحمل عليه صفاتُ المخلوقين من الحركة والانتقال[٦]. وقال ابن عباس: تتشقق سماء الدنيا، فيَنزل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١٧١٧)، قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٣٧: رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في راويه. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٨: وسنده حسن.

(٢) قراءة عاصم وحمزة والكسائي وأبي عمرو في السبعة ص٤٦٤، والتيسير ص١٦٣، وقراءة الأعمش، في معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٧. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٧.

(٣) في قوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ الآية ٤٤.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٦، وبنحوه في تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٨٩، وأخرجه الطبري في تفسير ١٧/ ٤٣٧، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٢ (١٥٠٨٨) عن مجاهد.

(٦) صفة الإتيان ثابتة لله عز وجل على الوجه الذي يليق به، من غير تشبيه ولا تأويل ولا تحريف.

أهلُها وهم أكثرُ ممن في الأرض من الجنّ والإنس، ثم تنشق السماء الثانية، فيَنزل أهلها وهم أكثر ممن في سماء الدنيا، ثم كذلك حتى تنشق السماء السابعةُ، ثم يَنزل الكَروبيُّون وحملةُ العرش[١]؛ وهو معنى قوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي: من السماء إلى الأرض لحسابِ الثَّقَلين.

وقيل: إن السماء تَنشقُّ بالغمام الذي بينها وبين الناس؛ فبتشقق الغمام تتشقق السماءُ[٢]؛ فإذا انشقت السماءُ انتَقَض تركيبُها وطُويت، ونزلت الملائكةُ إلى مكانٍ سواها.

وقرأ ابنُ كثير: «وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ» بالنصب من الإنزال. الباقون: «وَنُزِّلَ المَلَائِكَةُ» بالرفع[٣]. دليلهُ: «تَنْزِيلاً». ولو كان على الأول لقال: إنزالاً. وقد قيل: إن نَزَّل وأنزل بمعنى، فجاء «تَنْزِيلًا» على «نَزَّل». وقد قرأ عبدُ الوهَّاب عن أبي عمرو: «وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا»[٤]. وقرأ ابنُ مسعود: «وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ». وأبيّ بن كعب: «وَنُزِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ». وعنه: «وتَنَزَّلت الْمَلَائِكَةُ»[٥].

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ «المُلْكُ» مبتدأ، و«الْحَقُّ» صفة له و«لِلرَّحْمَنِ» الخبر[٦]؛ لأن المُلك الذي يَزول ويَنقطع ليس بمُلْكٍ، فبطَلت يومئذٍ أملاكُ المالكين وانقطَعت دعاويهم، وزال كلُّ مَلِك ومُلكه، وبقي المُلْكُ الحقُّ للهِ

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٤٥٠-٤٥١، وأخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٣٨، وابن أبي حاتم ٨/ ٣٦٨٢ (١٥٠٨٩)، والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٦٩، بنحوه. قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: مداره على علي بن زيد بن جُدعان وفيه ضعف، وفي سياقه غالباً نكارة شديدة.

(٢) في (د) و(ف): فيتشقق الغمام بتشقق السماء.

(٣) السبعة ص٤٦٤، والتيسير ص١٦٤.

(٤) المحتسب ٢/ ١٢١، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٧. قال ابن جني: هذا غير معروف؛ لأن «نَزَلَ» لا يتعدى إلى مفعول به. انتهى كلامه، والقراءة المشهورة عن أبي عمرو كقراءة الجماعة.

(٥) القراءات الشاذة ص ١٠٤.

(٦) البيان لابن الأنباري ٢/ ٢٠٤.

وحدَه[١]. ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: لِما يَنالهم من الأهوال ويَلحقُهم من الخِزي[٢] والهوان، وهو على المؤمنين أخفُّ من صلاةٍ مكتوبة[٣]؛ على ما تقدَّم في الحديث. وهذه الآية دالَّةٌ عليه؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيراً؛ فهو على المؤمنين يسيِّر. يقال: عَسِر يَعْسَر، وعَسُر يَعسُر[٤].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ الماضي: عَضِضت. وحكى الكِسائيُّ: عَضَضت بفتح الضَّادِ الأُولى.

وجاء التوقيف عن أهل التفسير، منهم ابنُ عباس وسعيد بنُ المسيب أنَّ الظالم ها هنا يراد به عقبة بنُ أبي مُعَيط، وأنَّ خليلَه أمية بنُ خلف؛ فعقبةُ قتله عليُّ بن أبي طالب ﷺ[٥]؛ وذلك أنه كان في الأُسارى يومَ بدر، فأمر النبيُّ ﷺ بقتله، فقال: أَأُقتل دونَهم؟ فقال: نعم، بكفرك وعتوِّك. فقال: مَن للصِّبْية؟ فقال: النار. فقام عليٌّ ﷺ فقتله[٦]. وأميةُ قتله النبيُّ ﷺ[٧]، فكان هذا من دلائل نبوَّةِ النبيِّ ﷺ؛ لأنه خبَّر عنهما بهذا، فقُتلا على الكفر. ولم يسمَّيا في الآية؛ لأنه أبلغ في الفائدة، ليُعلَمَ أنَّ هذا

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٩ .

(٢) في (د): الحزن.

(٣) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ٣٣٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٨ ، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٤٥٨ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٨ ، وقد سلف الكلام على قتل عقبة ١٠/ ٢٣ و٧٦ و١١/ ٢٩٣ .

(٦) أخرجه عبد الرزاق (٩٣٩٤) و(٩٧٢٨) .

(٧) في مغازي الواقدي ١/ ١٥١ أن الذي قتل أميةَ خبيبُ بنُ يساف وبلالٌ، وبمعناه في سيرة ابن هشام ١/ ٦٣٢ . وفي السيرة أيضاً ٢/ ٨٤ أن النبي ﷺ قتل أُبيَّ بن خلف؛ طعنه في عنقه يوم أحد طعنةً، تدحرج منها عن فرسه، ومات منها بسَرِف وهم قافلون به إلى مكة.

سبيلُ كلِّ ظالمٍ قَبِلَ[١] مِن غيره في معصية الله عزَّ وجلَّ.

قال ابن عباس وقتادةُ وغيرهما: وكان عقبة قد همَّ بالإسلام، فمنعه منه أُبيُّ بن خلف وكانا خِدْنَين، وأنَّ النبي ﷺ قتلهما جميعاً، قُتل عقبةُ يومَ بدرٍ صبراً، وأبيُّ بن خلف في المبارزة يومَ أُحد[٢]؛ ذكره القشيريُّ والثعلبيّ، والأول ذكره النحَّاس.

وقال السُّهيلي[٣]: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ» هوعقبة بنُ أبي مُعَيط، وكان صديقاً لأمية بنِ خلفٍ الجُمَحيّ ـ ويروى لأُبي بن خلف أخي أمية ـ وكان قد صنع وليمةً، فدعا إليها قريشاً، ودعا رسولَ الله ﷺ، فأبى أنْ يأتيَه إلاَّ أنْ يُسلِم. وكَرِه عقبةُ أن يتأخَّرَ عن طعامه مِن أشراف قريشٍ أحدٌ، فأسلم ونطق بالشهادتين[٤]، فأتاه رسولُ الله ﷺ، وأكل من طعامه، فعاتبه خليلُه أمية بنُ خلف ـ أو أبيُّ بن خلف ـ وكان غائباً. فقال عقبة: رأيتُ عظيماً ألَّا يَحضُرَ طعامي رجلٌ من أشراف قريش. فقال له خليله: لا أرضى حتى ترجعَ وتبصُقَ في وجهه وتطأ عنقَه[٥] وتقول كيت وكيت. ففعل عدو الله ما أمره به خليلُه؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾[٦].

قال الضحَّاك[٧]: لمَّا بصق عقبةُ في وجه رسولِ الله ﷺ، رجع بصاقُه في وجهه وشوى وجهَه وشفتيه، حتى أثَّر في وجهه، وأحرق خدَّيه، فلم يزل أثرُ ذلك في وجهه

---

(١) في (د) و(ظ): قتل، وهي غير منقوطة في (ز)، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٥٨، والكلام منه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٩٧٣١) عن مقسم مولى ابن عباس مطولاً، ومن طريقه أخرجه الطبري ١٧/ ٤٤٠، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٧-٣٤٨ .

(٣) في التعريف والإعلام ص١٢٣ .

(٤) قوله: ونطق بالشهادتين، ليس في التعريف والإعلام.

(٥) قوله: وتطأ عنقه ، ليس في التعريف والإعلام.

(٦) كذا أخرجه أبو نعيم في الدلائل (٤٠١) من طريق ابن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا إسناد ضعيف جداً، والصحيح ما أخرجه عبد الرزاق (٩٧٣١)، ومن طريقه الطبري ١٧/ ٤٤٠ - ٤٤١ أن الله لم يسلطه على ذلك.

(٧) ذكر قوله بنحوه الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٨ ، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٦٧ .

حتى قُتل. وعضُّه يديه فِعلُ النادمِ الحزين لأجل طاعته خليلَه.

﴿يَـٰقُولُ يَـٰلَيۡتَنِى ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ في الدنيا، يعني طريقاً إلى الجنة. ﴿يَـٰوَيۡلَتَىٰ﴾: دعاءٌ بالويل والثُّبور على محالفة[١] الكافرِ ومتابعته.

﴿لَيۡتَنِى لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني أمية، وكنى عنه ولم يصرِّح باسمه، لئلَّا يكون هذا الوعدُ مخصوصاً به ولا مقصوراً، بل يتناول جميعَ من فعل مثلَ فعلِهما[٢]. وقال مجاهدٌ وأبو رجاء: الظالم عامٌّ في كل ظالم، وفلان: الشَّيطان[٣]. واحتُجَّ لصاحب هذا القول بأنَّ بعده: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا».

وقرأ الحسن: «يَا وَيْلَتِي»[٤]. وقد مضى في «هود» بيانُه[٥]. والخليل: الصاحبُ والصديق. وقد مضى في «النساء» بيانه[٦].

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: يقول هذا النادم: لقد أضلَّني مَن اتخذتُه في الدنيا خليلاً عن القرآن والإيمانِ به. وقيل: «عَنِ الذِّكْرِ» أي: عن الرسول. ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَـٰنُ لِلۡإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ قيل: هذا من قول اللهِ لا من قول الظالم. وتمامُ الكلام على هذا عند قولِهِ: «بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي». والخذل: الترك من الإعانة[٧]، ومنه خِذْلانُ إبليسَ للمشركين لمَّا ظهر لهم في صورة سراقة بنِ مالك، فلمَّا رأى الملائكة تبرَّأ منهم[٨]. وكلُّ مَن صدَّ عن سبيل الله وأُطيع في معصية اللهِ فهو شيطانٌ للإنسان، «خَذُولًا» عند

(١) في (د) و(ز) و(ظ): مخالَّة.

(٢) التعريف والإعلام ص١٢٣ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦، وأخرج منه قوله: «فلان: الشيطان»؛ الطبري ١٧/ ٤٤٢ عن مجاهد، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٦ (١٥١٠٩) و(١٥١١٠) عن مجاهد وأبي رجاء.

(٤) القراءات الشاذة ص ١٠٤ .

(٥) ١١/ ١٦٨ .

(٦) ٧/ ١٥٥-١٥٦ .

(٧) في (د) و(ظ): الإغاثة.

(٨) سلف ١٠/ ٤٢ .

نزول العذابِ والبلاء. ولقد أحسنَ مَن قال:

تَجَنَّب قرينَ السُّوءِ واصرِمْ حبالَهُ ... فإنْ لم تجدْ عنه مَحِيصاً فدارِهِ
وأحببْ حبيبَ الصدقِ واحذر مِراءهُ ... تَنَلْ منه صَفْوَ الوُدِّ ما لم تمارِهِ
وفي الشيب ما يَنهى الحليمَ عن الصِّبا ... إذا اشتعلتْ نيرانُه في عِذارِهِ[(١)]

آخر:

إصحَبْ خيارَ الناس حيثُ لَقِيتهم ... خيرُ الصحابة مَن يكون عفيفا
والناسُ مِثْلُ دراهمٍ ميَّزتَها ... فوجدتَ منها فِضَّةً وزُيوفا[(٢)]

وفي الصحيح من حديث أبي موسى عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصالح والجليسِ السُّوء كحامل المِسْك ونافخِ الكِير. فحاملُ المسك إمَّا أنْ يُحذِيَك وإما أن تبتاعَ منه، وإما أنْ تجد ريحاً طيِّبة، ونافخ الكير إما أن يُحرِقَ ثيابَك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة» لفظُ مسلم[(٣)]. وأخرجه أبو داود من حديثِ أنس[(٤)].

وذكر أبو بكر البزَّارُ عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله؛ أيُّ جلسائنا خير؟ قال: «مَن ذكَّركم بالله رؤيتُه، وزاد في علمكم مَنْطِقه، وذكَّركُم بالآخرة عملُه»[(٥)].

وقال مالك بنُ دِينار: إنكَ إن تنقل الأحجارَ مع الأبرار خيرٌ لك من أنْ تأكلَ الخبيصَ مع الفجَّار[(٦)]. وأنشد:

---

(١) البيت الأول في غرر الخصائص الواضحة ص٤٦٧، والبيتان الأولان في فيض القدير ٣/ ٤ دون نسبة.

(٢) روضة العقلاء لابن حبان ص١٠٢.

(٣) صحيح البخاري (٥٥٣٤) وصحيح مسلم (٢٦٢٨). وهو في مسند أحمد (١٩٦٢٤). وقوله: ونافخ الكير، الكير: مِنْفَخ الحداد من زِقٍّ أو جلد غليظ ذو حافات. الصحاح (كير). وقوله: يحذيك، أي: يعطيك. إكمال المعلم ٨/ ١٠٨.

(٤) سنن أبي داود (٢٨٢٩).

(٥) لم نقف عليه عند البزار، وهوعند أبي يعلى (٢٤٣٧)، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣٢٤، والبيهقي في الشعب (٩٤٤٦) و(٩٤٤٧). قال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٢٦: فيه مبارك بن حسان، وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٦) أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ص١٠٠.

وصاحبْ خيارَ الناس تَنْجُ مُسَلَّماً وصاحب شرارَ الناس يوماً فتندما

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ﴾ يريد محمداً ﷺ، يشكوهم إلى الله تعالى[1]. ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي: قالوا فيه غيرَ الحقِّ مِن أنه سحرٌ وشعر؛ عن مجاهدٍ والنَّخعيّ[2]. وقيل: معنى «مَهْجُوراً» أي: متروكاً[3]؛ فعزَّاه اللهُ تبارك وتعالى وسلَّاه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما جعلنا لك يا محمد عدوًّا من مشركي قومِك ـ وهو أبو جهل في قول ابنِ عباس ـ فكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا من مشركي قومه[4]، فاصبر لأمري كما صبروا، فإني هادِيك وناصرُك[5] على كل من ناوأك.

وقد قيل: إنَّ قول الرسول: «يَا رَبِّ» إنما يقوله يومَ القيامة، أي: هجروا القرآنَ وهجروني وكذَّبوني[6]. وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «من تعلَّم القرآن[7] وعلَّق مصحفاً[8] لم يتعاهده ولم ينظر فيه، جاء يومَ القيامة متعلِّقاً به يقول: يا ربَّ العالمين! إنَّ عبدَك هذا اتَّخذني مهجوراً، فاقضِ بيني وبينه». ذكره الثعلبي[9].

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٣٩.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨، وأخرجه عنهما الطبري ١٧/ ٤٤٣.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٤٤ عن ابن زيد.

(٤) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٣٩، وقول ابن عباس أخرجه ابن مردويه كما في الدر المنثور ٥/ ٧٠.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨.

(٦) ينظر زاد المسير ٦/ ٨٧.

(٧) في (د) و(ز) و(ظ) زيادة: وعلمه.

(٨) في (م): مصحفه.

(٩) أخرجه الثعلبي من طريق أبي هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس، وأبو هدبة كذاب. الفتح السماوي ٢/ ٨٨١.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ نصب على الحال، أو التمييز، أي: يهديك وينصرك، فلا تبالِ بمَن عاداك[١]. وقال ابن عباس: عدوُّ النبيِّ ﷺ أبو جهلٍ لعنه الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ اختُلف في قائل ذلك على قولين: أحدهما: أنهم كفَّارُ قريش، قاله ابنُ عباس. والثاني: أنهمُ اليهودُ حين رأوا نزولَ القرآن مفرَّقاً قالوا: هلَّا أُنزل عليه جملةً واحدة، كما أنزلت التوراةُ على موسى[٢]، والإنجيلُ على عيسى، والزَّبور على داود. فقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: فعلنا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ نقوِّي به قلبَك فتعيه وتحمله[٣]، لأن الكتب المتقدِّمة أُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون، والقرآن أُنزل على نبيٍّ أُمِّيٍّ؛ ولأنَّ مِن القرآن الناسخ والمنسوخ؛ ومنه ما هو جوابٌ لمن سأل عن أمور، ففرَّقناه ليكون أوعى للنبيِّ ﷺ، وأيسرَ على العامل به؛ فكان كلَّما نزل وحيٌ جديد زاده قوَّةَ قلب[٤].

قلت[٥]: فإن قيل: هلَّا أُنزل القرآنُ دُفعةً واحدة وحَفِظه إذا كان ذلك في قدرته؟

قيل: في قدرة الله أنْ يعلِّمَه الكتابةَ[٦] والقرآنَ في لحظة واحدة، ولكنه لم يفعل، ولا معترِضَ عليه في حكمه، وقد بيَّنَّا وجهَ الحِكمةِ في ذلك.

وقد قيل: إنَّ قوله: «كَذَٰلِكَ» مِن كلام المشركين، أي: لولا نُزِّل عليه القرآنُ

---

(١) الوجيز للواحدي ٢/ ٩٧ (على هامش مراح لبيد).

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٤٣-١٤٤ ، وينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨ .

(٣) في (د) و(ز): وتحتمله، وفي تفسير البغوي ٣/ ٣٦٨ (والكلام منه): وتحفظه .

(٤) الوجيز ٢/ ٩٧ (على هامش مراح بن لبيد).

(٥) ليست في (د) و(ز) و(ظ).

(٦) في (د) و(م) : الكتاب.

جملةً واحدة كذلك، أي: كالتوراة والإنجيل، فَيتِمُّ الوقف على «كَذَلِكَ»، ثم يبتدئ: «لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ» على معنى: أنزلناه عليك متفرِّقاً لنثبِّت به فؤادك[١]. ويجوز أنْ يكونَ الوقفُ على قوله: «جُمْلَةً وَاحِدَةً»، ثم يبتدئ: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ»[٢] على معنى: أنزلناه عليك كذلك متفرِّقاً لنثبتَ به فؤادك.

قال ابنُ الأنباري: والوجهُ الأوَّل أجودُ وأحسن، والقول الثاني قد جاء به التفسير؛ حدَّثنا محمد بنُ عثمان الشيبي قال: حدَّثنا منجاب قال: حدَّثنا بِشْر بن عُمَارة، عن أبي رَوْق، عن الضحَّاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] قال: أُنزل القرآنُ جملةً واحدة من عند اللهِ عزَّ وجلَّ في اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكِرام الكاتبين في السماء، فنجَّمه السفرةُ الكِرام على جبريلَ عشرين ليلة، ونجَّمهُ جبريلُ عليه السلام على محمد ﷺ عشرين سنة. قال: فهو قولهُ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني نجومَ القرآن ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٧]. قال: فلمَّا لم ينزل على النبيِّ ﷺ جملةً واحدة، قال الذين كفروا: لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدة؛ فقال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ يا محمد[٣].

«وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً» يقول: ورسَّلناه ترسيلاً؛ يقول: شيئاً بعد شيء[٤].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يقول: لو أنزلنا عليك القرآنَ جملةً واحدة ثم سألوك، لم يكن عندك ما تُجيبُ به، ولكنْ نُمسك عليك، فإذا سألوك أجبت.

---

(١) قوله: على معنى، إلى هذا الموضع، ليس في (د) و(م).

(٢) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٤/ ٧٩ . وسيأتي القول فيه من كلام النحاس.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٠ (١٥١٣٠) من هذا الطريق مختصراً جداً. وأخرجه مطولاً من طريق آخر بنحوه (١٥١٢٧).

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٤٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال النحاس[١]: وكان ذلك من علامات النبوّة؛ لأنهم لا يَسألون عن شيء إلّا أُجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلّا من نبيّ، فكان ذلك تثبيتاً لفؤاده وأفئدتهم، ويدلُّ على هذا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. ولو نَزَلَ جملةً بما فيه من الفرائض لَثَقُل عليهم، وعَلِم اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ الصَّلاحَ في إنزاله متفرِّقاً، لأنهم يُنبَّهون به مرةً بعد مرة، ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه. وفيهِ ناسخٌ ومنسوخ، فكانوا يُتعبَّدون بالشيء إلى وقتٍ بعينه قد علم اللهُ عزَّ وجلَّ فيه الصلاح، ثم ينزل النسخُ بعد ذلك؛ فمحالٌ أن ينزلَ جملة واحدة: إفعلوا كذا ولا تفعلوا كذا[٢]. قال النحاس: والأولى أن يكون التمامُ «جُمْلَةً وَاحِدَةً» لأنه إذا وُقف على «كَذَلِكَ» صار المعنى: كالتوراة والإنجيل والزبور؛ ولم يتقدَّم لها ذِكْر.

قال الضحَّاك: «وأَحْسَنَ تَفْسِيرًا» أي: تفصيلًا[٣]. والمعنى: أحسن مِن مَثَلهم تفصيلًا؛ فحذف لِعِلم السامع.

وقيل: كان المشركون يستمدُّون من أهل الكتاب، وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريفُ والتبديل، فكان ما يأتي به النبيُّ ﷺ أحسنَ تفسيراً ممَّا عندهم؛ لأنهم كانوا يَخلِطون الحقَّ بالباطل، والحقُّ المَحْض أحسن من حقٍّ مختلِطٍ بباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢].

وقيل: «لاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ» كقولهم في صفة عيسى: إنه خُلقَ من غير أب «إلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ» أي: بما فيه نقضُ حُجَّتِهم كآدم إذ خُلِق من غير أبٍ وأمّ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ تقدَّم في «سبحان»[٤].

---

(١) في إعراب القرآن للنحاس ٣/١٥٩-١٦٠.

(٢) قوله كذا من (ظ).

(٣) أخرجه الطبري ١٧/٤٤٨.

(٤) ١٣/١٧٨ - ١٧٩.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنهم في جهنم. وقال مقاتل: قال الكفَّار لأصحاب محمد ﷺ: هو شرُّ الخلق؛ فنزلت الآية. ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: دينًا وطريقًا[1]. ونظمُ الآية: ولا يأتونك بَمَثل إلَّا جئناك بالحقّ، وأنت منصورٌ عليهم بالحُجج الواضحة، وهم محشورون على وجوههم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد التوراة. ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ تقدَّم في «طه»[2]. ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾ الخطابُ لهما. وقيل[3]: إنما أُمر موسى ﷺ بالذَّهاب وحدَه في المعنى. وهذا بمنزلة قولهِ: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] وقولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما.

قال النحاس[4]: وهذا مما لا ينبغي أن يُجترأ به على كتاب اللهِ تعالى، وقد قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ . قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ . قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ . فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٤-٤٧]. ونظيرُ هذا: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، وقد قال جلَّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٥] قال القشيريّ: وقولُه في موضع آخرَ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] لا ينافي هذا؛ لأنهما إذا كانا مأمورَين، فكلُّ واحدٍ مأمور. ويجوز أن يقال: أُمر موسى أوَّلاً، ثم لمَّا قال: «وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي»، قال: «اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ»[5].

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤٠.

(٢) ١٤/ ٥٣.

(٣) قائله الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٦٨.

(٤) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٠، وكلام الفراء منه.

(٥) سلف الكلام ١٤/ ٦٣.

﴿إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يريد فرعونَ وهامانَ والقِبْط. ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ في الكلام إضمار، أي: فكذَّبوهما ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ في نصب «قوم» أربعةُ أقوال:

العطف على الهاء والميم في «دَمَّرْنَاهُمْ».

الثاني: بمعنى: اذكر.

الثالث: بإضمار فعلٍ يفسِّره ما بعدَه، والتقدير: وأغرقنا قومَ نوحٍ أغرقناهم.

الرابع: أنه منصوب بـ«أَغْرَقْنَاهُمْ» قاله الفرَّاء[٢]. وردَّه النحاس[٣]، قال: لأنَّ «أغرقنا» ليس مما يتعدَّى إلى مفعولين فيعملَ في المضمَر وفي «قَوْمَ نُوحٍ».

﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ ذَكَر الجِنسَ والمرادُ نوحٌ وحده؛ لأنه لم يكن في ذلك الوقتِ رسولٌ إليهم إلَّا نوحٌ وحده، فنوحٌ إنما بُعث بلا إله إلا الله، وبالإيمان بما يُنزل الله، فلمَّا كذَّبوه، كان في ذلك تكذيبٌ لكل من بُعث بعده بهذه الكلمة[٤]. وقيل: إنَّ مَن كذَّب رسولاً فقد كذَّب جميعَ الرسل؛ لأنهم لا يفرَّق بينهم في الإيمان، ولأنه ما من نبيٍّ إلاَّ يُصدِّق سائرَ أنبياء اللهِ تعالى، فَمن كذَّب منهم نبيًّا، فقد كذَّب كلَّ مَن صدَّقه من النبيِّين.

﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ أي: بالطُّوفان، على ما تقدَّم في «هود»[٥]. ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٩.

(٢) في معانيه ٢/ ٢٦٨.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٦١. وما قبله منه.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٧-٦٨.

(٥) ١١/ ١١٨ فما بعد.

ءَايَةً﴾ أي: علامةً ظاهرةً على قدرتنا. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: للمشركين مِنْ قوم نوحٍ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: في الآخرة. وقيل: أي: هذه سبيلي في كل ظالم.

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ كلُّه معطوفٌ على «قَوْمَ نُوحٍ» إذا كان «قَوْمَ نُوحٍ» منصوباً على العطف، أو بمعنى: اذكر. ويجوز أن يكون كلُّه منصوباً على أنه معطوفٌ على المضمَر في «دَمَّرْنَاهُمْ»، أو على المضمر في «جَعَلْنَاهُمْ»، وهو اختيارُ النحَّاس(١)؛ لأنه أقرب إليه. ويجوز أن يكونَ منصوباً بإضمار فعل، أي: اذكر عاداً الذين كذَّبوا هوداً؛ فأهلكهم الله بالريح العقيم، و ثمودَ كذَّبوا صالحاً؛ فأُهلكوا بالرَّجفة.

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ والرَّسُّ في كلام العربِ: البئرُ التي تكون غيرَ مَطْويةٍ(٢)، والجمعُ: رِسَاس. قال:

تَنَابِلَةٌ يَحْفِرون الرِّسَاسَا(٣)

يعني آبارَ المعادن(٤).

قال ابن عباس: سألت كعباً عن أصحاب الرَّسّ، قال: صاحب «يس» الذي قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠] قتله قومُه ورَسُّوه في بئر لهم يقال لها: الرَّسّ، طرحوه فيها، وكذا قال مقاتل. السُّدِّيّ: هم أصحاب قصةِ «يس» أهلُ أنطاكية، والرَّسُّ بئرٌ بأنطاكية؛ قتلوا فيها حبيباً النجَّار مؤمنَ آل «يس»، فنُسبوا إليها(٥).

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٦١. وما قبله منه.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٩٢، والرازي في تفسيره ٢٤/ ٨٢ عن أبي عبيدة. وفي أكثر كتب اللغة أن الرس: البئر المطوية. قال في الصحاح: هو من الأضداد. وسيأتي.

(٣) عجز بيت للنابغة الجعدي، و هو في ديوانه ص٨٢. وصدره: سبقتُ إلى فَرَطٍ ناهلٍ. والفرط: الماء المتقدم لغيره من الأمواه، وتنابلة: جمع تِنْبال وتِنْبالة، وهو القصير. القاموس (فرط) (نبل).

(٤) تفسير غريب القرآن ص ٣١٣.

(٥) الكلام بنحوه في الوسيط ٣/ ٣٤٠، و ينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢١٠.

وقال عليٌّ ﷺ[١]: هم قومٌ كانوا يعبدون شجرة صَنَوبر، فدعا عليهم نبيُّهم؛ وكان مِن ولد يهوذا، فيبست الشجرة، فقتلوه ورَسُّوه في بئر، فأظلَّتهم سحابةٌ سوداء فأحرقتهم.

وقال ابن عباس: هم قومٌ بأذربيجان[٢]؛ قتلوا أنبياء[٣]، فجفَّت أشجارُهم وزروعهم، فماتوا جوعاً وعطشاً.

وقال وهب بنُ منبِّه: كانوا أهلَ بئرٍ يقعدون عليها وأصحابَ مواشي، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً، فكذَّبوه وآذَوه، وتمادَوا على كفرهم وطغيانهم، فبينما هم حول البئر في منازلهم، انهارت بهم وبديارهم؛ فخسف اللهُ بهم، فهلكوا جميعاً[٤].

وقال قتادة: أصحاب الرَّسِّ وأصحابُ الأيكة أُمَّتان أرسل الله إليهما شعيباً فكذَّبوه، فعذَّبهما اللهُ بعذابين.قال قتادة: والرّسُّ قريةٌ بفَلْج اليمامة[٥].

وقال عكرمة: هم قومٌ رَسُّوا نبيَّهم في بئر حيًّا[٦]. دليلُه ما روى محمد بن كعب القُرظيُّ عمَّن حدَّثه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أوَّلُ الناس يدخل الجنةَ يوم القيامة عبدٌ أسود، وذلك أنَّ الله تعالى بعث نبيًّا إلى قومه، فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود، فحفر أهل القرية بئراً وألقَوا فيها نبيَّهم حيًّا، وأطبقوا عليه حجراً ضخماً، وكان العبد الأسودُ يحتطب على ظهره ويبيعه، ويأتيه بطعامه وشرابه، فيعينه اللهُ على رفع تلك الصخرةِ حتى يُدْلِيَه إليه، فبينما هو يحتطب إذ نام، فضرب اللهُ على أُذنه سبع سنين

---

(١) ذكر قوله ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/ ٩٠ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٥ (١٥١٧٣).

(٣) في (د) و (ز): نبياً. وينظر عرائس المجالس ص١٥٢ .

(٤) الوسيط ٣/ ٣٤١ ، وزاد المسير ٦/ ٩٠ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٠ . وقول قتادة الثاني أخرجه الطبري١٧/ ٤٥٢ .

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٢ دون قوله: حياً .

نائماً، ثم هبَّ من نومه فتمطَّى واتَّكأ على شِقِّه الآخرَ، فضرب الله على أذنه سبع سنين، ثم هبَّ، فاحتمل حُزمةَ الحطب فباعها، وأتى بطعامه وشرابه إلى البئر، فلم يجده، وكان قومُه قد أراهم اللهُ تعالى آيةً، فاستخرَجوه وآمَنوا به وصدَّقوه، ومات ذلك النبيّ». قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ ذلك العبدَ الأسود لأوَّلُ مَن يدخل الجنة»[(١)]. ذكر هذا الخبَر المهدويُّ والثعلبيّ، واللفظُ للثعلبي، وقال: هؤلاء آمنوا بنبيِّهم فلا يجوز أن يكونوا أصحابَ الرَّسّ؛ لأن الله تعالى أخبر عن أصحاب الرسِّ أنه دمرهم، إلَّا أنْ يدمَّروا بأحداثٍ أحدثوها بعد نبيِّهم.

وقال الكلبي: أصحاب الرَّسِّ قومٌ أرسل اللهُ إليهم نبيًّا فأكلوه. وهم أوَّلُ من عمل نساؤهم السَّحق[(٢)]؛ ذكره الماوردي.

وقيل: هم أصحابُ الأُخدود الذين حفروا الأخاديد وحرَّقوا فيها المؤمنين[(٣)]، وسيأتي[(٤)].

وقيل: هم بقايا من قومِ ثمود، وأنَّ الرَّسَّ البئرُ المذكورة في «الحج» في قوله: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾[(٥)] [الآية: ٤٥] على ما تقدَّم[(٦)].

وفي الصحاح: والرَّسُّ اسمُ بئرٍكانت لبقيَّة من ثمود.

وقال جعفر بنُ محمد عن أبيه: أصحابُ الرَّسِّ قومٌ كانوا يستحسنون لنسائهم

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٤-٤٥٥ . وكلام الثعلبي الآتي فيه. قال ابن كثير في تفسيره ٦/ ١١٢: فيه غرابة ونكارة، ولعل فيه إدراجاً، والله أعلم.

(٢) في (ز)، والنكت والعيون ٤/ ١٤٦، وزاد المسير ٦/ ٩٠: السحر، والمثبت من (د) و(ظ) و(م)، وينظر عرائس المجالس ص١٥١ فما بعد، فقد ذكر قصة أصحاب الرس نقلاً عن الكلبي وغيره، ولم يعرّج على ذكر السحر. والله أعلم.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٩ .

(٤) عند تفسير قوله تعالى ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ [البروج: ٤].

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٦٩، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً.

(٦) ١٤/ ٤١٧ .

السَّحْق، وكان نساؤهم كلُّهم سحَّاقات[١]. وروي من حديث أنسٍ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مِن أشراط الساعةِ أنْ يكتفيَ الرجالُ بالرجال والنساءُ بالنساء، وذلك السَّحْق»[٢].

وقيل: الرَّسُّ ماءٌ ونخل لبني أسد. وقيل: الثلجُ المتراكم في الجبال؛ ذكره القُشَيري. وما ذكرناه أوَّلاً هو المعروف، وهو[٣] كلُّ حفر احتُفِر، كالقبر والمعدن والبئر. قال أبو عبيدة: الرَّسُّ كلُّ رَكيَّةٍ لم تُطْوَ؛ وجمعُها رِساس. قال الشاعر:

وهم سائرون إلى أرضهم فيا ليتهم يَحفِرون الرِّساسا[٤]

والرَّسُّ اسمُ وادٍ في قول زهير:

بَكَرْنَ بُكوراً واستَحَرْن بسُحْرةٍ فهنَّ لوادي الرَّسِّ كاليد للفمِ[٥]

ورسستُ رسًّاً: حفرتُ بئراً. ورُسَّ الميتُ، أي: قُبر. والرَّس: الإصلاح بين الناس، والإفساد أيضاً، وقد رسست بينهم؛ فهو من الأضداد[٦].

وقد قيل في أصحاب الرَّسِّ غيرُ ما ذكرنا، ذكره الثعلبِّي وغيره.

﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: أُمماً لا يعلمهم إلَّا اللهُ بين قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرَّسّ.

---

(١) ينظر مجمع البيان ١٩/١٠٧.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (١٠٩٠) وأخرجه البيهقي في الشعب (٥٤٦٧) - (٥٤٦٩) وضعف إسناده ثم قال: غير أنه إذا ضم بعضه إلى بعض أخذ قوة، والله أعلم.

وله شاهد من حديث ابن مسعود ﷺ أخرجه الطبراني في الكبير(١٠٥٥٦) مطولاً. قال الهيثمي في المجمع ٧/٣٢٣: رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه سيف بن مسكين، وهو ضعيف.

(٣) في (ظ): وقيل هو..

(٤) لم نقف عليه.

(٥) ديوان زهير ص١٠، وقوله: كاليد للفم، هو بمعنى المثل العربي: أقرب من يد إلى فم. ينظر المستقصى للزمخشري ١/٢٧٩.

(٦) الصحاح (رسس).

وعن الربيع بن خُثَيم اشتكى، فقيل له: ألَا تتداوى، فإنَّ رسول الله ﷺ قد أمر به؟ قال: لقد هممت بذلك، ثم فكرتُ فيما بيني وبين نفسي، فإذا «عاداً وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقروناً بين ذلك كثيراً» كانوا أكثرَ وأشدَّ حرصاً على جمع المال، فكان فيهم أطِبَّاء، فلا الناعتُ منهم بقي ولا المنعوت. فأبى أن يتداوى[١]، فما مكث إلَّا خمسةَ أيام حتى مات، رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ﴾ قال الزجَّاج: أي: وأنذرنا كلًّا ضربنا له الأمثالَ[٢]، وبيَّنَّا لهم الحجة، ولم نضرب لهم الأمثالَ الباطلةَ كما يفعلُه هؤلاء الكَفَرة. وقيل: انتصب على تقدير: ذكَّرنا كلًّا، ونحوه؛ لأن ضربَ الأمثال تذكيرٌ ووعظ؛ ذكره المهدويّ. والمعنى واحد.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا بالعذاب. وتبَّرتُ الشيء كسرتُه[٣]. وقال المؤرِّج والأخفش: دمَّرناهم تدميراً. تُبدل التاءُ والباء من الدال والميم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ يعني مشركي مكَّة. والقرية قريةُ قومِ لوط. و﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾: الحجارة التي أُمطروا بها. ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ أي: في أسفارهم ليعتبروا[٤]. قال ابن عباس: كانت قريشٌ في تجارتها إلى الشام تَمرُّ بمدائن قومِ لوط، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧]، وقال:

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ١٠٦ بنحوه.

(٢) معاني القرآن ٤/ ٦٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الكلام بنحوه في الوجيز ٢/ ٩٨ (على هامش مراح لبيد)، والوسيط للواحدي ٣/ ٣٤١ .

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]. و قد تقدَّم[١].

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي: لايصدِّقون بالبعث. ويجوز أنْ يكون معنى «يَرْجُونَ»: يخافون. ويجوز أن يكونَ على بابه، ويكون معناه: بل كانوا لايرجون ثوابَ الآخرة[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ جواب «إِذَا» «إِنْ يَتَّخِذُونَكَ»؛ لأن معناه: يتخذونك. وقيل: الجوابُ محذوف، وهو: قالوا، أو: يقولون: «أَهَذَا الَّذي»[٣]؛ وقولُه: «إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَا هُزُواً» كلامٌ معترِض. ونزلت في أبي جهل؛كان يقول للنبي ﷺ مستهزِئاً: «أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ الله رَسُولًا»[٤]. والعائد محذوف، أي: بعثه الله[٥]. «رَسُولًا» نصب على الحال، والتقدير: أهذا الذي بعثه الله مُرسَلًا. «أَهَذَا» رفعٌ بالابتداء، و«الذي» خبرُه، «رَسُولًا» نصب على الحال، و«بَعَثَ» في صلة «الَّذي»، واسمُ الله عزَّ وجلَّ رفع بـ «بَعَثَ». ويجوز أن يكون مصدراً؛ لأن معنى «بَعَثَ» أرسل،ويكون معنى «رَسُولًا» رسالةً على هذا[٦]. والألف للاستفهام، على معنى التقريرِ والاحتقار.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ أي: قالوا: قد كاد أنْ يَصرِفَنا .﴿عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا

---

(١) ٢٣٧/١٢ .

(٢) وهذا الوجه هو الذي ارتضاه الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٦٩ ،وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢ .

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٠ .

(٥) مجمع البيان ١٩/ ١١٠ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢ .

عَلَيۡهَاۚ﴾ أي: حبسنا أنفسنا على عبادتها. قال الله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يريد: مَن أضلُّ دِيناً؛ أهم أم محمد؟ وقد رأوه في يوم بدر.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ عجَّب نبيَّه ﷺ من إضمارهم على الشِّرك وإصرارِهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقُهم ورازقهم، ثم يعمدُ إلى حجر يعبده من غير حجَّة. قال الكلبيُّ وغيره: كانت العرب إذا هَوِيَ الرجلُ منهم شيئاً؛ عبده مِن دون الله، فإذا رأى أحسنَ منه؛ ترك الأوَّلَ وعَبَد الأحسن[1]. فعلى هذا يعني: أرأيت من اتخذ إلهه بهواه؛ فحذف الجارّ.

وقال ابن عباس: الهوى إلهٌ يعبد من دون الله[2]، ثم تلا هذه الآية.

قال الشاعر:

لَعَمرُ أبيها لو تبدَّت لناسكٍ ... قد اعتزلَ الدنيا بإحدى المناسكِ

لَصلَّى لها قبل الصلاة لربِّه ... ولَارْتَدَّ في الدنيا بأعمال فاتكِ[3]

وقيل: «اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» أي: أطاع هواه. وعن الحسن: لايَهوى شيئاً إلا اتَّبعه[4]، والمعنى واحد.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ أي: حفيظاً وكفيلًا حتى تردَّه إلى الإيمان وتُخْرجَه من هذا الفساد. أي: ليست الهدايةُ والضلالة موكولتَين إلى مشيئتك، وإنما عليك التبليغ. وهذا ردٌّ على القَدَرية. ثم قيل: إنها منسوخةٌ بآية القتال[5]. وقيل: لم تُنسخ[6]؛ لأنَّ الآية تسليةٌ للنبيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٩ (١٥١٩٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٠ (١٥٢٠٠) بنحوه.

(٣) لم نقف عليهما.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٠ (١٥٢٠١).

(٥) قاله الكلبي كما في الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤١.

(٦) المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ص٤٢.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ولم يقل: أنهم؛ لأن منهم مَن قد عَلم أنه يؤمن. وذمَّهم جلَّ وعزَّ بهذا. «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ» سماعَ قَبول، أو يفكّرون فيما تقول فيعقلونه، أي: هم بمنزلة مَن لا يَعْقِل ولا يسمع. وقيل: المعنى: أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون؛ فكأنهم لم يسمعوا(١)؛ والمراد أهلُ مكة(٢). وقيل: «أَمْ» بمعنى بل في مثل هذا الموضع(٣).

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: في الأكل والشُّرب لا يفكّرون في الآخرة(٤). ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ إذ لا حسابَ ولا عقاب على الأنعام. وقال مقاتل(٥): البهائم تَعرف ربَّها، وتهتدي إلى مراعيها، وتنقاد لأربابها التي تَعقِلها(٦)، وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربَّهم الذي خلقهم ورزقهم. وقيل: لأن البهائم إن لم تعقل صِحَّة التوحيد والنبوَّةِ، لم تعتقد بطلانَ ذلك أيضاً(٧).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ يجوز أن تكونَ هذه الرؤيةُ من رؤية العين، ويجوز أن تكونَ من العلم(٨).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٢.

(٢) زاد المسير ٦/ ٩٢.

(٣) الكشاف٣/ ٩٣.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٤٦٢.

(٥) ذكر قوله أبو الليث بنحوه.

(٦) في (ز) و (ظ): تعلفها.

(٧) ينظر تفسير الرازي ٢٤/ ٨٧.

(٨) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٠.

قال الحسن وقتادة[(١)] وغيرهما: مدَّ الظلَّ من طلوع الفجرِ إلى طلوع الشمس. وقيل: هو من غيبوبة الشمس إلى طلوعها. والأوّلُ أصحّ؛ والدليلُ على ذلك أنه ليس مِن ساعةٍ أطيبَ من تلك الساعة، فإنَّ فيها يجد المريضُ راحةً، والمسافرُ وكلُّ ذي عِلَّة، وفيها تُردُّ نفوسُ الأمواتِ والأرواحُ منهم إلى الأجساد، وتطيب نفوسُ الأحياء فيها. وهذه الصفة مفقودةٌ بعد المغرب. وقال أبو العالية: نهار الجنةِ هكذا، وأشار إلى ساعة المصلِّين صلاةَ الفجر.

أبو عبيدة: الظلُّ بالغَداة والفيءُ بالعَشِيّ؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس؛ سُمِّيَ فيئاً لأنه فاءَ من المشرق إلى جانب المغرب[(٢)]. قال الشاعر، وهو حميد بنُ ثور، يصف سَرْحة، وكنى بها عن امرأة:

فلا الظِّلُّ مِن بَرْد الضُّحا تستطيعُه ولا الفيءُ من برد العشيِّ تذوقُ[(٣)]

وقال ابن السِّكِّيت: الظلُّ ما نسخته الشمس، والفيءُ ما نَسخ الشمس. وحكى أبو عبيدة عن رؤبة قال: كلُّ ما كانت عليه الشمسُ فزالت عنه، فهو فيءٌ وظِلّ، وما لم تكن عليه الشمسُ فهو ظِلّ[(٤)].

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: دائماً مستقِرًّا لا تنسخُه الشمس[(٥)]. ابنُ عباس: يريد إلى يوم القيامة[(٦)]، وقيل: المعنى: لو شاء لَمنعَ الشمسَ الطُّلوعَ.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: جعلنا الشمس بنسخها الظلَّ عند مجيئها دالَّةً على أنَّ الظل شيءٌ ومعنًى؛ لأن الأشياء تُعرف بأضدادها؛ لولا الشمسُ ما عُرف

---

(١) أخرجه عنهما عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧٠ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٠-٤٦١ عن ابن عباس وغيره.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٠ .

(٣) الصحاح(فيأ)، والبيت في الديوان ص٤٠ ، والسرحة: شجرة عظيمة طويلة. الصحاح (سرح).

(٤) الصحاح (فيأ).

(٥) تفسير غريب القرآن ص٣١٣ .

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٢ بنحوه .

الظلّ، ولولا النورُ ما عُرفت الظُّلمة[١]. فالدليل: فعيلٌ بمعنى الفاعل، وقيل: بمعنى المفعول، كالقتيل والدَّهين والخَضيب. أي: دللنا الشمس على الظلّ حتى ذهبت به، أي: أَتبعناها إياه. فالشمس دليل، أي: حُجَّةٌ وبرهان، وهو الذي يَكشِف المشكلَ ويوضحه. ولم يؤنث الدليل وهو صفةُ الشمس؛ لأنه في معنى الاسم؛ كما يقال: الشمسُ برهان، والشمس حق.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ يريد ذلك الظلَّ الممدود[٢]. ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: يسيرًا[٣] قبضُه علينا. وكلُّ أمرِ ربِّنا عليه يسير. فالظلُّ مُكْثُه في هذا الجو بمقدار طلوعِ الفجر إلى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس صار الظلُّ مقبوضًا، وخَلَفَه في هذا الجوّ شعاعُ الشمس، فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها، فإذا غربت فليس هناك ظلّ، إنما ذلك بقيةُ نورِ النهار. وقال قوم: قَبَضه بغروب الشمس؛ لأنها ما لم تَغرُب؛ فالظلُّ فيه بقية، وإنما يَتِمُّ زوالُه بمجيء الليل ودخولِ الظُّلمةِ عليه. وقيل: إنَّ هذا القبضَ وقع بالشمس؛ لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئاً فشيئاً؛ قاله أبو مالكٍ وإبراهيم التيمي. وقيل: «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ» أي: قبضنا ضياءَ الشمس بالفيء «قَبْضاً يَسِيرًا». وقيل: «يَسِيرًا» أي: سريعًا[٤]، قاله الضحَّاك. قتادةُ[٥]: خفيًّا؛ أي: إذا غابت الشمس قُبض الظلُّ قبضاً خفيًّا؛ كلما قُبض جُزءٌ منه جُعل مكانَه جزءٌ من الظلمة، وليس يزول دفعة واحدة. فهذا معنى قولِ قتادة؛ وهو قول مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

فيه أربع مسائل:

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في النكت والعيون ٤/ ١٤٧ عن أبي مالك بنحوه.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) في (د): قال الضحاك وقتادة. والأثر أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٥ عن مجاهد وابن جريج.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يعني ستراً للخلق يقوم مَقامَ اللِّباسِ في سَتر البدن. قال الطبري[١]: وصف الليلَ باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياءَ ويغشاها.

الثانية: قال ابن العربي: ظنَّ بعضُ الغَفَلَة أنَّ مَن صلى عُرياناً في الظلام أنه يُجزئه؛ لأنَّ الليل لباس. وهذا يوجب أن يصلِّيَ في بيته عرياناً إذا أغلق عليه بابَه. والسَّترُ في الصلاة[٢] عبادةٌ تختصُّ بها، ليست لأجل نظرِ الناس. ولا حاجةَ إلى الإطناب في هذا.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال. وأصلُ السُّبَات من التمدُّد[٣]. يقال: سبتت المرأةُ شعرها، أي: نقضته وأرسلته. ورجل مسبوت، أي: ممدودُ الخِلْقة. وقيل للنوم: سبات؛ لأنه بالتمدد يكون، وفي التمدد معنى الراحة. وقيل: السبت: القطع[٤]؛ فالنوم انقطاعٌ عن الاشتغال، ومنه: سبتُ اليهود؛ لانقطاعهم عن الأعمال فيه. وقيل: السبت: الإقامة في المكان؛ فكأن السُّباتَ سكونٌ مّا وثبوتٌ عليه[٥]؛ فالنوم سُبَاتٌ على معنى أنه سكونٌ عن الاضطراب والحركة. وقال الخليل[٦]: السُّبات نومٌ ثقيل، أي: جعلنا نومَكم ثقيلاً ليكمل الإجمام والراحة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ من الانتشار للمعاش، أي: النهار سبب الإحياءِ للانتشار. شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة[٧]. وكان عليه الصلاة

---

(١) في تفسيره ١٧/ ٤٦٥-٦٦٦، ونقله المصنف عنه بواسطة المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢.

(٢) في النسخ: الظلام، والمثبت من أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٣، والكلام منه.

(٣) تفسير غريب القرآن ص٣١٣.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٧١.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢.

(٦) في العين ٧/ ٢٣٨.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٢.

والسلام إذا أصبح قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور»[١].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ تقدَّم في «الأعراف» مستوفىً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

فيه خمسة عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ يُتطهَّر به؛ كما يقال: وَضوءٌ؛ للماء الذي يُتوضأ به. وكلُّ طَهورٍ طاهرٌ، و ليس كلُّ طاهر طَهورًا[٣]. فالطَّهور بفتح الطاء: الاسم، وكذلك الوَضوءُ والوَقود، وبالضم: المصدر، وهذا هو المعروفُ في اللغة؛ قاله ابنُ الأنباريّ، فبيَّن أن الماء المنزل من السماء طاهرٌ في نفسه مطهِّر لغيره، فإن الطَّهور بناءُ مبالغةٍ في طاهر، وهذه المبالغةُ اقتضت أن يكونَ طاهراً مُطَهِّراً. وإلى هذا ذهب الجمهور.

وقيل: إنَّ «طَهُوراً» بمعنى طاهر، وهو قول أبي حنيفة، وتعلَّق بقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] يعني طاهراً. ويقول[٤] الشاعر:

خليليَّ هل في[٥] نظرةٍ بعد توبة ... أداوي بها قلبي عليَّ فُجُورُ

---

(١) روي عن حذيفة و أبي ذر والبراء ﷺ؛ فحديث حذيفة أخرجه أحمد (٢٣٣٩١)، والبخاري (٦٣١٢)، وحديث أبي ذر أخرجه أحمد (٢١٣٦٦)، والبخاري (٦٣٢٥)، وحديث البراء أخرجه أحمد (١٨٦٠٣)، ومسلم (٢٧١١).

(٢) ٩/ ٢٥٢.

(٣) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٩.

(٤) في (د) و(ف) و(م): وبقول، وهي مهملة في (ز)، وفي أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٤ (والكلام منه): وقال. والمثبت من (ظ).

(٥) في (ظ): من.

إلى رُجُحِ الأكفالِ غِيدٍ من الظِّبا[١] عِذابِ الثَّنايا رِيقُهنَّ طَهُورُ[٢]

فَوَصَفَ الرِّيقَ بأنه طَهور، وليس بمطهِّر. وتقول العرب: رجلٌ نَؤوم، وليس ذلك بمعنى أنه مُنِيمٌ لغيره، وإنما يرجع ذلك إلى فعلِ نفسِهِ.

ولقد أجاب علماؤنا عن هذا، فقالوا: وَصْف شراب الجنةِ بأنه طَهورٌ يفيد التطهيرَ عن أوضار الذنوبِ[٣] وعن خسائس الصفات، كالغِلِّ والحَسَد، فإذا شربوا هذا الشراب، يطهِّرهم اللهُ مِن رَحْض الذنوبِ وأوضارِ الاعتقاداتِ الذميمة، فجاؤوا اللهَ بقلب سليم، ودخلوا الجنةَ بصفات التسليم، وقيل لهم حينئذ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]. ولما كانَ حكمه في الدنيا بزوال حكم الحَدَثِ بجريان الماءِ على الأعضاء، كانت تلك حكمتَه ورحمته[٤] في الآخرة. وأما قول الشاعر:

... رِيقُهُنَّ طَهُورُ

فإنه قصد بذلك المبالغةَ في وصف الرِّيقِ بالطُّهورية، لعذوبته وتعلُّقِه بالقلوب، وطِيبِهِ في النفوس، وسكونِ غليل المحبِّ برَشْفه حتى كأنه الماءُ الطَّهور. وبالجملة فإنَّ الأحكام الشرعيةَ لا تثبت بالمجازات الشِّعرية؛ فإنَّ الشعراء يتجاوزون في الاستغراق حدَّ الصِّدقِ إلى الكذب، ويسترسلون في القول حتى يُخرجهم ذلك إلى البدعة والمعصية، وربَّما وقعوا في الكفر من حيث لا يشعرون. ألا ترى إلى قول

---

(١) في المصادر: هيفٍ خصورُها. وقوله: رُجُح، هو جمع: رَجَاح وراجح، وهي ثقيلة العجيزة من النسوة. والأكفال: جمع كَفَل، وهو العجز. والظبي الأغيد: الذي مالت عنقه ولانت أعطافه. اللسان (رجح) (كفل) (غيد).

(٢) ذكر أبو علي القالي في الأمالي ١/ ١٨٣: البيتين ضمن قصيدة، ونقل عن ابن الأنباري أنها لجميل بن معمر العُذري ثم قال أبو علي: وليست هذه الأبيات في شعر جميل. اهـ. والبيت الثاني في اللسان (رجح) دون نسبة.

(٣) أوضار، جمع وَضَر، وهو الوسخ من الدسم أو غيره.

(٤) قوله: ورحمته، ليس في (م).

بعضِهم:

ولو لم تُلامِسْ صفحةُ الأرضِ رِجلَها لما كنتُ أدري علَّةً للتيمُّمِ

وهذا كفر صُراح، نعوذ بالله منه.

قال القاضي أبو بكر بنُ العربي[١]: هذا منتهى لُبابِ كلامِ العلماء، وهو بالغٌ في فنِّه؛ إلا أنّي تأملتُ من طريق العربية، فوجدت فيه مَطلعاً مشرِّفاً[٢]، وهو أنَّ بناء فَعولٍ للمبالغة، إلَّا أنَّ المبالغةَ قد تكون في الفعل المتعدِّي كما قال الشاعر[٣]:

ضَروبٌ بنصل السيفِ سُوقَ سِمَانِها

وقد تكون في الفعل القاصر، كما قال الشاعر:

نَؤُوم الضُّحا لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ[٤]

وإنما تؤخذ طهوريةُ الماء لغيره من الحسن نظافةً، ومن الشرع طهارةً؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يقبلُ اللهُ صلاةً بغير طُهور»[٥]. وأجمعت الأُمة لغةً وشريعةً على أنَّ وصف «طَهور» يختصُّ بالماء، ولا يتعدَّى إلى سائر المائعات، وهي طاهرة؛ فكان اقتصارُهم بذلك على الماء أدلَّ دليلٍ على أنَّ الطَّهورَ هو المطهِّر. وقد يأتي فَعولٌ لوجه آخرَ ليس من هذا كلِّه، وهو العبارةُ به عن الآلة للفعل، لا عن الفعل، كقولنا: وَقُود وسَحُور، بفتح الفاء[٦]، فإنها عبارةٌ عن الحطب والطعامِ[٧] المتسحَّر

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٤-١٤٠٦، وما قبله منه.

(٢) في (د) و (م): مشرقاً، وفي أحكام القرآن: شريفاً.

(٣) هو أبو طالب، وسلف البيت بتمامه ٥/ ١١٩.

(٤) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٧، وجاء أيضاً في ديوان كُثير عزة، وسلف ص٣٦٢ من هذا الجزء.

(٥) سلف ٧/ ٣٦٦.

(٦) يعني فاء «فَعول»، ووقع في (ظ): بفتح الواو والسين بدل قوله: بفتح الفاء.

(٧) في (د): المطعم، وفي (ظ) و (م): الطعم، وفي (ف): المطمع. والمثبت من (ز)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن، وما سيرد بين حاصرتين منه.

بهِ؛ فوَصفُ الماءِ بأنه طَهور ـ بفتح الطاء ـ أيضاً يكون خبراً عن الآلة التي يُتطهَّر بها. فإذا ضُمَّت الفاء في الوَقود والسَّحور والطَّهور؛ عاد إلى الفعل وكان خبراً عنه. فثبت بهذا أنَّ اسم الفَعول ـ بفتح الفاء ـ يكون بناءً للمبالغة، ويكون خبراً عن الآلة، وهو الذي خطر ببال الحنفيَّة، ولكن قَصُرت أشداقُها عن لَوْكِه، وبعد هذا يقف البيانُ [به] عن المبالغة، وعن الآلة على الدليل، فقوله[1] تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «جُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً»[2] يحتمل المبالغةَ، ويحتمل العبارةَ به عن الآلة؛ فلا حُجَّةَ فيه لعلمائنا، لكن يبقى قولُه: «لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ» نصّاً في أنَّ فعله يتعدَّى إلى غيره.

الثانية: المياهُ المنزلة من السماء والمودعةُ في الأرض طاهرةٌ مطهِّرة، على اختلاف ألوانِها وطُعومها وأرياحها، حتى يخالطَها غيرُها. والمخالطُ للماء على ثلاثة أضرب:

ضرب يوافقه في صفتَيه جميعاً [وهي: الطهارةُ، والتطهير]، فإذا خالطه فغيَّره لم يسلبه وصفاً منهما، لموافقته لهما، وهو التراب.

والضربُ الثاني يوافقه في إحدى صفتيه، وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيَّره؛ سلبَه ما خالفه فيه، وهو التطهير، كماء الوردِ وسائرِ الطاهرات.

والضرب الثالث يخالفه في الصفتين جميعاً، فإذا خالطه فغيَّره؛ سلبه الصفتين جميعاً؛ لمخالفته له[3] فيهما، وهو النَّجس.

الثالثة: ذهب المِصريُّون من أصحاب مالكٍ إلى أنَّ قليل الماء يفسده قليلُ النجاسة، وأنَّ الكثير لا يفسده إلَّا ما غيَّر لونَه أو طعمه أو ريحه من المحرَّمات. ولم

---

(١) في (م): بقوله.

(٢) سلف ٢/ ٢٨٣ .

(٣) في النسخ الخطية: لهما، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٧ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

يَحدُّوا بين القليل والكثير حدّاً يوقفُ عنده، إلَّا أنَّ ابنَ القاسم روى عن مالك في الجُنُب يغتسل في حوض من الحياض التي تُسقى فيها الدوابّ، ولم يكن غَسَلَ ما به من الأذى، أنه قد أفسد الماء، وهو مذهب ابنِ القاسم وأشهبَ وابنِ عبد الحكم ومَن اتَّبعهم من المِصريين، إلا ابنَ وهب؛ فإنه يقول في الماء بقول المدنيِّين مِن أصحاب مالك. وقولُهم ما حكاه أبو مصعبٍ عنهم وعنه[1]: أنَّ الماء لا تُفسده النجاسةُ الحالَّة فيه قليلاً كان أو كثيراً، إلَّا أنْ تظهرَ فيه النجاسةُ[2] وتغيِّرَ منه طعماً أو ريحاً أو لوناً. وذكر أحمد بنُ المعدَّل أنَّ هذا قولُ مالك بنِ أنس في الماء. وإلى هذا ذهب إسماعيل ابنُ إسحاق ومحمد بنُ بُكير وأبو الفَرَج والأبهريُّ[3] وسائر المنتحلين لمذهب مالكٍ من البغداديين؛ وهو قول الأوزاعيِّ والليث بنِ سعد والحسن بنِ صالح وداود بنِ عليّ. وهو مذهب أهلِ البصرة، وهو الصحيحُ في النظر وجيِّدِ الأثر.

وقال أبو حنيفة: إذا وقعت نجاسةٌ في الماء، أفسدته كثيراً كان أو قليلاً، إذا تحقَّقت عمومُ النجاسة فيه. ووجه تحقُّقِها عنده أن تقع مثلاً نقطةُ بولٍ في بِركة، فإن كانت البركةُ يتحرك طرفاها بتحرُّك أحدهما، فالكلُّ نجس، وإن كانت حركة أحدِ الطرفين لا تحرِّك الآخرَ لم ينجس. وفي «المجموعة» نحوُ مذهبِ أبي حنيفة.

وقال الشافعيُّ بحديث القُلَّتين، وهو حديثٌ مطعون فيه؛ اختُلف في إسناده ومتنه؛ أخرجه أبو داود والترمذيُّ وخاصَّةً الدَّارَقُطْني، فإنه صدَّر به كتابَه وجمع طرقه[4].

قال ابن العربي[5]: وقد رام الدَّارَقُطْنيُّ على إمامته أنْ يصحِّحَ حديثَ القلَّتين فلم يقدر.

---

(١) في التمهيد ١/ ٣٢٧ (والكلام منه): وعن أهل المدينة.

(٢) في (م) زيادة: الحالة فيه.

(٣) في النسخ: أبو الفَرَج الأبهري، وهو خطأ.

(٤) سنن أبي داود (٦٣) و (٦٤) و (٦٥)، والترمذي (٦٧)، والدارقطني (١) - (٢٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وهو عند أحمد (٤٦٠٥)، والنسائي ١/ ٤٦، وابن ماجه (٥١٧).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٨، وما قبله منه.

وقال أبو عمر بنُ عبد البر[١]: وأمَّا ما ذهب إليه الشافعيُّ من حديث القلتين، فمذهبٌ ضعيف من جهة النظر، غيرُ ثابتٍ في الأثر؛ لأنه قد تكلَّم فيه جماعةٌ من أهل العلم بالنقل، ولأنَّ القلتين لا يوقف على حقيقة مبلغِهما في أثرٍ ثابت ولا إجماع، فلو كان ذلك حدّاً لازماً. لوجب على العلماء البحثُ عنه؛ ليقفوا على حدٍّ ما حدَّه النبيُّ ﷺ؛ لأنه من أصل دينِهم وفرضهم، ولو كان ذلك كذلك ما ضيَّعوه، فلقد بحثوا عما هو أدونُ من ذلك وألطف.

قلت: وفيما ذكر ابنُ المنذر[٢] في القلتين من الخلاف يدُلُّ على عدم التوقيفِ فيهما والتحديد.

وفي سنن الدَّارَقُطْنيِّ[٣]: عن حماد بن زيد، عن عاصم بن المنذر قال: القِلالُ: الخوابي العِظَام. وعاصمٌ هذا هو أَحدُ رواةِ حديثِ القلَّتين. ويظهر من قول الدَّارَقُطْنيِّ أنها مثلُ قِلال هَجَر؛ لسياقه حديثَ الإسراءِ عن أنس بنِ مالك أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لمَّا رُفعتُ إلى سِدرة المنتهى في السماء السابعة، نَبِقُها مثلُ قِلال هَجَر، وورقُها مثلُ آذانِ الفِيَلة»[٤] وذكر الحديث.

قال ابن العربي[٥]: وتعلَّق علماؤنا بحديث أبي سعيد الخدريِّ في بئر بُضاعة، رواه النَّسائيُّ والترمذيُّ وأبو داود وغيرُهم[٦]. وهو أيضاً حديثٌ ضعيف لا قَدَمَ له في الصِّحَّة، فلا تعويلَ عليه.

---

(١) في التمهيد ١/ ٣٣٥ .

(٢) في الأوسط ١/ ٢٦١-٢٦٣ .

(٣) برقم (٣١).

(٤) سنن الدارقطني (٣٣). وهو عند أحمد (١٢٦٧٣). والنَّبِق بفتح النون وكسر الباء، وقد تسكن: ثمر السِّدْر. النهاية (نبق).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٨ .

(٦) سنن النسائي ١/ ١٧٤ ، والترمذي (٦٦)، وأبي داود (٦٦) و (٦٧). وهو عند أحمد (١١١١٩). قال الترمذي: هذا حديث حسن. وبُضاعة: هي بئر معروفة بالمدينة، والمحفوظ ضم الباء، وأجاز بعضهم كسرها. النهاية (بضع).

وقد فاوضت الطوسيَّ الأكبر[١] في هذه المسألةِ فقال: إنَّ أخلص المذاهبِ في هذه المسألةِ مذهبُ مالك؛ فإنَّ الماء طَهورٌ ما لم يتغيَّر أحدُ أوصافه؛ إذ لا حديث في الباب يُعوَّل عليه، وإنما المعوَّلُ على ظاهر القرآن، وهو قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وهو ماءٌ[٢] بصفاته، فإذا تغيَّر عن شيء منها؛ خرج عن الاسم؛ لخروجه عن الصفة، ولذلك لمَّا لم يجد البخاريُّ إمامُ الحديث والفقه في الباب خبراً يعوِّل عليه، قال: باب إذا تغيَّر وصفُ الماء، وأدخل الحديثَ الصحيح: «ما مِن أحدٍ يُكلَم في سبيلِ اللهِ ـ واللهُ أعلمُ بمن يُكلمَ في سبيلهِ ـ إلَّا جاء يومَ القيامة وجرحُه يَثْعَب دماً، اللونُ لون الدم، والرِّيحُ ريح المِسك»[٣]. فأَخبر ﷺ أنَّ الدمَ بحاله وعليه رائحةُ المسك، ولم تُخرجه الرائحةُ عن صفة الدَّمَويَّة. ولذلك قال علماؤنا: إذا تغيَّر الماءُ بريح جيفةٍ على طرفه وساحله، لم يمنع ذلك الوضوءَ منه. ولو تغير بها وقد وُضعت[٤] فيه، لَكان ذلك تنجيساً له للمخالطة، والأول[٥] مجاوَرةٌ [لا تعويل عليها].

قلت: وقد استُدلَّ به أيضاً على نقيض ذلك، وهو أنَّ تغير الرائحةِ يُخرجه عن أصله. ووجهُ هذا الاستدلالِ أنَّ الدمَ لمَّا استحالت رائحتُه إلى رائحة المسك، خرج عن كونه مستخبَثاً نجِساً، وأنه صار مِسْكاً، وإنَّ المسك بعضُ دمِ الغزال[٦]. فكذلك الماءُ إذا تغيَّرت رائحته. وإلى هذا التأويل ذهب الجمهورُ في الماء. وإلى الأول ذهب عبدُ الملك.

---

(١) هو الإمام الغزالي، وينظر الإحياء ١/ ١٢٩ .

(٢) في (م): ما دام. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٣) صحيح البخاري (٢٣٧) وهو من حديث أبي هريرة ﷺ (باب ما يقع من النجاسات في السمن والماء). وليس فيه لفظ الباب الذي ذكره المصنف، ولعله في نسخ المغاربة. وأخرجه أحمد (٧٣٠٢)، ومسلم (١٨٧٦) : (١٠٥). وقوله: يثعب، أي: ينفجر. التمهيد ١٩/ ١٤ .

(٤) في أحكام القرآن: وقعت.

(٥) في أحكام القرآن: والأولى. وما بين حاصرتين منه.

(٦) ينظر إكمال المعلم ٦/ ٢٩٤ . وقوله: وإن المسك بعض دم الغزال، هو تضمين لبيت المتنبي، وصدره: فإنْ تَفُق الأنامَ وأنت منهم، وهو في ديوانه ٣/ ١٥١ .

قال أبو عمر(١): جعلوا الحكمَ للرائحة دون اللون، فكان الحكمُ لها، فاستدلُّوا عليها في زعمهم بهذا الحديث. وهذا لا يُفهم منه معنىً تَسكُن إليه النفس، ولا في الدم معنى الماءِ فيقاسَ عليه، ولا يَشتغل بمثل هذا الفقهاءُ، وليس من شأن أهلِ العلم اللَّغزُ(٢) به وإشكاله؛ وإنما شأنُهم إيضاحُه وبيانه، ولذلك أخذ الميثاقَ عليهم ليبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه، والماءُ لا يخلو تغيُّره بنجاسة أو بغير نجاسة، فإن كان بنجاسة وتغيَّر، فقد أجمع العلماءُ على أنه غيرُ طاهرٍ ولا مطهِّر، وكذلك أجمعوا أنه إذا تغيَّر بغير نجاسة أنه طاهرٌ على أصله. وقال الجمهور: إنه غيرُ مطهِّر إلَّا أنْ يكونَ تغيُّره مِن تُربةٍ وحمأة. وما أجمعوا عليه فهو الحقُّ الذي لا إشكال فيه، ولا التباسَ معه.

الرابعة: الماء المتغيِّرُ بقُرارة(٣)، كزِرْنيخ أو جِيْرٍ يجري عليه، أو تغيَّرَ بطُحلُب أو ورقِ شجرٍ يَنْبت عليه لا يمكن الاحترازُ منه؛ فاتفق العلماءُ أنَّ ذلك لا يمنع الوضوء به؛ لعدم الاحترازِ منه والانفكاكِ عنه، وقد روى ابنُ وهبٍ عن مالك أنَّ غيرَه أولى منه(٤).

الخامسة: قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: ويكره سؤرُ النصرانيِّ وسائرِ الكفار والمدمنِ خمراً، وما أكل الجِيَف؛ كالكلاب وغيرِها. ومن توضأ بسؤرهم(٥) فلا شيءَ عليه حتى يَستيقنَ النجاسة.

قال البخاريّ(٦): وتوضأ عمرُ ﷺ مِن بيتِ نصرانية.

ذكر سفيان ابنُ عيينة قال: حدَّثونا عن زيد بنِ أسلم، عن أبيه قال: لمَّا كنا بالشام أتيت عمر بن الخطاب بماء، فتوضأ منه فقال: مِن أين جئتَ بهذا الماء؟ ما رأيت ماءً

---

(١) في التمهيد ١٩/ ١٥-١٦ .

(٢) في (ز) والتمهيد: اللغو.

(٣) القُرارة (بالضم) هي في الأصل: ما يلزقُ بأسفل القِدْر من شيء. ينظر القاموس (قرر).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٩ .

(٥) في الكافي ١/ ١٥٧ (والكلام منه): بسؤرها.

(٦) في صحيحه قبل الحديث (١٩٣). وسلف الأثر ٧/ ٣١٩ .

عذباً؛ ولا ماءَ سماءٍ أطيبَ منه. قال: قلت: جئتُ به من بيت هذه العجوزِ النصرانية؛ فلما توضَّأ أتاها فقال: أيتها العجوز! أسلِمي تَسلَمي، بعث اللهُ محمداً ﷺ بالحقّ. قال: فكشفتْ عن رأسها؛ فإذا مِثْلُ الثَّغامة، فقالت: عجوزٌ كبيرة، وإنما أموت الآن! فقال عمر ﷺ: اللهم اشهَد. خرَّجه الدَّارَقُطْنيّ[١]: حدَّثنا الحسين بنُ إسماعيل قال: حدّثنا أحمد بنُ إبراهيم البُوشَنْجِيُّ قال: حدَّثنا سفيان، فذكره. ورواه أيضاً عن الحسين بن إسماعيل قال: حدَّثنا خلاد بنُ أسلم، حدَّثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أنَّ عمر بنَ الخطاب ﷺ توضأ من بيتِ نصرانية أتاها، فقال: أيتها العجوزُ أسلمي . . وذكر الحديثَ[٢] بمثل ما تقدَّم.

السادسة: فأمَّا الكلبُ إذا ولغ في الماء، فقال مالك: يُغسل الإناءُ سبعاً ولا يتوضأ منه، وهو طاهر. وقال الثوريّ: يتوضأ بذلك الماءِ ويُتيمم معه. وهو قولُ عبدِ الملك بن عبد العزيز ومحمد بنِ مسلمة. وقال أبو حنيفة: الكلبُ نَجِس، ويغسل الإناءُ منه لأنه نجس. وبه قال الشافعيُّ وأحمدُ وإسحاق[٣].

وقد كان مالكٌ يفرِّق بين ما يجوز اتِّخاذُه من الكلاب وبين ما لا يجوز اتخاذُهُ منها في غسل الإناءِ من وُلوغه. وتحصيلُ مذهبه أنه طاهرٌ عنده، لا ينجِّس ولوغُهُ شيئاً ولغ فيه، طعاماً ولا غيرَه، إلَّا أنه استحبَّ هِرَاقةَ ما ولغ فيه من الماء ليَسَارَة[٤] مؤنتِه. وكلبُ البادية والحاضرةِ سواء. ويُغسل الإناءُ منه على كل حالٍ سبعاً تعبُّداً. هذا ما استقرَّ عليه مذهبُه عند المناظرين مِن أصحابه[٥].

ذكر ابنُ وهب قال: حدَّثنا عبد الرحمن بنُ زيد بنِ أسلم، عن أبيه، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: سئل رسولُ الله ﷺ عن الحِياض التي تكون فيما بين مكةَ

---

(١) في سننه (٦٣). والثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر، يشبه به الشيب. وقيل: هي شجرة تبيضُّ كأنها الثلج. النهاية (ثغم).
(٢) سنن الدارقطني (٦٤).
(٣) ينظر الأوسط ١/٣٠٦-٣٠٧ ، والتمهيد ١٨/٢٦٩-٢٧١ .
(٤) في (ظ): إلا لعسارة.
(٥) الكافي ١/١٥٨ .

والمدينة، فقيل له: إنَّ الكلاب والسِّباع تَرِدُ عليها. فقال: «لها ما أخذت في بطونها، ولنا ما بقي شرابٌ وطَهور» أخرجه الدَّارَقَطْنيّ[1]. وهذا نصٌّ في طهارة الكلابِ وطهارةِ ما تَلِغ فيه.

وفي البخاريّ[2] عن ابن عمر: أنَّ الكلاب كانت تُقْبِل وتدبر في مسجد رسولِ الله ﷺ، ولا يرشُّون شيئاً من ذلك.

وقال عمر بحضرة الصحابةِ لصاحب الحوضِ الذي سأله عمرو بنُ العاص: هل تَرِد حوضَك السِّباع؟ فقال عمر: يا صاحبَ الحوض، لا تُخْبِرنا، فإنَّا نَرِدُ على السباع وترد علينا. أخرجه مالكٌ والدَّارَقُطْنيّ[3]. ولم يفرِّق بين السِّباع، والكلبُ مِن جملتها، ولا حُجَّةَ للمخالف في الأمر بإراقة ما ولغ فيه[4] وأنَّ ذلك للنجاسة، وإنما أمر بإراقته لأنَّ النفسَ تعافة، لا لنجاسته؛ لأنَّ التنزُّهَ من الأقذار مندوبٌ إليه، أو تغليظاً عليهم؛ لأنهم نُهوا عن اقتنائها[5]، كما قاله ابنُ عمر[6] والحسن؛ فلما لم ينتهوا عن ذلك غلَّظ عليهم في الماء، لِقلَّته عندهم في البادية، حتى يشتدَّ عليهم فيمتنعوا من اقتنائها.

وأما الأمرُ بغَسل الإناء فعبادةٌ؛ لا لنجاسته كما ذكرناه، بدليلين: أحدهما: أنَّ الغسل قد دخله العدد. الثاني: أنه جُعل للتراب فيه مدخل؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «وعفِّروه الثامنةَ بالتراب». ولو كان للنجاسة لما كان للعدد ولا للتراب فيه

---

(١) في سننه (٥٦). ورواه أيضاً عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بالإسناد نفسه، وجعله من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، كما هو عند ابن ماجه (٥١٩)، والبيهقي ١/ ٢٥٨ . قال البيهقي: وعبد الرحمن بن زيد ضعيف، لا يحتج بأمثاله.

(٢) برقم (١٧٤) تعليقاً. ووصله أحمد (٥٣٨٩)، وأبو داود (٣٨٢).

(٣) الموطأ ١/ ٢٣-٢٤ ، وسنن الدارقطني (٦٢).

(٤) يشير إلى حديث أبي هريرة ﷺ فيما أخرجه مسلم (٢٧٩): (٨٩) ولفظه: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه، ثم ليغسله سبع مرار».

(٥) سلف ٧/ ٣١٢ .

(٦) ينظر الاستذكار ٢٧/ ١٩٣ .

مدخل، كالبول[١]. وقد جعل ﷺ الهِرَّ وما ولغ فيه طاهراً[٢]، والهرُّ سبعٌ لا خلاف في ذلك؛ لأنه يفترس ويأكل المَيْته؛ فكذلك الكلبُ وما كان مِثلُه من السِّباع؛ لأنه إذا جاء نَصٌّ في أحدهما كان نصّاً في الآخر. وهذا مِن أقوى أنواعِ القياس. هذا لو لم يكن هناك دليل؛ وقد ذكرنا النصَّ على طهارته، فسقط قولُ المخالِف. والحمدُ لله.

السابعة: ما مات في الماء ممَّا لا دمَ له، فلا يضرُّ الماءَ إن لم يغيِّر ريحَه؛ فإنْ أنتنَ لم يُتوضأ به. وكذلك ما كان له دمٌ سائل من دوابِّ الماءِ، كالحوت والضِّفدِع، لم يُفسِد ذلك الماءَ موتُه فيه؛ إلَّا أن تتغيَّر رَائحتُه، فإن تغيَّرت رائحتُه وأنتن، لم يجز التطهرُ به ولا الوضوءُ منه، وليس بنجِس عند مالك. وأما مالَه نَفْسٌ سائلة فمات في الماء ونُزح مكانه، ولم يغيِّر لونَه ولا طعمه ولا ريحه، فهو طاهرٌ مطهِّر، سواءٌ كان الماء قليلاً أو كثيراً عند المدنيين. واستحبَّ بعضُهم أن يُنزحَ من ذلك الماءِ دِلاءٌ لتطيبَ النفسُ به، ولا يحدُّون في ذلك حدًّا لا يتعدَّى. ويكرهون استعمالَ ذلك الماءِ قبل نزحِ الدِّلاء، فإن استعمله أحدٌ في غسلٍ أو وضوء، جاز إذا كانت حالُه ما وصفنا. وقد كان بعضُ أصحاب مالكٍ يرى لمن توضَّأ بهذا الماءِ وإن لم يتغيَّر أن يتيمم، فيجمعَ بين الطهارتين احتياطاً، فإن لم يفعل وصلَّى بذلك الماءِ أجزأه[٣].

وروى الدارقطني عن محمد بن سِيرين أنَّ زِنجِيّاً وقع في زمزم ـ يعني فمات ـ فأَمر به ابنُ عباس ﷺ فأُخرج، فأمر بها أن تُنزَح. قال: فغلبتْهم عينٌ جاءتهم من الرُّكن، فأَمر بها فدُسِمت بالقباطِيِّ والمطارف حتى نزحوها، فلما نزحوها انفجرت عليهم[٤]. وأخرجه[٥] عن أبي الطُّفيل أنَّ غلاماً وقع في بئر زمزم فنُزحت. وهذا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٠-١٤١١ . والحديث أخرجه أحمد (١٦٧٩٢)، ومسلم (٢٨٠) من حديث عبد الله بن مغفَّل ﷺ.

(٢) سيأتي في المسألة الثامنة.

(٣) الكافي ١/١٥٦-١٥٨ .

(٤) سنن الدارقطني (٦٥)، وأخرجه البيهقي ١/ ٢٦٦ وقال: هذا بلاغ؛ فإن محمد بن سيرين لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما ولم يسمع منه. اهـ . وقوله: دُسمت، أي: سُدت. والقباطي: جمع قُبطية: وهو الثوب من ثياب مصر، رقيقة بيضاء. والمطارف: جمع مطرف: وهو الثوب الذي في طرفيه علمان. النهاية (قبط) (طرف).

(٥) سنن الدارقطني (٦٦)، وفيه جابر الجعفي، قال البيهقي في السنن ١/ ٢٦٦ : لا يحتج به.

يَحتمل أن يكونَ الماءُ تغيَّر، والله أعلم.

وروى شعبة عن مغيرة، عن إبراهيم أنه كان يقول: كلُّ نَفْسٍ سائلة لا يُتوضأ منها، ولكن رخص في الخُنْفَساء والعقرب والجراد والجُدْجُد إذا وقَعنَ في الرِّكاء فلا بأس به. قال شعبة: وأظنُّه قد ذكر الوَزَغة. أخرجه الدار قطني[(١)]: حدَّثنا الحسين بنُ إسماعيل قال: حدَّثنا محمد بنُ الوليد قال: حدَّثنا محمد بنُ جعفر: قال: حدَّثنا شعبة، فذَكَره.

الثامنة: ذهب الجمهورُ من الصحابة وفقهاءِ الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أنَّ ما ولغ فيه الهِرُّ من الماء طاهر، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره؛ لحديث أبي قتادة، أخرجه مالكٌ وغيره[(٢)]. وقد روي عن أبي هريرة فيه خلاف. وروي عن عطاء بنِ أبي رباح وسعيد بنِ المسيّب ومحمد بنِ سيرين أنهم أَمروا بإراقة ماءٍ ولغ فيه الهرُّ وغسل الإناءِ منه. واختُلف في ذلك عن الحسن. ويحتمل أن يكونَ الحسنُ رأى في فمه نجاسةً، ليصحَّ مخرجُ الروايتين عنه[(٣)].

قال الترمذيُّ لمَّا ذَكر حديثَ مالك: وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة، هذا حديثٌ حسن صحيح، وهو قول أكثرِ أهلِ العلم من أصحاب النبيِّ ﷺ والتابعين ومَن بعدَهم؛ مثل الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاق، لم يرَوا بسؤر الهرةِ بأساً. وهذا أحسنُ شيءٍ في الباب، وقد جوَّد مالكٌ هذا الحديثَ عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، ولم يأتِ به أحدٌ أتمَّ من مالك.

قال الحافظ أبو عمر[(٤)]: الحجَّةُ عند التنازع والاختلافِ سُنَّةُ رسول الله ﷺ، وقد صحَّ من حديث أبي قتادة أنه أصغى لها الإناءَ حتى شربت. الحديث. وعليه اعتمادُ

---

(١) برقم (٦٧). والجُدجُد: حيوان كالجراد يصوّت في الليل. النهاية (جدد).

(٢) الموطأ ١/ ٢٢-٣٢، وهو عند أحمد (٢٢٥٨٠)، وأبي داود (٧٥)، والترمذي (٩٢)، والنسائي ١/ ٥٥، وابن ماجه (٣٦٧).

(٣) التمهيد ١/ ٣٢٣ و ٣٢٤.

(٤) في التمهيد ١/ ٣٢٤ - ٣٢٦.

الفقهاءِ في كل مصر، إلَّا أبا حنيفة ومَن قال بقوله؛ فإنه كان يكره سؤرَه. وقال: إنْ توضأ به أحدٌ أجزاه، ولا أعلم حُجَّةً لمن كره الوضوءَ بسؤر الهرة أحسنَ من أنه لم يبلغه حديثُ أبي قتادة، وبلغه حديثُ أبي هريرة[١] في الكلب، فقاس الهرَّ عليه، وقد فرَّقت السُّنةُ بينهما في باب التعبُّدِ في غَسل الإناء، ومَن حَجَّتْه السُّنةُ خاصمته، وما خالفها مُطَّرَح. وبالله التوفيق.

ومِن حُجَّتهم أيضاً ما رواه قُرَّة بنُ خالد، عن محمد بنِ سيرين، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «طهُور الإناءِ إذا ولغ فيه الهِرُّ أن يُغسلَ مرَّةً أو مرتين» شكَّ قرة. وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بنُ خالد، وقرة ثقةٌ ثبت.

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطني[٢]، ومتنُه: «طهورُ الإناء إذا ولغ فيه الكلبُ أن يغسلَ سبعَ مرات، الأُولى بالتراب، والهرُّ مرةً أو مرتين». قرةُ شكَّ. قال أبو بكر[٣]: كذا رواه أبو عاصمٍ مرفوعاً، ورواه غيرُه عن قرة: ولوغ الكلب؛ مرفوعاً، وولوغ الهر؛ موقوفاً.

وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُغسل الإناءُ من الهر كما يغسلُ من الكلب» قال الدار قطني[٤]: لا يثبت هذا مرفوعاً، والمحفوظ من قول أبي هريرة، واختُلف عنه.

وذكر مَعْمَرٌ وابنُ جُرَيج عن ابن طاوس، عن أبيه أنه كان يجعل الهرَّ مثلَ الكلب. وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلغ فيه السنور؛ قال: إِغسلْه سبعَ مرات. قاله الدارقطني[٥].

---

(١) سلف في المسألة السادسة.

(٢) برقم (٢٠٥).

(٣) هو النيسابوري شيخ الدارقطني.

(٤) عقب الحديث (٢٠٨).

(٥) بسنده عنهما: (٢١٢) (٢١٣).

التاسعة: الماء المستعمل طاهرٌ إذا كانت أعضاءُ المتوضئ به طاهرةً؛ إلَّا أنَّ مالكاً وجماعةً من الفقهاء الجِلَّةِ كانوا يكرهون الوضوءَ به. وقال مالك: لا خيرَ فيه، ولا أُحِبُّ لأحد أن يتوضأ به، فإنْ فعل وصلَّى لم أرَ عليه إعادةَ الصلاة، ولْيتوضأ لِمَا يستقبل[(١)].

وقال أبو حنيفة والشافعيُّ وأصحابهما: لا يجوز استعمالُه في رفع الحدث، ومَن توضأ به أعاد؛ لأنه ليس بماء مطلق، وتيمَّم واجدُه؛ لأنه ليس بواجد ماءً. وقال بقولهم في ذلك أَصبغ بنُ الفَرَج، وهو قولُ الأوزاعيّ. واحتجُّوا بحديث الصُّنابِحيِّ، خرَّجه مالكٌ[(٢)]؛ وحديثِ عمرو بنِ عَبَسة[(٣)]، أخرجه مسلم، وغيرِ ذلك من الآثار. وقالوا: الماء إذا تُوضئ به خرجت الخطايا معه؛ فوجب التنزهُ عنه؛ لأنه ماءُ الذنوب.

قال أبو عمر[(٤)]: وهذا عندي لا وجه له؛ لأن الذنوب لا تنجِّس الماء، لأنها لا أشخاص لها، ولا أجسامَ تمازج الماءَ فتفسده، وإنما معنى قولِه: «خرجت الخطايا مع الماء» إعلامٌ منه بأنَّ الوضوء للصلاة عملٌ يكفِّر اللهُ به السيئاتِ عن عباده المؤمنين؛ رحمةً منه بهم وتفضُّلاً عليهم.

وقال أبو ثور وداودُ مثلَ قولِ مالك، وأنَّ الوضوء بالماء المستعمل جائز؛ لأنه ماءٌ طاهر لا ينضاف إليه شيء، وهو ماءٌ مطلق. واحتجُّوا بإجماع الأمةِ على طهارته إذا لم يكن في أعضاء المتوضئ نجاسة. وإلى هذا ذهب أبو عبد الله المَرْوَزِيُّ محمد ابنُ نصر. وروي عن عليِّ بن أبي طالب وابنِ عمر وأبي أُمامة وعطاء بنِ أبي رَبَاحٍ والحسنِ البصريِّ والنَّخَعيِّ ومكحولٍ والزُّهريِّ أنهم قالوا فيمن نسي مسحَ رأسه؛

(١) الكافي ١/١٥٨ .

(٢) في الموطأ ١/ ٣١ ، وقد سلف ٧/ ٣٤٢ تخريجه والكلام عليه.

(٣) في (د) و (ز) و (م): عنبسة، وهو خطأ. وحديثه عند أحمد (١٧٠١٩)، ومسلم (٨٣٢)، وقد سلف ٧/ ٣٧٠ .

(٤) في الاستذكار ٢/١٩٧ ، وما قبله منه.

فوجد في لحيته بَلَلاً: إنه يجزئه أنْ يمسحَ بذلك البللِ رأسَه؛ فهؤلاء كلُّهم أجازوا الوضوءَ بالماء المستعمل[١].

وروى عبد السلام بنُ صالح: حدَّثنا إسحاق بنُ سُويد، عن العلاء بنِ زياد، عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ مَرْضيٍّ: أنَّ رسول الله ﷺ خرج عليهم ذات يوم وقد اغتسل، وقد بقيت لُمعةٌ من جسده لم يُصبها الماء، فقلنا: يا رسولَ الله، هذه لُمعةٌ لم يصبها الماء؛ فكان له شعرٌ وارد، فقال بشعره هكذا على المكان، فَبلَّه. أخرجه الدارقطني[٢]، وقال: عبد السلام بنُ صالح هذا بصريٌّ، وليس بقويّ، وغيرُه من الثقات يرويه عن إسحاق، عن العلاء مرسَلاً، وهو الصواب.

قلت: الرواي الثقةُ عن إسحاق بن سُويد العدويّ، عن العلاء بن زياد العدوي: أنَّ رسول الله ﷺ اغتسل... الحديث؛ فيما ذَكر هو[٣] هُشيم.

قال ابن العربي[٤]: مسألة الماءِ المستعمل إنما تَنبني على أصل آخرَ، وهو أنَّ الآلة إذا أُدِّي بها فرضٌ؛ هل يؤدَّى بها فرضٌ آخرُ أم لا؟ فمنع ذلك المخالفُ قياساً على الرقبة إذا أُدِّي بها فرضُ عتقٍ؛ لم يصلُح أن يتكرر[٥] في أداء فرضٍ آخر؛ وهذا باطلٌ من القول، فإنَّ العتق إذا أتى على الرِّقِّ أتلفه، فلا يبقى محلٌّ لأداء الفرضِ بعتقٍ آخر. ونظيرُه من الماء ما تلف على الأعضاء، فإنه لا يصحُّ أنْ يؤدَّى به فرضٌ آخر؛ لِتلف عينِه حِسّاً، كما تلف الرقُّ في الرقبة بالعتق حكماً، وهذا نفيسٌ فتأمَّلوه.

العاشرة: لم يفرِّق مالكٌ وأصحابه بين الماء تقع فيه النجاسةُ وبين النجاسة يَرِد

---

(١) التمهيد ٤/ ٤٣.

(٢) في سننه (٣٨٦) والشعر الوارد: المطويل المسترسل. القاموس (ورد).

(٣) لفظة: هو، ليست في (د) و(ز)، وفي (م): ذكره، والمثبت من (ف) و (ظ). وهو خبر لقوله: الرواي الثقة..، ورواية هُشيم المرسلة هي عند الدارقطني (٣٨٧).

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٦-١٤٠٧.

(٥) في (د): يكون، وفي (ظ) و(ف): تكون، وفي (ز): يكون.

عليها الماء، راكداً كان الماءُ أو غيرَ راكد؛ لقول رسولِ الله ﷺ: «الماء لا ينجِّسه شيء، إلَّا ما غلب عليه، فغيَّر طعمَه أو لونه أو ريحه»[١].

وفرَّقت الشافعية فقالوا: إذا وردت النجاسةُ على الماء تنجَّس؛ واختاره ابنُ العربي، وقال[٢]: مِن أصول الشريعة في أحكام المياهِ أنَّ ورود النجاسة على الماء ليس كورود الماءِ على النجاسة؛ لقول النبيِّ ﷺ في الحديث الصحيح[٣]: «إذا استيقظ أحدُكم من نومه، فلا يَغْمسْ يده في الإناء حتى يَغْسِلَها ثلاثاً؛ فإنَّ أحدَكم لا يدري أين باتت يدُه». فمنع من ورود اليد على الماء، وأمر بإيراد الماءِ عليها، وهذا أصلٌ بديع في الباب، ولولا ورودُه على النجاسة ـ قليلاً كان أو كثيراً ـ لَمَا طهرت. وقد ثبت عن النبيِّ ﷺ أنه قال في بول الأعرابيِّ في المسجد[٤]: «صُبُّوا عليه ذَنُوباً من ماء».

قال شيخنا أبو العباس[٥]: واستدلُّوا أيضاً بحديث القُلَّتين[٦]، فقالوا: إذا كان الماءُ دون القلتين فحلَّته نجاسة، تنجَّسَ وإن لم تغيِّره، وإن ورد ذلك القدرُ فأقَلُّ على النجاسة فأذهب عينَها، بقي الماءُ على طهارته وأزال النجاسة. وهذه مناقضة، إذ المخالطةُ قد حصلت في الصورتين، وتفريقهم بورود الماءِ على النجاسة وورودِها عليه فرقٌ صوريٌّ، ليس فيه من الفقه شيء، فليس الباب بابَ التعبُّدات، بل من باب عقلية المعاني، فإنه من باب إزالة النجاسة وأحكامِها. ثم هذا كلُّه منهم يردُّه قولُه عليه

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٢، وينظر المفهم ١/ ٥٤٤.

(٣) قوله: في الحديث الصحيح ليس في (د) و (ز) و (م). والحديث أخرجه أحمد (٧٢٨٢)، والبخاري (١٦٢)، ومسلم (٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٠٨٢)، والبخاري (٢٢١)، ومسلم (٢٨٤) و(٢٨٥) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٢٥٥)، والبخاري (٢٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) في المفهم ١/ ٥٤٤.

(٦) سلف في المسألة الثالثة.

الصلاة والسلام: «الماءُ طَهورٌ لا ينجِّسه شيء، إلَّا ما غيَّر لونَه أو طعمه أو ريحه».

قلت: هذا الحديثُ أخرجه الدارقطني عن رِشدِين بن سعدٍ أبي الحجَّاج، عن معاوية بنِ صالح، عن راشد بن سعد، عن أبي أُمامة الباهلي؛ وعن ثوبان، عن النبيِّ ﷺ، وليس فيه ذِكْرُ اللون[1]. وقال: لم يرفعه غيرُ رشدين بنِ سعد، عن معاوية ابن صالح، وليس بالقوي[2].

وأحسنُ منه في الاستدلال ما رواه أبو أسامة عن الوليد بن كثير، عن محمد بن كعب، عن عبيد الله بن عبد الله بن رافع بن خَدِيج، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: قيل: يا رسول الله، أنتوضأ من بئر بُضاعة؟ وهي بئرٌ يلقى فيها الحِيَضُ ولحومُ الكلاب والنَّتْن؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الماء طَهورٌ لا ينجِّسه شيء». أخرجه أبو داود والترمذيُّ والدارقطني، كلُّهم بهذا الإسناد[3].

وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن، وقد جوَّد أبو أسامة هذا الحديثَ، ولم يَروِ أحدٌ حديثَ أبي سعيد في بئر بُضاعة أحسنَ مما روى أبو أسامة. فهذا الحديث نصٌّ في ورود النجاسة على الماء، وقد حكم ﷺ بطهارته وطهوره.

قال أبو داود[4]: سمعت قتيبة بنَ سعيد قال: سألت قيِّمَ بئرِ بضاعةَ عن عمقها؛ قلت: [ما] أكثرُ ما يكون الماءُ فيها؟ قال: إلى العانة. قلت: فإذا نقص؟ قال: دون العورة. قال أبو داود: وقدَّرت بئر بُضاعة بردائي مددته عليها ثم ذرعته، فإذا عرضُها ستةُ أذرع، وسألت الذي فتح لي بابَ البستان فأدخلني إليه: هل غُيِّر بناؤها عما كانت عليه؟ فقال: لا. ورأيت فيها ماءً متغيرَ اللون.

---

(١) سنن الدارقطني (٤٥)، (٤٧). وأخرجه ابن ماجه (٥٢١) من حديث أبي أمامة ﷺ، وفيه ذكر اللون. قال البوصيري في الزوائد ١/ ١٣١ : فيه رشدين، وهو ضعيف، واختلف عليه مع ضعفه.

(٢) وقال الدارقطني بعده: والصواب من قول راشد، وقد أخرجه عنه برقم (٤٦).

(٣) سنن أبي داود (٦٦)، والترمذي (٦٦)، والدارقطني (٥٤). وسلف في المسألة الثالثة.

(٤) إثر الحديث (٦٧). ونقله المصنف عنه بواسطة أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١١-١٤١٢ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

فكان هذا دليلاً لنا على ما ذكرناه، غير أنَّ ابن العربيِّ قال: إنها في وسط السَّبَخة(١)، فماؤها يكون متغيراً من قرارها، والله أعلم.

الحادية عشرة: الماء الطاهر المطهِّرُ الذي يجوز به الوضوءُ وغَسلُ النجاسات هو الماء القَرَاحُ الصافي، من ماء السماء والأنهارِ والبحار والعيون والآبار، وما عرَفه الناسُ ماءً مطْلقاً غيرَ مضافٍ إلى شيء خالطه؛ كما خلقه اللهُ عزَّ وجلَّ صافياً، ولا يضرُّه لونُ أرضه(٢)، على ما بيَّنَّاه.

وخالف في هذه الجملةِ أبو حنيفة وعبد الله بنُ عمرو وعبد الله بنُ عمر، فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوءَ بالنبيذ في السفر(٣)، وجوَّز إزالةَ النجاسة بكل مائعٍ طاهر. فأمَّا بالدُّهن والمَرَق، فعنه روايةٌ أنه لا يجوز إزالتُها به. إلَّا أنَّ أصحابه يقولون: إذا زالت النجاسةُ به جاز. وكذلك عنده النارُ والشمس؛ حتى إنَّ جلد الميتة إذا جفَّ في الشمس طَهُر من غير دباغ. وكذلك النجاسةُ على الأرض إذا جفَّت بالشمس، فإنه يطهر ذلك الموضع، بحيث تجوز الصلاةُ عليه، ولكن لا يجوز التيممُ بذلك التراب(٤).

قال ابن العربي(٥): لمَّا وصف اللهُ سبحانه الماءَ بأنه طَهور، وامتنَّ بإنزاله من السماء ليطهِّرَنا به، دلَّ على اختصاصه بذلك؛ وكذلك قال عليه الصلاة والسلام

---

(١) السبخة: الأرض ذات النزِّ والملح. القاموس (سبخ).

(٢) الكافي ١/ ١٥٥ .

(٣) وقد رُويَ عنه أنه قد رجع عن ذلك. وعند محمد لابد من الجمع بينه وبين التيمم، وقال أبو يوسف: يتيمم ولا يتوضأ به، وهو المفتى به. ينظر الجامع الصغير ص٥٥ ، والمبسوط ١/ ٨٨ ، ومجمع الأنهر ١/ ٢٤ ، وحاشية ابن عابدين ١/ ١٨١ . وفي بدائع الصنائع ١/ ١٦٨ : ذكر في الجامع الصغير أن المسافر إذا لم يجد الماء ووجد نبيذ التمر توضأ به ولم يتيمم. اهـ. ولم نقف على تقييده بالسفر عند غيره.

(٤) ينظر البناية شرح الهداية ١/ ٧٠٩-٧١٠ ، ٧٣٢ ، ٧٢٨ .

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٠٩ ، ١٤١٠ .

لأسماء بنتِ الصِّدِّيق حين سألته عن دم الحيضِ يصيب الثوب[١]: «حُتِّيه ثم اقرُصيه، ثم اغسليه بالماء». فلذلك لم يُلحِق غيرَ الماء بالماء؛ لِمَا في ذلك من إبطال الامتنان، وليست النجاسة معنىً[٢] محسوساً حتى يقال: كلُّ ما أزالها فقد قام به الفرض، وإنما النجاسةُ حكمٌ شرعيٌّ عيَّن له صاحبُ الشرع الماءَ؛ فلا يَلحَق به غيرُه؛ إذ ليس في معناه، ولأنه لو لحق به لأسقطه، والفرع إذا عاد إلحاقُه بالأصل في إسقاطه[٣] سقط في نفسه. وقد كان تاجُ السُّنة ذو العِزِّ ابنُ المرتضى[٤] الدبوسي يسمِّيه فرخَ زنى.

قلت: وأما ما استُدِلَّ به على استعمال النبيذ، فأحاديثُ واهيةٌ ضِعَاف، لا يقوم شيءٌ منها على ساق؛ ذكرها الدارقطني وضعَّفها ونصَّ عليها[٥]. وكذلك ضعَّف ما رَوَى عن ابن عباس موقوفاً: «النبيذ وضوءُ من[٦] لم يجد الماء». في طريقه ابنُ محرَّر[٧]، متروكُ الحديث. وكذلك ما رَوَى عن عليٍّ أنه قال: لا بأس بالوضوء بالنبيذ. الحجَّاج وأبو ليلى ضعيفان[٨]. وضعَّف حديثَ ابنِ مسعود[٩]، وقال: تفرَّد به ابنُ لهيعة، وهو ضعيفُ الحديث. وذكر عن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أَشَهِدَ رسولَ الله ﷺ أحدٌ منكم ليلةَ أتاه داعي الجِنّ؟ فقال: لا. قال

---

(١) أخرجه الشافعي في المسند (٤٦) عن سفيان بن عيينة، عن هشام، عن فاطمة بنت المنذر، عن أسماء رضي الله عنها. وأخرجه أحمد (٢٦٩٢٠)، والبخاري (٢٢٧)، ومسلم (٢٩١) من طرق عن هشام، عن فاطمة، عن أسماء قال: أتت النبيَّ ﷺ امرأةٌ فقالت... قال ابن حجر في الفتح ١/ ٣٣١ : رواية الشافعي صحيحة الإسناد، ولا بعد في أن يبهم الراوي اسم نفسه.

(٢) في النسخ الخطية: عيناً، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٣) في (ف): في الإسقاط، وفي أحكام القرآن: بالإسقاط.

(٤) في النسخ الخطية: ذو العزيز المرتضى.

(٥) في السنن ١/ ١٢٦ فما بعد.

(٦) في (م): لمن.

(٧) في النسخ: محرز، وهو خطأ. والمثبت من سنن الدارقطني.

(٨) سنن الدارقطني (٢٤١) و(٢٥٤) و(٢٥٥).

(٩) سنن الدارقطني (٢٤٤)، وأخرجه أحمد (٣٧٨٢)، وابن ماجه (٣٨٥).

الشيخ(١): هذا إسنادٌ صحيح لا يُختلف في عدالة رُواته.

وأخرج الترمذيُّ(٢) حديثَ ابن مسعود؛ قال: سألني النبيُّ ﷺ: «ما في إداوتك» فقلت: نبيذ. فقال: «تمرةٌ طيِّبةٌ وماءٌ طَهور» قال: فتوضأ منه.

قال أبو عيسى: وإنما رُويَ هذا الحديثُ عن أبي زيد، عن عبد الله، عن النبيِّ ﷺ، وأبو زيد رجلٌ مجهول عند أهل الحديث، لا تُعرف له روايةٌ غير هذا الحديث، وقد رأى بعضُ أهل العلم الوضوءَ بالنبيذ؛ منهم سفيانُ وغيره، وقال بعض أهل العلم: لا يُتوضأ بالنبيذ، وهو قول الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاق، وقال إسحاق: إن ابتُلي رجلٌ بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيَمَّم أحبُّ إلي. قال أبو عيسى: وقولُ مَن يقول: لا يتوضأ بالنبيذ؛ أقربُ إلى الكتاب والسنة وأشبهُ(٣)؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣، المائدة: ٦].

وهذه المسألة مطوَّلةٌ في كتب الخلاف؛ وعمدتهم التمسُّكُ بلفظ الماء، حَسبما تقدم في «المائدة» بيانُه، والله أعلم.

الثانية عشرة: لمَّا قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وقال: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، توقَّف جماعةٌ في ماء البحر؛ لأنه ليس بمنزل من السماء؛ حتى رووا عن عبد الله بن عمر وابن عمرٍو معاً أنه لا يتوضأ به(٤)؛ لأنه نار، ولأنه طبق جهنم. ولكنَّ النبيَّ ﷺ بيَّن حكمَه حين قال لمن سأله: «هو الطَّهور ماؤه الحِلُّ ميتته»(٥) أخرجه مالك(٦).

---

(١) في (م): قلت، بدل: قال الشيخ. وهو خطأ، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في سنن الدار قطني (٢٤٥). والحديث أخرجه أيضاً أحمد (٤١٤٩)، ومسلم (٤٥٠).

(٢) برقم (٨٨)، وهو في مسند أحمد (٣٨١٠).

(٣) قوله: والسنة، ليس في (ظ)، وقوله: وأشبه، ليس في (د) و (ز) و (ف).

(٤) سيأتي قريباً.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٣ .

(٦) في الموطأ ١/ ٢٢ . وسلف ٨/ ٢١٢ .

وقال فيه أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن صحيح. وهو قول أكثرِ الفقهاء من أصحاب النبيِّ ﷺ، منهم أبو بكر وعمرُ وابن عباس، لم يروا بأساً بماء البحر، وقد كره بعضُ أصحاب النبيِّ ﷺ الوضوءَ بماء البحر؛ منهم ابنُ عمر وعبد الله بن عمرو، وقال عبد الله بنُ عمرو: هو نار[1].

قال أبو عمر[2]: وقد سأل[3] أبو عيسى الترمذيُّ [محمدَ بنَ إسماعيل البخاريَّ] عن حديث مالك هذا، عن صفوان بن سُلَيم، فقال: هو عندي حديثٌ صحيح. قال أبو عيسى: فقلت للبخاري: هُشيم يقول فيه: ابن أبي بَرْزة. فقال: وَهم فيه، إنما هو المغيرة بنُ أبي بُرْدة.

قال أبو عمر: لا أدري ما هذا من البخاريِّ رحمه الله، ولو كان [عنده] صحيحاً، لَأخرجه في مصنَّفه الصحيحِ عنده، ولم يفعل؛ لأنه لا يعوِّل في الصحيح إلَّا على الإسناد. وهذا الحديثُ لا يحتجُّ أهل الحديث بمثل إسناده، وهو عندي صحيح؛ لأن العلماءَ تلقَّوه بالقَبول له والعملِ به، ولا يخالف في جملته أحدٌ من الفقهاء، وإنما الخلافُ بينهم في بعض معانيه. وقد أجمع جمهورُ[4] العلماء وجماعةُ أئمَّةِ الفتوى بالأمصار من الفقهاء أنَّ البحر طهورٌ ماؤه، وأنَّ الوضوء به جائز؛ إلَّا ما روي عن عبد الله بنِ عمر بنِ الخطاب وعبد الله بن عمرو بنِ العاص أنهما كرها الوضوءَ بماء البحر، ولم يتابعهما أحدٌ من فقهاء الأمصار على ذلك، ولا عرَّج عليه، ولا التفت إليه؛ لحديث هذا الباب[5]. وهذا يدلُّك على اشتهار الحديثِ عندهم، وعملِهم به وقبولهم له، وهو أولى عندهم من الإسناد الظاهرِ الصحة لمعنىً تردُّه

---

(١) سنن الترمذي إثر الحديث (٦٩). قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في التعليق عليه: هذا رأي لعبد الله ابن عمرو إن صح إسناده إليه. اهـ. وأثر ابن عمر وابن عمرو أخرجه ابن أبي شيبة ١/ ١٣١ .

(٢) في التمهيد ١٦/ ٢١٨ . وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في (م): سئل، وهو خطأ.

(٤) في (م): زيادة: من، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في التمهيد ١٦/ ٢٢١ .

(٥) جاء في حاشية (ظ) ما نصه: لعل إنما كره رضي الله تعالى عنهما الوضوء بماء البحر لأن ماء البحر يضر بالاستعمال للعين وسائر البدن. . . والله أعلم.

الأصول. وبالله التوفيق.

قال أبو عمر[(١)]: صفوان بن سُلَيم مولى حميد بنِ عبد الرحمن بنِ عوف الزُّهري، من عُبَّاد أهلِ المدينة وأتقاهم لله، ناسكاً، كثيرَ الصدقة بما وجد من قليلٍ وكثير، كثيرَ العمل، خائفاً لله، يُكنى أبا عبد الله، سكنَ المدينةَ لم ينتقل عنها، ومات بها سنة اثنتينِ وثلاثين ومئة.

ذكر عبد الله بنُ أحمد بنِ حنبل قال: سمعت أبي يُسأل عن صفوان بنِ سُلَيم، فقال: ثقةٌ من خيار عبادِ الله وفضلاء المسلمين[(٢)].

وأما سعيد بنُ سلمة فلم يروِ عنه فيما علمتُ إلَّا صفوان، والله أعلم. ومَن كانت هذه حالَه، فهو مجهولٌ لا تقوم به حجَّةٌ عند جميعهم.

وأما المغيرة بنُ أبي بُرْدة فقيل عنه: إنه غيرُ معروفٍ في حَمَلة العلم كسعيد بن سلمة. وقيل: ليس بمجهول.

قال أبو عمر[(٣)]: المغيرة بن أبي بُردة وجدت ذِكْره في مغازي موسى بنِ نصير بالمغرب، وكان موسى يستعمله على الخيل، وفتح الله له في بلاد البربر فتوحاتٍ في البَرِّ والبحر.

وروى الدارقطني من غير طريق مالكٍ عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَن لم يطهِّره ماءُ البحر فلا طهَّره الله». قال: إسنادٌ حسن[(٤)].

الثالثة عشرة: قال ابن العربي: توهَّمَ قومٌ أنَّ الماء إذا فَضَلت للجُنب منه فضلةٌ لا يُتوضأ به، وهو مذهبٌ باطل؛ فقد ثبت عن ميمونة أنها قالت: أَجنبتُ أنا ورسولُ الله ﷺ،

---

(١) في التمهيد ١٦/٢٠٩ ، ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) بنحوه في العلل ومعرفة الرجال لأحمد ٢/ ٤٩٥ .

(٣) في التمهيد ١٦/ ٢١٨ .

(٤) سنن الدارقطني (٧٨).

واغتسلت من جَفْنة وفضَلت فضلة، فجاء رسول الله ﷺ ليغتسل منها[١]، فقلت: إني قد اغتسلت منه. فقال: «إنَّ الماء ليس عليه نجاسة، أو[٢]: إن الماء لا يُجْنِب»[٣].

قال أبو عمر[٤]: وردت آثارٌ في هذا الباب مرفوعةٌ في النهي عن أن يتوضأ الرجلُ بفضل المرأة. وزاد بعضهم في بعضها: ولكن ليغترفا جميعاً[٥]. فقالت طائفة: لا يجوز أن يغترفَ الرجلُ مع المرأة في إناءٍ واحد؛ لأن كلَّ واحدٍ منهما متوضِّئٌ [حينئذٍ] بفضل صاحبه. وقال آخرون: إنما كُره من ذلك أن تنفردَ المرأةُ بالإناء، ثم يتوضأ الرجل بعدها بفضلها. وكلٌّ واحد منهم روى بما ذهب إليه أثراً. والذي ذهب إليه الجمهور من العلماء وجماعةُ فقهاء الأمصار أنه لا بأس أن يتوضأ الرجل بفضل المرأة؛ وتتوضأ المرأةُ من فضله، انفردت المرأةُ بالإناء أو لم تنفرد. وفي مثل هذا آثارٌ كثيرةٌ صِحَاح. والذي نذهب إليه أنَّ الماء لا ينجِّسه شيء، إلَّا ما ظهر فيه من النجاسات، أو غلب عليه منها؛ فلا وجهَ للاشتغال بما لا يصحُّ من الآثار والأقوال. واللهُ المستعان.

روى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: حدَّثتني ميمونة قالت: كنت أغتسل أنا ورسولُ الله ﷺ من إناءٍ واحد من الجنابة. قال: هذا حديثٌ حسن صحيح[٦].

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغتسل أنا والنبيُّ ﷺ من إناءٍ واحد يقال له: الفَرَق[٧].

---

(١) في (م): منه.

(٢) في النسخ الخطية: و.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ١٤١٠ . والحديث أخرجه أحمد (٢٦٨٠٢) ولفظه: ..فقال: «إن الماء ليس عليه جنابة. أو: لا ينجسه شيء» فاغتسل منه. وستأتي شواهده.

(٤) في التمهيد ١٤/ ١٦٤-١٦٥ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٥) سيأتي تخريج الراوية بنحو هذا اللفظ .

(٦) سنن الترمذي (٦٢). وأخرجه أحمد (٢٦٧٩٧)، ومسلم (٣٢٢) دون قولها: من الجنابة. وهو عند البخاري (٢٥٣) إلا أنه قال: عن ابن عباس أن النبي ﷺ وميمونة...

(٧) صحيح البخاري (٢٥٠)، وأخرجه أحمد (٢٤٠١٤) (٢٥٦٣٤)، ومسلم (٣١٩): (٤١). والفَرَق =

وفي صحيح مسلم[١] عن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ كان يغتسل بفضل ميمونة.

وروى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: اغتسلَ بعضُ أزواج النبيِّ ﷺ في جَفْنة، فأراد رسولُ الله ﷺ أن يتوضأ منه فقالت: يا رسول الله، إني كنت جنباً. فقال: «إنَّ الماء لا يُجْنِب». قال: هذا حديثٌ حسن صحيح، وهو قول سفيان الثوريِّ ومالكٍ والشافعي[٢].

وروى الدارقطني عن عَمْرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أتوضأ أنا والنبيُّ ﷺ من إناء واحد وقد أصابت الهِرَّةُ منه قبل ذلك. قال: هذا حديثٌ صحيح[٣].

وروى أيضاً عن رجل من بني غِفَار قال: نهى رسولُ الله ﷺ عن فضل طهورِ المرأة[٤].

وفي الباب عن عبد الله بن سَرْجِس، وكره بعضُ الفقهاء فضلَ طهورِ المرأة، وهو قول أحمدَ وإسحاق[٥].

الرابعة عشرة: روى الدارقطني عن زيد بنِ أسلم، [عن أسلم] مولى عمر بنِ الخطاب: أنَّ عمر بنَ الخطاب كان يسخَّن له ماءٌ في قُمْقُمَة ويغتسل به. قال:

= بالتحريك: مكيال يسع ستة عشر رطلاً، النهاية (فرق).

(١) برقم (٣٢٣)، وأخرجه أحمد (٣٤٦٥).

(٢) سنن الترمذي ١/ ٩٤ حديث (٦٥). وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٠٢)، وأبو داود (٦٨)، والنسائي ١/ ١٧٣، وابن ماجه (٣٧٠). وسلف من حديث ميمونة رضي الله عنها أول هذه المسألة.

(٣) في (د) و(ز) و(م): حسن صحيح، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في سنن الدارقطني (٢١٤). وأخرجه أيضاً ابن ماجه (٣٦٨). قال البوصيري في الزوائد ١/ ١٠٥ : هذا إسناد ضعيف.

(٤) سنن الدارقطني (١٤٢). وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٦٥٥)، وأبو داود (٨٢)، والترمذي (٦٣) و(٦٤)، والنسائي ١/ ١٧٩، وابن ماجه (٣٧٣). قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٥) قاله الترمذي إثر الحديث (٦٣). وحديث عبد الله بن سرجس أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٤، والدارقطني (٤١٧)، ولفظه: نهى رسول الله ﷺ أن يغتسل الرجل بفضل المرأة، والمرأة بفضل الرجل، ولكن يشرعان جميعاً. وأخرجه بنحوه الدارقطني (٤١٨) موقوفاً، وقال: هو أولى بالصواب.

وهذا إسنادٌ صحيح[١].

ورَوَى عن عائشة قالت: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ وقد سخَّنتُ ماءً في الشمس. فقال: «لا تفعلي يا حُميراء؛ فإنه يورث البَرَص». رواه خالد بنُ إسماعيل المخزوميُّ عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، وهو متروك. ورواه عمرو بنُ محمد الأعسمُ[٢] عن فُليح، عن الزُّهريِّ، عن عروة، عن عائشة. وهو منكر الحديث، ولم يروِهِ غيرُه عن فليح، ولا يصحُّ عن الزهري؛ قاله الدارقطني[٣].

الخامسة عشرة: كلُّ إناءٍ طاهر فجائزٌ الوضوءُ منه، إلَّا إناءَ الذهب والفضة؛ لِنهيِ رسولِ الله ﷺ عن اتِّخاذهما. وذلك ـ والله أعلم ـ للتشبُّه بالأعاجم والجبابرة، لا لنجاسةٍ فيهما. ومَن توضأ فيهما أجزأه وضوؤه، وكان عاصياً باستعمالها. وقد قيل: لا يُجزئ الوضوءُ في أحدهما. والأوَّلُ أكثر؛ قاله أبو عمر[٤]. وكلُّ جلدٍ ذُكِّيَ فجائزٌ استعمالُه للوضوء وغيرِ ذلك. وكان مالكٌ يكره الوضوءَ في إناء جلدِ الميتة بعد الدِّباغ؛ على اختلافٍ من قوله. وقد تقدَّم في «النحل»[٥].

قوله تعالى: ﴿لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر. ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بالجدوبة والمَحْل وعدم النبات. قال كعب: المطرُ روح الأرض يحييها الله به[٦]. وقال: «ميتاً» ولم يقل ميتةً؛ لأنَّ معنى البلدة والبلد واحد؛ قاله الزجاج. وقيل: أرادَ بالبلد المكان[٧].

---

(١) سنن الدارقطني (٨٥) ومن طريقه البيهقي ١/ ٦ ، وما بين حاصرتين منهما. والقمقمة: ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره . النهاية (قمقم).

(٢) في (ف) و(م): الأعشم . وهو خطأ.

(٣) سنن الدارقطني برقم (٨٦) و(٨٧).

(٤) في الكافي ١/ ١٦٢-١٦٣ ، وما بعده منه. وحديث النهي عن آنية الذهب والفضة أخرجه أحمد (٢٣٢٦٩)، والبخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧) من حديث حذيفة ﷺ. ورُوي عن غيره أيضاً.

(٥) ١٢/ ٣٩٩ .

(٦) لفظة: به. من(م)، وقول كعب أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٧٣٤) دون قوله: يحيها الله به.

(٧) زاد المسير ٦/ ٩٤ ، وكلام الزجاج السالف فيه، وهو في معاني القرآن له ٤/ ٧١ .

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ قراءةُ العامَّة بضمِّ النون. وقرأ عمرُ بن الخطاب، وعاصمٌ والأعمش فيما روى المفضَّل عنهما: «نَسْقِيَهُ»؛ بفتح النون[١].

﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: بَشَراً كثيراً، وأناسيُّ واحدُه إنسيّ ـ نحو جمع القُرْقُور[٢]: قَراقير وقَرَاقِر ـ في قول الأخفش[٣] والمبرِّد وأحد قولي الفراء[٤]، وله قولٌ آخر، وهو أنْ يكونَ واحده إنساناً، ثم يُبدل من النون ياءً؛ فيقول: أناسيّ، والأصل: أناسين، مثل: سِرحان وسراحين، وبستان وبساتين؛ فجعلوا الياءَ عوضاً من النون، وعلى هذا يَجوزُ: سَراحيّ وبَساتيّ، لا فرق بينهما[٥].

قال الفراء: ويجوز «أَنَاسِي» بتخفيف الياء[٦]؛ كأنهم أسقطوا الياء[٧] التي فيما بين لام الفعل وعينه؛ مثل قَراقِير وقَراقِر.

وقال: «كَثِيراً» ولم يقل: كثيرين؛ لأن فعيلاً قد يراد به الكثرة؛ نحو ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: القرآن[٨]، وقد جرى ذكره في أوّل السورة: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الآية: ١]. وقوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٣، والبحر ٦/ ٥٠٥. وقراءة عاصم المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٢) القرقور: ضربٌ من السفن، وقيل: هي السفينة العظيمة أو الطويلة. اللسان (قرر).

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٦٤٣.

(٤) في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٩، وما بعده فيه.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧١.

(٦) معاني القرآن للفراء٢/ ٢٧٠، وهي قراءة شاذة عن يحيى بن الحارث الذماري. القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر المحيط ٦/ ٥٠٥.

(٧) قوله: كأنهم أسقطوا الياء. من (ظ).

(٨) في (د) و(ز): ليذكروا القرآن.

ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ [الآية: ٢٩]. وقوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الآية: ٣٠].

﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي: جُحوداً له وتكذيباً به. وقيل: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ»؛ هو المطر. رُوي عن ابن عباس وابن مسعود: وأنَّه ليس عامٌ بأكثرَ مطراً من عام، ولكنَّ الله يُصرِّفه حيث يشاء، فما زِيد لبعضٍ نَقَص من غيرهم[١]. فهذا معنى التصريف. وقيل: «صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ» وابلاً وطَشًّا وطَلًّا ورِهاماً ورَذَاذاً[٢]. وقيل: تصريفُه تنويعُ الانتفاع به في الشُّرب والسَّقي والزِّراعات به، والطَّهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه[٣].

﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ قال عكرمة: هو قولُهم في الأنواء: مُطِرْنَا بنوءِ كذا[٤].

قال النَّحَّاس[٥]: ولا نَعلمُ بين أهل التفسير اختلافاً أنَّ الكفرَ هاهنا قولُهم: مُطِرْنَا بنوءِ كذا وكذا؛ وأنَّ نظيرَه: فَعَلَ النَّجمُ كذا[٦]، وأنَّ كلَّ من نَسَب إليه فعلاً فهو كافر.

وروى الربيع بن صَبيح[٧] قال: مُطِر النّاس على عهد رسول الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، فلمَّا أصبحَ قال النبيُّ ﷺ: «أصبحَ النَّاسُ فيها رجلين شاكرٌ وكافر؛ فأمَّا الشاكر فيحمدُ

---

(١) أخرجهما الطبري ١٧/ ٤٦٨-٤٦٩.

(٢) ذكره الواحدي في الوجيز (بحاشية مراح لبيد) ٢/ ١٠٠، والبغوي في تفسيره ٣/ ٣٧٢، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٩٦. دون نسبة. ووقع في (د) و(ز) و(م) قبل قوله: ورذاذاً، ما نصه: الجوهري: الرهام الأمطار اللينة، وزاد بعدها في (د): الوابلة، وزاد في (ز): الواحدة: رهمة، بالكسر، ويجمع أيضاً: رِهَماً. ووقعت هذه الزيادة في (ف) بعد قوله: وشبهه؛ نهاية الكلام.

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ٩٨.

(٤) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٦٩. دون قوله: مطرنا بنوء كذا.

(٥) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٣-١٦٤.

(٦) جاءت العبارة في إعراب القرآن للنحاس: وأن نظيره قول المنجم: فعل النجم كذا وكذا.

(٧) البصري العابد، كان من عباد أهل البصرة وزُهَّادهم، إلا أن الحديث لم يكن من صناعته، فكان يهم كثيراً. توفي بالسند سنة ستين ومئة. سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٨٧-٢٨٩.

الله تعالى على سُقياه وغياثه، وأمَّا الكافرُ فيقول: مُطِرْنَا بنوءِ كذا وكذا»[١]. متفقٌ على صحَّته بمعناه[٢]، وسيأتي في الواقعة إنْ شاء الله[٣].

ورُوي من حديث ابن مسعود عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «ما من سَنَةٍ بأمطرَ من أخرى، ولكنْ إذا عَمِل قومٌ بالمعاصي، صَرف الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عَصَوا جميعاً صَرَف الله ذلك إلى الفيافي والبحار»[٤]. وقيل: التَّصريف راجعٌ إلى الريح[٥]، وقد مضى في «البقرة» بيانه[٦].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «لِيَذْكُرُوا»[٧] مخففةَ الذَّال؛ من الذِّكر. الباقون مُثَقَّلاً من التذَكُّر، أي: ليذْكُروا نِعمَ الله، ويعلَموا أنَّ من أَنعَمَ بها لا يجوز الإشراكُ به؛ فالتذكُّر قريبٌ من الذِّكر، غير أنَّ التذكُّر يُطلَقُ فيما بَعُدَ عن القلب، فيحتاج إلى تكلُّفٍ في التذكُّر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ أي: رسولاً يُنْذِرهم، كما قَسَمْنَا المطرَ؛ ليخفَّ عليكَ أعباءُ النبوّة، ولكنَّا لم نفعلْ، بل جعلناك نذيراً للكلِّ؛ لترتفعَ[٨] درجتُك، فاشكر نعمةَ الله عليك[٩].

---

(١) لم نقف عليه من طريق الربيع بن صبيح، وأخرجه بنحو هذا اللفظ الطبراني في المعجم الكبير (١٢٨٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه بمعناه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجُهني ﷺ. وهو عند أحمد (١٧٠٦١).

(٣) عند تفسير الآية (٧٥) منها.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٣٧٢ ، وسلف بنحوه موقوفاً على ابن عباس وابن مسعود.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٢ .

(٦) ٢/ ٤٩٨ .

(٧) السبعة ص٤٦٥ ، والتيسير ص١٦٤ .

(٨) في (د) و(ز): لرفع.

(٩) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٩٦ ، وتفسير الرازي ٢٤/ ٩٩ .

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فيما يدعونَك إليه من اتِّباع آلهتهم .﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ قال ابن عباس: بالقرآن. ابن زيد: بالإسلام[١]. وقيل: بالسيف؛ وهذا فيه بعدٌ؛ لأنَّ السورةَ مكيةٌ، ونَزلَتْ قبلَ الأمر بالقتال[٢]. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لا يخالطُه فُتور.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ عاد الكلامُ إلى ذِكْر النِّعم. و«مَرَجَ»: خَلَّى وخَلَط وأرسلَ. قال مجاهد: أرسلهما وأفاضَ أحدَهما في الآخر[٣].

قال ابن عرفة: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ» أي: خلطهما فهما يلتقيان؛ يقال: مَرَجْتُه إذا خلطتَه.

ومَرِجَ الدِّينُ والأمرُ: اختلطَ واضطرب[٤]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥]. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بنِ عمرو بن العاصي: «إذا رأيتَ الناس مَرِجت عهودُهم، وخَفَّت أماناتُهم، وكانوا هكذا وهكذا» وشبَّك بين أصابعه، فقلتُ له: كيفَ أصنعُ عند ذلك؟ جعلني الله فداك. قال: «الزمْ بيتَك، واملِكْ عليكَ لسانَكَ، وخُذْ ما[٥] تعرِف، ودعْ ما تُنكِر، وعليك بخاصَّةِ أمر نفسِك، ودعْ عنكَ أمرَ العامَّة». خرَّجَه النسائي وأبو داود وغيرهما[٦].

وقال الأزهريّ[٧]: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ»: خلَّى بينهما؛ يقال: مَرَجْتُ الدابَّة: إذا خَلَّيتَها ترعى.

---

(١) أخرج القولين الطبري ١٧/ ٤٧٠ .

(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٤/ ١٠٠ .

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٤٥٤ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٧٢ ، وفيه: وأفاض أحدهما على الآخر.

(٤) الصحاح (مرج).

(٥) في (م): بما.

(٦) السنن الكبرى للنسائي (٩٩٦٢)، وسنن أبي داود (٤٣٤٣). وهو عند أحمد (٦٩٨٧).

(٧) لم نقف على كلامه، وقاله الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٧٢ ، وينظر الصحاح (مرج).

وقال ثعلب: المرجُ: الإجراء، فقوله: «مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ» أي: أجراهما[١]. وقال الأخفش: ويقولُ قومٌ: أمرجَ البحرين، مثل: مَرَجَ، فَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنًى[٢].

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: حلوٌ شديدُ العُذُوبة. ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: فيه ملوحةٌ ومرارة. ورُوِيَ عن طلحة أنَّه قرأ: «وَهَذَا مَلِحٌ»؛ بفتح الميم وكسر اللام[٣].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزاً من قدرته لا يَغْلِب أحدُهما على صاحبه؛ كما قال في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الآية:١٩-٢٠].

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: ستراً مستوراً يمنعُ أحدَهما من الاختلاط بالآخر. فالبَرْزَخ: الحاجز، والحِجْر: المانع. وقال الحسن: يعني بحر فارس وبحر الروم[٤]. وقال ابن عباس وابن جبير: يعني بحر السماء وبحر الأرض[٥]. قال ابن عباس: يلتقيان في كلِّ عامٍ وبينهما برزخٌ؛ قضاءٌ من قضائه[٦]. «وَحِجْراً مَحْجُوراً»: حراماً مُحرَّماً أنْ يَعْذُبَ هذا المالحُ بالعذب، أو يملُح هذا العذْبُ بالمالح.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ أي: خَلَق من النُّطفة إنساناً. ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ أي: جَعلَ الإنسانَ «نَسَباً وصِهْراً». وقيل: «مِنَ الْمَاءِ» إشارةً إلى أصل الخلقة في أنَّ كلَّ حيٍّ مخلوقٌ من الماء. وفي هذه الآية تعديدُ النعمة على النَّاس في

(١) ذكره الأزهري في تهذيب اللغة ١١/ ٧٣ عن ثعلب عن ابن الأعرابي.

(٢) الصحاح (مرج).

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٥ ، والمحتسب ٢/ ١٢٤ . والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٤ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٨ (١٥٢٥٩).

(٥) النكت والعيون ٤/ ١٥٠ ، ونسب القول الأخير لمجاهد وابن جبير.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم بنحوه ٨/ ٢٧٠٩ (١٥٢٦٩)

إيجادهم بعد العدم، والتنبيهُ على العبرة في ذلك[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾ النسب والصهر معنيان يعمّان كلَّ قربى تكونُ بين آدميِّين[٢]. قال ابن العربي[٣]: النسبُ عبارةٌ عن خلطِ الماء بين[٤] الذكر والأنثى على وجه الشرع؛ فإنْ كان بمعصيةٍ كان خلقاً مطلقاً، ولم يكنْ نسباً محقَّقاً، ولذلك لم يدخل تحت قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] بنتُه من الزنى؛ لأنَّها ليست ببنتٍ له في أصحِّ القولين[٥] لعلمائنا، وأصحُّ القولين في الدين؛ وإذا لم يكن نسبٌ شرعاً فلا صِهْر شرعاً فلا يُحرِّم الزنى بنتَ أمٍّ ولا أمَّ بنتٍ[٦]، وما يُحرِّم مِن الحلال لا يُحَرِّم من الحرام؛ لأنَّ الله امتنَّ بالنَّسب والصِّهْر على عباده، ورفع قدرَهُما، وعلَّقَ الأحكامَ في الحِلِّ والحُرْمَة عليهما، فلا يلحقُ الباطلُ بهما ولا يساويهما.

قلت: اختلفَ الفقهاءُ في نكاحِ الرجل ابنتَه من زنى، أو أختِه أو بنتِ ابنه من زنى؛ فحرَّم[٧] ذلك قومٌ منهم: ابنُ القاسم، وهو قول أبي حنيفةَ وأصحابه، وأجازَ ذلك آخرون منهم: عبدُ الملك بن الماجشون، وهو قولُ الشافعيّ [على كراهة]، وقد مضى هذا في «النساء» مجوّداً[٨].

قال الفراء[٩]: النسبُ: الذي لا يَحِلُّ نكاحه، والصِّهر: الذي يحلُّ نكاحه[١٠].

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٤ .

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٤ .

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٤ .

(٤) في النسخ الخطية: المائين.

(٥) في (ظ): وبنته من الزنى ليست ببنتٍ له في أصح القولين، واضطربت العبارة في (د) و (ز) والمثبت من (م) وأحكام القرآن لابن العربي.

(٦) العبارة في أحكام القرآن لابن العربي: فلا يحرم الزنى بنتٍ أماً، ولا بأم بنتاً.

(٧) في (ظ): فمنع.

(٨) ٦/ ١٩٠-١٩١ ، والكلام السالف في التمهيد ٨/ ١٩١ ، وما بين حاصرتين منه.

(٩) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٠ .

(١٠) قوله: والصهر الذي يحل نكاحه. من (م).

وقاله الزَّجّاج، وهو قول علي بن أبي طالب ﷺ[١]. واشتقاقُ الصِّهر من صَهرْتُ الشيءَ: إذا خلطتَه؛ فكلٌّ واحدٍ من الصِّهرين قد خالطَ صاحبَه، فسُمِّيت المناكِحُ صِهْراً؛ لاختلاط النَّاس بها[٢].

وقيل: الصهرُ: قرابةُ النِّكاح؛ فقرابةُ الزوجةِ هم الأَخْتَان، وقرابةُ الزوجِ هم الأَحْماء. والأصهارُ يقع عامًّا لذلك كلِّه؛ قاله الأصمعيّ.

وقال ابن الأعرابي: الأَخْتَان: أبو المرأة وأخوها وعمُّها، كما قال الأصمعيّ، والصهرُ: زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمُّه.

وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجُوزَجَانيّ: أَخْتَانُ الرجل: أزواجُ بناته وأخواتِه وعماتِه وخالاتِه، وكلِّ ذاتِ مَحْرمٍ منه، وأصهارُه: كلُّ ذي رَحِمٍ مَحْرَمٍ من زوجته.

قال النَّحّاس[٣]: الأَوْلَى في هذا أنْ يكونَ القولُ في الأصهار ما قال الأصمعي، وأنْ يكونَ من قِبَلِهما جميعاً؛ يقال: صَهَرْتُ الشيءَ، أي: خلطتُه؛ فكلٌّ واحدٍ منهما قد خَلَط صاحبه. والأَوْلَى في الأَخْتَان ما قاله محمدُ بن الحسن لجهتين:

إحداهُما: الحديثُ المرفوع؛ رَوى محمدُ بنُ إسحاق عن يزيدِ بن عبد الله بن قُسَيط، عن محمدِ بن أسامة بن زيد[٤] عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمَّا أنتَ يا علي فَخَتَنِي وأبو ولدي، وأنت منِّي وأنا منك»[٥]. فهذا على أنَّ زوجَ البنت خَتَنٌ.

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٢، ونسبه لعلي بن أبي طالب ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٤.

(٢) النكت والعيون ٤/ ١٥١.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٣٩. وأقوال الأصمعي وابن الأعرابي ومحمد بن الحسن السالفة منه.

(٤) في (د) و (ز) عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أسامة بن زيد...، وفي (ظ) عن أبي أسامة بن زيد.. والمثبت من (م) ومعاني القرآن ومصادر التخريج.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٧٧٧)، والنسائي في الكبرى (٨٤٧١) مطولاً. ومحمد بن اسحاق. صدوق يدلِّس. تقريب التهذيب. وقد عنعن في هذا الحديث. أما قوله ﷺ لعلي ﷺ: «أنت منِّي وأنا منك» فصحيح أخرجه البخاري (٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

والجهةُ الأخرى: أنَّ اشتقاقَ الخَتَنِ من ختَنَه: إذا قطعه؛ وكأنَّ الزوجَ قد انقطعَ عن أهله، وقطعَ زوجتَهُ عن أهلها.

وقال الضحاك: الصِّهرُ قرابةُ الرَّضاع. قال ابنُ عطية[١]: وذلك عندي وَهَمٌ أوجَبه أنَّ ابنَ عباسٍ قال: حُرِّم من النسب سبعٌ، ومن الصهر خمس. وفي روايةٍ أخرى[٢] من الصِّهر سبعٌ، يريدُ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾. فهذا هو النسب. ثم يريد بالصهر قولَه تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣]. ثمَّ ذكرَ المحصَنات. ومحمل هذا أنَّ ابنَ عباس أراد: حُرِّم من الصهر ما ذُكِر معه[٣]، فقد أشار بما ذكر إلى عُظمه وهو الصِّهر، لا أنَّ الرَّضاع صهرٌ، وإنَّما الرَّضاع عديلُ النسب؛ يَحرُم منه ما يَحرُم من النسب بحكم الحديث[٤] المأثور فيه. ومن رَوى: وحُرِّم من الصهر خمسٌ، أسقطَ من الآيتين الجمعَ بين الأختين والمحصَنات؛ وهنَّ[٥] ذواتُ الأزواج.

قلت: فابن عطيَّة جعلَ الرَّضاع مع ما تقدَّم نسباً، وهو قول الزجَّاج. قال أبو إسحاق[٦]: النسبُ الذي ليسَ بصهر؛ من قوله جلَّ ثناؤه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣] والصهرُ من يَحِلُّ[٧] له التزويج.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥ . وقول الضحاك السالف منه.

(٢) قول ابن عباس: حرِّم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، سلف ٦/ ١٧٤ ، ولم نقف على لفظ: خمس، عن ابن عباس، وقد أخرجه الطبري ١٧/ ٤٧٦ عن الضحاك .

(٣) في المحرر الوجيز: مع ما ذكر معه.

(٤) سلف ٦/ ١٧٩ .

(٥) في (د) و (ز): ومن ، وفي (ظ): من. والمثبت من(م) والمحرر الوجيز.

(٦) هو الزجاج، وكلامه في معاني القرآن له ٤/ ٧٢ .

(٧) لفظة: يحل. من (ظ).

قال ابن عطية[١]: وحكى الزهراوي قولاً أنَّ النسبَ من جهة البنين، والصهرَ من جهة البنات.

قلت: وذكرَ هذا القول النَّحَّاس[٢]، وقال: لأنَّ المصاهرةَ من جهتين تكون.

وقال ابن سيرين: نزلَتْ هذه الآية في النبيِّ ﷺ وعليٍّ ؓ؛ لأنَّه جَمعَه معه نسبٌ وصهر. قال ابن عطية[٣]: فاجتماعُهما وُكادةُ حرمةٍ إلى يوم القيامة.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ على ما خلق ما يريده.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ لما عَدَّد النعم وبيَّن كمال قدرته، عَجِبَ من المشركين في إشراكهم به من لا يقدِرُ على نفعٍ ولا ضَرّ، أي: إنَّ الله هو الذي خَلَق ما ذكره، ثمَّ هؤلاء بجهلهم[٤] يعبدون من دونه أمواتاً جمادات لا تَنفعُ ولا تَضرّ.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ رُويَ عن ابن عباس: «الكَافِرُ» هنا أبو جهلٍ لعنه الله[٥]؛ وشرحه أنَّه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه[٦]. وقال عكرمة: «الْكَافِرُ» إبليس، ظهر على عداوة ربِّه. وقال مَطر[٧]: «الْكَافِرُ» هنا الشيطان.

---

(١) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٤.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥، وما قبله منه.

(٤) في (م): لجهلهم.

(٥) أخرجه بنحوه الطبري ١٧/ ٤٧٨. دون قوله: لعنه الله، وهي من (م).

(٦) جاءت العبارة في إعراب القرآن للنحاس: أبو جهل وشيعته لأنه يستظهر بعبدة الأوثان على أولياء ربه.

(٧) في (م): مطرف. والمثبت من النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٤ ورواية ابن عباس وعكرمة ومطر منه.

وقال الحسن: «ظَهِيراً» أي: مُعِيناً للشيطان على المعاصي[١]. وقيل: المعنى؛ وكان الكافرُ على ربه هيِّناً ذليلاً، لا قَدْر له ولا وزن عنده؛ من قول العرب: ظهرتَ به، أي: جعلتَه خلف ظهرك، ولم تلتفت إليه[٢]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٦٢] أي: هيِّناً ومنه قول الفرزدق:

تميمَ بنَ بَدْرٍ[٣] لا تكونَنَّ حاجتي ... بِظَهْرٍ فلا يعيا عليَّ جوابُها[٤]

هذا معنى قول أبي عبيدة: وظهير بمعنى مظهور[٥]، أي: كفرُ الكافر هينٌ على الله تعالى، والله مستهينٌ به؛ لأنَّ كفره لا يضره.

وقيل: وكان الكافرُ على ربِّه الذي يعبدُه؛ وهو الصنم قويًّا غالباً يعملُ به ما يشاء؛ لأنَّ الجمادَ لا قدرةَ له على دفعٍ[٦] ونفع.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يريد بالجنة مبشراً ونذيراً من النَّار؛ وما أرسلناك وكيلاً ولا مسيطراً.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يريدُ على ما جئتكم به من القرآن والوحي. و«مِن» للتأكيد.

﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾: لكن من شاء؛ فهو استثناءٌ منقطع، والمعنى: لكن من شاء ﴿أَن

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/٤٧٨.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره ٣/٣٧٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٦/٩٧.

(٣) في (م): قيس.

(٤) النكت والعيون ٤/١٥٢، والبيت في ديوان الفرزدق ١/٨٦، وجاءت رواية البيت فيه:

تميمَ بن زيدٍ لا تهونَنَّ حاجتي ... لديك ولا يعيا عليَّ جوابها

(٥) مجاز القرآن ٢/٧٧. وقاله أيضاً الطبري ١٧/٤٧٩. ورجحه.

(٦) بعدها في (م): ضر.

يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بإنفاقه من ماله في سبيل الله؛ فليُنْفِق. ويجوز أنْ يكونَ متصلاً ويقدَّر حذفُ المضاف؛ التقدير: إلَّا أجْرَ ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ باتباع ديني حتى ينالَ كرامةَ الدُّنيا والآخرة[١].

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ تقدَّم معنى التوكُّل في «آل عمران» وهذه السورة[٢] وأنَّه اعتمادُ القلب على الله تعالى في كُلِّ الأمور، وأنَّ الأسبابَ وسائطُ أمرَ بها من غير اعتمادٍ عليها.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: نزِّه اللهَ تعالى عمَّا يُضيفُه هؤلاء الكفارُ إليه[٣] من الشركاء. والتسبيحُ: التنزيه، وقد تقدَّم[٤]. وقيل: «وَسَبِّحْ» أي: وصلِّ له؛ وتُسمَّى الصلاةُ تسبيحاً. ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: عليماً، فيجازيهم بها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدَّم في الأعراف[٥]. و«الذي» في موضع خفضٍ نعتاً للحيّ. وقال: «بَيْنَهُمَا» ولم يقل: بينهنّ؛ لأنَّه أرادَ الصنفين والنوعين والشيئين؛ كقول القُطاميّ[٦]:

ألم يَحْزُنْكِ أنَّ حبالَ قيسٍ ... وتغلِبَ قد تباينتا انقطاعا

---

(١) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥.

(٢) ٥/ ٢٩٠-٢٩٢، وص٣٨٦-٣٨٧ من هذا الجزء.

(٣) في (د) و (م) يصفه، بدل: يضيفه، وفي (م): به، بدل: إليه.

(٤) ١/ ٤١٢.

(٥) ٩/ ٢٣٧.

(٦) في ديوانه ص٣٢.

أراد: وحبالَ تغلب؛ فثنَّى، والحبالُ جمع؛ لأنَّه أرادَ الشيئين والنوعين[١].

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ قال الزَّجَّاج[٢]: المعنى: فاسأل عنه. وقد حكى هذا جماعةٌ من أهل اللغة أنَّ الباء تكون بمعنى «عن»؛ كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج:١] وقال الشاعر:

هَلَّا سألتِ الخيل يا ابنةَ مالكٍ ... إنْ كُنتِ جاهلةً بما لم تعلمي[٣]

وقال امرؤ القيس[٤]:

فإنْ تسألوني بالنساء فإنَّني ... خبيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ

أي: عن النساء، وعما لم تعلمي.

وأنكره عليُّ بن سليمان وقال: أهلُ النظر ينكِرون أنْ تكونَ الباءُ بمعنى «عن»؛ لأنَّ في هذا إفسادَ المعاني[٥]، [قال: ولكنَّ هذا مثلُ] قول العرب: لو لقيتَ فلاناً للقيَكَ به الأسد، أي: للقيَك بلقائك إيَّاه الأسد؛ المعنى: فاسأل بسؤالك إيَّاه خبيراً[٦]. وكذلك قال ابنُ جبير: الخبيرُ هو الله تعالى: ف«خَبِيراً» نصب على المفعول به بالسؤال[٧].

قلت: قول الزجَّاج يُخرَّج على وجهٍ حسن، وهو أنْ يكون الخبيرُ غيرَ الله، أي: فاسأل عنه خبيراً، أي: عالماً به، أي: بصفَاته وأسمائه.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٠، والبيت السالف فيه.

(٢) في معاني القرآن له ٤/ ٧٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢، والبيت لعنترة، وهو في ديوانه ص٢٥.

(٤) كذا في النسخ. والبيت لعلقمة بن عَبَدَة كما في تأويل مشكل القرآن ص٤٢٧، وأدب الكاتب ص٥٠٨.

(٥) بعدها في (ظ) منه، وجاءت العبارة في (م): لأن في هذا إفساداً لمعاني.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٤٢. وما سلف بين حاصرتين منه.

(٧) ينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢١٦، وقول ابن جبير أخرجه الطبري ١٧/ ٤٨١.

وقيل: المعنى: فاسأل له خبيراً، فهو نصب على الحال من الهاء المضمرة. قال المهدويّ: ولا يحسنُ حالاً إذ لا يخلو أنْ تكون الحال من السائل أو المسؤول. ولا يصحُّ كونُها حالاً من الفاعل؛ لأنَّ الخبير لا يَحتاج أنْ يَسألَ غيره. ولا يكون من المفعول؛ لأنَّ المسؤول عنه ـ وهو الرحمن ـ خبيرٌ أبداً، والحالُ في أغلب الأمر [لِما] يتغيرُ وينتقل؛ إلّا أنْ يُحمل على أنَّها حالٌ مؤكِّدة؛ مثل: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]، فيجوز(١).

وأمَّا «الرَّحْمَنُ» ففي رفعه ثلاثةُ أوجه: يكون بدلاً من المضمر الذي في «اسْتَوَى». ويجوز أنْ يكونَ مرفوعاً بمعنى: هو الرحمن. ويجوز أنْ يكون مرفوعاً بالابتداء، وخبرُه: «فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً». ويجوزُ الخفض، بمعنى: وتوكَّل على الحيِّ الذي لا يموتُ الرَّحمنِ؛ يكون نعتاً. ويجوز النصبُ على المدح(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾ أي: لله تعالى. ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ على جهةِ الإنْكار والتعجُّب، أي: ما نعرف الرحمن إلَّا رحمانُ اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب(٣).

وزعم القاضي أبو بكر ابن العربيّ أنَّهم إنَّما جَهلوا الصفَةَ لا الموصوف، واستدلَّ على ذلك بقوله: «وَمَا الرَّحْمَنُ»، ولم يقولوا: ومن الرَّحمن. قال ابن الحصَّار: وكأنَّه ـ رحمهُ الله ـ لم يقرأ الآيةَ الأخرى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ﴾(٤) [الرعد: ٣٠].

---

(١) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٢٣-٥٢٤ . وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٥ ، وينظر مشكل إعراب القرآن.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٤ .

(٤) قولا ابن العربي وابن الحصار سلفا ١/ ١٦٠ .

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هذه قراءةُ المدنيِّين والبصريين[١]، أي: لِمَا تأمُرنا أنت يا محمد. واختاره أبو عبيدٍ وأبو حاتم.

وقرأ الأعمش وحمزةُ والكسائيُّ: «يَأْمُرُنَا» بالياء. يعنونَ الرحمن؛ كذا تأوَّله أبو عبيد، قال: ولو أقرُّوا بأنَّ الرحمن أمرَهم ما كانوا كفاراً.

فقال النحاس[٢]: وليس يجب أنْ يتأوَّل عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد، ولكنَّ الأولى أنْ يكون التأويل لهم: أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرنا النبيُّ ﷺ؛ فتصحُّ القراءةُ على هذا، وإنْ كانت الأُولى أبينَ وأقربَ مُتناولاً[٣].

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: زادَهم قولُ القائل لهم: اسجدوا للرحمن؛ نفوراً عن الدِّين. وكان سفيانُ الثوريّ يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعاً ما زاد أعداءك نفوراً.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي: منازل؛ وقد تقدَّم ذكرها[٤].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ قال ابن عباس: يعني الشمس[٥]؛ نظيره: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]. وقراءة العامة: «سِرَاجاً» بالتوحيد. وقرأ حمزة والكسائي: «سُرُجاً»[٦]، يريدون النجوم العِظَام الوَقَّادة. والقراءةُ الأُولى عند أبي عبيدٍ أولى؛ لأنَّه

---

(١) قرأ: تأمرنا؛ بالتاء، من السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم. السبعة ص٤٦٦، والتيسير ص١٦٤.

(٢) في إعراب القرآن له ٣/ ١٦٥. وما قبله منه.

(٣) في (م): تناولاً. وقال الطبري رحمه الله في تفسيره ١٧/ ٤٨٢ بعد ذكر القراءتين: والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدةٍ منهما علماءُ من القرأةِ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

(٤) ١٢/ ١٨٦.

(٥) ذكره عن ابن عباس النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٦٦، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٤ عن قتادة.

(٦) السبعة ص ٤٦٦، والتيسير ص ١٦٤.

تأوّل أنَّ السُّرُج: النجومُ وأنَّ البروج النجوم، [وليس يجبُ أنْ يُتأوّل لهم هذا] فيجيء المعنى: نجوماً ونجوماً.

النحّاس[١]: ولكنَّ التأويلَ لهم أنَّ أبانَ بن تغلب قال: السُّرُج: النجومُ الدراري. الثعلبي: كالزُّهَرَة والمشتري وزُحَل والسمَاكَين[٢] ونحوها.

﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ ينير الأرض إذا طلع. ورَوى عِصْمَةُ عن الأعمش: «وَقُمْراً» بضمّ القاف وإسكان الميم؛ وهذه قراءةٌ شاذة، ولو لم يكنْ فيها إلا أنَّ أحمدَ بن حنبل ـ وهو إمامُ المسلمين في وقته ـ قال: لا تكتبوا ما يحكيه عِصمة الذي يروي القراءات، وقد أُولِع أبو حاتم السِّجِسْتاني بذكرِ ما يرويه عِصمةُ هذا[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿خِلْفَةً﴾ قال أبو عبيدة: الخِلفَةُ: كلُّ شيء بعد شيء، وكلُّ واحدٍ من الليل والنَّهار يَخْلُفُ صاحبَه[٤]، ويقال للمبْطُون: أصابَه خِلفةٌ، أي: قيامٌ وقعودٌ يَخلفُ هذا ذاك. ومنه خِلْفَةُ النبات؛ وهو ورقٌ يخرج بعد الورق الأوّل في الصيف[٥]. ومن هذا المعنى قولُ زهير بن أبي سُلْمى:

بهـا العِيـنُ والآرامُ يَـمْـشِيـنَ خِـلْـفـةً وأَطْلاؤُهَا يَنْهَضْنَ من كُلِّ مَجْثَمِ[٦]

---

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٦ ، و ما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) السماك: نجم معروف ، وهما سماكان: رامح وأعزل. اللسان (سمك).

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٦ ، وذكر هذه القراءة أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧ .

(٤) ذكر قول أبي عبيدة الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٤٥ ، والطبرسي في مجمع البيان ١٩/ ١٢٣.

(٥) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٣٩٩ - ٤٠٠ ، ولسان العرب (خلف).

(٦) ديوان زهير بن أبي سلمى ص٥. قال شارحه ثعلب: العِين: البقر ، الواحدة عَيْنَاء والطَّلا: ولد البقرة وولد الظبية الصغير. اهـ . والمجثم: مكان الجثوم. معجم متن اللغة (جثم).

الرِّئم: ولدُ الظبي، وجمعُه آرام؛ يقول: إذا ذهب فوجٌ جاء فوج[(١)].

ومنه قول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء إلى منزل في الصيف دَأباً[(٢)]:

ولــهــا بــالــمــاطِــرُونِ[(٣)] إذا أَكَــلَ الــنــمــلُ الــذي جَــمــعَــا
خِــلْــفَــةٌ حــتــى اذا ارْتــبــعَــتْ سَــكَــنَــتْ مِــن جِــلَّــقٍ بِــيَــعَــا[(٤)]
فــي بــيــوت[(٥)] وَسْــطَ دَسْــكَــرةٍ[(٦)] حــولَــهــا الــزيــتــونُ قــد يَــنَــعَــا

قال مجاهد: «خِلْفَةً» من الخِلاف؛ هذا أبيضُ؛ وهذا أسود، والأوَّل أقوى[(٧)].

وقيل: يتعاقبان في الضياء والظَّلام، والزيادة والنقصان[(٨)]. وقيل: هو من باب حذف المضاف، أي: جعلَ الليلَ والنهار ذَوَي خِلفة، أي: اختلاف[(٩)].

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتذكر، فيعلم أنَّ الله لم يجعلْهُ كذلك عبثاً، فيعتبر في مصنوعات الله، ويشكر الله تعالى على نِعَمه عليه في العقل والفكر والفهم.

---

(١) تهذيب اللغة ١٥/ ٢٨٢.

(٢) اختلف في قائل هذه الأبيات. قال المبرد في الكامل ٢/ ٤٩٨: قال أبو عبيدة: هذا الشعر يُخْتَلف فيه. فبعضهم ينسبه إلى الأحوص، وبعضهم ينسبه إلى يزيد بن معاوية قال أبو الحسن [علي بن سليمان الأخفش]: الصحيح أنه ليزيد. اهـ. ونسبها الجاحظ في الحيوان ٤/ ١٠ لأبي دهبل.

(٣) الماطرون: موضع بالشام قرب دمشق. معجم البلدان ٥/ ٤٢-٤٣.

(٤) وقع في المصدرين السالفين: خرفةٌ، بدل: خلفة. والأبيات برواية المصنف في تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٨، والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٧ وعنه نقل المصنف. قال البغدادي في خزانة الأدب ٣/ ٢٧٩ (طبعة دار صادر): ارتبعت: دخلت في الربيع، وجِلَّق: مدينة بالشام.

(٥) في المصادر: في قباب.

(٦) في المصادر عدا الحيوان للجاحظ: حول دسكرة، والدسكرة: يشبه قصراً حوله بيوت ـ وجمعها دساكر ـ تكون للملوك. خزانة الأدب ٣/ ٢٧٩-٢٨٠.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٤٥٥، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٦.

(٨) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٥.

(٩) الكشاف ٣/ ٩٩.

وقال عمرُ بن الخطاب وابن عباس والحسن: معناه: من فاته شيءٌ من الخير بالليل أدركَه بالنهار، ومن فاته بالنهار أدركَه بالليل[١].

وفي الصحيح: «ما من امرئٍ تكونُ له صلاةٌ بالليل، فغلَبه عليها نومٌ، فيصلي ما بين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر؛ إلَّا كَتَب الله له أجرَ صلاته وكان نومُه عليه صدقةً»[٢].

وروى مسلمٌ[٣] عن عمرَ بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «من نامَ عن حزبه، أو عن شيءٍ منه فقرأه فيما[٤] بين صلاة الفجر وصلاة الظهر؛ كُتِبَ[٥] له كأنما قرأه من الليل».

الثانية: قال ابن العربي[٦]: سمعتُ ذا الشهيد الأكبر يقول: إن الله تعالى خَلَق العبدَ حيًّا عالماً، وبذلك كمالُه، وسلَّطَ عليه آفةَ النَّوم، وضرورةَ الحَدَث، ونقصان الخِلقَة، إذ الكمالُ للأوَّل الخالق، فمتى[٧] أمكنَ الرجلُ من دفعِ النوم بقلَّة الأكل، والسهرِ في طاعة الله؛ فليفعل. ومِن الغَبْن العظيم أنْ يعيشَ الرجلُ ستين سنةً، ينامُ ليلَها، فيذهبُ النصفُ من عمره لغواً، وينامُ سُدس النَّهار راحةً، فيذهبُ ثلثاه، ويبقى له من العمر عشرون سنة، ومن الجهالة والسَّفاهة أن يُتْلِف الرجلُ ثلثي عُمرِه في لذةٍ فانية، ولا يُتلِفَ عمرَه بسهرٍ في لذةٍ باقية عند الغنيِّ الوفيِّ، الذي ليس بعديم[٨] ولا ظلوم.

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧-٢١٨ ، وقول عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن أخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٥ - ٤٨٦.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٤٤١) ، وأبو داود (١٣١٤) ، والنسائي٣/ ٢٥٧ عن عائشة. دون قوله: فيصلي مابين طلوع الشمس إلى صلاة الظهر. وهو بلفظ المصنف في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٦.

(٣) في صحيحه (٧٤٧).

(٤) في (ظ): ما. وليست في (د) و (ز).والمثبت من (م) وهو الموافق لصحيح مسلم.

(٥) في (د) و(ز): كتب الله.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٦.

(٧) في (م) وأحكام القرآن لابن العربي: فما.

(٨) في النسخ الخطية: بعدوم، والمثبت من (م)، وأحكام القرآن.

الثالثة: الأشياءُ لا تتفاضلُ بأنفسها؛ فإن الجواهرَ والأعراضَ من حيث الوجودُ متماثلة، وإنما يقع[(١)] التفاضل بالصفات. وقد اختُلِف أيُّ الوقتين أفضل، الليل أو النهار. وفي الصوم غنيةٌ في الدِّلالة، والله أعلم؛ قاله ابن العربي[(٢)].

قلت: والليل عظيمٌ قدْره؛ أَمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام بقيامه فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ [المزمل: ٢] على ما يأتي بيانه. وَمَدَح المؤمنين على قيامه فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] وقال عليه الصلاة والسلام: «والصدقة تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئ الماء النَّار، وصلاةُ الرَّجل في جوف الليل»[(٣)] وفيه ساعةٌ يُستجاب فيها الدُّعاء، وفيه يَنْزِل الربُّ تبارك وتعالى[(٤)] حسبما يأتي بيانُه إنْ شاء الله تعالى.

الرابعة: قرأ حمزة وحدَه: «يَذْكُرَ» بسكون الذَّال وضمِّ الكاف[(٥)] وهي قراءة ابن وثَّاب وطلحة والنَّخعي[(٦)]. وفي مصحف أُبيّ: «يَتَذَكَّرَ» بزيادة تاء[(٧)]. وقرأ الباقون: «يَذَّكَّرَ» بتشديد الكاف[(٨)].

ويَذْكُرَ ويَذَّكَّر بمعنًى واحد[(٩)]. وقيل: معنى «يَذْكُرَ» بالتخفيف، أي: يذكر ما نسيَه

---

(١) في النسخ الخطية: معنى. والمثبت من (م) وأحكام القرآن.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٧.

(٣) هو قطعة من حديث معاذ بن جبل ﷺ. أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

(٤) يشير إلى حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم (٧٥٨): أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا. حين يبقى ثلث الليل الآخِر. فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له، و من يسألني فأعطيَه، ومن يستغفرني فأغفرَ له».

(٥) السبعة ص ٤٦٦، والتيسير ص ١٦٤.

(٦) ينظر البحر المحيط ٦/ ٥١٢.

(٧) قراءة أبي بن كعب ذكرها الفراء في معاني القرآن ٢/ ٢٧١، و الزمخشري في الكشاف ٣/ ٩٩.

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨. والكلام من أول المسألة منه.

(٩) تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٩.

في أحد الوقتين في الوقت الثاني، أو ليذكر[(١)] تنزيهَ الله وتسبيحه فيها.

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يقال: شكر يشكر شُكراً وشُكوراً؛ مثل: كَفر يكفُر كُفراً وكُفوراً. وهذا الشُّكر[(٢)] على أنَّهما[(٣)] جعلَهما قَواماً لمعاشهم، وكأنَّهم لمَّا قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قال[(٤)]: هو الذي يَقْدِر على هذه الأشياء[(٥)].

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾. لمَّا ذكر جهالاتِ المشركين، وطعنَهم في القرآن والنبوَّة؛ ذَكَر عبادَه المؤمنين أيضاً، وذَكَر صفاتِهم، وأضافَهم إلى عبوديَّته تشريفاً لهم، كما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] وقد تقدَّم. فمن أطاعَ الله وعبدَه، وشغل سمعَه وبصَرَه ولسانَه وقلبَه بما أمرَه؛ فهو الذي يستحقُّ اسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شملَه قولُه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] يعني في عدم الاعتبار؛ كما تقدَّم في «الأعراف»[(٦)].

وكأنَّه قال: وعبادُ الرَّحمن هم الذين يمشون على الأرض هوناً[(٧)]، فحذف «هم»؛ كقولك: زيدٌ الأمير، أي: زيدٌ هو الأمير. فـ «الَّذِينَ» خبرُ مبتدأ محذوف؛ قاله الأخفش[(٨)].

---

(١) في (ظ): ليذكروا.

(٢) في (م): الشكور.

(٣) في (ظ): أنه.

(٤) في النسخ عدا (ظ): قالوا. والمثبت من (ظ)

(٥) ينظر تفسير الرازي ٢٤/١٠٧.

(٦) ٩/ ٣٩٠.

(٧) لفظة: هوناً، من (ظ).

(٨) كلام الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٦٤٢ - ٦٤٣، وإعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٦: أن قوله: ﴿وعباد الرحمن..﴾ مبتدأ ليس له خبر إلا في المعنى.

وقيل: الخبرُ قوله في آخر السورة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الآية: ٧٥] وما بين المبتدأ والخبر أوصافٌ لهم، وما تعلَّق بها؛ قاله الزَّجَّاج(١). قال: ويجوز أنْ يكون الخبر: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

و«يَمْشُونَ» عبارةٌ عن عيشهم، ومدَّةِ حياتهم، وتصرفاتِهم، فذكر من ذلك العُظم؛ لاسيما وفي(٢) الانتقال في الأرض وهي(٣) معاشرة الناس وخلطتهم.

قوله تعالى: ﴿هَوْنًا﴾ الهَوْنُ مصدر الهيِّن، وهو من السَّكينة والوَقَار. وفي التفسير: يمشون على الأرض حُلماء(٤) متواضعين، يمشون في اقتصاد.

والقَصدُ والتُّؤَدَةُ وحُسْنُ السَّمْت من أخلاق النبوة(٥). وقال ﷺ: «أيُّها النَّاس، عليكم بالسَّكينة، فإنَّ البِرَّ ليس في الإيضاع»(٦).

ورُويَ في صفته ﷺ أنَّه إذا زال؛ زال تَقلُّعاً، ويخطو تَكَفُّؤاً، ويمشي هَوْناً، ذَرِيعَ المِشية إذا مشى، كأنَّما ينحطُّ من صَبَب(٧).

---

(١) في معاني القرآن له ٤/ ٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٦٧.

(٢) بعدها في (م) ذلك.

(٣) في (م): وهو. والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق للمحرر الوجيز ٤/ ٢١٨ والكلام منه، وينظر البحر المحيط ٦/ ٥١٢.

(٤) في النسخ الخطية: حكماء. والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤٥. والقول فيه منسوب للحسن وعطاء والضحاك ومقاتل.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٧.

(٦) أخرجه أحمد (٢٠٩٩)، والبخاري (١٦٧١) عن ابن عباس. واللفظ الذي ذكره المصنف هو لفظ البخاري. وقال الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ إثر الحديث: أوضعوا: أسرعوا.

(٧) هو قطعة من حديث هند بن أبي هالة؛ أخرجه الترمذي في الشمائل (٧)، والطبراني في الكبير ٢٢/ (١٥٥) - (١٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٣٠)، وأخرجه القاضي عياض في الشفا ١/ ٣٣٤ (شرح الشفا للملا علي القاري)؛ بإسنادين أحدهما من طريق الترمذي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٧٧ : رواه الطبراني وفيه من لم يسم، وقال المناوي في فيض القدير ٥/ ٩٠: رمز المصنف[السيوطي] إلى حسنه، ولعله لاعتضاده عنده اهـ. ينظر تنزيه الشريعة المرفوعة ١/ ٤٦، وينظر كلام الملا علي القاري حول إسنادي القاضي عياض في شرح االشفا ١/ ٣٣٤ - ٣٣٦ .

التقلُّع: رفعُ الرِّجْل بقوَّة، والتَكفُّؤ: الميلُ إلى سَنَن الممشى[(١)] وقَصْده، والهَون: الرِّفقُ والوَقار، والذَّريعُ: الواسعُ الخَطو[(٢)]، أي: إنَّ مشيَه كان يرفعُ فيه رجليه[(٣)] بسرعة، ويمدُّ خَطْوَه؛ خلافَ مِشية المختال، ويَقصِد سَمْتَه[(٤)]؛ وكلُّ ذلك برفقٍ وتثبتٍ دونَ عَجَلة. كما قال: كأنَّما ينحطُّ من صَبَب[(٥)]؛ قاله القاضي عياض[(٦)].

وكان عمرُ بن الخطاب ﷺ يُسْرِعُ جِبلَّةً؛ لا تكلُّفاً[(٧)].

قال الزُّهري: سرعة المشي تَذْهب ببهاء الوجه. قال ابن عطية[(٨)]: يريد الإسراعَ الحثيث لأنَّهُ يُخِلُّ بالوقار، والخيرُ في التوسط. وقال زيدُ بن أسلم: كنتُ أسأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فما وجدتُ من ذلك شفاءً، فرأيتُ في المنام من جاءني فقال لي: هم الذين لا يريدون أنْ يُفسدوا في الأرض[(٩)].

قال القُشيري: وقيل: لا يمشون لإفسادٍ ومعصية، بل في طاعة الله والأمورِ المباحة من غير هَوَك[(١٠)]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]. وقال ابن عباس: بالطَّاعة والمعروف والتَّواضع[(١١)].

(١) في (م): المشي، والمثبت من النسخ الخطية. وهو الموافق للمطبوع من الشفا. وفي شرح الشفا للملّا علي القاري ١/ ٣٥٦ : سنن المشي. قال: وفي نسخة: الممشى؛ على أنه مصدر ميمي أو اسم مكان. اهـ وسنن الطريق: نهجه وجهته. القاموس (سنن).

(٢) في (م): الخطا.

(٣) في (م): رجله.

(٤) أي: مقصده في طريقه بدون ميل عن وسطه ؛ لقوله سبحانه: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]. شرح الشفا للملا علي القاري ١/ ٣٥٦ .

(٥) أي: منحدر. شرح الشفا ١/ ٣٥٧ .

(٦) في الشفا ١/ ٣٠٧، ٣١٨ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤١٧ .

(٨) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨، وكلام الزهري السالف منه.

(٩) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩١ .

(١٠) في (د): هول، وفي (ظ): هزل، والمثبت من (ز) و(م)، والهَوَك: الحمق. القاموس المحيط (هوك).

(١١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩١. وفيه: والعفاف. بدل: والمعروف.

الحسن: حلماء؛ إنْ جُهِل عليهم لم يَجهلوا[(١)]. وقيل: لا يتكبَّرون على الناس[(٢)].
قلت: وهذه كلُّها معانٍ متقاربة، ويجمعُها العلمُ بالله، والخوفُ منه، والمعرفةُ بأحكامه، والخشيةُ من عذابه وعقابه؛ جَعَلَنا اللهُ منهم بفضله ومنِّه.

وذهبت فرقةٌ إلى أنَّ «هَوْناً» مرتبطٌ بقوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾، إي[(٣)]: إنَّ المشيَ هو هون[(٤)].

قال ابنُ عطية[(٥)]: ويُشبه أنْ يُتأول هذا على أنْ تكون أخلاقُ ذلك الماشي هَوْناً مناسبةً لمشيه، فيرجعُ القول إلى نحو ما بيَّنَّاه. وأمَّا أنْ يكون المرادُ صفةَ المشي وحدَه فباطل؛ لأنَّه رُبَّ ماشٍ هَوْناً رويداً وهو ذئبٌ أطلس[(٦)]. وقد كان رسول الله ﷺ يَتَكفَّأُ في مشيه كأنَّما يمشي[(٧)] في صبب. وهو عليه الصلاة والسلام الصدرُ في هذه الأمَّة. وقولُه عليه الصلاة والسلام: «من مشى منكم في طمعٍ فليمش رويداً»[(٨)] إنما أراد في عَقْد نفسه، ولم يُرد المشيَ وحده، ألا ترى أنَّ المبطلين المتحلِّين بالدِّين تَمسَّكوا بصورة المشي فقط؛ حتى قال فيهم الشاعر ذمًّا لهم:

كلُّهم يمشي رُوَيْد كلُّهم يَطْلُبُ صَيْد[(٩)]

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد ص٣٣٨، والطبري ١٧/ ٤٩٢. ووقع في (ظ) بدل لفظ حلماء: حكماء، وفي (ز) والمحرر الوجيز: حلماً، والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق للمصادر.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٢ عن ابن زيد.

(٣) لفظة: أي. من (ظ).

(٤) في (ظ): الهون.

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨. وما قبله منه.

(٦) الأطلس: الذئب الأمعط الذي تساقط شعره، وهو أخبثها. معجم متن اللغة (طلس).

(٧) في (م) ينحط، والمثبت من النسخ الخطية والمحرر الوجيز.

(٨) قطعة من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٩٩)، وفيه إبراهيم بن زياد العجلي؛ قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ٣٢: قال الأزدي: متروك الحديث .اهـ. وذكر ابن الجوزي طرفه في الموضوعات (٨٧٢).

(٩) المحرر الوجيز ٤/ ٢١، والبيت لأبي جعفر المنصور كما في عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٢٠٩، =

قلت: وفي عكسه أنشدَ ابن العربيّ[١] لنفسه.

تواضعتُ في العلياء والأصلُ كابر   وحزتُ قِصابَ السَّبقِ بالهَوْن في الأمرِ
سكونٌ فلا خبثُ السريرة أصلُه   وجُلُّ سكونِ النَّاس من عِظَم الكبرِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ قال النَّحَّاس[٢]: ليس «سَلَاماً» من التسليم؛ إنَّما هو من التسلُّم؛ تقول العرب: سلاماً، أي: تَسلُّماً[٣] منك، أي: براءةً منك. منصوبٌ على أحد أمرين: يجوز أنْ يكون منصوباً بـ «قَالُوا»، ويجوزُ أنْ يكون مصدراً؛ وهذا قولُ سيبويه[٤].

قال ابن عطية[٥]: والذي أقوله: إنَّ «قَالُوا» هو العاملُ في «سَلَاماً» لأنَّ المعنى: قالوا هذا اللفظ. وقال مجاهد: معنى «سَلَاماً»: سَدَاداً[٦]. أي: يقولُ للجاهل كلاماً يدفعُه به برفقٍ ولين. فـ «قَالُوا» على هذا التأويل عاملٌ فِي قوله: «سَلَاماً» على طريقة النحْويين؛ وذلك أنَّه بمعنى قولاً.

وقالت فرقةٌ: ينبغي للمخاطب أنْ يقولَ للجاهل: سلاماً؛ بهذا اللفظ. أي: سلَّمنا سلاماً أو تسليماً، ونحو هذا، فيكون العاملُ فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين.

مسألة: هذه الآيةُ كانت قبل آية السيف، نُسِخ منها ما يخصُّ الكفرة وبقي أدبُها في المسلمين إلى يوم القيامة. وذَكر سيبويه النسخَ في هذه الآية في كتابه[٧]، وما تكلَّم

= والعقد الفريد لابن عبد ربه ٣/ ١٦٥ . وفيهما: كلكم. بدل: كلهم. وخاتل. بدل: يطلب. وهو في مدح عمرو بن عبيد وبعده: غير عمرو بن عبيد.

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٧ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٨ .

(٣) في النسخ الخطية: تسليماً. والمثبت من (م) وهو الموافق للمصادر.

(٤) في الكتاب ١/ ٣٢٤ .

(٥) في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨ .

(٦) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٤ .

(٧) ١/ ٣٢٥ .

فيه على نسخٍ سواه؛ ورجَّح به أنَّ المرادَ السلامةُ لا التسليم؛ لأنَّ المؤمنين لم يؤمروا قَطُّ بالسَّلام على الكفرة. والآيةُ مكِيَّةٌ، فنسخَتها آيةُ السَّيف[1].

قال النَّحَّاس[2]: ولا نعلم لسيبويه كلاماً في معنى النَّاسخ والمنسوخ إلَّا في هذه الآية.

قال سيبويه[3]: لم يؤمر المسلمون يومئذٍ أنْ يُسَلِّموا على المشركين، لكنَّه على معنى قوله: تَسلُّماً[4] منكم، ولا خير ولا شرَّ بيننا وبينكم.

المبرِّد: كان ينبغي أنْ يُقال: لم يؤمر المسلمون يومئذٍ بحربهم ثُمَّ أمروا بحربهم. محمد بن يزيد[5]: أخطأ سيبويه في هذا وأساءَ العبارة.

ابن العربي[6]: لم يؤمر المسلمون يومئذٍ أنْ يُسلِّموا على المشركين، ولا نُهوا عن ذلك، بل أُمِروا بالصَّفح والهجر الجميل، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقفُ على أنديتهم ويحييهم ويدانيهم، ولا يداهنهم. وقد اتَّفق النَّاسُ على أنَّ السفيهَ من المؤمنين إذا جفاك يجوزُ أنْ تقول له: سلامٌ عليك.

قلت: هذا القول أشبهُ بدلائل السنَّة. وقد بيَّنَّا في سورة مريم[7] اختلاف العلماء في جواز التسليم على الكفار، فلا حاجةَ إلى دعوى النَّسخ؛ والله أعلم.

وقد ذكر النضرُ بن شُميل قال: حدثني الخليلُ قال: أتيتُ أبا ربيعةَ الأعرابيّ، وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلَّمنا، فردَّ[8] علينا السلام، وقال لنا: استووا. وبقينا متحيرين ولم ندرِ ما قال. فقال لنا أعرابيٌّ إلى جنبه: أَمَرَكم أنْ

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨ .

(٢) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠ . وكلام سيبويه والمبرِّد الآتيان منه.

(٣) في الكتاب ١/ ٣٢٥ .

(٤) في (د) و(ظ) تسليماً. والمثبت من (ز) و(م)، وهو الموافق للكتاب.

(٥) هو المبرِّد.

(٦) في أحكام القرآن ٣/ ١٤١٨ .

(٧) عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [الآية: ٤٧].

(٨) في (د) و(ز): فلما سلمنا فرد، وفي (م): فلما سلمنا رد، والمثبت من (ظ) والتمهيد.

ترتفعوا. قال الخليل: هو من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]. فصَعِدنا إليه فقال: هل لكم في خبزٍ فطير، ولبنٍ هجير، وماءٍ نَمِير؟ فقلنا: الساعةَ فارقناه. فقال: سلاماً. فلم ندر ما قال. قال: فقال الأعرابيّ: إنَّه سالمكُم[١]؛ مُتاركةٌ[٢] لا خيرَ فيها ولا شرّ. فقال الخليل: هو من قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

قال ابن عطية: ورأيتُ في بعض التواريخ أنَّ إبراهيم بن المهديّ[٣] ـ وكان من المائلين على عليّ بن أبي طالب ﷺ ـ قال يوماً بحضرة المأمون وعنده جماعة: كنتُ أرى عليّ بن أبي طالب في النوم، فكنتُ أقولُ له: من أنت؟ فكان يقول: عليُّ بن أبي طالب. فكنتُ أجيء معه إلى قنطرةٍ، فيذهبُ، فيتقدمني في عبورها، فكنتُ أقول: إنَّما تدَّعي هذا الأمر بامرأةٍ، ونحن أحقُّ به منك، فما رأيتُ له في الجواب بلاغةً كما يُذْكر عنه. قال المأمون: وبماذا جاوبك؟ قال: فكان يقولُ لي: سلاماً سلاماً[٤]. قال الراوي: وكأنَّ إبراهيمَ بن المهديّ لا يحفظ الآية. أو ذَهَبَتْ عنه في ذلك الوقت. فنبَّه المأمونُ على الآية من حَضَرَه وقال: هو والله يا عم عليُّ بن أبي طالب، وقد جاوبَك بأبلغ جواب، فَخَزِي[٥] إبراهيمُ واستحيا. وكانت رؤيا لا محالة صحيحة[٦].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ قال الزجاج[٧]: بَاتَ الرجل

---

(١) في (د) و(م): سألكم. والمثبت من (ز)و (ظ) وهو الموافق للتمهيد ٧/ ١٣٢ والكلام منه.

(٢) في (د) و(ز): منازلة.

(٣) هو الأمير أبو إسحاق. الملقب بالمبارك. كان، فصيحاً، بليغاً، عالماً، أديباً، شاعراً، رأساً في فن الموسيقا. بويع بالخلافة زمن المأمون، ثم هُزم جمع إبراهيم، واختفى إبراهيم زماناً إلى أن ظفر به المأمون، فعفا عنه. توفي سنة أربع وعشرين ومئتين . ينظر سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٥٧ - ٥٦١.

(٤) لفظة: سلاماً (الثانية) من (ز) و(ظ) والمصادر.

(٥) في المحرر الوجيز: فحزن.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٩. وذكر هذه القصة الأصفهاني في الأغاني ١٠/ ١٢٦ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ٧٥ .

يَبيتُ: إذا أدركَهُ اللَّيل، نَامَ أو لم ينم. قال امرؤ القيس(١):

فبتنا قياماً عند رأس جوادِنا ... يزاولُنا عن نفسه ونزاولُه(٢)

وأنشدوا في صفة الأولياء:

امنع جفونَك أنْ تذوقَ مناماً ... واذْرِ الدموعَ على الخدود سِجاما(٣)

واعلم بأنَّك ميتٌ ومُحاسَبٌ ... يا من على سَخَط الجليل أقاما

لله قومٌ أخلصوا في حبِّه ... فرضِي بهم واختصَّهُم خُدَّاما

قومٌ إذا جَنَّ الظلامُ عليهم ... باتوا هنالك سُجَّداً وقِياما

خُمْصَ البطونِ من التعفُّف ضُمَّراً(٤) ... لا يعرفونَ سوى الحلال طعاما(٥)

وقال ابنُ عباس: من صلَّى ركعتين أو أكثر بعد العشاء، فقد باتَ لله ساجداً وقائماً(٦). وقال الكلبيُّ: من أقام ركعتين بعد المغرب، وأربعاً بعد العشاء، فقد باتَ ساجداً وقائماً.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: هم مع طاعتهم مشفقون خائفون وَجِلُون من عذاب الله. ابن عباس: يقولون ذلك في سجودهم وقيامهم.

---

(١) كذا في النسخ، والبيت لزهير، وهو في ديوانه ص١٣٢ .

(٢) في ديوان زهير: فبتنا عراةً. قال شارحه ثعلب: عُراةً: مؤتزرون تجردوا للفرس من صعوبته. يزاولنا عن نفسه ونزاوله: يعالجنا ونعالجه، ويجذبنا ونجذبه.

(٣) سجمَ الدمع: سال. مختار الصحاح (سجم).

(٤) في (د) و(ز): من الحرام تعففاً.

(٥) لم نقف عليها.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٣٤٥ من طريق الكلبي عن ابن عباس .

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: لازماً دائماً غيرَ مفارق، ومنه سُمِّي الغريمُ؛ لملازمته. ويقال: فلانٌ مُغْرَمٌ بكذا، أي: لازمٌ له مُولعٌ به. وهذا معناه في كلام العرب فيما ذكر ابن الأعرابيّ وابنُ عرفة وغيرهما. وقال الأعشى[1]:

إنْ يُعاقِب يكنْ غراماً وإنْ يعـ ... ـطِ جزيلاً فإنَّه لا يبالي

وقال الحسن: قد علموا أنَّ كلَّ غريمٍ يُفارِق غريمَه إلَّا غريمَ جهنم[2].

وقال الزَّجَّاج[3]: الغرامُ أشدُّ العذاب. وقال ابن زيد: الغرام الشرّ[4]. وقال أبو عبيدة[5]: الهلاك. والمعنى واحد. وقال محمد بن كعب: طالبَهم الله تعالى بثمن النَّعيم في الدُّنيا، فلما لم[6] يأتوا به؛ غَرَّمهم[7] ثمنها بإدخالهم النار.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: بئس المُستقرُّ وبئسَ المُقام، أي: إنَّهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علمٍ كانوا أعرفَ بِعِظَم قدر ما يطلبون، فيكون ذلك أقربَ إلى النُّجح.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ﴾ اختلفَ المفسرون في تأويل هذه الآية. فقال النَّحَّاس[8]: ومن أحسن ما قيل في معناه أنَّ من أنفق في غير طاعةِ الله فهو

(١) في ديوانه ص٥٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١٧/٤٩٦ .

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٧٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٧/٤٩٦ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٨٠ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): فلم يأتوا. والمثبت من (ظ) ومعاني القرآن للنحاس ٥/٤٨، وقول محمد بن كعب فيه، وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٦ .

(٧) في (م) فاغرمهم.

(٨) في إعراب القرآن له ٣/١٦٧ - ١٦٨ . والقول فيه بإسناده عن أبي عبد الرحمن الحبلي.

الإسراف، ومن أمسكَ عن طاعة الله عزَّ وجلَّ فهو الإقتار، ومن أنفقَ في طاعة الله تعالى فهو القَوام. وقال ابن عباس: من أنفق مئة ألفٍ في حقٍّ فليس بسَرَف، ومن أنفق درهماً في غير حقِّه فهو سَرَف، ومن منع من حقٍّ عليه فقد قتر[١]. وقاله مجاهد وابن زيد وغيرهما[٢]. وقال عون بن عبد الله: الإسرافُ أَنْ تُنفقَ مالَ غيرك[٣].

قال ابن عطية[٤]: وهذا ونحوه غيُر مرتبطٍ بالآية، والوجهُ أنْ يُقال: إنَّ النفقة في معصيةٍ أمرٌ قد حَظرت الشريعةُ قليلَه وكثيرَه، وكذلك التعدِّي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون مُنزَّهون عن ذلك، وإنَّما التأديبُ في هذه الآية هو في نفقة الطاعات، وفي[٥] المباحات، فأَدَبُ الشرع فيها ألَّا يُفرِّط الإنسانُ حتى يُضيع حقًّا آخر، أو عيالاً ونحو هذا، وألَّا يضيِّق أيضاً ويُقتِّر حتى يُجيع العيال ويُفرِط في الشحّ، والحسن في ذلك هو القَوام، أي: العدل، والقَوام في كلٍّ واحدٍ بحسب عياله وحاله، وخِفَّة ظهره وصبره وجَلَده على الكسب، أو ضدِّ هذه الخصال، وخيُر الأمور أوساطُها، ولهذا تَرك رسول الله ﷺ أبا بكرٍ أن يتصدَّق بجميع ماله[٦]، لأنَّ ذلك وسطٌ بنسبة جَلَده وصبره في الدِّين، ومنعَ غيره من ذلك. ونِعْم ما قال إبراهيمُ النَّخَعيّ: هو الذي لا يُجيع ولا يُعري، ولا يُنفقُ نفقةً يقول الناسُ: قد أسرف[٧]. وقال يزيد بن أبي حبيب: هم الذين لا يلبسونَ الثيابَ لجمال، ولا يأكلون طعاماً للذَّة[٨].

وقال يزيد أيضاً في هذه الآية: أولئك أصحابُ محمدٍ ﷺ؛ كانوا لا يأكلون طعاماً

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن عباس ١٧/ ٤٩٧ - ٤٩٨ بنحوه.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ ، وأخرج قوليهما الطبري ١٧/ ٤٩٨ .

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٤) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ . وما قبله منه .

(٥) في النسخ: في، بدون واو، والمثبت من المحرر الوجيز.

(٦) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥).

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٩٩ .

(٨) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ .

للتنعُّم واللَّذَّة، ولا يلبسون ثوباً[١] للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يَسُدُّ عنهم الجوعَ، ويُقوِّيهم على عبادة ربِّهم، ومن اللِّباس ما يَستُر عوراتِهم، ويُكِنُّهم من الحرِّ والبرد[٢].

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين زوَّجه ابنَتَه فاطمة: ما نفقتُك؟ فقال له عمر: الحسنةُ بين سيئتين، ثم تلا الآية. وقال عمر بن الخطاب: كفى بالمرء سَرَفاً ألَّا يشتهيَ شيئاً إلَّا اشتراه فأكله[٣].

وفي سنن ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من السَّرَف أنْ تأكل كُلَّ ما اشتهيت»[٤].

وقال أبو عبيدة: لَم يزيدوا على المعروف ولم يَبخلوا. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال الشاعر:

ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمر واقْتَصِد كِلَا طَرَفَيْ قصدِ الأمورِ ذميمُ[٥]

وقال آخر:

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتهتْ ولم يَنْهها تاقت إلى كلِّ باطلِ
وساقتْ إليه الإثمَ والعارَ بالذي دعتْهُ إليه من حلاوةِ عاجلِ[٦]

وقال عمرُ لابنه عاصم: يا بنيّ، كُلْ في نصف بطنك؛ ولا تطرحْ ثوباً حتى

(١) في (م): ثياباً.

(٢) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٦، وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٠٠. دون قوله: أولئك أصحاب محمد ﷺ. وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٢٥ (١٥٣٧٧) مختصراً.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٧١.

(٤) سنن ابن ماجه (٣٣٥٢). وينظر تنزيه الشريعة المرفوعة ٢/ ٢٥٦، وفيض القدير ٢/ ٥٢٧. وسلف ٩/ ٢٠٢.

(٥) البيت لأبي سليمان الخطابي كما نسبه له الثعالبي في يتيمة الدهر ٤/ ٣٨٥، وينظر خزانة الأدب ٢/ ١٢٣ وسلف ٧/ ٢٢٩.

(٦) البيتان لحسين بن محمد الملقب بالبارع البغدادي، كما في معجم الأدباء ١٠/ ١٥٣.

تستَخْلِقَه، ولا تكنْ من قومٍ يجعلون ما رزقَهُم الله في بطونهم وعلى ظهورهم. ولحاتم طيّ[١]:

إذا أنتَ قد أعطيتَ بطنكَ سؤلَه وفرجَك نالا منتهى الذَّمِّ أجمعَا

﴿وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمش وعاصم ويحيى بن وثَّاب ـ على اختلاف عنهما ـ «يَقْتُرُوا» بفتح الياء وضمِّ التاء، وهي قراءةٌ حسنة؛ من قَتَر يَقْتُر. وهذا القياس في اللَّازم، مثل: قَعَد يَقْعُد. وقرأ أبو عمرو بن العلاء وابنُ كثير بفتح الياء وكسر التاء؛ وهي لغةٌ معروفةٌ حسنة. وقرأ أهلُ المدينة وابنُ عامر وأبو بكر عن عاصم بضمِّ الياء وكسر التاء[٢]. قال الثعلبي: كلُّها لغات صحيحة.

النَّحَّاس[٣]: و تَعجَّب أبو حاتم من قراءة أهل المدينة هذه؛ لأنَّ أهلَ المدينة عندَه لا يقعُ في قراءتهم الشاذّ، وإنَّما يقال: أَقْتَر يُقْتِر: إذا افتقر، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦]، وتأوَّل أبو حاتم لهم أنَّ المسرفَ يفتقرُ سريعاً. وهذا تأويلٌ بعيد، ولكنَّ التأويلَ لهم أنَّ أبا عُمَر الجَرْميّ حَكى عن الأصمعيّ أنه يُقال للإنسان إذا ضيَّق: قَتَر يَقْتُر ويَقْتِر [وقتَّرَ يُقَتِّرُ]، وأَقْتَر يُقْتِر[٤]. فعلى هذا تصحُّ القراءة. وإنْ كان فتحُ الياء أصحَّ وأقربَ متناولاً، وأشهرَ وأعرف.

وقرأ أبو عمرو والناس: «قَوَاماً» بفتح القاف؛ يعني: عدلاً. وقرأ حسَّان بن عبد الرحمن: «قِوَاماً» بكسر القاف، أي: مبلغاً وسِدَاداً ومِلاك حال[٥]. والقِوام

(١) في ديوانه ص٦٨، وسلف ٩/ ١٩٨ .

(٢) السبعة ص٤٦٦ ، والتيسير ص١٦٤ ، ورواية أبي بكر (وهو شعبة) عن عاصم بضم الياء وكسر التاء؛ ذكرها ابن مجاهد في السبعة.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٧ .

(٤) وقعت العبارة في النسخ الخطية: قتر يقتر، وقتر يقتر، وفي (م): قتر يقتر ويقتر، وأقتر يُقتر. والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ ، و«قَواما» بفتح القاف هي قراءة العشرة، وقراءة حسان بن عبد الرحمن في القراءات الشاذة ص١٠٥ ، والمحتسب ٢/ ١٢٥ . وحسان بن عبد الرحمن قال عنه ابن جني في المحتسب: صاحب عائشة. ولم نقف له على ترجمة.

بالكسر[١]: ما يدومُ عليه الأمر ويستقرّ. وقيل: هما لغتان بمعنًى.

و«قَوَاماً» خبرُ كان، واسمها مقدَّرٌ فيها، أي: كان الإنفاقُ بين الإسراف والقَتْر قَواماً[٢]؛ قاله الفراء[٣]. وله قولٌ آخر يجعل «بَيْنَ» اسم كان وينصبها؛ لأن هذه الألفاظ كَثُر[٤] استعمالُها، فتُرِكت على حالها في موضع الرفع. قال النَّحَّاس[٥]: ما أدري ما وجهُ هذا؛ لأنَّ «بيناً» إذا كانت في موضع رفعٍ رُفعت؛ كما يقال: بَيْنُ عينيه أحمرُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾. إخراجٌ لعباده المؤمنين من صفات الكَفَرة في عبادتهم الأوثان، وقَتْلِهم النَّفْسَ بَوأْد البنات، وغير ذلك من الظُّلم والاغتيال والغارات، ومن الزنى الذي كان عندهم مباحاً[٦].

وقال مَن صَرفَ هذه الآيةَ عن ظاهرها من أهل المعاني: لا يليقُ بمن أضافهمُ الرحمن إليه إضافةَ الاختصاص، وذكرهم ووصفهم[٧] من صفات المعرفة والتشريف وقوعُ هذه الأمور القبيحة منهم حتى يُمدَحوا بنفيها عنهم؛ لأنَّهم أعلى وأشرف، فقال: معناها لا يدعونَ الهوى إلهاً، ولا يُذلُّون أنفسهم بالمعاصي فيكون قتلاً لها.

---

(١) في (د) و(م): والقوام بكسر القاف. والمثبت موافق لمعاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٠ والكلام منه.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٢٥.

(٣) في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٤) في (د) و(ز): كثيراً، وفي (م): كثير. والمثبت من (ظ) وهو الموافق لمشكل إعراب القرآن ٢/ ٥٢٥ و الكلام منه.

(٥) في إعراب القرآن له ٣/ ١٦٨.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠.

(٧) في (ظ): وذكر وصفهم، وفي المفهم: ووصفهم بما ذكرهم.

ومعنى ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلاّ بسِكّين الصبر، وسيف المجاهدة، فلا يَنظرون إلى دنيا[1] ليست لهم بمحرَمٍ بشهوةٍ فيكون سفاحاً؛ بل بالضرورة، فيكون كالنكاح.

قال شيخنا أبو العباس[2]: وهذا كلامٌ رائق، غير أنَّه عند السَّبر مائق[3]، وهي نبعةٌ باطنيَّة، ونزعةٌ باطليَّة، وإنَّما يَصحُّ[4] تشريفُ عباد الرحمن باختصاصِ الإضافة بعد أن تحلَّوا بتلك الصفات الحميدة، وتخلَّوا عن نقائض ذلك من الأوصاف الذميمة، فبدأ في صدر هذه الآيات بصفات التحلِّي تشريفاً لهم، ثم أعقَبها بصفات التخلِّي تقعيداً لها، والله أعلم.

قلت: ومما يدلُّ على بطلان ما ادعاه هذا القائل من أنَّ تلك الأمور ليست على ظاهرها ما رَوى مسلمٌ من حديث عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أنْ تَدْعوَ لله ندًّا وهو خلقك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أنْ تَقتلُ ولدَك مخافةَ أنْ يطعم معك» قال: ثم أيّ؟ قال: «أنْ تُزَانيَ حليلةَ جارك». فأنزلَ الله تعالى تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[5].

والأثامُ في كلام العرب العِقاب، وبه فسَّر[6] ابنُ زيدٍ وقتادةُ هذه الآية.

ومنه قول الشاعر:

جَزى اللهُ ابنَ عُروة حيث أمسى ... عُقوقاً والعُقوقُ له أثامُ[7]

---

(١) في (د) و(ز) و(م) ومطبوع المفهم: نساء، والمثبت من (ظ) وكذلك جاءت العبارة في نسخ المفهم كما ذكر محققوه، وينظر لطائف الإشارات ٢/ ٦٥٠ - ٦٥١.

(٢) في المفهم ٧/ ٣٨٣.

(٣) المائق: الهالك حمقاً وغباوة. اللسان (موق).

(٤) في (ظ) و(م): صح.

(٥) أخرجه مسلم برقم (٨٦): (١٤١) دون ذكر الآية، وبرقم (٨٦): (١٤٢): مع ذكر الآية وفيه روى ابن مسعود أن السائل رجل. وأخرجه أحمد (٤١٣٤) والبخاري (٦٠٠١) بالسياق الذي ذكره المصنف.

(٦) في (د) و(ز) و(م): قرأ، والمثبت من (ظ) والمحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ والكلام منه.

(٧) البيت لبَلْعَاء بن قيس الكناني كما في مجاز القرآن ٢/ ٨١، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٠٥. وهو في =

أي: جزاءٌ وعقوبة. وقال عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد: إنَّ «أثاما» وادٍ في جهنم جعله الله عقاباً للكفرة[١]. قال الشاعر:

لقيتَ المهالِك في حربنا ... وبعدَ المهالك تَلْقى أثاما[٢]

وقال السُّدِّي: جبلٌ فيها[٣]. قال:

وإنَّ مُقامَنا ندعو عليكم ... بأبطَحَ ذي المجَاز له أثامُ[٤]

وفي صحيح مسلم[٥] أيضاً عن ابن عباس: أنّ ناساً من أهل الشرك قَتلُوا فأكثروا، وزَنوا فأكثروا؛ فأتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لحسن، ولو تُخبرنا أنَّ[٦] لِمَا عملْنا كفارة، فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾. ونـزل: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الزمر: ٥٣].

وقد قيل: إنَّ هذه الآية: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ نزلَتْ في وحشِيّ قاتل حمزة؛ قاله سعيدُ بن جبير وابنُ عباس، وسيأتي في «الزُّمر» بيانه[٧].

= لسان العرب (أثم) منسوبٌ لشافع الليثي.

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ ، وقول عبد الله بن عمرو وعكرمة ومجاهد أخرجه الطبري ١٧/ ٥١٣ - ٥١٤ .

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٥٨ .

(٣) كذا في النسخ ، وقول السدي كما ذكره الماوردي في النكت والعيون ٤/ ١٥٨ والكلام منه: الجزاء وهو المتوافق مع الشاهد الآتي .

(٤) لفظ الشطر الأول في (م): وكان مقامنا ندعوا عليهم. وهو كذلك في اللسان (أثم) وفي (د) و(ز) و(ظ): وإن مقاماً يدعوا عليكم. والمثبت من ديوان بشر بن أبي خازم ص٢١١ ، والأبطح: مسيل واسع فيه دقاق الحصى. اللسان (بطح). وذو المجاز: موضع سوق بعرفة، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام. معجم البلدان ٥/ ٥٥ .

(٥) برقم (١٢٢): (١٩٣)، وأخرجه البخاري (٤٨١٠).

(٦) في (د) و(ز) و(م): وهو يخبرنا بأن. والمثبت من (ظ) وهو الموافق للمصادر.

(٧) عند تفسير الآية (٥٣) منها. وخبر ابن عباس سيأتي ثمَّة مطولاً. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣٤٩ .

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بما يحقُّ أنْ تُقْتَلَ به النفوس؛ من كفرٍ بعد إيمان، أو زِنًى بعد إحصان؛ على ما تقدَّم بيانُه في «الأنعام»(١).

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ فيستحلُّون الفروجَ بغير نكاح ولا مِلك يمين. ودلَّت هذه الآية على أنَّه ليسَ بعد الكفر أعظمَ من قتل النفس بغير الحق، ثم الزِّنى؛ ولهذا ثبتَ في حد الزِّنا القتل لمن كان محصَناً، أو أقْصى الجلدِ لمن كان غيرَ مُحْصَن.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي: «يُضَاعَفْ. وَيَخْلُدْ» جزماً، وقرأ ابنُ كثير: «يُضَعَّفْ» بشدِّ العين وطرح الألف؛ وبالجزم في «يُضَعَّفْ. وَيَخْلُدْ»(٢). وقرأ طلحةُ بن سليمان: «نُضَعِّفْ» بضمِّ النون وكسرِ العين المشدَّدة، «الْعَذَابَ» نصب، «وَيَخْلُدْ» جزم، وهي قراءةُ أبي جعفر وشيبة. وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكر: «يُضَاعَفُ. وَيَخْلُدُ» بالرفع فيهما على العطف والاستئناف. وقرأ طلحةُ بن سليمان: «وَتَخْلُدْ» بالتَّاء على معنى مخاطبة الكافر(٣). ورويَ عن أبي عمرو: «وَيُخْلَدْ» بضمِّ الياء من تحت وفتح اللام(٤). قال أبو علي(٥): وهي غلطٌ من جهة الرواية.

و«يُضَاعَفْ» بالجزم بدلٌ من «يَلْقَ» الذي هو جزاءُ الشرط. قال سيبويه: مضاعفةُ العذاب لُقيُّ الأثام(٦). قال الشاعر:

---

(١) ٩/ ١٠٩ .

(٢) السبعة ص٤٦٧ ، والتيسير ص١٦٤ ، وفيهما قراءة ابن عامر: يُضَعَّفُ، ويَخْلُدُ، ووافق حمزةَ ونافعاً والكسائيَّ من السبعة في قراءتهم لهذين الحرفين: عاصم في رواية حفص، وأبو عمرو. وأما ما ذكره المصنف من قراءة ابن عامر، فهو في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ (والكلام منه): وكذلك ذكر عنه أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٣١٤ أنه جَزَمَ هذين الحرفين، غير أنه قال: يُضَعَّفْ، بحذف الألف وتشديد العين، كقراءة ابن كثير.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ - ٢٢١ . وقد قرأ أبو جعفر: يُضَعَّفْ ويَخْلُدْ، كقراءة ابن كثير، وقراءة طلحة ابن سليمان: تخلُد؛ بالتاء، في المحتسب ٢/ ١٢٥ ، وينظر النشر ٢/ ٢٢٨ و ٣٣٤ .

(٤) ذكر هذه الرواية ابن مجاهد في السبعة ص٤٦٧ وقال: وهي غلط.

(٥) في الحجة في القراءات السبع ٥/ ٣٥٠ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٠ - ٢٢١ .

مَتَى تأتنا تُلْمِمْ بنا في ديارنا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وناراً تَأَجَّجَا[١]

وقال آخر:

إنّ عَلَيَّ اللهَ أنْ تُبايِعَا تُؤْخَذَ كَرْهاً أو تَجِيءَ طائعَا[٢]

وأمَّا الرفعُ ففيه قولان: أحدُهما: أنْ يقطَعه[٣] مما قبلَه. والآخرُ: أن يكونَ محمولاً على المعنى؛ كأنَّ قائلاً قال: ما لُقيُّ الأثام؟ فقيل له: يُضاعفُ له العذاب[٤]. و﴿مُهَانًا﴾ معناه: ذليلاً خاسئاً مُبعَداً مطروداً.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ لا خلافَ بين العلماء أنَّ الاستثناء عاملٌ في الكافر والزاني. واختلفوا في القاتل من المسلمين[٥] على ما تقدَّم بيانه في «النساء»[٦].

ومضى في «المائدة»[٧] القولُ في جواز التَّراخي في الاستثناء في اليمين، وهو مذهبُ ابن عباس مستدلًّا بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ قال النحاس[٨]: من أحسن

---

(١) البيت في الكتاب ١/ ٨٦، ونسبه البغدادي في خزانة الأدب ٩/ ٩٠ لعبيد الله بن الحر. وقال في الخزانة ٩/ ٩٦ - ٩٧: فإنَّ تُلمِمْ فيه بدلٌ من تأتنا... والحطب الجزل، بفتح الجيم: الغليظ منه، يريد أنهم يوقدون الجزل من الحطب لتقوى نارهم فينظر إليها الضيوف عن بعد ويقصدونها.

(٢) البيت في الكتاب ١/ ١٥٦، وخزانة الأدب ٥/ ٢٠٣. يحلف الشاعر على مخاطَبه بالله، أنه لابد أن يبايع. وهو من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف قائلها. الخزانة ٥/ ٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) في (م) تقطعه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٨.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢١.

(٦) ٧/ ٣٩ وما بعدها.

(٧) ٨/ ١٣٥ وما بعدها.

(٨) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٩.

ما قيل فيه: إنَّه يكتب موضع كافرٍ: مؤمن، وموضع عاصٍ: مطيع.

وقال مجاهد والضحاك[١]: أن يبدلهم الله من الشرك الإيمانَ؛ ورُوي نحوه عن الحسن. قال الحسن: قومٌ يقولون: التبديل في الآخرة، وليس كذلك، إنَّما التبديلُ في الدُّنيا؛ يُبدلهم الله إيماناً من الشرك، وإخلاصاً من الشكّ، وإحصاناً من الفجور[٢]. وقال الزجاج[٣]: ليس يجعل[٤] مكان السيئة الحسنة، ولكن يَجعل مكانَ السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة.

وروى أبو ذرّ عن النبيّ ﷺ: أنَّ السيئاتِ تبدَّل بحسنات[٥]. ورُوي معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما[٦].

قال أبو هريرة: ذلك في الآخرة فيمن غلبت حسناتُه على سيئاته، فيبدلُ الله السيئات حسنات[٧]. وفي الخبر: «لَيتمنَّينَّ أقوامٌ أنَّهم أكثروا من السيئات» فقيل: ومن هم؟ قال: «الذين يُبدِّل الله سيئاتِهم حسنات». رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ[٨]؛ ذكره الثعلبي والقُشيري. وقيل: التبديلُ عبارةٌ عن الغفران، أي: يغفرُ الله لهم تلك السيئات لا أنْ يبدِّلها حسنات.

قلتُ: فلا يَبْعُد في كرم الله تعالى إذا صحَّتْ توبة العبد أنْ يضعَ مكان كلِّ سيئةٍ حسنة؛ وقد قال ﷺ لمعاذ: «أتبعِ السيِّئة الحسنةَ تمحُها، وخالِق النَّاس بِخُلقٍ

---

(١) قول مجاهد أخرجه الفريابي وعبد بن حميد كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٧٩ ، وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٧/ ٥١٧ - ٥١٨ مطولاً.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٤ (١٥٤٣٣).

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٧٦ ، ونقله المصنف عنه بواسطة معاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٣ .

(٤) في (م): بجعل. في الموضعين.

(٥) حديث أبي ذر سيرد مطولاً.

(٦) أخرجه عنهما ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٣ - ٢٧٣٤ (١٥٤٣٣) و (١٥٤٣٩).

(٧) النكت والعيون ٤/ ١٥٨ .

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٣ (١٥٤٢٩) عن أبي هريرة موقوفاً.

حسن»[١]. وفي صحيح مسلم[٢] عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي لأعلم آخِرَ أهل الجنَّة دخولاً الجنَّة، وآخرَ أهل النَّار خروجاً منها؛ رجلٌ يؤتى به يومَ القيامة، فيقال: اعرِضُوا عليه صِغَار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارَها. فتُعرضُ عليه صغارُ ذنوبه. فيقالُ: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيقولُ: نعم. لا يستطيعُ أنْ يُنْكِر، وهو مشفِقٌ من كبار ذنوبه أنْ تُعْرض عليه. فيقال له: فإنَّ لك مكانَ كُلِّ سيِّئةٍ حسنةً. فيقول: يا رب، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهنا». فلقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضَحكَ حتى بَدَتْ نَواجذُه.

وقال أبو طَويل[٣]: يا رسول الله، أرأيتَ رجلاً عملَ الذُّنوب كلَّها ولم يَتْرك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يَتْرك حاجَّةً ولا داجَّةً إلا اقتطَعها، فهل له من توبةٍ ؟ قال: «هل أسلمتَ» قال: أنا أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنَّك عبدُ الله ورسولُه. قال «نعم. تفعلُ الخيراتِ، وتتركُ السيئات، يجعلُهنَّ الله كلَّهُنَّ خيرات». قال: وغَدَراتي وفَجَراتي يا نبيّ الله؟ قال: «نعم». قال: الله أكبر! فما زالَ يُكَرِّرُها حتى توارى[٤]. ذكره الثعلبي. قال مُبَشِّر بن عُبيد[٥] ـ وكان عالماً بالنحو والعربية[٦] ـ: الحاجَّةَ: الذي يَقطعُ[٧] على الحاجِّ إذا توجهوا. والداجَّة: الذي يَقطعُ عليهم إذا قَفَلوا. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٨٨)، وسلف ١٢/ ٥٩.

(٢) برقم (١٩٠): (٣١٤)، وهو عند أحمد (٢١٣٩٣)، (٢١٤٩٢).

(٣) هو شطب الممدود الكندي، نزل الشام وسكن بها. الإصابة ٥/ ٧٨ - ٧٩، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٥/ ٨٤ - ٨٦.

(٤) أخرجه البزار (٣٢٤٤) ـ كشف الأستار، والطبراني في الكبير (٧٢٣٥). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٣١ : رواه الطبراني والبزار بنحوه. ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون أبي نشيط وهو ثقة. وقال ابن حجر في الإصابة ٥/ ٧٩ : هو على شرط الصحيح. وأخرجه ابن حجر أيضاً في الأمالي المطلقة ص١٤٤-١٤٥ ثم قال بعده: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٥) هو القرشي، أبو حفص الحمصي، كوفي الأصل. قال أحمد: كان يضع الحديث، وقال البخاري: روى عنه بقية، منكر الحديث. تهذيب الكمال ٢٧/ ١٩٤ ، وميزان الاعتدال ٣/ ٤٣٣ .

(٦) ميزان الاعتدال ٣/ ٤٣٣ .

(٧) في (د) و(م): التي تقطع، (في الموضعين)، وينظر الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٥/ ٨٦ ، والأمالي المطلقة ص١٤٥ .

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لا يقال: من قام فإنَّه يقوم؛ فكيف قال: من تابَ فإنَّه يَتوب؟ فقال ابن عباس: المعنى من آمن من أهل مكَّة وهاجر، ولم يكن قَتل وزنى، بل عَملَ صالحاً، وأدّى الفرائض؛ فإنَّه يتوبُ إلى الله متاباً، أي: فإنِّي قَدَّمتُهم وفضَّلتُهم على من قَاتل النبيَّ ﷺ، واستحلَّ المحارم[١].

وقال القَفّال: يَحتملُ أنْ تكون الآيةُ الأولى فيمن تَابَ من المشركين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، ثمَّ عَطف عليه من تاب من المسلمين، وأَتْبَع توبتَه عملاً صالحاً، فله حُكم التائبين أيضاً.

وقيل: أي: من تابَ بلسانه ولم يحقِّق ذلك بفعله، فليست تلك التوبةُ نافعة، بل من تَابَ وعمل صالحاً، فحقَّق توبَتَه بالأعمال الصالحة؛ فهو الذي تابَ إلى الله مَتاباً، أي: تاب حقَّ التوبة، وهي النَّصوح، ولذلك أكَّد بالمصدر. فـ «متاباً» مصدرٌ معناه التأكيد[٢]، كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] أي: فإنَّه يتوبُ إلى الله حقًّا فيقبل الله توبَتَه حقًّا[٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الكذبَ والباطل ولا يشاهدونه. والزُّور: كلُّ باطلٍ زُوِّر وزُخْرِف، وأَعْظَمُه الشركُ وتعظيم الأنداد، وبه فسر الضَّحَّاكُ وابنُ زيدٍ وابن عباس[٤]. وفي روايةٍ عن ابن عباس أنَّه أعيادُ المشركين. عِكرمة: لعبٌ كان في الجاهلية يسمَّى بالزُّور[٥]. مجاهد: الغناء؛

---

(١) الوسيط للواحدي ٣/ ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٩ .

(٣) لفظة: حقاً. ليست في (د) و (ز).

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ . وأخرج قولي الضحاك وابن زيد الطبريُّ ١٧/ ٥٢٢ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٨ (١٥٤٥٨).

وقاله محمدُ ابن الحنفيَّة أيضاً. ابن جُريج: الكذب[١]؛ ورُويَ عن مجاهد[٢]. وقال عليُّ بن أبي طلحةَ ومحمد بن عليّ: المعنى: لا يشهدون بالزُّور، من الشهادة لا من المشاهدة[٣].

قال ابن العربي[٤]: أمَّا القولُ بأنَّه الكذبُ فصحيح؛ لأنَّ كلَّ ذلك إلى الكذب يرجع، وأمَّا من قال: إنَّه لعِبٌ كان في الجاهلية؛ فإنَّه يَحرُم ذلك إذا كان فيه قمارٌ أو جهالة، أو أمرٌ يعود إلى الكفر، وأمَّا القول بأنَّه الغناء فليس ينتهي إلى هذا الحدّ.

قلت: من الغناء ما ينتهي سماعُه إلى التحريم، وذلك كالأشعار التي توصف فيها الصور المستحسنات والخمرُ وغير ذلك مما يُحرِّك الطِّباع ويُخرِجها عن الاعتدال، أو يثير كامناً من حبّ اللهو؛ مثل قول بعضهم:

ذهبيُّ اللَّون تَحسِب من وجنتيه النَّار تُقتدَحُ
خوّفوني من فضيحته ليتَه وافى وأفتضحُ

لاسيَّما إذا اقترنَ بذلك شبّابَاتٌ وطاراتٌ مثل ما يُفْعَل اليومَ في هذه الأزمان، على ما بيَّنَّاه في غير هذا الموضع.

وأما من قال: إنه شهادة الزور؛ وهي:

الثانية: فكان عمرُ بن الخطاب ﷺ يَجلدُ شاهدَ الزُّور أربعين جلدة، ويُسَخِّم وجهَه، ويَحلِقُ رأسَه، ويَطوفُ به في السوق[٥]. وقال أكثرُ أهل العلم: ولا تُقْبل له

---

(١) قولا مجاهد وابن جريج أخرجهما الطبري ١٧/ ٥٢٢، وقول محمد ابن الحنفية أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٧ (١٥٤٥٠).

(٢) لم نقف عليه.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٤) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢٠.

(٥) أخرج خبر ضرب عمر شاهدَ الزور البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ١٤١ - ١٤٢ وليس فيه أنه حلق شعره. وأخرج عبد الرزاق في مصنفه (١٥٣٩٢)، وابن أبي شيبة (٨٦٩٢)، والبيهقي ١٠/ ١٤٢ أن عمر ابن الخطاب كتب إلى عماله في كور الشام في شاهد الزور أن يجلد أربعين ويحلق رأسه، ويسخم وجهه ويطاف به ويطال حبسه. اهـ. هذا لفظ البيهقي. وقال في هذه الرواية والتي قبلها. هاتان الروايتان ضعيفتان ومنقطعتان.

شهادةٌ أبداً، وإنْ تاب وحَسُنت حالُه فأمره إلى الله. وقد قيل: إنَّه إذا كان غير مبرَّز فحسُنت حالُه قُبِلت شهادتُه حسبما تقدَّم بيانه في سورة الحج، فتأمَّله هناك(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ قد تقدَّم الكلام في اللَّغو(٢)، وهو كلُّ سَقَطٍ من قولٍ أو فعل؛ فيدخلُ فيه الغناءُ واللهو وغير ذلك ممَّا قَاربه، ويَدخلُ فيه: سَفَهُ المشركين وأذاهم للمؤمنين، وذكر النساء، وغير ذلك من المنكر(٣). وقال مجاهد: إذا أُوذوا صَفَحوا. ورُوي عنه: إذا ذُكِر النِّكاحُ كَنَوا عنه. وقال الحسن: اللَّغو المعاصي كلُّها(٤). وهذا جامع. و«كِراماً» معناه مُعرِضين مُنكرين لا يرضَونه، ولا يُمَالِئون عليه، ولا يُجَالسون أهلَه. أي: مروا مرَّ الكرامِ الذين لا يدخلون في الباطل. يقال: تكرَّم فلان عما يشينه، أي: تنزّه وأكرم نفسه عنه(٥). وروي أن عبد الله بن مسعود(٦) سمع غناءً فأسرع وذهب، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: «لقد أصبح ابن أمّ عبدٍ كريماً»(٧). وقيل: من المرور باللغو كريماً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: إذا قرئ عليهم

---

(١) ١٢/٥٥ .

(٢) ٤/١٧ .

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٤) أخرج الأقوال المذكورة الطبري ١٧/ ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٨ .

(٦) في (د) و(ز) و(ظ): عمر، بدل: مسعود .

(٧) في (د) و(ظ): ابن آدم عبداً كريماً، والكلام في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ ، وروى الغزالي هذا الخبر في الإحياء ٣/ ١٧٧ بنحوه، ونسبه العراقي في تخريجه لابن المبارك في البر والصلة.

القرآنُ ذكروا آخرتَهم ومعادهم، ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة مَن لا يسمع[١].

وقال: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ﴾ وليس ثمَّ خُرور؛ كما يقال: قعد يبكي، وإن كان غيرَ قاعد؛ قاله الطبريُّ واختاره[٢]؛ قال ابن عطية[٣]: وهو أن يخِرُّوا صُمًّا وعُمياناً هي صفة الكفار، وهي عبارةٌ عن إعراضهم؛ وقرن ذلك بقولك: قعد فلانٌ يشتِمني، وقام فلان يبكي، وأنت لم تقصد الإخبارَ بقعود ولا قيام، وإنما هي توطئاتٌ في الكلام والعبارة.

قال ابن عطية[٤]: فكأنَّ المستمع للذِّكر قائمُ القناة قويمُ الأمر، فإذا أعرض وضلَّ كان ذلك خُروراً، وهو السقوط على غير نظام وترتيب؛ وإن كان قد شُبِّه به الذي يَخرُّ ساجداً، لكن أصله على غير ترتيب. وقيل: أي: إذا تُليت عليهم آياتُ الله، وَجِلت قلوبهم فخرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا، ولم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً[٥].

وقال الفرَّاء[٦]: أي: لم يقعدوا على حالهم الأولِ كأنْ لم يسمعوا.

الثانية: قال بعضهم: إنَّ مَن سمع رجلاً يقرأ سجدة، يسجد معه؛ لأنه قد سمع آياتِ الله تتلى عليه. قال ابن العربيّ[٧]: وهذا لا يلزم إلَّا القارئَ وحده، وأما غيرُه فلا يلزمه ذلك إلا في مسألة واحدة[٨]؛ وهو أنَّ الرجل إذا تلا القرآنَ وقرأ السجدة، فإن كان الذي جلس معه جلس لِيَسمَعه، فليسجد معه، وإن لم يلتزم السماعَ معه فلا سجود عليه. وقد مضى هذا في «الأعراف»[٩].

---

(١) تفسير غريب القرآن ص٣١٥ ، وينظر المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٢) في تفسيره ١٧/ ٥٢٨ .

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٤) الموضع السابق.

(٥) في المحرر الوجيز بنحوه.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٤ .

(٧) في أحكام القرآن ٣/ ١٤٢١ . وما قبله منه.

(٨) في أحكام القرآن زيادة: ذكرها مالك.

(٩) ٩/ ٤٤٠ .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال الضَّحَّاك: أي: مطيعين لك(١). وفيه جوازُ الدعاء بالولد، وقد تقدَّم(٢).

والذُّرِّيَّة تكون واحداً وجمعاً. فكونُها للواحد قولُه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران:٣٨] ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥]. وكونُها للجمع: ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾(٣) [النساء:٩]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُها مستوفًى(٤).

وقرأ نافعٌ وابن كثير وابن عامر والحسن: «وَذُرِّيَّاتِنَا». وقرأ أبو عمرٍو وحمزة والكسائيُّ وطلحة وعيسى: «وذريتنا» بالإفراد(٥).

«قُرَّةَ أَعْيُنٍ» نصب على المفعول، أي: قرَّة أعينٍ لنا. وهذا نحوُ قولِه عليه الصلاة والسلام لأنس: «اللهم أكثِر مالَه وولَدَه، وبارك له فيه» وقد تقدَّم بيانُه في «آل عمران» و«مريم»(٦). وذلك أنَّ الإنسان إذا بورك له في ماله وولده، قرَّت عينُه بأهله وعياله، حتى إذا كانت عنده زوجةٌ اجتمعت له فيها أمانيه، من جمال وعِفَّةٍ ونظر وحَوطة، أو كانت عنده ذرِّيةٌ محافظون على الطاعة، معاونون له على وظائف الدِّين والدنيا، لم

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٥ . وقد أخرجه الطبري ١٧/ ٥٣٠ عن ابن عباس وغيره.

(٢) ٥/ ١١٠ .

(٣) الوسيط للواحدي ٣/٣٤٨ .

(٤) ٢/٣٦٨ .

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ . وقرأ عاصم في رواية حفص بالجمع، وفي رواية أبي بكر بالإفراد. السبعة ص٤٦٧ ، والتيسير ص١٦٤ .

(٦) ٥/ ١١٠ - ١١١ ، ١٣/ ٤١٣ . وتقدم الحديث في الموضع الأول.

يلتفت إلى زوجِ أحدٍ ولا إلى ولده، فتسكن عينُه عن الملاحظة، ولا تمتدُّ عينه إلى ما ترى؛ فذلك حِينُ قرَّةِ العين، وسكونِ النفس[(١)].

ووحَّد «قُرّة» لأنه مصدر؛ تقول: قرَّت عينُك قُرّة[(٢)]. وقُرّة العين يحتمل أن تكونَ من القَرار، ويحتمل أن تكون من القُرّ، وهو الأشهر[(٣)]. والقُرُّ: البرد؛ لأن العرب تتأذَّى بالحرِّ وتستريح إلى البرد[(٤)]. وأيضاً فإنَّ دمع السرور بارد، ودمعَ الحزن سُخْن، فمن هذا يقال: أقرَّ اللهُ عينك، وأسخن اللهُ عينَ العدو[(٥)]. وقال الشاعر[(٦)]:

فكم سَخُنَتْ بالأمس عينٌ قريرةٌ وقرَّت عيونٌ دمعُها اليومَ ساكبُ

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: قدوةً يُقتدى بنا في الخير، وهذا لا يكون إلَّا أن يكونَ الداعي متَّقياً قدوة؛ وهذا هو قصدُ الداعي[(٧)].

وفي الموطأ: «إنكم أيها الرَّهط أئمَّةٌ يُقْتَدَى بكم»[(٨)]. وكان ابنُ عمر يقول في دعائه: اللهم اجعلنا من أئمة المتقين[(٩)].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢١.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٤.

(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٤) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩.

(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٦) هو ابن عبد ربه، والبيت في ديوانه ص٢٢.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢.

(٨) الحديث بتمامه: أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى على طلحة بن عبيد الله ثوباً مصبوغاً وهو مُحْرِم. فقال عمر: ما هذا الثوب المصبوغ يا طلحة؟ فقال طلحة: يا أمير المؤمنين، إنما هو مَدَر. فقال عمر: إنكم أيها الرهط أئمة يقتدي بكم الناس، فلو أن رجلاً جاهلاً رأى هذا الثوب لقال: إن طلحة بن عبيد الله كان يلبس الثياب المصبغة في الإحرام. فلا تلبسوا أيها الرهط شيئاً من هذه الثياب المصبغة. الموطأ ١/ ٣٢٦. قال ابن حجر في المطالب العالية ٦/ ٣٧٣ (دار العاصمة): هذا إسناد صحيح موقوف، وهو أصل في سد الذرائع.

(٩) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٢. وأثر ابن عمر رضي الله عنهما في الموطأ ١/ ٢١٩ بلاغاً، ووصله ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٣٨-٤٣٩، والبيهقي ٥/ ٩٤ مطولاً.

وقال: «إِمَاماً» ولم يقل: أئمة على الجمع؛ لأن الإمام مصدر. يقال: أَمَّ فلانٌ فلاناً[(١)] إماماً؛ مثل الصيام والقيام. وقال بعضهم: أراد: أئمة، كما يقول القائل: أميرنا هؤلاء، يعني أمراءنا. وقال الشاعر:

يـا عـاذلاتـي لا تُـرِدْنَ[(٢)] مَـلامَـتـي إنَّ الـعـواذل لَـسْـنَ لـي بـأمـيـرِ[(٣)]

أي: أمراء[(٤)].

وكان القشيريُّ أبو القاسم شيخُ الصوفية يقول: الإمامة بالدعاء لا بالدَّعوى، يعني: بتوفيق الله وتيسيره ومِنَّته، لا بما يدَّعيه كلُّ أحدٍ لنفسه[(٥)]. وقال إبراهيم النَّخَعيّ: لم يطلبوا الرِّياسة، بل بأن يكونوا قدوةً في الدِّين[(٦)]. وقال ابن عباس[(٧)]: اجعلنا أئمةَ هدى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال مكحول: اجعلنا أئمةً في التقوى؛ يقتدي بنا المتقون[(٨)]. وقيل: هذا من المقلوب؛ مجازُه: واجعل المتقين لنا إماماً؛ وقاله مجاهد[(٩)]. والقول الأوّل أظهر وإليه يرجع قول ابن عباس ومكحول، ويكون فيه دليلٌ على أنَّ طلب الرياسة في الدين ندب[(١٠)].

---

(١) في (د) و(ز): أم القوم فلاناً، وفي (م): أم القوم فلان، والمثبت من (ظ) و(ف). وينظر تفسير الطبري ١٧/ ٥٣٣ .

(٢) في (ظ) و(ف) و(م): تزدن.

(٣) الكلام بنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٤٣ . والبيت في الخصائص ٣/ ١٧٤ ، ومغني اللبيب ص٢٧٩ ، قال البغدادي في شرح شواهده ٤/ ٢٨٤ : البيت مشهور بتداول العلماء إياه في مصنفاتهم، ولم أقف على قائله، والله أعلم . وقد سلف البيت ١٤/ ٣٢٢ بنحوه .

(٤) الصحاح (ظهر).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٢٢ . وكلام الإمام القشيري في لطائف الإشارات ٢/ ٦٥٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٢ .

(٧) أخرجه الطبري ١٧/ ٥٣٢ .

(٨) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٣ (١٥٤٨٩).

(٩) تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩ ، وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٣٢ - ٥٣٣ بنحوه.

(١٠) النكت والعيون ٤/ ١٦١ .

وإمامٌ واحد يدلُّ على جمع؛ لأنه مصدرٌ كالقيام. قال الأخفش[١]: الإمام جمع آمّ؛ من: أمَّ يؤمُّ، جمع على فِعال، نحو: صاحب وصِحاب، وقائم وقِيام.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ «أُولَئِكَ» خبر «وعِبَادُ الرَّحْمَنِ»، في قول الزجَّاجِ على ما تقدَّم[٢]، وهو أحسنُ ما قيل فيه. وما تخلَّل بين المبتدأ وخبرهِ أوصافُهم من التحلِّي والتخلِّي؛ وهي إحدى عشرة: التواضع، والحِلم، والتهجُّد، والخوف، وترك الإسراف والإقتارِ، والنزاهةُ عن الشِّرك والزنى والقتلِ، والتوبةُ، وتجنُّب الكذب، والعفوُ عن المسيء، وقَبول المواعظ، والابتهال إلى الله تعالى.

و«الغُرْفَةَ»: الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازلِ الجنة وأفضلُها، كما أنَّ الغرفة أعلى مساكنِ الدنيا. حكاه ابنُ شجرة. وقال الضحَّاك: الغرفة: الجنة[٣].

«بِمَا صَبَرُوا» أي: بصبرهم على أمر ربِّهم، وطاعةِ نبيِّهم عليه أفضل الصلاة والسلام. وقال محمد بن عليِّ بن الحسين: «بِمَا صَبَرُوا» على الفقر والفاقةِ في الدنيا. وقال الضحَّاك: «بِمَا صَبَرُوا» عن الشهوات[٤].

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ قرأ أبو بكر والمفضَّلُ والأعمش ويحيى وحمزة والكِسائيُّ وخلف: «وَيَلْقَوْنَ» مخفَّفة[٥]، واختاره الفرَّاء[٦]؛ قال: لأن العرب تقول: فلان يُتلقَّى بالسلام وبالتحيةِ وبالخير، بالباء[٧]، وقلَّما يقولون: فلان يُلقَّى السَّلامةَ.

---

(١) كلامه في تفسير الرازي ٢٤/ ١١٥ مختصر.

(٢) ص٤٦٦ من هذا الجزء، وكلام الزجاج في معاني القرآن له ٤/ ٧٥.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٦١.

(٤) كلام محمد الباقر أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٤ (١٥٤٩٧). وكلام الضحاك في النكت والعيون ٤/ ١٦١.

(٥) السبعة ص٤٦٨، والتيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٣٣٥.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٥.

(٧) في (م): بالتاء. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٩.

وقرأ الباقون: «وَيُلَقَّوْنَ»، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

قال أبو جعفر النحّاس[١]: وما ذهب إليه الفرَّاءُ واختاره غلط؛ لأنه يزعم أنها لو كانت «يُلَقَّوْنَ»، كانت في العربية: بتحية وسلام، وقال: كما يقال: فلان يُتلقَّى بالسلام وبالخير؛ فمن عجيبِ ما في هذا البابِ[٢] أنه قال: يتلقَّى، والآية «يُلَقَّوْنَ»، والفرق بينهما بيِّن؛ لأنه يقال: فلان يُتلقَّى بالخير، ولا يجوز حذف الباء، فكيف يُشبه هذا ذاك؟ وأعجبُ مِن هذا أنَّ في القرآن: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ ولا يجوز أن يُقرأ بغيره. وهذا يبيِّن أنَّ الأولى خلافُ ما قال.

والتحية من الله، والسلام من الملائكة. وقيل: التحية: البقاءُ الدائم[٣] والملك العظيم؛ والأظهر أنهما بمعنًى واحد، وأنهما من قِبَل الله تعالى؛ دليلُه قولُه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وسيأتي.

﴿خَٰلِدِينَ﴾ نصب على الحال[٤] ﴿فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ هذه آيةٌ مشكلة، تعلَّقت بها الملحدة. يقال: ما عبأتُ بفلان، أي: ما باليتُ به، أي: ما كان له عندي وزن ولا قَدْر[٥].

وأصل يعبأ من العِبْء، وهو الثِّقْل. وقول الشاعر:

كأنَّ بصدره وبجانبيهِ عَبِيراً باتَ يَعْبَؤُهُ عَروسُ

(١) في إعراب القرآن ٣/ ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) لفظة: الباب ليست في (ف) والمصدر، وفي (د) و(ز): الكتاب.

(٣) النكت والعيون ٤/ ١٦١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٧٠ .

(٥) أمالي ابن الشجري ١/ ٧٧ .

أي: يجعل بعضَه على بعض[(١)]. فالعِبْء: الحِمْل الثقيل، والجمع: أعباء. والعِبْء المصدر. و«ما» استفهامية؛ ظهر في أثناء كلام الزجّاج، وصرَّح به الفرَّاء[(٢)]. وليس يَبعُد أن تكون نافية؛ لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو نفيٌ خرج مخرجَ الاستفهام؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال ابن الشَّجَري[(٣)]: وحقيقة القول عندي أنَّ موضع «ما» نصب، والتقدير: أيَّ عِبءٍ يعبأ بكم، أي: أيَّ مبالاة يبالي ربِّي بكم لولا دعاؤكم، أي: لولا دعاؤه إياكم لتعبدوه، فالمصدر الذي هو الدعاء على هذا القول مضاف إلى مفعوله؛ وهو اختيارُ الفرَّاء[(٤)]. وفاعله محذوف، وجوابُ لولا محذوف، كما حُذف في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرعد: ٣١]. تقديره: لم يعبأ بكم. ودليل هذا القولِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالخطاب لجميع الناس؛ فكأنه قال لقريش منهم: أي ما يبالي اللهُ بكم لولا عبادتُكم إياه أن[(٥)] لو كانت؛ وذلك الذي يُعبأ بالبشر من أجله. ويؤيِّد هذا قراءةُ ابن الزبير[(٦)] وغيرِه: «فَقَدْ كَذَّبَ الكَافِرُونَ»؛ فالخطاب بما يعبأ لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذَّبتم ولم تعبدوه، فسوف يكون التكذيبُ هو سببَ العذاب لِزاماً.

وقال النقَّاش وغيره: المعنى: لولا استغاثتُكم إليه في الشدائد ونحوِ ذلك[(٧)]. بيانُه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ونحوُ هذا.

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٥/ ٥٦ . والبيت لأبي زبيد الطائي يصف أسداً، وهو في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٦٠٢ ، والمعاني الكبير ١/ ٢٤٥ ، والصحاح (عبأ). قال ابن قتيبة: العبير عند العرب: الزعفران.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٨ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧٥ .

(٣) في أماليه ١/ ٨٠ - ٨١ وما قبله منه.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٥ ، ونقله المصنف عن أمالي ابن الشجري.

(٥) في (ظ): إذ.

(٦) ستأتي قريباً.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٣ .

وقيل: «مَا يَعْبَأُ بِكُمْ» أي: بمغفرة ذنوبكم ولا هو عنده عظيم «لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ» معه الآلهةَ والشُّركاء. بيانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[١] [النساء: ١٤٧] قاله الضحَّاك[٢].

وقال الوليد بن أبي الوليد[٣]: بلغني فيها: أي: ما خلقتكم ولي حاجةٌ إليكم، إلا [أن] تسألوني فأغفرَ لكم وأُعطِيَكم. وروى وَهْبُ بن مُنبِّه أنه كان في التوراة: «يا ابنَ آدم، وعزَّتي ما خلقتك لأربحَ عليك، إنما خلقتك لتربحَ عليّ، فاتخذني بدلاً من كل شيء، فأنا خيرٌ لك من كل شيء».

قال ابن جِنِّي: قرأ ابن الزُّبير وابنُ عباس: «فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ»[٤]. قال الزهراويُّ والنحاس[٥]: وهي قراءة ابنِ مسعود، وهي على التفسير للتاء والميم في «كَذَّبْتُمْ».

وذهب القُتَبيُّ[٦] والفارسيُّ إلى أنَّ الدعاء مضاف إلى الفاعل، والمفعولُ محذوف، الأصل: لولا دعاؤكم آلهةً مِن دونهِ؛ وجواب «لَوْلَا» محذوف، تقديره في هذا الوجه: لَمْ يعذبْكم. ونظير قولِه: لولا دعاؤكم آلهةً قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: كذَّبتم بما دُعِيتم إليه؛ هذا على القول الأوَّل؛ وكذبتم

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٣/ ٣٧٩ .

(٢) قوله: وقاله الضحاك ليس في (ظ).

(٣) أبو عثمان المدني، مولى ابن عمر، وقيل: مولى عثمان. ذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما خالف على قلة روايته. تهذيب التهذيب ٤/ ٣٢٧ ، والأثر أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٥ (١٥٥٠٨)، وما بين حاصرتين منه.

(٤) المحتسب ٢/ ١٢٦ ، وذكرها ابن خالويه ص١٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجها الطبري ١٧/ ٥٣٧ - ٥٣٨ عنهما.

(٥) كلام الزهراوي في المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٣ ، وكلام النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٧٠ .

(٦) في تأويل مشكل القرآن ص٣٣٩ ، ونقل المصنف كلامه وكلام الفارسي من أمالي ابن الشجري ١/ ٨١ .

بتوحيد الله تعالى؛ على الثاني. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يكون تكذيبكم ملازماً لكم. والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب، كما قال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] أي: جزاءَ ما عملوا، وقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠، الأنفال: ٣٥] أي: جزاءَ ما كنتم تكفرون. وحَسُن إضمارُ التكذيب لِتقدُّم ذِكْرِ فعلهِ؛ لأنك إذا ذكرت الفعلَ، دلَّ بلفظه على مصدره، كما قال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: لكان الإيمان، وقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] أي: يرضى الشُّكر[١]. ومثلُه كثير.

وجمهورُ المفسرين على أنَّ المراد باللِّزام هنا ما نزل بهم يومَ بَدْر، وهو قول عبد الله بنِ مسعود وأُبيٍّ بن كعب وأبي مالك ومجاهد ومقاتل وغيرهم[٢].

وفي صحيح مسلم[٣] عن عبد الله: وقد مضت البطشةُ والدخان واللزام. وسيأتي مبيَّناً في سورة الدخانِ إن شاء الله تعالى[٤].

وقالت فرقة: هو توعُّدٌ بعذاب الآخرة[٥].

وعن ابن مسعود أيضاً: اللِّزام: التكذيبُ نفسُه، أي: لا يعطَون التوبةَ منه؛ ذكره الزهراوي[٦]؛ فدخل في هذا يومُ بَدْر وغيرُه من العذاب الذي يُلزَمونه[٧].

وقال أبو عبيدة: لِزاماً: فيصلاً[٨]، أي: فسوف يكون فيصلاً بينكم وبين

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٨١ - ٨٢.

(٢) أخرجه عن ابن مسعود وأبي ومجاهد الطبري ١٧/ ٥٣٨-٥٣٩، وأخرجه عن أبي مالك ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٦ (١٥٥١٢).

(٣) برقم (٢٧٩٨).

(٤) عند تفسير الآية (١٠) منها.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٦ (١٥٥١٣) عن الحسن.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٢٣.

(٧) أمالي ابن الشجري ١/ ٨٢.

(٨) مجاز القرآن ٢/ ٨٢.

المؤمنين. والجمهور من القرَّاء على كسر اللام؛ وأنشد أبو عبيدة لصخر:

فـإمَّـا يَـنْـجُـوَا مـن خَـسْـفِ أرضٍ فـقـد لَـقِـيـا حُـتُـوفَـهـمـا لِـزامـا[1]

ولِزاماً وملازمةً واحد.

وقال الطبري: «لِزَاماً» يعني: عذاباً دائماً لازماً، وهلاكاً مُفْنياً يُلحِق بعضكم ببعض؛ كقول أبي ذؤيب:

فـفـاجـأه بـعـاديـةٍ لِـزامٍ كـمـا يَـتَـفَـجَّـرُ الـحـوضُ الـلَّـقِـيـفُ

يعني باللزام: الذي يَتْبع بعضُه بعضاً، وباللقيف: المتساقطَ الحجارةِ المتهدِّمَ[2].

النحَّاس[3]: وحكى أبو حاتم عن أبي زيد، قال: سمعت قَعْنَباً أبا السَّمَّال يقرأ: «لَزَاماً» بفتح اللام[4]. قال أبو جعفر: يكون مصدرَ لَزِم، والكسر أولى، يكون مثل: قِتال ومقاتلة، كما أجمعوا على الكسر في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩].

قال غيره: اللِّزام بالكسر: مصدر لازَمَ لِزاماً، مثل: خاصم خِصاماً، واللَّزام بالفتح: مصدر لَزِم لَزَاماً، مثل: سَلِم سَلاماً، أي: سلامة؛ فاللَّزام بالفتح: اللُّزوم، واللِّزام: الملازمة، والمصدر في القراءتين وقع موقعَ اسم الفاعل، فاللِّزام وقع موقع ملازِم، واللَّزام وقع موقع لازِم. كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾

---

(١) المصدر السابق. وصخر هو ابن عبد الله الخيثمي من بني هذيل. ولقب بصخر الغي لخلاعته، وشدة بأسه، وكثرة شره. الأغاني ٢٢/ ٣٤٥ . والبيت في ديوان الهذليين ٢/ ٦٥ . ورسالة الصاهل والشاحج ص١٣٨ ، وهو في وصف حمارَين.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٥٣٧ . وبيت أبي ذؤيب في ديوان الهذليين ١/ ١٠٢ ، وروايته فيه: فلم يرَ غير عادية لزاماً، كما يتهدم الحوض اللقيف. والعادية: القوم يعدون على أرجلهم، أي: فحَملتهم لزام، كأنهم لزموه لا يفارقون ما هم فيه. اللسان (لزم) والبيت فيه.

(٣) في إعراب القرآن ٣/ ١٧٠ .

(٤) كذا في إعراب القرآن، وفي القراءات الشاذة ص١٠٥ أنه قرأ: «لَزام» بفتح اللام ولا ألف. وذكر في الدر المصون ٨/ ٥٠٧ عنه القراءتين. ولَزامِ بكسر الميم على وزن: حَزامِ. وينظر البحر المحيط ٦/ ٥١٨ .

[الملك: ٣٠] أي: غائراً[١].

قال النحاس[٢]: وللفرَّاء قولٌ في اسم يكون؛ قال: يكون مجهولاً[٣]. وهذا غلط؛ لأن المجهول لا يكون خبرُه إلَّا جملة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ [يوسف: ٩٠]، وكما حكى النحويُّون: كان زيدٌ منطلقٌ، يكون في كان مجهول، ويكون المبتدأ وخبره خبرَ المجهول، والتقدير: كان الحديث؛ فأمَّا أنْ يقال: كان منطلقاً، ويكون في كان مجهول، فلا يجوز عند أحدٍ عَلِمناه.

وبالله التوفيق، وهو المستعان، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

تم الجزء الخامس عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء السادس عشر، ويبدأ بسورة الشعراء

(١) أمالي ابن الشجري ١/ ٨٢.

(٢) في إعراب القرآن ٣/ ١٧١.

(٣) في إعراب القرآن: يكون فيها مجهول. وكلام الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٧٥.

سُورَةُ الفُرقَان

مَكِّيَّةٌ، وآيُها سبعٌ وسَبعونَ[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: تكاثَرَ خَيرُه، مِن «البَركةِ»، وهي كثرَةُ الخيرِ. أو: تَزايدَ عَن كلِّ شيءٍ وتعالى عنه في صِفاتِهِ وأفعالِه، فإنَّ البركةَ تتضمَّنُ مَعنى الزِّيادَةِ.

وتَرتيبُهُ على إنزالِ الفُرقانِ؛ لِمَا فيهِ مِن كثرَةِ الخيرِ، أو لدَلالَتِه على تَعاليهِ.

وقيلَ: دامَ، مِن «بُروكِ الطَّيرِ على الماءِ»، ومِنه: «البِرْكَةُ» لدَوامِ الماءِ فيها.

وهو[2] لا يُتصرَّفُ فيه، ولا يُستعمَلُ إلَّا للهِ تعالى.

و«الفرقانُ»: مَصدرُ «فَرَّقَ بينَ الشَّيئينِ»: إذا فَصَلَ بينَهُما، سُمِّيَ به القرآنُ لفَصلِه بين الحقِّ والباطلِ بتَقريرِه، أو المحقِّ[3] والمبطِلِ بإعجازِه، أو لكونِه[4] مَفصولًا بَعضُه عن بعضٍ في الإنزالِ.

---

(١) وقد نقل أبو عمرو الداني الإجماع عليه. انظر: «البيان في عد آي القرآن» (ص: ١٩٤).

(٢) أي: لفظ ﴿تَبَارَكَ﴾.

(٣) معطوف على «الحقِّ».

(٤) معطوف على «لفصلِه».

وقُرِئَ: «على عِبادِه»(١)، وهم رسولُ اللهِ وأمَّتُه؛ كقولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ﴾ [النور: ٣٤]، أو الأَنبياءُ على أنَّ ﴿ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ اسمُ جنسٍ للكُتبِ(٢) السَّماويَّةِ.

﴿ لِيَكُونَ ﴾ العَبدُ أو الفُرقانُ ﴿ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾: للجنِّ والإنسِ ﴿ نَذِيرًا ﴾: مُنذِرًا، أو: إنذارًا كـ«النَّكيرِ» بمَعنى الإنكارِ.

وهذه الجُملَةُ وإنْ لَمْ تَكُن مَعلومَةً لكنَّها لقُوَّةِ دَليلِها أُجرِيَت مجرى المعلومِ وجُعِلَت صِلَةً.

(٢) ـ ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بدلٌ مِن الأوَّلِ، أو مَدحٌ مَرفوعٌ أو مَنصوبٌ(٣).

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ كزَعْمِ النَّصارَى ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ كقولِ الثَّنويَّةِ، أثبتَ له الملكَ مُطلقًا، ونفى ما يقومُ مقامَه وما يُقاوِمُه فيه(٤)، ثمَّ نبَّهَ على ما يَدُلُّ عليه فقالَ:

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾: أحدثَهُ إحداثًا مُراعًى فيه التَّقديرُ حسبَ إرادَتِه؛ كخَلقِهِ الإنسانَ مِن مَوَادَّ مَخصوصةٍ وصُوَرٍ وأَشكالٍ مُعيَّنَةٍ.

﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾: فقدَّرَه وهيَّأَه لِمَا أرادَ مِنه مِن الخَصائصِ والأفعالِ؛ كتهْيئَةِ الإنسانِ للإدراكِ والفَهمِ والنَّظَرِ والتَّدبيرِ واستنباطِ الصَّنائعِ المُتنوِّعَةِ ومُزاولَةِ الأعمالِ المُختَلِفَةِ إلى غيرِ ذلك.

---

(١) نسبت لابن الزبير. انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٥/ ٧)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥)، و«المحتسب» (٢/ ١١٧).

(٢) في نسخة الفاروقي: «الكتب».

(٣) ذهب الطيبي إلى أن الإبدال أوجه. انظر: «فتوح الغيب» (١١/ ١٦٩).

(٤) قوله: «ما يقومُ مقامَه»؛ أي: الولد، و«ما يُقاوِمُه فيه»؛ أي: النِّدُّ.

أو: فقَدَّرَه للبَقاءِ إلى أجلٍ مُسمًّى.

وقد يُطلَقُ الخلقُ لِمُجرَّدِ الإيجادِ مِن غيرِ نَظَرٍ إلى وجهِ الاشتقاقِ، فيَكُونُ المَعنى: وأوجَدَ كُلَّ شَيءٍ فقَدَّرَه في إيجادِهِ حتَّى لا يكونَ مُتفاوِتًا(١).

(٣) ـ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ لَمَّا تَضمَّنَ الكلامُ إثباتَ التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ أخذَ في الرَّدِّ على المُخالفينَ فيهما.

﴿لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ لأنَّ عَبَدتَهُم ينحتونَهُم ويُصوِّرُونَهُم.

﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ﴾: ولا يَستَطيعونَ ﴿لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا﴾ دفعَ ضرٍّ ﴿وَلَا نَفۡعٗا﴾ ولا جلبَ نَفعٍ.

﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾: ولا يملكونَ إماتةَ أحدٍ وإحياءَهُ أوَّلًا وبعثَهُ ثانيًا، ومَن كانَ كذلكَ فبمَعزِلٍ عن الألوهيَّةِ؛ لعَرائِهِ عَن لَوازِمِها واتِّصافِه بما يُنافِيها.

وفيه تَنبيهٌ على أنَّ الإلهَ يَجِبُ أن يكونَ قادرًا على البَعثِ والجَزاءِ.

(٤) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾: كذبٌ مَصروفٌ عَن وَجهِه ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: اختلَقَه ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾؛ أي: اليَهودُ؛ فإنَّهُم يُلقونَ إليهِ أخبارَ الأُمَمِ، وهو يُعبِّرُ عنه بعبارَتِه.

---

(١) أفاد الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: أنه لمَّا كان خلق الشيء مفسَّرًا بأنَّه إيجاده مقدَّرًا بمقدار وتسوية من الصور والأشكال، فالتقدير معتبَر فيه، كان ذكر التقدير بعد الخلق تكرارًا؛ كأنه قيل: قدَّره فقدَّره، فأوَّله المصنف بوجهين: الأول: أن التقدير ليس هو المعتبر في معنى الخلق، وذكر له معنيين آخرين: جعله مهيَّأً لما خُلق له، أو جعله مؤقتًا إلى أجل، والثاني: أن الخلق بمعنى الإيجاد فقط هنا، وليس فيه معنى التقدير، مع أنَّ اشتقاقه في الأصل من الخلق بمعنى التقدير. والمعنى الأول من الوجه الأول هو الذي رجحه الخفاجي، وذكر أنه مختار الزجاج. وانظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤/ ٥٧).

وقيلَ: جَبْرٌ ويَسَارٌ وعَدَّاسٌ[١]، وقد سبقَ في قولِه: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣].

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ بجعلِ الكَلامِ المُعجزِ إفكًا مُختَلَقًا مُتلقَّفًا مِن اليَهودِ، ﴿وَزُورًا﴾ بنِسبَةِ ما هو بَريءٌ منه إليه، و«أَتى» و«جاءَ» يُطلقَانِ بمَعنى «فَعَلَ»، فيُعدَّيانِ تَعدِيَتَه[٢].

(٥) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: ما سَطَرَهُ المُتقدِّمُون ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: كتبَها لنَفسِهِ، أو استكْتَبَها، وقُرِئَ على البناءِ للمَفعولِ[٣]؛ لأنَّه أُمِّيٌّ، وأصلُه: اكتَتَبَها كاتِبٌ لَهُ، فحُذِفَ اللَّامُ وأَفْضَى الفِعلُ إلى الضَّميرِ، فصارَ: اكتَتَبَها إيَّاه كاتِبٌ، ثمَّ حُذِفَ الفاعِلُ وبُنِيَ الفِعلُ للضميرِ فاستَتَرَ فيه[٤].

﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ ليحفظَهـا، فإنَّـه أُمِّـيٌّ لا يقـدرُ أَنْ يكرِّرَ مِن الكتـابِ، أو: ليكتُبَ.

(٦) ـ ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنَّه أعجزَكُم بفَصاحَتِه عَن آخرِكُم، وتضمَّنَ أخبارًا عن مُغَيَّباتٍ مُستقبلةٍ، وأشياءَ مَكنونةً لا يعلَمُها إلَّا عالِمُ الأسرارِ، فكيفَ تَجعَلُونَه أساطيرَ الأوَّلين؟!

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٢٦)، وذكره عن مقاتل الواحدي في «البسيط» (١٦/ ٤٠٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣١٢)، ونسب لابن عباس في «الهداية» لمكي (٨/ ٥١٧٥).

(٢) في هذا إشارة إلى أنَّ ﴿ظُلْمًا﴾ مفعول به لـ﴿جَآءُو﴾، وتعليلٌ لتعديته، مع أنَّ «جاءَ» و«أتى» من الأفعال اللازمة. انظر: «التبيان في إعراب القرآن» للعكبري (٢/ ٩٨٠).

(٣) نسبت لطلحة بن مصرف. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥)، و«المحتسب» (٢/ ١١٧).

(٤) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: هذا بناء على جواز إقامة المفعول الغير الصريح مع وجود الصريح كما جوَّزه الرضي وغيره وإن منعه بعض النحاة. وانظر: «المحتسب» لابن جني (٢/ ١١٧ ـ ١١٨)، و«فتوح الغيب» (١١/ ١٧٣)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٦/ ١٥٥ ـ ١٥٦).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلك لا يُعجِّلُ في عقوبتِكُم على ما تقولونَ، مع كمالِ قُدرَتِه عليها، واستحقاقِكُم أن يَصُبَّ عليكم العَذابَ صَبًّا.

(٧) ـ ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾: ما لهـذا الَّذي يَزعُمُ الرِّسالَةَ، وفيه استهانةٌ وتَهكُّمٌ ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كمَا نَأكلُ ﴿وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ لطلبِ المَعاشِ كما نَمشِي، والمعنى: إنْ صَحَّ دعواه فما بالُه لم يخالِفْ حالُه حالَنا؟! وذلك لعَمَهِهِم[١] وقُصورِ نَظَرِهم على المَحسوساتِ، فإنَّ تَميُّزَ الرُّسُلِ عَمَّن عَداهُم ليسَ بأُمورٍ جِسمانيَّةٍ، وإنَّما هو بأَحوالٍ نفسانيَّةٍ؛ كما أشارَ إليه بقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ لنعلمَ صِدقَهُ بتَصديقِ الملكِ.

(٨) ـ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ فيَستَظهِرَ به ويَستَغنِيَ عن تَحصيلِ المعاشِ.

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ هذا على سبيلِ التَّنزُّلِ؛ أي: إن لم يُلْقَ إليه كَنزٌ فلا أقلَّ أَنْ يكونَ له بُستانٌ كما للدَّهاقينِ[٢] والمَياسيرِ[٣] فيَتعيَّشَ برَيْعِه.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ بالنُّونِ[٤].

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وضعَ الظَّالِمينَ مَوضِعَ ضَميرِهِم تَسجيلًا عليهم بالظُّلمِ فيما قالوه:

---

(١) العَمَهُ: التحيُّرُ والتردُّدُ. وقيل: العمه في البصيرة، والعمى في البصر. انظر: «الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٢٤٢)، و«تاج العروس» (٣٦/ ٤٤٨).

(٢) الدِّهقانُ: معرَّب يُطلق على رئيس القرية وعلى التاجر وعلى من له مال وعقار، وداله مكسورة وفي لغة تضم، والجمع: دهاقين. انظر: «المصباح المنير» للفيومي (١/ ٢٠١).

(٣) المياسير: جمع موسر، بمعنى: غنيٌّ.

(٤) انظر «السبعة» (ص: ٤٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾: ما تتَّبعونَ ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ سُحِرَ فغُلِبَ على عقلِه.

وقيلَ: ذا سَحْرٍ، وهو الرِّئَةُ[١]؛ أي: بشرًا لا مَلَكًا.

(٩) ـ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ أي: قالوا فيك الأقوالَ الشَّاذَّةَ واخترَعُوا لكَ الأحوالَ النَّادرَةَ ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عَن الطَّريقِ الموصِلِ إلى معرفةِ خواصِّ النَّبيِّ والمَيْزِ بينَهُ وبينَ المُتَنَبِّئِ فخبَطُوا خبطَ عشواءَ[٢] ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى القَدحِ فـي نُبوَّتِك، أو إلى الرُّشدِ والهُدى.

(١٠) ـ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدُّنيا ﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾: ممَّا قالُوا، ولكنْ أخَّرَه إلى الآخرةِ لأنَّه خيرٌ وأَبْقَى.

﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بدلٌ مِن ﴿خَيْرًا﴾.

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ عطفٌ على محلِّ الجَزاءِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ بالرَّفعِ[٣]؛ لأنَّ الشَّرطَ إذا كانَ ماضِيًا جازَ في جَوابِه[٤] الجَزمُ والرَّفعُ[٥]؛ كقولِه:

وَإِنْ أَتَـاهُ خَلِـيلٌ يَـوْمَ مَسْـأَلَـةٍ ... يَقُولُ لا غَائِـبٌ مَالِـي وَلَا حَـرِمُ[٦]

---

(١) انظر: «تاج العروس» (١١/ ٥١٠).

(٢) أي: مشوا على غير هداية من أمرهم، فهم لا يميزون إن أخطؤوا أو أصابوا، والعشواء: الناقة التي في عينها سوء. «أساس البلاغة» (١/ ٦٥٤).

(٣) انظر «السبعة» (ص: ٤٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

(٤) في نسخة الفاروقي: «جزائه».

(٥) مذهب سيبويه أن الجواب محذوف، والمضارع المرفوع بنيَّة التقديم. انظر: «الكتاب» لسيبويه (٣/ ٦٦)، و«البحر المحيط» (١٦/ ١٦٢).

(٦) البيت لزهير بن أبي سلمى. انظر: «ديوان زهير» بشرح الشنتمري (ص: ١٥٣)، و«الكتاب» =

ويجوزُ أَنْ يكونَ استئنافًا بوعدِ ما يكونُ له في الآخرةِ[١].

وقُرِئَ بالنَّصبِ[٢] على أنَّه جوابٌ بالوَاوِ.

(١١) ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ فقَصُرَت أنظارُهُم على الحُطامِ الدُّنيَوِيِّ، وظَنُّوا أنَّ الكَرامةَ إنَّما هي بالمالِ، وطَعَنوا فيك بفَقْرِكَ، أو: فلذلك كذَّبوك لا لِمَا تَمحَّلُوا مِن المَطاعِنِ الفاسِدَةِ، أو: فكيفَ يَلتفتونَ إلى هذا الجوابِ ويُصَدِّقونَك بما وعدَ اللهُ لكَ في الآخرةِ؟ أو: فلا تَعجَبْ مِن تَكذيبِهم إيَّاكَ فإنَّه أعجَبُ مِنه.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾: نارًا شَديدةَ الاستعارِ[٣].

وقيلَ: هو اسمٌ لجَهنَّمَ[٤]، فيكونُ صَرْفُه باعتبارِ المَكانِ[٥].

= (٣/ ٦٦). واستُشهد به على أنَّ «الخليل» هنا بمعنى: الفقير، من الخَلَّة، وهي الفقر. انظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» للأنباري (١/ ٤٩٣).

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٥٩).

(٢) نسبت لعبيد الله بن موسى وطلحة بن سليمان. انظر: «المحتسب» (٢/ ١١٧)، وزاد الكرماني نسبتها في «شواذ القراءات» (ص: ٣٤٦) إلى أبي حيوة وابن أبي عبلة.

(٣) الاستعار: الاشتعال. انظر: «الفائق في غريب الحديث» للزمخشري (٢/ ١٨٠).

(٤) ذكره يحيى بن سلام والماتريدي، وذُكر عن الحسن. انظر: «تفسير يحيى بن سلام» (١/ ٣٥٤)، و«تفسير الماتريدي» (٣/ ٥٧٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» لابن العادل (١٤/ ٤٨٧).

(٥) أسماء الأماكن تُصرف باعتبار أنها مكان، والمكان مذكر، وتُمنع باعتبار أنها بقاع، والبقعة مؤنثة. قال السيرافي في «شرح كتاب سيبويه» (٤/ ١٣): اعلم أن تسمية الأرضين بمنزلة تسمية الأناسي؛ فما كان منها مؤنثًا فسميت باسم، فهي بمنزلة امرأة سميت بذلك الاسم، وما كان منها مذكرًا، فهو بمنزلة رجل سمي بذلك الاسم. وإنما يُجعل مؤنثًا ومذكرًا على تأويل ما تُؤوِّل فيه؛ فإن تؤول أنه اسم بلدة أو بقعة أو أرض فهو مؤنث، وإن تؤول فيه أنه بلد أو موضع أو مكان فهو مذكر.

(١٢) ـ ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾: إذا كانَتْ بمَرأًى مِنْهُم؛ كقولِه عليه السَّلامُ: «لا تَراءَى نارَاهُمَا»[١]؛ أي: لا تَتقاربان بحيثُ تَكونُ إحداهُما بمَرأًى مِن الأُخرَى على المجازِ[٢]، والتَّأنيثُ لأنَّه بمَعنى النَّارِ أو جَهنَّم.

﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يُمكِنُ أن يُرَى منه.

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾: صوتَ تَغيُّظٍ[٣]، شبَّهَ صوتَ غليانِها بصَوتِ المُغتاظِ وزَفيرِه، وهو صَوتٌ يُسمَعُ مِن جَوفِه.

هذا وإنَّ الحياةَ لَمَّا لم تَكُن مَشروطةً عِندَنا بالبِنْيةِ[٤]، أمكنَ أَنْ يَخلُقَ اللهُ فيها حياةً فتَرى وتَتغيَّظُ وتَزفِرُ، وقيلَ: إنَّ ذلك لزَبانيتِهَا، فنُسِبَ إليها على حذفِ المُضافِ.

(١٣) ـ ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا﴾: في مَكانٍ، و﴿مِنْهَا﴾ بيانٌ[٥] تقدَّمَ فصارَ حالًا.

---

(١) رواه الترمذي (١٦٠٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦٩٥٦)، من حديث قيس بن أبي حازم، عن النبي ﷺ مرسلاً. ورواه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤)، من حديث قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله مرفوعاً. وصحح البخاري المرسل كما نقل عنه الترمذي.

(٢) قال صاحبُ «الانتصاف»: لا حاجةَ إلى المجازِ فرُؤيةُ جهنَّمَ جائزةٌ، وقد تَظاهرَت الظَّواهرُ بوقوعِ هذا الجائزِ... ولو فُتِحَ بابُ التَّأويلِ في أحوالِ المَعادِ لجَرَّ إلى مذهبِ الفَلاسفةِ، ونحن مُتعبَّدونَ بالظَّواهرِ ما لم يمنَعْ مانِعٌ. انظر: «الانتصاف» لابن المنير بهامش «الكشاف» للزمخشري (٣/ ٢٦٧). وذهب الرازي كذلك إلى وجوب إجراءِ هذا على الظاهر. انظر: «تفسير الرازي» (٢٤/ ٤٣٧).

(٣) «تغيَّظَ» مُطاوع غيَّظَ، وغيَّظه وأغاظه وغاظه بمعنى، والغيظ: الغضب مطلقًا، وقيل: أو أشدُّه، أو سَورتُه وأوَّله، أو الكامنُ منه، أو الغضب للقادر والغيظ للعاجز. انظر: «تاج العروس» (٢٠/ ٢٤٨).

(٤) قوله: «عندنا»؛ أي: عند أهل السنة، و«البنية»: الجسد.

(٥) أي: صفة، وكل صفة تقدَّمت على الموصوف تُعرب حالاً. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٢٧٢).

﴿ضَيِّقًا﴾ لزيادةِ العَذابِ، فإنَّ الكربَ معَ الضِّيقِ، والرَّوحَ[١] مع السَّعةِ، ولذلك وصفَ اللهُ الجنَّةَ بأَنَّ عَرْضَها السَّماواتُ والأَرضُ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ بسكونِ الياءِ[٢].

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: قُرِنَت أيديهِمْ إلى أَعناقِهِم بالسَّلاسلِ.

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكانِ ﴿ثُبُورًا﴾: هلاكًا؛ أي: يَتمنَّوْنَ الهلاكَ ويُنادونَه فيقولون: يا ثُبورَاه! تعالَ فهذا حِينُكَ.

(١٤) ـ ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾؛ أي: يقالُ لهم ذلك ﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ لأنَّ عَذابَكُم أنواعٌ كَثيرةٌ، وكلُّ نوعٍ مِنْها ثُبورٌ لشِدَّتِه، أو لأنَّه يَتجدَّدُ؛ كقولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، أو لأنَّهُ لا يَنقَطِعُ فهوَ في كُلِّ وقتٍ ثُبورٌ.

(١٥) ـ ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الإشارةُ إلى العَذابِ، والاستفهامُ والتَّفضيلُ والتَّرديدُ للتَّقريعِ مع التَّهكُّمِ، أو إلى الكنزِ والجنَّةِ[٣]، والرَّاجعُ إلى الموصولِ مَحذوفٌ[٤]، وإضافَةُ الجنَّةِ إلى الخلدِ للمَدحِ، أو الدلالَةِ على خُلودِهَا، أو التَّمييزِ عَن جِنانِ الدُّنيَا.

﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ في علمِ اللهِ واللَّوحِ، أو لأنَّ ما وعَدَهُ اللهُ في تَحقُّقِه كالواقعِ.

﴿جَزَآءً﴾ على أعمالِهم بالوَعدِ ﴿وَمَصِيرًا﴾ يَنقَلِبُونَ إليه، ولا يمنَعُ كونَها جَزاءً

---

(١) «الرَّوح» بالفتح: الراحة.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٢)، و«التيسير» (ص: ١٣٩).

(٣) أي: اللذين طلبهما الكفار دليلًا على رسالته ﷺ، وسبق ذكرهما في قوله: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

(٤) والتقدير: وعدها المتقون؛ لأن «وعد» يتعدى لمفعولين. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٣٥).

لَهُم أن يتفضَّلَ بها على غيرِهِم برِضَاهُم، مع جوازِ أن يُرادَ بالمُتَّقينَ: مَن يَتَّقِي الكُفرَ والتَّكذيبَ لأَنَّهُم في مُقابَلَتِهِم(١).

(١٦) ـ ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾: ما يَشاؤونَه مِن النَّعيمِ، ولعلَّه يَقصُرُ همَّ(٢) كلِّ طائفَةٍ على ما يليقُ برُتبَتِه؛ إذ الظَّاهِرُ أنَّ النَّاقِصَ لا يُدرِكُ شَأْوَ الكاملِ بالتَّشهِّي، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ كُلَّ المَراداتِ لا تَحصلُ إلَّا في الجنَّةِ.

﴿خَالِدِينَ﴾ حالٌ مِن أحدِ ضَمائرِهِم ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ الضَّميرُ في ﴿كَانَ﴾ لـ﴿مَا يَشَآءُونَ﴾، والوَعْدُ: الموعودُ؛ أي: كانَ ذلكَ مَوعودًا حَقيقًا بأَنْ يُسأَلَ ويُطلَبَ، أو مَسؤولًا سألَهُ النَّاسُ في دُعائِهِم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، أو الملائكةُ بقولِهِم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [غافر: ٨]، وما في «على» مِن مَعنى الوُجوبِ لامتناعِ الخُلْفِ في وَعدِهِ، ولا يلزمُ مِنْه الإلجاءُ إلى الإنجازِ، فإنَّ تَعلُّقَ الإرادةِ بالمَوعودِ مُقدَّمٌ على الوعدِ الموجبِ للإنجازِ(٣).

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: جواب عن استدلال المعتزلة بهذه الآية على مذهبهم من وجوب الثوابِ لمن اتَّقى والعذابِ لغيره... وكلامه واضح إلا قوله: «برضاهم» فإنه اعتُرض عليه بأنه مخالف للمذهب؛ فإنه تعالى يتصرف كيف يشاء من غير اشتراط رضا أحد، وقد يُفسَّر رضاهم برضا الله عنهم، فتأمّله.

(٢) في نسخة الفاروقي والخيالي والطبلاوي: «همم». قال الشهاب في «الحاشية»: قوله: «يقصر همّ»؛ أي: ما يهم به ويريده، وفي نسخة: «همم» جمع همة. وقال الأنصاري: «ولعله»؛ أي: الله، أو الشأنَ (يقصر): بالبناء للفاعل، أو للمفعول «هم» بالنصب، أو الرفع؛ أي: قَصْد. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٣٢).

(٣) ردٌّ على قول الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ١٣٣): أي: كان ذلك مَوعُوداً واجباً على ربِّك إنجازُه حقيقاً أن يُسْأَلَ ويُطْلَبَ لأنَّه جَزاءٌ وأجْرٌ مُسْتَحَقٌّ.

(١٧) ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُم﴾ للجزاءِ، وقُرِئَ بكسرِ الشِّينِ(١)، وقرأ ابنُ كثيرٍ ويَعقوبُ وحَفصٌ بالياءِ(٢).

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يَعُمُّ كلَّ معبودٍ سواهُ، واستعمالُ «ما» إمَّا لأنَّ وضعَهُ أعمُّ، ولذلك يُطلَقُ لكلِّ شَبَحٍ يُرَى ولا يُعرَفُ، أو لأنَّه أُريدَ به الوصفُ؛ كأنَّه قيلَ: ومَعبودِيهِم، أو لتَغليبِ الأَصنامِ تَحقيرًا أو اعتبارًا لغَلَبَةِ عُبَّادِها، أو يخصُّ(٣) الملائكةَ وعُزَيرًا والمسيحَ لقَرينَةِ السُّؤالِ والجَوابِ، أو الأصنامَ(٤) يُنطِقُها اللهُ تَعالى أو تتكلَّمُ بلِسانِ الحالِ؛ كما قيلَ في كلامِ الأَيدِي والأَرْجُلِ.

﴿فَيَقُولُ﴾؛ أي: للمعبودينَ، وهو على تَلوينِ الخطابِ(٥). وقرأ ابنُ عامرٍ بالنُّونِ(٦):

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ لإخلالِهم بالنَّظرِ الصَّحيحِ، وإعراضِهم عَنِ المُرشِدِ النَّصيحِ، وهو استفهامُ تَقريعٍ وتَبكيتٍ للعَبَدةِ، وأصلُه: أَأَضْلَلْتُم أَمْ ضَلُّوا؟ فغُيِّرَ النَّظمُ ليَلِيَ حرفَ الاستفهامِ المَقصودُ بالسُّؤالِ، وهو

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ١١٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٣) عن الأعمش.

(٢) وكذا أبو جعفر. انظر «السبعة» (ص: ٤٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٣).

(٣) معطوف على «يعمُّ».

(٤) قوله: «أو الأصنام» بالنصب عطفًا على «الملائكة». انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ٤٤).
قلت: وهذا يستند إلى أنَّ الأصل في «ما» أن تكون لغير العاقل، وهو مروي عن الكلبي وعكرمة والضحاك، والذي قبله عن مجاهد، والأول عن ابن عباس. انظر: «البسيط» للواحدي (١٦/ ٤٣٢).

(٥) أي: على الالتفات من التكلم إلى الغيبة. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٢٧٥). وهو على ما اختاره المصنف من القراءة أما على قراءة ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء فلا التفات. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٤٣).

(٦) انظر «السبعة» (ص: ٤٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

المتولِّـي للفعـلِ دونَه؛ لأنَّـه محَقَّقٌ(١) لا شُـبهَةَ فيـه، وإلَّا لَمَا توجَّهَ العِتـابُ، وحذفُ صِلَةِ «ضَـلَّ» للمُبالغَةِ(٢).

(١٨) ـ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تَعَجُّبًا ممَّا قيلَ لَهُم؛ لأنَّهُم إمَّـا مَـلائِكَـةٌ وأَنبياءُ مَعصومونَ(٣)، أو جَماداتٌ لا تقدِرُ على شيءٍ، أو إشعارًا بأنَّهُم الموسومونَ بتَسبيحِهِ وتَوحيدِهِ، فكيفَ يَليقُ بهِمْ إضلالُ عَبيدِهِ؟ أو تَنزيهًا للهِ عن الأندادِ.

﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾: يَصِحُّ لنا ﴿أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ للعِصمَةِ، أو عدمِ القُدرَةِ، فكيفَ يَصِحُّ لنا أن ندعوَ غيرَنا أَنْ يَتولَّى أحدًا دونَك؟!

وقُـرِئَ: ﴿نُتَّخَـذَ﴾ بالبنـاءِ للمَفعـولِ(٤)، مِـن «اتَّخـذَ» الَّـذي لـه مفعـولانِ؛ كقولِـه: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، ومَفعولُـه الثَّانـي: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، و﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ، وعلى الأوَّلِ مَزيدَةٌ لتَأكيدِ النَّفيِ.

﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ بأنواعِ النِّعَمِ فاستَغْرَقُوا في الشَّهواتِ ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾: حتَّى غَفَلُوا عن ذكرِكَ، أو التَّذكُّرِ لآلائِكَ والتَّدبُّرِ في آياتِكَ، وهو نِسبَةُ الضَّلالِ إليهِمْ مِن حيثُ إنَّه بكَسْبِهم، وإسنادٌ له إلى ما فعلَ اللهُ بهم فحملَهُم عليه، وهو عينُ ما ذَهَبْنا إليه، فلا يَنتَهِضُ حُجَّةً علينا للمُعتَزِلَةِ(٥).

---

(١) «محقق» من نسخة الخيالي.

(٢) قوله: «وحذف صلة ضل»؛ أي: وهو (عن)، وأوقعَ الفعلَ على مدخولها؛ «للمبالغة» في ضلالِهم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٣٣).

(٣) هذا على القولين الأولين في تفسير «ما» في قوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وما بعده على القول الثالث.

(٤) قرأ بها أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٣٣). في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «على البناء للمفعول».

(٥) ردٌّ على المعتزلة وعلى الزمخشري الذي حاول نصر مذهبهم في قوله في «الكشاف» (٦/ ١٣٥): =

﴿وَكَانُوا﴾ في قَضائِك ﴿قَوْمًا بُورًا﴾: هالكينَ، مَصدَرٌ وُصِفَ به، ولذلك يَستَوِي فيه الواحِدُ والجَمعُ، أو جمعُ بائرٍ كـ«عائِذٍ» و«عُوذٍ».

(١٩) ـ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ التفاتٌ إلى العَبَدَةِ بالاحتجاجِ والإلزامِ على حذفِ القَوْلِ، والمَعنى: فقَدْ كذبكَمُ المعبودونَ ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ في قولِكُم: إنَّهم آلهةٌ، أو: هؤلاءِ أضلُّونا، والباءُ بمعنى «في»، أو مع المجرورِ بدلٌ مِن الضَّميرِ[١].

وعن ابنِ كثيرٍ بالياءِ[٢]؛ أي: كذَّبُوكُم بقولِهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا﴾.

﴿فَمَا يَستَطيعونَ﴾؛ أي: المعبودونَ. وقرأَ حَفصٌ بالتَّاءِ[٣] على خطابِ العابِدينَ.

= وفيه كَسرٌ بيِّنٌ لقولِ مَن يَزعُم أنَّ اللهَ يُضِلُّ عبادَهُ على الحقيقةِ، حيث يقولُ للمعبُودين مِن دُونِه: أأنتُم أضللتمُوهم عبادي أم هُم ضَلُّوا بأنفُسِهم؟ فيَتبرَّؤُونَ من إضلالِهم ويَستَعيذونَ به أن يكُونوا مضِلِّين، ويَقُولونَ: بل أنتَ تفضَّلتَ مِن غَيْر سابقةٍ على هؤلاء وآبائهم تَفضُّلَ جَوادٍ كريمٍ فجَعلوا النِّعمة ـ التي حَقُّها أن تكونَ سبَبَ الشكر ـ سَبَبَ الكُفر ونسيانِ الذِّكر، وكان ذلك سبَبَ هَلاكهم. فإذا برَّأتِ الملائكةُ والرُّسُلُ أنفسَهم من نسبة الإضلال ـ الذي هو عملُ الشياطين ـ إليهم واستعاذُوا مِنه، فهُم لربِّهم الغنيِّ العدلِ أشدُّ تَبرئةً وتنزيهاً منه، ولقد نزَّهُوهُ حين أضافُوا إليه التَّفضُّلَ بالنِّعم والتَّمتيعَ بها، وأسْنَدُوا نِسيانَ الذِّكر والتَّسبُّبَ به للبَوار إلى الكَفرةِ، فشَرحُوا الإضْلالَ المجازيَّ الذي أسندَهُ اللهُ إلى ذاتِهِ في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧]، ولو كان هو المضِلَّ على الحقيقة لكان الجوابُ العَتِيدُ أن يَقولوا: بل أنتَ أضلَلتَهُم. وانظر: «الانتصاف» لابن المنير (٣/ ٢٦٩).

(١) انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (١١/ ٢٠١).

(٢) نسبت لأبي حيوة كما في «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٠٤)، ولسعيد بن جبير ومجاهد ومعاذ القارئ وابن شنبوذ عن قنبل كما في «زاد المسير» (٣/ ٣١٥). ونص ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٤٦٣) على سماعها من قنبل عن أبي بزة عن ابن كثير، وذكرها ابن الجزري في «النشر» (٢/ ٣٣٤) خلافًا عن قنبل.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٣)، و«التيسير» (ص: ١٦٣).

﴿صَرْفًا﴾: دفعًا للعَذابِ عَنْكُم، وقيلَ: حيلةً؛ مِن قولِهم: إنَّه ليَتصرَّفُ؛ أي: يَحتالُ.

﴿وَلَا نَصْرًا﴾ فيعينكُمْ عليه[١].

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المُكلَّفُونَ ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هي النَّارُ.

والشَّرطُ وإنْ عَمَّ كُلَّ مَن كَفَرَ أو فسقَ لكنَّهُ في اقتضاءِ الجَزاءِ مقيَّدٌ بعدمِ المُزَاحِمِ وِفاقًا، وهو التَّوبَةُ والإحباطُ بالطَّاعَةِ إجماعًا، وبالعَفوِ عندَنا[٢].

(٢٠) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: إلَّا رُسُلًا إنَّهم، فحُذِفَ الموصوفُ لدَلالَةِ «المُرسلينَ» عليه، وأُقِيمَت الصِّفَةُ مُقامَه؛ كقولِه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤].

ويجوزُ أَنْ تكونَ حالًا اكتُفِيَ فيها بالضَّميرِ، وهو جوابٌ لقَولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

وقُرِئَ: «يُمَشَّوْنَ»؛ أي: تُمَشِّيهِمْ حوائِجُهم أو النَّاسُ[٣].

---

(١) أي: فيعين الناصر أو المعبود على دفع العذاب عنكم بعد وقوعه عليكم، فالمراد بالصرف دفع العذاب قبل الإصابة، وبالنصر رفعه بعد الإصابة. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٥٣).

(٢) هذا جواب عن استدلال المعتزلة بهذه الآية على القطع بوعيد العصاة وأهل الكبائر. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٢٧٨). وقوله: «الشرط»؛ أي: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾، وقد سلَّم المصنف للزمخشري أنه يشمل الكافر والمؤمن الفاسق، وقوله: «لكنَّهُ في اقتضاءِ الجَزاءِ» وهو إذاقة العذاب الكبير «مقيَّدٌ بعدمِ المُزَاحِمِ وِفاقًا»؛ أي: من أهل السنة ومن المعتزلة، وعدم المزاحم فسرَّه بالتوبة التي تجبُّ ما سبق من كفر أو فسوق، وهذا مجمع عليه عند أهل السنة والمعتزلة، وبالعفو عن الفسوق عند أهل السنة، وهو ما لا يسلِّم به المعتزلة.

(٣) هي قراءة عبد الرحمن بن عبد الله وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر: «المحتسب» لابن جني (٢/ ١٢٠).

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ أيُّها النَّاسُ ﴿لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾: ابتلاءً، ومن ذلك ابتلاءُ الفُقَراءِ بالأغنياءِ، والمُرسلينَ بالمُرسَلِ إليهِم، ومُناصَبَتِهم لهم العَداوةَ وإيذائِهم لهم، وهو تَسليَةٌ لرَسولِ اللهِ ﷺ على ما قالوهُ بعدَ نقضِه، وفيه دليلٌ على القضاءِ والقَدَرِ(١).

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ عِلَّةٌ للجعلِ، والمعنى: وجعلنا بعضَكُم لبَعضٍ فِتنَةً لنعلمَ أيُّكم يصبِرُ، ونظيرُهُ قولُه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، أو حثٌّ على الصَّبرَ على ما افتُتِنُوا به.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمَن يَصبِرُ، أو بالصَّوابِ فيما يَبتَلِي به وغيرِه.

(٢١) ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾: لا يأمُلُون ﴿لِقَاءَنَا﴾ بالخيرِ لكُفرِهِم بالبعثِ، أو: لا يخافونَ لِقاءَنا بالشَّرِّ على لغَةِ تِهامَةَ(٢)، وأصلُ اللِّقاءِ: الوصولُ إلى الشَّيءِ، ومنه: الرُّؤيَةُ، فإنَّهُ الوُصولُ(٣) إلى المرئيِّ، والمرادُ به: الوُصولُ إلى جَزائِه، ويمكنُ أَنْ يُرادَ به الرُّؤيَةُ على الأوَّلِ(٤).

﴿لَوْلَا﴾: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ فتُخبِرَنا(٥) بصدقِ مُحمَّدٍ، وقيلَ: فيكونون رُسُلًا إلينا.

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وجه الدليل أنَّه جعل أفعال العباد كعداوة الكفار وايذائهم وما مرَّ بجعل الله وإرادته، والمعتزلة ينكرون ذلك، فالآية حجَّة عليهم.

(٢) قال الفراء في «معاني القرآن للفراء» (٢/ ٢٦٥): ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾: لا يَخافونَ لقاءنا، وهي لغة تِهامية؛ يضعونَ الرجاء في موضع الخوف إذا كان معه جحد.

(٣) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «وصول».

(٤) أي: رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة على من قال بأن الرجاء بمعنى الأمل.

(٥) في نسخة الفاروقي والتفتازاني: «فيخبروننا».

﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيَأمرَنا بتَصديقِه واتِّباعِه.

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: في شَأنِها حتَّى أرادوا لها ما يَتَّفِقُ للأفرادِ مِن الأنبياءِ الَّذينَ هُمْ أكمَلُ خلقِ اللهِ في أكمَلِ أوقاتِها وما هو أعظَمُ مِن ذلك.

﴿وَعَتَوْ﴾: وتجاوَزُوا الحَدَّ في الظُّلمِ ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾: بالغًا أقصى مراتبِه، حيثُ عايَنُوا المُعجزاتِ القاهرةَ وأعرَضُوا عَنْها، واقترَحُوا لأَنفُسِهم الخبيثَةِ ما سُدَّتْ دونَهُ مَطامِحُ النُّفوسِ القُدسِيَّةِ.

واللَّامُ جوابُ قَسمٍ مَحذوفٍ، وفي الاستئنافِ بالجملَةِ حُسْنٌ وإشعارٌ بالتَّعجُّبِ مِن استكبارِهِم وعُتُوِّهِم؛ كقَوْلِه:

وَجَارَةُ جَسَّاسٍ أَبَأْنَا بِنَابِهَا ... كُلَيْبًا غَلَتْ نَابٌ كُلَيْبٌ بَوَاؤُهَا[1]

(٢٢) - ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾: مَلائكةَ المَوتِ أو العذابِ، و﴿يَوْمَ﴾ نَصبٌ بـ: «اذكر»، أو بما دلَّ عليه: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[2] فإنَّه بمَعنى: يُمْنَعُونَ البُشْرَى، أو: يُعدَمُونها، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكريرٌ[3] أو خبرٌ، و﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ تَبيينٌ، أو خبرٌ

---

(١) ذكره الزمخشري في «المستقصى» (١/ ١٧٨) من غير عزو، وقال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: إنه من قصيدة لمهلهل، وتبعه الآلوسي في «تفسيره» (١٠/ ٥). قلت: لم أجده في «ديوان مهلهل» شرح: طلال حرب، وكأن نسبته إليه سهو، فالظاهر أن قائل البيت من قوم قاتل كليب.
وجساس: لقب مرّة بن ذهل الشيباني قاتل كُليب، وجارته: البَسوس بنت منقذ التميمية، وهي خالة جساس، وقصتها معروفة، والناب: ناقتها، والمعنى: ما أغلى الناقة التي قصاصها قتل كليب. انظر: «فتوح الغيب» (١١/ ٢٠٩).

(٢) ولا يجوزن أن يُصب بـ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ لأنَّ ما اتَّصلَ بـ(لا) لا يعمَلُ فيما قبلَه. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٦٣).

(٣) ردَّه أبو حيان، وأجازه الحلبي. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ١٨٢)، و«الدر المصون» للسمين الحلبي (٨/ ٤٧٣).

ثـانٍ، أو ظـرفٌ لِمَـا يَتعلَّقُ بـه الـلَّامُ، أو لِـ﴿بُشْرَىٰ﴾ إن قُـدِّرَتْ مُنوَّنَةً غيـرَ مَبنِيَّةٍ مع «لا» فإنَّهـا لا تعمَلُ.

و﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ إمَّا عامٌّ يَتناوَلُ حكمُهُ حكمَهُم مِن طَرِيقِ البُرهانِ، ولا يلزَمُ مِن نَفْيِ البُشرَى لعامَّةِ المُجرمينَ حينَئذٍ نفيُ البُشرَى بالعَفْوِ والشَّفاعَةِ في وقتٍ آخرَ، وإمَّا خاصٌّ وُضِعَ مَوضِعَ ضَميرِهِم تَسجِيلًا على جرمِهِم وإشعارًا بما هو المانِعُ للبُشرَى والموجبُ لِمَا يُقابِلُها.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ عطفٌ على المدلولِ؛ أي: ويقولُ الكَفَرَةُ حينئذٍ هذه الكلمَةَ استعاذَةً وطلبًا مِن اللهِ أَنْ يمنعَ لِقاءَهُم، وهي ممَّا كانُوا يقولونَ عندَ لِقاءِ عَدُوٍّ أو هجومِ مَكروهٍ[1]، أو تَقُولُها الملائِكَةُ بمَعنى: حرامًا مُحرَّمًا عليكُم الجنَّةُ أو البُشرَى.

وقُرِئَ: «حُجْرًا» بالضَّمِّ[2]، وأصلُهُ الفَتحُ، غيرَ أنَّه لَمَّا اختصَّ بمَوضِعٍ مَخصوصٍ غُيِّـرَ كـ«قِعْـدَكَ» و«عَمْـرَكَ»[3]، ولذلـك لا يُتصرَّفُ فيـه ولا يَظهرُ ناصِبُـه[4]، ووصفُه بـ﴿مَّحْجُورًا﴾ للتَّأكيدِ؛ كقولِهِم: مَوْتٌ مائِتٌ.

(٢٣) ـ ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾؛ أي: وعَمَدنا إلى ما عَمِلُوا في كُفرِهِم من المَكارمِ كقِرى الضَّيفِ وصِلَةِ الرَّحمِ وإغاثةِ الملهوفِ فأَحْبَطناهُ لِفَقدِ ما هو شرطُ اعتبارِهِ، وهو تَشبيهُ حالِهِم وأعمالِهِم بحالِ قَوْمٍ استَعْصَوْا على سُلطانِهِم، فقَدِمَ إلى أسبابِهِم فمَزَّقَها وأبطلَهَا ولم يُبقِ لها أثرًا.

---

(١) والحِجْر والحُجْر لغتان: وهو الحرام، وكان الرجل يَلقَى غيره في الأشهر الحُرُم فيقول: حِجْراً مَحجُوراً؛ أيْ: حَرامٌ مُحرَّم عليك في هذا الشهر، فلا يبدؤهُ بشَرٍّ. انظر: «العين» (٣/ ٧٤).

(٢) نسبت للحسن والضحاك. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦).

(٣) لمَّا قُصد بها اليمين غُيِّر بناؤها. انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (١١/ ٢١١ ـ ٢١٢).

(٤) انظر: «الكتاب» (١/ ٣٢٦).

والهباءُ: غُبارٌ يُرَى في شُعاعِ الشَّمسِ يَطلعُ مِن الكوَّةِ، من «الهبوةِ»، وهو الغبارُ، و﴿مَّنثُورًا﴾ صِفتُه، شُبِّهَ به[١] عَمَلُهم المُحبَطُ في حقارَتِه وعدمِ نفعِه، ثمَّ بالمنثورِ منه في انتشارِهِ بحيثُ لا يُمكِنُ نَظمُهُ، أو تَفرُّقِهِ[٢] نحوَ أَغراضِهم الَّتي كانُوا يَتوجَّهونَ به[٣] نحوَها، أو مَفعولٌ ثالِثٌ[٤] مِن حيثُ إنَّه كالخبرِ بعدَ الخبرِ؛ كقولِه: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

(٢٤) ـ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾: مَكانًا يُستَقَرُّ فيه أكثَرَ الأوقاتِ للتَّجالُسِ والتَّحادُثِ ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾: مكانًا يُؤْوَى إليه للاستِرواحِ بالأَزواجِ والتَّمتُّعِ بهنَّ، تجوُّزًا له مِن مكانِ القَيلولَةِ على التَّشبيهِ، أو لأنَّه لا يخلو مِن ذلك غالبًا، إذ لا نومَ في الجنَّةِ[٥].

وفي ﴿أحسنُ﴾ رمزٌ إلى ما يَتزيَّنُ به مَقيلُهُم مِن حُسْنِ الصُّوَرِ وغيرِهِ مِن التَّحاسينِ، ويحتمِلُ أَنْ يُرادَ بأَحدِهِما المصدَرُ أو الزَّمانُ إشارةً إلى أنَّ مَكانَهُم

---

(١) أي: بالهباء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٣٨).

(٢) عطف على «انتشاره». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٣٨).

(٣) أي: بعملهم. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٣٨).

(٤) عطف على «صفته». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٣٨).

(٥) قوله: «تجوزًا له...» قال الشهاب في «الحاشية»: أي: نقلاً له من معناه الحقيقي وهو مكان القيلولة إلى مكان التمتع بالأزواج؛ لأنَّه يشبهه في كون كل منهما محلَّ خلوة واستراحة فهو استعارة. وقال الأزهري: المقيل الاستراحة في نصف النهار وإن لم يكن معه نوم. وقوله: «أو لأنَّه لا يخلو...» عطف على قوله: «على التشبيه» فهو مجاز مرسل لاستعمال المقيد في المطلق، ولا تغليب فيه بالمعنى المتعارف كما قيل، وقوله: «إذ لا نوم في الجنة» تعليل للتجوّز وعدم إرادة الحقيقة.
وقالَ الأنصاري: قوله: «تجوزًا له...» تعليلٌ لإرادة مكان القيلولة بـ﴿مَقِيلٗا﴾، وقوله: «له» الأَولى: (به)؛ أي: بـ﴿مَقِيلٗا﴾، «أو لأنه» عطف على (تجوزًا). انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٣٨).

وزمانَهُم أطيَبُ ما يُتَخَيَّلُ من الأمكنةِ والأزمانِ، والتَّفضيلُ إمَّا لإرادةِ الزِّيادَةِ مُطلَقًا، أو بالإضافةِ إلى ما للمُترَفِينَ في الدُّنيَا.

رُوِيَ: أنَّه يُفرغُ مِن الحسابِ في نصفِ ذلك اليَومِ، فيَقيلُ أَهْلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأهلُ النَّارِ في النَّارِ(١).

(٢٥) ـ ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أصلُه: تَتشقَّقُ، فحُذِفَ التَّاءُ، وأدغمَها ابنُ كثيرٍ ونافِعٌ وابنُ عامرٍ ويَعقوبُ(٢).

﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾: بسببِ طُلوعِ الغَمامِ مِنْها، وهو الغمامُ المذكورُ في قولِه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ في ذلك الغَمامِ، وهو الغمامُ بصَحائفِ أعمَالِ العبادِ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ: ﴿ونُنْزِلُ﴾(٣).

وقُرِئَ: «ونُزِّلَت»، «وأُنْزِلَ»، «ونَزَلَ»، «ونَزَّلَ الملائكةَ»(٤)، «ونُزِّلُ الملائكَةَ» بحذفِ نونِ الكلمَةِ(٥).

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥١٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.
ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٣٤) عن ابن جريج.
وروى نحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٠ ـ ٢٦٨١) عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير وعكرمة.

(٢) أي: ﴿تَشَّقَّقُ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٦٣ ـ ١٦٤)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٤) تنظر هذه القراءات مع قائليها وزيادة عليها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦)، و«البحر» (١٦/ ١٨٧).

(٥) انظر: «المحتسب» (٢/ ١٢٠ ـ ١٢١) وعزاها لابن كثير وأهل مكة، ورواية خارجة عن أبي عمرو، =

(٢٦) ـ ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾: الثَّابتُ له؛ لأنَّ كلَّ مُلكٍ يَبطُلُ يومئذٍ ولا يبقى إلَّا ملكُهُ، فهوَ الخبرُ و﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ صِلَتُه أو تبيينٌ، و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ معمولُ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ لا ﴿ٱلۡحَقُّ﴾؛ لأنَّه مُتأخِّرٌ، أو صِفةٌ والخبرُ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ أو ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾.

﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾: شديدًا.

(٢٧) ـ ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ مِن فَرْطِ الحَسرةِ، وعَضُّ اليَدَينِ وأَكلُ البَنانِ وحرقُ الأسنانِ[1] ونَحوُها كناياتٌ عن الغيظِ والحسرةِ لأنَّها مِن رَوادِفِهمَا.

والمرادُ بالظَّالمِ: الجِنسُ.

وقيلَ: عُقبَةُ بن أبي مُعيطٍ؛ كانَ يُكثِرُ مُجالسةَ النَّبيِّ عليهِ السَّلامُ، فدُعِيَ إلى ضِيافَتِه فأبى أن يأكُلَ طعامَهُ حتَّى ينطِقَ بالشَّهادَتينِ ففعلَ، وكانَ أُبيُّ بنُ خلفٍ صديقَهُ فعاتبَهُ فقالَ: صَبَأتَ؟ فقالَ: لا، ولَكِن آلى أن لا يأكُلَ مِن طَعامِي وهو في بيتي، فاستَحْيَيتُ مِنه فشَهِدْتُ له، فقالَ: لا أَرْضَى منك إلَّا أَنْ تأتيَهُ فتطأَ قَفاهُ وتَبزُقَ في وَجهِه، فوجدَهُ ساجِدًا في دارِ النَّدوَةِ ففعلَ ذلك، فقالَ عليه السَّلامُ: لا ألقاكَ خارجًا مِن مَكَّةَ إلَّا عَلَوْتُ رأسَكَ بالسَّيفِ، فأُسِرَ يومَ بدرٍ فأمرَ عَلِيًّا بقتلِه، وطَعَنَ أُبَيًّا بأُحُدٍ في المُبارزَةِ فرجعَ إلى مَكَّةَ وماتَ[2].

= وحكاها أيضًا أبو معاذ عن أبي عمرو كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦).

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: «حرق الأسنان» بحاء وراء مهملتين: حكُّ بعضها على بعض بحيث يُسمع لها صوت؛ كما يُفعل في شدّة الغضب.

(٢) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٠) ـ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبَّاس. وذكره دون عزو الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٣٤)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٨٠).

ورواه بنحوه ابن مردويه وأبو نعيم في «دلائل النبوة» بسند صحيح كما قال السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٥٠). =

﴿يَـٰقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾: طريقًا إلى النَّجاةِ، أو طريقًا واحِدًا وهو طريقُ الحَقِّ ولم يَتشَعَّبْ بي طُرُقُ الضَّلالَةِ.

(٢٨) ـ ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰ﴾ وقُرِئَ بالياءِ على الأصلِ[١].

﴿لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يعني: مَن أضلَّهُ، و﴿فُلَانًا﴾ كنايةٌ عَن الأعلامِ؛ كما أنَّ «هَنًا» كنايةٌ عن الأجناسِ[٢].

(٢٩) ـ ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ عَـن ذكرِ اللهِ، أو كتابِه، أو مَوعِظَةِ الرَّسولِ، أو كَلِمَةِ الشَّهادةِ.

﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ وتمكَّنْتُ مِنه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ يعني: الخليلَ المُضِلَّ، أو إبليسَ لأنَّه حملَهُ على مُخالَّتِه ومخالفَةِ الرَّسُولِ، أو كلَّ مَن تَشَيْطَنَ مِن جنٍّ وإنسٍ.

﴿لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ يُواليهِ حتَّى يُؤدِّيَه إلى الهلاكِ، ثمَّ يَترُكُه ولا يَنفَعُه، فَعُولٌ مِن الخذلانِ.

= وورد الخبر في بعض المصادر بذكر (أمية بن خلف) بدل: (أبي بن خلف)، كما في «تفسير مقاتل» (٣/ ٢٣٢ و٣٠١)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٦٨٥) عن السدي، ولم يرد فيهما قصة قتله. وفي قوله في هذا الخبر أن عقبة فعل ما طلبه منه أبيٌّ نظر، فقد رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٠٨٥و ٢٠٨٦)، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٤٠ ـ ٤٤١)، عن مقسم مولى ابن عباس، وفيه بدل قوله: «ففعل ذلك»: (فلم يسلطه الله عليه).

وذكر الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٩٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٣٤)، عن الضحاك قال: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه إلى وجهه وانشعب شعبتين، فأحرق خديه، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت.

(١) نسبت للحسن وابن قطيب. انظر: «مختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦).

(٢) قال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/ ٢٧٩): يقال: فِي فُلَانٍ هَنَاتٌ؛ أَي: خِصَالُ شَرّ، وَلَا يُقَالُ فِي الخَيْر، وواحِدُها: هَنْتٌ، وَقَدْ تُجْمع عَلَى هَنَوَاتٍ. وَقِيلَ: واحِدُها: هَنَةٌ، تأنيثُ هَنٍ، وهو كِنَاية عن كُلّ اسْمِ جنْس.

(٣٠) ـ ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمَّدٌ يومئذٍ، أو في الدُّنيا بَثًّا إلى اللهِ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي﴾ قُريشًا ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ بأَنْ تَركوهُ وصَدُّوا عَنه، وعنه عليه السَّلامُ: «مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ[1] وعَلَّقَ مُصحَفَهُ ولم يَتعاهَدْهُ ولم يَنْظُر فيه، جاءَ يومَ القِيامَةِ مُتعلِّقًا به يَقولُ: يا رَبِّ! عبدُكَ هذا اتَّخذنِي مَهجورًا، اقضِ بَيني وبَينَهُ»[2].

أو: هَجَرُوا ولغَوا فيهِ إذا سَمِعُوه، أو: زَعَمُوا أنَّه هُجْرٌ وأساطيرُ الأوَّلينَ، فيكون أصلُه: مَهجُورًا فيه، فحُذِفَ الجارُّ[3].

ويجوزُ أن يكونَ بمعنى: الهَجْرِ؛ كـ«المجلودِ» و«المعقولِ»[4].

وفيه تخويفٌ لقَوْمِه؛ لأنَّ الأنبياءَ إذا شَكَوْا إلى اللهِ قَوْمَهُم عجَّلَ اللهُ لَهُم[5] العَذابَ.

(٣١) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ كمَا جَعَلناهُ لك، فاصبِرْ كمَا صَبَرُوا، وفيه دليلٌ على أنَّه خالِقُ الشَّرِّ، و«العدوُّ» يَحتَمِلُ الواحِدَ والجَمْعَ.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا﴾ إلى طَريقِ قَهرِهِم ﴿وَنَصِيرٗا﴾ لكَ عَلَيْهِم.

(٣٢) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾؛ أي: أُنزِلَ[6]؛ كـ«خُبِّرَ بمَعنى:

---

(١) بعدها في نسخة الخيالي: «وعلمه».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٠٦)، وفي سنده إبراهيم بن هدبة أبو هدبة الفارسي، وهو متهم بالكذب. انظر: «لسان الميزان» لابن حجر (١/ ١١٩).

(٣) والهُجر على هذا بمعنى: الهذيان، يقال: «هجر المريض» إذا هذى في منطقه. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٢٨٧).

(٤) فهو مصدر؛ كما أن «المجلود» و«المعقول» بمعنى: الجلد والعقل.

(٥) في نسخة الفاروقي والتفتازاني والطبلاوي: «عُجل لهم».

(٦) المشهور الذي اعتمده المصنف فيما مضى أنَّ «نزَّل» يفيد التنزيل التدريجي، و«أنزل» يفيد الإنزال الدفعي، ولذلك ذكر هنا أنَّ «نزّل» جاء بمعنى «أنزل» للقرينة. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٨٥). ورأى أبو حيان أنه لا حاجة لهذا لأنهما لغتان بمعنى واحد. انظر: «البحر المحيط» (١٦/ ١٩٤).

أُخْبِرَ»؛ لئلا يُناقِضَ قولَه: ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾: دفعةً واحدةً كالكتبِ الثَّلاثَةِ، وهو اعتراضٌ لا طائلَ تحتَهُ؛ لأنَّ الإعجازَ لا يَختَلِفُ بنزولِه جُملةً أو مُفرَّقًا، مع أنَّ للتَّفريقِ فوائِدَ:

ـ منها: ما أشارَ إليه بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾؛ أي: كذلك أَنْزلناهُ مُفرَّقًا لنُقَوِّيَ بتَفريقِهِ فُؤادَكَ على حفظِهِ وفَهمِهِ؛ لأنَّ حالَهُ تُخالِفُ حالَ مُوسَى وداودَ وعِيسى حيثُ كانَ أُمِّيًّا وكانُوا يكتبونَ، فلَوْ أُلْقِيَ إليه جُملَةً تَعَنَّى[1] بحفظِهِ، ولعلَّه لم يستتبَّ لَه، فإنَّ التَّلقُّفَ لا يَتأتَّى إلَّا شيئًا فشَيْئًا، ولأنَّ نُزولَهُ بحسبِ الوَقائِعِ يوجبُ مَزيدَ بَصيرَةٍ وغَوْصٍ في المَعنَى، ولأنَّه لمَّا نُزِّلَ مُنجَّمًا وهو يَتحدَّى بكُلِّ نجمٍ فيعجزونَ عَن معارضَتِه زادَ ذلك قوَّةَ[2] قلبِه، ولأنَّه إذا نزلَ به جِبريلُ حالًا بعدَ حالٍ تَثَبَّتَ بهِ فُؤادُه.

ـ ومنها: معرفةُ النَّاسخِ والمَنسوخِ.

ـ ومنها: انضمامُ القَرائنِ الحاليَّةِ إلى الدَّلالاتِ اللَّفظيَّةِ؛ فإنَّه يُعينُ على البلاغَةِ.

و﴿كَذَٰلِكَ﴾ صفَةُ مَصدَرٍ مَحذوفٍ، والإشارةُ إلى إنزالِهِ مُفرَّقًا، فإنَّه مَدلولٌ عليه بقولِه: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً﴾.

ويحتمِلُ أَنْ يكونَ مِن تَمامِ كلامِ الكَفَرةِ، ولذلك وُقفَ عليه، فيكونُ حالًا، والإشارةُ إلى الكتبِ السَّابقَةِ[3].

---

(١) في نسخة الفاروقي: «تعيى».

(٢) بعدها في نسخة الخيالي: «في».

(٣) هذا المرجح عند علماء الوقف والابتداء، والمعنى: قال الذين كفروا: هلاَّ نزل القرآن على محمد جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة، ثم تبتدئ على معنى: أنزلناه عليك متفرقًا لنثبت به فؤادك. انظر: «إيضاح الوقف والابتداء» لأبي بكر الأنباري (٢/ ٨٠٥).

واللَّامُ على الوَجهينِ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ[١].

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾: وقرأناهُ عليكَ شيئًا بعدَ شَيءٍ على تُؤَدةٍ وتَمهُّلٍ، في عشرينَ سنةً أو ثلاثٍ وعشرينَ، وأصلُه: التَّرتيلِ في الأسنانِ، وهو تَفْلِيجُها[٢].

(٣٣) ـ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ سؤالٍ عَجيبٍ كأنَّه مَثَلٌ في البطلانِ يريدونَ به القَدْحَ في نُبوَّتِك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الدَّامغِ له في جوابِه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾: وبما هو أحسَنُ بيانًا أو مَعنًى مِن سُؤالِهم.

أو: لا يأتونَكَ بحالٍ عَجيبةٍ يقولونَ: هلَّا كانَتْ هذه حالَه، إلَّا أعطيناكَ مِن الأحوالِ ما يحقُّ لك في حِكمَتِنا، وما هو أحسَنُ كشفًا لِمَا بُعِثتَ له.

(٣٤) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾؛ أي: مَقلوبينَ، أو: مَسْحوبين إليها، أو: مُتعلِّقةً قلوبُهُم بالسُّفليَّاتِ[٣] مُتوجِّهةً وُجوهُهم إليها، وعنه عليهِ السَّلامُ: «يُحشرُ النَّاسُ يومَ القِيامَةِ على ثلاثةِ أصنافٍ: صنفٍ على الدَّوابِّ، وصنفٍ على الأقدامِ، وصنفٍ على الوُجوهِ»[٤].

وهو ذَمٌّ مَنصوبٌ أو مَرفوعٌ، أو مُبتدَأٌ خبرُه:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ والمفضَّلُ عليهِ هو الرَّسولُ عليه السَّلامُ

---

(١) قوله: «واللام على الوجهين متعلق بمحذوف»؛ أي: فرَّقناه لنثبِّتَ به فؤادَكَ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٤٢).

(٢) الفَلَج في الأسنان: تباعد ما بين الثنايا والرباعيات خلقة، فإن تُكلِّف فهو التفليج. انظر: «تاج العروس» (٦/ ١٥٦).

(٣) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: المراد بالسفليات: الدنيا وزخارفها.

(٤) رواه البيهقي في «البعث والنشور» (٢٧٥) ت: الشوامي، واللفظ للبيهقي. والترمذي في «سننه» (٣١٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال: هذا حديث حسن.

على طـريـقـةِ قولِه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]؛ كأنَّه قيلَ: إنَّ حامِلَهُم على هذه الأَسْوِلَةِ[١] تحقيرُ مَكانهِ وتَضليلُ[٢] سَبيلِهِ، ولا يعلمونَ حالَهُم ليَعْلَمُوا أَنَّهُم شَرٌّ مَكانًا وأَضَلُّ سبيلًا.

وقيلَ: إنَّه مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾.

ووصفُ السَّبيلِ بالضَّلالِ مِن الإسنادِ المجازيِّ للمُبالغَةِ[٣].

(٣٥) ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ يُؤازِرُه[٤] في الدَّعوةِ وإعلاءِ الكَلِمَةِ، ولا يُنافي ذلك مُشاركتَهُ في النبوَّةِ؛ لأنَّ المُتشارِكَينِ في الأمرِ مُتَوازِرانِ عليه.

(٣٦) ـ ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعـني: فِرعـونَ وقومَـه ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾؛ أي: فذَهَبـا إليهـم فكَذَّبُوهمـا فدَمَّرناهُم، فاقْتُصرَ على حاشِـيَتَي القِصَّـةِ[٥] اكتفاءً بما هـو المقصودُ منها، وهو إلزامُ الحُجَّةِ ببعثةِ الرُّسُـلِ، واستحقاقُ التَّدميرِ بتكذيبِهِم.

والتَّعقيبُ باعتبارِ الحُكمِ لا الوقوعِ[٦].

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: أي: الداعي والباعث على أسئلتهم...

(٢) في نسخة التفتازاني والخيالي والطبلاوي: «بتضليل».

(٣) انظر: «فتوح الغيب» للطيبي (١١/ ٢٣٣).

(٤) أي: يُعاونه.

(٥) أي: طرفيها؛ بدايتها وخاتمتها.

(٦) أي: جاء قوله: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بالفاء عقب قوله: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾ مع أنه كان بين الأمر بالذهاب والتدمير مدَّة متراخية، وقد حمل ذلك على أنَّ حكم الله بتدميرهم كان عقيب تكذيبهم، وإن كان وقوع هذا الحكم بعد أزمنة متطاولة، وقيل: إن التكذيب استمر زمانًا طويلًا، لكن آخره عقبه التدمير. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٩٤).

وقُرِئَ: «فدَمَّرَتْهُم»، «فَدَمِّراهُم»، «فدَمِّرَانِّهم» على التَّأكيدِ بالنُّونِ الثَّقيلَةِ(١).

(٣٧) ـ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾: كَذَّبُوا نوحًا ومَن قبلَهُ، أو: نوحًا وحدَه، ولكنَّ تكذيبَ واحدٍ مِن الرُّسلِ كتكذيبِ الكلِّ، أو: بعثةَ الرُّسلِ مُطلقًا كالبَراهمَةِ(٢).

﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ بالطُّوفانِ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾: وجَعَلْنا إغراقَهُم أو قِصَّتَهُم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾: عبرةً.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يحتمِلُ التَّعميمَ والتَّخصيصَ، فيكونُ وضعًا للظَّاهرِ مَوضِعَ المضمَرِ تَظليمًا لهم(٣).

(٣٨) ـ ﴿وَعَادًا وثمودًا﴾ عطفٌ على «هم» في ﴿جَعَلْنَاهُم﴾، أو على «الظالمين» لأنَّ المعنى: ووَعَدْنَا الظَّالِمينَ.

---

(١) القراءتان الأوليان في «الكشاف» (٦/ ١٥٧) عن علي، والأخيرة نسبها في «المحتسب» (٢/ ١٢٢) لعلي ـ رضي الله عنه ـ أيضًا، ومسلمة بن محارب.

وذكر ابن جني عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ أيضًا قراءتين أُخريين فقال: حكى أبو عمرو عن علي أنه قرأ: (فَدَمِرْناهم)، بكسر الميم مخففة، وحكى عنه أيضًا: (فَدَمِّرا بهم)، بالباء على وجه الأمر.

وزاد ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٠) عن علي أيضًا: (فدمِّروا بهم) على الأمر لجماعة وزيادة باء كما قال.

وفي «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦) عن علي أيضًا: (فدمرانِـهم)، كذا ضبطت في مطبوعه بكسر النون المخففة، ولم يذكر في تقييدها شيئًا.

(٢) البراهمة: فرقة من الهنود انتسبوا إلى رجل منهم يقال له: براهم، وقد مهد لهم نفي النبوات أصلاً، وقرر استحالة ذلك في العقول. انظر: «الملل والنحل» (٣/ ٩٦).

(٣) اللام على التعميم للجنس، وعلى التخصيص بقوم نوح للعهد، والأصل أن يقال عندئذ: وأعتدنا لهم عذابًا أليمًا، لكن وضع «الظالمين» موضع الضمير للتصريح بوصفهم بالظلم. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ٩٦).

وقُرِئَ: ﴿وَثَمُودًا﴾[(١)] على تَأويلِ القَبيلَةِ.

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ قومٌ كانُوا يَعبدونَ الأَصنامَ، فبعثَ اللهُ إليهِمْ شُعَيبًا فكَذَّبوهُ، فبَيْنَا هُم حولَ الرَّسِّ ـ وهي البئرُ غيرُ المطويَّةِ ـ فانهارَتْ، فخسفَ بهم وبديارِهِم[(٢)].

وقيلَ: الرَّسُّ: قريَةٌ بفَلَجِ اليَمامةِ كانَ فيها بقايا ثمودَ، فبُعِثَ إليهِمْ نَبِيٌّ فقَتلوهُ فهَلَكُوا[(٣)].

وقيلَ: الأُخدودُ[(٤)].

وقيلَ: بئرٌ بأَنطاكِيَّةَ قَتَلُوا فيها حبيبًا النَّجَّارَ.

وقيلَ: هُمْ أَصحَابُ حَنظلةَ بنِ صَفوانَ النَّبيِّ، ابتلاهُم اللهُ بطيرٍ عَظيمٍ كانَ فيها مِن كلِّ لونٍ وسَمَّوْهَا عَنْقاءَ لطولِ عُنقِها، وكانَتْ تَسكُنُ جبلَهُم الَّذي يقالُ لهُ: فَتْخٌ[(٥)]، أو: دَمْخٌ[(٦)]، وتنقضُّ على صِبيانِهم فتخطَفُهُم[(٧)] إذا أَعْوَزَهَا الصَّيدُ،

---

(١) قرأ بها حفص وحمزة، وقرأ الباقون بالصَّرف. انظر: «التيسير» (ص: ١٢٥).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤١٢)، والواحدي في «البسيط» (١٦/ ٥٠٦)، عن وهب بن منبه.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤١٣) عن قتادة، ورواه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٥١) بلفظ: «كانوا بحجر بناحية اليمامة على آبار»، والطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٥٢) بلفظ: «الرس قرية من اليمامة يقال لها: الفلج».

(٤) في نسخة الفاروقي: «صاحب الأُخدودُ».

(٥) في نسخة الفاروقي والطبلاوي: «فتح». قال الأنصاري في «الحاشية» (٤/ ٢٤٥): قيل: هو بتاء فوقية فخاء معجمة أو مهملة، وبياء تحتية وجيم. وانظر: «الأماكن» للحازمي (ص: ٧٥٨).

(٦) في نسخة الخيالي: «دمح». وفي «معجم البلدان» (٢/ ٤٦٢): دَمْخٌ ـ بفتح أوله، وسكون ثانيه، وآخره خاء معجمة ـ: اسم جبل كان لأهل الرّسّ مصعده في السماء ميل، وقيل: جبل لبني نفيل بن عمرو بن كلاب.

(٧) في نسخة الفاروقي: «فتختطفهم».

ولذلك سُمِّيَت مُغْرِبًا، فدَعَا عليها حنظلَةُ فأصابَتْها الصَّاعِقَةُ، ثمَّ إنَّهُم قتَلوهُ فأُهْلِكُوا [١].

وقيلَ: قومٌ كذَّبُوا نبيَّهُم، ورَسُّوه - أي: دَسُّوهُ - في بئرٍ [٢].

﴿وَقُرُونًا﴾: وأهلَ أعصارٍ، قيلَ: القرنُ أربعونَ سنةً، وقيلَ: سَبعونَ، وقيلَ: مئةٌ وعِشرونَ.

﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكرَ ﴿كَثِيرًا﴾ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ.

(٣٩) - ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾: بَيَّنَّا لهُ القصصَ العَجِيبَةَ مِن قصصِ الأوَّلينَ إنذارًا وإِعذارًا، فلَمَّا أصرُّوا أُهلِكُوا؛ كما قالَ: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾: فتَّتْنَاه تَفتيتًا، ومنه: «التِّبرُ» لفُتاتِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، و﴿كُلًّا﴾ الأوَّلُ مَنصوبٌ بما دلَّ عليه: ﴿ضَرَبْنَا﴾ كـ: أنذَرْنا، والثَّاني بـ﴿تَبَّرْنَا﴾ لأنَّه فارِغٌ عن الضَّميرِ [٣].

(٤٠) - ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ يعني: قُرَيشًا مَرُّوا مِرارًا في مَتاجِرِهم إلى الشَّامِ ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ يعني: سَدُوم عُظْمَى قُرَى قومِ لُوطٍ أُمطِرَتْ علَيْها الحِجارَةُ.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ في مرارِ مُرورِهِمْ، فيَتَّعِظونَ بما يَرَوْنَ فيها مِن آثارِ عَذابِ اللهِ؟

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾: بَلْ كانُوا كفرَةً لا يَتوقَّعونَ نُشورًا ولا عاقِبَةً،

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤١٣) عن سعيد بن جبير والكلبي والخليل.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٤٥٢) عن عكرمة.

(٣) «عن الضَّمير» من نسخة الطبلاوي.

فلذلك لَمْ يَنْظُروا ولَمْ يَتَّعِظُوا، فمَرُّوا بها كمَا مَرَّت رِكَابُهُم لا يأمُلونَ نُشورًا كما يأملُه المُؤمنونَ طَمَعًا في الثَّوابِ.

أو: لا يخافونَه على اللُّغةِ التِّهامِيَّةِ(١).

(٤١) ـ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾: ما يَتَّخِذونَكَ إلَّا مَوضِعَ هُزْءٍ، أو مَهزوءًا به.

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ مَحكِيٌّ بعدَ قولٍ مُضمَرٍ(٢)، والإشارةُ للاستحقارِ، وإخراجُ ﴿بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ في مَعرِضِ التَّسليمِ بجَعْلِه صِلَةً ـ وهم على غايةِ الإنكارِ ـ تهكُّمٌ واستهزاءٌ، ولولاهُ لقالوا: أهذا الَّذي زعمَ أنَّه بعثَهُ اللهُ رسولًا؟

(٤٢) ـ ﴿إِن كَادَ﴾: إنَّه كادَ ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ ليصرفَنا عن عِبادَتِها بفَرْطِ اجتِهادِه في الدُّعاءِ إلى التَّوحيدِ، وكثرةِ ما يوردُ ممَّا يسبقُ إلى الذِّهنِ أنَّها حُجَجٌ ومُعجِزاتٌ.

﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾: ثَبَتْنا عليها واستَمْسَكْنا بعِبادَتِها، و«لولا» في مثلِه تقيِّدُ الحكمَ المطلقَ مِن حَيثُ المَعنى دونَ اللَّفظِ(٣).

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ كالجوابِ لقَوْلِهِم: ﴿إِن

---

(١) سبقت الإشارة إليها في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

(٢) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: وفرق بعضهم بين المضمر والمحذوف بأنّ المضمر يقال فيما كان له أثر ظاهر أو مقدر، وهو هنا نصب المقول محلًّا لأنه مفعوله، والمحذوف بخلافه.

(٣) يعني: أنَّ «لولا» أفادت تقييد الحكم المطلق السابق من جهة المعنى؛ لأنها في معنى الشَّرط الذي هو قيد للجزاء، لكن من جهة اللفظ لا يجوز تقديم الجزاء على الشرط. وهذا على مذهب البصريين، أما الكوفيون فيجيزونه. انظر: «حاشية ابن التمجيد»، و«حاشية القونوي» (١٤/ ١٠٤).

﴿كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ فإنَّـه يفيـدُ نفـيَ مـا يلزمُـهُ ويكـونُ الموجِـبَ لـه[١]، وفيـه وعيـدٌ ودلالـةٌ علـى أنَّـه لا يُهمِلُهُـم وإنْ أَمْهَلَهُـم.

(٤٣) ـ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ بأَنْ أطاعَهُ وبَنَى عليهِ دِينَهُ، لا يسمَعُ حُجَّةً ولا يَتبصَّرُ دَليلًا، وإنَّما قُدِّمَ المفعولُ الثَّاني للعِنايَةِ به.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾: حفيظًا تَمنعُه عَن الشِّركِ والمَعاصِي وحالُه هذا؟ فالاستفهامُ الأوَّلُ للتَّقريرِ والتَّعجيبِ، والثَّاني للإنكارِ.

(٤٤) ـ ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾: بَـلْ أَتَحْسبُ ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ فتُجدِيَ لهم الآياتُ والحُجَجُ[٢]، فتهتَمَّ بشَأنِهِم وتَطمَعَ في إيمانِهِم؟

وهو أَشَدُّ مَذمَّةً ممَّا قبلَهُ حتَّى حُقَّ بالإضرابِ عنهُ إليه، وتخصيصُ الأكثرِ لأنَّه كانَ منهم مَن آمَنَ ومنهم مَن عَقَلَ الحقَّ وكابَرَ استكبارًا وخوفًا على الرِّئاسةِ.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـٰمِ﴾ في عدمِ انتِفاعِهِم بقرعِ الآياتِ آذانَهُم، وعدمِ تدبُّرِهِم فيما شاهَدُوا مِن الدَّلائلِ والمُعجِزاتِ.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مِن الأَنعامِ؛ لأنَّها تَنقادُ لمن يَتعهَّدُها، وتُميِّزُ مَن يُحسِنُ

---

(١) قوله: «كالجواب لقولهم: ﴿إِن كَادَ..﴾..» المراد بالجواب: الجواب المعروف لا جواب الشرط، وجعله كالجواب لا جوابًا لعدم صراحته، وقوله: «فإنه..» بيان لكونه كالجواب، والمراد أنهم جعلوا دعوته ﷺ إضلالًا، والمضل لغيره لا بد أن يكون ضالًا، وهذه الجملة تدل على نفي الضلال عنه لأنّ معناها: أنهم يعلمون أنهم في غاية الضلال لا هو، ونفي اللازم يقتضي نفي ملزومه، فيلزمه أن يكون هاديًا لا مضِلًّا. وقوله: «يكون» عطف على قوله: «يلزمه»، و«الموجب» بفتح الجيم وكسرها؛ أي: يفيد نفي ما يكون موجبًا لقولهم هذا، وهو كونهم على الهداية والرشاد. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الفاروقي: «أو الحجج».

إليها ممَّنْ يُسيءُ إلَيْها، وتطلبُ ما يَنفَعُها، وتتجنَّبُ ما يَضرُّهَا، وهؤلاءِ لا ينقادونَ لرَبِّهِم، ولا يَعرِفُونَ إحسانَه مِن إساءَةِ الشَّيطانِ، ولا يطلبونَ الثَّوابَ الَّذي هو أعظَمُ المَنافعِ، ولا يتَّقونَ العِقابَ الَّذي هو أشَدُّ المَضارِّ، ولأنَّها إنْ لم تَعْتَقِد حقًّا ولم تَكتَسِبْ خَيرًا لم تَعتَقِدْ باطِلًا ولم تَكتَسِبْ شَرًّا، بخِلافِ هؤلاءِ، ولأنَّ جهالَتَها لا تضرُّ بأحَدٍ، وجَهالةُ هؤلاءِ تُؤدِّي إلى هيجِ الفِتَنِ وصَدِّ النَّاسِ عَن الحقِّ، ولأنَّها غيرُ مُتمَكِّنَةٍ من طلبِ الكَمَالِ فلا تَقصيرَ مِنْها ولا ذَمَّ، وهؤلاءِ مُقَصِّرونَ مُستَحِقُّونَ أعظَمَ العِقابِ على تَقصيرِهِم.

(٤٥ ـ ٤٦) ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: ألَـمْ تَنْظُـر إلى صُنعِـهِ ﴿كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾: كيفَ بَسَطَهُ؟

أو: ألَـمْ تَنْظُـر إلـى الظِّلِّ كيـفَ مَدَّهُ رَبُّـكَ؟ فغيَّـرَ النَّظمَ إشـعارًا بـأَنَّ المعقولَ مِـن هذا الـكَلامِ لوُضـوحِ بُرهانِـه ـ وهو دَلالـةُ حُدوثِه وتَصرُّفِـه عَلى الوَجـهِ النَّافعِ بأسـبابٍ مُمكِنَـةٍ، علـى أَنَّ[١] ذلـك فعـلُ الصَّانـعِ الحَكيـمِ ـ كالمشـاهَدِ المَرئيِّ[٢]، فكيفَ بالمَحسـوسِ مِنْهُ؟!

أو: ألَـمْ يَنتَـهِ عِلمُـكَ إلى أنَّ ربَّـكَ كيفَ مَدَّ الظِّـلَّ، وهو فيما بينَ طُلـوعِ الفَجرِ والشَّـمسِ، وهـو أطيَبُ الأحوالِ؟! فـإنَّ الظُّلمةَ الخالِصَـةَ تُنَفِّرُ الطَّبعَ وتسـدُّ النَّظرَ، وشُـعَاعُ الشَّـمسِ يُسَـخِّنُ الجَـوَّ ويبهـرُ البصـرَ، ولذلـك وصـفَ بـه الجنَّـةَ فقـالَ: ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ [الواقعة: ٣٠][٣].

---

(١) قوله: «على أن ذلك» متعلق بـ«دلالةُ». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٤٨).

(٢) قوله: «كالمشاهد» خبرُ (أنَّ) في قوله: «بأنَّ المعقولَ». انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٤٨).

(٣) فالرؤية على هذا قلبيَّة، بخلاف القولين السابقين. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ١١٠).

﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾: ثابتًا، مِن السُّكْنَى، أو: غيرَ مُتقلِّصٍ، مِن السُّكونِ، بأَنْ يجعلَ الشَّمسَ مُقيمَةً على وضعٍ واحِدٍ.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ فإنَّه لا يظهَرُ للحِسِّ حتَّى تطلعَ فيقعَ ضَوْؤُها على بعضِ الأجرامِ، أو لا يوجَدُ ولا يَتفاوَتُ إلَّا بسببِ حَرَكَتِها.

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا﴾؛ أي: أَزَلْناه بإيقاعِ الشُّعاعِ موقعَه، لمَّا عبَّرَ عَن إحداثِه بالمَدِّ -بمَعنى: النَّشرِ- عَبَّرَ عَن إزالَتِه بالقَبْضِ إلى نَفسِهِ الَّذي هو في مَعنى: الكَفِّ.

﴿قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾: قليلًا قليلًا حَسْبَما ترتفِعُ الشَّمسُ؛ ليَنتظِمَ بذلك مَصالِحُ الكونِ ويَتحصَّلَ به ما لا يُحصَى مِن مَنافعِ الخَلقِ.

و﴿ثُمَّ﴾ في الموضِعَينِ لتَفاضُلِ الأُمورِ، أو لتَفاضُلِ مَبادِئِ أَوقاتِ ظُهورِهَا.

وقيلَ: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ لَمَّا بَنى السَّماء بلا نَيِّرٍ، ودَحا الأرضَ تحتَها فألقَتْ عليها ظِلَّها، ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ﴾ ثابتًا على تلك الحالِ، ﴿ثُمَّ﴾ خلقَ ﴿ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾؛ أي: مُسلَّطًا عليه مُستتبِعًا إيَّاه كما يَستَتبِعُ الدَّليلُ المَدلولَ، أو: دليلًا لطريقِ مَن تهديهِ، فإنَّه يتفاوَتُ بحَركَتِها ويتحوَّلُ بتَحوُّلِها، ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ شَيئًا فشَيْئًا إلى أَنْ تَنتَهِيَ غايةُ نُقصانِه، أو: قبضًا سَهْلًا عندَ قيامِ السَّاعةِ بقبضِ أسبابِه مِن الأجرامِ المُظِلَّةِ والمُظَلِّ عليها.

(٤٧) - ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ شبَّهَ ظلامَهُ باللِّباسِ في سترِه ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا﴾ راحةً للأَبدانِ بقَطعِ المَشاغلِ، وأَصلُ «السَّبتِ»: القَطعُ، أو: موتًا؛ كقَوْلِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] لأنَّه قطعُ الحياةِ، ومنه: «المَسبوتُ» للمَيتِ.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا﴾: ذا نُشورٍ؛ أي: انتشارٍ يَنتَشِرُ فيه النَّاسُ للمَعاشِ، أو:

بعثٍ[١] مِن النَّومِ بعثَ الأمواتِ، ويكونُ إشارةً إلى أنَّ النَّومَ واليَقَظةَ أنموذَجٌ للمَوْتِ والنُّشورِ، وعَن لُقمانَ عليه السَّلامُ: يا بنيَّ!كما تنامُ فتُوقَظُ كذلك تَموتُ فتُنْشَرُ[٢].

(٤٨) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأَ ابنُ كثيرٍ على التَّوحيدِ[٣] إرادةً للجنسِ.

﴿نُشُرًا﴾: ناشراتٍ للسَّحابِ، جمعُ نَشورٍ، وقرأَ ابنُ عامرٍ بالسُّكونِ على التَّخفيفِ، وحمزةُ والكِسائيُّ به وبفَتحِ النُّونِ على أنَّه مَصدَرٌ وُصِفَ بهِ[٤]، وعاصِمٌ: ﴿بُشْرًا﴾[٥] تخفيفُ «بُشُرٍ» جمعِ «بَشورٍ» بمَعنى: مُبشِّرٍ.

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ يعني: قدَّامَ المطرِ.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾: مُطهِّرًا؛ لقولِه: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وهو اسمٌ لِمَا يُتطَهَّر بهِ كـ«الوَضوءِ» و«الوَقودِ» لِمَا يُتوضَّأُ ويوقَدُ به[٦]، قالَ عليه السَّلامُ:

---

(١) أي: أو ذا بعثٍ، فهو عطف على «نشورٍ».

(٢) انظر: «ربيع الأبرار» للزمخشري (١/ ٨١)، وذكر الثعلبي نحوه في «تفسيره» (١٢/ ١٠٢) بلفظ: ويقال: مكتوب في التوراة: يا ابن آدم، كما تنام، كذلك تموت، وكما توقظ، كذلك تبعث.

(٣) انظر: «التيسير» (ص: ١٢٥).

(٤) يريد الصفة المعنوية، لا النعت النحوي؛ لأنه حال، وليس صفة. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ١١٧).

(٥) وقرأ بالأولى المصدَّرِ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٥)، و«التيسير» (ص: ١١٠).

(٦) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «مطهرًا» تفسير للمراد منه، وقوله: «لقوله...» دليل على أنّ المراد بالطَّهور المطهِّر؛ لأنَّ القرآن يفسر بعضُه بعضًا، ثم شرع في بيان كيفية دلالته على التطهير مع أنّ فَعولًا صيغةُ مبالغةٍ من الثلاثي وهو لازم، فكيف يفيد معنى التعدي؟ فقال: «وهو اسم لما يتطهر به».

«التُّرَابُ طَهورُ المؤمِنِ»[١]، «طَهورُ إناءِ أَحدِكُم إذا ولغَ الكلبُ فيه أَنْ يُغسَلَ سَبْعًا إحداهُنَّ بالتُّرابِ»[٢].

وقيلَ: بليغًا في الطَّهارةِ.

و«فَعُولٌ» وإِنْ غلبَ في المَعنيينِ لكنَّه قَدْ جاءَ للمَفعولِ كـ«الصَّبُوبِ»، وللمَصدرِ كـ«القَبُولِ»، وللاسمِ كـ«الذَّنُوبِ»[٣].

وتَوصيفُ الماءِ بهِ إشعارًا بالنِّعمَةِ فيه وتتميمًا[٤] للمنَّةِ فيما بعدَهُ، فإنَّ الماءَ الطَّهورَ أهنأُ وأنفعُ ممَّا خالطَهُ ما يزيلُ طهورِيَّتَه، وتنبيهًا على أنَّ ظواهِرَهُم لمَّا كانَتْ ممَّا يَنبَغِي أَنْ يُطَهِّروهَا فبواطنُهُم بذلكَ أولى.

---

(١) رواه النسائي في «سننه» (٣٢٢) عن أبي ذر بلفظ: «الصعيد الطيب وضوء المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين».

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٧٩) عن أبي هريرة بلفظ: «أولاهن بالتراب».

(٣) قوله: «وإن غلب في المعنيين»؛ أي: كونه اسم آلة كـ«طهور» وكونه للمبالغة بمعنى فاعِلٍ كـ«أكول»، و«صبوب» بصاد مهملة وباءين موحدتين بمعنى: مصبوب، قيل: بمعجمة «ضَبوب» بمعنى: الحَلوب، وفي نسخة: «ضَبوث» بضاد معجمة وباء موحدة وثاء مثلثة من «ضَبَثه»: إذا جسه بيده، والمراد ناقة تجس باليد للشك في سمنها، والمصدر بوزن فَعول بالفتح نادرٌ والمعروف فيه الضم، وقوله: «للاسم» بمعنى اسم الجنس الجامد، و«الذَّنوب»: الدلو المملوءة ماءً، أو القِربة من الماء، ويطلق على النصيب. انظر: «حاشية ابن التمجيد» و«حاشية القونوي» (١٤/ ١١٩).

(٤) قوله: «إشعارًا... وتتميمًا» كذا في النسخ، والجادة: «إشعار... وتتميم» على الخبرية لـ«توصيف»، ووجه الرفع أن يكون الخبر محذوفًا، والمنصوب مفعول له، والتقدير: وتوصيف الماء مذكور إشعارًا، وهو أسلوب كثر عند بعض الفقهاء والأصوليين، وبيَّن وجهه الشهاب في غير موضع من حاشيته، واستخدمه في كلامه، وذكر هنا أنه جاء في نسخة: «يوصف الماء به إشعارًا»، وهو ظاهر.

(٤٩) ـ ﴿ لِنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ بالنَّباتِ، وتَذكيرُ ﴿مَّيْتًا﴾ لأنَّ البلدةَ في مَعنى البَلدِ، ولأنَّه غيرُ جارٍ على الفعلِ كسائرِ أَبنِيَةِ المُبالغَةِ، فأُجرِيَ مُجرى الجامدِ[١].

﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ يعني: أهلَ البَوادِي الَّذينَ يعيشونَ بالحَيَا، ولذلك نكَّرَ الأنعامَ والأَناسِيَّ، وتَخصيصُهُم لأنَّ أهلَ المُدنِ والقُرَى يُقيمونَ بقُربِ الأنهارِ والمنابعِ، فبِهِم وبما حولَهُم مِن الأَنعامِ غُنيةٌ عَن سُقيَا السَّماءِ، وسائرُ الحَيواناتِ تُبعِدُ في طَلَبِ الماءِ فلا يُعوِزُهَا الشُّربُ غالِبًا، مع أنَّ مَساقَ هذه الآياتِ -كما هو للدَّلالةِ على عظيمِ القُدرَةِ- فهو لتعدادِ أنواعِ النِّعمَةِ، والأنعامُ قُنيَةُ الإنسانِ وعامَّةُ مَنافعِهِم، وعِلْيَةُ معايِشِهِم مَنوطَةٌ بها، ولذلك قدَّمَ سَقْيَها على سَقْيِهم، كما قَدَّمَ علَيْها إحياءَ الأَرضِ؛ فإنَّه سببٌ لِحَياتِها وتَعَيُّشِها.

وقُرِئَ: «نَسْقيَه»[٢]، و«سَقَى» و«أَسْقَى» لُغَتانِ. وقيلَ: «أَسْقَاهُ»: جَعَلَ لهُ سُقيا[٣].

و: «أَنَاسِيَ» بحذفِ ياءٍ[٤].

وهو[٥] جمعُ إِنْسِيٍّ، أو إنسانٍ ـ كـ: ظَرَابِيَّ في ظَرِبَانٍ ـ على أنَّ أصلَهُ: أَنَاسِينُ، فقُلِبَت النُّونُ ياءً.

---

(١) أي: لا يعمل عمله لعدم مشابهته له في الوزن، فلذلك ليس فيه ضمير حتى يكون مؤنثًا لتأنيث مرجعه. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ١٢٠).

(٢) قرأ بها ابن مسعود، والأعمش، والمفضل في رواية عن عاصم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦). والمشهور عن عاصم كقراءة الجماعة.

(٣) قوله: «سقيا» غير منصرف؛ لأن ألف فعلى لا تكون إلاَّ للتأنيث. انظر: «حاشية الجاربردي» (ج٢/ و٢٠٢ب).

(٤) نسبت ليحيى بن الحارث الذماري، ورويت عن الكسائي في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦).

(٥) أي: ﴿أناسيَّ﴾ بتشديد الياء كما في القراءة المشهورة.

(٥٠) ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾: صَرَّفْنَا هـذا القولَ بيـنَ النَّاسِ في القُرآنِ وسـائرِ الكُتبِ.

أو: المطـرَ ﴿بَيْنَهُمْ﴾: فـي البُلـدانِ المُختَلِفَـةِ والأوقـاتِ المُتغايـرَةِ والصِّفـاتِ المُتفاوتَـةِ مِـن وابـلٍ وطَـلٍّ وغيرِهمـا، وعَـن ابـنِ عبَّـاسٍ: مـا عـامٌ أمطَرَ مِـن عامٍ، ولكـنَّ اللهَ قسـمَ ذلـكَ بيـنَ عِبـادِهِ علـى ما شـاءَ، وتلا هـذِهِ الآيـةَ[1].

أو: في الأنهارِ والمنابعِ.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾: ليتفكَّـرُوا ويعرفـوا كَمـالَ القُدرةِ وحـقَّ النِّعمَةِ فـي ذلك ويقوموا بشُـكرِهِ، أو: ليَعتَبِرُوا بالصَّـرفِ عَنْهُم وإليهِمْ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بسكونِ الذَّالِ وضمِّ الكافِ مخفَّفةً[2].

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾: إلَّا كُفرانَ النِّعمَةِ وقلَّةَ الاكتراثِ لها، أو: جُحودَها بأَنْ يَقُولوا: مُطِرْنَا بنَوْءِ كذا[3]، ومَن لا يَرَى الأمطارَ إلَّا مِن الأَنواءِ كانَ كافِرًا، بخلافِ مَن يَرَى أَنَّها مَن خلقِ اللهِ والأَنْوَاءُ وَسائِطُ وأماراتٌ بجعلِهِ تَعالى.

(٥١) ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾: نبيًّا ينذرُ أهلَها فتخفُّ عليك أعباءُ النُّبوَّةِ، لكِنْ قَصَرْنا الأمرَ عليكَ إجلالًا لك وتعظيمًا لشَأنِكَ، وتَفـضِيلًا لك عَلى سائرِ الرُّسلِ، فقابِلْ ذلك بالثَّباتِ والاجتهادِ في الدَّعوةِ وإظهارِ الحَقِّ.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٥٢٠) وصححه وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في «التلخيص»، وعزاه المصنف في «الدر المنثور» (٦/ ٢٦٤) لعبد بن حميد.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٥)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٣) «النَّوء»: سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق، من «ناء»: نهض؛ لأنَّ الطالع ينهض، وبعضهم يجعل النَّوء السقوط، فهو من الأضداد. وانظر: «أدب الكاتب» لابن قتيبة (ص٨٧).

(٥٢) ـ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما يُريدُونَكَ عليه، وهو تهييجٌ له وللمُؤمنينَ، ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾: بالقُرآنِ، أو بتركِ طاعَتِهم الَّذي يدلُّ عليه ﴿فَلَا تُطِعِ﴾، والمعنى: أنَّهم يَجتَهِدونَ في إبطالِ حقِّكَ فقابِلْهُم بالاجتهادِ في مُخالفتِهم وإزاحةِ باطِلِهم.

﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ لأنَّ مُجاهدةَ السُّفهاءِ بالحُجَجِ أكبرُ مِن مُجاهدةِ الأَعداءِ بالسَّيفِ، أو لأنَّ مُخالفَتَهُم ومُعاداتَهم فيما بينَ أَظْهُرِهِم مع عُتُوِّهِم وظُهورِهِم، أو لأنَّه جهادٌ مَع كلِّ الكفرةِ لأنَّه مَبعوثٌ إلى كافَّةِ القُرَى.

(٥٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: خلَّاهما متجاوِرَينِ متلاصقَينِ بحيثُ لا يَتمازجان، مِن «مَرَجَ دابَّته»: إذا خلَّاها.

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامعٌ للعطشِ من فَرْط عُذوبتِه، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغُ المُلوحةِ.

وقُرِئَ: «مَلِحٌ» على فَعِلٍ[1]، ولعلَّ أصلَهُ: «مالحٌ» فخُفِّفَ؛ كـ«بَرِدٍ» في بارِدٍ.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾: حاجزًا مِن قُدرَتِه ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: وتَنافرًا بليغًا؛ كأنَّ كُلًّا مِنْهُما يقولُ للآخرِ ما يقولُه المتعوِّذُ منه[2].

وقيلَ: حَدًّا مَحدودًا، وذلك كدجلةَ تدخلُ البحرَ وتشقُّه، فتَجري في خلالِه فَراسخَ لا يَتغيَّرُ طعمُها.

---

(١) نسبت لطلحة بن مصرف وقتيبة عن الكسائي في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٥)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٥).

(٢) قوله: «المتعوذ منه» هكذا في نسخنا، وفي نسخة الطبلاوي: «المتعوذ عنه»، وجاء في بعض النسخ: «المتعوِّذ للمتعوَّذ عنه». انظر: «حاشية الخفاجي».

وقيلَ: المرادُ بالبَحرِ العَذبِ: النَّهْرُ العَظِيمُ مثلُ النِّيلِ، وبالبَحرِ المِلْحِ: البحرُ الكَبيرُ، وبالبَرزَخِ: ما يحولُ بينَهُما مِن الأرضِ، فتكونُ القُدرَةُ في الفصلِ واختلافِ الصِّفَةِ، مع أنَّ مُقتضَى طبيعَةِ أجزاءِ كلِّ عنصرٍ أن تَضامَّتْ[1] وتَلاصَقَتْ وتَشابَهَتْ في الكَيفِيَّةِ.

(٥٤) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ يعني: الَّذي خمَّرَ به طينةَ آدمَ، أو جعلَهُ جزءًا مِن مادَّةِ البَشرِ لتَجتَمِعَ وتَسْلُسَ وتَقبَلَ الأَشكالَ والهيئاتِ بسُهولَةٍ، أو النُّطفَةَ.

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾؛ أي: قسـمَهُ قِسْـمَينِ: ذَوَيْ نَسَـبٍ؛ أي: ذُكـورًا يُنسـبُ إليهـم، وذواتِ صهـرٍ؛ أي: إناثًا يصاهَـرُ بهنَّ؛ كقولِـه: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيثُ خلقَ مِن مادَّةٍ واحِدَةٍ بشرًا ذا أعضاءٍ مُختَلِفَةٍ وطِباعٍ مُتباعدَةٍ، وجعله قسمَينِ مُتقابلَينِ، وربَّما يَخلُقُ مِن نطفةٍ واحدةٍ تَوْأَمَيْنِ ذكَرًا وأُنثَى.

(٥٥) ـ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ يعني: الأصنامَ، أو كلَّ ما عُبدَ مِن دونِ اللهِ، إذ ما مِن مَخلوقٍ يستقلُّ بالنَّفعِ والضُّرِّ.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ يظاهـرُ الشَّـيطانَ بالعَـداوةِ والشِّـركِ، والمـرادُ بـ﴿ٱلْكَافِرُ﴾ الجِنسُ، أو أبو جهلٍ.

وقيلَ: هَيِّنًا مَهِينًا لا وَقْعَ له عندَهُ، مِن قولِهم: «ظَهَرْتُ به»: إذا نَبَذْتَه خلفَ ظَهرِكَ، فيكونُ كقَوْلِه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧].

(٥٦) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ للمُؤمنينَ والكافرينَ.

---

(١) المصدر المؤول في محل رفع خبر «أنَّ»، والمعنى: مع أنَّ مُقتضَى طبيعَةِ أجزاءِ كلِّ التَّضامُّ والتَّلاصق والتَّشابهُ في الكَيفِيَّةِ. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ١٣١).

(٥٧) ـ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾: على تَبليغِ الرِّسالَةِ ـ الَّذي يدلُّ عليه: ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ـ ﴿مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ﴾: إلَّا فعلَ مَن شاءَ ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾: أن يتقرَّبَ إليه ويَطلُبَ الزُّلفَى عِندَهُ بالإيمانِ والطَّاعةِ، فصوَّرَ ذلك بصُورَةِ الأَجرِ مِن حيثُ إنَّه مَقصودُ فِعلِه، واستثناه منه قَلْعًا لشُبهَةِ الطَّمعِ، وإظهَارًا لغايةِ الشَّفقَةِ، حيثُ اعتَدَّ بإنفاعِكَ[١] نفسَكَ بالتَّعرُّضِ للثَّوابِ والتَّخلُّصِ عَن العِقابِ أجرًا[٢] وافيًا مَرضِيًّا به مَقصُورًا عليه، وإشعارًا بأنَّ طاعاتِهِم[٣] تعودُ عليه بالثَّوابِ مِن حيثُ إنَّها بدَلالَتِه عليه السَّلامُ.

وقيلَ: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ مَعناه: لكن مَن شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبيلًا فليَفْعَل.

(٥٨) ـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في استكفاءِ شُرورِهِم والإغناءِ عَن أُجورِهِم، فإنَّه الحَقيقُ بأَنْ يُتوَكَّلَ عليه دونَ الأحياءِ الَّذينَ يموتونَ، فإنَّهُم إذا ماتوا ضاعَ مَن توكَّلَ عليهِم.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾: ونَزِّهْهُ عَن صفاتِ النُّقصانِ، مُثنِيًا عليه بأَوصافِ الكَمالِ، طالِبًا لِمَزيدِ الإنعامِ بالشُّكرِ على سَوابِقِه.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظهرَ مِنْها وما بَطَنَ ﴿خَبِيرًا﴾ مُطَّلِعًا، فلا عليكَ إنْ آمَنُوا أو كَفَرُوا.

(٥٩) ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قَدْ سبقَ الكلامُ فيه، ولعلَّ ذكرَهُ زيادَةُ تقريرٍ لكَوْنِه حَقيقًا بأن يُتوكَّلَ عليه مِن

---

(١) قوله: «حيث اعتد»؛ أي: الرسولُ «بإنفاعك»؛ أي: أيُّها المُبلَّغُ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٥٤).

(٢) قوله: «أجرًا» تمييز من نسبة الاعتداد إلى الرسول. انظر: «حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٥٤).

(٣) في نسخة التفتازاني والخيالي: «طاعتهم».

حَيثُ إنَّه الخالقُ للكُلِّ والمُتصرِّفُ فيه، وتحريضٌ على الثَّباتِ والتَّأنِّي في الأَمرِ، فإنَّه تَعالى مع كمالِ قُدرَتِه وسُرعَةِ نَفاذِ أَمرِهِ في كُلِّ مُرادٍ خلقَ الأشياءَ على تُؤَدَةٍ وتَدرُّجٍ.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ خبرٌ لـ﴿ٱلَّذِى﴾ إنْ جعَلْتَه مُبتدَأً، ولِمَحذوفٍ إن جعَلْتَه صِفَةً لـ﴿ٱلْحَىِّ﴾، أو بَدلٌ مِن المُستكِنِّ في ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾.

وقُرِئَ بالجرِّ صِفَةً لـ﴿ٱلْحَىِّ﴾(١).

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾: فاسأَلْ عمَّا ذكرَ مِن الخلقِ والاستواءِ عالِمًا يُخبركَ بحَقيقَتِه، وهوَ اللهُ تَعالى، أو جبريلُ، أو مَن وَجدَهُ في الكُتبِ المُتَقدِّمَةِ ليُصدِّقَكَ فيه.

وقيلَ: الضَّميرُ لـ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، والمعنى: إنْ أَنكرُوا إطلاقَهُ على اللهِ فاسأَلْ عَنه مَن يخبرُكَ مِن أهلِ الكتابِ ليعرفوا(٢) مجيءَ ما يُرادِفُه في كتبِهِم، وعلى هذا يجوزُ أَنْ يكونَ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مُبتدَأً والخبرُ ما بعدَهُ، والسُّؤالُ كمَا يُعدَّى بـ«عن» لتَضمُّنِه مَعنى التَّفتيشِ، يُعَدَّى بالباءِ لتَضمُّنِه مَعنى الاعتِناءِ(٣).

وقيلَ: إنَّه(٤) صِلَةُ ﴿خَبِيرًا﴾.

(٦٠) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لأَنَّهم ما كانُوا يُطلِقُونَه على اللهِ، أو لأَنَّهُم ظَنُّوا أنَّه أرادَ بِه غيرَهُ، ولذلك قالُوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؛ أي: للَّذي تَأمرُنَاه؛ يعني: تأمرُنَا بسُجودِه، أو: لأمرِكَ لَنا مِن غيرِ عِرفانٍ.

---

(١) قرأ بها زيد بن علي. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢١٦)، و«البحر المحيط» (١٦/ ٢٢٤).

(٢) في نسخة الفاروقي: «لتعرفوا».

(٣) قال القونوي في «حاشيته» (١٤/ ١٣٩): لكن معنى الاعتناء ليس بمناسب هنا.

(٤) أي: الباء في ﴿بِهِۦ﴾.

وقيلَ: لأَنَّهُ كانَ مُعرَّبًا لم يَسمعوهُ.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يأمُرنَا﴾ بالياءِ[١] على أنَّه قولُ بَعضِهم لبَعْضٍ.

﴿وَزَادَهُمْ﴾؛ أي: الأمرُ بسُجودِ الرَّحمنِ ﴿نُفُورًا﴾ عَن الإيمانِ.

(٦١) ـ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ يعني: البُروجَ الاثنَيْ عشَرَ[٢]، سُمِّيَتْ بهِ ـ وهيَ القُصورُ العالِيَةُ ـ لأنَّها للكَواكِبِ السَّيَّارَةِ كالمَنازِلِ لسُكَّانِها، واشتقاقُهُ مِن «التَّبرُّجِ» لظُهورِه[٣].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ يعني: الشَّمسَ؛ لقولِه: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿سُرُجًا﴾[٤]، وهي الشَّمسُ والكَواكِبُ الكِبَارُ.

﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾: مُضِيئًا باللَّيلِ. وقُرِئَ: «وقُمْرًا»[٥]؛ أي: ذا قُمْرٍ، وهو جمعُ قَمْراءَ[٦]، ويحتملُ أَنْ يَكونَ بمَعنى القَمَرِ كـ«الرُّشْدِ» و«الرَّشَدِ»، و«العُرْبِ» و«العَرَبِ».

(٦٢) ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾؛ أي: ذَوَيْ خِلْفَةٍ، يخلُفُ كلٌّ مِنْهُما الآخَرَ بأَنْ يقومَ مقامَهُ فيمَا يَنبَغِي أَنْ يعملَ فيه، أو بأَنْ يَعْتَقِبَا كقَولِه: ﴿وَاخْتِلَافِ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٢) هذا مبني على مسلك الحكماء. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ١٤١).

(٣) انظر: «الكشاف» (٦/ ١٨٠).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦) عن الحسن والأعمش.

(٦) قوله: «أي ذا قمر» قدّر فيه «ذا» بمعنى صاحب لأنَّه جمع قمراء بمعنى منيرة، وهي الليلة ذات القمر وصاحبها هو القمر نفسه، فيتضح وصفه بقوله: ﴿مُنِيرًا﴾ وكونه فيها، ويوافق القراءة المشهورة في المعنى، و﴿مُنِيرًا﴾ وصف للمضاف المقدر لأنّ المحذوف قد يعتبر بعد حذفه. انظر: «حاشية الخفاجي».

ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهي للحالَةِ[١] مِن «خَلَفَ»؛ كـ: الرِّكْبَةِ والجِلْسَةِ.

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾: أَنْ يتذَكَّرَ آلاءَ اللهِ ويتفكَّرَ في صُنْعِه، فيَعلمَ أَنْ لا بُدَّ لَهُ مِن صانعٍ حَكيمٍ واجبِ الذَّاتِ رَحيمٍ عَلى العِبادِ.

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾: أن يَشْكُرَ اللهَ على ما فيه مِن النِّعَمِ.

أو ليكونا وَقْتَينِ للمُتذكِّرينَ والشَّاكرينَ، مَن فاتَه وِرْدُه في أحدِهِما تَدارَكَهُ في الآخرِ.

وقرأ حمزَةُ: ﴿أَنْ يَذْكُرَ﴾[٢] مِن «ذَكَرَ» بمَعنى: تَذَكَّرَ، وكذلك: ﴿ليَذْكُروا﴾ [الفرقان: ٥٠]، ووافقَهُ الكِسائيُّ فيه[٣].

(٦٣) ـ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مُبتدَأٌ خبرُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ أو ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وإضافتُهم إلى ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ للتَّخصيصِ والتَّفضيلِ، أو لأنَّهُم الرَّاسِخونَ في عبادَتِه، على أنَّ ﴿عِبادُ﴾[٤] جمعُ عابدٍ كـ«تاجرٍ» و«تِجَارٍ».

﴿هَوْنًا﴾: هيِّنينَ، أو: مَشْيًا هَيِّنًا، مَصدرٌ وُصِفَ به، والمَعنى: أنَّهُم يمشونَ بسكينةٍ وتواضُعٍ.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾: تَسلُّمًا مِنْكُم ومُتاركَةً لكم لا خيرَ بَينَنا ولا شرَّ، أو: سدادًا مِن القَوْلِ يسلمونَ فيه مِن الإيذاءِ والإثمِ.

---

(١) هو ما يُشتهر اليوم باسم الهيئة. «الكامل في اللغة والأدب» للمبرد (٢/ ٤٠)، و«شرح ألفية ابن مالك» للشاطبي (٤/ ٣٦٥).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٥)، و«التيسير» (ص: ١٤٠).

(٤) في نسخة الخيالي: «عبادا».

ولا يُنافيهِ آيةُ القِتالُ لتنْسَخَه؛ فإنَّ المُرادَ هو الإغضاءُ عَن السُّفَهاءِ وتركُ مُقابلَتِهم في الكَلامِ(١).

(٦٤) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ في الصَّلاةِ، وتَخصيصُ البَيْتُوتَةِ لأنَّ العبادةَ باللَّيلِ أحمَزُ(٢) وأبعَدُ عَن الرِّيَاءِ.

وتأخيرُ القِيامِ للرَّويِّ، وهو جمعُ قائمٍ، أو مَصدرٌ أُجْرِيَ مُجراهُ.

(٦٥) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾: لازِمًا، ومنه «الغَرِيمُ» لِمُلازمَتِه، وهو إيذانٌ بأنَّهُم ـ مع حُسنِ مُخالقَتِهم مع الخلقِ واجتهادِهِم في عبادةِ الحقِّ ـ وَجِلُونَ مِن العَذابِ، مُبتَهِلُونَ إلى اللهِ في صرفِهِ عنهم؛ لعدمِ اعتِدادِهِم بأعمالِهِم ووثوقِهِم على استمرارِ أحوالِهِم(٣).

(٦٦) ـ ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾؛ أي: بِئسَتْ مُستقَرًّا، وفيها ضميرٌ مُبهَمٌ يُفسِّرُه المميِّزُ، والمَخصوصُ بالذَّمِّ ضَميرٌ مَحذوفٌ به ترتبِطُ الجملَةُ باسمِ «إنَّ».

أو: أحزنَتْ(٤)، وفيها ضميرُ اسمِ «إنَّ»، و﴿مُسْتَقَرًّا﴾ حالٌ أو تمييزٌ.

---

(١) هذا مختار الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ١٨٣)، وروى الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٤٦٤) نسخها عن أبي العالية والكلبي، وقال النحاس: لا نعلم لسيبويه كلامًا في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية، قال سيبويه: وزعم أبو الخطاب أن مثله قولك للرجل: سلامًا، تريد تسلمًا منك... قال: وزعم أن أبا ربيعة كان يقول: إذا لقيت فلاناً فقل: سلامًا، فسأله، ففسر له معنى: براءة منك، قال: وزعم أن هذه الآية: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] بمنزلة ذلك؛ لأن الآية فيما زعم مكية، فلم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلموا على المشركين، ولكنه على قوله: لا خير بيننا ولا شرَّ. انظر: «الكتاب لسيبويه» (١/ ٣٢٥)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص:٦٠٤).

(٢) أي: أشقُّ. انظر: «حاشية القونوي» (١٤/ ١٤٩).

(٣) بعدها في نسخة التفتازاني: «وآجالهم».

(٤) فـ ﴿سَآءَتْ﴾ على هذا هي فعل متصرف بمعنى «أساء»، وعلى الأول فعل جامد لإنشاء الذم.

والجُملَـةُ تعليـلٌ للعِلَّـةِ الأولـى، أو تَعليلٌ ثـانٍ، وكِلاهُمـا يحتمِـلانِ الحكايةَ والابتـداءَ مِن اللهِ.

(٦٧) ـ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾: لم يُجاوِزُوا حدَّ الكرمِ، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾: ولم يُضَيِّقُوا تضييقَ الشَّحيحِ.

وقيلَ: «الإسرافُ»: هو الإنفاقُ في المَحارمِ، و«التَّقتيرُ»: منعُ الواجبِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو بفتحِ الياءِ وكسرِ التَّاءِ، ونافعٌ وابنُ عامرٍ بضمِّ الياءِ وكسرِ التَّاءِ، من «أَقتَرَ»[١]، وقُرِئَ بالتَّشديدِ[٢]، والكُلُّ واحِدٌ.

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾: وَسَطًا وعَدْلًا، سُمِّيَ به لاستقامَةِ الطَّرَفينِ؛ كما سُمِّيَ سواءً لاستِوائِهِما، وقُرِئَ بالكَسرِ[٣]، وهو ما يُقامُ به الحاجةُ؛ لا يَفضُلُ عنها ولا ينقصُ.

وهو خبرٌ ثانٍ، أو حالٌ مؤكِّدةٌ، ويجوزُ أن يكونَ الخبرَ و﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ لغوًا، وقيلَ: إنَّه[٤] اسمُ ﴿كانَ﴾ لكنَّه مَبنِيٌّ لإضافَتِه إلى غيرِ مُتمَكِّنٍ، وهو ضَعيفٌ لأنَّه بمَعنى القوامِ، فيكونُ كالإخبارِ بالشَّيءِ عن نفسِهِ.

---

(١) وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح الياء وضم التاء. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٦)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٢) أي: «يُقتِّروا» بضم الياء وتشديد القاف، نسبت للعلاء بن سيابة واليزيدي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦).

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٢٥)، عن حسان بن عبد الرحمن.

(٤) أي: لفظ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾، وقد أُضيف إلى اسم الإشارة، وهو غير متمكن؛ أي: ليس معربًا.

(٦٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: حرَّمَها بمَعنى: حَرَّمَ قتلَها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بالقتلِ المَحذوفِ أو بـ﴿لا يقتلون﴾.

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ نَفَى عَنْهُم أُمَّهاتِ المعاصي بعدَما أثبتَ لهم أصولَ الطَّاعاتِ؛ إظهارًا لكمالِ إيمانِهم، وإشعارًا بأنَّ الأجرَ المَذكورَ موعودٌ للجَامعِ بين ذلك، وتَعريضًا للكفرةِ بأضدادِه، ولذلك عقَّبَه بالوعيدِ تهديدًا لهم فقَال:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾: جزاءَ إثمٍ، أو: إثمًا، بإضمارِ الجَزاءِ.

وقُرِئَ: «أيَّامًا»[١]؛ أي: شَدائدَ، يُقالُ: يومٌ ذو أيَّامٍ؛ أي: صَعبٌ.

(٦٩) ـ ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بدلٌ مِن «يَلْقَ» لأنَّه في معناهُ؛ كقولِه:

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بِنَا فِي دِيَارِنَا ... تَجِدْ حَطَبًا جَزْلًا وَنَارًا تَأَجَّجَا[٢]

وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ بالرَّفعِ على الاستئنافِ أو الحالِ، وكذلك: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾، وابنُ كثيرٍ ويعقوبُ ﴿يُضَعَّفْ﴾ بالجزمِ، وابنُ عامرٍ بالرَّفعِ فيهما مع التَّشديدِ وحذفِ الألفِ في ﴿يُضَعَّفُ﴾[٣]، وأبو عمرٍو: «يُخْلَدْ» على البناءِ للمَفعولِ مخفَّفًا[٤]، وقُرِئَ مُثقَّلًا[٥]، و: «نُضَعِّفْ له العذابَ»[٦].

---

(١) نسبت لابن مسعود. انظر: «الكشاف» (٦/ ١٨٩)، و«البحر المحيط» (١٦/ ٢٤٣)، ووقع في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧): (أيامى) يريد أثامًا. ونسبها أيضًا لابن مسعود.

(٢) البيت لعبيد الله بن الحر. انظر: «شرح كتاب سيبويه» للرماني (ص: ١٠١١)، و«شرح أبيات سيبويه» لابن السيرافي (٢/ ٧٧)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (٩/ ٩٠).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٤) ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٤٦٧) عن أبي عمرو رواية في غير المشهور عنه، وقال: وهو غلط. وهي في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧) عن المفضل عن عاصم.

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧) عن أبي حيوة.

(٦) نسبت لطلحة بن سليمان كما في «المحتسب» (٢/ ١٢٥).

ومضاعفةُ العذابِ لانضمامِ المَعصِيَةِ إلى الكفرِ، ويدلُّ عليهِ قولُه:

(٧٠) ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍ﴾ بأَنْ يَمْحُوَ سوابِقَ مَعاصيهِمْ بالتَّوبَةِ ويُثْبِتَ مَكانَها لواحِقَ طاعَاتِهِم، أو يبدلَ مَلَكَةَ المَعصِيَةِ في النَّفسِ بمَلَكَةِ الطَّاعَةِ.

وقيلَ: بأَنْ يُوَفِّقَهُ لأضدادِ ما سلفَ منه، أو بأَنْ يُثْبِتَ له بدلَ كلِّ عقابٍ ثوابًا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلكَ يعفو عن السَّيِّئاتِ، ويُثيبُ على الحَسَناتِ.

(٧١) ـ ﴿وَمَن تَابَ﴾ عن المَعاصِي بتَرْكِها والنَّدمِ عليها ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يَتلافَى بهِ ما فَرَّطَ، أو خرجَ عَن المَعاصِي ودخلَ في الطَّاعَةِ.

﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾: يرجعُ إلى اللهِ بذلك ﴿مَتَابًا﴾ مَرْضِيًّا عندَ اللهِ ماحِيًا للعِقابِ مُحصِّلًا للثَّوابِ.

أو: يتوبُ مَتابًا إلى اللهِ الَّذي يحبُّ التَّائبينَ ويَصطَنِعُ بهم(١).

أو: فإنَّه يرجِعُ إلى اللهِ وإلى ثوابِه مَرجِعًا حَسَنًا.

وهذا تَعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ.

(٧٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يُقيمُونَ الشَّهادةَ الباطِلَةَ، أو: لا يحضرونَ محاضرَ الكَذِبِ، فإنَّ مُشاهدةَ الباطلِ شركةٌ فيهِ.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ﴾: ما يَجِبُ أَنْ يُلْغَى ويُطرَحَ ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾: مُعرِضِينَ عنهُ مُكْرِمينَ أَنْفُسَهُم عَن الوُقوفِ عليه والخَوْضِ فيه، ومِن ذلك: الإِغضاءُ عَن الفَواحشِ، والصَّفحُ عَن الذُّنوبِ، والكنايَةُ عمَّا يُستَهْجَنُ التَّصريحُ به.

---

(١) قال الشهاب الخفاجي في «حاشيته»: قوله: «ويصطنع بهم» بمعنى: يحسن إليهم، وعداه بالباء لتضمنه معنى الرفق.

(٧٣) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ بالـوَعظِ والقِراءَةِ ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾: لم يُقيموا عليها غيرَ واعينَ لها ولا مُتبصِّرينَ[1] بما فيها كمَنْ لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ، بَلْ أَكَبُّوا عليها سامعينَ بآذانٍ واعِيَةٍ مُبصِرينَ بعُيونٍ راعِيَةٍ، فالمرادُ مِن النَّفيِ: نَفْيُ الحالِ دُونَ الفعلِ؛ كقَولِك: لا يَلْقَاني زَيدٌ مُسلِّمًا.

وقيلَ: الهاءُ للمعاصي المَدلولِ عَلَيْها باللَّغوِ[2].

(٧٤) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتَوْفيقِهِم للطَّاعَةِ وحيازَةِ الفَضائلِ، فإنَّ المُؤمِنَ إذا شارَكَهُ أهلُهُ في طاعَةِ اللهِ سُرَّ بِهِم قلبُه وقَرَّ بهم عينُهُ؛ لِمَا يرى مِن مُساعَدَتِهم له في الدِّينِ وتَوقُّعِ لُحوقِهِم بهِ في الجَنَّةِ.

و﴿مِن﴾ ابتِدائيَّةٌ، أو بَيانيَّةٌ؛ كقولِك: رأيتُ مِنْكَ أَسَدًا.

وقرأَ حمزَةُ وأبو عَمرٍو والكِسائيُّ وأبو بَكرٍ: ﴿وذُرِّيَّتِنا﴾[3].

وتنكيرُ الأَعْيُنِ لإرادةِ تَنكيرِ القُرَّةِ تَعظيمًا، وتَقليلُها[4] لأنَّ المُرادَ أعيُنُ المُتَّقينَ وهي قليلةٌ بالإضافَةِ إلى عُيونِ غَيرِهِم.

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يَقتَدُونَ بِنَا في أَمرِ الدِّينِ، بإفاضةِ العلمِ والتَّوفيقِ للعَمَلِ، وتوحيدُهُ[5] لدَلالَتِه على الجنسِ وعدمِ اللَّبسِ؛ كقولِه: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾

---

(١) في نسخة الخيالي: «ولا مستبصرين».

(٢) أي: الضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ راجع إلى المعاصي لا إلى الآيات، فحينئذ يكون النفي راجعًا إلى أصل الفعل مع القيد، والمعنى: لا خرور لهم على المعاصي ولا صمم ولا عمى عن الآيات. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٤/ ١٦٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٦٤).

(٤) أي: استعمال جمع القلة مع أن المقام مقام تعظيم.

(٥) أي: لفظ ﴿إِمَامًا﴾.

[غافر: ٦٧]، أو لأنَّه مَصدَرٌ في أَصلِهِ، أو لأنَّ المُرادَ: واجعَلْ كُلَّ واحِدٍ مِنَّا، أو لأنَّهُم كنَفسٍ واحِدَةٍ لاتِّحادِ طَريقَتِهِم واتِّفاقِ كَلِمَتِهِم.

وقيلَ: جمعُ آمٍّ كـ«صائِمٍ» و«صِيَامٍ»، ومَعناه: قاصِدينَ لَهُم مُقتَدِينَ بهم.

(٧٥) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾: أَعلى مَواضعِ الجنَّةِ، وهيَ اسمُ جِنْسٍ أُرِيدَ بِهِ الجَمْعُ؛ لقولِه: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وللقراءةِ بها[(١)]، وقيلَ: هي مِن أسماءِ الجنَّةِ.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾: بِصَبرِهِم على المَشاقِّ مِن مَضَضِ[(٢)] الطَّاعاتِ، ورَفضِ الشَّهَواتِ، وتَحمُّلِ المُجاهداتِ.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ دُعاءٌ بالتَّعميرِ والسَّلامَةِ؛ أي: يُحَيِّيهِم المَلائِكَةُ ويُسَلِّمُونَ عَلَيهِم، أو يُحَيِّي بَعضُهُم بَعضًا ويُسَلِّمُ عليه، أو تبقيَةً[(٣)] دائمَةً وسَلامَةً مِن كلِّ آفةٍ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وأبو بَكرٍ: ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾[(٤)] مِن لَقِيَ.

(٧٦) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يَموتونَ ولا يخرجونَ ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مُقابِلُ: ﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ [الفرقان: ٦٦] مَعنًى، ومثلُه إعرابًا.

---

(١) «وللقراءة بها»؛ أي: بـ«الغرفة» ثَمَّ بدلَ ﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾، وهي قراءة يحيى بن وثاب كما في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٢٣)، و«الكشاف» (٦/ ١٩٥)، و«حاشية الأنصاري» (٤/ ٢٦١).

(٢) «المَضَضُ» في الأصل: وجعُ المصيبةِ. انظر: «الصحاح» (٣/ ١١٠٦).

(٣) قوله: «أو تبقية...» معطوف على «دعاء بالتعمير»؛ أي: أو يعطون التَّبقِيَةَ والتخليد معَ السَّلامة من كُلِّ آفةٍ. انظر: «الكشاف» (٦/ ١٩٥)، و«حاشية شيخ زاده» (٦/ ٣١٨).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٨)، و«التيسير» (ص: ١٦٥).

(٧٧) ـ ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى ﴾: ما يَصنَعُ بِكُم، مِن «عَبَأْتُ الجَيْشَ»: إذا هَيَّأْتَه، أو: لا يَعْتَدُّ بِكُم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾: لولا عِبادَتُكم؛ فإنَّ شرفَ الإنسانِ وكرامتَهُ بالمَعرِفَةِ والطَّاعَةِ، وإلَّا فهُوَ وسائرُ الحيواناتِ سَواءٌ.

وقيلَ: معناهُ: ما يَصنَعُ بعَذَابِكُم لولا دُعاؤُكُم مَعَه آلهةً.

و﴿مَا﴾ إنْ جُعِلَت استِفهامِيَّةً فمَحلُّها النَّصبُ على المصدَرِ؛ كأنَّهُ قيلَ: أيَّ عَبْءٍ يَعبأُ بِكُم.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بِمَا أَخْبَرْتُكُم بِهِ حَيثُ خَالَفْتُموه.

وقيلَ: فقَدْ قَصَّرْتُم في العبادةِ؛ مِن قولِهِم: «كَذَبَ القِتَالَ» إذا لم يُبَالِغْ فيه.

وقُرِئَ: «فقَدْ كَذَّبَ الكافِرُونَ»[١]؛ أي: الكافرونَ مِنْكُم؛ لأنَّ توجُّهَ الخِطابِ إلى النَّاسِ عامَّةً بما وُجِدَ في جِنسِهِم مِن العِبادَةِ والتَّكذِيبِ[٢].

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾: يَكونُ جَزاءُ التَّكذيبِ لازِمًا يَحيقُ بِكُم لا مَحالةَ، أو: أثرُه لازمًا بِكُم حتَّى يكبَّكُم في النَّارِ، وإنَّما أُضمرَ مِن غيرِ ذِكرٍ للتَّهويلِ والتَّنبيهِ على أنَّه ممَّا لا يَكتَنِهُهُ[٣] الوَصفُ.

وقيلَ: المرادُ قَتلُ يومِ بَدْرٍ وأنَّه لوزِمَ بينَ القَتْلَى لزامًا.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧) عن ابن عباس، و«المحتسب» (٢/ ١٢٦) عنه وعن ابن الزبير. ورواها عنهما الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨).

(٢) اختار المصنف إلى أنَّ الخطاب على عمومه، وقد تبع في هذا الزمخشري في «الكشاف» (٦/ ١٩٧)، والظاهر أنه خطاب لكفار قريش، فالآيات نازلة لتقريعهم على عنادهم وتكذيبهم آيات الله تعالى. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٦/ ٣١٩).

(٣) «الكُنْه»: نِهايةُ الشَّيء وحقيقتُه. واكتَنَهْتُ الأمرَ اكتناهاً: إذا بلغتَ كُنْهَه. انظر: «تهذيب اللغة» (٦/ ١٨).

وقُرِئَ: «لَزامًا» بمعنى: اللُّزومِ[١]؛ كـ«الثَّباتِ» و«الثُّبوتِ».

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورَةَ الفُرقانِ لَقِيَ اللهَ وهوَ مُؤمِنٌ بأنَّ السَّاعةَ آتيَةٌ لا ريبَ فيها، وأُدخِلَ الجنَّةَ بغيرِ نَصَبٍ»[٢].

***

(١) انظر: «شواذ القراءات» للكرماني (ص: ٣٥٢) عن أبي السمال، و«البحر المحيط» (١٦/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤) عن المنهال وأبان بن تغلب وأبي السمال، وفي «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧): (لَزامِ) بفتح اللام ولا ألف أبو السمال، فاللِّزام المصدر، واللَّزامِ مثل حذامِ وقطامِ.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٩/ ٣٥٤) من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. وانظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٨٨٥)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(٢٥) سورة الفرقان مكية
وآياتها سبع وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾، وقال ههنا: ﴿تبارك﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة، ﴿الذي نزل الفرقان﴾ نزّل فعّل من التكرر والتكثر، كقوله: ﴿والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصلاً آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور، وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال في هذه السورة: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾ ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وقوله: ﴿على عبده﴾ هذه صفة مدح وثناء، لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء فقال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾، وقوله: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ الذي جعله فرقاناً عظيماً ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء، كما قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، وقال: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ الآية، وهكذا قال ههنا: ﴿الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾ ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك، ثم أخبر أنه ﴿خلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه، ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا

حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء المالك لأزمة الأمور الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فكيف يملكون لعابديهم؟ ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ أي ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عزَّ وجلَّ الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم، ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، كقوله: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، وقوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾، ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ فهو الله الذي لا إِلَه غيره ولا رب سواه ولا تنبغي العبادة إلا له، وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عديل ولا بديل ولا وزير ولا نظير بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

* وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿إن هذا إلا إفك﴾ أي كذب ﴿افتراه﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ أي واستعان على جمعه بقوم آخرين[1]، فقال الله تعالى: ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه، ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾ يعنون كتب الأوائل أي استنسخها ﴿فهي تملى عليه﴾ أي تقرأ عليه ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أي أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر أن محمداً ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله، ومخرجه، وصدقه ونزاهته وبره وأمانته، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره، وإلى أن بعث: (الأمين) لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون ساحر، وتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون مجنون، وتارة يقولون كذاب، وقال الله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾. وقال تعالى في جواب ما عاندوا ههنا وافتروا: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ الآية: أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين ﴿الذي يعلم السر﴾، أي الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر، وقوله تعالى: ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾، دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم، مع أن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال

(١) يعنون: جبراً مولى الحضرمي، وعداساً غلام عتبة، والقائل: أبو جهل لعنه الله.

تعالى: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾، وقال تعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

۞ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ يعنون كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ويمشي في الأسواق﴾ أي يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه؟ وهذا كما قال فرعون: ﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم، ولهذا قالوا ﴿أو يلقى إليه كنز﴾ أي علم كنز ينفق منه ﴿أو تكون له جنة يأكل منها﴾ أي تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة، ﴿وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾، قال الله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا﴾ أي جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم ساحر، مجنون، كذاب، شاعر؛ وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فضلوا﴾ عن طريق الهدى ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾، وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيثما توجه، لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً؛ ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه إن شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ الآية. قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً، كبيراً كان أو صغيراً. قال سفيان الثوري عن خيثمة قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً قبلك، ولا نعطي أحداً من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله. فقال: «اجمعوها لي في الآخرة»، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في ذلك: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ الآية .

وقوله تعالى: ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً

واسترشاداً، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿وأعتدنا﴾ أي أرصدنا ﴿لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ أي عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم، وقوله: ﴿إذا رأتهم﴾ أي جهنم ﴿من مكان بعيد﴾ يعني في مقام المحشر، قال السدي: من مسيرة مائة عام ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ أي حنقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور ، تكاد تميّز من الغيظ﴾ أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله. عن أبي وائل قال: خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم، فروا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، وينظر الربيع بن خيثم إليها، فتمايل الربيع ليسقط، فمر عبد الله على أتون على شاطىء الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ فصعق، يعني الربيع، وحملوه إلى أهل بيته، فرابطه عبد الله إلى الظهر، فلم يفق رضي الله عنه. وعن مجاهد بإسناده إلى ابن عباس قال: إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الرحمن: مالك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي؛ وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي؛ وإن الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف[1]. وقال عبيد بن عمير في قوله: ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ قال: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرَّ لوجهه، ترتعد فرائصه، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه، ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي[2]، وقوله: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين﴾ قال قتادة: مثل الزج في الرمح أي من ضيقه، وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين﴾ قال: «والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط». وقوله: ﴿مقرنين﴾ يعني مكتفين ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة، ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً﴾ الآية. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذريته من بعده، وهو ينادي: يا ثبوراه، وينادون: يا ثبورهم، حتى يقفوا على النار، فيقول: يا ثبوراه، ويقولون: يا ثبورهم، فيقال لهم: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾. عن ابن عباس: أي لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً وادعوا ويلاً كثيراً، وقال الضحاك: الثبور الهلاك، والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً﴾ أي هالكاً

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين، لا يستطيعون حراكاً ولا استنصاراً ولا فكاكاً

(١) ذكره ابن جرير رحمه الله في تفسيره وقال ابن كثير: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن مجاهد عن عبيد بن عمير.

مما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم جزاء ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا وجعل مآلهم إليها؟! ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ من الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، ولا يبغون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كان على ربك وعداً مسئولاً﴾ أي لا بد أن يقع وأن يكون، أي وعداً واجباً، وقال محمد بن كعب القرظي: إن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾، وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا، فذلك قوله: ﴿وعداً مسئولاً﴾ وهذا المقام في هذه السورة كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنة وما فيها من النضرة والحبور، ثم قال: ﴿أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ۝ إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾ الآيات.

* وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾، قال مجاهد: هو عيسى والعزير والملائكة، ﴿فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء﴾ الآية، أي فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ الآية. ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾، أي ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ أي طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ قال ابن عباس: أي هلكى، وقال الحسن البصري: أي لا خير فيهم. قال الله تعالى: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله، فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى كقوله تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾. وقوله: ﴿فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ أي لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿ومن يظلم منكم﴾ أي يشرك بالله ﴿نذقه عذاباً كبيراً﴾.

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم على صدق ما جاءوا به من الله، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾؟ أي اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي، ولهذا قال ﴿أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾ أي بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ ومن يستحق أن يهديه الله ومن لا يستحق ذلك، وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾؟ قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليكم بهم، وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى إني مبتليك ومبتل بك»[1]، وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خيِّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختار أن يكون عبداً رسولاً.

* وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن تعنت الكفار في كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أي بالرسالة كما تنزل على الأنبياء، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾، ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ فنراهم عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله، كقولهم: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلا﴾، ولهذا قالوا ﴿أو نرى ربنا﴾، ولهذا قال الله تعالى ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾، وقوله تعالى: ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي هم يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار، حين تبشرهم الملائكة بالنار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: أخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، أخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه، كما قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم﴾ أي بالضرب، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات، قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾، وفي الصحيح عن البراء بن عازب: إن الملائكة تقول لروح المؤمن: أخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تعمرينه،

---

(١) أخرجه مسلم عن عياض بن حماد مرفوعاً.

أخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان[1] ، وقال آخرون: بل المراد بقوله ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى﴾ يعني يوم القيامة، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما؛ ولا منافاة بين هذا وما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين – يوم الممات ويوم المعاد – تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم، وأصل الحجر المنع، ومنه يقال: حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف، إما لسفهٍ أو صغرٍ أو نحو ذلك؛ ومنه يقال للعقل (حِجْر) لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق، والغرض أن الضمير في قوله: ﴿ويقولون﴾ عائد على الملائكة، هذا قول مجاهد وعكرمة والضحاك واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾ الآية، هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾، عن علي رضي الله عنه في قوله ﴿هباء منثوراً﴾ قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة. وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدكم ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع، وقال ابن عباس ﴿هباء منثوراً﴾ قال: هو الماء المهراق، وقال قتادة: أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورق. وروى عبدالله بن وهب عن عبيد بن يعلى قال: إن الهباء الرماد إذا ذرته الريح، **وحاصل هذه الأقوال** التنبيه على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحداً إذا بها لا شيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ .

وقوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا﴾ أي يوم القيامة ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات، والغرفات الآمنات، فهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام ﴿خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، وأنواع العذاب والعقوبات ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ أي بئس المنزل منظراً وبئس المقيل مقاماً، ولهذا قال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار، فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم والنجاة من النار، فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء وأنه لا خير عندهم بالكلية، فقال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾، قال ابن عباس: إنما هي ساعة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين، وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار فيقيل

(١) تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الآية .

أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾، قال قتادة: أي مأوى ومنزلاً. وقال ابن جرير عن سعيد الصواف: أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وانهم يتقلبون في رياض الجنة، حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ .

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها، وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السماوات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ الآية. قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك

وقوله تعالى: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿لمن الملك اليوم. لله الواحد القهار﴾ وفي الصحيح: أن الله تعالى يطوي السماوات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟. وقوله: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ أي شديداً صعباً لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير﴾ فهذا حال الكافرين في هذا اليوم، وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ الآية، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال، قيل: يا رسول الله ﴿يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا». وقوله تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ الآية، يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفاً، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن معيط[1]، أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم كما قال تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار﴾ الآيتين، فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلا ﴿يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك (أمية بن خلف) أو أخوه (أبي بن خلف) أو غيرهما ﴿لقد أضلني عن الذكر﴾ وهو القرآن ﴿بعد إذ جاءني﴾

(١) أخرج ابن جرير: كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ، فيزجره عقبة بن أبي معيط، فنزلت هذه الآية، كما في اللباب.

أي بعد بلوغه إليَّ، قال الله تعالى: ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولا﴾ أي يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه .

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه ، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ الآية، فكانوا إذا تلي عليهم القرآن، أكثروا اللغط والكلام حتى لا يسمعونه؛ فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول، أو غناءٍ أو لهوٍ من هجرانه. وقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضين، لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾ الآية، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ أي لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم حيث قالوا: ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ أي هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كقوله: ﴿وقرآناً فرقناه﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾، قال قتادة: بيناه تبييناً، وقال ابن زيد: وفسرناه تفسيراً ﴿ولا يأتونك بمثل﴾ أي بحجة وشبهة ﴿إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم، قال ابن عباس: ﴿ولا يأتونك بمثل﴾ أي بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إلا جئناك بالحق﴾ أي: إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله عزَّ وجلَّ بالقرآن صباحاً ومساء، سفراً وحضراً، لا كإنزال ما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى،

وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً: ففي الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث. روي عن ابن عباس أنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾، وقال تعالى: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾[1]

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات، ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾، وفي الصحيح عن أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً أي نبياً موازراً ومؤيداً وناصراً، فكذبهما فرعون وجنوده فـ﴿دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾، وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ ويحذرهم نقمه ﴿فما آمن معه إلا قليل﴾، ولهذا أغرقهم الله جميعاً ولم يبق منهم أحداً، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط، ﴿وجعلناهم للناس آية﴾ أي عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾ أي وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم من إنجائكم من الغرق، وقوله تعالى: ﴿وعاداً وثمود وأصحاب الرس﴾ قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة كسورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة. وأما أصحاب الرس فقال ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود، وقال عكرمة: أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس، وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة، وعن عكرمة: الرس بئر رسوا فيها نبيهم، أي دفنوه فيها

---

(١) أخرجه النسائي بإسناده عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ أي وأمماً – أضعاف من ذكر أهلكناهم – كثيرة، ولهذا قال: ﴿ وكلاً ضربنا له الأمثال ﴾ أي بينا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة، وأزحنا الأعذار عنهم، ﴿ وكلاً تبرنا تتبيراً ﴾ أي أهلكنا إهلاكاً، كقوله تعالى: ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾، والقرن هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾، وحَدَّه بعضُهم بمائة، وقيل بثمانين، **والأظهر** أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر، كما ثبت في الصحيحين: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث. ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴾ يعني قرية قوم لوط وهي (سدوم) التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى: ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾، وقال: ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾، وقال: ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾، ولهذا قال: ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾؟ أي فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم أوامر الله، ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون، لأنهم ﴿ لا يرجون نشوراً ﴾ أي معاداً يوم القيامة

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه، كما قال تعالى: ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ الآية، يعنونه بالعيب والنقص، وقال ههنا: ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا ﴾؟ أي على سبيل التنقص والازدراء، وقوله تعالى: ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ﴾ يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها، قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب ﴾ الآية، ثم قال تعالى لنبيه منبهاً: أنَّ من كتب الله عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله عزَّ وجلَّ، ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ أي مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾؟ قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول، ثم قال تعالى: ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ﴾؟ الآية، أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

شرع سبحانه وتعالى في بيانه الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾؟ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ولو شاء لجعله ساكناً﴾ أي دائماً لا يزول، وقوله تعالى: ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، وقال قتادة والسدي: دليلاً تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله، وقوله تعالى: ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ أي الظل، وقيل الشمس، ﴿يسيراً﴾ أي سهلاً، قال ابن عباس: سريعاً، وقال مجاهد خفياً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة. وقال أيوب بن موسى ﴿قبضاً يسيراً﴾: قليلاً قليلاً. وقوله: ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه، كما قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى﴾، ﴿والنوم سباتاً﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً، ﴿وجعل النهار نشوراً﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي بمجيء السحاب بعدها. والرياح أنواع، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر، ولهذا قال تعالى: ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً﴾ أي آلة يتطهر بها كالسحور. فهذا أصح ما يقال في ذلك، وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن خالد بن يزيد قال: كنا عند عبد الملك بن مروان، فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء، ومنه ما يسوقه الغيم من البحر فيذبه الرعد والبرق؛ فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات، فأما النبات فما كان من السماء؛ وروي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة. وقال غيره: في البَرّ بُرٌّ، وفي البحر دُرٌّ. وقوله تعالى: ﴿لنحيي به بلدة ميتاً﴾ أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الحياء عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ الآية، ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا﴾ أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعداها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى، فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقاً والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة. قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾: أي ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات، أو ليذكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فيقلع عما هو فيه. وقوله: ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ قال

عكرمة: يعني الذين يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب».

* وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

يقول تعالى: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ يدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ، ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾، ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، وفي الصحيحين: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، وفيهما «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به﴾ يعني بالقرآن، قاله ابن عباس ﴿جهاداً كبيراً﴾، كما قال تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج﴾ أي خلق الماءين الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار. قـاله ابن جريج واختاره ابن جرير، وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذاب فرات، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً أو عيوناً في كل أرض، بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم، وقوله تعالى: ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مالح، مرٌّ، زُعاق لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب، البحر المحيط وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وهو ذو القدرة التامة - العادة بذلك؛ فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»[1]. وقوله تعالى: ﴿وجعل بينهما برزخاً وحجراً﴾ أي بين العذب والمالح ﴿برزخاً﴾ أي حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿وحجراً محجوراً﴾ أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر، كقوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾، وقوله تعالى: ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون﴾، وقوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾ الآية، أي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة

---

(١) رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد.

فسوَّاه وعدّله، وجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى كما يشاء، ﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات، وكل ذلك من ماء مهين، ولهذا قال تعالى: ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً بلا دليل قادهم إلى ذلك ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ أي عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، قال مجاهد ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ قال: يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه، وقال سعيد بن جبير: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك، وقال زيد بن أسلم: موالياً، ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله، ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ أي على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى، ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أي طريقاً ومسلكاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به، ثم قال تعالى: ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾(١) أي في أمورك كلها، كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، الدائم الباقي السرمدي، الأبدي الحي القيوم، رب كل شيء ومليكه، اجعله ذخرك وملجأك، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك، كما قال تعالى: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وسبح بحمده ﴾ أي اقرن بين حمده وتسبيحه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك »، أي أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أي بعلمه التام لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة، وقوله تعالى: ﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ الآية، أي هو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي خلق بقدرته

---

(١) روى ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب قال: لقي سلمان النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة فسجد له، فقال: « لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت » قال ابن كثير: وهو مرسل حسن.

وسلطانه السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾، يدبر الأمر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين، وقوله: ﴿فاسأل به خبيراً﴾ أي استعلم عنه من هو خبير به عالم به، فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به، من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الإطلاق، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فما قاله فهو الحق، وما أخبره به فهو الصدق، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسأل به خبيراً﴾، قال مجاهد: ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك، وقال شمر بن عطية: هذا القرآن خبير به، ثم قال تعالى منكراً على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾؟ أي لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم؛ ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ أي هو الله وهو الرحمن، وقال في هذه الآية: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾ أي لا نعرفه ولا نقرّ به، ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾؟ أي لمجرد قولك، ﴿وزادهم نفوراً﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالإلَهية ويسجدون له.

۞تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

يقول تعالى ممجداً نفسه ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج، وهي الكواكب العظام[1]، وقيل: هي قصور في السماء للحرس[2]، والقول الأول أظهر، اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً﴾ وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾، ﴿وقمراً منيراً﴾ أي مشرقاً مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً﴾، وقال: ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾، ثم قال تعالى: ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة﴾ أي يخلف كل واحد منهما الآخر يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، كما قال تعالى: ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ الآية، وقال: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ الآية، وقال: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن الله عز وجلّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل». قال ابن عباس في الآية: من فاته شيء من الليل

(١) وهو قول مجاهد والحسن وقتادة وسعيد بن جبير

(٢) وهو مروي عن علي وابن عباس وإبراهيم النخعي

أن يعمله أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل، وقال مجاهد وقتادة: خلفة أي مختلفين، أي هذا بسواده وهذا بضيائه.

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ أي بسكينة ووقار من غير تجبر ولا استكبار، كقوله تعالى: ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ الآية. وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحطُّ من صَبَب وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال: ما بالك ! أأنت مريض ؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشي بقوة، وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا»، وقوله تعالى: ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ، لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً، وكما قال تعالى: ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ الآية، وقال مجاهد ﴿ قالوا سلاماً ﴾: يعني قالوا سداداً، وقال سعيد بن جبير: ردوا معروفاً من القول، وقال الحسن البصري: قالوا سلام عليكم، إن جهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل؛ فقال تعالى: ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ أي في طاعته وعبادته، كما قال تعالى: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾، وقوله: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ أي ملازماً دائماً كما قال الشاعر

إنْ يُعذّبْ يكنْ غراماً وإن يعـ ـطِ جزيلاً فإنه لا يبالي

ولهذا قال الحسن في قوله ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾: كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت الأرض والسماوات. ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ أي بئس المنزل منزلاً وبئس المقيل مقاماً، وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال: إن في النار لجباباً فيها حيات أمثال البُخْت، وعقارب أمثال البغال الدُّهْم، فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها، فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم، فإذا وجدت حر النار رجعت. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنان يا منان، فيقول الله عزَّ وجلَّ لجبريل: اذهب فأتني بعبدي هذا، فينطلق جبريل، فيجد أهل النار مكبين يبكون، فيرجع إلى ربه عزَّ وجلَّ فيخبره، فيقول

الله عزَّ وجلَّ: ائتني به فإنه في مكان كذا وكذا، فيجيء به، فيوقفه على ربه عزَّ وجلَّ، فيقول له: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب شر مكان وشر مقيل، فيقول الله عزَّ وجلَّ: ردوا عبدي، فيقول: يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها، فيقول الله عزَّ وجلَّ: دعوا عبدي»[1]. وقوله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ الآية، أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم، فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾، كما قال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ الآية. وفي الحديث: «من فقه الرجل قصده في معيشته»[2]، وعن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»، وقال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف، وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف، وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله عزَّ وجلَّ.

۞ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

عن عبد الله بن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله أنداداً وهو خلقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ الآية[3] وعن سلمة بن قيس قال، قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هي أربع» فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا». وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره» قال: «فما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره». وعن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له»[4]، وقال ابن عباس: إن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ الآية، ونزلت: ﴿قل

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند. (٢) أخرجه الإمام أحمد أيضاً.

(٣) أخرجه النسائي والإمام أحمد ورواه البخاري ومسلم ولفظهما عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ الحديث. (٤) أخرجه أبو بكر بن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك مرفوعاً

يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾، روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: أثاماً: واد في جهنم، وقال عكرمة ﴿يلق أثاماً﴾ أودية في جهنم يعذب فيها الزناة، وقال قتادة ﴿يلق أثاماً﴾: نكالاً، كنا نحدث أنه واد في جهنم، وقال السدي ﴿يلق أثاماً﴾ جزاء، وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله تعالى: ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة﴾ أي يقرر عليه ويغلظ ﴿ويخلد فيه مهاناً﴾ أي حقيراً ذليلاً، وقوله تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿إلا من تاب﴾ أي في الدنيا إلى الله عزَّ وجلَّ من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ الآية، فإن هذه وإن كانت مدنية، إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب.

وقوله تعالى: ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾. في معنى قوله: ﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ قولان: **أحدهما** أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات، قال ابن عباس: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات، وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً، وبالكفر إسلاماً، (**والقول الثاني**): أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف رضي الله عنهم. فعن أبي ذر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحوّا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال فيقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا» قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه»[1].

وعن أبي هريرة قال: ليأتين الله عزَّ وجلَّ بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات، قيل: من هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات[2]، وقال علي بن الحسين زين العابدين ﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ قال: في الآخرة. وقال مكحول: يغفرها لهم فيجعلها حسنات، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال: جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال: يا رسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبة؟ فقال النبي ﷺ: «أأسلمت؟» قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال النبي ﷺ: «فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات»، فقال: يا رسول الله وغدراتي وفجراتي؟ فقال: «وغدراتك وفجراتك»، فولى الرجل يكبر ويهلل[3]. ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً كبيراً أو صغيراً، فقال تعالى: ﴿ومن تاب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موقوفاً. (٣) رواه ابن أبي حاتم وأخرجه الطبراني بنحوه.

وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآية: أي لمن تاب إليه.

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق واللغو والباطل، وقال محمد بن الحنفية: هو اللغو والغناء، وقال عمرو بن قيس: هي المجالس السوء والخنـا، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لا يشهدون الزور﴾ أي شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره كما في الصحيحين: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»؟ ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك بالله وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[1]، والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي لا يحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذ مروا باللغو مروا كراماً﴾ أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مروا كراماً﴾، وروى ابن أبي حاتم عن ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود مرّ بلهو معرضاً فلم يقف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً» ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، وقوله تعالى: ﴿والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه، ولا يتغير عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه، وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾، فقوله: ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى، قال مجاهد قوله: ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ قال: لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً، وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى، وقال قتادة: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه.

وقوله تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له، قال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة، قال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال: أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولداً، أو ولد ولد، أو أخاً، أو حميماً مطيعاً لله عزَّ وجلَّ. وقال ابن

(١) أخرجه الشيخان عن أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً.

أسلم: يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام. وقوله تعالى: ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ قال ابن عباس والحسن والسدي: أئمة يقتدى بنا في الخير، وقال غيرهم: هداة مهتدين دعاة إلى الخير، ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية».

أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿ أولئك ﴾ أي المتصفون بهذه ﴿ يجزون ﴾ يوم القيامة ﴿ الغرفة ﴾ وهي الجنة سميت بذلك لارتفاعها، ﴿ بما صبروا ﴾ أي على القيام بذلك، ﴿ ويُلقّون فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ تحية وسلاماً ﴾ أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾، وقوله تعالى: ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا، كما قال تعالى: ﴿ وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ أي حسنت منظراً وطابت مقيلا ومنزلاً، ثم قال تعالى: ﴿ قل ما يعبأ بكم ربي ﴾ أي لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلاً.

قال ابن عباس: لولا دعاؤكم: أي لولا إيمانكم، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة.

[آخر تفسير سورة الفرقان، ولله الحمد والمنة]

✲ ✲ ✲

تفسير سورة الفرقان

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) ﴾.

يقول تعالى حامداً نفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم ، كما قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا . قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ [أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا] (١) ﴾ [الكهف : ١ ـ ٣] ، وقال هاهنا : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نزَّل: فَعَّل ، من التكرر ، والتكثر ، كما قال : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] ؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة ، والقرآن نزل (٢) مُنَجَّماً مُفَرَّقاً مُفَصَّلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام ، وسوراً بعد سُوَر، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال فى أثناء هذه السورة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٢، ٣٣]. ولهذا سماه هاهنا الفرقان ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد، والحلال والحرام .

وقوله : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ : هذه صفة مدح وثناء ؛ لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها فى أشرف أحواله ، وهى ليلة الإسراء ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١] ، وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة إليه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] ، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أى : إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، الذى جعله فرقاناً عظيما ـ إنما خصّه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ : « بعثت إلى الأحمر والأسود » (٣) . وقال : « أعطيت خمساً لم

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى أ : « ينزل » .
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) هو والذى يليه من حديث جابر ،رضى الله عنه .

يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » ، فذكر منهن : أنه « كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة» ، وقال اللّه تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ] (١) يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] أى : الذى أرسلنى هو مالك السموات والأرض، الذى يقول للشيء كن فيكون ، وهو الذى يحيى ويميت ، وهكذا قال هاهنا: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾، فَنَزّه نفسه عن الولد ، وعن الشريك.

ثم أخبر أنه: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ أى : كل شىء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شىء وربه ومليكه وإلهه ، وكل شىء تحت قهره [وتسخيره] (٢) ، وتدبيره وتقديره(٣).

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون اللّه ، الخالق لكل شىء ، المالك لأزمّة الأمور ، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . ومع هذا عَبَدُوا معه من الأصنام مالا يقدر على خلق جناح بعوضة ، بل هم مخلوقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فكيف يملكون لعابديهم ؟ ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ أى : ليس لهم من ذلك شىء ، بل ذلك مرجعه كله إلى اللّه عز وجل ، الذى هو يحيى ويميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ، ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨]، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤]، ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الصافات : ١٩] ، ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٥٣] . فهو اللّه الذى لا إله غيره ولا رب سواه ، ولا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما يشأ لم يكن . وهو الذى لا ولد له ولاوالد ، ولا عديل ولا نديد ولا وزير ولا نظير ، بل هو الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار ، فى قولهم عن القرآن : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ ﴾ : أى : كذب ، ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبى (٤) ﷺ ، ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ أى : واستعان على جمعه بقوم آخرين . قال اللّه تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ أى : فقد افتروا هم قولا باطلا، هم

(١) زيادة من أ وهو الصواب .
(٢) زيادة من ف ، أ.
(٣) فى ف ، أ : « قهره وتقديره وتسخيره وتدبيره » .
(٤) فى ف ، أ : « محمدا » .

يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون (١) .

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ يعنون : كتب الأوائل استنسخها ، ﴿ فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى : تُقرأ عليه ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : فى أول النهار وآخره .

وهذا الكلام ـ لسخافته وكذبه وبهْته منهم ـ كُلّ أحد يعلم (٢) بطلانه ، فإنه قد عُلم بالتواتر وبالضرورة : أن محمداً رسول الله لم يكن يعانى شيئًا من الكتابة ، لا فى أول عمره ولا فى آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه فى صغره إلى أن بعث (٣) إلا الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورَمَوْه بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا ماذا يقذفونه به ، فتارة من إفكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : مجنون، وتاره يقولون: كذاب ، قال الله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٨] .

وقال تعالى فى جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع فى الخارج ، ماضياً ومستقبلا ﴿ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ أى : الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾: دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣ ، ٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠] . قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة [سبحانه وتعالى] (٤) .

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن

(١) فى ف ، أ : « زعموه » .
(٢) فى ف ، أ : « بهته كل أحد منهم يعلم » .
(٣) فى أ : « بعثه » .
(٤) زيادة من ف ، أ .

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) ﴾ .

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿ **مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ** ﴾ ،يعنون : كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ، ﴿ **وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ** ﴾ أى : يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ، ﴿ **لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا** ﴾ يقولون (١) : هلا أنزل إليه ملك من عند الله ، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه! وهذا كما قال فرعون : ﴿ **فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ** (٢) **مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ** ﴾ [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء على السواء ، تشابهت قلوبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ **أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ** ﴾ أى : علم كنز [يكون](٣) ينفق منه ، ﴿ **أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا** ﴾ أى : تسير معه حيث سار. وهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن له الحكمة فى ترك ذلك، وله الحجة البالغة ﴿ **وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا** ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ **انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ** ﴾ أى : جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم « ساحر ، مسحور ، مجنون ، كذاب ، شاعر » ، وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَضَلُّوا** ﴾ أى : عن طريق الهدى، ﴿ **فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً** ﴾، وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه ؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد ، يُصَدِّق بعضه بعضاً .

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون فى الدنيا وأفضل وأحسن ، فقال [تعالى] (٤) : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا** ﴾ .

قال مجاهد : يعنى : فى الدنيا ، قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً ، سواء كان كبيرا أو صغيرا (٥) .

وقال سفيان الثورى ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن خَيْثَمَة ؛ قيل للنبى ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبى قبلك ، ولا يُعطى أحد من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ؟ فقال : اجمعوها لى فى الآخرة ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي إِن**

---

(١) فى أ : « يقول » . (٢) فى ف : « أسورة » . (٣، ٤) زيادة من أ .
(٥) فى ف ، أ : « صغيراً أو كبيراً » .

شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ أى : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ، ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أى : وأرصدنا ﴿ لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أى : عذاباً أليما حاراً لا يطاق فى نار جهنم .

وقال الثورى ، عن سلمة بن كُهَيْل ، عن سعيد بن جبير : «السَّعِير»: واد من قيح جهنم .

وقوله : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ أى: جهنم ﴿ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ يعنى : فى مقام المحشر . قال السدى : من مسيرة مائة عام ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ أى : حنقا (٢) عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ . تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك: ٧، ٨] أى : يكاد ينفصل بعضها من بعض ؛ من شدة غيظها على من كفر بالله .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخيف (٣) الواسطى : أنه سمع محمد بن الحسن الواسطى ، عن أصبغ بن زيد ، عن خالد بن كثير ، عن خالد بن دُرَيْك ، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من يقل عَلَىَّ ما لم أقل ، أو ادعى إلى غير والديه، أو انتمى إلى غير مواليه ، فليتبوأ [مقعده من النار » . وفى رواية : « فليتبوأ] (٤) بين عينى جهنم مقعدا » . قيل : يارسول الله ، وهل لها من عينين ؟ قال : « أما سمعتم الله يقول : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ » الآية .

ورواه ابن جرير ، عن محمد (٥) بن خِداش ، عن محمد بن يزيد (٦) الواسطى ، به (٧) .

وقال أيضًا : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسى ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن عيسى ابن سليم ، عن أبى وائل قال : خرجنا مع عبد الله ـ يعنى : ابن مسعود ـ ومعنا الربيع بن خَيْثَم فمروا على حداد ، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة فى النار ، ونظر الربيع بن خيثم إليها فتمايل ليسقط، فمر عبد الله على أتّون على شاطئ الفرات ، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فصعق ـ يعنى : الربيع بن خيثم ـ فحملوه إلى أهل بيته (٨) ، ورابطه عبد الله إلى الظُّهر فلم يفق ، رضى الله عنه .

وحدثنا أبى : حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار ، فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف .

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٨/ ١٤٠) من طريق سفيان به مرسلاً .
(٢) فى أ : « خنقًا » . (٣) فى ف ، أ : « الأحنف » . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ف : « محمود » . (٦) فى أ : « زيد » .
(٧) تفسير الطبرى (١٨/ ١٤٠) .
(٨) فى أ : « إلى أهله » .

هكذا رواه ابن أبى حاتم مختصرا ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقى ، حدثنا عُبَيْد الله بن موسى ، أخبرنا إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن الرجل ليجر إلى النار ، فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن : مالك ؟ قالت : إنه يستجير منى . فيقول : أرسلوا [١] عبدى . وإن الرجل ليُجَرّ إلى النار ، فيقول : يارب ، ما كان هذا الظن بك ؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تَسَعنى رحمتك . فيقول : أرسلوا عبدى . وإن الرجل ليُجَرّ إلى النار ، فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير ، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وهذا إسناد صحيح .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن عبيد بن عُمَيْر فى قوله : ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ قال : إن جهنم تزفر زفرة ، لا يبقى ملك ولا نبى إلا خرّ تَرْعَد فرائصه ، حتى إن إبراهيم ، عليه السلام ، ليجثو على ركبتيه ويقول : رب ، لا أسألك اليوم إلا نفسى [٢] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا ﴾ : قال قتادة ، عن أبى أيوب ، عن عبد الله [٣] بن عمرو قال: مثل الزُج فى الرمح [٤] ، أى : من ضيقه .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى نافع بن يزيد ، عن يحيى بن أبى أسيد ـ يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ أنه سئل عن قول الله : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ ﴾ قال : « والذى نفسى بيده ، إنهم ليُستكرهون فى النار ، كما يستكره الوتد فى الحائط » [٥] .

وقوله : ﴿ مُقَرَّنِينَ ﴾ : قال أبو صالح : يعنى مُكتفين : ﴿ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أى : بالويل والحسرة والخيبة ، ﴿ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد [٦] ، عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أول من يُكسَى حُلَّةً من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ويسحبها منْ خَلْفه ، وذريته من بعده ، وهو ينادى : ياثبوراه . وينادون : ياثبورهم . حتى يقفوا على النار ، فيقول : يا ثبوراه . ويقولون : ياثبورهم . فيقال لهم : لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً » .

لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن أبى حاتم ، عن أحمد بن سِنَان ، عن عفان ، به : ورواه ابن جرير ، من حديث حماد بن سلمة به[٧] .

---

(١) فى أ : « أن تنقلوا » .
(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/٥٦) .
(٣) فى ف ، أ : « عبيد الله » . (٤) فى ف : « رمحه » .
(٥) رواه ابن أبى حاتم ، كما فى الدر المنثور (٦/ ٢٤٠) .
(٦) فى هـ ، ف ، أ « على بن يزيد » والصواب ما أثبتناه من المسند (٣ / ٢٥٢) .
(٧) المسند (٣/ ١٥٢) وتفسير الطبرى (١٨/ ١٤١) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ أى : لا تدعوا اليوم ويلا واحداً ، وادعوا ويلا [١] كثيرا .

وقال الضحاك : الثبور : الهلاك .

والأظهر: أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] أى : هالكا . وقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

إذْ أجَارِى الشَّيطانَ فى سَنَنِ الغَـ ـىِّ ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ [٢] مَثْبُورُ [٣]

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴿١٦﴾ ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد ، هذا [٤] الذى وصفناه من حال أولئك الأشقياء [٥] ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ [٦] وزفير ، ويُلقَون فى أماكنها الضيقة مقرَّنين ، لا يستطيعون حراكا ، ولا انتصاراً ولا فكاكا مما هم فيه ـ : أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين من عباده ، التى أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه فى الدنيا ، وجعل مآلهم إليها . ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ [أى][٧]: من الملاذ : من مآكل ومشارب ، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر ، وغير ذلك ، مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خَطَر على قلب أحد [٨] . وهم فى ذلك خالدون أبدا دائما [٩] سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ،لا يبغون عنها حوَلا . وهذا من وَعْد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم . ولهذا قال : ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ أى لابد أن يقع وأن يكون ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير ، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله : ﴿ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ أى: وعدا واجبا .

وقال ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾: يقول : سلوا الذى واعدتكم ـ أو قال : واعدناكم ـ نُنْجِزْ .

وقال محمد بن كعب القُرَظى فى قوله :﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ : إن الملائكة تسأل لهم ذلك : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم﴾ [غافر : ٨] .

وقال أبو حازم : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا ، فأنجز لنا ما وعدتنا . فذلك قوله : ﴿ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾.

وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار ، ثم التنبيه على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى

(١) فى ف ، أ : « بلاءً » . (٢) فى أ : « مثله » .
(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤١٩) .
(٤) فى أ : « أهذا » . (٥) فى أ : « من هؤلاء الأشقية » . (٦) فى أ : « وتغيظ » .
(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « بشر » . (٩) فى ف : « دائماً أبدًا » .

سورة « الصافات » حال أهل الجنة ، وما فيها من النضرة والحبور ، ثم قال : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٢ ـ ٧٠] .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يَقَع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم مَن عبدوا من دون اللّه ، من الملائكة وغيرهم ، فقال : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ (١) وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ، قال مجاهد : عيسى ، والعُزَير ، والملائكة .﴿ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ أي : فيقول الرب تبارك وتعالى [للمعبودين] (٢) أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ (٣)﴾ ، إلى آخر الآية [المائدة : ١١٦، ١١٧] ؛ ولهذا قال تعالى مخبراً عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة :﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ قرأ الأكثرون بفتح « النون » من قوله :﴿ نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولاهم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل هم قالوا (٤) ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى :﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم (٥) مُّؤْمِنُونَ ﴾[سبأ : ٤٠ ، ٤١]. وقرأ آخرون: «مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا أَن نُتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء » أي : ما ينبغي لأحد أن يعبدنا ، فإنا عبيد لك، فقراء إليك . وهي قريبة المعنى من الأولى .

﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ﴾ أي : طال عليهم العمر حتى نَسُوا الذكر ، أي : نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك .

---

(١) في ف : « يحشرهم » . (٢) زيادة من أ .
(٣) بعدها في ف ، أ :﴿ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ .
(٤) في أ : « فعلوا » . (٥) في هـ : « به » والمثبت من أ ، وهو الصواب .

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾: قال ابن عباس : أى هلكى . وقال الحسن البصرى ، ومالك عن الزهرى : أى لا خير فيهم . وقال ابن الزِّبَعْرى حين أسلم :

يا رَسُولَ المَليك إنّ لسَانى رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ
إذْ أجَارى الشَّيطَانَ فى سَنَن الغَـ ـىّ ، وَمَن مَالَ مَيْلَه مَثْبُورُ

قال اللّه تعالى : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أى : فقد كذبكم الذين عَبَدْتُم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم [١] إليه زلفى ، كما قال تعالى :﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿فَمَا [٢] تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا﴾ أى : لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ، ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾أى : يشرك باللّه ، ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن جميع مَن بعثه من الرسل المتقدمين : أنهم كانوا يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذى به ﴿وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ أى : للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ؛ فإن اللّه جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة [القاهرة] [٣]، ما يستدل به كل ذى لب سليم ، وبصيرة مستقيمة ، على صدق ما جاؤوا به من اللّه عز وجل . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٨] .

وقوله :﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أى:اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم مَن يُطيع ممن يعصى ؛ ولهذا قال :﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أى : بمن يستحق أن يوحى إليه ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام : ١٢٤] ، ومن يستحق أن يهديه اللّه لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قال : يقول اللّه : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون ، لفعلت ، ولكنّى قد أردتُ أن أبتلى العباد بهم ،

---

(١) فى أ : « يقربو بكم » . (٢) فى أ : « فلا » وهو خطأ . (٣) زيادة من أ .

وأبتليهم (١) بهم .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار ، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله : إنى مُبْتَلِيك ومُبْتَلٍ بك » (٢) . وفى المسند عن رسول الله ﷺ : « لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » ، وفى الصحيح أنه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ خيِّر بين أن يكون نبياً ملكا أو عبداً رسولا ، فاختار أن يكون عبداً رسولا .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن تَعَنُّت الكفار فى كفرهم ، وعنادهم فى قولهم :﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا (٣) الْمَلائِكَةُ ﴾ أى : بالرسالة كما نُزِّل (٤) على الأنبياء ، كما أخبر عنهم تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، ويحتمل أن يكون مرادهم هاهنا: ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ ﴾ فنراهم عيانا ، فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم (٥) :﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٩٢] . وقد تقدم تفسيرها فى سورة « سبحان » ؛ ولهذا قال(٦): ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ ؛ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ . وقد قال [الله] (٧) تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى : هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم (٨) ، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، وغضب الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سَموم وحَميم ، وظلٍّ من يحموم . فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن (٩) ، فيضربونه ، كما قال الله تعالى :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٥٠] . وقال :﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : بالضرب ، ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ؛ ولهذا قال فى هذه الآية

---

(١) فى أ : « وابتليكم » .
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥) .
(٣) فى أ : « عليه » وهو خطأ .
(٤) فى أ : « تنزل » . (٥) فى ف ، أ : « وكقولهم » . (٦) فى ف ، أ : « قالوا » .
(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « للمجرمين » . (٩) فى أ : « الجسد » .

الكريمة : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وهذا بخلاف حال المؤمنين فى وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢] .

وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : « اخرجى أيتها النفس الطيبة(١) فى الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، اخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان » . وقد تقدم الحديث فى سورة « إبراهيم » (٢) . عند قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

وقال آخرون : بل المراد بقوله :﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ﴾ يعنى : يوم القيامة . قاله مجاهد ، والضحاك ؛ وغيرهما .

ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم ، فإن الملائكة فى هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى : وتقول الملائكة للكافرين حَرَام محرم عليكم الفلاح اليوم .

وأصل « الحجر » : المنع ، ومنه يقال : حَجَر القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف إما لسفَه ، أو فَلَس ، أو صغر ، أو نحو ذلك . ومنه سمى « الحجْر » عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطُواف أن يطوفوا فيه (٣) ، وإنما يطاف من ورائه . ومنه يقال للعقل « حجر » (٤) ؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطى ما لا يليق .

والغرض أن الضمير فى قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة . هذا قول مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطية العَوفى ، وعطاء الخراسانى ، وخُصَيف ، وغير واحد . واختاره ابن جرير (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا موسى ــ يعنى ابن قيس ــ عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد الخدرى :﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ قال : حراما مُحَرّما أن يُبَشَّر بما يبشر به المتقون .

وقد حكى ابن جرير ،عن ابن جُرَيْج أنه قال: ذلك من كلام المشركين :﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ ﴾ ، [أى : يتعوذون من الملائكة ؛ وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة] (٦) يقولون : ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾.

---

(١) فى ف ، أ : « المطمئنة » .
(٢) عند الآية : ٢٧ .
(٣) فى ف : « به » .
(٤) فى أ : « حجرًا » .
(٥) تفسير الطبرى (١٩/٢) .
(٦) زيادة من ف ، أ .

وهذا القول ـ وإن كان له مأخذ ووجه ـ ولكنه بالنسبة إلى السياق فى الآية بعيد ، ولاسيما قد نص الجمهور على خلافه . ولكن قد روى ابنُ أبى نَجيح ، عن مجاهد ؛ أنه قال فى قوله : ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى : عوذاً معاذاً . فيحتمل (١) أنه أراد ما ذكره ابن جريَج . ولكن فى رواية ابن أبى حاتم، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد أنه قال : ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [أى] (٢): عوذاً معاذاً ، الملائكة تقُوله . فالله(٣) أعلم .

وقوله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ : وهذا يوم القيامة ، حين يحاسب اللّه العباد على ما عملوه من خير وشر ، فأخبر أنه لا يتحصّل لهؤلاء المشركين من الأعمال ـ التى ظنوا أنها منجاة لهم ـ شىء ؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع اللّه . فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل . فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد تجمعهما معا ، فتكون أبعد من القبول حينئذ ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾.

قال مجاهد ، والثورى : ﴿وَقَدِمْنَا﴾ أى : عمدنا .

وقال السدى : (قدمنا) : عمَدنا . وبعضهم يقول : أتينا عليه .

وقوله : ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾: قال سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على، رضى اللّه عنه ، فى قوله : ﴿[فَجَعَلْنَاهُ] (٤) هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ ، قال : شعاع الشمس إذا دخل فى الكُوَّة . وكذا روى من غير هذا الوجه عن على . ورُوى مثله عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جُبَير ، والسُّدِّى ، والضحاك،وغيرهم . وكذا قال الحسن البصرى : هو الشعاع فى كوة أحدهم (٥) ، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال : هو الماء المهراق .

وقال أبو الأحوص ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على : ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال : الهباء رَهْج (٦) الدواب ورُوى مثله عن ابن عباس أيضا ، والضحاك ، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال قتادة فى قوله : ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ قال : أما رأيت يَبِيس الشجر إذا ذرته (٧) الريح ؟ فهو ذلك الورق .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى عاصم بن حكيم ، عن أبى سريع الطائى ، عن يعلى بن عبيد (٨) قال : وإن الهباء الرماد .

وحاصل هذه الأقوال التنبيهُ على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شىء ، فلما عرضت على الملك الحكيم (٩) العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذا إنها لاشىء بالكلية . وشبهت فى ذلك بالشىء التافه الحقير المتفرق ، الذى لا يقدر منه صاحبه على شىء بالكلية ، كما قال

---

(١) فى ف ، أ: « فيحمل » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « والله » . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) فى ف ، أ : « أحدكم » . (٦) فى ف ، أ : « وهج » . (٧) فى أ : « أذرته » .
(٨) فى أ : « عبيد بن يعلى » . (٩) فى ف : « الحكم » .

الله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة : ٢٦٤] ، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] . وتقدم الكلام على تفسير ذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أى: يوم القيامة ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وذلك لأن (١) أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات ، والغرفات الآمنات ، فهم فى مقام أمين ، حسن المنظر ، طيب المقام ، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان : ٧٦] ، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، والحسرات المتتابعات ، وأنواع العذاب والعقوبات ، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] أى: بئس المنزل منظرا وبئس (٢) المقيل مقاما ؛ ولهذا قال : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أى : بما عملوه من الأعمال المتقبلة ، نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه (٣) ، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضى لهم دخول الجنة والنجاة من النار ، فَنَبَّه ـ تعالى ـ بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية ، فقال : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

قال الضحاك ، عن ابن عباس : إنما هى ضحوة ، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويَقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين .

وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، قال الله تعالى : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ .

وقال عكرمة : إنى لأعرف الساعة التى يدخل فيها أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار : هى الساعة التى تكون فى الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر ، إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة ، فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل [الجنة فينطلق بهم إلى] (٤) الجنة ، فكانت قيلولتهم [فى الجنة] (٥) وأطعموا كبد حوت ، فأشبعهم [ذلك] (٦) كلهم ،وذلك قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

وقال سفيان ، عن مَيسَرة ، عن المِنْهَال ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود ، أنه قال : لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات :٦٨] .

---

(١) فى أ : « أن » . (٢) فى ف : « أو » . (٣) فى ف : « وصاروا إلى ما إليه صاروا » .
(٤ ، ٥ ، ٦) زيادة من ف ، أ .

وقال العوْفى ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ قال : قالوا فى الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن (١) عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق : ٧ ـ ٩] .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أى : مأوى ومنزلا ـ قال قتادة : وحَدّث صفوان بن مُحْرِز أنه قال: يجاء يوم القيامة برجلين ، أحدهما كان ملكا (٢) فى الدنيا ـ إلى الحمرة والبياض فيحاسب ، فإذا عبدٌ ، لم يعمل خيرا فيؤمر به إلى النار . والآخر كان صاحب كساء فى الدنيا ، فيحاسب فيقول : يارب ، ما أعطيتنى من شىء فتحاسبنى به . فيقول : صدق عبدى، فأرسلوه . فيؤمر به إلى الجنة ، ثم يتركان ما شاء الله . ثم يدعى صاحب (٣) النار ، فإذا هو مثل الحُمَمة (٤) السوداء ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : شر مقَيل . فيقال (٥) له : عد(٦) . ثم يُدعَى بصاحب الجنة ، فإذا هو مثل القمر ليلة البدر ، فيقال له : كيف وجدت ؟ فيقول : رب ، خير مَقيل . فيقال له : عد . رواها ابن أبى حاتم كلها .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا عمرو بن الحارث ، أن سعيدا (٧) الصوّاف حدثه ، أنه بلغه : أن يوم القيامة يَقصُر على المؤمن (٨) حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وأنهم ليقيلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من الناس ، وذلك (٩) قوله تعالى :﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ (١٠) .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾ .

يخبر تعالى عن هَول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق (١١) السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظُلَل (١٢) النور العظيم الذى يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ ، فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر . ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

قال مجاهد : وهذا كما قال تعالى :﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

---

(١) فى أ : « إذ » . (٢) فى أ : « ملك » . (٣) فى أ : « بصاحب » . (٤) فى ف ، أ : « الفحمة » .
(٥) فى أ : « فقال » . (٦) فى ف ، أ : « عده » . (٧) فى أ : « سعيد » . (٨) فى أ : « المؤمنين » .
(٩) فى ف ، أ : « فذلك » .
(١٠) تفسير الطبرى (١٩/٥) .
(١١) فى أ : « اشتقاق » . (١٢) فى أ : « ظل » .

قال بن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الحارث ، حدثنا مُؤَمَّل ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على ابن زيد ، عن يوسف بن مِهْرَان ، عن ابن عباس ، أنه قرأ هذه الآية :﴿ **وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً** ﴾ قال ابن عباس : يجمع اللّه الخلق يوم القيامة (١) فى صعيد واحد ، الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق ، فتنشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها ـ وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلائق (٢) ـ فيحيطون بالجن والإنس وبجميع الخلق . ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس ، ومن جميع الخلق [فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق (٣)] (٤) ثم تنشق السماء الثالثة ، فينزل أهلها ، وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، وبالجن والإنس وبجميع الخلق . ثم كذلك كل سماء ، حتى تنشق السماء السابعة، فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق، فيحيطون (٥) بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات ، وبالجن والإنس وجميع الخلق، وينزل ربنا عز وجل فى ظلل من الغمام ، وحوله الكروبيون ، وهم أكثر من أهل السموات السبع الإنس (٦) والجن وجميع الخلق ، لهم قرون كأكعب القنا ، وهم تحت العرش ، لهم زَجَل بالتسبيح والتهليل (٧) والتقديس للّه عز وجل، ما بين إخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كعبه إلى ركبته (٨) مسيرة خمسمائة عام ، وما بين ركبته إلى حُجْزَته (٩) مسيرة خمسمائة عام وما بين حُجْزَته (١٠) إلى تَرْقُوته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ترقوته إلى موضع القُرط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام ، وجهنم مجنبته (١١) ، هكذا رواه ابن أبى حاتم بهذا السياق .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنى الحجاج ، عن مبارك بن فضالة ، عن على بن زيد بن جُدْعَان ، عن يوسف بن مِهْرَان ، أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه السماء إذا انشقت نزل منها من الملائكة أكثر من الجن والإنس ، وهو يوم التلاق ، يوم يلتقى أهل السماء وأهل الأرض ، فيقول أهل الأرض : جاء ربنا ؟ فيقولون : لم يجئ ، وهو آت . ثم تنشق السماء الثانية ، ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة . فينزل منها من الملائكة أكثر من [جميع من] (١٢) نزل من السموات ومن الجن والإنس . قال : فتنزل (١٣) الملائكة الكَرُوبيُون ، ثم يأتى ربنا فى حملة العرش الثمانية ، بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة . قال : وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه ، وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييه يقول : سبحان الملك القدوس . وعلى رؤوسهم شىء مبسوط كأنه القَبَاء (١٤) ، والعرش فوق ذلك .

---

(١) فى ف ، أ : « يجمع الله تعالى الخلق كلهم يوم القيامة » .
(٢) فى ف ، أ : « الخلق » .
(٣) فى ف ، أ : « الخلائق » .
(٤) زيادة من ف ، أ ، والدر المنثور ٥ / ٦٨ .
(٥) فى أ : « فيحطون » .
(٦) فى ف ، أ : « والإنس » .
(٧) فى ف ، أ : « بالتهليل والتسبيح » .
(٨) فى أ : « ركبتيه » .
(٩ ، ١٠) فى ف ، أ : « أرنبته » .
(١١) فى هـ ، ف غير منقوطة ، وفى أ : « مجنبته » .
(١٢) زيادة من ف ، أ ، والطبرى .
(١٣) فى ف ، أ : « فينزل » .
(١٤) فى أ : « القفاء » .

ثم وقف ، فمداره على عليّ بن زيد بن جُدْعان ، وفيه ضعف ، وفى سياقاته غالبا نكارة شديدة. وقد ورد فى حديث الصور المشهور (١) قريب من هذا ، والله أعلم .

وقد قال [الله] (٢) تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة ١٥ ـ ١٧] ،قال شهر بن حَوْشَب : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ، رواه ابن جرير عنه.

وقال أبو بكر بن عبد الله : إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم ، شخصت إليه أبصارهم ، ورَجَفت كُلاَهم فى أجوافهم،وطارت قلوبهم من مَقَرّها من صدورهم إلى حناجرهم.

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن عبدالجليل، عن أبى حازم ، عن عبد الله بن عمرو قال : يهبط الله حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب ، منها النور والظلمة ، فيُصَوّت الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع منه (٣) القلوب .

وهذا موقوف على (٤) عبد الله بن عمرو من كلامه ، ولعله من الزاملتين ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] .وفى الصحيح:« إن الله يطوى السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون » (٥) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أى : شديداً صعباً ؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل ، كما قال تعالى :﴿ [فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ](٦) ﴾، ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٨ ـ ١٠] ، فهذا حال الكافرين فى ذلك اليوم . وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن (٧) بن موسى ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا درَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى قال :قيل : يا رسول الله:﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾:ما (٨) أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) زيادة من ف ، أ . (٣) فى ف . أ : « له » . (٤) فى ف ، أ : « عن » .

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٨) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، وليس فيه : « أنا الديان » .

(٦) زيادة من ف ، أ . (٧) فى ف ، أ : « حسين » . (٨) فى ف ، أ : « وما » .

أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » (١) .

وقوله : ﴿ ويوم يعضُّ الظَّالمُ علَىٰ يديْه يقولُ يا ليْتني اتَّخذْتُ معَ الرَّسُول سبيلا ﴾ : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وما جاء به من عند اللّه من الحق المبين ، الذى لا مرْية فيه ، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة نَدمَ حيثُ لا ينفعه النَدَمُ ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفا .

وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى مُعَيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة فى كل ظالم ، كما قال تعالى :﴿ يوْمَ تُقلَّبُ وُجُوهُهُمْ في النَّار يقُولُون يَا ليْتنا أطَعْنَا اللَّهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولاْ . وَقَالُوا ربَّنَا إنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبَرَاءَنَا فَأَضلُّونَا السَّبِيلا . ربَّنَا آتِهِمْ ضعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ والْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيراً ﴾ [الأحزاب : ٦٦ ـ ٦٨] فكل (٢) ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويَعَض على يـديه قائلا : ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا ﴾ يعنى : مَن(٣) صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة [من دعاة الضلالة] (٤) ، وسواء فى ذلك أمية بن خلف ، أو أخوه أبى بن خلف ، أو غيرهما .

﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ [وهو القرآن] (٥) ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أى : بعد بلوغه إلى ، قال اللّه تعالى: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولا ﴾ أى : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله فى الباطل، ويدعوه إليه .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيراً (٣١) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد (٦) ـ صلوات الله وسلامه (٧) عليه دائما إلى يوم الدين ـ أنه قال : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمعونه (٨) ، كما قال تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦] ، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام فى غيره ، حتى لا يسمعوه . فهذا من هجرانه ، وترك [علمه وحفظه أيضا من هجرانه ، وترك] (٩) الإيمان به وتصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدولُ عنه إلى غيره ـ من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره ـ مَن هجرانه ، فنسأل اللّه الكريمَ المنانَ القادرَ على ما يشاء ، أن يخلّصنا مما يُسْخطه، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطرافَ النهار ، على الوجه الذى

---

(١) المسند (٣/ ٧٥) وفى إسناده دراج عن أبى الهيثم ضعيف .
(٢) فى ف ، أ : « وكل » . (٣) فى ف ، أ : « لمن » . (٤ ، ٥) زيادة من ف ، أ . (٦) فى أ : « محمدًا » .
(٧) فى ف ، أ : « ﷺ » . (٨) فى أ : « يستمعونه » . (٩) زيادة من ف ، أ .

يحبه ويرضاه ، إنه كريم وهاب .

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: كما حصل لك ـ يا محمد ـ فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ؛ لأن اللّه جعل لكل نبى عدوا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى :﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٢ ، ١١٣] ؛ ولهذا قال هاهنا :﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أى : لمن اتبع رسوله ، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه ، فإن اللّه هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة . وإنما قال : ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ؛ فلهذا قال : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم ، وكلامهم فيما لا يعنيهم ، حيث قالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، وغيرها من الكتب الإلهية . فأجابهم اللّه عن ذلك بأنه إنما أنزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت [١] قلوب المؤمنين به كما قال : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء : ١٠٦] ؛ ولهذا قال : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾: قال قتادة : وبيناه تبيينا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيرا .

﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أى : بحجة وشبهة ﴿إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أى : ولا يقولون قولا يعارضون به الحق ، إلا أجبناهم [٢] بما هو الحق فى نفس الأمر ، وأبين وأوضح وأفصحُ من مقالتهم.

قال [٣] سعيد بن جبير، عن ابن عباس : ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أى : بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى: إلا نزل جبريل منَ اللّه بجوابهم .

ثم فى هذا اعتناء كبير ؛ لشرف الرسول ، صلوات اللّه وسلامه عليه [٤] ، حيث كان يأتيه الوحى من اللّه بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى [٥] وأجل ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء ، صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين . فالقرآن أشرف كتاب أنزله اللّه ، ومحمد ، صلوات

---

(١) فى أ : « ليثبت » . (٢) فى أ : « جئناهم » . (٣) فى ف : « ثنا » .
(٤) فى ف : « عليه وسلامه » . (٥) فى أ : « لعلى » .

الله وسلامه عليه ، أعظم نبى أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا ، ففى الملأ الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا (١) ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

قال أبو عبد الرحمن النسائى : أخبرنا أحمد بن سليمان ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا داود ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة ، قال : ﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ ، وقوله : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ (٢) [الإسراء : ١٠٦].

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار فى معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم ، فى أسوأ الحالات وأقبح الصفات : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ . وفى الصحيح ، عن أنس : أن رجلا قال : يارسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إن الذى أمشاه على رجليه قادر أن يُمشيَه على وجهه يوم القيامة » (٣) . وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من المفسرين ، [والله أعلم] (٤).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾.

يقول تعالى متوعداً من كذّب رسولَه محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ، من مشركى قومه ومن خالفه (٥) ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى ، عليه السلام ، وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً ، أى : نبيًا مُوَازرا ومؤيداً وناصراً ، فكذبهما فرعون وجنوده ، فـ ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : ١٠] . وكذلك فعلَ بقوم نوح حين كذّبوا رسوله نوحاً ، عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ ، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم نقَمه ، فما آمن معه إلا قليل . ولهذا أغرقهم الله

---

(١) فى أ : « من السماء الدنيا » .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦) .

(٤) زيادة من ف .

(٥) فى ف ، أ : « خالفهم » .

جميعاً ، ولم يَبق منهم أحد ، ولم يبق على وجه الأرض من بنى آدم سوى أصحاب السفينة فقط .

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي : عبرة يعتبرون بها ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] . أى : وأبقينا لكم من السفن ما تركبون فى لُجَج البحار ، لتذكروا نعمة اللّه عليكم فى إنجائكم من الغرق ، وجَعْلكم من ذرّية مَن آمن به وصَدّق أمره .

وقوله :﴿وَعَادًا وَثَمُودَ﴾ قد (١) تقدم الكلام على قصتيهما فى غير ما سورة ، منها فى سورة «الأعراف» بما أغنى عن الإعادة (٢) .

وأما أصحاب الرس فقال ابن جُرَيْج ، عن (٣) ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود .

وقال ابن جريج : قال عكرمة : أصحاب الرَسّ بفَلَج وهم أصحاب يس .

وقال قتادة : فَلَج من قرى اليمامة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم [النبيل] (٤) ، حدثنا الضحاك بن مَخْلَد أبو عاصم ، حدثنا شبيب بن بشر (٥) ، حدثنا عكرمة عن ابن عباس فى قوله :﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قال : بئر بأذربيجان .

وقال سفيان الثورى عن أبى بُكَيْر (٦) ، عن عكرمة : الرس بئر رَسوا فيها نبيهم . أى دفنوه بها(٧) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن كعب [القرظى] (٨) قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود ، وذلك أن اللّه ـ تعالى وتبارك ـ بعث نبياً (٩) إلى أهل قرية ، فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدَوَا على النبى ، فحفروا له بئرا فألقوه فيها ، ثم أطبقوا عليه بحجر ضخم (١٠) » قال : « فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ، ثم يأتى بحطبه فيبيعه ، ويشترى به طعاماً وشراباً ، ثم يأتى به إلى تلك البئر ، فيرفع تلك الصخرة ، ويعينه اللّه عليها ، فيدلى إليه طعامه وشرابه ، ثم يردها كما كانت » . قال : « فكان كذلك ما شاء اللّه أن يكون ، ثم إنه ذهب يوماً يحتطب كما كان يصنع ، فجمع حطبه وحَزم وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة ، فاضطجع فنام . فضرب الله على أذنه سبع سنين نائماً ، ثم إنه هَبّ فتمطى ، فتحول لشقه الآخر فاضطجع ، فضرب اللّه على أذنه سبع سنين أخرى . ثم إنه هب واحتمل حُزْمَته ولا يحسبُ إلا أنه نام ساعة من نهار (١١) ، فجاء إلى القرية فباع حزمته ، ثم اشترى طعاماً وشراباً كما كان يصنع . ثم ذهب (١٢) إلى الحفيرة فى موضعها الذى كانت فيه ، فالتمسه فلم يجده . وكان قد بدا لقومه فيه بَداء ، فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه » . قال :

---

(١) فى ف : « وقد » . (٢) فى ف ، أ : « إعادته » . (٣) فى أ : « قال » . (٤) زيادة من ف .
(٥) فى أ : « بشير » . (٦) فى ف ، أ : « بكر » . (٧) فى ف : « فيها » . (٨) زيادة من ف ، والطبرى .
(٩) فى ف : « بعث نبيا من الأنبياء » . (١٠) فى ف : « أصم » .
(١١) فى أ : « النهار » . (١٢) فى ف ، أ : « ثم إنه ذهب » .

« فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود : ما فعل ؟ فيقولون له : ما ندرى . حتى قبض اللّه النبى ، وأهبّ الأسودَ من نومته بعد ذلك » . فقال رسول اللّه ﷺ : « إن ذلك الأسودَ لأولُ من يدخل الجنة » .

هكذا رواه ابن جرير [١] ، عن ابن حميد ، عن سلمة عن ابن إسحاق ، عن محمد بن كعب مرسلا . وفيه غرابة ونكارةٌ ، ولعل فيه إدْرَاجاً ، واللّه أعلم . وأما ابن جرير فقال : لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرس الذين ذكروا فى القرآن ؛ لأن اللّه أخبر عنهم أنه أهلكهم ، وهؤلاء قد بدا لهم فآمنوا بنبيهم ، اللهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث ، آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم ، واللّه أعلم .

واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا فى سورة البروج، فاللّه أعلم .

وقوله :﴿ **وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً** ﴾ أى : وأمما بين أضعاف مَنْ ذُكر أهلكناهم كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ** ﴾ أى : بينا لهم الحجج ، ووضَّحنا لهم الأدلة ـ كما قال قتادة : أزحنا [٢] عنهم الأعذار ـ ﴿ **وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً** ﴾ أى : أهلكنا إهلاكاً ، كقوله :﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ** ﴾ [الإسراء : ١٧] .

والقرن : هو الأمة من الناس ، كقوله : ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾ [المؤمنون : ٣١]. وحده بعضهم [٣] بمائة وعشرين سنة . وقيل : بمائة سنة . وقيل : بثمانين سنة . وقيل : أربعين . وقيل غير ذلك . والأظهر : أن القرن هم الأمة المتعاصرون فى الزمن الواحد ؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثان ، كما ثبت فى الصحيحين عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » الحديث .

وقوله : ﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ** ﴾ يعنى : قرية قوم لوط ، وهى سدوم ومعاملتها التى أهلكها اللّه بالقلب ، وبالمطر الحجارة من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ [الشعراء : ١٧٣] وقال :﴿ **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] وقال تعالى :﴿ **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ** ﴾ [الحجر : ٧٦] . وقال:﴿ **وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الحجر : ٧٩]؛ ولهذا قال :﴿ **أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا** ﴾ أى : فيعتبروا بما حَلّ بأهلها من العذاب والنَّكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر اللّه .

وقوله : ﴿ **بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً** ﴾ يعنى : المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً ، أى : معاداً يوم القيامة .

﴿ **وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً** ﴿٤١﴾ **إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ**

(١) تفسير الطبرى : ١٩ / ١٠ .

(٢) فى أ : « وازحنا » .

(٣) فى ف ، أ : « بعض المفسرين » .

آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾.

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، إذا رأوه، كما قال: ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] يعنونه بالعيب والنقص، وقال هاهنا: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾؟ أى: على سبيل التنقص [(١)] والازدراء ـ قبحهم الله ـ كما قال: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد : ٣٢].

وقولهم [(٢)]: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يعنون: أنه كاد يثنيهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها. قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهددا: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.

ثم قال تعالى لنبيه، منبهاً له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا الله.

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أى: مهما استحسن من شيء ورآه حسناً فى هوى نفسه، كان دينَه ومذهبَه، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾. قال ابن عباس: كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول.

ثم قال: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ أى: أسوأ حالا من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) ﴾.

من هاهنا شرع تعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾؟ قال ابن عباس، وابن عمر، وأبو

---

(١) فى ف، أ: « التنقيص ».
(٢) فى أ: « وقوله ».

العالية ، وأبو مالك ، ومسروق ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أى : دائماً لا يزول ، كما قال تعالى :﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص : ٧١ ، ٧٢] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أى : لولا أن الشمس تطلع عليه ، لما عرف ، فإن (١) الضد لا يعرف إلا بضده .

وقال قتادة ، والسّدى : دليلا يتلوه ويتبعه حتى يأتى عليه كله .

وقوله : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى : الظل . وقيل : الشمس .﴿ يَسِيرًا﴾ أى : سهلا . قال ابن عباس : سريعاً . وقال مجاهد : خفياً . وقال السّدى ؛ قبضاً خفَياً ، حتى لا يبقى فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه .

وقال أيوب بن موسى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ أى : قليلا قليلا .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أى : يلبس الوجود ويُغَشّيه (٢) ،كما قال : [﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل : ١] وقال](٣) : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾[الشمس : ٤] .

﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أى : قَطْعًا للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعايش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معاً .

﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ أى : ينتشر الناسُ فيه (٤) لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) ﴾ .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أى : بمجيء السحاب بعدها ، والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشراً ، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمّ الأرض ،ومنها ما يلقح السحاب ليمطر ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أى : آلة يتطهر بها ، كالسَّحُور والوقود (٥) وما جرى مجراه . فهذا أصح ما يقال فى ذلك .وأما من قال : إنه فعول

---

(١) فى ف: « وإن » . (٢) فى ف : « ويغشاه » . (٣) زيادة من أ .
(٤) فى ف : « فيه الناس » . (٥) فى أ : « والوجود » .

بمعنى فاعل ، أو : إنه مبنى للمبالغة أو التعدى ، فعلى كل منهما [(١)] إشكالات من حيث اللغة والحكم، ليس [(٢)] هذا موضع بسطها ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبى ، عن أبى جعفر الرازى، حدثنى حُميد الطويل ، عن ثابت البنانى قال : دخلت مع أبى العالية فى يوم مطير ، وطرق البصرة قذرة ، فصلى ، فقلت له ، فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ، قال : طهره ماء السماء.

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا وُهَيب [(٣)] ، عن داود ، عن سعيد بن المسيب فى هذه الآية : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [قال : أنزله الله ماءً طاهرًا] [(٤)] لا ينجسه شىء .

وعن أبى سعيد قال : قيل : يارسول الله ، أنتوضأ من بئر بضاعة ؟ ـ وهى بئر يُلقَى فيها النَّتَن ولحوم الكلاب ـ فقال : « إن الماء طهور لا ينجسه شىء » . رواه الشافعى ، وأحمد وصححه ، وأبوداود ، والترمذى وحسنه ، والنسائى [(٥)] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا معتمر ، سمعت أبى يحدث عن سَيَّار ، عن خالد بن يزيد ، قال : كان عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء ، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء ، ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فَيُعْذِبه الرعد والبرق . فأما ما كان من البحر ، فلا يكون له نبات ، فأما النبات فمما كان من السماء .

وروى عن عكرمة قال : ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها فى الأرض عشبة أو فى البحر لؤلؤة . وقال غيره : فى البر بُر ، وفى البحر دُرّ .

وقوله : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أى : أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهى هامدة لا نبات فيها ولا شىء . فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان ، كما قال تعالى :﴿ فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] .

﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ أى : وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسى محتاجين إليه غاية الحاجة ، لشربهم وزروعهم وثمارهم ، كما قال تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إنه [(٦)] كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : ٥٠] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ أى : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى ، [فأمطرتها وكفتها فجعلتها عذقا ، والتى وراءها] [(٧)] لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله فى ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة .

---

(١) فى أ : « منها » . (٢) فى ف ، أ : « وليس » . (٣) فى أ : « وهب » . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) الأم للشافعى (١/ ٩) والمسند (٣/ ١٥) وسنن أبى داود برقم (٦٦) وسنن الترمذى برقم (٦٦) وسنن النسائى (١/ ١٧٤) .
(٦) فى ف ، أ : « وهو على » وهو الصواب . (٧) زيادة من ف ، أ .

قال ابن مسعود وابن عباس: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾.

أى: ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات [1] والعظام الرفات. أو: ليذكر من منع القَطْر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه.

وقال عُمَر مولى غُفْرَة [2]: كان جبريل، عليه السلام، فى موضع الجنائز، فقال له النبى ﷺ: « يا جبريل، إنى أحب أن أعلم أمْرَ السحاب؟ » قال: فقال جبريل: يا نبى الله، هذا ملك السحاب فسله. فقال: تأتينا صكَاك مُخَتَّمة: اسق بلاد كذا وكذا، كذا وكذا قطرة. رواه ابن حاتم، وهو حديث مرسل.

وقوله: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾: قال عكرمة: يعنى: الذين [3] يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا.

وهذا الذى قاله عكرمة كما صح فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً، على أثر سماء أصابتهم من الليل: « أتدرون ماذا قال ربكم » قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: « قال: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بى، مؤمن بالكوكب »[4].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾: يدعوهم إلى الله عز وجل، ولكنا خصصناك ـ يا محمد ـ بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن، ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢] ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وفى الصحيحين: « بعثت إلى الأحمر والأسود ». وفيهما: « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »؛ ولهذا قال: ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ ﴾ يعنى: بالقرآن، قاله ابن عباس ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣،

(١) فى ف، أ: « الموتى ». (٢) فى ف، أ: « عقبة ». (٣) فى أ: « الذى ».
(٤) صحيح مسلم برقم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهنى.

التحريم : ٩] .

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أى : خلق الماءين : الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال . قاله ابن جريج ، واختاره ابن جرير ، وهذا الذى لاشك فيه ، فإنه ليس فى الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات . والله سبحانه إنما أخبر بالواقع (١) لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس ، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيوناً فى كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله : ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أى : مالح مُرّ زعَاق لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم ، وبحر اليمن ، وبحر البصرة ، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر ، وما شاكلها وشابهها (٢) من البحار الساكنة التى لا تجرى ، ولكن تتموج وتضطرب وتغتلم فى زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجَزْر ، ففى أول كل شهر يحصل منها مد وفيض (٣) ، فإذا شرع الشهر فى النقصان جَزَرت ، حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد إلى الليلة الرابعة عشرة (٤) ثم تشرع فى النقص ، فأجرى الله سبحانه وتعالى ـ وله القدرة التامة ـ العادة بذلك . فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء ، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء ، فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان . ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتتها طيبة ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر : أنتوضأ به ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » . رواه الأئمة : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأهل السنن بإسناد جيد(٥) .

وقوله : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أى : بين العذب والمالح ﴿بَرْزَخًا﴾ أى : حاجزاً ، وهو اليَبَس من الأرض ، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى : مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر ، كما قال : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : ١٩ ـ ٢١] ، وقال تعالى : ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل : ٦١] .

وقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أى : خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدّله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكراً أو أنثى ، كما يشاء ، ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ ، فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات . وكل ذلك من ماء مهين ؛ ولهذا قال : ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا

(١) فى أ : « عن الواقع » . (٢) فى أ : « وأشبهها » . (٣) فى أ : « وقيض » . (٤) فى أ : « عشر » .
(٥) سبق تخريجه عند تفسير الآية : ٣ من سورة المائدة .

أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى عبادتهم غير اللّه من الأصنام ، التى لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم [(١)] ويقاتلون فى سبيلهم ، ويعادون اللّه ورسوله [والمؤمنون] [(٢)] فيهم ؛ ولهذا قال: ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ أى: عوناً فى سبيل الشيطان على حزب اللّه ، وحزب اللّه هم الغالبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ . لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤ ، ٧٥] أى : آلهتهم التى اتخذوها من دون اللّه لا تملك [(٣)] لهم نصرا ، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويَذبُّون عن حَوْزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة للّه ولرسوله فى الدنيا والآخرة .

قال مجاهد : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ قال : يظاهر الشيطان على معصية اللّه ، يعينه .

وقال سعيد بن جُبَير : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ يقول : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال زيد بن أسلم : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ قال : موالياً .

ثم قال تعالى لرسوله ، صلوات اللّه وسلامه عليه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشرا بالجنة لمن أطاع اللّه ، ونذيراً بين يدى عذاب شديد لمن خالف أمر اللّه .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى : على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم ، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه اللّه ، ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير : ٢٨] ، ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ أى : طريقاً ومسلكا ومنهجاً يقتدى فيها بما جئت به .

ثم قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ أى: فى أمورك كلها كُن متوكلا على اللّه الحى الذى لا يموت أبدا ، الذى هو ﴿ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣]، الدائم الباقى السرمدى الأبدى ، الحى القيوم ربّ كل شىء ومليكه ، اجعله ذُخْرك وملجأك ، وهو الذى يُتوكل عليه ويفزع إليه ، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك ، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا

(١) فى أ : « والتشهى فيهم يوالون لهم » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « لا يملكون » .

أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧].

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا عبد الله بن محمد بن على بن نُفَيْل قال : قرأت على مَعْقِل ـ يعنى ابن عبيد الله ـ عن عبد الله بن أبى حسين ، عن شَهْر بن حَوْشَب قال : لقى سلمانُ رسولَ الله ﷺ فى بعض فجاج (١) المدينة ، فسجد له ، فقال : « لا تسجد لى يا سلمان ، واسجد للحى الذى لا يموت » . وهذا مرسل حسن (٢) .

[وقوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ ، أى : اقرن بين حمده وتسبيحه] (٣) ؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك » أى : أخلص له العبادة والتوكل ، كما قال تعالى : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل : ٩] .

وقال : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك : ٢٩] .

وقوله : ﴿ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ﴾ أى : لعلمه (٤) التام الذى لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة .

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أى : هو الحى الذى لا يموت ، وهو خالق كل شىء وربه ومليكه، الذى خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع فى ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع فى سفولها وكثافتها، ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ [الرَّحْمَنُ](٥) ﴾ ، أى: يدبر الأمر ، ويقضى الحق ، وهو خير الفاصلين .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ أى : استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به ، وقد عُلِم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه ، على (٦) سيد ولد آدم على الإطلاق ، فى الدنيا والآخرة ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ـ فما قاله فهو حق ، وما أخبر به فهو صدق ، وهو الإمام المحكم الذى إذا تنازع الناس فى شىء وجب ردّ نزاعهم إليه ، فما يوافق أقواله ، وأفعاله فهو الحق ، وما يخالفها (٧) فهو مردود على قائله وفاعله ، كائنا من كان ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : ١١٥] أى : صدقا فى الإخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى ؛

(١) فى أ : « مخارج » .
(٢) ورواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان (١٠٣/٢) من طريق محمد بن أحمد بن سيار عن هشام عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين به .
(٣) زيادة من ف ، أ . (٤) فى ف ، أ : « بعلمه » . (٥) زيادة من أ .
(٦) فى ف ، أ : « عليه » . (٧) فى أ : « وما خالفها » .

ولهذا قال : ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ قال : ما أخبرتك [١] من شىء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جُرَيج .

وقال شمْر بن عطية فى قوله : ﴿ فَاسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ قال : هذا القرآن خبير به .

ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير اللّه من الأصنام والأنداد : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ؟ أى : لا نعرف الرحمن . وكانوا ينكرون أن يُسَمّى اللّه باسمه الرحمن ، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبى ﷺ للكاتب : « اكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ؛ ولهذا أنزل اللّه : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] أى : هو اللّه وهو الرحمن . وقال فى هذه الآية [٢] : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ؟ أى : لا نعرفه ولا نُقر به ؟ ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أى : لمجرد قولك ؟ . ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾، أما [٣] المؤمنون فإنهم يعبدون اللّه الذى هو الرحمن الرحيم ، ويُفْرِدُونه بالإلهية ويسجدون له. وقد اتفق العلماء ـ رحمهم اللّه ـ على أن هذه السجدة التى فى الفرقان مشروع السجودُ عندها لقارئها ومستمعها ، كما هو مقرر فى موضعه ، واللّه أعلم .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا [٤] (٦٢) ﴾ .

يقول تعالى ممجدا نفسه ، ومعظما على جميل ما خلق فى السماء من البروج ـ وهى الكواكب العظام ـ فى قول مجاهد ، وسعيد بن جُبير ، وأبى صالح ، والحسن ، وقتادة .

وقيل : هى قصور فى السماء للحرس ، يروى هذا عن على ، وابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وإبراهيم النخعى ، وسليمان بن مهْران الأعمش . وهو رواية عن أبى صالح أيضا ، والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هى قصور للحرس ، فيجتمع القولان ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ وهى الشمس المنيرة ، التى هى كالسراج فى الوجود، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [النبأ : ١٣] .

﴿ وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾ أى : مضيئا مشرقا بنور آخر ونوع وفن آخر ، غير نور الشمس ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾ [يونس: ٥] ، وقال مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٥ ، ١٦] .

---

(١) فى أ : « ما أخبرك » .
(٢) فى ف ، أ : « الآية الكريمة » .
(٣) فى ف ، أ : « فأما » .
(٤) فى أ : « نشورا » وهو خطأ .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أى : يخلف كل واحد منهما الآخر ، يتعاقبان لا يفتران . إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك (١) ، كما قال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] ، وقال :﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] وقال :﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

وقوله :﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أى : جعلهما يتعاقبان ، توقيتا لعبادة عباده له ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن اللّه تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل» (٢) .

قال أبو داود الطيالسى : حدثنا أبو حُرّة (٣) ، عن الحسن : أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بقى على من وردى شىء ، فأحببت أن أتمه ـ أو قال : أقضيه ـ وتلا هذه الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً [لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا] (٤)﴾ (٥).

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس [قوله :﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾(٦)] يقول: من فاته شىء من الليل أن يعمله ، أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير . والحسن .

وقال مجاهد ، وقتادة :﴿ خِلْفَةً ﴾ أى : مختلفين ، هذا بسواده ، وهذا بضيائه .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾.

هذه صفات عباد اللّه المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾أى : بسكينة ووقار من غير جَبَرية ولا استكبار ، كما قال:﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٧] . فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشر ولا بطر ،

(١) فى أ : « هذا » .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .
(٣) فى أ : « أبو حمزة » . (٤) زيادة من ف ، أ .
(٥) وهذا منقطع ، فالحسن لم يسمع من عمر .
(٦) زيادة من ف ، أ .

وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبَب ، وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى، عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رُويداً ، فقال : ما بالك ؟ أأنت مريض ؟ قال : لا ، ياأمير المؤمنين. فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشى بقوة . وإنما (١) المراد بالهَوْن هاهنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » (٢) .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن مَعْمَر ، عن يحيى (٣) بن المختار ، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ قال : إن المؤمنين قوم ذُلُل ، ذلت منهم ـ والله ـ الأسماعُ والأبصار والجوارح ، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم حزن الناس ، ولا تعاظم فى نفوسهم شىء طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تَقَطَّعُ نفسهُ على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو فى مشرب ، فقد قل علمه (٤) وحَضَر عذابهُ .

وقوله :﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ أى : إذا سَفه عليهم الجهال بالسّيىء ، لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن الأعمش ، عن أبى خالد الوالبى ، عن النعمان بن مُقَرّن المُزَنى قال : قال رسول الله ﷺ [وسبّ رجلٌ رجلا عنده ، قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام . قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما] (٥) إن ملكاً بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به . وإذا قال له : عليك السلام ، قال : لا ، بل عليك ، وأنت أحق به » . إسناد حسن ، ولم يخرجوه (٦) .

وقال مجاهد : ﴿قَالُوا سَلامًا ﴾ يعنى : قالوا : سداداً .

وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفاً من القول .

وقال الحسن البصرى : ﴿ قَالُوا [سَلامًا﴾ ، قال : حلماء لا يجهلون] (٧) ، وإن جهل عليهم حلموا . يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون (٨) . ثم ذكر أن ليلهم خير ليل .

---

(١) فى ف ، أ : « وأما » .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٣٥) ومسلم فى صحيحه برقم (٦٠٣) من حديث أبى قتادة رضى الله عنه .

(٣) فى ف ، أ : « عمر » . (٤) فى أ : « عمله » . (٥) زيادة من ف ، أ ، والمسند.

(٦) المسند (٥/ ٤٤٥) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٥) : « رجاله رجال الصحيح ، غير أبى خالد الوالبى وهو ثقة » .

(٧) زيادة من ف ، أ . (٨) فى ف ، أ : « بما يسمعون » .

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ أى: فى عبادته وطاعته، كما قال تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧ ، ١٨] ، وقال : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] وقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ الآية [الزمر : ٩] ، ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى : ملازماً دائماً ، كما قال الشاعر(١):

إنْ يُعَذِّب يَكُنْ غَرَاماً ، وإن يُعـ ـط جزيلا ، فإنه لا يُبَالى

ولهذا قال الحسن فى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾: كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت السموات والأرض . وكذا قال سليمان التيمى .

وقال محمد بن كعب [القرظى] (٢): ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ يعنى : ما نعموا فى الدنيا ؛ إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه ، فأغرمهم فأدخلهم النار .

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى : بئس المنزل منظرا ، وبئس المقيل مقاماً .

[و] (٣) قال ابن أبى حاتم عند قوله : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾: حدثنا أبى ، حدثنا الحسن ابن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش ، عن مالك بن الحارث قال : إذا طُرح الرجل فى النار هوى فيها ، فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له : مكانك حتى تتحف ، قال : فيسقى كأسا من سُمِّ الأساود والعقارب ، قال: فيميز الجلد على حدة ، والشعر على حدة ، والعصب على حدة ، والعروق على حدة .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا الحسن بن الربيع ، حدثنا أبو الأحوص ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عُبيد بن عمير قال : إن فى النار لجباباً فيها حيات أمثال البخت ، وعقارب أمثال البغال الدُّلْم (٤) ، فإذا قذف بهم فى النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم ، فإذا وجدت حر النار رجعت .

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا سلام ـ يعنى ابن مسكين ـ عن أبى ظلال، عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : « إن عبداً فى جهنم لينادى ألف سنة : يا حنان ، يامنان . فيقول الله لجبريل : اذهب فأتنى بعبدى هذا . فينطلق جبريل فيجد أهل النار مُنكبين(٥) يبكون ، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل : آتنى به فإنه فى مكان كذا وكذا . فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له : ياعبدى ، كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول : يارب شر مكان ، شر مقيل . فيقول : ردوا عبدى . فيقول : يارب ، ما كنت أرجو إذ أخرجتنى منها أن تردنى فيها ! فيقول : دعوا عبدى (٦) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ أى : ليسوا بمبذرين فى

(١) هو الأعشى ــ ميمون بن قيس ــ والبيت فى تفسير الطبرى (١٩/ ٢٣) .
(٢ ، ٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « الدهم » . (٥) فى أ : « مكبين » .
(٦) المسند (٣/ ٢٣٠) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٣٨٤) : « رجاله رجال الصحيح غير أبى ظلال وضعفه الجمهور ، ووثقه ابن حبان ».

إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون فى حقهم فلا يكفونهم ، بل عَدْلا خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ولا هذا ، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾، كما قال : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عصام (١) بن خالد ، حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى، عن ضَمْرَة ، عن أبى الدرداء ، عن النبى ﷺ قال : « من فقه الرجل رفقه فى معيشته » . ولم يخرجوه (٢) .

وقال [الإمام] (٣) أحمد أيضاً : حدثنا أبو عبيدة الحداد ، حدثنا سُكَين (٤) بن عبد العزيز العَبْدى، حدثنا إبراهيم الهَجَرى عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عال من اقتصد » . ولم يخرجوه (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا أحمد بن يحيى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون (٦) ، حدثنا سعيد (٧) بن حكيم ، عن مسلم بن حبيب ، عن بلال ـ يعنى العبسى ـ عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحسن القصد فى الغنى ، وأحسن القصد فى الفقر ، وأحسن القصد فى العبادة » . ثم قال : لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضى الله عنه (٨) .

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف .

وقال غيره : السرف النفقة فى معصية الله .

وقال الحسن البصرى : ليس النفقة فى سبيل الله سرف [والله أعلم] (٩) .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شَقيق ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : سُئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تَجعل لله نداً وهو خلقك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطْعَم معك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى

---

(١) فى أ : « عاصم » .
(٢) المسند (٥/ ١٩٤) .
(٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « مسكين » .
(٥) المسند (١/ ٤٤٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٢) : « فى إسناده إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف » .
(٦) فى ف ، أ : « إبراهيم بن محمد بن محمد بن ميمون » . (٧) فى ، أ : « سعد » .
(٨) مسند البزار برقم (٣٦٠٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٢) : « رواه البزار عن سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب ، ومسلم هذا لم أجد من ذكره إلا ابن حبان فى ترجمة سعيد الراوى عنه ، وبقية رجاله ثقات » .
(٩) زيادة من أ .

حليلة جارك » . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾.

وهكذا رواه النسائى عن هَنَّاد بن السرى ، عن أبى معاوية ، به (١) .

وقد أخرجه البخارى ومسلم ، من حديث الأعمش ومنصور ـ زاد البخارى : وواصل ـ ثلاثتهم عن أبى وائل ، شقيق بن سلمة ، عن أبى مَيْسَرة عمرو بن شرحبيل ، عن ابن مسعود ، به (٢) ، فالله أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت: يارسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ الحديث .

طريق غريب : وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازى ، حدثنا عامر بن مُدْرِك ، حدثنا السرى ـ يعنى ابن اسماعيل ـ حدثنا الشعبى ، عن مسروق قال : قال عبد الله : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فاتبعته ، فجلس على نَشَز من الأرض ، وقعدت أسفل منه ، ووجهى حيال ركبتيه، واغتنمت (٣) خلوته وقلت (٤) : بأبى أنت وأمى يارسول الله ، أى الذنوب (٥) أكبر ؟ قال : « أن تدعو لله نداً وهو خلقك » . قلت : ثم مه ؟ (٦) قال : « أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك » . قلت : ثم مه ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » . ثـم قـرأ : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾. [إلى آخر] (٧) الآية (٨).

وقال النسائى : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن هلال بن يَسَاف ، عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : « ألا إنما هى أربع ـ فما أنا بأشح عليهن منى منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ ـ : لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » (٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن المدينى ،رحمه الله ،حدثنا محمد بن فضيل بن غَزْوان ، حدثنا محمد بن سعد (١٠) الأنصارى ، سمعت أبا طيبة الكَلاَعى ،سمعت المقداد بن الأسود ، رضى الله عنه ،يقول : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ما تقولون فى الزنا » ؟ قالوا : حَرّمه الله ورسوله ،فهو حَرَام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » . قال :« ما تقولون فى السرقة » ؟ قالوا : حرمها الله ورسوله، فهى حرام . قال : « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»(١١) .

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا عمار بن نصر ، حدثنا بَقِيَّة ، عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ : قال : « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نُطفة وضعها رجل فى رَحِم لا يحل له » (١٢) .

(١) المسند (١/ ٣٨٠) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٦٨) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٦٨١١) ، وصحيح مسلم برقم (٦٨) .
(٣) فى ف : « فاغتنمت » . (٤) فى أ : « فقلت » . (٥) فى أ : « الذنب » . (٦) فى أ : « أى » .
(٧) زيادة من أ .
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٨١١) ، وصحيح مسلم برقم (٦٨) .
(٩) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٧٣) (١٠) فى ف ، أ : « سعيد » .
(١١) المسند (٦/ ٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ١٦٨) : « رجاله ثقات » .
(١٢) الورع لابن أبى الدنيا برقم (١٣٧) : « وهو مرسل ، وفى إسناده بقية وهو مدلس وابن أبى مريم ضعيف » أ . هـ مستفاداً من كلام المحقق الفاضل محمد الحمود

وقال ابن جُرَيج : أخبرنى يعلى ، عن سعيد بن جبير أنه سمعه يحدث (١) عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنَوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا (٢) كفارة ، فنزلت : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ ، ونزلت : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا [إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ]**(٣) ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن أبى فَاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل : « إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك أن تقتلَ ولدك وتغذو كلبك ، وينهاك أن تزنى بحليلة جارك » . قال سفيان : وهو قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴾: روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : ﴿ **أَثَامًا** ﴾: واد فى جهنم .

وقال عكرمة : ﴿ **يَلْقَ أَثَامًا** ﴾: أودية فى جهنم يعذب فيها الزناة . وكذا رُوى عن سعيد بن جبير، ومجاهد .

وقال قتادة : ﴿ **يَلْقَ أَثَامًا** ﴾: نكالا ، كنا نحدث أنه واد فى جنهم .

وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بنى ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة .

وقد ورد فى الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره ، عن أبى أمامة الباهلى ـ موقوفا ومرفوعا ـ : أن « غيا » و« أثاما » بئران فى قعر جهنم (٥) . أجارنا الله منها بمنه وكرمه .

وقال السدى : ﴿ **يَلْقَ أَثَامًا** ﴾: جزاء .

وهذا أشبه بظاهر الآية ؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلا منه ، وهو قوله : ﴿ **يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أى : يكرر عليه ويغلظ ، ﴿ **وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا** ﴾ أى : حقيرا ذليلا .

وقوله : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ [عَمَلاً]** (٦)**صَالِحًا** ﴾ أى : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ** ﴾ فى الدنيا إلى الله (٧) من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه .

وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض (٨) بين هذه وبين آية النساء : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٩٣] فإن هذه

(١) فى أ : « يحدثه » . (٢) فى أ : « أن لنا إن عملنا » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٧٧) وعزاه لابن أبى حاتم . ووقع فيه : « عن أبى قتادة » ، فإن كان كذلك فهو موصول ، وإن كان كما هو مثبت هنا فهو مرسل ، ولم يتبين لى الصواب منهما ، والله أعلم .
(٥) تفسير الطبرى (١٩/٢٩) .
(٦)زيادة من ف ، وهو الصواب .
(٧) فى ف : « إلى الله فى الدنيا » . (٨) فى أ : « ولا معارض » .

وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ، لأن هذه مقيدة بالتوبة ، ثم قد قال [الله](١) تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦] .

وقد ثبتت السنة الصحيحة ، عن رسول اللّه ﷺ بصحة توبة القاتل ، كما ذكر مقررا من قصة الذى قتل مائة رجل ثم تاب ، وقبل منه ، وغير ذلك من الأحاديث .

وقوله : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ : فى معنى قوله : ﴿ **يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ﴾ قولان :

أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات . قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ﴾ قال : هم المؤمنون ، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب اللّه بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات .

وروى مجاهد ، عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بُدِّلْنَ بَعْدَ حَرِّهِ خَرِيفا (٢) وَبَعْدَ طُولِ النَّفَسِ الوَجِيفَا (٣)

يعنى : تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها .

وقال عطاء بن أبى رباح : هذا فى الدنيا (٤) ، يكون الرجل على هيئة قبيحة ، ثم يبدله اللّه بها خيراً .

وقال سعيد بن جبير : أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة اللّه ، وأبدلهم (٥) بقتال المسلمين قتالا مع المسلمين للمشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .

وقال الحسن البصرى : أبدلهم اللّه بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر إسلاما .

وهذا قول أبى العالية ، وقتادة ، وجماعة آخرين .

والقول الثانى : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف ، رحمهم اللّه تعالى ـ وهذا سياق الحديث ـ قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن المعرور بن سُوَيْد ، عن أبى ذر ، رضى اللّه عنه ، قال: قال رسول اللّه ﷺ : « إنى لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة : يؤتى برجل فيقول : نَحّوا كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها ، قال : فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا ؟ فيقول : نعم ـ لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا ـ

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) فى أ : « صريفاً » .
(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٩/ ٣٠) .
(٤) فى أ : « هذا يكون فى الدنيا » .
(٥) فى ف : « وبدلهم » .

فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة . فيقول : يارب ، عملت أشياء لا أراها هاهنا » . قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . وانفرد به مسلم [١] .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا هاشم بن يزيد ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنى أبى ، حدثنى ضَمْضَم بن زُرْعَة ، عن شُرَيْح بن عبيد [٢] ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : أعطنى صحيفتك . فيعطيه إياها ، فما وجد فى صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان ، وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أن ينام أحدكم فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعا وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة ، فتلك مائة » [٣] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة وعارم قالا : حدثنا ثابت ـ يعنى : ابن يزيد أبو زيد ـ حدثنا عاصم ، عن أبى عثمان ، عن سلمان قال : يعطى رجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها ، فإذا سيئاته [٤] ، فإذا كاد [٥] يسوء ظنه نظر [٦] فى أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر فى أعلاها فإذا هى قد بدلت حسنات .

وقال أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا سليمان بن موسى الزهرى أبو داود ، حدثنا أبو العَنْبَس ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس [٧] يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل : من هم ياأبا هريرة ؟ قال : الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات .

وقال أيضاً : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى زياد ، حدثنا سَيَّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو حمزة ، عن أبى الضيف ـ وكان من أصحاب معاذ بن جبل ـ قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف : المتقين ، ثم الشاكرين ، ثم الخائفين ، ثم أصحاب اليمين . قلت : لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال : لأنهم عملوا الحسنات [٨] والسيئات ، فأعطوا كتبهم بأيمانهم ، فقرؤوا سيئاتهم حرفا حرفا ـ قالوا : يا ربنا ، هذه سيئاتنا ، فأين حسناتنا ؟ . فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات، فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرؤوا كتابيه)، فهم أكثر أهل الجنة .

وقال على بن الحسين زين العابدين : ﴿ **يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ﴾ قال : فى الآخرة .

وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات : [رواهما ابن أبى حاتم ، وروى ابن جرير ، عن سعيد بن المسيب مثله] [٩] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى ، حدثنا الوليد بن مسلم ،

---

(١) المسند (٥/ ١٧٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٠) .

(٢) فى ف ، أ : « عبدة » .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (٣/ ٢٩٦) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٢١) : « فيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف » ، ولم يثبت سماعه عن أبيه أيضا .

(٤) فى أ : « إساءته » . (٥) فى أ : « كان » . (٦) فى أ : « ينظر » . (٧) فى أ : « أناس » .

(٨) فى أ : « بالحسنات » . (٩) زيادة من ف ، أ .

حدثنا أبو (١) جابر ، أنه سمع مكحولا يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط (٢) حاجباه على عينيه ، فقال : يا رسول الله ،رجل غدر وفجر ، لم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه ، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم ، فهل له من توبة ؟ فقال له رسول الله (٣) ﷺ : «أسلمتَ؟» قال (٤) : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن (٥) محمداً عبده ورسوله. فقال النبى ﷺ : « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ، ومبدل(٦) سيئاتك حسنات » . فقال: يارسول الله، وغَدَرَاتى وفَجَراتى؟ فقال : « وغَدراَتك وفَجَراتك » . فوَلّى الرجل يهلل ويكبر(٧).(٨).

وروى الطبرانى من حديث أبى المغيرة ، عن صفوان بن عَمْرو (٩) ، عن عبد الرحمن بن جبير،عن أبى فَرْوَةَ ـ شَطْب ـ أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ، ولم يترك حاجة ولا داجة ، فهل له من توبة ؟ فقال : « أسلمتَ ؟ » فقال : نعم ، قال : « فافعل الخيرات ، واترك السيئات ، فيجعلها (١٠) الله لك خيرات كلها » . قال : وغَدراَتى وفَجَراتى ؟ قال: « نعم» . قال فما زال يكبّر حتى توارى (١١) .

ورواه الطبرانى من طريق أبى فَروة الرهاوى ، عن ياسين الزيات ، عن أبى سلمة الحِمْصى ، عن يحيى بن جابر ، عن سلمة بن نفيل مرفوعاً (١٢) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان ، عن فُلَيح الشماس ، عن عبيد بن أبى عبيد (١٣) عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : جاءتنى امرأة فقالت : هل لى من توبة ؟ إنى زنيت وولدت وقتلته . فقلت (١٤): لا ، ولا نَعمت العين ولا كرامة. فقامت وهى تدعو بالحسرة . ثم صليت مع النبى ﷺ الصبح ، فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها ، فقال رسول الله ﷺ : « بئسما قلت ! أما كنت تقرأ هذه الآية : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ فقرأتها عليها . فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذى جعل لى مخرجاً .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفى رجاله من لا يُعرف والله أعلم . وقد رواه ابن جرير من

---

(١) فى أ : « ابن » . (٢) فى أ : « أسقطت » . (٣) فى أ : « النبى » . (٤) فى أ : « فقال » .

(٥) فى أ : « وأشهد أن » . (٦) فى أ : « ويبدل » . (٧) فى ف ، أ : « يكبر ويهلل » .

(٨) وقد وصله الإمام أحمد فى مسنده (٤/ ٣٨٤) من طريق نوح بن قيس عن أشعث بن جابر الحدانى عن مكحول عن عمرو بن عبسة به مرفوعاً باختصار فى أوله وآخره ، وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٣٢) : « رجاله موثقون إلا أنه من رواية مكحول عن عمرو بن عبسة ، فلا أدرى أسمع منه أم لا » .

(٩) فى أ : « عمر » . (١٠) فى ف ، أ : « فيجعلهم » .

(١١) المعجم الكبير للطبرانى (٧/ ٣١٤) ورواه الخطيب فى تاريخ بغداد (٣/ ٣٥٢) من طريق أبى القاسم البغوى عن محمد بن هارون الحربى عن أبى المغيرة به . وقال أبو القاسم البغوى : « روى هذا الحديث غير محمد بن هارون عن أبى المغيرة عن صفوان عن عبد الرحمن ابن جبير : أن رجلاً أتى النبى ﷺ طويلاً شطب الممدود ، وأحسب أن محمداً بن هارون صحف فيه ، والصواب ما قال غيره » .

(١٢) المعجم الكبير للطبرانى (٧/ ٥٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٣١) : « فى إسناده ياسين الزيات يروى الموضوعات » .

(١٣) فى هـ ، ف ، أ : « عن فليح بن عبيد بن أبى عبيد الشماس عن أبيه » والمثبت من الطبرى .

(١٤) فى أ : « فقال » .

حديث إبراهيم بن المنذر الحزَامى بسنده بنحوه ، وعنده : فخرجت تدعو بالحسرة وتقول : ياحسرتا ! أخلق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله ﷺ ، تَطَلَّبها (١) فى جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته ، فأخبرها بما قال له رسول الله ﷺ ، فخرت ساجدة وقالت : الحمد لله الذى جعل لى مخرجاً وتوبة مما عملت . وأعتقت جارية كانت معها وابنتها، وتابت إلى الله عزوجل (٢) .

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده (٣) ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان ، جليل أو حقير ، كبير أو صغير : فقال : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ أى: فإن الله يقبل (٤) توبته ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ١١٠] ، وقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٤] ، وقال :﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، أى: لمن تاب إليه .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾.

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن ، أنهم : ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾. قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام . وقيل : الكذب ، والفسق ، واللغو ، والباطل .

وقال محمد بن الحنفية : [هو] (٥) اللهو والغناء .

وقال أبو العالية ، وطاوس ، ومحمد بن سيرين ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم : هى أعياد المشركين (٦) .

وقال عمرو بن قيس : هى مجالس السوء والخنا .

وقال مالك ، عن الزهرى : [شرب الخمر] (٧) لا يحضرونه ولا يرغبون فيه ، كما جاء فى الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » (٨) .

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أى: شهادة الزور ، وهى الكذب متعمدا على غيره ،

---

(١) فى ف : « فطلبها » .
(٢) تفسير الطبرى (١٩/٢٧) ورواه ابن مردويه كما فى الدر المنثور (٦/٢٧٩) وقال السيوطى : « إسناده ضعيف » .
(٣) فى أ : « لعباده » . (٤) فى أ : « يتقبل » . (٥) زيادة من أ .
(٦) فى ف : « للمشركين » . (٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٨٠١) من طريق ليث بن أبى سليم عن طاوس عن جابر به مرفوعاً ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث طاوس عن جابر إلا من هذا الوجه » ثم نقل كلام العلماء فى تضعيف ليث بن أبى سليم .

كما [ثبت][١] فى الصحيحين عن أبى بَكْرَة قال: قال [٢] رسول الله ﷺ: « ألا أنبئكم بأكْبر الكبائر » ثلاثا ، قلنا: بلى ، يارسول الله ، قال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين » . وكان متكئاً فجلس ، فقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور [ألا وقول الزور وشهادة الزور] [٣] » . فما زال يكررها ، حتى قلنا : ليته سكت [٤] .

والأظهر من السياق أن المراد : لا يشهدون الزور ، أى : لا يحضرونه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أى : لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشىء [٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾.

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشَجّ ، حدثنا أبو الحسين العجلى ، عن محمد بن مسلم، أخبرنى إبراهيم بن مَيْسَرة ، أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً [٦] ، فقال النبى ﷺ : « لقد أصبح ابن مسعود ، وأمسى كريماً » .

وحدثنا الحسن بن محمد بن سلمة النحوى ، حدثنا حبان ، أنا عبد الله ، أنا محمد بن مسلم ، أخبرنى ابن ميسرة قال : بلغنى أن ابن مسعود مر بلهو معرضاً فلم يقف ، فقال رسول الله ﷺ[٧]: « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » [٨] ، ثم تلا إبراهيم بن ميسرة : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [٩] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [و] [١٠] هذه من صفات المؤمنين ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] ، بخلاف الكافر ، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصر عما كان عليه ، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه وجهله وضلاله ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] .

فقوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أى : بخلاف الكافر الذى ذكر بآيات ربه ، فاستمر على حاله ، كأن لم يسمعها أصم أعمى .

قال مجاهد : قوله : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾: لم يسمعوا ولم يبصروا ، ولم يفقهوا شيئاً.

وقال الحسن البصرى : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى .

---

(١) زيادة من ف ، أ . (٢) فى ف ، أ : « عن » . (٣) زيادة من ف ، أ .
(٤) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧) .
(٥) فى أ : « فيه شىء » . (٦) فى أ : « فلم يقف » . (٧) فى أ : « النبى » .
(٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) ورواه ابن عساكر كما فى المختصر لابن منظور (١٤/ ٥٥) من طريق إبراهيم بن ميسرة به .
(١٠) زيادة من أ .

وقال قتادة : قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، يقول: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم ـ والله ـ قوم عقلوا عن الله (١) وانتفعوا بما (٢) سمعوا من كتابه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا عبد الله بن حُمْران ، حدثنا ابن عَوْن قال : سألت الشعبى قلت : الرجل يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا ، أيسجد معهم ؟ قال : فتلا هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يعنى : أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر آية السجدة (٣) ،فلا ينبغى للمؤمن أن يكون إمعة، بل يكون على بصيرة من أمره ، ويقين واضح بيِّن .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: يعنى : الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له .

قال ابن عباس : يعنون من يعمل بالطاعة ، فتقرُّ به أعينهم فى الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين .

وقال الحسن البصرى ـ وسئل عن هذه الآية ـ فقال : أن يُرى الله العبدَ المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله . لا والله ما شىء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولد ولد، أو أخا ، أو حميماً مطيعاً لله عز وجل .

وقال ابن جُرَيْج فى قوله : ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال : يعبدونك ويحسنون (٤) عبادتك ، ولا يجرون علينا الجرائر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام.

وقال الإمام أحمد : حدثنا يَعْمَر (٥) بن بشر (٦) ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، أخبرنا صفوان بن عمرو ، حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً، فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ! لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب ، فجعلت أعجبُ ، ما قال إلا خيراً ! ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَحْضَراً غَيَّبَه الله عنه ، لا يدرى لو شهده كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوام أكبَّهم الله على مناخرهم فى جهنم ، لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم ، قد (٧) كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبى ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء فى فترة من جاهلية ، ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان . فجاء بفُرقان فَرَقَ به بين الحق والباطل ، وفَرقَ بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قُفْل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل

(١) فى أ : « الحق » . (٢) فى أ : « مما » . (٣) فى ف ، أ : « أمر السجدة » .
(٤) فى أ : « فيحسنون » . (٥) فى هـ ، ف ، أ : « معمر » والمثبت من المسند . (٦) فى أ : « بشير » .
(٧) فى ف ، أ : « وقد » .

النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ، وإنها التى قال اللّه تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ . وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه (١) .

وقوله : ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا فى الخير .

وقال غيرهم : هداة مهتدين (٢) [ودعاة] (٣) إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم (٤) ، وأن يكون هداهم متعدياً (٥) إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر (٦) ثواباً ، وأحسن مآباً ؛ ولهذا ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية » (٧) .

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧)﴾.

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من [هذه] (٨) الصفات الجميلة ، والأفعال والأقوال (٩) الجليلة (١٠) ـ قال بعد ذلك كله : ﴿أُوْلَئِكَ﴾أى : المتصفون بهذه ﴿يُجْزَوْنَ﴾ أى : يوم القيامة ﴿الْغُرْفَةَ﴾ وهى الجنة.

قال أبو جعفر الباقر ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسُّدِّىّ : سميت بذلك لارتفاعها .

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى : على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أى : فى الجنة ﴿تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ أى : يُبْتَدرُون (١١) فيها بالتحية والإكرام. ويلقون [فيها] (١٢) التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار .

وقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى : مقيمين ، لا يظعنون ولا يَحُولون ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود : ١٠٨] .

وقوله ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أى : حسنت منظرا وطابت مَقيلا ومنزلا .

---

(١) المسند (٦/٢) .
(٢) فى أ : « مهديين » . (٣) زيادة من أ . (٤) فى أ : « ذراريهم » .
(٥) فى أ : « متعد » (٦) فى أ : « أكبر » .
(٧) صحيح مسلم برقم (١٦٣١) .
(٨) زيادة من ف ، أ .
(٩) فى ف ، أ : « الأقوال والأفعال » . (١٠) فى أ : « الجميلة » . (١١) فى أ : « يبتدون » .
(١٢) زيادة من ف ، أ .

ثم قال (١) تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ أى : لا يبالى ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا .

وقال مجاهد ، وعمرو بن شعيب : ﴿ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي ﴾ يقول : ما يفعل بكم ربى .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُم ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر اللّه الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه (٢) إلى المؤمنين .

وقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُم ﴾ أى : أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى : فسوف يكون تكذيبكم(٣) لزاماً لكم ، يعنى : مقتضيا لهلاككم وعذابكم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر ، كما فسره بذلك عبد اللّه بن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومحمد بن كعب القرظى ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الحسن البصرى : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يعنى : يوم القيامة . ولا منافاة بينهما . واللّه أعلم.

---

(١) فى أ : « وقال » . (٢) فى ف : « حبب » . (٣) فى أ : « تكذيبهم » .

[١٨٩و]

/ سورة الفرقان

مكّيّة، وهي سبع وسبعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ "البرَكة" النماء والزيادة، حسّيّةً كانت أو معنويّة، وكثرةُ الخير ودوامُه أيضًا، ونسبتها إلى الله عزّ وجلّ على المعنى الأوّل -وهو الأليق بالمقام- باعتبار تعاليه عمّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله التي مِن جملتها تنزيل **القرآن الكريم** المعجِز الناطق بعلوّ شأنه تعالى، وسموّ صفاته، وابتناءِ أفعاله على أساس الحِكَم والمصالح، وخلوّها عن شائبة الخَلل بالكلّيّة. وصيغة التفاعل للمبالغة فيما ذُكر، فإنّ ما لا يتصوّر نسبته إليه سبحانه حقيقةً مِن الصيغ كالتكبّر ونحوه لا تنسب إليه تعالى إلّا باعتبار غاياتها.

وعلى المعنى الثاني باعتبار كَثرة ما يُفيض منه على مخلوقاته -لا سيّما على الإنسان- مِن فنون الخيرات التي مِن جملتها تنزيل **القرآن** المنطوي على جميع الخيرات الدينيّة والدنيويّة. والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وتزايُدها شيئًا فشيئًا وآنًا فآنًا بحسب حدوثها أو حدوث متعلَّقاتها. ولِاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال، وتحقّقها بالفعل، والإشعارِ بالتعجّب المناسب للإنشاء، والإنباءِ عن نهاية التعظيم؛ لم يجُز استعمالها في حقّ غيره تعالى، ولا استعمالُ غيرها مِن الصيغ في حقّه تعالى.

و﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ مصدر "فَرَق بين الشيئين"، أي: فصل بينهما، سمّي به **القرآن** لغاية فَرقه بين الحقّ والباطل بأحكامه، أو بين المُحِقّ والمُبطِل بإعجازه، أو لكونه مفصولًا بعضُه مِن بعض في نفسه، أو في إنزاله.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، وإيرادُه عليه السلام بذلك العنوان لتشريفه، والإيذانِ بكونه عليه السلام في أقصى مراتب العبوديّة، والتنبيهِ على أنّ الرسول لا يكون إلّا عبدًا للمرسِل ردًّا على النصارى. ﴿لِيَكُونَ﴾ غايةٌ للتنزيل، أي: نزّله عليه ليكون هو عليه السلام أو الفرقانُ ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ مِن الثقلَين ﴿نَذِيرًا﴾ أي: منذِرًا، أو إنذارًا مبالغةً، أو ليكون تنزيلُه إنذارًا. وعدم التعرّض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة. وتقديم "اللام" على عاملها لمراعاة الفواصل.

[١٨٩ظ] وإبرازُ تنزيل الفرقان في معرِض الصلة / التي حقُّها أن تكون معلومةَ الثبوت للموصول عند السامع مع إنكار الكفرة له لإجرائه مُجرى المعلوم المسلَّم تنبيهًا على كمال قوّة دلائله، وكونِه بحيث لا يكاد يجهله أحد، كقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة، ٢/٢].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له خاصّةً -دون غيره، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا- السلطانُ القاهر، والاستيلاءُ الباهر عليهما، المستلزمان للقدرة التامّة والتصرّف الكلّي فيهما وفيما فيهما إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتة، وأمرًا ونهيًا، حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح. ومحلّه الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، والجملةُ مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها، أو على أنّه نعت للموصول الأوّل، أو بيان له، أو بدل منه، وما بينهما ليس بأجنبيّ؛ لأنّه مِن تمام صلته، ومعلوميّةُ مضمونه للكفرة ممّا لا ريب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون، ٨٦/٢٣-٨٧] ونظائرِه، أو مدح له تعالى بالرفع أو بالنصب.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يزعم الذين يقولون في حقّ المسيح والملائكة ما يقولون، فسبحان الله عمّا يصفون. وهو معطوف على ما قبله مِن الجملة الظرفيّة، ونظمه في سِلك الصلة للإيذان بأنّ مضمونه مِن الوضوح والظهور بحيث لا يكاد يجهله جاهل، لا سيّما بعد تقرير ما قبله.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي: مُلكِ السماوات والأرض، وهو أيضًا عطفٌ على الصلة. وإفراده بالذكر مَع أنّ ما ذُكر مِن اختصاص ملكهما به تعالى مستلزِم له قطعًا للتصريح ببطلان زعم الثنويّة القائلين بتعدّد الآلهة والردِ في نحورهم. وتوسيطُ نفي اتّخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالتِه، والاحترازِ عن توهّم كونه تتمّةً للأوّل.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ أي: أحدث كلّ موجودٍ مِن الموجودات إحداثًا جاريًا على سَنن التقدير حسبما اقتضته إرادته المبنيّة على الحِكَم البالغة بأن خلق كلًّا منها مِن موادَّ مخصوصةٍ على صور معيّنةٍ، / ورتّب فيه قوًى وخواصَّ مختلفةَ [١٩٠و] الآثار والأحكام، ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: هيّأه لِما أراد به مِن الخصائص والأفعال اللائقة به ﴿تَقۡدِيرٗا﴾ بديعًا لا يُقادَر قدره ولا يُبلَغ كنهُه، كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك والنظر والتدبّر في أمور المعاد والمعاش، واستنباطِ الصنائع المتنوعة، ومزاولةِ الأعمال المختلفة، وهكذا أحوال سائر الأنواع.

وقيل: أريدَ بالخلق مطلق الإيجاد والإحداث مجازًا مِن غير ملاحظة معنى التقدير، وإن لم يَخلُ عنه في نفس الأمر، فالمعنى: أوجد كلّ شيء فقدّره في ذلك الإيجاد تقديرًا. وأمّا ما قيل مِن أنّه سمّى إحداثه تعالى خلقًا لأنّه تعالى لا يُحدث شيئًا إلّا على وجه التقدير مِن غير تفاوتٍ، ففيه أنّ ارتكاب المجاز بحَمل الخلق على مطلق الإحداث لتجريده عن معنى التقدير، فاعتبارُه فيه بوجهٍ مِن الوجوه مُخِلّ بالمرام قطعًا.

وقيل: المراد بالتقدير الثاني هو التقدير للبقاء إلى الأجل المسمّى، وأيًّا ما كان فالجملة جاريةٌ مَجرى التعليل لِما قبلها مِن الجمل المنتظِمة مِثلَها في سلك الصلة، فإنّ خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك النمط البديع كما يقتضي استقلالَه تعالى باتّصافه بصفات الألوهيّة يقتضي انتظام كلّ ما سواه كائنًا ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث لا يشذّ عنها شيء مِن ذلك قطعًا، وما كان كذلك كيف يُتَوهَّم كونُه ولدًا له سبحانه، أو شريكًا في مُلكه.

﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ③﴾

﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ بعد ما بُيِّن حقيقةُ الحقّ في مطلع السّورة الكريمة بذكرِ تنزيله تعالى للفرقان العظيم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ووَصفِه تعالى بصفات الكمال، وتنزيهِه عمّا لا يليق بشأنه الجليل؛ عُقِّبَ ذلك بحكاية أباطيلِ المشركين في حقّ المُنزِل سبحانه والمُنزَلِ والمُنزَلِ عليه على الترتيب، وإظهارِ بطلانها.

[١٩٠ظ] والإضمار مِن غير جريانِ ذكرهم للثقة بدلالة ما قبله مِن نفي / الشريك عليهم، أي: اتّخذوا لأنفسهم -متجاوزين اللهَ الذي ذُكِر بعضُ شئونه العظيمة مِن اختصاص ملك السماوات والأرض به تعالى، وانتفاءِ الولد والشريك منه، وخلقِ جميع الأشياء وتقديرها أبدعَ تقدير- آلهةً ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يقدرون على خلق شيء مِن الأشياء أصلًا ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ كسائر المخلوقات. وقيل: لا يقدرون على أن يختلقوا شيئًا، وهم يُختلَقون حيث يختلقُهم عبَدتُهم بالنحت والتصوير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لبيان ما لم يَدُلَّ عليه ما قبلَه مِن مراتب عجزِهم وضعفِهم، فإنّ بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربّما يملك دفع الضرّ وجلب النفع في الجملة كالحيوان، وهؤلاء لا يقدِرون على التصرّف في ضرٍّ ما ليدفعوه عن أنفسهم، ولا في نفعٍ ما حتّى يجلبوه إليهم، فكيف يملكون شيئًا منهما لغيرهم؟ وتقديم ذكر الضرّ لأنّ دفعه مع كونه أهمّ في نفسه أوّلُ مراتب النفع وأقدمُها.

والتنصيص على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: لا يقدرون على التصرّف في شيء منها بإماتة الأحياءِ، وإحياء الموتى وَبَعْثِهم، بعد بيان عجزهم عمّا هو أهون مِن هذه الأمور مِن دفع الضرّ وجلب النفع؛ للتصريح بعجزهم عن كلّ واحدٍ ممّا ذكر على التفصيل، والتنبيهِ على أنّ الإله يجب أن يكون قادرًا على جميع ذلك. وفيه إيذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم،

كأنّهم غير عارفين بانتفاء ما نُفِي عن آلِهَتهم مِن الأمور المذكورة، مفتقرون إلى التصريح بذلك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ شروع في حكاية أباطيلهم المتعلّقة بالمُنزَل والمُنزَل عليه معًا وإبطالِها. والموصول إمّا عبارة عن غُلاتهم في الكفر والطغيان، وهم النضر بن الحارث، وعبد الله بن أميّة، ونوفل بن خويلد، ومَن ضامّهم. ورُوي عن الكلبي ومقاتل أنّ القائل هو النضر بن الحارث،[١] والجمعُ لمشايَعة الباقين له في ذلك. وإمّا عن كلّهم، / ووضعُ الموصول موضع [١٩١و] ضميرهم لذمّهم بما في حيّز الصلة، والإيذانِ بأنّ ما تفوّهوا به كفر عظيم.

وفي كلمة ﴿هَٰذَا﴾ حطّ لرتبة المشار إليه، أي: ما هذا إلّا كذِب مصروف عن وجهه ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يريدون أنّه اختلقه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي: على اختلاقه ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعنون اليهودَ بأن يُلقوا إليه أخبارَ الأمم الدارجة، وهو يعبّر عنها بعبارته. وقيل: هما جَبر ويسار[٢] كانا يصنعان السيف بمكّة ويقرآن التوراة والإنجيل.[٣] وقيل: هو عابس،[٤] وقد مرّ تفصيله في سورة النحل.[٥]

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا﴾ منصوب بـ﴿جَآءُو﴾، فإنّ "جاء" و"أتى" يُستعملان في معنى "فَعَلَ"، فيُعدَّيان تعديتَه، أو بنزع الخافض، أي: بظلم، قاله الزجّاج.[٦]

---

١ تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/٢٢٦؛ اللباب لابن عادل، ١٤/٤٧٨.

٢ قال عبد الله بن مسلم الحضرمي: «كان لنا غلامان نصرانيّان مِن أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف، وكانا يقرآن كتابًا لهم، فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمرّ بهما ويسمع قراءتَهما، وكان المشركون يقولون: يتعلّم منهما، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم». تفسير مجاهد، ص ٤٢٥؛ تفسير القرطبي، ١٠/١٧٨.

٣ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٧/١٢٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١١٨.

٤ هو عابس غلام حُوَيطب بن عبد العزّى، وكان قد أسلم. انظر: تفسير السمرقندي، ٢/٢٩١؛ والإصابة لابن حجر، ٣/٤٥٩.

٥ النحل، ١٦/١٠٣.

٦ معاني القرآن للزجّاج، ٤/٥٨.

والتنوين للتفخيم، أي: جاءوا بما قالوا ظلمًا هائلًا عظيمًا لا يُقادَرُ قَدرُه حيث جعلوا الحقَّ البحتَ الذي لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِن خلفه إفكًا مفترًى مِن قِبل البشر، وهو مِن جهة نظمه الرائق وطَرزه الفائق بحيث لو اجتمعتِ الإنس والجنّ على مُباراتِه لعجِزوا عن الإتيان بمثل آيةٍ مِن آياته، ومِن جهة اشتماله على الحِكَم الخفيّة والأحكامِ المستتبِعة للسعادات الدينيّة والدنيويّة والأمورِ الغيبيّة بحيث لا يناله عقول البشر، ولا يَفي بفهمه القوى والقُدَر.

﴿وَزُورًا﴾ أي: كذبًا كبيرًا لا يُبلَغُ غايته، حيث نسبوا إليه عليه السلام ما هو بريء منه. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لكن لا على أنّهما أمران متغايران حقيقةً يقع أحدهما عقيب الآخر، أو يحصل بسببه؛ بل على أنّ الثاني هو عين الأوّل حقيقةً، وإنّما الترتيب بحسب التغاير الاعتباري. و﴿قَدْ﴾ لتحقيق ذلك المعنى، فإنّ ما جاءوه مِن الظلم والزور هو عين ما حُكي عنهم، لكنّه لمّا كان مغايرًا له في المفهوم وأظهرَ منه بطلانًا رُتّب عليه بـ"الفاء" ترتيبَ اللازم على المَلزوم تهويلًا لأمره.

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بعد ما جعلوا الحقّ الذي لا مَحيد عنه إفكًا مختلَقًا بإعانة البشر بيّنوا على زعمهم الفاسد كيفيّةَ الإعانة. و"الأساطير" جمع "أَسطار"، أو "أُسطورة" كـ"أُحدوثة"، وهي ما سطّرهُ المتقدّمون مِن الخُرافات ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ أي: كتبها لنفسه على الإسناد المجازي، أو استكتبها. وقُرئ على البناءِ للمفعول؛[١] لأنّه عليه السلام أُمّي. وأصله "اكْتَتَبَها له كاتبٌ"، فحُذف "اللام" وأُفضيَ الفعل إلى الضمير، فصار "اكْتَتَبَها إيّاه كاتبٌ"، ثمّ حُذف الفاعل لعدم تعلّق الغرض العلمي بخصوصه، وبُني الفعلُ للضمير المنفصل فاستتر فيه.

﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي: تُلقى عليه تلك الأساطير بعد اكتتابها لِيحفَظَها مِن أفواه / مَن يُمليها عليه مِن ذلك المكتتَب؛ لكونه أمّيًا لا يقدر على أن يتلقّاها [١٩١ظ]
منه بالقراءة، أو تُملَى على الكاتب، على أنّ معنى ﴿اكتتبها﴾ أرادَ اكتتابها،

١ أي: "اكْتُتِبَهَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٦.

أو استِكتابَها. ورَجعُ الضمير المجرور إليه عليه السلام كإسناد الكتابة في ضِمن الاكتتاب إليه عليه السلام.

﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ أي: دائمًا، أو خُفيةً قبل انتشار الناس حين يأوون إلى مساكنهم. انظر إلى هذه الرتبة مِن الجَراءة العظيمة، قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾

﴿قُلۡ﴾ لهم رَدًّا عليهم وتحقيقًا للحقّ: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وصفُه تعالى بإحاطة علمه بجميع المعلومات الجليّة والخفيّة للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرارٍ مطويّة عن عقول البشر مع ما فيه مِن التعريض بمُجازاتهم بجِناياتهم المَحكيّة التي هي مِن جملة معلوماته تعالى، أي: ليس ذلك ممّا يُفترَى ويُفتَعلُ بإعانة قومٍ وكتابةِ آخرين مِن الأحاديث الملفَّقة وأساطيرِ الأوّلين؛ بل هو أمر سماوي أنزلَه الله الذي لا يعزُب عن علمه شيءٌ مِن الأشياء، وأودعَ فيه فنونَ الحِكَم والأسرار على وجه بديع لا يحوم حوله الأفهام حيث أعجزكم قاطبةً بفصاحته وبلاغته، وأخبرَكم بمغيَّباتٍ مستقبَلة وأمورٍ مكنونةٍ لا يُهتدَى إليها ولا يُوقَف عليها إلّا بتوفيق العليم الخبير، وقد جعلتموه إفكًا مفترًى مِن قَبيل الأساطير، واستوجبتم بذلك أن يُصَبَّ عليكم سوطُ العذاب صبًّا.

فقوله تعالى:[١] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تعليل لِما هو المشاهَد مِن تأخير العقوبة، أي: إنّه تعالى أزَلًا وأبَدًا مستمرّ على المغفرة والرحمة المستَتبِعتين للتأخير، فلذلك لا يَعجَلُ بعقوبتكم على ما تقولون في حقّه مع كمال استيجابه إيّاها وغايةِ قدرته تعالى عليها.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ شروع في حكاية جنايتهم المتعلّقة بخصوصيّة المنزَل عليه. و﴿مَا﴾ استفهاميّة بمعنى إنكار الوقوع ونفيِه، مرفوعةٌ على الابتداء،

---

١ س - فقوله تعالى.

خبرُها ما بعدها مِن الجارّ والمجرور. وفي هذا تصغير لشأنه عليه الصلاة والسلام.[١] وتسميتُه عليه السلام رسولًا بطريق الاستهزاء به عليه السلام، كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [الشعراء، ٢٧/٢٦].

وقوله تعالى: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ حال مِن ﴿ٱلرَّسُولِ﴾، والعامل فيها ما عَمِل في الجارّ مِن معنى الاستقرار، أي: أيُّ شيء وأيُّ سبب حصل لهذا الذي يدّعي الرسالة حالَ كونه يأكل الطعام كما نأكل، ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ لابتغاء الأرزاق كما نفعله، على توجيه الإنكار والنفيِ إلى السبب فقط، مع تحقّق المسبَّب الذي هو مضمون الجملة الحاليّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق، ٢٠/٨٤]، وقولِه تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح، ١٣/٧١]، فكما أنّ كلًّا مِن عدم الإيمان وعدمِ الرجاء أمرٌ محقَّق قد أُنكِرَ واستُبْعِد تحقُّقه لانتفاء سببه -بل لوجود سبب نقيضه- كذلك كلٌّ مِن الأكل والمشي أمر محقَّق قد استُبعد تحقُّقه لانتفاء سببه -بل لوجود سبب عدمه- خلا أنّ استبعاد المسبَّب وإنكارَ السبب ونفيَه في عدم الإيمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق، وفي الأكل والمشي بطريق التهكّم والاستهزاء، فإنّهم لا يستبعدونهما، ولا ينكرون سببهما حقيقةً؛ بل هم معترِفون بوجودهما وتحقّق سببهما، وإنّما الذي يستبعدونه الرسالةُ المنافيةُ لهما على زعمهم، يعنون أنّه إن صحّ ما يدّعيه فما باله لم يخالف حالُه حالَنا، وهل هو إلّا لِعَمَهِهم وركَاكة عقولِهم وقُصور أنظارهم على المحسوسات، فإنّ تَميُّز الرسل عمّن عداهم ليس بأمور جسمانيّة، وإنّما هو بأمور نفسانيّة، كما أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت، ٦/٤١].

[١٩٢و] ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: على صورته وهيئته / ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ تنزّلٌ منهم عن اقتراح أن يكون ملَكًا مستغنيًا عن الأكل والشرب إلى اقتراح أن يكون معه مَلَك يصدّقه، ويكون رِدْءًا له في الإنذار، وهو يُعبّر عنه ويفسّر ما يقوله للعامّة.

---

[١] س: عليه السلام.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ تنزّلٌ مِن تلك المرتبة إلى اقتراح أن يُلقَى إليه مِن السماء كنزٌ يَستظهر به، ولا يحتاج إلى طلب المعاش، ويكون دليلًا على صدقه. وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونُ[١] لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ تَنزّلٌ مِن ذلك إلى اقتراح ما هو أيسر منه وأقربُ مِن الوقوع. وقُرِئ: "نَأْكُلُ"[٢] بنون الحكاية، وفيه مَزيد مكابرة، وفَرطُ تحكّم.

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هم القائلُون الأوّلون، وإنّما وُضِع المُظهَر موضع ضميرهم تسجيلًا عليهم بالظلم وتجاوزِ الحدّ فيما قالوه، لكونه إضلالًا خارجًا عن حدّ الضلال، مع ما فيه مِن نسبته صلّى الله عليه وسلّم إلى المَسحوريّة، أي: قالوا للمؤمنين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتّبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ قد سُحِر فَغُلِبَ على عقله. وقيل: ذا سَحْرٍ، وهي الرِّئة، أي: بشرًا لا مَلَكًا، على أنّ الوصف لزيادة التقرير، والأوّل هو الأنسب بحالهم.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ استعظام للأباطيل التي اجترءوا على التفوّه بها، وتعجيبٌ منها، أي: انظر كيف قالوا في حقّك تلك الأقاويلَ العجيبة الخارجة عن[٣] العقول، الجاريةَ لغرابتها مَجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الصفاتِ والأحوالَ الشاذّة البعيدةَ مِن الوقوع، ﴿فَضَلُّوا۟﴾ أي: عن طريق المُحاجّة حيث لم يأتوا بشيءٍ يمكن صُدوره عمّن له أدنى عقل وتمييز، فبقُوا متحيّرين، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إلى القَدْح في نبوّتك بأن يجدوا قولًا يستقِرّون عليه وإن كان باطلًا في نفسه، أو فضلّوا عن الحقّ ضلالًا مُبينًا فلا يجدون طريقًا موصلًا إليه، / فإنّ مَن اعتادَ [١٩٢ظ] استعمالَ أمثال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدي إلى استعمال المقدّمات الحقّة.

---

[١] م ط س: يكون. | وهي بالياء قراءة شاذّة، مروية عن طلحة بن مصرّف. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٦.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٣.

[٣] س: مِن.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ﴾ أي: تكاثرَ وتزايدَ خيرُ الذي ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ في الدنيا عاجلًا شيئًا ﴿خَيۡرٗا﴾ لك ﴿مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي اقترحوه مِن أن يكون لك جنّة تأكل منها، بأن يُعجّل لك مثلَ ما وعدك في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بدل مِن ﴿خَيۡرٗا﴾ ومحقِّق لخيريّته ممّا قالوا؛ لأنّ ذلك كان مطلقًا عن قيد التعدّد وجريان الأنهار. ﴿وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾ عطفٌ على محلّ الجزاء الذي هو ﴿جَعَلَ﴾. وقُرئ بالرفع[١] عطفًا على نفسه؛ لأنّ الشرط إذا كان ماضيًا جاز في جزائه الجزمُ والرفع،[٢] كما في قول القائل:

وإن أتـاه خـليـلٌ يـومَ مسـألـةٍ يقـول: لا غـائبٌ مالـي ولا حَـرِمُ[٣]

ويجوز أن يكون استئنافًا بوعد ما يكون له في الآخرة. وقُرئ بالنصب[٤] على أنّه جواب بـ"الواو". وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للإيذان بأنّ عدم جعلها بمَشيئته[٥] المبنيّة على الحِكم والمصالح، وعدمُ التعرّض لجواب الاقتراحَين الأوّلين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعيّة، وإنّما الذي له وجه في الجملة هو الاقتراح الأخير، فإنّه غير منافٍ للحكمة بالكلّيّة، فإنّ بعض الأنبياء عليهم السلام قد أوتوا في الدنيا مع النبوّة مُلكًا عظيمًا.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١﴾

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾ إضراب عن توبيخهم بحكاية جنايتهم السابقة، وانتقالٌ منه إلى توبيخهم بحكاية جنايتهم الأخرى، للتخلّص إلى بيان ما لهم في الآخرة

---

[١] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٣.

[٢] ط س: الرفع والجزم.

[٣] لزهير بن أبي سلمى، و"الخليل" مِن "الخَلّة": الفقير، و"الحَرِم": المنع. انظر: شرح شعر زهير لثعلب، ص ١٢٠.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن موسى وطلحة بن سليمان وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٤٧.

[٥] وفي هامش م: خبر "أنّ".

بسببها مِن فنون العذاب بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾... إلخ، أي: أعتدنا لهم نارًا عظيمةً شديدةَ الاشتعال شأنُها كيتَ وكيتَ بسبب تكذيبهم بها على ما يُشعِر به وضع الموصول / موضعَ ضميرهم، أو لكلّ مَن كذّب بها كائنًا مَن كان، وهم داخلون في زمرتهم دخولًا أوّليًا. [١٩٣و]

ووضع ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ موضع ضميرها للمبالغة في التشنيع. ومدار إعْتادِ السعير لهم وإن لم يكن مجرّدَ تكذيبهم بالساعة؛ بل مع تكذيبهم بسائر ما جاء به الشريعةُ الشريفة، لكن الساعة لمّا كانت هي العلَّةَ القريبة لدخولهم السعير أشيرَ إلى سببيّة تكذيبها لدخولها.

وقيل: هو عطفٌ على ﴿قَالُواْ مَالِ هَٰذَا﴾... إلخ،[١] على معنى: بل أتَوا بأعجبَ مِن ذلك حيث كذَّبوا بالساعة وأنكروها، والحال أنّا قد أعتدنا لكلّ مَن كذّب بها سعيرًا، فإنّ جُرأتَهم[٢] على التكذيب بها، وعدمَ خوفِهم ممّا أُعِدّ لمَن كذّب بها مِن أنواع العذاب أعجبُ مِن القَول السابق.

وقيل: هو متّصل بما قبله مِن الجواب المبنيّ على التحقيق المُنبِئ عن الوعد بالجنّات في الآخرة، مَسوقٌ لِبيان أنّ ذلك لا يُجدي نفعًا ولا يحلَى بطائل،[٣] على طريقة قولِ مَن قال:

عوجُوا لِنُعْمٍ فَحَيُّوا دِمنةَ الدارِ ماذا تُحَيُّون مِنْ نُؤْيٍ وأَحْجارِ[٤]

والمعنى: أنّهم لا يؤمنون بالساعة، فكيف يقتنعون بهذا الجواب؟ وكيف يصدّقون بتعجيل مثلِ ما وعدك في الآخرة؟

وقيل: المعنى: بل كذّبوا بها فقصُرت أنظارهم على الحظوظ الدنيويّة، وظنّوا أنّ الكرامة ليست إلّا بالمال، وجعلوا فقرك ذريعة إلى تكذيبك.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾... إلخ صفة للسعير، أي: إذا كانت منهم بمرأى

---

١ الفرقان، ٧/٢٥.

٢ ط س: جراءتهم.

٣ قولهم: "لم يَخلَ منه بطائلٍ"، أي: لم يستفد منه كبير فائدة. الصحاح للجوهري، «حلي».

٤ للنابغة في ديوانه، ص ٢٠٢، بلفظ: عوجوا فحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمنةَ الدارِ

الناظر في البعد، كقوله عليه السلام: «لا تتراءى ناراهما»،[١] أي: لا تتقاربان بحيث تكون إحداهما بمَرأى مِن الأخرى على المجاز، كأنّ بعضها يرى البعض. ونسبة الرؤية إليها لا إليهم للإيذان بأنّ التغيّظ والزفير منها لهَيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إيّاهم حقيقةً أو تمثيلًا.

[١٩٣ظ] / وفي قوله تعالى: ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ إشعار بأنّ بُعدَ ما بينها وبينهم مِن المسافة حين رَأَتهم خارج عن حدود البُعد المعتاد في المسافات المعهودة، وفيه مزيد تهويل لأمرها. قال الكلبي والسُّدّي: «مِن مسيرة عام».[٢] وقيل: مِن مسيرة مائة سنة.[٣]

﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: صوتَ تَغيّظٍ على تشبيه صوت غليانها بصوت المُغتاظ وزفيره، وهو صوت يسمع مِن جوفه. هذا، وإنّ الحياة لمّا لم تكن مشروطةً عندنا بالبنية أمكَن أن يخلق الله تعالى فيها حياة فترى وتتغيّظ وتزفر. وقيل: إنّ ذلك لزبانيّتها فنُسب إليها على حذف المضاف.

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانًا﴾ نصب على الظرفيّة، و﴿مِنۡهَا﴾ حال منه؛ لأنّه في الأصل صفة له. ﴿ضَيِّقًا﴾ صفة لـ﴿مَكَانًا﴾ مفيدة لزيادة شدّةٍ، فإنّ الكَرب مع الضيق، كما أنّ الرَّوح مع السَّعة، وهو السرّ في وصف الجنّة بأنّ عرضها السماوات والأرض. وعن ابن عبّاس وابن عمر رضي الله تعالى[٤] عنهم: «تضيق جهنَّمُ عليهم كما يضيق الزُّجُّ[٥] على الرُّمح».[٦] وسُئل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن ذلك، فقال:

---

١ وفي هامش م: ونسبة عدم التراائي في الحديث الشريف إلى النار للإنباء عن غاية البعد؛ لأنّ النار مع كمال ظهورها وارتفاع لهَبها إذا لم تكن مرئيّة كانت في غاية البعد. «منه». | وتمام الحديث في **سنن أبي داود**، ٢٨١/٤ (٢٦٤٥)؛ و**سنن الترمذي**، ١٥٥/٤ (١٦٠٤)، عن جرير بن عبد الله، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «أنا بريء مِن كلّ مسلم يُقيم بين أظهر المشركين». قالوا: يا رسول الله، ولِم؟ قال: «لا ترَاءَى ناراهما».

٢ **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٤/٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٩/١٤.

٣ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٣٥/٣؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٨٩/١٤.

٤ س – تعالى.

٥ الزُّجّ: الحديدة التي في أسفل الرمح. **الصحاح** للجوهري، «زجج».

٦ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢٦/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٧/٣؛ **الدرّ المنثور** للسيوطي، ٢٤٠/٦.

«والذي نفسي بيده إنّهم يُستكرَهون في النار كما يُستكرَه الوتَد في الحائط».[١] قال الكلبيّ: «الأسفلون يرفعهم اللهبُ، والأَعْلَون يَحطُّهم الداخلون، فيزدحمون فيها».[٢] وقُرئ: "ضَيْقًا" بسكون الياء.[٣]

﴿مُقَرَّنِينَ﴾ حال مِن مفعول ﴿أُلقوا﴾ أي: إذا أُلقوا منها مكانًا ضيّقًا حالَ كونهم مقرّنين قد قُرنت أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع. وقيل: مقرّنين مع الشياطين في السلاسل، كلّ كافر مع شيطان، وفي أرجلهم الأصفاد.

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة ﴿ثُبُورًا﴾ أي: يتمنّون هلاكًا، وينادونه: "يا ثُبوراه تعالَ، فهذا حِينك وأَوانُك".

﴿لَا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ١٤﴾

﴿لَا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ / على تقدير قولٍ إمّا منصوبٍ على أنّه حال [١٩٤و] مِن فاعل ﴿دَعَوْا۟﴾، أي: دعَوه مَقُولًا لهم ذلك حقيقةً بأن يخاطبهم الملائكةُ به لِتنبيههم على خلود عذابهم، وأنّهم لا يُجابون إلى ما يدعونه، ولا ينالون ما يتمنّونه مِن الهلاك المنجّي، أو تمثيلًا وتصويرًا لِحالهم بحال مَن يقال له ذلك مِن غير أن يكون هناك قول ولا خطاب، أي: دعَوه حالَ كونهم أحِقّاءَ بأن يقال لهم ذلك؛ وإمّا مُستأنِف وقع جوابًا عن سؤال ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا يكون عند دعائهم المذكور؟ فقيل: يقال لهم ذلك إقناطًا عمّا عَلّقوا به أطماعَهم مِن الهلاك، وتنبيهًا على أنّ عذابهم المُلجئَ لهم إلى استدعاء الهلاك بالمرّة أبديٌّ لا خلاصَ لهم منه، أي: لا تقتصِروا على دعاء ثبورٍ واحدٍ.

﴿وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: بحسب كثرة الدعاء المتعلّق به، لا بحسب كثرته في نفسه، فإنّ ما يدعونه ثبور واحد في حدّ ذاته، لكنّه كلّما تعلّق به دعاء مِن تلك الأدعية الكثيرة صار كأنّه ثبور مغايِر لِما تعلّق به دعاء آخر منها.

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٦/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٣٥/٣.

[٢] تفسير الرازي، ٤٣٨/٢٤؛ اللباب لابن عادل، ٤٩٠/١٤.

[٣] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

وتحقيقه: لا تدعوه دعاءً واحدًا، وادعوه أدعيةً كثيرةً، فإنّ ما أنتم فيه مِن العذاب لغاية شدّته وطول مدّته مستوجب لتكرير الدعاء في كلّ آنٍ، وهذا أدلّ على فَظاعة العذاب وهَولِه مِن جَعلِ تعدّد الدعاء وتجدّده لِتعدّد العذاب بتعدّد أنواعه وألوانه، أو لتعدّده بتجدّد الجلود كما لا يخفى.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدًا، إنّما هو ثبور كثير، إمّا لأنّ العذاب أنواع وألوان، كلُّ نوع منها ثبور لشدّته وفظاعته، أو لأنّهم كلّما نضجت جلودهم بُدِّلوا غيرَها، فلا غايةَ لهلاكهم،[1] فلا يلائم المقام، كيف لا، وهم إنّما يدعون هلاكًا يُنهي عذابَهم وينجّيهم منه؟ فلا بدّ أن يكون الجواب إقناطًا لهم عن ذلك ببيان استحالته ودوام ما يوجب استدعاءَه مِن العذاب الشديد. وتقييدُ النهي والأمر بـ"اليوم" لمَزيد التهويل والتفظيع، والتنبيهِ على أنّه ليس كسائر الأيّام المعهودة.

﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥﴾

﴿قُلۡ﴾ تقريعًا لهم وتهكّمًا بهم وتحسيرًا على ما فاتهم: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن السعير باعتبار اتِّصافها بما فُصّل مِن الأحوال الهائلة. وما فيه
[١٩٤ظ] مِن معنى البعد للإشعار بكونها في الغاية / القاصية مِن الهول والفظاعة، أي: قل لهم: أذلك الذي ذُكر مِن السعير التي أُعتِدَت[2] لِمَن كذَّب بالساعة -وشأنُها كَيت وكَيت، وشأنُ أهلها ذَيت وذَيت- ﴿خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ أي: وُعِدها المتّقون. وإضافة "الجنّة" إلى ﴿ٱلۡخُلۡدِ﴾ للمدح. وقيل: للتمييز عن جنّات الدنيا. والمراد بـ"المتّقين" المتّصفون بمطلق التقوى، لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط.

﴿كَانَتۡ﴾ تلك الجنّة ﴿لَهُمۡ﴾ في علم الله تعالى، أو في اللوح، أو لأنّ ما وعده الله تعالى فهو كائن لا محالةَ، فحُكي تحقّقه ووقوعه ﴿جَزَآءٗ﴾ على أعمالهم حسبما مرّ مِن الوعد الكريم ﴿وَمَصِيرٗا﴾ ينقلبون إليه.

---

١ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٣/٢٦٧.

٢ أعتَد الشيء: أعدّه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ [يوسف، ١٢/٣١]، أي: هيّأت وأعدّت. لسان العرب لابن منظور، «عتد».

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝١٦﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: ما يشاءونه مِن فنون الملاذّ والمشتهَيات وأنواع النعيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت، ٣١/٤١]، ولعلّ كلَّ فريق منهم يقتنع بما أُتيح له مِن درجات النعيم، ولا يمتدّ أعناقُ هِمَمهم إلى ما فوق ذلك مِن المراتب العالية، فلا يلزم الحِرمان، ولا تساوي مراتب أهل الجِنان. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مِن الضمير المستكِنّ في الجارّ والمجرور لاعتماده على المبتدأ. وقيل: مِن فاعل ﴿يَشَآءُونَ﴾.

﴿كَانَ﴾ أي: ما يَشاءونه. وقيل: الوعدُ المدلولُ عليه بقوله تعالى: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1] ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أي: موعودًا حقيقًا بأن يُسأل ويُطلَب، لكونه ممّا يتنافس فيه المتنافسون، أو مسئولًا يسأله الناس في دعائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران، ١٩٤/٣]، أو الملائكةُ بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر، ٨/٤٠].

وما في ﴿عَلَىٰ﴾ مِن معنى الوجوب لامتناع الخُلف في وعده تعالى، ولا يلزم منه الإلجاء إلى الإنجاز، فإنّ تعلّق الإرادة بالموعود متقدِّم على الوعد الموجِب للإنجاز. وفي التعرّض / لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه [١٩٥و]
السلام مِن تشريفه والإشعارِ بأنّه عليه السلام هو الفائز آثِرَ ذِي أثيرٍ بمَغانم الوعد الكريم ما لا يخفى.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ۝١٧﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ نصب على أنّه مفعول لمُضمَر مقدَّمٍ معطوفٍ على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾... إلخ،[2] أي: واذكُر لهم بعد التقريع والتحسير يومَ يحشرهم الله عزّ وجلّ. وتعليق التذكير باليوم مع أنّ المقصود تذكيرُ ما وقع فيه مِن الحَوادث الهائلة قد مرّ وجهه غيرَ مرّة، أو على أنّه ظرف لمُضمَر مؤخّر

---

[1] في الآية السابقة.

[2] الفرقان، ١٥/٢٥.

قد حُذِف للتنبيه على كمال هَوله وفظاعة ما فيه، والإيذانِ بقصورِ العبارة عن بيانه، أي: يوم يحشرهم يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يفي ببيانه المقال. وقُرئ بنون العظمة[١] بطريق الالتفات مِن الغيبة إلى التكلّم، وبكسر الشين أيضًا.[٢]

﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أُريدَ به ما يعمّ العقلاءَ وغيرَهم، إمّا لأنّ كلمة ﴿مَا﴾ موضوعة للكلّ كما ينبئ عنه أنّك إذا رأيت شبَحًا مِن بعيد تقول: "ما هو؟" أو لأنّه أريدَ به الوصف لا الذات، كأنّه قيل: ومعبودِيهم، أوِ لتغليب الأصنام على غيرها تنبيهًا على أنّهم مثلُها في السقوط عن رتبة المعبوديّة، أو اعتبارًا لِغلبة عبَدَتِها، أو أُريدَ به الملائكةُ والمسيحُ وعُزيرٌ بقرينة السؤال والجواب، أو الأصنام يُنطقها الله تعالى، أو تُكلِّمُ بلسان الحال كما قيل: في شهادة الأيدي والأرجل.

﴿فَيَقُولُ﴾ أي: الله عزّ وجلّ للمعبودين إثرَ حشْر الكلّ تقريعًا لِلعَبَدة وتبكيتًا لهم. وقُرئ بالنون[٣] كما عُطف عليه. وقُرئ هذا بالياء والأوّلُ بالنون[٤] على طريق الالتفات إلى الغيبة.

﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأن دَعوتموهم إلى عبادتكم كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة، ٥/١١٦].

﴿أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: عن السبيل بأنفسهم لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضِهم عن المُرشد، فحُذف الجارّ، وأُوصلَ / الفعلُ إلى المفعول، كقوله [١٩٥ظ] تعالى: ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب، ٣٣/٤]، والأصل: إلى السبيل، أو للسبيل. وتقديم الضميرين على الفعلين لِما أنّ المقصود بالسؤال هو المتصدّي للفعل، لا نفسُه.

---

١ قرأ بها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلَف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧.

٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٣.

٤ قرأ بها نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلَف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٣.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨﴾

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية السؤال، كأنّه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ فقيل: قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تعجبًا ممّا قيل لهم؛ لأنّهم إمّا ملائكة معصومون، أو جمادات لا قدرةَ لها على شيء، أو إشعارًا بأنّهم الموسومون بتسبيحه تعالى وتوحيده، فكيف يتأتّى منهم إضلال عباده؟ أو تنزيهًا له تعالى عن الأنداد.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ أي: ما صحّ وما استقام لنا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ أي: متجاوزين إيّاك ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ نعبدهم لِما بِنا مِن الحالة المنافية له، فأنّى يُتصوّر أن نحمِل غيرنا على أن يتّخذ وليًّا غيرَك، فضلًا أن يتّخذنا وليًّا؟ أو أن نتّخذ مِن دونك أولياء، أي: أتباعًا، فإنّ "الوليّ" كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع، كـ"المَولى" يطلق على الأعلى والأسفل، ومنه "أولياء الشيطان" أي: أتباعه.

وقُرئ على البناء للمفعول[1] مِن المتعدّي إلى مفعولين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء، ١٢٥/٤]، ومفعوله الثاني ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ على أنّ ﴿مِنۡ﴾ للتبعيض، أي: أن نُتّخَذَ بعضَ أولياء، وهي على الأوّل مزيدة. وتنكير ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ مِن حيث إنّهم أولياء مخصوصون، وهم الجنّ والأصنام.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ استدراك مسوق لبيان أنّهم هم الضالّون بعد بيان تنزّههم عن إضلالهم. وقد نُعِيَ عليهم سوءُ صنيعِهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسبابًا للضلالة، أي: ما أضللناهم، ولكنّك متّعتَهم / وآباءَهم بأنواع [١٩٦و]
النِّعم ليعرفوا حقّها ويشكروها، فاستغرقوا في الشهوات، وانهمَكوا فيها ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: غفِلوا عن ذِكرك، أو عن التذكّر في آلائك، والتدبّرِ في آياتك، فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعةً إلى الغواية.

﴿وَكَانُواْ﴾ أي: في قضائك المبنيّ على علمك الأزلي المتعلِّق بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم مِن الأعمال السيّئة ﴿قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ هالكين، على أنّ ﴿بُورٗا﴾

---

[1] أي: "نُتّخَذَ". قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٣٣/٢.

مصدر وُصف به الفاعل مبالغةً، ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع، أو جمعُ "بائر" كـ"عُوذ" في جمع "عائذ". والجملة اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ حكاية لاحتجاجه تعالى على العبَدة بطريق تلوين الخطاب، وصرفِه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجيهِه إلى العبَدة مبالغةً في تقريعهم وتَبكيتهم على تقدير قولٍ مرتَّبٍ على الجواب، أي: فقال الله تعالى عند ذلك: فقد كذَّبكم المعبودون أيّها الكفرة ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: في قولكم: إنّهم آلِهَةٌ. وقيل: في قولكم: هؤلاء أضلّونا،[1] ويأباه أنّ تكذيبهم في هذا القول لا تعلّقَ له بما بعده مِن عدم استطاعتهم للصَّرف والنصر أصلًا، وإنّما الذي يستتبعه تكذيبُهم فِي زعمهم أنّهم آلهتهم وناصروهم. وأيًّا ما كان فـ"الباء" بمعنى "في"، أو هي صلة للتكذيب على أنّ الجارّ والمجرور بدل اشتمالٍ مِن الضمير المنصوب. وقُرئ بـ"الياء"،[2] أي: كذّبوكم بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ الآية.[3]

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ما تَملكون ﴿صَرْفًا﴾ أي: دفعًا للعذاب عنكم بوجه مِن الوجوه كما يُعرِب عنه التنكير، أي: لا بالذّات ولا بالواسطة. وقيل: حيلةً، مِن قولهم: "إنّه لَيتصرّف في أموره"، أي: يَحتال فيها. وقيل: توبةً. ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أي: فردًا مِن أفراد النصر، لا مِن جهة أنفسكم، ولا مِن جهة غيركم. و"الفاء" لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها مِن التكذيب، لكن لا على معنى أنّه لولاه لَوُجِدت الاستطاعة حقيقةً؛ بل في زعمهم، حيث كانوا يزعمون أنّهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم، وفيه ضربُ تهكّمٍ بهم.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٠/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧.

٣ في الآية السابقة.

/ وقُرِئ: "يَسْتَطِيعُونَ"[١] على صيغة الغيبة، أي: ما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو يحتالوا لكم، ولا أن ينصروكم. وتَرتّبُ ما بعد "الفاء" على ما قبلها كما مرّ بيانه. [١٩٦ظ]

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المكلّفون كدأب هؤلاء، حيث ركبوا متن المكابَرة والعِناد، واستمرّوا على ما هم عليه مِن الفساد، وتجاوزوا في اللّجاج كلَّ حدّ معتاد ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يُقادَر قدرُه، وهو عذابُ النار. وقُرِئ: "يُذِقْهُ"[٢] على أنّ الضمير لله سبحانه. وقيل: لمصدر الفعل الواقع شرطًا. وتعميم الظلمِ لا يستلزم اشتراكَ الفاسق للكافر في إذاقة العذاب الكبير، فإنّ الشرط في اقتضاء الجزاء مقيّد بعدم المزاحِم وِفاقًا، وهو التوبة، والإحباطِ بالطاعة إجماعًا، وبالعفوِ عندنا.[٣]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ جواب عن قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.[٤] والجملة الواقعة بعد ﴿إِلَّا﴾ صفة لموصوف قد حُذف ثقةً بدلالة الجارّ والمجرور عليه، وأقيمت هي مُقامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات، ١٦٤/٣٧]. والمعنى: ما أرسلنا قبلك أحدًا مِن المرسلين إلّا آكلين وماشين. وقيل: ﴿فِى﴾ حال، والتقدير: إلّا وإنّهم لَيأكلون... إلخ. وقُرِئ: "يُمَشَّوْنَ"[٥] على البناء للمفعول، أي: يمَشّيهم حوائجهم أو الناس.

---

١ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٧١/٣؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٨٤/٨.

٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٤. قال الشهاب: «وقوله: "وِفاقًا" أي: منّا ومِن المعتزلة، والتوبةُ شاملة للكفر والفسق، وقوله: "عندنا" أي: معاشر أهل السنة». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٤١٣/٦.

٤ الفرقان، ٧/٢٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما وعبد الرحمن بن عبد الله. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٩٤/٨.

[١٩٧و] / ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ﴾ تلوين للخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم السلام بطريق التغليب، والمراد بهذا البعض كفّارُ الأمم، فإنّ اختصاصهم بالرسل وتبعيّتهم لهم مصحِّح لأن يُعَدُّوا بعضًا منهم، وبما في قوله تعالى: ﴿لِبَعْضٍ﴾ رسُلُهم، لكن لا على معنى: جعلنا مجموعَ البعض الأوّل ﴿فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاءً ومِحنةً لِمجموع البعض الثاني، ولا على معنى: جعلنا كلّ فرد مِن أفراد البعض الأوّل فتنةً لكلّ فرد مِن أفراد البعض الثاني، ولا على معنى: جعلنا بعضًا مبهمًا مِن الأوّلين فتنةً لبعض مبهم مِن الآخرين ضرورةَ أنّ مجموع الرسل مِن حيث هو مجموعٌ غيرُ مفتون بمجموع الأمم، ولا كلُّ فرد منهم بكلّ فرد مِن الأمم، ولا بعضٌ مبهم مِن الأوّلين ببعض مبهم مِن الآخرين؛ بل على معنى: جعلنا كلّ بعضٍ معيّن مِن الأمم فتنةً لبعضٍ معيّن مِن الرسل، كأنّه قيل: وجعلنا كلَّ أمّةٍ مخصوصةٍ مِن الأُمم الكافرة فتنةً لرسولها المعيّن المبعوث إليها، وإنَّما لم يصرَّح بذلك تعويلًا على شهادة الحال.

هذا، وأمّا تعميم الخطاب لجميع المكلّفين، وإبقاءُ البعضَين على العموم والإبهام، على معنى: وجعلنا بعضكم أيّها الناس فتنةً لبَعض آخر منكم؛[١] فيأباه قوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فإنّه غاية للجعل المذكور، ومِن البيّن أن ليس ابتلاء كلِّ أحد مِن آحاد الناس مُغيًّا بالصبر؛ بل بما يناسب حاله، على أنّ الاقتصار على ذكره مِن غير تعرّض لِمُعادله ممّا يدلّ على أنّ اللائق بحال المفتونين والمتوقَّعَ صدورُه عنهم هو الصبر لا غير، فلا بدّ أن يكون المراد بهم الرسلَ فيحصل به تسليته عليه السلام، فالمعنى: جرَت سنّتنا بموجَب حِكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم وبمناصَبتهم لهم العداوةَ، وإيذائِهم لهم، وأقاويلِهم الخارجة عن حدود الإنصاف لنعلم صبرَكم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ وعد كريم للرسول عليه السلام بالأجر الجزيل لصبره الجميل مع مزيد تشريف له عليه السلام بالالتفات إلى اسم الربّ مضافًا إلى ضميره صلّى الله عليه وسلّم.

---

[١] انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٢١/٤.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾

/ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ شروع في حكاية بعضٍ آخر مِن أقاويلهم [١٩٧ظ]
الباطلة، وبيانِ بطلانها إثرَ إبطال أباطيلهم السابقة. والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾... إلخ.[1] ووضعُ الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيّز الصلة على أنّ ما يُحكى عنهم في الشناعة بحيث لا يصدر عمّن يعتقد المصير إلى الله عزّ وجلّ.

ولقاء الشيء عبارة عن مصادفته مِن غير أن يمنع مانع مِن إدراكه بوجهٍ مِن الوجوه. والمراد بلقائه تعالى إمّا الرجوع إليه تعالى بالبعث والحشر، أو لقاءُ حسابه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة، ٢٠/٦٩]، وبعدم رجائهم إيّاه عدمُ توقّعهم له أصلًا لإنكارهم البعثَ والحسابَ بالكلّيّة، لا عدمُ أملِهم حسنَ اللقاء، ولا عدمُ خوفِهم سوءَ اللقاء؛ لأنّ عدمهما غير مستلزم لِما هم عليه مِن العتوّ والاستكبار وإنكارِ البعث والحساب رأسًا، أي: وقال الذين لا يتوقّعون الرجوعَ إلينا أو حسابَنا المؤدّيَ إلى سوء العذاب الذي يستوجبه مقالتهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: هلّا أُنزِلوا علينا ليخبرونا بصدق محمّد عليه السلام.

وقيل: هلّا أُنزِلوا علينا بطريق الرسالة، وهو الأنسب لقولهم: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ مِن حيث إنّ كِلا القولَين ناشئ عن غاية غلوّهم في المكابرة والعتوّ حسبما يُعرِب عنه قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: في شأنها حتّى اجترءوا على التفوّه بمثل هذه العظيمة الشنعاء، ﴿وَعَتَوْ﴾ أي: تجاوزوا الحدَّ في الظلم والطغيانِ ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغًا أقصى غاياته حيث أمّلوا نَيل مرتبة المفاوَضة الإلهيّة مِن غير توسّط الرسول والملَك، كما قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة، ١١٨/٢]، ولم يكتفوا بما عايَنوا مِن المعجزات القاهرة التي تخِرّ لها / صُمُّ الجبال، فذهبوا في الاقتراح [١٩٨و]
كلَّ مذهب حتّى مَنّتهم أنفسُهم الخبيثةُ أمانيَّ لا تكاد تَرنُو إليها أحداقُ الأمم،

---

[1] الفرقان، ٧/٢٥.

ولا يمتدّ إليها أعناق الهِمم، ولا ينالها إلّا أولو العزائم الماضية مِن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

و"اللام" جواب قسَم محذوف، أي: واللهِ لقد استكبروا... الآية. وفيه مِن الدلالة على غاية قُبح ما هم عليه والإشعارِ بالتعجّب مِن استكبارهم وعُتوّهم ما لا يخفى.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ٢٢﴾

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ استئناف مسوق لبيان ما يلقَونه عند مشاهدتهم لِما اقترحوه مِن نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه وبيانِ كونه في غاية ما يكون مِن الشناعة. وإنّما قيل: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ دون أن يقال: "يوم يُنَزَّلُ الملائكةُ" إيذانًا مِن أوّل الأمر بأنّ رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه؛ بل على وجهٍ آخر غيرِ معهود.

و﴿يَوْمَ﴾ منصوب على الظرفيّة بما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنّه في معنى: لا يُبَشَّرُ يومئذ المجرمون. والعدول إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي "البشرى". وما قيل: مِن أنّه بمعنى: يُمنَعون البُشرى، أو يُعْدَمُونها؛[1] تهوينٌ للخَطب في مقام التهويل، فإنّ منع البُشرى وفقدانَها مُشعِران بأنّ هناك بُشرى يُمنَعونها أو يَفقِدونها، وأين هذا مِن نفيها بالكلّيّة؟ وحيث كان نفيها كنايةً عن إثبات ضدّها كما أنّ نفي المحبّة في مِثل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ[2] ٱللَّهَ[3] لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران، ٣٢/٣] كنايةٌ عن البغض والمَقت دلّ على ثبوت النُّذرَى لهم على أبلغ وجهٍ وآكَدِه.

وقيل: منصوب بفعل مقدّر يؤكّده ﴿بُشْرَىٰ﴾ على أنّ ﴿لَا﴾ غير نافية للجنس. وقيل: منصوب على المفعوليّة بمُضمَر مقدَّم عليه، أي: اذكُر يوم رؤيتهم الملائكة. و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على كلّ حال تكرير للتأكيد والتهويل مع ما فيه مِن الإيذان

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٢٧٣/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٤.

[2] م ط س – فإنّ.

[3] م ط س: والله. | وهو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران، ٥٧/٣].

بأنّ تقديم الظرف للاهتمام، لا لقصر نفي البُشرى على ذلك الوقت فقط، فإنّ ذلك مخِلّ بتفظيع حالهم.

و﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ تَبيين على أنّه مُظهَر وُضع موضع الضمير تسجيلًا عليهم بالإجرام مع ما هم عليه مِن الكفر. وحملُه على العموم بحيث يتناول فسّاق المؤمنين، ثمّ الالتجاءُ في إخراجهم عن الحرمان الكلّي إلى أنّ / نفي البُشرى [١٩٨ظ] حينئذ لا يستلزم نفيه في جميع الأوقات، فيجوز أن يُبَشَّروا بالعفو والشفاعة في وقت آخر؛[١] بمَعزِل مِن الحقّ بعيدٍ.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطفٌ على ما ذُكر مِن الفعل المنفيّ المُنبئ عن كمال فظاعة ما يَحيق بهم مِن الشرّ وغايةِ هَوْل مَطلَعه ببيان أنّهم يقولون عند مشاهدتهم له: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وهي كلمة يتكلّمون بها عند لقاء عدوّ مَوتور، وهجومِ نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون مِن الله تعالى أن يمنع المكروهَ فلا يلحقهم، فكأنّ المعنى: نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعًا ويَحجُره حَجْرًا. وكَسر "الحاءِ" تصرّفٌ فيه لاختصاصه بموضع واحدٍ، كما في "قِعْدَكَ" و"عَمْرَكَ".[٢] وقد قُرئ: "حُجْرًا" بالضمّ.[٣]

والمعنى: أنّهم يطلبون نزولَ الملائكة عليهم السلام ويقترحونه، وهم إذا رَأَوهم كرهوا لقاءَهم أشدَّ كراهة، وفزِعوا منهم فزعًا شديدًا، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خَطبٍ شَنيع، وحُلول بأسٍ فظيع.

و﴿مَّحْجُورًا﴾ صفة لـ﴿حِجْرًا﴾ وإرادة للتأكيد، كما قالوا: "ذَيلٌ ذائل"، و"لَيلٌ أَلْيَل". وقيل: يقولها الملائكة إقناطًا للكفرة، بمعنى: حرامًا محرّمًا عليكم الغفران أو الجنّة أو البشرى، أي: جعل الله تعالى ذلك حرامًا عليكم،[٤] وليس بواضح.

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٤.

٢ "قِعدَك اللهَ" بالكسر: استعطافٌ، لا قسَم، بدليل أنّه لم يجئ جوابُ القسم، وهو مصدرٌ واقع مَوقع الفعل بمنزلة "عَمرَك اللهَ"، أي: عَمَرتُكَ اللهَ، ومعناه: سألتُ اللهَ تَعميرك، وكذلك: "قِعدَكَ اللهَ"، تقديره: قَعدتُك اللهَ، أي: سألت اللهَ حِفظك. القاموس المحيط للفيروزابادي، «قعد».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وقتادة والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٢/٤.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ بيان لحال ما كانوا يعملونه في الدنيا مِن صلة رحِم، وإغاثةِ ملهوف، وقِرى ضيف، ومَنٍّ على أسير، وغير ذلك مِن مكارمهم ومحاسنهم التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لَنالوا ثوابَها، بتمثيل حالهم وحالِ أعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانَهم واستعصَوا عليه، فقدِم إلى أشيائهم، وقصَدَ إلى ما تحت أيديهم، فأنحى عليها بالإفساد والتحريق، ومزّقها كلّ تمزيق، بحيث لم يدع لها عينًا ولا أثرًا، أي: عمِدنا إليها وأبطلناها، أي: أظهرنا بطلانها بالكلّيّة مِن غير أن يكون هناك قدوم ولا شيء يُقصَدُ تشبيهُه به.

و"الهباء" شِبه غبارٍ يُرى في شعاع الشمس يطلع مِن الكُوّة، مِن "الهَبوة"، وهي الغبار، و﴿مَنثُورًا﴾ صفته، شبّه به أعمالهم المُحبَطة في الحقارة وعدم الجَدوى، ثمّ بالمنثور منه في الانتشار بحيث لا يمكن نظمه، أو مفعول ثالث مِن حيث إنّه كالخبر بعد الخبر، كما في قوله تعالى: / ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [١٩٩و]
[الأعراف، ٧/١٦٦].

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هم المؤمنون المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾... إلخ.[١] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يكون ما ذُكِر مِن عدم التبشير وقولِهم: "حِجرًا مَحجورًا"، وجَعْلِ أعمالهم هباءً منثورًا ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ "المستقَرّ" المكانُ الذي يُستَقَرّ فيه في أكثر الأوقات للتجالُسِ والتحادُث.

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ "المَقيل" المكان الذي يُئوَى إليه للاسترواح إلى الأزواج والتمتّعِ بمغازلتهنّ، سمّي بذلك لِما أنّ التمتّع به يكون وقت القيلولة غالبًا. وقيل: لأنّه يُفرَغُ مِن الحساب في منتصف ذلك اليوم فيَقِيل أهلُ الجنّة في الجنّة،

---
[١] الفرقان، ٢٥/١٥.

وأهلُ النار في النار. وفي وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيريّة بعطفه على "المستقرّ" رمزٌ إلى أنّه مزيّن بفنون الزِّيَنِ والزخارف.

والتفضيل المعتبَر فيهما إمّا لإرادة الزيادة على الإطلاق، أي: هم في أقصى ما يكون مِن خيريّة المستقَرّ وحُسنِ المَقيل، وإمّا بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعِّمين في الدنيا، أو إلى ما لهم في الآخرة بطريق التهكّم بهم، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ الآيةَ.[١] هذا، وقد جُوّز أن يُراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارةً إلى أنّ مكانهم وزمانهم أطيب ما يُتَخيّل مِن الأمكنة والأزمنة.

﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾

﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: تتفتّح، وأصله "تَتَشَقَّقُ"، فحُذفت إحدى التاءين كما في "تلظّى".[٢] وقُرئ بإدغام التاء في الشين.[٣] ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ بسبب طلوع الغَمام منها، وهو الغَمام الذي ذُكر في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة، ٢/٢١٠]. قيل: هو غمام أبيضُ رقيق مثلُ الضبابة، ولم يكن إلّا لبني إسرائيل.

﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي: تنزيلًا عجيبًا غيرَ معهود، قيل: تنشقّ سَماءٌ سَماءٌ، وينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد. وقُرئ: "وَنُزِّلَتِ الْمَلَائِكَةُ"،[٤] و"نُنْزِلُ"،[٥] و"نُنَزِّلُ"[٦] على صيغة المتكلّم مِن الإنزال والتنزيل، / و"نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ"،[٧] و"نَزَلَ الْمَلَائِكَةُ"،[٨] و"نُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ"[٩] على حذف النون الذي هو فاء الفعل مِن "نُنَزِّلُ". [١٩٩ظ]

---

١ الفرقان، ٢٥/١٥.

٢ مِن قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل، ٩٢/١٤].

٣ أي: "تَشَّقَّقُ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

٥ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

٦ قراءة شاذّة، نسبها أبو حيّان إلى بعض المصاحف. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٠٠.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ وخارجة عن أبي عمرو. البحر المحيط لأبي حيّان، ٨/١٠٠.

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: السلطنة القاهرة والاستيلاءُ الكلّي العامّ، الثابتُ صورةً ومعنًى، ظاهرًا وباطنًا، بحيث لا زوالَ له أصلًا؛ ثابتٌ للرحمن يومئذ. فـ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ صفته، و﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ خبره، و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ. وفائدة التقييد أنّ ثبوت المُلك المذكور له تعالى خاصّةً يومئذ، وأمّا فيما عداه مِن أيّام الدنيا فيكون لغيره أيضًا تصرّف صوري في الجملة.

وقيل: ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ خبره، و﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ متعلّق بـ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، أو بمحذوف على التبيين، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، و﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ معمول لـ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾. وقيل: الخبر ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ نعت لـ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾، و﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ على ما ذُكر. وأيًّا ما كان، فالجملة بمعناها عاملة في الظرف، أي: ينفرد الله تعالى بالمُلك يوم تشقَّقُ. وقيل: الظرف منصوب بما ذُكر، فالجملة حينئذ استئناف مَسوق لبيان أحواله وأهواله.

وإيراده تعالى بعنوان الرحمانيّة للإيذان بأنّ اتّصافه تعالى بغاية الرحمة لا يهوّن الخطبَ على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار، ٦/٨٢]، والمعنى أنّ المُلك الحقيقي يومئذ للرحمن.

﴿وَكَانَ﴾ ذلك اليوم مع كون المُلك فيه لله المبالِغ في الرحمة لعباده ﴿يَوۡمًا
[٢٠٠و] عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ شديدًا / لهم. وتقديم الجارّ والمجرور لمراعاة الفواصل.[١] وأمّا للمؤمنين فيكون يسيرًا بفضل الله تعالى. وقد جاء في الحديث: «أنّه يَهُون يومُ القيامة على المؤمن حتّى يكونُ أخفَّ عليه مِن صلاةٍ مكتوبةٍ صلّاها في الدنيا».[٢] والجملة اعتراض تذييلي مقرّر لِما قبله.

---

١ وفي هامش م: لا للقصر؛ لأنّه معلوم على تقدير التأخير أيضًا. «منه».

٢ مسند أحمد، ٢٤٦/١٨ (١١٧١٧)؛ صحيح ابن حبان، ٣٢٩/١٦ (٧٣٣٤). وتمامه: عن أبي سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: يومًا كان مقداره خمسين ألف سنةٍ، ما أطولَ هذا اليوم. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده، إنّه لَيُخفَّف على المؤمن، حتّى يكون أخفَّ عليه مِن صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا».

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عضُّ اليدين والأنامل وأكلُ البَنان وحرقُ الأسنان ونحوُها كنايات مِن الغيظ والحسرة؛ لأنّها مِن روادفها.

والمراد بـ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ إمّا عُقبةُ بن أبي مُعَيط[1] على ما قيل مِن أنّه كان يكثر مجالسة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[2] فدعاه عليه السلام يومًا إلى ضيافته، فأبى عليه السلام أن يأكل مِن طعامه حتّى ينطق بالشهادتين، ففعل، وكان أُبيّ بن خلف صديقَه فعاتبه، وقال: «صَبأتَ»، فقال: «لا، ولكن آلَى أن لا يأكل مِن طعامي وهو في بيتي، فاستحيَيتُ منه، فشهِدتُ له»، فقال: «إنّي لا أرضى منك إلّا أن تأتيَه فتطأَ قفاه، وتبزقَ في وجهه»، فوجده ساجدًا في دار الندوة، ففعل ذلك، فقال عليه السلام: «لا ألقاك خارجًا مِن مكّة إلّا علَوتُ رأسَك بالسيف»، فأُسِر يومَ بدر، فأمرَ عليًّا رضي الله عنه فقتله. وقيل: قتله عاصم بن ثابت الأنصاري.[3] وطعن عليه السلام أُبيًّا يوم أُحدٍ في المبارزة، فرجع إلى مكّة فمات.[4]

وإمّا جنس الظالم، وهو داخل فيه دخولًا أوّليًا. وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ﴾... إلخ حال مِن فاعل ﴿يَعَضُّ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾... إلخ محكيّ به، و"يا" إمّا لمجرّد التنبيه مِن غير قصدٍ إلى تعيين المنبَّه، أو المنادى محذوف، أي: يا هؤلاء ليتني ﴿ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا واحدًا منجيًا مِن هذه الوَرطات، / وهو طريق الحقّ، ولم تتشعّب بي طرق الضلالة، أو حصّلتُ في صحبته عليه السلام طريقًا، ولم أكن ضالًّا لا طريقَ لي قطّ. [٢٠٠ظ]

---

[1] عقبة بن أبي مُعيط قُتل يوم بدر كافرًا، واسم أبي مُعيط أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي. **تهذيب الأسماء واللغات** للنووي، ٣٣٧/١.

[2] س: عليه السلام.

[3] هو عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح قيس بن عصمة الأنصاري الأوسي، أبو سليمان (ت. ٤هـ/٦٢٥م)، مِن السابقين الأوّلين مِن الأنصار. شهِد بدرًا وأُحدًا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واستشهد يوم الرجيع، ورثاه حسّان بن ثابت. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٤٦٠/٣؛ **والاعلام** للزركلي، ٢٤٨/٣.

[4] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٣٠/٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٧٦/٣.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ بقَلبِ "ياء المتكلّم" ألِفًا، كما في "صحارَى" و"مَدارَى".[١] وقُرئ على الأصل: "يَا وَيْلَتِيْ"،[٢] أي: هَلَكَتي تَعالَي واحضُري فهذا أوانُكِ، ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ يريد مَن أضلّه في الدنيا، فإنّ ﴿فُلَانًا﴾ كناية عن الأعلام، كما أنّ "الْهَنَ" كناية عن الأجناس.[٣] وقيل: "فُلان" كناية عن علَم ذكور مَن يعقل، و"فُلانة" عن علَم إناثهم. و"فُلُ" كناية عن نكرة مَن يعقل مِن الذكور، و"فُلَة" عمّن يعقل مِن الإناث، و"الفُلان" و"الفُلانة" عن غير العاقل، ويختصّ "فُلُ" بالنداء إلّا في ضرورة، كما في قوله:

فـي لَـجّـة[٤] أَمْـسِـكْ فـلانًـا عـن فُـلِ[٥]

وقولِه:

خـذا حَـدِّثـانِـي عـن فُـلِ وفـلانِ[٦]

وليس "فُل" مرخّمًا مِن "فُلان" خلافًا للفرّاء.[٧] واختلفوا في لام "فُلِ" و"فُلان"، فقيل: "واو"، وقيل: "ياء".

هذا، فإن أريدَ بـ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ عُقبة فـ"فُلان" كناية عن أُبيّ، وإن أريدَ به الجِنسُ فهو كناية عن عَلَم كلِّ مَن يُضلّه كائنًا مَن كان مِن شياطين الإنس والجنّ، وهذا التمنّي منه وإن كان مَسوقًا لإبراز الندَم والحسْرة لكنّه متضمّن لنوع تعلّلٍ واعتذارٍ بِتَوريك[٨] جنايته إلى الغير.

---

[١] وفي هامش م: جمع "مَدراءَ" تأنيث "أمدَر"، وهو ضخم النطق. «منه». | انظر: لسان العرب لابن منظور، «مدر».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٤٨.

[٣] انظر: المُغرب للمطرّزي، «هنو».

[٤] وفي هامش م: "اللَّجّة" كثرة الأصوات. «منه». | الصحاح للجوهري، «لجج».

[٥] صدره:

تَـدافُـعَ الـشـيـبُ ولَـم تـقْـتـلِ

وهو لأبي النجم في الصحاح للجوهري، «فلل»؛ ولسان العرب لابن منظور، «فلل».

[٦] وفي هامش م: تمامه:

لعلّي أرى بـاقٍ على الحدثانِ

وهو لأبي العبّاس التطيلي في الحماسة المغربيّة للجراوي، ٨٨٧/٢.

[٧] انظر: شرح الرضيّ على الكافية، ٤٣٠/١.

[٨] تَوريك الرجلِ ذنبَه غيرَه كأنّه يُلزمه إيّاه. ووَرّكَ فلانٌ ذنبَه على غيره تَوريكًا إذا أضافه إليه وقَرَفَه به. لسان العرب لابن منظور، «ورك».

﴿لَقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾

وقوله تعالى:[١] ﴿لَقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ تعليل لتمنّيه المذكور وتوضيح لتَعلّله. وتصديره بـ"اللام" القَسَميّة للمبالغة في بيان خَطئه، وإظهارِ ندَمه وحسْرته، أي: واللهِ لقد أضلّني عن ذكر الله تعالى، أو عن القرآن، أو عن موعظة الرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو كلمة الشهادة، ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي﴾ وتمكّنت منه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ أي: مبالِغًا في الخذلان حيث يواليه حتّى يؤدّيه إلى الهلاك، ثمّ يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرّر لمَضمون ما قبله، / إمّا مِن جِهته تعالى، أو مِن تمام كلام الظالم، على أنّه سمّى خليله [٢٠١و] شيطانًا بعد وصفه بالإضلالِ الذي هو أخصّ الأوصاف الشيطانيّة، أو على أنّه أراد بـ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إبليس؛ لأنّه الذي حمله على مُخالّة المضلّين ومخالفةِ الرسول الهادي عليه السلام بوسوسته وإغوائه، فإنّ وصفه بالخِذلان يُشعر بأنّه كان يَعِدُه في الدنيا، ويُمَنّيه بأنّه ينفعه في الآخرة، وهو أوفق لحال إبليس.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾،[٢] وما بينهما اعتراض مَسوق لاستعظام ما قالوه، وبيانِ ما يَحيق بهم في الآخرة مِن الأهوال والخطوب. وإيرادُه عليه السلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحقّ والردّ على نحورهم حيث كان ما حُكِي عنهم قدحًا في رسالته عليه السلام، أي: قالوا: كَيت وكَيت، وقال الرسول إثرَ ما شاهد منهم غاية العتوّ ونهاية الطغيان بطريق البثّ إلى ربّه عزّ وجلّ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي﴾ يعني الذين حُكي عنهم ما حُكِي مِن الشنائع ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الذي مِن جملته هذه الآيات الناطقة بما يَحيق بهم في الآخرة مِن فنون العقاب كما ينبئ عنه كلمة الإشارة.

﴿مَهۡجُورٗا﴾ أي: متروكًا بالكلّيّة، ولم يؤمنوا به، ولم يرفعوا إليه رأسًا، ولم يتأثّروا بوعيده، وفيه تلويح بأنّ مِن حقّ المؤمن أن يكون كثيرَ التعاهُد للقرآن،

---

[١] م – تعالى.

[٢] الفرقان، ٢١/٢٥.

كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم، فإنّه رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم: «مَن تعلّم القرآن وعلّق مصحفًا لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلّقًا به يقول: يا ربّ العالمين عبدُك هذا اتّخذني مهجورًا، اقضِ بيني وبينه».[١]

[٢٠١ظ] وقيل: هو مِن "هَجَرَ" إذا هَذَا، أي: جعلوه مهجورًا فيه، / إمّا على زعمهم الباطل، وإمّا بأن هَجَروا فيه إذا سمعوه، كما يُحكَى عنهم مِن قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت، ٢٦/٤١].

وقد جُوّز أن يكون "المَهجور" بمعنى "الهَجْر" كالمَجلود والمعقول، فالمعنى: اتّخذوه هَجْرًا وهذيانًا. وفيه مِن التحذير والتخويف ما لا يخفى، فإنّ الأنبياء إذا شكَوا إلى الله عزّ وعلا[٢] قومَهم عُجّل لهم العذاب، ولم يُنْظَروا.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وحَملٌ له على الاقتداء بمَن قبله مِن الأنبياء عليهم السلام، أي: كما جعلنا لك أعداءً مِن المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون مِن الأباطيل، جعلنا لكلّ نبيّ مِن الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة إليها عدوًّا مِن مجرمي قومهم، فاصبر كما صبروا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ وعدٌ كريم له عليه السلام بالهداية إلى كافّة مَطالبه، والنصرِ على أعدائه، أي: كفاك مالِكُ أمرِك ومبلِّغك إلى الكمال هاديًا لك إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات التي مِن جملتها تبليغ الكتاب أجلَه، وإجراءُ أحكامه في أكناف الدنيا إلى يوم القيامة، ونصيرًا لك على جميع مَن يعاديك.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حكاية لاقتراحهم الخاصّ بالقرآن الكريم بعد حكاية

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٢/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٧/٣.

[٢] س: تعالى.

اقتراحهم في حقّه عليه السلام، والقائلون هم القائلون أوّلًا، وإيرادهم بعنوان الكفر لذمّهم به، والإشعارِ بعلّة الحكم.

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ "التنزيل" ههنا مجرّد عن معنى التدريج كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء، ١٥٣/٤]. ويجوز أن يُراد به الدلالة على كثرة المنزَّل في نفسه، أي: هلّا أُنزِل كلّه ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كالكتب الثلاثة.

وبطلان هذه الكلمة الحمقاءِ ممّا لا يكاد يخفى على أحد، فإنّ الكتب المتقدّمة لم يكن شاهدُ صحّتِها ودليلُ كونها مِن عند الله تعالى / إعجازَها، [٢٠٢و] وأمّا القرآن الكريم فبيّنةُ صحّتِه وآيةُ كونِه مِن عند الله عزّ وجلّ[١] نظمُه المعجِز الباقي على مرّ الدهور المتحقِّقُ في كلّ جزء مِن أجزائه المقدّرة بمقدار أقصر السوَر حسبما وقع به التحدّي، ولا ريب في أنّ ما يدور عليه فلَك الإعجاز هو المطابقة لِما يقتضيه الأحوال، ومِن ضرورة تغيّرها وتجدّدها تغيّرُ ما يطابقها حتمًا، على أنّ فيه فوائدَ جمّة قد أشيرَ إلى بعضٍ منها بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ فإنّه استئناف وارد مِن جهته تعالى لردّ مقالتهم الباطلة، وبيانِ الحكمة في التنزيل التدريجي.

ومحلّ "الكاف" النصب على أنّها صفة لمصدرٍ مؤكِّدٍ لمُضمَر معلَّل بما بعده، وذلك إشارة إلى ما يُفهم مِن كلامهم، أي: مثلَ ذلك التنزيل المفرَّقِ الذي قدحوا فيه واقترحوا خلافَه نزّلناه، لا تنزيلًا مغايرًا له؛ لنُقوّي بذلك التنزيل المفرَّق فؤادَك، فإنّ فيه تيسيرًا لحِفظ النظم، وفهمِ المعاني، وضبطِ الأحكام، والوقوفِ على تفاصيل ما رُوعي فيها مِن الحِكَم والمصالح المبنيّة على المناسبة، على أنّها مَنوطة بأسبابها الداعية إلى شرعها ابتداءً أو تبديلًا بالنسخ مِن أحوال المكلّفين. وكذلك عامّة ما ورد في القرآن المجيد مِن الأخبار وغيرها، متعلّقةً بأمور حادثة مِن الأقاويل والأفاعيل، ومِن قضيّة تجدّدها تجدّدُ ما يتعلّق بها، كالاقتراحات الواقعة مِن الكفرة الداعيةِ إلى حكايتها وإبطالها،

---

١ س: تعالى.

وبيانِ ما يئول إليه حالهم في الآخرة، على أنّهم في هذا الاقتراح كالباحث عن حَتفه بظِلْفه، حيث أُمِروا بالإتيان بمِثل نوبةٍ مِن نُوَبِ التنزيل، فظهر عجزهم عن المعارضة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف لو تُحُدُّوا بكلّه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ عطفٌ على ذلك المُضمَر. وتنكير ﴿تَرْتِيلًا﴾ للتفخيم، أي: كذلك نزّلناه ورتّلناه ترتيلًا / بديعًا لا يُقادَر قدرُه، ومعنى "ترتيله" تفريقُه آيةً بعد آية، قاله النخعي والحسَن وقتادة رحمهم الله.[١] وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «بيّنّاه بيانًا فيه ترتيل وتثبيت».[٢] وقال السدّي: «فصّلناه تفصيلًا».[٣] وقال مجاهد: «جعلنا بعضه في إثر بعض».[٤] [٢٠٢ظ]

وقيل: هو الأمر بترتيل قراءته بقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل، ٧٣/٤]. وقيل: قرأناه عليك بلسان جبريل شيئًا فشيئًا في عشرين أو في ثلاثٍ وعشرين سنةً على تُؤَدة وتَمهّل.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ مِن الأمثال التي مِن جملتها ما حُكِي مِن اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجاريةِ لذلك مَجرى الأمثال، أي: لا يأتونك بكلام عجيب هو مَثَل في البطلان يريدون به القَدْح في حقّك وحقِّ القرآن ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ﴾ في مقابلته ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالجواب الحقّ الثابت الذي يُنحِي عليه بالإبطال، ويحسِم مادّة القيل والقال، كما مرّ مِن الأجوبة الحَقّة القالعة لعروق أَسْوِلتِهم[٥] الشنيعة الدامغة لها بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْحَقِّ﴾، أي: جئناك بأحسنَ تفسيرًا، أو على محلّ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: آتيناك الحقّ وأحسنَ تفسيرًا، أي: بيانًا[٦]

---

١ س - رحمهم الله.
٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٤٠؛ اللباب لابن عادل، ١٤/٥٢٩.
٣ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٤٠؛ اللباب لابن عادل، ١٤/٥٢٩.
٤ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٤٠؛ اللباب لابن عادل، ١٤/٥٢٩.
٥ "أسوِلة" لغة في "أسئلة"، مفردها سوال. انظر: لسان العرب لابن منظور، «سول».
٦ م: معنًى ["صح" في الهامش].

وتفصيلًا،[١] على معنى أنّه في غاية ما يكون مِن الحُسن في حدّ ذاته، لا أنّ ما يأتون به له حُسن في الجملة وهذا أحسنُ منه كما مرّ.

والاستثناء مفرّغ محلّه النصب على الحاليّة، أي: لا يأتونك بمَثَلٍ إلّا حالَ إيتائنا إيّاك الحقَّ الذي لا مَحيد عنه. وفيه مِن الدلالة على المسارعة إلى إبطال ما أَتَوا به وتثبيتِ فؤاده عليه السلام ما لا يخفى.

وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الأَسْوِلة، وبصحّة جميع الأجوبة، وبإشارته مُنبِئٌ عن بطلان السؤال الأخير وصحّة جوابه، إذ لولا أنّ تنزيل القرآن على التدريج لَما أمكن إبطال تلك الاقتراحات الشنيعة، ولَما حصل تثبيتُ فؤادِه عليه السلام / مِن تلك الحيثيّة. [٢٠٣و]

هذا، وقد جوّز أن يكون "المَثَل" عبارة عن الصفة الغريبة التي كانوا يقترحون كونه عليه السلام عليها، مِن مقارنة الملَك، والاستغناءِ عن الأكل والشرب، وحيازةِ الكنز والجنّة، ونزولِ القرآن عليه جملةً واحدة، على معنى: لا يأتونك بحالة عجيبة يقترحون اتّصافك بها قائلين: هلّا كان على هذه الحالة، إلّا أعطيناك نحن مِن الأحوال الممكنة ما يحقّ لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تُعطاه، وما هو أحسنُ تكشيفًا لِما بُعثتَ عليه، ودلالةً على صحّته، وهو الذي أنت عليه في الذات والصفات.[٢]

ويأباه الاستثناء المذكور، فإنّ المتبادر منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى مِن الحقّ مترتّبًا على ما أتَوا به مِن الأباطيل دامغًا لها، ولا ريب في أنّ ما آتاه الله تعالى مِن المَلَكات السنيّة اللائقة بالرسالة قد آتاه مِن أوّل الأمر، لا بمقابلة ما حُكي عنهم مِن الاقتراحات لأجل دَمغِها وإبطالِها.

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُحشَرون كائنين على وجوههم، يُسحبون عليها ويُجرّون إلى جهنّم. وقيل: مقلوبين وجوههم على قفاهم

---

[١] م: ومؤدًى ["صح" في الهامش].

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٧٩.

وأرجلهم إلى فوق. رُوي عنه عليه السلام: «يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاثٍ؛ ثلُث على الدوابّ، وثلُث على وجوههم، وثلُث على أقدامهم ينسلون نسلًا».[١]

وأمّا ما قيل: متعلّقة قلوبُهم بالسفليّات متوجّهة وجوههم إليها،[٢] فبعيد؛ لأنّ هَول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلّق بالسفليّات، أو توجّه إليها في الجملة.

ومحلّ الموصول إمّا النصب، أو الرفع على الذمّ، أو الرفع على الابتداء، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ بدل منه، أو بيان له، وقوله تعالى:[٣] ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ خبر له، أو اسم الإشارة مبتدأ ثانٍ، و﴿شَرٌّ﴾ خبره، / والجملة خبر [٢٠٣ظ]
للموصول. ووصف "السبيل" بالضلال مِن باب الإسناد المجازي للمبالغة، والمفضّلُ عليه الرسول صلّى الله عليه وسلّم، على منهاجِ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم[٤] بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة، ٥/٦٠]، كأنّه قيل: إنّ حامِلَهم على هذه الاقتراحات تحقيرُ مكانِه عليه السلام بتضليل سبيله، ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنّهم شرّ مكانًا وأضلّ سبيلًا. وقيل: هو متّصل بقوله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ[٥] خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.[٦]

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتأكيد ما مرّ مِن التسلية والوعد بالهداية والنصر في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[٧] بحكاية ما جرى بين مَن ذُكر مِن الأنبياء عليهم السلام وبين قومهم حكايةً إجماليّةً كافيةً فيما هو المقصود.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٧/١٣٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٧٩. وأخرجه بنحوه الترمذي في السنن، ٥/٣٠٥.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤/١٢٤.

٣ م - تعالى.

٤ م ط س: قل أأنبّئكم.

٥ م ط س - يومئذٍ.

٦ الفرقان، ٢٥/٢٤.

٧ الفرقان، ٢٥/٣١.

و"اللام" جواب لقسم محذوف، أي: وبالله لقد آتينا موسى **التوراة**، أي: أنزلناها عليه بالآخرة، ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥ﴾ الظرف متعلّق بـ﴿جَعَلْنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُ﴾ مفعول أوّل له، وقوله تعالى: ﴿هَٰرُونَ﴾ بدل مِن ﴿أَخَاهُ﴾، أو عطفُ بيانٍ له على عكس ما وقع في سورة طه،[1] وقوله تعالى: ﴿وَزِيرًا﴾ مفعول ثان له، وقد مرّ ثمّة معنى "الوزير"، أي: جعلناه في أوّل الأمر وزيرًا له.

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَقُلْنَا﴾ لهما حينئذٍ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هم فرعونُ وقومه. و"الآيات" هي المعجزات التسع المفصَّلات الظاهرة على يدَي موسى عليه السلام. ولم يُوصَف القومُ لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصف ضرورةَ تأخّر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخّر عن ذهابهما المتأخّر عن الأمر به؛ بل إنّما وُصِفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيانًا لِعلّة استحقاقهم لِما يُحكى بعده مِن التدمير، أي: فذهبا / إليهم فأَرَياهم آياتِنا كلَّها فكذّبوها تكذيبًا [٢٠٤و] مستمِرًّا، ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ إثر ذلك التكذيب المستمرّ ﴿تَدْمِيرًا﴾ عجيبًا هائلًا لا يُقادَرُ قَدرُه ولا يُدرَك كُنهُه، فاقتُصر على حاشيتَي القصّة اكتفاءً بما هو المقصود.

وحملُ قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾ على معنى: فحكمنا بتدميرهم[2] -مع كونه تعسّفًا ظاهرًا- ممّا لا وجه له، إذ لا فائدةَ يُعتدّ بها في حكاية الحُكم بتدمير قد وقع وانقضى.

والتعرّض في مطلع القصّة لإيتاء الكتاب مع أنّه كان بعد مَهلِك القوم، ولم يكن له مدخل في هلاكهم كسائر الآيات، للإيذان مِن أوّل الأمر ببلوغِه عليه السلام غايةَ الكمال ونيلهِ نهايةَ الآمال التي هي إنجاءُ بني إسرائيل مِن مَلَكة فرعونَ، وإرشادُهم إلى طريق الحقّ بما في **التوراة** مِن الأحكام، إذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذي مرّ بيانه.

---

[1] في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه، ٢٠/٢٩-٣٠].

[2] انظر: **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤/١٢٤.

وقُرئ: "فَدَمِّرْتُهُمْ"،[١] و"فَدَمِّرَاهُمْ"،[٢] و"فَدَمِّرَانِّهِمْ"[٣] على التأكيد بالنون الثقيلة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوب بمُضمَر يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾،[٤] أي: ودمّرنا قومَ نوح. وقيل: عطفٌ على مفعول ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ﴾،[٥] وليس مِن ضرورة ترتّبِ تدميرهم على ما قبله ترتّبُ تدميرِ هؤلاء عليه، لا سيّما وقد بُيّن سببُه بقوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: نوحًا ومَن قَبله مِن الرسل، أو نوحًا وحده؛ لأنّ تكذيبه تكذيب للكلّ؛ لاتّفاقهم على التوحيد والإسلام.

وقيل: هو منصوب بمُضمَر يفسّره قوله تعالى: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، وإنّما يتسنّى ذلك على تقدير كون كلمة ﴿لَّمَّا﴾ ظرف زمان، وأمّا على تقدير كونها حرفَ وجودٍ لِوجودٍ فلا؛ لأنّه حينئذ جواب لها، وجوابُ ﴿لَّمَّا﴾ لا يفسّر ما قبله، مع أنّه مخِلّ بعطف المنصوبات الآتية على ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾، لِما أنّ إهلاكهم ليس بالإغراق، فالوجه ما تقدّم. وقوله تعالى: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة تدميرهم.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: جعلنا إغراقهم أو قصّتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: آية عظيمة يَعتبر بها كلّ مَن شاهدها أو سمعها، وهي مفعول ثانٍ لـ"جَعَلنا"، و﴿لِلنَّاسِ﴾ ظرف لَغوٌ له، أو متعلّق بمحذوف وقع حالًا / مِن ﴿ءَايَةً﴾، إذ لو تأخّر عنها لكان صفةً لها. [٢٠٤ظ]

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لهم. والإظهار في موقع الإضمار للإيذان بتجاوزهم الحدّ في الكفر والتكذيب. ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب الآخرة، إذ لا فائدة في الإخبار بإعتاد العذاب الذي قد أُخبرَ بوقوعه مِن قبل، أو لجميع الظالمين الباقين الذين لم يَعتبروا بما جرى عليهم مِن العذاب فيدخل في زمرتهم قريش دخولًا أوّليًا، ويحتمل العذابَ الدنيوي والأخروي.

---

١ قراءة شاذّة، عزاها الزمخشري إلى عليّ رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٠/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ ومسلمة بن محارب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٤٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ ومسلمة بن محارب. **المحتسب** لابن جنّي، ١٢٢/٢.

٤ في الآية السابقة.

٥ في الآية السابقة.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨﴾

﴿وَعَادًا﴾ عطفٌ على ﴿قَوۡمَ نُوحٖ﴾.[١] وقيل: على المفعول الأوّل لـ﴿جَعَلۡنَٰهُمۡ﴾.[٢] وقيل: على محلّ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾،[٣] إذ هو في معنى: وعدنا الظالمين،[٤] وكلاهما بعيد. ﴿وَثَمُودَاْ﴾ الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله. وقُرئ: "وَثَمُودًا"[٥] على تأويل الحيّ، أو على أنّه اسم الأب الأقصى.

﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ هم قوم يعبدون الأصنام، فبعث الله تعالى إليهم شعيبًا عليه السلام، فكذّبوه، فبينما هم حَول الرسّ -وهي البئر التي لم تُطْوَ بعدُ- إذ انْهارَت فخُسف بهم وبديارهم. وقيل: ﴿ٱلرَّسِّ﴾ قرية بفلج اليمامة[٦] كان فيها بقايا ثمود، فبُعث إليهم نبيّ فقتلوه، فهلكوا. وقيل: هو الأُخدود. وقيل: بئر بأنطاكيّة قتلوا فيها حبيبًا النجّار.

وقيل: هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبيّ عليه السلام، ابتلاهم الله تعالى بطيرٍ عظيم، كان فيها مِن كلّ لَون، وسمَّوها عنقاء لطول عُنقها، وكانت تسكن جبَلهم الذي يقال له: فَتْخٌ أو دَمخ، فتنقضّ على صبيانهم فتختَطِفهم[٧] إن أعوَزها الصيد، ولذلك سمّيت مُغربًا،[٨] فدعا عليها حنظلة عليه السلام، فأصابتها الصاعقة، ثمّ إنّهم قتلوه عليه السلام فأُهلِكوا. وقيل: / قوم كذّبوا رسولَهم، [٢٠٥و]
فرَسُّوه -أي: دَسُّوه- في بئر.

﴿وَقُرُونَۢا﴾ أي: أهلَ قُرونٍ. قيل: القَرن أربعون سنةً. وقيل: سبعون. وقيل: مائة. وقيل: مائة وعشرون. ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ذلك المذكور مِن الطوائف والأمم.

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة. | أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/٤.

٣ في الآية السابقة.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٤/٤.

٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

٦ الفَلج: الماء الجاري مِن العين. وفَلج: مدينة بأرض اليمامة لبَني جَعدة وقُشير وكعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. معجم البلدان للحموي، ٢٧١/٤.

٧ س: فتخطفهم.

٨ م ط س: "مُغريا". | والصواب بالباء الموحدة. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٤/٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٥/٤، وقال الثعلبي: «فسمّيت عنقاءَ "مُغرب" لأنّها تَغرُب بما تأخذه وتذهب به».

وقد يذكر الذاكر أشياءَ مختلفة ثمّ يشير إليها بـ"ذلك"، ويحسُب الحاسب أعدادًا متكاثرة ثمّ يقول: "فذلك كيت وكيت" على ذلك المذكور وذلك المحسوب.

﴿كَثِيرًا﴾ لا يَعلم مقدارَها إلّا العليم الخبير. ولعلّ الاكتفاءَ في شئون تلك القرون بهذا البيان الإجمالي لِما أنّ كلّ قَرْن منها لم يكن في الشهرة وغرابة القصّة بمثابة الأمم المذكورة.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾

﴿وَكُلًّا﴾ منصوب بمُضمَر يدلّ عليه ما بعده، فإنّ ضرب المَثَل في معنى التذكير والتحذير. والمحذوف الذي عُوِّض عنه التنوين عبارةٌ إمّا عن الأمم التي لم يُذكر أسباب إهلاكهم، وإمّا عن الكلّ، فإنّ ما حُكي عن قوم نوح وقوم فرعونَ تكذيبُهم للآيات والرسل، لا عدمُ التأثّر مِن الأمثال المضروبة، أي: ذكّرْنا وأنذَرْنا كلَّ واحد مِن المذكورين. ﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: بيّنّا له القَصص العجيبة الزاجِرة عمّا هم عليه مِن الكفر والمعاصي بواسطة الرسل.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحدٍ منهم، لا بعضَهم دون بعضٍ[1] ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ عجيبًا هائلًا، لِما أنّهم لم يتأثّروا بذلك، ولم يرفعوا له رأسًا، وتمادَوا على ما هم عليه مِن الكفر والعدوان. وأصل "التّتبير" التفتيت. قال الزجّاج: «كلّ شيء كسَّرتَه وفَتّتَّه فقد تبّرتَه، ومنه "التِبْر" لفُتاتِ الذهب والفضّة».[2]

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۝٤٠﴾

[٢٠٥ظ] ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟﴾ / جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الأمم المتبّرة وعدم اتّعاظهم بها. وتصديرها بالقسَم لمزيد تقرير مضمونها، أي: وباللهِ لقد أتى قريش في متاجرهم إلى الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ﴾ أي: أُهلِكت بالحجارة. وهي قرى قوم لوط، وكانت خمسَ قرى ما نجَت منها إلّا واحدةٌ

---

[1] س - بعضٍ.

[2] معاني القرآن للزجّاج، ١٦٨/٤.

كان أهلُها لا يعملون العمل الخبيث، وأمّا البواقي فأهلكها الله تعالى بالحجارة، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾، وانتصابُه إمّا على أنّه مصدر مؤكِّد بحذف الزوائد، كما قيل في "أنبتَه الله نباتًا حسنًا"،[1] أي: إمطارَ السَّوء، أو على أنّه مفعول ثانٍ، إذ المعنى: أُعطِيَت، أو أُولِيَت مطرَ السَّوء.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ توبيخ لهم على تركهم التذكّرَ عند مشاهدة ما يوجبه. و"الهمزة" لإنكار نفي استمرار رؤيتهم لها، وتقريرِ استمرارها حسبَ استمرار ما يوجبها مِن إتيانهم عليها، لا لإنكار استمرار نفي رؤيتِهم وتقريرِ رؤيتهم لها في الجملة. و"الفاء" لعطف مدخولها على مقدّر يقتضيه المقام، أي: أَلَم يكونوا ينظرون إليها فلَم يكونوا يرونها، أو أكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها في مِرار مرورهم ليتّعظوا بما كانوا يشاهدونها مِن آثار العذاب. فالمُنكَر في الأوّل ترك النظر وعدمُ الرؤية معًا، وفي الثاني عدمُ الرؤية مع تحقّق النظر الموجِب لها.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ إمّا إضراب عمّا قبله مِن عدم رؤيتهم لآثارِ ما جرى على أهل القرى مِن العقوبة، وبيانٌ لكون عدم اتّعاظهم بسبب إنكارهم، لكون ذلك عقوبةً لمعاصيهم، لا لعدم رؤيتهم لآثارها، خلا أنّه اكتُفِي عن التصريح بإنكارهم ذلك بذِكر ما يستلزمه مِن إنكارهم للجزاء الأخروي الذي هو الغاية مِن خلق العالم. وقد كُنِي عن ذلك بعدم رجاء النشور، أي: / عدمِ توقّعه، كأنّه قيل: بل كانوا يُنكرون النشور المستتبع للجزاء [٢٠٦و] الأخروي، ولا يرون لنفسٍ مِن النفوس نشورًا أصلًا مع تحقّقه حتمًا وشموله للناس عمومًا، واطّراده وقوعًا، فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوي في حقّ طائفة خاصّة مع عدم الاطّراد والملازمة بينه وبين المعاصي حتّى يتذكّروا ويتّعظوا بما شاهدوه مِن آثار الهلاك، وإنّما يحملونه على الاتّفاق؟

وإمّا انتقال[2] مِن التوبيخ بما ذُكر مِن ترك التذكّر إلى التوبيخِ بما هو أعظم منه مِن عدم توقّع النشور.

---

[1] قال تعالى في شأن مريم: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣/٣٧].

[2] السياق: إمّا إضراب... وإمّا انتقال...

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾[١] أي: ما يتّخذونك إلّا مهزوءًا به، على معنى قَصر معاملتهم معه عليه السلام على اتّخاذهم[٢] إيّاه عليه السلام هزؤًا، لا على معنى قَصر اتّخاذهم على كونه هزؤًا كما هو المتبادر مِن ظاهر العبارة، كأنّه قيل: ما يفعلون بك إلّا اتّخاذك هزؤًا، وقد مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ مِن سورة الأنعام [الأنعام، ٦/٥٠].

وقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ محكيّ بعد قول مُضمَر هو حال مِن فاعل ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾، أي: يستهزئون بك قائلين: أهذا الذي... إلخ. والإشارة للاستحقار. وإبراز بَعث الله رسولًا في مَعرض التسليم بجعله صلة للموصول الذي هو صفته عليه السلام مع كونهم في غاية النكير لبعثه عليه السلام بطريق التهكّم والاستهزاء، وإلّا لقالوا: أَبَعث الله هذا رسولًا؟ أو أهذا يزعم أنّه بعثه الله رسولًا؟

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِن كَادَ﴾ ﴿إِن﴾ مخفّفة مِن "إنّ". وضمير الشأن محذوف، أي: إنّه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: لَيصرِفُنا عن عبادتها صرفًا كلّيًا بحيث يُبعّدُنا عنها، لا عن عبادتها فقط. والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالهم بادّعاء أنّ عبادتها طريق سَوِيّ.

[٢٠٦ظ] ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ثَبّتْنا عليها واستَمسكنا بعبادتها. و"لولا" / في أمثال هذا الكلام يجري مَجرى التقييد للحكم المطلق مِن حيث المعنى، كما أُشيرَ إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾... إلخ [يوسف، ١٢/٢٤]. وهذا اعتراف منهم بأنّه صلّى الله عليه وسلّم قد بلغ مِن الاجتهاد في الدعوة إلى الحقّ

---

[١] م ط س: هُزُؤًا. | وقرأ بالهمز جميع القرّاء العشر غير حفص. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢١٥.

[٢] س: اتّخادهم.

وإظهارِ المعجزات وإقامةِ الحُجج والبيّنات إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم لولا فرطُ لَجاجهم وغايةُ عنادهم. يروى أنّه مِن قول أبي جَهل.[١]

﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ جواب مِن جهته تعالى لآخر كلامهم، وردٌّ لِما يُنبئ عنه مِن نسبته عليه السلام إلى الضلال في ضمن الإضلال، أي: سوف يعلمون البتّة وإن تراخى ﴿حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ الذي يستوجبه كفرُهم وعِنادهم ﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وفيه ما لا يخفى مِن الوعيد والتنبيه على أنّه تعالى لا يُهملهم وإن أمهلهم.

﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ۝٤٣﴾

﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم مِن الأقوال والأفعال، وبيانِ ما لهم مِن المصير والمآل، وتنبيهٌ على أنّ ذلك مِن الغرابة بحيث يجب أن يُرى ويُتعجّب منه.

و﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿ٱتَّخَذَ﴾ قُدّم على الأوّل للاعتناء به؛ لأنّه الذي يدور عليه أمر التعجيب. ومَن توهّم أنّهما على الترتيب بناء على تساويهما في التعريف فقد زلّ عنه أنّ المفعول الثاني في هذا الباب هو المتلبّس بالحالة الثانية،[٢] أي: أرأيت مَن جعل هواه إلهًا لنفسه مِن غير أن يلاحظه، وبنى عليه أمرَ دينه مُعرِضًا عن استماع الحجّة الباهرة والبرهان النيّرِ بالكلّيّة، على معنى: انظر إليه وتعجّب منه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ إنكار واستبعاد لكونه عليه السلام حفيظًا عليه يَزجره عمّا هو عليه مِن الضلال، ويُرشده إلى الحقّ طوعًا أو كرهًا. و"الفاء" لترتيب الإنكار على ما قبله مِن الحالة الموجِبة له، كأنّه قيل: أبَعدَ ما / شاهدتَ غلوَّه في طاعة الهوى وعُتُوَّه عن اتّباع الهدى تقسُره على الإيمان شاء أو أبى؟ [٢٠٧و]

---

١ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٩/٧؛ واللباب لابن عادل، ٥٣٧/١٤.

٢ م ط س: الحادثة [صحّح في هامش م].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ إضراب وانتقال عن الإنكار المذكور إلى إنكار حِسبانه عليه السلام لهم ممّن يسمعُ أو يعقل حسبما يُنبئ عنه جِدُّه عليه السلام في الدعوة واهتمامُه بالإرشاد والتذكير، لكن لا على أنّه لا يقع كالأوّل؛ بل على أنّه لا ينبغي أن يقع، أي: بل أتَحسب أنّ أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم مِن الآيات حقّ السماع، أو يعقلون ما في تضاعيفها مِن المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن، فتعتني بشأنهم وتطمع في إيمانهم؟ وضمير ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لـ﴿مَن﴾،[١] وجمعُه باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُوَلِ باعتبار لفظها. وضمير الفعلين للأكثر، لا لِما أضيفَ هو إليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ﴾... إلخ جملة مستأنَفة مَسوقة لتقرير النكير وتأكيده، وحَسمِ مادّة الحِسبان بالمرّة، أي: ما هم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم مِن قوارع الآيات وانتفاءِ التدبّر فيما يشاهدونه مِن الدلائل والمعجزات إلّا كالبهائم التي هي مثَلٌ في الغفلة، وعَلَمٌ في الضلالة.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ منها ﴿سَبِيلًا﴾ لِما أنّها تنقاد لصاحبها الذي يعلفها ويتعهّدها، وتعرف مَن يُحسن إليها ممّن يُسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرّها، وتهتدي لمَراعيها ومشاربها، وتأوي إلى مَعاطنها، وهؤلاء لا ينقادون لربّهم وخالقهم ورازقهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم / مِن إساءة الشيطان الذي [٢٠٧ظ] هو أعدى عدوّهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتّقون العقاب الذي هو أشدّ المضارّ والمهالك، ولا يهتدون للحقّ الذي هو المَشرع الهنيّ، والمَورد العذب الرويّ.

ولأنّها إن لم تعتقد حقًّا مستتبعًا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلًا مستوجبًا لاقتراف الشرّ، بخلاف هؤلاء حيث مهّدوا قواعد الباطل، وفرّعوا عليها أحكام الشرور، ولأنّ أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدّى إلى أحد، وجهالةُ هؤلاء مؤدّية إلى ثَوران الفتنة والفساد، وصَدِّ الناس عن سَنن السداد،

---

[١] في الآية السابقة.

وهَيجان الهرجِ والمرجِ فيما بين العباد، ولأنّها غير معطِّلة لِقوّةٍ مِن القوى المودَعة؛ بل صارفة لها إلى ما خُلِقَت هي له، فلا تقصيرَ مِن قِبَلها في طلب الكمال. وأمّا هؤلاء فهم مُعَطِّلون لِقواهم العقليّة، مضيّعون للفطرة الأصليّة التي فُطر الناس عليها، مستحقّون بذلك أعظم العقاب وأشدّ النّكال.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ٤٥﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بيان لبعض دلائل التوحيد إثرَ بيان جهالة المعرضين عنها وضلالتهم. والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. و"الهمزة" للتقرير. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتشريفه عليه السلام، وللإيذانِ بأنّ ما يعقبه مِن آثار ربوبيّته تعالى ورحمته تعالى، أي: ألَم تنظر إلى بديع صنعه تعالى ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي: كيف أَنْشأ ظِلّ أيّ مُظلّ كان مِن جبل أو بناءٍ أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتدًّا؟ لا أنّه تعالى مَدَّه بعد أن لم يكن كذلك، كما بعد نصف النهار إلى غروبها، فإنّ ذلك مع خلوّه عن التصريح بكونِ نفسه بإنشائه تعالى وإحداثه يأباه سياق النظم الكريم.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد بـ﴿ٱلظِّلَّ﴾ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وأنّه أطيب الأوقات، فإنّ / الظُّلمة الخالصة تَنفِر عنها الطباع، وشعاع الشمس [٢٠٨و] يسخّن الجوّ ويُبهر البصر، ولذلك وُصف به الجنّة في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة، ٣٠/٥٦][1] فغير سديد، إذ لا ريب في أنّ المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عزّ وجلّ وبالِغ حكمته فيما يشاهدونه.

فلا بدّ أن يراد بـ﴿ٱلظِّلَّ﴾ ما يتعارفونه مِن حالةٍ مخصوصة يشاهدونها في موضع يَحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفةٍ لِما في جوانبه مِن مواقع ضِحّ الشمس،[2] وما ذكر وإن كان في الحقيقة ظلًّا للأفق الشرقيّ لكنّهم لا يعدّونه ظلًّا،

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٦/٤.

٢ ضِحّ الشمس: ضوءها. وقيل: هو ضوءها إذا استمكن مِن الأرض. وقيل: هو قرنها يصيبك. وقيل: كلّ ما أصابته الشمس ضِحّ. لسان العرب لابن منظور، «ضحح».

ولا يصفونه بأوصافه المعهودة، ولعلّ توجيهَ الرؤية إليه سبحانه مع أنّ المراد تقرير رؤيته عليه السلام لكيفيّةِ مدّ الظلّ للتنبيه على أنّ نظره عليه السلام غير مقصور على ما يطالعه مِن الآثار والصنائع؛ بل مَطمح أنظاره معرفة شُئون الصانع المجيد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه مِن أوّل الأمر على أنّه لا مدخل فيما ذكر مِن المدّ للأسباب العاديّة، وإنّما المؤثّر فيه المشيئة والقدرة. ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرّة مِن وقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء، أي: ولو شاء سكونه لَجَعلَه ساكنًا، أي: ثابتًا على حاله مِن الطول والامتداد. وإنّما عُبّر عن ذلك بالسكون لِما أنّ مقابلَه الذي هو تغيّر حاله حَسْبَ تغيّرِ الأوضاع بين المُظِلّ وبين الشمسِ يُرى رأيَ العين حركةً وانتقالًا، وحاصله أنّه لا يعتريه اختلافُ حالٍ بأن لا ينسخه الشمس.

وأمّا التعليل بأن يُجعل الشمس مقيمةً على وضع واحد[١] فمدارُه الغفول عمّا سِيق له النظم الكريم ونطق به صريحًا مِن بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الأمور الحادثة إليه تعالى بالذات، وإسقاطِ الأسباب العاديّة عن رتبة السببيّة والتأثير بالكلّيّة، وقَصرِها على مجرّد الدلالة على وجود المسبّبات، لا بذِكر قدرته تعالى على بعض الخوارق، كإقامة الشمس في مقامٍ واحد على أنّها أعظم مِن إبقاء الظلّ على حاله في الدلالة على ما ذُكر مِن كمال القدرة والحكمة لكونه مِن فروعها ومستتبعاتها، فهي أولى وأحقّ بالإيراد في معرض البيان.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ عطفٌ على ﴿مَدَّ﴾ داخل في حكمه، أي: جعلناها علامة يُستدَلّ بأحوالها المتغيّرة على أحواله مِن غير أن يكون بينهما سببيّة وتأثير قطعًا حسبما نطَق به الشرطيّة المعترضة. والالتفات إلى نون العظمة لِما في الجعل المذكور العاري عن التأثير / مع ما يشاهَدُ بين [٢٠٨ظ] الشمس والظلّ مِن الدوران المطّرد المُنبئ عن السببيّة مِن مَزيد دلالةٍ على عِظم القدرة ودِقّة الحكمة، وهو السرّ في إيراد كلمة التراخي.

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٦/٤.

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ﴾ عطفٌ على ﴿مَدَّ﴾ داخل في حكمه. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزماني، لِما أنّ في بيان كَون القبض والمدّ مرتَّبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيدَ دلالةٍ على الحكمة الربّانيّة. ويجوز أن يكون للتراخي الرتْبي، أي: أزلناه بعد ما أنشأناه ممتدًّا، ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند إيقاع شعاع الشمس موقعَه مِن غير أن يكون له تأثير في ذلك أصلًا. وإنّما عُبّر عنه بالقبض المُنبئ عن جمع المنبسط وطَيِّه لِما أنّه قد عُبّر عن إحداثه بالمدّ الذي هو البسط طولًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡنَا﴾ للتنصيص على كَون مرجعه إليه تعالى، كما أنّ حدوثه منه عزّ وجلّ. ﴿قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ أي: على مَهَل قليلًا قليلًا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معيّنة مطَّرِدة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها.

وقيل: إنّ الله تعالى حين بنى السماء كالقبّة المَضروبة ودحا الأرض تحتها ألقَت القُبّةُ ظِلّها على الأرض لعدم النيّر، وذلك مَدُّه تعالى إيّاه، ولو شاء لجعله ساكنًا مستقرًّا على تلك الحالة، ثمّ خلق الشمس وجعلها على ذلك الظلّ، أي: سلّطها عليه ونصبها دليلًا متبوعًا له كما يُتَّبَعُ الدليل في الطريق، فهو يزيد بها وينقص، ويمتدّ ويقلص، ثمّ نسخه بها فقَبَضه قَبْضًا سهلًا يسيرًا غيرَ عسير، أو قَبْضًا سهلًا عند قيام الساعة بقَبْض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظِلّ، فيكون قد ذُكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاؤه بإنشائها. ووَصفُه باليُسرِ على طريقة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ [ق، ٥٠/٤٤]، وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقّق الوقوع.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧﴾

/ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى [٢٠٩و]
وحكمته وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق. وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقَّه. و"اللام" متعلّقة بـ﴿جَعَلَ﴾، وتقديمها على مفعولَيه

للاعتناء ببيان كون ما يعقُبه مِن منافعهم. وفي تعقيب بيان أحوال الظلّ ببيان أحكام الليل الذي هو ظلّ الأرض مِن لطف المسلك ما لا مزيدَ عليه، أي: هو الذي جعل لكم الليل كاللباس يَستركم بظلامه كما يستركم اللباس.

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: وجعلَ النومَ الذي يقع في الليل غالبًا قطعًا عن الأفاعيل المختصّة بحال اليقظة، عُبّر عنه بالسُّبات الذي هو الموت لِما بينهما مِن المشابهة التامّة في انقطاع أحكام الحياة، وعليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام، ٦٠/٦]، وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر، ٤٢/٣٩].

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: زمانَ بعثٍ مِن ذلك السُّبات كبعث الموتى، على حذف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مُقامه، أو نفسَ البعث على طريق المبالغة. وفيه إشارة إلى أنّ النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور. وعن لقمان عليه السلام: «يا بُنيّ كما تنام فتوقَظُ، كذلك تَموت وتُنشر».[1]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقُرئ بالتوحيد[2] على أنّ المراد هو الجنس. ﴿بُشْرًا﴾ تخفيف "بُشُرٍ" جمع "بَشُور"، أي: مُبشِّرين. وقُرئ: "بُشْرَى".[3] وقُرئ: "نُشُرًا" بالنون،[4] جمع "نَشور"، أي: ناشراتٍ للسحاب. وقُرئ بالتخفيف،[5] وبفتح النون[6] أيضًا على أنّه مصدر وُصف به مبالغة.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ استعارة بديعة، أي: قدّامَ المطر. والالتفات إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ لإبراز كمال العناية

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٤/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢٦/٤.

٢ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢٢٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن السميفع وابن قطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٨٨.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

٥ أي: "نُشْرًا" بضمّ النون وإسكان الشين. قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

٦ أي: "نَشْرًا". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

بالإنزال؛ لأنّه نتيجة ما ذُكر مِن إرسال الرياح، أي: أنزلنا بعظمتنا بما رتّبنا مِن إرسال الرياح مِن جهة الفوق ماءً بليغًا في الطهارة.

وما قيل: إنّه ما يكون طاهرًا / في نفسه ومطهّرًا لغيره[1] فهو شرح لبلاغته [٢٠٩ظ] في الطهارة كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال، ١١/٨]، فإنّ "الطَّهور" في العربيّة إمّا صفة كما تقول: "ماء طَهور"، أو اسم، كما في قوله عليه السلام: «التراب طَهور المؤمن».[2] وقد جاء بمعنى الطهارة، كما في قولك: "تطهّرت طَهورًا حسنًا"، كقولك: "وَضوءًا حسنًا"، ومنه قوله عليه السلام: «لا صلاةَ إلّا بطَهور».[3] ووصف الماء به إشعار بتمام النعمة فيه، وتتميم للنعمة فيما بعده، فإنّ الماء الطَّهور أهنأ وأنفع ممّا خالطه ما يُزِيل طَهوريّته، وتنبيه على أنّ ظواهرهم لَمّا كانت ممّا ينبغي أن يطهّروها فبواطنهم أحقّ بذلك وأولى.

﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ﴾ أي: بما أنزلنا مِن الماء الطهور ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بإنبات النبات. والتذكير لأنّ "البلدة" بمعنى "البلد"، ولأنّه غير جارٍ على الفعل كسائر أبنية المبالغة، فأجريَ مُجرى الجامد، والمراد به القطعة مِن الأرض عامرة كانت أو غامرة.

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي: ذلك الماء الطهور عند جريانه في الأودية أو اجتماعِه في الحِياض والمناقع أو الآبار ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: أهل البوادي الذي يعيشون بالحَيا،[4] ولذلك نكّر "الأنعام" و"الأناسيّ". وتخصيصهم بالذكر

---

[1] نقله الزمخشري عن أحمد بن يحيى. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٤/٣.

[2] لم أجده بهذا اللفظ. وأخرج أبو داود في السنن، ٢٤٨/١ (٣٣٣)؛ والترمذي في السنن، ٢١١/١ (١٢٤)، عن أبي ذرّ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ الصعيد الطيّب طَهورُ المسلم وإن لم يجِد الماء عشر سنينَ».

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٤/٣. وقال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ. وأخرج الترمذي في السنن، ٥/١ (١)، عن ابن عمر، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «لا تقبل صلاة بغير طهور».

[4] الحيا: الخِصب. **الصحاح** للجوهري، «حيا».

لأنّ أهل القرى والأمصار يُقيمون بقُرب الأنهار والمنابع، فَبِهم وبما لهم مِن الأنعام غُنية عن سُقيا السماء. وسائرُ الحيوانات تُبعِد في طلب الماء، فلا يُعْوِزها الشرب غالبًا مع أنّ مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عِظَم القدرة، فهو لتعداد أنواع النعمة. والأنعامُ حيث كانت قُنيةً للإنسان، وعامّةُ منافعهم ومعايشهم مَنوطةً بها، قُدّم سَقيها على سَقيهم، كما قُدّم عليها إحياءُ الأرض، فإنّه سبب لحياتها وتعيّشها.

وقُرئ: "نَسْقِيَهُ"،[1] و"أَسْقى" و"سَقى" لغتان. وقيل: "أَسْقاه" جعل له سُقيا. و﴿أَنَاسِيَّ﴾ جمع "إنسيّ"، أو "إنسان"، كـ"ظَرَابيّ" في "ظِربان"[2] على أنّ أصله "أَنَاسِينُ"، فقُلبت نونه ياءً. / وقُرئ: "أَنَاسِيْ"[3] بالتخفيف[4] بحذف ياء "أفاعيل"، كـ"أناعِم" في "أناعيم". [٢١٠و]

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي: وباللهِ لقد كرّرنا هذا القول الذي هو ذكرُ إنشاء السحاب وإنزالِ القَطر لِما مرّ مِن الغايات الجميلة في القرآن وغيره مِن الكتب السماويّة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الناس مِن المتقدّمين والمتأخّرين ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ ليتفكّروا ويعرفوا بذلك كمالَ قدرته تعالى وواسعَ رحمته في ذلك، ويقوموا بشكر نعمته حقَّ قيام.

وقيل: الضمير للمطر، وتصريفُه بينهم إنزالُه في بعض البلاد دون غيرها، أو في بعض الأوقات دون بعضٍ، أو جعلُه تارةً وَابِلًا،[5] وأخرى طَلًّا،[6] وحينًا دِيمةً،[7] ووقتًا رَهْمةً،[8] والأوّل هو الأظهر.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن البرجمي والمفضّل عن عاصم وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٥٠.

[2] وفي هامش م: وهي دُوَيبّة كالهرّة. «منه».

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن الحارث. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٣٥٠.

[4] س: بالتحفيف.

[5] الوابل: المطر الشديدُ. **الصحاح** للجوهري، «وبل».

[6] الطلّ: أضعفُ المطر. **الصحاح** للجوهري، «طلل».

[7] الديمَةُ: المطر الذي ليس فيه رعدٌ ولا برق. **الصحاح** للجوهري، «ديم».

[8] الرِّهْمة، بالكسر: المطرُ الضعيفُ الدائم. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «رهم».

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ ممّن سلَف وخلَف ﴿إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي: لم يفعل إلّا كُفران النعمة، وقلّةَ الاكتراث لها، أو إلّا جحودَها بأن يقولوا: "مُطِرنا بنَوءِ كذا"،[١] ولا يذكروا صُنع الله تعالى ورحمته. ومَن لا يرى الأمطار إلّا مِن الأنواء فهو كافر، بخلاف مَن يَرى أنّ الكلّ بخلق الله تعالى، والأنواءَ أمارات بجَعله تعالى.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ۝٥١﴾

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ نبيًّا يُنذر أهلَها، فيخفّ عليك أعباءُ النبوّة، لكن لم نشأ ذلك فلم نَفعَلْه؛ بل قَصَرنا الأمر عليك حِسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان، ١/٢٥] إجلالًا لك وتعظيمًا وتفضيلًا لك على سائر الرسل.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: فقابِلْ ذلك بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحقّ والتشدّد معهم. كأنّه نهي لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم / عن المداراة [٢١٠ظ]
معهم والتلطّف في الدعوة، لِما أنّه عليه السلام كان يودّ أن يدخلوا في الإسلام، ويجتهدُ في ذلك بتأليف قلوبهم أشدَّ الاجتهاد.

﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، بتلاوة ما في تضاعيفه مِن القوارع الزواجر والمواعظ، وتذكيرِ أحوال الأمم المكذِّبة ﴿جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ فإنّ دعوة كلّ العالمين على الوجه المذكور جهادٌ كبير لا يقادَر قدرُه كمًّا وكيفًا.

وقيل: الضمير المجرور لترك الطاعة المفهومِ مِن النهي عن الطاعة. وأنت خبير بأنّ مجرّد ترك الطاعة يتحقّق بلا دعوة أصلًا، وليس فيه شائبة الجهاد فضلًا عن الجهاد الكبير، اللّهمّ إلّا أن يُجعل "الباء" للملابسة، ليكون المعنى:

---

[١] عن زيد بن خالد الجهني، قال: صلّى بنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلاةَ الصبح بالحديبية في إثرِ السماء كانت مِن الليل، فلمّا انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربّكم؟» قالوا: «الله ورسوله أعلم»، قال: «قال: أصبح مِن عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا مَن قال: "مُطِرنا بفضل الله ورحمته" فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأمّا مَن قال: "مُطِرنا بنَوء كذا وكذا" فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب». صحيح مسلم، ٨٣/١ (٧١).

وجاهدهم بما ذُكر مِن أحكام القرآن الكريم ملابسًا بترك طاعتهم، كأنّه قيل: فجاهدهم بالشدّة والعنف، لا بالملاءمة والمداراة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم، ٩/٦٦].

وقد جُعل الضمير لِما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾[١] مِن كونه عليه السلام نذيرَ كافّة القرى؛ لأنّه لو بُعث في كلّ قرية نذيرًا لَوجبت على كلّ نذير مجاهدةُ قريته، فاجتمعت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تلك المجاهدات كلّها، فكَبُر مِن أجل ذلك جهادُه وعَظُم، فقيل له عليه السلام: وجاهدهم بسبب كونك نذيرَ كافّة القرى جهادًا كبيرًا جامعًا لكلّ مجاهدة. وأنت خبير بأنّ بيان سبب كِبَرِ المجاهدة بحسب الكمّيّة ليس فيه مزيدُ فائدة، فإنّه بيّن بنفسه، وإنّما اللائق بالمقام بيان سبب كِبَرها وعِظَمها في الكيفيّة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: خلّاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان، مِن "مَرَج دابّته" إذا خلّاها. ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ قامع للعطش لغاية عُذوبته ﴿وَهَٰذَا / مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ بليغ المُلوحة. وقُرئ: "مَلِحٌ"،[٢] فلعلّه تخفيف مالح [٢١١و]
كَبَرِد في بارِدٍ. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حاجزًا غير مرئيّ مِن قدرته، كما في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد، ٢/١٣].

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وتنافرًا مُفرِطًا، كأنّ كلًّا منهما يتعوّذ مِن الآخر بتلك المقالة. وقيل: حدًّا مَحدودًا، وذلك كدِجلة تدخل البحر وتشقّه وتجري في خلاله فَراسخ لا يتغيّر طعمُها. وقيل: المراد بـ"البحر العذب" النهرُ العظيم، وبـ"المالح" البحرُ الكبير، وبـ"البرزخ" ما بينهما مِن الأرض، فيكون أثر القدرة في الفصل واختلاف الصفة، مع أنّ مقتضى طبيعة كلّ عنصر التضَامُّ والتلاصق والتشابه في الكيفيّة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٠.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ هو الماء الذي خمّر به طينة آدم عليه السلام، أو جعله جزءًا مِن مادّة البشر ليجتمع ويسلَس ويستعدّ لقَبول الأشكال والهيئات بسهولة، أو هو النطفة ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: قسَمه قسمين ذوي نسب، أي: ذكورًا يُنتَسَب إليهم وذوات صِهر، أي: إناثًا يصاهَرُ بهنّ، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ[1] مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة، ٣٩/٧٥].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ مبالِغًا في القدرة، حيث قدَر على أن يخلق مِن مادّة واحدة بشرًا ذا أعضاءٍ مختلفة، وطِباع متباعدة، وجعلَه قسمين متقابلين، وربّما يخلق مِن نطفة واحدة توأمَين ذكرًا وأنثى.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذي شأنه ما ذُكر ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: ما ليس مِن شأنِه النفع والضرّ أصلًا، وهو الأصنام / أو كلُّ ما يُعبَد مِن دونه [٢١١ظ] تعالى، إذ ما مِن مخلوق يستقلّ بالنفع والضرّ.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي ذُكِرت آثارُ ربوبيّته ﴿ظَهِيرًا﴾ يظاهر الشيطانَ بالعداوة والشرك. والمراد بـ﴿ٱلْكَافِرُ﴾ الجنس أو أبو جَهل. وقيل: هَيِّنًا مَهِينًا لا اعتدادَ به عنده تعالى مِن قولهم: "ظَهَرتُ به" إذا نبذتَه خلفَ ظهرِك، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران، ٧٧/٣].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين.

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ الرسالة الذي يُنبئ عنه الإرسال ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ مِن جهتكم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: إلّا فعلَ

---

[1] م ط س: وجعل.

مَن يريد أن يتقرّب إليه تعالى، ويطلبَ الزُّلفى عنده بالإيمان والطاعة حسبما أدعوهم إليهما، فصُوِّرَ ذلك بصورة الأجر مِن حيث إنّه مقصود الإتيان به، واستُثنِي منه قلعًا كلّيًا لشائبة الطمع، وإظهارًا لغاية الشفقة عليهم، حيث جُعل ذلك مع كون نفعه عائدًا إليهم عائدًا إليه عليه السلام. وقيل: الاستثناء منقطع، أي: لكن مَن شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلًا فليفعل.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في الاستكفاء عن شرورهم، والإغناء عن أجورهم، فإنّه الحقيق بأن يُتوكَّل عليه دون الأحياء الذين مِن شأنهم الموت، فإنّهم إذا ماتوا ضاع مَن توكّل عليهم. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ونَزِّهْهُ عن صفات النقصان مُثنِيًا عليه بنعوت الكمال، طالبًا لمزيد الإنعام بالشكر على سوابقه.

[٢١٢و] ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظهَر منها وما بطَن ﴿خَبِيرًا﴾ أي: / مطّلعًا عليها بحيث لا يَخفى عليه شيء منها، فيجزيهم جزاءً وافيًا.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد سلَف تفسيره. ومحلّ الموصول الجرّ على أنّه صفة أخرى لـ﴿ٱلْحَىِّ﴾، وُصِف بالصفة الفعليّة بعد وصفه بالأبديّة التي هي مِن الصفات الذاتيّة. والإشارة إلى اتّصافه بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكّل عليه تعالى وتأكيدِه، فإنّ مَن أنشأ هذه الأجرامَ العِظام، على هذا النمط الفائق، والنسَق الرائق، بتدبيرٍ متين، وترتيبٍ رصين، في أوقات معيّنة مع كمال قدرته على إبداعها دفعةً، لحِكَمٍ جليلة، وغاياتٍ جميلة، لا يقف على تفاصيلها العقول؛ أَحَقُّ مَن يُتوكَّلُ عليه، وأولى مَن يُفوَّض الأمرُ إليه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مرفوع على المدح، أي: هو الرحمن، وهو في الحقيقة وصف آخر لـ﴿ٱلۡحَيِّ﴾، كما قُرئ بالجرّ،[1] مفيدٌ لزيادة تأكيد ما ذُكر مِن وجوب التوكّل عليه تعالى، وإن لم يتبعه في الإعراب، لِما تقرَّر مِن أنّ المنصوب والمرفوع مدحًا وإن خرَجا عن التبعيّة لِما قبلهما صورةً حيث لم يتبعاه في الإعراب، وبذلك سُمِّيا قَطْعًا، لكنّهما تابعان له حقيقةً، ألا يُرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ في النصب والرفع رَوْمًا لتصوير كلٍّ منهما بصورة متعلِّقٍ مِن متعلّقاتِ ما قبله، وتنبيهًا على شدّة الاتّصال بينهما. وقد مرّ تمامُ التحقيق في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الآية [البقرة، ٢/٣].

وقيل: الموصول مبتدأ، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبره. وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بدل مِن المستكِنّ في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾.

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ﴾ أي: بتفاصيل ما ذُكر إجمالًا مِن الخلق والاستواء، لا بنفسهما فقط، إذ بعد بيانهما لا يبقى إلى السؤال حاجة، ولا في تعديته بـ"الباء" فائدة، فإنّها مبنيّة على تضمينه معنى الاعتناء المستدعي لكون المسئول أمرًا خطيرًا مهتمًّا بشأنه غيرَ حاصلٍ للسائل. وظاهرٌ أنّ نفس الخلق والاستواء بعد الذكر ليس كذلك.

وما قيل مِن أنّ التقدير: إن شككتَ فيه فاسأل به خَبيرًا، على أنّ الخطاب له عليه السلام والمرادُ غيرُه؛[2] بمَعزِل مِن السداد؛ بل التقدير: إن شئت تحقيقَ ما ذُكِر أو تفصيلَ ما ذُكر فاسأل معتنيًا به ﴿خَبِيرٗا﴾ عظيمَ الشأن، محيطًا بظواهر الأمور وبواطنها، وهو الله سبحانه، يُطلِعُك / على جليّة الأمر. [٢١٢ظ]

وقيل: فاسأل به مَن وجده في الكتب المتقدّمة ليصدّقك فيه، فلا حاجة حينئذٍ إلى ما ذكرنا.

وقيل: الضمير لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، والمعنى: إن أنكروا إطلاقه على الله تعالى فاسأل عنه مَن يُخبرك مِن أهل الكتاب ليعرفوا مَجيء ما يرادفه في كتبهم، وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مبتدأً، وما بعده خبرًا. وقُرئ: "فَسَلْ".[3]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٠.

٢ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣٤٤.

٣ قرأ بها ابن كثير والكسائي وخلف، وكذا حمزة عند الوقف. النشر لابن الجزري، ١/٤١٤.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قالوه لِما أنّهم ما كانوا يُطلقونه على الله تعالى، أو لأنّهم ظنّوا أنّ المراد به غيره تعالى، ولذلك قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: للذي تأمرنا بسجوده، أو لأمرك إيّانا مِن غير أن نعرف أنّ المسجود ماذا. وقيل: لأنّه كان مُعَرَّبًا لم يسمعوه. وقُرئ: "يَأْمُرُنَا" بياء الغيبة[١] على أنّه قولُ بعضِهم لبعض.

﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي: الأمرُ بسجود الرحمن ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمان.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ هي البروج الإثنى عشر، سُمّيت به، وهي القصور العالية؛ لأنّها للكواكب السيّارة، كالمنازل الرفيعة لسكّانها. واشتقاقه مِن "البُرج" لظهوره.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ هي الشمس؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح، ١٦/٧١]. وقُرئ: "سُرُجًا"،[٢] وهي الشمس والكواكب الكبار. ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ مضيئًا بالليل. وقُرئ: "قُمْرًا"،[٣] أي: ذَا قُمْرٍ، وهي جمعُ "قَمْراءَ"، ولِما أنّ الليالي بالقَمَر تكون قُمْرًا أضيفَ إليها ثمّ حُذِفَ وَأُجري حكمه على المضاف إليه القائمِ مَقامه، كما في قول حسّان رضي الله عنه:

بَــرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيقِ السَّلسَلِ[٤]

أي: ماءَ بَرَدَى، ويحتمل أن يكون بمعنى "القَمَر"، كـ"الرُّشْد" و"الرَّشَد"، و"العُزْب" و"العَزَب".

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: ذَوَي خِلفةٍ، يخلفُ كلّ منهما الآخر،

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/١.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٠.

[٤] صدره:
يَسقُون مَن ورَدَ البَريصَ عليهِمِ
ديوان حسّان بن ثابت، ٧٤/١.

بأن يقوم مقامَه فيما ينبغي أن يُعملَ فيه، أو بأن يَعتَقِبا، كقوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة، ١٦٤/٢]. وهي اسم للحالة مِن "خَلَفَ"، كـ"الرِّكْبة" و"الجِلْسة" مِن "رَكِبَ" و"جَلَسَ".

﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: يتذكّر آلاء الله عزّ وعلا،[١] ويتفكّر في بدائع صنعه، فيعلم أنّه لا بدّ لها مِن صانعٍ حكيم، واجبِ الذات، رحيمٍ للعباد. / ﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [٢١٣و] أي: أن يشكر الله تعالى على ما فيهما مِن النعم، أو ليكونا وقتين للذاكرين، مَن فاتَه وِردُه في أحدهما تداركه في الآخَر. وقُرِئ: "أَنْ يَذْكُرَ"[٢] مِن "ذَكَرَ" بمعنى "تَذَكّرَ".

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أوصاف خُلّص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيويّة والأخرويّة بعد بيان حال المنافرين عن عبادته والسجودِ له. والإضافة للتشريف. وهو مبتدأ خبره ما بعده مِن الموصول وما عُطف عليه. وقيل: هو ما في آخر السورة الكريمة مِن الجملة المصدَّرة باسم الإشارة.[٣] وقُرِئ: "عُبَّادُ الرَّحْمَنِ"،[٤] أي: عبادُه المقبولون.

﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ أي: بسكينةٍ وتواضع. و﴿هَوۡنٗا﴾ مصدر وُصف به. ونصبه إمّا على أنّه حال مِن فاعل ﴿يَمۡشُونَ﴾، أو على أنّه نعت لمصدره، أي: يمشون هيّنين لَيّني الجانِب مِن غير فَظاظة، أو مَشيًا هَيّنًا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ أي: السفهاء، كما في قول مَن قال:

أَلا لا يَجهَلَنْ أحَدٌ علينا   فنَجهلَ فوقَ جَهلِ الجاهلِينا[٥]

﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ بيان لحالهم في المعاملة مع غيرهم إثرَ بيان حالهم في أنفسهم، أي: إذا خاطبوهم بالسوء قالوا: تسلّمًا منكم ومتاركةً، لا خيرَ بيننا وبينكم ولا شرّ.

---

[١] س: عزّ وجلّ.

[٢] قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٣٤/٢.

[٣] هو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان، ٧٥/٢٥].

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

[٥] لعمرو بن كلثوم في لسان العرب لابن منظور، «رشد». وفيه: «أي: إنّما نُكافئهم على جَهلهم».

وقيل: سَدادًا مِن القول يَسلمون به مِن الأذيّة والإثم. وليس فيه تعرّض لمعاملتهم مع الكفرة حتّى يقال: نَسخَتْها آية القتال،[1] كما نُقل عن أبي العالية.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ بيان لحالهم في معاملتهم مع ربّهم، أي: يكونون ساجدين لربّهم وقائمين، أي: يُحيُون الليلَ كلًّا أو بعضًا بالصلاة. وقيل: مَن قرأ شيئًا مِن القرآن في صلاةٍ وإن قَلّ فقد بات ساجدًا وقائمًا.[3] وقيل: هما الركعتان بعد المغرب، والركعتان بعد العشاء.[4] وتقديمُ السجود على القيام لرعاية الفواصل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: في أعقاب صلواتهم، أو في عامّة أوقاتهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: شرًّا دائمًا، وهلاكًا لازمًا. وفيه مزيد مدح لهم ببيان أنّهم مع حسن معاملتهم مع الخَلق، واجتهادِهم في عبادة الحقّ؛ يخافون العذاب، ويبتهلون إلى الله تعالى في صرفه عنهم غيرَ
[٢١٣ظ] محتفِلين بأعمالهم، / كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٠/٢٣].

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ تعليل لاستدعائهم المذكور بسوءِ حالِها في نفسها إثرَ تعليله بسوء حال عذابها. وقد جُوّز أن يكون تعليلًا للأولى وليس بذاك. و﴿سَآءَتْ﴾ في حكم "بِئسَت"، وفيها ضمير مبهَم يفسّره ﴿مُسْتَقَرًّا﴾،

---

[1] آية القتال قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ الآية [التوبة، ٥/٩].

[2] انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٤٥/٧؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢٩١/٣.

[3] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩٢/٣؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٢٧/٨.

[4] **الكشّاف** للزمخشري، ٢٩٢/٣. وهو في **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٤٦/٧، عن الكلبي بلفظ: "وأربع بعد العشاء الآخرة".

والمخصوصُ بالذمّ محذوف، معناه: ساءَت مستقرًّا ومُقامًا هي، وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم "إنّ"، وجعلها خبرًا لها.

قيل: ويجوز أن يكون ﴿سَآءَتۡ﴾ بمعنى "أَحزَنَت"، وفيها ضمير اسم "إنّ"، و﴿مُسۡتَقَرّٗا﴾ حال أو تمييزٌ،[١] وهو بعيدٌ خالٍ عمّا في الأوّل مِن المبالغة في بيان سوء حالها، وكذا جعلُ التعليلين مِن جهته تعالى.[٢]

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾ لم يجاوزوا حدّ الكرَم، ﴿وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ ولم يضيّقوا تضييقَ الشحيح. وقيل: "الإسراف" هو الإنفاق في المعاصي، و"القَتْر" منع الواجبات والقُرَب. وقُرئ بكسر التاء مع فتح الياء،[٣] وبكسرها مخفّفةً[٤] ومشدّدةً[٥] مع ضمّ "الياء".

﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين ما ذُكر مِن الإسراف والقَتْر ﴿قَوَامٗا﴾ وَسَطًا وعدلًا، سمّي به لاستقامة الطرفين، كما سمّي به "سَواء" لاستوائهما. وقُرئ بالكسر،[٦] وهو ما يُقام به الحاجة، لا يفضل عنها ولا ينقص، وهو خبر ثانٍ، أو حال مؤكِّدةٌ، أو هو الخبر، و﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ لغو، وقد جُوّز أن يكون اسمَ ﴿كَانَ﴾ على أنّه مبنيّ لإضافته إلى غير متمكّن،[٧] ولا يخفى ضعفه، فإنّه بمعنى "القَوام"، فيكون كالإخبار بشيءٍ عن نفسه.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ شروع في بيان اجتنابهم عن المعاصي بعد بيان إتيانهم بالطاعات. وذِكرُ نفي الإسراف والقَتْر لتحقيق معنى الاقتصاد.

---

١ انظر: **الكشّاف للزمخشري**، ٢٩٢/٣؛ **وأنوار التنزيل للبيضاوي**، ١٣٠/٤.

٢ انظر: **الكشّاف للزمخشري**، ٢٩٢/٣؛ **وأنوار التنزيل للبيضاوي**، ١٣٠/٤.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. **النشر لابن الجزري**، ٣٣٤/٢.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. **النشر لابن الجزري**، ٣٣٤/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن العلاء بن سيابة واليزيدي. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٣٥١؛ **اللباب لابن عادل**، ٥٦٦/١٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن حسان بن عبد الرحمن. **شواذّ القراءات للكرماني**، ص ٣٥١.

٧ أجازه الفرّاء. انظر: **معاني القرآن للفرّاء**، ٢٧٣/٢.

[٢١٤و] / والتصريح بوصفهم بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لإظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والإخلاص، وتهويلِ أمرِ القتل والزنا بنظمهما في سِلكه، وللتعريض بما كان عليه الكفرة مِن قريش وغيرهم، أي: لا يعبدون معه تعالى إلهًا آخر.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: حرّمها بمعنى حَرّم قتلها، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامه مبالغةً في التحريم. ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يقتلونها بسبب مِن الأسباب إلّا بسبب الحقّ المزيلِ لحُرمتها وعِصمتها، أو لا يقتلون قتلًا ما إلّا قتلًا ملتبسًا بالحقّ، أو لا يقتلونها في حال مِن الأحوال إلّا حالَ كونهم ملتبسين بالحقّ.

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: الذين لا يفعلون شيئًا مِن هذه العظائم القبيحة التي جمعهنّ الكفرة، حيث كانوا مع إشراكهم به سبحانه مداومين على قتل النفوس المحرّمة -التي مِن جملتها المَوءودة- مكبّين على الزنا، لا يَرعَوون عنه أصلًا.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر كما هو دأب الكفرة المذكورين ﴿يَلْقَ﴾ في الآخرة. وقُرئ:[١] "يَلْقَى"، وقُرئ: "يُلَقَّ" بالتشديد مجزومًا.[٢] ﴿أَثَامًا﴾ وهو جزاء الإثم، كـ"الوَبال" و"النَّكال" وزنًا ومعنًى. وقيل: هو الإثم، أي: يلقَ جزاءَ الإثم، والتنوين على التقديرين للتفخيم. وقُرئ: "أَيَّامًا"،[٣] أي: شدائدَ، يقال: "يوم ذو أيّام" لليوم العَصيب.

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بدل مِن ﴿يَلْقَ﴾[٤] لاتّحادهما في المعنى، كقوله:

متى تأتِنا تُلمِمْ بِنا في ديارنا   تَجِدْ حطَبًا جَزْلًا ونارًا تأجّجا[٥]

---

[١] وفي هامش م: عبد الله وأبو رجاء. | قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبي رجاء. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٨/١٣٠.

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٩٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣/٢٩٤.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] لعبيد الله بن الحرّ الجُعفي في **شرح أبيات سيبويه** للسيرافي، ٢/٧٧.

وقُرِئ بالرفع[١] على الاستئناف، أو على الحاليّة، وكذا ما عُطِف عليه. وقُرِئ: "يُضَعَّفْ"،[٢] و"نُضَعِّفْ لَهُ العَذَابَ"[٣] بالنون ونصب ﴿ٱلْعَذَابُ﴾.

﴿وَيَخْلُدْ / فِيهِۦ﴾ أي: في ذلك العذاب المضاعَف ﴿مُهَانًا﴾ ذليلًا مستحقَرًا [٢١٤ظ] جامعًا للعذاب الجسماني والروحاني. وقُرِئ: "يُخْلَدْ"،[٤] و"يُخَلَّدْ"[٥] مبنيًّا للمفعول، مِن "الإخلاد" و"التخليد". وقُرِئ: "تَخْلُدْ"[٦] بالتاء على الالتفات المُنبِئ عن شدّة الغضب. ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصي إلى الكفر كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وذكرُ الموصوف مع جريان الصالح والصالحات مَجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للأعمال السابقة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول، والجمعُ باعتبار معناه، كما أنّ الإفراد في الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه، أي: أولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ بأن يمحو سوابقَ معاصيهم بالتوبة، ويُثبت مكانَها لواحقَ طاعاتهم،[٧] أو يُبدّل بمَلَكةِ المعصية ودواعِيها في النفس مَلَكةَ الطاعة، بأن يزيل الأولى ويأتي بالثانية. وقيل: بأن يوفّقه لأضداد ما سلَف منه، أو بأن يُثبِت له بدلَ كلّ عقاب ثوابًا. وقيل: يبدّلهم بالشرك إيمانًا، وبقتلِ المسلمين قتلَ المشركين، وبالزنا عِفّةً وإحصانًا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله مِن المَحو والإثبات.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

﴿وَمَن تَابَ﴾ أي: عن المعاصي بتركها بالكلّيّة والندم عليها ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يتلافى به ما فرَط منه، أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعات ﴿فَإِنَّهُۥ﴾

---

١ قرأ بها ابن عامر وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

٢ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب، إلّا أنّ ابن عامر يقرأ بالرفع في الفاء والباقون بالجزم. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨؛ ٣٣٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥١.

٧ ط س: طاعتهم.

بما فعلَ ﴿يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يرجع إليه تعالى ﴿مَتَابًا﴾ أي: مَتابًا عظيمَ الشأن، مرضيًّا عنده تعالى، ماحيًا للعقاب، محصّلًا للثواب، أو يتوب مَتابًا إلى الله تعالى[1] / الذي يحبّ التوّابين ويُحسن إليهم، أو فإنّه يرجع إليه تعالى أو إلى [٢١٥و] ثوابه مرجعًا حسنًا، وهذا تعميم بعد تخصيص.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يقيمون الشهادةَ الكاذبة، أو لا يَحضرون محاضِر الكذب، فإنّ مشاهدة الباطل مشاركة فيه. ﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾ على طريقِ الاتّفاق ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ أي: ما يجب أن يُلغَى ويُطّرح ممّا لا خير فيه ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ معرضين عنه مكرِمين أنفسَهم عن الوقوف عليه والخوض فيه، ومِن ذلك الإغضاءُ عن الفواحش، والصفحُ عن الذنوب، والكنايةُ عمّا يُستهجن التصريح به.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ المنطويةِ على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: أكبّوا عليها سامعين بآذانٍ واعية، مُجتَلِين لها بعيون راعية. وإنّما عُبّر عن ذلك بنفي الضدّ تعريضًا بما يفعله الكفرة والمنافقون. وقيل: الضمير للمعاصي المدلول عليها بـ﴿ٱللَّغْوِ﴾.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل، فإنّ المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله عزّ وجلّ وشاركوه فيها يُسَرُّ بهم قلبه، وتَقَرُّ بهم عَينُه، لِما يشاهده مِن مشايعتهم له في مناهج الدين، وتوقّعِ لحوقهم به في الجنّة، حسبما وعد بقوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور، ٥٢/٢١]. و﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة أو بيانيّة. وقُرئ: "وَذُرِّيَّتِنَا".[3] وتنكير "الأعين"

---

[1] م - تعالى.

[2] في الآية السابقة.

[3] قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٥/٢.

لإرادة تنكير "القُرّة" تعظيمًا، وتقليلُها لأنّ المراد أعينُ المتّقين، ولا ريب في قلّتها نظرًا إلى غيرها.

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل. وتوحيدُه / لدلالته[1] على الجنس، وعدمِ الالتباس، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر، ٦٧/٤٠]، أو لأنّ المراد: واجعلْ كلّ واحد منّا إمامًا، أو لأنّهم كنفس واحدة لاتّحاد طريقتهم واتّفاق كلمتهم، كذا قالوا. [٢١٥ظ]

وأنت خبير بأنّ مدار الكلّ صدورُ هذا الدعاء إمّا عن الكلّ بطريق المعيّة، وأنّه محال لاستحالة اجتماعهم في عصر واحد، فما ظنّك باجتماعهم في مجلس واحد، واتّفاقِهم على كلمة واحدة، وإمّا عن كلّ واحد منهم بطريق تشريك غيره في استدعاء الإمامة، وأنّه ليس بثابت جزمًا؛ بل الظاهر صدورُه عنهم بطريق الانفراد، وأنّ عبارةَ كلٍّ واحدٍ منهم عند الدعاء: "واجعلني للمتّقين إمامًا"، خلا أنّه حُكِيَت عباراتُ الكلّ بصيغة المتكلّم مع الغير للقصد إلى الإيجاز، على طريقة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣]، وأُبقِيَ ﴿إِمَامًا﴾ على حاله. وقيل: "الإمام" جمعُ "آمّ" بمعنى "قاصد"، كـ"صيام" جمعِ "صائم"، ومعناهُ: قاصدين لهم مقتدين بهم.

وإعادة الموصول في المواقع السبعة مع كفاية ذِكر الصِّلات بطريق العطف على صلة الموصول الأوّل للإيذان بأنّ كلّ واحد ممّا ذُكر في حيّز صِلة الموصولات المذكورة وصفٌ جليلٌ على حيالِه، له شأن خطير حقيقٌ بأن يُفرَد له موصوف مستقِلّ، ولا يُجعَلَ شيءٌ مِن ذلك تتمّةً لغيره. وتَوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلةَ الاختلاف الذاتي، كما في قوله:

إلى المَلِك القَرم وابنِ الهُمام ... وليثِ الكتائبِ في المزدحَم[2]

---

[1] ط س: للدلالة.

[2] بغير نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٠٥/١. و"القَرم" بفتح القاف: السيّد. و"الهُمام": الملك العظيم الهِمّة، والسيّد الشجاع السخي. و"الكتيبة": الجيش. و"المُزدَحم": محل الازدحام، وأراد به المعركة. انظر: خزانة الأدب للبغدادي، ٤٥٢/١.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المتّصفين بما فُصِل في حيّز صلة الموصولات الثمانية مِن حيث اتّصافُهم به. وفيه دلالة على أنّهم متميّزون بذلك أكملَ تميّز، منتظَمون بسببه في سلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل. وهو مبتدأٌ خبره قوله تعالى: ﴿يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب، مبيّنةٌ لِما لهم في الآخرة مِن السعادة الأبديّة إثرَ بيان ما لهم في الدنيا مِن الأعمال السنيّة.

و﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ الدرجة العالية مِن المنازل، وكلُّ بناءٍ مرتفع عالٍ، أي: يُثابون أعلى منازل الجنّة، وهي اسم جنس أريدَ به الجمع، كقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ، ٣٧/٣٤]. وقيل: هي مِن أسماء الجنّة.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على المشاقّ مِن مَضَض الطاعات، ورفضِ الشهوات، وتحمّلِ المجاهدات.

﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا﴾ مِن جهة الملائكة ﴿تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ أي: يُحَيّيهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة عن الآفات، أو يُعطَون التبقِيةَ والتَّخليدَ مع السلامة مِن كلّ آفة. وقيل: يحيّي بعضُهم بعضًا ويسلّم عليه. وقُرئ: "يَلْقَوْنَ"[١] مِن لَقِي.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يخرجون ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ / الكلام [٢١٦و]
فيه كالذي مرّ في مقابله.

﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾

﴿قُلۡ﴾ أُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يبيّن للناس أنّ الفائزين بتلك النعماء الجليلة التي يتنافس فيها المتنافسون إنّما نالوها بما عُدِّدَ مِن محاسنهم، ولولاها لم يُعتَدّ بهم أصلًا، أي: قل لهم كافّةً مشافِهًا لهم بما صدر عن جنسهم

---

[١] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر شعبة. النشر لابن الجزري، ٣٣٥/٢.

مِن خيرٍ وشرّ: ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: أيُّ عِبْءٍ يَعبأ بكم، وأيُّ اعتدادٍ يَعتدّ بكم لولا عبادتُكم له تعالى حسبما مرّ تفصيله، فإنّ ما خُلِق له الإنسان معرفته تعالى وطاعته، وإلّا فهو وسائر البهائم سواء.

وقال الزجّاج: «معناه: أيُّ وزنٍ يكون لكم عنده».[1] وقيل: معناه: ما يصنع بكم ربّي لولا دعاؤُه إيّاكم إلى الإسلام. وقيل: ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤُكم معه آلهةً. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نافية.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بيان لِحال الكفرة مِن المخاطَبين، كما أنّ ما قبله بيانٌ لِحال المؤمنين منهم، أي: فقد كذّبتم بما أخبرتكم به وخالفتموه أيّها الكفرة، ولم تعملوا عملَ أولئك المذكورين. وقيل: فقد قصّرتم في العبادة، مِن قولهم: "كذّب القتال" إذا لم يبالِغ فيه. وقُرئ: "فَقَدْ كَذَّبَ الْكَافِرُونَ"،[2] أي: الكافرون منكم؛ لعموم الخطاب للفريقين. وفائدته الإيذان بأنّ مَناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتّحاد الجنسي المصحِّح للاشتراك في الفَوز ليس إلّا اختلافهما في الأعمال.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يكون جزاءُ التكذيب أو أثرُه لازمًا يَحيق بكم لا محالةَ حتّى يَكُبَّكم في النار، كما يُعرِب عنه "الفاء" الدالّة على لزوم ما بعدها لِما قبلها، وإنّما أُضمر مِن غير ذِكرٍ للإيذان بغاية ظهوره، وتهويلِ أمره، وللتنبيه على أنّه ممّا لا يَكتنهه البيان. وقيل: يكون العذاب لِزامًا. وعن مجاهد رحمه الله تعالى:[3] «هو القتل يوم بدر، وأنّه لُوزم بين القتلى».[4] / وقرئ: "لَزَامًا"[5] بالفتح بمعنى اللزوم، كـ"الثَّبات" و"الثُّبوت". [٢١٦ظ]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفرقان لَقي الله تعالى وهو مؤمن بأنّ الساعة آتية، وأُدخِلَ الجنّةَ بغير نصَب».[6]

---

١ معاني القرآن للزجّاج، ٧٨/٤.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٢.
٣ س - تعالى.
٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٩٧/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٣٢/٤.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٥٢.
٦ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٢/٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٣٣/٣. وهو جزء مِن الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٢٥

سُورَةُ الفُرقَانِ

مكية إلاّ «والذين لا يدعون مع الله إلـٰهًا آخَر» إلى «رحيمًا» فمدني، وهي سبع وسبعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿تبارَكَ﴾: تعالى ﴿الَّذِي نَزَّلَ الفُرقانَ﴾: القرآنَ، لأنه فرقَ بين الحقّ والباطل، ﴿علَى عَبدِهِ﴾: مُحمّد، ﴿لِيَكُونَ لِلعالَمِينَ﴾ أي: الإنس والجنّ ﴿نَذِيرًا﴾: مُخوِّفًا من عذاب الله، ٢ ـ ﴿الَّذِي لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ، ولَم يَتَّخِذْ وَلَدًا ولَم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلكِ، وخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ﴾ من شأنه أن يُخلَق، ﴿فقَدَّرَهُ تَقدِيرًا﴾: سوّاه تسويةً، ٣ ـ ﴿واتَّخَذُوا﴾ أي: الكُفّارُ ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: اللهِ أي: غيرَه ﴿آلِهةً﴾ هي الأصنام، ﴿لا يَخلُقُونَ شَيئًا وهُم يُخلَقُونَ، ولا يَملِكُونَ لِأنفُسِهِم ضَرًّا﴾ أي: دَفْعَه ﴿ولا نَفعًا﴾ أي: جَرَّه، ﴿ولا يَملِكُونَ مَوتًا ولا حَياةً﴾ أي: إماتةً لأحد وإحياء لأحد، ﴿ولا نُشُورًا﴾ أي: بعثًا للأموات.

سُورَةُ الفُرقَانِ

قوله: (تَبارَكَ) أي: تزايَدَ عن كُلِّ شيءٍ وتعالى عنهُ في صفاتِهِ وأفعالِهِ، فإنَّ البَركَةَ تتضمَّنُ مَعنى الزِّيادةِ.

قولُه: (والبَاطِلِ) أو: المُحقِّ والمُبطلِ، أو: الحلالِ والحرامِ.

قولُه: (مُحَمَّدٍ) والإضافةُ للعهدِ.

قولُه تعالى: (﴿لِيَكونَ﴾) للعَبدِ[١]، أو الفُرقانِ، أو مُنزِلِه.

قولُه: (دُونَ المَلائِكَةِ)[٢] لا مانِعَ، بل قيلَ بعُمومِ رسالتِهِ حتى إليهم، والإنذارُ في حَقِّهم قولُه تعالى: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾ [الأنبياء: ٢٩].

---

(١) في (م): «العبد».

(٢) ليست في المتن المعتمد، والظاهر أنها بعد قوله: «أي: الإنس والجن».

٤ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: إنْ هذا﴾ أي: ما القرآنُ ﴿إلاّ إفكٌ﴾: كذِبٌ ﴿افتَراهُ﴾ مُحمّد، ﴿وأعانَهُ علَيهِ قَومٌ آخَرُونَ﴾. وهم مِن أهل الكتاب ـ قال تعالى: ﴿فقَد جاؤُوا ظُلمًا وزُورًا﴾: كُفرًا وكذبًا، أي: بهما ـ ٥ ـ ﴿وقالُوا﴾ أيضًا: هو ﴿أساطِيرُ الأوَّلِينَ﴾: أكاذيبُهم، جمع أُسطورة بالضم، ﴿اكتَتَبَها﴾: انتَسخها من ذلك القوم بغيره. ﴿فهِيَ تُملَى﴾: تُقرأ ﴿علَيهِ﴾ ليحفظها ﴿بُكرَةً وأصِيلاً﴾: غُدوة وعشيًّا. قال تعالى ردًّا عليهم: ٦ ـ ﴿قُلْ: أنزَلَهُ الَّذِي يَعلَمُ السِّرَّ﴾: الغيب ﴿في السَّماواتِ والأرضِ. إنَّهُ كانَ غَفُورًا﴾ للمؤمنين ﴿رَحِيمًا﴾ بهم.

٧ ـ ﴿وقالُوا: ما لِهذا الرَّسُولِ، يأكُلُ الطَّعامَ ويَمشِي في الأسواقِ؟ لَولا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ إلَيهِ مَلَكٌ، فيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾: يُصدّقه، ٨ ـ ﴿أو يُلقَى إلَيهِ كَنزٌ﴾ من السماء يُنفقُه، ولا يحتاجُ إلى المشي في الأسواق لطلب المعاش، ﴿أو تَكُونُ لَهُ جَنّةٌ﴾: بُستان، ﴿يأكُلُ مِنها﴾ أي: من ثِمارها فيكتفي بها. وفي قراءة: «نأكُلُ» بالنون، أي: نحن، فيكون له مزيّةٌ علينا بها. ﴿وقالَ الظّالِمُونَ﴾ أي: الكافرون للمؤمنين: ﴿إن﴾: ما ﴿تَتَّبِعُونَ إلاّ رَجُلاً مَسحُورًا﴾: مخدوعًا مغلوبًا على عقله.

قولُه: (كَذِبٌ) مَصروفٌ عن وَجهِه.

قولُه: (مُحَمَّدٌ) اختَلقَه واختَرعَه.

قولُه: (وَهُم مِن أَهْلِ الكِتَابِ) يعني: اليَهودَ، قالوا: إنَّهم يُلقونَ إليه أخبارَ الأُممِ، وهو يعبِّرُ عنه بعبارتِهِ.

قولُه: (كُفراً) فإنَّ الشِّركَ لظُلمٌ عَظيمٌ، أو: ﴿ظُلماً﴾ بجعلِ الكلامِ المعجزِ إفكاً مُختَلَقاً مُتلَقَّفاً من اليهودِ، ﴿وزوراً﴾ بنسبةِ ما هو بَريءٌ منه إليه.

قولُه: (أي: بِهِمَا) إشارَةٌ إلى أنَّهُما منصوبانِ بنَزعِ الخافضِ، وقيلَ: (جاءَ) يطلقُ بمعنى: فَعَلَ، فيُعدَّى تعديَتَهُ.

قولُه: (أكَاذِيبُهُم) أو: ما سطرَهُ المتقدِّمونَ، أو: كتُبُهم، جمعُ: أسطُرٍ، جَمعُ: سَطرٍ.

قولُه: (الغَيْبَ) الَّذي يشتمِلُ على بعضِهِ القُرآنُ المعجزِ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ[1].

قولُه: (فيَكُونَ) بالنَّصبِ.

قولُه: (أي: الكَافِرُونَ) وُضِعَ موضِعَ ضَميرِهِم تسجيلاً عليهم بالظُّلمِ فيما قالوهُ.

قولُه: (مَغلُوباً) بالسِّحرِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٧).

٩ ـ قال تعالى: ﴿انظُرْ: كَيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمثالَ﴾ بالمسحور والمُحتاج إلى ما يُنفقه وإلى ملَك يقوم معه بالأمر، ﴿فضَلُّوا﴾ بذلك عن الهُدى، ﴿فلا يَستَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾: طريقًا إليه؟ ١٠ ـ ﴿تَبارَكَ﴾: تكاثر خيرُ ﴿الَّذِي إن شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيرًا مِن ذلِكَ﴾ الذي قالوه من الكنز والبُستان ﴿جَنّاتٍ تَجرِي مِن تَحتِها الأنهارُ﴾ أي: في الدنيا، لأنه شاء أن يُعطيه إيّاها في الآخرة، ﴿ويَجعَلْ﴾ ـ بالجزم ـ ﴿لَكَ قُصُورًا﴾ أيضًا، وفي قراءة بالرفع استئنافًا.

١١ ـ ﴿بَل كَذَّبُوا بِالسّاعةِ﴾: القيامة، ﴿وأعتَدْنا لِمَن كَذَّبَ بِالسّاعةِ سَعِيرًا﴾: نارًا مُستعرة أي: مُشتدّة، ١٢ ـ ﴿إذا رأَتْهُم مِن مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظًا﴾: غليانًا كالغضبان، إذا غلَى صدره من الغضب، ﴿وزَفِيرًا﴾: صوتًا شديدًا، وسماعُ التغيّظ: رؤيته وعِلمه، ١٣ ـ ﴿وإذا أُلقُوا مِنها مَكانًا ضَيِّقًا﴾ ـ بالتشديد

قولُه: (طَرِيْقاً إِلَيْهِ) أي: إلى الهُدى، أو إلى القَدْحِ في نبوَّتِكَ.

قولُه: (تَكَاثَرَ) من البَرَكَةِ، وهي كثرَةُ الخيرِ، تفنَّنَ الشَّيخُ في المعنَيَين.

قولُه: (أي: فِي الدُّنْيَا) و﴿جَناتٍ﴾ بَدلٌ من: ﴿خَيراً﴾.

قولُه: (لِأَنَّهُ شَاءَ) يعني: ولكن أخَّرهُ إلى الآخِرةِ لأنَّهُ خَيرٌ وأبقى.

قولُه: (بالجَزْمِ) عَطفٌ على مَحلِّ الجَزاءِ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لمَكيٍّ وشاميٍّ وشُعبةَ[1].

قولُه: (اسْتِئنَافًا) بوَعدِ ما يَكونُ له في الآخِرةِ، أو لأنَّ الشَّرطَ إذا كانَ ماضياً جازَ في جزائِهِ الجَزمُ والرَّفعُ[2].

قولُه: (غَلَيَاناً) أي: صوتَ تَغَيُّظٍ، فإنَّ التَّغيُّظَ نفسَهُ لا يُسمَعُ، وشُبِّه صَوتُ غَليانِها بصَوتِ المُغتاظِ وزَفيرِهِ، وهو صوتٌ يُسمَعُ من جَوفِهِ.

هذا وإنَّ الحياةَ لمَّا لم تَكنْ مشروطَةً عندَنا بالبِنْيَةِ، بل يجوزُ تعلُّقُ الرُّوحِ بالأجزاءِ المتفرِّقةِ شَرقاً وغَرباً، إذ ليسَ التَّعلُّقُ بالحلولِ حتى يمنعَه الحُلولُ في جُزءٍ من الحُلولِ في جُزءٍ آخرَ= أمكنَ أن يَخلُقَ اللهُ فيها حياةً فتَرى وتتغَيَّظُ وتزفِرُ.

وقيلَ: إنَّ ذلك لزبانيَتِها، فنُسِبَ إليها على حَذفِ المضافِ.

قولُه: (رُؤيَتُهُ وعِلْمُهُ) السَّماعُ على حَقيقتِهِ بالإجماعِ، مع أنَّ قولَهُ: (سَمَاعُ التَّغيُّظِ رُؤيَتُهُ) لا مَعنى له إلا إذا جعلَ (وعلمُه) عَطفَ تَفسيرٍ مع تكلُّفٍ عَسير.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٨).

(٢) انظر: «الكتاب الفريد» (٢/ ٣٧)، و«الدر المصون» (٣/ ١١٨).

والتخفيف، بأن يُضيَّق عليهم، ومنها: حال من «مكانًا» لأنه في الأصل صفة له ـ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: مُصفَّدين قد قُرنت، أي: جُمعت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ـ والتشديد للتكثير ـ ﴿دَعَوا هُنالِكَ ثُبُورًا﴾ هلاكًا، فيقال لهم: ١٤ ـ ﴿لا تَدعُوا اليَومَ ثُبُورًا واحِدًا، وادعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ لِعذابكم.

١٥ ـ ﴿قُلْ: أَذلِكَ﴾ المذكورُ من الوعيد وصِفة النار ﴿خَيرٌ أم جَنَّةُ الخُلدِ الَّتِي وُعِدَ﴾ ها ﴿المُتَّقُونَ، كانَتْ لَهُم﴾ في عِلمه ـ تعالى ـ ﴿جَزاءً﴾: ثوابًا ﴿ومَصِيرًا﴾: مرجِعًا، ١٦ ـ ﴿لَهُم فِيها ما يَشاؤُونَ خالِدِينَ﴾؟ حالٌ لازمة. ﴿كانَ﴾ وعدهم ما ذُكر ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعدًا مَسؤُولاً﴾:..................

قولُه: (والتَّخفِيفِ) أي: معَ الإسكانِ، مكّيٌّ[1].

قولُه: (بأَنْ يُضَيَّقَ) لزيادَةِ العَذابِ.

قولُه: (في الأَغلَالِ) بالسَّلاسِلِ.

قولُه: (هَلاكاً) أي: يتمنَّونَ الهَلاكَ ويُنادونَهُ، فيقولونَ: يا ثبوراهُ، تعاليْ فهذا أوانُكَ.

قولُه: (كَعَذَابِكُم) لأنَّ أنواعَهُ كثيرةٌ، أو لأنَّهُ يتجدَّدُ، أو لأنَّهُ لا ينقَطِعُ.

قولُه: (﴿الوَعِيْدِ﴾) الظَّاهرُ: العَذابِ الموعودِ، والتَّفضيلُ والتَّرديدُ للتَّقريعِ مع التَّهكُّمِ.

قولُه: (وُعِدَهَا) إشارَةٌ إلى أنَّ الرَّاجِعَ إلى الموصولِ مَحذوفٌ.

قولُه: (فِي عِلْمِهِ تَعَالَى) أو اللَّوحِ.

قولُه: (ثَوَاباً) عَظيماً.

قولُه: (مَرْجِعاً) جَسيماً.

قولُه: (حَالٌ لازِمَةٌ) لكَونِ ضَميرِ ﴿فِيهَا﴾ راجِعاً إلى جنَّةِ الخُلْدِ، قال القاضي: ولعلَّهُ يَقصُر همَّ كُلِّ طائِفَةٍ[2] على ما يليقُ برتبَتِهِ؛ إذ الظَّاهرُ أنَّ النَّاقِصَ لا يُدرِكُ رُتبَةَ الكامِلِ بالتَّشهي، وفيهِ تَنبيهٌ على أنَّ كُلَّ المُراداتِ لا تحصُلُ إلا في الجنَّةِ[3].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٢)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٨).

(٢) قال الشهاب في «الحاشية على البيضاوي» (٦/ ٤١١): قوله: «يقصر همّ»؛ أي: ما يهم به ويريده، وفي نسخة: «همم» جمع همة. وقال الأنصاري: «ولعله»؛ أي: الله، أو الشأن (يقصر): بالبناء للفاعل، أو للمفعول «هم» بالنصب، أو الرفع؛ أي: قَصْد. انظر: «حاشية زكريا الأنصاري على البيضاوي» (٤/ ٢٣٢).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٢٠).

يَسأله مَن وُعد به: «رَبَّنا، وآتِنا ما وَعَدْتَنا علَى رُسُلِكَ»، أو تسأله لهم الملائكة: «رَبَّنا، وأدخِلْهُم جَنّاتِ عَدنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم».

١٧ ـ ﴿ويَومَ نَحشُرُهُم﴾ ـ بالنون والتحتانيّة ـ ﴿وما يَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه من الملائكة وعِيسى وعُزير والجِنّ، ﴿فيَقُولُ﴾ تعالى ـ بالتحتانيّة والنون ـ للمعبودين إثباتًا للحُجّة على العابدين: ﴿أأنتُم﴾، بتحقيقِ الهمزتين وإبدالِ الثانية ألفًا وتسهيلِها وإدخالِ ألف بين المُسهَّلة والأُخرى وتركِه، ﴿أضلَلتُم عِبادِي هؤُلاءِ﴾: أوقعتموهم في الضلال بأمركم إيّاهم بعِبادتكم، ﴿أم هُم ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾: طريقَ الحقّ بأنفُسهم؟ ١٨ ـ ﴿قالُوا: سُبحانَكَ﴾: تنزيهًا لك عمّا لا يليق بك! ﴿ما كانَ يَنبَغِي﴾: يستقيم ﴿لَنا أن نَتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾ أي: غيرَك ﴿مِن أولِياءَ﴾: مفعولٌ أوّل، ومن: زائدة لتأكيد النفي، وما قبله الثاني، فكيف نأمر بعِبادتنا؟ ﴿ولكِن مَتَّعتَهُم وآباءَهُم﴾ مِن قبلهم بإطالة العُمر وسَعة الرزق، ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكرَ﴾: تركوا الموعظة والإيمان بالقُرآن، ﴿وكانُوا قَومًا بُورًا﴾: هَلكَى.

١٩ ـ قال تعالى: ﴿فقَد كَذَّبُوكُم﴾ أي: كذّب المعبودون العابدين ﴿بِما تَقُولُونَ﴾..............

قولُه: (يَسْأَلُهُ) وما في ﴿على﴾ من مَعنى الوجوبِ لامتِناعِ الخُلْفِ في وعدِهِ.

قولُه: (والتَّحتَانِيَّةِ) مَكيٌّ وحَفصٌ(١).

قولُه: (أي: غَيْره) يعُمُّ كلَّ مَعبودٍ سِواهُ، واستِعمالُ ﴿مَا﴾ إمَّا لأنَّ وضعَهُ أعمُّ، أو لتَغْليبِ الأصنامِ تَحقيراً، أو اعتِباراً لغَلبةِ عُبَّادِها.

قولُه: (والنُّونِ) شاميٌّ(٢).

قولُه: (بتَحْقِيقِ) تحقَّق في: ﴿أَأَنْذرتَهُم﴾ [البقرة: ٦].

قولُه: (مِنْ قَبلِهِم) موصولَةٌ أو جارَّةٌ.

قولُه: (تَرَكُوا المَوعِظَةَ) وغَفَلوا عن ذكرِكَ، وما قاموا بشُكرِك.

قولُه: (هَلْكَى) أي: كانوا في قضائِكَ هالكينَ، مَصدرٌ وصفَ به فيستَوي فيه الواحِدُ والجَمعُ، أو: جَمعُ بائِر، كعُوذٍ وعائِذٍ.

قولُه: (العَابِدِينَ) التِفاتٌ إلى العَبَدةِ بالاحتِجاجِ والإلزامِ على حَذفِ القَولِ، والمعنى: فقد كَذَّبَكُم المعبودونَ في قولِكُم: إنَّها آلهةٌ، أو: هؤلاءِ أضَلُّونا، والباءُ بمعنى: في.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥٠٩).

ـ بالفَوقانية ـ أنهم آلهة، ﴿فما يَستَطِيعُونَ﴾ ـ بالتحتانيّة والفَوقانيّة ـ أي: لا هم ولا أنتم ﴿صَرفًا﴾: دفعًا للعذاب عنكم ﴿ولا نَصرًا﴾: منعًا لكم منه. ﴿ومَن يَظلِمْ﴾: يُشركْ ﴿مِنكُم نُذِقْهُ عَذابًا كَبِيرًا﴾: شديدًا في الآخرة.

٢٠ ـ ﴿وما أرسَلْنا قَبلَكَ مِنَ المُرسَلِينَ إلاّ إنَّهُم لَيأكُلُونَ الطَّعامَ، ويَمشُونَ في الأسواقِ﴾ ـ فأنت مِثلهم في ذلك، وقد قيل لهم مِثلُ ما قيل لك ـ ﴿وجَعَلْنا بَعضَكُم لِبَعضٍ فِتْنَةً﴾: بليّة ابتُلي الغني بالفقير، والصحيح بالمريض، والشريف بالوضيع، يقول الثاني في كُلٍّ:........................

قولُه: (بالفَوقَانِيَّةِ) اتَّفقَ عليها السَّبعةُ بل العَشرةُ[١]، وقُرِئَ في الشَّواذِ بالتَّحتانيَّةِ[٢]؛ أي: كَذبوكُم بقولِهم: سُبحانَكَ.

قولُه: (والفَوقَانِيَّة) حَفصٌ[٣].

قولُه: (أي: لَا هُم) أي: المعبودونَ.

قولُه: (وَلا أَنْتُم) أيُّها العابِدونَ.

قولُه: (يُشرِكْ) قالَ القاضِي: والشَّرطُ وإن عَمَّ كُلَّ من كَفرَ وفسَقَ، لكنَّهُ في اقتِضاءِ الجَزاءِ مُقيَّدٌ بعدَمِ المزاحِمِ وِفاقاً، وهو التَّوبةُ والإحباطُ بالطَّاعةِ إجماعاً، وبالعَفوِ عندنا[٤].

قولُـه: (﴿إلا إنَّهـم﴾) أي: إلا رُسـلًا إنَّهـم، فحُـذِفَ الموصُـوفُ لدَلالَةِ ﴿المرسَـلينَ﴾ عليـهِ، وأُقيمَت الصِّفـةُ مُقامَـهُ كقولِـهِ: ﴿ومَا مِنَّا إلا لـهُ مَقامٌ مَعلـومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: أحَـدٌ، وهو جَـوابٌ لقَولِهم: ﴿مَالِ هَذا الرَّسُـولِ﴾ إلخ.

قولُه: (بالفَقِيْرِ) والظَّاهرُ العكسُ؛ لقولِه: ﴿أتصْبِرون﴾.

قولُه: (والشَّرِيفُ بالوَضِيْعِ) والمرسَلينَ بالمرسَلِ إليهم، وفيه دَليلٌ على القضاءِ والقدرِ.

قولُه: (فِي كُلٍّ) أي: مما ذَكرهُ الشَّيخُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٣).

(٢) نص ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٤٦٣) على سماعها من قنبل عن أبي بزة عن ابن كثير، وذكر فيها ابن الجزري خلافًا عن قنبل. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٣)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤)، وغلطها أبو عمرو الداني في «جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٤١٤).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١٠).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٢١).

مالي لا أكون كالأوّل في كلٍّ ـ ﴿أتصبرُونَ﴾ على ما تسمعون ممّن ابتُليتم بهم؟ استفهام بمعنى الأمر، أي: اصبروا ـ ﴿وكانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بمن يصبر وبمن يجزع.

٢١ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ لا يَرجُونَ لِقاءَنا﴾ لا يخافون البعث: ﴿لَولا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ علَينا المَلائكةُ﴾ فكانوا رُسُلاً إلينا، ﴿أو نَرَى رَبَّنا﴾ فيُخبِرَنا بأنّ مُحمّدًا رسولُه. قال تعالى: ﴿لَقَدِ استكبَرُوا﴾: تكبّروا ﴿في﴾ شأن ﴿أنفُسِهِم، وعَتَوا﴾: طغَوا ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بطلبهم رُؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا. و«عُتُوًّا» بالواو على أصله بخِلاف «عُتِيّ» بالإبدال في «مريم».

٢٢ ـ ﴿يَومَ يَرَونَ المَلائكةَ﴾ في جُملة الخلائق ـ هو يوم القيامة ونصبُه بـ«اذكرْ» مُقدّرًا ـ ﴿لا بُشرَى يَومَئذٍ لِلمُجرِمِينَ﴾ أي: الكافرين بخِلاف المؤمنين فلهم البُشرى بالجنّة، ﴿ويَقُولُونَ: حِجرًا مَحجُورًا﴾ على عادتهم في الدنيا إذا نزلتْ بهم شِدّة، أي: عَوذًا مُعاذًا، يستعيذون من الملائكة.

٢٣ ـ قال تعالى: ﴿وقَدِمْنا﴾: عمَدنا ﴿إلَى ما عَمِلُوا مِن عَمَلٍ﴾ من الخير كصدقة وصِلة رحم وقِرى ضيف وإغاثة ملهوف في الدنيا، ﴿فجَعَلْناهُ هَباءً مَنثُورًا﴾ ـ هو ما يُرى في الكُوَى التي عليها الشمس كالغُبار المُفرّق ـ أي: مِثلَه في عدم النفع به إذ لا ثواب فيه لعدم شرطه، ويُجازَون عليه في الدنيا.........

قولُه: (فِي كُلٍّ) أي: من الأحوالِ.

قولُه: (لا يَخَافُونَ) أي: لا يَخافونَ لقاءَ وعيدِنا، أو: لا يأمَلونَ لِقاءَ وَعدِنا، والمرادُ باللِّقاءِ: الوصولُ إلى جَزائهِ.

قولُه: (طَغَوْا) تَجاوَزوا الحَدَّ في الظُّلمِ.

وقَولُه تعالى: (﴿كبيراً﴾) بالغاً أقصى مَراتبِه.

قولُه: (يَومُ القِيَامةِ) أو: وَقتُ الموتِ.

قولُه: (مِنَ المَلائِكَةِ) وهو[1] عَطفٌ على مَدلولِ: ﴿لا بُشرى﴾، فإنَّهُ بمَعنى: يُمنَعونَ البُشرى، أو: يُعدَمونَها.

وقيلَ: تقولها المَلائِكةُ؛ يعني: حَراماً مُحرَّماً عليكُم الجنَّةُ أو البُشرى.

قولُه: (لِعَدَمِ شَرْطِهِ) أي: فيما يُشترَطُ في صِحَّتِهِ الإيمانُ كالحجِّ والصَّومِ والصَّلاة.

قولُه: (ويُجَازَونَ) حَقُّ العبارَةِ: ولمُجازاتِهم؛ أي: فيما لم يُشتَرط، أو المعنى: لعدَمِ شَرطِهِ، وهو الإيمانُ والإخلاصُ، ومع هذا يُجازَونَ عليه في الدُّنيا بإطالَةِ العُمْرِ وكَثرةِ الأمَوالِ والأولادِ وسَعةِ الجاهِ، فإنَّ اللهَ لا يُضيع أجرَ من أحسَنَ عَملاً ولو صورةً؛ فإنَّه أكرَمُ الأكرَمينَ.

---

(١) «وهو»؛ أي: قوله تعالى: ﴿ويقولون﴾.

٢٤ ـ ﴿أصحابُ الجَنّةِ يَومَئذٍ﴾: يومَ القيامة ﴿خَيرٌ مُستَقَرًّا﴾ من الكافرين في الدنيا ﴿وأحسَنُ مَقِيلاً﴾ منهم، أي: موضعَ قائلة فيها. وهي الاستراحة نِصفَ النهار في الحرّ. وأُخذ من ذلك انقضاءُ الحِساب في نِصف نهار كما ورد في حديث.

٢٥ ـ ﴿ويَومَ تَشَقَّقُ السَّماءُ﴾ أي: كُلّ سماء ﴿بِالغَمامِ﴾ أي: معه ـ وهو غيم أبيض ـ ﴿ونُزِّلَ المَلائكةُ﴾ من كُلّ سماء ﴿تَنزِيلاً﴾ هو يوم القيامة ـ ونصبُه بـ «اذكرْ» مُقدّرًا. وفي قراءة بتشديد شين «تَشَّقَّقُ» بإدغام التاء الثانية في الأصل فيها، وفي أُخرى: «نُنْزِلُ» بنونينِ الثانيةُ ساكنة وضمِّ اللام ونصبِ «الملائكةَ» ـ..

قولُه: (فِي الدُّنْيَا) إشارةٌ إلى أنَّ التَّفضيلَ إضافيٌّ، وقيل: لمجرَّدِ الزِّيادةِ، وقيل: للتَّهكُّم.

قولُه: (أي: مَوضِعَ قَائِلَةٍ) والمُستَقرُّ: مكانٌ يُستقَرُّ فيه في أكثَرِ الأوقاتِ للتَّحادُثِ والتَّجالُسِ، والمقيلُ: مَكانٌ يُؤْوى إليه للاستِرواحِ بالأزواجِ.

قولُه: (قَائِلَةٍ) أي: قَيلولَةٍ.

قولُه: (وَهِيَ الاسْتِرَاحَةُ) بنَومٍ أو غيرِهِ.

قولُه: (نِصْفَ النَّهَارِ) لأنَّهُ أصلُ مَعنى القائِلةِ.

قولُه: (فِي الحَرِّ) هذا قَيدٌ عُرفيٌّ غالِبيٌّ لا لُغَويٌّ.

قولُه: (فِي حَدِيثٍ) رُويَ أنَّه: يُفرَغُ منَ الحِسَابِ في نِصفِ ذلكَ اليومِ، فيَقيلُ أَهلُ الجنَّةِ فِي الجنَّةِ، وأَهلُ النَّارِ في النَّار. رواهُ الحاكِمُ وصحَّحهُ[1].

قولُه: (مَعَهُ) أو: بسَببِ طُلوعِ الغَمامِ منها.

قولُه: (مِن كُلِّ سَمَاءٍ) أي: في ذلك الغَمامِ، قيلَ: بصحائِفِ أعمالِ العِبادِ.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) للحِرْميَّينِ والبَصْريِّ[2].

قولُه: (وَفِي أُخرَى) للمَكِّيِّ[3].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٥١٦) وصححه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ ﴿إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ [الصافات: ٦٨].

(٢) يريد بالبصري هنا يعقوب فقط، وقرأ بها أيضاً ابن عامر الشامي. انظر: «السبعة» (ص: ٤٦٤)، و«التيسير» (ص: ١٦٣ ـ ١٦٤)، و«النشر» (٢/ ٣٣٤).

(٣) انظر المصادر السابقة.

٢٦ ـ ﴿المُلكُ يَومَئذٍ الحَقُّ لِلرَّحمنِ﴾ لا يَشرَكه فيه أحد، ﴿وكانَ﴾ اليومُ ﴿يَومًا على الكافِرينَ عَسِيرًا﴾: شديدًا بخلاف المؤمنين.

٢٧ ـ ﴿ويَومَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ المُشرك عُقبةُ بن أبي مُعَيط، كان نطق بالشهادتين ثمّ رجع إرضاءً لأُبيِّ ابن خلف، ﴿على يَدَيهِ﴾ ندمًا وتحسّرًا في يوم القيامة، ﴿يَقُولُ: يا﴾: للتنبيه ﴿لَيتَنِي اتَّخَذتُ مَعَ الرَّسُولِ﴾ مُحمّدٍ ﴿سَبِيلاً﴾: طريقًا إلى الهُدى. ٢٨ ـ ٢٩ ـ ﴿يا وَيلَتا﴾ ـ ألِفُه عِوض عن ياء الإضافة ـ أي: ويلتِي ومعناه: هَلَكتِي، ﴿لَيتَنِي لَم أتَّخِذْ فُلانًا﴾ أي: أُبيًّا ﴿خَلِيلاً. لَقَد أضَلَّنِي عَنِ الذِّكرِ﴾ أي: القُرآنِ ﴿بعدَ إذ جاءَنِي﴾ بأن ردَّني عن الإيمان به. قال تعالى: ﴿وكانَ الشَّيطانُ لِلإنسانِ﴾ الكافر ﴿خَذُولاً﴾ بأن يتركه ويتبرّأ منه عِند البلاء.

٣٠ ـ ﴿وقالَ الرَّسُولُ﴾ مُحمّدٌ: ﴿يا رَبِّ، إنَّ قَومِيَ﴾ قُريشًا ﴿اتَّخَذُوا هذا القُرآنَ مَهجُورًا﴾: متروكًا. قال تعالى: ٣١ ـ ﴿وكَذلِكَ﴾: كما جعلنا لك عدوًّا من مُشركي قومك ﴿جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ قبلَكَ ﴿عَدُوًّا مِنَ المُجرِمِينَ﴾: المُشركين ـ فاصبر كما صبروا ـ ﴿وكَفَى بِرَبِّكَ هادِيًا﴾ لك ﴿ونَصِيرًا﴾: ناصرًا لك على أعدائك!

قولُه: (لا يَشرَكُهُ) أي: صورَةً، و﴿الحَقُّ﴾: الثَّابتُ؛ نَعتٌ أو خَبرٌ، و﴿للرَّحمَنِ﴾: خَبرٌ أو صِلَةٌ.

قولُه: (عُقْبَةُ) الأولى: كعُقبَةَ، والمرادُ: جِنسُ الظَّالِم.

قولُه: (أي: وَيْلَتِي) وقُرِئَ به[1].

قولُه: (أي: أُبيًّا) خُصَّ كعُقبَةَ لأنَّهما سَببُ النُّزولِ[2]، والمُرادُ: مَن أضلَّه، و(فُلانٌ) كِنايةٌ عن الأعلامِ.

قولُه: (أي: القُرْآنِ) أو: عن ذِكرِ اللهِ، أو موعظَةِ الرَّسولِ، أو كلمَةِ الشَّهادَةِ، وهي المناسِبةُ للوُرودِ.

قولُه: (بِهِ) أي: بالقُرآنِ، أو باللهِ، أو بالرَّسولِ؛ أي: بعد إذ تَمكَّنتُ منه، أو ضَميرُ (جاءَ) لـ(فُلانٍ)، وهو ظاهرُ كلامِ الشَّيخِ.

قولُه: (الكَافِرِ) أو الجِنسِ، والمرادُ بالشَّيطانِ: الخَليلُ المُضِلُّ، أو إبليسُ، أو جِنسُ شَيطانِ الإنسِ والجِنِّ.

قولُه: (مُحَمَّدٌ) يومَئِذٍ، أو في الدُّنيا؛ شِكايةً وبَثًّا إلى اللهِ.

قولُه: (كَمَا صَبَرُوا) وفيه دَليلٌ على أنَّهُ خالِقُ الشَّرِّ أيضاً، والعَدوُّ يحتَمِلُ الوَاحدَ والجمعَ.

قولُه: (لَكَ) إلى طريقِ قهرِهِم.

---

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٠٦) ونسبت للحسن وابن قطيب.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٦٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٠٩٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

٣٢ ـ ﴿وقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: لَولا﴾: هلاّ ﴿نُزِّلَ علَيهِ القُرآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾ كالتوراة والإنجيل والزَّبور. قال تعالى: نزّلناه ﴿كَذلِكَ﴾ مُتفرّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ﴾: نُقوّيَ قلبك، ﴿ورَتَّلْناهُ تَرتِيلاً﴾ أي: أتينا به شيئًا بعد شيء بتمهّل وتُؤَدة لتيسير فهمه وحفظه، ٣٣ ـ ﴿ولا يأتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ في إبطال أمرك ﴿إلاّ جِئناكَ بِالحَقِّ﴾ الدافع له ﴿وأحسَنَ تَفسِيرًا﴾: بيانًا. ٣٤ ـ هم ﴿الَّذِينَ يُحشَرُونَ علَى وُجُوهِهِم﴾ أي: يُساقون ﴿إلَى جَهَنَّمَ. أُولئِكَ شَرٌّ مَكانًا﴾ ـ هو جهنّم ـ ﴿وأضَلُّ سَبِيلاً﴾: أخطأُ طريقًا من غيرهم، وهو كُفرهم.

٣٥ ـ ﴿ولَقَد آتَينا مُوسَى الكِتابَ﴾: التوراة،.............................

قولُه: (والزَّبُورِ) قالَ القاضي: أي: أنزِلَ عليهِ كخُبِّرَ بمَعنى: أُخبِرَ؛ لئلّا يُناقَضَ قوله: ﴿جُملةً وَاحِدَةً﴾[1]. يعني: أنَّ التَّضعيفَ هُنا للتَّعديةِ لا للتَّكثيرِ.

قولُه: (أي: مُتَفَرِّقاً) في عشرينَ أو ثَلاثٍ وعشرينَ سَنةً (أي: أَتَيْنَا بِهِ)إلخ، فيكونُ تأكيداً، وقَدَّرناهُ آيةً بعد آيةٍ، وقصَّةً بعدَ قصَّةٍ، أو: أمرنا بتَرتيلِ قراءَتِهِ، أو: بيَّنَّاهُ تَبييناً.

قولُه: (فِي إِبْطَالِ أَمْرِكَ) وقَولُه ﴿بِمثَلٍ﴾؛ أي: بشَيءٍ باطِلٍ من شَأنِهِ أن يكونَ مَثَلاً في البُطلانِ.

قولُه: (الدَّافِعِ) وفي البَيضاويِّ: الدَّامِغِ له في جَوابِه[2]؛ أي: وبما هو أحسَنُ، على تَقديرِ قَولِهِم حَسناً.

قولُه: (هُمْ) أي: مَرفوعٌ ذَمًّا، وقيلَ: منصوبٌ، والأظهَرُ أنَّهُ مُبتَدأٌ خبرُه: ﴿أُولئِكَ﴾.

قولُه: (يُسَاقُونَ) مقلوبينَ، أو مسحوبينَ.

قولُه: (مِنْ غَيرِهِم) أي: من الكُفَّارِ، كما أنَّ المؤمنينَ به ﷺ خَيرٌ مَكاناً وأهدى سَبيلاً من غيرِهِم، كذا خَطَرَ ببالي، واللهُ أعلمُ.

قولُه: (وهُوَ) أي: الطَّريقُ.

قولُه: (التَّورَاةَ) تقدَّمَ في (طه): أنَّ إيتاءَ التَّوراةِ كان بعد هَلاكِ فرعونَ[3]، فلعَلَّ التَّقديرَ: قَدَّرنا إيتاءَهُ، أو الواوُ لمُطلقِ الجَمعِ والفاءُ للعَطفِ على الجُملةِ الثَّانِيَةِ؛ أي: آتَينا موسَى التَّوراةَ كما آتَيناكَ القُرآنَ، أو: ﴿جَعْلَنَا﴾ عَطف على مَجموعِ جُملَةِ القَسَم.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٢٣).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٢٤).

(٣) انظر الآية: (٨٦) من (طه) وليس في الكلام التصريح بذلك، لكن التصريح في الآية: (٤٩) من سورة المؤمنون في نقله كلام البيضاوي.

﴿وجَعَلْنا مَعَهُ أخاهُ هارُونَ وَزِيرًا﴾: مُعينًا، ٣٦ ـ ﴿فقُلْنا: اذهَبا إلَى القَومِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ أي: القِبطِ فِرعونَ وقومِه. فذهبا إليهم بالرسالة فكذّبوهما، ﴿فدَمَّرْناهُم تدمِيرًا﴾: أهلكناهم إهلاكًا.

٣٧ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿قَومَ نُوحٍ، لَمّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ بتكذيبهم نوحًا لطول لَبثه فيهم فكأنه رُسل، أو لأنّ تكذيبه تكذيبٌ لباقي الرسل لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد، ﴿أغرَقْناهُم﴾: جواب «لمّا»، ﴿وجَعَلْناهُم لِلنّاسِ﴾ بعدهم ﴿آيَةً﴾: عِبرة، ﴿وأعتَدْنا﴾ في الآخرة ﴿لِلظّالِمِينَ﴾: الكافرين ﴿عَذابًا ألِيمًا﴾: مُؤلمًا سِوى ما يحُلّ بهم، في الدنيا.

٣٨ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿عادًا﴾ قومَ هودٍ، ﴿وثَمُودًا﴾ قومَ صالح، ﴿وأصحابَ الرَّسِّ﴾ اسمُ بئر ـ ونبيّهم قيل: شُعيب، وقيل: غيره ـ كانوا قُعودًا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم، ﴿وقُرُونًا﴾: أقوامًا ﴿بَينَ ذلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: بين عاد وأصحاب الرسّ.

قولُه: (مُعِيْناً) يؤازِرُهُ: يُعاونُهُ، ولا يُنافي ذلك مُشاركَتَه في النُّبوَّةِ؛ لأنَّ المتَشاركَينِ في الأمرِ مُتآزِرانِ عليه.

قولُه: (أَهْلَكناهُمْ) والتَّعقيبُ باعتِبارِ الحُكمِ بالتَّدبيرِ لا الوُقوعِ.

قولُه: (أَوْ لأَنَّ تَكْذِيبَهُ) أو: نوحاً ومَن قَبلَهُ، أو: بعثَةَ الرُّسلِ مُطلَقاً كالبراهِمةِ.

قولُه: (عِبْرَةً) أي: إغراقَهُم، أو قِصَّتَهُم.

قولُه: (الكَافِرِيْنَ) يَحتَمِلُ التَّعميمَ والتَّخصيصَ، فوُضِعَ الظَّاهرُ تَظليماً لهم.

قولُه: (يَحُلُّ) بضمِّ الحاءِ؛ أي: يَنزِلُ، هذا ناظِرٌ إلى التَّعميمِ.

قولُه: (اذْكُر) يحتمِلُ التَّذكيرَ والتَّقديرَ.

قولُه: (قَوْمَ صَالِحٍ) قالَ القاضي: وقُرِئَ: ﴿وثَمُودَ﴾ على تأويلِ القبيلَةِ[1]، تعبيرُهُ بـ(قُرِئَ) سَهوٌ؛ إذ هي قراءَةُ حمزَةَ وحَفصٍ ويَعقوبَ[2].

قولُه: (بِئْرٍ) غيرِ مَطويَّةٍ؛ أي: مَبنيَّةٍ.

قولُه: (بِهِمْ) أي: فخُسِفَ بهم.

قولُه: (أَقْوَاماً) يعني: أهلَ أعصارٍ، قيل: القَرنُ أربعونَ سَنةً، وقيل: سَبعونَ، وقيل: مِئةٌ وعِشرونَ.

وقَولُه تَعالى: (﴿كثيراً﴾) أي: لا يَعلَمُه إلا اللهُ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٢٤)، وفيه: وقرأ حمزة وحفص: «وثمود» على تأويل القبيلة. فلعل استدراك المصنف الآتي على ما وقع في نسخته من البيضاوي.

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٤٠)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢٨٩).

٣٩ ـ ﴿وكُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الأمثالَ﴾ في إقامة الحُجّة عليهم، فلم نُهلكهم إلاّ بعد الإنذار، ﴿وكُلًّا تَبَّرْنا تَتبِيرًا﴾: أهلكْنا إهلاكًا بتكذيبهم أنبياءهم. ٤٠ ـ ﴿ولَقَد أتَوا﴾ أي: مرَّ كُفّار مكّة ﴿علَى القَرْيَةِ الَّتِي أُمطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾: مصدرُ ساءَ، أي: بالحجارةِ، وهي عُظمَى قُرى قوم لوط، فأهلك الله أهلها لِفعلهم الفاحشةَ. ﴿أفلَم يَكُونُوا يَرَونَها﴾ في سفرهم إلى الشام فيعتبرون؟ والاستفهام للتقرير. ﴿بَل كانُوا لا يَرجُونَ﴾: يخافونَ ﴿نُشُورًا﴾: بعثًا فلا يُؤمنون.

٤١ ـ ﴿وإذا رأَوكَ إنْ﴾: ما ﴿يَتَّخِذُونَكَ إلاّ هُزُوًا﴾: مهزوءًا به، يقولون: ﴿أهذا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ في دعواه؟ محتقرين له عن الرسالة، ٤٢ ـ ﴿إنْ﴾: مُخفّفةٌ من الثقيلة، واسمها محذوف، أي: إنّه ﴿كادَ لَيُضِلُّنا﴾: ليَصرفنا ﴿عَن آلِهتِنا، لَولا أن صَبَرْنا علَيها﴾ لصرفَنا عنها. قال تعالى: ﴿وسَوفَ يَعلَمُونَ، حِينَ يَرَونَ العَذابَ﴾ عِيانًا في الآخرة: ﴿مَن أضَلُّ سَبِيلاً﴾: أخطأُ طريقًا؟ أهم أم المؤمنون؟

٤٣ ـ ﴿أرَأَيتَ﴾: أخبِرْني ﴿مَنِ اتَّخَذَ إلـٰهَهُ هَواهُ﴾ أي: مَهوِيَّه؟ قُدّم المفعول الثاني لأنه أهمّ، وجملة من اتخذ: مفعول أول لـ «رأيت»، والثاني: ﴿أفأنتَ تَكُونُ علَيهِ وَكِيلاً﴾:..................

قولُه: (إلَّا بَعدَ الإنْذَارِ) أي: بَيَّنا له القصَصَ العَجيبَةَ إنذاراً وإعذاراً.

قولُه: (عُظْمَى) يعني: «سَدُومَ» بالدَّالِ المهملةِ، وقيلَ: بالمعجمَةِ[١].

قولُه: (سَفَرِهم) أي: مِرارِ[٢] مُرورِهم.

قولُه: (للتَّقْرِيْر) أي: لتَقْريرِ الرُّؤيَةِ بلا اعتِبارِ الاعتِبارِ[٣].

قولُه: (يَخَافُونَ) أو يَأمَلونَ، أو يتوَقَّعونَ.

قولُه: (مُحتَقِرينَ) يَعني: الإشارَةُ للاستِحقارِ، وتسميتُه رَسولاً تهكُّمٌ واستِهزاءٌ.

قولُه: (لَصَرَفْنَا) إشارَةٌ إلى أنَّ جَوابَ ﴿لَولا﴾ محذوفٌ واجِبُ الحَذفِ، وما تقدَّمَ دليلُ الجَوابِ كما هو مَذهبُ البصريِّينَ، وجوَّزَ الكوفيُّونَ تَقديمَ الجوابِ[٤].

قولُه: (أي: مَهْوِيَّهُ) بأن أطاعَهُ وبَنى عليه دينَه.

قولُه: (لأنَّهُ أَهَمُّ) الظَّاهرُ: للعِنايَةِ به، فإنَّ الإلهَ يستَحقُّ التَّعظيمَ.

(١) انظر: «معجم البلدان» (٣/ ٢٠٠).

(٢) في (م): «مكان»، والمثبت موافق لما في «أنوار التنزيل».

(٣) في (م): «لتقرير الرؤية بالاعتبار».

(٤) انظر: «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» لابن هشام (١/ ٢١٧).

حافظًا تحفظه عن اتباع هواه؟ لا. ٤٤ ـ ﴿أم تَحسِبُ أنَّ أكثَرَهُم يَسمَعُونَ﴾ سماعَ تفهّم ﴿أو يَعقِلُونَ﴾ ما تقول لهم؟ ﴿إنْ﴾: ما ﴿هُم إلاّ كالأنعامِ، بَل هُم أضَلُّ سَبِيلاً﴾: أخطأُ طريقًا منها لأنها تنقاد لمن يتعهّدها، وهم لا يُطيعون مولاهم المُنعِمَ عليهم.

٤٥ ـ ﴿ألَم تَرَ﴾: تنظرْ ﴿إلَى﴾ فِعلِ ﴿رَبِّكَ، كَيفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ من وقت الإسفار إلى وقت طلوع الشمس، ﴿ولَو شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِنًا﴾: مُقيمًا لا يزول بطلوع الشمس، ﴿ثُمَّ جَعَلْنا الشَّمسَ علَيهِ﴾ أي: الظلِّ ﴿دَلِيلاً﴾ ـ فلولا الشمس ما عُرف الظلّ ـ ٤٦ ـ ﴿ثُمَّ قَبَضْناهُ﴾ أي: الظلَّ الممدود ﴿إلَينا قَبضًا يَسِيرًا﴾: خفيًّا بطُلوعِ الشمس؟

قولُه: (تَحْفَظُهُ) أي: والحالُ أنَّ حالَهُ هذا.

قولُه: (لا) يعني: الاستِفهامُ الأوَّلُ للتَّقريرِ والتَّعجُّبِ، والثَّاني للإنكارِ.

قولُه: (سَمَاعَ تَفَهُّمٍ) وتخصيصُ الأكثرِ لأنَّه كان منهُم مَن آمَنَ ومنهُم من كابَرَ استِكباراً أو خَوفاً على الرِّئاسَةِ.

قولُه: (لِمَن يَعُودُهَا) وإلى مَن يتعَهَّدُها، وتميِّز مَن يُحسِنُ إليها ممَّن يُسيءُ إليها، وتَطلُبُ ما ينفَعُها، وتتجَنَّبُ ما يضُرُّها، أو لأنَّها إن لم تكتسِب خَيراً لم تكتسِبْ شَرًّا، أو لأنَّ جَهالتَها لا تضُرُّ بأحدٍ، ولأنَّها غيرُ مُتَمكِّنةٍ من الكَمالِ.

قلتُ: ولأنَّها غيرُ مكلَّفاتٍ، ولا مُعذَّباتٍ ولا مُنعَّماتٍ، فهنَّ معذُوراتٌ، ولكونِ المُشبَّهِ به أقوى استُدرِكَ.

قولُه: (فِعْلِ) أي: صنعِه بمعنى: مَصنوعِه، أو: ألم يَنتَهِ علمُكَ.

قولُه: (مِن وَقْتِ الإسفَارِ) وهو أطيَبُ الأحوالِ، فإنَّ الظُّلمَةَ الخالِصةَ تُنفِّرُ الطَّبْعَ وتَسدُّ النَّظَرَ، وشُعاعُ الشَّمسِ يُسخِّنُ الجَوَّ ويُبهِرُ البصَرَ، ولذلك وصَفَ به الجَنَّةَ فقالَ: ﴿وظِلٍّ مَمْدُود﴾ [الواقعة: ٣٠].

قولُه: (مُقِيْماً) أي: ثابِتاً، من السُّكنى، أو: غَيرَ مُتَقلِّصٍ، من السُّكونِ بأن تُجعَلَ الشَّمسُ مُقيمةً على وَضعٍ واحدٍ.

قولُه: (فَلَوْلا الشَّمْسُ) الضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضدُّ، فإنَّهُ لا تَظهَرُ حَقيقَةُ الظِّلِ للحسِّ حتى تَطلُعَ، فيقَعَ ضَوءُها على بَعضِ الأجرامِ.

قولُه: (أي: الظِّلَّ المَمْدُودَ) أي: أنزَلناهُ بإيقاعِ الشُّعاعِ موقعَهُ.

قولُه: (خَفِيًّا) الظَّاهرُ: قَليلاً حَسْبَما ترتَفِعُ الشَّمسُ لِيَنتظِمَ بذلك مصالحُ الكَونِ، ويتحَصَّلَ به ما لا يُحصى من مَنافِعِ الخَلقِ.

٤٧ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾: ساترًا كاللباس، ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾: راحة للأبدان بقطع الأعمال، ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾: منشورًا فيه لابتغاء الرزق وغيره.

٤٨ ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾، وفي قراءةٍ: «الرِّيحَ»، ﴿نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: مُتفرقةً قُدّامَ المطر ـ وفي قراءةٍ بسكون الشين تخفيفًا، وفي أُخرى بسكونها وفتح النون: مصدرًا، وفي أُخرى بسكونها وضمّ المُوحّدة بدلَ النون، أي: مُبشّراتٍ. ومُفرد الأُولى: نَشُورٌ كرَسول، والأخيرة: بَشيرٌ ـ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾: مُطهِّرًا، ٤٩ ـ ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ـ بالتخفيف يستوي فيه المُذكّر والمُؤنّث ـ ﴿وَنُسْقِيَهُ﴾ أي: الماءَ ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا﴾: إبلاً وبقرًا وغنمًا ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾: جمع إنسان، وأصله «أناسِينَ»، فأُبدلت النون ياء وأُدغمت فيها الياء، أو جمع إنسيّ.

قولُه: (كاللِّبَاسِ) تشبيهٌ بَليغٌ.

قولُه: (الأَعمَالِ) أو المَشاغلِ.

قولُه: (مَنْشُوراً) أي: ذا نُشورٍ؛ أي: انتِشارٍ ينتَشرُ فيه النَّاسُ، أو بَعثٍ من النَّوم بَعْثَ الأمواتِ، ويكونُ إشارةً إلى أنَّ النَّومَ واليَقظةَ أنموذَجٌ للموتِ والنُّشورِ.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لمكيٍّ[1]، وبقيَّةُ القِراءاتِ عُرِفَت في الأعرافِ[2].

قولُه: (مُطَهِّراً) لقولِه تعالى: ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ [الأنفال: ١١] وهو: اسمٌ لما يُتطهَّرُ به، وقيلَ: بَليغاً في الطَّهارَةِ[3].

قولُه: (بالتَّخفِيْفِ) بلا خِلافٍ[4].

قولُه: (يَسْتَوِي)... إلخ، لم يَظهَرْ له وَجهٌ إلا ما قالَهُ القاضي من أنَّه غيرُ جارٍ على الفِعلِ كسائرِ أبنيَةِ المُبالَغةِ، فأُجريَ مجرَى الجامدِ[5]. انتهى.

والمُرادُ بالجري على الفِعلِ ـ أي: المُضارعِ ـ: مُوافقَتُه في الحركاتِ والسَّكناتِ، و(مَيْت) ليس كذلك كأبنيَةِ المبالغَةِ كفعولٍ ومِفعالٍ، بخلافِ الفاعِلِ فإنَّه جارٍ على الفِعلِ، فإنَّه كيفعَلُ في الحَركاتِ والسَّكناتِ، فقولُ القاضي: (كسائرِ)؛ أي: كعَدمِ جَريانِ سائرٍ؛ فتأمَّل فإنَّه دَقيقٌ، وبالتَّأمُّلِ حَقيقٌ، وإنَّما ذكرتُهُ توجيهاً لكَلامِ الشَّيخِ، وتَوضيحاً لكَلامِ القاضي، وشَفَقةً للطَّالبينَ.

---

(١) أي: (الريح) بالتوحيد، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ١٧٣).

(٢) انظر الآية: (٥٧) من سورة الأعراف.

(٣) في (م): «يتطهر به وقيل للباقي في الطهارة» وفي هامش (م): في نسخة: «للبقاء في الطهارة».

(٤) انظر: «غيث النفع في القراءات السبع» (ص: ٤٣٠).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٢٧).

٥٠ ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ أي: الماءَ ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ ـ أصله «يَتَذَكَّرُوا» أُدغمت التاء في الذال. وفي قراءةٍ: «لِيَذْكُرُوا» بسكون الذال وضمّ الكاف ـ أي: نعمةَ الله به، ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾: جُحودًا للنعمة، حيثُ قالوا: مُطِرنا بنَوء كذا. ٥١ ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ يُخوِّف أهلها، ولكن بعثناك إلى أهل القُرى كُلّها نذيرًا ليعظُم أجرك..........................

قولُه: (وذَكَّرَهُ) الصَّوابُ ذكرُه بـ«أو» (باعْتِبَارِ المَكَانِ)[1] أو البَلدِ، والمعنى: لنُنْبِتَ بسبَبِ الماءِ مَكاناً يابِساً، ففيهِ استعارَتانِ.

قولُه: (المَاءَ) أي: في المنابِعِ والأنهارِ، أو المَطرِ بينهم[2] في البُلدانِ المختَلِفةِ، والأوقاتِ المُتغايِرَةِ، والصِّفاتِ المتفاوتةِ من وابِلٍ وطَلٍّ وغيرِهما، وعن ابنِ عبَّاسٍ[3]: ما عامٌ أمطَرُ من عامٍ، ولكنَّ اللهَ قَسَمَ ذلك بينَ عبادِهِ على ما شاءَ، وتَلا الآيَةَ.

قولُه: (يَتَذَكَّرُوا) أي: يَتَّعظُوا ويَعتَبروا[4] بالصَّرفِ عنهم وإليهم، أو: ليَتذَكروا ويَعرِفوا كمالَ القُدرَةِ.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزَةَ والكِسائيِّ[5].

قولُه: (نِعْمَةَ اللهِ) ويَقومُوا بشُكرِها.

قولُه: (جُحُوداً) أو: [إلا] كُفرانَ النِّعمَةِ، وقلَّةَ المُبالاةِ بها.

قولُه: (بِنَوءِ كَذَا) النَّوءُ: نَجمٌ مالَ للغُروبِ، ومَن لا يَرى الأمطارَ إلَّا من الأنواءِ كانَ كافِراً[6]، بخلافِ من يَرى أنَّها من خَلقِ اللهِ، والأنواءَ أماراتٍ بجَعلِهِ تعالى.

---

(١) «وذكره باعتبار المكان» ليست في النسخ، والظاهر أن موقعها عقب: «المذكر والمؤنث».

(٢) في (م): «ينهمر».

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في «المطر والرعد والبرق» (٢٤)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٢٨٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٢٤٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٢٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦٤٨٣)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) في (م): «أو يعتبروا».

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١١).

(٦) روى مسلم (٧١) عن زيد بن خالد الجهني، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

٥٢ ـ ﴿فلا تُطِعِ الكافِرِينَ﴾ في هواهم، ﴿وجاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بالقُرآنِ ﴿جِهادًا كَبِيرًا﴾.

٥٣ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحرَينِ﴾: أرسلَهما مُتجاورين، ﴿هذا عَذبٌ فُراتٌ﴾: شديد العُذوبة، ﴿وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾: شديد المُلوحة، ﴿وجَعَلَ بَينَهُما بَرزَخًا﴾: حاجزًا لا يختلط أحدهما بالآخر ﴿وحِجرًا مَحجُورًا﴾ أي: سِترًا ممنوعًا به اختلاطهما، ٥٤ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَرًا﴾: من المنيِّ إنسانًا، ﴿فجَعَلَهُ نَسَبًا﴾: ذا نسب ﴿وصِهرًا﴾: ذا صِهر، بأن يتزوّج ذكرًا كان أو أُنثى طلبًا للتناسل. ﴿وكانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾: قادرًا على ما يشاء. ٥٥ ـ ﴿ويَعبُدُونَ﴾ أي: الكُفّارُ ﴿مِن دُونِ اللهِ ما لا يَنفَعُهُم﴾ بعِبادته، ﴿ولا يَضُرُّهُم﴾ بتركها ـ وهو الأصنام ـ ﴿وكانَ الكافِرُ على رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾: مُعينًا للشيطان بطاعته.

٥٦ ـ ﴿وما أرسَلْناكَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿إلاّ مُبَشِّرًا﴾ بالجنّة ﴿ونَذِيرًا﴾: مُخوّفًا من النار............

قولُه: (بالقُرْآنِ) لأنَّ مُجاهَدةَ السُّفهاءِ بالحجَجِ أكبَرُ من مُجاهَدةِ الأعداءِ بالسَّيفِ.

قولُه: (أَرْسَلَهُمَا) وخلَّاهُما مُتلاصِقَينِ بحيثُ لا يتمازَجانِ، كدجلَةَ تدخُلُ البحرَ فتشُقُّه، فتَجري في خلالِهِ فراسِخَ لا يتغيَّرُ طَعمُها.

قولُه: (شَدِيدُ العُذُوبَةِ) قامِعٌ للعطَشِ من فَرطِ عُذوبَتِهِ.

قولُه: (حَاجِزاً) من قُدرَته.

قولُه: (إِنْسَاناً) أرادَ به: النَّوعَ.

قولُه: (بِأَنْ يَتَزَوَّجَ) شَخصٌ.

قولُه: (ذَكَراً) يُنسَبُ إليه.

قولُه: (أَو أُنْثَى) يُصاهِرُ بها[1].

قولُه: (طَلَباً للتَّنَاسُلِ) أي: إرادَةً لحصولِه، علَّةً لـ(جَعَله)، ويُمكِنُ كونُهُ علَّةً لـ(يتزَوَّجَ)؛ لكن لا يلزَمُ من طلبِ التَّناسُلِ حصولُهُ المقتَضي للنِّسبةِ والصُّهوريَّةِ.

قولُه: (وهِيَ الأَصنَامُ) أو كُلُّ ما عُبِدَ من دُونِ اللهِ؛ إذ ما مِن مَخلوقٍ يستقِلُّ بالنَّفعِ والضُّرِّ.

قولُه: (مُعِيناً) فالظَّهيرُ بمعنى: المظاهِرِ، و«فعيلٌ» بمعنى «مُفاعِل» كَثيرٌ؛ أي: يُظاهِرُ الشَّيطانَ بالعَداوَةِ والشِّركِ، والمرادُ بالكافرِ: الجِنسُ، وقيل: أبو جهلٍ.

قولُه: (بالجَنَّةِ) للمُؤمنينَ.

قولُه: (مِنَ النَّارِ) الظَّاهرُ: بالنَّارِ للكافرِينَ.

---

(١) في (م): «أنثى يصاهرها».

٥٧ ـ ﴿قُلْ: ما أسألُكُم علَيهِ﴾: على تبليغ ما أُرسلت به ﴿مِن أجرٍ. إلاّ﴾: لكن ﴿مَن شاءَ أن يَتَّخِذَ إلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾: طريقًا بإنفاق ماله في مرضاته ـ تعالى ـ فلا أمنعه من ذلك. ٥٨ ـ ﴿وتَوَكَّلْ علَى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ، وسَبِّحْ﴾ مُلتبسًا ﴿بِحَمدِهِ﴾ أي قل: سُبحان الله والحمد لله. ﴿وكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيرًا﴾: عالمًا! تعلّق به «بذنوب».

٥٩ ـ هو ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ وما بَينَهُما في سِتَّةِ أيّامٍ﴾ من أيام الدنيا، أي: في قدرها لأنه لم يكن ثَمّ شمس ولا قمر ـ ولو شاء لخلقهنّ في لَمحة، والعُدولُ عنه لتعليم خلقه التثبّتَ ـ ﴿ثُمَّ استَوَى علَى العَرشِ﴾ ـ هو في اللغة سرير الملك ـ ﴿الرَّحمنُ﴾: بدلٌ من ضمير «استوى» أي: استواءً يليق به. ﴿فاسألْ﴾ ـ أيها الإنسان ـ ﴿بِهِ﴾: بالرحمن ﴿خَبِيرًا﴾ يُخبرُك بصفاته. ٦٠ ـ ﴿وإذا قِيلَ لَهُمُ﴾: لكُفّار مكّة: ﴿اسجُدُوا لِلرَّحمنِ. قالُوا: وما الرَّحمنُ؟ أنَسجُدُ لِما تأمُرُنا﴾ ـ بالفوقانيّة والتحتانيّة والآمرُ مُحمّد ـ ....

قولُه: (مَا أُرْسِلْتُ بِهِ) قالَ القاضي: على تَبليغِ الرِّسالَةِ الَّذي يدلُّ عليه ﴿إلا مُبشِّراً ونذيراً﴾[1] [٥٦]. قُلتُ: دلالَةُ الإرسالِ عليه أظهَرُ.

قولُه: (فلا أَمْنَعُهُ) أو: فلْيَفعَل.

قولُه تعالى: (﴿وَتَوَكَّلْ﴾) أي: في استِكفاءِ شُرورِهِم، والإغناءِ عن أجورِهِم.

وقولُه: (﴿على الحي الذي لا يموت﴾) لأنَّ غيرَهُ في معرِضِ الفَناءِ.

قولُه: (مُلتَبِساً) حالٌ من فاعلِ: ﴿سَبِّحْ﴾؛ أي: نزِّهْهُ عن صفاتِ النُّقصانِ مُثْنياً عليه بأوصافِ الكَمالِ.

قولُه: (بِهِ) أي: بـ﴿خَبِيراً﴾، أو لعلَّه قُدِّمَ للفاصِلةِ.

قولُه: (هُو) مُبتَدأ مُقدَّرٌ خبرُهُ الموصولُ، أو الموصولُ مُبتَدأٌ خبرُه: ﴿الرَّحمَن﴾.

قوله: (﴿الرحمن﴾) بدلٌ أو خبرُ مَحذوفٍ، ولذا يوقَفُ على ما قبلَهُ.

قولُه: (بالرَّحمَنِ) صِلةُ: ﴿خَبِيراً﴾.

قولُه: (بصِفَاتِهِ) ومصنوعاتِهِ، وأمَّا ذاتُهُ فلا يُسألُ عنها، ولا يخبَرُ بها؛ لقولِه تعالى: ﴿لا يحيطون به علماً﴾ [طه: ١١٠].

قولُه: (والتَّحتَانِيَّةِ) حمزَةُ والكسائيُّ[2] على أنَّه قولُ بعضِهِم لبعضٍ.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٢٨).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١١).

ولا نعرفه؟ لا، ﴿وزادَهُم﴾ هذا القول لهم ﴿نُفُورًا﴾ عن الإيمان.

٦١ ـ قال تعالى: ﴿تَبارَكَ﴾: تعظّم ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجًا﴾ اثني عشَر: الحَمَلَ والثَّور والجَوزاء والسَّرطان، والأسد والسُّنبلة والمِيزان والعقرب، والقَوس والجَدْيُ والدَّلو والحُوت ـ وهي منازل الكواكبِ السبعةِ السيّارة: المِرّيخ وله الحمل والعقرب، والزُّهَرةِ ولها الثور والميزان، وعُطاردٍ وله الجوزاء والسنبلة، والقمرِ وله السرطان، والشمسِ ولها الأسد، والمُشتري وله القوس والحوت، وزُحَلَ وله الجدْي والدلو ـ ﴿وَجَعَلَ فِيها﴾ أيضًا ﴿سِراجًا﴾ هو الشمس ﴿وقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ـ وفي قراءة: «سُرُجًا» بالجمع أي: نيّراتٍ، وخُصّ القمر منها بالذكر لنوع فضيلة ـ ٦٢ ـ ﴿وهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيلَ والنَّهارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلُف كُلّ منهما الآخَرَ، ﴿لِمَن أرادَ أن يَذَّكَّرَ﴾، بالتشديد والتخفيف كما تقدّم: ما فاته..............

قولُه: (ولا نَعرِفُهُ) عَطفٌ على: ﴿نَسجُدُ﴾؛ لأنَّهم كانوا ما يُطلِقونَهُ على اللهِ، أو ظنُّوا أنَّهُ أرادَ به غيرَه، وقيلَ: لأنَّهُ كانَ معرَّباً لم يسمَعوهُ.

قولُه: (لا) أي: لا نَسجُدُ؛ يعني: الهمزةُ للإنكارِ.

قولُه: (هَذَا القَوْلُ) أي: الأمرُ بالسُّجودِ للرَّحمنِ.

قولُه: (هِيَ مَنازِلُ) يعني: سُمِّيت بالبُروجِ ـ وهي القُصورُ العاليَةُ ـ لأنَّها للكواكِبِ السَّيَّارةِ كالمنازِلِ لسُكَّانِها.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لحمزَةَ والكِسائيِّ[1].

قولُه: (وخُصَّ القَمَرُ) أو هي الشَّمسُ والكواكِبُ الكِبارُ.

قولُه: (لنَوعِ فَضِيلَةٍ) ولعلَّها انشِقاقُهُ إظهاراً لفضيلتِهِ ﷺ.

قولُه: (يَخْلُفُ) بأن يَقومَ مقامَهُ فيما ينبَغِي أن يعمَلَ فيه، أو بأن يَعتقِبا، كقولِهِ تعالى: ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ [البقرة: ١٦٤]، والتَّقديرُ: ذَوَي خلفَةٍ.

قولُه: (والتَّخفِيفِ) حمزَةُ[2].

قولُه: (كَمَا تَقَدَّمَ) يَعني: في ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ من الإعلالِ[3] والمعنى.

قولُه: (مَا فَاتَهُ) مفعولُ: ﴿يَذَّكَّرَ﴾ ناظِرًا إلى التَّفسيرِ الأوَّلِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١٢).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١٣).

(٣) في (م) و(د): «الإعمال».

في أحدهما من خير فيفعلَه في الآخَر، ﴿أو أرادَ شُكُورًا﴾ أي: شُكرًا لنعمة ربّه عليه فيهما.

٦٣ ـ ﴿وعِبادُ الرَّحمنِ﴾ ـ مُبتدأ وما بعده صِفاتٌ له إلى «أُولئِكَ يُجزَونَ الغُرفةَ» غيرَ المُعترِض فيه ـ ﴿الَّذِينَ يَمشُونَ علَى الأرضِ هَونًا﴾ أي: بسكينة وتواضع، ﴿وإذا خاطَبَهُمُ الجاهِلُونَ﴾ بما يكرهونه ﴿قالُوا سَلامًا﴾ أي: قولاً يَسلمون فيه من الإثم، ٦٤ ـ ﴿والَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِم سُجَّدًا﴾: جمع ساجد ﴿وقِيامًا﴾ بمعنى: قائمين أي: يُصلّون بالليل، ٦٥ ـ ﴿والَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنا، اصرِفْ عَنّا عَذابَ جَهَنَّمَ. إنَّ عَذابَها كانَ غَرامًا﴾ أي: لازمًا، ٦٦ ـ ﴿إنَّها ساءَتْ﴾: بئست ﴿مُستَقَرًّا ومُقامًا﴾ هي، أي: موضع استقرار وإقامة! ٦٧ ـ ﴿والَّذِينَ إذا أنفَقُوا﴾ على عِيالهم ﴿لَم يُسرِفُوا ولَم يَقتِرُوا﴾ ـ..................

قولُه: (عَلَيهَا) الظَّاهرُ: عليه[1]، والتَّأنيثُ بتأويلِ النَّفسِ.

قولُه: (إِلَى ﴿أُولَئِكَ﴾) وهو الخَبرُ، أو ﴿الَّذينَ﴾ وهو الأظهرُ، وإضافَتُهم إلى الرَّحمنِ مع أنَّ الكُلَّ عَبيدُه للتَّخصِيصِ والتَّفضيلِ.

قولُه: (أي: بسَكِينَةٍ) يعني: هيِّنينَ، أو: مَشياً هَيِّناً، مصدَرٌ وُصِفَ به.

قولُه: (مِنَ الإِثْمِ) والإيذاءِ.

قولُه: (قَائِمِينَ) جمعُ: قائمٍ، أو مصدَرٌ أجريَ مُجراهُ.

قولُه: (أَي: يُصَلُّونَ) وتأخيرُ القيامِ للفاصِلَة، ويُمكِنُ أن يكونَ معناهُ: يصلُّونَ ويقومونَ.

قولُه: (بالَّليلِ) لأنَّ العبادَةَ فيه أشقُّ، وأبعَدُ من الرِّياءِ.

قولُه: (لازِماً) أي: لأكثَرِ الدَّاخِلينَ، أو للكفَّارِ.

قولُه: (بِئسَتْ) وفيها ضميرٌ مُبهمٌ يُفسِّرهُ المميِّزُ؛ لأنَّ فعلَ الذَّمِّ لا يرجعُ ضميرُه إلى المذكورِ، وتفسيرُ المؤنَّثِ بالمذكَّرِ لاتِّحادِ المميِّزِ والمخصوصِ بالذَّمِّ.

قولُه: (هِيَ) هو المخصوصُ؛ أي: جهنَّمُ، وبهذا الضَّميرِ ترتَبطُ الجُملَةُ باسمِ إن، وهي وما بعدَها يحتمِلانِ الحكايَةَ والابتداءَ من اللهِ.

قولُه: (مَوضِعَ استِقرَارٍ) للفُجَّارِ.

قولُه: (وإِقَامَةٍ) للكفَّارِ.

قولُه: (عَلَى عِيَالِهِم) الإطلاقُ أولى.

(١) وكذا هو في نسخ المتن.

بفتح أوله وضمّه ـ أي: لم يُضيّقوا، ﴿وكانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَينَ ذلِكَ﴾ الإسرافِ والإقتارِ ﴿قَوامًا﴾: وسطًا، ٦٨ ـ ﴿والَّذِينَ لا يَدعُونَ مَعَ اللهِ إلـٰهًا آخَرَ، ولا يَقتُلُونَ النَّفسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾ قتْلَها ﴿إلاّ بِالحَقِّ، ولا يَزنُونَ﴾. ﴿ومَن يَفعَلْ ذلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الثلاثة ﴿يَلقَ أثامًا﴾ أي: عُقوبة، ٦٩ ـ ﴿يُضاعَفْ﴾ ـ وفي قراءة: «يُضعَّفْ» بالتشديد ـ ﴿لَهُ العَذابُ يَومَ القِيامةِ ويَخلُدْ فِيهِ﴾، بجزم الفعلين بدلاً وبرفعهما استئنافًا،

قولُه: (بفَتْحِ أوَّلِه) مع كسرِ ثالثِه: مكّيٌّ وبصريٌّ، ومع ضمِّ ثالثِه: كوفيٌّ[١].

قولُه: (وضَمِّهِ) مع كسرِ ثالثِهِ: مدنيٌّ وشاميٌّ[٢].

قولُه: (أي: لم يُضَيِّقُوا) يعني: لم يتجاوَزوا حدَّ الكَريمِ، ولم يُضيِّقوا تضييقَ الشَّحيحِ.

قولُه: (قَتْلَهَا) أي: حَرَّمها بمعنى: حرَّمَ قَتْلها.

قولُه: (أي: وَاحِداً)[٣] وفي «المدارِك»: المذكورَ[٤]. يعني: جميعَهُ؛ لئلّا يُشكِل بقولِه: ﴿ويَخلُد﴾، وأشارَ القاضي إلى ذلك بقولِهِ: ومُضاعفَةُ العذابِ لانضمامِ المعصيَةِ إلى الكُفرِ[٥].

قولُه: (أي: عُقُوبَةً) في «القامُوسِ»: أثامٌ ـ كسَحابٍ ـ وادٍ في جهنَّمَ، والعُقوبة[٦]. وبهذا تنحَلُّ عبارَةُ البيضاويِّ: جزاءَ إثمٍ، أو: إثْماً، بإضمارِ جزاء[٧]. وهو في غايَةٍ من اللَّطافةِ يصلُحُ أن يكونَ لغزاً.

قولُه: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لمكيٍّ وشاميٍّ[٨].

قولُه: (بجَزمِ الفِعلَينِ) غيرُ شاميٍّ وشُعبَةُ[٩].

قولُه: (بَدَلاً) من ﴿يَلْقَ﴾ لأنَّهُ في معناهُ، وقولُ البيضاويِّ: وأبو عَمرو: (ويُخْلَدْ) على البناءِ للمَفعولِ[١٠].

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١٣).

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) قوله: «قوله أي واحدا» ليس في نسخ المتن المعتمدة، ولعله بعد قوله: ﴿ذلك﴾.

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٥٤٩).

(٥) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٣١).

(٦) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٧٤).

(٧) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٣١) وفيه: وقرئ: «ويخلد» على بناء المفعول مخففاً.
والقراءة ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٤٦٧) عن أبي عمرو رواية في غير المشهور عنه، وقال: وهو غلط. وهي في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧) عن المفضل عن عاصم.

(٨) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١٤).

(٩) هما ﴿يُضَاعَفْ.... وَيَخْلُدْ﴾، انظر: المصدر السابقة.

(١٠) انظر: «أنوار التنزيل» (٤/ ١٣١) وفيه: وقرئ: «ويخلد» على بناء المفعول مخففاً.
والقراءة ذكرها ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٤٦٧) عن أبي عمرو رواية في غير المشهور عنه، وقال: وهو غلط. وهي في =

﴿مُهانًا﴾: حالٌ. ٧٠ ـ ﴿إلاّ مَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلاً صالِحًا﴾ منهم ﴿فأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِم﴾ المذكورةَ ﴿حَسَناتٍ﴾ في الآخرة ـ ﴿وكانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: لم يزل مُتّصفًا بذلك ـ ٧١ ـ ﴿ومَن تابَ﴾ من ذُنوبه غيرَ مَن ذُكر ﴿وعَمِلَ صالِحًا فإنَّهُ يَتُوبُ إلَى اللهِ مَتابًا﴾ أي: يرجعُ إليه رجوعًا فيُجازيه خيرًا.

٧٢ ـ ﴿والَّذِينَ لا يَشهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: الكذب والباطل، ﴿وإذا مَرُّوا بِاللَّغوِ﴾ من الكلام القبيح وغيره ﴿مَرُّوا كِرامًا﴾: مُعرِضين عنه، ٧٣ ـ ﴿والَّذِينَ إذا ذُكِّرُوا﴾: وُعِظوا ﴿بِآياتِ رَبِّهِم﴾ أي: القرآن ﴿لَم يَخِرُّوا﴾: يسقطوا ﴿علَيها صُمًّا وعُميانًا﴾، بل خرّوا سامعين ناظرين منتفعين،...............

غيرُ صَحيحٍ، ولعلَّهُ شاذٌّ عنه، وأمَّا ﴿فِيهِ﴾ فبالإشباعِ ابنُ كثيرٍ، ووافقهُ حفصٌ[1] هنا للتَّأكيدِ في الوعيدِ.

قولُه: (فِي الآخِرَةِ) بأن يُثبتَ له بدلَ كُلِّ عقابٍ ثواباً، أو بأن يمحوَ سَوابِقَ معاصيهم بالتَّوبةِ ويُثبتَ مكانَها لواحِقَ طاعاتِهم.

قولُه: (بذَلِكَ) أي: بكونِهِ غفوراً رحيماً، فلذلك يَعفو عن السَّيِّئاتِ ويُثيبُ على الحسناتِ.

قولُه: (غَيرَ مَن ذُكِرَ) الأظهرُ: أنَّه تَعْميمٌ بعد تخصيصٍ.

قولُه: (رُجُوعاً) مرضيًّا عندَ اللهِ ماحياً للعقابِ مُحصِّلاً للثَّوابِ، أو: إلى ثوابِهِ مَرجِعاً حَسناً، وهذا أنسَبُ بكلامِ الشَّيخِ.

قولُه: (أي: الكَذِبَ والبَاطِلَ) أي: لا يُقيمونَ الشَّهادةَ الباطِلَةَ، أو: لا يحضرونَ مَحاضِرَ الكَذبِ، فإنَّ مُشاهدةَ الباطلِ شركَةٌ فيه؛ لأنَّها دليلُ الرِّضا.

قولُه: (القَبِيحِ) ما يَجبُ أن يُلغى ويُطَّرَح.

قولُه: (وغَيرِهِ) أي: الفِعلِ القَبيحِ.

قولُه: (مُعرِضِيْنَ) مُكرِمينَ أنفُسَهم عن الوُقوفِ عليهِ ـ فـ﴿كِرامًا﴾ جَمعُ: كَريمٍ؛ بمعنى: مُكرِم، ونصبُهُ على الحالِ ـ ومِن ذَلِكَ: الإغضاءُ عن الفَواحِشِ، والصَّفحُ عن الذُّنوبِ، والكِنايةُ عمَّا يُستَهجنُ التَّصريحُ به.

قولُه: (يَسْقُطُوا) ويُقيمُوا غيرَ واعينَ لها، ولا مُتَبصِّرينَ بما فيها؛ كمَن لا يسمَعُ ولا يُبصِر.

قولُه: (خَرُّوا) وأكبُّوا عليها.

قولُه: (سَامِعِينَ) بآذانٍ واعيةٍ.

قولُه: (نَاظِرِينَ) بأعيُنٍ راعيةٍ، فالمُرادُ بالنَّفي: نفيُ الوَصفِ دُونَ الفعلِ.

= «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٠٧) عن المفضل عن عاصم.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٧).

٧٤ ـ ﴿والَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنا، هَبْ لَنا مِن أزواجِنا وذُرِّيّاتِنا﴾ ـ بالجمع والإفراد ـ ﴿قُرّةَ أعيُنٍ﴾ لنا بأن نراهم مُطيعين لك، ﴿واجعَلْنا لِلمُتَّقِينَ إمامًا﴾ في الخير.

٧٥ ـ ﴿أُولئِكَ يُجزَونَ الغُرْفةَ﴾: الدرجةَ في الجنّة ﴿بِما صَبَرُوا﴾ على طاعة الله، ﴿ويُلَقَّونَ﴾ ـ بالتشديد، والتخفيف مع فتح الياء ـ ﴿فِيها﴾: في الغُرفة ﴿تَحِيَّةً وسَلامًا﴾ من الملائكة، ٧٦ ـ ﴿خالِدِينَ فِيها، حَسُنَتْ مُستَقَرًّا ومُقامًا﴾: موضعَ إقامة لهم! «وأُولئك» وما بعده: خبر «عبادُ الرحمن» المبتدأِ.

٧٧ ـ ﴿قُلْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ لِأهل مكّة: ﴿ما﴾: نافيةٌ ﴿يَعبأُ﴾: يَكترثُ ﴿بِكُم رَبِّي، لَولا دُعاؤُكُم﴾ إيّاه في الشدائد فيكشفُها. ﴿فقَد﴾أي: فكيف يعبأ بكم، وقد ﴿كَذَّبتُم﴾ الرسول والقُرآن؟ ﴿فَسَوفَ يَكُونُ﴾ العذاب ﴿لِزامًا﴾: مُلازمًا لكم في الآخرة بعد ما يحُلّ بكم في الدنيا. فقُتل منهم يوم بدر سبعون. وجواب «لولا» دلَّ عليه ما قبلها.

قولُه: (مُنتَفِعِينَ) حاصِلُ المعنى.

قولُه: (بالجَمعِ) حمزَةُ والكِسائيُّ وحَفصٌ[1].

قولُه: (فِي الخَيْرِ) ووَحَّد ﴿إماماً﴾ للجِنسِ، أو لأنَّه مَصدرٌ في أصلِهِ، أو باعتبارِ كُلِّ واحِدٍ.

قولُه: (الدَّرَجَةَ) أو: أعلى مواضِعِ الجنَّةِ، وهي اسمُ جنسٍ أُريدَ به الجَمعُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ [سبأ: ٣٧] وقيل: هي من أسماءِ الجنَّةِ.

قولُه: (عَلَى طَاعَةِ اللهِ) وعن معاصيهِ، وفي بلائهِ، ويُمكِنُ أن يُقالَ: على حُكمِه، فيعُمُّ.

قولُه: (والتَّخفِيفِ) حمزةُ والكِسائيُّ وشعبَةُ[2].

قولُه: (مِنَ المَلائِكَةِ) أو من بَعضِهم، أو منَ اللهِ تَعالى.

قولُهُ: (يَكتَرِثُ) أو: لا يَعتدُّ بكُم لولا عبادَتُكُم، فإنَّ شَرفَ الإنسانِ وكرامتَهُ بالمعرفةِ والطَّاعةِ، وإلا فهوَ وسائرُ الحيواناتِ سواءٌ، أو: ﴿ما﴾ استِفهاميَّةٌ؛ أي: ما يصنعُ بكُم.

وقيل: معناهُ: ما يصنَعُ بعذابِكُم لولا دُعاؤكُم معهُ آلهةً، فالخِطابُ للكفَّارِ.

قولُه: (العَذَابُ) أي: جَزاءُ التَّكذيبِ.

قولُه: (مُلازِماً) أو: لازِماً يحيقُ بكُم لا محالَةَ، أو: أثَرُه لازِماً بكم حتى يَكُبَّكُم[3] في النَّارِ.

قولُه: (يَومَ بَدرٍ) وقيل المرادُ: قَتْلُ يومِ بَدرٍ، وأنَّه لُوزِمَ بين القَتْلى لِزاماً[4]، واللهُ أعلم.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١٥)، عن نافع وابن كثير وابن عامر وحفص.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٤٦٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٥١٥).

(٣) في (م): «لازمًا لكم حتى يلقيكم».

(٤) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٣٢).

سُورَةُ الفُرْقَانِ

أَطْلَقَ الجمهورُ القولَ بمكِّيتها، وعن ابن عباس ﷺ وقتادةَ: هي مكيةٌ إلا ثلاثَ آياتٍ نزلت بالمدينة، وهي: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الآيات:٦٨-٧٠]، وقال الضحاك: هي مدنيةٌ إلا أوَّلَها إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ [الآية:٣] فهو مكيٌّ.

وعددُ آياتها سبع وسبعون آية بلا خلافٍ، كما ذكره الطبرسيُّ[1] والداني في كتاب «العدد»[2].

ولمَّا ذَكَر جلَّ وعلا في آخر السورة السابقة وجوبَ متابعةِ المؤمنين للرسول ﷺ، ومَدَح المتابعين وحذَّر المخالفين، افتتح سبحانه هذه السورةَ بما يدلُّ على تعاليه جلَّ شأنُه عمَّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، أو على كثرة خيره تعالى ودوامِه، وأنه نزَّلَ[3] الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، إطماعاً في خيره وتحذيراً من عقابه جلَّ شأنُه، وفي هذه السورة أيضاً من تأكيد ما في السابقة من مدح الرسول ﷺ ما فيها، فقال تبارك وتعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ أي: تعالى جلَّ شأنُه في ذاته وصفاته وأفعاله على أتمِّ وجهٍ وأبلغِه، كما يُشْعِرُ به إسنادُ صيغةِ التفاعُلِ إليه تعالى، وهذا الفعلُ لا يُسنَدُ في الأغلب إلى غيره تعالى، ومثله: «تعالى»، ولا يتصرَّفُ، فلا يجيءُ منه مضارعٌ ولا أمرٌ ولا ولا في الأغلب أيضاً،

---

(١) في مجمع البيان ١٨/ ٨٣.

(٢) البيان في عَدِّ آي القرآن ص ١٩٤.

(٣) في (م): أنزل.

وإلا فقد قرأ أبيٌّ كما سيأتي إن شاء الله تعالى: «تباركتِ الأرضُ ومَن حولها»[1]، وجاء كما في «الكشف»: تباركتِ النخلةُ: أي: تعالت. وحكى الأصمعيُّ أن أعرابيّاً صعد رابيةً فقال لأصحابه: تبارَكْتُ عليكم، وقال الشاعر:

إلى الجذع جذعِ النخلة المتبارك[2]

وقال الخليل[3]: معنى تبارك: تمجَّد. وقال الضحَّاك: تعظَّم. وهو قريبٌ من قريبٍ.

وعن الحسن والنخعيِّ أن المعنى: تَزايَدَ خيرُه وعطاؤه وتكاثَرَ. وهي إحدى روايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما، ثانيتُهما أن المعنى: لم يزل، ولا يزال.

وتحقيقُ ذلك أنَّ «تبارَكَ» من البركة، وهي في الأصل مأخوذةٌ من بَرْكِ البعير وهو صدرهُ، ومنه بَرَكَ البعير: إذا أَلْقَى بَرْكَه على الأرض، واعتُبر فيه معنى اللزوم فقيل: بَرَاكاءُ الحرب وبَرُوْكاؤُها[4] للمكان الذي يلزمُه الأبطال، وسمِّي مَحْبِسُ الماء بِرْكةً كسِدْرةٍ، ثم أُطلقتْ على ثبوتِ الخير الإلهيِّ في الشيء ثبوتَ الماء في البِرْكَةِ، وقيل لِمَا فيه ذلك الخيرُ: مبارَك، ولمَّا كان الخيرُ الإلهيُّ يَصْدُرُ من حيث لا يُحسُّ، وعلى وجهٍ لا يُحصَى ولا يُحْصَرُ، قيل لكلِّ ما يشاهَدُ منه زيادةٌ غيرُ محسوسةٍ: هو مبارَكٌ، و: فيه بَرَكة.

فَمَن اعتَبَر معنى اللزومِ كابن عباس بناءً على الرواية الثانية عنه، قال: المعنى: لم يَزَلْ ولا يَزَالُ، أو نحو ذلك. ومَن اعتبر معنى التزايُدِ انقسم إلى طائفتين، فطائفةٌ جعلوه باعتبارِ كمالِ الذات في نفسها ونقصانِ ما سواها، ففسَّروا ذلك بالتعالي ونحوِه، وطائفةٌ جعلوه باعتبارِ كمالِ الفعل، ففسَّروه بتزايُدِ الخير وتكاثُرِه، ولا اعتبارَ للتغيُّر المبنيِّ على اعتبارِ معنى اللزوم؛ لقلَّة فائدةِ الكلام عليه، وعدمِ مناسبةِ ذلك المعنى لِمَا بَعْدُ، ومن هنا ردَّد الجمهور المعنى بين ما ذكرناه أوَّلاً وما رُوِيَ عن الحسن ومَن معه.

---

(١) ستأتي عند تفسير الآية (٨) من سورة النمل.
(٢) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث١/ ١٦، والشهاب في الحاشية ٦/ ٤٠٥.
(٣) كما في البحر ٦/ ٤٨٠.
(٤) كجَلُولاء. التاج (برك).

وترتيبُ وَصْفِه تعالى بقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ﴾ بالمعنى الأوَّلِ على إنزاله جلَّ شأنُه الفرقانَ لِمَا أنه ناطقٌ بعلوِّ شأنه سبحانه وسموِّ صفاتِه، وابتناءِ أفعاله على أساس الحِكَمِ والمصالح، وخلوِّها عن شائبة الخللِ بالكلِّية.

وترتيبُ ذلك بالمعنى الثاني عليه لِمَا فيه من الخير الكثير؛ لأنه هدايةٌ ورحمةٌ للعالَمين، وفيه ما ينتظمُ به أمر المعاشِ والمعادِ.

وكِلَا المعنيين مناسبٌ للمقام، ورجِّح الأولُ بأنه أنسبُ به لمكان قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فقد قال الطيبيُّ: في اختصاصِ النذير دون البشير سلوكُ طريقةِ براعةِ الاستهلالِ، والإيذانُ بأنَّ هذه السورةَ مشتملةٌ على ذكر المعاندين المتَّخذين لله تعالى ولداً وشريكاً، الطاعنين في كتبه ورسله واليومِ الآخِر، وهذا المعنى يؤيِّدُ تأويلَ «تبارك» بـ: تَزايَدَ عن كلِّ شيءٍ، وتعالى عنه في صفاته وأفعاله جلَّ وعلا؛ لإفادته صفةَ الجلال والهيبةِ، وإيذانه من أول الأمر بتَعاليه سبحانه عمَّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً، وهو من الحُسْنِ بمكان.

و«الفرقان» مصدرُ فَرَقَ الشيءَ من الشيء وعنه: إذا فَصَلَه، ويقال أيضاً كما ذكره الراغب[١]: فَرَقْتُ بين الشيئين: إذا فَصَلْتَ بينهما، سواءٌ كان ذلك بفَصْلٍ يدركُه البصرُ أو بفَصْلٍ تدركُه البصيرة. والتفريقُ بمعناه إلَّا أنه يدلُّ على التكثير دونه. وقيل: إنَّ الفَرْقَ في المعاني، والتفريقَ في الأجسام.

والمرادُ به القرآنُ، وإطلاقُه عليه لفَصْلِه بين الحقِّ والباطل بما فيه من البيان، أو بين المُحِقِّ والمُبْطِلِ لِمَا فيه من الإعجاز، أو لكونه مفصولاً بعضُه عن بعضٍ في نفسه أو في الإنزال حيث لم ينزل دفعةً كسائر الكتب ـ وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يقولُه الصوفيةُ في ذلك ـ فهو مصدرٌ بمعنى الفاعل أو بمعنى المفعول، ويجوزُ أن يكون ذلك من بابِ:

.... هـي إقبـالٌ وإدبـار[٢]

فلا تغفل.

والمراد بـ«عبده»: نبيُّنا محمدٌ ﷺ، وإيرادُه عليه الصلاة والسلام بذلك العنوانِ

---

(١) في مفرداته (فرق).
(٢) طرف بيت للخنساء، وسلف ١١/ ٤٨٣.

لتشريفه، والإيذانِ بكونه صلواتُ الله تعالى وسلامُه عليه في أقصى مراتبِ العبودية، والتنبيهِ على أنَّ الرسول لا يكون إلّا عبداً للمرسِل ردّاً على النصارى.

وقيل: المرادُ بالفرقان: جميعُ الكتب السماوية؛ لأنَّها كلَّها فَرَقَتْ بين الحقِّ والباطل، وبعبده: الجنسُ الشاملُ لجميعِ مَن نزلت عليهم، وأيِّد بقراءةِ ابنِ الزبير: «على عباده»(١)، ولا يَخْفَى ما في ذلك من البُعْدِ.

والمرادُ بالعباد في قراءة ابن الزبير: الرسولُ عليه الصلاة والسلام وأمتُه، والإنزالُ كما يضاف إلى الرسول ﷺ يضافُ إلى أمته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ [النور: ٣٤] لأنه واصلٌ إليهم، ونزولُه لأَجْلِهم، فكأنه مُنزلٌ عليهم وإن كان إنزالُه حقيقةً عليه عليه الصلاة والسلام.

وقيل: المرادُ بالجمع هو ﷺ، وعبّر عنه به تعظيماً.

وضميرُ «يكون» عائدٌ على «عبده». وقيل: على «الفرقان» وإسنادُ الإنذار إليه مجازٌ. وقيل: على الموصول الذي هو عبارةٌ عنه تعالى، ورجِّح بأنه العمدةُ المسنَدُ إليه الفعلُ، والإنذارُ من صفاته عزَّ وجل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣]. وقيل: على التنزيل المفهوم من «نزَّل». والمتبادرُ إلى الفهم هو الأول، وهو الذي يقتضيه ما بعدُ.

والنذيرُ صفةٌ مشبَّهةٌ بمعنى مُنْذِر، وجوِّز أن يكون مصدراً بمعنى إنذار، كالنكير بمعنى إنكار، وحكمُ الإخبار بالمصدر شهيرٌ. والإنذارُ إخبارٌ فيه تخويفٌ ويقابله التبشير، ولم يتعرَّض له لِمَا مرَّ آنفاً.

والمرادُ بالعالَمين عند جَمْعٍ من العالِمين: الإنسُ والجنُّ ممن عاصَرَه ﷺ إلى يوم القيامة. ويؤيِّدهُ قراءةُ ابنِ الزبير: «للعالمين للجنِّ والإنس»(٢). وإرسالُه ﷺ إليهم معلومٌ من الدِّين بالضرورة فيكفَّرُ مُنْكِرُه، وكذا الملائكةُ عليهم السلام كما رجَّحه جمعٌ محقِّقون كالسُّبكيِّ ومَن تَبِعه، وردَّ على مَن خالَفَ ذلك. وادَّعَى بعضُهم دلالةَ الآيةِ عليه؛ لأنَّ العالَمَ ما سوى اللهِ تعالى وصفاتِه العُلَى، فيشملُ الملائكة عليهم السلام، وصيغةُ جمع العقلاء للتغليب، أو جُمع بعد تخصيصِه بالعقلاء.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٧، والبحر ٦/ ٤٨٠.

(٢) البحر ٦/ ٤٨٠.

ومَن قال كالبارزي: إنه عليه الصلاة والسلام أُرْسِلَ حتى إلى الجمادات بعد جَعْلِها مُدْرِكةً لظاهرِ خبرِ مسلم: «وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافةً»(١) لم يخصِّص واكتفى بالتغليب.

وفائدةُ الإرسالِ للمعصوم وغير المكلَّفِ طَلَبُ إذعانهما لشرفه عليه الصلاة والسلام، ودخولِهما تحت دعوته وأتباعه تشريفاً على سائرِ المرسلين عليهم السلام.

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على متعلَّقه للتشويق ومراعاةِ الفواصل، وللحَصْرِ أيضاً على القول الأول في «العالمين».

وإبرازُ تنزيل الفرقان في مَعْرِضِ الصِّلةِ التي حقُّها أن تكون معلومَة الثبوتِ للموصول عند السامع مع إنكار الكَفَرةِ له؛ لإجرائه مجرى المعلوم المسلَّمِ تنبيهاً على قوَّةِ دلائله، وكونِه بحيث لا يكادُ يجهلُه أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] وكذا يقال في نظائره من الصِّلات التي ينكرُها الكَفَرةُ.

وقال بعضهم: لا حاجةَ لِمَا ذُكر؛ إذ يكفي في الصِّلة أن تكون معلومةً للسامع المخاطَبِ بها، ولا يلزم أن تكون معلومةً لكلِّ سامع، والمخاطبُ بها هنا هو رسول الله ﷺ، وهو عليه الصلاة والسلام عالمٌ بثبوتها للموصول. وفي «شرح التسهيل»: أنه لا يلزم فيها أن تكون معلومةً، وأنَّ تعريفَ الموصول كتعريفِ «أل»؛ يكون للعهد والجنسِ، وأنه قد تكون صلتُه مُبْهَمةً للتعظيم كما في قوله:

فإنْ أستَطِعْ أَغْلِبْ وإنْ يَغْلِبِ الهوى   فمثلُ الذي لاقيتُ يُغْلَبُ صاحبُه(٢)

وما ذُكر أوَّلاً من تنزيلها منزلةَ المعلوم أبلغُ؛ لكونه كنايةً عمَّا ذُكِرَ مناسِبةً للردِّ على مَن أنكر النبوَّةَ وتوحيدَ الله تعالى.

---

(١) صحيح مسلم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو عند أحمد (٩٣٣٧)، والبارزي هو قاضي حماة، شرف الدين، هبة الله بن عبد الرحيم الجهني، له: شرح الحاوي، والتميز، والوفا في سرائر المصطفى، توفي سنة(٧٣٨هـ). طبقات الشافعية ١٠/ ٣٨٧. وقد سلف كلامه عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأعراف.

(٢) البيت لابن ميادة كما في أمالي القالي ١/ ١٦٥، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٣٤، ومعجم الأدباء ١١/ ١٤٨.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له سبحانه خاصةً دون غيره ـ لا استقلالاً ولا اشتراكاً ـ السلطانُ القاهرُ والاستيلاءُ الباهرُ عليهما، المستلزِمُ للقدرة التامَّة والتصرُّفِ الكلِّيِّ فيهما وفيما فيهما، إيجاداً وإعداماً، وإحياءً وإماتةً، وأمراً ونهياً، حَسْبَما تقتضيه مشيئتُه المبنيَّةُ على الحِكَم والمصالح.

ومحلُّ الموصول الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والجملةُ مستأنفةٌ مقرِّرةٌ لِمَا قبلها أو على أنه نعتٌ للموصول الأول، أو بيانٌ له، أو بدلٌ منه، وما بينهما ليس بأجنبيٍّ لأنه من تمام الصلة ومتعلِّقٌ بها، فلا يضرُّ الفصلُ به بين التابع والمتبوع كما في «البحر»(١). أو محلُّه الرفعُ أو النصبُ على المدح، بتقدير: هو، أو: أَمْدَحُ.

واختار الطيبيُّ أنَّ محلَّه الرفعُ على الإبدال، وعلَّله بقوله: لأنَّ من حقِّ الصلةِ أن تكون معلومةً عند المخاطب، وتلك الصلةُ لم تكن معلومةً عند المعانِدين، فأبدل «الذي له» إلخ بياناً وتفسيراً. وهو بعيدٌ مِن مِثْلِه، وسبحان مَن لا يعابُ عليه شيءٌ.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي: لم يُنْزِلْ أحداً منزلةَ الولد. وقيل: أي: لم يكن له ولدٌ كما يزعم الذين يقولون في حقِّ المسيح وعُزَيرٍ والملائكةِ عليهم السلام ما يقولون، فسبحان اللهِ عما يصفون.

والجملةُ معطوفةٌ على ما قَبْلَها من الجملة الظرفية، وكذا قولهُ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي: ملكِ السماوات والأرض، وأُفرد بالذكر مع أنَّ ما ذُكر من اختصاصِ ملكهما به تعالى مستلزمٌ له قطعاً؛ للتصريح ببطلان زَعْمِ الثنويةِ القائلين بتعدُّدِ الآلهة، والردِّ في نحورهم. وتوسيطُ نفي اتخاذِ الولد بينهما؛ للتنبيه على استقلاله وأصالته، والاحترازِ عن توهُّم كونِه تتمةً للأول.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أَحْدَثَه إحداثاً جارياً على سَنَنِ التقدير والتسوية حَسْبَما اقتضته إرادتُه المبنيَّةُ على الحِكَم البالغةِ، كخلقهِ الإنسان من موادَّ مخصوصةٍ، وصورٍ وأشكالٍ معيَّنةٍ.

---

(١) ٦/ ٤٨٠.

﴿فَقَدَّرَهُ﴾ أي: هيَّأه لِمَا أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به ﴿تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ بديعاً لايقادَرُ قَدْرُه، ولا يُبْلَغُ كنهُه، كتهيئةِ الإنسان للفَهْمِ والإدراك، والنظرِ والتدبُّرِ في أمور المعادِ والمعاشِ، واستنباطِ الصنائع المتنوِّعةِ، ومُزاولةِ الأعمال المختلفةِ، إلى غير ذلك، فلا تكرارَ في الآية؛ لِمَا ظهر من أنَّ التقدير الدالَّ عليه الخَلْقُ بمعنى التسويةِ، والمعبَّرَ عنه بلَفْظِه بمعنى التهيئة، وهما غيران، والخَلْقُ على هذا على حقيقته.

ويجوزُ أن يكون الخَلْقُ مجازاً، بل منقولاً عرفيّاً في معنى الإحداث والإيجاد غير ملاحظ فيه التقديرُ وإن لم يَخْلُ عنه، ولهذا صحَّ التجوُّز، ويكون التصريحُ بالتقدير دلالةً على أنَّ كلَّ واحدٍ مقصودٌ بالذات، فكأنه قيل: وأَوْجَدَ كلَّ شيءٍ فقدَّره في إيجاده لم يُوْجِدْه متفاوتاً بل أَوْجَدَه مُتناصِفاً مُتناسِباً.

وقيل: التقدير الثاني هو التقديرُ للبقاء إلى الأَجَلِ المسمَّى، فكأنه قيل: وأَوْجَدَ كلَّ شيءٍ على سَنَنِ التقدير، فأدامه إلى الأجل المسمَّى.

والقولُ الأول مختارُ الزَّجَّاج(١)، وهو كما في «الكشف» أظهرُ، والفاءُ عليه للتعقيب مع الترتيب.

وزَعَم بعضُهم أنَّ في الكلام قلباً، وهو على ما فيه لا يَدْفَعُ لزومَ التكرار بدون أحدِ الأوجُهِ المذكورة كما لا يخفى.

وجملةُ «خَلَقَ» إلخ عطفٌ على ما تقدَّم، وفيها ردٌّ على الثَّنوية القائلين بأن خالقَ الشرِّ غيرُ خالقِ الخير، ولا يضرُّ كونهُ معلوماً مما تقدَّم؛ لأنها تفيدُ فائدةً جديدةً لِمَا فيها من الزيادة.

وقيل: هي ردٌّ على مَن يعتقد اعتقادَ المعتزلة في أفعال الحيوانات الاختيارية.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنها جاريةٌ مجرى التعليل لِمَا قبلها من الجمل المنتظمةِ [مثلها] في سلك الصلة؛ فإنَّ خَلْقَه تعالى لجميع الأشياء على النَّمَطِ البديع ـ كما يقتضي استقلالُه تعالى باتِّصافه بصفاتِ الألوهية ـ يقتضي انتظامَ كلِّ

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/٥٧، وحاشية الشهاب ٦/٤٠٦-٤٠٧.

ما سواه كائناً ما كان تحت ملكوته القاهر، بحيث لا يشذُّ من ذلك شيءٌ، ومَن كان كذلك كيف يتوهَّم كونُه ولداً له سبحانه أو شريكاً في ملكه عزَّ وجل[١].

وذكر الطيبيُّ أنَّ قولَه تعالى: (لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) توطئةٌ وتمهيدٌ لقوله سبحانه: (وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ) وأردف بقوله تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ) لِمَا أنَّ كونه سبحانه بديعَ السماواتِ والأرضِ وفاطرَهما ومالكَهما منافٍ لاتِّخاذ الولدِ والشريك؛ قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ الآية [الأنعام:١٠١].

وقد يقال: إنَّ هذه الجملةَ تصريحٌ بما عُلِمَ قبلُ؛ ليكون التشنيع على المشركين بقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أظهرَ.

وضميرُ «اتَّخذوا» للمشركين المفهوم من قوله تعالى: (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ)، أو من المقام وقولِه سبحانه: (نَذِيرًا). وقال الكرمانيُّ: للكفار[٢]، وهم مندرجون في قوله تعالى: (لِلْعَٰلَمِينَ).

والمرادُ حكايةُ أباطيلِهم في أمر التوحيد والنبوَّةِ وإظهارُ بطلانها، بعد أن بيَّن سبحانه حقيقةَ الحقِّ في مطلع السورة الكريمة، أي: اتَّخذوا لأنفسهم متجاوزين الله تعالى الذي ذكر بعض شؤونه العظيمةِ آلهةً لا يقدرون على خَلْقِ شيءٍ من الأشياء، وهم مخلوقون لله تعالى، أو هم يَخْتِلقُهم عَبَدَتُهم بالنحت والتصوير.

ورُجِّح المعنى الأولُ بأنَّ الكلام عليه أشملُ، ولا يختصُّ بالأصنام، بخلافه على الثاني، ويكونُ التعبيرُ بالمضارع عليه في «يُخْلَقون» المبنيِّ للمفعول لمشاكلةِ «يَخلقون» المبنيِّ للفاعل، مع استحضارِ الحال الماضية.

ورجِّح المعنى الثاني بأنه أنسبُ بالمقام؛ لأنَّ الذين أنذرهم نبيُّنا ﷺ شفاهاً عَبَدةُ الأصنام، وأنَّ الأحكام الآتية أوفقُ بها، نعم فيه تفسيرُ الخَلْقِ بالافتعال كما في قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧] لأنه الذي يصحُّ نسبتُه لغيره عز وجل، وكذا الخلقُ بمعنى التقدير كما في قول زهير:

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠١، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) يعني ضمير «اتخذوا»، وكلام الكرماني في البحر ٦/ ٤٨١، وعنه نقل المصنف.

ولأنْتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبعـ ـضُ القومِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِي[(١)]

والمتبادرُ منه إيجادُ الشيءِ مقدَّراً بمقدارٍ كما هو المرادُ من سابقه، وتفسيرُه بذلك أيضاً كما فعل الزمخشريُّ[(٢)] بعيدٌ. كذا قيل، وتعقِّب بأنه يجوز أن يراد منه هذا المتبادِرُ، والأصنامُ بذواتها وصورِها وأشكالِها مخلوقةٌ لله تعالى عند أهل الحقِّ؛ لأنَّ أفعالَ العباد وما يترتَّب عليها وينشأ منها من الآثار مخلوقةٌ له عزَّ وجلَّ عندهم كما حقِّق في موضعه[(٣)]. بل لو قيل بتعيُّنِ هذه الإرادةِ على ذلك الوجه لم يَبْعُدْ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لبيان حالهم بعد خَلْقِهم ووجودهم، والمرادُ: لا يَقْدِرون على التصرُّف في ضرٍّ ما ليدفعوه عن أنفسهم، ولا في نفعٍ ما حتى يجلبوه إليهم. ولمَّا كان دفعُ الضرِّ أهمَّ أُفيد أوَّلاً عجزُهم عنه، وقيل: «لأنفسهم» ليدلَّ على غايةِ عجزهم؛ لأنَّ مَن لا يقدِرُ على ذلك في حقِّ نفسه فَلأَنْ لا يقدِرَ عليه في حقِّ غيره من باب أَوْلَى.

ومَن خصَّ الأحكام في الأصنام قال: إنَّ هذا لبيان ما لم يدلَّ عليه ما قبله من مراتب عجزهم وضَعْفِهم، فإنَّ بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دَفْعَ الضرِّ وجَلْبَ النفع في الجملة كالحيوان.

وقد يقال: التصرُّفُ في الضرِّ والنفع بالدفع والجَلْبِ على الإطلاق ليس على الحقيقة إلَّا لله عز وجل، كما يُنْبِئُ عنه قولُه سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف:١٨٨].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ أي: لا يقدرون على التصرُّفِ في شيء منها بإماتةِ الأحياء وإحياءِ الموتى في الدنيا وبَعْثِهم في الأخرى؛ للتصريح بعَجْزِهم عن كلِّ واحدٍ مما ذُكر على التفصيل، والتنبيهِ على أنَّ الإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك. وتقديمُ الموت لمناسبةِ الضرِّ المقدَّم.

---

(١) ديوان زهير ص٩٤، وسلف ٢/ ١٢ وص٣٧ من هذا الجزء.

(٢) في الكشاف ٣/ ٨١.

(٣) قوله: في موضعه، ليس في (م)، وينظر ما سلف ١/ ٣٩٥ وما بعد و٦/ ١٦٦-١٦٧ و٣/ ١٠١.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ القائلون ـ كما أخرجه جمعٌ عن قتادةَ ـ هم مشركو العرب لا جميعُ الكفار، بقرينةِ ادِّعاء إعانةِ بعض أهل الكتاب له ﷺ، وقد سمِّي منهم في بعض الروايات: النضرُ بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية، ونوفلُ بن خويلد. ويجوز أن يراد غُلاتهُم كهؤلاء ومَن ضامَّهم، وروي عن ابن عباس ما يؤيِّده.

وروي عن الكلبيِّ ومقاتلٍ: أنَّ القائل هو النضرُ، والجمعُ لمشايعة الباقين له في ذلك.

ومَن خصَّ ضمير «اتخذوا» بمشركي العرب، وجَعَل الموصول هنا عبارةً عنهم كلِّهم، جَعَل وَضْعَ الموصول موضعَ ضميرِهم لذمِّهم بما في حيِّز الصلة، والإيذانِ بأنَّ ما تفوَّهوا به كفرٌ عظيم.

وفي كلمةِ «هذا» حطٌّ لرتبة المشارِ إليه، أي: قالوا: ما هذا إلا كذبٌ مصروفٌ عن وجهه ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ يريدون أنه اخترعه رسولُ الله ﷺ ولم ينزل عليه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ أي: على افترائه واختراعِهِ، أو: على الإفك ﴿قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يعنون اليهودَ، بأنْ يُلْقوا إليه ﷺ أخبارَ الأمم الدَّارِجة، وهو عليه الصلاة والسلام يعبِّر عنها بعبارته.

وقيل: هم عدَّاس ـ وقيل: عابس[١] ـ مولى حويطب بنِ عبد العُزَّى، ويسار مولى العلاء بن الحضرميِّ، وجبر مولى عامر، وكانوا كتابيِّينَ يقرؤون التوراةَ أسلموا وكان الرسول ﷺ يتعهَّدهم، فقيل ما قيل.

وقال المبرِّد: عَنَوا بقوم آخرين: المؤمنين؛ لأنَّ آخَرَ لا يكونُ إلَّا من جنس الأول. وفيه أنَّ الاشتراك في الوصف غيرُ لازم، ألا ترى قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٌ﴾[٢] [آل عمران: ١٣].

---

(١) في الأصل و(م): عائش، والمثبت من الإصابة ٥/ ٢٦٦، وتجريد أسماء الصحابة للذهبي ص٢٨٠، وينظر تفسير القرطبي ١٢/ ٤٣٠. والذي ذكر أنه عداس هو الزمخشري في الكشاف ٣/ ٨١.

(٢) أي: إن الفئتان اشتركتا في مطلق الفئة واختلفتا في الوصف. البحر ٦/ ٤٨١، وعنه نقل المصنف قول المبرد وما بعده.

﴿فَقَدْ جَآءُو﴾ أي: الذين كفروا كما هو الظاهر ﴿ظُلْمًا﴾ منصوبٌ بـ «جاؤوا» فإنَّ جاء وأتى يُستعملان في معنى فَعَلَ فيتعدَّيان تَعْدِيتَه كما قال الكسائيُّ، واختار هذا الوجهَ الطبرسيُّ وأنشد قولَ طرفة:

علـى غيـرِ ذنـبٍ جئـتـهُ غيـرَ أنـنـي   نَـشَـدْتُ فـلـم أُغـفِـلْ حَـمـولـةَ مَـعْـبَـدِ[1]

وقال الزجَّاج: منصوبٌ بنزع الخافض[2]، فهو من باب الحذف والإيصال. وجوَّز أبو البقاء كونَه حالاً، أي: ظالمين[3]. والأول أولى.

والتنوينُ فيه للتفخيم، أي: جاؤوا بما قالوا ظلماً هائلاً عظيماً لا يقادَرُ قَدْرُه، حيث جعلوا الحقَّ البحتَ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه إفكاً مفترًى من قِبَلِ البشر، وهو من جهة نَظْمِه الرائقِ وطرازِه الفائق بحيث لو اجتمعت الإنسُ والجنُّ على مباراته لعجزوا عن الإتيان بمثلِ آيةٍ من آياته، ومن جهة اشتماله على الحِكَمِ الخفيَّةِ والأحكامِ المستتبعةِ للسعادات الدينية والدنيوية والأمورِ الغيبيةِ، بحيث لا تنالُه عقولُ البشر، ولا تحيطُ بفَهْمِه القُوَى والقُدَر.

وكذا التنوينُ في ﴿وَزُورًا ۝٤﴾ أي: وكذباً عظيماً لا يبلغ غايته، حيث قالوا ما لا احتمالَ فيه للصدق أصلاً. وسمِّي الكذبُ زوراً لازْوِراره، أي: ميله عن جهة الحقِّ.

والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لكنْ لا على أنَّهما أمران متغايران حقيقةً يقعُ أحدُهما عقيبَ الآخر أو يحصلُ بسببه، بل على أنَّ الثاني عينُ الأول حقيقةً، وإنما الترتيبُ بحسب التغايُرِ الاعتباريِّ، و«قد» لتحقيق ذلك المعنى، فإنَّ ما جاؤوه من الظلم والزور هو عينُ ما حُكي عنهم، لكنَّه لمَّا كان مغايراً له في المفهوم وأَظْهَرَ

---

(١) مجمع البيان ١٨/ ٨٦، والبيت في الديوان ص٣٥، وفيه: على غير ذنب قلتُه...، ومثله في شرح المعلقات للنحاس ١/ ٨٥، وللتبريزي ص١١٠، وفيه: معبد أخوه، والحمولة: الإبل التي تَحمل، والحمولة: الأحمال. وقوله: فلم أغفل، أراد: نشدت حمولة معبد فلم أغفل ذلك.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٥٨.

(٣) الإملاء ٤/ ٩١.

منه بطلاناً، رتَّب عليه بالفاء ترتيبَ اللازِمِ على الملزوم؛ تهويلاً لأمره كما قال شيخ الإسلام(١).

وقيل: ضميرُ «جاؤوا» عائدٌ على «قوم آخرين»، والجملةُ من مقولِ الكفار، وأرادوا أنَّ أولئك المعيَّنين جاؤوا ظلماً بإعانتهم وزُوراً بما أعانوا به، وهو كما ترى.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بعد ما جعلوا الحقَّ الذي لا مَحِيدَ عنه إفكاً مُخْتَلَقاً بإعانة البشر، بيَّنوا على زَعْمِهم الفاسدِ كيفيةَ الإعانة، وتقدَّم الكلامُ في الأساطير(٢)، وهي خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هذه، أو: هو، أو: هي أساطيرُ. وقولُه تعالى: ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ خبرٌ ثان. وقيل: حالٌ بتقدير «قد». وتعقَّب بأنَّ عامل الحال إذا كان معنوياً لا يجوزُ حَذْفُه كما في «المغني»(٣). وفيه أنه غيرُ مسلَّم كما في شَرْحِه. وجوَّز أن يكون «أساطير» مبتدأً، وجملةُ «اكتتبها» الخبرَ.

ومرادُهم: كتبها لنفسه، والإسنادُ(٤) مجازيٌّ كما في: بَنَى الأميرُ المدينة، والمراد: أَمَر بكتابتها. أو يقالُ: حقيقةُ اكتتب: أَمَرَ بالكتابة، فقد شاع افْتَعَلَ بهذا المعنى، كاحْتَجَمَ وافْتَصَد: إذا أَمَرَ بالحجامة والفَصْدِ.

وقيل: قالوا ذلك لظنِّهم أنه عليه الصلاة والسلام يَكتبُ حقيقةً، أو لمحضِ الافتراء عليه ﷺ، بناءً على عِلْمِهم أنه(٥) لم يكن يكتبُ ﷺ.

وقيل: مرادُهم: جَمعَها، مِن كَتَبَ الشيء: جَمَعَه. والجمهورُ على الأول.

وقرأ طلحة: «اكتُتِبَها» مبنيّاً للمفعول(٦)، والأصلُ: اكتَتَبَها له كاتبٌ، فحذفَ اللامُ وأَفْضَى الفعلُ إلى الضمير، فصار: اكتَتَبها إياه كاتبٌ، ثم حُذف الفاعل لعَدَمِ تعلُّق الغرض العلميِّ بخصوصه، فبُنِيَ الفعلُ للمفعول وأسند للضمير، فانقلب

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٣.
(٢) في (م): أساطير. وينظر ما سلف ١٠/ ٩٤ و١٨/ ١٢٨.
(٣) ص٤٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٠٧.
(٤) في الأصل: على أن الإسناد.
(٥) في الأصل: بأنه.
(٦) القراءات الشاذة ص١٠٣، والمحتسب ٢/ ١١٧، والبحر ٦/ ٤٨٢.

مرفوعاً مستتراً بعد أن كان منصوباً بارزاً، وهذا مبنيٌّ على جوازِ إقامة المفعول الغيرِ الصريح مقامَ الفاعل مع وجودِ الصريح وهو هنا ضميرُ الأساطير، وهو الذي ارتضاه الرضيُّ وغيرُه. وجمهورُ البصريين على عَدَمِ الجوازِ وتعيُّنِ المفعول الصريح للإقامة، فيقال عندهم: اكتُتِبَتْه، وعليه قول الفرزدق:

ومنّا الذي اختيرَ الرجالَ سماحةً وجوداً إذا هبَّ الرياحُ الزَّعازعُ[1]

بنَصْبِ الرجال، وعلى الأوّلِ كان حقُّ التركيب: اخْتِيرَه الرجالُ بالرفع؛ فإنَّ الأصل: اختاره من الرجال مختارٌ، وظاهرٌ أنه إذا عَمِلَ فيه ما تقدَّم يصير إلى ما ذكر.

﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُلْقَى تلك الأساطيرُ عليه بعد اكتتابها ليَحْفَظَها من أفواه مَن يُمْليها عليه من ذلك المكتَتَب؛ لكونه أمّيّاً لا يقدرُ على أن يتلقَّاها منه بالقراءة، فالإملاء: الإلقاء للحفظ بعد الكتابة استعارة، لا الإلقاءُ للكتابة كما هو المعروفُ، حتى يقال: إنَّ الظاهر العكسُ بأن يقال: أُمْلِيتْ عليه فهو يكتتبها.

أو المعنى: أراد اكتتابَها أو طلَبَ كتابتَها فأُمْلِيَتْ عليه، أي: عليه نفسِه أو على كاتبه، فالإملاءُ حينئذٍ باقٍ على ظاهره.

وقرأ طلحةُ وعيسى: «تُتْلَى» بالتاء بدل الميم[2].

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ أي: دائماً، أو: قبل انتشار الناس وحين يأتون إلى مساكنهم، وعَنَوا بذلك أنها تُملَى عليه خفيةً لئلَّا يقف الناسُ على حقيقةِ الحال، وهذه جراءةٌ عظيمةٌ منهم قَاتَلهم الله تعالى أنى يؤفكون.

وعن الحسن: أنَّ «اكتتبها» إلخ من قول الله عز وجل يكذِّبهم به، وإنما يستقيم أن لو فتحت[3] الهمزة في «اكتتبها» للاستفهام الذي هو في معنى الإنكار، ووجهُه أن يكون نحوَ قول حَضْرميّ بن عامر وقد خرج يتحدَّثُ في مجلس قومٍ وهو في حلَّتين له، فقال جَزْء بنُ سنان بن مَوَلة: والله إنَّ حضرمياً لجذلٌ بموتِ أخيه أن وَرِثه:

(١) ديوان الفرزدق ٢/ ٤١٨، والبحر ٦/ ٤٨٢، وجاء في الديوان: وخيراً، بدل: وجوداً.
(٢) البحر ٦/ ٤٨٢.
(٣) في الأصل و(م): افتتحت، والمثبت من الكشاف٣/ ٨٢، والبحر ٦/ ٤٨٢.

أَفْــرحُ أنْ أُرْزَأَ الــكــرامَ وأنْ أُورَثَ ذَوْداً شـصـائـصـاً نَـبَـلَا(١)

من أبياتٍ، وحقَّ للحسن على ما في «الكشاف»(٢) أن يقف على «الأوَّلينَ».

﴿قُلْ﴾ لهم ردّاً عليهم وتحقيقاً للحقِّ: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وَصَفَه تعالى بإحاطة عِلْمِه بجميع المعلومات الخفيَّةِ والجليَّةِ المعلومةِ من بابِ أَوْلَى، للإيذان بانطواء ما أنزله على أسرارٍ مَطْويَّةٍ عن عقول البشر، مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكيةِ التي هي من جملة معلوماته تعالى، أي: ليس ذلك كما تزعُمون بل هو أمرٌ سماويٌّ أنزله الله تعالى الذي لا يَعْزُبُ عن عِلْمِه شيءٌ من الأشياء، وأَوْدَعَ فيه فنونَ الحِكَم والأسرار على وجهٍ بديع لا تحومُ حوله الأفهامُ، حيث أعجزكم قاطبةً بفصاحته وبلاغته، وأخبركم بمغيَّباتٍ مستقبلةٍ وأمورٍ مكنونةٍ لا يُهتدَى إليها ولا يُوقَف(٣) إلَّا بتوفيق الله تعالى العليم الخبير عليها، وإذا أرادوا بـ «بكرةً وأصيلاً»: خفيةً عن الناس، ازداد موقعُ السرِّ حُسْناً.

وأما التذييلُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ فهو للتنبيه على أنهم استَوْجَبوا العذابَ على ما هم عليه من الجنايات المحكيَّة، لكن أَخَّر عنهم لِمَا أنه سبحانه أزلاً وأبداً مستمرٌّ على المغفرة والرحمة المستتبعتين للتأخير، فكأنه قيل: إنه جلَّ وعلا متَّصفٌ بالمغفرة والرحمة على الاستمرار، فلذلك لا يعجِّلُ عقوبتكم على ما أنتم عليه، مع كمال استيجابه إياها، وغايةِ قدرته سبحانه عليها، ولولا ذلك لصَبَّ عليكم العذاب صَبّاً.

وذكر الطيبيُّ أنَّ فيه على هذا الوجه معنى التعجُّبِ، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

---

(١) أمالي القالي ١/ ٦٧، وجمهرة الأمثال ١/ ٣٧٦، والخزانة ٣/ ٤٢٩، والكشاف ٣/ ٨٢، والبحر ٦/ ٤٨٢. وجاء في هامش الأصل و(م): الشصائص جمع شَصُوص، وهي القليلةُ اللبن، والنَّبَلا جمع نبيل ـ ككَرَم في كريم ـ: الصِّغَار وتطلق على الكبار. اهـ منه. وحضرمي بن عامر بن مَوَلَة ـ بفتحات ـ الأسديُّ يكنى أبا كدم، وفد على النبي ﷺ مع قومه بني أسد بن خزيمة، فأسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً. الإصابة ٢/ ٢٦٤. وجاء في المصادر: جزء بن مالك، بدل: جزء بن سنان.

(٢) ٣/ ٨٢، وفيه: وحقُّ الحسن. . .

(٣) في الأصل: يوفق، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٣، والكلام منه.

وجوِّز أن يكون الكلامُ كنايةً عن الاقتدار العظيم على عقوبتهم؛ لأنه لا يوصفُ بالمغفرة والرحمة إلا القادرُ على العقوبة، وفي إيثارها تعييرٌ لهم، ونعيٌ على فِعْلِهم، يعني: أنكم فيما أنتم عليه بحيث يتصدَّى لعذابكم مَن صفتُه المغفرةُ والرحمةُ. وليس بذاك.

وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يقال: ذكر المغفرةَ والرحمةَ بعد ذلك لأَجْلِ أن يعرفوا أنَّ هذه الذنوبَ العظيمةَ المتجاوِزةَ عن الحدِّ مغفورةٌ إنْ تابوا، وأنَّ رحمته واصلةٌ إليهم بعدها، وأن لا ييأسوا من رحمته تعالى بما فرط منهم مع إصرارهم على ما هم عليه من المعاداة والمخاصَمَةِ الشديدة. وهو كما ترى.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ إلخ نزلت في جماعةٍ من كفار قريش؛ أخرج ابن إسحاق[1] وابن جريرٍ وابنُ المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ عتبةَ وشيبةَ ابني ربيعة، وأبا سفيان بنَ حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البختريِّ، والأسودَ بن المطَّلب، وزمعةَ بن الأسود، والوليدَ بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بنَ أبي أمية، وأمية بنَ خلف، والعاصي بن وائل، ونبيه بن الحجَّاج، ومنبِّه بن الحجَّاج، اجتمعوا، فقال بعضُهم لبعضٍ: ابعثوا إلى محمدٍ وكلِّموه وخاصِموه حتى تُعْذَروا منه، فبعثوا إليه: إنَّ أشرافَ قومك قد اجتمعوا لك ليكلِّموك. فجاءهم عليه الصلاة والسلام فقالوا: يا محمد، إنَّا بَعَثْنا إليك لنُعْذَرَ منك، فإنْ كنتَ إنما جئتَ بهذا الحديث تطلبُ به مالاً جَمَعْنا لك من أموالنا، وإن كنتَ تطلبُ الشرفَ فنحن نسوِّدُكَ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملَّكناك. فقال رسول الله ﷺ: «ما بي مما تقولون، ما جئتُكم بما جئتكم به أطلبُ أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملكَ عليكم، ولكنَّ اللهَ تعالى بَعَثني إليكم رسولاً، وأَنْزَلَ عليَّ كتاباً، وأَمَرني أنْ أكونَ لكم بشيراً ونذيراً، فبلَّغتُكم رسالةَ ربِّي ونَصَحْتُ لكم، فإنْ تَقْبَلوا منِّي ما جئتُكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبرْ لأَمْرِ اللهِ تعالى حتَّى يَحْكُمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بيني وبينكم» قالوا: يا محمد، فإن كنتَ غير قابلٍ منَّا شيئاً مما عرضنا عليك فسَلْ لنفسك، سَلْ ربَّكَ أن يبعث معك مَلَكاً يصدِّقُكَ بما تقول ويراجعُنا عنك، وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهبٍ وفضةٍ تُغنيكَ عمَّا تبتغي، فإنك تقومُ بالأسواق

(١) في الأصل و(م): ابن أبي إسحاق، وهو خطأ.

وتلتمسُ المعاشَ كما نلتمسُه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إنْ كنتَ رسولاً كما تزعُم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعلٍ، ما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بُعِثْتُ إليكم بهذا، ولكنَّ الله تعالى بعثني بشيراً ونذيراً» فأنزل الله تعالى في قولهم ذلك ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ إلخ[1].

وقد سيقَ هنا لحكاية جنايتهم المتعلِّقةِ بخصوص المُنْزَلِ عليه الفرقانُ بعد حكايةِ جنايتهم التي تتعلَّق بالمُنْزَلِ، و«ما» استفهاميةٌ بمعنى إنكارِ الوقوع ونفيه في محلِّ رفعٍ على الابتداء، والجارُّ والمجرورُ بعدها متعلِّقٌ بمحذوف خبر لها، وقد وقعت اللَّامُ مفصولةً عن هذا المجرور بها في خطِّ الإمام وهي سنَّةٌ متَّبعة. وعَنَوا بالإشارة والتعبيرِ بالرسول الاستهانةَ والتهكُّم.

وجملةُ ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ حالٌ من «الرسول»، والعاملُ فيها ما عَمِلَ في الجارِّ من معنى الاستقرارِ، وجوِّز أن يكون الجارَّ والمجرورَ، أي: أيُّ شيء وأيُّ سببٍ حَصَلَ لهذا الزاعِمِ أنه رسولٌ حالَ كونِه يأكلُ الطعامَ كما نأكلُ ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ لابتغاء الأرزاق كما نفعلهُ، على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب فقط مع تحقُّق المسبَّب الذي هو مضمونُ الجملة الحالية. ومن الناس مَن جوَّز جَعْلَ الجملة استئنافيةً. والأَوْلَى ما ذَكَرْنا.

ومرادُهم استبعادُ الرسالةِ المنافيةِ لأكْلِ الطعام وطَلَبِ المعاش على زَعْمِهم، فكأنهم قالوا: إنْ صحَّ ما يدَّعيه فما بالُه لم يخالِفْ حالُه حالَنا، وليس هذا إلَّا لِعَمَهِهم[2] وركاكةِ عقولهم، وقصورِ أبصارهم على المحسوسات، فإنَّ تميُّز الرسل عليهم السلام عمَّا عَدَاهم ليس بأمورٍ جسمانيةٍ، وإنما هو بأمورٍ نفسانيةٍ، أعني: ما جَبَلَهم اللهُ تعالى عليه من الكمال كما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

واستُدِلَّ بالآية على إباحةِ دخولِ الأسواق للعلماء وأهلِ الدِّين والصلاح، خلافاً لمن كَرِهَه لهم.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥-٢٩٨، وتفسير الطبري ١٥/ ٨٧-٩٠ و١٧/ ٤٠٢، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٣، وعنه نقل المصنف.

(٢) العمه في البصيرة كالعمى في البصر. حاشية الشهاب ٦/ ٤٠٨.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَاۚ﴾ تنزُّلٌ عمَّا تقدَّم، كأنهم قالوا: إن لم تُوجد المخالفةُ بيننا وبينه في الأكل والتعيُّش، فهلَّا يكون معه مَن يخالفُ فيهما يكون رِدْءاً له في الإنذار، فإن لم توجد فهلَّا يخالفنا في أحدهما وهو طلبُ المعاشِ بأن يُلْقَى إليه من السماء كنزٌ يَسْتظهرُ به، ويَرْتَفِعُ احتياجُه إلى التعيُّش بالكلِّية، فإنْ لم يوجد فلا أقلّ من رَفْعِ الاحتياج في الجملة بإتيانِ بستانٍ يتعيَّش بريعه كما للدَّهَاقين[1] والمَيَاسيرِ من الناس.

والزمخشريُّ[2] ذكر أنهم عَنَوا بقولهم: «ما لهذا الرسول يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواق» أنه كان يجب أن يكون مَلَكاً، ثم نزلوا عن مَلَكِيته إلى صحبةِ مَلَكٍ له يُعينُه، ثم نزلوا عن ذلك إلى كونه مرفوداً بكنزٍ، ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون له بستانٌ يأكلُ منه ويرتزقُ.

وقيل: الجملةُ الأخيرة فقط تنزُّلٌ منهم، وما قبلُ استئنافٌ جواباً عمَّا يقال: كيف يخالفُ حالُه ﷺ حالَكم، وبأيِّ شيءٍ يحصل ذلك ويتميَّزُ عنكم؟ ولا يخفى ما فيه.

ونصب «يكونَ» على جواب التحضيض، وقرئ: «فيكونُ» بالرفع حكاه أبو معاذ[3]، وخرِّج على أن يكون معطوفاً[4] على «أُنزل»؛ لأنه لو وَقَعَ موقعَه المضارعُ لكان مرفوعاً؛ لأنك تقول ابتداءً: لولا يَنْزِلُ بالرفع، وقد عُطِفَ عليه «يُلْقَى» و«تكونُ» وهما مرفوعان. أو هو جوابُ التحضيض على إضمارِ «هو»، أي: فهو يكون.

ولا يجوزُ في مثل هذا التركيب نصبُ «يُلْقَى» و«تكونُ» بالعطف على «يكونَ» المنصوبِ؛ لأنهما في حُكْمِ المطلوب بالتحضيض، لا في حكم الجواب.

---

(١) جمع دهقان، وهو صاحب الصنعة والزراعة، وهو معرب: ده جان، أي: رئيس القرية. حاشية الشهاب ٦/ ٤٠٨.

(٢) في الكشاف ٣/ ٨٢.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٨٣.

(٤) في الأصل و(م): معطوف، والصواب ما أثبتناه.

ولعل التعبير أولاً بالماضي مع أنَّ الأصل في «لولا» التي للتحضيض أو العَرْضِ دخولُها على المضارع؛ لأنَّ إنزال المَلَكِ مع قَطْعِ النظر عن أن يكون معه عليه الصلاة والسلام نذيراً أمرٌ متحقِّقٌ لم يَزَلْ مدَّعياً له ﷺ فأخرجوا[1] الكلام حَسْبَما يدَّعيه عليه الصلاة والسلام وإن لم يكن مسلَّماً عندهم، وفيه نوعُ تهكُّمٍ منهم قَاتلَهم الله تعالى، بخلافِ الإلقاء وحصولِ الجنة، ولعل في التعبير بالمضارع فيهما - وإن كان هو الأصل - إشارةٌ إلى الاستمرار التجدُّديِّ، كأنهم طلبوا شيئاً لا يَنْفُد.

وذكر ابن هشام في «المغني» عن الهرويِّ أنه قال بمجيءِ «لولا» للاستفهام، ومثَّلَ له بمثالين أحدُهما قولُه تعالى: (لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ)، وتعقَّب ذلك بأنه معنًى لم يذكره أكثر النحويين، والظاهرُ أنها في المثال المذكورِ مثلُها في قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور: ١٣]، وذَكَر أنها في ذلك للتوبيخ والتنديم، وهي حينئذٍ تختصُّ بالماضي[2].

ولا يخفى أنه إن عَنَى بقوله تعالى: (لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ) ما وقع هنا فأمرُ كونها فيه للتوبيخ والتنديم في غاية الخفاء، فتدبَّر.

وقرأ قتادة والأعمش: «أو يكون» بالياء آخرِ الحروف[3]. وقرأ زيد بن عليٍّ وحمزةُ والكسائيُّ وابنُ وثاب وطلحةُ والأعمش: «نأكل» بالنون[4] إسناداً للفعل إلى ضمير الكفرة القائلين ما ذكر.

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هم القائلون الأوَّلون، وإنما وُضِعَ المُظْهَرُ موضعَ ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم فيما قالوه، لكونه إضلالاً خارجاً عن حدِّ الضلال، مع ما فيه

---

(١) في (م): فما أخرجوا، وهو خطأ.

(٢) المغني ص٣٦١-٣٦٢، وفيه بدل «لولا أنزل إليه ملك»: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]. والهروي هو علي بن محمد أبو الحسن صاحب الأزهية في الحروف، والذخائر في النحو. وكلامه في الأزهية ص١٦٦.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٨٣.

(٤) التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣ عن حمزة والكسائي، وهي قراءة خلف من العشرة، والكلام من البحر ٦/ ٤٨٣.

من نسبته ﷺ إلى ما يَشهد العقلُ والنقلُ ببراءته منه، أو إلى ما لا يصلح أن يكون متمسَّكاً لِمَا يزعمون من نفي الرسالة.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد: وقال الكاملون في الظلم منهم.

وأيًّا ما كان فالمراد أنهم قالوا للمؤمنين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: ما تتَّبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ سُحِرَ فغُلِبَ على عقله، فالمراد بالسحر ما به اختلالُ العقل.

وقيل: أصيب سَحْرُه ـ أي: رئتُه ـ فاختلَّ حالُه، كما يقال: مرؤوس، أي: أصيب رأسُه.

وقيل: يُسحَر بالطعام وبالشراب، أي: يغذَّى. أو: ذا سَحْرٍ ـ أي: رئةٍ ـ على أنَّ «مفعول» للنسب، وأرادوا أنه عليه الصلاة والسلام بشرٌ مثلهم.

وقيل: أي: ذا سِحْرٍ، بكسر السين، وعَنَوا قاتلهم الله تعالى: ساحراً. والأظهر على ما في «البحر» التفسيرُ الأول[1]. وذُكر أنه الأنسبُ بحالهم.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ استعظامٌ للأباطيل التي اجترؤوا على التفوُّه بها، وتعجيبٌ منها، أي: انظر كيف قالوا في حقِّك الأقاويلَ العجيبةَ الخارجةَ عن العقول، الجاريةَ لغرابتها مجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الصفاتِ والأحوالَ الشاذَّةَ البعيدةَ من الوقوع.

﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ فبقُوا متحيِّرين ضُلَّالاً لا يجدون في القَدْح في نبوَّتك قولاً يستقرُّون عليه وإن كان باطلاً في نفسه، فالفاء الأولى سببيةٌ، ومتعلّق «ضلُّوا» غيرُ مَنْوِيٍّ، والفاءُ الثانية تفسيريةٌ.

أو: فضلُّوا عن طريق الحقِّ فلا يجدون طريقاً موصلاً إليه، فإنَّ مَن اعتاد استعمالَ هذه الأباطيل لا يكاد يهتدي إلى استعمال المقدِّمات الحقَّةِ، فالفاءُ في الموضعين سببيةٌ، ومتعلّقُ «ضلُّوا» منويٌّ. ولعل الأوَّل أَوْلَى.

والمراد نفيُ أن يكون ما أَتَوا به قادحاً في نبوَّته ﷺ، ونفيُ أن يكون عندهم ما يصلحُ للقَدْحِ قطعاً على أبلغ وجهٍ، فإنَّ القدح فيها إنما يكون في القدح

---

(١) البحر ٦/ ٤٨٣.

بالمعجزات الدالَّة عليها، وما أتوا به لا يفيدُ ذلك أصلاً، وأنَّى لهم بما يفيده.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ أي: تَكاثَر خيرُ الذي إن شاء وَهَبَ لك في الدنيا شيئاً خيراً لك مما اقترحوه، وهو أن يَجْعَلَ لك مثلَ ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور، كذا في «الكشاف»[1].

وعن مجاهد: إنْ شاء جَعَلَ لك جناتٍ في الآخرة وقصوراً في الدنيا. ولا يخفى ما فيه.

وقيل: المراد: إن شاء جَعَلَ ذلك في الآخرة، ودخلتْ «إنْ» على فِعْلِ المشيئة تنبيهاً على أنه لا ينال ذلك إلا برحمته تعالى، وأنه معلَّقٌ على مَحْضِ مشيئته سبحانه، وليس لأحدٍ من العِبَاد والعُبَّادِ على الله عز وجل حقٌّ لا في الدنيا ولا في الآخرة. والأول أبلغ في تبكيت الكفار والردِّ عليهم، ولا يردُّه[2] كما زعم ابنُ عطيةَ قولُه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾[3] كما ستعلمُه إن شاء الله تعالى.

والظاهرُ أنَّ الإشارةَ إلى ما اقترحوه من الكنز والجنةِ، وخيريةُ ما ذكر من الجنة، لِمَا فيه من تعدُّدِ الجنةِ، وجريان الأنهارِ، والمساكنِ الرفيعة في تلك الجنان بأن يكون في كلٍّ منها مسكنٌ أو في كلٍّ مساكنُ. ومن الكنز لِمَا أنه مطلوبٌ لذاته بالنسبة إليه، وهو إنَّما يُطلب لتحصيل مثلِ ذلك، وهو أيضاً أظهرُ في الأُبَّهة وأملأُ لعيون الناس من الكنز، وعدمُ التعرُّضِ لجواب الاقتراح الأول لظهور منافاته للحكمة التشريعية، وربما يُعلم من كثيرٍ من الآيات، كذا قيل.

وفي «إرشاد العقل السليم»: إنَّ الإشارة إلى ما اقترحوه، من أن يكون له ﷺ جنةٌ يأكل منها، «وجناتٍ» بدلٌ من «خيراً» محقِّقٌ لخيريَّتِه مما قالوا؛ لأنَّ ذلك كان مطلقاً عن قيد التعدُّدِ وجريانِ الأنهار. وتعليقُ ذلك بمشيئتِهِ تعالى للإيذان بأنَّ عَدَمَ الجَعْلِ لعَدَمِ المشيئةِ المبنيَّةِ على الحِكَمِ والمصالح. وعَدَمُ التعرُّضِ لجواب

(١) ٣/ ٨٣.
(٢) في (م): يرد، والمثبت من الأصل والبحر ٦/ ٤٨٤، والكلام منه.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠١.

الاقتراحين الأوَّلين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل، واستغنائهما عن الجواب؛ لظهور بطلانِهما ومُنافاتِهما للحكمة التشريعية، وإنما الذي له وجهٌ في الجملة هو الاقتراحُ الأخير؛ فإنه غيرُ مُنافٍ للحكمة بالكلِّية، فإنَّ بعض الأنبياء عليهم السلام قد أُوتوا في الدنيا مع النبوَّة ملكاً عظيماً[(١)]. انتهى.

وهذا الذي ذكره في الإشارة جَعَله الإمام الرازيُّ قولَ ابنِ عباس ﵄[(٢)]، وما ذُكر أوَّلاً استَظْهَرَه أبو حيان وحَكاه عن مجاهد، وحَكَى عن ابن عباس أنها إشارةٌ إلى ما عيَّروا به من أكل الطعام والمشي في الأسواق، وقال: إنه بعيدٌ[(٣)]. وحكاه الإمام عن عكرمة[(٤)]. وكأنِّي بك تختارُ ما اختاره صاحب «الإرشاد».

والظاهرُ أنَّ «يجعلْ» مجزومٌ، فيكون معطوفاً على محلِّ الجزاء الذي هو «جَعَلَ»، وهو جزاءٌ أيضاً، وقد جيء به جملةً استقباليةً على الأصل في الجزاء، فقد ذكر أهلُ المعاني أنَّ الأصل في جملتي «إنْ» الشرطيةِ أن تكونا فعليَّتين استقباليَّتين لفظاً كما أنهما مستقبلتان معنًى، والعدولُ عن ذلك في اللفظ لا يكونُ إلا لنكتةٍ، وكأنَّ التعبير على هذا بالجملتين الماضويَّتين لفظاً في «إنْ شاءَ جَعَلَ» إلخ لزيادةِ تبكيت الكفارِ فيما اقترحوا من جنسه، ولمَّا لم يقترحوا ما هو من جنسِ جَعْلِ القصور لم يُسْلَكْ فيه ذلك المسلك، فتدبَّر.

وقيل: كان الظاهرُ بعد التعبير أوَّلاً في الجزاء بالماضي أن يعبَّر به هنا أيضاً، لكنه عَدَلَ إلى المضارع لأنَّ جَعْلَ القصور في الجنان مستقبلٌ بالنسبة إلى جَعْلِ الجنان.

ثم إنَّ هذا العطف يقتضي عدمَ دخولِ القصور في الخير المُبْدَلِ منه قولُه سبحانه: ﴿جَنَّتٍ﴾، وكأنَّ ما تقدَّم عن «الكشاف» بيانٌ لحاصل المعنى بمعونة السياق.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٥.
(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ٥٣.
(٣) البحر ٦/ ٤٨٤.
(٤) يعني عن عكرمة عن ابن عباس كما في تفسير الرازي ٢٤/ ٥٣.

وجوَّز أنْ يكون مرفوعاً أُدْغِمتْ لامُه في لام «لك»، لكنَّ إدغام المثلين إذا تحرَّك أولُهما إنَّما هو مذهبُ أبي عمرو[١]، والذي قرأ بالتسكين من السبعة هو وحمزةُ والكسائيُّ ونافعٌ[٢].

وفي روايةِ محبوبٍ عنه أنه قرأ بالرفع بلا إدغام، وهي قراءةُ ابن عامر وابن كثير ومجاهد وحميد وأبي بكر[٣]، والعطفُ على هذه القراءة واحتمالُ الإدغام عند ابن عطية على المعنى في «جَعَلَ»؛ لأنَّ جواب الشرط موضعُ استئنافٍ، أَلَا يُرى أنَّ الجملة من المبتدأ والخبر قد تقعُ موقعَ جواب الشرط[٤]؟

وقال الزمخشريُّ: هو معطوفٌ على «جَعَلَ» لأنَّ الشرط إذا كان ماضياً جاز في جوابه الجزمُ والرفعُ، كقول زهيرٍ في مَدْحِ هرم بن سنان:

وإنْ أتاه خليلٌ[٥] يومَ مَسْغَبةٍ يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ[٦]

ومذهبُ سيبويه أنَّ الجواب في مثل ذلك محذوفٌ، وأنَّ المضارع المرفوعَ على نيةِ التقديم[٧]. وذهب الكوفيون والمبرِّدُ[٨] إلى أنه هو الجواب، وأنه على حذفِ الفاء.

والتركيبُ عند الجمهور فصيحٌ سائغٌ في النثر كالشعر، وحكى أبو حيَّان عن بعض أصحابه أنه لا يجوز إلَّا في الضرورة؛ إذ لم يَجِئْ إلا في الشعر[٩]. وتمامُ الكلام في تحقيق المذاهب في محلِّه.

---

(١) التيسير ص٢٠.

(٢) وعاصمٌ في رواية حفص. التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣. وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب وخلف من العشرة.

(٣) التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣ عن ابن عامر وابن كثير وأبي بكر، والكلام من البحر ٦/ ٤٨٤.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠١.

(٥) جاء في هامش الأصل و(م): من الخَلَّة بالفتح، وهو الفقر.

(٦) الكشاف ٣/ ٨٣، والبيت في ديوان زهير ص١٥٣، والكتاب ٣/ ٦٦، والبحر ٦/ ٤٨٤.

(٧) الكتاب ٣/ ٦٦، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٨٤.

(٨) في المقتضب ٢/ ٦٩، والكلام من البحر ٦/ ٤٨٤.

(٩) البحر ٦/ ٤٨٤.

وقال الحوفيُّ وأبو البقاء: الرفعُ على الاستئناف[١]، قيل: وهو استئنافٌ نحويٌّ، والكلامُ وعدٌ له ﷺ بجَعْلِ تلك القصور في الآخرة، ولذا عَدَلَ عن الماضي إلى المضارع الدالِّ على الاستقبال.

وقيل: هو استئنافٌ بيانيٌّ، كأن قائلاً يقول: كيف الحال في الآخرة؟ فقيل: يجعل لك فيها قصوراً.

وجَعَلَ بعضُهم على الاستئناف هذا الجَعْلَ في الدنيا أيضاً، على معنى: إن شاء جَعَلَ لك في الدنيا جناتٍ، ويجعلُ لك في تلك الجنات قصوراً إن تحقَّقت الشرطية، وهو كما ترى.

وقيل: الرفعُ بالعطف على «تجري» صفة بتقدير: ويَجْعَلُ فيها، أي: الجنات. وليس بشيءٍ.

وقرأ عبيد الله بن موسى وطلحة بن سليمان: «ويجعلَ» بالنصب[٢] على إضمار «أنْ»، ووجهُه على ما نُقِلَ عن السيرافيِّ أنَّ الشرط لمَّا كان غيرَ مجزومٍ أَشْبهَ الاستفهامَ. وقيل: لمَّا كان غيرَ واقعٍ حال المشارطة أشبه النفي، وقد ذكر النصبَ بعده سيبويه، وقال: إنه ضعيف.

وقيل: الفعلُ مرفوعٌ وفتح لامه إتباعاً لِلَام «لك»، نظير ما قيل في قوله:

لم يمنع الشربَ منها غيرَ أن نَطَقتْ حمامةٌ في غصونٍ ذاتِ أَوْقَالِ[٣]

من أنه فتح راء «غير» إتْباعاً لهمزةِ «أنْ» وهو أحدُ وجهين في البيت.

ونظيرُ الآية في هذه القراءات قولُ النابغة:

فإنْ يَهْلِكْ أبو قابوس يَهْلِكْ ربيعُ الناس والشَّهرُ الحرامُ

---

(١) الإملاء ٢/٤ ٩، ونقله المصنف عنه وعن الحوفي بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٨٤.
(٢) المحتسب ٢/ ١١٨، والبحر ٦/ ٤٨٤.
(٣) الكتاب ٢/ ٣٢٩، والأصول في النحو ١/ ٢٧٦، وسر صناعة الإعراب ٢/ ٥٠٧، والإنصاف ١/ ٢٨٧ و٢٩٠، والمغني ١/ ٦٧١، والخزانة ٣/ ٤٠٦، وفيه: نطقت: صوَّتت وصدحت. وذاتِ: صفةٌ لغصون. والأوقال: جمع وَقْل. والبيت سلف ١٢/ ٦٩.

ونأخذ بعده بذِنابِ عيشٍ أجَبِّ الظَّهْر ليس له سَنامُ[1]

فإنه يُروى في «نأخذ» الجزمُ والرفعُ والنصبُ.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ انتقالٌ إلى حكايةِ نوعٍ آخَرَ من أباطيلهم متعلِّقٍ بأمرِ المَعاد، وما قبلُ كان متعلِّقاً بأمر التوحيد وأمرِ النبوة، ولا يضرُّ في ذلك العودُ إلى ما يتعلَّق بالكلام السابق، واختلافُ أساليبِ الحكاية لاختلاف المحكيِّ، وما ألطفَ تصديرَ حكايةِ ما يتعلَّقُ بالآخرة بـ «بل» الانتقالية.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ إلخ لبيانِ ما لهم في الآخرة بسببه، أي: هيَّأنا لهم ناراً عظيمةً شديدةَ الاشتعال شأنُها كيتَ وكيتَ بسبب تكذيبهم بها، على ما يُشْعِرُ به وضعُ الموصولِ موضعَ ضميرهم، أو لكلِّ مَن كذَّب بها كائناً مَن كان، وهم داخلون في ذلك دخولاً أوَّلياً. ووضعُ الساعةِ موضعَ ضميرِها للمبالغة في التشنيع.

وهذا الإعتاد[2] وإن كان ليس بسببِ تكذيبهم بها خاصَّةً بل يشاركُه في السببية له ارتكابُهم الأباطيلَ في أمر التوحيد وأمرِ النبوة، إلَّا أنه لمَّا كانت الساعةُ نفسُها هي العلةَ القريبةَ لدخولهم السعيرَ، أُشير بما ذُكر إلى سببيةِ التكذيب بها لدخولها، ولم يتعرَّض للإشارة إلى سببيةِ شيءٍ آخَرَ.

وقيل: إنَّ مَن كذَّب بالساعة صار كالاسم لأولئك المشركين والمكذِّبين برسول الله ﷺ والمكذِّبين بالساعة، أي: الجامعين للأوصافِ الثلاثةِ؛ لأنَّ التكذيب بها أخصُّ صفاتِهم القبيحةِ، وأكثرُ دوراناً على ألسنتهم، إذ من الكفار مَن يشركُ ويكذِّبُ برسول الله عليه الصلاة والسلام ولا يكذِّبُ بالساعة. فالمرادُ ممَّن[3] يكذِّب بالساعة أولئك الصنفُ من الكفرة. وهو كما ترى.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: (بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ) عطفٌ على قوله تعالى: (وَقَالُوا۟ مَالِ

---

(١) ديوان النابغة ص١١٠. وأبو قابوس هو النعمان بن المنذر. وقوله: الظهر، يجوز فيه ثلاثة وجوه: الرفع والنصب والجر، وينظر تفصيل ذلك في الخزانة ٩/ ٣٦٤.

(٢) في الأصل و(م): الاعتداد، والصواب ما أثبتناه، وينظر تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٥.

(٣) في (م): من.

هَٰذَا ٱلرَّسُولِ) إلخ وإضرابٌ عنه إلى ما هو أعجبُ منه، على معنى: أنَّ ذلك تكذيبٌ للرسول ﷺ وهذا تكذيبٌ لله سبحانه وتعالى؛ ففي «صحيح البخاريِّ» عن النبيِّ ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكن له ذلك ـ إلى قوله تعالى ـ فأما تكذيبُه إيَّايَ فزَعَم أنِّي لا أقدرُ أن أعيدَه كما كان»[1]، وظاهرُه أنَّ أعجبية التكذيب بالساعة لأنه تكذيبٌ لله عزَّ وجلَّ.

وقال بعضُهم: إنَّ الأعجبية لأنهم أنكروا قدرةَ الله تعالى على الإعادة مع ما شاهدوه في الأنفُسِ والآفاق، وما ارْتكَزَ في أوهامهم من أنَّ الإعادةَ أهونُ من الإبداء، وليس ذلك لأنه تكذيبُ الله عزَّ وجل فإنهم لم يسمعوا أمرَ الساعةِ إلَّا من النبيِّ ﷺ، فهو تكذيبٌ له عليه الصلاة والسلام فيه. وأنت تعلم أنَّ في الحديث إشارةً إلى ما ارتضاه.

وقيل: إضرابٌ عن ذاك، على معنى: أَتوا بأَعْجَبَ منه، حيث كذَّبوا بالساعة وأنكروها والحالُ أنَّا قد أعْتَدْنا لمن كذَّب بها سعيراً، فإنَّ جراءتهم على التكذيب بها، وعَدَمَ خوفهم مما أعدَّ لمن كذَّب بها من أنواع العذاب، أعجبُ من القول السابق.

وتعقِّب بأنه لا نُسلِّم كونَ الجراءةِ على التكذيب بالساعة أعجبَ من الجراءة على القول السابق بعد ظهورِ المعجزة، ولا نسلِّم أنَّ انضمامَ عَدَمِ الخوف مما يترتَّبُ عليه إذا كان ذلك الترتُّبُ في الساعة المكذَّب بها يفيد شيئاً. وفيه تأمل.

وقيل: هو إضراب عن ذاك على معنى: أتوا بأعجب منه حيث كذبوا بالساعة التي أَخْبَرَ بها جميعُ الأنبياء عليهم السلام، فالجراءةُ على التكذيب بها جراءةٌ على التكذيب بهم، والجراءة على التكذيب بهم أعجبُ من الجراءة على القول السابق.

وتعقِّب بأنَّ مرادهم من القول السابق نَفْيُ نبوَّتِه عليه الصلاة والسلام وتكذيبُه ـ وحاشاه ثم حاشاه من الكذب في دعواه إياها ـ لعَدَمِ مخالفة حاله ﷺ حالَهم، واتِّصافِه بما زعموا منافاتَه للرسالة، وذلك موجودٌ ومتحقِّقٌ في جميع الأنبياء عليهم السلام، فتكذيبُه ﷺ لذلك تكذيبٌ لهم أيضاً، فلا يكون التكذيبُ

(١) صحيح البخاري(٤٤٨٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بالساعة على ما ذكر أعجبَ من تكذيب النبيِّ ﷺ، لاشتراك التكذيبين في كونهما في حكم تكذيب الكلِّ.

وقيل: هو متَّصلٌ بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ﴾ إلخ الواقع جواباً لهم، والمُنْبِئِ عن الوعد بالجنَّات والقصور في الآخرة، مسوقٌ لبيان أنَّ ذلك لا يُجدي نفعاً، على طريقةِ قولِ مَن قال:

عُوجُوا لنُعْمٍ فحيُّوا دِمْنَةَ الدارِ ماذا تحيُّون من نُؤْيٍ وأحجارِ[1]

والمعنى أنهم لا يؤمنون بالساعة، فكيف يقتنعون بهذا الجواب؟ وكيف يصدِّقون بتعجيل مثلِ ما وعدك في الآخرة؟

وقيل: إضرابٌ عن الجواب إلى بيانِ العلَّة الداعيةِ لهم إلى التكذيب، والمعنى: بل كذَّبوا بالساعة فقصرتْ أنظارُهم على الحظوظ الدنيوية، وظنُّوا أنَّ الكرامة ليست إلَّا بالمال، وجعلوا خُلُوَّ يدِكَ عنه ذريعةً إلى تكذيبك.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ إلى آخره صفةٌ للسعير، والتأنيثُ باعتبارِ النار. وقيل: لأنه عَلَمٌ لجهنمَ كما روي عن الحسن. وفيه أنه لو كان كذلك لامْتَنعَ دخولُ «أل» عليه، ولَمُنِعَ من الصَّرْفِ للتأنيثِ والعَلَميَّة.

وأجيب بأنَّ دخول «أل» لِلَمْحِ الصفة، وهي تدخل الأعلام لذلك كالحسن والعباس، وبأنه صُرِفَ للتناسُبِ ورعايةِ الفاصلة، أو لتأويله بالمكان، وتأنيثُه هنا للتفنُّن.

وإسنادُ الرؤية إليها حقيقةٌ على ما هو الظاهر، وكذا نسبةُ التغيُّظِ والزفير فيما بعدُ؛ إذ لا امْتناعَ في أنْ يخلقَ الله تعالى النارَ حيةً مغتاظةً زافرةً على الكفار، فلا حاجةَ إلى تأويل الظواهر الدالَّةِ على أنَّ لها إدراكاً، كهذه الآية، وقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وقولِه ﷺ كما في «صحيح البخاريِّ»: «شَكَتِ النارُ إلى ربِّها فقالت: ربِّ أكلَ بعضي بعضاً. فأَذِنَ لها بنَفَسين: نَفَسٍ في الشتاء، ونَفَسٍ في الصيف»[2] إلى غير ذلك.

---

(١) البيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٤٨ برواية: عوجوا فحيوا لنُعم...، وسلف ١٧/ ١٠٧.

(٢) صحيح البخاري (٣٢٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٢٤٧)، ومسلم (٦١٧).

وإذا صحَّ ما أخرجه الطبرانيُّ وابنُ مردويه من طريق مكحولٍ عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كَذَبَ عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من بين عيني جهنَّم» قالوا: يا رسول الله، هل لجهنم من عين؟ قال: «نعم، أمَا سمعتُم الله تعالى يقول: (إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) فهل تراهم إلَّا بعينين»[1] كان ما قلناه هو الصحيحَ.

وإسنادُها إليها لا إليهم للإيذان بأنَّ التغيُّظ والزفيرَ منها لهيجان غَضَبِها عليهم عند رؤيتها إياهم.

﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ هو أقصى ما يمكنُ أن يُرى منه، وروي أنه هنا مسيرةُ خمسِ مئةِ عام. وأخرج آدم بنُ أبي إياس[2] في تفسيره عن ابن عباس أنه مسيرةُ مئةِ عامٍ. وحكي[3] ذلك عن السديِّ والكلبيِّ. ورُوي أيضاً عن كعب.

وقيل: مسيرة سنةٍ، وحكاه الطبرسيُّ عن الإمام أبي عبد الله رضي الله عنه[4]، ونسبه في «إرشاد العقل السليم» إلى السديِّ والكلبيِّ[5].

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ أي: صوتَ تغيُّظٍ ليصِحَّ تعلُّق السماع به. وفي «مفردات» الراغب: الغيظ أشدُّ الغضب، والتغيُّظ هو إظهار الغيظ، وقد يكون ذلك مع صوتٍ مسموعٍ كما في الآية[6].

---

(١) المعجم الكبير (٧٥٩٩)، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٦٤. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٤٨: فيه الأحوص بن حكيم، ضعفه النسائي وغيره، ووثقه العجلي ويحيى بن سعيد القطان، ورواه عن الأحوص محمد بن الفضل بن عطية، وهو ضعيف.
وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٠٩، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٧ من طريق خالد بن دريك عن رجل من أصحاب محمد عن النبي ﷺ. وخالد بن دريك قال عنه ابن حجر في التقريب: ثقة يرسل.
ومن المتواتر قوله ﷺ: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». ينظر فتح الباري ١/ ٢٠٣، والأزهار المتناثرة (٢).

(٢) أبو الحسن الخراساني المرُّوذي، ثم البغدادي، ثم العسقلاني، محدث عسقلان، واسم أبيه: ناهية بن شعيب، وقيل: عبد الرحمن. توفي سنة (٢٢٠هـ). السير ١٠/ ٣٣٥. ونقله المصنف عنه بواسطة السيوطي في الدر ٥/ ٦٤.

(٣) جاء في هامش (م): حكاه الطبرسي في مجمع البيان. اهـ منه. وهو في مجمع البيان ١٨/ ٩٣.

(٤) مجمع البيان ١٨/ ٩٣.

(٥) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٦.

(٦) مفردات الراغب (غيظ).

وقيل: أُريدَ بالسماع مطلقُ الإدراك، كأنه قيل: أدركوا لها تغيُّظاً.

﴿وَزَفِيرًا ⑫﴾ هو إخراجُ النَّفَس بعد مدِّه، على ما في «القاموس»[1]. وقال الراغب: هو ترديدُ النَّفَسِ حتى تنتفخَ الضلوعُ منه[2]. وشاع استعمالُه في نَفْسِ صوتِ ذلك النَّفَس، ولا شبهةَ في أنه مما يتعلَّق به السماعُ، ولذا استَشْكَلوا تعلُّقَ السماع بالتغيُّظ دون الزفير، فأوَّلوا لذلك بما سمعتَ.

وقال بعضهم: إنَّ ما ذُكر من قبيل قوله:

ورأيــــتُ زوجَــــكِ قــــد غــــدا   متــقــلِّــداً ســيــفــاً ورمــحــاً[3]

وهو بتقديرِ: سمعوا لها وأَدْرَكوا تغيُّظاً وزفيراً، ويعاد كلٌّ إلى ما يناسبه.

ومن الناس مَن قال: الكلامُ خارجٌ مخرجَ المبالغة بجَعْلِ التغيُّظِ مع أنه ليس من المسموعات مسموعاً.

والتنوينُ فيه وفي «زفيراً» للتفخيم، وقد جاء في الآثار ما يدلُّ على شدة زفيرها أعاذنا الله تعالى منها، ففي خبرٍ أخرجه ابن جريرٍ وابن أبي حاتم بسندٍ صحيح عن ابن عباس: أنَّها تَزْفِرُ زَفْرةً لا يبقى أحدٌ إلا خاف[4].

وأخرج ابن المنذر وابن جريرٍ وغيرُهما عن عبيد بن عمير أنه قال في قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ إلخ: إنَّ جهنم لَتَزْفِرُ زَفْرةً لا يبقى مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ إلا تَرْعُدُ فرائصُه، حتى إن ابراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول: يا ربِّ، لا أسألك اليومَ إلا نفسي[5].

---

(١) مادة (زفر).

(٢) مفردات الراغب (زفر).

(٣) البيت لعبد الله بن الزِّبَعْرى، وهو في ديوانه ص٣٢، والكامل ١/ ٤٣٢ و٤٧٧، ومجاز القرآن ٢/ ٦٨، والخصائص ٢/ ٤٣١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١١٤٧، والبحر ٦/ ٤٨٥. وصدر البيت في هذه المصادر: يا ليت زوجك قد غدا.
قال أبو حيان: وهذا مخرَّجٌ على تخريجين، أحدهما: الحذف، أي: ومعتقلاً رمحاً. والثاني: تضمين متقلداً معنى متسلحاً، فكذلك الآية، أي: سمعوا لها ورأوا تغيظاً وزفيراً، وعاد كل واحد إلى ما يناسبه، أو ضمن «سمعوا» معنى أدركوا، فيشمل التغيظ والزفير.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤١٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٨.

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٤٠٩-٤١٠، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٤، وأخرجه أيضاً

وأخرج أبو نعيم عن كعب قال: إذا كان يومُ القيامة جَمَعَ الله تعالى الأوَّلينَ والآخِرين في صعيدٍ واحدٍ، فنزلت الملائكةُ صفوفاً، فيقول الله تعالى لجبريل عليه السلام: ائتِ بجهنَّم، فيأتي بها تُقاد بسبعين ألفَ زمام، حتى إذا كانت من الخلائق على قَدْرِ مئة عام زَفَرتْ زَفْرةً طارت لها أفئدةُ الخلائق، ثم زَفرتْ ثانيةً فلا يبقى مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَلٌ إلا جثا لركبتيه، ثم تزفرُ الثالثةَ فتبلغُ القلوبُ الحناجر، وتذهلُ العقولُ، فيَفْزَعُ كلُّ امرئ إلى عمله حتى إن إبراهيم عليه السلام يقول: بخلَّتي لا أسألكَ إلَّا نفسي. ويقول موسى عليه السلام: بمناجاتي لا أسألك إلَّا نفسي. ويقول عيسى عليه السلام: بما أَكْرَمْتَني لا أسألكَ إلَّا نفسي، لا أسألُكَ مريمَ التي وَلَدَتْني. ومحمد ﷺ يقول: أمتي أمتي، لا أسألك اليومَ نفسي. فيجيبُه الجليلُ جلَّ جلالُه: إنَّ أوليائي من أمتك لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، فَوَعِزَّتي لأُقِرَّنَّ عينَك. ثم تقفُ الملائكةُ عليهم السلام بين يدي الله تعالى ينتظرون ما يؤمَرون[1]. وهذه الأخبار ظاهرةٌ في أنَّ النار هي التي تزفرُ، وأنَّ الزفير على حقيقته.

وزعم بعضهم أنَّ زفيرها صوتُ لهيبها واشتعالها.

وقيل: إنَّ كلًّا من الرؤية والتغيُّظِ والزفيرِ لزبانيتها، ونسبتهُ إليها على حذف المضاف، ونُقل ذلك عن الجبائيِّ.

وقيل: إنَّ قولَه تعالى: (رَأَتْهُم) من قوله ﷺ: «إنَّ المؤمنَ والكافر لا تتراءى ناراهما»[2]، وقولِهم: دورُهم تتراءى وتتناظَرُ، كأنَّ بعضَها يَرَى بعضاً، على سبيل

= عبد الرزاق ٢/ ٦٧، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٨.

(١) الحلية ٥/ ٣٧٢-٣٧٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ. وأخرجه الترمذي (١٦٠٥)، والنسائي ٨/ ٣٦ من طريق إسماعيل عن قيس عن النبي ﷺ. قال الترمذي: ولم يذكر فيه: عن جرير، وهذا أصح. وقال في العلل ٢/ ٦٨٦: سألت محمداً (يعني البخاري) عن هذا الحديث فقال: الصحيح عن قيس بن أبي حازم مرسلاً. اهـ. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص٥٥: وصله معاوية عن إسماعيل عن قيس عن جرير، وأرسله غيره من أصحاب إسماعيل، وتابعه حجاج بن أرطاة عن إسماعيل. وحجاج ضعيف، ورجح البخاري وغيره =

الاستعارة بالكناية أو المجاز[1] المرسل، وجوّز أن يكون من باب التمثيل، وأيًّا ما كان فالمراد: إذا كانت بمرأى منهم. وقولَه سبحانه: (سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا) على تشبيه صوتِ غليانها بصوتِ المغتاظ وزفيرِه، وفيه استعارةٌ تصريحيةٌ أو مكنيةٌ، وجوّز أن تكون تمثيليةً، وقد ذكر هذا التأويل الزمخشريُّ مقدِّماً له[2]. وذَكَرَ بعضُ الأئمة أنَّ هذا مذهبُ المعتزلة؛ لأنهم جعلوا البنيةَ شرطاً في الحياة.

وفي «الكشف»: الأشبهُ أنَّ ذلك ليس لأنَّ البنيةَ شرطٌ، ومن أين العلم بأنَّ بنية نارِ الآخرة بحيث لا تستعدُّ للحياة؟ بل لأنه لا بدَّ من ارتكاب خلافِ الظاهر، مِن جَعْلِ الشيء المعروفِ جماديتُه حيّاً ناطقاً، فكان خبراً على خلاف المعتاد، أو الحملِ على المجاز التمثيليِّ الشائع في كلامهم، لا سيما في كلام الله تعالى ورُسُلِه عليهم السلام، وإذ لاح الوجهُ فكن الحاكمَ في تَرْكِ الظاهر إلى هذا أو ذاك، وفتحُ هذا البابِ لا يجرُّ إلى مذهبِ الفلاسفة، كما توهَّم صاحب «الانتصاف»[3]، ولا يخالف تعبُّدَنا بالظواهر، فإنَّ ما يدَّعونه أيضاً ليس بظاهرٍ. انتهى.

وأنت تعلم بعد الإغماض عن المناقشة فيما ذكر أنَّ الحمل على الحقيقة هنا أبلغُ في التهويل، ولعله يهوِّنُ أمرَ الخبر على خلاف المعتاد؛ وهذا إن لم يصحَّ الخبرُ السابق، أما إذا صحَّ فلا ينبغي العدولُ عما يقتضيه، وليس لأحدٍ قولٌ مع قوله ﷺ، فإنه الأعلم بظاهر الكتاب وخافيه.

﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا﴾ أي: في مكانٍ، فهو منصوبٌ على الظرفية، و«منها» حالٌ منه لأنه في الأصل صفة، وجوّز تعلُّقه بـ «أُلقوا».

وقوله تعالى: ﴿ضَيِّقًا﴾ صفةٌ لـ «مكاناً» مقيِّدةٌ لزيادة شدَّة الكرب مع الضيق كما أنَّ الرَّوْحَ[4] مع السعة، وهو السرُّ في وصف الجنة بأنَّ عَرْضَها السماواتُ

= المرسل، وخالف الجميعَ حفصُ بن غياث فرواه عن إسماعيل عن قيس عن خالد بن الوليد، أخرجه الطبراني. اهـ. وحديث خالد في المعجم الكبير (٣٨٣٦).

(١) في (م): والمجاز.

(٢) الكشاف ٣/ ٨٣-٨٤.

(٣) ٣/ ٨٣، قال: ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد لتطوَّح الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة والتحيز إلى فرق الفلاسفة، فالحق أنا متعبَّدون بالظاهر ما لم يمنع مانع.

(٤) الرَّوح بالفتح: الراحة. حاشية الشهاب ٦/ ٤١٠.

والأرض. وأخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن [أبي] أسيد أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟﴾ إلخ فقال: «والذي نفسي بيده إنهم ليُستَكْرَهون في النار كما يُسْتكرهُ الوتدُ في الحائط»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها تضيقُ عليهم كما يضيق الزُّجُّ(٢) في الرمح.

وقال(٣) الكلبيُّ: الأسفلون يرفعُهم اللَّهبُ، والأَعْلَوْن يحطُّهم الداخلون، فيزدحمون.

وقرأ ابن كثير: «ضَيْقاً» بسكون الياء(٤).

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حالٌ من ضميرِ «أُلقوا»، أي: إذا ألقوا منها مكاناً ضيِّقاً حالَ كونهم مقرَّنين قد قُرِنَتْ أيديهم إلى أعناقهم بالجوامع.

وقيل: مقرَّنين مع الشياطين في السلاسل، كلُّ كافرٍ مع شيطانه وفي أرجلهم الأصفاد. وحكي عن الجبائيِّ.

وقرأ أبو شيبة صاحبُ معاذ بن جبل: «مقرَّنون» بالرفع(٥)، ونسبها ابن خالويه إلى معاذ(٦)، ووجهُها على ما في «البحر»: كونُه بدلاً من ضمير «ألقوا» بدلَ نكرةٍ من معرفةٍ(٧).

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المكان الهائل ﴿ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ أي: هلاكاً كما قال

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٨، وذكره ابن كثير عن تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر ٥/ ٦٤، وما سلف بين حاصرتين من هذه المصادر.
(٢) الزج: الحديدة في أسفل الرمح. القاموس (زجج).
(٣) في الأصل و(م): وقرأ، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٦، والكلام منه.
(٤) التيسير ص١٠٦، والنشر ٢/ ٢٦٢.
(٥) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٢، والبحر ٦/ ٤٨٥، والكلام منه، وأبو شيبة هو المهري كما ذكر ابن عطية، وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٩/ ٣٩٠: سئل أبو زرعة عن أبي شيبة المهري فقال: هو من التابعين ولا يعرف اسمه.
(٦) القراءات الشاذة ص١٠٤، والكلام من البحر ٦/ ٤٨٥.
(٧) البحر ٦/ ٤٨٥.

الضحاك وقتادة، وهو مفعولُ «دَعَوا» أي: نادوا ذلك فقالوا: يا ثُبُوراه، على معنى: احضُرْ فهذا وقتُكَ.

وجَعَلَ غير واحدٍ النداءَ بمعنى التمنِّي، فيتمنَّوْنَ الهلاك ليَسْلَموا ممَّا هو أشدُّ منه، كما قيل: أشدُّ من الموت ما يُتَمنَّى معه الموتُ.

وجوَّز أبو البقاء نصبَ «ثبوراً» على المصدرية لـ «دَعَوا» على معنى: دَعَوْا دعاءً[1].

وقيل: على المصدرية لفعلٍ محذوفٍ، ومفعولُ «دَعَوا» مقدَّرٌ، أي: دَعَوا مَن لا يُجيبهم قائلين: ثَبَرْنا ثبوراً.

وكِلَا القولين كما ترى.

ولا اختصاصَ لدعاء الثبور بكَفَرةِ الإنس فإنه يكون للشيطان أيضاً؛ أخرج أحمد وابنُ أبي شيبة وعبد بن حميد والبزَّارُ وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه، والبيهقيُّ في «البعث»، بسندٍ صحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أوَّلَ مَن يُكْسَى حلَّةً من النار إبليسُ، فيضعُها على حاجبيه ويسحبُها من خَلْفِه ذرِّيتُه من بعده، وهو ينادي: يا ثُبوراه، ويقولون: يا ثُبورهم، حتى يقف على النار فيقول: يا ثبوراه، ويقولون: يا ثبورهم» الحديث[2]. وفي بعض الروايات أنَّ أولَ من يقول ذلك إبليسُ، ثم يتبعُه أتباعه[3].

وظاهرُه شمولُ الأتْباع كفرةَ الإنس والجنِّ، ولا يتوهَّم اختصاصُ ذلك ببعض كفرةِ الإنس بناءً على ما قيل: إنَّ الآية نزلت في أبي جهل وأصحابه؛ لما لايخفى.

وقولُه تعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ على تقديرِ قولٍ إمَّا منصوب على أنه

---

(١) الإملاء ٤/ ٩٤.

(٢) مسند أحمد (١٢٥٣٦)، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٦٨و١٤/ ١٠٩، وكشف الأستار (٣٤٩٥)، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٦٩، والبعث والنشور (٦٤٧)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٤ - ٦٥، وعنه نقل المصنف، وفي إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.

(٣) ذكرها القرطبي في تفسيره ١٥/ ٣٧٥.

حالٌ من فاعلِ «دعوا»، أي: دَعَوا مقولاً لهم ذلك حقيقةً كما هو الظاهر ـ بأنْ تخاطبهم الملائكةُ لتنبيههم على خلودِ عذابهم وأنَّهم لا يجابون إلى ما يَدْعونه، أوْ لا ينالون ما يتمنَّونه من الهلاك المنجي ـ أو تمثيلاً لهم، وتصويراً لحالهم بحالِ مَن يقالُ له ذلك من غير أن يكون هناك قولٌ وخطابٌ كما قيل، أي: دَعَوه حالَ كونهم أحقَّاءَ بأن يقال لهم ذلك.

وإمَّا لا محلَّ له من الإعراب على أنه معطوفٌ على ما قبله، أي: إذا أُلقوا منها مكاناً ضيقاً دَعَوْا ثبوراً، فيقال لهم: لا تَدْعوا.. إلخ. أو على أنه مستأنفٌ وقع جواباً عن سؤالٍ مقدَّر ينسحبُ عليه الكلام، كأنه قيل: فماذا يكون عند دعائهم المذكور؟ فقيل: يقال لهم ذلك، والمرادُ به إقناطُهم عما علَّقوا به أطماعهم من الهلاك، وتنبيههم على أنَّ عذابهم الملجئَ لهم إلى ذلك أبديٌّ لا خلاصَ لهم منه، على أبلغ وجه، حيث أشار إلى أن المخلِّص ممَّا هم فيه من العذاب عادةً غيرُ مخلِّصٍ، وما يخلِّص غيرُ ممكنٍ، فكأنه قيل: لا تدعوا اليومَ هلاكاً واحداً فإنه لا يخلِّصكم ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا﴾ وهلاكاً ﴿كَثِيرًا﴾ لا غايةَ لكثرته لتَخَلَّصوا به، وأنَّى بالهلاك الكثير:

ومَن لم يَمُتْ بالسيفِ مات بغيره تعدَّدتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ[1]

وهذا معنًى دقيقٌ لم أعلم أنَّ أحداً ذكره.

وقيل: وُصِفَ الثبورُ بالكثرة باعتبارِ كثرةِ الألفاظ المُشْعِرةِ به، فكأنه قيل: لا تقولوا: يا ثبوراه فقط، وقولوا: يا ثبوراه يا هلاكاه يا ويلاه يا لهفاه، إلى غير ذلك. وهو كما ترى.

وقال شيخ الإسلام: وَصَفَه بذلك بحَسَبِ كثرة الدعاء المتعلِّق به، لا بحَسَبِ كثرتِه في نفسه، فإنَّ ما يَدْعونه ثبورٌ واحدٌ في حدِّ ذاته، لكنه كلما تعلَّق به دعاءٌ من تلك الأدعية الكثيرةِ صار كأنه ثبورٌ مغايرٌ لِمَا تَعلَّق به دعاءٌ آخر، وتحقيقُه: لا تدعوه دعاءً واحداً وادْعُوه أَدْعيةً كثيرةً، فإنَّ ما أنتم فيه من العذاب لغايةِ شدَّتِه وطولِ مُدَّتِه مستوجبٌ لتكرير الدعاء في كلِّ آن.

---

(١) البيت لابن نباتة السعدي عبد العزيز بن عمر بن محمد، كما في وفيات الأعيان ٣/ ١٩٣، والوافي بالوفيات ١٨/ ٥٣٤.

ثم قال: وهذا أَدَلُّ على فظاعة العذابِ وهَوْلِه مِن جَعْلِ تعدُّدِ الدعاء وتجدُّدِه لتعدُّد العذاب بتعدُّدِ أنواعه وألوانه، أو لتعدُّدِه بتجدُّدِ الجلود، كما لا يخفى.

وأمَّا ما قيل من أنَّ المعنى: إنكم وقعتُم فيما ليس ثبورُكم فيه واحداً، إنما هو ثبورٌ كثيرٌ: إما لأنَّ العذاب أنواعٌ وألوانٌ كلُّ نوعٍ منها ثبورٌ لشدَّته وفظاعته، أو لأنَّهم كلما نَضِجَتْ جلودُهم بدِّلوا جلوداً غيرها، فلا غايةَ لهلاكهم = فلا يلائم المقام، كيف وهم إنما يَدْعُون هلاكاً يُنْهي عذابَهم وينجيهم منه، فلا بد أن يكون الجوابُ إقناطاً لهم عن ذلك ببيان استحالته ودوامِ ما يوجب استدعاءه من العذاب الشديد[١]. انتهى.

وتعقَّب القولُ بأنَّ وصف الثبور بالكثرة بحسَبِ كثرة الدعاء بأنه لا يناسبُ النَّظْمَ، وكذا كونُه بحَسَبِ كثرة الألفاظ المُشْعِرةِ بالثبور؛ لأنه كان الظاهرُ أن يقال: دعاءً كثيراً. وأمَّا قولُه: وأما ما قيل.. إلخ، فهو لا يخلو عن بحثٍ، فتأمل.

وحَكَى علي بن عيسى[٢]: ما ثَبَرَكَ عن هذا الأمر، أي: ما صَرَفَكَ عنه. وجوَّز أن يكون الثبورُ في الآية من ذلك، كأنهم ندموا على ما فعلوا فقالوا: واصرفاه عن طاعةِ الله تعالى، كما يقال: واندَماه، فأُجيبوا بما أُجيبوا.

وتقييد النهي والأمر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع، والتنبيهِ على أنه ليس كسائر الأيام المعهودةِ التي يخلِّصُ من عذابها ثبورٌ واحد، ويجوز أن يكون ذلك لتذكيرهم بالساعة التي أصابهم ما أصابهم بسببِ التكذيب بها، ففيه زيادةُ إيلامٍ لهم.

وقرأ عمر بن محمد: «ثَبوراً» بفتح الثاء في ثلاثتها[٣]، وفَعولٌ بفتح الفاء في المصادر قليلٌ، نحو: القَفول.

﴿قُلْ﴾ تقريعاً لهم وتهكُّماً بهم وتحسيراً على ما فاتهم: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من السعير باعتبارِ اتِّصافها بما فصِّل من الأحوال الهائلةِ، فإنها التي كثيراً ما تقابَلُ بالجنة، وما فيه من معنى البُعْدِ للإشعار بكونها في الغاية القاصية من الهول والفظاعة.

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٧.

(٢) كما في البحر ٦/ ٤٨٥، وعنه نقل المصنف.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٨٥.

وقيل: إشارةٌ إلى ما ذكر من الجنة والكنز في قولهم: «أو يُلْقَى إليه كنزٌ» إلخ. وقيل: إلى الجنة والقصور المجعولةِ في الدنيا على تقدير المشيئة. وكِلا القولين لا يعوَّل عليهما، لا سيما الأخير.

أي: أذلك الذي ذُكر من السعير التي أُعْتِدتْ لمن كذَّب بالساعة، وشأنُها كيتَ وكيتَ، وشأنُ أهلها ذيت ذيت ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: وُعِدَها المتقون؛ لأنَّ «وَعَدَ» تتعدَّى لمفعولين، وهذا المحذوفُ هو العائدُ على الموصول. وإضافة الجنة إلى الخلد إن كانت نسبةُ الإضافةِ معلومةً للمدح؛ فإنَّ المدح يكون بما هو معلومٌ، وإن لم تكن معلومةً فلإفادة خلودِ الجنة، ولا يخدشُه قولُه تعالى: (خَٰلِدِينَۚ) بعدُ؛ لأنه للدلالة على خلودِ أهلها لا خلودِها في نفسها وإنْ تَلازَما، أو أنَّ ذلك للتمييز عن جنات الدنيا.

وقيل: إنَّ جنة الخلدِ عَلَمٌ كجنةِ عَدْنٍ.

والمرادُ بالمتقين: المتَّصفون بمطلق التَّقوى، لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط، ويدلُّ عليه مقابلتُهم بالكافرين في النظم الكريم.

وقيل: يجوز أن يراد: الكاملون في التقوى، ووَعْدها إياهم وعد دخولها ابتداءً دون سَبْقِ عذابٍ، وهو مختصٌّ بهم. وليس بذاك.

والترديدُ والتفضيلُ في «خير» مع أنه لا شكَّ في أنه لا خيريةَ في السعير؛ للتهكُّم والتقريع كما أشرنا إليه.

وقال ابن عطية: حيث كان الكلامُ استفهاماً جاز فيه مجيءُ لفظةِ التفضيل بين الجنة والسعير في الخير، لأنَّ المُوْقِفَ جائزٌ له أن يُوْقِفَ مُحاوِرَه على ما شاء ليرى هل يجيبُه بالصواب أو بالخطأ، وإنما مَنَع سيبويه وغيرُه من التفضيل [بين شيئين لا اشتراكَ بينهما في المعنى الذي فيه تفضيلٌ] إذا كان الكلامُ خبراً؛ لأن فيه مخالفة الواقع، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ(١).

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٣، وما بين حاصرتين منه، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٨٦.

وقال أبو حيان: إنَّ «خير» هنا ليس للدلالة على الأفضلية، بل هو ما جَرَتْ به عادةُ العرب في بيانِ فَضْلِ الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابِله كقولِ حسان:

فشرُّكما لخيرِكما الفداءُ[1]

وقولِهم: الشقاءُ أحبُّ إليك أم السعادة، والعسلُ أحلى من الخل، وقولِه تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣] ولا اختصاصَ لذلك في استفهامٍ أو خبر.

وما ذكر من أمثلة الخبر يردُّ على ابن عطية، إلَّا أنْ يقيَّد الخبر الذي ادَّعى مَنْعَ سيبويه فيه بما لم يكن الحكم فيه واضحاً، أما إذا كان الحكمُ فيه واضحاً للسامع بحيث لا يختلجُ في ذهنه ولا يتردَّد في الأفضل، فإنَّ التفضيل يجوزُ فيه[2].

وقد تقدَّم تحقيقُ الكلام في هذا المقام، وما أشرنا إليه هنا أَوْلَى بالاعتبار مما أشار ابنُ عطية وأبو حيان إليه.

﴿كَانَتْ﴾ تلك الجنةُ ﴿لَهُمْ﴾ أي: في عِلْمِ الله تعالى أو في اللوح، أو المرادُ: تكون، على أنه وعدٌ مِن أكرم الأكرمينَ عبَّر عنه بالماضي على طريق الاستعارة لتحقُّق وقوعِه؛ فإنه سبحانه لا يُخْلِفُ الميعادَ.

وجوِّز أن يكون هذا باعتبارِ تقدُّم وَعْدِه تعالى ـ في كُتُبِه وعلى لسان رُسُلِه عليهم الصلاة والسلام ـ إياهم بها.

﴿جَزَآءً﴾ على أعمالهم بمقتضى الوعد، لا بالإيجاب ﴿وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ ينقلبون إليه. ولم يكتفِ بقوله تعالى: (كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً) لعَدَمِ استلزامِه ذلك، فقد يُثيب الملِكُ في الدنيا إنساناً ببستانٍ مثلاً ولا يراه، فضلاً عن أن يسكُنَ فيه.

وجملةُ «كانت لهم» إلخ ـ على ما ذكره الطبرسيُّ[3] ـ في موضع الحال من الضمير المحذوفِ العائدِ على الموصول في «وُعِدَ المتقون» بتقدير «قد» أو بدونه.

---

(١) وصدره: أتهجُوه ولستَ له بكُفْءٍ، وهو في الديوان ص٦٤، وسلف ص٢٥٤ من هذا الجزء.
(٢) البحر ٦/ ٤٨٦.
(٣) في مجمع البيان ١٨/ ٩٢.

وجوِّز أن تكون بدلاً من «وُعد المتَّقون» وتفسيراً له، وأن تكون استئنافاً في موضع التعليل.

وذَكَر الزمخشريُّ ما يُشْعِرُ بأنَّ هذه الجملة تذييلٌ لتذكيرِ النعمةِ بما خوَّلهم الله تعالى وطَيَّبَ عيشَهم في ذلك المكان الرافع على وجهٍ يتضمَّن ضدَّ ذلك لأضدادهم، فكأنه قيل: كانت لهم جزاءً موفوراً لا يدخل تحت الوصف، ومصيراً أي: مصيراً لا يقادَرُ قَدْرُه، وليس كمصير الكفرة المشارِ إليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾[1]. ويُعلَم منه فائدةُ ذِكْرِ المصير مع ذِكْرِ الجزاء، فتأمل.

وقولُه سبحانه: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ قيل: استئنافٌ وقع جواباً لسؤالٍ نشأ مما قبله، حيث أفاد أنَّ الجنة مسكنٌ لهم، والساكنُ في دارٍ يحتاجُ إلى أشياءَ كثيرةٍ لتطيب[2] نفسُه بسكناها، فكأنَّ سائلاً يقول: ما لهم إذا صاروا إليها وسكنوا فيها؟ فقيل: لهم فيها ما يشاؤون.

وقال الطبرسيُّ: الجملةُ في موضع الحال من قوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾[3].

و«ما» موصولةٌ مبتدأ والعائدُ محذوفٌ، و«لهم» خبرُه، و«فيها» متعلِّقٌ بما تعلَّق به، أي: كائنٌ لهم فيها الذي يشاؤونه من فنون الملاذِّ والمُشْتَهيات، وأنواعِ النعيم الروحانيِّ والجسمانيِّ.

ولعل كلَّ فريقٍ منهم يقتنعُ بما أُبيح له من درجاتِ النعيم، ويرى ما هو فيه ألَذَّ الأشياء، ولا تمتدُّ أعناقُ هِمَمِهم إلى ما فوقَ ذلك من المراتب العالية، ولا يخطر بباله ما يُحْظَرُ طلبُه ولا يتأتَّى له، فلا يشاءُ آحادُ المؤمنين رتبةَ الأنبياء عليهم السلام، ولا يتعرَّضون للشفاعة لمن كُتب عليه الخلودُ في النار مثلاً، فلا يلزم

---

(١) الكشاف ٣/ ٨٤، وكلام الزمخشري فيه: فإن قلت: ما معنى قوله: «كانت لهم جزاءً ومصيراً»؟ قلت: هو كقوله: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فمدح الثواب ومكانه، كما قال: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فذمَّ العقاب ومكانه، لأن النعيم لا يتم للمتنعم إلا بطِيب المكان وسعته، وكذلك العقاب يتضاعف بغثاثة الموضع وضِيقه وظُلمته، فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء.

(٢) في الأصل: لتطييب.

(٣) مجمع البيان ١٨/ ٩٢.

الحرمانُ ولا تَسَاوي مراتبِ أهلِ الجنان، وعلى ضدِّ هؤلاء فيما ذُكر أهلُ النار، فقد قال سبحانه فيهم: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

﴿خَٰلِدِينَۚ﴾ حالٌ من أحدِ ضمائرهم على ما قيل، وظاهرُه عَدَمُ الترجيح، وقال بعض الأفاضل: جَعْلُه حالاً من الأول يقتضي كونَها حالاً مقدَّرةً ومن الثالث يُوْهِمُ تقييدَ المشيئة بها، فخيرُ الأمور أَوْسَطُها.

ورجَّح بعضهم الثالثَ لقُرْبِه، والتقييدُ غيرُ مخلٍّ بل مهمٌّ. وجوَّز كونُها حالاً من المتقين، ولا يخفى حالُه.

ولبعض الأجلَّةِ ها هنا كلامٌ فيه بحثٌ ذكره الحمصيُّ في «حواشي التصريح»(١)، فليُراجَعْ.

﴿كَانَ﴾ أي: الوعدُ بما ذكر، أو الموعودُ المفهومُ من الكلام، فيشملُ الوعدَ بالجنة وبحصولِ ما يشاؤون لهم فيها وبالخلود على الأول، والجنةَ وحصولَ المراداتِ والخلودَ الموعودَ بها على الثاني.

وقال بعضهم: الضميرُ للخلود. وآخَرُ: لحصولِ ما يشاؤون لهم فيها، أوْ له ولكون الجنةِ جزاءً ومصيراً، والإفرادُ باعتبارِ ما ذكر، ويغني عنه ما سمعتَ.

والأكثرون على أنَّه لـ «ما يشاؤون»، وهو اسمُ «كان»، وقولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ متعلِّقٌ بها، أو بمحذوفٍ وقع حالاً من قوله سبحانه: ﴿وَعْدًا﴾ وهو خبرُها. ولم يجوِّز تعلُّق الجارِّ به سواءٌ كان باقياً على مصدريته أو مؤوَّلاً باسم المفعول ـ أي: موعوداً ـ لِمَا عملتَ من الخلاف في مرجع الضمير، بناءً على منع تقديم معمول المصدر عليه وإن كان مؤوَّلاً بغيره أو كان المقدَّمُ ظرفاً، وفيه خلافٌ.

وجوِّز أن يكون «على ربك» متعلِّقاً بمحذوفٍ هو الخبر، و«وعداً» مصدراً مؤكِّداً. والأظهرُ أنْ يُجعلَ هو الخبر، أي: كان ذلك وعداً أو موعوداً.

---

(١) التصريح بمضمون التوضيح في النحو لخالد بن عبد الله الأزهري النحوي، والتوضيح هو شرح ابن هشام لألفية ابن مالك المسمى: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، والحمصي هو ياسين بن زين الدين الشافعي الشهير بالعليمي، نزيل مصر، المتوفى سنة (١٠٦١هـ). خلاصة الأثر ٤/ ٤٩١، وكشف الظنون ١/ ١٥٤.

﴿مَسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾ أي: حقيقاً أن يُسألَ ويُطلبَ؛ لكونه مما يتنافسُ فيه المتنافسون، أو سبباً لحصول ذلك، فمسؤوليته كنايةٌ عن كونه أمراً عظيماً، ويجوزُ أن يراد كونُ الموعودِ مسؤولاً حقيقةً بمعنى: يسألهُ الناس في دعائهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وقال سعيد بن أبي هلال[1]: سمعتُ أبا حازم رضي الله عنه يقول: إذا كان يومُ القيامة يقول المؤمنون: ربَّنا عَمِلْنا لك بما أَمَرْتَنا فأنْجِزْ لنَا ما وَعَدْتَنا، فذلك قوله تعالى: (وَعْدًا مَسْئُولًا).

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيدٍ هذا عن محمد بن كعبٍ القرظيِّ أنه قال في الآية: إنَّ الملائكة عليهم السلام لَتَسألُ ذلك في قولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨][2].

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه ﷺ، والإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام هو الفائزُ بمغانم الوعد الكريم.

واستشكلت الآية على مذهب الأشاعرة؛ لأنها تدلُّ على الوجوب على الله تعالى لمكان «على»، وعندهم لا يجب عليه سبحانه شيءٌ؛ لاستلزام ذلك سَلْبَ الاختيار وعدمَ استحقاقِ الحمد.

وأجيب بأنَّ الوجوب الذي تدلُّ عليه الآيةُ وجوبٌ بمقتضى الوعد، والممتنعُ إيجابُ الإلجاء والقَسْرِ من خارجٍ؛ لأنه السالبُ للاختيار الموجِب للمَفْسَدةِ، دون إيجابِهِ تعالى على نفسه شيئاً بمقتضى وَعْدِه وكَرَمِه، فإنه مسبوقٌ بالإرادة، والوجوبُ الناشئُ من الإرادة لا ينافي الاختيار. وهذا ظاهرٌ إذا كان الوعدُ حادثاً، وأمَّا إذا كان قديماً فالسابقيةُ والمسبوقيةُ بحسب الذات، وذلك لا يستلزمُ الحدوثَ، أو يقال: الحادثُ بالإرادة تعلُّقُه بالموعود به. فافهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ نصبٌ على أنه مفعولٌ لمضمَرٍ مقدَّمٍ معطوفٍ على قوله

---

(١) الحافظ الفقيه، أبو العلاء الليثي مولاهم، المصري، روى عن نافع وابن شهاب وقتادة وغيرهم، وأرسل عن جابر وغيره، توفي سنة(١٣٥هـ)، وقيل غير ذلك. سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٠٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧١.

تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ﴾ إلخ، أي: قل لهم ذلك واذكُر لهم بعد التقريع والتحسير يومَ يحشرهم الله عزَّ وجل، والمرادُ تذكيرُهم بما فيه من الحوادث الهائلةِ، على ما سمعتَ في نظائره. أو على أنه ظرفٌ لمضمَرٍ مؤخَّرٍ قد حُذف للتنبيه على كمالِ هَوْلِه وفظاعةِ ما فيه، والإيذان بأن العبارة لا تحيطُ ببيانه، أي: ويومَ يحشرهم يكون من الأحوال والأهوالِ ما لا يفي ببيانه المقال.

وقرأ الحسنُ وطلحةُ وابنُ عامرٍ وكثيرٌ من السبعة: «نحشُرُهم» بنون العظمة[١]، بطريقِ الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم.

وقرأ الأعرج: «يحشِرهم» بكسر الشين[٢]؛ قال صاحب «اللوامح»: في كلِّ القرآن، وهو القياسُ في الأفعال المتعدِّيةِ الثلاثية؛ لأنَّ يَفْعُلُ بضمِّ العين قد يكونُ من اللازِم الذي هو فَعُلَ بضمِّها في الماضي.

وقال ابن عطية[٣]: وهي قليلةٌ في الاستعمال قويةٌ في القياس؛ لأنَّ يَفْعِلُ بكسر العين في المتعدِّي أَقْيَسُ مِن يَفْعُلُ بضمِّ العين. وفيه كلام ذكره أبو حيان في «البحر»[٤].

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على مفعولِ «يحشرهم»، وليست الواو للمعية، وجوَّز ذلك أبو البقاء[٥].

والمراد بالموصول عند الضحَّاك وعكرمةَ والكلبيِّ: الأصنامُ، بناءً أنَّ السياق فيها، ويُنْطِقُها الله تعالى الذي لا يُعْجِزُه شيءٌ. وقيل: تتكلَّم بلسان الحال، وليس بذاك.

وأخرج جماعةٌ عن مجاهدٍ أنَّ المراد به الملائكةُ وعيسى وعزير، وأضرابُهم من

---

(١) قرأ من السبعة بالإضافة إلى ابن عامر: أبو عمرو ونافع وحمزة والكسائي وعاصم في رواية شعبة، وهي قراءة خلف من العشرة. التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣. وذكرها عن الحسن وطلحة أبو حيان في البحر ٦/ ٤٨٧.

(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٣، والبحر ٦/ ٤٨٧، وما سيأتي منه.

(٣) في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٣.

(٤) ٦/ ٤٨٨.

(٥) في الإملاء ٤/ ٩٤.

العقلاء الذين عُبِدوا من دون الله سبحانه وتعالى. وهو قولُ الجمهور على ما في «البحر»[١]؛ لأنَّ السؤال والجوابَ يقتضيانه؛ لاِخْتِصاصهما بالعقلاء عادةً، وإنْ كان الجماد ينطق يومئذٍ. وجاء فيما يُشْبِهُ الاستفهامَ الآتيَ النصُّ عليهم نحو قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] وقولِه سبحانه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. والظاهر أنَّ المراد بـ «ما» على هذا القولِ العقلاءُ المعبودون الذين ليس منهم إضلالٌ، كالملائكةِ والأنبياءِ عليهم السلام، لا ما يَشْمَلُهم والشياطينَ مثلاً، فإنَّ الجواب يأبى ذلك بظاهرِه، كما لا يخفى.

وأُطْلِقَتْ «ما» على العقلاء إمَّا على أنها تُطْلَقُ عليهم حقيقةً أو مجازاً، أو باعتبارِ الوصف، كأنه قيل: ومعبوديهم[٢].

وقال بعضُ الأجلَّة: المرادُ ما يعمُّ العقلاء وغيرَهم، إما لأنَّ كلمة «ما» موضوعةٌ للكلِّ كما يُنْبِئُ عنه أنك إذا رأيتَ شبحاً من بعيدٍ تقول: ما هو؟ أو لأنه أريد بها الوصفُ فلا تختصُّ حينئذٍ بغير العقلاء كما إذا أريد بها الذاتُ، أو لتغليب الأصنام على غيرها، تنبيهاً على بُعْدِهم عن استحقاقِ العبادة وتَنْزيلِهم في ذلك منزلةَ مَن لا عِلْمَ له ولا قدرةَ، أو اعتباراً لغلبة عَبَدتِها وكَثْرتِهم.

﴿فَيَقُولُ﴾ أي: اللهُ عزَّ وجلَّ للمعبودين من دونه، إثر حَشْرِ الكلِّ، تقريعاً للعَبَدةِ وتبكيتاً لهم. وقرأ الحسن وطلحةُ وابنُ عامر: «فنقولُ» بنون العظمة أيضاً[٣]. ومَن قرأ ممن عَدَاهم هناك بالنون وهنا بالياء كان على قراءته هنا التفاتٌ[٤] من التكلُّم إلى الغيبة، وفي نون العظمة هناك إشارةٌ إلى أنَّ الحشر أمرٌ عظيم.

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بأنْ دَعَوْتُموهم إلى عبادتكم، وإضافةُ «عباديِ»

---

(١) ٦/ ٤٨٨.

(٢) في الأصل و(م): أو معبوديهم، والمثبت من الكشاف ٣/ ٨٤، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤١١، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٨.

(٣) التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٣ عن ابن عامر، وذكرها عن الحسن وطلحة أبو حيان في البحر ٦/ ٤٨٧.

(٤) في الأصل و(م): التفاتاً.

قيل: للترحُّم، أو لتعظيمِ جُرْمِهم لعبادة غيرِ خالقِهم، أو لتعظيم أمر إضلالهم بدعوتهم إلى عبادتهم مع كونهم عباداً لله عز وجل، و«هؤلاء» بدلٌ منه، وجوِّز أن يكون نعتاً له.

﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ⑰﴾ أي: عن السبيل بأنفسهم لإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن المرشِدِ من كتابٍ أو رسولٍ، فحُذِفَ الجارُّ وأُوْصِلَ الفعلُ إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] والأصلُ: إلى السبيل، أو: للسبيل.

وذكر بعض الأجلَّةِ أنه لم يقل: عن السبيل للمبالغة؛ فإنَّ «ضلَّه» بمعنى «فَقَده»، وضلَّ عنه بمعنى: خرج عنه. والأولُ أبلغُ لأنه يُوْهِم أنه لا وجودَ له رأساً.

وتقديمُ الضميرين على الفعلين لِمَا أنَّ المراد بالسؤال التقريعيِّ هو المتصدِّي للفعل لا نفسِه.

﴿قَالُوا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من حكايةِ السؤال، كأنه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ فقيل قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

وكان الظاهرُ أن يعبَّر بالمضارع لمكانِ «يقول» أوَّلاً، وكأنَّ العدول إلى الماضي للدلالة على تحقُّق التنزيه والتبرئةِ، وأنه حالُهم في الدنيا. وقيل: للتنبيه على أنَّ إجابتهم بهذا القولِ هو محلُّ الاهتمام، فإنَّ بها التبكيتُ والإلزامُ، فدلَّ بالصيغة على تحقُّق وقوعِها.

و«سبحان» إمَّا للتعجُّبِ مما قيل لهم إمَّا لأنهم جماداتٌ لا قدرةَ لها على شيءٍ، أو لأنهم ملائكةٌ، أو أنبياءُ معصومون، أو أولياءُ عن مثلِ ذلك محفوظون، وإمَّا هو كنايةٌ عن كونهم موسومين بتسبيحِه تعالى وتوحيدِه، فكيف يتأتَّى منهم إضلالُ عباده، وإمَّا هو على ظاهرِه من التنزيه، والمرادُ تنزيهُه تعالى عن الأضداد. وهو على سائر الأوجُهِ جوابٌ إجماليٌّ إلا أنَّ في كونه كذلك على الأخير نوعَ خفاءٍ بالنسبة إلى الأوَّلَيْنِ، وقولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ إلخ كالتأكيد لذلك والتفصيلِ له.

وجَعَل الطيبيُّ قولَهم: «سبحانك» توطئةً وتمهيداً للجواب لقولهم: «ما كان» إلخ، أي: ما صحَّ وما استقام لنا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أولياءَ، على أنَّ

«مِن» مزيدةٌ لتأكيد النفي، ويَحسُنُ زيادتُها بعد النفي، والمنفيُّ وإن كان «كان»، لكنَّ هذا معمولُ معمولِها فينسحبُ النفي عليه.

والمرادُ نفيُ أن يكونوا هم مضلِّيهم على أبلغ وجهٍ، كأنهم قالوا: ما صحَّ وما استقام لنا أنْ نتَّخِذَ متجاوزينَ إياك أولياءَ نَعبدُهم، لِمَا بنا من الحالةِ المنافيةِ له، فأنَّى يتصوَّر أنْ نَحْمِلَ غيرَنا على أن يتَّخِذَ وليّاً غيرك فضلاً أن يتخذنا وليّاً.

وجوِّز أن يكون المعنى: ما كان ينبغي لنا أن نتَّخِذَ من دونك أتباعاً، فإنَّ الوليَّ كما يُطْلَقُ على المتبوع يُطْلَقُ على التابع، ومنه أولياء الشيطان، أي: أتباعُه.

وقرأ أبو عيسى الأسود القارئ: «يُنْبَغَى» بالبناء للمفعول، وقال ابن خالويه: زَعَم سيبويه أنَّ ذلك لغة[١].

وقرأ أبو الدرداء، وزيد بنُ ثابت، وأبو رجاء، ونصر بنُ علقمة، وزيد بن عليٍّ وأخوه الباقرُ رضي الله عنهما، ومكحولٌ، والحسن، وأبو جعفر، وحفص بنُ عبيد، والنخعيُّ، والسُّلميُّ، وشيبةُ، وأبو بشر، والزعفراني: «نُتَّخَذَ» مبنيّاً للمفعول[٢].

وخرَّج ذلك الزمخشريُّ على أنه مِن اتَّخذ المتعدِّي إلى مفعولين، والمفعولُ الأولُ ضميرُ المتكلِّم القائمُ مقامَ الفاعل، والثاني «من أولياء»، و«من» تبعضيةٌ لا زائدةٌ، أي: أن يتَّخذونا بعضَ الأولياء[٣].

ولم يجوِّز زيادتَها بناءً على ما ذهب إليه الزجَّاجُ من أنها لا تُزاد في المفعول الثاني[٤]، وعلَّله في «الكشف» بأنه محمولٌ على الأول يَشِيعُ بشيوعه ويُخصُّ كذلك، ومرادُه أنه إذا كان محمولاً لا يُرادُ صِدْقُه على غيره فيشيع ويخصُّ كذلك في الإرادة، فلا يَرِدُ: زيد حيوان، فإنَّ المحمول باقٍ على عمومه مع خصوصِ الموضوع. وقيل: مرادُه أنَّ الاختلافَ لا يناسبُ مع إمكان الاتِّحاد، والمثالُ ليس كذلك. والزمخشريُّ لمَّا بنى كلامَه على ذلك المذهبِ والتزمَ التبعيض، جاء

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٤.
(٢) النشر ٢/ ٣٣٣، والبحر ٦/ ٤٨٩.
(٣) الكشاف ٣/ ٨٦.
(٤) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٦٠، وسيأتي كلامه في هذه المسألة قريباً.

الإشكالُ في تنكيرِ «أولياء»، فأجاب بأنه للدلالة على الخصوص[1] وامتيازهم بما امتازوا وهو للتنويع على الحقيقة.

وقال السَّجَاونديُّ: المعنى: ما ينبغي لنا أن نُحْسَبَ مِن بعض ما يقعُ عليه اسمُ الولاية فضلاً عن الكلِّ، فإنَّ الوليَّ قد يكون معبوداً ومالكاً وناصراً ومخدوماً.

والزجَّاج[2] خَفي عليه أمرُ هذه القراءة على مذهبه فقال: هذه القراءةُ خطأ؛ لأنك تقول: ما اتَّخذْتُ من أحدٍ وليّاً، ولا يجوز: ما اتَّخذتُ أحداً من وليٍّ؛ لأنَّ «مِن» إنما دخلت لأنها تنفي واحداً في معنى جميع، ويقال: ما من أحدٍ قائماً، وما من رجلٍ محبّاً لِمَا يضرُّه، ولا يقال: ما قائمٌ من أحدٍ، وما رجلٌ من محبٍّ لِمَا يضرَّه، ولا وجهَ عندنا لهذا البتة، ولو جاز هذا لجاز في: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧]: ما منكم أحدٌ عنه من حاجزين. وأجاز الفرَّاءُ هذه القراءةَ على ضعفٍ[3] وزَعَم أنَّ «من أولياء» هو الاسم، وما في «يتخذ» هو الخبر، كأنه يجعله على القلب. انتهى.

ونقل صاحب «المطلع» عن صاحب «النظم» أنه قال: الذي يوجبُ سقوطَ هذه القراءة أنَّ «مِن» لا تدخل إلا على مفعولٍ لا مفعولَ دونه، نحو قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:٣٥]، فإذا كان قبل المفعول مفعولٌ سواه لم يَحْسُنْ دخولُها كما في الآية على هذه القراءة.

ولا يخفى عليك أنَّ في الإقدام على القول بأنَّها خطأٌ أو ساقطةٌ مع روايتها عمَّن سمعتَ من الأجلَّة خطراً عظيماً، ومنشأُ ذلك الجهلُ، ومفاسدُه لا تُحصى.

وذهب ابن جنِّي إلى جواز زيادة «مِن» في المفعول الثاني، فيقال: ما اتَّخذْتُ زيداً من وكيل، على معنى: ما اتَّخذتُه وكيلاً أيَّ وكيلٍ كان من أصناف الوكلاء. ومعنى الآيةِ على هذا المنوال: ما ينبغي لنا أن يتَّخذونا من دونك أولياءَ أيَّ أولياء، أي: ما يقع عليه اسمُ الولاية.

---

(١) الكشاف ٣/ ٨٦، وفيه: وتنكير «أولياء» من حيث إنهم أولياء مخصوصون، وهم الجن والأصنام.

(٢) في معاني القرآن ٤/ ٦٠.

(٣) في (م): عن ضعف، والمثبت من الأصل ومعاني القرآن للزجاج، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٢٦٤.

وجوَّز أن يكون «نتخذ» على هذه القراءة مما له مفعولٌ واحد، و«من دونك» صلة، و«من أولياء» حال، و«من» زائدة، وعزا هذا في «البحر» إلى ابن جنِّي[(١)].

وجوَّز بعضهم كونَ «نَتَّخِذَ» في القراءة المشهورة مِن اتَّخذ المتعدِّي لمفعولين، وجعل أبو البقاء على هذا «من أولياء» المفعولَ الأول بزيادةِ «مِن»، و«من دونك» المفعولَ الثاني[(٢)]. وعلى كونه من المتعدِّي لواحدٍ يكون هذا حالاً.

وقرأ الحجَّاج: «أن نتَّخذ من دونك أولياءَ» فبلغ عاصماً فقال: مُقِتَ المُخْدَج، أَوَ ما عَلِمَ أنَّ فيها «مِن»[(٣)].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ إلخ استدراكٌ مسوقٌ لبيانِ أنهم هم الضالُّون بعد بيانِ تنزُّهِهم عن إضلالهم على أبلغ وجهٍ كما سمعتَ، وقد نَعَى عليهم سوءَ صنيعهم حيث جعلوا أسبابَ الهداية أسباباً للضلالة، أي: ما أَضْلَلْناهم ولكن متَّعتَهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقَّها ويَشْكُروها فاستَغْرَقوا في الشهوات وانهمكوا فيها.

﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: غفلوا عن ذكرك والإيمانِ بك، أو عن توحيدك، أو عن التذكُّر لنعمك وآياتِ ألوهيَّتِكَ ووحدتِكَ.

وفي «البحر»: الذكرُ ما ذكِّر به الناسُ على ألسنةِ الأنبياء عليهم السلام، أو الكتبِ المنزلة، أو القرآن[(٤)].

ولا يَخْفَى ما في الأخير إذا قيل بعموم الكفار المخبرِ[(٥)] عنهم في الآية، وشمولِهم كفارَ هذه الأمةِ وغيرهم.

---

(١) البحر ٦/ ٤٨٩، وهذا القول هو الذي ذكره ابن جني في المحتسب ٢/ ١٢٠، مع إجازته زيادة «من» في المفعول الثاني، فذكر أن «من أولياء» في موضع الحال، أي: ما كان ينبغي لنا أن نُتَّخذ من دونك أولياء، ودخلت «من» زائدة لمكان النفي، ومثله: ما أعطيته من درهم، وقال: **وهذا في المفعول.**

(٢) الإملاء ٤/ ٩٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٨٩. والمُخْدَج: الناقص.

(٤) البحر ٦/ ٤٨٩.

(٥) في (م): والمخبر.

﴿وَكَانُوا﴾ أي: في عِلْمِك الأزليِّ المتعلِّق بالأشياء على ما هي عليه في أنفسها، أو بما سيَصْدُرُ عنهم فيما لا يزال باختيارهم وسوءِ استعدادهم من الأعمال السيئة.

﴿قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ هالكين، على أنَّ «بوراً» مصدرٌ وُصِفَ به الفاعلُ مبالغةً، ولذلك يستوي فيه الواحدُ والجمعُ، وأنشدوا:

فلا تكفروا ما قد صَنَعْنا إليكُمُ ... وكافُوا به فالكفرُ بورٌ لصانعه[١]

وقول ابن الزِّبَعْرَى:

يا رسول المليك إنَّ لساني ... راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بورُ[٢]

أو جمعُ بائرٍ، كعُوذٍ في عائذ[٣]. وتفسيرُه بهالكين رواه ابن جرير وغيرُه عن مجاهد[٤].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ نافع بن الأزرق سأله عن ذلك، فقال: هُلْكَى بلغةِ عُمَان، وهم من اليمن[٥].

وقيل «بوراً»: فاسدين في لغة الأَزْدِ، ويقولون: أمرٌ بائر، أي: فاسد، وبارَتِ البضاعةُ: إذا فَسَدَتْ.

وقال الحسن: «بوراً»: لا خيرَ فيهم، من قولهم: أرضٌ بورٌ، أي: متعطِّلةٌ لا نباتَ فيها. وقيل: «بوراً»: عُمياً عن الحقِّ.

والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، على ما قال أبو السعود[٦].

---

(١) أنشده ابن عباس رضي الله عنهما لنافع بن الأزرق عندما سأله عن معنى «بوراً»، كما أخرج الطستي، وسيأتي الخبر قريباً دون ذكر البيت.

(٢) ديوان ابن الزبعرى ص٣٦.

(٣) جاء في حاشية (م): وهي الحديثة النتاج من الظباء والإبل والخيل. اهـ منه. وهو في حاشية الشهاب ٦/ ٤١٣.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٤١٧، وأخرجه أيضاً عن ابن عباس.

(٥) أخرجه الطستي كما في الدر المنثور ٣/ ٦٥.

(٦) في تفسيره ٦/ ٢٠٩.

وقال الخفاجيُّ: هي حالٌ بتقديرِ «قد»، أو معطوفةٌ على مقدرٍ أي: كفروا وكانوا، أو على ما قبلَها[١].

وقد شنَّع الزمخشريُّ[٢] بما ذُكر من السؤال والجواب على أهل السنة، فقال: فيه كسرٌ بيِّنٌ لقولِ مَن يزعم أنَّ الله تعالى يُضِلُّ عباده على الحقيقة، حيث يقول سبحانه للمعبودين من دونه: أأنتم أضللتم أم هم ضلُّوا بأنفسهم، فيتبرَّؤون من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلِّين، ويقولون: بل أنت تفضَّلْتَ من غير سابقةٍ على هؤلاء وآبائهم تفضُّلَ جوادٍ كريم، فجعلوا النعمة التي حقُّها أن تكون سببَ الشكرِ سببَ الكفرِ ونسيانِ الذكر، وكان ذلك سببَ هلاكهم. فإذا برَّأتِ الملائكةُ والرسلُ عليهم السلام أنفسَهم من نسبة الإضلال ـ الذي هو عملُ الشياطين ـ إليهم، واستعاذوا منه، فهم لربِّهم الغنيِّ العَدْلِ أشدُّ تَبْرِئةً وتنزيهاً منه. ولقد نزَّهوه تعالى حين أضافوا إليه سبحانه التفضُّلَ بالنعمة والتمتيعَ بها، وأسندوا نسيانَ الذكر والتسبُّبَ به للبوار إلى الكفرة، فشرحوا الإضلال المجازيَّ الذي أسنده الله تعالى إلى ذاته في قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:٢٧]، ولو كان سبحانه هو المضلَّ على الحقيقة لكان الجوابُ العتيد أن يقولوا: بل أنت أضللتهم. انتهى.

وأجاب صاحب «الفرائد» عن قوله: فيتبرؤون من إضلالهم.. إلخ. بأنهم إنَّما تبرؤوا لأنهم يستحقُّون العذابَ بإضلالهم، ولم يكن منهم، فوجب عليهم أن يقولوا ذلك ليندفع عنهم ما يستحقُّون به من العذاب، وذلك أنهم مسؤولون عمَّا يفعلون، واللهُ عزَّ وجلَّ لا يُسأل عمَّا يفعل، فيَلْحَقُ بهم النقصانُ إنْ ثَبتَ عليهم، ولا يمكن لحوقُه به تعالى لأنه سبحانه يفعل ما يشاء ويَحْكُم ما يريد.

وعن قوله: ولقد نزَّهوه حيث أضافوا.. إلخ. بأنَّ قولهم: ولكن متَّعتهم.. إلخ، لا ينافي نسبةَ الإضلال إليه سبحانه على الحقيقة، وأيضاً ما يؤدِّي إلى الضلال إذا كان منه تعالى وكان معلوماً له عز وجل أنهم يَضِلُّون به، كان فيه ما في الإضلال بالحقيقة، فوجب على مذهبه أنه لا يجوز عليه سبحانه مع أنهم نسبوه إليه سبحانه.

---

(١) حاشية الشهاب ٦/ ٤١٣.

(٢) في الكشاف ٣/ ٨٥-٨٦.

وعن قوله: ولو كان تعالى هو المضلَّ على الحقيقة لكان الجوابُ العتيد: أنتَ أَضْلَلْتَهم. بأنَّ هذا غيرُ مستقيم، لأنه تعالى ما سألهم إلَّا عن أحد الأمرين، وما ذُكِرَ لا يَصْلُحُ جواباً له، بل هو جوابٌ لمن قال: مَن أضلَّهم. انتهى.

وذكر في «الكشف» جواباً عن الأخير، أنه ليس السؤالُ عن تعيين مَن أضلَّ؛ لأنه تعالى عالمٌ به، وإنما هو سؤالُ تقريعٍ، على نحو: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:١١٦] فلو قالوا: أنت أَضْلَلْتهم، لم يطابق، وإنما الجوابُ ما أجابوا به كما أجاب عيسى عليه السلام بقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾ [المائدة:١١٦] إلخ. وقد اقتدى بالإمام في ذلك[(١)].

وذكر أيضاً قبل هذا الجواب أنه لو قيل: إنَّ في «متَّعتَهم وآباءهم» ما يدلُّ على أنه تعالى الفاعلُ الحقيقيُّ للإضلال، وأنه لا يُنْسَبُ إليه سبحانه أدباً، لكان وجهاً، ولا ينبغي أن يكون ذلك بعد التسليم المقصود من الجواب بمتَّعتَهم. . إلخ بأن يكون المرادُ الجوابَ بـ : أنت أضللتهم، لكن عدل عنه إلى ما في النظم الجليل أدباً؛ لأنَّ الجواب بذلك مما لا يقتضيه السياقُ كما لا يخفى.

وقال ابن المنير: إنَّ جواب المسؤولينَ بما ذكر يدلُّ على معتقدِهم الموافق لِمَا عليه أهلُ الحقِّ؛ لأنَّ أهلَ الحقِّ يعتقدون أنَّ الله تعالى وإنْ خَلَقَ الضلالَ إلَّا أنَّ للعباد اختياراً فيه، وعندهم أنَّ كلَّ فعلٍ اختياريٍّ له نسبتان: إن نُظِرَ إلى كونه مخلوقاً فهو منسوبٌ إلى الله تعالى، وإن نُظِرَ إلى كونه مختاراً للعبد فهو منسوبٌ للعبد، وهؤلاء المجيبون نَسَبوا النسيانَ ـ أي: الانهماكَ في الشهوات الذي ينشأ عنه النسيانُ ـ إلى الكفرة، لأنهم اختاروه لأنفسهم فصَدَقَتْ نسبتُه إليهم، ونَسبوا السببَ الذي اقتضى نسيانهم وانهماكَهم في الشهوات إلى الله تعالى، وهو استدراجُهم ببَسْطِ النعم عليهم وصبِّها صبّاً، فلا تَنافيَ بين معتقدِ أهلِ الحقِّ ومضمونِ ما قالوا في الجواب، بل هما متواطئان على أمرٍ واحدٍ[(٢)]. انتهى.

ولا يَخْفَى ما في بيانِ التوافُقِ من النظر. وقد يقال: حيث كان المرادُ من

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٦٢.
(٢) الانتصاف مع الكشاف ٣/ ٨٥.

الاستفهام تقريعَ المشركين، وعِلْمُ المستفهَمين بذلك مما لا ينبغي أن يُنْكَر، لاسيما إذا كانوا الملائكةَ والأنبياءَ عليهم السلام، جيءَ بالجواب متضمِّناً ذلك على أتمِّ وجهٍ، مشتمِلاً على تحقُّق[1] الأمر في منشأ ضلالهم، كلُّ ذلك للاعتناء بمراده تعالى من تقريعهم وتبكيتهم، ولذا لم يكتفوا في الجواب بـ : هم ضلُّوا، بل افتتحوا بالتسبيح، ثم نَفَوا عن أنفسهم الإضلالَ على وجهٍ من المبالغة ليس وراءه وراء، ثم أفادوا أنهم ضلُّوا بعد تحقُّق ما ينبغي أن يكون ذريعةً لهم إلى الاهتداء من تمتيعهم بأنواع النعم، وذلك من أقبح الضلال، ونبَّهوا على زيادةِ قُبْحِه فوق ما ذُكر بالتعبير عنه بنسيان الذكر، ثم ذكروا منشأ ضلالِهم والأصلَ الأصيلَ فيه بقولهم: «وكانوا قوماً بوراً» إمَّا على معنًى: كانوا في نفس الأمر قوماً فاسدين ـ وإن شئتَ قلت: هالكين، ونحوَه مما تقدم ـ فظهروا على حَسَبِ ما كانوا لأنَّ ما في نفس الأمر لا يتغيَّر، أو على معنى: كانوا في العلم التابع للمعلوم في نفسه كذلك، فظهروا على حَسَب ذلك لئلَّا يلزم الانقلابُ المُحالُ.

وحاصله: أنَّ منشأ ضلالِهم فسادُ استعدادهم في نفسه من غيرِ مَدْخليةٍ للغير في التأثير فيه، وهذا شأنُ جميع ماهيات الأشياء في أنفسها، فإنَّ مَدْخليةَ الغير إنما هي في نحو وجودها الخارجيِّ لا غير.

وإلى هذا ذهب جمعٌ من الفلاسفة والصوفية، وشيَّد أركانه الشيخ إبراهيم الكورانيُّ عليه الرحمةُ في أكثرِ كتبه، فإنْ كان مقبولاً فلا بأس في تخريج الآية الكريمة عليه فتدبَّره.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ حكايةٌ لاحتجاجه تعالى على العَبَدةِ بطريقِ تلوينِ الخطاب، وصَرْفِه عن المعبودين عند تمام جوابهم، وتوجيهِه إلى العَبَدةِ مبالغةً في تقريعهم وتبكيتهم، على تقديرِ قولٍ مرتَّبٍ على الجواب، أي: فقال الله تعالى عند ذلك: قد كذَّبكم المعبودون أيُّها الكَفَرةُ. وقال بعضُ الأجلَّةِ: الفاء فصيحةٌ، مثلها في قول العباس بن الأحنف:

قالوا خراسانُ أقصى ما يرادُ بنا ... ثم القُفولُ فقد جئنا خراسانا[2]

---

(١) في الأصل: تحقيق.

(٢) سلف ١/ ٢٧٠. والتقدير: فقلنا قد جئنا. البحر ٦/ ٤٨٩.

والتقدير هنا: قلنا، أو قال تعالى: إن قلتُم إنهم آلهةٌ فقد كذَّبوكم ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: في قولكم، على أن الباء بمعنى «في»، و«ما» مصدريةٌ، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بالفعل، والقولُ بمعنى المقول. ويجوز أن تكون «ما» موصولةً والعائدُ محذوف، أي: في الذي تقولونه. وجوِّز أن تكون الباءُ صلةً، والمجرورُ بدل اشتمالٍ من الضمير المنصوب في «كذَّبوكم».

والمراد بقولهم: إنهم آلهةٌ، أو: هؤلاء أضلُّونا؛ وتعقِّب بأنَّ تكذيبهم في هذا القول لا تعلُّق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصَّرف والنصر أصلاً، وإنما الذي يستتبعه تكذيبُهم في زَعْمِهم أنهم آلهتُهم وناصِروهم. وفيه نظرٌ كما سنشير إليه قريباً إن شاء الله تعالى.

وقيل: الخطابُ للمعبودينَ، أي: فقد كذَّبكم العابدون أيُّها المعبودون في قولكم: «سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتَّخِذَ من دونك من أولياء» حيث زعموا أنكم آلهةٌ، والمراد الحكم على أولئك المكذِّبين بالكفر على وجهٍ فيه استزادةُ غيظ المعبودين عليهم، وجَعْلُه مفرَّعاً عليه ما سيأتي إن شاء الله تعالى، والفاء أيضاً فصيحةٌ، والجملةُ جزاءٌ باعتبارِ الإخبار.

وقيل: هو خطابٌ للمؤمنين في الدنيا، أي: فقد كذَّبكم أيُّها المؤمنون الكفرةُ في الدنيا فيما تقولونه من التوحيد، وجيء بالكلام ليفرَّع عليه ما بعدُ. وكلا القولين كما ترى، والثاني أبعدُهما.

وقرأ أبو حيوة: «يقولون» بالياء آخِرِ الحروف[1]، وهي روايةٌ عن ابن كثير وقنبل[2]، والخطاب في «كذبوكم» للعابدين، وضمير الجمع فيه وفي «يقولون» للمعبودين، أي: فقد كذبكم أيُّها العَبَدةُ المعبودون بزَعْمِكم بقولهم: سبحانك.. إلخ، والباء للملابسة أو الاستعانة. وفيه أيضاً القولان السابقان، أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٤، والبحر ٦/ ٤٨٩.

(٢) قال ابن الجزري في النشر ٢/ ٣٣٤: اختلف عن قنبل في «كذبوكم بما تقولون» فروى عنه ابن شنبوذ بالغيب، وهي قراءة ابن أبي حيوة، ونصَّ عليها ابن مجاهد عن البزي سماعاً من قنبل، وروى عنه ابن مجاهد بالخطاب، وبذلك قرأ الباقون.

فقد كذَّبكم أيُّها المعبودون العَبَدةُ بقولهم: إنكم آلهةٌ، أو فقد كذبكم أيُّها المؤمنون الكفارُ في التوحيد بقولهم: إنَّ هؤلاء المحكيَّ عنهم آلهةٌ.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: فما تملكون أيُّها العَبَدةُ ﴿صَرْفًا﴾ أي: دفعاً للعذاب عن أنفسكم بوجهٍ من الوجوه، كما يُعْرِبُ عنه التنكير، أي: لا بالذات ولا بالواسطة. وقيل: حيلةً، من قولهم: إنه ليتصرَّف[1] في أموره، أي: يحتال فيها. وقيل: توبةً. وقيل: فديةً. والأولُ أَظْهرُ؛ فإنَّ أصل الصَّرف ردُّ الشيءِ من حالةٍ إلى أخرى، وإطلاقُه على الحيلة أو التوبة أو الفدية مجازٌ.

والمراد: فما تملكون دفعاً للعذاب قبل حلوله ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ أي: فرداً من أفراد النصر، أي: العون، لا من جهةِ أنفسكم ولا من جهةِ غيركم بعد حلوله.

وقيل: «نصراً» جمعُ ناصرٍ، كصَحْبٍ جمع صاحبٍ، وليس بشيء.

والفاءُ لترتيبِ عدمِ الاستطاعةِ على ما قبلها من التكذيب، لكنْ لا على معنى أنه لولاه لوُجِدَتِ الاستطاعةُ حقيقةً، بل في زَعْمِهم، حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذابَ وينصرونَهم، وفيه ضربُ تهكُّمٍ بهم.

والمرادُ من التكذيب المرتَّبِ عليه ما ذُكر تكذيبُهم بقولهم: إنهم آلهةٌ، ويجوز أن يُراد به تكذيبُهم بقولهم: هؤلاء أضلُّونا، وهو متضمِّنٌ نفيَ كونِهم آلهةً، وبذلك يتمُّ أمرُ الترتيب.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وأكثرُ السبعة: «يستطيعون» بالياء التحتية[2]، أي: فما يستطيعُ آلهتُكم دَفْعاً للعذاب عنكم، وقيل: حيلةً لدَفْعِه، وقيل: فديةً عنكم ولا نصراً لكم.

وقيل في معنى الآيةِ على تقدير كونِ الخطاب السابق للمؤمنين: إنه سبحانه أراد أنَّ هؤلاء الكفرةَ شديدو الشكيمةِ في التكذيب الموجبِ للتعذيب، فما تستطيعون أنتم صَرْفَهم عنه، «ولا نصراً» لكم فيما يُصيبهم مما يستوجبه من العذاب. هذا على قراءة حفص «تستطيعون» بالتاء الفوقية.

---

(١) في (م): ليصرف، والمثبت من الأصل والكشاف ٣/ ٨٧، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤١٣، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٠٩، والكلام منه.

(٢) قرأ حفص بالتاء، وباقي السبعة بالياء. التيسير ص١٦٣.

وأما على قراءة الجماعة «يستطيعون» بالياء، فالمعنى: ما يستطيعون صرفاً لأنفسهم عمَّا هم عليه، ولا نصراً لها فيما استوجبوه بتكذيبهم من العذاب، أو: فما يستطيعون صَرْفَكم عن الحقِّ الذي أنتم عليه، ولا نَصْراً لأنفسهم من العذاب. انتهى، وهو كما ترى.

﴿وَمَن يَظْلِم﴾ أي: يَكفُرْ ﴿مِّنكُمْ﴾ أيُّها المكلَّفون، ويَعْبُدْ من دون الله تعالى إلهاً آخَرَ كهؤلاء الكفرة ﴿نُذِقْهُ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ لا يقادَرُ قَدْرُه، وهو عذابُ النار.

وقرئ: «يُذِقْه» على أنَّ الضمير لله عز وجل[(١)]، وقيل: لمصدرِ «يظلم» أي: يُذِقْه الظلم، والإسناد مجازيٌّ.

وتفسيرُ الظلم بالكفر هو المرويُّ عن ابن عباس والحسن وابن جريج، وأُيِّد بأن المقام يقتضيه، فإنَّ الكلام في الكفر[(٢)] ووعيدِه من مفتتح السورة.

وجوِّز أن يرادَ به ما يعمُّ الشركَ وسائرَ المعاصي، والوعيدُ بالعذاب لا ينافي العفوَ بالنسبة إلى غير المشرك لِمَا حقِّق في موضعه.

واختار الطيبيُّ التفسير الأول، وجَعَلَ الخطابَ للكفار أيضاً؛ لأن الكلام فيهم من أول، وقد سبق «فقد كذَّبوكم»، وهذه الآيةُ لِمَا يجري عليهم من الأهوال والنكال من لَدُنْ قولِه تعالى: (إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ)، ومعنى «ومَن يظلم» حينئذ: ومَن يَدُمْ على الظلم.

وفي «الكشف»: الوجهُ أنَّ الخطابَ عامٌّ، والظلم الكفر، و«مَن يظلم» مُظْهَرٌ أقيمَ مقام المضمَرِ تنبيهاً على توغُّلهم في الكفر وتجاوُزِهم حدَّ الإنصاف والعدلِ إلى مَحْضِ الاعتسافِ والجَدَلِ فيما رَمَوا به رسولَ الله ﷺ، وكان الأصلُ: فلا يستطيعون صرفاً ولا نصراً ونُذيقُهم عذاباً كبيراً، أو نذيقُكم، على اختلافِ القراءتين، والحملُ على: مَن يَدُمْ على الظلم منكم، ليختصَّ الخطابُ بالكفار صحيحٌ أيضاً، ولكنْ

(١) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٠.
(٢) في الأصل: الكافر.

تفوتُه النكتة التي ذكرناها. انتهى. ولا يخفَى أنَّ كونَه من إقامة المظهَرِ مقامَ المضمَرِ خلافُ الظاهر، فتأمَّل.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ قيل: هو تسليةٌ له ﷺ عن قولهم: ما لهذا الرسولِ يأكُلُ الطعامَ ويمشي في الأسواق، بأنَّ لك في سائر الرسل عليهم السلام أسوةً حسنةً، فإنهم كانوا كذلك.

وقال الزجَّاج[١]: احتجاجٌ عليهم في قولهم ذلك، كأنه قيل: كذلك كان مَن خلا من الرسل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فكيف يكون محمدٌ ﷺ بِدْعاً من الرسل عليهم السلام.

وردَّه الطيبيُّ بأنه لا يساعدُ عليه النَّظمُ الجليلُ؛ لأنه قد أُجيب عن تعنُّتهم بقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الإسراء:٤٨].

وتعقبه في «الكشف» بقوله: ولقائلٍ أن يقول: هذا جوابٌ آخرُ كما أجيب هنالك من أَوْجُهٍ على ما نُقِلَ عن الإمام[٢]، وجَعَلَ قولَه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ﴾ جواباً ثالثاً، وعقَّبه بقوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ﴾ لمكانِ المناسبةِ، وتمَّ الوعيدُ، ثم أجابهم سبحانه جواباً آخرَ يتضمَّنُ التسلية أيضاً، وهذا يساعدُ عليه النَّظْمُ الجليل.

والجملةُ التي بعد «إلا» قيل: صفةٌ ثانيةٌ لموصوفٍ مقدَّرٍ قَبْلَ «من المرسلين»، والمعنى: ما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلَّا آكلين وماشين.

وتعقِّب بأنَّ فيه الفَصْلَ بين الموصوفِ والصفة بـ «إلا»، وقد ردَّه أكثر النحاة كما في «المغني»[٣]. ومن هنا جعلها بعضُهم صفةً لموصوفٍ مقدَّر بعد «إلا» وذلك بدلٌ مما حُذِفَ قبلُ وأُقيمتْ صفتُه مقامه، والمعنى: ما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلَّا رجالاً أو رسلاً إنهم.. إلخ، وفيه الفَصْلُ بين البدل والمُبْدَل منه، وهو جائزٌ عندهم.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٦٢.
(٢) تفسير الرازي ٢٤/ ٥٢ و٦٥.
(٣) ص٤٧٨.

وقدَّر الفرَّاء بعد «إلا» «مَن»[(١)]، وهي تحتملُ أن تكون موصولةً وأن تكون نكرةً موصوفةً.

وجَعَلَ بعضُهم الجملةَ في محلِّ نصبٍ بقولٍ محذوفٍ، وجملةُ القول صفةٌ، أي: إلا رجالاً أو رسلاً قيل إنهم.. إلخ، وهو كما ترى.

وقال ابن الأنباريِّ: الجملةُ حاليةٌ، والاستثناءُ من أعمِّ الأحوال، والتقدير: إلَّا وإنهم. قال أبو حيان: وهو المختار[(٢)]، وقدَّر الواوَ بناءً على أنَّ الاكتفاء في مثل هذه الجملة الحالية بالضمير غيرُ فصيح، وربما يُختارُ عدمُ التقديرِ ويُمنعُ دَعْوَى عدمِ الفصاحة، أو يُحملُ ذلك على غير المقترن بـ «إلا» لأنه في الحقيقة بدل.

ووجهُ كَسْرِ «إنَّ» وقوعُها في الابتداء ووقوعُ اللّام بعدها أيضاً، وقرئ: «أنهم» بالفتح[(٣)] على زيادة اللام بعدها وتقديرِ جارٍّ قبلها، أي: لأنهم يأكلون.. إلخ، والمراد: ما جعلناهم رسلاً إلى الناس إلا لكونهم مثلَهم.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابن مسعود وعبد الرحمن بن عبد الله: «يُمَشَّوْنَ» بتشديد الشين المفتوحة مع ضمِّ الياءِ مبنيًّا للمفعول[(٤)]، أي: يُمشِّيهم حوائجُهم أو الناس، والتضعيفُ للتكثير كما في قول الهُذَليِّ:

يمشِّي بيننا حانوتُ خمرٍ[(٥)]

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلميُّ كما في «البحر»: «يُمَشُّون» بضم الياء والشين مع التشديد مبنيًّا للفاعل[(٦)]، وهو مبالغةُ يمشي المخفَّفِ، فهي مُطابِقةٌ للقراءة

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٤.

(٢) البحر ٦/ ٤٩٠.

(٣) البحر ٦/ ٤٩٠، والدر المصون ٨/ ٤٦٩.

(٤) المحتسب ٢/ ١٢٠، والبحر ٦/ ٤٩٠.

(٥) وعجزه: من الخُرْسِ الصَّراصِرَةِ القطاط، والبيت للمتنخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٢١. قال الشارح: يقول: يمشي بيننا صاحبُ حانوت خمر، وقوله: من الخرس الصراصرة، يريد أعجم من نبط الشام. القطاط: الجِعاد، والواحد قطط، وهو أشد الجعودة.

(٦) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥، والبحر ٦/ ٤٩٠.

المشهورة، ولا يحتاجُ إلى تقديرِ يُمشِّيهم حوائجُهم ونحوه، وأنشدوا قوله:

ومشَّى بأعطان المَبَاءةِ وابْتَغَى قلائصَ منها صعبةٌ وذلولُ[١]

وقوله[٢]:

فقد تَرَكتْ خُزَيبةُ كلَّ وغدٍ يُمشِّي بين خاتامٍ وطاقِ[٣]

وفي بعض نسخ «الكشاف» ما يدلُّ على أنه لم يَظْفَر بهذه القراءة[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قيل: تسليةٌ له ﷺ أيضاً، لكنْ عن قولهم: «أو يُلْقَى إليه كنزٌ أو تكونُ له جنةٌ»، أي: وجعلنا أغنياءكم أيُّها الناس ابتلاءً لفقرائكم لننظر هل يصبرون.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: عالماً بالصواب فيما يبتلي به وغيره فلا يضيقَنَّ صدرُك، ولا تستخفنَّك أقاويلُهم. وقيل: تصبيرٌ له عليه الصلاة والسلام على ما قالوه واستبدعوه من أكله الطعام ومَشْيِه في الأسواق، بعد الاحتجاجِ عليهم بسائر الرسل.

والكلامُ من تلوين الخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم السلام بطريق التغليب، على ما اختاره بعضهم. والمراد بالبعض الأول كفارُ الأمم، واختصاصُهم بالرسل مصحِّحٌ لِأَنْ يُعدُّوا بعضاً منهم، وبالبعض الثاني رسلُهم، على معنى: جعلنا كلَّ بعضٍ معيَّنٍ من الأمم فتنةً لبعضٍ معيَّنٍ من الرسل، كأنه قيل: وجعلنا كلَّ أمةٍ

---

(١) البيت للعلاء بن حذيفة الغنوي كما في أمالي القالي ١/ ٢٨، وهو دون نسبة في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥، والبحر ٦/ ٤٩٠. ووقع في الأصل و(م): بأغصان، وهو تصحيف. ورواية الأمالي والمحرر: أُمشِّي بأعطان المياه وأبتغي. وجاء في جميع المصادر: وركوب، بدل: وذلول.

(٢) جاء في حاشية (م): أنشده الأزهري، قال أبو عمرو: والعرب تسمي معدن الذهب خُزَيبة. وأراد بالخاتام الخاتم، وبالطاق الطيلسان. اهـ منه. وينظر التعليق الذي بعده.

(٣) تهذيب اللغة ٧/ ٢١٢، و٩/ ٢٤٤، واللسان والتاج (خزب) و(طوق). وقال في معجم البلدان ٢/ ٣٧٠: وأنشد الفراء في أماليه، فذكره برواية: لقد نزلت خزيبة كل وغد....

(٤) الكشاف ٣/ ٨٧، وفيه: وقرئ «يُمشَّون» على المبني للمفعول...، ولو قرئ «يُمشُّون» لكان أوجه لولا الرواية.

مخصوصةٍ من الأمم الكافرة فتنةً لرسولها المعيَّن. وإنما لم يصرّح بذلك تعويلاً على شهادة الحال، وحاصلُه: جَرَتْ سنَّتُنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم، وبمناصبتهم لهم العداوةَ، وإطلاقِ ألسنتهم فيهم بالأقاويل الخارجة عن حدِّ الإنصاف، وسلوكِهم في أذاهم كلَّ مسلكٍ لنَعْلَم صبرهم.

أو هو خطابٌ للناس كافةً ـ على ما قيل ـ وهو الظاهر، والبعضُ الأول أعمُّ من الكفار والأغنياء والأصحَّاء وغيرِهم ممن يصلُح أن يكون فتنةً، والبعضُ الثاني أعمُّ من الرسل والفقراء(١) والمرضى وغيرهم ممن يصلح أن يُفْتَن. والكلامُ عليه مفيدٌ لتصبُّره ﷺ على ماقالوه وزيادة.

وقيل: المراد بالبعض الأول مَن لا مالَ له من المرسَلين، وبالبعض الثاني أممهم، ويدخل في ذلك نبيُّنا ﷺ وأمتُه دخولاً أوَّليًّا، فكأنه قيل: جعلناك فتنةً لأمَّتك لأنك لو كنتَ صاحبَ كنوزٍ وجنَّاتٍ لكان ميلُهم إليك وطاعتُهم لك للدنيا، أو ممزوجةً بالدنيا، وإنما بعثناك لا مالَ لك ليكون طاعةُ من يُطيعك منهم خالصةً لوجه الله تعالى من غير طمع دنيويٍّ، وكذا حالُ سائرِ مَن لا مالَ له من المرسلين مع أممهم.

والأظهر عمومُ الخطاب والبَعْضَيْنِ، وهو الذي تقتضيه الآثار، وإليه ذهب ابنُ عطيةَ، فقال: ذلك عامٌّ للمؤمن والكافر، فالصحيحُ فتنةٌ للمريض، والغنيُّ فتنةٌ للفقير، والرسولُ المخصوصُ بكرامةِ النبوَّةِ فتنةٌ لأشراف الناس الكفارِ في عصره، وكذلك العلماءُ وحكامُ العدل، وقد تلا ابنُ القاسم هذه الآيةَ حين رأى أشهب(٢). انتهى.

واختار ذلك أبو حيان(٣)، ولا يَضرُّ فيه خصوصُ سبب النزول، فقد روي عن الكلبيِّ أنها نزلت في أبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل، ومَن في طبقتهم، قالوا: إن أسلمنا وقد أسلم قبلنا عمارٌ وصهيبٌ وبلالٌ وفلانٌ وفلانٌ، ترفَّعوا علينا إدلالاً بالسابقة.

---

(١) في (م): والقراء، وهو تصحيف.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥. وتنظر قصة أشهب مع ابن القاسم في ترتيب المدارك ٢/ ٤٥٢.
(٣) البحر ٦/ ٤٩٠.

والاستفهام إمَّا في حيِّز التعليل للجَعْلِ، ومُعادِلُه محذوفٌ كما حُذف فيما لا يُحصى من الأمثلة، والتقدير: لنعلم أتصبرون أم لا، أي: ليظهر ما في علمنا، وقرينةُ تقديرِ العلم تضمُّنُ الفتنةِ إياه.

وإما أن لا يكون في حيِّز التعليل وليس هناك معادلٌ محذوف، بأنْ يكونَ للترغيب والتحريض، والمراد: اصبروا فإنِّي ابتَلَيتُ بعضَكم ببعض.

ويجوزُ أن لا يقدر معادلٌ على تقديرِ اعتبارِ التعليل أيضاً، بأنْ يكونَ الخطابُ للرسل عليهم السلام على ما سمعتَ.

وجعل ابن عطية الخطابَ فيما سبق عامًّا، وفي «أتصبرون» خاصّاً بالمؤمنين الذين جُعل إمهالُ الكفار فتنةً لهم في ضمن العموم السابق، وقدَّر معادلاً فقال: كأنه جَعَلَ إمهالَ الكفار فتنةً للمؤمنين، ثم وَقَفَهم: أتصبرون أم لا. وجَعَل قولَه تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ وعداً للصابرين ووعيداً للعاصين[1].

وجَعَله بعضُهم وعداً للرسول ﷺ بالأجر الجزيلِ لصَبْرِه الجميل، مع مزيدِ تشريفٍ له عليه الصلاة والسلام بالالتفات إلى اسم الربِّ مضافاً إلى ضميره ﷺ.

وجوِّز أن يكون وعيداً لأولئك المعاندين له عليه الصلاة والسلام جيء به إتماماً للتسلية أو التصبُّر، وليس بذاك.

واستُدِلَّ بالآية على القضاء والقدر، فإنها أفادت أنَّ أفعال العباد، كعداوةِ الكفار وإيذائهم، بجَعْلِ الله تعالى وإرادته، والفتنةُ بمعنى الابتلاء وإن لم تكن من أفعال العباد إلا أنها مُفْضيةٌ ومستلزمةٌ لما هو منها. وفيه من الخفاء ما فيه.

والحمد لله

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٥.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ إلخ شروعٌ في حكايةِ بعضٍ آخَرَ من أقاويلهم الباطلةِ وبيان بطلانها إثر حكايةِ إبطالِ أباطيلهم السابقةِ وذكر ما يتعلق بذلك. والجملةُ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ إلى آخره [الفرقان: ٧]، ووُضِعَ الموصولُ موضعَ الضمير للتنبيه بما في حيِّز الصلة على أنَّ ما يُحكى عنهم في الشناعة بحيث لا يَصْدُر عمَّن يرجو لقاء الله عزَّ وجلَّ.

والرجاءُ في المشهور: الأمل، وقد فسَّر أحدَهما بالآخرِ أكثرُ اللغويِّين، وفي «فروق» أبي هلال(١): الأملُ: رجاءٌ يستمرُّ، ولذا قيل للنظر في الشيء إذا استمرَّ وطال: تأمُّل.

وقيل: الأمل يكون في الممكن والمستحيل، والرجاءُ يَخُصُّ الممكن.

وفي «المصباح»: الأملُ ضدُّ اليأس، وأكثرُ ما يُستَعْمَلُ فيما يَبْعُدُ حصولُه، والطمعُ يكون فيما قَرُبَ حصولُه، والرجاء بين الأمل والطمع؛ فإنَّ الراجيَ يخاف أن لا يَحصُلَ مأمولُه، ولذا استُعمل بمعنى الطمع(٢). انتهى.

وفسَّره أبو عبيدة(٣) وقومٌ بالخوف. وقال الفرَّاءُ: هذه الكلمةُ تهاميَّةٌ، وهي

---

(١) في الأصل و(م) وحاشية الشهاب ٦/ ٤١٥ (والكلام منه): ابن هلال، والصواب ما أثبتناه، وأبو هلال هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران اللغوي العسكري، كما في معجم الأدباء ٨/ ٢٥٨، والكلام في كتابه: الفروق في اللغة ص٤٣٣.

(٢) المصباح المنير (أمل)، وفيه: ... فإن الراجي قد يخاف أن لا يحصل مأموله، ولهذا يُستعمل بمعنى الخوف، فإذا قوي الخوف استُعمل استعمال الأمل، وإلا استُعمل بمعنى الطمع. وينظر حاشية الشهاب ٦/ ٤١٥.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٧٣.

أيضاً من لغة هذيل، إذا كان مع الرجاء جَحْدٌ ذهبوا به إلى معنى الخوف، فيقولون: فلانٌ لا يرجو ربَّه سبحانه، يريدون: لا يخاف ربَّه سبحانه، ومن ذلك: ﴿مَّا لَكُوْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] أي: لا تخافون لله تعالى عظمةً. وإذا قالوا: فلانٌ يرجو ربَّه فهذا على معنى الرجاءِ لا على معنى الخوف، وقال الشاعر:

إذا لَسَعتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها وخالَفَها في بيتِ نوبٍ عَوَاسِلِ[1]

وقال آخر:

لا يرتجي حين يلاقي الذَّائدا أسبعةً لاقَتْ له أو واحدا[2]

انتهى.

وذُكر أنَّ استعمال الرجاء في معنى الخوف مجازٌ؛ لأنَّ الراجي لأمرٍ يخافُ فواتَه.

وأصلُ اللقاء: مُقابَلةُ الشيء ومصادفتُه، وهو مرادُ مَن قال: الوصولُ إلى الشيء لا المماسَّةُ، ويُطْلقُ على الرؤية لأنها وصولٌ إلى المرئيِّ، ولقاؤه تعالى هنا كنايةٌ عن لقاء جزائه يومَ القيامة، أو المراد ذلك بتقديرِ مضافٍ، والمعنى على التفسير المشهور للرجاء: وقال الذين لا يَأْمَلون لقاءَ جزائِنا بالخير والثوابِ على الطاعة لتكذيبهم بالبعث، وعلى التفسير الآخر: وقال الذين لا يخافون لقاءَ جزائنا بالشرِّ والعقابِ على المعصية لتكذيبهم بالبعث، كذا قيل.

---

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٨٦، و٢/ ٢٦٥، والبحر ٦/ ٤٩١، وعنه نقل المصنف، والبيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٤٣، ومجاز القرآن ٢/ ٧٣، والخزانة ٥/ ٤٩١. وجاء في معاني القرآن والبحر ومجاز القرآن والخزانة: عوامل، بدل: عواسل، قال البغدادي ٥/ ٤٩٩: يقول: إذا لسعت النحل هذا المشتار لم يخف لسعها، ولازمها في بيتها حتى قضى وطره من معسّلها. وقوله: وخالفها، يريد: جاء إلى عسلها من ورائها لما سرحت في المراعي. ويروى: وحالفها، أي: صار حليفها في بيتها. والنوب: النحل، سميت بذلك لسوادها، أو لأنها تختلف وتجيء وتذهب، أي: تنتاب المراعي ثم تعود. وعوامل، أي: تعمل العسل.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٨٦ و٢/ ٢٦٥، والبحر ٦/ ٤٩١، وتفسير الطبري ٧/ ٤٥٦، والأضداد لابن الأنباري ص١١، وتهذيب اللغة ١١/ ١٨٢، وأساس البلاغة (رجو)، واللسان (رجا)، وروايته في جميع المصادر: لا ترتجي حين تلاقي... لاقت معاً أم واحداً.

وقيل: المراد به رؤيتُه تعالى في الآخرة، والرجاءُ عليه بمعنى الأمل دون الخوف، إذ لا معنى لكونِ الرؤيةِ مَخوفةً. وهو خلافُ الظاهر وإنْ لم يَأْبَهُ ما بَعْدُ؛ إذ يكون المعنى عليه: إنَّ الذين لا يرجون رؤيتنا في الآخرة التي هي مَظِنَّةُ الرؤية لكثيرٍ من الناس اقترحوا رؤيتنا في الدنيا التي ليست مَظِنَّةً لذلك.

وقد يقال: نَفْيُ رجاءِ لقائه تعالى كنايةٌ عن إنكار البعث والحشرِ، ولعله أَوْلى مما تقدَّم، أي: وقال الذين ينكرون البعثَ والحشر: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: هلَّا أُنْزِلوا علينا فيخبرونا بصِدْقِ محمد ﷺ ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيخبرَنا بذلك، كما روي عن ابن جُرَيْجٍ وغيرِه.

وفي طلبِ إنزالِ ملائكةٍ للتصديق دون إنزالِ مَلَكٍ إشارةٌ إلى أنهم بلغوا في التكذيب مَبْلَغاً لا ينفعُ معه تصديقُ ملكٍ واحدٍ، وإذا اعتُبِرتْ «أل» في الملائكة للاستغراق الحقيقيِّ، كانت الإشارةُ إلى قوةِ تكذيبهم أقوى، وتزدادُ القوةُ إذا اعتُبِرَ في «علينا» معنى: كلّ واحدٍ منَّا، ولم يُعتَبَرْ توزيعٌ.

ويشيرُ أيضاً إلى قوَّةِ ذلك تعبيرُهم بالمضارع الدالِّ على الاستمرار التجدُّديِّ في «أو نرى ربنا»، كأنهم لم يَكْتفُوا برؤيته تعالى وإخبارِه سبحانه بِصِدْقِ رسولِه ﷺ حتى يَرَوْه سبحانه ويخبرهم مراراً بذلك. ولا يأبَى قَصْدَ الاستمرارِ من المضارع كونُ الأصلِ في «لولا» التي للتحضيض أو العَرْضِ أن تدخُلَ على المضارع، وما لم يكن مضارعاً يؤوَّلُ به. ولعل عُدُولَهم إلى الماضي في جانب إنزال الملائكة المعطوف عليه ـ وإن كان في تأويل المضارع ـ على نحو ما قدَّمنا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الآية:٧] فتذكَّر فما في العَهْدِ من قِدَمٍ.

وقيل: المعنى: لولا أنزل علينا الملائكةُ فيبلِّغون أَمْرَ اللهِ تعالى ونَهْيَه بَدَلَ محمدٍ ﷺ، أو نرى ربَّنا فيُخْبِرَنا بذلك من غير توسيطِ[1] أحدٍ.

ورجِّح الأولُ بأنَّ السياق لتكذيبه ﷺ، وحاشاه ثم حاشاه من الكذب، والتعنُّتُ في طلبِ مصدِّقٍ له عليه الصلاة والسلام، لا لطَلَبِ مَن يُفيدُهم الأمرَ والنهيَ سواه ﷺ، ولا نسلِّم أنَّ «لولا أُنزِلَ علينا الملائكةُ» يتكرَّر عليه مع «لولا أُنزل إليه

---

(١) في الأصل: توسط.

مَلكٌ» السابقِ؛ لظهورِ الفَرقِ بين المطلوبَيْنِ فيهما، ولو فُرِضَ لزومُ التكرارِ بينهما فهو لا يَضُرُّ كما لا يخفى.

وانتُصِرَ للأخير بأنَّ المقام ليس إلَّا لذِكْرِ المكذِّبين وحكايةِ أباطيلهم الناشئةِ عن تكذيبهم، وقد عَدَّ فيما سبق بعضاً منها متضمِّناً تعنُّتَهم في طلبِ مصدِّقٍ له ﷺ، فالأَوْلَى أن يكون ما هنا حكايةَ نوعٍ آخَرَ منها؛ ليكونَ أَبْعدَ عن التكرارِ، وأدلَّ على العنادِ والاستكبار.

ولعل قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أنسبُ بما ذُكر، ومعنى «استكبروا في أنفسهم»: أوقَعوا الاستكبارَ في شأنها، وعدُّوها كبيرةَ الشأن، وفيه تنزيلُ الفعلِ المتعدِّي مَنْزِلةَ اللازم، كما في قوله:

يجرحِ في عراقيبها نَصْلي[1]

والعتوُّ: تَجاوزُ الحدِّ في الظلم، وهو المصدرُ الشائعُ لـ: عَتَا. واللامُ واقعةٌ في جواب القسم، أي: واللهِ لقد استكبروا في شأن أنفُسِهم، وتَجاوَزوا الحدَّ في الظلم والطغيان تَجاوُزاً كبيراً بالغاً أقصى غايتِهِ، حيث كذَّبوا الرسولَ عليه الصلاة والسلام، ولم يَنْقادوا لبشرٍ مِثْلِهم يُوْحَى إليه في أمرهم ونَهْيِهم، ولم يكترثوا بمعجزاته القاهرةِ وآياته الباهرةِ، فطلبوا ما لا يكاد تَرْنو إليه أحداقُ الأمم، وراموُا ما لا يَحْظَى به إلَّا بعضُ أولي العزم من الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم.

وقد فسِّر «استكبروا في أنفسهم» بـ: أضْمَروا الاستكبارَ ـ وهو الكفرُ والعنادُ ـ في قلوبهم، وهو أَظْهَرُ مما تقدَّم، وما تقدَّم أبلغُ وأَوْفَقُ لما انتصر له.

وكذا فسِّر العتوُّ بالنُّبوِّ عن الطاعة، وما تقدَّم أبلغُ وأوفقُ بذلك أيضاً.

وفي تعقيب حكايةِ باطلِ أولئك الكَفَرَةِ بالجملة القَسَميةِ إيذانٌ بغايةِ قُبْحِ ما هم عليه، وإشعارٌ بالتعجُّبِ من استكبارهم وعتوِّهم، وهو من الفَحْوى في الحقيقة، وَمِثْلُ ذلك شائعٌ في الكلام؛ تقول لمن جَنَى جنايةً: فعلتَ كذا وكذا، استعظاماً

---

(١) قطعة من بيت لذي الرمة، وهو في ديوانه ١/١٥٦، وسلف ١٠/١٦١، وتمامه:

وإن تعتذر بالمحل من ذي ضروعها ... على الضيف يَجْرحْ في عراقيبها نَصْلي

وتعجُّباً منه، ويُستَعْمَلُ في سائر الألسنة، وجَعَلَ الزمخشريّ من ذلك قولَ مهلهلٍ:

وجـارةُ جـسَّـاسٍ أَبـأْنـا بِـنـابِـهـا كُـلَيباً غَلَتْ نابٌ كُلِيبٌ بَوَاؤُها[(١)]

والطيبيُّ قولَه تعالى[(٢)]: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ [الكهف: ٥]. وتُعقِّبَ بأنَّ ذلك ليس من هذا القبيل؛ لأنَّ الثلاثيَّ المحوَّلَ إلى فَعُل لَفْظاً أو تقديراً موضوعٌ للتعجُّبِ كما صرَّح به النُّحاة[(٣)].

وذكر الإمامُ مختاراً القولَ الأولَ في تفسير «لولا أنزل» إلخ، أنَّ هذه الجملةَ جوابٌ لقولهم: «لولا أُنزل» إلخ من عدَّة أوجُهٍ:

أحدها: أنَّ القرآن لمَّا ظهر كونُه مُعْجِزاً فقد ثبَتَتْ نبوَّتُه ﷺ، فبعد ذلك لا يكونُ اقتراحُ هذه الآيات إلَّا مَحْضَ استكبارٍ.

وثانيها: أنَّ نزولَ الملائكةِ عليهم السلام لو حصل لكان أيضاً من جملة المعجزات، ولا يدلُّ على الصدق لخصوص كونه نزولَ الملك، بل لعموم كونه مُعْجِزاً، فيكون قبولُ ذلك وردُّ الآخرِ ترجيحاً لأحد المِثْلَيْنِ من غيرِ مرجحٍ.

وثالثها: أنهم بتقدير رؤية الربِّ سبحانه وتصديقِه لرسوله ﷺ لا يستفيدون علماً أَزْيَدَ من تصديق المُعْجِز؛ إذ لا فَرْقَ بين أن يقول النبيُّ: اللهمَّ إن كنتُ صادقاً فأَحْيِ هذا الميتَ، فيُحْييه عزَّ وجلَّ، وبين أن يقول: إن كنتُ صادقاً فصدِّقني، فيصدِّقه، فتعيينُ أحدِ الطريقين محضُ العناد.

ورابعها: أنَّ العبد ليس له أن يعترض على مولاه؛ إمَّا بحكم المالكية عند الاشعريِّ، أو بحكم المصلحة عند المعتزليِّ.

---

(١) الكشاف ٣/ ٨٨، والبحر ٦/ ٤٩٢، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤١٦. ولم ينسب في هذه المصادر، وأخذ المصنف نسبته من الشهاب، وقال الشهاب: جساس: لقب مرة بن ذهل الشيباني، وجارته هي البسوس بنت منقذ التميمية، وهي خالة جساس. والناب: الناقة المُسِنَّة. وأبأت القاتل بالقتيل: إذا قتلته به قصاصاً، من البواء وهو التساوي. وقوله: غلت، أي: ما أغلاها إذ قتل فيها كليب، فهو محل الاستشهاد.

(٢) أي: وجعل الطيبي من ذلك قولَه تعالى. . . .

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير الآية (٥) من سورة الكهف.

وخامسها: أنَّ السائل المُلِحَّ المعانِدَ الذي لا يرضى بما يُنْعَمُ عليه مذمومٌ، وإظهارُ المعجز من جملة الأيادي الجسيمة، فردُّ إحداهما واقتراحُ الأخرى ليس من الأدب في شيء.

وسادسها: لعل المراد: أنِّي لو علمتُ أنهم ليسوا مستكبرين وعاتينَ لأعطيتهم مطلوبَهم، لكنِّي علمتُ أنهم إنما سألوا لأجْلِ الْمكابَرةِ والعناد، فلا جَرَمَ لا أعطيهم.

وسابعها: لعلهم عرفوا من أهل الكتاب أنَّ الله تعالى لا يُرَى في الدنيا، وأنه لا يُنْزِلُ الملائكةَ عليهم السلام على عوامِّ الخَلْقِ، ثم إنهم عَلَّقوا إيمانهم على ذلك، فهم مستكبرون ساخرون(١). انتهى، وفيه ما لا يخلو عن بحث.

واستدلَّتِ الأشاعرةُ بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ على أنَّ رؤيةَ الله تعالى ممكنةٌ. واستدلَّت المعتزلةُ بقوله سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ ﴿وَعَتَوْ﴾ على أنها ممتنعةٌ، ولا يَخْفَى ضَعْفُ الاستدلالين.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما يَلْقَوْنه عند مشاهدةِ الملائكة عليهم السلام بعد استعظام طلبهم إنزالَهم عليهم، وبيانِ كونه في غاية الشناعة. وإنما قيل: «يومَ يرون» دون أن يقال: يومَ تنزلُ الملائكة، إيذاناً من أول الأمر بأنَّ رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما طلبوه، بل على وجهٍ آخرَ لم يمرَّ ببالهم.

و«يومَ» منصوبٌ على الظرفية بما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه في معنى: لا يبَشَّرُ يومئذٍ المجرمون، والعدولُ إلى نفي الجنس للمبالغة في نفي البشرى، فكأنه قيل: لا يبشَّرون يومَ يَرَونَ الملائكةَ. وقدَّر بعضهم: يُمنعون البشرى، أو يفقدونها. والأولُ أبعدُ من احتمال توهُّم تهوين الخَطْبِ(٢).

---

(١) تفسير الرازي ٢٤/ ٦٨-٦٩ بنحوه.

(٢) لأن منع البشرى وفقدانها مشعران بأن هناك بشرى يمنعونها أو يفقدونها، وأين هذا من نفيها بالكلية؟ تفسير أبي السعود ٦/ ٢١١.

وقدَّر بعضُهم: لا بشرى، قبل«يوم»، وجَعَلَه ظرفاً لذلك. وجَوَّز أبو البقاء تعلُّقَه بـ «يعذَّبون» مقدَّراً؛ لِدلالة «لا بشرى» إلخ عليه، وكونَه معمولاً لـ «اذكُر» مقدَّراً[1]، قال أبو حيان: وهو أقرب[2].

وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يكون منصوباً بـ «يُنْزِل» مضمَراً؛ لقولهم: «لولا أُنزل علينا الملائكة»، كأنه قيل: ينزل الملائكة يومَ يرونهم، ولا يقال: كيف يكون وقتُ الرؤيةِ وقتاً للإنزال؟ لأنَّا نقول: الظرفُ يحتمل ذلك لسعته. واستحسنه الطيبيُّ فقال: هو قولٌ لا مزيدَ عليه؛ لأنه إذا انْتَصَبَ بـ «ينزل» يلتئم الكلامان؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ إلخ نشرٌ لقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ إلخ، وقوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ نشرٌ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

ولم يجوِّز الأكثرون تعلُّقه بـ «بشرى» المذكورِ؛ لكونه مصدراً وهو لا يعملُ متأخِّراً، وكونِه منفيًّا بـ «لا» ولا يعملُ ما بعدها فيما قبلها.

و «يومئذ» تأكيدٌ للأول، أو بدلٌ منه، أو خبرٌ. و«للمجرمين» تبيينٌ متعلِّقٌ بمحذوفٍ كما في: سقياً له، أو خبرٌ ثانٍ، أو هو ظرفٌ لِمَا يتعلَّق به اللامُ، أو لـ «بشرى» إن قدِّرتْ منونةً غيرَ مبنيةٍ مع «لا»، فإنها[3] لا تعمل، إذ لو عَمِلَ اسمُ «لا» طال وأشبهَ المضافَ فينتصب.

وفي «البحر»[4]: احْتَمَلَ «بشرى» أن يكون مبنيًّا مع «لا»، واحْتَمَلَ أنْ يكونَ في نيةِ التنوين منصوبَ اللفظ ومُنِعَ من الصَّرف للتأنيث اللَّازم، فإنْ كان مبنيًّا مع «لا» احْتَمَلَ أن يكون الخبرُ «يومئذ»، و«للمجرمين» خبرٌ بعد خبرٍ، أو نعتٌ لـ «بشرى»، أو متعلِّقٌ بما تعلَّق به الخبر، وأن يكون «يومئذ» صفةً لـ «بشرى» والخبرُ «للمجرمين»، ويجيءُ خلافُ سيبويه والأخفشِ: هل الخبر لنفس «لا»، أو للمبتدأ الذي هو مجموعُ «لا» وما بُني معها؟ وإن كان في نية التنوين وهو معربٌ، جاز أن يكون «يومئذ» معمولاً لـ «بشرى» وأن يكون صفةً والخبرُ «للمجرمين»، وجاز أن

---

(١) الإملاء ٤/ ٩٥.

(٢) البحر ٦/ ٤٩٢.

(٣) أي: «لا» المبني معها اسمها. حاشية الشهاب ٦/ ٤١٦.

(٤) ٦/ ٤٩٢.

يكون «يومئذ» خبراً و«للمجرمين» صفة، وجاز أن يكون «يومئذ» خبراً و«للمجرمين» خبراً بعد خبر، والخبرُ إذا كان الاسم ليس مبنيًّا لـ «لا» نفسِها بالإجماع.

وقال الزمخشريُّ: «يومئذ» تكرير[1]. ولا يجوز ذلك سواءٌ أريدَ بالتكرير التوكيدُ اللفظيُّ أم أُريدَ به البدل؛ لأنَّ «يوم» منصوبٌ بما تقدَّم ذِكْرُه من «اذكر» أو من «يفقدون»[2]، وما بعدَ «لا» العاملةِ في الاسم لا يعملُ فيه ما قبلها، وعلى تقديره يكون العاملُ فيه ما قبلها. انتهى.

ولا يخفى عليك ما في الاحتمالاتِ التي ذكرها، وأمَّا ما اعْتَرَضَ به على الزمخشريِّ، فتعقِّبَ بأنَّ الجملةَ المنفيةَ معمولةٌ لقولٍ مُضْمَرٍ وقع حالاً من «الملائكة» التي هي معمولٌ لـ «يرون»، و«يرون» معمولٌ لـ «يوم»، فـ «لا» وما في حيِّزها من تتمة الظَّرْفِ الأول من حيث إنه معمولٌ[3] لبعض ما في حيِّزه، ومثلُه لا يُعدُّ محذوراً. مع أنَّ كونَ «لا» لها الصَّدْرُ مطلقاً أو إذا بُني معها اسمُها ليس بمسلَّمٍ عند جميع النُّحاة؛ لأنها لكثرة دورها خرجت عن الصَّدارة فتأمَّل.

هذا ما وَقَفْنا عليه للمتقدِّمين في إعراب الآية، وما فيه من الجرح والتعديل.

وقال بعض العصريِّين: يجوزُ تعلُّقُ «يوم» بـ «كبيراً»، وتقييدُ كبره بذلك اليوم ليس لنفي كبره في نفسه بل لظهورِ موجبه في ذلك اليوم، ونظيرُه: لزيدٍ عِلْمٌ عظيمٌ يومَ يُباحِثُ الخصومَ، وتكون جملةُ «لا بُشْرَى يومَئذٍ للمجرمين» استئنافاً لبيان ذلك، وهو كما ترى.

وأيًّا ما كان فالمرادُ بذلك اليوم ـ على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ يومُ الموت. وقال أبو حيان: الظاهرُ أنه يومُ القيامة؛ لقوله تعالى بعدُ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟﴾ إلخ[4]. وفيه نظر.

ونَفْيُ البشرى كنايةٌ عن إثباتِ ضدِّها، كما أنَّ نفي المحبةِ في مثل قوله تعالى:

---

(١) الكشاف ٣/٨٨، والكلام من البحر ٦/٤٩٢.
(٢) في البحر: أو من يعدمون البشرى، وينظر ما سلف قريباً عند إعراب كلمة «يوم».
(٣) في (م): معمولاً، وهو تصحيف.
(٤) البحر ٦/٤٩٢.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] كنايةٌ عن البغضِ والمَقْتِ، فيدل على ثبوت النُّذْرَى لهم على أبلغ وجه.

والمراد بالمجرمين أولئك الذين لا يرجون لقاءه تعالى، ووُضِعَ المظهَرُ موضعَ ضميرهم تسجيلاً عليهم بالإجرام مع ما هم عليه من الكفر والعناد، وإيذاناً بعلَّة الحكم. ومَن اعْتَبَر المفهومَ في مثله ادَّعى إفادةَ الآيةِ عَدَمَ تحقُّقِ الحكم في غيرهم، وقد دلَّ قولُه تعالى في حقِّ المؤمنين: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ﴾ إلخ [فصلت: ٣٠] على حصول البشرى لهم.

وقيل: المراد بهم ما يعمُّ العصاة والكفارَ الذين لا يرجون لقاءه تعالى، ويفيدُ الكلام سَلْبَ البُشْرَى عن الكفار على أتمِّ وجهٍ لدلالته على أنَّ المانع من حصول البشرى هو الإجرام، ولا إجرامَ أعظمُ من إجرام الذين لا يرجون لقاءه عزَّ وجلَّ ويقولون ما يقولون، فهم أَوْلَى به. ولا يتم استدلالُ المعتزلة بالآيةِ عليه في نفي العَفْوِ والشفاعةِ للعصاة؛ لأنها لا تفيدُ النفيَ في جميع الأوقات، فيجوز أن يبشَّر العصاةُ بما ذُكر في وقتٍ آخر.

وتعقِّب بأنَّ الجملةَ قبل النفي لكونها اسميةً تفيدُ الاستمرارَ، فبعد دخول النفي إرادةُ نفي استمرارِ البشرى للمجرمين بمعنى أنَّ البشرى تكونُ لهم لكنْ لا تستمرُّ، مما لا يُظَنُّ أنَّ أحداً يذهب إليه، فيتعيَّن إرادةُ استمرارِ النفي، كما في قوله تعالى في حقِّ أضدادهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] فحينئذٍ لا يتسنَّى قولُه: إنها لا تُفيد النفيَ في جميع الأوقات. فالأَوْلَى أن يراد بالمجرمين مَن سمعتَ حديثَهم.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطفٌ على: لا يُبَشَّرون، أو: يُمنعون البشرى، أو نحوِه المقدَّرِ قبل «يوم».

وجوِّز أن يكون عطفاً على ما قبله باعتبارِ ما يُفْهَمُ منه، كأنه قيل: يشاهِدون أهوالَ القيامة ويقولون، وأنْ يكون عطفاً على «يَرَوْنَ» وجملةُ «لا بشرى» حالٌ بتقدير القول، فلا يضرُّ الفصلُ به.

وضميرُ الجمع ـ على ما استَظْهَره أبو حيان لأنَّهم المحدَّثُ عنهم، وحكاه

الطبرسيُّ عن مجاهدٍ وابن جريج ـ للذين لا يرجون[1]، أي: ويقول أولئك الكفرةُ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ وهي كلمةٌ تقولُها العرب عند لقاء عدوٍّ مَوْتُورٍ[2] وهجومِ نازلةٍ هائلةٍ، يضعونها موضع الاستعاذة، حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقَهم، فكأن المعنى: نسألُ الله تعالى أن يمنع ذلك منعاً ويَحْجرَه حَجْراً.

وقال الخليل: كان الرجل يرى الرجلَ الذي يخاف منه القتلَ في الجاهلية في الأشهُرِ الحُرُم فيقول: حِجْراً محجوراً ـ أي: حرامٌ عليك التعرُّضُ لي في هذا الشهر ـ فلا يبدؤه بشرٍّ.

وقال أبو عبيدة[3]: هي عوذةٌ للعرب يقولُها مَن يخاف آخَرَ في الحَرَم أو في شَهْرٍ حرام إذا لقيه وبينهما تِرَةٌ.

وقال أبو عليٍّ الفارسيٍّ[4]: مما كانت العربُ تستعملُه ثم تُرِكَ قولُهم: حِجْراً محجوراً، وهذا كان عندهم لمعنيين:

أحدهما: أن يقال عند الحرمان؛ إذا سئل الإنسانُ فقال ذلك عَلم السائلُ أنه يريد أن يحرمه، ومنه قول المتلمِّس:

حنَّتْ إلى النخلة القُصْوَى فقلتُ لها ... حِجْرٌ حَرَامٌ أَلَا تلك الدَّهارِيسُ[5]

والمعنى الآخر: الاستعاذة، كان الإنسان إذا سافر فرأى ما يخافُ قال: حِجْراً محجوراً، أي: حرامٌ عليك التعرُّضُ لي. انتهى.

وذكر سيبويه «حِجْراً» من المصادر المنصوبةِ غيرِ المتصرِّفةِ، وأنه واجبٌ إضمارُ ناصِبِها، وقال: ويقول الرجلُ للرجل: أتفعلُ كذا؟ فيقول: حِجْراً[6]. وهي من

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ١٠٠، والبحر ٦/ ٤٩٢.
(٢) المَوْتور: من قُتلَ له قتيل فلم يُدرِك بدمِه. القاموس (وتر).
(٣) كما في البحر ٦/ ٤٩٢.
(٤) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٤١٧.
(٥) جاء في هامش الأصل و(م): أي الدواهي. اهـ منه. والبيت في الفاضل للمبرد ص٧٨، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٧٣، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٢٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢٠٦، ومختارات ابن الشجري ١/ ٣٢، واللسان (دهرس)، وحاشية الشهاب ٦/ ٤١٧. ورواية الفاضل والمختارات: بَسْلٌ، بدل: حجر. والبَسْل: الحلال والحرام، من الأضداد.
(٦) الكتاب ١/ ٣٢٦، ونقله المصنف بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٩٢.

حَجَره: إذا مَنَعه؛ لأنَّ المستعيذ طالبٌ من الله تعالى أن يمنع المكروهَ من أن يلحقه.

والأصلُ فيه فتحُ الحاء، وقرئ به كما قال أبو البقاء[1]، لكنْ لـمَّا خَصُّوا استعمالَه بالاستعاذة أو الحرمان صار كالمنقول، فلمَّا تغيَّر معناه تغيَّر لَفْظُه عمَّا هو أصلُه ـ وهو الفتحُ ـ إلى الكسر، وقد جاء فيه الضمُّ أيضاً، وهي قراءةُ أبي رجاءٍ والحسن والضحَّاك[2]. ويقال فيه: حجرى بألف التأنيث أيضاً. ومثلُه في التغيير عن أصله: قَعْدَكَ اللهَ[3] تعالى بسكون العين وفتح القاف ـ وحُكي كَسْرُها عن المازنيِّ وأنكره الأزهريُّ[4] ـ وَقَعِيدَكَ، وهو منصوبٌ على المصدرية، والمراد: رقيبك وحفيظك الله تعالى، ثم نقل إلى القسم، فقيل: قَعْدَكَ أو قَعِيدَكَ اللهَ تعالى لا تفعل، وأصلُه: بإقعاد اللهِ تعالى، أي: إدامته سبحانه لك، وكذا: عمرَكَ الله، بفتح الراء وفتح العين وضمِّها، وهو منصوبٌ على المصدرية ثم اختصَّ بالقسم، وأصلُه: بتعميرك اللهَ تعالى، أي: بإقرارك له بالبقاء.

وما ذُكِرَ من أنه لازمُ النصب على المصدرية بفعلٍ واجبِ الإضمار اعْتَرَضَ عليه في «الدر المصون» بما أنشده الزمخشريُّ:

قـالـت وفـيـهـا حَـيْـدةٌ وذُعْـرُ عـوذٌ بـربِّـي مـنـكـمُ وحـجـرُ[5]

فإنه وقع فيه مرفوعاً.

ووصفُه بـ «محجوراً» للتأكيد كـ: شِعْرٌ شاعرٌ، وموتٌ مائتٌ، وليلٌ أَلْيلُ. وذُكر أنَّ مفعولاً هنا للنسب، أي: ذو حِجْرٍ، وهو كفاعل يأتي لذلك. وقيل: إنه على الإسناد المجازيِّ، وليس بذاك.

---

(١) في الإملاء ٤/ ٩٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٢-٤٩٣.

(٣) قال الشهاب: بنصب الاسم الشريف لا غير.

(٤) في تهذيب اللغة ١/ ٢٠١، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٤١٧.

(٥) الكشاف ٣/ ٨٨، والدر المصون ٨/ ٤٧٤، وحاشية الشهاب ٦/ ٤١٨، والكلام منه. والرجز أنشده الحطيئة وهو على فراش الموت، كما في الخزانة ٢/ ٤١٣، وذكره دون نسبة ابن السكيت في إصلاح المنطق ص٩٣، والبطليوسي في الحلل ص١١٢. قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٢٣٠: الحيدة فعلة، من حاد عن الشيء: إذا تنحى.

والمعنى: أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام، وهم إذا رَأَوْهم كرهوا لقاءهم أشدَّ كراهةٍ، وفزعوا منهم فَزَعاً شديداً، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلولِ بأسٍ فظيع.

وقيل: ضمير «يقولون» للملائكة، وروي ذلك عن أبي سعيد الخدريِّ والضحَّاك وقتادةَ وعطيةَ ومجاهدٍ، على ما في «الدر المنثور»[1]، قالوا: إنَّ الملائكة يقولون للكفار: حِجْراً محجوراً، أي: حراماً محرَّماً عليكم البُشْرى، أي: جَعَلَها الله تعالى حراماً عليكم.

وفي بعض الروايات: أنهم يطلبون البشرى من الملائكة عليهم السلام، فيقولون ذلك لهم.

وقال بعضُهم: يعنون حراماً محرَّماً عليكم الجنة، وحكاه في «مجمع البيان» عن ابن عباس رضي الله عنهما[2]. وقيل: الغفران.

وفي جَعْلِ «حجراً» نصباً على المفعولية لـ «جَعَلَ» مقدَّراً ـ كما أُشيرَ إليه ـ بحثٌ.

والظاهرُ ـ على ما ذُكر ـ أنَّ إيراد هذه الكلمة للحرمان، وهو المعنى الأولُ من المعنيين اللذين ذكرهما الفارسيُّ، و«يقولون» على هذا القولِ، قيل: معطوفٌ على ما عُطِفَ عليه على القول بأن ضميره للكفرة. وقيل: معطوفٌ على جملةٍ يقولون المقدَّرةِ قبل «لا بشرى» الواقعةِ حالاً.

وقال الطيبيُّ: هو حالٌ من «الملائكة» بتقدير: وهم يقولون، نظير قولهم: قمتُ وأصكُّ وَجْهَه، وعلى الأول هو عطفٌ على «يرون».

﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي: عَمَدْنا وقَصَدْنا، كما روي عن ابن عباس، وأخرجه ابنُ أبي شيبةَ، وعبد بنُ حميدٍ، وابن جَريرٍ، وابنُ المنذر، وابنُ أبي حاتم عن مجاهد[3].

---

(١) ٥/ ٦٦.

(٢) مجمع البيان ١٩/ ١٠٠.

(٣) تفسير الطبري ١٧/ ٤٣١، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٨، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٦.

﴿إِلَى مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ فخيمٍ كصلة رَحِمٍ، وإغاثةِ ملهوفٍ، وقري ضيفٍ[١]، ومنٍّ على أسيرٍ، وغيرِ ذلك من مكارمهم ومحاسنهم التي لو كانوا عملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها. والجارُّ والمجرور بيانٌ لـ «ما»، وصحةُ البيان باعتبارِ التنكير كصحةِ الاستثناء في﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢] لكنَّ التنكير هاهنا للتفخيم كما أشرنا إليه.

وجوِّز أن يكون للتعميم ودفعِ ما يتوهَّمُ من العهد في الموصول، أي: عَمَدْنا إلى كلِّ عملٍ عَمِلُوه خالٍ عن الإيمان، ولعل الأولَ أنسبُ بقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً﴾ مثلَ هباءٍ في الحقارة وعَدَمِ الجدوى، وهو على ما أخرج عبد الرزاق والفريابيُّ وابنُ أبي حاتم عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: وَهْجُ الغبارِ يَسْطَعُ ثم يذهب[٢].

وأخرج ابن أبي حاتم[٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه الشَّررُ الذي يطيرُ من النار إذا اضْطَرمَتْ. وفي روايةٍ أخرى عنه: أنه الماءُ المهراق[٤]. وعن يعلى بن عبيد: أنه الرماد[٥].

وأخرج جماعةٌ عن مجاهدٍ والحسن وعكرمةَ وأبي مالك وعامرٍ أنه شعاعُ الشمس في الكوَّة[٦]. وكأنَّهم أرادوا ما يُرى فيه من الغبار كما هو المشهور عند اللغويين، قال الرَّاغب: الهباء: دقاقُ التراب وما انْبَثَّ في الهواء، فلا يبدو إلَّا في أثناء ضوء الشمس في الكوَّة، ويقال: هَبَا الغبارُ يهبو: إذا ثار وسَطَع[٧].

ووُصِفَ بقوله تعالى: ﴿مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ مبالغةً في إلغاء أعمالهم، فإنَّ الهباء تراه منتظماً مع الضوء فإذا حرَّكَتْه الريحُ تَناثَرَ وذهب كلَّ مذهبٍ، فلمْ يَكْفِ أن شبَّه

(١) في (م): ضعيف.
(٢) الدر المنثور ٥/ ٦٦، وفيه: ريح، بدل: وهج، والذي في المصادر: رهج. ينظر تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٧٩، وتفسير الطبري ٢٢/ ٢٨٥، وتفسير مجاهد ٢/ ٦٤٥، والنكت والعيون ٥/ ٤٤٧. وتفسير القرطبي ٢٠/ ١٨٠.
(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ٦٦.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ١٦٧٩.
(٥) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ١٦٨٠.
(٦) الدر المنثور ٥/ ٦٧ وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٣١-٤٣٢ عن عكرمة والحسن ومجاهد.
(٧) مفردات الرَّاغب (هبا).

أعمالهم بالهباء حتى جُعِلَ متناثراً لا يمكنُ جَمْعُه والانتفاع به أصلاً، ومثلُ هذا الإرداف يسمَّى في البديع بالتتميم والإيغال[١]، ومنه قولُ الخنساء:

أغــرُّ أبــلــجُ تــأتــمُّ الــهــداةُ بــه ... كــأنــه عَــلَــمٌ فــي رأســه نــارُ[٢]

حيث لم يَكْفِها أنْ جَعَلَتْه عَلَماً في الهداية، حتى جَعَلَتْه في رأسه نارٌ.

وقيل: وُصِفَ بالمنثور، أي: المتفرِّقِ؛ لِمَا أنَّ أغراضهم في أعمالهم متفرِّقةٌ، فيكون جَعْلُ أعمالهم هباءً متفرِّقاً جزاءً من جنس العمل.

وجوِّز أن يكون مفعولاً بعد مفعولٍ لـ «جعل»، وهو مرادُ مَن قال[٣]: مفعولاً ثالثاً لها، على معنى: جَعَلْناه جامعاً لحقارةِ الهباء والتناثُر، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥] أي: جامعينَ للمَسْخِ والخَسْءِ. وفيه خلافُ ابن درستويه[٤]، حيث لم يجوِّز أن يكون لـ «كان» خبران، وقياسُ قوله أن يُمنع أن يكون لـ «جَعَل» مفعولٌ ثالث. ومع هذا الظاهرُ الوصفيةُ.

وفي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ حيث مُثِّلَتْ حالُ هؤلاء الكفرةِ وحالُ أعمالِهم التي عملوها في كفرهم بحالِ قومٍ خالفوا سلطانَهم واستَعْصَوْا عليه فقَدِمَ إلى أشيائهم، وقَصَدَ إلى ما تحت أيديهم، فأفسدها وجعَلَها شَذَرَ مَذَرَ، ولم يترك لها من عينٍ ولا أثر، واللفظُ المستعارُ وقع فيه استعمالُ «قَدِمَ» بمعنى عَمَدَ وقَصَد؛ لاشتهاره فيه وإن كان مجازاً كما يشير إليه كلامُ «الأساس»[٥]. ويُسمَّى القَصْدُ المُوْصِلُ إلى المقصدِ قدوماً لأنه مقدِّمتُه، وتَضمَّنَ التمثيلُ تشبيهَ أعمالهم المُحْبَطةِ

---

(١) الإيغال: هوختم الكلام بما يفيد نكتةً يتم المعنى بدونها. والتتميم: هو أن يؤتَى في كلام لا يوهم غير المراد بفضلة تفيد نكتةً. مثال الأول قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس:٥-٢١] فقوله: «وهم مهتدون» إيغال؛ لأنه يتم المعنى بدونه، إذ الرسول مهتدٍ لا محالة، لكن فيه زيادة مبالغة في الحث على اتباع الرسل والترغيب فيه. ومثال الثاني: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: اشتهائه، فإن الإطعام حينئذ أبلغ وأكثر أجراً. الإتقان ٢/ ٨٦٩ و٨٧١.

(٢) ديوان الخنساء ص٤٩ برواية: وإن صخراً لتأتمُّ الهداة...

(٣) هو الزمخشريّ في الكشاف ٣/ ٨٩.

(٤) كما في البحر ٦/ ٤٩٣، وعنه نقل المصنف.

(٥) ينظر أساس البلاغة (قدم)، وحاشية الشهاب ٦/ ٤١٨.

بالهباء المنثور بدون استعارةٍ، فلا إشكالَ على ما قيل، والكلامُ في ذلك طويلٌ فليُطْلَبْ من محلِّه.

وجَعَلَ بعضُهم القدوم في حقه عزَّ وجلَّ عبارةً عن حُكْمِه.

وقيل: الكلام على حذفِ مضافٍ، أي: قَدِمَ ملائكتُنا، وأسندَ ذلك إليه عزَّ وجلَّ لأنَّه عن أَمْرِه سبحانه.

ونُقِلَ عن بعض السَّلَفِ أنه لا يؤوِّلُ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] وقوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] على ما هو عادتُهم في الصفات المتشابهة، وقياسُ ذلك عدمُ التأويل في الآية، ولعله من هنا قيل: إنَّ تأويلَ الزمخشريِّ[1] لها بناء على مُعْتَقَدِه من إنكار الصِّفات، والقلبُ إلى التأويل فيها أَمْيَلُ.

وأنت إنْ لم تؤوِّل القدومَ فلا بدَّ لك أن تؤوِّلَ جَعْلَها هباءً منثوراً بإظهار بطلانها بالكلِّية، وإلغائها عن درجة الاعتبار بوجهٍ من الوجوه، ولا يأبى ذلك السَّلَفُ.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هم المؤمنون المشارُ إليهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يكونُ ما ذُكِرَ من القُدوم إلى أعمالهم وجَعْلِها هباءً منثوراً، أو من هذا وعدمِ التبشير وقولِهم: حجراً محجوراً.

﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ المستقرُّ: المكانُ الذي يُسْتَقَرُّ فيه في أكثر الأوقات للتجالُس والتحادُث ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ المقيلُ: المكانُ الذي يُؤْوَى إليه للاسْتِرْواحِ إلى الأزواج والتمتُّعِ بمغازلتهنَّ، سمِّي بذلك لأنَّ التمتُّع به يكون وقتَ القيلولة غالباً.

وقيل: هو في الأصل مكانُ القيلولة ـ وهي النومُ نصفَ النهار ـ ونُقِلَ من ذلك إلى مكان التمتُّع بالأزواج لأنه يُشْبِهه في كون كلٍّ منهما محلَّ خلوةٍ واستراحةٍ، فهو استعارةٌ.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٨٨.

وقيل: أُريدَ به مكانُ الاسْتِرْواحِ مطلقاً، استعمالاً للمقيَّد في المُطْلَق، فهو مجازٌ مُرْسَل، وإنَّما لم يَبْقَ على الأصل لِمَا أنه لا نومَ في الجنة أصلاً.

وأخرج ابن المبارك في «الزهد» وعبد بنُ حميد وابنُ جريرٍ وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود رضي الله عنه: لا ينتصفُ النهارُ من يوم القيامة حتى يَقِيلَ هؤلاء وهؤلاء، ثم قرأ: (أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) وقرأ: «إنَّ مَقيلَهم لإلى الجحيم»[١]. وأَخَذَ منه بعضُهم أنَّ المراد بالمستَقَرِّ: موضعُ الحساب، وبالمقيل: محلُّ الاستراحة بعد الفراغ منه، ومعنى «يقيل هؤلاء» يعني أصحابَ الجنة يُنقلون إليها وقتَ القيلولة.

وقيل: المستقرُّ والمقيلُ في المحشر قبل دخول الجنة، أو المستقرُّ فيها والمقيل فيه؛ فقد أخرج ابنُ جريرٍ عن سعيدٍ الصَّوَّافِ قال: بلغني أنَّ يوم القيامة يَقْصُرُ على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وإنهم ليَقيلون في رياض حتى يَفْرَغَ الناسُ من الحساب، وذلك قوله تعالى: (أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا)[٢].

وفي وَصْفِه بزيادة الحُسْنِ مع حصولِ الخيرية بعَطْفِه على المستقرِّ رمزٌ إلى أنَّ لهم ما يُتزيَّنُ به من حُسْنِ الصُّوَرِ وغيرِه من التحاسين، فإنَّ حُسْنَ المنزل إن لم يكن باعتبار ما يرجع لصاحبه لم تتمَّ المَسرَّةُ به.

والتفضيلُ المعتبرُ فيهما[٣]: إمَّا لإرادة الزيادةِ على الإطلاق، أي: هم في أقْصَى ما يكونُ من خيرية المستقرِّ وحُسْنِ المَقيل. وإمَّا بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعِّمين في الدنيا، أو إلى ما لهم في الآخرة بطريق التهكُّم بهم.

---

(١) الزهد (١٣١٣)، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٣٥، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٠، والمستدرك ٢/ ٤٠٢، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٧، وعنه نقل المصنف. وأخرجه الطبري أيضاً ١٩/ ٥٥٦، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨]، وجاء فيه: «ثم إن منقلبهم».

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٥.

(٣) بعدها في (م): المسرة، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢١٢، والكلام منه.

هذا وتفسيرُ المستقرِّ والمقيل بالمكانين حَسْبما سمعتَ هو المشهورُ؛ وهو أحدُ احتمالاتٍ تسعة. وذلك أنهم جوَّزوا أن يكون كلاهما اسمَ مكانٍ، أو اسمَ زمانٍ، أو مصدراً، وأن يكون الأولُ اسمَ مكانٍ والثاني اسمَ زمانٍ أو مصدراً، وأن يكون الأول اسمَ زمان والثاني اسمَ مكانٍ أو مصدراً، وأن يكون الأول مصدراً والثاني اسمَ مكانٍ أو اسمَ زمانٍ. وما شئتَ تخيَّل في خيرية زمانٍ أصحاب الجنة وأَحْسَنِيَّتِه، وكذا في خيريةِ استقرارِهم وأحسنيةِ استراحتهم يومئذٍ.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ العاملُ في «يوم» إمَّا «اذْكُر»، أو: ينفردُ اللهُ تعالى بالملك، الدالُّ عليه قولُه تعالى: (ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ). وقيل: العاملُ ذاك بمعناه المذكور(١).

وقيل: إنه معطوفٌ على «يومئذ» أو «يوم يرون».

و «تشقَّقُ»: تتفتَّحُ، والتعبيرُ به دونه للتهويل، وأصله: تَتَشقَّقُ، فحُذِفَت إحدى التاءين كما في «تَلَظَّى». وقرأ الحِرْمِيَّان وابنُ عامرٍ بإدغام التاء في الشين(٢) لِما بينهما من المقارَبة.

والظاهرُ أنَّ المراد بالسماء: المُظِلَّةُ لنا، وبالغمام: السحابُ المعروفُ، والباءُ الداخلةُ عليهِ باءُ السبب، أي: تشقَّقُ السماءُ بسبب طلوع الغمام منها. ولا مانعَ من أنْ تَشَقَّقَ به كما يُشَقُّ السنامُ بالشفرة، والله تعالى على كلِّ شيءٍ قدير، وحديثُ امتناعِ الخَرْقِ على السماء حديثُ خُرافةٍ.

وقيل: باءُ الحال، وهي باءُ المُلابَسَة، واستَظْهَرَه بعضُهم، أي: تَشَقَّقُ متغيِّمةً.

وقيل: بمعنى «عن»، وإليه ذهب الفرَّاء(٣)، والفرقُ بين قولك: انشقَّتِ الأرضُ بالنبات، و: انْشَقَّتْ عنه، أنَّ معنى الأولِ: أنَّ الله تعالى شقَّها بطلوعه فانشقَّتْ به. ومعنى الثاني: أنَّ التربةَ ارتفعتْ عنه عند طلوعِه.

---

(١) أي: قوله: «الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن» عاملٌ في «يوم» بالمعنى الذي ذكر آنفاً، أي: ينفرد الله تعالى بالملك يوم تشقَّق. تفسير أبي السعود ٦/ ٢١٣.

(٢) التيسير ص١٦٣-١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤. وهي قراءة أبي جعفر ويعقوب من العشرة.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٢٦٧.

وقيل: المراد بالغمام غمامٌ أبيضُ رقيقٌ مثل الضَّبابة، ولم يكن إلَّا لبني إسرائيل في تِيْهِهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد: أنه الغمامُ الذي يأتي الله تعالى فيه يومَ القيامة، المذكورُ في قوله سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾(١) [البقرة: ٢١٠]. قال ابن جريج: وهو غمامٌ زعموا أنه في الجنة.

وعن مقاتل: أنَّ المراد بالسماء ما يعمُّ السماواتِ كلَّها، وتَشقَّقُ سماءً سماءً. وروي ذلك عن ابن عباس؛ فقد أخرج عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في «الأهوال» وابن جريرٍ وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ - أي: تنزيلاً عجيباً غير معهود - فقال: يَجْمَعُ الله تعالى الخَلْقَ يومَ القيامةِ في صَعيدٍ واحدٍ، الجنَّ والإنسَ والبهائمَ والسِّباعَ والطيرَ وجميعَ الخَلْقِ، فتنشقُّ السماءُ الدُّنيا فينزلُ أهلُها وهم أكثرُ ممن في الأرضِ من الجنِّ والإنسِ وجميعِ الخَلْقِ، فيُحيطونَ بجميعهم، فتقول أهلُ الأرض: أفيكم ربُّنا؟ فيقولون: لا. ثم تنشقُّ السماءُ الثانيةُ، فينزلُ أهلُها وهم أكثرُ من أهل السماء الدنيا ومن الجنِّ والإنسِ وجميعِ الخَلْقِ، فيُحيطونَ بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجنِّ والإنس وجميعِ الخَلْقِ، ثم تنشقُّ السماء الثالثةُ، فينزلُ أهلُها وهم أكثرُ من أهل السماء الثانيةِ والدنيا وجميعِ الخَلْقِ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجنِّ والإنس وجميعِ الخَلْقِ، ثم ينزل أهل السماء الرابعة، وهم أكثرُ من أهل الثالثة والثانية والأولى وأهلِ الأرض، ثم ينزلُ أهل السماء الخامسةِ، وهم أكثرُ ممن تقدَّم، ثم أهلُ السماءِ السادسة كذلك، ثم أهلُ السماءِ السابعةِ، وهم أكثر من أهلِ السماوات وأهلِ الأرض، ثم ينزلُ ربُّنا في ظللٍ من الغمام وحولَه الكَرُوبيون، وهم أكثرُ من أهل السماوات السَّبع والإنس والجنِّ وجميعِ الخَلْقِ، لهم قرونٌ ككعوبِ القَنَا، وهم تحت العرش لهم زجلٌ بالتسبيح والتهليلِ والتقديس لله تعالى، ما بين أخمصِ [قدم] أحدِهم إلى كَعْبِه مسيرةُ خمسِ مئة عامٍ، ومن فخذه إلى تَرْقُوَتِه

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٢، وزاد: ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل. وأخرجه الطبري ١٧/ ٤٣٧ مع ما سيأتي من كلام ابن جريج.

مسيرةُ خمسِ مئة عام، ومن تَرْقُوَتِه إلى موضع القُرْط مسيرةُ خمسِ مئة عام، وما فوقَ ذلك خمس مئة عام[(١)].

ونزولُ الربِّ جلَّ وعلا من المتشابِهِ، وكذا قولهُ: وحولَه الكروبيون، وأهلُ التأويل يقولون: المرادُ بذلك نزولُ الحُكْمِ والقضاء، فكأنه قيل: ثم ينزل حكمُ الربِّ وحولَه الكروبيون، أي: معه.

وأمَّا نزولُ الملائكة مع كثرتهم وعظمِ أجسامهم فلا يَمْنَعُ عنه ما يُشاهَدُ من صِغَرِ الأرض؛ لأنَّ الأرض يومئذٍ تمتدُّ بحيث تسعُ أهلَها وأهلَ السماواتِ أجمعين، وسبحان مَن لا يُعْجِزُه شيءٌ.

ثم الخبرُ ظاهرٌ في أنَّ الملائكة عليهم السلام لا ينزلون في الغمام، وذكر بعضهم في الآية أنَّ السماء تنفتحُ بغمامٍ يخرج منها، وفي الغمام الملائكةُ، ينزلون وفي أيديهم صحائفُ الأعمال.

وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء: «ونَزَّلَ» ماضياً مبنيًّا للفاعل مشدَّداً. وعنه أيضاً: «وأنزل» مبنيًّا للفاعل[(٢)]، وجاء مصدرُه «تنزيلاً»، وقياسُه: إنزالاً، إلَّا أنه لمَّا كان معنى أَنْزَلَ ونزَّل واحداً جاء مصدرُ أحدِهما للآخر كما قال الشاعر:

حتى تَطَوَّيتُ انْطِواءَ الحِضْبِ[(٣)]

كأنه قال: حتى انْطَوَيْتُ.

وقرأ الأعمش وعبد الله في نَقْلِ ابن عطية: «وأُنْزِلَ» ماضياً رباعيًّا مبنيًّا للمفعول[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٣٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٢، وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٦٧، وما سلف بين حاصرتين من المصادر. قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: مداره على علي بن زيد بن جدعان، وفيه ضعف، وفي سياقاته غالباً نكارة شديدة. قوله: الكروبيون أي: المقرَّبون. النهاية (كرب).

(٢) القراءتان في القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٤، والكلام منه.

(٣) البحر ٦/ ٤٩٤، والرجز لرؤبة، وهو في ديوانه ص١٦، وتفسير القرطبي ٥/ ١٠٥، وفيهما: وقد تطويت. . .، والحضب: الأفعى، وتصحفت في الأصل و(م) ومطبوع البحر إلى: الخصب.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٨، والبحر ٦/ ٤٩٤، وعنه نقل المصنف.

وقرأ جناح بنُ حبيشٍ والخفافُ عن أبي عمرو: «ونَزَلَ» ثلاثيًّا مخفَّفاً مبنيًّا للفاعل(١).

وقرأ أبو معاذ وخارجةُ عن أبي عمرو: «ونُزِّلَ» بضمِّ النون وشدِّ الزاي وكَسْرِها ونَصْبِ «الملائكةَ»(٢). وخرَّجها ابنُ جنِّي بعد أن نسبها إلى ابن كثير وأهلِ مكَّةَ على أنَّ الأصل «نُنزِّلُ» ـ كما وُجِدَ في بعض المصاحف ـ فحذفت النونُ التي هي فاءُ الفعل تخفيفاً لالتقاء النونين(٣).

وقرأ أبيٌّ: «ونُزِّلَت» ماضياً مشدَّداً مبنيًّا للمفعول بتاء التأنيث(٤).

وقال صاحب «اللَّوامح» عن الخفاف عن أبي عمرو: «ونُزِلَ» مخفَّفاً مبنيًّا للمفعول، و«الملائكةُ» بالرفع، فإن صحَّتِ القراءةُ فإنه حُذِفَ منها المضافُ وأقيمَ المضافُ إليه مقامَه، والتقدير: ونُزِلَ نزولُ الملائكةِ، فحذف النزولُ ونُقِلَ إعرابه إلى «الملائكة»، بمعنى: نُزِلَ نازِلُ الملائكة؛ لأن المصدر يكون بمعنى الاسم(٥). اهـ.

وقال الطيبيُّ: قال ابن جنِّي: «نُزِلَ» بالبناء للمفعول غيرُ معروفٍ؛ لأنَّ «نَزَلَ» لا يتعدَّى إلى مفعولٍ به، ولا يُقاس بجُنَّ ـ حيث إنه مما لا يتعدَّى إلى المفعول، فلا يقال: جنَّه الله تعالى، بل: أَجَنَّه الله تعالى، وقد بُني للمفعول ـ لأنه شاذٌّ والقياسُ عليه مرودٌ، فإمَّا أن يكون ذلك لغةً نادرةً، وإمَّا أن يكون من حَذْفِ المضاف، أي: نُزِلَ نُزولُ الملائكةِ، فحُذِفَ المضافُ وأقيمَ المضافُ إليه مقامَه قال العجاج:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٤.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٤. وهي في المحتسب ٢/ ١٢٠ عن ابن كثير وأهل مكة كما سيرد.

(٣) المحتسب ٢/ ١٢٠، وليس فيه: كما وجد في بعض المصاحف، وهذا ذكره أبو حيان في البحر ٦/ ٤٩٤.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٤.

(٥) البحر ٦/ ٤٩٤، وذكر القراءة ابن جني في المحتسب ٢/ ١٢١ عن عبد الوهاب عن أبي عمرو.

حتى إذا اصْطَفُّوا لـه حِـذاراً[1]

فحذاراً منصوبٌ مصدراً لا مفعولاً به، يريد: اصْطَفُّوا له اصْطِفافاً حذاراً[2]، و: نُزِلَ نزولُ الملائكة، على حدِّ قولك: هذا نزولٌ منزولٌ، وصعودٌ مصعودٌ، وضربٌ مضروبٌ، وقريبٌ منه: وقد قيل قولٌ، وقد خِيفَ منه خوفٌ، فاعْرِفْ ذلك فإنه أمْثَلُ ما يُحتَجُّ به لهذه القراءة. اهـ. وهو أحسنُ من كلام صاحب «اللوامح».

وعن أبي عمرو أيضاً أنه قرأ: «وتَنزَّلتِ الملائكةُ»[3].

فهذه مع قراءةِ الجمهورِ وما في بعض المصاحف عشرة قراءاتٍ، وما كان منها بصيغة المضارع وجهُه ظاهر، وأمَّا ما كان بصيغة الماضي فوجهُه على ـ ما قيل ـ الإشارةُ إلى سرعة الفعل.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: السلطنةُ القاهرةُ، والاستيلاءُ الكلِّيُّ العامُّ الثابتُ صورةً ومعنًى، ظاهراً وباطناً، بحيث لا زوالَ له، ثابتٌ للرحمن يومَ إذ تَشقَّقُ السماءُ وتنزلُ الملائكةُ، فـ «الملكُ» مبتدأ، و«الحقُّ» صفتُه، و«للرحمن» خبرُه، و«يومئذ» ظرفٌ لثبوتِ الخبر للمبتدأ، وفائدةُ التقييد أنَّ ثبوتَ الملكِ له تعالى خاصةً يومئذٍ، وأمَّا فيما عَدَاه من أيام الدنيا فيكونُ لغيره عزَّ وجلَّ أيضاً تصرُّفٌ صُوْرِيٌّ في الجملة، واختار هذا بعضُ المحقِّقين. ولعل أَمْرَ الفَصْلِ بين الصفة والموصوف بالظرف المذكور سهلٌ.

وقيل: «الملك» مبتدأ، و«يومئذٍ» متعلِّقٌ به، وهو بمعنى المالكية، و«الحقُّ» خبرُه، و«للرحمن» متعلِّقٌ بـ «الحق».

وتعقِّب بأنه لا يَظْهَرُ حينئذٍ نكتةُ إيرادِ المسند معرَّفاً، فإنَّ الظاهر عليه أن يقال: الملكُ يومئذ حقٌّ للرحمن.

---

(١) الرجز لرؤبة بن العجاج، وهو في ديوانه ص٣٦٩، والمحتسب ٢/ ١٢١، وفيهما: حتى إذا صفُّوا له جداراً، قال الأصمعي شارح الديوان: أي: صاروا صفًّا مثل الجدار.

(٢) في المحتسب: فجداراً منصوب... اصطفافَ جدارٍ.

(٣) لم نقف عليها عن أبي عمرو، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢٠٨، وأبو حيان في البحر ٦/ ٤٩٤، والسمين في الدر المصون ٨/ ٤٧٧ عن أبيٍّ ﷺ.

وأجيب بأنَّ في تعلُّقه بما ذُكر تأكيداً لِمَا يفيده تعريفُ الطرفين.

وقيل: هو متعلِّقٌ بمحذوفٍ على التبيين كما في: سقياً لك، والمبيَّن مَن له الملكُ.

وقيل: متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «الحق». وهو كما ترى.

وقيل: «يومئذ» هو الخبرُ، و«الحقُّ» نعتٌ لـ «المُلْك»، و«للرحمن» متعلِّقٌ به. وفيه الفصلُ بين الصفة والموصوف بالخبر، فلا تغفل.

ومنعوا تعلُّقَ «يومئذ» فيما إذا لم يكن خبراً بـ : «الحقِّ»، وعلَّلوا ذلك بأنه مصدرٌ والمصدرُ لا تتقدَّمُ عليه صِلَتُهُ ولو ظرفاً، وفيه بحث.

والجملة على أكثر الاحتمالات السابقة في عاملِ «يوم» استئنافٌ مسوقٌ لبيان أحوالِ ذلك اليوم وأهوالِه، وإيرادُه تعالى بعنوان الرحمانية للإيذان بأنَّ اتِّصافه عزَّ وجلَّ بغاية الرحمة لا يهوِّنُ الخطبَ على الكَفَرَةِ، المشارَ إليه بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ أي: وكان ذلك اليومُ مع كون المُلْكِ فيه لله تعالى المبالِغ في الرحمة بعباده شديداً على الكافرين، والمرادُ شدَّةُ ما فيه من الأهوال. وفسَّر الرَّاغب العسيرَ بما لا يتيسَّر فيه أمرٌ(١).

والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لِمَا قَبْلَهُ، وفيها إشارةٌ إلى كون ذلك اليوم يسيراً للمؤمنين، وفي الحديث: «إنه يهوَّنُ على المؤمن حتى يكون أخَفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ صلَّاها في الدنيا»(٢).

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ قال الطبرسيُّ: العاملُ في «يومَ»: اذكُر، محذوفاً، ويجوزُ أن يكون معطوفاً على ماقبله(٣).

والظاهرُ أنَّ «أل» في «الظالم» للجنس، فيعمُّ كلَّ ظالم، وحكى ذلك أبو حيَّان عن مجاهد وأبي رجاء، وذكر أنَّ المراد بـ «فلان» فيما بعدُ الشيطان(٤).

---

(١) مفردات الرَّاغب (عسر) بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد (١١٧١٧) من حديث أبي سعيد ﷺ، وقال ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٤٨: سنده حسن.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ٩٨.

(٤) البحر ٦/ ٤٩٥.

وقيل: لتعريفِ العهد، والمراد بـ «الظالم» عقبةُ بنُ أبي معيط لعنَه الله تعالى، وبـ «فلان» أبيّ بنُ خلف، فقد روي أنه كان عقبةُ بن أبي معيط لا يَقْدَمُ من سفرٍ إلّا صَنَعَ طعاماً فدعا عليه أهل مكةَ كلَّهم، وكان يُكْثِرُ مجالسة النبيِّ ﷺ ويعجبُه حديثُه، وغَلَبَ عليه الشقاءُ فَقَدِمَ ذاتَ يومٍ من سفرٍ فصنع طعاماً ثم دعا رسولَ الله ﷺ إلى طعامه، فقال: «ما أنا بالذي آكُلُ منْ طعامك حتى تَشْهَدَ أنْ لا إله إلّا الله وأني رسولُ الله» فقال: اطْعَمْ يا ابن أخي. فقال ﷺ: «ما أنا بالذي أفعلُ حتى تقولَ» فشَهِدَ بذلك وطَعمَ عليه الصلاة والسلام من طعامه، فبلغ ذلك أبيّ بنَ خلف، فأتاه فقال: أَصَبَوْتَ يا عقبةُ؟! وكان خليلَه. فقال: والله ما صبوتُ ولكنْ دخل عليَّ رجلٌ فأبى أن يَطْعَمَ من طعامي إلّا أنْ أشهدَ له، فاستَحْيَيْتُ أن يخرجَ من بيتي قبل أن يَطْعَمَ، فشهدتُ له فطَعِمَ. فقال: ما أنا بالذي أَرْضَى عنك حتى تأتيه فتفعلَ كذا. وذَكَر فعلاً لا يليقُ إلّا بوجهِ القائل اللعين، ففعل عقبةُ[1]، فقال له رسول الله ﷺ: «لا ألقاك خارجاً من[2] مكةَ إلّا عَلَوْتُ رأسكَ بالسيف» وفي رواية: «إنْ وجدتُكَ خارجاً من جبالِ مكةَ أضرب عنقَكَ صبراً».

فلما كان يومُ بدرٍ وخرج أصحابُه أَبَى أن يخرج، فقال له أصحابه: اخرج معنا. قال: قد وعدني هذا الرجلُ إنْ وجدني خارجاً من جبال مكة أن يضربَ عنقي صبراً. فقالوا: لك جملٌ أحمرُ لا يُدْرَكُ، فلو كانت الهزيمةُ طِرْتَ عليه. فخرج معهم فلمَّا هَزَمَ الله تعالى المشركين رَحَلَ به جملُه في جُدَدٍ من الأرض، فأُخِذَ أسيراً في سبعين من قريش، وقدِّم إلى رسول الله ﷺ، فأمر عليًّا كرَّم الله تعالى وجهه - وفي روايةٍ: [عاصم بن] ثابت بن أبي الأقلح - بأن يضرب عنقه[3]، فقال:

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): قال الضحاك: لما بزق عقبة رجع بصاقه على وجهه لعنه الله، ولم يصل حيث أراد، فأحرق خديه وبقي أثر ذلك فيهما حتى ذهب إلى النار. اهـ منه. قلنا. وجاء في رواية ابن عباس عند عبد الرزاق (٩٧٣): فلم يسلطه الله على ذلك.

(٢) في (م): عن.

(٣) أخرج الرواية الأولى عبد الرزاق في المصنف (٩٣٩٤) و(٩٧٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وذكرها ابن هشام في السيرة ١/ ٦٤٤ عن الزهري وغيره، وأخرج الثانية البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٦٤-٦٥ من حديث سهل بن أبي حثمة و٦/ ٣٢٣ عن ابن إسحاق، وهي في سيرة ابن هشام ١/ ٦٤٤ عن ابن إسحاق عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، وما بين =

أتقتُلني من بين هؤلاء؟ قال: نعم. قال: بِمَ؟ قال: بكُفْرِكَ وفُجورِكَ وعُتوِّك على الله تعالى ورسولِه عليه الصلاة والسلام. وفي روايةٍ: أنه ﷺ صرَّح له بما فَعَل معه، ثم ضُرِبتْ عنقُه.

وأمَّا أبيّ بنُ خلف فمع فِعْلِه ذلك قال: والله لأقتلنَّ محمداً ـ ﷺ ـ فبلغ ذلك رسولَ الله عليه الصلاة والسلام فقال: «بل أقتلُه إن شاء الله تعالى» فأَفْزَعَه ذلك وقال لمن أخبره: أنشدكَ بالله تعالى أسمعتَه يقول ذلك؟ قال: نعم. فوقعت في نفسه لِمَا علموا أنَّ رسول الله ﷺ ما قال قولاً إلا كان حقًّا. فلمَّا كان يومُ أُحدٍ خرج مع المشركين، فجعل يلتمسُ غَفْلَةَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام ليحمل عليه، فيَحُولُ رجلٌ من المسلمين بين النبيِّ عليه الصلاة والسلام وبينه، فلمَّا رأى ذلك رسولُ الله ﷺ قال لأصحابه: «خلُّوا عنه» فأخذ الحربةَ فرماه بها فوقعت في تَرقُوَته، فلم يخرج منه دمٌ كثيرٌ، واحتقن الدمُ في جوفه، فخرَّ يخورُ كما يخورُ الثورُ، فأتى أصحابُه حتى احْتَمَلوه وهو يخورُ فقالوا: ما هذا؟ فواللهِ ما بك إلَّا خدشٌ. فقال: واللهِ لو لم يُصِبْني إلا بِريقه لقتلني، أليس قد قال: أنا أقتلُه؟ واللهِ لو كان[1] الذي بي بأهل ذي المجاز[2] لقَتَلَهم. فما لبث إلا يوماً أو نحوَ ذلك حتى ذهب إلى النار، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وروي هذا القولُ عن ابن عباس وجماعة، وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس أنَّ «الظالم» أبيّ بنُ خلف، و«فلان» عُقبة[3].

وعضُّ اليدين إمَّا على ظاهره، وروي ذلك عن الضحاك وجماعةٍ، قالوا: يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبتُ، ولا يزالُ كذلك كلَّما أكلها نبتت، وإما كناية عن فَرْطِ الحسرة والندامة، وكذا عضُّ الأناملِ، والسقوطُ في اليد، وحرقُ الأسنان والأدم

= حاصرتين من هذه المصادر. وقيل: إن الذي قتل عقبة هو عامر بن ثابت بن أبي الأقلح أخو عاصم، كما ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب ٥/ ٢٨٥. وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٢١.

(١) في (م): لو أن.

(٢) ذو المجاز: سوق بعرفة كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام. معجم البلدان (المجاز).

(٣) ينظر ما ورد من روايات عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره في هذه القصة في مصنف عبد الرزاق (٩٧٣١)، وفي تفسيره ٢/ ٦٨-٦٩، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٤٠-٤٤١، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٨٤-٢٦٨٥، ودلائل النبوة لأبي نعيم (٤٠١) و(٤١٥).

ونحوها؛ لأنها لازمةٌ لذلك في العادة والعُرْفِ، وفي المَثَلِ: يأكلُ يديه ندماً، ويسيلُ دمعُه دماً، وقال الشاعر:

أبَى الضيمَ والنعمانُ يحرقُ نابَه   عليه فأفضى والسيوفُ مَعَاقلُه[١]

والفعلُ «عضَّ» على وزنِ فَعِلَ مكسور العين، وحكى الكسائيُّ[٢]: عَضَضْتُ بفتح العين.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧﴾ الجملةُ في[٣] موضع الحال من «الظالم»، أو جملةٌ مستأنفةٌ أو مبيِّنةٌ لِمَا قبلها. و«ياليتني» إلخ مَقُولُ القول، و«يا» إمَّا لمجرَّد التنبيه من غير قصدٍ إلى تعيين المنبَّه، أو المنادى محذوفٌ: ياقومي ليتني.

و «أل» في «الرسول» إمَّا للجنس فيعمُّ كلَّ رسولٍ، وإما للعهد فالمرادُ به رسولُ هذه الأمة محمدٌ ﷺ، والأولُ إذا كانت «أل» في «الظالم» للجنس، والثاني إذا كانت للعهد.

وتنكيرُ «سبيلاً» إمَّا للشُّيوع، أو للوحدة، وعدمُ تعريفه لادِّعاء تعيُّنه. أي: ياليتني اتَّخذتُ طريقاً إلى النجاة أيَّ طريقٍ كان، أو طريقاً واحداً وهو طريقُ الحقِّ، ولم تتشعَّبْ بي طرقُ الضلالة.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰ﴾ بقَلْبِ ياءِ المتكلِّم ألفاً كما في صحارى، وقرأ الحسن وابن قطيب: «يا ويلتي» بكسر التاء والياء على الأصل[٤]، وقرأت فرقةٌ بالإمالة[٥]. قال أبو عليٍّ: وتركُ الإمالة أحسنُ؛ لأنَّ الأصل في هذه اللفظة الياءُ، فأُبدِلَتِ الكسرةُ فتحةً والياءُ ألفاً فراراً من الياء، فَمَن أمال رجع إلى الذي عنه فرَّ أولاً[٦].

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص١٤٣، قوله: فأفضى...، قال الشارح: أي: صار في فضاء، وصار يمتنع بالسيوف.

(٢) كما في إعراب القرآن للنحاس ٣/١٥٨.

(٣) في (م): مع.

(٤) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/ ٤٩٥.

(٥) قرأ بالإمالة من السبعة حمزة والكسائي. التيسير ص٤٨.

(٦) الحجة ٥/ ٣٤٣، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٩٥.

وأيًّا ما كان فالمعنى: يا هَلَكتي تَعالَيْ واحضُري فهذا أَوَانُكِ.

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أراد بـ «فلان» الشيطان، أو مَن أضلَّه في الدنيا كائناً مَن كان، أو أُبيًّا إن كان «الظالمُ» عقبةَ، أو عقبةُ إن كان «الظالم» أبيًّا، وهو كنايةٌ عن عَلَمِ مذكَّر، وفلانة عن عَلَمِ مؤنَّثٍ، واشترط ابن الحاجب في فلان أن يكون محكيًّا بالقول كما هنا، وردَّه في «شرح التسهيل» بأنه سُمع خلافُه كثيراً كقوله:

وإذا فلانٌ مات عن أكرومةٍ ... دفعوا معاوِزَ فَقْرِه بفلانِ[1]

وتقديرُ القول فيه غيرُ ظاهرٍ.

والفلانُ والفلانةُ كنايةٌ عن غير العاقل من الحيوانات كما قال الرَّاغب[2]. وفُلُ وفُلَةُ كنايةٌ عن نكرةِ مَن يَعْقِلُ، فالأول بمعنى رجل والثاني بمعنى امرأة. ووهم ابنُ عصفورٍ وابنُ مالكٍ وصاحبُ «البسيط» كما في «البحر»[3] في قولهم: فُلُ كنايةٌ عن العَلَمِ كفلان.

ويختصُّ بالنداء إلَّا ضرورةً كما في قوله:

فـي لَـجَّـةٍ أَمْـسِـكْ فـلانـاً عـن فُـلِ[4]

وليسَ مرخَّمَ فلان، خلافاً للفرَّاء[5].

واختلفوا في لام «فُلُ» و«فلان»؛ فقيل: واو، وقيل: ياء. وكنوا بهَنٍ بفتح الهاء وتخفيفِ النون عن أسماء الأجناس كثيراً، وقد كُني به عن الأعلام كما في قوله:

---

(١) البيت للمرَّار الفقعسي كما في أمالي القالي ١/ ٦٦، ودون نسبة في حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٠، وعنه نقل المصنف ورواية الأمالي: رقعوا معاوز...

(٢) في مفرداته (فلن).

(٣) ٦/ ٤٩٦، وصاحب البسيط هو ابن العلج، ضياء الدين، محمد بن علي الإشبيلي. ينظر البحر ٨/ ٤٨.

(٤) الرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص١٩٩، والخزانة ٢/ ٣٨٩، ووقع في (م): فلان. قال البغدادي: اللَّجَّة بفتح اللام وتشديد الجيم: اختلاط الأصوات في الحرب. وقوله: أمسك فلاناً...، هو على إضمار القول، أي: في لجة يقال فيها: أمسك فلاناً عن فلان، أي: احجز بينهما.

(٥) كما في البحر ٦/ ٤٩٦.

والله أعطاك فضلاً عن عطيَّته على هَنٍ وهَنٍ فيما مضى وَهَنِ[(١)]

فإنه على ما قال الخفاجيُّ أراد عبد الله وإبراهيم وحَسَناً[(٢)].

والخليل من الخُلَّةِ بضمِّ الخاء بمعنى المودَّة، أُطلق عليها ذلك إمَّا لأنها تتخلَّلُ النفسَ، أي: تتوسَّطُها، وأنشد:

قد تخلَّلْتَ مَسْلَكَ الروح منِّي وبه سمِّي الخليلُ خليلاً[(٣)]

وإمَّا لأنَّها تخلُّها فتؤثِّرُ فيها تأثيرَ السهم في الرميَّة، وإما لفَرْطِ الحاجة إليها.

وهذا التمنِّي وإن كان مَسوقاً لإبراز الندم والحسرة، لكنَّه متضمِّنٌ لنوعِ تعلُّلٍ واعتذارٍ بتَوْريكِ[(٤)] جنايته إلى الغير.

وقولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ﴾ تعليلٌ لتمنِّيه المذكورِ وتوضيحٌ لتعلُّله. وتصديرُه باللَّام القَسَميةِ للمبالغة في بيان خطئه، وإظهارِ نَدَمِه وحسرتِه، أي: والله لقد أضلَّني فلانٌ عن ذِكْرِ الله تعالى، أو عن موعظة الرسولِ عليه الصلاة والسلام، أو عن كلمة الشهادة، أو عن القرآن.

﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أي: وصل إليَّ وعَلِمتُه أو تمكَّنْتُ منه، فلا دلالةَ في الآية على إيمانِ مَن أُنزلَتْ فيه ثم ارتداده.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ مُبالِغاً في الخذلان، وهو تَرْكُ المعاونةِ والنصرةِ وقتَ الحاجة ممن يُظنُّ فيه ذلك. والجملةُ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله: إمَّا من جهته تعالى، أو من تمام كلام الظالم على أنه سمَّى خليلَه شيطاناً بعد وَصْفِه بالإضلال الذي هو أخصُّ الأوصاف الشيطانية، أو على أنه أراد

---

(١) البيت لابن هرمة، وهو في ديوانه ص٢٢٣، والأغاني ٤/ ٣٧٦، ومجالس ثعلب ص٢١، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٢٠، وجاء في هذه المصادر: من عطيته. والبيت أحد ثلاثة أبيات أنشدها ابن هرمة يمدح الحسن بن زيد، ويعرض بعبد الله وحسن وإبراهيم بني حسن بن حسن لأنهم وعدوه شيئاً فأخلفوه.

(٢) حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٠.

(٣) البيت نسب لبشار بن برد، وهو في ديوانه ٢/ ٤٧٥ ونسب للبحتري، وهو في ديوانه ٣/ ١٩٠٨.

(٤) أي: تحميل. القاموس (ورك).

بالشيطان إبليس؛ لأنه الذي حمله على مجالسةِ المضلِّين ومخالفةِ الرسول الهادي عليه الصلاة والسلام بوسوسته وإغوائه، فإنَّ وَصْفَه بالخذلان يُشْعِرُ بأنه كان يَعِدُه في الدنيا ويمنِّيه بأن ينفعَه في الآخرة، وهو أوفقُ لحالِ إبليسَ عليه اللعنة.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا) إلخ، وما بينهما اعتراضٌ مسوقٌ لاستعظام ما قالوه، وبيانِ ما يَحيقُ بهم من الأهوال والخطوب. والمرادُ بالرسول نبيُّنا صلى الله تعالى عليه وسلم وشرَّف وعظَّم وكرَّم، وإيرادُه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحقِّ والردِّ على نحورهم، حيث كان ما حُكي عنهم قدحاً في رسالته ﷺ، أي: قالوا كيتَ وكيتَ، وقال الرسولُ إثرَ ما شاهَدَ منهم غايةَ العتوِّ ونهايةَ الطغيان بطريق البثِّ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ والشكوى عليهم: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي﴾ الذين حُكي عنهم ما حُكي من الشنائع ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الجليلَ الشأنِ، المشتَمِلَ على ما فيه صلاحُ معاشِهم ومعادِهم ﴿مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ أي: متروكاً بالكلِّية، ولم يؤمنوا به، ولم يرفعوا إليه رأساً، ولم يتأثَّروا بوعيده ووَعْدِه. فـ «مهجوراً» من الهَجْرِ ـ بفتح الهاء ـ بمعنى التَّرْكِ، وهو الظاهرُ، وروي ذلك عن مجاهدٍ والنَّخعيِّ وغيرهما.

واستدلَّ ابن الفرس بالآية على كراهةِ هَجْرِ المصحف وعدم تَعاهُدِه بالقراءة فيه، وكأنَّ ذلك لئلَّا يَنْدرِجَ مَن لم يتعاهَدِ القراءةَ فيه تحت ظاهر النَّظْم الكريم؛ فإنَّ ظاهره ذمُّ الهَجْرِ مطلقاً، وإن كان المرادُ به عَدَمَ القبول لا عَدَمَ الاشتغالِ مع القبول ولا ما يعمُّهما، فإنْ كان مثلُ هذا يكفي في الاستدلال فذاك، وإلا فليُطْلَبْ دليلٌ آخَرُ للكراهة.

وأَوْرَدَ بعضُهم في ذلك خبراً وهو: «مَن تعلَّم القرآن، وعلَّق مصحفَه لم يتعاهَدْه ولم ينظر فيه، جاء يومَ القيامة متعلِّقاً به يقول: ياربِّ عبدُكَ هذا اتخذني مهجوراً، اقْضِ بيني وبينه»[1] وقد تعقَّب هذا الخبر العراقيُّ بأنه روي عن أبي هدبة وهو كذَّاب[2]. والحقُّ أنه متى كان ذلك مُخِلًّا باحترام القرآن والاعتناءِ به كُرِهَ بل حَرُمَ، وإلَّا فلا.

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره ٧/ ١٣٢ من طريق أبي هدبة إبراهيم بن هدبة، عن أنس رضي الله عنه به.
(٢) ذكر قول العراقي الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٢١، ومثله قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٢١.

وقيل: مهجوراً من الهُجْرِ ـ بالضم على المشهورِ ـ أي: الهذيان وفُحشِ القول، والكلامُ على الحذف والإيصال، أي: جَعَلوه مهجوراً فيه، إما على زَعْمِهم الباطلِ نحو ما قالوا: إنه أساطيرُ الأولين اكتَتَبها، وإمَّا بأنْ هَجَروا فيه ورفعوا أصواتهم بالهذيان لمَّا قرئ لئلَّا يُسمَعَ، كما قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦].

وجوَّز أن يكون مصدراً من الهُجْرِ بالضم، كالمعقول بمعنى العقل، والمجلود بمعنى الجلادة، أي: اتَّخذوه نفسَ الهُجْرِ والهذيان، ومَجِيءُ مفعول مصدراً مما أثبته الكوفيون لكنْ على قلَّةٍ.

وفي هذه الشكوى من التخويف والتحذير ما لا يَخْفَى، فإنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا شَكَوا إلى الله تعالى قومَهم عُجِّل لهم العذابُ ولم يُنْظَروا.

وقيل: إن «قال» إلخ عطفٌ على «يَعَضُّ الظالم» والمرادُ: ويقولُ الرسول، إلا أنه عدل إلى الماضي لتحقُّقِ الوقوع مع عَدَمِ قَصْدِ الاستمرار التجدُّديِّ المراد بمعونة المقام في «يَعَضُّ» وإن كان إخباراً عمَّا في الآخرة. وحالُ عَطْفِه على «وكان الشيطان» إلخ على أنه من كلامه تعالى لا يَخْفَى حالُه. وقولُ الرسول ذلك يومَ القيامة، وهو كالشهادة على أولئك الكفرة وليس بتخويف. وإلى ذلك ذهبت فرقةٌ منهم أبو مسلم.

والأول[1] أنسبُ بقوله تعالى﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فإنه تسليةٌ لرسول الله ﷺ، وحَمْلٌ له على الاقتداء بمَن قبله من الأنبياء عليهم السلام، والبليةُ إذا عمَّتْ هانَتْ.

والعدوُّ يحتملُ أن يكون واحداً وجمعاً، أي: كما جَعَلْنا لك أعداءً من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الأباطيل، جعلنا لكلِّ نبيٍّ من الأنبياء الذين هم أصحابُ الشريعة والدعوةِ إليها عدوًّا من مرتكبي الجرائم والآثام.

---

(١) قوله: والأول، يعني به ما سلف عند بداية تفسير الآية من أن «وقال الرسول» معطوف على «وقال الذين لا يرجون لقاءنا»، أي أن قول الرسول ذلك كان في الدنيا. وينظر حاشية الشهاب ٦/ ٤٢١.

ويدخل في ذلك آدمُ عليه السلام؛ لدخول الشياطين وقابيل في المجرمين، ويُكتفَى بدخول قابيل إن أريد بالمجرمين مجرمو الإنس، أو مجرمو أمة النبيّ. وقيل: الكلّيةُ بمعنى الكَثْرةِ.

والمرادُ بجَعْلِ الأعداء جَعْلُ عداوتهم وخَلْقُها وما ينشأ منها فيهم، لا جَعْلُ ذواتهم، ففي ذلك ردٌّ على المعتزلة في زَعْمِهم أنَّ خالق الشرِّ غيرُه تعالى شأنُه.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ وعدٌ كريمٌ له عليه الصلاة والسلام بالهداية إلى كافَّةِ مطالبه، والنصرِ على أعدائه، أي: كفاكَ مالِكُ أَمْرِكَ ومُبلغكَ إلى الكمال هادياً لك إلى ما يُوْصِلُكَ إلى غاية الغايات، التي من جملتها تبليغُ ما أُنزل إليك، وإجراءُ أحكامه في أكناف الدنيا إلى أن يبلغ الكتابُ أَجَلَه، وناصراً لك عليهم على أبلغ وجه.

وقدَّر بعضُهم متعلَّق «هادياً»: إلى طريقِ قَهْرِهم. وقيل: المعنى: هادياً لمن آمن منهم ونصيراً لك على غيره.

وقيل: هادياً للأنبياء إلى التحرُّزِ عن عداوة المجرمين بالاعتصام بحَبْلِه، ونصيراً لهم عليهم. وهو كما ترى. ونصبُ الوصفين على الحال أو التمييز.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حكايةٌ لنوعٍ آخَرَ من أباطيلهم، والمرادُ بهم المشركون كما صحَّ عن ابن عباس، وهم القائلون أوَّلاً، والتعبيرُ عنهم بعنوان الكفر لذمِّهم به والإشعارِ بعلَّةِ الحكم.

وقيل: المراد بهم طائفة من اليهود.

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي: أُنزل عليه كخبَّر بمعنى أَخْبَرَ، فلا قَصْدَ فيه إلى التدريج لمكانِ ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ فإنَّه لو قُصِدَ ذلك لتَدَافَعَا؛ إذ يكون المعنى: لولا فرِّقَ القرآنُ جملةً واحدة، والتفريقُ ينافي الجملية. وقيل: عبَّر بذلك للدلالة على كثرة المُنزلِ في نفسه.

ونَصْبُ «جملةً» على الحال، و«واحدةً» على أنه صفةٌ مؤكِّدةٌ له، أي: هلَّا أُنزلَ القرآنُ عليه عليه الصلاة والسلام دفعةً غيرَ مفرَّقٍ كما أُنزلت التوراةُ والإنجيلُ والزبور، على ما تدلُّ عليه الأحاديثُ والآثارُ، حتى كاد يكونُ إجماعاً كما قال

السيوطيُّ[(١)]، وردَّ على مَن أنكر ذلك من فضلاء عصره، فقولُ ابن الكمال: إنَّ التوراة أُنزلت منجَّمةً في ثماني عَشْرةَ سنةً، ويدلُّ عليه نصوصُ التوراة، ولا قاطِعَ بخلافه من الكتاب والسنَّة. ناشئٌ من نقصان الاطِّلاع.

وهذا الاعتراضُ مما لا طائل تحته؛ لأنَّ الإعجاز مما لا يَخْتلِفُ بنزوله جملةً أو مفرَّقاً مع أنَّ للتفريق فوائدَ، منها ما ذكره الله تعالى بعدُ.

وقيل: إنَّ شاهِدَ صحةِ القرآن إعجازُه، وذلك ببلاغته، وهي بمطابقته لمقتضَى الحال في كلِّ جملةٍ منه، ولا يتيسَّر ذلك في نزوله دفعةً واحدةً، فلا يقاسُ بسائر الكتب فإنَّ شاهِدَ صحَّتها ليس الإعجاز.

وفيه أنَّ قوله: ولا يتيسّر.. إلخ، ممنوعٌ، فإنه يجوز أن ينزل دفعةً واحدةً مع رعايةِ المطابَقةِ المذكورةِ في كلِّ جملةٍ لِمَا يتجدَّد من الحوادث الموافِقةِ لها، الدالَّةِ على أحكامها، وقد صحَّ أنه نزل كذلك إلى السماء الدنيا، فلولم يكن هذا لزم كونُه غيرَ معجِزٍ فيها، ولا قائلَ به، بل قد يقال: إنَّ هذا أقوى في إعجازه، والبليغُ يفهم من سياق الكلام ما يقتضيه المقام، فافهم.

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ استئنافٌ واردٌ من جهته تعالى لردِّ مقالتهم الباطلةِ، وبيانِ بعض الحِكَم في تنزيله تدريجاً، ومحلُّ الكافِ نصبٌ على أنّها صفةٌ لمصدرٍ مؤكِّدٍ لمضمرٍ معلَّلٍ بما بعده، وجوِّز نَصْبُها على الحالية، و«ذلك» إشارةٌ إلى ما يفهم من كلامهم، أي: تنزيلاً مثلَ ذلك التّنزيلِ الذي قَدَحوا فيه واقْتَرحوا خلافَه نزَّلناه، لا تنزيلاً مغايراً له، أو: نزَّلناه مماثلاً لذلك التّنزيل لنقوِّي به فؤادك فإنَّ في تنزيله مفرَّقاً تيسيراً لحِفْظِ النَّظْمِ، وفَهْمِ المعاني، وضَبْطِ الكلام، والوقوفِ على تفاصيل ما رُوعِيَ فيه من الحِكَمِ والمصالح، وتعدُّدِ نزول جبريلَ عليه السلام، وتجدُّدِ إعجاز الطّاعنين فيه في كلِّ جملةٍ مقدارَ أقصرِ سورةٍ تنزلُ منه.

ولذلك فوائدُ غيرُ ما ذُكِرَ أيضاً، منها معرفةُ الناسخ المتأخِّر نزولُه من المنسوخ المتقدِّم نزولُه المخالفِ لحُكْمِه. ومنها انضمامُ القرائن الحالية إلى الدلالات

---

(١) في الإتقان ١/ ١٣٤-١٣٥.

اللَّفظية، فإنه يُعِينُ على معرفة البلاغة؛ لأنّه بالنظر إلى الحال يتنبَّهُ السامعُ لِمَا يطابقُها ويوافقُها. إلى غير ذلك.

وقيل: قولُه تعالى: (كَذَٰلِكَ) من تمام كلام الكفرة، والكافُ نصبٌ على الحال من «القرآن»، أو الصفةِ لمصدرِ «نزِّل» المذكورِ، أو لـ «جملة» والإشارةُ إلى تنزيل الكتب المتقدِّمةِ، ولامُ «لنثبِّتَ» لامُ التعليل، والمعلَّلُ محذوفٌ نحو ما سمعتَ أولاً، أي: نزَّلناه مفرَّقاً لنثبِّتَ.. إلخ. وقال أبو حاتم: هي لامُ القسم، والتقديرُ: واللهِ لنُثَبِّتَنَّ، فحُذِفَت[1] النونُ وكُسِرَتِ اللامُ. وقد حَكَى ذلك عنه أبو حيان ـ والظاهرُ أنها عنده كذلك على القولين في «كذلك» ـ وتعقَّبه بأنّه قولٌ في غاية الضَّعْفِ، وكأنه ينحو إلى مذهب الأخفش أنَّ جواب القسم يُتلقَّى بلام «كي»، وجَعَل منه: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ﴾ إلخ [الأنعام:١١٣] وهو مذهبٌ مرجوحٌ[2].

وقرأ عبد الله: «ليثبِّتَ» بالياء، أي: ليثبِّتَ اللهُ تعالى[3].

وقولُه تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ عطفٌ على الفعل المحذوف المعلَّل بما ذُكر، وتنكيرُ «ترتيلاً» للتفخيم، أي: كذلك نزَّلناه ورتَّلناه ترتيلاً بديعاً لا يقادرُ قَدْرُه.

وترتيلُه: تفريقُه آيةً بعد آيةٍ، قاله النخعيُّ والحسنُ وقتادةُ.

وقال ابن عباس: بيَّنّاه بياناً فيه ترسُّلٌ. وقال السدِّيُّ: فصَّلناه تفصيلاً. وقال مجاهدٌ: جعلنا بعضَه إثرَ بعضٍ. وقيل: هو الأمرُ بترتيل قراءته بقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤].

وقيل: قرأناه عليك بلسانِ جبريلَ عليه السلام شيئاً فشيئاً في عشرين أو في ثلاثٍ وعشرين سنةً على تُؤَدَةٍ وتمهُّلٍ، وهو مأخوذٌ من قولهم: ثغرٌ مرتَّلٌ، أي: مُفَلَّجُ الأسنان غيرُ مُتلاصِقِها.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ من الأمثال التي من جملتها اقتراحاتُهم القبيحةُ الخارجةُ عن دائرةِ العقول، الجاريةُ لذلك مجرى الأمثال، أي: لا يأتونك بكلامٍ عجيبٍ هو

---

(١) في (م): فحذف.
(٢) البحر ٦/٤٩٧.
(٣) القراءات الشاذة ص١٠٤، والبحر ٦/٤٩٧.

مَثَلٌ في البطلان يريدون به القَدْحَ في نبوَّتك ويُظْهِرونه لك ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ﴾ في مقابَلتِه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالجواب الحقِّ الثابت الذي يُنْحي عليه بالإبطال، ويحسمُ مادَّةَ القيلِ والقال، كما مرَّ من الأجوبة الحقَّةِ القالِعَةِ لعروق أسئلتهم الشنيعةِ، الدامغةِ لها بالكلِّية.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ عطفٌ على «الحق»، أي: جئناك بأَحْسنَ تفسيراً، أي: بما هو أحسن، أو على محلِّ «بالحقِّ» أي: استحضرنا لك وأنزلنا عليك الحقَّ وأحسن تفسيراً، أي: كَشْفاً وبياناً، على معنى أنه في غايةِ ما يكون من الحُسْنِ في حدِّ ذاته، لا أنَّ ما يأتون به له حُسْنٌ في الجملة وهذا أحسنُ منه، وهذا نظيرُ قولهم: اللهُ تعالى أكبرُ، أي: له غايةُ الكبرياء في حدِّ ذاته.

وبعضُهم قدَّر مفضَّلاً عليه فقال: أي: وأَحْسَنَ تفسيراً من مَثَلِهم، وحُسْنُه على زَعْمِهم، أو هو تهكُّمٌ.

وتُعقِّب الأولُ بأنه يَفُوتُ عليه معنى التسلية؛ لأنَّ المراد: لا يهمّك[1] ما اقترحوه من قولهم: (لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً) فإنَّ تنزيله مفرَّقاً أحسنُ مما اقترحوه لفوائدَ شتَّى. وفيه منعٌ ظاهر.

وقيل: المراد بالتفسير المعنى، والمرادُ: وأَحْسَنَ معنًى؛ لأنه يقال: تفسيرُ كذا كذا، أي: معناه، فهو مصدرٌ بمعنى المفعول؛ لأنَّ المعنى: مفسَّرٌ، كـ: درهمٌ ضَرْبُ الأمير[2]. ورُدَّ بأنَّ المفسَّر اسم مفعولٍ هو الكلامُ لا المعنى، لأنه يقال: فسَّرْتُ الكلام، لا معناه.

وقال الطِّيبيُّ: وُضِعَ التفسيرُ موضعَ المعنى من وَضْعِ السَّببِ موضعَ المسبَّبِ؛ لأنَّ التفسير سببٌ لظهور المعنى وكَشْفِهِ.

وقيل عليه: إنه فَرْقٌ بين المعنى وظهورِه، فلا يتمُّ التقريبُ، وقد يُكْتَفَى بسببيَّتِه له في الجملة.

وأيًّا ما كان فهو نصبٌ على التمييز. والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال،

(١) في الأصل و(م): لا يهلك، وهو تصحيف، والمثبت من حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٣.
(٢) أي: مضروبه.

فالجملةُ في محلِّ النصب على الحالية، أي: لا يأتونك بمثلٍ في حالٍ من الأحوال[١] إلَّا حالَ إنزالنا عليك واستحضارِنا لك الحقَّ وأحسنَ تفسيراً، وجُعِلَ ذلك مقارِناً لإتيانهم وإن كان بعده للدلالةِ على المسارعة إلى إبطال ما أَتوا به تثبيتاً لفؤاده ﷺ.

وجوِّز أن يكون «المَثَلُ» عبارةً عن الصفة الغريبة التي كانوا يقترحون كونَه عليه الصلاة والسلام عليها، من الاستغناء عن الأكل والشرب، وحِيازةِ الكَنْز والجنةِ، ونزولِ القرآن عليه جملةً واحدةً، على معنى: لا يأتوك بحالةٍ عجيبةٍ يقترحون اتِّصافك بها قائلين: هلَّا كان على هذه الحالةِ، إلَّا أعطيناك نحن من الأحوال الممكنةِ ما يحقُّ لك في حِكْمَتِنا ومشيئتنا أن تُعطاه، وما هو أحسنُ.

وتعقِّب بأنه يأباه الاستثناءُ المذكورُ، فإنَّ المتبادرَ منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى من الحقِّ مترتِّباً على ما أتوا به من الأباطيل دامغاً لها، ولا ريبَ في أنَّ ما آتاه الله تعالى من المَلَكَاتِ السَّنِيَّةِ الطائفةِ بالرسالة قد أتاه من أول الأمر، لا بمقابلةِ ما حُكي عنهم من الاقتراحات لأَجْلِ دَمْغِها وإِبْطالِها.

وأجيب بأنَّ معنى «إلا جئناك» إلخ على ذلك: إلَّا أَظْهَرْنا فيك ما يكشِفُ عن بطلان ما أتوا به. وهو كما ترى، فالحقُّ التعويلُ على الأول.

والمشهور أنَّ الإتيانَ والمجيءَ بمعنًى، لكنْ عبِّر أولاً بالإتيان وثانياً بالمجيءِ للتفنُّنِ، وكراهةَ أن يتَّحِدَ ما يُنْسَبُ إليه عزَّ وجلَّ وما يُنسب إليهم لفظاً، مع كون ما أتوا به في غايةِ القبح والبطلان، وما جاء به سبحانه في غاية الحقِّية والحُسْنِ.

وفرق الرَّاغبُ بينهما فقال: المجيءُ كالإتيان، لكنَّ المجيءَ أعمُّ لأنَّ الإتيان مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيل للسّيل المارِّ على وجهه: أَتِيٌّ وأَتاوِيٌّ، والإتيانُ قد يقال باعتبارِ القَصْدِ وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقال اعتباراً بالحصول[٢].

ولعلّ في التعبير بالإتيان أولاً والمجيءِ ثانياً على هذا إشارةً إلى أنَّ ما يأتون به من الأمثال في نفسه من الأمور التي تُتخَيَّلُ بسهولةٍ ولا تحتاجُ إلى إعمالِ فِكْرٍ

---

(١) بعدها في (م): أي، وهو خطأ. ينظر الدر المصون ٨/ ٤٨٢، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢١٦.
(٢) مفردات الراغب (أتى) و(جاء).

بخلافِ ما يكون في مقابَلتِه فإنّه في نفسه من الأمور العقلية التي صَقَلها الفِكرُ فلا يجد أحدٌ سبيلاً إلى ردِّها والطَّعنِ فيها، أو إلى أنَّ فِعْلَهم لخروجه عن حيِّز القبول منزَّلٌ منزلةَ العدمِ حتى كأنّهم لم يتحقَّقْ منهم القصدُ دون الحصولِ بخلافِ ما كان من قِبَلِه عزَّ وجلَّ، فتأمَّلْ، واللهُ تعالى أعلمُ بأسرارِ كتابه.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: يحشرون ماشينَ على وجوههم، فقد روى الترمذيُّ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامة ثلاثةَ أصنافٍ: صنفاً مشاةً، وصنفاً ركباناً، وصنفاً على وجوههم»، قيل يا رسول الله: وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنَّ الذي أَمْشاهُم على أقدامهم قادرٌ على أنْ يمشِّيَهم على وجوههم، أمَا إنهم يتَّقون بوجوههم كلَّ حَدَبٍ وشوكٍ»[1].

وهذا يَحْتَمِلُ أن يكون بمسِّ وجوهِهم وسائرِ ما في جهتها من صدورهم وبطونهم ونحوِها الأرضَ، وأن يكون بِنَكْسِهم على رؤوسهم، وجَعْلِ وجوههم إلى ما يلي الأرضَ، وارتفاعِ أقدامهم وسائرِ أبدانهم، ولعل الحديث أظْهَرُ في الأول.

وقيل: إنَّ الملائكة عليهم السلام تَسْحَبُهم وتجرُّهم على وجوههم إلى جهنم، والأمرُ عليه ظاهرٌ لا غرابةَ فيه.

وقيل: الحشرُ على الوجه مجازٌ عن الذلَّةِ المُفْرِطةِ والخزيِ والهوان.

وقيل: هو من قول العرب: مرَّ فلانٌ على وجهه، إذا لم يَدْرِ أين ذهب.

وقيل: الكلامُ كنايةٌ أو استعارةٌ تمثيليةٌ، والمرادُ أنهم يُحشَرون متعلِّقةً قلوبُهم بالسفليات من الدنيا وزخارِفِها، متوجِّهةً وجوهُهم إليها. ولعل كونَ هذه الحال في الحشر باعتبارِ بقاء آثارها، وإلا فَهُم هناك في شغلٍ شاغلٍ عن التوجُّه إلى الدنيا وزخارفِها وتعلُّقِ قلوبهم بها.

---

(١) سنن الترمذي (٣١٤٢)، وهو عند أحمد (٨٦٤٧). وله شاهد من حديث معاوية بن حيدة وآخر من حديث أبي ذر أخرجهما أحمد (٢٠٠١١) و(٢١٤٥٦). ويشهد للقسم الأخير منه حديث أنس عند البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦). وقوله: حَدَب، هو الغليظ المرتفع من الأرض. ينظر النهاية (حدب).

و محلُّ الموصول، قيل: إمَّا النصبُ بتقديرِ أذمُّ أو أعني، أو الرفعُ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هم الذين، أو على أنه مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بدلٌ منه أو بيانٌ له، وقولُه تعالى: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ خبرٌ له، أو اسمُ الإشارة مبتدأ ثانٍ، و«شرٌّ» خبرُه، والجملةُ خبرُ الموصول.

وقال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يكون الموصول بدلاً من الضمير في «يأتونك»، و«أولئك شرٌّ مكاناً» كلامٌ مستأنفٌ. ولعل الأقربَ كونُ الموصولِ مبتدأً وما بعده خبرُه.

قال الطيبيُّ: وذلك من باب كلام المنصف وإرخاء العنان. وفُصِلَ «الذين يحشرون» عمَّا قبله استئنافاً[1]، لأنَّ التسليةَ السابقةَ حرَّكتْ منه ﷺ بأن يَسأل: فإذاً بماذا أجيبهم؟ وما يكون قولي لهم؟ فقيل: قل لهم: الذين يُحشَرون على وجوههم إلى جهنَّم.. إلخ، يعني: مقصودُكم من هذا التعنُّتِ تحقيرُ مكاني وتضليلُ سبيلي، وما أقول لكم: أنتم كذلك، بل أقول: الذين يُحشَرونَ على وجوههم إلى جهنَّم شرٌّ مكاناً وأضلُّ سبيلاً، فانظروا بعين الإنصاف، وتفكَّروا مَن الذي هو أَوْلَى بهذا الوصف منَّا ومنكم، لتعلموا أنَّ مكانكم شرٌّ من مكاننا، وسبيلَكم أضلُّ من سبيلنا، وعليه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]. فالمكانُ: الشَّرفُ والمنزلةُ، ويجوز أن يُرادَ به الدارُ والمسكن. و«شرٌّ» و«أضلُّ» محمولان على التفضيل على طريقة قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٦٠]. وجَعَل صاحب «الفرائد» ذلك لإثبات كلِّ الشرِّ لمكانهم وكلِّ الضلال لسبيلهم. ووَصْفُ السبيل بالضلال من باب الإسناد المجازيِّ للمبالغة.

والآيةُ على ما سمعتَ متَّصلةٌ بما قَبْلَها من قوله تعالى: (وَلَا يَأۡتُونَكَ) إلخ. وقال الكرمانيُّ: هي متَّصلةٌ بقوله تعالى: (أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ) الآيةَ. قيل: ويجوزُ أن تكون متَّصلةً بقوله سبحانه: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ) انتهى. وما ذُكر أوَّلاً أبعدُ مغزًى.

---

(١) في الأصل: استئناف.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ إلخ جملةٌ مستأنفةٌ سيقَتْ لتأكيد ما مرَّ من التسلية والوَعْدِ بالهدايةِ والنصر في قوله تعالى: (وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) - على ما قدَّمناه - بحكايةِ ما جرى بين مَن ذُكِرَ من الأنبياء عليهم السلام وبين قومهم حكايةً إجماليةً كافيةً فيما هو المقصود.

واللامُ واقعةٌ في جواب القسم، أي: وباللهِ تعالى لقد آتينا موسى التوراة، أي: أنزلناها عليه بالآخرة. وقيل: المراد بالكتاب الحُكْمُ والنبوَّةُ. ولا يَخْفَى بُعْدُه.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ﴾ الظرفُ متعلِّقٌ بـ «جعلنا»، وقولُه تعالى: ﴿أَخَاهُ﴾ مفعولٌ أول له، وقولُه سبحانه ﴿هَـٰرُونَ﴾ بدلٌ من «أخاه» أو عطفُ بيانٍ له، وقولُه عزَّ وجلَّ ﴿وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ مفعولٌ ثانٍ له، وتقدَّم معنى الوزير[1]، ولا ينافي هذا قولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] لأنه وإن كان نبيًّا فالشريعةُ لموسى عليه السلام، وهو تابعٌ له فيها كما أنَّ الوزير متَّبِعٌ لسلطانه.

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ هم فرعونُ وقومُه، والظاهرُ تعلُّقُ «بآياتنا» بـ «كذَّبوا»، والمرادُ بها دلائلُ التوحيد المودَعةُ في الأنفُسِ والآفاق، أو الآياتُ التي جاءت بها الرسلُ الماضيةُ عليهم السلام، أو التسعُ المعلومةُ. والتعبيرُ عن التكذيب بصيغة الماضي على الاحتمالين الأوَّلين ظاهرٌ، وعلى الأخير قيل: لتنزيل المستقبل - لتحقُّقه - منزلةَ الماضي. وتعقِّب بأنه لا يناسِبُ المقامَ.

وقال العلَّامةُ أبو السعود: لم يُوصَفِ القومُ لهما عند إرسالهما إليهم بهذا الوصفِ ضرورةَ تأخُّرِ تكذيب الآيات التسع عن إظهارها، المتأخِّرِ عن ذهابهما، المتأخِّرِ عن الأمر به، بل إنما وُصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ بياناً لعلَّةِ استحقاقهم لِمَا يُحكَى بعده من التدمير[2]. وبحث فيه بما فيه تأمُّلٌ.

وجوِّز أن يكون الظرفُ متعلِّقاً بـ «اذهبا» فمعنى «كذَّبوا»: فعلوا التكذيب.

﴿فَدَمَّرْنَـٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾ عجيباً هائلاً لا يقادرُ قَدْرُه ولا يُدْرَكُ كنهُه، والمرادُ به أشدُّ الهلاك، وأصلُه: كَسْرُ الشيء على وجهٍ لا يمكن إصلاحُه. والفاءُ فصيحةٌ،

(١) ١٦/٢٨٨-٢٨٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/٢١٧.

والأصل: فقلنا اذهبا إلى القوم فذهبا إليهم ودَعَواهم إلى الإيمان فكذَّبوهما واستمرُّوا على ذلك فدمَّرناهم، فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاءً بما هو المقصودُ.

وقيل: معنى «فدمرناهم»: فحَكَمْنا بتدميرهم، فالتعقيبُ باعتبارِ الحكمِ، وليس في الإخبار بذلك كثيرُ فائدة.

وقيل: الفاءُ لمجرَّد الترتيب، وهو كما ترى.

وعطف «قُلْنا» على «جَعَلْنا» المعطوفِ على «آتينا» بالواو التي لا تقتضي ترتيباً على الصحيح، فيجوزُ تقدُّمه مع ما يَعقبُه على إيتاء الكتاب، فلا يَرِدُ أنَّ إيتاء الكتاب وهو التوراةُ بعد هلاك فرعونَ وقومِه فلا يصحُّ الترتيبُ. والتعرُّضُ لذلك في مطلع القصة مع أنه لا مدخلَ له في إهلاك القوم لِمَا أنه بعده[1]؛ للإيذان من أول الأمر ببلوغه عليه السلام غايةَ الكمال التي هي إنجاءُ بني إسرائيلَ من ملكة فرعون، وإرشادُهم إلى طريق الحقِّ بما في التوراة من الأحكام، إذ به يحصلُ تأكيدُ الوعد بالهداية على الوجه الذي ذكر سابقاً.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والحسنُ ومسلمةُ بن محارب: «فدَمِّراهم» على الأمر لموسى وهارون عليهما السلام[2]. وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أيضاً كذلك، إلا أنه مؤكَّدٌ بالنون الشديدة[3].

وعنه كرم الله تعالى وجهه: «فدمِّرا» أمراً لهما «بهم» بباء الجرِّ[4]، وكأنَّ ذلك من قبيل:

تجرح في عراقيبها نَصْلي[5]

---

(١) في (م): بعد.

(٢) الكشاف ٣/ ٩٢، والبحر ٦/ ٤٩٨، والكلام منه.

(٣) أي: «فدمِّرانِّهم»، وهي في القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحتسب ٢/ ١٢٢، والكشاف ٣/ ٩٢، والبحر ٦/ ٤٩٨.

(٤) المحتسب ٢/ ١٢٢، والبحر ٦/ ٤٩٨.

(٥) قطعة من بيت لذي الرمَّة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وسلف ١٠/ ١٦ وغيرها، وتمامه:

فإن تَعْتذر بالمحل من ذي ضروعها ... على الضيف يَجْرحْ في عراقيبها نَصْلي

وحَكَى في «الكشاف» عنه أيضاً كرم الله تعالى وجهه: «فدمَّرْتُهم» بتاء الضمير[1].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوبٌ بمضمَرٍ يدلُّ عليه قولُه تعالى: (فَدَمَّرْنَٰهُمْ)، أي: ودمَّرنا قومَ نوح. وجوَّز الحوفيُّ وأبو حيان كونَه معطوفاً على مفعولِ «فدمَّرناهم»[2].

ورُدَّ بأنَّ تدمير قوم نوح ليس مترتِّباً على تكذيب فرعون وقومِه، فلا يصحُّ عَطْفُه عليه.

وأجيب بأنه ليس من ضرورةِ ترتُّبِ تدميرهم على ما قبله ترتُّبُ تدميرِ هؤلاء عليه، لا سيما وقد بيَّن سببه بقوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: نوحاً ومَن قبله من الرسل عليهم السلام، أو نوحاً وحده فإنَّ تكذيبه عليه السلام تكذيبٌ للكلِّ لاتِّفاقهم على التوحيد، أو أنكروا جوازَ بعثةِ الرسل مطلقاً. وتعريفُ الرسل على الأول عهديٌّ، ويحتملُ أن يكون للاستغراق؛ إذ لم يوجد وقتَ تكذيبهم غيرُهم، وعلى الثاني استغراقيٌّ لكن على طريق المشابَهةِ والادِّعاء، وعلى الثالث للجنس أو للاستغراق الحقيقيِّ، وكأنَّ المجيب أراد أنَّ اعتبار العطف قبل الترتيب، فيكونُ المرتَّبُ مجموعَ المتعاطفين، ويكفي فيه تَرتُّبُ البعض.

وقيل: المقصود من العطف التسويةُ والتنظير، كأنه قيل: دمَّرناهم كقوم نوحٍ، فتكونُ الضمائر لهم، والرسل نوحٌ وموسى وهارون عليهم السلام. ولا يخفى ما فيه.

واختار جمعٌ كونَه منصوباً بـ «اذْكُرْ» محذوفاً.

وقيل: هو منصوبٌ بمضمَرٍ يفسِّره قولُه تعالى: ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، ويرجِّحُه على الرفع تقدُّمُ الجمل الفعلية. ولا يَخْفَى أنه إنَّما يتسنَّى ذلك على مذهب الفارسيِّ[3]، من كون «لمَّا» ظرفَ زمانٍ، وأمَّا إذا كانت حرفَ وجودٍ لوجود فلا؛ لأنَّ «أغرقناهم» حينئذٍ يكون جواباً لها، فلا يفسِّر ناصباً.

---

(١) الكشاف ٣/ ٩٢.

(٢) البحر ٦/ ٤٩٨، والنهر على هامش البحر ٦/ ٤٩٧.

(٣) كما في البحر ٦/ ٤٩٨.

ولعل أَوْلَى الأوجُهِ الأولُ. و«أغرقناهم» استئنافٌ مبيِّن لكيفية تدميرهم، كأنه قيل: كيف كان تدميرُهم؟ فقيل: أغرقناهم بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: جَعَلْنا إغراقَهم، أو قصَّتهم ﴿لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: آيةً عظيمةً يعتبر بها مَن شاهدها أو سمعها، وهو مفعولٌ ثانٍ لـ «جعلنا»، و«للناس» متعلِّق به، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من «آيةً»؛ إذ لو تأخَّر عنها لكان صفة لها.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: جعلناه مُعدًّا لهم في الآخرة، أو في البرزخ، أو فيهما. والمرادُ بـ «الظالمين» القومُ المذكورون، والإظهارُ في موقع الإضمار للإيذان بتجاوُزِهم الحدَّ في الكفر والتكذيب، أو جميعُ الظالمين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب، فيدخلُ في زُمْرَتِهم قريشٌ دخولاً أوَّليًّا. ويَحْتَمِلُ «العذاب» الدنيويَّ وغيرَه.

﴿وَعَادًا﴾ عطفٌ على «قوم نوح»، أي: ودمَّرنا عاداً، أو: واذكر عاداً، على ما قيل. ولا يصحُّ أن يكون عطفاً إذا نُصِبَ على الاشتغال؛ لأنهم لم يُغْرَقوا.

وقال أبو إسحاق[1]: هو معطوفٌ على «هم» من «جعلناهم للناس آيةً»، ويجوزُ أن يكون معطوفاً على محلِّ «الظالمين» فإنَّ الكلام بتأويل: وَعَدْنا الظالمين. اهـ ولا يَخْفَى بُعْدُ الوجهين.

﴿وَثَمُودَاْ﴾ الكلامُ فيه وفيما بَعْدَه كما فيما قبله.

وقرأ عبد الله وعمرو بن ميمون والحسن وعيسى: «وثمودَ» غيرَ مصروفٍ[2] على تأويلِ القبيلة، ورُوي ذلك عن حمزةَ وعاصم[3] والجمهورُ بالصَّرْفِ - ورواه عبد بن حميد عن عاصم[4] - على اعتبارِ الحيِّ، أو أنهم سُمُّوا بالأب الأكبر.

﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ عن ابن عباس: هم قومُ ثمود. ويُبْعِدُه العطفُ لأنه يقتضي التغايُرَ.

---

(١) هو الزجاج، والكلام في معاني القرآن له ٤/ ٦٨.

(٢) البحر ٦/ ٤٩٨، وهي في المتواتر على ما يأتي.

(٣) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٨٩ عن حفص وحمزة، وهي قراءة يعقوب من العشرة.

(٤) الدر المنثور ٥/ ٧٠.

وقال قتادةُ: هم أهلُ قريةٍ من اليمامة يقال لها: الرسُّ والفَلج، قيل: قتلوا نبيَّهم فهلكوا، وهم بقيةُ ثمود وقوم صالح.

وقال كعبٌ ومقاتلٌ والسدِّيُّ: أهلُ بئرٍ يقال له: الرسُّ بأنطاكية الشام، قَتَلوا فيها صاحبَ «يس» وهو حبيبٌ النجَّار.

وقيل: هم قومٌ قتلوا نبيَّهم ورسُّوه في بئرٍ[١]، أي: دسُّوه فيه.

وقال وهبٌ والكلبيُّ: أصحابُ الرسِّ وأصحابُ الأيكة قومان أُرْسِلَ إليهما شعيبٌ، وكان أصحابُ الرسِّ قوماً من عَبَدةِ الأصنام وأصحابَ آبارٍ ومَواشٍ، فدعاهم إلى الإسلام فتمادَوْا في طغيانهم وفي إيذائه عليه السلام، فبينما هم حول الرسِّ - وهي البئر غيرُ المَطْويَّةِ كما روي عن أبي عبيدة[٢] - انهارت بهم وبدارهم.

وقال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه فيما نقله الثعلبيُّ: هم قومٌ[٣] عبدوا شجرةً يقال لها: شاه درخت، رسُّوا نبيَّهم في بئرٍ حفروه له، في حديث طويل.

وقيل: هم أصحابُ النبيِّ حنظلةَ بنِ صفوان كانوا مبتلَيْنَ بالعنقاء، وهي أعظمُ ما يكون من الطير، وكان فيها من كلِّ لونٍ، وسمِّيتْ عنقاء لطول عنقها، وكانت تسكنُ جبلَهم الذي يقال له: فتح[٤]، وتنقضُّ على صبيانهم فتَخْطفُهم إن أعوزها الصيد - ولإتيانها بهذا الأمر الغريب سمِّيت مُغْرِباً، وقيل: لأنها اختطفت عروساً. وقيل: لغروبها، أي: غَيبتها. وقيل: لأنَّ وكرها كان عند مغرب الشمس، ويقال فيها: عنقاءُ مغرب بالتوصيف والإضافة مع ضمِّ الميم وفتحها - فدعا عليها حنظلةُ فأصابتها الصاعقةُ فهلكت، ثم إنهم قتلوا حنظلةَ فأُهْلكوا.

وقيل: هم قوم أرسل إليهم نبيٌّ فأكلوه.

---

(١) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٥٢ عن عكرمة.

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٣، والبحر ٦/ ٤٩٩، وعنه نقل المصنف جميع ما سلف وما سيأتي من أقوال.

(٣) في (م): قول، وهو تحريف.

(٤) في البحر: فج، وفي تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٥: فتح أو دمخ؛ قال الشهاب: فتح بالفاء والتاء المثناة من فوق والحاء المهملة؛ وقيل: إنها معجمة. وقيل: إنه بمثناة تحتانية وجيم. ودمخ بدال مهملة وميم ساكنة وخاء معجمة.

وقيل: قومٌ نساؤهم سَوَاحِقُ.

وقيل: قومٌ بُعث إليهم أنبياء فقتلوهم ورسُّوا عظامهم في بئر.

وقيل: هم أصحابُ الأخدود، والرسُّ هو الأخدود.

وفي روايةٍ عن ابن عباس: أنه بئرُ أذربيجان.

وقيل: الرسُّ ما بين نجران إلى اليمن إلى حضرموت.

وقيل: هو ماءٌ ونخلٌ لبني أسد.

وقيل: نهرٌ من بلاد المشرق بعث الله تعالى إلى أصحابه نبيّاً من أولاد يهوذا بن يعقوب فكذَّبوه، فلبث فيهم زماناً، فشكا إلى الله تعالى منهم، فحفروا له بئراً وأرسلوه فيه، وقالوا: نرجو أن تَرْضَى عنَّا آلهتُنا، فكانوا عليه(١) يومَهم يسمعون أنينَ نبيِّهم، فدعا بتعجيل قبْضِ روحِه فمات، وأظلتهم سحابةٌ سوداءُ أذابتهم كما يذوبُ الرصاص.

ورَوَى عكرمةُ ومحمد بنُ كعب القرظيُّ عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ أصحاب الرسِّ أخذوا نبيَّهم فرسُّوه في بئر وأَطْبَقوا عليه صخرةً، فكان عبدٌ أسودُ قد آمَنَ به يَجيءُ بطعامٍ إلى البئر، فَيُعِينُه الله تعالى على تلك الصخرة فيرفعها، فيعطيه ما يغذِّيه به ثم يردُّ الصخرة على فم البئر، إلى أنْ ضرب الله تعالى على أذن ذلك الأسود فنام أربعَ عَشْرةَ سنةً، وأخرج أهل القرية نبيَّهم فآمنوا به». في حديث طويل ذُكر فيه أنَّ ذلك الأسودَ أولُ مَن يدخل الجنة(٢). وهذا إذا صحَّ كان القولَ الذي لا يمكنُ خلافُه، لكنْ يُشْكِلُ عليه إيرادُهم هنا، وأجاب عنه الطبريُّ(٣) بأنه يمكن أنهم كفروا بعد ذلك فأُهْلِكوا، فذكرهم الله تعالى مع مَن ذُكر من المُهْلَكين، وملخَّصُ الأقوال أنهم قومٌ أهلكهم الله تعالى بتكذيبِ مَن أرسل إليهم.

---

(١) في البحر: عامة.

(٢) أخرجه مطوَّلاً عن محمد بن كعب عن النبيِّ ﷺ الطبري ١٧/ ٤٥٤-٤٥٥، وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: فيه غرابة ونكارة، ولعل فيه إدراجاً.

(٣) في التفسير ١٧/ ٤٥٥، ونقله المصنف بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٤٩٨.

﴿وَقُرُونًا﴾ أي: أهلَ قرونٍ، وتقدَّم الكلامُ في القرن[1] ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكورِ من الأمم، وللتعدُّدِ حَسُنَ «بين» من غيرِ عَطْفٍ ﴿كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ يطولُ الكلام جدًّا بذكرها، ولا يَبْعدُ أن يكون قد عَلِمَ رسولُ الله ﷺ مقدارَها، وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨] ليس نصًّا في نفي العلم بالمقدار كما لا يخفى.

وفي «إرشاد العقل السليم»[2]: لعلَّ الاكتفاء في شؤون تلك القرونِ بهذا البيانِ الإجماليِّ لِمَا أنَّ كلَّ قرنٍ منها لم يكن في الشهرة وغرابةِ القصة بمثابةِ الأمم المذكورة.

﴿وَكُلًّا﴾ منصوبٌ بمضمَرٍ يدلُّ عليه ما بعده؛ فإنَّ ضَرْبَ المَثَلِ في معنى التذكيرِ والتحذير. والمحذوفُ الذي عوِّض عنه التنوينُ عبارةٌ إمَّا عن الأمم التي لم تُذْكَر أسبابُ إهلاكهم، وإمَّا عن الكلِّ فإنَّ ما حُكي عن فرعون وقومه وعن قوم نوحٍ عليه السلام تكذيبُهم للآيات والرسل، لا عَدَمُ التأثُّرِ من الأمثال المضروبة، أي: ذكَّرنا وأنذرنا كلَّ واحدٍ من المذكورين.

﴿ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ﴾ أي: بيَّنَّا لكلٍّ القصصَ العجيبةَ الزاجرةَ عمَّا هم عليه من الكفر والمعاصي بواسطةِ الرسل عليهم السلام.

وقيل: ضميرُ «له» للرسول عليه الصلاة والسلام، والمعنى: وكلَّ الأمثالِ ضربناه للرسول، فيكون «كلًّا» منصوباً بـ «ضربنا»، و«الأمثال» بدلاً منه على ما في «البحر»، وفيه: أنه أَبْعدَ مَن ذهب إلى ذلك[3]. وعندي أنه مما لا ينبغي أن يفسَّر به كلامُ الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا﴾ مفعولٌ مقدَّمٌ لقوله سبحانه: ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ وتقديمُه للفاصلة. وقيل: لإفادة القَصْرِ على أنَّ المعنى: كلًّا لا بعضاً. وتعقِّب بأنَّ لفظ «كل» يفيدُ ذلك. ويمكنُ توجيهُ ذلك بالعناية.

---

(١) ١١/ ٥٥.

(٢) ٦/ ٢١٩.

(٣) البحر ٦/ ٤٩٩.

وأصل التتبير: التفتيت؛ قال الزجَّاج(١): كلُّ شيءٍ كَسَّرْتَهُ وفتَّتَّه فقد تبَّرْتَهُ، ومنه: التِّبرُ، لفُتاتِ الذهب والفضة. والمراد به: التمزيقُ والإهلاك، أي: أهلكنا كلَّ واحدٍ منهم إهلاكاً عجيباً هائلاً؛ لِمَا أنهم لم يتأثَّروا بذلك، ولم يرفعوا له رأساً، وتمادَوا على ما هم عليه من الكفر والعدوان.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مسوقةٌ لبيان مشاهدةِ كفَّارِ قريشٍ لآثارِ هلاكِ بعض الأمم المتبَّرةِ وعدمِ اتِّعاظهم بها. وتصديرُها بالقسم لتقرير مضمونها اعتناءً به. و«أتى» مضمَّنٌ معنى مرَّ لتعدِّيه بـ «على».

والمعنى: بالله لقد مرَّ قريشٌ في متاجرهم إلى الشام ﴿عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ وهي سذوم، وهي أعظمُ قرى قومِ لوطٍ، سمِّيتْ باسم قاضيها سذوم بالذال المُعْجَمة على ما صحَّحه الأزهريُّ(٢)، واعتمده في «الكشف» وفي المثل: أَجْوَرُ من سذوم، أَهْلَكها الله تعالى بالحجارة، وهو المرادُ بـ «مطر السوء»، وكذا أَهْلَكَ سائرَ قُراهم ـ وكانت خمساً ـ إلا قريةً واحدةً وهي زغر لم يُهلكها لأنَّ أهلها لم يعملوا العملَ الخبيث، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإفرادُ «القرية» بالذكر لِمَا أشرنا إليه.

وانْتَصَبَ «مطر» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «أُمْطِرَتْ»، على معنى أُعْطِيَتْ، أو: أُوْلِيَتْ، أو على أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ بحذفِ الزوائد، أي: إمطارَ السوء كما قيل في: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧]. وجوَّز أبو البقاء أن يكون صفةً لمحذوفٍ، أي: إمطاراً مثلَ مطرِ السوء(٣)، وليس بشيءٍ.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «مُطِرَتْ» ثلاثيًّا مبنيًّا للمفعول، و«مَطَر» مما يتعدَّى بنفسه. وقرأ أبو السمال: «مَطَر السُّوء» بضم السين(٤).

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ توبيخٌ على تَرْكِهم التذكُّرَ عند مشاهدةِ ما يوجبُه،

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٦٨-٦٩.

(٢) في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٧٤، وذكره عن الأزهري الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٢٥ وقال: وفي الصحاح أنه بمهملة. وينظر الصحاح (سدم).

(٣) الإملاء ٤/ ١٠٠.

(٤) القراءتان في البحر ٦/ ٥٠٠، وعنه نقل المصنف.

والهمزةُ لإنكار نفي استمرارِ رؤيتهم لها، وتقريرِ استمرارِها حَسبَ استمرارِ ما يوجبُها من إتيانهم عليها، لا لإنكار استمرار نفي رؤيتهم وتقريرِ رؤيتهم لها.

والفاء لعَطْفِ مدخولها على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ، أي: ألم يكونوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها، أو: أكانوا ينظرون إليها فلم يكونوا يرونها في مِرَارِ مُرورِهم ليتَّعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب.

والمنكَر في الأول النظرُ وعدمُ الرؤية معاً، وفي الثاني عدمُ الرؤيةِ مع تحقُّقِ النظر الموجب لها عادةً، كذا[1] في «إرشاد العقل السليم»[2].

ولم يقل: أفلم يَرَوْنها[3] - مع أنه أَخْصَرُ وأَظْهرُ - قَصْداً لإفادةِ التكرارِ مع الاستمرارِ، ولم يصرِّح في أوَّل الآية بنحو ذلك بأنْ يقال: ولقد كانوا يأتون، بَدَلَ: ولقد أَتَوا؛ للإشارة إلى أنَّ المرور ولو مرةً كافٍ في العبرة. فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ إمَّا إضرابٌ عمَّا قبلَه من عَدَمِ رؤيتِهم لآثارِ ما جرى على أهل القرى من العقوبة، وبيانٌ لكونِ عَدَمِ اتِّعاظِهم بسبب إنكارهم لكونِ ذلك عقوبةً لمعاصيهم لا لعَدَمِ رؤيتهم لآثارها، خلا أنه اكتفى عن التصريح بإنكارهم ذلك بذِكْرِ ما يستلزمُه من إنكار الجزاء الأخرويِّ، وقد كَنَى عن ذلك بعَدَمِ رجاء النشور، والمرادُ بالرجاء: التوقُّعُ مجازاً، كأنه قيل: بل كانوا لا يتوقَّعون النشورَ المستَتْبِعَ للجزاء الأخرويِّ، وينكرونه ولا يَرَوْن لنفسٍ من النفوس نشوراً أصلاً مع تحقُّقِه حتماً وشمولِه للناس عموماً واطِّرادِه وقوعاً، فكيف يعترفون بالجزاء الدنيويِّ في حقِّ طائفةٍ خاصةٍ مع عَدَمِ الاطِّراد والمُلازَمةِ بينه وبين المعاصي حتى يتذكَّروا ويتَّعظوا بما شاهَدوه من آثار الهلاك، وإنما يَحْمِلونه على الاتِّفاق.

وإمَّا انتقالٌ من التوبيخ بما ذُكر من تَرْكِ التذكُّر إلى التوبيخ بما هو أعظمُ منه من عدم رجاء النشور. وحَمْلُ الرجاءِ على التوقُّع وعمومِ النشور أوفقُ بالمقام.

---

(١) في الأصل: كما.

(٢) ٦/ ٢١٩.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والصواب: أفلا يرونها، كما في حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٥.

وقيل: هو على حقيقته، أعني انتظارَ الخير، والمرادُ بالنشورِ: نشورٌ فيه خيرٌ، كنشورِ المسلمين.

وجوّز أن يكون الرجاء بمعنى الخوف على لغة تهامةَ، والمرادُ بالنشور: نشورُهم. والكلُّ كما ترى.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ أي: ما يتَّخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ على معنى: ما يفعلون بك[1] إلا اتخاذَكَ هُزُواً، أي: موضعَ هزوٍ، أو: مَهْزوءاً به. ف «هُزُواً» إما مصدرٌ بمعنى المفعول مبالغةً، أو هو بتقديرِ مضافٍ. وجملةُ «إن يتخذونك» جوابُ «إذا»، وهي كما قال أبو حيان وغيرُه تنفرد بوقوع جوابها المنفيِّ ب «إن» و«لا» و«ما» بدون فاءٍ، بخلاف غيرِها من أدوات الشرط[2].

وقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ مقولُ قولٍ مضمَرٍ، أي: يقول أهذا.. إلخ. والجملةُ في موضع الحال من فاعل «يتخذونك»، أو مستأنفةٌ في جواب: ماذا يقولون؟

وجوّز أن تكون الجوابَ، وجملةُ «إن يتَّخذونك» معترِضةٌ[3].

وقائلُ ذلك أبو جهل ومَن معه، وروي أنَّ الآية نزلت فيه. والإشارةُ للاستحقار كما في: يا عجباً لابن عمرو هذا، وعائدُ الموصولِ محذوفٌ، أي: بعثه، و«رسولاً» حالٌ منه، وهو بمعنى مُرسَل.

وجوَّز أبو البقاء أن يكون مصدراً حُذِفَ منه المضافُ، أي: ذا رسولٍ، أي: رسالة[4]، وهو تكلُّفٌ مُسْتَغنًى عنه.

وإخراجُ بَعْثِ الله تعالى إياه ﷺ رسولاً بجَعْلهِ صلةً وهم على غايةِ الإنكار تهكُّمٌ واستهزاءٌ، وإلا لقالوا: أَبَعَثَ الله هذا رسولاً. وقيل: إنَّ ذلك بتقديرِ: أهذا الذي

---

(١) في الأصل و(م): به، والصواب ما أثبتناه، ينظر ما سلف ١٧/ ٩٨، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٠.

(٢) البحر ٦/ ٥٠٠.

(٣) والتقدير: وإذا رأوك قالوا أهذا الذي...، واعترض بجملة النفي. الدر المصون ٨/ ٤٨٥.

(٤) الإملاء ٤/ ١٠٠.

بَعَثَ اللهُ رسولاً في زَعْمِه. وما تقدَّم أوفقُ بحالِ أولئك الكفرةِ مع سلامته من التقدير.

﴿إِن كَادَ﴾ «إن» مخَفَّفةٌ من «إنَّ»، واسمُها عند بعضٍ ضميرُ الشأن محذوفٌ، أي: إنه كاد ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: ليَصْرِفُنا عن عبادتها صَرْفاً كلِّيًّا بحيث يُبْعِدُنا عنها لا عن عبادتها فقط. والعدولُ إلى الإضلال لغايةِ ضلالهم بادِّعاء أنَّ عبادتها طريقٌ سويٌّ.

﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ثَبتْنا عليها واستَمْسَكْنا[1] بعبادتها، و«لولا» في أمثال هذا الكلام يجري مجرى التقييد للحكم المطلَقِ من حيث المعنى دون اللفظ، وهذا اعترافٌ منهم بأنه ﷺ قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة إلى التوحيد، وإظهارِ المعجزات، وإقامةِ الحجج والبيِّناتِ، ما شارَفوا به أن يتركوا دينَهم لولا فرطُ لجَاجِهم وغايةُ عنادهم. ولا ينافي هذا استحقارَهم واستهزاءَهم السابقَ؛ لأنَّ هذا من وجهٍ وذاك من وجهٍ آخَرَ زعموه سبباً لذلك، قاتَلَهم الله تعالى.

وقيل: إنَّ كلامهم قد تَناقَضَ لاضطرابهم وتحيُّرِهم، فإنَّ الاستفهامَ السابقَ دالٌّ على الاستحقارِ، وهذا دالٌّ على قوةِ حجَّتِه وكمالِ عقله ﷺ، ففيما حكاه سبحانه عنهم تحميقٌ لهم، وتجهيلٌ لاستهزائهم بما استَعْظَموه.

وقيل عليه: إنه ليس بصريحٍ في اعترافهم بما ذكر، بل الظاهرُ أنه أُخرج في مَعْرِضِ التسليم تهكُّماً، كما في قولهم: «بعث الله رسولاً»، وفيه منعٌ ظاهر والتناقضُ مندفعٌ كما لا يخفى[2].

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي يستوجبُه كُفْرُهم وعنادُهم ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: يعلمون جوابَ هذا، على أنَّ «مَن» استفهاميةٌ مبتدأ، و«أضلُّ» خبرُها، والجملةُ في موضع مفعولي «يعلمون» إن كانت تعدَّتْ إلى مفعولين، أو في موضعِ مفعولٍ واحد إن كانت متعدِّيةً إلى واحدٍ.

أو: يعلمون الذي هو أضلُّ، على أنَّ «مَن» موصولةٌ مفعولُ «يعلمون»،

---

(١) في (م): استمكنا، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢، والكلام منه.

(٢) لأن «كاد»، ونسبةُ الإضلال إليه وتسليمُ إلهيَّة ما عبدوه، يدفع التناقض ويأبى الاستهزاء، والمصنف بهذا يرجح ما ذكره أوَّلاً. ينظر حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٦.

و«أضلُّ» خبر مبتدأ محذوفٍ، والجملةُ صلةُ الموصول، وحُذِفَ صَدْرُ الصِّلةِ ـ وهو العائد ـ لطولها بالتمييز.

وكأنَّ أولئك الكفرةَ لمَّا جعلوا دعوتَه ﷺ إلى التوحيد إضلالاً ـ حيث قالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ إلخ، والمُضِلُّ لغيره لا بدَّ أن يكون ضالًّا في نفسه ـ جيءَ بهذه الجملة ردًّا عليهم، ببيانِ أنه عليه الصلاةُ والسلامُ هادٍ لا مُضِلٌّ على أبلغ وجهٍ، فإنها تدلُّ على نفي الضلال عنه ﷺ؛ لأنَّ المراد أنهم يعلمون أنهم في غاية الضلال لا هو، ونفيُ اللازم يقتضي نَفْيَ مَلْزومِه، فيَلْزمُه أن يكون عليه الصلاة والسلام هادياً لا مضلًّا.

وفي تقييد العلم بوقتِ رؤيةِ العذاب وعيدٌ لهم، وتنبيهٌ على أنه تعالى لا يُهْمِلُهم وإن أَمْهلَهم.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من شناعةِ حالِهم بعد حكايةِ قبائحهم من الأقوال والأفعال، والتنبيهِ على ما لَهم من المصير والمآل، وتنبيهٌ على أنَّ ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يُرى ويُتَعَجَّبَ منه. والظاهرُ أنَّ «رأى» بصريةٌ، و«مَن» مفعولُها وهي اسمٌ موصولٌ، والجملةُ بعدها صلةٌ.

و «اتَّخذ» متعدِّيةٌ لمفعولين: أَوَّلهما «هواه»، وثانيهما «إلهه»، وقُدِّم على الأول للاعتناء به من حيث إنه الذي يدورُ عليه أمرُ التعجيبِ، لا من حيث إنَّ الإله يستحقُّ التعظيمَ والتقديمَ كما قيل، أي: أرأيتَ الذي جَعَلَ هواه إلهاً لنفسه بأنْ أطاعه وبَنَى عليه أمرَ دينه مُعْرِضاً عن استماع الحُجَّةِ الباهرةِ وملاحظةِ البرهان النيِّر بالكلِّيةِ، على معنى: انظر إليه وتعجَّبْ منه.

وقال ابن المنير: في تقديم المفعول الثاني هنا نكتةٌ حسنةٌ، وهي إفادةُ الحصر، فإنَّ الكلام قبل الدخول «أرأيت» و«اتَّخذ» الأصلُ فيه: هَوَاهُ إلهُهُ، على أنَّ «هواه» مبتدأٌ خبرُه «إلهه»، فإذا قيل: إلهُهُ هواه، كان من تقديم الخبر على المبتدأ وهو يفيد الحَصْرَ، فيكون معنى الآية حينئذ: أرأيتَ مَن لم يتَّخِذ معبودَه إلَّا هواه، وذلك أبلغُ في ذمِّه وتوبيخهِ(١).

(١) الانتصاف ٣/ ٩٤.

وقال صاحب «الفرائد»: تقديمُ المفعول الثاني يمكنُ حيث يمكنُ تقديمُ الخبرِ على المبتدأ، والمعرفتان إذا وقعتا مبتدأً وخبراً فالمقدَّمُ هو المبتدأ، فَمَن جَعَل ما هنا نظيرَ قولك: علمتُ مُنْطلقاً زيداً، فقد غفل عن هذا، ويمكن أن يقال: المتقدِّم هاهنا يُشْعِرُ بالثبات بخلافِ المتأخِّرِ، فتقدُّم «إلهه» يُشْعِرُ بأنه لا بدَّ من إلهٍ، فهو كقولك: اتَّخذ ابنَه غلامَه، فإنه يُشعر بأنَّ له ابناً ولا يُشْعِرُ بأنَّ له غلاماً، فهذا فائدةُ تقديم «إلهه» على «هواه».

وتعقَّب ذلك الطيبيُّ فقال: لا يُشَكُّ في أنَّ مرتبةَ المبتدأ التقديمُ، وأنَّ المعرفتين أيهما قدِّم كان المبتدأَ، لكنَّ صاحب المعاني لا يَقْطَعُ نظره عن أصل المعنى، فإذا قيل: زيدٌ الأسدُ، فالأسدُ هو المشبَّهُ به أصالةً، ومرتبتُه التأخيرُ عن المشبَّهِ بلا نزاعٍ، فإذا جَعَلْتَه مبتدأً في قولك: الأسدُ زيدٌ، فقد أَزَلْتَهُ عن مقرِّه الأصليِّ للمبالغة، وما نعني بالمقدَّم إلَّا المزالَ عن مكانه لا القارَّ فيه، فالمشبَّه به هاهنا الإله، والمشبَّهُ الهوى؛ لأنهم نزَّلوا أهواءهم في المتابعة منزلةَ الإله، فقدِّم المشبَّهُ به الأصليُّ وأُوقِع مشبَّهاً ليؤذنَ بأنَّ الهوى في باب استحقاقِ العبادة عندهم أقوى من الإله الحقِّ[1] عزَّ وجلَّ، كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥] ولمَّح صاحب «المفتاح» إلى هذا المعنى في كتابه[2]. وأمَّا المثالُ الذي أورده صاحب «الفرائد» فمعنَى قولِه: اتَّخذ ابنَه غلامَه: جَعَلَ ابنَه كالغلامِ يخدمُه في مهنة أهله، وقولِه: اتَّخذ غلامَه ابنَه: جَعَلَ غلامَه كابنه مكرماً مدلَّلاً. اهـ.

وأنت تعلمُ ما في قوله: إنَّ المعرفتين أيهما قدِّم كان المبتدأ. فإنَّ الحقَّ أنَّ الأمر دائرٌ مع القرينة، والقرينةُ هنا قائمة على أنَّ «إلهه» الخبر، وهي عقليةٌ لأنَّ المعنى على ذلك، فلا حاجة إلى جَعْلِ ذلك من التقديم المعنوي.

وقال شيخ الإسلام: مَن توهَّم أنهما على الترتيب بناءً على تَساويهما في التعريف فقد زلَّ عنه أنَّ المفعول الثاني في هذا الباب هو الملتبس بالحالة الحادثة[3].

---

(١) قوله: الحق، ليس في (م).

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣٤٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢١، وفيه: المتلبس، بدل: الملتبس.

وفي ذلك ردٌّ على أبي حيان حيث أَوْجَبَ كونَهما على الترتيب. ونَقَلَ عن بعض المدنيين أنه قرأ: «آلهةً» منوَّنةً على الجمع، وجَعَلَ ذلك على التقديم والتأخير، والمعنى: جَعَل كلَّ جنسٍ من هواه إلهاً.

وذَكَر أيضاً أنَّ ابن هرمز قرأ: «إلاهةً» على وزن فِعَالة، وهو أيضاً من التقديم والتأخير، أي: جَعَلَ هواه إلاهةً بمعنى مألوهةٍ، أي: معبودة، والهاءُ للمبالغة فلذلك صُرِفَتْ. وقيل: بل الإلاهةُ الشمسُ، ويقال: أُلاهة بضمِّ الهمزة، وهي غير مصروفةٍ للعَلَمية والتأنيث، لكنَّها لمَّا كانت ممَّا يدخلها لامُ التعريف في بعض اللغات صارت بمنزلةِ ما كان فيه اللامُ ثم نُزِعَتْ، فلذلك صُرِفَتْ وصارتْ كالمنكَّر بعد التعريف؛ قاله صاحب «اللوامح»[(١)]. وهو كما ترى.

والآيةُ نزلت ـ على ما قيل ـ في الحارث بن قيس السهميِّ، كان كلَّما هَوَى حجراً عَبَدَه.

وأخرج ابن أبي حاتم وابنُ مردويه عن ابن عباس أنه قال: كان الرجل يعبدُ الحَجَرَ الأبيضَ زماناً من الدهر في الجاهلية، فإذا وَجَدَ أَحْسَنَ منه رَمَى به وعَبَدَ الآخَر، فأنزل الله تعالى: (أَرَءَيْتَ) إلخ[(٢)]. وزَعَم بعضُهم لهذا ونحوه أنَّ هواه بمعنى مَهْويِّه، وليس بلازمٍ كما لا يخفى.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس[(٣)] رضي الله عنهما أنه قال في الآية: كلما هَوَى شيئاً رَكِبَه، وكلَّما اشتهى شيئاً أتاه، لا يحجزُه عن ذلك وَرَعٌ ولا تقوى. فالآيةُ شاملةٌ لمن عَبَدَ غيرَ الله تعالى حَسبَ هواه، ولمن أطاع الهوى في سائر المعاصي، وهو الذي يقتضيه كلامُ الحسن، فقد أخرج عنه عبد بن حميد[(٤)] أنه قيل

---

(١) البحر ٦/ ٥٠١. وقراءة ابن هرمز ذكرها أيضاً ابن جني في المحتسب ٢/ ١٢٣.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦٩٩، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٥/ ٧٢، وأخرجه أيضاً النسائي في الكبرى (١١٤٢١).

(٣) كذا ذكر المصنف، وهو وهم منه رحمه الله، والصواب: عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة، والذي أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس خبر آخر، ينظر الدر المنثور ٥/ ٧٢. والخبر عن قتادة في تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٠.

(٤) كما في الدر المنثور ٥/ ٧٢.

له: أفي أهل القِبلة شِرْكٌ؟ فقال: نعم، المنافقُ مشركٌ، إنَّ المشركَ يسجد للشمس والقمر من دون الله تعالى، وإنَّ المنافق عَبْدُ هواه، ثم تلا هذه الآيةَ. والمنافقُ عند الحسن مرتكبُ المعاصي كما ذكره غيرُ واحدٍ من الأَجِلَّة.

وقد أخرج الطبرانيُّ وأبو نعيم في «الحلية» عن أبي أمامةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحت ظلِّ السماء من إلهٍ يُعْبَدُ من دون الله تعالى أعظم عند الله عزَّ وجلَّ من هوًى يُتَّبعُ»[(١)].

ولا يكادُ يَسْلَمُ على هذا من عموم الآية إلَّا مَن اتَّبع ما اختاره الله تعالى لعباده وشَرَعَه سبحانه لهم في كلِّ ما يأتي ويَذَرُ، وعليه يدخل الكافر فيما ذُكر دخولاً أوَّلياً.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ استئنافٌ مسوقٌ لاستبعادِ كونِه ﷺ حفيظاً على هذا المتَّخِذِ يَزْجُره عمَّا هو عليه من الضلال، ويرشده إلى الحقِّ طوعاً أو كرهاً، وإنكار له[(٢)]، والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله من الحالة الموجبة له، كأنه قيل: أَبَعْدَ ما شاهَدْتَ غُلوَّه في طاعة الهوى تقسره[(٣)] على الانقياد إلى الهدى شاء أو أبى.

وجوِّز أن تكون «رأى» عِلْمية وهذه الجملةُ في موضع المفعول الثاني، وليس بذاك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ عن الإنكار المذكور إلى إنكار حسبانه ﷺ إياهم ممن يسمَعُ أو يعقِلُ، حَسْبَما يُنْبِئُ عنه جِدُّه عليه الصلاة والسلام في الدعوة، واهتمامُه بالإرشاد والتذكير، على معنى أنه لا ينبغي أن يقع، أي: بل أَتَحْسَبُ أنَّ أكثرهم يسمعون حقَّ السماع ما تتلو عليهم من الآيات القرآنية، أو يعقلون ما أُظهر لهم من الآيات الآفَاقية والأَنْفُسِية، فتعتنيَ في شأنهم وتطمعَ في إيمانهم. ولمَّا كان الدليلُ السَّمْعيُّ أهمَّ - نظراً للمقام - من الدليل العقليِّ قيل: «يسمعون أو يعقلون».

---

(١) المعجم الكبير (٧٥٠٢)، والحلية ٦/ ١١٨.

(٢) قوله: وإنكار له، عطفٌ في المعنى على قوله: لاستبعاد كونه... إلخ، قال أبو السعود في تفسير الآية: «أفأنت تكون عليه وكيلاً» إنكارٌ واستبعادٌ لكونه ﷺ حفيظاً عليه... إلخ.

(٣) في الأصل و(م): تعسره، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢١، والكلام منه.

وقيل: المعنى: بل أتحسبُ أنَّ أكثرهم يسمعون حقَّ السماع ما تتلو عليهم من الآيات، أو يعقلون ما في تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح، الداعيةِ إلى المحاسن، فتجتهدَ في دعوتهم وتهتمَّ بإرشادهم وتذكيرهم. ولعل ما قلناه أولى فتدبَّر.

وأيًّا ما كان فضميرُ «أكثرهم» لـ «مَن» باعتبارِ معناه، وضميرُ «عليه» له أيضاً باعتبارِ لَفْظِه، واختير الجمعُ هنا لمناسَبةِ إضافة الأكثر لهم، وأُفرد فيما قبله لجَعْلِهِم في اتِّفاقهم على الهوى كشيءٍ واحد.

وقيل: ضميرُ «أكثرهم» للكفار لا لـ «مَن»؛ لأنَّ قوله تعالى: «عليه» يأباه، وليس بشيءٍ.

وضميرا الفعلين للأكثر لا لِمَا أضيفَ إليه، وتخصيصُ الأكثر لأن منهم مَن سبقتْ له العنايةُ الأزلية بالإيمان بعد الاتِّخاذ المذكور، ومنهم مَن سمع أو عقل لكنه كابَرَ استكباراً وخوفاً على الرياسة.

وقولُه تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ﴾ إلخ جملةٌ مستأنفةٌ لتكرير النَّكيرِ وتأكيدِه، وحَسْمِ مادَّةِ الحسبان بالمرَّة، والضميرُ للأكثر أو لـ «مَن»، واكتفى عن ذكر الأكثر بما قبلَه، أي: ما هم في عَدَمِ الانتفاعِ بما يَقْرَعُ آذانَهم من قوارعِ الآيات، وانتفاءِ التدبُّرِ بما يشاهدونه من الدلائلِ البيِّناتِ، إلا كالبهائم التي هي مَثَلٌ في الغَفْلةِ وعَلَمٌ في الضَّلالة.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ منها ﴿سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ لِمَا أنها تنقادُ لصاحبها الذي يتعهَّدُها، وتَعْرِفُ مَن يُحْسِنُ إليها ومن يُسيءُ إليها، وتطلبُ ما ينفعُها، وتَجتَنِبُ ما يضرُّها، وتهتدي لمراعيها ومَشَارِبها، وتأوي إلى معاطنِها ومَرابِضِها، وهؤلاء لا ينقادون لربِّهم سبحانه وخالِقِهم ورازِقِهم، ولا يعرفون إحسانَه تعالى إليهم من إساءةِ الشيطان المزيِّنِ لهم اتِّباعَ الشهواتِ، الذي هو عدوٌّ مُبِينٌ، ولا يطلبون الثَّوابَ الذي هو أعظمُ المنافع، ولا يتَّقون العقابَ الذي هو أشدُّ المضارِّ والمهالكِ، ولا يهتدون للحقِّ الذي هو المَشْرَعُ(١) الهنيُّ، والمَوْرِدُ العَذْبُ الرَّوِيُّ.

---

(١) المَشْرَعُ كمقعد: المَشْرعة، وهي مورد الشاربة، التي يَشْرَعُها الناس فيشربون منها ويستقون. التاج (شرع).

ولأنَّها إن لم تَعتقد حقًّا مُسْتَتْبِعاً لاكتساب الخير لم تعتقد باطلاً مستوجِباً لاقتراف الشرِّ، بخلافِ هؤلاء حيث مَهَّدوا قواعِدَ الباطل، وفرَّعوا عليها أحكامَ الشرور.

ولأنَّ أحكام جهالتها وضلالتها مقصورةٌ على أنفسها لا تتعدَّى إلى أحدٍ، وجهالةُ هؤلاء مؤدِّيةٌ إلى ثَورانِ الفتنة والفساد، وصدِّ الناس عن سَنَنِ السَّدَادِ، وهَيجَان الهَرْجِ والمَرْجِ فيما بين العباد.

ولأنها غيرُ معطِّلةٍ لقوَّةٍ من القوى المودَعةِ فيها، بل صارفة لها إلى ما خُلِقَتْ له فلا تقصيرَ من قبلها في طلب الكمال، وأمَّا هؤلاء فهم معطِّلون لقواهم العقليةِ، مضيِّعون للفطرة الأصلية التي فُطِرَ الناسُ عليها.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ البهائم لا تعلم ربَّها عزَّ وجلَّ، ومَن ذهب إلى أنها تعلمُه سبحانه وتسبِّحه كما هو مذهبُ الصوفيةِ وجماعةٍ من الناس قال: إنَّ هذا خارجٌ مخرجَ الظاهر.

وقيل: المراد: إنْ هم إلَّا كالأنعام في عدم الانتفاع بالآيات القرآنية والدلائل الأنْفُسِيَّةِ والآفاقية، فإنَّ الأنعام كذلك، والعلمُ بالله تعالى الحاصلُ لها ليس استدلاليًّا بل هو فطريٌّ، وكونُهم أضلَّ سبيلاً من الأنعام من حيث إنها رُزِقَتْ عِلْماً بربِّها تعالى فهي تسبِّحُه عزَّ وجلَّ به، وهؤلاء لم يُرْزَقوا ذلك فهم في غاية الضلال.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إلخ بيانٌ لبعض دلائل التوحيد إثْرَ بيانِ جهالةِ المُعْرِضينَ عنها وضلالهم، والخطابُ لرسول الله ﷺ، والهمزةُ للتقرير، والرؤيةُ بَصَريةٌ لأنها التي تتعدَّى بـ «إلى»، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ حُذِفَ وأُقيم المضافُ إليه مقامَه، أي: أَلَمْ تَنْظُرْ إلى صُنْعَ ربِّكَ، لأنَّه ليس المقصودُ رؤيةَ ذاتِ الله عزَّ وجلَّ. وكون «إلى» اسماً واحدَ الآلاء ـ وهي النِّعَم ـ بعيدٌ جدًّا.

وجوِّز أن تكون عِلْميَّةً وليس هناك مضافٌ مقدَّر، وتعديتُها بـ «إلى» لتضمين معنى الانتهاء، أي: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ إلى أنَّ ربَّك كيف مدَّ الظلَّ. والأولُ أَوْلَى.

وذكر بعضُ الأجلَّةِ أنه يحتمل أن يكون حقُّ التعبير: أَلَمْ تَرَ إلى الظلِّ كيف مدَّه ربُّك، فعُدِلَ عنه إلى ما في النَّظْمِ الجليل إشعاراً بأنَّ المعقول المفهومَ مِن هذا

الكلام لوضوح برهانِه ـ وهو دلالةُ حدوثِه وتصرُّفِه على الوجه النافع بأسبابٍ ممكنةٍ على أنَّ ذلك فعلُ الصانع الحكيم ـ كالمشاهَدِ المرئيِّ، فكيف بالمحسوس منه.

وقال الفاضل الطيبيُّ: لو قيل: ألم تَرَ إلى الظلِّ كيف مدَّه ربُّك كان الانتقالُ من الأثر إلى المؤثِّر، والذي عليه التلاوةُ كان عكسَه والمقامُ يقتضيه لأنَّ الكلام في تقريع القوم وتجهيلهم في اتِّخاذهم الهوى إلهاً مع وضوح هذه الدلائل، ولذلك جَعَلَ ما يدلُّ على ذاته تعالى مقدَّماً على أفعاله في سائر آياته: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ [الفرقان:٤٧] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الفرقان:٤٨] ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا﴾ [الفرقان:٥١].

ورَوَى السُّلميُّ في «الحقائق» عن بعضهم: مخاطبةُ العامِّ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧]، ومخاطبةُ الخاصِّ: (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ)[١]. انتهى.

وفي «الإرشاد»: لعل توجيهَ الرؤية إليه سبحانه مع أنَّ المراد تقريرُ رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مدِّ الظلِّ؛ للتنبيه على أنَّ نظره عليه الصلاة والسلام غيرُ مقصورٍ على ما يطالعه من الآثار والصنائع، بل مَطْمَحُ أنظارِه ﷺ معرفةُ شؤون الصانع المجيدِ ﷻ[٢]. ولعل هذا هو سرُّ ما رُوي عن السُّلميِّ.

وقيل: إنَّ التعبير المذكورَ للإشعار بأنَّ المقصود العلمُ بالربِّ علماً يُشْبِهُ الرؤيةَ.

ونقل الطبرسيُّ عن الزجَّاج أنه فسَّر الرؤية بالعلم، وذَكَر أنَّ الكلام من باب القَلْبِ، والتقدير: ألمْ تَرَ إلى الظلِّ كيف مدَّه ربُّك[٣]. ولا حاجةَ إلى ذلك.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه ﷺ، وللإيذان بأنَّ ما يعقبُه من آثارِ ربوبيته تعالى ورحمته جلَّ وعلا.

و «كيف» منصوبٌ بـ «مدَّ» على الحالية، وهي معلَّقة لـ «تَرَ» إن لم تكن الجملة

---

(١) حقائق التأويل ٢/ ٦١-٦٢، وفيه عن الواسطي: أثبت للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق، وأثبت للخاصة الخالق فأثبتوا به المخلوق، ومخاطبة العوام: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ ومخاطبة الخاصة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾.

(٢) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٢.

(٣) مجمع البيان ١٩/ ١١١، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٠.

مستأنفةً. وفي «البحر»: أنَّ الجملةَ الاستفهاميةَ التي يتعلَّق عنها فعلُ القلب ليست[1] باقيةً على حقيقة الاستفهام[2]. وفيه بحثٌ.

وذكر بعضُ الأفاضل: أنَّ «كيف» للاستفهام، وقد تُجَرَّدُ عن الاستفهام وتكون بمعنى الحال، نحو: انظر إلى كيف تَصْنَع، وقد جوَّزه الدمامينيُّ[3] في هذه الآية على أنه بدلُ اشتمالٍ من المجرور، وهو بعيد. انتهى، ولا يخفى أنه يُسْتَغْنَى على ذلك عن اعتبار المضافِ، لكنه لا يعادِلُ البُعْدَ.

والمراد بالظلِّ على ما رواه جماعةٌ عن ابن عباس ومجاهدٍ وقتادةَ والحسنِ وأيوبَ بنِ موسى وإبراهيمَ التيميِّ والضحاكِ وأبي مالكٍ الغفاريِّ وأبي العالية وسعيد بنِ جُبيرٍ: ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، وذلك أطيبُ الأوقات، فإنَّ الظُّلمة الخالصةَ تَنْفِرُ عنها الطباعُ وتسدّ النظر، وشعاعُ الشمس يسخِّنُ الجوَّ ويبهرُ البَصَرَ، ومن هنا كان ظلُّ الجنة ممدوداً كما قال سبحانه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وقيل: المراد به ما يكون من مقابلةِ كثيفٍ كجبلٍ أو بناءٍ أو شجرٍ للشمس عند ابتداء طلوعها، «ومدَّ الظلَّ» من بابِ: ضيِّقَ فمَ القِرْبةِ، فالمعنى: أَلَمْ تنظر إلى صُنْع ربِّك كيف أنشأ ظلَّ أيِّ مُظلٍّ[4] كان عند ابتداء طلوع الشمس ممتدًّا إلى ما شاء الله عزَّ وجلَّ، واختاره شيخ الإسلام.

وتعقَّب ما تقدَّم[5] بقوله: غيرُ سديدٍ، إذ لا ريبَ في أنَّ المراد تنبيهُ الناس على عظيم قدرةِ الله عزَّ وجلَّ وبالغِ حكمته سبحانه فيما يشاهدونه، فلا بُدّ أنَّ يراد بالظلِّ ما يتعارفونه من حالةٍ مخصوصةٍ يشاهدونها في موضعٍ يحولُ بينه وبين الشمس جسمٌ مخالفة لِمَا في جوانبه من مواقع ضِحِّ الشمس، وما ذُكِرَ وإنْ كان في الحقيقة ظلًّا

---

(١) في (م): ليس.
(٢) البحر ٦/ ٥٠٣.
(٣) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٤٢٧، والكلام منه.
(٤) في الأصل: ظل أي مظلا، وفي (م): ظلا أي مظلا، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٢، والكلام منه.
(٥) يعني قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم.

للأفق الشرقي لكنهم لا يَعدُّونه ظلًّا ولا يصفونه بأوصافه المعهودة[١]. اهـ.

وفيه منعٌ ظاهرٌ، وهو أظهرُ على ما ذكره أبو حيان في الاعتراض على ذلك من أنه لا يسمَّى ظلًّا[٢]، فقد قال الرَّاغب وكفى به حجةً في اللغة: الظلُّ ضدُّ الضِّحِّ وهو أعمُّ من الفيء؛ فإنه يقال: ظلُّ الليل، وظلُّ الجنة، ويقال لكلِّ موضعٍ لم تَصل إليه الشمس: ظلٌّ، ولا يقال: الفيء إلَّا لِمَا زال عنه الشمس[٣]. انتهى.

وظاهرُ قوله تعالى: (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) في وَصْفِ الجنة يقتضي أنهم يَعدُّون مثلَ ما ذُكر ظلًّا.

وقيل: هو ماكان من غروب الشمس إلى طلوعها، وحُكي ذلك عن الجبائيِّ والبَلْخيِّ.

وقيل: هو ماكان يومَ خَلَقَ الله تعالى السماءَ وجَعَلَها كالقبة، ودَحَا الأرضَ من تحتها فألْقَتْ ظِلَّها عليها، وليس بشيءٍ وإن فسِّر «ألم تر» بـ : ألم تعلم؛ لِمَا في تطبيق ما يأتي من تتمة الآية عليه من التكلُّف وارتكابِ خلافِ الظاهر، وربما يَفُوتُ عليه المقصودُ الذي سيق له النَّظْمُ الكريم.

وربما يختلجُ في بعض الأذهان جوازُ أن يُرادَ به ما يشملُ جميعَ ما يَصْدُقُ عليه أنه ظلٌّ، فيشملُ ظلَّ الليل، وما بين الفجر وطلوعِ الشمس، وظلَّ الأشياء الكثيفة المقابِلَةِ للشمس كالجبال وغيرِها؛ فإذا شَرَعَ في تطبيق الآية على ذلك عَدَلَ عنه كما لا يخفى.

وللصوفية في ذلك كلامٌ طويلٌ سنذكر إن شاء الله تعالى شيئاً منه، وجمهورُ المفسِّرين على الأول، والقولُ الثاني أسلمُ من القال والقيل.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ بين المتعاطفَيْنِ للتنبيه من أول الأمر على أنه لا مدخلَ للأسباب العادية، مِن قُرْبِ الشمس إلى الأفق الشرقيِّ على الأول، أو قيامِ الشاخِصِ الكثيف على الثاني، وإنما المؤثِّرُ فيه

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٢.

(٢) البحر ٦/ ٥٠٣.

(٣) مفردات الرَّاغب (ظلل).

حقيقةً المشيئةُ والقدرةُ، ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ، وهو مضمونُ الجزاء كما هو القاعدةُ المستمرَّة في أمثال هذا التركيب، أي: ولو شاء جَعْلَه ساكناً لجعَلَه ساكناً، أي: ثابتاً على حاله ظلًّا أبداً كما فعل عزَّ وجلَّ في ظلِّ الجنة، أو لجَعَله ثابتاً على حاله من الطول والامتدادِ، وذلك بأنْ لا يجعلَ سبحانه للشمس على نسخه سبيلاً بأن يُطْلِعها ولا يَدَعَها تنسخُه، أو بأن لا يَدَعَها تغيِّره باختلافِ أوضاعها بعد طلوعها.

وقيل: بأنْ يجعلَها بعد الطلوع مقيمةً على وضعٍ واحدٍ، وليس بذاك.

وإنما عبَّر عن ذلك بالسكون؛ قيل: لِمَا أنَّ مُقابِلَه الذي هو زوالُه لَمّا كان تدريجيًّا كان أشبهَ شيءٍ بالحركة. وقيل: لِمَا أنَّ مُقابِله الذي هو تغيُّر حالِه حَسبَ تغيُّرِ الأوضاع بين المُظلّ(١) وبين الشمس يُرى رأيَ العين حركةً وانتقالاً.

وأفاد الزمخشريُّ أنه قوبِلَ مدُّ الظلِّ الذي هو انبساطُه وامتدادُه بقوله تعالى: ﴿سَاكِنًا﴾(٢). والسكونُ إنما يقابِلُ الحركةَ، فيكونُ قد أُطلق مدُّ الظلِّ على الحركةِ مجازاً من باب تسمية الشيء باسم مُلابِسه أو سببه كما قرَّره الطيبيُّ، وذَكَر أنه عدَلَ عن حرَّك إلى «مد» مع أنه أظهرُ من «مدَّ» في تناوله الانبساطَ والامتدادَ؛ ليدمجَ فيه معنى الانتفاعِ المقصود بالذات، وهو معرفةُ أوقات الصَّلوات؛ فإن اعتبارَ الظلِّ فيها بالامتداد دون الانبساط، وتمَّم معنى الإدماج بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: بالتدرُّج والمَهلِ لمعرفة الساعات والأوقاتِ، وفيه لمحةٌ من معنى قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]. اهـ.

ولا يَبعدُ أن يقال: إنَّ التعبير بـ «مَدَّ» لِمَا أنَّ الظلَّ المذكور ظلُّ الأفق الشرقيِّ، وقد اعتُبر المَشْرِقُ والمَغْرِبُ طرفي جهتي الأرضِ طولاً، والشمالُ والجنوبُ طرفي جهتيها عَرْضاً، أو لأنَّ ظهوره في الأرض، وطولُ المعمور منها الذي يسكنه مَن يشاهِدُ الظلَّ أكثرُ من عَرْضِ المعمور منها؛ إذ الأولُ كما هو المشهورُ نصفُ دورٍ، أعني مئةً وثمانين درجةً، والثاني دون ذلك على جميع الأقوال فيه، فيكون الظلُّ

(١) في الأصل و(م): الظل، والمثبت من تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٢، والكلام منه.
(٢) الكشاف ٣/ ٩٤.

بالنظر إلى الرائين في المعمور من الأرض ممتدًّا ما بين جهتي شرقيِّه وغربيِّه أكثر مما بين جهتي شماليِّه وجنوبيِّه.

وربما يقال: إنَّ ذلك لِمَا أنَّ مبدأ الظلِّ الفجرُ الأول، وضوءُه يُرى مستطيلاً ممتدًّا كذَنَبِ السِّرْحَان[١]، ويُلتزم القول بأنه لا يذهب بالكلِّيةِ وإن ضَعُفَ، بل يبقى حتى يمدَّه ضوءُ الفجر الثاني فيُرى منبسطاً، والله تعالى أعلم.

وقولُه سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ عطفٌ على «مدَّ» داخلٌ في حُكْمِه، أي: ثم جَعَلْنا طلوعَ الشمس دليلاً على ظهورِه للحسِّ، فإنَّ الناظر إلى الجسم الملوَّنِ حالَ قيامِ الظلِّ عليه لا يظهرُ له شيءٌ سوى الجسمِ ولونه، ثم إذا طلعت الشمسُ ووقع ضوءُها على الجسم ظَهَرَ له أنَّ الظلَّ كيفيةٌ زائدةٌ على الجسم ولونِه:

والضدُّ يُظهِرُ حالَه الضِّدُّ[٢]

قاله الرازي والطبريُّ[٣] وغيرُهما.

وقيل: أي: ثم جعلناها دليلاً على وجوده، أي: علَّةً له؛ لأنَّ وجوده بحركةِ الشمس إلى الأفق وقربِها منه عادةً، ولا يخفى ما فيه.

أو: ثم جعلناها علامةً يُستدلُّ بأحوالها المتغيِّرةِ على أحواله من غير أن يكون بينهما سببيةٌ وتأثيرٌ قطعاً حَسْبَما نطقَ به الشرطيةُ المعترِضة.

ومن الغريب الذي لا ينبغي أن يخرَّج عليه كلامُ الله تعالى المجيد أنَّ «على» بمعنى «مع»، أي: ثم جعلنا الشمسَ مع الظلِّ دليلاً على وحدانيتنا، على معنى: جَعَلْنا الظلَّ دليلاً وجَعَلْنا الشمسَ دليلاً على وحدانيتنا.

---

(١) المراد بالسِّرحان هنا: الذئب، ويقال: الأسد. والفجر فجران، يقال للأول منهما: ذَنَب السِّرحان، وهو الفجر الكاذب، شبِّه بذنب السِّرحان لأنه مستدقٌّ صاعد في غير اعتراض. والفجر الثاني هو الفجر الصادق، الذي يستطير وينتشر، وهو عمود الصبح. أدب الكاتب ص٩٠، والنهاية والتاج (سرح).

(٢) وصدره: ضدَّان لما استجمعا حَسُنَا، كما في سرِّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص٦٤، وغرر الخصائص الواضحة ص٧، وفيها: حُسْنَه، بدل: حاله.

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ٨٨، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٦٣.

والالتفاتُ إلى نونِ العَظَمة للإيذان بعظم قَدْرِ هذا الجَعْلِ؛ لِمَا يستتبعُه من المصالح التي لا تُحصى، أو لِمَا في الجَعْلِ المذكورِ العاري عن التأثير، مع ما يشاهَدُ بين الظلِّ والشمس من الدَّوران المطَّرِدِ المُنْبِئ عن السببية، من مزيدِ الدلالة على عظم القدرة، ودقَّةِ الحكمة.

و «ثم» إما للتراخي الرُّتْبيِّ، ويُعلَمُ وجهُه مما ذكر، وإما للتراخي الزمانيِّ كما هو حقيقةُ معناها بناءً على طول الزمان بين ابتداءِ الفجر وطلوعِ الشمس.

وقولُه سبحانه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ عطفٌ على «مدَّ» داخلٌ في حكمه أيضاً، أي: ثم أَزَلْناه بعد ما أنشأناه ممتدًّا عند إيقاع شعاع الشمس موقعَه، أو بإيقاعه كذلك، ومَحَوْناه على مَهَلٍ قليلاً قليلاً حَسبَ سَيْرِ الشمس، وهذا ظاهرٌ على القول بأنَّ المراد بالظلِّ ظلُّ الشاخص من جبلٍ ونحوِه.

وأمَّا على القول بأنَّ المراد به ما بين الطُّلوعَيْنِ، فلأنه إذا عمَّ لا يزولُ دفعةً واحدةً بطلوع الشمس في أفقٍ؛ لكرويةِ الأرض واختلافِ الآفاق، فقد تَطْلُعُ في أفقٍ ويزولُ ما عند أهله من الظلِّ وهي غيرُ طالعةٍ في أفقٍ آخَر وأهلُه في طرفٍ من ذلك الظلِّ، ومتى ارتفعت عن الأفق الأول حتى بانت من أفقهم زال ما عندهم من الظلِّ، فزوالُ الظلِّ بعد عمومه تدريجيٌّ. كذا قيل.

وقيل: لا حاجةَ إلى ذلك، فإنَّ زواله تدريجيٌّ نظراً إلى أفقٍ واحدٍ أيضاً، بناءً على أنه يبقى منه بعد طلوع الشمس ما لم يقع على موقعه شعاعُها لمانعِ جبلٍ ونحوِه، ويزولُ ذلك تدريجاً حَسبَ حركة الشمس ووقوعِ شعاعها على ما لم يقع عليه ابتداءَ طلوعها.

وكأنَّ التعبير عن تلك الإزالة بالقبض ـ وهو كما قال الطبرسيُّ: جَمْعُ الأجزاء المنبسطة[1] ـ لِمَا أنه قد عبَّر عن الإحداث بالمدِّ.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَيْنَا﴾ للتنصيص على كون مَرْجِع الظلِّ إليه عزَّ وجلَّ لا يشاركه حقيقةً أحدٌ في إزالته كما أنَّ حدوثه منه سبحانه لا يشاركُه حقيقةً فيه

(١) مجمع البيان ١٩/١٠٩.

أحدٌ، و«ثم» يحتمل أن تكون للتَّراخي الزمانيِّ، وأن تكون للتَّراخي الرُّتْبي نحو ما مرَّ.

ومَن فسَّر «الظلَّ» بما كان يومَ خَلَقَ اللهُ تعالى السماءَ كالقُبَّةِ ودَحَا الأرضَ من تحتها فألقت ظلَّها عليها، جَعَل معنى «ثم جعلنا» إلخ: ثم خلقنا الشمسَ وجعلناها مسلَّطةً على ذلك الظلِّ، وجعلناها دليلاً متبوعاً له كما يُتْبَعُ الدليلُ في الطريق، فهو يَزيدُ [بها](١) وينْقصُ ويمتدُّ ويقلصُ، ثم قبضناه قبضاً سهلاً لا عُسْرَ فيه.

ويحتمل أن يكون قَبْضُه عند قيام الساعة بقرينةِ «إلينا» وكذا «يسيراً»، وذلك بقَبْضِ أسبابه وهي الأجرامُ التي تُلقي الظلَّ، فيكونُ قد ذَكَر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذَكَر إنشاءه بإنشاء أسبابه، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّقه ولمناسبةِ ما ذُكِرَ معه، و«ثم» للتراخي الزمانيِّ، وفيه ما فيه كما أشرنا إليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ بيانٌ لبعضِ بدائع آثارِ قدرته عزَّ وجلَّ، وروائعِ أحكامِ رحمتِه ونعمتِه الفائضةِ على الخلق، وتلوينُ الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقَّه، واللامُ متعلِّقةٌ بـ «جَعَل»، وتقديمُها على مفعولَيه للاعتناء ببيانِ كونِ ما بَعْدُ من منافعهم، وفي تعقيب بيانِ أحوال الظلِّ ببيانِ أحكام الليل الذي هو ظلُّ الأرض من لطفِ المسلك ما لا مزيدَ عليه.

أي: وهو الذي جَعَل لنَفْعِكم الليلَ كاللِّباس يستُرُكم بظلامه كما يستركم اللباس ﴿و﴾ جَعَلَ ﴿ٱلنَّوْمَ﴾ الذي يقع فيه غالباً بسبب استيلاء الأبخرة على القوى عادةً ـ وقيل: بشمِّ نسيمٍ يهبُّ من تحت العرش، ولا يكاد يصحُّ ـ ﴿سُبَاتًا﴾ راحةً للأبدان بقَطْعِ الأفاعيل التي تكون حالَة اليقظة.

وأصلُ السَّبْتِ: القَطْعُ. وقيل: يومُ السبت؛ لِمَا جرت العادةُ من الاستراحة فيه على ما قيل، وقيل: لأنَّ الله تعالى لم يَخْلُق فيه شيئاً، ويقال للعليل إذا استراح من تعب العلَّة: مَسْبوت، وإلى هذا ذهب أبو مسلم(٢).

---

(١) ما بين حاصرتين من الكشاف ٣/ ٩٤، وتفسير النيسابوري ١٩/ ١٧، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٣.

(٢) كما في تفسير الرازي ٢٤/ ٨٩.

وقال أبو حيان: السُّبَاتُ: ضربٌ من الإغماء يعتري اليقظانَ مرضاً، فشبِّه النومُ به، والسبتُ: الإقامةُ في المكان، فكان النومُ سكوناً ما[(١)].

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: ذا نشورٍ، ينتشِرُ فيه الناسُ لطلب المعاش، فهو كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١] وفي جَعْلِه نفسَ النشورِ مبالغةٌ. وقيل: نشوراً بمعنى ناشراً على الإسناد المجازيِّ.

وجوِّز أن يراد بالسُّبات الموتُ؛ لِمَا فيه من قَطْعِ الإحساس أو الحياة، وعبَّر عن النوم به لِمَا بينهما من المُشابَهةِ التامَّةِ في انقطاع أحكام الحياة، وعليه قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وقولُه سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وبالنشور البعثُ، أي: وجَعَلَ النهار زمانَ بَعْثٍ من ذلك السُّبات[(٢)]، أو نفسَ البعث على سبيل المبالغة.

وأبَى الزمخشريُّ الراحةَ في تفسير السُّبات، وقال: إنه يأباه النشور في مقابَلتِه إباءَ العَيُوفِ الوِرْدَ وهو مُرَنَّق[(٣)]. وكأنَّ ذلك لأنَّ النشور في القرآن لا يكاد يوجَدُ بمعنى الانتشار والحركةِ لطلَبِ المعاش، وعلَّل في «الكشف» إباءَ الزمخشريِّ بذلك، وبأنَّ الآيات السابقةَ واللاحقةَ مع ما فيها من التذكير بالنعمة والقدرةِ أدمجَ فيها الدلالة على الإعادة، فكذلك ينبغي أن لا يفرَّق بين هذه وبين أترابها.

وكأنه جَعَلَ جَعْلَ الليلِ لباساً والنومِ فيه سباتاً بمجموعهِ مُقابِلَ جَعْلِ النهارِ نشوراً، ولهذا كرَّر «جَعَلَ» فيه لِمَا في النشور من معنَى الظهورِ والحركةِ الناصبة، أو معنَى الظهورِ والبعثِ، ولم يسلك في آية سورة النبأ هذا المسلكَ لِمَا لا يخفى.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابن كثير بالتوحيد[(٤)] على إرادة الجنس بـ «أل» أو الاستغراق، فهو في معنى الجمع موافقة لقراءة الجمهور.

وقال ابن عطية: قراءةُ الجمع أَوْجَهُ، لأنَّ الريح متى وَرَدتْ في القرآن مفردةً

(١) البحر ٦/ ٥٠٤.
(٢) في (م): الثبات، وهو تصحيف.
(٣) الكشاف ٣/ ٩٤. والعَيُوف من الإبل: الذي يَشَمُّ الماءَ فيدعه وهو عطشان. ومرنَّق: مكدَّر، من رنَّق الماء: كدَّره. القاموس (عيف) و(رنق).
(٤) التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٣.

فهي للعذاب، ومتى كانت للمطر والرحمة جاءت مجموعةً؛ لأنَّ ريح المطر تتشعَّبُ وتتذأَّبُ[١] وتتفرَّقُ وتأتي لينةً من هاهنا وهاهنا، وشيئاً إثرَ شيءٍ، وريحُ العذاب تأتي جسداً واحداً لا تتذأَّب، ألا ترى أنها تَحْطِمُ ما تَجِدُ وتَهْدِمُه[٢].

وقال الرمَّاني: جُمِعت رياحُ الرحمة لأنَّها ثلاثةٌ لواقحُ: الجنوب، والصبا، والشمال[٣]، وأُفرِدتْ ريحُ العذاب لأنها واحدةٌ لا تلقح وهي الدَّبور، وفي قوله ﷺ إذا هبَّت الريحُ: «اللهم اجْعَلْها رياحاً ولا تَجْعَلْها ريحاً»[٤] إشارةٌ إلى ما ذُكر.

وأنت تعلم أنَّ في كلام ابن عطية غفولاً عن التأويل الذي تتوافَقُ به القراءتان، وقد ذكر في «البحر» أنه لا يَسُوغُ أن يقال في تلك القراءة: إنها أَوْجَهُ من القراءة الأخرى، مع أنَّ كلًّا منهما متواترٌ، و«أل» في الريح للجنس فتعمُّ[٥].

وما ذُكر في التفرقة بين المُفْرَدِ والمجموع أكثريٌّ، أو عند عدم القرينة، أو في المنكَّر كما جاء في الحديث، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة الروم[٦] ما يتعلَّق بهذا المبحث.

﴿بُشْرًا﴾ تخفيفُ بُشُراً بضمتين جمع بَشُور بمعنى مبشِّر، أي: أَرْسلَ الرياح مبشِّرات.

---

(١) تذأَّبت الريح: جاءت في ضعف من هنا وهنا.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٣.
(٣) في الأصل و(م): والدبور، والمثبت من المحرر الوجيز ٤/ ٢١٣، والبحر ٦/ ٥٠٥، وعنه نقل المصنف، وينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الروم.
(٤) أخرجه أبو يعلى (٢٤٥٦)، والطبراني في الكبير (١١٥٣٣)، وابن عدي ٢/ ٧٦٣ من طريق الحسين بن قيس، عن عكرمة عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، وحسين بن قيس ضعفه أبو زرعة وابن معين، وقال البخاري: لا يكتب حديثه، وقال الدار قطني: متروك. الميزان ١/ ٥٤٦.
وأخرجه الشافعي في الأم ١/ ٢٢٤ قال: أخبرني مَن لا أتهم قال: حدثنا العلاء بن راشد عن عكرمة، به. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٢٩: وهذا المبهم هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف.
(٥) البحر ٦/ ٥٠٥.
(٦) ٢١/ ٥١.

وقرئ: «نُشْراً» بالنون والتخفيف[١] جمع نَشُور، كرسول ورُسْل. و: «نُشُراً» بضم النون والشين[٢]، وهو جمعٌ لذلك أيضاً، أي: أرسلها ناشراتٍ للسحاب، من النشْرِ بمعنى البَعْثِ؛ لأنها تَجْمعُه كأنها تُحْييه، لا من النَّشْرِ بمعنى التفريق لأنه غيرُ مناسبٍ، إلَّا أن يُراد به السَّوقُ مجازاً.

و«نَشْراً» بفتح النون وسكون الشين[٣]، على أنه مصدرٌ وُصِفَ به مبالغة، وجوِّز أن يكون مفعولاً مطلقاً لـ «أَرْسَلَ»؛ لأنه بمعنى «نَشَرَ». والكلُّ متواترٌ.

وروي عن ابن السميفع أنه قرأ: «بشرى» بألف التأنيث[٤].

﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: قدَّامَ المطر، وقد استُعيرَتِ الرحمةُ له، ورُشِّحَتِ الاستعارةُ أحسنَ ترشيحٍ، وجوِّز أن يكون في الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ، و«بُشْراً» من تتمة الاستعارة داخلٌ في جملتها.

والالتفاتُ إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإبراز كمالِ العناية بالإنزال[٥]؛ لأنه نتيجةُ ما ذُكِرَ من إرسال الرياح، أي: أنزلناه بعَظَمتنا بما رتَّبنا من إرسالِ الرياح من جهةِ العلوِّ التي ليست مظنةَ الماء، أو من السحاب، أو من الجرم المعلوم، وقد تقدَّم تفصيلُ الكلام في ذلك[٦].

﴿مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ الظاهرُ أنه نعتٌ لـ «ماء»، وعليه قيل: معناه بليغُ الطهارة زائدُها، ووجَّه في «البحر»[٧] المبالغةَ بأنها راجعةٌ إلى الكيفية باعتبارِ أنه لم يَشْبُهْ شيءٌ آخَرُ مما في مقرِّه، أو ممرِّه، أو ما يُطْرَحُ فيه كمياه الأرض.

---

(١) هي قراءة ابن عامر، والأولى وهي «بُشْراً» قراءة عاصم. التيسير ص١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب.

(٣) وهي قراءة الباقين: حمزة والكسائي وخلف.

(٤) المحتسب ٢/ ١٢٣.

(٥) في (م): لإنزال، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٤، والكلام منه.

(٦) ينظر ما سلف ١/ ٢٠-٢١.

(٧) ٦/ ٥٠٥.

وفسَّره ثعلب[١] بما كان طاهراً في نفسه مطهِّراً لغيره. وتعقَّبه الزمخشريُّ بأنه إن كان ما قاله شرحاً لبلاغته في الطهارة كان سديداً، وإلَّا فليس فَعولٌ من التفعيل في شيء[٢].

وقال غيره: إنَّ أَخْذَ التطهير فيه يأباه لزومُ الطهارة، والمبالغةُ في اللازم لا تُوجِبُ التعدِّي.

وأجاب صاحب «الكشف» بأنه لمَّا لم تكن الطهارةُ في نفسها قابلةً للزيادة رَجَعَتِ المبالغةُ فيها إلى انضمام معنى التطهيرِ إليها، لا أنَّ اللَّازمَ صار متعدِّياً.

وتعقَّبه المولى الدَّوَاني بأنَّ فيه تأمُّلاً من حيث إنَّ انضمامَ معنى التطهير لمَّا كان مستفاداً من المبالغة بمعونة عدم قبول الزيادة كانت المبالغة في الجملة سبباً للتعدِّي. ثم قال: ويمكن التفصِّي بأنَّ المعنى اللازمَ باقٍ بحاله، والمبالغةُ أوجبت انضمامَ المتعدِّي إليه، لا تَعْدِيَةَ ذلك اللازمِ، وبينهما فرقان.

وذكر بعضُ الأجلَّة أنَّ إفادةَ المبالغةِ تَعَلُّقَ الفعلِ بالغير ممَّا لا يساعدُه لغةٌ ولا عُرْفٌ، وأين هذا التعلُّق في قول جريرٍ:

إلى رُجَّحِ الأكفالِ غيدٍ من الظِّبا عذابِ الثَّنايا رِيقُهنَّ طَهُورُ[٣]

ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] ومن هذا وأمثالِه اختار بعضُهم كونَ المبالغة راجعةً إلى الكيفية على ما سمعتَ عن «البحر».

---

(١) كما في الكشاف ٣/ ٩٥، والبحر ٦/ ٥٠٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٩٥.

(٣) عزاه لجرير بذكر عجزه فقط النووي في المجموع ١/ ١٣٠، والشهاب في الحاشية ٦/ ٤٢٩، وابن الهمام في فتح القدير ١/ ٦١، وهو بتمامه دون نسبة في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٤٠٤، وتفسير القرطبي ١٥/ ٤٢٣، والبحر ٦/ ٥٠٥، واللسان (رجح)، ورواية اللسان والأحكام: إلى رجح الأكفال هيف خصورها. . .، وذكره بهذه الرواية القالي في أماليه ١/ ١٨٣، ونقل عن ابن الأنباري نسبته لجميل بن معمر العذري، ثم قال: وليست هذه الأبيات في شعر جميل. قوله: رُجَّح، هو جمع رَجَاح وراجح، وهي ثقيلة العجيزة من النسوة، والأكفال جمع كَفَل وهو العجز، والظبي الأغيد: الذي مالت عنقه ولانت أعطافه. اللسان (رجح) و(كفل) و(غيد).

وقال بعض المحققين: إنَّ «طهوراً» هنا اسمٌ لِمَا يُتَطَهَّر به، كما في قوله ﷺ: «الترابُ طَهورُ المؤمن»[١]، وفَعولٌ كما قال الأزهريُّ في كتاب «الزاهر»: يكون اسمَ آلةٍ لِمَا يُفْعَلُ به الشيء، كغَسول ووَضوء وفَطور وسَحور إلى غير ذلك، كما يكون صفةً بمعنى فاعل كأكُول، أو مفعول كصَبوب بمعنى مَصْبوب، واسمَ جنسٍ كذَنوب، ومصدراً ـ وهو نادرٌ ـ كقَبول[٢]، فيفيد التطهير للغير وضعاً. ويمكن حَمْلُ ما رُوِي عن ثعلب على هذا، واعتبارُ كونِه طاهراً في نفسه لأنَّ كونه مطهِّراً للغير فرعُ ذلك، وجُعِلَ على هذا بدلاً من «ماء» أو عطفَ بيانٍ له، لا نعتاً، فيكونُ التركيب نحوَ: أرسلتُ إليك ماءً وَضوءاً.

وأنت تعلم أنَّ المتبادر فيما نحن فيه كونُه نعتاً، فإنْ أمْكَنَ ذلك على هذا الوجه بنوعِ تأويلٍ كان أبْعَدَ عن القيل والقال.

وحَكَى سيبويه أنَّ «طهوراً» جاء مصدراً لتَطهَّر في قولهم: تطهَّرْتُ طَهوراً حَسَناً، وذَكَر أنَّ منه قولَه عليه الصلاة والسلام: «لا صلاةَ إلَّا بطَهورٍ»[٣]. وحَمْلُ ما في الآية على ذلك ممَّا لا ينبغي. وأيًّا ما كان ففي توصيف الماء به إعظامٌ للمِنَّة كما لا يخفى.

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ أي: بما أنزلنا من الماءِ الطهور ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ليس فيها نباتٌ، وذلك بإنبات النبات به، والمرادُ بالبلدة الأرضُ كما في قوله:

أُنيخت فألْقَتْ بلدةً فوق بلدةٍ قليلٍ بها الأصواتُ إلَّا بُغامها[٤]

وجوِّز أن يراد بها معناها المعروفُ، وتنكيرُها للتنويع، وتذكيرُ صفتها لأنها

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٣)، والترمذي (١٠٤) وقال: حسن صحيح. ولفظه: «إن الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر سنين...» وينظر نصب الراية ١/ ١٤٨.

(٢) الزاهر ص٩٦-٩٨، والذَّنوب كما قال الأزهري: النصيب كقوله تعالى: ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ﴾ [الذاريات: ٥٩]، أو الدلو الكبيرة.

(٣) أخرجه أحمد (٤٧٠٠)، ومسلم (٢٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) البيت لذي الرمَّة، وهو في ديوانه ٢/ ١٠٠٤، واللسان (بلد)، وفيه: يقول بركت الناقة وألقت صدرها على الأرض، وأراد بالبلدة الأولى: ما يقع على الأرض من صدرها، وبالثانية: الفلاة التي أناخ ناقته بها، والبغام: صوت الناقة. وفي الأساس (بلد): وضعت الناقة بلدتها وهي صدرها: إذا بركت.

بمعنى البلد، أو لأنَّ «ميتاً» من أمثلة المبالغة التي لا تُشْبِهُ المضارعَ في الحركات والسَّكَنات وهو يدلُّ على الثبوت، فأجري مجرى الجوامد. ولامُ «النحيي» متعلِّقٌ بـ «أنزلنا»، وتعلُّقه بـ «طهوراً» ليس بشيء.

وقرأ عيسى وأبو جعفر: «ميِّتاً» بالتشديد(١). قال أبو حيان: ورجَّح الجمهورُ التخفيفَ لأنه يماثل فَعْلاً من المصادر، فكما وُصِفَ المذكَّرُ والمؤنَّثُ بالمصدر فكذلك بما أشبهه، بخلاف المشدَّد فإنه يماثل فاعلاً من حيث قبولُه للتاء إلَّا فيما خَصَّ المؤنَّثَ نحو طامث(٢).

﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ أي: ذلك الماءَ الطَّهورَ عند(٣) جريانه في الأودية، أو اجتماعِه في الحياض والمناقع والآبار ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: أهلَ البوادي الذين يعيشون بالحيا(٤)، ولذلك نكَّر الأنعامَ والأناسيَّ، فالتنكيرُ للتنويع.

وتخصيصُ هذا النوع بالذكر لأنَّ أهل القرى والأمصارِ يقيمون بقُرْبِ الأنهار والمنابع، فبِهم وبما لهم من الأنعام غنيةٌ عن سُقيا(٥) السماء، وسائرُ الحيوانات(٦) تبعدُ في طلب الماء فلا يُعْوِزُها الشُّرْبُ غالباً، ومَسَاقُ الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة، كذلك هو لتعداد أنواع النعمة، فالأنعامُ حيث كانت قنيةً(٧) للإنسان وعامَّةُ منافعهم ومعايشهم منوطةٌ بها قدَّم سَقْيَها على سَقْيِهم، كما قدَّم عليها إحياء الأرض فإنه سببٌ لحياتها وتَعيُّشِها، فالتقديمُ من قبيل تقديمِ الأسباب على المسبَّبات.

وجوِّز أن يكون تقديم ما ذُكر على سَقْي الأناسيِّ لأنهم إذا ظفروا بما يكون

(١) النشر ٢/ ٢٢٤ عن أبي جعفر، والكلام من البحر ٦/ ٥٠٥.
(٢) البحر ٦/ ٥٠٥.
(٣) في (م): وعند، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٤، والكلام منه.
(٤) الحيا بالقصر: المطر. حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠.
(٥) في (م): سقي، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠، والسقيا بالضم بمعنى السقي، كما ذكر الشهاب.
(٦) يعني بها ما عدا الأنعام. حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠.
(٧) بكسر القاف وضمها: ما يقتنيه لنفسه. حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠.

سُقيا[1] أرضِهم ومواشيهم لم يعدموا سُقْياهم. وحاصلُه أنه من باب تقديم ما هو الأهمُّ والأصلُ في باب الامتنان، وذِكْرُ سقي الأناسيِّ على هذا إردافٌ وتتميمٌ للاستيعاب. و«من» تبعيضيةٌ أو بيانية، و«كثيراً» صفة للمتعاطفَيْنِ لا على البدل.

وقرأ عبد الله، وأبو حيوةَ، وابنُ أبي عبلةَ، والأعمشُ، وعاصمٌ وأبو عمرو في روايةٍ عنهما: «ونَسقيه» بفتح النون، ورُوِيَتْ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2]، وأَسْقَى وسَقَى لغتان. وقيل: أسقاه بمعنى جعل السُّقيا له وهيَّأها.

و «أناسيَّ» جمعُ إنسانٍ عند سيبويه[3]، وأصلُه: أَنَاسِينَ، فقُلبت نونُه ياءً وأُدغمت فيما قبلها.

وذهب الفرَّاءُ والمبرِّدُ والزجَّاج إلى أنه جمعُ إنسيٍّ[4]، قال في «البحر»: والقياسُ: أَنَاسِيَة، كما قالوا في مُهَلَّبيٍّ: مَهَالِبَة[5]. وفي «الدر المصون» أنَّ فعاليَّ إنما يكون جمعاً لِمَا فيه ياء مشدَّدةٌ إذا لم يكن للنَّسَب، ككُرسيّ وكراسيّ، وما فيه ياء النَّسَبِ يُجمع على أفاعلة كأزرقيّ وأَزَارقة، وكونُ ياء إنسي ليست للنسب بعيدٌ، فحقُّه أن يجمع على أَناسية[6]، وقال في «التسهيل»: إنه أكثريٌّ، وعليه لا يَرِدُ ما ذكر[7].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ الضميرُ للماء المنزل من السماء كالضميرين السابقين، وتصريفُه: تحويلُ أحوالِه وأوقاتِه، وإنزالُه على أنحاءَ مختلفة، أي: وبالله تعالى

---

(١) في (م): سقي.
(٢) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥٠٥، وعنه نقل المصنف، والمشهور عن عاصم وأبي عمرو القراءةُ بضم النون كقراءة الجماعة.
(٣) كما في البحر ٦/ ٥٠٥، والدر المصون ٨/ ٤٨٨، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠.
(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٦٩، وللزجاج ٤/ ٧١، وذكره عن المبرد النحاس في إعراب القرآن ٣/ ١٦٣، وأبو حيان في البحر ٦/ ٥٠٥ وهذا أحد قولين للفراء والزجاج، والقول الثاني لهما موافق لما نقل عن سيبويه.
(٥) البحر ٦/ ٥٠٥.
(٦) الدر المصون ٨/ ٤٨٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٣٠.
(٧) حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠، وينظر التسهيل لابن مالك ص٢٧٧.

لقد صرَّفنا المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الناس في البلدان المختلفة، والأوقاتِ المتغايرة، والصفات المتفاوتة من وابلٍ وطَلٍّ وغيرِهما. ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليعتبروا بذلك ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ أي: لم يفعل إلَّا كُفْرانَ النعمة وإنكارَها رأساً، بإضافتها لغيره عزَّ وجلَّ بأن يقول: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا[1]، معتقداً أنَّ النجوم فاعلةٌ لذلك، ومؤثِّرة بذَوَاتها فيه، وهذا الاعتقادُ والعياذُ بالله تعالى كفر.

وفي «الكشاف»[2] وغيره: أنَّ مَن اعتَقَدَ أنَّ الله عزَّ وجلَّ خالقُ الأمطار وقد نصبَ الأنواءَ دلائلَ وأَماراتٍ عليها، وأراد بقوله: مُطِرْنا بنوء كذا: مطرنا في وقت سقوط النجم الفلانيِّ في المغرب مع الفجر، لا يَكْفُر. وظاهرُه أنه لا يأثم أيضاً.

وقال الإمام: مَن جَعَلَ الأفلاكَ والكواكبَ مستقلَّةً باقتضاء هذه الأشياء فلا شكَّ في كفره، وأمَّا مَن قال: إنه سبحانه جَبَلَها على خواصَّ وصفاتٍ تقتضي هذه الحوادثَ فلعله لا يبلغ خطؤُه إلى حدِّ الكفر[3].

وسيأتي إن شاء الله تعالى منَّا في هذه المسألة كلامٌ[4] أرجو من الله تعالى أن تستَحْسِنَه ذَوُو الأفهام، ويتقوَّى به كلامُ الإمام.

ورجوعُ ضمير «أنزلناه» إلى الماء المُنْزَلِ مرويٌّ عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة؛ وأخرج جماعةٌ عن الأول وصحَّحه الحاكم أنه قال: ما من عام بأقلَّ مطراً من عام، ولكنَّ الله تعالى يصرِّفُه حيث يشاء، ثم قرأ هذه الآية[5].

---

(١) معنى النوء: سقوط نجم في المغرب وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق، وسمِّي نوءاً لأنه إذا سقط الغارب ناء الطالع، وذلك النهوض هو النَّوء، وكل ناهض بثقل فقد ناء به. وبعضهم يجعل النوء السقوط، كأنه من الأضداد. وكانوا إذا سقط نجم وطلع آخر فكان عنده مطر أو ريح أو بردٌ أو حرٌّ نسبوه إلى الساقط، إلى أن يسقط الذي بعده، فإن سقط ولم يكن مطر قيل: خوى وأخوى. أدب الكاتب ص٨٧، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٣٠. وينظر ما سيأتي عند تفسير الآية (٣٩) من سورة «يسٓ».

(٢) ٣/ ٩٦.

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ٩٩.

(٤) عند تفسير الآية (٣٩) من سورة «يسٓ».

(٥) تفسير الطبري ١٧/ ٤٦٨، والمستدرك ٢/ ٤٠٣.

وأخرج الخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن الثاني مثلَه[١]. ويُفْهَمُ من ذلك حَمْلُ التصريفِ على التقسيم.

وقال بعضهم: هو راجعٌ إلى القول المفهوم من السياق، وهو ما ذُكر فيه إنشاءُ السحابِ وإنزالُ القَطْرِ، لِمَا ذكر من الغايات الجليلة، وتصريفُه: تكريرُه وذِكْرُه على وجوهٍ ولغاتٍ مختلفة، والمعنى: ولقد كرَّرْنا هذا القولَ وذَكَرْناه على أنحاءَ مختلفةٍ في القرآن وغيرِه من الكتب السماوية بين الناس من المتقدِّمين والمتأخِّرين؛ ليتفكَّروا ويعرفوا بذلك كمالَ قدرته تعالى، وواسعَ رحمته عزَّ وجلَّ في ذلك، فأبى أكثرُهم ممَّن سَلَفَ وخَلَفَ إلَّا كفرانَ النعمة وقلَّةَ الاكتراثِ بها، أو إنكارَها رأساً بإضافتها لغيره تعالى شأنُه.

واختار هذا القول الزمخشريُّ[٢]، وقال أبو السعود: هو الأظهر[٣].

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاءٍ الخراسانيِّ أنه عائدٌ على القرآن، ألَا ترى قولَه تعالى بعدُ: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾[٤]. وحكاه في «البحر» عن ابن عباس أيضاً[٥]، والمشهورُ عنه ما تقدم، ولعل المراد ما ذُكر فيه من الأدلَّة على كمال قدرته تعالى وواسعِ رحمته عزَّ وجلَّ أو نحوُ ذلك، فتأمَّلْ.

وأمَّا ما قيل: إنه عائد على الريح، فليس بشيءٍ.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ نبيًّا يُنْذِرُ أهلَها فتخفُّ عليك أعباءُ النبوَّةِ لكنْ لم نَشَأْ ذلك وقَصَرْنا الأمرَ عليك إجلالاً لك وتعظيماً.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما يريدونك عليه، وهو تهييجٌ له ﷺ وللمؤمنين.

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن، كما أخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر عن ابن

---

(١) مكارم الأخلاق ص٨٧، وأخرجه أيضاً الطبري ١٧/ ٤٦٩.
(٢) في الكشاف ٣/ ٩٦.
(٣) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٤.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٧، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٥/ ٧٣-٧٤.
(٥) البحر ٦/ ٥٠٦.

عباس رضي الله عنهما[(١)]، وذلك بتلاوةِ ما فيه من البراهين والقوارع والزَّواجرِ والمواعظ، وتذكيرِ أحوالِ الأمم المكذِّبة.

﴿جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ فإنَّ دعوةَ كلِّ العالَمين على الوجه المذكور جهادٌ كبيرٌ لا يقادرُ قَدْرُه كمًّا وكيفاً.

وترتيبُ ما ذُكر على ما قبله حَسْبَما تقتضيه الفاءُ باعتبارِ أنَّ قَصْرَ الرسالة عليه عليه الصلاة والسلام نعمةٌ جليلةٌ ينبغي شكرُها، وما ذُكر نوعٌ من الشكر، فكأنه قيل: بعثناك نذيراً لجميع القرى، وفضَّلناك وعظَّمناك، ولم نبعث في كلِّ قريةٍ نذيراً، فقابِلْ ذلك بالثبات والاجتهادِ في الدعوة وإظهارِ الحقِّ.

وفي «الكشف» لبيان النَّظْم الكريم: أنه لمَّا ذَكَرَ ما يدلُّ على حِرْصِهِ ﷺ على طَلَبِ هُدَاهُم، وتمارُضهم في ذلك في قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الآية: ٤٣] وذنَّب بدلائل القدرة والنعمة والرحمة دلالةً على أنَّهم لا ينفعُ فيهم الاحتشادُ، وأنهم يَغْمِطون مثلَ هذه النعم، ويَغْفَلون عن عظمةِ مُوْجِدِها سبحانه، وجُعِلوا كالأنعام وأضلَّ، وخَتَم بأنه ليس لهم مرادٌ إلَّا كفورَ نعمته تعالى، قيل: «ولو شئنا» على معنى: إنَّا عظَّمناك بهذا الأمر لتستقلَّ بأعبائه، وتَحُوزَ ما ادُّخِرَ لك من جنس جزائه، فعليك بالمجاهَدةِ والمصابَرةِ، ولا عليك من تلقِّيهم الدعوةَ بالإباء والمُشَاجَرةِ. وبُولغ فيه فجُعِلَ حرصُه ﷺ على إيمان هؤلاء المطبوعِ على قلوبهم طاعةً لهم وقيل: فلا تُطِعْهم.

ومَدَارُ السورة على ما ذكره الطيبيُّ على كونه ﷺ مبعوثاً على الناس كافةً، ينذرُهم مابين أيديهم وما خَلْفَهم، ولهذا جعل براعةَ استهلالها: (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا). والآيةُ على ما سمعتَ متعلِّقةٌ بقوله تعالى: (أَرَءَيْتَ) إلى آخر الآيات، وفيها من التنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ما فيها، وليست مسوقةً للتأذيب كما وُهم.

وقيل: هي متعلِّقةٌ بما عندها، على معنى: ولو شئنا لقسمنا النذير بينهم، كما قسمنا المطر بينهم، ولكنَّا نفعل ما هو الأنفع لهم في دينهم ودنياهم، فبعثناك

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٥٠.

إليهم كافةً، فلا تُطِع.. إلخ. وفيه من الدلالة على قصور النظر ما فيه.

هذا وجوّز أن يكون ضمير «به» عائداً على تَرْكِ طاعتهم المفهوم من النهي، ولعل الباء حينئذٍ للمُلابَسةِ، والمعنى: وجاهِدْهُم بما ذُكر من أحكام القرآن الكريم مُلابِساً تَرْكَ طاعتهم، كأنه قيل: وجاهدهم بالشدَّة والعنف لا بالملاءمةِ والمُداراة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣] وإلَّا وَرَد عليه أنَّ مجرَّد تَرْكِ الطاعة يتحقَّق بلا دعوةٍ أصلاً، وليس فيه شائبةُ الجهاد فضلاً عن الجهاد الكبير.

وجوّز أيضاً أن يكون لِمَا دلَّ عليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ [الآية: ٥١] من كونه ﷺ نذيرَ كافَّةِ القرى؛ لأنه لو بعث في كلِّ قريةٍ نذيراً لوجب على كلِّ نذيرٍ مجاهدةُ قريته، فاجتمعت على رسول الله ﷺ تلك المجاهداتُ كلُّها، فكبر من أجل ذلك جهادُه وعظم، فقيل له عليه الصلاة والسلام: وجاهدهم بسبب كونك نذيرَ كافَّةِ القرى جهاداً كبيراً جامعاً لكلِّ مجاهَدَةٍ.

وتعقِّب بأنَّ بيانَ سببِ كبر المجاهدة بحَسَبِ الكمية ليس فيه مزيدُ فائدةٍ، فإنه بيِّنٌ بنفسه، وإنَّما اللائقُ بالمقام بيانُ سبب كبرها وعظمها في الكيفية.

وجوّز أبو حيان أن يكون الضميرُ للسيف(١). وأنت تعلم أنَّ السورة مكيةٌ ولم يُشْرَعْ في مكةَ الجهادُ بالسيف، ومع هذا لا يخفى ما فيه.

ويُستَدَلُّ بالآية على الوجه المأثور على عظم جهاد العلماء لأعداء الدين بما يُورِدون عليهم من الأدلَّة، وأوفرُهم حظًّا المجاهدون بالقرآن منهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسلهما في مجاريهما كما يرسل الخيل في المرج، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويقال في هذا: أَمْرَجَ أيضاً على ما قيل، إلَّا أنَّ «مَرَجَ» لغةُ الحجاز، وأَمْرَجَ لغةُ نجدٍ.

وأصلُ المَرْجِ كما قال الرَّاغب: الخَلْطُ، ويقال: مَرَجَ أمرُهم، أي: اخْتَلَطَ(٢). وسمِّي المرعى مَرْجاً لاختلاط النبات فيه. والمراد بـ «البحرين» الماءُ الكثيرُ العَذْبُ

(١) البحر ٦/٥٠٦.
(٢) مفردات الرَّاغب (مرج).

والماءُ الكثير الملح من غير تخصيص ببحرين معيَّنين. وهذا رجوعٌ إلى ما تقدَّم من ذكر الأدلَّة.

وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ إلخ، أي: شديدُ العذوبة، ووزنه فُعال من فَرَتَه وهو مقلوبٌ من رَفَتَهُ: إذا كَسَره؛ لأنه يَكسر سَوْرَةَ العطش ويَقْمَعُها. وقيل: هو البارد كما في «مجمع البيان»[1] = إما استئنافٌ، أو حالٌ بتقديرِ القول، أي: يقال فيهما: هذا عذب فرات ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

وقيل: هي حالٌ من غير تقديرِ قولٍ، على معنى: مَرَجَ البحرين مختلفين: عذوبة شديدة، وملوحة كذلك، واسمُ الإشارةِ يُغْني غناءَ الضمير.

والأجاج: شديدُ الملوحة، كما أشرنا إليه، أُطلق عليه لأنَّ شُرْبَه يزيد أَجِيجَ العطش. وقال الرَّاغب: هو شديدُ الملوحة والحرارة من أجيج النار[2]. انتهى.

وقيل: هو المرُّ، وحكاه الطبرسيُّ عن قتادة[3]. وقيل: الحارُّ، فهو يقابل الفراتَ عند مَن فسَّره بالبارد.

وقرأ طلحةُ بن مصرِّفٍ وقتيبةُ عن الكسائيِّ: «مَلِحٌ» بفَتْح الميم وكَسْرِ اللام هنا[4] وكذا في «فاطر»، قال أبو حاتم[5]: وهذا منكَرٌ في القراءة. وقال أبو الفتح[6]: أراد مالحاً فخفَّفَ بحذف الألف، كما قيل: بَرِدَ في بارد في قوله:

أصبحَ قلبي صَرِدَا
لا يَشْتَهي أن يَرِدَا
إلَّا عَرَاداً عَرِدَا
وصِلِّياناً بَرِدا

---

(١) ١٩/ ١١٦.
(٢) مفردات الرَّاغب (أجج).
(٣) مجمع البيان ١٩/ ١١٦، وحكى الطبرسي أيضاً القول الذي سيرد بعده.
(٤) القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحتسب ٢/ ١٢٥، والبحر ٦/ ٥٠٧، وعنه نقل المصنف.
(٥) كما في المحتسب ٢/ ١٢٥، والبحر ٦/ ٥٠٧.
(٦) هو ابن جني، وكلامه في المحتسب ٢/ ١٢٥.

وعــــنــــكــــثــــاً مُــــلْــــتَــــبِــــدا[١]

وقيل: مخفَّفُ مَليح؛ لأنه وَرَدَ بمعنى مالح.

وقال أبو الفضل الرازي في كتاب «اللوامح»: هي لغةٌ شاذَّةٌ قليلة[٢]. فليس مخفَّفاً من شيءٍ، نعم هو كـ «مِلْح» في قراءة الجمهور بمعنى مالح، والأفصحُ أن يقال في وصف الماء: ماءٌ مِلْحٌ، دون: ماء مالح، وإن كان صحيحاً كما نقل الأزهريُّ ذلك عن الكسائيِّ[٣]، وقد اعترف أيضاً بصحَّته ثعلب[٤]. وقال الخفاجيُّ: الصحيحُ أنه مسموعٌ من العرب كما أثْبتَه أهلُ اللغة، وأنشدوا لإثباته شواهدَ كثيرةً[٥]. وعليه فمن خطَّأ الإمامَ أبا حنيفة رضي الله عنه بقوله: ماء مالح، فقد أخطأ جاهلاً بقَدْرِ هذا الإمام.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزاً، وهو لفظٌ عربيٌّ، وقيل: أصلُه: بَرْزَه، فعرِّب. والمرادُ بهذا الحاجز كما أخرج عبد بن حميد وابن جريرٍ وابن أبي حاتم عن الحسن: ما يحولُ بينهما من الأرض[٦]. كالأرض الحائلة بين دجلة ـ ويقال لها بحرٌ لعِظَمها، ولشُيوعِ إطلاق البحر على النهر العظيم صار حقيقةً فيه أيضاً، فلا إشكال في التثنية، وإنْ أبَيْتَ صيرورتَه حقيقةً فاعتبارُ التغليب يَرْفعُ الإشكال ـ وبين البحر الكبير.

---

(١) إصلاح المنطق ص٤٣٦، والمستقصى ١/ ١٤٠، ومجمع الأمثال ١/ ٣١٦، ووقع في الأصل و(م): وعكناً، بدل: وعنكثاً، والمثبت من المصادر. قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٥٩٣: هذا من منهوك الرجز، والصَّرِد الذي يجد البرد. والعراد: ضرب من النبت. والعَرِد: الكثير الذي قد طال. والعنكث: ضرب من النبت أيضاً. والملتبد: الذي قد وقع بعضه على بعض. اهـ. والصِّلِّيان بكسرتين مشددة اللام: نبت واحدته بهاء. القاموس (صلل).

(٢) البحر ٦/ ٥٠٧.

(٣) كذا ذكر، وهو في تهذيب اللغة ٥/ ٩٩ منقول عن أبي الدقيش وليس عن الكسائي، وقال الأزهري إثره: هذا وإن وجد في كلام العرب قليلاً، فهي لغة لا تنكر.

(٤) كما في المحتسب ٢/ ١٢٦.

(٥) حاشية الشهاب ٦/ ٤٣١.

(٦) تفسير الطبري ١٧/ ٤٧٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٨، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٧٤.

والمرادُ حيلولتُها في مجاريها، وإلَّا فهي تنتهي إلى البحر، وكذا سائرُ الأنهار العظام، ودلالةُ هذا الجَعْلِ على كمال قدرته عزَّ وجلَّ كونُه على خلاف مقتضَى الطبيعة، فإنَّ مقتضَى طبيعةِ الماء أن يكون مُتَضامَّ الأجزاء مجتمعاً غامِراً للأرض محيطاً بها من جميع جهاتها إحَاطَةَ الهواء به، ومقتضى طبيعة الأرض أن تكون متضامَّةَ الأجزاء أيضاً لا غورَ فيها ولا نجد، مغمورةً بالماء واقعةً في جوفه كمركز الدائرة كما قرَّر ذلك الفلاسفةُ، وذكروا في سبب انكشاف ما انكشف من الأرض ووقوعِ الأغوار والأنجاد فيها ما لا يخلو عن قيل وقال.

و«بينهما» ظرفٌ لـ «جعل»، ويجوز أن يكون حالاً من «برزخاً». والظاهرُ أنَّ تنوين «برزخاً» للتعظيم، أي: وجَعَلَ بينهما برزخاً عظيماً، حيث إنه على كثرة مرور الدهور لا يتخلَّله ماءُ أحدِ البحرين حتى يَصِلَ إلى الآخر فيغيِّر طعمه.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ۝٥٣﴾ أي: وتنافُراً مُفْرِطاً، كأنَّ كلًّا منهما يتعوَّذُ من الآخر بتلك المقالة، والمرادُ لزومُ كلٍّ منهما لصفته من العذوبة والملوحة، فلا ينقلبُ البحر العذبُ ملحاً في مكانه، ولا البحرُ المِلْحُ عذباً في مكانه، وذلك من كمال قدرته تعالى وبالغِ حكمته عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ العذوبةَ والملوحة ليستا بسبب طبيعة الأرض، ولا بسببِ طبيعة الماء، وإلَّا لكان الكلُّ عذباً أو الكلُّ ملحاً.

وذُكر في حكمة جَعْلِ البحر الكبير ملحاً أنْ لا ينتنَ بطول المكث وتقادُمِ الدهور، قيل: وهو السرُّ في جَعْلِ دمع العين ملحاً، وفيه حِكَمٌ أخرى اللهُ تعالى أعلمُ بها.

والظاهرُ إنَّ «حجراً» عطفٌ على «برزخاً»، أي: وجعل بينهما هذه الكلمة، والمراد بذلك ما سمعتَ آنفاً، وهو من أبلغ الكلام وأعْذَبِه.

وقيل: هو منصوبٌ بقولٍ مقدَّرٍ، أي: ويقولان حجراً محجوراً.

وعن الحسن: أنَّ المراد من الحِجْرِ ماحَجَر بينهما من الأرض، وتقدَّم تفسيرُه البرزَخَ بنحو ذلك. وكأنَّ الجمع بينهما حينئذٍ لزيادة المبالغة في أمر الحاجز، وما قدَّمنا أولى وأبعدُ مغزًى.

وقيل: المراد بالبرزخ حاجزٌ من قدرته عزَّ وجلَّ غيرُ مرئيٍّ، وبقوله سبحانه:

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ التميُّز التامُّ وعَدَمُ الاختلاط، وأصلُه كلامٌ يقولُه المستعيذُ لِمَا يخافُه كما تقدَّم تفصيلُه، وحاصل معنى الآية: أنه تعالى هو الذي جَعَل البحرين مختلطين في مرأى العين ومنفصلين في التحقيق بقدرته عزَّ وجلَّ أكملَ انفصالٍ، بحيث لا يختلط العذبُ بالمِلْحِ ولا الملحُ بالعذبِ، ولا يتغيَّر طَعْمُ كلٍّ منهما بالآخر أصلاً.

وحُكي هذا عن الأكثرين، وفيه أنه خلافُ المحسوسِ؛ فإنَّ الأنهار العظيمةَ كدِجْلةَ وما ينضمُّ إليها والنيل وغيرهما ممَّا يشاهده الناس إذا اتَّصلت في البحر تغيَّر طعمُ غيرِ قليلٍ منها في جهة المتَّصل، وكذا يتغيَّر طعمُ غيرِ قليلٍ من البحر في جهة المتَّصل أيضاً، ويختلف التغيُّر قلَّةً وكَثْرةً باختلاف الورود؛ لاختلافِ أسبابه من الهواء وغيره قوةً وضعفاً كما أخبر به مبلغ التواتر(١)، ولم يُخْبِرْ أحدٌ أنه شاهَد في الأرض بحرين أحدُهما عذبٌ والآخَرُ مِلْحٌ وقد اتصل أحدهما بالآخر من غير تغيُّرٍ لطعم شيءٍ منهما أصلاً. ولا مساغَ عند مَن له أدنى ذوقٍ لجَعْلِ الآية في بحرين في الأرض كذلك لكنهما لم يشاهدهما أحد كما لا يخفى. ولا أرى وجهاً لتفسير الآية بما ذُكر، والتزامِ هذا ونحوِه من التكلُّفات الباردة مع ظهورِ الوجه الذي لا كدورةَ فيه عند المُنْصِفِ، إلا تسبُّبَ طَعْنِ الكَفَرةِ في القرآن العظيم، وسوء الظنِّ بالمسلمين.

وقيل: المراد بالبرزخ الواسطةُ، أي: وجَعَلَ بين البحر العَذْبِ الشديدِ العُذوبةِ والبحر المِلْحِ الشديدِ المُلوحةِ ماءً متوسطاً ليس بالشديد العذوبة ولا بالشديد الملوحة، وهو قطعةٌ من العَذْبِ الفرات عند موضع التلاقي. مازَجَها شيءٌ من الملح الأُجاج فكَسَر سَوْرةَ عُذوبَتِها، وقطعةٌ من الملح الأُجاج عند موضع التلاقي أيضاً مازَجَها شيءٌ من العَذْبِ الفرات فكسر سَوْرةَ ملوحتها، ويكون التنافُر البليغُ بينهما المفهومُ من قوله سبحانه: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ فيما عدا ذلك، وهو ما لم يتأثَّر بصاحبه منهما، بل يبقى على صفته من العذوبة الشديدة والملوحة الشديدة. وهو كما ترى.

---

(١) في الأصل: المتواتر.

وحَكَى في «البحر» أنَّ المراد بالبحرين بحران معيَّنان هما بحرُ الروم وبحر فارس[١]، وذكره في «الدر المنثور» عن الحسن بروايةِ ابن أبي حاتم[٢]. وهو من العَجَبِ العُجابِ؛ لأنَّ كِلَا هذين البحرين مِلْحٌ أجاجٌ، فكيف يصحُّ إرادتُهما هنا مع قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ.. وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]؟ نعم قد يصحُّ فيما سيأتي إن شاء الله تعالى من آية سورة الرحمن، أعني قوله سبحانه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩-٢٠] لعدم ذِكْرِ ما يمنعه هناك، وما روي عن الحسن إنْ صحَّ فلعله في تلك الآية، ووهم السيوطيُّ في روايته في الكلام على هذه الآية[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير: أنَّ البحرين هما بحرُ السماء وبحرُ الأرض[٤]. وذكر مثله في «البحر» عن ابن عباس، وأنهما يلتقيان كلَّ عام[٥]. وهذا شيءٌ أنا لا أقولُ به في الآية، ولا أعتقدُ صحةَ روايته عمَّن سمعتَ، وإن كان مناسبةُ الآيةِ عليه ـ لِمَا تقدم من قوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا) على القول بأنَّ المطر من بحرٍ في السماء ـ أتمَّ، ودلالتُها على كمال قدرته تعالى أظهرَ، وأمَّا أنت فبالخيار، والله تعالى ولي التوفيق.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ هو الماءُ الذي خمَّر به طينةَ آدم عليه السلام، وجَعَلَه جزءاً من مادة البشر، لتجتمع وتَسْلَسَ[٦] وتستعدّ لقبول الأشكال والهيئات، فالمرادُ بالماء: الماءُ المعروفُ، وتعريفُه للجنس، والمرادُ بالبشر: آدمُ عليه

---

(١) البحر ٦/ ٥٠٦.

(٢) الخبر عن الحسن في تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٨، ولم يذكره السيوطي في الدر عند تفسير هذه الآية، وذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩] وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر. والذي ذكره السيوطي في الدر ٥/ ٧٤ عند تفسير هذه الآية من سورة الفرقان عن الحسن برواية ابن أبي حاتم هو قوله: «مرج البحرين» قال: بحر في السماء وبحر في الأرض. وينظر ما سيأتي.

(٣) بل ذكره السيوطي عند تفسير آية سورة الرحمن، وأخرجه ابن أبي حاتم عند تفسير هذه الآية كما ذكرنا.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٠٨.

(٥) البحر ٦/ ٥٠٦.

(٦) أي: تلين. حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٢.

السلام، وتنوينُه للتعظيم، أو جنسُ البشر الصادقُ عليه ـ عليه السلامُ ـ وعلى ذريته. و«من» ابتدائية.

ويجوز أن يراد بالماء النطفةُ، وحينئذٍ يتعيَّن حَمْلُ البشر على أولاد آدمَ عليه السلام.

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾ أي: قَسَمَه قسمين: ذَوِي نَسَبٍ، أي: ذكوراً يُنْسَبُ إليهم، وذواتِ صِهْرٍ، أي: إناثاً يصاهَرُ بهنَّ، فهو كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة:٣٩] فالواوُ للتقسيم، والكلامُ على تقديرِ مضافٍ حُذِفَ ليدلَّ على المبالغة ظاهراً. وعدل عن ذكر وأنثى ليؤذِنَ بالانشعاب نصًّا.

وهذا الجعلُ والتقسيم مما لا خفاءَ فيه على تقديرِ أن يراد بالبشر الجنسُ، وأمَّا على تقدير أن يراد به آدمُ عليه السلام، فقيل: هو باعتبارِ الجنس، وفي الكلام ما هو من قبيل الاستخدام[1]، نظير ما في قولك: عندي درهمٌ ونصفُه.

وقيل: لا حاجةَ إلى اعتبار ذلك، والكلامُ من باب الحذف والإيصال، أي: جَعَل منه، وقد جيء به على الأصل في نظير هذه الآية، وهو ما سمعتَه آنفاً.

وقيل: معنى جَعْلِ آدم نسباً وصهراً: خَلْقُ حوَّاءَ منه، وإبقاؤه على ما كان عليه من الذُّكورة.

وتعقيبُ جَعْلِ الجنسِ قسمين خَلْقَ آدمَ أو الجنس باعتبارِ خَلْقِه، أو جَعْلِ قسمين من آدم خَلْقَه عليه السلام كما تؤذِنُ به الفاء، ظاهر. وربما يتوهَّم أنَّ الضمير المنصوبَ في «جَعَله» عائدٌ على «الماء»، والفاءُ مثلُها في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود:٤٥] إلخ، وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف:٤] وليس بشيء.

وعن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنَّ النَّسبَ ما لا يَحِلُّ نكاحُه، والصِّهْرَ ما يَحِلُّ نكاحُه. وفي روايةٍ أخرى عنه رضي الله عنه: النسبُ ما لا يحلُّ نكاحُه، والصِّهْرُ قرابة

(١) الاستخدام: هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. الإتقان ٢/٩٠١.

الرضاع. وتفسيرُ الصِّهْرِ بذلك مرويٌّ عن الضحَّاك أيضاً[١].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ مُبالِغاً في القدرة، حيث قدرَ على أن يخلقَ من مادةٍ واحدةٍ بشراً ذا أعضاءَ مختلفةٍ وطباعٍ مُتَباعِدَةٍ، وجَعَله قسمين متقابلين، و«كان» في مثل هذا الموضع للاستمرار. وإذا قلنا بأنَّ الجملة الاسميةَ نفسَها تفيدُ ذلك أيضاً أفاد الكلامُ استمراراً على استمرارٍ، وربَّما أَشْعَرَ ذلك بأنَّ القدرة البالغةَ من مقتضيات ذاته جلَّ وعلا.

ومن العَجَبِ ما زعمه بعضُ مَنْ يدَّعي التفرُّدَ بالتحقيق ممن صَحِبْناه من علماء العصر رحمةُ الله تعالى عليه[٢] أن «كان» في مثله للاستمرار فيما لم يَزَلْ، والجملةُ الاسمية للاستمرار فيما لا يزال، فيفيدُ جَمْعُهما استمرارَ ثبوتِ الخبر للمبتدأ أزلاً وأبداً، ويُعْلَم منه مبلغُ الرجل في العلم.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الذي شأنُه تعالى شأنُه ما ذُكر ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إنْ عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن لم يعبدوه، والمرادُ بذلك الأصنامُ، أو كلُّ ما عُبِدَ من دون الله عزَّ وجلَّ، وما من مخلوقٍ يستقلُّ بالنفع والضّرِّ.

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ الذي ذُكرتْ آثار ربوبيته جلَّ وعلا ﴿ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ أي: مظاهراً، كما قال الحسن ومجاهدٌ وابن زيد. وفَعيلٌ بمعنى مُفاعل كثيرٌ، ومنه: نديمٌ وجليسٌ. والمظاهرةُ: المعاونة، أي: يعاونُ الشيطانَ على ربِّه سبحانه بالعداوةِ والشرك.

والمراد بالكافر الجنسُ، فهو إظهارٌ في مقام الإضمار؛ لنَعْي كفرهم عليهم.

وقيل: هو أبو جهل، والآيةُ نزلت فيه.

وقال عكرمةُ: هو إبليسُ عليه اللعنةُ، والمراد: يُعاوِنُ المشركين على ربِّه عزَّ وجلَّ بأنْ يُغْرِيهم على معصيته والشِّركِ به عزَّ وجلَّ. وقيل: المرادُ: يعاوِنُ على أولياء الله تعالى. وجوِّز أن يكون هذا مراداً على سائر الاحتمالات في الكافر.

---

(١) ذكره عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٥، وقال: وذلك عندي وهم...، وينظر تتمة كلامه ثمة.

(٢) جاء في هامش الأصل و(م): هو المرحوم محمد الأمين السويدي. اهـ منه.

وقيل: المرادُ بـ «ظهيراً»: مَهيناً، من قولهم: ظَهرْتُ به، إذا نبذتَه خَلْفَ ظهرك، أي: كان مَن يعبد مِن دون الله تعالى ما لا ينفعُه ولا يضرُّه مهيناً على ربِّه عزَّ وجلَّ لا خَلَاقَ له عنده سبحانه؛ قاله الطبريُّ[(١)]، ففعيل بمعنى مفعول، والمعروفُ أنَّ «ظهيراً» بمعنى مُعينٍ لا بمعنى مَظْهورٍ به.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ﴾ في حالٍ من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حالَ كونك ﴿مُبَشِّرٗا﴾ للمؤمنين ﴿وَنَذِيرٗا ۝٥٦﴾ أي: ومُنْذِراً مبالغاً في الإنذار للكافرين. ولتخصيص الإنذار بهم، وكونِ الكلام فيهم، والإشعارِ بغاية إصرارهم على ما هم فيه من الضلال، اقتصر على صيغة المبالغة فيه.

وقيل: المبالغةُ باعتبار كثرة المنذَرين؛ فإن الكفرة في كلِّ وقتٍ أكثرُ من المؤمنين.

وبعضهم اعتبر كثرتهم بإدخال العصاة من المؤمنين فيهم، أي: ونذيراً للعاصين؛ مؤمنين كانوا أو كافرين.

والمقامُ يقتضي التخصيصَ بالكافرين كما لا يخفى، والمراد: ما أرسلناك إلا مبشِّراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، فلا تحزن على عدم إيمانهم.

﴿قُلۡ﴾ لهم دافعاً عن نفسك تهمةَ الانتفاع بإيمانهم: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: على تبليغ الرسالة، الذي يُنْبِئُ عنه الإرسالُ، أو على المذكور من التبشير والإنذار. وقيل: على القرآن. ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أي: أجراً[(٢)] ما من جهتكم ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي: إلى رحمته ورضوانه ﴿سَبِيلٗا ۝٥٧﴾ أي: طريقاً، والاستثناءُ عند الجمهور منقطعٌ، أي: لكنْ مَن[(٣)] شاء أن يتَّخذ إلى ربِّه سبحانه سبيلاً - أي: بالإنفاق القائم مقامَ الأجر، كالصدقة والنفقة في سبيل الله تعالى، ليناسب الاستدراك - فليفعل.

---

(١) في تفسيره، ولكنه اختار ما سلف من القول بأن المعنى: وكان الكافر معيناً للشيطان على ربه.

(٢) في (م): أجر.

(٣) في الأصل و(م): ما، والمثبت من البحر ٦/ ٥٠٨، والدر المصون ٨/ ٤٩٢، وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٦، وحاشية الشهاب ٦/ ٤٣٣.

وذهب البعضُ إلى أنه متَّصلٌ، وفي الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، أي: إلا فِعْلَ مَن شاء أن يتخذ إلى ربِّه سبيلاً بالإيمان والطاعة حَسْبَما أدعو إليهما، وهو مبنيٌّ على الادِّعاء وتصوير ذلك بصورةِ الأجر من حيث إنه مقصودُ الإتيان به، وهذا كالاستثناء في قوله:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ نزيلهم يُعابُ بنسيان الأحبَّة والوطن[(١)]

وفي ذلك قلعٌ كلِّيٌّ لشائبة الطمع، وإظهارٌ لغايةِ الشفقة عليهم، حيث جَعَلَ ذلك مع كون نَفْعِه عائداً إليهم عائداً إليه ﷺ[(٢)].

وقيل: المعنى: ما أسالكم عليه أجراً إلا أَجْرَ مَن آمن، أي: إلا الأَجْرَ الحاصلَ لي من إيمانه، فإنَّ الدالَّ على الخير كفاعله، وحينئذٍ لا يحتاج إلى الادِّعاء والتصويرِ السابق. والأَوْلَى ما فيه قَلْعُ شائبةِ الطمع بالكلِّية.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ في الإغناء عن أجورهم، والاستكفاء عن شرورهم، وكأنَّ العدول عن: وتوكَّل على الله، إلى ما في النظم الجليل ليُفيدَ بفحواه، أو بترتُّبِ الحُكْمِ فيه على وَصْفٍ مناسبٍ، عَدَمَ صحة التوكُّلِ على غير المتَّصفِ بما ذُكر من الحياة والبقاء؛ أمَّا عَدَمُ صحةِ التوكُّل على مَن لم يتَّصف بالحياة كالأصنام فظاهرٌ، وأما عدمُ صحته على مَن لم يتَّصف بالبقاء بأن كان ممَّن يموتُ، فلأنَّه عاجزٌ ضعيفٌ، فالمتوكِّلُ عليه أَشْبَهُ شيءٍ بضعيفٍ عاد بقَرْملةٍ[(٣)]. وقيل: لأنه إذا مات ضاع مَن توكَّل عليه.

---

(١) سلف عند تفسير الآية (١٥) من سورة البقرة.

(٢) وقد شبَّه الزمخشريُّ في الكشاف ٣/ ٩٧ ذلك بقولِ ذي شفقةٍ عليك، قد سعى لك في تحصيلِ مالٍ: ما أَطْلبُ منك ثواباً على ما سعيتُ إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضيِّعَه. فليس حفظُك المال لنفسك من جنس الثواب، ولكنْ صوَّره هو بصورة الثواب وسماه باسمه فأفاد فائدتين؛ إحداهما: قطعُ شبهة الطمع في الثواب من أصله، والثانية: إظهار الشفقة البالغة، وأنك إن حفظت مالك اعتَدَّ بحفظك، ورضي به كما يرضى المثاب بالثواب.

(٣) جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ٤٦٦، والمستقصى للزمخشري ٢/ ٨٦، ومجمع الأمثال ١/ ٢٧٩. قال الزمخشريّ: يضرب لذليل لجأ إلى مثله. وقال العسكري: القرملة: شجرة قصيرة لا ذرا لها ولا ظل. وفي المجمع عن الأصمعي: القرملة: شجرة ضعيفة لا ورق لها.

وأخرج ابن أبي الدنيا في «التوكُّل»، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» عن عقبة بن أبي ثبيت[1] قال: مكتوبٌ في التوراة: لا تَوكَّلْ على ابنِ آدم؛ فإنَّ ابن آدم ليس له قوام، ولكنْ تَوكَّلْ على الحيِّ الذي لا يموت.

وقرأ بعضُ السَّلَفِ هذه الآية فقال: لا يصحُّ لذي عقلٍ أنْ يثقَ بعدها بمخلوقٍ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: ونزِّهْهُ سبحانه مُلْتَبِساً بالثناء عليه تعالى بصفاتِ الكمال، طالباً لمزيدِ الإنعام بالشكر على سوابقه عزَّ وجلَّ، فالباءُ للمُلابَسةِ، والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال. وقدَّم التنزيه لأنه تخليةٌ وهي أهمُّ من التحلية، وفي الحديث: «مَن قال: سبحان الله وبحمده، غُفرتْ ذنُوبه ولو كانت مثلَ زَبَدِ البحر»[2].

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ ما ظَهَر منها وما بَطَنَ، كما يؤذِنُ به الجمعُ المضاف، فإنه من صيغ العموم، أو قوله تعالى: ﴿خَبِيرًا ۝٥٨﴾ لأنَّ الخبرة معرفةُ بَوَاطنِ الأمور كما ذكره الرَّاغب[3]، ومَن عَلِمَ البواطن عَلِمَ الظَّواهِرَ بالطريق الأَوْلَى، فيدلُّ على ذلك مطابَقةً والْتِزاماً.

والظاهرُ أنَّ «بذنوب» متعلِّقٌ بـ «خبيراً»، وهو حالٌ أو تمييز. وباء «به» زائدةٌ في فاعلِ «كفى». وجوِّز أن يكون «بذنوب» صلةَ «كفى».

والجملة مَسُوقةٌ لتسليته ﷺ ووعيدِ الكفَّار، أي: أنه عزَّ وجلَّ مطَّلعٌ على ذنوب عباده بحيث لا يَخْفَى عليه شيءٌ منها، فيجازيهم عليها، ولا عليك إن آمنوا أو كفروا.

---

(١) كذا في الأصل و(م) والدر المنثور ٥/ ٧٥، وعنه نقل المصنف، وتحرف فيه عقبة إلى: عتبة، والصواب: عقبة بن أبي زينب، والخبر في التوكل (٥٨)، والشعب (١٣٠٦). قال الحافظ في التقريب: عقبة بن أبي زينب مقبول، لم يخرجوا له، يذكر للتمييز بينه وبين عقبة بن أبي ثبيت. وينظر تهذيب الكمال ٢٠/ ١٩٨.

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٠٩)، والبخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطت خطاياه وإن كانت....».

(٣) في مفرداته (خبر).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد سَلَفَ تفسيرُه. ومحلُّ الموصول الجرُّ على أنه صفةٌ أخرى لـ «الحيِّ» ووُصِفَ سبحانه بالصفة الفعلية بعد وَصْفِه جلَّ وعلا بالأبدية التي هي من الصفات الذاتية، والإشارةِ إلى اتِّصافه تعالى بالعلم الشامل؛ لتقرير وجوب التوكُّل عليه جَلَّ وتأكيدِه؛ فإنَّ مَن أنشأ هذه الأجرامَ العِظامَ على هذا النمطِ الفائق والنَّسَقِ الرائق بتدبيرٍ متينٍ وترتيبٍ رَصينٍ في أوقاتٍ معينةٍ، مع كمال قدرته سبحانه على إبداعها دفعةً، بحِكَمٍ جليلةٍ وغاياتٍ جميلةٍ لا تقفُ على تفاصيلها العقول، أحقُّ مَن يُتَوَكَّلُ عليه، وأَوْلَى مَن يُفَوَّضُ الأمرُ إليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مرفوعٌ على المدح، أي: هو الرحمنُ، وهو في الحقيقة وصفٌ آخَرُ لـ «الحيِّ» كما في قراءة زيد بن عليٍّ: «الرحمنِ» بالجرِّ(١)، مفيدٌ لزيادة تأكيدِ ما ذُكر من وجوب التوكُّلِ عليه جلَّ شأنُه وإن لم يَتْبَعْه في الإعراب، لِمَا تقرَّر من أنَّ المنصوب والمرفوع مدحاً وإنْ خرجا عن التبعية لِمَا قبلهما صورةً حيث لم يَتْبعاه في الإعراب وبذلك سمِّيا قطعاً، لكنهما تابعان له حقيقةً، ألا ترى كيف التَزَموا حَذْفَ الفعل والمبتدأ روماً لتصوير كلٍّ منهما بصورةٍ متعلّقٍ من متعلّقات ما قبله، وتنبيهاً على شدة الاتصال بينهما، وإنما قطعوا للافتنان الموجبِ لإيقاظ السامع وتحريكِه إلى الجِدِّ في الإصغاء.

وجوِّز أن يكون الموصولُ في محلِّ نصبٍ على الاختصاص، وأن يكون في محلِّ رفعٍ على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ [و«الرحمن»](٢) صفةٌ له، أو مبتدأ و«الرحمن» خبره.

وجوِّز أن يكون «الرحمن» بدلاً من المستكنِّ في «استوى». ويجوز على مذهب الأخفش أن يكون «الرحمن» مبتدأً، وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ خبره، على حدِّ تخريجه قولَ الشاعر:

---

(١) في الأصل و(م): زيد بن عبد الرحمن بالجرِّ. والمثبت من البحر ٦/٥٠٨، والكلام منه، والقراءة ذكرها أيضاً الزمخشريّ في الكشاف ٣/٩٨ دون نسبة.

(٢) ما بين حاصرتين من البحر ٦/٥٠٨.

وقـائـلـةٍ خـولانُ فـانْـكِـحْ فـتـاتَـهـم[1]

وهو بعيد.

والظاهرُ أنَّ هذه جملةٌ منقطعةٌ عمَّا قبلها إعراباً، والفاءُ فصيحةٌ، والجارُّ والمجرورُ صلةُ «اسأل»، والسؤالُ كما يعدَّى بـ «عن» لتضمُّنِه معنى التفتيش يعدَّى بالباء لتضمُّنه معنى الاعتناء، وعليه قولُ عَلْقمةَ بن عَبَدةَ[2]:

فـإن تـسـألـونـي بـالـنـسـاء فـإنَّـنـي خـبـيـرٌ بـأدواءِ الـنـسـاءِ طـبـيـبُ

فلا حاجةَ إلى جَعْلِها بمعنى «عن» كما فعل الأخفش والزجَّاج[3].

والضميرُ راجعٌ إلى ما ذُكر إجمالاً من الخَلْق والاستواء، والمعنى: إن شئتَ تحقيقَ ما ذُكر، أو تفصيلَ ما ذُكر، فاسأل معتنياً به، خبيراً عظيمَ الشأنِ محيطاً بظواهِر الأمور وبَوَاطِنها، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، يُطْلِعكَ على جَليَّةِ الأمرِ.

والمسؤول في الحقيقة تفاصيلُ ما ذُكر لا نفسُه؛ إذ بعد بيانه لا يبقى إلى السؤال حاجةٌ، ولا في تعديته بالباء ـ المبنيَّةِ على تضمينه معنى الاعتناء المستدعي لكون المسؤول أمراً خطيراً مهتمًّا بشأنه غيرَ حاصلٍ للسائل ـ فائدةٌ؛ فإنَّ نفس الخَلْقِ والاستواء بعد الذِّكر ليس[4] كذلك كما لا يخفى.

وكونُ التقدير: إنْ شَكَكْتَ فيه فاسأل به خبيراً، على أنَّ الخطاب له ﷺ والمرادُ غيرُه عليه الصلاة والسلام، بمعزل عن السَّدادِ.

وقيل: «به» صلةُ «خبيراً» قدِّمَ لرؤوس الآي[5].

---

(١) وعجزه: وأكرومة الحيين خِلْوٌ كما هيا، وهو في الكتاب ١/ ١٣٩ و١٤٣، والخزانة ١/ ٤٥٧، والبحر ٦/ ٥٠٨، والكلام منه، والبيت من الخمسين التي لا يعرف قائلها، وسلف ٧/ ١٨٩.

(٢) في الأصل و(م): عبيدة، والصواب ما أثبتناه، وهو الذي يقال له علقمة الفحل. الشعر والشعراء ١/ ٢١٨، وطبقات الفحول ١/ ١٣٩، والأغاني ٢١/ ٢٠٠. والبيت في ديوانه بشرح الأعلم ص٣٥.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٣، وذكره عنه وعن الأخفش أبو حيان في البحر ٦/ ٥٠٨.

(٤) في الأصل: ليسا، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٢٧، والكلام منه.

(٥) ويكون المعنى على هذا: فاسأل عن الله الخبراءَ به. البحر ٦/ ٥٠٨.

وجوّز أن يكون الكلامُ من باب التجريد، نحو: رأيتُ به أسداً، أي: رأيتُ برؤيته أسداً، فكأنه قيل هنا: فاسأل بسؤاله خبيراً، والمعنى: إن سألته وَجَدْتَه خبيراً، والباءُ عليه ليست صلةً فإنها باءُ التجريد، وهي على ما ذهب إليه الزمخشريُّ سببيةٌ، والخبيرُ عليه هو الله تعالى أيضاً.

وقد ذكر هذا الوجهَ السجاونديُّ واختاره صاحب «الكشف»، قال: وهو أوجهُ؛ ليكون كالتتميم لقوله تعالى: «الذي خلق» إلخ؛ فإنه لإثبات القدرة مدمجاً فيه العلم.

وكونُ ضمير «به» راجعاً إلى ما ذُكر من الخلق والاستواء، والخبير في الآية هو الله تعالى، مَرْويٌّ عن الكلبيِّ. ورُوي تفسيرُ الخبير به تعالى عن ابن جُريج أيضاً.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الخبيرُ هو جبريل عليه السلام.

وقيل: هو مَن وجد ذلك في الكتب القديمة المنزلة من عنده تعالى، أي: فاسأل بما ذُكر من الخَلْقِ والاستواء مَن عَلِمَ به من أهل الكتب ليصدِّقك.

وقيل: إذا أُريدَ بالخبير مَن ذكر فضمير «به» لـ «الرحمن»، والمعنى: إنْ أنكروا إطلاقَ الرحمن عليه تعالى فاسأل به مَن يخبرُك من أهل الكتاب؛ ليعرفوا مجيء ما يرادفه في كتبهم. وفيه أنه لا يناسبُ ما قبله، ولأنَّ فيه عودَ الضمير للفظ «الرحمن» دون معناه، وهو خلافُ الظاهرِ، ولأنه كان الظاهرُ حينئذ أن يؤخَّر عن قوله تعالى: «ما الرحمن».

وقيل: الخبير محمدٌ ﷺ، وضميرُ «به» لـ «الرحمن»، والمراد: فاسأل بصفاته، والخطابُ لغيره ﷺ ممن لم يعلم ذلك. وليس بشيءٍ كما لا يخفى.

وقيل: ضمير «به» لـ «الرحمن» والمراد: فاسأل برحمته وتفاصيلها عارفاً يخبرك بها، أو المراد: فاسأل برحمته حالَ كونه عالماً بكلِّ شيءٍ، على أنَّ «خبيراً» حالٌ من الهاء لا مفعولُ «اسأل» كما في الأوجُهِ السابقة.

وجوّز أبو البقاء أن يكون «خبيراً» حالاً من «الرحمن» إذا رُفع بـ «استوى».

وقال: يَضْعفُ أن يكون حالاً من فاعلِ «اسأل»؛ لأنَّ الخبير لا يُسأل إلا على جهة التوكيد، مثل: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾[١] [البقرة: ٩١].

والوجهُ الأقربُ الأولى في الآية من بين الأوجُهِ المذكورة لا يَخْفَى. وقرئ: فَسَلْ[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ القائلُ رسولُ الله ﷺ، أو اللهُ عزَّ وجلَّ على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام. ولا يخفى موقعُ هذا الاسم الشريفِ هنا. وفيه ـ كما قال الخفاجيُّ ـ معنَى: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجد»[٣].

﴿قَالُواْ﴾ على سبيل التَّجاهُلِ والوقاحة: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كما قال فرعونُ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] حين قال له موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦] وهو عالمٌ به عزَّ وجلَّ كما يُؤْذِنُ بذلك قولُ موسى عليه السلام له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

والسؤالُ يحتمل أن يكون عن المسمَّى، ووقع بـ «ما» دون «مَن» لأنه مجهولٌ بزَعْمِهم، فهو كما يقال للشبح المرئيِّ: ما هو؟ فإذا عُرِفَ أنه مِن ذوي العلم قيل: مَن هو. ويحتمل أن يكون عن معنى الاسم، ووقوعُه بـ «ما» حينئذٍ ظاهرٌ.

وقيل: سألوا عن ذلك لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى كما يطلقون الرحيم والرحوم والراحم عليه تعالى، أو لأنهم ظنُّوا أنَّ المراد به غيرُه عزَّ وجلَّ، فقد شاع فيما بينهم تسميةُ مسيلمةَ برحمان اليمامة، فظنُّوا أنه المراد بحَمْلِ التعريف على العهد.

وقيل: لأنه كان عبرانياً، وأصلُه رخمان بالخاء المعجَمة، فعرِّب ولم يسمعوه.

والأظهرُ عندي أنَّ ذلك عن تجاهُلٍ، وأنَّ السؤال عن المسمَّى، ولذا قالوا: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: للذي تأمرُنا بالسجود له من غير أن نعرفه، فـ «ما» موصولةٌ

---

(١) الإملاء ٤/ ١٠٣.

(٢) هي قراءة ابن كثير والكسائي وخلف. البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة ص٢٢٨.

(٣) حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٤، والحديث أخرجه أحمد (٩٤٦١)، ومسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والعائدُ محذوف، وأصلُ الجملة المشتملةِ عليه ما أشرنا إليه، ثم صار: تأمرنا بسجوده، ثم: تأمرنا سجودَه ك: أَمرتُكَ الخيرَ، ثم: تأمرناه بحذف المضاف، ثم: تأمُرنا. واعتبارُ الحذف تدريجاً مذهبُ أبي الحسن. ومذهبُ سيبويهِ أنه حُذِفَ كلُّ ذلك من غير تدريجٍ[1].

ويحتمل أن تكون «ما» نكرةً موصوفةً، وأمرُ العائدِ على ما سمعتَ. ويجوز أن تكون مصدريةً، واللامُ تعليليةٌ، والمسجودُ له محذوفٌ أو متروكٌ، أي: أنسجُدُ له لأَجْلِ أمرك إيَّانا، أو: أنسجدُ لأَجْلِ أمرِكَ إيانا.

وقرأ ابن مسعود والأسود بن يزيد[2] وحمزةُ والكسائيُّ: «يأمرنا» بالياء من تحت[3] على أنَّ الضمير للنبيِّ ﷺ، وهذا القولُ قولُ بعضهم لبعضٍ.

﴿وَزَادَهُمْ﴾ أي: الأمرُ بالسجود للرحمن، والإسناد مجازيٌّ. والجملةُ معطوفةٌ على «قالوا»، أي: قالوا ذلك وزادهم ﴿نُفُورًا ۝٦٠﴾ عن الإيمان.

وفي «اللُّباب»: أنَّ فاعل «زادهم» ضميرُ السجود؛ لِمَا رُوي أنه ﷺ وأصحابَه ﵃ سجدوا، فتباعَدوا عنهم مستهزئين[4]. وعليه فليست معطوفةً على جواب «إذا»، بل على مجموع الشرط والجواب، كما قيل في «لا يستقدمون» من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. والأولُ أَوْلَى وأظهر.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ الظاهرُ أنها البروجُ الاثنا عشر المعروفةُ، وأخرج ذلك الخطيبُ في كتاب «النجوم»[5] عن ابن عباس ﵄، وهي في الأصل:

---

(١) نقله عن سيبويه العكبري في الإملاء ٤/١٠٣-١٠٤، والكلام منه، وابن هشام في المغني ص٨٠٣. ونفى السمين في الدر ٨/ ٤٩٤ أن يكون هذا مذهبَ سيبويه. وأبو الحسن هو الأخفش.

(٢) في الأصل و(م): زيد، والمثبت من البحر ٦/ ٥٠٩، والكلام منه، وهو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي.

(٣) البحر ٦/ ٥٠٩، والقراءة عن حمزة والكسائي في التيسير ص ١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤.

(٤) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ١٤/ ٥٥٩.

(٥) كما في الدر المنثور ٥/ ٧٥، والخطيب هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي صاحب التصانيف.

القصورُ العاليةُ، وأطلقت عليها على طريق التشبيه؛ لكونها للكواكب كالمنازل الرفيعة لساكنيها، ثم شاع فصار حقيقةً فيها. وعن الزجّاج: أنَّ البُرْجَ كلُّ مرتفع[1]. فلا حاجةَ إلى التشبيه أو النقل.

واشتقاقُه من التبرُّج بمعنى الظهور، والذي يقتضيه مشربُ أهل الحديث أنها في السماء الدنيا، ولا مانعَ منه عقلاً، لا سيما إذا قلنا بعظم ثخنها بحيث يَسَعُ الكواكبَ وما تقتضيه، على ما ذكره أهلُ الهيئة، وهي عندهم أقسامُ الفلكِ الأعظم المسمَّى ـ على ما قيل ـ بالعرش، ولم يَرِدْ فيما أعلمُ إطلاقُ السماء عليه وإن كان صحيحاً لغةً، سمِّيت بأسماء صورٍ من الثوابت في الفلك الثامن وقعت في محاذاتها وقتَ اعتبار القسمة، وتلك الصُّورُ متحرِّكةٌ بالحركة البطيئة كسائر الثوابت، وقد قارَبَ في هذه الأزمان أن تخرج كلُّ صورةٍ عما حاذَتْه أولاً، وابتداؤها عندهم من نقطة الاعتدال الربيعيِّ، وهي نقطةٌ معينةٌ من معدَّل النهار لا تتحرَّكُ بحركة الفلك الثامن ملاقية لنقطةٍ أخرى من منطقة البروج تتحرَّك بحركته، وإذا لم يتحرَّك مبدأ البروج بتلك الحركة لم يتحرَّك ما عَدَاها.

وقد جَعَل الله تعالى ثلاثةً منها ربيعيةً، وهي: الحمل، والثور، والجوزاء وتسمَّى التوأمين أيضاً. وثلاثةً صيفيةً، وهي: السَّرطان، والأسد، والسنبلة وتسمَّى العذراء أيضاً. وهذه الستةُ شماليةٌ. وثلاثةً خريفيةً، وهي: الميزان، والعقرب، والقوسُ ويسمَّى الرامي أيضاً. وثلاثةً شتويةً، وهي: الجديُ، والدلوُ ويسمَّى الدالي وساكبَ الماء أيضاً، والحوتُ وتسمَّى السمكتين. وهذه الستةُ جنوبيةٌ.

ولحلول الشمس في كلٍّ من الاثني عشر يختلفُ الزمانُ حرارةً وبرودةً، والليلُ والنهارُ طولاً وقِصَراً، وبذلك يظهر بحكم جَرْي العادة في عالم الكون والفساد آثارٌ جليلةٌ، من نضج الثمار وإدراك الزروع، ونحوِ ذلك مما لا يخفى، ولعل ذلك هو وجهُ البركة في جَعْلِها.

وأمَّا ما يزعمه أهل الأحكام من الآثار إذا كان شيءٌ منها طالعاً وقتَ الولادة أو شروع في عمل من الأعمال، أو وقتَ حلول الشمس نقطةَ الحمل الذي هو مبدأ

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٣.

السنة الشمسية في المشهور، فهو محضُ ظنٍّ ورجمٍ بالغيب، وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلامُ في ذلك مفصَّلاً.

ولهم في تقسيمها إلى مذكَّرٍ ومؤنَّثٍ[1]، وليليٍّ ونهاريٍّ، وحارٌّ وباردٌ، وسعدٍ ونحسٍ، إلى غير ذلك، كلامٌ طويلٌ، ولعلنا نذكر شيئاً منه بعدُ إن شاء الله تعالى[2]، ومَن أراده مستوفًى فليرجع إلى كتبهم.

ثم الظاهرُ أنَّ البروج المجعولةَ مما لا دَخْلَ للاعتبار فيها، والمذكورُ في كلام أهل الهيئة أنها حاصلةٌ من اعتبار فَرْضِ ستِّ دوائرَ معلومةٍ قاطعةٍ للعالم، فيكون للاعتبار دخلٌ فيها وإن لم تكن في ذلك كأنياب الأغوال لوجود مبدأ الانتزاع فيها، فإن كان الأمرُ على هذا الطرز عند أهل الشرع بأن يعتبر تقسيمُ ما هي فيه إلى اثنتي عشرةَ قطعةً وتسمَّى كلُّ قطعةٍ برجاً فالظاهرُ أنَّ المراد بجعله تعالى إياها جَعْلُ ما يتمُّ به ذلك الاعتبارُ ويتحقَّق به أمرُ التفاوُتِ والاختلاف بين تلك البروج، وفيه من الخير الكثير ما فيه.

وقيل: إنَّ في الآية إيماءً إلى أنَّ اعتبار التقسيم كان عن وحي، والمشهورُ أنَّ مَن اعتبر ذلك أولاً هرمس، وهو على ما قيل إدريس عليه السلام، فتأمَّل.

وأخرج عبد بن حميد[3] عن قتادة: أنَّ البروج قصورٌ على أبواب السماء فيها الحرس.

وقيل: هي القصورُ في الجنة، قال الأعمش: وكان أصحابُ عبد الله يقرؤون: «في السماء قصوراً»[4].

وتعقِّبَ بأنه يأباه السياقُ؛ لأنَّ الآية قد سيقتْ للتنبيه على ما يقوم به الحجة على الكفرة الذين لا يسجدون للرحمن جلَّ شأنه، وبيانِ أنه المستحِقُّ للسجود ببيان آثارِ قدرته سبحانه وكماله ﷻ، والظاهرُ أنْ يكون ذلك بذِكْرِ أمورٍ مُدْرَكةٍ معلومةٍ لهم، وتلك القصورُ ليست كذلك.

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): وزعم بعضهم أن أول الجدي وأول العقرب خنثى.

(٢) ينظر ما سيأتي عند تفسير الآيتين (٨٨-٨٩) من سورة الصافات.

(٣) كما في الدر المنثور ٥/ ٧٥.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٧، والبحر ٦/ ٥١١.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهدٍ: أنها النجوم. ورُوي ذلك عن قتادةَ أيضاً[١]. وعن أبي صالح تقييدُها بالكبار[٢]. وأُطلق عليها ذلك لعظمها وظهورِها، لاسيما التي من أول المراتب الثلاثة للقَدْر الأول من الأقدار الستة.

وأنت تعلم أنه لم يُعهد إطلاقُ البروج على النجوم، فالأَوْلَى أن يراد بها المعنى الأولُ المرويُّ عن ابن عباس، الذي هو أظهرُ من الشمس.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في السماء. وقيل: في البروج ﴿سِرَاجًا﴾ هي الشمسُ، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٦].

وقرأ عبد الله وعلقمةُ والأعمش والأخوان: «سُرُجاً» بالجمع مضموم الراء[٣]. وقرأ الأعمش أيضاً والنخعي وابن وثابٍ كذلك إلا أنهم سكَّنوا الراء[٤]، وهو على ما قيل من قبيل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠] لأنَّ الشمس لعظمها وكمالِ إضاءتها كأنها[٥] سُرُجٌ كثيرةٌ، أو الجمعُ باعتبار الأيام والمطالع، وقد جُمعت لهذين الأمرين في قول الشاعر:

لَمَعانُ بَرْقٍ أو شُعاعُ شُموسِ[٦]

وعلى هذا القول تتَّحِدُ القراءتان.

وقال بعضُ الأجلَّة[٧]: الجمعُ على ظاهره، والمرادُ به الشمسُ والكواكبُ الكبارُ.

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٤٨٣-٤٨٤ عن مجاهد وقتادة، وعزاه لابن المنذر عن مجاهد السيوطي في الدر ٥/ ٧٥.

(٢) أخرجه الطبري ١٧/ ٤٨٣.

(٣) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤ عن حمزة والكسائي وخلف. والكلام من البحر ٦/ ٥١١.

(٤) البحر ٦/ ٥١١.

(٥) في (م): لأنها، وهو تحريف.

(٦) وصدره: حمي الحديد عليهم فكأنه، والبيت للأشتر النخعي كما في أمالي القالي ١/ ٨٥، وأساس البلاغة (ومض)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٥١، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٢٦٣، واللسان (شمس) وجاء في بعض المصادر: وَمَضَانُ برق...

(٧) هو البيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٤، وما بعده من حاشية الشهاب.

ومنهم مَن فسَّره بالكواكب الكبار، واعتَرضَ على الأول بأنه يلزم تخصيصُ القمر بالذكر في قوله تعالى: ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ بعد دخوله في السُّرُج، والمناسبُ تخصيصُ الشمس لكمال مزيَّتها على ما سواها.

ورُدَّ بأنه بعد تسليم دخوله في السُّرج خصَّ بالذِّكر لأن سنيَّهم قمريةٌ ولذا يقدَّم الليل على النهار، وتعتبر الليلةُ لليوم الذي بعدها، فهم أكثر عناية به، مع أنه على ما ذكره يلزمُه تركُ ذِكْرِ الشمس وهي أحقُّ بالذِّكر من غيرها، والاعتذارُ عنه بأنها لشهرتها كأنها مذكورةٌ ولذا لم تُنْظَمْ مع غيرها في قرنٍ لا يجدي.

والقمرُ معروف، ويُطْلَقُ عليه بعد الليلةِ الثالثةِ إلى آخِرِ الشهر، قيل: وسمِّي بذلك لأنه يقمر ضوء الكواكب، وفي «الصحاح»: لبياضه[1].

وفي وَصْفِه ما يُشْعِرُ بالاعتناء به. وعلى الفرق المشهور بين الضوء والنور[2] يكون وصفه بـ «منيراً» دون: مضيئاً إشارةٌ إلى أنَّ ما يشاهَدُ فيه مستفادٌ من غيره وهو الشمسُ، بل قال غيرُ واحدٍ: إنَّ نورَ جميع الكواكب مستفادٌ منها وإنْ لم يَظْهرِ اختلافُ تشكُّلاته بالقُرْبِ والبُعْدِ منها كما في نورِ القمر.

وقرأ الحسن والأعمش والنخعيُّ، وعصمةُ عن عاصم: «وقُمْراً» بضم القاف وسكون الميم[3]، واستظهر أبو حيان[4] أنها لغةٌ في القمر كالرُّشْد والرُّشُد والعُرْب والعُرُب.

وقيل: هو جمع قَمْراء، وهي الليلةُ المنيرةُ بالقمر، والكلام على حذفِ مضافٍ، أي: وذا قُمْرٍ، أي: صاحب ليالٍ قُمْرٍ، والمراد بهذا الصاحب القَمَرُ نفسُه، ويكون قولُه سبحانه: «منيراً» صفةً لذلك المضاف المحذوف؛ لأن المحذوفَ

---

(١) الصحاح (قمر).

(٢) ينظر ما سلف في الفرق بين الضياء والنور ١/ ٤٦٦-٤٦٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥١١، وعنه نقل المصنف. وعصمة هو ابن عروة، أبو نجيح الفقيمي البصري، روى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء، وعاصم بن أبي النجود، وروى أيضاً حروفاً عن أبي بكر بن عياش والأعمش ومعرور بن موسى، سئل عنه أبو حاتم فقال: مجهول. طبقات القراء ١/ ٥١٢.

(٤) في البحر ٦/ ٥١١.

قد يُعتبر بعد حَذْفِه كما في قول حسان رضي الله عنه:

بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيق السَّلْسَلِ[١]

فإنه يريد: ماءَ بردى، ولذا قال: يُصفَّق بالياء من تحت، ولو لمْ يُراعِ المضافَ لقال: تُصفَّق بالتاء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: ذَوَيْ خِلْفةٍ يَخْلُفُ كلٌّ منهما الآخَرُ، بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يُعْمَلَ فيه. وروي هذا عن ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير.

وقيل: بأن يعقبه ويجيء بعده.

وهو اسمٌ للحالةِ مِن خَلَفَ، كالرِّكْبةِ والجِلْسَة من رَكِبَ وجَلَسَ. ونَصْبُه على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ «جعل»، أو حالٌ إن كان بمعنى خَلَقَ.

وجَعَلَه بعضُهم بمعنى اختلافاً، والمراد: الاختلافُ في الزيادة والنقصان كما قيل، أو في السواد والبياض كما روي عن مجاهد، أو فيما يعمُّ ذلك وغيرَه كما هو محتملٌ.

وفي «البحر»[٢]: يقال: بفلانٍ خِلْفةٌ واختلافٌ، إذا اختلف كثيراً إلى متبرَّزه، ومن هذا المعنى قولُ زهير:

بها العِينُ والآرامُ يَمْشينَ خِلْفةً وأطْلاؤُها يَنْهَضْنَ مِن كلِّ مَجْثَمِ[٣]

وقولُ الآخَرِ يصفُ امرأةً تنتقلُ من منزلٍ في الشتاء إلى منزلٍ في الصيف دأباً:

ولها بالماطِرونِ إذا أَكَلَ النملُ الذي جَمَعا
خِلْفةٌ حتى إذا ارْتَبَعَتْ[٤] سَكَنَتْ مِن جِلَّقٍ بِيَعا

---

(١) ديوان حسان ص١٨٠، والبحر ٦/ ٥١١، وصدره: يَسْقُون مَن وَرَدَ البَرِيصَ عليهمُ. والبريص موضع بدمشق كما في القاموس (برص). وفي التاج: يقال: البريص اسم للغوطة بأجمعها.

(٢) ٦/ ٥١١.

(٣) ديوان زهير بن أبي سُلمى ص٥، والبحر ٦/ ٥١١، وقال ثعلب شارح الديوان: العِيْن: البقر. والطَّلا: ولد البقرة وولد الظبية الصغير.

(٤) في الأصل و(م) والبحر: ارتفعت، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

فــي بــيــوتٍ وَسْــطَ دَسْــكــرةٍ حــولــهــا الــزيــتــونُ قــد يَــنَــعــا[(١)]

انتهى. وجوَّز عليه أن يكون المراد: يذهبُ كلٌّ منهما ويجيءُ كثيراً، واعتبارُ المضافِ المقدَّرِ على حاله، وكذا فيما قبله.

وفي «القاموس»: الخِلْفُ والخِلْفةُ بالكسر: المُختَلِف[(٢)]. وعليه لا حاجة إلى تقدير المضاف، والمعنى: جَعَلَهما مختلفين، والإفرادُ لكونه مصدراً في الأصل.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي: ليكونا وقتين للمتذكِّر، مَن فاتَهُ وِرْدُه من العبادة في أحدهما تدارَكَه في الآخر. وروي هذا عن جماعةٍ من السلف، ورَوَى الطيالسيُّ وابنُ أبي حاتم أنَّ عمر ﷺ أطال صلاة الضُّحى، فقيل له: صنعتَ شيئاً لم تكن تَصْنَعُه؟ قال: إنه بقي عليَّ مِن وِرْدي شيءٌ فأحبَبْت أن أُتمَّه - أو قال: أقضيه - وتلا هذه الآية[(٣)]. وكأنَّ التذكُّر مجازٌ عن أداءِ ما فات، وهو مما يتوقَّفُ الأداءُ عليه. وفي الكلام تقديرٌ كما أُشير[(٤)] إليه. ويجوزُ أن يكون تقديرَ معنًى لا إعرابٍ.

﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ أنْ يشكر الله تعالى بأداءِ نوعٍ من العبادة لم يكن وِرْداً له. وفي «مجمع البيان»: المعنى: لمن أراد النافلةَ بعد أداء الفريضة[(٥)].

---

(١) في الأصل و(م): نبعا، والمثبت من البحر والمصادر وهي: الكامل للمبرد ٢/ ٤٩٨، والحيوان للجاحظ٤/ ١٠، وتفسير الطبري ١٧/ ٤٨٧، والمحرر الوجيز ٤/ ٢١٧، ومعجم البلدان ٥/ ٤٢، والخزانة الشاهد السادس والثلاثون بعد الخمس مئة. وجاء في بعض المصادر: خُرفة، بدل: خلفة. قال البغدادي: الخُرفة بضم الخاء المُخْتَرَف والمُجْتَنَى، وقيل: ما يُجتَنَى. اهـ. والماطرون موضع بالشام قرب دمشق كما ذكر ياقوت. وقال أبو الحسن القفطي كما في الخزانة: هذه الأبيات ليزيد بن معاوية بن أبي سفيان تغزل بها في نصرانية قد ترهّبت في ديرٍ خرابٍ عند الماطرون، وهو بستان بظاهر دمشق يسمى اليوم الميطور. اهـ. ونسبها الجاحظ لأبي دهبل. ونسبت أيضاً للأحوص كما نقل المبرد عن أبي عبيدة.

(٢) القاموس (خلف).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧١٨، وعزاه للطيالسي ابن كثير عند تفسير هذه الآية، والسيوطي في الدر ٥/ ٧٥. وهو من طريق الحسن عن عمر، والحسن لم يسمع من عمر ﷺ.

(٤) في الأصل: أشرنا.

(٥) مجمع البيان ١٩/ ١٢٥.

ويجوزُ أن يكون المعنى: لمن أراد أن يتذكَّر ويتفكَّر في بدائع صُنْعِ الله تعالى، فيعلم أنه لا بدَّ لِمَا ذُكِرَ من صانعٍ حكيمٍ واجبِ الذات، ذي رحمةٍ على العباد، أو أراد أن يشكر الله سبحانه على ما فيهما من النعم. وهو وجهٌ حَسَنٌ يكاد لا يُلتفتُ لغيره لو لم يكن مأثوراً.

والظاهرُ أنَّ اللام على هذا صلةُ «جَعَل»، ولمَّا كان ظهورُ فائدةِ ذلك لمن أراد التذكُّر أو أراد الشكر اقتصر عليه، وجوِّز أن تكون للتعليل.

و «أو» للتنويع على معنى الاشتمال على هذين المعنيين، أو للتخيير على معنى الاستقلال بكلٍّ، ولا مَنْعَ من الاجتماع. وفائدةُ هذا الأسلوب إفادةُ الاستقلال، ولو ذكر الواو بَدَلَها لتُوهِّم المعيَّة.

ولعلَّ في التعبير أوَّلاً بـ «أنْ» والفعلِ دون المصدر الصريحِ كما في الشقِّ الثاني - مع أنه أَخْصَر - إيماءً إلى الاعتناءِ بأَمْرِ التذكُّرِ، فتَذَكَّرْ.

وقرأ أبيّ بنُ كعب: «أن يتذكَّر»[(١)] وهو أصلٌ لـ «يذَّكَّر»، فأُبدِلَ التاءُ ذالاً وأُدْغِم. وقرأ النخعيُّ وابنُ وثَّابٍ وزيد بنُ عليٍّ وطلحةُ وحمزةُ: «أن يَذْكُرَ» مضارع ذَكَرَ الثلاثيِّ[(٢)] بمعنى تَذَكَّر.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ كلامٌ مستأنفٌ لبيان أوصافِ خُلَّصِ عباد الله تعالى وأحوالِهم الدنيويةِ والأخروية، بعد بيانِ حالِ النافِرينَ عن عبادته سبحانه والسجودِ له عزَّ وجلَّ، وإضافتُهم إلى الرحمن دون غيرِه من أسمائه تعالى وضمائرِه عزَّ وجلَّ؛ لتخصيصهم برحمته، أو لتفضيلهم على مَن عَدَاهم لكونهم مرحومين مُنْعَماً عليهم، كما يُفْهَمُ من فَحْوَى الإضافةِ إلى مشتقٍّ. وفي ذلك أيضاً تعريضٌ بمن قالوا: وما الرحمن؟.

والأكثرون أنَّ عِباداً هنا جمعُ عَبْدٍ، وقال ابن بحر[(٣)]: جمعُ عابدٍ، كصاحبٍ وصِحابٍ، وراجلٍ ورجال، ويوافقُه قراءة اليماني: «وعُبَّاد» بضم العين وتشديدِ

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٧١، والكشاف ٣/ ٩٩، والبحر ٦/ ٥١٢.

(٢) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤ عن حمزة وخلف، والكلام من البحر ٦/ ٥١٢.

(٣) كما في البحر ٦/ ٥١٢.

الباء[1]، فإنه جمعُ عابدٍ بالإجماع، وهو على هذا من العبادة، وهي أن يفعل ما يرضاه الربُّ، وعلى الأول من العبودية، وهي أن يَرْضَى ما يفعله الربُّ.

وقال الرَّاغب[2]: العبودية إظهارُ التذلُّلِ، والعبادةُ أبلغُ منها لأنَّها غايةُ التذلُّل.

وفرَّق بعضُهم بينهما بأنَّ العبادة: فِعْلُ المأمورات وتَرْكُ المَنْهِيَّات؛ رجاءَ الثوابِ والنجاةِ من العقاب بذلك. والعبودية: فِعْلُ المأمورات وتَرْكُ المنهيَّات، لا لِمَا ذُكر بل لمجرَّد إحسان الله تعالى عليه.

قيل: وفوق ذلك العبودةُ، وهو فعلُ وتركُ ما ذكر لمجرَّد أمره سبحانه ونَهْيِه عزَّ وجلَّ، واستحقاقِه ـ سبحانه ـ الذاتيِّ لأنْ يُعظَّم ويطاع، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ).

وقرأ الحسن: «وعُبُدُ» بضمِّ العين والباء[3]، وهو كما قال الأخفشُ: جمعُ عَبْدٍ، كسَقْفٍ وسُقُف، وأنشد:

انسُبِ العبدَ إلى آبائه أسودَ الجلدةِ من قومٍ عُبُدْ[4]

وهو على كلِّ حالٍ مبتدأ، وفي خبره قولان:

الأولُ: أنه ما في آخِرِ السورة الكريمة من الجملة المصدَّرة باسم الإشارة.

والثاني وهو الأقرب: أنه قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

والهونُ مصدرٌ بمعنى اللِّين والرفق. ونصبُه إمَّا على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: مشياً هَوْناً، أو على أنه حالٌ من ضمير «يمشون»، والمراد: يمشون هينين في تُؤدةٍ وسكينةٍ ووقارٍ وحُسْنِ سَمْتٍ، لا يضربون بأقدامهم ولا يَخْفقون بنعالهم أَشَراً وبَطَراً. ورُوي نحوُ هذا عن ابن عباس ومجاهدٍ وعكرمةَ والفضيل بنِ عياضٍ وغيرِهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٥.
(٢) في مفرداته (عبد).
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨، والبحر ٦/ ٥١٢.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ٢١٣، والصحاح (عبد)، والكلام منه.

وعن الإمام أبي عبد الله ﷺ أنَّ الهَوْنَ: مَشْيُ الرجل بسجيَّته التي جُبِلَ عليها، لا يتكلَّفُ ولا يتبخْتَرُ[١].

وأخرج الآمديُّ في «شرح ديوان الأعشى» بسَنَدِه عن عمر ﷺ[٢]، أنه رأى غلاماً يتبختَرُ في مشيته، فقال له: إنَّ البخترةَ مشيةٌ تُكْرَهُ إلَّا في سبيل الله تعالى، وقد مَدَحَ الله تعالى أقواماً بقوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ فاقْصِدْ في مشيتك.

وقيل: المشيُ الهونُ مقابل السريع، وهو مذمومٌ. فقد أخرج أبو نعيم في «الحلية» عن أبي هريرة، وابنُ النجار عن ابن عباس قالا: قال رسول الله ﷺ «سرعةُ المشي تُذْهِبُ بَهَاءَ المؤمن»[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران: أنَّ «هوناً» بمعنى حُلَماءَ بالسريانية[٤]. فيكونُ حالاً لا غير. والظاهرُ أنه عربيٌّ بمعنى اللِّينِ والرِّفق.

وفسَّره الرَّاغب بتذلُّلِ الإنسان في نفسه لِمَا لا يُلْحِقُ به غضاضةً، وهو الممدوحُ، ومنه الحديثُ: «المؤمنُ هيِّنٌ ليِّنٌ»[٥].

والظاهرُ بقاءُ المشي على حقيقته، وأنَّ المراد مَدْحُهم بالسكينة والوَقارِ فيه من

---

(١) مجمع البيان ١٩/ ١٢٥.

(٢) كما في الدر المنثور ٥/ ٧٦، وعنه نقل المصنف.

(٣) الحلية ١٠/ ٢٩٠، وعزاه لابن النجار عن ابن عباس السيوطي في الدر ٥/ ٧٦، وعنه نقل المصنف، وأخرجه ابن الجوزي في العلل (١١٧٧) من حديث ابن عمر، و(١١٧٨) و(١١٧٩) من حديث أبي هريرة، ثم قال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٢٠.

(٥) مفردات الرَّاغب (هان)، والحديث أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٨٧)، ومن طريقه البيهقي في الشعب (٨١٢٨) عن مكحول عن النبي ﷺ. ولفظه: «المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف...»، ثم أخرجه البيهقي (٨٢٢٩) بهذا اللفظ من حديث ابن عمر ﷺ وقال: الأول مع إرساله أصح.

وله شاهد من حديث ابن مسعود عند الترمذي (٢٤٨٨) بلفظ: «ألا أخبركم بمن يَحْرُمُ على النار، أو بمن تَحْرُمُ عليه النار؟ على كل قريب هيِّنٍ سهل». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

غير تعميم. نعم يلزمُ من كونهم يمشون كذلك أنهم هيِّنون ليِّنون في سائر أمورهم بحكم العادة على ماقيل.

واختار ابنُ عطيةَ أنَّ المراد مَدْحُهم بعَدَم الخشونة والفظاظة في سائر أمورهم وتصرُّفاتهم، والمراد أنهم يعيشون بين الناس هيِّنين في كلِّ أمورهم، وذُكِرَ المشيُ لِمَا أنه انتقالٌ في الأرض، وهو يستدعي معاشرةَ الناس ومخالطتَهم، واللينُ مطلوبٌ فيها غاية الطلب.

ثم قال: وأمَّا أن يكون المرادُ مدحَهم بالمشي وحده هوناً فباطلٌ، فكم ماشٍ هوناً رويداً وهو ذئبٌ أطلسُ، وقد كان ﷺ يتكفَّأ في مشيه كأنما يمشي في صَبَبٍ، وهو عليه الصلاة والسلام الصدرُ في هذه الآية[1]. وفيه بحثٌ من وجهين فلا تغفل.

وقرأ اليمانيُّ والسُّلَميُّ: «يُمَشَّوْنَ» مبنيًّا للمفعول مشدداً[2].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ أي: السفهاء وقليلو الأدب، كما في قوله:

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنَجْهَلَ فوق جَهْلِ الجاهِلينا[3]

﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ بيانٌ لحالهم في المعاملة مع غيرهم إثْرَ بيانِ حالِهم في أنفسهم، أو بيانٌ لحُسْنِ معاملتهم وتحقيقٌ للينهم عند تحقُّقِ ما يقتضي خلافَ ذلك إذا خُلِّي الإنسانُ وطَبْعَه، أي: إذا خاطبوهم بالسوء قالوا: تسلُّماً منكم ومُتارَكةً، لا خيرَ بيننا وبينكم ولا شرَّ، فـ «سلاماً» مصدرٌ أقيم مقامَ التسليم، وهو مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعله المضمَرِ، والتقديرُ: نتسلَّم تسلُّماً منكم، والجملةُ مقولُ القول.

وإلى هذا ذهب سيبويه في «الكتاب»، ومَنَعَ أن يراد السلامُ المعروفُ بأنَّ الآية

---

(١) بنحوه في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٨. والأطلس: الذئب الأمعط الذي تساقط شعره، وهو أخبثها. معجم متن اللغة (طلس).
وينظر في صفة مشي النبي ﷺ حديث هند بن أبي هالة في الشمائل للترمذي (٧)، والمعجم الكبير ٢٢/ ١٥٥-١٥٩، والشفا للقاضي عياض ١/ ٣٣٤. وقوله: صبب، أي: منحدر. شرح الشفا للملا علي القاري ١/ ٣٥٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥١٢، والكلام منه.

(٣) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ص١١٧ بشرح ابن كيسان، وفي شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص٢٤٦، وشرح القصائد التسع للنحاس ٢/ ٨٣٤.

مكيةٌ، والسلامُ في «النساء» وهي مدنيةٌ، ولم يؤمرِ المسلمون بمكة أن يسلِّموا على المشركين[(١)].

وقال الأصمُّ: هو سلامُ توديعٍ لا تحيةٌ، كقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ [مريم: ٤٧]. ولا يَخْفَى أنه راجع إلى المُتارَكةِ، وهو كثيرٌ في كلام العرب.

وقال مجاهد: المراد: قالوا قولاً سديداً.

وتعقِّب بأنَّ هذا تفسيرٌ غيرُ سديدٍ؛ لأنَّ المراد هاهنا: يقولون هذه اللفظةَ، لا أنهم يقولون قولاً ذا سدادٍ، بدليلِ قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وردَّه صاحبُ «الكشف» بأن تلك الآية لا تخالِفُ هذا التفسيرَ؛ فإنَّ قولهم: سلامٌ عليكم، من سَدادِ القول أيضاً، كيف والظاهرُ أنَّ خصوصَ اللفظ غيرُ مقصودٍ، بل هو أو ما يؤدِّي مؤدَّاه أيضاً من كلِّ قولٍ يدلُّ على المتارَكةِ مع الخلوِّ عن الإثم واللغوِ، وهو حَسَنٌ لا غبارَ عليه.

وفي بعض التواريخ كما في «البحر»[(٢)] أنَّ إبراهيم بنَ المهديِّ كان منحرفاً عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، فرآه في النوم قد تقدَّم إلى عبورِ قنطرةٍ، فقال له: إنَّما تدَّعي هذا الأمرَ بامرأةٍ، ونحن أحقُّ به منك. فحَكَى ذلك على المأمون[(٣)] ثم قال: ما رأيتُ له بلاغةً في الجواب كما يُذْكَرُ عنه. فقال له المأمون: فما أجابك به؟ قال: كان يقول لي: سلاماً سلاماً. فقال المأمون: يا عمّ، قد أجابك بأبلغ جوابٍ، ونبَّهه على هذه الآية، فخَزِيَ إبراهيمُ واستَحْيَى. عليه من الله تعالى ما يستحق.

والظاهرُ أنَّ المراد مَدْحُهم بالإغضاء عن السفهاء وتَرْكِ مقابلتهم في الكلام، ولا تعرُّضَ في الآية لمعاملتهم مع الكفرة، فلا تُنافي آيةَ القتال ليُدَّعَى نَسْخُها بها؛

---

(١) الكتاب ١/ ٣٢٥.

(٢) ٦/ ٥١٣، وذكره أيضاً أبو الفرج في الأغاني ١٠/ ١٢٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٤/ ٢١٩.

(٣) في البحر: للمأمون.

لأنها مكيةٌ وتلك مدنيةٌ. ونُقل عن أبي العاليةِ واختاره ابنُ عطية أنها نُسِخَتْ بالنظر إلى الكفرة بآية القتال(١).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ۝٦٤﴾ بيانٌ لحالهم في معاملتهم مع ربِّهم. وكان الحسن إذا قرأ ما تقدَّم يقول: هذا وصفُ نهارهم، وإذا قرأ هذه قال: هذا وَصْفُ ليلهم.

والبيتوتةُ: أنْ يُدْرِكَكَ الليلُ نِمْتَ أوْ لَمْ تَنَمْ. و«لربِّهم» متعلِّقٌ بما بعده، وقدِّم للفاصلة والتخصيص.

والقِيامُ جمعُ قائم، أو مصدرٌ أُجْرِيَ مجراه، أي: يبيتون ساجدين وقائمين لربِّهم سبحانه، أي: يُحْيُونَ الليلَ كلًّا أو بعضاً بالصلاة.

وقيل: مَن قرأ شيئاً من القرآن بالليل في صلاةٍ فقد بات ساجداً وقائماً.

وقيل: أريدَ بذلك فِعْلُ الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء.

وقيل: مَن شَفَعَ وأَوْتَرَ بعد أن صلَّى العشاء فقد دخل في عموم الآية.

وبالجملة: في الآية حضٌّ على قيام الليل في الصلاة. وقدَّم السجودَ على القيام ولم يَعْكِسْ وإن كان متأخِّراً في الفِعْلِ لأَجْلِ الفواصل، ولأنه أقربُ ما يكون العبدُ فيه من ربِّه سبحانه، وإباءِ(٢) المستكبرين عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ الآيةَ [الفرقان: ٦٠].

وقرأ أبو البرهسم: «سجوداً» على وزن قعوداً، وهو أوفقُ بـ «قياماً».

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في أعقاب صلواتهم، أو في عامةِ أوقاتهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ أي: لازماً، كما أخرجه الطستيُّ عن ابن عباس، وأنشد رضي الله عنه في ذلك قولَ بشر بن أبي خازم(٣):

---

(١) المحرر الوجيز ٤/٢١٨، وفيه: وهذه الآية كانت قبل آية السيف، فنسخ منها ما يختص الكفرة، وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم القيامة.

(٢) أي: ولإباء. ينظر حاشية الشهاب ٦/٤٣٦.

(٣) في الأصل و(م): حاتم، والصواب ما أثبتناه.

ويـومُ الـنِّـسـار ويـومُ الـجِـفـا رِ كـانـا عـذابـاً وكـانـا غـرامـاً[(١)]

ومثلُه قول الأعشى:

إنْ يُـعـاقِـبْ يَـكُـنْ غـرامـاً وإن يُـعْـ طِ جـزيـلاً فـإنَّـه لا يـبـالـي[(٢)]

وهذا اللزومُ إمَّا للكفار، أو المرادُ به الامتدادُ كما في لزوم الغريم.

وفي روايةٍ أخرى عنه تفسيرُه بالفظيع الشديد. وفسَّره بعضُهم بالمُهْلِك.

وفي حكايةِ قولِهم هذا مزيدُ مَدْحٍ لهم ببيان أنهم مع حُسْنِ معاملتهم مع الخلق واجتهادِهم في عبادة الحقِّ يخافون العذابَ، ويبتهلون إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ في صَرْفِه عنهم غيرَ محتفلينَ بأعمالهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وفي ذلك تحقيقُ إيمانهم بالبعث والجزاء.

والظاهرُ أنَّ قوله تعالى: (إِنَّ عَذَابَهَا) إلخ من كلام الدَّاعينَ، وهو تعليلٌ لاستدعائهم المذكورِ بسوء حال عذابها. وكذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ وهو تعليلٌ لذلك بسوء حالها في نفسها. وتركُ العطفِ للإشارة إلى أنَّ كلاًّ منهما مستقلٌّ بالعِلِّية.

وقيل: تعليلٌ لِمَا علِّل به أوَّلاً، وضعَّفه ابن هشام في «التذكرة»[(٣)] بأنه لا مناسبةَ بين كونِ الشيءِ غراماً وكونِه ساء مستقرًّا.

وأجيب: بأنه بملاحظة اللزوم والمقام، فإنَّ المقامَ من شأنه اللزومُ.

وقيل: كلتا الجملتين من كلامه تعالى ابتداء علِّل بهما القولُ على نحو ما تقدَّم، أو علِّل ذلك بأولاهما وعلِّلتِ الأولى بالثانية. وجوِّز كونُ إحداهما مقولةً والأخرى ابتدائيةً. والكلُّ كما ترى.

و(سَآءَتْ) في حُكْم بئست، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ تقديرُه هي، وهو الرابطُ لهذه الجملة بما هي خبرٌ عنه إن لم يكن ضميرَ القصة، و(مُسْتَقَرًّا) تمييزٌ،

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٧٧، والبيت في ديوان بشر ص١٩٨، ونسبه صاحب اللسان (غرم) للطرماح، وهو في ذيل ديوانه ص٥٨٤.

(٢) ديوان الأعشى ص١٦٧.

(٣) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٤٣٦، وعنه نقل المصنف.

وفيها ضميرٌ مبهمٌ عائدٌ على «مستقرًّا» مفسَّر به، وأنِّثَ لتأويل المستقرِّ بجهنم أو مطابَقةً للمخصوص. ألا ترى إلى ذي الرُّمَّةِ كيف أنَّثَ الزورق على تأويلِ السفينة حيث كان المخصوصُ مؤنَّثاً في قوله:

أو حـرَّةٌ عـيـطـلٌ ثَـبْـجـاءُ مُـجْـفَـرةٌ دعـائـمُ الـزَّوْرِ نِـعْـمَـتْ زورقُ الـبـلـدِ[1]

قيل: ويجوزُ أن تكون «ساءت» بمعنى أَحْزَنَت، فهي فعلٌ متصرِّفٌ متعدٍّ، وفاعلُه ضميرُ جهنَّم، ومفعولُه محذوفٌ أي: أَحْزَنَتْ أهلَها وأصحابَها، و«مستقرًّا» تمييزٌ أو حالٌ، وهو مصدرٌ بمعنى الفاعل، أو اسمُ مكانٍ وليس بذاك.

والظاهرُ أنَّ «مستقراً ومقاماً» كقوله:

وأَلْـفَـى قـولَـهـا كـذبـاً ومَـيْـنـا[2]

وحسَّنه كونُ المقام يستدعي التطويلَ، أو كونُه فاصلة. وقيل: المستقرُّ للعصاة والمقامُ للكفرة. و«إنَّ» في الموضعين للاعتناء بشأن الخبر.

وقرأت فرقةٌ: «ومَقاماً» بفتح الميم، أي: مكانَ قيامٍ[3].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ﴾ أي: لم يتجاوَزوا حدَّ الكَرَمِ ﴿وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ أي: ولم يضيِّقوا تضييقَ الشحيح.

وقال أبو عبد الرحمن الحُبُلي[4]: الإسرافُ: هو الإنفاقُ في المعاصي، والقترُ: الإمساكُ عن طاعةٍ. وروي نحوُ ذلك عن ابن عباس ومجاهدٍ وابن زيدٍ.

وقال عون بنُ عبد الله بن عتبة[5]: الإسرافُ أن تُنْفِقَ مالَ غيرك.

---

(١) ديوان ذي الرمة ١/ ١٧٤. قوله: حرة، أي: كريمة. وعيطل: طويلة العنق. ثبجاء: ضخمة الثَّبَج، والثبج: الوَسَط. مجفرة: ضخمة الوسط. الزَّور: عظم الصدر، ودعائم الزور: الضلوع. قاله شارح الديوان.

(٢) وصدره: وقدَّمَتِ الأديمَ لراهشَيْه. والبيت لعدي بن زيد، وهو في ديوانه ص١٨٣، والراهشان: عرقان في باطن الذراعين. الصحاح (رهش). والشاهد فيه عطف المين على الكذب ـ وهما بمعنى ـ لاختلاف اللفظ تأكيداً، ينظر تفسير القرطبي ٢/ ١٠٧.

(٣) البحر ٦/ ٥١٣.

(٤) هو عبد الله بن يزيد المَعَافري، توفي سنة مئة بإفريقية، من رجال التهذيب.

(٥) ابن مسعود الهُذَلي، أبو عبد الله الكوفي، ثقة عابد، توفي قبل سنة (١٢٠هـ)، من رجال

وقرأ الحسن وطلحةُ والأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ: «يَقْتُروا» بفتح الياء وضمِّ التاء. ومجاهدٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بفَتْحِ الياء وكَسْرِ التاء. ونافعٌ وابنُ عامر بضمِّ الياء وكَسْرِ التاء[١].

وقرأ العلاء ابن سَيَابَة[٢] واليزيديُّ بضم الياء وفتح القَاف وكَسْرِ التاء مشدَّدةً[٣]. وكلُّها لغاتٌ في التضييق.

وأنكر أبو حاتم لغةَ أَقْتَرَ رباعيًّا هنا وقال: إنما يقال أقتر إذا افتقر، ومنه: ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وغاب عنه ما حكاه الأصمعيُّ وغيرُه من أَقْتَرَ بمعنى ضيَّق[٤].

﴿وَكَانَ﴾ إنفاقُهم ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ المذكورِ من الإسراف والقتر ﴿قَوَامًا ۝٦٧﴾ وَسَطاً وعَدْلاً، سمِّي به لاستقامة الطرفين وتعادُلهما كأنَّ كلًّا منهما يقاوِمُ الآخَرَ كما سمِّي سواء لاستوائهما.

وقرأ حسان: «قِواماً» بكسر القاف[٥]. فقيل: هما لغتان بمعنى واحدٍ، وقيل: هو بالكسر ما يقام به الشيءُ، والمراد به هنا ما يقام به الحاجةُ لا يَفْضُلُ عنها ولا ينقص.

وهو خبرٌ ثانٍ لـ «كان» مؤكِّدٌ للأول وهو «بين ذلك»، أو هو الخبرُ و«بين ذلك» إما معمولٌ لـ «كان» على مذهبِ مَن يرى أنَّ «كان» الناقصةَ تعمل في الظرف، وإما حالٌ من «قواماً»؛ لأنه لو تأخَّر لكان صفةً، وجوِّز أن يكون ظرفاً لغواً متعلِّقاً به. أو «بين ذلك» هو الخبر، و«قواماً» حالٌ مؤكِّدة.

= التهذيب. وأخرج قوله الطبري ١٧/ ٥٠٠-٥٠١.

(١) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤، وقرأ خلف مثل قراءة حمزة والكسائي وعاصم. وقرأ يعقوب مثل قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقرأ أبو جعفر مثل قراءة نافع وابن عامر.

(٢) في الأصل و(م): سبابة، والصواب ما أثبتناه، وهو بسين مهملة، بعدها ياء مفتوحة، وبعد الألف باء، والعلاء بن سيابة كوفي يروي عن طلحة بن مصرف وغيره، روى عنه ابنه الوليد بن العلاء. الإكمال ٥/ ١٤-١٥.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٥، والدر المصون ٨/ ٥٠١.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣/ ١٦٧، والبحر ٦/ ٥١٤، وعنه نقل المصنف.

(٥) القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحتسب ٢/ ١٢٥، والبحر ٦/ ٥١٤. وحسان هو ابن عبد الرحمن الضُّبعي، نسبة إلى ضبعة قبيلة من قيس، تابعي روى عنه قتادة. الثقات ٤/ ١٦٤، والإصابة ٣/ ٣٨، وفيض القدير ٥/ ٣١٣.

وأجاز الفرَّاء(١) أنْ يكون «بين ذلك» اسمَ «كان» وبُنيَ لإضافته إلى مَبنيٍّ، كقوله تعالى: «ومِن خزيِ يومَئذٍ» في قراءةِ مَن فَتَحَ الميم(٢)، ومنه قولُ الشاعر:

لم يمنع الشربَ منها غيرَ أنْ نَطَقَتْ حمامةٌ في غصونٍ ذاتِ أَوْقالِ(٣)

وتعقَّبه الزمخشريُّ بأنه من جهة الإعراب لا بأسَ به، ولكنَّ المعنى ليس بقويٍّ؛ لأنَّ ما بين الإسراف والتقتير قوامٌ لا محالةَ، فليس في الخبر الذي هو معتمَدُ الفائدةِ فائدةٌ(٤). وحاصلُه أنَّ الكلام عليه من باب: كان الذاهبُ جاريتُه صاحبَها، وهو غيرُ مفيدٍ. ولا يخفى أنه غيرُ واردٍ على قراءةِ «قِواماً» بالكسر على القول الثاني فيه، وعلى غير ذلك متَّجهٌ.

وما قيل من أنه من بابِ: شِعْري شِعْري(٥)، والمعنى: كان قَواماً معتبراً مقبولاً، غيرُ مقبولٍ لأنه مع بُعْدِه إنما ورد فيما اتَّحد لَفْظُه، وما نحن فيه ليس كذلك.

وكذا ما قيل: إنَّ «بين ذلك» أعمُّ من القَوَام بمعنى العَدْلِ الذي يكون نسبةُ كلٍّ واحدٍ من طرفيه إليه على السواء، فإنَّ ما بين الإقتار والإسراف لا يلزم أن يكون قَواماً بهذا المعنى؛ إذ يجوز أن يكون دون الإسراف بقليلٍ وفوق الإقتار بقليلٍ = فإنه تكلُّفٌ أيضاً؛ إذ ما بينهما شاملٌ لحاقِّ الوسط وما عَدَاه كالوسط من غير فرقٍ، ومِثْلُه لا يُستعمل في المخاطبات لإلْغازِه.

وقيل: لأنه بعد تسليم جواز الإخبار عن الأعمِّ بالأخصِّ يبعدُ أن يكون مَدْحُهم بمراعاةِ حاقِّ الوسط مع ما فيه من الحرج الذي نُفي عن الإسلام.

وفيه أنه لا شكَّ في جواز الإخبار عن الأعمِّ بالأخصِّ، نحو: الذي جاءني زيدٌ، والقائل لم يُرِدْ الحاقَّ الحقيقيَّ بل التقريبيَّ كما يدلُّ عليه قولُه: بقليل، ولا حَرَجَ في مثله فتأمَّل.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٢٧٣.
(٢) هي قراءة نافع والكسائي كما سلف ١١/ ٥٣٢-٥٣٣.
(٣) سلف ١٢/ ٦٩.
(٤) الكشاف ٣/ ١٠٠.
(٥) سلف ٢/ ٤١٧. وهو قطعة من رجز لأبي النجم في ديوانه ص٩٩، وتمامه: أنا أبو النجم وشِعري شِعري، وبعده: لله درِّي مما يُجِنُّ صَدْري.

ولعل الإخبار عن إنفاقهم بما ذُكر بعد قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ المستلزمِ لكونِ إنفاقهم كذلك للتنصيص على أنَّ فِعْلَهم من خير الأمور، فقد شاع: خيرُ الأمورِ أوساطُها[(١)]. والظاهرُ أنَّ المراد بالإنفاق ما يعمُّ إنفاقَهم على أنفسهم وإنفاقَهم على غيرها، والقَوامُ في كلٍّ ذلك خير، وقد أخرج أحمد والطبرانيُّ عن أبي الدرداء عن النبيِّ ﷺ: «مِنْ فِقْهِ الرَّجلِ رِفْقُه في معيشتِه»[(٢)].

وأخرج ابن ماجه في «سننه» عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من السَّرَفِ أن تأكلَ كلَّ ما اشْتَهيْتَ»[(٣)].

وحُكي عن عبد الملك بن مروان أنه قال لعمر بن عبد العزيز عليه الرحمةُ حين زوَّجه ابنته فاطمةَ: ما نفقتُك؟ فقال له عمر: الحسنةُ بين السيئتين، ثم تلا الآية[(٤)].

وقد مَدَح الشعراء التوسُّطَ في الأمور والاقتصادَ في المعيشة قديماً وحديثاً، ومن ذلك قولُه:

ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمرِ واقْتَصِدْ ... كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذميمُ[(٥)]

وقول حاتم:

إذا أنت قد أعطيتَ بطنكَ سُؤْلَه ... وفَرْجَكَ نالا مُنْتَهى الذمِّ أجمعا[(٦)]

---

(١) أخرجه ابن سعد ٧/ ١٤٢، وابن أبي شيبة ١٣/ ٤٧٩ عن مطرف بن عبد الله بن الشخير قوله، وأخرجه الطبري ١٧/ ٥٠٠ من قول يزيد بن مرة الجعفي، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٨١ من قول أبي قلابة. وينظر المقاصد الحسنة ص٣٣٢، وجمهرة الأمثال ١/ ٤١٩.

(٢) مسند أحمد (٢١٦٩٥)، ومسند الشاميين (١٤٨٢)، وفي إسناده أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم، وهو ضعيف.

(٣) سنن ابن ماجه (٣٣٥٢)، وأخرجه أيضاً ابن حبان في المجروحين ٣/ ٤٧ وهو من طريق نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس به، ونوح بن ذكوان، قال عنه ابن حبان: منكر الحديث جدًّا. وقال أبو حاتم: نوح ليس بشيء. الميزان ٤/ ٢٧٧. وأخرج عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٧١، وأحمد في الزهد ص١٥٣ نحوه من طريق الحسن عن عمر رضي الله عنه قوله، والحسن لم يسمع من عمر. وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص١٢٢.

(٤) الكشاف ٣/ ١٠٠، والبحر ٦/ ٥١٤ وعنه نقل المصنف.

(٥) البيت لحَمْد بن محمد الخطابي، وهو في قِرى الضيف ٤/ ٣٨٥، ومعجم الأدباء ٤/ ٢٥٩. وينظر الخزانة ٢/ ١٢٢-١٢٣.

(٦) ديوان حاتم ص٦٨ برواية: وإنك مهما تُعطِ بطنك. . . .

وقول الآخر:

إذا المرءُ أعطى نفسَه كلَّ ما اشتهتْ ولمْ يَنْهَها تاقَتْ إلى كلِّ باطلِ
وساقتْ إليه الإثمَ والعارَ بالذي دَعَتْه إليه من حلاوةِ عاجلِ[1]

إلى غير ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا يشركون به غيرَه سبحانه.

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: حرَّمها الله تعالى؛ بمعنى: حرَّم قَتْلَها؛ لأنَّ التحريم إنَّما يتعلَّقُ بالأفعال دون الذَّوَاتِ، فحُذِفَ المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مقامَه مبالغةً في التحريم. ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بـ «لا يقتلون»، والاستثناءُ مفرَّغٌ من أعمِّ الأسباب، أي: لا يقتلونها بسببٍ من الأسباب إلَّا بسببِ الحقِّ المزيلِ لحُرْمَتِها وعِصْمَتِها، كالزنى بعد الإحصان، والكفرِ بعد الإيمان.

وجوِّز أن يكون صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، أي: لا يقتلونها نوعاً من القتل إلا قتلاً ملتبساً بالحقِّ. وأن يكون حالاً، أي: لا يقتلونها في حالٍ من الأحوال إلَّا حالَ كونهم ملتبسين بالحقِّ.

وقيل: يجوزُ أن يكون متعلِّقاً بالقتل المحذوفِ، والاستثناءُ أيضاً من أعمِّ الأسباب، أي: لا يقتلون النفس التي حرَّم الله تعالى قَتْلَها بسببٍ من الأسباب إلا بسببِ الحقِّ. ويكون الاستثناءُ مفرَّغاً في الإثبات لاستقامة المعنى بإرادة العموم، أو لكون «حرَّم» نفياً معنًى. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف.

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ ولا يطؤون فَرْجاً محرَّماً عليهم.

والمرادُ من نفي هذه القبائح العظيمة التعريضُ بما كان عليه أعداؤهم من قريشٍ وغيرهم، وإلَّا فلا حاجةَ إليه بعد وَصْفِهم بالصفات السابقة، من حُسْنِ المعاملة

(١) نسبهما ياقوت في معجم الأدباء ١٠/ ١٥٣ للحسين بن محمد بن عبد الوهاب، المعروف بالبارع البغدادي، ثم نسبهما ١٩/ ٤٤ لمحمد بن محمد بن القاسم المعروف بابن أبي المناقب. وجاء في الأصل: كلما اشتهت.

وإحياءِ الليل بالصلاة ومَزيدِ خوفهم من الله تعالى؛ لظهورِ استدعائها نفيَ ما ذُكر عنهم. ومنه يُعْلَم حَلُّ ما قيل: الظاهرُ عكسُ هذا الترتيبِ وتقديمُ التخليةِ على التحليةِ، فكأنه قيل: والذين طهَّرهم الله تعالى وبرَّأهم سبحانه مما أنتم عليه من الإشراك وقَتْلِ النفس المحرَّمةِ كالموؤودة والزنى.

وقيل: إنَّ التصريح بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لهذا، أو لإظهار كمالِ الاعتناء والإخلاص، وتهويلِ أمر القتل والزنى بنَظْمِهما في سِلْكِه، وقد صحَّ من رواية البخاريِّ ومسلم والترمذيِّ عن ابن مسعود قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ الذنبِ أكبر؟ قال: «أن تجعل لله تعالى ندًّا وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أنْ تَقْتلَ وَلَدَكَ خشيةَ أن يَطْعَمَ معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أنْ تُزانيَ حليلةَ جارِك» فأنزل الله تعالى تصديقَ ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية[1].

وأخرج الشيخان وأبو داود والنسائيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ ناساً من أهل الشِّرْكِ قد قَتَلوا فأكْثَروا، وزَنَوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسنٌ لو تخبرُنا أنَّ لِمَا عَمِلْنا كفارةٌ؟ فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية، ونزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية[2] [الزمر: ٥٣].

وقد ذكر الإمام الرازي أنَّ ذِكْرَ هذا بعد ما تقدَّم؛ لأنَّ الموصوف بتلك الصفاتِ قد يرتكبُ هذه الأمورَ تديُّناً، فبيَّن سبحانه أنَّ المكلَّف لا يصير بتلك الخلال وحدَها من عباد الرحمن حتى ينضافَ إلى ذلك كونُه مُجانِباً لهذه الكبائر[3]. وهو كما ترى.

وجوِّز أن يقال في وَجْهِ تقديم التَّحْليةِ على التَّخْليةِ: كونَ الأوصافِ المذكورة في التَّحليةِ أوفقَ بالعبودية التي جُعلت عنوانَ الموضوع؛ لظهور دلالتها على تَرْكِ

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٠١)، وصحيح مسلم (٨٦)، وسنن الترمذي (٣١٨٢)، وهو عند أحمد (٤١٣٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٨١٠)، وصحيح مسلم (١٢٢): (١٩٣)، وسنن أبي داود (٤٢٧٣)، وسنن النسائي الكبرى (٣٤٥٢).

(٣) تفسير الرازي ٢٤/ ١١٠-١١١.

الأنانية ومزيدِ الانقيادِ والخوفِ، والاقتصادِ في التصرُّفِ بما أَذِنَ المولى بالتصرُّفِ فيه. ولا يأبى هذا قَصْدَ التعريضِ بما ذُكر في التخلية.

ويؤيِّد هذا القَصْدَ التعقيبُ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾ أي: ومَن يفعلُ ما ذكر يَلْقَ في الآخرة عقاباً لا يقادرُ قَدْرُه. وتفسيرُ الأثام بالعقاب مرويٌّ عن قتادة وابنِ زيد، ونَقَله أبو حيان عن أهلِ اللغة وأنشد قولَه:

جَزَى الله ابنَ عُروةَ حيث أمسى ... عقوقاً والعقوقُ له أثامُ[1]

وأخرج ابن الأنباريِّ عن ابن عباس أنه فسَّره لنافع بن الأزرق بالجزاء، وأنشد قولَ عامر بن الطفيل:

ورَوَّينا الأسنَّةَ من صداءٍ ... ولاقتْ حميرٌ منَّا أثاما[2]

والفرقُ يسيرٌ.

وقال أبو مسلم: الأثام: الإثمُ، والكلامُ عليه على تقدير مضافٍ، أي: جزاءَ أثامٍ، أو هو مجازٌ مِن ذِكرِ السبب وإرادةِ المسبَّبِ.

وقال الحسن: هو اسمٌ من أسماء جهنَّم، وقيل: اسمُ بئرٍ فيها، وقيل: اسمُ جبلٍ.

وروى جماعة عن عبد الله بن عمر ومجاهدٍ: أنه وادٍ في جهنم. وقال مجاهد: فيه قيحٌ ودمٌ.

وأخرج ابن المبارك في «الزهد» عن شفيٍّ الأصبحي أنَّ فيه حياتٍ وعَقارِبَ في فِقَارِ إحداهُنَّ مقدارُ سبعين قُلَّةً من سمٍّ، والعقربُ منهنَّ مثلُ البغلة الموكفة[3].

---

(١) البحر ٦/ ٥١٥، والبيت لبَلْعاء بن قيس الكناني، كما في مجاز القرآن ٢/ ٨١، وتفسير الطبري ١٧/ ٥٠٥، ونسب في اللسان (أثم) لشافع الليثي. ووقع في الأصل و(م): جزاء، بدل: أثام، والمثبت من المصادر.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٩٤، ولم نقف عليه في ديوان عامر بن الطفيل. ووقع في (م): صداه.

(٣) الزهد (٣٣٦- زوائد نعيم).

وعن عكرمة: اسمٌ لأوديةٍ في جهنم فيها الزناةُ.

وقرئ: «يُلَقَّ» بضمِّ الياء وفتح اللام والقافُ مشدَّدةٌ[١]. وقرأ ابن مسعود وأبو رجاء: «يَلْقَى» بألفٍ[٢]، كأنه نوى حَذْفَ الضمة المقدَّرةِ على الألف فأقرَّتِ الألف.

وقرأ ابن مسعود أيضاً: «أياماً» جمع يوم[٣]، يعني شدائد، واستعمالُ الأيام بهذا المعنى شائعٌ، ومنه: يوم ذو أيام، و: أيامُ العرب، لوقائعهم ومقاتَلَتِهم.

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بدلٌ من «يَلْقَ» بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بَدَل اشتمالٍ. وجاء الإبدالُ من المجزوم بالشرط في قوله:

متى تأتنا تَلْمُمْ بنا في ديارنا تَجِدْ حطباً جَزْلاً وناراً تأجَّجا[٤]

﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾ أي: في ذلك العذاب المضاعف ﴿مُهَانًا ۝٦٩﴾ ذليلاً مستحقَراً، فيجتمع له العذابُ الجسمانيُّ والروحانيُّ.

وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن كثير: «يُضَعَّف» بالياء والبناءِ للمفعول وطَرْحِ الألف والتضعيف[٥].

وقرأ شيبةُ وطلحةُ بنُ سليمان وأبو جعفر أيضاً: «نُضَعِّفْ» بالنون مضمومةً وكَسْرِ العين مضعَّفةً و«العذابَ» بالنصب[٦].

وطلحة بن مصرِّفٍ: «يُضاعِفْ» مبنيًّا للفاعل، و«العذابَ» بالنصب[٧].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٠٥ عن ابن مسعود وأبي رجاء. وهي في البحر ٦/ ٥١٥ دون نسبة.
(٢) البحر ٦/ ٥١٥، وهي في الكشاف ٣/ ١٠١ دون نسبة.
(٣) الكشاف ٣/ ١٠١، والبحر ٦/ ٥١٥.
(٤) الكتاب ١/ ٨٦، والخزانة ٩/ ٩٠، ونسبه البغدادي لعبيد الله بن الحر. والحطب الجزل: الغليظ منه.
(٥) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٢٢٨ و٣٣٤ عن ابن كثير وأبي جعفر ويعقوب جزماً، وعن ابن عامر رفعاً. والكلام من البحر ٦/ ٥١٥.
(٦) المحتسب ٢/ ١٢٥ عن طلحة بن سليمان، والكلام من البحر ٦/ ٥١٥، والمشهور عن أبي جعفر «يُضعَّف» كما سلف.
(٧) البحر ٦/ ٥١٥.

وقرأ طلحة بن سليمان: «وتَخْلُدُ» بتاء الخطاب على الالتفات المنبئ عن شدَّة الغضب مرفوعاً[1].

وقرأ أبو حيوة: «ويُخلَّدْ» مبنيًّا للمفعول مشدَّد اللام مجزوماً[2]. ورويتْ عن أبي عمرو، وعنه كذلك مخفَّفاً[3].

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «يُضاعَفُ» «ويَخْلُدُ» بالرفع فيهما[4]، وكذا ابنُ عامرٍ والمفضَّلُ عن عاصم: «يضاعَفُ» «ويُخْلَدُ» مبنيًّا للمفعول مرفوعاً مخفَّفاً[5]. والأعمش بضم الياء مبنيًّا للمفعول مشدَّداً مرفوعاً[6].

وقد عرفتَ وَجْهَ الجزم. وأمَّا الرفعُ فوجهُه الاستئنافُ، ويجوزُ جَعْلُ الجملة حالاً من فاعلِ «يَلْقَ»، والمعنى: يلقَ أثاماً مضاعفاً له العذاب.

ومضاعفتُه مع قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله سبحانه: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] قيل: لانضمام المعصية إلى الكفر، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ فإنَّ استثناء المؤمن يدلُّ على اعتبار الكفر في المستثنى منه.

وأُورِدَ عليه أنَّ تكرُّرَ «لا» النافيةِ يفيدُ نفيَ كلٍّ من تلك الأفعال، بمعنى: لا يُوْقِعون شيئاً منها، فيكون «ومَن يَفْعَلْ ذلك» بمعنى: ومَن يفعل شيئاً من ذلك، ليتَّحِدَ مَوْرِدُ الإثبات والنفي، فلا دلالةَ على الانضمام، والمستثنى مَن جَمَعَ بين ما ذُكر من الإيمان والتوبة والعمل الصالح، فيكون المستثنى منه غيرَ جامعٍ لها، فلعل الجواب أنَّ المضاعفة بالنسبة إلى عذابِ ما دونَ المذكورات.

---

(١) البحر ٦/ ٥١٥. وهي في المحتسب ٢/ ١٢٥ عن طلحة ولكن بالجزم.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥١٥.

(٣) البحر ٦/ ٥١٥، والمشهور عن أبي عمرو: «ويَخْلُدْ» كما في التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤.

(٤) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٤.

(٥) البحر ٦/ ٥١٥، وهي غير المشهور عنهما، فقراءة عاصم من رواية أبي بكر قد ذكرت قبلها، وقراءته من رواية حفص: «يُضاعَفْ» «ويَخلُدْ» بالجزم فيهما، وهي قراءة حمزة والكسائي وأبي عمرو ونافع وخلف. والمشهور عن ابن عامر: «يُضعَّفُ» «ويَخْلُدُ». التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٢٢٨ و٣٣٤.

(٦) البحر ٦/ ٥١٥.

وتعقِّب بأنَّ الجواب المذكور لا بُعْدَ فيه وإن لم يُذْكَرْ ما دونها، إلَّا أنَّ الإيراد ليس بشيءٍ؛ لأنَّ الكلام تعريضٌ للكفرة، ومن يَفْعَلْ شيئاً من ذلك منهم فقد ضمَّ معصيته إلى كفره. ولو لم يلاحَظْ ذلك ـ على ما اختاره ـ لَزِمَ أنَّ مَن ارتكب كبيرةً يكون مخلَّداً، ولا يَخْفَى فسادُه عندنا. وما ذكر من اتِّحادِ مورد الإثبات والنفي ليس بلازم.

ثم إنَّ في الكلام قرينةً على أنَّ المستثنى منه مَن جَمَعَ بين أضدادها كما علمتَ، ولذا جمع بين الإيمان والعمل الصالح مع أن العمل مشروطٌ بالإيمان، فذكره للإشارة إلى انتفائه عن المستثنى منه، ولذا قدَّم التوبة عليه، ويحتمل أنَّ تقديمها لأنها تخليةٌ.

وقال بعضُهم: ليس المرادُ بالمضاعَفَةِ المذكورة ضمَّ قَدْرَينِ متساويين من العذاب كلٌّ منهما بقَدْرِ ما تقتضيه المعصية، بل المرادُ لازمُ ذلك، وهو الشدَّة، فكأنه قيل: ومَن يفعل ذلك يعذَّب عذاباً شديداً، ويكون ذلك العذابُ الشديد جزاءَ كلٍّ مِن تلك الأفعال ومماثِلاً له، والقرينةُ على المجاز قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ونحوُه، ويراد من الخلود المكثُ الطويلُ الصادق بالخلود الأبديِّ وغيره، ويكونُ لمن أَشْرَكَ باعتبارِ فَرْدِه الأوَّلِ، ولمن ارتكب إحدى الكبيرتين الأخيرتين باعتبارِ فردِه الآخَرِ. وهو كما ترى.

ومثلُه ما قيل من أنَّ المضاعَفةَ لحفظ ما تقتضيه المعصيةُ، فإنَّ الأمر الشديد إذا دام هان.

هذا، والظاهرُ أنَّ الاستثناءَ متَّصِلٌ على ما هو الأصلُ فيه، وقال أبو حيَّان(١): الأَوْلَى عندي أن يكون منقطعاً، أي: لكنْ مَن تابَ.. إلخ؛ لأنَّ المستثنى منه على تقديرِ الاتِّصال محكومٌ عليه بأنه يضاعَفُ له العذابُ، فيصيرُ التقدير: إلَّا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فلا يضاعَفُ له العذاب، ولا يلزمُ من انتفاءِ التضعيف انتفاءُ(٢) العذاب غيرِ المضعَّف.

---

(١) في البحر ٦/ ٥١٥.
(٢) في الأصل و(م): لقاء، والمثبت من البحر، ومثله في الدر المصون ٨/ ٥٠٤ نقلاً عن البحر.

وفيه أنَّ قوله تعالى الآتي: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلخ احتراسٌ لدَفْع توهُّم ثبوتِ أصل العذاب بإفادةِ أنهم لا يلقونه أصلاً على أكمل وَجْهٍ.

وقيل أيضاً في ترجيح الانقطاع: إنَّ الاتصالَ مع قَطْعِ النظر عن إيهامه ثبوتَ أصل العذاب، بل وعن إيهامه الخلودَ غيرَ مهانٍ، يُوهِمُ أنَّ مضاعفةَ العمل الصالح شرطٌ لنفي الخلود، مع أنه ليس كذلك.

ثم أيَّةُ ضرورةٍ تدعو إلى أنْ يُرْتَكبَ ما فيه إيهامٌ ثم يُتَشَبَّثَ بأذيالِ الاحتراس، على أنَّ الظاهر أنْ يُجعل «مَن» مبتدأً، والجملةُ المقرونةُ بالفاء خبره، وقُرِنَتْ بذلك لوقوعها خبراً عن الموصول، كما في قولك: الذي يأتيني فله درهمٌ. وأنا أميلُ لِمَا مال إليه أبو حيان؛ لمجموع ما ذُكر.

وذكر الموصوف في قوله سبحانه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسمِ؛ للاعتناء به، والتنصيصِ على مُغايَرتِه للأعمال السابقة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الموصول، والجمعُ باعتبارِ معناه، كما أنَّ الإفراد في الأفعال الثلاثة باعتبار لفظه، أي: فأولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ بأنْ يمحوَ سَوابِقَ معاصيهم بالتوبة، ويُثْبِتَ مكانها لَواحِقَ طاعاتهم، كما يشير إلى ذلك كلامُ كثيرٍ من السلف.

وقيل: المرادُ بالسيئات والحسنات مَلَكَتُهما لأنفسهما، أي: يبدِّلُ عزَّ وجلَّ بملَكةِ السيئات ودواعيها في النفس مَلَكةَ الحسنات بأنْ يزيلَ الأولى ويأتي بالثانية.

وقيل: هذا التبديلُ في الآخرة، والمرادُ بالسيئاتِ والحسناتِ العقابُ والثوابُ مجازاً من باب إطلاق السبب وإرادةِ المسبَّب، والمعنى: يعفو جلَّ وعلا عن عقابهم ويتفضَّلُ سبحانه عليهم بَدَلَه بالثواب. وإلى هذا ذهب القفَّالُ والقاضي.

وعن سعيد بن المسيّب وعمرو بنِ ميمون ومكحولٍ: أنَّ ذلك بأنْ تُمحَى السيئاتُ نفسُها يومَ القيامةِ من صحيفة أعمالهم، ويكتَبَ بدلَها الحسناتُ، واحتجُّوا بالحديث الذي رواه مسلم في الصحيح عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتَى بالرجل يومَ القيامة فيقال: اعْرِضوا عليه صغارَ ذنوبه، ويُنَحَّى عنه كبارُها، فيقال: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وهو يُقِرُّ لا يُنْكِرُ، وهو مُشْفِقٌ من الكبائر، فيقال:

أَعْطُوه مكانَ كلِّ سيئةٍ عَمِلَها حسنةً. فيقول: إنَّ لي ذنوباً لم أَرَها هنا»؟! قال: ولقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حتى بَدَتْ نَواجِذُه[١].

ونحوُ هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتينَّ ناسٌ يومَ القيامة ودُّوا أنهم استكْثروا من السيئات» قيل: مَن هم؟ قال ﷺ: «الذين يبدِّلُ الله تعالى سيئاتهم حسناتٍ»[٢].

ويسمَّى هذا التبديلُ: كرم العفو، وكأنه لذلك قال أبو نواس:

تعضُّ ندامةً كفَّيْكَ ممَّا   تركتَ مخافةَ الذَّنْبِ السرورا[٣]

ولعل المراد: أنه تُغْفَرُ سيِّئاتُه ويُعْطَى بَدَلَ كلِّ سيئةٍ ما يَصْلُحُ أن يكون ثوابَ حسنةٍ تفضُّلاً منه عزَّ وجلَّ وتكرُّماً، لا أنه يُكتب له أفعالُ حسناتٍ لم يفعلها ويثابُ عليها.

وفي كلام أبي العالية ما هو ظاهرٌ في إنكار تمنِّي الاستكثارِ من السيئات، فقد أخرج عبد بن حميد عنه أنه قيل له: إنَّ أناساً يزعمون أنهم يتمنَّوْنَ أن يَسْتَكْثِروا من الذنوب؟ فقال: ولِمَ ذلك؟ فقيل: يتأوَّلون هذه الآية: (فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ) وكان أبو العالية إذا أُخبر بما لا يعلم قال: آمنتُ بما أَنزل الله تعالى من كتابه، فقال ذلك ثم تلا هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ﴾ [آل عمران: ٣٠] وكأنه ظنَّ أن ما تلاه مُنافٍ لِمَا زعموه من التمنِّي.

ويمكنُ أنْ يقال: إنَّ ما دلَّتْ عليه تلك الآيةُ يكون قبل الوقوف على التبديل، واللهُ تعالى أعلم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله.

﴿وَمَن تَابَ﴾ أي: عن المعاصي التي فَعَلَها بتَرْكِها بالكلِّية والنَّدمِ عليها ﴿وَعَمِلَ

---

(١) صحيح مسلم (١٩٠)، وهو عند أحمد (٢١٣٩٣).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٣، وهو فيه موقوف على أبي هريرة، وعزاه لابن مردويه وابن أبي حاتم مرفوعاً السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٧٩-٨٠، وعنه نقل المصنف.

(٣) ديوان أبي نواس ص٣٠٧، ومنه. . . مخافة النار السرورا.

صَٰلِحًا﴾ يتلافَى به ما فرطَ منه. أو: ومَن خرج عن جنس المعاصي ـ وإن لم يفعله ـ ودخل في الطاعات ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يرجعُ إليه سبحانه بذلك ﴿مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ أي: رجوعاً عظيم الشأن، مَرْضيًّا عنده تعالى، ماحياً للعقاب، محصِّلاً للثواب.

أو: فإنه يتوب إلى الله تعالى ذي اللطفِ الواسع، الذي يحبُّ التائبين ويصطنع إليهم، أو: فإنه يرجع إلى الله تعالى ـ أو إلى ثوابه سبحانه ـ مرجعاً حسناً.

وأيًّا ما كان فالشرطُ أو الجزاءُ متغايران. وهذا لبيان حالِ مَن تاب من جميع المعاصي، وما تقدَّم لبيانِ مَن تاب من أمَّهاتها، فهو تعميمٌ بعد تخصيص.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يُقيمون الشهادةَ الكاذبة، كما رُوي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه والباقرِ ﷺ، فهو من الشهادة، و«الزور» منصوبٌ على المصدر أو بنزع الخافض، أي: شهادةَ الزُّورِ، أو: بالزُّورِ.

ويُفْهَمُ من كلام قتادةَ أنَّ الشهادة هنا بمعنًى يعمُّ ما هو المعروف منها، أخرج عبد بنُ حميد وابنُ أبي حاتم عنه أنه قال: أي: لا يساعدون أهلَ الباطل على باطلهم ولا يؤمِّلونهم فيه[(١)].

وأخرج جماعةٌ عن مجاهدٍ أنَّ المراد بالزُّور الغناءُ، ورُوِيَ نحوُه عن محمد بن الحنفية ﷺ[(٢)]. وضمَّ الحسنُ إليه النِّياحةَ.

وعن قتادة: أنَّه الكذبُ. وعن عكرمةَ: أنه لعبٌ كان في الجاهلية.

وعن ابن عباس: أنه صنم كانوا يلعبون حوله سبعةَ أيام[(٣)]. وفي روايةٍ أخرى

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٦، وعزاه لعبد بن حميد السيوطي في الدر ٥/ ٨٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٧، وخبر مجاهد أخرجه الطبري ١٧/ ٥٢٢.

(٣) جاء في هامش الأصل و(م): قال الراغب: وسمي الصنم زوراً في قوله: جاؤوا بزُوْريهم وجئنا بالأصم، لكون ذلك كذباً وميلاً عن الحق. وظاهره أنه مطلق الصنم. اهـ منه. والكلام في مفردات الراغب (زور) إلى قوله: وميلاً عن الحق. وقوله: جاؤوا بزوريهم...، هذا الرجز للأغلب العجلي، وقيل: ليحيى بن منصور، وذكروا بعده: شيخٍ لنا كالليث من باقي إِرَمْ. ينظر التاج (زور).

عنه: أنه عيدُ المشركين. ورُوي ذلك عن الضحَّاك. وعن هذا[1] أنه الشرك.

ف «يَشْهَدون» ـ على هذه الأقوال ـ من الشهود بمعنى الحضور، و«الزور» مفعولٌ به بتقدير مضافٍ، أي: محالَّ الزور.

وجوِّز أن يراد بالزور ما يعمُّ كلَّ شيءٍ باطلٍ مائلٍ عن جهة الحقِّ، من الشِّرك والكذب والغناء والنياحةِ ونحوِها، فكأنه قيل: لا يشهدون مجالسَ الباطل لِمَا في ذلك من الإشعار بالرضا به، وأيضاً مَن حَامَ حول الحمى يوشكُ أن يقع فيه.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾ على طريق الاتِّفاق ﴿بِٱللَّغْوِ﴾ بما ينبغي أن يُلْغَى ويُطْرَحَ ممَّا لا خيرَ فيه ﴿مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ أي: مُكْرِمينَ أنفُسَهم عن الوقوف عليه والخوضِ فيه، مُعْرِضينَ عنه.

وفسَّر الحسن اللغوَ ـ كما أخرج عنه ابن أبي حاتم ـ بالمعاصي[2]. وأخرج هو وابن عساكر عن إبراهيم بنِ ميسرةَ قال: بلغني أنَّ ابن مسعود ﷺ مرَّ بلَهْوٍ مُعْرِضاً ولم يقف، فقال النبيُّ ﷺ: «لقد أصبح ابنُ مسعودٍ وأمسى كريماً» ثم تلا إبراهيم: (وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا)[3].

وقيل: المراد باللغو: الكلامُ الباطل المؤذي لهم، أو ما يعمُّه والفعل المؤذي، وبالكرم العفوُ والصَّفْحُ عمَّن آذاهم، وإليه يشير ما أخرجه جماعةٌ عن مجاهدٍ أنه قال في الآية: إذا أُوذوا صَفَحُوا، وجُعِلَ الكلام على هذا بتقديرِ مضافٍ، أي: إذا مرُّوا بأهل اللَّغو أعرضوا عنهم، كما قيل:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني فمضيتُ ثُمتَ قلتُ لا يعنيني[4]

ولا يَخْفَى أنه ليس بلازمٍ.

---

(١) يعني الضحاك، وأخرجه عنه الطبري ١٧/ ٥٢٢، وابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٧.

(٢) لم نقف عليه في تفسير ابن أبي حاتم، وعزاه السيوطي في الدر ٥/ ٨١ للطبري، وهو في تفسيره ١٧/ ٥٢٤.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٣٨-٢٧٣٩، وتاريخ ابن عساكر ٣٣/ ١٢٨.

(٤) البيت في الكتاب ٣/ ٢٤ عن رجل من بني سلول، وعزاه الأصمعي في الأصمعيات ص٢٦ إلى شمر بن عمرو الحنفي، وسلف ٧/ ٤٦٧.

وقيل: اللغوُ: القولُ المستهجَنُ، والمراد بمرورهم عليه: إتيانُهم على ذِكْرِه، وبكَرَمِهم: الكفُّ عنه والعدولُ إلى الكناية، وإليه يومئُ ما أخرجه جماعةٌ عن مجاهدٍ أيضاً أنه قال فيها: كانوا إذا أتوا على ذكر النكاح كَنَوا عنه.

وعمَّم بعضُهم وجَعَلَ ما ذُكر من باب التمثيل، وجوَّز أن يراد باللغو الزورُ بالمعنى العامِّ، أعني: الأمرَ الباطل، عبَّر عنه تارةً بالزور لميله عن جهة الحقِّ، وتارةً باللغو لأنه من شأنه أن يُلْغَى ويُطْرحَ، ففي الكلام وضعُ المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَرِ، والمعنى: والذين لا يحضرون الباطلَ وإذا مرُّوا به على طريق الاتِّفاق أعرضوا عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ القرآنيةِ المنطويةِ على المواعظ والأحكام ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: أكبُّوا عليها سامعينَ بآذانٍ واعيةٍ، مُبْصِرين بعيونٍ راعيةٍ، فالنفيُ متوجِّهٌ إلى القيد على ما هو الأكثرُ في لسان العرب، وفي التعبير بما ذُكر دون: أكبُّوا عليها سامعينَ مُبْصِرينَ ونحوِه، تعريضٌ لِمَا عليه الكفرةُ والمنافقون إذا ذكِّروا بآيات ربِّهم، والخرورُ: السقوطُ على غير نظامٍ وترتيب، وفي التعبير به مبالغةٌ في تأثير التذكير بهم.

وقيل: ضمير «عليها» للمعاصي المدلولِ عليها باللغو، والمعنى: إذا ذكِّروا بآيات ربِّهم المتضمِّنةِ للنهي عن المعاصي والتخويفِ لمرتكبها، لم يفعلوها ولم يكونوا كمن لا يسمعُ ولا يبصرُ، وهو كما ترى.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بتوفيقهم للطاعة، كما روي عن ابن عباس والحسن وعكرمةَ ومجاهدٍ؛ فإنَّ المؤمنَ الصادق إذا رأى أهلَه قد شاركوه في الطاعة قرَّتْ بهم عينُه، وسرَّ قلبُه، وتوقَّعَ نفعَهم له في الدنيا حيًّا وميتاً، ولحُوقَهم به في الأخرى.

وذُكر أنه كان في أول الإسلام يهتدي الأبُ، والابنُ كافرٌ. والزوجُ، والزوجةُ كافرةٌ، فلا يطيبُ عيشُ ذلك المهتدي، فكان يدعو بما ذُكر.

وعن ابن ابن عباس: قُرَّةُ عينِ الوالدِ بولده أن يراه يكتب الفقه.

و«من» ابتدائيةٌ متعلِّقةٌ بـ «هَبْ» أي: هَبْ لنا من جهتهم. وجوِّز أن تكون بيانيةً،

كأنه قيل: هَبْ لنا قرةَ أعيُنٍ، ثم بُيِّنَتِ القرَّةُ وفسِّرتْ بقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ وهذا مبنيٌّ على مجيء «من» للبيان، وجوازِ تقدُّمِ المبيِّن على المبيَّن.

وقرةُ العين كنايةٌ عن السرور والفرح، وهو مأخوذٌ من القرِّ، وهو البردُ؛ لأنَّ دمعة السرور باردةٌ، ولذا يقال في ضدِّه: أَسْخَنَ الله تعالى عينَه، وعليه قولُ أبي تمام:

فأمَّا عيونُ العاشقينَ فأُسْخِنَتْ وأمَّا عيونُ الشامتينَ فقرَّتِ[1]

وقيل: هو مأخوذٌ من القرار؛ لأنَّ ما يَسُرُّ يَقِرُّ النظرُ به، ولا ينظرُ إلى غيره.

وقيل في الضدِّ: أَسْخَنَ الله تعالى عينَه، على معنى: جعله خائفاً مترقِّباً ما يُحزِنُه ينظرُ يميناً وشمالاً، وأماماً ووراءً، لا يدري من أين يأتيه ذلك، بحيث تسخُنُ عينه لمزيد الحركة التي تُورِثُ السخونةَ. وفيه تكلُّفٌ.

وقيل: «أَعْيِنٍ» بالتنكير مع أنَّ المراد بها أعينُ القائلين ـ وهي معيَّنةٌ ـ لقَصْدِ تنكير المضافِ للتعظيم، وهو لا يكونُ بدون تنكيرِ المضاف إليه.

وجمعُ القلَّةِ على ما قال الزمخشريُّ: لأنَّ أعين المتقين قليلةٌ بالإضافة إلى عيونِ غيرهم[2].

وتعقَّبه أبو حيان وابن المنير: بأنَّ المتقين وإن كانوا قليلاً بالإضافة إلى غيرهم إلَّا أنهم في أنفسهم على كثرةٍ من العدد، والمعتبرُ في إطلاق جَمْعِ القلَّةِ أن يكون المجموعُ قليلاً في نفسه لا بالإضافة إلى غيره[3].

وأجيب بأنَّ المراد أنه استعمل الجمع المذكور في معنى القلَّة مجرَّداً عن العدد بقرينةِ كثرةِ القائلين وعيونِهم.

واستَظْهَر ابنُ المنير أنَّ ذلك لأنَّ المحكيَّ كلامُ كلِّ واحدٍ من المتَّقين، فكأنه قيل: يقولُ كلُّ واحدٍ منهم: هَبْ لنا من أزواجنا وذرِّياتنا قرَّةَ أعيُنٍ[4].

---

(١) ديوان أبي تمام ١/ ٣٠٠.
(٢) الكشاف ٣/ ١٠٢.
(٣) الانتصاف ٣/ ١٠٢، والبحر ٦/ ٥١٧.
(٤) الانتصاف ٣/ ١٠٢.

فتدبَّر وتأمَّل في وجهِ اختيارِ هذا الجمع في غيرِ هذا الموضع مما لا يتأتَّى فيه ما ذكروه ها هنا.

وأنا أظنُّ أنه اختيرَ الأعيُنُ جمعاً للعينِ الباصرةِ، والعيونُ جمعاً للعينِ الجاريةِ، في جميع القرآن الكريم، ويخطر لي في وَجْهِ ذلك شيءٌ لا أظنُّه وجيهاً، ولعلك تفوزُ بما يُغْنيكَ عن ذِكْرِه، والله تعالى وليُّ التوفيق.

وقرأ طلحة وأبو عمرو وأهلُ الكوفة غيرَ حفصٍ: «وذرِّيتنا» على الإفراد[1].

وقرأ عبد الله وأبو الدرداء وأبو هريرة: «قُرَّات» على الجمع[2].

﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ أي: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدِّين، بإفاضةِ العلم، والتوفيقِ للعمل. و«إمام» يستعملُ مفرداً وجَمْعاً، كهِجان[3]، والمراد به هنا الجمعُ ليطابق المفعولَ الأولَ لجَعَلَ، واختير على: أئمة؛ لأنَّه أَوْفقُ بالفواصل السابقة واللاحقة.

وقيل: هو مفردٌ، وأُفْرِدَ مع لزوم المطابقة لأنه اسمُ جنسٍ، فيجوزُ إطلاقُه على معنى الجمع مجازاً بتجريده من قيد الوحدة. أو لأنه في الأصل مصدرٌ، وهو لكونه موضوعاً للماهية شاملٌ للقليل والكثير وَضْعاً، فإذا نُقل لغيره قد يُراعى أصلُه. أو لأنَّ المراد: واجْعَلْ كلَّ واحدٍ منَّا. أو لأنهم كنفسٍ واحدةٍ لاتِّحادِ طريقتهم واتِّفاق كلمتهم.

وفي «إرشاد العقل السليم» بعد نَقْلِ ما ذُكر: أنَّ مدار التوجيه على أنَّ هذا الدعاءَ صَدَرَ عن الكلِّ على طريق المعيَّة وهو غيرُ واقعٍ، أو عن كلِّ واحدٍ [بطريقِ تشريكِ غيره] وهو غيرُ ثابتٍ، فالظاهرُ أنه صَدَرَ عن كلِّ واحدٍ قولُ: واجعلني للمتقين إماماً، فعبَّر عنهم للإيجاز بصيغة الجمع، وأبقى «إماماً» على حاله[4].

---

(١) التيسير ص١٦٤، والنشر ٢/ ٣٣٥.

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥١٧.

(٣) الهجان من الإبل: البيض والبيضاء. القاموس (هجن).

(٤) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٣١، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٦/ ٤٣٨، وما سلف بين حاصرتين منهما.

وتعقِّب بأنَّ فيه تكلُّفاً وتعسُّفاً مع مخالفته للعربية، وأنه ليس مدارُه على ذلك، بل أنهم شُرِّكوا في الحكاية في لفظٍ واحدٍ لاتِّحادِ ما صَدَرَ عنهم مع أنه يجوز اختيارُ الثاني لأنَّ التشريك في الدعاء أَدْعَى للإجابة، فاعْرِفْ ولا تَغْفَلْ.

ورُوي عن مجاهدٍ أنَّ «إماماً» جمعُ آمٍّ بمعنى قاصِدٍ، كصيامٍ جمع صائم، والمعنى: اجعلنا قاصدين للمتقين مقتدين بهم. وما ذُكر أوَّلاً أقربُ كما لا يخفى.

وليس في ذلك ـ كما قال النخعيُّ ـ طلبٌ للرِّياسة، بل مجرَّد كونهم قدوةً في الدِّين وعلماءَ عاملين. وقيل: في الآية ما يدلُّ على أنَّ الرِّياسة في الدِّين مما ينبغي أن يُطْلبَ.

وإعادةُ الموصولِ في المواقع السبعة مع كفايةِ ذِكْرِ الصِّلاتِ بطريقِ العطف على صلةِ الموصول الأول؛ للإيذان بأنَّ كلَّ واحدٍ مما ذُكر في حيِّز صلة الموصولات المذكورةِ وَصْفٌ جليلٌ على حياله له شأنٌ خطيرٌ حقيقٌ بأنْ يُفْرَدَ له موصوفٌ مستقلٌّ، ولا يُجْعَلَ شيءٌ من ذلك تتمةً لغيره. وتوسيطُ العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلافِ العنوانيِّ منزلةَ الاختلافِ الذاتيِّ كما عرفْتَه فيما سبق غيرَ مرَّةٍ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المتَّصفينَ بما فصِّل في حيِّز الصِّلاتِ من حيث اتِّصافُهم به، وفيه دلالةٌ على أنهم متميِّزون منتظِمون بسببه في سِلْكِ الأمور المشاهَدةِ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببُعْدِ منزلتهم في الفضل. وهو مبتدأٌ خبرُه جملةُ قولِه تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾.

والجملةُ على الأقرب استئنافٌ لا محلَّ لها من الإعراب مبيِّنةٌ لِمَا لهم في الآخرة من السعادة الأبدية، إِثْرَ بيانِ ما لهم في الدنيا من الأعمال السنيَّة.

و«الغرفة»: الدرجة العالية من المنازل، وكلُّ بناءٍ مرتفع عالٍ. وقد فسِّرت هنا ـ على ما روي عن ابن عباس ـ ببيوتٍ من زبرجدٍ ودرٍّ وياقوت.

وأخرج الحكيم الترمذيُّ في «نوادر الأصول» عن سهل بن سعدٍ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «فيها بيوتٌ من ياقوتةٍ حمراءَ أو زبرجدةٍ خضراءَ أو درَّةٍ بيضاءَ، ليس فيها فَصْمٌ ولا وَصْمٌ»(١).

---

(١) الدر المنثور ٥/ ٨١، وهو في نوادر الأصول ص٢٧٣ دون إسناد ودون ذكر الراوي. وورد

وقيل: أعلى منازلِ الجنة، ولا يأباه الخبرُ؛ لجوازِ أن تكون الغرفُ الموصوفةُ فيه هناك.

ورويَ عن الضَّحَّاك أنها الجنة. وقيل: السماءُ السابعة. وعلى تفسيرها بجمعٍ ـ ويؤيِّده قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧] وقرئ فيه: «في الغرفة»[١] ـ يكون المراد بها الجنسَ، وهو يطلقُ على الجمع كما سمعتَ آنفاً.

وإيثارُ الجمع هنالك ـ على ما قال الطيبيُّ ـ لأنها رتِّبتْ على الإيمان والعمل الصالح، ولا خفاءَ في تفاوُتِ الناس فيهما، وعلى ذلك تتفاوتُ الأجزية، وها هنا رتّب على مجموع الأوصاف الكاملة، فلذا جيء بالواحد دلالةً على أنَّ الغرف لا تتفاوَتُ.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: بسبب صَبْرِهم، على أنَّ الباء للسببية، و«ما» مصدريةٌ.

وقيل: هي للبدل كما في قوله:

فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا ... شَنُّوا الإغارة فرساناً ورُكْباناً[٢]

أي: بَدَلَ صبرِهم.

ولم يذكر متعلَّق الصبر ليعمَّ ما سلف من عبادتهم فِعْلاً وتَرْكاً وغيره من أنواع العبادة، والكلُّ مُدْمَجٌ فيه؛ فإنه إمَّا عن المعاصي، وإمَّا على الطاعات، وإمَّا على الله تبارك وتعالى وهو أعلى منهما، ويُعلَم من ذلك وجهُ إيثارِ «صبروا» على فعلوا.

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥﴾ أي: تُحيِّيهم الملائكةُ عليهم السلام، ويدعون لهم بطول الحياة، والسلامةِ عن الآفات. أو: يُحيِّي بعضُهم بعضاً ويدعو له بذلك. والمرادُ من الدعاء به التكريمُ وإلقاءُ السرورِ والمؤانَسة، وإلا فهو متحقِّقٌ لهم.

= نحوه ضمن حديث أنس رضي الله عنه في مسند الحارث (١٩٦-زوائد)، ومسند البزار (٣٥١٩)، ومسند أبي يعلى (٤٢٢٨)، والطبراني في الأحاديث الطوال (٥٩). والفصم: كسر الشيء من غير أن تفصله. والوصم: الصدع والعيب. الترغيب والترهيب ٤/ ٤٦٦.

(١) هي قراءة حمزة، كما في التيسير ص٢٨١، والنشر ٢/ ٣٥١.

(٢) البيت لقريط بن أنيف رجل من بَلْعَنْبر، كما في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١/ ١٠، والتذكرة السعدية ص٣٨، والخزانة ٦/ ٢٥٣.

أو يُعطَوْنَ(١) التبقيةَ والتخليدَ مع السَّلامة من كلِّ آفةٍ، فليس هناك دعاءٌ أصلاً.

وقرأ طلحةُ ومحمدٌ اليمانيُّ وأهلُ الكوفة غيرَ حفصٍ: «يَلْقَوْنَ» بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف(٢).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ لا يموتون ولا يُخرجون، وهو حالٌ من ضمير «يُجزون»، أو من ضمير «يلقون».

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ مقابِلُ: «ساءتْ مستقرًّا» معنًى، ومِثْلُه إعراباً، فتذكَّرْ ولا تغفل.

﴿قُلْ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأنْ يبيِّن للناس أنَّ الفائزين بتلك النَّعماءِ الجليلةِ التي يتنافس فيها المتنافسون إنَّما نالوها بما عدِّد من محاسنهم، ولولاها لم يُعتَّد بهم أصلاً، أي: قل للناس مُشافِهاً لهم بما صدر عن جنسهم من خيرٍ وشر ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي﴾ أي: أيَّ عبءٍ يعبأُ بكم وأيَّ اعتدادٍ يعتدُّ بكم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾ أي: عبادتُكم له عزَّ وجلَّ حَسْبَما مرَّ تفصيلُه، فإنَّ ما خُلِقَ له الإنسانُ معرفةُ الله تعالى وطاعتُه جلَّ وعلا، وإلا فهو والبهائمُ سواءٌ، ف «ما» متضمِّنةٌ لمعنَى الاستفهامِ، وهي في محلِّ النصب، وهي عبارةٌ عن المصدر.

وأصلُ العبءِ: الثِّقْلُ، وحقيقةُ قولِهم: ما عبأْتُ به: ما اعْتَدَدْتُ له من فوادح همِّي ومِمَّا يكون عبأً عليَّ، كما تقول: ما اكترثْتُ له، أي: ما أَعْدَدْتُ له من كوارثي ومما يهمُّني.

وقال الزجَّاج: معناه: أيُّ وزنٍ يكون لكم عنده تعالى لولا عبادتُكم(٣).

ويجوز أن تكون «ما» نافيةً، أي: ليس يعبأ.

وأيًّا ما كان فجوابُ «لولا» محذوفٌ لدلالةِ ما قبله عليه، أي: لولا دعاؤكم لَمَا اعتدَّ بكم.

---

(١) في (م): ويعطون، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٦/ ٢٣٢، والكلام منه.

(٢) التيسير ص١٦٥، والنشر ٢/ ٣٣٥ عن حمزة والكسائي وأبي بكر وخلف، وذكرها عن طلحة واليماني أبو حيان في البحر ٦/ ٥١٧.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٧٨، وفيه: توحيدكم، بدل: عبادتكم.

وهذا بيانٌ لحالِ المؤمنين من المخاطَبين، وقولُه سبحانه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بيانٌ لحالِ الكفرة منهم، والمعنى: إذا أعلمتُكم أنَّ حُكْمي أنِّي لا أعتدُّ بعبادي إلَّا لعبادتهم، فقد خالفتُم حكمي ولم تعملوا عَمَلَ أولئك المذكورين، فالفاءُ مثلُها في قوله:

فــقــد جــئــنــا خــراســانــا[1]

والتكذيبُ مستعارٌ للمخالفة.

وقيل: المرادُ: فقد قصَّرْتُم في العبادة، على أنه من قولهم: كذب القتالَ، إذا لم يبالغ فيه، والأوَّلُ أَوْلَى وإن قيل: إنَّ المراد من التقصير في العبادة تَرْكُها.

وقرأ عبد الله وابن عباس وابن الزبير: «فقد كذَّبَ الكافرون»[2] وهو على معنى: كذَّب الكافرون منكم؛ لعموم الخطاب للفريقين على ما أشرنا إليه، وهو الذي اختاره الزمخشريُّ[3]، واستحسنه صاحبُ «الكشف».

واختار غيرُ واحد أنه خطاب لكفرة قريش، والمعنى عليه عند بعضٍ: ما يعبأ بكم لولا عبادتُكم له سبحانه، أي: لولا إرادتُه تعالى التشريعيةُ لعبادتكم له تعالى لَمَا عَبأَ بكم ولا خَلَقكم، وفيه معنًى من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقيل: المعنى: ما يعبأ بكم لولا دعاؤه سبحانه إيَّاكم إلى التوحيدِ على لسان رسوله ﷺ، أي: لولا إرادةُ ذلك.

وقيل: المعنى: ما يبالي سبحانه بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه آلهةً. أو: ما يفعل بعذابكم لولا شِرْكُكم، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

---

(١) سلف عند تفسير الآية (٨٠) من سورة البقرة، وتمامه:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا

(٢) القراءات الشاذة ص١٠٥، والمحتسب ٢/ ١٢٦، والبحر ٦/ ٥١٨، وهي في الكشاف ٣/ ١٠٣ دون نسبة.

(٣) في الكشاف ٣/ ١٠٣.

وقيل: المعنى: ما يعبأ بعذابكم لولا دعاؤكم إياه تعالى، وتضرُّعُكم إليه في الشدائد، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وقال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وقيل: المعنى: ما خَلَقكم سبحانه وله إليكم حاجةٌ إلَّا أن تسألوه فيعطيكم وتستغفروه فيغفر لكم، ورُوي هذا عن الوليد بن [أبي] الوليد رضي الله عنه[1].

وأنت تعلم أن ما آثره الزمخشريُّ لا ينافي كونَ الخطابِ لقريشٍ من حيث المعنى، فقد خصَّصَ بهم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ أي: جزاء التكذيب أو أثره لازماً يحيقُ بكم حتى يَكُبَّكم في النار، كما يُعْرِبُ عنه الفاءُ الدالَّةُ على لزوم ما بعدها لِمَا قبلها، فضميرُ «يكون» لمصدرِ الفعل المتقدِّم بتقديرِ مضافٍ أو على التجوُّز، وإنما لم يصرِّح بذلك للإيذان بغاية ظهورِه وتهويل أمره، وللتنبيه على أنه مما لا يَكْتَنِهُه البيان.

وقيل: الضمير للعذاب، وقد صرَّح به مَن قرأ: «يكونُ العذابُ لزاماً»[2]، وصحَّ عن ابن مسعود أنَّ اللِّزامَ قَتْلُ يوم بدر، ورُوي عن أبيٍّ ومجاهدٍ وقتادةَ وأبي مالك. ولعل إطلاقَه على ذلك لأنه لوزِمَ فيه بين القتلى لزاماً.

وقرأ ابن جُرَيْجٍ: «تكون» بتاء التأنيث، على معنى: تكون العاقبةُ[3].

وقرأ المنهال وأبان بن تغلب وأبو السمَّال: «لَزاماً» بفتح اللام مصدر لزم[4]، يقال: لَزِمَ لُزوماً ولَزَاماً، كثَبَتَ ثُبوتاً وثَباتاً.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٧٤٥، وأبو الشيخ في العظمة(١٨٥)،وذكره عنهما السيوطي في الدر ٥/ ٨٢، وذكره أيضاً القرطبي في تفسيره ١٥/ ٤٩٤، وما بين حاصرتين من هذه المصادر. والوليد بن أبي الوليد هو أبو عثمان المدني مولى ابن عمر، وقيل: مولى عثمان، ذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما خالف على قلة روايته. تهذيب التهذيب ٤/ ٣٢٧.

(٢) البحر ٦/ ٥١٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٠٥، والبحر ٦/ ٥١٨، وعنه نقل المصنف.

(٤) البحر ٦/ ٥١٨، والدر المصون ٨/ ٥٠٧ ووقع في الأصل و(م) ومطبوع البحر: أبان بن ثعلب، وهو خطأ.

ونَقَلَ ابنُ خالويه(١) عن أبي السمَّال أنه قرأ: «لَزَامِ» على وزن حَذَامِ، جَعَله مصدراً معدولاً عن اللَّزْمةِ، كفَجَارِ المعدولِ عن الفَجْرةِ، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

هذا ومن باب الإشارة: قيل: في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ إشارةُ قصورِ حالِ المنكرين على أولياء الله تعالى، حيث شارَكوهم في لوازم البشرية من الأكل والشرب ونحوهما.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ إنَّ وجه فتنته النظرُ إليه نفسه، والغفلةُ فيه عن ربِّه سبحانه، ويُشْعِرُ هذا بأنَّ كلَّ ما سوى اللهِ تعالى فتنةٌ من هذه الحيثية.

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أطْلَعْناهم على أعمالهم فطالعوها بعين الرضا، فسقطوا من أعيننا بذلك، وجَعَلْنا أعمالهم هباءً منثوراً.

وهذه الآيةُ وإن كانت في وصف الكفار لكنْ في الحديث أنَّ في المؤمنين مَن يُجعل عملُه هباءً كما تَضمَّنَتْه، فقد أخرج أبو نعيم في «الحلية» والخطيب في «المتَّفق والمفترق» عن سالم مولى أبي حذيفةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليُجاءَنَّ يومَ القيامةِ بقومٍ معهم حسناتٌ مثل جبالِ تهامةَ، حتى إذا جيءَ بهم جَعَلَ الله تعالى أعمالَهم هباءً، ثم قَذَفَهم في النار» قال سالم: بأبي وأمي يا رسول الله، حَلِّ لنا هؤلاء القوم. قال: «كانوا يصومون ويصلُّون ويأخذون هَنَةً من الليل، ولكن كانوا إذا عُرِضَ عليهم شيءٌ من الحرام وثبوا عليه، فأدْحَضَ الله تعالى أعمالهم»(٢).

وذُكر في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ الآيةَ أنَّ حُكْمَه عامٌّ في كلِّ متحابَّين

---

(١) في القراءات الشاذة ص١٠٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي حيان في البحر ٦/ ٥١٨.

(٢) الحلية ١/ ١٧٨، والمتفق والمفترق ١/ ٥٢٧، وهو من طريق شيخ من الأنصار عن سالم به. وسالم ﷺ قال ابن أبي حاتم: لا أعلم روي عنه شيءٌ. وذكر له ابن حجر في الإصابة ٤/ ١٠٤ حديثين هذا أحدهما، ثم قال: وفي السندين جميعاً ضعفٌ وانقطاع، فيحمل كلام ابن أبي حاتم على أنه لم يصح عنه شيء.

على معصية الله تعالى. وعن مالك بن دينار: نَقْلُ الأحجار مع الأبرار خيرٌ من أكل الخَبِيصِ(١) مع الفُجَّار.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنه يلزمُ من هذا مع قولهم: كلُّ وليٍّ على قدمِ نبيٍّ، أن يكون لكلِّ وليٍّ عدوٌّ يتظاهر بعداوته. وفيه إشارة إلى سوء حال مَن يفعل ذلك مع أولياء الله تعالى، ولذا قيل: إنَّ عداوتهم علامةُ سوءِ الخاتمة، والعياذُ بالله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ إشارةٌ إلى أنهم كانوا متوجِّهين إلى جهة الطبيعة، ولذا حُشروا منكوسين.

وفي قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ إنه عامٌّ في كلِّ مَن مال إلى هَوَى نفسِه، واتَّبعه فيما توجَّه إليه، ومن هنا دقَّق العارفون النظر في مقاصد أنفسهم، حتى إنهم إذا أَمرَتْهم بمعروفٍ لم يُسارِعوا إليه، وتأمَّلوا ماذا أرادتْ بذلك؟.

فقد حُكي عن بعضهِم أنَّ نفسه لم تَزَلْ تحثُّه(٢) على الجهاد في سبيل الله تعالى، فاستَغْربَ ذلك منها لعِلْمِه أنَّ النفس أمَّارةٌ بالسوء، فأَمْعنَ النظر فإذا هي قد ضَجِرَتْ من العبادة، فأرادَتِ الجهاد رجاءَ أن تُقْتَلَ فتستريحَ مما هي فيه من النَّصَبِ، ولم تَقْصِدْ بذلك الطاعةَ، بل قَصَدَتِ الفرارَ منها.

وقيل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ الآيةَ، أي: ألم تَرَ كيف مَدَّ ظلَّ عالَم الأجسام ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ في كتم العَدَمِ «ثم جعلنا» شمسَ عالَم الأرواح على وجودِ ذلك الظلِّ «دليلاً» بأنْ كانت محرِّكةً لها إلى غايتها المخلوقةِ هي لأَجْلِها، فعُرِفَ من ذلك أنه لولا الأرواحُ لم تُخْلَقِ الأجساد.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ مركَّبٍ فإنه سينحلُّ إلى بسائطه إذا حصل على كماله الأخير. وبوجهٍ آخَرَ: الظلُّ ما سوى نورِ

---

(١) الخبيص: هو المعمول من التمر والسمن. القاموس (خبص).

(٢) في (م): تحسه.

الأنوار يُستدلُّ به على صانعه الذي هو شمسُ عالَمِ الوجود، وهذا شأنُ الذاهبينَ من غيره سبحانه إليه عزَّ وجلَّ.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾ إشارةٌ إلى مرتبةٍ أعلى من ذلك، وهي الاستدلالُ به تعالى على غيره سبحانه، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] وهذه مرتبةُ الصِّدِّيقين.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] و﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

وبوجهٍ آخَر: الظلُّ حجابُ الذهول والغفلةِ، والشمسُ شمسُ تجلِّي المعرفة من أُفق العناية عند صباح الهداية، ولو شاء سبحانه لجعله دائماً لا يزول، وإنما يستدل على الذهول بالعرفان.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الكشف التامَّ يحصل بالتدريج عند انقضاء مدة التكليف.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ تستترون به عن رؤيةِ الأجانب لكم واطِّلاعهم على حالكم من التواجُدِ وسَكْبِ العبرات. ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحةً لأبدانكم من نَصَبِ المجاهدات ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ تنتشرون فيه لطلب ضرورياتكم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ أي: رياحَ الاشتياق على قلوب الأحباب ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ من التجلِّيات والكشوف ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ من سماء الكَرَم ماءَ حياةِ العرفان ﴿لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: قلوباً ميتةً ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا﴾ وهم الذين غَلَبتْ عليهم الصفاتُ الحيوانيةُ، يسقيهم سبحانه ليردَّهم إلى القيام بالعبادات ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ وهم الذين سَكَنوا إلى رياض الأنس، يسقيهم سبحانه من ذلك ليَفْطمهم عن مراضع الإنسانية إلى المشارب الروحانية.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ أي: القرآنَ الذي هو ماءُ حياةِ القلوب ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ به موطنهم الأصليّ ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بنعمة القرآن وما عَرَفوا قَدْرَها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بحرَ الروح وبحرَ النفس ﴿هَٰذَا﴾ وهو بحر الروح ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ من الصفات الحميدة الربانية، ﴿وَهَٰذَا﴾ وهو بحرُ النفس ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾

من الصفات الذميمة الحيوانية ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ فحرامٌ على الروح أن يكون منشأَ الصفات الذميمة، وعلى النفس أن تكونَ معدنَ الصفاتِ الحميدة.

وذكر أنَّ البرزخ هو القلبُ. وقال[1] ابن عطاء: تلاطَمتْ صفتان فتلاقيتا في قلوب الخَلْق، فقلوبُ أهل المعرفة منوَّرةٌ بأنوار الهداية مضيئةٌ بضياء الإقبال، وقلوبُ أهل النكرة مظلمةٌ بظلمات المخالفةِ مُعْرِضةٌ عن سَنَنِ التوفيق، وبينهما قلوبُ العامَّة ليس لها علمٌ بما يَرِدُ عليها وما يَصْدُر منها، ليس معها خطابٌ ولا لها جواب.

وقيل: البحرُ العَذْبُ إشارةٌ إلى بحر الشريعة، وعذوبتُه لِمَا أنَّ الشريعة سهلةٌ لا حَرَجَ فيها، ولا دقَّةَ في معانيها، ولذلك صارت موردَ الخواصِّ والعَوامِّ، والبحرُ المِلْحُ إشارةٌ إلى بحر الحقيقة، وملوحتُه لِمَا أنَّ الحقيقة صعبةُ المسالك لا يكاد يدرِكُ ما فيها عقلُ السالك، والبرزخُ إشارةٌ إلى الطريقة فإنها ليست بسهلةٍ كالشريعة ولا صعبة كالحقيقة، بل بيْنَ بين.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ قيل: هو إشارةٌ إلى أنه سبحانه جَعَل في سماء القلوب بروجَ المنازل والمقامات، وهي اثنا عشر: التوبةُ، والزهدُ، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكُّلُ، والصبرُ، والشكرُ، واليقينُ، والإخلاصُ، والتسليمُ، والتفويضُ، والرضا. وهي منازلُ الأحوال السَّيَّارة: شمس التجلِّي، وقمر المشاهَدةِ، وزهرة الشوق، ومشتري المحبة، وعطارد الكشوف، ومرِّيخ الفناء، وزُحَل البقاء.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ بغير فخرٍ ولا خُيَلاءَ؛ لِمَا شاهدوا من كبرياء الله تعالى وجلاله جلَّ شأنُه.

وذكر بعضهم أنَّ هؤلاء العباد يعامِلون الأرض معاملةَ الحيوان لا الجماد، ولذا يمشون عليها هوناً.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ وهم أبناءُ الدنيا ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: سلامةً من الله تعالى من شرِّكم.

---

(١) في الأصل: قال.

أو: إذا خاطبهم كلٌّ ما سوى الله تعالى من الدنيا والآخرة وما فيهما من اللذة والنعيم، وتعرَّضَ لهم ليشغلهم عمَّا هم فيه «قالوا سلاماً» سلامَ متاركةٍ وتوديع.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ لِمَا علموا أنَّ الصلاة معراجُ المؤمن، والليل وقتُ اجتماعِ المحبِّ بالحبيب:

نهاري نهارُ الناس حتى إذا بدا   لي الليل هزَّتْني إليكِ المضاجعُ
أُقضِّي نهاري بالحديث وبالمنى   ويجمعني والهمَّ بالليل جامعُ(١)

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إشارةٌ إلى مزيدِ خوفهم من القطيعة والبُعْدِ عن محبوبهم، وذلك ما عَنَوْه بعذاب جهنم لا العذابُ المعروف، فإنَّ المحبَّ الصادقَ يستَعْذِبُه مع الوصال، ألا تسمعُ ما قيل:

فليت سُلَيْمَى في المنام ضجيعتي   في جنة الفردوس أو في جهنَّمِ(٢)

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ إشارةٌ إلى أنَّ فيوضاتهم حَسبَ قابلية المُفاضِ عليه، لا يُسرفون فيها بأنْ يُفيضوا فوق الحاجة، ولا يَقْتُرون بأنْ يُفيضوا دون الحاجة. أو إلى أنهم إذا أنفقوا وجودَهم في ذات الله تعالى وصفاته جلَّ شأنُه، لم يبالغوا في الرياضة إلى حدِّ تَلَفِ البدن، ولم يَقْتُروا في بَذْلِ الوجود بالرُّكون إلى الشهوات.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ برَفْعِ حوائجهم إلى الأغيار ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قَتْلَها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بسَطْوةِ تجلِّياته تعالى ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بالتصرُّف في عجوز الدنيا، ولا ينالون منها شيئاً إلا بإذنه تعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ لا يحضرون مجالسَ الباطل من الأقوال والأفعال ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ﴾ وهو ما لا يقرِّبهم إلى محبوبهم ﴿مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ مُعْرِضين عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ بل أقبلوا عليها بالسمع والطاعة، مشاهِدينَ بعيون قلوبهم أنوارَ ما ذُكِّروا به من كلام ربِّهم.

---

(١) البيتان لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص١٨٥.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص٢٠٣، وعجزه برواية:

لدى الجنة الخضراء أو في جهنم

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ مَن ازْدَوَجَ معنا وصَحِبَنا ﴿وَذُرِّيَّـٰتِنَا﴾ الذين أخذوا عنَّا ﴿قُـرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بأن يوفَّقوا للعمل الصالح ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وهم الفائزون بالفناء والبقاء الأتمَّيْنِ.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْـزَوْنَ ٱلْغُـرْفَـةَ﴾ وهو مقامُ العِنْدية ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ في البداية على تكاليف الشريعة، وفي الوسط على التأدُّب بآداب الطريقة، وفي النهاية على ما تقتضيه الحقيقة ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً﴾ هي أُنسُ الأسرار بالحيِّ القيوم ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ وهو سلامةُ القلوب من خطور[1] القطيعة ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ لأنها مشهدُ الحقِّ ومحلُّ رضا المحبوب المطلق.

نسألُ الله تعالى أن يمنَّ علينا برضائه ويمنحَنا بسوابغ نعمائه وآلائه بحرمةِ سيدِ أنبيائه وأحبِّ أحِبَّائه صلى الله تعالى عليه وسلم وشرَّف قَدْرَه وعظَّم.

(١) في الأصل: حظور، وهو تحريف.